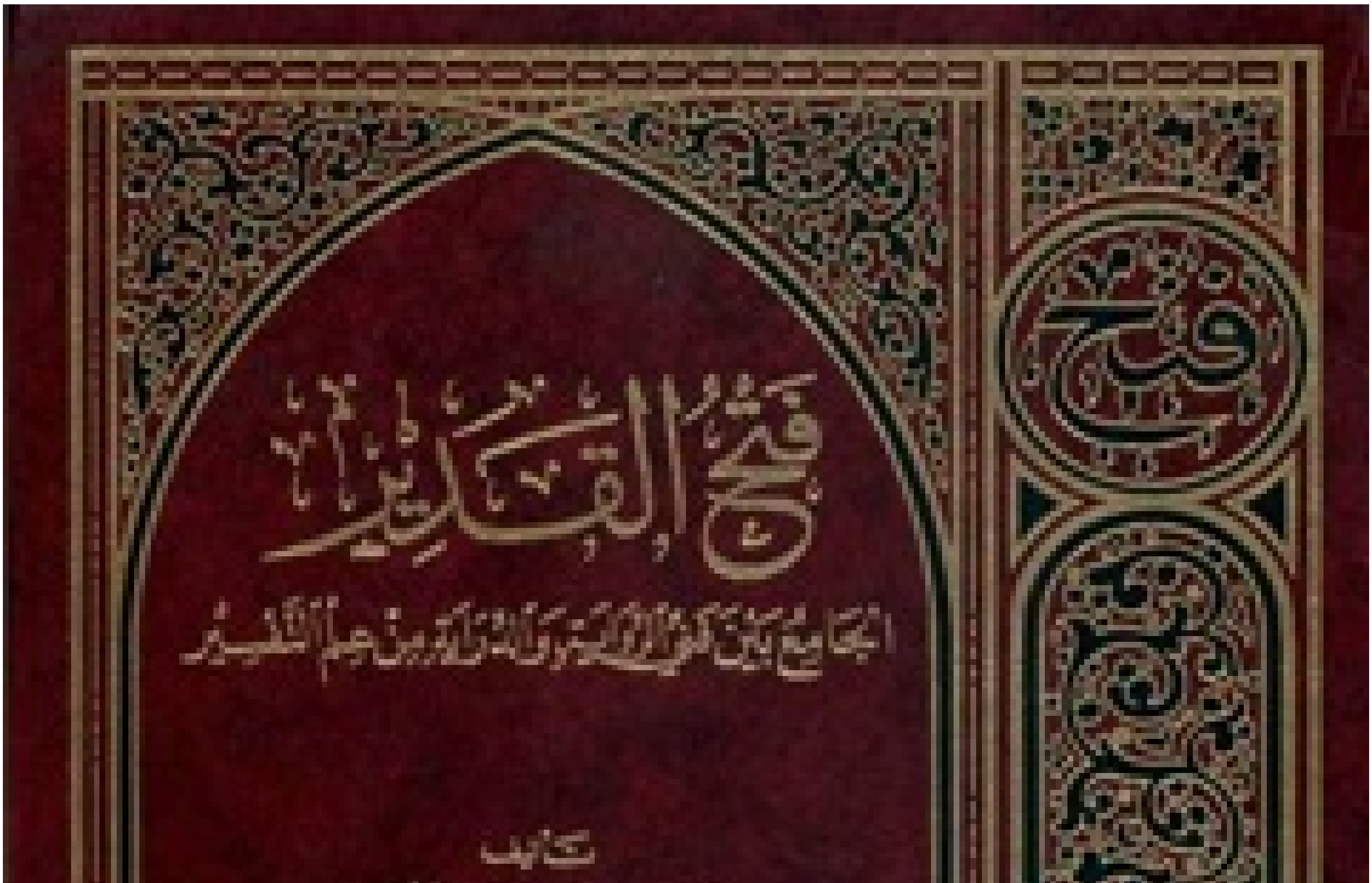
فتح القدير
الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير
تأليف
محمد بن علي بن محمد الشوكاني
طبعة جديدة مصححة ومنقحة
١-٦
دار ابن كثير
دمشق - بيروت
دار الكلم الطيب
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحیم

فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير

كاتب:

محمدبن على بن محمد الشوكانى

نشرت فی الطباعة:

بی جا

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

فتح القدير: الجامع بين فنی الروایه والدرایه من علم التفسیر

اشارهٔ

سرشناسه : شوکانی، محمدبن علی، ق ۱۲۵۰ - ۱۱۷۳
عنوان و نام پدیدآور : فتح القدیر: الجامع بین فنی الروایه والدرایه من علم التفسیر/ تالیف محمدبن علی بن محمد الشوکانی؛ راجعه و علق علیه هشام النجاری خضر عکاری
مشخصات نشر : بیروت : المکتبه المصریه: [بی جا]: مکتبه العبیکان ، ۱۴۱۸ق. = ۱۹۹۷م = ۱۳۷۶.
مشخصات ظاهری : ج ۵
وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی
یادداشت : چاپ قبلی: مصطفی البابی الحلبی، ۱۳۵۱
یادداشت : کتابنامه
موضوع : تفاسیر
موضوع : تفاسیر اهل سنت
موضوع : تفاسیر شیعه
شناسه افزوده : نجاری، هشام ، محقق
شناسه افزوده : عکاری، خضر، محقق
رده بندی کنگره : BP۹۱/ش۹ف۲
شماره کتابشناسی ملی : م۸۰-۳۴۶۰۹

الجزء الأول

التعریف بالمؤلف و الکتاب

آ- التعریف بالمؤلف

۱- اسمه و نسبه:

هو محمد بن علی بن محمد بن عبد اللّه الشوکانی ثم الصنعانی «۱».

و الشوکانی: نسبهٔ إلی «عدنی شوکان» أو إلی «هجرهٔ شوکان» «۲»، و هما اسمان لقریهٔ واحدهٔ بینها و بین صنعاء دون مسافهٔ یوم، و إلیها نسب والده، و هی نسبهٔ علی غیر قیاس؛ لأن النسب إلی المضاف یکون إلی صدره، و نسبهٔ غیر حقیقیهٔ «۳»؛ کما صرّح به أحد تلامیذه.

و الصنعانی: نسبهٔ إلی صنعاء، إذ فیها نشأ، و فیها توفی و دفن، رحمه اللّه تعالی.

۲- مولده و نشأته:

ولد بهجرة شوكان «۴» فى وسط نهار الإثنين ۲۸ من شهر ذى القعدة سنة ۱۱۷۳ ه. و لا التفات إلى غير هذا التاريخ الذى وصلنا موثقا بخطه و خط ولده.

و نشأ فى حجر والده بصنعاء، و كان أبوه قاضيا و عالما، و معروفا بالطيبة و الصلاح، فتربّى الابن على العفاف و الطهارة، و التفرّغ لطلب العلم، مكفيّا فى بيت أبيه من جميع أسباب الحياة و وسائل الرزق.

---

(۱). الإمام الشوكانى من أعلام المسلمين الكبار، و كتابه «فتح القدير» أشهر من أن يعرّف، و لكننا أردنا أن نضع بين يدى القارئ حقائق تاريخية و دقائق علمية تزيده معرفة و تبصرة، و تملؤه حماسة و نشاطا.

(۲). قال عنها فى البدر الطالع (۱/ ۴۸۱): «و هذه الهجرة معمورة بأهل الفضل و الصلاح و الدين من قديم الأزمان ..».

(۳). يقول العلّامة حسين بن محسن السبعى الأنصارى، و هو تلميذ الإمام الشوكانى و نسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية، لأن وطنه و وطن سلفه و قرابته، بمكان عدنى شوكان، بينه و بينها جبل كبير مستطيل، يقال له «هجرة شوكان» فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله إلى شوكان. و اللّه أعلم.

(۴). كانت ولادته أثناء رحلة قام بها الأبوان إلى موطنهما الأصلى، و كانا قد استوطنا صنعاء من قبل.

و قد ابتدأ تحصيله العلمىّ الواسع بقراءة القرآن و حفظه على جماعة من المعلمين، و ختمه على الفقيه حسن ابن عبد اللّه الهبل، و جوّده على جماعة من مشايخ القرآن بصنعاء، ثم انتقل إلى حفظ كثير من المتون، «كالأزهار» للإمام مهدى فى الفقه، و «مختصر الفرائض» للعصيفرى، و «الملحة» للحريرى، و «الكافية» و «الشافية» لابن الحاجب، و «التهذيب» للتفتازانى، و «التخليص» فى علوم البلاغة للقزوينى ... و غيرها.

و قرأ عدة كتب فى التاريخ و الأدب، ثم شرع بالسّماع و الطلب على العلماء البارزين فى اليمن؛ حتى استوفى كلّ ما عندهم من كتب، تشمل العلوم الدينية و اللسانية و العقلية و الرياضية و الفلكية، و كان فى هذه المرحلة يجمع بين التحصيل العلمىّ و التدريس، فهو يلقى على تلاميذه ما تلقّاه بدوره عن مشايخه، حتى إذا استوفى كل ما عرفه أو سمع عنه من كتب؛ تفرّغ لإفادة طلّاب العلم، فكانت دروسه اليومية تزيد على عشرة دروس فى اليوم فى فنون متعدّدة؛ مثل التفسير، و الحديث، و الأصول، و المعانى، و البيان، و المنطق، و تقدّم للإفتاء و هو فى نحو العشرين من عمره، و لم يعترض عليه شيوخه فى ذلك.

۳- حياته العلمية و مناصبه:

تمتاز حياة الشوكانى العلمية بالجد و المثابرة، و الحيوية و النشاط، و الذكاء الفطرىّ، و قد ظهر هذا فى اتّساع ثقافته، و عمق تفكيره، و تصدّيه للإصلاح و الاجتهاد، و قد لمسنا هذا من خلال نشأته حيث جمع بين الدراسة و التدريس، كما وفّق بين إلقاء الدروس اليومية العديدة و التأليف.

و من الثابت أنه لم يرحل فى طلب العلم، و كان تحصيله مقتصرا على علماء صنعاء؛ لعدم إذن أبويه له فى السفر منها، و قد عوّض عن ذلك بالسّماع و الإجازة و القراءة لكل ما وقعت عليه يده من الكتب، و فى مختلف العلوم، كما استوفى كلّ ما عند علماء اليمن من كتب و معارف، و زاد فى قراءاته الخاصة على ما ليس عندهم.

و لم يقتصر الشوكانى رحمه اللّه تعالى فى حياته العلمية منذ شبابه و حتى وفاته على الجمع و المحاكاة، مثل الكثير من علماء

عصره، بل دعا إلى ثورة عارمة فى نبذ التعصب و التقليد، و النظر فى الأدلة، و العودة إلى هدى الكتاب و السّنة. و هذا الموقف العلمى المتميّز؛ أكسبه تحفزا زائدا و استحضارا دائما؛ فى مواجهة تحدّى الشانئين له من المقلدين و الحاسدين، و جعله فى طليعة المجدّدين المجتهدين، الذين أسهموا فى إيقاظ الأمّة الإسلامية من سباتها العميق، فى العصر الحديث.

و رغم زهده فى المناصب، و انعزاله عن طلّاب الدنيا و رجال الحكم و السياسة، و تفرغه للعلم، فإن الدنيا جاءته صاغرة، و اختير للقضاء العام فى صنعاء، و هو فى السادسة و الثلاثين من عمره، ثم جمع بين القضاء و الوزارة، فأصبح متوليا شؤون اليمن الداخلية و الخارجية، و سار فى الناس بأحسن سيرة، ممتعا بشخصية قوية، و سمعة طيبة، مضيفا إلى أمجاد أمته المسلمة تجربة فريدة فذة، تجمع بين العلم و العمل، و الحكم و العدالة.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۷

۴- مذهبه و عقيدته:

كان مذهب الشوكانى فى مطلع حياته العلمية المذهب الزيدىّ، و قد حفظ أشهر كتب المذهب، و ألّف فيه كتبا، و برع فى مسائله و أحكامه حتى أصبح قدوة، ثم طلب الحديث و فاق فيه أهل زمانه من الزيدية و غيرهم، مما جعله يخلع ربقة التقليد، و يدعو إلى الاجتهاد و معرفة الأدلة من الكتاب و السّنّة.

و يظهر هذا الموقف الاجتهادىّ المتميز فى رسالة سمّاها: «القول المفيد فى حكم التقليد» و فى كتاب فقهىّ كبير سمّاه: «السيل الجرّار المتدفق على حدائق الأزهار» تكلّم فيه عن عيون المسائل الفقهية عند الزيدية، و صحّح ما هو مقيّد بالأدلة، و زيّف ما لم يكن عليه دليل. فقام عليه المقلدون و المتعصبون، يجادلونه و يصاولونه، و يتهمونه بهدم مذهب أهل البيت. و لكنه بقى ثابتا على موقفه لا يتزحزح عنه، و ألّف كتابا جمع فيه محاسن أهل البيت سمّاه «درّ السّحابة فى مناقب القرابة و الصحابة» و أظهر فيه وجوب محبّة أهل البيت، و لزوم موالاتهم و مودّتهم؛ مما دفع عنه تهمة التعصب حيال مذهب بعينه، و أنّ دعوته إلى الاجتهاد تشمل أهل المذاهب جميعا.

أما عقيدة الشوكانىّ- رحمه اللّه تعالى- فكانت عقيدة السّلف، من حمل صفات اللّه تعالى الواردة فى القرآن و السّنة الصحيحة على ظاهرها من غير تأويل و لا تحريف، و له رسالة فى بيان ذلك اسمها: «التحف بمذهب السّلف».

و قد دعا إلى جانب ذلك إلى نبذ كلام المتكلمين، و تطهير عقيدة التوحيد من مظاهر الشرك، و تخليص ما دخل على حياة الناس و تدينهم من البدع و الخرافات. و يظهر هذا جليا فى كثير من كتبه، و بخاصة كتابه:

«قطر الولىّ «۱» على حديث الولىّ».

۵- مشايخه و تلاميذه:

اشارة

لقد كفانا الشوكانى رحمه اللّه تعالى مؤونة هذا البحث، و ألّف كتابا فى مشايخه و تلاميذه سمّاه: «الإعلام بالمشايخ الأعلام و التلاميذ الكرام»، و ترجم لبعضهم فى كتابه: «البدر الطالع» و من أبرز مشايخه.

۱- والده على بن محمد الشوكانى، المتوفى سنة ۱۲۱۱ ه.

٢- السيد عبد الرحمن بن قاسم المدانى، المتوفى سنة ١٢١١ ه.

٣- العلامة أحمد بن عامر الحدائى، المتوفى سنة ١١٩٧ ه.

٤- السيد العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد ابن الإمام القاسم بن محمد، المتوفى سنة ١٢٠٦ ه.

٥- العلامة القاسم بن يحيى الخولانى، المتوفى سنة ١٢٠٩ ه.

٦- العلامة عبد بن إسماعيل النهمى، المتوفى سنة ١٢٠٨ ه.

---

(١). الولىّ: قال فى القاموس: الولى: المطر بعد المطر، و الولىّ: اسم منه.

فتح القدير، ج١، ص: ٨

٧- العلامة الحسن بن إسماعيل المغربى، المتوفى سنة ١٢٠٨ ه.

٨- السيد الإمام عبد القادر بن أحمد الكوكبائى، المتوفى سنة ١٢٠٧ ه.

٩- السيد العلامة على بن إبراهيم بن على بن إبراهيم بن أحمد بن عامر، المتوفى سنة ١٢٠٧ ه.

١٠- السيد العارف يحيى بن محمد الحوتى، المتوفى سنة ١٢٤٧ ه.

١١- القاضى عبد الرحمن بن حسن الأكوع، المتوفى سنة ١٢٠٦ ه.

و من أبرز تلاميذه:

١- السيد محمد بن محمد بن زبارة الحسنى اليمنى الصنعانى، المتوفى سنة ١٢٨١ ه.

٢- محمد بن أحمد السودى، المتوفى سنة ١٢٢٦ ه.

٣- محمد بن أحمد مشحم الصعدى الصنعانى، المتوفى سنة ١٢٢٣ ه.

٤- السيد أحمد بن على بن محسن بن الإمام المتوكل على اللّه إسماعيل بن القاسم، المتوفى سنة ١٢٢٣ ه.

٥- السيد محمد بن محمد بن هاشم بن يحيى الشامى ثم الصنعانى، المتوفى سنة ١٢٥١ ه.

٦- عبد الرحمن بن أحمد البهكلى الضمدى الصبيانى، المتوفى سنة ١٢٢٧ ه.

٧- أحمد بن عبد اللّه الضمدى، المتوفى سنة ١٢٢٢ ه.

٨- على بن أحمد هاجر الصنعانى، المتوفى سنة ١٢٣٥ ه.

٩- عبد اللّه بن محسن الحيمى ثم الصنعانى، المتوفى سنة ١٢٤٠ ه.

١٠- القاضى محمد بن حسن الشجنى الذمارى، المتوفى سنة ١٢٨٦ ه.

١١- ابنه القاضى أحمد بن محمد الشوكانى، المتوفى سنة ١٢٨١ ه.

٦- كتبه و مؤلفاته:

جمع الإمام الشوكانى رحمه اللّه تعالى فى شخصيته العلمية الفذّة ثلاثة أمور «١»، رشحته إلى أن يعدّ من أعلام المسلمين، و من المجددين، الذين يبعث اللّه على رأس كل قرن واحدا منهم، يحفظ للأمة دينها، و يجدد روح العزة و المجد فيها، و هذه الأمور

الثلاثة هى:

سعة التبحر فى العلوم على اختلاف أجناسها.

كثرة التلاميذ المحققين الذين يحيطون به، و يسجلون كلامه، و يتناقلون كتبه و أفكاره.

سعة التأليف فى مختلف العلوم و الفنون.

و يهمنا فى هذه الفقرة أن نتعرف على الكتب المطبوعة، التى تركها الشوكانى تراثا خالدا للأمة الإسلامية، تنهل منها العلم و المعرفة، و تجد فيها الفكر الصائب المستنير وسط ظلام الجمود و التعصب و التقليد، مما يؤكد

---

(١). انظر كتاب «أبجد العلوم» (٣/ ٢٠١)

أن اللّه تعالى يحفظ دينه و يعلى كلمته، فى كل الأمصار و فى جميع العصور؛ على ألسنة العلماء العاملين، و بأقلام المؤلفين النابهين.

و هذه الكتب هى:

١- «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد و المعاد و النبوات» تحقيق إبراهيم إبراهيم هلال- دار النهضة العربية- القاهرة، سنة ١٣٩٥ ه.

٢- «أمناء الشريعة»- مع مجموعة رسائل، تحقيق إبراهيم هلال- دار النهضة العربية- القاهرة- سنة ١٣٩٥ ه.

٣- «القول المفيد فى أدلة الاجتهاد و التقليد»- تصحيح إبراهيم حسن- طبعة مصطفى البابى الحلبى- القاهرة ١٣٤٧ ه.

٤- «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»- تحقيق قاسم غالب أحمد و آخرون- طبعة مصطفى البابى الحلبى- القاهرة ١٣٩٠ ه.

٥- «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول»- المطبعة المنيرية- القاهرة سنة ١٣٤٧ ه.

٦- «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» القاهرة- مطبعة السعادة- سنة ١٣٤٨ ه.

٧- «تحفة الذاكرين فى شرح عدة الحصن الحصين؛ للإمام الجزرى» طبعة مصطفى الحلبى- سنة ١٣٥٠ ه.

٨- «الدرارى المضيئة فى شرح الدرر البهية»- القاهرة- مطبعة المعاهد سنة ١٣٤٠ ه.

٩- «الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد»- المطبعة المنيرية- القاهرة سنة ١٣٤٣ ه. و طبعة المنار- سنة ١٣٤٠ ه.

١٠- «شرح الصدور بتحريم رفع القبور» و «رفع الريبة فيما يجوز و ما لا يجوز من الغيبة» و «الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل» القاهرة- المطبعة المنيرية- سنة ١٣٤٣ ه. و مطبعة السنة المحمدية- القاهرة- ١٣٦٦ ه.

١١- «الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة»- القاهرة- مطبعة السنة المحمدية- سنة ١٣٨٠ ه.

١٢- «فتح القدير الجامع بين فنى الرواية و الدراية من التفسير» مطبعة مصطفى البابى الحلبى- القاهرة- سنة ١٣٤٩ ه.

١٣- «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» مطبعة مصطفى البابى الحلبى- القاهرة سنة ١٣٤٧ ه.

١٤- «قطر الولى على حديث الولى» القاهرة- دار الكتب العربية- سنة ١٩٧٩ م.

١٥- «درّ السحابة فى مناقب القرابة و الصحابة» مطبوع بتحقيق د. حسين العمرى. دار الفكر- دمشق- ١٩٨٤.

و هذا ما رأيناه مطبوعا و اطلعنا عليه، و هو غيض من فيض، فهناك كتب لا تزال مخطوطة، و رسائل

و فتاوی، و أبحاث و أجزاء، ذكرها تلاميذ الشوكانی، و العلماء و المؤلفون ممن ترجم له، و بعضها أشار إليها المؤلف نفسه فی بعض كتبه، و قد أوصلها السيد محمد صديق حسن خان فی «أبجد العلوم» إلی عدد سور القرآن (۱۱۴).

۷- وفاته:

توفی الشوكانیّ فی ۲۶ جمادی الآخرة من سنة ۱۲۵۰ ه‍- و دفن بصنعاء، و قد كان توفی قبله بشهر واحد ابنه: علیّ بن محمد، و هو فی العشرين من عمره، و كان نابغة، و عبقريا فذا كأبيه، فاحتسب الأب و تصبّر، و لم يظهر جزعا و لا حزنا. رحمهما اللّه تعالی، و أسكنهما فسيح جنّاته، و جمعنا بهما تحت لواء سيدنا رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم.

إنه سبحانه و تعالی أكرم مسؤول.

فتح القدير، ج۱، ص: ۱۱

ب- التعريف بالكتاب

۱- الكتاب

هو «فتح القدير الجامع بين فنی الرواية و الدراية من علم التفسير».

۲- معنی فنی الرواية و الدراية عند المفسرين:

التفسير بالرواية: هو التفسير بالمأثور، و هو ما جاء فی القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة؛ بيانا لمراد اللّه تعالی من كتابه.

و التفسير بالدراية: هو التفسير بالرأی و الاجتهاد، و يكون جائزا و موفقا و محمودا إذا استند إلی أربعة أمور:

أ- النقل عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم.

ب- الأخذ بقول الصحابی.

ج- الأخذ بمطلق اللغة.

د- الأخذ بما يقتضيه الكلام، و يدل عليه قانون الشرع.

و هذا يكشف لنا بسهولة و يسر منهج الشوكانی رحمه اللّه تعالی فی تفسيره، و كيف جاءت تسميته نتيجة حتمية لخطته و طريقته، و هذا واضح فی المقدمة، حيث قسّم المفسرين الذين سبقوه فی التأليف إلی فريقين:

فريق اقتصروا علی الرواية. و فريق اعتمدوا علی مقتضيات اللغة و ما تفيده العلوم الآلية، و لم يرفعوا للرواية رأسا البتة. و قال: لا بد من الجمع بين الأمرين، و عدم الاقتصار علی أحد الفريقين.

۳- مميزات فتح القدير:

۱- الشخصية العلمية الفذة للمؤلف؛ فقد توافرت للشوكانی أنواع العلوم التی اشترطها العلماء فی المفسر لكتاب اللّه تعالی، لتحقيق أعلی مراتب التفسير، و هی اللغة و النحو و الصرف، و علوم البلاغة، و علم أصول الفقه، و علم التوحيد، و معرفة أسباب النزول، و القصص، و الناسخ و المنسوخ، و الأحاديث المبينة للمجمل و المبهم، و علم الموهبة الشرعية، و هو علم يورثه اللّه

تعالى لمن عمل بما علم، و لا يناله من فى قلبه بدعة، أو كبر، أو حبّ دنيا، أو ميل إلى المعاصى، قال اللّه تعالى: سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ [الأعراف: ۱۴۶].

و قد سبق فى التعريف بالشوكانى رحمه اللّه أنه جمع هذه العلوم و زاد عليها، حتى وصل مرتبة الاجتهاد.

۲- الجمع بين فنى الرواية و الدراية من علم التفسير، و قد ذكر السيد محمد صديق حسن خان فى كتابه «أبجد العلوم» أن هذا الجمع بين الرواية و الدراية سبقه إليه العلّامة محمد بن يحيى بن بهران، و قال:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۲

«لكن تفسير الشوكانى أبسط و أجمع و أحسن ترتيبا و ترصيفا» «۱».

۳- حجمه الوسط بين كتب التفسير المطولة و المختصرة، فهو خمسة أجزاء مجلدة من الحجم المتوسط، و قد أشار رحمه اللّه تعالى فى مواطن كثيرة من تفسيره إلى ترك الإطالة و الاستقصاء، و الإحالة إلى كتب الحديث أو كتب الفقه و غيرها، مما جعل هذا التفسير حقّا «لبّ اللّباب، و ذخرا من الذخائر التى ليس لها انقطاع» «۲» و مرجعا مقررا فى المراكز العلمية و الجامعات، و مصدرا وافيا لطلاب العلم فى الجوانب الحديثية و الفقهية و اللغوية.

۴- موارده:

استفاد الشوكانى من كتب التفسير المتقدمة، و انتقد اقتصار بعضها على الرواية، و بعضها الآخر على الدراية، كما شنّع على أصحاب الآراء المذمومة، و أتباع الأهواء الضالّة، و كان من أبرز العلماء الذين ورد كتبهم و نهل منها، و أورد عنهم نصوصا و أقوالا فى تفسيره تدل على حسن الاختيار وجودة الانتقاء، هم:

۱- النّحاس: أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى المصرى، مفسّر، كان من نظراء نفطويه و ابن الأنبارى، زار العراق و اجتمع بعلمائه، و صنّف فى تفسير القرآن الكريم و إعرابه و معانيه. توفى سنة ۳۳۸ ه.

۲- ابن عطية (المتقدّم): عبد اللّه بن عطية بن عبد اللّه بن حبيب، أبو محمد، عالم بالتفسير، مقرئ، من أهل دمشق، كان يحفظ خمسين ألف بيت للاستشهاد على معانى القرآن، له «تفسير ابن عطية» مخطوط- توفى سنة ۳۸۳ ه.

۳- ابن عطية (المتأخّر): عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربى، من محارب قيس، الغرناطى، أبو محمد: مفسر، فقيه، أندلسى، من أهل غرناطة. له كتاب «المحرّر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» فى عشرة مجلدات، مخطوط. توفى سنة ۵۴۲ ه.

۴- القرطبى: محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج الأنصارى القرطبى المالكى، أبو عبد اللّه، مفسّر، صاحب تصانيف، من أشهر كتبه «تفسير القرطبى» مطبوع فى عشرين مجلدا و هو التفسير المشهور، قال الذهبى عنه: عمل التفسير الكبير، و تعب عليه، و حشّاه بكل فريدة. توفى سنة ۶۷۳ ه.

۵- السيوطى: عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى، جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ أديب، صاحب التصانيف الكثيرة، من أشهر كتبه «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» مطبوع فى ثمانى مجلدات. توفى سنة ۹۱۱ ه.

---

(۱). أبجد العلوم (۳/ ۲۰۲)

(۲). مقدمة فتح القدير (۱/ ۱۵)

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۳
بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

مقدّمة المؤلف

اشارة

كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [فصلت: ٣].

يروى المفتقر إلى رحمة اللّه سبحانه و تعالى محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسنى اليمنى- غفر اللّه له و للمؤمنين- للقاضى الحافظ الشهير محمد بن على بن محمد الشوكانى الصنعانى، المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية، عن المولى الجهبذ الكبير سيف الإسلام أحمد بن قاسم بن عبد اللّه حميد الدين أبقاه اللّه تعالى، عن السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد اللّه أبى طالب الحسنى اليمنى، المتوفى سنة ١٣٠٩ ه، عن القاضى الحافظ أحمد بن محمد بن على الشوكانى، المتوفى سنة ١٢٨١ ه، عن أبيه المؤلف. قال رحمه اللّه تعالى:

بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه الذى جعل كتابه المبين كافلا- ببيان الأحكام، شاملا لما شرعه لعباده من الحلال و الحرام، مرجعا للأعلام عند تفاوت الأفهام و تباين الأقدام و تخالف الكلام، قاطعا للخصام شافيا للسقام مرهما للأوهام. فهو العروة الوثقى التى من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم، و الجادّة الواضحة التى من سلكها فقد هدى إلى الصراط المستقيم. فأىّ عبارة تبلغ أدنى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم؟، و أىّ لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم و التفخيم؟. كلا- و اللّه إن بلاغات البلغاء المصاقع، و فصاحات الفصحاء البواقع، و إن طالت ذيولها، و سالت سيولها، و استنت بميادينها خيولها، تتقاصر عن الوفاء بأوصافه، و تتصاغر عن التشبث بأدنى أطرافه، فيعود جيدها عنه عاطلا، و صفات ضوء الشمس تذهب باطلا، فهو كلام من لا تحيط به العقول علما، و لا تدرك كنهه الطباع البشرية فهما، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام، و أوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال و الإعظام. و الصلاة و السلام على من نزل إليه الروح الأمين، بكلام ربّ العالمين، محمد سيد المرسلين، و خاتم النبيين، و على آله المطهرين، و صحبه المكرّمين.

و بعد: فإن أشرف العلوم على الإطلاق، و أولاها بالتفضيل على الاستحقاق، و أرفعها قدرا بالاتفاق، هو علم التفسير لكلام القوىّ القدير، إذا كان على الوجه المعتبر فى الورود و الصدر، غير مشوب بشى‏ء من التفسير بالرأى الذى هو من أعظم الخطر، و هذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان، قريبة إلى الأفهام و الأذهان، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق و الحق، و يدرى بها من يميز بين كلام البشر، و كلام

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۴

خالق القوى و القدر، فمن فهم هذا استغنى عن التطويل، و من لم يفهمه فليس بمتأهل للتحصيل، و لقد صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذى و حسّنه من حديث أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «فضل كلام اللّه على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه».

و لما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان، العالية البنيان، المرتفعة المكان، رغبت إلى الدخول من أبوابه، و نشطت إلى القعود فى محرابه، و الكون من أحزابه، و وطنت النفس على سلوك طريقة، هى بالقبول عند الفحول حقيقة، و ها أنا أوضح

لك منارها، و أبيّن لك إيرادها و إصدارها فأقول:
إن غالب المفسرين تفرّقوا فريقين، و سلكوا طريقين: الفريق الأول اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرّد الرواية، و قنعوا برفع هذه الراية. و الفريق الآخر جرّدوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، و ما تفيده العلوم الآلية، و لم يرفعوا إلى الرواية رأسا، و إن جاءوا بها لم يصحّحوا لها أساسا، و كلا الفريقين قد أصاب، و أطال و أطاب، و إن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، و ترك منها ما لا يتمّ بدونه كمال الانتصاب، فإن ما كان من التفسير ثابتا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، كان المصير إليه متعينا، و تقديمه متحتما، غير أن الذى صحّ عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، و لا يختلف فى مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان. و أما ما كان منها ثابتا عن الصحابة رضى اللّه عنهم، فإن كان من الألفاظ التى قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوى بوجه من الوجوه فهو مقدّم على غيره، و إن كان من الألفاظ التى لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم. فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذى قاله على مقتضى لغة العرب، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين و تابعيهم و سائر الأئمة. و أيضا كثيرا ما يقتصر الصحابى و من بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآنى باعتبار المعنى اللغوى، و معلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعانى التى تفيدها اللغة العربية، و لا إهمال ما يستفاد من العلوم التى تتبيّن بها دقائق العربية و أسرارها كعلم المعانى و البيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأى المنهىّ عنه. و قد أخرج سعيد بن منصور فى سننه، و ابن المنذر و البيهقى فى كتاب الرؤية، عن سفيان قال: ليس فى تفسير القرآن اختلاف، إنما هو كلام جامع يراد منه هذا و هذا. و أخرج ابن سعد فى الطبقات، و أبو نعيم فى الحلية، عن أبى قلابة قال: قال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها.
و أخرج ابن سعد أن عليا قال لابن عباس: اذهب إليهم- يعنى الخوارج- و لا تخاصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، و لكن خاصمهم بالسنة؛ فقال له: أنا أعلم بكتاب اللّه منهم، فقال: صدقت، و لكن القرآن حمّال ذو وجوه. و أيضا لا يتيسر فى كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن، و لا اعتبار بما لم يصح كالتفسير بإسناد ضعيف، و لا بتفسير من ليس بثقة منهم و إن صحّ إسناده إليه. و بهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، و عدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، و هذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه، و المسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء اللّه مع تعرّضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن و اتضح لى وجهه، و أخذى من بيان المعنى العربى
فتح القدير، ج ١، ص: ١٥
و الإعرابى و البيانى بأوفر نصيب، و الحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو الأئمة المعتبرين. و قد أذكر ما فى إسناده ضعف، إما لكونه فى المقام ما يقوّيه، أو لموافقته للمعنى العربى، و قد أذكر الحديث معزوّا إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك كما يقع فى تفسير ابن جرير و القرطبى و ابن كثير و السيوطى و غيرهم، و يبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفا و لا يبيّنونه، و لا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذى يغلب به الظن، لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيرا التصريح بالصحة أو الحسن، فمن وجد الأصول التى يروون عنها و يعزون ما فى تفاسيرهم إليها فلينظر فى أسانيدها موفقا إن شاء اللّه.
و اعلم أن تفسير السيوطى المسمى ب «الدرّ المنثور» قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و تفاسير الصحابة و من بعدهم، و ما فاته إلا القليل النادر. و قد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرّر لفظا و اتحد معنى بقولى: و مثله أو نحوه، و ضممت إلى ذلك فوائد لم

يشتمل عليها وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الروايـة، أو من الفوائد التى لاحت لى من تصحيح أو تحسين أو تضعيف، أو تعقب أو جمع أو ترجيح.

فهذا التفسير و إن كبر حجمه، فقد كثر علمه، و توفر من التحقيق قسمه، و أصاب غرض الحق سهمه، و اشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائد و قواعد شوارد، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة، انظر تفاسير المعتمدين على الروايـة، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدرايـة، ثم انظر فى هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين، و يتبيّن لك أن هذا الكتاب هو لبّ اللباب، و عجب العجاب، و ذخيرة الطلاب، و نهاية مأرب الألباب. و قد سميته:

«فتح القدير» «الجامع بين فنّى الرواية و الدراية من علم التفسير»

مستمدا من اللّه سبحانه بلوغ الغاية، و الوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجيا منه جلّ جلاله أن يديم به الانتفاع و يجعله من الذخائر التى ليس لها انقطاع.

و اعلم أن الأحاديث فى فضائل القرآن كثيرة جدا، و لا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به فى الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته.

قال القرطبى: ينبغى له أن يتعلّم أحكام القرآن فيفهم عن اللّه مراده و ما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ و يعمل بما يتلو؛ فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه و أحكامه عن ظهر قلب و هو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، و ما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه و لا يدريه! فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا. و ينبغى له أن يعرف المكّى من المدنىّ، ليفرّق بين ما خاطب اللّه به عباده فى أوّل الإسلام،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۶

و ما ندبهم إليه فى آخر الإسلام، و ما فرض فى أوّل الإسلام و ما زاد عليهم من الفرائض فى آخره، فالمدنىّ هو الناسخ للمكّى فى أكثر القرآن:

و قال أيضا: قال علماؤنا: و أما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة و التابعين. فمن ذلك أن علىّ بن أبى طالب ذكر جابر بن عبد اللّه و وصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فداك، تصف جابرا بالعلم و أنت أنت؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ [القصص: ۸۵]. و قال مجاهد: أحبّ الخلق إلى اللّه أعلمهم بما أنزل اللّه. و قال الحسن: و اللّه ما أنزل اللّه آية إلا أحبّ أن يعلم فيمن نزلت و ما يعنى بها. و قال الشعبى: رحل مسروق فى تفسير آية إلى البصرة، فقيل له إن الذى يفسرها رحل إلى الشام، فتجهّز و رحل إلى الشام حتى علم تفسيرها. و قال عكرمة فى قوله عزّ و جلّ: وَ مَنْ یَخْرُجْ مِنْ بَیْتِهِ مُهاجِراً إِلَی اللَّهِ وَ رَسُولِهِ [النساء: ۱۰۰] طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. قال ابن عبد البرّ: هو ضميرة بن حبيب. و قال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما يمنعنى إلا مهابته، فسألته فقال: هى حفصة و عائشة. و قال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن و هم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلا و ليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة و لا يدرون ما فى الكتاب. و مثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما فى الكتاب. و ذكر ابن أبى الحوارى أن فضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم: لو طلبتم كتاب اللّه لوجدتم فيه شفاء لما تريدون، فقالوا: قد تعلّمنا القرآن، فقال: إن فى تعلّمكم

القرآن شغلا لأعمارکم و أعمار أولادکم، فقالوا: کیف یا أبا علیّ؟ قال: لن تعلموا القرآن حتی تعرفوا إعرابه و محکمه و متشابهه و ناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم استغنیتم عن کلام فضیل و ابن عیینة. و للسلف رحمهم اللّه من هذا الجنس ما لا یأتی علیه الحصر.

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۱۷

سورة الفاتحة

اشارة

معنی الفاتحة فی الأصل أوّل ما من شأنه أن یفتتح به، ثم أطلقت علی أوّل کل شیء کالکلام، و التاء للنقل من الوصفیة إلی الاسمیة، فسمیت هذه السورة «فاتحة الکتاب» لکونه افتتح بها، إذ هی أول ما یکتبه الکاتب من المصحف، و أول ما یتلوه التالی من الکتاب العزیز، و إن لم تکن أول ما نزل من القرآن. و قد اشتهرت هذه السورة الشریفة بهذا الاسم فی أیام النبوّة. قیل: هی مکیة، و قیل: مدنیة.

و قد أخرج الواحدیّ فی أسباب النزول، و الثعلبیّ فی تفسیره عن علیّ رضی اللّه عنه قال: نزلت فاتحة الکتاب بمکة من کنز تحت العرش. و أخرج ابن أبی شیبة فی المصنف، و أبو نعیم و البیهقی کلاهما فی دلائل النبوّة، و الثعلبیّ و الواحدیّ من حدیث عمرو بن شرحبیل: أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لما شکا إلی خدیجة ما یجده عند أوائل الوحی، فذهبت به إلی ورقة فأخبره فقال له: «إذا خلوت وحدی سمعت نداء خلفی: یا محمد یا محمد یا محمد! فأنطلق هاربا فی الأرض، فقال: لا تفعل، إذا أتاک فاثبت حتّی تسمع ما یقول ثم ائتنی فأخبرنی؛ فلمّا خلا ناداه یا محمّد قل: بسم اللّه الرحمن الرحیم، حتّی بلغ و لا الضّالّین» الحدیث. و أخرج أبو نعیم فی الدلائل عن رجل من بنی سلمة قال: لما أسلم فتیان بنی سلمة و أسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له: هل لک أن تسمع من ابنک ما روی عنه؟ فسأله فقرأ علیه: الحمد للّه رب العالمین، و کان ذلک قبل الهجرة. و أخرج أبو بکر بن الأنباری فی المصاحف عن عبادة قال: فاتحة الکتاب نزلت بمکة.

فهذا جملة ما استدل به من قال إنها نزلت بمکة.

و استدلّ من قال إنها نزلت بالمدینة بما أخرجه ابن أبی شیبة فی المصنف، و أبو سعید بن الأعرابی فی معجمه، و الطبرانی فی الأوسط من طریق مجاهد عن أبی هریرة: رنّ «۱» إبلیس حین أنزلت فاتحة الکتاب. و أنزلت بالمدینة.

و أخرج ابن أبی شیبة فی المصنف، و عبد بن حمید، و ابن المنذر، و أبو نعیم فی الحلیة و غیرهم من طرق عن مجاهد قال: نزلت فاتحة الکتاب بالمدینة، و قیل إنها نزلت مرتین مرة بمکة و مرة بالمدینة جمعا بین هذه الروایات.

و تسمّی «أمّ الکتاب» قال البخاری فی أول التفسیر: و سمیت أمّ الکتاب لأنه یبدأ بکتابتها فی المصاحف، و یبدأ بقراءتها فی الصلاة. و أخرج ابن الضریس فی فضائل القرآن عن أیوب عن محمد بن سیرین کان یکره أن یقول أمّ الکتاب و یقول: قال اللّه تعالی: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْکِتابِ «۲» و لکن یقول: فاتحة الکتاب. و یقال لها الفاتحة لأنها یفتتح بها القراءة، و افتتحت الصحابة بها کتابة المصحف الإمام. قال ابن کثیر فی تفسیره:

---

(۱). رنّ: صاح.

(۲). الرعد: ۳۹.

و صحّ تسميتها بالسبع المثانى، قالوا: لأنها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة. و أخرج أحمد من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال فى أمّ القرآن، و هى السّبع المثانى، و هى القرآن العظيم».
و أخرج ابن جرير فى تفسيره عن أبى هريرة أيضا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «هى أمّ القرآن، و هى فاتحة الكتاب، و هى السّبع المثانى». و أخرج نحوه ابن مردويه فى تفسيره و الدارقطنى من حديثه، و قال كلهم ثقات. و روى البيهقىّ عن علىّ و ابن عباس و أبى هريرة أنهم فسروا قوله تعالى: سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي «۱» بالفاتحة.
و من جملة أسمائها كما حكاه فى الكشاف سورة الكنز، و الوافية، و سورة الحمد، و سورة الصلاة. و قد أخرج الثعلبىّ أن سفيان بن عيينة كان يسمى فاتحة الكتاب: الوافية. و أخرج الثعلبىّ أيضا عن عبد اللّه بن يحيى بن أبى كثير أنه سأله سائل عن قراءة الفاتحة خلف الإمام، فقال: عن الكافية تسأل؟ قال السائل: و ما الكافية؟ قال: الفاتحة، أما علمت أنها تكفى عن سواها و لا يكفى سواها عنها. و أخرج أيضا عن الشّعبىّ أن رجلا اشتكى إليه وجع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن، قال: و ما أساس القرآن؟ قال: فاتحة الكتاب. و أخرج البيهقى فى الشعب عن أنس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ اللّه أعطانى فيما منّ به علىّ فاتحة الكتاب، و قال: هى من كنوز عرشى» و أخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده عن علىّ نحوه مرفوعا. و قد ذكر القرطبى فى تفسيره للفاتحة اثنى عشر اسما.
و هى سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير فى تفسيره. و قال القرطبىّ: أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلّا ما روى عن حسين الجعفى أنها ستّ، و هو شاذ. و إلّا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل إِيَّاكَ نَعْبُدُ آية، فهى عنده ثمان، و هو شاذ. انتهى. و إنما اختلفوا فى البسملة كما سيأتى إن شاء اللّه.
و قد أخرج عبد بن حميد، و محمد بن نصر فى كتاب الصلاة، و ابن الأنبارى فى المصاحف عن محمد بن سيرين أن أبىّ بن كعب و عثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب و المعوّذتين، و لم يكتب ابن مسعود شيئا منهنّ.
و أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: كان عبد اللّه بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب فى المصحف، و قال:
لو كتبتها لكتبت فى أول كل شىء.
و قد ورد فى فضل هذه السورة أحاديث، منها: ما أخرجه البخارى و أحمد و أبو داود و النسائىّ من حديث أبى سعيد بن المعلى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: «لأعلّمنّك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد، قال: فأخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول اللّه! إنّك قلت: لأعلّمنّك أعظم سورة فى القرآن، قال: نعم- الحمد للّه ربّ العالمين- هى السّبع المثانى و القرآن العظيم الذى أوتيته». و أخرج أحمد و الترمذى و صححه، من حديث أبىّ بن كعب أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: «أ تحبّ أن أعلّمك سورة لم ينزل فى التوراة و لا فى الإنجيل و لا فى الزّبور و لا فى الفرقان مثلها؟ ثم أخبره أنّها الفاتحة».
و أخرجه النسائى و أخرج أحمد فى المسند من حديث عبد اللّه بن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: «أ لا أخبرك بأخير سورة فى القرآن؟ قلت: بلى يا رسول اللّه! قال: اقرأ الحمد للّه رب العالمين حتى تختمها» و فى إسناده ابن عقيل، و قد احتج به كبار الأئمة، و بقية رجاله ثقات. و عبد اللّه بن جابر هذا هو العبدى كما

---

(۱). الحجر: ۸۷.

قال ابن الجوزى، و قيل الأنصارى البياضى كما قال ابن عساكر. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى سعيد «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال لمّا أخبروه بأن رجلا رقى سليما بفاتحة الكتاب: و ما كان يدريه أنها رقية؟» الحديث.

و أخرج مسلم فى صحيحه، و النسائى فى سننه من حديث ابن عباس قال: «بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قطّ، قال:

فنزل منه ملك فأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبىّ قبلك: فاتحة الكتاب، و خواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفا منهما إلّا أوتيته» و أخرج مسلم و النسائى و الترمذى، و صحّحه من حديث أبى هريرة «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهى خداج- ثلاثا- غير تامة». و أخرج البزار فى مسنده بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا وضعت جنبك على الفراش و قرأت فاتحة الكتاب و قل هو اللّه أحد فقد أمنت من كل شىء إلّا الموت» و أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن أبى زيد- و كان له صحبة- قال: كنت مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى بعض فجاج المدينة، فسمع رجلا يتهجد و يقرأ بأمّ القرآن، فقام النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فاستمع حتى ختمها ثم قال: «ما فى القرآن مثلها». و أخرج سعيد بن منصور فى سننه، و البيهقىّ فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم». و أخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه، و حديث أبى هريرة مرفوعا. و أخرج الدارمى، و البيهقى فى شعب الإيمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى فاتحة الكتاب «شفاء من كل داء». و أخرج أحمد و أبو داود و النسائى و ابن السنى فى عمل اليوم و الليلة، و ابن جرير و الحاكم، و صححه عن خارجة بن الصلت التميمى عن عمه: أنه أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم أقبل راجعا من عنده، فمرّ على قوم و عندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: أ عندك ما تداوى به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام فى كل يوم مرتين غدوة و عشية، أجمع بزاقى ثم أتفل فبرأ، فأعطانى مائة شاة، فأتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فذكرت ذلك له فقال: «كل، فلعمرى من أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق». و أخرج الفريابى فى تفسيره عن ابن عباس قال: «فاتحة الكتاب ثلث القرآن». و أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ أمّ القرآن و قل هو اللّه أحد، فكأنّما قرأ ثلث القرآن». و أخرج عبد بن حميد فى مسنده بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «فاتحة الكتاب تعدل بثلثى القرآن». و أخرج الحاكم و صححه، و أبو ذرّ الهروى فى فضائله، و البيهقى فى الشعب عن أنس قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى مسير له، فنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه، فالتفت إليه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «أ لا أخبرك بأفضل القرآن؟، فتلا عليه الحمد للّه رب العالمين». و أخرج أبو نعيم و الديلمى عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «فاتحة الكتاب تجزى ما لا يجزى شىء من القرآن، و لو أن فاتحة الكتاب جعلت فى كفة الميزان، و جعل القرآن فى الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات». و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن مرسلا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان».

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٠

[سورة الفاتحة (١): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (١)

اختلف أهل العلم هل هى آية مستقلة فى أول كل سورة كتبت فى أولها؟ أو هى بعض آية من أول كل سورة، أو هى كذلك

فى الفاتحة فقط دون غيرها، أو أنها ليست بآية فى الجميع و إنما كتبت للفصل؟ و الأقوال و أدلتها مبسوطة فى موضع الكلام على ذلك. و قد اتفقوا على أنها بعض آية فى سورة النمل. و قد جزم قرّاء مكة و الكوفة بأنها آية من الفاتحة و من كل سورة. و خالفهم قرّاء المدينة و البصرة و الشام فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة و لا من غيرها من السور، قالوا: و إنما كتبت للفصل و التبرّك. و قد أخرج أبو داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم اللّه الرّحمن الرّحيم. و أخرجه الحاكم فى المستدرك. و أخرج ابن خزيمة فى صحيحه، عن أم سلمة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة و غيرها آية. و فى إسناده عمرو بن هارون البلخى و فيه ضعف، و روى نحوه الدارقطنى مرفوعا عن أبى هريرة.

و كما وقع الخلاف فى إثباتها وقع الخلاف فى الجهر بها فى الصلاة. و قد أخرج النسائى فى سننه، و ابن خزيمة و ابن حبان فى صحيحيهما، و الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة أنه صلّى فجهر فى قراءته بالبسملة، و قال بعد أن فرغ: إنى لأشبهكم صلاة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و صحّحه الدارقطنى و الخطيب و البيهقى و غيرهم.

و روى أبو داود و الترمذى عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يفتتح الصلاة ببسم اللّه الرّحمن الرّحيم.

قال الترمذى: و ليس إسناده بذاك. و قد أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس بلفظ: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يجهر ب: بسم اللّه الرحمن الرحيم. ثم قال: صحيح. و أخرج البخارى فى صحيحه، عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: كانت قراءته مدّا، ثم قرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم، يمدّ بسم اللّه، و يمدّ الرحمن، و يمدّ الرحيم. و أخرج أحمد فى المسند و أبو داود فى السنن و ابن خزيمة فى صحيحه، و الحاكم فى مستدركه، عن أمّ سلمة أنها قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقطع قراءته: بسم اللّه الرحمن الرحيم. الحمد للّه رب العالمين.

الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. و قال الدارقطنى: إسناده صحيح.

و احتجّ من قال بأنه لا يجهر بالبسملة فى الصلاة بما فى صحيح مسلم، عن عائشة، قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يفتتح الصلاة بالتكبير، و القراءة ب: الحمد للّه رب العالمين. و فى الصحيحين عن أنس قال: صليت خلف النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أبى بكر و عمر و عثمان، فكانوا يستفتحون ب: الحمد للّه ربّ العالمين. و لمسلم: لا يذكرون بسم اللّه الرحمن الرحيم فى أول قراءة و لا فى آخرها. و أخرج أهل السنن نحوه عن عبد اللّه بن مغفّل.

و إلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة و جماعة من الصحابة. و أحاديث الترك و إن كانت أصحّ و لكن الإثبات أرجح، مع كونه خارجا من مخرج صحيح، فالأخذ به أولى و لا سيما مع إمكان تأويل الترك، و هذا يقتضى الإثبات

فتح القدير، ج ١، ص: ٢١

الذاتى، أعنى: كونها قرآنا؛ و الوصفى أعنى: الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور فى الصلاة.

و لتنقيح البحث و الكلام على أطرافه استدلالا و ردّا و تعقبا و دفعا و رواية و دراية، موضع غير هذا. و متعلّق الباء محذوف و هو أقرأ أو أتلو لأنه المناسب لما جعلت البسملة مبدأ له؛ فمن قدّره متقدما كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل، و من قدّره متأخرا كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص مع ما يحصل فى ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم، و الإشارة إلى أن البداية به أهمّ لكون التبرك حصل به، و بهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخرا فى مثل هذا المقام، و لا يعارضه قوله تعالى اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ «١» لأن ذلك المقام مقام القراءة، فكان الأمر بها أهمّ، و أما الخلاف بين أئمة النحو فى كون المقدر اسما أو فعلا فلا يتعلق بذلك كثير فائدة. و الباء للاستعانة أو المصاحبة، و رجّح الثانى الزمخشرى. و اسم أصله سمو حذفت لامه، و لما كان من الأسماء التى بنوا أوائلها على السكون زادوا فى أوّله الهمزة إذا نطقوا به لئلا يقع الابتداء بالساكن، و هو

اللفظ الدالّ على المسمى؛ و من زعم أن الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة و سيبويه و الباقلانى و ابن فورك، و حكاه الرازى عن الحشوية و الكرامية و الأشعرية فقد غلط غلطا بينا، و جاء بما لا يعقل، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب و لا من السنة و لا من لغة العرب، بل العلم الضرورى حاصل بأن الاسم الذى هو أصوات مقطعة و حروف مؤلفة غير المسمى الذى هو مدلوله، و البحث مبسوط فى علم الكلام. و قد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة: «إن للّه تسعة و تسعين اسما من أحصاها دخل الجنة».

و قال اللّه عزّ و جلّ: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها «٢» و قال تعالى قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى و اللّه علم لذات الواجب الوجود لم يطلق على غيره، و أصله إله حذفت الهمزة و عوّضت عنها أداة التعريف فلزمت. و كان قبل الحذف من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كالنجم و الصعق، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة، و بعده من الأعلام المختصة. و الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة، و رحمن أشد مبالغة من رحيم. و فى كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، و لذلك قالوا: رحمن الدنيا و الآخرة، و رحيم الدنيا. و قد تقرّر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى. و قال ابن الأنبارى و الزجاج: إن الرحمن عبرانى و الرحيم عربى و خالفهما غيرهما. و الرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل فى غير اللّه عزّ و جلّ. و أما قول بنى حنيفة فى مسيلمة: رحمان اليمامة، فقال فى الكشاف: إنه باب من تعنتهم فى كفرهم. قال أبو علىّ الفارسىّ: الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به اللّه تعالى، و الرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين، قال اللّه تعالى وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً «٣» و قد ورد فى فضلها أحاديث. منها ما أخرجه سعيد بن منصور فى سننه و ابن خزيمة فى كتاب البسملة و البيهقى عن ابن عباس قال: استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن: بسم اللّه الرحمن الرحيم. و أخرج نحوه أبو عبيد و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا. و أخرج الدارقطنى بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان جبريل إذا جاءنى بالوحى أوّل ما يلقى علىّ بسم اللّه الرحمن الرحيم». و أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره و الحاكم فى المستدرك، و صحّحه البيهقى فى شعب الإيمان

---

(١). العلق: ١.

(٢). الأعراف: ١٨٠.

(٣). الإسراء: ١١٠.

عن ابن عباس: أن عثمان بن عفان سأل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم عن بسم اللّه الرحمن الرحيم فقال: «هو اسم من أسماء اللّه، و ما بينه و بين اسم اللّه الأكبر إلّا كما بين سواد العين و بياضها من القرب». و أخرج ابن جرير و ابن عدىّ فى الكامل و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية و ابن عساكر فى تاريخ دمشق، و الثعلبى بسند ضعيف جدا، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب لتعلّمه، فقال له المعلم: اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم، فقال له عيسى: و ما بسم اللّه الرحمن الرحيم؟ قال المعلم:

لا أدرى، فقال له عيسى: الباء بهاء اللّه، و السين سناه، و الميم مملكته، و اللّه إله الآلهة، و الرحمن رحمن الدنيا و الآخرة، و الرحيم رحيم الآخرة» و فى إسناده إسماعيل بن يحيى و هو كذّاب. و قد أورد هذا الحديث ابن الجوزى فى الموضوعات. و أخرج ابن مردويه و الثعلبى عن جابر قال: لما نزلت بسم اللّه الرحمن الرحيم:

هرب الغيم إلى المشرق، و سكنت الريح، و هاج البحر، و أصغت البهائم بآذانها، و رجمت الشياطين من السماء، و حلف اللّه بعزّته و جلاله أن لا تسمّى على شيء إلّا بارك فيه. و أخرج أبو نعيم و الديلمى عن عائشة قالت: لما نزلت بسم اللّه الرحمن الرحيم، ضجّت الجبال حتى سمع أهل مكة دويها، فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث اللّه دخانا حتى أظلّ على أهل مكة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم موقنا سبحت معه الجبال إلّا أنه لا يسمع ذلك منها». و أخرج الديلمى عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«من قرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم كتب اللّه له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، و محا عنه أربعة آلاف سيئة، و رفع له أربعة آلاف درجة». و أخرج الخطيب فى الجامع عن أبى جعفر محمد بن علىّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «بسم اللّه الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب». و هذه الأحاديث ينبغى البحث عن أسانيدها و الكلام عليها بما يتبيّن بعد البحث إن شاء اللّه. و قد شرعت التسمية فى مواطن كثيرة قد بيّنها الشارع منها: عند الوضوء، و عند الذبيحة، و عند الأكل، و عند الجماع، و غير ذلك.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۳

[سورة الفاتحة (۱): الآيات ۲ الى ۷]

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (۴) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵) اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۶)

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لا الضَّالِّينَ (۷)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى، و بقيد الاختيارى فارق المدح، فإنه يكون على الجميل و إن لم يكن الممدوح مختارا، كمدح الرجل على جماله و قوّته و شجاعته. و قال صاحب الكشاف: إنهما أخوان. و الحمد أخصّ من الشكر موردا و أعمّ منه متعلقا. فمورد الحمد اللسان فقط، و متعلقه النعمة و غيرها. و مورد الشكر اللسان و الجنان و الأركان، و متعلقه النعمة. و قيل إن مورد الحمد كمورد الشكر، لأن كل ثناء باللسان لا يكون من صميم القلب مع موافقة الجوارح ليس بحمد بل سخرية و استهزاء. و أجيب بأن اعتبار موافقة القلب و الجوارح فى الحمد لا يستلزم أن يكون موردا له بل شرطا- و فرق بين الشرط و الشطر- و تعريفه: لاستغراق أفراد الحمد و أنها مختصة بالرّبّ سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو اللّه عزّ و جلّ، أو على أن حمده هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادّعائيا.

و رجّح صاحب الكشاف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق، و الصواب ما ذكرناه. و قد جاء فى الحديث «اللهمّ لك الحمد كله» و هو مرتفع بالابتداء و خبره الظرف و هو للّه. و أصله النصب على المصدرية بإضمار فعله كسائر المصادر التى تنصبها العرب، فعدل عنه إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام و الثبات المستفاد من الجمل الاسمية دون الحدوث و التجدد اللذين تفيدهما الجمل الفعلية، و اللام الداخلة على الاسم الشريف هى لام الاختصاص. قال ابن جرير: الحمد ثناء أثنى به على نفسه، و فى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد للّه؛ ثم رجّح اتحاد الحمد و الشكر مستدلا على ذلك بما حاصله: إن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد و الشكر مكان الآخر. قال ابن كثير: و فيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة و المتعدية. و الشكر لا يكون إلا على المتعدية، و يكون بالجنان و اللسان و الأركان انتهى. و لا يخفى أن المرجع فى مثل هذا إلى معنى الحمد فى لغة العرب لا إلى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين، فإن ذلك لا يرد على ابن جرير، و لا تقوم به الحجة؛ هذا إذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية، فإن ثبتت وجب تقديمها. و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال عمر: قد علمنا سبحان اللّه و لا إله إلّا اللّه، فما الحمد

للّه؟ فقال عليّ: كلمـة رضـيها لنفسه. و روى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس أنه قال: الحمـد للّه كلمة الشـكر، و إذا قال العبد: الحمـد للّه قـال: شـكرنى عبـدى. و روى هو و ابن جرير عن ابن عباس أيضا أنه قال: الحمـد للّه هو الشـكر للّه و الاسـتخذاء له و الإقرار له بنعمه و هدايته و ابتدائه و غير ذلك. و روى ابن جرير عن الحكم بن عمير، و كانت له صـحبة قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سـلم: «إذا قلت: الحمد للّه ربّ العالمين؛ فقد شـكرت اللّه فزادك». و أخرج عبد الرزاق فى المصـنف، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و الخطابى فى الغريب، و البيهقىّ فى الأدب، و الديلمىّ فى

فتح القدير، ج ١، ص: ٢۴

مسند الفردوس، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: «الحمد رأس الشكر، ما شكر اللّه عبـد لا يحمده». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن الحلبى قال: الصـلاة شـكر و الصـيام شـكر، و كل خير تفعله شـكر، و أفضل الشكر الحمد. و أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن النّواس بن سمعان قال: سرقت ناقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلم فقال: «لئن ردّها اللّه علىّ لأشـكرنّ ربى فرجعت، فلما رآها قال: الحمد للّه. فانتظروا هل يحدث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صوما أو صلاة، فظنوا أنه نسى فقالوا:

يا رسول اللّه! قد كنت قلت: لئن ردّها اللّه علىّ لأشكرنّ ربى، قال: ألم أقل الحمد للّه؟».

و قد ورد فى فضل الحمد أحاديث. منها ما أخرجه أحمد و النسائى و الحاكم و صحّحه، و البخارى فى الأدب المفرد عن الأسود بن سريع قال: «قلت يا رسول اللّه! ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى تبارك و تعالى؟

فقال: أما إن ربك يحبّ الحمد». و أخرج الترمذى و حسنه و النسائى و ابن ماجة و ابن حبان و البيهقى عن جابر قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «أفضل الـذكر لا إله إلّا اللّه، و أفضل الدعاء الحمد للّه». و أخرج ابن ماجة و البيهقى بسـند حسن عن أنس قـال: قـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «ما أنعم اللّه على عبـد نعمـة فقال: الحمـد للّه إلا كان الـذى أعطى أفضل مما أخذ». و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و القرطبى فى تفسيره، عن أنس عن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم قال: «لو أن الـدنيا كلهـا بحـذافيرها فى يـد رجل من أمتى ثم قال الحمـد للّه، لكان الحمـد أفضل من ذلك» قال القرطبى: معناه لكان إلهامه الحمد أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا، لأن ثواب الحمد لا يفنى، و نعيم الدنيا لا يبقى. و أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن جابر قـال: قـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «مـا من عبـد ينعم عليه بنعمـة إلا كان الحمـد أفضل منها». و أخرج عبـد الرزاق فى المصـنف نحوه عن الحسن مرفوعا. و أخرج مسـلم و النسائى و أحمد عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«الطهور شـطر الإيمان، و الحمد للّه تملأ الميزان» الحديث. و أخرج سـعيد بن منصور و أحمد و الترمذى و حسّنه و ابن مردويه، عن رجـل من بنى سـليم؛ أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم قال: «سـبحان اللّه نصف الميزان، و الحمـد للّه تملأ الميزان، و اللّه أكبر تملأ ما بين السماء و الأرض، و الطهور نصف الإيمان، و الصوم نصف الصبر».

و أخرج الحكيم الترمـذى عن عبـد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «التسبيـح نصف الميزان، و الحمد للّه تملؤه، و لا إله إلا اللّه ليس لها دون اللّه حجاب حتى تخلص إليه». و أخرج البيهقى عن أنس قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «التأنى من اللّه، و العجلة من الشيطان، و ما شـىء أكثر معاذير من اللّه، و ما شىء أحب إلى اللّه من الحمد». و أخرج ابن شاهين فى السنة و الديلمى عن أبان عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«التوحيـد ثمن الجنـة، و الحمـد ثمن كل نعمة، و يتقاسـمون الجنة بأعمالهم». و أخرج أهل السـنن و ابن حبان و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد اللّه فهو أقطع».

و أخرج ابن ماجة فى سننه عن ابن عمر «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حدّثهم أن عبدا من عباد اللّه قال: يا ربّ! لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك و عظيم سلطانك، فلم يدر الملكان كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا:
يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال اللّه- و هو أعلم بما قال عبده-: ما ذا قال عبدى؟

قالا يا ربّ إنه قال: لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك و عظيم سلطانك، فقال اللّه لهما: اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى و أجزيه بها». و أخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن اللّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

رَبِّ الْعالَمِينَ قال فى الصحاح: الربّ اسم من أسماء اللّه تعالى، و لا يقال فى غيره إلا بالإضافة، و قد قالوه فى الجاهلية للملك. و قال فى الكشاف: الربّ المالك. و منه قول صفوان لأبى سفيان: لأن يربّنى رجل من قريش أحبّ إلىّ من أن يربّنى رجل من هوازن. ثم ذكر نحو كلام الصحاح. قال القرطبى فى تفسيره:
و الربّ السيد، و منه قوله تعالى: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ و فى الحديث «أن تلد الأمة ربّها»، و الربّ:
المصلح و الجابر و القائم قال: و الربّ: المعبود. و منه قول الشاعر:
أ ربّ يبول الثّعلبان برأسهلقد هان «١» من بالت عليه الثّعالب

و العالمين: جمع العالم، و هو كل موجود سوى اللّه تعالى؛ قاله قتادة. و قيل أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل. و قال ابن عباس: العالمون الجنّ و الإنس. و قال الفرّاء و أبو عبيد: العالم عبارة عمن يعقل و هم أربعة أمم: الإنس، و الجن، و الملائكة، و الشياطين. و لا يقال للبهائم عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل. حكى هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره و ذكر أدلتها و قال: إن القول الأول أصحّ هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق و موجود، دليله قوله تعالى: قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ؟ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا «٢» و هو مأخوذ من العلم و العلامة لأنه يدل على موجده، كذا قال الزجّاج. و قال: العالم: كل ما خلقه اللّه فى الدنيا و الآخرة، انتهى. و على هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليبا للعقلاء على غيرهم. و قال فى الكشاف: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، و هى الدلالة على معنى العلم. و قد أخرج ما تقدم من قول ابن عباس عنه الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه.
و أخرجه عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد. و أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير. و أخرج ابن جبير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: رَبِّ الْعالَمِينَ قال: إله الخلق كله، السموات كلهنّ و من فيهنّ.
و الأرضون كلهنّ و من فيهنّ، و من بينهنّ مما يعلم و مما لا يعلم.

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قد تقدم تفسيرهما. قال القرطبى: وصف نفسه تعالى بعد ربّ العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان فى اتصافه بربّ العالمين ترهيب؛ قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب، ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه و الرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته و أمنع، كما قال تعالى:

---

(١). فى القرطبى «ذلّ».

(٢). الشعراء: ٢٣- ٢٤.

نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ «١». و قال: غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ «٢». و فى

صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لو يعلم المؤمن ما عند اللّه من العقوبة ما طمع فى جنته أحد، و لو يعلم الكافر ما عند اللّه من الرحمة ما قنط من جنته أحد» انتهى. و قد أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ قال: ما وصف من خلقه، و فى قوله:

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قال: مدح نفسه.

ثم ذكر بقية الفاتحة مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قرئ ملك و مالك و ملك بسكون اللام، و ملك بصيغة الفعل.

و قد اختلف العلماء أيّهما أبلغ ملك أو مالك؟ فقيل إن ملك أعمّ و أبلغ من مالك، إذ كل ملك مالك، و ليس كل مالك ملكا، و لأن أمر الملك نافذ على المالك فى ملكه حتى لا يتصرف إلا بتدبير الملك، قاله أبو عبيد و المبرّد و رجّحه الزمخشرى. و قيل مالك أبلغ لأنه يكون مالكا للناس و غيرهم، فالمالك أبلغ تصرفا و أعظم.

و قال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ فى مدح الخالق من ملك. و ملك أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، و إذا كان اللّه تعالى مالكا كان ملكا. و اختار هذا القاضى أبو بكر بن العربى.

و الحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد فى الآخر؛ فالمالك يقدر على ما يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع و الهبة و العتق و نحوها، و الملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك و حياطته و رعاية مصالح الرعية؛ فالمالك أقوى من الملك فى بعض الأمور، و الملك أقوى من المالك فى بعض الأمور. و الفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الربّ سبحانه أن الملك صفة لذاته، و المالك صفة لفعله. و يوم الدين: يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ- ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ- يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ «٣» و هذه الإضافة إلى الظرف على طريق الاتساع، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار؛ و يوم الدين و إن كان متأخرا فقد يضاف اسم الفاعل و ما فى معناه إلى المستقبل، كقولك: هذا ضارب زيدا غدا. و قد أخرج الترمذى عن أمّ سلمة أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ ملك بغير ألف. و أخرج نحوه ابن الأنبارى عن أنس. و أخرج أحمد و الترمذى عن أنس أيضا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم و أبا بكر و عمر و عثمان كانوا يقرءون مالك بالألف. و أخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعا. و أخرج نحوه أيضا وكيع فى تفسيره و عبد بن حميد و أبو داود عن الزهرى يرفعه مرسلا. و أخرجه أيضا عبد الرزاق فى تفسيره و عبد بن حميد و أبو داود عن ابن المسيب مرفوعا مرسلا. و قد روى هذا من طرق كثيرة، فهو أرجح من الأول. و أخرج الحاكم و صحّحه عن أبى هريرة: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ مالك يوم الدين، و كذا رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود مرفوعا. و أخرج ابن جرير و الحاكم و صحّحه عن ابن مسعود و ناس من الصحابة أنهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب. و كذا رواه ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال: يوم الدين: يوم يدين اللّه العباد بأعمالهم.

---

(١). الحجر: ۴۹- ۵۰.

(٢). غافر: ٣.

(٣). الانفطار: ١٧- ١٩.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٢٧

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قراءة السبعة و غيرهم بتشديد الياء، و قرأ عمرو بن فائد بتخفيفها مع الكسر؛ و قرأ الفضل و الرقاشى بفتح الهمزة؛ و قرأ أبو السوار الغنوى «هياك» فى الموضعين و هى لغة مشهورة.

و الضمير المنفصل هو «إيا» و ما يلحقه من الكاف و الهاء و الياء هى حروف لبيان الخطاب و الغيبة و التكلم، و لا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور، و تقديمه على الفعل لقصد الاختصاص، و قيل للاهتمام، و الصواب أنه لهما و لا تزاحم بين المقتضيات. و المعنى: نخصّك بالعبادة و نخصّك بالاستعانة، لا نعبد غيرك و لا نستعينه، و العبادة أقصى غايات الخضوع و التذلّل. قال ابن كثير: و فى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة و الخضوع و الخوف، و عدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، و أكثر إيقاظا له كما تقرر فى علم المعانى. و المجىء بالنون فى الفعلين لقصد الإخبار من الداعى عن نفسه و عن جنسه من العباد، و قيل: إن المقام لمّا كان عظيما لم يستقلّ به الواحد استقصارا لنفسه و استصغارا لها، فالمجىء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس؛ و قدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، و تقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، و إطلاق الاستعانة لقصد التعميم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إياك نعبد: يعنى إياك نوحد و نخاف يا ربنا لا غيرك، و إياك نستعين على طاعتك و على أمورنا كلها. و حكى ابن كثير عن قتادة أنه قال فى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ يأمركم أن تخلصوا له العبادة و أن تستعينوه على أمركم. و فى صحيح مسلم من حديث المعلّى ابن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يقول اللّه تعالى: قسمت الصّلاة بينى و بين عبدى نصفين، فنصفها لى و نصفها لعبدى و لعبدى ما سأل، إذا قال العبد: الحمد للّه رب العالمين قال: حمدنى عبدى، و إذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علىّ عبدى، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجّدنى عبدى، فإذا قال: إياك نعبد و إياك نستعين، قال: هذا بينى و بين عبدى و لعبدى ما سأل، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضّالّين، قال: هذا لعبدى، و لعبدى ما سأل». و أخرج أبو القاسم البغوى و الماوردى معا فى معرفة الصحابة و الطبرانى فى الأوسط و أبو نعيم فى الدلائل عن أنس بن مالك عن أبى طلحة قال: كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى غزاة فلقى العدوّ فسمعته يقول: «يا مالك يوم الدين إياك نعبد و إياك نستعين» قال: فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها و من خلفها.

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ قرأه الجمهور بالصاد، و قرئ «السراط» بالسين، و «الزراط» بالزاى، و الهداية قد يتعدى فعلها بنفسه كما هنا، و كقوله: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «١»، و قد يتعدى بإلى كقوله: اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «٢» فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ «٣» وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «۴» و قد يتعدّى باللام كقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا «۵» إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ «۶»، قال الزمخشرى: أصله أن يتعدّى باللام أو بإلى انتهى. و هى الإرشاد أو التوفيق أو الإلهام أو الدلالة. و فرّق كثير من المتأخرين بين معنى المتعدى بنفسه و غير المتعدى فقالوا: معنى الأوّل الدلالة، و الثانى

---

(١). البلد: ١٠.

(٢). النحل: ١٢١.

(٣). الصافات: ٢٣.

(۴). الشورى: ۵٢.

(۵). الأعراف: ۴٣.

(۶). الإسراء: ٩.

الإيصال. و طلب الهداية من المهتدى معناه طلب الزيادة كقوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً «١» وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا «٢». و الصراط: قال ابن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه، و هو كذلك فى لغة جميع العرب. قال:

ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فتصف المستقيم باستقامته و المعوجّ باعوجاجه. و قد أخرج الحاكم و صحّحه و تعقبه الذهبى، عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرأ اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ بالصاد. و أخرج سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و البخارى فى تاريخه، عن ابن عباس أنه قرأ الصراط بالسين. و أخرج ابن الأنبارى عن ابن كثير أنه كان يقرأ السراط بالسين. و أخرج أيضا عن حمزة أنه كان يقرأ الزراط بالزاى. قال الفرّاء:

و هى لغة لعذرة و كلب و بنى القين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ يقول: ألهمنا دينك الحق. و أخرج ابن جرير عنه و ابن المنذر نحوه. و أخرج وكيع و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه عن جابر بن عبد اللّه أنه قال: هو دين الإسلام و هو أوسع مما بين السماء و الأرض.

و أخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس. و أخرج نحوه أيضا عن ابن مسعود و ناس من الصحابة. و أخرج أحمد و الترمذى و حسّنه، و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان، عن النّواس بن سمعان، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ضرب اللّه مثلا صراطا مستقيما، و على جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، و على الأبواب ستور مرخاة، و على باب الصراط داع يقول:

يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا و لا تفرّقوا، و داع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: و يحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط: الإسلام، و السوران: حدود اللّه، و الأبواب المفتحة: محارم اللّه، و ذلك الداعى على رأس الصراط: كتاب اللّه، و الداعى من فوق:

واعظ اللّه تعالى فى قلب كل مسلم». قال ابن كثير بعد إخراجه: و هو إسناد حسن صحيح. و أخرج وكيع و عبد بن حميد و ابن المنذر و أبو بكر الأنبارى و الحاكم و صحّحه و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود أنه قال «هو كتاب اللّه». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عدى و ابن عساكر عن أبى العالية قال: هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و صاحباه من بعده. و أخرج الحاكم و صححه عن أبى العالية عن ابن عباس مثله. و روى القرطبى عن الفضيل بن عياض أنه قال: الصراط المستقيم طريق الحج، قال: و هذا خاص و العموم أولى انتهى. و جميع ما روى فى تفسير هذه الآية ما عدا هذا المروى عن الفضيل يصدق بعضه على بعض، فإن من اتبع الإسلام أو القرآن أو النبىّ قد اتبع الحق. و قد ذكر ابن جرير نحو هذا فقال و الذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى أن يكون معنيا به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته، و وفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول و عمل، و ذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق إليه ممن أنعم اللّه عليه من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين فقد وفق للإسلام و تصديق الرسل، و التمسك بالكتاب، و العمل بما أمره اللّه به و الانزجار عما زجره عنه، و اتباع منهاج النبى صلّى اللّه عليه و سلم و منهاج الخلفاء الأربعة و كل عبد صالح، و كل ذلك من الصراط المستقيم. انتهى.

---

(١). محمد: ١٧.

(٢). العنكبوت: ٦٩.

فتح القدير، ج١، ص: ٢٩

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ انتصب صراط على أنه بدل من الأوّل، و فائدته التوكيد لما فيه من التثنية و التكرير، و يجوز أن يكون عطف بيان، و فائدته الإيضاح، و الذين أنعم اللّه عليهم هم المذكورون فى سورة النساء حيث

قال: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ عَلِيماً «١» و أطلق الإنعام ليشمل كل إنعام؛ و غير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى:

أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب اللّه و الضلال، أو صفة له على معنى: أنهم جمعوا بين النعمتين نعمة الإيمان و السلامة من ذلك، و صحّ جعله صفة للمعرفة مع كون غير لا تتعرف بالإضافة إلى المعارف لما فيها من الإبهام، لأنها هنا غير مبهمة لاشتهار المغايرة بين الجنسين. و الغضب فى اللغة قال القرطبى: الشدة، و رجل غضوب: أى شديد الخلق، و الغضوب: الحيّة الخبيثة لشدتها. قال: و معنى الغضب فى صفة اللّه:

إرادة العقوبة فهو صفة ذاته، أو نفس العقوبة، و منه الحديث «إن الصدقة لتطفئ غضب الربّ» فهو صفة فعله. قال فى الكشاف: هو إرادة الانتقام من العصاة و إنزال العقوبة بهم، و أن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده؛ و الفرق بين عليهم الأولى و عليهم الثانية، أن الأولى فى محل نصب على المفعولية، و الثانية فى محل رفع على النيابة عن الفاعل. و «لا» فى قوله و لا الضّالّين تأكيد النفى المفهوم من غير؛ و الضّلال فى لسان العرب قال القرطبى: هو الذهاب عن سنن القصد و طريق الحق، و منه ضلّ اللبن فى الماء: أى غاب، و منه أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ «٢» أى غبنا بالموت و صرنا ترابا. و أخرج وكيع و أبو عبيد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و غير الضّالّين» و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد أن عبد اللّه بن الزبير قرأ كذلك. و أخرج ابن الأنبارى، عن الحسن أنه كان يقرأ «عليهمى» بكسر الهاء و الميم و إثبات الياء. و أخرج ابن الأنبارى عن الأعرج أنه كان يقرأ «عليهمو» بضم الهاء و الميم و إلحاق الواو. و أخرج أيضا عن ابن كثير أنه كان يقرأ «عليهمو» بكسر الهاء و ضم الميم مع إلحاق الواو. و أخرج أيضا عن أبى إسحاق أنه قرأ «عليهم» بضم الهاء و الميم من غير إلحاق واو. و أخرج ابن أبى داود عن عكرمة و الأسود أنهما كانا يقراءان كقراءة عمر السابقة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ يقول: طريق من أنعمت عليهم من الملائكة و النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين الذين أطاعوك و عبدوك. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنهم المؤمنون. و أخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس فى قوله صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ قال: النبيون.

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ قال: اليهود. وَ لَا الضَّالِّينَ قال: النصارى. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. و أخرج أيضا عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج عبد الرزاق و أحمد فى مسنده و عبد بن حميد و ابن جرير و البغوى و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن شقيق قال: «أخبرنى من سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو بوادى القرى على فرس له، و سأله رجل من بنى القين فقال: من المغضوب عليهم يا رسول اللّه؟ قال:

اليهود، قال: فمن الضّالون؟ قال: النصارى». و أخرجه ابن مردويه عن عبد اللّه بن شقيق عن أبى ذرّ

---

(١). النساء: ٦٩- ٧٠.

(٢). السجدة: ١٠.

قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و أخرجه وكيع و عبد بن حميد و ابن جرير عن عبد اللّه بن شقيق قال:

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يحاصر أهل وادى القرى فقال له رجل .. إلى آخره، و لم يذكر فيه أخبرنى من سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلم كالأوّل. و أخرجه البيهقى فى الشعب عن عبد اللّه بن شقيق عن رجل من بنى القين عن ابن عم له أنه قال:

أتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و أخرجه سفيان بن عيينة فى تفسيره، و سعيد بن المنصور عن إسماعيل بن أبى خالد أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «المغضوب عليهم: اليهود، و الضّالون: النصارى». و أخرجه أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و حسّنه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان فى صحيحه عن عدى ابن حاتم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، و إن الضالين: النصارى». و أخرج أحمد و أبو داود و ابن حبان و الحاكم و صحّحه و الطبرانى عن الشريد قال: «مرّ بى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أنا جالس هكذا، و قد وضعت يدى اليسرى خلف ظهرى و اتكأت على ألية يدى فقال: أ تقعد قعدة المغضوب عليهم؟!» قال ابن كثير بعد ذكره لحديث عدىّ بن حاتم: و قد روى حديث عدىّ هذا من طرق، و له ألفاظ كثيرة يطول ذكرها. انتهى. و المصير إلى هذا التفسير النبوىّ متعين، و هو الذى أطبق عليه أئمة التفسير من السلف. قال ابن أبى حاتم: لا أعلم خلافا بين المفسرين فى تفسير المغضوب عليهم باليهود، و الضّالين بالنصارى. و يشهد لهذا التفسير النبوىّ آيات من القرآن، قال اللّه تعالى فى خطابه لبنى إسرائيل فى سورة البقرة بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ «١» و قال فى المائدة قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ «٢» و فى السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو و جماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قال اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب اللّه، فقال:

أنا من غضب اللّه أفرّ، و قالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط اللّه، فقال: لا أستطيعه، فاستمرّ على فطرته و جانب عبادة الأوثان.

[فائدة فى مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة] اعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواترا، قد دلت على ذلك، فمن ذلك ما أخرجه أحمد و أبو داود و الترمذى عن وائل بن حجر قال: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرأ: غير المغضوب عليهم و لا الضّالّين. فقال: آمين. مدّ بها صوته» و لأبى داود «رفع بها صوته» و قد حسّنه الترمذى. و أخرجه أيضا النسائى و ابن أبى شيبة و ابن ماجة و الحاكم و صحّحه، و فى لفظ من حديثه أنه صلّى اللّه عليه و سلم قال «ربّ اغفر لى آمين» أخرجه الطبرانى و البيهقى. و فى لفظ أنه قال: «آمين ثلاث مرات» أخرجه الطبرانى. و أخرج وكيع و ابن أبى شيبة عن أبى ميسرة قال: «لما أقرأ جبريل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فاتحة الكتاب فبلغ و لا الضّالّين قال: قل آمين، فقال آمين». و أخرج ابن ماجة عن علىّ قال: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا قال و لا الضّالّين قال آمين». و أخرج مسلم و أبو داود و النسائىّ و ابن ماجة عن أبى موسى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا قرأ» يعنى الإمام «غير المغضوب عليهم و لا الضّالّين، فقولوا: آمين يحبّكم اللّه».

---

(١). البقرة: ٩٠.

(٢). المائدة: ٦٠.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣١

و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و أحمد و ابن أبى شيبة و غيرهم عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنّه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدّم من ذنبه». و أخرج أحمد و ابن ماجة و البيهقى بسند قال السيوطى: صحيح عن عائشة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السّلام و

التأمين». و أخرج ابن عدىّ من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إنّ اليهود قوم حسد، حسدوكم على ثلاثة: إفشاء السّلام، و إقامة الصّف، و آمين». و أخرج الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ مثله. و أخرج ابن ماجة بسند ضعيف عن ابن عباس قال: «ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على آمين، فأكثروا من قول آمين». و وجه ضعفه: أن فى إسناده طلحة بن عمرو و هو ضعيف. و أخرج الديلمى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم، ثم قرأ فاتحة الكتاب، ثم قال آمين، لم يبق ملك فى السّماء مقرّب إلّا استغفر له». و أخرج أبو داود عن بلال أنه قال: «يا رسول اللّه! لا تسبقنى بآمين» و معنى آمين: استجب. قال القرطبى فى تفسيره: معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللّهم استجب لنا، وضع موضع الدعاء. و قال فى الصحاح معنى آمين: كذلك فليكن. و أخرج جويبر فى تفسيره عن الضّحاك عن ابن عباس قال: «قلت يا رسول اللّه! ما معنى آمين؟

قال: ربّ افعل». و أخرج الكلبى عن أبى صالح عن أبى عباس مثله. و أخرج وكيع و ابن أبى شيبة فى المصنف عن هلال بن يساف و مجاهد قالا: آمين اسم من أسماء اللّه. و أخرج ابن أبى شيبة عن حكيم بن جبير مثله.

و قال الترمذى: معناه لا تخيّب رجاءنا. و فيه لغتان، المد على وزن فاعيل كياسين. و القصر على وزن يمين، قال الشاعر فى المدّ:

يا ربّ لا تسلبنّى حبّها أبداو يرحم اللّه عبدا قال آمينا

و قال آخر:

آمين آمين لا أرضى بواحدةحتّى أبلّغها ألفين آمينا

قال الجوهرى: و تشديد الميم خطأ. و روى عن الحسن و جعفر الصادق و الحسين بن فضل التشديد، من أمّ إذا قصد: أى نحن قاصدون نحوك، حكى ذلك القرطبى. قال الجوهرى: و هو مبنى على الفتح مثل أين و كيف لاجتماع الساكنين، و تقول منه: أمّن فلان تأمينا. و قد اختلف أهل العلم فى الجهر بها، و فى أن الإمام يقولها أم لا؟ و ذلك مبيّن فى مواطنه.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٢

سورة البقرة

اشارة

ترتيبها ٢ آياتها ٢٨٦ قال القرطبى فى تفسير سورة البقرة: مدنية نزلت فى مدد شتى. و قيل هى أوّل سورة نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ «١» فإنها آخر آية نزلت من السماء، و نزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى، و آيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن انتهى. و أخرج أبو الضريس فى فضائله، و أبو جعفر النّحاس فى الناسخ و المنسوخ، و ابن مردويه و البيهقى فى دلائل النبوة، من طرق عن ابن عباس قال:

نزلت بالمدينة سورة البقرة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله. و أخرج أبو داود فى الناسخ و المنسوخ، عن عكرمة قال: أوّل سورة أنزلت بالمدينة سورة البقرة.

و قد ورد فى فضلها أحاديث، منها: ما أخرجه مسلم و الترمذى و أحمد و البخارى فى تاريخه، و محمد بن نصر، عن النّواس بن سمعان قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «يؤتى بالقرآن و أهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تقدمهم سورة البقرة و آل عمران» قال: و ضرب لهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال: «كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما ظلتان سوداوان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ، تحاجّان عن صاحبهما». و أخرج ابن أبى شيبة و

أحمد و الدارمى و محمد بن نصر و الحاكم و صحّحه عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تعلّموا سورة البقرة فإن أخذها بركة و تركها حسرة و لا يستطيعها البطلة»، ثم سكت ساعة ثم قال: «تعلّموا سورة البقرة و آل عمران فإنهما الزهراوان تظلّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صوافّ». قال ابن كثير: و إسناده حسن على شرط مسلم. و أخرج نحوه أبو عبيد و أحمد و حميد بن زنجويه و مسلم و ابن حبان و الطبرانى و الحاكم و البيهقى من حديث أبى أمامة مرفوعا. و أخرج نحوه أيضا الطبرانى و أبو ذرّ الهروى بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا.

و أخرج نحوه أيضا البزار فى سننه بسند صحيح عن أبى هريرة مرفوعا. و أخرج مسلم و الترمذى و أحمد عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة». و أخرج أبو عبيد عن أنس نحوه مرفوعا. و أخرج ابن عدىّ فى الكامل، و ابن عساكر فى تاريخه، عن أبى الدرداء مرفوعا نحوه. و أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن عبد اللّه بن مغفّل مرفوعا نحوه.

و أخرج النسائىّ و الطبرانى و البيهقى عن ابن مسعود مرفوعا نحوه، و سنده ضعيف. و أخرجه الدارمى و البيهقى و الحاكم و صحّحه من حديثه بنحوه. و أخرج أبو يعلى و ابن حبان و الطبرانى و البيهقى عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن لكل شىء سناما، و سنام القرآن سورة البقرة، من قرأها فى بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام، و من قرأها فى بيته ليلا لم يدخله الشيطان ثلاث ليال». و أخرج أحمد و محمد ابن نصر و الطبرانى بسند صحيح عن معقل بن يسار أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «البقرة سنام القرآن و ذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا و استخرجت- اللّه لا إله إلّا هو الحى القيوم- من تحت العرش فوصلت

---

(١). البقرة: ٢٨١.

بها». و أخرج البغوى فى معجم الصحابة و ابن عساكر فى تاريخه عن ربيعة الجرشى قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أىّ القرآن أفضل؟ قال: «السورة التى يذكر فيها البقرة، قيل فأىّ البقرة أفضل؟ قال: آية الكرسى و خواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش». و أخرج أبو عبيد و أحمد و البخارى فى صحيحه تعليقا و مسلم و النسائى عن أسيد بن حضير قال: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة و فرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت فانصرف إلى ابنه يحيى و كان قريبا منها فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بذلك، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أ تدرى ما ذاك؟ قال: لا يا رسول اللّه، قال: تلك الملائكة دنت لصوتك، و لو قرأت لأصبحت تنظر إليها الناس لا تتوارى منهم» و لهذا الحديث ألفاظ. و أخرج الترمذى و حسّنه النسائى و ابن ماجة و ابن حبان و الحاكم و صحّحه عن أبى هريرة قال: «بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بعثا فاستقرأ كل رجل منهم» يعنى ما معه من القرآن «فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معى كذا و كذا و سورة البقرة، قال: أ معك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهب فأنت أميرهم». و أخرج البيهقى فى الدلائل عن عثمان بن أبى العاص قال: «استعملنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أنا أصغر القوم الذين و فدوا عليه من ثقيف، و ذلك أنى كنت قرأت سورة البقرة». و أخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح، عن الصلصال بن الدلهمس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «اقرءوا سورة البقرة فى بيوتكم و لا تجعلوها قبورا» قال:

«و من قرأ سورة البقرة فى ليلة توّج بتاج فى الجنة». و أخرج أبو عبيد عن عبّاد بن عبّاد عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن يزيد؛ أن أشياخ أهل المدينة حدثوا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «قيل له: ألم تر إلى ثابت بن قيس بن شمّاس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: فلعلّه قرأ سورة البقرة، قال: فسئل ثابت فقال:

قرأت سورة البقرة». قال ابن كثير: و هذا إسناد جيد، إلّا أن فيه إبهاما ثم هو مرسل.

و قد روى أئمة الحديث فى فضائلها أحاديث كثيرة و آثارا عن الصحابة واسعة، و من فضائلها ما هو خاص بآية الكرسى، و ما هو خاص بخواتم هذه السورة، و قد سبق بعض ذلك، و ما هو فى فضلها و فضل آل عمران، و قد سبق أيضا بعض من ذلك و ما هو فى فضل السبع الطوال، كما أخرج أبو عبيد عن واثلة ابن الأسقع عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «أعطيت السبع مكان التوراة، و أعطيت المئين مكان الإنجيل، و أعطيت المثانى مكان الزبور، و فضلت بالمفصل» و فى إسناده سعيد بن بشير و فيه لين، و قد رواه بسند آخر عن سعيد بن أبى هلال.

و أخرج أيضا عن عائشة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من أخذ السبع فهو خير». و قد رواه عنها أحمد فى المسند باللفظ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير». و أخرج أبو عبيد عن سعيد ابن جبير فى قوله تعالى وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي «١» قال: هى السبع الطوال البقرة و آل عمران و النساء و المائدة و الأنعام و الأعراف و يونس، و بذلك قال مجاهد و مكحول و عطية بن قيس و أبو محمد القارى شدّاد ابن عبد اللّه و يحيى بن الحارث الذمارى.

---

(١). الحجر: ٨٧.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٤

و قد ورد ما يدل على كراهة أن يقول القائل سورة البقرة و لا سورة آل عمران و لا سورة النساء و كذا القرآن كله. فأخرج ابن الضريس، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب، بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تقولوا سورة البقرة و لا سورة آل عمران و لا سورة النساء و كذا القرآن كله، و لكن قولوا السورة التى تذكر فيها البقرة، و السورة التى يذكر فيها آل عمران، و كذا القرآن كله» قال ابن كثير: هذا حديث غريب لا يصح رفعه، و فى إسناده يحيى بن ميمون الخوّاص و هو ضعيف الرواية لا يحتج به. و أخرج البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن ابن عمر قال: «لا تقولوا سورة البقرة، و لكن قولوا السورة التى تذكر فيها البقرة». و قد روى عن جماعة من الصحابة خلاف هذا. فثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادى، فجعل البيت عن يساره و منى عن يمينه ثم قال:

هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و مسلم و أهل السنن و الحاكم و صحّحه عن حذيفة، قال: صلّيت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ليلة من رمضان فافتتح البقرة، فقلت يصلى بها فى ركعة، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلا. الحديث. و أخرج أحمد و ابن الضريس و البيهقى عن عائشة قالت: «كنت أقوم مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى الليل فيقرأ بالبقرة و آل عمران و النساء». و أخرج أبو داود و الترمذى فى الشمائل و النسائى و البيهقى عن عوف بن مالك الأشجعى قال: «قمت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلّا وقف» الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البقرة (٢): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (١)

الم قال القرطبى فى تفسيره: اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور، فقال الشعبى و سفيان الثورى و جماعة من المحدثين: هى سرّ اللّه فى القرآن، و للّه فى كل كتاب من كتبه سرّ، فهى من المتشابه الذى انفرد اللّه بعلمه و لا نحبّ أن نتكلم فيها و لكن نؤمن بها، و تمدّ كما جاءت. و روى هذا القول عن أبى بكر الصديق و علىّ بن أبى طالب. قال: و ذكر أبو الليث السمرقندى عن عمر و عثمان و ابن مسعود أنهم قالوا:

الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسّر. و قال أبو حاتم: لم نجد الحروف فى القرآن إلا فى أوائل السور، و لا ندرى ما أراد اللّه عزّ و جلّ. قال: و قال جمع من العلماء كثير: بل نحبّ أن نتكلم فيها و نلتمس الفوائد التى تحتها، و المعانى التى تتخرج عليها. و اختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة، فروى عن ابن عباس و علىّ أيضا عن الحروف المقطعة فى القرآن: اسم اللّه الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها. و قال قطرب و الفرّاء و غيرهما:

هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم اللّه بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى بناء كلامهم عليها ليكون عجزهم عنه أبلغ فى الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قطرب: كانوا ينفرون عند استماع القرآن، فلما نزل الم و المص استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلّى اللّه عليه و سلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم و آذانهم و يقيم الحجة عليهم. و قال قوم: روى أن المشركين لما أعرضوا عن القرآن بمكة و قالوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ «١» فأنزلها استغربوها، فيفتحون أسماعهم،

---

(١). فصلت: ٢٦.

فيسمعون بالقرآن بعدها، فتجب عليهم الحجة. و قال جماعة: هى حروف دالة على أسماء أخذت منها و حذفت بقيتها، كقول ابن عباس و غيره: الألف من اللّه و اللام من جبريل و الميم من محمد. و ذهب إلى هذا الزجّاج فقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدى عن معنى. و قد تكلمت العرب بالحروف المقطعة كقوله:

فقلت لها قفى، فقالت قاف أى: وقفت. و فى الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق: هو أن يقول فى اقتل اق كما قال صلّى اللّه عليه و سلم: «كفى بالسّيف شا» أى شافيا، و فى نسخة شاهدا. و قال زيد بن أسلم: هى أسماء للسور. و قال الكلبى: هى أقسام أقسم اللّه بها لشرفها و فضلها و هى من أسمائه.

و من أدقّ ما أبرزه المتكلمون فى معانى هذه الحروف ما ذكره الزمخشرى فى الكشاف فإنه قال: و اعلم أنك إذا تأملت ما أورده اللّه عزّ سلطانه فى الفواتح من هذه الأسماء، وجدتها نصف أسامى حروف المعجم أربعة عشر سواء: و هى الألف و اللام و الميم و الصاد و الراء و الكاف و الهاء و الياء و العين و الطاء و السين و الحاء و القاف و النون فى تسع و عشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد و الكاف و الهاء و السين و الحاء، و من الجهورة نصفها الألف و اللام و الميم و الراء و العين و الطاء و القاف و الياء و النون، و من الشديدة نصفها الألف و الكاف و الطاء و القاف، و من الرخوة نصفها اللام و الميم و الراء و الصاد و الهاء و العين و السين و الحاء و الياء و النون، و من المطبقة نصفها الصاد و الطاء، و من المنفتحة نصفها الألف و اللام و الميم و الراء و الكاف و الهاء و العين و السين و الحاء و القاف و الياء و النون، و من المستعلية نصفها القاف و الصاد و الطاء، و من

المنخفضة نصفها الألف و اللام و الميم و الراء و الكاف و الهاء و التاء و العين و السين و الحاء و النون، و من حروف القلقلة نصفها القاف و الطاء. ثم إذا استقريت الكلم و تراكيبها رأيت الحروف التى ألغى اللّه ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكنوزة بالمذكورة منها، فسبحان الذى دقّت فى كل شىء حكمته، و قد علمت أن معظم الشىء و جلّه ينزل منزلة كله، و هو المطابق للطائف التنزيل و اختصاراته، فكأن اللّه عزّ اسمه عدّد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم و إلزام الحجة إياهم، و ما يدل على أنه تعمّد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا فى تراكيب الكلم، أن الألف و اللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكررتين، و هى فواتح سورة البقرة و آل عمران و الروم و العنكبوت و لقمان و السجدة و الأعراف و الرعد و يونس و إبراهيم و هود و يوسف و الحجر انتهى. و أقول: هذا التدقيق لا يأتى بفائدة يعتدّ بها، و بيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة و التبكيت كما قال، فهذا متيسر بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التى تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتا و إلزاما يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز و تعمية و تفريق لهذه الحروف فى فواتح تسع و عشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذى لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضا مما لا يفهمه أحد من السامعين و لا يتعقل شيئا منه، فضلا عن أن يكون تبكيتا له و إلزاما للحجة أيا كان، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم، مترتب عليه و لم يفهم السامع هذا، و لا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدى لهم بالقرآن أنه بلغ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۶

فهمه إلى بعض هذا فضلا عن كله. ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التى تركبت لغة العرب منها، و ذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلىّ و لا إسلامىّ و لا مقرّ و لا منكر و لا مسلم و لا معارض، و لا يصح أن يكون مقصدا من مقاصد الربّ سبحانه، الذى أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه و الهداية به. و هب أن هذه صناعة عجيبة و نكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة و لا بلاغة حتى يكون مفيدا أنه كلام بليغ أو فصيح، و ذلك لأن هذه الحروف الواقعة فى الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين، و غاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم و لا مدخل لذلك فيما ذكر. و أيضا لو فرض أنها كلمات متركبة بتقدير شىء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك، لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتى من يريد بيانها بمثل ما يأتى به من أراد بيان الألغاز و التعمية، و ليس ذلك من الفصاحة و البلاغة فى ورد و لا صدر، بل من عكسهما و ضد رسمهما، و إذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلّم فى بيان معانى هذه الحروف جازما بأن ذلك هو ما أراده اللّه عزّ و جلّ، فقد غلط أقبح الغلط، و ركب فى فهمه و دعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسّرها به راجعا إلى لغة العرب و علومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشىء من ذلك، و إذا سمعه السامع منهم كان معدودا عنده من الرطانة، و لا ينافى ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف أو حروف من الكلمة التى يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدّمه ما يدل عليه و يفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدّم ذكره. و من هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، و أين هذه الفواتح الواقعة فى أوائل السور من هذا؟ و إذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادّعوه من لغة العرب و علومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين: الأوّل التفسير بمحض الرأى الذى ورد النهى عنه و الوعيد عليه، و أهل العلم أحق الناس بتجنبه و الصدّ عنه و التنكّب عن طريقه، و هم أتقى للّه سبحانه من أن يجعلوا كتاب اللّه سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به و يضعون حماقات أنظارهم و خزعبلات أفكارهم عليه. الثانى التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، و هذا هو المهيع «۱» الواضح و السبيل القويم، بل الجادة التى ما سواها مردوم، و الطريقة العامرة التى ما عداها معدوم، فمن وجد شيئا من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه و يتكلم بما وصل إليه علمه، و من لم

يبلغه شىء من ذلک فليقل لا أدرى، أو اللّه أعلم بمراده، فقد ثبت النهى عن طلب فهم المتشابه و محاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظا عربية و تراكيب مفهومة، و قد جعل اللّه تتبع ذلک صنيع الذين فى قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصدده؟ فإنه ينبغى أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلا، و لكلام العرب فيه مدخلا، فكيف و هو خارج عن ذلک على كل تقدير. و انظر كيف فهم اليهود عند سماع الم فإنهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذى يجعلونه لها، كما أخرج ابن إسحاق و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير بسند ضعيف، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد اللّه قال: «مرّ أبو ياسر ابن أخطب فى رجال من يهود برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يتلو فاتحة سورة البقرة: الم- ذلِکَ الْكِتابُ لا

---

(١). المهيع: الطريق الواسع البيّن.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٧

فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من اليهود فقال: تعلمون و اللّه لقد سمعت محمدا يتلوا فيما أنزل عليه الم ذلک الكتاب، فقال: أنت سمعته؟ فقال نعم، فمشى حيى فى أولئک النفر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا:

يا محمد! ألم تذكر أنک تتلوا فيما أنزل عليک الم- ذلِکَ الْكِتابُ قال: بلى، قالوا: أ جاءک بهذا جبريل من عند اللّه؟ قال: نعم. قالوا: لقد بعث اللّه قبلک الأنبياء ما نعلمه بين لنبىّ منهم ما مدّة ملكه و ما أجل أمته غيرک، فقال حيى بن أخطب: و أقبل على من كان معه: الألف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون، فهذه إحدى و سبعون سنة، أ فتدخلون فى دين نبىّ إنما مدّة ملكه و أجل أمته إحدى و سبعون سنة؟

ثم أقبل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: و ما ذاک؟ قال: المص، قال: هذه أثقل و أطول الألف واحدة و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الصاد تسعون، فهذا إحدى و ستون و مائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم، قال: و ما ذلک؟ قال- الر- قال: هذه أثقل و أطول الألف واحدة و اللام ثلاثون و الراء مائتان، هذه إحدى و ثلاثون سنة و مائتان، فهل مع هذا غيره؟ قال نعم- المر- قال: فهذه أثقل و أطول الألف واحدة و ثلاثون و الميم أربعون و الراء مائتان، فهذه إحدى و سبعون سنة و مائتان، ثم قال: فقد لبس علينا أمرک يا محمد حتى ما ندرى قليلا أعطيت أم كثيرا ثم قاموا، فقال أبو ياسر لأخيه حيى و من معه من الأحبار: ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله: إحدى و سبعون، و إحدى و ستون و مائة، و إحدى و ثلاثون و مائتان، و إحدى و سبعون و مائتان، فذلک سبعمائة و أربع و ثلاثون سنة، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَيْکَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ «١»» فانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب فى شىء، و تأمل أىّ موضع أحق بالبيان من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من هذا الموضع، فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع الم- ذلِکَ الْكِتابُ من ذلک العدد موجبا للتثبيط عن الإجابة له و الدخول فى شريعته، فلو كان لذلک معنى يعقل و مدلول يفهم، لدفع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما ظنوه بادئ بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاءوا به من التشكيک على من معهم.

فإن قلت: هل ثبت عن رسول اللّه فى هذه الفواتح شىء يصلح للتمسک به؟ قلت: لا أعلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تكلم فى شىء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخارى فى تاريخه، و الترمذى و صحّحه، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ حرفا من كتاب اللّه فله به حسنة، و الحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف» و له طرق عن ابن مسعود. و أخرج ابن أبى شيبة

و البزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعى نحوه مرفوعا. فإن قلت: هل روى عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبى عن ابن عباس و علي؟ قلت: قد روى ابن جرير و البيهقى فى كتاب الأسماء و الصفات عن ابن مسعود أنه قال: الم أحرف اشتقت من حروف اسم اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه

---

(۱). آل عمران: ۷.

عن ابن عباس فى قوله الم و حم و ن قال: اسم مقطّع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى كتاب الأسماء عن ابن عباس أيضا فى قوله، الم، و المص، و الر، و المر، و كهيعص، و طه، و طسم، و طس، و يس، و ص، و حم، و ق، و ن، قال: هو قسم أقسمه اللّه، و هو من أسماء اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله الم قال: هى اسم اللّه الأعظم. و أخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس فى قوله الم قال: ألف مفتاح اسمه اللّه، و لام مفتاح اسمه لطيف، و ميم مفتاح اسمه مجيد. و قد روى نحو هذه التفاسير عن جماعة من التابعين فيهم عكرمة و الشعبى و السدى و قتادة و مجاهد و الحسن. فإن قلت: هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال فى تفسير شيء من هذه الفواتح قولا صحّ إسناده إليه؟ قلت: لا، لما قدّمنا، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. فإن قلت: هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه و لا مدخل للغة العرب، فلم لا يكون له حكم الرفع؟ قلت: تنزيل هذا منزلة المرفوع، و إن قال به طائفة من أهل الأصول و غيرهم، فليس مما ينشرح له صدور المنصفين، و لا سيما إذا كان فى مثل هذا المقام و هو التفسير لكلام اللّه سبحانه، فإنه دخول فى أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم إنه يبعد من الصحابى كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال فيه للاجتهاد، و ليس مجرد هذا الاستبعاد مسوّغا للوقوع فى خطر الوعيد الشديد. على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيرا فى تفاسيرهم المنقولة عنهم، و يجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه، ثم هاهنا مانع آخر، و هو أن المروىّ عن الصحابة فى هذا مختلف متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكّما لا وجه له، و إن عملنا بالجميع كان عملا بما هو مختلف متناقض و لا يجوز. ثم هاهنا مانع غير هذا المانع، و هو: أنه لو كان شيء مما قالوه مأخوذا عن النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم لاتفقوا عليه و لم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه، فلما اختلفوا فى هذا علمنا أنه لم يكن مأخوذا عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، ثم لو كان عندهم شيء عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذا لما تركوا حكايته عنه و رفعه إليه، لا سيما عند اختلافهم و اضطراب أقوالهم فى مثل هذا الكلام الذى لا مجال للغة العرب فيه و لا مدخل لها. و الذى أراه لنفسى و لكل من أحبّ السلامة و اقتدى بسلف الأمّة أن لا يتكلّم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن فى إنزالها حكمة للّه عزّ و جلّ لا تبلغها عقولنا و لا تهتدى إليها أفهامنا، و إذا انتهيت إلى السلامة فى مداك فلا تجاوزه، و سيأتى لنا عند تفسير قوله تعالى: مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ «۱» كلام طويل الذيول، و تحقيق تقبله صحيحات الأفهام و سليمات العقول.

[سورة البقرة (۲): آية ۲]

ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۲)

الإشارة بقوله ذلك إلى الكتاب المذكور بعده. قال ابن جرير: قال ابن عباس ذلِكَ الْكِتابُ هذا الكتاب و به قال مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و السدى و مقاتل و زيد بن أسلم و ابن جريج، و حكاه البخارى عن أبى عبيدة. و العرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب مكان الإشارة إلى القريب الحاضر كما قال خفاف:

أقول له و الرمح يأطر متنه‌تأمّل خفافا أنّنى أنا ذلكا

---

(۱). آل عمران: ۷.

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۹

أى أنا هذا، و منه قوله تعالى: ذلِکَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «۱»- وَ تِلْکَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ «۲»- تِلْکَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْکَ* «۳»- ذلِکُمْ حُکْمُ اللَّهِ يَحْکُمُ بَيْنَکُمْ «۴» و قيل إن الإشارة إلى غائب؛ و اختلف فى ذلک الغائب، فقيل: هو الکتاب الـذى کتب على الخلائق بالسعادة و الشقاوة و الأجل و الرزق لا رَيْبَ فِيهِ أى لا مبدل له، و قيل ذلک الکتاب الـذى کتبه اللّه على نفسه فى الأزل أن رحمته سبقت غضبه، کما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لمّا قضى اللّه الخلق کتب فى کتاب على نفسه فهو موضوع عنده: إنّ رحمتى تغلب غضبى». و فى رواية «سبقت».

و قيل الإشارة إلى ما قد نزل بمکة، و قيل إلى ما فى التوراة و الإنجيل، و قيل إشارة إلى قوله قبله الم، و رجّحه الزمخشرى، و قد وقع الاختلاف فى ذلک إلى تمام عشرة أقوال حسبما حکاه القرطبى و أرجحها ما صدّرناه، و اسم الإشارة مبتدأ، و الکتاب صفته، و الخبر لا ريب فيه، و من جوّز الابتداء بالم جعل ذلک مبتدأ ثانيا، و خبره الکتاب أو هو صفته، و الخبر لا ريب فيه، و الجملة خبر المبتدأ. و يجوز أن يکون المبتدأ مقدّرا و خبره الم و ما بعده. و الريب مصدر، و هو قلق النفس و اضطرابها، و قيل إن الريب: الشک. قال ابن أبى حاتم:

لا أعلم فى هذا خلافا. و قد يستعمل الريب فى التهمة و الحاجة، حکى ذلک القرطبى. و معنى هذا النفى العام أن الکتاب ليس بمظنة للريب؛ لوضوح دلالته وضوحا يقوم مقام البرهان المقتضى، لکونه لا ينبغى الارتياب فيه بوجه من الوجوه، و الوقف على فِيهِ هو المشهور. و قد روى عن نافع و عاصم الوقف على لا رَيْبَ قال فى الکشاف: و لا بدّ للواقف من أن ينوى خبرا و نظيره قوله تعالى: قالُوا لا ضَيْرَ «۵» و قول العرب: لا بأس، و هى کثيرة فى لسان أهل الحجاز، و التقدير: لا ريب فيه، فيه هدى. و الهدى مصدر.

قال الزمخشرى: و هو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلال فى مقابلته انتهى. و محله الرفع على الابتداء و خبره الظرف المذکور قبله على ما سبق. قال القرطبى: الهدى هديان: هدى دلالة و هو الذى يقدر عليه الرسل و أتباعهم؛ قال اللّه تعالى: وَ لِکُلِّ قَوْمٍ هادٍ «۶» و قال: وَ إِنَّکَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «۷» فأثبت لهم الهدى الـذى معناه الدلالة و الدعوة و التنبيه، و تفرّد سبحانه بالهدى الـذى معناه التأييد و التوفيق، فقال لنبيه صلّى اللّه عليه و سلم: إِنَّکَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ «۸» فالهدى على هذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب، و منه قوله تعالى: أُولئِکَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ «۹» و قوله وَ لکِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ* «۱۰» انتهى. و المتقين من ثبتت لهم التقوى. قال ابن فارس: و أصلها فى اللغة قلة الکلام. و قال فى الکشاف: المتقى فى اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، و الوقاية: الصيانة، و منه: فرس واق، و هذه الدابة تقى من وجاها: إذا أصابها ضلع من غلظ الأرض و رقة الحافر، فهو يقى حافره أن يصيبه أدنى شىء يؤلمه. و هو فى الشريعة: الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترک انتهى. و أخرج ابن جرير و الحاکم و صحّحه عن ابن مسعود أن الکتاب: القرآن، لا ريب فيه: لا شک فيه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا رَيْبَ فِيهِ قال: لا شک فيه. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء قال:

الريب: الشک. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله، و کذا ابن جرير عن مجاهد. و أخرج ابن جرير عن

---

(۱). السجدة: ۶.

(۲). الأنعام: ۸۳.

(۳). البقرة: ۲۵۲.

(۴). الممتحنة: ۱۰.

(۵). الشعراء: ۵۰.

(۶). الرعد: ۷.

(۷). الشورى: ۵۲.

(۸). القصص: ۵۶.

(۹). البقرة: ۵.

(۱۰). القصص: ۵۶.

فتح القدير، ج۱، ص: ۴۰

ابن مسعود فى قوله: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ قال: نور للمتقين و هم المؤمنون. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ أى الذين يحذرون من اللّه عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى و يرجون رحمته فى التصديق مما جاء منه. و أخرج ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل أنه قيل له: من المتقون؟ فقال: قوم اتقوا الشرك و عبادة الأوثان و أخلصوا للّه العبادة. و أخرج ابن أبى الدنيا عن أبى هريرة أن رجلا قال له: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال:

إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصّرت عنه، قال: ذاك التقوى. و أخرج أحمد فى الزهد، عن أبى الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقى اللّه العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما يكون حجابا بينه و بين الحرام. و قد روى نحو ما قاله أبو الدرداء عن جماعة من التابعين.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى فى تاريخه، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن عطية السعدى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتّى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس» فالمصير إلى ما أفاده هذا الحديث واجب، و يكون هذا معنى شرعيا للمتقى أخصّ من المعنى الذى قدمنا عن صاحب الكشاف زاعما أنه المعنى الشرعى.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ و هو وصف للمتقين كاشف. و الإيمان فى اللغة: التصديق، و فى الشرع ما سيأتى. و الغيب فى كلام العرب: كل ما غاب عنك. قال القرطبى: و اختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا، فقالت فرقة: الغيب فى هذه الآية هو اللّه سبحانه، و ضعّفه ابن العربى. و قال آخرون: القضاء و القدر. و قال آخرون: القرآن و ما فيه من الغيوب. و قال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة و عذاب القبر و الحشر و النشر و الصراط و الميزان و الجنة و النار. قال ابن عطية: و هذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها، قال: و هذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل حين قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم:

«فأخبرنى عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر، و تؤمن بالقدر خيره و شرّه، قال: صدقت» انتهى. و هذا الحديث هو ثابت فى الصحيح بلفظ «أن تؤمن باللّه و ملائكته و كتبه و رسله، و القدر خيره و شرّه». و قد أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مندة و أبو نعيم كلاهما فى معرفة الصحابة، عن تويلة بنت أسلم قالت: «صلّيت الظهر أو العصر فى

مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيليا فصلّينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا بأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد استقبل البيت، فتحوّل الرجال مكان النساء و النساء مكان الرجال، فصلّينا السجدتين الباقيتين و نحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أولئك قوم آمنوا بالغيب». و أخرج البزار و أبو يعلى و الحاكم و صحّحه عن عمر بن الخطاب قال:

«كنت جالسا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أنبئونى بأفضل أهل الإيمان إيمانا؟ فقالوا: يا رسول اللّه! الملائكة، قال: هم كذلك و يحقّ لهم، و ما يمنعهم و قد أنزلهم اللّه المنزلة التى أنزلهم بها؟ قالوا: يا رسول اللّه!

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۱

الأنبياء الذين أكرمهم اللّه برسالته و النبوّة، قال: هم كذلك و يحقّ لهم، و ما يمنعهم و قد أنزلهم اللّه المنزلة التى أنزلهم بها؟ قالوا: يا رسول اللّه! الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء، قال: هم كذلك، و ما يمنعهم و قد أكرمهم اللّه بالشهادة؟ قالوا: فمن يا رسول اللّه؟! قال: أقوام فى أصلاب الرّجال يأتون من بعدى يؤمنون بى و لم يرونى و يصدّقونى و لم يرونى، يجدون الورق المعلّق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا» فى إسناده محمد بن أبى حميد و فيه ضعف، و أخرج الحسن بن عرفة فى جزئه المشهور، و البيهقى فى الدلائل، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فذكر نحو الحديث الأول، و فى إسناده المغيرة بن قيس البصرى و هو منكر الحديث. و أخرج نحوه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعا، و الإسماعيلى عن أبى هريرة مرفوعا أيضا، و البزّار عن أنس مرفوعا. و أخرج ابن أبى شيبة فى مسنده عن عوف ابن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يا ليتنى قد لقيت إخوانى. قالوا: يا رسول اللّه! ألسنا إخوانك؟

قال: بلى، و لكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بى إيمانكم و يصدّقونى تصديقكم و ينصرونى نصركم، فيا ليتنى قد لقيت إخوانى» و أخرج نحوه ابن عساكر فى الأربعين السباعية من حديث أنس، و فى إسناده أبو هدبة و هو كذاب، و زاد فيه «ثم قرأ النبى صلّى اللّه عليه و سلم الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ «۱» الآية».

و أخرج أحمد و الدارمى و الباوردى و ابن قانع معا فى معجم الصحابة، و البخارى فى تاريخه، و الطبرانى، و الحاكم، عن أبى جمعة الأنصارى قال: «قلت: يا رسول اللّه! هل من قوم أعظم منا أجرا، آمنّا بك و اتّبعناك؟ قال: ما يمنعكم من ذلك و رسول اللّه بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء؟ بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتاب اللّه بين لوحين، فيؤمنون بى و يعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا». و أخرج أحمد و ابن أبى شيبة و الحاكم عن أبى عبد الرحمن الجهنى قال: «بينما نحن عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذ طلع راكبان، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: كنديّان أو مذحجيّان. حتى أتيا، فإذا رجلان من مذحج، فدنا أحدهما ليبايعه، فلمّا أخذ بيده قال: يا رسول اللّه أ رأيت من جاءك فآمن بك و اتّبعك و صدّقك، فماذا له؟ قال: طوبى له. فمسح على زنده و انصرف، ثم جاء الآخر حتى أخذ بيده ليبايعه فقال: يا رسول اللّه أ رأيت من آمن بك و صدّقك و اتّبعك و لم يرك؟ قال: طوبى له ثم طوبى له، ثم مسح على زنده و انصرف». و أخرج الطيالسى و أحمد و البخارى فى تاريخه و الطبرانى و الحاكم عن أبى أمامة الباهلى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «طوبى لمن رآنى و آمن بى، و طوبى لمن آمن بى و لم يرنى، سبع مرات». و أخرج أحمد و ابن حبان عن أبى سعيد «أن رجلا قال: يا رسول اللّه! طوبى لمن رآك و آمن بك؟ قال: طوبى لمن رآنى و آمن بى، و طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى و لم يرنى» و أخرج الطيالسى و عبد بن حميد عن ابن عمر نحوه. و أخرج أحمد و أبو يعلى و الطبرانى من حديث أنس نحو حديث أبى أمامة الباهلى المتقدّم. و أخرج سفيان بن عيينة و سعيد بن منصور و أحمد بن منيع فى مسنده، و ابن أبى حاتم و ابن الضبارى و الحاكم و صحّحه عن ابن مسعود أنه قال: و الذى لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ الم- ذلِكَ الْكِتابُ لا

رَيْبَ فِيهِ إلى قوله:

الْمُفْلِحُونَ «٢». و للتابعين أقوال، و الراجح ما تقدّم من أن الإيمان الشرعى يصدق على جميع ما ذكر هنا.

---

(١). البقرة: ٣.

(٢). البقرة: ١- ٥.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٢

قال ابن جرير: و الأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا و اعتقادا و عملا. قال: و تدخل الخشية للّه فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل. و الإيمان كلمة جامعة للإقرار باللّه و كتبه و رسله و تصديق الإقرار بالفعل. و قال ابن كثير: إن الإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقادا و قولا و عملا، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة. بل قد حكاه الشافعى و أحمد بن حنبل و أبو عبيد و غير واحد إجماعا أن الإيمان قول و عمل و يزيد و ينقص. و قد ورد فيه آيات كثيرة، انتهى.

[سورة البقرة (٢): آية ٣]

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

هو معطوف على «يؤمنون» و الإقامة فى الأصل: الدوام و الثبات. يقال قام الشىء: أى دام و ثبت.

و ليس من القيام على الرجل، و إنما هو من قولك قام الحق: أى ظهر و ثبت، قال الشاعر:

و قامت الحرب بنا على ساق و قال آخر:

و إذا يقال أتيتم لم يبرحواحتّى تقيم الخيل سوق طعان

و إقامة الصلاة أداؤها بأركانها و سننها و هيئاتها فى أوقاتها. و الصلاة أصلها فى اللغة: الدعاء من صلّى يصلّى إذا دعا. و قد ذكر هذا الجوهرى و غيره. و قال قوم: هى مأخوذة من الصّلا، و هو عرق فى وسط الظهر و يفترق عند العجب. و منه أخذ المصلّى فى سبق الخيل، لأنه يأتى فى الحلبة و رأسه عند صلا السابق، فاشتقت منه الصلاة لأنها ثانية للإيمان فشبهت بالمصلى من الخيل. و إما لأن الراكع يثنى صلويه، و الصلا مغرز الذنب من الفرس و الاثنان صلوان، و المصلى تالى السابق لأن رأسه عند صلوه. ذكر هذا القرطبى فى تفسيره.

و قد ذكر المعنى الثانى فى الكشاف، هذا المعنى اللغوى. و أما المعنى الشرعى: فهو هذه الصلاة التى هى ذات الأركان و الأذكار. و قد اختلف أهل العلم هل هى مبقاة على أصلها اللغوى أو موضوعة وضعا شرعيا ابتدائيا.

فقيل بالأوّل، و إنما جاء الشرع بزيادات هى الشروط و الفروض الثابتة فيها. و قال قوم بالثانى. و الرزق عند الجمهور: ما صلح للانتفاع به حلالا كان أو حراما خلافا للمعتزلة. فقالوا: إن الحرام ليس برزق، و للبحث فى هذه المسألة موضع غير هذا. و الإنفاق: إخراج المال من اليد، و فى المجىء بمن التبعيضية هاهنا نكتة سرية هى الإرشاد إلى ترك الإسراف. و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن إسحاق عن ابن عباس فى قوله:

يُقِيمُونَ الصَّلاةَ قال: الصلوات الخمس وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ قال: زكاة أموالهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة أن إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها و وضوئها و ركوعها و سجودها وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ قال: أنفقوا فى فرائض اللّه التى افترض عليهم فى طاعته و سبيله. و أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ قال: هى نفقة الرجل على أهله. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى اللّه عزّ و

جل على قدر

فتح القدير، ج۱، ص: ۴۳

ميسورهم و جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات فى سورة براءة هنّ الناسخات المبيّنات. و اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة و النفقات، و هو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب و غيرهم، و صدقة الفرض و النفل، و عدم التصريح بنوع من الأنواع التى يصدق عليها مسمّى الإنفاق يشعر أتمّ إشعار بالتعميم.

[سورة البقرة (۲): آية ۴]

وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴)

قيل هم مؤمنو أهل الكتاب، فإنهم جمعوا بين الإيمان بما أنزل اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و ما أنزله على من قبله و فيهم نزلت. و قد رجّح هذا ابن جرير، و نقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس و ابن مسعود و أناس من الصحابة، و استشهد له ابن جرير بقوله تعالى: وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ «۱» و بقوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ «۲» الآية. و الآية الأولى نزلت فى مؤمنى العرب. و قيل الآيتان جميعا فى المؤمنين على العموم. و على هذا فهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى صفة للمتقين بعد صفة، و يجوز أن تكون مرفوعة على الاستئناف، و يجوز أن تكون معطوفة على المتقين، فيكون التقدير: هدى للمتقين و الذين يؤمنون بما أنزل إليك. و المراد بما أنزل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم: هو القرآن، و ما أنزل من قبله: هو الكتب السالفة. و الإيقان: إيقان العلم بانتفاء الشك و الشبهة عنه، قاله فى الكشاف.

و المراد أنهم يوقنون بالبعث و النشور و سائر أمور الآخرة من دون شك. و الآخرة تأنيث الآخر الذى هو نقيض الأول، و هى صفة الدار كما فى قوله تعالى: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً «۳» و فى تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير المذكور إشعار بالحصر، و أن ما عدا هذا الأمر الذى هو أساس الإيمان و رأسه ليس بمستأهل للإيقان به و القطع بوقوعه. و إنما عبر بالماضى مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليبا للموجود على ما لم يوجد، أو تنبيها على تحقق الوقوع كأنه بمنزلة النازل قبل نزوله. و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ أى يصدقونك بما جئت به من اللّه و ما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرّقون بينهم، و لا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم، وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ إيمانا بالبعث و القيامة و الجنة و النار و الحساب و الميزان: أى لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك و يكفرون بما جاء من ربك. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

و الحق أن هذه الآية فى المؤمنين كالتى قبلها، و ليس مجرد ذكر الإيمان بما أنزل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و ما أنزل إلى من قبله بمقتض لجعل ذلك وصفا لمؤمنى أهل الكتاب، و لم يأت ما يوجب المخالفة لهذا، و لا فى النظم القرآنى ما يقتضى ذلك. و قد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين فى غير آية. فمن ذلك قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ «۴» و كقوله: وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ «۵» و قوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ

---

(۱). آل عمران: ۱۱۹.

(۲). القصص: ۵۲- ۵۴.

(۳). القصص: ۸۳.

(۴). النساء: ۱۳۶.

(۵). العنكبوت: ۴۶.

مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ «۱» و قال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ «۲».

[سورة البقرة (۲): آية ۵]

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵)

هذا كلام مستأنف استئنافا بيانيا، كأنه قيل: كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى و الإيمان بالغيب و الإتيان بالفرائض و الإيمان بما أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و على من قبله من الأنبياء عليه الصلاة و السلام فقيل:

أُولئِكَ عَلى هُدىً و يمكن أن يكون هذا خبرا عن الذين يؤمنون بالغيب إلخ، فيكون متصلا بما قبله.

قال في الكشاف: و معنى الاستعلاء في قوله: عَلى هُدىً مثل لتمكنهم من الهدى و استقرارهم عليه و تمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء و ركبه، و نحوه: هو على الحق و على الباطل. و قد صرّحوا بذلك في قوله: جعل الغواية مركبا، و امتطى الجهل، و اقتعد غارب الهوى، انتهى. و قد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام، و اشتهر الخلاف في ذلك بين المحقق السعد و المحقق الشريف. و اختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين، و قد جمعت في ذلك رسالة سميتها «الطود المنيف في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف» فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام، و يجمع بين أطراف الكلام على التمام. قال ابن جرير:

إن معنى أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ على نور من ربهم و برهان و استقامة و سداد بتسديد اللّه إياهم و توفيقه لهم، و الْمُفْلِحُونَ أي المنجحون المدركون ما طلبوا عند اللّه بأعمالهم و إيمانهم باللّه و كتبه و رسله. هذا معنى كلامه. و الفلاح أصله في اللغة: الشقّ و القطع، قاله أبو عبيد: و يقال للذي شقت شفته: أفلح، و منه سمي الأكّار فلّاحا لأنه شقّ الأرض بالحرث، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه. قال القرطبي: و قد يستعمل في الفوز و البقاء و هو أصله أيضا في اللغة، فمعنى أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالجنة و الباقون. و قال في الكشاف: المفلح الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر و لم تستغلق عليه، انتهى. و قد استعمل الفلاح في السحور، و منه الحديث الذي أخرجه أبو داود: «حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. قلت: و ما الفلاح؟ قال: السحور». فكأن معنى الحديث: أن السحور به بقاء الصوم، فلهذا سمي فلاحا. و في تكرير اسم الإشارة دلالة على أن كلا من الهدى و الفلاح مستقلّ بتميزهم به عن غيرهم، بحيث لو انفرد أحدهما لكفى تميزا على حياله. و فائدة ضمير الفصل الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره. و قد روى السدى عن أبي مالك و أبي صالح عن ابن عباس، و عن مرّة الهمداني عن ابن مسعود، و عن أناس من الصحابة: أن الذين يؤمنون بالغيب: هم المؤمنون من العرب، الذين يؤمنون بما أنزل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ما أنزل إلى من قبله: هم، و المؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال: أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و قد قدّمنا الإشارة إلى هذا و إلى ما هو أرجح منه، كما هو منقول عن مجاهد و أبي العالية و الربيع بن أنس و قتادة. و أخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد اللّه بن عمرو عن النبي

صلّى اللّه عليه و سلّم قال: قيل يا رسول اللّه! إنا نقرأ من القرآن فنرجو، و نقرأ فنكاد أن

---

(١). البقرة: ٢٨٥.

(٢). النساء: ١٥٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۵

نيأس، أو كما قال، فقال: «ألا أخبركم عن أهل الجنة و أهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه! قال: الم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ إلى قوله: الْمُفْلِحُونَ هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء، ثم قال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ إلى قوله: عَظِيمٌ هؤلاء أهل النار، قالوا: ألسنا هم يا رسول اللّه؟! قال: أجل» «١».

و قد ورد فى فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث، منها: ما أخرجه عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند و الحاكم و البيهقى عن أبيّ بن كعب قال: «كنت عند النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فجاء أعرابيّ فقال: يا نبيّ اللّه! إن لى أخا و به وجع فقال: و ما وجعه؟ قال: به لمم، قال: فائتنى به. فوضعه بين يديه، فعوّذه النبيّ بفاتحة الكتاب و أربع آيات من أوّل سورة البقرة، و هاتين الآيتين: وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ و آية الكرسى، و ثلاث آيات من آخر سورة البقرة، و آية من آل عمران شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، و آية من الأعراف إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ*، و آخر سورة المؤمنين فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ*، و آية من سورة الجنّ وَ أَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنا، و عشر آيات من أوّل الصافّات، و ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و قل هو اللّه أحد، و المعوّذتين، فقام الرجل كأنه لم يشتك قطّ».

و أخرج نحوه ابن السنى فى عمل اليوم و الليلة من طريق عبد الرحمن بن أبى يعلى عن رجل عن أبيّ مثله. و أخرج الدارمى و ابن الضريس عن ابن مسعود قال: من قرأ أربع آيات من أوّل سورة البقرة، و آية الكرسى، و آيتين بعد آية الكرسى، و ثلاثا من آخر سورة البقرة، لم يقربه و لا أهله يومئذ شيطان، و لا شىء يكرهه فى أهله و لا ماله، و لا تقرأ على مجنون إلا أفاق. و أخرج الدارميّ و ابن المنذر و الطبرانى عنه قال: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح: أربع من أوّلها، و آية الكرسى، و آيتان بعدها، و ثلاث خواتمها و أوّلها لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ*. و أخرج سعيد ابن منصور و الدارمى و البيهقى عن المغيرة بن سبيع، و كان من أصحاب عبد اللّه ابن مسعود بنحوه. و أخرج الطبرانى و البيهقى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، و أسرعوا به إلى قبره، و ليقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة، و عند رجليه بخاتمة سورة البقرة».

و قد ورد فى ذلك غير هذا.

[سورة البقرة (٢): الآيات ۶ الى ٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٧)

ذكر سبحانه فريق الشرّ بعد الفراغ من ذكر فريق الخير قاطعا لهذا الكلام عن الكلام الأوّل، معنونا له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم، و أنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الإيمان، و أن وجود ذلك كعدمه. و سَواءٌ اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر، و الهمزة و أم مجرّدتان لمعنى الاستواء غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام، و صحّ الابتداء بالفعل و الإخبار عنه بقوله: سواء،

(۱). الإجابة ب «أجل» تثبت النفى، فيكون المعنى: لستم هم.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۶

هجرا لجانب اللفظ إلى جانب المعنى، كأنه قال: الإنذار و عدمه سواء، كقولهم: تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه: أى سماعك.

و أصل الكفر فى اللغة: الستر و التغطية، قال الشاعر:

فى ليلة كفر النجوم غمامها أى سترها، و منه سمى الكافر كافرا لأنه يغطى بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان. و الإنذار: الإبلاغ و الإعلام.

قال القرطبى: و اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية، فقيل: هى عامة و معناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب، و سبق فى علم اللّه أنه يموت على كفره. أراد اللّه تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحدا. و قال ابن عباس و الكلبى: نزلت فى رؤساء اليهود حيىّ بن أخطب و كعب بن الأشرف و نظرائهما. و قال الربيع بن أنس: نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب، و الأول أصحّ، فإنّ من عيّن أحدا فإنما مثّل بمن كشف الغيب بموته على الكفر، انتهى. و قوله: لا يُؤْمِنُونَ خبر مبتدأ محذوف:

أى هم لا يؤمنون، و هى جملة مستأنفة لأنها جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: هؤلاء الذين استوى حالهم مع الإنذار و عدمه ماذا يكون منهم؟ فقيل لا يؤمنون: أى هم لا يؤمنون. و قال فى الكشاف: إنها جملة مؤكدة للجملة الأولى، أو خبر لأن و الجملة قبلها اعتراض. انتهى. و الأولى ما ذكرناه، لأن المقصود الإخبار عن عدم الاعتداد بإنذارهم، و أنه لا يجدى شيئا بل بمنزلة العدم، فهذه الجملة هى التى وقعت خبرا ل (إن)، و ما بعدها من عدم الإيمان متسبب عنها لا أنه المقصود. و قد قال بمثل قول الزمخشرى القرطبى. و قال ابن كيسان: إن خبر إن: سواء، و ما بعده يقوم مقام الصلة. و قال محمد بن يزيد المبرد: سواء رفع بالابتداء، و خبره أ أنذرتهم أم لم تنذرهم، و الجملة خبر إن. و الختم: مصدر ختمت الشىء، و معناه: التغطية على الشىء و الاستيثاق منه حتى لا يدخله شىء، و منه ختم الكتاب و الباب و ما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه و لا يوضع فيه غيره. و الغشاوة: الغطاء، و منه غاشية السرج، و المراد بالختم و الغشاوة هنا هما المعنويان لا الحسّيان؛ أى لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، و الأسماع غير مؤدية لما يطرقها من الآيات البينات إلى العقل على وجه مفهوم، و الأبصار غير مهدية للنظر فى مخلوقاته و عجائب مصنوعاته جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختما حسّيا، و المستوثق منها استيثاقا حقيقيا، و المغطاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلا، و إسناد الختم إلى اللّه قد احتجّ به أهل السنة على المعتزلة، و حاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما ذكره صاحب الكشاف، و الكلام على مثل هذا متقرّر فى مواطنه.

و قد اختلف فى قوله تعالى: وَ عَلى سَمْعِهِمْ هل هو داخل فى حكم الختم فيكون معطوفا على القلوب أو فى حكم التغشية، فقيل: إن الوقف على قوله: وَ عَلى سَمْعِهِمْ تام، و ما بعده كلام مستقلّ، فيكون الطبع على القلوب و الأسماع، و الغشاوة على الأبصار كما قاله جماعة، و قد قرئ «غشاوة» بالنصب. قال ابن جرير: يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره: و جعل على أبصارهم غشاوة، و يحتمل أن يكون نصبها

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۷

على الإتباع على محلّ و على سمعهم، كقوله تعالى: وَ حُورٌ عِينٌ «۱» و قول الشاعر:

علفتها تبنا و ماء باردا و إنما وحّد السمع مع جمع القلوب و الأبصار، لأنه مصدر يقع على القليل و الكثير. و العذاب: هو ما يؤلم، و هو مأخوذ من الحبس و المنع، يقال فى اللغة أعذبه عن كذا: حبسه و منعه، و منه عذوبة الماء لأنها حبست فى الإناء حتى

صفت. و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الكبير و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحرص أن يؤمن جميع الناس و يتابعوه على الهدى، فأخبره اللّه أنه لا يؤمن إلا من سبق له من اللّه السعادة فى الذكر الأول، و لا يضلّ إلا من سبق له من اللّه الشقاوة فى الذكر الأوّل. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا فى تفسير الآية: أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، و جحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فكيف يسمعون منك إنذارا و تحذيرا، و قد كفروا بما عندهم من علمك خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قال:
نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب، و هم الذين ذكرهم اللّه فى هذه الآية أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً «٢» قال: فهم الذين قتلوا يوم بدر، و لم يدخل القادة فى الإسلام إلا رجلان: أبو سفيان، و الحكم ابن العاص. و أخرج ابن المنذر عن السدى فى قوله: أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ قال: أ وعظتهم أم لم تعظهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى هذه الآية قال: أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم، فختم اللّه على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى، و لا يسمعون و لا يفقهون و لا يعقلون.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، قال: الختم على قلوبهم و على سمعهم و الغشاوة على أبصارهم.

و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: ختم اللّه على قلوبهم و على سمعهم فلا يعقلون و لا يسمعون. و جعل على أبصارهم: يعنى أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون. و روى ذلك السدى عن جماعة من الصحابة، و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: الختم على القلب و السمع، و الغشاوة على البصر، قال اللّه تعالى: فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ «٣» و قال: وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً «۴». قال ابن جرير فى معنى الختم: و الحق عندى فى ذلك ما صحّ نظيره عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، ثم ذكر إسنادا متصلا بأبى هريرة، قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ المؤمن إذا أذنب ذنبا كان نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب و نزع و استعتب صقل قلبه، و إن زاد زادت حتى تغلق قلبه» فذلك الران الذى قال اللّه تعالى: كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ «۵». و قد رواه من هذا الوجه الترمذى و صحّحه و النسائى. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، و إذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل اللّه سبحانه و الطبع، فلا يكون إليها مسلك و لا للكفر منها مخلص، فذلك هو الختم الذى ذكره اللّه فى قوله: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ نظير الطبع و الختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية و الظروف التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلّها، فلذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف اللّه أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضّ

---

(١). الواقعة: ٢٢.

(٢). إبراهيم: ٢٨.

(٣). الشورى: ٢۴.

(۴). الجاثية: ٢٣.

(۵). المطففين: ١۴.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴٨

خاتمه، و حلّ رباطه عنها.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨ الى ٩]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (٩)

ذكر سبحانه فى أول هذه السورة المؤمنين الخلّص، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلّص، ثم ذكر ثالثا المنافقين، و هم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين، بل صاروا فرقة ثالثة لأنهم وافقوا فى الظاهر الطائفة الأولى و فى الباطن الطائفة الثانية، و مع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار. و أصل ناس أناس حذفت همزته تخفيفا، و هو من النوس و هو الحركة، يقال: ناس ينوس: أى تحرّك، و هو من أسماء الجموع جمع إنسان و إنسانة على غير لفظه، و اللام الداخلة عليه للجنس، و من تبعيضية: أى بعض الناس، و من موصوفة: أى و من الناس ناس يقول. و المراد باليوم الآخر: الوقت الذى لا ينقطع، بل هو دائم أبدا. و الخداع فى أصل اللغة: الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابى، و أنشد:

أبيض اللّون رقيق «١» طعمهطيّب الرّيق إذا الرّيق خدع

و قيل: أصله الإخفاء، و منه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشيء، حكاه ابن فارس و غيره.

و المراد من مخادعتهم للّه أنهم صنعوا معه صنع المخادعين، و إن كان العالم الذى لا يخفى عليه شيء لا يخدع.

و صيغة فاعل تفيد الاشتراك فى أصل الفعل، فكونهم يخادعون اللّه و الذين آمنوا يفيد أن اللّه سبحانه و الذين آمنوا يخادعونهم. و المراد بالمخادعة من اللّه؛ أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه فى شيء، فكأنّه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام و إبطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه. و المراد بمخادعة المؤمنين لهم: هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم اللّه به من أحكام الإسلام ظاهرا و إن كانوا يعلمون فساد بواطنهم، كما أن المنافقين خادعوهم بإظهار الإسلام و إبطان الكفر. و المراد بقوله تعالى: وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين أنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن. و أما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه و ما يشعر بذلك، و من هذا قول من قال: من خادعته فانخدع لك فقد خدعك. و قد قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو يُخادِعُونَ فى الموضعين، و قرأ حمزة و عاصم و الكسائى و ابن عامر فى الثانى يَخْدَعُونَ و المراد بمخادعتهم أنفسهم:

أنهم يمنونها الأمانىّ الباطلة و هى كذلك تمنيهم. وَ ما يَشْعُرُونَ قال أهل اللغة: شعرت بالشيء فطنت.

قال فى الكشاف: و الشعور علم الشيء علم حس، من الشعار. و مشاعر الإنسان: حواسه. و المعنى: أن لحوق ضرر ذلك لهم كالمحسوس، و هم لتمادى غفلتهم كالذى لا حسّ له. و المراد بالأنفس هنا ذواتهم، لا

---

(١). فى القرطبى «لذيذ» و البيت قاله سويد بن أبى كاهل يصف ثغر امرأة.

سائر المعانى التى تدخل فى مسمّى النفس، كالروح و الدم و القلب.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أنهم المنافقون من الأوس و الخزرج و من كان على أمرهم. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال: و المراد بهذه الآية المنافقون. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج ابن المنذر عن ابن سيرين قال: لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ و أخرج ابن سعد عن حذيفة أنه قيل له: ما النفاق؟ قال: أن يتكلّم

بالإسلام و لا يعمل به. و أخرج أحمد بن منيع فى مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة: أن قائلا من المسلمين قال: يا رسول اللّه! ما النجاة غدا؟ قال: لا تخادع اللّه.

قال: و كيف نخادع اللّه؟ قال: أن تعمل بما أمرك اللّه به تريد به غيره، فاتّقوا الرياء فإنه الشرك باللّه، فإن المرائى ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا خاسر، يا غادر، ضلّ عملك و بطل أجرك، فلا خلاق لك اليوم عند اللّه، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع، و قرأ آيات من القرآن فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً «۱» الآية، و إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ «۲» الآية، و أخرج ابن جرير عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قوله: يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا قال: هؤلاء المنافقون يخادعون اللّه و رسوله، و الذين آمنوا: أنهم مؤمنون بما أظهروه. و عن قوله: وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ أنهم ضرّوا أنفسهم بما أضمروا من الكفر و النفاق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: يُخادِعُونَ اللَّهَ قال: يظهرون لا إله إلّا اللّه يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم و أموالهم و فى أنفسهم غير ذلك.

[سورة البقرة (۲): آية ۱۰]

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (۱۰)

المرض: كل ما يخرج به الإنسان عن حدّ الصّحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر، قاله ابن فارس.

و قيل: هو الألم، فيكون على هذا مستعارا للفساد الذى فى عقائدهم إما شكا و نفاقا، أو جحدا و تكذيبا؛ و تقديم الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها، مبالغة فى تعلّق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدّة الحسد و فرط العداوة. و المراد بقوله: فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من النعم، و يتكرّر له من منن اللّه الدنيوية و الدينية. و يحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك و ترادف الحسرة و فرط النفاق. و الأليم المؤلم: أى الموجع، و «ما» فى قوله: بِما كانُوا يَكْذِبُونَ مصدرية:

أى بتكذيبهم و هو قولهم: آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ و القرّاء مجمعون على فتح الراء فى قوله: مرض، إلا ما رواه الأصمعىّ عن أبى عمرو أنه قرأ بإسكان الراء، و قرأ حمزة و عاصم و الكسائى يَكْذِبُونَ بالتخفيف، و الباقون بالتشديد.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال: شكّ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً قال: شكّا. و أخرج عنه ابن جرير و ابن أبى حاتم فى قوله: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

---

(۱). الكهف: ۱۱۰.

(۲). النساء: ۱۴۲.

فتح القدير، ج۱، ص: ۵۰

فتح القدير ج۱ ۹۹

قال: النفاق وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ قال: نكال موجع بِما كانُوا يَكْذِبُونَ قال: يبدّلون و يحرّفون. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثل ما قاله ابن عباس أوّلا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كل شىء فى القرآن أليم فهو الموجع. و أخرج أيضا عن أبى العالية مثله. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك مثله أيضا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أى ريبة و شكّ فى أمر اللّه فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ريبة و شكّا وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ قال: إيّاكم و الكذب فإنه باب النفاق. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: هذا مرض فى الدين و ليس مرضا فى الأجساد و هم المنافقون، و المرض: الشك الذى

دخلهم فى الإسلام. و روى عن عكرمة و طاوس أن المرض: الرياء.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١ الى ١٢]

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (١٢)

وَ إِذا فى موضع نصب على الظرف و العامل فيه قالوا المذكور بعده. و فيه معنى الشرط. و الفساد ضد الصلاح، و حقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها. فسد الشيء يفسد فسادا و فسودا فهو فاسد و فسيد.

و المراد فى الآية: لا تفسدوا فى الأرض بالنفاق و موالاة الكفرة و تفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و القرآن، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما فى الأرض بهلاك الأبدان و خراب الديار و بطلان الذرائع، كما هو مشاهد عند ثوران الفتن و التنازع. و إِنَّما من أدوات القصر كما هو مبيّن فى علم المعانى. و الصّلاح ضد الفساد.

لما نهاهم اللّه عن الفساد الذى هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة، و نقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هى عليه حقيقة و هو الفساد، إلى الاتصاف بما هو ضدّ لذلك و هو الصلاح، و لم يقفوا عند هذا الكذب البحت و الزور المحض، حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم، فردّ اللّه عليهم ذلك أبلغ ردّ لما يفيده حرف التنبيه من تحقق ما بعده، و لما فى إن من التأكيد، و ما فى تعريف الخبر مع توسيط ضمير الفصل من الحصر المبالغ فيه بالجمع بين أمرين من الأمور المفيدة له، و ردّهم إلى صفة الفساد التى هم متصفون بها فى الحقيقة ردّا مؤكدا مبالغا فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة من مجرد الحصر المستفاد من إنما. و أما نفى الشعور عنهم فيحتمل أنهم لمّا كانوا يظهرون الصلاح مع علمهم أنهم على الفساد الخالص، ظنوا أن ذلك ينفق على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و ينكتم عنه بطلان ما أضمروه، و لم يشعروا بأنه عالم به، و أن الخبر يأتيه بذلك من السماء، فكان نفى الشعور عنهم من هذه الحيثية لا من جهة أنهم لا يشعرون بأنهم على الفساد. و يحتمل أن فسادهم كان عندهم صلاحا لما استقرّ فى عقولهم من محبة الكفر و عداوة الإسلام.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال: الفساد هنا: هو الكفر و العمل بالمعصية. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ أى إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين و أهل الكتاب. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى تفسير هذه الآية قال: إذا ركبوا معصية فقيل لهم لا تفعلوا كذا، قالوا: إنما نحن على الهدى. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم

فتح القدير، ج ١، ص: ٥١

عن سلمان أنه قرأ هذه الآية فقال: لم يجيء أهل هذه الآية بعد. قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا فى زمن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد. انتهى. و يحتمل أن سلمان يرى أن هذه الآية ليست فى المنافقين، بل يحملها على مثل أهل الفتن التى يدين أهلها بوضع السيف فى المسلمين؛ كالخوارج و سائر من يعتقد فى فساده أنه صلاح لما يطرأ عليه من الشبه الباطلة.

[سورة البقرة (٢): آية ١٣]

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)

أى: و إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم من المهاجرين و الأنصار أجابوا بأحمق جواب و

أبعده عن الحقّ و الصواب، فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء و استخفافا، فتسبّبوا بذلك إلى تسجيل اللّه عليهم بالسفه بأبلغ عبارة و آكد قول. و حصر السفاهة و هى رقّة الحلوم و فساد البصائر و سخافة العقول فيهم، مع كونهم لا يعملون أنهم كذلك إما حقيقة أو مجازا، تنزيلا لإصرارهم على السفه منزلة عدم العلم بكونهم عليه، و أنهم متصفون به؛ و لما ذكر اللّه هنا السفه ناسبه نفى العلم عنهم لأنه لا يتسافه إلّا جاهل. و الكاف فى موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف: أى إيمانا كإيمان الناس.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ أى صدّقوا كما صدّق أصحاب محمد أنّه نبىّ و رسول، و أن ما أنزل عليه حق، قالُوا: أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ يعنون أصحاب محمد أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ يقول: الجهّال وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ يقول: لا يعقلون.

و روى عن ابن عساكر فى تاريخه بسند واه أنه قال: آمنوا كما آمن النّاس أبو بكر و عمر و عثمان و علىّ. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله: كَما آمَنَ السُّفَهاءُ قال: يعنون أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج عن الربيع و ابن زيد مثله. و روى الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود: أى إذا قيل لهم- يعنى اليهود-: آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ عبد اللّه بن سلام و أصحابه قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤ الى ١٥]

وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)

لَقُوا أصله لقيوا، نقلت الضمة إلى القاف و حذفت الياء لالتقاء الساكنين. و معنى لقيته و لاقيته:

استقبلته قريبا. و قرأ محمد بن السّميقع اليمانى و أبو حنيفة: لاقوا: و أصله لاقيوا تحرّكت الياء و انفتح ما قبلها فانقلبت ألفا، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. و خلوت بفلان و إليه: إذا انفردت به. و إنما عدّى بإلى

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٢

و هو يتعدّى بالباء فيقال: خلوت به لا خلوت إليه، لتضمنه معنى ذهبوا و انصرفوا. و الشياطين جمع شيطان على التكسير. و قد اختلف كلام سيبويه فى نون الشيطان فجعلها فى موضع من كتابه أصلية و فى آخر زائدة، فعلى الأوّل هو من شطن أى بعد عن الحق، و على الثانى من شطّ: أى بعد. أو شاط: أى بطل، و شاط:

أى احترق، و أشاط: إذا هلك قال:

و قد يشيط على أرماحنا البطل أى يهلك. و قال آخر:

و أبيض ذى تاج أشاطت رماحنالمعترك بين الفوارس أقتما

أى أهلكت. و حكى سيبويه أن العرب تقول: تشيطن فلان: إذا فعل أفعال الشياطين. و لو كان من شاط لقالوا: تشيّط، و منه قول أمية بن أبى الصلت:

أيّما شاطن عصاه عكاه‌ثم يلقى فى السّجن و الأغلال

و قوله: إِنَّا مَعَكُمْ معناه مصاحبوكم فى دينكم و موافقوكم عليه. و الهزء: السخرية و اللعب. قال الراجز:

قد هزئت منّى أمّ طيسلةقالت أراه معدما لا مال له

قال فى الكشاف: و أصل الباب الخفة من الهزء و هو القتل السريع، و هزأ يهزأ: مات على المكان. عن بعض العرب: مشيت فلغبت فظننت لأهزأنّ على مكانى، و ناقته تهزأ به: أى تسرع و تخفّ. انتهى. و قيل:

أصله الانتقام، قال الشاعر:

قد استهزءوا منهم بألفى مدجّج‌سراتهم وسط الصّحاصح جثّم

فأفاد قولهم: إِنَّا مَعَكُمْ أنهم ثابتون على الكفر، و أفاد قولهم: إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ ردّهم للإسلام و دفعهم للحق، و كأنه جواب سؤال مقدّر ناشئ من قولهم إنا معكم: أى إذا كنتم معنا فما بالكم إذا لقيتم المسلمين وافقتموهم؟ فقالوا: إنما نحن مستهزئون بهم فى تلك الموافقة، و لم تكن بواطننا موافقة لهم و لا مائلة إليهم، فردّ اللّه ذلك عليهم بقوله: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ أى ينزل بهم الهوان و الحقارة و ينتقم منهم و يستخفّ بهم انتصافا منهم لعباده المؤمنين، و إنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة و مكافأة مشاكلة. و قد كانت العرب إذا وضعت لفظا بإزاء لفظ جوابا و جزاء ذكرته بمثل ذلك اللفظ و إن كان مخالفا له فى معناه. و ورد ذلك فى القرآن كثيرا، و منه: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «١» فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ «٢» و الجزاء لا يكون سيئة. و القصاص لا يكون اعتداء لأنه حق، و منه:

وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ «٣» و إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَ أَكِيدُ كَيْداً «٤» يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا «٥» يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ «٦» تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ «٧». و هو فى السنة كثير كقوله

---

(١). الشورى: ٤٠.

(٢). البقرة: ١٩٤.

(٣). آل عمران: ٥٤.

(٤). الطارق: ١٥- ١٦.

(٥). البقرة: ٩.

(٦). النساء:

١٤٢.

(٧). المائدة: ١١٦.

صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه لا يملّ حتى تملّوا».

و إنما قال: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ لأنه يفيد التجدّد وقتا بعد وقت، و هو أشدّ عليهم، و أنكأ لقلوبهم، و أوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الاسمية، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتا بعد وقت، و المتجددة حينا بعد حين، أشدّ على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمرّ لأنه يألفه و يوطّن نفسه عليه. و المدّ: الزيادة قال يونس بن حبيب: يقال مدّ فى الشرّ و أمدّ فى الخير، و منه: وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ «١» وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ «٢». و قال الأخفش: مددت له: إذا تركته، و أمددته: إذا أعطيته. و قال الفرّاء و اللحيانى: مددت فيما كانت زيادته من مثله، يقال: مدّ النهر، و منه: وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ «٣» و أمددت فيما كانت زيادته من غيره، و منه: يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ «٤» و الطغيان مجاوزة الحدّ و الغلوّ فى الكفر و منه: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ «٥» أى تجاوز المقدار الذى قدّرته الخزان. و قوله فى فرعون: إِنَّهُ طَغى «٦» أى أسرف فى الدعوى حيث قال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «٧».

و العمه و العامة: الحائر المتردد، و ذهبت إبله العمّهى: إذا لم يدر أين ذهبت، و العمه فى القلب كالعمى فى العين. قال فى الكشاف: العمه مثل العمى. إلا أن العمى فى البصر و الرأى، و العمه فى الرأى خاصة.

انتهى. و المراد أن اللّه سبحانه يطيل لهم المدّة و يمهلهم كما قال: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً «٨». قال ابن جرير: فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ فى ضلالهم و كفرهم الذى قد غمرهم يترددون حيارى ضلّالا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا، لأن اللّه قد طبع على قلوبهم و ختم عليها، و أعمى أبصارهم عن الهدى و أغشاها، فلا يبصرون رشدا و لا يهتدون سبيلا.

و قد أخرج الواحدى و الثعلبى بسند واه- لأن فيه محمد بن مروان، و هو متروك- عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى عبد اللّه بن أبيّ و أصحابه، و ذكر قصة وقعت لهم مع أبى بكر و عمر و عليّ رضى اللّه عنهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: كان رجال من اليهود إذا لقوا أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أو بعضهم قالوا: إنا على دينكم: وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ و هم إخوانهم قالوا: إِنَّا مَعَكُمْ على مثل ما أنتم عليه: إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ بأصحاب محمد: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ قال: يسخر بهم للنقمة منهم: وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ قال: فى كفرهم، يَعْمَهُونَ قال: يتردّدون. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه بمعناه و أطول منه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه بنحو الأوّل.

و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله: وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قال: رؤسائهم فى الكفر. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: وَ إِذا خَلَوْا أي مضوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة نحو ما قاله ابن مسعود. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله: وَ يَمُدُّهُمْ قال: يملى لهم. فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ قال: فى كفرهم يتمادون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحو ما قاله ابن مسعود فى تفسير يعمهون. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن

---

(١). الإسراء: ۶.

(٢). الطور: ٢٢.

(٣). لقمان: ٢٧.

(۴). آل عمران: ١٢۵.

(۵). الحاقة: ١١.

(۶). النازعات: ١٧.

(٧). النازعات: ٢۴.

(٨). آل عمران: ١٧٨.

المنذر عن مجاهد يَمُدُّهُمْ يزيدهم. فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ قال يلعبون و يتردّدون فى الضّلالة.

و أخرج أحمد فى المسند عن أبى ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «نعوذ باللّه من شياطين الإنس و الجنّ، فقلت: يا رسول اللّه! و للإنس شياطين؟ قال: نعم».

[سورة البقرة (٢): آية ١۶]

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (١۶)

قال سيبويه: ضمّت الواو فى: اشْتَرَوُا فرقا بينها و بين الواو الأصلية فى نحو: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا «١». و قال الزجّاج: حرّكت بالضم كما يفعل فى نحن. و قرأ يحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين. و قرأ أبو السّمّال العدوى بفتحها لخفة الفتحة. و

أجاز الكسائىّ همز الواو. و الشراء هنا مستعار للاستبدال: أى استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله تعالى: فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى «٢» فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعوا إيمانهم، و العرب قد تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء. قال أبو ذؤيب:

فإن تزعمينى كنت أجهل فيكمفإنّى شريت «٣» الحلم بعدك بالجهل

و أصل الضلالة الحيرة و الجور عن القصد و فقد الاهتداء، و تطلق على النسيان، و منه قوله تعالى: قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ «٤»، و على الهلاك كقوله: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ «٥» و أصل الربح الفضل. و التجارة: صناعة التاجر، و أسند الربح إليها على عادة العرب فى قولهم: ربح بيعك و خسرت صفقتك، و هو من الإسناد المجازى، و هو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل كما هو مقرّر فى علم المعانى. و المراد:

ربحوا و خسروا. و الاهتداء قد سبق تحقيقه: أى و ما كانوا مهتدين فى شرائهم الضلالة؛ و قيل فى سابق علم اللّه. و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى أى الكفر بالإيمان. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: أخذوا الضلالة و تركوا الهدى. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: آمنوا ثم كفروا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: استحبّوا الضلالة على الهدى، قد و اللّه رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، و من الجماعة إلى الفرقة، و من الأمن إلى الخوف، و من السّنّة إلى البدعة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٨ الى ١٧]

مَثَلُهُمْ مرتفع بالابتداء، و خبره إما الكاف فى قوله: كَمَثَلِ لأنها اسم: أى مثل مثل كما فى

---

(١). الجن: ١٦.

(٢). فصلت: ١٧.

(٣). و يروى «اشتريت» كما فى ديوان أبى ذؤيب.

(٤). الشعراء: ٢٠.

(٥). السجدة: ١٠.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٥

قول الأعشى:

أ تنتهون و لن ينهى ذوى شططكالطّعن يذهب فيه الزيت و الفتل

و قول امرئ القيس:

و رحنا بكابن الماء يجنب وسطناتصوّب فيه العين طورا و ترتقى

أراد مثل الطعن، و بمثل ابن الماء، و يجوز أن يكون الخبر محذوفا: أى مثلهم مستنير كمثل، فالكاف على هذا حرف. و المثل: الشبه، و المثلان: المتشابهان و الَّذِي موضوع موضع الذين: أى كمثل الذين، أى كمثل الذين استوقدوا، و ذلك موجود فى كلام العرب كقول الشاعر:

و إنّ الذى حانت بفلج دماؤهمهم القوم كلّ القوم يا أمّ خالد

و منه: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا «١» و منه: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ «٢».

و وقود النار: سطوعها و ارتفاع لهبها، و اسْتَوْقَدَ بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب، فالسين و التاء زائدتان، قاله الأخفش. و منه قول الشاعر:

و داع دعا يا من يجيب إلى النّدىفلم يستجبه عند ذاك مجيب

أى يجبه. و الإضاءة فرط الإنارة، و فعلها يكون لازما و متعديا. و ما حَوْلَهُ قيل ما زائدة، و قيل هى موصولة فى محل نصب على أنها مفعول أضاءت، و حوله منصوب على الظرفية، و ذَهَبَ من الذهاب، و هو زوال الشيء. و وَ تَرَكَهُمْ أى أبقاهم فِي ظُلُماتٍ جمع ظلمة. و قرأ الأعمش بإسكان اللام على الأصل. و قرأ أشهب العقيلى بفتح اللام، و هى عدم النور. و صُمٌّ و ما بعده خبر مبتدأ محذوف: أى هم. و قرأ ابن مسعود: صما بكما عميا بالنصب على الذم، و يجوز أن ينتصب بقوله تركهم. و الصمم: الانسداد، يقال قناة صماء: إذا لم تكن مجوّفة، و صممت القارورة: إذا سددتها، و فلان أصمّ: إذا انسدت خروق مسامعه. و الأبكم: الذى لا ينطق و لا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس.

و قيل الأخرس و الأبكم واحد. و العمى: ذهاب البصر. و المراد بقوله: فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ أى إلى الحق، و جواب لما فى قوله فلما أضاءت، قيل هو: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ و قيل: محذوف تقديره: طفئت فبقوا حائرين. و على الثانى فيكون قوله: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ كلاما مستأنفا أو بدلا من المقدر.

ضرب اللّه هذا المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النّفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام، كمثل المستوقد الذى أضاءت ناره ثم طفئت، فإنه يعود إلى الظلمة و لا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة، فكان بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته و تردده. و إنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت. و منه قولهم: «للباطل صولة ثم يضمحل» و قد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنا عظيما فى إبراز خفيات المعانى،

---

(١). التوبة: ۶۹.

(٢). الزمر: ٣٣.

و رفع أستار محجبات الدقائق، و لهذا استكثر اللّه من ذلك فى كتابه العزيز، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكثر من ذلك فى مخاطباته و مواعظه.

قال ابن جرير: إن هؤلاء المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات، و احتج بقوله تعالى:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ «١». و قال ابن كثير: إن الصواب أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم و كفرهم، و هذا لا ينفى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه و طبع على قلوبهم كما يفيده قوله: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ «٢». قال ابن جرير:

و صحّ ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال: رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ «٣» أى كدوران عينى الذى يغشى عليه من الموت، و قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً «۴».

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً قال: هذا مثل ضربه اللّه للمنافقين، كانوا يعتزّون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون و يوارثونهم و يقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم اللّه العزّ كما سلب صاحب النار ضوءه: وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ يقول: فى عذاب: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يسمعون الهدى و لا يبصرونه

و لا يعقلونه.

و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً قالوا: إن ناسا دخلوا فى الإسلام عند مقدم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة ثم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة فأوقد نارا فأضاءت ما حوله من قذى و أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقى، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لا يدرى ما يتقى من أذى. فكذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال من الحرام و الخير من الشرّ، فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام و لا الخير من الشرّ. فهم صُمٌّ بُكْمٌ هم الخرس، فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ إلى الإسلام. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً قال: ضربه اللّه مثلا للمنافق، و قوله: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ قال: أما النور فهو إيمانهم الذى يتكلمون به، و أما الظلمة فهو ضلالهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرجا أيضا عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة و الحسن و السدى و الربيع بن أنس نحو ما تقدم.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩ الى ٢٠]

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (١٩) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك لقصد التخيير بين المثلين: أى مثلوهم بهذا أو هذا، و هى

---

(١). البقرة: ٨.

(٢). المنافقون: ٣.

(٣). الأحزاب: ١٩.

(٤). الجمعة: ٥.

و إن كانت فى الأصل للشك فقد توسع فيها حتى صارت لمجرّد التساوى من غير شك، و قيل إنها بمعنى الواو، قاله الفراء و غيره، و أنشد:

و قد زعمت ليلى بأنّى فاجرلنفسى تقاها أو عليها فجورها

و قال آخر:

نال الخلافة أو كانت له قدراكما أتى ربّه موسى على قدر

و المراد بالصيب: المطر، و اشتقاقه من صاب يصوب: إذا نزل. قال علقمة:

فلا تعدلى بينى و بين مغمّرسقتك روايا المزن حيث تصوب

و أصله صيوب، اجتمعت الياء و الواو و سبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء و أدغمت، كما فعلوا فى ميت و سيد. و السماء فى الأصل: كل ما علاك فأظلك. و منه قيل لسقف البيت سماء. و السماء أيضا: المطر سمى بها لنزوله منها، و فائدة ذكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلا منها أنه لا يختص نزوله بجانب منها دون جانب،

و إطلاق السماء على المطر واقع كثير فى كلام العرب، فمنه قول حسان:
ديار من بنى الحسحاس قفرتعفّيها الرّوامس و السّماء
و قال آخر:
إذا نزل السماء بأرض قوم .....
و الظلمات قد تقدّم تفسيرها، و إنما جمعها إشارة إلى أنه انضمّ إلى ظلمة الليل ظلمة الغيم. و الرعد: اسم لصوت الملك الذى يزجر السّحاب.
و قد أخرج الترمذى من حديث ابن عباس قال: «سألت اليهود النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن الرعد ما هو؟ قال:
ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء اللّه، قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال: زجره بالسّحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر. قالت: صدقت» الحديث بطوله، و فى إسناده مقال. قال القرطبى: و على هذا التفسير أكثر العلماء. و قيل: هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها، و إلى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعا للفلاسفة و جهلة المتكلمين، و قيل غير ذلك، و البرق؛ مخراق حديد بيد الملك الذى يسوق السحاب، و إليه ذهب كثير من الصحابة و جمهور علماء الشريعة للحديث السابق. و قال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة: إن البرق ما ينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الأبخرة المتصعدة المشتملة على جزء نارى يتلهب عند الاصطكاك.
و قوله: يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ جملة مستأنفة لا محل لها كأنّ قائلا قال: فكيف حالهم عند ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم فى آذانهم. و إطلاق الأصبع على بعضها مجاز مشهور، و العلاقة الجزئية و الكلية لأن الذى يجعل فى الأذن إنما هو رأس الأصبع لا كلها. و الصواعق و يقال الصواقع: هى قطعة نار
فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۸
تنفصل من مخراق الملك الذى يزجر السحاب عند غضبه و شدة ضربه لها، و يدلّ على ذلك ما فى حديث ابن عباس الذى ذكرنا بعضه قريبا، و به قال كثير من علماء الشريعة. و منهم من قال: إنها نار تخرج من فم الملك.
و قال الخليل: هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه. و قال أبو زيد: الصاعقة: نار تسقط من السماء فى رعد شديد. و قال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة و من قال بقولهم:
إنها نار لطيفة تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامها. و سيأتى فى سورة الرعد إن شاء اللّه فى تفسير الرعد و البرق و الصواعق ما له مزيد فائدة و إيضاح. و نصب: حَذَرَ الْمَوْتِ على أنه مفعول لأجله. و قال الفرّاء: منصوب على التمييز. و الموت: ضدّ الحياة. و الإحاطة: الأخذ من جميع الجهات حتى لا تفوت المحاط به بوجه من الوجوه. و قوله: يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ جملة مستأنفة كأنه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ و يكاد: يقارب. و الخطف: الأخذ بسرعة، و منه سمى الطير خطّافا لسرعته. و قرأ مجاهد:
يَخْطِفُ بكسر الطاء و الفتح أفصح.
و قوله: كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ كلام مستأنف كأنه قيل: كيف تصنعون فى تارتى خفوق البرق و سكونه، و هو تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين بشدّته على أهل الصيب: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ بالزيادة فى الرعد و البرق: إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و هذا من جملة مقدوراته سبحانه.
و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أَوْ كَصَيِّبٍ هو المطر ضرب مثله فى القرآن: فِيهِ ظُلُماتٌ يقول ابتلاء: وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ تخويف يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين: كُلَّما

أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ يقول:
كلما أصاب المنافقون من الإسلام عزّا اطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة قالوا ارجعوا إلى الكفر [يقول وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا] «١» كقوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ «٢» الآية.
و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قالوا: كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذى ذكر اللّه فيه رعد شديد و صواعق و برق، فجعلا كلما أصابتهما الصواعق يجعلان أصابعهما فى آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق فى مسامعهما فتقتلهما، و إذا لمع البرق مشيا فى ضوئه و إذا لم يلمع لم يبصرا قاما مكانهما لا يمشيان، فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتى محمدا فنضع أيدينا فى يده، فأصبحا فأتياه فأسلما و وضعا أيديهما فى يده و حسن إسلامهما، فضرب اللّه شأن هذين المنافقين الخارجين مثلا للمنافقين الذين بالمدينة، و كان المنافقون إذا حضروا مجلس النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم جعلوا أصابعهم فى آذانهم فرقا من كلام النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أن ينزل فيهم شىء أو يذكروا بشىء فيقتلوا، كما كان ذلك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما فى آذانهما، و إذا أضاء لهم مشوا فيه: أى فإذا كثرت أموالهم و أولادهم و أصابوا غنيمة و فتحا مشوا فيه و قالوا: إن دين محمد صلّى اللّه عليه و سلّم دين صدق و استقاموا عليه، كما كان ذانك المنافقان

---

(١). مستدرك من تفسير الطبرى (١/ ١٢٠)

(٢). الحج: ١١.

يمشيان إذا أضاء لهم البرق، و إذا أظلم عليهم قاموا فكانوا إذا هلكت أموالهم و أولادهم و أصابهم البلاء قالوا:
هذا من أجل دين محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و ارتدوا كفارا كما قام المنافقان حين أظلم البرق عليهما.
و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أَوْ كَصَيِّبٍ قال: هو المطر و هو مثل للمنافق فى ضوئه يتكلم بما معه من كتاب اللّه مراءاة الناس، فإذا خلا وحده عمل بغيره فهو فى ظلمة ما أقام على ذلك. و أما الظلمات:
فالضلالات. و أما البرق: فالإيمان، و هم أهل الكتاب، و إذا أظلم عليهم: فهو رجل يأخذ بطرف الحق لا يستطيع أن يجاوزه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا نحو ما سلف. و قد روى تفسيره بنحو ذلك عن جماعة من التابعين.
و اعلم أن المنافقين أصناف، فمنهم من يظهر الإسلام و يبطن الكفر، و منهم من قال فيه النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كما ثبت فى الصحيحين و غيرهما: «ثلاث من كنّ فيه كان منافقا خالصا، و من كانت فيه واحدة منهنّ كان فيه خصلة من النّفاق حتى يدعها: من إذا حدّث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا اؤتمن خان» و ورد بلفظ أربع و زاد «و إذا خاصم فجر». و ورد بلفظ «و إذا عاهد غدر». و قد ذكر ابن جرير و من تبعه من المفسرين أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢ الى ٢١]

لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين و الكافرين و المنافقين أقبل عليهم بالخطاب التفاتا للنكتة السابقة فى الفاتحة، و يا: حرف نداء، و المنادى أيّ، و هو اسم مفرد مبنى على الضم؛ و ها حرف تنبيه مقحم بين المنادى و صفته.
قال سيبويه: كأنك كرّرت: «يا» مرتين، و صار الاسم بينهما كما قالوا: ها هو ذا. و قد تقدّم الكلام فى تفسير الناس و العبادة. و

إنما خصّ نعمة الخلق و امتنّ بها عليهم، لأن جميع النعم مترتبة عليها. و هى أصلها الذى لا يوجد شىء منها بدونها. و أيضا فالكفار مقرّون بأن اللّه هو الخالق وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ «۱» فامتنّ عليهم بما يعترفون به و لا ينكرونه. و فى أصل معنى الخلق و جهان: أحدهما التقدير. يقال خلقت الأديم للسقاء: إذا قدّرته قبل القطع. قال زهير:

و لأنت تفرى ما خلقت و بعض القوم يخلق ثمّ لا يفرى

الثانى: الإنشاء و الاختراع و الإبداع. و لعل: أصلها الترجّى و الطمع و التوقع و الإشفاق، و ذلك مستحيل على اللّه سبحانه، و لكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كانت بمنزلة قوله لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم و الطمع، و بهذا قال جماعة من أئمة العربية منهم سيبويه. و قيل: إن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كى. و المعنى هنا: لتتقوا، و كذلك ما وقع هذا الموقع، و منه قول الشاعر:

---

(۱). الزخرف: ۸۷.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۰ و قلتم لنا كفّوا الحروب لعلّنانكفّ و وثّقتم لنا كلّ موثق

فلمّا كففنا الحرب كانت عهودكم كشبه «۱» سراب فى الملا متألّق

أى كفّوا عن الحرب لنكفّ، و لو كانت لعل للشك لم يوثقوا لهم كل موثق، و بهذا قال جماعة منهم قطرب.

و قيل إنها بمعنى التعرّض للشىء، كأنه قال: متعرّضين للتقوى. و جعل هنا بمعنى صيّر لتعدّيه إلى المفعولين، و منه قول الشاعر:

و قد جعلت أرى الاثنين أربعةو الواحد اثنين لمّا هدّنى الكبر

و فِراشاً أى و طاء يستقرون عليها. لما قدّم نعمة خلقهم أتبعه بنعمة خلق الأرض فراشا لهم، لما كانت الأرض التى هى مسكنهم و محل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم، ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم، و السقف للبيت الذى يسكنونه كما قال: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً «۲». و أصل البناء: وضع لبنة على أخرى، ثم امتنّ عليهم بإنزال الماء من السماء. و أصل ماء موه، قلبت الواو لتحركها و انفتاح ما قبلها ألفا فصار ماه، فاجتمع حرفان خفيفان فقلبت الهاء همزة. و الثمرات جمع ثمرة. أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات و أنواعا من النبات ليكون ذلك متاعا لكم إلى حين. و الأنداد جمع ندّ، و هو المثل و النظير. و قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جملة حالية و الخطاب للكفار و المنافقين. فإن قيل:

كيف وصفهم بالعلم و قد نعتهم بخلاف ذلك حيث قال: وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ

وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فيقال: إن المراد أن جهلهم و عدم شعورهم لا يتناول هذا: أى كونهم يعلمون أنه المنعم دون غيره من الأنداد، فإنهم كانوا يعلمون هذا و لا ينكرونه كما حكاه اللّه عنهم فى غير آية. و قد يقال: المراد و أنتم تعلمون وحدانيته بالقوّة و الإمكان لو تدبرتم و نظرتم. و فيه دليل على وجوب استعمال الحجج و ترك التقليد. قال ابن فورك: المراد و تجعلون للّه أندادا بعد علمكم الذى هو نفى الجهل بأن اللّه واحد انتهى. و حذف مفعول تعلمون للدلالة على عدم اختصاص ما هم عليه من العلم بنوع واحد من الأنواع الموجبة للتوحيد.

و قد أخرج البزّار و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال: ما كان يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فهو أنزل بالمدينة، و ما كان: يا أَيُّهَا النَّاسُ فهو أنزل بمكة. و روى نحو ذلك عن ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و الطبرانى فى الأوسط و الحاكم و صحّحه، و روى نحوه أبو عبيد و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر من قول علقمة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن المنذر عن الضحّاك مثله.

و كذا أخرج أبو عبيد عن ميمون بن مهران. و أخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة و ابن مردويه عن عروة و عكرمة.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ قال: هى للفريقين جميعا من الكفار و المؤمنين. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: لَعَلَّكُمْ يعنى كى. و أخرج ابن أبى

---

(١). فى القرطبى: كلمع.

(٢). الأنبياء: ٣٢.

حاتم و أبو الشيخ عن عون بن عبد اللّه بن عتبة قال: لعلّ، من اللّه واجب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً أى تمشون عليها و هى المهاد و القرار: وَ السَّماءَ بِناءً قال كهيئة القبة و هى سقف الأرض. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن أنه سئل: المطر من السماء أم من السحاب؟ قال: من السماء. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن كعب قال: السحاب غربال المطر، و لو لا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض و البذر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن خالد بن معدان قال: المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع فى سماء الدنيا، فيجتمع فى موضع يقال له الأبزم، فتجىء السحاب السود فتدخله فتشربه مثل شرب الإسفنجة فيسوقها اللّه حيث يشاء. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال: ينزل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن خالد بن يزيد قال: المطر منه من السماء، و منه ما يستقيه الغيم من البحر فيعذبه الرعد و البرق.

و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المطر عن ابن عباس قال: إذا جاء القطر من السماء تفتحت له الأصداف فكان لؤلؤا. و أخرج الشافعى فى الأم، و ابن أبى الدنيا فى كتاب المطر و أبو الشيخ فى العظمة عن المطلب بن حنطب أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ما من ساعة من ليل و لا نهار إلا و السّماء تمطر فيها يصرفه اللّه حيث يشاء». و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عن ابن عبّاس قال: ما نزل مطر من السماء إلا و معه البذر، أما لو أنكم بسطتم نطعا لرأيتموه. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: المطر مزاجه من الجنة، فإذا كثر المزاج عظمت البركة و إن قلّ المطر، و إذا قلّ المزاج قلت البركة و إن كثر المطر. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال:

ما من عام بأمطر من عام، و لكن اللّه يصرفه حيث يشاء، و ينزل مع المطر كذا و كذا من الملائكة، يكتبون حيث يقع ذلك المطر، و من يرزقه و من يخرج منه مع كل قطرة «١». و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً أى لا تشركوا به غيره من الأنداد التى لا تضرّ و لا تنفع: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنه لا ربّ لكم يرزقكم غيره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْداداً قال: أشباها. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود: أَنْداداً قال: أكفاء من الرجال يطيعونهم فى معصية اللّه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة أَنْداداً قال: شركاء. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و البخارى فى الأدب المفرد و النسائى و ابن ماجة و أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال: «قال رجل للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: ما شاء اللّه و شئت، قال: جعلتنى للّه ندّا ما شاء اللّه وحده». و أخرج ابن سعد عن قتيلة بنت صيفى قالت: «جاء حبر من الأحبار إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمّد نعم القوم أنتم، لو لا أنكم تشركون، قال: و كيف؟ قال: يقول أحدكم لا و الكعبة، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: من حلف فليحلف بربّ الكعبة. فقال: يا محمّد نعم القوم أنتم لو لا أنكم تجعلون للّه ندّا، قال: و كيف ذلك؟ قال: يقول أحدكم

---

(١). ما ورد من أقوال بعضهم حول تشكل المطر لا يستند إلى دليل شرعى، فما خالف منه الحقائق العلمية لا يعتد به.

ما شاء اللّه و شئت، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: فمن قال منكم ما شاء اللّه قال ثم شئت». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و النسائى و ابن ماجة و البيهقى عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تقولوا ما شاء اللّه و شاء فلان، قولوا ما شاء اللّه ثم شاء فلان». و أخرج أحمد و ابن ماجة و البيهقى و ابن مردويه عن طفيل بن سخبرة: أنه رأى فيما يرى النائم كأنّه مرّ برهط من اليهود فقال: أنتم نعم القوم لو لا أنكم تزعمون أنّ عزيزا ابن اللّه، فقالوا: و أنتم نعم القوم لو لا أنكم تقولون ما شاء اللّه و شاء محمّد. ثم مرّ برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لو لا أنّكم تقولون المسيح ابن اللّه، قالوا: و أنتم نعم القوم لو لا أنّكم تقولون ما شاء اللّه و شاء محمد. فلما أصبح أخبر النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فخطب فقال: «إن طفيلا رأى رؤيا، و إنكم تقولون كلمة كان يمنعنى الحياء منكم فلا تقولوها، و لكن قولوا ما شاء اللّه وحده لا شريك له». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفا سوداء فى ظلمة الليل، و هو أن تقول: و اللّه و حياتك يا فلان و حياتى، و تقول: لو لا كلبه هذا لأتانا اللصوص، و لو لا القط فى الدار لأتى اللصوص، و قول الرجل، ما شاء اللّه و شئت، و قول الرجل لو لا اللّه و فلان، هذا كله شرك. و أخرج البخارى و مسلم عن ابن مسعود قال: «قلت: يا رسول اللّه! أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل للّه ندّا و هو خلقك» الحديث.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

فِي رَيْبٍ أى شك مما نزلنا على عبدنا؛ أى القرآن أنزله على محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و العبد: مأخوذ من التعبد و هو التذلل. و التنزيل: التدريج و التنجيم. و قوله: فَأْتُوا الفاء جواب الشرط و هو أمر معناه التعجيز.

لما احتجّ عليهم بما يثبت الوحدانية و يبطل الشرك عقبه بما هو الحجة على إثبات نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و ما يدفع الشبهة فى كون القرآن معجزة، فتحدّاهم بأن يأتوا بسورة من سوره. و السورة: الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، سميت بذلك لأنها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلد عليها. و «من» فى قوله: مِنْ مِثْلِهِ زائدة لقوله: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ و الضمير فى مثله عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم. و قيل عائد على التوراة و الإنجيل، لأن المعنى: فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه. و قيل يعود على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم، و المعنى: من بشر مثل محمد: أى لا يكتب و لا يقرأ. و الشهداء: جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو المعاون، و المراد هنا الآلهة. و معنى دُونِ أدنى مكان من الشيء و اتسع فيه حتى استعمل فى تخطّى الشيء إلى شيء آخر، و منه ما فى هذه الآية، و كذلك قوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ «١» و له معان أخر، منها التقصير عن الغاية و الحقارة، يقال: هذا الشيء دون، أى حقير، و منه:

إذا ما علا المرء رام العلاءو يقنع بالدّون من كان دونا

---

(١). آل عمران: ٢٨.

و القرب، يقال: هذا دون ذاك، أى أقرب منه، و يكون إغراء، تقول: دونك زيدا: أى خذه من أدنى مكان مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلق بادعوا: أى ادعوا الذين يشهدون لكم من دون اللّه إن كنتم صادقين فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، و هذا تعجيز لهم و بيان لانقطاعهم. و الصدق: خلاف الكذب، و هو مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أو لهما، على الخلاف المعروف فى علم

المعانى. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا يعنى فيما مضى وَ لَنْ تَفْعَلُوا أى تطيقوا ذلك فيما يأتى و تبيّن لكم عجزكم عن المعارضة فَاتَّقُوا النَّارَ بالإيمان باللّه و كتبه و رسله و القيام بفرائضه و اجتناب مناهيه، و عبر عن الإتيان بالفعل لأن الإتيان فعل من الأفعال لقصد الاختصار، و جملة لن تفعلوا: لا محل لها من الإعراب لأنها اعتراضية، و لن للنفى المؤكد لما دخلت عليه، و هذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها، لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة فى أيام النبوّة و فيما بعدها و إلى الآن. و الوقود بالفتح: الحطب، و بالضم: التوقّد، أى المصدر، و قد جاء فيه الفتح.

و المراد بالحجارة: الأصنام التى كانوا يعبدونها لأنهم قرنوا أنفسهم بها فى الدنيا فجعلت وقودا للنار معهم.

و يدلّ على هذا قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ «١» أى: حطب جهنم. و قيل المراد بها حجارة الكبريت، و فى هذا من التهويل ما لا يقدّر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس و الحجارة، فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها، و المراد بقوله: أُعِدَّتْ جعلت عدّة لعذابهم و هيئت لذلك. و قد كرّر اللّه سبحانه تحدّى الكفار بهذا فى مواضع فى القرآن، منها هذا، و منها قوله تعالى فى سورة القصص:

قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «٢» و قال فى سورة سبحان: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «٣» و قال فى سورة هود: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «٤» و قال فى سورة يونس: وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «٥».

و قد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز فى القرآن هو كونه فى الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، أو كان العجز عن المعارضة للصرفة من اللّه سبحانه لهم عن أن يعارضوه، و الحقّ الأول، و الكلام فى هذا مبسوط فى مواطنه.

و قد أخرج أحمد و البخارى و مسلم و النسائى و البيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما من نبىّ من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، و إنّما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه اللّه إلىّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ قال: هذا قول اللّه لمن شكّ من الكفار فيما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج عبد الرزاق و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ قال: فى شك مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ قال: من مثل القرآن حقا و صدقا لا باطل فيه و لا كذب. و أخرج ابن

---

(١). الأنبياء: ٩٨.

(٢). القصص: ٤٩.

(٣). الإسراء: ٨٨.

(٤). هود: ١٣.

(٥). يونس: ٣٧- ٣٨.

جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ قال: مثل القرآن وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ قال: ناس يشهدون لكم إذا أتيتم بها أنها مثله. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

شُهَداءَكُمْ قال: أعوانكم على ما أنتم عليه فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فقد بين لكم الحق. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا يقول: لن تقدروا على ذلك و لن تطيقوه.

و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه كان يقرأ كل شيء في القرآن وقودها برفع الواو الأولى، إلا التي في السماء ذات البروج النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ «١» بنصب الواو. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني في الكبير و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: إن الحجارة التي ذكرها اللّه في القرآن في قوله: وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ حجارة من كبريت خلقها اللّه عنده كيف شاء. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير أيضا عن عمرو بن ميمون مثله أيضا. و أخرج ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ و قال: أوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت، و ألف عام حتّى ابيضّت، و ألف عام حتّى اسودّت، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها». و أخرج ابن أبي شيبة و الترمذي و ابن مردويه و البيهقي عن أبي هريرة مرفوعا مثله. و أخرج أحمد و مالك و البخاري و مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنّم، قالوا: يا رسول اللّه! إن كانت لكافية؟ قال فإنّها قد فضلت عليها بتسعة و ستين جزءا كلّهنّ مثل حرّها». و أخرج الترمذي و حسّنه، عن أبي سعيد مرفوعا نحوه. و أخرج ابن ماجة و الحاكم و صحّحه عن أنس مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج مالك في الموطأ، و البيهقي في البعث، عن أبي هريرة قال: أ ترونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقدون، إنها لأشد سوادا من القار. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ قال: أي لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥]

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَ لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٥)

لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقّب بجزاء المؤمنين، ليجمع بين الترغيب و الترهيب و الوعد و الوعيد، كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، و تثبيط عباده الكافرين عن معاصيه. و التبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، و هي الجلدة الظاهرة، من البشر و السرور. قال القرطبي: أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال: من بشّرني من عبيدي فهو حرّ فبشّره واحد من عبيده فأكثر، فإن أوّلهم يكون حرّا دون الثاني، و اختلفوا إذا قال: من أخبرني من عبيدي بكذا فهو حرّ، فقال أصحاب الشافعي: يعمّ؛ لأن كل واحد منهم مخبر، و قال علماؤنا: لا، لأن المكلف إنما قصد خبرا يكون بشارة،

---

(١). البروج: ٥.

و ذلك مختص بالأول. انتهى. و الحق أنه إن أراد مدلول الخبر عتقوا جميعا، و إن أراد الخبر المقيد بكونه بشارة عتق الأول، فالخلاف لفظي. و المأمور بالتبشير قيل هو النبي صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل هو كل أحد كما في قوله صلّى اللّه عليه و سلم «بشر المشائين» و هذه الجمل و إن كانت مصدرة بالإنشاء فلا يقدح ذلك في عطفها على ما قبلها، لأن المراد عطف جملة وصف ثواب المطيعين على جملة وصف عقاب العاصين من دون نظر إلى ما اشتمل عليه الوصفان من الأفراد المتخالفة خبرا و إنشاء. و قيل: إن قوله وَ بَشِّرِ معطوف على قوله: فَاتَّقُوا النَّارَ، و ليس هذا بجيد. و الصَّالِحاتِ الأعمال المستقيمة. و المراد هنا:

الأعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم- و فيه ردّ على من يقول إن الإيمان بمجرده يكفى، فالجنّة تنال بالإيمان و العمل الصالح. و الجنات: البساتين، و إنما سميت جنات لأنها تجنّ من فيها: أى تستره بشجرها، و هو اسم لدار الثواب كلها و هى مشتملة على جنات كثيرة. و الأنهار: جمع نهر، و هو المجرى الواسع فوق الجدول و دون البحر، و المراد: الماء الذى يجرى فيها، و أسند الجرى إليها مجازا، و الجارى حقيقة هو الماء كما فى قوله تعالى: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ أى أهلها و كما قال الشاعر:

نبّئت أنّ النّار بعدك أوقدتو استبّ بعدك يا كليب المجلس

و الضمير فى قوله: مِنْ تَحْتِهَا عائد إلى الجنات لاشتمالها على الأشجار: أى من تحت أشجارها.

و قوله: كُلَّما رُزِقُوا وصف آخر للجنات، أو هو جملة مستأنفة كأن سائلا قال: كيف ثمارها؟

و مِنْ ثَمَرَةٍ فى معنى: من أى ثمرة، أى نوع من أنواع الثمرات. و المراد بقوله: هـذَا الَّذِی رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ أنه شبيهه و نظيره، لا أنه هو، لأن ذات الحاضر لا تكون عين ذات الغائب لاختلافهما، و ذلك أن اللون يشبه اللون و إن كان الحجم و الطعم و الرائحة و المائية متخالفة. و الضمير فى به عائد إلى الرزق، و قيل:

المراد أنهم أتوا بما يرزقونه فى الجنة متشابها فما يأتيهم فى أول النهار يشابه الذى يأتيهم فى آخره، فيقولون:

هذا الذى رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجدوا له طعما غير طعم الأول. و مُتَشابِهاً منصوب على الحال.

و المراد بتطهير الأزواج أنه لا يصيبهنّ ما يصيب النساء من قذر الحيض و النفاس و سائر الأدناس التى لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا. و الخلود: البقاء الدائم الذى لا ينقطع، و قد يستعمل مجازا فيما يطول، و المراد هنا الأوّل.

و قد أخرج ابن ماجة، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و البزار و ابن أبى حاتم و ابن حبان و البيهقى و ابن مردويه، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ألا هل مشمّر للجنّة فإن الجنّة لا خطر لها، هى و ربّ الكعبة نور يتلألأ، و ريحانة تهتزّ، و قصر مشيد، و نهر مطرّد، و ثمرة نضيجة، و زوجة حسناء جميلة، و حلل كثيرة، و مقام فى أبد، فى دار سليمة، و فاكهة خضراء» الحديث. و الأحاديث فى وصف الجنة كثيرة جدا ثابتة فى الصحيحين و غيرهما. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن حبان و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أنهار الجنّة تفجّر من تحت جبال مسك».

و أخرج ابن أبى شيبة و أبو حاتم و أبو الشيخ و ابن حبان، و البيهقى فى البعث و صحّحه، عن ابن مسعود نحوه موقوفا. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قال: يعنى المساكن

فتح القدير، ج ١، ص: ٦٦

تجرى أسفلها أنهارها. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قال: أتوا بالثمرة فى الجنة فنظروا إليها قالُوا هـذَا الَّذِی رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ فى الدنيا وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً فى اللون و المرأى، و ليس يشبه الطعم. و أخرج عبد بن حميد عن علىّ بن زيد و قتادة نحوه.

و أخرج مسدّد فى مسنده و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ليس فى الدنيا مما فى الجنة شىء إلا الأسماء. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: قولهم: (من قبل) معناه: هذا مثل الذى كان بالأمس. و أخرج ابن جرير عن يحيى بن أبى كثير نحوه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد قال مُتَشابِهاً فى اللون مختلفا فى الطعم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن الحسن فى قوله:

مُتَشابِهاً قال: خيار كلّه، يشبه بعضه بعضا لا رذل فيه، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج الحاكم و صحّحه و ابن مردويه، عن أبى سعيد، عن النبىّ صلّى اللّه

عليه و سلّم فى قوله: وَ لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ قال: من الحيض و الغائط و البزاق و النخامة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: من القذر و الأذى. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: لا يحضن و لا يحدثن و لا يتنخّمن. و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين. و قد ثبت عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فى صفات أهل الجنة فى الصحيحين و غيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لا يبصقون و لا يتمخطون و لا يتغوّطون. و ثبت أيضا عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى أحاديث كثيرة فى الصحيحين و غيرهما من صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه، فلينظر فى دواوين الإسلام و غيرها. و أخرج ابن جرير و ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ أى خالدون أبدا، يخبرهم أن الثواب بالخير و الشرّ مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ يعنى لا يموتون. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما، عن ابن عمر، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يدخل أهل الجنّة الجنّة و أهل النّار النّار، ثم يقوم مؤذّن بينهم: يا أهل النّار لا موت، و يا أهل الجنّة لا موت، كلّ هو خالد فيما هو فيه». و أخرج البخارى من حديث أبى هريرة نحوه. و أخرج الطبرانى و الحاكم و صحّحه من حديث معاذ نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لو قيل لأهل النّار إنّكم ماكثون فى النّار عدد كلّ حصاة فى الدنيا لفرحوا بها، و لو قيل لأهل الجنّة إنّكم ماكثون عدد كلّ حصاة لحزنوا، و لكن جعل لهم الأبد».

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٢٧)

أنزل اللّه هذه الآية ردّا على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال كقوله: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي

فتح القدير، ج ١، ص: ٦٧

اسْتَوْقَدَ ناراً «١» و قوله أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ «٢» فقالوا: اللّه أجلّ و أعلى من أن يضرب الأمثال. و قال الرازى: إنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا أورد هاهنا شبهة أوردها الكفار قدحا فى ذلك و أجاب عنها، و تقرير الشبهة: أنه جاء فى القرآن ذكر النحل و العنكبوت و النمل، و هذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء، فاشتمال القرآن عليها يقدح فى فصاحته فضلا عن كونه معجزا. و أجاب اللّه عنها بأن أصغر هذه الأشياء لا تقدح فى الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملا على حكمة بالغة. انتهى. و لا يخفاك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه و إرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له و لا دليل عليه، و قد تقدّمه إلى شى‏ء من هذا صاحب الكشاف، و الظاهر ما ذكرناه أوّلا؛ لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلين اللذين هما مذكوران قبلها، و لا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحا فى الفصاحة و الإعجاز.

و الحياء: تغير و انكسار يعترى الإنسان من تخوّف ما يعاب به و يذم، كذا فى الكشاف، و تبعه الرازى فى مفاتيح الغيب. و قال القرطبى: أصل الاستحياء الانقباض عن الشى‏ء و الامتناع منه خوفا من مواقعة القبيح، و هذا محال على اللّه. انتهى، و قد اختلفوا فى تأويل ما فى هذه الآية من ذكر الحياء فقيل: ساغ ذلك لكونه واقعا فى الكلام المحكى عن الكفار، و قيل: هو من باب المشاكلة كما تقدم، و قيل هو جار على سبيل التمثيل.

قال فى الكشاف: مثل تركه تخييب العبد و أنه لا يردّ يديه صفرا من عطائه لكرمه بترك من يترك ردّ المحتاج إليه حياء منه. انتهى. و قد قرأ ابن محيصن و ابن كثير فى رواية عنه يَسْتَحِي بياء واحدة و هى لغة تميم و بكر بن وائل، نقلت فيها حركة الياء

الأولى إلى الحاء فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين. و ضرب المثل: اعتماده و صنعه. و «ما» فى قوله: ما بَعُوضَةً إبهامية، أى موجبة لإبهام ما دخلت عليه حتى يصير أعمّ مما كان عليه و أكثر شيوعا فى أفراده، و هى فى موضع نصب على البدل من قوله: مَثَلًا و بَعُوضَةً نعت لها لإبهامها، قاله الفراء و الزجاج و ثعلب، و قيل: إنها زائدة، و بعوضة بدل من مثل. و نصب بعوضة فى هذين الوجهين ظاهر، و قيل: إنها منصوبة بنزع الخافض، و التقدير: أن يضرب مثلا ما بين بعوضة، فحذف لفظ بين. و قد روى هذا عن الكسائى، و قيل: إنّ يضرب بمعنى يجعل، فتكون بعوضة المفعول الثانى. و قرأ الضحاك و إبراهيم بن أبى عبلة و رؤبة بن العجاج «بعوضة» بالرفع و هى لغة تميم. قال أبو الفتح: وجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة الذى، و بعوضة رفع على إضمار المبتدأ، و يحتمل أن تكون «ما» استفهامية كأنه قال تعالى: ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها حتى لا يضرب المثل به، بل يدان لمثل بما هو أقلّ من ذلك بكثير، و البعوضة فعولة من بعض: إذا قطع، يقال:

بعض و بضع بمعنى، و البعوض: البق، الواحدة بعوضة، سميت بذلك لصغرها قاله الجوهرى و غيره. و قوله:

فَما فَوْقَها قال الكسائى و أبو عبيدة و غيرهما: فما فوقها و اللّه أعلم ما دونها: أى أنها فوقها فى الصغر كجناحها. قال الكسائى و هذا كقولك فى الكلام أ تراه قصيرا فيقول القائل أو فوق ذلك أى أقصر مما ترى.

و يمكن أن يراد فما زاد عليها فى الكبر. و قد قال بذلك جماعة. قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا أما حرف فيه معنى الشرط، و قدّره سيبويه بمهما يكن من شىء فكذا. و ذكر صاحب الكشاف أن فائدته فى الكلام أنه

---

(١). البقرة: ١٧.

(٢). البقرة: ١٩.

يعطيه فضل توكيد و جعل تقدير سيبويه دليلا على ذلك. و الضمير فى أَنَّهُ راجع إلى المثل. و الْحَقُ الثابت، و هو المقابل للباطل، و الحق واحد الحقوق، و المراد هنا الأوّل. و قد اختلف النحاة فى ما ذا فقيل: هى بمنزلة اسم واحد بمعنى: أى شىء أراد اللّه، فتكون فى موضع نصب بأراد. قال ابن كيسان:

و هو الجيد. و قيل «ما» اسم تام فى موضع رفع بالابتداء، و «ذا» بمعنى الذى، و هو خبر المبتدأ مع صلته، و جوابه يكون على الأوّل منصوبا و على الثانى مرفوعا. و الإرادة: نقيض الكراهة، و قد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على اللّه سبحانه، و (مثلا) قال ثعلب: منصوب على القطع، و التقدير: أراد مثلا. و قال ابن كيسان: هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال، و هذا أقوى من الأوّل. و قوله:

يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً هو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدّرتين بأما، فهو خبر من اللّه سبحانه. و قيل: هو حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا: ما مراد اللّه بهذا المثل الذى يفرّق به الناس إلى ضلالة و إلى هدى؟ و ليس هذا بصحيح، فإن الكافرين لا يقرّون بأن فى القرآن شيئا من الهداية، و لا يعترفون على أنفسهم بشىء من الضلالة. قال القرطبى: و لا خلاف أن قوله: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ من كلام اللّه سبحانه. و قد أطال المتكلمون الخصام فى تفسير الضلال المذكور هنا و فى نسبته إلى اللّه سبحانه. و قد نقّح البحث الرازى فى تفسيره «مفاتيح الغيب» فى هذا الموضع تنقيحا نفيسا، و جوّده و طوّله و أوضح فروعه و أصوله، فليرجع إليه فإنه مفيد جدا. و أما صاحب الكشاف فقد اعتمد هاهنا على عصاه التى يتوكأ عليها فى تفسيره، فجعل إسناد الإضلال إلى اللّه سبحانه بكونه سببا، فهو من الإسناد المجازى إلى ملابس للفاعل الحقيقى. و حكى القرطبى عن أهل الحقّ من المفسرين أن المراد بقوله: يُضِلُ يخذل. و الفسق: الخروج عن الشىء، يقال فسقت الرطبة: إذا خرجت عن قشرها،

و الفأرة من جحرها، ذكر معنى هذا الفرّاء.
و قد استشهد أبو بكر بن الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له على معنى الفسق بقول رؤبة بن العجّاج:
يهوين «١» فى نجد و غورا غائرافواسقا عن قصدها جوائرا
و قد زعم ابن الأعرابى أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهلية و لا فى شعرهم فاسق، و هذا مردود عليه، فقد حكى ذلك عن العرب و أنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة، كابن فارس و الجوهرى و ابن الأنبارى و غيرهم.
و قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «خمس فواسق». الحديث. و قال فى الكشاف: الفسق الخروج عن القصد، ثم ذكر عجز بيت رؤبة المذكور، ثم قال: و الفاسق فى الشريعة: الخارج عن أمر اللّه بارتكاب الكبيرة. انتهى. و قال القرطبى: و الفسق فى عرف الاستعمال الشرعى: الخروج من طاعة اللّه عز و جل، فقد يقع على من خرج بكفر و على من خرج بعصيان. انتهى. و هذا هو أنسب بالمعنى اللغوى، و لا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض. قال الرازى فى تفسيره: و اختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أو كافر؟ فعند أصحابنا أنه مؤمن، و عند الخوارج أنه كافر، و عند المعتزلة لا مؤمن و لا كافر، و احتج المخالف

---

(١). فى القرطبى «يذهبن».

بقوله تعالى: بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ «١» و قوله: إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ «٢» و قوله:
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ «٣» و هذه المسألة طويلة مذكورة فى علم الكلام. انتهى. و قوله: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ فى محل نصب وصفا للفاسقين. و النقض:
إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد، و النقاضة: ما نقض من حبل الشعر. و العهد: قيل هو الذى أخذه اللّه على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره، و قيل: هو وصية اللّه إلى خلقه، و أمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، و نهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسن رسله، و نقضهم ذلك: ترك العمل به؛ و قيل: بل هو نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات و الأرض و سائر مخلوقاته، و نقضه: ترك النظر فيه؛ و قيل: هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس. و الميثاق: العهد المؤكد باليمين، مفعال من الوثاقة و هى الشدّة فى العقد و الربط، و الجمع المواثيق و المياثيق؛ و أنشد ابن الأعرابى:
حمى لا يحلّ الدهر إلا بإذنناو لا نسأل الأقوام عهد المياثق
و استعمال النقض فى إبطال العهد على سبيل الاستعارة. و القطع معروف، و المصدر فى الرحم القطيعة، و قطعت الحبل قطعا، و قطعت النهر قطعا. «و ما» فى قوله: ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فى موضع نصب بيقطعون و أَنْ يُوصَلَ فى محل نصب بأمر. و يحتمل أن يكون بدلا من ما، أو من الهاء فى به. و اختلفوا ما هو الشىء الذى أمر اللّه بوصله فقيل: الأرحام؛ و قيل: أمر أن يوصل القول بالعمل؛ و قيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم و تكذيب البعض الآخر؛ و قيل: المراد به حفظ شرائعه و حدوده التى أمر فى كتبه المنزلة و على ألسن رسله بالمحافظة عليها فهى عامة، و به قال الجمهور، و هو الحق. و المراد بالفساد فى الأرض الأفعال و الأقوال المخالفة لما أمر اللّه به، كعبادة غيره و الإضرار بعباده و تغيير ما أمر بحفظه؛ و بالجملة فكل ما خالف الصلاح شرعا أو عقلا فهو فساد. و الخسران: النقصان، و الخاسر، هو الذى نقص نفسه من الفلاح و الفوز، و هؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء و القطع بالوصل كان عملهم فسادا لما نقصوا أنفسهم من الفلاح و الربح. و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قال:

لما ضرب اللّه هذين المثلين للمنافقين قوله: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً و قوله: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ قال المنافقون: اللّه أعلى و أجلّ من أن يضرب هذه الأمثال؛ فأنزل اللّه إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا الآية. و أخرج الواحدى فى تفسيره، عن ابن عباس قال: إن اللّه ذكر آلهة المشركين فقال:

وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً «۴» و ذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أ رأيت حيث ذكر اللّه الذباب و العنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد أىّ شىء كان يصنع بهذا؟ فأنزل اللّه: إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة نحو قول ابن عباس. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: لما نزلت: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ «۵» قال المشركون:

ما هذا من الأمثال فيضرب؟ فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ قال: يؤمن به المؤمن، و يعلمون أنه الحق من

---

(۱). الحجرات: ۱۱.

(۲). التوبة: ۶۷.

(۳). الحجرات: ۷.

(۴). الحج: ۷۳.

(۵). الحج: ۷۳.

ربهم و يهديهم اللّه به، و يعرفه الفاسقون فيكفرون به. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً يعنى المنافقين وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيراً يعنى المؤمنين وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ قال: هم المنافقون. و فى قوله: يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ قال: هو ما عهد إليهم فى القرآن فأقرّوا به ثم كفروا فنقضوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: فسقوا فأضلّهم اللّه بفسقهم. و أخرج البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعد بن أبى وقاص قال: الحرورية «۱» هم الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه، و كان يسميهم الفاسقين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: ما نعلم اللّه أوعد فى ذنب ما أوعد فى نقض هذا الميثاق، فمن أعطى عهد اللّه و ميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به اللّه. و قد ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى أحاديث ثابتة فى الصحيح و غيره من طريق جماعة من الصحابة النهى عن نقض العهد و الوعيد الشديد عليه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ قال: الرحم و القرابة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ قال: يعملون فيها بالمعصية. و أخرج ابن المنذر عن مقاتل فى قوله: أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ يقول: هم أهل النار. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كل شىء نسبه اللّه إلى غير أهل الإسلام، مثل: خاسر، و مسرف، و ظالم، و مجرم، و فاسق، فإنما يعنى به الكفر، و ما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذمّ.

[سورة البقرة (۲): آية ۲۸]

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۸)

كيف مبنية على الفتح لخفته و هى فى موضع نصب بتكفرون، و يسأل بها عن الحال، و هذا الاستفهام هو للإنكار عليهم و

التعجيب من حالهم و هى متضمنة لهمزة الاستفهام، و الواو فى وَ كُنْتُمْ للحال و قد مقدّرة كما قال الزجاج و الفراء، و إنما صح جعل هذا الماضى حالا لأن الحال ليس هو مجرد قوله: كُنْتُمْ أَمْواتاً بل هو و ما بعده إلى قوله: تُرْجَعُونَ كما جزم به صاحب الكشاف كأنه قال: كيف تكفرون؟

و قصتكم هذه: أى و أنتم عالمون بهذه القصة و بأوّلها و آخرها. و الأموات جمع ميت؛ و اختلف المفسرون فى ترتيب هاتين الموتتين و الحياتين؛ فقيل: إن المراد كُنْتُمْ أَمْواتاً قبل أن تخلقوا؛ أى معدومين، لأنه يجوز إطلاق اسم الموت على المعدوم لاجتماعهما فى عدم الإحساس فَأَحْياكُمْ أى خلقكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ يوم القيامة. و قد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم. قال ابن عطية: و هذا القول هو المراد بالآية، و هو الذى لا محيد للكفار عنه، و إذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم

---

(١). الحرورية: فرقة من الخوارج نسبت إلى حروراء و هى قرية بضاحية الكوفة.

كانوا معدومين ثم أحياء فى الدنيا ثم أمواتا فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى. قال غيره: و الحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا. و قيل: إن المراد كنتم أمواتا فى ظهر آدم ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم. و قيل كُنْتُمْ أَمْواتاً أى نطفا فى أصلاب الرجال ثُمَّ يُحْيِيكُمْ حياة الدنيا. ثُمَّ يُمِيتُكُمْ بعد هذه الحياة ثُمَّ يُحْيِيكُمْ فى القبور ثُمَّ يُمِيتُكُمْ فى القبر ثُمَّ يُحْيِيكُمْ الحياة التى ليس بعدها موت. قال القرطبى: فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات و ثلاث إحياءات، و كونهم موتى فى ظهر آدم و إخراجهم من ظهره و الشهادة عليهم غير كونهم نطفا فى أصلاب الرجال، فعلى هذا يجىء أربع موتات و أربع إحياءات. و قد قيل: إن اللّه أوجدهم قبل خلق آدم كالبهائم و أماتهم، فيكون على هذا خمس موتات و خمس إحياءات، و موتة سادسة للعصاة من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كما ورد فى الحديث: «و لكن ناس أصابتهم النّار بذنوبهم فأماتهم اللّه إماتة، حتّى إذا كانوا فحما أذن فى الشفاعة فجىء بهم، إلى أن قال: فينبتون نبات الحبّة فى حميل السّيل» و هو فى الصحيح من حديث أبى سعيد. و قوله: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أى إلى اللّه سبحانه فيجازيكم بأعمالكم. و قد قرأ يحيى بن يعمر و ابن أبى إسحاق و مجاهد و سلام ابن يعقوب بفتح حرف المضارعة، و قرأ الجماعة بضمه. قال فى الكشاف: عطف الأوّل بالفاء و ما بعده بثم، لأن الإحياء الأوّل قد تعقّب الموت بغير تراخ، و أما الموت فقد تراخى عن الإحياء؛ و الإحياء الثانى كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخيا ظاهرا، و إن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، و الرجوع إلى الجزاء أيضا متراخ عن النشور. انتهى. و لا يخفاك أنه إن أراد بقوله إن الإحياء الأوّل قد تعقّب الموت أنه وقع على ما هو متصف بالموت، فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة، و إن أراد أنه وقع الإحياء الأوّل عند أوّل اتصافه بالموت بخلاف الثانى فغير مسلّم، فإنه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثانى عند آخر أوقات حياته، فتأمل هذا.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله تعالى: وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً الآية، قال:

لم تكونوا شيئا فخلقكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ يوم القيامة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن أبى صالح قال: يميتكم ثم يحييكم فى القبر ثم يميتكم. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً قال: حين لم يكونوا شيئا، ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة، ثم يرجعون إليه بعد الحياة. و أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خلقهم من ظهر آدم فأخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم، ثم خلقهم فى الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. و الصحيح الأوّل.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٩]

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

قال ابن كيسان: خَلَقَ لَكُمْ أى من أجلكم، و فيه دليل على أن الأصل فى الأشياء المخلوقة الإباحة

فتح القدير، ج ١، ص: ٧٢

حتى يقوم دليل يـدل على النقل عن هذا الأصل، و لا فرق بين الحيوانات و غيرها مما ينتفع به من غير ضـرر، و فى التأكيد بقوله: جَمِيعاً أقوى دلالة على هذا. و قد اسـتدل بهذه الآية على تحريم أكل الطين، لأنه تعالى خلق لنا ما فى الأرض دون نفس الأرض. و قال الرازى فى تفسـيره: إن لقائل أن يقول: إن فى جملة الأرض ما يطلق عليه أنه فى الأرض فيكون جامعا للوصفين، و لا شك أن المعادن داخلـة فى تلك، و كذلك عروق الأرض و ما يجرى مجرى البعض لها و لأن تخصـيص الشـيء بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما عداه.

انتهى. و قد ذكر صاحب الكشاف ما هو أوضح من هذا فقال: فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض و ما فيها وجه صحة؟ قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء و يراد الجهات العلوية جاز ذلك، فإن الغبراء و ما فيها واقعة فى الجهات السفلية. انتهى. و أما التراب فقد ورد فى السنة تحريمه، و هو أيضا ضارّ فليس مما ينتفع به أكلا، و لكنه ينتفع به فى منـافع أخرى؛ و ليس المراد منفعـة خاصـة كمنفعـة الأكـل، بـل كـل ما يصـدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه، و جميعا منصوب على الحال.

و الاسـتواء فى اللغة: الاعتدال و الاسـتقامة، قاله فى الكشاف، و يطلق على الارتفاع و العلوّ على الشـيء، قال تعالى: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ «١» و قال: لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ «٢» و هـذا المعنى هو المناسب لهـذه الآية. و قد قيل: إن هذه الآية من المشـكلات. و قـد ذهب كثير من الأئمـة إلى الإيمـان بهـا و ترك التعرض لتفسـيرها، و خالفهم آخرون. و الضـمير فى قوله: فَسَوَّاهُنَّ مبهم يفسره ما بعده كقولهم:

زيد رجلا؛ و قيل: إنه راجع إلى السماء لأنها فى معنى الجنس، و المعنى: أنه عدل خلقهنّ فلا اعوجاج فيه.

و قـد اسـتدل بقوله: ثُمَّ اسْتَوى على أن خلق الأرض متقـدم على خلق السـماء. و كـذلك الآيـة التى فى حم السـجدة. و قال فى النازعـات: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها «٣» فوصف خلقهـا ثم قـال: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «٤» فكأنّ السـماء على هذا خلقت قبل الأرض، و كـذلك قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ «٥» و قـد قيل: إن خلق جرم الأرض متقدم على السـماء و دحوها متأخر. و قد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم، و هذا جمع جيد لا بدّ من المصير إليه، و لكن خلق ما فى الأرض لا يكون إلا بعـد الـدحو، و الآيـة المـذكورة هنا دلت على أنه خلق ما فى الأرض قبل خلق السـماء، و هـذا يقتضـى بقاء الإشـكال و عدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع. و قوله: سَبْعَ سَماواتٍ فيه التصريح بأن السماوات سبع، و أما الأرض فلم يأت فى ذكر عددها إلا قوله تعالى: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ فقيل: أى فى العدد، و قيل:

أى فى غلظهنّ و ما بينهنّ. و قال الداودى: إن الأرض سـبع، و لكن لم يفتق بعضها من بعض. و الصحيح أنها سبع كالسماوات. و قد ثبت فى الصحيح قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوّقه اللّه من سبع أرضين» و هو ثابت من حديث عائشة و سـعيد بن زيد. و معنى قوله تعالى: فَسَوَّاهُنَّ سوّى سـطوحهن بالإملاس؛ و قيل: جعلهنّ سواء. قال الرازى فى تفسيره: فإن قيل: فهل يدل التنصـيص على سـبع سماوات. أى: فقط؟ قلنا: الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد و اللّه أعلم. انتهى.

و فی هذا إشارة إلی ما ذكره الحكماء من الزيادة علی السبع. و نحن نقول: إنه لم يأتنا عن اللّه و لا عن رسوله

---

(۱). المؤمنون: ۲۸.

(۲). الزخرف: ۱۳.

(۳). النازعات: ۲۷.

(۴). النازعات: ۳۰.

(۵). الأنعام: ۱.

إلا السبع فنقتصر علی ذلک، و لا نعمل بالزيادة إلا إذا جاءت من طريق الشرع و لم يأت شی‏ء من ذلک، و إنما أثبت لنفسه سبحانه أنه بكل شی‏ء عليم، لأنه يجب أن يكون عالما بجميع ما ثبت أنه خالقه. و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فی قوله تعالی: هُوَ الَّذِی خَلَقَ لَكُمْ ما فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً قال: سخّر لكم ما فی الأرض جميعا كرامة من اللّه و نعمة لابن آدم و بلغة و منفعة إلی أجل. و أخرج عبد الرزاق و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ فی العظمة، عن مجاهد فی قوله: هُوَ الَّذِی خَلَقَ لَكُمْ ما فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً قال: سخر لكم ما فی الأرض جميعا ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ قال: خلق الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلک قوله: ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ يقول: خلق سبع سماوات بعضهنّ فوق بعض، و سبع أرضين بعضهنّ فوق بعض و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البيهقی فی الأسماء و الصفات عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابة فی قوله:

هُوَ الَّذِی خَلَقَ لَكُمْ ما فِی الْأَرْضِ الآية، قالوا: إن اللّه كان عرشه علی الماء و لم يخلق شيئا قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسمّاه سماء ثم انبسّ الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها سبع أرضين فی يومين: الأحد و الإثنين، فخلق الأرض علی حوت و هو الذی ذكره فی قوله: ن وَ الْقَلَمِ و الحوت فی الماء، و الماء علی ظهر صفاة، و الصفاة علی ظهر ملک، و الملک علی صخرة و الصخرة فی الريح، و هی الصخرة التی ذكر لقمان ليست فی السماء و لا فی الأرض، فتحرّک الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض، فأرسی عليها الجبال فقرّت، فذلک قوله تعالی: وَ أَلْقی فِی الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ* «۱» و خلق الجبال فيها و أقوات أهلها، و سخرها و ما ينبغی لها فی يومين، فی الثلاثاء و الأربعاء و ذلک قوله: أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ الْأَرْضَ «۲» إلی قوله: وَ بارَكَ فِيها يقول: أنبت شجرها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها «۳» يقول: أقوات أهلها فِی أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ «۴» يقول: من سأل فهكذا الأمر، ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ «۵» و كان ذلک الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سماوات فی يومين فی الخميس و الجمعة؛ و إنما سمی يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات و الأرض وَ أَوْحی فِی كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها «۶» قال: خلق فی كل سماء خلقها من الملائكة و الخلق الذی فيها من البحار و جبال البرد و ما لا يعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة و حفظا من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحبّ استوی علی العرش. و أخرج البيهقی فی الأسماء و الصفات عن ابن عباس فی قوله:

ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ يعنی صعد أمره إلی السماء فسواهنّ: يعنی خلق سبع سماوات، قال: أجری النار علی الماء فبخر البحر فصعد فی الهواء فجعل السماوات منه. و قد ثبت عن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم من حديث أبی هريرة فی الصحيح قال: «أخذ النبيّ صلّی اللّه عليه و سلّم بيدی فقال: خلق اللّه التربة يوم السبت، و خلق فيها الجبال يوم الأحد، و خلق الشّجر يوم الإثنين، و خلق المكروه يوم الثلاثاء، و خلق النّور يوم الأربعاء، و بثّ فيها الدواب يوم الخميس، و خلق آدم يوم الجمعة بعد العصر». و قد

ثبت عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم من طرق عند أهل السنن و غیرهم عن جماعة من الصحابة أحادیث فی وصف السماوات، و أن غلظ کل سماء مسیرة خمسمائة

(۱). النحل: ۱۵.

(۲). فصلت: ۹.

(۳). فصلت: ۱۰.

(۴). فصلت: ۱۰.

(۵). فصلت: ۱۱.

(۶). فصلت: ۱۲.

فتح القدیر، ج‌۱، ص: ۷۴

عام، و ما بین کل سماء إلی سماء خمسمائة عام، و أنها سبع سماوات، و أن الأرض سبع أرضین، و کذلک ثبت فی وصف السماء آثار عن جماعة من الصحابة. و قد ذکر السیوطی فی الدرّ المنثور بعض ذلک فی تفسیر هذه الآیة، و إنما ترکنا ذکره هاهنا لکونه غیر متعلق بهذه الآیة علی الخصوص، بل هو متعلق بما هو أعمّ منها.

[سورة البقرة (۲): آیة ۳۰]

وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِیها مَنْ یُفْسِدُ فِیها وَ یَسْفِکُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ قالَ إِنِّی أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (۳۰)

إِذْ من الظروف الموضوعة للتوقیت و هی للماضی، و إذا للمستقبل، و قد توضع إحداهما موضع الأخری. و قال المبرّد: هی مع المستقبل للمضیّ و إذا مع الماضی للاستقبال. و قال أبو عبیدة: إنها هنا زائدة.

و حکاه الزجاج و ابن النحاس و قالا: هی ظرف زمان لیست مما یزاد، و هی هنا فی موضع نصب بتقدیر اذکر أو بقالوا؛ و قیل هو متعلق بخلق لکم، و لیس بظاهر، و الملائکة جمع ملک بوزن فعل، قاله ابن کیسان، و قیل: جمع ملأک، بوزن مفعل قاله أبو عبیدة، من لأک: إذا أرسل، و الألوکة: الرسالة. قال لبید:

و غلام أرسلته أمّه بألوک فبذلنا ما سأل

و قال عدیّ بن زید:

أبلغ النّعمان عنّی مالکا أنه «۱» قد طال حبسی و انتظاری

و یقال ألکنی: أی أرسلنی. و قال النضر بن شمیل: لا اشتقاق لملک عند العرب، و الهاء فی الملائکة تأکید لتأنیث الجمع، و مثله الصلادمة، و الصلادم: الخیل الشداد واحدها صلدم. و قیل: هی للمبالغة کعلامة و نسابة و جاعِلٌ هنا من جعل المتعدی إلی مفعولین. و ذکر المطرزی أنه بمعنی خالق، و ذلک یقتضی أنه متعدّ إلی مفعول واحد، و الْأَرْضِ هنا: هی هذه الغبراء، و لا یختص ذلک بمکان دون مکان.

و قیل إنها مکة. و الخلیفة هنا معناه الخالف لمن کان قبله من الملائکة، و یجوز أن یکون بمعنی المخلوف: أی یخلفه غیره؛ قیل هو آدم؛ و قیل کل من له خلافة فی الأرض، و یقوی الأوّل قوله خلیفة دون خلائف، و استغنی بآدم عن ذکر من بعده، قیل: خاطب اللّه الملائکة بهذا الخطاب لا للمشورة، و لکن لاستخراج ما عندهم؛ و قیل: خاطبهم بذلک لأجل أن یصدر منهم ذلک

السؤال فيجابون بذلك الجواب؛ و قيل: لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم. و أما قولهم: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها فظاهره أنهم استنكروا استخلاف بنى آدم فى الأرض؛ لكونهم مظنة للإفساد فى الأرض؛ و إنما قالوا هذه المقالة قبل أن يتقدم لهم معرفة ببنى آدم، بل قبل وجود آدم فضلا عن ذريته، لعلم قد علموه من اللّه سبحانه بوجه من الوجوه لأنهم لا يعلمون الغيب؛ قال بهذا جماعة من المفسرين. و قال بعض المفسرين: إن فى الكلام حذفا، و التقدير: إنى جاعل فى الأرض

---

(١). يروى «إننى».

فتح القدير، ج ١، ص: ٧٥

خليفة يفعل كذا و كذا، فقالوا: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها و قوله: يُفْسِدُ قائم مقام المفعول الثانى.

و الفساد: ضد الصّلاح، و سفك الدم: صبّه، قاله ابن فارس و الجوهرى. و لا يستعمل السفك إلا فى الدم، و واحد الدماء دم، و أصله دمى حذف لامه، و جملة وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ حالية. و التسبيح فى كلام العرب: التنزيه و التبعيد من السوء على وجه التعظيم. قال الأعشى:

أقول لمّا جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر

و بِحَمْدِكَ فى موضع الحال: أى حامدين لك، و قد تقدم معنى الحمد. و التقديس: التطهير؛ أى و نطهرك عما لا يليق بك مما نسبه إليك الملحدون و افتراه الجاحدون. و ذكر فى الكشاف أن معنى التسبيح و التقديس واحد و هو تبعيد اللّه من السوء، و أنهما من سبح فى الأرض و الماء، و قدّس فى الأرض: إذا ذهب فيها و أبعد. و فى القاموس و غيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما ذكرناه، و التأسيس خير من التأكيد خصوصا فى كلام اللّه سبحانه. و لما كان سؤالهم واقعا على صفة تستلزم إثبات شىء من العلم لأنفسهم. أجاب اللّه سبحانه عليهم بقوله: إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ و فى هذا الإجمال ما يغنى عن التفصيل، لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقا بأن يسلم له ما يصدر عنه، و على من لا يعلم أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم و تقتضيه المصلحة الراجحة و الحكمة البالغة. و لم يذكر متعلق قوله تَعْلَمُونَ ليفيد التعميم، و يذهب السامع عند ذلك كل مذهب و يعترف بالعجز و يقر بالقصور. و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: إن اللّه أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه ثم قرأ: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا نحوه و زاد: و قد كان فيها قبل أن يخلق بألفى عام الجن بنو الجان، فأفسدوا فى الأرض و سفكوا الدماء، فلما أفسدوا فى الأرض بعث اللّه عليهم جنودا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فلما قال اللّه: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ كما فعل أولئك الجانّ فقال اللّه: إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أطول منه. و أخرج ابن جرير و ابن عساكر عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قال: لما فرغ اللّه من خلق ما أحبّ استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك سماء الدنيا، و كان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ، و إنما سمّوا الجنّ لأنهم خزّان الجنة، و كان إبليس مع ملكه خازنا، فوقع فى صدره كبر و قال: ما أعطانى اللّه هذا إلا لمزية لى، فاطلع اللّه على ذلك منه فقال للملائكة إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالوا: ربنا! و ما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فى الأرض، و يتحاسدون، و يقتل بعضهم بعضا، قالوا: ربنا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ؟ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى الآية قال: قد علمت الملائكة و علم اللّه أنه لا شىء أكره عند اللّه من سفك الدماء و الفساد فى الأرض. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: إيّاكم و الرأى، فإن اللّه ردّ الرأى على الملائكة، و ذلك أن اللّه قال: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالت الملائكة: أَ تَجْعَلُ فِيها

مَنْ يُفْسِدُ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۷۶

فِيها قال: إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن أبى سابط أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «دحيت الأرض من مكّة و كانت الملائكة تطوف بالبيت» فهى أول من طاف به و هى الأرض التى قال اللّه: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قال ابن كثير: و هذا مرسل فى سنده ضعف، و فيه مدرج، و هو أن المراد بالأرض مكة، و الظاهر أن المراد بالأرض أعمّ من ذلك. انتهى. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال: التسبيح و التقديس فى الآية هو الصلاة، و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب التوبة عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ أوّل من لبّى الملائكة، قال اللّه تعالى: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ قال: فرادّوه فأعرض عنهم، فطافوا بالعرش ستّ سنين يقولون: لبّيك لبّيك اعتذارا إليك، لبّيك لبّيك لبيك نستغفرك و نتوب إليك».

و ثبت فى الصحيح من حديث أبى ذرّ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أحبّ الكلام إلى اللّه ما اصطفاه لملائكته: سبحان ربّى و بحمده». و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: وَ نُقَدِّسُ لَكَ قال:

نصلّى لك. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: التقديس: التطهير. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ نُقَدِّسُ لَكَ قال: نعظمك و نكبرك. و أخرجا عن أبى صالح قال: نعظمك و نمجدك. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ قال: علم من إبليس المعصية و خلقه لها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى تفسيرها قال: كان فى علم اللّه أنه سيكون من الخليفة أنبياء و رسل و قوم صالحون و ساكنو الجنة. و أخرج أحمد و عبد ابن حميد، و ابن حبان فى صحيحه، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن عمر أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«إنّ آدم لمّا أهبطه اللّه إلى الأرض قالت الملائكة: أى ربّ! أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ الآية، قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم. قال اللّه لملائكته: هلمّوا ملكين من الملائكة حتّى يهبطا إلى الأرض فننظر كيف يعملان؟ فقالوا: ربنا! هاروت و ماروت، قال فأهبطا إلى الأرض، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر ...» و ذكر القصة. و قد ثبت فى كتب الحديث المعتبرة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فى صفة خلقه سبحانه لآدم و هى موجودة فلا نطوّل بذكرها.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۳۱ الى ۳۳]

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۱) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۳۲) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (۳۳)

آدَمَ أصله أأدم بهمزتين إلّا أنهم لينوا الثانية و إذا حركت قلبت واو، كما قالوا فى الجمع أوادم، قاله الأخفش. و اختلف فى اشتقاقه؛ فقيل: من أديم الأرض و هو وجهها- و قيل من الأدمة و هى السمرة. قال فى الكشاف: و ما آدم إلا اسم عجمىّ، و أقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر و عازر و عابر و شالخ و فالغ، و أشباه ذلك. و الْأَسْماءَ هى العبارات و المراد: أسماء المسميّات، قال بذلك أكثر العلماء، و هو المعنى

فتح القدير، ج ۱، ص: ۷۷

الحقيقى للاسم. و التأكيد بقوله كُلَّها يفيد أنه علّمه جميع الأسماء و لم يخرج عن هذا شىء منها كائنا ما كان. و قال ابن جرير:

إنها أسـماء الملائكة و أسـماء ذرية آدم، ثم رجع عن هذا و هو غير راجح. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أسماء الملائكة. و اختلف أهـل العلم هـل عرض على الملائكـة المسميات أو الأسـماء، و الظـاهر الأوّل لأن عرض نفس الأسـماء غير واضـح. و عرض الشيء: إظهاره، و منه عرض الشيء للبيع.

و إنما ذكر ضـمير المعروضـين تغليبا للعقلاء على غيرهم. و قرأ ابن مسعود عرضهنّ و قرأ أبيّ عرضها و إنما رجع ضمير عرضهم إلى مسميات مع عـدم تقـدم ذكرها، لأنه قـد تقـدّم ما يـدل عليها و هو أسـماؤها. قال ابن عطيـة: و الـذى يظهر أن اللّه علم آدم الأسـماء و عرض عليه مع ذلك الأجناس أشـخاصا، ثم عرض تلك على الملائكـة و سألهم عن أسـماء مسـمياتها التى قد تعلمها آدم، فقال لهم آدم: هذا اسمه كذا و هذا اسمه كذا.

قال الماوردى: فكان الأصح توجه العرض إلى المسمّين. ثم فى زمن عرضـهم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثانى أنه صوّرهم لقلوب الملائكـة ثم عرضـهم. و أمـا أمره سـبحانه للملائكـة بقوله: أَنْبِئُونِي بِأَسْـماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فهـذا منه تعـالى لقصـد التبكيـت لهـم مع علمـه بـأنهم يعجزون عـن ذلـك. و المراد إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ أن بنى آدم يفسـدون فى الأرض فأنبئونى، كذا قال المبرد، و قال أبو عبيد و ابن جرير:

إن بعض المفسـرين قـال: معنى إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ إذ كنتم، قالا: و هـذا خطأ. و معنى أَنْبِئُونِي أخبرونى. فلما قال لهم ذلك اعترفوا بـالعجز و القصور ف قـالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنـا إِلَّا مـا عَلَّمْتَنـا و سبحان: منصوب على المصدريـة عنـد الخليل و سـيبويه و قال الكسائى: هو منصوب على أنه منادى مضاف و هـذا ضـعيف جـدا. و العليم: للمبالغـة و الدلالـة على كثرة المعلومات. و الحكيم: صيغة مبالغة فى إثبات الحكمة له. ثم أمر اللّه سـبحانه آدم أن يعلمهم بأسـمائهم بعد أن عرضـهم على الملائكة فعجزوا و اعترفوا بـالقصور، و لهـذا قال سبحانه أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ الآيـة. قال فيما تقـدم: أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ثم قال هنا: أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تـدرّجا من المجمـل إلى مـا هو مبيّن بعض بيـان، و مبسوط بعض بسـط. و فى اختصـاصه بعلم غيب السـموات و الأرض ردّ لما يتكلفه كثير من العباد من الاطلاع على شـىء من علم الغيب، كالمنجمين و الكهّان و أهل الرمل و السحر و الشعوذة. و المراد بما يبـدون و ما يكتمون: ما يظهرون و يسرّون كما يفيـده معنى ذلك عنـد العرب؛ و من فسّـره بشـىء خاص فلا يقبل منه ذلك إلا بدليل. و قد أخرج الفريابى و ابن سـعد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم، و صـحّحه عن ابن عباس قال: إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض. و أخرج نحوه عبـد بن حميـد و ابن جرير عن سـعيد بن جبير. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـماءَ كُلَّها قال: علّمه اسم الصـحفة و القدر و كل شىء. و أخرج ابن جرير عنه نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه فى تفسير الآية قال: عرض عليه أسماء ولده إنسانا إنسانا و الدواب، فقيل هذا الجمل، هـذا الحمـار، هـذا الفرس. و أخرج الحـاكم فى تاريخه، و ابن عساكر و الـديلمى، عن عطيـة بن بشـر مرفوعا فى قوله وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّهـا قـال: علّم اللّه آدم فى تلك الأسـماء ألف حرفـة من الحرف و قال له: قل لأولادك و لـذريتك إن لم تصبروا عن الدنيا فاطلبوها بهذه الحرف و لا تطلبوها بالدين،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۷۸

فإن الـدين لى وحـدى خالصا، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له. و أخرج الديلمى عن أبى رافع قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «مثّلت لى أمتى فى الماء و الطين، و علّمت الأسماء كلّها كما علّم آدم الأسماء كلّها».

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى تفسير الآية قال: أسـماء ذريته أجمعين ثُمَّ عَرَضَـهُمْ قال: أخذهم من ظهره. و أخرج عن الربيع بن أنس قـال: أسـماء الملائكـة. و أخرج ابن جرير عن ابن عبـاس فى الآيـة قـال: هى هـذه الأسماء التى يتعـارف بهـا النـاس ثُمَّ عَرَضَهُمْ يعنى عرض أسماء جميع الأشياء التى علّمها آدم من أصناف الخلق. فَقالَ: أَنْبِئُونِي يقول: أخبرونى بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ إن كنتم تعلمون أنى لم أجعل فى الأرض خليفة قالُوا: سُبْحانَكَ تنزيها للّه من أن يكون يعلم الغيب أحد غيره، تبنا إليك لا عِلْمَ لَنا تبرؤوا من علم الغيب إِلَّا ما عَلَّمْتَنا كما علّمت آدم. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: عرض أصحاب الأسماء على الملائكة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قال:
العليم: الذى قد كمل فى علمه، و الحكيم الذى قد كمل فى حكمه. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أن بنى آدم يفسدون فى الأرض و يسفكون الدماء وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ قال: قولهم: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها و ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ يعنى: ما أسرّ إبليس فى نفسه من الكبر. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ما تُبْدُونَ ما تظهرون وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ يقول: أعلم السّرّ كما أعلم العلانية.

[سورة البقرة (۲): آية ۳۴]

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (۳۴)
إِذْ متعلق بمحذوف تقديره: و اذكر إذ قلنا. و قال أبو عبيدة: إذ زائدة و هو ضعيف. و قد تقدّم الكلام فى الملائكة و آدم.
السجود معناه فى كلام العرب: التذلّل و الخضوع. و غايته وضع الوجه على الأرض.
قال ابن فارس: سجد إذا تطامن، و كل ما سجد فقد ذلّ، و الإسجاد: إدامة النظر. و قال أبو عمر: و سجد إذا طأطأ رأسه، و فى هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد اللّه له ملائكته. و قيل: إن السجود كان للّه و لم يكن لآدم، و إنما كانوا مستقبلين له عند السجود، و لا ملجئ لهذا فإن السجود للبشر قد يكون جائزا فى بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح. و قد دلّت هذه الآية على أن السجود لآدم و كذلك الآية الأخرى أعنى قوله: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ «۱» و قال تعالى: وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً «۲» فلا يستلزم تحريمه لغير اللّه فى شريعة نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يكون كذلك فى سائر الشرائع. و معنى السجود هنا: هو وضع الجبهة على الأرض، و إليه ذهب الجمهور. و قال قوم:
هو مجرد التذلل و الانقياد. و قد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده؟
و قد أطال البحث فى ذلك البقاعىّ فى تفسيره. و ظاهر السياق أنه وقع التعليم و تعقبه الأمر بالسجود، و تعقبه إسكانه الجنة ثم إخراجه منها و إسكانه الأرض. و قوله: إِلَّا إِبْلِيسَ استثناء متصل لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور. و قال شهر بن حوشب و بعض الأصوليين: كانَ مِنَ الْجِنِ الذين كانوا فى الأرض.

---

(۱). الحجر: ۲۹.

(۲). يوسف: ۱۰۰.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۷۹

فيكون الاستثناء على هذا منقطعا. و استدلوا على هذا بقوله تعالى: لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ «۱» و بقوله تعالى: إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِ «۲» و الجن غير الملائكة، و أجاب الأوّلون بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس عن جملة الملائكة، لما سبق فى علم اللّه من شقائه عدلا منه لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ «۳» و ليس فى خلقه من نار و لا تركيب الشهوة فيه حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة، و أيضا على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلا تغليبا للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذى هو فرد واحد بين أظهرهم. و معنى أَبى امتنع من فعل ما أمر به. و الاستكبار: الاستعظام للنفس، و قد ثبت فى الصحيح عنه صلّى اللّه عليه و سلم «أنّ الكبر بطر الحقّ و غمط الناس» و فى رواية «غمص» بالصاد المهملة وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ

أى من جنسهم. قيل إنّ «كان» هنا بمعنى صار. و قال ابن فورك: إنه خطأ ترده الأصول. و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كانت السجدة لآدم و الطاعة للّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال:

سجدوا كرامة من اللّه أكرم بها آدم. و أخرج ابن عساكر عن إبراهيم المزنى قال: إن اللّه جعل آدم كالكعبة.

و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى عن ابن عباس قال: كان إبليس اسمه عزازيل، و كان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد. و روى ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: إنما سمى إبليس لأنّ اللّه أبلسه من الخير كله. أى آيسه منه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن الأنبارى عنه قال: كان إبليس قبل أن يرتكب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، و كان من سكان الأرض، و كان من أشدّ الملائكة اجتهادا و أكثرهم علما، فذلك دعاه إلى الكبر، و كان من حىّ يسمون جنا. و أخرج ابن المنذر، و البيهقى فى الشعب، عنه قال: كان إبليس من خزّان الجنة، و كان يدبر أمر سماء الدنيا. و أخرج محمد بن نصر عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه أمر آدم بالسّجود فسجد، فقال: لك الجنّة و لمن سجد من ولدك؛ و أمر إبليس بالسّجود فأبى أن يسجد، فقال: لك النّار و لمن أبى من ولدك أن يسجد». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ قال: جعله اللّه كافرا لا يستطيع أن يؤمن. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظىّ قال: ابتدأ اللّه خلق إبليس على الكفر و الضلالة، و عمل بعمل الملائكة فصيّره إلى ما ابتدئ إليه خلقه من الكفر، قال اللّه: وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ

[سورة البقرة (٢): الآيات ٣٥ الى ٣٩]

وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٩)

اسْكُنْ أى اتخذ الجنة مسكنا و هو محل السكون، و أما ما قاله بعض المفسرين من أن فى قوله:

---

(١). التحريم: ۶.

(٢). الكهف: ٥٠.

(٣). الأنبياء: ٢٣.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٨٠

اسْكُنْ تنبيها على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا و أخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلا منزلا له فإنه لا يملكه بذلك، و إن له أن يخرجه منه، فهو معنى عرفى، و الواجب الأخذ بالمعنى العرفى إذا لم تثبت فى اللفظ حقيقة شرعية. أَنْتَ تأكيد للضمير المستكن فى الفعل ليصح العطف عليه كما تقرّر فى علم النحو أنه لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المستكنّ إلا بعد تأكيده بمنفصل. و قد يجىء العطف نادر بغير تأكيد كقول الشاعر:

قلت إذا أقبلت و زهر تهادى كنعاج الملا تعسّفن رملا

و قوله: وَ زَوْجُكَ أى حوّاء و هذه هى اللغة الفصيحة زوج بغير هاء، و قد جاء بهاء قليلا، كما فى صحيح مسلم من حديث أنس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان مع إحدى نسائه، فمرّ به رجل فدعاه و قال: «يا فلان هذه زوجتى فلانة» الحديث، و منه قول

الشاعر:

و إنّ الذى يسعى ليفسد زوجتى كساع إلى أسد الشّرى يستميلها

و رَغَداً بفتح المعجمة، و قرأ النخعى و ابن وثاب بسكونها، و الرغد: العيش الهنىء الذى لا عناء فيه، و هو منصوب على الصفة لمصدر محذوف. و حَيْثُ مبنية على الضم، و فيها لغات كثيرة مذكورة فى كتب العربية. و القرب: الدنوّ. قال فى الصحاح: قرب الشىء بالضم يقرب قربا: أى دنا، و قربته بالكسر أقربه قربانا: أى دنوت منه، و قربت أقرب قرابة مثل أكتب كتابة: إذا سرت إلى الماء و بينك و بينه ليلة، و الاسم القرب، قال الأصمعى: قلت لأعرابى ما القرب؟ قال: سير الليل لورود الغد. و النهى عن القرب فيه سدّ للذريعة و قطع للوسيلة، و لهذا جاء به عوضا عن الأكل، و لا يخفى أن النهى عن القرب لا يستلزم النهى عن الأكل، لأنه قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا يحمل إليه، فالأولى أن يقال:

المنع من الأكل مستفاد من المقام. و الشجر: ما كان له ساق من نبات الأرض و واحده شجرة، و قرئ بكسر الشين و الياء المثناة من تحت مكان الجيم. و قرأ ابن محيصن «هذى» بالياء بدل الهاء و هو الأصل. و اختلف أهل العلم فى تفسير هذه الشجرة، فقيل: هى الكرم، و قيل: السنبلة؛ و قيل: التين، و قيل: الحنطة، و سيأتى ما روى عن الصحابة فمن بعدهم فى تعيينها. و قوله: فَتَكُونا معطوف على تَقْرَبا فى الكشاف، أو نصب فى جواب النهى و هو الأظهر. و الظلم أصله: وضع الشىء فى غير موضعه، و الأرض المظلومة: التى لم تحفر قط ثم حفرت، و رجل ظليم: شديد الظلم. و المراد هنا فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ لأنفسهم بالمعصية، و كلام أهل العلم فى عصمة الأنبياء و اختلاف مذاهبهم فى ذلك مدوّن فى مواطنه، و قد أطال البحث فى ذلك الرازى فى تفسيره فى هذا الموضع فليرجع إليه فإنه مفيد. فَأَزَلَّهُمَا من الزلة و هى الخطيئة أى استزلهما و أوقعهما فيها، و قرأ حمزة: فأزالهما بإثبات الألف، من الإزالة و هى التنحية:

أى نحاهما، و قرأ الباقون بحذف الألف. قال ابن كيسان: هو من الزوال: أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية. قال القرطبى: و على هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى؛ يقال منه: أزللته فزلّ و عَنْها متعلق بقوله أزلّهما على تضمينه معنى أصدر: أى أصدر الشيطان زلتهما

فتح القدير، ج ۱، ص: ۸۱

عنها، أى بسببها، يعنى الشجرة. و قيل الضمير للجنة، و على هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما: أى أبعدهما عن الجنة. و قوله: فَأَخْرَجَهُما تأكيد لمضمون الجملة الأولى: أى أزلهما إن كان معناه زال عن المكان، و إن لم يكن معناه كذلك فهو تأسيس، لأن الإخراج فيه زيادة على مجرد الصرف و الإبعاد و نحوهما، لأن الصرف عن الشجرة و الإبعاد عنها قد يكون مع البقاء فى الجنة بخلاف الإخراج لهما عما كانا فيه من النعيم و الكرامة أو من الجنة، و إنما نسب ذلك إلى الشيطان لأنه الذى تولّى إغواء آدم حتى أكل من الشجرة. و قد اختلف أهل العلم فى الكيفية التى فعلها الشيطان فى إزلالهما، فقيل: إنه كان ذلك بمشافهة منه لهما، و إليه ذهب الجمهور و استدلوا على ذلك بقوله تعالى: وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ «۱» و المقاسمة ظاهرها المشافهة. و قيل لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة؛ و قيل غير ذلك مما سيأتى فى المروى عن السلف، و قوله:

اهْبِطُوا خطاب لآدم و حواء، و خوطبا بما يخاطب به الجمع لأن الاثنين أقلّ الجمع عند البعض من أئمة العربية؛ و قيل إنه خطاب لهما و لذريتهما، لأنهما لما كانا أصل هذا النوع الإنسانى جعلا بمنزلته، و يدل على ذلك قوله بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فإن هذه الجملة الواقعة حالا مبينا للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك. و العدوّ خلاف الصديق، و هو من عدا إذا ظلم؛ و يقال ذئب عدوان: أى يعدو على الناس، و العدوان:

الظلم الصراح و قيل إنه مأخوذ من المجاوزة، يقال عداه: و المعنيان متقاربان، فإن من ظلم فقد تجاوز. و إنما أخبر عن قوله

بَعْضُكُمْ بقوله: عَدُوٌّ مع كونه مفردا، لأن لفظ بعض و إن كان معناه محتملا للتعدد فهو مفرد، فروعى جانب اللفظ و أخبر عنه بالمفرد، و قد يراعى المعنى فيخبر عنه بالمتعدد. و قد يجاب بأن عَدُوٌّ و إن كان مفردا فقد يقع موقع المتعدد كقوله تعالى: وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ «٢» و قوله: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ «٣» قال ابن فارس: العدوّ اسم جامع للواحد و الاثنين و الثلاثة. و المراد بالمستقرّ:

موضع الاستقرار، و منه أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا «٤» و قد يكون بمعنى الاستقرار، و منه: إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ «٥» فالآية محتملة للمعنيين، و مثلها قوله: جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً «٦» و المتاع: ما يستمتع به من المأكول و المشروب و الملبوس و نحوها. و اختلف المفسرون فى قوله: إِلى حِينٍ فقيل:

إلى الموت؛ و قيل: إلى قيام الساعة. و أصل معنى الحين فى اللغة: الوقت البعيد، و منه: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ «٧» و الحين الساعة، و منه: أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ «٨» و القطعة من الدهر، و منه: فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ «٩» أى حتى تفنى آجالهم، و يطلق على السنة؛ و قيل على ستة أشهر، و منه: تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ «١٠» و يطلق على المساء و الصباح، و منه: حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ «١١» و قال الفراء: الحين حينان: حين لا يوقف على حده، ثم ذكر الحين الآخر و اختلافه بحسب اختلاف المقامات كما ذكرنا. و قال ابن العربى: الحين المجهول لا يتعلق به حكم، و الحين المعلوم سنة. و معنى تلقى آدم للكلمات:

أخذه لها و قبوله لما فيها و عمله بها؛ و قبل فهمه لها و فطانته لما تضمنته. و أصل معنى التلقى الاستقبال: أى استقبل الكلمات الموحاة إليه و من قرأ بنصب آدَمُ جعل معناه استقبلته الكلمات. و قيل إن معنى تلقّى:

---

(١). الأعراف: ٢١.

(٢). الكهف: ٥٠.

(٣). المنافقون: ٤.

(٤). الفرقان: ٢٤.

(٥). القيامة: ١٢.

(٦). غافر: ۶۴.

(٧). الإنسان: ١.

(٨). الزمر: ٥٨.

(٩). المؤمنون: ٥۴.

(١٠). إبراهيم: ٢٥.

(١١) الروم: ١٧.

تلقّن، و لا وجه له فى العربية. و اختلف السلف فى تعيين هذه الكلمات و سيأتى. و التوبة: الرجوع، يقال تاب العبد: إذا رجع إلى طاعة مولاه، و عبد توّاب: كثير الرجوع، فمعنى تاب عليه: رجع عليه بالرحمة، فقبل توبته، أو وفقه للتوبة. و اقتصر على ذكر التوبة على آدم دون حواء مع اشتراكهما فى الذنب، لأن الكلام من أوّل القصة معه استمر على ذلك، و استغنى بالتوبة عليه عن ذكر التوبة عليها لكونها تابعة له، كما استغنى بنسبة الذنب إليه عن نسبته إليها فى قوله: وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى «١». و أما قوله: قُلْنَا

اهْبِطُوا بعد قوله: قُلْنَا اهْبِطُوا فكرره للتوكيد و التغليظ. و قيل: إنه لما تعلّق به حكم غير الحكم الأوّل كرّره و لا- تزاحم بين المقتضيات. فقد يكون التكرير للأمرين معا. و جواب الشرط فى قوله فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً هو الشرط الثانى مع جوابه قاله سيبويه. و قال الكسائى: إن جواب الشرط الأوّل و الثانى قوله:

فَلا خَوْفٌ و اختلفوا فى معنى الهدى المذكور فقيل: هو كتاب اللّه؛ و قيل التوفيق للهداية. و الخوف:

هو الذعر، و لا يكون إلا فى المستقبل. و قرأ الزهرى و الحسن و عيسى بن عمار و ابن أبى إسحاق و يعقوب:

فَلا خَوْفٌ بفتح الفاء، و الحزن: ضد السرور. قال اليزيدى: حزنه: لغة قريش، و أحزنه لغة تميم.

و قد قرئ بهما. و صحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران و الملازمة. و قد تقدّم ذكر تفسير الخلود.

و قد أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى ذر قال: قلت: يا رسول اللّه! أ رأيت آدم نبيا كان؟ قال:

«نعم، كان نبيا رسولا- كلّمه اللّه قال له: يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ. و أخرج ابن أبى شيبة و الطبرانى عن أبى ذر قال: قلت: يا رسول اللّه! من أوّل الأنبياء؟ قال: «آدم. قلت: نبيّ؟ قال:

نعم، قلت: ثم من؟ قال: نوح، و بينهما عشرة آباء». و أخرج أحمد و البخارى فى تاريخه، و البيهقى فى الشعب، نحوه من حديث أبى ذر مرفوعا و زاد «كم كان المرسلون؟ قال: ثلاثمائة و خمسة عشر جمّا غفيرا». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن حبان و الطبرانى و الحاكم و صحّحه و البيهقى، عن أبى أمامة الباهلى، أن رجلا قال: «يا رسول اللّه! أ نبيّ كان آدم؟ قال: نعم، قال: كم بينه و بين نوح؟ قال: عشرة قرون.

قال: كم بين نوح و بين إبراهيم؟ قال: عشرة قرون، قال: يا رسول اللّه! كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف و أربعة و عشرون ألفا، قال: يا رسول اللّه كم كانت الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة و خمسة عشر جمّا غفيرا». و أخرج أحمد و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه من حديث أبى أمامة نحوه، و صرّح: بأن السائل أبو ذرّ. و أخرج عبد بن حميد و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال: ما سكن آدم الجنّة إلّا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى عنه قال: ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتّى أهبط من الجنة. و أخرج الفريابى، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن المنذر عن الحسن قال: لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة مائة و ثلاثون سنة من أيام الدنيا. و قد روى تقدير اللبث فى الجنة عن سعيد بن جبير بمثل ما تقدّم عن ابن عباس، كما رواه أحمد فى الزهد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى و ابن عساكر عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابة قالوا: لما سكن آدم الجنة كان يمشى فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ و إذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها

---

(١). طه: ١٢١.

اللّه من ضلعه. و أخرج البخارى و مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «استوصوا بالنساء خيرا، فإنّ المرأة خلقت من ضلع، و إنّ أعوج شيء من الضّلع رأسه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، و إن تركته تركته و فيه عوج» و روى أبو الشيخ و ابن عساكر عن ابن عباس قال: إنما سميت حواء لأنها أمّ كل حيّ.

و أخرج ابن عدى و ابن عساكر عن النخعى قال: لمّا خلق اللّه آدم و خلق له زوجه بعث إليه ملكا و أمره بالجماع ففعل، فلما فرغ قالت له حواء: يا آدم هذا طيّب زدنا منه. و أخرج ابن جرير و ابن عساكر عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قال: الرغد: الهنيء.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:

الرغد: سعة المعيشة. و أخرجا عنه فى قوله وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما قال: لا حساب عليكم.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: الشجرة التى نهى اللّه عنها آدم: السنبلة، و فى لفظ: البرّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: هى الكرم. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: هى اللّوز.

و أخرج ابن جرير عن بعض الصحابة قال: هى التينة. و روى مثله أبو الشيخ عن مجاهد و ابن أبى حاتم عن قتادة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن وهب بن منبه قال: هى البرّ. و أخرج أبو الشيخ عن أبى مالك قال: هى النخلة. و أخرج أبو الشيخ عن يزيد بن عبد اللّه بن قسيط قال: هى الأترج. و أخرج أحمد فى الزهد عن شعيب الجبائى قال: هى تشبه البر و تسمى الدعة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله فَأَزَلَّهُمَا قال: فأغواهما. و أخرج ابن أبى حاتم عن عاصم بن بهدلة قال:

فَأَزَلَّهُمَا فنحّاهما. و أخرج أبو داود فى المصاحف، عن الأعمش قال: قراءتنا فى البقرة مكان فأزلهما:

فوسوس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قالوا: أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة فمنعته الخزنة، فأتى الحية و هى دابة لها أربع قوائم كأنها البعير و هى كأحسن الدواب، فكلّمها أن تدخله فى فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأدخلته فى فمها، فمرّت الحية على الخزنة فدخلت و لا يعلمون لما أراد اللّه من الأمر، فكلّمه من فمها فلم يبال بكلامه، فخرج إليه فقال: يا آدم! هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى «۱» و حلف لهما باللّه إِنِّى لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ «۲» فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدّمت حواء فأكلت، ثم قالت: يا آدم كل، فإنّى قد أكلت فلم يضرّنى، فلما أكلا- بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ «۳» و قد أخرج قصة الحية و دخول إبليس معها عبد الرزاق و ابن جرير عن ابن عباس. و أخرج ابن سعد و أحمد فى الزهد و عبد بن حميد و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه و البيهقى عن أبىّ بن كعب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ آدم كان رجلا طوالا كأنّه نخلة سحوق، طوله ستون ذراعا كثير شعر الرأس، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته» الحديث. و أخرج ابن منيع و ابن المنذر و أبو الشيخ و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس. قال: قال اللّه لآدم ما حملك على أن أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها؟ قال: يا رب! زيّنته لى حوّاء، قال: فإنى عاقبتها بأن لا تحمل إلا كرها و لا

---

(۱). طه: ۱۲۰.

(۲). القصص: ۲۰.

(۳). الأعراف: ۲۲.

تضع إلا كرها، و أدميتها فى كل شهر مرتين «۱». و أخرج البخارى و الحاكم عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو لا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، و لو لا حوّاء لم تخن أنثى زوجها» «۲». و قد ثبتت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة فى الصحيحين و غيرهما فى محاجّة آدم و موسى، و حجّ آدم موسى بقوله: أ تلومنى على أمر قدّره اللّه علىّ قبل أن أخلق؟. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ قال: آدم و حواء و إبليس و الحية وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ قال: القبور وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ قال: الحياة. و روى نحو ذلك عن مجاهد و أبى صالح و قتادة، كما أخرجه عن الأول و الثانى أبو الشيخ، و عن الثالث عبد بن حميد. و أخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله: وَ لَكُمْ

فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ قال: القبور وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ قال: إلى يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفا و حوّاء بالمروة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس، قال: «أوّل ما أهبط اللّه آدم إلى أرض الهند» و فى لفظ: «بدجناء أرض بالهند». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه: أهبط إلى أرض بين مكة و الطائف. و أخرج ابن جرير و الحاكم و صحّحه و البيهقى عنه قال: قال علىّ ابن أبى طالب: أطيب ريح الأرض الهند، هبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر عن ابن عباس قال: أهبط آدم بالهند و حواء بجدة، فجاء فى طلبها حتى أتى جمعا، فازدلفت إليه حواء، فلذلك سميت المزدلفة، و اجتمعا بجمع. و أخرج الطبرانى و أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أنزل آدم عليه السلام بالهند فاستوحش، فنزل جبريل فنادى بالأذان، فلما سمع ذكر محمّد قال له: و من محمّد هذا؟ قال: هذا آخر ولدك من الأنبياء». و قد روى عن جماعة من الصحابة أن آدم أهبط إلى أرض الهند، منهم جابر أخرجه ابن أبى الدنيا و ابن المنذر و ابن عساكر، و منهم ابن عمر أخرجه الطبرانى.

و أخرج ابن عساكر عن علىّ قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «إن اللّه لمّا خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهبا و لا فضة، فلما أهبط آدم و حواء أنزل معهما ذهبا و فضة، فسلكه ينابيع فى الأرض منفعة لأولادهما من بعدهما، و جعل ذلك صداق آدم لحواء، فلا ينبغى لأحد أن يتزوّج إلّا بصداق». و أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أنس قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «هبط آدم و حواء عريانين جميعا، عليهم ورق الجنة، فأصابه الحرّ حتى قعد يبكى و يقول لها: يا حوّاء! قد آذانى الحر، فجاءه جبريل بقطن و أمرها أن تغزل و علّمها، و أمر آدم بالحياكة و علّمه». و أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس مرفوعا «أوّل من حاك آدم عليه السّلام». و قد روى عن جماعة من الصحابة و التابعين و من بعدهم حكايات فى صفة هبوط آدم من الجنة و ما أهبط معه و ما صنع عند وصوله إلى الأرض، و لا حاجة لنا يبسط جميع ذلك. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ

---

(١). فى تفسير القرطبى ١/ ٣١٣ دون كلمة «مرتين».

(٢). الخنز: التغير و النتن. قيل: أصله أن بنى إسرائيل ادخروا لحم السلوى فأنتن. و قوله: (لم تخن أنثى زوجها) ليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفاحشة بل المقصود إغراء الزوج بالمخالفة بوجه من الوجوه (فتح البارى ٦/ ٣٦٧- ٣٦٨)

قال: أى ربّ! ألم تخلقنى بيدك؟ قال: بلى، قال: أى ربّ! ألم تنفخ فى من روحك؟ قال:

بلى، قال: أى ربّ! ألم تسبق إلىّ رحمتك قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: أى ربّ! أ لم تسكنى جنتك؟

قال: بلى، قال أى ربّ! أ رأيت إن تبت و أصلحت أ راجعى أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن عساكر بسند ضعيف عن عائشة، عن النبى صلى اللّه عليه و سلّم قال: «لمّا أهبط اللّه آدم إلى الأرض قام و جاء الكعبة فصلّى ركعتين» الحديث. و قد روى نحوه بإسناد لا بأس به أخرجه الأزرقى فى تاريخ مكة، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الدعوات، و ابن عساكر من حديث بريدة مرفوعا. و أخرج الثعلبى عن ابن عباس فى قوله فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ قال: قوله رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ «١» و أخرج ابن المنذر من طريق ابن جرير عنه مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى شعب الإيمان، عن محمد بن كعب القرظى، فى قوله: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن و الضحّاك

مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قيل له: ما الكلمات التى تلقّى آدم من ربّه؟ قال: علّم شأن الحج فهى الكلمات. و أخرج عبد بن حميد عن عبد اللّه بن زيد فى قوله: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ قال: لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك عملت سوءا و ظلمت نفسى، فاغفر لى إنك أنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك رب عملت سوءا و ظلمت نفسى، فتب عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم. و أخرج نحوه البيهقى فى شعب الإيمان، و ابن عساكر عن أنس. و أخرج نحوه هنا و فى الزهد عن سعيد بن جبير. و أخرج نحوه ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. و أخرج نحوه الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف عن عليّ مرفوعا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً قال الهدى: الأنبياء و الرسل و البيان. و أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى الطفيل قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فمن تبع هدى بتثقيل الياء و فتحها. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ يعنى فى الآخرة وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ يعنى لا يحزنون للموت.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٠ الى ٤٢]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، و خاضوا فى بحر لم يكلفوا سباحته، و استغرقوا أوقاتهم فى فنّ لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم فى التكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب اللّه سبحانه، و ذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف، فجاؤوا بتكلفات و تعسفات يتبرأ منها الإنصاف، و يتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب

---

(١). الأعراف: ٢٣.

سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، و جعلوه المقصد الأهمّ من التأليف، كما فعله البقاعى فى تفسيره و من تقدّمه حسبما ذكر فى خطبته، و إن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرّقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أن قبضه اللّه عزّ و جلّ إليه، و كل عاقل فضلا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالا، و تحليل أمر كان حراما، و إثبات أمر لشخص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، و تارة يكون الكلام مع المسلمين، و تارة مع الكافرين، و تارة مع من مضى، و تارة مع من حضر، و حينا فى عبادة، و حينا فى معاملة، و وقتا فى ترغيب، و وقتا فى ترهيب، و آونة فى بشارة، و آونة فى نذارة، و طورا فى أمر دنيا، و طورا فى أمر آخرة، و مرة فى تكاليف آتية، و مرة فى أقاصيص ماضية؛ و إذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، و متباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب و النون و الماء و النار و الملّاح و الحادى، و هل هذا إلا من فتح أبواب الشك و توسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل و القصور، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن و يفردون ذلك بالتصنيف، تقرّر عنده أن هذا أمر لا بد منه، و أن لا يكون القرآن

بليغا معجزا إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة، و تبين الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون فى ذلك، فوجده تكلفا محضا، و تعسفا بيّنا انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية و سلامة، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبا على هذا الترتيب الكائن فى المصحف؛ فكيف و كل من له أدنى علم بالكتاب، و أيسر حظ من معرفته يعلم علما يقينا أنه لم يكن كذلك، و من شك فى هذا و إن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول، المطلعين على حوادث النبوّة، فإنه ينثلج صدره، و يزول عنه الريب، بالنظر فى سورة من السور المتوسطة، فضلا عن المطوّلة لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت فى حوادث مختلفة، و أوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها و ما نزل فيها فى الترتيب، بل يكفى المقصر أن يعلم أن أوّل ما نزل اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ و بعده يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ و ينظر أين موضع هذه الآيات و السور فى ترتيب المصحف؟ و إذا كان الأمر هكذا، فأىّ معنى لطلب المناسب بين آيات نعلم قطعا أنه قد تقدّم فى ترتيب المصحف ما أنزله اللّه متأخرا، و تأخر ما أنزله اللّه متقدما، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدّى لذلك من الصحابة، و ما أقل نفع مثل هذا و أنزر ثمرته، و أحقر فائدته، بل هو عند من يفهم ما يقول و ما يقال له من تضييع الأوقات، و إنفاق الساعات فى أمر لا يعود بنفع على فاعله و لا على من يقف عليه من الناس، و أنت تعلم أنه لو تصدّى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه و رسائله و إنشاءاته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التى تكون تارة مدحا و أخرى هجاء، و حينا نسيبا و حينا رثاء، و غير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدى إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره و مقاطعه، ثم تكلف تكلفا آخر فناسب بين الخطبة التى خطبها فى الجهاد

فتح القدير، ج ١، ص: ٨٧

و الخطبة التى خطبها فى الحج و الخطبة التى خطبها فى النكاح و نحو ذلك، و ناسب بين الإنشاء الكائن فى العزاء و الإنشاء الكائن فى الهناء و ما يشابه ذلك، لعدّ هذا المتصدى لمثل هذا مصابا فى عقله، متلاعبا بأوقاته، عابثا بعمره الذى هو رأس ماله؛ و إذا كان مثل هذا بهذه المنزلة، و هو ركوب الأحموقة فى كلام البشر، فكيف نراه يكون فى كلام اللّه سبحانه الذى أعجزت بلاغته بلغاء العرب، و أبكمت فصاحته فصحاء عدنان و قحطان. و قد علم كل مقصر و كامل أن اللّه سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربىّ، و أنزله بلغة العرب، و سلك فيه مسالكهم فى الكلام، و جرى به مجاريهم فى الخطاب. و قد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتى بفنون متخالفة، و طرائق متباينة فضلا عن المقامين، فضلا عن المقامات، فضلا عن جميع ما قاله ما دام حيا، و كذلك شاعرهم. و لنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التى تعثر فى ساحاتها كثير من المحققين، و إنما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر آدم عليه السلام، فإذا قال متكلف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا: لا كيف.

فدع عنك نهبا صيح فى حجراتهو هات حديثا ما حديث الرواحل

قوله يا بَنِي إِسْرائِيلَ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام و معناه عبد اللّه، لأن إسرا فى لغتهم: هو العبد و إيل هو اللّه، قيل: إن له اسمين، و قيل: إسرائيل لقب له، و هو اسم عجمى غير منصرف، و فيه سبع لغات: إسرائيل بزنة إبراهيم، و إسرائيل بمدّة مهموزة مختلسة رواها ابن شنبوذ عن ورش، و إسرائيل بمدّة بعد الياء من غير همز، و هى قراءة الأعمش و عيسى بن عمر، و قرأ الحسن من غير همز و لا مدّ و إسرائيل بهمزة مكسورة. و إسراءل بهمزة مفتوحة، و تميم يقولون إسرائين. و الذكر هو ضد الإنصات، و جعله بعض أهل اللغة مشتركا بين ذكر القلب و اللسان. و قال الكسائى: ما كان بالقلب فهو مضموم الذال، و ما كان باللسان فهو مكسور الذال. قال ابن الأنبارى: و المعنى فى الآية: اذكروا شكر نعمتى، فحذف

الشكر اكتفاء بذكر النعمة، و هى اسم جنس، و من جملتها أنه جعل منهم أنبياء و أنزل عليهم الكتب و المنّ و السلوى، و أخرج لهم الماء من الحجر، و نجّاهم من آل فرعون و غير ذلك. و العهد قد تقدم تفسيره. و اختلف أهل العلم فى العهد المذكور فى هذه الآية ما هو؟ فقيل هو المذكور فى قوله تعالى:

خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ* «١» و قيل: هو ما فى قوله: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً «٢» و قيل هو قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ «٣» و قال الزجّاج: هو ما أخذ عليهم فى التوراة من اتباع محمد صلّى اللّه عليه و سلم؛ و قيل: هو أداء الفرائض، و لا مانع من حمله على جميع ذلك. و معنى قوله: أُوفِ بِعَهْدِكُمْ أى بما ضمنت لكم من الجزاء. و الرهب و الرهبة: الخوف، و يتضمن الأمر به معنى التهديد، و تقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدّم فى إِيَّاكَ نَعْبُدُ «٤» و إذا كان التقديم على طريقة الإضمار و التفسير مثل زيدا ضربته وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ كان أوكد فى إفادة الاختصاص، و لهذا قال صاحب الكشاف: و هو أوكد فى إفادة الاختصاص من إياك نعبد، و سقطت الياء من قوله فَارْهَبُونِ لأنها رأس آية و مُصَدِّقاً حال من ما فى قوله: بِما أَنْزَلْتُ أو من ضميرها المقدر بعد الفعل أى أنزلته.

---

(١). البقرة: ٦٣.

(٢). المائدة: ١٢.

(٣). آل عمران: ١٨٧.

(٤). انظر ص: ٢٧.

فتح القدير، ج‌١، ص: ٨٨

و قوله أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ إنما جاء به مفردا، لم يقل كافرين حتى يطابق ما قبله لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ، متعدد المعنى نحو فريق أو فوج. و قال الأخفش و الفرّاء: إنه محمول على معنى الفعل، لأن المعنى أوّل من كفر. و قد يكون من باب قولهم: هو أظرف الفتيان و أجمله، كما حكى ذلك سيبويه، فيكون هذا المفرد قائما مقام الجمع؛ و إنما قال أوّل مع أنه تقدّمهم إلى الكفر به كفار قريش، لأن المراد أوّل كافر به من أهل الكتاب، لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء، و ما يلزم من التصديق، و الضمير فى به عائد إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم:

أى لا تكونوا أوّل كافر بهذا النبى مع كونكم قد وجدتموه مكتوبا عندكم فى التوراة و الإنجيل، مبشرا به فى الكتب المنزلة عليكم. و قد حكى الرازى فى تفسيره فى هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الكتب السالفة، و قيل إنه عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله: بِما أَنْزَلْتُ و قيل عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله: لِما مَعَكُمْ و قوله: وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي أى بأوامرى و نواهى ثَمَناً قَلِيلًا أى عيشا نزرا و رئاسة لا خطر لها. جعل ما اعتاضوه ثمنا، و أوقع الاشتراء عليه و إن كان الثمن هو المشترى به، لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال: أى لا تستبدلوا بآياتى ثمنا قليلا، و كثيرا ما يقع مثل هذا فى كلامهم.

و قد قدّمنا الكلام عليه فى تفسير قوله تعالى: اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى و من إطلاق اسم الثمن على نيل عرض من أعراض الدنيا قول الشاعر:

إن كنت حاولت ذنبا أو ظفرت بهفما أصبت بترك الحجّ من ثمن

و هذه الآية و إن كانت خطابا لبنى إسرائيل و نهيا لهم، فهى متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر اللّه به، أو إثبات باطل نهى اللّه عنه، أو امتنع من تعليم ما علّمه اللّه، و كتم البيان الذى أخذ اللّه عليه

ميثاقه به، فقد اشترى بآيات اللّه ثمنا قليلا. و قوله: وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ الكلام فيه كالكلام فى قوله تعالى: وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ و قد تقدم قريبا. و اللبس: الخلط، يقال لبست عليه الأمر ألبسه: إذا خلطت حقه بباطله و واضحه بمشكله، قال اللّه تعالى: وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ قالت الخنساء:

ترى الجليس يقول الحقّ تحسبهرشدا و هيهات فانظر ما به التبسا

صدّق مقالته و احذر عداوتهو البس عليه أمورا مثل ما لبسا

و قال العجّاج:

لمّا لبسن الحقّ بالتجنّىغنين فاستبدلن زيدا منّى

و منه قول عنترة:

و كتيبة لبّستها بكتيبةحتّى إذا التبست نفضت لها يدى

و قيل: هو مأخوذ من التغطية: أى لا تغطّوا الحق بالباطل، و منه قول الجعدى:

فتح القدير، ج۱، ص: ۸۹ إذا ما الضّجيع ثنى جيدهاتثنّت عليه فكانت لباسا

و قول الأخطل:

و قد لبست لهذا الأمر أعصرهحتى تجلّل رأسى الشيب فاشتعلا

و الأوّل أولى. و الباطل فى كلام العرب: الزائل، و منه قول لبيد:

ألا كلّ شىء ما خلا اللّه باطل «۱» و بطل الشىء يبطل بطولا و بطلانا، و أبطله غيره. و يقال ذهب دمه بطلا: أى هدرا، و الباطل: الشيطان؛ و سمى الشجاع بطلا لأنه يبطل شجاعة صاحبه، و المراد به هنا خلاف الحق. و الباء فى قوله بالباطل يحتمل أن تكون صلة و أن تكون للاستعانة ذكر معناه فى الكشاف، و رجّح الرازى فى تفسيره الثانى. و قوله:

وَ تَكْتُمُوا يجوز أن يكون داخلا تحت حكم النهى أو منصوبا بإضمار أن، و على الأوّل يكون كل واحد من اللبس و الكتم منهيا عنه، و على الثانى يكون المنهى عنه هو الجمع بين الأمرين، و من هذا يلوح رجحان دخوله تحت حكم النهى، و أن كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفراده، و المراد النهى عن كتم حجج اللّه التى أوجب عليهم تبليغها و أخذ عليهم بيانها، و من فسرّ اللبس أو الكتمان بشىء معين، و معنى خاص فلم يصب إن أراد أن ذلك هو المراد دون غيره، لا إن أراد أنه مما يصدق عليه. و قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جملة حالية، و فيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل، و ذلك أغلظ للذنب و أوجب للعقوبة، و هذا التقييد لا يفيد جواز اللبس و الكتمان مع الجهل، لأن الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شىء حتى يعلم بحكمه، خصوصا فى أمور الدين، فإن التكلم فيها و التصدّى للإصدار و الإيراد فى أبوابها إنما أذن اللّه به لمن كان رأسا فى العلم فردا فى الفهم، و ما للجهال و الدخول فيما ليس من شأنهم و القعود فى غير مقاعدهم؟! و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يا بَنِي إِسْرائِيلَ قال للأحبار من اليهود: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ أى بلائى عندكم و عند آبائكم، لما كان نجّاهم به من فرعون و قومه وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي الذى أخذت فى أعناقكم للنّبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذا جاءكم أُوفِ بِعَهْدِكُمْ أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه و اتباعه بوضع ما كان عليكم من الإصر و الأغلال وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ و عندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى و بما جاءكم به و أنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم، و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله أَوْفُوا بِعَهْدِي يقول: ما أمرتكم به من طاعتى و نهيتكم عنه من معصيتى فى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و غيره أُوفِ بِعَهْدِكُمْ يقول: أرض عنكم و أدخلكم الجنة.

و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود مثله. و أخرج ابن المنذر

---

(۱). و تمامه: و كل نعيم لا محالة زائل.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۹۰

عن مجاهد فى قوله: أَوْفُوا بِعَهْدِي قال: هو الميثاق الذى أخذه عليهم فى سورة المائدة لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ «۱» لآية و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال:

أوفوا لى بما افترضت عليكم أوف لكم بما وعدتكم. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن الضحاك نحوه.

و أخرج ابن جرير عن أبى العالية قوله: إِيَّايَ فَارْهَبُونِ قال: فاخشون. و أخرج عبد بن حميد و ابن جريج عن مجاهد فى قوله: وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ قال: القرآن مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ قال: التوراة و الإنجيل.

و أخرج ابن جريج عن ابن جرير فى قوله: أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ قال: بالقرآن. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى الآية قال: يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت على محمد مصدقا لما معكم، لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ أى أوّل من كفر بمحمد وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي يقول: لا تأخذوا عليه أجرا، قال: و هو مكتوب عندهم فى الكتاب الأوّل: يا ابن آدم علّم مجانا كما علّمت مجانا. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: لا تأخذ على ما علّمت أجرا، إنما أجر العلماء و الحكماء و الحلماء على اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ قال: لا تخلطوا الصدق بالكذب وَ تَكْتُمُوا الْحَقَ قال: لا تكتموا الحق و أنتم قد علمتم أن محمدا رسول اللّه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ لا تَلْبِسُوا الآية، قال: لا تلبسوا اليهودية و النصرانية بالإسلام وَ تَكْتُمُوا الْحَقَ قال: كتموا محمدا و هم يعلمون أنه رسول اللّه يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل. و أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: الحق: التوراة، و الباطل: الذى كتبوه بأيديهم.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۴۳ الى ۴۶]

وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (۴۳) أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۴۴) وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ (۴۵) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (۴۶)

قد تقدم الكلام فى تفسير إقامة الصلاة و اشتقاقها، و المراد هنا الصلاة المعهودة، و هى صلاة المسلمين، على أن التعريف للعهد، و يجوز أن تكون للجنس، و مثلها الزكاة. و الإيتاء: الإعطاء، يقال آتيته: أى أعطيته. و الزكاة مأخوذة من الزكاء، و هو النماء، زكا الشيء: إذا نما و زاد، و رجل زكى: أى زائد الخير؛ و سمى إخراج جزء من المال زكاة: أى زيادة مع أنه نقص منه، لأنها تكثر بركته بذلك، أو تكثر أجر صاحبه؛ و قيل: الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال: زكا فلان: أى طهر.

و الظاهر أن الصلاة و الزكاة و الحج و الصوم و نحوها قد نقلها الشرع إلى معان شرعية هى المرادة بما هو مذكور فى الكتاب و السنة منها. و قد تكلّم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه. و قد اختلف أهل العلم فى المراد بالزكاة هنا، فقيل: المراد المفروضة لاقترانها بالصلاة، و قيل صدقة الفطر، و الظاهر أن المراد ما هو أعمّ من ذلك. و الركوع فى اللغة: الانحناء، و كل منحن راكع، قال لبيد:

أخبّر أخبار القرون التى مضت أدبّ كأنّى كلّما قمت راكع

---

(۱). المائدة: ۱۲.

فتح القدير، ج‌۱، ص: ۹۱

و قيل الانحناء يعم الركوع و السجود، و يستعار الركوع أيضا للانحطاط فى المنزلة، قال الشاعر:

لا تهين الفقير «۱» علّك أن‌تركع يوما و الدّهر قد رفعه

و إنما خص الركوع بالذكر هنا، لأن اليهود لا ركوع فى صلاتهم؛ و قيل: لكونه كان ثقيلا على أهل الجاهلية، و قيل: إنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة. و الركوع الشرعى: هو أن ينحنى الرجل و يمد ظهره و عنقه و يفتح أصابع يديه و يقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعا ذاكرا بالذكر المشروع. و قوله: مَعَ الرَّاكِعِينَ فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة و الخروج إلى المساجد. و قد ورد فى ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة فى الصحيحين و غيرهما ما هو معروف. و قد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم فى كون ذلك عينا أو كفاية؛ و ذهب الجمهور إلى أنه سنة مؤكدة مرغب فيها و ليس بواجب، و هو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة، من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس و عشرين درجة أو بسبع و عشرين درجة. و ثبت فى الصحيح عنه صلّى اللّه عليه و سلم: الذى يصلّى مع الإمام أفضل من الذى يصلّى وحده ثم ينام. و البحث طويل الذيول، كثير النقول. و الهمزة فى قوله أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، و ليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فانه فعل حسن مندوب اليه، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله: وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ مع التطهر بتزكية النفس و القيام فى مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاما للناس و تلبيسا عليهم، كما قال أبو العتاهية:

و صفت التّقى حتّى كأنّك ذو تقى‌و ريح الخطايا من ثيابك تسطع

و البرّ: الطاعة و العمل الصالح، و البر: سعة الخير و المعروف، و البر: الصدق، و البر: ولد الثعلب، و البر: سوق الغنم، و من إطلاقه على الطاعة قول الشاعر:

لا همّ ربّ إن يكونوا «۲» دونكايبرّك النّاس و يفجرونكا

أى يطيعونك و يعصونك. و النسيان بكسر النون هو هنا بمعنى الترك: أى و تتركون أنفسكم، و فى الأصل خلاف الذكر و الحفظ: أى زوال الصورة التى كانت محفوظة عن المدركة و الحافظة. و النفس: الروح، و منه قوله تعالى اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها «۳» يريد الأرواح. و قال أبو خراش:

نجا سالم و النفس منه بشدقه‌و لم ينج إلا جفن سيف و مئزرا

و النفس أيضا: الدم، و منه قولهم: سالت نفسه، قال الشاعر:

تسيل على حدّ السّيوف نفوسناو ليست على غير الظّبات تسيل

---

(۱). فى القرطبى «و لا تعاد الضعيف».

(۲). فى البحر المحيط؛ لأبى حيان «إن بكرا».

(۳). الزمر: ۴۲.

فتح القدير، ج‌۱، ص: ۹۲

و النفس: الجسد، و منه:

نبّئت أنّ بنى سحيم أدخلواأبياتهم تامور نفس المنذر

و التامور: البدن.

و قوله وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع و أشد توبيخ و أبلغ تبكيت: أى كيف تتركون البر الذى تأمرون الناس به و أنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل و شدّة الوعيد عليه، كما ترونه فى الكتاب الذى تتلونه و الآيات التى تقرؤونها من التوراة. و التلاوة: القراءة، و هى المراد هنا و أصلها الاتباع، يقال: تلوته: إذا تبعته؛ و سمى القارئ تاليا و القراءة تلاوة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض، على النسق الذى هو عليه. قوله أَ فَلا تَعْقِلُونَ استفهام للإنكار عليهم و التقريع لهم، و هو أشدّ من الأوّل و أشدّ، و أشد ما قرّع اللّه فى هذا الموضع من يأمر بالخير و لا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أوّلا- أمرهم للناس بالبرّ مع نسيان أنفسهم فى ذلك الأمر الذى قاموا به فى المجامع و نادوا به فى المجالس إيهاما للناس بأنهم مبلّغون عن اللّه ما تحملوه من حججه، و مبينون لعباده ما أمرهم ببيانه، و موصلون إلى خلقه ما استودعهم و ائتمنهم عليه، و هم أترك الناس لذلك و أبعدهم من نفعه و أزهدهم فيه، ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبيّنة لحالهم و كاشفة لعوارهم و هاتكة لأستارهم، و هى أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة و الخصلة الفظيعة على علم منهم و معرفة بالكتاب الذى أنزل عليهم و ملازمة لتلاوته، و هم فى ذلك كما قال المعرّى:

و إنّما حمل التوراة قارئهاكسب الفوائد لا حبّ التّلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع، و من توبيخ إلى توبيخ فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم و حملة الحجة و أهل الدراسة لكتب اللّه، لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا- بينكم و بين ذلك ذائدا لكم عنه زاجرا لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم. و العقل فى أصل اللغة: المنع، و منه عقال البعير، لأنه يمنعه عن الحركة، و منه العقل فى الدية لأنّه يمنع و لى المقتول عن قتل الجانى. و العقل نقيض الجهل و يصح تفسير ما فى الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة: أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية، و يصحّ أن يكون معنى الآية: أفلا تنظرون بعقولكم التى رزقكم اللّه إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم. و قوله: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ الصبر فى اللغة: الحبس، و صبرت نفسى على الشىء:

حبستها. و منه قول عنترة:

فصبرت عارفة لذلك حرّةترسو إذا نفس الجبان تطلّع

و المراد هنا: استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات و قصرها على الطاعات على دفع ما يرد عليكم من المكروهات، و قيل: الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة. و استدل هذا القائل بقوله تعالى:

وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها «١» و ليس فى هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفى ما تفيده الألف و اللام

---

(١). طه: ١٣٢.

الداخلة على الصبر من الشمول، كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما تصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة و نافلة. و اختلف المفسرون فى رجوع الضمير فى قوله: وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ فقيل إنه راجع إلى الصلاة و إن كان المتقدم هو الصبر و الصلاة فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما. كما قال تعالى: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «١» إذا كان أحدهما داخلا تحت الآخر بوجه من الوجوه، و منه قول الشاعر:

إن شرخ الشباب و الشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

و لم يقل ما لم يعاصا بل جعل الضمير راجعا إلى الشباب، لأن الشعر الأسود داخل فيه؛ و قيل إنه عائد إلى الصلاة من دون اعتبار

دخول الصبر تحتها لأن الصبر هو عليها، كما قيل سابقا؛ و قيل إن الضمير راجع إلى الصلاة و إن كان الصبر مرادا معها، لكن لما كانت آكد و أعم تكليفا و أكثر ثوابا كانت الكناية بالضمير عنها، و منه قوله: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ «٢» كذا قيل: و قيل إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة، و مثل ذلك قوله تعالى: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها «٣» فأرجع الضمير هنا إلى الفضة و التجارة لمّا كانت الفضة أعم نفعا و أكثر وجودا، و التجارة هى الحاملة على الانفضاض، و الفرق بين هذا الوجه و بين الوجه الأوّل أن الصبر هناك جعل داخلا تحت الصلاة، و هنا لم يكن داخلا و إن كان مرادا؛ و قيل إن المراد الصبر و الصلاة، و لكن أرجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، و منه قوله تعالى:

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً «٤» أى ابن مريم آية و أمه آية. و منه قول الشاعر:

و من يك أمسى بالمدينة رحلهفإنّى و قيّار بها لغريب

و قال آخر:

لكلّ همّ من الهموم سعةو الصّبح و المسى لا فلاح معه

و قيل رجع الضمير إليهما بعد تأويلهما بالعبادة؛ و قيل رجع إلى المصدر المفهوم من قوله: وَ اسْتَعِينُوا و هو الاستعانة؛ و قيل رجع إلى جميع الأمور التى نهى عنها بنو إسرائيل. و الكبيرة: التى نهى عنها بنو إسرائيل. و الكبيرة: التى يكبر أمرها و يتعاظم شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها و القيام بها من المشقة، و منه كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ «٥» و الخاشع: هو المتواضع، و الخشوع: التواضع. قال فى الكشاف: و الخشوع: الإخبات و التطامن، و منه الخشعة للرملة المتطامنة و أما الخضوع: فاللين و الانقياد، و منه خضعت بقولها: إذا لينته. انتهى. و قال الزجاج: الخاشع الذى يرى أثر الذل و الخشوع عليه كخشوع الدار بعد الإقواء «٦»، و مكان خاشع: لا يهتدى إليه؛ و خشعت الأصوات: أى سكنت، و خشع ببصره: إذا غضه، و الخشعة: قطعة من الأرض رخوة. و قال سفيان الثورى: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثورىّ أنت تريد أن تكون إماما للناس

---

(١). التوبة: ٦٢.

(٢). التوبة: ٣۴.

(٣). الجمعة: ١١.

(۴). المؤمنون: ١۵٠.

(۵). الشورى: ١٣.

(۶). أقوت الدار: خلت من ساكنيها.

و لا تعرف الخشوع؟ ليس الخشوع بأكل الخشن و لبس الخشن و تطأطئ الرأس، لكن الخشوع أن ترى الشريف و الدنيء فى الحق سواء، و تخشع للّه فى كل فرض افترض عليك. انتهى. و ما أحسن ما قاله بعض المحققين فى بيان ماهيته: إنه هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون و تواضع، و استثنى سبحانه الخاشعين- مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم فى الصلاة، و ملازمتهم لوظائف الخشوع الذى هو روح الصلاة، و إتعابهم إتعابا عظيما فى الأسباب الموجبة للحضور و الخضوع- لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر و توفر الجزاء و الظفر بما وعد اللّه به من عظيم الثواب، تسهل عليهم تلك المتاعب، و يتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة و راحة عندهم محضة، و لأمر ما هان على قوم ما يلاقونه من حرّ السيوف عند تصادم الصفوف، و كانت الأمنية عندهم طعم المنية حتى قال قائلهم:

و لست أبالی حین أقتل مسلماعلی أیّ جنب کان فی اللّه مصرعی
و الظن هنا عند الجمهور بمعنی الیقین، و منه قوله تعالی: إِنِّی ظَنَنْتُ أَنِّی مُلاقٍ حِسابِیَهْ و قوله:
فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها و منه قول درید بن الصمة:
فقلت لهم ظنّوا بألفی مدجّجسراتهم فی الفارسیّ المسرّد
و قیل: إن الظن فی الآیة علی بابه، و یضمر فی الکلام بذنوبهم، فکأنهم توقعوا لقاءه مذنبین، ذکره المهدوی و الماوردی، و الأوّل أولی. و أصل الظن: الشک مع المیل إلی أحد الطرفین، و قد یقع موقع الیقین فی مواضع، منها هذه الآیة. و معنی قوله: مُلاقُوا رَبِّهِمْ ملاقو جزائه، و المفاعلة هنا لیست علی بابها، و لا أری فی حمله علی أصل معناه من دون تقدیر المضاف بأسا. و فی هذا مع ما بعده من قوله: وَ أَنَّهُمْ إِلَیْهِ راجِعُونَ إقرار بالبعث و ما وعد اللّه به فی الیوم الآخر. و قد أخرج ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله:
وَ ارْکَعُوا قال: صلوا. و أخرج ابن أبی حاتم أیضا عن مقاتل فی قوله وَ ارْکَعُوا مَعَ الرَّاکِعِینَ قال:
أمرهم أن یرکعوا مع أمة محمد یقول: کونوا منهم و معهم. و أخرج عبد بن حمید عن قتادة فی قوله تعالی:
أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ الآیة، قال: أولئک أهل الکتاب کانوا یأمرون الناس بالبرّ و ینسون أنفسهم و هم یتلون الکتاب و لا ینتفعون بما فیه. و أخرج الثعلبی و الواحدی عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآیة فی یهود أهل المدینة، کان الرجل منهم یقول لصهره و لذی قرابته و لمن بینه و بینه رضاع من المسلمین: اثبت علی الدین الذی أنت علیه و ما یأمرک به هذا الرجل، یعنون محمدا صلّی اللّه علیه و سلم، فإن أمره حق، و کانوا یأمرون الناس بذلک و لا یفعلونه. و أخرج ابن جریر عنه فی قوله: أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ قال: بالدخول فی دین محمد.
و أخرج ابن إسحاق و ابن جریر و ابن أبی حاتم عنه فی الآیة قال: تنهون الناس عن الکفر بما عندکم من النبوّة و العهد من التوراة، و أنتم تکفرون بما فیها من عهدی إلیکم فی تصدیق رسلی؟ و أخرج عبد الرزاق و ابن أبی شیبة و ابن جریر و البیهقی عن أبی الدرداء فی الآیة قال: لا یفقه الرجل کل الفقه حتی یمقت الناس فی ذات اللّه، ثم یرجع إلی نفسه فیکون لها أشد مقتا.
و أخرج أحمد و ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و البزار و ابن المنذر
فتح القدیر، ج ۱، ص: ۹۵
و ابن أبی حاتم و أبو نعیم فی الحلیة و ابن حبان و ابن مردویه و البیهقی عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم:
«رأیت لیلة أسری بی رجالا تقرض شفاههم بمقاریض من نار، کلّما قرضت رجعت، فقلت لجبریل: من هؤلاء؟
قال: هؤلاء خطباء من أمتک کانوا یأمرون النّاس بالبرّ و ینسون أنفسهم و هم یتلون الکتاب أفلا یعقلون».
و ثبت فی الصحیحین من حدیث أسامة بن زید قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: «یجاء بالرجل یوم القیامة فیلقی فی النّار، فتندلق به أقتابه فیدور بها کما یدور الحمار برحاه، فیطیف به أهل النّار فیقولون:
یا فلان ما لک ما أصابک؟ ألم تکن تأمرنا بالمعروف و تنهانا عن المنکر؟ فیقول: کنت آمرکم بالمعروف و لا آتیه، و أنهاکم عن المنکر و آتیه» و فی الباب أحادیث منها عن جابر مرفوعا عن الخطیب و ابن النجار، و عن الولید بن عقبة مرفوعا عند الطبرانی و الخطیب بسند ضعیف و عند عبد اللّه بن أحمد فی زوائد الزهد عنه موقوفا، و معناها جمیعا: أنه یطلع قوم من أهل الجنة علی قوم من أهل النار فیقولون لهم: بم دخلتم النار و إنما دخلنا الجنة بتعلیمکم؟ قالوا: إنا کنا نأمرکم و لا نفعل. و أخرج الطبرانی، و الخطیب فی الاقتضاء، و الأصبهانی فی الترغیب بسند جید عن جندب بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «مثل العالم الذی یعلّم النّاس الخیر و لا یعمل به کمثل السّراج یضیء للنّاس و یحرق نفسه». و أخرج ابن أبی شیبة و عبد

اللّه بن أحمـد فی زوائد الزهد عنه نحوه. و أخرج الطبرانی، و الخطیب فی الاقتضاء، عن أبی برزة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن قانع فی معجمـه، و الخطیب فی الاقتضـاء، عن سلیک مرفوعـا نحـوه. و أخرج ابن سـعد و ابن أبی شـیبة و أحمـد فی الزهـد عن أبی الـدرداء قال: «ویل للـذی لا یعلم مرة و لو شاء اللّه لعلّمه، و ویل للذی یعلم و لا یعمل سـبع مرات». و أخرج أحمد فی الزهد عن عبـد اللّه بن مسعود مثله، و مـا أحسن ما أخرجه ابن مردویه، و البیهقی فی شعب الإیمان، و ابن عساکر، عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: یا ابن عباس إنی أریـد أن آمر بالمعروف و أنهی عن المنکر، قال: أو بلغت ذلک؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضـح بثلاثـة أحرف فی کتـاب اللّه فافعـل، قـال: و مـا هنّ؟ قـال: قوله عزّ و جـلّ: أَ تَـأْمُرُونَ النَّاسَ بِـالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَـکُمْ «۱» أحکمت هـذه الآیـة؟ قـال: لاـ قـال: فـالحرف الثانی، قال: قوله تعالی لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ- کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ «۲» أحکمت هذه الآیة؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعیب: ما أُرِیدُ أَنْ أُخالِفَکُمْ إِلی ما أَنْهاکُمْ عَنْهُ «۳» أحکمت هذه الآیة؟ قال: لا، قال:

فابـدأ بنفسک. و أخرج عبد بن حمید، عن قتادة فی قوله تعالی: وَ اسْـتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ قال: إنهما معونتان من اللّه فاسـتعینوا بهمـا. و قـد أخرج ابن أبی الـدنیا فی کتـاب الصبر، و أبو الشـیخ فی الثواب، و الـدیلمی فی مسـند الفردوس، عن علیّ قـال: قـال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «الصـبر ثلاثـة: فصـبر علی المصـیبة، و صـبر علی الطاعـة، و صـبر عن المعصـیة». و قـد وردت أحادیث کثیرة فی مـدح الصبر و الترغیب فیه و الجزاء للصابرین، و لم نـذکرها هنا، لأنها لیست بخاصة بهذه الآیة، بل هی واردة فی مطلق الصبر. و قد ذکر السیوطی فی الدر المنثور هاهنا منها شطرا صالحا، و فی الکتاب العزیز من الثناء علی ذلک و الترغیب فیه الکثیر الطیب. و أخرج أحمـد و أبو داود و ابن جریر عن حذیفـة قال: کان النبیّ صـلّی اللّه علیه و سلّم إذا حزبه أمر فزع إلی الصلاة. و أخرج

---

(۱). البقرة: ۴۴.

(۲). الصف: ۲- ۳.

(۳). هود: ۸۸.

أحمـد و النسـائی و ابن حبـان، عن صـهیب، عن النبیّ صـلّی اللّه علیه و سـلّم قـال: «و کانوا: یعنی الأنبیاء، یفزعون إذا فزعوا إلی الصّـلاة». و أخرج ابن أبی الـدنیا و ابن عسـاکر عن أبی الـدرداء مرفوعـا نحـو حـدیث حذیفـة. و أخرج سـعید ابن منصور و ابن المنـذر و الحـاکم، و البیهقی فی شـعب الإیمـان، عن ابن عباس أنه کان فی مسیر له، فنعی إلیه ابن له، فنزل فصـلّی رکعتین، ثم استرجع فقـال: فعلنا کما أمرنا اللّه فقال وَ اسْـتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ و قـد روی عنه نحو ذلک سـعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنـذر و الـبیهقی لمـا نعی إلیـه أخـوه قثـم. و قـد روی نحـو ذلـک عـن جماعـة من الصـحابة و التـابعین. و أخرج ابن جریر عن الضـحاک فی قوله: وَ إِنَّهـا لَکَبِیرَةٌ قال: لثقیلـة. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِلَّا عَلَی الْخاشِـعِینَ قال: المؤمنین حقا. و أخرج ابن جریر عن أبی العالیة فی قوله: إِلَّا عَلَی الْخاشِـعِینَ قال: الخائفین. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حـاتم عن مجاهـد قال: کل ظنّ فی القرآن فهو یقین. و لا یتم هـذا فی مثل قوله ب إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَـیْئاً* و قوله: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و لعله یریـد الظن المتعلق بـأمور الآـخرة کمـا رواه ابن جریر عن قتـادة قال: ما کان من ظن الآخرة فهو علم. و أخرج ابن جریر عن أبی العالیة فی قوله وَ أَنَّهُمْ إِلَیْهِ راجِعُونَ قال: یستیقنون أنهم یرجعون إلیه یوم القیامة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٧ الى ٥٠]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (٤٧) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

قوله: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ قد تقدم تفسيره، و إنما كرر ذلك سبحانه توكيدا للحجة عليهم و تحذيرا لهم من ترك اتباع محمد صلّى اللّه عليه و سلم، ثم قرنه بالوعيد و هو قوله: وَ اتَّقُوا يَوْماً و قوله: وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ معطوف على مفعول اذكروا: أي اذكروا نعمتي و تفضيلي لكم على العالمين، قيل: المراد بالعالمين عالم زمانهم، و قيل: على جميع العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. و قال في الكشاف:

على الجمّ الغفير من الناس كقوله: بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ «١» يقال: رأيت عالما من الناس؛ يراد الكثرة انتهى.

قال الرازي في تفسيره: و هذا ضعيف، لأن لفظ العالم مشتق من العلم و هو الدليل، و كل ما كان دليلا على اللّه كان علما و كان من العالم. و هذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى اللّه. و على هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات. انتهى. و أقول: هذا الاعتراض ساقط، أما أوّلا فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، و أما ثانيا: فلو سلّمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على اللّه الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه، و هو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدلّ بها على الخالق، و غايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات؛ و أما أنهم مفضلون

---

(١). الأنبياء: ٧١.

على كل المحدثات في كل زمان فليس في اللفظ ما يفيد هذا، و لا في اشتقاقه ما يدل عليه؛ و أما من جعل العالم أهل العصر، فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا صلّى اللّه عليه و سلم، و لا على ما بعده من العصور، و مثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ «١» و عند قوله تعالى: وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ «٢» و عند قوله: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ «٣» فإن قيل: إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم. قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزما لكونهم أفضل من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لقوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «٤» فإن هذه الآية و نحوها تكون مخصصة لتلك الآيات. و قوله: وَ اتَّقُوا يَوْماً أمر معناه الوعيد، و قد تقدم معنى التقوى. و المراد باليوم: يوم القيامة؛ أي عذابه. و قوله: لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً في محل نصب صفة ليوم، و العائد محذوف. قال البصريون في هذا و أمثاله تقديره فيه. و قال الكسائي: هذا خطأ، بل التقدير: لا تجزيه. لأن حذف الظرف لا يجوز، و يجوز حذف الضمير وحده. و قد روي عن سيبويه و الأخفش و الزّجّاج جواز الأمرين. و معنى لا تجزي: لا تكفي و تقضي، يقال: جزى عني هذا الأمر يجزي: أي قضى، و اجتزأت بالشيء اجتزاء: أي اكتفيت، و منه قول الشاعر:

فإنّ الغدر فى الأقوام عارو أنّ الحرّ يجزى «۵» بالكراع

و المراد أن هذا اليوم لا تقضـى نفس عن نفس شيئا و لا تكفى عنها، و معنى التنكير التحقير: أى شيئا يسيرا حقيرا، و هو منصوب على المفعولية أو على أنه صـفة مصدر محذوف؛ أى جزاء حقيرا، و الشفاعة مأخوذة من الشفع و هو الاثنان، تقول استشفعته: أى سألته أن يشـفع لى: أى يضمّ جاهه إلى جاهك عند المشـفوع إليه ليصل النفع إلى المشـفوع له، و سـميت الشـفعة شـفعة: لأنك تضم ملـك شـريكك إلى ملكك. و قـد قرأ ابن كثير و أبو عمرو: تقبل بالمثناة الفوقيـة لأن الشـفاعة مؤنثـة، و قرأ الباقون: بالياء التحتية لأنها بمعنى الشفيع.

قال الأخفش: الأحسن التذكير. و ضمير منها يرجع إلى النفس المذكورة ثانيا؛ أى إن جاءت بشفاعة شفيع، و يجوز أن يرجع إلى النفس المـذكورة أولا: أى إذا شـفعت لم يقبل منها. و العـدل بفتـح العين: الفـداء، و بكسـرها: المثل. يقال عـدل و عديل، للذى ماثل فى الوزن و القدر. و حكى ابن جرير: أن فى العرب من يكسر العين فى معنى الفدية. و النصر: العون، و الأنصار: الأعوان، و انتصـر الرجل: انتقم، و الضمير: أى هم يرجع إلى النفوس المدلول عليها بالنكرة فى سياق النفى، و النفس تذكر و تؤنث. و قوله: إِذْ نَجَّيْناكُمْ متعلق بقوله: اذْكُرُوا و النجاة: النجوة من الأرض، و هى ما ارتفع منها، ثم سمّى كل فائز ناجيا.

و آل فرعون: قومه، و أصـل آل: أهـل بـدليل تصـغيره على أهيل، و قيل: غير ذلك، و هو يضاف إلى ذوى الخطر. قال الأخفش: إنما يقال فى الرئيس الأعظم، نحو آل محمد. و لا يضاف إلى البلدان فلا يقال من آل

---

(۱). المائدة: ۲۰.

(۲). الدخان: ۳۲.

(۳). آل عمران: ۳۳.

(۴). آل عمران: ۱۱۰.

(۵). فى القرطبى «يجزأ».

المدينـة. و قال الأخفش: قـد سـمعناه فى البلـدان، قالوا: آل المدينة. و اختلفوا هل يضاف إلى المضـمر أم لا، فمنعه قوم و سوّغه آخرون و هو الحق، و منه قول عبد المطلب:

و انصر على آل الصّليب و عابديه اليوم آلك

و فرعون: قيل هو اسم ذلك الملك بعينه، و قيل إنه اسم لكل ملك من ملوك العمالقة، كما يسمى من ملك الفرس: كسرى، و من ملـك الروم: قيصـر، و من ملـك الحبشـة النجاشـىّ. و اسم فرعون موسـى المـذكور هنـا: قابوس فى قول أهل الكتاب. و قال وهب: اسـمه الوليد بن مصعب بن الريان. قال المسعودى: لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية. و قال الجوهرى: إن كل عات يقال له فرعون، و قـد تفرعن و هو ذو فرعنـة: أى دهـاء و مكر. و قال فى الكشاف: تفرعن فلان: إذا عتا و تجبر. و معنى قوله: يَسُومُونَكُمْ يولونكم، قاله أبو عبيـدة؛ و قيل يـذيقونكم و يلزمونكم إياه، و أصل السوم: الـدوام، و منه سائمـة الغنم لمداومتها الرعى، و يقال: سامه خطة خسف: إذا أولاه إياها. و قال فى الكشاف: أصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى:

يبغونكم سوء العـذاب و يريـدونكم عليه. انتهى. و سوء العـذاب: أشـدّه، و هو صـفة مصـدر محذوف؛ أى يسومونكم سوما سوء العذاب، و يجوز أن يكون مفعولا ثانيا، و هذه الجملة فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ مقدّر، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال: أى سائمين لكم. و قوله يُذَبِّحُونَ و ما بعده بدل من قوله: يَسُومُونَكُمْ و قال الفراء: إنه تفسـير لما قبله، و قرأه الجماعة

بالتشديـد، و قرأ ابن محيصن بالتخفيف. و الذبح فى الأصل: الشقّ، و هو فرى أوداج المذبوح، و المراد بقوله تعالى: وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ يتركونهن أحياء ليستخدموهنّ و يمتهنوهنّ؛ و إنما أمر بذبح الأبناء و استحياء البنات لأن الكهنة أخبروه بأنه مولود يكون هلاكه على يده، و عبر عن البنات باسم النساء لأنه جنس يصدق على البنات. و قالت طائفة:

أنه أمر بذبح الرجال و استدلوا بقوله: نِساءَكُمْ و الأوّل أصح بشهادة السبب، و لا يخفى ما فى قتل الأبناء و استحياء البنات للخدمة و نحوها من إنزال الذلّ بهم و إلصاق الإهانة الشديدة بجميعهم لما فى ذلك من العار.

و الإشارة بقوله: وَ فِي ذلِكُمْ إلى جملة الأمر. و البلاء يطلق تارة على الخير، و تارة على الشرّ، فإن أريد به هنا الشر كانت الإشارة بقوله: وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ إلى ما حلّ بهم من النقمة بالذبح و نحوه، و إن أريد به الخير كانت الإشارة إلى النعمة التى أنعم اللّه عليهم بالإنجاء و ما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين.

و قد اختلف السلف و من بعدهم فى مرجع الإشارة، فرجّح الجمهور الأوّل، و رجح الآخرون الآخر. قال ابن جرير: و أكثر ما يقال فى الشرّ بلوته أبلوه بلاء، و فى الخير أبليه إبلاء و بلاء، قال زهير:

جزى اللّه بالإحسان ما فعلا بكمو أبلاهما خير البلاء الذى يبلو

قال: فجمع بين اللغتين، لأنه أراد فأنعم عليهما خير النعم التى يختبر بها عباده. و قوله: وَ إِذْ فَرَقْنا متعلق بما تقدم من قوله: اذْكُرُوا و فرقنا: فلقنا؛ و أصل الفرق الفصل، و منه فرق الشعر، و قرأ الزهرى: فرقنا بالتشديد. و الباء فى قوله: بِكُمُ قيل: هى بمعنى اللام: أى لكم، و قيل: هى

فتح القدير، ج ۱، ص: ۹۹

الباء السببية: أى فرقناه بسببكم، و قيل: إن الجار و المجرور فى محل الحال: أى فرقناه متلبسا بكم، و المراد هاهنا: أن فرق البحر كان بهم؛ أى بسبب دخولهم فيه، أى لما صاروا بين الماءين صار الفرق بهم. و أصل البحر فى اللغة: الاتساع، أطلق على البحر الذى هو مقابل البرّ لما فيه من الاتساع بالنسبة إلى النهر و الخليج، و يطلق على الماء المالح، و منه أبحر الماء: إذا ملح، قال نصيب:

و قد عاد ماء الأرض بحرا فزادنىإلى مرضى أن أبحر المشرب العذب

و قوله: فَأَنْجَيْناكُمْ أى أخرجناكم منه: وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ فيه. و قوله وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فى محل نصب على الحال: أى حال كونكم ناظرين إليهم بأبصاركم؛ و قيل معناه: وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ أى ينظر بعضكم إلى البعض الآخر من السالكين فى البحر؛ و قيل: نظروا إلى أنفسهم ينجون و إلى آل فرعون يغرقون. و المراد بآل فرعون هنا هو و قومه و أتباعه. و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا تلا: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ قال: مضى القوم، و إنما يعنى به أنتم. و أخرج ابن جرير عن سفيان بن عيينة قال فى قوله: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ هى أيادى اللّه و أيامه. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: نعمة اللّه التى أنعم بها على بنى إسرائيل فيما سمى و فيما سوى ذلك، فجّر لهم الحجر، و أنزل عليهم المنّ و السلوى، و أنجاهم من عبودية آل فرعون. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ قال: فضلوا على العالم الذى كانوا فيه، و لكل زمان عالم. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ قال: بما أعطوا من الملك و الرسل و الكتب على من كان فى ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالما.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً قال: لا تغنى نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئا. و أخرج ابن جرير عن عمرو بن قيس الملائى، عن رجل من بنى أمية من أهل الشام أحسن الثناء عليه قال: «قيل: يا رسول اللّه! ما العدل؟ قال: العدل الفدية». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس نحوه. قال ابن أبى حاتم: و روى عن أبى

مالک و الحسن و سعید بن جبیر و قتادة و الربیع بن أنس نحو ذلک. و أخرج عبد الرزاق عن علیّ فی تفسیر الصرف و العدل قال: التطوّع و الفریضة.

قال ابن کثیر: و هذا القول غریب هاهنا، و القول الأوّل أظهر فی تفسیر هذه الآیة. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس قال: قالت الکهنة لفرعون إنه یولد فی هذا العام مولود یذهب بملکه، فجعل فرعون علی کل ألف امرأة مائة رجل، و علی کل مائة عشرة، و علی کل عشرة رجلا، فقال: انظروا کل امرأة حامل فی المدینة، فإذا وضعت حملها فإن کان ذکرا فاذبحوه، و إن کان أنثی فخلّوا عنها، و ذلک قوله: یُذَبِّحُونَ أَبْناءَکُمْ وَ یَسْتَحْیُونَ نِساءَکُمْ و أخرج ابن أبی حاتم عن أبی العالیة فی قوله: یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذابِ قال:

إن فرعون ملکهم أربعمائة سنة. فقالت له الکهنة: إنه سیولد العام بمصر غلام هلاکک علی یدیه، فبعث فی أهل مصر نساء قوابل، فإذا ولدت امرأة غلاما أتی به فرعون فقتله، و یستحیی الجواری. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: بَلاءٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَظِیمٌ یقول: نقمة. و أخرج وکیع عن

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۱۰۰

فتح القدیر ج ۱ ۱۴۹

مجاهد نحوه. و أخرج عبد بن حمید عن قتادة فی قوله: وَ إِذْ فَرَقْنا بِکُمُ الْبَحْرَ فقال: إی و اللّه لفرق البحر بینهم حتی صار طریقا یبسا یمشون فیه، فأنجاهم اللّه و أغرق آل فرعون عدوّهم. و قد ثبت فی الصحیحین و غیرهما من حدیث ابن عباس قال: «قدم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم المدینة، فرأی الیهود یصومون یوم عاشوراء فقال: ما هذا الیوم؟ قالوا: هذا یوم صالح نجّی اللّه فیه بنی إسرائیل من عدوّهم فصامه موسی، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: نحن أحقّ بموسی منکم، فصامه و أمر بصومه». و قد أخرج الطبرانی و أبو نعیم فی الحلیة، عن سعید بن جبیر أن هرقل کتب إلی معاویة یسأله عن أمور، منها عن البقعة التی لم تصبها الشمس إلا ساعة، فکتب معاویة إلی ابن عباس، فأجابه عن تلک الأمور و قال: و أما البقعة التی لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار: فالبحر الذی أفرج عن بنی إسرائیل. و لعله سیأتی إن شاء اللّه تعالی زیادة علی ما هنا عند تفسیر قوله تعالی: أَنِ اضْرِبْ بِعَصاکَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَکانَ کُلُّ فِرْقٍ کَالطَّوْدِ الْعَظِیمِ «۱».

[سورة البقرة (۲): الآیات ۵۱ الی ۵۴]

وَ إِذْ واعَدْنا مُوسی أَرْبَعِینَ لَیْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (۵۱) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْکُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۵۲) وَ إِذْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۵۳) وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ إِنَّکُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَکُمْ بِاتِّخاذِکُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلی بارِئِکُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ عِنْدَ بارِئِکُمْ فَتابَ عَلَیْکُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (۵۴)

قرأ أبو عمرو: وعدنا بغیر ألف، و رجّحه أبو عبیدة و أنکر واعَدْنا قال: لأن المواعدة إنما تکون من البشر، فأما من اللّه فإنما هو التفرّد بالوعد، علی هذا ما وجدنا القرآن کقوله: وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِ «۲» و قوله: وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللَّهُ إِحْدَی الطَّائِفَتَیْنِ «۳» و مثله، قال أبو حاتم و مکی: و إنما قالوا هکذا نظرا إلی أصل المفاعلة أنها تفید الاشتراک فی أصل الفعل، و تکون من کل واحد من المتواعدین و نحوهما، لکنها قد تأتی للواحد فی کلام العرب کما فی قولهم: داویت العلیل، و عاقبت اللص، و طارقت النعل، و ذلک کثیر فی کلامهم. و قرأه الجمهور: واعَدْنا قال النحاس: و هی أجود و أحسن و لیس قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا* «۴» من هذا فی شیء، لأن واعدنا موسی إنما هو من باب الموافاة، و لیس هو من الوعد و الوعید فی شیء، و إنما هو من قولک: موعدک یوم الجمعة، و موعدک موضع کذا؛ و الفصیح فی هذا أن یقال واعدته.

قال الزجاج: واعدنا بالألف هاهنا جيد، لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة، فمن اللّه سبحانه وعد، و من موسى قبول. قوله: أَرْبَعِينَ لَيْلَةً قال الزجاج: التقدير تمام أربعين ليلة، و هى عند أكثر المفسرين ذو القعدة و عشر من ذى الحجة، و إنما خصّ الليالى بالذكر دون الأيام لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة. و معنى قوله: ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ أى جعلتم العجل إلها من بعده: أى من بعد مضى موسى إلى الطور. و قد ذكر بعض المفسرين أنهم عدوّا عشرين يوما و عشرين ليلة. و قالوا: قد اختلف موعده فاتخذوا العجل، و هذا غير بعيد منهم، فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل مخالفة لما يخاطبون به بل و يشاهدونه بأبصارهم، فلا يقال كيف تعدّون الأيام و الليالى على تلك الصفة، و قد صرّح لهم فى الوعد

---

(١). الشعراء: ۶٣.

(٢). إبراهيم: ٢٢.

(٣). الأنفال: ٧.

(۴). المائدة: ٩.

بأنها أربعون ليلة، و إنما سمّاهم ظالمين لأنهم أشركوا باللّه و خالفوا موعد نبيهم عليه السلام، و الجملة فى موضع نصب على الحال. و قوله: مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد عبادتكم العجل، و سمّى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته كذا قيل، و ليس بشىء لأن العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر. و قد كان جعله لهم السامرىّ على صورة العجل. و قوله: لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى لكى تشكروا ما أنعم اللّه به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه. و أصل الشكر فى اللغة: الظهور من قولهم: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف. قال الجوهرى: الشكر: الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف، يقال شكرته و شكرت له، و باللام أفصح، و قد تقدّم معناه، و الشكران خلاف الكفران. و الكتاب: التوراة بالإجماع من المفسرين. و اختلفوا فى الفرقان؛ و قال الفراء و قطرب: المعنى آتينا موسى التوراة و محمدا الفرقان. و قد قيل إن هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن و ليس كذلك، فقد قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ «١» و قال الزجّاج: إن الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيدا. و حكى نحوه عن الفرّاء، و منه قول عنترة:

حيّيت من طلل تقادم عهدهأقوى و أقفر بعد أمّ الهيثم

و قيل: إن الواو صلة، و المعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان، و الواو قد تزاد فى النعوت كقول الشاعر:

إلى الملك القرم و ابن الهمامو ليث الكتيبة فى المزدحم

و قيل المعنى: أن ذلك المنزل جامع بين كونه كتابا و فارقا بين الحق و الباطل، و هو كقوله: ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ «٢» و قيل: الفرقان: الفرق بينهم و بين قوم فرعون، أنجى هؤلاء و أغرق هؤلاء. و قال ابن زيد: الفرقان: انفراق البحر؛ و قيل: الفرقان: الفرج من الكرب؛ و قيل: إنه الحجة و البيان بالآيات التى أعطاه اللّه من العصا و اليد و غيرهما، و هذا أولى و أرجح، و يكون العطف على بابه كأنه قال: آتينا موسى التوراة و الآيات التى أرسلناه بها معجزة له. قوله: يا قَوْمِ القوم يطلق تارة على الرجال دون النساء، و منه قول زهير:

و ما أدرى و سوف إخال أدرىأقوم آل حصن أم نساء

و منه قوله تعالى: لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ «٣»، ثم قال: وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ «۴»، و منه: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ* «۵» أراد الرجال، و قد يطلق على الجميع كقوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ «۶» و المراد هنا بالقوم عبدة العجل. و البارئ: الخالق، و قيل إن البارئ

هو المبدع المحدث، و الخالق هو المقدّر الناقل من حال إلى حال، و فى ذكر البارئ هنا إشارة إلى عظيم جرمهم: أى فتوبوا إلى الذى خلقكم و قد عبدتم معه غيره. و الفاء فى قوله: فَتُوبُوا للسببية: أى لتسبب التوبة عن الظلم، و فى قوله: فَاقْتُلُوا للتعقيب: أى اجعلوا القتل متعقبا للتوبة. قال القرطبى: و أجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده؛ قيل: قاموا صفين و قتل بعضهم بعضا؛ و قيل: وقف الذين عبدوا العجل و دخل الذين

---

(١). الأنبياء: ۴۸.

(٢). الأنعام: ١۵۴.

(٣). الحجر: ١١.

(۴). الحجر: ١١.

(۵). الأعراف: ٨٠.

(۶). نوح: ١.

لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم. و قوله: فَتابَ عَلَيْكُمْ قيل: فى الكلام حذف؛ أى فقتلتم أنفسكم فتاب عليكم: أى على الباقين منكم. و قيل هو جواب شرط محذوف كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

و أما ما قاله صاحب الكشاف من أنه يجوز أن يكون خطابا من اللّه لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير:

ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم، فهو بعيد جدا كما لا يخفى. و قد أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: أَرْبَعِينَ لَيْلَةً قال: ذا القعدة و عشرا من ذى الحجة. و قد أخرج ابن جرير عنه فى قوله: مِنْ بَعْدِ ذلِكَ قال: من بعد ما اتخذتم العجل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ قال: الكتاب هو الفرقان، فرق بين الحق و الباطل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الفرقان جماع اسم التوراة و الإنجيل و الزبور و القرآن. و أخرج ابن جرير عنه قال:

أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم، و اختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا، و قام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم و أصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا، فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، و كل من بقى كانت له توبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ قال: قالوا لموسى ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضا، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه و أباه و ابنه لا يبالى من قتل، حتى قتل منهم سبعون ألفا، فأوحى اللّه إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم، و قد غفر لمن قتل و تيب على من بقى. و قد أخرج عبد بن حميد عن قتادة، و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن جرير، عن الزهرى نحوا مما سبق. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: إِلى بارِئِكُمْ قال: خالقكم.

[سورة البقرة (٢): الآيات ۵۵ الى ۵٧]

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۵) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۶) وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۵٧)

قوله: وَ إِذْ قُلْتُمْ هذه الجملة معطوفة على التى قبلها، و ظاهر السياق أن القائلين هذه المقالة هم قوم موسى، و قيل: هم السبعون

الذين اختارهم، و ذلك أنهم لما سمعوا كلام اللّه قالوا له بعد ذلك هذه المقالة، فأرسل اللّه عليهم نارا فأحرقتهم، ثم دعا موسى ربّه فأحياهم، كما قال تعالى هنا: ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ و سيأتى ذلك فى الأعراف إن شاء اللّه. و الجهرة: المعاينة، و أصلها الظهور، و منه الجهر بالقراءة و المجاهرة بالمعاصى؛ و رأيت الأمر جهرة و جهارا، أى غير مستتر بشىء، و هى مصدر واقع موقع الحال.

و قرأ ابن عباس جهرة بفتح الهاء و هى لغتان مثل زهرة و زهرة، و يحتمل أن يكون على هذه القراءة جمع جاهر. و الصاعقة: قد تقدم تفسيرها، و قرأ عمر و عثمان و علىّ: الصّعقة و هى قراءة ابن محيصن، و المراد بأخذ الصاعقة إصابتها إياهم وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فى محل نصب على الحال، و المراد من هذا النظر الكائن منهم أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذى ماتوا عنده؛ و قيل: المراد بالصاعقة

فتح القدير، ج ١، ص: ١٠٣

الموت، و استدل عليه بقوله: ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ و لا موجب للمصير إلى هذا التفسير، لأن المصعوق قد يموت كما فى هذه الآية، و قد يغشى عليه ثم يفيق كما فى قوله تعالى: وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ «١» و مما يوجب بعد ذلك قوله: وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كبير معنى، بل قد يقال: إنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت. و المراد بقوله: ثُمَّ بَعَثْناكُمْ الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت، و أصل البعث: الإثارة للشىء من محله، يقال: بعثت الناقة: أى أثرتها، و منه قول امرئ القيس:

و فتيان صدق قد بعثت بسحرةفقاموا جميعا بين عاث و نشوان «٢»

و قول عنترة:

و صحابة شمّ الأنوف بعثتهمليلا و قد مال الكرى بطلاها

و إنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لأنهم طلبوا ما لم يأذن اللّه به من رؤيته فى الدنيا. و قد ذهبت المعتزلة و من تابعهم إلى إنكار الرؤية فى الدنيا و الآخرة، و ذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا و الآخرة و وقوعها فى الآخرة. و قد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربّهم فى الآخرة، و هى قطعية الدلالة لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة، و زعموا: أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار، و قواعد لا يغترّ بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب، و سيأتيك إن شاء اللّه بيان ما تمسكوا به من الأدلة القرآنية، و كلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة، و ليس هذا موضع المقال فى هذه المسألة. قوله: وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ أى جعلناه كالظلة. و الغمام: جمع غمامة كسحابة و سحاب، قاله الأخفش. و قال الفرّاء: و يجوز غمائم. و قد ذكر المفسرون أن هذا جرى فى التيه بين مصر و الشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبّارين. و المنّ: قيل: هو الترنجبين. قال النحاس:

هو بتشديد الراء و إسكان النون، و يقال: الطرنجبين بالطاء، و على هذا أكثر المفسرين، و هو طلّ ينزل من السماء على شجر أو حجر، و يحلو و ينعقد عسلا، و يجفّ جفاف الصمغ، ذكر معناه فى القاموس؛ و قيل:

إن المنّ العسل؛ و قيل: شراب حلو؛ و قيل: خبز الرقاق؛ و قيل: إنه مصدر يعمّ جميع ما منّ اللّه به على عباده من غير تعب و لا زرع؛ و منه ما ثبت فى صحيح البخارى و مسلم من حديث أبى سعيد بن زيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «أنّ الكمأة من المنّ الذى أنزل على موسى». و قد ثبت مثله من حديث أبى هريرة عند أحمد و الترمذى، و من حديث جابر و أبى سعيد و ابن عباس عند النسائى. و السلوى: قيل هو السّمانى، كحبارى طائر يذبحونه فيأكلونه. قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، و قد غلط الهذلى فقال:

و قاسمهما باللّه جهدا لأنتماألذّ من السّلوى إذا ما نشورها

(١). الأعراف: ١٤٣.

(٢). بسحرة: السّحرة: وقت السّحر. العاثى: المتناول للشىء و كثر فى استعمال العرب فى الفساد.

فتح القدير، ج١، ص: ١٠۴

ظنّ أن السلوى العسل. قال القرطبى: ما ادعاه من الإجماع لا يصح. و قد قال المؤرج أحد علماء اللغة و التفسير: إنه العسل. و استدل ببيت الهذلى، و ذكر أنه كذلك بلغة كنانة، و أنشد:

لو شربت «١» السّلوى ما سلوتما بى غنى عنك و إن غنيت

و قال الجوهرى: و السلوى العسل. قال الأخفش: السلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير و الشرّ، و هو يشبه أن يكون واحده سلوى. و قال الخليل: واحده سلواة، و أنشد:

و إنى لتعرونى لذكراك سلوةكما انتفض السّلواة من سلكه القطر «٢»

و قال الكسائى: السلوى واحدة و جمعه سلاوى. و قوله: كُلُوا أى قلنا لهم كلوا، و فى الكلام حذف، و التقدير: قلنا: كلوا فعصوا و لم يقابلوا النعم بالشكر فظلموا أنفسهم و ما ظلمونا، فحذف هذا لدلالة: وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ عليه، و تقديم الأنفس هنا يفيد الاختصاص. و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً قال: علانية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أنس قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ قال:

ماتوا ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ قال: فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: ثُمَّ بَعَثْناكُمْ نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ قال: غمام أبرد من هذا و أطيب، و هو الذى يأتى اللّه فيه يوم القيامة، و هو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر و كان معهم فى التيه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ قال: كان هذا الغمام فى البرية، ظلّل عليهم الغمام من الشمس، و أطعمهم المنّ و السلوى حين برزوا إلى البرية، فكان المنّ يسقط عليهم فى محلتهم سقوط الثلج أشدّ بياضا من اللبن و أحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه ليومه ذلك، فإن تعدّى ذلك فسد ما يبقى عنده، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه و يوم سابعه فبقى عنده، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة و لا لطلبة شىء، و هذا كله فى البرية. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: المنّ شىء أنزل اللّه عليهم مثل الطّل، و السلوى طير أكبر من العصفور. و أخرج وكيع و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: المنّ صمغة، و السلوى طائر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى قال: قالوا يا موسى! كيف لنا بما هاهنا، أين الطعام؟ فأنزل اللّه عليهم المنّ فكان يسقط على الشجرة الترنجبين. و أخرجوا عن وهب أنه سئل ما المنّ؟ قال: خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقى.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال: المنّ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه

(١). فى القرطبى: «لو أشرب السّلوان ما سليت» و البيت لرؤبة.

(٢). فى معجم العين ٧/ ٢٩٨: و إنى لتعرونى لذكراك هزةكما انتفض السّلواة بلله القطر فتح القدير، ج١، ص: ١٠۵

بالماء ثم يشربونه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان المنّ ينزل عليهم بالليل على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا- و السلوى طائر يشبه السمّانى كانوا يأكلون منه ما شاؤوا. و أخرج ابن جرير عنه نحوه. و أخرج ابن جرير

عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى السلوى مثله. و قد روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين و من بعدهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما ظَلَمُونا قال نحن أعزّ من أن نظلم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ قال: يضرّون.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

قال جمهور المفسرين: القرية: هى بيت المقدس؛ و قيل: إنها أريحاء قرية من قرى بيت المقدس؛ و قيل:

من قرى الشام. و قوله: فَكُلُوا أمر إباحة- و رَغَداً كثيرا واسعا، و هو نعت لمصدر محذوف: أى أكلا رغدا، و يجوز أن يكون فى موضع الحال، و قد تقدم تفسيره. و الباب الذى أمروا بدخوله:

هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطّة؛ و قيل هو باب القبة التى كان يصلّى إليها موسى و بنو إسرائيل.

و السجود: قد تقدم تفسيره و قيل: هو هنا الانحناء؛ و قيل: التواضع و الخضوع، و استدلوا على ذلك بأنه لو كان المراد السجود الحقيقى الذى هو وضع الجبهة على الأرض لامتنع الدخول المأمور به، لأنه لا يمكن الدخول حال السجود الحقيقى. و قال فى الكشاف: إنهم أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكرا للّه و تواضعا.

و اعترضه أبو حيان فى النهر المادّ فقال: لم يؤمروا بالسجود، بل هو قيد فى وقوع المأمور به و هو الدخول، و الأحوال نسب تقييدية، و الأوامر نسب إسنادية. انتهى. و يجاب عنه بأن الأمر بالمقيد أمر بالقيد، فمن قال اخرج مسرعا فهو آمر بالخروج على هذه الهيئة، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفا للأمر.

و لا ينافى هذا كون الأحوال نسبا تقييدية، فإن اتصافها بكونها قيودا مأمورا بها هو شىء زائد على مجرد التقييد.

و قوله: حِطَّةٌ بالرفع فى قراءة الجمهور على إضمار مبتدأ، قال الأخفش: و قرئت حِطَّةٌ نصبا على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة؛ و قيل: معناها الاستغفار، و منه قول الشاعر:

فاز بالحطّة التى جعل اللّهبها ذنب عبده مغفورا

و قال ابن فارس فى المجمل: حِطَّةٌ كلمة أمروا بها و لو قالوها لحطّت أوزارهم. قال الرازى فى تفسيره: أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، و ذلك لأن التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها، و إذا اشتهر و أخذ بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكى توبته لمن شاهد منه الذنب، لأن التوبة لا تتمّ إلا به. انتهى، و كون التوبة لا تتم إلا بذلك لا دليل عليه، بل مجرد عقد القلب عليها يكفى سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا، و ربما

فتح القدير، ج ١، ص: ١٠۶

كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا اللّه عزّ و جلّ أحبّ إلى اللّه و أقرب إلى مغفرته. و أما رفع ما عند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية فذلك باب آخر. و قوله: يغفر لكم قرأه نافع بالياء التحتية المضمومة، و قرأه ابن عامر بالتاء الفوقية المضمومة و قرأه الباقون بالنون و هى أولى. و الخطايا جمع خطيئة بالهمز، و قد تكلّم علماء العربية فى ذلك بما هو معروف فى كتب الصرف. و قوله: وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ أى نزيدهم إحسانا على إحسانهم المتقدم، و هو اسم فاعل من أحسن. و قد ثبت فى الصحيح «أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن الإحسان فقال: أن تعبد اللّه كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» و قوله: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ قيل: إنهم قالوا: حنطة؛ و قيل غير ذلك. و الصواب أنهم قالوا:

حبة فى شعرة، كما سيأتى مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و قوله: فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هو من وضع الظاهر موضع المضمر لنكتة كما تقرّر فى علم البيان، و هى هنا تعظيم الأمر عليهم و تقبيح فعلهم، و منه قول عدىّ بن زيد:

لا أرى الموت يسبق الموت شيءنغّص الموت ذا الغنى و الفقيرا

فكرّر الموت فى البيت ثلاثا تهويلا لأمره و تعظيما لشأنه. و قوله: رِجْزاً بكسر الراء فى قراءة الجميع إلا ابن محيصن فإنه قرأ بضم الراء. و الرجز: العذاب. و الفسق: قد تقدم تفسيره. و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ادْخُلُوا هـذِهِ الْقَرْيَةَ قال: بيت المقدس. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: هى أريحاء قرية من بيت المقدس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: ادْخُلُوا الْبابَ قال: باب ضيق سُجَّداً قال: ركعا. و قوله: حِطَّةٌ قال: مغفرة، فدخلوا من قبل أستاههم و قالوا حنطة استهزاء، قال: فذلك قوله تعالى: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الباب هو أحد أبواب بيت المقدس، و هو يدعى باب حطة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الكبير، و أبو الشيخ، عن ابن مسعود قال: قيل لهم: ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً فدخلوا مقنعى رؤوسهم و قالوا حنطة: حبة حمراء فيها شعيرة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً قال: طأطئوا رؤوسكم وَ قُولُوا حِطَّةٌ قال: قولوا: لا إله إلا اللّه. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: قُولُوا: حِطَّةٌ قال: لا إله إلا اللّه.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كان الباب قبل القبلة. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجّدا و قولوا حطّة، فبدّلوا؛ فدخلوا يزحفون على أستاههم و قالوا حبّة فى شعرة». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس و أبى هريرة قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجّدا يزحفون على أستاههم، و هم يقولون حنطة فى شعيرة»، و الأول أرجح لكونه فى الصحيحين. و قد أخرجه معهما من أخرج هذا الحديث الآخر:

أعنى ابن جرير و ابن المنذر. و أخرج ابن أبى شيبة عن علىّ قال: إنما مثلنا فى هذه الأمة كسفينة نوح و كباب

فتح القدير، ج ١، ص: ١٠٧

حطة فى بنى إسرائيل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كل شيء فى كتاب اللّه من الرجز يعنى به العذاب.

و أخرج مسلم و غيره من حديث أسامة بن زيد و سعد بن مالك و خزيمة بن ثابت قالوا:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ هذا الطاعون رجز و بقيّة عذاب عذّب به أناس من قبلكم، فإذا كان بأرض و أنتم بها فلا تخرجوا منها، و إذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها».

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٠ الى ٦١]

وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء و حبس المطر. و معناه فى اللغة: طلب السقيا. و فى الشرع ما ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و

سلّم فى صفته من الصلاة و الدعاء. و الحجر يحتمل أن يكون حجرا معينا فتكون اللام للعهد، و يحتمل أن لا يكون معينا فتكون للجنس، و هو أظهر فى المعجزة و أقوى للحجة. و قوله: فَانْفَجَرَتْ الفاء مترتبة على محذوف تقديره فضرب فانفجرت، و الانفجار: الانشقاق، و انفجر الماء انفجارا: تفتح، و الفجرة:

موضع تفتح الماء. قال ابن عطية: و لا خلاف أنه كان حجرا مربعا يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون، و إذا استغنوا عن الماء جفّت. و المشرب: موضع الشرب؛ و قيل هو المشروب نفسه.

و فيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركهم غيرهم. قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها إلى غيرها، و الأسباط ذرية الاثنى عشر من أولاد يعقوب. و قوله: كُلُوا أى قلنا لهم: كلوا المنّ و السلوى و اشربوا الماء المتفجر من الحجر. و عثا يعثى عثيا، و عثى يعثو عثوا، و عاث يعيث عيثا، لغات:

بمعنى أفسد. و قوله: مُفْسِدِينَ حال مؤكدة. قال فى القاموس: عثى كرمى، و سعى و رضى، عثيّا و عثيّا و عثيانا، و عثا يعثو عثوا: أفسد. و قال فى الكشاف: العثى أشدّ الفساد. فقيل لهم: لا تمادوا فى الفساد فى حال فسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه. انتهى. و قوله: لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ تضجّر منهم بما صاروا فيه من النعمة و الرزق الطيب و العيش المستلذ، و نزوع إلى ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش:

إنّ الشقىّ بالشّقاء مولع لا يملك الرّدّ له إذا أتى

و يحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقا إلى ما كانوا فيه، و نظرا لما صاروا إليه من العيشة الرافهة، بل هو باب من تعنتهم، و شعبة من شعب تعجرفهم كما هو دأبهم، و هجّيراهم «١» فى غالب ما قصّ علينا من أخبارهم

---

(١). الهجّيرى: الدأب و العادة، يقال: هذا هجّيراه: أى: دأبه و عادته.

و قال الحسن البصرى: إنهم كانوا أهل كرّات و أبصال و أعداس، فنزعوا إلى عكرهم: أى أصلهم عكر السوء، و اشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ و المراد بالطعام الواحد هو: المنّ و السلوى، و هما و إن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاما واحدا.

و قيل: لتكررهما فى كل يوم و عدم وجود غيرهما معهما و لا تبدلة بهما. و من فى قوله: مِمَّا تُنْبِتُ تخرج.

قال الأخفش: زائدة، و خالفه سيبويه لكونها لا تزاد فى الكلام الموجب. قال النحاس: و إنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا ـ ليخرج فأراد أن يجعل ما مفعولا؛ و الأولى أن يكون المفعول محذوفا دل عليه سياق الكلام، أى: تخرج لنا مأكولا. و قوله: مِنْ بَقْلِها بدل من ما بإعادة الحرف، و البقل: كل نبات ليس له ساق، و الشجر: ما له ساق. قال فى الكشاف: البقل ما أنبتته الأرض من الخضر، و المراد به أطايب البقول التى يأكلها الناس كالنعناع و الكرفس و الكرّاث و أشباهها. انتهى. و القثاء بكسر القاف و فتحها.

و الأولى قراءة الجمهور. و الثانية قراءة يحيى بن وثاب و طلحة بن مصرف و هو معروف. و الفوم: قيل هو الثوم، و قد قرأه ابن مسعود بالثاء. و روى نحو ذلك عن ابن عباس، و قيل: الفوم: الحنطة، و إليه ذهب أكثر المفسرين، كما قال القرطبى. و قد رجّح هذا ابن النحاس. و قال الجوهرى: الفوم الحنطة، و ممن قال بهذا الزجاج و الأخفش، و أنشد:

قد كنت أحسبنى كأغنى واجد نزل المدينة عن زراعة فوم

و قال بالقول الأوّل الكسائى و النضر بن شميل، و منه قول أمية بن أبى الصلت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةفيها الفراديس و الفومان و البصل

أى الثوم، و قال حسان:

و أنتم أناس لئام الأصولطعامكم الفوم و الحوقل

يعنى الثوم و البصل؛ و قيل الفوم: السنبلة؛ و قيل الحمص، و قيل الفوم كل حبّ يخبز. و العدس و البصل معروفان. و الاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر و أَدْنى قال الزجاج: إنه مأخوذ من الدنوّ: أى القرب و المراد: أ تضعون هذه الأشياء التى هى دون موضع المنّ و السلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ و الوصول من عند اللّه بغير واسطة أحد من خلقه، و الحلّ الذى لا تطرقه الشبهة و عدم الكلفة بالسعى له و التعب فى تحصيله، و قوله: اهْبِطُوا مِصْراً أى انزلوا، و قد تقدّم معنى الهبوط. و ظاهر هذا أن اللّه أذن لهم بدخول مصر؛ و قيل: إن الأمر للتعجيز لأنهم كانوا فى التيه، فهو مثل قوله تعالى: كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً «١»، و صرف مصر هنا مع اجتمع العلمية و التأنيث لأنه ثلاثى ساكن فى الوسط، و هو يجوز صرفه مع حصول السببين، و به قال الأخفش و الكسائى. و قال الخليل و سيبويه: إن ذلك لا يجوز، و قالا: إنه لا علمية هنا لأنه أراد مصرا من الأمصار، و لم يرد المدينة المعروفة؛ و هو خلاف الظاهر. و قرأ الحسن و أبان ابن تغلب و طلحة بن مصرف بترك التنوين، و هو كذلك فى مصحف أبيّ و ابن مسعود. و معنى ضرب الذلة

---

(١). الإسراء: ٥٠.

فتح القدير، ج‌١، ص: ١٠٩

و المسكنة إلزامهم بذلك و القضاء به عليهم قضاء مستمرا لا يفارقهم و لا ينفصل عنهم، مع دلالته على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، و منه قول الفرزدق يهجو جريرا:

ضربت عليك العنكبوت بنسجهاو قضى عليك به الكتاب المنزل

و هو ضرب من الهجاء بليغ، كما أنه إذا استعمل فى المديح كان فى منزلة رفيعة، و منه قول الشاعر:

إنّ المروءة و الشّجاعة و النّدىفى قبّة ضربت على ابن الحشرج

و هذا الخبر الذى أخبرنا اللّه به هو معلوم فى جميع الأزمنة، فإن اليهود أقمأهم اللّه أذلّ الفرق و أشدّهم مسكنة و أكثرهم تصاغرا، لم ينتظم لهم جمع و لا خفقت على رؤوسهم راية، و لا ثبتت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصيّ فى كل زمن، و طروقة كل فحل فى كل عصر، و من تمسّك منهم بنصيب من المال و إن بلغ فى الكثرة أيّ مبلغ، فهو متظاهر بالفقر متردّ بأثواب المسكنة، ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين فى ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرى على اللّه بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه. و معنى: باؤُ رجعوا، يقال باء بكذا، أى رجع به، و باء إلى المباءة: أى رجع إلى المنزل، و البواء: الرجوع، و يقال: هم فى هذا الأمر بواء: أى سواء: يرجعون فيه إلى معنى واحد، و باء فلان بفلان: إذا كان حقيقا بأن يقبل به لمساواته له، و منه قول الشاعر:

ألا تنتهى عنّا ملوك و تتّقىمحارمنا لا يبوؤ الدّم بالدّم

و المراد فى الآية أنهم رجعوا بغضب من اللّه، أو صاروا أحقاء بغضبه؛ و قد تقدم تفسير الغضب. و الإشارة بقوله ذلِكَ إلى ما تقدم من حديث الذلة و ما بعده بسبب كفرهم باللّه و قتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه و العمل به، و لم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال: إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق فى حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعى هذا الأمر عليهم و تعظيمه، و أنه ظلم بحت فى نفس الأمر. و يمكن أن يقال:

أنه ليس بحق فى اعتقادهم الباطل، لأن الأنبياء صلوات اللّه عليهم و سلامه لم يعارضوهم فى مال و لا جاه، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين و الدنيا، كما كان من شعيا و زكريا و يحيى، فإنهم قتلوهم و هم يعلمون و يعتقدون أنهم ظالمون. و تكرير الإشارة لقصد التأكيد و تعظيم الأمر عليهم و تهويله، و مجموع ما بعد الإشارة الأولى و الإشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة و ما بعده، و قيل يجوز أن تكون الإشارة الثانية إلى الكفر و القتل، فيكون ما بعدها سببا للسبب و هو بعيد جدا. و الاعتداء: تجاوز الحدّ فى كل شيء.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ قال ذلك فى التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيها اثنتا عشرة عينا من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة و مجاهد و ابن أبى حاتم عن جويبر نحو ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ قال: لا تسعوا فى الأرض فسادا. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: يعنى و لا تمشوا بالمعاصى. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة قال:

فتح القدير، ج‏1، ص: 110

لا تسيروا فى الأرض مفسدين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ قال: المنّ و السلوى استبدلوا به البقل و ما حكى معه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ فُومِها قال: الخبز، و فى لفظ: البرّ، و فى لفظ: الحنطة.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الفوم: الثوم. و أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ و ثومها و روى ابن أبى الدنيا عن ابن عباس أنه قال: قراءتى قراءة زيد، و أنا آخذ ببضعة عشر حرفا من قراءة ابن مسعود هذا أحدها من بقلها و قثّائها و ثومها.

و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: الَّذِي هُوَ أَدْنى قال: أردأ. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: اهْبِطُوا مِصْراً قال مصرا من الأمصار. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية: أنه مصر فرعون.

و أخرج نحوه ابن أبى داود و ابن الأنبارى عن الأعمش. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ قال: هم أصحاب الجزية. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة و الحسن قال: ضربت عليهم الذلة و المسكنة، أى يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية قال:

المسكنة: الفاقة. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك فى قوله: وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ قال: استحقوا الغضب من اللّه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ باؤُ قال: انقلبوا. و أخرج أبو داود و الطيالسى و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلاثمائة نبىّ ثم يقيمون سوق بقلهم فى آخر النهار.

[سورة البقرة (2): آية 62]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

قيل: إن المراد بالذين آمنوا: المنافقون، بدلالة جعلهم مقترنين باليهود و النصارى و الصابئين، أى آمنوا فى الظاهر. و الأولى أن يقال: إن المراد الذين صدّقوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و صاروا من جملة أتباعه، و كأنه سبحانه أراد أن يبيّن أن حال هذه الملة الإسلامية و حال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، و هو أن من آمن منهم باللّه و اليوم الآخر و عمل صالحا

استحقّ ما ذكره اللّه من الأجر، و من فاته ذلك فاته الخير كله و الأجر دقّه و جلّه. و المراد بالإيمان هاهنا هو ما بيّنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و القدر خيره و شرّه» و لا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل فى الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و لا بالقرآن فليس بمؤمن، و من آمن بهما صار مسلما مؤمنا و لم يبق يهوديا و لا نصرانيا و لا مجوسيا. و قوله: هادُوا معناه صاروا يهودا، قيل هو نسبة لهم إلى يهوذا بن يعقوب، بالذال المعجمة فقلبتها العرب دالا مهملة؛ و قيل: معنى هادوا: تابوا لتوبتهم عن عبادة العجل، و منه قوله تعالى: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ «١» أى تبنا- و قيل: إن معناه السكون و الموادعة. و قال فى الكشاف: إن معناه دخل فى اليهودية. و النصارى: قال سيبويه: مفردة نصران و نصرانة كندمان و ندمانة، و أنشد شاهدا على ذلك قول

---

(١). الأعراف: ١٥٦.

الشاعر:

تراه إذا دار العشا متحنّفاو يضحى لديه و هو نصران شامس

و قال الآخر:

فكلتاهما خرّت و أسجد رأسهاكما أسجدت نصرانة لم تحنّف

قال: و لكن لا يستعمل إلا بياء النسب فيقال: رجل نصرانىّ و امرأة نصرانية. و قال الخليل: واحد النصارى نصرىّ. و قال الجوهرى: و نصران قرية بالشام تنسب إليها النصارى، و يقال ناصرة، و على هذا فالياء للنسب. و قال فى الكشاف: إن الياء للمبالغة كالتى فى أحمرىّ، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح.

و الصابئين: جمع صابئ، و قيل: صاب. و قد اختلف فيه القراء فهمزوه جميعا إلا نافعا، فمن همزه جعله من صبأت النجوم: إذا طلعت، و صبأت ثنية الغلام: إذا خرجت. و من لم يهمزه جعله من صبا يصبو:

إذا مال؛ و الصابئ فى اللغة: من خرج و مال من دين إلى دين، و لهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ، و سموا هذه الفرقة صابئة، لأنها خرجت من دين اليهود و النصارى و عبدوا الملائكة. و قوله: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فى موضع نصب بدلا من الذين آمنوا و ما بعده، و قد تقدم معنى الإيمان، و يكون خبر إن قوله: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ و يجوز أن يكون قوله: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره قوله: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ و هما جميعا خبر إن، و العائد مقدّر فى الجملة الأولى: أى من آمن منهم، و دخلت الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط. و قد تقدّم تفسير قوله تعالى: فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و قد أخرج ابن أبى حاتم عن سلمان قال: سألت النبىّ عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم و عبادتهم، فنزلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا الآية. و أخرج الواحدىّ عن مجاهد نحو ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى فى ذكر السبب بنحو ما سبق، و حكى قصة طويلة. و أخرج أبو داود فى الناسخ و المنسوخ، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا قال: فأنزل اللّه بعد هذا: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ «١». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن علىّ قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: نحن أعلم من أين سميت اليهودية؟ من كلمة موسى عليه السلام: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ و لم تسمت النصارى بالنصرانية؟ من كلمة عيسى عليه السلام: كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ و أخرج أبو الشيخ نحوه عنه. و أخرج ابن جرير عن قتادة: إنما تسموا نصارى بقرية يقال لها ناصرة. و أخرج ابن سعد فى طبقاته و ابن جرير عن ابن عباس قال: إنما سميت النصارى لأن قرية عيسى كانت تسمى ناصرة. و

أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: الصابئون: فرقة بين اليهود و النصارى، و المجوس ليس لهم دين. و أخرج عبد الرزاق عنه قال: قال ابن عباس فذكر نحوه. و قد روى فى تفسير الصابئين غير هذا.

---

(١). آل عمران: ٨٥.

فتح القدير، ج‏١، ص: ١١٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٣ الى ٦٦]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٤) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

قوله: وَ إِذْ أَخَذْنا هو فى محل نصب بعامل مقدر هو اذكروا، كما تقدم غير مرة. و قد تقدّم تفسير الميثاق، و المراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق، بأن يعملوا بما شرعه لهم فى التوراة و بما هو أعمّ من ذلك أو أخصّ. و الطور اسم الجبل الذى كلم اللّه عليه موسى عليه السلام و أنزل عليه التوراة فيه؛ و قيل: هو اسم لكل جبل بالسريانية. و قد ذكر كثير من المفسرين: أن موسى لما جاء بنى إسرائيل من عند اللّه بالألواح قال لهم: خذوها و التزموها، فقالوا: لا إلا أن يكلمنا اللّه بها كما كلمك، فصعقوا ثم أحيوا، فقال لهم: خذوها و التزموها، فقالوا: لا، فأمر اللّه الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ فى مثله. و كذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، و أتوا ببحر من خلفهم، و نار من قبل وجوههم، و قيل: لهم خذوها و عليكم الميثاق أن لا تضيّعوها، و إلا سقط عليكم الجبل، فسجدوا توبة للّه و أخذوا التوراة بالميثاق. قال ابن جرير عن بعض العلماء: لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق. قال ابن عطية: و الذى لا يصح سواه أن اللّه سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان «١»، لا أنهم آمنوا كرها و قلوبهم غير مطمئنة. انتهى. و هذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه إليها كغيره، و كل عاقل يعلم أنه لا- سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا أو أشد منه. و نحن نقول: أكرههم اللّه على الإيمان فآمنوا مكرهين، و رفع عنهم العذاب بهذا الإيمان. و هو نظير ما ثبت فى شرعنا من رفع السيف عن من تكلّم بكلمة الإسلام و السيف مصلت قد هزّه حامله على رأسه. و قد ثبت فى الصحيح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذرا عن قتله بأنه قالها تقية و لم تكن عن قصد صحيح: «أ أنت فتشت عن قلبه؟». و قال:

«لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس» و قوله: خُذُوا أى و قلنا لكم: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ و القوّة: الجدّ و الاجتهاد. و المراد: ب (ذكر ما فيه): من أن يكون محفوظا عندهم ليعملوا به. قوله:

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ أصل التولى الإدبار عن الشى‏ء و الإعراض بالجسم، ثم استعمل فى الإعراض عن الأمور و الأديان و المعتقدات اتساعا و مجازا، و المراد هنا: إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم، و قوله: مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد البرهان لهم، و الترهيب بأشد ما يكون و أعظم ما تجوزه العقول و تقدره الأفهام، و هو رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم. و قوله: فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بأن تدارككم بلطفه و رحمته حتى أظهرتم التوبة لخسرتم. و الفضل: الزيادة. قال ابن فارس فى المجمل: الفضل: الزيادة و الخير، و الإفضال:

---

(١). فى تفسير ابن عطية زيادة هنا هى: (فى قلوبهم)

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۱۳

الإحسان. انتهى. و الخسران: النقصان، و قد تقدم تفسيره. و السبت فى أصل اللغة: القطع، لأن الأشياء تمت فيه و انقطع العمل؛ و قيل: هو مأخوذ من السبوت، و هو الراحة و الدعة. و قال فى الكشاف: السبت:

مصدر سبتت اليهود، إذا عظمت يوم السبت. انتهى. و قد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين:

ففرقة اعتدت فى السبت: أى جاوزت ما أمرها اللّه به من العمل فيه فصادوا السمك الذى نهاهم اللّه عن صيده فيه؛ و الفرقة الأخرى انقسمت إلى فرقتين: ففرقة جاهرت بالنهى و اعتزلت؛ و فرقة لم توافق المعتدين و لا صادوا معهم لكنهم جالسوهم و لم يجاهروهم بالنهى و لا اعتزلوا عنهم فمسخهم اللّه جميعا و لم تنج إلا الفرقة الأولى فقط، و هذه من جملة المحن التى امتحن اللّه بها هؤلاء الذين بالغوا فى العجرفة و عاندوا أنبياءهم، و ما زالوا فى كل موطن يظهرون من حماقاتهم و سخف عقولهم و تعنتهم نوعا من أنواع التعسف، و شعبة من شعب التكلف؛ فإن الحيتان كانت فى يوم السبت كما وصف اللّه سبحانه بقوله: إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ «۱» فاحتالوا لصيدها، و حفروا الحفائر و شقوا الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة. و الخاسئ: المبعد، يقال:

خسأته فخسأ و خسئ و انخسأ: أبعدته فبعد. و منه قوله تعالى: يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً «۲» أى مبعدا.

و قوله: اخْسَؤُا فِيها «۳» أى تباعدوا تباعد سخط، و يكون الخاسئ بمعنى الصاغر. و المراد هنا. كونوا [جامعين «۴» بين المصير إلى أشكال القردة مع كونكم مطرودين صاغرين، فقردة خبر الكون. و خاسئين خبر آخر؛ و قيل: إنه صفة لقردة و الأوّل أظهر. و اختلف فى مرجع الضمير فى قوله: فَجَعَلْناها و فى قوله: لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها فقيل: العقوبة، و قيل: الأمة، و قيل: القرية، و قيل: القردة، و قيل: الحيتان، و الأول أظهر. و النكال: الزجر و العقاب، و النكل: القيد لأنه يمنع صاحبه؛ و يقال للجام الدابة: نكل لأنه يمنعها، و الموعظة: مأخوذة من الاتعاظ و الانزجار، و الوعظ: التخويف. و قال الخليل:

الوعظ التذكير بالخير. و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الطور: الجبل الذى أنزلت عليه التوراة، و كان بنو إسرائيل أسفل منه. و أخرج نحوه عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الطور ما أنبت من الجبال، و ما لم ينبت فليس بطور. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ قال: أى بجد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ قال: اقرءوا ما فى التوراة و اعملوا به. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ قال: لعلكم تنزعون عما أنتم عليه. و أخرج ابن جرير عنه قال:

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ أى عرفتم الَّذِينَ اعْتَدَوْا يقول: اجترءوا فى السبت بصيد السمك، فمسخهم اللّه قردة بمعصيتهم، و لم يعش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام، و لم يأكل و لم يشرب و لم ينسل. و أخرج ابن المنذر عنه قال: القردة و الخنازير من نسل الذين مسخوا. و أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: انقطع ذلك النسل.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: مسخت قلوبهم و لم يمسخوا قردة، و إنما هو مثل ضربه اللّه

---

(۱). الأعراف: ۱۶۳.

(۲). الملك: ۴.

(۳). المؤمنون: ۱۰۸.

(۴). من الكشاف ۱/ ۲۸۶.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۱۴

لهم كقوله: كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى الآية قال:

أحلت لهم الحيتان و حرّمت عليهم يوم السبت ليعلم من يطيعه ممن يعصيه فكان فيهم ثلاثة أصناف، و ذكر نحو ما قدّمناه عن المفسرين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: صار شباب القوم قردة، و المشيخة صاروا خنازير. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خاسِئِينَ قال: ذليلين. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: خاسِئِينَ قال: صاغرين. و أخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَجَعَلْناها نَكالًا لِما بَيْنَ يَدَيْها من القرى وَ ما خَلْفَها من القرى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. و أخرج ابن جرير عنه فَجَعَلْناها يعنى الحيتان نَكالًا لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها من الذنوب التى عملوا قبل و بعد. و أخرج ابن جرير عنه فَجَعَلْناها قال:

جعلنا تلك العقوبة و هى المسخة نَكالًا عقوبة لِما بَيْنَ يَدَيْها يقول: ليحذر من بعدهم عقوبتى وَ ما خَلْفَها يقول: للذين كانوا معهم وَ مَوْعِظَةً قال: تذكرة و عبرة للمتقين.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٧ الى ٧١]

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٦٧) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (٦٨) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

قيل: إن قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدّم فى التلاوة و مؤخر فى المعنى على قوله تعالى: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً و يجوز أن يكون قوله: قتلتم مقدّما فى النزول، و يكون الأمر بالذبح مؤخرا، و يجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكأن اللّه أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمروا أن يضربوه ببعضها هذا على فرض أن الواو تقتضى الترتيب؛ و قد تقرر فى علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب و لا معية، و سيأتى فى قصة القتل تمام الكلام، و البقرة: اسم للأنثى، و يقال للذكر: ثور؛ و قيل إنها تطلق عليهما، و أصله من البقر و هو الشقّ لأنها تشقّ الأرض بالحرث، قال الأزهرى: البقر اسم جنس، و جمعه باقر. و قد قرأ عكرمة و يحيى بن يعمر: إنّ الباقر تشابه علينا و قوله: هُزُواً الهزو هنا:

اللعب و السخرية، و قد تقدم تفسيره. و إنما يفعل ذلك أهل الجهل لأنه نوع من العبث الذى لا يفعله العقلاء، و لهذا أجابهم موسى بالاستعاذة باللّه سبحانه من الجهل. و قوله: قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ هذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك فى غالب ما أمرهم اللّه به و لو تركوا التعنت و الأسئلة المتكلفة لأجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر، و لكنهم شدّدوا فشدّد اللّه عليهم كما سيأتى بيانه. و الفارض: المسنة،

و معناه فى اللغة الواسع. قال فى الكشاف: و كأنها سميت فارضا لأنها فرضت سنها: أى قطعتها و بلغت آخرها.

انتهى. و يقال للشىء القديم: فارض، و منه قول الراجز:

يا ربّ ذى ضغن علىّ فارض له قروء كقروء الحائض

أى قديم؛ و قيل الفارض: التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها. و البكر: الصغيرة التى لم تحمل، و تطلق فى إناث البهائم و بنى آدم على ما لم يفتحله الفحل، و تطلق أيضا على الأوّل من الأولاد، و منه قول الراجز:

يا بكر بكرين و يا خلب الكبدأصبحت منّى كذراع من عضد

و العوان: المتوسطة بين سنى الفارض و البكر، و هى التى قد ولدت بطنا أو بطنين؛ و يقال هى التى قد ولدت مرة بعد مرة، و الإشارة بقوله: بَيْنَ ذلِكَ إلى الفارض و البكر، و هما و إن كانتا مؤنثتين فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكور، كأنه قال: بين ذلك المذكور و جاز دخول بين المقتضية لشيئين [على المفرد] «١» لأن المذكور متعدد. و قوله: فَافْعَلُوا تجديد للأمر، و تأكيد له، و زجر لهم عن التعنت، فلم ينفعهم ذلك و لا نجع فيهم، بل رجعوا إلى طبيعتهم، و عادوا إلى مكرهم و استمرّوا على عادتهم المألوفة، ف قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ و اللون: واحد الألوان، و جمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء. قال بعضهم: حتى قرنها و ظلفها. و قال الحسن و سعيد بن جبير: إنها كانت صفراء القرن و الظلف فقط، و هو خلاف الظاهر. و المراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة. و روى عن الحسن أن صفراء معناه سوداء، و هذا من بدع التفاسير و منكراتها، و ليت شعرى كيف يصدق على اللون الأسود الذى هو أقبح الألوان أنه يسرّ الناظرين، و كيف يصح وصفه بالفقوع الذى يعلم كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجرى على الأسود بوجه من الوجوه، فإنهم يقولون فى وصف الأسود: حالك و حلكوك و دجوجى و غربيب. قال الكسائى:

يقال فقع لونها يفقع فقوعا: إذا خلصت صفرته. و قال فى الكشاف: الفقوع أشدّ ما يكون من الصفرة و أنصعه. و معنى تَسُرُّ النَّاظِرِينَ تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجابا بها و استحسانا للونها. قال وهب: كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ثم لم ينزعوا عن غوايتهم و لا ارعووا من سفههم و جهلهم، بل عادوا إلى تعنتهم فقال: ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا أى أن جنس البقر يتشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة، و وعدوا من أنفسهم بالاهتداء إلى ما دلّهم عليه، و الامتثال لما أمروا به. لا ذَلُولٌ التى لم يذللها العمل: أى هى غير مذللة بالعمل و لا ريّضة به.

و قوله: تُثِيرُ فى موضع رفع على الصفة لبقرة: أى هى بقرة لا ذلول مثيرة، و كذلك قوله: وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ فى محل رفع لأنه وصف لها: أى ليست من النواضح التى يسنى عليها لسقى الزروع، و حرف النفى الآخر توكيد للأوّل: أى هى بقرة غير مذللة بالحرث و لا بالنضح، و لهذا قال الحسن: كانت البقرة

---

(١). ما بين حاصرتين: زيادة يقتضيها السياق.

وحشية. و قال قوم: إنّ قوله: تُثِيرُ فعل مستأنف. و المعنى: إيجاب الحرث لها و النضح بها. و الأوّل أرجح، لأنها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذللة ريضة، و قد نفى اللّه ذلك عنها. و قوله: مُسَلَّمَةٌ مرتفع على أنه من أوصاف البقرة، و يجوز أن يكون مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أى هى مسلمة. و الجملة فى محل رفع على أنها صفة، و المسلمة: هى التى لا عيب فيها؛ و قيل مسلمة من العمل، و هو ضعيف لأن اللّه سبحانه قد نفى ذلك عنها، و التأسيس خير من التأكيد، و الإفادة أولى من الإعادة. و الشية أصلها و شية، حذفت الواو كما حذفت من يشى، و أصله يوشى، و نظيره الزنة و العدة و الصلة، و هى مأخوذة من وشى الثوب: إذا نسج على لونين مختلفين، و ثور موشى: فى وجهه و قوائمه سواد. و المراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس فى جسمها لمعة من لون آخر. فلما سمعوا هذه الأوصاف التى لا يبقى بعدها ريب و لا يخالج سامعها شك، و لا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه، أقصروا من غوايتهم، و انتبهوا من رقدتهم و عرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ أى أوضحت لنا الوصف، و بيّنت لنا الحقيقة التى يجب الوقوف عندها، فحصلوا على تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات فَذَبَحُوها و امتثلوا الأمر الذى كان يسرا فعسّروه، و كان واسعا فضيّقوه وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ ما أمروا به لما وقع منهم من

التثبط و التعنت و عدم المبادرة، فكان ذلك مظنة للاستبعاد، و محلا للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم، و قيل إنهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، و قيل لارتفاع ثمنها، و قيل لخوف انكشاف أمر المقتول، و الأوّل أرجح. و قد استدل جماعة من المفسرين و الأصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل إمكان الفعل.
و ليس ذلك عندى بصحيح لوجهين: الأوّل: أن هذه الأوصاف المزيدة بسبب تكرر السؤال هى من باب التقييد للمأمور به لا من باب النسخ، و بين البابين بون بعيد كما هو مقرر فى علم الأصول. الثانى: أنا لو سلّمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه، فإنه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأوّل أن يعمدوا إلى بقرة من عرض البقر فيذبحوها، ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان و الصفراء، و لا دليل يدل على هذه المحاورة بينهم و بين موسى عليه السلام واقعة فى لحظة واحدة، بل الظاهر أن هذه الأسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤون عليها، و يديرون الرأى بينهم فى أمرها ثم يوردونها، و أقلّ الأحوال الاحتمال القادح فى الاستدلال.
و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عن عبيدة السلمانى قال: كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له و كان له مال كثير، و كان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدّعيه عليهم حتى تسلّحوا، و ركب بعضهم إلى بعض، فقال ذو الرأى منهم: علام يقتل بعضكم بعضا، و هذا رسول اللّه فيكم؟ فأتوا موسى فذكروا ذلك له، فقال:
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً الآية، قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، و لكنهم شدّدوا فشدّد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: و اللّه
فتح القدير، ج ١، ص: ١١٧
لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا، فأخذوها بملء جلدها ذهبا، فذبحوها فضربوه ببعضها، فقام، فقالوا:
من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه، ثم مال ميتا، فلم يعط من ماله شيئا، و لم يورّث قاتل بعده. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب «من عاش بعد الموت» عن ابن عباس: أن القتيل وجد بين قريتين؛ و أن البقرة كانت لرجل كان يبرّ أباه فاشتروها بوزنها ذهبا. و أخرج ابن جرير عنه نحوا من ذلك، و لم يذكر ما تقدم فى البقرة.
و قد روى فى هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة. و أخرج البزار عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ بنى إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأهم أو لأجزأت عنهم» و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لو لا أن بنى إسرائيل قالوا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ما أعطوا أبدا، و لو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، و لكنّهم شدّدوا فشدّد اللّه عليهم» و أخرج نحوه الفريابى و سعيد بن منصور و ابن المنذر عن عكرمة يبلغ به النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرجه ابن جرير عن ابن جريج يرفعه. و أخرجه ابن جرير عن قتادة يرفعه أيضا، و هذه الثلاثة مرسلة. و أخرج نحوه ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: الفارض: الهرمة، و البكر: الصغيرة، و العوان: النصف. و أخرج نحوه عن مجاهد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ قال: بين الصغيرة و الكبيرة، و هى أقوى ما يكون و أحسنه. و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها قال: شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: صَفْراءُ قال: صفراء الظلف فاقِعٌ لَوْنُها قال: صافى. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال: فاقِعٌ لَوْنُها أى صاف تَسُرُّ النَّاظِرِينَ أى تعجب. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير عن الحسن فى قوله: صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها قال: سوداء شديدة السواد. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله:

لا ذَلُولٌ أی لم یـذلها العمـل تُثِیرُ الْأَرْضَ یعنی لیس بـذلول فتثیر الأرض وَ لا تَسْقِی الْحَرْثَ یقول: و لا تعمل فی الحرث مُسَلَّمَةٌ قـال: من العیوب. و أخرج نحوه عبـد بن حمیـد و ابن جریر عن مجاهـد. و قال: لا شِیَةَ فِیها لا بیاض فیها و لا سواد. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس مُسَلَّمَةٌ لا عوار فیها. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر عن قتادة: قالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ قالوا: الآن بینت لنا: فَذَبَحُوها وَ ما کادُوا یَفْعَلُونَ و أخرج ابن جریر عن محمد بن کعب فی قوله: وَ ما کادُوا یَفْعَلُونَ لغلاء ثمنها.

[سورة البقرة (٢): الآیات ٧٢ الی ٧٤]

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِیها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها کَذلِکَ یُحْیِ اللَّهُ الْمَوْتی وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَهِیَ کَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما یَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما یَشَّقَّقُ فَیَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧۴)

فتح القدیر، ج ١، ص: ١١٨

قـد تقـدم ما ذکرناه فی قصـة ذبـح البقرة، فیکون تقـدیر الکلام: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِیها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ فقال موسی لقومه: إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً إلی آخر القصة، و بعدها: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها الآیة. و قال الرازی فی تفسیره: اعلم أن وقوع القتل لا بـد أن یکون متقـدما لأمره تعالی بالذبـح، فأما الإخبار عن وقوع ذلک القتل، و عن أنه لا بدّ أن یضـرب القتیل ببعض تلک البقرة فلا یجب أن یکون متقدما علی الإخبار عن قصة البقرة، فقول من یقول هذه القصة یجب أن تکون متقدمة فی التلاوة علی الأولی خطأ، لأن هـذه القصـة فی نفسـها یجب أن تکون متقدمـة علی الأولی فی الوجود، فأما التقـدم فی الذکر فغیر واجب لأنه تارة یقدم ذکر السبب علی ذکر الحکم، و أخری علی العکس من ذلک، فکأنهم لما وقعت لهم تلک الواقعة أمرهم اللّه بذبـح البقرة، فلمـا ذبحوهـا قال: و إذ قتلتم نفسا من قبل، و نسب القتل إلیهم بکون القاتل منهم، و أصل ادّارأتم تـدارأتم، ثم أدغمت التاء فی الـدال، و لما کان الابتـداء بالمدغم الساکن لا یجوز زادوا ألف الوصل؛ و معنی ادّارأتم: اختلفتم و تنازعتم، لأن المتنازعین یدرأ بعضهم بعضا:

أی یـدفعه، و معنی مُخْرِجٌ مظهر: أی مـا کتمتم بینکم من أمر القتـل فـاللّه مظهره لعباده و مبینه لهم، و هـذه الجملـة معترضـة بین أجزاء الکلام: أی فادّارأتم فیها فقلنا. و اختلف فی تعیین البعض الذی أمروا بأن یضربوا القتیل به، و لا حاجة إلی ذلک مع ما فیه من القول بغیر علم، و یکفینا أن نقول: أمرهم اللّه بأن یضـربوه ببعضـها، فأیّ بعض ضـربوا به فقـد فعلوا ما أمروا به، و ما زاد علی هـذا فهو من فضول العلم إذا لم یرد به برهان. قوله: کَذلِکَ یُحْیِ اللَّهُ الْمَوْتی فی الکلام حذف، و التقدیر: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها فأحیاه اللّه کَذلِکَ یُحْیِ اللَّهُ الْمَوْتی أی إحیاء کمثل هـذا الإحیاء. وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ أی علاماته و دلائله الدالة علی کمال قدرته، و هـذا یحتمـل أن یکون خطابـا لمن حضـر القصـة، و یحتمل أن یکون خطابا للموجودین عنـد نزول القرآن. و القسوة: الصـلابة و الیبس، و هی عبارة عن خلوّها من الإنابـة و الإذعان لآیات اللّه مع وجود ما یقتضـی خلاف هذه القسوة من إحیاء القتیل و تکلمه و تعیینه لقـاتله، و الإشـارة بقوله: مِنْ بَعْدِ ذلِکَ إلی ما تقـدم من الآیات الموجبـة للین القلوب و رقتها. قیل: أَوْ فی قوله: أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً بمعنی الواو کمـا فی قوله تعـالی: آثِماً أَوْ کَفُوراً «١» و قیـل هی بمعنی بـل، و علی أن «أو» علی أصـلها أو بمعنی الـواو، فالعطف علی قوله: کَالْحِجارَةِ أی هذه القلوب هی کالحجارة أو هی أشدّ قسوة منها، فشـبهوها بأیّ الأمرین شـئتم فإنکم مصیبون فی هذا التشبیه. و قد أجاب الرازی فی تفسـیره عن وقوع «أو» هاهنا مع کونها للتردید- و هو لا یلیق لعلام الغیوب- بثمانیة أوجه. و إنما توصل إلی أفعل التفضیل بأشدّ مع کونه یصح أن یقال و أقسی من الحجارة، لکونه أبین و أدلّ علی فرط القسوة، کما قاله فی الکشاف. و قرأ الأعمش «أو أشـد» بنصب الـدال، و کأنه عطفه علی الحجارة، فیکون أشـدّ مجرورا بالفتحة. و قوله: وَ إِنَّ مِنَ

الْحِجارَةِ إلى آخره، قال فى الكشاف: إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة فى شدّة القسوة و تقرير لقوله: أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً انتهى. و فيه أن مجىء البيان بالواو غير معروف و لا مألوف، و الأولى جعل ما بعد الواو تذييلا أو حالا. التفجر: التفتح، و قد سبق تفسيره. و أصل يَشَّقَّقُ يتشقق، أدغمت التاء فى الشين،

---

(١). الإنسان: ٢۴.

فتح القدير، ج ١، ص: ١١٩

و قد قرأ الأعمش يتشقّق على الأصل. و قرأ ابن مصرف ينشقّ بالنون، و الشق: واحد الشقوق، و هو يكون بالطول أو بالعرض، بخلاف الانفجار، فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق. و المراد:

أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار و الانشقاق، و من الحجارة ما يهبط: أى ينحطّ من المكان الذى هو فيه إلى أسفل منه من الخشية للّه التى تداخله و تحل به؛ و قيل: إن الهبوط مجاز عن الخشوع منها، و التواضع الكائن فيها انقيادا للّه عزّ و جل، فهو مثل قوله تعالى: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ «١» و قد حكى ابن جرير عن فرقة: أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار «٢»، و كما قال الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة و الجبال الخشّع

و ذكر الجاحظ أن الضمير فى قوله: وَ إِنَّ مِنْها راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، و هو فاسد، فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت فى القسوة و فرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق و التأثر للمواعظ إلى مكان لم تبلغ إليه الحجارة، التى هى أشدّ الأجسام صلابة و أعظمها صلادة، فإنها ترجع إلى نوع من اللين، و هى تفجرها بالماء و تشققها عنه و قبولها لما توجبه الخشية للّه من الخشوع و الانقياد بخلاف تلك القلوب. و فى قوله: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ من التهديد و تشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن اللّه عز و جل إذا كان عالما بما يعملونه مطلعا عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ قال: اختلفتم فيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ قال: ما تغيبون. و أخرج ابن أبى حاتم و البيهقى فى شعب الإيمان، عن المسيب بن رافع قال: ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها اللّه، و ما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها، و تصديق ذلك فى كتاب اللّه: وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ و أخرج أحمد و الحاكم و صحّحه، عن أبى سعيد، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لو أنّ رجلا عمل عملا فى صخرة صمّاء لا باب لها و لا كوّة خرج عمله إلى النّاس كائنا ما كان» و أخرج البيهقى من حديث عثمان قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من كانت له سريرة صالحة أو سيّئة أظهر اللّه عليه منها رداء يعرف به» و رواه البيهقى أيضا بنحوه من قول عثمان قال: و الموقوف أصحّ. و أخرج أبو الشيخ و البيهقى عن أنس مرفوعا حديثا طويلا فى هذا المعنى، و معناه: أن اللّه يلبس كل عامل عمله حتى يتحدّث به الناس و يزيدون، و لو عمله فى جوف بيت إلى سبعين بيتا على كل بيت باب من حديد، و فى إسناده ضعف. و أخرج ابن عدىّ من حديث أنس أيضا مرفوعا:

«إنّ اللّه مرد كل امرئ رداء عمله». و لجماعة من الصحابة و التابعين كلمات تفيد هذا المعنى. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها قال: ضرب

---

(١). الحشر: ٢١.

(٢). فى هذا إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الكهف [الآية: ٧٧]: فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ....

فتح القدير، ج‏۱، ص: ۱۲۰

بالعظم الذى يلى الغضروف. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة: أنهم ضربوه بفخذها. و أخرج مثله ابن جرير عن عكرمة. و أخرج نحوه عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد. و أخرج ابن جرير عن السدى قال: ضرب بالبضعة التى بين الكتفين. و أخرج عبد بن حميد، و أبو الشيخ فى العظمة، عن وهب بن منبّه قصة طويلة فى ذكر البقرة و صاحبها لا حاجة إلى التطويل بذكرها، و قد استوفاها فى الدرّ المنثور. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ قال: من بعد ما أراهم اللّه من إحياء الموتى و من بعد ما أراهم من أمر القتيل فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ثم عذر اللّه الحجارة و لم يعذر شقّى بنى آدم فقال: وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ إلى آخر الآية. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أى من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: إنّ الحجر ليقع على الأرض و لو اجتمع عليه فئام من النّاس ما استطاعوه، و إنّه ليهبط من خشية اللّه.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۷۵ الى ۷۷]

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۷۶) أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (۷۷)

و قوله: أَ فَتَطْمَعُونَ هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود.

و الخطاب لأصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أوله و لهم. و يُؤْمِنُوا لَكُمْ أى لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب: أى أ تطمعون أن يستجيبوا لكم. و الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه. و كَلامَ اللَّهِ أى التوراة، و قيل: إنهم سمعوا خطاب اللّه لموسى حين كلمه، و على هذا فيكون الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى، و قرأ الأعمش: «كلم اللّه». و المراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراما أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم، كتحريفهم صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام اللّه لموسى فزادوا فيه و نقصوا، و هذا إخبار عن إصرارهم على الكفر و إنكار على من طمع فى إيمانهم و حالهم هذه الحال: أى و لهم سلف حرّفوا كلام اللّه و غيّروا شرائعه و هم مقتدون بهم متبعون سبيلهم. و معنى قوله: مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ أى من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذى فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم اللّه به من تبليغ شرائعه كما هى، فهم وقعوا فى المعصية عالمين بها، و ذلك أشد لعقوبتهم و أبين لضلالهم. وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا يعنى أن المنافقين إذا لقوا الذين آمنوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ أى إذا خلا الذين لم ينافقوا بالمنافقين قالوا لهم عاتبين عليهم أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أى حكم عليكم من العذاب، و ذلك أن ناسا من اليهود أسلموا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذّب به آباؤهم، و قيل: إن المراد ما فتح اللّه عليهم فى التوراة من صفة محمد،

فتح القدير، ج‏۱، ص: ۱۲۱

و قد تقدم معنى خلا. و الفتح عند العرب: القضاء و الحكم، و الفتّاح: القاضى بلغة اليمن، و الفتح: النصر، و من ذلك قوله تعالى: يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا «۱» و قوله: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ «۲» و من الأوّل ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِ «۳» وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ «۴» أى الحاكمين، و يكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين، و المحاجّة: إبراز الحجة، أى لا تخبروهم بما حكم اللّه به عليكم من العذاب فيكون ذلك حجة لهم عليكم فيقولون: نحن أكرم على اللّه منكم و أحقّ بالخير منه. و الحجّة، الكلام

المستقيم، و حاججت فلانا فحججته أى غلبته بالحجة. أَ فَلا تَعْقِلُونَ ما فيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم. ثم وبّخهم اللّه سبحانه: أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ من جميع أنواع الإسرار و أنواع الإعلان، و من ذلك إسرارهم الكفر و إعلانهم الإيمان.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ثم قال اللّه لنبيه و من معه من المؤمنين يؤيسهم منهم أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ و ليس قوله: يسمعون التوراة كلهم قد سمعها، و لكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم، فأخذتهم الصاعقة فيها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ الآية. قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام اللّه يحرّفونه من بعد ما سمعوه و وعوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ الآية، قال: الذين يحرّفونه و الذين يكتبونه هم العلماء منهم، و الذين نبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم هؤلاء كلهم يهود. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ قال: هى التوراة حرفوها. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا: آمَنَّا أى: بصاحبكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لكنه إليكم خاصة وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فقد كنتم تستفتحون به عليهم، و كان منهم لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أى تقرّون بأنه نبىّ و قد علمتم أنه قد أخذ عليكم الميثاق باتباعه، و هو يخبرهم أنه النبىّ الذى كان ينتظر، و نجد فى كتابنا: اجحدوه و لا تقرّوا به. و أخرج ابن جرير عنه أن هذه الآية فى المنافقين من اليهود و قوله: بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ يعنى بما أكرمكم به. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى قال: نزلت هذه الآية فى ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، و كانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض: أ تحدثونهم بما فتح اللّه عليكم من العذاب لتقولوا نحن أحبّ إلى اللّه منكم و أكرم على اللّه منكم. و قد أخرج ابن جرير عن ابن زيد أن سبب نزول الآية: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يدخلنّ علينا قصبة المدينة إلا مؤمن، فكان اليهود يظهرون الإيمان فيدخلون و يرجعون إلى قومهم بالأخبار، و كان المؤمنون يقولون لهم: أليس قد قال اللّه فى التوراة كذا و كذا؟» فيقولون: نعم، فإذا رجعوا إلى قومهم قالُوا: أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الآية، و روى عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد أن سبب نزول الآية «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قام لقوم قريظة تحت حصونهم فقال: يا إخوان القردة و الخنازير و يا عبدة الطّاغوت، فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمدا؟ ما خرج هذا الأمر إلا منكم أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أى بما حكم اللّه ليكون

---

(۱). البقرة: ۸۹.

(۲). الأنفال: ۱۹.

(۳). سبأ: ۲۶.

(۴). الأعراف: ۸۹.

لهم حجّة عليكم. و روى ابن أبى حاتم عن عكرمة أن السبب فى نزول الآية: «أنّ امرأة من اليهود أصابت فاحشة، فجاؤوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و سلم يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عالمهم و هو ابن صوريا فقال له: احكم ... قال: فجبّوه، و التجبية: يحملونه على حمار و يجعلون وجهه إلى ذنب الحمار، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أ بحكم اللّه حكمت؟ قال: لا، و لكن نساءنا كنّ حسانا فأسرع فيهنّ رجالنا فغيّرنا الحكم، و فيه نزل: وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الآية» و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا: آمَنَّا فصانعوهم بذلك ليرضوا عنهم وَ إِذا خَلا

بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ نهى بعضهم بعضا أن يحدثوا بما فتح اللّه عليهم و بيّن لهم فى كتابه من أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و نعته و نبوّته و قالوا: إنكم إذا فعلتم ذلك احتجوا بذلك عليكم عند ربكم أَ فَلا تَعْقِلُونَ أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ قال: ما يعلنون من أمرهم و كلامهم إذا لقوا الذين آمنوا، و ما يسرّون إذا خلا بعضهم إلى بعض من كفرهم بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و تكذيبهم به و هم يجدونه مكتوبا عندهم. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ يعنى من كفرهم بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و لكذبهم، و ما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمنا، و قد قال بمثل هذا جماعة من السلف.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٧٨ الى ٨٢]

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨٢)

قوله: وَ مِنْهُمْ أى من اليهود. و الأمىّ منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة و لا تحسن القراءة للمكتوب، و منه حديث «إنا أمة أمية لا تكتب و لا تحسب» و قال أبو عبيدة: إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب، فكأنه قال: و منهم أهل الكتاب، و قيل: هم نصارى العرب؛ و قيل: هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها؛ و قيل: هم المجوس؛ و قيل غير ذلك و الراجح الأوّل. و معنى لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَ أنه لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأمانىّ التى يتمنونها و يعلّلون بها أنفسهم. و الأمانى: جمع أمنية و هى ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذى هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون و لا يقرءون المكتوب، و الاستثناء منقطع: أى لكن الأمانىّ ثابتة لهم من كونهم مغفورا لهم بما يدّعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة، أو بما لهم من السلف الصالح فى اعتقادهم؛ و قيل الأمانىّ الأكاذيب كما سيأتى عن ابن عباس. و منه قول عثمان بن

فتح القدير، ج ١، ص: ١٢٣

عفان: ما تمنيت منذ أسلمت: أى ما كذبت، حكاه عنه القرطبى فى تفسيره، و قيل: الأمانىّ: التلاوة، و منه قوله تعالى: إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ «١» أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته، أى لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم و تدبر، و منه قول كعب بن مالك:

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلهو آخره لاقى حمام المقادر

و قال آخر:

تمنّى كتاب اللّه آخر ليلهتمنّى داود الزّبور على رسل

و قيل: الأمانى: التقدير. قال الجوهرى: يقال: منّى له: أى قدّر، و منه قول الشاعر:

لا تأمننّ و إن أمسيت فى حرمحتّى تلاقى ما يمنى لك المانى

أى يقدر لك المقدر. قال فى الكشاف: و الاشتقاق من منى إذا قدّر، لأن المتمنى يقدر فى نفسه و يجوّز ما يتمناه، و كذلك المختلق و القارئ يقدران كلمة كذا بعد كذا. انتهى. وَ إِنْ فى قوله: وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ نافية: أى ما هم، و الظنّ: هو التردد الراجح بين طرفى الاعتقاد الغير الجازم، كذا فى القاموس، أى ما هم إلا يترددون بغير جزم و لا يقين؛ و قيل: الظن هنا بمعنى

الكـذب؛ و قيل: هو مجرد الحدس. لما ذكر اللّه سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرّفون كلام اللّه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون، ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأمانىّ و يعتمـدون على الظن الـذى لا يقفون من تقليدهم على غيره و لا يظفرون بسواه. و الويل: الهلاك. و قال الفرّاء: الأصل فى الويل وى: أى حزن، كما تقول: وى لفلان:

أى حزن له، فوصلته العرب باللام، قال الخليل: و لم نسمع على بنائه إلا ويح، و ويس، و ويه، و ويك، و ويب، و كله متقارب فى المعنى، و قد فرّق بينها قوم و هى مصادر لم ينطق العرب بأفعالها، و جاز الابتداء به و إن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء. و الكتابة معروفة، و المراد: أنهم يكتبون الكتاب المحرّف و لا يبينون و لا ينكرونه على فاعله. و قوله: بِأَيْدِيهِمْ تأكيد لأن الكتابة لا تكون إلا باليد فهو مثل قوله: وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «٢» قوله: يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ و قال ابن السراج: هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم. و فيه أنه قد دلّ على أنه من تلقائهم قوله: يَكْتُبُونَ الْكِتابَ فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك. و الاشتراء: الاستبدال، و قد تقدّم الكلام عليه، و وصفه بالقلة لكونه فانيا لا ثواب فيه، أو لكونه حراما لا تحلّ به البركة، فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف و لا بالكتابة لذلك المحرّف حتى نادوا فى المحافل بأنه من عند اللّه، لينالوا بهذه المعاصى المتكرّرة هذا الغرض النزير و العوض الحقير. و قوله: مِمَّا يَكْسِبُونَ قيل: من الرشا و نحوها؛ و قيل: من المعاصى، و كرر الويل تغليظا عليهم و تعظيما لفعلهم و هتكا لأستارهم وَ قالُوا أى اليهود لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ الآية. و قد اختلف فى سبب نزول الآية كما سيأتى بيانه. و المراد بقوله: قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياما معدودة: أى لم يتقدّم لكم مع اللّه عهد بهذا، و لا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصدق هذه

---

(١). الحج: ٥٢.

(٢). الأنعام: ٣٨.

الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك و عدم إخلاف العهد: أى إن اتخذتم عند اللّه عهدا فلن يخلف اللّه عهده أم تقولون على اللّه ما لا تعلمون. قال فى الكشاف: و «أم» إما أن تكون معادلة بمعنى أىّ الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما، و يجوز أن تكون منقطعة. انتهى، و هذا توبيخ لهم شديد.

قال الرازى فى تفسيره: العهد فى هذا الموضع يجرى مجرى الوعد، و إنما سمّى خبره سبحانه عهدا لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة. و قوله: بَلى إثبات بعد النفى: أى بلى تمسكم لا على الوجه الذى ذكرتم من كونه أياما معدودة. و السيئة: المراد بها الجنس هنا، و مثله قوله تعالى: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود فى النار، بل لا بد أن تكون سيئته محيطة به؛ قيل هى الشرك و قيل الكبيرة. و تفسيرها بالشرك أولى لما ثبت فى السنة تواترا من خروج عصاة الموحدين من النار، و يؤيد ذلك كونها نازلة فى اليهود و إن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

و قد قرأ نافع (خطيئاته) بالجمع، و قرأ الباقون بالإفراد، و قد تقدم تفسير الخلود.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ قال:

لا يدرون ما فيه وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ قال: و هم يجحدون نبوّتك بالظن. و أخرج ابن جرير عنه قال:

الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله اللّه، و لا كتابا أنزله اللّه فكتبوا كتابا بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهّال هذا من عند اللّه. و قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب اللّه و رسله. و أخرج ابن جرير عن النخعى قال: منهم من لا

يحسن أن يكتب. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا أَمانِيَ قال: الأحاديث. و أخرج ابن جرير عنه أنها الكـذب. و كـذا روى مثله عبد ابن حميد عن مجاهد، و زاد وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ قال: إلا يكذبون. و أخرج النسائى و ابن المنـذر عن ابن عبـاس فى قوله: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ قال: نزلت فى أهل الكتاب. و أخرج أحمـد و الترمـذى و ابن حبان فى صحيحه و الحاكم فى مستدركه، و صحّحه عن أبى سعيد، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ويل:

واد فى جهنّم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره» و أخرج ابن جرير من حـديث عثمان مرفوعا قال: «الويل: جبل فى النار» و أخرج البزار و ابن مردويه من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا أنه حجر فى النار. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ قال: هم أحبار اليهود، وجـدوا صـفة النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم مكتوبـة فى التوراة أكحل أعين ربعـة جعـد الشـعر حسن الوجه، فلما وجـدوه فى التوراة محوه حسدا و بغيا، فأتاهم نفر من قريش فقالوا: تجدون فى التوراة نبيـا أميا؟ فقالوا: نعم نجـده طويلا أزرق سـبط الشعر، فأنكرت قريش و قالوا: ليس هـذا منا. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: ثَمَناً قَلِيلًا قـال: عرضـا من عرض الـدنيا فَوَيْلٌ لَهُمْ قـال: فالعـذاب عليهم من الـذى كتبوا بأيـديهم من ذلـك الكـذب وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ يقول: مما يأكلون به، الناس السـفلة و غيرهم. و قـد ذكر صاحب الدرّ المنثور آثارا عن جماعة من السـلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مسـتدلين بهذه الآية، و لا دلالة فيها على ذلك، ثم ذكر آثارا عن جماعة منهم أنهم جوّزوا ذلك و لم يكرهوه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن

أبى حاتم و الطبرانى و الواحدى عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سـبعة آلاف سنة، و إنما نعذب بكل ألف سنة من أيام الـدنيا يوما واحدا فى النار، و إنما هى سـبعة أيام معدودة، ثم ينقطع العذاب، فأنزل اللّه فى ذلك: وَ قالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عنه قال: وجـد أهل الكتاب مسـيرة ما بين طرفى جهنم مسـيرة أربعين فقالوا: لن يعـذب أهل النار إلا قدر أربعين، فإذا كان يوم القيامة ألجموا فى النار فساروا فيها حتى انتهوا إلى سـقر، و فيها شـجرة الزقوم إلى آخر يوم من الأيام المعـدودة، فقال لهم خزنـة النار: يا أعـداء اللّه! زعمتم أنكم لن تعذبوا فى النار إلا أياما معدودة، فقد انقضـى العدد و بقى الأبد، فيؤخذون فى الصعود يرهقون على وجوههم. و أخرج ابن جرير عنه أن اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة مدة عبادة العجل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال:

اجتمعت يهود يومـا فخاصـموا النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم فقالوا: لن تمسـنا النار إلا أياما معـدودات أربعين يوما. ثم يخلفنا فيها ناس، و أشاروا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ردّ يديه على رأسه: «كذبتم بل أنتم خالـدون مخلّـدون فيها، لا نخلفكم فيها إن شاء اللّه أبدا. ففيهم نزلت هذه الآية وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ» و أخرج ابن جرير عن زيد بن أسـلم مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد و البخارى و الدارمى و النسائى من حديث أبى هريرة «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سأل اليهود فى خيبر: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرا، ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: اخسئوا، و اللّه لا نخلفكم فيها أبـدا». و أخرج عبـد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً أى موثقا من اللّه بذلك أنه كما تقولون. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه فسّر العهد هنا بأنهم قالوا: لا إله إلا اللّه، لم يشركوا به و لم يكفروا. و أخرج عبد ابن حميد عن قتادة فى قوله: أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قال: قال القوم: الكذب و الباطل.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً قال: الشـرك. و أخرج عبـد بن حميد عن مجاهد و عكرمة و قتـادة مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة فى قوله: وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ قال: أحاط به شـركه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم فى قوله: بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً أى من عمـل مثل أعمالكم و كفر بمثل ما كفرتم حتى يحيط

كفره بما له من حسنة فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى من آمن بما كفرتم به و عمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: (و أحاطت به خطيئته) قال: هى الكبيرة الموجبة لأهلها النار. و أخرج وكيع و ابن جرير عن الحسن أنه قال: كل ما وعد اللّه عليه النار فهو الخطيئة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير عن الربيع بن خثيم قال: هو الذى يموت على خطيئته قبل أن يتوب. و أخرج مثله ابن جرير عن الأعمش.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٢٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٣ الى ٨٦]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣) وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

قد تقدّم تفسير الميثاق المأخوذ على بنى إسرائيل. و قال مكّى: إن الميثاق الذى أخذه اللّه عليهم هنا هو: ما أخذه اللّه عليهم فى حياتهم على ألسن أنبيائهم، و هو قوله: لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ و عبادة اللّه: إثبات توحيده، و تصديق رسله، و العمل بما أنزل فى كتبه. قال سيبويه: إن قوله: لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ هو جواب قسم، و المعنى، استحلفناهم: و اللّه لا تعبدون إلا اللّه، و قيل: هو إخبار فى معنى الأمر، و يدل عليه قراءة أبيّ و ابن مسعود: لا تعبدوا على النهى و يدل عليه أيضا ما عطف عليه من قوله: وَ قُولُوا وَ أَقِيمُوا وَ آتُوا و قال قطرب و المبرّد: إن قوله: لا تَعْبُدُونَ جملة حالية: أى أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين. قال القرطبى: و هذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير و حمزة و الكسائى يعبدون بالياء التحتية. و قال الفراء و الزجاج و جماعة: إن معناه أخذنا ميثاقكم بأن لا تعبدوا إلا اللّه و بأن تحسنوا بالوالدين، و بأن لا تسفكوا الدماء: ثم حذف أن فارتفع الفعل لزوالها. قال المبرّد: هذا خطأ، لأن كل ما أضمر فى العربية فهو يعمل عمله مظهرا. و قال القرطبى: ليس بخطإ بل هما وجهان صحيحان و عليهما أنشد:

ألا أيّهذا الزّاجرىّ أحضر الوغىو أن أشهد اللّذات هل أنت مخلدى

بالنصب لقوله أحضر و بالرفع. و الإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف و التواضع لهما و امتثال أمرهما، و سائر ما أوجبه اللّه على الولد لوالديه من الحقوق. و القربى: مصدر كالرجعى و العقبى، هم القرابة- و الإحسان بهم: صلتهم و القيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة و بقدر ما تبلغ إليه القدرة.

و اليتامى: جمع يتيم، و اليتيم فى بنى آدم: من فقد أبوه. و فى سائر الحيوانات: من فقدت أمه. و أصله الانفراد- يقال: صبىّ يتيم: أى منفرد من أبيه. و المساكين: جمع مسكين، و هو من أسكنته الحاجة و ذلته، و هو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة و كثير من أهل الفقه. و روى عن الشافعى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين. و قد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة فى مواطنها. و معنى قوله: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً أى قولوا لهم قولا حسنا، فهو صفة مصدر محذوف، و هو مصدر كبشرى. و قرأ حمزة و الكسائى: حُسْناً بفتح الحاء و السين. و كذلك قرأ زيد بن ثابت و ابن مسعود. قال الأخفش: هما بمعنى واحد، مثل البخل و

البخل، و الرّشد و الرّشد و حكى الأخفش أيضا حسنى بغير تنوين على فعلى.
قال النحاس: و هذا لا يجوز فى العربيۀ، لا يقال من هذا شىء إلا بالألف و اللام، نحو الفضلى و الكبرى و الحسنى
فتح القدير، ج ١، ص: ١٢٧
و هذا قول سيبويه. و قرأ عيسى بن عمر حسنا بضمتين. و الظاهر أن هذا القول الذى أمرهم اللّه به لا يختص بنوع معين، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعا كان من جملۀ ما يصدق عليه هذا الأمر. و قد قيل: إن ذلك هو كلمۀ التوحيد، و قيل: الصدق، و قيل: الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و قيل: غير ذلك. و قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ قد تقدّم تفسيره، و هو خطاب لبنى إسرائيل، فالمراد الصلاۀ التى كانوا يصلّونها، و الزكاۀ التى كانوا يخرجونها. قال ابن عطيۀ: و زكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يقبل، و لا تنزل على ما لا يقبل. و قوله: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ قيل: الخطاب للحاضرين منهم فى عصر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لأنهم مثل سلفهم فى ذلك، و فيه التفات من الغيبۀ إلى الخطاب. و قوله: إِلَّا قَلِيلًا منصوب على الاستثناء، و منهم عبد اللّه بن سلام و أصحابه. و قوله: وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ فى موضع النصب على الحال، و الإعراض و التولّى بمعنى واحد، و قيل: التولّى بالجسم، و الإعراض بالقلب. و قوله: لا تَسْفِكُونَ الكلام فيه كالكلام فى: لا تعبدون، و قد سبق. و قرأ طلحۀ بن مصرف و شعيب بن أبى حمزۀ بضم الفاء، و هى لغۀ. و قرأ أبو نهيك بضم التاء و تشديد الفاء و فتح السين. و السفك: الصبّ، و قد تقدّم؛ و المراد أنه لا يفعل ذلك بعضهم ببعض. و الدار: المنزل الذى فيه أبنيۀ المقام، بخلاف منزل الارتحال. و قال الخليل: كل موضع حلّه قوم فهو دار لهم و إن لم يكن فيه أبنيۀ؛ و قيل سميت دارا لدورها على سكانها، كما يسمّى الحائط حائطا لإحاطته على ما يحويه. و قوله: ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ من الإقرار: أى حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم فى حال شهادتكم على أنفسكم بذلك؛ قيل: الشهادۀ هنا بالقلوب و قيل: هى بمعنى الحضور. أى أنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك، و كان اللّه سبحانه قد أخذ فى التوراۀ على بنى إسرائيل أن لا يقتل بعضهم بعضا و لا ينفيه و لا يسترقه. و قوله: ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ أى أنتم هؤلاء المشاهدون الحاضرون تخالفون ما أخذه اللّه عليكم فى التوراۀ فتقتلون أنفسكم إلى آخر الآيۀ؛ و قيل: إن هؤلاء منصوب بإضمار أعنى؛ و يمكن أن يقال: منصوب بالذم أو الاختصاص: أذمّ أو أخص. و قال القتبى: إن التقدير يا هؤلاء. قال النحاس: هذا خطأ على قول سيبويه لا يجوز. و قال الزجّاج: هؤلاء بمعنى الذين، أى ثم أنتم الذين تقتلون. و قيل: هؤلاء مبتدأ و أنتم: خبر مقدّم، و قرأ الزهرى: (تقتلون) مشدّدا، فمن جعل قوله: أَنْتُمْ هؤُلاءِ مبتدأ و خبرا جعل قوله: تَقْتُلُونَ بيانا لأن معنى قوله: أَنْتُمْ هؤُلاءِ أنهم على حالۀ كحالۀ أسلافهم من نقض الميثاق. و من جعل هؤلاء منادى أو منصوبا بما ذكرنا جعل الخبر تقتلون و ما بعده. و قوله: تظّاهرون بالتشديد، و أصله تتظاهرون أدغمت التاء فى الظاء لقربها منها فى المخرج، و هى قراءۀ أهل مكۀ. و قرأ أهل الكوفۀ: تَظاهَرُونَ مخففا بحذف التاء الثانيۀ، لدلالۀ الأولى عليها.
و أصل المظاهرۀ: المعاونۀ، مشتقۀ من الظهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر، و منه قول الشاعر:
تظاهرتم من كلّ أوب و وجهۀعلى واحد لا زلتم قرن واحد
و منه قوله تعالى: وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً «١» و قوله: وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ «٢».
و أُسارى حال. قال أبو عبيد و كان أبو عمرو يقول: ما صار فى أيديهم فهو أسارى، و ما جاء مستأسرا

---

(١). الفرقان: ۵۵.

(٢). التحريم: ۴.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٢٨

فهو الأسرى. و لا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو. و إنما هذا كما تقول سكارى و سكرى. و قد قرأ حمزة أسرى. و قرأ الباقون أُسارى و الأسرى جمع أسير كالقتلى جمع قتيل و الجرحى جمع جريح. قال أبو حاتم: و لا يجوز أسارى. و قال الزجاج: يقال: أسارى كما يقال: سكارى. و قال ابن فارس: يقال فى جمع أسير أسرى و أسارى انتهى. فالعجب من أبى حاتم حيث ينكر ما ثبت فى التنزيل. و قرأ به الجمهور، و الأسير مشتق من السير، و هو القيد الذى يشدّ به المحمل، فسمّى أسيرا لأنه يشدّ وثاقه، و العرب تقول:

قد أسر قتبه: أى شدّه، ثم سمى كل أخيذ أسيرا و إن لم يؤخذ. و قوله: تُفادُوهُمْ جواب الشرط، و هى قراءة حمزة و نافع و الكسائى، و قرأ الباقون تفدوهم. و الفداء: هو ما يؤخذ من الأسير ليفكّ به أسره، يقال فداه و فاداه: إذا أعطاه فداءه. قال الشاعر:

قفى فادى أسيرك إنّ قومىو قومك ما أرى لهم اجتماعا

و قوله: وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ الضمير للشأن، و قيل: مبهم تفسيره الجملة التى بعده، و زعم الفرّاء أن هذا الضمير عماد، و اعترض عليه بأن العماد لا يكون فى أوّل الكلام. و إِخْراجُهُمْ مرتفع بقوله: مُحَرَّمٌ سادّ مسدّ الخبر، و قيل بل مرتفع بالابتداء و محرّم خبره. قال المفسرون: كان اللّه سبحانه قد أخذ على بنى إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، و ترك الإخراج، و ترك المظاهرة، و فداء أسراهم؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبّخهم اللّه على ذلك بقوله: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ و الخزى: الهوان. قال الجوهرى: و خزى بالكسر يخزى خزيا: إذا ذل و هان، و قد وقع هذا الجزاء الذى وعد اللّه به الملاعين اليهود موفرا، فصاروا فى خزى عظيم بما ألصق بهم من الذلّ و المهانة بالقتل و الأسر و ضرب الجزية و الجلاء، و إنما ردّهم اللّه يوم القيامة إلى أشدّ العذاب لأنهم جاءوا بذنب شديد و معصية فظيعة. و قد قرأ الجمهور يرودن بالياء التحتية. و قرأ الحسن بالفوقية على الخطاب. و قد تقدّم تفسير قوله: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ و كذلك تفسير أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا و قوله: فَلا يُخَفَّفُ إخبار من اللّه سبحانه بأن اليهود لا يزالون فى عذاب موفر لازم لهم بالجزية و الصغار و الذلة و المهانة، فلا يخفف عنهم ذلك أبدا ما داموا، و لا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم، و لا يثبت لهم نصر فى أنفسهم على عدوّهم.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ قال: يؤنبهم، أى ميثاقكم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً قال: الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. و روى البيهقى فى الشعب عن علىّ فى قوله: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً قال: يعنى الناس كلهم، و مثله روى عبد بن حميد و ابن جرير عن عطاء. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ قال: أى تركتم ذلك كله. و أخرج ابن جرير عنه أنه قال: معناه أعرضتم عن طاعتى إلا قليلا منكم و هم الذى اخترتهم لطاعتى. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ لا يقتل بعضكم بعضا وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ لا يخرج بعضكم بعضا من الديار ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ بهذا الميثاق وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ و أنتم شهود.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٢٩

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ أن هذا حق من ميثاقى عليكم ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ أى أهل الشرك حتى تسفكوا دماءكم معهم وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ قال: تخرجونهم من دياركم معهم تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ فكانوا إذا كان بين الأوس و الخزرج حرب خرجت معهم بنو قينقاع مع الخزرج، و النضير و قريظة مع الأوس و ظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يسافكوا دماءهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ و قد عرفتم أن ذلك عليكم فى دينكم «١» وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ فى كتابكم إِخْراجُهُمْ، أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ أ تفادونهم مؤمنين بذلك، و تخرجونهم كفرا بذلك. و أخرج ابن

جرير عن قتادة فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ قال: استحبّوا قليل الدنيا على كثير الآخرة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (٨٧) وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ (٨٨)

الكتاب: التوراة، و التقفية: الإتباع و الإرداف، مأخوذة من القفا و هو مؤخر العنق، تقول: استقفيته:

إذا جئت من خلفه، و منه سميت قافية الشعر لأنها تتلو سائر الكلام. و المراد أن اللّه سبحانه أرسل على أثره رسلا جعلهم تابعين له و هم أنبياء بنى إسرائيل المبعوثون من بعده. و الْبَيِّناتِ الأدلة التى ذكرها اللّه فى آل عمران و المائدة. و التأييد: التقوية. و قرأ مجاهد و ابن محيصن آيّدناه بالمدّ و هما لغتان. و روح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة: أى الروح المقدّسة. و القدس: الطهارة، و المقدّس: المطهر، و قيل:

هو جبريل أيّد اللّه به عيسى، و منه قول حسان:

و جبريل أمين اللّه «٢» فيناو روح القدس ليس به خفاء «٣»

قال النحاس: و سمّى جبريل روحا و أضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين اللّه له من غير ولادة، و قيل:

القدس هو اللّه عز و جل، و روحه جبريل. و قيل: المراد بروح القدس: الاسم الذى كان عيسى يحيى به الموتى، و قيل: المراد به الإنجيل؛ و قيل: المراد به الروح المنفوخ فيه، أيده اللّه به لما فيه من القوّة. و قوله: بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ أى بما لا يوافقها و يلائمها، و أصل الهوى: الميل إلى الشيء. قال الجوهرى: و سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار. وبّخهم اللّه سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ فقال:

---

(١). المعنى: فداء الأسرى واجب عليكم.

(٢). فى القرطبى «رسول اللّه».

(٣). فى الديوان: ليس له كفاء.

أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ منكم بِما لا يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته احتقارا للرسل و استبعادا للرسالة، و الفاء فى قوله: أَ فَكُلَّما للعطف على مقدّر أى آتيناكم يا بنى إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم أ فكلما جاءكم رسول. و فريقا منصوب بالفعل الذى بعده و الفاء للتفصيل، و من الفريق المكذّبين: عيسى و محمد، و من الفريق المقتولين: يحيى و زكريا. و الغلف: جمع أغلف، المراد به هنا: الذى عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه، و منه غلّفت السيف: أى جعلت له غلافا. قال فى الكشاف: هو مستعار من الأغلف الذى لم يختن كقوله: قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ «١» و قيل: إن الغلف جمع غلاف مثل حمار و حمر: أى قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك، و قد وعينا علما كثيرا، فرد اللّه عليهم ما قالوه فقال: بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ و أصل اللعن فى كلام العرب: الطرد و الإبعاد، و منه قول الشمّاخ:

ذعرت به القطا و نفيت عنهمقام الذّئب كالرّجل اللّعين

أى كالرجل المطرود. و المعنى: أبعدهم اللّه من رحمته. و (قليلا) نعت لمصدر محذوف: أى إيمانا قليلا ما يُؤْمِنُونَ و ما زائدة،

وصف إيمانهم بالقلة لأنهم الـذين قصّ اللّه علينا من عنادهم و عجرفتهم و شـدّة لجاجهم، و بعـدهم عن إجابة الرسل ما قصه، و من جملـة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض. و قال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا قليلا مما فى أيديهم و يكفرون بأكثره، و على هـذا يكون قليلا منصوبا بنزع الخافض. و قال الواقـدى: معناه لا يؤمنون قليلا و لا كثيرا. قال الكسائى: تقول العرب مررنا بأرض قلّ ما تنبت الكراث و البصل أى لا تنبت شيئا.

و قد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ يعنى به التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ يعنى رسولا يـدعى أشـمويل بن بابل، و رسولا يـدعى منشابيل، و رسولا يـدعى شـعياء، و رسولا يـدعى حزقيل، و رسولا يدعى أرمياء و هو الخضـر، و رسولا يدعى داود و هو أبو سـليمان، و رسولا يدعى المسيح عيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل ابتعثهم اللّه و انتخبهم من الأمـة بعـد موسـى فأخذنا عليهم ميثاقا غليظا، أن يؤدوا إلى أمتهم صـفة محمد صـلّى اللّه عليه و سـلّم و صفـة أمته. و أخرج ابن إسـحاق و ابن جرير و ابن أبى حـاتم عنه فى قوله: وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ قال: هى الآيات التى وضع على يـديه من إحيـاء الموتى و خلقه من الطين كهيئـة الطير، و إبراء الأسـقام. و الخبر بكثير من الغيوب، و مـا رد عليهم من التوراة مع الإنجيل الذى أحدث اللّه إليه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَيَّدْناهُ قال:

قوّينـاه. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عنه قـال: روح من القـدس الاسم الـذى كان عيسـى يحيى به الموتى. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهـد قال: القـدس: اللّه تعالى. و أخرج عن الربيع بن أنس مثله. و أخرج عن ابن عباس قال: القـدس: الطهر. و أخرج عن السـدّى قال: القـدس: البركـة. و أخرج عن إسـماعيل بن أبى خالد أن روح القدس: جبريل. و أخرج عن ابن مسـعود مثله. و أخرج أبو الشـيخ فى العظمـة عن جـابر عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: روح القـدس جبريل. و قـد ثبت فى الصحيح أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «اللّهمّ أيّد حسان بروح

---

(١). فصلت: ۵.

القـدس». و أخرج ابن أبى حـاتم عن سـعيد بن جبير فى قوله: فَرِيقاً قـال: طائفـة. و أخرج عن ابن عبـاس قـال: إنما سـمى القلب لتقلبه. و أخرج الطـبرانى فى الأوسـط عنه أنه كـان يقرأ: قُلُوبُنـا غُلُـفٌ مثقلـة، أى كيـف نتعلم و قلوبنـا غلـف للحكمـة: أى أوعية للحكمة؟ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ مملوءة علما لا تحتاج إلى علم محمـد و لا غيره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: قُلُوبُنـا غُلْـفٌ قـال: فى غطـاء. و روى ابن إسـحاق و ابن جرير عنه أنه قـال: فى أكنـة. و أخرج ابن جرير عنه أنه قـال: هى القلوب المطبوع عليها. و أخرج وكيع عن عكرمـة و ابن جرير عن مجاهـد نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة هى التى لا تفقه. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص و ابن جرير عن حذيفة قال: القلوب أربعة: قلب أغلف، فذلك قلب الكـافر، و قلب مصـفّح، فـذلك قلب المنـافق، و قلب أجرد فيه مثل السـراج، فـذلك قلب المؤمن؛ و قلب فيه إيمان و نفاق، فمثل الإيمان؛ كمثل شـجرة يمـدّها ماء طيّب؛ و مثل المنافق كمثل قرحـة يمدّها القيح و الدم. و أخرج أحمد بسـند جيد عن أبى سعيـد قـال: قـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «القلوب أربعـة: قلب أجرد فيه مثـل السـراج يزهى؛ و قلب أغلف مربوط على غلافه؛ و قلب منكوس؛ و قلب مصـفّح. فأمّا القلب الأجرد فقلب المؤمن سـراجه فيه نوره؛ و أما القلب الأغلف فقلب الكافر؛ و أما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، و أما القلب المصـفّح فقلب فيه إيمان و نفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، و مثل النفاق فيه كمثل القرحـة يمـدّها القيـح، فأىّ المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». و أخرج ابن أبى حاتم

عن سلمان الفارسى مثله سواء، موقوفا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة فى قوله: فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ قال: لا يؤمن منهم إلا قليل.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٩ الى ٩٢]

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (٩٢)

وَ لَمَّا جاءَهُمْ يعنى اليهود كِتابٌ يعنى القرآن، و مُصَدِّقٌ وصف له، و هو فى مصحف أبىّ منصوب، و نصبه على الحال و إن كان صاحبها نكرة فقد تخصصت بوصفها بقوله: مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و تصديقه لما معهم من التوراة و الإنجيل أنه يخبرهم بما فيهما و يصدقه و لا يخالفه. و الاستفتاح الاستنصار: أى

فتح القدير، ج ١، ص: ١٣٢

كانوا من قبل يطلبون من اللّه النصر على أعدائهم بالنبىّ المنعوت فى آخر الزمان الذى يجدون صفته عندهم فى التوراة؛ و قيل الاستفتاح هنا بمعنى الفتح: أى يخبرونهم بأنه سيبعث و يعرّفونهم بذلك، و جواب لَمَّا فى قوله: وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ قيل: هو قوله: فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا و ما بعده؛ و قيل: هو محذوف: أى كذبوا أو نحوه، كذا قال الأخفش و الزجّاج. و قال المبرّد: إن جواب لَمَّا الأولى هو قوله كَفَرُوا و أعيدت فَلَمَّا الثانية لطول الكلام، و اللام فى الكافرين للجنس. و يجوز أن تكون للعهد و يكون هذا من وضع الظاهر موضع المضمر، و الأوّل أظهر و ما فى قوله بِئْسَمَا موصولة أو موصوفة؛ أى بئس الشىء أو شيئا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ قاله سيبويه، و قال الأخفش: ما فى موضع نصب على التمييز كقولك: بئس رجلا زيد. و قال الفرّاء: بئسما بجملته: شىء واحد ركب كحبذا.

و قال الكسائى ما و اشْتَرَوْا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، و التقدير: بئس اشتراؤهم أن يكفروا.

و قوله: أَنْ يَكْفُرُوا فى موضع رفع على الابتداء عند سيبويه و خبره ما قبله. و قال الفرّاء و الكسائى:

إن شئت كان فى موضع خفض بدلا من الهاء فى به: أى اشتروا أنفسهم بأن يكفروا. و قال فى الكشاف:

إن ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس، بمعنى شيئا اشتروا به أنفسهم، و المخصوص بالذم أن يكفروا، و اشتروا بمعنى باعوا. و قوله: بَغْياً أى حسدا. قال الأصمعى: البغى مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح:

إذا فسد، و قيل: أصله الطلب و لذلك سميت الزانية بغيا. و هو علة لقوله: اشْتَرَوْا و قوله: أَنْ يُنَزِّلَ علة لقوله بَغْياً أى لأن ينزل. و المعنى: أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسدا و منافسة أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و يعقوب و ابن محيصن أن ينزل بالتخفيف. فَباؤُ أى رجعوا و صاروا أحقاء بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ و قد تقدّم معنى باؤوا و معنى الغضب؛ قيل: الغضب الأول لعبادتهم العجل، و الثانى لكفرهم بمحمد، و قيل كفرهم بعيسى ثم كفرهم بمحمد؛ و قيل كفرهم بمحمد ثم البغى عليه، و قيل غير ذلك. و المهين مأخوذ من الهوان؛ قيل:

و هو ما اقتضى الخلود فى النار. و قوله: بِما أَنْزَلَ اللَّهُ هو القرآن؛ و قيل: كل كتاب: أى صدّقوا بالقرآن، أو صدّقوا بما أنزل اللّه من الكتب قالُوا نُؤْمِنُ أى نصدّق بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا أى التوراة.

و قوله: وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ قال الفرّاء: بما سواه. و قال أبو عبيدة: بما بعده. قال الجوهرى: وراء بمعنى خلف، و قد يكون بمعنى قدّام و هى من الأضداد. و منه قوله تعالى: وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ أى قدّامهم، و هذه الجملة أعنى و يكفرون: فى محل النصب على الحال: أى قالوا نؤمن بما أنزل علينا حال كونهم كافرين بما وراءه مع كون هذا الذى هو وراء ما يؤمنون به هو الحق. و قوله: مُصَدِّقاً حال مؤكدة و هذه أحوال متداخلة أعنى قوله: وَ يَكْفُرُونَ و قوله: وَ هُوَ الْحَقُ و قوله: مُصَدِّقاً ثم اعترض اللّه سبحانه عليهم لما قالوا: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا بهذه الجملة المشتملة على الاستفهام المفيد للتوبيخ: أى إن كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم فكيف تقتلون الأنبياء و قد نهيتم عن قتلهم فيما أنزل عليكم؟

و هذا الخطاب و إن كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم، و لكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم

كانوا مثلهم. و اللام فى قوله: وَ لَقَدْ جواب لقسم مقدّر. و البينات يجوز أن يراد بها التوراة أو التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ «١» و يجوز أن يراد الجميع. ثم عبدتم العجل بعد النظر فى تلك البينات حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عنادا بعد قيام الحجة عليكم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ قال: هو القرآن مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ من التوراة و الإنجيل. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر، و أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل، من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى، قال: حدّثنى أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم منا، لأن معنا يهود و كانوا أهل كتاب و كنا أصحاب وثن، و كانوا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا: إن نبيّا ليبعث الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد و إرم، فلما بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اتّبعناه و كفروا به ففينا و اللّه و فيهم أنزل اللّه: وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابة قالوا: كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم و كانوا يجدون محمدا فى التوراة فيسألون اللّه أن يبعثه نبيا فيقاتلون معه العرب، فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بنى إسرائيل. و قد روى نحو هذا عن ابن عباس من غير وجه بألفاظ مختلفة و معانيها متقاربة. و روى عن غيره من السلف نحو ذلك. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ قال: هم اليهود كفروا بما أنزل اللّه و بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم بغيا و حسدا للعرب فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ قال: غضب اللّه عليهم مرتين بكفرهم بالإنجيل و بعيسى و بكفرهم بالقرآن و بمحمد. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ أى أن اللّه جعله من غيرهم فَباؤُ بِغَضَبٍ بكفرهم بهذا النبى عَلى غَضَبٍ كان عليهم بما ضيعوه من التوراة. و أخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه، و أخرج أيضا عن مجاهد معناه. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ بما بعده. و أخرج ابن جرير عن السدى قال:

بما وراءه: أى القرآن.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٣ الى ٩٦]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٤) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (٩٦)

قد تقدّم تفسير أخذ الميثاق و رفع الطور. و الأمر بالسماع معناه: الطاعة و القبول، و ليس المراد: الإدراك بحاسة السمع، و منه قولهم: «سمع اللّه لمن حمده» أى: قبل و أجاب، و منه قول الشاعر:

(۱). الإسراء: ۱۰۱.

فتح القدير، ج۱، ص: ۱۳۴ دعوت اللّه حتّى خفت ألّايكون اللّه يسمع ما أقول

أى: يقبل، و قولهم فى الجواب: سَمِعْنا هو على بابه و فيه معناه؛ أى: سمعنا قولك بحاسة السمع و عصيناك؛ أى: لا نقبل ما تأمرنا به، و يجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم: سَمِعْنا ما هو معهود من تلاعبهم و استعمالهم المغالطة فى مخاطبة أنبيائهم، و ذلك بأن يحملوا قوله تعالى: اسْمَعُوا على معناه الحقيقى، أى:

السماع بالحاسة. ثم أجابوا بقولهم: سَمِعْنا أى: أدركنا ذلك بأسماعنا عملا بموجب ما تأمر به، و لكنهم لما كانوا يعلمون أن هذا غير مراد اللّه عزّ و جلّ، بل مراده بالأمر بالسماع: الأمر بالطاعة و القبول، لم يقتصروا على هذه المغالطة، بل ضموا إلى ذلك ما هو الجواب عندهم، فقالوا: وَ عَصَيْنا و فى قوله:

وَ أُشْرِبُوا تشبيه بليغ؛ أى: جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه، و مثله قول زهير:

فصحوت عنها بعد حبّ داخلو الحبّ تشربه فؤادك داء

و إنما عبر عن حبّ العجل بالشرب دون الأكل، لأن شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، و الطعام يجاورها و لا يتغلغل فيها، و الباء فى قوله: بِكُفْرِهِمْ سببية؛ أى: كان ذلك بسبب كفرهم عقوبة لهم و خذلانا. و قوله: قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ أى: إيمانكم الذى زعمتم: أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، و تكفرون بما وراءه، فإن هذا الصنع و هو قولكم: سَمِعْنا وَ عَصَيْنا فى جواب ما أمرتم به فى كتابكم، و أخذ عليكم الميثاق به، مناد عليكم بأبلغ نداء، بخلاف ما زعمتم، و كذلك ما وقع منكم من عبادة العجل و نزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب، هو من أعظم ما يدل على أنكم كاذبون فى قولكم:

نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا لا صادقون، فإن زعمتم: أن كتابكم الذى آمنتم به أمركم بهذا، فبئسما يأمركم به إيمانكم بكتابكم، و فى هذا من التهكم بهم ما لا يخفى. و قوله: قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ هو ردّ عليهم لما ادّعوا أنهم يدخلون الجنة، و لا يشاركهم فى دخولها غيرهم، و إلزام لهم بما يتبين به أنهم كاذبون فى تلك الدعوى، و أنها صادرة منهم لا عن برهان، و خالِصَةً منصوب على الحال، و يكون خبر كان هو: عند اللّه، أو يكون خبر كان هو: خالصة، و معنى الخلوص: أنه لا يشاركهم فيها غيرهم إذا كانت اللام فى قوله: مِنْ دُونِ النَّاسِ للجنس، أو لا يشاركهم فيها المسلمون، إن كانت اللام للعهد. و هذا أرجح لقولهم فى الآية الأخرى: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى «۱» و إنما أمرهم بتمنى الموت، لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة، كان الموت أحبّ إليه من الحياة، و لما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا، و لهذا قال سبحانه: وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً و «ما» فى قوله: بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ موصولة، و العائد محذوف، أى: بما قدّمته من الذنوب التى يكون فاعلها غير آمن من العذاب، بل غير طامع فى دخول الجنة، فضلا عن كونه قاطعا بها، فضلا عن كونها خالصة له مختصة به،- و قيل إن اللّه سبحانه صرفهم عن التمنى ليجعل ذلك آية لنبيه صلّى اللّه عليه و سلم. و المراد بالتمنى هنا: هو التلفظ بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب و ميل النفس إليه، فإن ذلك لا يراد فى مقام المحاجة، و مواطن الخصومة، و مواقف التحدى، و فى تركهم للتمنى أو صرفهم عنه معجزة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف و التجرؤ على اللّه

(۱). البقرة: ۱۱۱.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۳۵
و على أنبيائه بالدعاوى الباطلة فى غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل، فلم يتركوا عادتهم هنا؛ إلا لما قد تقرّر عندهم؛ من أنهم إذا فعلوا ذلك التمنى نزل بهم الموت، إما لأمر قد علموه، أو للصرفة من اللّه عز و جل.
و قد يقال: ثبت النهى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن تمنى الموت، فكيف أمره اللّه أن يأمرهم بما هو منهى عنه فى شريعته.
و يجاب بأن المراد هنا إلزامهم الحجة، و إقامة البرهان على بطلان دعواهم. و قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ تهديد لهم، و تسجيل عليهم بأنهم كذلك. و اللام فى قوله: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ جواب قسم محذوف، و تنكير حياة: للتحقير، أى: أنهم أحرص الناس على أحقر حياة، و أقل لبث فى الدنيا، فكيف بحياة كثيرة و لبث متطاول؟ و قال فى الكشاف: إنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة، و هى الحياة المتطاولة، و تبعه فى ذلك الرازى فى تفسيره. و قوله: وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا قيل: هو كلام مستأنف، و التقدير: و من الذين أشركوا ناس يَوَدُّ أَحَدُهُمْ و قيل: إنه معطوف على الناس؛ أى: أحرص الناس، و أحرص من الذين أشركوا، و على هذا يكون قوله: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ راجعا إلى اليهود، بيانا لزيادة حرصهم على الحياة، و وجه ذكر الذين أشركوا بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم، الدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب و من شابههم من غيرهم. فمن كان أحرص منهم و هم اليهود، كان بالغا فى الحرص إلى غاية لا يقادر قدرها. و إنما بلغوا فى الحرص إلى هذا الحدّ الفاضل على حرص المشركين، لأنهم يعلمون بما يحلّ بهم من العذاب فى الآخرة، بخلاف المشركين من العرب و نحوهم فإنهم لا يقرّون بذلك، و كان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود.
و الأول و إن كان فيه خروج من الكلام فى اليهود إلى غيرهم من مشركى العرب؛ لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف، و لا ضير فى استطراد ذكر حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود. و قال الرازى: إن الثانى أرجح، ليكون ذلك أبلغ فى إبطال دعواهم، و فى إظهار كذبهم فى قولهم إن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا، انتهى. و يجاب عنه بأن هذا الذى جعله مرجحا قد أفاده قوله تعالى: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ و لا يستلزم استئناف الكلام فى المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس، و خص الألف بالذكر لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة. و أصل سنة: سنهة، و قيل سنوة. و اختلف فى الضمير فى قوله: وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ فقيل هو راجع إلى أحدهم، و التقدير: و ما أحدهم بمزحزحه من العذاب أن يعمر، و على هذا يكون قوله: أَنْ يُعَمَّرَ فاعلا لمزحزحه، و قيل: هو لما دل عليه يعمر من مصدره؛ أى: و ما التعمير بمزحزحه، و يكون قوله: أَنْ يُعَمَّرَ بدلا منه. و حكى الطبرى عن فرقة أنها قالت: هو عماد؛ و قيل: هو ضمير الشأن؛ و قيل: «ما» هى الحجازية، و الضمير: اسمها، و ما بعده خبرها، و الأوّل أرجح، و كذلك الثانى و الثالث ضعيف جدا لأن العماد لا يكون إلا بين شيئين، و لهذا يسمونه ضمير الفصل، و الرابع فيه: أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمة عن حرف جرّ كما حكاه ابن عطية عن النحاة. و الزحزحة: التنحية؛ يقال: زحزحته فتزحزح، أى: نحيته فتنحى و تباعد، و منه قول ذى الرمة:
يا قابض الرّوح عن جسم عصى زمناو غافر الذّنب زحزحنى عن النّار
و البصير: العالم بالشىء، الخبير به؛ و منه قولهم: فلان بصير بكذا: أى: خبير به، و منه قول الشاعر:
فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۳۶ فإن تسألونى بالنّساء فإنّنىبصير بأدواء النّساء طبيب
و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ قال: أشربوا حبّه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية أن اليهود لما قالوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى الآية، نزل قوله تعالى: قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ الآية. و أخرج ابن جرير مثله عن قتادة. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أن قوله: خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ يعنى المؤمنين فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن كنتم فى مقالتكم صادقين فقولوا: اللهم

أمتنا، فو الذى نفسى بيده؛ لا يقولها رجل منكم؛ إلا غصّ بريقه؛ فمات مكانه». و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ أى: ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب، فأبوا ذلك، و لو تمنوه يوم قال ذلك؛ ما بقى على الأرض يهودىّ إلا مات. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و أبو نعيم عنه قال: «لو تمنّى اليهود الموت لماتوا». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه نحوهن.

و أخرج البخارى و غيره من حديثه مرفوعا: «لو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا و لرأوا مقاعدهم من النار».

و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه عنه فى قوله: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ قال: اليهود مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا قال: و ذلك أن المشركين لا يرجون بعثا بعد الموت، فهو يحبّ طول الحياة، و أن اليهودى قد عرف ما له من الخزى بما ضيّع ما عنده من العلم. وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ قال: بمنحيه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم عنه فى قوله: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ قال: هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم: «زه هزار سال» يعنى: عش ألف سنة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٧ الى ٩٨]

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (٩٨)

هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت فى اليهود. قال ابن جرير الطبرى: و أجمع أهل التأويل جميعا أن هذه الآية نزلت جوابا على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، و أن ميكائيل ولىّ لهم. ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك؟ فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أمر نبوّته، ثم ذكر روايات فى ذلك ستأتى آخر البحث إن شاء اللّه. و الضمير فى قوله: فَإِنَّهُ يحتمل وجهين: الأول أن يكون للّه، و يكون الضمير فى قوله: نَزَّلَهُ لجبريل، أى: فإن اللّه سبحانه نزل جبريل على قلبك، و فيه ضعف كما يفيده قوله: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ الثانى أنه لجبريل، و الضمير فى «نزّله» للقرآن، أى: فإن جبريل نزّل القرآن على قلبك، و خصّ القلب بالذكر لأنه موضع العقل و العلم.

و قوله: بِإِذْنِ اللَّهِ أى: بعلمه و إرادته و تيسيره و تسهيله. و لِما بَيْنَ يَدَيْهِ هو التوراة كما سلف، أو جميع الكتب المنزلة، و فى هذا دليل على شرف جبريل و ارتفاع منزلته، و أنه لا وجه لمعاداة اليهود له، حيث

فتح القدير، ج ١، ص: ١٣٧

كان منه ما ذكر من تنزيل الكتاب على قلبك، أو من تنزيل اللّه له على قلبك، و هذا هو وجه الربط بين الشرط و الجواب، أى: من كان معاديا لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له، فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبّة دون العداوة، أو من كان معاديا له، فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل، و ليس ذلك بذنب له و إن نزهوه، فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم و عدوان، لأن هذا الكتاب الذى نزل به هو مصدق لكتابهم، و هدى و بشرى للمؤمنين، ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط و جزاء، يتضمن الذمّ لمن عادى جبريل بذلك السبب و الوعيد الشديد له، فقال: مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ و العداوة من العبد: هى صدور المعاصى منه للّه و البغض لأوليائه، و العداوة من اللّه للعبد: هى تعذيبه بذنبه و عدم التجاوز عنه و المغفرة له- و إنما خصّ جبريل و ميكائيل بالذكر بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما، و الدلالة على فضلهما، و أنهما و إن كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة، تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى، كما ذكره صاحب الكشاف، و قرّره علماء البيان. و فى جبريل عشر لغات ذكرها ابن جرير الطبرى و غيره، و قد قدّمنا الإشارة إلى ذلك. و فى ميكائيل ست لغات، و هما اسمان

عجميان، و العرب إذا نطقت بالعجمى تساهلت فيه. و حكى الزمخشرى عن ابن جنى أنه قال: العرب إذا نطقت بالأعجمى خلطت فيه. و قوله:

لِلْكافِرِينَ من وضع الظاهر موضع المضمر؛ أى: فإن اللّه عدوّ لهم، لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت منه. و قد أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس: «حضرت عصابة من اليهود النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: يا أبا القاسم! حدثنا عن خلال نسألك عنهنّ لا يعلمهنّ إلا نبىّ، قال: سلونى عمّا شئتم، فسألوه و أجابهم؛ ثم قالوا: فحدثنا من وليّك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، فقال: وليّى جبريل، و لم يبعث اللّه نبيا قط إلا و هو وليّه؛ قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليّك سواه من الملائكة لاتّبعناك و صدّقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: هذا عدوّنا، فعند ذلك أنزل اللّه الآية». و أخرج نحو ذلك ابن أبى شيبة، فى المصنف و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الشعبى عن عمر بن الخطاب فى قصة جرت له معهم و إسنادهم صحيح، و لكن الشعبى لم يدرك عمر، و قد رواها عكرمة و قتادة و السدّى و عبد الرحمن ابن أبى ليلى عن عمر. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البخارى و النسائى و غيرهم عن أنس قال: سمع عبد اللّه بن سلام بمقدم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى أرض يخترف «١»، فأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلا نبىّ: ما أوّل أشراط الساعة؟ و ما أوّل طعام أهل الجنة؟ و ما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال: أخبرنى بهنّ جبريل آنفا، فقال: جبريل؟ قال نعم، قال: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ قال: أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب؛ و أما أوّل ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد حوت؛ و أما ما ينزع الولد إلى أبيه أو أمه، فإذا سبق ماء الرجل

---

(١). «يخترف»: يجنى الثمار.

ماء المرأة نزع إليه الولد، و إذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها؛ قال: أشهد أن لا إله إلّا اللّه و أنك رسول اللّه» و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ يقول: فإن جبريل نزل القرآن بأمر اللّه يشدد به فؤادك و يربط به على قلبك مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يقول:

لما قبله من الكتب التى أنزلها، و الآيات و الرسل الذين بعثهم اللّه. و قد ذكر السيوطى فى هذا الموضع من تفسيره «الدرّ المنثور» أحاديث كثيرة واردة فى جبريل و ميكائيل، و ليست مما يتعلق بالتفسير حتى نذكرها.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٩ الى ١٠٣]

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ (٩٩) أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

الضمير فى قوله: إِلَيْكَ للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، أى: أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك. و قوله: إِلَّا الْفاسِقُونَ قد تقدم تفسيره. و الظاهر أن المراد جنس الفاسقين، و يحتمل أن يراد اليهود لأن الكلام معهم، و الواو فى قوله: أَ وَ كُلَّما للعطف، دخلت عليها همزة الاستفهام كما تدخل على الفاء، و من ذلك قوله تعالى: أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ «۱» أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ* «۲» أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ «۳» و كما تدخل على ثم، و من ذلك قوله تعالى: أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ و هذا قول سيبويه. و قال الأخفش: الواو زائدة.

و قال الكسائى: إنها أو حركت الواو تسهيلا. قال ابن عطية: و هذا كله متكلف، و الصحيح قول سيبويه.

و المعطوف عليه محذوف، و التقدير: اكفروا بالآيات البينات و كلما عاهدوا. و قوله: نَبَذَ فَرِيقٌ قال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح و الإلقاء، و منه سمى اللقيط: منبوذا، و منه سمى النبيذ، و هو التمر و الزبيب إذا طرحا فى الماء، قال أبو الأسود:

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

و قال آخر:

إنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك و استحلّ «۴» المحرم

---

(۱). يونس: ۴۲ و الزخرف: ۴۰.

(۲). الكهف: ۵۰.

(۳). يونس: ۵۱.

(۴). فى القرطبى «و استحلّوا المحرما».

و قوله: وَراءَ ظُهُورِهِمْ أى: خلف ظهورهم، و هو مثل يضرب لمن يستخفّ بالشىء فلا يعمل به، تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك، و دبر أذنك، و تحت قدمك؛ أى: اتركه و أعرض عنه، و منه ما أنشده الفرّاء:

تميم بن زيد لا تكوننّ حاجتى بظهر فلا يعيا علىّ جوابها

و قوله: كِتابَ اللَّهِ أى: التوراة، لأنهم لما كفروا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و بما أنزل عليه بعد أن أخذ اللّه عليهم فى التوراة الإيمان به، و تصديقه، و اتباعه، و بيّن لهم صفته، كان ذلك منهم نبذا للتوراة، و نقضا لها، و رفضا لما فيها؛ و يجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن، أى: لما جاءهم رسول من عند اللّه مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب اللّه الذى جاء به هذا الرسول، و هذا أظهر من الوجه الأول. و قوله: كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئا، مع كونهم يعلمون علما يقينا من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبىّ، و لكنّهم لما لم يعملوا بالعلم، بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب اللّه وراء ظهورهم، كانوا بمنزلة من لا يعلم. قوله: وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ معطوف على. قوله: نَبَذَ أى: نبذوا كتاب اللّه و اتبعوا ما تتلو الشياطين من السحر و نحوه. قال الطبرى: اتبعوا بمعنى: فعلوا. و معنى تَتْلُوا: تتقوّله و تقرؤه و عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ على عهد ملك سليمان، قال الزجاج؛ و قيل المعنى فى ملك سليمان:

يعنى فى قصصه و صفاته و أخباره. قال الفراء: تصلح «على و فى» فى هذا الموضع، و الأوّل أظهر. و قد كانوا يظنون أن هذا هو علم سليمان، و أنه يستجيزه و يقول به، فردّ اللّه ذلك عليهم و قال: وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا و لم يتقدم أن أحدا نسب سليمان إلى الكفر، و لكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر، لأن السحر يوجب ذلك، و لهذا أثبت اللّه سبحانه كفر الشياطين فقال:

وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا أی: بتعليمهم. و قوله: يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ فی محل نصب علی الحال، و يجوز أن يكون فی محل رفع أنه خبر بعد خبر. و قرأ ابن عامر و الكوفيون سوی عاصم: وَ لكِنِ الشَّياطِينَ بتخفيف لكن و رفع الشياطين، و الباقون بالتشديد و النصب. و السحر: هو ما يفعله الساحر من الحيل و التخييلات التی تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يری السراب فيظنه ماء، و ما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير، و هو مشتق من سحرت الصبیّ إذا خدعته؛ و قيل: أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله خفية؛ و قيل أصله الصرف، لأن السحر مصروف عن جهته؛ و قيل:

أصله الاستمالة، لأن من سحرك فقد استمالك. و قال الجوهری: السحر: الأخذة، و كل ما لطف مأخذه و دقّ فهو سحر. و قد سحره يسحره سحرا، و الساحر: العالم، و سحره أيضا بمعنی: خدعه. و قد اختلف هل له حقيقة أم لا؟ فذهبت المعتزلة و أبو حنيفة إلی أنه خدع، لا أصل له، و لا حقيقة. و ذهب من عداهم إلی أن له حقيقة مؤثّرة. و قد صحّ أن النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودی، حتی كان يخيل إليه أنه يأتی الشیء و لم يكن قد أتاه، ثم شفاه اللّه سبحانه، و الكلام فی ذلك يطول. و قوله: وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ أی: و يعلمون الناس ما أنزل علی الملكين، فهو معطوف علی السحر؛ و قيل: هو معطوف

فتح القدير، ج ١، ص: ١٤٠

علی قوله: ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ أی: و اتبعوا ما أنزل علی الملكين. و قيل إن «ما» فی قوله: وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ نافية، و الواو عاطفة علی قوله: وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ و فی الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: و ما كفر سليمان، و ما أنزل علی الملكين، و لكن الشياطين كفروا، يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت و ماروت، فهاروت و ماروت بدل من الشياطين فی قوله: وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا ذكر هذا ابن جرير و قال: فإن قال لنا قائل: و كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: و اتبعوا ما تتلو الشياطين علی ملك سليمان و ما كفر سليمان و ما أنزل اللّه علی الملكين، و لكنّ الشياطين كفروا، يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت و ماروت، فيكون معنيا بالملكين جبريل و ميكائيل، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن اللّه أنزل السحر علی لسان جبريل و ميكائيل إلی سليمان بن داود، فأكذبهم اللّه بذلك و أخبر نبيه صلّی اللّه عليه و سلّم أن جبريل و ميكائيل لم ينزلا بسحر، و برأ سليمان مما نحلوه من السحر، و أخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، و أنها تعلّم الناس ذلك ببابل، و أن الذين يعلّمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت و الآخر ماروت، فيكون هاروت و ماروت علی هذا التأويل ترجمة عن الناس و ردّا عليهم. انتهی. و قال القرطبی فی تفسيره بعد أن حكی معنی هذا الكلام، و رجّح أن هاروت و ماروت بدل من الشياطين، ما لفظه: هذا أولی ما حملت عليه الآية و أصحّ ما قيل فيها، و لا يلتفت إلی سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، و دقة أفهامهم، و أكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء، و خاصة فی حال طمثهن، قال اللّه وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ «١»، ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلا من جمع و البدل إنما يكون علی حدّ المبدل؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع، أو أنهما خصّا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، و يؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس و الضحّاك و الحسن «الملكين» بكسر اللام، و لعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده و ظهور تكلفه تنزيه اللّه سبحانه أن ينزل السحر إلی أرضه فتنة لعباده علی ألسن ملائكته. و عندی أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن للّه سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، و لهذا يقول الملكان:

إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ قال ابن جرير: و ذهب كثير من السلف إلی أنهما كانا ملكين من السماء، و أنهما أنزلا إلی الأرض، فكان من أمرهما ما كان- و بابل قيل: هی العراق؛ و قيل: نهاوند؛ و قيل: نصيبين؛ و قيل:

المغرب. و هاروت و ماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان. و قوله: وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا قال الزجاج: تعليم إنذار من

السحر لا تعليم دعاء إليه؛ قال: و هو الذى عليه أكثر أهل اللغة و النظر، و معناه:

أنهما يعلّمان على النهى، فيقولان لهم: لا تفعلوا كذا، و «من» فى قوله: مِنْ أَحَدٍ زائدة للتوكيد؛ و قد قيل: إن قوله: يُعَلِّمانِ من الإعلام لا من التعليم، و قد جاء فى كلام العرب: تعلّم بمعنى اعلم، كما حكاه ابن الأنبارى و ابن الأعرابى، و هو كثير فى أشعارهم كقول كعب بن مالك:

تعلّم رسول اللّه أنّك مدركىو أنّ وعيدا منك كالأخذ باليد

و قال القطامى:

تعلّم أنّ بعد الغىّ رشداو أنّ لذلك الغىّ انقشاعا

---

(١). الفلق: ۴.

فتح القدير، ج ١، ص: ١۴١

و قوله: إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ هو على ظاهره، أى: إنما نحن ابتلاء و اختبار من اللّه لعباده؛ و قيل: إنه استهزاء منهما، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله، و فى قولهما: فَلا تَكْفُرْ أبلغ إنذار و أعظم تحذير، أى: أن هذا ذنب يكون من فعله كافرا فلا تكفر، و فيه دليل على أن تعلّم السحر كفر، و ظاهره عدم الفرق بين المعتقد و غير المعتقد، و بين من تعلّمه ليكون ساحرا و من تعلّمه ليقدر على دفعه. و قوله: فَيَتَعَلَّمُونَ فيه ضمير يرجع إلى قوله: مِنْ أَحَدٍ قال سيبويه: التقدير فهم يتعلمون، قال: و مثله كُنْ فَيَكُونُ و قيل: هو معطوف على موضع ما يعلمان، لأنه و إن كان منفيا فهو يتضمن الإيجاب. و قال الفرّاء: هى مردودة على قوله: يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ أى: يعلمون الناس فيتعلمون، و قوله: ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ فى إسناد التفريق إلى السحرة و جعل السحر سببا لذلك دليل على أن للسحر تأثيرا فى القلوب بالحبّ و البغض، و الجمع و الفرقة، و القرب و البعد. و قد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر اللّه به من التفرقة، لأن اللّه ذكر ذلك فى معرض الذمّ للسحر و بيّن ما هو الغاية فى تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره. و قالت طائفة أخرى: إن ذلك خرج مخرج الأغلب، و أن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه؛ و قيل: ليس للسحر تأثير فى نفسه أصلا، لقوله تعالى:

وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ و الحق أنه لا تنافى بين قوله: فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ و بين قوله: وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيرا فى نفسه، و لكنه لا يؤثر ضررا إلا فيمن أذن اللّه بتأثيره فيه. و قد أجمع أهل العلم على أن له تأثيرا فى نفسه و حقيقة ثابتة، و لم يخالف فى ذلك إلا المعتزلة و أبو حنيفة كما تقدم، و قوله: وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ فيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة، و لا يجلب إليه منفعة، بل هو ضرر محض، و خسران بحت، و اللام فى قوله: وَ لَقَدْ جواب قسم محذوف، و فى قوله: لَمَنِ اشْتَراهُ للتأكيد و «من» موصولة، و هى فى محل رفع على الابتداء، و الخبر قوله: ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ و قال الفرّاء: إنها شرطية للمجازاة. و قال الزجّاج: ليس هذا بموضع شرط، و رجّح أنها موصولة كما ذكرنا. و المراد بالشراء هنا: الاستبدال، أى: من استبدل ما تتلو الشياطين على كتاب اللّه. و الخلاق:

النصيب عند أهل اللغة، كذا قال الزجّاج. و المراد بقوله ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أى: باعوها. و قد أثبت لهم العلم فى قوله: وَ لَقَدْ عَلِمُوا و نفاه عنهم فى قوله: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ و اختلفوا فى توجيه ذلك، فقال قطرب و الأخفش: إن المراد بقوله: وَ لَقَدْ عَلِمُوا الشياطين، و المراد بقوله: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الإنس. و قال الزجّاج: إن الأول للملكين، و إن كان بصيغة الجمع فهو مثل قولهم: الزيدان قاموا.

و الثانى المراد به علماء اليهود، و إنما قال: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ لأنهم تركوا العمل بعلمهم. و قوله: وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا أى: بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و ما جاء به من القرآن وَ اتَّقَوْا ما وقعوا فيه من السحر و الكفر، و اللام فى قوله: لَمَثُوبَةٌ جواب لو، و المثوبة: الثواب. و قال الأخفش: إن الجواب محذوف، و التقدير:

و لو أنهم آمنوا و اتقوا لأثيبوا، فحذف لدلالة قوله: لَمَثُوبَةٌ عليه، و قوله: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۴۲

هو إما للدلالة على أنه لا علم لهم، أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس «قال ابن صوريا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: يا محمد! ما جئتنا بشىء يعرف، و ما أنزل اللّه عليك من آية بينة، فأنزل اللّه تعالى فى ذلك وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ و قال مالك بن الصيف، حين بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و ذكّرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، و ما عهد إليهم فى محمد: و اللّه ما عهد إلينا فى محمد، و لا أخذ علينا شيئا، فأنزل اللّه: أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا الآية. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: آياتٍ بَيِّناتٍ يقول: فأنت تتلوه عليهم و تخبرهم به غدوة و عشية و بين ذلك، و أنت عندهم أمّى لم تقرأ الكتاب، و أنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه، ففى ذلك عبرة لهم و حجة عليهم لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله:

نَبَذَهُ قال: نقضه. و أخرج أيضا عن السدى فى قوله: مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ قال: لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة، و اتفقت التوراة و القرآن فنبذوا التوراة و أخذوا بكتاب آصف و سحر هاروت و ماروت، كأنهم لا يعلمون بما فى التوراة من الأمر باتباع محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و تصديقه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فإذا سمع أحدهم بكلمة حقّ كذب معها ألف كذبة، فأشربتها قلوب الناس، و اتخذوها دواوين، فأطلع اللّه على ذلك سليمان بن داود، فأخذها فدفنها تحت الكرسى، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال:

ألا أدلكم على كنز سليمان الذى لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع؟ قالوا: نعم، فأخرجوه فإذا هو سحر، فتناسختها الأمم. و أنزل اللّه عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال: وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ الآية. و أخرج النسائى و ابن أبى حاتم عنه قال: كان آصف كاتب سليمان، و كان يعلم الاسم الأعظم، و كان يكتب كل شىء بأمر سليمان و يدفنه تحت كرسيه؛ فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحرا و كفرا، و قالوا: هذا الذى كان سليمان يعمل به، فأكفره جهال الناس، و سبّوه، و وقف علماؤهم، فلم يزل جهالهم يسبّونه حتى أنزل اللّه على محمد: وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ الآية، و أخرج ابن جرير عنه قال: كان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتى شيئا من شأنه أعطى الجرادة- و هى امرأته- خاتمه، فلما أراد اللّه أن يبتلى سليمان بالذى ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى، فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين و الجنّ و الإنس، فجاء سليمان فقال: هاتى خاتمى، فقالت: كذبت لست سليمان، فعرف أنه بلاء ابتلى به، فانطلقت الشياطين، فكتبت فى تلك الأيام كتبا فيها سحر و كفر، ثم دفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أخرجوها فقرؤوها على الناس و قالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، فبرئ الناس من سليمان و أكفروه، حتى بعث اللّه محمدا و أنزل عليه: وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: ما تَتْلُوا قال: ما تتبع. و أخرج أيضا عن عطاء فى قوله: ما تَتْلُوا قال:

نراه ما تحدث. و أخرج أيضا عن ابن جريج فى قوله: عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ يقول: فى ملك سليمان.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۴۳

و أخرج أيضا عن السدى فى قوله: وَ ما أَنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ قال: سحر آخر خاصموه به، فإن كلام الملائكة فيما بينهم إذا علمته الإنس فصنع و عمل به كان سحرا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ قال: لم ينزل اللّه السحر. و أخرج ابن أبى حاتم عن على قال: هما ملكان من ملائكة السماء. و أخرج نحوه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر عن ابن عباس وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ يعنى: جبريل و ميكائيل بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ يعلمان الناس السحر. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن أبزى أنه كان يقرؤها: و ما أنزل على الملكين داود و سليمان و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: هما علجان من أهل بابل.

و أخرج البيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أشرفت الملائكة على الدنيا، فرأت بنى آدم يعصون، فقالت يا ربّ! ما أجهل هؤلاء، ما أقلّ معرفة هؤلاء بعظمتك، فقال اللّه: لو كنتم فى محلّاتهم لعصيتمونى، قالوا: كيف يكون هذا و نحن نسبّح بحمدك و نقدّس لك؟ قال:

فاختاروا منكم ملكين، فاختاروا هاروت و ماروت، ثم أهبطا إلى الأرض و ركّبت فيهما شهوات بنى آدم، و مثّلت لهما امرأة فما عصما حتّى واقعا المعصية، فقال اللّه: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول؟ قال: أقول إنّ عذاب الدنيا ينقطع و إن عذاب الآخرة لا ينقطع، فاختارا عذاب الدنيا، فهما اللذان ذكر اللّه فى كتابه وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ الآية. و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عمر أنه كان يقول: أطلعت الحمراء بعد؟ فإذا رآها قال: لا مرحبا، ثم قال: إن ملكين من الملائكة هاروت و ماروت سألا اللّه أن يهبطهما إلى الأرض، فأهبطا إلى الأرض فكانا يقضيان بين الناس، فإذا أمسيا تكلما بكلمات فعرجا بها إلى السماء، فقيّض لهما امرأة من أحسن النساء و ألقيت عليهما الشهوة فجعلا يؤخرانها و ألقيت فى أنفسهما، فلم يزالا يفعلان حتى وعدتهما ميعادا، فأتتهما للميعاد فقالت: علّمانى الكلمة التى تعرجان بها، فعلّماها الكلمة فتكلمت بها فعرجت إلى السماء فمسخت فجعلت كما ترون، فلما أمسيا تكلما بالكلمة فلم يعرجا، فبعث إليهما: إن شئتما فعذاب الآخرة و إن شئتما فعذاب الدنيا إلى أن تقوم الساعة على أن تلقيا اللّه، فإن شاء عذّبكما و إن شاء رحمكما، فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال: بل نختار عذاب الدنيا ألف ألف ضعف، فهما يعذّبان إلى يوم القيامة. و قد رويت هذه القصة عن ابن عمر بألفاظ، و فى بعضها أنه يروى ذلك ابن عمر عن كعب الأحبار.

كما أخرجه عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب من طريق الثورى، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب، قال: ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم و ما يأتون من الذنوب، فقيل: لو كنتم مكانهم لأتيتم مثل ما يأتون، فاختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت و ماروت، فقال لهما: إنى أرسل إلى بنى آدم رسلا فليس بينى و بينكم رسول، انزلا لا تشركا بى شيئا، و لا تزنيا، و لا تشربا الخمر، قال كعب: فو اللّه ما أمسيا من يومهما الذى أهبطا فيه حتّى استعملا جميع ما نهيا عنه. قال ابن كثير: و هذا أصحّ، يعنى من الإسنادين اللذين ذكرهما قبله. و أخرج

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۴۴

عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ فى العظمة و الحاكم و صحّحه عن علىّ بن أبى طالب قال: إن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة، و العجم ناهيد، و ذكر نحو الرواية السابقة عن ابن عمر عند الحاكم. قال ابن كثير:

و هذا الإسناد رجاله ثقات و هو غريب جدا. و قد أخرج عبد بن حميد و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال:

كانت الزهرة امرأة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عنه: أن المرأة التى فتن بها الملكان مسخت، فهى هذه الكوكبة الحمراء: يعنى الزهرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه و البيهقى فى الشعب عنه فذكر قصة طويلة، و فيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر و زنيا بالمرأة و قتلاها. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ابن عباس هذه القصة و قالا: إنها أنزلت

إليهما الزهرة فى صورة امرأة و أنهما وقعا فى الخطيئة.

و قد روى فى هذا الباب قصص طويلة و روايات مختلفة استوفاها السيوطى فى الدرّ المنثور.

و ذكر ابن كثير فى تفسيره بعضها ثم قال: و قد روى فى قصة هاروت و ماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد و السدّى و الحسن البصرى و قتادة و أبى العالية و الزهرى و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيّان و غيرهم و قصّها خلق من المفسرين من المتقدمين و المتأخرين. و حاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، و ظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط و لا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده اللّه تعالى، و اللّه أعلم بحقيقة الحال. انتهى.

و قال القرطبى بعد سياق بعض ذلك: قلنا هذا كله ضعيف و بعيد عن ابن عمر و غيره، لا يصحّ منه شىء، فإنه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء اللّه على وحيه، و سفراؤه إلى رسله، لا يعصون اللّه ما أمرهم، و يفعلون ما يؤمرون، ثم ذكر ما معناه: أن العقل يجوّز وقوع ذلك منهم، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرى إلا بالسمع، و لم يصحّ. انتهى.

و أقول: هذا مجرد استبعاد. و قد ورد الكتاب العزيز فى هذا الموضع بما تراه، و لا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات، و ما ذكره من أن الأصول تدفع ذلك، فعلى فرض وجود هذه الأصول فهى مخصصة بما وقع فى هذه القصة و لا وجه لمنع التخصيص، و قد كان إبليس يملك المنزلة العظيمة و صار شرّ البرية و أكفر العالمين.

و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ قال: بلاء. و أخرج البزار بإسناد صحيح و الحاكم و صحّحه عن ابن مسعود قال: «من أتى كاهنا أو ساحرا و صدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد».

و أخرج البزار عن عمران بن حصين قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من تطيّر أو تطيّر له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، و من عقد عقدة، و من أتى كاهنا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد».

و أخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من تعلّم من السحر قليلا أو كثيرا كان آخر عهده من اللّه». و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مِنْ خَلاقٍ قال: قوام. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: مِنْ خَلاقٍ من نصيب، و كذا روى ابن جرير عن مجاهد. و أخرج عبد الرزاق

فتح القدير، ج‏1، ص: 145

و ابن جرير عن الحسن ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ قال: ليس له دين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ قال: باعوا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة فى قوله: لَمَثُوبَةٌ قال: ثواب.

[سورة البقرة (2): الآيات 104 الى 105]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (104) ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

قوله: راعِنا راقبنا، و احفظنا، و صيغة المفاعلة تدل على أن معنى راعِنا: ارعنا و نرعاك، و احفظنا و نحفظك، و ارقبنا و نرقبك؛ و يجوز أن يكون من أرعنا سمعك، أى: فرغه لكلامنا، وجه النهى عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبّا؛ قيل: إنه فى لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت؛ و قيل: غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة، و كانوا يقولون للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربى، مبطنين أنهم يقصدون السبّ الذى معنى هذا اللفظ فى لغتهم، و فى ذلك دليل على أنه ينبغى تجنب الألفاظ المحتملة للسبّ و

النقص، و إن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم، سدّا للذريعة و دفعا للوسيلة، و قطعا لمادة المفسدة و التطرق إليه، ثم أمرهم اللّه بأن يخاطبوا النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم بما لا يحتمل النقص و لا يصلح للتعريض فقال: وَ قُولُوا انْظُرْنا أى: أقبل علينا و انظر إلينا، فهو من باب الحذف و الإيصال، كما قال الشاعر:

ظاهرات الجمال و الحسن ينظرن كما ينظر الأراك الظّباء

أى: إلى الأراك، و قيل: معناه انتظرنا و تأنّ بنا، و منه قول الشاعر:

فإنّكما إن تنظرانى ساعةمن الدّهر ينفعنى لدى أمّ جندب

و قرأ الأعمش (أنظرنا) بقطع الهمزة و كسر الظاء بمعنى: أخّرنا و أمهلنا حتى نفهم عنك، و منه قول الشاعر:

أبا هند فلا تعجل علیناو أنظرنا نخبّرك اليقينا

و قرأ الحسن راعِنا بالتنوين، و قال: الراعن من القول: السخرىّ منه. انتهى. و أمرهم بعد هذا النهى و الأمر بأمر آخر و هو قوله: وَ اسْمَعُوا أى: اسمعوا ما أمرتم به و نهيتم عنه، و معناه: أطيعوا اللّه فى ترك خطاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك اللفظ، و خاطبوه بما أمرتم به، و يحتمل أن يكون معناه: اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع، حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة، ثم توعّد اليهود بقوله: وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ و يحتمل أن يكون وعيدا شاملا لجنس الكفرة. قال ابن جرير: و الصواب من القول عندنا

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۴۶

فى ذلك أن اللّه نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلّى اللّه عليه و سلم: راعِنا لأنها كلمة كرهها اللّه أن يقولوا لنبيه صلّى اللّه عليه و سلم، نظير الذى ذكر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «لا تقولوا للعنب: الكرم و لكن قولوا: الحبلة، و لا تقولوا:

عبدى، و لكن قولوا: فتاى» و ما أشبه ذلك. و قوله: ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ الآية، فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين، حيث لا يودّون إنزال الخير عليهم من اللّه سبحانه، ثم ردّ اللّه سبحانه ذلك عليهم فقال: وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ الآية. و قوله: أَنْ يُنَزَّلَ فى محل نصب على المفعولية، و «من» فى قوله: مِنْ خَيْرٍ زائدة، قاله النحاس، و فى الكشاف أن «من» فى قوله: مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ بيانية، و فى قوله: مِنْ خَيْرٍ مزيدة لاستغراق الخير، و فى قوله: مِنْ رَبِّكُمْ لابتداء الغاية، و قد قيل: بأن الخير: الوحى؛ و قيل: غير ذلك، و الظاهر أنهم لا يودّون أن ينزل على المسلمين أىّ خير كان، فهو لا يختص بنوع معين، كما يفيده وقوع هذه النكرة فى سياق النفى، و تأكيد العموم بدخول «من» المزيدة عليها، و إن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص. و الرحمة قيل:

هى القرآن؛ و قيل: النبوّة؛ و قيل: جنس الرحمة من غير تعيين، كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ أى: صاحب الفضل العظيم، فكيف لا تودون أن يختص برحمته من يشاء من عباده.

و قد أخرج سعيد بن منصور فى سننه، و أحمد فى الزهد، و ابن أبى حاتم و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود: أن رجلا أتاه فقال: اعهد إلىّ فقال: إذا سمعت اللّه يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شرّ ينهى عنه. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال:

راعِنا بلسان اليهود: السبّ القبيح، و كان اليهود يقولون ذلك لرسول اللّه سرا، فلما سمعوا أصحابه يقولون ذلك أعلنوا بها، فكانوا يقولون ذلك و يضحكون فيما بينهم، فأنزل اللّه الآية. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عنه، أنه قال المؤمنون بعد هذه الآية: من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه، فانتهت اليهود بعد ذلك.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن السدى قال: كان رجلان من اليهود: مالك بن الصيف، و رفاعة بن زيد، إذا لقيا النبى صلّى

اللّه عليه و سلّم قالا له و هما يكلمانه: راعنا سمعك و اسمع غير مسمع، فظنّ المسلمون أن هذا شيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم، فقالوا للنبيّ: فأنزل اللّه الآيةَ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى صخر قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فقالوا: ارعنا سمعك، فأعظم اللّه رسوله أن يقال له ذلك، و أمرهم أن يقولوا: انْظُرْنا ليعزّروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و يوقّروه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو نعيم عن قتادة: أن اليهود كانت تقول ذلك استهزاء، فكره اللّه للمؤمنين أن يقولوا كقولهم، و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: الرحمة: القرآن و الإسلام.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (١٠٧)

فتح القدير، ج ١، ص: ١٤٧

النسخ فى كلام العرب على وجهين: أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، و على هذا يكون القرآن كله منسوخا، أعنى: من اللوح المحفوظ، فلا مدخل لهذا المعنى فى هذه الآية، و منه إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «١» أى: نأمر بنسخه. الوجه الثانى: الإبطال و الإزالة، و هو المقصود هنا. و هذا الوجه الثانى ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة: أحدهما: إبطال الشيء و زواله و إقامة آخر مقامه، و منه: نسخت الشمس الظل: إذا أذهبته و حلت محله، و هو معنى قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ و فى صحيح مسلم: «لم تكن نبوّة قط إلا تناسخت» أى: تحوّلت من حال إلى حال. و الثانى: إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم: نسخت الريح الأثر، و من هذا المعنى فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ أى: يزيله. و روى عن أبى عبيد أن هذا قد كان يقع فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فكانت تنزل عليه السورة فترفع، فلا تتلى و لا تكتب.

و منه ما روى عن أبيّ و عائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة فى الطول. قال ابن فارس: النسخ نسخ الكتاب، و النسخ أن تزيل أمرا كان من قبل يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره، كالآية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى، و كل شيء خلف شيئا فقد انتسخه، يقال: نسخت الشمس الظل، و الشيب الشباب، و تناسخ الورثة: أن يموت ورثة بعد ورثة، و أصل الميراث قائم، و كذا تناسخ الأزمنة و القرون. و قال ابن جرير:

ما نَنْسَخْ ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله و نغيره، و ذلك أن نحوّل الحلال حراما، و الحرام حلالا، و المباح محظورا، و المحظور مباحا، و لا يكون ذلك إلا فى الأمر و النهى و الحظر و الإطلاق و المنع و الإباحة؛ فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ و لا منسوخ، و أصل النسخ من نسخ الكتاب، و هو نقله من نسخة أخرى، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى غيره، و سواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هى فى كلتى حالتيها منسوخة. انتهى. و قد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره، بل نحيل من أراد الاستقصاء عليه. و قد اتفق أهل الإسلام على ثبوته سلفا و خلفا، و لم يخالف فى ذلك أحد إلا من لا يعتدّ بخلافه و لا يؤبه لقوله. و قد اشتهر عن اليهود- أقمأهم اللّه- إنكاره، و هم محجوجون بما فى التوراة أن اللّه قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: إنى قد جعلت كل دابة مأكلا لك و لذريتك، و أطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه، ثم قد حرّم على موسى و على بنى إسرائيل كثيرا من الحيوان. و ثبت فى التوراة أن آدم كان يزوّج الأخ من الأخت، و قد حرّم اللّه ذلك على موسى عليه السلام و على غيره. و ثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه، ثم قال اللّه له لا تذبحه، و بأن موسى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم، و نحو هذا كثيرا فى التوراة الموجودة بأيديهم. و قوله: أو ننسأها قرأ أبو عمرو و ابن كثير بفتح النون و السين و الهمز، و به قرأ

عمر، و ابن عباس، و عطاء، و مجاهد، و أبى بن كعب، و عبيد بن عمير، و النخعى، و ابن محيصن، و معنى هذه القراءة: نؤخرها عن النسخ من قولهم: نسأت هذا الأمر إذا أخرته. قال ابن فارس: و يقولون:

نسأ اللّه فى أجلك، و أنسأ اللّه أجلك. و قد انتسأ القوم: إذا تأخروا و تباعدوا، و نسأتهم إذا أخرتهم؛ و قيل:

معناه نؤخر نسخ لفظها، أى: نتركه فى أم الكتاب فلا يكون. و قيل: نذهبها عنكم حتى لا تقرأ و لا تذكر.

---

(١). الجاثية: ٢٩.

فتح القدير، ج ١، ص: ١۴٨

و قرأ الباقون نُنْسِهَا بضم النون، من النسيان الذى بمعنى الترك، أى: نتركها فلا نبدلها و لا ننسخها، و منه قوله تعالى نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ «١» أى: تركوا عبادته فتركهم فى العذاب. و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم. و حكى الأزهرى أن معناه: نأمر بتركها، يقال: أنسيته الشيء، أى: أمرته بتركه، و نسيته تركته، و منه قول الشاعر:

إنّ علىّ عقبة أقضيهالست بناسيها و لا منسيها

أى: و لا آمر بتركها. و قال الزجّاج: إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك، لا يقال: أنسى، بمعنى: ترك؛ قال: و ما روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس أَوْ نُنْسِهَا قال: نتركها لا نبدلها فلا يصح. و الذى عليه أكثر أهل اللغة و النظر أن معنى أَوْ نُنْسِهَا نبح لكم تركها، من نسى، إذا ترك، ثم تعديه. و معنى نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها نأت بما أنفع للناس منها فى العاجل و الآجل، أو فى أحدهما، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، و مرجع ذلك إلى إعمال فى المنسوخ و الناسخ، فقد يكون الناسخ أخفّ، فيكون أنفع لهم فى العاجل، و قد يكون أثقل و ثوابه أكثر، فيكون أنفع لهم فى الآجل، و قد يستويان فتحصل المماثلة. و قوله: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يفيد أن النسخ من مقدوراته، و إن إنكاره إنكار للقدرة الإلهية، و هكذا قوله: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى له التصرف فى السموات و الأرض بالإيجاد و الاختراع و نفوذ الأمر فى جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده و ما فيه النفع لهم من أحكامه التى تعبدهم بها، و شرعها لهم. و قد يختلف ذلك باختلاف الأحوال و الأزمنة و الأشخاص، و هذا صنع من لا ولىّ لهم غيره و لا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول و الامتثال و التعظيم و الإجلال.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن عدىّ، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم الوحى بالليل و ينساه بالنهار، فأنزل اللّه: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها و فى إسناده الحجاج الجزرى ينظر فيه. و أخرج الطبرانى عن ابن عمر قال: قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كانا يقرآن ذات ليلة يصلّيان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «إنها مما نسخ أو نسى فالهوا عنها» و فى إسناده سليمان بن أرقم و هو ضعيف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها يقول: ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها يقول: خير لكم فى المنفعة، و أرفق بكم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال:

نُنْسِهَا نؤخرها. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن مسعود فى قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ قال: نثبت خطها، و نبدل حكمها أَوْ نُنْسِهَا قال نؤخرها. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و ابن جرير عن قتادة فى قوله: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها يقول: فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى. و أخرج أبو داود فى ناسخه،

---

(١). التوبة: ٦٧.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٤٩

و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و أبو ذرّ الهروى فى فضائله، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف: أن رجلا- كانت معه سورة، فقام من الليل، فقام بها، فلم يقدر عليها، و قام آخر يقرأ بها، فلم يقدر عليها، و قام آخر، فلم يقدر عليها، فأصبحوا فأتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاجتمعوا عنده فأخبروه، فقال:

«إنها نسخت البارحة» و قد روى نحوه عنه من وجه آخر. و قد ثبت فى البخارى و غيره عن أنس: أن اللّه أنزل فى الذين قتلوا فى بئر معونة «أن بلّغوا قومنا أن قد لقينا ربّنا فرضى عنّا و أرضانا» ثم نسخ، و هكذا ثبت فى مسلم و غيره عن أبى موسى: كنا نقرأ سورة نشبهها فى الطول و الشدّة ببراءة فأنسيتها، غير أنى حفظت منها: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا و لا يملأ جوفه إلا التراب» و كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات، أوّلها: «سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ»* فأنسيناها، غير أنى حفظت منها: «يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألوا عنها يوم القيامة» و قد روى مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة، و منه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق، و أحمد، و ابن حبان عن عمر.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٠٨ الى ١١٠]

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

أَمْ هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل، أى، بل تريدون، و فى هذا توبيخ و تقريع، و الكاف فى قوله:

كَما سُئِلَ فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف، أى: سؤالا مثل ما سئل موسى من قبل، حيث سألوه أن يريهم اللّه جهرة، و سألوا محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأتى باللّه و الملائكة قبيلا. و قوله: سَواءَ هو الوسط من كل شىء، قاله أبو عبيدة، و منه قوله تعالى: فِي سَواءِ الْجَحِيمِ «١» و منه قول حسان يرثى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم:

يا ويح أصحاب النّبىّ و رهطه بعد المغيّب فى سواء الملحد

و قال الفرّاء: السواء القصد، أى: ذهب عن قصد الطريق و سمته، أى: طريق طاعة اللّه. و قوله تعالى:

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم و ردّهم عن الإسلام، و التشكيك عليهم فى دينهم. و قوله: لَوْ يَرُدُّونَكُمْ فى محل نصب على أنه مفعول للفعل المذكور. و قوله: مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ يحتمل أن يتعلق بقوله: وَدَّ أى: ودّوا ذلك من عند أنفسهم، و يحتمل أن يتعلق بقوله:

حَسَداً أى حسدا ناشئا من عند أنفسهم، و هو علة لقوله: وَدَّ. و العفو: ترك المؤاخذة بالذنب.

و الصفح: إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان: إذا أعرضت عن ذنبه، و قد ضربت عنه صفحا: إذا أعرضت عنه، و فيه الترغيب فى ذلك و الإرشاد إليه، و قد نسخ ذلك بالأمر بالقتال، قاله أبو عبيدة.

---

(١). الصافات: ٥٥.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٥٠

و قوله: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ هو غايـة ما أمر اللّه سبحانه به من العفو و الصـفح، أى: افعلوا ذلک إلى أن يأتى إليكم الأمر من اللّه سبحانه فى شأنهم، بما يختاره و يشاؤه، و ما قد قضى به فى سابق علمه، و هو قتل من قتل منهم، و إجلاء من أجلى، و ضرب الجزية على من ضربت عليه، و إسلام من أسلم. و قوله:

وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ حثّ من اللّه سبحانه لهم فى الاشتغال بما ينفعهم، و يعود عليهم بالمصلحة، من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة. و تقديم الخير الذى يثابون عليه حتى يمكن اللّه لهم، و ينصرهم على المخالفين لهم.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس أنه قال: قال رافع بن حريملة و وهب ابن زيد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: يا محمد! ائتنا بكتاب ينزل علينا من السماء نقرؤه، أو فجر لنا أنهارا نتبعک و نصدقک، فأنزل اللّه فى ذلک: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ إلى قوله سَواءَ السَّبِيلِ و كان حيى بن أخطب (و أبو ياسر بن أخطب) «۱» من أشدّ اليهود حسدا للعرب إذ خصّهم اللّه برسوله، و كانا جاهدين فى ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل اللّه فيهما: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ الآية.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن السدى: قال: سألت العرب محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأتيهم باللّه، فيروه جهرة، فنزلت هذه الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن أبى العالية قال: قال رجل:

لو كانت كفاراتنا كفارات بنى إسرائيل، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «ما أعطاكم اللّه خير، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه و كفّارتها، فإن كفرها كانت له خزايا فى الدنيا، و إن لم يكفرها كانت له خزايا فى الآخرة. و قد أعطاكم اللّه خيرا من ذلک، قال: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ «۲» الآية، و الصلوات الخمس، و الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن، فأنزل اللّه: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ الآية. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن مجاهد قال: سألت قريش محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، فقال: نعم، و هو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل إن كفرتم، فأبوا و رجعوا، فأنزل اللّه: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ أن يريهم اللّه جهرة. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ قال: يتبدل الشدّة بالرخاء. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ قال: عدل عن السبيل.

و أخرج أبو داود، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل عن كعب بن مالک قال: كان اليهود و المشركون من أهل المدينة يؤذون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه أشدّ الأذى، فأمر اللّه بالصبر على ذلک، و العفو عنهم، و أنزل اللّه وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ و فى الصحيحين و غيرهما عن أسامة بن زيد قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه يعفون عن المشركين و أهل الكتاب كما أمرهم اللّه، و يصبرون على الأذى، قال اللّه تعالى: وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً «۳» و قال: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ «۴» الآية، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يتأوّل فى العفو ما أمره اللّه به، حتى

---

(۱). ما بين قوسين سقط من المطبوع و استدركناه من الدر المنثور (۱/ ۲۶۰)

(۲). النساء: ۱۱۰.

(۳). آل عمران: ۱۸۶.

(۴). البقرة: ۱۰۹.

أذن اللّه فيهم بقتل، فقتل اللّه به من قتل من صناديد قريش. و أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله:
مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ قال: من قبل أنفسهم مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ يقول: إن محمدا رسول اللّه.
و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم، و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله: فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا و قوله: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ و نحو هذا في العفو عن المشركين قال: نسخ ذلك كله بقوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ «1» الآية، و قوله فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «2» و أخرج ابن جرير عن السدي نحوه. و أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يعني: من الأعمال، من الخير في الدنيا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله: تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ قال تجدوا ثوابه.

[سورة البقرة (2): الآيات 111 الى 113]

وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (111) بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

قوله: هُوداً قال الفراء: يجوز أن يكون هودا بمعنى: يهوديا، و أن يكون جمع هائد. و قال الأخفش: إن الضمير المفرد في كان هو باعتبار لفظ من، و الجمع في قوله: هُوداً باعتبار معنى من؛ قيل:
في هذا الكلام حذف، و أصله: و قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، و قالت النصارى: لن يدخل الجنة إلّا من كان نصرانيا. هكذا قال كثير من المفسرين، و سبقهم إلى ذلك بعض السلف. و ظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود و النصارى وقع منهم هذا القول، و أنهم يختصون بذلك دون غيرهم؛ و وجه القول:
بأن في الكلام حذفا، ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلّل الأخرى، و تنفي عنها أنها على شيء من الدين، فضلا عن دخول الجنة، كما في هذا الموضع، فإنه قد حكى اللّه عن اليهود أنها قالت:
ليست النصارى على شي‏ء، و قالت النصارى ليست اليهود على شي‏ء، و الأماني قد تقدّم تفسيرها، و الإشارة بقوله: تلك، إلى ما تقدّم لهم من الأماني، التي آخرها أنه لا يدخل الجنة غيرهم. و قيل: إن الإشارة إلى هذه الأمنية الآخرة، و التقدير: أمثال تلك الأمنية أمانيهم، على حذف المضاف ليطابق أمانيهم، قوله:
هاتُوا أصله: هاتيوا، حذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، و يقال للمفرد المذكر:
هات، و للمؤنث: هاتي، و هو صوت بمعنى أحضر. و البرهان: الدليل الذي يحصل عنده اليقين. قال ابن جرير: طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر، و يردّ على من ينفيه. و قوله: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي:
في تلك الأمانيّ المجردة و الدعاوى الباطلة، ثم ردّ عليهم فقال: بَلى مَنْ أَسْلَمَ و هو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة، أي:
ليس كما يقولون، بل يدخلها من أسلم وجهه للّه. و معنى أسلم: استسلم؛ و قيل:
أخلص. و خصّ الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، و لأنه موضع الحواس الظاهرة، و فيه يظهر

(1). التوبة: 29.

(٢). التوبة: ۵.

فتح القدير، ج ١، ص: ١۵٢

العزّ و الذل، و قيل: إن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء، و أن المعنى هنا: الوجه و غيره؛ و قيل: المراد بالوجه هنا: المقصد، أى: من أخلص مقصده و قوله وَ هُوَ مُحْسِنٌ فى محل نصب على الحال، و الضمير فى قوله: وَجْهَهُ و فَلَهُ باعتبار لفظ من، و فى قوله: عَلَيْهِمْ باعتبار معناها. و قوله:

مَنْ إن كانت الموصولة فهى فاعل لفعل محذوف، أى: بلى يدخلها من أسلم. و قوله: فَلَهُ معطوف على مَنْ أَسْلَمَ و إن كانت من شرطية، فقوله: فَلَهُ هو الجزاء، و مجموع الشرط و الجزاء ردّ على أهل الكتاب و إبطال لتلك الدعوى. و قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ و ما بعده، فيه أن كل طائفة تنفى الخير عن الأخرى، و يتضمن ذلك إثباته لنفسها، تحجرا لرحمة اللّه سبحانه. قال فى الكشاف: إن الشيء هو الذى يصح و يعتدّ به، قال: و هذه مبالغة عظيمة، لأن المحال و المعدوم يقع عليهما اسم الشيء، و إذا نفى إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ فى ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده، و هكذا قولهم: أقلّ من لا شيء.

و قوله: وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ أى: التوراة و الإنجيل، و الجملة حالية؛ و قيل: المراد جنس الكتاب، و فى هذا أعظم توبيخ و أشدّ تقريع، لأن الوقوع فى الدعاوى الباطلة، و التكلم بما ليس عليه برهان، و هو و إن كان قبيحا على الإطلاق، لكنه من أهل العلم و الدراسة لكتب اللّه أشدّ قبحا، و أفظع جرما، و أعظم ذنبا.

و قوله: كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ المراد بهم: كفار العرب الذين لا كتاب لهم، قالوا: مثل مقالة اليهود، اقتداء بهم، لأنهم جهلة، لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم، و قيل: المراد بهم: طائفة من اليهود و النصارى، و هم الذين لا علم عندهم، ثم أخبرنا سبحانه، بأنه المتولى لفصل هذه الخصومة التى وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه، فيعذب من يستحق التعذيب، و ينجى من يستحق النجاة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ الآية، قال: قالت اليهود:

لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، و قالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قال: أمانىّ يتمنونها على اللّه بغير الحق قُلْ: هاتُوا بُرْهانَكُمْ قال: حجتكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بما تقولونه أنه كما تقولون بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ يقول: أخلص للّه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ قال: حجتكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ قال: أخلص دينه. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:

لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول اللّه، فقال رافع ابن حريملة: ما أنتم على شيء، و كفر بعيسى و الإنجيل، فقال له رجل من أهل نجران: ما أنتم على شيء، و جحد نبوّة موسى و كفر بالتوراة، قال: فأنزل اللّه فى ذلك: وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ أى كلّ يتلو فى كتابه تصديق من كفر به.

و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: هم أمم كانت قبل اليهود و النصارى. و أخرج ابن جرير عن السدى قال: هم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء.

فتح القدير، ج ١، ص: ١۵٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١۴ الى ١١۵]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا

خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (١١۴) وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (١١۵)
هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه، و انه بمنزلة لا ينبغى أن يلحقه سائر أنواع الظلم، أى: لا أحد أظلم ممن منع مساجد اللّه، و اسم الاستفهام فى محل رفع على الابتداء، و أظلم خبره. و قوله:
أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ قيل: هو بدل من مساجد، و قيل إنه مفعول له؛ بتقدير كراهية أن يذكر؛ و قيل:
إن التقدير: من أن يذكر، ثم حذف حرف الجر لطول الكلام؛ و قيل: إنه مفعول ثان لقوله مَنَعَ و المراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم اللّه منع من يأتى إليها للصلاة، و التلاوة، و الذكر، و تعليمه. و المراد بالسعى فى خرابها: هو السعى فى هدمها، و رفع بنيانها، و يجوز أن يراد بالخراب: تعطيلها عن الطاعات التى وضعت لها، فيكون أعم من قوله: أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التى بنيت لها المساجد، كتعلم العلم و تعليمه، و القعود للاعتكاف، و انتظار الصلاة؛ و يجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين، من باب عموم المجاز، كما قيل فى قوله تعالى: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ «١» و قوله: ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ أى: ما كان ينبغى لهم دخولها إلا حال خوفهم، و فيه إرشاد للعباد من اللّه عزّ و جل؛ أنه ينبغى لهم أن يمنعوا مساجد اللّه من أهل الكفر، من غير فرق بين مسجد و مسجد، و بين كافر و كافر، كما يفيد عموم اللفظ، و لا ينافيه خصوص السبب، و أن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على و جل و خوف من أن يفطن لهم أحد من المسلمين؛ فينزلون بهم ما يوجب الإهانة و الإذلال، و ليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا. و الخزى: قيل: هو ضرب الجزية عليهم و إذلالهم، و قيل غير ذلك، و قد تقدّم تفسيره. و المشرق: موضع الشروق. و المغرب: موضع الغروب، أى: هما ملك للّه، و ما بينهما من الجهات و المخلوقات، فيشمل الأرض كلها. و قوله: فَأَيْنَما تُوَلُّوا أى: أىّ جهة تستقبلونها فهناك وجه اللّه، أى: المكان الذى يرتضى لكم استقباله، و ذلك يكون عند التباس جهة القبلة التى أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ* «٢» قال فى الكشاف: و المعنى: أنكم إذا منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام، أى:
فى بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجدا، فصلّوا فى أىّ بقعة شئتم من بقاعها، و افعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة فى كل مكان، لا تختص أماكنها فى مسجد دون مسجد، و لا فى مكان دون مكان انتهى.
و هذا التخصيص لا وجه له؛ فإن اللفظ أوسع منه. و إن كان المقصود به بيان السبب فلا بأس. و قوله:
إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ فيه إرشاد إلى سعة رحمته. و أنه يوسع على عباده فى دينهم، و لا يكلّفهم ما ليس فى وسعهم، و قيل: واسع، بمعنى: أنه يسع علمه كل شىء، كما قال: وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً «٣» و قال الفرّاء: الواسع: الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء.
و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ أن قريشا منعوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الصلاة عند الكعبة

---

(١). التوبة: ١٨.

(٢). البقرة: ١۴۴.

(٣). طه: ٩٨.

فى المسجد الحرام فأنزل اللّه: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: هم النصارى، و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير عن السدى قال:
هم الروم، كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس. و فى قوله أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ قال: فليس فى

الأرض رومى يدخله اليوم إلا و هو خائف أن يضرب عنقه، و قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها. و فى قوله: لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ قال: أما خزيهم فى الدنيا؛ فإنه إذا قام المهدى؛ و فتحت القسطنطينية؛ قتلهم، فذلك الخزى. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة: أنهم الروم. و أخرج ابن أبى حاتم عن كعب: أنهم النصارى؛ لما أظهروا على بيت المقدس حرقوه. و أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم قال: هم المشركون حين صدّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن البيت يوم الحديبية. و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى صالح قال: ليس للمشركين أن يدخلوا المسجد إلا خائفين. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ قال: يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: أوّل ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا و اللّه أعلم شأن القبلة، قال اللّه تعالى: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ الآية، فاستقبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فصلّى نحو بيت المقدس، و ترك البيت العتيق، ثم صرفه اللّه إلى البيت العتيق، و نسخها، فقال وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ* «١» و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و مسلم، و الترمذى، و النسائى، و غيرهم عن ابن عمر قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يصلى على راحلته تطوّعا أينما توجهت به، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ و قال فى هذا أنزلت هذه الآية. و أخرج نحوه عن ابن جرير، و الدارقطنى، و الحاكم و صحّحه. و قد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه كان يصلّى على راحلته قبل المشرق، فإذا أراد أن يصلّى المكتوبة نزل و استقبل القبلة و صلّى. و روى نحوه من حديث أنس مرفوعا، أخرجه ابن أبى شيبة و أبو داود.

و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى، و ضعّفه، و ابن ماجة، و ابن جرير، و غيرهم، عن عامر بن ربيعة، قال:

كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلا، فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدا فيصلى فيه، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلّينا على غير القبلة؛ فقلنا: يا رسول اللّه! لقد صلّينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل اللّه وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ الآية، فقال: مضت صلاتكم. و أخرج الدارقطنى، و ابن مردويه، و البيهقى عن جابر مرفوعا نحوه، إلّا أنه ذكر أنهم خطّوا خطوطا. و أخرج نحوه و ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا. و أخرج نحوه أيضا سعيد بن منصور، و ابن المنذر عن عطاء يرفعه، و هو مرسل. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ قال: قبلة للّه أينما توجهت شرقا أو غربا.

و أخرج ابن أبى شيبة، و الترمذى، و صحّحه، و ابن ماجة، عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ما بين المشرق و المغرب قبلة». و أخرج ابن أبى شيبة، و الدارقطنى، و البيهقى عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و البيهقى عن عمر نحوه.

---

(١). البقرة: ١٥٠.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٥٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٦ الى ١١٨]

وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

قوله: وَ قالُوا هم اليهود و النصارى- و قيل اليهود، أى: قالوا- عزير ابن اللّه- و قيل: النصارى، أى: قالوا: المسيح ابن اللّه- و قيل: هم كفار العرب، أى: قالوا: الملائكة بنات اللّه.

و قوله: سُبْحانَهُ قد تقدم تفسيره، و المراد هنا: تبرؤ اللّه تعالى عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد. و قوله:
بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ردّ على القائلين بأنه اتخذ ولدا، أي: بل هو مالك لما في السموات و الأرض، و هؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه، و الولد من جنسهم لا من جنسه، و لا يكون الولد إلا من جنس الوالد. و القانت: المطيع الخاضع، أي: كل من في السموات و الأرض مطيعون له، خاضعون لعظمته، خاشعون لجلاله، و القنوت في أصل اللغة أصله: القيام. قال الزجّاج: فالخلق قانتون، أي: قائمون بالعبودية، إما إقرارا و إما أن يكونوا على خلاف ذلك، فأثر الصنعة بيّن عليهم؛ و قيل: أصله الطاعة، و منه وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ «١» و قيل: السكون، و منه قوله: وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ «٢» و لهذا قال زيد بن أرقم:
كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ فأمرنا بالسكوت، و نهينا عن الكلام؛ و قيل القنوت:
الصلاة، و منه قول الشاعر:
قانتا للّه يتلو كتبهو على عمد من النّاس اعتزل
و الأولى: أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة؛ قيل هي ثلاثة عشر معنى، و هي مبينة. و قد نظمها بعض أهل العلم، كما أوضحت ذلك في شرحي على المنتقى. و بديع: فعيل للمبالغة، و هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو بديع سماواته و أرضه، أبدع الشيء: أنشأه لا عن مثال، و كل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له:
مبدع. و قوله: وَ إِذا قَضى أَمْراً أي: أحكمه و أتقنه. قال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء و تمامه، قيل: هو مشترك بين معان، يقال: قضى، بمعنى: خلق، و منه: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ «٣» و بمعنى أعلم، و منه: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ «۴» و بمعنى: أمر، و منه:
وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ «۵» و بمعنى: ألزم، و منه: قضى عليه القاضي، و بمعنى: أوفاه، و منه فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ «۶» و بمعنى: أراد، و منه فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٧» و الأمر: واحد الأمور. و قد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى: الأوّل: الدين، و منه: حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ «٨» الثاني: بمعنى القول، و منه: فَإِذا جاءَ أَمْرُنا «٩». الثالث: العذاب، و منه:
لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ «١٠» الرابع: عيسى، و منه: فَإِذا قَضى أَمْراً «١١» أي: أوجد عيسى عليه

---

(١). الأحزاب: ٣۵.

(٢). البقرة: ٢٣٨.

(٣). فصلت: ١٢.

(۴). الإسراء: ۴.

(۵). الإسراء: ٢٣.

(۶). القصص: ٢٩.

(٧). غافر: ۶٨.

(٨). التوبة: ۴٨.

(٩). المؤمنون: ٢٧.

(١٠). إبراهيم: ٢٢.

(١١) غافر: ۶٨.

السلام. الخامس: القتل، و منه: فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ «۱» السادس: فتح مكة، و منه: فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ «۲». السابع: قتل بنى قريظة و إجلاء بنى النضير، و منه: فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ «۳». الثامن: القيامة، و منه: أَتى أَمْرُ اللَّهِ «۴» و التاسع: القضاء، و منه: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ* «۵» العاشر: الوحى، و منه: يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ «۶» الحادى عشر: أمر الخلائق، و منه: أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ «۷» الثانى عشر: النصر؛ و منه: هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ «۸». الثالث عشر:
الذنب، و منه فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها «۹» الرابع عشر: الشأن، و منه: وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ «۱۰» هكذا أورد هذه المعانى بأطول من هذا بعض المفسرين، و ليس تحت ذلك كثير فائدة، و إطلاقه على الأمور المختلفة لصدق اسم الأمر عليها. و قوله: فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الظاهر فى هذا: المعنى الحقيقى، و أنه يقول سبحانه هذا اللفظ، و ليس فى ذلك مانع و لا جاء ما يوجب تأويله، و منه قوله تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ «۱۱» و قال تعالى: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «۱۲» و قال: وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ «۱۳» و منه قول الشاعر:
إذا ما أراد اللّه أمرا فإنّمايقول له كن قوله فيكون
و قد قيل: إن ذلك مجاز، و أنه لا قول و إنما هو قضاء يقضيه، فعبر عنه بالقول، و منه قول الشاعر، و هو عمرو بن حممة الدوسيّ:
فأصبحت مثل النّسر طارت فراخهإذا رام تطيارا يقال له قع
و قال آخر:
قالت جناحاه لساقيه الحقاو نجّيا لحمكما أن يمزّقا
و المراد بقوله: وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ اليهود، و قيل: النصارى، و رجّحه ابن جرير، لأنهم المذكورون فى الآية، و قيل: مشركو العرب، و لَوْ لا حرف تحضيض، أى: هلّا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ بنبوّة محمد فنعلم أنه نبيّ أَوْ تَأْتِينا بذلك علامة على نبوّته: و المراد بقوله: قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قيل: هم اليهود و النصارى؛ فى قول من جعل الذين لا يعلمون: كفار العرب، أو الأمم السالفة، فى قول من جعل: الذين لا يعلمون: اليهود و النصارى، أو اليهود، فى قول من جعل: الذين لا يعلمون: النصارى تَشابَهَتْ أى فى التعنت و الاقتراح، و قال الفرّاء: تَشابَهَتْ فى اتفاقهم على الكفر قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى: يعترفون بالحق، و ينصفون فى القول، و يذعنون لأوامر اللّه سبحانه، لكونهم مصدقين له سبحانه، مؤمنين بآياته، متبعين لما شرعه لهم.
و قد أخرج البخارى من حديث ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «قال اللّه تعالى: كذّبنى ابن آدم و شتمنى، فأمّا تكذيبه إيّاى: فيزعم: أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، و أما شتمه إيّاى: فقوله: لى ولد، فسبحانى أن أتّخذ صاحبة أو ولدا». و أخرج نحوه أيضا من حديث أبى هريرة، و فى الباب أحاديث. و أخرج عبد

---

(۱). غافر: ۷۸.

(۲). التوبة: ۲۴.

(۳). البقرة: ۱۰۹.

(۴). النحل: ۱.

(۵). يونس: ۳ و ۳۱.

(۶). الطلاق: ۱۲.

(۷). الشورى: ۵۳.

(۸). آل عمران: ۱۵۴.

(۹). الطلاق: ۹.

(۱۰). هود: ۹۷.

(۱۱) يس: ۸۲.

(۱۲) النحل: ۴۰.

(۱۳) القمر: ۵۰.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۵۷

ابن حميد، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: سُبْحانَ اللَّهِ* قال: تنزيه اللّه نفسه عن السوء. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن موسى بن طلحة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم، أنه سئل عن التسبيح، أن يقول الإنسان: سبحان اللّه، قال: برأه اللّه من السوء. و أخرجه الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه عن جدّه طلحة بن عبد اللّه قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن تفسير سبحان اللّه، فقال: هو تنزيه اللّه من كل سوء. و أخرجه ابن مردويه عنه من طريق أخرى مرفوعا. و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن حبان، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الحلية، و الضياء فى المختارة، عن أبى سعيد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ قال: مطيعون. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يقول: ابتدع خلقهما و لم يشركه فى خلقهما أحد.

و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: يا محمد! إن كنت رسولا من اللّه كما تقول فقل للّه: فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل اللّه فى ذلك: وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة، أنهم كفار العرب. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد قال: هم النصارى و الذين من قبلهم يهود.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۱۱۹ الى ۱۲۱]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (۱۱۹) وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۱۲۰) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۲۱)

قوله: بَشِيراً وَ نَذِيراً يحتمل أن يكون منصوبا على الحال، و يحتمل أن يكون مفعولا له، أى:

أرسلناك لأجل التبشير و الإنذار. و قوله: وَ لا تُسْئَلُ قرأه الجمهور بالرفع مبنيا للمجهول، أى: حال كونك غير مسؤول، و قرئ بالرفع مبنيا للمعلوم. قال الأخفش: و يكون فى موضع الحال عطفا على بَشِيراً وَ نَذِيراً أى: حال كونك غير سائل عنهم، لأن علم اللّه بكفرهم بعد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم، و قرأ نافع: وَ لا تُسْئَلُ بالجزم: أى لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء، أو لا يصدر منك السؤال عمن مات منهم على كفره و معصيته تعظيما لحاله و تغليظا لشأنه، أى: أن هذا أمر فظيع و خطب شنيع، يتعاظم المتكلم أن يجريه على لسانه، أو يتعاظم السامع أن يسمعه. و قوله: وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ الآية، أى: ليس غرضهم و مبلغ

الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات، و يوردونه من التعنتات، فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون؛ و أجبتهم عن كل تعنت؛ لم يرضوا عنك، ثم أخبره؛ بأنهم لن يرضوا عنه؛ حتى يدخل فى دينهم، و يتبع ملتهم. و الملّة: اسم لما شرعه اللّه لعباده فى كتبه على ألسن أنبيائه، و هكذا الشريعة، ثم ردّ عليهم

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۵۸

سبحانه، فأمره بأن يقول لهم: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى الحقيقى، لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة، و الكتب المحرّفة، ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إن اتبع أهواءهم، و حاول رضاهم، و أتعب نفسه فى طلب ما يوافقهم، و يحتمل أن يكون تعريضا لأمته، و تحذيرا لهم أن يواقعوا شيئا من ذلك، أو يدخلوا فى أهوية أهل الملل، و يطلبوا رضا أهل البدع. و فى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب و تتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج اللّه سبحانه، و القائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب و السنة، المؤثرين لمحض الرأى عليهما؛ فإن غالب هؤلاء و إن أظهر قبولا و أبان من أخلاقه لينا؛ لا يرضيه إلا اتباع بدعته، و الدخول فى مداخله، و الوقوع فى حبائله، فإن فعل العالم ذلك؛ بعد أن علمه اللّه من العلم ما يستفيد به أن هدى اللّه هو ما فى كتابه و سنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التى هى ضلالة محضة، و جهالة بيّنة و رأى منها، و تقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ماله من اللّه من ولىّ و لا نصير، و من كان كذلك فهو مخذول لا محالة، و هالك بلا شك و لا شبهة. و قوله: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ قيل: هم المسلمون، و الكتاب: هو القرآن، و قيل: من أسلم من أهل الكتاب، و المراد بقوله: يَتْلُونَهُ أنهم يعملون بما فيه، فيحلّلون حلاله، و يحرمون حرامه، فيكون: من تلاه، يتلوه: إذا اتبعه، و منه قوله تعالى: وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها «۱» أى: اتبعها، كذا قيل، و يحتمل أن يكون من التلاوة، أى: يقرءونه حقّ قراءته، لا يحرفونه و لا يبدّلونه. و قوله: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مبتدأ، و خبره: يَتْلُونَهُ أو الخبر قوله: فَأُولئِكَ مع ما بعده.

و قد أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظى قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ليت شعرى ما فعل أبواى» فنزل إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ فما ذكرهما حتى توفاه اللّه. قال السيوطى: هذا مرسل ضعيف الإسناد. ثم رواه من طريق ابن جرير عن داود بن أبى عاصم مرفوعا و قال: هو معضل الإسناد، ضعيف، لا تقوم به و لا بالذى قبله حجة. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: الْجَحِيمِ ما عظم من النار. و أخرج الثعلبى عن ابن عباس قال: إن يهود المدينة و نصارى نجران كانوا يرجون أن يصلّى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قبلتهم، فلما صرف اللّه القبلة إلى الكعبة شقّ ذلك عليهم، و أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم. فأنزل اللّه: وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصارى الآية. و أخرج عبد الرزاق عن قتادة قوله: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس فى قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ قال: يحلون حلاله، و يحرّمون حرامه، و لا يحرّفونه عن مواضعه. و أخرجوا عنه أيضا قال:

يتبعونه حق اتباعه، ثم قرءوا وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها يقول: اتبعها. و أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب فى قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ إذا مرّ بذكر الجنة سأل اللّه الجنة، و إذا مرّ بذكر الناس تعوذ باللّه من النار.

و أخرج الخطيب فى كتاب الرواة بسند فيه مجاهيل عن ابن عمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ «يتبعونه حق اتباعه»، و كذا قال القرطبى فى تفسيره أن فى إسناده مجاهيل؛ قال: لكن معناه صحيح.

---

(۱). الشمس: ۲.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٥٩

و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير من طرق عن ابن مسعود فى تفسيره هذه الآية مثل ما سبق عن ابن عباس فى قوله: يحلّون حلاله إلى آخره. و أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال: يتكلمون به كما أنزل و لا يكتمونه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى هذه الآية قال: هم أصحاب محمد، ثم حكى نحو ذلك عن عمر بن الخطاب. و أخرج وكيع و ابن جرير عن الحسن فى قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ قال:

يعملون بمحكمه، و يؤمنون بمتشابهه، و يكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢٢ الى ١٢٤]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٢٢) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

قوله: يا بَنِي إِسْرائِيلَ- إلى قوله- وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ قد سبق مثل هذا فى صدر السورة، و تقدم تفسيره، و وجه التكرار الحثّ على اتباع الرسول النبى الأمّى، ذكر معناه ابن كثير فى تفسيره. و قال البقاعى فى تفسيره: إنه لما طال المدى فى استقصاء تذكيرهم بالنعم؛ ثم فى بيان عوارهم؛ و هتك أستارهم؛ و ختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم و أحوالهم و أقوالهم؛ أعاد ما صدّر به قصتهم من التذكير بالنعم، و التحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم، و يدوم فيه الندم لمن زلّت به القدم، ليعلم أن ذلك فذلكة القصة، و المقصود بالذات الحثّ على انتهاز الفرصة. انتهى. و أقول: ليس هذا بشيء، فإنه لو كان سبب التكرار ما ذكره من طول المدى؛ و أنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك؛ لكان الأولى بالتكرار؛ و الأحق بإعادة الذكر؛ هو قوله سبحانه: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ «١» فإن هذه الآية مع كونها أوّل الكلام معهم؛ و الخطاب لهم فى هذه السورة؛ هى أيضا أولى بأن تعاد و تكرر؛ لما فيها من الأمر بذكر النعم، و الوفاء بالعهد، و الرهبة للّه سبحانه، و بهذا تعرف صحة ما قدّمناه لك عند أن شرع اللّه سبحانه فى خطاب بنى إسرائيل من هذه السورة فراجعه. ثم حكى البقاعى بعد كلامه السابق عن الحوالى أنه قال: كرّره تعالى إظهارا لمقصد التئام آخر الخطاب بأوّله، و ليتخذ هذا الإفصاح و التعليم أصلا لما يمكن بأن يرد من نحوه فى سائر القرآن، حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمه يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية فيتلوها، ليكون فى تلاوته جامعا لطرفى الثناء، و فى تفهيمه جامعا لمعانى طرفى المعنى.

انتهى. و أقول: لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك. و أما قوله و ليتخذ ذلك أصلا لما يرد من التكرار فى سائر القرآن؛ فمعلوم أن حصول هذا الأمر فى الأذهان؛ و تقرره فى الأفهام؛ لا يختص بتكرير آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها، فلم تتم حينئذ النكتة فى تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما، و للّه الحكمة البالغة التى لا تبلغها الأفهام و لا تدركها العقول، فليس فى تكليف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هنالك فتذكر. قوله: وَ إِذِ ابْتَلى الابتلاء: الامتحان و الاختبار، أى: ابتلاه بما أمره به،

---

(١). البقرة: ١٢٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٦٠

و إِبْراهِيمَ معناه فى السريانية: أب رحيم، كذا قال الماوردى. قال ابن عطية: و معناه فى العربية ذلك.

قال السهيلى: و كثيرا ما يقع الاتفاق بين السريانى و العربى. و قد أورد صاحب الكشاف هنا سؤالا فى رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير، و أجاب عنه بأنه قد تقدّم لفظا فرجع إليه، و الأمر فى هذا أوضح من أن يشتغل بذكره، أو ترد فى مثله الأسئلة، أو يسوّد وجه القرطاس بإيضاحه. و قوله: بِكَلِماتٍ قد اختلف العلماء فى تعيينها، فقيل: هى شرائع الإسلام، و قيل: ذبح ابنه، و قيل: أداء الرسالة، و قيل:

هى خصال الفطرة، و قيل: هى قوله: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً و قيل: بالطهارة، كما سيأتى بيانه.

قال الزجّاج: و هذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم. انتهى. و ظاهر النظم القرآنى أن الكلمات هى قوله: قالَ إِنِّي جاعِلُكَ و ما بعده، و يكون ذلك بيانا للكلمات، و سيأتى عن بعض السلف ما يوافق ذلك، و عن آخرين ما يخالفه. و على هذا فيكون قوله: قالَ إِنِّي جاعِلُكَ مستأنفا، كأنه: ماذا قال له؟ و قال ابن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك، و جائز أن يكون بعض ذلك، و لا يجوز الجزم بشىء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، و لم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد؛ و لا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له، ثم قال: فلو قال قائل: إن الذى قاله مجاهد و أبو صالح الربيع بن أنس أولى بالصواب، يعنى: أن الكلمات هى قوله: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً و قوله:

وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ و ما بعده. و رجّح ابن كثير أنها تشمل جميع ما ذكر، و سيأتى التصريح بما هو الحق بعد إيراد ما ورد عن السلف الصالح. و قوله: فَأَتَمَّهُنَ أى: قام بهنّ أتم قيام، و امتثل أكمل امتثال.

و الإمام: هو ما يؤتم به، و منه قيل للطريق: إمام، و للبناء: إمام، لأنه يؤتم بذلك، أى: يهتدى به السالك، و الإمام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتمون به و يهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ. و قوله: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم، أى: و اجعل من ذريتى أئمة، و يحتمل أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام و إن لم يكن بصيغته، أى: و من ذريتى ماذا يكون يا ربّ؟ فأخبره أن فيهم عصاة و ظلمة، و أنهم لا يصلحون لذلك، و لا يقومون به، و لا ينالهم عهد اللّه سبحانه. و الذرية: مأخوذة من الذرّ، لأن اللّه أخرج الخلق من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم كالذرّ، و قيل مأخوذة من: ذرأ اللّه الخلق يذرؤهم: إذا خلقهم. و فى الكتاب العزيز: فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ «۱» قال فى الصحاح: ذرت الريح السحاب و غيره تذروه و تذريه ذروا و ذريا، أى: نسفته؛ و قال الخليل، إنما سمّوا ذرية لأن اللّه تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزراع البذر. و اختلف فى المراد بالعهد فقيل: الإمامة؛ و قيل: النبوّة؛ و قيل:

عهد اللّه: أمره. و قيل: الأمان من عذاب الآخرة، و رجّحه الزجّاج، و الأوّل أظهر كما يفيده السياق. و قد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل و العمل بالشرع كما ورد، لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالما. و يمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد، و ما تفيده الإضافة من العموم، فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب و لا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم فى كل من تعلق بالأمور الدينية. و قد اختار ابن جرير: أن هذه الآية و إن

---

(۱). الكهف: ۴۵.

كانت ظاهرة فى الخبر أنه لا ينال عهد اللّه بالإمامة ظالما، ففيها إعلام من اللّه لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه. انتهى. و لا يخفاك أنه لا جدوى لكلامه هذا. فالأولى أن يقال: إن هذا الخبر فى معنى الأمر لعباده أن لا يولّوا أمور الشرع ظالما، و إنما قلنا إنه فى معنى الأمر لأن أخباره تعالى لا يجوز أن تتخلف. و قد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة و غيرها

كثيرا من الظالمين. قوله: وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ

هو الكعبة، غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، و مَثابَةً: مصدر من: ثاب، يثوب، مثابا، و مثابة، أى: مرجعا يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، و منه قول ورقة بن نوفل فى الكعبة:

مثابا لأفناء القبائل كلّهاتخبّ إليها اليعملات الذّوامل

و قرأ الأعمش: «مثابات» و قيل: المثابة: من الثواب، أى: يثابون هنالك، و قال مجاهد: المراد:

أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الشاعر:

جعل البيت مثابا لهمليس منه الدهر يقضون الوطر

قال الأخفش: و دخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه، فهى كعلامة و نسابة. و قال غيره: هى للتأنيث؛ و ليست للمبالغة. و قوله: وَ أَمْناً هو اسم مكان، أى: موضع أمن. و قد استدل بذلك جماعة من أهل العلم؛ على أنه لا يقام الحدّ على من لجأ إليه، و يؤيد ذلك قوله تعالى: وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً و قيل:

إن ذلك منسوخ. و قوله: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى قرأ نافع و ابن عامر: بفتح الخاء على أنه فعل ماض، أى: جعلنا البيت مثابة للناس، و أمنا، و اتخذوه مصلى. و قرأ الباقون: على صيغة الأمر؛ عطفا على اذكروا؛ المذكور أوّل الآيات، أو على اذكروا المقدّر عاملا فى قوله: وَ إِذْ و يجوز أن يكون على تقدير القول، أى: و قلنا اتخذوا: و المقام فى اللغة: موضع القيام. قال النحاس: هو من: قام، يقوم، يكون مصدرا و اسما للموضع، و مقام: من: أقام، و ليس من هذا قول الشاعر:

و فيهم مقامات حسان وجوههمو أندية ينتابها القول و الفعل

لأن معناه أهل مقامات. و اختلف فى تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذى يعرفه الناس، و يصلّون عنده ركعتى الطواف؛ و قيل: المقام: الحج كله، روى ذلك عن عطاء و مجاهد؛ و قيل: عرفة و المزدلفة، روى عن عطاء أيضا. و قال الشعبى: الحرم كله مقام إبراهيم. و روى عن مجاهد.

و قد أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ قال: ابتلاه اللّه بالطهارة: خمس فى الرأس، و خمس فى الجسد. فى الرأس: قص الشارب، و المضمضة، و الاستنشاق و السّواك، و فرق الشعر، و فى الجسد: تقليم الأظافر، و حلق العانة، و الختان و نتف الإبط، و غسل مكان الغائط و البول بالماء. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن المنذر عنه نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم،

فتح القدير، ج ١، ص: ١۶٢

و ابن مردويه، و ابن عساكر عنه قال: ما ابتلى أحد بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم. و قرأ هذه الآية، فقيل له: ما الكلمات؟ قال: سهام الإسلام ثلاثون سهما: عشرة فى براءة التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ «١» إلى آخر الآية، و عشرة فى أوّل سورة قَدْ أَفْلَحَ* «٢» و سَأَلَ سائِلٌ «٣» وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ «۴» لآيات، و عشرة فى الأحزاب إِنَّ الْمُسْلِمِينَ «۵» إلى آخر الآية، فَأَتَمَّهُنَ كلهنّ، فكتب له براءة، قال تعالى:

وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى «۶» و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم عنه، قال: منهنّ مناسك الحج. و أخرج ابن جرير عنه قال: الكلمات: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ «٧» و الآيات فى شأن المناسك، و المقام الذى جعل لإبراهيم، و الرزق الذى رزق ساكنو البيت، و بعث محمد فى ذريتهما. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ قال: ابتلى بالآيات التى بعدها. و أخرجا أيضا عن الشعبى مثله. و أخرج ابن

إسحاق، و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس قال: الكلمات التى ابتلى بهنّ إبراهيم فاتمهنّ: فراق قومه فى اللّه حين أمر بمفارقتهم، و محاجّته نمرود فى اللّه حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافهم، و صبره على قذفهم إياه فى النار ليحرقوه فى اللّه، و الهجرة بعد ذلك من وطنه و بلاده حين أمره بالخروج عنهم، و ما أمره به من الضيافة و الصبر عليهما، و ما ابتلى به من ذبح ولده، فلما مضى على ذلك كله قالَ اللّه لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «٨». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الحسن قال:

ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، و ابتلاه بالقمر فرضى عنه، و ابتلاه بالشمس فرضى عنه، و ابتلاه بالهجرة فرضى عنه، و ابتلاه بالختان فرضى عنه، و ابتلاه بابنه فرضى عنه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله:

فَأَتَمَّهُنَ قال: فأداهنّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من فطرة إبراهيم السّواك».

قلت: و هذا على تقدير أن إسناده إلى عطاء صحيح فهو مرسل لا تقوم به الحجة، و لا يحلّ الاعتماد على مثله فى تفسيره كلام اللّه سبحانه، و هكذا لا يحل الاعتماد على مثل ما أخرجه ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:

من فطرة إبراهيم غسل الذكر و البراجم. و مثل ما أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه عنه قال: ست من فطرة إبراهيم: قص الشارب، و السواك، و الفرق، و قص الأظفار، و الاستنجاء، و حلق العانة، قال: ثلاثة فى الرأس، و ثلاثة فى الجسد. و قد ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيح و غيره من طريق جماعة من الصحابة مشروعية تلك العشر لهذه الأمة، و لم يصح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنها الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم. و أحسن ما روى عنه ما أخرجه الترمذى و حسّنه عن ابن عباس قال:

كان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقصّ أو يأخذ من شاربه. قال:

و كان خليل الرحمن إبراهيم يفعله. و لا يخفاك أن فعل الخليل له لا يستلزم أنه من الكلمات التى ابتلى بها، و إذا لم يصح شىء عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و لا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة تعيين تلك الكلمات؛ لم يبق لنا إلا أن نقول: إنها ما ذكره اللّه سبحانه فى كتابه بقوله: قالَ إِنِّي جاعِلُكَ إلى آخر الآيات، و يكون ذلك بيانا للكلمات، أو السكوت و إحالة العلم فى ذلك على اللّه سبحانه. و أما ما روى عن ابن عباس و نحوه من الصحابة من بعدهم فى تعيينها، فهو أوّلا أقوال صحابة لا تقوم بها الحجة فضلا عن أقوال من بعدهم،

---

(١). التوبة: ١١٢.

(٢). المؤمنون: ١.

(٣). المعارج: ١.

(۴). المعارج: ٢۶.

(۵). الأحزاب: ٣۵.

(۶). النجم: ٣٧.

(٧). البقرة: ١٢٧.

(٨). البقرة: ١٣١.

و على تقدير أنه لا مجال للاجتهاد فى ذلك؛ و أن له حكم الرفع؛ فقد اختلفوا فى التعيين اختلافا يمتنع معه العمل ببعض ما روى عنهم دون البعض الآخر، بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما قدمنا عن ابن عباس، فكيف يجوز العمل بذلك؟- و بهذا

تعرف ضعف قول من قال: إنه يصار إلى العموم، و يقال: تلك الكلمات هى جميع ما ذكر هنا، فإن هذا يستلزم تفسير كلام اللّه بالضعيف، و المتناقض، و ما لا- تقوم به الحجة. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قالَ: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً يقتدى بدينك، و هديك، و سنتك قالَ: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي إماما لغير ذريتى قالَ: لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ أن يقتدى بدينهم، و هديهم، و سنتهم-. و أخرج الفريابى، و ابن أبى حاتم عنه قال: قال اللّه لإبراهيم: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي فأبى أن يفعل، ثم قال: لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة قال: هذا عند اللّه يوم القيامة؛ لا ينال عهده ظالما، فأما فى الدنيا فقد نالوا عهده، فوارثوا به المسلمين و غازوهم و ناكحوهم، فلمّا كان يوم القيامة قصر اللّه عهده و كرامته على أوليائه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى تفسير الآية أنه قال: لا أجعل إماما ظالما يقتدى به. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: يخبره أنه إن كان فى ذريته ظالم لا ينال عهده، و لا ينبغى له أن يوليه شيئا من أمره. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عنه أنه قال: ليس لظالم عليك عهد فى معصية اللّه. و قد أخرج وكيع، و ابن مردويه من حديث على عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ قال: لا طاعة إلا فى المعروف. و إسناده عند ابن مردويه هكذا:

قال: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبد اللّه بن سعد الأسدى، حدثنا سليم بن سعيد الدامغانى، حدثنا وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن علىّ، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج عبد بن حميد من حديث عمران بن حصين، سمعت النبىّ يقول: «لا طاعة لمخلوق فى معصية اللّه» و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية: ليس للظالم عهد، و إن عاهدته فانقضه.

قال ابن كثير: و روى عن مجاهد و عطاء و مقاتل و ابن حبان نحو ذلك. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً قال: يثوبون إليه ثم يرجعون. و أخرج ابن جرير عنه أنه قال: لا يقضون منه وطرا يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه. و أخرج عبد الرزاق، و عبد ابن حميد، و ابن جرير، و البيهقى عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: وَ أَمْناً قال: أمنا للناس. و أخرج البخارى و غيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال:

وافقت ربى فى ثلاث، أو وافقنى ربى فى ثلاث، قلت: يا رسول اللّه! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى «١» و قلت: يا رسول اللّه! إن نساءك يدخل عليهنّ البرّ و الفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب- و اجتمع على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نساؤه فى الغيرة، فقلت لهنّ: عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَ «٢» فنزلت كذلك. و أخرج مسلم و غيره مختصرا من حديث ابن عمر عنه. و أخرج مسلم و غيره من حديث جابر «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم رمل ثلاثة أشواط

---

(١). البقرة: ١٢٥.

(٢). التحريم: ٥.

و مشى أربعا، حتّى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خلفه ركعتين، ثم قرأ: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى و فى مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة فى الأمهات و غيرها، و الأحاديث الصحيحة تدل على: أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه، كما فى البخارى من حديث ابن عباس،

و هو الذى كان ملصقا بجدار الكعبة.

و أوّل من نقله عمر بن الخطاب، كما أخرجه عبد الرزاق، و البيهقى بإسناد صحيح، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، من طرق مختلفة. و أخرج ابن أبى حاتم من حديث جابر فى وصف حجّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لمّا طاف النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال له عمر: هذا مقام إبراهيم؟ قال: نعم». و أخرج نحوه ابن مردويه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢٥ الى ١٢٨]

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)

قوله: عَهِدْنا معناه هنا: أمرنا أو أوجبنا. و قوله: أَنْ طَهِّرا فى موضع نصب بنزع الخافض، أى: بأن طهرا، قاله الكوفيون؛ و قال سيبويه: هو بتقدير أى المفسرة، أى: أن طهرا، فلا موضع لها من الإعراب، و المراد بالتطهير: قيل: من الأوثان؛ و قيل: من الآفات و الريب؛ و قيل: من الكفار؛ و قيل:

من النجاسات، و طواف الجنب، و الحائض، و كل خبيث. و الظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع، و أن كل ما يصدق عليه مسمّى التطهير فهو يتناوله إما تناولا شموليا أو بدليا، و الإضافة فى قوله: بَيْتِيَ للتشريف و التكريم. و قرأ الحسن، و ابن أبى إسحاق، و أهل المدينة، و هشام، و حفص: بَيْتِيَ بفتح الياء، و قرأ الآخرون بإسكانها. و الطائف: الذى يطوف به؛ و قيل: الغريب الطارئ على مكة. و العاكف:

المقيم، و أصل العكوف فى اللغة: اللزوم و الإقبال على الشىء؛ و قيل: هو المجاور دون المقيم من أهلها. و المراد بقوله: الرُّكَّعِ السُّجُودِ المصلّون، و خص هذين الركنين بالذكر لأنهما أشرف أركان الصلاة. و قوله: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ ستأتى الأحاديث الدالة على أن إبراهيم هو الذى حرّم مكة، و الأحاديث الدالة على أن اللّه حرّمها يوم خلق السموات و الأرض، و الجمع بين هذه الأحاديث فى هذا البحث. و قوله: بَلَداً آمِناً أى: مكة؛ و المراد: الدعاء لأهله من ذريته و غيرهم كقوله: عِيشَةٍ راضِيَةٍ* «١» أى: راض صاحبها.

و قوله: مَنْ آمَنَ بدل من قول أهله، أى: ارزق من آمن من أهله دون من كفر. و قوله: وَ مَنْ كَفَرَ الظاهر أن هذا من كلام اللّه سبحانه ردّ على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم، أى:

و أرزق من كفر، فأمتّعه بالرزق قليلا، ثم أضطره إلى عذاب النار؛ و يحتمل أن يكون كلاما مستقلا بيانا لحال من كفر، و يكون فى حكم الإخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية؛ أى: من كفر فإنى أمتعه

---

(١). الحاقة: ٢١.

فى هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق ثُمَّ أَضْطَرُّهُ بعد هذا التمتيع إِلى عَذابِ النَّارِ فأخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير إلا تمتيعهم فى هذه الدنيا، و ليس لهم بعد ذلك إلا ما هو شرّ محض، و هو عذاب النار؛ و أما على قراءة من قرأ: فَأُمَتِّعُهُ بصيغة الأمر

و كـذلك له: ثُمَّ أَضْـطَرُّهُ بصـيغة الأمر، فهى مبنيـة على أن ذلك من جملـة كلام إبراهيم، و أنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالإمتاع قليلا، ثم دعا عليهم بأن يضطرهم إلى عذاب النار. و معنى: أَضْطَرُّهُ ألزمه حتى صيّره مضطرا لذلك لا يجد عنه مخلصا، و لا منه متحوّلا. و قوله: وَ إِذْ يَرْفَعُ هو حكاية لحال ماضية استحضارا لصورتها العجيبة.

و القواعـد: الأسـاس، قـاله أبو عبيـدة و الفرّاء. و قـال الكسـائى: هى الجـدر. و المراد برفعهـا: رفع مـا هو مبنىّ فوقها، لا رفعها فى نفسـها، فإنهـا لم ترتفع، لكنهـا لمـا كانت متصلـة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعـة بارتفاعه، كما يقال: ارتفع البناء، و لا يقال: ارتفع أعالى البناء، و لا أسافله. و قوله: رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا فى محل الحال بتقدير القول، أي: قائلين: ربنا. و قرأ أبيّ و ابن مسـعود: «و إذ يرفع إبراهيم القواعـد من البيت و إسـماعيل و يقولاـن ربنـا تقبل». و قوله: وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ أى: اجعلنا ثابتين عليه، أو زدنـا منه. قيـل المراد بالإسـلام هنـا: مجموع الإيمـان و الأعمـال. و قوله: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أي: و اجعل من ذريتنا، و «من» للتبعيض أو للتبيين. و قال ابن جرير: إنه أراد بالذرية: العرب خاصة، و كذا قال السهيلى.

قال ابن عطيـة: و هذا ضـعيف؛ لأن دعوته ظهرت فى العرب و غيرهـم من الذين آمنوا به. و الأمة: الجماعة فى هذا الموضع؛ و قد تطلق على الواحـد، و منه قوله تعـالى: إِنَّ إِبْراهِيمَ كـانَ أُمَّةً قانِتاً «١» و تطلق على الـدين و منه: إِنَّا وَجَـدْنا آباءَنـا عَلى أُمَّةٍ* «٢» و تطلق على الزمان، و منه: وَ ادَّكَرَ بَعْـدَ أُمَّةٍ «٣» و قوله: وَ أَرِنا مَناسِـكَنا هى من الرؤية البصـرية. و قرأ عمر بن عبد العزيز، و قتادة، و ابن كثير، و ابن محيصن، و غيرهـم:

«أرنا» بسكون الراء، و منه قول الشاعر:

أرنا إداوة عبد اللّه نملؤهامن ماء زمزم إنّ القوم قد ظمئوا

و المناسك: جمع نسك، و أصله فى اللغة: الغسل، يقال نسك ثوبه: إذا غسله. و هو فى الشرع: اسم للعبادة؛ و المراد هنا مناسك الحـج؛ و قيل: مواضع الذبـح، و قيل: جميع المتعبـدات. و قوله: وَ تُبْ عَلَيْنا قيل المراد بطلبهما للتوبـة: التثبيت. لأنهما معصومان لا ذنب لهما؛ و قيل المراد: تب على الظلمة منا.

و قـد أخرج ابن جرير عن عطاء قـال: وَ عَهِـدْنا إِلى إِبْراهِيمَ أى: أمرنـاه. و أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن عباس فى قوله: أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ قال: من الأوثان. و أخرج أيضا عن مجاهد، و سـعيد بن جبير مثله، و زادوا: الريب، و قول الزور، و الرجس. و أخرج عبد بن حميـد، و ابن جرير عن قتـادة نحوه. و أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن عباس قال: إذا كان قائما فهو من الطائفين، و إذا كان جالسـا فهو من العاكفين، و إذا كان مصليا فهو من الركع السجود. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الـذين ينامون فى المسـجد فقال: هم العاكفون. و قـد ثبت عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم أنه قال: «إن إبراهيم حرّم مكة، و إنى حرّمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يصاد صيدها و لا يقطع عضاهها» كما أخرجه أحمد، و مسلم، و النسائى،

---

(١). النحل: ١٢٠.

(٢). الزخرف: ٢٢.

(٣). يوسف: ۴۵.

و غيرهم من حديث جابر. و قد روى هذا المعنى عن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم من طريق جماعة من الصـحابة، منهـم: رافع ابن خديج عند مسـلم و غيره، و منهم: أبو قتادة عند أحمد، و منهم: أنس عند الشيخين، و منهم: أبو هريرة عند مسـلم، و منهم: علىّ بن أبى طالب عنـد الطبرانى فى الأوسط، و منهم: أسامـة عن زيـد عند أحمد و البخارى، و منهم: عائشة عند البخارى، و ثبت عن

النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إنّ اللّه حرّم مكّة يوم خلق السّموات و الأرض و هى حرام إلى يوم القيامة» و أخرجه البخارى تعليقا، و ابن ماجة من حديث صفية بنت شيبة. و أخرجه الشيخان و غيرهما من حديث ابن عباس. و أخرجه الشيخان و أهل السنن من حديث أبى هريرة، و فى الباب أحاديث غير ما ذكرنا، و لا تعارض بين هذه الأحاديث، فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن اللّه حرّمها، و أنها لم تزل حرما آمنا، نسب إليه أنه حرّمها، أى: أظهر للناس حكم اللّه فيها، و إلى هذا الجمع ذهب ابن عطية و ابن كثير. و قال ابن جرير: إنها كانت حراما؛ و لم يتعبد اللّه الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم؛ فحرّمها و تعبدهم بذلك. انتهى. و كلا الجمعين حسن. و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم الطائفى قال: بلغنى أنه لما دعا إبراهيم للحرم فقال: وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ نقل اللّه الطائف من فلسطين. و أخرج نحوه ابن أبى حاتم و الأزرقى عن الزهرى. و أخرج نحوه أيضا الأزرقى عن بعض ولد نافع ابن جبير بن مطعم. و قد أخرج الأزرقى نحوه مرفوعا من طريق محمد بن المنكدر. و أخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظى قال: دعا إبراهيم للمؤمنين و ترك الكفار و لم يدع لهم بشىء، قال اللّه: وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ الآية. و أخرج نحوه سفيان بن عيينة عن مجاهد. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ قال: كأنّ إبراهيم احتجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل اللّه:

وَ مَنْ كَفَرَ أيضا فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين؛ أخلق خلقا لا أرزقهم! أمتعهم قليلا ثم اضطرهم إلى عذاب النار، ثم قرأ ابن عباس: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ «١» الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: قال أبىّ بن كعب فى قوله: وَ مَنْ كَفَرَ أن هذا من قول الربّ. و قال ابن عباس:

هذا من قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: القواعد:

أساس البيت، و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و البخارى، و ابن جرير، و غيرهم عن سعيد بن جبير قصة مطوّلة و آخرها فى بناء البيت: قال: فعند ذلك رفع إبراهيم القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة؛ و إبراهيم يبنى؛ حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه و هو يبنى و إسماعيل يناوله الحجارة، و هما يقولان: رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ قال: القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك. و قد أكثر المفسرون فى تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف فى كيفية بناء البيت، و من أى أحجار الأرض بنى؟ و فى أى زمان عرف؟ و من حجّه؟ و ما ورد فيه من الأدلة على فضله، أو فضل بعضه بالحجر الأسود. و فى الدرّ المنثور من ذلك ما لم يكن فى غيره فليرجع إليه، و فى تفسير ابن كثير بعض من ذلك، و لما لم يكن ما ذكروه متعلقا بالتفسير لم نذكره. و أخرج ابن أبى حاتم عن سلام بن أبى مطيع فى هذه الآية:

---

(١). الإسراء: ٢٠.

رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ قال: كانا مسلمين و لكن سألاه الثبات. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبد الكريم، قال: مخلصين. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا قال: يعنيان العرب. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: قال إبراهيم ربّ أرنا مناسكنا، فأتاه جبريل فأتى به البيت فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد، و أتمّ البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به نحو منى، فلما كان عند العقبة فإذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبّر؛ و ارمه، فكبّر؛ و رماه، فذهب إبليس، حتى أتى الجمرة الوسطى ففعل به إبراهيم كما فعل فى الأولى، ثم كذلك فى الجمرة الثالثة، ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات، قال: و قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاثا، قال:

نعم، قال: فأذّن فى الناس بالحج، قال: كيف أؤذن؟ قال: قل يا أيها الناس أجيبوا ربكم ثلاث مرات، فأجاب العباد: لبيك اللهم لبيك، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاجّ.

و أخرج ابن جرير من طريق ابن المسيب عن علىّ قال: فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: قد فعلت أى ربّ! ف أَرِنا مَناسِكَنا أبرزها لنا، علمناها، فبعث اللّه جبريل فحجّ به. و فى الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة و من بعدهم تتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك، و فى أكثرها أن الشيطان تعرّض له كما تقدّم عن مجاهد. و قد أخرج ابن خزيمة، و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس نحو ذلك، و كذلك أخرج عنه أحمد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢٩ الى ١٣٢]

رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٣١) وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

الضمير فى قوله: وَ ابْعَثْ فِيهِمْ راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقا. و قرأ أبىّ و ابعث فى آخرهم و يحتمل أن يكون الضمير راجعا إلى الذرية. و قد أجاب اللّه لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث فى ذريته رَسُولًا مِنْهُمْ و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و قد أخبر عن نفسه بأنه دعوة إبراهيم كما سيأتى تخريج ذلك إن شاء اللّه، و مراده هذه الدعوة. و الرسول: هو المرسل. قال ابن الأنبارى: يشبه أن يكون أصله:

ناقة مرسال و رسلة: إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق. و يقال: جاء القوم أرسالا، أى: بعضهم فى أثر بعض، و المراد بالكتاب: القرآن. و المراد بالحكمة: المعرفة بالدين، و الفقه فى التأويل، و الفهم للشريعة. و قوله: يُزَكِّيهِمْ أى: يطهرهم من الشرك و سائر المعاصى. و قيل: إن المراد بالآيات: ظاهر الألفاظ، و الكتاب: معانيها، و الحكمة: الحكم، و هو مراد اللّه بالخطاب. و العزيز: الذى لا يعجزه شىء، قاله ابن كيسان. و قال الكسائىّ: الْعَزِيزُ: الغالب وَ مَنْ يَرْغَبُ فى موضع رفع على الابتداء، و الاستفهام للإنكار. و قوله: إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ فى موضع الخبر، و قيل: هو بدل من فاعل يرغب،

فتح القدير، ج ١، ص: ١٦٨

و التقدير: و ما يرغب عن ملة إبراهيم أحد إلا من سفه نفسه. قال الزجّاج: سفه بمعنى: جهل، أى: جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها. و قال أبو عبيدة: المعنى: أهلك نفسه. و حكى ثعلب و المبرد: أن سفه بكسر الفاء يتعدّى كسفه بفتح الفاء مشدّدة. قال الأخفش: سَفِهَ نَفْسَهُ أى: فعل بها من السفه ما صار به سفيها؛ و قيل: إن نفسه منتصب بنزع الخافض؛ و قيل: هو تمييز، و هذان ضعيفان جدا. و أما سفه بضم الفاء:

فلا يتعدّى، قاله المبرد و ثعلب. و الاصطفاء: الاختيار، أى: اخترناه فى الدنيا و جعلناه فى الآخرة من الصالحين، فكيف يرغب عن ملته راغب؟. و قوله: إِذْ قالَ لَهُ يحتمل أن يكون متعلقا بقوله:

اصْطَفَيْناهُ أى: اخترناه وقت أمرنا له بالإسلام، و يحتمل أن يتعلق بمحذوف هو: اذكر. قال فى الكشاف: كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت، ليعلم أنه المصطفى الصالح الذى لا يرغب عن ملة مثله، و الضمير فى قوله: وَ وَصَّى بِها راجع إلى الملة، أو إلى الكلمة، أى: أسلمت لرب العالمين. قال القرطبى:

و هو أصوب، لأنه أقرب مذكور، أى: قولوا أسلمنا. انتهى. و الأوّل أرجح؛ لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم

لكلمة الإسلام، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم و أولى بهم. و وصّى و أوصى: بمعنى، و قرئ بهما، و فى مصحف عثمان: و أوصى و هى قراءة أهل الشام و المدينة، و فى مصحف عبد اللّه ابن مسعود: وَ وَصَّى و هى قراءة الباقين وَ يَعْقُوبُ معطوف على إبراهيم، أى: و أوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه. و قرأ عمرو بن فائد الأسوارى، و إسماعيل بن عبد اللّه المكى بنصب يعقوب، فيكون داخلا فيمن أوصاه إبراهيم، قال القشيرى: و هو بعيد لأن يعقوب لم يدرك جدّه إبراهيم؛ و إنما ولد بعد موته.

و قوله: يا بَنِيَ هو بتقدير: أن. و قد قرأ أبىّ، و ابن مسعود، و الضحّاك بإثباتها. قال الفراء: ألغيت أن لأن التوصية كالقول، و كل كلام رجع إلى القول جاز فيه دخول أن و جاز فيه إلغاؤها؛ و قيل: إنه على تقدير القول، أى: قائلا- يا بنىّ. روى ذلك عن البصريين. و قوله: اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ أى: اختاره لكم، و المراد: ملته التى لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، و هى الملة التى جاء بها محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و قوله: فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فيه إيجاز بليغ. و المراد الزموا الإسلام و لا تفارقوه حتى تموتوا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ قال: رغبت اليهود و النصارى عن ملته، و اتخذوا اليهودية و النصرانية بدعة ليست من اللّه، تركوا ملة إبراهيم الإسلام، و بذلك بعث اللّه نبيه محمدا بملة إبراهيم، و أخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ قال: اخترناه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ قال: وصّاهم بالإسلام، و وصّى يعقوب بنيه بمثل ذلك. و أخرج الثعلبى عن فضيل بن عياض فى قوله: فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أى: محسنون بربكم الظنّ.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٣ الى ١٤١]

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)

صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

فتح القدير، ج ١، ص: ١٦٩

قوله: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ أم هذا قيل: هى المنقطعة؛ و قيل: هى المتصلة، و فى الهمزة الإنكار المفيد للتقريع و التوبيخ، و الخطاب لليهود و النصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم و إلى بنيه أنهم على اليهودية و النصرانية.

فردّ اللّه ذلك عليهم و قال لهم: أشهدتم يعقوب و علمتم بما أوصى به بنيه فتدّعون ذلك عن علم، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون. و الشهداء: جمع شاهد، و لم ينصرف لأن فيه ألف التأنيث التى لتأنيث الجماعة، و العامل فى إِذْ الأولى: معنى الشهادة، و

إذ الثانية: بدل من الأولى، و المراد بحضور الموت: حضور مقدماته، و إنما جاء ب: ما دون من فى قوله: ما تَعْبُدُونَ لأن المعبودات من دون اللّه غالبها جمادات كالأوثان و النار و الشمس و الكواكب. و معنى مِنْ بَعْدِي أى: من بعد موتى. و قوله: إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ عطف بيان لقوله آبائِكَ و إسماعيل و إن كان عمّا ليعقوب؛ لأن العرب تسمى العمّ أبا و قوله: إِلهاً بدل من إلهك؛ و إن كان نكرة؛ فذلك جائز، و لا سيما بعد تخصيصه بالصفة التى هى قوله: واحِداً فإنه قد حصل المطلوب من الإبدال بهذه الصفة. و قيل: إن إلها: منصوب على الاختصاص؛ و قيل: إنه حال. قال ابن عطية: و هو قول حسن، لأن الغرض الإثبات حال الوحدانية.

و قرأ الحسن، و يحيى بن يعمر، و أبو رجاء العطاردى: و إله أبيك فقيل: أراد إبراهيم وحده. و يكون قوله: وَ إِسْماعِيلَ عطفا على أبيك، و كذلك: إِسْحاقَ و إن كان هو أباه حقيقة و إبراهيم جدّه، و لكن لإبراهيم مزيد خصوصية؛ و قيل إن قوله أبيك: جمع، كما روى عن سيبويه أن: أبين، جمع سلامة، و مثله: أبون، و منه قول الشاعر:

فلمّا تبيّن أصواتنابكين و فدّيننا بالأبينا

و قوله: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ جملة حالية، أى: نعبده حال إسلامنا له، و جوز الزمخشرى أن تكون اعتراضية على ما يذهب إليه من جواز وقوع الجمل الاعتراضية آخر الكلام. و الإشارة بقوله: تِلْكَ

فتح القدير، ج ١، ص: ١٧٠

إلى إبراهيم و بنيه؛ و يعقوب و بنيه و أُمَّةٌ بدل منه، و خبره قَدْ خَلَتْ أو أمة: خبره، و قد خلت:

نعت لأمة، و قوله: لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ بيان لحال تلك الأمة؛ و حال المخاطبين؛ بأن لكل من الفريقين كسبه، لا ينفعه كسب غيره و لا يناله منه شىء، و لا يضرّه ذنب غيره، و فيه الردّ على من يتكل على عمل سلفه، و يروّح نفسه بالأمانى الباطلة، و منه ما ورد فى الحديث «من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه» و المراد: أنكم لا تنتفعون بحسناتهم، و لا تؤاخذون بسيئاتهم، و لا تسألون عن أعمالهم، كما لا يسألون عن أعمالكم، و مثله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «١» وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى «٢». و لما ادّعت اليهود و النصارى أن الهداية بيدها؛ و الخير مقصور عليها؛ ردّ ذلك عليهم بقوله: بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ أى: قل يا محمد هذه المقالة، و نصب ملة بفعل مقدر، أى: نتبع؛ و قيل التقدير:

نكون ملة إبراهيم، أى: أهل ملته؛ و قيل: بل نهتدى بملة إبراهيم، فلما حذف حرف الجر صار منصوبا.

و قرأ الأعرج، و ابن أبى عبلة: «ملة» بالرفع: أى: بل الهدى ملة إبراهيم. و الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، و هو فى أصل اللغة: الذى تميل قدماه كل واحدة إلى أختها. قال الزجّاج: و هو منصوب على الحال، أى: نتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفا. و قال علىّ بن سليمان: هو منصوب بتقدير أعنى، و الحال خطأ؛ كما لا يجوز: جاءنى غلام هند مسرعة. و قال فى الكشاف: هو حال من المضاف إليه، كقولك: رأيت وجه هند قائمة، و قال قوم: الحنف: الاستقامة، فسمّى دين إبراهيم حنيفا لاستقامته، و سمّى معوج الرجلين: أحنف، تفاؤلا بالاستقامة، كما قيل للديغ: سليم، و للمهلكة: مفازة. و قد استدل من قال بأن الحنيف فى اللغة المائل لا المستقيم بقول الشاعر:

إذا حوّل الظّل العشىّ رأيتهحنيفا و فى قرن الضّحى يتنصّر

أى: أن الحرباء تستقبل القبلة بالعشىّ، و تستقبل المشرق بالغداة، و هى قبلة النصارى، و منه قول الشاعر:

و اللّه لو لا حنف فى رجلهما كان فى رجالكم من مثله

و قوله: وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فيه تعريض باليهود لقولهم- عزير ابن اللّه- و بالنصارى لقولهم- المسيح ابن اللّه- أى: أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التى أنتم عليها من الشرك باللّه، فكيف تدّعون عليه أنه كان على اليهودية أو النصرانية؟ و قوله:

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ خطاب للمسلمين، و أمر لهم بأن يقولوا هذه المقالة؛ و قيل: إنه خطاب للكفار؛ بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق، و الأول أظهر.

و الأسباط: أولاد يعقوب، و هم اثنا عشر ولدا، و لكل واحد منهم من الأولاد جماعة، و السّبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى العرب، و سمّوا الأسباط من السبط؛ و هو التتابع، فهم جماعة متتابعون؛ و قيل: أصله من السبط بالتحريك و هو الشجر، أى: هم فى الكثرة بمنزلة الشجر؛ و قيل: الأسباط: حفدة يعقوب، أى:

أولاد أولاده لا أولاده، لأن الكثرة إنما كانت فيهم دون أولاد يعقوب فى نفسه، فهم أفراد لا أسباط. و قوله:

---

(١). الأنعام: ١۶۴.

(٢). النجم: ٣٩.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٧١

لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ قال الفرّاء: معناه: لا نؤمن ببعضهم و نكفر ببعضهم كما فعلت اليهود و النصارى. قال فى الكشاف: و أحد: فى معنى الجماعة، و لذلك صحّ دخول بين عليه. و قوله: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ هذا الخطاب للمسلمين أيضا، أى: فإن آمن أهل الكتاب و غيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب اللّه و رسله؛ و لم يفرّقوا بين أحد منهم؛ فقد اهتدوا، و على هذا: فمثل زائدة، كقوله:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «١» و قول الشاعر:

فصيّروا مثل كعصف مأكول و قيل: إن المماثلة وقعت بين الإيمانين، أى: فإن آمنوا بمثل إيمانكم. و قال فى الكشاف: إنه من باب التبكيت، لأن دين الحقّ واحد لا مثل له؛ و هو دين الإسلام، قال: أى: فإن حصلوا دينا آخر مثل دينكم مساويا له فى الصحة و السّداد فقد اهتدوا؛ و قيل: إن الباء زائدة مؤكدة؛ و قيل: إنها للاستعانة. و الشقاق أصله من الشق و هو الجانب، كأنّ كل واحد من الفريقين فى جانب غير الجانب الذى فيه الآخر؛ و قيل:

إنه مأخوذ من فعل ما يشقّ و يصعب، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه، و يصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين، و كذلك قول الشاعر:

و إلّا فاعلموا أنّا و أنتم بغاة ما بقينا فى شقاق

و قول الآخر:

إلى كم تقتل العلماء قسراو تفجر بالشّقاق و بالنّفاق

و قوله: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وعد من اللّه تعالى لنبيه أنه سيكفيه من عانده و خالفه من المتولين، و قد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة و النضير و بنى قينقاع. و قوله: صِبْغَةَ اللَّهِ قال الأخفش و غيره:

أى: دين اللّه، قال: و هى منتصبة على البدل من ملة. و قال الكسائى: هى منصوبة على تقدير اتبعوا، أو على الإغراء، أى: الزموا، و رجّح الزجاج الانتصاب على البدل من ملة، كما قاله الفراء. و قال فى الكشاف:

إنها مصدر مؤكد منتصب عن قوله: آمَنَّا بِاللَّهِ كما انتصب- وعد اللّه- عما تقدّمه؛ و هى فعلة من صبغ، كالجلسة من جلس، و هى الحالة التى يقع عليها الصبغ، و المعنى: تطهير اللّه، لأن الإيمان تطهير النفوس. انتهى، و به قال سيبويه، أى: كونه مصدرا مؤكدا. و قد ذكر المفسرون: أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء، و هو الذى يسمّونه: المعمودية، و يجعلون ذلك تطهيرا لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا، فردّ اللّه عليهم بقوله: صِبْغَةَ اللَّهِ أى: الإسلام، و سمّاه

صبغة:

استعارة، و منه قول بعض شعراء همدان:

و كلّ أناس لهم صبغةو صبغة همدان خير الصّبغ

صبغنا على ذاك أولادنافأكرم بصبغتنا فى الصّبغ

---

(١). الشورى: ١١.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٧٢

و قيل: إن الصبغة: الاغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام بدلا من معمودية النصارى، ذكره الماوردى.

و قال الجوهرى: صبغة اللّه: دينه، و هو يؤيد ما تقدم عن الفرّاء؛ و قيل: الصبغة: الختان. و قوله: قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ أى: أ تجادلوننا فى اللّه، أى: فى دينه و القرب منه و الحظوة عنده، و ذلك كقولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «١» و قرأ ابن محيصن: أ تحاجّونّا بالإدغام لاجتماع المثلين. و قوله: وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ أى: نشترك نحن و أنتم فى ربوبيته لنا و عبوديتنا له، فكيف تدّعون أنكم أولى به منا و تحاجوننا فى ذلك. و قوله: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ أى: لنا أعمال و لكم أعمال، فلستم بأولى باللّه منا، و هو مثل قوله تعالى: فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ «٢».

و قوله: وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أى: نحن أهل الإخلاص للعبادة دونكم، و هو المعيار الذى يكون به التفاضل و الخصلة التى يكون صاحبها أولى باللّه سبحانه من غيره، فكيف تدّعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم و أحق؟

و فيه توبيخ لهم و قطع لما جاءوا به من المجادلة و المناظرة. و قوله: أَمْ يَقُولُونَ* قرأ حمزة و الكسائى و عاصم فى رواية حفص تَقُولُونَ بالتاء الفوقية، و على هذه القراءة تكون أم هاهنا معادلة للهمزة فى قوله:

أَ تُحَاجُّونَنا أى: أ تحاجوننا فى اللّه أم تقولون إن هؤلاء الأنبياء على دينكم؛ و على قراءة الياء التحتية تكون أم: منقطعة، أى: بل يقولون: و قوله: قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ فيه تقريع و توبيخ، أى: أن اللّه أخبرنا بأنهم لم يكونوا هودا و لا نصارى، و أنتم تدّعون أنهم كانوا هودا و نصارى، فهل أنتم أعلم أم اللّه سبحانه؟

و قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ استفهام، أى: لا أحد أظلم مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ يحتمل أن يريد بذلك الذّم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هودا و لا نصارى، بل كانوا على الملة الإسلامية، فظلموا أنفسهم بكتمهم لهذه الشهادة، بل بادّعائهم لما هو مخالف لها، و هو أشدّ فى الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذى لا أحد أظلم منه؛ و يحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم، و يكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب؛ و قيل: المراد هنا ما كتموه من صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلم.

و فى قوله: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ و عيد شديد، و تهديد ليس عليه مزيد، و إعلام بأن اللّه سبحانه لا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح و الذنب الفظيع، و كرّر قوله سبحانه: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ إلى آخر الآية لتضمنها معنى التهديد و التخويف الذى هو المقصود فى هذا المقام.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ يعنى: أهل الكتاب. و أخرج أيضا عن الحسن فى قوله: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ قال: يقول: لم يشهد اليهود و لا النصارى و لا أحد من الناس يعقوب إذ أخذ على بنيه الميثاق إذ حضره الموت أن لا تعبدوا إلا اللّه، فأقرّوا بذلك و شهد عليهم أن قد أقرّوا بعبادتهم أنهم مسلمون. و أخرج عن ابن عباس أنه كان يقول: الجدّ: أب و يتلو الآية. و أخرج أيضا عن أبى العالية فى الآية قال: سمّى العمّ أبا. و أخرج أيضا نحوه عن محمد بن كعب. و أخرج ابن

إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال عبد اللّه بن صوريا الأعور للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلم:

ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، و قالت النصارى مثل هذا، فأنزل اللّه فيهم: وَ قالُوا كُونُوا هُوداً

---

(۱). المائدة: ۱۸.

(۲). يونس: ۴۱.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۷۳

الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: حَنِيفاً قال: متبعا. و أخرجا أيضا عن ابن عباس فى قوله: حَنِيفاً قال: حاجّا. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال:

الحنيف: المستقيم. و أخرج أيضا خصيف قال: الحنيف: المخلص. و أخرج أيضا عن أبى قلابة قال: الحنيف:

الذى يؤمن بالرسل كلهم من أوّلهم إلى آخرهم. و أخرج أحمد عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «بعثت بالحنيفيّة السّمحة». و أخرج أحمد أيضا، و البخارى فى الأدب المفرد، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: «قيل: يا رسول اللّه! أىّ الأديان أحب إلى اللّه؟ قال: الحنيفية السمحة». و أخرج الحاكم فى تاريخه، و ابن عساكر من حديث أسعد بن عبد اللّه بن مالك الخزاعى مرفوعا مثله. و أخرج أحمد، و مسلم، و أبو داود، و النسائى عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى منهما الآية التى فى البقرة: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ «۱» كلها و فى الآخرة آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «۲». و أخرج البخارى من حديث أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «لا تصدّقوا أهل الكتاب و لا تكذّبوهم و قولوا آمنّا باللّه» الآية. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الأسباط: بنو يعقوب كانوا اثنى عشر رجلا كل واحد منهم ولد أمة من الناس. و روى نحوه ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّى، و حكاه ابن كثير فى تفسيره عن أبى العالية و الربيع و قتادة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس قال: لا تقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإن اللّه لا مثل له، و لكن قولوا: فإن آمنوا بالذى آمنتم به. و أخرج ابن أبى داود فى المصاحف، و الخطيب فى تاريخه عن أبى حمزة قال: كان ابن عباس يقرأ: فإن آمنوا بالذى آمنتم به و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ قال: فراق. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: صِبْغَةَ اللَّهِ قال: دين اللّه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد قال:

فطرة اللّه التى فطر الناس عليها. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ بنى إسرائيل قالوا: يا موسى! هل يصبغ ربّك؟ فقال: اتّقوا اللّه، فناداه ربّه: يا موسى! سألوك هل يصبغ ربّك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان الأحمر و الأبيض و الأسود، و الألوان كلّها فى صبغتى».

و أنزل اللّه على نبيه: صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس موقوفا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة قال: إن اليهود تصبغ أبناءها يهودا، و النصارى تصبغ أبناءها نصارى، و إن صبغة اللّه الإسلام، و لا صبغة أحسن من صبغة الإسلام و لا أطهر، و هو دين اللّه الذى بعث به نوحا و من كان بعده من الأنبياء. و أخرج ابن النجار فى ذيل تاريخ بغداد عن ابن عباس فى قوله: صِبْغَةَ اللَّهِ قال: البياض. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

أَ تُحَاجُّونَنا قال: أ تخاصموننا. و أخرج ابن جرير عنه قال: أ تجادلوننا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ مَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً الآيهٔ، قال: أولئک أهل الکتاب کتموا الإسلام و هم یعلمون أنه دین اللّه، و اتخذوا الیهودیهٔ و النصرانیهٔ، و کتموا محمدا و هم یعلمون أنه رسول اللّه. و أخرج عبد

---

(١). البقرهٔ: ١٣۶.

(٢). آل عمران: ۵٢.

فتح القدیر، ج ١، ص: ١٧۴

ابن حمید، و ابن جریر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جریر عن الحسن نحوه. و أخرج ابن جریر عن قتادهٔ و الربیع فی قوله: تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ قال: یعنی: إبراهیم و إسماعیل و إسحاق و یعقوب و الأسباط.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١۴٢ الى ١۴٣]

سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١۴٢) وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ وَ إِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (١۴٣)

قوله: سَيَقُولُ هذا إخبار من اللّه سبحانه لنبیه صلّی اللّه علیه و سلّم و للمؤمنین؛ بأن السفهاء من الیهود و المنافقین سیقولون هذه المقالهٔ عند أن تتحول القبلهٔ من بیت المقدس إلی الکعبهٔ. و قیل: إن سَيَقُولُ بمعنی قال، و إنما عبر عن الماضی بلفظ المستقبل للدلالهٔ علی استدامته و استمراره علیه، و قیل: إن الإخبار بهذا الخبر کان قبل التحول إلی الکعبهٔ، و أن فائدهٔ ذلک أن الإخبار بالمکروه إذا وقع قبل وقوعه کان فیه تهوینا لصدمته، و تخفیفا لروعته، و کسرا لسورته. و السفهاء: جمع سفیه. و هو الکذّاب البهّات المعتمد خلاف ما یعلم، کذا قال بعض أهل اللغهٔ. و قال فی الکشاف: هم خفاف الأحلام، و مثله فی القاموس. و قد تقدم فی تفسیر قوله:

إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ «١» ما ینبغی الرجوع إلیه؛ و معنی: ما وَلَّاهُمْ ما صرفهم عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها و هی بیت المقدس، فردّ اللّه علیهم بقوله: قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فله أن یأمر بالتوجه إلی أی جههٔ شاء. و فی قوله: يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إشعار بأن تحویل القبلهٔ إلی الکعبهٔ من الهدایهٔ للنبی صلّی اللّه علیه و سلم لأهل ملته إلی الصراط المستقیم. و قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أی: مثل ذلک الجعل جعلناکم؛ قیل معناه:

و کما أن الکعبهٔ وسط الأرض کذلک جعلناکم أمهٔ وسطا. و الوسط: الخیار أو العدل، و الآیهٔ محتملهٔ للأمرین، و ما یحتملهما قول زهیر:

هم وسط یرضی الأنام بحکمهمإذا نزلت إحدی اللّیالی بمعظم

و مثله قول الآخر:

أنتم أوسط حیّ علموابصغیر الأمر أو إحدی الکبر

و قد ثبت عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم تفسیر الوسط هنا بالعدل کما سیأتی، فوجب الرجوع إلی ذلک، و منه قول الراجز:

لا تذهبنّ فی الأمور فرطالا تسألنّ إن سألت شططا

و کن من النّاس جمیعا وسطا و لما کان الوسط مجانبا للغلو و التقصیر کان محمودا؛ أی: هذه الأمهٔ لم تغل غلوّ النصاری فی

عیسی،

(۱). البقرة: ۱۳۰.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۷۵

و لا قصّروا تقصير اليهود فی أنبيائهم. و يقال: فلان أوسط قومه و واسطتهم، أی: خيارهم. و قوله:

لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ أی: يوم القيامة تشهدون للأنبياء على أممهم أنهم قد بلغوهم ما أمرهم اللّه بتبليغه إليهم، و يكون الرسول شهيدا على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمره بتبليغه إليهم، و مثله قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «۱»؛ قيل: إن قوله: عَلَيْكُمْ يعنی: لكم، أی: يشهد لهم بالإيمان؛ و قيل: معناه: يشهد عليكم بالتبليغ لكم. قال فی الكشاف: لما كان الشهيد كالرقيب و المهيمن على المشهود له جیء بكلمة الاستعلاء، و منه قوله تعالى: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «۲» كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «۳» انتهى. و قالت طائفة: معنى الآية: يشهد بعضكم على بعض بعد الموت؛ و قيل: المراد: لتكونوا شهداء على الناس فی الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول.

و سيأتی من المرفوع ما يبين معنى الآية إن شاء اللّه؛ و إنما أخر لفظ عَلَى فی شهادة الأمة على الناس، و قدّمها فی شهادة الرسول عليهم، لأن الغرض كما قال صاحب الكشاف فی الأوّل: إثبات شهادتهم على الأمم، و فی الآخر: اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم. و قوله: وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها قيل:

المراد بهذه القبلة هی بيت المقدس؛ أی: ما جعلناها إلا لنعلم المتبع و المنقلب، و يؤيده هذا قوله: كُنْتَ عَلَيْها إذا كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة؛ و قيل: المراد: الكعبة، أی: ما جعلنا القبلة التی أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس إلا لذلك الغرض، و يكون كُنْتَ بمعنى الحال؛ و قيل:

المراد بذلك: القبلة التی كان عليها قبل استقبال بيت المقدس، فإنه كان يستقبل فی مكة الكعبة، ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفا لليهود ثم صرف إلى الكعبة. و قوله: إِلَّا لِنَعْلَمَ قيل: المراد بالعلم هنا:

الرؤية؛ و قيل: المراد: إلّا لتعلموا أنا نعلم بأن المنافقين كانوا فی شك؛ و قيل: ليعلم النبیّ، و قيل: المراد:

لنعلم ذلك موجودا حاصلا، و هكذا ما ورد معللا بعلم اللّه سبحانه لا بدّ أن يؤول بمثل هذا، كقوله:

وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ «۴» و قوله: وَ إِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً أی: ما كانت إلا كبيرة، كما قال الفراء فی أن و إن: أنهما بمعنى ما و إلا. و قال البصريون: هی الثقيلة خففت، و الضمير فی كانت:

راجع إلى ما يدل عليه قوله: وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها من التحويلة، أو التولية، أو الجعلة، أو الردّة، ذكر معنى ذلك الأخفش، و لا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة، أی: و إن كانت القبلة المتصفة بأنك كنت عليها لكبيرة إلا على الذين هداهم اللّه للإيمان، فانشرحت صدورهم لتصديقك، و قبلت ما جئت به عقولهم، و هذا الاستثناء مفرغ؛ لأن ما قبله فی قوّة النفی، أی: أنها لا تخفّ و لا تسهل إلا على الذين هدى اللّه. و قوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ قال القرطبی: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات و هو يصلی إلى بيت المقدس، ثم قال: فسمّی الصلاة إيمانا لاجتماعها على نية و قول و عمل؛ و قيل: المراد: المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة، و عدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم. و الأول يتعين القول به، و المصير إليه؛ لما سيأتی من تفسيره صلّى اللّه عليه و سلّم للآية بذلك. و الرؤوف: كثير الرأفة، و هی أشدّ من الرحمة.

قال أبو عمرو بن العلاء: الرأفة أكبر من الرحمة و المعنى متقارب. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع «لروف» بغير

(١). النساء: ٤١.

(٢). المائدة: ١١٧.

(٣). المجادلة: ٦.

(۴). آل عمران: ١۴٠.

همز، و هى لغة بنى أسد، و منه قول الوليد بن عتبة:

و شرّ الغالبين «١» فلا تكنه يقاتل عمّه الرّوف الرّحيما

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن البراء أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان أوّل ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار. و أنه صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، و كان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، و أن أوّل صلاة صلّاها العصر، و صلّى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلّى معه فمرّ على أهل المسجد و هم راكعون فقال: أشهد باللّه لقد صلّيت مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قبل الكعبة، فداروا كما هم قبل البيت، و كانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلّى قبل بيت المقدس و أهل الكتاب، فلما ولّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك، و كان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجال، و قتلوا فلم ندر ما يقول فيهم، فأنزل اللّه: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ و له طرق أخر و ألفاظ متقاربة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس قال: إن أوّل ما نسخ فى القرآن القبلة. و أخرج ابن أبى شيبة، و أبو داود فى ناسخه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يصلى بمكة نحو بيت المقدس و الكعبة بين يديه، و بعد ما تحوّل إلى المدينة ستة عشر شهرا، ثم صرفه إلى الكعبة. و فى الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدّم، و كذلك وردت أحاديث فى الوقت الذى نزل فيه استقبال القبلة، و فى كيفية استدارة المصلين لمّا بلغهم ذلك، و قد كانوا فى الصلاة فلا نطوّل بذكرها. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد، و النسائى، و الترمذى، و صحّحه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن حبان، و الإسماعيلى فى صحيحه، و الحاكم و صحّحه، عن أبى سعيد عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً قال: عدلا. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج أحمد، و البخارى، و الترمذى، و النسائى، و غيرهم عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، و ما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد و أمته» فذلك قوله وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً قال: الوسط العدل، فتدعون؛ فتشهدون له بالبلاغ؛ و أشهد عليكم». و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و النسائى و ابن ماجة عن أبى سعيد نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن جابر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أنا و أمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منّا، و ما من نبىّ كذّبه قومه إلا و نحن نشهد أنه بلّغ رسالة ربه». و أخرج ابن جرير عن أبى سعيد فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ بأن الرسل قد بلغوا وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً بما عملتم. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن أنس قال: مرّوا بجنازة فأثنى

---

(١). فى تفسير القرطبى ١/ ١٥٨: «و شرّ الطّالبين».

عليها خيرا، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «وجبت، وجبت، وجبت، و مروا بجنازة فأثنى عليها شرا، فقال النبى صلّى اللّه عليه و

سلم: وجبت، وجبت، وجبت؛ فسأله عمر فقال: من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، و من أثنيتم عليه شرّا وجبت له النار؛ أنتم شهداء اللّه فى الأرض، أنتم شهداء اللّه فى الأرض، أنتم شهداء اللّه فى الأرض» زاد الحكيم الترمذى ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً الآية. و فى الباب أحاديث منها: عن جابر مرفوعا عند ابن المنذر و الحاكم و صحّحه، و منها عن عمر مرفوعا عند ابن أبى شيبة و أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى، و منها عن أبى زهير الثقفى مرفوعا عند أحمد و ابن ماجة و الطبرانى و الدارقطنى فى الأفراد، و الحاكم فى المستدرك، و البيهقى فى السنن؛ و منها عن أبى هريرة مرفوعا عند ابن جرير و ابن أبى حاتم، و منها عن سلمة بن الأكوع مرفوعا عند ابن أبى شيبة و ابن جرير و الطبرانى. و أخرج ابن جرير عن عطاء فى قوله تعالى: وَ مٰا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهٰا قال: يعنى بيت المقدس إِلاّٰ لِنَعْلَمَ قال: نبتليهم لنعلم من يسلم لأمره. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله:

إِلاّٰ لِنَعْلَمَ قال: لنميز أهل اليقين من أهل الشك وَ إِنْ كٰانَتْ لَكَبِيرَةً يعنى: تحويلها، على أهل الشرك و الريب. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: بلغنى أن ناسا ممن أسلم رجعوا، فقالوا: مرة هاهنا، و مرة هاهنا. و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن حبان، و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال: لما وجّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى القبلة، قالوا: يا رسول اللّه! فكيف بالذين ماتوا و هم يصلّون إلى بيت المقدس فأنزل اللّه وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِيعَ إِيمٰانَكُمْ و قد تقدّم حديث البراء. و فى الباب أحاديث كثيرة، و آثار عن السلف.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٤ الى ١٤٧]

قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمٰاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضٰاهٰا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ حَيْثُ مٰا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ بِكُلِّ آيَةٍ مٰا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ مٰا أَنْتَ بِتٰابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ مٰا بَعْضُهُمْ بِتٰابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

قوله: قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ قال القرطبى فى تفسيره: قال العلماء: هذه الآية مقدّمة فى النزول على قوله: سَيَقُولُ السُّفَهٰاءُ، و معنى قَدْ: تكثير الرؤية، كما قاله صاحب الكشاف، و معنى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ تحوّل وجهك إلى السماء، قاله قطرب. و قال الزجّاج: تقلب عينيك فى النظر إلى السماء، و المعنى متقارب. و قوله: فَلَنُوَلِّيَنَّكَ هو إما من الولاية: أى فلنعطينك ذلك. أو من التولّى:

أى فلنجعلنك متوليا إلى جهتها، و هذا أولى لقوله: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ و المراد بالشطر هنا: الناحية و الجهة، و هو منتصب على الظرفية، و منه قول الشاعر:

فتح القدير، ج ١، ص: ١٧٨ أقول لأمّ زنباع أقيمى صدور العيس شطر بنى تميم

و منه أيضا قول الآخر:

ألا من مبلغ عمرا رسولا و ما تغنى الرّسالة شطر عمرو

و قد يراد بالشطر النصف، و منه «الطّهور شطر الإيمان»، و منه قول عنترة:

إنّى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى و أحمى سائرى بالمنصل

قال ذلك؛ لأن أباه من سادات عبس و أمّه أمة، و يرد بمعنى البعض مطلقا. و لا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا: الكعبة. و قد حكى القرطبى الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعاين، و على أن غير المعاين يستقبل الناحية، و يستدلّ على

ذلـك بمـا يمكنه الاسـتدلال به، و الضـمير فى قـوله: أَنَّهُ الْحَقُّ راجع إلى مـا يـدل عليه الكلاـم من التحوّل إلى جهـة الكعبـة، أو لكونهم قـد علموا من كتبهم أو أنبيائهم أن النسـخ سـيكون فى هـذه الشـريعة فيكون ذلك موجبا عليهم الـدخول فى الإسـلام و متابعـة النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم قوله: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ قـد تقدّم معناه. و قرأ ابن عامر، و حمزة، و الكسائى تعملون: بالمثناة الفوقيـة؛ على مخاطبـة أهل الكتاب، أو أمة محمد صـلّى اللّه عليه و سـلم، و قرأ الباقون: بالياء التحتية. و قوله: وَ لَئِنْ أَتَيْتَ هـذه اللام هى موطئـة للقسم، و التقدير: و اللّه لئن أتيت؛ و قوله: ما تَبِعُوا جواب القسم المقدّر، قال الأخفش و الفرّاء: أجيب لئن: بجواب لو، لأـن المعنى: و لو أتيت، و مثله قوله تعـالى: وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا «١» أى: و لو أرسلنا، و إنمـا قالا هكـذا؛ لأـن لئن هى ضـد لو، و ذلـك أن الأـولى تطلب فى جوابهـا المضـىّ و الوقوع، و لئن تطلب فى جوابها الاسـتقبال. و قال سيبويه: إن معنى لئن يخـالف معنى لو فلا تـدخل إحـداهما على الأخرى، فالمعنى: و لئن أتيت الـذين أوتوا الكتاب بكل آيـة لا يتبعون قبلتك. قال سـيبويه: و معنى وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا: ليظللن، انتهى. و فى هذه الآية مبالغة عظيمة و هى متضمنة التسلية لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم و ترويـح خاطره، لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية، و لا يرجعون إلى الحقّ و إن جاءهم بكل برهان فضـلا عن برهان واحـد و ذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم أو لشـبهة طرأت عليهم، حتى يوازنوا بين ما عندهم و ما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و يقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحقّ، بل كان تركهم للحقّ تمرّدا و عنادا، مع علمهم بأنهم ليسوا على شـىء، و من كان هكـذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبـدا. و قوله: وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ هـذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهى من اللّه سـبحانه لنبيه صـلّى اللّه عليه و سـلم، أى: لا تتبع يا محمـد قبلتهم، و يمكن أن يكون على ظاهره دفعا لأطمـاع أهل الكتاب، و قطعا لما يرجونه من رجوعه صـلّى اللّه عليه و سـلم إلى القبلـة التى كان عليها. و قوله: وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ فيه إخبار بأن اليهود و النصارى مع حرصـهم على متابعة الرسول صـلّى اللّه عليه و سـلّم لما عندهم مختلفون فى دينهم حتى فى هذا الحكم الخاص الذى قصّه اللّه سـبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر فى استقبال قبلته. قال فى الكشاف: و ذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس و النصارى تستقبل مطلع الشمس. انتهى. و قوله: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ إلى آخر الآية، فيه

---

(١). الروم: ٥١.

من التهديـد العظيم و الزجر البليغ ما تقشـعرّ له الجلود و ترجف منه الأفئـدة، و إذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشـريعة الغرّاء و الملة الشـريفة من رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم الذى هو سـيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون و حاشاه من الظالمين، فما ظنك بغيره من أمته، و قد صان اللّه هذه الفرقة الإسـلامية بعد ثبوت قدم الإسـلام و ارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شـىء من هوى أهل الكتاب، و لم تبق إلا دسـيسة شيطانية و وسيلة طاغوتية، و هى ميل بعض من تحمل حجج اللّه إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم إن كان لهم فى الناس دولة، أو كانوا من ذوى الصولة، و هذا الميل ليس بـدون ذلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماء الماء، و البيضة البيضة، و التمرة التمرة؛ و قـد تكون مفسـدة اتباع أهويـة المبتدعـة أشـدّ على هـذه الملـة من مفسـدة اتباع أهويـة أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسـلام، و يظهرون للناس أنهم ينصـرون الدين و يتبعون أحسنه، و هم على العكس من ذلك الضدّ لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة و يدفعونه من شـنعة إلى شنعة، حتى يسلخوه من الدين و يخرجونه منه، و هو يظنّ أنه منه فى الصـميم، و أن الصـراط الذى هو عليه هو الصـراط المستقيم، هذا إن كان فى عداد المقصرين، و من جملة الجاهلين؛ و إن كان من أهل العلم و الفهم المميزين بين الحق و الباطل كان فى اتباعه لأهويتهم ممن أضـله اللّه على علم و ختم

على قلبه، و صار نقمة على عباد اللّه و مصيبة صبها اللّه على المقصرين، لأنهم يعتقدون أنه فى علمه و فهمه لا يميل إلا إلى حق، و لا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله، فيكون عليه إثمه و إثم من اقتدى به إلى يوم القيامة، نسأل اللّه اللطف و السلامة و الهداية
و قوله: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ قيل: الضمير لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم، أى: يعرفون نبوّته. روى ذلك عن مجاهد و قتادة و طائفة من أهل العلم؛ و قيل: يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة بالطريق التى قدّمنا ذكرها، و به قال جماعة من المفسرين، و رجح صاحب الكشاف الأوّل. و عندى أن الراجح الآخر، يدل عليه السياق الذى سيقت له هذه الآيات.
و قوله: لَيَكْتُمُونَ الْحَقَ هو عند أهل القول الأوّل: نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و عند أهل القول الثانى: استقبال الكعبة. و قوله: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول، و يحتمل أن يراد به جنس الحق؛ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ و خبره قوله: مِنْ رَبِّكَ أى: الحقّ: هو الذى من ربك لا من غيره. و قرأ علىّ بن أبى طالب: الحقّ، بالنصب على أنه بدل من الأول، أو منصوب على الإغراء، أى: الزم الحق. و قوله: فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، و الامتراء:
الشك، نهاه اللّه سبحانه عن الشك فى كونه من ربه، أو فى كون كتمانهم الحق مع علمهم، و على الأول هو تعريض للأمة، أى: لا يكن أحد من أمته من الممترين، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يشك فى كون ذلك هو الحق من اللّه سبحانه.
و قد أخرج ابن ماجة عن البراء قال: صلّينا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا، و صرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا صلّى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه فى السماء، و علم اللّه من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة، فصعد جبريل فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم

يتبعه بصره و هو يصعد بين السماء و الأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل اللّه: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: يا جبريل! كيف حالنا فى صلاتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل اللّه:
وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ و أخرجه الطبرانى من حديث معاذ مختصرا لكنه قال: سبعة عشر شهرا.
و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الكبير، و الحاكم و صحّحه عن عبد اللّه بن عمرو فى قوله تعالى: فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها قال: قبلة إبراهيم نحو الميزاب.
و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن البراء فى قوله: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: قبله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه عن علىّ مثله. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير و البيهقى عن ابن عباس قال: شَطْرَهُ نحوه. و أخرج البيهقى عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن أبى العالية قال: شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ تلقاءه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: البيت كله قبلة، و قبلة البيت الباب. و أخرج البيهقى فى سننه عنه مرفوعا قال: البيت قبلة لأهل المسجد، و المسجد قبلة لأهل الحرم، و الحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها و مغاربها من أمتى. و أخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: أنزل ذلك فى اليهود. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ قال: يعنى بذلك القبلة. و أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن جرير عن أبى العالية نحوه. و أخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله: وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ يقول: ما اليهود بتابعى قبلة النصارى، و لا النصارى بتابعى قبلة اليهود. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ قال: اليهود و النصارى يَعْرِفُونَهُ قال: يعرفون رسول اللّه فى كتابهم كما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عنه فى قوله: يَعْرِفُونَهُ أى: يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة. و أخرج ابن

جرير عن الربيع مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ قال: يكتمون محمدا و هم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل. و أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن جرير عن أبى العالية قال: قال اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه و سلم الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ يقول:

لا تكوننّ فى شك يا محمد أن الكعبة هى قبلتك، و كانت قبلة الأنبياء من قبلك.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٨١

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٨ الى ١٥٢]

وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

قوله: وَ لِكُلٍ بحذف المضاف إليه لدلالة التنوين عليه، أى: لكل أهل دين وجهة، و الوجهة فعلة من المواجهة و فى معناها: الجهة و الوجه، و المراد: القبلة، أى: أنهم لا يتبعون قبلتك و أنت لا تتبع قبلتهم وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ إما بحق و إما بباطل، و الضمير فى قوله: هُوَ مُوَلِّيها راجع إلى لفظ كل. و الهاء فى قوله: مُوَلِّيها هى المفعول الأوّل، و المفعول الثانى: محذوف، أى: موليها وجهه. و المعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة صاحب القبلة موليها وجهه، أو لكل منكم يا أمة محمد! قبلة يصلّى إليها من شرق أو غرب أو جنوب أو شمال إذا كان الخطاب للمسلمين، و يحتمل أن يكون الضمير للّه سبحانه و إن لم يجر له ذكر، إذ هو معلوم أن اللّه فاعل ذلك، و المعنى: أن لكل صاحب ملة قبلة اللّه موليها إياه. و حكى الطبرى أن قوما قرءوا: وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ بالإضافة، و نسب هذه القراءة أبو عمرو الدانى إلى ابن عباس. قال فى الكشاف: و المعنى: و كلّ وجهة اللّه موليها فزيدت اللام لتقدم المفعول، كقولك: لزيد ضربت، و لزيد أبوه ضاربه. انتهى. و قرأ ابن عباس و ابن عامر: مولّاها على ما لم يسمّ فاعله. قال الزجاج: و الضمير على هذه القراءة لواحد، أى: و لكل واحد من الناس قبلة الواحد مولاها، أى: مصروف إليها. و قوله:

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أى: إلى الخيرات؛ على الحذف و الإيصال، أى: بادروا إلى ما أمركم اللّه من استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق، و إن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير، كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات؛ و المراد من الاستباق إلى الاستقبال: الاستباق إلى الصلاة فى أول وقتها.

و معنى قوله: أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ أى: فى أىّ جهة من الجهات المختلفة تكونوا يأت بكم اللّه للجزاء يوم القيامة، أو يجعلكم جميعا، و يجعل صلاتكم فى الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة، و قوله: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ كرّر سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة، و للاهتمام به، لأن موضع التحويل كان معتنى به فى نفوسهم؛ و قيل: وجه التكرير: أن النسخ من مظانّ الفتنة و مواطن الشبهة، فإذا سمعوه مرّة بعد أخرى ثبتوا و اندفع ما يختلج فى صدورهم؛ و قيل: إنه كرّر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل: الأولى: ابتغاء مرضاته، و الثانية: جرى العادة الإلهية أن يولى كل أهل ملة و صاحب دعوة جهة يستقلّ بها، و الثالثة: دفع حجج المخالفين فقرن بكل علة معلولها؛ و قيل: أراد بالأول: ولّ وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها، ثم قال: و حيثما كنتم معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة و غيرها؛ فولوا وجوهكم شطره؛ ثم قال: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار، فكان هذا أمرا بالتوجه إلى الكعبة فى جميع المواطن من نواحى الأرض. و

قوله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ قيل:

معناه: لئلا يكون لليهود عليكم حجة؛ إلا للمعاندين منهم القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه، فعلى هذا: المراد بالذين ظلموا: المعاندون من أهل الكتاب؛ و قيل: هم مشركو العرب، و حجتهم:

قولهم: راجعت قبلتنا؛ و قيل معناه: لئلا يكون للناس عليكم حجة لئلا يقولوا لكم: قد أمرتم باستقبال الكعبة و لستم ترونها. و قال أبو عبيدة: إنّ إلا هاهنا بمعنى الواو: أى و الذين ظلموا فهو استثناء بمعنى الواو، و منه

فتح القدير، ج ١، ص: ١٨٢

قول الشاعر:

ما بالمدينة دار غير واحدةدار الخليفة إلّا دار مروانا

كأنه قال: إلا دار الخليفة و دار مروان؛ و أبطل الزجاج هذا القول و قال: إنه استثناء منقطع، أى: لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجون، و معناه: إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له كما تقول: مالك علىّ حجة إلا أن تظلمنى، أى: مالك علىّ حجة البتة و لكنك تظلمنى؛ و سمّى ظلمه: حجة لأن المحتجّ بها سماه حجة و إن كانت داحضة. و قال قطرب: يجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا، فالذين: بدل من الكاف و الميم فى عليكم. و رجّح ابن جرير الطبرى أن الاستثناء متصل، و قال:

نفى اللّه أن يكون لأحد حجة على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه فى استقبالهم الكعبة؛ و المعنى: لا حجة لأحد عليكم؛ إلا الحجة الداحضة حيث قالوا: ما ولاهم، و قالوا: إن محمدا تحيّر فى دينه. و ما توجّه إلى قبلتنا إلا أنا أهدى منه. و غير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودى أو منافق. قال: و الحجة: بمعنى:

المحاجة التى هى المخاصمة و المجادلة، و سمّاها تعالى: حجة، و حكم بفسادها حيث كانت من ظالم. و رجّح ابن عطية أن الاستثناء منقطع كما قال الزجّاج. قال القرطبى: و هذا على أن يكون المراد بالناس: اليهود، ثم استثنى كفار العرب كأنه قال: لكن الذين ظلموا فى قولهم: رجع محمد إلى قبلتنا و سيرجع إلى ديننا كله.

و قوله: فَلا تَخْشَوْهُمْ يريد الناس، أى: لا تخافوا مطاعنهم؛ فإنها داحضة باطلة لا تضركم. و قوله:

وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ معطوف على لِئَلَّا يَكُونَ أى: و لأن أتمّ، قاله الأخفش؛ و قيل: هو مقطوع عما قبله فى موضع رفع بالابتداء، و الخبر مضمر، و التقدير: و لأتمّ نعمتى عليكم عرّفتكم قبلتى، قاله الزجّاج؛ و قيل: معطوف على علة مقدرة، كأنه قيل: و اخشونى لأوفقكم، و لأتمّ نعمتى عليكم. و إتمام النعمة: الهداية إلى القبلة؛ و قيل: دخول الجنة. و قوله: كَما أَرْسَلْنا الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف. و المعنى: و لأتم نعمتى عليكم إتماما مثل ما أرسلنا، قاله الفرّاء، و رجّحه ابن عطية.

و قيل: الكاف فى موضع نصب على الحال؛ و المعنى: و لأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال، و التشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة. و قيل: معنى الكلام على التقديم و التأخير، أى: فاذكرونى كما أرسلنا، قاله الزجّاج. و قوله: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ أمر و جوابه، و فيه معنى المجازاة. قال سعيد بن جبير:

و معنى الآية: اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب و المغفرة، حكاه عنه القرطبى فى تفسيره، و أخرجه عنه عبد ابن حميد، و ابن جرير، و قد روى نحوه مرفوعا كما سيأتى. و قوله: وَ اشْكُرُوا لِي قال الفرّاء: شكر لك و شكرت لك. و الشكر: معرفة الإحسان و التحدّث به، و أصله فى اللغة: الظهور. و قد تقدّم الكلام فيه. و قوله: وَ لا تَكْفُرُونِ نهى؛ و لذلك حذفت نون الجماعة، و هذه الموجودة فى الفعل هى نون المتكلم، و حذفت الياء لأنها رأس آية، و إثباتها حسن فى غير القرآن. و الكفر هنا: ستر النعمة لا التكذيب، و قد تقدّم الكلام فيه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها قال: يعنى

بذلک: أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فى تفسير هذه الآية: صلّوا نحو بيت المقدس مرة، و نحو الكعبة مرة أخرى. و أخرج أبو داود فى ناسخه عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ يقول: لا تغلبنّ على قبلتكم. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ قال: الأعمال الصالحة. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ يقول: فسارعوا فى الخيرات أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً قال:

يوم القيامة. و أخرج ابن جرير من طريق السدّى عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابة قال: لما صرف النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة: تحير على محمد دينه، فتوجه بقبلته إليكم؛ و علم أنكم أهدى منه سبيلا؛ و يوشک أن يدخل فى دينكم، فأنزل اللّه: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ قال: يعنى بذلک أهل الكتاب؛ حين صرف نبى اللّه إلى الكعبة، قالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه و دين قومه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد قال:

حجتهم: قولهم: قد أحبّ قبلتنا. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة و مجاهد فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قال: الذين ظلموا منهم: مشركو قريش؛ أنهم سيحتجون بذلک عليهم، و احتجّوا على نبىّ اللّه بانصرافه إلى البيت الحرام و قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، فأنزل اللّه فى ذلک كله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يعنى محمدا صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يقول: كما فعلت فاذكرونى. و أخرج أبو الشيخ و الديلمى من طريق جويبر عن الضحاک عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ يقول: اذكرونى يا معشر العباد بطاعتى؛ أذكركم بمغفرتى. و أخرج الديلمى و ابن عساكر مثله مرفوعا من حديث أبى هند الدارى و زاد: فمن ذكرنى و هو مطيع فحق على أن أذكره بمغفرتى، و من ذكرنى و هو لى عاص فحق علىّ أن أذكره بمقت. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس: يقول اللّه: ذكرى لكم خير من ذكركم لى. و قد ورد فى فضل ذكر اللّه على الإطلاق و فضل الشكر أحاديث كثيرة.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۷]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۱۵۳) وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ (۱۵۴) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (۱۵۵) الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (۱۵۶) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (۱۵۷)

لما فرغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذكره و شكره، عقب ذلک بإرشادهم إلى الاستعانة بالصبر و الصلاة، فإنّ من جمع بين ذكر اللّه و شكره، و استعان بالصبر و الصلاة على تأدية ما أمر اللّه به، و دفع ما يرد عليه من

المحن فقد هدى إلى الصواب و وفق إلى الخير، و إن هذه المعيۀ التى أوضحها اللّه بقوله: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب. فمن كان اللّه معه لم يخش من الأهوال و إن كانت كالجبال. و أموات و أحياء مرتفعان على أنهما خبران لمحذوفين، أى: لا تقولوا لمن يقتل فى سبيل اللّه هم أموات بل هم أحياء، و لكن لا تشعرون بهذه الحياۀ عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم، لأنكم تحكمون عليها بالموت فى ظاهر الأمر، بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذى هو بالنسبۀ إلى علم اللّه كما يأخذ الطائر فى منقاره من ماء البحر، و ليسوا كذلك فى الواقع، بل هم أحياء فى البرزخ. و فى الآيۀ دليل على ثبوت عذاب القبر، و لا اعتداد بخلاف من خالف فى ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحۀ و دلت عليه الآيات القرآنيۀ، و مثل هذه الآيۀ قوله تعالى: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ «۱». و البلاء أصله: المحنۀ، و معنى نبلوكم: نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على القضاء أم لا؟ و تنكير شىء: للتقليل، أى: بشىء قليل من هذه الأمور. و قرأ الضحّاك بأشياء. و المراد بالخوف: ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدوّ أو غيره. و بالجوع: المجاعۀ التى تحصل عند الجذب و القحط. و بنقص الأموال: ما يحدث فيها بسبب الجوائح و ما أوجبه اللّه فيها من الزكاۀ و نحوها. و بنقص الأنفس: الموت و القتل فى الجهاد. و بنقص الثمرات: ما يصيبها من الآفات، و هو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات و غيرها- و قيل: المراد بنقص الثمرات: موت الأولاد. و قوله: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ أمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يقدر على التبشير. و قد تقدّم معنى البشارۀ. و الصبر أصله الحبس، و وصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبۀ، لأن ذلك تسليم و رضا. و المصيبۀ: واحدۀ المصائب، و هى: النكبۀ التى يتأذّى بها الإنسان و إن صغرت. و قوله: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ فيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين و عصمۀ للممتحنين، فإنها جامعۀ بين الإقرار بالعبوديۀ للّه، و الاعتراف بالبعث و النشور. و معنى الصلوات هنا: المغفرۀ و الثناء الحسن، قاله الزجّاج. و على هذا فذكر الرحمۀ لقصد التأكيد.

و قال فى الكشاف: الصلاۀ: الرحمۀ و التعطف، فوضعت موضع الرأفۀ، و جمع بينها و بين الرحمۀ كقوله:

رأفۀ و رحمۀ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ و المعنى: عليهم رأفۀ بعد رأفۀ و رحمۀ بعد رحمۀ. انتهى. و قيل المراد بالرحمۀ:

كشف الكربۀ و قضاء الحاجۀ. و الْمُهْتَدُونَ قد تقدّم معناه، و إنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع و التسليم.

و أخرج الحاكم و البيهقى فى الدلائل عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: غشى على عبد الرحمن بن عوف فى وجعه غشيۀ ظنوا أنه قد فاضت نفسه فيها، حتى قاموا من عنده و جلّلوه ثوبا، و خرجت أم كلثوم بنت عقبۀ امرأته إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر و الصلاۀ، فلبثوا ساعۀ و هو فى غشيته ثم أفاق.

و أخرج ابن مندۀ فى المعرفۀ عن ابن عباس قال: قتل عمير بن الحمام ببدر، و فيه و فى غيره نزلت: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ الآيۀ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فى طاعۀ اللّه، فى قتال المشركين. و قد وردت أحاديث أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر تأكل من

---

(۱). آل عمران: ۱۶۹.

ثمار الجنۀ. فمنها عن كعب بن مالك مرفوعا عند أحمد و الترمذى و صحّحه و النسائى و ابن ماجۀ. و روى أن أرواح الشهداء تكون على صور طيور بيض، كما أخرجه عبد الرزاق عن قتادۀ قال: بلغنا، فذكر ذلك.

و أخرجه عبد بن حميد، و ابن جرير عنه أيضا بنحوه، و روى أنها على صور طيور خضر، كما أخرجه ابن أبى حاتم و البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى العالية. و أخرجه ابن أبى شيبة فى البعث و النشور عن كعب. و أخرجه هناد بن السرى عن هذيل. و أخرجه عنه عبد الرزاق فى المصنف عن عبد اللّه بن كعب بن مالك مرفوعا.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن عطاء فى قوله: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ قال: هم أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ الآية، قال: أخبر اللّه المؤمنين أن الدنيا دار بلاء و أنه مبتليهم فيها، و أمرهم بالصبر و بشرهم فقال: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ و أخبر أن المؤمن إذا سلّم لأمر اللّه و رجع و استرجع عند المصيبة كتب اللّه له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من اللّه، و الرحمة، و تحقيق سبيل الهدى. و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «من استرجع عند المصيبة جبر اللّه مصيبته، و أحسن عقباه، و جعل له خلفا صالحا يرضاه». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن رجاء بن حيوة فى قوله:

وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ قال: يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا تمرة. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم «أعطيت أمّتى شيئا لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة: إنّا للّه و إنّا إليه راجعون» و قد ورد فى فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة.

[سورة البقرة (٢): آية ١٥٨]

إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

أصل الصَّفا فى اللغة: الحجر الأملس، و هو هنا علم لجبل من جبال مكة معروف، و كذلك الْمَرْوَةَ علم لجبل بمكة معروف، و أصلها فى اللغة: واحدة المرو، و هى الحجارة الصغار التى فيها لين. و قيل: التى فيها صلابة، و قيل: تعم الجميع. قال أبو ذؤيب:

حتّى كأنّى للحوادث مروةبصفا المشقّر كلّ يوم تقرع

و قيل: إنها الحجارة البيض البراقة، و قيل: إنها الحجارة السود. و الشعائر جمع شعيرة، و هى العلامة، أى: من أعلام مناسكه. و المراد بها مواضع العبادة التى أشعرها اللّه إعلاما للناس من الموقف و السعى و المنحر، و منه: إشعار الهدى، أى: إعلامه بغرز حديدة فى سنامه، و منه قول الكميت:

نقتّلهم جيلا فجيلا تراهمشعائر قربان بهم يتقرّب

و حجّ البيت فى اللغة: قصده، و منه قول الشاعر:

فأشهد من عوف حلولا كثيرةيحجّون سبّ الزّبرقان المزعفرا

فتح القدير، ج ١، ص: ١٨٦

و السب: العمامة. و فى الشرع: الإتيان بمناسك الحج التى شرعها اللّه سبحانه. و العمرة فى اللغة: الزيارة. و فى الشرع: الإتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة. و الجناح: أصله من الجنوح، و هو الميل، و منه الجوانح لاعوجاجها. و قوله: يَطَّوَّفَ أصله يتطوف؛ فأدغم. و قرئ: أَنْ يَطَّوَّفَ و رفع الجناح يدل على عدم الوجوب، و به قال أبو حنيفة و أصحابه و الثورى. و حكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول: إنه واجب و ليس بركن و على تاركه دم. و قد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس و ابن الزبير و أنس بن مالك و ابن سيرين. و مما يقوّى دلالة هذه الآية على عدم الوجوب

قوله تعالى فى آخر الآية: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ و ذهب الجمهور إلى أن السعى واجب و نسك من جملة المناسك، و استدلوا بما أخرجه الشيخان و غيرهما عن عائشة: أن عروة قال لها: أ رأيت قول اللّه: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوّف بهما؟ فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختى، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما، و لكنها إنما أنزلت أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها، و كان من أهلّ لها يتحرّج أن يطوّف بالصفا و المروة فى الجاهلية، فأنزل اللّه: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ الآية، قالت عائشة: ثم قد بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. و أخرج مسلم و غيره عنها أنها قالت: لعمرى ما أتمّ اللّه حج من لم يسع بين الصفا و المروة و لا عمرته، لأن اللّه قال: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ و أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «إنّ اللّه كتب عليكم السّعى فاسعوا». و أخرج أحمد فى مسنده، و الشافعى، و ابن المنذر، و ابن قانع، و البيهقى عن حبيبة بنت أبى تجراة قالت: «رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يطوف بين الصفا و المروة و الناس بين يديه، و هو وراءهم يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعى، يدور به إزاره و هو يقول: «اسعوا فإنّ اللّه عزّ و جلّ كتب عليكم السّعى» و هو فى مسند أحمد من طريق شيخه عبد اللّه بن المؤمل عن عطاء ابن أبى رباح عن صفية بنت شيبة عنها، و رواه من طريق أخرى عن عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن واصل مولى أبى عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة أن امرأة أخبرتها فذكرته. و يؤيد ذلك حديث: «خذوا عنّى مناسككم».

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٩ الى ١٦٣]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢) وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ إلى آخر الآية، فيه الإخبار بأن الذى يكتم ذلك ملعون، و اختلفوا

فتح القدير، ج ١، ص: ١٨٧

من المراد بذلك؟ فقيل: أحبار اليهود و رهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلم؛ و قيل: كل من كتم الحق و ترك بيان ما أوجب اللّه بيانه، و هو الراجح، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر فى الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود و النصارى من الكتم فلا ينافى ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق. و فى هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقادر قدره، فإن من لعنه اللّه، و لعنه كل من يتأتى منه اللعن من عباده، قد بلغ من الشقاوة و الخسران إلى الغاية التى لا تلحق، و لا يدرك كنهها. و فى قوله:

مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك، كما قال أبو هريرة: «حفظت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وعاءين: أما أحدهما فبثثته، و أما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم» أخرجه البخارى. و الضمير فى قوله: مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ راجع إلى ما أنزلنا. و الكتاب: اسم جنس، و تعريفه يفيد شموله لجميع الكتب؛ و قيل: المراد به: التوراة. و اللعن: الإبعاد و الطرد. و المراد بقوله: اللَّاعِنُونَ الملائكة و المؤمنون، قاله الزجاج و غيره، و رجّحه ابن عطية؛ و قيل: كل من يتأتى منه اللعن، فيدخل فى ذلك الجن؛ و قيل:

هم الحشرات و البهائم. و قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا إلخ، فيه استثناء التائبين و المصلحين لما فسد من أعمالهم، و المبينين للناس ما بينه اللّه فى كتبه و على ألسن رسله. و قوله: وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ هذه الجملة حالية، و قد استدل بذلك على أنه لا يجوز لعن كافر معين، لأن حاله عند الوفاة لا يعلم، و لا ينافى ذلك ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من لعنه لقوم من الكفار بأعيانهم، لأنه يعلم بالوحى ما لا نعلم؛ و قيل: يجوز لعنه عملا بظاهر الحال كما يجوز قتاله. و قوله: أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ إلخ، استدل به على جواز لعن الكفار على العموم. قال القرطبى: و لا خلاف فى ذلك. قال: و ليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر، بل هو جزاء على الكفر و إظهار قبح كفره سواء كان الكافر عاقلا أو مجنونا. و قال قوم من السلف: لا فائدة فى لعن من جنّ أو مات منهم لا بطريق الجزاء و لا بطريق الزجر. قال: و يدل على هذا القول: أن الآية دالة على الإخبار عن اللّه و الملائكة و الناس بلعنهم لا على الأمر به. قال ابن العربى: إن لعن العاصى المعين لا يجوز باتفاق، لما روى «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أتى بشارب خمر مرارا، فقال بعض من حضر: لعنه اللّه ما أكثر ما يشربه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم» و الحديث فى الصحيحين. و قوله: وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ قيل: هذا يوم القيامة، و أما فى الدنيا ففى الناس المسلم و الكافر، و من يعلم بالعاصى و معصيته و من لا يعلم، فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس؛ و قيل: فى الدنيا، و المراد أنه يلعنه غالب الناس، أو كل من علم بمعصيته منهم.

و قوله: خالِدِينَ فِيها أى: فى النار؛ و قيل: فى اللعنة. و الإنظار: الإمهال، و قيل: معنى لا ينظرون:

لا ينظر اللّه إليهم، فهو من النظر؛ و قيل: هو من الانتظار، أى: لا ينتظرون ليعتذروا، و قد تقدّم تفسير:

الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ و قوله: وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فيه الإرشاد إلى التوحيد و قطع علائق الشرك، و الإشارة إلى أنّ أوّل ما يجب بيانه و يحرم كتمانه هو أمر التوحيد.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل أخو بنى سلمة، و سعد بن معاذ أخو بنى الأشهل، و خارجة بن زيد أخو بنى الحارث بن الخزرج نفرا من أحبار اليهود

فتح القدير، ج ١، ص: ١٨٨

عن بعض ما فى التوراة، فكتموهم إياه و أبوا أن يخبروهم، فأنزل اللّه فيهم: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا الآية. و قد روى عن جماعة من السلف أن الآية نزلت فى أهل الكتاب لكتمهم نبوّة نبينا صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن ماجة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قال: كنا فى جنازة مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: إنّ الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كلّ دابة غير الثقلين، فتلعنه كلّ دابّة سمعت صوته، فذلك قول اللّه تعالى:

وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ يعنى دوابّ الأرض. و أخرج عبد بن حميد عن عطاء قال: الجنّ و الإنس و كل دابة. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن مجاهد قال: إذا أجدبت البهائم دعت على فجار بنى آدم.

و أخرج عنه عبد بن حميد، و ابن جرير، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى شعب الإيمان، قال فى تفسير الآية:

إن دوابّ الأرض و العقارب و الخنافس يقولون: إنما منعنا القطر بذنوبهم، فيلعنونهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن عكرمة نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن أبى جعفر قال: يلعنهم كل شى‌ء حتى الخنفساء.

و قد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن كتم العلم و الوعيد لفاعله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا قال: أصلحوا ما بينهم و بين اللّه، و بيّنوا الذى جاءهم من اللّه، و لم يكتموه و لم يجحدوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: أَتُوبُ عَلَيْهِمْ يعنى: أتجاوز عنهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه اللّه، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة

قال: يعنى بالناس أجمعين:

المؤمنين. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: خالِدِينَ فِيها يقول: خالدين فى جهنم فى اللعنة. و قال فى قوله: وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ يقول: لا ينظرون فيعتذرون. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ قال: لا يؤخرون. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و الدارمى، و أبو داود، و الترمذى و صحّحه، و ابن ماجة، عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «اسم اللّه الأعظم فى هاتين الآيتين وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ و الم- اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ «١»». و أخرج الديلمى عن أنس أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ليس شيء أشدّ على مردة الجنّ من هؤلاء الآيات التى فى سورة البقرة وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ الآيتين».

[سورة البقرة (٢): آية ١٦٤]

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله: وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ عقب ذلك بالدليل الدالّ عليه، و هو: هذه الأمور التى هى من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التى أثبتها الكفار أن يأتى بشيء منها، أو يقتدر عليه، أو على بعضه، و هى خلق السموات، و خلق الأرض، و تعاقب الليل و النهار، و جرى الفلك فى البحر، و إنزال المطر من السماء، و إحياء الأرض به، و بثّ الدوابّ منها بسببه،

---

(١). آل عمران: ١- ٢.

فتح القدير، ج‏١، ص: ١٨٩

و تصريف الرياح؛ فإن من أمعن نظره؛ و أعمل فكره فى واحد منها؛ انبهر له، و ضاق ذهنه عن تصوّر حقيقته. و تحتم عليه التصديق بأن صانعه هو اللّه سبحانه؛ و إنما جمع السموات لأنها أجناس مختلفة، كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، و وحد الأرض لأنها كلها من جنس واحد و هو التراب. و المراد باختلاف الليل و النهار تعاقبهما بإقبال أحدهما و إدبار الآخر، و إضاءة أحدهما و إظلام الآخر. و النهار: ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. و قال النضر بن شميل: أوّل النهار طلوع الشمس، و لا يعدّ ما قبل ذلك من النهار. و كذا قال ثعلب، و استشهد بقول أمية بن أبى الصلت:

و الشّمس تطلع كلّ آخر ليلةحمراء يصبح لونها يتورّد

و كذا قال الزجاج. و قسم ابن الأنبارى الزمان إلى ثلاثة أقسام: قسما جعله ليلا محضا، و هو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. و قسما جعله نهارا محضا، و هو من طلوع الشمس إلى غروبها. و قسما جعله مشتركا بين النهار و الليل، و هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل و مبادئ ضوء النهار.

هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة. و أما فى الشرع: فالكلام فى ذلك معروف. و الفلك: السفن، و إفراده و جمعه بلفظ واحد، و هو هذا، و يذكر و يؤنث. قال اللّه تعالى: فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* «١» وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ و قال: حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ «٢» و قيل: واحده فلك بالتحريك، مثل أسد و أسد. و قوله: بِما يَنْفَعُ النَّاسَ يحتمل أن تكون ما: موصولة أى: بالذى ينفعهم، أو مصدرية:

أى بنفعهم، و المراد بما أنزل من السماء: المطر الذى به حياة العالم و إخراج النبات و الأرزاق. و البثّ: النشر، و الظاهر أن قوله: بَثَّ معطوف على قوله فَأَحْيا لأنهما أمران متسببان عن إنزال المطر. و قال فى الكشاف: إن الظاهر عطفه على أنزل. و المراد بتصريف الرياح: إرسالهما عقيما، و ملقحة، و صرّا، و نصرا، و هلاكا، و حارة، و باردة، و لينة، و عاصفة، و قيل: تصريفها: إرسالها جنوبا، و شمالا، و دبورا، و صبا، و نكباء، و هى التى تأتى بين مهبى ريحين؛ و قيل: تصريفها: أن تأتى السفن الكبار بقدر ما تحملها و الصغار كذلك، و لا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر. و السحاب سمى سحابا: لانسحابه فى الهواء، و سحبت ذيلى سحبا، و تسحب فلان على فلان: اجترأ. و المسخر: المذلل، و سخره: بعثه من مكان إلى آخر؛ و قيل: تسخيره: ثبوته بين السماء و الأرض من غير عمد و لا علائق. و الأوّل أظهر.

و الآيات: الدلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره و يتفكر بعقله.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ادع اللّه أن يجعل لنا الصّفا ذهبا نتقوّى به على عدوّنا، فأوحى اللّه إليه: إنى معطيهم فأجعل لهم الصّفا ذهبا، و لكن إن كفروا بعد ذلك عذّبتهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، فقال: ربّ دعنى و قومى فأدعوهم يوما بيوم، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج نحوه عبد بن حميد، و ابن جرير عن سعيد بن جبير. و أخرج وكيع، و الفريابى، و آدم بن أبى إياس، و سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى فى

---

(١). الشعراء: ١١٩ و يس: ٤١.

(٢). يونس: ٢٢.

شعب الإيمان، عن أبى الضحى قال: لما نزلت: وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ عجب المشركون و قالوا: إن محمدا يقول وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فليأتنا بآية إن كان من الصادقين، فأنزل اللّه: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن عطاء نحوه. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة عن سلمان، قال: الليل موكل به ملك يقال له شراهيل، فإذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلّاها من قبل المغرب، فإذا نظرت إليها الشمس وجبت فى أسرع من طرفة عين، و قد أمرت الشمس أن لا تغرب حتى ترى الخرزة، فإذا غربت جاء الليل، فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجىء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء، فيعلقها من قبل المطلع، فإذا رآها شراهيل مدّ إليه خرزته، و ترى الشمس الخرزة البيضاء، فتطلع، و قد أمرت أن لا تطلع حتى تراها، فإذا طلعت جاء النهار «١». و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: وَ الْفُلْكِ قال: السفينة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: بَثَّ خلق. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ قال:

إذا شاء جعلها رحمة لواقح للسحاب، و بشرا بين يدى رحمته، و إذا شاء جعلها عذابا ريحا عقيما لا تلقح.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال: كل شىء فى القرآن من الرياح فهى رحمة، و كل شىء فى القرآن من الريح فهى عذاب. و قد ورد فى النهى عن سبّ الريح و أوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالآية.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٥ الى ١٦٧]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ

أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (١٦٦) وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

لما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته، أخبر أن مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه، و جليل قدرته و تفرّده بالخلق، قد وجد فى الناس من يتخذ معه سبحانه ندا يعبده من الأصنام. و قد تقدّم تفسير الأنداد، مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد الأنداد؛ بل أحبوها حبا عظيما، و أفرطوا فى ذلك إفراطا بالغا، حتى صار حبهم لهذه الأوثان و نحوها متمكنا فى صدورهم؛ كتمكن حبّ المؤمنين للّه سبحانه، فالمصدر فى قوله: كَحُبِّ اللَّهِ مضاف إلى المفعول، و الفاعل محذوف و هو المؤمنون. و يجوز أن يكون المراد كحبهم للّه، أى: عبدة الأوثان قاله ابن كيسان و الزجّاج. و يجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول، أى:

كما يحب اللّه. و الأول أولى لقوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوى.

أى: أن حبّ المؤمنين للّه أشد من حبّ الكفار الأنداد، و لأن المؤمنين يخصون اللّه سبحانه بالعبادة و الدعاء، و الكفار لا يخصون أصنامهم بذلك، بل يشركون اللّه معهم، و يعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم

---

(١). هذا الأثر و أمثاله لا يعتمد على كتاب أو سنة و إنما هو رأى لصاحبه لا يعتد به لمخالفته الحقائق العلمية.

إلى اللّه، و يمكن أن يجعل هذا، أعنى قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ دليلا على الثانى، لأن المؤمنين إذا كانوا أشدّ حبا لم يكن حبّ الكفار للأنداد كحبّ المؤمنين للّه؛ و قيل: المراد بالأنداد هنا: الرؤساء، أى: يطيعونهم فى معاصى اللّه، و يقوى هذا: الضمير فى قولهم: يُحِبُّونَهُمْ فإنه لمن يعقل، و يقوّيه أيضا: قوله سبحانه عقب ذلك: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا الآية. و قوله: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قراءة أهل مكة و الكوفة و أبو عمرو بالياء التحتية، و هو اختيار أبى عبيد. و قراءة أهل المدينة و أهل الشام بالفوقية، و المعنى على القراءة الأولى: لو يرى الذين ظلموا فى الدنيا عذاب الآخرة؛ لعلموا حين يرونه أن القوّة للّه جميعا، قاله أبو عبيد. قال النحاس: و هذا القول هو الذى عليه أهل التفسير. انتهى. و على هذا:

فالرؤية هى البصرية لا القلبية. و روى عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد، و ليست عبارته فيه بالجيدة، لأنه يقدّر: و لو يرى الذين ظلموا العذاب، فكأنه يجعله مشكوكا فيه.

و قد أوجبه اللّه تعالى، و لكن التقدير هو الأحسن: و لو يرى الذين ظلموا أن القوة للّه- و يرى بمعنى:

يعلم، أى: لو يعلمون حقيقة قوّة اللّه و شدّة عذابه. قال: و جواب لو محذوف، أى: لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة كما حذف فى قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ «١» وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ «٢» و من قرأ بالفوقية فالتقدير: و لو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب و فزعهم منه لعلمت أن القوّة للّه جميعا.

و قد كان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم علم ذلك و لكن خوطب بهذا الخطاب، و المراد به أمته؛ و قيل: أَنَ فى موضع نصب مفعول لأجله، أى: لأن القوة للّه، كما قال الشاعر:

و أغفر عوراء الكريم ادّخارهو أعرض عن شتم اللّئيم تكرّم

أى: لادّخاره؛ و المعنى: و لو ترى يا محمد! الذين ظلموا فى حال رؤيتهم للعذاب- لأن القوّة للّه- لعلمت مبلغهم من النكال، و دخلت (إذا) و هى لما مضى فى إثبات هذه المستقبلات تقريبا للأمر و تصحيحا لوقوعه. و قرأ ابن عامر إِذْ يَرَوْنَ بضم الياء، و

الباقون بفتحها. و قرأ الحسن و يعقوب و أبو جعفر أَنَّ الْقُوَّةَ، وَ أَنَّ اللَّهَ بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف، و على تقدير القول. و قوله: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا بدل من قوله: إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ و معناه: أن السادة و الرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر. و قوله: وَ رَأَوُا الْعَذابَ فى محل نصب على الحال: يعنى التابعين و المتبوعين؛ قيل: عند المعاينة فى الدنيا؛ و قيل: عند العرض و المساءلة فى الآخرة. و يمكن أن يقال: فيهما جميعا، إذ لا مانع من ذلك. و قوله: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ هى جمع سبب، و أصله فى اللغة: الحبل الذى يشدّ به الشىء و يجذب به، ثم جعل كل ما جرّ شيئا سببا، و المراد بها: الوصل التى كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من الرحم و غيره، و قيل: هى الأعمال.

و الكرّة: الرجعة و العودة إلى حال قد كانت، و لو هنا فى معنى التمنى، كأنه قيل: ليت لنا كرّة؛ و لهذا وقعت الفاء فى الجواب. و المعنى: أن الأتباع قالوا: لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحا و نتبرأ منهم كما تبرّؤوا منا.

و الكاف فى قوله: كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا فى محل نصب على النعت لمصدر محذوف؛ و قيل: فى محل نصب على الحال، و لا أراه صحيحا. و قوله: كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ فى موضع رفع، أى: الأمر كذلك، أى:

---

(١). الأنعام: ٢٧.

(٢). الأنعام: ٣٠.

كما أراهم اللّه العذاب يريهم أَعْمالَهُمْ و هذه الرؤية إن كانت البصرية فقوله: حَسَراتٍ منتصب على الحال، و إن كانت القلبية فهو المفعول الثالث؛ و المعنى: أن أعمالهم الفاسدة يريهم اللّه إياها فتكون عليهم حسرات، أو يريهم الأعمال الصالحة التى أوجبها عليهم فتركوها، فيكون ذلك حسرة عليهم. و قوله: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ فيه دليل على خلود الكفار فى النار، و ظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص، و جعله الزمخشرى للتقوية لغرض له يرجع إلى المذهب، و البحث فى هذا يطول.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً قال: مباهاة و مضاررة للحق بالأنداد وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ قال: من الكفار لآلهتهم. و أخرج ابن جرير عن أبى زيد فى هذه الآية قال: هؤلاء المشركون؛ أندادهم: آلهتهم التى عبدوا مع اللّه؛ يحبّونهم كما يحبّ الذين آمنوا اللّه وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ من حبهم لآلهتهم. و أخرج ابن جرير عن السدّى فى الآية قال: الأنداد من الرجال يطيعونهم كما يطيعون اللّه، إذا أمروهم أطاعوهم و عصوا اللّه. و أخرج عبد ابن حميد عن عكرمة نحو ما قال ابن زيد. و أخرج ابن جرير عن الزبيرى فى قوله: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قال: و لو ترى يا محمد! الذين ظلموا أنفسهم؛ فاتخذوا من دونى أندادا؛ يحبونهم كحبكم إياى حين يعاينون عذابى يوم القيامة الذى أعددت لهم، لعلمتم أن القوّة كلها لى دون الأنداد، و الآلهة لا تغنى عنهم هنالك شيئا، و لا تدفع عنهم عذابا أحللت بهم، و أيقنتهم أنى شديد عذابى لمن كفر بى و ادّعى معى إلها غيرى. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير عن قتادة قوله: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا قال: هم الجبابرة و القادة و الرؤوس فى الشرك مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا قال: هم الشياطين تبرّؤوا من الإنس. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ قال: المودة.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: هى المنازل. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه قال: هى الأرحام. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و أبو نعيم فى الحلية عن مجاهد قال: هى الأوصال التى كانت بينهم فى الدنيا و المودة. و أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال: هى الأعمال. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن الربيع قال: هى المنازل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً قال: رجعة إلى الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: حَسَراتٍ قال:

صارت أعمالهم الخبيثة حسرة عليهم يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ قال: أولئك أهلها الذين هم أهلها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ثابت بن معبد قال: ما زال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۹۳

[سورة البقرة (۲): الآيات ۱۶۸ الى ۱۷۱]

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۶۸) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۱۶۹) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (۱۷۰) وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۱۷۱)

قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ قيل: إنها نزلت فى ثقيف؛ و خزاعة؛ و بنى مدلج؛ فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام. حكاه القرطبى فى تفسيره. و لكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قوله:

حَلالًا مفعول أو حال، و سمى الحلال حلالا: لانحلال عقدة الحظر عنه. و الطيب هنا: هو المستلذّ، كما قاله الشافعى و غيره. و قال مالك و غيره: هو الحلال، فيكون تأكيدا لقوله: حَلالًا. و من فى قوله:

مِمَّا فِي الْأَرْضِ للتبعيض؛ للقطع بأن فى الأرض ما هو حرام و خُطُواتِ جمع خطوة بالفتح و الضم، و هى بالفتح للمرة، و بالضم لما بين القدمين. و قرأ الفراء خطوات بفتح الخاء، و قرأ أبو السّمّال بفتح الخاء و الطاء؛ و قرأ علىّ و قتادة و الأعرج و عمر بن ميمون و الأعمش «خطؤات» بضم الخاء و الطاء و الهمز على الواو. قال الأخفش: و ذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطية من الخطأ لا من الخطو. قال الجوهرى:

و الخطوة بالفتح: المرة الواحدة، و الجمع خطوات و خطأ. انتهى. و المعنى على قراءة الجمهور: لا تقفوا أثر الشيطان و عمله، و كل ما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان؛ و قيل: هى النذور و المعاصى، و الأولى التعميم؛ و عدم التخصيص بفرد أو نوع. و قوله: إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أى: ظاهر العداوة، و مثله قوله تعالى: إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ «۱» و قوله: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا «۲» و قوله: بِالسُّوءِ سمى السوء سوءا: لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته، و هو مصدر ساءه يسوؤه سوءا و مساءة إذا أحزنه. وَ الْفَحْشاءِ: أصله سوء المنظر، و منه قول الشاعر:

و جيد كجيد الرّيم ليس بفاحش ثم استعمل فيما قبح من المعانى، و قيل: السوء: القبيح، و الفحشاء: التجاوز للحدّ فى القبح؛ و قيل:

السوء: ما لا حدّ فيه، و الفحشاء: ما فيه الحدّ؛ و قيل: الفحشاء: الزنا؛ و قيل: إن كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء. و قوله: وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قال ابن جرير الطبرى: يريد ما حرّموه من البحيرة و السائبة و نحوهما مما جعلوه شرعا؛ و قيل: هو قولهم: هذا حلال و هذا حرام بغير علم. و الظاهر أنه يصدق على كل ما قيل فى الشرع بغير علم. و فى هذه الآية دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص أو ظاهر من الأعيان الموجودة فى الأرض فأصله الحلّ حتى يرد دليل يقتضى تحريمه، و أوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ «۳». و الضمير فى قوله: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ راجع إلى الناس، لأن الكفار منهم و هم المقصودون هنا؛ و قيل: كفار العرب خاصة، و أَلْفَيْنا معناه:

وجدنا، و الألف فى قوله: أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ للاستفهام، و فتحت الواو لأنها واو العطف. و فى هذه الآية من الذم للمقلدين و

النـداء بجهلهم الفاحش و اعتقادهم الفاسـد ما لا يقادر قدره، و مثل هذه الآيهٔ قوله تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا «۴» الآيـهٔ، و فى ذلک دليل على قبح التقليد، و المنع منه، و البحث فى ذلک يطول. و قد أفردته بمؤلف مستقلّ سمّيته «القول

(۱). القصص: ۱۵.

(۲). فاطر: ۶.

(۳). البقرهٔ: ۲۹.

(۴). المائدهٔ: ۱۰۴.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۱۹۴

المفيـد فى حكم التقليـد» و اسـتوفيت الكلاـم فيه فى «أدب الطلب و منتهى الأرب». و قوله: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ فيه تشبيه واعظ الكافرين و داعيهم- و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم- بالراعى الذى ينعق بالغنم أو الإبل؛ فلا تسمع إلّا دعاء و نداء، و لا تفهم ما يقول، هكذا فسّره الزجّاج و الفرّاء و سيبويه، و به قال جماعهٔ من السلف. قال سيبويه: لم يشبهوا بالناعق، و إنما شبهوا بـالمنعوق به، و المعنى: مثلك يا محمـد! و مثل الـذين كفروا كمثل الناعق و المنعوق به من البهائم التى لا تفهم، فحـذف لدلالهٔ المعنى عليه. و قال قطرب:

المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم ما لا يفهم- يعنى الأصنام- كمثل الراعى إذا نعق بغنمه و هو لا يدرى أين هى. و به قال ابن جرير الطبرى. و قال ابن زيـد: المعنى: مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلههٔ الجماد كمثل الصائح فى جوف الليل؛ فيجيبه الصدى؛ فهو يصيح بمـا لا يسمع، و يجيبه ما لا حقيقـهٔ فيه. و النعق: زجر الغنم و الصياح بها، يقال: نعق الراعى بغنمه ينعق نعيقا و نعاقا و نعقانا، أى: صاح بها و زجرها، و العرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل؛ و يقولون: أجهل من راعى ضأن. و قوله: صُمٌّ و ما بعده أخبار لمبتدأ محذوف، أى: هم صمّ بكم عمى. و قد تقدّم تفسير ذلک.

و قـد أخرج ابن مردويه عن ابن عبـاس قال: تليت هـذه الآيـهٔ عنـد النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم، يعنى: يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً فقـام سـعد بن أبى وقـاص فقـال: يـا رسول اللّه! ادع اللّه أن يجعلنى مسـتجاب الـدعوهٔ، فقال: «يا سـعد أطب مطعمک تكن مستجاب الدّعوهٔ، و الذى نفس محمّد بيده إنّ الرجل ليقذف اللقمهٔ الحرام فى جوفه فما يتقبّل منه أربعين يوما، و أيّمـا عبـد نبت لحمه من السّـحت و الرّبـا فالنّـار أولى به». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حـاتم عنه فى قـوله: وَ لاـ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ قال:

عمله. و أخرج ابن أبى حـاتم عنه أنه قـال: «ما خالف القرآن فهو من خطوات الشـيطان» و أخرج عبـد بن حميـد و ابن أبى حاتم عن مجاهـد أنه قال: خطاه. و أخرجا أيضا عن عكرمهٔ قال: هى نزغات الشـيطان. و أخرج أبو الشـيخ عن سـعيد بن جبير قال: هى تزيين الشيطان. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادهٔ قال:

كل معصـيهٔ للّه فهى من خطوات الشـيطان. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: ما كان من يمين أو نذر فى غضب فهو من خطوات الشيطان. و كفارته كفارهٔ يمين. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و عبد ابن حميد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه عن ابن مسعود: أنه أتى بضرع و ملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم: فقال: لا أريد، فقال: أ صائم أنت؟ قال:

لاـ قـال: فمـا شأنـک؟ قال: حرّمت على نفسـى أن آكل ضـرعا، فقال ابن مسـعود: هـذا من خطوات الشـيطان، فاطعم و كفّر عن

يمينك. و أخرج عبد بن حميد عن عثمان بن غياث قال: سألت جابر بن زيد عن رجل نذر أن يجعل في أنفه حلقة من ذهب، فقال: هي من خطوات الشيطان؛ و لا يزال عاصيا للّه؛ فليكفر عن يمينه. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه جعل يمين من حلف أن يحجّ حبوا من خطوات الشيطان.

و أخرج عبد بن حميد، و أبو الشيخ عن أبي مجلز قال: هي النذور في المعاصي. و أخرج ابن جرير عن السدي في قوله: إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ قال: المعصية وَ الْفَحْشاءِ قال: الزنا. و أخرج ابن إسحاق، و ابن

جرير، و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اليهود إلى الإسلام و رغبهم فيه، و حذّرهم عذاب اللّه و نقمته، فقال له رافع بن خارجة و مالك بن عوف: بل نتبع يا محمد! ما وجدنا عليه آباءنا؛ فهم كانوا أعلم و خيرا منا، فأنزل اللّه في ذلك: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا و أخرج ابن جرير عن الربيع، و قتادة في قوله: أَلْفَيْنا قالا: وجدنا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا الآية، قال: كمثل البقر و الحمار و الشاة إن قلت لبعضهم كلاما لم يعلم ما تقول؛ غير أنه سمع صوتك؛ و كذلك الكافر؛ إن أمرته بخير أو نهيته عن شرّ أو وعظته لم يعقل ما تقول؛ غير أنه يسمع صوتك. و روى نحو ذلك عن مجاهد أخرجه عبد بن حميد، و عن عكرمة أخرجه وكيع. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال لي عطاء في هذه الآية: هم اليهود الذين أنزل اللّه فيهم: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ «۱» إلى قوله: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ «۲».

[سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۳]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۷۲) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۷۳)

قوله: كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ هذا تأكيد للأمر الأول، أعني قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً و إنما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس، قيل: و المراد بالأكل:

الانتفاع؛ و قيل: المراد به: الأكل المعتاد، و هو الظاهر. قوله: وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ قد تقدّم أنه يقال شكره و شكر له يتعدى بنفسه و بالحرف. و قوله: إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ أي: تخصونه بالعبادة، كما يفيده تقدّم المفعول. قوله: إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ قرأ أبو جعفر: حرم على البناء للمفعول و إِنَّما كلمة موضوعة للحصر؛ تثبت ما تناوله الخطاب؛ و تنفي ما عداه. و قد حصرت هاهنا التحريم في الأمور المذكورة بعدها. و قوله: الْمَيْتَةَ قرأ ابن أبي عبلة بالرفع، و وجه ذلك أنه يجعل ما في إِنَّما موصولة منفصلة في الخط، و الميتة و ما بعدها خبر الموصول، و قراءة الجميع بالنصب. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع الميتة: بتشديد الياء، و قد ذكر أهل اللغة أنه يجوز في ميت التخفيف و التشديد. و الميتة: ما فارقها الروح من غير ذكاة. و قد خصّص هذا العموم بمثل حديث: «أحلّ لنا ميتتان و دمان» أخرجه أحمد، و ابن ماجة، و الدارقطني، و الحاكم، و ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا. و مثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ «۳» فالمراد بالميتة هنا: ميتة البرّ لا ميتة البحر. و قد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيّها و ميتها. و قال بعض أهل العلم: إنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه في البر، و توقف ابن حبيب في خنزير الماء. و قال ابن القاسم: و أنا أتقيه و لا أراه حراما. و قوله:

وَ الدَّمَ قد اتفق العلماء على أن الدم حرام، و في الآية الأخرى أَوْ دَماً مَسْفُوحاً «۴» فيحمل المطلق

(١). البقرة: ١٧۴.

(٢). البقرة: ١٧۵.

(٣). المائدة: ٩۶.

(۴). الأنعام: ١۴۵.

فتح القدير، ج‌١، ص: ١٩۶

على المقيد، لأن ما خلط باللحم غير محرم، قال القرطبى: بالإجماع. و قد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم فتعلو الصفرة على البرمة من الدم، فيأكل ذلك النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و لا ينكره. و قوله: وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ظاهر هذه الآية و الآية الأخرى أعنى قوله تعالى: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ «١» أن المحرّم إنما هو اللحم فقط. و قد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبى فى تفسيره. و قد ذكر جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم. و حكى القرطبى الإجماع أيضا على أن جملة الخنزير محرّمة إلا الشعر فإنه تجوز الخرازة به. و قوله: وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ الإهلال: رفع الصوت، يقال: أهلّ بكذا، أى: رفع صوته قال الشاعر يصف فلاة:

يهلّ بالفرقد ركبانهاكما يهلّ الرّاكب المعتمر

و قال النّابغة:

أو درّة صدفيّة غوّاصهابهج متى يرها يهلّ و يسجد

و منه: إهلال الصبيّ، و استهلاله، و هو: صياحه عند ولادته. و المراد هنا: ما ذكر عليه اسم غير اللّه كاللات و العزّى إذا كان الذباح و ثنيا، و النار إذا كان الذابح مجوسيا. و لا خلاف فى تحريم هذا و أمثاله، و مثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم، فإنه مما أهلّ به لغير اللّه، و لا فرق بينه و بين الذبح للوثن.

قوله: فَمَنِ اضْطُرَّ قرىء بضم النون للإتباع، و بكسرها على الأصل فى التقاء الساكنين، و فيه إضمار، أى: فمن اضطرّ إلى شىء من هذه المحرمات. و قرأ ابن محيصن بإدغام الضاد فى الطاء. و قرأ أبو السمال بكسر الطاء. و المراد من صيّره الجوع و العدم إلى الاضطرار إلى الميتة. و قوله: غَيْرَ باغٍ نصب على الحال.

قيل: المراد بالباغى: من يأكل فوق حاجته، و العادى: من يأكل هذه المحرمات و هو يجد عنها مندوحة؛ و قيل: غير باغ على المسلمين؛ و عاد عليهم، فيدخل فى الباغى و العادى: قطاع الطريق، و الخارج على السلطان، و قاطع الرحم، و نحوهم؛ و قيل: المراد: غير باغ على مضطرّ آخر و لا عاد سدّ الجوعة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ قال: من الحلال.

و أخرج ابن سعد عن عمر بن عبد العزيز أن المراد بما فى الآية: طيب الكسب لا طيب الطعام. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك: إنها حلال الرزق. و أخرج أحمد، و مسلم، و الترمذى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن اللّه طيب لا يقبل إلا طيبا، و إن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ «٢» و قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ «٣» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السّماء:

يا ربّ يا ربّ و مطعمه حرام و مشربه حرام و ملبسه حرام و غذى بالحرام، فإنّى يستجاب له». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أُهِلَّ قال: ذبح. و أخرج ابن جرير عنه قال: وَ ما أُهِلَّ للطواغيت. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: ذبح لغير اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية

(١). الأنعام: ١۴۵.

(٢). المؤمنون: ۵١.

(٣). البقرة: ١٧٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٩٧

قال: ما ذكر عليه اسم غير اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ يقول: من أكل شيئا من هذه و هو مضطرّ فلا حرج، و من أكله و هو غير مضطرّ فقد بغى و اعتدى. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: غَيْرَ باغٍ قال: فى الميتة وَ لا عادٍ قال: فى الأكل. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ قال: غير باغ على المسلمين و لا معتد عليهم، فمن خرج يقطع الرحم، أو يقطع السبيل، أو يفسد فى الأرض، أو مفارقا للجماعة و الأئمة، أو خرج فى معصية اللّه؛ فاضطرّ إلى الميتة لم تحلّ له. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: العادى: الذى يقطع الطريق. و قوله: فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ يعنى فى أكله: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن أكل من الحرام رحيم به إذ أحلّ له الحرام فى الاضطرار. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ غير باغ فى أكله، و لا عاد يتعدّى الحلال إلى الحرام و هو يجد عنه بلغة و مندوحة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧۴ الى ١٧۶]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧۴) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧۵) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (١٧۶)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ قيل: المراد بهذه الآية علماء اليهود، لأنهم كتموا ما أنزل اللّه فى التوراة من صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و الاشتراء هنا: الاستبدال، و قد تقدّم تحقيقه، و سماه: قليلا، لانقطاع مدّته و سوء عاقبته، و هذا السبب و إن كان خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ، و هو يشمل كل من كتم ما شرعه اللّه، و أخذ عليه الرشا، و ذكر البطون دلالة و تأكيدا أن هذا الأكل حقيقة، إذ قد يستعمل مجازا فى مثل: أكل فلان أرضى، و نحوه. و قال فى الكشاف: إن معنى: فِي بُطُونِهِمْ ملء بطونهم قال: يقول أكل فلان فى بطنه، و أكل فى بعض بطنه. انتهى. و قوله: إِلَّا النَّارَ أى: أنه يوجب عليهم عذاب النار، فسمى ما أكلوه: نارا، لأنه يؤول بهم إليها، هكذا قال أكثر المفسرين، و قيل: إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقة، و مثله قوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً «١» و قوله: وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ فيه كناية عن حلول غضب اللّه عليهم، و عدم الرضا عنهم، يقال: فلان لا يكلّم فلانا؛ إذا غضب عليه. و قال ابن جرير الطبرى: المعنى: و لا يكلمهم بما يحبونه و لا بما يكرهونه. كقوله تعالى: اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ «٢». و قوله: لا يُزَكِّيهِمْ معناه: لا يثنى عليهم خيرا. قاله الزجاج؛ و قيل: معناه: لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم. و قوله: اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى قد تقدّم تحقيق معناه. و قوله: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ذهب الجمهور و منهم الحسن، و مجاهد إلى أن معناه التعجب. و المراد تعجيب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب

(١). النساء: ١٠.

(٢). المؤمنون: ١٠٨.

فتح القدير، ج ١، ص: ١٩٨

صبروا على العقوبة فى نار جهنم. و حكى الزجّاج أن المعنى: ما أبقاهم على النار، من قولهم: ما أصبر فلانا على الحبس، أى: ما أبقاه فيه؛ و قيل: المعنى: ما أقلّ جزعهم من النار، فجعل قلة الجزع صبرا. و قال الكسائى و قطرب: أى: ما أدومهم على عمل أهل النار؛ و قيل: «ما» استفهامية، و معناه التوبيخ، أى: أى شىء أصبرهم على عمل النار؟ قاله ابن عباس، و السدى، و عطاء، و أبو عبيدة. ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ الإشارة باسم الإشارة إلى الأمر، أى: ذلك الأمر و هو العذاب. قاله الزجّاج. و قال الأخفش:

إن خبر اسم الإشارة محذوف و التقدير: ذلك معلوم. و المراد بالكتاب هنا القرآن بِالْحَقِ أى: بالصدق؛ و قيل: بالحجة. و قوله: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ قيل: المراد بالكتاب هنا: التوراة، فادّعى النّصارى أن فيها صفة عيسى و أنكرهم اليهود؛ و قيل: خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و اختلفوا فيها؛ و قيل: المراد: القرآن، و الذين اختلفوا: كفار قريش، يقول بعضهم: هو سحر، و بعضهم يقول:

هو أساطير الأوّلين، و بعضهم يقول غير ذلك. لَفِي شِقاقٍ أى: خلاف بَعِيدٍ عن الحق، و قد تقدم معنى الشقاق.

و قد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ قال: نزلت فى يهود.

و أخرج ابن جرير عن السدى قال: كتموا اسم محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و أخذوا عليه طمعا قليلا. و أخرج ابن جرير أيضا عن أبى العالية نحوه. و أخرج الثعلبى عن ابن عباس بسندين ضعيفين أنها نزلت فى اليهود. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى قال: اختاروا الضلالة على الهدى و العذاب على المغفرة. فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ قال: ما أجرأهم على عمل النار. و أخرج سعيد ابن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ قال: ما أعملهم بأعمال أهل النار. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر فى قوله: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ قال: و اللّه ما لهم عليها من صبر؛ و لكن يقول: ما أجرأهم على النار. و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير أيضا عن السدى فى الآية قال: هذا على وجه الاستفهام يقول: ما الذى أصبرهم على النار؟ و قوله: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ قال: هم اليهود و النصارى لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ قال: فى عداوة بعيدة.

[سورة البقرة (٢): آية ١٧٧]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

قوله: لَيْسَ الْبِرَّ قرأ حمزة و حفص بالنصب على أنه خبر ليس و الاسم أَنْ تُوَلُّوا و قرأ الباقون بالرفع على أنه الاسم، قيل: إن هذه الآية نزلت للردّ على اليهود و النصارى، لما أكثروا الكلام فى شأن القبلة

فتح القدير، ج ١، ص: ١٩٩

عند تحويل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الكعبة؛ و قيل: إن سبب نزولها أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سائل، و سيأتى ذلك آخر البحث إن شاء اللّه. و قوله: قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ قيل: أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى؛ لأنهم

يستقبلون مطلع الشمس، و أشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود؛ لأنهم يستقبلون بيت المقدس؛ و هو فى جهة الغرب منهم إذ ذاك. و قوله: وَ لكِنَّ الْبِرَّ: هو اسم جامع للخير، و خبره محذوف تقديره: برّ من آمن. قاله الفراء، و قطرب، و الزجاج؛ و قيل: إن التقدير: و لكن ذو البر من آمن، و وجه هذا التقدير: الفرار عن الإخبار باسم العين عن اسم المعنى، و يجوز أن يكون البرّ بمعنى البار، و هو يطلق المصدر على اسم الفاعل كثيرا، و منه فى التنزيل: إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً «١» أى: غائرا، و هذا اختيار أبى عبيدة. و المراد بالكتاب هنا: الجنس، أو القرآن، و الضمير فى قوله: عَلى حُبِّهِ راجع إلى المال؛ و قيل: راجع إلى الإيتاء المدلول عليه بقوله: وَ آتَى الْمالَ و قيل: إنه راجع إلى اللّه سبحانه، أى: على حبّ اللّه، و المعنى على الأوّل: أنه أعطى المال و هو يحبه و يشح به، و منه قوله تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ «٢» و المعنى على الثانى: أنه يحب إيتاء المال و تطيب به نفسه، و المعنى على الثالث: أنه أعطى من تضمنته الآية فى حبّ اللّه عزّ و جلّ لا لغرض آخر، و هو مثل قوله: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ «٣» و مثله قول زهير:

إنّ الكريم على علّاته هرم و قدّم ذوى القربى لكون دفع المال إليهم صدقة و صلة إذا كانوا فقراء، هكذا اليتامى الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى، لعدم قدرتهم على الكسب. و المسكين: الساكن إلى ما فى أيدى الناس لكونه لا يجد شيئا. وَ ابْنَ السَّبِيلِ المسافر المنقطع، و جعل ابنا للسبيل لملازمته له. و قوله: وَ فِي الرِّقابِ أى: فى معاونة الأرقاء الذين كاتبهم المالكون لهم؛ و قيل: المراد شراء الرقاب و إعتاقها؛ و قيل:

المراد فك الأسارى. و قوله: وَ آتَى الزَّكاةَ فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صدقة الفريضة. و قوله:

وَ الْمُوفُونَ قيل: هو معطوف على «من آمن»، كأنه قيل: و لكن البرّ المؤمنون و الموفون. قاله الفراء و الأخفش؛ و قيل: هو مرفوع على الابتداء، و الخبر محذوف؛ و قيل: هو خبر لمبتدأ محذوف، أى: هم الموفون؛ و قيل: إنه معطوف على الضمير فى آمن، و أنكره أبو علىّ و قال: ليس المعنى عليه. و قوله:

وَ الصَّابِرِينَ منصوب على المدح كقوله تعالى: وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ، و منه ما أنشده أبو عبيدة:

لا يبعدن قومى الذين همسمّ العداة و آفة الجزر

النّازلين بكلّ معتركو الطّيّبون معاقد الأزر

و قال الكسائى: هو معطوف على ذوى القربى كأنه قال: و آتى الصابرين: و قال النحاس: إنه خطأ.

قال الكسائى: و فى قراءة عبد اللّه و الموفين وَ الصَّابِرِينَ قال النحاس: يكونان على هذه القراءة منسوقين على ذوى القربى أو على المدح. و قرأ يعقوب و الأعمش: وَ الْمُوفُونَ و الصابرون بالرفع فيهما. فِي الْبَأْساءِ الشدة و الفقر. وَ الضَّرَّاءِ: المرض و الزمانة وَ حِينَ الْبَأْسِ قيل: المراد:

---

(١). الملك: ٣٠.

(٢). آل عمران: ٩٢.

(٣). الإنسان: ٨.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٢٠٠

فتح القدير ج‏١ ٢٤٩

وقت الحرب، و البأساء و الضراء اسمان بنيا على فعلاء و لا فعل لهما لأنهما اسمان و ليسا بنعت. و قوله:

صَدَقُوا وصفهم بالصدق و التقوى فى أمورهم و الوفاء بها و أنهم كانوا جادّين؛ و قيل: المراد صدقوهم القتال، و الأول أولى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و صححه عن أبى ذرّ أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الإيمان فتلا: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ حتى فرغ منها، ثم سأله أيضا فتلاها، ثم سأله فتلاها. قال: و إذا عملت بحسنة أحبها قلبك، و إذا عملت بسيئة أبغضها قلبك. و أخرج عبد بن حميد، و ابن مردويه عن القاسم بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى أبى ذر فقال: ما الإيمان؟ فتلا عليه هذه الآية، ثم ذكر له نحو الحديث السابق. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية قال: يقول ليس البرّ أن تصلوا و لا تعملوا، هذا حين تحوّل من مكة إلى المدينة و أنزلت الفرائض. و أخرج عنه ابن جرير أنه قال: هذه الآية نزلت بالمدينة، يقول:

ليس البرّ أن تصلوا، و لكن البرّ ما ثبت فى القلب من طاعة اللّه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة قال: ذكر لنا أنّ رجلا سأل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن البرّ، فأنزل اللّه: لَيْسَ الْبِرَّ الآية. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن قتادة قال: كانت اليهود تصلى قبل المغرب، و النصارى قبل المشرق، فنزلت:

لَيْسَ الْبِرَّ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية مثله. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد ابن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن مسعود فى قوله: وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ قال:

يعطى و هو صحيح شحيح؛ يأمل العيش؛ و يخاف الفقر. و أخرج عنه مرفوعا مثله. و أخرج البيهقى فى الشعب عن المطلب: أنه قيل: يا رسول اللّه! ما آتى المال على حبه؟ فكلنا نحبه. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تؤتيه حين تؤتيه و نفسك تحدثك بطول العمر و الفقر». و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ يعنى: على حب المال. و أخرج عنه أيضا فى قوله: ذَوِي الْقُرْبى يعنى: قرابته.

و قد ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة، و على ذى الرحم ثنتان صدقة و صلة» أخرجه ابن أبى شيبة، و أحمد، و الترمذى و حسنه، و النسائى، و ابن ماجة، و الحاكم، و البيهقى فى سننه من حديث سلمان بن عامر الضبى، و فى الصحيحين و غيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود: أنّها سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هل تجزى عنها من الصّدقة النّفقة على زوجها و أيتام فى حجرها؟ فقال: «لك أجران:

أجر الصّدقة، و أجر القرابة». و أخرج الطبرانى و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أفضل الصّدقة على ذى الرّحم الكاشح». و أخرج أحمد، و الدارمى، و الطبرانى من حديث حكيم بن حزام عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ابن السبيل: هو الضعيف الذى ينزل بالمسلمين. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: هو الذى يمرّ بك و هو مسافر. و أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله: وَ السَّائِلِينَ قال: السائل الذى يسألك. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ فِي الرِّقابِ قال: يعنى فكّ الرقاب. و أخرج أيضا عنه فى

قوله: وَ أَقامَ الصَّلاةَ يعنى و أتمّ الصّلاة المكتوبة وَ آتَى الزَّكاةَ يعنى الزكاة المفروضة. و أخرج الترمذى، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن عدىّ، و الدارقطنى، و ابن مردويه عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «فى المال حقّ سوى الزكاة، ثم قرأ: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ الآية». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ قال: فمن أعطى عهد اللّه ثم نقضه فاللّه ينتقم منه، و من أعطى ذمة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ثم غدر بها فالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم خصمه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا

عاهَدُوا يعنى: فيما بينهم و بين الناس. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عن ابن مسعود فى الآية قال: الْبَأْساءِ: الفقر وَ الضَّرَّاءِ: السقم وَ حِينَ الْبَأْسِ حين القتال. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا قال: فعلوا ما ذكر اللّه فى هذه الآية. و أخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا قال: تكلموا بكلام الإيمان، فكانت حقيقة العمل صدقوا اللّه. قال: و كان الحسن يقول: هذا كلام الإيمان و حقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل فلا شىء.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧٨ الى ١٧٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

قوله: كُتِبَ معناه: فرض، و أثبت، و منه قول عمر بن أبى ربيعة:

كتب القتل و القتال عليناو على الغانيات جرّ الذّيول

و هذا إخبار من اللّه سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك، و قيل: إن كُتِبَ هنا إشارة إلى ما جرى به القلم فى اللوح المحفوظ. و الْقِصاصُ أصله: قصّ الأثر: أى: اتباعه، و منه: القاصّ، لأنه يتتبع الآثار، و قصّ الشعر: اتباع أثره، فكأن القاتل يسلك طريقا من القتل، يقصّ أثره فيها، و منه قوله تعالى:

فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً «١» و قيل: إن القصاص مأخوذ من القص و هو القطع، يقال: قصصت ما بينهما: أى: قطعته. و قد استدلّ بهذه الآية القائلون بأن الحرّ لا يقتل بالعبد، و هم الجمهور. و ذهب أبو حنيفة، و أصحابه، و الثورى، و ابن أبى ليلى، و داود إلى أنه يقتل به. قال القرطبى: و روى ذلك عن علىّ، و ابن مسعود. و به قال سعيد بن المسيب، و إبراهيم النخعى، و قتادة، و الحكم بن عتيبة، و استدلوا بقوله تعالى:

وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ «٢» و أجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله تعالى: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ مفسر لقوله تعالى: النَّفْسَ بِالنَّفْسِ و قالوا أيضا: إن قوله: وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها يفيد: أن ذلك حكاية عما شرعه لبنى إسرائيل فى التوراة. و من جملة ما استدل به الآخرون قوله

---

(١). الكهف: ۶۴.

(٢). المائدة: ۴۵.

صلّى اللّه عليه و سلم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» و يجاب عنه بأنه مجمل و الآية مبينة، و لكنه يقال: إن قوله تعالى:

الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ إنما أفاد بمنطوقه أن الحرّ يقتل بالحرّ، و العبد يقتل بالعبد، و ليس فيه ما يدل على أن الحرّ لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا، و من لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا، و البحث فى هذا محرر فى علم الأصول. و قد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر، و هم الكوفيون و الثورى، لأن الحرّ يتناول الكافر كما يتناول المسلم، و كذا العبد و الأنثى يتناولان الكافر كما يتناولان المسلم. و استدلوا أيضا بقوله تعالى: أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ لأن النفس تصدق على النفس الكافرة، كما تصدق على النفس المسلمة. و ذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل

المسلم بالكافر، و استدلوا بما ورد من السنة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه لا يقتل مسلم بكافر، و هو مبين لما يراد فى الآيتين، و البحث فى هذا يطول. و استدل بهذه الآية القائلون: بأن الذكر لا يقتل بالأنثى، و قرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق؛ إلا إذا سلّم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل. و به قال مالك، و الشافعى، و أحمد، و إسحاق، و الثورى، و أبو ثور. و ذهب الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمرأة و لا زيادة، و هو الحق. و قد بسطنا البحث فى شرح المنتقى فليرجع إليه. قوله: فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ «من» هنا عبارة عن القاتل. و المراد بالأخ: المقتول، أو الولىّ، و الشىء: عبارة عن الدم، و المعنى: أن القاتل أو الجانى إذا عفى له من جهة المجنى عليه، أو الولىّ، دم أصابه منه على أن يأخذ منه شيئا من الدية أو الأرش، فليتبع المجنى عليه أو الولى من عليه الدم؛ فيما يأخذه منه من ذلك اتباعا بالمعروف، و ليؤد الجانى ما لزمه من الدّية أو الأرش إلى المجنى عليه، أو إلى الولىّ أداء بإحسان؛ و قيل: إن «من» عبارة عن الولىّ، و الأخ: يراد به القاتل، و الشىء:

الدية؛ و المعنى: أن الولىّ إذا جنح إلى العفو عن القصاص إلى مقابل الدية، فإن القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص، كما روى عن مالك أنه يثبت الخيار للقاتل فى ذلك؛ و ذهب من عداه إلى أنه لا يخير، بل إذا رضى الأولياء بالدية؛ فلا خيار للقاتل، بل يلزمه تسليمها؛ و قيل: معنى: عُفِيَ بذل. أى:

من بذل له شىء من الدية، فليقبل و ليتبع بالمعروف؛ و قيل: إن المراد بذلك: أن من فضل له من الطائفتين على الأخرى شىء من الديات، فيكون عفى بمعنى: فضل، و على جميع التقادير فتنكير شىء للتقليل، فيتناول العفو عن الشىء اليسير من الدية، و العفو الصادر عن فرد من أفراد الورثة. و قوله: فَاتِّباعٌ مرتفع بفعل محذوف؛ أى: فليكن منه اتباع، أو على أنه: خبر مبتدأ محذوف، أى: فالأمر اتباع، و كذا قوله: وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ قوله: ذلِكَ تَخْفِيفٌ إشارة إلى العفو و الدية، أى: أن اللّه شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض أو بعوض، و لم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود، فإنه أوجب عليهم القصاص، و لا عفو؛ و كما ضيق على النصارى؛ فإنه أوجب عليهم العفو و لا دية. قوله: فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ أى: بعد التخفيف، نحو: أن يأخذ الدية ثم يقتل القاتل، أو يعفو ثم يستقص. و قد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ الدية. فقال جماعة منهم مالك و الشافعى: إنه كمن قتل ابتداء، إن شاء الولىّ قتله و إن شاء عفا عنه. و قال قتادة و عكرمة و السدى و غيرهم؛ عذابه أن يقتل ألبتة، و لا يمكن الحاكم الولىّ من العفو. و قال

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٠٣

الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط، و يبقى إثمه إلى عذاب الآخرة. و قال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى. قوله: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ أى: لكم فى هذا الحكم الذى شرعه اللّه لكم حياة، لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصا إذا قتل آخر؛ كفّ عن القتل، و انزجر عن التسرع إليه و الوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية. و هذا نوع من البلاغة بليغ، و جنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصاص الذى هو مات حياة باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا، إبقاء على أنفسهم و استدامة لحياتهم؛ و جعل هذا الخطاب موجها إلى أولى الألباب. لأنهم هم الذين ينظرون فى العواقب و يتحامون ما فيه الضرر الآجل؛ و أما من كان مصابا بالحمق و الطيش و الخفة فإنه لا ينظر عند سورة غضبه و غليان مراجل طيشه إلى عاقبة و لا يفكر فى أمر مستقبل، كما قال بعض فتاكهم:

سأغسل عنى العار بالسّيف جالبا على قضاء اللّه ما كان جالبا

ثم علّل سبحانه هذا الحكم الذى شرعه لعباده بقوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أى: تتحامون القتل بالمحافظة على القصاص؛ فيكون ذلك سببا للتقوى. و قرأ أبو الجوزاء: و لكم فى القصص حياة قيل: أراد بالقصص القرآن، أى: لكم فى كتاب اللّه الذى شرع فيه القصاص حياة، أى: نجاة، و قيل: أراد حياة القلوب؛ و قيل: هو مصدر بمعنى القصاص، و الكل ضعيف، و القراءة به منكرة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: إن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل و جراحات حتى قتلوا العبيد و النساء؛ و لم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة و الأموال، فحلفوا ألّا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحرّ منهم، و بالمرأة منا الرجل منهم، فنزلت هذه الآية. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، عن الشعبى نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، و لكن يقتلون الرجل بالرجل، و المرأة بالمرأة، فأنزل اللّه: النَّفْسَ بِالنَّفْسِ فجعل الأحرار فى القصاص سواء فيما بينهم فى العمد رجالهم و نساءهم فى النفس و فيما دون النفس، و جعل العبيد مستوين فى العمد فى النفس و فيما دون النفس رجالهم و نساءهم. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن أبى مالك قال: كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول فكأنهم طلبوا الفضل، فجاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ليصلح بينهم، فنزلت هذه الآية: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى قال ابن عباس: فنسختها النَّفْسَ بِالنَّفْسِ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و الحاكم و صحّحه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فَمَنْ عُفِيَ لَهُ قال:

هو العمد رضى أهله بالعفو. فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ أمر به الطالب وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ من القابل، قال: يؤدى المطلوب بإحسان. ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ مما كان على بنى إسرائيل. و أخرج نحوه ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر. و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: كان فى بنى إسرائيل القصاص و لم تكن الدية فيهم، فقال اللّه لهذه الأمة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى إلى قوله: فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فالعفو: أن تقبل الدية فى العمد فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ

مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ مما كتب على من كان قبلكم فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ قيل: بعد قبول الدية فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان فى أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو ليس بينهما أرش، و كان أهل الإنجيل إنما هو العفو أمروا به، و جعل اللّه لهذه الأمة القتل و العفو و الدية إن شاؤوا، أحلّها لهم و لم تكن لأمة قبلهم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و أحمد و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن أبى شريح الخزاعى، أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إمّا أن يقتصّ، و إمّا أن يعفو، و إمّا أن يأخذ الدّية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، و من اعتدى بعد ذلك فله نار جهنّم خالدا فيها أبدا». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة: أنه إذا قتل بعد أخذ الدية فله عذاب عظيم قال: فعليه القتل لا تقبل منه الدية. قال و ذكر لنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا أعافى رجلا قتل بعد أخذ الدية» و أخرج سمويه فى فوائده، عن سمرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فذكر مثله. و أخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة أنه قال: يقتل. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ قال: جعل اللّه فى القصاص حياة، و نكالا، و عظة؛ إذا ذكره الظالم المعتدى كفّ عن القتل. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ قال: لعلك تتقى أن تقتله فتقتل به. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: يا أُولِي الْأَلْبابِ قال: من كان له لبّ يذكر القصاص؛ فيحجزه خوف القصاص عن القتل لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ قال: لكى تتقوا الدماء مخافة القصاص.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۱۸۰ الى ۱۸۲]

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (۱۸۰) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۸۱) فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸۲)

قد تقدّم معنى: كُتِبَ قريبا، و حضور الموت: حضور أسبابه، و ظهور علاماته، و منه قول عنترة:

و إنّ الموت طوع يدى إذا ماوصلت بنانها بالهندوان

و قال جرير:

أنا الموت الذى حدّثت عنهفليس لهارب منّى نجاء

و إنما لم يؤنث الفعل المسند إلى الوصيۀ، و هو كُتِبَ لوجود الفاصل بينهما- و قيل: لأنها بمعنى الإيصاء، و قد روى جواز إسناد ما لا تأنيث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل. و قد حكى سيبويه: قام امرأۀ، و هو خلاف ما أطبق عليه أئمۀ العربيۀ، و شرط سبحانه ما كتبه من الوصيۀ بأن يترك الموصى خيرا. و اختلف فى جواب هذا الشرط ما هو؟ فروى عن الأخفش و جهان:

أحدهما أن التقدير: إن ترك خيرا فالوصيۀ، ثم حذفت الفاء كما قال الشاعر:

فتح القدير، ج‌١، ص: ٢٠٥ من يفعل الحسنات اللّه يشكرهاو الشّرّ بالشّرّ عند اللّه مثلان

و الثانى: أن جوابه مقدّر قبله. أى: كتب الوصيۀ للوالدين و الأقربين إن ترك خيرا. و اختلف أهل العلم فى مقدار الخير، فقيل: ما زاد على سبعمائۀ دينار، و قيل: ألف دينار؛ و قيل: ما زاد على خمسمائۀ دينار. و الوصيۀ فى الأصل: عبارۀ عن الأمر بالشى‌ء، و العهد به فى الحياۀ و بعد الموت، و هى هنا: عبارۀ عن الأمر بالشى‌ء لبعد الموت. و قد اتفق أهل العلم على وجوب الوصيۀ على من عليه دين أو عنده وديعۀ أو نحوها. و أما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبۀ عليه سواء كان فقيرا أو غنيا؛ و قال طائفۀ: إنها واجبۀ. و لم يبين اللّه سبحانه هاهنا القدر الذى كتب الوصيۀ به للوالدين و الأقربين؛ فقيل: الخمس؛ و قيل: الربع؛ و قيل: الثلث. و قد اختلف أهل العلم فى هذه الآيۀ هل هى محكمۀ أو منسوخۀ؟ فذهب جماعۀ إلى أنها محكمۀ، قالوا: و هى و إن كانت عامۀ فمعناها الخصوص.

و المراد بها من الوالدين من لا يرث كالأبوين الكافرين و من هو فى الرقّ، و من الأقربين من عدا الورثۀ منهم.

قال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصيۀ للوالدين الذين لا يرثان، و الأقرباء الذين لا يرثون جائزۀ. و قال كثير من أهل العلم: إنها منسوخۀ بآيۀ المواريث مع قوله صلّى اللّه عليه و سلم «لا وصيّۀ لوارث» و هو حديث صححه بعض أهل الحديث، و روى من غير وجه. و قال بعض أهل العلم: إنه نسخ الوجوب و نفى الندب، و روى عن الشعبى و النخعى و مالك. قوله: بِالْمَعْرُوفِ أى: العدل، لا وكس فيه و لا شطط. و قد أذن اللّه للميت بالثلث دون ما زاد عليه. قوله: حَقًّا مصدر معناه: الثبوت و الوجوب.

قوله: فَمَنْ بَدَّلَهُ هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصيۀ، و كذلك الضمير فى قوله:

سَمِعَهُ و التبديل: التغيير، و الضمير فى قوله: فَإِنَّما إِثْمُهُ راجع إلى التبديل المفهوم من قوله:

بَدَّلَهُ و هذا وعيد لمن غير الوصيۀ المطابقۀ للحقّ التى لا جنف فيها و لا مضارۀ، و أنه يبوء بالإثم، و ليس على الموصى من ذلك شى‌ء، فقد تخلص مما كان عليه بالوصيۀ به. قال القرطبى: و لا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز، مثل أن يوصى بخمر؛ أو خنزير؛ أو شى‌ء من المعاصى؛ أنه يجوز تبديله، و لا يجوز إمضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث. قاله أبو عمر. انتهى. و الجنف: المجاوزۀ، من جنف يجنف: إذا جاوز، قاله النحاس؛ و قيل: الجنف: الميل، و منه قول الأعشى:

تجانف عن حجر «١» اليمامۀ ناقتىو ما قصدت من أهلها لسوائكا

قال فى الصّحاح: الجنف: الميل، و كذا فى الكشاف. و قال لبيد:

إنّى امرؤ منعت أرومۀ عامرضيمى و قد جنفت علىّ خصومى

و قوله: فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ أى: أصلح ما وقع بين الورثۀ من الشقاق و الاضطراب بسبب الوصيۀ؛

(١). فى لسان العرب: «عن جوّ».

بإبطال ما فيه ضرار و مخالفة لما شرعه اللّه؛ و إثبات ما هو حق كالوصية فى قربة لغير وارث، و الضمير فى قوله:

بَيْنَهُمْ راجع إلى الورثة، و إن لم يتقدّم لهم ذكر، لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق؛ و قيل: راجع إلى الموصى لهم، و هم الأبوان و القرابة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنْ تَرَكَ خَيْراً قال: مالا. و أخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا.

و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و البيهقى فى سننه عن عروة، أن على بن أبى طالب دخل على مولى لهم فى الموت و له سبعمائة درهم أو ستّمائة درهم فقال: ألا أوصى؟ قال لا؟ إنما قال اللّه: إِنْ تَرَكَ خَيْراً و ليس لك كثير مال؛ فدع مالك لورثتك. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و البيهقى عن عائشة، أن رجلا قال لها: أريد أو أوصى قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: قال اللّه: إِنْ تَرَكَ خَيْراً و إن هذا شىء يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و البيهقى عن ابن عباس قال: إذا ترك الميت سبعمائة درهم فلا يوصى. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، عن الزهرى، قال: جعل اللّه الوصية حقا مما قل منه و مما كثر. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن قتادة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ذكر حديثا و فيه: «انظر قرابتك الذين يحتاجون و لا يرثون، فأوص لهم من مالك بالمعروف» و أخرجا أيضا عن طاوس قال: من أوصى لقوم و سمّاهم و ترك ذوى قرابته محتاجين انتزعت منهم وردت على قرابته. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد، و عبد بن حميد، و أبو داود فى الناسخ، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن محمد بن بشير عن ابن عباس قال: نسخت هذه الآية. و أخرج عنه من وجه آخر أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، أن هذه الآية نسخها قوله تعالى: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ «١» الآية. و أخرج عنه من وجه آخر ابن جرير، و ابن أبى حاتم؛ أنها منسوخة بآية الميراث. و أخرج عنه أبو داود فى سننه، و البيهقى مثله. و أخرج ابن جرير عنه أنه قال: فى الآية نسخ من يرث، و لم ينسخ الأقربين الذين لا يرثون. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عمر أنه قال: هذه الآية نسختها آية الميراث. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ بَدَّلَهُ الآية، قال: و قد وقع أجر الموصى على اللّه و برىء من إثمه، و قال فى قوله: جَنَفاً يعنى: إثما فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ قال: إذا أخطأ الميت فى وصيته أو حاف فيها فليس على الأولياء حرج أن يردوا خطأه إلى الصواب. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه لكنه فسر الجنف بالميل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

جَنَفاً أَوْ إِثْماً قال: خطأ أو عمدا. و أخرج سعيد بن منصور و البيهقى فى سننه عنه قال: الجنف فى الوصية و الإضرار فيها من الكبائر.

(١). النساء: ٧.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)

قد تقدّم معنى كُتِبَ و لا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها اللّه سبحانه على هذه الأمة. و الصيام أصله في اللغة: الإمساك، و ترك التنقل من حال إلى حال، و يقال للصمت: صوم، لأنه إمساك عن الكلام، و منه: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً «١» أي: إمساكا عن الكلام، و منه قول النابغة:

خيل صيام و خيل غير صائمةتحت العجاج و خيل تعلك اللجما

أي: خيل ممسكة عن الجري و الحركة. و هو في الشرع: الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. و قوله: كَما كُتِبَ أي: صوما كما كتب، على أن الكاف في موضع نصب على النعت، أو: كتب عليكم الصيام مشبها ما كتب، على أنه في محل نصب على الحال. و قال بعض النحاة: إن الكاف في موضع رفع نعتا للصيام، و هو ضعيف؛ لأن الصيام معرّف باللام، و الضمير المستتر في قوله: كَما كُتِبَ راجع إلى ما. و اختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو؟ فقيل: هو قدر الصوم و وقته، فإن اللّه كتب على اليهود و النصارى صوم رمضان فغيّروا؛ و قيل: هو الوجوب، فإن اللّه أوجب على الأمم الصيام؛ و قيل: هو الصفة، أي: ترك الأكل و الشرب و نحوهما في وقت؛ فعلى الأوّل معناه: أن اللّه كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم؛ و على الثاني: أن اللّه أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم؛ و على الثالث: أن اللّه سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم. و قوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ بالمحافظة عليها؛ و قيل: تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة، لأنها تكسر الشهوة؛ و تضعف دواعي المعاصي، كما ورد في الحديث أنه جنّة و أنه و جاء. و قوله: أَيَّاماً منتصب على أنه مفعول ثان لقوله: كُتِبَ قاله الفراء: و قيل: إنه منتصب على أنه ظرف، أي: كتب عليكم الصيام في أيام. و قوله: مَعْدُوداتٍ أي: معينات بعدد معلوم، و يحتمل أن يكون في هذا الجمع- لكونه من جموع القلة- إشارة إلى تقليل الأيام. و قوله:

فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً قيل: للمريض حالتان: إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة، و إن كان يطيقه مع تضرّر و مشقة كان رخصة، و بهذا قال الجمهور، و قوله: عَلى سَفَرٍ اختلف أهل العلم في السفر المبيح للإفطار؛ فقيل: مسافة قصر الصلاة، و الخلاف في قدرها معروف، و به قال الجمهور، و قال غيرهم بمقادير لا دليل عليها. و الحقّ أن ما صدق عليه مسمّى السفر؛ فهو الذي يباح عنده الفطر، و هكذا ما صدق عليه مسمّى المرض؛ فهو الذي يباح عنده الفطر. و قد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة.

و اختلفوا في الأسفار المباحة، و الحق أن الرخصة ثابتة فيه، و كذا اختلفوا في سفر المعصية. و قوله: فَعِدَّةٌ أي: فعليه عدّة، أو فالحكم عدّة، أو فالواجب عدّة؛ و العدّة: فعلة من العدد، و هو بمعنى المعدود. و قوله:

مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ قال سيبويه: و لم ينصرف لأنه معدول به عن الآخر، لأن سبيل هذا الباب أن يأتي بالألف

---

(١). مريم: ٢٦.

و اللام. و قال الكسائي: هو معدول به عن آخر؛ و قيل: إنه جمع أخرى، و ليس في الآية ما يدل على وجوب التتابع في القضاء. و

قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ قراءة الجمهور بكسر الطاء و سكون الياء، و أصله يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء، و انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. و قرأ حميد على الأصل من غير إعلال.

و قرأ ابن عباس بفتح الطاء مخففة و تشديد الواو، أي: يكلّفونه. و روى ابن الأنبارى عن ابن عباس:

يُطِيقُونَهُ بفتح الياء و تشديد الطاء و الياء مفتوحتين، بمعنى: يطيقونه. و روى عن عائشة و ابن عباس و عمرو بن دينار و طاوس أنهم قرءوا «يطّيّقونه» بفتح الياء و تشديد الطاء مفتوحة. و قرأ أهل المدينة و الشام فِدْيَةٌ طَعامُ مضافا. و قرءوا أيضا مساكين و قرأ ابن عباس: طَعامُ مِسْكِينٍ و هى قراءة أبى عمرو و عاصم و حمزة و الكسائى. و قد اختلف أهل العلم فى هذه الآية، هل هى محكمة أو منسوخة؛ فقيل: إنها منسوخة، و إنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام لأنه شقّ عليهم، فكان من أطعم كلّ يوم مسكينا ترك الصوم و هو يطيقه، ثم نسخ ذلك، و هذا قول الجمهور. و روى عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ، و أنها رخصة للشيوخ و العجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة، و هذا يناسب قراءة التشديد، أي: يكلفونه كما مرّ. و الناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ «١». و قد اختلفوا فى مقدار الفدية؛ فقيل: كل يوم صاع من غير البرّ، و نصف صاع منه؛ و قيل:

مدّ فقط. و قوله: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ قال ابن شهاب: معناه: من أراد الإطعام مع الصوم.

و قال مجاهد: معناه: من زاد فى الإطعام على المدّ؛ و قيل: من أطعم مع المسكين مسكينا آخر. و قرأ عيسى ابن عمرو، و يحيى بن وثاب، و حمزة، و الكسائى «يطوّع» مشدّدا مع جزم الفعل على معنى يتطوّع، و قرأ الباقون بتخفيف الطاء على أنه فعل ماض. و قوله: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ معناه: أن الصيام خير لهم من الإفطار مع الفدية، و كان هذا قبل النسخ؛ و قيل: معناه: و أن تصوموا فى السفر و المرض غير الشاق.

و قد أخرج أحمد، و أبو داود، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن معاذ بن جبل قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، و أحيل الصيام ثلاثة أحوال، فذكر أحوال الصلاة ثم قال: و أما أحوال الصيام، فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، و صام عاشوراء، ثم إن اللّه سبحانه فرض عليه الصيام و أنزل عليه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ إلى قوله وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فكان من شاء صام، و من شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه، ثم إن اللّه أنزل الآية الأخرى فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ فأثبت اللّه صيامه على الصحيح المقيم، و رخّص فيه للمريض و المسافر، و ثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام، ثم ذكر تمام الحديث.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قال: يعنى بذلك أهل الكتاب. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الطبرانى عن دغفل بن حنظلة، عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان على النّصارى صوم شهر رمضان، فمرض ملكهم فقالوا: لئن شفاه اللّه لنزيدنّ عشرا، ثم كان آخر فأكل لحما فأوجع فاه فقال: لئن شفاه اللّه ليزيدنّ سبعة، ثم كان عليهم ملك آخر فقال: ما ندع من هذه الثلاثة

---

(١). البقرة: ١٨٥.

الأيام شيئا أن نتمّها و نجعل صومنا فى الربيع، ففعل فصارت خمسين يوما». و أخرج ابن جرير عن السدّى فى قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ قال: تتقون من الطعام و الشراب و النساء مثل ما اتقوا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحو ما سبق عن معاذ. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«صيام رمضان كتبه اللّه على الأمم قبلكم». و أخرج البخارى و مسلم عن عائشة قالت: كان عاشوراء صياما، فلما أنزل رمضان؛ كان من شاء صام و من شاء أفطر. و أخرج عبد بن حميد أن ابن عباس قال:

إن قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ قد نسخت. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه نحو ذلك، و زاد أن الناسخ لها قوله تعالى: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ الآية. و أخرج نحو ذلك عنه أبو داود فى ناسخه.

و أخرج نحوه عنه أيضا سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و أبو داود، و ابن جرير، و ابن المنذر و غيرهم.

و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث سلمة بن الأكوع قال: لما نزلت هذه الآية وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ كان من شاء صام، و من شاء أن يفطر و يفتدى فعل، حتى نزلت هذه الآية بعدها فنسختها فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ. و أخرج البخارى عن ابن أبى ليلى قال: حدّثنا أصحاب محمد، فذكر نحوه. و أخرج ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ قال: الشيخ الكبير الذى لا يستطيع الصوم فيفطر و يطعم مكان كل يوم مسكينا. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و الدارقطنى، و البيهقى، أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم عاما قبل موته، فصنع جفنة من ثريد و دعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و الدارقطنى و صحّحه عن ابن عباس؛ أنه قال لأم ولد له حامل أو مرضعة: أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصيام، عليك الطعام، لا قضاء عليك. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن أبى حاتم، و الدارقطنى عن ابن عمر، أن إحدى بناته أرسلت تسأله عن صوم رمضان و هى حامل، قال: تفطر و تطعم كلّ يوم مسكينا. و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً قال: أطعم مسكينين. و أخرج عبد بن حميد عن طاوس فى قوله: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً قال: إطعام مساكين. و أخرج ابن جرير عن ابن شهاب فى قوله: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ أى: أن الصوم خير لكم من الفدية. و قد ورد فى فضل الصوم أحاديث كثيرة جدا.

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٥]

شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

رَمَضانَ مأخوذ من: رمض الصائم يرمض: إذا احترق جوفه من شدة العطش، و الرمضاء ممدود:

شدّة الحرّ، و منه: الحديث الثابت فى الصحيح: «صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال» أى أحرقت الرمضاء أجوافها. قال الجوهرى:

و شهر رمضان يجمع على رمضانات و أرمضاء- يقال: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور

فتح القدير، ج ١، ص: ٢١٠

عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام الحرّ فسمى بذلك، و قيل: إنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب، أى: يحرقها بالأعمال الصالحة. و قال الماوردى: إن اسمه فى الجاهلية ناتق، و أنشد للمفضّل:

و فى ناتق أجلت لدى حومة الوغى و ولّت على الأدبار فرسان خثعما

و إنما سمّوه بذلك؛ لأنه كان ينتقهم لشدّته عليهم، و شهر: مرتفع فى قراءة الجماعة على أنه مبتدأ خبره الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: المفروض عليكم صومه شهر رمضان، و يجوز أن يكون بدلا من الصيام المذكور فى قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ و قرأ مجاهد، و شهر ابن حوشب: بنصب الشهر، و رواها هارون الأعور عن أبى عمرو، و هو منتصب بتقدير: الزموا، أو صوموا. قال الكسائى و الفرّاء: إنه منصوب بتقدير فعل: كتب عليكم الصيام، و أن تصوموا. و أنكر ذلك

النحاس و قال: إنه منصوب على الإغراء. و قال الأخفش: إنه نصب على الظرف، و منع الصرف: للألف و النون الزائدتين. قوله: أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ قيل: أنزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم كان جبريل ينزل به نجما نجما. و قيل: أنزل فيه أوّله؛ و قيل: أنزل فى شأنه القرآن، و هذه الآيۀ أعمّ من قوله تعالى:

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ «١» و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «٢» يعنى ليلۀ القدر. و القرآن: اسم لكلام اللّه تعالى، و هو بمعنى: المقروء، كالمشروب سمى: شرابا، و المكتوب سمى: كتابا؛ و قيل: هو مصدر قرأ يقرأ، و منه قول الشاعر:

ضحّوا بأشمط عنوان السّجود به يقطّع اللّيل تسبيحا و قرآنا

أى: قراءۀ، و منه قوله تعالى: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ «٣» أى: قراءۀ الفجر. و قوله: هُدىً لِلنَّاسِ منتصب على الحال، أى: هاديا لهم. و قوله: وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى من عطف الخاص على العام؛ إظهارا لشرف المعطوف بإفراده بالذكر، لأن القرآن يشمل محكمه و متشابهه، و البينات تختصّ بالمحكم منه.

و الفرقان: ما فرق بين الحق و الباطل، أى: فصل، قوله: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ أى: حضر و لم يكن فى سفر بل كان مقيما، و الشهر منتصب على أنه ظرف، و لا يصح أن يكون مفعولا به. قال جماعۀ من السلف و الخلف: إن من أدركه شهر رمضان مقيما غير مسافر لزمه صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام استدلالا بهذه الآيۀ. و قال الجمهور: إنه إذا سافر أفطر، لأن معنى الآيۀ: إن حضر الشهر من أوّله إلى آخره، لا إذا حضر بعضه و سافر، فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره، و هذا هو الحقّ، و عليه دلت الأدلۀ الصحيحۀ من السنۀ. و قد كان يخرج صلّى اللّه عليه و سلّم فى رمضان فيفطر. و قوله: فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ قد تقدّم تفسيره. و قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ فيه أن هذا مقصد من مقاصد الربّ سبحانه، و مراد من مراداته فى جميع أمور الدين، و مثله قوله تعالى: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «۴» و قد ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه كان يرشد إلى التيسير، و ينهى عن التعسير، كقوله

---

(١). القدر: ١.

(٢). الدخان: ٣.

(٣). الإسراء: ٧٨.

(۴). الحج: ٧٨.

صلّى اللّه عليه و سلم: «يسّروا و لا تعسّروا و بشّروا و لا تنفّروا» و هو فى الصحيح. و اليسر السهل الذى لا عسر فيه.

و قوله: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ الظاهر أنه معطوف على قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ أى: يريد بكم اليسر، و يريد إكمالكم للعدّۀ، و تكبيركم؛ و قيل: إنه متعلق بمحذوف تقديره: رخّص لكم هذه الرخصۀ لتكملوا العدۀ، و شرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكملوا العدۀ. و قد ذهب إلى الأوّل البصريون قالوا:

و التقدير: يريد لأن تكملوا العدّۀ، و مثله: قول كثير أبو صخر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنّما تمثّل لى ليلى بكلّ سبيل

و ذهب الكوفيون إلى الثانى؛ و قيل: الواو مقحمۀ، و قيل: إن هذه اللام لام الأمر، و الواو لعطف الجملۀ التى بعدها على الجملۀ التى قبلها. و قال فى الكشاف: إن قوله: لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ علۀ للأمر بمراعاۀ العدّۀ وَ لِتُكَبِّرُوا علۀ ما علم من كيفيۀ القضاء و الخروج عن عهدۀ الفطر وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ علۀ الترخيص و التيسير، و المراد بالتكبير هنا: هو قول القائل: اللّه أكبر. قال الجمهور: و معناه

الحضّ على التكبير فى آخر رمضان. و قد وقع الخلاف فى وقته، فروى عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر، و قيل: إذا رأوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة، و قيل: إلى خروج الإمام؛ و قيل: هو التكبير يوم الفطر. قال مالك: هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام، و به قال الشافعى. و قال أبو حنيفة: يكبّر فى الأضحى؛ و لا يكبّر فى الفطر. و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ قد تقدّم تفسيره.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن عدىّ، و البيهقى فى سننه عن أبى هريرة مرفوعا و موقوفا: «لا تقولوا: رمضان، فإنّ رمضان اسم من أسماء اللّه تعالى، و لكن قولوا شهر رمضان». و قد ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «من صام رمضان إيمانا و احتسابا؛ غفر له ما تقدّم من ذنبه». و ثبت عنه أنه قال: «من قام رمضان إيمانا و احتسابا، غفر له ما تقدّم من ذنبه». و ثبت عنه أنه قال: «شهرا عيد لا ينقصان: رمضان و ذو الحجّة». و قال: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة» و هذا كله فى الصحيح. و ثبت عنه فى أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول: رمضان، بدون ذكر الشهر. و أخرج ابن مردويه، و الأصبهانى فى الترغيب عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّما سمّى رمضان؛ لأنّ رمضان يرمض الذنوب».

و أخرجا أيضا عن عائشة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عمر نحوه. و قد ورد فى فضل رمضان أحاديث كثيرة، و أخرج أحمد، و ابن جرير، و محمد بن نصر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال «أنزلت صحف إبراهيم فى أوّل ليلة من رمضان، و أنزل الزّبور لثمانى عشرة خلت من رمضان، و أنزل اللّه القرآن لأربع و عشرين خلت من رمضان».

و أخرج أبو يعلى، و ابن مردويه عن جابر مثله، لكنه قال: «و أنزل الزّبور لاثنى عشر» و زاد: «و أنزلت التوراة لست خلون من رمضان، و أنزل الإنجيل لثمانى عشرة خلت من رمضان». و أخرج محمد بن نصر عن عائشة نحو قول جابر، إلا أنها لم تذكر نزول القرآن. و أخرج ابن جرير، و محمد بن نصر، و ابن أبى

حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن مقسم قال: سأل عطية بن الأسود ابن عباس فقال: إنه قد وقع فى قلبى الشكّ فى قول اللّه: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ «۱» و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «۲» فقال ابن عباس: إنه أنزل فى ليلة القدر و فى رمضان و فى ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم فى الشهور و الأيام. و أخرج محمد بن نصر، و الطبرانى، و ابن مردويه، و الحاكم و صححه، و البيهقى، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس قال: نزل القرآن جملة لأربعة و عشرين من رمضان، فوضع فى بيت العزّة فى السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزله على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ترتيلا. و أخرج ابن جرير عنه أنه قال: «ليلة القدر: هى اللّيلة المباركة، و هى فى رمضان، أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور». و أخرج ابن المنذر عن ابن جرير فى قوله: هُدىً لِلنَّاسِ قال: يهتدون به وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى قال: فيه الحلال و الحرام و الحدود.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ قال: هو إهلاله بالدار. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن علىّ قال: من أدرك رمضان و هو مقيم ثم سافر فقد لزمه الصوم لأن اللّه يقول: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ و أخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ قال: اليسر: الإفطار فى السفر، و العسر: الصوم فى السفر. و أخرج ابن جرير عن الضحاك، أنه قال: عدة ما أفطر المريض فى السفر. و قد صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال

«صوموا لرؤيته و أفطروا لرؤيته، فإن غمّ عليكم فأكملوا العدّة ثلاثين يوما». و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: حقّ على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوّال أن يكبّروا اللّه حتى يفرغوا من عيدهم، لأن اللّه يقول: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة عن ابن مسعود أنه كان يكبّر:

اللّه أكبر، اللّه أكبر، لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر، اللّه أكبر، و للّه الحمد. و أخرج ابن أبى شيبة، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يكبّر: اللّه أكبر كبيرا، اللّه أكبر كبيرا، اللّه أكبر و أجلّ و للّه الحمد، اللّه أكبر على ما هدانا.

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٦]

وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

قوله: وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي يحتمل أن السؤال عن: القرب و البعد، كما يدل عليه قوله: فَإِنِّي قَرِيبٌ و يحتمل أن السؤال عن: إجابة الدعاء، كما يدلّ على ذلك قوله: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ و يحتمل أن السؤال عما هو أعمّ من ذلك، و هذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذى سيأتى بيانه. و قوله:

فَإِنِّي قَرِيبٌ قيل: بالإجابة، و قيل: بالعلم؛ و قيل: بالإنعام. و قال فى الكشاف: إنه تمثيل لحاله فى سهولة إجابته لمن دعاه، و سرعة إنجاحه حاجة من سأله؛ بمن قرب مكانه، فإذا دعى أسرعت تلبيته. و معنى

---

(١). القدر: ١.

(٢). الدخان: ٣.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢١٣

الإجابة: هو معنى ما فى قوله تعالى: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ «١» و قيل: معناه: أقبل عبادة من عبدنى بالدعاء، لما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من أن الدعاء هو العبادة، كما أخرجه أبو داود و غيره من حديث النعمان بن بشير، و الظاهر أن الإجابة هى باقية على معناها اللغوى؛ و كون الدعاء من العبادة لا يستلزم أن الإجابة هى القبول للدّعاء، أى: جعله عبادة متقبلة؛ فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة. و المراد: أنه سبحانه يجيب بما شاء و كيف شاء، فقد يحصل المطلوب قريبا، و قد يحصل بعيدا، و قد يدفع عن الداعى من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه، و هذا مقيد بعدم اعتداء الداعى فى دعائه، كما فى قوله سبحانه: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ «٢» و من الاعتداء: أن يطلب ما لا يستحقه و لا يصلح له، كمن يطلب منزلة فى الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء أو فوقها. و قوله: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي أى: كما أجبتهم إذا دعونى؛ فليستجيبوا لى فيما دعوتهم إليه من الإيمان و الطاعات، و قيل: معناه: أنهم يطلبون إجابة اللّه سبحانه لدعائهم باستجابتهم له، أى: القيام بما أمرهم به، و الترك لما نهاهم عنه. و الرشد: خلاف الغيّ، رشد يرشد رشدا، و رشدا. قال الهروى:

الرشد و الرشد و الرّشاد، الهدى و الاستقامة. قال: و منه هذه الآية.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جدّه، قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه! أ قريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت هذه الآية. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن الحسن قال:

سأل أصحاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أين ربّنا؟ فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج ابن مردويه عن أنس أنه سأل أعرابيّ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أين ربّنا؟ فنزلت. و أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تعجزوا

عن الدعاء، فإن اللّه أنزل عليّ: ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكَمْ فقال رجل: يا رسول اللّه! ربنا يسمع الدعاء أم كيف ذلك؟ فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عطاء أنه بلغه لما نزلت: ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ قالوا: لو نعلم أيّ ساعة ندعو، فنزلت.

و قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى سعيد أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال «ما من مسلم يدعو اللّه بدعوة ليس فيها إثم و لا قطيعة رحم إلا أعطاه اللّه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجّل له دعوته، و إمّا أن يدّخرها له فى الآخرة، و إما أن يصرف عنه من السّوء مثلها». و ثبت فى الصحيح أيضا من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل، يقول: دعوت فلم يستجب لى». و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس فى قوله: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى قال: ليدعونى وَ لْيُؤْمِنُوا بِى أى: أنهم إذا دعونى استجبت لهم.

و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى أى: فليطيعونى. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن الربيع بن أنس فى قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ قال: يهتدون.

---

(۱). غافر: ۶۰.

(۲). الأعراف: ۵۵.

فتح القدير، ج۱، ص: ۲۱۴

[سورة البقرة (۲): آية ۱۸۷]

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَ لا تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۸۷)

قوله: أُحِلَّ لَكُمْ فيه دلالة على أن هذا الذى أحلّه اللّه كان حراما عليهم، و هكذا كان كما يفيده السبب لنزول الآية و سيأتى. و الرفث: كناية عن الجماع. قال الزجّاج: الرّفث: كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، و كذا قال الأزهرى، و منه قول الشاعر:

و يرين من أنس الحديث زوانياو بهنّ عن رفث الرّجال نفار

و قيل: الرفث: أصله قول الفحش، رفث و أرفث: إذا تكلم بالقبيح، و ليس هو المراد هنا، و عدّى الرفث بإلى لتضمينه معنى الإمضاء، و جعل النساء لباسا للرجال، و الرجال لباسا لهنّ لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع، كالامتزاج الذى يكون بين الثوب و لابسه. قال أبو عبيدة و غيره: يقال للمرأة: لباس و فراش و إزار. و قيل: إنما جعل كلّ واحد منهما لباسا للآخر؛ لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس.

و قوله: تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ أى: تخونونها بالمباشرة فى ليالى الصوم، يقال خان و اختان بمعنى، و هما من الخيانة. قال القتبى: أصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شىء فلا يؤدى الأمانة فيه. انتهى. و إنما سمّاهم:

خائنين لأنفسهم، لأن ضرر ذلك عائد عليهم و قوله: فَتابَ عَلَيْكُمْ يحتمل معنيين: أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، و الآخر التخفيف عنهم بالرخصة و الإباحة كقوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ «۱» يعنى: خفف عنكم، و كقوله: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ

فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ «٢» يعنى:
تخفيفا، و هكذا قوله: وَ عَفا عَنْكُمْ يحتمل: العفو من الذنب، و يحتمل: التوسعة و التسهيل. و قوله:
وَ ابْتَغُوا قيل: هو الولد، أى: ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح و هو حصول النسل، و قيل: المراد: ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه، قاله الزجاج و غيره؛ و قيل: ابتغوا الرخصة و التوسعة؛ و قيل: المراد: ابتغوا ما كتب لكم من الإماء و الزوجات؛ و قيل غير ذلك مما لا يفيده النظم القرآنى، و لا دلّ عليه دليل آخر، و قرأ الحسن البصرى: و اتبعوا بالعين المهملة من الإتباع، و قوله: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ هو تشبيه بليغ، و المراد هنا بالخيط الأبيض: هو المعترض فى الأفق، لا الذى هو كذنب السرحان، فإنه الفجر الكذاب الذى لا يحلّ شيئا و لا يحرمه.
و المراد بالخيط الأسود: سواد الليل، و التبين: أن يمتاز أحدهما عن الآخر، و ذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر. و قوله: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ فيه التصريح بأن للصوم غاية هى الليل، فعند إقبال الليل من المشرق، و إدبار النهار من المغرب، يفطر الصائم و يحلّ له الأكل و الشرب و غيرهما. و قوله: وَ لا تُباشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ قيل: المراد بالمباشرة هنا الجماع؛ و قيل تشمل التقبيل و اللمس إذا كان لشهوة، لا إذا كانا لغير شهوة، فهما جائزان كما قاله عطاء و الشافعى و ابن المنذر و غيرهم، و على

---

(١). المزمل: ٢٠.

(٢). النساء: ٩٢.

هذا يحتمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشر و لا يقبّل، فتكون هذا الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكونا لشهوة، و الاعتكاف فى اللغة: الملازمة، يقال: عكف على الشى‌ء: إذا لازمه، و منه قول الشاعر:
و ظلّ بنات اللّيل حولى عكّفاعكوف البواكى حولهنّ «١» صريع
و لما كان المعتكف يلازم المسجد قيل له: عاكف فى المسجد، و معتكف فيه، لأنه يحبس نفسه لهذه العبادة فى المسجد، و الاعتكاف فى الشرع: ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص. و قد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب، و على أنه لا يكون إلا فى مسجد، و للاعتكاف أحكام مستوفاة فى كتب الفقه و شروح الحديث. و قوله: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أى: هذه الأحكام حدود اللّه، و أصل الحدّ: المنع، و منه سمى البوّاب و السجّان: حدادا، و سميت الأوامر و النواهى: حدود اللّه، لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، و أن يخرج عنها ما هو منها، و من ذلك سميت الحدود: حدودا؛ لأنها تمنع أصحابها من العود. و معنى النهى عن قربانها: النهى عن تعدّيها بالمخالفة لها؛ و قيل: إن حدود اللّه هى محارمه فقط، و منها المباشرة من المعتكف، و الإفطار فى رمضان لغير عذر، و غير ذلك مما سبق النهى عنه، و معنى النهى عن قربانها على هذا واضح. و قوله كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ أى: كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية إلى الحق. و قد أخرج البخارى، و أبو داود، و النسائى، و غيرهم، عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته و لا يومه حتى يمسى، و إنّ قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما، فكان يومه ذلك يعمل فى أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت:
لا، و لكن أنطلق فأطلب لك، فغلبته عينه فنام و جاءت امرأته، فلما رأته نائما قالت: خيبة لك أ نمت؟ فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت هذه الآية أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ إلى قوله مِنَ الْفَجْرِ ففرحوا بها فرحا شديدا.

و أخرج البخارى أيضا من حديثه قال: لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلّه، فكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل اللّه: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ الآية. و قد روى فى بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان الناس أوّل ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام، ثم قال: و إن عمر بن الخطاب أتى امرأته، ثم أتى رسول اللّه فقال:

يا رسول اللّه! إنى أعتذر إلى اللّه و إليك من نفسى، و ذكر ما وقع منه، فنزل قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه قال: إن المسلمين كانوا فى شهر رمضان، إذا صلّوا العشاء حرم عليهم النساء و الطعام و الشراب إلى مثلها من القابلة، ثم إن ناسا من المسلمين أصابوا النساء و الطعام

---

(١). فى القرطبى ٢/ ٣٣٢: «بينهنّ».

فى رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: الرفث: الجماع. و أخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: الدخول و التغشى و الإفضاء و المباشرة و الرّفث و اللّمس و المسّ هذا الجماع، غير أن اللّه حيى كريم يكنّى بما شاء عما شاء. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله: هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ قال: هنّ سكن لكم، و أنتم سكن لهنّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ قال: تظلمون أنفسكم.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَ قال: انكحوهنّ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ قال: الولد. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد و قتادة و الضحاك مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ قال: ليلة القدر. و أخرج البخارى فى تاريخه عن أنس مثله. و أخرج عبد الرزاق عن قتادة قال: وَ ابْتَغُوا الرخصة التى كتب اللّه لكم. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سهل بن سعد.

قال: أنزلت وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ و لم ينزل مِنَ الْفَجْرِ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض و الخيط الأسود، فلا يزال يأكل و يشرب حتى يتبيّن له رؤيتهما، فأنزل اللّه مِنَ الْفَجْرِ فعلموا أنه يعنى الليل و النهار. و فى الصحيحين و غيرهما عن عدىّ بن حاتم، أنه جعل تحت و ساده خيطين أبيض و أسود، و جعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود؛ فغدا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فقال: «إنّ وسادك إذا لعريض، إنّما ذلك بياض النّهار من سواد اللّيل». و فى رواية فى البخارى و غيره. أنه قال له: «إنك لعريض القفا». و فى رواية عند ابن جرير و ابن أبى حاتم: أنه ضحك منه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن الضحّاك قال: كانوا يجامعون و هم معتكفون حتى نزلت: وَ لا تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن الربيع نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: «إذا جامع المعتكف بطل اعتكافه و يستأنف». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ قال: يعنى طاعة اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال حُدُودُ اللَّهِ معصية اللّه: يعنى المباشرة فى الاعتكاف.

و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل أنها الجماع. و أخرج أيضا عن سعيد بن جبير فى قوله: كَذلِكَ يعنى: هكذا يبين اللّه.

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٨]

وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

فتح القدير، ج ١، ص: ٢١٧

هذا يعمّ جميع الأمة و جميع الأموال، لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، و مأكول بالحلّ لا بالإثم، و إن كان صاحبه كارها كقضاء الدين إذا امتنع منه من هو عليه، و تسليم ما أوجبه اللّه من الزكاة و نحوها، و نفقة من أوجب الشرع نفقته. و الحاصل: أن ما لم يبح الشرع أخذه من مالكه؛ فهو مأكول بالباطل، و إن طابت به نفس مالكه، كمهر البغيّ، و حلوان الكاهن، و ثمن الخمر. و الباطل فى اللغة: الذاهب الزائل. و قوله: وَ تُدْلُوا مجزوم عطفا على تأكلوا، فهو من جملة المنهى عنه، يقال: أدلى الرجل بحجته؛ أو بالأمر الذى يرجو النجاح به؛ تشبيها بالذى يرسل الدلو فى البئر، يقال: أدلى دلوه: أرسلها، و المعنى: أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل و بين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة، و فى هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، و لا يحرم الحلال، من غير فرق بين الأموال و الفروج، فمن حكم له القاضى بشى‌ء؛ مستندا فى حكمه إلى شهادة زور؛ أو يمين فجور؛ فلا يحلّ له أكله، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، و هكذا إذا رشى الحاكم فحكم له بغير الحق؛ فإنه من أكل أموال الناس بالباطل. و لا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلّل الحرام و لا يحرّم الحلال.

و قد روى عن أبى حنيفة ما يخالف ذلك، و هو مردود، لكتاب اللّه تعالى و لسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، كما فى حديث أم سلمة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّكم تختصمون إليّ و لعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقّ أخيه بشى‌ء فلا يأخذه فإنّما أقطع له قطعة من النار» و هو فى الصحيحين و غيرهما. و قوله: فَرِيقاً أى: قطعة أو جزءا أو طائفة، فعبّر بالفريق عن ذلك، و أصل الفريق: القطعة من الغنم تشذ عن معظمها. و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: لتأكلوا أموال فريق من الناس بالإثم، و سمى الظلم و العدوان: إثما، باعتبار تعلقه بفاعله. و قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى:

حال كونكم عالمين أن ذلك باطل ليس من الحق فى شى‌ء، و هذا أشدّ لعقابهم و أعظم لجرمهم.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ الآية، قال: هذا فى الرجل يكون عليه مال و ليس عليه بينة، فيجحد المال، و يخاصم إلى الحكام، و هو يعرف أن الحق عليه. و روى سعيد بن منصور، و عبد بن حميد عن مجاهد قال: معناها: لا تخاصم و أنت تعلم أنك ظالم. و أخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أن امرأ القيس بن عابس و عبدان بن أشوع الحضرمى اختصما فى أرض، و أراد امرؤ القيس أن يحلف، فنزلت: وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ الآية.

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٩]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ

أَبْوابِها وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)
قوله: يَسْئَلُونَكَ سيأتى بيان من هم السائلون له صلّى اللّه عليه و سلم، و الأهلة: جمع هلال، و جمعها: باعتبار هلال كل شهر، أو كل شهر، قال الأصمعى: هو هلال حتى يستدير- و قيل: هو هلال حتى ينير

بضوئه السماء و ذلك ليلة السابع. و إنما قيل له: هلال، لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته، و منه استهلّ الصبى: إذا صاح، و استهلّ وجهه و تهلّل: إذا ظهر فيه السرور. قوله: قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ فيه بيان وجه الحكمة فى زيادة الهلال و نقصانه، و أن ذلك لأجل بيان المواقيت التى يوقت الناس عباداتهم؛ و معاملاتهم بها، كالصوم، و الفطر، و الحج، و مدّة الحمل، و العدّة و الإجارات، و الأيمان و غير ذلك، و مثله قوله تعالى: لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ* «١» و المواقيت: جمع الميقات، و هو الوقت. و قراءة الجمهور: وَ الْحَجِ بفتح الحاء. و قرأ ابن أبى إسحاق بكسرها فى جميع القرآن. قال سيبويه: الحج بالفتح كالردّ و الشدّ، و بالكسر كالذكر: مصدران بمعنى؛ و قيل: بالفتح مصدر، و بالكسر الاسم. و إنما أفرد سبحانه الحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، و لا يجوز فيه النسىء عن وقته، و لعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها. و قد جعل بعض علماء المعانى هذا الجواب، أعنى قوله: قُلْ هِيَ مَواقِيتُ من الأسلوب الحكيم، و هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب، تنبيها على أنه الأولى بالقصد، و وجه ذلك: أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها و نقصانها، فأجيبوا بالحكمة التى كانت تلك الزيادة و النقصان لأجلها، لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل، و أحق بأن يتطلع لعلمه. و قوله: وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة و الجواب بأنها مواقيت للناس و الحج: أن الأنصار كانوا إذا حجّوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه، لأنهم يعتقدون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه و بين السماء حائل، و كانوا يتسنمون ظهور بيوتهم. و قال أبو عبيدة: إن هذا من ضرب المثل، و المعنى: ليس البرّ أن تسألوا الجهال، و لكن البرّ التقوى، و اسألوا العلماء، كما تقول: أتيت هذا الأمر من بابه؛ و قيل: هو مثل فى جماع النساء، و أنهم أمروا بإتيانهنّ فى القبل لا فى الدبر؛ و قيل غير ذلك. و البيوت: جمع بيت؛ و قرئ بضم الباء و كسرها.
و قد تقدّم تفسير التقوى و الفلاح، و سبق أيضا أن التقدير فى مثل قوله: وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى و لكن البرّ برّ من اتقى.
و قد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قال:
نزلت فى معاذ بن جبل و ثعلبة بن غنمة. و هما رجلان من الأنصار قالا: يا رسول اللّه! ما بال الهلال يبدو و يطلع دقيقا مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم و يستوى و يستدير، ثم لا يزال ينقص و يدقّ حتى يعود كما كان؛ لا يكون على حال واحد؟ فنزلت: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ فى حلّ دينهم، و لصومهم، و لفطرهم، و عدد نسائهم، و الشروط التى إلى أجل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة قال:
سألوا النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن الأهلة لم جعلت؟ فأنزل اللّه يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ الآية، فجعلها لصوم المسلمين، و لإفطارهم، و لمناسكهم، و حجهم، و عدد نسائهم، و محل دينهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية نحوه.
و أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس نحوه، و قد روى ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «جعل اللّه الأهلّة مواقيت

---

(١). الإسراء: ١٢.

للنّاس فصوموا لرؤيته و أفطروا لرؤيته، فإن غمّ عليكم فعدّوا ثلاثين يوما». فذكر نحو حديث ابن عمر.

و أخرج البخارى و غيره عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فنزلت: وَ لَيْسَ الْبِرُّ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه عن جابر قال: كانت قريش تدعى الحمس، و كانوا يدخلون من الأبواب فى الإحرام، و كانت الأنصار و سائر العرب لا يدخلون من باب فى الإحرام، فبينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى بستان إذ خرج من بابه و خرج معه قطبة بن عامر الأنصارى، فقالوا: يا رسول اللّه! إن قطبة بن عامر رجل فاجر، و إنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت، فقال: إنى رجل أحمسى، قال: فإن دينى دينك، فأنزل اللّه الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و قد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة و التابعين.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٣]

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعا قبل الهجرة لقوله تعالى: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ «١» و قوله: وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا «٢» و قوله: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ «٣» و قوله: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ* «٤» و نحو ذلك مما نزل بمكة؛ فلما هاجر إلى المدينة أمره اللّه سبحانه بالقتال، و نزلت هذه الآية؛ و قيل إن أوّل ما نزل قوله تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا «٥» فلما نزلت الآية كان صلّى اللّه عليه و سلم يقاتل من قاتله، و يكفّ عمن كفّ عنه حتى نزل قوله تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ «٦» و قوله تعالى: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً «٧». و قال جماعة من السلف: إن المراد بقوله: الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ من عدا النساء و الصبيان و الرهبان و نحوهم، و جعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة، و المراد بالاعتداء عند أهل القول الأوّل: هو مقاتلة من يقاتل من الطوائف الكفرية. و المراد به على القول الثانى: مجاوزة قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقه ممن تقدّم ذكره. قوله: حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ يقال: ثقف يثقف ثقفا، و رجل ثقيف: إذا كان محكما لما يتناوله من الأمور. قال فى الكشّاف: و الثقف وجود على وجه الأخذ و الغلبة، و منه رجل ثقف: سريع الأخذ لأقرانه. انتهى. و منه قول حسان:

فإمّا يثقفنّ بنى لؤىّ جذيمة إنّ قتلهم دواء

قوله: وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ أى: مكة. قال ابن جرير: الخطاب للمهاجرين، و الضمير لكفار قريش. انتهى. و قد امتثل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أمر ربه، فأخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها اللّه عليه. قوله: وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ أى: الفتنة التى أرادوا أن يفتنوكم، و هى رجوعكم

---

(١). المائدة: ١٣.

(٢). المزمل: ١٠.

(٣). الغاشية: ٢٢.

(٤). المؤمنون: ٩٦.

(٥). الحج: ٣٩.

(۶). التوبة: ۹.

(۷). التوبة: ۳۶.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۲۰

إلى الكفر أشدّ من القتل؛ و قيل: المراد بالفتنة: المحنة التى تنزل بالإنسان فى نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه؛ و قيل: إن المراد بالفتنة: الشرك الذى عليه المشركون، لأنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم، فأخبرهم اللّه أن الشرك الذى هم عليه أشدّ مما يستعظمونه؛ و قيل: المراد: فتنتهم إياكم بصدّكم عن المسجد الحرام أشدّ من قتلكم إياهم فى الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم. و الظاهر أن المراد: الفتنة فى الدين بأىّ سبب كان، و على أىّ صورة اتفقت، فإنها أشدّ من القتل. قوله: وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الآية، اختلف أهل العلم فى ذلك، فذهبت طائفة إلى أنها محكمة، و أنه لا يجوز القتال فى الحرم إلّا بعد أن يتعدّى بالقتال فيه، فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له، و هذا هو الحق. و قالت طائفة: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۱» و يجاب عن هذا الاستدلال: بأن الجمع ممكن ببناء العام على الخاص، فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم، و مما يؤيد ذلك قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّها لم تحلّ لأحد قبلى، و إنّما أحلّت لى ساعة من نهار» و هو فى الصحيح. و قد احتج القائلون بالنسخ: بقتله صلّى اللّه عليه و سلّم لابن خطل، و هو متعلّق بأستار الكعبة، و يجاب عنه بأنه وقع فى تلك الساعة التى أحلّ اللّه لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم قوله: فَإِنِ انْتَهَوْا أى: عن قتالكم و دخلوا فى الإسلام. قوله: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية، هى: أن لا تكون فتنة و أن يكون الدين للّه، و هو الدخول فى الإسلام، و الخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل فى الإسلام و أقلع عن الشرك لم يحلّ قتاله، قيل: المراد بالفتنة هنا: الشرك، و الظاهر أنها الفتنة فى الدين على عمومها كما سلف. قوله: فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ أى: لا تعتدوا إلّا على من ظلم و هو من لم ينته عن الفتنة، و لم يدخل فى الإسلام، و إنما سمى جزاء الظالمين: عدوانا مشاكلة كقوله تعالى: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «۲» و قوله: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ «۳».

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله تعالى: وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الآية، أنها أوّل آية نزلت فى القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول اللّه يقاتل من قاتله، و يكفّ عمن كفّ عنه، حتى نزلت سورة براءة. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى هذه الآية قال: إن أصحاب محمد أمروا بقتال الكفار.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَعْتَدُوا يقول: لا تقتلوا النساء و الصبيان و الشيخ الكبير و لا من ألقى السلام و كفّ يده، فإن فعلتم فقد اعتديتم. و أخرج ابن أبى شيبة عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: إن هذه الآية فى النساء و الذرية. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله:

وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ يقول: الشرك أشدّ من القتل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال: ارتداد المؤمن إلى الوثن أشدّ عليه من أن يقتل محقّا. و أخرج ابن أبى شيبة، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ قال: حتى يبدؤوا بالقتال، ثم نسخ بعد ذلك، فقال: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، عن قتادة أن قوله: وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ و قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ «۴» فكان كذلك حتى نسخ هاتين الآيتين

---

(۱). التوبة: ۹.

(۲). الشورى: ۴۰.

(۳). البقرة: ۱۹۴.

(۴). البقرة: ۲۱۷.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۲۱

جميعا فى براءة قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۱» وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً «۲». و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: فَإِنِ انْتَهَوْا قال: فإن تابوا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ يقول: شرك باللّه وَ يَكُونَ الدِّينُ و يخلص التوحيد اللّه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى الآية، قال: الشرك. و قوله: فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ قال: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم. و أخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله: وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ يقول: حتى لا تعبدوا إلا اللّه.

و أخرج أيضا عن عكرمة فى قوله: فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ قال: هم من أبى أن يقول لا إله إلا اللّه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه.

[سورة البقرة (۲): آية ۱۹۴]

الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۱۹۴)

قوله: الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ أى: إذا قاتلوكم فى الشهر الحرام و هتكوا حرمته قاتلتموهم فى الشهر الحرام مكافأة لهم و مجازاة على فعلهم. وَ الْحُرُماتُ جمع حرمة، كالظلمات: جمع ظلمة؛ و إنما جمع الحرمات لأنه أراد الشهر الحرام، و البلد الحرام، و حرمة الإحرام، و الحرمة: ما منع الشرع من انتهاكه. و القصاص: المساواة، و المعنى: أن كل حرمة يجرى فيها القصاص، فمن هتك حرمة عليكم فلكم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصا، قيل: و هذا كان فى أوّل الإسلام ثم نسخ بالقتال؛ و قيل: إنه ثابت بين أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لم ينسخ، و يجوز لمن تعدّى عليه فى مال أو بدن أن يتعدّى بمثل ما تعدّى عليه، و بهذا قال الشافعى و غيره. و قال آخرون: إن أمور القصاص مقصورة على الحكام، و هكذا الأموال، لقوله صلّى اللّه عليه و سلم: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، و لا تخن من خانك» أخرجه الدارقطنى و غيره، و به قال أبو حنيفة، و جمهور المالكية، و عطاء الخراسانى، و القول الأوّل أرجح، و به قال ابن المنذر، و اختاره ابن العربى، و القرطبى، و حكاه الداودى عن مالك، و يؤيده: إذنه صلّى اللّه عليه و سلّم لامرأة أبى سفيان، أن تأخذ من ماله ما يكفيها و ولدها، و هو فى الصحيح، و لا أصرح و أوضح من قوله تعالى فى هذه الآية: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ «۳» و هذه الجملة فى حكم التأكيد للجملة الأولى، أعنى: قوله: وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ و إنما المكافأة اعتداء مشاكلة، كما تقدّم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما سار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم معتمرا فى سنة ستّ من الهجرة، و حبسه المشركون عن الدخول و الوصول إلى البيت، و صدّوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة، و هو شهر حرام، قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها فى السنة الآتية هو و من كان معه من المسلمين، و أقصّه اللّه منهم، نزلت فى ذلك هذه الآية: الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ و أخرج ابن جرير،

---

(۱). التوبة: ۹.

(۲). التوبة: ۳۶.

(۳). البقرة: ۱۹۴.

فتح القدير، ج۱، ص: ۲۲۲

و ابن أبى حاتم عن أبى العالية نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا. و أخرجا أيضا عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ الآية، و قوله:

وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ «۱» الآية، و قوله: وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ «۲» الآية، و قوله: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ «۳» الآية، قال: هذا و نحوه نزل بمكة، و المسلمون يومئذ قليل، ليس لهم سلطان يقهر المشركين، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم و الأذى، فأمر اللّه المسلمين من يتجازى منهم أن يتجازى بمثل ما أوتى إليه، أو يصبروا و يعفوا، فلما هاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى المدينة و أعزّ اللّه سلطانه، أمر اللّه المسلمين أن ينتهوا فى مظالمهم إلى سلطانهم، و لا يعدوا بعضهم على بعض كأهل الجاهلية، فقال: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً «۴» الآية.

يقول: ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه، و من انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف، قد عمل بحميّة الجاهلية و لم يرض بحكم اللّه تعالى. انتهى. و أقول: هذه الآية- التى جعلها ابن عباس رضى اللّه عنه ناسخة- مؤيدة لما تدل عليه الآيات- التى جعلها منسوخة- و مؤكدة له، فإن الظاهر من قوله:

فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً «۵» أنه جعل السلطان له، أى: جعل له تسلطا يتسلط به على القاتل، و لهذا قال:

فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ «۶» ثم لو سلّمنا أن معنى الآية كما قاله؛ لكان ذلك مخصصا للقتل من عموم الآيات المذكورة؛ لا ناسخا لها، فإنه لم ينص فى هذه الآية إلا على القتل وحده. و تلك الآيات شاملة له و لغيره، و هذا معلوم من لغة العرب التى هى المرجع فى تفسير كلام اللّه سبحانه.

[سورة البقرة (۲): آية ۱۹۵]

وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۹۵)

و فى هذه الآية الأمر بالإنفاق فى سبيل اللّه، و هو الجهاد، و اللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل اللّه، و الباء فى قوله: بِأَيْدِيكُمْ زائدة، و التقدير: و لا تلقوا أيديكم، و مثله: أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى و قال المبرد: بِأَيْدِيكُمْ أى: بأنفسكم، تعبيرا بالبعض عن الكل، كقوله: فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ و قيل: هذا مثل مضروب، يقال: فلان ألقى بيده فى أمر كذا: إذا استسلم، لأن المستسلم فى القتال يلقى سلاحه بيديه، فكذلك فعل كل عاجز فى أىّ فعل كان، و قال قوم: التقدير: و لا تلقوا أنفسكم بأيديكم. و التهلكة: مصدر من هلك يهلك هلاكا و هلكا و تهلكة؛ أى: لا تأخذوا فيما يهلككم. و للسلف فى معنى الآية أقوال سيأتى بيانها، و بيان سبب نزول الآية. و الحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة فى الدين أو الدنيا فهو داخل فى هذا، و به قال ابن جرير الطبرى. و من جملة ما يدخل تحت الآية؛ أن يقتحم الرجل فى الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص و عدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين، و لا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين رأوا السبب، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها، و هو ظنّ تدفعه لغة العرب. و قوله: وَ أَحْسِنُوا أى: فى الإنفاق فى الطاعة، أو أحسنوا الظن باللّه فى إخلافه عليكم.

---

(۱). الشورى: ۴۰.

(٢). الشورى: ۴١.

(٣). النحل: ١٢۶.

(۴). الإسراء: ٣٣.

(۵). الإسراء: ٣٣.

(۶). الإسراء: ٣٣.

و قد أخرج عبد بن حميد، و البخاري، و البيهقى فى سننه، عن حذيفة فى قوله: وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ قال: نزلت فى النفقة. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو ترك النفقة فى سبيل اللّه مخافة العيلة. و أخرج عبد بن حميد، و البيهقى عن ابن عباس نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن عكرمة نحوه أيضا.

و أخرج ابن جرير عن الحسن نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و البيهقى فى الشعب، عنه قال: هو البخل.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية قال: كان رجال يخرجون فى بعوث يبعثها الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم بغير نفقة، فإما يقطع لهم، و إما كانوا عيالا، فأمرهم اللّه أن يستنفقوا مما رزقهم اللّه و لا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة. و التهلكة: أن تهلك رجال من الجوع و العطش و من المشى. و قال لمن بيده فضل: وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ و أخرج عبد بن حميد، و أبو يعلى، و ابن جرير، و البغوى فى معجمه، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن حبان، و ابن قانع، و الطبرانى عن الضحّاك بن أبى جبير: أن الأنصار كانوا ينفقون فى سبيل اللّه، و يتصدّقون، فأصابتهم سنة، فساء ظنهم، و أمسكوا عن ذلك، فأنزل اللّه الآية.

و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود، و الترمذى و صحّحه، و النسائى، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أسلم بن عمران قال: كنا بالقسطنطينية، و على أهل مصر عقبة بن عامر، و على أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صفّ عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس و قالوا: سبحان اللّه يلقى بيده إلى التهلكة! فقام أبو أيوب صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أيّها الناس إنكم تؤوّلون الآية هذا التأويل. و إنما أنزلت فينا هذه الآية معشر الأنصار، إنا لما أعزّ اللّه دينه و كثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّا دون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: إن أموال الناس قد ضاعت، و إن اللّه قد أعزّ الإسلام و كثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل اللّه على نبيه يردّ علينا: وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فكانت التهلكة: الإقامة فى الأموال و إصلاحها و ترك الغزو. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و صحّحه، و البيهقى عن البراء بن عازب، قال فى تفسير الآية: هو الرجل يذنب الذنب فيلقى بيديه، فيقول: لا يغفر اللّه لى أبدا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن مردويه، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب، عن النعمان بن بشير نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير قال فى تفسير الآية: إنه القنوط. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: التهلكة: عذاب اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أنهم حاصروا دمشق، فأسرع رجل إلى العدوّ وحده، فعاب ذلك عليه المسلمون، و رفع حديثه إلى عمرو بن العاص فأرسل إليه فردّده، و قال:

قال اللّه: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ. و أخرج ابن جرير عن رجل من الصحابة فى قوله:

وَ أَحْسِنُوا قال: أدّوا الفرائض. و أخرج عبد بن حميد عن أبى إسحاق مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن عكرمة قال:

أحسنوا الظنّ باللّه.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۲۴

[سورة البقرة (۲): آية ۱۹۶]

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۹۶)

قوله: وَ أَتِمُّوا الْحَجَ اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج و العمرة للّه، فقيل: أداؤهما، و الإتيان بهما من دون أن يشوبهما شيء مما هو محظور، و لا يخل بشرط، و لا فرض لقوله تعالى: فَأَتَمَّهُنَ «۱» و قوله: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ «۲». و قال سفيان الثورى: إتمامهما: أن تخرج لهما، لا لغيرهما؛ و قيل:

إتمامهما: أن تفرد كل واحد منهما من غير تمتع، و لا قران، و به قال ابن حبيب. و قال مقاتل: إتمامهما:

أن لا يستحلوا فيهما ما لا ينبغى لهم، و قيل: إتمامهما: أن يحرم لهما من دويرة أهله؛ و قيل: أن ينفق فى سفرهما الحلال الطيب، و سيأتى بيان سبب نزول الآية، و ما هو مروىّ عن السلف فى معنى إتمامهما. و قد استدل بهذه الآية على وجوب العمرة؛ لأن الأمر بإتمامهما أمر بها، و بذلك قال علىّ، و ابن عمر، و ابن عباس، و عطاء، و طاوس، و مجاهد، و الحسن، و ابن سيرين، و الشعبى، و سعيد بن جبير، و مسروق، و عبد اللّه بن شدّاد، و الشافعى، و أحمد، و إسحاق، و أبو عبيد، و ابن الجهم من المالكية.
و قال مالك و النخعى و أصحاب الرأى- كما حكاه ابن المنذر عنهم-: أنها سنة. و حكى عن أبى حنيفة أنه يقول بالوجوب.
و من القائلين بأنها سنة: ابن مسعود، و جابر بن عبد اللّه. و من جملة ما استدلّ به الأوّلون: ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدى فليهلّ بحجّ و عمرة». و ثبت عنه أيضا فى الصحيح أنه قال: «دخلت العمرة فى الحجّ إلى يوم القيامة». و أخرج الدارقطنى، و الحاكم من حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ الحجّ و العمرة فريضتان لا يضرّك بأيّهما بدأت». و استدل الآخرون بما أخرجه الشافعى فى الآية، و عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد عن أبى صالح الحنفى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الحجّ جهاد و العمرة تطوّع». و أخرج ابن ماجة عن طلحة بن عبيد اللّه مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه عن جابر: «أنّ رجلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن العمرة أ واجبة هى؟ قال: لا و أن تعتمروا خير لكم» و أجابوا عن الآية، و عن الأحاديث المصرحة بأنها فريضة: بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها، و هى بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف، و هذا و إن كان فيه بعد؛ لكنه يجب المصير إليه، جمعا بين الأدلة، و لا سيما بعد تصريحه صلّى اللّه عليه و سلّم بما تقدم فى حديث جابر من عدم الوجوب، و على هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها، كما أخرجه الشافعى فى الأم أن فى الكتاب الذى كتبه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لعمرو بن حزم: «إنّ العمرة هى الحجّ الأصغر». و كحديث ابن عمر عند البيهقى فى الشعب، قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أوصنى، فقال: «تعبد اللّه و لا تشرك به شيئا، و تقيم الصّلاة، و تؤتى الزّكاة، و تصوم شهر رمضان، و تحجّ و تعتمر، و تسمع و تطيع، و عليك

---

(۱). البقرة: ۱۲۴.

(۲). البقرة: ۱۸۷.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۲۵

بالعلانية، و إيّاك و السّرّ». و هكذا ينبغی حمل ما ورد من الأحاديث التی قرن فيها بين الحجّ و العمرة فی أنهما من أفضل الأعمال، و أنهما كفّارة لما بينهما، و أنهما يهدمان ما كان قبلهما، و نحو ذلک. قوله: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ الحصر: الحبس. قال أبو عبيدة و الكسائی و الخليل: إنه يقال: أحصر بالمرض، و حصر بالعدو.

و فی المجمل لابن فارس العكس، يقال: أحصر بالعدوّ، و حصر بالمرض. و رجح الأوّل ابن العربی و قال:

هو رأی أكثر أهل اللغة. و قال الزجّاج: إنه كذلک عند جميع أهل اللغة. و قال الفرّاء: هما بمعنى واحد فی المرض و العدوّ. و وافقه على ذلک أبو عمرو الشيبانی، فقال: حصرنی الشیء و أحصرنی: أی: حبسنی.

و بسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه فی معنى الآية، فقالت الحنفية: المحصر من يصير ممنوعا من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدوّ أو غيره. و قال الشافعية و أهل المدينة: المراد بالآية: حصر العدوّ.

و قد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بعدوّ يحلّ حيث أحصر، و ينحر هديه إن كان ثمّ هدی، و يحلق رأسه، كما فعل النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم هو و أصحابه فی الحديبية. و قوله: فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ «ما» فی موضع رفع على الابتداء أو الخبر، أی: فالواجب أو فعليكم، و يحتمل أن يكون فی موضع نصب، أی: فانحروا، أو فاهدوا ما استيسر، أی: ما تيسّر، يقال: يسر الأمر و استيسر، كما يقال: صعب و استصعب، و الهدیّ و الهدی لغتان، و هما جمع هدية، و هی: ما يهدى إلى البيت من بدنة أو غيرها.

قال الفراء: أهل الحجاز و بنو أسد يخففون الهدی، و تميم و سفلی قيس يثقلون. قال الشاعر:

حلفت بربّ مكّة و المصلّیو أعناق الهدیّ مقلّدات

قال: و واحد الهدی هدية، و يقال فی جمع الهدیّ أهداء. و اختلف أهل العلم فی المراد بقوله: فَمَا اسْتَيْسَرَ فذهب الجمهور إلى أنه شاة. و قال ابن عمر، و عائشة، و ابن الزبير: جمل أو بقرة. و قال الحسن:

أعلى الهدی بدنة، و أوسطه بقرة، و أدناه شاة، و قوله: وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين محصر و غير محصر، و إليه ذهب جمع من أهل العلم- و ذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة، أی: لا تحلّوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدی الذی بعثتموه إلى الحرم قد بلغ محلّه، و هو الموضع الذی يحلّ فيه ذبحه. و اختلفوا فی تعيينه، فقال مالک و الشافعی: هو موضع الحصر، اقتداء برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حيث أحصر فی عام الحديبية. و قال أبو حنيفة: هو الحرم، لقوله تعالى: ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ «۱» و أجيب عن ذلک بأن المخاطب به هو الآمن الذی يمكنه الوصول إلى البيت. و أجاب الحنفية عن نحره صلّى اللّه عليه و سلّم فی الحديبية بأن طرف الحديبية الذی إلى أسفل مكة هو من الحرم، و ردّ بأن المكان الذی وقع فيه النحر ليس هو من الحرم. قوله: فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً الآية، المراد بالمرض هنا: ما يصدق عليه مسمى المرض لغة. و المراد بالأذى من الرأس: ما فيه من قمل أو جراح و نحو ذلک، و معنى الآية: أن من كان مريضا أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية. و قد بيّنت السّنة ما أطلق هنا من الصيام و الصدقة و النسک، فثبت فی الصحيح: أنّ رسول اللّه رأى كعب بن عجرة و هو محرم و قمله يتساقط على وجهه، فقال: «أ يؤذيک هوامّ رأسک؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق و يطعم ستّة مساكين، أو يهدی

---

(۱). الحج: ۳۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۲۶

شاة، أو يصوم ثلاثة أيّام». و قد ذكر ابن عبد البرّ: أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا شاة. و حكى عن الجمهور: أن الصوم المذكور فى الآية ثلاثة أيام، و الإطعام لستة مساكين. و روى عن الحسن و عكرمة و نافع أنهم قالوا: الصوم فى فدية الأذى عشرة أيام، و الإطعام عشرة مساكين. و الحديث الصحيح المتقدم يردّ عليهم و يبطل قولهم. و قد ذهب مالك، و الشافعى، و أبو حنيفة، و أصحابهم، و داود: إلى أن الإطعام فى ذلك مدان بمد النبى صلّى اللّه عليه و سلم، أى: لكل مسكين. و قال الثورى: نصف صاع من بر، أو صاع من غيره. و روى ذلك عن أبى حنيفة. قال ابن المنذر: و هذا غلط لأن فى بعض أخبار كعب أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: تصدّق بثلاثة أصوع من تمر على ستة مساكين. و اختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل، فروى عنه مثل قول مالك و الشافعى، و روى عنه: أنه إن أطعم برّا فمدّ لكل مسكين، و إن أطعم تمرا فنصف صاع. و اختلفوا فى مكان هذه الفدية فقال عطاء: ما كان من دم فبمكة، و ما كان من طعام أو صيام فحيث شاء. و به قال أصحاب الرأى. و قال طاوس، و الشافعى: الإطعام و الدم لا يكونان إلا بمكة، و الصوم حيث شاء. و قال مالك و مجاهد: حيث شاء فى الجميع، و هو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان. قوله: فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ أى: برأتم من المرض- و قيل: من خوفكم من العدوّ؛ على الخلاف السابق، و لكن الأمن من العدوّ أظهر من استعمال أمنتم فى ذهاب المرض، فيكون مقوّيا لقول من قال: إن قوله: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ المراد به: الإحصار من العدوّ، كما أن قوله: فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً يقوّى قول من قال بذلك، لإفراد عذر المرض بالذكر. و قد وقع الخلاف: هل المخاطب بهذا هم المحصرون خاصة أم جميع الأمة؟ على حسب ما سلف، و المراد بالتمتع المذكور فى الآية: أن يحرم الرجل بعمرة، ثم يقيم حلالا بمكة إلى أن يحرم بالحج. فقد استباح بذلك ما لا يحلّ للمحرم استباحته، و هو معنى: تمتع و استمتع. و لا خلاف بين أهل العلم فى جواز التمتع، بل هو عندى أفضل أنواع الحج، كما حررته فى شرحى على المنتقى. و قد تقدّم الخلاف فى معنى قوله: فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ قوله: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ الآية، أى: فمن لم يجد الهدى، إما لعدم المال؛ أو لعدم الحيوان، صام ثلاثة أيام فى الحج، أى: فى أيام الحج، و هى من عند شروعه فى الإحرام إلى يوم النحر؛ و قيل: يصوم قبل يوم التروية يوما، و يوم التروية، و يوم عرفة؛ و قيل: ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة؛ و قيل: يصومهنّ من أوّل عشر ذى الحجة، و قيل:

ما دام بمكة، و قيل: إنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم. و قد جوّز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى، و منعه آخرون. قوله: وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ قرأه الجمهور بخفض سبعة، و قرأ زيد ابن علىّ، و ابن أبى عبلة بالنصب على أنه معمول بفعل مقدّر، أى: و صوموا سبعة، و قيل: على أنه معطوف على ثلاثة، لأنها و إن كانت مجرورة لفظا فهى فى محل نصب، كأنه قيل: فصيام ثلاثة. و المراد بالرجوع هنا:

الرجوع إلى الأوطان. قال أحمد، و إسحاق: يجزيه الصوم فى الطريق، و لا يتضيق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه، و به قال الشافعى، و قتادة، و الربيع، و مجاهد، و عطاء، و عكرمة، و الحسن و غيرهم. و قال مالك:

إذ رجع من منى فلا بأس أن يصوم، و الأوّل أرجح. و قد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال صلّى اللّه عليه و سلم:

«فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيّام فى الحجّ، و سبعة إذا رجع إلى أهله» فبيّن صلّى اللّه عليه و سلم: أن الرجوع المذكور فى الآية هو الرجوع إلى الأهل. و ثبت أيضا فى الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ «و سبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم» و إنما قال سبحانه: تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة و السبعة عشرة، لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام فى الحج و السبعة إذا رجع. قال الزجّاج. و قال المبرد: ذكر ذلك: ليدل على انقضاء العدد، لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقى منه شىء بعد ذكر السبعة، و قيل: هو توكيد، كما تقول: كتبت بيدى. و قد كانت العرب تأتى بمثل هذه الفذلكة «١» فيما دون هذا العدد، كقول

الشاعر:

ثلاث و اثنان فهنّ خمسو سادسة تميل إلى شمامى

و كذا قول الآخر:

ثلاث بالغداة و ذاك حسبىو ستّ حين يدركنى العشاء

فذلك تسعة فى اليوم ريّىو شرب المرء فوق الريّ داء

و قوله: كامِلَةٌ توكيد آخر بعد الفذلكة لزيادة التوصية بصيامها، و أن لا ينقص من عددها. و قوله:

ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الإشارة بقوله: ذلِكَ قيل: هى راجعة إلى التمتع، فتدل على أنه لا متعة لحاضرى المسجد الحرام، كما يقوله أبو حنفية و أصحابه، قالوا: و من تمتع منهم كان عليه دم، و هو دم جناية لا يأكل منه؛ و قيل: إنها راجعة إلى الحكم، و هو وجوب الهدى و الصيام، فلا يجب ذلك على من كان من حاضرى المسجد الحرام، كما يقوله الشافعى و من وافقه. و المراد بمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام: من لم يكن ساكنا فى الحرم، أو من لم يكن ساكنا فى المواقيت فما دونها على الخلاف فى ذلك بين الأئمة. و قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ أى: فيما فرضه عليكم من هذه الأحكام؛ و قيل:

هو أمر بالتقوى على العموم، و تحذير من شدّة عقاب اللّه سبحانه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الدلائل، و ابن عبد البر فى التمهيد، عن يعلى بن أمية قال: جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هو بالجعرانة و عليه جبّة و عليه أثر خلوق، فقال: كيف تأمرنى يا رسول اللّه أن أصنع فى عمرتى؟ فأنزل اللّه وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أين السّائل عن العمرة؟

فقال: ها أنذا، قال: اخلع الجبّة و اغسل عنك أثر الخلوق، ثم ما كنت صانعا فى حجّك فاصنعه فى عمرتك». و قد أخرجه البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديثه، و لكن فيهما: أنه نزل عليه صلّى اللّه عليه و سلّم الوحى بعد السؤال، و لم يذكر ما هو الذى أنزل عليه. و أخرج ابن أبى شيبة عن علىّ فى قوله: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ قال: أن تحرم من دويرة أهلك. و أخرج ابن عدىّ و البيهقى مثله من حديث أبى هريرة مرفوعا.

و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: من تمامهما أن يفرد كل واحد منهما عن الآخر، و أن

---

(١). الفذلكة: مجمل ما فصل و خلاصته.

يعتمر فى غير أشهر الحجّ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: تمام الحجّ يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة و زار البيت فقد حلّ، و تمام العمرة إذا طاف بالبيت و بالصفا و المروة حلّ. و قد ورد فى فضل الحج و العمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:

فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ يقول: من أحرم بحج أو عمرة ثم حبس عن البيت بمرض يجهده أو عدوّ يحبسه؛ فعليه ذبح ما استيسر من الهدى شاة فما فوقها، و إن كانت حجة الإسلام فعليه قضاؤها، و إن كانت بعد حجة الفريضة فلا قضاء عليه. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ يقول: الرجل إذا أهلّ بالحج فأحصر بعث بما استيسر من الهدى، فإن كان عجل قبل أن يبلغ الهدى محله فحلق رأسه، أو مسّ طيبا، أو تداوى بدواء، كان عليه فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك- فالصيام: ثلاثة أيام، و الصدقة: ثلاثة آصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع، و النسك شاة- فَإِذا أَمِنْتُمْ يقول: فإذا برىء فمضى من وجهه ذلك إلى البيت أحلّ من حجته بعمرة، و كان عليه الحجّ من قابل، فإن هو

رجع و لم يتمّ من وجهه ذلك إلى البيت كان عليه حجة و عمرة، فإن هو رجع متمتعا فى أشهر الحج كان عليه ما استيسر من الهدى شاة، فإن هو لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج و سبعة إذا رجع. قال إبراهيم: فذكرت هذا الحديث لسعيد بن جبير فقال: هكذا قال ابن عباس فى هذا الحديث كله. و أخرج مالك، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن علىّ فى قوله: فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ قال: شاة.

و أخرج الشافعى فى الأم، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى:

فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ قال: بقرة أو جزور، قيل أو ما يكفيه شاة؟ قال: لا. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد عن ابن عباس قال فى تفسير فَمَا اسْتَيْسَرَ: ما يجد. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: إن كان موسرا فمن الإبل، و إلّا فمن البقر، و إلّا فمن الغنم. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق القاسم عن عائشة و ابن عمر: أنهما كانا لا يريان فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ إلا من الإبل و البقر. و كان ابن عباس يقول: ما استيسر من الهدى:

شاة. و أخرج الشافعى فى الأم، و عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لا حصر إلا حصر العدوّ، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شىء، إنما قال اللّه: فَإِذا أَمِنْتُمْ فلا يكون الأمن إلا من الخوف. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال: لا إحصار إلا من عدوّ. و أخرج أيضا عن الزهرى نحوه. و أخرج أيضا عن عطاء قال: لا إحصار إلا من مرض أو عدوّ أو أمر حادث. و أخرج أيضا عروة قال: كل شىء حبس المحرم فهو إحصار. و أخرج البخارى عن المسور: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نحر قبل أن يحلق و أمر أصحابه بذلك. و أخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ثم استثنى فقال: فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً الآية. و أخرج الترمذى، و ابن جرير عن كعب بن عجرة قال: لفىّ نزلت و إياى عنى بها:

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٢٩

فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً يعنى: من اشتد مرضه. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن المنذر عنه. قال: يعنى بالمرض: أن يكون برأسه أذى أو قروح أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ قال: الأذى: هو القمل، و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: النسك المذكور فى الآية: شاة. و روى أيضا عن على مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِ يقول: من أحرم بالعمرة فى أشهر الحج.

و أخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم أن ابن الزبير كان يقول: إنما المتعة لمن أحصر، و ليست لمن خلّى سبيله. و قال ابن عباس: هى لمن أحصر و من خلّى سبيله.

و أخرج ابن جرير عن علىّ فى قوله: فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِ قال: فإن أخر العمرة حتى يجمعها مع الحجّ فعليه الهدى. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ قال: قبل التروية يوم، و يوم التروية، و يوم عرفة، فإن فاتته صامهنّ أيام التشريق. و أخرج هؤلاء إلا ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عمر مثله إلا أنه قال: و إذا فاته صام أيام منى فإنهنّ من الحج. و أخرج ابن جرير، و الدارقطنى، و البيهقى عن ابن عمر نحوه مرفوعا. و أخرج ابن أبى شيبة عن علقمة و مجاهد و سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الصيام للمتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: إذا لم يجد المتمتع بالعمرة هديا فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة، و إن كان يوم عرفة الثالث فقد تمّ صومه، و سبعة إذا رجع إلى أهله. و أخرج الدارقطنى عن عائشة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من لم يكن معه هدى فليصم ثلاثة أيّام قبل يوم النّحر، و من لم يكن صام تلك الثلاثة الأيام فليصم أيّام التشريق». و أخرج أيضا عن عبد اللّه بن حذافة: أن رسول اللّه صلّى اللّه

عليه و سلّم أمره فى رهط أن يطوفوا فى منى فى حجة الوداع، فينادوا: «إنّ هذه أيّام أكل و شرب و ذكر اللّه، فلا نصوم فيهنّ إلا صوما فى هدى».

و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد عن عطاء فى قوله تعالى: ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: ست قريات: عرفة، و عرنة، و الرجيع، و النخلتان، و مرّ الظهران، و ضجنان، و قال مجاهد: هم أهل الحرم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: هم أهل الحرم. و أخرج ابن المنذر عن ابن عمر مثله.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٧ الى ١٩٨]

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)

قوله: الْحَجُّ أَشْهُرٌ فيه حذف، و التقدير: وقت الحج أشهر، أى: وقت عمل الحج؛ و قيل

التقدير: الحج فى أشهر؛ و فيه أنه يلزم النصب مع حذف حرف الجر لا الرفع. قال الفرّاء: الأشهر رفع لأن معناه: وقت الحج أشهر معلومات؛ و قيل التقدير: الحج حج أشهر معلومات. و قد اختلف فى الأشهر المعلومات، فقال ابن مسعود، و ابن عمر، و عطاء، و الربيع، و مجاهد، و الزهرى: هى شوّال و ذو القعدة و ذو الحجة كله؛ و به قال مالك. و قال ابن عباس، و السدى، و الشعبى، و النخعى: هى شوّال و ذو القعدة و عشر من ذى الحجة؛ و به قال أبو حنيفة و الشافعى و أحمد و غيرهم. و قد روى أيضا عن مالك. و يظهر فائدة الخلاف فى ما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر، فمن قال: إن ذا الحجة كله من الوقت؛ لم يلزمه دم التأخير، و من قال: ليس إلا العشر منه؛ قال: يلزمه دم التأخير. و قد استدلّ بهذه الآية من قال: إنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهر الحج، و هو عطاء، و طاوس، و مجاهد، و الأوزاعى، و الشافعى، و أبو ثور، قالوا: فمن أحرم بالحج قبلها أحلّ بعمرة، و لا يجزيه عن إحرام الحج، كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فإنها لا تجزيه. و قال أحمد و أبو حنيفة: إنه مكروه فقط. و روى نحوه عن مالك. و المشهور عنه جواز الإحرام بالحج فى جميع السنة من غير كراهة. و روى مثله عن أبى حنيفة. و على هذا القول ينبغى أن ينظر فى فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة فى الآية. و قد قيل: إن النص عليها لزيادة فضلها. و قد روى القول بجواز الإحرام فى جميع السنة عن إسحاق بن راهويه، و إبراهيم النخعى، و الثورى، و الليث بن سعد، و احتج لهم بقوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ «١» فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج، و لم يخص الثلاثة أشهر، و يجاب بأن هذه الآية عامة، و تلك خاصة، و الخاص مقدّم على العام. و من جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة، فكما يجوز الإحرام للعمرة فى جميع السنة، كذلك يجوز للحج، و لا يخفى أن هذا القياس مصادم للنصّ القرآنى فهو باطل، فالحق ما ذهب إليه الأوّلون؛ إن كانت الأشهر المذكورة فى قوله: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مختصة بالثلاثة المذكورة بنص أو إجماع، فإن لم يكن كذلك فالأشهر جمع شهر، و هو من جموع القلة يتردد ما بين الثلاثة إلى العشرة، و الثلاثة هى المتيقنة فيجب الوقوف عندها، و معنى قوله: مَعْلُوماتٌ أن الحج فى السنة مرة واحدة فى أشهر معلومات من شهورها، ليس كالعمرة، أو المراد: معلومات ببيان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم، أو معلومات عند المخاطبين، لا يجوز التقدّم عليها و لا التأخر عنها.

قوله: فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ أصل الفرض فى اللغة: الحزّ و القطع، و منه فرضة القوس و النهر و الجبل، ففريضة الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحزّ للقوس؛ و قيل معنى فرض: أبان، و هو أيضا يرجع إلى القطع، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره. و المعنى فى

الآيـة: فمن ألزم نفسه فيهنّ الحـج بالشـروع فيه بالنيۀ قصدا باطنا، و بالإحرام فعلا ظاهرا، و بالتلبيۀ نطقا مسـموعا. و قال أبو حنيفۀ: إن إلزامه نفسه يكون بالتلبيـۀ، أو بتقليـد الهدى و سوقه. و قال الشافعی: تكفی النيۀ فی الإحرام بالحج. و الرّفث قال ابن عباس، و ابن جبير، و السـدی، و قتادۀ، و الحسن، و عكرمـۀ، و الزهری، و مجاهد، و مالک: هو الجماع. و قال ابن عمر، و طاوس، و عطاء، و غيرهم: الرّفث: الإفحاش بالكلام. قال أبو عبيدۀ: الرّفث: اللغا من الكلام، و أنشد:

---

(١). البقرۀ: ١٨٩.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٣١ و ربّ أسراب حجيج كظّمعن اللّغا و رفث التّكلّم

يقال: رفث يرفث بكسـر الفاء و ضمها. و الفسوق: الخروج عن حدود الشرع؛ و قيل: هو الذبح للأصنام؛ و قيل: التنابز بالألقاب؛ و قيل: السـباب. و الظاهر أنه لا يختص بمعصيۀ معينۀ، و إنما خصّصه من خصّصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلک الفرد اسم الفسوق، كما قال سبحانه فی الذبح للأصـنام: أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ «١». و قـال فی التنابز بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ «٢». و قال صلّى اللّه عليه و سـلّم فی السّباب «سباب المسلم فسوق». و لا يخفى على عارف أن إطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصی لا يوجب اختصاصه به. و الجـدال: مشـتق من الجـدل، و هو: الفتل، و المراد به هنا المماراۀ؛ و قيل: السّـباب؛ و قيل: الفخر بالآباء. و الظاهر الأوّل. و قـد قرئ بنصب الثلاثـۀ و رفعها، و رفع الأوّلين، و نصب الثالث؛ و عكس ذلک، و معنى النفی لهذه الأمور النهی عنهـا. و قوله: وَ مـا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ حثّ على الخير بعـد ذكر الشـرّ، و على الطاعـۀ بعـد ذكر المعصـيۀ، و فيه أن كـل ما يفعلونه من ذلـک فهو معلوم عنـد اللّه لا يفوت منه شـیء. و قوله: وَ تَزَوَّدُوا فيه الأمر باتخاذ الزاد، لأن بعض العرب كانوا يقولون كيـف نحـجّ بيت ربنـا و لاـ يطعمنـا؟ فكـانوا يحجون بلاـ زاد و يقولون: نحن متوكلون على اللّه سـبحانه؛ و قيـل: المعنى: تزوّدوا لمعادكم من الأعمال الصالحۀ: فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى و الأوّل أرجح، كما يدل على ذلک سـبب نزول الآيۀ، و سيأتی. و قوله: فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى إخبـار بـأن خير الزاد اتقـاء المنهيات، فكأنه قال: اتقوا اللّه فی إتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد فإن خير الزاد التقوى؛ و قيـل: المعنى: فـإن خير الزاد مـا اتقى به المسـافر من الهلكـۀ و الحاجـۀ إلى السؤال و التكفف. و قوله: وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبـابِ فيه التخصـيص لأولی الألبـاب بالخطـاب بعـد حث جميع العباد على التقوى، لأن أرباب الألباب هم القابلون لأوامر اللّه، النـاهضون بها، و لبّ كل شـیء: خالصه. قوله: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْـلًا مِنْ رَبِّكُمْ فيه الترخيص لمن حـجّ فی التجارۀ و نحوها من الأعمال التی يحصل بها شیء من الرزق، و هو المراد بالفضل هنا، و منه قوله تعالى:

فَانْتَشِرُوا فِی الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ «٣» أی: لا إثم عليكم فی أن تبتغوا فضـلا من ربكم مع سفركم لتأديۀ ما افترضه عليكم من الحـج. قوله: فَإِذا أَفَضْـتُمْ أی: دفعتم، يقال: فاض الإناء: إذا امتلأ ماء حتى ينصبّ من نواحيه؛ و رجل فيّاض: أی: متدفقـۀ يداه بالعطاء، و معناه: أفضـتم أنفسـكم، فترک ذكر المفعول، كما ترک فی قولهم دفعوا من موضع كـذا. و عَرَفاتٍ اسم لتلک البقعـۀ، أی: موضع الوقوف، و قرأه الجماعـۀ بالتنوين، و ليس التنوين هنا للفرق بين ما ينصـرف و ما لا ينصـرف، و إنما هو بمنزلـۀ النون فی مسلمين. قال النحّاس: هذا الجيد. و حكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات، قال:

لما جعلوها معرفۀ حذفوا التنوين. و حكى الأخفش و الكوفيون فتح التاء تشبيها بتاء فاطمۀ، و أنشدوا:

تنوّرتها من أذرعات و أهلهابيثرب أدنى دارها نظر عال

و قال فی الكشّاف: فإن قلت هلّا منعت الصـرف، و فيها السببان التعريف و التأنيث، قلت: لا يخلو التأنيث، إما أن يكون بالتاء التی فی لفظها، و إما بتاء مقدّرۀ كما فی سعاد، فالتی فی لفظها ليست للتأنيث

---

(۱). الحجرات: ۱۱.

(۲). الأنعام: ۱۴۵.

(۳). الجمعة: ۱۰.

فتح القدير، ج‌۱، ص: ۲۳۲

و إنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث، و لا يصح تقدير التاء فيها لأن هذه التاء لاختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها، كما لا تقدّر تاء التأنيث فى بنت لأن التاء التى هى بدل من الواو لاختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها. انتهى. و سميت: عرفات، لأن الناس يتعارفون فيها؛ و قيل: إن آدم التقى هو و حواء فيها فتعارفا؛ و قيل غير ذلك. قال ابن عطية: و الظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع، و استدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة، لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده، و المراد بذكر اللّه عند المشعر الحرام دعاؤه، و منه التلبية و التكبير؛ و سمّى المشعر مشعرا من الشعار، و هو العلامة، و الدعاء عنده من شعائر الحج، و وصف بالحرام لحرمته؛ و قيل: المراد بالذكر: صلاة المغرب و العشاء بالمزدلفة جمعا. و قد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاجّ بينهما فيها. و المشعر: هو جبل قزح الذى يقف عليه الإمام، و قيل: هو ما بين جبلى المزدلفة من مأزمى عرفة إلى وادى محسر. قوله: وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ الكاف نعت مصدر محذوف، و ما: مصدرية، أو كافة، أى: اذكروه ذكرا حسنا، كما هداكم هداية حسنة، و كرّر الأمر بالذكر تأكيدا- و قيل: الأول: أمر بالذكر عند المشعر الحرام؛ و الثانى: أمر بالذكر على حكم الإخلاص- و قيل المراد بالثانى: تعديد النعمة عليهم، و «إن» فى قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ مخففة، كما يفيده دخول اللام فى الخبر- و قيل: هى بمعنى قد، أى: قد كنتم، و الضمير فى قوله: مِنْ قَبْلِهِ عائد إلى الهدى؛ و قيل: إلى القرآن.

و قد أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله تعالى: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ شوّال و ذو القعدة و ذو الحجة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط أيضا عن ابن عمر مرفوعا مثله. و أخرج الخطيب عن ابن عباس مرفوعا مثله أيضا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب موقوفا مثله. و أخرج الشافعى فى الأم، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر موقوفا مثله. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس و عطاء و الضحاك مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى سننه من طرق عن ابن عمر فى قوله: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ قال شوّال و ذو القعدة و عشر ليال من ذى الحجة. و أخرجوا إلا الحاكم عن ابن مسعود مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى عن ابن عباس من طرق مثله. و أخرج ابن المنذر، و الدارقطنى، و الطبرانى عن عبد اللّه بن الزبير مثله أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن و محمد و إبراهيم مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عمر فى قوله: فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَ قال: من أهل فيهن بحج. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن مسعود قال: الفرض:

الإحرام. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن الزبير قال: الإهلال. و أخرج عنه ابن المنذر، و الدارقطنى، و البيهقى قال: فرض الحج الإحرام. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الفرض: الإهلال. و روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين. و أخرج الشافعى فى الأم، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لا ينبغى

فتح القدير، ج‌۱، ص: ۲۳۳

لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج من أجل قول اللّه تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن خزيمة، و الحاكم و صححه، و البيهقى عنه نحوه. و أخرج الشافعى فى الأم، و ابن أبى شيبة، و ابن مردويه، و البيهقى عن جابر عن النبى

صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا ينبغى لأحد أن يحرم بالحجّ إلا فى أشهر الحجّ».
و أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِ قال: الرّفث: التعريض للنساء بالجماع، و الفسوق: المعاصى كلها، و الجدال: جدال الرجل صاحبه». و أخرج ابن مردويه، و الأصبهانى فى الترغيب عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «فلا رفث: لا جماع، و لا فسوق: المعاصى و الكذب». و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد ابن حميد، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس فى الآية قال:
الرّفث الجماع، و الفسوق: المعاصى، و الجدال: المراء. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر قال: الرّفث: غشيان النساء، و الفسوق: السباب، و الجدال: المراء. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى عنه نحوه. و روى نحو ما تقدّم عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة. و أخرج عبد بن حميد، و البخارى، و أبو داود، و النسائى و غيرهم عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون و لا يتزوّدون، و يقولون: نحن متوكلون، ثم يقدمون فيسألون الناس، فأنزل اللّه: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: كان ناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة، يقولون: نحجّ بيت اللّه و لا يطعمنا؟ فنزلت الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا و معهم أزوادهم رموا بها و استأنفوا زادا آخر، فأنزل اللّه: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى فنهوا عن ذلك و أمروا أن يتزوّدوا الكعك و الدقيق و السويق. و أخرج الطبرانى عن ابن الزبير قال: كان الناس يتوكل بعضهم على بعض فى الزاد، فأمرهم اللّه أن يتزوّدوا. و قد روى عن جماعة من التابعين مثل ما تقدّم عن الصحابة. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أبو داود، و ابن جرير عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع و التجارة فى الموسم و الحج، و يقولون أيام ذكر اللّه، فنزلت: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ الآية. و قد أخرج نحوه عنه البخارى و غيره. و أخرج عبد بن حميد، و عبد الرزاق، و سعيد ابن منصور، و ابن أبى شيبة، و أبو داود، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى أمامة التيمى قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نكرى فهل لنا من حجّ؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، و بين الصفا و المروة، و تأتون المعرّف، و ترمون الجمار، و تحلقون رؤوسكم؟ قلت بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فدعاه النبى صلّى اللّه عليه و سلم؛ فقرأ عليه الآية و قال: أنتم حجاج. و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس أنه كان يقرأ: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فى مواسم الحج. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن الزبير أنه

قرأها كما قرأها ابن عباس. و أخرج ابن أبى داود فى المصاحف أن ابن مسعود قرأها كذلك. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: إنما سمى: عرفات، لأن جبريل كان يقول لإبراهيم عليه السلام حين رأى المناسك عرفت. و أخرج مثله ابن أبى حاتم عن ابن عمر. و أخرج مثله عبد الرزاق، و ابن جرير عن علىّ.
و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عمر أنه سئل عن المشعر الحرام فسكت، حتى إذا هبطت أيدى الرواحل بالمزدلفة قال: هذا المشعر الحرام. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عنه أنه قال: المشعر الحرام: المزدلفة كلها. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه، عنه قال: هو الجبل و ما حوله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن

جرير، و ابن المنذر عنه قال:

ما بين الجبلين الذى بجمع مشعر. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن الزبير فى قوله: وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ قال: ليس هذا بعام، هذا لأهل البلد؛ كانوا يفيضون من جمع؛ و يفيض سائر الناس من عرفات، فأبى اللّه لهم ذلك، فأنزل: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ و أخرج عبد حميد عن سفيان فى قوله:

وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ قال: من قبل القرآن. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ قال: لمن الجاهلين.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٣]

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (٢٠١) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (٢٠٢) وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

قيل: الخطاب فى قوله: ثُمَّ أَفِيضُوا للحمس من قريش، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة، و هى من الحرم، فأمروا بذلك- و على هذا تكون ثم لعطف جملة على جملة لا للترتيب- و قيل: الخطاب لجميع الأمة، و المراد بالناس: إبراهيم، أى: ثم أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم، فيحتمل أن يكون أمرا لهم بالإفاضة من عرفة، و يحتمل أن يكون إفاضة أخرى و هى التى من المزدلفة، و على هذا تكون ثم على بابها، أى: للترتيب. و قد رجّح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبرى، و إنّما أمروا بالاستغفار لأنهم فى مساقط الرحمة، و مواطن القبول، و مظنات الإجابة- و قيل: إن المعنى: استغفروا للذى كان مخالفا لسنة إبراهيم، و هو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة. و المراد بالمناسك: أعمال الحج، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «خذوا عنّى مناسككم» أى: فإذا فرغتم من أعمال الحجّ فاذكروا اللّه؛ و قيل: المراد بالمناسك:

الذبائح، و إنما قال سبحانه كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ لأن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة

فيذكرون مفاخر آبائهم و مناقب أسلافهم، فأمرهم اللّه بذكره مكان ذلك الذكر، و يجعلونه ذكرا مثل ذكرهم لآبائهم، أو أشدّ من ذكرهم لآبائهم. قال الزجاج: إن قوله: أَوْ أَشَدَّ: فى موضع خفض عطفا على ذكركم، و المعنى: أو كأشدّ ذكرا؛ و يجوز أن يكون فى موضع نصب، أى: اذكروه أشدّ ذكرا. و قال فى الكشاف: إنه عطف على ما أضيف إليه الذكر فى قوله: كَذِكْرِكُمْ كما تقول: كذكر قريش آباءهم، أو قوم أشدّ منهم ذكرا. قوله: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ الآية، لما أرشد سبحانه عباده إلى ذكره، و كان الدعاء نوعا من أنواع الذكر؛ جعل من يدعوه منقسما إلى قسمين: أحدهما يطلب حظ الدنيا و لا يلتفت إلى حظ الآخرة، و القسم الآخر يطلب الأمرين جميعا؛ و مفعول الفعل، أعنى قوله: آتِنا محذوف، أى: ما نريد أو ما نطلب، و الواو فى قوله: وَ ما لَهُ واو الحال، و الجملة بعدها حالية. و الخلاق:

النصيب، أى: و ما لهذا الداعى فى الآخرة من نصيب، لأن همه مقصور على الدنيا، لا يريد غيرها، و لا يطلب سواها. و فى هذا الخبر معنى النهى عن الاقتصار على طلب الدنيا، و الذمّ لمن جعلها غاية رغبته، و معظم مقصوده. و قد اختلف فى تفسير الحسنتين المذكورتين فى الآية، فقيل: هما ما يطلبه الصالحون فى الدنيا من العافية، و ما لا بدّ منه من الرزق، و ما يطلبونه فى

الآخرة من نعيم الجنة و الرضا؛ و قيل: المراد بحسنة الدنيا:
الزوجة الحسناء، و حسنة الآخرة: الحور العين؛ و قيل: حسنة الدنيا: العلم و العبادة؛ و قيل: غير ذلك.
قال القرطبى: و الذى عليه أكثر أهل العلم؛ أن المراد بالحسنتين نعيم الدنيا و الآخرة. قال: و هذا هو الصحيح، فإن اللفظ يقتضى هذا كله، فإن حسنة نكرة فى سياق الدعاء؛ فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل، و حسنة الآخرة: الجنة، بإجماع. انتهى. قوله: وَ قِنا أصله: أوقنا، حذفت الواو كما حذفت فى يقى لأنها بين ياء و كسرة مثل يعد، هذا قول البصريين. و قال الكوفيون: حذفت فرقا بين اللازم و المتعدّى.
و قوله: أُولئِكَ إشارة إلى الفريق الثانى لَهُمْ نَصِيبٌ من جنس ما كَسَبُوا من الأعمال، أى: من ثوابها، و من جملة أعمالهم الدعاء، فما أعطاهم اللّه بسببه من الخير فهو مما كسبوا؛ و قيل: إن معنى قوله: مِمَّا كَسَبُوا التعليل، أى: من أجل ما كسبوا، و هو بعيد؛ و قيل: إن قوله: أُولئِكَ إشارة إلى الفريقين جميعا، أى: للأوّلين نصيب من الدنيا و لا نصيب لهم فى الآخرة، و للآخرين نصيب مما كسبوا فى الدنيا و فى الآخرة، و سريع: من سرع يسرع، كعظم يعظم، سرعا و سرعة، و الحساب: مصدر كالمحاسبة، و أصله العدد، يقال: حسب يحسب حسابا، و حسابة و حسبانا و حسبا. و المراد هنا: المحسوب، سمى: حسابا، تسمية للمفعول بالمصدر؛ و المعنى: أن حسابه لعباده فى يوم القيامة سريع مجيئه، فبادروا ذلك بأعمال الخير، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم، و أنه لا يشغله شأن عن شأن فيحاسبهم فى حالة واحدة كما قال تعالى: ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ «١». قوله: فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال القرطبى: لا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية: هى أيام منى، و هى أيام التشريق، و هى أيام رمى الجمار. و قال الثعلبى: قال إبراهيم: الأيام المعدودات أيام العشر، و الأيام المعلومات أيام النحر. و كذا روى عن مكى و المهدوى. قال القرطبى: و لا يصح، لما ذكرناه من

---

(١). لقمان: ٢٨.

الإجماع على ما نقله أبو عمر بن عبد البرّ و غيره. و روى الطحاوى عن أبى يوسف: أن الأيام المعلومات:
أيام النحر، قال: لقوله تعالى: وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ «١» و حكى الكرخى عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات: أيام النحر الثلاثة، يوم الأضحى، و يومان بعده. قال الكيا الطبرى: فعلى قول أبى يوسف و محمد لا فرق بين المعلومات و المعدودات، لأن المعدودات المذكورة فى القرآن أيام التشريق بلا خلاف. و روى عن مالك أن الأيام المعدودات و الأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام:
يوم النحر، و ثلاثة أيام بعده، فيوم النحر: معلوم غير معدود، و اليومان بعده: معلومان معدودان، و اليوم الرابع: معدود لا معلوم، و هو مرويّ عن ابن عمر. و قال ابن زيد: الأيام المعلومات: عشر ذى الحجة، و أيام التشريق. و المخاطب بهذا الخطاب المذكور فى الآية، أعنى: قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ هو الحاجّ و غيره، كما ذهب إليه الجمهور؛ و قيل: هو خاص بالحاجّ. و قد اختلف أهل العلم فى وقته، فقيل: من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق؛ و قيل: من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر، و به قال أبو حنيفة؛ و قيل: من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، و به قال مالك و الشافعى. قوله: فَمَنْ تَعَجَّلَ الآية، اليومان هما: يوم ثانى النحر؛ و يوم ثالثه. و قال ابن عباس، و الحسن، و عكرمة، و مجاهد، و قتادة، و النخعى: من رمى فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات فلا حرج، و من تأخر إلى الثالث فلا حرج؛ فمعنى الآية كل ذلك مباح، و عبر عنه بهذا التقسيم اهتماما و تأكيدا، لأن من العرب من كان يذمّ التأخر، فنزلت الآية رافعة للجناح فى كل

ذلك. و قال على، و ابن مسعود: معنى الآية: من تعجل فقد غفر له، و من تأخر فقد غفر له، و الآية قد دلت على أن التعجل و التأخر مباحان. و قوله: لِمَنِ اتَّقى معناه أن التخيير و رفع الإثم ثابت لمن اتقى، لأن صاحب التقوى يتحرّز عن كل ما يريبه، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم. قال الأخفش: التقدير ذلك لمن اتقى؛ و قيل: لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصى؛ و قيل: لمن اتقى قتل الصيد، و قيل:

معناه: السلامة لمن اتقى؛ و قيل هو متعلق بالذكر، أى: الذكر لمن اتقى.

لأن صاحب التقوى يتحرّز عن كل ما يريبه، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم. قال الأخفش: التقدير ذلك لمن اتقى؛ و قيل: لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصى؛ و قيل: لمن اتقى قتل الصيد، و قيل:

معناه: السلامة لمن اتقى؛ و قيل هو متعلق بالذكر، أى: الذكر لمن اتقى.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن عائشة قالت: كانت قريش و من دان بدينها يقفون بالمزدلفة، و كانوا يسمون: الحمس، و كانت سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر اللّه نبيه أن يأتى عرفات؛ ثم يقف بها؛ ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ و أخرجا أيضا عنها موقوفا نحوه. و قد ورد فى هذا المعنى روايات عن الصحابة و التابعين. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: إذا كان يوم عرفة هبط اللّه إلى سماء الدنيا فى الملائكة، فيقول لهم: عبادى آمنوا بوعدى، و صدّقوا برسلى ما جزاؤهم؟ فيقال: أن تغفر لهم، فذلك قوله: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و قد وردت أحاديث كثيرة فى المغفرة لأهل عرفة، و نزول الرحمة عليهم، و إجابة دعائهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله تعالى: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ قال: حجكم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ قال: إهراق الدماء

---

(١). الحج: ٢٨.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٣٧

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ قال: تفاخر العرب بينها بفعال آبائها يوم النحر حين يفرغون، فأمروا بذكر اللّه مكان ذلك. و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون فى الحج فيذكرون أيام آبائهم، و ما يعدّون من أنسابهم يومهم أجمع، فأنزل اللّه على رسوله: فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن عبد اللّه بن الزبير نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير و عكرمة نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ يقول: كما يذكر الأبناء الآباء. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا أنه قيل له فى قوله: كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ إن الرجل ليأتى عليه اليوم و ما يذكر أباه، فقال:

إنه ليس بذاک، و لكن يقول: تغضب للّه إذا عصى أشدّ من غضبک إذا ذكر و الدک بسوء. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، و عام خصب، و عام ولاد حسن، و لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا، فأنزل اللّه فيهم: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ و يجىء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ فأنزل اللّه فيهم: أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ و أخرج الطبرانى عن عبد اللّه بن الزبير قال: كان الناس فى الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا فقال أحدهم: اللهم ارزقنى إبلا، و قال الآخر: اللهمّ ارزقنى غنما، فأنزل اللّه الآية.

و أخرج ابن جرير عن أنس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة فيدعون: اللهم اسقنا المطر، و أعطنا على عدوّنا الظفر، و ردّنا

صالحين إلى صالحين، فنزلت الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا قال: مما عملوا من الخير. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: سَرِيعُ الْحِسابِ قال: سريع الإحصاء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا، و ابن أبى حاتم عن علىّ قال:

الأيام المعدودات: ثلاثة أيام: يوم الأضحى، و يومان بعده، اذبح فى أيها شئت، و أفضلها أوّلها. و أخرج الفريابى، و ابن أبى الدنيا، و ابن المنذر عن ابن عمر أنها: أيام التشريق الثلاثة. و فى لفظ: هذه الأيام الثلاثة بعد يوم النحر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس قال: الأيام المعلومات: أيام العشر، و الأيام المعدودات: أيام التشريق. و أخرج الطبرانى عن ابن الزبير قال فى قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: هنّ أيام التشريق، يذكر فيهنّ بتسبيح و تهليل و تكبير و تحميد. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأيام المعدودات: أربعة أيام:

يوم النحر و الثلاثة أيام بعده. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى؛ و يقول: التكبير واجب، و يتأوّل هذه الآية: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يكبر يوم النحر و يتلو هذه الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: التكبير أيام التشريق، يقول فى دبر كل صلاة: اللّه أكبر، اللّه أكبر، اللّه أكبر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان يكبر ثلاثا ثلاثا وراء الصلوات و يقول: لا إله إلا اللّه وحده

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٣٨

لا شريك له، له الملك، و له الحمد، و هو على كل شيء قدير. و أخرج المروزى عن الزهرى قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكبر أيام التشريق كلّها. و أخرج مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بمنى؛ حين ارتفع النهار شيئا، فكبر؛ و كبر الناس بتكبيره- ثم خرج الثانية فى يومه ذلك بعد ارتفاع النهار، فكبّر، و كبر الناس بتكبيره؛ حتى بلغ تكبيرهم البيت؛ ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زاغت الشمس، فكبّر، و كبر الناس بتكبيره. و قد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر؛ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يرمى الجمار، و يكبر مع كل حصاة. و قد روى نحو ذلك من حديث عائشة عند الحاكم و صححه.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ قال: فى تعجيله وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ قال: فى تأخيره. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: النفر فى يومين لمن اتقى. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عنه قال:

من غابت له الشمس فى اليوم الذى قال اللّه فيه: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ و هو بمنى فلا ينفرنّ حتى يرمى الجمار من الغد، و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لِمَنِ اتَّقى قال: لمن اتقى الصيد و هو محرم. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و أهل السنن، و الحاكم و صحّحه عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول و هو واقف بعرفة، و أتاه الناس من أهل مكة فقالوا: يا رسول اللّه كيف الحج؟ قال: الحج عرفات، فمن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ قال: مغفورا له، وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ قال مغفورا له. و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: لِمَنِ اتَّقى قال: لمن اتقى فى حجه. قال قتادة: و ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: من اتقى فى حجه غفر له ما تقدم من ذنبه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى قال: ذهب إثمه كله إن اتقى فيما بقى من عمره.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٧]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (٢٠٤) وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ (٢٠٥) وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ (٢٠٦) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٢٠٧)

لما ذكر سبحانه طائفتى المسلمين بقوله: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ «١» عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين، و هم الذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر. و سبب النزول: الأخنس بن شريق كما يأتى بيانه. قال ابن عطية:

ما ثبت قط أن الأخنس أسلم. و قيل: إنها نزلت فى قوم من المنافقين؛ و قيل: إنها نزلت فى كل من أضمر كفرا أو نفاقا أو كذبا، و أظهر بلسانه خلافه. و معنى قوله: يُعْجِبُكَ واضح. و معنى قوله: وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ أنه يحلف على ذلك فيقول: يشهد اللّه على ما فى قلبى من محبتك أو من الإسلام، أو يقول: اللّه يعلم أنى أقول حقا، و أنى صادق فى قولى لك. و قرأ ابن محيصن وَ يُشْهِدُ اللَّهَ بفتح حرف

---

(١). البقرة: ٢٠٠.

المضارعة و رفع الاسم الشريف على أنه فاعل؛ و المعنى: و يعلم اللّه منه خلاف ما قال، و مثله قوله تعالى:

وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ «١» و قراءة الجماعة أبلغ فى الذمّ. و قرأ ابن عباس: و اللّه يشهد على ما فى قلبه و قرأ أبيّ و ابن مسعود: و يستشهد اللّه على ما فى قلبه. و قوله: فِي الْحَياةِ الدُّنْيا متعلق بالقول، أو بيعجبك؛ فعلى الأوّل: القول صادر فى الحياة، و على الثانى: الإعجاب صادر فيها. و الألدّ:

الشديد الخصومة. يقال: رجل ألدّ، و امرأة لداء، و لددته ألدّه: إذا جادلته فغلبته، و منه قول الشاعر:

و ألدّ ذى حنق عليّ كأنّماتغلى عداوة صدره فى مرجل

و الخصام: مصدر خاصم، قاله الخليل؛ و قيل: جمع خصم، قاله الزجاج؛ ككلب و كلاب، و صعب و صعاب، و ضخم و ضخام. و المعنى: أنه أشدّ المخاصمين خصومة، لكثرة جداله و قوّة مراجعته، و إضافة الألدّ إلى الخصام بمعنى فى، أى: ألدّ فى الخصام، أو جعل الخصام ألدّ على المبالغة. و قوله: وَ إِذا تَوَلَّى أى: أدبر، و ذهب عنك يا محمد! و قيل: إنه بمعنى: ضلّ و غضب؛ و قيل: إنه بمعنى: الولاية، أى:

إذا كان واليا فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد فى الأرض. و السعى المذكور يحتمل أن يكون المراد به:

السعى بالقدمين إلى ما هو فساد فى الأرض، كقطع الطريق، و حرب المسلمين، و يحتمل أن يكون المراد به:

العمل فى الفساد، و إن لم يكن فيه سعى بالقدمين، كالتدبير على المسلمين بما يضرّهم، و إعمال الحيل عليهم، و كل عمل يعمله الإنسان بجوارحه أو حواسه يقال له: سعى، و هذا هو الظاهر من هذه الآية. و قوله:

وَ يُهْلِكَ عطف على قوله: لِيُفْسِدَ و فى قراءة أبيّ: و ليهلك. و قراءة قتادة بالرفع. و روى عن ابن كثير: وَ يُهْلِكَ بفتح الياء؛ و ضم الكاف؛ و رفع الحرث و النسل، و هى قراءة الحسن؛ و ابن محيصن. و المراد بالحرث: الزرع، و النسل: الأولاد؛ و قيل الحرث: النساء. قال الزجّاج: و ذلك لأن النفاق يؤدى إلى تفريق الكلمة و وقوع القتال، و فيه هلاك الخلق؛ و قيل معناه: أن الظالم يفسد فى الأرض فيمسك اللّه المطر فيهلك الحرث و النسل. و أصل الحرث فى اللغة: الشق، و منه المحراث لما يشق به الأرض، و

الحرث: كسب المال و جمعه. و أصل النسل فى اللغة: الخروج و السقوط و منه نسل الشعر، و منه أيضا: إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ «٢» وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ «٣» و يقال لما خرج من كل أنثى: نسل، لخروجه منها. و قوله: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، و ما فيه فساد الدنيا. و العزة: القوّة و الغلبة، من عزّه يعزّه: إذا غلبه، و منه وَ عَزَّنِی فِی الْخِطابِ «۴»؛ و قيل العزة هنا: الحمية، و منه قول الشاعر:

أخذته عزّة من جهلهفتولّى مغضبا فعل الضّجر

و قيل: العزة هنا: المنعة و شدّة النفس. و معنى: أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ حملته العزة على الإثم، من قولك: أخذته بكذا: إذا حملته عليه، و ألزمته إياه؛ و قيل: أخذته العزة بما يؤثمه، أى: ارتكب الكفر للعزة، و منه: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِی عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ «۵» و قيل: الباء فى قوله: بِالْإِثْمِ بمعنى اللام، أى: أخذته

---

(۱). المنافقون: ۱.

(۲). يس: ۵۱.

(۳). الأنبياء: ۹۶.

(۴). ص: ۲۳.

(۵). ص: ۲.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۴۰

العزّة و الحمية عن قبول الوعظ للإثم الذى فى قلبه، و هو النفاق؛ و قيل: الباء بمعنى مع، أى: أخذته العزّة مع الإثم. و قوله: فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ أى: كافيه معاقبة و جزاء، كما تقول للرجل: كفاك ما حلّ بك، و أنت تستعظم عليه ما حلّ به. و المهاد: جمع المهد، و هو الموضع المهيأ للنوم، و منه مهد الصبى؛ و سميت جهنم: مهادا، لأنها مستقرّ الكفار؛ و قيل: المعنى: أنها بدل لهم من المهاد كقوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* و قول الشاعر:

تحيّة بينهم ضرب وجيع «۱» و يشرى بمعنى: يبيع، أى: يبيع نفسه فى مرضاة اللّه، كالجهاد، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و مثله قوله تعالى: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ «۲» و أصله: الاستبدال، و منه قوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ «۳»، و منه قول الشاعر:

و شريت بردا ليتنىمن بعد برد كنت هامة

و منه قول الآخر:

يعطى بها ثمنا فيمنعهاو يقول صاحبها ألا تشرى «۴»

و المرضاة: الرضا، تقول: رضى يرضى، رضا و مرضاة. و وجه ذكر الرأفة هنا: أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم و يثيبهم، فكان ذلك رأفة بهم و لطفا لهم.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما أصيبت السرية التى فيها عاصم و مرثد قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا فى أهلهم، و لا هم أدّوا رسالة صاحبهم؟ فأنزل اللّه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِی الْحَياةِ الدُّنْيا أى:

ما يظهر من الإسلام بلسانه، وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِی قَلْبِهِ أنه مخالف لما يقوله بلسانه، وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ أى: ذو جدال إذا كلمك و راجعك وَ إِذا تَوَلَّى خرج من عندك سَعى فِی الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها، وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ، وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ أى: لا

يحبّ عمله و لا يرضى به. وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ الذين يشرون أنفسهم من اللّه بالجهاد فى سبيله، و القيام بحقه، حتى هلكوا على ذلك: يعنى هذه السرية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ الآية، قال: نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة، أقبل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم المدينة و قال: جئت أريد الإسلام، و يعلم اللّه أنى لصادق، فأعجب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ذلك منه، فذلك قوله:

وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ ثم خرج من عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فمرّ بزرع لقوم من المسلمين و حمر، فأحرق

---

(١). هذا عجز بيت لمعدى كرب، و صدره: و خيل قد دلفت لها بخيل.

(٢). يوسف: ٢٠.

(٣). التوبة: ١١١.

(۴). فى القرطبى ٣/ ٢١: ألا فأشر.

الزرع، و عقر الحمر، فأنزل اللّه: وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ قال هو شديد الخصومة. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله:

وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ قال عمل فى الأرض، وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ قال: نبات الأرض.

وَ النَّسْلَ نسل كل شىء من الحيوان و الناس و الدواب. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد أيضا أنه سئل عن قوله: وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ قال: يلى فى الأرض فيعمل فيها بالعدوان و الظلم، فيحبس اللّه بذلك القطر من السماء، فتهلك بحبس القطر الحرث و النسل و اللّه لا يحبّ الفساد. ثم قرأ مجاهد ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ «١» الآية. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ قال: الحرث: الزرع، و النسل: نسل كل دابة. و أخرج ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: «إن من أكبر الذنوب عند اللّه أن يقول الرجل لأخيه: اتق اللّه، فيقول: عليك بنفسك أنت تأمرنى؟». و أخرج ابن المنذر، و البيهقى فى الشعب، عن سفيان قال: قال رجل لمالك بن مغول: اتق اللّه، فسقط فوضع خدّه على الأرض تواضعا للّه. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ قال: بئس المنزل. و أخرجا عن مجاهد قال: بئس ما شهدوا لأنفسهم. و أخرج ابن مردويه عن صهيب قال:

لما أردت الهجرة من مكة إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قالت لى قريش: يا صهيب قدمت إلينا و لا مال لك، و تخرج أنت و مالك، و اللّه لا يكون ذلك أبدا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم ما لى تخلّون عنى؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالى؛ فخلوا عنى، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ربح البيع صهيب» مرتين. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن عساكر عن سعيد بن المسيب نحوه.

و أخرج الطبرانى و الحاكم، و البيهقى فى الدلائل، عن صهيب نحوه. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه عن أنس قال: نزلت فى خروج صهيب إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: هم المهاجرون و الأنصار.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢١٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ

الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

لما ذكر اللّه سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، و كافرين، و منافقين، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملّة واحدة. و إنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان، لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم و كتابهم، و المنافق مؤمن بلسانه و إن كان غير مؤمن بقلبه. و السلم بفتح السين و كسرها قال الكسائى: و معناهما واحد، و كذا عند البصريين، و هما جميعا يقعان للإسلام و المسالمة. و قال أبو عمرو بن العلاء: إنه بالفتح

---

(١). الروم: ٤١.

للمسالمة، و بالكسر للإسلام. و أنكر المبرد هذه التفرقة. و قال الجوهرى: السّلم بفتح السين: الصلح، و تكسر و يذكر و يؤنث، و أصله من الاستسلام و الانقياد. و رجّح الطبرى أنه هنا بمعنى الإسلام، و منه قول الشاعر الكندى:

دعوت عشيرتى للسّلم لمّارأيتهم تولّوا مدبرينا

أى: إلى الإسلام، و قرأ الأعمش: «السّلم» بفتح السين و اللام. و قد حكى البصريون فى سلّم و سلم و سلّم أنها بمعنى واحد و كَافَّةً حال من السلم أو من ضمير المؤمنين، فمعناه على الأوّل: لا يخرج منكم أحد، و على الثانى: لا يخرج من أنواع السلم شى‏ء، بل ادخلوا فيها جميعا، أى: فى خصال الإسلام، و هو مشتق من قولهم: كففت، أى: منعت، أى: لا يمتنع منكم أحد من الدخول فى الإسلام، و الكفّ: المنع، و المراد هنا: الجميع ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً أى: جميعا. و قوله: وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ أى: لا تسلكوا الطريق التى يدعوكم إليها الشيطان، و قد تقدّم الكلام على خطوات. قوله: زَلَلْتُمْ أى:

تنحيتم عن طريق الاستقامة، و أصل الزلل فى القدم، ثم استعمل فى الاعتقادات و الآراء و غير ذلك، يقال:

زلّ يزلّ زللا و زلولا، أى: دحضت قدمه. و قرئ: زَلَلْتُمْ بكسر اللام، و هما لغتان، و المعنى:

فإن ضللتم و عرّجتم عن الحق مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ أى: الحجج الواضحة، و البراهين الصحيحة، أن الدخول فى الإسلام هو الحق فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب لا يعجزه الانتقام منكم حَكِيمٌ لا ينتقم إلا بحق. قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ أى: ينتظرون، يقال: نظرته و انتظرته بمعنى، و المراد: هل ينتظر التاركون للدخول فى السلم، و الظلل: جمع ظلة، و هى ما يظلك، و قرأ قتادة، و يزيد بن القعقاع: فِي ظِلالٍ* و قرأ يزيد أيضا و الملائكة بالجرّ عطفا على الغمام أو على ظلل. قال الأخفش و الملائكة بالخفض بمعنى: و فى الملائكة، قال: و الرفع أجود. و قال الزجاج: التقدير: فى ظلل من الغمام و من الملائكة.

و المعنى: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم اللّه بما وعدهم من الحساب و العذاب فى ظلل من الغمام و الملائكة. قال الأخفش: و قد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعا إلى الجزاء، فسمى الجزاء: إتيانا، كما سمى التخويف و التعذيب فى قصة ثمود: إتيانا، فقال: فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ «١» و قال فى قصة بنى النضير: فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا «٢» و إنما احتمل الإتيان هذا، لأن أصله عند أهل اللغة: القصد إلى الشى‏ء؛ فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر اللّه فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم، و قيل: إن المعنى:

يأتيهم أمر اللّه و حكمه؛ و قيل: إن قوله: فِي ظُلَلٍ بمعنى بظلل، و قيل: المعنى: يأتيهم ببأسه فى ظلل.

و الغمام: السحاب الرقيق الأبيض، سمّى بذلك لأنه يغمّ، أى: يستر. و وجه إتيان العذاب فى الغمام- على تقدير أن ذلك هو المراد- ما فى مجي‏ء الخوف من محل الأمن من الفظاعة و عظم الموقع، لأن الغمام مظنة الرحمة، لا مظنة العذاب. و قوله: وَ

قُضِيَ الْأَمْرُ عطف على يأتيهم، داخل فى حيز الانتظار، و إنما عدل إلى صيغة الماضى دلالة على تحققه، فكأنه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة، أى: و فرغ من الأمر الذى هو إهلاكهم. و قرأ معاذ بن جبل و قضاء الأمر بالمصدر

---

(١). النحل: ٢۶.

(٢). الحشر: ٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢۴٣

عطفا على الملائكة. و قرأ يحيى بن يعمر: و قضى الأمور بالجمع. و قرأ ابن عامر، و حمزة، و الكسائى: تُرْجَعُ الْأُمُورُ على بناء الفعل للفاعل، و قرأ الباقون على البناء للمفعول.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً قال: يعنى مؤمنى أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان باللّه مستمسكين ببعض أمر التوراة و الشرائع التى أنزلت فيهم، يقول: ادخلوا فى شرائع دين محمد، و لا تدعوا منه شيئا، و حسبكم الإيمان بالتوراة و ما فيها. و أخرج ابن جرير عن عكرمة: أن هذه الآية نزلت فى ثعلبة، و عبد اللّه بن سلام، و ابن يامين، و أسد و أسيد؛ ابنى كعب، و سعيد بن عمرو، و قيس بن زيد، كلهم من يهود قالوا: يا رسول اللّه! يوم السبت يوم كنا نعظمه فدعنا فلنسبت فيه، و إن التوراة كتاب اللّه فلنقم بها الليل، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السلم الطاعة للّه، و كافة؛ يقول: جميعا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: السلم: الإسلام، و الزلل: ترك الإسلام. و أخرج ابن جرير عن السدى قال: فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ قال: فإن ضللتم من بعد ما جاءكم محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يجمع اللّه الأوّلين و الآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم إلى السّماء ينتظرون فصل القضاء و ينزل اللّه فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسىّ». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر فى هذه الآية قال: يهبط حين يهبط و بينه و بين خلقه سبعون ألف حجاب، منها: النور و الظلمة و الماء، فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب. و أخرج أبو يعلى، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية قال: يأتى اللّه يوم القيامة فى ظلل من السحاب؛ قد قطعت طاقات. و أخرج ابن جرير، و الديلمى عنه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن من الغمام طاقات يأتى اللّه فيها محفوفات بالملائكة» و ذلك قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن عكرمة: فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ قال: طاقات و الملائكة حوله. و أخرج ابن حاتم عن قتادة فى الآية قال: يأتيهم اللّه فى ظلل من الغمام، و تأتيهم الملائكة عند الموت. و أخرج عن عكرمة فى قوله: وَ قُضِيَ الْأَمْرُ يقول: قامت الساعة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١١ الى ٢١٣]

سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢١٢) كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

المأمور بالسؤال لبنى إسرائيل هو النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و يجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين، و هو سؤال

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۴۴

تقريع و توبيخ. و كَمْ فى محل نصب بالفعل المذكور بعدها على أنها مفعول بآتى، و يجوز أن ينتصب بفعل مقدّر دلّ عليه المذكور، أى: كم آتينا آتيناهم، و قدّر متأخرا لأن لها صدر الكلام، و هى: إما استفهامية للتقرير، أو خبرية للتكثير. و مِنْ آيَةٍ فى موضع نصب على التمييز، و هى: البراهين التى جاء بها أنبياؤهم فى أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلم- و قيل: المراد بذلك: الآيات التى جاء بها موسى، و هى التسع. و المراد بالنعمة هنا:

ما جاءهم من الآيات. و قال ابن جرير الطبرى: النعمة هنا: الإسلام، و الظاهر دخول كل نعمة أنعم اللّه بها على عبد من عباده كائنا من كان، فوقع منه التبديل لها، و عدم القيام بشكرها- و لا ينافى ذلك كون السياق فى بنى إسرائيل، أو كونهم السبب فى النزول، لما تقرر: من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و فى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ من الترهيب و التخويف ما لا يقادر قدره. قوله:

زُيِّنَ مبنى للمجهول، و المزيّن: هو الشيطان، أو الأنفس المجبولة على حبّ العاجلة. و المراد بالذين كفروا: رؤساء قريش، أو كل كافر. و قرأ مجاهد، و حميد بن قيس: زُيِّنَ على البناء للمعلوم. قال النحاس: و هى قراءة شاذة لأنه لم يتقدّم للفاعل ذكر. و قرأ ابن أبى عبلة: زينت، و إنما خص الذين كفروا بالذكر- مع كون الدنيا مزينة للمسلم و الكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملا- لأن الكافر افتتن بهذا التزيين، و أعرض عن الآخرة، و المسلم لم يفتتن به، بل أقبل على الآخرة. قوله: وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن أولئك الكفار يسخرون من الذين آمنوا؛ لكونهم فقراء؛ لا حظّ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفر و أساطين الضلال، و ذلك لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذى يكون من ناله سعيدا رابحا. و من حرمه شقيا خاسرا.

و قد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة و أمر الآخرة، و عدم التفاتهم إلى الدنيا و زينتها. و حكى الأخفش أنه يقال: سخرت منه و سخرت به، و ضحكت منه و ضحكت به، و هزأت منه و هزأت به، و الاسم: السخرية و السخرى. و لما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين؛ ردّ اللّه عليهم بقوله:

وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ و المراد بالفوقية هنا: العلو فى الدرجة، لأنهم فى الجنة، و الكفار فى النار- و يحتمل أن يراد بالفوق: المكان، لأن الجنة فى السماء، و النار فى أسفل سافلين، أو أن المؤمنين هم الغالبون فى الدنيا، كما وقع ذلك من ظهور الإسلام و سقوط الكفر، و قتل أهله، و أسرهم و تشريدهم، و ضرب الجزية عليهم؛ و لا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لو لا التقييد بكونه فى يوم القيامة. قوله: وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ يحتمل أن يكون فيها إشارة إلى أن اللّه سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين، و يوسّع عليهم، و يجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب، أى: بغير تقدير؛ و يحتمل أن المعنى: أن اللّه يوسّع على بعض عباده فى الرزق، كما وسّع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجا لهم، و ليس فى التوسعة دليل على أن من وسّع عليه فقد رضى عنه؛ و يحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين، كما قال سبحانه: وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «۱».

قوله: كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أى: كانوا على دين واحد فاختلفوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ و يدل على هذا المحذوف؛ أعنى: قوله: فاختلفوا، قراءة ابن مسعود، فإنه قرأ:

---

(۱). الطلاق: ۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۴۵

كان النّاس أمّة واحدة فاختلفوا فبعث اللّه النبيين. و اختلف فى: الناس، المذكورين فى هذه الآية من هم؟ فقيل:
هم بنو آدم حين أخرجهم اللّه نسما من ظهر آدم؛ و قيل: آدم وحده، و سمّى: ناسا، لأنه أصل النسل؛ و قيل: آدم و حواء؛ و قيل: المراد القرون الأولى؛ التى كانت بين آدم و نوح؛ و قيل: المراد نوح و من فى سفينته؛ و قيل: معنى الآية: كان الناس أمة واحدة كلهم كفار فبعث اللّه النبيين؛ و قيل: المراد: الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله، أنهم كانوا أمة واحدة فى خلوهم عن الشرائع، و جهلهم بالحقائق، لو لا أن اللّه منّ عليهم بإرسال الرسل. و الأمة: مأخوذة من قولهم أممت الشىء، أى: قصدته، أى: مقصدهم واحد غير مختلف. قوله: فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ قيل: جملتهم مائة ألف و أربعة و عشرون ألفا، و الرسل منهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر. و قوله: مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ بالنصب على الحال. قوله: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ أى:
الجنس. و قال ابن جرير الطبرى: إن الألف و اللام للعهد، و المراد: التوراة. و قوله: لِيَحْكُمَ مسند إلى الكتاب فى قول الجمهور، و هو مجاز، مثل قوله تعالى: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ «١» و قيل: إن المعنى ليحكم كل نبىّ بكتابه؛ و قيل: ليحكم اللّه؛ و الضمير فى قوله: فِيهِ الأولى، راجع إلى ما فى قوله: فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ و الضمير فى قوله: وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ يحتمل أن يعود إلى الكتاب، و يحتمل أن يعود إلى المنزل عليه، و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم، قاله الزجّاج؛ و يحتمل أن يعود إلى الحقّ. و قوله: إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ أى: أوتوا الكتاب، أو أوتوا الحق، أو أوتوا النبىّ: أى: أعطوا علمه. و قوله: بَغْياً بَيْنَهُمْ منتصب على أنه مفعول به؛ أى: لم يختلفوا إلا للبغى، أى: الحسد و الحرص على الدنيا، و فى هذا تنبيه على السفه فى فعلهم، و القبيح الذى وقعوا فيه، لأنهم جعلوا نزول الكتاب سببا فى شدّة الخلاف. و قوله:
فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِ أى: فهدى اللّه أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الحق، و ذلك بما بيّنه لهم فى القرآن من اختلاف من كان قبلهم، و قيل: معناه فهدى اللّه أمة محمد للتصديق، بجميع الكتب بخلاف من قبلهم، فإن بعضهم كذّب كتاب بعض؛ و قيل: إن اللّه هداهم إلى الحق من القبلة؛ و قيل:
هداهم ليوم الجمعة؛ و قيل: هداهم لاعتقاد الحق فى عيسى بعد أن كذّبته اليهود و جعلته النصارى ربّا؛ و قيل:
المراد بالحق: الإسلام. و قال الفرّاء: إن فى الآية قلبا، و تقديره: فهدى اللّه الذين آمنوا بالحقّ لما اختلفوا فيه. و اختاره ابن جرير، و ضعّفه ابن عطية. و قوله: بِإِذْنِهِ قال الزجّاج: معناه: بعلمه. قال النحاس: و هذا غلط، و المعنى: بأمره.
و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ قال: هم اليهود كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ما ذكر اللّه فى القرآن و ما لم يذكر وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ قال: يكفرها. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: آتاهم اللّه آيات بيّنات: عصا موسى، و يده، و أقطعهم البحر، و أغرق عدوّهم و هم ينظرون، و ظلّل عليهم الغمام، و أنزل عليهم المنّ و السلوى وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ يقول:
من يكفر بنعمة اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا قال: الكفار يبتغون الدنيا و يطلبونها وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فى طلبهم

---

(١). الجاثية: ٢٩.

الآخرة. قال ابن جريج: لا أحسبه إلا عن عكرمة. قال: قالوا لو كان محمد نبيا لا تبعه ساداتنا و أشرافنا، و اللّه ما اتبعه إلا أهل الحاجة، مثل ابن مسعود و أصحابه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يقولون: ما هؤلاء على شىء، استهزاء و سخريا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ هناكم التفاضل. و أخرج عبد الرزاق عن قتادة قال: فوقهم فى الجنة. و

أخرج ابن أبی حاتم عن عطاء، قال: سألت ابن عباس عن هذه الآیة وَ اللَّهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ قال: تفسیرها: لیس علی اللّه رقیب و لا من یحاسبه. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر قال: لا یحاسب الربّ. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو یعلی، و الطبرانی بسند صحیح عن ابن عباس قال: کان الناس أمة واحدة، قال: علی الإسلام کلهم. و أخرج البزار، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الحاکم عنه قال: کان بین آدم و نوح عشرة قرون، کلهم علی شریعة من الحق، فاختلفوا، فبعث اللّه النبیین. قال: و کذلک فی قراءة عبد اللّه کان النّاس أمة واحدة فاختلفوا. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن أبی بن کعب قال: کانوا أمة واحدة حیث عرضوا علی آدم، ففطرهم اللّه علی الإسلام و أقرّوا بالعبودیة، و کانوا أمة واحدة مسلمین، ثم اختلفوا من بعد آدم. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن أبیّ أنه کان یقرؤها: کان الناس أمّة واحدة فاختلفوا فبعث اللّه النبیّین و إن اللّه إنما بعث الرسل؛ و أنزل الکتب بعد الاختلاف، و ما اختلف الذین أوتوه: یعنی: بنی إسرائیل أوتوا الکتاب و العلم بغیا بینهم، یقول: بغیا علی الدنیا و طلب ملکها و زخرفها؛ أیهم یکون له الملک و المهابة فی الناس. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس کانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً قال: کفارا. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن أبی هریرة فی قوله: فَهَدَی اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا قال: قال النبی صلّی اللّه علیه و سلم: «نحن الأولون و الآخرون، الأوّلون یوم القیامة، و أوّل الناس دخولا، بید أنهم أوتوا الکتاب من قبلنا و أوتیناه من بعدهم، فهدانا اللّه لما اختلفوا فیه من الحقّ، فهذا الیوم الذی اختلفوا فیه فهدانا اللّه له، فالنّاس لنا فیه تبع، فغدا للیهود، و بعد غد للنصاری» و هو فی الصحیح بدون ذکر الآیة. و أخرج ابن أبی حاتم عن زید بن أسلم فی قوله: فَهَدَی اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِ قال: اختلفوا فی یوم الجمعة: فأخذ الیهود یوم السبت، و النصاری یوم الأحد، فهدی اللّه أمة محمد لیوم الجمعة؛ و اختلفوا فی القبلة: فاستقبلت النصاری المشرق، و الیهود بیت المقدس، و هدی أمة محمد للقبلة؛ و اختلفوا فی الصلاة: فمنهم: من یرکع و لا یسجد، و منهم: من یسجد و لا یرکع، و منهم: من یصلی و هو یتکلم، و منهم: من یصلی و هو یمشی، فهدی اللّه أمة محمد للحق من ذلک؛ و اختلفوا فی الصیام، فمنهم: من یصوم النهار، و منهم: من یصوم من بعد الطعام، فهدی اللّه أمة محمد للحق من ذلک؛ و اختلفوا فی إبراهیم: فقالت الیهود: کان یهودیا، و قالت النصاری: کان نصرانیا، و جعله اللّه حنیفا مسلما، فهدی اللّه أمة محمد للحقّ من ذلک؛ و اختلفوا فی عیسی؛ فکذّبت به الیهود، و قالوا لأمّه بهتانا عظیما، و جعلته النصاری إلها و ولدا، و جعله اللّه روحه و کلمته، فهدی اللّه أمة محمد للحق من ذلک.

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۲۴۷

[سورة البقرة (۲): آیة ۲۱۴]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا یَأْتِکُمْ مَثَلُ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّی یَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ مَتی نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِیبٌ (۲۱۴)

أَمْ هنا منقطعة بمعنی: بل. و حکی بعض اللغویین أنها قد تجیء بمثابة همزة الاستفهام؛ یبتدأ بها الکلام، فعلی هذا معنی الاستفهام هنا: التقریر و الإنکار، أی: أ حسبتم دخولکم الجنة واقعا، و لم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من کان قبلکم، فتصبروا کما صبروا، ذکر اللّه سبحانه هذه التسلیة بعد أن ذکر اختلاف الأمم علی أنبیائهم، تثبیتا للمؤمنین، و تقویة لقلوبهم، و مثل هذه الآیة قوله تعالی: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا یَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِینَ جاهَدُوا مِنْکُمْ «۱» و قوله تعالی: الم- أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ «۲» و قوله: مَسَّتْهُمُ بیان لقوله: مَثَلُ الَّذِینَ خَلَوْا و الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ قد تقدّم تفسیرهما، و الزلزلة: شدّة التحریک یکون فی الأشخاص و فی الأحوال، یقال: زلزل اللّه الأرض زلزلة و زلزالا بالکسر، فتزلزلت: إذا تحرکت و اضطربت؛

فمعنى زلزلوا: خوّفوا و أزعجوا إزعاجا شديدا. و قال الزجاج: أصل الزلزلة: نقل الشيء من مكانه، فإذا قلت: زلزلته، فمعناه: كررت زلله من مكانه. و قوله:

حَتَّى يَقُولَ أى: استمرّ ذلك إلى غاية، هى: قول الرسول و من معه: مَتى نَصْرُ اللَّهِ و الرسول هنا: قيل: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و قيل: هو شعياء؛ و قيل: هو كل رسول بعث إلى أمته. و قرأ مجاهد، و الأعرج، و نافع، و ابن محيصن: بالرفع فى قوله: حتى يقول و قرأ غيرهم: بالنصب، فالرفع على أنه حكاية لحال ماضية، و النصب بإضمار أن على أنه غاية لما قبله. و قرأ الأعمش: و زلزلوا و يقول الرّسول بالواو بدل حتى، و معنى ذلك: أن الرسول و من معه بلغ بهم الضجر إلى أن قالوا هذه المقالة المقتضية، لطلب النصر، و استبطاء حصوله، و استطالة تأخره، فبشرهم اللّه سبحانه بقوله: أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ

و قالت طائفة: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: حتى يقول الذين آمنوا: متى نصر اللّه، و يقول الرسول صلّى اللّه عليه و سلم: ألا إن نصر اللّه قريب، و لا ملجئ لهذا التكلف، لأن قول الرسول و من معه: مَتى نَصْرُ اللَّهِ ليس فيها إلّا استعجال النصر من اللّه سبحانه، و ليس فيه ما زعموه من الشكّ و الارتياب؛ حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف.

و قد أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة: أن هذه الآية نزلت فى يوم الأحزاب، أصاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ و أصحابه بلاء و حصر. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أخبر اللّه المؤمنين: أن الدنيا دار بلاء، و أنه مبتليهم فيها، و أخبرهم: أنه هكذا فعل بأنبيائه و صفوته لتطيب أنفسهم فقال: مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ فالبأساء: الفتن؛ و الضرّاء: السقم، و زلزلوا بالفتن و أذى الناس إياهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا قال:

أصابهم هذا يوم الأحزاب حتى قال قائلهم: ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً «٣» و لعله يعنى بقوله حتى قال قائلهم: يعنى قائل المنافقين كما يفيد ذلك قوله تعالى: إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً.

---

(١). آل عمران: ١۴٢.

(٢). العنكبوت: ١- ٢.

(٣). الأحزاب: ١٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢۴٨

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً «١».

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١۵ الى ٢١۶]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١۵) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١۶)

السائلون هنا: هم المؤمنون، سألوا عن الشيء الذين ينفقونه ما هو؟ فأجيبوا ببيان المصرف الذى يصرفون فيه، تنبيها على أنه الأولى بالقصد، لأن الشيء لا يعتدّ به إذا وضع فى موضعه و صادف مصرفه؛ و قيل: إنه قد تضمن قوله: ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ بيان ما ينفقونه و هو كل خير؛ و قيل: إنهم إنما سألوا عن وجوه البرّ التى ينفقون فيها، و هو خلاف الظاهر. و قد تقدّم الكلام فى

الأقربين، و اليتامى، و المساكين، و ابن السبيل. و قوله: كُتِبَ أى: فرض، و قد تقدّم بيان معناه. بين سبحانه أن هذا: أى: فرض القتال عليهم، من جملة ما امتحنوا به. و المراد بالقتال: قتال الكفار. و الكره بالضم: المشقة، و بالفتح:
ما أكرهت عليه، و يجوز الضم فى معنى الفتح، فيكونان لغتين، يقال: كرهت الشىء كرها، و كرها، و كراهة، و كراهية، و أكرهته عليه إكراها، و إنما كان الجهاد كرها: لأن فيه إخراج المال، و مفارقة الأهل و الوطن، و التعرّض لذهاب النفس، و فى التعبير بالمصدر و هو قوله: كُرْهٌ مبالغة؛ و يحتمل أن يكون بمعنى المكروه، كما فى قولهم: الدرهم ضرب الأمير. و قوله: وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً قيل: عسى هنا: بمعنى قد، و روى ذلك عن الأصم. و قال أبو عبيدة: عسى من اللّه إيجاب، و المعنى: عسى أن تكرهوا الجهاد لما فيه من المشقة و هو خير لكم، فربما تغلبون، و تظفرون، و تغنمون، و تؤجرون، و من مات مات شهيدا، و عسى أن تحبّوا الدعة و ترك القتال و هو شرّ لكم، فربما يتقوّى عليكم العدوّ فيغلبكم، و يقصدكم إلى عقر دياركم، فيحلّ بكم أشدّ مما تخافونه من الجهاد الذى كرهتم، مع ما يفوتكم فى ذلك من الفوائد العاجلة و الآجلة، وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فيه صلاحكم و فلاحكم وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن السدى فى قوله: يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قال: يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، و هى النفقة ينفقها الرجل على أهله، و الصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن جريج قال: سأل المؤمنون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أين يضعون أموالهم؟
فنزلت: يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ الآية، فذلك النفقة فى التطوّع و الزكاة سواء ذلك كله. و أخرج ابن المنذر: أن عمرو بن الجموح سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: ماذا ننفق من أموالنا، و أين نضعها؟ فنزلت. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ قال: إن اللّه أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمنين بمكة بالتوحيد، و إقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و أن يكفوا أيديهم عن القتال، فلما هاجر إلى المدينة نزلت سائر الفرائض، و أذن لهم فى القتال، فنزلت: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ يعنى: فرض عليكم، و أذن لهم بعد ما نهاهم عنه وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ يعنى: القتال: و هو مشقة عليكم وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً يعنى:

---

(١). الأحزاب: ١٠- ١٢.

الجهاد: قتال المشركين، و هو خير لكم، و يجعل اللّه عاقبته فتحا، و غنيمة، و شهادة وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً يعنى: القعود عن الجهاد وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ فيجعل اللّه عاقبته شرّا، فلا تصيبوا ظفرا و لا غنيمة.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج قال: قلت لعطاء ما يقول فى قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أوجب الغزو على الناس من أجلها؟ قال: لا، كتب على أولئك حينئذ. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية قال: الجهاد مكتوب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد إن استعين به أعان، و إن استغيث به أغاث، و إن استنفر نفر، و إن استغنى عنه قعد. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ قال: نسختها هذه الآية وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا «١». و أخرجه ابن جرير موصولا عن عكرمة عن ابن عباس. و أخرج ابن المنذر، و البيهقى فى سننه، من طريق علىّ قال:
عسى من اللّه: واجب. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى نحوه أيضا.
و قد ورد فى فضل الجهاد و وجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها.

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

قوله: قِتالٍ فِيهِ هو بدل اشتمال، قاله سيبويه. و وجه أن السؤال عن الشهر لم يكن إلّا باعتبار ما وقع فيه من القتال. قال الزّجاج: المعنى: يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام، و أنشد سيبويه قول الشاعر:

فما كان قيس هلكه هلك واحدو لكنّه بنيان قوم تهدّما

فقوله: هلكه، بدل اشتمال من قيس. و قال الفرّاء: هو مخفوض، يعنى قوله: قِتالٍ فِيهِ على نية عن، و قال أبو عبيدة: هو مخفوض على الجوار. قال النحاس: لا يجوز أن يعرب الشيء على الجوار فى كتاب اللّه و لا فى شيء من الكلام، و إنما وقع فى شيء شاذّ، و هو قولهم: هذا جحر ضب خرب. و تابع النّحاس ابن عطية فى تخطئة أبى عبيدة. قال النّحاس: و لا يجوز إضمار عن، و القول فيه: أنه بدل. و قرأ ابن مسعود و عكرمة: و يسئلونك عن الشّهر الحرام و عن قتال فيه. و قرأ الأعرج: قتال فيه بالرفع.

قال النحاس: و هو غامض فى العربية، و المعنى: يسألونك عن الشهر الحرام جائز قتال فيه. و قوله: قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ مبتدأ و خبر، أى: القتال فيه أمر كبير مستنكر، و الشهر الحرام: المراد به الجنس. و قد كانت العرب لا تسفك فيه دما و لا تغير على عدوّ، و الأشهر الحرم هى: ذو القعدة، و ذو الحجة، و محرم،

---

(١). البقرة: ٢٨٥.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٥٠

فتح القدير ج ١ ٢٩٩

و رجب، ثلاثة سرد و واحد فرد. و قوله: وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مبتدأ. و قوله: وَ كُفْرٌ بِهِ معطوف على صدّ. و قوله: وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ عطف على سبيل اللّه. و قوله: وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ معطوف أيضا على صدّ. و قوله: أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ خبر صدّ و ما عطف عليه، أى: الصدّ عن سبيل اللّه، و الكفر به، و الصدّ عن المسجد الحرام، و إخراج أهل الحرم منه: أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ أى: أعظم إثما، و أشدّ ذنبا من القتال فى الشهر الحرام، كذا قال المبرد و غيره، و الضمير فى قوله: وَ كُفْرٌ بِهِ يعود إلى اللّه، و قيل: يعود إلى الحج. و قال الفراء: إن قوله: وَ صَدٌّ عطف على كبير، و المسجد: عطف على الضمير فى قوله: وَ كُفْرٌ بِهِ فيكون الكلام منتسقا، متصلا غير منفصل. قال ابن عطية: و ذلك خطأ، لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: وَ كُفْرٌ بِهِ أى: باللّه، عطف أيضا على كبير، و يجيء من ذلك: أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر باللّه، و هذا بين فساده. و معنى الآية على القول الأوّل الذى ذهب إليه الجمهور: أنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام، و ما تفعلون أنتم من الصدّ عن سبيل اللّه لمن أراد الإسلام، و من الكفر باللّه، و من الصدّ عن المسجد الحرام، و من إخراج أهل الحرم منه، أكبر جرما عند اللّه. و السبب يشهد لهذا؟؟؟، و يفيد أنه المراد، كما سيأتى بيانه، فإن السؤال منهم المذكور فى هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التى بعثها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و المراد بالفتنة هنا: الكفر، أى: كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التى بعثها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قيل: المراد بالفتنة: الإخراج لأهل الحرم منه؛ و قيل:

المراد بالفتنة هنا: فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا، أى: فتنة المستضعفين من المؤمنين، أو نفس الفتنة التى الكفار عليها. و هذا أرجح من الوجهين الأوّلين، لأن الكفر و الإخراج قد سبق ذكرهما، و أنهما مع الصدّ أكبر عند اللّه من القتال فى الشهر الحرام. و قوله: وَ لا يَزالُونَ ابتداء كلام؛ يتضمن الإخبار من اللّه عزّ و جل للمؤمنين؛ بأن هؤلاء الكفار لا يزالون مستمرين على قتالكم؛ و عداوتكم حتى يردوكم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك؛ و تهيّأ لهم منكم، و التقيد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك، و قدرتهم عليه، ثم حذّر اللّه سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار، و الدخول فيما يريدونه من ردّهم عن دينهم الذى هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين فقال: وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ إلى آخر الآية، و الردة: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، و التقييد بقوله: فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر. و حبط: معناه بطل و فسد، و منه: الحبط، و هو فساد يلحق المواشى فى بطونها من كثرة أكلها للكلأ؛ فتنتفخ أجوافها، و ربما تموت من ذلك؛ و فى هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام. و معنى قوله: فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ أنه لا يبقى له حكم المسلمين فى الدنيا، فلا يأخذ شيئا مما يستحقه المسلمون، و لا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، و لا ينال شيئا من ثواب الآخرة الذى يوجبه الإسلام و يستحقه أهله. و قد اختلف أهل العلم فى الردّة: هل تحبط العمل بمجردها؟
أم لا تحبط إلا بالموت على الكفر، و الواجب حمل ما أطلقته الآيات فى غير هذا الموضع على ما فى هذه الآية من التقييد. و قد تقدم الكلام فى معنى الخلود. قوله: هاجَرُوا الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى

موضع، و ترك الأوّل لإيثار الثانى، و الهجر: ضدّ الوصل، و التهاجر: التقاطع، و المراد بها هنا: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. و المجاهدة: استخراج الجهد، جهد مجاهدة و جهادا، و الجهاد و التجاهد: بذل الوسع. و قوله: يَرْجُونَ معناه: يطمعون، و إنما قال: يرجون بعد تلك الأوصاف المادحة التى وصفهم بها؛ لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة؛ و لو بلغ فى طاعة اللّه كل مبلغ. و الرجاء: الأمل، يقال: رجوت فلانا، أرجو رجاء و رجاوة. و قد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً «1» أى: لا تخافون عظمة اللّه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و البيهقى فى سننه، بسند صحيح عن جندب بن عبد اللّه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: أنه بعث رهطا، و بعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب لينطلق؛ بكى شوقا و صبابة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فجلس فبعث مكانه عبد اللّه بن جحش، و كتب له كتابا و أمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا و كذا، و قال: لا تكرهنّ أحدا من أصحابك على المسير معك، فلما قرأ الكتاب استرجع و قال: سمعا و طاعة للّه و لرسوله، فخبرهم الخبر، و قرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان، و مضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه، و لم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم فى الشهر الحرام، فأنزل اللّه: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزرا فليس لهم أجر، فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا إلى آخر الآية.

و أخرج ابن البزار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية هو ذلك. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال:
إن المشركين صدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و ردّوه عن المسجد الحرام فى شهر حرام، ففتح اللّه على نبيه فى شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم القتال فى شهر حرام. فقال اللّه: قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ من القتال فيه، و أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم بعث سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمى و هو مقبل من الطائف فى آخر ليلة من جمادى و أوّل ليلة من رجب، و إن أصحاب محمد كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، و كانت أوّل رجب و لم يشعروا، فقتله رجل منهم، و أخذوا ما كان معه، و أن

المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك، فنزلت الآية. و أخرج ابن إسحاق عنه: أن سبب نزول الآية مصاب عمرو بن الحضرمى. و قد ورد من طرق كثيرة فى تعيين السبب مثل ما تقدّم. و أخرج ابن أبى داود عن عطاء بن ميسرة قال: أحلّ القتال فى الشهر الحرام فى براءة فى قوله:

فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً «٢». و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان الثورى: أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا شيء منسوخ، و لا بأس بالقتال فى الشهر الحرام. و أخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف فى براءة فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «٣». و أخرج ابن المنذر عن ابن عمر وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ قال: الشرك. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد: وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ قال: كفار قريش، و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله: أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ قال: هؤلاء خيار هذه الأمة، جعلهم اللّه أهل رجاء، إنه من رجا طلب،

---

(١). نوح: ١٣.

(٢). التوبة: ٣٦.

(٣). التوبة: ٥.

و من خاف هرب. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١٩ الى ٢٢٠]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

السائلون فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ هم المؤمنون، كما سيأتى بيانه عند ذكر سبب نزول الآية، و الخمر: مأخوذة من خمر إذا ستر، و منه: خمار المرأة، و كل شيء غطى شيئا فقد خمره، و منه «خمّروا آنيتكم» و سمى خمرا: لأنه يخمر العقل، أى: يغطيه و يستره، و من ذلك الشجر الملتف يقال له: الخمر بفتح الميم، لأنه يغطى ما تحته و يستره، يقال منه: أخمرت الأرض: كثر خمرها، قال الشاعر:

ألا يا زيد و الضّحاك سيرافقد جاوزتما خمر الطّريق

أى: جاوزتما الوهد؛ و قيل: إنما سميت الخمر خمرا: لأنها تركت حتى أدركت، كما يقال: قد اختمر العجين، أى: بلغ إدراكه، و خمر الرأى: أى: ترك حتى تبين فيه الوجه؛ و قيل: إنما سميت الخمر خمرا:

لأنها تخالط العقل، من المخامرة و هى المخالطة. و هذه المعانى الثلاثة متقاربة موجودة فى الخمر، لأنها تركت حتى أدركت ثم خالطت العقل فخمرته، أى: سترته، و الخمر: ماء العنب الذى غلا و اشتدّ و قذف بالزبد، و ما خامر العقل من غيره فهو فى حكمه كما ذهب إليه الجمهور. و قال أبو حنيفة، و الثورى، و ابن أبى ليلى، و ابن عكرمة، و جماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيرة من غير خمر العنب فهو حلال، أى: ما دون المسكر فيه، و ذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ، و الخلاف فى ذلك مشهور. و قد أطلت الكلام على الخمر فى شرحى للمنتقى فليرجع إليه. و الميسر مأخوذ من اليسر، و هو وجوب الشيء لصاحبه، يقال يسر لى كذا: إذا وجب فهو ييسر يسرا و ميسرا، و الياسر اللاعب بالقداح. و قد يسر ييسر. قال الشاعر:

فأعنهم و أيسر كما يسروا بهو إذا هم نزلوا بضنك فانزل

و قال الأزهرى: الميسر: الجزور التى كانوا يتقامرون عليه، سمى ميسرا: لأنه يجزأ أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، و كل شيء جزأته فقد يسرته، و الياسر: الجازر. قال: و هذا الأصل فى الياسر، ثم يقال للضاربين بالقداح و المتقامرين على الجزور: يأسرون، لأنهم جازرون، إذ كانوا سببا لذلك. و قال فى الصحاح: و يسر القوم الجزور: إذا اجتزروها، و اقتسموا أعضاءها؛ ثم قال: و يقال يسر القوم: إذا قامروا، و رجل ميسر و ياسر بمعنى، و الجمع أيسار. قال النابغة:

إنى أتمّم أيسارى و أمنحهممثنى الأيادى و أكسو الجفنة الأدما

و المراد بالميسر فى الآية: قمار العرب بالأزلام. قال جماعة من السلف من الصحابة و التابعين و من بعدهم:

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٥٣

كل شيء فيه قمار من نرد أو شطرنج أو غيرهما فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز و الكعاب، إلا ما أبيح من الرهان فى الخيل و القرعة فى إفراز الحقوق. و قال مالك: الميسر ميسران: ميسر اللهو، و ميسر القمار، فمن ميسر اللهو: النرد و الشطرنج و الملاهى كلها، و ميسر القمار: ما يتخاطر الناس عليه، و كل ما قومر به فهو ميسر، و سيأتى البحث مطوّلا فى هذا فى سورة المائدة عند و قوله: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ. قوله:

قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ يعنى: الخمر و الميسر، فإثم الخمر: أى: إثم تعاطيها، ينشأ من فساد عقل مستعملها، فيصدر عنه ما يصدر عن فاسد العقل من المخاصمة و المشاتمة، و قول الفحش و الزور، و تعطيل الصلوات، و سائر ما يجب عليه. و أما إثم الميسر: أى: إثم تعاطيه، فما ينشأ عن ذلك من الفقر و ذهاب المال فى غير طائل، و العداوة و إيحاش الصدور. و أما منافع الخمر: فربح التجارة فيها؛ و قيل: ما يصدر عنها من الطرب و النشاط و قوّة القلب و ثبات الجنان، و إصلاح المعدة، و قوّة الباءة و قد أشار شعراء العرب إلى شيء من ذلك قال:

فإذا شربت فإنّنى‌ربّ الخورنق و السّدير

و إذا صحوت فإنّنى‌ربّ الشّويهة و البعير

و قال آخر:

و نشربها فتتركنا ملوكاو أسدا ما ينهنهنا اللّقاء

و قال من أشار إلى ما فيها من المفاسد و المصالح:

رأيت الخمر صالحة و فيهاخصال تفسد الرّجل الحليما

فلا- و اللّه- أشربها صحيحاو لا أشفى بها أبدا سقيما

و لا أعطى بها ثمنا حياتى‌و لا أدعو لها أبدا نديما

و منافع الميسر: مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب و لا كدّ، و ما يحصل من السرور و الأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح.

و سهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الحظوظ. الأول:

الفذّ، بفتح الفاء بعدها معجمة، و فيه علامة واحدة، و له نصيب، و عليه نصيب. الثانى: التّوأم، بفتح المثناة الفوقية و سكون الواو و فتح الهمزة، و فيه علامتان، و له و عليه نصيبان. الثالث: الرقيب، و فيه ثلاث علامات، و له و عليه ثلاثة أنصباء. الرابع: الحلس بمهملتين، الأولى مكسورة و اللام ساكنة، و فيه أربع علامات، و له و عليه أربعة أنصباء. الخامس: النّافر، بالنون و الفاء و المهملة، و يقال: النّافس، بالسين المهملة مكان الراء، و فيه خمس علامات، و له و عليه خمسة أنصباء. السادس: المسبل، بضم الميم، و سكون المهملة، و فتح الباء الموحدة، و فيه ست علامات، و له و عليه ستة أنصباء. السابع. المعلّى، بضم الميم، و فتح المهملة، و

تشديد اللام المفتوحة، و فيه سبع علامات، و له و عليه سبعة أنصباء، و هو أكثر السهام حظا، و أعلاها قدرا، فجملة ذلك ثمانية و عشرون فردا. و الجزور تجعل ثمانية و عشرين جزءا، هكذا قال الأصمعى،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۵۴

و بقى من السهام أربعة أغفالا لا فروض لها، و هى: المنيح، بفتح الميم، و كسر النون، و سكون الياء التحتية، و بعدها مهملة. و السّفيح، بفتح المهملة، و كسر الفاء، و سكون الياء التحتية، بعدها مهملة. و الوغد، بفتح الواو، و سكون المعجمة، بعدها مهملة، و الضّعف بالمعجمة بعدها مهملة ثم فاء، و إنما ادخلوا هذه الأربعة التى لا فروض لها بين ذوات الفروض لتكثر السهام على الذى يجيلها و يضرب بها فلا يجد إلى الميل مع أحد سبيلا.

و قد كان المجيل للسهام يلتحف بثوب، و يحثو على ركبتيه، و يخرج رأسه من الثوب، ثم يدخل يده فى الرّبابة، بكسر المهملة، و بعدها باء موحدة، و بعد الألف باء موحدة أيضا، و هى الخريطة التى يجعل فيها السهام، فيخرج منها باسم كل رجل سهما، فمن خرج له سهم له فرض أخذ فرضه، و من خرج له سهم لا فرض له، لم يأخذ شيئا و غرم قيمة الجزور، و كانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء. و قد قال ابن عطية: إن الأصمعى أخطأ فى قوله إن الجزور تقسم على ثمانية و عشرين جزءا، و قال: إنما تقسم على عشرة أجزاء. قوله تعالى: وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما أخبر سبحانه: بأن الخمر و الميسر و إن كان فيهما نفع فالإثم الذى يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع، لأنه لا خير يساوى فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتى عليه الحصر؛ و كذلك لا خير فى الميسر يساوى ما فيها من المخاطرة بالمال و التعرض للفقر، و استجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء و هتك الحرم. و قرأ حمزة و الكسائى: كثير بالمثلثة. و قرأ الباقون بالباء الموحدة. و قرأ أبى: و إثمهما أقرب من نفعهما. قوله: قُلِ الْعَفْوَ قرأه الجمهور:

بالنصب. و قرأ أبو عمرة وحده: بالرفع. و اختلف فيه عن ابن كثير، و بالرفع قرأه الحسن و قتادة، قال النحاس: إن جعلت ذا بمعنى: الذى، كان الاختيار الرفع على معنى الذى ينفقون هو العفو، و إن جعلت ما و ذا شيئا واحدا كان الاختيار النصب على المعنى: قل ينفقون العفو، و العفو: ما سهل و تيسر و لم يشق على القلب؛ و المعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم و لم تجهدوا فيه أنفسكم؛ و قيل: هو ما فضل عن نفقة العيال. و قال جمهور العلماء: هو نفقات التطوّع؛ و قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة؛ و قيل: هى محكمة، و فى المال حق سوى الزكاة. قوله: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ أى: فى أمر النفقة. و قوله: فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ متعلق بقوله: تَتَفَكَّرُونَ أى: تتفكرون فى أمرهما، فتحسبون من أموالكم ما تصلحون به معايش دنياكم، و تنفقون الباقى فى الوجوه المقرّبة إلى الآخرة؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: كذلك يبين اللّه لكم الآيات فى الدنيا و الآخرة؛ لعلكم تتفكرون فى الدنيا و زوالها، و فى الآخرة و بقائها، فترغبون عن العاجلة إلى الآجلة؛ و قيل: يجوز أن يكون إشارة إلى قوله: وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما أى: لتتفكروا فى أمر الدنيا و الآخرة، و ليس هذا بجيد. قوله: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ* «۱» و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى «۲» و قد كان ضاق على الأولياء الأمر كما سيأتى بيانه إن شاء اللّه، فنزلت هذه الآية. و المراد بالإصلاح هنا: مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم. و فى ذلك دليل على جواز التصرف فى أموال الأيتام من الأولياء و الأوصياء بالبيع، و المضاربة، و الإجارة، و نحو ذلك. قوله:

---

(۱). الأنعام: ۱۵۲.

(۲). النساء: ۱۰.

وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ اختلف فى تفسير المخالطة لهم، فقال أبو عبيدة: مخالطة اليتامى: أن يكون لأحدهم المال و يشقّ على كافله أن يفرد طعامه عنه، و لا يجد بدّا من خلطه بعياله، فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحرى، فيجعله مع نفقة أهله، و هذا قد تقع فيه الزيادة و النقصان، فدلت هذه الآية على الرخصة، و هى ناسخة لما قبلها؛ و قيل: المراد بالمخالطة: المعاشرة للأيتام، و قيل: المراد بها: المصاهرة لهم.

و الأولى: عدم قصر المخالطة على نوع خاص، بل تشمل كل مخالطة، كما يستفاد من الجملة الشرطية. و قوله:

فَإِخْوانُكُمْ خبر لمبتدأ محذوف، أى: فهم إخوانكم فى الدين. و فى قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ تحذير للأولياء، أى: لا يخفى على اللّه من ذلك شى‏ء، فهو يجازى كل أحد بعلمه، و من أصلح فلنفسه، و من أفسد فعلى نفسه. و قوله: لَأَعْنَتَكُمْ أى: و لو شاء لجعل ذلك شاقا عليكم، و متعبا لكم، و أوقعكم فيما فيه الحرج و المشقة، و قيل: العنت هنا: معناه الهلاك. قاله أبو عبيدة، و أصل العنت:

المشقة. و قال ابن الأنبارى: أصل العنت: التشديد، ثم نقل إلى معنى الهلاك. و قوله: عَزِيزٌ أى:

لا يمتنع عليه شى‏ء، لأنه غالب لا يغالب حَكِيمٌ يتصرف فى ملكه بما تقتضيه مشيئته و حكمته، و ليس لكم أن تختاروا لأنفسكم.

و قد أخرج أحمد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أبو داود، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و الضياء فى المختارة عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا؛ فإنها تذهب بالمال و العقل، فنزلت: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ يعنى هذه الآية، فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهمّ بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فنزلت التى فى سورة النساء:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى «1» فكان ينادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قام إلى الصلاة:

أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهمّ بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التى فى المائدة، فدعى عمر فقرئت عليه، فلما بلغ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ «2» قال عمر: انتهينا انتهينا. و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: كنا نشرب الخمر فأنزلت: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ الآية، فقلنا نشرب منها ما ينفعنا، فنزلت فى المائدة: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ «3» الآية، فقالوا: اللهم انتهينا. و أخرج أبو عبيد، و البخارى فى الأدب المفرد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: الميسر: القمار.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان الرجل فى الجاهلية يخاطر عن أهله و ماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله و ماله. و قوله:

قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ يعنى: ما ينقص من الدين عند شربها وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ يقول: فيما يصيبون من لذتها، و فرحها إذا شربوا وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما يقول: ما يذهب من الدين، فالإثم فيه أكبر مما يصيبون من لذتها و فرحها إذا شربوها، فأنزل اللّه بعد ذلك: لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى الآية، فكانوا لا يشربونها عند الصلاة، فإذا صلوا العشاء شربوها، ثم إن ناسا من المسلمين شربوها فقاتل بعضهم بعضا، و تكلموا بما لم يرض اللّه من القول، فأنزل اللّه: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ «4» الآية، فحرّم

____

(1). النساء: 43.

(2). المائدة: 91- 92.

(3). المائدة: 90.

(۴). المائدة: ۹۰.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۵۶

الخمر و نهى عنها. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: منافعهما قبل التحريم، و إثمهما بعد ما حرّمهما.

و أخرج ابن إسحاق، و ابن أبى حاتم عنه: أن نفرا من الصحابة حين أمروا بالنفقة فى سبيل اللّه أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: إنا لا ندرى ما هذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا، فما ننفق منها؟ فأنزل اللّه: وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ و كان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به، و لا ما يأكل حتى يتصدّق عليه.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال: العفو: هو ما لا يتبين فى أموالكم، و كان هذا قبل أن تفرض الصدقة. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال: الْعَفْوَ ما يفضل عن أهلك، و فى لفظ قال:

الفضل عن العيال. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: قُلِ الْعَفْوَ قال: لم تفرض فيه فريضة معلومة ثم قال: خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ ثم نزلت فى الفرائض بعد ذلك مسماة. و قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، و ابدأ بمن تعول». و ثبت نحوه فى الصحيح مرفوعا من حديث حكيم بن حزام. و فى الباب أحاديث كثيرة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ قال: يعنى فى زوال الدنيا، و فنائها، و إقبال الآخرة، و بقائها. و أخرج أبو داود و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عنه قال: لما أنزل اللّه: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ* و إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى الآية، انطلق من كن عنده يتيم يعزل طعامه عن طعامه، و شرابه عن شرابه، فجعل يفصل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله، أو يفسد فيرمى به، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى الآية. فخلطوا طعامهم بطعامهم و شرابهم بشرابهم. و قد روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ قال: المخالطة: أن يشرب من لبنك، و تشرب من لبنه، و يأكل من قصعتك، و تأكل من قصعته، و يأكل من ثمرتك، و تأكل من ثمرته وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ قال: يعلم من يتعمد أكل مال اليتيم، و من يتحرج منه، و لا يألو عن إصلاحه وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ يقول: لو شاء ما أحلّ لكم ما أعنتكم مما لا تتعمدون. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لَأَعْنَتَكُمْ يقول: لأحرجكم و ضيق عليكم، و لكنه وسع و يسر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ قال: و لو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقا.

[سورة البقرة (۲): آية ۲۲۱]

وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۲۱)

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۵۷

قوله: وَ لا تَنْكِحُوا قرأه الجمهور بفتح التاء، و قرئ فى الشواذ بضمها؛ قيل و المعنى: كأن المتزوج لها أنكحها من نفسها. و فى هذه الآية النهى عن نكاح المشركات، فقيل: المراد بالمشركات الوثنيات؛ و قيل:

إنها تعم الكتابيات؛ لأن أهل الكتاب مشركون: وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ «١» و قد اختلف أهل العلم فى هذه الآية، فقالت طائفة: إن اللّه حرم نكاح المشركات فيها و الكتابيات من الجملة، ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم. و هذا محكى عن ابن عباس، و مالك، و سفيان بن سعيد، و عبد الرحمن بن عمر، و الأوزاعى. و ذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة، و أنه يحرم نكاح الكتابيات و المشركات، و هذا أحد قولى الشافعى، و به قال جماعة من أهل العلم. و يجاب عن قولهم: أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة: بأن سورة البقرة من أوّل من نزل و سورة المائدة من آخر ما نزل. و القول الأوّل هو الراجح. و قد قال به- مع من تقدم- عثمان بن عفان، و طلحة، و جابر، و حذيفة، و سعيد بن المسيب، و سعيد بن جبير، و الحسن، و طاوس، و عكرمة، و الشعبى، و الضحاك، كما حكاه النحاس، و القرطبى. و قد حكاه ابن المنذر عن المذكورين، و زاد عمر بن الخطاب و قال: لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرّم ذلك. و قال بعض أهل العلم: إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى:

ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ «٢». و قال: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ «٣» و على فرض أن لفظ المشركين يعمّ، فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا. قوله: وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ أى: و لرقيقة مؤمنة، و قيل: المراد بالأمة: الحرة، لأن الناس كلهم عبيد اللّه و إماؤه، و الأول أولى لما سيأتى، لأنه الظاهر من اللفظ، و لأنه أبلغ، فإنّ تفضيل الأمة الرقيقة المؤمنة على الحرّة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرّة المؤمنة على الحرّة المشركة بالأولى. و قوله:

وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ أى: و لو أعجبتكم المشركة، من جهة كونها ذات جمال، أو مال، أو شرف، و هذه الجملة حالية. قوله: وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ أى: لا تزوجوهم بالمؤمنات حَتَّى يُؤْمِنُوا قال القرطبى: و أجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه، لما فى ذلك من الغضاضة على الإسلام، و أجمع القراء على ضم التاء من: تنكحوا. و قوله: وَ لَعَبْدٌ الكلام فيه كالكلام فى قوله: وَ لَأَمَةٌ و الترجيح كالترجيح. قوله: أُولئِكَ إشارة إلى المشركين و المشركات يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ أى: إلى الأعمال الموجبة للنار، فكان فى مصاهرتهم و معاشرتهم و مصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له، و يدخلوا فيه وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ أى: إلى الأعمال الموجبة للجنة، و قيل: المراد: أن أولياء اللّه هم المؤمنون يدعون إلى الجنة. و قوله: بِإِذْنِهِ أى: بأمره، قاله الزجاج؛ و قيل: بتيسيره و توفيقه، قاله صاحب الكشاف.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و ابن المنذر عن مقاتل بن حيان قال: نزلت هذه الآية فى أبى مرثد الغنوى، استأذن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى عناق أن يتزوجها، و كانت ذات حظ من جمال، و هى مشركة و أبو مرثد يومئذ مسلم، فقال: يا رسول اللّه! إنها تعجبنى، فأنزل اللّه: وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ و أخرج ابن جرير، و ابن

---

(١). التوبة: ٣٠.

(٢). البقرة: ١٠٥.

(٣). البينة: ١.

المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ قال: استثنى اللّه من ذلك نساء أهل الكتاب، فقال: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ «١». و قد روى هذا المعنى عنه من طرق. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ يعنى: أهل الأوثان. و أخرج عبد بن حميد، و

البيهقى عن مجاهد نحوه، و كذلك أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن قتادة نحوه أيضا. و أخرج عبد بن حميد عن النخعى نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر: أنه كره نكاح نساء أهل الكتاب، و تأوّل وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ و أخرج البخارى عنه قال: حرّم اللّه نكاح المشركات على المسلمين، و لا أعرف شيئا من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة: ربها عيسى، أو عبد من عباد اللّه. و أخرج الواحدى، و ابن عساكر من طريق السدّىّ عن أبى مالك عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ قال: نزلت فى عبد اللّه بن رواحة، و كانت له أمة سوداء، و أنه غضب عليها، فلطمها، ثم إنه فزع فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره خبرها، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم له: ما هى يا عبد اللّه؟ قال: تصوم، و تصلى، و تحسن الوضوء، و تشهد أن لا إله إلا اللّه، و أنك رسول اللّه، فقال: يا عبد اللّه! هذه مؤمنة، فقال عبد اللّه: فوالذى بعثك بالحق لأعتقنها، و لأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، و قالوا: نكح أمة، و كانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، و ينكحوهم رغبة فى أحسابهم، فأنزل اللّه فيهم: وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن السدى مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله:

وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ قال: بلغنا أنها كانت أمة لحذيفة سوداء، فأعتقها و تزوجها حذيفة. و أخرج ابن جرير عن أبى جعفر محمد بن علىّ قال: النكاح بولى فى كتاب اللّه، ثم قرأ: وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٢ الى ٢٢٣]

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

قوله: الْمَحِيضِ هو الحيض، و هو مصدر، يقال: حاضت المرأة حيضا و محيضا فهى حائض و حائضة، كذا قال الفراء و أنشد:

كحائضة يزنى بها غير طاهر و نساء حيّض و حوائض، و الحيضة بالكسر: المرة الواحدة، و قيل: الاسم؛ و قيل: المحيض: عبارة عن الزمان و المكان، و هو مجاز فيهما. و قال ابن جرير الطبرى: المحيض: اسم الحيض، و مثله قول رؤبة:

إليك أشكو شدّة المعيش «٢»

---

(١). المائدة: ٥.

(٢). و عجزه: و مرّ أعوام نتفن ريشى.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٥٩

و أصل هذه الكلمة من السيلان و الانفجار يقال: حاض السيل و فاض، و حاضت الشجرة: أى: سالت رطوبتها، و منه الحيض: أى: الحوض، لأن الماء يحوض إليه: أى: يسيل. و قوله: قُلْ هُوَ أَذىً أى: قل هو شىء يتأذى به، أى: برائحته، و الأذى: كناية عن القذر، و يطلق على القول المكروه، و منه قوله تعالى: لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى «١». و منه قوله تعالى: وَ دَعْ أَذاهُمْ «٢» و قوله:

فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ أى: فاجتنبوهنّ فى زمان الحيض؛ إن حمل المحيض على المصدر، أو فى محل الحيض؛ إن حمل على الاسم. و المراد من هذا الاعتزال: ترك المجامعة، لا ترك المجالسة أو الملامسة فإن ذلك جائز، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج، أو بما دون الإزار، على خلاف فى ذلك؛ و أما ما يروى عن ابن عباس، و عبيدة السلمانى: أنه يجب على الرجل

أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت فليس ذلك بشيء، و لا خلاف بين أهل العلم فى تحريم وطء الحائض، و هو معلوم من ضرورة الدين. قوله: وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ قرأ نافع، و أبو عمرو، و ابن كثير، و ابن عامر، و عاصم فى رواية حفص عنه: بسكون الطاء و ضم الهاء. و قرأ حمزة، و الكسائى، و عاصم فى رواية أبى بكر: يَطْهُرْنَ بتشديد الطاء و فتحها و فتح الهاء و تشديدها. و فى مصحف أبيّ و ابن مسعود و يتطهّرن و الطهر: انقطاع الحيض، و التطهر:

الاغتسال. و بسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم، فذهب الجمهور: إلى أن الحائض لا يحلّ وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء. و قال محمد بن كعب القرظى و يحيى بن بكير: إذا طهرت الحائض و تيممت حيث لا ماء حلت لزوجها و إن لم تغتسل. و قال مجاهد و عكرمة: إن انقطاع الدم يحلها لزوجها، و لكن تتوضأ و قال أبو حنيفة و أبو يوسف و محمد: إن انقطع دمها بعد مضى عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل، و إن كان انقطاعه قبل العشر؛ لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت الصلاة. و قد رجح ابن جرير الطبرى قراءة التشديد. و الأولى أن يقال: إن اللّه سبحانه جعل للحلّ غايتين كما تقتضيه القراءتان: إحداهما انقطاع الدم، و الأخرى التطهر منه، و الغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى، فيجب المصير إليها. و قد دلّ أن الغاية الأخرى هى المعتبرة. قوله تعالى بعد ذلك: فَإِذا تَطَهَّرْنَ فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر، لا مجرد انقطاع الدم. و قد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين. قوله: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ أى: فجامعوهن، و كنى عنه بالإتيان. و المراد: أنهم يجامعونهنّ فى المأتى الذى أباحه اللّه، و هو القبل، قيل:

و مِنْ حَيْثُ بمعنى: فى حيث، كما فى قوله تعالى: إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ «٣» أى: فى يوم الجمعة، و قوله: ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ* «۴» أى: فى الأرض؛ و قيل: إن المعنى: من الوجه الذى أذن اللّه لكم فيه: أى: من غير صوم و إحرام و اعتكاف؛ و قيل: إن المعنى: من قبل الطهر، لا من قبل الحيض؛ و قيل: من قبل الحلال، لا من قبل الزنا. قوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ قيل: المراد: التوابون من الذنوب، و المتطهرون من الجنابة و الأحداث، و قيل: التوابون من إتيان النساء فى أدبارهنّ؛ و قيل: من إتيانهن فى الحيض، و الأول أظهر. قوله: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ

---

(١). البقرة: ٢۶۴.

(٢). الأحزاب: ۴٨.

(٣). الجمعة: ٩.

(۴). فاطر: ۴٠.

لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا فى الفرج الذى هو القبل خاصة، إذ هو مزدرع الذرية، كما أن الحرث مزدرع النبات. فقد شبه ما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل؛ بما يلقى فى الأرض من البذور التى منها النبات؛ بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، و هذه الجملة بيان للجملة الأولى، أعنى:

قوله: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ و قوله: أَنَّى شِئْتُمْ أى: من أى جهة شئتم: من خلف، و قدّام، و باركة، و مستلقية و مضطجعة، إذا كان فى موضع الحرث، و أنشد ثعلب:

إنّما الأرحام أرضون لنا محترثات

فعلينا الزّرع فيهاو على اللّه النّبات

و إنما عبّر سبحانه بقوله: أَنَّى لكونها أعم فى اللغة من كيف، و أين، و متى. و أما سيبويه ففسرها هنا بكيف. و قد ذهب السلف، و الخلف من الصحابة، و التابعين، و الأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية، و أن إتيان الزوجة فى دبرها حرام. و روى عن سعيد بن المسيب و نافع و ابن عمرو و محمد بن كعب القرظى و عبد الملك بن الماجشون أنه يجوز ذلك، حكاه عنهم القرطبى فى تفسيره قال: و حكى ذلك عن مالك فى كتاب له يسمى «كتاب السر» و حذاق أصحاب مالك و مشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، و مالك أجل من أن يكون له كتاب سرّ، و وقع هذا القول فى العتبيّة. و ذكر ابن العربى: أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كبيرة من الصحابة و التابعين، و إلى مالك من روايات كثيرة فى كتاب: «جماع النسوان و أحكام القرآن» و قال الطحاوى: روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى شك فى أنه حلال، يعنى: وطء المرأة فى دبرها، ثم قرأ: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ثم قال: فأى شىء أبين من هذا. و قد روى الحاكم، و الدارقطنى، و الخطيب البغدادى عن مالك من طرق: ما يقتضى إباحة ذلك. و فى أسانيدها ضعف. و قد روى الطحاوى عن محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم أنه سمع الشافعى يقول:

ما صح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى تحليله و لا تحريمه شىء، و القياس أنه حلال. و قد روى ذلك أبو بكر الخطيب.

قال ابن الصباغ: كان الربيع يحلف باللّه الذى لا إله إلا هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعى فى ذلك، فإن الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه. قوله: وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ أى: خيرا، كما فى قوله تعالى: وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ* «١» و قيل: ابتغاء الولد؛ و قيل: التزويج بالعفائف، و قيل غير ذلك. و قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ فيه تحذير عن الوقوع فى شىء من المحرّمات. و فى قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ مبالغة فى التحذير. و فى قوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ تأنيس لمن يفعل الخير و يجتنب الشر.

و قد أخرج مسلم، و أهل السنن، و غيرهم عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، و لم يؤاكلوها، و لم يشاربوها، و لم يجامعوها فى البيوت، فسئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذلك، فأنزل اللّه: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ الآية فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «جامعوهنّ فى البيوت و اصنعوا كلّ شىء إلا النكاح» و أخرج النسائى، و البزار عن جابر قال: إن اليهود قالوا: من أتى المرأة فى دبرها كان ولده

---

(١). البقرة: ١١٠.

أحول، فجاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألوه عن ذلك، و عن إتيان الحائض، فنزلت. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال الأذى: الدم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ يقول: اعتزلوا نكاح فروجهن. و فى قوله: وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ قال: من الدم. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد قال: حتى ينقطع الدم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: فَإِذا تَطَهَّرْنَ قال: بالماء. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه أيضا.

و أخرج ابن المنذر عن مجاهد و عطاء أنهما قالا: إذا رأت الطهر فلا بأس أن تستطيب بالماء و يأتيها قبل أن تغتسل.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ قال: يعنى: أن يأتيها طاهرا غير حائض. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:

فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ قال من حيث أمركم أن تعتزلوهنّ. و أخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة مثله.
و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عباس قال: من حيث نهاكم أن تأتوهنّ و هنّ حيض، يعنى: من قبل الفرج. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن الحنفية قال: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ من قبل التزويج.
و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: يُحِبُّ التَّوَّابِينَ قال: من الذنوب وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ قال: بالماء. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال: التوبة: من الذنوب، و التطهير: من الشرك. و أخرج البخارى، و أهل السنن و غيرهم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قبلها جاء الولد أحول، فنزلت: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ إن شاء مجبّية، و إن شاء غير مجبّية، غير أن ذلك فى صمام واحد. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن مرّة الهمدانى نحوه. و قد روى هذا عن جماعة من السلف و صرحوا أنه السبب، و من الراوين لذلك عبد اللّه ابن عمر عند ابن عساكر، و أم سلمة عند عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و البيهقى فى الشعب. و أخرجه أيضا عنها ابن أبى شيبة، و أحمد، و الدارمى، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه: «أنها سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعض نساء الأنصار عن التّجبية، فتلا عليها الآية و قال: صماما واحدا» و الصّمام: السبيل. و أخرج أحمد و عبد ابن حميد و الترمذى و حسنه و النسائى و الضياء فى المختارة و غيرهم عن ابن عباس قال: جاء عمر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه هلكت قال: و ما أهلكك؟ قال: حوّلت رحلى الليلة. فلم يردّ عليه شيئا، فأوحى اللّه إلى رسوله هذه الآية نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ يقول: أقبل و أدبر و اتّق الدّبر و الحيضة. و أخرج أحمد عن ابن عباس مرفوعا أن هذه الآية نزلت فى أناس من الأنصار أتوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فسألوه فقال: ائتها على كلّ حال إذا كان فى الفرج. و أخرج الدارمى، و أبو داود، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عنه قال ابن عمر: و اللّه يغفر له أوهم، إنما كان هذا الحى من الأنصار و هم أهل وثن مع هذا الحىّ من اليهود و هم أهل الكتاب، كانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، فكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، و ذلك أستر ما تكون المرأة،

و كان هذا الحىّ من الأنصار قد أخذوا بفعلهم، و كان هذا الحىّ من قريش يشرحون النساء شرحا، و يتلذذون منهن مقبلات، و مدبرات، و مستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة؛ تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار.
فذهب يفعل بها ذلك فأنكرته عليه، و قالت: إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك و إلا فاجتنبنى، فسرى أمرهما، فبلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه الآية: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ يقول: مقبلات و مدبرات بعد أن يكون فى الفرج، و إن كان من قبل دبرها فى قبلها، زاد الطبرانى: قال ابن عباس، قال ابن عمر: فى دبرها فأوهم، و اللّه يغفر له، و إنما كان هذا الحديث على هذا. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و الدارمى، و البيهقى عن ابن مسعود أنه قال: محاشّ النساء عليكم حرام. و أخرج الشافعى فى الأم، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه من طريق خزيمة بن ثابت: «أنّ سائلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن إتيان النساء فى أدبارهنّ، فقال: حلال أو لا بأس، فلما ولّى دعاه فقال: كيف قلت؟ أمن دبرها فى قبلها فنعم، أما من دبرها فى دبرها فلا، إن اللّه لا يستحيى من الحقّ، لا تأتوا النساء فى أدبارهنّ». و أخرج ابن عدى، و الدارقطنى عن جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و الترمذى، و حسنه، و النسائى، و ابن حبان عن ابن عباس، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا ينظر اللّه إلى رجل أتى امرأة فى الدّبر». و أخرج أحمد، و البيهقى فى سننه عن ابن عمرو. أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللّوطيّة الصغرى». و أخرج أحمد، و أبو داود، و النسائى عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ملعون من أتى امرأته فى دبرها». و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد ابن حميد، و النسائى، و البيهقى عنه قال: إتيان الرجال و النساء فى أدبارهن كفر. و قد رواه ابن عدى عن أبى هريرة مرفوعا قال ابن كثير: و الموقوف أصح. و قد ورد النهى عن ذلك من طرق منها عند البزار عن عمر مرفوعا، و عند النسائى موقوفا، و هو أصح. و عند ابن عدى فى الكامل عن ابن مسعود مرفوعا، و عند ابن عدى أيضا عن عقبة بن عامر مرفوعا، و عند أحمد عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق مرفوعا، و عند ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و حسنه عند على بن طلق مرفوعا، و قد ثبت نحو ذلك عن جماعة من الصحابة و التابعين مرفوعا، و موقوفا، و أخرج البخارى و غيره عن نافع قال: قرأت ذات يوم نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فقال ابن عمر: أ تدرى فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت لا، قال نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهنّ. و أخرج البخارى عن ابن عمر أنه قال: فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ قال: فى الدبر. و قد روى هذا عن ابن عمر من طرق كثيرة. و فى رواية عند الدارقطنى أنه قال له نافع: من دبرها فى قبلها؟ فقال: لا إلا فى دبرها. و أخرج ابن راهويه، و أبو يعلى، و ابن جرير و الطحاوى، و ابن مردويه بإسناد حسن عن أبى سعيد الخدرى: أن رجلا أصاب امرأته فى دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فنزلت الآية. و أخرج البيهقى فى سننه، عن محمد بن على قال: كنت عند محمد بن كعب القرظى فجاءه رجل فقال: ما تقول فى إتيان المرأة فى دبرها؟ فقال: هذا شيخ من قريش فسله، يعنى عبد اللّه بن على بن السائب: فقال: قذر و لو كان حلالا. و قد روى القول بحلّ ذلك عن محمد بن المنكدر عند ابن جرير، و عن ابن أبى مليكة عند ابن جرير أيضا، و عن مالك بن أنس،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۶۳

و عند ابن جرير و الخطيب و غيرهما، و عن الشافعى عند الطحاوى و الحاكم و الخطيب. و قد قدّمنا مثل هذا، و ليس فى أقوال هؤلاء حجة ألبتة، و لا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم، فإنهم لم يأتوا بدليل يدلّ على الجواز، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ فى فهمه. و قد فسّرها لنا رسول اللّه «۱» صلّى اللّه عليه و سلّم و أكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ فى فهمه كائنا من كان، و من زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلا أتى امرأته فى دبرها، فليس فى هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، و من زعم ذلك فقد أخطأ، بل الذى تدل عليه الآية أن ذلك حرام، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة فى تحليله، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتى تارة بتحليل هذا، و تارة بتحريمه. و قد روى عن ابن عباس: أنه فسر هذه الآية بغير ما تقدّم، فقال: معناها: إن شئتم فاعزلوا و إن شئتم فلا تعزلوا. روى ذلك عنه ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الضياء فى المختارة، و روى نحو ذلك عن ابن عمر، أخرجه ابن أبى شيبة. و عن سعيد ابن المسيب، أخرجه ابن أبى شيبة و ابن جرير.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۲۲۴ الى ۲۲۵]

وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۲۴) لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۲۲۵)

العرضة: النصبة، قاله الجوهرى. يقال جعلت فلانا عرضة لكذا، أى: نصبة. و قيل: العرضة من الشدة و القوّة، و منه قولهم للمرأة: عرضة للنكاح، إذا صلحت له و قويت عليه، و لفلان عرضة، أى:

قوّة، و منه قول كعب بن زهير:

من كلّ نضّاخة الذّفرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول

و مثله قول أوس بن حجر:

و أدماء مثل الفحل يوما عرضتهالرحلى و فيها هزّة و تقاذف

و يطلق العرضة على الهمة، و منه قول الشاعر:

هم الأنصار عرضتها اللّقاء أى: همتها، و يقال: فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه فعلى المعنى الذى ذكره الجوهرى: أن العرضة النصبة كالقبضة و الغرفة؛ يكون ذلك اسما لما تعرضه دون الشيء، أى: تجعله حاجزا له، و مانعا منه، أى:

لا تجعلوا اللّه حاجزا و مانعا لما حلفتم عليه، و ذلك لأن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة رحم، أو إحسان إلى الغير، أو إصلاح بين الناس: بأن لا يفعل ذلك، ثم يمتنع من فعله، معللا لذلك الامتناع: بأنه قد حلف أن لا يفعله، و هذا المعنى هو الذى ذكره الجمهور فى تفسير الآية، ينهاهم اللّه أن يجعلونه عرضة لأيمانهم، أى: حاجزا لما حلفوا عليه و مانعا منه، و سمى المحلوف عليه: يمينا، لتلبسه باليمين، و على هذا يكون قوله: أَنْ تَبَرُّوا عطف بيان لأيمانكم، أى: لا تجعلوا اللّه مانعا للأيمان التى هى بركم، و تقواكم،

---

(١). رحم اللّه الشوكانى لو اكتفى بعرض هذا التفسير الصادر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى يتفق مع الفطرة السوية، و النظافة الإسلامية من الأقذار و الأدواء.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٦٤

و إصلاحكم بين الناس، و يتعلق قوله: لِأَيْمانِكُمْ بقوله: لا تَجْعَلُوا أى: لا تجعلوا اللّه لأيمانكم مانعا و حاجزا، و يجوز أن يتعلق بعرضة، أى: لا تجعلوه شيئا معترضا بينكم و بين البرّ، و ما بعده. و على المعنى الثانى: و هو أن العرضة: الشدة و القوّة، يكون معنى الآية: لا تجعلوا اليمين باللّه قوة لأنفسكم، و عدّة فى الامتناع من الخير. و لا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث، و هو تفسير العرضة بالهمة- و أما على المعنى الرابع: و هو من قولهم: فلان لا يزال عرضة للناس، أى: يقعون فيه، فيكون معنى الآية عليه: و لا تجعلوا اللّه معرضا لأيمانكم، فتبتذلونه بكثرة الحلف به، و منه: وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ «١». و قد ذمّ اللّه المكثرين للحلف فقال: وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ «٢». و قد كانت العرب تتمادح بقلة الأيمان حتى قال قائلهم:

قليل الألايا حافظ ليمينهو إن بدرت «٣» منه الألية برّت

و على هذا فيكون قوله: أَنْ تَبَرُّوا علة للنهى، أى: لا تجعلوا اللّه معرضا لأيمانكم إرادة أن تبروا، و تتقوا، و تصلحوا، لأن من يكثر الحلف باللّه يجترئ على الحنث و يفجر فى يمينه. و قد قيل فى تفسير الآية:

أقوال هى راجعة إلى هذه الوجوه التى ذكرناها، فمن ذلك قول الزجاج: معنى الآية: أن يكون الرجل إذا طلب منه الفعل الذى فيه خير اعتل باللّه، فقال: على يمين، و هو لم يحلف؛ و قيل: معناها: لا تحلفوا باللّه كاذبين إذا أردتم البرّ و التقوى و الإصلاح، و قيل: معناها إذا حلفتم على أن لا تصلوا أرحامكم و لا تتصدقوا و لا تصلحوا و على أشباه ذلك من أبواب البر فكفروا عن اليمين. و قد قيل: إن قوله: أَنْ تَبَرُّوا مبتدأ خبره محذوف، أى: البرّ و التقوى، و الإصلاح أولى. قاله الزجاج. و قيل: إنه منصوب، أى: لا تمنعكم اليمين باللّه البرّ و التقوى و الإصلاح، و روى ذلك عن الزجاج أيضا؛ و قيل: معناه: أن لا تبروا، فحذف لا، كقوله: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا «٤» أى: لا تضلوا. قاله ابن جرير الطبرى؛ و قيل: هو فى موضع جرّ على قول الخليل و الكسائى، و التقدير: فى أَنْ تَبَرُّوا و قوله: سَمِيعٌ أى: لأقوال العباد عَلِيمٌ بما يصدر منهم. و اللغو: مصدر لغا يلغو لغوا، و لغى يلغى لغيا: إذا أتى بما لا يحتاج إليه فى الكلام، أو بما لا خير فيه، و هو الساقط الذى لا يعتدّ به، فاللغو من اليمين: هو الساقط الذى لا يعتدّ به، و منه:

اللغو فى الدية، و هو الساقط الذى لا يعتد به من أولاد الإبل، قال جرير:

و يذهب بينها «۵» المرئىّ لغواكما ألغيت فى الدّية الحوارا

و قال آخر:

و ربّ أسراب حجيج كظّمعن اللّغا و رفث التّكلّم

---

(۱). المائدة: ۸۹.

(۲). القلم: ۱۰.

(۳). فى القرطبى (۳/ ۹۷): صدرت. و فى اللسان، و ديوان كثيّر ص ۳۲۵: سبقت.

(۴). النساء: ۱۷۶.

(۵). فى لسان العرب، مادة «لغا»: و يهلك وسطها. و البيت قاله ذو الرّمّة يهجو هشام بن قيس المرئىّ، أحد بنى امرئ القيس بن زيد مناة.

أى: لا يتكلمن بالساقط و الرفث، و معنى الآية: لا يعاقبكم اللّه بالساقط من أيمانكم، و لكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم، أى: اقترفته بالقصد إليه: و هى اليمين المعقودة، و مثله قوله تعالى: وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ «۱» و مثله قول الشاعر:

و لست بمأخوذ بلغو تقولهإذا لم تعمّد عاقدات العزائم

و قد اختلف أهل العلم فى تفسير اللغو، فذهب ابن عباس، و عائشة، و جمهور العلماء أيضا: أنه: قول الرجل: لا و اللّه، و بلى و اللّه فى حديثه و كلامه، غير معتقد لليمين، و لا مريد لها. قال المروزى: هذه معنى لغو اليمين الذى اتفق عليه عامة العلماء. و قال أبو هريرة و جماعة من السلف: هو أن يحلف الرجل على الشىء لا يظن إلا أنه إياه فإذا ليس هو ما ظنه، و إلى هذا ذهبت الحنفية، و الزيدية، و به قال مالك فى الموطأ. و روى عن ابن عباس أنه قال: لغو اليمين: أن تحلف و أنت غضبان، و به قال طاوس و مكحول. و روى عن مالك؛ و قيل: إن اللغو هو يمين المعصية، قاله سعيد بن المسيب، و أبو بكر بن عبد الرحمن، و عبد اللّه بن الزبير، و أخوه عروة، كالذى يقسم ليشر بن الخمر، أو ليقطعن الرحم؛ و قيل: لغو اليمين: هو دعاء الرجل على نفسه: كأن يقول: أعمى اللّه بصره، أذهب اللّه ماله، هو يهودى، هو مشرك. قاله زيد بن أسلم. و قال مجاهد:

لغو اليمين: أن يتبايع الرجلان فيقول أحدهما: و اللّه لا أبيعك بكذا، و يقول الآخر: و اللّه لا أشتريه بكذا.

و قال الضحاك: لغو اليمين: هى المكفرة، أى: إذا كفرت سقطت و صارت لغوا. و الراجح القول الأول لمطابقته للمعنى اللغوى، و لدلالة الأدلة عليه كما سيأتى. و قوله: وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ أى: حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بألسنتكم من دون عمد و قصد. و آخذكم بما تعمدته قلوبكم، و تكلمت به ألسنتكم، و تلك هى اليمين المعقودة المقصودة.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ يقول: لا تجعلنى عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، و لكن كفّر عن يمينك و اصنع الخير. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عنه: هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قرابته، أو لا يتصدق، و يكون بين رجلين مغاضبة فيحلف لا يصلح بينهما، و يقول: قد حلفت، قال: يكفر عن يمينه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: جاء رجل إلى عائشة فقال: إنى نذرت إن كلمت فلانا فإن كل مملوك لى عتيق، و كل مال لى ستر للبيت، فقالت: لا تجعل مملوكيك عتقاء و لا تجعل مالك سترا للبيت فإن اللّه يقول: وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ فكفر عن يمينك. و قد ورد أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر فى شأن مسطح.

رواه ابن جرير عن ابن جريج، و القصة مشهورة. و قد ثبت فى الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين و غيرهما أن النبى صلّى اللّه

عليه و سلّم قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير و ليكفّر عن يمينه».
و ثبت أيضا فى الصحيحين و غيرهما: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «و اللّه إن شاء اللّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير و كفّرت عن يمينى». و أخرج ابن ماجة، و ابن جرير عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبرّه أن يحنث فيها و يرجع عن يمينه».

---

(١). المائدة: ٨٩.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٦٦

و أخرج أحمد، و أبو داود، و ابن ماجة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا نذر و لا يمين فيما لا يملك ابن آدم، و لا فى معصية اللّه، و لا فى قطيعة رحم». و أخرج أبو داود، و الحاكم، و صححه عن عمر مرفوعا مثله. و أخرج النسائى، و ابن ماجة عن مالك الجشمى قال: قلت يا رسول اللّه! يأتينى ابن عمّى فأحلف أن لا أعطيه و لا أصله، فقال: كفّر عن يمينك. و أخرج مالك فى الموطأ، و عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و البخارى، و غيرهم عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ فى قول الرجل: لا و اللّه، و بلى و اللّه، و كلا و اللّه. و أخرج أبو داود، و ابن جرير، و ابن حبان، و ابن مردويه، و البيهقى من طريق عطاء بن أبى رباح أنه سئل عن اللغو فى اليمين فقال: قالت عائشة: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «هو كلام الرجل فى بيته: كلّا و اللّه، و بلى و اللّه». و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن عائشة أنها قالت فى تفسير الآية: إن اللغو هو القوم يتدارون فى الأمر، يقول هذا: لا و اللّه، و يقول هذا: كلا و اللّه، يتدارون فى الأمر، لا تعقد عليه قلوبهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن عائشة أنها قالت: هو اللغو فى المزاحة و الهزل، و هو قول الرجل: لا و اللّه، و بلى و اللّه. فذاك لا كفارة فيه، و إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله.
و أخرج ابن جرير عن الحسن: قال: «مر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقوم ينتضلون و مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم، فقال: أصبت و اللّه، و أخطأت و اللّه، فقال الذى مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم: حنث الرجل يا رسول اللّه!؟ فقال: كلا، أيمان الرماة لغو، لا كفارة فيها، و لا عقوبة. و قد روى أبو الشيخ عن عائشة، و ابن عباس، و ابن عمر، و ابن عمرو: أن اللغو: لا و اللّه، و بلى و اللّه. أخرجه سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال: لغو اليمين أن تحلف و أنت غضبان. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال: لغو اليمين: حلف الإنسان على الشىء يظن أنه الذى حلف عليه فإذا هو غير ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم، و البيهقى عن عائشة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أنها: أن يحلف الرجل على تحريم ما أحلّ اللّه له. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: هو الرجل يحلف على المعصية. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن النخعى: هو أن يحلف الرجل على الشىء ثم ينسى. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ اللَّهُ غَفُورٌ يعنى: إذ تجاوز عن اليمين التى حلف عليها حَلِيمٌ إذ لم يجعل فيها الكفارة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٦ الى ٢٢٧]

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)
قوله: يُؤْلُونَ أى: يحلفون: و المصدر إيلاء و أليّة و ألوة، و قرأ ابن عباس: الذين آلوا يقال آلى يؤالى إيلاء و يأتلى بالتاء ائتلاء،

أى: حلف، و منه: وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ «١»، و منه:

(١). النور: ٢٢.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٢٦٧ قليل الألايا حافظ ليمينه البيت «١» و قد اختلف أهل العلم فى الإيلاء، فقال الجمهور: إن الإيلاء هو أن يحلف أن لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر فما دونها لم يكن موليا و كانت عندهم يمينا محضا، و بهذا قال مالك، و الشافعى، و أحمد، و أبو ثور. و قال الثورى و الكوفيون: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعدا، و هو قول عطاء. و روى عن ابن عباس: أنه لا يكون موليا حتى يحلف أن لا يمسها أبدا. و قالت طائفة: إذا حلف أن لا يقرب امرأته يوما؛ أو أقل؛ أو أكثر؛ ثم لم يطأ أربعة أشهر؛ بانت منه بالإيلاء. و به قال ابن مسعود، و النخعى، و ابن أبى ليلى، و الحكم، و حماد بن أبى سليمان، و قتادة، و إسحاق. قال ابن المنذر: و أنكر هذا القول كثير من أهل العلم. قوله: مِنْ نِسائِهِمْ يشمل الحرائر و الإماء إذا كنّ زوجات، و كذلك يدخل تحت قوله: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ العبد إذا حلف من زوجته، و به قال الشافعى، و أحمد، و أبو ثور، قالوا:

و إيلاؤه كالحر. و قال مالك و الزهرى و عطاء و أبو حنيفة و إسحاق: إن أجله شهران. و قال الشعبى: إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة. و التربص: التأنى، و التأخر، قال الشاعر:

تربّص بها ريب المنون لعلّهاتطلّق يوما أو يموت حليلها

وقت اللّه سبحانه بهذه المدة دفعا للضرار عن الزوجة. و قد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة، و السنتين، و أكثر من ذلك، يقصدون بذلك ضرار النساء. و قد قيل: إن الأربعة الأشهر هى التى لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها. قوله: فَإِنْ فاؤُ أى: رجعوا و منه: حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ «٢» أى:

ترجع، و منه قيل للظل بعد الزوال: فىء، لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب، يقال: فاء يفىء فيئة و فيوءا، و إنه لسريع الفيئة، أى: الرجعة، و منه قول الشاعر:

ففاءت و لم تقض الذى أقبلت لهو من حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

قال ابن المنذر: و أجمع كل من يحفظ عنه العلم: على أن الفىء: الجماع لمن لا عذر له، فإن كان له عذر مرض أو سجن فهى امرأته، فإذا زال العذر فأبى الوطء فرّق بينهما إن كانت المدة قد انقضت، قاله مالك؛ و قالت طائفة: إذا أشهد على فيئته بقلبه فى حال العذر أجزأه. و به قال الحسن و عكرمة و النخعى و الأوزاعى و أحمد بن حنبل. و قد أوجب الجمهور على المولى إذا فاء بجماع امرأته الكفارة. و قال الحسن و النخعى: لا كفارة عليه. قوله: وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ العزم: العقد على الشى‏ء، و يقال: عزم يعزم عزما و عزيمة و عزمانا، و اعتزم اعتزاما، فمعنى عزموا الطلاق: عقدوا عليه قلوبهم. و الطلاق: من طلقت المرأة تطلق، كنصر ينصر، طلاقا فهى طالق و طالقة أيضا، و يجوز طلقت بضم اللام، مثل عظم يعظم، و أنكره الأخفش. و الطلاق: حلّ عقد النكاح، و فى ذلك دليل على أنها لا تطلق بمضىّ أربعة أشهر كما قال مالك؛ ما لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة، و أيضا فإنه قال: سَمِيعٌ و سميع يقتضى مسموعا بعد المضىّ.

و قال أبو حنيفة: سَمِيعٌ لإيلائه عَلِيمٌ بعزمه الذى دل عليه مضىّ أربعة أشهر. و اعلم: أن أهل كل

(١). و عجز البيت: و إن سبقت منه الألية برّت.

(٢). الحجرات: ٩.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٢۶٨
مـذهب قـد فسـروا هـذه الآيهٔ بما يطابق مذهبهم و تكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ، و لا دليل آخر، و معناها ظاهر واضح، و هو أن اللّه جعل الأجل لمن يولى- أى: يحلف من امرأته- أربعهٔ أشـهر. ثم قال مخبرا لعباده بحكم هذا المولى بعد هذه المدّهٔ: فَإِنْ فاؤُ رجعوا إلى بقاء الزوجيهٔ و استدامهٔ النكاح فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم و يرحمهم وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ أى: وقع العزم منهم عليه، و القصـد له فَإِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ لـذلك منهم عَلِيمٌ به، فهذا معنى الآيهٔ الذى لا شك فيه و لا شـبههٔ، فمن حلف أن لا يطأ امرأته و لم يقيـد بمـدّهٔ أو قيد بزيادهٔ على أربعهٔ أشـهر كان علينا إمهاله أربعهٔ أشـهر، فإذا مضت فهو بالخيار إمـا رجع إلى نكـاح امرأته، و كـانت زوجته بعـد مضـىّ المـدهٔ كما كانت زوجته قبلها، أو طلقها؛ و كان له حكم المطلق لامرأته ابتـداء، و أما إذا وقت بـدون أربعـهٔ أشـهر فإن أراد أن يبرّ فى يمينه؛ اعتزل امرأته التى حلف منها حتى تنقضـى المـدهٔ، كما فعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين آلى من نسائه شـهرا، فإنه اعتزلهنّ حتى مضـى الشـهر، و إن أراد أن يطأ امرأته قبل مضـى تلك المدهٔ التى هى دون أربعهٔ أشـهر حنث فى يمينه و لزمته الكفارهٔ، و كان ممتثلا لما صح عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: «من حلف على شى‏ء فرأى غيره خيرا منه فليأت الذى هو خير منه و ليكفر عن يمينه».

و قد أخرج الشافعى، و عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال:
الإيلاء: أن يحلف أنه لا يجامعها أبـدا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سـننه عنه فى قوله: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ قال: هو الرجل يحلف لامرأته باللّه لا ينكحها، فتتربص أربعـهٔ أشـهر فإن هو نكحها كفر عن يمينه، فإن مضـت أربعهٔ أشهر قبل أن ينكحها خيره السلطان، إما: أن يفى‏ء، و إما: أن يعزم فيطلق، كما قال اللّه سبحانه. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و الطبرانى، و البيهقى عنه قال: كان إيلاء الجاهليهٔ السنهٔ و السنتين من ذلك، فوقت اللّه لهم أربعهٔ أشهر، فإن كان إيلاؤه أقـلّ من أربعـهٔ أشـهر فليس بإيلاء. و أخرج عبـد بن حميـد عن على قـال: الإيلاء إيلاءان: إيلاء فى الغضب، و إيلاء فى الرضا؛ فأما الإيلاء فى الغضب: فإذا مضت أربعهٔ أشـهر فقد بانت منه، و أما ما كان فى الرضا فلا يؤاخذ به. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لا إيلاء إلا بغضب. و أخرج أبو عبيـد فى فضائله، و ابن المنذر عن أبىّ بن كعب أنه قرأ: «فإن فاءوا فيهنّ فإنّ اللّه غفور رحيم». و أخرج عبد بن حميد عن على قال: الفى‏ء: الجماع. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سـننه من طرق عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسـعود مثله. و أخرج ابن المنـذر عن علىّ قال: الفى‏ء: الرضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسـعود مثله. و أخرج عبـد بن حميد عن الحسن، قال: الفى‏ء: الإشـهاد، و أخرج عبـد الرزاق عنه قـال: الفى‏ء: الجمـاع، فإن كان له عـذر أجزأه أن يفى‏ء بلسانه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إذا حال بينه و بينها مرض، أو سفر، أو حبس، أو شـى‏ء يعـذر به فإشـهاده فى‏ء. و للسـلف فى الفى‏ء أقوال مختلفـهٔ، فينبغى الرجوع إلى معنى الفى‏ء لغهٔ، و قد بيناه. و أخرج ابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال فى الإيلاء: إذا مضت أربعهٔ أشـهر لا شى‏ء عليه حتى

فتح القدير، ج‏١، ص: ٢۶٩
يوقف فيطلق أو يمسـك. و أخرج الشـافعى، و ابن جرير، و البيهقى عن عثمان بن عفان نحوه. و أخرج مالك، و الشافعى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى عن علىّ نحوه. و أخرج البخارى، و عبد بن حميد، عن ابن عمر نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير، و البيهقى عن عائشهٔ نحوه. و أخرج ابن جرير، و الـدارقطنى، و البيهقى من طريق سـهيل بن أبى صالـح عن أبيه قال: سألت اثنى عشـر رجلا من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الرجل يولى من امرأته فكلهم يقول: ليس عليه شى‏ء حتى تمضى الأربعهٔ الأشـهر فيوقف؛ فـإن فـاء؛ و إلا طلق. و أخرج البيهقى عن ثابت بن عبيـدهٔ مولى زيـد بن ثابت عن اثنى عشـر رجلا من الصـحابهٔ

نحوه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن عمر، و عثمان، و عليّ، و زيد بن ثابت، و ابن مسعود، و ابن عمر، و ابن عباس قالوا: الإيلاء: تطليقة بائنة إذا مرت أربعة أشهر قبل أن يفىء، فهى أملك بنفسها، و للصحابة و التابعين فى هذا أقوال مختلفة متناقضة، و المتعين الرجوع إلى ما فى الآية الكريمة، و هو ما عرفناك فاشدد عليه يديك. و أخرج عبد الرزاق عن عمر قال: إيلاء العبد شهران. و أخرج مالك عن ابن شهاب قال: إيلاء العبد نحو إيلاء الحرّ.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢٨]

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

قوله: وَ الْمُطَلَّقاتُ يدخل تحت عمومه المطلقة قبل الدخول، ثم خصص بقوله تعالى: فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها «١» فوجب بناء العام على الخاص، و خرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول، و كذلك خرجت الحامل بقوله تعالى: وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ «٢» و كذلك خرجت الآيسة بقوله تعالى: فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ «٣» و التربص: الانتظار، قيل: هو خبرا فى معنى الأمر: أى:
ليتربصن، قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه، و زاده تأكيدا وقوعه خبر للمبتدأ. قال ابن العربى:
و هذا باطل، و إنما هو خبر عن حكم الشرع، فإن وجدت مطلقة لا تتربص فليس ذلك من الشرع، و لا يلزم من ذلك وقوع خبر اللّه سبحانه على خلاف مخبره. و القروء: جمع قرء. و روى عن نافع أنه قرأ: «قرو» بتشديد الواو. و قرأه الجمهور: بالهمز. و قرأ الحسن: بفتح القاف و سكون الراء و التنوين. قال الأصمعى:
الواحد قرء بضم القاف. و قال: أبو زيد بالفتح، و كلاهما قال: أقرأت المرأة: حاضت، و أقرأت: طهرت.
و قال الأخفش: أقرأت المرأة: إذا صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلت: قرأت، بلا ألف. و قال أبو عمرو بن العلاء: من العرب من يسمى الحيض: قرءا، و منهم من يسمى الطهر: قرءا. و منهم من يجمعهما جميعا، فيسمى الحيض مع الطهر: قرءا. و ينبغى أن يعلم أن القرء فى الأصل: الوقت؛ يقال: هبت الرياح لقرئها و لقارئها، أى: لوقتها، و منه قول الشاعر:
كرهت العقر عقر بنى شليلإذا هبّت لقارئها الرّياح

---

(١). الأحزاب: ۴٩.

(٢). الطلاق: ۴.

(٣). الطلاق: ۴.

فيقال للحيض: قرء، و للطهر: قرء، لأن كل واحد منهما له وقت معلوم. و قد أطلقته العرب تارة:
على الأطهار، و تارة: على الحيض، فمن إطلاقه على الأطهار قول الأعشى:
أفى كلّ عام أنت جاشم غزوةتشدّ لأقصاها عزيم عزائكا
مورّثة مالا و فى الحىّ رفعةلما ضاع فيها من قروء نسائكا
أى: أطهارهن، و من إطلاقه على الحيض قول الشاعر:

يا رب ذى حنق علىّ قارض‌له قروّ كقروّ الحائض «۱»

يعنى أنه طعنه فكان له دم كدم الحائض. و قال قوم: هو مأخوذ من قرء الماء فى الحوض و هو جمعه، و منه: القرآن، لاجتماع المعانى فيه. قال عمرو بن كلثوم:

ذراعى عيطل أدماء بكرهجان اللّون لم تقرأ جنينا

أى: لم تجمعه فى بطنها. و الحاصل أن القرء فى لغة العرب مشترك بين الحيض و الطهر، و لأجل هذا الاشتراك، اختلف أهل العلم فى تعيين ما هو المراد بالقروء المذكورة فى الآية، فقال أهل الكوفة: هى الحيض، و هو قول عمر، و علىّ، و ابن مسعود، و أبى موسى، و مجاهد، و قتادة، و الضحاك، و عكرمة، و السدى، و أحمد بن حنبل. و قال أهل الحجاز: هى الأطهار، و هو قول عائشة، و ابن عمر، و زيد بن ثابت، و الزهرى، و أبان بن عثمان، و الشافعى، و اعلم أنه قد وقع الاتفاق بينهم على أن القرء الوقت، فصار معنى الآية عند الجميع: و المطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة أوقات فهى على هذا مفسرة فى العدد، مجملة فى المعدود، فوجب طلب البيان للمعدود من غيرها فأهل القول الأول استدلوا على أن المراد فى هذه الآية: الحيض، بقوله صلّى اللّه عليه و سلم: «دعى الصّلاة أيام أقرائك» و بقوله صلّى اللّه عليه و سلم: «طلاق الأمة تطليقتان و عدّتها حيضتان» و بأن المقصود من العدّة استبراء الرحم، و هو يحصل بالحيض لا بالطهر. و استدل أهل القول الثانى بقوله تعالى:

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ «۲» و لا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر. و لقوله صلّى اللّه عليه و سلّم لعمر: «مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فتلك العدة التى أمر اللّه أن تطلق لها النساء» و ذلك لأن زمن الطهر هو الذى تطلق فيه النساء. قال أبو بكر بن عبد الرحمن: ما أدركنا أحدا من فقهائنا إلا يقول: بأن الأقراء هى الأطهار، فإذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقى منه و لو ساعة و لو لحظة، ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدّة. انتهى. و عندى أن لا حجة فى بعض ما احتج به أهل القولين جميعا. أما قول الأولين: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «دعى الصّلاة أيام أقرائك» فغاية ما فى هذا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أطلق الأقراء على الحيض، و لا نزاع فى جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك فإنه يطلق تارة على هذا، و تارة على هذا، و إنما النزاع فى الأقراء المذكورة فى هذه الآية، و أما قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى

---

(۱). فى القرطبى (۳/ ۱۱۴): يا رب ذى ضغن علىّ فارض‌له قروء كقروء الحائض

(۲). الطلاق: ۱.

الأمة: «و عدّتها حيضتان» فهو حديث أخرجه أبو داود، و الترمذى، و ابن ماجة، و الدارقطنى، و الحاكم و صححه من حديث عائشة مرفوعا. و أخرجه ابن ماجة، و البيهقى من حديث ابن عمر مرفوعا أيضا، و دلالته على ما قاله الأولون قوية. و أما قولهم: إن المقصود من العدّة استبراء الرحم، و هو يحصل بالحيض لا بالطهر.

فيجاب عنه بأنه إنما يتم لو لم يكن فى هذه العدّة شى‌ء من الحيض، على فرض تفسير الأقراء بالأطهار، و ليس كذلك، بل هى مشتملة على الحيض، كما هى مشتملة على الأطهار، و أما استدلال أهل القول الثانى بقوله تعالى: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ فيجاب عنه بأن التنازع فى اللام فى قوله: لِعِدَّتِهِنَ يصير ذلك محتملا، و لا تقوم الحجة بمحتمل. و أما استدلالهم بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم لعمر: «مره فليراجعها» الحديث، فهو فى الصحيح، و دلالته قوية على ما ذهبوا إليه، و يمكن أن يقال: إنها تنقضى العدّة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض، و لا مانع من ذلك فقد جوز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنييه، و بذلك يجمع بين الأدلة،

و يرتفع الخلاف، و يندفع النزاع. و قد استشكل الزمخشرى تمييز الثلاثة بقوله: قروء، و هى جمع كثرة دون أقراء التى هى من جموع القلة. و أجاب بأنهم يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية. قوله: وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَ قيل: المراد به: الحيض؛ و قيل:

كلاهما، و وجه النهى عن الكتمان: ما فيه فى بعض الأحوال من الإضرار بالزوج و إذهاب حقه؛ فإذا قالت المرأة: حضت، و هى لم تحض، ذهبت بحقه من الارتجاع؛ و إذا قالت: لم تحض، و هى قد حاضت، ألزمته من النفقة ما لم يلزمه، فأضرّت به، و كذلك الحمل، ربما تكتمه لتقطع حقه من الارتجاع، و ربما تدّعيه لتوجب عليه النفقة، و نحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج. و قد اختلفت الأقوال فى المدّة التى تصدّق فيها المرأة إذا ادعت انقضاء عدّتها. و قوله: إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فيه وعيد شديد للكاتمات، و بيان أن من كتمت ذلك منهنّ لم تستحق اسم الإيمان. و البعولة: جمع بعل و هو الزوج، سمى: بعلا، لعلوّه على الزوجة لأنهم يطلقونه على الرب، و منه قوله تعالى: أَ تَدْعُونَ بَعْلًا «١» أى: ربا؛ و يقال: بعول، و بعولة، كما يقال فى جمع الذكر: ذكور، و ذكورة، و هذه التاء لتأنيث الجمع، و هو شاذ لا يقاس عليه، بل يعتبر فيه السماع؛ و البعولة أيضا تكون مصدرا من: بعل الرجل يبعل، مثل: منع يمنع، أى: صار بعلا.

و قوله: أَحَقُّ بِرَدِّهِنَ أى: برجعتهنّ، و ذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها، فيكون فى حكم التخصيص لعموم قوله: وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَ لأنه يعم المثلثات و غيرهنّ. و قوله: فِي ذلِكَ يعنى: فى مدة التربص، فإن انقضت مدّة التربص فهى أحق بنفسها، و لا تحلّ له إلا بنكاح مستأنف بولىّ و شهود و مهر جديد، و لا خلاف فى ذلك؛ و الرجعة تكون باللفظ، و تكون بالوطء، و لا يلزم المراجع شىء من أحكام النكاح بلا خلاف. و قوله: إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً أى: بالمراجعة: أى: إصلاح حاله معها و حالها معه، فإن قصد الإضرار بها فهى محرّمة، لقوله تعالى: وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا «٢» قيل: و إذا قصد بالرجعة الضرار فهى صحيحة، و إن ارتكب بذلك محرّما و ظلم نفسه، و على هذا: فيكون الشرط المذكور فى الآية للحث للأزواج على قصد الصلاح، و الزجر لهم عن قصد الضرار، و ليس المراد به:

---

(١). الصافات: ١٢٥.

(٢). البقرة: ٢٣١.

جعل قصد الإصلاح شرطا لصحة الرجعة. قوله: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ أى: لهنّ من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهنّ، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، و هى كذلك، تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهنّ يفعلنه لأزواجهنّ من طاعة، و تزين، و تحبب و نحو ذلك. قوله: وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ أى: منزلة ليست لهنّ، و هو قيامه عليها فى الإنفاق، و كونه من أهل الجهاد و العقل و القوّة، و له من الميراث أكثر مما لها، و كونه يجب عليها امتثال أمره، و الوقوف عند رضاه، و لو لم يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهنّ خلقن من الرجال لما ثبت أن حوّاء خلقت من ضلع آدم.

و قد أخرج أبو داود، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت:

طلقت على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يكن للمطلقة عدّة، فأنزل اللّه حين طلقت العدّة للطلاق، فقال:

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ الآية. و أخرج أبو داود، و النسائى، و ابن المنذر عن ابن عباس وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ثم قال: وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ «١» فنسخ و قال: ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ

فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها «٢». و أخرج مالك، و الشافعى، و عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الدارقطنى، و البيهقى، من طرق عن عائشة أنها قالت: الأقراء: الأطهار. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عمر و زيد بن ثابت مثله. و أخرج المذكورون عن عمرو بن دينار قال: الأقراء: الحيض؛ عن أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج البيهقى، و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ثَلاثَةَ قُرُوءٍ قال: ثلاث حيض. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله تعالى: وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَ قال: كانت المرأة تكتم حملها حتى تجعله لرجل آخر، فنهاهنّ اللّه عن ذلك. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى الآية قال: الحمل و الحيض. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَ يقول: إذا طلق الرجل امرأته تطليقة أو تطليقتين و هى حامل فهو أحقّ برجعتها ما لم تضع حملها، و هو قوله: وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَ

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى عن مجاهد فى قوله: وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ قال: فى العدّة. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة مثله، و زاد ما لم يطلقها ثلاثا.

و أخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ قال: إذا أطعن اللّه، و أطعن أزواجهن، فعليه أن يحسن صحبتها، و يكف عنها أذاه، و ينفق عليها من سعته. و قد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الأحوص أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ألا- إنّ لكم على نسائكم حقّا و لنسائكم عليكم حقّا، أما حقّكم على نسائكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون و لا يأذنّ فى بيوتكم لمن تكرهون، ألا- و حقّهنّ عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهنّ و طعامهنّ» و صحّحه الترمذى. و أخرج أحمد، و أبو داود، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن

---

(١). الطلاق: ۴.

(٢). الأحزاب: ۴۹.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٧٣

جرير، و الحاكم، و صححه، و البيهقى عن معاوية بن حيدة القشيرى «أنه سأل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ما حقّ المرأة على الزوج؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، و تكسوها إذا اكتسيت، و لا تضرب الوجه، و لا تهجر إلّا فى البيت». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ قال: فضل ما فضله اللّه به عليها من الجهاد، و فضل ميراثه على ميراثها، و كل ما فضل به عليها. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى الآية قال: يطلقها و ليس لها من الأمر شىء. و أخرج عن زيد بن أسلم قال:

الإمارة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٩ الى ٢٣٠]

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

المراد بالطلاق المذكور: هو الرجعى، بدليل ما تقدّم فى الآية الأولى، أى: الطلاق الذى تثبت فيه الرجعة للأزواج هو مرتان، أى: الطلقة الأولى و الثانية، إذ لا رجعة بعد الثالثة، و إنما قال سبحانه: مَرَّتانِ و لم يقل طلقتان إشارة إلى أن ينبغى أن يكون الطلاق مرة بعد مرة، لا طلقتان دفعة واحدة، كذا قال جماعة من المفسرين، و لما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين، إما إيقاع الثالثة التى بها تبين الزوجة، أو الإمساك و استدامة نكاحها، و عدم إيقاع الثالثة عليها قال سبحانه: فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ أى:

فإمساك بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين بمعروف، أى: بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ أى: بإيقاع طلقة ثالثة عليها من دون ضرار لها، و قيل: المراد: فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أى: برجعة بعد الطلقة الثانية أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ أى: بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضى عدّتها. و الأول أظهر. و قوله: الطَّلاقُ مبتدأ بتقدير مضاف، أى: عدد الطلاق الذى تثبت فيه الرجعة مرتان. و قد اختلف أهل العلم فى إرسال الثلاث دفعة واحدة: هل يقع ثلاثا، أو واحدة فقط. فذهب إلى الأوّل الجمهور، و ذهب إلى الثانى من عداهم و هو الحق. و قد قررته فى مؤلفاتى تقريرا بالغا، و أفردته برسالة مستقلة. قوله: وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً الخطاب للأزواج، أى: لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا مما دفعوه إلى نسائهم من المهر شيئا على وجه المضارة لهنّ، و تنكير «شيئا» للتحقير، أى: شيئا نزرا فضلا عن الكثير، و خص ما دفعوه إليهنّ بعدم حلّ الأخذ منه؛ مع كونه لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا شيئا من أموالهنّ التى يملكنها من غير المهر؛ لكون ذلك هو الذى تتعلق به نفس الزوج، و تتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو فى ملكها، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحلّ له؛ كان ما عداه ممنوعا منه بالأولى، و قيل: الخطاب فى قوله: وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ للأئمة و الحكام ليطابق قوله: فَإِنْ خِفْتُمْ فإن الخطاب فيه للأئمة و الحكام، و على هذا: يكون إسناد الأخذ إليهم، لكونهم الآمرين بذلك. و الأول أولى لقوله:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۷۴

مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَ فإن إسناده إلى غير الأزواج بعيد جدا، لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم، و قيل:

إن الثانى أولى لئلا يتشوّش النظم. قوله: إِلَّا أَنْ يَخافا أى: لا يجوز لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ أى: عدم إقامة حدود اللّه التى حدّها للزوجين، و أوجب عليهما الوفاء بها، من حسن العشرة و الطاعة، فإن خافا ذلك فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ أى: لا جناح على الرجل فى الأخذ، و على المرأة فى الإعطاء، بأن تفتدى نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج، فيطلقها لأجله، و هذا هو الخلع، و قد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج، و أنه يحلّ له الأخذ مع ذلك الخوف، و هو الذى صرّح به القرآن. و حكى ابن المنذر عن بعض أهل العلم: أنه لا يحلّ له ما أخذ، و لا يجبر على ردّه، و هذا فى غاية السقوط. و قرأ حمزة: إِلَّا أَنْ يَخافا على البناء للمجهول، و الفاعل محذوف، و هو الأئمة الحكام و اختاره أبو عبيد قال لقوله: فَإِنْ خِفْتُمْ فجعل الخوف لغير الزوجين. و قد احتج بذلك من جعل الخلع إلى السلطان، و هو سعيد بن جبير، و الحسن، و ابن سيرين.

و قد ضعف النحاس اختيار أبى عبيد المذكور. و قوله: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ أى: إذا خاف الأئمة و الحكام، أو المتوسطون بين الزوجين- و إن لم يكونوا أئمة و حكاما- عدم إقامة حدود اللّه من الزوجين، و هى ما أوجبه عليهما كما سلف. و قد حكى عن بكر بن عبد اللّه المدنى: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فى سورة النساء: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً «۱» و هو قول خارج عن الإجماع و لا تنافى بين الاثنين. و قد اختلف أهل العلم إذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما دفعه إليها من المهر و ما يتبعه، و رضيت بذلك المرأة، هل يجوز أم لا؟! و ظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين، و بهذا قال مالك، و الشافعى، و أبو ثور؛ و روى مثل ذلك

عن جماعة من الصحابة و التابعين، و قال طاوس، و عطاء، و الأوزاعى، و أحمد، و إسحاق: إنه لا يجوز. و سيأتى ما ورد فى ذلك عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و قوله تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أى: أحكام النكاح و الفراق المذكورة هى حدود اللّه التى أمرتم بامتثالها، فلا تعتدوها بالمخالفة لها، فتستحقوا ما ذكره اللّه من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم. قوله تعالى: فَإِنْ طَلَّقَها أى: الطلقة الثالثة التى ذكرها سبحانه بقوله: تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ أى: فإن وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ أى: حتى تتزوج بزوج آخر. و قد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب، و من وافقه قالوا: يكفى مجرد العقد لأنه المراد بقوله: حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ و ذهب الجمهور من السلف و الخلف: إلى أنه لا بدّ مع العقد من الوطء، لما ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من اعتبار ذلك، و هو زيادة يتعين قبولها، و لعله لم يبلغ سعيد بن المسيب و من تابعه، و فى الآية دليل على أنه لا بد من أن يكون ذلك نكاحا شرعيا مقصودا لذاته، لا نكاحا غير مقصود لذاته، بل حيلة للتحليل، و ذريعة إلى ردها إلى الزوج الأوّل، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة فى ذمه و ذمّ فاعله، و أنه التيس المستعار الذى لعنه الشارع، و لعن من اتخذه لذلك. قوله:

فَإِنْ طَلَّقَها أى: الزوج الثانى فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أى: الزوج الأول و المرأة أَنْ يَتَراجَعا أى:

---

(١). النساء: ٢٠.

فتح القدير، ج‌١، ص: ٢٧٥

يرجع كل واحد منهما لصاحبه. قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن الحرّ إذا طلق زوجته ثلاثا؛ ثم انقضت عدّتها؛ و نكحت زوجا؛ و دخل بها؛ ثم فارقها؛ و انقضت عدّتها؛ ثم نكحها الزوج الأوّل؛ أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات. قوله: إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ أى: حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر. و أما إذا لم يحصل ظن ذلك، بأن يعلما أو أحدهما عدم الإقامة لحدود اللّه، أو ترددا أو أحدهما و لم يحصل لهما الظنّ، فلا يجوز الدخول فى هذا النكاح لأنه مظنة للمعصية للّه و الوقوع فيما حرّمه على الزوجين.

و قوله: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ إشارة إلى الأحكام المذكورة كما سلف، و خص الذين يعلمون مع عموم الدعوة للعالم و غيره، و وجوب التبليغ لكل فرد، لأنهم المنتفعون بالبيان المذكور.

و قد أخرج مالك، و الشافعى، و عبد بن حميد، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان الرجل إذا طلق امرأته؛ ثم ارتجعها قبل أن تنقضى عدّتها؛ كان ذلك له؛ و إن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها، حتى إذا ما دنا وقت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم طلقها، ثم قال: و اللّه لا آويك إلى و لا تحلين أبدا، فأنزل اللّه: الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ فاستقبل الناس الطلاق جديدا من يومئذ من كان منهم طلق و من لم يطلق. و أخرج نحوه الترمذى، و ابن مردويه، و الحاكم، و صححه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. و أخرج البخارى عنها:

أنها أتتها امرأة فسألتها عن شىء من الطلاق، قالت: فذكرت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت: الطَّلاقُ مَرَّتانِ و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و أحمد، و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى رزين الأسدى قال: قال رجل «يا رسول اللّه! أ رأيت قول اللّه: الطّلاق مرّتان، فأين الثالثة؟ قال: التسريح بإحسان الثالثة». و أخرج نحوه ابن مردويه، و البيهقى عن ابن عباس مرفوعا. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قال: قال اللّه للثالثة:

فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ و أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى حبيب قال: التسريح فى كتاب اللّه الطلاق. و

أخرج البيهقى من طريق السدى عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: الطَّلاقُ مَرَّتانِ قالوا: و هو الميقات الذى تكون فيه الرجعة، فإذا طلق واحدة أو اثنتين، فإما أن يمسك و يراجع بمعروف، و إما أن يسكت عنها حتى تنقضى عدتها فتكون أحق بنفسها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية نحوه. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يأكل من مال امرأته الذى نحلها و غيره، لا يرى أن عليه جناحا، فأنزل اللّه:

وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً فلم يصح لهم بعد هذه الآية أخذ شيء من أموالهنّ إلا بحقها، ثم قال: إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ و قال: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً «١». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ قال: إلّا أن يكون النشوز و سوء الخلق من قبلها، فتدعوك إلى أن تفتدى منك فلا جناح عليك فيما افتدت به. و أخرج مالك، و الشافعى، و أحمد،

---

(١). النساء: ۴.

و أبو داود، و النسائى، و البيهقى من طريق عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن حبيبة بنت سهل الأنصارى أنها كانت تحت ثابت بن قيس، و أن رسول اللّه خرج إلى الصبح فوجدها عند بابه فى الغلس فقال:

من هذه؟ قالت: أنا حبيبة بنت سهل، فقال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا و لا ثابت؛ فلما جاء ثابت بن قيس قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: هذه حبيبة بنت سهل، قد ذكرت ما شاء اللّه أن تذكر، فقالت حبيبة:

يا رسول اللّه! كل ما أعطانى عندى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «خذ منها، فأخذ منها» و جلست فى أهلها.

و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية فى ثابت بن قيس و فى حبيبة، و كانت اشتكته إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فدعاه فذكر ذلك له، فقال:

و يطيب لى ذلك، قال: نعم، قال ثابت: قد فعلت، فنزلت: وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا الآية».

و أخرج عبد الرزاق، و أبو داود، و ابن جرير، و البيهقى من طريق عمرة عن عائشة نحوه. و أخرج البخارى، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن مردويه، و البيهقى عن ابن عباس أن جميلة بنت عبد اللّه بن سلول امرأة ثابت ابن قيس بن شماس «أتت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: يا رسول اللّه! ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق و لا دين، و لكن لا أطيقه بغضا، و أكره الكفر فى الإسلام، قال: أ تردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، قال:

اقبل الحديقة و طلّقها تطليقة». و لفظ ابن ماجة: «فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأخذ منها حديقته و لا يزداد». و أخرج البيهقى من طريق عطاء قال: «أتت امرأة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و قالت: إنى أبغض زوجى و أحبّ فراقه، قال: أ تردّين عليه حديقته التى أصدقك؟ قالت: نعم و زيادة، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أما الزيادة من مالك فلا». و أخرج البيهقى عن أبى الزبير: أن ثابت بن قيس فذكر القصة، و فيه «أما الزيادة فلا».

و أخرج ابن مردويه بإسناد جيد عن ابن عباس، و فيه: أنه أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ثابتا أن يأخذ ما ساق و لا يزداد.

و أخرج البيهقى عن أبى سعيد و ذكر القصة، و فيها «فردت عليه حديقته و زادت». و أخرج ابن جرير عن عمر أنه قال فى بعض المختلعات «اخلعها و لو من قرطها». و فى لفظ أخرجه عبد الرزاق عنه أنه قال للزوج:

«خذ و لو عقاصها». قال البخارى: أجاز عثمان الخلع دون عقاصها. و أخرج عبد بن حميد، و البيهقى عن عطاء أن النبى صلّى اللّه

عليه و سلم كره أن يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاها. و قد ورد فى ذم المختلعات أحاديث منها: عن ثوبان عند أحمد، و أبى داود، و الترمذى، و حسنه، و ابن ماجة، و ابن جرير، و الحاكم و صححه، و البيهقى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أيّما امرأة سألت زوجها الطّلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة و قال: المختلعات هنّ المنافقات». و منها: عن ابن عباس عند ابن ماجة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا تسأل المرأة زوجها الطّلاق فى غير كنهه فتجد ريح الجنة. و إن ريحها ليوجد مسيرة أربعين عاما». و منها: عن أبى هريرة عند أحمد، و النسائى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «المختلعات و المنتزعات هنّ المنافقات» و منها: عن عقبة عند ابن جرير مرفوعا مثل حديث أبى هريرة.

و قد اختلف أهل العلم فى عدة المختلعة، و الراجح أنها تعتدّ بحيضة، لما أخرجه أبو داود، و الترمذى، و حسنه، و النسائى، و الحاكم، و صححه عن ابن عباس: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمر امرأة ثابت بن قيس أن تعتدّ

بحيضة» و لما أخرجه الترمذى عن الربيع بنت معوذ بن عفراء: «أنها اختلعت على عهد رسول اللّه؛ فأمرها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن تعتدّ بحيضة، أو أمرت أن تعتد بحيضة». قال الترمذى: الصحيح أنها أمرت أن تعتدّ بحيضة.

و أخرج النسائى، و ابن ماجة عنها أنها قالت: اختلعت من زوجى، فجئت عثمان فسألته ماذا علىّ من العدّة؟

فقال: لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين حتى تحيضى حيضة، قالت: إنما أتبع فى ذلك قضاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى مريم المغالية، و كانت تحت ثابت بن قيس؛ فاختلعت منه. و أخرج النسائى عن الربيع بنت معوذ: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمر امرأة ثابت بن قيس أن تتربص حيضة واحدة فتلحق بأهلها» و لم يرد ما يعارض هذا من المرفوع، بل ورد عن جماعة من الصحابة و التابعين: أن عدة المختلعة كعدّة الطلاق، و به قال الجمهور. قال الترمذى: و هو قول أكثر أهل العلم من الصحابة و غيرهم، و استدلوا على ذلك بأن المختلعة من جملة المطلقات، فهى داخلة تحت عموم القرآن. و الحق ما ذكرناه، لأن ما ورد عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم يخصص عموم القرآن. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله:

فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ يقول: فإن طلّقها ثلاثا فلا تحلّ له حتّى تنكح زوجا غيره. و أخرج ابن المنذر عن علىّ نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. و أخرج الشافعى، و عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و البخارى، و مسلم، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة، و البيهقى عن عائشة قالت: «جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقالت: إنّى كنت عند رفاعة فطلّقنى فبتّ طلاقى. فتزوّجنى عبد الرحمن بن الزبير و ما معه إلا مثل هدبة الثوب، فتبسّم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أ تريدين أن ترجعى إلى رفاعة؟

لا، حتّى تذوقى عسيلته و يذوق عسيلتك». و قد روى نحو هذا عنها من طرق. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن جرير، و البيهقى عن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و البيهقى عن أنس مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير عن أبى هريرة مرفوعا نحوه، و لم يسمّ هؤلاء الثلاثة الصحابة صاحبة القصة. و أخرج أحمد، و النسائى عن ابن عباس: «أن العميصاء أو الرميصاء أتت النبى صلّى اللّه عليه و سلم» و فى آخره: «فقال صلّى اللّه عليه و سلم: ليس ذلك لك حتّى يذوق عسيلتك رجل غيره». و قد ثبت لعن المحلل فى أحاديث منها: عن ابن مسعود عند أحمد، و الترمذى، و صححه، و النسائى، و البيهقى فى سننه قال «لعن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم المحلّل و المحلّل له» و منها: عن على عند أحمد، و أبى داود، و الترمذى، و ابن ماجة، و البيهقى مرفوعا مثل حديث ابن مسعود، و منها: عن جابر مرفوعا عند الترمذى مثله، و منها: عن ابن عباس مرفوعا عند ابن ماجة مثله، و منها: عن عقبة بن عامر عند ابن ماجة، و الحاكم، و صححه، و البيهقى

مرفوعا مثله، و منها: عن أبى هريرة مرفوعا عند أحمد، و ابن أبى شيبة، و البيهقى مثله، و فى الباب أحاديث فى ذم التحليل و فاعله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا يقول: إذا تزوجت بعد الأوّل؛ فدخل بها الآخر؛ فلا حرج على الأوّل أن يتزوجها؛ إذا طلقها الآخر؛ أو مات عنها؛ فقد حلت له. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله: أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ قال: أمر اللّه و طاعته.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٧٨

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣١]

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

البلوغ إلى الشيء: معناه الحقيقى: الوصول إليه، و لا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة إلا مجازا لعلاقة مع قرينة كما هنا، فإنه لا يصح إرادة المعنى الحقيقى، لأن المرأة إذا قد بلغت آخر جزء من مدّة العدّة؛ و جاوزته إلى الجزء الذى هو الأجل للانقضاء؛ فقد خرجت من العدّة، و لم يبق للزوج عليها سبيل. قال القرطبى فى تفسيره: إن معنى فَبَلَغْنَ هنا: قاربن، بإجماع العلماء، قال: و لأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له فى الإمساك، و الإمساك بمعروف: هو القيام بحقوق الزوجية، أى: إذا طلقتم النساء؛ فقاربن آخر العدّة؛ فلا تضاروهنّ بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية و استدامتها بل اختاروا أحد أمرين: إما الإمساك بمعروف من غير قصد لضرار، أو التسريح بإحسان، أى: تركها حتى تنقضى عدّتها من غير مراجعة ضرار، وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدّتها، ثم مراجعتها لا عن حاجة و لا لمحبة، و لكن لقصد تطويل العدّة و توسيع مدّة الانتظار ضِراراً لقصد الاعتداء منكم عليهن و الظلم لهنّ، وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لأنه عرضها لعقاب اللّه و سخطه. قال الزجاج: يعنى عرّض نفسه للعذاب، لأن إتيان ما نهى اللّه عنه تعرض لعذاب اللّه وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً أى: لا تأخذوا أحكام اللّه على طريقة الهزء، فإنها جدّ كلها، فمن هزل فيها فقد لزمته، نهاهم سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل، فإنه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوج و يقول: كنت لاعبا. قال القرطبى و لا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلا أن الطلاق يلزمه. قوله: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أى: النعمة التى صرتم فيها بالإسلام و شرائعه بعد أن كنتم فى جاهلية جهلاء، و ظلمات بعضها فوق بعض، و الكتاب: هو القرآن. و الحكمة: قال المفسرون: هى السنة التى سنها لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

يَعِظُكُمْ بِهِ أى: يخوفكم بما أنزل عليكم، و أفرد الكتاب و الحكمة بالذكر مع دخولهما فى النعمة دخولا أوليا، تنبيها على خطرهما و عظم شأنهما.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدّتها، ثم يطلقها، فيفعل بها ذلك يضارّها و يعطلها، فأنزل اللّه: وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ الآية. و أخرج نحوه مالك، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ثور بن يزيد. و أخرج نحوه مالك، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ثور بن يزيد. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى، عن الحسن فى قوله: وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا قال: هو الرجل يطلق امرأته؛ فإذا أرادت أن تنقضى عدّتها؛ أشهد على رجعتها، يريد أن يطول عليها. و أخرج ابن ماجة، و ابن جرير، و البيهقى عن أبى موسى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما بال أقوام يلعبون بحدود اللّه؟ يقول: قد طلّقتك، قد راجعتك، قد طلّقتك، قد راجعتك، ليس هذا طلاق

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۷۹

المسلمين، طلّقوا المرأة فى قبل عدّتها «۱»». و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: كان الرجل على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول للرجل: زوّجتك ابنتى، ثم يقول كنت لاعبا، و يقول: قد أعتقت، و يقول: كنت لاعبا، فأنزل اللّه سبحانه: وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ثلاث من قالهنّ لاعبا أو غير لاعب فهنّ جائزات عليه: الطّلاق؛ و النّكاح، و العتاق».

و أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: كان الرجل يطلق ثم يقول: لعبت؛ و يعتق ثم يقول: لعبت؛ فأنزل اللّه: وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من طلق أو أعتق فقال لعبت فليس قوله بشىء، يقع عليه فيلزمه». و أخرج ابن مردويه أيضا عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته و هو يلعب، لا يريد الطلاق، فأنزل اللّه: وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً فألزمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الطلاق. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن مرفوعا نحو حديث عبادة. و أخرج أبو داود، و الترمذى، و حسنه، و ابن ماجة، و الحاكم، و صححه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ثلاث جدّهنّ جدّ و هزلهنّ جدّ: النّكاح، و الطّلاق، و الرّجعة».

[سورة البقرة (۲): آية ۲۳۲]

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۲۳۲)

الخطاب فى هذه الآية بقوله: وَ إِذا طَلَّقْتُمُ و بقوله: فَلا تَعْضُلُوهُنَ إما أن يكون للأزواج، و يكون معنى العضل منهم: أن يمنعوهن من أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدّتهنّ لحمية الجاهلية، كما يقع كثيرا من الخلفاء و السلاطين غيرة على من كنّ تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم، لأنهم لما نالوه من رئاسة الدنيا؛ و ما صاروا فيه من النخوة و الكبرياء؛ يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بنى آدم، إلا من عصمه اللّه منهم بالورع و التواضع؛ و إما أن يكون الخطاب للأولياء، و يكون معنى إسناد الطلاق إليهم:

أنهم سبب له لكونهم المزوّجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين لهنّ. و بلوغ الأجل المذكور هنا، المراد به: المعنى الحقيقى، أى: نهايته لا كما سبق فى الآية الأولى. و العضل: الحبس. و حكى الخليل: دجاجة معضلة: قد احتبس بيضها؛ و قيل: العضل: التضييق و المنع، و هو راجع إلى معنى الحبس، يقال: أردت أمرا فعضلتنى عنه، أى: منعتنى و ضيقت علىّ، و أعضل الأمر: إذا ضاقت عليك فيه الحيل. و قال الأزهرى:

أصل العضل: من قولهم عضلت الناقة: إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه، و عضلت الدجاجة: نشب بيضها، و كل مشكل عند العرب معضل، و منه قول الشافعى رحمه اللّه:

إذا المعضلات تصدّين لى كشفت خفاء لها بالنّظر

(۱). و فى رواية: فى قبل طهرهنّ، أى: فى إقباله و أوله و حين يمكنها الدخول فى العدة و الشروع فيها، فتكون لها محسوبة، و ذلك فى حالة الطهر، النهاية (۴/ ۹)

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۸۰

و يقال: أعضل الأمر: إذا اشتد، و داء عضال: أى: شديد عسير البرء أعيا الأطباء، و عضل فلان أيّمه:

أى: منعها، يعضلها بالضم و الكسر لغتان. قوله: أَنْ يَنْكِحْنَ أى: من أن ينكحن، فمحله الجر عند الخليل، و النصب عند سيبويه و الفراء؛ و قيل: هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب فى قوله: فَلا تَعْضُلُوهُنَّ و قوله: أَزْواجَهُنَّ إن أريد به المطلقون لهنّ؛ فهو مجاز باعتبار ما كان، و إن أريد به من يردن أن يتزوّجنه؛ فهو مجاز باعتبار ما سيكون، و قوله: ذلِكَ إشارة إلى ما فصل من الأحكام، و إنما أفرد مع كون المذكور قبله جمعا حملا على معنى الجمع بتأويله بالفريق و نحوه. و قوله: ذلِكُمْ محمول على لفظ الجمع، خالف سبحانه ما بين الإشارتين افتنانا. و قوله: أَزْكى أى: أنمى و أنفع وَ أَطْهَرُ من الأدناس وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما لكم فيه الصلاح وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ذلك.

و قد أخرج البخارى، و أهل السنن، و غيرهم عن معقل بن يسار قال: كانت لى أخت فأتانى ابن عم فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها و هويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقلت له: يا لكع أكرمتك بها و زوّجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، و اللّه لا ترجع إليك أبدا؛ و كان رجلا لا بأس به، و كانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم اللّه حاجته إليها، و حاجتها إلى بعلها، فأنزل اللّه قوله: وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ الآية، قال: ففىّ نزلت الآية، فكفرت عن يمينى، و أنكحتها إياه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضى عدّتها، ثم يبدو له تزويجها، و أن يراجعها و تريد المرأة ذلك، فمنعها وليها من ذلك، فنهى اللّه أن يمنعوها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن السدّى قال: نزلت هذه الآية فى جابر بن عبد اللّه الأنصارى، كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة، و انقضت عدّتها، فأراد مراجعتها، فأتى جابر، فقال:

طلقت بنت عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية، و كانت المرأة تريد زوجها، فأنزل اللّه: وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل: إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ يعنى: بمهر و بينة و نكاح مؤتنف «١». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«أنكحوا الأيامى، فقال رجل: يا رسول اللّه! ما العلائق بينهم؟ قال: ما تراضى عليه أهلهنّ». و أخرج ابن المنذر عن الضحاك قال: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ قال: اللّه يعلم من حبّ كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولىّ.

---

(١). أى: نكاح مستأنف جديد.

فتح القدير، ج ‌١، ص: ٢٨١

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٣]

وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

لما ذكر اللّه سبحانه النكاح و الطلاق، ذكر الرضاع، لأن الزوجين قد يفترقان و بينهما ولد، و لهذا قيل:

إن هذا خاصّ بالمطلقات؛ و قيل: هو عام. و قوله: يُرْضِعْنَ قيل: هو خبر فى معنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه؛ و قيل: هو خبر على بابه ليس هو فى معنى الأمر على حسب ما سلف فى قوله: يَتَرَبَّصْنَ و قوله: كامِلَيْنِ تأكيد للدلالة على أن هذا التقدير تحقيقى لا تقريبى. و قوله: لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ أى: ذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة، و فيه دليل على أن إرضاع الحولين

ليس حتما، بل هو التمام، و يجوز الاقتصار على ما دونه. و قرأ مجاهد، و ابن محيصن: «لمن أراد أن تتم» بفتح التاء، و رفع الرضاعة، على إسناد الفعل إليها. و قرأ أبو حيوة، و ابن أبى عبلة، و الجارود بن أبى سبرة: بكسر الراء من الرضاعة و هى لغة. و روى عن مجاهد أنه قرأ: الرضعة، و قرأ ابن عباس: «لمن أراد أن يكمل الرضاعة». قال النحاس:

لا يعرف البصريون الرضاعة إلا بفتح الراء. و حكى الكوفيون جواز الكسر. و الآية تدل على وجوب الرضاع على الأم لولدها، و قد حمل ذلك على ما إذا لم يقبل الرضيع غيرها. قوله: وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَ أى: على الأب الذى يولد له، و آثر هذا اللفظ دون قوله: و على الوالد، للدلالة على أن الأولاد للآباء، لا للأمهات، و لهذا ينسبون إليهم دونهنّ، كأنهنّ إنما ولدن لهم فقط، ذكر معناه فى الكشاف، و المراد بالرزق هنا: الطعام الكافى المتعارف به بين الناس، و المراد بالكسوة: ما يتعارفون به أيضا؛ و فى ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للأمهات المرضعات. و هذا فى المطلقات، و أما غير المطلقات فنفقتهنّ و كسوتهنّ واجبة على الأزواج من غير إرضاعهنّ لأولادهنّ. و قوله: لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها هو تقييد لقوله:

بِالْمَعْرُوفِ أى: هذه النفقة و الكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه، و طاقته، لا ما يشق عليه و يعجز عنه؛ و قيل: المراد: لا تكلف المرأة الصبر على التقتير فى الأجرة، و لا يكلف الزوج ما هو إسراف؛ بل يراعى القصد. قوله: لا تُضَارَّ قرأ أبو عمرو، و ابن كثير، و جماعة، و رواه أبان عن عاصم: بالرفع على الخبر؛ و قرأ نافع، و ابن عامر، و حمزة، و الكسائى، و عاصم فى المشهور عنه: «تضارّ» بفتح الراء المشدّدة على النهى، و أصله: لا تضارر، على البناء للفاعل أو المفعول، أى: لا تضارر الأب بسبب الولد، بأن تطلب منه ما لا يقدر عليه من الرزق و الكسوة، أو: بأن تفرط فى حفظ الولد، و القيام بما يحتاج إليه؛ أو: لا تضارر من زوجها، بأن يقصر عليها فى شىء مما يجب عليه أو ينتزع ولدها منها بلا سبب، و هكذا قراءة الرفع تحتمل الوجهين؛ و قرأ عمر بن الخطاب: «لا تضارر» على الأصل بفتح الراء الأولى؛ و قرأ أبو جعفر بن القعقاع: «لا تضار» بإسكان الراء و تخفيفها، و روى عنه الإسكان و التشديد؛ و قرأ الحسن و ابن عباس «لا تضارر» بكسر الراء الأولى؛ و يجوز أن تكون الباء فى قوله: بولده، صلة لقوله تضارّ، على أنه بمعنى تضر، أى: لا تضرّ والدة بولدها، فتسيئ تربيته، أو تقصر فى غذائه؛ و أضيف الولد تارة إلى الأب و تارة إلى الأم، لأن كل واحد منهما يستحق أن ينسب إليه مع ما فى ذلك من الاستعطاف، و هذا الجملة تفصيل للجملة التى قبلها و تقرير لها، أى: لا يكلف كل واحد

منهما الآخر ما لا يطيقه، فلا تضاره بسبب ولده. قوله: وَ عَلَى الْوارِثِ هو معطوف على قوله:

وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ و ما بينهما تفسير للمعروف، أو تعليل له معترض بين المعطوف و المعطوف عليه.

و اختلف أهل العلم فى معنى قوله: وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فقيل: هو وارث الصبى، أى: إذا مات المولود له؛ كان على وارث هذا الصبى المولود إرضاعه، كما كان يلزم أباه ذلك، قاله عمر بن الخطاب، و قتادة، و السدّى، و الحسن، و مجاهد، و عطاء، و أحمد، و إسحاق، و أبو حنيفة، و ابن أبى ليلى على خلاف بينهم:

هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيبا من الميراث؟ أو على الذكور فقط؟ أو على كل ذى رحم له و إن لم يكن وارثا منه؟ و قيل: المراد بالوارث: وارث الأب عليه نفقة المرضعة، و كسوتها بالمعروف، قاله مالك فى تفسير هذه الآية بمثل ما قاله الضحاك، و لكنه قال: إنها منسوخة، و إنها لا تلزم الرجل نفقة أخ، و لا ذى قرابة، و لا ذى رحم منه؛ و شرطه الضحاك بأن لا يكون للصبىّ مال، فإن كان له مال أخذت أجرة رضاعه من ماله. و قيل: المراد بالوارث المذكور فى الآية: هو الصبى نفسه: أى: عليه من ماله إرضاع نفسه إذا مات أبوه و ورث من ماله، قاله قبيصة بن ذؤيب، و بشير بن نصر قاضى عمر بن عبد العزيز. و روى عن الشافعى؛ و قيل: هو الباقى من والدى المولود بعد موت الآخر منهما، فإذا مات الأب كان على الأم كفاية الطفل إذا لم يكن

له مال، قاله سفيان الثورى؛ و قيل: إن معنى قوله تعالى: وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ أى: وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع و الخدمة و التربية. و قيل:

إن معنى قوله تعالى: وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ أنه يحرم عليه الإضرار بالأم كما يحرم على الأب، و به قالت طائفة من أهل العلم، قالوا: و هذا هو الأصل، فمن ادّعى أنه يرجع فيه العطف إلى جميع ما تقدم فعليه الدليل. قال القرطبى: و هو الصحيح، إذ لو أراد الجميع الذى هو الرضاع و الإنفاق و عدم الضرر لقال:

و على الوارث مثل هؤلاء، فدل على أنه معطوف على المنع من المضارّة، و على ذلك تأوّله كافة المفسرين فيما حكى القاضى عبد الوهاب. قال ابن عطية، و قال مالك، و جميع أصحابه، و الشعبى، و الزهرى، و الضحاك، و جماعة من العلماء: المراد بقوله مثل ذلك: أن لا تضارّ. و أما الرزق، و الكسوة، فلا يجب شىء منه. و حكى ابن القاسم عن مالك: مثل ما قدمنا عنه فى تفسير هذه الآية و دعوى النسخ. و لا يخفى عليك ضعف ما ذهبت إليه هذه الطائفة، فإن ما خصصوا به معنى قوله: وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ من ذلك المعنى: أى: عدم الإضرار بالمرضعة قد أفاده قوله: لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها لصدق ذلك على كل مضارّة ترد عليها من المولود له أو غيره. و أما قول القرطبى: لو أراد الجميع لقال: مثل هؤلاء، فلا يخفى ما فيه من الضعف البين، فإن اسم الإشارة يصلح للمتعدد كما يصلح للواحد بتأويل: المذكور أو نحوه. و أما ما ذهب إليه أهل القول الأوّل: من أن المراد بالوارث: وارث الصبىّ، فيقال عليه: إن لم يكن وارثا حقيقة مع وجود الصبىّ حيا، بل هو وارث مجازا باعتبار ما يؤول إليه. و أما ما ذهب إليه أهل القول الثانى: فهو و إن كان فيه حمل الوارث على معناه الحقيقى، لكن فى إيجاب النفقة عليه مع غنى الصبىّ ما فيه، و لهذا قيده القائل به بأن يكون الصبى فقيرا، و وجه الاختلاف فى تفسير الوارث ما تقدّم من ذكر الوالدات و المولود له

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۸۳

و الولد، فاحتمل أن يضاف الوارث إلى كل منهم. قوله: فَإِنْ أَرادا فِصالًا الضمير للوالدين.

و الفصال: الفطام عن الرضاع، أى: التفريق بين الصبىّ و الثدى، و منه سمى الفصيل لأنه مفصول عن أمه.

و قوله: عَنْ تَراضٍ مِنْهُما أى: صادرا عن تراض من الأبوين إذا كان الفصال قبل الحولين فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فى ذلك الفصال. سبحانه لما بين أن مدّة الرضاع حولين كاملين قيد ذلك بقوله: لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ و ظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبىّ قبل الحولين كان ذلك جائزا له، و هنا اعتبر سبحانه تراضى الأبوين و تشاورهما، فلا بدّ من الجمع بين الأمرين بأن يقال: إن الإرادة المذكورة فى قوله: لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ لا بدّ أن تكون منهما، أو يقال: إن تلك الإرادة إذا لم يكن الأبوان للصبىّ حيين بأن كان الموجود أحدهما، أو كانت المرضعة للصبى ظئرا غير أمه. و التشاور: استخراج الرأى، يقال: شرت العسل: استخرجته، و شرت الدابة: أجريتها لاستخراج جريها، فلا بدّ لأحد الأبوين إذا أراد فصال الرضيع أن يراضى الآخر، و يشاوره، حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك. قوله: وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ قال الزجاج: التقدير أن تسترضعوا لأولادكم غير الوالدة. و عن سيبويه أنه حذف اللام لأنه يتعدّى إلى مفعولين، و المفعول الأول محذوف، و المعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بالمدّ، أى: أعطيتم، و هى قراءة الجماعة إلا ابن كثير، فإنه قرأ بالقصر، أى: فعلتم، و منه قول زهير:

و ما كان من خير أتوه فإنّماتوارثه آباء آبائهم قبل

و المعنى: أنه لا بأس عليكم أن تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم؛ إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهنّ بحساب ما قد أرضعن لكم إلى وقت إرادة الاسترضاع، قاله سفيان الثورى و مجاهد. و قال قتادة، و الزهرى: إن معنى الآية: إذا سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع، أى: سلم كل واحد من الأبوين، و رضى، و كان ذلك عن اتفاق منهما، و قصد خير، و إرادة معروف من الأمر، و

على هذا فيكون قوله: سَلَّمْتُمْ عاما للرجال و النساء تغليبا، و على القول الأول الخطاب للرجال فقط؛ و قيل: المعنى: إذا سلمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها، فيكون المعنى إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه، أى: إعطاءه إلى المرضعات بالمعروف: أى: بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات، من دون مماطلة لهنّ، أو حط بعض ما هو لهنّ من ذلك، فإن عدم توفير أجرهنّ يبعثهن على التساهل بأمر الصبىّ و التفريط فى شأنه.

و قد أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَ قال: المطلقات.

حَوْلَيْنِ قال: سنتين. لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها يقول: لا تأبى أن ترضعه لتشق على أبيه. وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ يقول: و لا يضارّ الوالد بولده، فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها لذلك. وَ عَلَى الْوارِثِ قال: يعنى: الولىّ من كان. مِثْلُ ذلِكَ قال: النفقة بالمعروف، و كفالته، و رضاعه، إن لم يكن

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٨٤

للمولود مال، و أن لا تضارّ أمه. فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ قال: غير مسيئين فى ظلم أنفسهما و لا إلى صبيهما فلا جناح عليهما. وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ قال: خيفة الضيعة على الصبىّ. فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ قال: حساب ما أرضع به الصبىّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى تفسيره هذه الآية أنه قال: المراد بقوله: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَ هى فى الرجل يطلق امرأته و له منها ولد. و قال فى قوله: إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ قال: ما أعطيتم الظئر من فضل على أجرها. و أخرج أبو داود فى ناسخه عن زيد بن أسلم فى قوله: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَ قال: إنها المرأة تطلق أو يموت عنها زوجها. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى التى تضع لستة أشهر: أنها ترضع حولين كاملين، و إذا وضعت لسبعة أشهر أرضعت ثلاثة و عشرين شهرا، لتمام ثلاثين شهرا، و إذا وضعت لتسعة أشهر أرضعت إحدى و عشرين شهرا، ثم تلا: وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً «١» و أخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله: وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ قال: على قدر الميسرة. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله: لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ليس لها أن تلقى ولدها عليه و لا يجد من يرضعه، و ليس له أن يضارها فينتزع منها ولدها و هى تحب أن ترضعه وَ عَلَى الْوارِثِ قال:

هو ولىّ الميت. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء، و إبراهيم، و الشعبى فى قوله: وَ عَلَى الْوارِثِ قال:

هو وارث الصبى ينفق عليه. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن قتادة نحوه، و زاد: إذا كان المولود لا مال له مثل الذى على والده من أجر الرضاع. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن ابن سيرين نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب فى قوله: وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ قال: هو الصبىّ. و أخرج وكيع عن عبد اللّه بن مغفل نحوه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ قال: لا يضارّ. و أخرج ابن جرير عن الضحاك فَإِنْ أَرادا فِصالًا قال: الفطام. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد. قال: التشاور فيما دون الحولين، ليس لها أن تفطمه إلا أن يرضى، و ليس له أن يفطمه إلا أن ترضى.

و أخرجوا أيضا عن عطاء فى قوله تعالى: وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ قال: أمه أو غيرها. فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ قال: إذا سلّمت لها أجرها. ما آتَيْتُمْ ما أعطيتم.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٤]

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

لما ذكر سبحانه عدّة الطلاق؛ و اتصل بذكرها ذكر الإرضاع؛ عقب ذلك بذكر عدّة الوفاة، لئلا يتوهم أن عدّة الوفاة مثل عدّة الطلاق. قال الزجاج: و معنى الآية: و الرجال الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجا، أى: و لهم زوجات، فالزوجات يتربصن. و قال أبو على الفارسى: تقديره: و الذين يتوفون منكم و يذرون

---

(١). الأحقاف: ١٥.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٨٥

أزواجا يتربصن بعدهم، و هو كقولك: السمن منوان بدرهم، أى: منه. و حكى المهدوى عن سيبويه أن المعنى: و فيما يتلى عليكم الذين يتوفون؛ و قيل التقدير: و أزواج الذين يتوفون منكم يتربصن؛ ذكره صاحب الكشاف، و فيه أن قوله: وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً لا يلائم ذلك التقدير، لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة.

و قال بعض النحاة من الكوفيين: إن الخبر عن: الذين، متروك، و القصد الإخبار عن أزواجهم بأنهنّ يتربصن.

و وجه الحكمة فى جعل العدّة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك فى الغالب لثلاثة أشهر، و الأنثى لأربعة، فزاد اللّه سبحانه على ذلك عشرا، لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة فتتأخر حركته قليلا و لا تتأخر عن هذا الأجل. و ظاهر هذه الآية العموم، و أن كل من مات عنها زوجها تكون عدّتها هذه العدّة، و لكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى: وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ «١» و إلى هذا ذهب الجمهور. و روى عن بعض الصحابة و جماعة من أهل العلم: أن الحامل تعتدّ بآخر الأجلين، جمعا بين العام و الخاص، و إعمالا لهما، و الحق ما قاله الجمهور، و الجمع بين العام و الخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة و لا قواعد الشرع، و لا معنى لإخراج الخاص من بين أفراد العام إلا بيان أن حكمه مغاير لحكم العام و مخالف له. و قد صح عنه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه أذن لسبيعة الأسلمية أن تتزوّج بعد الوضع و التربص الثانى و التصبر عن النكاح. و ظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة و الكبيرة و الحرّة و الأمة و ذات الحيض و الآيسة، و أن عدتهنّ جميعا للوفاة أربعة أشهر و عشر، و قيل إنّ عدة الأمة نصف عدّة الحرة شهران و خمسة أيام. قال ابن العربى: إجماعا إلا ما يحكى عن الأصم فإنه سوّى بين الحرة و الأمة، و قال الباجى: و لا نعلم فى ذلك خلافا إلا ما يروى عن ابن سيرين أنه قال عدّتها عدّة الحرّة، و ليس بالثابت عنه، و وجه ما ذهب إليه الأصمّ و ابن سيرين ما فى هذه الآية من العموم، و وجه ما ذهب إليه من عداهما قياس عدّة الوفاة على الحد فإنه ينصف للأمة بقوله تعالى: فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ «٢». و قد تقدم حديث: «طلاق الأمة تطليقتان و عدّتها حيضتان» و هو صالح للاحتجاج به، و ليس المراد منه: إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرة، و عدّتها على النصف من عدّتها، و لكنه لما لم يمكن أن يقال طلاقها تطليقة و نصف، و عدّتها حيضة و نصف، لكون ذلك لا يعقل، كانت عدّتها و طلاقها ذلك القدر المذكور فى الحديث جبرا للكسر، و لكن هاهنا أمر يمنع من هذا القياس الذى عمل به الجمهور، و هو أن الحكمة فى جعل عدّة الوفاة أربعة أشهر و عشرا هو ما قدّمنا من معرفة خلوّها من الحمل، و لا يعرف إلا بتلك المدّة، و لا فرق بين الحرة و الأمة فى مثل ذلك، بخلاف كون عدتها فى غير الوفاة حيضتين، فإن ذلك يعرف به خلو الرحم، و يؤيد عدم الفرق ما سيأتى فى عدّة أم الولد. و اختلف أهل العلم فى عدّة أم الولد لموت سيدها. فقال سعيد بن المسيب، و مجاهد، و سعيد بن جبير، و الحسن، و ابن سيرين، و الزهرى، و عمر بن عبد العزيز، و الأوزاعى، و إسحاق ابن راهويه، و أحمد بن حنبل فى رواية عنه: أنها تعتدّ بأربعة أشهر و عشر لحديث عمرو بن العاص قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا صلّى

اللّه عليه و سلم «عدّة أمّ الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر و عشر». أخرجه أحمد، و أبو داود، و ابن ماجة، و الحاكم، و صححه، و ضعفه أحمد، و أبو عبيد. قال الدارقطنى: الصواب أنه موقوف. و قال طاوس و قتادة: عدّتها

---

(۱). الطلاق: ۴.

(۲). النساء: ۲۵.

شهران و خمس ليال. و قال أبو حنيفة و أصحابه و الثورى و الحسن بن صالح: تعتدّ بثلاث حيض، و هو قول علىّ، و ابن مسعود، و عطاء، و إبراهيم النخعى. و قال مالك، و الشافعى، و أحمد فى المشهور عنه: عدّتها حيضة، و غير الحائض شهر، و به يقول ابن عمر، و الشعبى، و مكحول، و الليث، و أبو عبيد، و أبو ثور، و الجمهور. قوله: فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَ المراد بالبلوغ هنا: انقضاء العدّة فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَ من التزين، و التعرّض للخطاب بِالْمَعْرُوفِ الذى لا يخالف شرعا و لا عادة مستحسنة.

و قد استدل بذلك: على وجوب الإحداد على المعتدة عدة الوفاة. و قد ثبت ذلك فى الصحيحين و غيرهما من غير وجه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يحلّ لامرأة تؤمن باللّه و اليوم الآخر أن تحدّ على ميّت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر و عشرا» و كذلك ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيحين و غيرهما: النهى عن الكحل لمن هى فى عدّة الوفاة. و الإحداد: ترك الزينة من الطيب، و لبس الثياب الجيدة، و الحلىّ، و غير ذلك، و لا خلاف فى وجوب ذلك فى عدّة الوفاة، و لا خلاف فى عدم وجوبه فى عدّة الرجعية، و اختلفوا فى عدّة البائنة على قولين، و محل ذلك كتب الفروع.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ قال: كان الرجل إذا مات و ترك امرأته اعتدت سنة فى بيته ينفق عليها من ماله. ثم أنزل اللّه وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ الآية، فهذه عدة المتوفى عنها إلا أن تكون حاملا، فعدتها أن تضع ما فى بطنها. و قال فى ميراثها: وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ .. «۱» فبين ميراث المرأة، و ترك الوصية و النفقة فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ يقول: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين و تتصنع و تتعرّض للتزويج، فذلك المعروف. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن أبى العالية قال: ضمت هذه الأيام العشر إلى الأربعة أشهر، لأن فى العشر ينفخ فيه الروح. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَ يقول: إذا انقضت عدتها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى قوله: فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ يعنى: أولياءها. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم عن ابن عباس: أنه كره للمتوفى عنها زوجها الطيب و الزينة. و أخرج مالك، و عبد الرزاق، و أهل السنن، و صححه الترمذى، و الحاكم عن الفريعة بنت مالك بن سنان، و هى أخت أبى سعيد الخدرى: أنها جاءت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تسأل أن ترجع إلى أهلها فى بنى خدرة، و أن زوجها خرج فى طلب أعبد لها أبقوا حتى إذا تطرّف القدوم «۲» لحقهم فقتلوه، قالت: فسألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن أرجع إلى أهلى فإن زوجى لم يتركنى فى منزل يملكه و لا نفقة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نعم، فانصرفت حتى إذا كنت فى الحجرة أو فى المسجد فدعانى أو أمر بى فدعيت، فقال: كيف قلت؟ قالت: فرددت إليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى، فقال: امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله. قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر و عشرا، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلىّ فسألنى عن ذلك فأخبرته، فاتبعه و قضى به.

---

(۱). النساء: ۱۲.

(٢). القدوم: بالتخفيف و التشديد، موضع إلى ستة أميال من المدينة، و تطرّف: وصل إلى أطرافه.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٨٧

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٥]

وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

الجناح: الإثم، أي: لا إثم عليكم؛ و التعريض: ضد التصريح، و هو من عرض الشيء، أي: جانبه، كأنه يحوم به حول الشيء و لا يظهره؛ و قيل: هو من قولك: عرضت الرجل، أي: أهديت له. و منه:

أن ركبا من المسلمين عرضوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبا بكر ثيابا بيضا، أي: أهدوا لهما، فالمعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاما يفهم معناه. و قال في الكشاف: الفرق بين الكناية و التعريض، أن الكناية: أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. و التعريض: أن يذكر شيئا يدل به على شيء لم يذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، و لأنظر إلى وجهك الكريم، و لذلك قالوا:

و حسبك بالتسليم منّي تقاضيا كأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، و يسمى: التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده. انتهى.

و الخطبة بالكسر: ما يفعله الطالب من الطلب، و الاستلطاف بالقول و الفعل، يقال: خطبها يخطبها خطبة و خطبا.

و أما الخطبة بضم الخاء: فهي الكلام الذي يقوم به الرجل خاطبا. و قوله: أَكْنَنْتُمْ معناه: سترتم، و أضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدة. و الإكنان: التستر و الإخفاء، يقال: أكننته و كننته بمعنى واحد.

و منه: بيض مكنون، و در مكنون. و منه أيضا: أكنّ البيت صاحبه، أي: ستره. و قوله: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ أي: علم اللّه أنكم لا تصبرون عن النطق لهنّ برغبتكم فيهن، فرخص لكم في التعريض دون التصريح. و قال في الكشاف: إن فيه طرفا من التوبيخ كقوله: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ «١». و قوله: وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا معناه: على سرّ، فحذف الحرف لأن الفعل لا يتعدّى إلى المفعولين. و قد اختلف العلماء في معنى السر، فقيل: معناه: نكاحا، أي: لا يقل الرجل لهذه المعتدّة تزوّجيني، بل يعرض تعريضا. و قد ذهب إلى أن معنى الآية هذا جمهور العلماء، و قيل السرّ: الزنا، أي:

لا يكن منكم مواعدة على الزنا في العدّة ثم التزويج بعدها. قاله جابر بن زيد، و أبو مجلز، و الحسن، و قتادة، و الضحاك، و النخعي، و اختاره ابن جرير الطبري، و منه قول الحطيئة:

و يحرم سرّ جارتهم عليهمو يأكل جارهم أنف القصاع

و قيل: السرّ: الجماع، أي: لا تصفوا أنفسكم لهنّ بكثرة الجماع ترغيبا لهنّ في النكاح، و إلى هذا ذهب الشافعي في معنى الآية، و منه قول امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنّني كبرت و أن لا يحسن السرّ أمثالي

و مثله قول الأعشى:

فلن يطلبوا سرّها للغنىو لن يسلموها لإزهادها

---

(١). البقرة: ١٨٧.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٨٨

أراد: تطلبون نكاحها لكثرة مالها، و لن تسلموها لقلة مالها، و الاستدراك بقوله: وَ لٰكِنْ من مقدّر محذوف دلّ عليه سَتَذْكُرُونَهُنَ أى: فاذكروهنّ وَ لٰكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا. قال ابن عطية:

أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث: من ذكر جماع، أو تحريض عليه، لا يجوز. و قال أيضا:

أجمعت الأمة على كراهة المواعدة فى العدّة للمرأة فى نفسها، و للأب فى ابنته البكر و للسيد فى أمته. قوله:

إِلّٰا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً قيل: هو استثناء منقطع بمعنى: لكن، و القول المعروف: هو ما أبيح من التعريض. و منه صاحب الكشاف أن يكون منقطعا و قال: هو مستثنى من قوله: لا تُواعِدُوهُنَ أى:

لا تواعدوهن مواعدة قط؛ إلا مواعدة معروفة غير منكرة، فجعله على هذا استثناء مفرغا، و وجه منع كونه منقطعا: أنه يؤدى إلى جعل التعريض موعودا و ليس كذلك، لأن التعريض طريق المواعدة، لا أنه الموعود فى نفسه. قوله: وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكٰاحِ قد تقدّم الكلام فى معنى العزم، يقال: عزم الشىء، و عزم عليه، و المعنى هنا: لا تعزموا على عقدة النكاح ثم حذف على. قال سيبويه: و الحذف فى هذه الآية لا يقاس عليه. و قال النحاس: يجوز أن يكون المعنى و لا تعقدوا عقدة النكاح، لأن معنى تعزموا و تعقدوا واحد؛ و قيل: إن العزم على الفعل يتقدّمه فيكون فى هذا النهى مبالغة، لأنه إذا نهى عن المتقدم على الشىء، كان النهى عن ذلك الشىء بالأولى. قوله: حَتّٰى يَبْلُغَ الْكِتٰابُ أَجَلَهُ يريد حتى تنقضى العدّة، و الكتاب هنا:

هو الحدّ، و القدر الذى رسم من المدّة، سماه: كتابا، لكونه محدودا، و مفروضا، كقوله تعالى: إِنَّ الصَّلٰاةَ كٰانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتٰاباً مَوْقُوتاً «١» و هذا الحكم أعنى: تحريم عقد النكاح فى العدّة مجمع عليه.

و قد أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و البخارى و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ لٰا جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ فِيمٰا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسٰاءِ قال: التعريض أن تقول: إنى أريد التزويج، و إنى لأحب المرأة من أمرها و أمرها، و إن من شأنى النساء، و لوددت أن اللّه يسر لى امرأة صالحة. و أخرج ابن جرير عنه أنه يقول لها: إن رأيت أن لا تسبقينى بنفسك، و لوددت أن اللّه قد هيأ بينى و بينك، و نحو هذا من الكلام. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال: يقول إنى فيك لراغب، و لوددت أنى تزوجتك. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن الحسن فى قوله: أَوْ أَكْنَنْتُمْ قال: أسررتم. و أخرج عبد الرزاق عن الضحاك مثله. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن الحسن فى قوله: عَلِمَ اللّٰهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَ قال: بالخطبة.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير عن مجاهد قال: ذكره إياها فى نفسه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لٰكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا قال: يقول لها إنى عاشق، و عاهدينى أن لا تتزوّجى غيرى، و نحو هذا إِلّٰا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً و هو قوله: إن رأيت أن لا تسبقينى بنفسك.

و أخرج ابن جرير عنه فى السرّ: أنه الزنا، كان الرجل يدخل من أجل الزنا و هو يعرض بالنكاح. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر فى قوله: إِلّٰا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً قال: يقول إنك لجميلة، و إنك إلىّ خير، و إن النساء من حاجتى. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكٰاحِ

____

(١). النساء: ١٠٣.

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٨٩

قال: لا تنكحوا حَتّٰى يَبْلُغَ الْكِتٰابُ أَجَلَهُ قال: حتى تنقضى العدّة.

لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

المراد بالجناح هنا: التبعة من المهر و نحوه، فرفعه رفع لذلك، أى: لا تبعة عليكم بالمهر و نحوه؛ إن طلقتم النساء على الصفة المذكورة، و «ما» فى قوله: ما لَمْ تَمَسُّوهُنَ هى مصدرية ظرفية بتقدير المضاف:

أى مدّة عدم مسيسكم. و نقل أبو البقاء: أنها شرطية؛ من باب اعتراض الشرط على الشرط؛ ليكون الثانى قيدا للأوّل كما فى قولك: إن تأتنى إن تحسن إلىّ أكرمك، أى: إن تأتنى محسنا إلىّ؛ و المعنى: إن طلقتموهن غير ماسين لهنّ. و قيل: إنها موصولة، أى: إن طلقتم النساء اللاتى لم تمسوهن، و هكذا اختلفوا فى قوله:

أَوْ تَفْرِضُوا فقيل: أو: بمعنى إلا، أى: إلا أن تفرضوا؛ و قيل: بمعنى: حتى، أى: حتى تفرضوا؛ و قيل: بمعنى: الواو، أى: و تفرضوا. و لست أرى لهذا التطويل وجها، و معنى الآية أوضح من أن يلتبس، فإن اللّه سبحانه رفع الجناح عن المطلقين ما لم يقع أحد الأمرين: أى مدّة انتفاء ذلك الأحد، و لا ينتفى الأحد المبهم إلا بانتفاء الأمرين معا، فإن وجد المسيس وجب المسمى أو مهر المثل، و إن وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس، و كل واحد منها جناح، أى: المسمى، أو نصفه، أو مهر المثل. و اعلم أن المطلقات أربع:

مطلقة مدخول بها مفروض لها، و هى التى تقدّم ذكرها قبل هذه الآية، و فيها نهى الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهنّ شيئا، و أن عدّتهن ثلاثة قروء. و مطلقة غير مفروض لها و لا مدخول بها، و هى المذكورة هنا فلا مهر لها، بل المتعة، و بين فى سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدّة عليها. و مطلقة مفروض لها غير مدخول بها، و هى المذكورة بقوله تعالى هنا: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً، و مطلقة مدخول بها غير مفروض لها، و هى المذكورة فى قوله تعالى: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ و المراد بقوله: ما لَمْ تَمَسُّوهُنَ ما لم تجامعوهنّ، و قرأ ابن مسعود: «من قبل أن تجامعوهنّ» أخرجه عنه ابن جرير؛ و قرأه نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن عامر، و عاصم:

«ما لم تمسوهنّ» و قرأه حمزة، و الكسائى: «تماسّوهنّ» من المفاعلة، و المراد بالفريضة هنا: تسمية المهر.

قوله: وَ مَتِّعُوهُنَ أى: أعطوهن شيئا يكون متاعا لهنّ، و ظاهر الأمر الوجوب، و به قال على، و ابن عمر، و الحسن البصرى، و سعيد بن جبير، و أبو قلابة، و الزهرى، و قتادة، و الضحاك. و من أدلة الوجوب قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا «١» و قال مالك، و أبو عبيد، و القاضى شريح، و غيرهم:

إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى: حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ و لو كانت واجبة لأطلقها

---

(١). الأحزاب: ٤٩.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٢٩٠

على الخلق أجمعين، و يجاب عنه: بأن ذلك لا ينافى الوجوب، بل هو تأكيد له، كما فى قوله فى الآية الأخرى:

حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ* أى: أن الوفاء بذلك و القيام به شأن أهل التقوى، كل مسلم يجب عليه أن يتقى اللّه سبحانه، و قد وقع

الخلاف أيضا: هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس و الفرض أم ليست بمشروعة إلا لها فقط؟ فقيل: إنها مشروعة لكل مطلقة، و إليه ذهب ابن عباس، و ابن عمر، و عطاء و جابر بن زيد، و سعيد بن جبير، و أبو العالية، و الحسن البصرى، و الشافعى فى أحد قوليه، و أحمد، و إسحاق، و لكنهم اختلفوا هل هى واجبة فى غير المطلقة قبل البناء و الفرض أم مندوبة فقط؟ و استدلوا بقوله تعالى: وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ «١» و بقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا «٢» و الآية الأولى عامة لكل مطلقة، و الثانية فى أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قد كنّ مفروضا لهنّ مدخولا بهنّ. و قال سعيد بن المسيب: إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس و إن كانت مفروضا لها لقوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَ «٣» قال: هذه الآية التى فى الأحزاب نسخت التى فى البقرة. و ذهب جماعة من أهل العلم إلى: أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء و التسمية، لأن المدخول بها تستحق جميع المسمى، أو مهر المثل، و غير المدخولة التى قد فرض لها زوجها فريضة، أى: سمى لها مهرا، و طلقها قبل الدخول، تستحق نصف المسمى، و من القائلين بهذا ابن عمر، و مجاهد. و قد وقع الإجماع على أن المطلقة قبل الدخول و الفرض لا تستحق إلا المتعة إذا كانت حرة. و أما إذا كانت أمة فذهب الجمهور إلى أن لها المتعة، و قال الأوزاعى و الثورى: لا متعة لها لأنها تكون لسيدها، و هو لا يستحق ما لا فى مقابل تأذى مملوكته، لأن اللّه سبحانه إنما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول و الفرض، لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك. و قد اختلفوا فى المتعة المشروعة هل هى مقدّرة بقدر أم لا؟ فقال مالك، و الشافعى فى الجديد: لا حدّ لها معروف، بل ما يقع عليه اسم المتعة. و قال أبو حنيفة: إنه إذا تنازع الزوجان فى قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها، و لا ينقص عن خمسة دراهم، لأن أقل المهر عشرة دراهم. و للسلف فيها أقوال سيأتى ذكرها إن شاء اللّه.

و قوله: عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ يدل على أن الاعتبار فى ذلك بحال الزوج، فالمتعة من الغنى فوق المتعة من الفقير. و قرأ الجمهور: على الموسع بسكون الواو و كسر السين، و هو الذى اتسعت حاله. و قرأ أبو حيوة: بفتح الواو و تشديد السين و فتحها. و قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو، و عاصم فى رواية أبى بكر: قدره بسكون الدال فيهما. و قرأ ابن عامر، و حمزة، و الكسائى، و عاصم فى رواية حفص بفتح الدال فيهما. قال الأخفش و غيره: هما لغتان فصيحتان، و هكذا يقرأ فى قوله تعالى: فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها «۴». و قوله: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ* «۵» و المقتر: المقلّ، و متاعا: مصدر مؤكد لقوله:

وَ مَتِّعُوهُنَ و المعروف: ما عرف فى الشرع، و العادة الموافقة له. و قوله: حَقًّا وصف لقوله:

مَتاعاً أو: مصدر لفعل محذوف، أى: حق ذلك حقا، يقال: حققت عليه القضاء و أحققت، أى:

أوجبت. قوله: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ الآية، فيه دليل على أن المتعة لا تجب لهذه المطلقة

---

(١). البقرة: ٢۴١.

(٢). الأحزاب: ٢٨.

(٣). الأحزاب: ٢٩.

(۴). الرعد: ١٧.

(۵). الأنعام: ٩١.

لوقوعها فى مقابلة المطلقة قبل البناء و الفرض التى تستحق المتعة. و قوله: فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ أى:

فالواجب عليكم نصف ما سميتم لهنّ من المهر، و هذا مجمع عليه. و قرأ الجمهور: فَنِصْفُ بالرفع. و قرأ من عدا الجمهور: بالنصب، أى: فادفعوا نصف ما فرضتم، و قرئ أيضا: بضم النون و كسرها، و هما لغتان. و قد وقع الاتفاق أيضا على: أن المرأة التى لم يدخل بها زوجها و مات؛ و قد فرض لها مهرا؛ تستحقه كاملا بالموت، و لها الميراث و عليها العدة. و اختلفوا فى الخلوة: هل تقوم مقام الدخول و تستحق المرأة بها كمال المهر كما تستحقه بالدخول أم لا؟ فذهب إلى الأول مالك، و الشافعى فى القديم، و الكوفيون، و الخلفاء الراشدون، و جمهور أهل العلم، و تجب عندهم أيضا العدّة. و قال الشافعى فى الجديد: لا يجب إلا نصف المهر، و هو ظاهر الآية، لما تقدّم من أن المسيس هو الجماع، و لا تجب عنده العدة، و إليه ذهب جماعة من السلف.

قوله: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أى: المطلقات، و معناه: يتركن و يصفحن، و وزنه يفعلن، و هو استثناء مفرغ من أعمّ العام، و قيل: منقطع، و معناه: يتركن النصف الذى يجب لهنّ على الأزواج. و لم تسقط النون مع أن، لأن جمع المؤنث فى المضارع على حالة واحدة فى الرفع، و النصب، و الجزم لكون النون ضميرا، و ليست بعلامة إعراب كما فى المذكر فى قولك: الرجال يعفون، و هذا عليه جمهور المفسرين. و روى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ يعنى: الرجال و هو ضعيف لفظا. و معنى قوله: أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ معطوف على محل قوله: «إلا أن يعفون» لأن الأول مبنى و هذا معرب؛ قيل هو الزوج، و به قال جبير بن مطعم، و سعيد بن المسيب، و شريح، و سعيد بن جبير، و مجاهد، و الشعبى، و عكرمة، و نافع، و ابن سيرين، و الضحاك، و محمد بن كعب القرظى، و جابر بن زيد، و أبو مجلز، و الربيع بن أنس، و إياس بن معاوية، و مكحول، و مقاتل بن حيان، و هو الجديد من قولى الشافعى، و به قال أبو حنيفة و أصحابه، و الثورى، و ابن شبرمة، و الأوزاعى، و رجحه ابن جرير. و فى هذا القول قوّة و ضعف؛ أما قوته: فلكون الذى بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج، لأنه هو الذى إليه رفعه بالطلاق، و أما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول، و ما قالوا به من أن المراد بعفوه أن يعطيها المهر كاملا غير ظاهر.

لأن العفو لا يطلق على الزيادة. و قيل: المراد بقوله: أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ هو الولى، و به قال النخعى، و علقمة، و الحسن، و طاوس، و عطاء، و أبو الزناد، و زيد بن أسلم، و ربيعة، و الزهرى، و الأسود بن يزيد، و الشعبى، و قتادة، و مالك، و الشافعى فى قوله القديم، و فيه قوّة و ضعف؛ أما قوّته فلكون معنى العفو فيه معقولا؛ و أما ضعفه فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده، و مما يزيد هذا القول ضعفا:

أنه ليس للولى أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه. و قد حكى القرطبى الإجماع على أن الولىّ لا يملك شيئا من مالها، و المهر مالها. فالراجح ما قاله الأوّلون لوجهين، الأوّل: أن الزوج هو الذى بيده عقدة النكاح حقيقة.

الثانى: أن عفوه بإكمال المهر هو صادر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولى، و تسمية الزيادة عفوا و إن كان خلاف الظاهر، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملا عند العقد كان العفو معقولا، لأنه تركه لها و لم يسترجع النصف منه، و لا يحتاج فى هذا إلى أن يقال: إنه من باب المشاكلة كما فى الكشاف، لأنه

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٩٢

عفو حقيقى، أى: ترك لما يستحق المطالبة به، إلا أن يقال: إنه مشاكلة، أو يطيب فى توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج. قوله: وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى قيل: هو خطاب للرجال و النساء تغليبا؛ و قرأه الجمهور: بالتاء الفوقية؛ و قرأ أبو نهيك، و الشعبى: بالياء التحتية، فيكون الخطاب مع الرجال. و فى هذا دليل على ما رجحناه من أن الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج، لأن عفو الولىّ عن شىء لا يملكه ليس هو أقرب إلى التقوى، بل أقرب إلى الظلم و الجور. قوله: وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ قرأه الجمهور: بضم الواو؛ و قرأ يحيى بن يعمر: بكسرها، و قرأ على، و مجاهد، و أبو حيوة، و ابن أبى عبلة: و لا تناسوا و المعنى: أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر، و من جملة ذلك: أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف، و يتفضل الرجل عليها بإكمال

المهر، و هو إرشاد للرجال و النساء من الأزواج إلى ترك التقصى على بعضهم بعضا، و المسامحة فيما يستغرقه أحدهما على الآخر للوصلة التى قد وقعت بينهما من إفضاء البعض إلى البعض، و هى وصلة لا يشبهها وصلة، فمن رعاية حقها و معرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيه من ترغيب المحسن؛ و ترهيب غيره ما لا يخفى.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً قال: المس: النكاح، و الفريضة: الصداق وَ مَتِّعُوهُنَ قال:

هو على الرجل يتزوج المرأة و لم يسم لها صداقا، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، فأمره اللّه أن يمتعها على قدر عسره و يسره، فإن كان موسرا متعها بخادم، و إن كان معسرا متعها بثلاثة أثواب أو نحو ذلك. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أنه قال: متعة الطلاق: أعلاها الخادم و دون ذلك الورق، و دون ذلك الكسوة. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن عمر قال: أدنى ما يكون من المتعة ثلاثون درهما.

و روى القرطبى فى تفسيره عن الحسن بن على: أنه متع بعشرين ألفا و رقاق من عسل. و عن شريح: أنه متع بخمسمائة درهم. و أخرج الدارقطنى عن الحسن بن على: أنه متع بعشرة آلاف. و أخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين: أنه كان يمتع بالخادم و النفقة أو بالكسوة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ قال المسّ: الجماع، فلها نصف صداقها، و ليس لها أكثر من ذلك إلا أن يعفون. و هى المرأة الثيب و البكر يزوجها غير أبيها، فجعل اللّه العفو لهنّ إن شئن عفون بتركهن، و إن شئن أخذن نصف الصداق أَوْ يَعْفُوَا الَّذِی بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ و هو أبو الجارية البكر، جعل العفو إليه ليس لها معه أمر إذا طلقت ما كانت فى حجره. و أخرج الشافعى، و سعيد بن منصور، و البيهقى عن ابن عباس قال فى الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها و لا يمسها ثم يطلقها: ليس لها إلا نصف الصداق، لأن اللّه يقول: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَ الآية. و أخرج البيهقى عن ابن مسعود قال: لها نصف الصداق و إن جلس بين رجليها. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى بسند حسن عن ابن عمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الذى بيده عقدة النّكاح: الزوج». و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الدارقطنى، و البيهقى عن علىّ مثله من قوله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٩٣

أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر و البيهقى عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن أبى حاتم، و البيهقى عنه قال:

هو أبوها و أخوها و من لا تنكح إلا بإذنه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ قال: فى هذا أو غيره، و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و أبو داود، و الترمذى، و صححه، و النسائى، و ابن ماجة، و الحاكم، و صححه البيهقى: أن قوما أتوا ابن مسعود فقالوا:

إن رجلا تزوج منا امرأة و لم يفرض لها صداقا؛ و لم يجمعها إليه حتى مات. فقال: أرى أن أجعل لها صداقا كصداق نسائها لا و كس و لا شطط، و لها الميراث و عليها العدة أربعة أشهر و عشر، فسمع بذلك ناس من أشجع، منهم: مغفل بن سنان، فقالوا: نشهد أنك قضيت مثل الذى قضى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى امرأة منا يقال لها بروع بنت واشق. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و البيهقى عن على أنه قال فى المتوفى عنها زوجها و لم يفرض لها صداقا: لها الميراث، و عليها العدّة، و لا صداق لها. و قال: لا يقبل قول أعرابى من أشجع على كتاب اللّه. و أخرج الشافعى، و البيهقى عن ابن عباس قال فى المرأة التى يموت عنها زوجها و قد فرض لها صداقا: لها الصداق و الميراث. و أخرج مالك، و الشافعى، و ابن أبى شيبة، و البيهقى عن

عمر ابـن الخطـاب: أنه قضـى فى المرأة يتزوجهـا الرجـل: أنه إذا أرخيت السـتور فقـد وجب الصـداق. و أخرج ابن أبى شـيبة، و البيهقى، عن عمر و على قال: إذا أرخى سترا، و أغلق بابا، فلها الصداق كاملا، و عليها العدّة.

و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و البيهقى عن زرارة بن أوفى قال: قضى الخلفاء الراشدون: أنه من أغلق بابا، أو أرخى سترا، فقد وجب الصداق و العدّة، و أخرج مالك، و البيهقى عن زيد بن ثابت نحوه.

و أخرج الـبيهقى عن محمـد بن ثوبـان أن رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قـال: من كشف امرأة فنظر إلى عورتهـا فقـد وجب الصداق.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣٨ الى ٢٣٩]

حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

المحافظة على الشيء: المداومة و المواظبة عليه، و الوسطى: تأنيث الأوسط، و أوسط الشيء و وسطه:

خياره. و منه قوله تعالى: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، و منه قول بعض العرب يمدح النبى صلّى اللّه عليه و سلم:

يا أوسط النّاس طرّا فى مفاخرهمو أكرم النّاس أمّا برّة و أبا

و وسط فلان القوم يسطهم، أى: صار فى وسطهم: و أفرد الصـلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها فى عموم الصلوات تشريفا لها. و قرأ أبو جعفر: وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى بالنصب على الإغراء؛ و كـذلك قرأ الحلوانى؛ و قرأ قالون عن نافع: الوصـطى، بالصاد لمجاورة الطاء، و هما لغتان: كالسـراط و الصـراط. و قد اختلف أهل العلم فى تعيينها على ثمانية عشر قولا أوردتها فى شرحى للمنتقى، و ذكرت مـا تمسـكت به كـل طائفـة، و أرجـح الأقوال و أصـحها ما ذهب إليه الجمهور من أنها العصـر، لما ثبت عنـد البخارى، و مسـلم، و أهـل السـنن، و غيرهم من حـديث على قـال: كنا نراها الفجر حتى سـمعت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يقول يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصّلاة

الوسـطى صـلاة العصر، ملأ اللّه قبورهم و أجوافهم نارا». و أخرج مسلم، و الترمذى، و ابن ماجة، و غيرهـم من حديث ابن مسعود مرفوعا مثله. و أخرجه أيضا ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى من حديث ابن عباس مرفوعا. و أخرجه البزار بإسـناد صحيح من حـديث جـابر مرفوعـا، و أخرجه أيضـا البزار بإسـناد صـحيح من حـديث حذيفـة مرفوعا. و أخرجه الطبرانى بإسـناد ضـعيف من حديث أم سـلمة مرفوعا. و ورد فى تعيين أنها العصر من غير ذكر يوم الأحزاب أحاديث مرفوعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، منها: عن ابن عمر عنـد ابن منـدة، و منها: عن سـمرة عنـد أحمد، و ابن جرير، و الطبرانى، و منها: عنه أيضا عند ابن أبى شـيبة، و أحمـد، و عبـد بن حميـد، و الترمـذى، و صـححه ابن جرير، و الطبرانى، و البيهقى. و عن أبى هريرة عند ابن جرير، و البيهقى، و الطحاوى. و أخرجه عنه أيضا ابن سعيد، و البزار، و ابن جرير، و الطبرانى، و عن ابن عباس عند البزار بأسانيد صحيحة، و عن أبى مالك الأشعرى عند ابن جرير، و الطبرانى، فهذه أحاديث مرفوعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مصرحة بأنها العصر. و قد روى عن الصـحابة فى تعيين أنهـا العصـر آثـار كثيرة، و فى الثابت عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم ما لا يحتاج معه إلى غيره. و أما ما روى عن على و ابن عباس أنهما قالا: إنها صلاة الصبح، كما أخرجه مالك فى الموطأ عنهما، و أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، و كـذلك أخرجه عنه عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و كذلك أخرجه ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر، و كـذلك أخرجه ابن جرير عن جابر، و كـذلك أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى أمامـة، و كل ذلك من أقوالهم، و

ليس فيها شىء من المرفوع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و لا تقوم بمثل ذلك حجة، لا سيما إذا عارض ما قد ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم ثبوتا يمكن أن يدعى فيه التواتر، و إذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة؛ لم تقم بأقوال من بعدهم من التابعين، و تابعيهم بالأولى، و هكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبى حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس أنه قال: صلاة الوسطى المغرب، و هكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة: أنها الظهر، أو غيرها من الصلوات، و لكن المحتاج إلى إمعان نظر و فكر ما ورد مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مما فيه دلالة على أنها الظهر، كما أخرجه ابن جرير عن زيد بن ثابت مرفوعا «إنّ الصّلاة الوسطى صلاة الظهر». و لا يصح رفعه، بل المروىّ عن زيد بن ثابت ذلك من قوله، و استدل على ذلك بأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يصلى بالهاجرة، و كانت أثقل الصلاة على أصحابه؛ و أين يقع هذا الاستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و هكذا الاعتبار بما روى عن ابن عمر من قوله: إنها الظهر. و كذلك ما روى عن عائشة، و أبى سعيد الخدرى و غيرهم. فلا حجة فى قول أحد مع قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و أما ما رواه عبد الرزاق، و ابن جرير، و غيرهما أن حفصة قالت لأبى رافع مولاها- و قد أمرته أن يكتب لها مصحفا: إذا أتيت على هذا الآية: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى فتعال حتى أمليها عليك، فلما بلغ ذلك أمرته أن يكتب: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى و صلاة العصر. و أخرجه أيضا عنها مالك، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى فى سننه و زادوا: و قالت أشهد أنى سمعتها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج مالك، و أحمد، و عبد بن حميد، و مسلم، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى و غيرهم عن أبى يونس مولى عائشة: أنها أمرته أن يكتب لها مصحفا

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٩٥

و قالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنى حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى قال: فلما بلغتها آذنتها فأملت علىّ: حافظوا على الصّلوات و الصّلاة الوسطى و صلاة العصر قالت عائشة: سمعتها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج وكيع، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن أم سلمة: أنها أمرت من يكتب لها مصحفا، و قالت له كما قالت حفصة و عائشة. فغاية ما فى هذه الروايات عن أمهات المؤمنين الثلاث رضى اللّه عنهنّ أنهنّ يروين هذا الحرف هكذا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و ليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر أو غيرها، بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على صلاة الوسطى أنها غيرها، لأن المعطوف غير المعطوف عليه، و هذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم ثبوتا لا- يدفع أنها العصر كما قدمنا بيانه. فالحاصل أن هذه القراءة التى نقلتها أمهات المؤمنين بإثبات قوله: «و صلاة العصر» معارضة بما أخرجه ابن جرير عن عروة قال: كان فى مصحف عائشة: حافظوا على الصّلوات و الصّلاة الوسطى و هى صلاة العصر. و أخرج وكيع عن حميدة قالت: قرأت فى مصحف عائشة: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى صلاة العصر. و أخرج ابن أبى داود عن قبيصة بن ذؤيب مثله. و أخرج سعيد بن منصور و أبو عبيد عن زياد بن أبى مريم أن عائشة أمرت بمصحف لها أن يكتب و قالت: إذا بلغتم حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ فلا تكتبوها حتى تؤذنونى، فلما أخبروها أنهم قد بلغوا قالت: اكتبوها صلاة الوسطى صلاة العصر. و أخرج ابن جرير، و الطحاوى، و البيهقى عن عمرو بن رافع: قال كان مكتوبا فى مصحف حفصة: حافظوا على الصّلوات و الصّلاة الوسطى و هى صلاة العصر. و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن المنذر عن أبى ابن كعب أنه كان يقرؤها: حافظوا على الصّلوات و الصّلاة الوسطى صلاة العصر. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير، و الطحاوى عن ابن عباس أنه كان ليقرؤها: حافظوا على الصّلوات و الصّلاة الوسطى صلاة العصر. و أخرج المحاملى عن السائب بن يزيد: أنه تلاها كذلك فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة و نقل القراءة، و يبقى ما صح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من التعيين صافيا عن شوب كدر المعارضة. على أنه قد ورد ما يدل على نسخ القراءة التى

نقلتها حفصة و عائشة و أم سلمة.

و أخرج عبد بن حميد، و مسلم، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و البيهقى عن البراء بن عازب قال:

نزلت حافظوا على الصّلوات و صلاة العصر فقرأناها على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما شاء اللّه ثم نسخها اللّه، فأنزل: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى فقيل له: هى إذن صلاة العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت و كيف نسخها اللّه، و اللّه أعلم. و أخرج البيهقى عنه من وجه آخر نحوه. و إذا تقرر لك هذا و عرفت ما سقناه تبين لك: أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر. و أما حجج بقية الأقوال فليس فيها شىء مما ينبغى الاشتغال به، لأنه لم يثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلك شىء، و بعض القائلين عوّل على أمر لا يعوّل عليه فقال: إنها صلاة كذا، لأنها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات و بعدها كذا من الصلوات، و هذا الرأى المحض و التخمين البحت لا ينبغى أن تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فكيف مع وجود ما هو فى أعلى درجات الصحة و القوّة و الثبوت عن

فتح القدير، ج ١، ص: ٢٩٦

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم؟ و يا للّه العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم فى علم السنة و إعراضهم عن خير العلوم و أنفعها، حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام اللّه، و التجرؤ على تفسير كتاب اللّه بغير علم و لا هدى، فجاؤوا بما يضحك منه تارة و يبكى منه أخرى. قوله: وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ القنوت: قيل: هو الطاعة، أى: قوموا للّه فى صلاتكم طائعين، قاله جابر بن زيد، و عطاء، و سعيد بن جبير، و الضحاك، و الشافعى. و قيل:

هو الخشوع، قاله ابن عمر و مجاهد. و منه قول الشاعر:

قانتا للّه يدعو ربّهو على عمد من النّاس اعتزل

و قيل: هو الدعاء، و به قال ابن عباس. و فى الحديث: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قنت شهرا يدعو على رعل و ذكوان. و قال قوم: إن القنوت طول القيام؛ و قيل: معناه: ساكتين، قاله السدى، و يدل عليه حديث زيد بن أرقم فى الصحيحين و غيرهما قال: كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى الحاجة فى الصلاة، حتى نزلت هذه الآية وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ فأمرنا بالسكوت. و قيل: أصل القنوت فى اللغة: الدوام على الشىء، فكل معنى يناسب الدوام يصح إطلاق القنوت عليه. و قد ذكر أهل العلم: أن للقنوت ثلاثة عشر معنى، و قد ذكرنا ذلك فى شرح المنتقى، و المتعين هاهنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور.

قوله: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً الخوف: هو الفزع، و الرجال: جمع رجل أو راجل، من قولهم رجل الإنسان يرجل راجلا: إذا عدم المركوب و مشى على قدميه فهو رجل و راجل. يقول أهل الحجاز:

مشى فلان إلى بيت اللّه حافيا رجلا. حكاه ابن جرير الطبرى و غيره. لما ذكر اللّه سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات، ذكر حالة الخوف أنهم يضيعون فيها ما يمكنهم و يدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الترجل و حال الركوب، و أبان لهم أن هذه العبادة لازمة فى كل الأحوال بحسب الإمكان. و قد اختلف أهل العلم فى حدّ الخوف المبيح لذلك، و البحث مستوفى فى كتب الفروع. قوله: فَإِذا أَمِنْتُمْ أى:

إذا زال خوفكم فارجعوا إلى ما أمرتم به من إتمام الصلاة، مستقبلين القبلة، قائمين بجميع شروطها و أركانها، و هو قوله: فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ و قيل: معنى الآية: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة، و هو خلاف معنى الآية. و قوله: كَما عَلَّمَكُمْ أى: مثل ما علمكم من الشرائع ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ و الكاف صفة لمصدر محذوف، أى: ذكرا كائنا كتعليمه إياكم، أو: مثل تعليمه إياكم.

و قد أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا، و شبّك بين أصابعه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر: أنه سئل عن الصلاة الوسطى؟

فقال: هى فيهن فحافظوا عليهن. و أخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت: أنه سأله رجل عن الصلاة الوسطى فقال: حافظ على الصلوات تدركها. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد عن الربيع بن خيثم: أن سائلا سأله عن الصلاة الوسطى، قال: حافظ عليهنّ فإنك إن فعلت أصبتها، إنما هى واحدة منهنّ. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن سيرين قال: سئل شريح عن الصلاة الوسطى، فقال: حافظوا عليها تصيبوها. و قد قدمنا

فتح القدير، ج ۱، ص: ۲۹۷

ما روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عن أصحابه رضى اللّه عنهم فى تعيينها. و أخرج الطبرانى عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ مثل ما قدمنا عن زيد بن أرقم. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد عن محمد بن كعب نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن عكرمة نحوه. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ قال: مصلين. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: كل أهل دين يقومون فيها عاصين، و قوموا أنتم مطيعين. و أخرج ابن أبى شيبة عن الضحاك مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد ابن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ قال: من القنوت: الركوع و الخشوع، و طول الركوع: يعنى طول القيام، و غض البصر، و خفض الجناح و الرهبة للّه. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إنّ فى الصّلاة لشغلا» و فى صحيح مسلم و غيره أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إنّ هذه الصّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنّما هو التسبيح، و التكبير، و قراءة القرآن».

و قد اختلفت الأحاديث فى القنوت المصطلح عليه، هل هو قبل الركوع أو بعده، و هل هو فى جميع الصلوات أو بعضها، و هل هو مختص بالنوازل أم لا؟ و الراجح اختصاصه بالنوازل. و قد أوضحنا ذلك فى شرحنا للمنتقى، فليرجع إليه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً قال: يصلى الراكب على دابته، و الراجل على رجليه فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ يعنى: كما علمكم أن يصلى الراكب على دابته، و الراجل على رجليه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه قال: إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه حيث كان وجهه فذلك قوله: فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً قال: ركعة ركعة.

و أخرج وكيع، و ابن جرير عن مجاهد فَإِذا أَمِنْتُمْ قال: خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۰ الى ۲۴۲]

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۴۰) وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (۲۴۱) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۲۴۲)

هذا عود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف. و قد اختلف السلف و من تبعهم من المفسرين فى هذه الآية هل محكمة أو منسوخة؟ فذهب الجمهور: إلى أنها منسوخة بالأربعة الأشهر و العشر كما تقدم، و أن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض اللّه لهنّ من الميراث. و حكى ابن جرير عن مجاهد أن هذه الآية لا نسخ فيها، و أن العدة أربعة أشهر و عشر، ثم جعل اللّه لهنّ وصية منه: سكنى سبعة أشهر و عشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت فى وصيتها، و إن شاءت خرجت. و قد حكى ابن عطية، و

القاضی عیاض: أن الإجماع منعقد علی أن الحول منسوخ، و أن عدتها أربعة أشهر و عشر. و قد أخرج عن مجاهد ما أخرجه ابن جریر عنه البخاری

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۲۹۸

فی صحیحه. و قوله: وَصِيَّةً قرأها نافع، و ابن کثیر، و عاصم فی روایة أبی بکر، و الکسائی: بالرفع، علی أن ذلک مبتدأ لخبر محذوف یقدر مقدما، أی: علیهم وصیة؛ و قیل: إن الخبر قوله: لِأَزْواجِهِمْ و قیل: إنه خبر مبتدأ محذوف، أی: وصیة الذین یتوفون وصیة أو حکم الذین یتوفون وصیة. و قرأ أبو عمرو و حمزة و ابن عامر: بالنصب، علی تقدیر فعل محذوف، أی: فلیوصوا وصیة، أو: أوصی اللّه وصیة، أو:

کتب اللّه علیهم وصیة. و قوله: مَتاعاً منصوب بوصیة، أو بفعل محذوف، أی: متعوهن متاعا، أو جعل اللّه لهنّ ذلک متاعا، و یجوز أن یکون منتصبا علی الحال. و المتاع هنا: نفقة السنة. و قوله: غَيْرَ إِخْراجٍ صفة لقوله: مَتاعاً و قال الأخفش: إنه مصدر، کأنه قال لا- إخراجا؛ و قیل: إنه حال، أی: متعوهن غیر مخرجات، و قیل: منصوب بنزع الخافض، أی: من غیر إخراج، و المعنی: أنه یجب علی الذین یتوفّون أن یوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم أن یمتعن بعدهم حولا کاملا بالنفقة و السکنی من ترکتهم، و لا- یخرجن من مساکنهنّ. و قوله: فَإِنْ خَرَجْنَ یعنی باختیارهنّ قبل الحول فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أی: لا حرج علی الولیّ و الحاکم و غیرهما فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَ من التعرّض للخطاب و التزین لهم. و قوله: مِنْ مَعْرُوفٍ أی: بما هو معروف فی الشرع غیر منکر. و فیه دلیل: علی أن النساء کنّ مخیرات فی الحول و لیس ذلک بحتم علیهنّ؛ و قیل: المعنی لا- جناح علیکم فی قطع النفقة عنهنّ، و هو ضعیف، لأن متعلق الجناح هو مذکور فی الآیة بقوله: فِيما فَعَلْنَ و قوله: وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ قد اختلف المفسرون فی هذه الآیة، فقیل: هی المتعة، و أنها واجبة لکل مطلقة؛ و قیل: إن هذه الآیة خاصة بالثیبات اللواتی قد جومعن، لأنه قد تقدّم قبل هذه الآیة ذکر المتعة للّواتی لم یدخل بهنّ الأزواج. و قد قدّمنا الکلام علی هذه المتعة و الخلاف فی کونها خاصة بمن طلقت قبل البناء و الفرض؛ أو عامة للمطلقات؛ و قیل: إن هذه الآیة شاملة للمتعة الواجبة، و هی متعة المطلقة قبل البناء و الفرض، و غیر الواجبة و هی متعة سائر المطلقات فإنها مستحبة فقط؛ و قیل: المراد بالمتعة هنا: النفقة.

و قد أخرج البخاری و غیره عن ابن الزبیر قال: قلت لعثمان بن عفان: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً قد نسختها الآیة الأخری، فلم تکتبها أو تدعها؟ قال: یا بن أخی لا أغیر شیئا منه من مکانه.

و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی الآیة قال: کان للمتوفی عنها زوجها نفقتها و سکناها فی الدار سنة، فنسختها آیة المواریث، فجعل لهنّ الربع و الثمن مما ترک الزوج. و أخرج ابن جریر نحوه عن عطاء. و أخرج نحوه أیضا أبو داود، و النسائی عن ابن عباس من وجه آخر. و أخرج الشافعی، و عبد الرزاق عن جابر بن عبد اللّه قال: لیس للمتوفی عنها زوجها نفقة؛ حسبها المیراث. و أخرج أبو داود فی ناسخه و النسائی عن عکرمة قال: نسختها- وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً «۱» و أخرج ابن الأنباری فی المصاحف عن زید بن أسلم نحوه. و أخرج أیضا عن قتادة نحوه. و أخرج عبد بن حمید، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ قال: النکاح الحلال الطیب. و أخرج ابن جریر عن ابن زید قال: لما نزل قوله: مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ

---

(۱). البقرة: ۲۳۴.

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۲۹۹

قال رجل: إن أحسنت فعلت، و إن لم أرد ذلک لم أفعل، فأنزل اللّه: وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ و أخرج ابن

أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال: نسخت هذه الآية بقوله:

وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ «١». و أخرج أيضا عن عتاب بن خصيف فى قوله: وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ قال: كان ذلك قبل الفرائض. و أخرج مالك، و عبد الرزاق، و الشافعى، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عمر قال: لكل مطلقة متعة إلا التى تطلقها و لم تدخل بها فقد فرض لها، كفى بالنصف متاعا، و أخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال:

لكل مؤمنة طلقت حرة أو أمة متعة؛ و قرأ: وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ و أخرج البيهقى عن جابر بن عبد اللّه قال: «لما طلّق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة أتت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، فقال لزوجها:

«متّعها، قال: لا أجد ما أمتعها، قال: فإنه لا بدّ من المتاع، متّعها و لو نصف صاع من تمر».

و أخرج عبد بن حميد عن أبى العالية فى الآية، قال: لكلّ مطلقة متعة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤٣ الى ٢٤٥]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

الاستفهام هنا للتقرير، و الرؤية المذكورة هى رؤية القلب لا رؤية البصر. و المعنى عند سيبويه: تنبه إلى أمر الذين خرجوا، و لا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين كذا قيل. و حاصله: أن الرؤية هنا التى بمعنى الإدراك مضمنة معنى التنبيه، و يجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء، أى: أ لم ينته علمك إليهم؛ أو معنى الوصول، أى: ألم يصل علمك إليهم؛ و يجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية، أى: ألم تنظر إلى الذين خرجوا. جعل اللّه سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوع و الشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد، أو المبصرة لكل مبصر، لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها و دوّنوها و أشهروا أمرها، و الخطاب هنا لكل من يصلح له. و الكلام جار مجرى المثل فى مقام التعجيب، ادّعاء لظهوره و جلائه بحيث يستوى فى إدراكه الشاهد و الغائب. و قوله: وَ هُمْ أُلُوفٌ فى محل نصب على الحال من ضمير خرجوا، و ألوف: من جموع الكثرة، فدل على أنها ألوف كثيرة. و قوله: حَذَرَ الْمَوْتِ مفعول له. و قوله: فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا هو أمر تكوين، عبارة عن تعلق إرادته بموتهم دفعة، أو: تمثيل، لإماتته سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة، كأنهم أمروا فأطاعوا. قوله: ثُمَّ أَحْياهُمْ هو معطوف على مقدّر يقتضيه المقام، أى: قال اللّه لهم:

موتوا فماتوا ثم أحياهم، أو: على قال، لما كان عبارة عن الإماتة، و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ التنكير فى قوله: فضل، للتعظيم، أى: لذو فضل عظيم على الناس جميعا، و أما هؤلاء الذين خرجوا؛ فلكونه أحياهم، ليعتبروا، و أما المخاطبون: فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار و الاستبصار بقصة هؤلاء. قوله

---

(١). البقرة: ٢٣٧.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٠٠

فتح القدير ج ١ ٣٤٩

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ هو معطوف على مقدّر، كأنه قيل: اشكروا فضله بالاعتبار بما قصّ عليكم و قاتلوا، هذا إذا كان الخطاب

بقوله: وَ قاتِلُوا راجعا إلى المخاطبين بقوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا كما قاله جمهور المفسرين، و على هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد؛ و قيل إن الخطاب للذين أحيوا من بنى إسرائيل فيكون عطفا على قوله: مُوتُوا و فى الكلام محذوف تقديره: و قال لهم: قاتلوا.

و قال ابن جرير: لا وجه لقول من قال: إن الأمر بالقتال للذين أحيوا. و قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ لما أمر سبحانه بالقتال و الجهاد أمر بالإنفاق فى ذلك، و «من» استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء، و «ذا» خبره، و «الذى» وصلته وصف له، أو بدل منه، و إقراض اللّه: مثل لتقديم العمل الصالح الذى يستحق به فاعله الثواب، و أصل القرض: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، يقال: أقرض فلان فلانا، أى: أعطاه ما يتجازاه. قال الشاعر:

و إذا جوزيت قرضا فاجزه ....

و قال الزجاج: القرض فى اللغة: البلاء الحسن، و البلاء السيئ.

قال أمية:

كلّ امرئ سوف يجزى قرضه حسناأو سيّئا و مدينا مثل ما دانا

و قال آخر:

تجازى القروض بأمثالهافبالخير خيرا و بالشرّ شرّا

و قال الكسائى: القرض: ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ، و أصل الكلمة: القطع، و منه المقراض، و استدعاء القرض فى الآية إنما هو تأنيس و تقريب للناس بما يفهمونه. و اللّه هو الغنى الحميد: شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه فى الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس و الأموال فى أخذ الجنة بالبيع و الشراء. و قوله:

حَسَناً أى: طيبة به نفسه من دون منّ و لا أذى. و قوله: فَيُضاعِفَهُ قرأ عاصم و غيره: بالألف و نصب الفاء. و قرأ نافع و أبو عمرة و حمزة و الكسائى: بإثبات الألف و رفع الفاء، و قرأ ابن عامر و يعقوب:

فيضعّفه بإسقاط الألف مع تشديد العين و نصب الفاء. و قرأ ابن كثير و أبو جعفر: بالتشديد و رفع الفاء. فمن نصب فعلى أنه جواب الاستفهام، و من رفع فعلى تقدير مبتدأ، أى: هو يضاعفه. و قد اختلف فى تقدير هذا التضعيف على أقوال. و قيل: لا يعلمه إلا اللّه وحده. و قوله: وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ هذا عام فى كل شىء، فهو القابض الباسط، و القبض: التقتير، و البسط: التوسيع؛ و فيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبدل بالقبض، و لهذا قال: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أى: هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع إليه، و إذا أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن إليكم، و إن بخلتم عاقبكم.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون، و قالوا: نأتى أرضا ليس بها موت، حتى

إذا كانوا بموضع كذا و كذا قال لهم اللّه موتوا فماتوا، فمر عليهم نبيّ من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه، فأحياهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عنه: أن القرية التى خرجوا منها داوردان. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم هذه القصة مطوّلة عن أبى مالك، و فيها: أنهم بضعة و ثلاثون ألفا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن عبد العزيز: أن ديارهم هى أذرعات. و أخرج أيضا عن أبى صالح قال:

كانوا تسعة آلاف. و أخرج جماعة من محدثى المفسرين هذه القصة على أنحاء، و لا يأتى الاستكثار من طرقها بفائدة. و قد ورد فى الصحيحين و غيرهما عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم النهى عن الفرار من الطاعون، و عن دخول الأرض التى هو بها من

حديث عبد الرحمن بن عوف. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن سعد، و البزار، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: «لما نزلت مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً قال أبو الدحداح الأنصارى: يا رسول اللّه! إن اللّه ليريد منا القرض؟

قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرنى يدك يا رسول اللّه! فناوله يده، قال: فإنى قد أقرضت ربى حائطى، و له فيه ستّمائة نخلة». و قد أخرج هذه القصة عبد الرزاق، و ابن جرير من طريق زيد بن أسلم، زاد الطبرانى عن أبيه عن عمر بن الخطاب، و ابن مردويه عن أبى هريرة و ابن إسحاق، و ابن المنذر عن ابن عباس. و أخرج ابن جرير عن السدى فى قوله: أَضْعافاً كَثِيرَةً قال: هذا التضعيف لا يعلم أحد ما هو. و أخرج أحمد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى عثمان النهدى قال: بلغنى عن أبى هريرة حديث أنه قال: «إن اللّه ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة» فحججت ذلك العام و لم أكن أريد أن أحج إلا لألقاه فى هذا الحديث، فلقيت أبا هريرة فقلت له، فقال: ليس هذا قلت، و لم يحفظ الذى حدثك، إنما قلت: «إن اللّه ليعطى العبد المؤمن بالحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة» ثم قال أبو هريرة:

أو ليس تجدون هذا فى كتاب اللّه؟ مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِیرَةً فالكثيرة عند اللّه أكثر من ألف ألف و ألفى ألف، و الذى نفسى بيده لقد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة». و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن حبان فى صحيحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر قال: «لما نزلت: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ «١» إلى آخره، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: رب زد أمتى فنزلت: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِیرَةً قال: ربّ زد أمتى فنزلت إِنَّما یُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ «٢». و أخرج ابن المنذر عن سفيان قال: «لما نزلت مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «٣» قال: ربّ زد أمتى، فنزلت: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قال: ربّ زد أمتى، فنزلت:

مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ* قال: رب زد أمتى، فنزلت: إِنَّما یُوَفَّى الصَّابِرُونَ. و فى الباب أحاديث هذه أحسنها و ستأتى عند تفسير قوله تعالى: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فابحثها. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اللَّهُ یَقْبِضُ وَ یَبْصُطُ قال: يقبض: الصدقة، و يبسط: قال يخلف وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ قال: من التراب و إلى التراب تعودون. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال:

---

(١). البقرة: ٢٦١.

(٢). الزمر: ١٠.

(٣). الأنعام: ١٦٠.

علم اللّه أن فيمن يقاتل فى سبيل اللّه من لا يجد قوّة، و فيمن لا يقاتل فى سبيل اللّه من يجد غنى، فندب هؤلاء إلى القرض فقال: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قال: يبسط عليك و أنت ثقيل عن الخروج لا تريده، و يقبض عن هذا و هو يطيب نفسا بالخروج و يخفّ له، فقوّه مما بيدك يكن لك الحظ.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤٦ الى ٢٥٢]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِیٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ كُتِبَ

عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلاَّ تُقاتِلُوا قالُوا وَ ما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِیارِنا وَ أَبْنائِنا فَلَمَّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِیلاً مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ (۲۴۶) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طالُوتَ مَلِکاً قالُوا أَنَّی یَکُونُ لَهُ الْمُلْکُ عَلَیْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْکِ مِنْهُ وَ لَمْ یُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَیْکُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِی الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ یُؤْتِی مُلْکَهُ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ (۲۴۷) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ آیَةَ مُلْکِهِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ التَّابُوتُ فِیهِ سَکِینَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ بَقِیَّةٌ مِمَّا تَرَکَ آلُ مُوسی وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِکَةُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۲۴۸) فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِیکُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ یَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِیَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِیلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْیَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ کَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ (۲۴۹) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ (۲۵۰)

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا یَشاءُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لکِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْعالَمِینَ (۲۵۱) تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۲۵۲)

قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الْمَلَإِ الکلام فیه کالکلام فی قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیارِهِمْ و قد قدمناه، و الملأ: الأشراف من الناس، کأنهم ملئوا شرفا. و قال الزجاج: سموا بذلک: لأنهم ملئون بما یحتاج إلیه منهم، و هو اسم جمع کالقوم و الرهط. ذکر اللّه سبحانه فی التحریض علی القتال قصة أخری جرت فی بنی إسرائیل بعد القصة المتقدمة و قوله: مِنْ بَعْدِ مُوسی من ابتدائیة و عاملها مقدر، أی:

کائنین من بعد موسی: أی: بعد وفاته. و قوله: لِنَبِیٍّ لَهُمُ قیل: هو شمویل بن یار بن علقمة و یعرف بابن العجوز، و یقال فیه: شمعون، و هو من ولد یعقوب؛ و قیل: من نسل هارون؛ و قیل: هو یوشع بن نون، و هذا ضعیف جدا لأن یوشع هو فتی موسی، و لم یوجد داود إلا بعد ذلک بدهر طویل؛ و قیل: اسمه

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۳۰۳

إسماعیل. و قوله: ابْعَثْ لَنا مَلِکاً أی: أمیرا نرجع إلیه و نعمل علی رأیه. و قوله: نُقاتِلْ بالنون و الجزم علی جواب الأمر، و به قرأ الجمهور. و قرأ الضحاک، و ابن أبی عبلة: بالیاء و رفع الفعل، علی أنه صفة للملک. و قرئ: بالنون و الرفع، علی أنه حال أو کلام مستأنف. و قوله: هَلْ عَسَیْتُمْ بالفتح للسین و بالکسر لغتان، و بالثانیة قرأ نافع، و بالأولی قرأ الباقون. قال فی الکشاف: و قراءة الکسر ضعیفة.

و قال أبو حاتم: لیس للکسر وجه. انتهی. و قال أبو علی: وجه الکسر قول العرب، هو عس بذلک، مثل حر و شج، و قد جاء فعل و فعل فی نحو نقم و نقم، فکذلک عسیت و عسیت، و کذا قال مکی. و قد قرأ بالکسر أیضا الحسن و طلحة، فلا وجه لتضعیف ذلک، و هو من أفعال المقاربة، أی: هل قاربتم ألا تقاتلوا، و إدخال حرف الاستفهام علی فعل المقاربة لتقریر ما هو متوقع عنده، و الإشعار بأنه کائن، و فصل بین عسی و خبرها بالشرط للدلالة علی الاعتناء به. قال الزجاج: أن لا تقاتلوا فی موضع نصب: أی: هل عسیتم مقاتلة.

قال الأخفش: «أن» فی قوله: وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ زائدة. و قال الفراء: هو محمول علی المعنی، أی:

و ما منعنا؟ کما تقول: ا لک ألا تصلی؟ و قیل: المعنی، و أی شیء لنا فی أن لا نقاتل. قال النحاس: و هذا أجودها. و قوله: وَ قَدْ أُخْرِجْنا تعلیل، و الجملة حالیة، و إفراد الأولاد بالذکر لأنهم الذین وقع علیهم السبی، أو لأنهم بمکان فوق مکان سائر القرابة فَلَمَّا کُتِبَ أی: فرض، أخبر سبحانه أنهم تولوا لاضطراب نیاتهم و فتور عزائمهم. و اختلف فی عدد القلیل الذین استثناهم اللّه سبحانه، و هم الذین اکتفوا بالغرفة. و قوله: وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ شروع فی تفصیل ما جری بینهم و بین نبیهم من الأقوال و الأفعال.

و طالوت: اسم أعجمی، و کان سقاء؛ و قیل: مکاریا، و لم یکن من سبط النبوة، و هم بنو لاوی، و لا من سبط الملک، و هم بنو یهوذا، فلذلک: قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا أی: کیف ذلک؟ و لم یکن من بیت الملک، و لا هو ممن أوتی سعة من المال حتى نتبعه لشرفه أو لماله، و هذه الجملة، أعنی قوله:

وَ نَحْنُ أَحَقُّ حالیة، و کذلک الجملة المعطوفة علیها. و قوله: اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ أی: اختاره اللّه هو الحجة القاطعة. ثم بین لهم مع ذلک وجه الاصطفاء: بأن اللّه زاده بسطة فی العلم، الذی هو ملاک الإنسان، و رأس الفضائل، و أعظم وجوه الترجیح، و زاده بسطة فی الجسم الذی یظهر به الأثر فی الحروب و نحوها، فکان قویا فی دینه و بدنه، و ذلک هو المعتبر، لا شرف النسب. فإن فضائل النفس مقدّمة علیه: وَ اللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ فالملک ملکه، و العبید عبیده، فما لکم و الاعتراض على شیء لیس هو لکم و لا أمره إلیکم؟ و قد ذهب بعض المفسرین إلى أن قوله: وَ اللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ من قول نبینا محمد صلّى اللّه علیه و سلم؛ و قیل: هو من قول نبیهم و هو الظاهر. و قوله: واسِعٌ أی: واسع الفضل، یوسع على من یشاء من عباده عَلِيمٌ بمن یستحق الملک، و یصلح له. و التابوت: فعلوت من التوب و هو الرجوع لأنهم یرجعون إلیه، أی: علامة ملکه إتیان التابوت الذی أخذ منهم، أی: رجوعه إلیکم و هو صندوق التوراة. و السکینة فعیلة، مأخوذة من السکون و الوقار و الطمأنینة، أی: فیه سبب سکون قلوبکم فیما اختلفتم فیه من أمر طالوت. قال ابن عطیة: الصحیح أن التابوت کانت فیه أشیاء فاضلة من بقایا الأنبیاء و آثارهم، فکانت النفوس

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۳۰۴

تسکن إلى ذلک و تأنس به و تتقوى. و قد اختلف فی السکینة على أقوال سیأتی بیان بعضها، و کذلک اختلف فی البقیة. فقیل: هی عصا موسى و رضاض الألواح؛ و قیل: غیر ذلک. قیل: المراد بآل موسى و هارون:

هما أنفسهما، أی: مما ترک هارون و موسى، و لفظ آل: مقحمة لتفخیم شأنهما؛ و قیل: المراد: الأنبیاء من بنی یعقوب، لأنهما من ذریة یعقوب، فسائر قرابته و من تناسل منه آل لهما. و فصل: معناه: خرج بهم، فصلت الشیء فانفصل، أی: قطعته فانقطع، و أصله متعد، یقال فصل نفسه ثم استعمل استعمال اللازم کانفصل؛ و قیل: إن فصل یستعمل لازما و متعدیا، یقال: فصل عن البلد فصولا، و فصل نفسه فصلا. و الابتلاء: الاختبار. و النهر: قیل هو بین الأردن و فلسطین، و قرأه الجمهور: بنهر بفتح الهاء. و قرأ حمید، و مجاهد و الأعرج بسکون الهاء. و المراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم، فمن أطاع فی ذلک الماء أطاع فیما عداه، و من عصى فی هذا و غلبته نفسه فهو بالعصیان فی سائر الشدائد أحرى، و رخص لهم فی الغرفة لیرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع، و لیکسروا نزاع النفس فی هذه الحال، و فیه أن الغرفة تکف سورة العطش عند الصابرین على شظف العیش، الدافعین أنفسهم عن الرفاهیة. فالمراد بقوله: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ أی: کرع و لم یقتصر على الغرفة، «و من» ابتدائیة. و معنى قوله: فَلَيْسَ مِنِّي أی: لیس من أصحابی، من قولهم: فلان من فلان، کأنه بعضه لاختلاطهما و طول صحبتهما، و هذا مهیع فی کلام العرب معروف، و منه قول الشاعر:

إذا حاولت فی أسد فجورافإنّی لست منک و لست منّی

و قوله: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ یقال: طعمت الشیء، أی: ذقته، و أطعمته الماء، أی: أذقته، و فیه دلیل على أن الماء یقال له: طعام، و الاغتراف: الأخذ من الشیء بالید أو بآلة، و الغرف: مثل الاغتراف، و الغرفة: المرة الواحدة. و قد قرئ بفتح الغین و ضمها، فالفتح للمرة، و الضم اسم للشیء المغترف؛ و قیل:

بالفتح: الغرفة بالکف الواحدة، و بالضم: الغرفة بالکفین؛ و قیل: هما لغتان بمعنى واحد، و منه قول الشاعر:

لا یدلفون إلى ماء بآنیةإلا اغترافا من الغدران بالرّاح

قوله: إِلَّا قَلِيلًا سيأتى بيان عددهم، و قرئ: إلا قليل و لا وجه له إلا ما قيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى، أى: لم يطعه إلا قليل، و هو تعسف. قوله: فَلَمَّا جاوَزَهُ أى: جاوز النهر طالوت وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ و هم القليل الذين أطاعوه، و لكنهم اختلفوا فى قوّة اليقين، فبعضهم قال قوله:

لا طاقَةَ لَنَا و قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أى: يتيقنون أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ و الفئة: الجماعة، و القطعة منهم، من فأوت رأسه بالسيف، أى: قطعته، و قوله: بَرَزُوا أى: صاروا فى البراز، و هو المتسع من الأرض. و جالوت: أمير العمالقة. قالوا: أى: جميع من معه من المؤمنين، و الإفراغ: يفيد معنى الكثرة. و قوله: وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا هذا عبارة عن القوّة و عدم الفشل، يقال: ثبت قدم فلان على كذا؛

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۰۵

إذا استقرّ له و لم يزل عنه، و ثبت قدمه فى الحرب: إذا كان الغلب له و النصر معه قوله: وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ هم جالوت و جنوده. و وضع الظاهر موضع المضمر إظهارا لما هو العلة الموجبة للنصر عليهم، و هى كفرهم، و ذكر النصر بعد سؤال تثبيت الأقدام: لكون الثانى هو غاية الأوّل. قوله: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ الهزم: الكسر، و منه سقاء منهزم، أى: انثنى بعضه على بعض مع الجفاف؛ و منه ما قيل فى زمزم: إنها هزمة جبريل، أى: هزمها برجله فخرج الماء، و الهزم: ما يكسر من يابس الحطب؛ و تقدير الكلام: فأنزل اللّه عليهم النصر: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ أى: بأمره و إرادته. قوله: وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ هو داود بن إيشا، بكسر الهمزة ثم تحتية ساكنة بعدها معجمة؛ و يقال: داود بن زكريا ابن بشوى، من سبط يهوذا بن يعقوب، جمع اللّه له بين النبوة و الملك بعد أن كان راعيا، و كان أصغر إخوته، اختاره طالوت لمقاتلة جالوت فقتله. و المراد بالحكمة هنا: النبوّة، و قيل: هى تعليمه صنعة الدروع و منطق الطير؛ و قيل: هى إعطاؤه السلسلة التى كانوا يتحاكمون إليها. قوله: وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ قيل: إن المضارع هنا موضوع موضع الماضى، و فاعل هذا الفعل هو اللّه تعالى؛ و قيل: داود، و ظاهر هذا التركيب أن اللّه سبحانه علمه مما قضت به مشيئته، و تعلقت به إرادته؛ و قد قيل: إن من ذلک ما قدّمنا من تعليمه صنعة الدروع و ما بعده. قوله: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ قرأه الجماعة: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ و قرأ نافع: دفاع و هما مصدران لدفع، كذا قال سيبويه. و قال أبو حاتم: دافع و دفع واحد مثل:

طرقت نعلى و طارقته. و اختار أبو عبيدة قراءة الجمهور و أنكر قراءة دفاع، قال: لأن اللّه عزّ و جلّ لا يغالبه أحد، قال مكى: يوهم أبو عبيدة أن هذا من باب المفاعلة و ليس به، و على القراءتين فالمصدر مضاف إلى الفاعل: أى: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ و بعضهم: بدل من الناس، و هم الذين يباشرون أسباب الشرّ و الفساد ببعض آخر منهم، و هم الذين يكفونهم عن ذلک، و يردونهم عنه لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ لتغلب أهل الفساد عليها و إحداثهم للشرور التى تهلك الحرث و النسل، و تنكير فضل للتعظيم. و آيات اللّه: هى ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة. و المراد بِالْحَقِ هنا: الخبر الصحيح الذى لا ريب فيه عند أهل الكتاب و المطلعين على أخبار العالم. و قوله: إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إخبار من اللّه سبحانه بأنه من جملة رسل اللّه سبحانه، تقوية لقلبه، و تثبيتا لجنانه، و تشييدا لأمره.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ قال:

هذا حين رفعت النبوّة و استخرج أهل الإيمان، و كانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم و أبنائهم فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ و ذلك حين أتاهم التابوت، قال: و كان من إسرائيل سبطان: سبط نبوّة، و سبط خلافة، فلا تكون الخلافة إلا فى سبط الخلافة، و لا تكون النبوّة إلا فى سبط النبوّة؛ وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً، قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ و ليس من أحد السبطين لا من سبط النبوّة و لا من سبط الخلافة قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ فأبوا أن يسلموا له الرياسة حتى قال لهم: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ و كان موسى حين ألقى الألواح

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۰۶

تكسرت و رفع منها و جمع ما بقى فجعله فى التابوت، و كانت العمالقة قد سبت ذلك التابوت، و العمالقة:

فرقة من عاد كانوا بأريحاء، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء و الأرض؛ و هم ينظرون إليه؛ حتى وضعته عند طالوت؛ فلما رأوا ذلك قالوا: نعم، فسلموا له و ملكوه، و كانت الأنبياء إذا حضروا قتالا قدّموا التابوت بين أيديهم و يقولون: إن آدم نزل بذلك التابوت: و بالركن، و بعصا موسى من الجنة. و بلغنى:

أن التابوت و عصا موسى فى بحيرة طبرية، و أنهما يخرجان قبل يوم القيامة. و قد ورد هذا المعنى مختصرا و مطولا عن جماعة من السلف فلا يأتى التطويل بذكر ذلك بفائدة يعتد بها. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس: وَ زادَهُ بَسْطَةً يقول: فضيلة فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ يقول: كان عظيما جسيما يفضل بنى إسرائيل بعنقه. و أخرج أيضا عن وهب بن منبه وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ قال: العلم بالحرب. و أخرج ابن المنذر عنه: أنه سئل أ نبيا كان طالوت؟ قال: لا، لم يأته وحى. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عنه: أنه سئل عن تابوت موسى ما سعته؟ قال: نحو من ثلاثة أذرع فى ذراعين. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السكينة: الرحمة. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عنه قال: السكينة: الطمأنينة. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال: السكينة دابة قدر الهرّ لها عينان لهما شعاع، و كان إذا التقى الجمعان أخرجت يديها و نظرت إليهم فيهزم الجيش من الرعب. و أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن على قال: السكينة: ريح خجوج و لها رأسان. و أخرج عبد الرزاق، و أبو عبيد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عن علىّ قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هى بعد ريح هفافة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل عن مجاهد قال: السكينة من اللّه كهيئة الريح، لها وجه كوجه الهرّ، و جناحان، و ذنب مثل ذنب الهرّ. و أخرج سعيد ابن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن ابن عباس قال: فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ قال: طست من ذهب من الجنة كان يغسل بها قلوب الأنبياء ألقى الألواح فيها. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن وهب بن منبه أنه قال: هى روح من اللّه يتكلم، إذا اختلفوا فى شىء؛ تكلم فأخبرهم ببيان ما يريدون. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: هى شىء تسكن إليه قلوبهم. و أخرج عبد الرزاق عن قتادة قال فيه سكينة، أى: وقار.

و أقول: هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقمأهم اللّه، فجاؤوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضى اللّه عنهم و التشكيك عليهم، و انظر إلى جعلهم لها تارة حيوانا و تارة جمادا و تارة شيئا لا يعقل، كقول مجاهد: كهيئة الريح لها وجه كوجه الهرّ، و جناحان و ذنب مثل ذنب الهرّ.

و هكذا كل منقول عن بنى إسرائيل يتناقض و يشتمل على ما لا يعقل فى الغالب، و لا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مرويا عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و لا رأيا رآه قائله، فهم أجلّ قدرا من التفسير بالرأى و بما لا مجال للاجتهاد فيه. إذا تقرّر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع فى مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة و هو معروف و لا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة، فقد جعل اللّه عنها سعة، و لو ثبت لنا فى السكينة تفسير عن النبى

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۰۷

صلّى اللّه عليه و سلّم لوجب علينا المصير إليه و القول به، و لكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت على بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن كما فى صحيح مسلم عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف و عنده فرس مربوط، فتغشّته سحابة فجعلت تدور و تدنو، و جعل فرسه ينفر منها: فلما أصبح أتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر ذلك له، فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن». و ليس فى هذا إلا أن هذه التى سمّاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سكينة سحابة دارت على ذلك

القارئ فاللّه أعلم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى قال: عصاه و رضاض الألواح. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال: كان فى التابوت عصا موسى، و عصا هارون، و ثياب موسى، و ثياب هارون، و لوحان من التوراة و المنّ، و كلمة الفرج: «لا إله إلا اللّه الحليم الكريم و سبحان اللّه ربّ السموات السبع و رب العرش العظيم و الحمد للّه رب العالمين». و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ قال: أقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعته فى بيت طالوت فأصبح فى داره. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً قال: علامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ يقول: بالعطش، فلما انتهى إلى النهر- و هو نهر الأردن- كرع فيها عامة الناس فشربوا منه، فلم يزد من شرب منه إلا عطشا، و أجزأ من اغترف غرفة بيده و انقطع الظمأ عنه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ قال: القليل ثلاثمائة و بضعة عشر، عدة أهل بدر. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و البخارى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن البراء قال: كنا أصحاب محمد نتحدّث أن أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، و لم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر و ثلاثمائة. و قد أخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال لأصحابه يوم بدر: «أنتم بعدّة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت». و أخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: كانوا ثلاثمائة ألف و ثلاثة آلاف و ثلاثمائة و ثلاثة عشر، فشربوا منه كلهم إلا ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا عدّة أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر، فردّهم طالوت و مضى فى ثلاثمائة و ثلاثة عشر.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: الَّذِينَ يَظُنُّونَ قال: الذين يستيقنون. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: كان طالوت أميرا على الجيش، فبعث أبو داود مع داود بشىء إلى إخوته، فقال داود لطالوت: ماذا لى و أقتل جالوت؟ فقال: لك ثلث ملكى و أنكحت ابنتى، فأخذ مخلاة فجعل فيها ثلاث مروات، ثم سمى إبراهيم و إسحاق و يعقوب، ثم أدخل يده فقال: بسم اللّه إلهى و إله آبائى إبراهيم و إسحاق و يعقوب، فخرج على إبراهيم فجعله فى مرجمته، فرمى بها جالوت فخرق ثلاثة و ثلاثين بيضة عن رأسه و قتلت ما وراءه ثلاثين ألفا. و قد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس و اللّه أعلم. و أخرج ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ قال: يدفع اللّه بمن يصلى عمن لا يصلى، و بمن يحج عمن لا يحج، و بمن يزكى عمن لا يزكى. و أخرج ابن عدى، و ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه ليدفع بالمسلم الصّالح

عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ ابن عمر: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ الآية، و فى إسناده يحيى ابن سعيد العطار الحمصى و هو ضعيف جدا.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٣]

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (٢٥٣)

قوله: تِلْكَ الرُّسُلُ قيل: هو إشارة إلى جميع الرسل، فتكون الألف و اللام للاستغراق، و قيل: هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين فى هذه السورة؛ و قيل: إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و المراد

بتفضيل بعضهم على بعض: أن اللّه سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر، فكان الأكثر مزايا فاضلا و الآخر مفضولا- و كما دلت هذه الآية على: أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، كذلك دلت الآية الأخرى، و هى قوله تعالى: وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً «١» و قد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية و بين ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا بلفظ:

«لا تفضّلونى على الأنبياء» و فى لفظ آخر: «لا تفضّلوا بين الأنبياء» و فى لفظ: «لا تخيّروا بين الأنبياء» فقال قوم: إن هذا القول منه صلّى اللّه عليه و سلّم كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، و أن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل؛ و قيل: إنه قال صلّى اللّه عليه و سلّم ذلك على سبيل التواضع كما قال: «لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متّى» تواضعا، معه علمه أنه أفضل الأنبياء، كما يدلّ عليه قوله: «أنا سيد ولد آدم»؛ و قيل: إنما نهى عن ذلك قطعا للجدال و الخصام فى الأنبياء، فيكون مخصوصا بمثل ذلك، إلا إذا كان صدور ذلك مأمونا؛ و قيل: إن النهى إنما هو من جهة النبوة فقط، لأنها خصلة واحدة لا تفاضل فيها، و لا نهى عن التفاضل بزيادة الخصوصيات و الكرامات؛ و قيل: إن المراد: النهى عن التفضيل لمجرد الأهواء و العصبية. و فى جميع هذه الأقوال ضعف.

و عندى أنه لا تعارض بين القرآن و السنة، فإن القرآن دلّ على أن اللّه فضل بعض أنبيائه على بعض، و ذلك لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض، فإن المزايا التى هى مناط التفضيل معلومة عند اللّه لا تخفى عليه منها خافية؛ و ليست بمعلومة عند البشر، فقد يجهل أتباع نبىّ من الأنبياء بعض مزاياه و خصوصياته فضلا عن مزايا غيره، و التفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التى يكون بها هذا فاضلا و هذا مفضولا، لا قبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها، فإن ذلك تفضيل بالجهل، و إقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له و هو ممنوع منه، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن فى الإخبار لنا بأن اللّه فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء، فكيف و قد وردت السنة الصحيحة بالنهى عن ذلك؟ و إذا عرفت هذا علمت أنه لا- تعارض بين القرآن و السنة بوجه من الوجوه، فالقرآن فيه الإخبار من اللّه بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض، و السنة فيها النهى لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه، فمن تعرّض للجمع بينهما زاعما أنهما

---

(١). الإسراء: ٥٥.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٠٩

متعارضان فقد غلط غلطا بينا. قوله: مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ و هو موسى، و نبينا سلام اللّه عليهما. و قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال فى آدم: «إنه نبى مكلم». و قد ثبت ما يفيد ذلك فى صحيح ابن حبان من حديث أبى ذر. قوله: وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت منزلته عند اللّه سبحانه من الأنبياء، و يحتمل أن يراد به نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله، و يحتمل أن يراد به إدريس؛ لأن اللّه سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكانا عليا؛ و قيل: إنهم أولو العزم؛ و قيل: إبراهيم، و لا- يخفاك أن اللّه سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع، فلا يجوز لنا التعرّض للبيان له إلا ببرهان من اللّه سبحانه، أو من أنبيائه عليهم الصلاة و السلام، و لم يرد ما يرشد إلى ذلك، فالتعرّض لبيانه هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأى، و قد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك ذريعة إلى التفضيل بين الأنبياء و قد نهينا عنه؛ و قد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا صلّى اللّه عليه و سلم، و أطالوا فى ذلك، و استدلوا لما خصه اللّه به من المعجزات، و مزايا الكمال، و خصال الفضل، و هم- بهذا الجزم بدليل لا يدل على المطلوب- قد وقعوا فى خطرين، و ارتكبوا نهيين، و هما: تفسير القرآن بالرأى، و الدخول فى ذرائع التفضيل بين الأنبياء، و إن لم يكن ذلك تفضيلا صريحا؛ فهو ذريعة إليه بلا شك و لا شبهة،، لأن

من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبیّ الفلانی انتقل من ذلک إلی التفضیل المنهیّ عنه، و قد أغنی اللّه نبینا المصطفی صلّی اللّه علیه و سلّم عن ذلک بما لا یحتاج معه إلی غیره من الفضائل و الفواضل، فإیاک أن تتقرّب إلیه صلّی اللّه علیه و سلّم بالدخول فی أبواب نهاک عن دخولها فتعصیه، و تسیء، و أنت تظن أنک مطیع محسن. قوله: وَ آتَیْنا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ الْبَیِّناتِ أی: الآیات الباهرة و المعجزات الظاهرة من إحیاء الأموات و إبراء المرضی و غیر ذلک. قوله: وَ أَیَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ هو جبریل، و قد تقدّم الکلام علی هذا. قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ أی: من بعد الرسل؛ و قیل: من بعد موسی و عیسی و محمد، لأن الثانی مذکور صریحا، و الأول و الثالث وقعت الإشارة إلیهما بقوله: مِنْهُمْ مَنْ کَلَّمَ اللَّهُ أی: لو شاء اللّه عدم اقتتالهم ما اقتتلوا، فمفعول المشیئة محذوف علی القاعدة وَ لکِنِ اخْتَلَفُوا استثناء من الجملة الشرطیة، أی: و لکن الاقتتال ناشئ عن اختلافهم اختلافا عظیما، حتی صاروا مللا مختلفة فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ کَفَرَ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ عدم اقتتالهم بعد هذا الاختلاف مَا اقْتَتَلُوا وَ لکِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یُرِیدُ لا رادّ لحکمه، و لا مبدّل لقضائه، فهو یفعل ما یشاء، و یحکم ما یرید.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله تعالی: فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ قال: اتخذ اللّه إبراهیم خلیلا، و کلم موسی تکلیما، و جعل عیسی کمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له کن فیکون، و هو عبد اللّه و کلمته و روحه، و آتی داود زبورا، و آتی سلیمان ملکا لا ینبغی لأحد من بعده، و غفر لمحمد ما تقدم من ذنبه و ما تأخر. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن أبی حاتم، و البیهقی عن مجاهد فی قوله: مِنْهُمْ مَنْ کَلَّمَ اللَّهُ قال: کلم اللّه موسی، و أرسل محمدا صلّی اللّه علیه و سلّم إلی الناس کافة. و أخرج ابن أبی حاتم عن عامر الشعبی فی قوله: وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ قال: محمدا صلّی اللّه علیه و سلم. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر عن قتادة وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ یقول: من بعد موسی و عیسی. و أخرج ابن عساکر عن

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۳۱۰

ابن عباس قال: کنت عند النبی صلّی اللّه علیه و سلم؛ و عنده أبو بکر، و عمر، و عثمان، و معاویة، إذ أقبل علیّ، فقال النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم لمعاویة: «أ تحبّ علیا؟ قال: نعم قال: إنها ستکون بینکم فتنة هنیهة، قال معاویة: فما بعد ذلک یا رسول اللّه؟ قال: عفو اللّه و رضوانه، قال: رضینا بقضاء اللّه، فعند ذلک نزلت هذه الآیة: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لکِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یُرِیدُ» قال السیوطی: و سنده واه.

[سورة البقرة (۲): آیة ۲۵۴]

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا بَیْعٌ فِیهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ وَ الْکافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۵۴)

ظاهر الأمر فی قوله: أَنْفِقُوا الوجوب، و قد حمله جماعة علی صدقة الفرض لذلک و لما فی آخر الآیة من الوعید الشدید. و قیل: إن هذه الآیة تجمع زکاة الفرض و التطوّع. قال ابن عطیة: و هذا صحیح، و لکن ما تقدّم من الآیات فی ذکر القتال؛ و أن اللّه یدفع بالمؤمنین فی صدور الکافرین؛ یترجح منه أن هذا الندب إنما هو فی سبیل اللّه. قال القرطبی: و علی هذا التأویل یکون إنفاق المال مرة واجبا، و مرة ندبا، بحسب تعین الجهاد و عدم تعینه. قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا بَیْعٌ فِیهِ أی: أنفقوا ما دمتم قادرین مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ ما لا یمکنکم الإنفاق فیه و هو یَوْمٌ لا بَیْعٌ فِیهِ أی: لا یتبایع الناس فیه. و الخلة: خالص المودّة، مأخوذة من تخلل الأسرار بین الصدیقین. أخبر سبحانه أنه لا خلة فی یوم القیامة نافعة و لا شفاعة مؤثرة إلّا لمن أذن اللّه له. و قرأ ابن کثیر و أبو عمرو بنصب لا بیع و لا خلة و لا شفاعة، من غیر تنوین. و قرأ الباقون برفعها منوّنة، و هما لغتان مشهورتان للعرب، و وجهان معروفان عند النحاة، فمن الأوّل قول حسان:

ألا طعان و لا فرسان عادیةإلا تجشّؤکم حول التنانیر «۱»

و من الثانی قول الراعی:

و ما صرمتک حتّى قلت معلنةلا ناقة لی فی هذا و لا جمل

و یجوز فی غیر القرآن: التغایر برفع البعض، و نصب البعض، کما هو مقرر فی علم الإعراب. قوله: وَ الْکافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ فیه دلیل على أن کل کافر ظالم لنفسه، و من جملة من یدخل تحت هذا العموم مانع الزکاة منعا یوجب کفره، لوقوع ذلک فی سیاق الأمر بالإنفاق.

و قد أخرج ابن جریر، و ابن المنذر عن ابن جریج فی قوله تعالى: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناکُمْ قال: من الزکاة و التطوّع. و أخرج ابن المنذر عن سفیان قال: یقال نسخت الزکاة کل صدقة فی القرآن، و نسخ شهر رمضان کل صوم. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن قتادة فی الآیة قال: قد علم اللّه أن ناسا یتخاللون فی الدنیا و یشفع بعضهم لبعض؛ فأما یوم القیامة فلا خلة إلا

---

(١). ورد فی دیوان حسان: (ألا طعان ألا فرسان عادیة)

خلة المتقین. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن عطاء قال: الحمد للّه الذی قال: وَ الْکافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ و لم یقل و الظالمون هم الکافرون.

[سورة البقرة (٢): آیة ٢٥٥]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ یَعْلَمُ ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا یَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ (٢٥٥)

قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أی: لا معبود بحق إلا هو، و هذه الجملة خبر المبتدأ. و الحیّ: الباقی؛ و قیل: الذی لا یزول و لا یحول؛ و قیل: المصرّف للأمور، و المقدّر للأشیاء. قال الطبری عن قوم: إنه یقال: حیّ، کما وصف نفسه، و یسلم ذلک دون أن ینظر فیه، و هو خبر ثان أو مبتدأ خبره محذوف. و القیوم: القائم على کل نفس بما کسبت، و قیل: القائم بذاته المقیم لغیره؛ و قیل: القائم بتدبیر الخلق و حفظه؛ و قیل: هو الذی لا ینام؛ و قیل: الذی لا بدیل له. و أصل قیوم: قیووم اجتمعت الیاء و الواو و سبقت إحداهما بالسکون فأدغمت الأولى فی الثانیة بعد قلب الواو یاء. و قرأ ابن مسعود، و علقمة، و النخعی، و الأعمش: «الحی القیام» بالألف، و روى ذلک عن عمر، و لا خلاف بین أهل اللغة أن: القیوم، أعرف عند العرب و أصح بناء، و أثبت علة. و السّنة: النعاس فی قول الجمهور، و النعاس: ما یتقدّم النوم من الفتور و انطباق العینین، فإذا صار فی القلب صار نوما. و فرّق المفضل بین السنة و النعاس و النوم فقال: السنة من الرأس، و النعاس فی العین، و النوم فی القلب. انتهى. و الذی ینبغی التعویل علیه فی الفرق بین السنة و النوم أن السنة لا یفقد معها العقل، بخلاف النوم فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى یفقد معه العقل، بل و جمیع الإدراکات بسائر المشاعر؛ و المراد: أنه لا یعتریه سبحانه شیء منهما، و قدّم السنة على النوم، لکونها تتقدّمه فی الوجود. قال الرازی فی تفسیره: إن السنة ما تتقدم النوم، فإذا کانت عبارة عن مقدّمة النوم، فإذا قیل لا تأخذه سنة دلّ على أنه لا یأخذه نوم بطریق الأولى، فکان ذکر النوم تکرارا، قلنا: تقدیر الآیة لا تأخذه سنة فضلا عن أن یأخذه نوم، و اللّه أعلم بمراده. انتهى. و أقول: إن هذه الأولویة التی ذکرها غیر مسلمة، فإن النوم قد یرد ابتداء من دون ما

ذكر من النعاس. و إذا ورد على القلب و العين دفعة واحدة فإنه يقال له:

نوم، و لا يقال له: سنة، فلا يستلزم نفى السنة نفى النوم. و قد ورد عن العرب نفيهما جميعا، و منه قول زهير:

و لا سنة طوال الدّهر تأخذهو لا ينام و ما فى أمره فند

فلم يكتف بنفى السنة، و أيضا فإن الإنسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السنة، و لا يقدر على أن يدفع عن نفسه النوم، فقد يأخذه النوم و لا تأخذه السنة؛ فلو وقع الاقتصار فى النظم القرآنى على نفى السنة لم يفد ذلك نفى النوم، و هكذا لو وقع الاقتصار على نفى النوم لم يفد نفى السنة، فكم من ذى سنة غير نائم؛ و كرّر حرف النفى للتنصيص على شمول النفى لكل واحد منهما. قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فى هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحدا من عباده يقدر على أن ينفع أحدا منهم بشفاعة

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۱۲

أو غيرها، و التقريع و التوبيخ له ما لا مزيد عليه، و فيه من الدفع فى صدور عبّاد القبور، و الصدّ فى وجوههم، و الفت فى أعضادهم، ما لا يقادر قدره، و لا يبلغ مداه، و الذى يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى:

وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى «۱» و قوله تعالى: وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى «۲» و قوله تعالى: لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ «۳» بدرجات كثيرة. و قد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة فى دواوين الإسلام صفة الشفاعة، و لمن هى؟ و من يقوم بها؟.

قوله: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ الضميران لما فى السموات و الأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، و ما بين أيديهم و ما خلفهم: عبارة عن المتقدّم عليهم و المتأخر عنهم، أو عن الدنيا و الآخرة و ما فيهما. قوله:

وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ قد تقدّم معنى الإحاطة، و العلم هنا: بمعنى المعلوم، أى: لا يحيطون بشىء من معلوماته. قوله: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ الكرسى: الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته، كما سيأتى بيان ذلك. و قد نفى وجوده جماعة من المعتزلة؛ و أخطئوا فى ذلك خطأ بينا، و غلطوا غلطا فاحشا.

و قال بعض السلف: إن الكرسى هنا: عبارة عن العلم. قالوا: و منه قيل للعلماء: الكراسى، و منه: الكراسة التى يجمع فيها العلم، و منه قول الشاعر:

يحفّ بهم بيض الوجوه و عصبة كراسىّ بالأحداث حين تنوب

و رجّح هذا القول ابن جرير الطبرى؛ و قيل: كرسيه: قدرته التى يمسك بها السموات و الأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسيا، أى: ما يعمده؛ و قيل: إن الكرسىّ هو العرش، و قيل: هو تصوير لعظمته و لا حقيقة له، و قيل: هو عبارة عن الملك. و الحق القول الأوّل، و لا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلّا مجرد خيالات تسببت عن جهالات و ضلالات، و المراد بكونه وسع السموات و الأرض أنها صارت فيه، و أنه وسعها، و لم يضق عنها؛ لكونه بسيطا واسعا. و قوله: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما معناه: لا يثقله، يقال:

آدنى الشىء، بمعنى: أثقلنى و تحملت منه مشقة. و قال الزجاج: يجوز أن يكون الضمير فى قوله: يَؤُدُهُ للّه سبحانه، و يجوز أن يكون للكرسى لأنه من أمر اللّه و الْعَلِيُ يراد به: علوّ القدرة و المنزلة. و حكى الطبرى عن قوم أنهم قالوا: هو العلىّ عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه. قال ابن عطية: و هذه أقوال جهلة مجسمين، و كان الواجب أن لا تحكى. انتهى. و الخلاف فى إثبات الجهة معروف فى السلف و الخلف، و النزاع فيه كائن بينهم، و الأدلة من الكتاب و السنة معروفة، و لكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجا عن الشرع و لا ينظر فى أدلته و لا يلتفت إليها، و الكتاب و السنة هما المعيار الذى يعرف به الحق من

الباطل، و يتبين به الصحيح من الفاسد: وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ «۴» و لا شک أن هذا اللفظ يطلق على الظاهر الغالب كما فى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ «۵» و قال الشاعر:

فلمّا علونا و استوينا عليهم‌تركناهم صرعى لنسر و كاسر

و العظيم: بمعنى: عظم شأنه و خطره. قال فى الكشاف: إن الجملة الأولى: بيان لقيامه بتدبير الخلق

---

(۱). الأنبياء: ۲۸.

(۲). النجم: ۲۶.

(۳). النبأ: ۳۸.

(۴). المؤمنون: ۷۱.

(۵). القصص: ۴.

فتح القدير، ج‌۱، ص: ۳۱۳

و كونه مهيمنا عليه غير ساه عنه. و الثانية: بيان لكونه مالكا لما يدبره. و الجملة الثالثة: بيان لكبرياء شأنه.

و الجملة الرابعة: بيان لإحاطته بأحوال الخلق و علمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة و غير المرتضى. و الجملة الخامسة: بيان لسعة علمه و تعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله و عظم قدره.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم فى قوله: الْحَيُ أى: حىّ لا يموت و الْقَيُّومُ القائم الذى لا بديل له. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقى عن مجاهد فى قوله: الْقَيُّومُ قال: القائم على كل شىء. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: القيوم الذى لا زوال له. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ قال: السّنة:

النعاس، و النوم: هو النوم. و أخرجوا إلا البيهقى عن السّدّى قال: السنة: ريح النوم الذى تأخذه فى الوجه فينعس الإنسان. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قال: ما مضى من الدنيا وَ ما خَلْفَهُمْ من الآخرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ما قدّموا من أعمالهم وَ ما خَلْفَهُمْ ما أضاعوا من أعمالهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ قال: علمه، ألا ترى إلى قوله: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما. و أخرج الدارقطنى فى الصفات، و الخطيب فى تاريخه عنه قال: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه وَسِعَ كُرْسِيُّهُ قال: كرسيه موضع قدمه، و العرش لا يقدّر قدره إلا اللّه عزّ و جلّ». و أخرجه الحاكم و صححه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لو أن السموات السبع و الأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهنّ إلى بعض ما كنّ فى سعته: يعنى: الكرسى، إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى ذرّ الغفارى: أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الكرسى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «و الذى نفسى بيده ما السّموات السبع عند الكرسىّ إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، و إنّ فضل العرش على الكرسىّ كفضل الفلاة على تلك الحلقة». و أخرج عبد بن حميد، و البزار، و أبو يعلى، و ابن جرير، و أبو الشيخ، و الطبرانى و الضياء المقدسى فى المختارة عن عمر قال: «أتت امرأة إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و قالت: ادع اللّه أن يدخلنى الجنّة، فعظّم الرّبّ سبحانه و قال: إنّ كرسيّه وسع السموات و الأرض، و إنّ له أطيطا كأطيط «۱» الرحل الجديد من ثقله» و فى إسناده عبد اللّه بن خليفة، و ليس بالمشهور. و فى سماعه من عمر نظر، و منهم من يرويه عن عمر موقوفا. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا: أنه موضع

القدمين. و فى إسناده الحكم بن ظهير الفزارى الكوفى و هو متروك.

و قد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة و غيرهم فى وصف الكرسى آثار لا حاجة فى بسطها. و قد روى أبو داود فى كتاب السنة من سننه من حديث جبير بن مطعم حديثا فى صفته، و كذلك أورد ابن مردويه عن

---

(١). الأطيط: صوت الأقتاب التى توضع على ظهر البعير.

بريدة و جابر و غيرهما. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما قال: لا يثقل عليه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه: وَ لا يَؤُدُهُ قال: و لا يكثره: و أخرج ابن جرير عنه قال: العظيم الذى قد كمل فى عظمته.

و اعلم أنه قد ورد فى فضل هذه الآية أحاديث. و أخرج أحمد، و مسلم و اللفظ عن أبىّ بن كعب: «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سأله: أى آية من كتاب اللّه أعظم؟ قال: آية الكرسى، قال: ليهنك العلم أبا المنذر».

و أخرج النسائى، و أبو يعلى، و ابن حبان، و أبو الشيخ فى العظمة، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن أبىّ بن كعب: أنه كان له جرن فيه تمر، فكان يتعاهده، فوجده ينقص، فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم، قال: فسلمت فردّ السلام، فقلت: ما أنت، جنّى أم إنسى؟ قال: جنّى، قلت: ناولنى يدك، فناولنى فإذا يده يد كلب و شعره شعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجنّ؟ قال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشدّ منى، قلت: ما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغنى أنك رجل تحبّ الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك، فقال له أبىّ: فما الذى يجيرنا منكم؟ قال: هذه الآية، آية الكرسى التى فى سورة البقرة، من قالها حين يمسى أجير منّا حتى يصبح، و من قالها حين يصبح أجير منّا حتى يمسى، فلما أصبح أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره فقال: «صدق الخبيث». و أخرج البخارى فى تاريخه، و الطبرانى، و أبو نعيم فى المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكرى «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم جاءهم فى صفة المهاجرين، فسأله إنسان أىّ آية فى القرآن أعظم؟ فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ حتى انقضت الآية». و أخرج أحمد من حديث أبى ذرّ مرفوعا نحوه. و أخرج الخطيب البغدادى فى تاريخه عن أنس مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج الدارمى عن أيفع بن عبد اللّه الكلاعى نحوه. و أخرج البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة قال: «وكلنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آت فجعل يحثو و ذكر قصة، و فى آخرها أنه قال له: دعنى أعلمك كلمات ينفعك اللّه بها، قلت: ما هى؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى، فإنك لن يزال عليك من اللّه حافظ، و لا يقربك شيطان حتى تصبح. فأخبر أبو هريرة بذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «أما إنه صدقك و هو كذوب، تعلم من تخاطب يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال:

«ذلك شيطان كذا». و أخرج نحو ذلك أحمد عن أبى أيوب. و أخرج الطبرانى، و الحاكم، و أبو نعيم و البيهقى عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أعظم آية فى كتاب اللّه: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ و أخرج نحوه أحمد، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبى ذرّ مرفوعا. و أخرج نحوه أيضا أحمد، و الطبرانى من حديث أبى أمامة مرفوعا. و أخرج سعيد بن منصور، و الحاكم، و البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن، لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسى». قال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه. و أخرج الحاكم من حديث زائدة مرفوعا: «لكل شىء سنام، و سنام القرآن البقرة، و فيها آية هى سيدة آى القرآن: آية الكرسى»، و قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير. و قد تكلم فيه شعبة

و ضعفه، و كذا ضعفه أحمد، و يحيى بن معين، و غير واحد، و تركه ابن مهدى، و كذبه السعدى. و أخرج أبو داود و الترمذى و صححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول فى هاتين الآيتين: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ و الم اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ «إن فيهما اسم اللّه الأعظم».

و قد وردت أحاديث فى فضلها غير هذه، و ورد أيضا فى فضل قراءتها دبر الصلوات و فى غير ذلك، و ورد أيضا فى فضلها مع مشاركة غيرها لها أحاديث، و ورد عن السلف فى ذلك شيء كثير.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٥٦ الى ٢٥٧]

لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٥٧)

قد اختلف أهل العلم فى قوله: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ على أقوال: الأوّل: أنها منسوخة لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أكره العرب على دين الإسلام، و قاتلهم و لم يرض منهم إلا بالإسلام، و الناسخ لها: قوله تعالى:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ* «١» و قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «٢» و قال: سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ «٣»، و قد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين. القول الثانى: أنها ليست بمنسوخة و إنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة، و أنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدّوا الجزية، بل الذين يكرهون هم أهل الأوثان، فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، و إلى هذا ذهب الشعبى، و الحسن، و قتادة، و الضحاك. القول الثالث:

أن هذه الآية فى الأنصار خاصة، و سيأتى بيان ما ورد فى ذلك. القول الرابع: أن معناها: لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف: إنه مكره، فلا إكراه فى الدين. القول الخامس: أنها وردت فى السبى متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الإسلام. و قال ابن كثير فى تفسيره: أى: لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بيّن واضح، جلّى دلائله، و براهينه لا تحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه اللّه للإسلام؛ و شرح صدره؛ و نوّر بصيرته؛ دخل فيه على بينة، و من أعمى اللّه قلبه؛ و ختم على سمعه و بصره؛ فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا، و هذا يصلح أن يكون قولا سادسا. و قال فى الكشاف فى تفسيره هذه الآية: أى: لم يجر اللّه أمر الإيمان على الإجبار و القسر، و لكن على التمكين و الاختيار، و نحوه قوله: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ «٤» أى:

لو شاء لقسرهم على الإيمان، و لكن لم يفعل، و بنى الأمر على الاختيار، و هذا يصلح أن يكون قولا سابعا.

و الذى ينبغى اعتماده و يتعين الوقوف عنده: أنها فى السبب الذى نزلت لأجله محكمة غير منسوخة، و هو:

أن المرأة من الأنصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده، فلما أجليت يهود بنى النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا. فنزلت. أخرجه أبو داود، و النسائى،

---

(١). التوبة: ٧٣.

(٢). التوبة: ١٢٣.

(٣). الفتح: ١٦.

(۴). یونس: ۹۹.

فتح القدیر، ج‌۱، ص: ۳۱۶

و ابـن جریر، و ابـن المنـذر، و ابن أبی حـاتم، و ابن حبـان، و ابن مردویه، و الـبیهقی فی السـنن، و الضـیاء فی المختـارة عن ابن عبـاس. و قـد وردت هـذه القصـة من وجوه، حاصـلها ما ذكره ابن عباس مع زیادات تتضـمن أن الأنصار قالوا إنما جعلناهم علی دینهم، أی: دین الیهود، و نحن نری أن دینهم أفضـل من دیننـا، و أن اللّه جـاء بالإسـلام فلنكرهنهم؛ فلما نزلت خیّر الأبناء رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلّم و لم یكرههم علی الإسـلام. و هذا یقتضـی أن أهل الكتاب لا یكرهون علی الإسلام إذا اختاروا البقاء علی دینهم و أدّوا الجزیة. و أما أهل الحرب فالآیة و إن كانت تعمهم، لأن النكرة فی سیاق النفی و تعریف الدین یفیدان ذلك، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن قـد خص هـذا العموم بما ورد من آیات فی إكراه أهل الحرب من الكفار علی الإسلام. قوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ الرشد هنا: الإیمان، و الغیّ: الكفر، أی: قد تمیز أحدهما من الآخر. و هذا استئناف یتضمن التعلیـل لمـا قبله. و الطـاغوت فعلوت من طغی یطغی و یطغو: إذا جـاوز الحـدّ. قال سـیبویه: هو اسم مـذكر مفرد، أی: اسم جنس یشـمل القلیل و الكثیر؛ و قال أبو علی الفارسـی: إنه مصـدر، كرهبوت، و جبروت، یوصف به الواحـد و الجمع، و قلبت لامه إلی موضع العین و عینه إلی موضع اللام كجبـذ و جـذب، ثم تقلب الواو ألفا لتحركها و تحرك ما قبلها، فقیل: طاغوت، و اختار هذا القول النحـاس؛ و قیـل: أصل الطاغوت فی اللغـة مأخوذ من الطغیان یؤدی معناه من غیر اشـتقاق، كما قیل: لآلئ من اللؤلؤ. و قال المبرد: هو جمع.

قال ابن عطیـة: و ذلك مردود. قال الجوهری: و الطاغوت: الكاهن، و الشـیطان، و كل رأس فی الضـلال، و قد یكون واحدا. قال اللّه تعالی: یُرِیدُونَ أَنْ یَتَحاكَمُوا إِلَی الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ یَكْفُرُوا بِهِ «۱» و قد یكون جمعا. قال اللّه تعالی: أَوْلِیاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ و الجمع الطواغیت، أی: فمن یكفر بالشیطان؛ أو الأصـنام؛ أو أهل الكهانة؛ و رؤوس الضـلالة، أو الجمیع وَ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ عز و جل بعـد مـا تمیز له الرشـد من الغیّ، فقـد فـاز و تمسك بالحبل الوثیق، أی: المحكم. و الوثقی: فعلی من الوثاقـة، و جمعها وثق مثل الفضـلی و الفضل. و قـد اختلف المفسـرون فی تفسـیر العروة الوثقی بعد اتفاقهم علی أن ذلك من باب التشبیه و التمثیل لما هو معلوم بالـدلیل، بما هو مدرك بالحاسة؛ فقیل: المراد بالعروة: الإیمان، و قیل: الإسـلام، و قیل: لا إله إلا اللّه، و لا مانع من الحمل علی الجمیع. و الانفصـام: الانكسار من غیر بینونـة. قال الجوهری: فصم الشـیء: كسـره من غیر أن یبین. و أما القصم بالقاف فهو الكسـر مع البینونة، و فسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع. قوله: اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا الولی: فعیل بمعنی فاعل، و هو الناصر. و قوله:

یُخْرِجُهُمْ تفسـیر للولایة، أو حال من الضمیر فی ولیّ، و هذا یدل علی أن المراد بقوله: الَّذِینَ آمَنُوا الذین أرادوا الإیمان، لأن من قد وقع منه الإیمان قد خرج من الظلمات إلی النور إلا أن یراد بالإخراج:

إخراجهـم مـن الشـبه الـتی تعرض للمـؤمنین فلاـ یحتـاج إلی تقـدیر الإـرادة، و المراد بـالنور فی قـوله: یُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَی الظُّلُمـاتِ مـا جاء به أنبیاء اللّه من الـدعوة إلی الـدین، فإن ذلك نور للكفار أخرجهم أولیاؤهم عنه إلی ظلمـة الكفر، أی: قررهم أولیاؤهم علی ما هم علیه من الكفر بسـبب صـرفهم عن إجابـة الداعی إلی اللّه من الأنبیاء. و قیل: المراد بالذین كفروا هنا: الذین ثبت فی علمه تعالی كفرهم؛ یخرجهم أولیاؤهم من

---

(۱). النساء: ۶۰.

فتح القدیر، ج‌۱، ص: ۳۱۷

الشياطين و رؤوس الضلال من النور الذى هو فطرة اللّه التى فطر الناس عليها إلى ظلمات الكفر التى وقعوا فيها بسبب ذلك الإخراج.

و قد أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر و البيهقى عن سعيد بن جبير نحو ما تقدّم عن ابن عباس من ذكر سبب نزول قوله تعالى: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ و زاد أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم خير الأبناء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن الشعبى نحوه أيضا، و قال: فلحق بهم:

أى: ببنى الأبناء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن الشعبى نحوه أيضا، و قال: فلحق بهم، أى: ببنى النضير من لم يسلم و بقى من أسلم. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: كان ناس من الأنصار مسترضعين فى بنى قريظة فثبتوا على دينهم، فلما جاء الإسلام أراد أهلوهم أن يكرهوهم على الإسلام فنزلت. و أخرج ابن جرير عن الحسن نحوه. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: لا- إِكْراهَ فِي الدِّينِ قال: نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، و كان هو رجلا مسلما، فقال للنبى صلّى اللّه عليه و سلم:

ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فنزلت. و أخرج عبد بن حميد عن عبد اللّه بن عبيدة نحوه. و كذلك أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن المنذر عن السدى نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير عن قتادة قال: كانت العرب ليس لها دين، فأكرهوا على الدين بالسيف. قال:

و لا تكرهوا اليهود و لا النصارى و المجوس إذا أعطوا الجزية. و أخرج سعيد بن منصور عن الحسن نحوه. و أخرج البخارى عن أسلم: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمى تسلمى، فأبت، فقال: اللهم اشهد، ثم تلا: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ و روى عنه سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم أنه قال لزنبق الرومى غلامه: لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فأبى، فقال: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سليمان بن موسى فى قوله: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قال: نسختها جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ* «١». و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: الطاغوت: الشيطان. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: الطاغوت: الكاهن.

و أخرج ابن جرير عن أبى العالية قال: الطاغوت: الساحر. و أخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس قال:

الطاغوت: ما يعبد من دون اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: العروة الوثقى: لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك: أنها القرآن. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد: أنها الإيمان. و عن سفيان: أنها كلمة الإخلاص.

و قد ثبت فى الصحيحين تفسير العروة الوثقى فى غير هذه الآية بالإسلام مرفوعا فى تعبيره صلّى اللّه عليه و سلّم لرؤيا عبد اللّه ابن سلام. و أخرج ابن عساكر عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اقتدوا باللّذين من بعدى أبى بكر و عمر فإنّهما حبل اللّه الممدود، فمن تمسّك بهما فقد تمسّك بعروة اللّه الوثقى التى لا انفصام لها».

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: إذا وحد اللّه و آمن بالقدر فهى العروة الوثقى. و أخرج ابن المنذر،

---

(١). التوبة: ٧٣.

و ابن أبى حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله: لَا انْفِصامَ لَها قال: لا انقطاع لها دون دخول الجنة. و أخرج ابن المنذر، و الطبرانى

عن ابن عباس فى قوله: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا الآيـة، قال: هم قوم كانوا كفروا بعيسى فآمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ الآيـة، قال: هم قوم آمنوا بعيسى فلما بعث محمد كفروا به. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: الظلمات الكفر. و النور: الإيمان. و أخرج أبو الشيخ عن السدى مثله.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٨]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

فى هذه الآية استشهاد على ما تقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، و همزة الاستفهام لإنكار النفى و التقرير المنفى، أى: أ لم ينته علمك أو نظرك إلى هذا الذى صدرت منه هذه المحاجة؟ قال الفراء:

ألم تر بمعنى: هل رأيت، أى: هل رأيت الذى حاجّ إبراهيم؟ و هو: النمروذ بن كوس بن كنعان بن سلم ابن نوح، و قيل: إنه النمروذ بن فالخ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام. و قوله: أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ أى: لأن آتاه اللّه، أو من أجل أن آتاه اللّه، على معنى: أن إيتاء الملك أبطره و أورثه الكبر و العتو، فحاج لذلك، أو على أنه وضع المحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، كما يقال: عاديتنى لأنى أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه اللّه الملك. و قوله: إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ هو ظرف لحاج؛ و قيل:

بدل من قوله: أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ على الوجه الأخير و هو بعيد. قوله: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ بفتح ياء ربى، و قرئ بحذفها. قوله: أَنَا أُحْيِي قرأ جمهور القراء: أنا أحيى بطرح الألف التى بعد النون من أنا فى الوصل و أثبتها نافع و ابن أبى أويس كما فى قول الشاعر:

أنا شيخ العشيرة فاعرفونى حميدا قد تذرّيت السّناما

أراد إبراهيم عليه السلام: أن اللّه هو الذى يخلق الحياة و الموت فى الأجساد، و أراد الكافر: أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، و على أن يقتل فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جوابا أحمق، لا يصح نصبه فى مقابلة حجّة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراد الكافر، فلو قال له: ربه الذى يخلق الحياة و الموت فى الأجساد فهل تقدر على ذلك؟ لبهت الذى كفر بادئ بدء و فى أوّل وهلة، و لكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسا لخناقه، و إرسالا لعنان المناظرة فقال: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ لكون هذه الحجة لا تجرى فيها المغالطة، و لا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة و مشاغبة. قوله: فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ بهت الرجل و بهت و بهت: إذا انقطع و سكت متحيرا. قال ابن جرير: و حكى عن بعض العرب فى هذا المعنى: بهت بفتح الباء و الهاء. قال ابن جنى: قرأ أبو حيوة: فبهت بفتح الباء و ضم الهاء، و هى لغة فى بهت بكسر الهاء؛ قال: و قرأ ابن السميقع: فبهت بفتح الباء و الهاء، على معنى: فبهت إبراهيم الذى

كفر، فالذى فى موضع نصب؛ قال: و قد يجوز أن يكون بهت بفتحهما لغة فى بهت. و حكى أبو الحسن الأخفش قراءة: فَبُهِتَ بكسر الهاء، قال: و الأكثر بالفتح فى الهاء. قال ابن عطية: و قد تأول قوم فى قراءة من قرأ فبهت بفتحهما أنه بمعنى: سب و قذف، و أن النمروذ هو الذى سبّ حين انقطع و لم يكن له حيلة. انتهى. و قال سبحانه: فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ و لم يقل فبهت الذى حاجّ، إشعارا بأن تلك المحاجة كفر. و قوله: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تذييل مقرر لمضمون الجملة التى قبله.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أن الذى حاج إبراهيم فى ربه هو: نمروذ بن كنعان. و أخرجه ابن جرير عن

مجاهـد، و قتادة و الربيع و السـدى. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ فى العظمة عن زيد بن أسـلم: أن أول جبار كان فى الأرض نمروذ، و كان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم عليه السـلام يمتار مع من يمتار، فإذا مرّ به ناس قال: من ربكم؟

قـالوا: أنت؛ حتى مرّ به إبراهيم، فقـال: من ربك؟ قال: الـذى يحيى و يميت، قال: أنا أحيى و أميت، قال: فإن اللّه يأتى بالشـمس من المشـرق فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر، فردّه بغير طعام. فرجع إبراهيم إلى أهله فمرّ على كثيب من رمل أصفر فقال: ألاـ آخـذ من هـذا فآتى به أهلى، فتطيب أنفسـهم حين أدخل عليهم، فأخـذ منه فأتى أهله فوضع متاعه ثم نام، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هى بأجود طعام رآه آخـذ. فصـنعت له منه فقربته إليه، و كان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال: من أين هذا؟ قالت:

من الطعام الـذى جئت به، فعرف أن اللّه رزقه فحمد اللّه. ثم بعث اللّه إلى الجبار ملكا أن آمن و أتركك على ملكك. قال: فهل ربّ غيرى؟ فجـاءه الثانيـة فقـال له ذلـك، فـأبى عليه، ثم أتـاه الثالثـة فأبى عليه، ثم أتاه الثالثـة فأبى عليه، فقال له الملك: فاجمع جموعـك إلى ثلاثـة أيـام، فجمع الجبـار جموعه فـأمر اللّه الملـك ففتـح عليه بابـا من البعوض و طلعت الشـمس فلم يروهـا من كثرتهـا، فبعثهـا اللّه عليهم، فأكلت شـحومهم، و شـربت دماءهم، فلم يبق إلا العظام، و الملك كما هو لا يصـيبه من ذلك شـىء، فبعث اللّه عليه بعوضـة فـدخلت فى منخره، فمكث أربعمائـة سـنة يضـرب رأسه بالمطـارق، و أرحم النـاس به من جمع يـديه ثم ضرب بهمـا رأسه، و كان جبارا أربعمائـة سـنة، فعـذبه اللّه أربعمائـة سـنة كملكه، ثم أماته اللّه، و هو الـذى كان بنى صـرحا إلى السـماء فـأتى اللّه بنيانه من القواعـد. و أخرج ابن المنـذر عن ابن عباس فى الآيـة، قال: هو نمروذ بن كنعان، يزعمون أنه أوّل من ملـك فى الأـرض، أتى برجلين، قتـل أحـدهما و ترك الآـخر، فقـال: أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ و أخرج أبو الشـيخ عن السـدى: وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قال: إلى الإيمان.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٩]

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٢٠

قوله: أَوْ كَالَّذِي أو: للعطف حملا على المعنى، و التقدير: هل رأيت كالذى حاجّ، أو كالذى مرّ على قرية، قاله الكسائى و الفراء. و قال المبرد: إن المعنى: ألم تر إلى الـذى حاجّ إبراهيم فى ربه؟ أ لم تر من هو كالـذى مرّ على قرية؟ فحذف قوله: من هو. و قد اختار جماعـة أن الكاف زائدة، و اختار آخرون أنها اسـمية. و المشـهور أن القرية هى: بيت المقدس بعد تخريب بختنصـر لها؛ و قيل: المراد بالقرية: أهلها. و قوله:

خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها أى: ساقطة على عروشها، أى: سقط السقف، ثم سقطت الحيطان عليه، قاله السدى و اختاره ابن جرير؛ و قيل: معناه: خالية من الناس و البيوت قائمة؛ و أصل الخواء: الخلوّ، يقال:

خوت الدار، و خويت، تخوى خواء ممدود، و خيّا و خويّا: أقفرت، و الخواء أيضا: الجوع لخلوّ البطن عن الغذاء. و الظاهر: القول الأوّل بدلالة قوله: عَلى عُرُوشِها من خوى البيت: إذا سقط، أو من خوت الأرض: إذا تهدمت، و هذه الجملة حالية، أى: من حال كونهـا كـذلك. و قـوله: أَنَّى يُحْيِي هـذِهِ اللَّهُ أى: مـتى يحيى؟ أو كيـف يحيى؟ و هو اسـتبعاد لإحيائهـا و هى على تلـك الحـالة

المشابهـة لحالـة الأموات المباينـة لحالـة الأحياء، و تقديم المفعول: لكون الاسـتبعاد ناشـئا من جهته، لا من جهة الفاعل. فلمّا قال المارّ هـذه المقالـة مستبعدا لإحياء القرية المذكورة بالعمارة لها، و السـكون فيها، ضـرب اللّه له المثل فى نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ و حكى الطبرى عن بعضـهم أنه قال: كان هذا القول شكا فى قدرة اللّه على الإحياء، فلذلك ضرب له المثـل فى نفسه. قـال ابن عطيـة: ليس يـدخل شـكّ فى قـدرة اللّه سـبحانه على إحيـاء قريـة بجلب العمارة إليها، و إنما يتصور الشك إذا كان سؤاله عن إحياء موتاها. و قوله:

مِائَةَ عامٍ منصوب على الظرفية. و العام: السنة، أصله مصدر كالعوم، سمى به هذا القدر من الزمان.

و قوله: بَعَثَهُ معنـاه أحياه. قوله: قالَ كَمْ لَبِثْتَ هو استئناف كأنّ سائلا سأله ماذا قال له بعـد بعثه؟ و اختلف فى فاعل قال؛ فقيل: هو اللّه عزّ و جلّ؛ و قيـل: نـاداه بـذلك ملـك من السـماء؛ قيـل: هو جبريـل؛ و قيل: غيره؛ و قيل: إنه نبىّ من الأنبياء؛ قيل: رجل من المؤمنين من قومه شاهده عند أن أماته اللّه و عمر إلى عند بعثه. و الأولى أولى لقوله فيما بعد: وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها و قرأ ابن عـامر و أهل الكوفـة إلّا عاصـما: كم لبتّ بإدغام الثاء فى التاء لتقاربهما فى المخرج. و قرأ غيرهم: بالإظهار، و هو أحسن، لبعـد مخرج الثاء من مخرج التاء. و كَمْ فى موضع نصب على الظرفية، و إنما قال: يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ بناء على ما عنده، و فى ظنه، فلا يكون كاذبا، و مثله: قول أصحاب الكهف: قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ و مثله: قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى قصة ذى اليدين: «لم تقصـر و لم أنس» و هـذا مما يؤيـد قول من قال: إن الصدق: ما طابق الاعتقاد، و الكذب: ما خالفه. و قوله: قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عـامٍ هو استئنـاف أيضـا كمـا سـلف، أى: ما لبثت يوما أو بعض يوم بل لبثت مائـة عام. و قوله: فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ أمره سـبحانه أن ينظر إلى هـذا الأثر العظيم من آثار القدرة، و هو عدم تغير طعامه و شـرابه مع طول تلك المدة. و قرأ ابن مسـعود: «و هذا طعامك و شـرابك لم يتسـنّه» و قرأ طلحة بن مصـرف: «و انظر لطعامك و شرابك لمائة سنة». و روى عن طلحة أيضا أنه قرأ: «لم يسن» بإدغام التاء فى السين و حذف

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٢١

الهاء. و قرأه الجمهور: بإثبات الهاء فى الوصل، و التسـنه: مأخوذ من السـنة، أى: لم تغيره السـنون، و أصـلها: سـنهة، أو سنوة، من سنهت النخلة و تسـنهت: إذا أتت عليها السـنون، و نخلة سـنّاء: أى تحمل سـنة و لا تحمل أخرى، و أسنهت عند بنى فلان: أقمت عندهم، و أصـله: يتسـنا سـقطت الألف للجزم و الهاء للسكت، و قيل: هو من أسن الماء: إذا تغير، و كان يجب على هذا أن يقال يتأسن من قوله: حَمَإٍ مَسْنُونٍ* «١» قـاله أبو عمرو الشـيبانى. و قال الزجاج: ليس كـذلك، لأن قوله: مَسْنُونٍ* ليس معناه متغير، و إنما معناه مصبوب على سـنة الأرض. و قوله: وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ اختلف المفسـرون فى معناه؛ فـذهب الأكثر إلى أن معناه انظر إليه كيف تفرّقت أجزاؤه، و نخرت عظـامه؟ ثم أحيـاه اللّه، و عاد كما كان. و قال الضـحاك و وهب ابن منبه: انظر إلى حمارك قائما فى مربطه، لم يصـبه شـىء بعـد أن مضت عليه مائة عام، و يؤيد القول الأول: قوله تعالى: وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها و يؤيد القول الثانى: مناسـبته لقوله: فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ و إنما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه و شرابه بعد إخباره أنه لبث مائـة عام، مع أن عدم تغير ذلك الطعام و الشـراب لا يصـلح أن يكون دليلا على تلك المدة الطويلة، بل على ما قاله من لبثه يوما أو بعض يوم، لزيادة استعظام ذلك الذى أماته اللّه تلك المدة، فإنه إذا رأى طعامه و شرابه لم يتغير مع كونه قد ظنّ أنه لم يلبث إلّا يوما أو بعض يوم زادت الحيرة و قويت عليه الشـبهة، فإذا نظر إلى حماره عظاما نخرة تقرّر لـديه أن ذلك صـنع من تأتى قـدرته بما لا تحيط به العقول، فإن الطعام و الشـراب سـريع التغير. و قـد بقى هـذه المـدّة الطويلة غير متغير، و الحمار يعيش المدة الطويلة. و قد صار كذلك: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

قوله: وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ قال الفراء: إنه أدخل الواو فى قوله: وَ لِنَجْعَلَكَ دلالـة على أنها شـرط لفعل بعدها؛ معناه: و لنجعلك

آية للناس، و دلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك. و إن شئت جعلت الواو مقحمة زائدة. قال الأعمش: موضع كونه آية: هو أنه جاء شابا على حاله يوم مات، فوجد الأبناء و الحفدة شيوخا. قوله: وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها قرأ الكوفيون، و ابن عامر: بالزاى، و الباقون: بالراء. و روى أبان عن عاصم: «ننشرها» بفتح النون الأولى و سكون الثانية و ضم الشين و الراء.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه عن زيد بن ثابت: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ «كيف ننشزها» بالزاى، فمعنى القراءة بالزاى: نرفعها، و منه النشز: و هو المرتفع من الأرض، أى: يرفع بعضها إلى بعض. و أما معنى القراءة بالراء المهملة فواضحة من أنشر اللّه الموتى، أى: أحياهم و قوله: ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً أى: نسترها به كما نستر الجسد باللباس، فاستعار اللباس لذلك، كما استعاره النابغة للإسلام فقال:

الحمد للّه إذ لم يأتنى أجلى حتّى اكتسيت من الإسلام سربالا

قوله: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أى: ما تقدّم ذكره من الآيات، التى أراه اللّه سبحانه، و أمره بالنظر إليها و التفكير فيها قال: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يستعصى عليه شىء من الأشياء. قال ابن جرير:

المعنى فى قوله: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أى: لما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا فى قدرة اللّه عنده قبل عيانه قالَ أَعْلَمُ و قال أبو على الفارسى: معناه: أعلم أن هذا الضرب من العلم الذى لم أكن علمته. و قرأ حمزة

---

(١). الحجر: ٢٦.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٢٢

و الكسائى: قالَ أَعْلَمُ على لفظ الأمر خطابا لنفسه على طريق التجريد.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صحّحه، عن على فى قوله: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ قال: خرج عزير نبىّ اللّه من مدينته و هو شاب، فمرّ على قرية خربة و هى خاوية على عروشها، فقال: أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ فأوّل ما خلق اللّه عيناه، فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحما، ثم نفخ فيه الروح، فقيل له: كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فأتى مدينته. و قد ترك جارا له إسكافا شابا فجاء و هو شيخ كبير. و قد ورد عن جماعة من السلف أن الذى أماته اللّه عزير، منهم: ابن عباس عند ابن جرير و ابن عساكر، و منهم: عبد اللّه بن سلام، عند الخطيب و ابن عساكر، و منهم: عكرمة، و قتادة، و بريدة، و الضحاك، و السدّىّ عند ابن جرير، و ورد عن جماعة آخرين: أن الذى أماته اللّه هو نبىّ اسمه:

أرمياء، فمنهم: عبد اللّه بن عبيد بن عمير عند عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و منهم: وهب ابن منبه، عند عبد الرزاق، و ابن جرير، و أبى الشيخ. و أخرج ابن إسحاق عنه أيضا: أنه الخضر. و أخرج ابن أبى حاتم عن رجل من أهل الشام: أنه حزقيل. و روى ابن كثير عن مجاهد: أنه رجل من بنى إسرائيل.

و المشهور القول الأوّل. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: خاوِيَةٌ قال: خراب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: خاوِيَةٌ ليس فيها أحد. و أخرج أيضا عن الضحاك قال: عَلى عُرُوشِها سقوفها. و أخرج ابن جرير عن السدّىّ قال: ساقطة على سقوفها. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: لَبِثْتُ يَوْماً ثم التفت فرأى الشمس فقال: أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ و أخرج عنه أيضا قال:

كان طعامه الذى معه سلة من تين، و شرابه زقّ من عصير. و أخرج أيضا عن مجاهد نحوه. و أخرج أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَمْ يَتَسَنَّهْ قال: لم يتغير. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير قال: لَمْ يَتَسَنَّهْ لم

ينتن. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله:
وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ مثل ما تقدّم عن الأعمش، و كذلك أخرج مثله أيضا عن عكرمة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: كَيْفَ نُنْشِزُها قال: نخرجها. و أخرج ابن جرير عن زيد ابن ثابت قال: نحييها.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٠]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قوله: وَ إِذْ ظرف منصوب بفعل محذوف، أى: اذكر وقت قول إبراهيم، و إنما كان الأمر بالذكر موجها إلى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة، لأن طلب وقت الشيء يستلزم طلبه بالأولى، و هكذا يقال فى سائر المواضع الواردة فى الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف. و قوله: رَبِ آثره

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٢٣

على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء. و قوله: أَرِنِي قال الأخفش:
لم يرد رؤية القلب، و إنما أراد رؤية العين و كذا قال غيره، و لا يصح أن يراد الرؤية القلبية هنا، لأن مقصود إبراهيم: أن يشاهد الإحياء، لتحصل له الطمأنينة، و الهمزة الداخلة على الفعل لقصد تعديته إلى المفعول الثانى و هو الجملة، أعنى قوله: كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى و كيف فى محل نصب على التشبيه بالظرف، أو بالحال، و العامل فيها الفعل الذى بعدها. و قوله: أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ عطف على مقدر، أى: ألم تعلم، و لم تؤمن بأنى قادر على الإحياء حتى تسألنى إراءته قالَ: بَلى علمت و آمنت بأنك قادر على ذلك، و لكن سألت ليطمئن قلبى باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان. و قد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكا فى إحياء الموتى قط، و إنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه، و لهذا قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «ليس الخبر كالمعاينة». و حكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لأنه شك فى قدرة اللّه.
و استدلوا بما صح عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيحين و غيرهما من قوله: «نحن أحقّ بالشّكّ من إبراهيم» و بما روى عن ابن عباس أنه قال: «ما فى القرآن عندى آية أرجى منها». و أخرجه عنه عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، و رجح هذا ابن جرير بعد حكايته له. قال ابن عطية: و هو عندى مردود، يعنى: قول هذه الطائفة، ثم قال: و أما قول النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «نحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم» فمعناه: أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به، و نحن لا نشك، فإبراهيم أحرى أن لا يشك. فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم. و أما قول ابن عباس: هى أرجى آية، فمن حيث أن فيها الإدلال على اللّه و سؤال الإحياء فى الدنيا، و ليست مظنة ذلك. و يجوز أن نقول: هى أرجى آية لقوله: أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ أى: أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير و بحث، قال: فالشك يبعد على من ثبت قدمه فى الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة و الخلة؟ و الأنبياء معصومون من الكبائر و من الصغائر التى فيها رذيلة إجماعا، و إذا تأملت سؤاله عليه السلام و سائر الألفاظ للآية لم تعط شكا، و ذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل و المسؤول، نحو قولك: كيف علم زيد؟ و كيف نسج الثوب؟ و نحو هذا، و متى قلت: كيف ثوبك؟ و كيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله. و قد تكون كيف خبرا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك: كيف شئت فكن، و نحو قول البخارى: كيف كان بدء الوحى؟ و هى فى هذه الآية استفهام عن هيئة الإحياء، و الإحياء متقرّر، و لكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء فى نفسه لا يصح، مثال

ذلك أن يقول مدع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول المكذب له: أرنى كيف ترفعه. فهذه طريقة مجاز فى العبارة و معناها تسليم جدل، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه. فلمّا كان فى عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازى خلص اللّه له ذلك و حمله على أن بين له الحقيقة فقال له: أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ؟ قالَ: بَلى فكمل الأمر و تخلص من كل شىء، ثم علّل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة. قال القرطبى: هذا ما ذكره ابن عطية و هو بالغ، و لا يجوز على الأنبياء صلوات اللّه عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، و الأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۲۴

و قد أخبر اللّه سبحانه أن أنبياءه و أولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل، فقال: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ* «۱». و قال اللعين: إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ* «۲» و إذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم، و إنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، و اتصال الأعصاب و الجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله: أَرِنِي كَيْفَ طلب مشاهدة الكيفية. قال الماوردى:

و ليست الألف فى قوله: أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ ألف الاستفهام، و إنما هى ألف إيجاب و تقرير كما قال جرير:

ألستم خير من ركب المطاياو أندى العالمين بطون راح

و الواو واو الحال، و «تؤمن»: معناه: إيمانا مطلقا دخل فيه فضل إحياء الموتى، و الطمأنينة: اعتدال و سكون، و قال ابن جرير: معنى لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ليوقن. قوله: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ الفاء جواب شرط محذوف، أى: إن أردت ذلك فخذ، و الطير: اسم جمع لطائر، كركب: لراكب، أو جمع، أو مصدر، و خص الطير بذلك، قيل: لأنه أقرب أنواع الحيوان إلى الإنسان؛ و قيل: إن الطير همته الطيران فى السماء، و الخليل كانت همته العلوّ؛ و قيل: غير ذلك من الأسباب الموجبة لتخصيص الطير. و كل هذه لا تسمن و لا تغنى من جوع، و ليست إلّا خواطر أفهام و بوادر أذهان لا ينبغى أن تجعل وجوها لكلام اللّه، و عللا لما يرد فى كلامه، و هكذا قيل: ما وجه تخصيص هذا العدد فإن الطمأنينة تحصل بإحياء واحد؟ فقيل:

إن الخليل إنما سأل واحدا على عدد العبودية، فأعطى أربعا على قدر الربوبية؛ و قيل: إن الطيور الأربعة إشارة إلى الأركان الأربعة التى منها تتركب أركان الحيوان، و نحو ذلك من الهذيان. قوله: فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ قرئ بضم الصاد و كسرها، أى: اضممهنّ إليك، و أملهن، و اجمعهن؛ يقال رجل أصور: إذا كان مائل العنق؛ و يقال صار الشىء يصوره: أماله. قال الشاعر:

اللّه يعلم أنّا فى تلفّتنايوم الفراق إلى جيراننا صور

و قيل: معناه: قطعهنّ، يقال: صار الشىء يصوره: أى: قطعه، و منه قول توبة بن الحميّر:

فأدنت لى الأسباب حتّى بلغتهابنهضى و قد كان ارتقائى يصورها

أى: يقطعها، و على هذا يكون قوله: إِلَيْكَ متعلقا بقوله: فَخُذْ. و قوله: ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً فيه الأمر بالتجزئة، لأن جعل كل جزء على جبل تستلزم تقدّم التجزئة. قال الزجاج: المعنى: ثم اجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزءا، و الجزء النصيب. و قوله: يَأْتِينَكَ فى محل جزم على أنه جواب الأمر، و لكنه بنى لأجل نون الجمع المؤنث. و قوله: سَعْياً المراد به: الإسراع فى الطيران أو المشى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس قال: إن إبراهيم مرّ برجل ميت زعموا أنه حبشى على ساحل البحر، فرأى دواب البحر تخرج فتأكل منه، و سباع الأرض تأتيه فتأكل منه، و الطير يقع عليه فيأكل منه، فقال إبراهيم عند ذلك: ربّ، هذه دواب البحر تأكل من هذا، و سباع الأرض و الطير،

(۱). الإسراء: ۶۵.

(۲). ص: ۸۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۲۵

ثم تميت هذه فتبلى ثم تحييها، فأرنى كيف تحيى الموتى: قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ يا إبراهيم أنى أحيى الموتى؟

قالَ: بَلى يا ربّ، وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي يقول: لأرى من آياتك و أعلم أنك قد أجبتنى فقال اللّه:

فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ الآية. فصنع ما صنع، و الطير الذى أخذ: وز، و رأل «۱»، و ديك، و طاوس، و أخذ نصفين مختلفين: ثم أتى أربعة أجبل، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين و هو قوله: ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثم تنحى و رؤوسها تحت قدميه، فدعا باسم اللّه الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، و كل ريش إلى طائره، ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه، تريد رؤوسها بأعناقها، فرفع قدميه، فوضع كل طائر منها عنقه فى رأسه، فعادت كما كانت. و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج أيضا عبد بن حميد، و ابن المنذر عن الحسن نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج أنها كانت جيفة حمار. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي يقول:

أعلم أنك تجيبنى إذا دعوتك، و تعطينى إذا سألتك. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ قال: الغرنوق «۲»، و الطاوس، و الديك، و الحمامة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد، قال الأربعة من الطير: الديك، و الطاوس، و الغراب، و الحمام.

و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عباس فَصُرْهُنَ قال: قطعهنّ. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: هى بالنبطية: شققهن. و أخرجا عنه أنه قال:

فَصُرْهُنَ أوثقهنّ، و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: وضعهن على سبعة أجبل، و أخذ الرؤوس بيده، فجعل ينظر إلى القطرة تلقى القطرة، و الريشة تلقى الريشة، حتى صرن أحياء ليس لهنّ رؤوس، فجئن إلى رؤوسهن فدخلن فيها.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۲۶۱ الى ۲۶۵]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۱) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۶۲) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (۲۶۳) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۲۶۴) وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۶۵)

---

(۱). الرأل: فرخ النّعام.

(۲). الغرنوق: طائر مائى و هو الكركى أو طائر يشبهه.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۲۶

قوله: كَمَثَلِ حَبَّةٍ لا يصح جعل هذا خبرا عن قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ لاختلافهما، فلا بدّ من تقدير محذوف إما فى الأول، أى: مثل نفقة الذين ينفقون، أو فى الثانى، أى: كمثل زارع حبة، و المراد بالسبع السنابل: هى التى تخرج فى ساق واحد، يتشعب منه

سبع شعب، فى كل شعبة سنبلة، و الحبة:

اسم لكل ما يزدرعه ابن آدم، و منه قول المتلمّس:

آليت حبّ العراق الدّهر أطعمهو الحبّ يأكله فى القرية السّوس

قيل: المراد بالسنابل هنا: سنابل الدخن، فهو الذى يكون فى السنبلة منه هذا العدد. و قال القرطبى:

إن سنبل الدخن يجىء فى السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين و أكثر على ما شاهدنا. قال ابن عطية: و قد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبة، و أما فى سائر الحبوب فأكثر، و لكن المثال وقع بهذا القدر. و قال الطبرى: إن قوله: فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ معناه إن وجد ذلك و إلّا فعلى أن تفرضه. قوله: وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ يحتمل أن يكون المراد: يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، أو يضاعف هذا العدد، فيزيد عليه أضعافه لمن يشاء، و هذا هو الراجح لما سيأتى. و قد ورد القرآن: بأن الحسنة بعشر أمثالها، و اقتضت هذه الآية: بأن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف، فيبنى العام على الخاص، و هذا بناء على أن سبيل اللّه هو الجهاد فقط، و أما إذا كان المراد به: وجوه الخير، فيخص هذا التضعيف إلى سبعمائة بثواب النفقات و تكون العشرة الأمثال فيما عدا ذلك. قوله: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الإنفاق الذى تقدّم، أى: هو إنفاق الذين ينفقون ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً و المنّ:

هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها و التقريع بها؛ و قيل: المنّ: التحدث بما أعطى، حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه، و المن من الكبائر، كما ثبت فى صحيح مسلم و غيره: أنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر اللّه إليهم و لا يزكيهم و لهم عذاب عظيم. و الأذى: السب و التطاول و التشكى. قال فى الكشاف: و معنى «ثم» إظهار التفاوت بين الإنفاق و ترك المنّ و الأذى، و إنّ تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرا من الدخول فيه بقوله: ثُمَّ اسْتَقامُوا* انتهى. و قدم المنّ على الأذى لكثرة وقوعه، و وسط كلمة لا للدلالة على شمول النفى. و قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ فيه تأكيد و تشريف. و قوله: وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ظاهره نفى الخوف عنهم فى الدارين، لما تفيده النكرة الواقعة فى سياق النفى من الشمول، و كذلك وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ يفيد دوام انتفاء الحزن عنهم. قوله: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ قيل: الخبر محذوف، أى:

أولى و أمثل، ذكره النحاس. قال: و يجوز أن يكون خبرا عن مبتدأ محذوف، أى: الذى أمرتم به قول معروف. و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ مبتدأ أيضا و خبره قوله: خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ و قيل: إن قوله: خَيْرٌ خبر عن قوله: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ و عن قوله: وَ مَغْفِرَةٌ و جاز الابتداء بالنكرتين لأن الأولى تخصصت بالوصف، و الثانية بالعطف، و المعنى: أن القول المعروف من المسؤول للسائل و هو التأنيس و الترجية بما عند اللّه، و الرد الجميل خير من الصدقة التى يتبعها أذى. و قد ثبت فى صحيح مسلم عنه صلّى اللّه عليه و سلم: «الكلمة الطيبة صدقة، و إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق» و ما أحسن ما قاله ابن دريد:

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٢٧ لا تدخلنّك ضجرة من سائلفلخير دهرك أن ترى مسؤولا

لا تجبهنّ بالرّدّ وجه مؤمّلفبقاء عزّك أن ترى مأمولا

و المراد بالمغفرة: الستر للخلة، و سوء حالة المحتاج، و العفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكدر صدر المسؤول؛ و قيل: المراد: أن العفو من جهة السائل، لأنه إذا رده ردا جميلا عذره؛ و قيل: المراد:

فعل يؤدّى إلى المغفرة خير من صدقة، أى: غفران اللّه خير من صدقتكم. و هذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المنّ و الأذى للصدقة. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى الإبطال للصدقات: إذهاب أثرها و إفساد منفعتها، أى: لا تبطلوها بالمنّ و الأذى أو بأحدهما. قوله: كَالَّذِي أى: إبطالا كالإبطال الذى، على أنه نعت لمصدر محذوف، و يجوز أن يكون حالا، أى: لا تبطلوا مشابهين للذى ينفق ماله رئاء الناس، و انتصاب رئاء: على أنه علة لقوله: يُنْفِقُ أى: لأجل الرياء، أو حال، أى:

ينفق مرائيا لا يقصد بذلك وجه اللّه و ثواب الآخرة، بل يفعل ذلك رياء للناس، استجلابا لثنائهم عليه، و مدحهم له؛ قيل: و المراد به المنافق بدليل قوله: وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ. قوله: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ الصفوان: الحجر الكبير الأملس. و قال الأخفش: صفوان جمع صفوانة. و قال الكسائى:

صفوان: واحد، و جمعه: صفى، و صفى، و أنكره المبرد. و قال النحاس: يجوز أن يكون جمعا، و يجوز أن يكون واحدا، و هو أولى لقوله: عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ و الوابل: المطر الشديد، مثل اللّه سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه التراب يظنه الظانّ أرضا منبتة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب و بقى صلدا، أى: أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه، فكذلك هذا المرائى، فإن نفقته لا تنفعه، كما لا ينفع المطر الواقع على الصفوان الذى عليه تراب، قوله: لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا أى: لا ينتفعون بما فعلوه رياء، و لا يجدون له ثوابا، و الجملة مستأنفة، كأنه قيل: ماذا يكون حالهم حينئذ؟ فقيل:

لا يقدرون، إلخ، و الضميران للموصول، أى: كالذى، باعتبار المعنى، كما فى قوله تعالى: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا «١» أى: الجنس، أو الجمع، أو الفريق. قوله: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ قيل: إن قوله: ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ مفعول له، و تثبيتا: معطوف عليه، و هو أيضا مفعول له، أى: الإنفاق لأجل الابتغاء، و التثبيت، كذا قال مكى فى المشكل. قال ابن عطية: و هو مردود، لا يصح فى تثبيتا أنه مفعول من أجله، لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت. قال: و ابتغاء، نصب على المصدر فى موضع الحال، و كان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذى هو تثبيتا عليه، و ابتغاء معناه: طلب، و مرضاة: مصدر رضى، يرضى، و تثبيتا: معناه: أنهم يثبتون من أنفسهم ببذل أموالهم على الإيمان و سائر العبادات رياضة لها و تدريبا و تمرينا، أو يكون التثبيت بمعنى التصديق، أى: تصديقا للإسلام ناشئا من جهة أنفسهم. و قد اختلف السلف فى معنى هذا الحرف، فقال الحسن و مجاهد: معناه أنهم يتثبتون أن يضعوا صدقاتهم، و قيل: معناه: تصديقا و يقينا، روى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: معناه: احتسابا من أنفسهم، قاله قتادة؛ و قيل: معناه: أن

---

(١). التوبة: ٦٩.

أنفسهم لها بصائر، فهى تثبتهم على الإنفاق فى طاعة اللّه تثبيتا. قاله الشعبى، و السدىّ، و ابن زيد، و أبو صالح، و هذا أرجح مما قبله. يقال: ثبت فلانا فى هذا الأمر أثبته تثبيتا، أى: صححت عزمه، قوله:

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ الجنة: البستان، و هى: أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها، مأخوذة من لفظ الجن و الجنين لاستتارها. و الربوة: المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا، و هى: مثلثة الراء، و بها قرئ؛ و إنما خصّ الربوة: لأن نباتها يكون أحسن من غيره، مع كونه لا يصطلمه البرد فى الغالب للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له، قال الطبرى: و هى: رياض الحزن التى تستكثر العرب من ذكرها، و اعترضه ابن عطية فقال: إن رياض الحزن منسوبة إلى نجد، لأنها خير من رياض تهامة، و نبات نجد أعطر، و نسيمه أبرد و أرق، و نجد يقال لها: حزن، و ليست هذه المذكورة هنا من ذاك، و لفظ الربوة مأخوذ من: ربا، يربو، إذا زاد.

و قال الخليل: الربوة: أرض مرتفعة طيبة. و الوابل: المطر الشديد كما تقدم، يقال: و بلت السماء، تبل، و الأرض موبولة. قال الأخفش: و منه قوله تعالى: أَخْذاً وَبِيلًا «١» أى: شديدا، و ضرب وبيل، و عذاب وبيل فَآتَتْ أُكُلَها بضم الهمزة: الثمر الذى يؤكل، كقوله تعالى: تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ «٢» و إضافته إلى الجنة إضافة اختصاص، كسرج الفرس، و باب الدار، قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو: أكلها، بضم الهمزة و سكون الكاف تخفيفا. و قرأ عاصم، و ابن عامر، و حمزة، و الكسائى: بتحريك الكاف بالضم.

و قوله: ضِعْفَيْنِ أى: مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل. فالمراد بالضعف: المثل؛ و قيل أربعة أمثال، و نصبه على الحال من أكلها،

أى: مضاعفا. قوله: فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ أى: فإن الطلّ يكفيها:
و هو المطر الضعيف المستدقّ القطر. قال المبرد و غيره: و تقديره: فطل يكفيها. و قال الزجاج: تقديره:
فالذى يصيبها طلّ، و المراد: أن الطل ينوب مناب الوابل فى إخراج الثمرة ضعفين. و قال قوم: الطل: الندى.
و فى الصحاح الطل: أضعف المطر، و الجمع أطلال. قال الماوردى: و زرع الطل أضعف من زرع المطر.
و المعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند اللّه لا تضيع بحال و إن كانت متفاوتة، و يجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة و القليلة، و بين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير و القليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها، فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه اللّه زاكية زائدة فى أجورهم. و قوله: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. قرأ الزهرى: بالتاء التحتية، و قرأ الجمهور:
بالفوقية، و فى هذا ترغيب لهم فى الإخلاص مع ترهيب من الرياء و نحوه، فهو: وعد، و وعيد.
و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم فى قوله: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ عن الربيع قال:
«كان من بايع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على الهجرة و رابط معه بالمدينة و لم يذهب وجها إلّا بإذنه كانت له الحسنة بسبعمائة ضعف، و من بايع على الإسلام كانت الحسنة له عشر أمثالها». و أخرج مسلم، و أحمد، و النسائى، و الحاكم، و البيهقى عن ابن مسعود أن رجلا تصدّق بناقة مخطومة فى سبيل اللّه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلّها مخطومة». و أخرج أحمد، و الترمذى، و حسنه، و النسائى، و ابن حبان، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى الشعب عن خريم بن فاتك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من أنفق نفقة

---

(١). المزمل: ١٦.

(٢). إبراهيم: ٢٥.

فى سبيل اللّه كتب له سبعمائة ضعف». و أخرجه البخارى فى تاريخه من حديث أنس. و أخرجه أحمد من حديث أبى عبيدة و زاد «و من أنفق على نفسه و أهله أو عاد مريضا فالحسنة بعشر أمثالها». و أخرج نحوه النسائى فى الصوم. و أخرج ابن ماجة، و ابن أبى حاتم من حديث عمران بن حصين، و على، و أبى الدرداء، و أبى هريرة، و أبى أمامة، و عبد اللّه بن عمرو، و جابر، كلهم يحدث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من أرسل بنفقة فى سبيل اللّه و أقام فى بيته فله بكلّ درهم يوم القيامة سبعمائة درهم، و من غزا بنفسه فى سبيل اللّه و أنفق فى وجهه ذلك فله بكلّ درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية: وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ. و أخرجه أيضا ابن ماجة من حديث الحسن بن على، و أخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كلّ عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء اللّه، يقول اللّه: إلّا الصّوم فإنّه لى و أنا أجزى به» و أخرجه أيضا مسلم. و أخرج الطبرانى من حديث معاذ ابن جبل أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل اللّه من ذكر اللّه، فإنّ له بكلّ كلمة سبعين ألف حسنة، كلّ حسنة منها عشرة أضعاف» و قد تقدّم ذكر طرف من أحاديث التضعيف للحسنات عند قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً «١». و قد وردت الأحاديث الصحيحة فى أجر من جهز غازيا. و أخرج أبو داود، و الحاكم، و صححه، عن سهل بن معاذ عن أبيه قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ الصّلاة و الصّوم و الذّكر تضاعف على النفقة فى سبيل اللّه سبعمائة ضعف».

و أخرج أحمد، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى سننه عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «النفقة فى الحجّ كالنفقة فى سبيل اللّه بسبعمائة ضعف». و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال فى تفسير قوله تعالى:

ثُمَّ لاـ يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لاـ أَذىً إن أقواما يبعثون الرجل منهم فى سبيل اللّه، أو ينفق على الرجل، أو يعطيه النفقة، ثم يمنّ عليه و يؤذيه، يعنى: أن هذا سبب النزول. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة نحوه. و قد وردت الأحاديث الصحيحة: فى النهى عن المنّ و الأذى، و فى فضل الإنفاق فى سبيل اللّه، و على الأقارب، و فى وجوه الخير، و لاـ حاجة إلى التطويل بذكرها، فهى معروفة فى مواطنها. و أخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ما من صدقة أحبّ إلى اللّه من قول الحقّ، ألم تسمع قول اللّه تعالى: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً . و أخرج ابن المنذر عن الضحاك فى قوله: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ قال: ردّ جميل، تقول: يرحمك اللّه، يرزقك اللّه، و لا تنهره، و لا تغلظ له القول. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «لا يدخل الجنة منّان، و ذلك فى كتاب اللّه:

لاـ تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى . و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: صَفْوانٍ يقول: الحجر فَتَرَكَهُ صَلْداً يقول: ليس عليه شىء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: الوابل: المطر. و أخرجا عن قتادة قال: الوابل: المطر الشديد؛ قال: و هذا مثل ضربه اللّه لأعمال الكفار يوم القيامة، لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا يومئذ، كما ترك هذا المطر هذا الحجر ليس عليه شىء، أنقى مما كان. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَتَرَكَهُ صَلْداً قال:

---

(١). البقرة: ٢٤٥.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٣٠

يابسا، جافا، لاـ ينبت شيئا. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ قال: هذا مثل ضربه اللّه لعمل المؤمن. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن الشعبى فى قوله: وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ قال: تصديقا و يقينا. و أخرج ابن جرير عن أبى صالح نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير قال: يتثبتون أين يضعون أموالهم. و أخرجا عن الحسن قال: كان الرجل إذا همّ بصدقة تثبت، فإن كان للّه أمضاه، و إن خالطه شىء من الرياء أمسك. و أخرج ابن المنذر عن قتادة فى قوله: تَثْبِيتاً قال: النية. و أخرج الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: الربوة: النشز من الأرض.

و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: الربوة: الأرض المستوية المرتفعة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: هى المكان المرتفع الذى لا تجرى فيه الأنهار. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله تعالى: فَطَلٌّ قال: الندى. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن الضحاك. قال: الطل: الرذاذ من المطر. يعنى اللين منه. و أخرجا عن قتادة قال: هذا مثل ضربه اللّه لعمل المؤمن يقول: ليس لخيره خلف، كما ليس لخير هذه الجنة خلف، على أىّ حال كان، إن أصابها وابل و إن أصابها طل.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٦]

أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

الودّ: الحب للشىء مع تمنيه، و الهمزة الداخلة على الفعل لإنكار الوقوع، و الجنة: تطلق على الشجر الملتف، و على الأرض التى فيها الشجر. و الأول أولى هنا لقوله: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ بإرجاع الضمير إلى الشجر من دون حاجة إلى مضاف محذوف و أما على الوجه الثانى فلا بدّ من تقديره، أى: من تحت أشجارها و هكذا قوله: فَاحْتَرَقَتْ لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه

الأول، و أما على الثانى فيحتاج إلى تقديره، أى: فاحترقت أشجارها، و خص النخيل و الأعناب بالذكر مع قوله: لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ لكونهما أكرم الشجر، و هذه الجمل صفات للجنة، و الواو فى قوله: وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ قيل: عاطفة على قوله: تَكُونَ ماض على مستقبل؛ و قيل: على قوله: يَوَدُّ و قيل: إنه محمول على المعنى إذ تكون فى معنى: كانت، و قيل: إنها واو الحال، أى: و قد أصابه الكبر و هذا أرجح. و كبر السنّ: هو مظنة شدّة الحاجة، لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطى الأسباب. و قوله: وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ حال من الضمير فى أصابه، أى: و الحال أن له ذرية ضعفاء، فإن من جمع بين كبر السنّ و ضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة فى غاية الشدة. و الإعصار: الريح الشديدة التى تهب من الأرض إلى السماء كالعمود، و هى التى يقال لها: الزوبعة، قاله الزجاج. قال الجوهرى: الزوبعة: رئيس من رؤساء الجنّ، و منه سمى الإعصار زوبعة، و يقال: أمّ زوبعة: و هى ريح تثير الغبار و يرتفع إلى السماء كأنه عمود؛ و قيل: هى ريح تثير سحابا ذات رعد و برق. و قوله: فَاحْتَرَقَتْ عطف على قوله: فَأَصابَها، و هذه الآية تمثيل من يعمل

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۳۱

خيرا و يضم إليه ما يحبطه؛ فيجده يوم القيامة عند شدّة حاجته إليه لا يسمن و لا يغنى من جوع؛ بحال من له هذه الجنة الموصوفة و هو متصف بتلك الصفة.

و قد أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: قال عمر يوما لأصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيم ترون هذه الآية نزلت؟ أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ قالوا: اللّه أعلم، قال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس:

فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين! فقال عمر: يا ابن أخى قل و لا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل، قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غنى «۱» يعمل لطاعة اللّه، ثم بعث اللّه له الشيطان فعمل فى المعاصى حتى أغرق عمله. و أخرج ابن جرير عن عمر قال: هذا مثل ضرب لإنسان يعمل عملا صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه؛ عمل عمل السوء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه من طرق عن ابن عباس فى قوله: إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ قال: ريح فيها سموم شديدة.

[سورة البقرة (۲): الآيات ۲۶۷ الى ۲۷۱]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۲۶۷) الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۸) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (۲۶۹) وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۲۷۰) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۷۱)

قوله: مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ أى: من جيد ما كسبتم، و مختاره، كذا قال الجمهور. و قال جماعة:

إن معنى الطيبات هنا: الحلال، و لا مانع من اعتبار الأمرين جميعا، لأن جيد الكسب و مختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، و إن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد فى نفسه حلالا كان أو حراما، فالحقيقة الشرعية مقدّمة على اللغوية. و قوله: وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أى: و من طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض، و حذف لدلالة ما قبله عليه، و هى النباتات و المعادن و الركاز. قوله: وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ أى: لا تقصدوا المال الردىء، و قرأه الجمهور: بفتح حرف المضارعة و تخفيف الياء، و قرأ ابن كثير:

بتشديدها. و قرأ ابن مسعود: «و لا تأمّموا» و هی لغة. و قرأ أبو مسلم بن خباب: بضم الفوقية و كسر الميم. و حكى أبو عمرو: أن ابن مسعود قرأ: «تؤمّموا» بهمزة بعد المضمومة، و فی الآية الأمر بإنفاق الطيب، و النهی عن إنفاق الخبيث. و قد ذهب جماعة من السلف: إلى أن الآية فی الصدقة المفروضة، و ذهب آخرون إلى أنها تعم صدقة الفرض و التطوّع، و هو الظاهر، و سيأتی من الأدلة ما يؤيد هذا، و تقديم الظرف

---

(۱). عنی: ت: عب و نصب، و فی البخاری «لرجل غنیّ».

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۳۲

فی قوله: مِنْهُ تُنْفِقُونَ يفيد التخصيص، أی: لا تخصوا الخبيث بالإنفاق، و الجملة فی محل نصب على الحال، أی: لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإنفاق به، قاصرين له عليه. قوله: وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ أی: و الحال أنكم لا تأخذونه فی معاملاتكم فی وقت من الأوقات، هكذا بين معناه الجمهور، و قيل: معناه:

و لستم بآخذيه لو وجدتموه فی السوق يباع. و قوله: إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ هو من أغمض الرجل فی أمر كذا: إذا تساهل و رضی ببعض حقه و تجاوز و غض بصره عنه، و منه قول الشاعر:

إلى كم و كم أشياء منك تريبنیأغمّض عنها لست عنها بذی عمی

و قرأ الزهری: بفتح التاء و كسر الميم مخففا. و روی عنه: أنه قرأ بضم التاء و فتح الغين و كسر الميم مشدّدة، و كذلك قرأ قتادة، و المعنى على القراءة الأولى من هاتين القراءتين: إلا أن تهضموا سومها من البائع منكم، و على الثانية: إلا أن تأخذوا بنقصان. قال ابن عطية: و قراءة الجمهور تخرّج على التجاوز أو على تغميض العين، لأن أغمض بمنزلة غمّض، و على أنها بمعنى حتى، أی: حتى تأتوا غامضا من التأويل و النظر فی أخذ ذلك. قوله: الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ قد تقدّم معنى الشيطان و اشتقاقه. و يعدكم: معناه يخوّفكم الفقر، أی: بالفقر لئلا تنفقوا، فهذه الآية متصلة بما قبلها. و قرئ «الفقر»: بضم الفاء و هی لغة. قال الجوهری:

و الفقر: لغة فی الفقر، مثل الضعف، و الضعف. و الفحشاء: الخصلة الفحشاء، و هی المعاصی، و الإنفاق فيها، و البخل عن الإنفاق فی الطاعات. قال فی الكشاف: و الفاحش عند العرب: البخيل. انتهى. و منه قول طرفة بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفیعقيلة مال الفاحش المتشدّد

و لكن العرب و إن أطلقته على البخيل فذلك لا ينافی إطلاقهم له على غيره من المعاصی، و قد وقع كثيرا فی كلامهم. و قوله: وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا الوعد فی كلام العرب: إذا أطلق فهو فی الخير، و إذا قيد: فقد يقيد تارة بالخير و تارة بالشرّ. و منه قوله تعالى: النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا «۱» و منه أيضا ما فی هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر، و تقييد وعد اللّه سبحانه بالمغفرة، و الفضل. و المغفرة:

الستر على عباده فی الدنيا و الآخرة لذنوبهم و كفارتها، و الفضل: أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا، فيوسع لهم فی أرزاقهم، و ينعم عليهم فی الآخرة بما هو أفضل و أكثر و أجل و أجمل. قوله: يُؤْتِی الْحِكْمَةَ هی العلم؛ و قيل: الفهم، و قيل: الإصابة فی القول، و لا مانع من الحمل على الجميع شمولا أو بدلا؛ و قيل:

إنها النبوة؛ و قيل: العقل؛ و قيل: الخشية؛ و قيل: الورع، و أصل الحكمة: ما يمنع من السفه، و هو كل قبيح. و المعنى: أن من أعطاه اللّه الحكمة فقد أعطاه خيرا كثيرا، أی: عظيما قدره، جليلا خطره. و قرأ الزهری و يعقوب: «و من يؤت الحكمة» على البناء للفاعل، و قرأه الجمهور: على البناء للمفعول، و الألباب: العقول، واحدها لبّ، و قد تقدّم الكلام فيه، قوله: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ

ما: شرطية، و يجوز أن تكون موصولة، و العائد محذوف، أى: الذى أنفقتموه، و هذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة

(۱). الحج: ۷۲.

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۳۳

مقبولة و غير مقبولة، و كل نذر مقبول أو غير مقبول. و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ فيه معنى الوعد لمن أنفق و نذر على الوجه المقبول، و الوعيد لمن جاء بعكس ذلك. و وحد الضمير مع كون مرجعه شيئين، هما: النفقة و النذر، لأن التقدير: و ما أنفقتم من نفقة فإن اللّه يعلمها، أو نذرتم من نذر فإن اللّه يعلمه، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر، قاله النحاس؛ و قيل: إن ما كان العطف فيه بكلمة «أو» كما فى قولك: زيد أو عمرو، فإنه يقال: أكرمته و لا يقال أكرمتها، و الأولى أن يقال إن العطف بأو يجوز فيه الأمران: توحيد الضمير كما فى هذه الآية، و فى قوله تعالى: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها «۱». و قوله: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً «۲»، و تثنيته، كما فى قوله تعالى: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما «۳» و من الأوّل فى العطف بالواو قول امرئ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمهالما نسجتها من جنوب و شمأل

و منه قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرأى مختلف

و منه: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها «۴» و قيل: إنه إذا وحد الضمير بعد ذكر شيئين أو أشياء فهو بتأويل المذكور، أى: فإن اللّه يعلم المذكور، و به جزم ابن عطية و رجحه القرطبى، و ذكر معناه كثير من النحاة فى مؤلفاتهم. قوله: وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ أى: ما للظالمين أنفسهم- بما وقعوا فيه من الإثم لمخالفة ما أمر اللّه به من الإنفاق فى وجوه الخير- من أنصار ينصرونهم و يمنعونهم من عقاب اللّه، بما ظلموا به أنفسهم، و الأولى الحمل على العموم من غير تخصيص لما يفيده السياق: أى: ما للظالمين بأىّ مظلمة كانت من أنصار. قوله: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ قرئ: بفتح النون و كسر العين، و بكسرهما و بكسر النون و سكون العين، و بكسر النون و إخفاء حركة العين. و قد حكى النحويون فى «نعمّ»: أربع لغات، و هى هذه التى قرئ بها، و فى هذا نوع تفصيل لما أجمل فى الشرطية المتقدمة، أى:

إن تظهروا الصدقات فنعم شيئا إظهارها، و إن تخفوها و تصيبوا بها مصارفها من الفقراء فالإخفاء خير لكم.

و قد ذهب جمهور المفسرين: إلى أن هذه الآية فى صدقة التطوّع، لا فى صدقة الفرض، فلا فضيلة للإخفاء فيها، بل قد قيل: إن الإظهار فيها أفضل، و قالت طائفة: إن الإخفاء أفضل فى الفرض و التطوّع. قوله:

وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ قرأ أبو عمرو، و ابن كثير، و عاصم فى رواية أبى بكر، و قتادة، و ابن إسحاق: نكفر بالنون و الرفع. و قرأ ابن عامر، و عاصم فى رواية حفص: بالياء و الرفع. و قرأ الأعمش، و نافع، و حمزة، و الكسائى: بالنون و الجزم. و قرأ ابن عباس: بالتاء الفوقية و فتح الفاء و الجزم. و قرأ الحسين ابن على الجعفى بالنون و نصب الراء. فمن قرأ بالرفع فهو معطوف على محل الجملة الواقعة جوابا بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. و من يقرأ بالجزم فهو معطوف على الفاء و ما بعدها. و من قرأ بالنصب فعلى تقدير: أن. قال سيبويه: و الرفع هاهنا الوجه الجيد، و أجاز الجزم بتأويل: و إن تخفوها يكن الإخفاء خيرا

(۱). الجمعة: ۱۱.

(۲). النساء: ۱۱۲.

(۳). النساء: ۱۳۵.

(۴). التوبة: ۳۴.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۳۴

لكم و يكفر، و بمثل قول سيبويه قال الخليل. و من فى قوله: مِنْ سَيِّئاتِكُمْ للتبعيض، أى: شيئا من سيئاتكم. و حكى الطبرى عن فرقة أنها زائدة، و ذلك على رأى الأخفش. قال ابن عطية: و ذلك منهم خطأ.

و قد أخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ قال: من الذهب و الفضة وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ يعنى: من الحبّ و الثمر و كل شىء عليه زكاة. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله: أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ قال: من التجارة وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ قال: من الثمار. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و الترمذى، و صححه، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن البراء ابن عازب فى قوله: وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل و كان الرجل يأتى من نخله على قدر كثرته و قلته، و كان الرجل يأتى بالقنو و القنوين فيعلقه فى المسجد، و كان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر و التمر فيأكل، و كان ناس ممن لا يرغب فى الخير يأتى الرجل بالقنو فيه الشيص و الحشف و بالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ قال: لو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض و حياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتى أحدنا بصالح ما عنده. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال:

ذكر لنا أن الرجل كان يكون له الحائطان فينظر إلى أردئهما تمرا فيتصدق به و يخلط به الحشف فنزلت الآية، فعاب اللّه ذلك عليهم و نهاهم عنه. و أخرج عبد بن حميد عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بصدقة الفطر فجاء رجل بتمر ردىء فأمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الذى يخرص النخل أن لا يجيز. فأنزل اللّه تعالى الآية هذه. و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الدارقطنى، و الحاكم، و البيهقى فى سننه عن سهل بن حنيف قال: أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالصدقة، فجاء رجل بكبائس من هذه السخل: يعنى: الشيص، فوضعه، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: من جاء بهذا؟ و كان كل من جاء بشىء نسب إليه، فنزلت وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ الآية. و نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن لونين من التمر أن يوجدا فى الصدقة: الجعرور و لون الحبيق «۱». و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يشترون الطعام الرخيص و يتصدقون، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الآية. و أخرج ابن جرير عن عبيدة السلمانى قال: سألت على بن أبى طالب عن قول اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا الآية، فقال: نزلت هذه الآية فى الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الردىء. و أخرج ابن جرير،

---

(۱). الجعرور: ضرب ردىء من التمر يحمل رطبا صغارا لا خير فيه، و الحبيق: نوع من التمر منسوب إلى ابن حبيق

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۳۵

و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ قال: المعرفة بالقرآن ناسخه و منسوخه، محكمه و متشابهه، و مقدّمه و مؤخره، و حلاله و حرامه، و أمثاله. و أخرج ابن مردويه عنه: أنها القرآن، يعنى: تفسيره. و أخرج ابن المنذر

عنه: أنها النبوّة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه قال: إنها الفقه فى القرآن. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ قال: قراءة القرآن و الفكرة فيه.

و أخرج ابن جرير عن أبى العالية قال: هى: الكتاب و الفهم به. و أخرج أيضا عن النخعى نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد قال: هى: الكتاب، يؤتى إصابته من يشاء. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: هى الإصابة فى القول. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: هى الخشية للّه. و أخرج أيضا عن مطر الوراق مثله. و أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ قال: يحصيه. و قد ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى نذر الطاعة و المعصية فى الصحيح و غيره ما هو معروف كقوله صلّى اللّه عليه و سلم: «لا نذر فى معصية اللّه» و قوله: «من نذر أن يطيع اللّه فليطعه، و من نذر أن يعصيه فلا يعصه» و قوله: «النذر ما ابتغى به وجه اللّه» و ثبت عنه فى كفارة النذر ما هو معروف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ الآية، قال: فجعل السرّ فى التطوّع يفضل علانيتها سبعين ضعفا، و جعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة و عشرين ضعفا. و كذلك جميع الفرائض و النوافل فى الأشياء كلها.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ الآية، قال: كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة، فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات و تفصيلها انتهت الصدقات إليها. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ الآية، قال: هذا منسوخ. و قوله: فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ «1» قال: منسوخ، نسخ كل صدقة فى القرآن الآية التى فى سورة التوبة: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ و قد ورد فى فضل صدقة السرّ أحاديث صحيحة مرفوعة.

[سورة البقرة (2): الآيات 272 الى 274]

لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (272) لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)

قوله: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ أى: ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهديين، قابلين لما أمروا به و نهوا عنه وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ هداية توصله إلى المطلوب، و هذه الجملة معترضة، و فيها الالتفات، و سيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله، و المراد بقوله: مِنْ خَيْرٍ كل ما يصدق عليه اسم الخير كائنا

(1). الذاريات: 19.

ما كان، و هو متعلق بمحذوف، أى: أىّ شىء تنفقون كائنا من خير، ثم بين أن النفقة المعتدّ بها المقبولة إنما هى ما كان ابتغاء وجه اللّه سبحانه: أى: لابتغاء وجه اللّه. و قوله: يُوَفَّ إِلَيْكُمْ أى: أجره و ثوابه على الوجه الذى تقدّم ذكره من التضعيف. قوله: لِلْفُقَراءِ متعلق بقوله: وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ أو بمحذوف: أى: اجعلوا ذلك للفقراء، أو خبر مبتدأ محذوف، أى: إنفاقكم للفقراء الذين أحصروا فى سبيل اللّه بالغزو أو الجهاد؛ و قيل: منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف: الذين لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ للتكسب بالتجارة و الزراعة، و نحو ذلك بسبب ضعفهم، قيل: هم فقراء الصفة؛ و قيل:

كل من يتصف بالفقر و ما ذكر معه. ثم ذكر سبحانه من أحوال أولئك الفقراء ما يوجب الحنوّ عليهم و الشفقة بهم، و هو كونهم متعففين عن المسألة و إظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء. و التعفف: تفعل، و هو بناء مبالغة، من عف عن الشيء: إذا أمسك عنه و تنزّه عن طلبه، و في «يحسبهم» لغتان: فتح السين، و كسرها. قال أبو عليّ الفارسيّ: و الفتح أقيس. لأن العين من الماضي مكسورة، فبابها أن تأتي في المضارع مفتوحة. فالقراءة بالكسر على هذا حسنة و إن كانت شاذة. و «من» في قوله: مِنَ التَّعَفُّفِ لابتداء الغاية؛ و قيل لبيان الجنس. قوله: تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ أي: برثاثة ثيابهم، و ضعف أبدانهم، و كل ما يشعر بالفقر و الحاجة. و الخطاب إما لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أو لكل من يصلح للمخاطبة، و السيما مقصورة:

العلامة، و قد تمد. و الإلحاف: الإلحاح في المسألة، و هو مشتق من اللحاف، سمي بذلك: لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللحاف على التغطية. و معنى قوله: لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً أنهم لا يسألونهم البتة، لا سؤال إلحاح، و لا سؤال غير إلحاح. و به قال الطبري و الزجاج، و إليه ذهب جمهور المفسرين، و وجهه: أن التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم، و مجرد السؤال ينافيها؛ و قيل: المراد أنهم إذا سألوا بتلطف و لا يلحفون في سؤالهم، و هذا و إن كان هو الظاهر من توجه النفي إلى القيد دون المقيد، لكن صفة التعفف تنافيه، و أيضا كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون إلا مع عدم السؤال البتة. و قوله: بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ يفيد زيادة رغبتهم في الإنفاق و شدّة حرصهم عليه، حتى أنهم لا يتركون ذلك ليلا و لا نهارا، و يفعلونه سرّا و جهرا عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين، و يظهر لديهم فاقة المفتاقين في جميع الأزمنة على جميع الأحوال.

و دخول الفاء في خبر الموصول أعني قوله: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها؛ و قيل:

هي للعطف، و الخبر للموصول محذوف، أي: و منهم الذين ينفقون.

و قد أخرج عبد بن حميد، و النسائي، و البزار، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و الطبراني، و الحاكم، و صححه، و البيهقي في سننه، و الضياء في المختارة عن ابن عباس، قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فنزلت هذه الآية: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ إلى قوله: وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ فرخص لهم. و أخرج ابن أبي حاتم، و ابن مردويه، و الضياء عنه قال إن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم كان يأمرنا أن لا نتصدّق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن أبي شيبة عن ابن الحنفية نحوه. و أخرج ابن جرير

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٣٧

عن ابن عباس قال: كان أناس من الأنصار لهم نسب و قرابة من قريظة و النضير، و كان يتقون أن لا يتصدّقوا عليهم و يريدوهم أن يسلموا، فنزلت: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ الآية. و أخرج ابن المنذر عن عمرو الهلالي قال: سئل النبي صلّى اللّه عليه و سلّم أ نتصدّق على فقراء أهل الكتاب؟ فأنزل اللّه: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ الآية. و أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني قال في قوله: وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ قال: إذا أعطيت لوجه اللّه فلا عليك ما كان عمله. و أخرج ابن المنذر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قال: هم أصحاب الصفة. و أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبي صلّى اللّه عليه و سلّم أمروا بالصدقة عليهم، و أخرج ابن جرير عن الربيع في قوله: الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قال: حصروا أنفسهم في سبيل اللّه للغزو فلا يستطيعون تجارة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: هم قوم أصابتهم الجراحات في سبيل اللّه فصاروا زمنى. فجعل لهم في أموال المسلمين حقا. و أخرج ابن أبي حاتم عن رجاء بن حيوة في قوله: لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ قال: لا يستطيعون تجارة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن

السدّى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ قال: دلّ اللّه المؤمنين عليهم، و جعل نفقاتهم لهم، و أمرهم أن يضعوا نفقاتهم فيهم، و رضى عنهم. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ قال: التخشع. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الربيع أن معناه: تعرف فى وجوههم الجهد من الحاجة. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ قال: رثاثة ثيابهم. و ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ليس المسكين الذى تردّه التمرة و التمرتان، و اللّقمة و اللّقمتان، إنما المسكين الذى يتعفّف، و اقرءوا إن شئتم: لا يسألون النّاس إلحافا» و قد ورد فى تحريم المسألة أحاديث كثيرة إلا لذى سلطان أو فى أمر لا يجد منه بدّا. و أخرج ابن سعد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن عدىّ، و الطبرانى، و أبو الشيخ عن يزيد بن عبد اللّه بن غريب المليكى عن أبيه عن جدّه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أنزلت هذه الآية الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ فى أصحاب الخيل». و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى نحوه قال: فيمن لا يربطها خيلاء و لا رياء و لا سمعة. و أخرج ابن جرير عن أبى الدرداء نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن حنش الصنعانى: أنه سمع ابن عباس يقول فى هذه الآية: هم الذين يعلفون الخيل فى سبيل اللّه. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن عساكر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس فى هذه الآية؛ قال: نزلت فى علىّ بن أبى طالب، كانت له أربعة دراهم، فأنفق بالليل درهما، و بالنهار درهما، و درهما سرّا، و درهما علانية. و عبد الوهاب ضعيف، و لكن قد رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية قال: هؤلاء قوم أنفقوا فى سبيل اللّه

الذى افترض عليهم فى غير سرف و لا إملاق، و لا تبذير و لا فساد. و أخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال: نزلت فى عبد الرحمن بن عوف، و عثمان بن عفان، فى نفقتهم فى جيش العسرة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧٥ الى ٢٧٧]

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

الربا فى اللغة: الزيادة مطلقا، يقال: ربا الشىء يربو: إذا زاد، و فى الشرع يطلق على شيئين، على ربا الفضل، و ربا النسيئة حسبما هو مفصل فى كتب الفروع، و غالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حلّ أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه: أ تقضى أم تربى؟ فإذا لم يقض زاد مقدارا فى المال الذى عليه و أخر له الأجل إلى حين. و هذا حرام بالاتفاق، و قياس كتابة الربا بالياء للكسرة فى أوّله. و قد كتبوه فى المصحف بالواو.

قال فى الكشاف: على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة و الزكاة، و زيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع.

انتهى. قلت: و هذا مجرد اصطلاح لا يلزم المشى عليه، فإن هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية لا يشاحح فى مثلها إلا فيما كان يدل به منها على الحرف الذى كان فى أصل الكلمة و نحوه كما هو مقرر فى مباحث الخط من علم الصرف، و على كل حال فرسم الكلمة و جعل نقشها الكتابى على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأولى، فما كان فى النطق ألفا كالصلاة و الزكاة و نحوهما كان

الأولى فى رسمه أن يكون كذلک، و كون أصل الألف واوا أو ياء لا يخفى على من يعرف علم الصرف، و هذه النقوش ليست إلا لفهم اللفظ الذى يدل بها عليه كيف هو فى نطق من ينطق به لا لتفهيم أن أصل الكلمة كذا مما لا يجرى به النطق، فاعرف هذا و لا تشتغل بما يعتبره كثير من أهل العلم فى هذه النقوش، و يلزمون به أنفسهم، و يعيبون من خالفه، فإن ذلک من المشاحّة فى الأمور الاصطلاحية التى لا تلزم أحدا أن يتقيد بها، فعليک بأن ترسم هذه النقوش على ما يلفظ به اللافظ عند قراءتها، فإنه الأمر المطلوب من وضعها و التواضع عليها، و ليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة التى يتلفظ بها المتلفظ مما لا يجرى فى لفظه الآن، فلا تغترّ بما يروى عن سيبويه و نحاة البصرة أن يكتب الربا بالواو، لأنه يقول فى تثنيته ربوان.

و قال الكوفيون: يكتب بالياء، و تثنيته ربيان. قال الزجاج:

ما رأيت خطأ أقبح من هذا و لا أشنع، لا يكفيهم الخطأ فى الخط حتى يخطئوا فى التثنية و هم يقرءون: وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا «١» و ليس المراد بقوله هنا: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله، بل هو عام لكل من يعامل بالربا فيأخذه و يعطيه، و إنما خص الآكل لزيادة التشنيع على فاعله، و لكونه هو الغرض الأهمّ فإن آخذ الربا إنما أخذه للأكل، قوله: لا يَقُومُونَ أى: يوم القيامة، كما يدل عليه قراءة ابن مسعود: لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبّطه الشّيطان من المسّ يوم القيامة.

---

(١). الروم: ٣٩.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٣٣٩

و أخرجه عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و بهذا فسره جمهور المفسرين قالوا: إنه يبعث كالمجنون عقوبة له و تمقيتا عند أهل المحشر؛ و قيل: إن المراد تشبيه من يحرص فى تجارته فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون، لأن الحرص و الطمع و الرغبة فى الجمع قد استفزته حتى صار شبيها فى حركته بالمجنون، كما يقال لمن يسرع فى مشيه و يضطرب فى حركاته: إنه قد جنّ، و منه قول الأعشى فى ناقته:

و تصبح من غبّ السّرى و كأنّماألمّ بها من طائف الجنّ أولق

فجعلها بسرعة مشيها و نشاطها كالمجنون. قوله: إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ أى: إلا قياما كقيام الذى يتخبطه، و الخبط: الضرب بغير استواء كخبط العشواء و هو المصروع. و المسّ:

الجنون، و الأمس: المجنون، و كذلک الأولق و هو متعلق بقوله: يَقُومُونَ أى لا يقومون من المسّ الذى بهم إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ أو متعلق بيقوم. و فى الآية دليل على فساد قول من قال:

إن الصرع لا يكون من جهة الجنّ، و زعم أنه من فعل الطبائع، و قال: إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان، و ليس بصحيح، و إن الشيطان لا يسلک فى الإنسان و لا يكون منه مسّ. و قد استعاذ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من أن يتخبطه الشيطان، كما أخرجه النسائى و غيره. قوله: ذلِكَ إشارة إلى ما ذكر من حالهم و عقوبتهم بسبب قولهم: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا أى: أنهم جعلوا البيع و الربا شيئا واحدا، و إنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلا و البيع فرعا، أى: إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله، فإن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلک، فردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا أى أن اللّه أحلّ البيع و حرّم نوعا من أنواعه، و هو البيع المشتمل على الربا. و البيع مصدر باع يبيع: أى دفع عوضا و أخذ معوّضا، و الجملة بيانية لا محل لها من الإعراب. قوله: فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ أى: من بلغته موعظة من اللّه من المواعظ التى تشتمل عليها الأوامر و النواهى، و منها ما وقع هنا من النهى عن الربا فَانْتَهى أى: فامتثل

النهى الذى جاءه و انزجر عن المنهى عنه، و هو معطوف:
أى قوله: فَانْتَهى على قوله: جاءَهُ و قوله: مِنْ رَبِّهِ متعلق بقوله: جاءَهُ أو بمحذوف وقع صفة لموعظة، أى: كائنة مِنْ رَبِّهِ فَلَهُ ما سَلَفَ أى: ما تقدّم منه من الربا لا يؤاخذ به، لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا، أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا. و قوله: وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ قيل:
الضمير عائد إلى الربا: أى: و أمر الربا إلى اللّه فى تحريمه على عباده و استمرار ذلك التحريم؛ و قيل الضمير عائد إلى ما سلف، أى: أمره إلى اللّه فى العفو عنه و إسقاط التبعة فيه؛ و قيل: الضمير يرجع إلى المربى، أى: أمر من عامل بالربا إلى اللّه فى تثبيته على الانتهاء أو الرجوع إلى المعصية وَ مَنْ عادَ إلى أكل الربا و المعاملة به فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ و الإشارة إلى من عاد، و جمع أصحاب باعتبار معنى من؛ و قيل: إن معنى: من عاد: هو أن يعود إلى القول ب إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا، و أنه يكفر بذلك، فيستحق الخلود؛ و على التقدير الأوّل يكون الخلود مستعارا على معنى المبالغة، كما تقول العرب: ملك خالد:
أى: طويل البقاء، و المصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار.
فتح القدير، ج ١، ص: ٣٤٠
قوله: يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا أى: يذهب بركته فى الدنيا و إن كان كثيرا فلا يبقى بيد صاحبه؛ و قيل: يمحق بركته فى الآخرة. قوله: وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ أى: يزيد فى المال الذى أخرجت صدقته؛ و قيل: يبارك فى ثواب الصدقة و يضاعفه و يزيد فى أجر المتصدّق، و لا مانع من حمل ذلك على الأمرين جميعا. قوله: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ أى: لا يرضى، لأن الحبّ مختص بالتّوابين، و فيه تشديد و تغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر، و وصفه بأثيم للمبالغة؛ و قيل: لإزالة الاشتراك، إذ قد يقع على الزراع، و يحتمل أن المراد بقوله: كُلَّ كَفَّارٍ من صدرت منه خصلة توجب الكفر، و وجه التصاقه بالمقام أن الذين قالوا:
إنما البيع مثل الرّبا كفار. و قد تقدم تفسير قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إلى آخر الآية.
و قد أخرج أبو يعلى من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ قال: يعرفون يوم القيامة بذلك لا يستطيعون القيام إلا كما يقوم المتخبط المنخنق ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا و كذبوا على اللّه وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا وَ مَنْ عادَ فأكل الربا فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر من وجه آخر عنه أيضا فى قوله: لا يَقُومُونَ قال: ذلك حين يبعث من قبره.
و أخرج الأصبهانى فى ترغيبه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يأتى آكل الرّبا يوم القيامة مختبلا يجرّ شفتيه، ثم قرأ: لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ و قد وردت أحاديث كثيرة فى تعظيم ذنب الربا، منها: من حديث عبد اللّه بن مسعود عند الحاكم، و صححه، و البيهقى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «الرّبا ثلاثة و سبعون بابا، أيسرها مثل أن ينكح الرّجل أمّه، و إنّ أربى الرّبا عرض الرّجل المسلم «١»» و من حديث أبى هريرة مرفوعا عند ابن ماجة و البيهقى بلفظ «سبعون بابا» و ورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن عبد اللّه بن سلام و كعب و ابن عباس و أنس. و أخرج ابن جرير عن الربيع فى الآية قال: يبعثون يوم القيامة و بهم خبل من الشيطان و هى فى بعض القراءات: «لا يقومون يوم القيامة». يعنى قراءة ابن مسعود المتقدم ذكرها. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا: «خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى المسجد فقرأهنّ على النّاس، ثم حرّم التجارة فى الخمر».
و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه خطب فقال: إن من آخر القرآن نزولا آية الربا، و إنه قد مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يبينه لنا فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم. و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس أنه قال: آخر

آيـة أنزلها على رسوله آيـة الربا. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن عمر مثله. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى الربا الذى نهى اللّه عنه قال: كان أهل الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين فيقول:

لك كذا و كذا و تؤخر عنى فيؤخر عنه. و أخرج أيضا عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن

---

(١). إن أربى الربا عرض الرجل المسلم: أى استحقاره و الترفع عليه و الوقيعة فيه [فيض القدير ۴/ ۵۰].

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۴۱

جبير نحوه أيضـا و زاد فى قوله: فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ قـال: يعنى البيـان الـذى فى القرآن فى تحريم الربا فانتهى عنه: فَلَهُ ما سَلَفَ يعنى: فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ يعنى:

بعد التحريم، و بعد تركه، إن شاء عصـمه منه، و إن شاء لم يفعل وَ مَنْ عادَ يعنى: فى الربا بعد التحريم فاستحله بقولهم: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ يعنى: لا يموتون.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله: يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا قال:

ينقص الربا وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ قال: يزيد فيها، و قد ثبت فى الصـحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة مرفوعا «من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيّب و لاـ يقبـل اللّه إلاـ طيّبـا، فـإنّ اللّه يقبلهـا بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحـدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبـل». و أخرج البزار و ابن جرير و ابن حبان و الطبرانى من حـديث عائشـة نحوه. و أخرج الحكيم الترمـذى فى نوادر الأصول عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا. و فى حـديث عائشـة و ابن عمر أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قرأ بعـد أن ساق الحديث: يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبـا وَ يُرْبِي الصَّدَقـاتِ و أخرج الطبرانى عن أبى برزة الأسـلمى قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «إنّ العبد ليتصدّق بالكسرة تربو عند اللّه حتّى تكون مثل أحد» و هذه الأحاديث تبين معنى الآية.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧٨ الى ٢٨١]

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا مـا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لاـ تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْـرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَـرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

قوله: اتَّقُوا اللَّهَ أى: قوا أنفسكم من عقابه، و اتركوا البقايا التى بقيت لكم من الربا، و ظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضا.

قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قيـل: هو شـرط مجازى على جهـة المبالغـة؛ و قيل: إنّ «إن» فى هـذه الآيـة بمعنى إذ. قال ابن عطيـة: و هو مردود لا يعرف فى اللغة، و الظاهر أن المعنى:

إن كنتم مؤمنين على الحقيقة، فإن ذلك يستلزم امتثال أوامر اللّه و نواهيه. قوله: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا يعنى:

مـا أمرتـم به من الاتقـاء و ترك ما بقى من الربا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى: فاعلموا بها، من أذن بالشـىء: إذا علم به؛ قيل: هو من الإذن بالشـىء: و هو الاسـتماع، لأنه من طرق العلم. و قرأ أبو بكر عن عاصم، و حمزة: «فأذنوا» على معنى: فأعلموا غيركم أنكم على حربهم، و قـد دلت هـذه: على أن أكل الربا و العمل به من الكبائر، و لا خلاف فى ذلك، و تنكير الحرب: للتعظيم، و زادهـا تعظيمـا نسـبتها إلى اسـم اللّه الأـعظم، و إلى رسـوله الـذى هـو أشـرف خليقته. قـوله: وَ إِنْ تُبْتُمْ أى: من الربـا فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ تأخـذونها لا تَظْلِمُونَ غرماءكم بأخذ الزيادة وَ لا تُظْلَمُونَ أنتم من قبلهم بالمطل و النقص، و الجملة حالية أو استئنافية. و فى هـذا دليل على أن أموالهم مع عـدم التوبة حلال لمن أخذها من الأئمة و نحوهم ممن ينوب عنهم. قوله: وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْـرَةٍ

لمّا حكم سبحانه لأهل الربا برءوس أموالهم عند

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۴۲

الواجدين للمال؛ حكم فى ذوى العسرة بالنّظرة إلى يسار، و العسرة: ضيق الحال من جهة عدم المال، و منه جيش العسرة. و النظرة: التأخير، و الميسرة: مصدر بمعنى اليسر، و ارتفع ذو بكان التامة التى بمعنى وجد، و هذا قول سيبويه و أبى علىّ الفارسى و غيرهما. و أنشد سيبويه:

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتىإذا كان يوم ذو كواكب أشهب

و فى مصحف أبىّ و إن كان ذا عسرة على معنى: و إن كان المطلوب ذا عسرة. و قرأ الأعمش «و إن كان معسرا». قال أبو عمرو الدانى عن أحمد بن موسى و كذلك فى مصحف أبىّ بن كعب. و روى المعتمر عن حجاج الوراق قال فى مصحف عثمان: و إن كان ذا عسرة قال النحاس و مكى و النقاش: و على هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، و على من قرأ: ذو، فهى عامة فى جميع من عليه دين، و إليه ذهب الجمهور.

و قرأ الجماعة فَنَظِرَةٌ بكسر الظاء. و قرأ مجاهد و أبو رجاء و الحسن بسكونها و هى لغة تميم. و قرأ نافع وحده: ميسرة بضم السين، و الجمهور بفتحها، و هى اليسار. قوله: وَ أَنْ تَصَدَّقُوا بحذف إحدى التاءين، و قرئ بتشديد الصاد: أى: و أن تصدقوا على معسرى غرمائكم بالإبراء خير لكم، و فيه الترغيب لهم بأن يتصدقوا برءوس أموالهم على من أعسر و جعل ذلك خيرا من إنظاره، قاله السدى و ابن زيد و الضحاك. قال الطبرى: و قال آخرون: معنى الآية: و أن تصدقوا على الغنىّ و الفقير خير لكم. و الصحيح الأوّل، و ليس فى الآية مدخل للغنىّ. قوله: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ جوابه محذوف، أى: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به. قوله: وَ اتَّقُوا يَوْماً هو يوم القيامة، و تنكيره للتهويل، و هو منصوب على أنه مفعول به لا ظرف. و قوله: تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ وصف له. و قرأ أبو عمرو: بفتح التاء و كسر الجيم، و الباقون: بضم التاء و فتح الجيم، و ذهب قوم: إلى أن هذا اليوم المذكور هو يوم الموت. و ذهب الجمهور:

إلى أنه يوم القيامة كما تقدّم. و قوله: إِلَى اللَّهِ فيه مضاف محذوف، تقديره: إلى حكم اللّه ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ من النفوس المكلفة ما كَسَبَتْ أى: جزاء ما عملت من خير أو شر، و جملة: وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ حالية، و جمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء، كما أن الإفراد أنسب بحال الكسب، و هذه الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا قال: نزلت فى العباس بن عبد المطلب، و رجل من بنى المغيرة، كانا شريكين فى الجاهلية يسلفان الربا إلى ناس من ثقيف، فجاء الإسلام و لهما أموال عظيمة فى الربا، فأنزل اللّه هذه الآية.

و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: كانت ثقيف قد صالحت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على أن ما لهم من ربا على الناس، و ما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع؛ فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسيد على مكة، و كانت بنو عمرو بن عوف يأخذون الربا من بنى المغيرة، و كان بنو المغيرة يربون لهم فى الجاهلية، فجاء الإسلام و لهم عليهم مال كثير، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم فى الإسلام، و رفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۴۳

ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا فكتب بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى عتاب و قال: إن رضوا و إلا فأذنهم بحرب. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ قال: من كان مقيما على الربا لا ينزع منه فحق على إمام

المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع و إلا ضرب عنقه. و أخرجوا أيضا عنه فى قوله:

فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ قال: استيقنوا بحرب. و أخرج أهل السنن و غيرهم عن عمر بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ألا إنّ كلّ ربا فى الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون، و أوّل ربا موضوع ربا العبّاس». و أخرج ابن مندة عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى ربيعة بن عمرو و أصحابه وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ قال: نزلت فى الربا. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد عن شريح نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن الضحاك فى الآية قال: و كذلك كل دين على مسلم. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و قد وردت أحاديث صحيحة فى الصحيحين و غيرهما فى الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره. و أخرج أبو عبيد، و عبد بن حميد، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن على النبى صلّى اللّه عليه و سلم: وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ و أخرج ابن أبى شيبة عن السدى، و عطية العوفى مثله. و أخرج ابن الأنبارى عن أبى صالح، و سعيد بن جبير مثله أيضا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و البيهقى من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، و كان بين نزولها و بين موت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إحدى و ثمانون يوما. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أنه عاش النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد نزولها تسع ليال ثم مات.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٨٢ الى ٢٨٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

فتح القدير، ج‌١، ص: ٣٤٤

هذا شروع فى بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد بيان حال الربا، أى: إذا داين بعضكم بعضا و عامله بذلك، و ذكر الدين بعد ذكر ما يغنى عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله: وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «١» و قيل: إنه ذكر ليرجع إليه الضمير من قوله: فَاكْتُبُوهُ و لو قال: فاكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن ما فى قوله: إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ و الدين: عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا، و الآخر فى الذمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، و الدين ما كان غائبا، قال الشاعر:

و عدتنا بدرهمينا طلاءو شواء معجّلا غير دين

و قال الآخر:

إذا ما أوقدوا حطبا و نارافذاك الموت نقدا غير دين

و قد بين اللّه سبحانه هذا المعنى بقوله: إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و قد استدل به على أن الأجل المجهول لا يجوز و خصوصا أجل السّلم.

و قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «من أسلف فى تمر فليسلف فى كيل معلوم إلى أجل معلوم» و قد قال بذلك الجمهور، و اشترطوا توقيته بالأيام أو الأشهر أو السنين، قالوا: و لا يجوز إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع القافلة، أو نحو ذلك و جوّزه مالك. قوله: فَاكْتُبُوهُ أى:

الدين بأجله، لأنه أدفع للنزاع، و أقطع للخلاف. قوله: وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ هو بيان لكيفية الكتابة المأمور بها، و ظاهر الأمر الوجوب، و به قال عطاء و الشعبى و غيرهما، فأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طلب منه ذلك، و لم يوجد كاتب سواه؛ و قيل الأمر للندب. و قوله: بِالْعَدْلِ متعلق بمحذوف صفة لكاتب، أى: كاتب كائن بالعدل، أى: يكتب بالسوية، لا يزيد و لا ينقص، و لا يميل إلى أحد الجانبين، و هو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة، لا يكون فى قلبه و لا قلمه هوادة لأحدهما على الآخر، بل يتحرّى الحق بينهم و المعدلة فيهم. قوله: وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ النكرة فى سياق النفى مشعرة بالعموم، أى: لا يمتنع أحد من الكتاب أن يكتب كتاب التداين كما علمه اللّه، أى: على الطريقة التى علمه اللّه من الكتابة، أو كما علمه اللّه بقوله: بِالْعَدْلِ قوله: وَ لْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ الإملال و الإملاء لغتان: الأولى: لغة أهل الحجاز، و بنى أسد. و الثانية: لغة بنى تميم. فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى، و جاء على اللغة الثانية قوله تعالى: فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا «٢» و الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ هو من عليه الدين، أمره اللّه تعالى بالإملاء، لأن الشهادة إنما تكون على إقراره بثبوت الدين فى ذمته، و أمره اللّه بالتقوى فيما يمليه على الكاتب، بالغ فى ذلك بالجمع بين الاسم و الوصف فى قوله: وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ و نهاه عن البخس و هو: النقص؛ و قيل: إنه نهى للكاتب. و الأول أولى لأن من عليه الحق هو الذى يتوقع منه النقص، و لو كان نهيا للكاتب لم يقتصره فى نهيه على النقص، لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص. و السفيه:

هو الذى لا رأى له فى حسن التصرف فلا يحسن الأخذ و لا الإعطاء، شبه بالثوب السفيه، و هو: الخفيف النسج، و العرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة، و على ضعف البدن أخرى، فمن الأوّل قول الشاعر:

---

(١). الأنعام: ٣٨.

(٢). الفرقان: ٥.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٣٤٥ نخاف أن تسفه أحلامناو نجهل الدهر مع الجاهل

و من الثانى قول ذى الرمة:

مشين كما اهتزّت رماح تسفّهت أعاليها مرّ الرّياح النّواسم

أى: استضعفها و استلانها بحركتها، و بالجملة فالسفيه: هو المبذر إما لجهله بالصرف، أو لتلاعبه بالمال عبثا، مع كونه لا يجهل الصواب. و الضعيف: هو الشيخ الكبير، أو الصبى. قال أهل اللغة: الضعف بضم الضاد فى البدن، و بفتحها فى الرأى. و الذى لا يستطيع أن يملّ هو: الأخرس، أو العيىّ الذى لا يقدر على التعبير كما ينبغى؛ و قيل: إن الضعيف هو المذهول العقل، الناقص الفطنة، العاجز عن الإملاء، و الذى لا يستطيع أن يملّ هو الصغير. قوله: فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ الضمير عائد إلى الذى عليه الحق فيملّ عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره عن التصرف فى ماله، و يملّ عن الصبى وصيه أو وليه، و كذلك يملّ عن العاجز الذى لا يستطيع الإملال لضعف وليه، لأنه فى حكم الصبىّ أو المنصوب عنه من الإمام أو القاضى، و يملّ عن الذى لا يستطيع وكيله، إذا كان صحيح العقل، و عرضت له آفة فى لسانه أو لم تعرض، و لكنه جاهل لا يقدر على التعبير كما ينبغى. و قال الطبرى: إن الضمير فى قوله: وَلِيُّهُ يعود إلى الحق، و هو ضعيف جدا. قال القرطبى فى تفسيره: و تصرّف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد إجماعا، مفسوخ أبدا، لا يوجب حكما، و لا يؤثر شيئا، فإن تصرف سفيه و لا حجر عليه ففيه خلاف. انتهى. قوله:

وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ الاستشهاد: طلب الشهادة، و سماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول، أى: باعتبار ما يؤول إليه أمرهما من الشهادة، و مِنْ رِجالِكُمْ متعلق بقوله: وَ اسْتَشْهِدُوا أو بمحذوف هو: صفة لشهيدين، أى: كائنين من رجالكم، أى: من المسلمين، فيخرج الكفار، و لا وجه لخروج العبيد من هذه الآية؛ فهم إذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين، و به قال شريح، و عثمان البتى، و أحمد بن حنبل، و إسحاق بن راهويه، و أبو ثور. و قال ابو حنيفة، و مالك، و الشافعى، و جمهور العلماء:

لا تجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص الرق. و قال الشعبى و النخعى: يصح فى الشىء اليسير دون الكثير.

و استدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد: بأن الخطاب فى هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة، و العبيد لا يملكون شيئا تجرى فيه المعاملة. و يجاب عن هذا: بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و أيضا:

العبد تصح منه المداينة، و سائر المعاملات؛ إذا أذن له مالكه بذلك. و قد اختلف الناس هل الإشهاد واجب أو مندوب؟ فقال أبو موسى الأشعرى، و ابن عمر، و الضحاك، و سعيد بن المسيب، و جابر بن زيد، و مجاهد، و داود بن على الظاهرى و ابنه: إنه واجب، و رجحه ابن جرير الطبرى؛ و ذهب الشعبى، و الحسن، و مالك، و الشافعى، و أبو حنيفة، و أصحابه: إلى أنه مندوب، و هذا الخلاف بين هؤلاء هو فى وجوب الإشهاد على البيع. و استدل الموجبون بقوله تعالى: وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ و لا فرق بين هذا الأمر و بين قوله: وَ اسْتَشْهِدُوا فيلزم القائلين بوجوب الإشهاد فى البيع أن يقولوا بوجوبه فى المداينة. قوله: فَإِنْ لَمْ يَكُونا أى: الشهيدان رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ أى: فليشهد رجل و امرأتان، أو فرجل و امرأتان

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۴۶

يكفون. و قوله: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل و امرأتان، أى: كائنون ممن ترضون، حال كونهم من الشهداء. و المراد: ممن ترضون دينهم و عدالتهم، و فيه: أن المرأتين فى الشهادة برجل، و أنها لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لا وحدهنّ، إلا فيما لا يطلع عليه غيرهنّ للضرورة. و اختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدّعى كما جاز الحكم برجل مع يمين المدّعى؟ فذهب مالك و الشافعى إلى أنه يجوز ذلك، لأن اللّه سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل فى هذه الآية. و ذهب أبو حنيفة و أصحابه إلى أنه لا يجوز ذلك، و هذا يرجع إلى الخلاف فى الحكم بشاهد مع يمين المدّعى، و الحق أنه جائز لورود الدليل عليه، و هو زيادة لم تخالف ما فى الكتاب العزيز فيتعين قبولها. و قد أوضحنا ذلك فى شرحنا للمنتقى و غيره من مؤلفاتنا، و معلوم عند كل من يفهم: أنه ليس فى هذه الآية ما يردّ به قضاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالشاهد و اليمين، و لم يدفعوا هذا إلا بقاعدة مبنية على شفا جرف هار هى قولهم: إن الزيادة على النص نسخ، و هذه دعوى باطلة، بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءنا بها من جاءنا بالنص المتقدم عليها، و أيضا كان يلزمهم أن لا يحكموا بنكول المطلوب و لا بيمين الرد على الطالب. و قد حكموا بهما. و الجواب الجواب. قوله: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى قال أبو عبيد: معنى تضل: تنسى. و الضلال عن الشهادة:

إنما هو نسيان جزء منها و ذكر جزء. و قرأ حمزة: «إن تضلّ» بكسر الهمزة. و قوله: فَتُذَكِّرَ جوابه على هذه القراءة، و على قراءة الجمهور هو منصوب بالعطف على تضلّ، و من رفعه فعلى الاستئناف. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو «فتذكر» بتخفيف الذال و الكاف، و معناه: تزيدها ذكرا. و قراءة الجماعة:

بالتشديد، أى: تنبهها إذا غفلت و نسيت، و هذه الآية تعليل لاعتبار العدد فى النساء، أى: فليشهد رجل و تشهد امرأتان عوضا عن الرجل الآخر، لأجل تذكير إحداهما للأخرى إذا ضلت، و على هذا فيكون فى الكلام حذف، و هو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضا عن الرجل الواحد، فقيل: وجهه أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، و العلة فى الحقيقة هى التذكير، و لكن الضلال لما كان سببا له نزل منزلته، و أبهم الفاعل فى تضلّ و تذكر، لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان؛ فالمعنى: إن ضلت

هـذه ذكرتها هـذه، و إن ضـلت هـذه ذكرتها هذه، لا على التعيين، أى: إن ضـلت إحدى المرأتين ذكرتها المرأة الأخرى، و إنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال. و قد يكون الوجه فى الإبهام: أن ذلك، يعنى: الضـلال و التذكر يقع بينهما متناوبا حتى ربما ضـلت هذه عن وجه و ضـلت تلك عن وجه آخر، فذكرت كل واحدة منهما صاحبتها. و قال سفيان بن عيينة: معنى قوله: فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى تصيرها ذكرا، يعنى أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد. و روى نحوه عن أبى عمرو بن العلاء، و لا شك أن هـذا باطل لا يـدل عليه شـرع و لا لغة و لا عقل. قوله: وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا أى: لأداء الشهادة التى قد تحملوها من قبل؛ و قيل: إذا ما دعوا لتحمل الشهادة، و تسميتهم شهداء مجاز كما تقدم، و حملها الحسن على المعنيين. و ظاهر هذا النهى أن الامتناع من أداء الشـهادة حرام. قوله: وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ معنى تسأموا: تملوا. قال الأخفش: يقال سئمت أسأم سآمة و سآما، و منه قول الشاعر:

فتح القدير، ج١، ص: ٣٤٧ سئمت تكاليف الحياة و من يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

أى: لا تملوا أن تكتبوه، أى: الـدين الـذى تـداينتم به؛ و قيل: الحق؛ و قيل: الشاهد؛ و قيل: الكتاب، نهاهم اللّه سـبحانه عن ذلك لأنـهم ربمـا ملوا من كثرة المداينـة أن يكتبوا، ثم بـالغ فى ذلك فقال: صَغِيراً أَوْ كَبِيراً أى: حال كون ذلك المكتوب صـغيرا أو كبيرا، أى: لاـ تملوا فى حـال من الأحوال سواء كـان الـدين كثيرا أو قليلا؛ و قيل: إنه كنى بالسآمـة عن الكسل. و الأول أولى. و قـدّم الصـغير هنـا على الكبير للاهتمـام به لـدفع ما عساه أن يقال إن هـذا مال صـغير، أى: قليل لا احتياج إلى كتبه، و الإشارة فى قوله: ذلِكُمْ إلى المكتوب المـذكور فى ضـمير قوله: أَنْ تَكْتُبُوهُ و أَقْسَطُ معنـاه: أعـدل، أى: أصـح و أحفـظ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ أى: أعون على إقامـة الشـهادة، و أثبت لها، و هو مبنى من: أقام، و كـذلك أقسط مبنى من فعله، أى: أقسط. و قد صـرح سـيبويه بأنه قياسـى، أى: بنى أفعـل التفضـيل. و معنى قـوله: وَ أَدْنى أَلَّا تَرْتـابُوا أقرب لنفى الريـب فى معاملاـتكم، أى: الشـك، و لـذلك إن الكتاب الذى يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائنا ما كان. قوله: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ أن فى موضع نصب على الاستثناء قاله الأخفش، و كان تامة: أى إلا أن تقع أو توجد تجارة، و الاستثناء منقطع، أى:

لكن وقت تبايعكم و تجارتكم حاضرة بحضور البدلين، تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ تتعاطونها يدا بيد، فالإدارة:

التعاطى و التقابض، فالمراد: التبايع الناجز يـدا بيـد، فلا حرج عليكم إن تركتم كتابته. و قرئ: بنصب تجارة، على أن كل ناقصـة، أى: إلا أن تكون التجارة تجارة حاضـرة. قوله: وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ قيل معناه: و أشـهدوا إذا تبايعتم هـذا التبايع المذكور هنا، و هو التجـارة الحاضـرة على أن الإشـهاد فيهـا يكفى؛ و قيـل: معناه: إذا تبايعتم أىّ تبايع كان حاضـرا أو كالئا «١»، لأـن ذلك أدفع لمادة الخلاف و أقطع لمنشأ الشـجار. و قد تقدّم قريبا ذكر الخلاف فى كون هذا الإشهاد واجبا أو مندوبا. قوله: وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لاـ شَهِيدٌ يحتمـل أن يكون مبنيا للفاعل، أو للمفعول؛ فعلى الأوّل معناه: لا يضارر كاتب و لا شـهيد من طلب ذلك منهما، إما بعـدم الإجابـة، أو بالتحريف، و التبـديل، و الزيادة و النقصان فى كتابته؛ و يـدل على هذا قراءة عمر بن الخطاب، و ابن عباس، و ابن أبى إسحاق: «و لا يضارر» بكسر الراء الأولى؛ و على الثانى: لا يضارر كاتب و لا شهيد، بأن يدعيا إلى ذلك و هما مشغولان بمهمّ لهمـا، و يضـيق عليهما فى الإجابـة، و يؤذيا إن حصل منهما التراخى، أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيـد، و يـدل على ذلك قراءة ابن مسعود:

«و لا يضارر» بفتح الراء الأولى، و صـيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعا. و قد تقدّم فى تفسير قوله تعالى: لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها «٢» ما إذا راجعته زادك بصيرة إن شاء اللّه. قوله: وَ إِنْ تَفْعَلُوا أى:

ما نهيتم عنه من المضارة فَإِنَّهُ أى: فعلكم هذا فُسُوقٌ بِكُمْ أى: خروج عن الطاعة إلى المعصية،

(١). ورد فى الحديث أنه صلّى اللّه عليه و سلم: نهى عن الكالئ بالكالئ. أى: النسيئة بالنسيئة، و ذلك أن يشترى الرجل شيئا إلى أجل، فإذا حل الأجل لم يجد ما يقضى به، فيقول: بعنيه إلى أجل آخر بزيادة شىء، فيبيعه منه، و لا يجرى بينهما تقابض. [النهاية ۴/ ۱۹۴].

(٢). البقرة: ٢٣٣.

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۴۸

ملتبس بكم وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى فعل ما أمركم به، و ترك ما نهاكم عنه، وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ما تحتاجون إليه من العلم، و فيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه، و منه قوله تعالى: إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً «١». قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة و الإشهاد لحفظ الأموال و دفع الريب، عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب، و نص على حالة السفر، فإنها من جملة أحوال العذر، و يلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر، و جعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة، أى: فإن كنتم مسافرين وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فى سفركم فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ قال أهل العلم: الرهن فى السفر ثابت بنص التنزيل، و فى الحضر بفعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، كما ثبت فى الصحيحين «أنه صلّى اللّه عليه و سلّم رهن درعا له من يهودىّ». و قرأ الجمهور «كاتبا» أى رجلا يكتب لكم. و قرأ ابن عباس، و أبىّ، و مجاهد، و الضحاك، و عكرمة و أبو العالية:

«كتابا» قال ابن الأنبارى: فسره مجاهد فقال: معناه فإن لم تجدوا مدادا: يعنى فى الأسفار. و قرأ أبو عمرو، و ابن كثير «فرهن» بضم الراء و الهاء. و روى عنهما تخفيف الهاء جمع رهان، قاله الفراء، و الزجاج، و ابن جرير الطبرى. و قرأ عاصم بن أبى النجود «فرهن» بفتح الراء و إسكان الهاء. و قراءة الجمهور: «رهان».

قال الزجاج: يقال فى الرهن: رهنت و أرهنت، و كذا قال ابن الأعرابى و الأخفش. و قال أبو على الفارسى:

يقال: أرهنت فى المعاملات، و أما فى القرض و البيع: فرهنت، و قال ثعلب: الرواة كلهم فى قول الشاعر:

فلمّا خشيت أظافيرهم نجوت و أرهنتهم مالكا

على أرهنتهم، على أنه يجوز: رهنته و أرهنته، إلا الأصمعى فإنه رواه و أرهنهم على أنه عطف لفعل مستقبل على فعل ماض، و شبهه بقوله: قمت و أصك وجهه. و قال ابن السكيت: أرهنت فيهما: بمعنى أسلفت، و المرتهن الذى يأخذ الرهن، و الشىء مرهون و رهين، و راهنت فلانا على كذا مراهنة: خاطرته. و قد ذهب الجمهور إلى اعتبار القبض كما صرح به القرآن، و ذهب مالك إلى أنه يصح الارتهان بالإيجاب و القبول من دون قبض. قوله: فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ أى: إن كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق، لحسن ظنه به، و أمانته لديه، و استغنى بأمانته عن الارتهان فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ و هو المديون أَمانَتَهُ أى: الدين الذى عليه، و الأمانة: مصدر سمى به الذى فى الذمة، و أضافها إلى الذى عليه الدين من حيث أن لها إليه نسبة، و قرئ «أيتمن» بقلب الهمزة ياء، و قرئ بإدغام الياء فى التاء و هو خطأ، لأن المنقلبة من الهمزة لا تدغم لأنها فى حكمها وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ فى أن لا يكتم من الحق شيئا.

قوله: وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ نهى للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة، و هو فى حكم التفسير لقوله:

وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ أى: لا يضارر بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقدّمين. قوله: وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ خص القلب بالذكر لأن الكتم من أفعاله، و لكونه رئيس الأعضاء، و هو المضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله، و إن فسدت فسد كله، و ارتفاع القلب: على أنه فاعل أو مبتدأ، و آثم: خبره على ما تقرر فى علم النحو؛ و يجوز أن يكون قلبه: بدلا من آثم، بدل البعض من الكل، و يجوز أن يكون

(۱). الأنفال: ۲۹.

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۴۹

أيضا: بدلا من الضمير الذى فى آثم الراجع إلى من، و قرئ «قلبه» بالنصب كما فى قوله: إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ «۱».

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ قال: نزلت فى السّلم فى كيل معلوم إلى أجل معلوم. و أخرج الشافعى، و عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و البخارى، و غيرهم عنه قال: أشهد: أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن اللّه أحلّه، و قرأ هذه الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية. قال: أمر بالشهادة عند المداينة لكيلا يدخل فى ذلك جحود و لا نسيان، فمن لم يشهد على ذلك فقد عصى وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ يعنى: من احتيج إليه من المسلمين ليشهد على شهادة، أو كانت عنده شهادة، فلا يحلّ له أن يأبى إذا ما دعى، ثم قال بعد هذا: وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ و الضرار: أن يقول الرجل للرجل و هو عنه غنىّ إن اللّه قد أمرك أن لا تأبى إذا دعيت، فيضاره بذلك و هو مكتف بغيره، فنهاه اللّه عن ذلك. و قال:

وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ يعنى: معصية. قال: و من الكبائر كتمان الشهادة، لأن اللّه تعالى يقول:

وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى قوله:

وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ قال: واجب على الكاتب أن يكتب. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كانت الكتابة عزيمة فنسخها وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد.

قال: فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً قال: هو الجاهل أَوْ ضَعِيفاً قال: هو الأحمق. و أخرج ابن جرير عن الضحاك و السدى فى قوله: سَفِيهاً قالا: هو الصبىّ الصغير. و أخرج ابن جرير من طريق عطية العوفى عن ابن عباس: فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ قال: صاحب الدين. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: ولى اليتيم. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: ولىّ السفيه أو الضعيف. و أخرج سعيد ابن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن المنذر، و البيهقى عن مجاهد فى قوله: مِنْ رِجالِكُمْ قال: من الأحرار. و أخرج ابن جرير عن الربيع فى قوله: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ قال:

عدول. و أخرج الشافعى، و البيهقى عن مجاهد قال: عدلان حران مسلمان. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما يقول: أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى يعنى: تذكرها التى حبطت شهادتها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ قال: إذا كانت عندهم شهادة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الربيع قال: كان الرجل يطوف فى القوم الكثير يدعوهم يشهدون فلا يتبعه أحد منهم، فأنزل اللّه: وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن المنذر عن عائشة فى قوله: أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ قالت:

أعدل. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ قال: يأتى الرجل الرجلين فيدعوهما إلى الكتابة و الشهادة فيقولان إنا على حاجة، فيقول إنكما قد أمرتما أن تحبيبا، فليس له أن يضارّهما. و أخرج ابن جرير عن طاوس لا يُضَارَّ كاتِبٌ فيكتب ما

---

(۱). البقرة: ۱۳۰.

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۵۰

فتح القدير ج۱ ۳۹۹

لم يملّ عليه وَ لا شَهِيدٌ فيشهد بما لم يستشهد. و أخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ الآية، قال: من كان

على سفر فبايع بيعا إلى أجل فلم يجد كاتبا فرخص له فى الرهان المقبوضة، و ليس له إن وجد كاتبا أن يرتهن. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: لا يكون الرهن إلا فى السفر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: لا يكون الرهن إلا مقبوضا. و أخرج البخارى فى تاريخه، و أبو داود، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن ماجة، و أبو نعيم، و البيهقى عن أبى سعيد الخدرى أنه قرأ هذه الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ حتى بلغ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً قال: هذه نسخت ما قبلها. و أقول: رضى اللّه عن هذا الصحابى الجليل، ليس هذا من باب النسخ، فهذا مقيد بالائتمان، و ما قبله ثابت محكم لم ينسخ و هو مع عدم الائتمان.

و أخرج ابن جرير عن السدىّ فى قوله: آثِمٌ قَلْبُهُ قال: فاجر قلبه. و أخرج ابن جرير بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهدا بالعرش آية الربا و آية الدين.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٨٤]

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

قوله: لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قد تقدّم تفسيره. قوله: وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ إلى آخر الآية، ظاهره: أن اللّه يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم أو أظهرته من الأمور التى يحاسب عليها، فيغفر لمن يشاء منهم ما يغفره منها، و يعذب من يشاء منهم بما أسرّ أو أظهر منها، هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية. و قد اختلف أهل العلم فى هذه الآية على أقوال: الأول: أنها و إن كانت عامة، فهى مخصوصة بكتمان الشهادة، و أن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة أو لم يظهر. و قد روى هذا عن ابن عباس، و عكرمة، و الشعبى و مجاهد، و هو مردود بما فى الآية من عموم اللفظ، و لا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهى عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به. و القول الثانى: أن ما فى الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الأمور التى هى بين الشك و اليقين، قاله مجاهد، و هو أيضا تخصيص بلا مخصص.

و القول الثالث: أنها محكمة عامة، و لكن العذاب على ما فى النفس يختص بالكفار و المنافقين. حكاه الطبرى عن قوم، و هو أيضا تخصيص بلا مخصص، فإن قوله: فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ لا يختص ببعض معين إلا بدليل. و القول الرابع: أن هذه الآية منسوخة، قاله ابن مسعود، و عائشة، و أبو هريرة، و الشعبى، و عطاء، و محمد بن سيرين، و محمد بن كعب، و موسى بن عبيدة، و هو مروىّ عن ابن عباس و جماعة من الصحابة و التابعين، و هذا هو الحق لما سيأتى من التصريح بنسخها، و لما ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم:

«إنّ اللّه غفر لهذه الأمّة ما حدّثت به أنفسها». قوله: يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ قدم الجار و المجرور على الفاعل لإظهار العناية به، و قدم الإبداء على الإخفاء، لأن الأصل فى الأمور التى يحاسب عليها هو الأعمال البادية،

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٥١

و أما تقديم الإخفاء فى قوله سبحانه: قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ «١» فلكون العلم يتعلق بالأعمال الخافية و البادية على السوية، و قدم المغفرة على التعذيب لكون رحمته سبقت غضبه، و جملة قوله: فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ مستأنفة: أى فهو يغفر، و هى متضمنة لتفصيل ما أجمل فى قوله: يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ و هذا على قراءة ابن عامر و عاصم. و أما على قراءة ابن كثير، و نافع، و أبى عمرو، و حمزة، و الكسائى: بجزم الراء و الباء، فالفاء عاطفة لما بعدها على المجزوم قبلها، و هو

جواب الشرط:

أعنى قوله: يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ و قرأ ابن عباس، و الأعرج، و أبو العالية، و عاصم الجحدرى: بنصب الراء و الباء فى قوله: فَيَغْفِرُ وَ يُعَذِّبُ على إضمار أن عطفا على المعنى. و قرأ طلحة بن مصرف:

يغفر بغير فاء على البدل، و به قرأ الجعفى، و خلاد.

و قد أخرج أحمد و مسلم، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: لما نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم جثوا على الركب، فقالوا: يا رسول اللّه! كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة و الصيام و الجهاد و الصدقة، و قد أنزل اللّه عليك هذه الآية و لا نطيقها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أ تريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا و عصينا، بل قولوا: سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ «٢» فلما اقترأها القوم و ذلت بها ألسنتهم أنزل اللّه فى أثرها: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ «٣» الآية، فلما فعلوا ذلك نسخها اللّه فأنزل: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها إلى آخرها. و أخرج أحمد، و مسلم، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و البيهقى عن ابن عباس مرفوعا نحوه، و زاد فأنزل اللّه: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا «٤» قال: قد فعلت رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا «٥» قال: قد فعلت رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ «٦» قال: قد فعلت وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا «٧» الآية، قال: قد فعلت. و قد رويت هذه القصة عن ابن عباس من طرق. و أخرج البخارى، و البيهقى، عن مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أحسبه ابن عمر إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ قال:

نسختها الآية التى بعدها. و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى عن على نحوه، و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و الطبرانى عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن جرير عن عائشة نحوه أيضا.

و بمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية أنه قال: نزلت فى كتمان الشهادة فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة. و على كل حال فبعد هذه الأحاديث المصرّحة بالنسخ و الناسخ لم يبق مجال لمخالفتها، و مما يؤيد ذلك ما ثبت فى الصحيحين و السنن الأربع من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه تجاوز لى عن أمّتى ما حدّثت به أنفسها ما لم تتكلّم أو تعمل به». و أخرج ابن جرير عن عائشة قالت: كل عبد همّ بسوء و معصية و حدّث نفسه به حاسبه اللّه فى الدنيا، يخاف و يحزن، و يشتدّ همه، لا يناله من ذلك شىء كما

---

(١). آل عمران: ٢٩.

(٢). البقرة: ٢٨٥.

(٣). البقرة: ٢٨٥.

(۴). البقرة: ٢٨۶.

(۵). البقرة: ٢٨۶.

(۶). البقرة: ٢٨۶.

(٧). البقرة: ٢٨۶.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٥٢

هم بالسوء و لم يعمل منه بشيء. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير عنها نحوه، و الأحاديث المتقدمة المصرحة بالنسخ تدفعه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن اللّه يقول يوم القيامة: إن كتّابى لم يكتبوا من أعمالكم إلا ما ظهر منها، فأما ما أسررتم فى أنفسكم فأنا أحاسبكم به اليوم، فأغفر لمن شئت، و أعذب من شئت، و هو مدفوع بما تقدم.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٨٥ الى ٢٨٦]

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٨٦)

قوله: بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أى: بجميع ما أنزل اللّه. وَ الْمُؤْمِنُونَ عطف على الرسول، و قوله: كُلٌّ أى من الرسول و المؤمنين آمَنَ بِاللَّهِ و يجوز أن يكون قوله: وَ الْمُؤْمِنُونَ مبتدأ.

و قوله: كُلٌّ مبتدأ ثان. و قوله: آمَنَ بِاللَّهِ خبر المبتدأ الثانى، و هو و خبره خبر المبتدأ الأوّل، و أفرد الضمير فى قوله: آمَنَ بِاللَّهِ مع رجوعه إلى كل المؤمنين، لما أن المراد بيان إيمان كل فرد منهم، من غير الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى: وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ «١». قال الزجاج لمّا ذكر اللّه سبحانه فى هذه السورة فرض الصلاة، و الزكاة، و بين أحكام الحج، و حكم الحيض، و الطلاق و الإيلاء، و أقاصيص الأنبياء، و بين حكم الربا، ذكر تعظيمه سبحانه بقوله: لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ثم ذكر تصديق نبيه صلّى اللّه عليه و سلم، ثم ذكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك فقال: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أى:

صدّق الرسول بجميع هذه الأشياء التى جرى ذكرها، و كذلك المؤمنون، كلهم صدّقوا باللّه و ملائكته و كتبه و رسله؛ و قيل سبب نزولها: الآية التى قبلها. و قد تقدّم بيان ذلك. قوله: وَ مَلائِكَتِهِ أى: من حيث كونهم عباده المكرّمين، المتوسطين بينه و بين أنبيائه فى إنزال كتبه، و قوله: وَ كُتُبِهِ لأنها المشتملة على الشرائع التى تعبد بها عباده. و قوله: وَ رُسُلِهِ لأنهم المبلغون لعباده ما نزل إليهم. و قرأ نافع، و ابن كثير، و عاصم فى رواية أبى بكر و ابن عامر: و كتبه، بالجمع. و قرءوا فى التحريم: و كتابه. و قرأ ابن عباس هنا:

و كتابه، و كذلك قرأ حمزة و الكسائى، و روى عنه أنه قال: الكتاب أكثر من الكتب. و بينه صاحب الكشاف فقال: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس و الجنسية قائمة فى وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء، و أما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع. انتهى. و من أراد تحقيق المقام فليرجع إلى شرح التلخيص المطوّل عند قول صاحب التلخيص «و استغراق المفرد أشمل». و قرأ الجمهور: و رسله، بضم السين. و قرأ أبو عمرو: بتخفيف السين. و قرأ الجمهور: «لا نفرّق» بالنون. و المعنى: يقولون: لا نفرق. و قرأ سعيد ابن جبير، و يحيى بن يعمر، و أبو زرعة، و ابن عمر، و ابن جرير، و يعقوب: «لا يفرق» بالياء التحتية.

---

(١). النمل: ٨٧.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٥٣

و قوله: بَيْنَ أَحَدٍ و لم يقل بين آحاد، لأن الأحد يتناول الواحد، و الجمع، كما فى قوله تعالى: فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ «١» فوصفه بقوله: حاجِزِينَ لكونه فى معنى الجمع، و هذه الجملة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال، و أن تكون خبرا

آخر لقوله: كُلٌّ و قوله: مِنْ رُسُلِهِ أظهر فى محل الإضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة فى الحكم، أو الإشعار بعلة عدم التفريق بينهم. و قوله:

وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا هو معطوف على قوله: آمَنَ و هو و إن كان للمفرد و هذا للجماعة فهو جائز نظرا إلى جانب المعنى، أى: أدركناه بأسماعنا، و فهمناه، و أطعنا ما فيه؛ و قيل: معنى سمعنا: أجبنا دعوتك.

قوله: غُفْرانَكَ مصدر منصوب بفعل مقدّر، أى: اغفر غفرانك. قاله الزجاج و غيره، و قدّم السمع و الطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدّم على المتوسل إليه. قوله: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها التكليف: هو الأمر بما فيه مشقة و كلفة، و الوسع: الطاقة، و الوسع: ما يسع الإنسان و لا يضيق عليه، و هذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه: وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ الآية، لكشف كربة المسلمين، و دفع المشقة عليهم فى التكليف بما فى الأنفس، و هى كقوله: سبحانه: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ «٢». قوله: لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ فيه ترغيب و ترهيب، أى: لها ثواب ما كسبت من الخير، و عليها وزر ما اكتسبت من الشرّ، و تقدّم «لها و عليها» على الفعلين ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها، و عليها لا على غيرها، و هذا مبنىّ على أن: كسب، للخير فقط، و اكتسب: للشرّ فقط، كما قاله صاحب الكشاف و غيره؛ و قيل: كل واحد من الفعلين يصدق على الأمرين، و إنما كرّر الفعل و خالف بين التصريفين تحسينا للنظم كما فى قوله تعالى: فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً «٣». قوله: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا أى: لا تؤاخذنا بإثم ما يصدر منا من هذين الأمرين. و قد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين و غيرهم قائلين: إن الخطأ و النسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما، فما معنى الدعاء بذلك، فإنه من تحصيل الحاصل. و أجيب عن ذلك: بأن المراد: طلب عدم المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان و الخطأ من التفريط و عدم المبالاة، لا من نفس النسيان و الخطأ، فإنه لا مؤاخذة بهما كما يفيد ذلك قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «رفع عن أمتى الخطأ و النسيان» و سيأتى مخرّجه؛ و قيل: إنه يجوز للإنسان أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته؛ و قيل: إنه و إن ثبت شرعا أنه لا مؤاخذة بهما، فلا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا؛ و قيل: لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمدا، و إنما يصدر عنهم خطأ أو نسيانا، فكأنه وصفهم بالدعاء بذلك إيذانا بنزاهة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان و الخطأ مما يؤاخذ به، فما منهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ و النسيان. قال القرطبى: و هذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع، و إنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام هل ذلك مرفوع و لا يلزم منه شىء، أو يلزم أحكام ذلك كله؟ اختلف فيه، و الصحيح: أن ذلك يختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات و الدّيات و الصلوات المفروضات، و قسم يسقط باتفاق كالقصاص و النطق بكلمة الكفر، و قسم ثالث مختلف فيه: كمن أكل ناسيا فى رمضان أو حنث ساهيا، و ما كان مثله مما يقع

---

(١). الحاقة: ٤٧.

(٢). البقرة: ١٨٥.

(٣). الطارق: ١٧.

خطأ و نسيانا، و يعرف ذلك فى الفروع. انتهى. قوله: رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا عطف على الجملة التى قبله، و تكرير النداء للإيذان بمزيد التضرّع و اللجأ إلى اللّه سبحانه. و الإصر:

العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه، أى: يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله. و المراد به هنا التكليف الشاق، و الأمر الغليظ الصعب؛ و

قيل الإصر: شدّة العمل و ما غلظ على بنى إسرائيل من قتل الأنفس و قطع موضع النجاسة، و منه قول النابغة:

يا مانع الضّيم أن تغشى سراتهمو الحامل الإصر عنهم بعد ما غرقوا

و قيل: الإصر: المسخ قردة و خنازير؛ و قيل: العهد، و منه قوله تعالى: وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي و هذا الخلاف يرجع إلى بيان ما هو الإصر الذى كان على من قبلنا، لا إلى معنى الإصر فى لغة العرب، فإنه ما تقدّم ذكره بلا نزاع، و الإصار: الحبل الذى تربط به الأحمال و نحوها، يقال: أصر يأصر إصرا:

حبس، و الإصر بكسر الهمزة من ذلك. قال الجوهرى: و الموضع: مأصر، و الجمع: مأصر، و العامة تقول معاصر. و معنى الآية: أنهم طلبوا من اللّه سبحانه أن لا يحملهم من ثقل التكاليف ما حمل الأمم قبلهم. و قوله:

كَما حَمَلْتَهُ صفة مصدر محذوف: أى حملا مثل حملك إياه على من قبلنا، أو صفة لإصرا، أى: إصرا مثل الإصر الذى حملته على من قبلنا. قوله: رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ هو أيضا عطف على ما قبله، و تكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا. و المعنى: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق؛ و قيل: عبارة عن إنزال العقوبات، كأنه قال: لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا فى المحافظة على تلك التكاليف الشاقة التى كلفت بها من قبلنا؛ و قيل: المراد به الشاق الذى لا يكاد يستطاع من التكاليف. قال فى الكشاف: و هذا تقرير لقوله: وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً. قوله: وَ اعْفُ عَنَّا أى: عن ذنوبنا، يقال: عفوت عن ذنبه: إذا تركته و لم تعاقبه عليه وَ اغْفِرْ لَنا أى: استر على ذنوبنا، و الغفر: الستر وَ ارْحَمْنا أى:

تفضل برحمة منك علينا أَنْتَ مَوْلانا أى: ولينا و ناصرنا، و خرج هذا مخرج التعليم كيف يدعون؛ و قيل معناه: أنت سيدنا و نحن عبيدك فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ فإن من حق المولى أن ينصر عبيده، و المراد: عامة الكفرة، و فيه إشارة إلى إعلاء كلمة اللّه فى الجهاد فى سبيله. و قد قدّمنا فى شرح الآية التى قبل هذه أعنى قوله: إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ إلخ، أنه ثبت فى الصحيح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن اللّه تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات قد فعلت، فكان ذلك دليلا على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشىء من الخطأ و النسيان، و لا حمل عليهم شيئا من الإصر الذى حمله على من قبلهم، و لا حملهم ما لا طاقة لهم به، و عفا عنهم، و غفر لهم، و رحمهم، و نصرهم على القوم الكافرين، و الحمد للّه رب العالمين.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حبان لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ لا نكفر بما جاءت به الرسل، و لا نفرّق بين أحد منهم، و لا نكذب به وَ قالُوا سَمِعْنا للقرآن الذى جاء من اللّه وَ أَطَعْنا، أقرّوا للّه أن يطيعوه فى أمره و نهيه. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: غُفْرانَكَ رَبَّنا قال: قد غفرت لكم وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ قال: إليك المرجع و المآب يوم يقوم الحساب. و أخرج سعيد

ابن منصور، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت آمَنَ الرَّسُولُ الآية، قال جبريل للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: إن اللّه قد أحسن الثناء عليك و على أمتك فسل تعطه، فقال: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها حتى ختم السورة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها قال: هم المؤمنون وسع اللّه عليهم أمر دينهم فقال: ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «١». و قال: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ «٢». و قال: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «٣». و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ قال: من العمل.

و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: إِلَّا وُسْعَها قال: إلا طاقتها. و أخرج ابن المنذر عن الضحاك نحوه. و قد أخرج ابن ماجة، و ابن المنذر، و ابن حبان فى صحيحه، و الطبرانى، و الدارقطنى، و الحاكم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ اللّه تجاوز عن أمتى الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه» و أخرجه ابن ماجة من

حديث أبى ذرّ مرفوعا، و الطبرانى من حديث ثوبان، و من حديث ابن عمر، و من حديث عقبة بن عامر، و أخرجه البيهقى أيضا من حديثه. و أخرجه ابن عدىّ فى الكامل، و أبو نعيم من حديث أبى بكرة، و أخرجه ابن أبى حاتم من حديث أمّ الدرداء. و أخرجه سعيد بن منصور، و عبد بن حميد من حديث الحسن مرسلا، و أخرجه عبد بن حميد من حديث الشعبى مرسلا. و فى أسانيد هذه الأحاديث مقال و لكنها يقوّى بعضها بعضا فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره. و قد تقدّم حديث: «إنّ اللّه قال قد فعلت» و هو فى الصحيح و هو يشهد لهذه الأحاديث. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِصْراً قال: عهدا. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله. و أخرج أيضا عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً قال: لا تمسخنا قردة و خنازير. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية أن الإصر: الذنب الذى ليس فيه توبة و لا كفارة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الفضيل فى الآية قال: كان الرجل من بنى إسرائيل إذا أذنب قيل له توبتك أن تقتل نفسك فيقتل نفسه، فوضعت الآصار عن هذه الأمة. و أخرج عبد بن حميد عن عطاء قال: لما نزلت هذه الآيات: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إلخ، كما قالها جبريل للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال النبىّ آمين رب العالمين. و أخرج أبو عبيد عن ميسرة أن جبريل لقن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاتمة البقرة آمين. و أخرج أبو عبيد، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين.

و أخرج أبو عبيد عن جبير بن نفير أنه كان يقول: آمين آمين. و أخرج عبد بن حميد عن أبى ذرّ قال: هى للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة. و أخرج ابن جرير عن الضحاك فى هذه الآية قال: سألها نبىّ اللّه ربه فأعطاه إياها، فكانت للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة. و قد ثبت عند الشيخين، و أهل السنن، و غيرهم عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه». و أخرج أبو عبيد، و الدارمى، و الترمذى، و النسائى، و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و البيهقى عن النعمان بن بشير أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ اللّه كتب كتابا قبل أن يخلق السّموات و الأرض بألفى عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، و لا

---

(١). الحج: ٧٨.

(٢). البقرة: ١٨٥.

(٣). التغابن: ١٦.

يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان». و أخرج أحمد، و النسائى، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب بسند صحيح عن حذيفة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول: «أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبىّ قبلى». و أخرج أحمد، و البيهقى عن أبى ذرّ مرفوعا نحوه. و أخرج أبو عبيد، و أحمد، و محمد بن نصر عن عقبة بن عامر سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «اقرءوا هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة آمَنَ الرَّسُولُ إلى خاتمتها، فإنّ اللّه اصطفى بها محمّدا» و إسناده حسن. و أخرج مسلم عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى إلى سدرة المنتهى و أعطى ثلاثا: أعطى الصلوات الخمس، و أعطى خواتيم سورة البقرة، و غفر لمن لاـ يشرك باللّه من أمته شيئا المقحمات «١». و أخرج الحاكم، و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبى ذرّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ اللّه ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذى تحت العرش، فتعلموهما و علّموهما نساءكم و أبناءكم فإنّهما صلاة و قرآن و دعاء». و أخرج الديلمى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اثنان هما قرآن و هما يشفيان، و هما ممّا

يحبّهما اللّه الآيتان من آخر البقرة». و أخرج الطبرانى بسند جيد عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه كتب كتابا قبل أن يخلق السموات و الأرض بألفى عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان». و أخرج ابن عدى عن ابن مسعود الأنصارى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:
«أنزل اللّه آيتين من كنوز الجنة، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام اللّيل». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ آخر سورة البقرة، أو آية الكرسى، ضحك و قال: إنهما من كنز تحت العرش. و أخرج ابن مردويه عن معقل بن يسار قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أعطيت فاتحة الكتاب، و خواتيم سورة البقرة من تحت العرش». و أخرج مسلم، و النسائى و اللفظ له عن ابن عباس قال: بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «و عنده جبريل إذ سمع نقيضا فرفع جبريل بصره فقال: هذا باب قد فتح من السّماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:
أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب، و خواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته». فهذه ثلاثة عشر حديثا فى فضل هاتين الآيتين مرفوعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و قد روى فى فضلهما من غير المرفوع عن عمر، و علىّ، و ابن مسعود، و أبى مسعود و كعب الأحبار و الحسن و أبى قلابة، و فى قول النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم ما يغنى عن غيره.

---

(١). «المقحمات»: الذنوب العظام الكبائر التى تورد أصحابها النار.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٥٧

سورة آل عمران

اشارة

هى مدنية، قال القرطبى: بالإجماع، و مما يدل على ذلك أن صدرها إلى ثلاث و ثمانين آية نزل فى وفد نجران، و كان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة. و قد أخرج البيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال:
نزلت سورة آل عمران بالمدينة. و قد تقدم فى أوائل سورة البقرة ما هو مشترك بينها و بين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلهما، و كذلك تقدّم ما ورد فى السبع الطوال. و أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلّى اللّه عليه و ملائكته حتى تغيب الشمس». و أخرج سعيد بن منصور و البيهقى فى الشعب عن عمر بن الخطاب قال: من قرأ البقرة و آل عمران و النساء كتب عند اللّه من الحكماء. و أخرج الديلمى، و محمد بن نصر، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود: من قرأ آل عمران فهو غنىّ. و أخرج الدارمى، و عبد بن حميد، و البيهقى عنه قال: نعم كنز الصعلوك آل عمران، يقوم بها الرجل من آخر الليل. و أخرج سعيد بن منصور عن أبى عطاف قال: اسم آل عمران فى التوراة طيبة. و أخرج ابن أبى شيبة عن عبد الملك بن عمير قال: قرأ رجل البقرة و آل عمران، فقال كعب: قد قرأ السورتين إن فيهما الاسم الذى إذا دعى به أجاب.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة آلعمران (٣): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (١) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۴)
إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (۵) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶)

قرأ الحسن، و عمرو بن عبيد، و عاصم بن أبى النجود، و أبو جعفر الرواسى: الم اللَّهُ بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على الم كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد نحو واحد اثنان ثلاثة أربعة مع وصلهم. قال الأخفش: و يجوز الم اللَّهُ بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين. قال الزجاج: هذا خطأ، و لا تقوله العرب لثقله. و قد ذكر سيبويه فى الكتاب: أن فواتح السور التى لم تكن موازنة لمفرد طريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد و إن لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف، فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها، ثم يبدأ بما بعدها، كما فعله الحسن و من معه فى قراءتهم المحكية سابقا. و أما فتح الميم على القراءة المشهورة، فوجهه: ما روى عن سيبويه: أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين. و قال الكسائى: حروف التهجى إذا لقيتها ألف وصل، فحذفت الألف و حركت

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۵۸

الميم بحركة الألف، و كذا قال الفراء. و هذه الفواتح إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها من الإعراب، و إن جعلت أسماء للسورة فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها، أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها المقام كاذكر، أو اقرأ، أو نحوهما، و قد تقدم فى أوائل سورة البقرة ما يغنى عن الإعادة.
و قوله: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ مبتدأ و خبر، و الجملة مستأنفة، أى: هو المستحق للعبودية. و الحىّ القيوم:
خبران آخران للاسم الشريف، أو خبران لمبتدأ محذوف، أى: هو الحى القيوم، و قيل: إنهما صفتان للمبتدأ الأول، أو بدلان منه، أو من الخبر، و قد تقدّم تفسير الحىّ و القيوم. و قرأ جماعة من الصحابة: القيام؛ عمر، و أبى بن كعب، و ابن مسعود. قوله: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ أى: القرآن، و قدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه صلّى اللّه عليه و سلم، و هى: إما جملة مستأنفة، أو خبر آخر للمبتدأ الأوّل. قوله: بِالْحَقِ أى:
بالصدق، و قيل: بالحجة الغالبة البالغة، و هو فى محل نصب على الحال. و قوله: مُصَدِّقاً حال آخر من الكتاب مؤكدة، لأنه لا يكون إلّا مصدقا، فلا تكون الحال منتقلة أصلا، و بهذا قال الجمهور، و جوّز بعضهم الانتقال على معنى أنه مصدق لنفسه و لغيره. و قوله: لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أى: من الكتب المنزلة، و هو متعلق بقوله: مصدقا، و اللام للتقوية. قوله: وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ هذه الجملة فى حكم البيان لقوله: لما بين يديه. و إنما قال هنا أنزل و فيما تقدّم نزّل: لأن القرآن نزل منجما، و الكتابان نزلا دفعة واحدة، و لم يذكر فى الكتابين من أنزلا عليه، و ذكر فيما تقدّم: أن الكتاب نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأن القصد هنا ليس إلّا إلى ذكر الكتابين لا ذكر من نزلا عليه. و قوله: مِنْ قَبْلُ أى: أنزل التوراة و الإنجيل من قبل تنزيل الكتاب. و قوله: هُدىً لِلنَّاسِ إما: حال من الكتابين، أو علة للإنزال. و المراد بالناس:
أهل الكتابين، أو ما هو أعمّ، لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع. قال ابن فورك: هدى للناس المتقين، كما قال فى البقرة هدى للمتقين، قوله: وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ أى: الفارق بين الحق و الباطل و هو القرآن، و كرر ذكره تشريفا له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق و الباطل، و ذكر التنزيل أولا و الإنزال ثانيا لكونه جامعا بين الوصفين، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة، ثم نزل منها إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مفرّقا منجما على حسب الحوادث كما سبق، و قيل: أراد

بالفرقان جميع الكتب المنزلة من اللّه تعالى على رسله؛ و قيل: أراد الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة، و قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أى:

بما يصدق عليه أنه آية من الكتب المنزلة و غيرها، أو بما فى الكتب المنزلة المذكورة، على وضع آيات اللّه موضع الضمير العائد إليها، و فيه بيان الأمر الذى استحقوا به الكفر لَهُمْ بسبب هذا الكفر عَذابٌ شَدِيدٌ أى: عظيم وَ اللَّهُ عَزِيزٌ لا يغالبه مغالب ذُو انْتِقامٍ عظيم، و النقمة: السطوة، يقال انتقم منه:

إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدّم منه. قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْ‏ءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه و إحاطته بالمعلومات، و عبر عن معلوماته بما فى الأرض و السماء مع كونها أوسع من ذلك: لقصور عباده عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته و سائر معلوماته، و من جملة ما لا يخفى عليه: إيمان من آمن من خلقه و كفر من كفر. قوله: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ

فتح القدير، ج‏١، ص: ٣٥٩

أصل اشتقاق الصورة من: صاره إلى كذا، أى: أماله إليه، فالصورة مائلة إلى شبه و هيئة، و أصل الرحم من: الرحمة لأنه مما يتراحم به، و هذه الجملة مستأنفة، مشتملة على بيان إحاطة علمه، و أن من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود، و هو: تصوير عباده فى أرحام أمهاتهم من نطف آبائهم كيف يشاء، من حسن، و قبيح، و أسود، و أبيض، و طويل، و قصير. و كيف: معمول يشاء، و الجملة: حالية.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن جعفر بن محمد بن الزبير قال: «قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وفد نجران ستون راكبا، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، فكلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم منهم أبو حارثة ابن علقمة، و العاقب، و عبد المسيح، و السيد، و هو: الأيهم، ثم ذكروا القصة فى الكلام الذى دار بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و أن اللّه أنزل فى ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع و ثمانين آية منها. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الربيع، فذكر وفد نجران و مخاصمتهم للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى عيسى عليه السلام، و أن اللّه أنزل: الم اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى قوله:

مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ قال: لما قبله من كتاب أو رسول. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة نحوه، و قال فى قوله: وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ هو القرآن، فرق بين الحق و الباطل، فأحل فيه حلاله، و حرّم فيه حرامه، و شرع فيه شرائعه، و حدّ فيه حدوده، و فرض فيه فرائضه، و بين فيه بيانه، و أمر بطاعته، و نهى عن معصيته. و أخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله:

وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ أى: الفصل بين الحق و الباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى و غيره، و فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ أى: إن اللّه ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها و معرفته بما جاء منه فيها. و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْ‏ءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ أى: قد علم ما يريدون و ما يكيدون و ما يضاهون بقولهم فى عيسى إذ جعلوه ربا و إلها، و عندهم من علمه غير ذلك غرّة باللّه و كفرا به هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ قد كان عيسى ممن صور فى الأرحام، لا يدفعون ذلك و لا ينكرونه كما صوّر غيره من بنى آدم، فكيف يكون إلها و قد كان بذلك المنزل. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ قال: ذكورا و إناثا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس، و ابن مسعود، و ناس من الصحابة فى قوله: يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ قال: إذا وقعت النطفة فى الأرحام طارت فى الجسد أربعين يوما، ثم تكون علقة أربعين يوما، ثم تكون مضغة أربعين يوما، فإذا بلغ أن يخلق؛ بعث اللّه ملكا يصوّرها، فيأتى الملك

بتراب بين إصبعيه فيخلط منه المضغة، ثم يعجنه بها ثم يصوّر كما يؤمر فيقول: أذكر أم أنثى، أ شقىّ أم سعيد، و ما رزقه، و ما عمره، و ما أثره، و ما مصائبه؟ فيقول اللّه و يكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى قوله: يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ قال: من ذكر و أنثى، و أحمر و أسود، و تامّ الخلق و غير تام الخلق.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۶۰

[سورة آلعمران (۳): الآيات ۷ الى ۹]

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (۷) رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۸) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (۹)

الكتاب: هو القرآن، فاللام للعهد، و قدم الظرف و هو «عليك» لما يفيده من الاختصاص. و قوله:

مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبرا مقدّما، و الأولى بالمعنى: أن يكون مبتدأ تقديره من الكتاب آيات بينات على نحو ما تقدم فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ* و إنما كان أولى، لأن المقصود انقسام الكتاب إلى القسمين المذكورين، لا مجرّد الإخبار عنهما بأنهما من الكتاب، و الجملة:

حالية فى محل نصب، أو مستأنفة لا محل لها. و قد اختلف العلماء فى تفسير المحكمات و المتشابهات على أقوال، فقيل: إن المحكم: ما عرف تأويله، و فهم معناه، و تفسيره. و المتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل.

و من القائلين بهذا جابر بن عبد اللّه، و الشعبى، و سفيان الثورى، قالوا: و ذلك نحو الحروف المقطعة فى أوائل السور؛ و قيل: المحكم: ما لا يحتمل إلّا وجها واحدا، و المتشابه: ما يحتمل وجوها، فإذا ردّت إلى وجه واحد و أبطل الباقى صار المتشابه محكما؛ و قيل: إن المحكم: ناسخه، و حرامه، و حلاله، و فرائضه، و ما نؤمن به و نعمل عليه، و المتشابه: منسوخه، و أمثاله، و أقسامه، و ما نؤمن به و لا نعمل به. روى هذا عن ابن عباس، و قيل: المحكم: الذى ليس فيه تصريف و لا تحريف عما وضع له، و المتشابه: ما فيه تصريف، و تحريف، و تأويل. قاله مجاهد و ابن إسحاق. قال ابن عطية: و هذا أحسن الأقوال؛ و قيل: المحكم: ما كان قائما بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره، و المتشابه: ما يرجع فيه إلى غيره. قال النحاس: و هذا أحسن ما قيل فى المحكمات و المتشابهات. قال القرطبى: ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية و هو الجارى على وضع اللسان، ذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم، و الإحكام، الإتقان، و لا شك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه و لا تردّد، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته و إتقان تركيبها، و متى اختلّ أحد الأمرين جاء التشابه و الإشكال. و قال ابن خويز منداد: للمتشابه وجوه، ما اختلف فيه العلماء اى الآيتين نسخت الأخرى؟ كما فى الحامل المتوفى عنها زوجها، فإن من الصحابة من قال: إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر و العشر، و منهم من قال بالعكس. و كاختلافهم فى الوصية للوارث، و كتعارض الآيتين أيهما أولى أن يقدّم إذا لم يعرف النسخ و لم توجد شرائطه، و كتعارض الأخبار، و تعارض الأقيسة، هذا معنى كلامه.

و الأولى أن يقال: إن المحكم: هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة، إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره؛ و المتشابه: ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه و لا باعتبار غيره. و إذا عرفت هذا؛ عرفت أن هذا الاختلاف الذى قدّمناه ليس كما ينبغى، و ذلك لأن أهل كل قوم عرفوا المحكم ببعض صفاته، و عرفوا

المتشابه بما يقابلها. و بيان ذلك: أن أهل القول الأول جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل، و المتشابه ما لا سبيل إلى علمه، و لا شك أن مفهوم المحكم و المتشابه أوسع دائرة مما ذكروه، فإن مجرد الخفاء، أو عدم الظهور، أو الاحتمال، أو التردّد يوجب التشابه؛ و أهل القول الثاني: خضوا المحكم بما ليس فيه احتمال، و المتشابه بما فيه احتمال، و لا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم و المتشابه، لا كلها؛ و هكذا أهل القول الثالث:

فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعيّنة دون غيرها؛ و أهل القول الرابع: خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التى ذكرها أهل القول الثالث، و الأمر أوسع مما قالوه جميعا؛ و أهل القول الخامس:

خصوا المحكم بوصف عدم التصريف و التحريف، و جعلوا المتشابه مقابله، و أهملوا ما هو أهمّ من ذلك مما لا سبيل إلى علمه من دون تصريف و تحريف كفواتح السور المقطعة، و أهل القول السادس: خصوا المحكم:

بما يقوم بنفسه، و المتشابه: بما لا يقوم بها، و أن هذا هو بعض أوصافهما، و صاحب القول السابع و هو ابن خويز منداد، عمد إلى صورة الوفاق فجعلها محكما، و إلى صورة الخلاف و التعارض فجعلها متشابها، فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أو غير مفهوم. قوله: هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ أى: أصله الذى يعتمد عليه، و يردّ ما خالفه إليه، و هذه الجملة صفة لما قبلها. قوله: وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ وصف لمحذوف مقدر، أى: و آيات أخر متشابهات و هى جمع أخرى، و إنما لم ينصرف لأنه عدل بها عن الآخر، لأن أصلها أن يكون كذلك. و قال أبو عبيد: لم ينصرف لأن واحدها لا ينصرف فى معرفة و لا نكرة، و أنكر ذلك المبرّد. و قال الكسائى: لم تنصرف لأنها صفة، و أنكره أيضا المبرّد. و قال سيبويه: لا يجوز أن يكون أخر: معدولة عن الألف و اللام، لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة، ألا ترى أن سحر معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة. قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ الزيغ: الميل، و منه: زاغت الشمس، و زاغت الأبصار؛ و يقال: زاغ يزيغ زيغا، إذا ترك القصد، و منه قوله تعالى:

فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ «1» و هذه الآية تعمّ كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق. و سبب النزول:

نصارى نجران كما تقدّم، و سيأتى. قوله: فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ أى: يتعلقون بالمتشابه من الكتاب، فيشككون به على المؤمنين، و يجعلونه دليلا على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحق، كما تجده فى كل طائفة من طوائف البدعة، فإنهم يتلاعبون بكتاب اللّه تلاعبا شديدا، و يوردون منه لتنفيق جهلهم ما ليس من الدلالة فى شى‏ء. قوله: ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ أى: طلبا منهم لفتنة الناس فى دينهم و التلبيس عليهم و إفساد ذات بينهم وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ أى: طلبا لتأويله على الوجه الذى يريدونه و يوافق مذاهبهم الفاسدة. قال الزجاج:

معنى ابتغائهم تأويله: أنهم طلبوا تأويل بعثهم و إحيائهم، فأعلم اللّه عزّ و جلّ أن تأويل ذلك و وقته لا يعلمه إلا اللّه. قال: و الدليل على ذلك قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ «2» أى: يوم يرون ما يوعدون من البعث و النشور و العذاب يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ أى: تركوه قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ* «3» أى:

قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل. قوله: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ التأويل يكون بمعنى التفسير، كقولهم:

تأويل هذه الكلمة على كذا، أى: تفسيرها، و يكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه، و اشتقاقه من: آل الأمر

---

(1). الصف: 5.

(2). الأعراف: 53.

(٣). الأعراف: ٥٣.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٦٢

إلى كذا، يؤول إليه، أى: صار، و أوّلته تأويلا، أى: صيرته، و هذه الجملة حالية، أى: يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله، و الحال أن ما يعلم تأويله إلّا اللّه. و قد اختلف أهل العلم فى قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ هل هو كلام مقطوع عما قبله أو معطوف على ما قبله؟ فتكون الواو للجمع، فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله، و أن الكلام تمّ عند قوله: إِلَّا اللَّهُ هذا قول ابن عمر، و ابن عباس، و عائشة، و عروة بن الزبير، و عمر بن عبد العزيز، و أبى الشعثاء، و أبى نهيك، و غيرهم، و هو مذهب الكسائى، و الفراء، و الأخفش، و أبى عبيد، و حكاه ابن جرير الطبرى عن مالك، و اختاره، و حكاه الخطابى عن ابن مسعود، و أبىّ بن كعب، قال: و إنّما روى عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ما قبله، و زعم أنهم يعلمونه، قال:

و احتج له بعض أهل اللغة، فقال: معناه و الراسخون فى العلم يعلمونه قائلين: آمَنَّا بِهِ و زعم أن موضع يَقُولُونَ نصب على الحال، و عامة أهل اللغة ينكرونه و يستبعدونه، لأن العرب لا تضمر الفعل و المفعول معا، و لا تذكر حالا إلّا مع ظهور الفعل، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالا، و لو جاز ذلك لجاز أن يقال عبد اللّه راكبا، يعنى أقبل عبد اللّه راكبا، و إنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله: عبد اللّه يتكلم يصلح بين الناس، فكان يصلح حالا كقول الشاعر: أنشدنيه أبو عمرو. قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب:

أرسلت فيها رجلا «١» لكالكايقصر يمشى و يطول باركا

فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده. و أيضا فإنه لا يجوز أن ينفى اللّه سبحانه شيئا عن الخلق و يثبته لنفسه، فيكون له فى ذلك شريك، ألا ترى قوله عزّ و جلّ: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ «٢»، و قوله: لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ «٣»، و قوله: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ «٤» فكان هذا كله مما استأثر اللّه سبحانه به لا يشركه فيه غيره، و كذلك قوله تعالى:

وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ و لو كانت الواو فى قوله: وَ الرَّاسِخُونَ للنسق لم يكن لقوله: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا فائدة. انتهى. قال القرطبى: ما حكاه الخطابى من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره. فقد روى عن ابن عباس: أن الراسخين معطوف على اسم اللّه عزّ و جلّ، و أنهم داخلون فى علم المتشابه، و أنهم مع علمهم به يقولون آمنا به. و قاله الربيع، و محمد بن جعفر بن الزبير، و القاسم بن محمد، و غيرهم.

و يَقُولُونَ على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخون كما قال:

الرّيح تبكى شجوهاو البرق يلمع فى الغمامه

و هذا البيت يحتمل المعنيين، فيجوز أن يكون: و البرق: مبتدأ، و الخبر: يلمع، على التأويل الأوّل فيكون مقطوعا مما قبله، و يجوز أن يكون معطوفا على الريح، و يلمع: فى موضع الحال على التأويل الثانى، أى:

لامعا. انتهى. و لا يخفاك أن ما قاله الخطابى فى وجه امتناع كون قوله: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ حالا: من

---

(١). فى اللسان و شرح القاموس «قطما» و هو الغضبان، و الفحل الصئول. و «اللّكالك» الجمل الضخم المرمى باللحم.

(٢). النمل: ٦٥.

(٣). الأعراف: ١٨٧.

(٤). القصص: ٨٨.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٦٣

أن العرب لا تذكر حالا إلّا مع ظهور الفعل، إلى آخر كلامه، لا يتم إلّا على فرض أنه لا فعل هنا، و ليس الأمر كذلك، فالفعل مذكور، و هو قوله: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ و لكنه جاء الحال من المعطوف، و هو قوله: وَ الرَّاسِخُونَ دون المعطوف عليه، و هو قوله: إِلَّا اللَّهُ و ذلك جائز فى اللغة العربية. و قد جاء مثله فى الكتاب العزيز. و منه قوله تعالى: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ «١» إلى قوله:

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا «٢» الآية، و كقوله: وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا «٣» أى: و جاءت الملائكة صفا صفا، و لكن هاهنا مانع آخر من جعل ذلك حالا، و هو: أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح، فإن الراسخين فى العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه فى كل حال من الأحوال لا فى هذه الحالة الخاصة، فاقتضى هذا أن جعل قوله: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ حالا، غير صحيح، فتعين المصير إلى الاستئناف و الجزم بأن قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مبتدأ، خبره:

يَقُولُونَ و من جملة ما استدل به القائلون بالعطف: أن اللّه سبحانه مدحهم بالرسوخ مدحهم بالرسوخ فى العلم، فكيف يمدحهم و هم لا يعلمون ذلك؟ و يجاب عن هذا بأن تركهم لطلب علم ما لم يأذن اللّه به، و لا جعل لخلقه إلى علمه سبيلا هو من رسوخهم، لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر اللّه بعلمه، و أن الذين يتبعونه هم الذين فى قلوبهم زيغ، و ناهيك بهذا من رسوخ. و أصل الرسوخ فى لغة العرب: الثبوت فى الشىء، و كل ثابت راسخ، و أصله فى الأجرام: أن ترسخ الخيل، أو الشجر فى الأرض، و منه قول الشاعر:

لقد رسخت فى الصّدر منّى مودّةلليلى أبت آياتها أن تغيّرا

فهؤلاء ثبتوا فى امتثال ما جاءهم عن اللّه من ترك اتباع المتشابه، و إرجاع علمه إلى اللّه سبحانه. و من أهل العلم من توسط بين المقامين فقال: التأويل يطلق و يراد به فى القرآن شيئان: أحدهما: التأويل بمعنى:

حقيقة الشىء و ما يؤول أمره إليه، و منه قوله: هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ «٤»، و قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ «٥» أى: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة، لأن حقائق الأمور و كنهها لا يعلمه إلّا اللّه عزّ و جلّ، و يكون قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مبتدأ، و يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ خبره. و أما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر و هو التفسير و البيان و التعبير عن الشىء كقوله: نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ أى: بتفسيره، فالوقف على: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لأنهم يعلمون و يفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، و إن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هى عليه، و على هذا فيكون: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ حالا منهم، و رجح ابن فورك: أن الراسخين يعلمون تأويله، و أطنب فى ذلك، و هكذا جماعة من محققى المفسرين رجحوا ذلك. قال القرطبى: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر:

و هو الصحيح، فإن تسميتهم: راسخين، تقضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب، و فى أى شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلّا ما يعلم الجميع، لكن المتشابه يتنوع؛ فمنه ما لا يعلم ألبتة، كأمر الروح و الساعة مما استأثر اللّه بعلمه، و هذا لا يتعاطى علمه أحد؛ فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع. و أما ما يمكن حمله على وجوه فى

---

(١). الحشر: ٨.

(٢). الحشر: ١٠.

(٣). الفجر: ٢٢.

(۴). يوسف: ۱۰۰.

(۵). الأعراف: ۵۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۶۴

اللغة، فيتأول و يعلم تأويله المستقيم، و يزال ما فيه من تأويل غير مستقيم. انتهى.

و اعلم أن هذا الاضطراب الواقع فى مقالات أهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم فى تحقيق معنى المحكم و المتشابه، و قد قدّمنا لک ما هو الصواب فى تحقيقهما، و نزيدک هاهنا إيضاحا و بيانا، فنقول: إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذى قدّمناه فواتح السور، فإنها غير متضحة المعنى، و لا ظاهرة الدلالة، لا بالنسبة إلى أنفسها لأنه لا يدرى من يعلم بلغة العرب، و يعرف عرف الشرع ما معنى الم، المر، حم، طس، طسم و نحوها، لأنه لا يجد بيانها فى شىء من كلام العرب و لا من كلام الشرع، فهى غير متضحة المعنى، لا باعتبارها نفسها، و لا باعتبار أمر آخر يفسرها و يوضحها، و مثل ذلک الألفاظ المنقولة عن لغة العجم، و الألفاظ الغريبة التى لا يوجد فى لغة العرب و لا فى عرف الشرع ما يوضحها، و هكذا ما استأثر اللّه بعلمه كالروح و ما فى قوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «۱» إلى الآخر الآية، و نحو ذلک و هكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة لا باعتبار نفسه و لا باعتبار غيره، كورود الشىء محتملا لأمرين احتمالا لا يترجح أحدهما على الآخر باعتبار ذلک فى نفسه، و ذلک كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلک المشترک من الأمور الخارجة، و كذلک ورود دليلين متعارضين تعارضا كليا بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر، لا باعتبار نفسه و لا باعتبار أمر آخر يرجحه. و أما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه، بأن يكون معروفا فى لغة العرب، أو فى عرف الشرع، أو باعتبار غيره، و ذلک كالأمور المجملة التى ورد بيانها فى موضع آخر من الكتاب العزيز، أو فى السنة المطهرة، أو الأمور التى تعارضت دلالتها، ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها فى موضع آخر من الكتاب أو السنة، أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة، عند أهل الإنصاف، فلا شک و لا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه و من زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب، فاشدد يديک على هذا فإنک تنجو به من مضايق و مزالق وقعت للناس فى هذا المقام، حتى صارت كل طائفة تسمى ما دل لما ذهب إليه: محكما و ما دل على ما يذهب إليه من يخالفها: متشابها: سيما أهل علم الكلام، و من أنكر هذا فعليه بمؤلفاتهم.

و اعلم أنه قد ورد فى الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم، و لكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية، بل بمعنى آخر، و من ذلک قوله تعالى: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ «۲» و قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ* «۳» و المراد بالمحكم بهذا المعنى: أنه صحيح الألفاظ، قويم المعانى، فائق فى البلاغة، و الفصاحة على كل كلام. و ورد أيضا ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها، بل بمعنى آخر، و منه قوله تعالى: كِتاباً مُتَشابِهاً «۴» و المراد بالتشابه بهذا المعنى: أنه يشبه بعضه بعضا فى الصحة، و الفصاحة، و الحسن، و البلاغة. و قد ذكر أهل العلم لورود المتشابه فى القرآن فوائد، منها: أنه يكون فى الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة و مشقة، و ذلک يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق و هم الأئمة المجتهدون، و قد ذكر الزمخشرى و الرازى و غيرهما وجوها هذا أحسنها، و بقيتها لا تستحق الذكر هاهنا.

قوله: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا فيه ضمير مقدر عائد على قسمى المحكم و المتشابه، أى: كله، أو المحذوف

---

(۱). لقمان: ۳۴.

(۲). هود: ۱.

(۳). يونس: ۱.

(۴). الزمر: ۲۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۶۵

غير ضمير، أى: كل واحد منهما، و هذا من تمام المقول المذكور قبله. و قوله: وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ أى: العقول الخالصة، و هم الراسخون فى العلم، الواقفون عند متشابهه، العالمون بمحكمه، العاملون بما أرشدهم اللّه إليه فى هذه الآية. و قوله: رَبَّنا لا تُزِغْ إلخ، من تمام ما يقوله الراسخون، أى: يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، و يقولون: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا قال ابن كيسان: سألوا ألا يزيغوا فتزيغ قلوبهم، نحو قوله تعالى: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ «۱» كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ قالوا: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا باتباع المتشابه بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا إلى الحق، بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات، و الظرف: و هو قوله: بَعْدَ منتصب بقوله: لا تُزِغْ قوله: وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً أى: كائنة من عندك، و من: لابتداء الغاية ولدن: بفتح اللام و ضم الدال و سكون النون؛ و فيه لغات أخر، هذه أفصحها، و هو ظرف مكان، و قد يضاف إلى الزمان، و تنكير: رحمة، للتعظيم، أى: رحمة عظيمة واسعة. و قوله: إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ تعليل للسؤال، أو لإعطاء المسؤول. و قوله: رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ أى: باعثهم و محييهم بعد تفرّقهم لِيَوْمٍ هو يوم القيامة، أى: لحساب يوم، أو لجزاء يوم، على تقدير حذف المضاف، و إقامة المضاف إليه مقامه. قوله: لا رَيْبَ فِيهِ أى: فى وقوعه، و وقوع ما فيه من الحساب و الجزاء، و قد تقدم تفسير الريب، و جملة قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ للتعليل لمضمون ما قبلها، أى: أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه و خلفه يخالف الألوهية، كما أنها تنافيه، و تباينه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المحكمات: ناسخه، و حلاله، و حرامه، و حدوده، و فرائضه، و ما نؤمن به و نعمل به، و المتشابهات: منسوخه، و مقدّمه، و مؤخره، و أمثاله، و أقسامه، و ما نؤمن به و لا نعمل به. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال فى قوله: مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات قُلْ تَعالَوْا «۲» و الآيتان بعدها. و فى رواية عنه أخرجها عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى قوله: آياتٌ مُحْكَماتٌ قال: من هنا قُلْ تَعالَوْا إلى ثلاث آيات، و من هنا وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ «۳» إلى ثلاث آيات بعدها. و أقول: رحم اللّه ابن عباس ما أقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه. فإن تعيين ثلاث آيات أو عشر أو مائة من جميع آيات القرآن و وصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شىء، فالمحكمات: هى أكثر القرآن على جميع الأقوال، حتى على قوله المنقول عنه قريبا من أن المحكمات ناسخه و حلاله إلخ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام؟ و أخرج عبد بن حميد عنه قال: المحكمات: الحلال و الحرام، و للسلف أقوال كثيرة هى راجعة إلى ما قدّمناه فى أوّل هذا البحث. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يعنى: أهل الشك، فيحملون المحكم على المتشابه، و المتشابه على المحكم، و يلبسون فلبس اللّه عليهم وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ قال: تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلّا اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود

---

(۱). الصف: ۵.

(۲). الأنعام: ۱۵۱.

(۳). الإسراء: ۲۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۶۶

زَيْغٌ قال: شك. و فى الصحيحين و غيرهما عن عائشة قالت: «تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ

إلى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ إلى قوله: أَولُوا الْأَلْبابِ قالت:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى اللّه فاحذروهم». و فى لفظ: «فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى اللّه فاحذروهم» هذا لفظ البخارى. و لفظ ابن جرير و غيره: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، و الذين يجادلون فيه، فهم الذين عنى اللّه فلا تجالسوهم» و أخرج عبد بن حميد، و عبد الرزاق، و أحمد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن أبى أمامة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ قال:

هم الخوارج. و أخرج ابن جرير، و الحاكم، و صححه عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان الكتاب الأوّل ينزل من باب واحد على حرف واحد و نزل القرآن على سبعة أحرف: زاجر، و آمر، و حلال، و حرام، و محكم، و متشابه، و أمثال؛ فأحلّوا حلاله و حرّموا حرامه، و افعلوا ما أمرتم به، و انتهوا عمّا نهيتم عنه، و اعتبروا بأمثاله، و اعملوا بمحكمه، و آمنوا بمتشابهه، و قولوا آمنّا به كل من عند ربنا» و أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود موقوفا. و أخرج الطبرانى عن عمر بن أبى سلمة: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال لعبد اللّه ابن مسعود، فذكر نحوه. و أخرج البخارى فى التاريخ عن على مرفوعا بإسناد ضعيف نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى داود فى المصاحف عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن جرير، و أبو يعلى عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، و المراء فى القرآن كفر، ما عرفتم فاعملوا به، و ما جهلتم منه فردّوه إلى عالمه» و إسناده صحيح. و أخرج البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة مرفوعا، و فيه: «و اتبعوا المحكم و آمنوا بالمتشابه». و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، عن طاوس قال: كان ابن عباس يقرؤها و ما يعلم تأويله إلّا اللّه، و يقول الراسخون فى العلم آمنّا به و أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن الأعمش قال فى قراءة عبد اللّه: و إن حقيقة تأويله إلّا عند اللّه و الراسخون فى العلم يقولون آمنا به. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى الشعثاء و أبى نهيك قال: إنكم تصلون هذه الآية و هى مقطوعة وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا فانتهى علمهم إلى قولهم الذى قالوا. و أخرج ابن جرير عن عروة. قال: الراسخون فى العلم لا يعلمون تأويله، و لكنهم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن أبيّ قال: كتاب اللّه ما استبان فاعمل به، و ما اشتبه عليك فآمن به و كله إلى عالمه. و أخرج أيضا عن ابن مسعود قال: إن للقرآن منارا كمنار الطريق، فما عرفتم فتمسكوا به، و ما اشتبه عليكم فذروه. و أخرج أيضا عن معاذ نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: تفسير القرآن على أربعة وجوه: تفسير يعلمه العلماء، و تفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام، و تفسير تعرفه العرب بلغتها، و تفسير لا يعلم تأويله إلّا اللّه، من ادعى علمه فهو كذاب.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۶۷

و أخرج ابن جرير عنه قال: أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال و حرام، لا يعذر أحد بالجهالة به، و تفسير تفسره العرب، و تفسير تفسره العلماء، و متشابه لا يعلمه إلّا اللّه، و من ادّعى علمه سوى اللّه فهو كاذب. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه قال: أنا ممن يعلم تأويله. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق عطية العوفى عنه فى قوله: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ نؤمن بالمحكم، و ندين به، و نؤمن بالمتشابه، و لا ندين به و هو من عند اللّه كله. و أخرج الدارمى فى مسنده و نصر المقدسى فى الحجة عن سليمان بن يسار:

أن رجلا يقال له: ضبيع، قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن. فأرسل إليه عمر و قد أعدّ له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ فقال: أنا عبد اللّه ضبيع، فقال: و أنا عبد اللّه عمر، فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه، فقال: يا

أمير المؤمنين! حسبك، قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى.

و أخرجه الدارمى أيضا من وجه آخر، و فيه: أنه ضربه ثلاث مرات، يتركه فى كل مرة حتى يبرأ، ثم يضربه.

و أخرج أصل القصة ابن عساكر فى تاريخه عن أنس. و أخرج الدارمى، و ابن عساكر: أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا ضبيعا، و قد أخرج هذه القصة جماعة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن أنس و أبى أمامة، و واثلة بن الأسقع، و أبى الدرداء: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن الرّاسخين فى العلم؟ فقال: من برّت يمينه، و صدق لسانه، و استقام قلبه، و من عفّ بطنه و فرجه، فذلك من الراسخين فى العلم» و أخرج ابن عساكر من طريق عبد اللّه بن يزيد الأزدى عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج أبو داود، و الحاكم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الجدال فى القرآن كفر». و أخرج نصر المقدسى فى الحجة عن ابن عمر قال: «خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و من وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن، فخرج محمرّة و جنتاه كأنّما يقطران دما فقال: يا قوم! لا تجادلوا بالقرآن فإنّما ضلّ من كان قبلكم بجدالهم، إنّ القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا، و لكن نزل ليصدق بعضه بعضا، فما كان من محكمه فاعملوا به، و ما كان من متشابهه فآمنوا به».

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أم سلمة: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبى على دينك، ثم قرأ: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا الآية». و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و الترمذى، و ابن جرير، و الطبرانى و ابن مردويه عنه مرفوعا نحوه بأطول منه. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و ابن مردويه عن عائشة مرفوعا نحوه. و قد ورد نحوه من طرق أخر. و أخرج ابن النجار فى تاريخه فى قوله:

رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ الآية. عن جعفر بن محمد الخلدى قال: روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم «أن من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه ردّه اللّه عليه، و يقول بعد قراءتها: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه؛ اجمع بينى و بين مالى، إنك على كل شيء قدير».

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۶۸

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰ الى ۱۳]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (۱۰) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۱) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۲) قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (۱۳)

المراد بالذين كفروا: جنس الكفرة، و قيل: وفد نجران، و قيل: قريظة؛ و قيل: النضير؛ و قيل:

مشركو العرب. و قرأ السلمى: لن يغنى بالتحتية، و قرأ الحسن: بسكون الياء الآخرة تخفيفا. قوله:

مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: من عذابه شيئا من الإغناء؛ و قيل: إن كلمة: من، بمعنى عند، أى: لا تغنى عند اللّه شيئا، قاله أبو عبيد؛ و قيل: هى بمعنى بدل. و المعنى: بدل رحمة اللّه، و هو بعيد. قوله: وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ الوقود: اسم للحطب و قد تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة. أى: هم حطب جهنم الذى تسعر به، و هم: مبتدأ، و وقود: خبره، و الجملة: خبر أولئك، أو هم: ضمير فصل، و على التقديرين:

فالجملة مستأنفة، مقرّرة لقوله: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ الآية. و قرأ الحسن، و مجاهد، و طلحة بن مصرف وقود بضم الواو و هو

مصدر، و كذلك الوقود بفتح الواو فى قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسما للحطب كما تقدم، فلا يحتاج إلى تقدير، و يحتمل أن يكون مصدرا، لأنه من المصادر التى تأتى على وزن الفعول فتحتاج إلى تقدير: أى هم أهل وقود النار. قوله: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ الدأب: الاجتهاد، يقال: دأب الرجل فى عمله، يدأب، دأبا، و دؤوبا: إذا جدّ و اجتهد، و الدائبان: الليل و النهار، و الدأب: العادة و الشأن، و منه قول امرئ القيس:

كدأبك من أمّ الحويرث قبلهاو جارتها أمّ الرّباب بمأسل

و المراد هنا: كعادة آل فرعون و شأنهم و حالهم، و اختلفوا فى الكاف، فقيل: هى فى موضع رفع، تقديره: دأبهم كدأب آل فرعون مع موسى. و قال الفراء: إن المعنى: كفرت العرب ككفر آل فرعون.

قال النحاس: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا، لأن كفروا داخلة فى الصلة؛ و قيل: هى متعلقة بأخذهم اللّه، أى: أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون؛ و قيل: هى متعلقة بلن تغنى، أى: لم تغن عنهم غناء، كما لم تغن عن آل فرعون، و قيل: إن العامل فعل مقدر من لفظ الوقود، و يكون التشبيه فى نفس الإحراق.

قالوا: و يؤيده قوله تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا «١». أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ و القول الأوّل: هو الذى قاله جمهور المحققين، و منهم الأزهرى. قوله: وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة، أى: و كدأب الذين من قبلهم. قوله: كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يحتمل: أن يريد الآيات المتلوّة، و يحتمل: أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية، و يصح إرادة الجميع. و الجملة: بيان تفسير لدأبهم، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من آل فرعون و الذين من قبلهم، على إضمار قد، أى: دأب هؤلاء كدأب أولئك قد كذبوا إلخ. و قوله: بِذُنُوبِهِمْ أى: بسائر ذنوبهم التى من جملتها تكذيبهم. قوله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا قيل: هم اليهود؛ و قيل: هم مشركو مكة،

---

(١). غافر: ۴۶، و تمامها النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ

فتح القدير، ج ١، ص: ٣۶٩

و سيأتى بيان سبب نزول الآية. و قوله: سَتُغْلَبُونَ قرئ: بالفوقية، و التحتية، و كذلك:

تُحْشَرُونَ و قد صدق اللّه وعده بقتل بنى قريظة، و إجلاء بنى النضير، و فتح خيبر، و ضرب الجزية على سائر اليهود، و للّه الحمد. قوله: وَ بِئْسَ الْمِهادُ يحتمل: أن يكون من تمام القول الذى أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، و يحتمل: أن تكون الجملة مستأنفة تهويلا و تفظيعا. قوله: قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ أى: علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم، و هذه الجملة: جواب قسم محذوف، و هى من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ما قبله، و لم يقل: كانت، لأن التأنيث غير حقيقى. و قال الفراء: إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه و بين الاسم بقوله: لَكُمْ و المراد بالفئتين: المسلمون، و المشركون لما التقوا يوم بدر. قوله: فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قراءة الجمهور: برفع فئة. و قرأ الحسن، و مجاهد: «فئة» و «كافرة» بالخفض، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، أى: إحداهما فئة. و قوله: تُقاتِلُ فى محل رفع على الصفة، و الجرّ على البدل من قوله: فِئَتَيْنِ و قوله: وَ أُخْرى أى: و فئة أخرى كافرة.

و قرأ ابن أبى عبلة بالنصب فيهما. قال ثعلب: هو على الحال، أى: التقتا مختلفتين، مؤمنة و كافرة. و قال الزجاج: النصب بتقدير أعنى؛ و سميت الجماعة من الناس: فئة، لأنه يفاء إليها؛ أى: يرجع فى وقت الشدة.

و قال الزجاج: الفئة: الفرقة، مأخوذة من فأوت رأسه بالسيف، إذا قطعته، و لا خلاف أن المراد بالفئتين هما المقتتلتان فى يوم بدر، و إنما وقع الخلاف فى المخاطب بهذا الخطاب؛ فقيل: المخاطب بها المؤمنون؛ و قيل:

اليهود. و فائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم و تشجيعها، و فائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين. قوله: يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ قال أبو على الفارسى: الرؤية فى هذه الآية رؤية العين، و لذلك تعدت إلى مفعول واحد، و يدل عليه قوله: رَأْيَ الْعَيْنِ و المراد: أنه يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين، أو مثلى عدد المسلمين، و هذا على قراءة الجمهور: بالياء التحتية، و قرأ نافع: بالفوقية. و قوله:

مِثْلَيْهِمْ منتصب على الحال. و قد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم: المؤمنون، و المفعول هم:

الكفار. و الضمير فى مثليهم يحتمل أن يكون للمشركين، أى: ترون أيها المسلمون المشركين مثلى ما هم عليه من العدد، و فيه بعد أن يكثر اللّه المشركين فى أعين المؤمنين. و قد أخبرنا: أنه قللهم فى أعين المؤمنين، فيكون المعنى: ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم فى العدد و قد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلل اللّه المشركين فى أعين المسلمين فأراهم إياهم مثلى عدتهم لتقوى أنفسهم. و قد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، و يحتمل أن يكون الضمير فى مثليهم للمسلمين، أى: ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلى ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم، و قد قال من ذهب إلى التفسير الأوّل: أعنى: أن فاعل الرؤية المشركون، و أنهم رأوا المسلمين مثلى عددهم؛ أنه لا- يناقض هذا ما فى سورة الأنفال من قوله تعالى: وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ «١» بل قللوا أوّلا فى أعينهم ليلاقوهم و يجترئوا عليهم، فلمّا لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا. قوله: رَأْيَ الْعَيْنِ مصدر مؤكد لقوله: تَرَوْنَهُمْ أى: رؤية ظاهرة مكشوفة، لا لبس فيها وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ أى: يقوّى من يشاء أن يقويه، و من جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية، إِنَّ فِي ذلِكَ أى: فى

---

(١). الأنفال: ۴.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٣٧٠

رؤية القليل كثيرا لَعِبْرَةً فعلة من العبور، كالجلسة من الجلوس. و المراد الاتعاظ، و التنكير للتعظيم، أى: عبرة عظيمة، و موعظة جسيمة.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ قال: كصنيع آل فرعون. و أخرج ابن المنذر، و أبو الشيخ عنه قال: كفعل. و أخرج مثله أبو الشيخ عن مجاهد. و أخرج ابن جرير عن الربيع قال: كسنتهم. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس:

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب و رجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع قال: يا معشر يهود! أسلموا قبل أن يصيبكم اللّه بما أصاب قريشا، قالوا: يا محمد! لا يغرنّك من نفسك أن قتلت نفرا كانوا غمارا لا يعرفون القتال، إنك و اللّه لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس و أنك لم تلق مثلنا، فأنزل اللّه:

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ إلى قوله: لِأُولِي الْأَبْصارِ «١». و أخرج ابن جرير، و ابن إسحاق، و ابن أبى حاتم، عن عاصم بن عمر عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن عكرمة قال: قال فنحاص اليهودى، و ذكر نحوه. و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ: عبرة و تفكر. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ببدر وَ أُخْرى كافِرَةٌ فئة قريش الكفار. و أخرج عبد الرزاق أن هذه الآية نزلت فى أهل بدر. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله: قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ يقول: قد كان لكم فى هؤلاء عبرة و تفكر، أيدهم اللّه، و نصرهم على عدوهم يوم بدر، كان المشركون تسعمائة و خمسين رجلا، و كان أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال: هذا يوم بدر

نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية: قال: أنزلت فى التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا، و كان المشركون مثليهم ستّمائة و ستة و عشرين فأيّد اللّه المؤمنين.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٤ الى ١٧]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (١٧)

قوله: زُيِّنَ لِلنَّاسِ إلخ: كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس فى هذه الدار، و المزين:

قيل: هو اللّه سبحانه، و به قال عمر، كما حكاه عنه البخارى و غيره، و يؤيده قوله تعالى:

---

(١). آل عمران: ١٢- ١٣.

إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ «١». و قيل: المزين: هو الشيطان، و به قال الحسن، حكاه عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه. و قرأ الضحاك زُيِّنَ على البناء للفاعل. و قرأه الجمهور على البناء للمفعول. و المراد بالناس: الجنس. و الشهوات: جمع شهوة؛ و هى: نزوع النفس إلى ما تريده. و المراد هنا المشتهيات، عبر عنها بالشهوات مبالغة فى كونها مرغوبا فيها، أو تحقيرا لها لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية، و وجه تزيين اللّه سبحانه لها ابتلاء عباده كما صرح به فى الآية الأخرى. و قوله:

مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ فى محل الحال، أى: زين للناس حب الشهوات حال كونها من النساء و البنين إلخ.

و بدأ بالنساء لكثرة تشوق النفوس إليهنّ لأنهن حبائل الشيطان، و خص البنين دون البنات لعدم الاطراد فى محبتهن. و القناطير: جمع قنطار، و هو: اسم للكثير من المال. قال الزجاج: القنطار مأخوذ من عقد الشيء و إحكامه: تقول العرب: قنطرت الشيء: إذا أحكمته، و منه سميت: القنطرة، لإحكامها. و قد اختلف فى تقديره على أقوال للسلف، ستأتى إن شاء اللّه. و اختلفوا فى معنى: المقنطرة، فقال ابن جرير الطبرى:

معناها المضعفة، و قال القناطير: ثلاثة، و المقنطرة تسعة. و قال الفراء: القناطير: جمع القنطار، و المقنطرة:

جمع الجمع، فتكون تسع قناطير و قيل: المقنطرة: المضروبة؛ و قيل: المكملة، كما يقال: بدرة مبدرة، و ألوف مؤلفة، و به قال مكى و حكاه الهروى. و قال ابن كيسان: لا تكون المقنطرة أقلّ من سبع قناطير.

و قوله: مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ بيان للقناطير، أو حال وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ قيل هى المرعية فى المروج و المسارح، يقال سامت الدابة و الشاة: إذا سرحت؛ و قيل هى المعدّة للجهاد و قيل: هى الحسان؛ و قيل:

المعلمة، من السومة، و هى: العلامة، أى: التى يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها. و قال ابن فارس فى المجمل: المسومة: المرسلة و عليها ركبانها. و قال ابن كيسان: البلق. و الأنعام: هى الإبل و البقر و الغنم، فإذا قلت نعم فهى الإبل خاصة قاله الفراء و ابن كيسان، و منه قول حسان:

و كانت لا يزال بها أنيس‌خلال مروجها نعم و شاء

و الحرث: اسم لكل ما يحرث، و هو مصدر سمى به المحروث، يقول: حرث الرجل حرثا: إذا أثار الأرض، فيقع على الأرض و الزرع. قال ابن الأعرابى الحرث: التفتيش. قوله: ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أى: ذلك المذكور ما يتمتع به ثم يذهب و لا يبقى، و فيه تزهيد فى الدنيا و ترغيب فى الآخرة. و المآب: المرجع آب يؤوب إيابا: إذا رجع، و منه قول امرئ القيس:

و قد طوّفت فى الآفاق حتّى‌رضيت من الغنيمة بالإياب

قوله: قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ أى: هل أخبركم بما هو خير لكم من تلك المستلذات، و إبهام الخير للتفخيم، ثم بينه بقوله: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ و عند: فى محل نصب على الحال من جنات، و هى مبتدأ، و خبرها: للذين اتقوا، و يجوز أن تتعلق اللام بخير. و جنات: خبر مبتدأ مقدّر، أى: هو جنات، و خص المتقين لأنهم المنتفعون بذلك. و قد تقدّم تفسير قوله: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و ما بعده. قوله:

---

(١). الكهف: ٧.

فتح القدير، ج‌١، ص: ٣٧٢

الَّذِينَ يَقُولُونَ بدل من قوله: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين، أو منصوب على المدح، و الصابرين و ما بعده: نعت للموصول على تقدير كونه بدلا، أو منصوبا على المدح، و على تقدير كونه خبرا يكون الصابرين و ما بعده: منصوبة على المدح، و قد تقدّم تفسير الصبر و الصدق و القنوت. قوله: وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ هم السائلون للمغفرة بالأسحار، و قيل: المصلون. و الأسحار: جمع سحر بفتح الحاء و سكونها. قال الزجاج: هو من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر، و خص الأسحار لأنها من أوقات الإجابة.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب، لما نزلت: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ قال: الآن يا ربّ حين زينتها لنا، فنزلت: قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ و أخرجه ابن المنذر عنه بلفظ خير. انتهى إلى قوله: قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ فبكى و قال: بعد ماذا، بعد ماذا، بعد ما زينتها؟. و أخرج أحمد، و ابن ماجة عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «القنطار اثنا عشر ألف أوقيّة». رواه أحمد من حديث عبد الصمد بن عبد الوراث عن حماد عن عاصم عن أبى صالح عنه. و رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى بكر ابن أبى شيبة عن عبد الصمد به. و قد رواه ابن جرير موقوفا على أبى هريرة. قال ابن كثير: و هذا أصح.

و أخرج الحاكم و صححه عن أنس قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن القناطير المقنطرة فقال: «القنطار ألف أوقيّة». و رواه ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه مرفوعا بلفظ ألف دينار. و أخرج ابن جرير عن أبى بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، «القنطار ألف أوقيّة و مائتا أوقيّة». و أخرجه عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى من قول معاذ بن جبل، و أخرجه ابن جرير من قول معاذ بن جبل، و أخرجه ابن جرير من قول ابن عمر، و أخرجه عبد بن حميد، و ابن جرير و البيهقى من قول أبى هريرة، و أخرجه ابن جرير و البيهقى من قول ابن عباس. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال: القنطار ملء مسك (جلد) الثور ذهبا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه قال: القنطار سبعون ألفا، و أخرجه عبد بن حميد عن مجاهد.

و أخرج أيضا عن سعيد بن المسيب قال: القنطار ثمانون ألفا. و أخرج أيضا عن أبى صالح قال: القنطار مائة رطل. و أخرجه أيضا عن قتادة، و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر قال: القنطار خمسة عشر ألف مثقال، و المثال أربعة و عشرون قيراطا. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: هو المال الكثير من الذهب و الفضة.

و أخرجه أيضا عن الربيع. و أخرج عن السدى أن المقنطرة: المضروبة. و أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ قال: الراعية. و أخرج ابن المنذر عنه من طريق مجاهد. و أخرج ابن جرير عنه قال: هى الراعية و المطهمة الحسان. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد قال: هى المطهمة الحسان. و أخرجا عن عكرمة قال: تسويمها: حسنها. و أخرج ابن أبى حاتم قال: الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ الغرّة و التحجيل. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: الصَّابِرِينَ قال: قوم صبروا على طاعة اللّه و صبروا عن محارمه، وَ الصَّادِقِينَ قوم صدقت نياتهم، و استقامت قلوبهم و ألسنتهم، و صدقوا فى السرّ و العلانية، وَ الْقانِتِينَ هم المطيعون وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ أهل الصلاة. و أخرج ابن أبى حاتم

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٧٣

عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة قال: هم الذين يشهدون صلاة الصبح. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن أنس قال: أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نستغفر بالأسحار سبعين مرة. و أخرج ابن جرير، و أحمد فى الزهد عن سعيد الجريرى قال: بلغنا أن داود عليه السلام سأل جبريل فقال: يا جبريل! أى الليل أفضل؟ قال: يا داود! ما أدرى إلا أن العرش يهتز فى السحر. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن جماعة من الصحابة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ينزل اللّه تبارك و تعالى فى كلّ ليلة إلى سماء الدنيا حتّى يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨ الى ٢٠]

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩) فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٢٠)

قوله: شَهِدَ اللَّهُ أى: بين و أعلم. قال الزجاج: الشاهد: هو الذين يعلم الشيء و يبينه، فقد دلنا اللّه على وحدانيته بما خلق و بين؛ و قال أبو عبيدة: شهد اللّه بمعنى: قضى، أى: أعلم. قال ابن عطية:

و هذا مردود من جهات، و قيل: إنها شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله، و وحيه بشهادة الشاهد فى كونها مبينة. و قوله: أنه، بفتح الهمزة. قال المبرد: أى: بأنه، ثم حذفت الباء، كما فى: أمرتك الخير، أى:

بالخير. و قرأ ابن عباس: «إنه» بكسر الهمزة، بتضمين شهد معنى قال. و قرأ أبو المهلب: شُهَداءَ لِلَّهِ بالنصب على أنه حال من الصابرين و ما بعده، أو على المدح وَ الْمَلائِكَةُ عطف على الاسم الشريف، و شهادتهم: إقرارهم بأنه لا إله إلا اللّه. و قوله: وَ أُولُوا الْعِلْمِ معطوف أيضا على ما قبله، و شهادتهم:

بمعنى الإيمان منهم، و ما يقع من البيان للناس على ألسنتهم، و على هذا لا بدّ من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة اللّه، و شهادة الملائكة، و أولى العلم. و قد اختلف فى: أولى العلم هؤلاء، من هم؟ فقيل: هم الأنبياء؛ و قيل: المهاجرون و الأنصار، قاله ابن كيسان؛ و قيل: مؤمنو أهل الكتاب، قاله مقاتل؛ و قيل:

المؤمنون كلهم، قاله السدى و الكلبى، و هو الحق، إذ لا وجه للتخصيص. و فى ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة، و منقبة نبيلة لقرنهم باسمه و اسم ملائكته، و المراد بأولى العلم هنا: علماء الكتاب و السنة، و ما يتوصل به إلى معرفتهما، إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له فى العلم الذى اشتمل عليه الكتاب العزيز و السنة المطهرة.

و قوله: قائِماً بِالْقِسْطِ: أى العدل، أى: قائما بالعدل فى جميع أموره أو مقيما له، و انتصاب قائما:
على الحال من الاسم الشريف. قال فى الكشاف: إنها حال مؤكدة كقوله: وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً «١» و جاز إفراده سبحانه بذلك دون ما هو معطوف عليه من الملائكة و أولى العلم لعدم اللبس؛ و قيل: إنه منصوب على

---

(١). البقرة: ٩١.

المدح؛ و قيل: إنه صفة لقوله: إِلهَ أى: لا إله قائما بالقسط إلا هو، أو هو حال من قوله: إِلَّا هُوَ و العامل فيه معنى الجملة. و قال الفراء: هو منصوب على القطع، لأن أصله الألف و اللام، فلما قطعت نصب كقوله: وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً «١» و يدل عليه قراءة عبد اللّه بن مسعود: القائم بالقسط. و قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ تكرير لقصد التأكيد؛ و قيل: إن قوله: أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كالدعوى، و الأخيرة كالحكم.

و قال جعفر الصادق: الأولى: وصف و توحيد، و الثانية: رسم و تعليم. و قوله: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ مرتفعان على البدلية من الضمير، أو الوصفية لفاعل شهد، لتقرير معنى الوحدانية. قوله: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ قرأه الجمهور: بكسر إن، على أن الجملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى، و قرئ: بفتح أن، قال الكسائى: أنصبهما جميعا يعنى قوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ و قوله: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ بمعنى شهد اللّه أنه كذا و أن الدين عند اللّه الإسلام. قال ابن كيسان: إن الثانية بدل من الأولى. و قد ذهب الجمهور: إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان و إن كانا فى الأصل متغايرين، كما فى حديث جبريل الذى بين فيه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معنى الإسلام، و معنى الإيمان، و صدقه جبريل، و هو فى الصحيحين و غيرهما، و لكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر، و قد ورد ذلك فى الكتاب و السنة. قوله: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود و النصارى كان لمجرد البغى؛ بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول فى دين الإسلام؛ بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم. قال الأخفش: و فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلّا من بعد ما جاءهم العلم. و المراد بهذا الخلاف الواقع بينهم: هو خلافهم فى كون نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم نبيا أم لا؟ و قيل: اختلافهم فى نبوّة عيسى؛ و قيل:

اختلافهم فى ذات بينهم، حتى قالت اليهود: ليس النصارى على شىء، و قالت النصارى: ليس اليهود على شىء. قوله: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ أى: بالآيات الدالة على أن الدين عند اللّه الإسلام فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ فيجازيه، و يعاقبه على كفره بآياته، و الإظهار فى قوله: فإن اللّه، مع كونه مقام الإضمار:

للتهويل عليهم و التهديد لهم. قوله: فَإِنْ حَاجُّوكَ أى: جادلوك بالشبه الباطلة و الأقوال المحرّفة، فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ أى: أخلصت ذاتى للّه، و عبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان، و أجمعها للحواس، و قيل: الوجه هنا: بمعنى القصد. و قوله: وَ مَنِ اتَّبَعَنِ عطف على فاعل أسلمت، و جاز للفصل، و أثبت نافع، و أبو عمرو، و يعقوب الياء فى: اتبعن، على الأصل و حذفها الآخرون اتباعا لرسم المصحف، و يجوز أن تكون الواو بمعنى: مع، و المراد بالأميين هنا: مشركو العرب. و قوله: أَ أَسْلَمْتُمْ استفهام تقرير يتضمن الأمر، أى: أسلموا، كذا قاله ابن جرير و غيره. و قال الزجاج:

أَ أَسْلَمْتُمْ تهديد، و المعنى: أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام، فهل عملتم بموجب ذلك أم لا؟ تبكيتا لهم و تصغيرا لشأنهم فى الإنصاف و قبول الحق. و قوله: فَقَدِ اهْتَدَوْا أى: ظفروا بالهداية التى هى الحظ الأكبر، و فازوا بخير الدنيا و الآخرة وَ إِنْ تَوَلَّوْا أى: أعرضوا عن قبول الحجة و لم يعملوا بموجبها: فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ أى: فإنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك، و

لست عليهم بمسيطر، فلا

---

(١). النحل: ٥٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٧٥

تذهب نفسك عليهم حسرات، و البلاغ: مصدر. و قوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فيه وعد و وعيد، لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم. و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: قائِماً بِالْقِسْطِ قال: بالعدل. و أخرج أيضا عن ابن عباس مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ قال:

الإسلام: شهادة أن لا إله إلا اللّه، و الإقرار بما جاء به من عند اللّه، و هو دين اللّه الذى شرع لنفسه، و بعث به رسله، و دلّ عليه أولياءه، لا يقبل غيره. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال: لم يبعث اللّه رسولا إلا بالإسلام. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: كان حول البيت ستون و ثلاثمائة صنم، لكل قبيلة من قبائل العرب صنم أو صنمان، فأنزل اللّه: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الآية، فأصبحت الأصنام كلها قد خرّت سجدا للكعبة. و أخرج ابن السنى فى عمل اليوم و الليلة، و أبو منصور الشحامى فى الأربعين عن على قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن فاتحة الكتاب، و آية الكرسى، و الآيتين من آل عمران: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ- إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ و قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ «١» إلى قوله: بِغَيْرِ حِسابٍ «٢» هن معلقات بالعرش ما بينهن و بين اللّه حجاب، يقلن يا ربّ تهبطنا إلى أرضك و إلى من يعصيك؟ قال اللّه: إنى حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادى دبر كلّ صلاة إلا جعلت الجنّة مأواه على ما كان منه، و إلا أسكنته حظيرة القدس، و إلا نظرت إليه بعينى المكنونة كلّ يوم سبعين نظرة، و إلا قضيت له كلّ يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، و إلا أعذته من كلّ عدوّ و نصرته منه». و أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى أيوب الأنصارى مرفوعا نحوه، و فيه: «لا يتلو كنّ عبد دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه، و أسكنته جنة الفردوس، و نظرت إليه كلّ يوم سبعين مرة، و قضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة». و أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن السنى عن الزبير بن العوام قال: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو بعرفة يقرأ هذه الآية:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فقال:

و أنا على ذلك من الشاهدين» و لفظ الطبرانى: «و أنا أشهد أن لا إله إلا أنت العزيز الحكيم». و أخرج ابن عدى، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى شعب الإيمان، و ضعفه، و الخطيب فى تاريخه، و ابن النجار عن غالب القطان قال: أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمرّ بهذه الآية «٣» شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إلى قوله: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ فقال: و أنا أشهد بما شهد به اللّه، و أستودع اللّه هذه الشهادة؛ و هى لى وديعة عند اللّه، قالها مرارا، فقلت: لقد سمع فيها شيئا فسألته فقال: حدثنى أبو وائل عن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

---

(١). آل عمران: ٢٦.

(٢). آل عمران: ٢٧.

(٣). الصواب: الآيتين.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٧٦

«يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول اللّه: عبدى عهد إلىّ و أنا أحقّ من وفّى بالعهد أدخلوا عبدى الجنّة».
و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: بنو إسرائيل. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: بَغْياً بَيْنَهُمْ يقول: بغيا على الدنيا و طلب ملكها و سلطانها، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: فَإِنْ حَاجُّوكَ قال: إن حاجك اليهود و النصارى. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: اليهود و النصارى وَ الْأُمِّيِّينَ قال: هم الذين لا يكتبون.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢١ الى ٢٥]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٢) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٥)

قوله: بِآياتِ اللَّهِ ظاهره: عدم الفرق بين آية و آية وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ يعنى: اليهود قتلوا الأنبياء وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ أى: بالعدل. و هم الذين يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر. قال المبرد: كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيون، فدعوهم إلى اللّه، فقتلوهم، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام، فقتلوهم. ففيهم نزلت الآية. و قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ خبر إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ إلخ، و دخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، و ذهب بعض أهل النحو: إلى أن الخبر قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ و قالوا إن الفاء لا تدخل فى خبر إن و إن تضمن اسمها معنى الشرط، لأنه قد نسخ بدخول إن عليه، و منهم سيبويه، و الأخفش و ذهب غيرهما: إلى أن ما يتضمنه المبتدأ من معنى الشرط لا ينسخ بدخول إن عليه، و مثل المكسورة المفتوحة، و منه قوله تعالى:
وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ «١». و قوله: حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ قد تقدم تفسير الإحباط، و معنى كونها حبطت فى الدنيا و الآخرة: أنه لم يبق لحسناتهم أثر فى الدنيا، حتى يعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات، بل عوملوا معاملة أهل السيئات، فلعنوا، و حل بهم الخزى و الصغار، و لهم فى الآخرة عذاب النار.
قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ فيه تعجيب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لكل من تصح منه الرؤية من حال هؤلاء، و هم: أحبار اليهود. و الكتاب: التوراة، و تنكير النصيب للتعظيم، أى: نصيبا عظيما، كما يفيده مقام المبالغة، و من قال: إن التنكير للتحقير فلم يصب. فلم ينتفعوا بذلك، و ذلك بأنهم

(١). الأنفال: ٤١.

يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ الذى أوتوا نصيبا منه و هو التوراة لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ و الحال معرضون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه مع علمهم به و اعترافهم بوجوب الإجابة إليه، و ذلِكَ إشارة إلى ما مر من التولّى و الإعراض بسبب بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ و هى مقدار عبادتهم العجل.

و قد تقدم تفسير ذلك: وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ من الأكاذيب التى من جملتها هذا القول.
قوله: فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ هو رد عليهم و إبطال لما غرهم من الأكاذيب، أى: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه و هو يوم الجزاء الذى لا يرتاب مرتاب فى وقوعه؟، فإنهم يقعون لا محالة، و يعجزون عن دفعه بالحيل و الأكاذيب وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ أى: جزاء ما كسبت، على حذف المضاف وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ بزيادة و لا نقص. و المراد: كل الناس المدلول عليهم بكل نفس قال الكسائى: اللام فى قوله: لِيَوْمٍ بمعنى: فى، و قال البصريون: المعنى: لحساب يوم، و قال ابن جرير الطبرى: المعنى: لما يحدث فى يوم.
و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح «قلت: يا رسول اللّه! أىّ الناس أشدّ عذابا يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبيا، أو رجلا أمر بالمعروف و نهى عن المنكر، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الَّذِينَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ إلى قوله: وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: يا أبا عبيدة! قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيا أوّل النهار فى ساعة واحدة، فقام مائة رجل و سبعون رجلا من عبّاد بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف و نهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر اللّه». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس: قال: بعث عيسى يحيى بن زكريا فى اثنى عشر رجلا من الحواريين يعلمون الناس، فكان ينهى عن نكاح بنت الأخ، و كان ملك له بنت أخ تعجبه فأرادها و جعل يقضى لها كل يوم حاجة، فقالت لها أمها: إذا سألك عن حاجة فقولى حاجتى أن تقتل يحيى بن زكريا، فقال: سلى غير هذا، فقالت:
لا أسألك غير هذا، فلما أبت أمر به فذبح فى طست، فبدرت قطرة من دمه فلم تزل تغلى حتى بعث اللّه بختنصر، فدلت عجوز عليه، فألقى فى نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم، فقتل فى يوم واحد من ضرب واحد و سن واحد سبعين ألفا فسكن.
و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن معقل ابن أبى مسكين فى الآية قال: كان الوحى يأتى بنى إسرائيل فيذكرون قومهم و لم يكن يأتيهم كتاب، فيقوم رجال ممن اتبعهم و صدقهم فيذكرون قومهم، فيقتلون، فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس. و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه، و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: الذين يأمرون بالقسط من الناس: ولاة العدل.
و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى اللّه، فقال له النعمان بن عمرو و الحارث بن زيد: على أى دين أتيت يا محمد؟ قال: «على ملّة إبراهيم و دينه» قال: فإن إبراهيم كان يهوديا. قال لهما النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «فهلمّا إلى التوراة فهى بيننا و بينكم» فأبيا عليه، فأنزل اللّه أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً
فتح القدير، ج ١، ص: ٣٧٨
مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: نَصِيباً قال:
حظا مِنَ الْكِتابِ قال: التوراة. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله: قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ قال: يعنون الأيام التى خلق اللّه فيها آدم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ حين قالوا نحن أبناء اللّه و أحباؤه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ يعنى توفّى كل نفس برّ أو فاجر ما كَسَبَتْ ما عملت من خير أو شرّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ يعنى: من أعمالهم.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُـذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَـدِکَ الْخَيْرُ إِنَّکَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (٢۶) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢٧)

قوله: قُلِ اللَّهُمَ قال الخليل و سيبويه و جميع البصريين: إن أصل اللهم يا اللّه، فلما استعملت الكلمـة دون حرف النـداء الذى هو «يا»؛ جعلوا بدله هذه الميم المشددة، فجاؤوا بحرفين و هما الميمان عوضا من حرفين و هما الياء و الألف؛ و الضمة فى الهاء: هى ضمة الاسم المنادى المفرد. و ذهب الفراء و الكوفيون:

إلى أن الأصل فى اللهم يا اللّه أمنا بخير، فحذف و خلط الكلمتين؛ و الضمة التى فى الهاء: هى الضمة التى كانت فى أمنا، لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة. قال النحاس: هذا عند الكوفيين من الخطأ العظيم، و القول فى هذا: ما قاله الخليل و سيبويه. و قال الكوفيون: و قد يدخل حرف النداء على اللهمّ، و أنشدوا فى ذلک قول الراجز:

غفرت أو عذّبت يا اللّهمّا و قول الآخر:

و ما عليک أن تقولى كلّماسبّحت أو هلّلت يا اللّهمّ ما

و قول الآخر:

إنّى إذا ما حدث ألمّاأقول يا اللّهمّ يا اللّهمّا

قالوا: و لو كان الميم عوضا من حرف النداء لما اجتمعا. قال الزجاج: هذا شاذ لا يعرف قائله. قال النضر بن شميل: من قال: اللهم، فقد دعا اللّه بجميع أسمائه. قوله: مالِكَ الْمُلْكِ أى: مالک جنس الملک على الإطلاق، و مالک: منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان، أى: يا مالک الملک، و لا يجوز عنده أن يكون وصفا لقوله: اللَّهُمَ لأن الميم عنده تمنع الوصفية. و قال محمد بن يزيد المبرد، و إبراهيم بن السرى الزجاج: إنه صفة لاسم اللّه تعالى، و كذلک قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ «١».

قال أبو على الفارسى: و هو مذهب المبرد، و ما قاله سيبويه أصوب و أبين، و ذلک لأنه اسم مفرد ضم إليه

---

(١). الزمر: ۴۶.

صوت، و الأصوات لا توصف، نحو: غاق و ما أشبهه. قال الزجاج: و المعنى مالک العباد و ما ملكوا؛ و قيل:

المعنى مالک الدنيا و الآخرة؛ و قيل: الملک هنا: النبوة؛ و قيل: الغلبة؛ و قيل: المال و العبيد. و الظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملک من غير تخصيص: تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشاءُ أى: من تشاء إيتاءه إياه وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشاءُ نزعه منه. و المراد بما يؤتيه من الملک و ينزعه: هو نوع من أنواع ذلک الملک العام. قوله:

وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ أى: فى الدنيا، أو فى الآخرة، أو فيهما، يقال: عزّ، إذا غلب، و منه: وَ عَزَّنِی فِی الْخِطابِ «١» و قوله: وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ أى: فى الدنيا، أو فى الآخرة، أو فيهما، يقال: ذلّ ذلا، إذا غلب و قهر. قوله: بِيَدِکَ الْخَيْرُ تقديم الخبر للتخصيص، أى: بيدک الخير لا بيد غيرک، و ذكر الخير دون الشرّ: لأن الخير بفضل محض، بخلاف الشرّ فإنه يكون جزاء لعمل وصل إليه. و قيل: لأن كل شرّ من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير، فأفعاله كلها خير، و قيل: إنّه حذف كما حذف فى قوله: سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٢» و أصله: بيدک الخير و الشرّ؛ و قيل: خص الخير لأن المقام مقام دعاء.

قوله: إِنَّکَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ: تعليل لما سبق و تحقيق له. قوله: تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أى: تدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر؛ و قيل: المعنى: تعاقب بينهما، و يكون زوال أحدهما ولوجا فى الآخر. قوله: وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ قيل: المراد إخراج الحيوان و هو حيّ من النطفة و هى ميتة، و إخراج النطفة و هى ميتة من الحيوان و هو حيّ؛ و قيل: المراد إخراج الطائر و هو حى من البيضة و هى ميتة، و إخراج البيضة و هى ميتة من الدجاجة و هى حيةؤ؛ و قيل: المراد إخراج المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن. قوله: بِغَيْرِ حِسابٍ أى: بغير تضييق و لا تقتير، كما تقول: فلان يعطى بغير حساب، و الباء: متعلقة بمحذوف وقع حالا.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سأل ربه أن يجعل ملك فارس و الروم فى أمته، فنزلت الآية. و أخرج الطبرانى، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:

اسم اللّه الأعظم: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ إلى قوله: بِغَيْرِ حِسابٍ و أخرج ابن أبى الدنيا و الطبرانى عن معاذ: «أنه شكا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم دينا عليه، فعلمه أن يتلو هذه الآية، ثم يقول: رحمن الدنيا و الآخرة و رحيمهما، تعطى من تشاء منهما و تمنع من تشاء، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك، اللهمّ أغننى من الفقر و اقض عنى الدّين». و أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لمعاذ: «أ لا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه اللّه عنك» فذكره، و إسناده جيد و قد تقدم عند تفسير قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ «٣» بعض فضائل هذه الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ قال: النبوة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله: تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ الآية، قال:

تأخذ الصيف من الشتاء، و تأخذ الشتاء من الصيف وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ تخرج الرجل الحىّ من النطفة الميتة وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ تخرج النطفة الميتة من الرجل الحىّ. و أخرج عبد بن حميد، و ابن

---

(١). ص: ٢٣.

(٢). النحل: ٨١.

(٣). آل عمران: ١٨.

جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ قال: ما نقص من النهار تجعله فى الليل، و ما نقص من الليل تجعله فى النهار. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه أيضا. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ قال: تخرج النطفة الميتة من الحى، ثم تخرج من النطفة بشرا حيا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن عكرمة: تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ قال: هى البيضة تخرج من الحىّ و هى ميتة، ثم يخرج منها الحىّ. و أخرج ابن جرير عنه قال: النخلة من النواة، و النواة من النخلة، و الحبة من السنبلة، و السنبلة من الحبة. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن أبى مالك مثله. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن الحسن قال: المؤمن من الكافر، و الكافر من المؤمن. و المؤمن عبد حىّ الفؤاد، و الكافر عبد ميت الفؤاد. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن سلمان الفارسى نحوه. و أخرج ابن مردويه عنه مرفوعا نحوه. و أخرجه أيضا عنه، أو عن ابن مسعود مرفوعا. و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عبيد اللّه بن عبد اللّه: «أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: من هذه؟ قيل: خالدة بنت الأسود، قال: سبحان الذى يخرج الحىّ من الميت» و كانت امرأة صالحة، و كان أبوها كافرا. و أخرج ابن سعد عن عائشة مثله.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٣٠)

قوله: لا يَتَّخِذِ فيه النهى للمؤمنين عن موالاة الكفار لسبب من الأسباب، و مثله قوله تعالى: لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ «١» الآية، و قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ «٢» و قوله: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ «٣» الآية، و قوله: لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ «۴»، و قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ «۵». و قوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فى محل الحال، أى: متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالا أو اشتراكا، و الإشارة بقوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ إلى الاتخاذ المدلول عليه بقوله: لا يَتَّخِذِ و معنى قوله: فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ أى: من ولايته فى شيء من الأشياء، بل هو منسلخ عنه بكل حال. قوله: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً على صيغة الخطاب بطريق الالتفات، أى:

إلا أن تخافوا منهم أمرا يجب اتقاؤه، و هو استثناء مفرغ من أعم الأحوال. و تقاة: مصدر واقع موقع المفعول، و أصلها: وقية، على وزن فعلة، قلبت الواو تاء و الياء ألفا، و قرأ رجاء، و قتادة تقية. و فى ذلك دليل على

---

(١). آل عمران: ١١٨.

(٢). المائدة: ۵١.

(٣). المجادلة: ٢٢.

(۴). المائدة: ۵١.

(۵). الممتحنة: ١.

جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم، و لكنها تكون ظاهرا لا باطنا. و خالف فى ذلك قوم من السلف، فقالوا: لا تقية بعد أن أعز اللّه الإسلام. قوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ أى: ذاته المقدسة، و إطلاق ذلك عليه سبحانه جائز فى المشاكلة كقوله: تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ «١» و فى غيرها. و ذهب بعض المتأخرين. إلى منع ذلك إلا مشاكلة. و قال الزجاج: معناه: و يحذركم اللّه إياه، ثم استغنوا عن ذلك بهذا و صار المستعمل. قال: و أما قوله: تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ فمعناه: تعلم ما عندى و ما فى حقيقتي و لا أعلم ما عندك و لا ما فى حقيقتك. و قال بعض أهل العلم: معناه: و يحذركم اللّه عقابه مثل: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «٢» فجعلت النفس فى موضع الإضمار، و فى هذه الآية تهديد شديد، و تخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه. قوله: قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ الآية، فيه أن كل ما يضمره العبد و يخفيه، أو يظهره و يبديه، فهو معلوم للّه سبحانه، لا يخفى عليه منه شيء و لا يعزب عنه مثقال ذرة وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مما هو أعم من الأمور التى يخفونها أو يبدونها، فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك. قوله: يَوْمَ تَجِدُ منصوب بقوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ و قيل:

بمحذوف، أى: اذكر، و مُحْضَراً حال، و قوله: وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ معطوف على ما الأولى، أى: و تجد ما عملت من سوء محضرا

تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا. فحذف محضرا لدلالة الأول عليه، و هذا إذا كان تَجِدُ من وجدان الضالة، و أما إذا كان من: وجد، بمعنى: علم، كان محضرا هو المفعول الثانى، و يجوز أن يكون قوله: وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً جملة مستأنفة، و يكون ما فى: ما عملت، مبتدأ، و يودّ خبره. و الأمد: الغاية، و جمعه آماد، أى: تودّ لو أن بينها و بين ما عملت من السوء أمدا بعيدا؛ و قيل: إن قوله: يَوْمَ تَجِدُ منصوب بقوله: تَوَدُّ و الضمير فى قوله: وَ بَيْنَهُ لليوم، و فيه بعد، و كرر قوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ للتأكيد و للاستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم، و فى قوله: وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفا بهم. و ما أحسن ما يحكى عن بعض العرب أنه قيل له: إنك تموت و تبعث و ترجع إلى اللّه فقال: أ تهددوننى بمن لم أر الخير قط إلا منه.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، و ابن أبى الحقيق، و قيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، و عبد اللّه بن جبير، و سعد بن خثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود، و احذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر، فأنزل اللّه فيهم: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ إلى قوله: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عنه قال:

نهى اللّه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار و يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين؛ إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف و يخالفونهم فى الدين، و ذلك قوله تعالى: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ فقد برىء اللّه منه. و أخرج

---

(١). المائدة: ١١٦.

(٢). يوسف: ٨٢.

ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً قال: التقية باللسان: من حمل على أمر يتكلم به، و هو معصية للّه فيتكلم به مخافة الناس و قلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره، إنما التقية باللسان. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عنه فى الآية قال: التقاة: التكلم باللسان، و القلب مطمئن بالإيمان، و لا يبسط يده فيقتل و لا إلى إثم فإنه لا عذر له. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى الآية قال: التقية باللسان، و ليس بالعمل.

و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً قال إلا أن يكون بينك و بينه قرابة فتصله لذلك. و أخرج عبد بن حميد، و البخارى عن الحسن قال: التقية جائزة إلى يوم القيامة. و حكى البخارى عن أبى الدرداء أنه قال: إنا نبش فى وجوه أقوام و قلوبنا تلعنهم.

و يدل على جواز التقية. قوله تعالى: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ «١» و من القائلين بجواز التقية باللسان: أبو الشعثاء، و الضحاك، و الربيع بن أنس. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: قُلْ إِنْ تُخْفُوا الآية قال:

أخبرهم: أنه يعلم ما أسروا و ما أعلنوا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: محضرا:

يقول: موفرا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: يسر أحدكم أن لا يلقى عمله ذلك أبدا، يكون ذلك

مناه، و أما فى الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها. و أخرجا أيضا عن السدى: أَمَداً بَعِيداً قال: مكانا بعيدا. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج أمدا قال: أجلا- و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ قال: من رأفته بهم حذرهم نفسه.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٣١ الى ٣٤]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٣٢) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

الحب و المحبة: ميل النفس إلى الشيء، يقال: أحبّه فهو محبّ، و حبّه يحبّه بالكسر، فهو محبوب. قال الجوهرى: و هذا شاذ، لأنه لا يأتى فى المضاعف يفعل بالكسر. قال ابن الدهان: فى حبّ لغتان: حبّ، و أحبّ، و أصل حبّ فى هذه الباب: حبب، كطرق، و قد فسرت المحبة للّه سبحانه بإرادة طاعته. قال الأزهرى: محبة العبد للّه و رسوله: طاعته لهما و اتباعه أمرهما، و محبة اللّه للعباد: إنعامه عليهم بالغفران. و قرأ أبو رجاء العطاردى: فَاتَّبِعُونِي بفتح الباء، و روى عن أبى عمرة بن العلاء أنه أدغم الراء من يغفر فى اللام. قال النحاس: لا- يجيز الخليل و سيبويه إدغام الراء فى اللام، و أبو عمرة أجلّ من أن يغلط فى هذا، و لعله كان يخفى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة. قوله: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أى: فى جميع الأوامر و النواهى. قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا يحتمل أن يكون من تمام مقول القول،

---

(١). النحل: ١٠٦.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٨٣

فيكون مضارعا حذفت فيه إحدى التاءين: أى تتولوا، و يحتمل أن يكون من كلام اللّه تعالى، فيكون ماضيا.

و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ نفى المحبة كناية عن البغض و السخط. و وجه الإظهار فى قوله:

فَإِنَّ اللَّهَ مع كون المقام مقام إضمار لقصد التعظيم أو التعميم. قوله: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ إلخ.

لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضى هو الإسلام، و أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم هو الرسول الذى لا يصح لأحد أن يحب اللّه إلا باتباعه، و أن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغى عليه و الحسد له، شرع فى تقرير رسالة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بين أنه من أهل بيت النبوة و معدن الرسالة. و الاصطفاء: الاختيار. قال الزجاج: اختارهم بالنبوة على عالمى زمانهم؛ و قيل: إن الكلام على تقدير مضاف، أى: اصطفى دين آدم، إلخ، و قد تقدم الكلام على تفسير العالمين، و تخصيص آدم بالذكر لأنه أبو البشر، و كذلك نوح، فإنه آدم الثانى، و أما آل إبراهيم، فلكون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم منهم مع كثرة الأنبياء منهم. و أما آل عمران، فهم و إن كانوا من آل إبراهيم، فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه. و قيل: المراد بآل إبراهيم: إبراهيم نفسه، و بآل عمران: عمران نفسه. قوله: ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ نصب ذرية على البدلية مما قبله، قاله الزجاج: أو على الحالية، قاله الأخفش، و قد تقدم تفسير الذرية، و بعضها من بعض فى محل نصب على صفة الذرية، و معناه: متناسلة متشعبة، أو متناصرة متعاضدة فى الدين.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الحسن من طرق قال: قال أقوام على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: و اللّه يا محمد! إنا لنحب ربنا. فأنزل اللّه: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ الآية. و أخرج الحكيم الترمذى عن يحيى بن كثير نحوه.

و أخرج أيضا ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ أي: إن كان هذا من قولكم في عيسى حبا للّه و تعظيما له فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أي: ما مضى من كفركم وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ و أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء في قوله: وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم، و آل عمران، و آل ياسين، و آل محمد. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ قال في النية و العمل، و الإخلاص و التوحيد.

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۵ الى ۳۷]

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۵) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (۳۶) فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۷)

قوله: إِذْ قالَتِ قال أبو عمرو: إِذْ زائدة. و قال محمد بن يزيد: إنه متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر إذ قالت. و قال الزجاج: هو متعلق بقوله: اصْطَفى و قيل: متعلق بقوله: سَمِيعٌ عَلِيمٌ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۸۴

و امرأة عمران اسمها: حنة، بالحاء المهملة و النون، بنت فاقود بن قبيل أم مريم، فهي جدة عيسى.

و عمران: هو ابن ماثان جد عيسى. قوله: رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي تقديم الجار و المجرور لكمال العناية، و هذا النذر كان جائزا في شريعتهم. و معنى: لَكَ أي: لعبادتك. و محررا: منصوب على الحال، أي: عتيقا خالصا للّه خادما للكنيسة. و المراد هنا: الحرية التي هي ضد العبودية. و قيل: المراد بالمحرر هنا: الخالص للّه سبحانه، الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. و رجح هذا بأنه لا خلاف أن عمران و امرأته حران. قوله: فَتَقَبَّلْ مِنِّي التقبل: أخذ الشيء على وجه الرضا، أي: تقبل مني نذري بما في بطني. قوله: فَلَمَّا وَضَعَتْها التأنيث باعتبار ما علم من المقام أن الذي في بطنها أنثى، أو لكونه أنثى في علم اللّه، أو بتأويل ما في بطنها بالنفس أو النسمة أو نحو ذلك. قوله: قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى إنما قالت هذه المقالة لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكر دون الأنثى، فكأنها تحسرت و تحزنت لما فاتها من ذلك الذي كانت ترجوه و تقدره، و أنثى: حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه. قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ قرأ أبو بكر، و ابن عامر، بضم التاء فيكون من جملة كلامها و يكون متصلا بما قبله، و فيه معنى:

التسليم للّه و الخضوع و التنزيه له أن يخفى عليه شيء. و قرأ الجمهور: وضعت، فيكون من كلام اللّه سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته، و التفخيم لشأنه، و التجليل لها، حيث وقع منها التحسر و التحزن، مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيجعلها اللّه و ابنها آية للعالمين و عبرة للمعتبرين، و يختصها بما لم يختص به أحدا. و قرأ ابن عباس بِما وَضَعْتِ بكسر التاء على أنه خطاب من اللّه سبحانه لها، أي: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب، و ما علم اللّه فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام، و تتضافر عندها العقول. قوله: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى أي: و ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وضعت، فإن غاية ما أرادت من كونه ذكرا أن يكون نذرا خادما للكنيسة، و أمر هذه الأنثى عظيم و شأنها فخيم. و هذه الجملة اعتراضية مبينة لما في الجملة الأولى من تعظيم الموضوع و رفع شأنه و علوّ منزلته، و اللام في: الذكر و الأنثى للعهد، هذا على قراءة الجمهور، و على قراءة ابن عباس، و أما على قراءة أبي بكر، و ابن عامر، فيكون قوله: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى من جملة كلامها و من تمام تحسرها و تحزنها، أي: ليس الذكر

الذی أردت أن یكون خادما، و یصلح للنذر، كالأنثی التی لا تصلح لذلك، و كأنها أعذرت إلی ربها من وجودها لها علی خلاف ما قصدت. قوله: وَ إِنِّی سَمَّیْتُها مَرْیَمَ عطف علی إِنِّی وَضَعْتُها أُنْثی و مقصودها من هذا الإخبار بالتسمیة: التقرّب إلی اللّه سبحانه، و أن یكون فعلها مطابقا لمعنی اسمها، فإن معنی مریم خادم الربّ بلغتهم، فهی و إن لم تكن صالحة لخدمة الكنیسة فذلك لا یمنع أن تكون من العابدات. قوله: وَ إِنِّی أُعِیذُها بِكَ وَ ذُرِّیَّتَها مِنَ الشَّیْطانِ الرَّجِیمِ عطف علی قوله: إِنِّی سَمَّیْتُها مَرْیَمَ و الرجیم المطرود، و أصله المرمی بالحجارة، طلبت الإعاذة لها و لولدها من الشیطان و أعوانه. قوله: فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ أی: رضی بها فی النذر، و سلك بها مسلك السعداء. و قال قوم: معنی التقبل التكفل و التربیة و القیام بشأنها، و القبول: مصدر مؤكد للفعل السابق، و الباء زائدة، و الأصل: تقبلا، و كذلك قوله: وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً و أصله: إنباتا،

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۳۸۵

فحذف الحرف الزائد، و قیل: هو مصدر لفعل محذوف، أی: فنبتت نباتا حسنا. و المعنی: أنه سوّی خلقها من غیر زیادة و لا نقصان؛ قیل، إنها كانت تنبت فی الیوم ما ینبت المولود فی عام؛ و قیل هو مجاز عن التربیة الحسنة العائدة علیها بما یصلحها فی جمیع أحوالها، قوله: وَ كَفَّلَها زَكَرِیَّا أی: ضمها إلیه. و قال أبو عبیدة ضمن القیام بها. و قرأ الكوفیون وَ كَفَّلَها بالتشدید، أی: جعله اللّه كافلا لها و ملتزما بمصالحها، و فی معناه: ما فی مصحف أبیّ و أكفلها، و قرأ الباقون: بالتخفیف علی إسناد الفعل إلی زكریا، و معناه:

ما تقدّم من كونه ضمها إلیه و ضمن القیام بها. و روی عمرو بن موسی عن عبد اللّه بن كثیر، و أبی عبد اللّه الزمنی: و كفلها بكسر الفاء. قال الأخفش: لم أسمع كفل. و قرأ مجاهد فتقبلها بإسكان اللام، علی المسألة و الطلب، و نصب ربها علی أنه منادی مضاف. و قرأ أیضا و أنبتها بإسكان التاء و كفلها بتشدید الفاء المكسورة و إسكان اللام و نصب زكریاء مع المدّ. و قرأ حفص و حمزة و الكسائی:

زَكَرِیَّا بغیر مد، و مده الباقون. و قال الفراء: أهل الحجاز یمدون زكریا و یقصرونه. قال الأخفش:

فیه لغات: المد و القصر، و زكریّا: بتشدید الیاء، و هو ممتنع علی جمیع التقادیر للعجمة و التعریف مع ألف التأنیث. قوله: كُلَّما دَخَلَ عَلَیْها زَكَرِیَّا الْمِحْرابَ قدّم الظرف للاهتمام به، و كلمة: كل: ظرف، و الزمان محذوف، و ما: مصدریة، أو نكرة موصوفة، و العامل فی ذلك قوله: وَجَدَ أی: كل زمان دخوله علیها وجد عندها رزقا، أی: نوعا من أنواع الرزق. و المحراب فی اللغة: أكرم موضع فی المجلس، قاله القرطبی، و هو منصوب علی التوسع؛ قیل: إن زكریا جعل لها محرابا: لا یرتقی إلیه إلا بسلم، و كان یغلق علیها حتی كبرت، و كان إذا دخل علیها وجد عندها فاكهة الشتاء فی الصیف و فاكهة الصیف فی الشتاء، فقال: یا مَرْیَمُ أَنَّی لَكِ هذا أی: من أین یجیء لك هذا الرزق الذی لا یشبه أرزاق الدنیا؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فلیس ذلك بعجیب و لا مستنكر، و جملة قوله: إِنَّ اللَّهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ تعلیلیة لما قبلها، و هو من تمام كلامها، و من قال إنه كلام زكریا فتكون الجملة مستأنفة.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِنِّی نَذَرْتُ لَكَ ما فِی بَطْنِی مُحَرَّراً قال: كانت نذرت أن تجعله فی الكنیسة یتعبد بها، و كانت ترجو أن یكون ذكرا. و أخرج ابن المنذر عنه قال: نذرت أن تجعله محررا للعبادة. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: مُحَرَّراً قال: خادما للبیعة. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عنه قال: محررا خالصا لا یخالطه شیء من أمر الدنیا.

و أخرج البخاری، و مسلم، و غیرهما عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «ما من مولود یولد إلا و الشیطان یمسّه حین یولد فیستهلّ صارخا من مسّ الشیطان إیّاه إلا مریم و ابنها. ثم یقول أبو هریرة: اقرءوا إن شئتم وَ إِنِّی أُعِیذُها بِكَ وَ

ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ . و للحديث ألفاظ عن أبى هريرة هذا أحدها، و روى من حديث غيره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: كفلها زكريا، فدخل عليها المحراب، فوجد عندها عنبا فى مكتل فى غير حينه، فقال: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند اللّه، قال: إن الذى يرزقك العنب فى غير حينه لقادر أن يرزقنى من العاقر الكبير العقيم ولدا هُنالِكَ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۸۶

دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة قال: كانت مريم ابنة سيدهم و إمامهم، فتشاحّ عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها، و كان زكريا زوج أختها، فكفلها، و كانت عنده و حضنها. و أخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود، و ابن عباس، و ناس من الصحابة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس: وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا قال: جعلها معه فى محرابه.

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۸ الى ۴۴]

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (۳۸) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (۳۹) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (۴۰) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (۴۱) وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (۴۲)

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (۴۳) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۴۴)

قوله: هُنالِكَ ظرف يستعمل للزمان و المكان، و أصله للمكان؛ و قيل: إنه للزمان خاصة، و هناك للمكان، و قيل: يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر، و اللام للدلالة على البعد، و الكاف للخطاب.

و المعنى: أنه دعا فى ذلك المكان الذى هو قائم فيه عند مريم، أو فى ذلك الزمان: أن يهب اللّه له ذرية طيبة، و الذى بعثه على ذلك: ما رآه من ولادة حنة لمريم و قد كانت عاقرا، فحصل له رجاء الولد، و إن كان كبيرا، و امرأته عاقرا، أو بعثه على ذلك: ما رآه من فاكهة الشتاء فى الصيف و الصيف فى الشتاء عند مريم، لأن من أوجد ذلك فى غير وقته يقدر على إيجاد الولد من العاقر، و على هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سيقت فى غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط. و الذرية: النسل، يكون للواحد و يكون للجمع، و يدل على أنها هنا للواحد، قوله: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا و لم يقل أولياء، و تأنيث طيبة: لكون لفظ الذرية مؤنثا. قوله: فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ؛ قرأ حمزة و الكسائى: فناده، و بذلك قرأ ابن عباس، و ابن مسعود. و قرأ الباقون: فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ؛ قيل المراد هنا جبريل، و التعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز فى العربية، و منه: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ و قيل: ناداه جميع الملائكة، و هو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع و المعنى الحقيقى مقدّم، فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينة. قوله: وَ هُوَ قائِمٌ جملة حالية، و يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ صفة لقوله: قائِمٌ أو خبر ثان لقوله: وَ هُوَ. قوله: أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ قرئ: بفتح أنّ، و التقدير بأن اللّه، و قرئ: بكسرها، على تقدير القول. و قرأ أهل المدينة:

يبشرك بالتشديد. و قرأ حمزة: بالتخفيف. و قرأ حميد بن قيس المكى بكسر الشين و ضم حرف المضارعة.

قال الأخفش: هى ثلاث لغات بمعنى واحد، و القراءة الأولى هى التى وردت كثيرا فى القرآن، و منه: فَبَشِّرْ عِبادِ «۱» فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ «۲» فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ «۳» قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِ «۴» و هى قراءة الجمهور.

(۱). الزمر: ۱۷.

(۲). يس: ۱۱.

(۳). هود: ۷۱.

(۴). الفجر: ۵۵.

و الثانية: لغة أهل تهامة، و بها قرأ أيضا عبد اللّه بن مسعود. و الثالثة: من أبشر يبشر إبشارا. و يحيى: ممتنع، إما لكونه أعجميا، أو لكون فيه وزن الفعل، كيعمر مع العلمية. قال القرطبى حاكيا عن النقاش: كان اسمه فى الكتاب الأول حنا. انتهى. و الذى رأيناه فى مواضع من الإنجيل أنه: يوحنا؛ قيل سمى بذلك: لأن اللّه أحياه بالإيمان و النبوّة، و قيل: لأن اللّه أحيا به الناس بالهدى. و المراد هنا: التبشير بولادته، أى: يبشرك بولادة يحيى. و قوله: مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ أى: بعيسى عليه السلام، و سمى: كلمة اللّه، لأنه كان بقوله سبحانه: كن؛ و قيل: سمى كلمة اللّه: لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام اللّه. و قال أبو عبيد:

معنى بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ بكتاب من اللّه، قال: و العرب تقول: أنشدنى كلمته، أى: قصيدته، كما روى: أن الحويدرة ذكر لحسان فقال: لعن اللّه كلمته، يعنى: قصيدته. انتهى. و يحيى أوّل من آمن بعيسى و صدّق، و كان أكبر من عيسى بثلاث سنين، و قيل: بستة أشهر. و السيد: الذى يسود قومه قال الزجاج:

السيد: الذى يفوق أقرانه فى كل شى‏ء من الخير. و الحصور: أصله من الحصر، و هو الحبس، يقال: حصرنى الشى‏ء و أحصرنى، إذا حبسنى، و منه قول الشاعر:

و ما هجر ليلى أن تكون تباعدت عليك و لا أن أحصرتك شغول

و الحصور: الذى لا يأتى النساء، كأنه يحجم عنهن، كما يقال: رجل حصور، و حصير: إذا حبس رفده و لم يخرجه، فيحيى عليه السلام كان حصورا عن إتيان النساء: أى: محصورا لا يأتيهنّ كغيره من الرجال؛ إما لعدم القدرة على ذلك، أو لكونه يكف عنهنّ منعا لنفسه عن الشهوة مع القدرة. و قد رجح الثانى بأن المقام مقام مدح، و هو لا يكون إلا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه، لا على ما كان من أصل الخلقة و فى نفس الجبلة. و قوله: مِنَ الصَّالِحِينَ أى: ناشئا من الصالحين، لكونه من نسل الأنبياء، أو كائنا من جملة الصالحين، كما فى قوله: وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* قال الزجاج: الصالح: الذى يؤدى للّه ما افترض عليه، و إلى الناس حقوقهم. قوله: قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ظاهر هذا أن الخطاب منه للّه سبحانه، و إن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة، و ذلك لمزيد التضرّع و الجدّ فى طلب الجواب عن سؤاله؛ و قيل: إنه أراد بالربّ جبريل، أى: يا سيدى؛ قيل: و فى معنى هذا الاستفهام و جهان، أحدهما: أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها؟ و قيل: معناه بأىّ سبب استوجب هذا، و أنا و امرأتى على هذه الحال؟. و الحاصل: أنه استبعد حدوث الولد منهما مع كون العادة قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما؛ لأنه كان يوم التبشير كبيرا؛ قيل: فى تسعين سنة، و قيل: ابن عشرين و مائة سنة، و كانت امرأته فى ثمان و تسعين سنة، و لذلك قال: وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ أى: و الحال ذلك، جعل الكبر كالطالب له لكونه طليعة من طلائع الموت فأسند الفعل إليه. و العاقر: التى لا تلد؛ أى ذات عقر على النسب و لو كان على الفعل لقال عقيرة؛ أى: بها عقر يمنعها من الولد، و إنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب اللّه له ذرية طيبة، و مشاهدته لتلك الآية الكبرى فى مريم استعظاما لقدرة اللّه سبحانه لا لمحض الاستبعاد، و قيل: إنه قد مرّ بعد دعائه إلى وقت يشاء ربه أربعون سنة؛ و قيل: عشرون سنة فكان

الاستبعاد من هذه الحيثية. قوله: كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ أى: يفعل اللّه ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، و هو إيجاد الولد من الشيخ الكبير و المرأة العاقر، و الكاف: فى محل نصب نعتا لمصدر محذوف، و الإشارة إلى مصدر يفعل أو الكاف: فى محل رفع على أنها خبر، أى: على هذا الشأن العجيب شأن اللّه، و يكون قوله: يَفْعَلُ ما يَشاءُ بيانا له، أو الكاف: فى محل نصب على الحال، أى: يفعل اللّه الفعل كائنا مثل ذلك. قوله: قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أى: علامة أعرف بها صحة الحبل، فأتلقى هذه النعمة بالشكر قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً أى: علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام، لا عن غيره من الأذكار، و وجه جعل الآية هذا: لتخلص تلك الأيام لذكر اللّه سبحانه شكرا على ما أنعم به عليه؛ و قيل: بأن ذلك عقوبة من اللّه سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه، حكاه القرطبى عن أكثر المفسرين. و الرمز فى اللغة: الإيماء بالشفتين، أو العينين، أو الحاجبين، أو اليدين، و أصله: الحركة، و هو استثناء منقطع، لكون الرمز من غير جنس الكلام، و قيل: هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإفهام من لفظ أو إشارة أو كتابة، و هو بعيد. و الصواب الأوّل، و به قال الأخفش و الكسائى. قوله: وَ سَبِّحْ أى: سبحه بِالْعَشِيِ و هو جمع عشية؛ و قيل: هو واحد، و هو من حين تزول الشمس إلى أن تغيب؛ و قيل: من العصر إلى ذهاب صدر الليل، و هو ضعيف جدا وَ الْإِبْكارِ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، و قيل: المراد بالتسبيح: الصلاة. قوله: إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ الظرف متعلق بمحذوف، كالظرف الأول إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ اختارك وَ طَهَّرَكِ من الكفر أو من الأدناس على عمومها وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ قيل: هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأوّل، فالأوّل هو حيث تقبلها بقبول حسن، و الآخر لولادة عيسى. و المراد بالعالمين هنا: قيل:

نساء عالم زمانها و هو الحق؛ و قيل: نساء جميع العالم إلى يوم القيامة، و اختاره الزجاج؛ و قيل الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول، و المراد بهما جميعا: واحد. قوله: يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ أى: أطيلى القيام فى الصلاة، أو أديميها، و قد تقدّم الكلام على معانى القنوت، و قدّم السجود على الركوع لكونه أفضل، أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها، مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب، و قوله: وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ظاهره: أن ركوعها يكون مع ركوعهم، فيدل على مشروعية صلاة الجماعة؛ و قيل: المعنى أنها تفعل مثل فعلهم و إن لم تصلّ معهم، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما سبق من الأمور التى أخبره اللّه بها. و الوحى فى اللغة: الإعلام فى خفاء، يقال: وحى و أوحى بمعنى: قال ابن فارس: الوحى: الإشارة، و الكتابة، و الرسالة، و كل ما ألقيته إلى غيرك حتى يعلمه. قوله: وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ أى: تحضرنهم، يعنى:

المتنازعين فى تربية مريم، و إنما نفى حضوره عندهم مع كونه معلوما لأنهم أنكروا الوحى، كان ذلك الإنكار صحيحا لم يبق طريق للعلم له إلا المشاهدة و الحضور، و هم لا يدّعون ذلك فثبت كونه و حيا تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة و لا ممن يلابس أهلها. و الأقلام: جمع قلم، من قلمه: إذا قطعه، أى: أقلامهم يكتبون بها؛ و قيل: قداحهم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ أى: يحضنها، أى: يلقون أقلامهم ليعلموا أيهم يكفلها، و ذلك

عند اختصامهم فى كفالتها، فقال زكريا: هو أحق بها، لكون خالتها عنده، و هى: أشيع أخت حنة أمّ مريم، و قال بنو إسرائيل: نحن أحق بها، لكونها بنت عالمنا، فاقترعوا، و جعلوا أقلامهم فى الماء الجارى، على أن من وقف قلمه و لم يجر مع الماء فهو صاحبها، فجرت أقلامهم و وقف قلم زكريا، و قد استدل بهذا من أثبت القرعة، و الخلاف فى ذلك معروف، و قد ثبتت أحاديث صحيحة فى اعتبارها.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما رأى زكريا ذلك، يعنى: فاكهة الصيف فى الشتاء و فاكهة الشتاء فى الصيف عند مريم قال: إن الذى أتى بهذا مريم فى غير زمانه قادر أن يرزقنى ولدا، فذلك حين دعا ربه. و أخرج ابن عساكر عن الحسن

نحوه، و أخرج ابن أبی حاتم عن السدی ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً يقول: مباركة.

و أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبی حماد قال: فی قراءة ابن مسعود: فناداه جبريل و هو قائم يصلی فی المحراب. و روی ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن السدی أنه قال: فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ أی: جبريل. و أخرج ابن المنذر عن السدی قال: المحراب: المصلی. و قد أخرج الطبرانی، و البيهقی عن ابن عمر أن النبی صلّی اللّه عليه و سلم قال: «اتّقوا هذه المذابح» يعنی المحاريب. و أخرج ابن أبی شيبة فی المصنف عن موسی الجهنی قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «لا تزال أمتی بخير ما لم يتّخذوا فی مساجدهم مذابح كمذابح النّصاری» و قد رويت كراهة ذلک عن جماعة من الصحابة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن قتادة قال: إنما سمی: يحيی، لأن اللّه أحياه بالإيمان. و أخرجوا عن ابن عباس قال: مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ قال: عيسی ابن مريم، هو الكلمة. و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه قال: كان يحيی و عيسی ابنی الخالة، و كانت أم يحيی تقول لمريم: إنی أجد الذی فی بطنی يسجد للذی فی بطنک، فذلک تصديقه بعيسی سجوده فی بطن أمه، و هو أوّل من صدق بعيسی. و أخرج أحمد فی الزهد و ابن جرير عن مجاهد نحوه.

و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن ابن عباس: وَ سَيِّداً قال: حليما تقيا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد قال: السيد: الكريم علی اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن المسيب قال: السيد: الفقيه العالم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً قال: السيد: الحليم، و الحصور: الذی لا يأتی النساء. و أخرج أحمد فی الزهد عن سعيد بن جبير فی الحصور مثله. و أخرج أحمد فی الزهد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: الحصور: الذی لا ينزل الماء. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن عبد اللّه بن عمرو عن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم قال:

«كان ذكره مثل هدبة الثوب» و أخرجه ابن أبی شيبة، و أحمد فی الزهد من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا، و هو أقوی. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن شعيب الجبائی قال: اسم أم يحيی: أشيع. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فی قوله: اجْعَلْ لِی آيَةً قال: بالحمل به. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ قال:

إنما عوقب بذلک لأن الملائكة شافهته بذلک مشافهة فبشرته بيحيی، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه، فأخذ عليه بلسانه. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِلَّا رَمْزاً قال: الرمز: بالشفتين. و أخرج

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۹۰

عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير قال: الرمز: الإشارة.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ قال: العشی: ميل الشمس إلی أن تغيب، و الإبكار: أوّل الفجر. و قد ثبت فی الصحيحين و غيرهما من حديث علی قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، و خير نسائها خديجة بنت خويلد «۱»». و أخرج ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «أفضل نساء العالمين خديجة و فاطمة و مريم و آسية امرأة فرعون» و أخرج ابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج نحوه أحمد، و الترمذی، و صححه، و ابن المنذر، و ابن حبان، و الحاكم من حديثه مرفوعا، و فی الصحيحين و غيرهما من حديث أبی موسی قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «كمل من الرّجال كثير و لم يكمل من النّساء إلا مريم بنت عمران و آسية امرأة فرعون، و فضل عائشة علی النساء كفضل الثريد علی الطّعام» و فی المعنی أحاديث كثيرة، و كلها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها، لا نساء جميع العالم. و يؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن مقاتل عن

الضحاک عن ابن عباس عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «أربع نسوة سادات نساء عالمهن: مریم بنت عمران، و آسیة بنت مزاحم، و خدیجة بنت خویلد، و فاطمة بنت محمد، و أفضلهنّ عالما فاطمة». و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر عن مجاهد فی قوله: یا مَرْیَمُ اقْنُتِی لِرَبِّکِ قال: أطیلی الرکوع یعنی القیام.

و أخرج ابن جریر عن سعید بن جبیر: اقْنُتِی لِرَبِّکِ قال: أخلصی. و أخرج عن قتادة قال: أطیعی ربک. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم من طریق العوفی عن ابن عباس فی قوله: وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ قال: إن مریم لما وضعت فی المسجد اقترع علیها أهل المصلی، و هم یکتبون الوحی، فاقترعوا بأقلامهم أیهم یکفلها. قال اللّه لمحمد: وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ الآیة. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن عکرمة قال: ألقوا أقلامهم فی الماء فذهبت مع الجریة، و صعد قلم زکریا، فکفلها زکریا. و أخرج ابن جریر عن الربیع نحوه. و أخرج عبد بن حمید عن مجاهد، و کذلک أخرج ابن أبی حاتم عن ابن جریج أن الأقلام هی التی یکتبون بها التوراة. و أخرج عبد بن حمید، و ابن أبی حاتم عن عطاء أنها القداح.

[سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۴۵ الی ۵۱]

إِذْ قالَتِ الْمَلائِکَةُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ یُبَشِّرُکِ بِکَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ وَجِیهاً فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِینَ (۴۵) وَ یُکَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِینَ (۴۶) قالَتْ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی وَلَدٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ قالَ کَذلِکِ اللَّهُ یَخْلُقُ ما یَشاءُ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۴۷) وَ یُعَلِّمُهُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ (۴۸) وَ رَسُولاً إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَنِّی قَدْ جِئْتُکُمْ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ أَنِّی أَخْلُقُ لَکُمْ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ فَأَنْفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْیِ الْمَوْتی بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۴۹)
وَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ وَ جِئْتُکُمْ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (۵۰) إِنَّ اللَّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ (۵۱)

---

(۱). المعنی: أن کلا منهما خیر نساء الأرض فی عصرها.

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۳۹۱

قوله: إِذْ قالَتِ بدل من قوله: وَ إِذْ قالَتِ المذکور قبله، و ما بینهما اعتراض، و قیل: بدل من إِذْ یَخْتَصِمُونَ و قیل: منصوب بفعل مقدر؛ و قیل: بقوله: یَخْتَصِمُونَ و قیل: بقوله:

وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ

و المسیح اختلف فیه ممّا ذا أخذ؟ فقیل: من المسح، لأنه: مسح الأرض، أی: ذهب فیها فلم یستکن بکن؛ و قیل: إنه کان لا یمسح ذا عاهة إلا بریء، فسمی مسیحا، فهو علی هذین: فعیل، بمعنی: فاعل؛ و قیل: لأنه کان یمسح بالدهن الذی کانت الأنبیاء تمسح به؛ و قیل: لأنه کان ممسوح الأخمصین؛ و قیل:

لأن الجمال مسحه؛ و قیل: لأنه مسح بالتطهیر من الذنوب، و هو علی هذه الأربعة الأقوال: فعیل، بمعنی:

مفعول. و قال أبو الهیثم: المسیح ضد المسیخ بالخاء المعجمة. و قال ابن الأعرابی: المسیح: الصدیق. و قال أبو عبید: أصله بالعبرانیة: مشیخا، بالمعجمتین، فعرّب کما عرّب موشی بموسی. و أما الدجال فسمی مسیحا: لأنه ممسوح إحدی العینین؛ و قیل: لأنه یمسح الأرض، أی: یطوف بلدانها إلا مکة و المدینة و بیت المقدس. و قوله: عِیسَی عطف بیان، أو بدل، و هو اسم أعجمی؛ و قیل: هو عربی مشتق من عاسه یعوسه إذا ساسه. قال فی الکشاف: هو معرّب من أیشوع. انتهی. و الذی رأیناه فی الإنجیل فی

مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة، و إنما قيل: ابن مريم، مع كون الخطاب معها، تنبيها على أنه يولد من غير أب فنسب إلى أمه. و الوجيه: ذو الوجاهة، و هى: القوّة و المنعة، و وجاهته فى الدنيا النبوّة، و فى الآخرة الشفاعة و علو الدرجة، و هو منتصب على الحال من: كلمة، و إن كانت نكرة فهى موصوفة، و كذلك قوله: وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فى محل نصب على الحال. قال الأخفش: هو معطوف على وجيها. و المهد: مضجع الصبى فى رضاعه، و مهدت الأمر: هيأته و وطأته. و الكهل: هو من كان بين سن الشباب و الشيخوخة، أى:

يكلم الناس حال كونه رضيعا فى المهد و حال كونه كهلا بالوحى و الرسالة، قاله الزجاج. و قال الأخفش و الفراء: إن كهلا معطوف على وجيها. قال الأخفش: وَ مِنَ الصَّالِحِينَ عطف على وجيها، أى:

هو من العباد الصالحين. قوله: أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ أى: كيف يكون؟ على طريقة الاستبعاد العادى وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ جملة حالية، أى: و الحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ هو من كلام اللّه سبحانه. و أصل القضاء: الإحكام، و قد تقدّم، و هو هنا الإرادة: أى إذا أراد أمرا من الأمور فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ من غير عمل و لا مزاولة، و هو تمثيل لكمال قدرته. قوله: وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ قيل: هو معطوف على يُبَشِّرُكَ أى: إن اللّه يبشرك؛ و إنّ اللّه يعلمه؛ و قيل: على يَخْلُقُ أى: و كذلك يعلمه اللّه، أو كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبها.

و الكتاب: الكتابة. و الحكمة: العلم؛ و قيل: تهذيب الأخلاق، و انتصاب: رسولا، على تقدير: و يجعله

فتح القدير، ج۱، ص: ۳۹۲

رسولا أو و يكلمهم رسولا أو و أرسلت رسولا؛ و قيل: هو معطوف على قوله: وَجِيهاً فيكون حالا، لأن فيه معنى النطق، أى: و ناطقا، قال الأخفش: و إن شئت جعلت الواو فى قوله: و رسولا، مقحمة، و الرسول: حالا. و قوله: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ معمول لرسول، لأن فيه معنى النطق كما مر؛ و قيل: أصله: بأنى قد جئتكم، فحذف الجار، و قيل: منصوب بمضمر، أى: تقول: أنى قد جئتكم؛ و قيل: معطوف على الأحوال السابقة. و قوله: بِآيَةٍ فى محل نصب على الحال، أى: متلبسا بعلامة كائنة مِنْ رَبِّكُمْ و قوله: أَنِّي أَخْلُقُ أى: أصوّر، و أقدّر لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ و هذه الجملة بدل من الجملة الأولى، و هى: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ أو بدل من آية، أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هى أنى، و قرئ: بكسر الهمزة على الاستئناف. و قرأ الأعرج، و أبو جعفر: كهيئة الطير بالتشديد، و الكاف فى قوله: كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ: نعت مصدر محذوف، أى: أخلق لكم خلقا أو شيئا مثل هيئة الطير.

و قوله: فَأَنْفُخُ فِيهِ أى: فى ذلك الخلق، أو ذلك الشىء، فالضمير راجع إلى الكاف فى قوله كهيئة الطير؛ و قيل: الضمير راجع إلى الطير، أى: الواحد منه؛ و قيل: إلى الطين، و قرئ: فيكون طائرا و طيرا، مثل تاجر و تجر. و قيل: إنه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة، فإن له ثديا و أسنانا و أذنا و يحيض و يطهر؛ و قيل: إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة، و لكونه يطير بغير ريش، و يلد كما يلد سائر الحيوانات مع كونه من الطير، و لا يبيض كما يبيض سائر الطيور، و لا يبصر فى ضوء النهار، و لا فى ظلمة الليل، و إنما يرى فى ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، و بعد طلوع الفجر ساعة، و هو يضحك كما يضحك الإنسان؛ و قيل: إن سؤالهم له كان على وجه التعنت، قيل: كان يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا، ليتميز فعل اللّه من فعل غيره و قوله: بِإِذْنِ اللَّهِ فيه دليل: على أنه لو لا الإذن من اللّه عزّ و جلّ لم يقدر على ذلك، و أن خلق ذلك كان بفعل اللّه سبحانه، أجراه على يد عيسى عليه السلام؛ قيل: كانت تسوية الطين و النفخ من عيسى، و الخلق من اللّه عزّ و جلّ. قوله: وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ الأكمه: الذى يولد أعمى، كذا قال أبو عبيدة. و قال ابن فارس: الكمه: العمى يولد به الإنسان و قد يعرض، يقال: كمه، يكمه، كمها: إذا عمى، و كمهت عينه: إذا أعميتها؛ و قيل: الأكمه: الذى يبصر بالنهار و لا يبصر بالليل؛ و قيل: هو الممسوح العين. و البرص معروف، و هو: بياض يظهر فى الجلد.

و قد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عدّة كما اشتمل عليه الإنجيل، و إنما خص اللّه سبحانه هذين المرضين بالذكر لأنهما لا- يبرءان فى الغالب بالمداواة، و كذلك إحياء الموتى، قد اشتمل الإنجيل على قصص من ذلك. قوله: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ أى: أخبركم بالذى تأكلونه، و بالذى تدّخرونه. قوله: وَ مُصَدِّقاً عطف على قوله: وَ رَسُولًا و قيل: المعنى و جئتكم مصدّقا. قوله: وَ لِأُحِلَ أى:

و لأجل أن أحلّ، أى: جئتكم بآية من ربكم، و جئتكم لأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم من الأطعمة فى التوراة، كالشحوم، و كل ذى ظفر، و قيل: إنما أحلّ لهم ما حرّمته عليهم الأحبار و لم تحرّمه التوراة.

و قال أبو عبيدة: يجوز أن يكون بعض، بمعنى: كلّ، و أنشد:

فتح القدير، ج‌1، ص: 393 ترّاك أمكنة إذا لم أرضهاأو يرتبط بعض النفوس حمامها

قال القرطبى: و هذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة، لأن البعض و الجزء لا يكونان بمعنى الكل، و لأن عيسى لم يحلل لهم جميع ما حرّمته عليهم التوراة، فإنه لم يحلل القتل و لا السرقة و لا الفاحشة و غير ذلك من المحرّمات الثابتة فى الإنجيل، مع كونها ثابتة فى التوراة، و هى كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين، و لكنه قد يقع البعض موضع الكل مع القرينة كقول الشاعر:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضناحنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

أى: بعض الشرّ أهون من كله. قوله: بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ هى قوله: إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ و إنما كان ذلك آية، لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك، فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته. و يحتمل أن تكون هذه الآية هى الآية المتقدّمة فتكون تكريرا لقوله: أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ الآية.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِكَلِمَةٍ قال: عيسى هو الكلمة من اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المهد: مضجع الصبىّ فى رضاعه. و قد ثبت فى الصحيح أنه لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة: عيسى، و كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى، فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلى؟ فقالت: اللهم لا- تمته حتى تريه وجوه المومسات، و كان جريج فى صومعة فتعرضت له امرأة و كلمته فأبى، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته و أنزلوه و سبوه، فتوضأ و صلّى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعى، قالوا: نبنى صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين، و كانت امرأة من بنى إسرائيل ترضع ابنا لها، فمرّ بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابنى مثله، فترك ثديها و أقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلنى مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، ثم مرّ بأمة تجرر و يلعب بها فقالت: اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه، فترك ثديها فقال: اللهمّ اجعلنى مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، و هذه الأمة يقولون لها: زنيت، و تقول: حسبى اللّه و نعم الوكيل. و يقولون: سرقت، و تقول: حسبى اللّه. و أخرج أبو الشيخ، و الحاكم، و صححه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«لم يتكلّم فى المهد إلا عيسى، و شاهد يوسف، و صاحب جريج، و ابن ماشطة فرعون». و أخرج عبد ابن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَ كَهْلًا قال: يكلمهم صغيرا و كبيرا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الكهل: هو من فى سن الكهولة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: الكهل: الحليم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ قال: الخط بالقلم. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنما خلق عيسى طائرا واحدا و هو الخفاش. و أخرج ابن جريج، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق

فتح القدير، ج‌1، ص: 394

الضحاک عن ابن عباس قال: الأکمه: الذی یولد أعمی. و أخرج ابن جریج، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم من طریق الضحاک عن ابن عباس قال: الأکمه: الذی یولد أعمی. و أخرج ابن أبی حاتم عنه قال: الأکمه: الأعمی الممسوح العینین. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد قال: الأکمه:

الذی یبصر بالنهار و لا یبصر باللیل. و أخرجوا عن عکرمة قالوا: الأکمه: الأعمش. و أخرج أحمد فی الزهد عن خالد الحذاء قال: کان عیسی ابن مریم إذا سرح رسله یحیون الموتی یقول لهم قولوا: کذا، فإذا وجدتم قشعریرة و دمعة فادعوا عند ذلک. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله:

وَ أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ قال: بما أکلتم البارحة من طعام و ما خبأتم منه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن عمار بن یاسر قال: أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ من المائدة وَ ما تَدَّخِرُونَ منها، و کان أخذ علیهم فی المائدة حین نزلت أن یأکلوا و لا یدخروا، فأکلوا، و ادّخروا، و خانوا، فجعلوا قردة و خنازیر. و أخرج ابن جریر عن وهب: أن عیسی کان علی شریعة موسی، و کان یسبت و یستقبل بیت المقدس، و قال لبنی إسرائیل: إنی لم أدعکم إلی خلاف حرف مما فی التوراة إلا لأحلّ لکم بعض الذی حرّم علیکم و أضع عنکم من الآصار. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن الربیع فی الآیة: قال کان الذی جاء به عیسی ألین مما جاء به موسی، و کان قد حرم علیهم فیما جاء به موسی لحوم الإبل و الثروب «۱»، فأحلها لهم علی لسان عیسی، و حرّم علیهم الشحوم فأحلت لهم فیما جاء به عیسی، و فی أشیاء من السمک، و فی أشیاء من الطیر، و فی أشیاء أخر حرّمها علیهم و شدّد علیهم فیها، فجاءهم عیسی بالتخفیف منه فی الإنجیل. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر عن قتادة مثله. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ جِئْتُکُمْ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ قال: ما بین لهم من الأشیاء کلها و ما أعطاه ربه.

[سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۵۲ الی ۵۸]

فَلَمَّا أَحَسَّ عِیسی مِنْهُمُ الْکُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِی إِلَی اللَّهِ قالَ الْحَوارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۵۲) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاکْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِینَ (۵۳) وَ مَکَرُوا وَ مَکَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ (۵۴) إِذْ قالَ اللَّهُ یا عِیسی إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رافِعُکَ إِلَیَّ وَ مُطَهِّرُکَ مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأَحْکُمُ بَیْنَکُمْ فِیما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۵۵) فَأَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِیداً فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ (۵۶) وَ أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ (۵۷) ذلِکَ نَتْلُوهُ عَلَیْکَ مِنَ الْآیاتِ وَ الذِّکْرِ الْحَکِیمِ (۵۸)

قوله: فَلَمَّا أَحَسَ أی: علم و وجد: قاله الزجاج. و قال أبو عبیدة: معنی: أحسّ: عرف، و أصل ذلک: وجود الشیء بالحاسة، و الإحساس: قال اللّه تعالی: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ «۲». و المراد بالإحساس هنا: الإدراک القویّ الجاری مجری المشاهدة. و بالکفر: إصرارهم علیه؛ و قیل: سمع منهم کلمة الکفر. و قال الفراء: أرادوا قتله. و علی هذا فمعنی الآیة: فلما أدرک منهم عیسی إرادة قتله التی هی کفر

---

(۱). الثروب: جمع ثرب، و هو شحم رقیق علی الکرش و الأمعاء.

(۲). مریم: ۹۸.

قال: من أنصاری إلی اللّه. الأنصار: جمع نصیر. و قوله: إِلَی اللَّهِ متعلق بمحذوف وقع حالا، أی:
متوجها إلی اللّه، أو ملتجئا إلیه، أو ذاهبا إلیه، و قیل: إلی: بمعنی مع، کقوله تعالی: وَ لا تَأْکُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلی أَمْوالِکُمْ «۱» و قیل المعنی: من أنصاری فی السبیل إلی اللّه؛ و قیل المعنی: من یضم نصرته إلی نصرة اللّه.
و الحواریون: جمع حواری، و حواریّ الرجل: صفوته و خلاصته، و هو مأخوذ من الحور و هو البیاض عند أهل اللغة، حوّرت الثیاب بیضتها. و الحواری من الطعام: ما حوّر: أی بیض، و الحواری أیضا: الناصر، و منه قوله صلّی اللّه علیه و سلم: «لکل نبیّ حواریّ و حواریی الزبیر» و هو فی البخاری و غیره. و قد اختلف فی سبب تسمیتهم بذلک، فقیل: لبیاض ثیابهم؛ و قیل: لخلوص نیاتهم؛ و قیل: لأنهم خاصة الأنبیاء، و کانوا اثنی عشر رجلا، و معنی أنصار اللّه: أنصار دینه و رسله. و قوله: آمَنَّا بِاللَّهِ استئناف جار مجری العلة لما قبله، فإن الإیمان یبعث علی النصرة، قوله: وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ أی: اشهد لنا یوم القیامة بأنا مخلصون لإیماننا منقادون لما ترید منا. و معنی بِما أَنْزَلْتَ ما أنزله اللّه سبحانه فی کتبه. و الرسول: عیسی، و حذف المتعلق مشعر بالتعمیم، أی: اتبعناه فی کل ما یأتی به، فاکتبنا مع الشاهدین لک بالوحدانیة، و لرسولک بالرسالة. أو: اکتبنا مع الأنبیاء الذین یشهدون لأممهم، و قیل مع أمة محمد صلّی اللّه علیه و سلم. قوله: وَ مَکَرُوا أی: الذین أحسّ عیسی منهم الکفر، و هم کفار بنی إسرائیل. و مکر اللّه: استدراجه للعباد من حیث لا یعلمون. قاله الفراء و غیره. و قال الزجاج: مکر اللّه: مجازاتهم علی مکرهم، فسمی الجزاء باسم الابتداء، کقوله تعالی: اللَّهُ یَسْتَهْزِئُ بِهِمْ «۲» وَ هُوَ خادِعُهُمْ «۳» و أصل المکر فی اللغة: الاغتیال و الخدع: حکاه ابن فارس، و علی هذا فلا یسند إلی اللّه سبحانه إلا علی طریق المشاکلة؛ و قیل: مکر اللّه هنا: إلقاء شبه عیسی علی غیره، و رفع عیسی إلیه وَ اللَّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ أی: أقواهم مکرا، و أنفذهم کیدا، و أقواهم علی إیصال الضرر بمن یرید إیصاله به من حیث لا یحتسب، قوله: إِذْ قالَ اللَّهُ یا عِیسی العامل فی إذ:
مکروا، أو: قوله: خَیْرُ الْماکِرِینَ أو: فعل مضمر تقدیره: وقع ذلک. و قال الفراء: إن فی الکلام تقدیما و تأخیرا تقدیره: إنی رافعک و مطهرک من الذین کفروا و متوفیک بعد إنزالک من السماء. و قال أبو زید: متوفیک: قابضک. و قال فی الکشاف: مستوفی أجلک، و معناه: إنی عاصمک من أن یقتلک الکفار، و مؤخر أجلک إلی أجل کتبته لک، و ممیتک حتف أنفک لا قتلا بأیدیهم. و إنما احتاج المفسرون إلی تأویل الوفاة بما ذکر، لأن الصحیح أن اللّه رفعه إلی السماء من غیر وفاة، کما رجحه کثیر من المفسرین، و اختاره ابن جریر الطبری، و وجه ذلک أنه قد صحّ فی الأخبار عن النّبی صلّی اللّه علیه و سلّم نزوله و قتله الدجال، و قیل: إن اللّه سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلی السماء، و فیه ضعف، و قیل: المراد بالوفاة هنا: النوم، و مثله:
وَ هُوَ الَّذِی یَتَوَفَّاکُمْ بِاللَّیْلِ «۴» أی: ینیمکم، و به قال کثیرون. قوله: وَ مُطَهِّرُکَ مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا أی: من خبث جوارهم برفعه إلی السماء و بعده عنهم. قوله: وَ جاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ أی: الذی اتبعوا ما جئت به و هم خلص أصحابه الذین لم یبلغوا فی الغلوّ فیه إلی ما بلغ من جعله إلها، و منهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عیسی علیه السلام، و وصفوه بما یستحقه من دون

---

(۱). النساء: ۲.

(۲). البقرة: ۱۵.

(۳). النساء: ۱۴۲.

(۴). الأنعام: ۶۰.

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٩٦

غلوّ، فلم يفرّطوا فى وصفه، كما فرطت اليهود، و لا أفرطوا كما أفرطت النصارى. و قد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم. و قيل: المراد بالآية: أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على اليهود، غالبين لهم، قاهرين لمن وجد منهم، فيكون المراد بالذين كفروا: هم اليهود خاصة، و قيل: هم الروم لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين؛ و قيل: هم الحواريون لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح، و على كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار أو لكل طوائف الكفار لا ينافى كونهم مقهورين مغلوبين بطوائف المسلمين كما تفيده الآيات الكثيرة، بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل الملل، قاهرة لها مستعلية عليها.

و قد أفردت هذه الآية بمؤلف سميته: [و بل الغمامة فى تفسير- و جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة] فمن رام استيفاء ما فى المقام فليرجع إلى ذلك. و الفوقية هنا: هى أعم من أن تكون بالسيف أو بالحجة. و قد ثبت فى الأحاديث الصحيحة: أن عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان فيكسر الصليب، و يقتل الخنزير، و يضع الجزية، و يحكم بين العباد بالشريعة المحمدية، و يكون المسلمون أنصاره و أتباعه إذ ذاك، فلا يبعد أن يكون فى هذه الآية إشارة إلى هذه الحال. قوله: ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ أى: رجوعكم، و تقديم الظرف للقصر فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يومئذ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمور الدين. و قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا إلى قوله: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ تفسير للحكم. قوله: فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ متعلق بقوله: فأعذبهم، أما تعذيبهم فى الدنيا: فبالقتل و السبى و الجزية و الصغار، و أما فى الآخرة: فبعذاب النار. قوله: فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ أى: نعطيهم إياها كاملة موفرة، قرئ: بالتحتية و بالنون. و قوله:

لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ كناية عن بغضهم، و هى جملة تذييلية مقررة لما قبلها. قوله: ذلِكَ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى و غيره، و هو مبتدأ، خبره ما بعده، و مِنَ الْآياتِ حال، أو خبر بعد خبر.

و الحكيم: المشتمل على الحكم، أو المحكم الذى لا خلل فيه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قال: كفروا و أرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ قال: مع محمد و أمته أنهم شهدوا له أنه قد بلغ، و شهدوا للرسل أنهم قد بلغوا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال: مَعَ الشَّاهِدِينَ مع أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن جرير عن السدى قال: إن بنى إسرائيل حصروا عيسى و تسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت؛ فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتى فيقتل و له الجنة، فأخذها رجل منهم، و صعد بعيسى إلى السماء، فذلك قوله: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ يقول: مميتك. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: متوفيك من الأرض.

و أخرج الآخران عنه قال: وفاة المنام. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: هذا من المقدّم و المؤخر: أى:

رافعك إلىّ و متوفيك. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مطر الوراق قال: متوفيك من الدنيا و ليس

فتح القدير، ج ١، ص: ٣٩٧

بوفاة موت. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن وهب قال: توفّى اللّه عيسى ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه، و أخرج ابن عساكر عنه قال: أماته ثلاثة أيام ثم بعثه و رفعه. و أخرج الحاكم عنه قال: توفى اللّه عيسى سبع ساعات. و أخرج ابن سعد، و أحمد فى الزهد و الحاكم عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى و هو ابن ثلاث و ثلاثين سنة. و أخرج ابن عساكر عن وهب

مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله تعالى: وَ مُطَهِّرُکَ مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا قال: طهره من الیهود و النصارى و المجوس و من کفار قومه. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر عن قتادة فى قوله: وَ جاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا قال: هم أهل الإسلام الذین اتّبعوه على فطرته و ملته و سنته. و أخرج ابن جریر عن ابن جریج نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أیضا. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن عساکر عن النعمان بن بشیر سمعت رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلّم یقول: «لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرین لا یبالون بمن خالفهم حتّى یأتى أمر اللّه» قال النعمان: من قال إنى أقول على رسول اللّه ما لم یقل فإن تصدیق ذلک فى کتاب اللّه، قال اللّه: وَ جاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ الآیة. و أخرج ابن عساکر عن معاویة مرفوعا نحوه، ثم قرأ معاویة الآیة. و أخرج ابن جریر عن ابن زید قال: النصارى فوق الیهود إلى یوم القیامة، و لیس بلد فیه أحد من النصارى إلا و هم فوق الیهود فى شرق و لا غرب، هم فى البلدان کلّها مستذلّون.

[سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۵۹ الى ۶۳]

إِنَّ مَثَلَ عِیسى عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۵۹) الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُنْ مِنَ الْمُمْتَرِینَ (۶۰) فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْکاذِبِینَ (۶۱) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۶۲) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِالْمُفْسِدِینَ (۶۳)

تشبیه عیسى بآدم فى کونه مخلوقا من غیر أب کآدم، و لا یقدح فى التشبیه اشتمال المشبه به على زیادة و هو کونه لا أمّ له: کما أنه لا أب له، فذلک أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبیه، و إن کان المشبه به أشد غرابة من المشبه، و أعظم عجبا، و أغرب أسلوبا. و قوله: خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ جملة مفسرة لما أبهم فى المثل، أی: أن آدم لم یکن له أب و لا أم، بل خلقه اللّه من تراب. و فى ذلک دفع لإنکار من أنکر خلق عیسى من غیر أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غیر أب و أم. قوله: ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ أی: کن بشرا فکان بشرا. و قوله: فَیَکُونُ حکایة حال ماضیة، و قد تقدّم تفسیر هذا. و قوله: الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ قال الفرّاء: هو مرفوع بإضمار هو. و قال أبو عبیدة: هو استئناف کلام، و خبره قوله: مِنْ رَبِّکَ و قیل: هو فاعل فعل محذوف: أی: جاءک الحقّ من ربک. قوله: فَلا تَکُنْ مِنَ الْمُمْتَرِینَ الخطاب إما لکل من یصلح له من الناس، أی: لا یکن أحد منکم ممتریا، أو للرسول صلّى اللّه علیه و سلم، و یکون النهى له لزیادة التثبیت، لأنه لا یکون منه شک فى ذلک، قوله: فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ هذا و إن کان عاما فالمراد به: الخاص، و هم النصارى الذین وفدوا إلیه صلّى اللّه علیه و سلّم من نجران کما سیأتى بیانه، و یمکن أن یقال: هو على عمومه

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۳۹۸

و إن کان السبب خاصا، فیدل على جواز المباهلة منه صلّى اللّه علیه و سلّم لکل من حاجة فى عیسى علیه السلام، و أمته أسوته، و ضمیر فیه: لعیسى، و المراد بمجیء العلم هنا: مجیء سببه، و هو الآیات البینات، و المحاجة: المخاصمة و المجادلة. و قوله: تَعالَوْا أی: هلمّوا، و أقبلوا، و أصله: الطلب لإقبال الذوات، و یستعمل فى الرأی إذا کان المخاطب حاضرا، کما تقول لمن هو حاضر عندک: تعال ننظر فى هذا الأمر. قوله: نَدْعُ أَبْناءَنا إلخ، اکتفى بذکر البنین عن البنات، إما لدخولهن فى النساء، أو لکونهم الذین یحضرون مواقف الخصام دونهن؛ و معنى الآیة: لیدع کل منا و منکم أبناءه و نساءه و نفسه إلى المباهلة، و فیه دلیل: على أن أبناء البنات یسمون: أبناء، لکونه صلّى اللّه علیه و سلّم أراد بالأبناء الحسنین کما سیأتى. قوله: نَبْتَهِلْ أصل الابتهال: الاجتهاد فى الدعاء باللعن و غیره، یقال: بهله اللّه: أی لعنه، و البهل: اللعن. قال أبو عبید، و الکسائی: نبتهل: نلتعن، و یطلق على الاجتهاد فى الهلاک، و منه قول لبید:

فى كهول سادة من قومهنظر الدّهر إليهم فابتهل

أى: فاجتهد فى هلاكهم. قال فى الكشاف: ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه و إن لم يكن التعانا.

قوله: فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ عطف على نبتهل مبين لمعناه. قوله: إِنَّ هذا أى: الذى قصه اللّه على رسوله من نبأ عيسى لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ القصص: التتابع، يقال: فلان يقص أثر فلان:

أى يتبعه، فأطلق على الكلام الذى يتبع بعضه بعضا، و ضمير الفصل للحصر، و دخول اللام عليه لزيادة تأكيده، و يجوز أن يكون مبتدأ و ما بعده خبره، و زيادة: من، فى قوله: مِنْ إِلهٍ لتأكيد العموم، و هو ردّ على من قال بالتثليث من النصارى.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديث حذيفة: أن العاقب و السيد أتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأراد أن يلاعنهما، فقال أحدهما لصاحبه: لا نلاعنه، فو اللّه لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدا نحن و لا عقبنا من بعدنا، فقالوا له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلا أمينا، فقال: قم يا أبا عبيدة، فلما قام قال:

هذا أمين هذه الأمة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس: أن رهطا من أهل نجران قدموا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و كان فيهم السيد و العاقب، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟

قالوا: عيسى، تزعم: أنه عبد اللّه، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى و أنبئت به، ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل فقال: قل لهم إذا أتوك: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ إلى آخر الآية. و قد رويت هذه القصة على وجوه عن جماعة من التابعين. و أخرج الحاكم، و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال: قدم على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم العاقب و السيد، فدعاهما إلى الإسلام، فقالا: أسلمنا يا محمد، فقال:

كذبتما إن شئتما أخبرتكم ما يمنعكما من الإسلام، قالا: فهات. قال: حبّ الصليب، و شرب الخمر، و أكل لحم الخنزير. قال جابر: فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على الغد، فغدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أخذ بيد علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه و أقرّا له، فقال: و الذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر الوادى عليهما نارا. قال جابر: فيهم نزلت: تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا الآية. قال جابر: أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۳۹۹

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و علىّ، و أبناءنا الحسن و الحسين، و نساءنا فاطمة. و رواه أيضا الحاكم من وجه آخر عن جابر و صححه، و فيه: أنهم قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: هل لك أن نلاعنك؟. و أخرج مسلم، و الترمذى. و ابن المنذر، و الحاكم، و البيهقى عن سعد بن أبى وقاص: قال لما نزلت هذه الآية: فَقُلْ تَعالَوْا دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عليا و فاطمة و حسنا و حسينا، فقال: اللهم هؤلاء أهلى. و أخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا الآية، قال: فجاء بأبى بكر و ولده، و بعمر و ولده، و بعثمان و ولده، و بعلىّ و ولده.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس: ثُمَّ نَبْتَهِلْ نجتهد. و أخرج الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: هذا الإخلاص، يشير بإصبعه التى تلى الإبهام، و هذا الدعاء، فرفع يديه حذو منكبيه، و هذا الابتهال فرفع يديه مدّا.

[سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۴]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۶۴)

قيل: الخطاب لأهل نجران، بدليل ما تقدم قبل هذه الآية؛ و قيل: ليهود المدينة؛ و قيل: لليهود و النصارى جميعا، و هو ظاهر النظم القرآني، و لا وجه لتخصيصه بالبعض، لأن هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و السواء: العدل. قال الفراء: يقال في معنى العدل سوى و سوى، فإذا فتحت السين مددت، و إذا ضممت أو كسرت قصرت. قال زهير:

أروني خطّة لا ضيم فيهايسوّى بيننا فيها السّواء

و في قراءة ابن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا و بينكم» فالمعنى: أقبلوا إلى ما دعيتم إليه، و هي: الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق، و قد فسرها بقوله: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ و هو في موضع خفض على البدل من: كلمة، أو رفع إلى إضمار مبتدأ، أي: هي أن لا نعبد، و يجوز أن تكون: أن، مفسرة لا موضع للجملة التي دخلت عليها، و في قوله: وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح و عزير، و إشارة إلى أن هؤلاء من جنس البشر و بعض منهم، و إزراء على من قلد الرجال في دين اللّه فحلل ما حللوه له، و حرم ما حرموه عليه، فإن من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربا، و منه: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ «١» و قد جوّز الكسائي و الفراء الجزم في: وَ لا نُشْرِكَ وَ لا يَتَّخِذَ على التوهم. قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا أي: أعرضوا عما دعوا إليه فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ أي: منقادون لأحكامه، مرتضون به، معترفون بما أنعم اللّه به علينا من هذا الدين القويم.

و قد أخرج البخاري، و مسلم، و النسائي عن ابن عباس قال: حدّثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأه فإذا فيه: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى هرقل عظيم الروم:

سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك اللّه أجرك مرتين، فإن تولّيت فإنّ عليك إثم الأريسيين، و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم، إلى قوله:

---

(١). التوبة: ٣٤.

فتح القدير، ج‌١، ص: ٤٠٠

فتح القدير ج‌١ ٤٤٩

بأنّا مسلمون». و أخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الكفار تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: بلغني أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دعا يهود المدينة إلى ما في هذه الآية فأبوا عليه، فجاهدهم حتى أقرّوا بالجزية. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة قال:

ذكر لنا أن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء. و أخرج ابن جرير عن الربيع نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة: إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ قال: عدل. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن الربيع مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً قال: لا يطيع بعضنا بعضا في معصية اللّه، و يقال: إن تلك الربوبية أن يطيع الناس سادتهم و قادتهم في غير عبادة و إن لم يصلوا لهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً قال: سجود بعضهم لبعض.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٦٥ الى ٦٨]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما

لَكَمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكَمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۶۶) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۶۷) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (۶۸)

لما ادّعت كل واحدة من طائفتى اليهود و النصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم؛ ردّ اللّه سبحانه ذلك عليهم، و أبان بأنّ الملة اليهودية و الملة النصرانية إنما كانتا من بعده. قال الزجاج: هذه الآية أبين حجة على اليهود و النصارى أن التوراة و الإنجيل نزلا من بعده، و ليس فيهما اسم لواحد من الأديان و اسم الإسلام فى كل كتاب. انتهى، و فيه نظر، فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة، و ذكر شريعة موسى و الاحتجاج بها على اليهود، و كذلك الزبور فيه فى مواضع ذكر شريعة موسى، و فى أوائله التبشير بعيسى، ثم فى التوراة ذكر كثير من الشرائع المتقدّمة، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة. و قد اختلف فى قدر المدّة التى بين إبراهيم و موسى، و المدّة التى بين موسى و عيسى. قال القرطبى: يقال: كان بين إبراهيم و موسى ألف سنة، و بين موسى و عيسى ألفا سنة. و كذا فى الكشاف. قوله: أَ فَلا تَعْقِلُونَ أى: تتفكرون فى دحوض حجتكم و بطلان قولكم. قوله: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ الأصل فى ها أنتم: أ أنتم، أبدلت الهمزة الأولى هاء، لأنها أختها، كذا قال أبو عمرو بن العلاء، و الأخفش. قال النحاس: و هذا قول حسن. و قرأ قنبل: هأنتم و قيل: الهاء للتنبيه دخلت على الجملة التى بعدها، أى: ها أنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاججتم، و فى هؤلاء لغتان: المدّ و القصر. و المراد بما لهم به علم: هو ما كان فى التوراة و إن خالفوا مقتضاه و جادلوا فيه بالباطل، و الذى لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذى كان فيه. و فى الآية دليل على منع الجدال بالباطل، بل ورد الترغيب فى ترك الجدال من المحقّ كما فى حديث «من ترك المراء و لو محقّا فأنا ضمينه على اللّه ببيت فى ربض الجنّة». و قد ورد تسويغ الجدال بالتى هى

أحسن لقوله تعالى: وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ و نحو ذلك، فينبغى أن يقصر جوازه على المواطن التى تكون المصلحة فى فعله أكثر من المفسدة، أو على المواطن التى المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة. قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أى: كل شىء فيدخل فى ذلك ما حاججوا به. و قد تقدّم تفسير الحنيف. قوله: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ أى: أحقهم به و أخصهم للذين اتبعوا ملته و اقتدوا بدينه وَ هذَا النَّبِيُّ يعنى محمدا صلّى اللّه عليه و سلم، أفرده بالذكر تعظيما و تشريفا، و أولويته صلّى اللّه عليه و سلّم بإبراهيم من جهة كونه من ذريته، و من جهة موافقته لدينه فى كثير من الشريعة المحمدية وَ الَّذِينَ آمَنُوا من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران، و أحبار يهود عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا، و قالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فنزل فيهم: يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ الآية. و قد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ يقول: فيما شهدتم و رأيتم و عاينتم فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ يقول: فيما لم تشهدوا و لم تروا و لم تعاينوا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدىّ فى الآية قال: أما الذى لهم به علم فما حرّم عليهم و ما أمروا به، و أما الذى ليس لهم به علم فشأن إبراهيم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: يعذر من حاجّ بعلم و لا يعذر من حاجّ بالجهل. و أخرج ابن جرير عنه عن الشعبى فى قوله: ما كانَ إِبْراهِيمُ قال: أكذبهم اللّه و أدحض حجتهم. و أخرج أيضا عن الربيع مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حبان نحوه. و أخرج عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب: حدّثنى ابن غنم أنه لما خرج أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى

النجاشی، فذكر قصتهم معه، و ما قالوه له لما قال له عمرو بن العاص: إنهم يشتمون عيسی، و هی قصة مشهورة؛ ثم قال: فأنزلت ذلک اليوم خصومتهم علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم و هو بالمدينة إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ الآية. و أخرج سعيد ابن منصور، و عبد بن حميد، و الترمذی، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الحاكم، و صححه عن ابن مسعود أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم قال: «إن لكل نبی ولاة من النبيين، و إن وليّی منهم أبی خليل ربی ثم قرأ: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ الآية». و أخرج ابن أبی حاتم عن الحكم بن ميناء أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم قال:

«يا معشر قريش إنّ أولی النّاس بالنبیّ المتقون، فكونوا أنتم سبيل ذلک، فانظروا أن لا يلقانی النّاس يحملون الأعمال، و تلقونی بالدنيا تحملونها، فأصدّ عنكم بوجهی، ثم قرأ عليهم: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ الآية. و أخرج ابن أبی حاتم عن الحسن فی الآية قال: كل مؤمن ولیّ إبراهيم؛ ممن مضی، و ممن بقی.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۰۲

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۶۹ الی ۷۴]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۶۹) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۷۰) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۷۱) وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۷۲) وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۷۳)
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۷۴)

الطائفة من أهل الكتاب هم: يهود بنی النضير، و قريظة، و بنی قينقاع، حين دعوا جماعة من المسلمين إلی دينهم و سيأتی، و قيل: هم جميع أهل الكتاب، فتكون: من، لبيان الجنس. و قوله: وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ جملة حالية، للدلالة علی ثبوت قدم المؤمنين فی الإيمان، فلا يعود وبال من أراد فتنتهم إلا عليه.

و المراد بآيات اللّه: ما فی كتبهم من دلائل نبوّة محمد صلّی اللّه عليه و سلم وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ما فی كتبكم من ذلک، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرّون بنبوّتهم، أو المراد، كتم كل الآيات عنادا و أنتم تعلمون أنها حق. و لبس الحق بالباطل: خلطه بما يعتمدونه من التحريف وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جملة حالية. قوله: وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ هم رؤساؤهم و أشرافهم، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة. و وجه النهار: أوّله، و سمی: وجها، لأنه أحسنه، قال:

و تضیء فی وجه النّهار منيرة كجمانة البحریّ سلّ نظامها

و هو منصوب علی الظرف، أمروهم بذلک لإدخال الشک علی المؤمنين، لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم، و اعتراه الشک، و هم لا يعلمون أن اللّه قد ثبت قلوب المؤمنين، و مكن أقدامهم، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء اللّه، و لا تحركهم ريح المعاندين. قوله: وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض، أی: قال ذلک الرؤساء للسفلة: لا تصدقوا تصديقا صحيحا إلا لمن تبع دينكم من أهل الملة التی أنتم عليها، و أما غيرهم ممن قد أسلم فأظهروا لهم ذلک خداعا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ ليفتتنوا، و يكون قوله: أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ علی هذا: متعلقا بمحذوف، أی: فعلتم ذلک لأن يؤتی أحد مثل ما أوتيتم، يعنی: أن ما بكم من الحسد و البغی؛ أن يؤتی أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم و الكتاب؛ دعاكم إلی أن قلتم ما قلتم. و قوله: أَوْ يُحاجُّوكُمْ معطوف علی: أن يؤتی، أی: لا تؤمنوا إيمانا صحيحا، و تقروا بما فی صدوركم إقرارا صادقا لغير من تبع دينكم، إن فعلتم ذلک و دبرتموه فإن المسلمين يحاجوكم يوم

القيامة عند اللّه بالحق. و قوله: إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ جملة اعتراضية.

و قال الأخفش: المعنى: و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، و لا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، و لا تصدقوا أن يحاجوكم، فذهب إلى أنه معطوف؛ و قيل: المراد: لا تؤمنوا وجه النهار و تكفروا آخره إلا لمن تبع دينكم، أى: لمن دخل فى الإسلام و كان من أهل دينكم قبل إسلامه، لأن إسلام من كان منهم هو الذى قتلهم غيظا و أماتهم حسرة و أسفا، و يكون قوله: أَنْ يُؤْتى على هذا: متعلقا بمحذوف كالأوّل؛ و قيل: إن قوله:

أَنْ يُؤْتى متعلق بقوله: لا تُؤْمِنُوا أى: لا تظهروا إيمانكم ب أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أى: أسرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب اللّه مثل ما أوتيتم، و لا تفشوه إلا لأتباع دينكم؛

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۰۳

و قيل: المعنى: و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، آن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، بالمدّ على الاستفهام، تأكيدا للإنكار الذى قالوه أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه، فتكون على هذا: أن و ما بعدها: فى محل رفع على الابتداء، و الخبر محذوف تقديره تصدّقون بذلك، و يجوز أن تكون: فى محل نصب على إضمار فعل تقديره: تقرون أن يؤتى، و قد قرأ «آن يؤتى» بالمدّ ابن كثير و ابن محيصن، و حميد. و قال الخليل: أن فى موضع خفض، و الخافض محذوف. و قال ابن جريج: المعنى: و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى؛ و قيل: المعنى: لا تخبروا بما فى كتابكم من صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم إلا من تبع دينكم، لئلا يكون ذلك سببا لإيمان غيرهم بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم. و قال الفراء: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله: إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ثم قال اللّه لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم:

قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أى: إن البيان الحق بيان اللّه، بين أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، على تقدير:

لا، كقوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا «۱» أى: لئلا تضلوا، و «أو» فى قوله: أَوْ يُحاجُّوكُمْ بمعنى: حتى، و كذلك قال الكسائى، و هى عند الأخفش: عاطفة، كما تقدم. و قيل: إن هدى اللّه بدل من الهدى، و أن يؤتى خبر إن، على معنى: قل: إن هدى اللّه أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. و قد قيل: إن هذه الآية أعظم آى هذه السورة إشكالا و ذلك صحيح. و قرأ الحسن: يؤتى، بكسر التاء الفوقية. و قرأ سعيد بن جبير: إن يؤتى، بكسر الهمزة على أنها النافية. و قوله: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ قيل: هى النبوّة؛ و قيل: أعم منها، و هو ردّ عليهم و دفع لما قالوه و دبروه.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سفيان قال: كل شىء فى آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو فى النصارى، و يدفع هذا: أن كثيرا من خطابات أهل الكتاب المذكورة فى هذه السورة لا يصحّ حملها على النصارى ألبتة، و من ذلك هذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها، فإن الطائفة التى ودّت إضلال المسلمين و كذلك الطائفة القائلة: آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ و هى من اليهود خاصة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ قال: تشهدون أن نعت نبىّ اللّه محمد فى كتابكم، ثم تكفرون به، و تنكرونه، و لا تؤمنون به، و أنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة و الإنجيل: النبىّ الأمّى. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الربيع مثله. و أخرجا أيضا عن السدى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج: وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ على أن الدين عند اللّه الإسلام ليس للّه دين غيره. و أخرجا عن الربيع فى قوله: لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ يقول: لم تخلطون اليهودية و النصرانية بالإسلام، و قد علمتم أن دين اللّه الذى لا يقبل من أحد غيره: الإسلام وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَ يقول: تكتمون شأن محمد، و أنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة و الإنجيل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال عبد اللّه بن الصيف، و عدىّ ابن زيد، و

الحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد و أصحابه غدوة، و نكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعون عن دينهم، فأنزل اللّه فيهم:

---

(۱). النساء: ۱۷۶.

فتح القدير، ج۱، ص: ۴۰۴

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ إلى قوله: وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ و قد روى نحو هذا عن جماعة من السلف.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة من طريق أبى ظبيان عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَتْ طائِفَةٌ الآية، قال: كانوا يكونون معهم أول النهار، و يجالسونهم، و يكلمونهم، فإذا أمسوا و حضرت الصلاة كفروا به و تركوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قال: هذا قول بعضهم لبعض. و أخرج ابن جرير عن الربيع مثله. و أخرج أيضا عن السدى نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ حسدا من يهود أن تكون النبوة فى غيرهم، و إرادة أن يتابعوا على دينهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك و سعيد بن جبير: أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ قال:

أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى قال اللّه لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم: إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ يا أمة محمد أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ يقول اليهود: فعل اللّه بنا كذا و كذا من الكرامة، حتى أنزل علينا المنّ و السلوى، فإن الذى أعطيتكم أفضل فقولوا: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة: قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ يقول: لما أنزل اللّه كتابا مثل كتابكم، و بعث نبيا كنبيكم حسدتموه على ذلك قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ. و أخرج ابن جرير عن الربيع مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ يقول: هذا الأمر الذى أنتم عليه مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قال: قال بعضهم لبعض: لا تخبروهم بما بين اللّه لكم فى كتابه لِيُحَاجُّوكُمْ قال: ليخاصموكم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فتكون لهم حجة عليكم قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ قال: الإسلام يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ قال: القرآن و الإسلام. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ قال: النبوة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: رحمته الإسلام يختص بها من يشاء.

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۵ الى ۷۷]

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷۶) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۷)

هذا شروع فى بيان خيانة اليهود فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين، و الجار و المجرور فى قوله: وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ فى محل رفع على الابتداء، على ما مرّ فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ «۱» و قد تقدم تفسير القنطار. و قوله: تَأْمَنْهُ هذه قراءة الجمهور. و قرأ ابن وثاب، و الأشهب العقيلى: تيمنه بكسر

---

(١). البقرة: ٨.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۰۵

التاء الفوقية على لغة بكر و تميم، و مثله: قراءة من قرأ: نستعين بكسر النون. و قرأ نافع و الكسائى:

يُؤَدِّهِ بكسر الهاء فى الدرج. قال أبو عبيد: و اتفق أبو عمرو، و الأعمش، و حمزة، و عاصم فى رواية أبى بكر: على إسكان الهاء. قال النحاس: إسكان الهاء لا يجوز إلا فى الشعر عند بعض النحويين، و بعضهم لا يجيزه ألبتة، و يرى أنه غلط من قرأ به، و يوهم أن الجزم يقع على الهاء و أبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه شىء من هذا، و الصحيح عنه: أنه كان يكسر الهاء. و قال الفراء: مذهب بعض العرب يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، فيقولون: ضربته ضربا شديدا، كما يسكنون ميم أنتم و قمتم، و أنشد:

لمّا رأى أن لا دعه و لا شبع مال إلى أرطاة «١» حقف فاضطجع

و قرأ أبو المنذر سلام، و الزهرى: يؤده بضم الهاء بغير واو. و قرأ قتادة و حمزة و مجاهد: يؤدّ هو بواو فى الإدراج، و معنى الآية: أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذى يؤدى أمانته و إن كانت كثيرة، و فيهم الخائن الذى لا يؤدى أمانته و إن كانت حقيرة، و من كان أمينا فى الكثير فهو فى القليل أمين بالأولى، و من كان خائنا فى القليل فهو فى الكثير خائن بالأولى. و قوله: إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً استثناء مفرغ، أى: لا يؤده إليك فى حال من الأحوال إلا ما دمت عليه قائما مطالبا له، مضيقا عليه، متقاضيا لردّه، و الإشارة بقوله: ذلك، إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله: لا يُؤَدِّهِ و الأميون: هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب، أى: ليس علينا فى ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا فى ديننا، و ادّعوا- لعنهم اللّه- أن ذلك فى كتابهم، فردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ- بَلى أى: بلى عليهم سبيل لكذبهم، و استحلالهم أموال العرب، فقوله: بَلى إثبات لما نفوه من السبيل. قال الزجاج: تمّ الكلام بقوله: بَلى ثم قال: مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى و هذه جملة مستأنفة: أى: من أوفى بعهده و اتقى فليس من الكاذبين. أو فإن اللّه يحبه، و الضمير فى قوله: بِعَهْدِهِ راجع إلى: من، أو إلى: اللّه تعالى، و عموم المتقين قائم مقام العائد إلى: من، أى: فإن اللّه يحبه. قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ أى:

يستبدلون، كما تقدّم تحقيقه غير مرة. و عهد اللّه: هو ما عاهدوه عليه من الإيمان بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و الأيمان:

هى التى كانوا يحلفون أنهم يؤمنون به و ينصرونه، و سيأتى بيان سبب نزول الآية: أُولئِكَ أى:

الموصوفون بهذه الصفة لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أى: لا نصيب وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ بشىء أصلا، كما يفيده حذف المتعلق من التعميم، أو لا يكلمهم بما يسرهم وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ نظر رحمة، بل يسخط عليهم، و يعذبهم بذنوبهم، كما يفيده قوله: وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن عكرمة فى قوله: وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ قال: هذا من النصارى وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ قال: هذا من اليهود إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً قال: إلا ما طلبته و اتبعته. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى قوله:

---

(١). الأرطاة: واحدة الأرط، و هو شجر من شجر الرمل، و الحقف: بالكسر، ما اعوجّ من الرمل.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۰۶

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ قال: قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل.

و أخرج ابن جرير عن السدّى نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «كذب أعداء اللّه، ما من شىء كان فى

الجاهلية إلا و هو تحت قدميّ هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البرّ و الفاجر».

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن صعصعة: أنه سأل ابن عباس فقال: إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة و الشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا فى ذلك من بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحلّ لكم إلا بطيب نفوسهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى يقول: اتقى الشرك فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ يقول: الذين يتقون الشرك. و أخرج البخارى، و مسلم، و أهل السنن، و غيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى اللّه و هو عليه غضبان». فقال الأشعث بن قيس: فىّ و اللّه كان ذلك، كان بينى و بين رجل من اليهود أرض فجحدنى، فقدّمته إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فقال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ألك بينة؟ قلت لا، قال لليهودى: احلف، فقلت: يا رسول اللّه! إذن يحلف فيذهب مالى، فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا إلى آخر الآية». و قد روى: أن سبب نزول الآية: أن رجلا كان يحلف بالسوق: لقد أعطى بسلعته ما لم يعط بها. و أخرجه البخارى و غيره. و روى أن سبب نزولها: مخاصمة كانت بين الأشعث و امرئ القيس و رجل من حضرموت. و أخرجه النسائى و غيره.

[سورة آل‏عمران (٣): آية ٧٨]

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

أى: طائفة من اليهود يلوون، أى: يحرّفون و يعدلون به عن القصد، و أصل اللىّ: الميل، يقول لوى برأسه: إذا أماله. و قرئ: يلوّون بالتشديد، و يلون بقلب الواو همزة، ثم تخفيفها بالحذف، و الضمير فى قوله: لِتَحْسَبُوهُ يعود إلى ما دل عليه يَلْوُونَ و هو المحرف الذى جاءوا به. قوله:

وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ جملة حالية، و كذلك قوله: وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و كذلك قوله: وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أى: أنهم كاذبون مفترون.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ قال: هم اليهود، كانوا يزيدون فى الكتاب ما لم ينزل اللّه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: يحرّفونه.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٠٧

[سورة آل‏عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

أى: ما كان ينبغى و لا يستقيم لبشر أن يقول هذه المقالة و هو متصف بتلك الصفة. و فيه بيان من اللّه سبحانه لعباده: أن النصارى افتروا على عيسى عليه السلام ما لم يصح عنه، و لا ينبغى أن يقوله. و الحكم:

الفهم و العلم. قوله: وَ لكِنْ كُونُوا أى: و لكن يقول النبى: كونوا ربانيين، و الربانى: منسوب إلى الرب، بزيادة الألف و النون

للمبالغة، كما يقال لعظيم اللحية: لحيانى، و لعظيم الجمة: جمانى، و لغليظ الرقبة:
رقبانى. قيل: الربانى: الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره، فكأنه يقتدى بالربّ سبحانه فى تيسير الأمور. و قال المبرد: الربانيون: أرباب العلم، واحدهم ربانى، من قوله: ربه، يربه، فهو ربان: إذا دبره و أصلحه، و الياء للنسب، فمعنى الربانى: العالم بدين الربّ، القوىّ التمسك بطاعة اللّه؛ و قيل: العالم الحكيم. قوله: بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ أى: بسبب كونكم عالمين، أى: كونوا ربانيين بهذا السبب، فإن حصول العلم للإنسان و الدراسة له يتسبب عنهما الربانية التى هى التعليم للعلم، و قوة التمسك بطاعة اللّه.

و قرأ ابن عباس و أهل الكوفة: «بما كنتم تعلّمون» بالتشديد. و قرأ أبو عمرو و أهل المدينة بالتخفيف، و اختار القراءة بالتخفيف، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد. قال: لأنها لجمع المعنيين. قال مكى: التشديد أبلغ لأن العالم قد يكون عالما غير معلم، فالتشديد يدل على العلم و التعليم، و التخفيف إنما يدل على العلم فقط. و اختار القراءة الثانية أبو حاتم. قال أبو عمرو: و تصديقها: تدرسون بالتخفيف دون التشديد. انتهى. و الحاصل:

أن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الربانى على أمر زائد على العلم و التعليم، و هو أن يكون مع ذلك مخلصا أو حكيما أو حليما حتى تظهر السببية؛ و من قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الربانى على العالم الذى يعلم الناس، فيكون المعنى: كونوا معلمين بسبب كونكم علماء، و بسبب كونكم تدرسون العلم. و فى هذه الآية أعظم باعث لمن علم أن يعمل، و إن من أعظم العمل بالعلم تعليمه، و الإخلاص للّه سبحانه. قوله: وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً بالنصب عطفا على ثُمَّ يَقُولَ وَ لا مزيدة لتأكيد النفى، أى: ليس له أن يأمر بعبادة نفسه، و لا يأمر باتخاذ الملائكة و النبيين أربابا، بل ينتهى عنه، و يجوز عطفه على أن يؤتيه، أى: ما كان لبشر أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة و النبيين أربابا؛ و بالنصب قرأ ابن عامر، و عاصم، و حمزة، و قرأ الباقون: بالرفع على الاستئناف و القطع من الكلام الأوّل، أى: و لا يأمركم اللّه أن تتخذوا الملائكة و النبيين أربابا، و يؤيده أن فى مصحف ابن مسعود: و لن يأمركم. و الهمز فى قوله: أَ يَأْمُرُكُمْ لإنكار ما نفى عن البشر. و قوله: بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ استدل به من قال إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من المسلمين فى أن يسجدوا له.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود و النصارى من أهل نجران عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و دعاهم إلى الإسلام: أ تريد يا محمد! أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«معاذ اللّه أن نعبد غير اللّه، أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثنى و لا بذلك أمرنى، فأنزل اللّه فى ذلك:

ما كانَ لِبَشَرٍ الآية». و أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: بلغنى أن رجلا قال: يا رسول اللّه! نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: «لا، و لكن أكرموا نبيّكم، و اعرفوا الحقّ لأهله، فإنّه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون اللّه، فأنزل اللّه: ما كانَ لِبَشَرٍ الآية». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: رَبَّانِيِّينَ قال: فقهاء، علماء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: حكماء، علماء، حلماء. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: علماء، فقهاء.

و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: حكماء، علماء. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى رزين فى قوله: وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ قال: مذاكرة الفقه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا قال: و لا يأمرهم النبىّ.

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۱ الى ۸۲]

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٨٢)

قد اختلف فى تفسير قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ فقال سعيد بن جبير، و قتادة، و طاوس، و الحسن، و السدّى: إنه أخذ اللّه ميثاق الأنبياء أن يصدّق بعضهم بعضا بالإيمان، و يأمر بعضهم بعضا بذلك، فهذا معنى النصرة له و الإيمان به، و هو ظاهر الآية، فحاصله: أن اللّه أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر و ينصره، و قال الكسائى: يجوز أن يكون معنى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ بمعنى: و إذ أخذ اللّه ميثاق الذين مع النبيين، و يؤيده قراءة ابن مسعود: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ و قيل: فى الكلام حذف. و المعنى: و إذ أخذ اللّه ميثاق النبيين لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب و حكمة، و لتأخذن على الناس أن يؤمنوا، و دلّ على هذا الحذف قوله: وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي و ما فى قوله: لَما آتَيْتُكُمْ بمعنى الذى. قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ فقال ما بمعنى الذى. قال النحاس: التقدير فى قول الخليل: الذى آتيتكموه، ثم حذفت الهاء لطول الاسم، و اللام لام الابتداء، بهذا قال الأخفش، و تكون: ما، فى محل رفع على الابتداء، و خبرها: من كتاب و حكمة. و قوله: ثُمَّ جاءَكُمْ و ما بعده جملة معطوفة على الصلة، و العائد محذوف، أى: مصدّق به. و قال المبرد و الزجاج و الكسائى: ما شرطية دخلت عليها لام التحقيق، كما تدخل على إن، و لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف كما تقول: أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا، و هو سادّ مسدّ الجزاء. و قال الكسائى: إن الجزاء قوله: فَمَنْ تَوَلَّى و قال فى الكشاف: إن اللام فى قوله: لَما آتَيْتُكُمْ لام التوطئة و اللام فى قوله:
لَتُؤْمِنُنَ جواب القسم، و ما: يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط، و لتؤمنن سادّ جواب القسم و الشرط جميعا، و أن تكون موصولة بمعنى: للذى آتيتكموه لتؤمنن به. انتهى و قرأ حمزة: لَما آتَيْتُكُمْ

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٠٩

بكسر اللام، و ما بمعنى الذى، و هى معلقة بأخذ. و قرأ أهل المدينة: آتيناكم على التعظيم. و قرأ الباقون: آتَيْتُكُمْ على التوحيد؛ و قيل: إن ما فى قراءة من قرأ بكسر اللام: مصدرية. و معناه:
لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب و الحكمة، ثم لمجىء رسول اللّه مصدق لما معكم، و اللام لام التعليل: أى لأجل ذلك أخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به. قوله: أَقْرَرْتُمْ هو من الإقرار. و الإصر فى اللغة:
الثقل، سمّى العهد إصرا لما فيه من التشديد. و المعنى: و أخذتم على ذلك عهدى. قوله: قالُوا أَقْرَرْنا جملة استئنافية كأنه قيل: ماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: أقررنا، و إنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفاء بذلك. قوله: قالَ فَاشْهَدُوا أى: قال اللّه سبحانه فاشهدوا، أى: ليشهد بعضهم على بعض وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ أى: و أنا على إقراركم و شهادة بعضكم على بعض من الشاهدين. قوله: فَمَنْ تَوَلَّى أى: أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى: الخارجون عن الطاعة.
و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن أصحاب عبد اللّه يقرءون: و إذ أخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب و حكمة و نحن نقرأ:
ميثاق النبيين، فقال ابن عباس: إنما أخذ اللّه ميثاق النبيين على قومهم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن طاوس فى الآية، قال: أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ أن يصدق بعضهم بعضا.
و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ قال:
هى خطأ من الكتّاب، و هى فى قراءة ابن مسعود مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ و أخرج ابن جرير عن علىّ قال: لم يبعث اللّه نبيا آدم

فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد: لئن بعث و هو حيّ ليؤمنن به و لينصرنه، و يأمره فيأخذ العهد على قومه، ثم تلا: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه فى قوله: إِصْرِي قال: عهدى. و أخرج ابن جرير عن عليّ فى قوله: قالَ فَاشْهَدُوا يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ عليكم و عليهم فَمَنْ تَوَلَّى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ هم العاصون فى الكفر.

[سورة آل‏عمران (٣): الآيات ٨٣ الى ٨٥]

أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٨٥)

قوله: أَ فَغَيْرَ عطف على مقدّر، أى: أ تتولون فتبغون غير دين اللّه، و تقديم المفعول: لأنه المقصود بالإنكار. و قرأ أبو عمرو وحده يَبْغُونَ بالتحتية و ترجعون بالفوقية، قال: لأن الأوّل خاص و الثانى عام، ففرّق بينهما لافتراقهما فى المعنى. و قرأ حفص بالتحتية فى الموضعين. و قرأ الباقون: بالفوقية

فتح القدير، ج ١، ص: ۴١٠

فيهما، و انتصب: طوعا و كرها، على الحال، أى: طائعين و مكرهين. و الطوع: الانقياد و الاتباع بسهولة، و الكره: ما فيه مشقة، و هو من أسلم مخافة القتل، و إسلامه استسلام منه. قوله: آمَنَّا إخبار منه صلّى اللّه عليه و سلم عن نفسه و عن أمته لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ كما فرّقت اليهود و النصارى، فآمنوا ببعض، و كفروا ببعض.

و قد تقدّم تفسير هذه الآية. وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أى: منقادون مخلصون. قوله: دِيناً مفعول للفعل، أى: يبتغ دينا حال كونه غير الإسلام، و يجوز أن ينتصب: غير الإسلام، على أنه مفعول الفعل، و دينا: إما تمييز، أو حال، إذا أوّل بالمشتق، أو بدل من: غير. قوله: وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ إما فى محل نصب على الحال، أو جملة مستأنفة، أى: من الواقعين فى الخسران يوم القيامة.

و قد أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: أما من فى السموات: فالملائكة، و أما من فى الأرض: فمن ولد على الإسلام، و أما كرها: فمن أتى به من سبايا الأمم فى السلاسل و الأغلال يقادون إلى الجنة و هم كارهون. و أخرج الديلمى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية: «الملائكة أطاعوه فى السّماء، و الأنصار، و عبد القيس أطاعوه فى الأرض».

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية: أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ حين أخذ عليهم الميثاق.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لَهُ أَسْلَمَ قال: المعرفة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: أما المؤمن: فأسلم طائعا، فنفعه ذلك و قبل منه، و أما الكافر: فأسلم حين رأى بأس اللّه، فلم ينفعه ذلك، و لم يقبل منه فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا. و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من ساء خلقه من الرقيق و الدوابّ و الصبيان فاقرؤوا فى أذنه: أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ . و أخرج ابن السنى فى عمل اليوم و الليلة عن يونس بن عبيد قال:

ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ فى أذنها: أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ الآية، إلا ذلت بإذن اللّه عزّ و جلّ. و أخرج أحمد، و الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصّلاة فتقول:

يا ربّ! أنا الصّلاة، فيقول: إنك على خير، و تجيء الصّدقة فتقول:

يـا ربّ! أنـا الصدقـة، فيقول: إنـك على خير، و يجيء الصّيام فيقول: أنا الصـيام، فيقول: إنّك على خير، ثم تجيء الأعمال، كل ذلـك يقول اللّه: إنك على خير، ثم يجيء الإسـلام فيقول: يا ربّ! أنت السّـلام و أنا الإسـلام، فيقول: إنك على خير، بك اليوم آخذ و بك أعطى، قال اللّه تعالى فى كتابه: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ .

فتح القدير، ج ١، ص: ٤١١

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١]

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٩١)

قوله: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً هذا الاستفهام معناه: الجحد، أى: لا يهدى اللّه، و نظيره: قوله تعالى: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ أى: لا عهد لهم، و مثله قول الشاعر:

كيف نومى على الفراش و لمّاتشمل الشّام «١» غارة شعواء

أى: لا نوم لى. و معنى الآيـة: لا يهدى اللّه قوما إلى الحق كفروا بعد إيمانهم، و بعد ما شـهدوا أن الرسول حق، و بعد ما جاءتهم البينات من كتاب اللّه سـبحانه و معجزات رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم، و قوله: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ جملـة حاليـة، أى: كيف يهدى المرتدّين، و الحال أنه لا يهدى من حصل منهم مجرد الظلم لأنفسهم، و منهم الباقون على الكفر؟ و لا ريب أن ذنب المرتـدّ أشـدّ من ذنب من هو باق على الكفر، لأن المرتـدّ قد عرف الحق ثم أعرض عنادا و تمرّدا. قوله: أُولئِكَ إشارة إلى القوم المتصـفين بتلك الصـفات السابقـة، و هو: مبتـدأ، خبره: الجملة التى بعده. و قد تقدّم تفسـير اللعن. و قوله: وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ معناه: يؤخرون و يمهلون. ثم اسـتثنى التائبين، فقال: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى: من بعد الارتداد وَ أَصْلَحُوا بالإسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردّة. و فيه دليل: على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسـلام، مخلصا، و لا خلاف فى ذلك فيما أحفظ.

قوله: ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً.

قال قتادة و عطاء الخراسانى و الحسن: نزلت فى اليهود و النصارى، كفروا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم بعد إيمانهم بنعته و صفته ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بإقـامتهم على كفرهم؛ و قيـل: ازدادوا كفرا بالـذنوب الـتى اكتسبوها، و رجحه ابن جرير الطبرى، و جعلهـا فى اليهود خاصة. و قد استشـكل جماعة من المفسـرين قوله تعالى: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ «٢» مع كون التوبـة مقبولة فى الآية الأولى و كما فى قوله تعـالى: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ «٣» غير ذلك؛ فقيل: المعنى: لن تقبل توبتهم عنـد الموت. قال النحاس: و هـذا قول حسن، كما قال تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ «٤» و به قال الحسن، و قتادة، و عطاء، و منه الحـديث: «إن اللّه يقبل توبـة العبـد ما لم يغرغر»؛ و قيل: المعنى: لن تقبل توبتهم التى كانوا عليها قبـل أن يكفروا، لأـن الكفر أحبطهـا، و قيـل: لن تقبـل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر، و الأولى: أن يحمل عـدم قبول توبتهم فى هـذه الآيـة على من مات كافرا غير تائب، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعـدم قبول التوبة، و تكون الآية المذكورة

بعد هذه الآية، و هی قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فی حكم البيان لها. قوله: مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً الملء بالكسر: مقدار ما يملأ الشیء، و الملء بالفتح: مصدر ملأت الشیء، و ذهبا: تمييز، قاله الفراء و غيره. و قال الكسائی: نصب

(۱). فی القرطبی (۴/ ۱۲۹): يشمل القوم.

(۲). آل عمران: ۹۰.

(۳). الشوری: ۲۵.

(۴). النساء: ۱۸.

علی إضمار: من ذهب. كقوله: أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً «۱» أی: من صيام. و قرأ الأعمش: ذهب بالرفع علی أنه بدل من: ملء، و الواو فی قوله: وَ لَوِ افْتَدی بِهِ قيل: هی مقحمة زائدة، و المعنی:

لو افتدی به؛ و قيل: فيه حمل علی الغنی كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية و لو افتدی بملء الأرض ذهبا؛ و قيل: هو عطف علی مقدر؛ أی: لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تصدق به فی الدنيا، و لو افتدی به من العذاب، أی: بمثله.

و قد أخرج النسائی، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم، و ابن حبان، و الحاكم، و صححه، و البيهقی فی سننه عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد و لحق بالمشركين، ثم ندم فأرسل إلی قومه: أرسلوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم هل لی من توبة؟ فنزلت: كَيْفَ يَهْدِی اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ إلی قوله:

غَفُورٌ رَحِيمٌ فأرسل إليه قومه فأسلم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد نحوه، و قال: هو الحارث بن سويد. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن السدی نحوه، و أخرج ابن إسحاق، و ابن المنذر عن ابن عباس نحوه أيضا. و قد روی عن جماعة نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم من طريق العوفی عن ابن عباس فی قوله: كَيْفَ يَهْدِی اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ قال: هم أهل الكتاب من اليهود، عرفوا محمدا، ثم كفروا به. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن الحسن قال:

هم أهل الكتاب من اليهود و النصاری، و ذكر نحو ما تقدّم عنه. و أخرج البزار عن ابن عباس: أن قوما أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلی قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم فنزلت هذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً قال السيوطی: هذا خطأ من البزار. و أخرج ابن جرير عن الحسن فی الآية قال: اليهود و النصاری لن تقبل توبتهم عند الموت. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن قتادة فی الآية قال: هم اليهود كفروا بالإنجيل و عيسی، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلّی اللّه عليه و سلّم و القرآن. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن أبی العالية فی الآية قال: إنما نزلت فی اليهود و النصاری، كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفرا بذنوب أذنبوها، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب فی كفرهم، و لو كانوا علی الهدی قبلت توبتهم، و لكنهم علی الضلالة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فی قوله: ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً قال: نموا علی كفرهم. و أخرج ابن جرير عن السدی فی قوله: ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً قال: ماتوا و هم كفار لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ قال: إذا تاب عند موته لم تقبل توبته. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن أبی العالية فی قوله: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ قال: تابوا من الذنوب؛ و لم يتوبوا من الأصل. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن الحسن فی قوله: وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ قال: هو كل كافر.

و أخرج البخاری، و مسلم، و غيرهما عن أنس، عن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم قال: «يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أ رأيت لو

كان ملء الأرض ذهبا، أ كنت مفتديا به؟ فيقول: نعم، فيقال له: لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك، فذلك قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفّارٌ الآية.

---

(١). المائدة: ٩٥.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤١٣

[سورة آل‌عمران (٣): آية ٩٢]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

هذا كلام مستأنف، خطاب للمؤمنين عقب ذكر ما لا ينفع الكفار. قوله: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ يقال: نالنى من فلان معروف ينالنى، أى: وصل إلىّ، و النوال: العطاء، من قولك: نولته تنويلا، أعطيته. و البرّ: العمل الصالح، و قال ابن مسعود، و ابن عباس، و عطاء، و مجاهد، و عمر بن ميمون، و السدّى: هو الجنة، فمعنى الآية: لن تنالوا العمل الصالح أو الجنة، أى: تصلوا إلى ذلك، و تبلغوا إليه حتى تنفقوا مما تحبون، أى: حتى تكون نفقتكم من أموالكم التى تحبونها، و من تبعيضية، و يؤيده قراءة ابن مسعود: حتّى تنفقوا بعض ما تحبّون و قيل: بيانية و ما موصولة، أو موصوفة، و المراد: النفقة فى سبيل الخير، من صدقة، أو غيرها من الطاعات؛ و قيل المراد: الزكاة المفروضة. و قوله: مِنْ شَيْءٍ بيان لقوله: ما تُنْفِقُوا أى: ما تنفقوا من أى شيء سواء كان طيبا أو خبيثا فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ و ما: شرطية جازمة. و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن أنس «أنّ أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: يا رسول اللّه! إن أحبّ أموالى إلىّ بيرحاء، و إنها صدقة» الحديث. و قد روى بألفاظ. و أخرج عبد بن حميد، و البزار عن ابن عمر قال: حضرتنى هذه الآية: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ فذكرت ما أعطانى اللّه، فلم أجد شيئا أحبّ إلى من مرجانة، جارية لى رومية، فقلت: هى حرّة لوجه اللّه، فلو أنى أعود فى شيء جعلته للّه لنكحتها، فأنكحتها نافعا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى: أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء، فدعا بها عمر فقال: إن اللّه يقول: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ فأعتقها عمر. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد ابن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم: إنها لما نزلت الآية، جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها: سبل، لم يكن له مال أحبّ إليه منها، فقال: هى صدقة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ قال: الجنة. و أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون و السدى مثله. و أخرج ابن المنذر عن مسروق مثله.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٩٣ الى ٩٥]

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

قوله: كُلُّ الطَّعامِ أى: المطعوم، و الحلّ: مصدر يستوى فيه المفرد و الجمع و المذكر و المؤنث، و هو الحلال، و إسرائيل: هو

يعقوب، كما تقدم تحقيقه. و معنى الآية: أن كل المطعومات كانت حلالا لبنى يعقوب، لم يحرّم عليهم شىء منها إلا ما حرم إسرائيل على نفسه. و سيأتى بيان ما هو الذى حرمه على نفسه،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۱۴

و هذا الاستثناء متصل من اسم كان. و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ متعلق بقوله: كانَ حِلًّا أى: أن كل المطعومات كانت حلالا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ أى: كان ما عدا المستثنى حلالا لهم مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم، و فيه ردّ على اليهود لما أنكروا ما قصه اللّه سبحانه على رسوله صلّى اللّه عليه و سلم، من أن سبب ما حرمه اللّه عليهم هو ظلمهم و بغيهم، كما فى قوله:

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ «۱». الآية. و قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما «۲» إلى قوله: ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ «۳» و قالوا:

إنها محرّمة على من قبلهم من الأنبياء، يريدون بذلك تكذيب ما قصة اللّه على نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم فى كتابه العزيز، ثم أمره سبحانه بأن يحاجهم بكتابهم، و يجعل بينه و بينهم حكما ما أنزله عليهم، لا ما أنزل عليه فقال: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ حتى تعلموا صدق ما قصه اللّه فى القرآن، من أنه لم يحرّم على بنى إسرائيل شىء من قبل نزول التوراة إلا ما حرمه يعقوب على نفسه. و فى هذا من الإنصاف للخصوم ما لا يقادر قدره، و لا يبلغ مداه، ثم قال: فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى: من بعد إحضار التوراة و تلاوتها فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى: المفرطون فى الظلم المتبالغون فيه، فإنه لا أظلم ممن حوكم إلى كتابه و ما يعتقده شرعا صحيحا، ثم جادل من بعد ذلك مفتريا على اللّه الكذب؛ ثم لما كان ما يفترونه من الكذب بعد قيام الحجة عليهم بكتابهم باطلا مدفوعا، و كان ما قصه اللّه سبحانه فى القرآن و صدقته التوراة صحيحا صادقا، و كان ثبوت هذا الصدق بالبرهان الذى لا يستطيع الخصم دفعه، أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن ينادى بصدق اللّه بعد أن سجل عليهم الكذب، فقال: قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ أى: ملة الإسلام التى أنا عليها، و قد تقدم بيان معنى الحنيف، و كأنه قال لهم: إذا تبين لكم صدقى، و صدق ما جئت به، فادخلوا فى دينى، فإن من جملة ما أنزله اللّه علىّ: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ «۴».

و قد أخرج الترمذى و حسنه عن ابن عباس «أنّ اليهود قالوا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: فأخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النّسا، فلم يجد شيئا يلائمه إلا تحريم الإبل و ألبانها، فلذلك حرّمها، قالوا: صدقت» و ذكر الحديث. و أخرجه أيضا أحمد، و النسائى. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه عن ابن عباس فى الآية قال: العرق أجده عرق النساء، فكان يبيت له زق، يعنى: صياح، فجعل للّه عليه إن شفاه أن لا يأكل لحما فيه عرق، فحرمته اليهود. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس من قوله: ما أخرجه الترمذى سابقا عنه مرفوعا. و أخرج ابن إسحاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: الذى حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد، و الكليتان، و الشحم، إلا ما كان على الظهر.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال: قالت اليهود للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم نزلت التوراة بتحريم الذى حرّم إسرائيل، فقال اللّه لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و كذبوا ليس فى التوراة.

---

(۱). النساء: ۱۶۰.

(۲). الأنعام: ۱۴۶.

(۳). الأنعام: ۱۴۶.

(۴). آل عمران: ۸۵.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۱۵

[سورة آل‏عمران (۳): الآيات ۹۶ الى ۹۷]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ (۹۶) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۹۷)

هذا شروع في بيان شي‏ء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل، و ذلك أنهم قالوا: إن بيت المقدس أفضل و أعظم من الكعبة، لكونه: مهاجر الأنبياء، و في الأرض المقدسة. فرد اللّه ذلك عليهم بقوله: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ الآية، فقوله: وُضِعَ صفة لبيت، و خبر إن: قوله: لَلَّذِي بِبَكَّةَ فنبه تعالى بكونه: أول متعبد على أنه أفضل من غيره، و قد اختلف في الباني في الابتداء: فقيل: الملائكة، و قيل: آدم، و قيل: إبراهيم، و يجمع بين ذلك: بأول من بناه الملائكة، جدده آدم، ثم إبراهيم. و بكة: علم للبلد الحرام، و كذا مكة، و هما لغتان، و قيل: إن بكة: اسم لموضع البيت، و مكة: اسم للبلد الحرام؛ و قيل: بكة: للمسجد، و مكة: للحرم كله؛ قيل: سميت بكة لازدحام الناس في الطواف، يقال: بك القوم: ازدحموا؛ و قيل: البك: دق العنق، سميت بذلك لأنها كانت تدق أعناق الجبابرة. و أما تسميتها: بمكة، فقيل: سميت بذلك: لقلة ما بها؛ و قيل: لأنها تمك المخ من العظم، بما ينال ساكنها من المشقة، و منه مككت العظم: إذا أخرجت ما فيه، و أمكته: إذا امتصه، و قيل: سميت بذلك: لأنها تمك من ظلم فيها، أي: تهلكه. قوله: مُبارَكاً حال من الضمير في وضع، أو من متعلق الظرف، لأن التقدير: للذي استقر ببكة مباركا، و البركة: كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه أو يقصده، أي: الثواب المتضاعف. و الآيات البينات: الواضحات، منها: الصفا و المروة، و منها: أثر القدم في الصخرة الصماء، و منها: أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليماني كان الخصب في اليمن، و إن كان بناحية الشامي كان الخصب بالشام، و إذا عمّ البيت كان الخصب في جميع البلدان، و منها: انحراف الطيور عن أن تمر على هوائه في جميع الأزمان، و منها: هلاك من يقصده من الجبابرة و غير ذلك. و قوله: مَقامُ إِبْراهِيمَ بدل من آيات، قاله محمد بن يزيد المبرد. و قال في الكشاف: إنه عطف بيان. و قال الأخفش: إنه مبتدأ، و خبره: محذوف، و التقدير: منها مقام إبراهيم؛ و قيل: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي مقام إبراهيم، و قد استشكل صاحب الكشاف بيان الآيات- و هي جمع-: بالمقام- و هو فرد- و أجاب: بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات، لقوّة شأنه، أو: بأنه مشتمل على آيات. قال: و يجوز أن يراد فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مقام إبراهيم، و أمن من دخله، لأن الاثنين نوع من الجمع. قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً جملة مستأنفة، لبيان حكم من أحكام الحرم، و هو: أن من دخله كان آمنا. و به استدل من قال: إن من لجأ إلى الحرم و قد وجب عليه حدّ من الحدود فإنه لا يقام عليه الحدّ حتى يخرج منه، و هو قول أبي حنيفة و من تابعه، و خالفه الجمهور، فقالوا: تقام عليه الحدود في الحرم. و قد قال جماعة: إن الآية خبر في معنى الأمر، أي: و من دخله فأمنوه كقوله: فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ «۱» أي: لا ترفثوا، و لا تفسقوا، و لا تجادلوا. قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ اللام في قوله: لِلَّهِ هي التي يقال لها: لام الإيجاب و الإلزام، ثم زاد هذا المعنى تأكيدا حرف عَلَى فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب

---

(۱). البقرة: ۱۹۷.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۱۶

عند العرب، كما إذا قال القائل: لفلان عليّ كذا، فذكر اللّه سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب، تأكيدا لحقه و تعظيما لحرمته، و هذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الدليل، كالصبى و العبد.

و قوله: مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا فى محل جرّ على أنه بدل بعض من الناس. و به قال أكثر النحويين.

و أجاز الكسائى: أن يكون فى موضع رفع بحج. و التقدير: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا؛ و قيل:

إن: من، حرف شرط، و الجزاء محذوف، أى: من استطاع إليه سبيلا فعليه الحج، و قد اختلف أهل العلم فى الاستطاعة ماذا هى؟ فقيل: الزاد و الراحلة، و إليه ذهب جماعة من الصحابة، و حكاه الترمذى عن أكثر أهل العلم، و هو الحق. قال مالك: إن الرجل إذا وثق بقوّته لزمه الحج، و إن لم يكن له زاد و راحلة، إذا كان يقدر على التكسب، و به قال عبد اللّه بن الزبير، و الشعبى، و عكرمة. و قال الضحاك: إن كان شابا قويا صحيحا و ليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضى حجه، و من جملة ما يدخل فى الاستطاعة دخولا أوليا: أن تكون الطريق إلى الحج آمنة، بحيث يأمن الحاج على نفسه و ماله الذى لا يجد زادا غيره، أما لو كانت غير آمنة فلا استطاعة، لأن اللّه سبحانه يقول: مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا و هذا الخائف على نفسه أو ماله لم يستطع إليه سبيلا بلا شك و لا شبهة. و قد اختلف أهل العلم إذا كان فى الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يجحف بزاد الحاج؛ فقال الشافعى: لا يعطى حبة، و يسقط عنه فرض الحج، و وافقه جماعة، و خالفه آخرون. و الظاهر: أن من تمكن من الزاد و الراحلة، و كانت الطريق آمنة، بحيث يتمكن من مرورها، و لو بمصانعة بعض الظلمة لدفع شىء من المال، يتمكن منه الحاج، و لا ينقص من زاده و لا يجحف به، فالحج غير ساقط عنه، بل واجب عليه، لأنه قد استطاع السبيل بدفع شىء من المال، و لكنه يكون هذا المال المدفوع فى الطريق من جملة ما تتوقف عليه الاستطاعة، فلو وجد الرجل زادا و راحلة و لم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس فى الطريق لم يجب عليه الحج لأنه لم يستطع إليه سبيلا، و هذا لا بد منه، و لا ينافى تفسير الاستطاعة بالزاد و الراحلة فإنه قد تعذر المرور فى طريق الحج لمن وجد الزاد و الراحلة إلا بذلك القدر الذى يأخذه المكاسون، و لعل وجه قول الشافعى إنه سقط الحج: أن أخذ هذا المكس منكر، فلا يجب على الحاج أن يدخل فى منكر، و أنه بذلك غير مستطيع. و من جملة ما يدخل فى الاستطاعة: أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب، فلو كان زمنا بحيث لا يقدر على المشى، و لا على الركوب، فهذا و إن وجد الزاد و الراحلة فهو لم يستطيع السبيل. قوله: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ قيل: إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج، تأكيدا لوجوبه، و تشديدا على تاركه؛ و قيل: المعنى: و من كفر بفرض الحج و لم يره واجبا، و قيل: إن من ترك الحج و هو قادر عليه فهو كافر، و فى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة، و خذلانه، و بعده من اللّه سبحانه، ما يتعاظمه سامعه، و يرجف له قلبه، فإن اللّه سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم و مصلحتهم، و هو تعالى شأنه، و تقدس سلطانه، غنى لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ الآية، قال:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۱۷

كانت البيوت قبله، و لكنه كان أوّل بيت وضع لعبادة اللّه. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن أبى ذر قال: «قلت يا رسول اللّه! أىّ مسجد وضع أوّل؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أىّ؟ قال:

المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر، قال: «خلق اللّه البيت قبل الأرض بألفى سنة، و كان إذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء، و كانت الأرض تحته كأنّها حشفة دحيت الأرض من تحته». و أخرج نحوه ابن المنذر عن أبى هريرة. و أخرج ابن المنذر، و الأزرقى عن ابن جريج قال: بلغنا أن

اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء، و لأنه فى الأرض المقدسة، فقال المسلمون: بل الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ الآية إلى قوله: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ و ليس ذلك فى بيت المقدس وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً و ليس ذلك فى بيت المقدس وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ و ليس ذلك فى بيت المقدس. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عن عبد اللّه بن الزبير قال:

إنما سميت: بكة، لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجا. و روى سعيد بن منصور، و ابن جرير، و البيهقى عن مجاهد: إنما سميت: بكة، لأن الناس يتباكون فيها، أى: يزدحمون. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله: مُبارَكاً قال: جعل فيه الخير و البركة: وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ يعنى: بالهدى قبلتهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ فمنهن:

مقام إبراهيم و المشعر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن الحسن فى قوله: فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ قال:

مقام إبراهيم وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ و أخرج الأزرقى عن زيد بن أسلم نحوه.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً قال: كان هذا فى الجاهلية، كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه، ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول و لم يطلب، فأما فى الإسلام فإنه لا يمنع من حدود اللّه، من سرق فيه قطع، و من زنى فيه أقيم عليه الحدّ، و من قتل فيه قتل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و الأزرقى عن عمر بن الخطاب قال: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، و لكن لا يؤوى، و لا يطعم، و لا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه.

و قد روى عنه هذا المعنى من طرق. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عنه قال: لو وجدت قاتل أبى فى الحرم لم أعرض له. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: لو وجدت قاتل أبى فى الحرم ما هجته. و أخرج الشيخان، و غيرهما عن أبى شريح العدوى قال: قام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الغد من يوم الفتح فقال: «إن مكة حرّمها اللّه و لم يحرّمها الناس، فلا يحلّ لامرئ يؤمن باللّه و اليوم الآخر أن يسفك بها دما و لا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخّص لقتال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقولوا: إنّ اللّه قد أذن لرسوله و لم يأذن لكم، و إنّما أذن لى ساعة من نهار ثم عادت حرمتها كحرمتها أمس». و أخرج الدارقطنى، و الحاكم، و صححه عن أنس «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن قوله: مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا فقيل: ما السبيل؟ قال: الزّاد و الرّاحلة».

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۱۸

و أخرج الشافعى، و عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و الترمذى، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن عدى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عمر مرفوعا: أنه قام رجل فقال: ما السبيل؟ فقال: الزاد و الراحلة. و أخرج الدارقطنى، و البيهقى فى سننهما من طريق الحسن عن أمه عن عائشة قالت: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما السّبيل إلى الحجّ؟ قال: الزّاد و الرّاحلة». و أخرج الدارقطنى فى سننه عن ابن مسعود مرفوعا مثله. و أخرج الدارقطنى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه مرفوعا مثله.

و أخرج الدارقطنى عن جابر مرفوعا مثله. و قد روى هذا الحديث من طرق أقلّ أحواله أن يكون حسنا لغيره، فلا يضره ما وقع من الكلام على بعض طرقه كما هو معروف. و أخرج الدارقطنى عن على مرفوعا فى الآية:

«أنه سئل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: تجد ظهر بعير». و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير عن عمر بن الخطاب فى قوله: مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قال: الزاد و الراحلة. و أخرجا عن ابن عباس مثله. و أخرجه عنه مرفوعا ابن ماجة، و الطبرانى، و ابن مردويه. و

أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى عنه قال: السبيل: أن يصح بدن العبد، و يكون له ثمن زاد و راحلة من غير أن يجحف به. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد عنه قال:

سَبِيلًا من وجد إليه سعة، و لم يحل بينه و بينه. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن عبد اللّه بن الزبير قال: الاستطاعة: القوّة. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى حاتم عن النخعى قال: إن المحرم للمرأة من السبيل الذى قال اللّه.

و قد ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم: النهى للمرأة أن تسافر بغير ذى محرم.

و اختلفت الأحاديث فى قدر المدة؛ ففى لفظ ثلاثة أيام، و فى لفظ يوم و ليلة، و فى لفظ بريد.

و قد وردت أحاديث فى تشديد الوعيد على من ملك زادا و راحلة و لم يحج. فأخرج الترمذى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن على بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من ملك زادا و راحلة تبلّغه إلى بيت اللّه و لم يحجّ بيت اللّه فلا عليه بأن يموت يهوديا أو نصرانيا» و ذلك بأن اللّه يقول: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ

و فى إسناده هلال الخراسانى، أو هاشم. قال البخارى: منكر الحديث. و قيل مجهول. و قال ابن عدى:

هذا الحديث ليس بمحفوظ، و فى إسناده أيضا الحارث الأعور و فيه ضعف. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد فى كتاب الإيمان، و أبو يعلى، و البيهقى عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من مات و لم يحجّ حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أىّ حال شاء يهوديا أو نصرانيا».

و أخرج ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعا مرسلا مثله. و أخرج سعيد بن منصور، قال السيوطى:

بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة و لم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين. و أخرج الإسماعيلى عنه يقول:

«من أطاق الحجّ، فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا» قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: و هذا إسناد صحيح. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة عنه نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر: «من مات و هو موسر، و لم يحجّ، جاء يوم القيامة و بين عينيه مكتوب كافر».

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۱۹

و أخرج سعيد بن منصور عنه «من وجد إلى الحجّ سبيلا سنة ثم سنة ثم سنة، ثم مات و لم يحجّ، لم يصلّ عليه و لا يدرى مات يهوديا أو نصرانيا». و أخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال: لو ترك النّاس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصّلاة و الزكاة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ قال: من زعم أنه ليس بفرض عليه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال: من كفر بالحج فلم ير حجه برا و لا تركه مأثما.

و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه عن عكرمة قال:

لما نزلت وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه فرض على المسلمين حجّ البيت، فقالوا: لم يكتب علينا، و أبوا أن يحجّوا، قال اللّه وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن عكرمة نحوه. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن الضحاك قال: «لمّا نزلت آية الحج وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ الآية، جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أهل الملل مشركى العرب و النصارى و اليهود و المجوس و الصابئين فقال:

إن اللّه فرض عليكم الحج فحجوا البيت، فلم يقبله إلا المسلمون، و كفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، و لا نستقبله، فأنزل اللّه: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ و أخرج عبد ابن حميد، و البيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن أبى داود نفيع قال:

«قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ الآية فقام رجل من هذيل فقال: يا رسول اللّه! من تركه كفر؟ فقال: من تركه لا يخاف عقوبته، و من حجّ لا يرجو ثوابه فهو ذاك». و أخرج ابن جرير عن عطاء بن أبى رباح فى الآية قال: من كفر بالبيت. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قول اللّه: مَنْ كَفَرَ قال: من كفر باللّه و اليوم الآخر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد مثله من قوله. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك، فقرأ:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ إلى قوله: سَبِيلًا ثم قال: وَ مَنْ كَفَرَ بهذه الآيات. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى الآية قال: وَ مَنْ كَفَرَ فلم يؤمن به: فهو الكافر.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠٣]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (١٠٠) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٢٠

قوله: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ خطاب لليهود و النصارى، و الاستفهام فى قوله: لِمَ تَكْفُرُونَ

للإنكار و التوبيخ. و قوله: وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ جملة حالية، مؤكدة للتوبيخ و الإنكار، و هكذا المجيء بصيغة المبالغة فى: شهيد، يفيد مزيد التشديد و التهويل، و الاستفهام فى قوله: لِمَ تَصُدُّونَ يفيد ما أفاده الاستفهام الأول. و قرأ الحسن: تصدون من أصد، و هما لغتان: مثل: صد اللحم، و أصد:

إذا تغير و أنتن، و سبيل اللّه: دينه الذى ارتضاه لعباده، و هو دين الإسلام، و العوج: الميل و الزيغ، يقال:

عوج بالكسر: إذا كان فى الدين و القول و العمل، و بالفتح: فى الأجسام كالجدار و نحوه، روى ذلك عن أبى عبيدة، و غيره، و محل قوله: تَبْغُونَها عِوَجاً النصب على الحال. و المعنى: تطلبون لها اعوجاجا، و ميلا عن القصد و الاستقامة، بإبهامكم على الناس بأنها كذلك، تثقيفا لتحريفكم، و تقويما لدعاويكم الباطلة: و قوله: وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ جملة حالية، أى: كيف تطلبون ذلك بملة الإسلام و الحال أنكم تشهدون أنها دين اللّه الذى لا يقبل غيره كما عرفتم ذلك من كتبكم المنزلة على أنبيائكم؟ قيل: إن فى التوراة: أن دين اللّه الذى لا يقبل غيره الإسلام، و أن فيه نعت محمد صلّى اللّه عليه و سلم؛ و قيل: المراد وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ أى: عقلاء؛ و قيل: المعنى و أنتم شهداء بين أهل دينكم، مقبولون عندهم، فكيف تأتون بالباطل الذى يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم؟ ثم توعدهم سبحانه بقوله: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذرا لهم عن طاعة اليهود و النصارى، مبينا لهم أن تلك الطاعة تفضى إلى أن يردونهم بعد إيمانهم كافرين، و سيأتى بيان سبب نزول الآية. و الاستفهام فى

قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ للإنكـار، أى: من أين يـأتيكم ذلـك و لـديكم مـا يمنع منه و يقطع أثره، و هو تلاوة آيـات اللّه عليكم و كـون رسـول اللّـه صـلّى اللّه عليـه و سـلّم بين أظهركم؟ و محـل قـوله: وَ أَنْتُمْ و مـا بعـده: النصب على الحـال. ثم أرشـدهم إلى الاعتصام باللّه، ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصـراط المسـتقيم، الذى هو الإسلام، و فى وصف الصراط بالاستقامة ردّ على ما ادعوه من العوج. قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصـحاب محمد صـلّى اللّه عليه و سـلّم خاصة، لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم كان فيهم و هم يشاهدونه، و يجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة، لأن آثاره و علامته و القرآن الذى أوتيه فينـا، فكـأن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فينا و إن لم نشاهـد. انتهى. و معنى الاعتصام باللّه: التمسك بـدينه و طاعته، و قيل: بالقرآن، يقال: اعتصم به و استعصم و تمسك و استمسك: إذا امتنع به من غيره، و عصمه الطعام: منع الجوع منه.

قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ أى: التقوى التى تحق له، و هى: أن لا يترك العبد شيئا مما يلزمه فعله، و لا يفعل شيئا مما يلزمه تركه، و يبذل فى ذلك جهده و مستطاعه. قال القرطبى: ذكر المفسرون: أنها لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول اللّه! من يقوى على هذا؟ و شق عليهم ذلك، فأنزل اللّه: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فنسـخت هذه الآية. روى ذلك عن قتادة، و الربيع، و ابن زيد. قال مقاتل: و ليس فى آل عمران من المنسوخ شـىء إلاـ هـذا. و قيـل: إنّ قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقـاتِهِ مـبين بقوله: فَـاتَّقُوا اللَّهَ مَـا اسْتَطَعْتُمْ «١» و المعنى: اتقوا اللّه حق تقاته ما اسـتطعتم. قال: و هـذا أصوب، لأن النسـخ إنما يكون عند عدم الجمع، و الجمع ممكن، فهو أولى.

قوله: وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أى: لا تكونن على حال

---

(١). التغابن: ١۶.

سوى حال الإسـلام، فالاسـتثناء مفرغ، و محل الجملة: أعنى قوله: وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ النصب على الحال، و قد تقدم تفسـير مثل هذه الآية. قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً الحبل لفظ مشترك، و أصله فى اللغة: السبب الذى يتوصل به إلى البغية، و هو إما تمثيل، أو اسـتعارة. أمرهم سـبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بـدين الإسـلام أو بالقرآن، و نهاهم عن التفرق الناشـئ عن الاختلاف فى الـدين، ثم أمرهم بأن يـذكروا نعمـة اللّه عليهم، و بين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام، و هو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضـهم بعضا و ينهب بعضهم بعضا، فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخوانا، و كانوا على شفا حفرة من النار بما كانوا عليه من الكفر، فأنقذهم اللّه من هذه الحفرة بالإسلام. و معنى قوله: فَأَصْبَحْتُمْ صرتم، و ليس المراد به:

معناه الأصلى، و هو: الدخول فى وقت الصباح، و شفا كل شىء: حرفه، و كذلك شفيره، و أشفى على الشىء: أشرف عليه، و هو تمثيل للحالـة التى كانوا عليها فى الجاهليـة. و قوله: كَذلِكَ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده، أى: مثل ذلك البيان البليغ يبين اللّه لكم. و قوله: لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إرشاد لهم إلى الثبات على الهدى و الازدياد منه.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال:

مر شاس بن قيس- و كان شيخا قد عسا «١» فى الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم- على نفر من أصـحاب رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم من الأـوس و الخزرج فى مجلس، قـد جمعهم يتحـدثون فيه. فغـاظه مـا رأى من ألفتهم، و جماعتهم، و صـلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة «٢» بهـذه البلاد، و اللّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا معه من يهود، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعـاث، و ما كان قبله، و أنشـدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، و كان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس و الخزرج، و كـان الظفر فيه للأـوس على الخزرج، ففعـل، فتكلم القوم عنـد ذلـك، و تنـازعوا، و تفاخروا، حتى تواثب رجلان من

الحيين على الركب: أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس، و جبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم و اللّه رددناها الآن جذعة، و غضب الفريقان جميعا و قالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، و الظاهرة: الحرة، فخرجوا إليها و انضمت الأوس بعضها إلى بعض، و الخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين! اللّه اللّه، أ بدعوى الجاهلية و أنا بين أظهركم بعد إذ هداكم اللّه إلى الإسلام، و أكرمكم به، و قطع به عنكم أمر الجاهلية، و استقذكم به من الكفر، و ألّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا، فعرف القوم أنها نزغة من

---

(١). عسا الشيخ عسيّا: كبر و ولّى.

(٢). قيلة: بطن من الأزد، من كهلان، من القحطانية، و هم أبناء الأوس و الخزرج.

الشيطان، و كيد من عدوّهم لهم، فألقوا السلاح من أيديهم و بكوا، و عانق الرجال بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سامعين مطيعين، قد أطفأ اللّه عنهم كيد عدو اللّه شاس، و أنزل اللّه فى شأن شاس بن قيس و ما صنع: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ إلى قوله: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ و أنزل فى أوس بن قيظى، و جبار بن صخر، و من كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إلى قوله:

وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ و قد رويت هذه القصة مختصرة و مطولة من طرق. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: كانوا إذا سألهم أحد تجدون محمدا؟

قالوا: لا، قال: فصدوا الناس عنه، و بغوا محمدا، عوجا: هلاكا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة: لم تصدون عن الإسلام و عن نبى اللّه من آمن باللّه و أنتم شهداء فيما تقرؤون من كتاب اللّه أن محمدا رسول اللّه، و أن الإسلام دين اللّه الذى لا يقبل غيره و لا يجزى إلا به يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل؟

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ قال: يؤمن به. و أخرجوا عن أبى العالية قال: الاعتصام: الثقة باللّه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ قال: أن يطاع فلا يعصى، و يذكر فلا ينسى، و يشكر فلا يكفر.

و قد رواه الحاكم، و صححه، و ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا بدون قوله: و يشكر فلا يكفر. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ أن يطاع فلا يعصى، فلم يستطيعوا، فأنزل اللّه بعد ذلك: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «١» و أخرج عبد بن حميد عنه نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: حَقَّ تُقاتِهِ قال: لم تنسخ و لكن حق تقاته: أن يجاهدوا فى اللّه حق جهاده، و لا يأخذهم فى اللّه لومة لائم، و يقوموا للّه بالقسط و لو على أنفسهم و آبائهم و أبنائهم. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، قال السيوطى بسند صحيح عن ابن مسعود فى قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ قال: حبل اللّه: القرآن. و قد وردت أحاديث أن كتاب اللّه هو حبل اللّه الممدود. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: و

اعتصموا بحبل اللّه: بالإخلاص للّه وحده. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: بطاعته. و أخرج أيضا عن قتادة قال: بعهده و أمره. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال:

بالإسلام. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً قال: ما كان بين الأوس و الخزرج فى شأن عائشة. و أخرج ابن إسحاق قال: كانت الحرب بين الأوس و الخزرج عشرين و مائة سنة، حتى قام الإسلام فأطفأ اللّه ذلك و ألف بينهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ يقول: كنتم على طرف النار، من مات منكم وقع فى النار، فبعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلم و استنقذكم به من تلك الحفرة.

---

(۱). التغابن: ۱۶.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۲۳

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۹]

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰۵) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۰۷) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (۱۰۸)

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۱۰۹)

قوله: وَ لْتَكُنْ قرأه الجمهور: بإسكان اللام، و قرئ: بكسر اللام، على الأصل، و من فى قوله:

مِنْكُمْ للتبعيض، و قيل: لبيان الجنس. و رجح الأوّل: بأن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من فروض الكفايات، يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به: معروفا، و ينهون عنه: منكرا. قال القرطبى: الأوّل أصح، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فرض على الكفاية، و قد عينهم اللّه سبحانه بقوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ «۱» الآية. و قرأ ابن الزبير: وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ و يستعينون باللّه على ما أصابهم. قال أبو بكر بن الأنبارى:

و هذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، و كلام من كلامه، غلط فيه بعض الناقلين، فألحقه بألفاظ القرآن. و قد روى: أن عثمان قرأها كذلك، و لكن لم يكتبها فى مصحفه، فدل على أنها ليست بقرآن. و فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و وجوبه ثابت بالكتاب و السنة، و هو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، و أصل عظيم من أصولها، و ركن مشيد من أركانها، و به يكمل نظامها و يرتفع سنامها.

و قوله: يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ من باب عطف الخاص على العام، إظهارا لشرفهما، و أنهما الفردان الكاملان من الخير الذى أمر اللّه عباده بالدعاء إليه، كما قيل فى عطف جبريل و ميكائيل على الملائكة، و حذف متعلق الأفعال الثلاثة: أى: يدعون، و يأمرون، و ينهون: لقصد التعميم، أى: كل من وقع منه سبب يقتضى ذلك، و الإشارة فى قوله: وَ أُولئِكَ ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: المختصون بالفلاح، و تعريف المفلحين: للعهد، أو: للحقيقة التى يعرفها كل أحد. قوله: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا هم اليهود و النصارى عند جمهور المفسرين؛ و قيل: هم المبتدعة من هذه الأمة، و قيل: الحرورية، و الظاهر الأول. و البينات: الآيات الواضحة، المبينة للحق، الموجبة لعدم الاختلاف. قيل: و هذا النهى عن التفرق

و الاختلاف يختص بالمسائل الأصولية؛ و أما المسائل الفروعية الاجتهادية فالاختلاف فيها جائز، و ما زال الصحابة فمن بعدهم من التابعين و تابعيهم مختلفين فى أحكام الحوادث، و فيه نظر، فإنه ما زال فى تلك العصور المنكر للاختلاف موجودا، و تخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب، فالمسائل الشرعية متساوية الأقدام فى انتسابها إلى الشرع. و قوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ منتصب بفعل مضمر، أى: اذكر؛ و قيل: بما يدل عليه قوله:

لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ فإن تقديره: استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه، أى: يوم القيامة، حين يبعثون

---

(١). الحج: ۴١.

فتح القدير، ج١، ص: ۴٢۴

من قبورهم، تكون وجوه المؤمنين مبيضة و وجوه الكافرين مسودة. و يقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر و ابيضّ وجهه، و إذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته فحزن و اسودّ وجهه، و التنكير فى وجوه: للتكثير، أى: وجوه كثيرة. و قرأ يحيى بن وثّاب: تبيض و تسود: بكسر التاءين. و قرأ الزهرى: تبياض و تسواد. قوله: أَ كَفَرْتُمْ أى: فيقال لهم: أكفرتم، و الهمزة للتوبيخ و التعجب من حالهم، و هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، و قدم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير و ترهيب؛ قيل: هم أهل الكتاب؛ و قيل: المرتدون؛ و قيل: المنافقون؛ و قيل: المبتدعون. قوله: فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ أى: فى جنته و دار كرامته، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة، و منه حديث: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» و هو فى الصحيح. و قوله:

هُمْ فِيها خالِدُونَ جملة استئنافية، جواب سؤال مقدر. و تلك: إشارة إلى ما تقدم من تعذيب الكافرين، و تنعيم المؤمنين. و قوله: نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِ جملة حالية، و بالحق متعلق بمحذوف، أى: متلبسة بالحق و هو العدل. و قوله: وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها، و فى توجه النفى إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فردا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم.

و المراد بما فى السموات و ما فى الأرض: مخلوقاته سبحانه، أى: له ذلك، يتصرف فيه كيف يشاء، و على ما يريد، و عبر بما تغليبا لغير العقلاء لكثرتهم، أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم. قال المهدوى: وجه اتصال هذا بما قبله: أنه لما ذكر أحوال المؤمنين و الكافرين، و أنه لا يريد ظلما للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته و غناه عن الظلم، لكون ما فى السموات و ما فى الأرض فى قبضته و قيل: هو ابتداء كلام يتضمن البيان بأن جميع ما فى السموات و ما فى الأرض له حتى يسألوه و يعبدوه، و لا يعبدوا غيره. و قوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أى: لا إلى غيره، لا شركة و لا استقلالا.

و قد أخرج ابن مردويه عن أبى جعفر الباقر قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ قال: الخير: اتّباع القرآن و سنّتى». و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: كل آية ذكرها اللّه فى القرآن فى الأمر بالمعروف: فهو الإسلام، و النهى عن المنكر: فهو عبادة الأوثان و الشيطان. انتهى.

و هو تخصيص بغير مخصص، فليس فى لغة العرب و لا فى عرف الشرع ما يدل على ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال: يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ أى: الإسلام وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ بطاعة ربهم وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ: عن معصية ربهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال:

هم أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة و هم الرواة. انتهى. و لا أدرى ما وجه هذا التخصيص، فالخطاب فى هذه الآية كالخطاب بسائر الأمور التى شرعها اللّه لعباده و كلفهم بها. و أخرج أبو داود، و الترمذى، و ابن ماجة، و الحاكم، و صححه عن

أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «افترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة، و تفرّقت النّصارى على ثنتين و سبعين فرقة، و تفترق أمتى على ثلاث و سبعين فرقة». و أخرج أحمد، و أبو داود، و الحاكم عن معاوية مرفوعا نحوه، و زاد: «كلّها فى النار إلا واحدة و هى الجماعة». و أخرج الحاكم

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۲۵

عن عبد اللّه بن عمر مرفوعا نحوه أيضا، و زاد «كلّها فى النار إلا ملّة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟

قال: ما أنا عليه اليوم و أصحابى». و أخرج ابن ماجة عن عوف بن مالك مرفوعا نحوه، فيه: «فواحدة فى الجنة و ثنتان و سبعون فى النار، قيل: يا رسول اللّه! من هم؟ قال: الجماعة» و أخرجه أحمد من حديث أنس، و فيه: «قيل يا رسول اللّه! من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة». و قد وردت آيات و أحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و فى الأمر بالكون فى الجماعة و النهى عن الفرقة. و أخرج ابن أبى حاتم، و الخطيب عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ قال: تبيض وجوه أهل السنة و الجماعة، و تسود وجوه أهل البدع و الضلالة. و أخرجه الخطيب، و الديلمى عن ابن عمر مرفوعا، و أخرجه أيضا مرفوعا أبو نصر السجزى فى الإبانة عن أبى سعيد. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى كعب فى الآية قال: صاروا فرقتين يوم القيامة، يقال لمن اسود وجهه: أكفرتم بعد إيمانكم؟ فهو الإيمان الذى كان فى صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة، و أما الذين ابيضت وجوههم: فهم الذين استقاموا على إيمانهم، و أخلصوا له الدين، فبيض اللّه وجوههم، و أدخلهم فى رضوانه و جنته. و قد روى غير ذلك.

[سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۲]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (۱۱۰) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (۱۱۱) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (۱۱۲)

قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ هذا كلام مستأنف، يتضمن بيان حال هذه الأمة فى الفضل على غيرها من الأمم، و كان، قيل: هى التامة، أى: وجدتم و خلقتم خير أمة، و مثله ما أنشده سيبويه:

و جيران لنا كانوا كرام و منه قوله تعالى: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا «۱» و قوله: وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ «۲».

و قال الأخفش: يريد: أهل أمة، أى: خير أهل دين، و أنشد:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو هل يأثمن ذو أمّة و هو طائع

و قيل: معناه: كنتم فى اللوح المحفوظ، و قيل: كنتم منذ آمنتم، و فيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، و أن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة و آخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، و إن كانت متفاضلة فى ذات بينها. كما ورد فى فضل الصحابة على غيرهم. قوله: أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أى:

أظهرت لهم، و قوله: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ إلخ، كلام مستأنف، يتضمن بيان كونهم خير أمة؛ مع ما يشتمل عليه؛ من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك و اتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر،

---

(۱). مريم: ۲۹.

(٢). الأعراف: ٨٦.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٢٦

زال عنهم ذلک، و لهذا قال مجاهد: إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة فى الآية، و هذا يقتضى، أن يكون:

تأمرون و ما بعده، فى محل نصب على الحال، أى: كنتم خير أمة حال كونكم آمرين، ناهين، مؤمنين باللّه، و بما يجب عليكم الإيمان به من كتابه و رسوله و ما شرعه لعباده، فإنه لا يتم الإيمان باللّه سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور. قوله: وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ أى: اليهود، إيمانا كإيمان المسلمين باللّه و رسله و كتبه لَكانَ خَيْراً لَهُمْ و لكنهم لم يفعلوا ذلک، بل قالوا: نؤمن ببعض الكتاب و نكفر ببعض، ثم بين حال أهل الكتاب بقوله: مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ و هم الذين آمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه و ما أنزل من قبله وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ أى: الخارجون عن طريق الحق، المتمردون فى باطلهم، المكذبون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و لما جاء به، فيكون هذا التفصيل على هذا كلاما مستأنفا، جوابا عن سؤال مقدر، كأنه قيل: هل منهم من آمن فاستحق ما وعده اللّه؟ قوله: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً أى:

لن يضروكم بنوع من أنواع الضرر إلا بنوع الأذى، و هو الكذب، و التحريف، و البهت، لا يقدرون على الضرر الذى هو الضرر فى الحقيقة بالحرب و النهب و نحوهما، فالاستثناء مفرغ، و هذا وعد من اللّه لرسوله و للمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم و أنهم منصورون عليهم؛ و قيل: الاستثناء منقطع. و المعنى: لن يضروكم ألبتة، لكن يؤذونكم، ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله: وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ أى:

ينهزمون و لا يقدرون على مقاومتكم فضلا عن أن يضروكم. و قوله: ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ عطف على الجملة الشرطية، أى: ثم لا يوجد لهم نصر و لا يثبت لهم غلب فى حال من الأحوال، بل شأنهم الخذلان ما داموا.

و قد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقا، فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر، و لا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية، فهى من معجزات النبوة «١». قوله: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ قد تقدم فى البقرة معنى هذا التركيب.

و المعنى: صارت الذلة محيطة بهم فى كل حال، و على كل تقدير أَيْنَما ثُقِفُوا فى أى مكان وجدوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ أى: إلا أن يعتصموا بحبل من اللّه، قاله الفراء: أى: بذمة اللّه أو بكتابه وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ أى: بذمة من الناس، و هم المسلمون؛ و قيل: المراد بالناس: النبى صلّى اللّه عليه و سلم وَ باؤُ أى: رجعوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ و قيل: احتملوا، و أصل معناه فى اللغة: اللزوم و الاستحقاق، أى: لزمهم غضب من اللّه هم مستحقون له. و معنى ضرب المسكنة: إحاطتها بهم من جميع الجوانب، و هكذا حال اليهود، فإنهم تحت الفقر المدقع، و المسكنة الشديدة إلا النادر الشاذ منهم. و الإشارة بقوله: ذلک، إلى ما تقدم من ضرب الذلة و المسكنة و الغضب، أى: وقع عليهم ذلک بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات اللّه، و يقتلون الأنبياء بغير حق، و الإشارة بقوله: ذلک، إلى الكفر و قتل الأنبياء، بسبب عصيانهم للّه و اعتدائهم لحدوده. و معنى الآية: أن اللّه ضرب عليهم الذلة و المسكنة و البواء بالغضب منه لكونهم كفروا بآياته، و قتلوا أنبياءه، بسبب عصيانهم و اعتدائهم.

---

(١). إن ما حصل من قيام دولة لليهود على أرض فلسطين العربية المسلمة هو بسبب ما آل إليه حال المسلمين من الفرقة و البعد عن دين اللّه و عدم تحقيق شروط الخيرية فيهم المشار إليها بقوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ....

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٢٧

و قد أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أحمد، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم، و صححه عن ابن عباس فى قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ قال: هم الذين هاجروا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال: قال عمر بن الخطاب: لو شاء اللّه لقال: أنتم، فكنا كلنا، و لكن قال: كنتم، فى خاصة أصحاب محمد و من صنع مثل صنعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس، و فى لفظ عنه أنه قال: يكون لأولنا، و لا يكون لآخرنا. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية، ثم قال: يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط اللّه منها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن عكرمة فى الآية قال: نزلت فى ابن مسعود، و عمار بن ياسر، و سالم مولى أبى حذيفة، و أبى بن كعب، و معاذ بن جبل. و أخرج البخارى و غيره عن أبى هريرة فى الآية قال: خير الناس للناس يأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام.

و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و أحمد، و الترمذى، و حسنه، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم، و صححه عن معاوية بن حيدة أنه سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول فى الآية: إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها و أكرمها. و روى من حديث معاذ، و أبى سعيد نحوه. و قد وردت أحاديث كثيرة فى الصحيحين و غيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفا بغير حساب و لا عذاب، و هذا من فوائد كونها خير الأمم. و أخرج ابن جرير عن الحسن: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً قال: تسمعون منهم كذبا على اللّه، يدعونكم إلى الضلالة. و أخرج أيضا عن ابن جريج قال: إشراكهم فى عزير و عيسى و الصليب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن و قتادة: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ قالا: يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون.

و روى ابن المنذر عن الضحاك نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ قال: بعهد من اللّه و عهد من الناس.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١١٣ الى ١١٧]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

قوله: لَيْسُوا سَواءً أى: أهل الكتاب غير مستوين، بل مختلفين، و الجملة مستأنفة، سيقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب. و قوله: أُمَّةٌ قائِمَةٌ هو استئناف أيضا، يتضمن بيان الجهة التى تفاوتوا فيها، من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله: مِنَ الصَّالِحِينَ قال الأخفش: التقدير: من أهل الكتاب ذو أمة،

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٢٨

أى: ذو طريقة حسنة، و أنشد:

و هل يأثمن ذو أمّة و هو طائع و قيل: فى الكلام حذف، و التقدير: من أهل الكتاب أمة قائمة و أخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى، كقول أبى ذؤيب:

عصيت «١» إليها القلب إنّى لأمرهامطيع فما أدرى أرشد طلابها؟

أراد أرشد أم غىّ؟ قال الفراء: أمة: رفع بسواء، و التقدير: ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات اللّه و أمة كافرة. قال النحاس: و هذا القول خطأ من جهات: أحدها: أنه يرفع أمة بسواء فلا يعود على اسم ليس شىء، و يرفع بما ليس جاريا على

الفعل، و يضـمر ما لا يحتاج إليه لأنه قـد تقـدم ذكر الكافرة، فليس لإضـمار هـذا وجه. و قال أبو عبيـدة: هذا مثل قولهم أكلونى البراغيث، و ذهبوا أصحابك. قال النحاس: و هذا غلط، لأنه قد تقدم ذكرهم، و أكلونى البراغيث لم يتقدم لهم ذكر. انتهى.

و عنـدى: أن ما قاله الفراء قوىّ قويم، و حاصـله: أن معنى الآيـة: لا يسـتوى أمـة من أهل الكتاب شأنها كـذا؛ و أمـة أخرى شأنها كـذا، و ليس تقـدير هـذا المحـذوف من باب تقـدير ما لا حاجة إليه كما قال النحاس، فإن تقدّم ذكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير ذكرها هنا، و أما قوله: إنه لا يعود على اسم ليس شىء، فيردّه:

أن تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن، و أما قوله: و يرفع بما ليس جاريا على الفعل، فغير مسلم.

و القائمة: المستقيمة العادلة، من قولهم: أقمت العود فقام، أى: استقام. و قوله: يَتْلُونَ فى محل رفع أنه صفة ثانية لأمة، و يجوز أن يكون فى محـل نصب على الحال آناءَ اللَّيْلِ ساعاته، و هو منصوب على الظرفيـة. و قوله: وَ هُمْ يَسْجُدُونَ ظاهره: أن التلاوة كائنة منهم فى حال السـجود، و لا يصح ذلك إذا كان المراد بهذه الأمة الموصوفة فى الآية: هم من قد أسلم من أهل الكتاب، لأنه قد صـح عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم النهى عن قراءة القرآن فى السـجود، فلاـ بـدّ من تأويل هـذا الظاهر بأن المراد بقوله: وَ هُمْ يَسْجُدُونَ

و هم يصلون، كما قاله الفراء و الزجاج، و إنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة، لما فيه من الخضوع و التذلل.

و ظاهر هذا: أنهم يتلون آيات اللّه فى صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة؛ و قيل: المراد بها:

الصلاة بين العشاءين؛ و قيل: صلاة الليل مطلقا. و قوله: وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ صفة أخرى لأمة، أى:

يؤمنون باللّه و كتبه و رسله، و رأس ذلك الإيمان بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و قوله: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ صـفتان أيضـا لأمـة، أى: أن هـذا من شـأنهم و صـفتهم. و ظـاهره يفيـد: أنهم يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر على العموم؛ و قيل: المراد بالأمر بالمعروف هنا: أمرهم باتباع النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم، و بالنهى عن المنكر: نهيهم عن مخالفته. و قوله: وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ من جملة الصفات أيضا، أى: يبادرون

---

(١). فى ديوان أبى ذؤيب، و القرطبى (۴/ ۱۷۶):

عصانى إليها القلب إنّى لأمره

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۲۹

بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها. و قوله: وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ أى: من جملتهم؛ و قيل:

من: بمعنى: مع، أى: مع الصالحين، و هم الصـحابة رضـى اللّه عنهم، و الظاهر أن المراد كل صالـح، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات. قوله: وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ أى خير كان فَلَنْ يُكْفَرُوهُ أى: لن تعدموا ثوابه، و عداه إلى المفعولين و هو لاـ يتعـدّى إلاـ إلى واحـد لأـنه ضـمنه معنى الحرمـان، كأنه قيل: فلن تحرموه، كما قاله صاحب الكشاف. قرأ الأعمش، و ابن وثـاب، و حفص، و حمزة، و الكسـائى، و خلـف: باليـاء التحتيـة فى الفعليـن، و هى قراءة ابن عبـاس، و اختارهـا أبـو عبيـد. و قرأ الباقون:

بالمثناة من فوق، فيهما، و كان أبو عمرة يرى القراءتين جميعا. و المراد بالمتقين: كل من ثبتت له صفة التقوى؛ و قيل: المراد: من تقـدّم ذكره، و هم الأمـة الموصوفة بتلك الصـفة، و وضع الظاهر موضع المضـمر مدحا لهم، و رفعا من شأنهم. و قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قيل: هم بنو قريظة و النضير. قال مقاتل: لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم فى هذه الآية. و الظاهر أن المراد بذلك: كل من كفر بما يجب الإيمان به.

و معنى: لَنْ تُغْنِيَ لن تـدفع، و خص الأولاد أنهم أحبّ القرابـة و أرجـاهم لـدفع ما ينوبه. و قوله: مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ بيان لعـدم إغناء أموالهم التى كانوا يعوّلون عليها. و الصرّ: البرد الشديـد، أصـله: من الصـرير الـذى هو: الصوت، فهو صوت الريح الشديد، و قال الزجاج: صوت لهب النار التى فى تلك الريح.

و معنى الآيـة: مثل نفقة الكافرين فى بطلانها، و ذهابها، و عدم منفعتها، كمثل زرع أصابه ريح باردة، أو نار، فأحرقته، أو أهلكته، فلم ينتفع أصـحابه بشـىء منه بعـد أن كانوا على طمع من نفعه و فائدته. و على هذا فلا بدّ من تقدير فى جانب المشبه به، فيقال: كمثل زرع أصابته ريح فيها صرّ، أو: مثل إهلاك ما ينفقون؛ كمثل إهلاك ريح فيها صرّ؛ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ أى: المنفقين من الكـافرين وَ لكِنْ أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ بـالكفر المـانع من قبول النفقـة التى أنفقوهـا، و تقـديم المفعول: لرعاية الفواصل لا للتخصيص، لأن الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل، لا بالمفعول.

و قد أخرج ابن إسـحاق و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مندة، و أبو نعيم فى المعرفة، و البيهقى فى الـدلائل، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: لما أسـلم عبد اللّه بن سـلام، و ثعلبة، و أسـيد ابن سـعيد، و من أسـلم من يهود معهم، فآمنوا، و صدقوا، و رغبوا فى الإسـلام. قالت أحبار يهود، و أهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد و تبعه إلا شـرارنا، و لو كانوا خيارنا مـا تركـوا دين آبـائهم و ذهبـوا إلى غيره، فـأنزل اللّه: لَيْسُوا سَواءً الآيـة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حـاتم عنه أُمَّةٌ قائِمَـةٌ يقول: مهتدية، قائمة على أمر اللّه، لم تنزع عنه، و لم تتركه كما تركه الآخرون و ضـيعوه. و خرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم قال: أُمَّةٌ قائِمَةٌ عادلة. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: آناءَ اللَّيْلِ قال: جوف الليـل. و أخرج ابن جرير عن الربيع قال: ساعات الليل. و أخرج عبـد بن حميـد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: لَيْسُوا سَواءً قال: لا يستوى أهل الكتاب و أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ

فتح القدير، ج ١، ص: ۴٣٠

قال: صـلاة العتمة هم يصـلونها، و من سواهم من أهل الكتاب لا يصـلونها. و أخرج أحمد، و النسائى، و البزار، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى. قال السـيوطى بسند حسن عن ابن مسعود قال: «أخّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صـلاة العشاء ليلة، ثمّ خرج إلى المسجد فإذا النّاس ينتظرون الصّلاة، فقال: أما إنّه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر اللّه هـذه السّاعـة غيركم» و لفظ ابن جرير و الطبرانى فقال: إنه لا يصـلى هذه الصـلاة أحد من أهل الكتاب. قال: و أنزلت هذه الآية: لَيْسُوا سَواءً و أخرج عبـد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عن ابن منصور. قال: بلغنى أنها نزلت هذه الآية: يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْـجُدُونَ فيما بين المغرب و العشاء. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير عن قتادة: فَلَنْ يُكْفَرُوهُ قـال: لن يضـل عنكم. و أخرج ابن أبى حـاتم عن الحسن: فَلَنْ يُكْفَرُوهُ قـال: لن تظلموه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حـاتم عن السـدى فى الآيـة يقول: مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ أى: المشـركون، و لا يتقبل منهم، كمثل هـذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون فأصابه ريح فيها صرّ فأهلكته، فكذلك أنفقوا فأهلكهم شركهم. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: فِيها صِرٌّ قال: برد شديد.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هـا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا

آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

البطانة: مصدر، يسمى به الواحد و الجمع، و بطانة الرجل: خاصته الذين يستبطنون أمره، و أصله:

البطن الذى هو خلاف الظهر، و بطن فلان بفلان، يبطن بطونا و بطانة: إذا كان خاصا به، و منه قول الشاعر:

و هم خلصائى «١» كلّهم و بطانتىو هم عيبتى من دون كلّ قريب

قوله: مِنْ دُونِكُمْ أى: من سواكم، قاله الفراء، أى: من دون المسلمين، و هم الكفار، أى:

بطانة كائنة من دونكم، و يجوز أن يتعلق بقوله: لا تَتَّخِذُوا و قوله: لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا: فى محل نصب صفة لبطانة، يقال: لا آلوك جهدا: أى لا أقصر. قال امرؤ القيس:

و ما المرء ما دامت حشاشة نفسهبمدرك أطراف الخطوب و لا آل

---

(١). فى القرطبى (۴/ ١٧٨): أولئك خلصائى نعم و بطانتى ...

و المراد: لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، و إنما عدّى إلى مفعولين: لكونه مضمنا معنى المنع، أى:

لا يمنعونكم خبالا، و الخبال و الخبل: الفساد فى الأفعال و الأبدان و العقول. قال أوس:

أبنى لبينى لستم بيدإلا يدا مخبولة العضد

أى: فاسدة العضد. قوله: وَدُّوا ما عَنِتُّمْ ما: مصدرية، أى: ودّوا عنتكم، و العنت: المشقة و شدة الضرر، و الجملة مستأنفة، مؤكدة للنهى. قوله: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ هى شدة البغض، كالضراء: لشدة الضر. و الأفواه: جمع فم. و المعنى: أنها قد ظهرت البغضاء فى كلامهم، لأنهم لما خامرهم من شدة البغض و الحسد أظهرت ألسنتهم ما فى صدورهم، فتركوا التقية، و صرحوا بالتكذيب. أما اليهود:

فالأمر فى ذلك واضح. و أما المنافقون: فكان يظهر من فلتات ألسنتهم ما يكشف عن خبث طويتهم. و هذه الجملة لبيان حالهم: وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ لأن فلتات اللسان أقل مما تكنه الصدور، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما فى الصدور قليلة جدا. ثم إنه سبحانه امتن عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص، إن كانوا من أهل العقول المدركة لذلك البيان. قوله: ها أَنْتُمْ أُولاءِ جملة مصدرة بحرف التنبيه، أى:

أنتم أولاء الخاطئون فى موالاتهم، ثم بين خطأهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التذييلية. فقال: تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ و قيل: إن قوله: تُحِبُّونَهُمْ خبر ثان لقوله: أنتم؛ و قيل: إن أولاء: موصول، و تحبونهم: صلته، أى: تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمان، أو لما بينكم و بينهم من القرابة وَ لا يُحِبُّونَكُمْ لما قد استحكم فى صدورهم من الغيظ و الحسد. قوله: وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ أى: بجنس الكتاب جميعا، و محل الجملة: النصب على الحال، أى: لا يحبونكم، و الحال أنكم مؤمنون بكتب اللّه سبحانه التى من جملتها كتابهم، فما بالكم تحبونهم و هم لا يؤمنون بكتابكم. و فيه توبيخ لهم شديد، لأن من بيده الحق أحق بالصلابة و الشدة ممن هو على الباطل وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا نفاقا و تقية. وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ تأسفا و تحسرا، حيث عجزوا عن الانتقام منكم، و العرب تصف المغتاظ و النادم بعضّ الأنامل و البنان، ثم أمره اللّه سبحانه بأن يدعو عليهم، فقال: قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ و هو يتضمن استمرار غيظهم ماداموا فى الحياة حتى يأتيهم الموت و هم عليه، ثم قال: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ فهو يعلم ما فى صدوركم و صدورهم، و المراد بذات الصدور: الخواطر القائمة بها، و هو كلام داخل تحت قوله:

قُلْ فهو من جملة المقول. قوله: إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ هذه الجملة مستأنفة لبيان تناهى عداوتهم، و حسنة و سيئة: يعمان كل ما يحسن و ما يسوء. و عبر بالمس فى الحسنة، و بالإصابة فى السيئة، للدلالة: على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساءة، و لا يفرحون إلا بإصابة السيئة؛ و قيل: إن المسّ مستعار لمعنى الإصابة. و معنى الآية: أن من كانت هذه حالته لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة وَ إِنْ تَصْبِرُوا على عداوتهم أو على التكاليف الشاقة وَ تَتَّقُوا موالاتهم، أو ما حرّمه اللّه عليكم و لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً، يقال: ضارّه يضوره و يضيره ضيرا و ضيورا، بمعنى: ضرّه يضره، و به قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو. و قرأ الكوفيون، و ابن عامر: لا يضركم بضم الراء و تشديدها من ضرّ يضر، فهو على القراءة

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٣٢

الأولى: مجزوم على أنه جواب الشرط، و على القراءة الثانية: مرفوع على تقدير إضمار الفاء كما فى قول الشاعر:

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها قاله الكسائى و الفراء؛ و قال سيبويه: إنه مرفوع على نية التقديم، أى: لا يضركم أن تصبروا. و حكى أبو زيد عن المفضل عن عاصم: لا يَضُرُّكُمْ بفتح الراء، و شيئا: صفة مصدر محذوف.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود لما كان بينهم من الجوار و الحلف فى الجاهلية، فأنزل اللّه فيهم ينهاهم عن مباطنتهم لخوف الفتنة عليهم منهم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: هم المنافقون. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن أبى أمامة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: هم الخوارج. قال السيوطى: و سنده جيد. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ أى: بكتابكم و بكتابهم و بما مضى من الكتب قبل ذلك، و هم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل: إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ يعنى: النصر على العدوّ، و الرزق، و الخير تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يعنى: القتل، و الهزيمة، و الجهد.

[سورة آلعمران (٣): الآيات ١٢١ الى ١٢٩]

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (١٢٨) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

العامل فى «إذ» فعل محذوف، أى: و اذكر إذ غدوت من منزل أهلك، أى: من المنزل الذى فيه أهلك. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية نزلت فى غزوة أحد. و قال الحسن: فى يوم بدر. و قال مجاهد، و مقاتل، و الكلبى: فى غزوة الخندق. قوله: تُبَوِّئُ أى: تتخذ لهم مقاعد للقتال، و أصل التبوّء:

اتخاذ المنزل، يقال: بوّأته منزلا: إذا أسكنته إياه، و الفعل: فى محل نصب على الحال، و معنى الآية: و اذكر إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال، أى: أماكن يقعدون فيها، و عبر عن الخروج بالغدوّ الذى هو الخروج غدوة، مع كونه صلّى

اللّه عليه و سلّم خرج بعد صلاة الجمعة كما سيأتى، لأنه قد يعبر بالغدوّ و الرواح عن الخروج و الدخول من غير اعتبار أصل معناهما، كما يقال: أضحى، و إن لم يكن فى وقت الضحى. قوله:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۳۳

إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا هو بدل من إذ غدوت، أو متعلق بقوله: تبوّئ، أو بقوله: سميع عليم؛ و الطائفتان: بنو سلمة من الخزرج، و بنو حارثة من الأوس، و كانا جناحى العسكر يوم أحد؛ و الفشل: الجبن؛ و الهمّ من الطائفتين كان بعد الخروج، لما رجع عبد اللّه بن أبىّ بمن معه من المنافقين، فحفظ اللّه قلوب المؤمنين، فلم يرجعوا، و ذلك قوله: وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما. قوله: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ جملة مستأنفة، سيقت لتصبيرهم، بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر. و بدر: اسم لماء كان فى موضع الوقعة؛ و قيل: هو اسم الموضع نفسه، و سيأتى سياق قصة بدر فى الأنفال إن شاء اللّه. و أذلة: جمع قلة، و معناه: أنهم كانوا بسبب قلتهم أذلة، و هو: جمع ذليل، استعير للقلة، إذ لم يكونوا فى أنفسهم أذلة، بل كانوا أعزة، و النصر: العون. و قد شرح أهل التواريخ و السير غزوة بدر و أحد بأتم شرح فلا حاجة لنا فى سياق ذلك هاهنا. قوله: إِذْ تَقُولُ متعلق بقوله: نَصَرَكُمُ و الهمزة فى قوله: أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ للإنكار منه صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة، و معنى الكفاية: سدّ الخلة و القيام بالأمر؛ و الإمداد فى الأصل: إعطاء الشىء حالا بعد حال، و المجىء بلن: لتأكيد النفى، و أصل الفور: القصد إلى الشىء و الأخذ فيه بجدّ، و هو من قولهم: فارت القدر، تفور فورا و فورانا، إذا غلت، و الفور: الغليان، و فار غضبه: إذا جاش، و فعله من فوره: أى قبل أن يسكن، و الفوّارة ما يفور من القدر، استعير للسرعة، أى: إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم ربكم بالملائكة فى حال إتيانهم، لا يتأخر عن ذلك. قوله: مُسَوِّمِينَ بفتح الواو اسم مفعول، و هى قراءة ابن عامر و حمزة و الكسائى و نافع، أى: معلمين بعلامات، و قرأ أبو عمرو، و ابن كثير، و عاصم: مُسَوِّمِينَ بكسر الواو اسم فاعل، أى: معلمين أنفسهم بعلامة. و رجح ابن جرير هذه القراءة، و التسويم: إظهار سيما الشىء. قال كثير من المفسرين:

مُسَوِّمِينَ أى: مرسلين خيلهم فى الغارة؛ و قيل: إن الملائكة اعتمت بعمائم بيض؛ و قيل: حمر، و قيل: خضر؛ و قيل: صفر، فهذه العلامة التى علموا بها أنفسهم، حكى ذلك عن الزجاج؛ و قيل: كانوا على خيل بلق؛ و قيل: غير ذلك. قوله: وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ كلام مبتدأ غير داخل فى مقول القول، و الضمير فى قوله: جَعَلَهُ للإمداد المدلول عليه بالفعل، أو للتسويم، أو للإنزال، و رجح الأوّل الزجاج، و صاحب الكشاف. و قوله: إِلَّا بُشْرى استثناء مفرّغ من أعم العام، و البشرى: اسم من البشارة، أى: إلا لتبشروا بأنكم تنصرون، و لتطمئن قلوبكم به، أى: بالإمداد، و اللام لام كى، جعل اللّه ذلك الإمداد بشرى بالنصر و طمأنينة للقلوب، و فى قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا من عند غيره، فلا تنفع كثرة المقاتلة و وجود العدة. قوله: لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا متعلق بقوله: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ و قيل: متعلق بقوله: وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و قيل: متعلق بقوله: يُمْدِدْكُمْ و الطرف: الطائفة، و المعنى: نصركم اللّه ببدر ليقطع طائفة من الكفار، و هم الذين قتلوا يوم بدر؛ أو: و ما النصر إلا من عند اللّه ليقطع تلك الطائفة، أو يمددكم ليقطع. و معنى يكبتهم: يحزنهم، و المكبوت: المحزون. و قال بعض أهل اللغة: معناه: يكبدهم،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۳۴

أى: يصيبهم بالحزن و الغيظ فى أكبادهم، و هو غير صحيح، فإن معنى كبت: أحزن و أغاظ و أذل، و معنى كبد أصاب الكبد فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ أى: غير ظافرين بمطلبهم. قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ جملة اعتراضية بين المعطوف و المعطوف عليه، أى: أن اللّه مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك، أو الهزيمة، أو التوبة إن أسلموا، أو العذاب، فقوله: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ عطف على قوله أو يكبتهم، و قال الفراء: إنّ: أو: بمعنى: إلا أن، بمعنى: ليس لك من الأمر شىء إلا أن يتوب عليهم، فتفرح

بـذلك، أو يعـذبهم، فتشـفى بهم. قوله: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ كلام مسـتأنف لبيان سـعة ملكه يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ أن يغفر له وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ أن يعذبه، يفعل فى ملكه ما يشاء، و يحكم ما يريد لا يُسْـئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْـئَلُونَ «١» و فى قوله: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ إشارة إلى أن رحمته سـبقت غضـبه، و تبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة و الرحمة على وجه المبالغة، و ما أوقع هذا التذييل الجليل و أحبه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل!.

و قد أخرج ابن إسحاق، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن شهاب و عاصم بن عمر بن قتادة، و محمد بن يحيى بن حبان، و الحصين بن عبـد الرحمن بن أسـعد بن معاذ قالوا: كان يوم أحد يوم بلاء و تمحيص، اختبر اللّه به المؤمنين و محق به المنافقين ممن كان يظهر الإسـلام بلسـانه و هو مسـتخف بـالكفر، و يوم أكرم اللّه فيه من أراد كرامته بالشـهادة من أهـل ولا ـيته. و كـان مما نزل من القرآن فى يوم أحـد سـتون آيـة من آل عمران، فيها صـفة ما كان فى يومه ذلك، و معاتبـة من عاتب منهم؛ يقول اللّه لنبيه: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ الآية.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ الآية قال:

يوم أحـد. و أخرج ابن أبى حاتم عن سـعيد بن جبير فى قوله: تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ قال: توطن. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن أن الآيـة فى يوم الأحزاب. و قـد ورد فى كتب السـير و التاريـخ كيفية الاختلاف فى المشورة على النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم فى يوم أحـد، فمن قائـل نخرج إليهم، و من قائل نبقى فى المدينـة، فخرج و كان من جملـة المشـيرين عبـد اللّه بن أبىّ ابن سلول رأس المنـافقين، كـان رأيه البقـاء فى المدينـة و المقاتلـة فيهـا، ثم لما خولف فى رأيه انخزل بمن معه من المنافقين، و هم الثلث من القوم الذين خرج بهم النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن جابر قال: فينا نزلت فى بنى حارثة و بنى سـلمة: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا و ما يسرنى أنها لم تنزل لقوله: وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ قال: ذلك يوم أحد. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم بنو حارثة، و بنو سـلمة. و أخرج عبـد بن حميـد عن مجاهـد وَ لَقَدْ نَصَـرَكُمُ اللَّهُ بِبَـدْرٍ إلى بِثَلاثَـةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَـةِ مُنْزَلِينَ فى قصـة بدر. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ يقول: و أنتم قليل، و هم يومئـذ بضـعة عشـر و ثلاثمائة. و أخرج ابن أبى شيبـة، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم عن الشـعبى: أن المسـلمين بلغهم يـوم بـدر: أن كرز بن جـابر المحـاربى يمدّ المشركين، فشقّ ذلك عليهم، فأنزل اللّه: أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ إلى قوله: مُسَوِّمِينَ قال: فبلغت كرزا

---

(١). الأنبياء: ٢٣.

فلم يمد المشـركين، و لم يمدّ المسـلمين بالخمسة. و أخرج ابن جرير عن الشعبى: لما كان يوم بدر بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم ثم ذكر نحوه، إلا أنه قال: وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هـذا يعنى: كرزا و أصـحابه: يُمْـدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَـةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ فبلغ كرزا و أصـحابه الهزيمـة، فلم يمـدهم، و لم ينزل الخمسة، و أمدّوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف. و أخرج عبد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن المنـذر عن قتـادة فى الآيـة قـال: أمـدّوا بألف، ثم صاروا ثلاثـة آلاف، ثم صاروا خمسـة آلاف، و ذلك يوم بـدر. و أخرج ابن جرير عن عكرمـة فى قوله: بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا الآية، قال: هذا يوم أحد، فلم يصبروا، و لم يتقوا، فلم يمدّوا يوم أحد، و لو أمدّوا لم ينهزموا يومئذ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم. عن ابن عباس فى قوله: وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يقول:

من سـفرهم هـذا. و أخرج عبـد بن حميـد، و ابن جرير عن عكرمـة من فورهم قال: من وجههم. و أخرج ابن جرير عن الحسن و

الربيع و قتادة و السدّى مثله، و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد من فورهم قال: من غضبهم. و أخرجا عن أبى صالح مولى أم هانئ مثله. و أخرج الطبرانى، و ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس. قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: مُسَوِّمِينَ قال: معلمين، و كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سوداء، و يوم أحد عمائم حمراء. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير: أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر. و أخرج ابن إسحاق، و الطبرانى عن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر: عمائم بيضاء، قد أرسلوها فى ظهورهم، و يوم حنين: عمائم حمراء، و لم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر، و كانوا يكونون عددا و مددا لا يضربون. و فى بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: قطع اللّه يوم بدر طرفا من الكفار، و قتل صناديدهم و رؤوسهم و قادتهم فى الشرّ. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم فى قوله: لِيَقْطَعَ طَرَفاً قال: هذا يوم بدر، قطع اللّه طائفة منهم، و بقيت طائفة. و أخرج ابن جرير عن السدّى قال: ذكر اللّه قتلى المشركين بأحد، و كانوا ثمانية عشر رجلا فقال: لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ثم ذكر اللّه الشهداء فقال: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً «١». و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَوْ يَكْبِتَهُمْ قال: يحزنهم. و أخرج ابن جرير عن قتادة و الربيع مثله. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أنس: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كسرت رباعيته يوم أحد، و شج فى وجهه حتى سال الدم، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيّهم و هو يدعوهم إلى ربّهم؟

فأنزل اللّه: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ الآية. و قد روى هذا المعنى فى روايات كثيرة. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم أحد: «اللهمّ العن أبا سفيان، اللهمّ العن الحارث بن هشام، اللهمّ العن سهيل بن عمرو، اللهمّ العن صفوان بن أمية، فنزلت هذه الآية: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ». و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما أيضا من حديث أبى هريرة: أن رسول اللّه

---

(١). آل عمران: ١٦٩.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٣٦

صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد، قنت بعد الركوع: اللهمّ أنج الوليد بن الوليد، و سلمة بن هشام، و عيّاش بن أبى ربيعة، و المستضعفين من المؤمنين، اللهمّ اشدد وطأتك على مضر و اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف. يجهر بذلك. و كان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر: «اللهمّ العن فلانا و فلانا» لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل اللّه: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ و فى لفظ: «اللهمّ العن لحيان و رعلا و ذكوان و عصيّة، عصت اللّه و رسوله» ثم بلغنا أنه ترك ذلك لمّا نزل قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ الآية.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ

هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (١٣٦)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قيل: هو كلام مبتدأ للترهيب و الترغيب فيما ذكر؛ و قيل: هو اعتراض بين أثناء قصة أحد. و قوله: أضعافا مضاعفة ليس لتقييد النهى لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، و لكنه جىء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التى يعتادونها فى الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زادوا فى المال مقدارا يتراضون عليه، ثم يزيدون فى أجل الدّين، فكانوا يفعلون ذلك مرّة بعد مرّة حتى يأخذ المربى أضعاف دينه الذى كان له فى الابتداء و أضعافا: حال، و مضاعفة: نعت له، و فيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام، و المبالغة فى هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ. قوله: وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار فى معاملاتهم. قال كثير من المفسرين: و فيه أنه يكفر من استحلّ الربا؛ و قيل: معناه: اتقوا الربا الذى ينزع منكم الإيمان، فتستوجبون النار. و إنما خصّ الربا فى هذه الآية: لأنه الذى توعد اللّه عليه بالحرب منه لفاعله. و قوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أى: فى كل أمر و نهى لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى: راجين الرحمة من اللّه عز و جلّ. و قوله: وَ سارِعُوا عطف على أطيعوا، و قرأ نافع، و ابن عامر: سارِعُوا بغير واو، و كذلك فى مصاحف أهل المدينة و أهل الشام، و قرأ الباقون: بالواو، قال أبو على: كلا الأمرين سائغ مستقيم، و المسارعة:

المبادرة، و فى الآية حذف، أى: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة من الطاعات. و قوله: عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أى: عرضها كعرض السموات و الأرض، و مثله الآية الأخرى: عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ

فتح القدير، ج‏١، ص: ٤٣٧

وَ الْأَرْضِ «١» و قد اختلف فى معنى ذلك؛ فذهب الجمهور: إلى أنها تقرن السموات و الأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب و يوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة، و نبه بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، و قيل: إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة، و ذلك أنها لمّا كانت الجنة من الاتساع و الانفساح فى غاية قصوى، حسن التعبير عنها بعرض السموات و الأرض مبالغة، لأنهما أوسع مخلوقات اللّه سبحانه فيما يعلمه عباده، و لم يقصد بذلك التحديد. و السراء: اليسر، و الضراء: العسر. و قد تقدّم تفسيرهما. و قيل: السراء: الرخاء، و الضراء: الشدّة، و هو مثل الأول؛ و قيل: السراء فى الحياة، و الضراء بعد الموت. قوله: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ يقال: كظم غيظه: أى:

سكت عليه و لم يظهره، و منه كظمت السقاء: أى: ملأته. و الكظامة: ما يسد به مجرى الماء، و كظم البعير جرّته «٢»: إذا ردّها فى جوفه. و هو عطف على الموصول الذى قبله. قوله: وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ أى: التاركين عقوبة من أذنب إليهم و استحق المؤاخذة، و ذلك من أجلّ ضروب الخير. و ظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا. و قال الزجاج و غيره: المراد بهم: المماليك. و اللام فى المحسنين يجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء و غيرهم، و يجوز أن تكون للعهد، فيختص بهؤلاء. و الأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السياق، فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الإحسان، أىّ إحسان كان. قوله: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً هذا مبتدأ، و خبره: أُولئِكَ و قيل: معطوف على المتقين.

و الأوّل أولى، و هؤلاء هم صنف دون الصنف الأوّل ملحقين بهم، و هم التوّابون، و سيأتى ذكر سبب نزولها، و الفاحشة: وصف لموصوف محذوف، أى: فعلة فاحشة، و هى تطلق على كل معصية، و قد كثر اختصاصها بالزنا. و قوله: أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أى: باقتراف ذنب من الذنوب؛ و قيل: أو: بمعنى الواو. و المراد ما ذكر، و قيل: الفاحشة: الكبيرة، و ظلم النفس: الصغيرة؛ و قيل غير ذلك. قوله: ذَكَرُوا اللَّهَ أى:

بألسنتهم، أو أخطروه فى قلوبهم، أو ذكروا وعده و وعيده فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ أى: طلبوا المغفرة لها من اللّه سبحانه، و تفسيره: بالتوبة، خلاف معناه لغة، و فى الاستفهام بقوله: وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ من الإنكار- مع ما يتضمنه من الدلالة- على أنه

المختص بـذلك سـبحانه دون غيره، أى: لا يغفر جنس الـذنوب أحد إلا اللّه، و فيه ترغيب لطلب المغفرة منه سـبحانه، و تنشيط للمـذنبين أن يقفوا فى مواقف الخضوع و التـذلل، و هـذه الجملة اعتراضـية بين المعطوف و المعطوف عليه. و قوله: وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا عطف على: فاستغفروا، أى: لم يقيموا على قبيح فعلهم، و قد تقدّم تفسير الإصرار. و المراد به هنا: العزم على معاودة الـذنب، و عـدم الإقلاع عنه بالتوبة منه. و قوله: وَ هُمْ يَعْلَمُونَ جملة حالية، أى: لم يصـروا على فعلهم عالمين بقبحه. قوله: أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ الإشـارة إلى المـذكورين بقوله: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَـةً. و قوله: جَزاؤُهُمْ بـدل اشـتمال من اسم الإشارة. و قوله: مَغْفِرَةٌ خبر و مِنْ رَبِّهِمْ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة، أى: كائنة من ربهم. و قوله: وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ المخصوص

---

(١). الجرّة: ما يخرجه البعير و نحوه من بطنه ليمضغه ثم يبلعه.

(٢). الحديد: ٢١.

بالمدح محذوف، أى: أجرهم، أو ذلك المذكور. و قد تقدّم تفسير الجنات و كيفية جرى الأنهار من تحتها.

و قـد أخرج عبـد بن حميـد، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم عن مجاهـد: قـال: كـانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا جاء الأجل زادوا عليهم و زادوا فى الأجل، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن عطاء قال: كانت ثقيف تدين بنى المغيرة لأجل فى الجاهلية و ذكر نحوه.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن معاوية بن قرّة قال: كان الناس يتأوّلون هذه الآية وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ اتقوا لا أعـذبكم بـذنوبكم فى النار التى أعـددتها للكافرين. و أخرج عبـد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن عطاء بن أبى رباح قال: قال المسـلمون: يا رسول اللّه! أ بنو إسـرائيل كانوا أكرم على اللّه منا؟ كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح كفارة ذنبه مكتوبة فى عتبة بابه اجدع أنفك اجدع أذنك افعل كذا و كذا، فسكت النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت: وَ سارِعُوا الآية. و أخرج ابن المنذر عن أنس بن مالك فى تفسير وَ سارِعُوا قال: التكبيرة الأولى. و أخرج ابن جرير من طريق السدّى عن ابن عباس فى قوله: عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ مثل ما ذكرناه سابقا عن الجمهور. و أخرج نحوه عنه سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق كريب. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ يقول: فى اليسر و العسر وَ الْكـاظِمِينَ الْغَيْظَ يقول: كاظمين على الغيظ. و قـد وردت أحاديث كثيرة: فى ثواب من كظم الغيظ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عن النخعى فى الآيـة قال: الظلم من الفاحشة، و الفاحشـة من الظلم. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شـيبة، و عبد بن حميد، و الطبرانى، و ابن أبى الدنيا، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن مسعود قال:

إن فى كتـاب اللّه لآيتين مـا أذنب عبـد ذنبا فقرأهما فاسـتغفر اللّه إلا غفر له: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَـةً الآيـة. و قوله: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ «١» الآية. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن ثابت البنانى قال: بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً الآية.

و أخرج الحكيم الترمـذى عن عطاف بن خالـد قال: بلغنى أنه لما نزل قوله تعالى: وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا صـاح إبليس بجنوده، و حثـا على رأسه التراب، و دعا بالويل و الثبور، حتى جاءته جنوده من كل برّ و بحر، فقالوا: مالك يا سيدنا؟ قال: آية نزلت فى كتاب اللّه لا يضرّ بعدها أحدا من بنى آدم ذنب، قالوا: و ما هى؟ فأخبرهم، قالوا: نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون، و لا يسـتغفرون، و لا يرون إلا أنهم على الحق، فرضـى منهم بذلك. و أخرج ابن أبى شـيبة، و أحمد، و الحميدى، و

عبد بن حميد و أهل السنن الأربع، و حسنه النسائى، و ابن حبان، و الدارقطنى فى الأفراد، و البزار، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن السنى، و البيهقى فى الشعب، و الضياء فى المختارة عن أبى بكر الصديق سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ما من رجل يذنب ذنبا، ثم يقوم عند ذكر ذنبه فيتطهّر، ثم يصلّى ركعتين، ثم يستغفر اللّه من ذنبه ذلك، إلا غفر اللّه له، ثم قرأ هذه الآية: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً الآية».

و أخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن مرفوعا نحوه، و لكنه قال: ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى. و أخرج

---

(١). النساء: ١١٠.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٣٩

عبد بن حميد، و أبو داود، و الترمذى، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب عن أبى بكر الصديق قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما أصرّ من استغفر و إن عاد فى اليوم سبعين مرّة». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ لَمْ يُصِرُّوا فيسكتون و لا يستغفرون.

و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ قال: أجر العاملين بطاعة اللّه الجنة.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٣٧ الى ١٤٨]

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ (١٤١)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)

وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (١٤٧) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

قوله: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ هذا رجوع إلى وصف باقى القصة. و المراد بالسنن: ما سنّه اللّه فى الأمم من وقائعه، أى: قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنّها اللّه فى الأمم المكذبة، و أصل السنن: جمع سنة، و هى: الطريقة المستقيمة، و منه قول الهذلى:

فلا تجزعن من سنّة أنت سرتهافأوّل راض سنّة من يسيرها

و السنة: الإمام المتبع المؤتمّ به، و منه قول لبيد:

من معشر سنّت لهم آباؤهمو لكلّ قوم سنّة و إمامها

و السنة: الأمة، و السنن: الأمم، قاله المفضل الضبى. و قال الزجاج: المعنى فى الآية: أهل سنن، فحذف المضاف، و الفاء فى قوله: فَسِيرُوا سببية؛ و قيل: شرطية، أى: إن شككتم فسيروا.

و العاقبة: آخر الأمر. و المعنى: سيروا فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا، ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم التى آثروها أثر. هذا قول أكثر المفسرين. و المطلوب من هذا السير

المأمور به: هو حصول المعرفة بذلك، فإن حصلت بدونه فقد حصل المقصود، و إن كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها، و الإشارة بقوله: هذا إلى قوله: قَدْ خَلَتْ و قال الحسن:

إلى القرآن بَيانٌ لِلنَّاسِ أى: تبيين لهم، و تعريف الناس للعهد، و هم: المكذبون، أو للجنس، أى:

للمكذبين و غيرهم. و فيه حث على النظر فى سوء عاقبة المكذبين و ما انتهى إليه أمرهم. قوله: وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ أى: هذا النظر مع كونه بيانا فيه هدى و موعظة للمتقين من المؤمنين، فعطف الهدى و الموعظة على البيان يدل على التغاير و لو باعتبار المتعلق، و بيانه: أن اللام فى الناس إن كانت للعهد: فالبيان للمكذبين و الهدى و الموعظة للمؤمنين، و إن كانت للجنس: فالبيان لجميع الناس مؤمنهم و كافرهم و الهدى و الموعظة للمتقين وحدهم. قوله: وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا عزاهم و سلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل و الجراح، و حثهم على قتال عدوهم، و نهاهم عن العجز و الفشل، ثم بين لهم أنهم الأعلون على عدوّهم بالنصر و الظفر، و هى جملة حالية، أى: و الحال أنكم الأعلون عليهم و على غيرهم بعد هذه الوقعة. و قد صدق اللّه وعده فإن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعد وقعة أحد ظفر بعدوّه فى جميع وقعاته؛ و قيل: المعنى: و أنتم الأعلون عليهم بما أصبتم منهم فى يوم بدر فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم. و قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ متعلق بقوله: وَ لا تَهِنُوا و ما بعده، أو بقوله: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ أى: إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا و لا تحزنوا، أو: إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون. و القرح: بالضم و الفتح: الجرح، و هما لغتان فيه، قاله الكسائى و الأخفش. و قال الفراء:

هو بالفتح: الجرح، و بالضم: ألمه. و قرأ محمد بن السميقع «قرح» بفتح القاف و الراء: على المصدر.

و المعنى فى الآية: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر، فلا تهنوا لما أصابكم فى هذا اليوم، فإنهم لم يهنوا لما أصابهم فى ذلك اليوم، و أنتم أولى بالصبر منهم؛ و قيل: إن المراد بما أصاب المؤمنين و الكافرين فى هذا اليوم، فإن المسلمين انتصروا عليهم فى الابتداء فأصابوا منهم جماعة، ثم انتصر الكفار عليهم فأصابوا منهم.

و الأوّل أولى، لأن ما أصابه المسلمون من الكفار فى هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه. و قوله: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ أى: الكائنة بين الأمم فى حروبها، و الآتية فيما بعد، كالأيام الكائنة فى زمن النبوّة؛ تارة تغلب هذه الطائفة، و تارة تغلب الأخرى، كما وقع لكم أيها المسلمون فى يوم بدر و أحد، و هو معنى قوله: نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ فقوله: تِلْكَ مبتدأ، و الأيام: صفته، و الخبر: نداولها، و أصل المداولة: المعاورة، داولته بينهم: عاورته. و الدولة: الكرة، و يجوز أن تكون: الأيام: خبرا و نداولها: حالا، و الأوّل أولى. و قوله:

وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ معطوف على علة مقدّرة كأنه قال: نداولها بين الناس ليظهر أمركم و ليعلم، أو يكون المعلل محذوفا، أى: ليعلم اللّه الذين اتقوا، فعلنا ذلك، و هو من باب التمثيل: أى: فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالما، أو: ليعلم اللّه الذين آمنوا بصبره علما يقع عليه الجزاء، كما علمه أزليا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ أى: يكرمهم بالشهادة. و الشهداء: جمع شهيد، سمى بذلك: لكونه مشهودا له بالجنة، أو جمع شاهد: لكونه كالمشاهد للجنة، و من: للتبعيض، و هم شهداء أحد. و قوله: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ جملة معترضة بين المعطوف و المعطوف عليه، لتقرير مضمون ما قبله. و قوله: وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

من جملة العلل، معطوف على ما قبله. و التمحيص: الاختبار؛ و قيل: التطهير، على حذف مضاف، أى: ليمحص ذنوب الذين

آمنوا، قاله الفراء؛ و قيل: يمحص: يخلص، قاله الخليل و الزجاج، أى: ليخلص المؤمنين من ذنوبهم. و قوله: وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ أى: يستأصلهم بالهلاك، و أصل التمحيق: محو الآثار، و المحق: نقصها. قوله: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التميز، و أم هى المنقطعة، و الهمزة للإنكار، أى: بل أ حسبتم، و الواو فى قوله: وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ واو الحال. و الجملة حالية، و فيه تمثيل كالأوّل، أو علم يقع عليه الجزاء. و قوله: وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ منصوب بإضمار أن، كما قال الخليل و غيره على أن الواو للجمع. و قال الزجاج: الواو بمعنى: حتى، و قرأ الحسن، و يحيى بن يعمر: «و يعلم الصّابرين» بالجزم، عطفا على: وَ لَمَّا يَعْلَمِ و قرئ بالرفع، على القطع؛ و قيل: إن قوله: وَ لَمَّا يَعْلَمِ كناية عن نفى المعلوم، و هو الجهاد. و المعنى: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، و الحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد و الصبر، أى: الجمع بينهما، و معنى: لَمَّا معنى: «لم» عند الجمهور، و فرّق سيبويه بينهما فجعل لم: لنفى الماضى، و لما: لنفى الماضى و المتوقع. قوله: وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ هو خطاب لمن كان يتمنى القتال و الشهادة فى سبيل اللّه ممن لم يحضر يوم بدر، فإنهم كانوا يتمنون يوما يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالخروج، و لم يصبر منهم إلا نفر يسير، مثل أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك. و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ أى: القتال أو الشهادة التى هى سبب الموت. و قرأ الأعمش «من قبل أن تلاقوه» و قد ورد النهى عن تمنى الموت، فلا بد من حمله هنا على الشهادة. قال القرطبى: و تمنى الموت من المسلمين يرجع إلى تمنى الشهادة المبنية على الثبات و الصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم، لأنه معصية و كفر، و لا يجوز إرادة المعصية، و على هذا يحمل سؤال المسلمين من اللّه أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد و إن أدّى إلى القتل. قوله: فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ أى:

القتال أو ما هو سبب للموت، و محل قوله: وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ النصب على الحال، و قيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما: للمبالغة، أى: قد رأيتموه معاينين له حين قتل من قتل منكم. قال الأخفش: إن التكرير بمعنى التأكيد، مثل قوله: وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «١» و قيل: معناه: بصراء ليس فى أعينكم علل؛ و قيل:

معناه: و أنتم تنظرون إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و قوله: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ سبب نزول هذه ما سيأتى: من أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما أصيب فى يوم أحد صاح الشيطان قائلا: قد قتل محمد، ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل: قد أصيب محمد فأعطوا بأيديكم فإنما هم إخوانكم، و قال آخر: لو كان رسولا ما قتل، فردّ اللّه عليهم ذلك و أخبرهم: بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل و سيخلو كما خلوا، فجملة قوله: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ صفة لرسول. و القصر قصر إفراد، كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين: الرسالة، و كونه لا يهلك؛ فردّ اللّه عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك؛ و قيل: هو قصر قلب. و قرأ ابن عباس: «قد خلت من قبل رسل» ثم أنكر اللّه عليهم بقوله: أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ أى: كيف ترتدّون و تتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو،

---

(١). الأنعام: ٣٨.

و يتمسك أتباعهم بدينهم، و إن فقدوا بموت أو قتل. و قيل: الإنكار لجعلهم خلوّ الرسل قبله سببا لانقلابهم بموته أو قتله. و إنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يقتل: لكونه مجوّزا عند المخاطبين. قوله: وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ أى: بإدباره عن القتال، أو بارتداده عن الإسلام فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً من الضرر، و إنما يضرّ نفسه وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ أى: الذين صبروا و قاتلوا و استشهدوا، لأنهم بذلك شكروا نعمة اللّه عليهم بالإسلام. و من امتثل ما أمر به فقد شكر النعمة التى أنعم اللّه بها عليه. قوله: وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ هذا كلام مستأنف، يتضمّن الحثّ على الجهاد، و الإعلام بأن الموت لا بدّ منه.

و معنى: بِإِذْنِ اللَّهِ بقضاء اللّه و قدره، و قيل: إن هذه الجملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الإرجاف بقتله صلّى اللّه عليه و سلم، فبين لهم: أن الموت بالقتل أو بغيره منوط بإذن اللّه، و إسناده إلى النفس مع كونها غير مختارة له: للإيذان بأنه لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلّا بإذن اللّه. و قوله: كِتاباً مصدر مؤكد لما قبله، لأن معناه: كتب اللّه الموت كتابا، و المؤجل: المؤقت الذى لا يتقدم على أجله و لا يتأخر. قوله:

وَ مَنْ يُرِدْ أى: بعمله ثَوابَ الدُّنْيا كالغنيمة و نحوها، و اللفظ يعمّ كل ما يسمى ثواب الدنيا، و إن كان السبب خاصا نُؤْتِهِ مِنْها أى: من ثوابها، على حذف المضاف وَ مَنْ يُرِدْ بعمله ثَوابَ الْآخِرَةِ و هو الجنة، نؤته من ثوابها، و نضاعف له الحسنات أضعافا كثيرة وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ بامتثال ما أمرناهم به كالقتال، و نهيناهم عنه كالفرار و قبول الإرجاف. و قوله: وَ كَأَيِّنْ قال الخليل و سيبويه: هى: أى، دخلت عليها كاف التشبيه، و ثبتت معها، فصارت بعد التركيب بمعنى: كم، و صوّرت فى المصحف نونا، لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغيير معناها، ثم كثر استعمالها فتصرّفت فيها العرب بالقلب و الحذف، فصار فيها أربع لغات قرئ بها:

أحدها: كائن، مثل: كاعن، و بها قرأ ابن كثير، و مثله قول الشاعر:

و كائن بالأباطح من صديقيرانى لو أصبت هو المصابا

و قال آخر:

و كائن رددنا عنكم من مدجّجيجىء أمام الرّكب يردى مقنّعا «١»

و قال زهير:

و كائن ترى من معجب لك شخصهزيادته أو نقصه فى التّكلّم

و كأين: بالتشديد، مثل: كعين، و به قرأ الباقون، و هو الأصل. و الثالثة: كأين، مثل: كعين مخففا.

و الرابعة: كيئن، بياء بعدها همزة مكسورة، و وقف أبو عمرو بغير نون، فقال: كأى، لأنه تنوين، و وقف

---

(١). يردى: يمشى الرّديان، و هو ضرب من المشى فيه تبختر.

و المقنّع: الذى تقنّع بالسّلاح؛ كالبيضة و المغفر.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٤٣

الباقون بالنون. و المعنى: كثير من الأنبياء قتل معه ربيون. قرأ نافع، و ابن كثير و أبو عمرو، و يعقوب، قتل على البناء للمجهول و هى قراءة ابن عباس، و اختارها أبو حاتم، و فيه وجهان: أحدهما: أن يكون فى قتل ضمير يعود إلى النبيّ، و حينئذ يكون قوله: مَعَهُ رِبِّيُّونَ جملة حالية، كما يقال: قتل الأمير معه جيش، أى: و معه جيش، و الوجه الثانى: أن يكون القتل واقعا على ربيون، فلا يكون فى قتل ضمير، و المعنى: قتل بعض أصحابه، و هم الربيون. و قرأ الكوفيون و ابن عامر: «قاتل»، و هى قراءة ابن مسعود، و اختارها أبو عبيد، و قال: إن اللّه إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه، و إذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل و لم يقتل، فقاتل أعمّ و أمدح، و يرجح هذه القراءة الأخرى. و الوجه الثانى من القراءة الأولى: ما قتل نبيّ فى حرب قط، و كذا قال سعيد بن جبير. و الربيون: بكسر الراء، قراءة الجمهور، و قرأ عليّ:

بضمها، و ابن عباس: بفتحها، و واحده: ربى بالفتح منسوب إلى الرب، و الربى: بضم الراء و كسرها، منسوب إلى الربة، بكسر الراء و ضمها و هى الجماعة، و لهذا فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة؛ و قيل هم الأتباع؛ و قيل: هم العلماء. قال الخليل: الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء و هم الربانيون نسبوا إلى التأله و العبادة و معرفة الربوبية. و قال الزجاج: الربيون بالضم الجماعات. قوله: فَما وَهَنُوا عطف على قاتل، أو قتل. و الوهن انكسار الجدّ بالخوف. و قرأ الحسن: «وهنوا» بكسر

الهاء و ضمها. قال أبو زيد: لغتان، وهن الشيء يهن وهنا: ضعف، أي: ما وهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قتل منهم وَ ما ضَعُفُوا أي: عن عدوّهم وَ مَا اسْتَكانُوا لما أصابهم فى الجهاد. و الاستكانة: الذلة و الخضوع و قرئ: «و ما وهنوا و ما ضعفوا» بإسكان الهاء و العين. و حكى الكسائى: ضعفوا، بفتح العين، و فى هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد، و ذلّ و استكان و ضعف بسبب ذلك الإرجاف الواقع من الشيطان، و لم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل. قوله: وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ أي: قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول، و قولهم: منصوب على أنه خبر كان. و قرأ ابن كثير، و عاصم فى رواية عنهما: برفع قولهم. و قوله: إِلَّا أَنْ قالُوا استثناء مفرغ، أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون، أو قتل نبيهم إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا قيل: هى الصغائر. و قوله: وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا قيل: هى الكبائر، و الظاهر: أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبا من صغيرة أو كبيرة. و الإسراف: ما فيه مجاوزة للحدّ، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين: هضما لأنفسهم وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا فى مواطن القتال فَآتاهُمُ اللَّهُ بسبب ذلك ثَوابَ الدُّنْيا من النصر و الغنيمة و العزة و نحوها وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، و هو نعيم الجنة، جعلنا اللّه من أهلها.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ قال: تداول من الكفار و المؤمنين فى الخير و الشرّ. و أخرج ابن أبى شيبة فى كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير قال: أوّل ما نزل من آل عمران: هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ ثم أنزل بقيتها يوم أحد. و أخرج

ابن جرير عن الحسن فى قوله: هذا بَيانٌ يعنى القرآن. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس قال: أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «اللّهمّ لا يعلون علينا» فأنزل اللّه: وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج قال: انهزم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الشعب يوم أحد، فسألوا: ما فعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ما فعل فلان؟ فنعى بعضهم لبعض، و تحدّثوا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد قتل، فكانوا فى همّ و حزن، فبينما هم كذلك، علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل. و كانوا على أحد مجنبتى المشركين، و هم أسفل من الشعب، فلما رأوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فرحوا، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «اللّهم لا قوّة لنا إلّا بك، و ليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النّفر فلا تهلكهم» و ثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم اللّه، و علا المسلمون الجبل، فذلك قوله: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ قال: و أنتم الغالبون. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ قال: جراح و قتل.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ قال: إن يقتل منكم يوم أحد فقد قتل منهم يوم بدر. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ قال: كان يوم أحد بيوم بدر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ الآية، قال: أدال المشركين على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يوم أحد، و بلغنى أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة و سبعين رجلا عدد الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين، و كان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة و سبعين رجلا. و أخرج ابن جريج، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ قال: إن المسلمين كانوا يسألون ربهم: اللهمّ ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين و نبليك فيه خيرا، و نلتمس فيه الشهادة، فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء. و أخرجا عنه فى قوله: وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا قال: يبتليهم وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ قال: ينقصهم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه: أن

رجالا من أصحاب النبی صلّی اللّه علیه و سلم کانوا یقولون: لیتنا نقتل کما قتل أصحاب بدر و نستشهد، أو لیت لنا یوما کیوم بدر نقاتل فیه المشرکین، و نبلی فیه خیرا، و نلتمس الشهادة و الجنة و الحیاة و الرزق، فأشهدهم اللّه أحدا، فلم یثبتوا إلا من شاء اللّه منهم.

فقال اللّه: وَ لَقَدْ کُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ الآیة. و أخرج ابن المنذر عن کلیب قال: خطبنا عمر بن الخطاب، فکان یقرأ علی المنبر: آل عمران، و یقول: إنها أحدیة، ثم قال: تفرقنا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یوم أحد، فصعدت الجبل فسمعت یهودیا یقول: قتل محمد، فقلت: لا أسمع أحدا یقول قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و الناس یتراجعون إلیه، فنزلت هذه الآیة: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ و أخرج ابن جریر عن الضحاک قال: نادی مناد یوم أحد: ألا إن محمدا قد قتل، فارجعوا إلی دینکم الأوّل، فأنزل اللّه: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ أخرج أیضا عن مجاهد نحوه. و أخرج أیضا عن

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۴۴۵

علیّ فی قوله: وَ سَیَجْزِی اللَّهُ الشَّاکِرِینَ قال: الثابتین علی دینهم أبا بکر و أصحابه، فکان علیّ یقول:

کان أبو بکر أمیر الشاکرین. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی، و الحاکم عنه: أنه کان یقول فی حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إن اللّه یقول: أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ و اللّه لا ننقلب علی أعقابنا بعد إذ هدانا اللّه، و اللّه لئن مات، أو قتل، لأقاتلنّ علی ما قتل علیه حتی أموت. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی عن ابن مسعود فی قوله: رِبِّیُّونَ قال: ألوف.

و أخرج سعید بن منصور عن الضحاک قال: الربة الواحدة ألف. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس: رِبِّیُّونَ قال: جموع. و أخرج ابن جریر عنه قال: علماء کثیر. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: وَ مَا اسْتَکانُوا قال: تخشعوا. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: وَ إِسْرافَنا فِی أَمْرِنا قال: خطایانا.

[سورة آل‏عمران (۳): الآیات ۱۴۹ الی ۱۵۳]

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تُطِیعُوا الَّذِینَ کَفَرُوا یَرُدُّوکُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِینَ (۱۴۹) بَلِ اللَّهُ مَوْلاکُمْ وَ هُوَ خَیْرُ النَّاصِرِینَ (۱۵۰) سَنُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَکُوا بِاللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَی الظَّالِمِینَ (۱۵۱) وَ لَقَدْ صَدَقَکُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّی إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِی الْأَمْرِ وَ عَصَیْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراکُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْکُمْ مَنْ یُرِیدُ الدُّنْیا وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرِیدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَکُمْ عَنْهُمْ لِیَبْتَلِیَکُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْکُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ (۱۵۲) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلی أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخْراکُمْ فَأَثابَکُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِکَیْلا تَحْزَنُوا عَلی ما فاتَکُمْ وَ لا ما أَصابَکُمْ وَ اللَّهُ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۵۳)

لما أمر اللّه سبحانه بالاقتداء بمن تقدّم من أنصار الأنبیاء حذر عن طاعة الکفار، و هم مشرکوا العرب؛ و قیل: الیهود و النصاری؛ و قیل: المنافقون فی قولهم للمؤمنین عند الهزیمة ارجعوا إلی دین آبائکم. و قوله:

یَرُدُّوکُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ أی: یخرجونکم من دین الإسلام إلی الکفر فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِینَ أی: ترجعوا مغبونین. و قوله: بَلِ اللَّهُ مَوْلاکُمْ إضراب عن مفهوم الجملة الأولی، أی: إن تطیعوا الکافرین یخذلوکم، و لا ینصروکم، بل اللّه ناصرکم، لا غیره؛ و قرئ: «بل اللّه» بالنصب، علی تقدیر: بل أطیعوا اللّه. قوله: سَنُلْقِی قرأ السختیانی: بالیاء التحتیة، و قرأ الباقون: بالنون. و قرأ ابن عامر و الکسائی: الرُّعُبَ بضم العین. و قرأ الباقون بالسکون و هما لغتان، یقال: رعبته رعبا و رعبا فهو مرعوب، و یجوز أن یکون مصدرا، و الرعب

بـالضم: الاـسم، و أصـله: المـلـء، يقال: سـيل راعـب، أى: يملأ الوادى، و رعبت الحوض: ملأته، فالمعنى: سـنملأ قلوب الكافرين رعبا، أى: خوفا و فزعا، و الإلقاء يسـتعمل حقيقـة فى الأجسام، و مجازا فى غيرها كهـذه الآيـة، و ذلك أن المشـركين بعـد وقعة أحـد نـدموا أن لاـ يكونوا استأصـلوا المسـلمين، و قالوا: بئسـما صـنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشـريد تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۴۶

فلما عزموا على ذلك ألقى اللّه فى قلوبهم الرعب، حتى رجعوا عما هموا به بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ متعلق بقوله:

سَنُلْقِي و ما: مصدرية، أى: بسبب إشراكهم ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أى: ما لم ينزل اللّه بجعله شريكا له حجة و بيانا و برهانا، و النفى يتوجه إلى القيـد و المقيـد، أى: لا حجة و لا إنزال، و المعنى: أن الإشـراك باللّه لم يثبت فى شـىء من الملل. و المثوى: المكان الـذى يقام فيه، يقال: ثوى، يثوى، ثواء. قوله: وَ لَقَـدْ صَـدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْـدَهُ نزلت لما قال بعض المسـلمين: من أين أصابنا هذا و قد وعـدنا اللّه النصـر؟ و ذلـك أنه كـان الظفر لهم فى الابتـداء، حتى قتلوا صـاحب لواء المشـركين و تسعة نفر بعـده؛ فلما اشـتغلوا بالغنيمة؛ و ترك الرماة مركزهم طلبا للغنيمة؛ كان ذلك سبب الهزيمة. و الحسّ: الاستئصال بالقتل، قاله أبو عبيد. يقال:

جراد محسوس: إذا قتله البرد، و سـنة حسوس، أى: جدبـة تأكل كل شـىء. قيل: و أصـله من الحسّ الـذى هو الإدراك بالحاسة، فمعنى حسه: أذهب حسه بالقتل، و تحسونهم: تقتلونهم و تستأصلونهم، قال الشاعر:

حسسناهم بالسيف حسّا فأصبحتبقيّتهم قد شرّدوا و تبدّدوا

و قال جرير:

تحسّهم السّيوف كما تسامىحريق النّار فى الأجم الحصيد

بِإِذْنِهِ أى: بعلمه، أو بقضـائه حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ أى: جبنتم و ضـعفتم، قيـل: جواب حتى محـذوف، تقـديره: امتحنتم، و قـال الفراء: جواب حتى: قوله: وَ تَنازَعْتُمْ و الواو مقحمـة زائدة، كقوله: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ «۱» و قـال أبو على: يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم؛ و قيل: فيه تقديم و تأخير، أى: حتى إذا تنازعتم و عصيتم فشلتم؛ و قيل: إن الجواب: عصيتم، و الواو مقحمة. و قد جوّز الأخفش مثله فى قوله تعالى: حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ «۲»؛ و قيل:

حتى: بمعنى إلى، و حينئـذ لا جواب لها، و التنازع المـذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضـهم: نلحق الغنائم، و قال بعضـهم: نثبت فى مكاننـا كما أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلم. و معنى قوله: مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ ما وقع لهم من النصـر فى الابتداء فى يوم أحد، كما تقدّم، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا يعنى: الغنيمة وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ أى: الأجر بالبقاء فى مراكزهم امتثالا لأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ أى: ردّكم اللّه عنهم بالانهزام بعد أن استوليتم عليهم ليمتحنكم وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ لما علم من نـدمكم، فلم يستأصـلكم بعـد المعصيـة و المخالفـة، و الخطاب لجميع المنهزمين، و قيل: للرماة فقط. قوله: إِذْ تُصْعِدُونَ متعلق بقوله: صَرَفَكُمْ أو بقوله: وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ أو بقوله: لِيَبْتَلِيَكُمْ و قرأه الجمهور: بضمّ التاء و كسر العين، و قرأ أبو رجاء العطاردى، و أبو عبـد الرحمن السـلمى، و الحسن، و قتادة: بفتح التاء و العين. و قرأ ابن محيصن و قنبل: «يصعدون» بالتحتية. قال أبو حاتم: أصـعدت: إذا مضيت حيال وجهك، و صعدت: إذا ارتقيت فى جبل، فالإصعاد: السير فى مستوى الأرض و بطون الأودية، و الصعود: الارتفاع على الجبال و السطوح و السلالم و الدرج، فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل

---

(۱). الصافات: ۱۰۳.

(۲). التوبة: ۱۱۸.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۴۷

بعد إصعادهم فی الوادی، فيصح المعنى على القراءتين. و قال القتبى: أصعد: إذا أبعد فی الذهاب و أمعن فيه، و منه قول الشاعر:

ألا أيّهذا السّائلی أين أصعدتفإنّ لها من بطن يثرب موعدا

و قال الفراء: الإصعاد: الابتداء فی السفر، و الانحدار: الرجوع منه، يقال: أصعدنا من بغداد إلى مكّة، و إلى خراسان، و أشباه ذلک: إذا خرجنا إليها و أخذنا فی السفر، و انحدرنا: إذا رجعنا. و قال المفضل: صعد و أصعد بمعنى واحد. و معنى: تَلْوُونَ تعرجون و تقيمون، أی: لا- يلتفت بعضكم إلى بعض هربا، فإن المعرج إلى الشیء يلوی إليه عنقه أو عنق دابته عَلى‏ أَحَدٍ أی: على أحد ممن معكم؛ و قيل: على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و قرأ الحسن: «تلون» بواو واحدة، و قرأ عاصم فی رواية عنه: بضم التاء، و هی لغة.

قوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ أی: فی الطائفة المتأخرة منكم، يقال: جاء فلان فی آخر الناس، و آخرة الناس، و أخرى الناس، و أخريات الناس. و كان دعاء النبی صلّى اللّه عليه و سلم: «أی عباد اللّه ارجعوا». قوله:

فَأَثابَكُمْ عطف على صرفكم، أی: فجازاكم اللّه غما حين صرفكم عنه بسبب غمّ أذقتموه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعصيانكم، أو غما موصولا- بغمّ بسبب ذلک الإرجاف و الجرح و القتل و ظفر المشركين، و الغمّ فی الأصل: التغطية، غميت الشی‏ء: غطيته، و يوم غمّ، و ليلة غمة: إذا كانا مظلمين، و منه: غمّ الهلال؛ و قيل: الغمّ الأول: الهزيمة، و الثانی: إشراف أبی سفيان و خالد بن الوليد عليهم فی الجبل. قوله: لِكَيْلا تَحْزَنُوا اللام متعلقة بقوله: فَأَثابَكُمْ أی: هذا الغمّ بعد الغمّ، لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة، و لا ما أصابكم من الهزيمة، تمرينا لكم على المصائب، و تدريبا لاحتمال الشدائد. و قال المفضل: معنى لِكَيْلا تَحْزَنُوا لكی تحزنوا، و لا زائدة كقوله تعالى: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ أی: أن تسجد، و قوله:

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أی: ليعلم.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن جريج فی قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا قال: لا تنتصحوا اليهود و النصارى على دينكم، و لا تصدقوهم بشی‏ء فی دينكم.

و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی يقول: إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يردّكم كفارا. و أخرج ابن جرير عنه فی قوله: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ نحو ما قدّمناه فی سبب نزول الآية. و أخرج البيهقی فی الدلائل عن عروة فی قوله: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ قال: كان اللّه وعدهم على الصبر و التقوى:

أن يمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، و كان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و تركوا مصافهم، و تركت الرماة عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا منازلهم، و أرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة.

و قصة أحد مستوفاة فی السير و التواريخ فلا حاجة إلى إطالة الشرح هنا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن عبد الرحمن بن عوف فی قوله: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ قال: الحسّ: القتل. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه. قال: الفشل: الجبن. و أخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب فی قوله: مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ قال: الغنائم و هزيمة القوم. و أخرج ابن جرير عن الحسن فی قوله:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۴۸

وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ قال: يقول اللّه قد عفوت عنكم أن لا أكون استأصلتكم. و أخرج أيضا عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس إِذْ تُصْعِدُونَ قال: أصعدوا فی أحد فرارا و الرسول يدعوهم فی أخراهم: «إلیّ عباد اللّه ارجعوا، إلیّ عباد اللّه ارجعوا». و أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن ابن عوف: فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ قال: الغمّ الأوّل: بسبب الهزيمة، و الثانی:

حين قيل: قتل محمد، و كان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: غَمًّا بِغَمٍّ قال: فرّة بعد الفرّة، الأولى: حين سمعوا الصوت أن محمدا قد قتل. [و الثانية حين رجع الكفار فضربوهم مدبرين حتى قتلوا منهم سبعين رجلا] «١». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم قال: الغم الأوّل: الجراح و القتل، و الغم الآخر: حين سمعوا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد قتل. و أخرج ابن جرير عن الربيع مثله.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٥۴ الى ١٥۵]

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٥۴) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥۵)

الأمنة و الأمن سواء، و قيل: الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف، و الأمن مع عدمه، و هى: منصوبة بأنزل. و نعاسا: بدل منها، أو عطف بيان، أو مفعول له؛ و أما ما قيل من أن أمنة: حال من نعاسا مقدّمة عليه، أو حال من المخاطبين، أو مفعول له، فبعيد. و قرأ ابن محيصن: «أمنة» بسكون الميم. قوله:

يَغْشى قرئ: بالتحتية، على أن الضمير للنعاس، و بالفوقية، على أن الضمير لأمنة، و الطائفة: تطلق على الواحد و الجماعة، و الطائفة الأولى: هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلبا للأجر، و الطائفة الأخرى:

هم معتب بن قشير و أصحابه، و كانوا خرجوا طمعا فى الغنيمة، و جعلوا يناشدون على الحضور، و يقولون الأقاويل. و معنى: أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ حملتهم على الهمّ، أهمنى الأمر: اقلقنى، و الواو فى قوله:

وَ طائِفَةٌ للحال، و جاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال، و قيل: إن معنى أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ صارت همهم، لا همّ لهم غيرها يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِ هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى:

يظنون باللّه غير الحق الذى يجب أن يظن به، و ظنّ الجاهلية: بدل منه. و هو الظنّ المختص بملة الجاهلية، أو ظن أهل الجاهلية، و هو ظنهم: أن أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم باطل، و أنه لا ينصر و لا يتمّ ما دعا إليه من دين الحق.

---

(١). ما بين حاصرتين من تفسير ابن جرير الطبرى [۴/ ٨٨].

و قوله: يَقُولُونَ بدل من «يظنون»، أى: يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ أى: هل لنا من أمر اللّه نصيب، و هذا الاستفهام معناه: الجحد، أى: ما لنا شىء من الأمر. و هو النصر و الاستظهار على العدوّ؛ و قيل: هو الخروج، أى: إنما خرجنا مكرهين، فردّ اللّه سبحانه ذلك عليهم بقوله:

قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ و ليس لكم و لا لعدوّكم منه شىء، فالنصر بيده و الظفر منه. و قوله: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أى: يضمرون فى أنفسهم النفاق و لا يبدون لك ذلك، بل يسألونك سؤال المسترشدين.

و قوله: يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا استئناف، كأنه قيل: ما هو الأمر الذى يخفون فى أنفسهم؟ فقيل: يقولون فيما بينهم، أو فى أنفسهم لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا أى:

ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة، فردّ اللّه سبحانه ذلك عليهم بقوله: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ أى: لو كنتم قاعدين فى بيوتكم لم يكن بدّ من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع الى صرعوا فيها، فإن قضاء اللّه لا يردّ. و قوله: وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ علة لفعل مقدّر قبلها، معطوفة على علل له أخرى مطوية للإيذان بكثرتها، كأنه قيل: فعل ما فعل لمصالح جمة وَ لِيَبْتَلِيَ إلخ؛ و قيل: إنه معطوف على علة مطوية لبرز، و المعنى: ليمتحن ما فى صدوركم من الإخلاص، و ليمحص ما فى قلوبكم من وساوس الشيطان. قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ أى: انهزموا يوم أحد، و قيل المعنى: إن الذين تولوا المشركين يوم أحد إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ استدعى زللهم بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب التى منها مخالفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ لتوبتهم و اعتذارهم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: أمنهم اللّه يومئذ بنعاس غشاهم، و إنما ينعس من يأمن.

و قد ثبت فى صحيح البخارى و غيره أن أبا طلحة قال: غشينا و نحن فى مصافنا يوم أحد، فجعل سيفى يسقط من يدى، و آخذه و يسقط، و آخذه فذلك قوله: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً الآية.

و أخرج الترمذى، و صححه، و ابن جرير، و أبو الشيخ، و البيهقى فى الدلائل عن الزبير بن العوّام قال: رفعت رأسى يوم أحد، فجعلت أنظر، و ما منهم من أحد إلا و هو يميل تحت حجفته من النعاس، و تلا هذه الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن جريج قال: إن المنافقين قالوا لعبد اللّه بن أبيّ، و كان سيد المنافقين: قتل اليوم بنو الخزرج، فقال: و هل لنا من الأمر شىء، أما و اللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. و أخرج ابن جرير عن قتادة و الربيع فى قوله: ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ قال: ظنّ أهل الشرك. و أخرج ابن إسحاق، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: معتب هو الذى قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شىء. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أن الذى قال ذلك: عبد اللّه بن أبيّ. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن عوف فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ قال: هم ثلاثة واحد من المهاجرين، و اثنان من الأنصار. و أخرج ابن منده، و ابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال: نزلت فى عثمان و رافع بن المعلى و خارجة ابن زيد. و قد روى فى تعيين «من» فى الآية روايات كثيرة.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۵٠

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١۵۶ الى ١۶۴]

فتح القدير ج ١ ۴۹۹

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١۵۶) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١۵٧) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١۵٨) فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١۵٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١۶٠)

وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (١۶١) أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١۶٢) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (١۶٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ

قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۱۶۴)

قوله: لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا هم المنافقون الذين قالوا: لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا.

قوله: وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ فى النفاق أو فى النسب، أى: قالوا لأجلهم إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ إذا ساروا فيها للتجارة أو نحوها؛ قيل: إن إذا هنا المفيدة لمعنى الاستقبال: بمعنى إذ المفيدة لمعنى المضىّ؛ و قيل:

هى على معناها، و المراد هنا حكاية الحال الماضية. و قال الزجاج: إذا هنا تنوب عن ما مضى من الزمان و ما يستقبل أَوْ كانُوا غُزًّى جمع غاز، كراكع و ركع، و غائب و غيب، قال الشاعر:

قل للقوافل و الغزىّ إذا غزوا «۱» ....

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ اللام متعلقة بقوله: قالُوا أى: قالوا ذلك و اعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم. و المراد: أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة، أو متعلقة بقوله: لا تَكُونُوا أى: لا تكونوا مثلهم فى اعتقاد ذلك، ليجعله اللّه حسرة فى قلوبهم فقط دون قلوبكم؛ و قيل: المعنى: لا تلتفتوا إليهم ليجعل اللّه عدم التفاتكم إليهم حسرة فى قلوبهم؛ و قيل: المراد: حسرة فى قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزى و الندامة وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فيه ردّ على قولهم، أى: ذلك بيد اللّه سبحانه يصنع ما يشاء و يحكم ما يريد، فيحيى من يريد، و يميت من يريد من غير أن يكون للسفر أو الغزو أثر فى ذلك، و اللام فى قوله: وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ موطئة. و قوله: لَمَغْفِرَةٌ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط، و المعنى:

أن السفر و الغزو ليسا مما يجلب الموت، و لئن وقع ذلك فبأمر اللّه سبحانه لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ أى: الكفرة من منافع الدنيا و طيباتها مدّة أعمارهم، على قراءة من قرأ: بالياء التحتية، أو خير

---

(۱). هو صدر بيت لزياد الأعجم، و عجزه: و الباكرين و للمجدّ الرّامح.

مما تجمعون أيها المسلمون من الدنيا و منافعها، على قراءة من قرأ: بالفوقية. و المقصود فى الآية: بيان مزية القتل أو الموت فى سبيل اللّه، و زيادة تأثيرهما فى استجلاب المغفرة و الرحمة. قوله: وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ على أىّ وجه، حسب تعلق الإرادة الإلهية لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ هو جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة، سادّ مسدّ جواب الشرط، كما تقدم فى الجملة الأولى: أى: إلى الربّ الواسع المغفرة تحشرون، لا إلى غيره، كما يفيده تقديم الظرف على الفعل، مع ما فى تخصيص اسم اللّه سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف و القهر. و ما فى قوله: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ مزيدة للتأكيد، قال سيبويه و غيره؛ و قال ابن كيسان: إنها نكرة فى موضع جرّ بالباء، و رحمة: بدل منها، و الأوّل أولى بقواعد العربية، و مثله:

قوله تعالى: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ* و الجار و المجرور متعلق بقوله: لِنْتَ لَهُمْ و قدّم عليه لإفادة القصر، و تنوين رحمة للتعظيم؛ و المعنى: أنّ لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه؛ و قيل: إن: ما، استفهامية، و المعنى: فبأىّ رحمة من اللّه لنت لهم؟ و فيه معنى التعجيب و هو بعيد، و لو كان كذلك لحذف الألف من ما؛ و قيل: فبم رحمة من اللّه. و الفظّ: الغليظ الجافى. و قال الراغب: الفظّ هو الكريه الخلق، و أصله: فظظ، كحذر. و غلظ القلب: قساوته، و قلة إشفاقه، و عدم انفعاله للخير. و الانفضاض: التفرّق، يقال: فضضتهم فانفضوا، أى: فرّقتهم فتفرّقوا، و المعنى: لو كنت فظا غليظ القلب لا ترفق بهم لتفرّقوا من حولك، هيبة لك، و احتشاما منك، بسبب ما كان من توليهم، و إذا كان الأمر كما ذكر فَاعْفُ عَنْهُمْ فيما يتعلق بك من الحقوق وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللّه سبحانه فيما هو إلى اللّه سبحانه وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ أى: الذى يرد عليك، أىّ أمر كان مما يشاور فى مثله، أو فى أمر الحرب خاصة، كما يفيده السياق، لما فى ذلك من تطييب خواطرهم و استجلاب مودّتهم، و لتعريف الأمة بمشروعية ذلك، حتى لا

يأنف منه أحد بعدك. و المراد هنا: المشاورة فى غير الأمور التى يرد الشرع بها. قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شرت الدابة و شورتها: إذا علمت خبرها؛ و قيل: من قولهم: شرت العسل: إذا أخذته من موضعه. قال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، و فيما أشكل عليهم من أمور الدنيا، و مشاورة وجوه الجيش، فيما يتعلق بالحرب، و وجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، و وجوه الكتاب و العمال و الوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد و عمارتها. و حكى القرطبى عن ابن عطية: أنه لا خلاف فى وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم و الدين. قوله: فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أى: إذا عزمت عقب المشاورة على شىء، و اطمأنت به نفسك، فتوكل على اللّه فى فعل ذلك، أى: اعتمد عليه و فوّض إليه؛ و قيل: إن المعنى: فإذا عزمت على أمر أن تمضى فيه، فتوكل على اللّه لا على المشاورة. و العزم فى الأصل:

قصد الإمضاء أى: فإذا قصدت إمضاء أمر فتوكل على اللّه. و قرأ جعفر الصادق، و جابر بن زيد: «فإذا عزمت»: بضم التاء، بنسبة العزم إلى اللّه تعالى، أى: فإذا عزمت لك على شىء، و أرشدتك إليه، فتوكل على اللّه. و قوله: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ جملة مستأنفة، لتأكيد التوكل، و الحثّ عليه.

و الخذلان: ترك العون، أى: و إن يترك اللّه عونكم فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ و هذا الاستفهام:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۵۲

إنكارى. و الضمير فى قوله: مِنْ بَعْدِهِ راجع إلى الخذلان المدلول عليه بقوله: وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ أو إلى اللّه، و من علم أنه لا ناصر له إلا اللّه سبحانه، و أن من نصره اللّه لا غالب له، و من خذله لا ناصر له، فوّض أموره إليه، و توكل عليه، و لم يشتغل بغيره، و تقديم الجار و المجرور على الفعل فى قوله: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ لإفادة قصره عليه. قوله: وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَ أى ما صح له ذلك لتنافى الغلول و النبوّة. قال أبو عبيد: الغلول: من المغنم خاصة، و لا نراه من الخيانة و لا من الحقد، و مما يبين ذلك أنه يقال من الخيانة: أغلّ يغلّ، و من الحقد: غلّ يغلّ بالكسر، و من الغلول: غلّ يغلّ بالضم؛ يقال: غلّ المغنم غلولا، أى: خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه؛ فمعنى الآية على القراءة بالبناء للفاعل: ما صح لنبىّ أن يخون شيئا من المغنم، فيأخذه لنفسه من غير اطلاع أصحابه. و فيه تنزيه الأنبياء عن الغلول. و معناها على القراءة بالبناء للمفعول: ما صحّ لنبىّ أن يغله أحد من أصحابه، أى:

يخونه فى الغنيمة، و هو على هذه القراءة الأخرى: نهى للناس عن الغلول فى المغانم؛ و إنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة و السلاطين و الأمراء حراما، لأن خيانة الأنبياء أشدّ ذنبا و أعظم وزرا وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: يأت به حاملا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فيفضحه بين الخلائق، و هذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول، و التنفير منه، بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد، يطلع عليها أهل المحشر، و هى مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له، قبل أن يحاسب عليه يعاقب عليه. قوله: ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ أى: تعطى جزاء ما كسبت وافيا من خير و شرّ، و هذه الآية تعمّ كل من كسب خيرا أو شرا، و يدخل تحتها الغالّ دخولا أوليا، لكون السياق فيه. قوله: أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ الاستفهام للإنكار، أى: ليس من اتبع رضوان اللّه فى أوامره و نواهيه فعمل بأمره و اجتنب نهيه كمن باء، أى: رجع بسخط عظيم كائن من اللّه، بسبب مخالفته لما أمر به و نهى عنه، و يدخل تحت ذلك، من اتبع رضوان اللّه بترك الغلول و اجتنابه، و من باء بسخط من اللّه بسبب إقدامه على الغلول. ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال: هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ أى: متفاوتون فى الدرجات؛ و المعنى: هم ذوو درجات، أو: لهم درجات، فدرجات من اتبع رضوان اللّه ليست كدرجات من باء بسخط من اللّه، فإن الأوّلين فى أرفع الدرجات. و الآخرين فى أسفلها. قوله: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ جواب قسم محذوف، و خص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته. و معنى: مِنْ أَنْفُسِهِمْ أنه عربىّ مثلهم؛ و قيل: بشر مثلهم، و وجه المنة

على الأوّل: أنهم يفقهون عنه، و يفهمون كلامه، و لا يحتاجون إلى ترجمان. و معناها على الثانى: أنهم يأنسون به بجامع البشرية، و لو كان ملكا لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية، و قرئ: مِنْ أَنْفُسِهِمْ بفتح الفاء، أى: من أشرفهم لأنه من بنى هاشم، و بنو هاشم أفضل قريش، و قريش أفضل العرب، و العرب أفضل من غيرهم، و لعلّ وجه الامتنان على هذه القراءة: أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له و أقرب إلى تصديقه، و لا بد من تخصيص المؤمنين فى هذه الآية بالعرب على الوجه الأوّل، و أما على الوجه الثانى: فلا حاجة إلى هذا التخصيص،

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٥٣

و كذا على قراءة من قرأ: بفتح الفاء، لا حاجة إلى التخصيص، لأن بنى هاشم هم أنفس العرب و العجم فى شرف الأصل و كرم النجاد و رفاعة المحتد. و يدل على الوجه الأوّل قوله تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ و قوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ قوله: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ هذه منة ثانية، أى: يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية، لا يعرفون شيئا من الشرائع وَ يُزَكِّيهِمْ أى: يطهرهم من نجاسة الكفر، و هذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، و هما: فى محل نصب على الحال، أو صفة لرسول، و هكذا قوله: وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ و المراد بالكتاب هنا: القرآن. و الحكمة: السنة. و قد تقدّم فى البقرة تفسير ذلك: وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ أى: من قبل محمد، أو: من قبل بعثته لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى:

واضح لا ريب فيه، و اللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة، و بين النافية، فهى تدخل فى خبر المخففة لا النافية، و اسمها ضمير الشأن، أى: و إن الشأن و الحديث؛ و قيل: إنها النافية، و اللام بمعنى: إلا، أى: و ما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين، و به قال الكوفيون، و الجملة على التقديرين: فى محل نصب على الحال.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ الآية، قال: هذا قول عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول و المنافقين. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ قال: يحزنهم قولهم و لا ينفعهم شيئا. و أخرجوا عن قتادة فى قوله: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ يقول: فبرحمة من اللّه لِنْتَ لَهُمْ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ قال: لانصرفوا عنك. و أخرج ابن عدىّ، و البيهقى فى الشعب، قال السيوطى بسند حسن عن ابن عباس قال: لما نزلت: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أما إنّ اللّه و رسوله لغنيّان عنها، و لكنّ اللّه جعلها رحمة لأمّتى، فمن استشار منهم لم يعدم رشدا، و من تركها لم يعدم غيّا». و أخرج الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ. قال: أبو بكر و عمر. و أخرج ابن مردويه عن علىّ قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن العزم، فقال: «مشاورة أهل الرأى ثم اتّباعهم». و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود، و الترمذى، و حسنه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ فى قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أخذها فنزلت. و أخرج البزار، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن ابن عباس: وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ قال: ما كان لنبىّ أن يتهمه أصحابه. و قد ورد فى تحريم الغلول أحاديث كثيرة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس: هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ يقول: بأعمالهم. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة فى قوله:

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الآية، قالت: هذه للعرب خاصة.

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٥٤

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٦٨]

أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَ ما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٦٨)

قوله: أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ الألف للاستفهام بقصد التقريع، و الواو للعطف. و المصيبة: الغلبة و القتل الذى أصيبوا به يوم أحد، قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها يوم بدر، و ذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون. و قد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين و أسروا سبعين، فكان مجموع القتلى و الأسرى يوم بدر مثلى القتلى من المسلمين يوم أحد؛ و المعنى: أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم و قلتم من أين أصابنا هذا؟ و قد وعدنا بالنصر. و قوله: أَنَّى هذا أى: من أين أصابنا هذا الانهزام و القتل و نحن نقاتل فى سبيل اللّه و معنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم؟ و قد وعدنا اللّه بالنصر عليهم و قوله: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب، أى: هذا الذى سألتم عنه، و هو من عند أنفسكم، بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبى صلّى اللّه عليه و سلم، من لزوم المكان الذى عينه لهم، و عدم مفارقتهم له على كل حال و قيل: إن المراد بقوله: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ خروجهم من المدينة. و يردّه أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك؛ و قيل: هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل، و يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ يوم أحد؛ أى: ما أصابكم يوم أحد من القتل و الجرح و الهزيمة فَبِإِذْنِ اللَّهِ فبعلمه، و قيل: بقضائه و قدره؛ و قيل بتخليته بينكم و بينهم، و الفاء: دخلت فى جواب الموصول لكونه يشبه الشرط كما قال سيبويه. و قوله: وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ عطف على قوله: فَبِإِذْنِ اللَّهِ عطف سبب على سبب.

و قوله: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا عطف على ما قبله، قيل: أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم و إلى المنافقين واحدا، و المراد بالعلم هنا: التمييز و الإظهار، لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك؛ و المراد بالمنافقين هنا: عبد اللّه بن أبيّ و أصحابه. قوله: وَ قِيلَ لَهُمْ هو معطوف على قوله: نافَقُوا أى: ليعلم اللّه الذين نافقوا و الذين قيل لهم؛ و قيل: هو كلام مبتدأ، أى: قيل لعبد اللّه بن أبيّ و أصحابه: تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إن كنتم ممن يؤمن باللّه و اليوم الآخر أَوِ ادْفَعُوا عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون باللّه و اليوم الآخر، فأبوا جميع ذلك و قالوا: لو نعلم أنه سيكون قتالا لاتبعناكم و قاتلنا معكم، و لكنه لا قتال هنالك؛ و قيل المعنى: لو كنا نقدر على القتال و نحسنه لاتبعناكم، و لكنا لا نقدر على ذلك و لا نحسنه. و عبر عن نفى القدر على القتال: بنفى العلم به، لكونها مستلزمة له، و فيه بعد لا ملجئ إليه، و قيل: معناه: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم، و لكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، و لكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، لعدم القدرة منا و منكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم، و الخروج من المدينة، و هذا أيضا فيه بعد دون ما قبله؛ و قيل: معنى الدفع هنا:

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٥٥

تكثير سواد المسلمين؛ و قيل: معناه: رابطوا، و القائل للمنافقين هذه المقالة التى حكاها اللّه سبحانه هو: عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصارى والد جابر بن عبد اللّه. قوله: هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ أى: هم فى هذا اليوم الذى انخذلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون، لأنهم قد بينوا حالهم، و هتكوا أستارهم، و كشفوا عن نفاقهم إذ ذاك؛ و قيل: المعنى: أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان. قوله: يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ جملة مستأنفة، مقررة لمضمون ما تقدّمها، أى: أنهم أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر، و ذكر

الأفواه للتأكيد، مثل قوله:

يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «١». قوله: الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إلخ، أى: هم الذين قالوا لإخوانهم، على أنه خبر مبتدأ محذوف، و يجوز أن يكون بدلا من: واو يكتمون، أو منصوبا على الذمّ، أو وصف للذين نافقوا. و قد تقدم معنى قالُوا لِإِخْوانِهِمْ أى: قالوا لهم ذلك، و الحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال لَوْ أَطاعُونا بترك الخروج من المدينة ما قتلوا، فردّ اللّه ذلك عليهم بقوله: قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و الدرء: الدفع، أى: لا ينفع الحذر من القدر، فإن المقتول يقتل بأجله.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ الآية. يقول:

إنكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثلى ما أصابوا منكم يوم أحد، و قد بين هذا عكرمة. فأخرج ابن جرير عنه قال: قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين و أسروا سبعين، و قتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا من أين هذا؟

ما كان للكفار أن يقتلوا منا، فلما رأى اللّه ما قالوا من ذلك، قال اللّه: هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر.

فردّهم اللّه بذلك، و عجل لهم عقوبة ذلك فى الدنيا ليسلموا منها فى الآخرة، و يؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى شيبة، و الترمذى، و حسنه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن مردويه عن علىّ قال: جاء جبريل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال: يا محمد! إن اللّه قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى، و قد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم، و بين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الناس فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول اللّه! عشائرنا و إخواننا، لا، بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدوّنا و يستشهد منا عدتهم، فليس فى ذلك ما نكره، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر.

و هذا الحديث فى سنن الترمذى، و النسائى هو من طريق أبى داود الحفرى عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة عن علىّ: قال الترمذى بعد إخراجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة. و روى أبو أسامة عن هشام نحوه. و روى عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مرسلا، و إسناد ابن جرير لهذا الحديث هكذا: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن علية عن ابن عون قال سنيد: و هو حسين، و حدثنى حجاج عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن على فذكره. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق أبى بكر بن أبى شيبة، حدثنا قراد ابن نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفى أبو زميل، حدثنى ابن عباس عن عمر بن الخطاب

---

(١). الأنعام: ٣٨.

قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون و فرّ أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عنه، و كسرت رباعيته و هشمت البيضة على رأسه، و سال الدم على وجهه، فأنزل اللّه عزّ و جلّ: أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ الآية. و أخرج الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان و هو قراد بن نوح، به، و لكن بأطول منه، و لكنه يشكل على حديث التخيير السابق: ما نزل من المعاتبة منه سبحانه و تعالى لمن أخذ الفداء بقوله: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ «١» و ما روى من بكائه صلّى اللّه عليه و سلّم هو و أبو بكر ندما على أخذ الفداء، و لو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من اللّه سبحانه لم يعاتبهم عليه، و لا حصل ما حصل من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه من الندم و الحزن، و لا صوب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رأى عمر رضى اللّه عنه، حيث أشار بقتل الأسرى و قال ما معناه: لو نزلت عقوبة لم ينج

منها إلا عمر، و الجميع فى كتب الحديث و السير. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: قُلْتُمْ أَنَّى هذا و نحن مسلمون نقاتل غضبا للّه و هؤلاء مشركون. فقال: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ عقوبة لكم بمعصيتكم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حين قال: لا تتبعوهم. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: أَوِ ادْفَعُوا قال: كثروا بأنفسكم و إن لم تقاتلوا، و أخرج أيضا عن الضحاك نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى عون الأنصارى فى قوله: أَوِ ادْفَعُوا قال: رابطوا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن شهاب و غيره قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد و المدينة انخزل عنهم عبد اللّه بن أبيّ بثلث الناس، و قال: أطاعهم و عصانى، و اللّه ما ندرى على ما نقتل أنفسنا هاهنا؟

فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق و أهل الريب، و اتبعهم عبد اللّه بن عمرو بن حرام من بنى سلمة يقول: يا قوم! أذكركم اللّه أن تخذلوا نبيكم و قومكم عند ما حضرهم عدوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، و لا نرى أن يكون قتال. و أخرجه ابن إسحاق قال: حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى، و محمد بن يحيى بن حبان، و عاصم بن عمر بن قتادة، و الحسن بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ، و غيرهم من علمائنا، فذكره، و زاد: أنهم لما استعصوا عليه و أبو إلا الانصراف قال: أبعدكم اللّه أعداء اللّه فسيغنى اللّه عنكم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ قال: لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم.

---

(١). الأنفال: ٦٧.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٤٥٧

[سورة آل‏عمران (٣): الآيات ١٦٩ الى ١٧٥]

وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

لما بيّن اللّه سبحانه: أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحانا ليتميز المؤمن من المنافق، و الكاذب من الصادق، بين هاهنا أن من لم ينهزم و قتل فله هذه الكرامة و النعمة، و أن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون، لا مما يخاف و يحذر، كما قالوا من حكى اللّه عنهم: لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا و قالوا: لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أو لكل أحد، و قرئ: بالياء التحتية؛ أى: لا يحسبن حاسب.

و قد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم؟ فقيل: فى شهداء أحد، و قيل:

فى شهداء بدر، و قيل: فى شهداء بئر معونة. و على فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و معنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة. ثم اختلفوا؛ فمنهم من يقول أنها تردّ إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون. و قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أى: يجدون ريحها و ليسوا فيها، و ذهب من عدا الجمهور: إلى أنها حياة مجازية، و المعنى: أنهم فى حكم اللّه مستحقون للتنعم فى الجنة، و الصحيح الأوّل، و لا موجب للمصير إلى المجاز. و قد وردت السنة المطهرة بأن

أرواحهم فى أجواف طيور خضر، و أنهم فى الجنة يرزقون، و يأكلون، و يتمتعون، و قوله: الَّذِينَ قُتِلُوا هو المفعول الأوّل.

و الحاسب هو النبى صلّى اللّه عليه و سلم، أو كل أحد كما سبق؛ و قيل: يجوز أن يكون الموصول هو فاعل الفعل، و المفعول الأوّل محذوف، أى: لا تحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا، و هذا تكلف لا حاجة إليه، و معنى النظم القرآنى فى غاية الوضوح و الجلاء. و قوله: بَلْ أَحْياءٌ خبر مبتدأ محذوف، أى: بل هم أحياء. و قرئ بالنصب على تقدير الفعل، أى: بل احسبهم أحياء. و قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ إما خبر ثان، أو صفة لأحياء، أو فى محل نصب على الحال؛ و قيل: فى الكلام حذف، و التقدير: عند كرامة ربهم. قال سيبويه: هذه عندية الكرامة، لا عندية القرب. و قوله: يُرْزَقُونَ يحتمل فى إعرابه الوجوه التى ذكرناها فى قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ و المراد بالرزق هنا: هو الرزق المعروف فى العادات على ما ذهب إليه الجمهور كما سلف، و عند من عدا الجمهور المراد: الثناء الجميل، و لا وجه يقتضى تحريف الكلمات العربية فى كتاب اللّه تعالى و حملها على مجازات بعيدة، لا لسبب يقتضى ذلك. و قوله: فَرِحِينَ حال من الضمير فى يرزقون، و بما آتاهم اللّه من فضله: متعلق به. و قرأ ابن السميقع: «فارحين» و هما لغتان، كالفره و الفاره، و الحذر و الحاذر.

و المراد: بِما آتاهُمُ اللَّهُ ما ساقه اللّه إليهم من الكرامة بالشهادة، و ما صاروا فيه من الحياة، و ما يصل إليهم من رزق اللّه سبحانه. وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا إذ ذاك. فالمراد باللحوق هنا: أنهم لم يلحقوا بهم فى القتل و الشهادة، بل سيلحقون بهم من بعد، و قيل:

المراد: يلحقوا بهم فى الفضل و إن كانوا أهل فضل فى الجملة، و الواو: فى وَ يَسْتَبْشِرُونَ عاطفة على يُرْزَقُونَ أى: يرزقون و يستبشرون؛ و قيل: المراد بإخوانهم هنا: جميع المسلمين الشهداء و غيرهم، لأنهم عاينوا ثواب اللّه؛ و حصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام؛ استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۵۸

هم أحياء لم يموتوا، و هذا أقوى، لأن معناه أوسع، و فائدته أكثر، و اللفظ يحتمله، بل هو الظاهر، و به قال الزجاج و ابن فورك. و قوله: أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ بدل من: الّذين، أى يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لإخوانهم من أنه لا خوف عليهم و لا حزن، و أن: هى المخففة من الثقيلة، و اسمها: ضمير الشأن المحذوف، و كرر قوله: يَسْتَبْشِرُونَ لتأكيد الأوّل و لبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف و الحزن، بل به و بنعمة اللّه و فضله. و النعمة: ما ينعم اللّه به على عباده. و الفضل: ما يتفضل به عليهم، و قيل: النعمة: الثواب. و الفضل: الزائد؛ و قيل: النعمة: الجنة، و الفضل داخل فى النعمة، ذكر بعدها لتأكيدها؛ و قيل: إن الاستبشار الأوّل: متعلق بحال إخوانهم، و الاستبشار الثانى: بحال أنفسهم. قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ قرأ الكسائى: بكسر الهمزة من: أن، و قرأ الباقون: بفتحها، فعلى القراءة الأولى: هو مستأنف اعتراض. و فيه دلالة: على أن اللّه لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين، و يؤيده قراءة ابن مسعود: و اللّه لا يضيع أجر المؤمنين. و على القراءة الثانية: الجملة عطف على فضل، داخلة فى جملة ما يستبشرون به. و قوله: الَّذِينَ اسْتَجابُوا صفة للمؤمنين، أو بدل منهم، أو: من الذين لم يلحقوا بهم، أو: هو مبتدأ، خبره: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ بجملته، أو: منصوب على المدح، و قد تقدم تفسير القرح. قوله: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ المراد بالناس هنا: نعيم بن مسعود كما سيأتى بيانه، و جاز إطلاق لفظ الناس عليه: لكونه من جنسهم؛ و قيل: المراد بالناس: ركب عبد القيس الذين مروا بأبى سفيان؛ و قيل: هم المنافقون. و المراد بقوله: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ أبو سفيان و أصحابه، و الضمير فى قوله: فَزادَهُمْ راجع إلى القول المدلول عليه، بقال، أو إلى المقول، و هو إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ أو إلى القائل؛ و المعنى: أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك و لا التفتوا إليه، بل أخلصوا للّه، و ازدادوا طمأنينة و يقينا. و فيه دليل: على أن الإيمان يزيد و ينقص. قوله: وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ حسب: مصدر حسبه، أى: كفاه، و هو بمعنى

الفاعل، أى: محسب: بمعنى كافى.

قال فى الكشاف: و الدليل على أنه بمعنى المحسب: أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة، لأن إضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية. انتهى. و الوكيل: هو من توكل إليه الأمور، أى: نعم الموكول إليه أمرنا، أو الكافى، أو الكافل و المخصوص بالمدح محذوف، أى: نعم الوكيل اللّه سبحانه. قوله: فَانْقَلَبُوا هو معطوف على محذوف، أى: فخرجوا إليهم فانقلبوا بنعمة، هو متعلق بمحذوف وقع حالا.

و التنوين للتعظيم، أى: رجعوا متلبسين بِنِعْمَةٍ عظيمة و هى السلامة من عدوهم و عافية وَ فَضْلٍ أى: أجر تفضل اللّه به عليهم؛ و قيل: ربح فى التجارة؛ و قيل: النعمة خاصة بمنافع الدنيا، و الفضل بمنافع الآخرة، و قد تقدّم تفسيرهما قريبا بما يناسب ذلك المقام، لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا فى الدار الآخرة، و الكلام هنا مع الأحياء. قوله: لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ فى محل نصب على الحال، أى:

سالمين عن سوء، لم يصبهم قتل، و لا جرح، و لا ما يخافونه وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ فى ما يأتون و يذرون، و من ذلك: خروجهم لهذه الغزوة وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ لا يقادر قدره و لا يبلغ مداه، و من تفضله عليهم:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۵۹

تثبيتهم، و خروجهم للقاء عدوهم، و إرشادهم إلى أن يقولوا هذه المقالة التى هى جالبة لكل خير، و دافعة لكل شرّ. قوله: إِنَّما ذلِكُمُ أى: المثبط لكم أيها المؤمنون الشَّيْطانُ هو خبر اسم الإشارة، و يجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الإشارة، و الخبر قوله: يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فعلى الأول يكون قوله:

يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ جملة مستأنفة، أو حالية، و الظاهر أن المراد هنا: الشيطان نفسه، باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتثبيط؛ و قيل: المراد به: نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة؛ و قيل: أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم؛ و المعنى: أن الشيطان يخوف المؤمنين أولياءه، و هم الكافرون؛ و قيل: إن قوله:

أَوْلِياءَهُ منصوب بنزع الخافض، أى: يخوفكم بأوليائه أو من أوليائه، قاله الفراء، و الزجاج، و أبو على الفارسى. ورده ابن الأنبارى: بأن التخويف قد يتعدى بنفسه إلى مفعولين فلا ضرورة إلى إضمار حرف الجر. و على قول الفراء و من معه: يكون مفعول يخوف محذوفا، أى: يخوفكم. و على الأول: يكون المفعول الأوّل محذوفا، و الثانى مذكورا، و يجوز أن يكون المراد: أن الشيطان يخوف أولياءه، و هم القاعدون من المنافقين، فلا حذف. قوله: فَلا تَخافُوهُمْ أى: أولياءه الذين يخوفكم بهم الشيطان، أو: فلا تخافوا الناس المذكورين فى قوله: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم، فيجبنوا عن اللقاء، و يفشلوا عن الخروج، و أمرهم بأن يخافوه سبحانه فقال: وَ خافُونِ فافعلوا ما آمركم به، و اتركوا ما أنهاكم عنه، لأنى الحقيق بالخوف منى، و المراقبة لأمرى و نهيى، لكون الخير و الشرّ بيدى، و قيده بقوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لأن الإيمان يقتضى ذلك.

و قد أخرج الحاكم، و صححه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فى حمزة و أصحابه. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد عن أبى الضحى: أنها نزلت فى قتلى أحد و حمزة منهم. و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود، و ابن جرير، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لمّا أصيب إخوانكم بأحد جعل اللّه أرواحهم فى أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنّة، و تأكل من ثمارها، و تأوى إلى قناديل من ذهب معلّقة فى ظلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم و مشربهم و حسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع اللّه لنا»، و فى لفظ: «قالوا من يبلّغ إخواننا أنّا أحياء فى الجنّة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد و لا ينكلوا عن الحرب، فقال اللّه: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل اللّه هؤلاء الآيات وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا الآية و ما بعدها». و أخرج الترمذى، و حسنه، و ابن ماجة، و ابن خزيمة، و

الطبرانى، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد اللّه: أن أباه سأل اللّه سبحانه أن يبلغ من وراءه ما هو فيه، فنزلت هذه الآية، و هو من قتلى أحد. و قد روى من وجوه كثيرة: أن سبب نزول الآية قتلى أحد. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن أنس: أن سبب نزول هذه الآية قتلى بئر معونة، و على كل حال فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد، و قد ثبت فى أحاديث كثيرة فى الصحيح و غيره: أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر، و ثبت فى فضل الشهداء ما يطول تعداده، و يكثر إيراده، مما هو معروف فى كتب الحديث. و أخرج النسائى، و ابن

ماجة، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمدا قتلتم، و لا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك، فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، أو بئر أبى عتبة، شكّ سفيان، فقال المشركون: يرجع من قابل، فرجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فكانت تعدّ غزوة، فأنزل اللّه سبحانه: الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ الآية.

و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما، عن عائشة فى قوله تعالى: الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ الآية، أنها قالت لعروة بن الزبير: يا ابن أختى! كان أبواك منهم، الزبير و أبو بكر، لما أصاب نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما أصاب يوم أحد؛ انصرف عنه المشركون؛ خاف أن يرجعوا، فقال: من يرجع فى أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر و الزبير. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل عن عبد اللّه بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لحمراء الأسد، و قد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه و قالوا: رجعنا قبل أن نستأصلهم، لنكرّن على بقيتهم، فبلغه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خرج فى أصحابه يطلبهم، فثنى ذلك أبا سفيان و أصحابه، و مر ركب من عبد القيس، فقال لهم أبو سفيان: بلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه لنستأصلهم؛ فلما مرّ الركب برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بحمراء الأسد؛ أخبروه بالذى قال أبو سفيان، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و المسلمون معه: «حسبنا اللّه و نعم الوكيل»، فأنزل اللّه فى ذلك:

الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ الآيات. و أخرج موسى بن عقبة فى مغازيه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم استنفر المسلمين لموعد أبى سفيان بدرا. فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس، فمشوا فى الناس يخوفونهم، و قالوا: إنا قد أخبرنا: أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل، يرجون أن يواقعوكم. و الروايات فى هذا الباب كثيرة، قد اشتملت عليها كتب الحديث و السير. و أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: القرح: الجراحات. و أخرج ابن جرير عن السدى: أن أبا سفيان و أصحابه لقوا أعرابيا، فجعلوا له جعلا على أن يخبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه أنهم قد جمعوا لهم، فأخبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك، فقال هو و الصحابة: حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ ثم رجعوا من حمراء الأسد، فأنزل اللّه فيهم و فى الأعرابى الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ الآية. و أخرج ابن مردويه عن أبى رافع: أن هذا الأعرابى من خزاعة.

و قد ورد فى فضل هذه الكلمة أعنى: حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ أحاديث منها: ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا: حسبنا اللّه و نعم الوكيل» قال ابن كثير بعد إخراجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه. و أخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «حسبى اللّه و نعم الوكيل، أمان كلّ خائف». و أخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن عائشة: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا اشتدّ غمّه مسح بيده على رأسه و لحيته، ثم تنفّس الصعداء، و قال:

حسبى اللّه و نعم الوكيل». و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: حسبنا اللّه و نعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى فى

النار، و قالها محمد حين قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ و أخرج أحمد، و أبو داود، و النسائی عن عوف بن مالک أنه حدثهم «أنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قضی بین رجلین، فقال المقضیّ علیه لما أدبر:

حسبی اللّه و نعم الوکیل. فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: ردوا علیّ الرجل، فقال: ما قلت؟ قال: قلت: حسبی اللّه و نعم الوکیل، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: إن اللّه یلوم علی العجز، و لکن علیک بالکیس، فإذا غلبک أمر فقل حسبی اللّه و نعم الوکیل». و أخرج أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «کیف أنعم و صاحب القرن قد التقم القرن و حنی جبهته یسمع متی یؤمر فینفخ؟ ثم أمر الصحابة أن یقولوا: حسبنا اللّه و نعم الوکیل، علی اللّه توکلنا» و هو حدیث جید. و أخرج البیهقی فی الدلائل عن ابن عباس فی قوله: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ قال: النعمة: أنهم سلموا، و الفضل: أن عیرا مرّت، و کان فی أیام الموسم، فاشتراها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، فربح مالا، فقسمه بین أصحابه. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی الآیة قال: الفضل: ما أصابوا من التجارة و الأجر. و أخرج ابن جریر عن السدی قال: أما النعمة: فهی العافیة، و أما الفضل: فالتجارة، و السوء: القتل. و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم من طریق العوفی عن ابن عباس فی قوله: لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ قال: لم یؤذهم أحد وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ قال: أطاعوا اللّه و رسوله. و أخرج ابن جریر من طریق العوفی عنه فی قوله: إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ قال: یقول: الشیطان یخوّف بأولیائه. و أخرج عبد بن حمید، و ابن أبی حاتم عن أبی مالک قال: یعظم أولیاءه فی أعینکم. و أخرج ابن المنذر عن عکرمة مثل قول ابن عباس. و أخرج ابن أبی حاتم عن الحسن: إنما کان ذلک تخویف الشیطان، و لا یخاف الشیطان إلا ولیّ الشیطان.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٧۶ الى ١٨٠]

وَ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٧۶) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (١٧٨) ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

قوله: وَ لا يَحْزُنْكَ قرأ نافع: بضم الیاء و کسر الزای، و قرأ ابن محیصن بضم الیاء و الزای «١»، و قرأ الباقون: بفتح الیاء و ضم الزای، و هما لغتان، یقال: حزننی الأمر و أحزننی، و الأول أفصح. و قرأ طلحة: يُسارِعُونَ قیل: هم قوم ارتدّوا، فاغتم النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لذلک، فسلاه اللّه سبحانه، و نهاه عن الحزن، و علل ذلک: بأنهم لن یضروا اللّه شیئا، و إنما ضروا أنفسهم، بأن لاحظ لهم فی الآخرة، و لهم عذاب عظیم؛ و قیل: هم کفار قریش، و قیل: هم المنافقون؛ و قیل: هو عام فی جمیع الکفار. قال

---

(١). قال محقق تفسیر القرطبی [۴/ ٢٨۴]: الصواب بضم الیاء و کسر الزای. قلنا: و هذا یوافق قراءة نافع.

القشیری: و الحزن علی کفر الکافر طاعة، و لکن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم کان یفرط فی الحزن، فنهی عن ذلک، کما قال اللّه

تعالى: فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ «۱» فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً «۲» و عدى يسارعون بفى دون إلى، للدلالة: على أنهم مستقرون فيه مديمون لملابسته، و مثله: يسارعون فى الخيرات. و قوله: إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً تعليل للنهى؛ و المعنى: أن كفرهم لا ينقص من ملك اللّه سبحانه شيئا؛ و قيل: المراد لن يضروا أولياءه، و يحتمل أن يراد: لن يضروا دينه الذى شرعه لعباده، و شيئا: منصوب على المصدرية، أى: شيئا من الضرر؛ و قيل: منصوب بنزع الخافض، أى: بشىء. و الحظ: النصيب. قال أبو زيد: يقال: رجل حظيظ، إذا كان ذا حظّ من الرزق؛ و المعنى: أن اللّه يريد أن لا يجعل لهم نصيبا فى الجنة، أو نصيبا من الثواب، و صيغة الاستقبال: للدالة على دوام الإرادة و استمرارها وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ بسبب مسارعتهم فى الكفر، فكان ضرر كفرهم عائدا عليهم، جالبا لهم عدم الحظ فى الآخرة، و مصيرهم فى العذاب العظيم. قوله: إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ أى: استبدلوا الكفر بالإيمان، و قد تقدم تحقيق هذه الاستعارة لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً معناه:

كالأول، و هو للتأكيد لما تقدمه؛ و قيل: إن الأول: خاص بالمنافقين، و الثانى يعم جميع الكفار، و الأول أولى. قوله: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ قرأ ابن عامر، و عاصم، و غيرهما:

يَحْسَبَنَ بالياء التحتية، و قرأ حمزة: بالفوقية، و المعنى على الأولى: لا يحسبن الكافرون أنما نملى لهم بطول العمر و رغد العيش، أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ فليس الأمر كذلك، بل:

إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ و على القراءة الثانية: لا تحسبن يا محمد! أن الإملاء للذين كفروا بما ذكر خير لأنفسهم، بل هو شرّ واقع عليهم، و نازل بهم، و هو أن الإملاء الذى نمليه لهم ليزدادوا إثما. فالموصول على القراءة الأولى: فاعل الفعل، و أنما نملى و ما بعده: ساد مسد مفعولى الحسبان عند سيبويه، أو سادّ مسد أحدهما، و الآخر محذوف عند الأخفش. و أما على القراءة الثانية: فقال الزجاج:

إن الموصول هو المفعول الأول، و أنما و ما بعدها: بدل من الموصول، ساد مسد المفعولين، و لا يصح أن يكون أنما و ما بعده هو المفعول الثانى، لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأوّل فى المعنى. و قال أبو على الفارسى: لو صح هذا لكان: خيرا، بالنصب، لأنه يصير بدلا من الذين كفروا، فكأنه قال: لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيرا. و قال الكسائى و الفراء: إنه يقدر تكرير الفعل، كأنه قال: و لا تحسبنّ الذين كفروا، و لا تحسبن أنما نملى لهم، فسدّت مسدّ المفعولين. و قال فى الكشاف: فإن قلت كيف صح مجىء البدل و لم يذكر إلا أحد المفعولين، و لا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت: صح ذلك من حيث أن التعويل على البدل و المبدل منه فى حكم المنحى، ألا تراك تقول جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك. انتهى. و قرأ يحيى بن وثاب: أَنَّما نُمْلِي بكسر إن فيهما، و هى قراءة ضعيفة باعتبار العربية. و قوله: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً جملة مستأنفة، مبينة لوجه الإملاء للكافرين. و قد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ما تقوله المعتزلة: لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار

---

(۱). فاطر: ۸.

(۲). الكهف: ۶.

الكفار، و يجعل عيشهم رغدا ليزدادوا إثما. قال أبو حاتم: و سمعت الأخفش يذكر كسر أَنَّما نُمْلِي الأولى و فتح الثانية، و يحتج بذلك لأهل القدر لأنه منهم، و يجعله على هذا التقدير: و لا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملى لهم ليزدادوا إثما إنما نملى لهم خير لأنفسهم. و قال فى الكشاف: إن ازدياد الإثم علة، و ما كل علة بعرض، ألا ترك تقول: قعدت عن الغزو للعجز و الفاقة، و

خرجت من البلد لمخافة الشرّ، و ليس شيء يعرض لك، و إنما هى علل و أسباب. قوله: ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ كلام مستأنف.

و الخطاب عند جمهور المفسرين للكفار و المنافقين، أى: ما كان اللّه ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر و النفاق حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ و قيل: الخطاب للمؤمنين و المنافقين، أى: ما كان اللّه ليترككم على الحال التى أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض؛ و قيل: الخطاب للمشركين. و المراد بالمؤمنين: من فى الأصلاب و الأرحام، أى: ما كان اللّه ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم و بينهم، و قيل: الخطاب للمؤمنين، أى: ما كان اللّه ليذركم يا معشر المؤمنين! على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم، و على هذا الوجه، و الوجه الثانى يكون فى الكلام التفات. و قرئ يميز بالتشديد للمخفف، من: ماز الشىء، يميزه، ميزا «۱»: إذا فرق بين شيئين، فإن كانت أشياء قيل: ميزه تمييزا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ حتى تميزوا بين الطيب و الخبيث، فإنه المستأثر بعلم الغيب، لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول من رسله، يجتبيه فيطلعه على شىء من غيبه، فيميز بينكم، كما وقع من نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم من تعيين كثير من المنافقين، فإن ذلك كان بتعليم اللّه له، لا بكونه يعلم الغيب، و قيل: المعنى:

و ما كان اللّه ليطلعكم على الغيب فى من يستحق النبوة، حتى يكون الوحى باختياركم وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي أى: يختار مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ. قوله: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أى: افعلوا الإيمان المطلوب منكم، و دعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم اللّه سبحانه، وَ إِنْ تُؤْمِنُوا بما ذكر وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ عوضا عن ذلك أَجْرٌ عَظِيمٌ لا يعرف قدره، و لا يبلغ كنهه. قوله: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ الموصول: فى محل رفع على أنه فاعل الفعل، على قراءة من قرأ بالياء التحتية، و المفعول الأول محذوف، أى: لا يحسبنّ الباخلون البخل خيرا لهم. قاله الخليل و سيبويه و الفراء. قالوا:

و إنما حذف لدلالة يبخلون عليه، و من ذلك قول الشاعر:

إذا نهى السّفيه جرى إليهو خالف و السّفيه إلى خلاف

أى: جرى إلى السفه، فالسفيه دلّ على السفه. و أما على قراءة من قرأ بالفوقية: فالفعل مسند إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و المفعول الأول محذوف، أى: لا تحسبنّ يا محمد! بخل الذين يبخلون خيرا لهم. قال الزجاج: هو مثل: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ، و الضمير المذكور: هو ضمير الفصل. قال المبرد: و السين فى قوله:

سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ سين الوعيد، و هذه الجملة مبينة لمعنى قوله: بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ قيل: و معنى

---

(۱). هذا التصريف هو للفعل المخفف يميز.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۶۴

التطويق هنا: أنه يكون ما بخلوا به من المال طوقا من نار فى أعناقهم؛ و قيل: معناه: أنه سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة و ليس من التطويق؛ و قيل: المعنى: أنهم يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق، يقال: طوق فلان عمله طوق الحمامة، أى: ألزم جزاء عمله؛ و قيل: إن ما لم تؤدّ زكاته من المال يمثل له شجاعا أقرع، حتى يطوّق به فى عنقه. كما ورد ذلك مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم. قال القرطبى: و البخل فى اللغة: أن يمنع الإنسان الحقّ الواجب، فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخيل. قوله: وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: له وحده لا لغيره، كما يفيده التقديم. و المعنى: أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلها فما بالهم يبخلون بذلك و لا ينفقونه و هو للّه سبحانه لا لهم و إنما كان عندهم عارية مستردة و مثل هذه الآية:

قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها «۱» و قوله: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ «۲»، و الميراث فى الأصل: هو ما

يخرج من مالك إلى آخر، و لم يكن مملوكا لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، و معلوم: أن اللّه سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ قال: هم المنافقون. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: ما من نفس برّة و لا فاجرة إلا و الموت خير لها من الحياة إن كان برا، فقد قال اللّه: وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ «٣» و إن كان فاجرا، فقد قال: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الآية.

و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن أبى الدرداء نحوه. و أخرج سعيد ابن منصور، و ابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن أبى برزة أيضا نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى قال: قالوا: إن كان محمد صادقا فليخبرنا بمن يؤمن به منا و من يكفر، فأنزل اللّه: ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: يميز بينهم فى الجهاد و الهجرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ قال:

و لا يطلع على الغيب إلا رسول. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد:

وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي قال: يختص. و أخرج ابن أبى حاتم عن مالك قال: يستخلص. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ قال: هم أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: هم يهود. و أخرج ابن جرير عن السدى قال: بخلوا أن ينفقوها فى سبيل اللّه: لم يؤدوا زكاتها. و أخرج البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه: «من آتاه اللّه مالا فلم يؤدّ زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه- يعنى:

شدقيه- فيقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية» و قد ورد هذا المعنى فى أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة يرفعونها.

---

(١). مريم: ۴٠.

(٢). الحديد: ٧.

(٣). آل عمران: ١٩٨.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۶۵

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨۴]

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ (١٨۴)

قال أهل التفسير: لما أنزل اللّه: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً* «١» قال قوم من اليهود: [إن اللّه فقير و نحن أغنياء يقترض

منا، و إنما قالوا] «٢» هذه المقالة تمويها على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون ذلك، لأنهم أهل الكتاب، بل أرادوا: أنه تعالى إن صح ما طلبه منا من القرض على لسان محمد فهو فقير، ليشككوا على إخوانهم فى دين الإسلام. و قوله: سَنَكْتُبُ ما قالُوا سنكتبه فى صحف الملائكة، أو سنحفظه، أو سنجازيهم عليه. و المراد: الوعيد لهم، و أن ذلك لا يفوت على اللّه، بل هو معدّ لهم ليوم الجزاء. و جملة سنكتب على هذا: مستأنفة، جوابا لسؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا صنع اللّه بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع؟ فقال: قال لهم: سَنَكْتُبُ ما قالُوا. و قرأ الأعمش، و حمزة: «سيكتب» بالمثناة التحتية، مبنى للمفعول. و قرأ: برفع اللام من «قتلهم»، «و يقول»:

بالياء المثناة تحت. قوله: وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ عطف على ما قالوا، أى: و نكتب قتلهم الأنبياء: أى: قتل أسلافهم للأنبياء، و إنما نسب ذلك إليهم لكونهم رضوا به، جعل ذلك القول قرينا لقتل الأنبياء، تنبيها: على أنه من العظم و الشناعة بمكان يعدل قتل الأنبياء. قوله: وَ نَقُولُ معطوف على سَنَكْتُبُ أى: ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذى نقوله لهم فى النار، أو عند الموت، أو عند الحساب. و الحريق: اسم للنار الملتهبة، و إطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة. و قرأ ابن مسعود: و يقال ذوقوا و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى العذاب المذكور قبله، و أشار إلى القريب بالصيغة التى يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته فى الفظاعة، و ذكر الأيدى لكونها المباشرة لغالب المعاصى. و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ معطوف على بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ و وجه: أنه سبحانه عذبهم بما أصابوا من الذنب، و جازاهم على فعلهم، فلم يكن ذلك ظلما، أو بمعنى: أنه مالك الملك يتصرف فى ملكه كيف يشاء، و ليس بظالم لمن عذبه بذنبه، و قيل: إن وجهه: أن نفى الظلم مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن و معاقبة المسىء، و رد:

بأن ترك التعذيب مع وجود سببه، ليس بظلم عقلا و لا شرعا؛ و قيل: إن جملة قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: و الأمر أن اللّه ليس بظلام للعبيد، و التعبير بذلك عن نفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا: لبيان تنزهه عن ذلك، و نفى ظلام المشعر بالكثرة: يفيد ثبوت أصل الظلم. و أجيب عن ذلك: بأن الذى توعد بأن

---

(١). البقرة: ٢۴۵.

(٢). ما بين الحاصرتين مستدرك من القرطبى [۴/ ٢٩۴].

يفعله بهم لو كان ظلما لكان عظيما، فنفاه على حدّ عظمه لو كان ثابتا. قوله: الَّذِينَ قالُوا هو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين قالوا: و قيل: نعت للعبيد، و قيل: منصوب على الذم؛ و قيل: هو فى محل جر بدل من لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا، و هو ضعيف، لأن البدل هو المقصود دون المبدل منه، و ليس الأمر كذلك هنا، و القائلون هؤلاء: هم جماعة من اليهود كما سيأتى، و هذا المقول: و هو أن اللّه عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بالقربان، هو من جملة دعاويهم الباطلة. و قد كان دأب بنى إسرائيل أنهم كانوا يقربون القربان، فيقوم النبى فيدعو، فتنزل نار من السماء فتحرقه، و لم يتعبد اللّه بذلك كل أنبيائه، و لا جعله دليلا على صدق دعوى النبوة، و لهذا رد اللّه عليهم فقال: قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ من القربان فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ كيحيى بن زكريا، و شعياء، و سائر من قتلوا من الأنبياء. و القربان: ما يتقرب به إلى اللّه من نسيكة و صدقة و عمل صالح، و هو فعلان من القربة.

ثم سلى اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بمثل ما جئت به من البينات. و

الزبر: جمع زبور، و هو الكتاب، و قد تقدم تفسيره وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ: الواضح الجلى المضىء، يقال: نار الشىء، و أنار، و نوره، و استناره، بمعنى.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر بيت المدارس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، و كان من علمائهم و أحبارهم، فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص! اتق اللّه و أسلم، فو اللّه إنك لتعلم أن محمدا رسول اللّه تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة، فقال فنحاص: و اللّه يا أبا بكر! ما بنا إلى اللّه من فقر و إنه إلينا لفقير، و ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا و إنا عنه لأغنياء، و لو كان غنيا عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا و يعطينا، و لو كان غنيا عنا ما أعطانا الربا؛ فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، و قال: و الذى نفسى بيده:

لو لا العهد الذى بيننا و بينكم، لضربت عنقك يا عدو اللّه! فذهب فنحاص إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد! انظر ما صنع صاحبك بى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأبى بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول اللّه! قال قولا ـ عظيما، يزعم: أن اللّه فقير، و أنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك، غضبت للّه مما قال، فضربت وجهه، فجحد فنحاص فقال: ما قلت ذلك، فأنزل اللّه فيما قال فنحاص تصديقا لأبى بكر: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا الآية، و نزل فى أبى بكر و ما بلغه فى ذلك من الغضب: وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً «١» الآية. و قد أخرج هذه القصة ابن جرير، و ابن المنذر عن عكرمة، و أخرجها ابن جرير عن السدى بأخصر من ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت اليهود محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم حين أنزل اللّه: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً* «٢» فقالوا: يا محمد! أ فقير ربك يسأل عباده القرض؟ فأنزل اللّه الآية.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة: أن القائل لهذه المقالة حيى بن أخطب و أنها نزلت فيه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن العلاء بن بدر أنه سئل عن قوله: وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍ و هم لم يدركوا

---

(١). آل عمران: ١٨٦.

(٢). البقرة: ٢٤٥.

ذلك، قال: بموالاتهم من قتل الأنبياء. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله:

حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قال: يتصدّق الرجل منا، فإذا تقبل منه أنزلت عليه النار من السماء فأكلته. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا قال: كذبوا على اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: بِالْبَيِّناتِ قال الحلال و الحرام وَ الزُّبُرِ قال: كتب الأنبياء وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ قال: هو القرآن.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨٥ الى ١٨٩]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ

ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (١٨٧) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)
قوله: ذائِقَةُ من الذوق، و منه قول أمية بن أبى الصلت:
من لم يمت عبطة «١» يمت هرماالموت كأس و المرء ذائقها
و هذه الآية تتضمن الوعد و الوعيد للمصدق و المكذب بعد إخباره عن الباخلين القائلين: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ. و قرأ الأعمش، و يحيى بن وثاب، و ابن أبى إسحاق: ذائِقَةُ الْمَوْتِ بالتنوين و نصب الموت. و قرأ الجهور بالإضافة. قوله: إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أجر المؤمن: الثواب، و أجر الكافر: العقاب، أى: أن توفية الأجور و تكميلها إنما تكون فى ذلك اليوم، و ما يقع من الأجور فى الدنيا أو فى البرزخ فإنما هو بعض الأجور. و الزحزحة: التنحية، و الإبعاد: تكرير الزح و هو الجذب بعجلة، قاله فى الكشاف، و قد سبق الكلام عليه، أى: فمن بعد عن النار يومئذ و نحى فقد فاز، أى ظفر بما يريد و نجا مما يخاف، و هذا هو الفوز الحقيقى الذى لا فوز يقاربه، فإن كل فوز و إن كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشىء بالنسبة إليها. اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة، و لا عيش إلا عيشها، و لا نعيم إلا نعيمها، فاغفر ذنوبنا، و استر عيوبنا، و ارض عنا رضا لا سخط بعده، و اجمع لنا بين الرضا منك علينا و الجنة. و المتاع: ما يتمتع به الإنسان و ينتفع به ثم يزول و لا يبقى، كذا قال أكثر المفسرين. الغرور: الشيطان يغرّ الناس بالأمانى الباطلة

---

(١). «مات عبطة»: أى شابا صحيحا.

و المواعيد الكاذبة، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على من يريده، و له ظاهر محبوب و باطن مكروه.
قوله: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ هذا الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أمته تسلية لهم عما سيلقونه من الكفرة و الفسقة، ليوطنوا أنفسهم على الثبات و الصبر على المكاره. و الابتلاء: الامتحان و الاختبار، و المعنى:
لتمتحننّ، و لتختبرنّ فى أموالكم بالمصائب، و الإنفاقات الواجبة، و سائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال.
و الابتلاء فى الأنفس: بالموت و الأمراض، و فقد الأحباب، و القتل فى سبيل اللّه و هذه الجملة جواب قسم محذوف، دلت عليه اللام الموطئة وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ و هم اليهود و النصارى وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا و هم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب أَذىً كَثِيراً من الطعن فى دينكم و أعراضكم، و الإشارة بقوله: فَإِنَّ ذلِكَ إلى الصبر و التقوى المدلول عليها بالفعلين. و عزم الأمور: معزوماتها، أى: مما يجب عليكم أن تعزموا عليه، لكونه عزمة من عزمات اللّه التى أوجب عليهم القيام بها، يقال: عزم الأمر: أى شدّه و أصلحه. قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب و هم اليهود و النصارى، أو اليهود فقط، على الخلاف فى ذلك- و الظاهر:
أن المراد بأهل الكتاب: كل من آتاه اللّه علم شىء من الكتاب، أىّ كتاب كان، كما يفيده التعريف الجنسى فى الكتاب. قال الحسن و قتادة: إن الآية عامة لكل عالم، و كذا قال محمد بن كعب، و يدل على ذلك قول أبى هريرة: لو لا ما أخذ اللّه على أهل الكتاب ما حدثتكم بشىء، ثم تلا هذه الآية، و الضمير فى قوله: لَتُبَيِّنُنَّهُ راجع إلى الكتاب؛ و قيل: راجع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و إن لم يتقدّم له ذكر، لأن اللّه أخذ على اليهود و النصارى أن يبينوا نبوته للناس و لا يكتموها فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ
و قرأ أبو عمرو و عاصم فى رواية أبى بكر و أهل المدينة: «ليبيننه» بالياء التحتية، و قرأ الباقون: بالمثناة الفوقية. و قرأ ابن عباس:
و إذ أخذ اللّه ميثاق النبيّين ليبيّننّه و يشكل على هذه القراءة قوله: فَنَبَذُوهُ فلا بد من أن يكون فاعله الناس. و فى قراءة ابن مسعود:

«لتبينونه». و النبـذ: الطرح، و قـد تقـدّم فى البقرة. و قوله: وَراءَ ظُهُورِهِمْ مبالغـة فى النبـذ و الطرح، و قـد تقـدّم أيضا معنى قوله: وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا و الضـمير عائـد إلى الكتاب الـذى أمروا ببيانه و نهوا عن كتمانه. و قوله: ثَمَناً قَلِيلًا أى: حقيرا يسـيرا من حطام الدنيا و أعراضـها، قوله: فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ ما: نكرة منصوبة مفسـرة لفاعل بئس، و يشترون: صـفة، و المخصوص بالذم: محذوف، أى: بئس شيئا يشترونه بذلك الثمن. قوله: لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ قرأ الكوفيون: بالتاء الفوقية، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلم، أو لكل من يصـلح له. و قوله: بِما أَتَوْا أى: بما فعلوا. و قد اختلف فى سبب نزول الآية كما سيأتى، و الظاهر شمولها لكـل من حصـل منه مـا تضـمنته عملاـ بعموم اللفظ، و هو المعتبر دون خصوص السـبب، فمن فرح بما فعل، و أحب أن يحمـده الناس بما لم يفعل، فلا تحسبنه بمفازة من العذاب. و قرأ نافع، و ابن عامر، و ابن كثير، و أبو عمرو: «لا يحسبن» بالياء التحتية، أى: لاـ يحسـبن الفـارحون فرحهم منجيـا لهم من العـذاب، فـالمفعول الأـوّل محـذوف، و هـو فرحهم، و المفعول الثـانى: بمفـازة من العذاب، و قوله: فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ تأكيد للفعل الأوّل على القراءتين،

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۶۹

و المفـازة: المنجـاة، مفعلـة، من: فـاز، يفـوز، إذا نجـا، أى: ليسـوا بفـائزين، سـمى موضع الخوف مفـازة على جهـة التفـاؤل، قـاله الأصـمعى. و قيـل: لأنهـا موضع تفويز و مظنـة هلاـك، تقول العرب: فوز الرجـل: إذا مات. قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابى قول الأصمعى فقال: أخطأ. قال لى أبو المكارم: إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز. و قال ابن الأعرابى: بل لأنه مستسلم لما أصابه. و قيل: المعنى: لا تحسبنهم بمكان بعيـد من العذاب، لأن الفوز التباعد عن المكروه. و قرأ مروان بن الحكم، و الأعمش، و إبراهيم النخعى: «آتوا» بالمد، أى: يفرحون بما أعطوا. و قرأ جمهور القراء السبعة و غيرهم: «أتوا» بالقصر.

و قد أخرج ابن أبى شيبة، و هناد، و عبد بن حميد، و الترمذى، و صححه، و ابن حبان، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم و الحاكم، و صححه عن أبى هريرة قـال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «إنّ موضع سوط فى الجنّة خير من الـدنيا و ما فيها، اقرءوا إن شئتم: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ». و أخرج ابن مردويه عن سـهل بن سعد مرفوعـا نحـوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حـاتم عن الزهرى فى قـوله: وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ قـال: هو كعب بن الأشرف، و كان يحرّض المشـركين على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه فى شعره. و أخرج ابن المنذر من طريـق الزهرى عن عبـد الرحمن بن كعب بن مالـك مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم عن ابن جريـج فى الآية قال: يعنى: اليهود و النصارى، فكان المسـلمون يسـمعون من اليهود قولهم: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ «١»، و من النصارى قولهم: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ «٢» وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ قال: من القوة مما عزم اللّه عليه و أمركم به. و أخرج ابن إسـحاق، و ابن جرير عن ابن عبـاس فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ قال: فنحاص، و أشـيع، و أشباههما من الأحبـار. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حـاتم من طريق العوفى عن ابن عبـاس فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ قـال: كـان اللّه أمرهم أن يتبعوا النبى الأـمىّ. و أخرج ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم عنه فى الآيـة قـال: فى التوراة و الإنجيـل أن الإسـلام دين اللّه الـذى افترضه على عبـاده. و أن محمـدا رسول اللّه يجـدونه مكتوبـا عنـدهم فى التوراة و الإنجيل فنبـذوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآيـة قال: هم اليهود لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ قال: محمـدا صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن جرير عن السدّى مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآيـة قال: هـذا ميثاق أخـذه اللّه على أهل العلم، فمن علم علما فليعلمه الناس، و إياكم و كتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة. و أخرج ابن سعد عن الحسن قال: لو لا الميثاق الذى أخذه اللّه على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه. و أخرج البخـارى، و مسـلم، و غيرهمـا: أن مروان قـال لبوابه اذهب يـا رافع إلى ابن عبـاس فقـل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتى، و

أحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبنّ أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم و لهذه الآيهٔ، إنما أنزلت فی أهل الكتاب، ثم تلا وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ الآيهٔ، قال ابن عباس:

سألهم النبی صلّی اللّه علیه و سلّم عن شیء فكتموه إياه و أخبروه بغيره، فخرجوا و قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه

---

(١). التوبهٔ: ٣٠.

(٢). التوبهٔ: ٣٠.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴٧٠

و استحمدوا بذلك إليه، و فرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه. و فی البخاری، و مسلم و غيرهما عن أبی سعيد الخدری: أن رجالا- من المنافقين كانوا إذا خرج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إلی الغزو، و تخلفوا عنه؛ و فرحوا بمقعدهم خلاف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم؛ فإذا قدم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من الغزو اعتذروا إليه، و حلفوا، و أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت. و قد روی: أنها نزلت فی فنحاص و أشيع و أشباههما. و روی: أنها نزلت فی اليهود.

و أخرج مالك، و ابن سعد، و الطبرانی، و البيهقی فی الدلائل عن محمد بن ثابت أن ثابت بن قيس قال:

«يا رسول اللّه لقد خشيت أن أكون قد هلكت قال: لم؟ قال: قد نهانا اللّه أن نحبّ أن نحمد بما لم نفعل، و أجدنی أحبّ الحمد، و نهانا عن الخيلاء، و أجدنی أحبّ الجمال، و نهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، و أنا رجل جهير الصوت، فقال: يا ثابت ألا ترضی أن تعيش حميدا و تقتل شهيدا و تدخل الجنهٔ؟» فعاش حميدا، و قتل شهيدا يوم مسيلمهٔ الكذاب. و أخرج ابن المنذر عن الضحّاك فی قوله: بِمَفازَةٍ قال:

بمنجاهٔ. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله.

[سورهٔ آل‌عمران (٣): الآيات ١٩٠ الی ١٩۴]

إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِی الْأَلْبابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (١٩٢) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِی لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (١٩٣) رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلی رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (١٩۴)

قوله: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ هذه جملهٔ مستأنفهٔ لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها. و المراد:

ذات السموات و الأرض و صفاتهما وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أی: تعاقبهما، و كون كل واحد منهما يخلف الآخر، و كون زيادهٔ أحدهما فی نقصان الآخر، و تفاوتهما طولا و قصرا، و حرا و بردا، و غير ذلك لَآياتٍ أی: دلالات واضحهٔ، و براهين بينهٔ، تدل علی الخالق سبحانه. و قد تقدم تفسير بعض ما هنا فی سورهٔ البقرهٔ. و المراد باولی الألباب: أهل العقول الصحيحهٔ الخالصهٔ عن شوائب النقص، فإن مجرد التفكر فيما قصه اللّه فی هذه الآيهٔ يكفی العاقل، و يوصله إلی الإيمان الذی لا تزلزله الشبه، و لا تدفعه التشكيكات. قوله: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ الموصول: نعت لأولی الألباب- و قيل: هو مفصول عنه، خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب علی المدح، و المراد بالذكر هنا: ذكره سبحانه فی هذه الأحوال، من غير فرق بين حال الصلاهٔ و غيرها، و ذهب جماعهٔ من المفسرين: إلی أن الذكر هنا عبارهٔ عن الصلاهٔ، أی: لا يضيعونها فی حال من الأحوال، فيصلونها قياما مع عدم العذر، و قعودا و علی جنوبهم مع العذر. قوله: وَ يَتَفَكَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ معطوف علی قوله: يَذْكُرُونَ و

قيـل: إنه معطـوف على الحـال، أعنى: قِياماً وَ قُعُوداً و قيـل: إنه منقطع عن الأوّل، و المعنى: أنهم يتفكرون فى بـديع صـنعهما، و اتقانهما، مع عظم أجرامهما، فإن هذا الفكر إذا كان صادقا أوصلهم إلى الإيمان

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۷۱

بـاللّه سـبحانه. قوله: رَبَّنـا مـا خَلَقْتَ هـذا باطِلًا هو على تقـدير القول، أى: يقولون ما خلقت هـذا عبثا و لهوا، بل خلقته دليلا على حكمتك و قدرتك. و الباطل: الزائل الذاهب، و منه قول لبيد:

ألا كلّ شىء ما خلا اللّه باطل «۱» ....

و هو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: خلقا باطلا؛ و قيل: منصوب بنزع الخافض؛ و قيل:

هو مفعول ثـان، و خلق: بمعنى جعل، أو: منصوب على الحال، و الإشارة بقوله: هـذا إلى السموات و الأرض، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلـوق. قـوله: سُبْحانَكَ أى: تنزيهـا لـك عمـا لاـ يليـق بـك من الأـمور الـتى من جملتهـا أن يكون خلقـك لهـذه المخلوقـات باطلاـ و قوله: فَقِنا عَذابَ النَّارِ الفاء لترتيب هـذا الـدعاء على ما قبله. و قوله: رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُـدْخِلِ النَّارَ فَقَـدْ أَخْزَيْتَهُ تأكيد لما تقدمه من اسـتدعاء الوقاية من النار منه سـبحانه، و بيان للسـبب الذى لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار، و هو أن من أدخله النار فقد أخزاه، أى: أذله و أهانه. و قال المفضل: معنى أخزيته: أهلكته، و أنشد:

أخزى الإله بنى الصّليب عنيزة «۲»و اللّابسين ملابس الرّهبان

و قيل: معناه: فضحته و أبعدته، يقال: أخزاه اللّه: أبعده و مقته، و الاسم: الخزى. قال ابن السكيت:

خزى، يخزى، خزيا: إذا وقع فى بليـة. قوله: رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ المنادى عند أكثر المفسـرين: هو النبى صلّى اللّه عليه و سلم؛ و قيل: هو القرآن، و أوقع السماع على المنادى مع كون المسموع هو النداء:

لأنه قد وصف المنادى بما يسـمع، و هو قوله: يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا. و قال أبو على الفارسـى: إن «ينادى» هو المفعول الثانى، و ذكر ينادى مع أنه قـد فهم من قوله: مُنادِياً لقصـد التأكيـد و التفخيم لشأن هذا المنادى به، و اللام فى قوله: لِلْإِيمانِ بمعنى إلى؛ و قيـل: إن ينادى يتعـدّى باللام و بإلى، يقال ينادى لكـذا و ينادى إلى كـذا، و قيل: اللام للعلـة، أى: لأجل الإيمان. قوله: أَنْ آمِنُوا هى:

إما تفسيرية، أو مصدرية، و أصلها: بأن آمنوا، فحذف حرف الجرّ. قوله: فَآمَنَّا أى: امتثلنا ما يأمر به هذا المنادى من الإيمان فآمنا، و تكرير النداء فى قوله: رَبَّنا لإظهار التضرع و الخضوع؛ قيل:

المراد بالذنوب هنا: الكبائر، و بالسيئات: الصغائر. و الظاهر: عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين، و الآخر بالآخر، بل يكون المعنى فى الذنوب و السـيئات واحدا، و التكرير للمبالغة و التأكيد، كما أن معنى الغفر و الكفر: الستر. و الأبرار: جمع بارّ أو برّ، و أصـله من الاتساع، فكأن البار متسع فى طاعة اللّه و متسـعة له رحمته، قيل: هم الأنبياء، و معنى اللفظ أوسع من ذلك. قوله: رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ هـذا دعاء آخر و النكتـة فى تكرير النـداء ما تقـدّم، و الموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذى وعد اللّه به

---

(۱). و عجزه: و كلّ نعيم لا محالة زائل.

(۲). فى القرطبى (۴/ ۳۱۶): أخزى الإله من الصّليب عبيده ...

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۷۲

أهـل طاعته، ففى الكلام حـذف، و هو لفظ الألسن، كقوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «۱» و قيل: المحـذوف التصـديق، أى: ما وعدتنا على

تصديق رسلك؛ و قيل: ما وعدتنا منزلا على رسلك، أو محمولا على رسلك، و الأول أولى. و صدور هذا الدعاء منهم- مع علمهم أن ما وعدهم اللّه به على ألسن رسله كائن لا محالة-، إما لقصد التعجيل، أو: للخضوع بالدعاء، لكونه مخ العبادة، و في قولهم: إِنَّکَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، و أن الحامل لهم على الدعاء هو ما ذكرنا.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبراني، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا عصاه و يده بيضاء للناظرين، و أتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرئ الأكمه، و الأبرص، و يحيي الموتى، فأتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا، فدعا ربه، فنزلت: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الآية. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث ابن عباس قال: بتّ عند خالتى ميمونة، فنام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، ثم استيقظ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و الطبراني، و الحاكم فى الكنى، و البغوى فى معجم الصحابة عن صفوان بن المعطل قال: كنت مع النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر فذكر نحوه.

و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود فى قوله: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ الآية، قال: إنما هذه فى الصلاة، إذا لم يستطع قائما فقاعدا، و إن لم يستطع قاعدا فعلى جنبه. و قد ثبت فى البخارى من حديث عمران بن حصين قال: «كانت بى بواسير، فسألت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الصلاة فقال: صلّ قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب». و ثبت فيه عنه قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن صلاة الرجل و هو قاعد قال: من صلّى قائما فهو أفضل، و من صلّى قاعدا فله نصف أجر القائم، و من صلّى نائما فله نصف أجر القاعد». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: هذه حالاتك كلها يا ابن آدم، اذكر اللّه و أنت قائم، فإن لم تستطع فاذكره جالسا، فإن لم تستطع فاذكره و أنت على جنبك، يسر من اللّه و تخفيف.

و أقول: هذا التقييد الذى ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لا وجه له، لا من الآية و لا من غيرها، فإنه لم يرد فى شىء من الكتاب و السنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام، و لا يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود. و إنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا الصلاة، كما سبق عن ابن مسعود. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن حبان فى صحيحه، و ابن مردويه عن عائشة مرفوعا: ويل لمن قرأ هذه الآية و لم يتفكر فيها. و أخرج ابن أبى الدنيا فى التفكر عن سفيان رفعه: «من قرأ آخر سورة آل عمران فلم يتفكر فيها ويله، فعدّ أصابعه عشرا». قيل للأوزاعى: ما غاية التفكر فيهنّ؟ قال: يقرؤهنّ و هو يعقلهنّ. و قد وردت أحاديث و آثار عن السلف فى استحباب التفكر مطلقا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أنس فى قوله: مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ قال: من

---

(١). يوسف: ٨٢.

تخلد. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن سعيد بن المسيب فى الآية قال:
هذه خاصة بمن لا يخرج منها. و أخرج ابن جرير، و الحاكم عن عمرو بن دينار قال: قدم علينا جابر بن عبد اللّه فى عمرة، فانتهيت إليه أنا و عطاء فقلت: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ قال: أخبرنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنهم الكفار، قلت لجابر: فقوله: إِنَّکَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ قال: و ما أخزاه حين أحرقه بالنار، و إن دون ذلك خزيا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ قال: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أخرج ابن جرير عن

ابن زيد مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: هو القرآن، ليس كل أحد سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلم.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ قال: يستجزون موعد اللّه على رسله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ قال: لا تفضحنا.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٩٥]

فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (١٩٥)

قوله: فَاسْتَجابَ الاستجابة بمعنى الإجابة؛ و قيل: الإجابة عامة، و الاستجابة خاصة بإعطاء المسؤول، و هذا الفعل يتعدى بنفسه و باللام، يقال: استجابه، و استجاب له، و الفاء للعطف؛ و قيل: على مقدّر، أى: دعوا بهذه الأدعية فاستجاب لهم؛ و قيل: على قوله: وَ يَتَفَكَّرُونَ و إنما ذكر سبحانه الاستجابة و ما بعدها فى جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة: لأنها منه، إذ من أجيبت دعوته فقد رفعت درجته.

قوله: أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ أى: بأنى، و قرأ عيسى بن عمرو: بكسر الهمزة، على تقدير القول، و قرأ أبىّ: بثبوت الباء، و هى للسببية، أى: فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم. و المراد بالإضاعة: ترك الإثابة. قوله: مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى من: بيانية، و مؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة فى سياق النفى من العموم. قوله: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أى: رجالكم مثل نسائكم فى الطاعة، و نساؤكم مثل رجالكم فيها، و الجملة معترضة، لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبهما من أصل واحد.

قوله: فَالَّذِينَ هاجَرُوا الآية، هذه الجملة تتضمن تفصيل ما أجمل فى قوله: أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ أى: فالذين هاجروا من أوطانهم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم؛ وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ فى طاعة اللّه عزّ و جل؛ وَ قاتَلُوا أعداء اللّه؛ وَ قُتِلُوا فى سبيل اللّه. و قرأ ابن كثير و ابن عامر: وَ قُتِّلُوا على التكثير، و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى: و قتلوا و قاتلوا و هو مثل قول الشاعر:

تصابى و أمسى علاه الكبر أى: قد علاه الكبر، و أصل الواو: لمطلق الجمع بلا ترتيب، كما قال به الجمهور. و المراد هنا: أنهم

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٧٤

قاتلوا و قتل بعضهم، كما قال امرؤ القيس:

فإن تقتلونا نقتّلكم و قرأ عمر بن عبد العزيز: و قتلوا و قتلوا. و معنى قوله: وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي أى: بسببه، و السبيل: الدين الحق. و المراد هنا: ما نالهم من الأذية من المشركين بسبب إيمانهم باللّه، و عملهم بما شرعه اللّه لعباده. و قوله: لَأُكَفِّرَنَّ جواب قسم محذوف. و قوله: ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مصدر مؤكد عند البصريين، لأن معنى قوله: لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ لأثيبنّهم ثوابا، أى: إثابة أو تثويبا كائنا من عند اللّه. و قال الكسائى: إنه منتصب على الحال. و قال الفراء على التفسير: وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ أى: حسن الجزاء، و هو ما يرجع على العامل من جزاء عمله، من: ثاب، يثوب: إذا رجع.

و قد أخرج سعيد بن منصور، و عبد الرزاق، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى و الحاكم، و صححه عن أم سلمة قالت: يا رسول اللّه! لا أسمع اللّه ذكر النساء فى الهجرة بشىء، فأنزل اللّه: فَاسْتَجابَ لَهُمْ إلى آخر الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: «ما من عبد يقول يا ربّ! يا ربّ! يا ربّ! ثلاث مرات، إلّا نظر اللّه إليه» فذكر للحسن فقال:

أما تقرأ القرآن؟ رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً إلى قوله: فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ و أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ إلى آخرها. و قد ورد فى فضل الهجرة أحاديث كثيرة.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٩٦ الى ٢٠٠]

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (١٩٧) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ (١٩٨) وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

قوله: لا يَغُرَّنَّكَ خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم. و المراد: تثبيته على ما هو عليه، [و المراد الأمة] «١» كقوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا* أو: خطاب لكل أحد، و هذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين؛ و المعنى: لا يغرنك ما هم فيه من تقلبهم فى البلاد بالأسفار للتجارة التى يتوسعون بها فى معاشهم، فهو متاع قليل يتمتعون به فى هذه الدار ثم مصيرهم إلى جهنم، فقوله: مَتاعٌ خبر مبتدأ محذوف، أى: هو متاع قليل لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب اللّه سبحانه: ثُمَّ مَأْواهُمْ أى: ما يأوون إليه. و التقلب فى البلاد:
الاضطراب فى الأسفار إلى الأمكنة، و مثله قوله تعالى: فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ «٢» و المتاع: ما يعجل

---

(١). ما بين الحاصرتين مستدرك من تفسير القرطبى [٤/ ٣١٩].

(٢). غافر: ٤.

الانتفاع به، و سماه: قليلا؛ لأنه فان، و كل فان و إن كان كثيرا فهو قليل. و قوله: وَ بِئْسَ الْمِهادُ ما مهدوا لأنفسهم فى جهنم بكفرهم، أو: ما مهد اللّه لهم من النار، فالمخصوص بالذم محذوف: و هو هذا المقدّر. قوله: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هو استدراك مما تقدّمه، لأن معناه النفى، كأنه قال: ليس لهم فى تقلبهم فى البلاد كثير انتفاع: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا لهم الانتفاع الكثير، و الخلد الدائم. و قرأ يزيد ابن القعقاع: لكنّ، بتشديد النون. قوله: نُزُلًا مصدر مؤكد عن البصريين كما تقدّم فى ثَواباً و عند الكسائى و الفراء مثل ما قالا فى: ثوابا، و النزل: ما يهيأ للنزيل، و الجمع أنزال، قال الهروى: نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أى: ثوابا من عند اللّه وَ ما عِنْدَ اللَّهِ مما أعدّه لمن أطاعه خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ مما يحصل للكفار من الربح فى الأسفار، فإنه متاع قليل، عن قريب يزول. قوله: وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ هذه الجملة سيقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظّ من الدين، و ليسوا كسائرهم فى فضائحهم التى حكاها اللّه عنهم فيما سبق، و فيما سيأتى، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان باللّه و بما أنزل اللّه على نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و ما أنزله على أنبيائهم حال كونهم: خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ أى: يستبدلون بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا بالتحريف و التبديل، كما يفعله سائرهم، بل يحكون كتب اللّه سبحانه كما هى، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب، من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة لَهُمْ أَجْرُهُمْ الذى وعد اللّه سبحانه به بقوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ و تقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم. و قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ فى محل نصب على الحال. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا إلخ. هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التى جمعت خير الدنيا و الآخرة، فحض على الصبر على الطاعات و الشهوات، و الصبر: الحبس، و قد تقدم تحقيق معناه. و المصابرة مصابرة

الأعداء، قاله الجمهور، أى: غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب، و خص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر: لكونها أشدّ منه و أشقّ. و قيل: المعنى صابروا على الصلوات، و قيل: صابروا الأنفس عن شهواتها؛ و قيل: صابروا الوعد الذى وعدتم و لا تيأسوا، و القول الأول هو المعنى العربى، و منه قول عنترة:

فلم أر حيّا صابروا مثل صبرناو لا كافحوا مثل الذين نكافح

أى: صابروا العدوّ فى الحرب. قوله: وَ رابِطُوا أى: أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها، كما يربطها أعداؤكم، هذا قول جمهور المفسرين. و قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة، و لم يكن فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غزو يرابط فيه، و سيأتى ذكر من خرج عنه هذا، و الرباط اللغوى هو الأوّل، و لا ينافيه تسميته صلّى اللّه عليه و سلّم لغيره رباطا كما سيأتى. و يمكن إطلاق الرباط على المعنى الأول، و على انتظار الصلاة. قال الخليل: الرباط ملازمة الثغور و مواظبة الصلاة، هكذا قال: و هو من أئمة اللغة.

و حكى ابن فارس عن الشيبانى أنه قال: يقال: ماء مترابط: دائم لا يبرح، و هو يقتضى تعدية الرباط إلى غير ارتباط الخيل فى الثغور. قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ فلا تخالفوا ما شرعه لكم لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى:

فتح القدير، ج ١، ص: ۴٧۶

تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب، و هم المفلحون.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن عكرمة فى قوله: لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا تقلب ليلهم و نهارهم و ما يجرى عليهم من النعم، قال عكرمة: قال ابن عباس: و بئس المهاد: أى: بئس المنزل.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ قال: ضربهم فى البلاد. و أخرج عبد بن حميد، و البخارى فى الأدب المفرد، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ قال: إنما سماهم اللّه أبرارا: لأنهم بروا الآباء و الأبناء، كما أن لوالدك عليك حقا، كذلك لولدك عليك حقا. و أخرج ابن مردويه عنه مرفوعا و الأول أصح قاله السيوطى. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد: خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ لمن يطيع اللّه. و أخرج النسائى، و البزار، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أنس قال: لما مات النجاشى قال صلّى اللّه عليه و سلم: صلوا عليه، قالوا يا رسول اللّه! نصلى على عبد حبشى؟

فأنزل اللّه وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ الآية. و أخرج ابن جرير عن جابر مرفوعا: أن المنافقين قالوا: انظروا إلى هذا، يعنى: النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى على علج نصرانى، فنزلت. و أخرج الحاكم، و صححه عن عبد اللّه بن الزبير: أنها نزلت فى النجاشى. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود و النصارى. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد و الذين اتبعوا محمدا صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن المبارك، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ما قدّمنا ذكره. و أخرج ابن مردويه عنه عن أبى هريرة قال: أما إنه لم يكن فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم غزو يرابطون فيه، و لكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد، يصلون الصلوات فى مواقيتها، ثم يذكرون اللّه فيها. و قد ثبت فى الصحيح و غيره من قول النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «أ لا أخبركم بما يمحو اللّه به الخطايا و يرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، و كثرة الخطا إلى المساجد، و انتظار الصّلاة بعد الصّلاة، فذلكم الرّباط، فذلكم الرّباط، فذلكم الرباط». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: اصبروا على دينكم، و صابروا الوعد الذى وعدتكم، و رابطوا عدوى و عدوكم. و قد روى من تفاسير السلف غير هذا فى سر الصبر على نوع من أنواع الطاعات، و المصابرة على نوع آخر، و لا تقوم بذلك حجة، فالواجب

الرجوع إلى المدلول اللغوى، و قد قدّمناه. و قد وردت أحاديث كثيرة فى فضل الرباط، و فيها التصريح بأنه الرباط فى سبيل اللّه، و هو يرد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن، فإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد ندب إلى الرباط فى سبيل اللّه و هو الجهاد فيحمل ما فى الآية عليه، و قد ورد عنه صلّى اللّه عليه و سلم أنه سمى حراسة جيش المسلمين رباطا، و أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند جيد عن أنس قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أجر المرابط فقال: «من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممّن صام و صلّى».

و قد ورد فى فضل هذه العشر الآيات التى فى آخر السورة مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ما أخرجه ابن السنى، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن أبى هريرة: «أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٧٧

عمران كلّ ليلة». و فى إسناده مظاهر بن أسلم، و هو ضعيف. و قد تقدم من حديث ابن عباس فى الصحيحين: أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه العشر الآيات لمّا استيقظ. و كذلك تقدم فى غير الصحيحين من رواية صفوان بن المعطل عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج الدارمى عن عثمان بن عفان قال: «من قرأ آخر آل عمران فى ليلة كتب له قيام ليلة».

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٧٨

سورة النّساء

اشارة

هى مدنية كلها. قال القرطبى: إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح: فى عثمان بن طلحة الحجبىّ، و هى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها على ما سيأتى إن شاء اللّه، قال النقاش: و قيل:

نزلت عند هجرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة إلى المدينة، و على ما تقدّم عن بعض أهل العلم أن قوله تعالى:

يا أَيُّهَا النَّاسُ حيثما وقع، فإنه مكى يلزم أن يكون صدر هذه السورة مكيا، و به قال علقمة و غيره.

و قال النحاس: هذه الآية مكية. قال القرطبى: و الصحيح الأوّل، فإن فى صحيح البخارى عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا و أنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، يعنى: قد بنى بها. و لا خلاف بين العلماء أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إنما بنى بعائشة بالمدينة، و من تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها. قال. و أما من قال:

يا أَيُّهَا النَّاسُ مكى حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية و فيها يا أَيُّهَا النَّاسُ فى موضعين.

و قد أخرج ابن الضريس فى فضائله و النحاس فى ناسخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة النساء بالمدينة، و فى إسناده العوفى و هو ضعيف، و كذا أخرجه ابن مردويه عن عبد اللّه ابن الزبير، و زيد بن ثابت، و أخرجه ابن المنذر عن قتادة.

و قد ورد فى فضل هذه السورة: ما أخرجه الحاكم فى مستدركه عن عبد اللّه بن مسعود قال: إن فى سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا و ما فيها: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ الآية، و إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ الآية، إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية، وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الآية. ثم قال: هذا إسناد صحيح؛ إن كان عبد الرحمن بن عبد اللّه بن مسعود سمع من أبيه، و قد اختلف فى ذلك. و أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن ابن مسعود قال: خمس آيات من النساء هن أحب إلىّ من الدنيا جميعا: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ الآية، وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها الآية، إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية، مَنْ

يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ الآيـة، وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ الآية. و رواه ابن جرير. ثم روى من طريق صالح المرى عن قتادة عن ابن عباس قال: ثمان آيات نزلت فى سورة النساء هنّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس و غربت، و ذكر ما ذكره ابن مسعود، و زاد: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ الآية، وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ الآية، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ الآية. و أخرج أحمد و ابن الضريس، و محمد بن نصر، و الحاكم، و صححه، و البيهقى عن عائشة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من أخذ السّبع فهو حبر». و أخرج البيهقى فى الشعب عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أعطيت مكان التوراة السبع، و أعطيت مكان الزبور المئين، و أعطيت مكان الإنجيل المثانى، و فضلت بالمفصل» «١». و أخرج أبو يعلى، و ابن خزيمة، و ابن حبان، و الحاكم،

---

(١). فى المطبوع: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، و المئين: كل سورة بلغت مائة فصاعدا، و المثانى: كل سورة دون المئين، و فوق المفصل».

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٧٩

و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أنس قال: «وجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ذات ليلة شيئا فلمّا أصبح قيل: يا رسول اللّه! إنّ أثر الوجع عليك لبيّن، قال: أما إنّى على ما ترون بحمد اللّه قد قرأت السّبع الطّوال».

و أخرج أحمد عن حذيفة قال: «قمت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقرأ السّبع الطّوال فى سبع ركعات». و أخرج عبد الرزاق عن بعض أهل النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ بالسبع الطّوال فى ركعة واحدة». و أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قال: «سلونى عن سورة النساء؛ فإنّى قرأت القرآن و أنا صغير» قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عنه قال: «من قرأ سورة النّساء؛ فعلم ما يحجب ممّا لا يحجب؛ علم الفرائض».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النساء (٤): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَ نِساءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (٢) وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاَّ تَعُولُوا (٣) وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (٤)

المراد بالناس: الموجودون عند الخطاب من بنى آدم، و يدخل من سيوجد، بدليل خارجى، و هو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد، كما غلب الذكور على الإناث فى قوله: اتَّقُوا رَبَّكُمُ لاختصاص ذلك بجمع المذكر. و المراد بالنفس الواحدة هنا: آدم. و قرأ ابن أبى عبلة: واحد، بغير هاء، على مراعاة المعنى، فالتأنيث: باعتبار اللفظ، و التذكير: باعتبار المعنى. قوله:

وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها قيل: هو معطوف على مقدر يدل عليه الكلام، أى: خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا، و خلق منها زوجها؛ و

قيل: على: خلقكم، فيكون الفعل الثانى داخلا مع الأوّل فى حيز الصلة.

و المعنى: و خلق من تلك النفس التى هى عبارة عن آدم زوجها، و هى حواء. و قد تقدم فى البقرة معنى:

التقوى، و الربّ، و الزوج، و البث، و الضمير فى قوله: مِنْها راجع إلى آدم و حواء المعبر عنهما بالنفس و الزوج. و قوله: كَثِيراً وصف مؤكد، تفيده صيغة الجمع، لكونها من جموع الكثرة، و قيل: هو نعت لمصدر محذوف، أى: بثا كثيرا. و قوله: وَ نِساءً أى: كثيرة، و ترك التصريح به استغناء بالوصف الأوّل. قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ قرأ أهل الكوفة بحذف التاء الثانية، و أصله تتساءلون، تخفيفا لاجتماع المثلين. و قرأ أهل المدينة، و ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن عامر، بإدغام التاء فى

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۸۰

السين؛ و المعنى: يسأل بعضكم بعضا باللّه و الرحم، فإنهم كانوا يقرنون بينهما فى السؤال و المناشدة، فيقولون: أسألك باللّه و الرحم، و أنشدك اللّه و الرحم، و قرأ النخعى، و قتادة، و الأعمش، و حمزة:

وَ الْأَرْحامَ بالجر. و قرأ الباقون بالنصب.

و قد اختلف أئمة النحو فى توجيه قراءة الجر، فأما البصريون فقالوا: هى لحن لا تجوز القراءة بها. و أما الكوفيون فقالوا: هى قراءة قبيحة. قال سيبويه فى توجيه هذا القبح: إن المضمر المجرور بمنزلة التنوين، و التنوين لا يعطف عليه. و قال الزجاج و جماعة: بقبح عطف الاسم الظاهر على المضمر فى الخفض إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ و جوز سيبويه ذلك فى ضرورة الشعر، و أنشد:

فاليوم قرّبت تهجونا و تمدحنا «۱»فاذهب فما بك و الأيّام من عجب

و مثله قول الآخر:

نعلّق فى مثل السّوارى سيوفناو ما بينها و الكعب مهوى «۲» نفانف

بعطف الكعب على الضمير فى بينها. و حكى أبو على الفارسى أن المبرد قال: لو صليت خلف إمام يقرأ وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ بالجر، لأخذت نعلى و مضيت. و قد ردّ الإمام أبو نصر القشيرى ما قاله القادحون فى قراءة الجرّ فقال: و مثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تواترا، و لا يخفى عليك أن دعوى التواتر باطلة يعرف ذلك من يعرف الأسانيد التى رووها بها، و لكن ينبغى أن يحتج للجواز بورود ذلك فى أشعار العرب كما تقدم، و كما فى قول بعضهم:

فحسبك و الضّحّاك سيف مهنّد و قول الآخر:

و قد رام آفاق السّماء فلم يجدله مصعدا فيها و لا الأرض مقعدا

و قول الآخر:

ما إن بها و الأمور من تلف «۳» ....

و قول الآخر:

أكرّ على الكتيبة لست أدرىأحتفى كان فيها أم سواها

فسواها: فى موضع جرّ عطفا على الضمير فى فيها، و منه قوله تعالى: وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ

---

(۱). فى القرطبى (۵/ ۳): و تشتمنا.

(۲). المهوى و المهواة: ما بين الجبلين و نحو ذلك. و النفانف: الهواء، و قيل: الهواء بين الشيئين، و كل شىء بينه و بين الأرض

مهوى فهو نفنف.

(٣). و عجزه: ما حمّ من أمر غيبه وقعا.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۸۱

لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ «١». و أما قراءة النصب فمعناها واضح جليّ، لأنه عطف الرحم على الاسم الشريف، أى: اتقوا اللّه و اتقوا الأرحام فلا تقطعوها، فإنهما مما أمر اللّه به أن يوصل؛ و قيل: إنه عطف على محل الجار و المجرور فى قوله: بِهِ كقولك مررت بزيد و عمرا، أى: اتقوا اللّه الذى تساءلون به و تتساءلون بالأرحام. و الأوّل أولى. و قرأ عبد اللّه بن يزيد: و الأرحام بالرفع على الابتداء، و الخبر مقدّر، أى: و الأرحام صلوها، أو: و الأرحام أهل أن توصل، و قيل: إن الرفع على الإغراء عند من يرفع به، و منه قول الشاعر:

إنّ قوما منهم عمير و أشباه عمير و منهم السّفّاح

لجديرون باللّقاء إذا قال أخو النّجدة: السّلاح السّلاح

و الأرحام: اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم و غيره، لا خلاف فى هذا بين أهل الشرع، و لا بين أهل اللغة. و قد خصص أبو حنيفة و بعض الزيدية الرحم بالمحرم فى منع الرجوع فى الهبة؛ مع موافقتهم على أن معناها أعم، و لا وجه لهذا التخصيص. قال القرطبي: اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة، و أن قطيعتها محرّمة. انتهى. و قد وردت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة. و الرقيب: المراقب، و هى صيغة مبالغة، يقال: رقبت، أرقب، رقبة و رقبانا: إذا انتظرت. قوله: وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ خطاب للأولياء و الأوصياء. و الإيتاء: الإعطاء. و اليتيم: من لا أب له. و قد خصصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم.

و قد تقدم تفسير معناه فى البقرة مستوفى، و أطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم- مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ- مجازا؛ باعتبار ما كانوا عليه؛ و يجوز أن يراد: باليتامى؛ المعنى الحقيقى، و بالإيتاء: ما يدفعه الأولياء و الأوصياء إليهم من النفقة و الكسوة، لا دفعها جميعا، و هذا الآية مقيدة بالآية الأخرى و هى قوله تعالى: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ «٢» فلا يكون مجرد ارتفاع اليتم بالبلوغ مسوغا لدفع أموالهم إليهم، حتى يؤنس منهم الرشد. قوله: وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية فى أموال اليتامى، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى و يعوضونه بالردىء من أموالهم، و لا يرون بذلك بأسا، و قيل: المعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى- و هى محرّمة خبيثة- و تدعوا الطيب من أموالكم، و قيل: المراد: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم، و تدعوا انتظار الرزق الحلال من عند اللّه. و الأوّل أولى؛ فإن تبدل الشىء بالشىء فى اللغة: أخذه مكانه، و كذلك استبداله، و منه قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ «٣» و قوله: أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ «۴». و أما التبديل: فقد يستعمل كذلك، كما فى قوله: وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ «۵»، و اخرى بالعكس، كما فى قولك: بدّلت الحلقة بالخاتم: إذا أذبتها و جعلتها خاتما، نص عليه الأزهرى. قوله: وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ ذهب جماعة من المفسرين: إلى أن المنهى عنه فى هذه الآية: هو الخلط، فيكون الفعل مضمنا معنى الضم، أى: لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، ثم نسخ هذا بقوله تعالى:

وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ «۶» و قيل: إن: إلى، بمعنى: مع، كقوله تعالى: مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللَّهِ* «٧».

و الأوّل أولى. و الحوب: الإثم، يقال: حاب الرجل، يحوب، حوبا: إذا أثم، و أصله: الزجر للإبل،

---

(١). الحجر: ٢٠.

(٢). النساء: ۶.

(۳). البقرة: ۱۰۸.

(۴). البقرة: ۶۱.

(۵). سبأ: ۱۶.

(۶). البقرة: ۲۲۰.

(۷). آل عمران: ۵۲.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۸۲

فسمى الإثم: حوبا، لأنه يزجر عنه. و الحوبة: الحاجة. و الحوب أيضا: الوحشة، و فيه ثلاث لغات:

ضم الحاء، و هى قراءة الجمهور. و فتح الحاء، و هى قراءة الحسن، قال الأخفش: و هى لغة تميم. و الثالثة:

الحاب، و قرأ أبىّ بن كعب: حابا، على المصدر، كقال قالا. و التحوب: التحزن، و منه قول طفيل:

فذوقوا كما ذقنا غداة محجّرمن الغيظ فى أكبادنا و التّحوّب «۱»

و قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا وجه ارتباط الجزاء بالشرط: أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه وليا لها و يريد أن يتزوجها فلا يقسط لها فى مهرها، أى: يعدل فيه، و يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهاهم اللّه أن ينكحوهنّ إلّا أن يقسطوا لهنّ، و يبلغوا بهنّ أعلى ما هو لهنّ من الصداق، و أمروا أن ينكحوا ما طاب لهنّ من النّساء سواهنّ، فهذا سبب نزول الآية كما سيأتى، فهو نهى يخص هذه الصورة. و قال جماعة من السلف: إن هذه الآية ناسخة لما كان فى الجاهلية و فى أوّل الإسلام، من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما شاء، فقصرهم بهذه الآية على أربع، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا ألا يقسطوا فى اليتامى فكذلك يخافون ألا يقسطوا فى النساء، لأنهم كانوا يتحرجون فى اليتامى و لا يتحرجون فى النساء، و الخوف من الأضداد، فإن المخوف قد يكون معلوما، و قد يكون مظنونا، و لهذا اختلف الأئمة فى معناه فى الآية، فقال أبو عبيدة خِفْتُمْ بمعنى: أيقنتم. و قال آخرون: خِفْتُمْ بمعنى: ظننتم.

قال ابن عطية: و هو الذى اختاره الحذاق، و أنه على بابه من الظن، لا من اليقين؛ و المعنى: من غلب على ظنه التقصير فى العدل لليتيمة فليتركها و ينكح غيرها. و قرأ النخعى، و ابن وثاب: تقسطوا بفتح التاء، من: قسط: إذا جار، فتكون هذه القراءة على تقدير زيادة لا، كأنه قال: و إن خفتم أن لا تقسطوا. و حكى الزجاج: أن أقسط، يستعمل استعمال قسط، و المعروف عند أهل اللغة: أن أقسط بمعنى: عدل، و قسط:

بمعنى جار، و «ما» فى قوله: ما طابَ موصولة، و جاء بها مكان من لأنهما قد يتعاقبان فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما فى قوله: وَ السَّماءِ وَ ما بَناها «۲» فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ «۳». و قال البصريون: إن «ما» تقع للنعوت كما تقع لما لا يعقل، يقال ما عندك، فيقال:

ظريف و كريم، فالمعنى: فانكحوا الطيب من النساء، أى: الحلال، و ما حرّمه اللّه فليس بطيب، و قيل:

إن «ما» هنا: مدّية، أى: ما دمتم مستحسنين للنكاح، و ضعفه ابن عطية. و قال الفراء: إن «ما» ها هنا: مصدرية. قال النحاس: و هذا بعيد جدا. و قرأ ابن أبى عبلة فانكحوا من طاب. و قد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور فى الآية لا مفهوم له، و أنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط فى اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة، و «من» فى قوله: مِنَ النِّساءِ إما: بيانية، أو: تبعيضية، لأن المراد غير اليتائم. قوله: مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فى محل نصب على البدل من «ما» كما قاله أبو على الفارسى؛ و قيل:

على الحال، و هذه الألفاظ لا تنصرف للعدل و الوصفية كما هو مبين فى علم النحو و الأصل: انكحوا ما طاب

(۱). محجّر: اسم موضع. و فى الديوان: «أجوافنا» بدل: أكبادنا.

(۲). الشمس: ۲.

(۳). النور: ۴۵.

فتح القدير، ج‏۱، ص: ۴۸۳

لكم من النساء اثنتين اثنتين، و ثلاثا ثلاثا، و أربعا أربعا.

و قد استدل بالآية: على تحريم ما زاد على الأربع، و بينوا ذلك: بأنه خطاب لجميع الأمة، و أن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد، كما يقال للجماعة: اقتسموا هذا المال و هو ألف درهم، أو: هذا المال الذى فى البدرة: درهمين درهمين، و ثلاثة ثلاثة، و أربعة أربعة. و هذا مسلم إذا كان المقسوم قد ذكرت جملته أو عين مكانه، أما: لو كان مطلقا، كما يقال: اقتسموا الدراهم، و يراد به: ما كسبوه، فليس المعنى هكذا.

و الآية من الباب الآخر لا- من الباب الأوّل. على أن من قال لقوم يقتسمون مالا- معينا كثيرا: اقتسموه مثنى، و ثلاث، و رباع، فقسموا بعضه بينهم: درهمين درهمين، و بعضه: ثلاثة ثلاثة، و بعضه: أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربىّ، و معلوم أنه إذا قال القائل: جاءنى القوم مثنى و هم مائة ألف، كان المعنى: أنهم جاءوه اثنين اثنين، و هكذا جاءنى القوم ثلاث و رباع، و الخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد، كما فى قوله تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ «۱» أَقِيمُوا الصَّلاةَ* آتُوا الزَّكاةَ* و نحوها؛ فقوله: فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى‏ وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ معناه لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين، و ثلاثا و ثلاثا، و أربعا أربعا، هذا ما تقتضيه لغة العرب. فالآية تدلّ على خلاف ما استدلوا بها عليه، و يؤيد هذا قوله تعالى فى آخر الآية فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً فإنه و إن كان خطابا للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد. فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن.

و أما استدلال من استدلّ بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة، فكأنه قال: انكحوا مجموع هذا العدد المذكور، فهذا جهل بالمعنى العربى، و لو قال: انكحوا ثنتين و ثلاثا و أربعا كان هذا القول له وجه و أما مع المجي‏ء بصيغة العدل فلا، و إنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون أو: لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلّا أحد الأعداد المذكورة دون غيره، و ذلك ليس بمراد من النظم القرآنى. و قرأ النخعى، و يحيى بن وثاب:

ثلث و ربع بغير ألف. قوله: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً: فانكحوا واحدة، كما يدل على ذلك قوله: فَانْكِحُوا ما طابَ و قيل: التقدير: فألزموا أو فاختاروا واحدة. و الأول أولى؛ و المعنى: فإن خفتم ألّا تعدلوا بين الزوجات فى القسم و نحوه فانكحوا واحدة، و فيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك. و قرى‏ء: بالرفع، على أنه مبتدأ، و الخبر محذوف. قال الكسائى: أى: فواحدة تقنع؛ و قيل:

التقدير: فواحدة فيها كفاية، و يجوز أن تكون واحدة على قراءة الرفع خبر مبتدأ محذوف، أى: فالمقنع واحدة.

قوله: أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ معطوف على واحدة، أى: فانكحوا واحدة أو انكحوا ما ملكت أيمانكم من السرارى؛ و إن كثر عددهنّ كما يفيده الموصول. و المراد: نكاحهن بطريق الملك، لا بطريق النكاح، و فيه دليل، على أنه لا حق للمملوكات فى القسم، كما يدل على ذلك جعله قسيما للواحدة فى الأمن من عدم العدل. و إسناد الملك إلى اليمين: لكونها المباشرة لقبض الأموال و إقباضها، و لسائر الأمور التى تنسب إلى الشخص فى الغالب، و منه:

إذا ما راية نصبت لمجدتلقّاها عرابة باليمين

(۱). التوبة: ۵.

فتح القدير، ج‌۱، ص: ۴۸۴

قوله: ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا أى: ذلك أقرب إلى ألا تعولوا، أى: تجوروا، من: عال الرجل، يعول: إذا مال و جار، و منه قولهم: عال السهم عن الهدف: مال عنه، و عال الميزان: إذا مال، و منه:

قالوا اتّبعنا رسول اللّه و اطّرحواقول الرّسول و عالوا فى الموازين

و منه قول أبى طالب:

بميزان صدق لا يغلّ شعيرةله شاهد من نفسه غير عائل

و منه أيضا:

فنحن ثلاثة و ثلاث ذود «۱»لقد عال الزّمان على عيال

و المعنى: إن خفتم عدم العدل بين الزوجات؛ فهذه التى أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور، و يقال: عال الرجل، يعيل: إذا افتقر و صار عالة، و منه قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً «۲»، و منه قول الشاعر:

و ما يدرى الفقير متى غناهو ما يدرى الغنىّ متى يعيل

و قال الشافعى: أَلَّا تَعُولُوا ألا تكثر عيالكم. قال الثعلبى: و ما قال هذا غيره، و إنما يقال: أعال يعيل: إذا كثر عياله. و ذكر ابن العربى: أن: عال؛ تأتى لسبعة معان: الأوّل: عال: مال. الثانى: زاد.

الثالث: جار. الرابع: افتقر. الخامس: أثقل. السادس: قام بمئونة العيال، و منه: قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «و ابدأ بمن تعول».

السابع: عال: غلب، و منه: عيل صبرى، قال: و يقال: أعال الرجل: كثر عياله. و أما:

عال، بمعنى كثر عياله، فلا يصح، و يجاب عن إنكار الثعلبى لما قاله الشافعى، و كذلك إنكار ابن العربى لذلك: بأنه قد سبق الشافعى إلى القول به زيد بن أسلم، و جابر بن زيد، و هم إمامان من أئمة المسلمين، لا يفسران القرآن هما و الإمام الشافعى بما لا وجه له فى العربية. و قد أخرج ذلك عنهما الدارقطنى فى سننه.

و قد حكاه القرطبى عن الكسائى، و أبى عمر الدورى، و ابن الأعرابى، و قال أبو حاتم: كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا، و لعله لغة. و قال الثعلبى: قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمر الدورى عن هذا و كان إماما فى اللغة غير مدافع، فقال: هى لغة حمير، و أنشد:

و إنّ الموت يأخذ كلّ حىّبلا شكّ و إن أمشى و عالا

أى: و إن كثرت ماشيته و عياله. و قرأ طلحة بن مصرف: أن لا تعيلوا قال ابن عطية: و قدح الزجاج فى تأويل عال من العيال بأن اللّه سبحانه قد أباح كثرة السرارى، و فى ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى أن لا يكثروا. و هذا القدح غير صحيح، لأن السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع، و إنما

---

(۱). فى القرطبى (۵/ ۲۱):

ثلاثة أنفس و ثلاث ذود ....

(۲). التوبة: ۲۸.

فتح القدير، ج‌۱، ص: ۴۸۵

العيال الحرائر ذوات الحقوق الواجبة. و قد حكى ابن الأعرابى: أن العرب تقول: عال الرجل: إذا كثر عياله، و كفى بهذا.

و قد ورد عال لمعان غير السبعة التى ذكرها ابن العربى، منها: عال: اشتدّ و تفاقم، حكاه الجوهرى، و عال الرجل فى الأرض: إذا ضرب فيها، حكاه الهروى، و عال: إذا أعجز، حكاه الأحمر، فهذه ثلاثة معان غير السبعة؛ و الرابع: عال: كثر عياله، فجملة معانى عال: أحد عشر معنى. قوله: وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً الخطاب للأزواج، و قيل: للأولياء. و الصدقات: بضم الدال، جمع صدقة، كثمرة، قال الأخفش: و بنو تميم يقولون: صدقة، و الجمع صدقات، و إن شئت فتحت، و إن شئت أسكنت. و النّحلة بكسر النون؛ و ضمها؛ لغتان، و أصلها: العطاء، نحلت فلانا: أعطيته، و على هذا فهى منصوبة على المصدرية، لأن الإيتاء بمعنى الإعطاء؛ و قيل: النحلة: التدين، فمعنى: نحلة: تدينا، قاله الزجاج، و على هذا فهى منصوبة على المفعول له. و قال قتادة: النحلة: الفريضة، و على هذا فهى منصوبة على الحال؛ و قيل:

النحلة: طيبة النفس، قال أبو عبيد: و لا تكون النحلة إلّا عن طيبة نفس. و معنى الآية- على كون الخطاب للأزواج-: أعطوا النساء اللاتى نكحتموهنّ مهورهنّ التى لهن عليكم عطية، أو ديانة منكم، أو فريضة عليكم، أو طيبة من أنفسكم. و معناها- على كون الخطاب للأولياء-: أعطوا النساء- من قراباتكم التى قبضتم مهورهنّ من أزواجهنّ- تلك المهور. و قد كان الولى يأخذ مهر قريبته فى الجاهلية و لا يعطيها شيئا، حكى ذلك عن أبى صالح و الكلبى. و الأوّل أولى، لأن الضمائر من أوّل السياق للأزواج.

و فى الآية دليل: على أن الصداق واجب على الأزواج للنساء، و هو مجمع عليه كما قال القرطبى، قال: و أجمع العلماء أنه لا حدّ لكثيرة، و اختلفوا فى قليلة. و قرأ قتادة: «صدقاتهنّ» بضم الصاد و سكون الدال. و قرأ النخعى و ابن وثاب: بضمهما. و قرأ الجمهور: بفتح الصاد و ضم الدال. قوله: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً الضمير فى: منه، راجع إلى الصداق الذى هو واحد الصدقات، أو إلى المذكور، و هو الصدقات، أو هو بمنزلة اسم الإشارة، كأنه قال من ذلك. و نفسا: تمييز. و قال أصحاب سيبويه: منصوب بإضمار فعل، لا تمييز، أى: أعنى نفسا. و الأوّل أولى، و به قال الجمهور. و المعنى:

فإن طبن، أى: النساء لكم أيها الأزواج أو الأولياء عن شيء من المهر فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً و فى قوله:

طِبْنَ دليل: على أن المعتبر فى تحليل ذلك منهن لهم إنما هو طيبة النفس، لا مجرد ما يصدر منها من الألفاظ التى لا يتحقق معها طيبة النفس، فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحلّ للزوج و لا للولىّ، و إن كانت قد تلفظت بالهبة أو النذر أو نحوهما. و ما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للتمليك بمجردها، لنقصان عقولهنّ، و ضعف إدراكهنّ، و سرعة انخداعهن، و انجذابهنّ إلى ما يراد منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب، و قوله: هَنِيئاً مَرِيئاً منصوبان على أنهما صفتان لمصدر محذوف، أى: أكلا هنيئا مريئا، أو قائمان مقام المصدر، أو على الحال، يقال: هناه الطعام و الشراب، يهنئه، و مرأه، و أمرأه، من الهنيء و المريء، و الفعل: هنأ و مرأ، أى: أتى من غير مشقة و لا غيظ؛ و قيل:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۸۶

هو الطيب الذى لا تنغيص فيه؛ و قيل: المحمود العاقبة، الطيب الهضم؛ و قيل: ما لا إثم فيه، و المقصود هنا: أنه حلال لهم خالص عن الشوائب، و خص الأكل لأنه معظم ما يراد بالمال و إن كان سائر الانتفاعات به جائزة كالأكل.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ قال آدم: وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها قال: حواء من قصيرى آدم، أى: قصيرى أضلاعه.

و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر: خلقت حواء من خلف آدم الأيسر. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال: من ضلع الخلف و هو من أسفل الأضلاع. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ قال: تعاطون به. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الربيع قال: تعاقدون و تعاهدون. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: يقول: أسألك باللّه و الرحم. و أخرج ابن جرير عن الحسن و نحوه. و أخرج ابن

جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: اتقوا اللّه الذى تساءلون به و اتقوا الأرحام وصلوها. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً قال: حفيظا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال:

إن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له؛ فلمّا بلغ اليتيم؛ طلب ماله، فمنعه عمه، فخاصمه إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت: وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ يعنى الأوصياء، يقول: أعطوا اليتامى أموالهم وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ يقول: لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبذروا أموالكم الحلال، و تأكلوا أموالهم الحرام. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن مجاهد قال: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذى قدّر لك وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ قال: مع أموالكم، تخلطونها، فتأكلونها جميعا إِنَّهُ كانَ حُوباً إثما.

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، و لا يورثون الصغار، يأخذه الأكبر، فنصيبه من الميراث طيب، و هذا الذى يأخذه خبيث. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة قال: مع أموالكم. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية فى أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم، و جعل ولىّ اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله، فشكوا ذلك إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأنزل اللّه: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ «١» قال: فخالطوهم. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما: أن عروة سأل عائشة عن قول اللّه عزّ و جلّ: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى قالت: يا ابن أختى! هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله و يعجبه مالها و جمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها؛ فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهنّ إلا أن يقسطوا لهنّ، و يبلغوا بهنّ أعلى سننهنّ فى الصداق، و أمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ، و أن الناس قد استفتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد هذه الآية، فأنزل اللّه: وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ «٢» قالت عائشة: و قول اللّه فى الآية الأخرى: وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَ «٣» رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال و الجمال، فنهوا أن

---

(١). البقرة: ٢٢٠.

(٢). النساء: ١٢٧.

(٣). النساء: ١٢٧.

ينكحوا من رغبوا فى ماله و جماله من باقى النساء إلّا بالقسط من أجل رغبتهم عنهنّ إذا كن قليلات المال و الجمال.

و أخرج البخارى عن عائشة: أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها، و كان لها عذق فكان يمسكها عليه، و لم يكن لها من نفسه شىء، فنزلت: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى أحسبه قال: كانت شريكته فى ذلك العذق و فى ماله. و قد روى هذا المعنى من طرق.

و أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى الآية قال: كان الرجل يتزوج بمال اليتيم ما شاء اللّه تعالى، فنهى اللّه عن ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: قصر الرجال على أربع نسوة من أجل أموال اليتامى. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى قال: كان الرجل يتزوج ما شاء فقال: كما تخافون ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا ألا تعدلوا فيهن، فقصرهم على الأربع. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: كانوا فى الجاهلية ينكحون عشرا من النساء الأيامى، و كانوا يعظمون شأن اليتيم، فتفقدوا من دينهم شأن اليتامى و تركوا ما كانوا ينكحون فى الجاهلية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: كما خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى فخافوا ألا تعدلوا فى النساء إذا جمعتموهنّ عندكم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق محمد

بن أبى موسى الأشعرى عنه قال: فإن خفتم الزنا فانكحوهنّ، يقول: كما خفتم فى أموال اليتامى ألا تقسطوا فيها فكذلك فخافوا على أنفسكم ما لم تنكحوا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك: ما طابَ لَكُمْ قال:

ما أحلّ لكم. و أخرج ابن جرير عن الحسن و سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر عن عائشة نحوه. و أخرج الشافعى، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و الترمذى، و ابن ماجة، و النحاس فى ناسخه، و الدارقطنى، و البيهقى عن ابن عمر: «أنّ غيلان بن سلمة الثّقفىّ أسلم و تحته عشر نسوة، فقال له النبى صلّى اللّه عليه و سلم: اختر منهنّ» و فى لفظ: «أمسك منهنّ أربعا و فارق سائرهنّ» هذا الحديث أخرجه هؤلاء- المذكورين- من طرق عن إسماعيل بن علية، و غندر، و زيد بن زريع، و سعيد بن أبى عروبة، و سفيان الثورى، و عيسى بن يونس، و عبد الرحمن بن محمد المحاربى، و الفضل بن موسى، و غيرهم من الحفاظ عن معمر، عن الزهرى، عن سالم عن أبيه، فذكره. و قد علل البخارى هذا الحديث، فحكى عنه الترمذى أنه قال: هذا حديث غير محفوظ. و الصحيح ما روى عن شعيب و غيره عن الزهرى: حدثت عن محمد بن سويد الثقفى أن غيلان بن سلمة، فذكره، و أما حديث الزهرى عن أبيه: أن رجلا من ثقيف طلق نساءه فقال له عمر: لأرجمنّ قبرك كما رجم قبر أبى رغال. و قد رواه معمر عن الزهرى مرسلا، و هكذا رواه مالك عن الزهرى مرسلا. قال أبو زرعة: و هو أصح. و رواه عقيل عن الزهرى: بلغنا عن عثمان بن محمد بن أبى سويد قال أبو حاتم: و هذا وهم، إنما هو الزهرى عن عثمان بن أبى سويد. و قد سامه أحمد برجال الصحيح فقال: حدثنا إسماعيل و محمد بن جعفر قالا: حدثنا معمر عن الزهرى قال أبو جعفر فى حديثه:

أخبرنا ابن شهاب عن سالم عن أبيه: أن غيلان، فذكره، و قد روى من غير طريق معمر و الزهرى، فأخرجه

البيهقى عن أيوب عن نافع و سالم عن ابن عمر أن غيلان، فذكره. و أخرج أبو داود، و ابن ماجة فى سننهما عن عمير الأسدى قال: أسلمت و عندى ثمان نسوة، فذكرت للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: اختر منهنّ أربعا. قال ابن كثير: إن إسناده حسن. و أخرج الشافعى فى مسنده عن نوفل بن معاوية الديلمى قال: أسلمت و عندى خمس نسوة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أمسك أربعا و فارق الأخرى». و أخرج ابن ماجة، و النحاس فى ناسخه عن قيس بن الحارث الأسدى قال: «أسلمت و كان تحتى ثمان نسوة، فأتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته، فقال: «اختر منهنّ أربعا و خلّ سائرهنّ، ففعلت» و هذه شواهد للحديث الأوّل كما قال البيهقى. و أخرج ابن أبى شيبة، و البيهقى فى سننه عن الحكم قال: أجمع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: على أن المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية يقول: إن خفت ألا تعدل فى أربع فثلاث، و إلّا فثنتين، و إلّا فواحدة، فإن خفت ألا تعدل فى واحدة فما ملكت يمينك.

و أخرج ابن جرير عن الربيع مثله. و أخرج أيضا عن الضحاك: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا قال: فى المجامعة و الحبّ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى: أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ قال: السرارى. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن حبان فى صحيحه عن عائشة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا قال: ألا تجوروا. قال ابن أبى حاتم قال أبى: هذا حديث خطأ، و الصحيح عن عائشة موقوف. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة فى المصنف، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: أَلَّا تَعُولُوا قال: ألا تميلوا. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: ألا تميلوا، ثم قال: أما سمعت قول أبى طالب:

بميزان قسط لا يخيس شعيرةو وازن صدق وزنه غير عائل «١»

و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد: قال: ألا تميلوا. و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى

رزين، و أبى مالك، و الضحاك مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى الآية، قال: ذلك أدنى ألا يكثر من تعولوا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة: قال: ألا تفتقروا. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال: كان الرجل إذا زوّج أيمة أخذ صداقها دونها، فنهاهم اللّه عن ذلك و نزلت: وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: نِحْلَةً قال: يعنى بالنحلة: المهر. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة: نِحْلَةً قالت: واجبة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن جريج وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً قال: فريضة مسماة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة مثله.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ قال:

---

(١). البيت للحطيئة و هو فى القرطبى: بميزان صدق لا يغلّ شعيرةله شاهد من نفسه غير عائل فتح القدير، ج ١، ص: ٤٨٩

هى للأزواج. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن عكرمة: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْ‌ءٍ مِنْهُ قال: من الصداق. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ عن ابن عباس:

فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْ‌ءٍ مِنْهُ نَفْساً يقول: إذا كان من غير ضرار و لا خديعة فهو هنىء مرىء، كما قال اللّه:

[سورة النساء (٤): الآيات ٥ الى ٦]

وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً وَ ارْزُقُوهُمْ فِيها وَ اكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٥) وَ ابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٦)

هذا رجوع إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى. و قد تقدّم الأمر بدفع أموالهم إليهم فى قوله تعالى:

وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ فبين سبحانه هاهنا أن السفيه و غير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه. و قد تقدّم فى البقرة: معنى السفيه لغة.

و اختلف أهل العلم فى هؤلاء السفهاء من هم؟ فقال سعيد بن جبير: هم اليتامى، لا تؤتوهم أموالكم.

قال النحاس: و هذا من أحسن ما قيل فى الآية. و قال مالك: هم الأولاد الصغار، لا تعطوهم أموالكم فيفسدوها، و تبقوا بلا شى‌ء. و قال مجاهد: هم النساء. قال النحاس و غيره: و هذا القول لا يصح، إنما تقول العرب: سفائه أو سفيهات. و اختلفوا فى وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين و هى للسفهاء، فقيل: أضافها إليهم: لأنها بأيديهم و هم الناظرون فيها، كقوله: فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ «١»، و قوله: فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «٢» أى: ليسلم بعضكم على بعض، و ليقتل بعضكم بعضا؛ و قيل: أضافها إليهم: لأنها من جنس أموالهم، فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق فى الأصل؛ و قيل: المراد: أموال المخاطبين حقيقة، و به قال أبو موسى الأشعرى، و ابن عباس، و الحسن، و قتادة. و المراد: النهى عن دفعها إلى من لا يحسن تدبيرها، كالنساء و الصبيان، و من هو ضعيف الإدراك لا يهتدى إلى وجوه النفع التى تصلح المال، و لا يتجنب وجوه الضرر التى تهلكه و تذهب به. قوله: الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً المفعول الأوّل محذوف، و التقدير:

التى جعلها اللّه لكم، و «قيما»: قراءة أهل المدينة و أبى عامر، و قرأ غيرهم: «قياما»، و قرأ عبد اللّه ابن عمر: «قواما» و القيام، و القوام: ما يقيمك، يقال: فلان قيام أهله، و قوام بيته، و هو الذى يقيم شأنه، أى: يصلحه، و لما انكسرت القاف فى قوام؛ أبدلوا الواو ياء. قال الكسائى و الفراء: قيما، و قواما:

بمعنى قياما، و هو منصوب على المصدر، أى: لا تؤتوا السفهاء أموالكم التى تصلح بها أموركم فتقومون بها قياما، و قال

الأخفش: المعنى: قائمة بأموركم، فذهب إلى أنها جمع. و قال البصريون: قيما: جمع قيمة، كديمة و ديم، أى: جعلها اللّه قيمة للأشياء. و خطأ أبو على الفارسى هذا القول و قال: هى مصدر، كقيام و قوام. و المعنى: أنها صلاح للحال و ثبات له، فأما على قول من قال: إن المراد: أموالهم على ما يقتضيه

---

(۱). النور: ۶۱.

(۲). البقرة: ۵۴.

ظاهر الإضافة، فالمعنى واضح. و أما على قول من قال: إنها أموال اليتامى، فالمعنى: أنها من جنس ما تقوم به معايشكم، و يصلح به حالكم من الأموال. و قرأ الحسن و النخعى: «اللاتى جعل» قال الفراء: الأكثر فى كلام العرب النساء اللواتى، و الأموال التى، و كذلك غير الأموال، ذكره النحاس. قوله: وَ ارْزُقُوهُمْ فِيها وَ اكْسُوهُمْ أى: اجعلوا لهم فيها رزقا أو افرضوا لهم، و هذا فيمن تلزم نفقته و كسوته من الزوجات و الأولاد و نحوهم. و أما على قول من قال: إن الأموال هى أموال اليتامى، فالمعنى: اتجروا فيها حتى تربحوا و تنفقوا عليهم من الأرباح، أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقا ينفقونه على أنفسهم و يكتسون به. و قد استدل بهذه الآية: على جواز الحجر على السفهاء، و به قال الجمهور. و قال أبو حنيفة: لا يحجر على من بلغ عاقلا، و استدل بها أيضا: على وجوب نفقة القرابة. و الخلاف فى ذلك معروف فى مواطنه. قوله: وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً قيل: ادعوا لهم: بارك اللّه فيكم، و ح، و صنع لكم؛ و قيل: معناه: عدوهم وعدا حسنا، قولوا لهم: إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم؛ و يقول الأب لابنه: مالى سيصير إليك، و أنت إن شاء اللّه صاحبه، و نحو ذلك. و الظاهر من الآية من يصدق عليه مسمى القول الجميل، ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل و الأولاد، أو مع الأيتام المكفولين. و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيما صحّ عنه: «خيركم خيركم لأهله، و أنا خيركم لأهلى». قوله: وَ ابْتَلُوا الْيَتامى الابتلاء: الاختبار. و قد تقدّم تحقيقه. و قد اختلفوا فى معنى الاختبار، فقيل: هو أن يتأمل الوصى أخلاق يتيمه؛ ليعلم بنجابته و حسن تصرفه؛ فيدفع إليه ماله إذا بلغ النكاح و آنس منه الرشد؛ و قيل: معنى الاختبار: أن يدفع إليه شيئا من ماله؛ و يأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله. و قيل: معنى الاختبار: أن يرد النظر إليه فى نفقة الدار ليعرف كيف تدبيره، و إن كانت جارية ردّ إليها ما يردّ إلى ربة البيت من تدبير بيتها. و المراد ببلوغ النكاح: بلوغ الحلم، لقوله تعالى:
وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ «۱» و من علامات البلوغ: الإنبات، و بلوغ خمس عشرة سنة. و قال مالك و أبو حنيفة و غيرهما: لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ إلّا بعد مضى سبع عشرة سنة، و هذه العلامات تعم الذكر و الأنثى، و تختص الأنثى: بالحبل و الحيض. قوله: فَإِنْ آنَسْتُمْ أى: أبصرتم و رأيتم، و منه قوله:
آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً «۲». قال الأزهرى: تقول العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحدا، معناه:
تبصر؛ و قيل: هو هنا بمعنى: وجد و علم، أى: فإن وجدتم و علمتم منهم رشدا. و قراءة الجمهور:
«رشدا» بضم الراء و سكون الشين. و قرأ ابن مسعود، و السلمى، و عيسى الثقفى: بفتح الراء و الشين، قيل: هما لغتان؛ و قيل: هو بالضم مصدر رشد، و بالفتح مصدر رشد.

و اختلف أهل العلم فى معنى الرشد هاهنا، فقيل: الصلاح فى العقل و الدين؛ و قيل: فى العقل خاصة.

قال سعيد بن جبير و الشعبى: إنه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده و إن كان شيخا. قال الضحاك:
و إن بلغ مائة سنة. و جمهور العلماء على أن الرشد لا يكون إلّا بعد البلوغ، و على أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر. و قال أبو حنيفة: لا يحجر على الحرّ البالغ و إن كان أفسق الناس و أشدهم تبذيرا، و به قال النخعى، و زفر، و ظاهر النظم

القرآنى: أنه لا تدفع إليهم أموالهم إلّا بعد بلوغ غاية، هى: بلوغ

---

(١). النور: ٥٩.

(٢). القصص: ٢٩.

فتح القدير، ج ١، ص: ۴۹۱

النكاح، مقيدة هذه الغاية بإيناس الرشد، فلا بد من مجموع الأمرين، فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ، و إن كانوا معروفين بالرشد، و لا بعد البلوغ إلّا بعد إيناس الرشد منهم. و المراد بالرشد: نوعه، و هو المتعلق بحسن التصرف فى أمواله، و عدم التبذير بها، و وضعها فى مواضعها. قوله: وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا الإسراف فى اللغة: الإفراط و مجاوزة الحدّ. و قال النضر بن شميل: السرف و التبذير، و البدار:

المبادرة و أَنْ يَكْبَرُوا فى موضع نصب بقوله: بِداراً أى: لا تأكلوا أموال اليتامى أكل إسراف و أكل مبادرة لكبرهم، أو: لا تأكلوا لأجل السرف، و لأجل المبادرة، أو: لا تأكلوها مسرفين و مبادرين لكبرهم، و تقولوا: ننفق أموال اليتامى فيما نشتهى قبل أن يبلغوا فينتزعوها من أيدينا. قوله: وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ بين سبحانه ما يحل لهم من أموال اليتامى، فأمر الغنىّ بالاستعفاف و توفير مال الصبى عليه، و عدم تناوله منه، و سوّغ للفقير أن يأكل بالمعروف.

و اختلف أهل العلم فى الأكل بالمعروف ما هو؟ فقال قوم: هو القرض إذا احتاج إليه و يقضى متى أيسر اللّه عليه، و به قال عمر بن الخطاب، و ابن عباس، و عبيدة السلمانى، و ابن جبير، و الشعبى، و مجاهد، و أبو العالية، و الأوزاعى، و قال النخعى، و عطاء و الحسن و قتادة: لا قضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف، و به قال جمهور الفقهاء. و هذا بالنظم القرآنى ألصق فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض.

و المراد بالمعروف: المتعارف به بين الناس، فلا يترفه بأموال اليتامى، و يبالغ فى التنعم بالمأكول، و المشروب، و الملبوس، و لا يدع نفسه عن سدّ الفاقة و ستر العورة. و الخطاب فى هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم، كالأب و الجدّ و وصيهما. و قال بعض أهل العلم: المراد بالآية: اليتيم إن كان غنيا: وسع عليه و عفّ من ماله، و إن كان فقيرا: كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له، و هذا القول فى غاية السقوط. قوله:

فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ أى: إذا حصل مقتضى الدفع فدفعتم إليهم أموالهم، فأشهدوا عليهم أنهم قد قبضوها منكم، لتندفع عنكم التهم، و تأمنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم. و قيل: إن الإشهاد المشروع: هو ما أنفقه عليهم الأولياء قبل رشدهم؛ و قيل: هو على ردّ ما استقرضه إلى أموالهم، و ظاهر النظم القرآنى: مشروعية الإشهاد على ما دفع إليهم من أموالهم، و هو يعمّ الإنفاق قبل الرشد، و الدفع للجميع إليهم بعد الرشد وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً أى: حاسبا لأعمالكم، شاهدا عليكم فى كل شىء تعملونه، و من جملة ذلك: معاملتكم لليتامى فى أموالهم، و فيه وعيد عظيم، و الباء: زائدة، أى: كفى اللّه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ يقول: لا تعمد إلى مالك و ما خولك اللّه و جعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنتك، ثم تضطر إلى ما فى أيديهم، و لكن أمسك مالك، و أصلحه، و كن أنت الذى تنفق عليهم فى كسوتهم و رزقهم و مؤونتهم.

قال: و قوله: قِياماً يعنى: قوامكم من معايشكم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه من طريق العوفى فى الآية يقول: لا تسلط السفيه من ولدك على مالك، و أمره أن يرزقه منه و يكسوه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هم بنوك و النساء. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۹۲

النّساء السّفهاء إلّا التى أطاعت قيّمها». و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: هم الخدم، و هم شياطين الإنس. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن مسعود قال: هم النساء و الصبيان. و أخرج ابن جرير عن حضرمى: أن رجلا عمد فدفع ماله إلى امرأته فوضعته فى غير الحق، فقال اللّه: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: هم اليتامى و النساء. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن المنذر عن عكرمة قال: هو مال اليتيم يكون عندك، يقول: لا تؤته إياه، و أنفق عليه حتى يبلغ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ ارْزُقُوهُمْ يقول: أنفقوا عليهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً قال: أمروا أن يقولوا لهم قولا معروفا فى البرّ و الصلة. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج: وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً قال: عدة تعدونهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ ابْتَلُوا الْيَتامى يعنى: اختبروا اليتامى عند الحلم فَإِنْ آنَسْتُمْ عرفتم مِنْهُمْ رُشْداً فى حالهم، و الإصلاح فى أموالهم فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً يعنى: تأكل مال اليتيم ببادرة قبل أن يبلغ فتحول بينه و بين ماله. و أخرج البخارى و غيره عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية فى ولىّ اليتيم وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ بقدر قيامه عليه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه، عن ابن عباس: وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ قال: بغناه وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ قال: يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم. و أخرج ابن جرير عنه قال: هو القرض. و أخرج عبد بن حميد، و البيهقى عن ابن عباس قال: إن كان فقيرا أخذ من فضل اللبن، و أخذ من فضل القوت، و لا يجاوزه، و ما يستر عورته من الثياب، فإن أيسر قضاه، و إن أعسر فهو فى حل. و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه من طرق عن عمر بن الخطاب قال: إنى أنزلت نفسى من مال اللّه منزلة ولىّ اليتيم، إن استغنيت استعففت، و إن احتجت أخذت منه بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت. و أخرج أحمد، و أبو داود، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر: «أنّ رجلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

ليس لى مال ولى يتيم فقال: كل من مال يتيمك غير مسرف و لا مبذّر و لا متأثّل «۱» مالا و من غير أن تقى مالك بماله». و أخرج أبو داود، و النحاس كلاهما فى الناسخ، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ «۲» قال: نسختها: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى الآية.

---

(۱). قال فى النهاية [۱/ ۲۳]: غير متأثل: غير جامع، يقال: مال مؤثّل، و مجد مؤثل: أى مجموع ذو أصل، و أثلة الشىء: أصله.

(۲). النساء: ۱۰.

[سورة النساء (۴): الآيات ۷ الى ۱۰]

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۷) وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۸) وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۹) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (۱۰)

لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث، و كيفية قسمتها بين الورثة. و أفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال، و لم يقل: للرجال و النساء نصيب، للإيذان بأصالتهنّ فى هذا الحكم، و دفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، و فى ذكر القرابة بيان لعلة الميراث، مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة من دون تخصيص. و قوله: مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ بدل من قوله: مِمَّا تَرَكَ بإعادة الجار، و الضمير فى قوله: مِنْهُ راجع إلى المبدل منه. و قوله: نَصِيباً منتصب على الحال، أو على المصدرية، أو على الاختصاص، و سيأتى ذكر السبب فى نزول هذه الآية إن شاء اللّه، و قد أجمل اللّه سبحانه فى هذه المواضع قدر النصيب المفروض، ثم أنزل قوله: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ فبين ميراث كل فرد.

قوله: وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى المراد بالقرابة هنا: غير الوارثين، و كذا اليتامى و المساكين، شرع اللّه سبحانه: أنهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم رزق، فيرضخ «١» لهم المتقاسمون شيئا منها. و قد ذهب قوم إلى أن الآية محكمة، و أن الأمر للندب. و ذهب آخرون إلى أنها منسوخة بقوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ و الأول أرجح، لأن المذكور فى الآية للقرابة غير الوارثين، ليس هو من جملة الميراث، حتى يقال: إنها منسوخة بآية المواريث، إلّا أن يقولوا: إن أولى القربى المذكورين هنا هم الوارثون؛ كان للنسخ وجه. و قالت طائفة: إن هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة، و هو معنى الأمر الحقيقى، فلا يصار إلى الندب إلّا لقرينة، و الضمير فى قوله: مِنْهُ راجع إلى المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة، و قيل: راجع إلى ما ترك. و القول المعروف: هو القول الجميل الذى ليس فيه منّ بما صار إليهم من الرضخ، و لا أذى. قوله: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا هم الأوصياء، كما ذهب إليه طائفة من المفسرين، و فيه وعظ لهم بأن يفعلوا باليتامى الذين فى حجورهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم؛ و قالت طائفة: المراد: جميع الناس أمروا باتقاء اللّه فى الأيتام، و أولاد الناس، و إن لم يكونوا فى حجورهم؛ و قال آخرون: إن المراد بهم: من يحضر الميت عند موته، أمروا بتقوى اللّه، و بأن يقولوا للمحتضر قولا سديدا، من إرشاده إلى التخلص عن حقوق اللّه، و حقوق بنى آدم، و إلى الوصية بالقرب المقرّبة إلى اللّه سبحانه، و إلى ترك التبذير بماله، و إحرام «٢» ورثته، كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم فقراء عالة يتكففون الناس؛ و قال ابن عطية: الناس صنفان، يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته ما لا يصلح للآخر،

---

(١). قال فى النهاية [١/ ٢٢٨]: الرّضخ: العطية القليلة.

(٢). قال فى اللسان: أحرمه: منعه العطية، و هى لغة ليست بالعالية.

و ذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء، حسن أن يندب إلى الوصية، و يحمل على أن يقدّم لنفسه، و إذا ترك ورثته ضعفاء مفلسين، حسن أن يندب إلى الترك لهم و الاحتياط، فإن أجره فى قصد ذلك كأجره فى المساكين. قال القرطبى: و هذا التفصيل صحيح. قوله: لَوْ تَرَكُوا صلة الموصول، و الفاء فى قوله: فَلْيَتَّقُوا لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ و المعنى: و ليخش الذين صفتهم و حالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافا، و ذلك عند احتضارهم، خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم و كاسبهم، ثم أمرهم بتقوى اللّه، و القول السديد للمحتضرين، أو لأولادهم من بعدهم على ما سبق. قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى استئناف يتضمن النهى عن ظلم الأيتام من الأولياء و الأوصياء. و انتصاب قوله:

ظُلْماً على المصدرية، أى: أكل ظلم، أو على الحالية، أى: ظالمين لهم. و قوله: إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً أى: ما يكون سببا للنار، تعبيرا بالمسبب عن السبب، و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية.

و قوله: وَ سَيَصْلَوْنَ قراءة عاصم و ابن عامر: بضم الياء، على ما لم يسم فاعله. و قرأ أبو حيوة: بضم الياء و فتح الصاد و تشديد

اللام، من التصلية، بكثرة الفعل مرة بعد أخرى. و قرأ الباقون: بفتح الياء، من:

صلى النار، يصلاها، و الصلى: هو التسخن بقرب النار أو مباشرتها، و منه قول الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم اللّه و إنّى لحرّها اليوم صالى

و السعير: الجمر المشتعل.

و قد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات و لا الصغار حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار يقال له: أوس بن ثابت، و ترك ابنتين و ابنا صغيرا، فجاء ابنا عمه و هما عصبته إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخذا ميراثه كله، فجاءت امرأته إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت الآية، فأرسل إليهما رسول اللّه فقال: لا تحركا من الميراث شيئا، فإنه قد أنزل علىّ شىء احترت فيه، إن للذكر و الأنثى نصيبا، ثم نزل بعد ذلك: وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ، ثم نزل: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ فدعا بالميراث، فأعطى المرأة الثمن، و قسّم ما بقى: للذكر مثل حظ الأنثيين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى الآية قال: نزلت فى أم كلثوم و ابنة أم كحلة، أو أم كجّة، و ثعلبة بن أوس، و سويد، و هم من الأنصار، كان أحدهم زوجا و الآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول اللّه! توفى زوجى و تركنى و ابنته فلم نورث من ماله، فقال عمّ ولدها: يا رسول اللّه! لا تركب فرسا، و لا تنكى عدوا، و يكسب عليها و لا تكتسب، فنزلت. و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ قال:

هى محكمة و ليست بمنسوخة. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن خطاب بن عبد اللّه فى هذه الآية قال: قضى بها أبو موسى. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: هى واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة عن الحسن و الزهرى، قالا: هى محكمة ما طابت

به أنفسهم. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و الحاكم، و صححه عن ابن عباس قال: يرضخ لهم، فإن كان فى ماله تقصير، اعتذر إليهم، فهو: قولا معروفا. و أخرج ابن المنذر عن عائشة أنها لم تنسخ. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم: أن هذه الآية منسوخة بآية الميراث. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن سعيد بن المسيب قال: هى منسوخة.

و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: إن كانوا كبارا يرضخوا، و إن كانوا صغارا اعتذروا إليهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه فى قوله: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا قال:

هذا فى الرجل يحضر الرجل عند موته، فيسمعه يوصى وصية تضرّ بورثته، فأمر اللّه الذى يسمعه أن يتقى اللّه و يوفقه و يسدده للصواب، و لينظر لورثته كما يحب أن يصنع لورثته إذا خشى عليهم الضيعة. و قد روى نحو هذا من طرق. و أخرج ابن أبى شيبة، و أبو يعلى، و الطبرانى، و ابن حبان فى صحيحه، و ابن أبى حاتم عن أبى برزة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم، تأجّج أفواههم نارا، فقيل:

يا رسول اللّه! من هم؟ قال: ألم تر أن اللّه يقول: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الخدرى قال: حدثنا النبى صلّى اللّه عليه و سلم عن ليلة أسرى به قال: «نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، و قد و كلّ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نار، فيقذف فى فىّ أحدهم حتى يخرج من أسافلهم، و لهم جؤار و صراخ، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ

فِی بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَیَصْلَوْنَ سَعِیراً». و أخرج ابن جریر عن زید بن أسلم قال: هذه الآیة لأهل الشرک حین کانوا لا یورثونهم و یأکلون أموالهم.

فتح القدیر، ج۱، ص: ۴۹۶

[سورة النساء (۴): الآیات ۱۱ الی ۱۴]

یُوصِیکُمُ اللَّهُ فِی أَوْلادِکُمْ لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ فَإِنْ کُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَیْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَکَ وَ إِنْ کانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَیْهِ لِکُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَکَ إِنْ کانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ کانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصِی بِها أَوْ دَیْنٍ آباؤُکُمْ وَ أَبْناؤُکُمْ لا تَدْرُونَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ لَکُمْ نَفْعاً فَرِیضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۱۱) وَ لَکُمْ نِصْفُ ما تَرَکَ أَزْواجُکُمْ إِنْ لَمْ یَکُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ کانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَکُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَکْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصِینَ بِها أَوْ دَیْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَکْتُمْ إِنْ لَمْ یَکُنْ لَکُمْ وَلَدٌ فَإِنْ کانَ لَکُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَکْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَیْنٍ وَ إِنْ کانَ رَجُلٌ یُورَثُ کَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِکُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ کانُوا أَکْثَرَ مِنْ ذلِکَ فَهُمْ شُرَکاءُ فِی الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصی بِها أَوْ دَیْنٍ غَیْرَ مُضَارٍّ وَصِیَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَلِیمٌ (۱۲) تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ یُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَ ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۱۳) وَ مَنْ یَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَتَعَدَّ حُدُودَهُ یُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِیها وَ لَهُ عَذابٌ مُهِینٌ (۱۴)

و هذا تفصیل لما أجمل فی قوله تعالی: لِلرِّجالِ نَصِیبٌ مِمَّا تَرَکَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ الآیة، و قد استدل لذلک علی جواز تأخیر البیان عن وقت الحاجة، و هذه الآیة رکن من أرکان الدین، و عمدة من عمد الأحکام، و أم من أمهات الآیات، لاشتمالها علی ما یهم من علم الفرائض، و قد کان هذا العلم من أجلّ علوم الصحابة، و أکثر مناظراتهم فیه، و سیأتی بعد کمال تفسیر ما اشتمل علیه کلام اللّه من الفرائض ذکر بعض فضائل هذا العلم إن شاء اللّه. قوله: یُوصِیکُمُ اللَّهُ فِی أَوْلادِکُمْ أی: فی بیان میراثهم. و قد اختلفوا:

هل یدخل أولاد الأولاد أم لا، فقالت الشافعیة: إنهم یدخلون مجازا لا حقیقة، و قالت الحنفیة: إنه یتناولهم لفظ الأولاد حقیقة إذا لم یوجد أولاد الصلب، و لا خلاف أن بنی البنین کالبنین فی المیراث مع عدمهم، و إنما هذا الخلاف فی دلالة لفظ الأولاد علی أولادهم مع عدمهم، و یدخل فی لفظ الأولاد من کان منهم کافرا، و یخرج بالسنة، و کذلک یدخل القاتل عمدا، و یخرج أیضا بالسنة و الإجماع، و یدخل فیه الخنثی. قال القرطبی: و أجمع العلماء: أنه یورث من حیث یبول، فإن بال منهما: فمن حیث سبق، فإن خرج البول منهما من غیر سبق أحدهما: فله نصف نصیب الذکر و نصف نصیب الأنثی، و قیل: یعطی أقلّ النصیبین، و هو نصیب الأنثی، قاله یحیی بن آدم، و هو قول الشافعی. و هذه الآیة ناسخة لما کان فی صدر الإسلام من الموارثة بالحلف و الهجرة و المعاقدة، و قد أجمع العلماء: علی أنه إذا کان مع الأولاد من له فرض مسمی أعطیه، و کان ما بقی من المال للذکر مثل حظ الأنثیین، للحدیث الثابت فی الصحیحین و غیرهما بلفظ:

«ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولی رجل ذکر» إلّا إذا کان ساقطا معهم، کالأخوة لأم. و قوله: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ جملة مستأنفة، لبیان الوصیة فی الأولاد، فلا بدّ من تقدیر ضمیر یرجع إلیهم: و یوصیکم اللّه فی أولادکم للذکر منهم حظ الأنثیین. و المراد: حال اجتماع الذکور و الإناث، و أما حال الانفراد: فللذکر جمیع المیراث، و للأنثی النصف، و للاثنتین فصاعدا الثلثان. قوله: فَإِنْ کُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَیْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَکَ أی: فإن کنّ الأولاد، و التأنیث باعتبار الخبر، أو البنات، أو المولودات نساء لیس معهن ذکر فوق اثنتین. أی: زائدات علی اثنتین، علی أن: فوق، صفة لنساء، أو یکون خبرا ثانیا لکان فَلَهُنَّ

ثُلُثا ما تَرَكَ الميت، المـدلول عليه بقرينـة المقام. و ظاهر النظم القرآنى: أن الثلثين فريضـة الثلاث من البنات فصاعدا، و لم يسـم للاثنتين فريضـة، و لهذا اختلف أهل العلم فى فريضـتهما، فذهب الجمهور: إلى أن لهما إذا انفردتا عن البنين الثلثين، و ذهب ابن عبـاس: إلى أن فريضـتهما النصف، احتـج الجمهور بالقيـاس على الأختين، فإن اللّه سـبحانه قال فى شأنهما فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ فألحقوا البنتين بالأختين فى استحقاقهما الثلثين، كما ألحقوا الأخوات إذا زدن على اثنتين بالبنات فى الاشتراك فى الثلثين؛ و قيل: فى الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين، و ذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كانا للابنتين إذا انفردتا

فتح القدير، ج ١، ص: ٤٩٧

الثلثان، هكـذا احتج بهذه الحجة إسـماعيل بن عياش و المبرد. قال النحاس: و هذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط، لأن الاختلاف فى البنـتين إذا انفردتـا عن البنين، و أيضـا للمخـالف أن يقـول إذا ترك بنـتين و ابنـا فللبنـتين النصـف، فهـذا دليـل على أن هـذا فرضـهما، و يمكن تأييـد مـا احتـج به الجمهور: بـأن اللّه سـبحانه لما فرض للبنت الواحـدة إذا انفردت النصف بقوله تعالى: وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ كان فرض البنتين إذا انفردتا فوق فرض الواحـدة، و أوجب القياس على الأختين الاقتصار للبنتين على الثلثين. و قيـل: إن: فوق، زائـدة، و المعنى: و إن كنّ نسـاء اثنتين كقوله تعالى: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ «١» أى: الأعناق، و رد هـذا النحاس، و ابن عطيـة فقالا: هو خطأ، لأن الظروف و جميع الأسـماء لا تجوز فى كلام العرب أن تزاد لغير معنى. قال ابن عطيـة: و لأن قوله: فَوْقَ الْأَعْناقِ هو الفصيح، و ليست فوق زائدة، بل هى محكمة المعنى، لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام فى المفصل دون الـدماغ، كما قال دريـد بن الصـمة: اخفض عن الـدماغ، و ارفع عن العظم، فهكذا كنت أضـرب أعناق الأبطال. انتهى. و أيضـا: لو كـان لفظ فوق زائـدا كمـا قالوا: لقال: فلهما ثلثا ما ترك، و لم يقل: فلهن ثلثا ما ترك، و أوضـح ما يحتـج به للجمهور: مـا أخرجه ابن أبى شـيبة، و أحمـد و أبو داود، و الترمـذى، و ابن ماجـة، و أبو يعلى، و ابن أبى حـاتم، و ابن حبـان، و الحـاكم، و البيهقى فى سـننه عن جـابر قـال: جـاءت امرأة سـعد بن الربيع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فقالت: يا رسول اللّه! هاتان ابنتا سـعد بن الربيع، قتل أبوهما معك فى أحد شهيدا، و إن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا، و لا تنكحان إلّا و لهما مال، فقال: يقضـى اللّه فى ذلك، فنزلت آيـة الميراث: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ الآية، فأرسل رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم إلى عمهما فقال: أعط ابنتى سعد الثلثين و أمهما الثمن و ما بقى فهو لك، أخرجوه من طرق عن عبد اللّه بن محمد بن عقيل عن جابر قال الترمذى: و لا يعرف إلّا من حديثه. قوله:

وَ إِنْ كـانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ قرأ نـافع، و أهل المدينـة: «واحـدة» بالرفع، على أن: كان، تامـة بمعنى: فإن وجـدت واحـدة أو حـدثت واحـدة. و قرأ الباقون: بالنصب، قال النحاس: و هـذه قراءة حسـنة، أى: و إن كانت المتروكـة أو المولودة واحدة. قوله: وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ أى: لأبوى الميت، و هو كنايـة عن غير مـذكور، و جاز ذلك لدلالـة الكلام عليه و فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ بدل من قوله: وَ لِأَبَوَيْهِ بتكرير العامل للتأكيد و التفصيل. و قرأ الحسن، و نعيم بن ميسرة «السدس» بسكون الدال، و كـذلك قرءا: الثلث، و الربع إلى العشـر: بالسـكون، و هى لغة بنى تميم و ربيعة، و قرأ الجمهور: بالتحريك ضـما، و هى لغة أهل الحجاز و بنى أسد فى جميعها. و المراد بالأبوين: الأب و الأم، و التثنية على لفظ الأب: للتغليب.

و قـد اختلف العلماء فى الجـد: هل هو بمنزلـة الأب فتسـقط به الأخوة أم لا؟ فـذهب أبو بكر الصـديق إلى أنه بمنزلة الأب، و لم يخـالفه أحـد من الصـحابة أيـام خلافـته، و اختلفوا فى ذلـك بعـد وفـاته، فقال بقول أبى بكر ابن عباس، و عبـد اللّه بن الزبير، و عائشة، و معاذ بن جبل، و أبىّ بن كعب، و أبو الدرداء، و أبو هريرة، و عطاء، و طاوس، و الحسن و قتادة، و أبو حنيفة، و أبو ثور، و إسحاق، و احتجوا بمثل قوله تعالى:

---

(۱). الأنفال: ۱۲.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۹۸

مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ «۱» و قوله: يا بَنِي آدَمَ* «۲» و قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «ارموا يا بنى إسماعيل». و ذهب على بن أبى طالب، و زيد بن ثابت، و ابن مسعود: إلى توريث الجدّ مع الإخوة لأبوين أو لأب، و لا ينقص معهم من الثلث، و لا ينقص مع ذوى الفروض من السدس فى قول زيد، و مالك، و الأوزاعى، و أبو يوسف، و محمد، و الشافعى. و قيل: يشرك بين الإخوة و الجد إلى السدس، و لا ينقصه من السدس شيئا مع ذوى الفروض و غيرهم، و هو قول ابن أبى ليلى و طائفة، و ذهب الجمهور: إلى أن الجد يسقط بنى الإخوة، و روى الشعبى عن على: أنه أجرى بنى الإخوة فى القاسمة مجرى الإخوة. و أجمع العلماء: على أن الجد لا يرث مع الأب شيئا، و أجمع العلماء: على أن للجدة السدس إذا لم يكن للميت أم، و أجمعوا: على أنها ساقطة مع وجود الأم، و أجمعوا: على أن الأب لا يسقط الجدّة أم الأمّ.

و اختلفوا فى توريث الجدة و ابنها حيّ، فروى عن زيد بن ثابت، و عثمان، و على: أنها لا ترث و ابنها حيّ، و به قال مالك، و الثورى، و الأوزاعى، و أبو ثور، و أصحاب الرأى. و روى عن عمر، و ابن مسعود، و أبى موسى: أنها ترث معه، و روى أيضا: عن علىّ، و عثمان، و به قال شريح، و جابر بن زيد، و عبيد اللّه ابن الحسن، و شريك، و أحمد، و إسحاق، و ابن المنذر. قوله: إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ الولد: يقع على الذكر و الأنثى، لكنه إذا كان الموجود من الذكر من الأولاد وحده أو مع الأنثى منهم: فليس للجد إلّا السدس، و إن كان الموجود أنثى: كان للجد السدس بالفرض، و هو عصبة فيما عدا السدس، و أولاد ابن الميت كأولاد الميت. قوله: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ أى: و لا ولد ابن، لما تقدّم من الإجماع وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ منفردين عن سائر الورثة، كما ذهب إليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث التركة إلّا إذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين، أما لو كان معهما أحد الزوجين: فليس للأم إلّا ثلث الباقى بعد الموجودين من الزوجين. و روى عن ابن عباس: أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين، و هو يستلزم تفضيل الأمّ على الأب فى مسألة زوج و أبوين مع الاتفاق على أنه أفضل منها عند انفرادهما عن أحد الزوجين. قوله: فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ إطلاق الإخوة يدل: على أنه لا فرق بين الإخوة لأبوين أو لأحدهما.

و قد أجمع أهل العلم: على أن الاثنين من الإخوة يقومان مقام الثلاثة فصاعدا فى حجب الأم إلى السدس، إلّا ما يروى عن ابن عباس: أنه جعل الاثنين كالواحد فى عدم الحجب. و أجمعوا أيضا: على أن الأختين فصاعدا كالأخوين فى حجب الأم. قوله: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ قرأ ابن كثير، و ابن عامر، و عاصم:

«يوصى» بفتح الصاد. و قرأ الباقون: بكسرها، و اختار الكسر أبو عبيد، و أبو حاتم لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا. قال الأخفش: و تصديق ذلك قوله: يُوصِينَ و تُوصُونَ

و اختلف فى وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدما عليها بالإجماع، فقيل: المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما- و قيل: لما كانت الوصية أقل لزوما من الدين قدّمت اهتماما بها؛ و قيل: قدّمت لكثرة وقوعها، فصارت كالأمر اللازم لكل ميت؛ و قيل: قدمت لكونها حظ المساكين و الفقراء، و أخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة و سلطان؛ و قيل: لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت

---

(۱). الحج: ۷۸.

(۲). الأعراف: ۲۶ و ۲۷ و ۳۱ و ۳۵.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۴۹۹

قـدمت، بخلاف الـدين فإنه ثابت مؤدى ذكر أو لم يذكر؛ و قيل: قدّمت لكونها تشـبه الميراث فى كونها مأخوذة من غير عوض، فربما يشق على الورثـة إخراجها، بخلاف الـدين؛ فإن نفوسـهم مطمئنـة بأدائه، و هـذه الوصـية مقيدة بقوله تعالى: غَيْرَ مُضَارٍّ كما سيأتى إن شـاء اللّه. قوله: آبـاؤُكُمْ وَ أَبْنـاؤُكُمْ لا تَـدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً قيل: خبر قوله: آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ مقـدر، أى: هم المقسوم عليهم، و قيل: إن الخبر قوله:

لا تَـدْرُونَ و ما بعـده، أَقْرَبُ خبر قوله: أَيُّهُمْ و نَفْعاً تمييز، أى: لا تـدرون أيهم قريب لكم نفعه فى الـدعاء لكم، و الصدقة عنكم، كما فى الحديث الصحيح «أو ولد صالح يدعو له».

و قال ابن عباس و الحسن: قد يكون الابن أفضل فيشفع فى أبيه. و قال بعض المفسرين: إن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه فى الآـخرة سـأل اللّه أن يرفع إليه أباه، و إذا كان الأب أرفع درجـة من ابنه سأل اللّه أن يرفع ابنه إليه. و قيل: المراد النفع فى الـدنيا و الآـخرة، قـاله ابن زيـد. و قيـل: المعنى: إنكم لا تـدرون من أنفع لكم من آبائكم و أبنائكم، أمن أوصـى منهم، فعرضـكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته، فهو أقرب لكم نفعا، أو من ترك الوصـية و وفر عليكم عرض الـدنيا؟ و قوى هـذا صاحب الكشاف، قال: لأن الجملـة اعتراضـية، و من حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه، و يناسبه قوله: فَرِيضَةً مِنَ اللّٰهِ نصب على المصدر المؤكد، إذ معنى: يُوصِيكُمُ يفرض عليكم. و قـال مكى و غيره: هى حـال مؤكـدة، و العـالم يوصـيكم. و الأـوّل أولى. إِنَّ اللّٰهَ كـانَ عَلِيماً بقسمة المواريث حَكِيماً حكم بقسمتها و بينها لأهلها. و قال الزجاج:

عَلِيماً بالأشـياء قبل خلقها حَكِيماً فيما يقـدّره و يمضـيه منها. قوله: وَ لَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ الخطاب هنا للرجال. و المراد بالولـد: ولـد الصلب، أو ولـد الولـد، لما قـدمنا من الإجماع. فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَـدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْنَ و هذا مجمع عليه، لم يختلف أهل العلم فى أن للزوج مع عدم الولد النصف، و مع وجوده و إن سـفل الربع. و قوله: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ إلخ، الكلام فيه كما تقدم. قوله: وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمّا تَرَكْتُمْ هذا النصيب مع الولـد، و النصـيب مع عـدمه تنفرد به الواحـدة من الزوجـات، و يشترك فيه الأـكثر من واحـدة لا خلاف فى ذلك، و الكلام فى الوصـية و الـدين كما تقـدّم. قوله: وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً المراد بالرجل: الميت و يُورَثُ على البناء للمفعول، من ورث لا من لا من أورث، و هو خبر كان و كَلالَةً حال من ضـمير يُورَثُ أى: يورث حال كونه ذا كلالة، أو على أن الخبر كلالة و يورث صفـة لرجل؛ أى: إن كان رجل يورث ذا كلالة ليس له ولد و لا والد، و قرئ: يُورَثُ مخففا و مشددا، فيكون كلالة: مفعولا، أو: حالا و المفعول محـذوف، أى: يورث و أريـد حال كونه ذا كلالـة، أو يكون مفعولا له: أى لأجل الكلالة. و الكلالة: مصدر من تكلله النسب، أى: أحـاط به، و به سـمى الإكليـل لإحـاطته بـالرأس. و هو الميت الـذى لاـ ولـد له و لاـ والـد. هـذا قول أبى بكر الصـديق، و عمر، و علىّ، و جمهور أهـل العلم؛ و به قـال صاحب كتاب العين، و أبى منصور اللغوى، و ابن عرفـة و القتبى، و أبو عبيد، و ابن الأنبارى.

و قد قيل: إنه إجماع. قال ابن كثير: و به يقول أهل المدينة و الكوفة و البصرة، و هو قول الفقهاء السبعة،

فتح القدير، ج۱، ص: ۵۰۰

فتح القدير ج۱ ۵۴۹

و الأئمـة الأربعـة، و جمهور الخلف و السلف، بل جميعهم. و قـد حكى الإجماع غير واحـد، و ورد فى حـديث مرفوع. انتهى. و روى أبو حاتم، و الأثرم عن أبى عبيـدة أنه قال: الكلالـة: كل من لم يرثه أب أو ابن أو أخ فهو عنـد العرب كلالة. قال أبو عمرو بن عبد البر: ذكر أبى عبيدة الأخ هنا مع الأب و الابن فى شرط الكلالة غلط، لا وجه له، و لم يذكره فى شرط الكلالة غيره، و ما يروى عن أبى بكر و عمر: من أن الكلالـة من لا ولـد له خاصـة فقـد رجعا عنه. و قال ابن زيـد: الكلالة: الحىّ و الميت جميعا، و

إنما سموا القرابة: كلالة، لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه و ليسوا منه و لا هو منهم، بخلاف الابن و الأب فإنهما طرفان له، فإذا ذهبا تكلله النسب؛ و قيل: إن الكلالة مأخوذة من الكلال، و هو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بعد و إعياء. و قال ابن الأعرابى: إن الكلالة بنو العم الأباعد. و بالجملة فمن قرأ يورّث كلالة بكسر الراء مشددة، و هو بعض الكوفيين، أو مخففة، و هو الحسن و أيوب، و جعل الكلالة: القرابة، و من قرأ:

يُورَثُ بفتح الراء، و هم الجمهور، احتمل أن يكون الكلالة الميت، و احتمل أن يكون القرابة. و قد روى عن على، و ابن مسعود، و زيد بن ثابت، و ابن عباس، و الشعبى: أن الكلالة ما كان سوى الولد و الوالد من الورثة. قال الطبرى: الصواب: أن الكلالة: هم الذين يرثون الميت من عدا ولده و والده، لصحة خبر جابر: «فقلت: يا رسول اللّه! إنما يرثنى كلالة، أ فأوصى بمالى كله؟ قال: لا». انتهى. و روى عن عطاء أنه قال: الكلالة: المال. قال ابن العربى: و هذا قول ضعيف لا وجه له. و قال صاحب الكشاف: إن الكلالة تطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولدا و لا والدا، و على من ليس بولد و لا والد من المخلفين، و على القرابة من غير جهة الولد و الوالد: انتهى. قوله: أَوِ امْرَأَةٌ معطوف على رجل، مقيد بما قيد به، أى: أو امرأة تورث كلالة. قوله: وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ قرأ سعد بن أبى وقاص: من أمّ، و سيأتى ذكر من أخرج ذلك عنه، قال القرطبى: أجمع العلماء: أن الإخوة هاهنا هم الإخوة لأم قال: و لا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب و الأم أو للأب ليس ميراثهم هكذا، فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين فى قوله تعالى: وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالًا وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ هم الإخوة لأبوين أو لأب، و أفرد الضمير فى قوله: وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ لأن المراد: كل واحد منهما، كما جرت بذلك عادة العرب؛ إذا ذكروا اسمين مستويين فى الحكم؛ فإنه قد يذكرون الضمير الراجع إليهما مفردا، كما فى قوله تعالى:

وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ «١» و قوله: يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ «٢». و قد يذكرونه مثنى، كما فى قوله: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما. و قد قدمنا فى هذا كلاما أطول من المذكور هنا. قوله: فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ الإشارة بقوله:

«مِنْ ذلِكَ» إلى قوله: وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ أى: أكثر من الأخ المنفرد أو الأخت المنفردة بواحد، و ذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعدا، ذكرين أو انثيين، أو ذكرا و أنثى. و قد استدل بذلك: على أن الذكر كالأنثى من الإخوة لأم، لأن اللّه شرّك بينهم فى الثلث، و لم يذكر فضل الذكر على الأنثى كما ذكره فى البنين و الإخوة لأبوين أو لأب. قال القرطبى: و هذا إجماع. و دلت الآية: على أن الإخوة لأمّ إذا استكملت بهم

---

(١). البقرة: ۴۵.

(٢). التوبة: ٣۴.

المسألة كانوا أقدم من الإخوة لأبوين أو لأب، و ذلك فى المسألة المسماة بالحمارية، و هى: إذا تركت الميتة زوجا و أما و أخوين لأمّ و إخوة لأبوين، فإن للزوج النصف و للأم السدس و للأخوين لأم الثلث و لا شىء للإخوة لأبوين. و وجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذى يرث عنده الإخوة من الأم و هو كون الميت كلالة، و يؤيد هذا حديث «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقى فلأولى رجل ذكر» و هو فى الصحيحين و غيرهما، و قد قررنا دلالة الآية و الحديث على ذلك فى الرسالة التى سميناها «المباحث الدرية فى المسألة الحمارية». و فى هذه المسألة خلاف بين الصحابة فمن بعدهم معروف. قوله: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ الكلام فيه كما تقدم. قوله: غَيْرَ مُضَارٍّ أى: يوصى حال كونه غير مضار لورثته بوجه من وجوه الضرار، كأن يقرّ بشىء

ليس عليه، أو يوصى بوصية لا مقصد له فيها إلا الإضرار بالورثة. أو يوصى لوارث مطلقا، أو لغيره بزيادة على الثلث و لم تجزه الورثة، و هذا القيد، أى قوله: غَيْرَ مُضَارٍّ راجع إلى الوصية و الدين المذكورين فهو قيد لهما، فما صدر من الإقرارات بالديون عنه أو الوصايا المنهى عنها، أو التى لا مقصد لصاحبها إلّا المضارة لورثته؛ فهو باطل مردود لا ينفذ منه شيء، لا الثلث و لا دونه. قال القرطبى: و أجمع العلماء:

على أن الوصية للوارث لا تجوز. انتهى. و هذا القيد، أعنى: عدم الضرار، هو قيد لجميع ما تقدّم من الوصية و الدين. قال أبو السعود فى تفسيره: و تخصيص القيد بهذا المقام: لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم.

قوله: وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ نصب على المصدر، أى: يوصيكم بذلك وصية من اللّه كقوله: فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ قال ابن عطية: و يصح أن يعمل فيها: مضار. و المعنى: أن يقع الضرر بها أو بسببها فأوقع عليها تجوزا، فتكون: وصية، على هذا مفعولا بها، لأن الاسم الفاعل قد اعتمد على ذى الحال، أو لكونه منفيا معنى، و قرأ الحسن: وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ بالجرّ، على إضافة اسم الفاعل إليها، كقوله: يا سارق الليلة أهل الدار.

و فى كون هذه الوصية من اللّه سبحانه دليل: على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة فى الفرائض، و أن كل وصية من عباده تخالفها؛ فهى مسبوقة بوصية اللّه، و ذلك كالوصايا المتضمنة لتفضيل بعض الورثة على بعض، أو المشتملة على الضرار بوجه من الوجوه، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى الأحكام المتقدمة، و سماها حدودا: لكونها لا تجوز مجاوزتها، و لا يحلّ تعديها وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فى قسمة المواريث و غيرها من الأحكام الشرعية، كما يفيده عموم اللفظ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و هكذا قوله: وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قرأ نافع، و ابن عامر: ندخله بالنون. و قرأ الباقون: بالياء التحتية. قوله: وَ لَهُ عَذابٌ مُهِينٌ أى: و له بعد إدخاله النار عذاب لا يعرف كنهه.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن جابر قال: عادنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول اللّه! فنزلت [يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ «۱»].

و قد قدّمنا أن سبب النزول: سؤال امرأة سعد بن الربيع. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى

---

(۱). ما بين حاصرتين استدرک من الدر المنثور [۲/ ۴۴۴].

قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى و لا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من ولده إلّا من أطاق القتال. فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر، و ترك امرأة يقال لها: أم كجّة، و ترک خمس جوار، فأخذ الورثة ماله، فشكت ذلك أمّ كجّة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه هذه الآية: فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ثم قال فى أمّ كجّة: وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ و أخرج سعيد بن منصور، و الحاكم، و البيهقى عن ابن مسعود قال: كان عمر بن الخطاب إذا سلك بنا طريقا فاتبعناه وجدناه سهلا، و أنه سئل عن امرأة و أبوين فقال للمرأة الربع، و للأم ثلث ما بقى، و ما بقى فللأب. و أخرج عبد الرزاق، و البيهقى عن زيد بن ثابت نحوه. و أخرج ابن جرير، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس:

أنه دخل على عثمان فقال: إن الأخوين لا يردان الأمّ عن الثلث. قال اللّه: فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ و الأخوان ليسا بلسان قومك إخوة، فقال عثمان: لا أستطيع أن أرد ما كان قبلى و مضى فى الأمصار، و توارث به الناس.

و أخرج الحاكم، و البيهقى فى سننه عن زيد بن ثابت أنه قال: إن العرب تسمى الأخوين: إخوة. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و ابن الجارود، و الدارقطنى، و

البيهقى فى سننه عن على قال: إنكم تقرؤون هذه الآية: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِها أَوْ دَيْنٍ و إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قضى بالدين قبل الوصية، و أن أعيان بنى الأمّ يتوارثون دون بنى العلات. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً يقول: أطوعكم للّه من الآباء و الأبناء أرفعكم درجة عند اللّه يوم القيامة، لأن اللّه سبحانه شفع المؤمنين بعضهم فى بعض. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً قال: فى الدنيا. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و الدارمى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن سعد بن أبى وقاص أنه كان يقرأ: و له أخ أو أخت من أمّ. و أخرج البيهقى عن الشعبى قال: ما ورث أحد من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الإخوة من الأمّ مع الجدّ شيئا قط. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال: قضى عمر أن ميراث الإخوة لأمّ بينهم للذكر مثل الأنثى، قال: و لا أرى عمر قضى بذلك حتى علمه من رسول اللّه، و لهذه الآية التى قال اللّه:

فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس قال: الإضرار فى الوصية من الكبائر، ثم قرأ: غَيْرَ مُضَارٍّ. و قد رواه ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عنه مرفوعا. و فى إسناده عمر بن المغيرة أبو حفص المصيصى. قال أبو القاسم بن عساكر: و يعرف بمفتى المساكين، و روى عنه غير واحد من الأئمة، قال فيه أبو حاتم الرازى: هو شيخ. قال: و على بن المدينى هو مجهول لا أعرفه. قال ابن جرير: و الصحيح الموقوف. انتهى. و رجال إسناد هذا الموقوف رجال الصحيح، فإن النسائى رواه فى سننه عن على بن حجر، عن على بن مسهر، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عنه. و أخرج أحمد، و عبد ابن حميد، و أبو داود، و الترمذى، و حسنه، و ابن ماجة، و اللفظ له، و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٠٣

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف فى وصيّته فيختم له بشرّ عمله فيدخل النّار، و إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الشرّ سبعين سنة، فيعدل فى وصيّته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنّة» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ إلى قوله: عَذابٌ مُهِينٌ و فى إسناده شهر ابن حوشب، و فيه مقال معروف. و أخرج ابن ماجة عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قطع ميراث وارثه قطع اللّه ميراثه من الجنّة يوم القيامة». و أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة مرفوعا. و أخرجه ابن أبى شيبة، و سعيد بن منصور، عن سليمان بن موسى قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فذكره نحوه. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث سعد بن أبى وقاص «أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أتاه يعوده فى مرضه فقال: إنّ لى مالا كثيرا و ليس يرثنى إلّا ابنة لى أ فأتصدق بالثلثين؟ فقال:

لا، قال: فالشّطر؟ قال: لا، قال: فالثلث؟ قال: الثلث، و الثلث كثير، إنّك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون النّاس». و أخرج ابن أبى شيبة عن معاذ بن جبل قال: إن اللّه تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة فى حسناتكم، يعنى: الوصية. و فى الصحيحين عن ابن عباس قال: وددت أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الثّلث كثير». و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال: ذكر عند عمر الثلث فى الوصية فقال: الثلث وسط لا بخس و لا شطط. و أخرج ابن أبى شيبة عن على قال: لأن أوصى بالخمس أحبّ إلىّ من أن أوصى بالربع، و لأن أوصى بالربع أحبّ إلىّ من أن أوصى بالثلث، و من أوصى بالثلث لم يترك.

[فائدة] ورد فى الترغيب فى تعلم الفرائض و تعليمها: ما أخرجه الحاكم، و البيهقى فى سننه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تعلّموا الفرائض و علّموه الناس، فإنى امرؤ مقبوض، و إنّ العلم سيقبض، و تظهر الفتن، حتى يختلف

الاثنان فی الفريضة، لا يجدان من يقضی بها». و أخرجاه عن أبی هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «تعلّموا الفرائض و علّموه، فإنّه نصف العلم، و إنّه ينسی، و هو أوّل ما ينزع من أمتی». و قد روی عن عمر، و ابن مسعود، و أنس آثار فی الترغيب فی الفرائض، و كذلك روی عن جماعة من التابعين و من بعدهم.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۵ الی ۱۸]

وَ اللاَّتِی يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِی الْبُيُوتِ حَتَّی يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (۱۵) وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَ أَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً (۱۶) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَی اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّی إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ وَ لا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۸)

لما ذكر سبحانه فی هذه السورة الإحسان إلی النساء، و إيصال صدقاتهنّ إليهنّ، و ميراثهنّ مع الرجال،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۰۴

ذكر التغليظ عليهنّ فيما يأتين به من الفاحشة، لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهنّ ترك التعفف وَ اللَّاتِی جمع التی بحسب المعنی دون اللفظ، و فيه لغات: اللاتی بإثبات التاء و الياء، و اللات بحذف الياء و إبقاء الكسرة لتدل عليها، و اللائی بالهمزة و الياء، و اللاء بكسر الهمزة و حذف الياء، و يقال فی جمع الجمع: اللواتی، و اللوائی، و اللوات، و اللواء. و الفاحشة: الفعلة القبيحة، و هی مصدر، كالعافية، و العاقبة، و قرأ ابن مسعود: (بالفاحشة). و المراد بها هنا: الزنا خاصة، و إتيانها: فعلها، و مباشرتها. و المراد بقوله: مِنْ نِسائِكُمْ المسلمات، و كذا مِنْكُمْ المراد به المسلمون. قوله: فَأَمْسِكُوهُنَّ فِی الْبُيُوتِ كان هذا فی أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالی: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِی فَاجْلِدُوا «۱»، و ذهب بعض أهل العلم إلی أن الحبس المذكور و كذلك الأذی باقيان مع الجلد، لأنه لا تعارض بينها بل الجمع ممكن. قوله: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا هو ما فی حديث عبادة الصحيح من قوله صلّی اللّه عليه و سلّم: «خذوا عنی قد جعل اللّه لهنّ سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة و تغريب عام» الحديث. قوله: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ اللذان: تثنية الذی، و كان القياس أن يقال: اللذيان، كرحيان. قال سيبويه: حذفت الياء ليفرق بين الأسماء الممكنة و بين الأسماء المبهمة. و قال أبو علی: حذفت الياء تخفيفا. و قرأ ابن كثير: (اللّذانّ) بتشديد النون و هی لغة قريش، و فيه لغة أخری و هی: (اللّذا) بحذف النون. و قرأ الباقون: بتخفيف النون. قال سيبويه: المعنی و فيما يتلی عليكم اللذان يأتيانها، أی: الفاحشة منكم، و دخلت الفاء فی الجواب: لأن فی الكلام معنی الشرط.

و المراد باللذان هنا: الزانی و الزانية تغليبا؛ و قيل: الآية الأولی: فی النساء خاصة محصنات و غير محصنات، و الثانية، فی الرجال خاصة، و جاء بلفظ التثنية لبيان صنفی الرجال، من أحصن و من لم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، و عقوبة الرجال الأذی، و اختار هذا النحاس، و رواه عن ابن عباس، و رواه القرطبی عن مجاهد و غيره، و استحسنه. و قال السدی، و قتادة، و غيرهما: الآية الأولی فی النساء المحصنات، و يدخل معهنّ الرجال المحصنون، و الآية الثانية: فی الرجل و المرأة البكرين، و رجحه الطبری، و ضعفه النحاس، و قال: تغليب المؤنث علی المذكر بعيد. و قال ابن عطية: إن معنی هذا القول تام إلّا أن لفظ الآية يقلق عنه، و قيل: كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل، فخصت المرأة بالذكر فی الإمساك، ثم جمعا فی الإيذاء، قال قتادة: كانت المرأة تحبس و يؤذيان جميعا. و اختلف المفسرون فی تفسير الأذی، فقيل: التوبيخ و التعبير؛ و قيل:

السبّ و الجفاء من دون تعيير؛ و قيل: النيل باللسان و الضرب بالنعال، و قد ذهب قوم إلی أن الأذی منسوخ كالحبس؛ و قيل:

ليس بمنسوخ كما تقدّم فى الحبس. قوله: فَإِنْ تابا أى: من الفاحشة وَ أَصْلَحا العمل فيما بعد فَأَعْرِضُوا عَنْهُما أى: اتركوهما، و كفوا عنهما الأذى، و هذا كان قبل نزول الحدود على ما تقدّم من الخلاف. قوله: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ استئناف لبيان: أن التوبة ليست بمقبولة على الإطلاق، كما ينبئ عنه قوله: تَوَّاباً رَحِيماً بل إنما تقبل من البعض دون البعض، كما بينه النظم القرآنى هاهنا، فقوله: إِنَّمَا التَّوْبَةُ مبتدأ خبره قوله: لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ. و قوله: عَلَى اللَّهِ متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار، أو متعلق بمحذوف وقع حالا عند من يجوز تقديم الحال التى

---

(١). النور: ٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٠٥

هى ظرف على عاملها المعنوى؛ و قيل: المعنى: إنما التوبة على فضل اللّه و رحمته بعباده؛ و قيل: المعنى: إنما التوبة واجبة على اللّه، و هذا على مذهب المعتزلة لأنهم يوجبون على اللّه عز و جل واجبات من جملتها قبول توبة التائبين؛ و قيل: على، هنا: بمعنى عند؛ و قيل: بمعنى من.

و قد اتفقت الأمة: على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «١» و ذهب الجمهور؛ إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافا للمعتزلة؛ و قيل: إن قوله: عَلَى اللَّهِ هو الخبر. و قوله: لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ متعلق بما تعلق به الخبر، أو بمحذوف وقع حالا- و السوء هنا: العمل السيئ. و قوله: بِجَهالَةٍ متعلق بمحذوف وقع صفة أو حالا- أى: يعملونها متصفين بالجهالة، أو جاهلين. و قد حكى القرطبى عن قتادة أنه قال: أجمع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: على أن كل معصية فهى بجهالة عمدا كانت أو جهلا. و حكى عن الضحاك و مجاهد: أن الجهالة هنا العمد، و قال عكرمة:

أمور الدنيا كلها جهالة، و منه قوله تعالى: إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ* «٢» و قال الزجاج: معناه: بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية؛ و قيل: معناه: أنهم لا- يعلمون كنه العقوبة، ذكره ابن فورك، و ضعفه ابن عطية. قوله: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ معناه: قبل أن يحضرهم الموت، كما يدل عليه قوله: حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ و به قال أبو مجلز، و الضحاك، و عكرمة، و غيرهم، و المراد: قبل المعاينة للملائكة و غلبة المرء على نفسه، و «من» فى قوله: مِنْ قَرِيبٍ للتبعيض، أى: يتوبون بعد زمان قريب، و هو ما عدا وقت حضور الموت؛ و قيل: معناه: قبل المرض، و هو ضعيف، بل باطل لما قدمنا، و لما أخرجه أحمد، و الترمذى، و حسنه، و ابن ماجة، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» و قيل: معناه: يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار. قوله: فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم، بعد بيانه:

أن التوبة لهم مقصورة عليهم. و قوله: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة ثم تاب من قريب قوله: حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ حتى:

حرف ابتداء، و الجملة المذكورة بعدها: غاية لما قبلها، و حضور الموت: حضور علاماته، و بلوغ المريض إلى حالة السياق، و مصيرة مغلوبا على نفسه، مشغولا بخروجها من بدنه، و هو وقت الغرغرة المذكورة فى الحديث السابق، و هى بلوغ روحه حلقومه، قاله الهروى. و قوله: قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ أى: وقت حضور الموت. قوله: وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ معطوف على الموصول فى قوله: لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أى: ليست التوبة لأولئك و لا للذين يموتون و هم كفار، مع أنه لا توبة لهم رأسا «٣»، و إنما ذكروا مبالغة فى بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت، و أن وجودها كعدمها.

و قد أخرج البزار، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ

(١). النور: ٣١.

(٢). محمد: ٣۶.

(٣). أى: أصلا، أو: أساسا.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٠۶

قال كانت المرأة إذا فجرت حبست فى البيوت، فإن ماتت ماتت، و إن عاشت عاشت، حتى نزلت الآية فى سورة النور الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا «١» فجعل اللّه لهنّ سبيلا. فمن عمل شيئا جلد و أرسل، و قد روى هذا عنه من وجوه. و أخرج أبو داود فى سننه عنه و البيهقى فى قوله: وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ إلى قوله: سَبِيلًا ثم جمعهما جميعا، فقال: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما ثم نسخ ذلك بآية الجلد، و قد قال بالنسخ جماعة من التابعين، أخرجه أبو داود، و البيهقى عن مجاهد. و أخرجه عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة، و أخرجه البيهقى فى سننه عن الحسن، و أخرجه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، و أخرجه ابن جرير عن السدى. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ قال: كان الرجل إذا زنا أوذى بالتعيير و ضرب بالنعال، فأنزل اللّه بعد هذه الآية: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ «٢» فإن كانا محصنين رجما فى سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ قال: الرجلان الفاعلان. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ يعنى: البكرين. و أخرج ابن جرير عن عطاء قال: الرجل و المرأة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ

الآية. قال: هذه للمؤمنين و فى قوله: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قال: هذه لأهل النفاق وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ قال: هذه لأهل الشرك. و أخرج ابن جرير عن الربيع مثله. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فرأوا أن كل شىء عصى به فهو جهالة عمدا كان أو غيره. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، عن أبى العالية أن أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة. و أخرج ابن جرير من طريق الكلبى عن صالح، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ الآية، قال: من عمل السوء فهو جاهل، من جهالته عمل السوء.

ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ قال: فى الحياة و الصحة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه قال: القريب ما بينه و بين أن ينظر إلى ملك الموت. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى فى الشعب عن الضحاك قال: كل شىء قبل الموت فهو قريب، له التوبة ما بينه و بين أن يعاين ملك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت فليس له ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: القريب: ما لم يغرغر. و قد وردت أحاديث كثيرة فى قبول توبة العبد ما لم يغرغر، ذكرها ابن كثير فى تفسيره، و منها الحديث الذى قدّمنا ذكره.

(١). النور: ٢.

(٢). النور: ٢.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٠٧

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (۱۹) وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۲۰) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۲۱) وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ ساءَ سَبِيلاً (۲۲)

هـذا متصـل بمـا تقـدّم من ذكر الزوجـات، و المقصود نفى الظلم عنهن، و الخطاب للأولياء، و معنى الآيـة يتضـح بمعرفـة سـبب نزولهـا، و هو مـا أخرجه البخارى و غيره عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً قال: كانوا إذا مـات الرجـل كـان أولياؤه أحقّ بامرأته، إن شاء بعضـهم تزوجها، و إن شاؤوا زوجوها، و إن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلهـا، فنزلت. و فى لفـظ لأبى داود عنه فى هـذه الآيـة: كان الرجل يرث امرأة ذى قرابته، فيعضـلها حتى تموت، أو تردّ إليه صداقها. و فى لفظ لابن جرير و ابن أبى حاتم عنه: فإن كانت جميلة تزوجها، و إن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها.
و قـد روى هـذا السبب بألفـاظ، فمعنى قوله: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسـاءَ كَرْهاً أى: لا يحل لكم أن تأخـذوهن بطريق الإرث، فـتزعمون أنكـم أحـق بهن من غيركم، و تحبسـونهن لأنفسـكم وَ لا يحـل لكم أن تَعْضُلُوهُنَ عن أن يـتزوجن غيركم، لتأخـذوا ميراثهن إذا متن، أو ليدفعن إليكم صداقهن إذا أذنتم لهن بالنكاح. قال الزهرى و أبو مجلز: كان من عاداتهم إذا مات الرجل و له زوجة ألقى ابنه من غيرها أو أقرب عصـبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها و من أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصـداق الـذى أصـدقها الميت، و إن شاء زوجها من غيره و أخـذ صداقها و لم يعطها شـيئا، و إن شاء عضـلها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت فيرثهـا، فنزلت الآيـة. و قيل: الخطاب لأزواج النساء إذا حبسوهنّ مع سوء العشـرة طمعا فى إرثهنّ، أو يفتـدين ببعض مهورهنّ، و اختاره ابن عطيـة. قال: و دليل ذلك قوله: إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ إذا أتت بفاحشـة فليس للولىّ حبسـها حتى تـذهب بمالها، إجماعا من الأمة، و إنما ذلك للزوج. قال الحسن: إذا زنت البكر فإنها تجلد مائة، و تنفى، و تردّ إلى زوجها ما أخـذت منه. و قال أبو قلابـة: إذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارّها و يشقّ عليها حتى تفتـدى منه. و قال السـدى: إذا فعلن ذلـك فخـذوا مهورهن. و قـال قوم: الفاحشـة: البـذاءة باللسان، و سوء العشـرة قولا و فعلا. و قال مالك و جماعـة من أهل العلم: للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك. هذا كله على أن الخطاب فى قوله: وَ لا تَعْضُلُوهُنَ للأزواج، و قد عرفت مما قدمنا فى سبب النزول أن الخطاب فى قوله: وَ لا تَعْضُلُوهُنَ لمن خوطب بقوله: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً فيكون المعنى: و لا يحلّ لكم أن تمنعوهنّ من الزواج لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مـا آتَيْتُمُوهُنَ أى: ما آتاهنّ من ترثونه إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ جاز لكم حبسـهنّ عن الأزواج، و لا يخفى ما فى هـذا من التعسف مع عـدم جواز حبس من أتت بفاحشة عن أن تتزوج و تسـتعفّ من الزنا، و كما أن جعـل قوله: وَ لا تَعْضُلُوهُنَ خطابـا للأوليـاء فيه هـذا التعسف، كـذلك جعـل قوله: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً خطابا للأوليـاء فيه هـذا التعسف، كـذلك جعـل قوله: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسـاءَ كَرْهاً خطابا للأزواج فيه تعسف ظاهر، مع مخالفته لسبب نزول الآية الذى ذكرناه، و الأولى أن يقال: إن الخطاب فى قوله: لا يَحِلُّ لَكُمْ للمسلمين، أى:
لا يحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرها كما كانت تفعله الجاهلية، و لا يحلّ لكم معاشر المسلمين

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۰۸

أن تعضـلوا أزواجكم: أى تحبسوهن عنـدكم مع عـدم رغوبكم «۱» فيهنّ، بـل لقصـد أن تـذهبوا ببعض مـا آتيتموهنّ من المهر،

يفتـدين به من الحبس و البقاء تحتكم، و فى عقـدتكم مع كراهتكم لهنّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ جاز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتموهنّ. قوله: مُبَيِّنَةٍ قرأ نـافع، و أبو عمرو، و ابن عـامر، و حفص و حمزة، و الكسائى: بكسـر الياء. و قرأ الباقون: بفتحها. و قرأ ابن عباس: مُبَيِّنَةٍ بكسـر الباء و سكون الياء، من أبان الشـىء فهو مبين. قوله: وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ أى: بما هو معروف فى هذه الشـريعة و بين أهلهـا من حسن المعاشـرة، و هو خطـاب للأزواج أو لما هو أعم، و ذلك يختلف باختلاف الأزواج فى الغنى، و الفقر، و الرفاعـة، و الوضاعة فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَ لسـبب من الأسـباب من غير ارتكاب فاحشة و لا نشوز فَعَسـى أن يؤول الأمر إلى ما تحبونه من ذهاب الكراهة و تبدلها بالمحبة، فيكون فى ذلك خير كثير من استدامة الصحبة و حصول الأولاد، فيكون الجزاء على هذا محذوفا مدلولا عليه بعلته، أى: فإن كرهتموهنّ فاصبروا فَعَسـى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً «٢». قوله: وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً قـد تقـدم بيانه فى آل عمران، و المراد به هنا: المال الكثير، فلا تأخـذوا منه شـيئا. قيل: هى محكمـة؛ و قيل: هى منسوخة بقوله تعالى فى سورة البقرة: وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ «٣» و الأولى: أن الكل محكم، و المراد هنا: غير المختلعة لا يحل لزوجها أن يأخذ مما آتاها شـيئا. قوله: أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً الاسـتفهام للإنكار و التقريع. و الجملـة مقررة للجملـة الأولى المشـتملة على النهى. و قوله: وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ إنكار بعـد إنكار مشـتمل على العلة التى تقتضى منع الأخذ: و هى الإفضاء. قال الهروى: و هو إذا كانا فى لحاف واحد، جامع أو لم يجامع، و قال الفراء:

الإفضاء: أن يخلو الرجل و المرأة و إن لم يجامعها. و قال ابن عباس و مجاهد و السدى: الإفضاء فى هذه الآية:

الجماع، و أصل الإفضاء فى اللغة المخالطة، يقال للشىء المختلط: فضاء، و يقال: القوم فوضى و فضاء، أى:

مختلطون لا أمير عليهم. قوله: وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً معطوف على الجملة التى قبله، أى: و الحال أن قد أفضـى بعضـكم إلى بعض، و قـد أخـذن منكم ميثاقا غليظـا و هـو عقـد النكـاح، و منه قوله صـلّى اللّه عليه و سـلم: «فـإنّكم أخـذتموهنّ بأمانـة اللّه و اسـتحللتم فروجهنّ بكلمـة اللّه» و قيـل: هو قوله تعـالى: فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ «۴» و قيـل: هو الأولاد. قوله: وَ لا تَنْكِحُوا مـا نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ نهى عما كانت عليه الجاهليـة من نكاح نساء آبائهم إذا ماتوا، و هو شـروع فى بيان من يحرم نكـاحه من النسـاء و من لا يحرم. ثم بين سـبحانه وجه النهى عنه فقال: إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ ساءَ سَبِيلًا هـذه الصـفات الثلاث تـدل: على أنه من أشـدّ المحرمات و أقبحها، و قـد كانت الجاهلية تسـميه نكاح المقت. قال ثعلب: سألت ابن الأعرابى عن نكاح المقت فقال: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها، أو مات عنها، و يقال لهذا: الضيزن، و أصل

---

(۱). الأولى أن يقول: عـدم رغبتكم فيهن، حيث لم نجـد هـذا المصـدر «رغوب» فيما راجعناه من معاجم اللغـة، انظر مصادر فعل «رغب» فى لسان العرب و تاج العروس و غيرهما.

(۲). البقرة: ۲۲۹.

(۳). البقرة: ۲۲۹.

(۴). البقرة: ۲۲۹.

المقت: البغض، من: مقته، يمقته، مقتـا، فهو: ممقوت، و مقيت. قوله: إِلَّا مـا قَدْ سَلَفَ هو اسـتثناء منقطع، أى: لكن ما قـد سـلف فاجتنبوه و دعوه؛ و قيل: إلا: بمعنى بعـد، أى: بعـد ما سـلف؛ و قيل: المعنى: و لا ما سـلف؛ و قيل: هو اسـتثناء متصل من قوله: ما نَكَحَ آبـاؤُكُمْ يفيـد المبالغـة فى التحريم، بـإخراج الكلام مخرج التعلق بالمحـال، يعنى: إن أمكنكم أن تنكحوا مـا قـد سـلف فانكحوا، فلا يحلّ لكم غيره. قوله: وَ ساءَ سَبِيلًا هى جاريـة مجرى بئس فى الذم و العمل، و المخصوص بالذم محذوف، أى: ساء

سبيلا سبيل ذلک النکاح؛ و قيل: إنها جارية مجرى سائر الأفعال، و فيها ضمير يعود إلى ما قبلها.

و قد أخرج النسائى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى أمامة بن حنيف قال: لما توفى أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، و قد کان لهم ذلک فى الجاهلية، فأنزل اللّه: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن عکرمة قال: نزلت هذه الآية: فى کبيشة بنت معمر بن عاصم من الأوس، کانت عند أبى قيس بن الأسلت، فتوفى عنها، فجنح عليها ابنه، فجاءت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: لا أنا ورثت زوجى، و لا أنا ترکت فأنکح، فنزلت هذه الآية. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، عن عبد الرحمن بن البيلمانى فى قوله: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَ قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما فى أمر الجاهلية، و الأخرى فى أمر الإسلام. قال ابن المبارک: أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً فى الجاهلية، وَ لا تَعْضُلُوهُنَ فى الإسلام. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن أبى مالک فى قوله:

وَ لا تَعْضُلُوهُنَ قال: لا تضر بامرأتک لتفتدى منک. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد:

وَ لا تَعْضُلُوهُنَ يعنى: أن ينکحن أزواجهن، کالعضل فى سورة البقرة. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: کان العضل فى قريش بمکة: ينکح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لا توافقه فيفارقها على أن تتزوج إلا بإذنه، فيأتى بالشهود فيکتب ذلک عليها و يشهد، فإذا خطبها خاطب فإن أعطته و أرضته أذن لها و إلا عضلها، و قد قدمنا عن ابن عباس فى بيان السبب ما عرفت. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قال: البغض و النشوز، فإذا فعلت ذلک فقد حل له منها الفدية. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن الضحاک نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: الفاحشة هنا:

الزنا. و أخرج ابن جرير عن الضحاک نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ قال: خالطوهنّ. قال ابن جرير: صحفه بعض الرواة و إنما هو خالقوهنّ. و أخرج ابن المنذر عن عکرمة قال. حقها عليک الصحبة الحسنة، و الکسوة، و الرزق المعروف.

و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل: وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ يعنى: صحبتهن بالمعروف فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً فيطلقها، فتتزوج من بعده رجلا، فيجعل اللّه له منها ولدا، و يجعل اللّه فى تزويجها خيرا کثيرا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الخير الکثير: أن يعطف عليها، فترزق ولدها، و يجعل اللّه فى ولدها خيرا کثيرا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى نحوه. و أخرج عبد ابن حميد عن الحسن نحو ما قال مقاتل. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ

فتح القدير، ج‏1، ص: 510

زَوْجٍ الآية، قال: إن کرهت امرأتک و أعجبک غيرها؛ فطلقت هذه و تزوجت تلک؛ فأعط هذه مهرها؛ و إن کان قنطارا. و أخرج سعيد بن منصور، و أبو يعلى. قال السيوطى بسند جيد: أن عمر نهى الناس أن يزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم، فاعترضت له امرأة من قريش فقالت: أما سمعت ما أنزل اللّه يقول: وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فقال: اللهم غفرا کل الناس أفقه من عمر، فرکب المنبر فقال: يا أيها الناس! إنى کنت نهيتکم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهنّ على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحبّ. قال أبو يعلى: فمن طابت نفسه فليفعل. قال ابن کثير: إسناده جيد قوى، و قد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة، هذا أحدها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الإفضاء:

هو الجماع، و لکن اللّه يکنى. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً قال: الغليظ: إمساک بمعروف؛ أو تسريح بإحسان. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن

جرير عن قتادة نحوه و قال: و قد كان ذلک يؤخذ عند عقد النكاح: آللّه عليک لتمسكن بمعروف أو لتسرحنّ بإحسان. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر عن ابن أبى مليكة أن ابن عمر كان إذا نكح قال: أنكحتک على ما أمر اللّه به، إمساک بمعروف أو تسريح بإحسان.

و أخرج ابن أبى شيبة عن أنس بن مالک نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة و مجاهد فى قوله: وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً قال: أخذتموهنّ بأمانة اللّه و استحللتم فروجهن بكلمة اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هو قول الرجل: ملكت. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: كلمة النكاح التى تستحلّ بها فروجهنّ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و البيهقى فى سننه فى قوله تعالى: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ أنها نزلت لما أراد ابن أبى قيس بن الأسلت أن يتزوج امرأة أبيه بعد موته. و أخرج ابن المنذر عن الضحاک: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إلا ما كان فى الجاهلية. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن البراء قال: لقيت خالى و معه الراية قلت: أين تريد؟ قال: بعثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده، فأمرنى أن أضرب عنقه و آخذ ماله.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۱۱

[سورة النساء (۴): الآيات ۲۳ الى ۲۸]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خالاتُكُمْ وَ بَناتُ الْأَخِ وَ بَناتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۳) وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۲۴) وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۵) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۶) وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (۲۷)
يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً (۲۸)

قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ أى: نكاحهنّ، و قد بيّن اللّه سبحانه فى هذه الآية ما يحلّ و ما يحرم من النساء فحرّم سبعا من النسب، و ستا من الرضاع و الصهر، و ألحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة و عمتها، و بين المرأة و خالتها، و وقع عليه الإجماع. فالسبع المحرمات من النسب: الأمهات، و البنات، و الأخوات، و العمات، و الخالات، و بنات الأخ، و بنات الأخت. و المحرمات بالصهر و الرضاع: الأمهات من الرضاعة، و الأخوات من الرضاعة، و أمهات النساء، و الربائب، و حلائل الأبناء، و الجمع بين الأختين، فهؤلاء ست، و السابعة: منكوحات الآباء، و الثامنة: الجمع بين المرأة و عمتها. قال الطحاوى: و كل هذا من المحكم المتفق عليه، و غير جائز نكاح واحدة منهنّ بالإجماع إلا أمهات النساء اللواتى لم يدخل بهنّ أزواجهنّ، فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، و لا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم. و قال بعض السلف: الأم و الربيبة سواء لا

تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالأخرى. قالوا: و معنى قوله: وَ أَمَّهاتُ نِسائِكَمْ أى: اللاتى دخلتم بهن، و زعموا: أن قيد الدخول راجع إلى الأمهات و الربائب جميعا، رواه خلاس عن علىّ بن أبى طالب. و روى عن ابن عباس، و جابر، و زيد بن ثابت، و ابن الزبير، و مجاهد. قال القرطبى: و رواية خلاس عن علىّ لا تقوم بها حجة، و لا تصح روايته عند أهل الحديث، و الصحيح عنه مثل قول الجماعة. و قد أجيب عن قولهم: إن قيد الدخول راجع إلى الأمهات و الربائب: بأن ذلك لا يجوز من جهة الإعراب، و بيانه: أن الخبرين إذا اختلفا فى العامل لم يكن نعتهما واحدا، فلا يجوز عند النحويين مررت بنسائك و هويت نساء زيد الظريفات، على أن يكون الظريفات نعتا للجميع، فكذلك فى الآية لا يجوز أن يكون اللاتى دخلتم بهنّ نعتا لهما جميعا، لأن الخبرين مختلفان. قال ابن المنذر: و الصحيح: قول الجمهور: لدخول جميع أمهات النساء فى قوله: وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ و مما يدل على ما ذهب إليه الجمهور: ما أخرجه عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه من طريقين:
عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا نكح الرجل المرأة فلا يحلّ له أن يتزوّج أمّها دخل بالابنة أو لم يدخل، و إذا تزوّج الأمّ فلم يدخل بها ثم طلّقها، فإن شاء تزوّج الابنة» قال ابن

كثير فى تفسيره مستدلا للجمهور: و قد روى فى ذلك خبر غير أن فى إسناده نظرا، فذكر هذا الحديث ثم قال: و هذا الخبر و إن كان فى إسناده ما فيه، فإن إجماع الحجة على صحة القول به يغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره، قال فى الكشاف: و قد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام اللّه تعالى. انتهى. و دعوى الإجماع مدفوعة بخلاف من تقدم. و اعلم: أنه يدخل فى لفظ الأمهات: أمهاتهنّ، و جداتهنّ، و أمّ الأب، و جدّاته، و إن علون، لأن كلهن أمهات لمن ولده من ولدته و إن سفل. و يدخل فى لفظ البنات: بنات الأولاد و إن سفلن، و الأخوات؛ تصدق على الأخت لأبوين، أو لأحدهما، و العمة: اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدّك فى أصليه أو أحدهما. و قد تكون العمة من جهة الأم و هى أخت أب الأمّ. و الخالة: اسم لكل أنثى شاركت أمك فى أصليها أو فى أحدهما، و قد تكون الخالة من جهة الأب و هى أخت أم أبيك، و بنت الأخ: اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة و مباشرة و إن بعدت، و كذلك بنت الأخت. قوله: وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ هذا مطلق مقيد بما ورد فى السنة: من كون الرضاع فى الحولين إلا فى مثل قصة إرضاع سالم مولى أبى حذيفة، و ظاهر النظم القرآنى:
أنه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع لغة و شرعا، و لكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات فى أحاديث صحيحة، و البحث عن تقرير ذلك و تحقيقه يطول، و قد استوفيناه فى مصنفاتنا، و قررنا ما هو الحق فى كثير من مباحث الرضاع. قوله: وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ الأخت من الرضاع: هى التى أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الإخوة و الأخوات، و الأخت من الأم: هى التى أرضعتها أمك بلبان رجل آخر. قوله: وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ قد تقدم الكلام على اعتبار الدخول و عدمه. و المحرمات بالمصاهرة أربع: أمّ المرأة، و ابنتها، و زوجة الأب، و زوجة الابن. قوله:
وَ رَبائِبُكُمُ الربيبة: بنت امرأة الرجل من غيره؛ سميت بذلك لأنه يربيها فى حجره، فهى مربوبة، فعيلة:
بمعنى مفعولة. قال القرطبى: و اتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم، و إن لم تكن الربيبة فى حجره، و شذ بعض المتقدمين و أهل الظاهر، فقالوا: لا تحرم الربيبة إلا أن تكون فى حجر المتزوج، فلو كانت فى بلد آخر و فارق الأم فله أن يتزوج بها، و قد روى ذلك عن علىّ. قال ابن المنذر، و الطحاوى:
لم يثبت ذلك عن علىّ، لأن راويه إبراهيم بن عبيد عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علىّ، و إبراهيم هذا لا يعرف. و قال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراج هذا عن على: و هذا إسناد قوى ثابت إلى على بن أبى طالب على شرط مسلم. و الحجور: جمع

حجر: و المراد: أنهنّ فى حضانة أمهاتهنّ تحت حماية أزواجهن كما هو الغالب- و قيل: المراد بالحجور: البيوت، أى: فى بيوتكم، حكاه الأثرم عن أبى عبيدة. قوله: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أى: فى نكاح الربائب، و هو تصريح بما دلّ عليه مفهوم ما قبله.

و قد اختلف أهل العلم فى معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب: فروى عن ابن عباس أنه قال: الدخول:

الجماع، و هو قول طاوس، و عمرو بن دينار، و غيرهما. و قال مالك، و الثورى، و أبو حنيفة، و الأوزاعى، و الليث، و الزيدية: إن الزوج إذا لمس الأمّ لشهوة حرّمت عليه ابنتها، و هو أحد قولى الشافعى. قال ابن

فتح القدير، ج ١، ص: ٥١٣

جرير الطبرى: و فى إجماع الجميع: أن خلوة الرجل بامرأته لا تحرّم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها و مباشرتها، أو قبل النظر إلى فرجها؛ لشهوة: ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع. انتهى. و هكذا حكى الإجماع القرطبى فقال: و أجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حلّ له نكاح ابنتها. و اختلفوا فى النظر، فقال مالك: إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها و ابنتها. و قال الكوفيون: إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة، و كذا قال الثورى و لم يذكر الشهوة. و قال ابن أبى ليلى: لا تحرم بالنظر حتى يلمس، و هو قول الشافعى. و الذى ينبغى التعويل عليه فى مثل هذا الخلاف: هو النظر فى معنى: الدخول، شرعا أو لغة، فإن كان خاصا بالجماع؛ فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما، و إن كان معناه أوسع من الجماع؛ بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع؛ كان مناط التحريم هو ذلك. و أما الربيبة فى ملك اليمين: فقد روى عن عمر بن الخطاب: أنه كره ذلك. و قال ابن عباس: أحلتهما آية، و حرمتهما آية، و لم أكن لأفعله. و قال ابن عبد البر: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة و ابنتها من ملك اليمين، لأن اللّه حرّم ذلك فى النكاح قال: وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ و ملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روى عن عمر و ابن عباس، و ليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى و لا من تبعهم. انتهى. قوله: وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الحلائل: جمع حليلة و هى الزوجة؛ سميت بذلك: لأنها تحلّ مع الزوج حيث حلّ، فهى: فعيلة بمعنى فاعلة. و ذهب الزجاج و قوم: إلى أنها من لفظة الحلال، فهى حليلة بمعنى محللة. و قيل:

لأن كل واحد منهما يحلّ إزار صاحبه. و قد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، و ما عقد عليه الأبناء على الآباء، سواء كان مع العقد وطء أو لم يكن، لقوله تعالى: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ و قوله: وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ

و اختلف الفقهاء فى العقد إذا كان فاسدا: هل يقتضى التحريم أم لا؟ كما هو مبين فى كتب الفروع.

قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار: أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه و ابنه و على أجداده. و أجمع العلماء: على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرّمها على أبيه و ابنه، فإذا اشترى جارية فلمس، أو قبل، حرمت على أبيه و ابنه، لا أعلمهم يختلفون فيه، فوجب تحريم ذلك تسليما لهم. و لما اختلفوا فى تحريمها بالنظر دون اللمس لم يجز ذلك لاختلافهم قال: و لا يصح عن أحد من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خلاف ما قلناه. قوله: الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وصف للأبناء، أى: دون من تبنيتم من أولاد غيركم كما كانوا يفعلونه فى الجاهلية، و منه قوله تعالى: فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً «١» و منه قوله تعالى: وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ «٢» و منه: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ «٣» و أما زوجة الابن من الرضاع، فقد ذهب الجمهور: إلى أنها تحرم على أبيه، و قد قيل: إنه إجماع، مع أن الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب.

و وجهه ما صح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» و لا خلاف أن أولاد

(۱). الأحزاب: ۳۷.

(۲). الأحزاب: ۴.

(۳). الأحزاب: ۴۰.

الأولاد و إن سفلوا بمنزلة أولاد الصلب فى تحريم نكاح نسائهم على آبائهم.

و قد اختلف أهل العلم فى وطء الزنا: هل يقتضى التحريم أو لا؟ فقال أكثر أهل العلم: إذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك، و كذلك لا تحرم عليه امرأته إذا زنا بأمها أو بابنتها، و حسبه أن يقام عليه الحدّ، و كذلك يجوز له عندهم أن يتزوّج بأم من زنى بها و بابنتها. و قالت طائفة من أهل العلم: إن الزنا يقتضى التحريم. حكى ذلك عن عمران بن حصين، و الشعبى، و عطاء، و الحسن، و سفيان الثورى، و أحمد، و إسحاق، و أصحاب الرأى، و حكى ذلك عن مالك، و الصحيح عنه: كقول الجمهور. احتج الجمهور بقوله تعالى: وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ و بقوله: وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ و الموطوءة بالزنا لا يصدق عليها أنها من نسائهم، و لا من حلائل أبنائهم.

و قد أخرج الدارقطنى عن عائشة قالت: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوّجها أو ابنتها، فقال: «لا يحرّم الحرام الحلال». و احتج المحرّمون: بما روى فى قصة جريج الثابتة فى الصحيح أنه قال: يا غلام من أبوك؟ فقال: فلان الراعى، فنسب الابن نفسه إلى أبيه من الزنا، و هذا احتجاج ساقط، و احتجوا أيضا بقوله صلّى اللّه عليه و سلم: «لا ينظر اللّه إلى رجل نظر إلى فرج امرأة و ابنتها» و لم يفصل بين الحلال و الحرام. و يجاب عنه بأن هذا مطلق؛ مقيد بما ورد من الأدلة الدالة: على أن الحرام لا يحرّم الحلال.

و اختلفوا فى اللواط هل يقتضى التحريم أم لا؟ فقال الثورى: إذا لاط بالصبىّ حرمت عليه أمه، و هو قول أحمد بن حنبل قال: إذا تلوّط بابن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته. و قال الأوزاعى: إذا لاط بغلام و ولد للمفجور به بنت؛ لم يجز للفاجر أن يتزوجها؛ لأنها بنت من قد دخل به. و لا يخفى ما فى قول هؤلاء من الضعف و السقوط النازل عن قول القائلين: بأن وطء الحرام يقتضى التحريم بدرجات، لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشبه، على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم. قوله: وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ أى: و حرّم عليكم أن تجمعوا بين الأختين، فهو فى محل رفع عطفا على المحرمات السابقة، و هو يشمل الجمع بينهما بالنكاح و الوطء بملك اليمين. و قيل: إن الآية خاصة بالجمع فى النكاح، لا فى ملك اليمين، و أما فى الوطء بالملك فلا حق بالنكاح، و قد أجمعت الأمة على منع جمعهما فى عقد نكاح.

و اختلفوا فى الأختين بملك اليمين: فذهب كافة العلماء: إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما فى الوطء بالملك، و أجمعوا على أنه يجوز الجمع بينهما فى الملك فقط. و قد توقف بعض السلف فى الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك، و سيأتى بيان ذلك. و اختلفوا فى جواز عقد النكاح على أخت الجارية التى توطأ بالملك: فقال الأوزاعى: إذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوّج أختها. و قال الشافعى: ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت. و قد ذهبت الظاهرية: إلى جواز الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء، كما يجوز الجمع بينهما فى الملك. قال ابن عبد البرّ بعد أن ذكر ما روى عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الأختين فى الوطء بالملك: و قد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، و لكنهم اختلف عليهم، و لم يلتفت

إلى ذلک أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز، و لا بالعراق، و لا ما وراءها من المشرق، و لا بالشام، و لا المغرب، إلا من شذّ عن جماعتهم باتباع الظاهر، و نفى القياس. و قد ترک من تعمد ذلک. و جماعة الفقهاء متفقون:

على أنه لا يحلّ الجمع بين الأختين بملک اليمين فى الوطء، كما لا يحلّ ذلک فى النكاح. و قد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ إلى آخر الآية، أن النكاح بملک اليمين فى هؤلاء كلهنّ سواء، فكذلک يجب أن يكون قياسا و نظرا الجمع بين الأختين، و أمهات النساء، و الربائب، و كذا هو عند جمهورهم، و هى الحجة المحجوج بها من خالفها و شذ عنها، و اللّه المحمود. انتهى.

و أقول: هاهنا إشكال، و هو: أنه قد تقرّر أن النكاح يقال على العقد فقط، و على الوطء فقط، و الخلاف فى كون أحدهما حقيقة و الآخر مجازا، أو كونهما حقيقتين معروف، فإن حملنا هذا التحريم المذكور فى هذه الآية و هى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ إلى آخرها، على أن المراد تحريم العقد عليهنّ لم يكن فى قوله تعالى: وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين فى الوطء بالملک، و ما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ إلى آخره، يستوى فيه الحرائر و الإماء، و العقد و الملک لا يستلزم أن يكون محل الخلاف، و هو الجمع بين الأختين فى الوطء بملک اليمين مثل محل الإجماع، و مجرد القياس فى مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض، و إن حملنا التحريم المذكور فى الآية على الوطء فقط؛ لم يصح ذلک للإجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أوّل الآية إلى آخرها، فلم يبق إلا حمل التحريم فى الآية على تحريم عقد النكاح، فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الأختين فى الوطء بالملک إلى دليل و لا ينفعه أن ذلک قول الجمهور، فالحق لا يعرف بالرجال، فإن جاء به خالصا عن شوب الكدر فبها و نعمت، و إلا كان الأصل الحل، و لا يصح حمل النكاح فى الآية على معنييه جميعا أعنى العقد و الوطء، لأنه من باب الجمع بين الحقيقة و المجاز و هو ممنوع، أو من باب الجمع بين معنيى المشترک، و فيه الخلاف المعروف فى الأصول، فتدبر هذا.

و قد اختلف أهل العلم إذا كان الرجل يطأ مملوكته بالملک ثم أراد أن يطأ أختها بالملک، فقال علىّ و ابن عمر و الحسن البصرى و الأوزاعى و الشافعى و أحمد و إسحاق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرّم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع أو عتق، أو بأن يزوّجها. قال ابن المنذر: و فيه قول ثان لقتادة: و هو أن ينوى تحريم الأولى على نفسه و أن لا يقربها، ثم يمسک عنهما حتى تستبرئ المحرمة ثم يغشى الثانية. و فيه قول ثالث:

و هو أنه لا يقرب واحدة منهما، هكذا قال الحكم و حماد. و روى معنى ذلک عن النخعى. و قال مالک:

إذا كان عنده أختان بملک فله أن يطأ أيتهما شاء، و الكفّ عن الأخرى موكول إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى؛ فيلزمه أن يحرّم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله، من إخراج عن الملک، أو تزويج، أو بيع، أو عتق، أو كتابة، أو إخدام طويل، فإن كان يطأ إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرّم الأولى؛ وقف عنهما، و لم يجز له قرب إحداهما؛ حتى يحرّم الأخرى، و لم يوكل ذلک إلى أمانته، لأنه متهم. قال القرطبى:

و قد أجمع العلماء: على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقا يملک رجعتها أنه ليس له أن ينكح أختها حتى تنقضى

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۱۶

عدّة المطلقة. و اختلفوا إذا طلقها طلاقا لا يملک رجعتها؛ فقالت طائفة: ليس له أن ينكح أختها و لا رابعة حتى تنقضى عدّة التى طلق. روى ذلک عن علىّ، و زيد بن ثابت، و مجاهد، و عطاء، و النخعى، و الثورى، و أحمد بن حنبل، و أصحاب الرأى. و قالت طائفة: له أن ينكح أختها؛ و ينكح الرابعة؛ لمن كان تحته أربع و طلق واحدة منهنّ طلاقا بائنا. روى ذلک عن سعيد بن المسيب،

و الحسن، و القاسم، و عروة بن الزبير، و ابن أبى ليلى، و الشافعى، و أبى ثور، و أبى عبيد. قال ابن المنذر: و لا أحسبه إلا قول مالك. و هو أيضا إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت و عطاء. قوله: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ يحتمل أن يكون معناه معنى ما تقدّم من قوله تعالى: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ و يحتمل معنى آخر، و هو جواز ما سلف، و أنه إذا جرى الجمع فى الجاهلية كان النكاح صحيحا، و إذا جرى فى الإسلام خير بين الأختين.

و الصواب الاحتمال الأوّل. قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ «١» عطف على المحرّمات المذكورات. و أصل التحصن: التمنع، و منه قوله تعالى: لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ أى: لتمنعكم، و منه: الحصان، بكسر الحاء للفرس، لأنه يمنع صاحبه من الهلاك. و الحصان بفتح الحاء: المرأة العفيفة لمنعها نفسها، و منه قول حسان:

حصان رزان ما تزنّ بريبةو تصبح غرثى من لحوم الغوافل «٢»

و المصدر: الحصانة بفتح الحاء. و المراد بالمحصنات هنا: ذوات الأزواج. و قد ورد الإحصان فى القرآن لمعان، هذا أحدها. و الثانى: يراد به الحرّة، و منه قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ «٣» و قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ «٤».

و الثالث: يراد به العفيفة، و منه قوله تعالى: مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ «٥»، مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ «٦». و الرابع: المسلمة، و منه قوله تعالى: فَإِذا أُحْصِنَ «٧».

و قد اختلف أهل العلم فى تفسير هذه الآية، أعنى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فقال ابن عباس، و أبو سعيد الخدرى، و أبو قلابة، و مكحول، و الزهرى: المراد بالمحصنات هنا:

المسبيات ذوات الأزواج خاصة، أى: هنّ محرّمات عليكم إلا ما ملكت أيمانكم بالسبى من أرض الحرب، فإن تلك حلال و إن كان لها زوج، و هو قول الشافعى، أى: أن السباء يقطع العصمة، و به قال ابن وهب، و ابن عبد الحكم، و روياه عن مالك، و به قال أبو حنيفة، و أصحابه، و أحمد، و إسحاق، و أبو ثور. و اختلفوا فى استبرائها بما ذا يكون؟ كما هو مدوّن فى كتب الفروع. و قالت طائفة: المحصنات فى هذه الآية: العفائف، و به قال أبو العالية، و عبيدة السلمانى، و طاوس، و سعيد بن جبير، و عطاء، و رواه عبيدة عن عمر. و معنى الآية عندهم: كل النساء حرام إلا ما ملكت أيمانكم، أى: تملكون عصمتهنّ بالنكاح، و تملكون الرقبة

---

(١). الأنبياء: ٨٠.

(٢). تزن: تتّهم. و غرثى: جائعة. و المراد أنها لا تغتاب غيرها.

(٣). النساء: ٢٥.

(٤). المائدة: ٥.

(٥). النساء: ٢٥.

(٦). النساء: ٢۴.

(٧). النساء: ٢٧.

بالشراء. و حكى ابن جرير الطبرى: أن رجلا قال لسعيد بن جبير: أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيئا؟ فقال: كان ابن عباس لا يعلمها. و روى ابن جرير أيضا عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لى هذه الآية لضربت إليه أكباد

الإبل. انتهى. و معنى الآية و اللّه أعلم واضح لا سترة به، أي: و حرّمت عليكم المحصنات من النساء، أي: المزوجات، أعمّ من أن يكنّ مسلمات أو كافرات، إلاـ ما ملكت أيمانكم منهنّ، إما بسبى: فإنها تحلّ و لو كانت ذات زوج، أو بشراء: فإنها تحلّ و لو كانت مزوّجة، و ينفسخ النكاح الذى كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذى زوّجها، و سيأتى ذكر سبب نزول الآية إن شاء اللّه، و الاعتبار بعموم اللفظ لاـ بخصوص السبب. و قد قرئ: «المحصنات» بفتح الصاد و كسرها، فالفتح: على أن الأزواج أحصنوهنّ؛ و الكسر: على أنهنّ أحصنّ فروجهن عن غير أزواجهنّ، أو أحصنّ أزواجهنّ. قوله: كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ منصوب على المصدرية، أي: كتب اللّه ذلك عليكم كتابا. و قال الزجاج و الكوفيون: إنه منصوب على الإغراء، أي: الزموا كتاب اللّه، أو عليكم كتاب اللّه، و اعترضه أبو عليّ الفارسى: بأن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب، و هذا الاعتراض إنما يتوجه على قول من قال:

إنه منصوب بعليكم المذكور فى الآية، و روى عن عبيدة السلمانى أنه قال: إن قوله: كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إشارة إلى قوله تعالى: مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ «١» و هو بعيد، بل هو إشارة إلى التحريم المذكور فى قوله:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ إلى آخر الآية. قوله: وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ قرأ حمزة، و الكسائى، و عاصم فى رواية حفص: و أحلّ، على البناء للمجهول، و قرأ الباقون: على البناء للمعلوم، عطفا على الفعل المقدّر فى قوله: كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ و قيل: على قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ و لا يقدح فى ذلك اختلاف الفعلين، و فيه دلالة: على أنه يحل لهم نكاح ما سوى المذكورات، و هذا عام مخصوص بما صح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم من تحريم الجمع بين المرأة و عمتها، و بين المرأة و خالتها. و قد أبعد من قال: إن تحريم الجمع بين المذكورات مأخوذ من الآية هذه، لأنه حرّم الجمع بين الأختين، فيكون ما فى معناه فى حكمه، و هو الجمع بين المرأة و عمتها، و بين المرأة و خالتها، و كذلك تحريم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرّة كما سيأتى، فإنه يخصص هذا العموم. قوله: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ فى محل نصب على العلة؛ أى: حرّم عليكم ما حرّم، و أحلّ لكم ما أحلّ لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتى أحلهنّ اللّه لكم، و لا تبتغوا بها الحرام، فتذهب حال كونكم مُحْصِنِينَ أى: متعففين عن الزنا غَيْرَ مُسافِحِينَ أى: غير زانين. و السفاح: الزنا، و هو مأخوذ من: سفح الماء: أى: صبه و سيلانه، فكأنه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح، لا على وجه السفاح؛ و قيل: إن قوله: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ بدل من «ما» فى قوله: ما وَراءَ ذلِكُمْ أى: و أحلّ لكم الابتغاء بأموالكم. و الأوّل أولى، و أراد سبحانه بالأموال المذكورة: ما يدفعونه فى مهور الحرائر و أثمان الإماء. قوله: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ «ما» موصولة فيها معنى الشرط، و الفاء فى قوله: فَآتُوهُنَّ لتضمن الموصول معنى الشرط، و العائد محذوف، أي:

فآتوهنّ أجورهنّ عليه.

---

(١). النساء: ٣.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥١٨

و قد اختلف أهل العلم فى معنى الآية: فقال الحسن و مجاهد و غيرهما: المعنى: فما انتفعتم و تلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعى فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أى: مهورهنّ. و قال الجمهور: إن المراد بهذه الآية:

نكاح المتعة الذى كان فى صدر الإسلام، و يؤيد ذلك قراءة أبيّ بن كعب، و ابن عباس، و سعيد بن جبير:

فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى فآتوهنّ أجورهنّ ثم نهى عنها النبى صلّى اللّه عليه و سلم، كما صح ذلك من حديث عليّ قال: نهى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن نكاح المتعة و عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، و هو فى الصحيحين و غيرهما. و

فى صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهنى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال يوم فتح مكة: «يا أيّها النّاس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء، و اللّه قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهنّ شىء فليخلّ سبيلها، و لا تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا». و فى لفظ لمسلم: أن ذلك كان فى حجة الوداع، فهذا هو الناسخ. و قال سعيد بن جبير: نسخها آيات الميراث، إذ المتعة لا ميراث فيها. و قالت عائشة، و القاسم بن محمد: تحريمها و نسخها فى القرآن، و ذلك قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ- إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* «١» و ليست المنكوحة بالمتعة من أزواجهم، و لا مما ملكت أيمانهم، فإن من شأن الزوجة أن ترث و تورث، و ليست المستمتع بها كذلك. و قد روى عن ابن عباس أنه قال: بجواز المتعة و أنها باقية لم تنسخ. و روى عنه: أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه الناسخ. و قد قال بجوازها جماعة من الروافض، و لا اعتبار بأقوالهم. و قد أتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسألة، و تقوية ما قاله المجوّزون لها، و ليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه.

و قد طوّلنا البحث؛ و دفعنا الشبه الباطلة التى تمسك بها المجوّزون لها؛ فى شرحنا للمنتقى فليرجع إليه.

قوله: فَرِيضَةً منتصب على المصدرية المؤكدة أو على الحال، أى: مفروضة. قوله: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ أى: من زيادة أو نقصان فى المهر، فإن ذلك سائغ عند التراضى، هذا عند من قال: بأن الآية فى النكاح الشرعى؛ و أما عند الجمهور القائلين: بأنها فى المتعة، فالمعنى: التراضى فى زيادة المتعة أو نقصانها، أو فى زيادة ما دفعه إليها إلى مقابل الاستمتاع بها أو نقصانه. قوله: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ الطول: الغنى و السعة، قاله ابن عباس، و مجاهد، و سعيد بن جبير، و السدّى، و ابن زيد، و مالك، و الشافعى، و أحمد، و إسحاق، و أبو ثور، و جمهور أهل العلم. و معنى الآية: فمن لم يستطع منكم غنى و سعة فى ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات فلينكح من فتياتكم المؤمنات، يقال: طال، يطول، طولا: فى الإفضال و القدرة، و فلان ذو طول: أى: ذو قدرة فى ماله. و الطول بالضم: ضدّ القصر. و قال قتادة، و النخعى، و عطاء، و الثورى: إن الطول: الصبر.

و معنى الآية عندهم: أن من كان يهوى أمة حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوجها؛ إذا لم يملك نفسه؛ و خاف أن يبغى بها، و إن كان يجد سعة فى المال لنكاح حرة. و قال أبو حنيفة و هو مروىّ عن مالك: إن الطول المرأة الحرّة، فمن كان تحته حرة لم يحل له أن ينكح الأمة، و من لم يكن تحته حرة جاز له أن يتزوج أمة و لو كان غنيا، و به قال أبو يوسف، و اختاره ابن جرير و احتج له. و القول الأوّل هو المطابق

---

(١). المعارج: ٢٩.

لمعنى الآية، و لا يخلو ما عداه عن تكلف، فلا يجوز للرجل أن يتزوج بالأمة إلا إذا كان لا يقدر على أن يتزوج بالحرة، لعدم وجود ما يحتاج إليه فى نكاحها من مهر و غيره. و قد استدل بقوله: مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ

على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، و به قال أهل الحجاز و جوّزه أهل العراق، و دخلت الفاء فى قوله: فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ لتضمن المبتدأ معنى الشرط. و قوله: مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ فى محل نصب على الحال، فقد عرفت أنه لا يجوز للرجل الحرّ أن يتزوج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرّة. و الشرط الثانى:

ما سيذكره اللّه سبحانه آخر الآية من قوله: ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ فلا يحلّ للفقير أن يتزوج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على نفسه العنت. و المراد هنا: الأمة المملوكة للغير، و أما أمة الإنسان نفسه فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز أن يتزوجها، و هى

تحت ملكه لتعارض الحقوق و اختلافها. و الفتيات: جمع فتاة، و العرب تقول للمملوك: فتى، و للمملوكة: فتاة. و فى الحديث الصحيح: «لا يقولنّ أحدكم عبدى و أمتى، و لكن ليقل فتاى و فتاتى» قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ فيه تسلية لمن ينكح الأمة إذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران، أى: كلكم بنو آدم، و أكرمكم عند اللّه أتقاكم، فلا تستنكفوا من الزواج بالإماء عند الضرورة، فربما كان إيمان بعض الإماء أفضل من إيمان بعض الحرائر. و الجملة اعتراضية. و قوله:

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ مبتدأ و خبر و معناه: أنهم متصلون فى الأنساب لأنهم جميعا بنو آدم، أو متصلون فى الدين لأنهم جميعا أهل ملة واحدة، و كتابهم واحد، و نبيهم واحد. و المراد بهذا: توطئة نفوس العرب، لأنهم كانوا يستهجنون أولاد الإماء، و يستصغرونهم، و يغضون منهم فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَ أى:

بإذن المالكين لهنّ، و لأن منافعهنّ لهم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشىء منها إلا بإذن من هى له. قوله: وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ أى: أدّوا مهورهنّ بما هو بالمعروف فى الشرع، و قد استدل بهذا من قال: إن الأمة أحق بمهرها من سيدها، و إليه ذهب مالك، و ذهب الجمهور: إلى أن المهر للسيد، و إنما أضافها إليهنّ: لأن التأدية إليهنّ تأدية إلى سيدهن لكونهنّ ماله. قوله: مُحْصَناتٍ أى: عفائف. و قرأ الكسائى: محصنات بكسر الصاد فى جميع القرآن إلا فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ و قرأ الباقون: بالفتح فى جميع القرآن.

قوله: غَيْرَ مُسافِحاتٍ أى: غير معلنات بالزنا. و الأخدان: الأخلاء، و الخدن، و الخدين: المخادن، أى: المصاحب- و قيل: ذات الخدن: هى التى تزنى سرّا، فهو مقابل للمسافحة، و هى التى تجاهر بالزنا، و قيل: المسافحة: المبذولة، و ذات الخدن: التى تزنى بواحد. و كانت العرب تعيب الإعلان بالزنا، و لا تعيب اتخاذ الأخدان، ثم رفع الإسلام جميع ذلك، قال اللّه: وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ «1» قوله: فَإِذا أُحْصِنَ قرأ عاصم، و حمزة، و الكسائى: بفتح الهمزة. و قرأ الباقون: بضمها، و المراد بالإحصان هنا: الإسلام. روى ذلك عن ابن مسعود، و ابن عمرو، و أنس، و الأسود بن يزيد، و زرّ بن حبيش، و سعيد بن جبير، و عطاء، و إبراهيم النخعى، و الشعبى، و السدّى، و روى عن عمر بن الخطاب بإسناد منقطع، و هو الذى نص عليه الشافعى، و به قال الجمهور. و قال ابن عباس، و أبو الدرداء، و مجاهد، و عكرمة، و طاوس، و سعيد بن جبير، و الحسن، و قتادة، و غيرهم: إنه التزويج. و روى عن

---

(1). الأنعام: 151.

الشافعى. فعلى القول الأوّل: لا حدّ على الأمة الكافرة. و على القول الثانى: لا حدّ على الأمة التى لم تتزوج.

و قال القاسم و سالم: إحصانها: إسلامها و عفافها. و قال ابن جرير: إن معنى القراءتين مختلف، فمن قرأ:

أحصنّ، بضم الهمزة، فمعناه: التزويج. و من قرأ: بفتح الهمزة، فمعناه: الإسلام. و قال قوم: إن الإحصان المذكور فى الآية هو التزوج، و لكن الحدّ واجب على الأمة المسلمة إذا زنت قبل أن تتزوّج بالسنة، و به قال الزهرى. قال ابن عبد البر: ظاهر قول اللّه عزّ و جل يقتضى أنه لا حدّ على الأمة و إن كانت مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها و إن لم تحصن، و كان ذلك زيادة بيان. قال القرطبى: ظهر المسلم حمى لا يستباح إلا بيقين، و لا يقين مع الاختلاف لو لا ما جاء فى صحيح السنة من الجلد.

قال ابن كثير فى تفسيره: و الأظهر و اللّه أعلم أن المراد بالإحصان هنا: التزويج، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا إلى قوله: فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ فالسياق كله فى الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: فَإِذا أُحْصِنَ أى: تزوجنّ، كما فسره به ابن عباس و من تبعه، قال: و على كلّ من

القولين إشكال على مذهب الجمهور، لأنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء كانت مسلمة، أو كافرة، مزوجة، أو بكرا، مع أن مفهوم الآية يقتضى: أنه لا حد على غير المحصنة من الإماء. و قد اختلف أجوبتهم عن ذلك، ثم ذكر أن منهم من أجاب و هم الجمهور: بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم، و منهم من عمل على مفهوم الآية، و قال: إذا زنت و لم تحصن فلا حدّ عليها و إنما تضرب تأديبا. قال: و هو المحكى عن ابن عباس، و إليه ذهب طاوس، و سعيد بن جبير، و أبو عبيد، و داود الظاهرى فى رواية عنه، فهؤلاء قدموا مفهوم الآية على العموم، و أجابوا عن مثل حديث أبى هريرة، و زيد بن خالد فى الصحيحين و غيرهما: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل عن الأمة إذا زنت و لم تحصن؟ قال: إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها و لو بضفير» بأن المراد بالجلد هنا: التأديب، و هو تعسف، و أيضا قد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ و لا يثرّب عليها. ثم إن زنت فليجلدها الحدّ». و لمسلم من حديث على قال: «يا أيّها الناس أقيموا على أرقائكم الحدّ من أحصن و من لم يحصن، فإنّ أمة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم زنت فأمرنى أن أجلدها». و أما ما أخرجه سعيد بن منصور، و ابن خزيمة، و البيهقى عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ليس على الأمة حدّ حتّى تحصن بزوج، فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب» فقد قال ابن خزيمة و البيهقى:

إن رفعه خطأ، و الصواب وقفه. قوله: فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ الفاحشة هنا: الزنا فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ أى: الحرائر الأبكار، لأن الثيب عليها الرجم، و هو لا يتبعض؛ و قيل: المراد بالمحصنات هنا: المزوّجات، لأن عليهنّ الجلد و الرجم، و الرجم لا يتبعض، فصار عليهنّ نصف ما عليهنّ من الجلد.

و المراد بالعذاب هنا: الجلد، و إنما نقص حدّ الإماء عن حدّ الحرائر لأنهنّ أضعف؛ و قيل: لأنهنّ لا يصلن إلى مرادهنّ كما تصل الحرائر؛ و قيل: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، كما فى قوله تعالى: يُضاعَفْ لَهَا

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۲۱

الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ «۱» و لم يذكر اللّه سبحانه فى هذا الآية العبيد، و هم لاحقون بالإماء بطريق القياس، و كما يكون على الإماء و العبيد الحدّ فى الزنا، كذلك يكون عليهم نصف الحدّ فى القذف و الشرب، و الإشارة بقوله:

ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ إلى نكاح الإماء. و العنت: الوقوع فى الإثم، و أصله فى اللغة: انكسار العظم بعد الجبر، ثم استعير لكل مشقة وَ أَنْ تَصْبِرُوا عن نكاح الإماء خَيْرٌ لَكُمْ من نكاحهنّ، أى: صبركم خير لكم، لأن نكاحهنّ يفضى إلى إرقاق الولد و الغض من النفس. قوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ اللام هنا هى لام كى التى تعاقب «أن». قال الفراء: العرب تعاقب بين لام كى و أن، فتأتى باللام التى على معنى كى فى موضع أن فى أردت و أمرت، فيقولون: أردت أن تفعل و أردت لتفعل، و منه:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ «۲» وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ «۳» وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «۴» و منه:

أريد لأنسى ذكرها فكأنّماتمثّل لى ليلى بكلّ سبيل

و حكى الزجّاج هذا القول و قال: لو كانت اللام بمعنى أن لدخلت عليها لأم أخرى كما تقول: جئت كى تكرمنى، ثم تقول: جئت لكى تكرمنى، و أنشد:

أردت لكيما يعلم النّاس أنّهاسراويل قيس و الوفود شهود

و قيل: اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال، أو لتأكيد إرادة التبيين، و مفعول يبين: محذوف، أى:

ليبين لكم ما خفى عليكم من الخير؛ و قيل: مفعول يريد: محذوف، أى: يريد اللّه هذا ليبين لكم، و به قال البصريون و هو مروىّ عن سيبويه؛ و قيل: اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن، و هى و ما بعدها مفعول للفعل المتقدّم، و هو مثل قول الفراء

السابق، و قال بعض البصريين: إن قوله: يُرِيدُ مؤول بالمصدر، مرفوع بالابتداء، مثل: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه. و معنى الآية: يريد اللّه ليبين لكم مصالح دينكم، و ما يحلّ لكم، و ما يحرم عليكم وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أى: طرقهم، و هم الأنبياء و أتباعهم، لتقتدوا بهم وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ أى: و يريد أن يتوب عليكم، فتوبوا إليه، و تلاقوا ما فرط منكم بالتوبة، يغفر لكم ذنوبكم وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ هذا تأكيد لما قد فهم من قوله: وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ المتقدّم؛ و قيل: الأوّل: معناه للإرشاد إلى الطاعات. و الثانى: فعل أسبابها؛ و قيل: إن الثانى لبيان كمال منفعة إرادته سبحانه، و كمال ضرر ما يريده الذين يتبعون الشهوات، و ليس المراد به مجرد إرادة التوبة حتى يكون من باب التكرير للتأكيد. قيل: هذه الإرادة منه سبحانه فى جميع أحكام الشرع؛ و قيل: فى نكاح الأمة فقط.

و اختلف فى تعيين المتبعين للشهوات، فقيل: هم الزناة، و قيل: اليهود و النصارى، و قيل: اليهود خاصة، و قيل: هم المجوس لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون فى نكاح الأخوات من الأب. و الأوّل أولى.

و الميل: العدول عن طريق الاستواء. و المراد بالشهوات هنا ما حرّمه الشرع دون ما أحله، و وصف الميل بالعظم

---

(١). الأحزاب: ٣٠.

(٢). الصف: ٨.

(٣). الشورى: ١٥.

(٤). الأنعام: ٧١.

بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة نادرا. قوله: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ بما مرّ من الترخيص لكم، أو بكل ما فيه تخفيف عليكم وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً عاجزا غير قادر على ملك نفسه و دفعها عن شهواتها وفاء بحق التكليف فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف، فلهذا أراد اللّه سبحانه التخفيف عنه.

و قد أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: حرم من النسب سبع و من الصهر سبع، ثم قرأ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ إلى قوله: وَ بَناتُ الْأُخْتِ هذا من النسب، و باقى الآية من الصهر، و السابعة:

وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و البيهقى عن عمران بن حصين فى قوله: وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ قال: هى مبهمة. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس قال:

هى مبهمة؛ إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحلّ له أمها. و أخرج هؤلاء إلا البيهقى عن على: فى الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها، أو ماتت قبل أن يدخل بها هل تحل له أمها؟ قال: هى بمنزلة الربيبة.

و أخرج هؤلاء عن زيد بن ثابت أنه كان يقول: إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، و إذا طلقها قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها. و أخرج عبد الرزاق، و ابن شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد قال: فى قوله: وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ أريد بهما الدخول جميعا.

و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن الزبير قال: الربيبة و الأم سواء لا بأس بهما إذا لم يدخل بالمرأة. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى حاتم بسند صحيح عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندى امرأة فتوفيت، و قد ولدت لى فوجدت عليها، فلقينى علىّ بن أبى طالب فقال: مالك؟

فقلت: توفيت المرأة، فقال علىّ: لها ابنة؟ قلت: نعم و هى بالطائف، قال: كانت فى حجرك؟ قلت لا: قال: فانكحها، قلت: فأين

قول اللّه: وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ قال: إنها لم تكن فى حجرك.
و قد قدّمنا قول من قال: إنه إسناد ثابت على شرط مسلم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: الدخول: الجماع. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عطاء قال: كنا نتحدث: أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة فى ذلك، فأنزل اللّه: وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ و نزلت: وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ «۱» و نزلت: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ «۲». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:
وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ قال يعنى فى النكاح. و أخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال: ذلك فى الحرائر، فأما المماليك فلا بأس. و أخرج ابن المنذر عنه نحوه من طريق أخرى. و أخرج مالك، و الشافعى، و عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن عثمان بن عفان: أن رجلا سأله عن الأختين فى ملك اليمين هل يجمع بينهما؟ قال: أحلتهما آية و حرمتهما آية، و ما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده، فلقى رجلا من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أراه على بن أبى طالب، فسأله عن ذلك، فقال:

---

(۱). الأحزاب: ۴.

(۲). الأحزاب: ۴۰.

لو كان لى من الأمر شىء ثم وجدت أحدا فعل ذلك لجعلته نكالا. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و البيهقى عن على: أنه سئل عن رجل له أمتان أختان، وطأ إحداهما و أراد أن يطأ الأخرى، فقال: لا حتى يخرجها من ملكه؛ و قيل: فإن زوجها عبده؟ قال: لا حتى يخرجها من ملكه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين الأمتين، فكرهه، فقيل: يقول اللّه: إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فقال: و بعيرك أيضا مما ملكت يمينك. و أخرج ابن أبى شيبة، و البيهقى من طريق أبى صالح عن علىّ بن أبى طالب: قال فى الأختين المملوكتين:
أحلتهما آية و حرمتهما آية، و لا آمر و لا أنهى، و لا أحلّ و لا أحرّم، و لا أفعل أنا و أهل بيتى. و أخرج أحمد عن قيس قال:
قلت لابن عباس: أيقع الرجل على المرأة و ابنتها مملوكتين له؟ فقال: أحلتهما آية و حرّمتهما آية، و لم أكن لأفعله. و أخرج عبد الرزاق، و البيهقى عنه: فى الأختين من ملك اليمين: أحلتهما آية و حرّمتهما آية. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و البيهقى عن ابن عمر قال: إذا كان للرجل جاريتان أختان؛ فغشى إحداهما؛ فلا يقرب الأخرى؛ حتى يخرج التى غشى من ملكه. و أخرج البيهقى عن مقاتل بن سليمان قال: إنما قال اللّه فى نساء الآباء: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ لأن العرب كانوا ينكحون نساء الآباء، ثم حرم النسب و الصهر فلم يقل إلا ما قد سلف، لأن العرب كانت لا تنكح النسب و الصهر. و قال فى الأختين: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ لأنهم كانوا يجمعون بينهما فحرم جمعهما جميعا، إلا ما قد سلف قبل التحريم إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً لما كان من جماع الأختين قبل التحريم. و أخرج أحمد، و مسلم، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و غيرهم عن أبى سعيد الخدرى: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث يوم حنين جيشا إلى أوطاس، فلقوا عدوا فقاتلوهم، فظهروا عليهم و أصابوا لهم سبايا، فكأن ناسا من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهنّ من المشركين، فأنزل اللّه فى ذلك: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ يقول: إلا ما أفاء اللّه عليكم. و أخرج الطبرانى عن ابن عباس أن ذلك سبب نزول الآية. و أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، و

البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ قال: كل ذات زوج إتيانها زنا إلا ما سبيت. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و الطبرانى عن عليّ و ابن مسعود فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ قال: على المشركات إذا سبين حلت له. و قال ابن مسعود: المشركات و المسلمات. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة و لها زوج فسيدها أحق ببضعها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ قال: ذوات الأزواج. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر عن أنس بن مالك مثله. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ قال: العفيفة العاقلة من مسلمة أو من أهل الكتاب.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عنه فى الآية قال: لا يحل له أن يتزوج فوق الأربع، فما زاد فهو عليه حرام كأمه و أخته. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۲۴

قال: يقول انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع، ثم حرّم ما حرّم من النسب و الصهر، ثم قال: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ فرجع إلى أول السورة فقال: هنّ حرام أيضا، إلا لمن نكح بصداق و سنة و شهود. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير عن عبيدة قال: أحلّ اللّه لك أربعا فى أوّل السورة، و حرّم نكاح كل محصنة بعد الأربع إلا ما ملكت يمينك. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «الإحصان إحصانان: إحصان نكاح، و إحصان عفاف» فمن قرأها: و المحصنات بكسر الصاد، فهن العفائف، و من قرأها: و المحصنات بالفتح، فهنّ المتزوجات. قال ابن أبى حاتم: قال أبى: هذا حديث منكر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ قال: ما وراء هذا النسب. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّىّ قال: ما دون الأربع. و أخرج ابن جرير عن عطاء قال: ما وراء ذات القرابة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، عن قتادة فى قوله: وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ قال: ما ملكت أيمانكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبيدة السلمانى نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن مجاهد فى قوله: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ قال: غير زانين.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ يقول: إذا تزوج الرجل منكم المرأة ثم نكحها مرة واحدة فقد وجب صداقها كله، و الاستمتاع: هو النكاح، و هو قوله: وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَ و أخرج الطبرانى، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: كانت المتعة فى أوّل الإسلام، و كانوا يقرءون هذه الآية فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَ إلى أجل مسمّى الآية، فكان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج بقدر ما يرى أنه يفرغ من حاجته، ليحفظ متاعه و يصلح شأنه. حتى نزلت هذه الآية: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ فنسخت الأولى، فحرّمت المتعة، و تصديقها من القرآن: إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ* «۱» و ما سوى هذا الفرج فهو حرام.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الحاكم، و صححه. أنّ ابن عباس قرأ: فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن أبى بن كعب أنه قرأها كذلك. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد، أن هذه الآية فى نكاح المتعة، و كذلك أخرج ابن جرير عن السدى. و الأحاديث فى تحليل المتعة ثم تحريمها، و هل كان نسخها مرة أو مرتين؟ مذكورة فى كتب الحديث. و قد أخرج ابن جرير فى تهذيبه، و ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ماذا صنعت؟ ذهبت الركاب بفتياك، و قالت فيها الشعراء، قال: و ما قالوا؟ قلت:

قالوا:

أقول للشيخ لمّا طال مجلسه‌يا صاح هل لک فی فتيا ابن عبّاس

هل لک فی رخصة الأعطاف آنسة‌تكون مثواک حتّی مصدر النّاس «٢»

(١). المؤمنون: ۶.

(٢). البيتان فی القرطبی (۵/ ١٣٣): أقول للرّكب إذ طال الثّواء بنايا صاح هل لک فی فتيا ابن عبّاس

فی بضّة رخصة الأطراف ناعمة‌تكون مثواک حتی مرجع النّاس فتح القدير، ج ١، ص: ۵٢۵

فقال: إنا للّه و إنا إليه راجعون، لا و اللّه ما بهذا أفتيت، و لا هذا أردت، و لا أحللتها إلا للمضطر، و فی لفظ: و لا أحللت منها إلا ما أحل اللّه من الميتة و الدم و لحم الخنزير. و أخرج ابن جرير عن حضرمی: أن رجالا كانوا يفرضون المهر ثم عسى أن تدرک أحدهم العسرة، فقال اللّه: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ قال: التراضی أن يوفی لها صداقها ثم يخيرها. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فی الآية قال: إن وضعت لک منه شيئا فهو سائغ، و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و البيهقی فی سننه عن ابن عباس: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا يقول: من لم يكن له سعة أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ يقول: الحرائر فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ فلينكح من إماء المؤمنين مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ يعنی: عفائف، غير زوان فی سرّ و لا علانية وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ يعنی: أخلاء فَإِذا أُحْصِنَ ثم إذا تزوجت حرا ثم زنت فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ قال: من الجلد ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ هو الزنا، فليس لأحد من الأحرار أن ينكح أمة إلا أن لا يقدر على حرة و هو يخشى العنت وَ أَنْ تَصْبِرُوا عن نكاح الإماء خَيْرٌ لَكُمْ

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقی عن مجاهد: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا يعنی: من لا يجد منكم غنى أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ يعنی: الحرائر، فلينكح الأمة المؤمنة وَ أَنْ تَصْبِرُوا عن نكاح الإماء خَيْرٌ لَكُمْ و هو حلال. و أخرج ابن أبی شيبة، و ابن المنذر عنه قال: مما وسع اللّه به على هذه الأمة نكاح الأمة النصرانية و اليهودية و إن كان موسرا. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد ابن منصور، و ابن أبی شيبة، و البيهقی عنه قال: لا يصلح نكاح إماء أهل الكتاب، لأن اللّه يقول: مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبی شيبة عن الحسن «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نهى أن تنكح الأمة على الحرّة و الحرّة على الأمة، و من وجد طولا لحرّة فلا ينكح أمة». و أخرج ابن أبی شيبة، و البيهقی عن ابن عباس قال: لا يتزوج الحرّ من الإماء إلا واحدة. و أخرج ابن أبی شيبة عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم عن مقاتل فی قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ يقول: أنتم إخوة بعضكم من بعض.

و أخرج ابن المنذر عن السدّی: فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَ قال: بإذن مواليهن وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ قال: مهورهنّ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: المسافحات: المعلنات بالزنا، و المتخذات أخدان:

ذات الخليل الواحد. قال: كان أهل الجاهلية يحرّمون ما ظهر من الزنا و يستحلون ما خفی، فأنزل اللّه:

وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ «١». و أخرج ابن أبی حاتم عن علیّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

فَإِذا أُحْصِنَ قال: إحصانها إسلامها. و قال علیّ: اجلدوهنّ. قال ابن أبی حاتم: حديث منكر.

(١). الأنعام: ١۵١.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۲۶

و قال ابن كثير: في إسناده ضعيف و مبهم لم يسم، و مثله لا تقوم به حجة. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: حدّ العبد يفترى على الحرّ أربعون. و أخرج ابن جرير عنه قال: العنت: الزنا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّى: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ قال: هم اليهود و النصارى.

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ قال: الزنا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ يقول: فى نكاح الأمة و فى كل شىء فيه يسر. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ قال: رخص لكم فى نكاح الإماء وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً قال: لو لم يرخص له فيها. و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء هنّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس و غربت، أوّلهنّ: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ و الثانية: وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً و الثالثة:

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً، و الرابعة: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً، و الخامسة: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ الآية، و السادسة:

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ الآية، و السابعة: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ* الآية، و الثامنة: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كانَ اللَّهُ للذين عملوا من الذنوب غَفُوراً رَحِيماً.

[سورة النساء (۴): الآيات ۲۹ الى ۳۱]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (۲۹) وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (۳۱)

الباطل: ما ليس بحق، و وجوه ذلك كثيرة، و من الباطل: البيوعات التى نهى عنها الشرع. و التجارة فى اللغة: عبارة عن المعاوضة، و هذا الاستثناء منقطع، أى: لكن تجارة عن تراض منكم جائزة بينكم، أو:

لكن كون تجارة عن تراض منكم حلالا لكم. و قوله: عَنْ تَراضٍ صفة لتجارة، أى: كائنة عن تراض، و إنما نص اللّه سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاوضات لكونها أكثرها و أغلبها، و تطلق التجارة على جزاء الأعمال من اللّه على وجه المجاز، و منه قوله تعالى: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ «۱». و قوله: يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ «۲».

و اختلف العلماء فى التراضى، فقالت طائفة: تمامه وجوبه بافتراق الأبدان بعد عقد البيع؛ أو بأن يقول أحدهما لصاحبه: اختر، كما فى الحديث الصحيح: «البيعان بالخيار ما لم يتفرّقا أو يقول أحدهما لصاحبه:

اختر». و إليه ذهب جماعة من الصحابة و التابعين، و به قال الشافعى، و الثورى، و الأوزاعى، و الليث،

---

(۱). الصف: ۱۰.

(۲). فاطر: ۲۹.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۲۷

و ابن عيينة، و إسحاق، و غيرهم. و قال مالك و أبو حنيفة: تمام البيع: هو أن يعقد البيع بالألسنة فيرتفع بذلك الخيار. و أجابوا

عن الحديث بما لا طائل تحته. و قد قرئ: تجارة بالرفع: على أن كان تامة، و تجارة بالنصب:

على أنها ناقصة قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أى: لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضا إلا بسبب أثبته الشرع، أو: لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصى. أو المراد: النهى عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة. و لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى. و مما يدل على ذلك: احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يغتسل بالماء حين أجنب فى غزاة ذات السلاسل، فقرّر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم احتجاجه، و هو فى مسند أحمد، و سنن أبى داود، و غيرهما. و قوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أى: القتل خاصة، أو أكل أموال الناس ظلما، و القتل عدوانا و ظلما؛ و قيل: هو إشارة إلى كل ما نهى عنه فى هذه السورة، و قال ابن جرير: إنه عائد على ما نهى عنه من آخر وعيد و هو قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً «١» لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيد، إلا من قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ فإنه لا وعيد بعده، إلا قوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً و العدوان: تجاوز الحدّ. و الظلم: وضع الشيء فى غير موضعه؛ و قيل: إن معنى العدوان و الظلم واحد، و تكريره لقصد التأكيد كما فى قول الشاعر:

....

و ألفى قولها كذبا و مينا «٢» و خرج بقيد العدوان و الظلم ما كان من القتل بحق، كالقصاص، و قتل المرتد، و سائر الحدود الشرعية، و كذلك قتل الخطأ. قوله: فَسَوْفَ نُصْلِيهِ جواب الشرط، أى: ندخله نارا عظيمة وَ كانَ ذلِكَ أى: إصلاؤه النار عَلَى اللَّهِ يَسِيراً لأنه لا يعجزه بشيء. و قرئ: نُصْلِيهِ بفتح النون، روى ذلك عن الأعمش، و النخعى، و هو على هذه القراءة منقول من: صلى، و منه: شاة مصلية. قوله: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أى: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التى نهاكم اللّه عنها نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أى: ذنوبكم التى هى صغائر، و حمل السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها، و جعل اجتنابها شرطا لتكفير السيئات.

و قد اختلف أهل الأصول فى تحقيق معنى الكبائر ثم فى عددها، فأما فى تحقيقها فقيل: إن الذنوب كلها كبائر، و إنما يقال لبعضها: صغيرة، بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، يقال: الزنا صغيرة، بالإضافة إلى الكفر، و القبلة المحرّمة صغيرة، بالإضافة إلى الزنا، و قد روى نحو هذا عن الإسفراينى و الجوينى، و القشيرى، و غيرهم، قالوا: و المراد بالكبائر التى يكون اجتنابها سببا لتكفير السيئات: هى الشرك، و استدلوا على ذلك:

بقراءة من قرأ: إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه و على قراءة الجمع، فالمراد: أجناس الكفر، و استدلوا على ما قالوه: بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* «٣» قالوا: فهذه

---

(١). النساء: ١٩.

(٢). هذا عجز بيت لعدىّ بن زيد، و صدره: فقدّدت الأديم لراهشيه.

(٣). النساء: ۴٨.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٢٨

الآية مقيدة لقوله: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ و قال ابن عباس: الكبيرة: كل ذنب ختمه اللّه بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. و قال ابن مسعود: الكبائر: ما نهى اللّه عنه فى هذه السورة إلى ثلاث و ثلاثين آية. و قال سعيد بن جبير: كل ذنب نسبه اللّه إلى النار فهو كبيرة. و قال جماعة من أهل الأصول: الكبائر:

كل ذنب رتب اللّه عليه الحدّ، أو صرح بالوعيد فيه. و قيل غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره. و أما الاختلاف فى عددها

فقيل: إنها سبع، و قيل: سبعون، و قيل: سبعمائة، و قيل: غير منحصرة، و لكن بعضها أكبر من بعض، و سيأتى ما ورد فى ذلك إن شاء اللّه. قوله: وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا أى: مكان دخول، و هو الجنة كَرِيماً أى: حسنا مرضيا، و قد قرأ أبو عمرو، و ابن كثير، و ابن عامر، و الكوفيون: مُدْخَلًا بضم الميم. و قرأ أهل المدينة: بفتح الميم، و كلاهما: اسم مكان، و يجوز أن يكون مصدرا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، قال السيوطى بسند صحيح عن ابن مسعود، فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ قال: إنها محكمة، ما نسخت، و لا تنسخ إلى يوم القيامة. و أخرج ابن جرير عن عكرمة و الحسن فى الآية قال: كان الرجل يتحرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية، فنسخ ذلك الآية التى فى النور: وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ «١» الآية. و أخرج ابن ماجة و ابن المنذر عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّما البيع عن تراض» و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى صالح و عكرمة فى قوله تعالى: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ قالا: نهاهم عن قتل بعضهم بعضا. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير عن عطاء بن أبى رباح نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن السدى: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ قال: أهل دينكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً يعنى: متعمدا اعتداء بغير حق وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً يقول: كان عذابه على اللّه هينا. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال:

قلت لعطاء: أ رأيت قوله: تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً فى كل ذلك أم فى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ قال: بل فى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ و أخرج عبد بن حميد عن أنس بن مالك قال: هان ما سألكم ربكم إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ و أخرج عبد بن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: كل ما نهى اللّه عنه فهو كبيرة، و قد ذكرت الطرفة، يعنى: النظرة. و أخرج ابن جرير عنه قال: كل شىء عصى اللّه فيه فهو كبيرة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كل ما وعد اللّه عليه النار كبيرة. و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى الشعب عنه قال: الكبائر: كل ذنب ختمه اللّه بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ما قدّمنا عنه. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس: أنه سئل عن الكبائر أسبع هى؟ قال: هى إلى السبعين أقرب.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه: أن رجلا سأله كم الكبائر أسبع هى؟ قال: هى إلى

---

(١). النور: ٦١.

سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، و لا صغيرة مع إصرار. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه: كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة، و ليس بكبيرة ما تاب عنه العبد. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اجتنبوا السّبع الموبقات، قالوا: و ما هى يا رسول اللّه؟ قال: الشّرك باللّه، و قتل النفس التى حرّم اللّه إلا بالحق، و السّحر، و أكل الرّبا، و أكل مال اليتيم، و التّولى يوم الزّحف، و قذف المحصنات الغافلات المؤمنات». و ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى بكرة قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول اللّه! قال: الإشراك باللّه، و عقوق الوالدين، و كان متّكئا فجلس فقال: ألا و قول الزّور، و شهادة الزور، فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت». و أخرج البخارى و غيره عن ابن عمرو عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الكبائر: الإشراك باللّه، و عقوق الوالدين، أو قتل النّفس- شكّ شعبة- و اليمين الغموس». و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن ابن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه

عليه و سلم: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قالوا:
و كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبّ أبا الرجل فيسب أباه و يسبّ أمه فيسبّ أمه». و الأحاديث فى تعداد الكبائر و تعيينها كثيرة جدا، فمن رام الوقوف على ما ورد فى ذلك، فعليه بكتاب الزواجر فى الكبائر، فإنه قد جمع فأوعى.
و اعلم أنه لا بد من تقييد ما فى هذه الآية من تكفير السيئات بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائى، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن خزيمة، و ابن حبان، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن أبى هريرة و أبى سعيد: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم جلس على المنبر ثم قال: «و الذى نفسى بيده ما من عبد يصلّى الصّلوات الخمس و يصوم رمضان و يؤدى الزكاة و يجتنب الكبائر السبع، إلّا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتّى إنّها لتصفّق، ثم تلا: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: إن فى سورة النساء خمس آيات ما يسرّنى أن لى بها الدنيا و ما فيها، و لقد علمت أن العلماء إذا مرّوا بها يعرفونها، قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ الآية، و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ «۱» الآية، و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ* «۲» الآية، و قوله: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ «۳» الآية، و قوله: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ «۴» الآية.

---

(۱). النساء: ۴۰.

(۲). النساء: ۴۸ و ۱۱۶.

(۳). النساء: ۶۴.

(۴). النساء: ۱۱۰.

فتح القدير، ج‏۱، ص: ۵۳۰

[سورة النساء (۴): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيماً (۳۲) وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيداً (۳۳) الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً (۳۴)
قوله: وَ لا تَتَمَنَّوْا التمنى: نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل، كالتلهف: نوع منها يتعلق بالماضى، و فيه النهى عن أن يتمنى الإنسان ما فضل اللّه به غيره من الناس عليه، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التى قسمها اللّه بين عباده على مقتضى إرادته و حكمته البالغة، و فيه أيضا نوع من الحسد المنهى عنه إذا صحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير.
و قد اختلف العلماء فى الغبطة هل تجوز أم لا؟ و هى: أن يتمنى أن يكون به حال مثل حال صاحبه، من دون أن يتمنى زوال ذلك الحال عن صاحبه. فذهب الجمهور: إلى جواز ذلك، و استدلوا بالحديث الصحيح: «لا حسد إلّا فى اثنتين: رجل آتاه اللّه القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل و آناء النّهار، و رجل آتاه اللّه مالا فهو ينفقه آناء الليل و آناء النهار»، و قد بوّب عليه البخارى: «باب الاغتباط فى العلم و الحكم».

و عموم لفظ الآية يقتضى: تحريم تمنى ما وقع به التفضيل؛ سواء كان مصحوبا بما يصير به من جنس الحسد أم لا، و ما ورد فى السنة من جواز ذلك فى أمور معينة يكون مخصصا لهذا العموم، و سيأتى ذكر سبب نزول الآية، و لكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قوله: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ إلخ، فيه تخصيص بعد التعميم، و رجوع إلى ما يتضمنه سبب نزول الآية: من أن أمّ سلمة قالت: يا رسول اللّه! يغزو الرجال و لا نغزو و لا نقاتل فنستشهد، و إنما لنا نصف الميراث، فنزلت. أخرجه عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و البيهقى، و قد روى نحو هذا السبب من طرق بألفاظ مختلفة. و المعنى فى الآية: أن اللّه جعل لكل من الفريقين نصيبا على حسب ما تقتضيه إرادته و حكمته، و عبر عن ذلك المجعول لكل فريق من فريقى النساء و الرجال بالنصيب مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية، شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه. قال قتادة: للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب و العقاب، و للنساء كذلك. و قال ابن عباس: المراد بذلك: الميراث، و الاكتساب على هذا القول بمعنى ما ذكرنا. قوله: وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ عطف على قوله: وَ لا تَتَمَنَّوْا و توسيط التعليل بقوله: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ إلخ. بين المعطوف و المعطوف عليه لتقرير ما تضمنه النهى، و هذا الأمر يدل: على وجوب سؤال اللّه سبحانه من فضله، كما قاله جماعة من أهل العلم. قوله: وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ أى: جعلنا لكل إنسان ورثة موالى يلون ميراثه، فلكل: مفعول ثان قدّم على الفعل لتأكيد الشمول، و هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، أى: ليتبع كل أحد ما قسم اللّه له من الميراث، و لا يتمنّ ما فضل اللّه به غيره عليه. و قد قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله بعدها: وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ و قيل العكس، كما روى ذلك ابن جرير. و ذهب الجمهور: إلى أن الناسخ لقوله: وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ قوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ* «١» و الموالى: جمع مولى، و هو يطلق

---

(١). الأنفال: ٧٥.

على المعتق، و الناصر، و ابن العم، و الجار. قيل: و المراد هنا العصبة، أى: و لكل جعلنا عصبة يرثون ما أبقت الفرائض. قوله: وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ المراد بهم موالى الموالاة: كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل: أى يحالفه فيستحق من ميراثه نصيبا، ثم ثبت فى صدر الإسلام بهذه الآية، ثم نسخ بقوله:

وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ* و قراءة الجمهور: و عاقدت و روى عن حمزة أنه قرأ:

«عقّدت» بتشديد القاف على التكثير «١»، أى: و الذين عقدت لهم أيمانكم الحلف، أو عقدت عهودهم أيمانكم، و التقدير على قراءة الجمهور: و الذين عاقدتهم أيمانكم فآتوهم نصيبهم: أى ما جعلتموه لهم بعقد الحلف. قوله: الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ هذه الجملة مستأنفة، مشتملة على بيان العلة التى استحق بها الرجال الزيادة، كأنه قيل: كيف استحق الرجال ما استحقوا مما لم تشاركهم فيه النساء؟ فقال: الرِّجالُ قَوَّامُونَ إلخ، و المراد: أنهم يقومون بالذبّ عنهنّ، كما تقوم الحكام و الأمراء بالذبّ عن الرعية، و هم أيضا: يقومون بما يحتجن إليه من النفقة، و الكسوة، و المسكن. و جاء بصيغة المبالغة فى قوله: قَوَّامُونَ ليدلّ: على أصالتهم فى هذا الأمر، و الباء فى قوله: بِما فَضَّلَ اللَّهُ للسببية، و الضمير فى قوله: بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ للرجال و النساء، أى: إنما استحقوا هذه المزية لتفضيل اللّه للرجال على النساء، بما فضلهم به من كون فيهم: الخلفاء، و السلاطين، و الحكام، و الأمراء، و الغزاة، و غير ذلك من الأمور. قوله: وَ بِما أَنْفَقُوا أى: و بسبب ما أنفقوا من أموالهم، و ما: مصدرية، أو موصولة، و كذلك هى فى قوله: بِما فَضَّلَ اللَّهُ و من: تبعيضية، و المراد ما أنفقوه: فى الإنفاق على النساء، و بما دفعوه فى مهورهنّ من أموالهم، و كذلك ما ينفقونه فى الجهاد، و ما يلزمهم فى العقل «٢».

و قـد اسـتدل جماعـة من العلماء بهذه الآية: على جواز فسخ النكاح إذا عجز الزوج عن نفقة زوجته و كسوتها، و به قال مالک و الشـافعی و غيرهمـا. فَالصَّالِحـاتُ أی: مـن النسـاء قانِتـاتٌ أی: مطيعـات للّـه، قائمـات بمـا يجب عليهنّ من حقـوق اللّه، و حقـوق أزواجهنّ. حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ أی: لما يجب حفظه عنـد غيبـة أزواجهنّ عنهنّ: من حفظ نفوسـهنّ، و حفظ أموالهم، «و ما»: فی قوله: بِمـا حَفِـظَ اللَّهُ مصدريـة، أی: بحفـظ اللّـه. و المعنی: أنهـنّ حافظـات لغيب أزواجهنّ بحفـظ اللّه لهنّ، و معـونته، و تسديـده، أو: حافظات له لما اسـتحفظهنّ من أداء الأمانة إلی أزواجهن علی الوجه الذی أمر اللّه به، أو: حافظات له بحفظ اللّه لهنّ بما أوصـی به الأزواج فی شأنهنّ من حسن العشـرة، و يجوز أن تكون «ما»: موصولة، و العائد محذوف. و قرأ أبو جعفر: بِما حَفِظَ اللَّهُ بنصب الاسم الشريف. و المعنی: بما حفظن اللّه، أی:

حفظن أمره، أو حفظن دينه، فحـذف الضـمير الراجع إليهنّ للعلم به، و «مـا» علی هـذه القراءة: مصدريـة، أو موصولـة، كـالقراءة الأولی، أی: بحفظهن اللّه، أو: بالذی حفظن اللّه به. قوله: وَ اللَّاتِی تَخافُونَ نُشُوزَهُنَ

---

(١). و المشهور عن حمزة: (عقدت) مخففة القاف و هی قراءة عاصم و الكسائی. [القرطبی ۵/ ١۶٧].

(٢). عقل القتيل: أعطی وليه ديته.

فتح القدير، ج ١، ص: ۵٣٢

هـذا خطاب للأزواج، قيل: الخوف هنا علی بابه، و هو: حالـة تحـدث فی القلب عنـد حـدوث أمر مكروه، أو: عند ظنّ حدوثه؛ و قيـل: المراد بـالخوف هنـا: العلم. و النشوز: العصـيان. و قـد تقـدّم بيـان أصل معناه فی اللغـة. قال ابن فارس: يقال نشـزت المرأة: اسـتعصت علی بعلهـا، و نشـز بعلهـا عليهـا: إذا ضـربها و جفاها. فَعِظُوهُنَ أی: ذكروهن بما أوجبه اللّه عليهن من الطاعـة و حسـن العشـرة، و رغبـوهنّ، و رهبـوهنّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضـاجِعِ يقـال: هجره، أی: تباعـد منه. و المضـاجع: جمع مضـجع، و هو محل الاضـطجاع، أی: تباعـدوا عن مضـاجعتهنّ، و لاـ تـدخلوهنّ تحت مـا تجعلونه عليكم حال الاضـطجاع من الثياب؛ و قيل: هو: أن يوليها ظهره عند الاضطجاع؛ و قيل: هو كناية عن ترک جماعها؛ و قيل: لا تبيت معه فی البيت الذی يضطجع فيه وَ اضْرِبُوهُنَ أی: ضربـا غير مبرح. و ظاهر النظم القرآنی أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هـذه الأمور عنـد مخافـة النشوز، و قيل: إنه لا يهجرها إلا بعـد عـدم تـأثير الوعـظ، فـإن أثر الوعـظ لم ينتقل إلی الهجر، و إن كفاه الهجر لم ينتقل إلی الضـرب. فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ كما يجب و تركن النشوز فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أی: لا تتعرضوا لهنّ بشیء مما يكرهن لا بقول و لا بفعل، و قيل: المعنی:

لاـ تكلفوهنّ الحبّ لكم فـإنه لا يـدخل تحت اختيارهنّ. إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً إشارة إلی الأزواج بخفض الجناح و لين الجانب، أی: و إن كنتم تقدرون عليهنّ فاذكروا قدرة اللّه عليكم، فإنها فوق كل قدرة، و اللّه بالمرصاد لكم.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلی بَعْضٍ يقول: لا يتمنی الرجل؛ فيقول: ليت أن لی مال فلان و أهله، فنهی اللّه سبحانه عن ذلک، و لكن يسأل اللّه من فضله. لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا يعنی: مما ترک الوالـدان و الأقربون، للـذكر مثل حظ الأنثيين. و أخرج عبـد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة: أن سـبب نزول الآية: أن النساء قلن: لو جعل أنصـباؤنا فی الميراث كأنصباء الرجال؟ و قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل علی النساء بحسناتنا فی الآخرة كما فضـلنا عليهنّ فی الميراث. و قد تقدم ذكر سـبب النزول. و أخرج ابن أبی شـيبة، و ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ قال: ليس بعرض الدنيا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير: وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْـلِهِ قال: العبادة ليس من أمر الدنيا. و أخرج الترمذی عن ابن مسـعود قال: قال رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و سـلم: «سلوا اللّه من فضله، فإنّ اللّه يحبّ أن يسأل».

قال الترمذى: كذا رواه حماد بن واقد؛ و ليس بالحافظ، و رواه أبو نعيم عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و حديث أبى نعيم أشبه أن يكون أصح، و كذا رواه ابن جرير، و ابن مردويه، و رواه أيضا ابن مردويه: من حديث ابن عباس. و أخرج البخارى، و أبو داود، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس: وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ قال: ورثة وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه، للأخوّة التى آخى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بينهم، فلما نزلت: وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ نسخت، ثم قال:

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٣٣

وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ من النصر و الرفادة و النصيحة، و قد ذهب الميراث و يوصى له. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ قال: عصبة وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ قال: كان الرجلان أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل اللّه: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، و هو المعروف. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: كان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل يقول: ترثنى و أرثك، و كان الأحياء يتحالفون، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كلّ حلف كان فى الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدّة، و لا عقد و لا حلف فى الإسلام» فنسختها هذه الآية وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ* «١». و أخرج أبو داود، و ابن جرير، و ابن مردويه، و البيهقى عنه فى الآية قال: كان الرجل يحالف الرجل، ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما الآخر، فنسخ ذلك فى الأنفال: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ* «٢». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الحسن: أن رجلا من الأنصار لطم امرأته فجاءت تلتمس القصاص، فجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بينهما القصاص، فنزل: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ «٣» فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نزل القرآن الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أردنا أمرا و أراد اللّه غيره». و أخرج ابن مردويه عن علىّ نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ يعنى أمراء عليهنّ أن تطيعه فيما أمرها اللّه به من طاعته، و طاعته: أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله بِما فَضَّلَ اللَّهُ فضله عليها نفقته و سعيه فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ قال: مطيعات حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ يعنى: إذا كن كذا فأحسنوا إليهنّ.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ قال: حافظات للغيب بما استودعهنّ اللّه من حقه، و حافظات لغيب أزواجهنّ. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ للأزواج. و أخرج ابن جرير عن السدى قال: تحفظ على زوجها ماله و فرجها حتى يرجع كما أمرها اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس: وَ اللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ قال: تلك المرأة تنشز و تستخفّ بحق زوجها و لا تطيع أمره، فأمره اللّه أن يعظها، و يذكرها باللّه، و يعظم حقه عليها، فإن قبلت، و إلا هجرها فى المضجع و لا يكلمها من غير أن يذر نكاحها، و ذلك عليها تشديد، فإن رجعت، و إلا ضربها ضربا غير مبرح، و لا يكسر لها عظما، و لا يجرح بها جرحا فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا يقول: إذا أطاعتك فلا تتجنى عليها العلل. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس:

وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ قال: لا يجامعها. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عنه قال يهجرها بلسانه، و يلغظ لها بالقول، و لا يدع الجماع. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير عن عكرمة نحوه.

و أخرج ابن جرير عن عطاء: أنه سأل ابن عباس عن الضرب غير المبرح، فقال: بالسواك و نحوه. و قد أخرج الترمذى، و

صحححه، و النسائی، و ابن ماجة عن عمرو بن الأحوص: أنه شهد خطبة الوداع مع رسول

(۱). الأنفال: ۷۵.

(۲). الأنفال: ۷۵.

(۳). طه: ۱۱۴.

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۵۳۴

اللّه صلّى اللّه علیه و سلّم و فیها أنه قال النبی صلّى اللّه علیه و سلم: «ألا و استوصوا بالنّساء خیرا، فإنّما هنّ عوان «۱» عندكم، لیس تملكون منهنّ شیئا غیر ذلك، إلا أن یأتین بفاحشة مبینة، فإن فعلن، فاهجروهنّ فی المضاجع، و اضربوهنّ ضربا غیر مبرح فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا». و أخرج البخاری، و مسلم، و غیرهم عن عبد اللّه ابن زمعة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلم: «أ یضرب أحدكم امرأته كما یضرب العبد؟ ثم یجامعها فی آخر الیوم».

[سورة النساء (۴): آیة ۳۵]

وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً (۳۵)

قد تقدّم معنى الشقاق فی البقرة، و أصله: أن كل واحد منهم یأخذ شقا غیر شق صاحبه، أی: ناحیة غیر ناحیته، و أضیف الشقاق إلى الظرف لإجرائه مجرى المفعول به، كقوله تعالى: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ و قوله:

یا سارق اللّیلة أهل الدّار و الخطاب للأمراء و الحكام، و الضمیر فی قوله: بَيْنِهِما للزوجین، لأنه قد تقدم ذكر ما یدل علیهما، و هو ذكر الرجال و النساء فَابْعَثُوا إلى الزوجین حَكَماً یحكم بینهما ممن یصلح لذلك، عقلا، و دینا، و إنصافا، و إنما نص اللّه سبحانه: على أن الحكمین یكونان من أهل الزوجین، لأنهما أقعد بمعرفة أحوالهما، و إذا لم یوجد من أهل الزوجین من یصلح للحكم بینهما؛ كان الحكمان من غیرهم، و هذا إذا أشكل أمرهما، و لم یتبین من هو المسیء منهما؛ فأما إذا عرف المسیء؛ فإنه یؤخذ لصاحبه الحق منه، و على الحكمین أن یسعیا فی إصلاح ذات البین جهدهما، فإن قدرا على ذلك عملا علیه، و إن أعیاهما إصلاح حالهما؛ و رأیا التفریق بینهما؛ جاز لهما ذلك من دون أمر من الحاكم فی البلد، و لا توكیل بالفرقة من الزوجین. و به قال مالك، و الأوزاعی، و إسحاق، و هو مرویّ عن عثمان، و علیّ، و ابن عباس، و الشعبی، و النخعی، و الشافعی، و حكاه ابن كثیر عن الجمهور، قالوا: لأن اللّه قال: فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها و هذا نص من اللّه سبحانه أنهما قاضیان، لا وكیلان، و لا شاهدان. و قال الكوفیون، و عطاء، و ابن زید، و الحسن، و هو أحد قولی الشافعی: إن التفریق هو إلى الإمام أو الحاكم فی البلد، لا إلیهما، ما لم یوكلهما الزوجان، أو یأمرهما الإمام و الحاكم، لأنهما رسولان شاهدان، فلیس إلیهما التفریق، و یرشد إلى هذا قوله: إِنْ يُرِيدا أی: الحكمان إِصْلاحاً بین الزوجین يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما لاقتصاره على ذكر الإصلاح دون التفریق. و معنى: إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما أی: یوقع الموافقة بین الزوجین حتى یعودا إلى الألفة و حسن العشرة. و معنى الإرادة: خلوص نیتهما لصلاح الحال بین الزوجین، و قیل: إن الضمیر فی قوله: يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما للحكمین كما فی قوله: إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً أی:

(۱). عوان: أصلها: عوانی: جمع عانیة و هی الأسیرة.

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۵۳۵

يوفق بين الحكمين فى اتحاد كلمتهما و حصول مقصودهما؛ و قيل: كلا الضميرين للزوجين، أى: إن يريدا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع اللّه بينهما الألفة و الوفاق، و إذا اختلف الحكمان لم ينفذ حكمهما، و لا يلزم قبول قولهما، بلا خلاف.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما قال: هذا الرجل و المرأة إذا تفاسد الذى بينهما؛ أمر اللّه أن تبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل؛ و رجلا مثله من أهل المرأة؛ فينظران أيهما المسيئ، فإن كان الرجل هو المسيئ حجبوا امرأته عنه و قسروه على النفقة، و إن كانت المرأة هى المسيئة قسروها على زوجها و منعوها النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضى أحد الزوجين و كره الآخر ذلك ثم مات أحدهما فإن الذى رضى يرث الذى كره، و لا يرث الكاره الراضى إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً قال: هما الحكمان يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما و كذلك كل مصلح يوفقه للحق و الصواب. و أخرج الشافعى فى الأم، و عبد الرزاق فى المصنف، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عن عبيدة السلمانى فى هذه الآية قال: جاء رجل و امرأة إلى على و معهما فئام من الناس، فأمرهم علىّ فبعثوا حكما من أهله و حكما من أهلها، ثم قال للحكمين: تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا، و إن رأيتما أن تفرقا أن تفرقا، قالت المرأة: رضيت بكتاب اللّه بما علىّ فيه ولى، و قال الرجل:

أما الفرقة فلا، فقال: كذبت و اللّه حتى تقرّ مثل الذى أقرّت به. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس قال: بعثت أنا و معاوية حكمين، فقيل لنا: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، و إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، و الذى بعثهما عثمان. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن الحسن قال: إنما يبعث الحكمان ليصلحا و يشهدا على الظالم بظلمه، فأما الفرقة فليست بأيديهما. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن قتادة نحوه. و أخرج البيهقى عن علىّ قال: إذا حكم أحد الحكمين و لم يحكم الآخر فليس حكمه بشىء حتى يجتمعا.

[سورة النساء (۴): آية ۳۶]

وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ الْجارِ ذِي الْقُرْبى وَ الْجارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً (۳۶)

قد تقدّم بيان معنى العبادة. و شيئا إما مفعول به، أى: لا تشركوا به شيئا من الأشياء، من غير فرق بين حى و ميت، و جماد و حيوان، و إما مصدر، أى: لا تشركوا به شيئا من الإشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر و الأصغر، و الواضح و الخفى. و قوله: إِحْساناً مصدر لفعل محذوف، أى: أحسنوا بالوالدين إحسانا. و قرأ ابن أبى عبلة: بالرفع، و قد دل ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة اللّه و النهى عن الإشراك به على عظم حقهما، و مثله: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ «۱» فأمر سبحانه بأن يشكرا معه. قوله: وَ بِذِي الْقُرْبى

---

(۱). لقمان: ۱۴.

أى: صاحب القرابة، و هو من يصح إطلاق اسم القربى عليه، و إن كان بعيدا. وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ قد تقدّم تفسيرهم، و المعنى: و أحسنوا بذى القربى إلى آخر ما هو مذكور فى هذه الآية وَ الْجارِ ذِي الْقُرْبى أى: القريب جواره؛ و قيل: هو من له مع الجوار فى الدار قرب فى النسب وَ الْجارِ الْجُنُبِ المجانب، و هو مقابل للجار ذى القربى، و المراد: من يصدق عليه مسمى الجوار مع

كون داره بعيـدة، و فى ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان إليهم، سواء كانت الـديار متقاربة أو متباعدة، و على أن الجوار حرمـة مرعيـة مـأمور بهـا. و فيه ردّ على من يظن أن الجـار مختص بالملاـصق دون من بينه و بينه حائل، أو مختص بالقريب دون البعيـد؛ و قيل: إن المراد بالجار الجنب هنا: هو الغريب؛ و قيل: هو الأجنبى الـذى لا قرابة بينه و بين المجاور له. و قرأ الأعمش، و المفضل: وَ الْجارِ الْجُنُبِ بفتح الجيم و سكون النون، أى: ذى الجنب، و هو الناحية، و أنشد الأخفش:

النّاس جنب و الأمير جنب «١» و قيل: المراد بالجار ذى القربى: المسلم، و بالجار الجنب: اليهودى و النصرانى.

و قد اختلف أهل العلم فى المقدار الذى يصدق عليه مسمى الجوار و يثبت لصاحبه الحق، فروى عن الأوزاعى و الحسن: أنه إلى حـدّ أربعين دارا من كل ناحيـة، و روى عن الزهرى نحوه؛ و قيل: من سـمع إقامـة الصـلاة؛ و قيل: إذا جمعتهما محلة؛ و قيل: من سمع النداء. و الأولى أن يرجع فى معنى الجار إلى الشـرع، فإن وجد فيه ما يقتضى بيانه و أنه يكون جارا إلى حد كذا من الدور، أو من مسافة الأرض، كان العمل عليه متعينا، و إن لم يوجد رجع إلى معناه لغة أو عرفا. و لم يأت فى الشرع ما يفيد أن الجار هو الـذى بينه و بين جاره مقـدار كـذا، و لا ورد فى لغة العرب أيضا ما يفيد ذلك، بل المراد بالجار فى اللغة: المجاور، و يطلق على معـان. قـال فى القـاموس: و الجار: المجاور، و الـذى أجرته من أن يظلم، و المجير، و المسـتجير، و الشـريك فى التجارة، و زوج المرأة، و هى جـارته، و فرج المرأة، و مـا قرب مـن المنـازل، و الاـست، كالجـارة، و القـاسم، و الحليـف، و الناصـر. انتهى. قـال القرطبى فى تفسيره: و روى «أن رجلاـ جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنّى نزلت محلـة قوم، و إن أقربهم إلىّ جوارا أشدّهم لى أذى، فبعث النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أبا بكر، و عمر، و عليا يصيحون على أبواب المساجد: ألا إن أربعين دارا جار، و لا يـدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه». انتهى. و لو ثبت هـذا لكان مغنيا عن غيره، و لكنه رواه كما ترى من غير عزو له إلى أحـد كتب الحـديث المعروفـة، و هو و إن كان إماما فى علم الروايـة، فلا تقوم الحجـة بما يرويه بغير سـند مـذكور و لا نقل عن كتاب مشـهور، و لا سـيما و هو يـذكر الواهيات كثيرا، كما يفعل فى تذكرته، و قد ورد فى القرآن: ما يدل على أن المساكنة فى مدينة مجاورة، قال اللّه تعالى: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ إلى قوله: ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا «٢» فجعل اجتماعهم

---

(١). كأن الأمير عدل بجميع الناس.

(٢). الأحزاب: ٦٠.

فى المدينـة جوارا. و أما الأعراف فى مسـمى الجوار فهى تختلف باختلاف أهلها، و لا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة و اصـطلاحات متواضـعة. قوله: وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ قيل: هو الرفيق فى السفر، قاله ابن عباس، و سعيد بن جبير، و عكرمة، و مجاهد، و الضحاك. و قال على بن أبى طالب، و ابن مسعود، و ابن أبى ليلى: هو الزوجة. و قال ابن جريج: هو الذى يصحبك و يلزمك رجاء نفعك. و لا يبعـد أن تتناول الآيـة جميع ما فى هـذه الأقوال مع زيادة عليها، و هو كل من صـدق عليه أنه صاحب بالجنب، أى: بجنبك، كمن يقف بجنبك فى تحصـيل علم أو تعلم صناعة أو مباشرة تجارة أو نحو ذلك. قوله: وَ ابْنِ السَّبِيلِ قال مجاهد: هو الذى يجتاز بك مارا، و السبيل: الطريق، فنسب المسافر إليه لمروره عليه و لزومه إياه، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر، فإن على المقيم أن يحسن إليه؛ و قيل: هو المنقطع به؛ و قيل: هو الضعيف. قوله:

وَ مـا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ أى: و أحسـنوا إلى ما ملكت أيمانكم إحسانا، و هم العبيـد و الإماء، و قـد أمر النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم: بأنهم يطعمون مما يطعم مالكهم، و يلبسون مما يلبس. و المختال: ذو الخيلاء، و هو الكبر و التيه، أى:

لاـ يحب من كـان متكبرا تائهـا على النـاس مفتخرا عليهم. و الفخر: المـدح للنفس، و التطـاول، و تعديـد المناقب، و خص هاتين

الصفتين لأنهما يحملان صاحبهما على الأنفة مما ندب اللّه إليه فى هذه الآية.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ الْجارِ ذِي الْقُرْبى يعنى: الذى بينك و بينه قرابة وَ الْجارِ الْجُنُبِ يعنى: الذى ليس بينك و بينه قرابة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن نوف البكالى قال: الجار ذى القربى: المسلم، و الجار الجنب: اليهودى و النصرانى. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ قال: الرفيق فى السفر. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير و مجاهد مثله. و أخرج الحكيم، و الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ قال: هو جليسك فى الحضر، و رفيقك فى السفر، و امرأتك التى تضاجعك.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن علىّ قال: هو المرأة. و أخرج هؤلاء، و الطبرانى عن ابن مسعود مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ قال: مما خوّلك اللّه فأحسن صحبته؛ كل هذا أوصى به. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه، و قد ورد مرفوعا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى برّ الوالدين، و فى صلة القرابة، و فى الإحسان إلى اليتامى، و فى الإحسان إلى الجار، و فى القيام بما يحتاجه المماليك، أحاديث كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا إلى بسطها هنا، و هكذا ورد فى ذم الكبر و الاختيال و الفخر ما هو معروف.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۳۸

[سورة النساء (۴): الآيات ۳۷ الى ۴۲]

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ يَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (۳۷) وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً (۳۸) وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَ كانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (۳۹) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (۴۰) فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (۴۱)
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (۴۲)

قوله: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ هم فى محل نصب بدلا من قوله: مَنْ كانَ مُخْتالًا أو على الذمّ، أو فى محل رفع على الابتداء، و الخبر مقدّر، أى: لهم كذا و كذا من العذاب، و يجوز أن يكون مرفوعا بدلا من الضمير المستتر فى قوله: مُخْتالًا فَخُوراً و يجوز أن يكون منصوبا على تقدير: أعنى، أو مرفوعا على الخبر، و المبتدأ مقدّر، أى: هم الذين يبخلون، و الجملة فى محل نصب على البدل. و البخل المذموم فى الشرع: هو الامتناع من أداء ما أوجب اللّه، و هؤلاء المذكورون فى هذه الآية، ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذى هو أشرّ خصال الشرّ ما هو أقبح منه و أدل على سقوط نفس فاعله، و بلوغه فى الرذالة إلى غايتها، و هو أنهم مع بخلهم بأموالهم و كتمهم لما أنعم اللّه به عليهم من فضله يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ كأنهم يجدون فى صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا و مضاضة، فلا كثّر فى عباده من أمثالكم، هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها فى مواضعه، فما بالكم بخلتم بأموال غيركم؟ مع أنه لا يلحقكم فى ذلك ضرر، و هل هذا إلا غاية اللؤم، و نهاية الحمق و الرقاعة، و قبح الطباع، و سوء الاختيار. و قد تقدم اختلاف القراءات فى البخل. و قد قيل: إن المراد بهذه الآية: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال و الفخر و البخل بالمال و كتمان ما أنزل اللّه فى التوراة؛ و قيل: المراد بها: المنافقون، و لا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك، و أكثر شمولا، و أعمّ فائدة، قوله: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ عطف على قوله: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ و وجه ذلك: أن

الأوّلين قد فرطوا بالبخل، و بأمر الناس به، و بكتم ما آتاهم اللّه من فضله، و هؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم فى غير مواضعها، لمجرد الرياء و السمعة، كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم، و يتطاول على غيره بذلك، و يشمخ بأنفه عليه، مع ما ضم إلى هذا الإنفاق الذى يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان باللّه و اليوم الآخر. قوله: وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فى الكلام إضمار، و التقدير: و لا يؤمنون باللّه و لا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً و القرين: المقارن، و هو الصاحب و الخليل. و المعنى: من قبل من الشيطان فى الدنيا فقد قارنه فيها، أو فهو قرينه فى النار، فساء الشيطان قرينا وَ ما ذا عَلَيْهِمْ أى: على هذه الطوائف لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ابتغاء لوجهه، و امتثالا لأمره، أى: و ماذا يكون عليهم من ضرر لو فعلوا ذلك. قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ المثقال: مفعال من الثقل، كالمقدار من القدر، و هو منتصب على أنه نعت لمفعول محذوف، أى: لا يظلم شيئا مثقال ذرة. و الذرّة: واحدة الذرّ. و هى النمل الصغار؛ و قيل: رأس النملة، و قيل: الذرّة:

الخردلة؛ و قيل: كل جزء من أجزاء الهباء الذى يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة أو غيرها ذرة. و الأوّل هو المعنى اللغوى الذى يجب حمل القرآن عليه. و المراد من الكلام أن اللّه لا يظلم كثيرا و لا قليلا، أى: لا

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۳۹

يبخسهم من ثواب أعمالهم، و لا يزيد فى عقاب ذنوبهم وزن ذرة فضلا عما فوقها. قوله: وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها قرأ أهل الحجاز: حسنة بالرفع. و قرأ من عداهم: بالنصب؛ و المعنى على القراءة الأولى:

إن توجد حسنة، على أنّ كان هى التامة لا الناقصة؛ و على القراءة الثانية: إن تك فعلته حسنة يضاعفها؛ و قيل: إن التقدير: إن تك مثقال الذرّة حسنة، و أنت ضمير المثقال لكونه مضافا إلى المؤنث، و الأوّل أولى.

و قرأ الحسن: نضاعفها بالنون، و قرأ الباقون: بالياء، و هى الأرجح لقوله: وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً و قد تقدّم الكلام فى المضاعفة، و المراد: مضاعفة ثواب الحسنة، قوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ كيف: منصوبة بفعل مضمر، كما هو رأى سيبويه، أو محلها: رفع على الابتداء، كما هو رأى غيره، و الإشارة بقوله: هؤُلاءِ إلى الكفار، و قيل: إلى كفار قريش خاصة. و المعنى: فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا؟ و هذا الاستفهام معناه: التوبيخ و التقريع يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ قرأ نافع و ابن عامر: تُسَوَّى بفتح التاء و تشديد السين، و قرأ حمزة و الكسائى: بفتح التاء و تخفيف السين، و قرأ الباقون: بضم التاء و تخفيف السين. و المعنى على القراءة الأولى و الثانية: أن الأرض هى التى تسوّى بهم، أى: أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها؛ و قيل: الباء فى قوله: بِهِمُ بمعنى على، أى: تسوّى عليهم الأرض. و على القراءة الثالثة: الفعل مبنىّ للمفعول، أى: لو سوّى اللّه بهم الأرض فيجعلهم و الأرض سواء حتى لا يبعثوا. قوله: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً عطف على يَوَدُّ أى: يومئذ يودّ الذين كفروا، و يومئذ لا يكتمون اللّه حديثا، و لا يقدرون على ذلك. قال الزجاج: قال بعضهم لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً مستأنف، لأن ما عملوه ظاهر عند اللّه لا يقدرون على كتمانه. و قال بعضهم: هو معطوف.

و المعنى: يودّون أن الأرض سوّيت بهم و أنهم لم يكتموا اللّه حديثا لأنه ظهر كذبهم.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان كردم بن يزيد حليف كعب بن الأشرف، و أسامة بن حبيب، و نافع بن أبى نافع، و بحرى بن عمرو، و حيى بن أخطب، و رفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالا من الأنصار ينتصحون لهم فيقولون: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها، و لا تسارعوا النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون؟ فأنزل اللّه فيهم: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ إلى قوله: وَ كانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً. و قد أخرج ابن أبى حاتم عنه أنها

نزلت فی اليهود. و أخرجه عبـد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد. و أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير. و أخرجه عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن ابن عباس: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ قال: رأس نملة حمراء. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير فی قوله: إِنْ تَكُ حَسَنَةً وزن ذرة، زادت على سيئاته يُضاعِفْها فأما المشرك فيخفف به عنه العذاب و لا يخرج من النار أبدا.

و أخرج البخاری و غيره عن ابن مسعود قال لی رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اقرأ علیّ قلت: يا رسول اللّه!

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۴۰

أقرأ عليک و عليک أنزل؟ قال: نعم، إنّی أحبّ أن أسمعه من غيری، فقرأت سورة النساء حتّى أتيت إلى هذه الآية فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً قال: حسبک الآن فإذا عيناه تذرفان». و أخرجه الحاكم، و صححه من حديث عمرو بن حريث. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم من طريق العوفی عن ابن عباس فی قوله: لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ يعنی: أن تسوّى الأرض بالجبال عليهم، و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن قتادة فی الآية: يقول: ودّوا لو انخرقت بهم الأرض فساخوا فيها. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً قال: بجوارحهم.

[سورة النساء (۴): آية ۴۳]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَ لا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً (۴۳)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جعل الخطاب خاصا بالمؤمنين، لأنهم كانوا يقربون الصلاة حال السكر، و أما الكفار: فهم لا يقربونها سكارى و لا غير سكارى. قوله: لا تَقْرَبُوا قال أهل اللغة: إذا قيل لا تقرب بفتح الراء معناه: لا تدن منه. و المراد هنا: النهی عن التلبس بالصلاة و غشيانها. و به قال جماعة من المفسرين، و إليه ذهب أبو حنيفة، و قال آخرون: المراد مواضع الصلاة، و به قال الشافعی. و على هذا فلا بدّ من تقدير مضاف، و يقوی هذا قوله: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ و قالت طائفة: المراد: الصلاة و مواضعها معا، لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة، و لا يصلون إلا مجتمعين، فكانا متلازمين.

قوله: وَ أَنْتُمْ سُكارى الجملة فی محل نصب على الحال، و سكارى: جمع سكران، مثل: كسالى جمع كسلان. و قرأ النخعی: سكارى بفتح السين، و هو تكسير سكران: و قرأ الأعمش: سُكارى كحبلى، صفة مفردة. و قد ذهب العلماء كافة إلى أن المراد بالسكر هنا: سكر الخمر، إلا الضحاک فإنه قال:

المراد: سكر النوم. و سيأتی بيان سبب نزول الآية، و به يندفع ما يخالف الصواب من هذه الأقوال. قوله:

حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ هذا غاية النهی عن قربان الصلاة فی حال السكر، أی: حتی يزول عنكم أثر السكر و تعلموا ما تقولونه، فإن السكران لا يعلم ما يقوله، و قد تمسک بهذا من قال: إن طلاق السكران لا يقع، لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد. و به قال عثمان بن عفان، و ابن عباس، و طاوس، و عطاء، و القاسم، و ربيعة، و هو قول الليث بن سعد، و إسحاق، و أبی ثور، و المزنی. و اختاره الطحاوی و قال:

أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز، و السكران معتوه كالموسوس. و أجازت طائفة وقوع طلاقه، و هو محكی عن عمر بن الخطاب، و معاوية، و جماعة من التابعين، و هو قول أبی حنيفة، و الثوری، و الأوزاعی. و اختلف قول الشافعی فی ذلک. و

قال مالک: یلزمه الطلاق، و القود فی الجراح، و القتل،

و لا یلزمه النکاح، و البیع. قوله: وَ لا جُنُباً عطف علی محل الجملهٔ الحالیهٔ، و هی قوله: وَ أَنْتُمْ سُکاری و الجنب: لا یؤنث، و لا یثنی، و لا یجمع، لأنه ملحق بالمصدر، کالبعد و القرب. قال الفراء:

یقال جنب الرجل و أجنب من الجنابهٔ؛ و قیل: یجمع الجنب فی لغهٔ علی أجناب، مثل: عنق و أعناق، و طنب و أطناب. و قوله: إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ استثناء مفرّغ، أی: لا تقربوها فی حال من الأحوال إلا فی حال عبور السبیل. و المراد به هنا السفر، و یکون محل هذا الاستثناء المفرّغ النصب علی الحال من ضمیر لا تقربوا بعد تقییده بالحال الثانیهٔ، و هی قوله: وَ لا جُنُباً لا بالحال الأولی، و هی قوله: وَ أَنْتُمْ سُکاری فیصیر المعنی: لا تقربوا الصلاهٔ حال کونکم جنبا إلا حال السفر، فإنه یجوز لکم أن تصلوا بالتیمم، و هذا قول علیّ، و ابن عباس، و ابن جبیر، و مجاهد، و الحکم، و غیرهم، قالوا: لا یصح لأحد أن یقرب الصلاهٔ و هو جنب إلا بعد الاغتسال، إلا المسافر فإنه یتیمم، لأن الماء قد یعدم فی السفر لا فی الحضر، فإن الغالب أنه لا یعدم. و قال ابن مسعود، و عکرمهٔ، و النخعی، و عمرو بن دینار، و مالک، و الشافعی: عابر السبیل:

هو المجتاز فی المسجد، و هو مرویّ عن ابن عباس، فیکون معنی الآیهٔ علی هذا: لا تقربوا مواضع الصلاهٔ:

و هی المساجد فی حال الجنابهٔ إلا أن تکونوا مجتازین فیها من جانب إلی جانب، و فی القول الأول قوّهٔ من جههٔ کون الصلاهٔ فیه باقیهٔ عند عدم الماء بالتیمم، فإن هذا الحکم یکون فی الحاضر إذا عدم الماء، کما یکون فی المسافر، و فی القول الثانی قوّهٔ من جههٔ عدم التکلف فی معنی قوله: إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ و ضعف من جههٔ حمل الصلاهٔ علی مواضعها، و بالجملهٔ فالحال الأولی، أعنی قوله: وَ أَنْتُمْ سُکاری تقوّی بقاء الصلاهٔ علی معناها الحقیقی من دون تقدیر مضاف، و کذلک ما سیأتی من سبب نزول الآیهٔ یقوّی ذلک. و قوله:

إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ یقوّی تقدیر المضاف: أی لا تقربوا مواضع الصلاهٔ. و یمکن أن یقال: إن بعض قیود النهی أعنی: لا تَقْرَبُوا و هو قوله: وَ أَنْتُمْ سُکاری یدل علی أن المراد بالصلاهٔ معناها الحقیقی، و بعض قیود النهی و هو قوله: إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ یدل علی أن المراد: مواضع الصلاهٔ، و لا مانع من اعتبار کل واحد منهما مع قیده الدالّ علیه، و یکون ذلک علیه، و یکون ذلک بمنزلهٔ نهیین مقید کل واحد منهما بقید، و هما: لا تقربوا الصلاهٔ التی هی ذات الأذکار و الأرکان و أنتم سکاری، و لا تقربوا مواضع الصلاهٔ حال کونکم جنبا إلا حال عبورکم فی المسجد من جانب إلی جانب، و غایهٔ ما یقال فی هذا: أنه من الجمع بین الحقیقهٔ و المجاز، و هو جائز بتأویل مشهور. و قال ابن جریر بعد حکایته للقولین: و الأولی قول من قال: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ إلا مجتازی طریق فیه، و ذلک أنه قد بین حکم المسافر إذا عدم الماء، و هو جنب فی قوله: وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً «۱» فکان معلوما بذلک، أی: أن قوله: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ حَتَّی تَغْتَسِلُوا لو کان معنیا به المسافر لم یکن لإعادهٔ ذکره فی قوله: وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ معنی مفهوم.

و قد مضی ذکر حکمه قبل ذلک، فإذا کان ذلک کذلک فتأویل الآیهٔ: یا أیها الذین آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاهٔ مصلین فیها و أنتم سکاری حتی تعلموا ما تقولون، و لا تقربوها أیضا جنبا حتی تغتسلوا إلا عابری

---

(۱). المائدهٔ: ۵.

سبیل. قال: و العابر السبیل: المجتاز مرّا و قطعا، یقال منه: عبرت هذا الطریق فأنا أعبره عبرا و عبورا، و منه قیل: عبر فلان النهر إذا

قطعه و جاوزه؛ و منه قيل للناقة القوية: هى عبر أسفار، لقوّتها على قطع الأسفار.

قال ابن كثير: و هذا الذى نصره، يعنى: ابن جرير، هو قول الجمهور، و هو الظاهر من الآية. انتهى.

قوله: حَتَّى تَغْتَسِلُوا غاية للنهى عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة. و المعنى: لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا إلا حال عبوركم السبيل. قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى المرض: عبارة عن خروج البدن عن حدّ الاعتدال و الاعتياد إلى الاعوجاج و الشذوذ، و هو على ضربين كثير و يسير. و المراد هنا: أن يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء، أو كان ضعيفا فى بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء. و روى عن الحسن أنه يتطهر و إن مات، و هذا باطل يدفعه قوله تعالى: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «١» و قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «٢» و قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ «٣» قوله: أَوْ عَلى سَفَرٍ فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر، و الخلاف مبسوط فى كتب الفقه، و قد ذهب الجمهور إلى أنه لا يشترط أن يكون سفر قصر، و قال قوم: لا بد من ذلك، و قد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر. و اختلفوا فى الحاضر، فذهب مالك، و أصحابه، و أبو حنيفة، و محمد: إلى أنه يجوز فى الحضر و السفر. و قال الشافعى:

لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف. قوله: أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ هو المكان المنخفض، و المجيء منه: كناية عن الحدث، و الجمع: الغيطان و الأغواط، و كانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تسترا عن أعين الناس، ثم سمى الحدث الخارج من الإنسان غائطا توسعا، و يدخل فى الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء. قوله: أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ قرأ نافع و ابن كثير، و أبو عمرو، و عاصم، و ابن عامر: لامَسْتُمُ و قرأ حمزة، و الكسائى: لمستم قيل: المراد بها بما فى القراءتين:

الجماع؛ و قيل: المراد به: مطلق المباشرة؛ و قيل: إنه يجمع الأمرين جميعا. و قال محمد بن يزيد المبرد: الأولى فى اللغة أن يكون لامَسْتُمُ بمعنى قبلتم و نحوه، و لمستم بمعنى غشيتم.

و اختلف العلماء فى معنى ذلك على أقوال، فقالت فرقة: الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع، قالوا:

و الجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. و قد روى هذا عن عمر بن الخطاب، و ابن مسعود. قال ابن عبد البر: لم يقل بقولهما فى هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأى، و حملة الآثار. انتهى. و أيضا: الأحاديث الصحيحة تدفعه و تبطله، كحديث عمار، و عمران بن حصين، و أبى ذرّ فى تيمم الجنب. و قال طائفة: هو الجماع كما فى قوله: ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ «۴»، و قوله:

وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ «۵» و هو مروىّ عن علىّ، و أبىّ بن كعب، و ابن عباس، و مجاهد، و طاوس، و الحسن، و عبيد بن عمير، و سعيد بن جبير، و الشعبى، و قتادة، و مقاتل بن حبان، و أبى حنيفة.

و قال مالك: الملامس بالجماع يتيمم، و الملامس باليد يتيمم إذا التذّ، فإن لمسها بغير شهوة فلا وضوء، و به قال أحمد و إسحاق. و قال الشافعى: إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن المرأة سواء كان باليد أو غيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة و إلا فلا. و حكاه القرطبى عن ابن مسعود، و ابن عمر، و الزهرى،

---

(١). الحج: ٧٨.

(٢). النساء: ٢٩.

(٣). البقرة: ١٨٥.

(۴). الأحزاب: ۴٩.

(۵). البقرة: ۲۳۷.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۴۳

و ربيعة. و قال الأوزاعى: إذا كان اللمس باليد نقض الطهر، و إن كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى: فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ و قد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المذكورة فى الآية هى ما ذهبت إليه، و ليس الأمر كذلك. فقد اختلفت الصحابة و من بعدهم فى معنى الملامسة المذكورة فى الآية، و على فرض أنها ظاهرة فى الجماع، فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة و الكسائى بلفظ أو لمستم و هى محتملة بلا شك و لا شبهة، و مع الاحتمال فلا تقوم الحجة بالمحتمل. و هذا الحكم تعمّ به البلوى و يثبت به التكليف العامّ، فلا يحل إثباته بمحتمل قط، و قد وقع النزاع فى مفهومه. و إذا عرفت هذا فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من اجتنب و لم يجد الماء، فكان الجنب داخلا فى الآية بهذا الدليل، و على فرض عدم دخوله فالسنة تكفى فى ذلك. و أما وجوب الوضوء أو التيمم على من لمس المرأة بيده أو بشىء من بدنه فلا يصح القول به استدلالا بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال. و أما ما استدلوا به: من أنه صلّى اللّه عليه و سلّم أتاه رجل فقال: يا رسول اللّه! ما تقول فى رجل لقى امرأة لا يعرفها؟ و ليس يأتى الرجل من امرأته شيئا إلا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها، فأنزل اللّه أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ و أخرجه أحمد، و الترمذى، و النسائى من حديث معاذ، قالوا: فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة و لم يجامعها، و لا يخفاك أنه لا دلالة بهذا الحديث على محمل النزاع، فإن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إنما أمره بالوضوء ليأتى بالصلاة التى ذكرها اللّه سبحانه فى هذه الآية، إذ لا صلاة إلا بوضوء. و أيضا فالحديث منقطع لأنه من رواية ابن أبى ليلى عن معاذ و لم يلقه، و إذا عرفت هذا، فالأصل: البراءة عن هذا الحكم، فلا يثبت إلا بدليل خالص عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجة. و أيضا قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت:

«كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يتوضأ ثم يقبّل، ثم يصلّى و لا يتوضأ». و قد روى هذه الحديث بألفاظ مختلفة، و رواه أحمد، و ابن أبى شيبة، و أبو داود، و النسائى، و ابن ماجة، و ما قيل: من أنه من رواية حبيب بن أبى ثابت عن عروة، عن عائشة و لم يسمع من عروة، فقد رواه أحمد فى مسنده من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، و رواه ابن جرير من حديث ليث عن عطاء عن عائشة، و رواه أحمد أيضا، و أبو داود، و النسائى من حديث أبى روق الهمدانى عن إبراهيم التيمى، عن عائشة، و رواه أيضا ابن جرير من حديث أم سلمة، و رواه أيضا من حديث زينب السهمية. و لفظ حديث أم سلمة: «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقبّل ثم يصلّى و لا يتوضأ». و رواه أحمد عن زينب السهمية عن عائشة. قوله: فَلَمْ تَجِدُوا ماءً هذا القيد إن كان راجعا إلى جميع ما تقدم مما هو مذكور بعد الشرط، و هو المرض، و السفر، و المجىء من الغائط، و ملامسة النساء، كان فيه دليل على أن المرض و السفر بمجردهما لا يسوّغان التيمم، بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء فلا يجوز للمريض أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، و لا يجوز للمسافر أن يتيمم إلا إذا لم يجد ماء، و لكنه يشكل على هذا أن الصحيح كالمريض إذا لم يجد الماء تيمم، و كذلك المقيم كالمسافر إذا لم يجد الماء تيمم، فلا بد من فائدة فى التنصيص على المرض و السفر؛ فقيل: وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنة للعجز عن الوصول إلى الماء، و كذلك المسافر عدم الماء فى حقه غالب، و إن كان راجعا إلى الصورتين الأخيرتين، أعنى: قوله:

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۴۴

أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال، و هو أن من صدق عليه اسم المريض أو المسافر جاز له التيمم، و إن كان واجدا للماء قادرا على استعماله، و قد قيل: إنه رجع هذا القيد إلى الآخرين مع كونه معتبرا

فى الأوّلين لندرة وقوعه فيهما. و أنت خبير بأن هذا كلام ساقط و توجيه بارد. و قال مالك و من تابعه: ذكر اللّه المرض و السفر فى شرط التيمم اعتبارا بالأغلب فى من لم يجد الماء بخلاف الحاضر، فإن الغالب وجوده، فلذلك لم ينص اللّه سبحانه عليه. انتهى. و الظاهر أن المرض بمجرّده مسوّغ للتيمم، و إن كان الماء موجودا إذا كان يتضرّر باستعماله فى الحال أو فى المآل، و لا تعتبر خشية التلف، فاللّه سبحانه يقول: يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ «١» و يقول: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «٢»، و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «الدين يسر» و يقول: «يسّروا و لا تعسّروا» و قال: «قتلوه قتلهم اللّه» و يقول:

«أمرت بالشريعة السّمحة» فإذا قلنا: إن قيد عدم وجود الماء راجع إلى الجميع، كان وجه التنصيص على المرض: هو أنه يجوز له التيمم و الماء حاضر موجود إذا كان استعماله يضرّه، فيكون اعتبار ذلك القيد فى حقه إذا كان استعماله لا يضرّه، فإن فى مجرّد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب، لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف. و أما وجه التنصيص على المسافر فلا شك أن الضرب فى الأرض مظنة لإعواز الماء فى بعض البقاع دون بعض. قوله: فَتَيَمَّمُوا التيمم لغة: القصد، يقال: تيممت الشيء: قصدته، و تيممت الصعيد: تعمدته، و تيممته بسهمى و رمحى: قصدته دون من سواه، و أنشد الخليل:

يمّمته الرّمح شزرا ثمّ قلت لههذى البسالة لا لعب الزّحاليق

و قال امرؤ القيس:

تيمّمتها من أذرعات و أهلهابيثرب أدنى دارها نظر عالى

و قال:

تيمّمت العين التى عند ضارجيفيء عليها الظّلّ عرمضها طامى «٣»

قال ابن السكيت: قوله: فَتَيَمَّمُوا أى: اقصدوا، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه و اليدين بالتراب. و قال ابن الأنبارى فى قولهم قد تيمم الرجل: معناه: قد مسح التراب على وجهه، و هذا خلط منهما للمعنى اللغوى بالمعنى الشرعى، فإن العرب لا تعرف التيمم بمعنى مسح الوجه و اليدين، و إنما هو معنى شرعى فقط، و ظاهر الأمر الوجوب، و هو مجمع على ذلك. و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة، و تفاصيل التيمم و صفاته مبينة فى السنة المطهرة، و مقالات أهل العلم مدوّنة فى كتب الفقه، قوله: صَعِيداً الصعيد: وجه الأرض سواء كان عليه تراب أو لم يكن، قاله الخليل، و ابن الأعرابى، و الزجاج. قال الزجاج: لا أعلم فيه خلافا بين أهل اللغة، قال اللّه تعالى: وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً

---

(١). البقرة: ١٨٥.

(٢). الحج: ٧٨.

(٣). ضارج اسم موضع. و العرمض: الطحلب، و قيل: الخضرة على الماء. و طامى: مرتفع.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٤٥

جُرُزاً «١» أى: أرضا غليظة لا تنبت شيئا، و قال تعالى: فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً «٢» و قال ذو الرمة:

كأنّه بالضّحى تزمى الصّعيد بهدبّابة فى عظام الرّأس خرطوم «٣»

و إنما سمى صعيدا لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض، و جمع الصعيد: صعدات.

و قد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به، فقال مالك، و أبو حنيفة، و الثورى، و الطبرى: إنه يجزئ بوجه الأرض كله ترابا كان أو رملا أو حجارة، و حملوا قوله: طَيِّباً على الطاهر الذى ليس بنجس.

و قال الشافعى، و أحمد، و أصحابهما: إنه لا يجزئ التيمم إلا بالتراب فقط، و استدلوا بقوله تعالى: صَعِيداً زَلَقاً أى: ترابا أملس

طيبا، و كذلك استدلوا بقوله: طَيِّباً قالوا: و الطيب: التراب الذى ينبت.

و قد تنوزع فى معنى الطيب، فقيل: الطاهر كما تقدم؛ و قيل: المنبت كما هنا؛ و قيل: الحلال. و المحتمل لا تقوم به حجة و لو لم يوجد فى الشىء الذى يتيمم به إلا ما فى الكتاب العزيز، لكان الحق ما قاله الأوّلون، لكن ثبت فى صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «فضلنا الناس بثلاث:

جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، و جعلت لنا الأرض كلّها مسجدا، و جعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء» و فى لفظ: «و جعل ترابها لنا طهورا» فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور فى الآية، أو مخصص لعمومه، أو مقيد لإطلاقه، و يؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل: تيمم بالصعيد، أى: أخذ من غباره. انتهى، و الحجر الصلد لا غبار له. قوله: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ هذا المسح مطلق، يتناول المسح بضربة أو ضربتين، و يتناول المسح إلى المرفقين، أو إلى الرسغين، و قد بينته السنة بيانا شافيا، و قد جمعنا بين ما ورد فى المسح بضربة و بضربتين، و ما ورد فى المسح إلى الرسغ و إلى المرفقين، فى شرحنا للمنتقى و غيره من مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. قوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً أى: عفا عنكم و غفر لكم تقصيركم، و رحمكم بالترخيص لكم و التوسعة عليكم.

و قد أخرج عبد بن حميد، و أبو داود، و الترمذى، و حسنه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه، و الضياء فى المختارة عن علىّ بن أبى طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن ابن عوف طعاما، فدعانا و سقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، و حضرت الصلاة فقدمونى فقرأت:

قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون و نحن نعبد ما تعبدون، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه: أن الذى صلّى به عبد الرحمن. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة فى الآية قال: نزلت فى أبى بكر، و عمر، و علىّ، و عبد الرحمن بن ابن عوف طعاما، فدعانا و سقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، و حضرت الصلاة فقدمونى فقرأت:

---

(١). الكهف: ٨.

(٢). الكهف: ٤٠.

(٣). الصّعيد: التراب، و الدبّابة: الخمر. و الخرطوم: الخمر و صفوتها. يقول: ولد الظبية لا يرفع رأسه، و كأنه رجل سكران من ثقل نومه فى وقت الضحى.

الكافرون حتى ختمها فقال: ليس لى دين و ليس لكم دين، فنزلت. و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود، و النسائى، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: نسختها إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ «١» الآية. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال: لم يعن بها الخمر، إنما عنى بها سكر النوم. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس: وَ أَنْتُمْ سُكارى قال: النعاس. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة فى المصنف، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن علىّ. قوله: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ قال: نزلت فى المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم و يصلى. و فى لفظ قال: لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافرا تصيبه الجنابة فلا يجد الماء، فيتيمم، و يصلى حتى يجد الماء.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن ابن عباس فى الآية يقول: لا تقربوا الصلاة و أنتم جنب إذا وجدتم الماء، فإن لم تجدوا الماء فقد أحللت أن تمسحوا بالأرض. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: لا يمرّ الجنب و لا الحائض فى المسجد، إنما

أنزلت: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ للمسافر یتیمم ثم یصلی. و أخرج الدارقطنی، و الطبرانی، و أبو نعیم فی المعرفة، و ابن مردویه، و البیهقی فی سننه، و الضیاء فی المختارة عن الأسلع ابن شریک قال: کنت أرحل ناقة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، فأصابتنی جنابة فی لیلة باردة، و أراد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم الرحلة، فکرهت أن أرحل ناقته و أنا جنب، و خشیت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض، فأمرت رجلا من الأنصار فرحلها، ثم رضفت أحجارا فأسخنت بها ماء فاغتسلت، ثم لحقت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و أصحابه، فقال: یا أسلع! ما لی أری راحلتک تغیرت؟ قلت: یا رسول اللّه! لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار، قال: و لم؟ قلت: إنی أصابتنی جنابة فخشیت القرّ علی نفسی، فأمرته أن یرحلها و رضفت أحجارا فأسخنت بها ماء فاغتسلت به، فأنزل اللّه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إلی قوله: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ

و أخرج ابن سعد، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و الطبرانی، و البیهقی من وجه آخر عن أسلع قال: کنت أخدم النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم و أرحل له، فقال لی ذات لیلة: یا أسلع! قم فأرحل لی» قلت: یا رسول اللّه! أصابتنی جنابة، فسکت عنّی ساعة، حتّی جاء جبریل بآیة الصّعید، فقال: «قم یا أسلع فتیمّم» الحدیث. و أخرج ابن أبی حاتم من طریق عطاء الخراسانی عن ابن عباس لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ قال: المساجد. و أخرج عبد ابن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و البیهقی من طریق عطاء الخراسانی عنه: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ قال: لا تدخلوا المسجد و أنتم جنب إلا عابری سبیل، قال: تمر به مرّا و لا تجلس. و أخرج ابن جریر عن ابن مسعود نحوه. و أخرج عبد الرزاق، و البیهقی فی سننه عنه أنه کان یرخص للجنب أن یمرّ فی المسجد و لا یجلس فیه، ثم قرأ قوله: وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِی سَبِیلٍ و أخرج البیهقی عن أنس نحوه.

و أخرج سعید بن منصور، و ابن أبی شیبة، و ابن جریر، و البیهقی عن جابر قال: کان أحدنا یمرّ فی المسجد و هو جنب مجتازا.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی قال:

نزلت فی رجل من الأنصار کان مریضا فلم یستطع أن یقوم فیتوضأ و لم یکن له خادم فیناوله، فأتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فذکر ذلک له فأنزل اللّه هذه الآیة. و أخرج ابن أبی شیبة، و عبد بن حمید، و ابن المنذر، و ابن

---

(۱). المائدة: ۹۰.

أبی حاتم، و البیهقی عن ابن عباس فی قوله: وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی قال: هو الرجل المجدور، أو به الجراح، أو القرح، یجنب فیخاف إن اغتسل أن یموت فیتیمم. و أخرج ابن جریر عن إبراهیم النخعی قال: نال أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم جراح ففشت فیهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشکوا ذلک إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلم، فنزلت: وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی الآیة. و أخرج عبد الرزاق، و سعید بن منصور، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی، و الحاکم، و البیهقی من طرق عن ابن مسعود فی قوله: أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ قال: اللمس: ما دون الجماع، و القبلة منه، و فیه الوضوء. و أخرج ابن أبی شیبة، و ابن جریر عن ابن عمر:

أنه کان یتوضأ من قبلة المرأة، و یقول هی اللماس. و أخرج الدارقطنی، و البیهقی، و الحاکم عن عمر قال:

إن القبلة من اللمس فتوضأ منها. و أخرج ابن أبی شیبة، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر عن علی قال: اللمس هو الجماع و لکن اللّه کنی عنه. و أخرج سعید بن منصور، و ابن أبی شیبة، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر عن سعید بن جبیر قال: کنا فی حجرة ابن عباس و معنا عطاء بن أبی رباح و نفر من الموالی و عبید بن عمیر و نفر من العرب فتذاکرنا اللمس، فقلت أنا و عطاء و الموالی: اللمس بالید، و قال عبید بن عمیر و العرب: هو الجماع، فدخلت علی ابن عباس فأخبرته فقال: غلبت

الموالى و أصابت العرب، ثم قال: إن اللمس و المسّ و المباشرة: الجماع «١»، و لكن اللّه يكنى ما شاء بما شاء. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: إن أطيب الصعيد أرض الحرث.

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٤ الى ٤٨]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَ كَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَ كَفى بِاللَّهِ نَصِيراً (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (٤٨)

قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ كلام مستأنف، و الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المسلمين. و النصيب: الحظّ، و المراد: اليهود أوتوا نصيبا من التوراة. و قوله: يَشْتَرُونَ جملة حالية، و المراد بالاشتراء: الاستبدال، و قد تقدم تحقيق معناه. و المعنى: أن اليهود استبدلوا الضلالة، و هى البقاء على اليهودية بعد وضوح الحجة على صحة نبوّة نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم قوله: وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ

(١). فى المطبوع: و المباشرة إلى الجماع ما هو. و المثبت من تفسير الطبرى (ط دار الكتب العلمية ٤/ ١٠٥)

عطف على قوله: يَشْتَرُونَ مشارك له فى بيان سوء صنيعهم، و ضعف اختيارهم، أى: لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى، بل أرادوا مع ضلالهم: أن يتوصلوا بكتمهم و جحدهم إلى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذى هو سبيل الحق، وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ أيها المؤمنون و ما يريدونه بكم من الإضلال، و الجملة اعتراضية، وَ كَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا لكم وَ كَفى بِاللَّهِ نَصِيراً ينصركم فى مواطن الحرب، فاكتفوا بولايته و نصره، و لا تتولوا غيره؛ و لا تستنصروه، و الباء فى قوله:

بِاللَّهِ فى الموضعين: زائدة. قوله: مِنَ الَّذِينَ هادُوا قال الزجاج: إن جعلت متعلقة بما قبل فلا يوقف على قوله: نَصِيراً و إن جعلت منقطعة، فيجوز الوقف على نصيرا، و التقدير: من الذين هادوا قوم يحرّفون، ثم حذف، و هذا مذهب سيبويه، و مثله قول الشاعر:

لو قلت ما فى قومها لم أيثم يفضلها فى حسب و ميسم

قالوا: المعنى: لو قلت ما فى قومها أحد يفضلها، ثم حذف. و قال الفراء: المحذوف لفظ من، أى:

من الذين هادوا من يحرّفون الكلم كقوله: وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ «١» أى من له، و منه قول ذى الرمة:

فظلّوا و منهم دمعه سابق لهو آخر يذرى عبرة العين بالهمل «٢»

أى: من دمعه، و أنكره المبرّد و الزجاج، لأن حذف الموصول كحذف بعض الكلمة؛ و قيل: إن قوله:

مِنَ الَّذِينَ هادُوا بيان لقوله: الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ و التحريف: الإمالة و الإزالة، أى: يميلونه، و يزيلونه عن مواضعه، و يجعلون مكانه غيره؛ أو المراد: أنهم يتأوّلونه على غير تأويله، و ذمهم اللّه عزّ و جلّ بذلك، لأنهم يفعلونه عنادا و بغيا، و تأثيرا

لغرض الدنيا. قوله: وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا أى: سمعنا قولك، و عصينا أمرك، وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ أى: اسمع حال كونك غير مسمع. و هو يحتمل أن يكون دعاء على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم؛ و المعنى: اسمع لا سمعت، و يحتمل أن يكون المعنى: اسمع غير مسمع مكروها، أو اسمع غير مسمع جوابا. و قد تقدم الكلام فى راعنا. و معنى: لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ أنهم يلوونها عن الحق، أى: يميلونها إلى ما فى قلوبهم، و أصل اللّى: القتل، و هو منتصب على المصدر، و يجوز أن يكون مفعولا لأجله. قوله: وَ طَعْناً فِي الدِّينِ معطوف على ليا، أى: يطعنون فى الدين بقولهم: لو كان نبيا لعلم أنا نسبه، فأطلع اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم على ذلك وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا قولك: وَ أَطَعْنا أمرك وَ اسْمَعْ ما نقول وَ انْظُرْنا أى: لو قالوا هذا مكان قولهم راعنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مما قالوه، وَ أَقْوَمَ أى: أعدل و أولى من قولهم الأوّل، و هو قولهم: سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ راعِنا لما فى هذا من المخالفة و سوء الأدب، و احتمال الذم فى راعنا، وَ لكِنْ لم يسلكوا المسلك الحسن، و يأتوا بما هو خير لهم و أقوم، و لهذا: لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا أى: إلا إيمانا قليلا و هو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، و ببعض الرسل دون بعض. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ ذكر

---

(١). الصافات: ١۶۴.

(٢). بالهمل: هملان العين: فيضانها بالدمع. و يذرى: يصيب.

سبحانه أوّلا أنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، و هنا ذكر أنهم أوتوا الكتاب. و المراد: أنهم أوتوا نصيبا منه، لأنهم لم يعملوا بجميع ما فيه، بل حرّفوا و بدّلوا. و قوله: مُصَدِّقاً «١» منتصب على الحال. و الطمس:

استئصال أثر الشىء، و منه فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ يقال: نطمس بكسر الميم و ضمها: لغتان فى المستقبل، و يقال: طمس الأثر، أى: محاه كله، و منه رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ «٢» أى: أهلكها و يقال: هو مطموس البصر، و منه وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ «٣» أى: أعميناهم.

و اختلف العلماء فى المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة؟ فيجعل الوجه كالقفا، فيذهب بالأنف و الفم و الحاجب و العين؛ أو ذلك عبارة عن الضلالة فى قلوبهم و سلبهم التوفيق؟ فذهب إلى الأوّل طائفة، و ذهب إلى الآخر آخرون، و على الأوّل فالمراد بقوله: فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها نجعلها قفا، أى: نذهب بآثار الوجه، و تخطيطه، حتى يصير على هيئة القفا؛ و قيل: إنه بعد الطمس يردّها إلى موضع القفا، و القفا إلى مواضعها، و هذا هو ألصق بالمعنى الذى يفيده قوله: فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها فإن قيل: كيف جاز أن يهدّدهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا و لم يفعل ذلك بهم؟ فقيل: إنه لما آمن هؤلاء و من اتبعهم رفع الوعيد عن الباقين. و قال المبرد: الوعيد باق منتظر، و قال: لا بدّ من طمس فى اليهود، و مسخ قبل يوم القيامة.

قوله: أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ الضمير عائد إلى أصحاب الوجوه، قيل: المراد باللعن هنا المسخ لأجل تشبيهه بلعن أصحاب السبت، و كان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة و خنازير؛ و قيل: المراد نفس اللعنة و هم ملعونون بكل لسان. و المراد وقوع أحد الأمرين: إما الطمس، أو اللعن. و قد وقع اللعن، و لكنه يقوّى الأوّل تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت. قوله: وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا أى: كائنا موجودا لا محالة، أو يراد بالأمر المأمور. و المعنى: أنه متى أراده كان، كقوله: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «۴». قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ «۵» هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب و غيرهم، و لا يختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قالوا: عزير ابن اللّه، و قالت النصارى: المسيح ابن اللّه، و قالوا: ثالث ثلاثة. لا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التى

تفضل اللّه بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته؛ و أما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة، يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء. قال ابن جرير:

قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة اللّه عزّ و جلّ، إن شاء عذبه و إن شاء عفا عنه، ما لم تكن كبيرته شركا باللّه عزّ و جلّ. و ظاهره: أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلا منه و رحمة، و إن لم يقع من ذلك المذنب توبة، و قيد ذلك المعتزلة بالتوبة. و قد تقدّم قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ «۶» و هى تدل: على أن اللّه سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر، فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء اللّه غفران سيئاته.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، إذا كلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لوى لسانه و قال: أرعنا

---

(۱). المرسلات: ۸.

(۲). يونس: ۸۸.

(۳). يس: ۶۶.

(۴). يس: ۸۲.

(۵). النساء: ۴۸.

(۶). النساء: ۳۱.

فتح القدير، ج‏۱، ص: ۵۵۰

فتح القدير ج‏۱ ۵۹۹

سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن فى الإسلام و عابه، فأنزل اللّه فيه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ يعنى: يحرفون حدود اللّه فى التوراة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ قال: تبديل اليهود التوراة وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا قالوا: سمعنا ما تقول و لا نطيعك وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ قال: غير مقبول ما تقول لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ قال: خلافا يلوون به ألسنتهم وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا قال: أفهمنا لا تعجل علينا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن ابن عباس فى قوله: وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ قال: يقولون اسمع لا سمعت. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: كلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رؤساء من أحبار اليهود، منهم:

عبد اللّه بن صوريا، و كعب بن أسد، فقال لهم: يا معشر اليهود! اتقوا اللّه و أسلموا، فو اللّه إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به لحق. فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد! و أنزل اللّه فيهم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً قال: طمسها أن تعمى فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى، و نجعل لأحدهم عينين فى قفاه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً يقول: عن صراط الحق فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها قال: فى الضلالة. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن أبى أيوب الأنصارى قال: جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إن لى ابن أخ لا ينتهى عن الحرام، قال: و ما دينه؟ قال: يصلى و يوحد اللّه، قال: استوهب منه دينه فإن أبى فابتعه منه، فطلب الرجل منه ذلك فأبى عليه، فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فقال: وجدته

شحيحا على دينه، فنزلت: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية. و أخرج ابن الضريس، و أبو المنذر، و ابن عديّ بسند صحيح عن ابن عمر قال:

كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلّى اللّه عليه و سلم إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ و قال: «إنّى ادّخرت دعوتى و شفاعتى لأهل الكبائر من أمّتى، فأمسكنا عن كثير ممّا كان فى أنفسنا». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عرم قال: لما نزلت يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ «۱» الآية قام رجل فقال: و الشرك يا نبيّ اللّه؟ فكره ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية. و أخرج ابن المنذر عن أبى مجلز أن سؤال هذا الرجل هو سبب نزول: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى هذه الآية: إن اللّه حرّم المغفرة على من مات و هو كافر، و أرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته، فلم يؤيسهم من المغفرة. و أخرج الترمذى، و حسنه عن على قال: أحبّ آية إلىّ فى القرآن إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية.

---

(۱). الزمر: ۵۳.

فتح القدير، ج‏۱، ص: ۵۵۱

[سورة النساء (۴): الآيات ۴۹ الى ۵۵]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۴۹) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ كَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (۵۰) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (۵۱) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (۵۲) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (۵۳)

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (۵۴) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (۵۵)

قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ تعجيب من حالهم. و قد اتفق المفسرون على أن المراد:

اليهود. و اختلفوا فى المعنى الذى زكوا به أنفسهم، فقال الحسن و قتادة: هو قولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «۱» و قولهم: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى «۲» و قال الضحاك: هو قولهم: لا ذنوب لنا و نحن كالأطفال؛ و قيل: قولهم: إن آباءهم يشفعون لهم؛ و قيل: ثناء بعضهم على بعض. و معنى التزكية: التطهير و التنزيه، فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير و على غيرها، و اللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود و غيرهم، و يدخل فى هذا التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية: كمحيى الدين، و عز الدين، و نحوهما. قوله: بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ أى: ذلك إليه سبحانه، فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده و من لا يستحقها، فليدع العباد تزكية أنفسهم، و يفوضوا أمر ذلك إلى اللّه سبحانه، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة، تحمل عليها محبة النفس، و طلب العلوّ، و الترفع و التفاخر، و مثل هذه الآية قوله تعالى: فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى «۳». قوله: وَ لا يُظْلَمُونَ أى: هؤلاء المزكون لأنفسهم فَتِيلًا و هو الخيط الذى فى نواة التمر، و قيل: القشرة التى حول النواة؛ و قيل: هو ما يخرج بين إصبعيك أو كفيك من الوسخ إذا فتلتهما، فهو فتيل بمعنى مفتول، و المراد هنا: الكناية عن الشى‏ء الحقير، و مثله: وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً و هو النكتة التى فى ظهر النواة. و المعنى: أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا الذنب، و لا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون، و يجوز أن يعود الضمير إلى مَنْ يَشاءُ أى: لا يظلم هؤلاء

الذين يزكيهم اللّه فتيلا مما يستحقونه من الثواب، ثم عجب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من تزكيتهم لأنفسهم فقال: انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فى قولهم ذلك.

و الافتراء: الاختلاق، و منه: افترى فلان على فلان، أى: رماه بما ليس فيه، و فريت الشىء: قطعته، و فى قوله: وَ كَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً من تعظيم الذنب و تهويله ما لا يخفى. قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأوّل و هم اليهود.

و اختلف المفسرون فى معنى الجبت: فقال ابن عباس و ابن جبير و أبو العالية: الجبت: الساحر بلسان الحبشة. و الطاغوت: الكاهن. و روى عن عمر بن الخطاب: أن الجبت: السحر، و الطاغوت: الشيطان.

و روى عن ابن مسعود: أن الجبت و الطاغوت هاهنا: كعب بن الأشرف. و قال قتادة: الجبت: الشيطان، و الطاغوت الكاهن. و روى عن مالك: أن الطاغوت: ما عبد من دون اللّه، و الجبت: الشيطان؛ و قيل:

---

(۱). المائدة: ۱۸.

(۲). البقرة: ۱۱۱.

(۳). النجم: ۳۲.

فتح القدير، ج۱، ص: ۵۵۲

هما كل معبود من دون اللّه أو مطاع فى معصية اللّه. و أصل الجبت: الجبس «۱»، و هو الذى لا خير فيه، فأبدلت التاء من السين قاله قطرب؛ و قيل: الجبت: إبليس، و الطاغوت: أولياؤه. قوله: وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأوّل، و هم اليهود، أى: يقول اليهود لكفار قريش: أنتم أهدى من الذين آمنوا بمحمد سبيلا، أى: أقوم دينا، و أرشد طريقا. و قوله: أُولئِكَ إشارة إلى القائلين الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أى: طردهم و أبعدهم من رحمته وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً يدفع عنه ما نزل به من عذاب اللّه و سخطه. قوله: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ أم: منقطعة، و الاستفهام للإنكار، يعنى:

ليس لهم نصيب من الملك فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً و الفاء: للسببية الجزائية لشرط محذوف، أى:

إن جعل لهم نصيب من الملك فإذن لا يعطون الناس نقيرا منه لشدّة بخلهم و قوّة حسدهم؛ و قيل: المعنى:

بل لهم نصيب من الملك، على أن معنى أم: الإضراب عن الأوّل و الاستئناف للثانى؛ و قيل: هى عاطفة على محذوف، و التقدير: أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته، أم لهم نصيب من الملك، فإذن لا يؤتون الناس نقيرا؟

و النقير: النقرة فى ظهر النواة؛ و قيل: ما نقر الرجل بإصبعه كما ينقر الأرض. و النقير أيضا: خشبة تنقر و ينبذ فيها. و قد نهى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن النقير، كما ثبت فى الصحيحين و غيرهما، و النقير: الأصل، يقال: فلان كريم النقير، أى: كريم الأصل. و المراد هنا: المعنى الأوّل، و المقصود به المبالغة فى الحقارة، كالقطمير و الفتيل. و إذن هنا: ملغاة غير عاملة، لدخول فاء العطف عليها، و لو نصب لجاز. قال سيبويه: إذن:

فى عوامل الأفعال بمنزلة أظن فى عوامل الأسماء التى تلغى إذا لم يكن الكلام معتمدا عليها، فإن كانت فى أوّل الكلام و كان الذى بعدها مستقبلا نصبت. قوله: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أم:

منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر: أى: بل يحسدون الناس، يعنى: اليهود يحسدون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقط، أو يحسدونه هو و أصحابه على ما آتاهم اللّه من فضله من النبوّة و النصر و قهر الأعداء. قوله:

فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ هـذا إلزام لليهود بمـا يعترفون به و لا ينكرونه، أى: ليس ما آتينا محمـدا و أصـحابه من فضـلنا ببـدع حتى يحسدهم اليهود على ذلك، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم، و هم أسلاف محمد صلّى اللّه عليه و سلم.

و قـد تقـدّم تفسير الكتاب و الحكمة. و الملك العظيم: قيل: هو ملك سـليمان، و اختاره ابن جرير فَمِنْهُمْ أى: اليهود مَنْ آمَنَ بِهِ أى: بـالنبى صـلّى اللّه عليه و سـلم وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ أى: أعرض عنه؛ و قيل: الضـمير فى به: راجع إلى ما ذكر من حـديث آل إبراهيم؛ و قيـل: الضـمير راجع إلى إبراهيم. و المعنى: فمن آل إبراهيم من آمن بـإبراهيم، و منهم من صـدّ عنه؛ و قيـل: الضـمير يرجع إلى الكتاب، و الأوّل أولى وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً أى: نارا مسعرة.

و قد أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس قال: إن اليهود قالوا: إن آباءنا قد توفوا و هم لنا

---

(۱). قال فى لسان العرب: الجبس: الجبان الفدم، و قيل: الضعيف اللئيم، و قيل: الثقيل الذى لا يجيب إلى خير.

قربة عند اللّه، و سيشفعون لنا و يزكوننا، فقال اللّه لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ

و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كانت اليهود يقدّمون صبيانهم يصلون بهم، و يقرّبون قربانهم، و يزعمون:

أنهم لاـ خطايـا لهم و لاـ ذنوب، و كـذبوا. قـال اللّه: إنى لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له، ثم أنزل اللّه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الحسن: أن التزكية:

قـولهم: نَحْنُ أَبْنـاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «۱» وَ قـالُوا لَنْ يَـدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كـانَ هُوداً أَوْ نَصـارى «۲». و أخرج عبـد الرزاق، و عبـد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا قال:

الفتيل: ما خرج من بين الإصبعين. و فى لفظ آخر عنه: هو أن تدلك بين إصبعيك، فما خرج منهما فهو ذلك. و أخرج سعيد بن منصور، و عبـد بن حميـد، و ابن المنـذر عنه قال: النقير: النقرة تكون فى النواة التى نبتت منها النخلـة. و الفتيل: الـذى يكون على شق النواة. و القطمير: القشر الذى يكون على النواة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه: قال: الفتيل: الذى فى الشق الذى فى بطـن النـواة. و أخرج الطـبرانى، و الـبيهقى فى الـدلائل عنـه قـال: قـدم حيىّ بـن أخطـب، و كعب بن الأشـرف مكـة على قريش فحـالفوهم على قتـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم، و قـالوا لهم: أنتم أهـل العلم القـديم و أهـل الكتـاب فأخبرونـا عنا و عن محمد، قالوا: ما أنتم و ما محمد؟

قالوا: ننحر الكوماء، و نسقى اللبن على الماء، و نفك العناة، و نسقى الحجيج، و نصل الأرحام، قالوا:

فما محمد؟ قالوا: صنبور، أى: فرد ضعيف، قطع أرحامنا، و اتبعه سراق الحجيج بنو غفار؛ فقالوا:

لاـ بـل أنتم خير منه و أهـدى سبيلاـ فـأنزل اللّه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتـابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ الآيـة. و أخرجه سـعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة مرسلا. و قد روى عن ابن عباس، و عن عكرمة بلفظ آخر. و أخرج نحوه عبد بن حميد، و ابن جرير عن السدّى عن أبى مالك.

و أخرج نحوه أيضـا البيهقى فى الـدلائل، و ابن عسـاكر فى تـاريخه عن جابر بن عبـد اللّه. و أخرج عبـد الرزاق، و ابن جرير عن عكرمة قال: الجبت و الطاغوت صـنمان. و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حـاتم عن عمر فى تفسـير الجبت و الطـاغوت مـا قـدّمناه عنه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الجبت حيى بن أخطب، و الطاغوت: كعب بن الأشرف.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الجبت: الأصـنام، و الطاغوت: الذى يكون بين يدى الأصـنام يعبرون عنها

الكذب ليضلوا الناس. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الجبت:
اسم الشيطان بالحبشية، و الطاغوت: كهان العرب. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ قال: فليس لهم نصيب، و لو كان لهن نصيب لم يؤتوا الناس نقيرا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: النقير: النقطة التى فى ظهر النواة.
و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال: قال أهل الكتاب: زعم محمد: أنه أوتى ما أوتى فى تواضع و له تسع نسوة و ليس له همة إلا النكاح، فأىّ ملك أفضل من هذا؟ فأنزل اللّه هذه الآية أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ إلى قوله: مُلْكاً عَظِيماً يعنى: ملك سليمان. و أخرج عبد بن حميد،

---

(١). المائدة: ١٨.

(٢). البقرة: ١١١.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٥۴

و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: الناس فى هذا الموضع: النبى خاصة. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: هم هذا الحىّ من العرب.

[سورة النساء (۴): الآيات ۵۶ الى ۵۷]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً (۵۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً (۵۷)

قوله: بِآياتِنا الظاهر عدم تخصيص بعض الآيات دون بعض، و سَوْفَ كلمة تذكر للتهديد قال سيبويه: و ينوب عنها السين. و قد تقدّم معنى: نصلى، فى أوّل السورة. و المراد: سوف ندخلهم نارا عظيمة. و قرأ حميد بن قيس: نُصْلِيهِمْ بفتح النون. قوله: كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ يقال: نضج الشىء نضجا و نضاجا، و نضج اللحم، و فلان نضج الرأى: أى: محكمه. و المعنى: أنها كلما احترقت جلودهم بدّلهم اللّه جلودا غيرها، أى: أعطاهم مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير محترق، فإن ذلك أبلغ فى العذاب للشخص، لأن إحساسه لعمل النار فى الجلد الذى لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها فى الجلد المحترق، و قيل: المراد بالجلود: السرابيل التى ذكرها فى قوله: سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ «١» و لا موجب لترك المعنى الحقيقى هاهنا، و إن جاز إطلاق الجلود على السرابيل مجازا كما فى قول الشاعر:

كسا اللّوم تيما خضرة فى جلودهافويل لتيم من سرابيلها الخضر

و قيل المعنى: أعدنا الجلد الأوّل جديدا، و يأبى ذلك معنى التبديل. قوله: لِيَذُوقُوا الْعَذابَ أى:
ليحصل لهم الذوق الكامل بذلك التبديل، و قيل: معناه: ليدوم لهم العذاب و لا ينقطع، ثم أتبع وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين. و قد تقدّم تفسير الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار. قوله: لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ أى: من الأدناس التى تكون فى نساء الدنيا. و الظل الظليل: الكثيف الذى لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ و السموم و نحو ذلك؛ و قيل: هو مجموع ظلّ الأشجار و القصور؛ و قيل: الظلّ الظليل:
هو الدائم الذى لا يزول، و اشتقاق الصفة من لفظ الموصوف: للمبالغة، كما يقال: ليل أليل.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ قال: إذا احترقت جلودهم بدّلناهم جلودا بيضاء أمثال القراطيس. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى عنه بسند ضعيف قال: قرئ عند عمر كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ الآية، فقال معاذ: عندى تفسيرها: تبدّل فى ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرجه أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه: أن القائل كعب، و أنه قال: تبدّل فى الساعة الواحدة عشرين و مائة مرة. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود:

أن غلظ جلد الكافر اثنان و أربعون ذراعا. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله: ظِلًّا ظَلِيلًا قال: هو ظل العرش الذى لا يزول.

---

(١). إبراهيم: ٥٠.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٥٥

[سورة النساء (٤): آية ٥٨]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨)

هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس فى جميع الأمانات، و قد روى عن على، و زيد بن أسلم، و شهر بن حوشب: أنها خطاب لولاة المسلمين، و الأوّل أظهر، و ورودها على سبب كما سيأتى لا ينافى ما فيها من العموم، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما تقرر فى الأصول؛ و تدخل الولاة فى هذا الخطاب دخولا أوّليا، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات، و ردّ الظلامات، و تحرى العدل فى أحكامهم، و يدخل غيرهم من الناس فى الخطاب، فيجب عليهم ردّ ما لديهم من الأمانات، و التحرى فى الشهادات و الأخبار. و ممن قال بعموم هذا الخطاب:

البراء بن عازب، و ابن مسعود، و ابن عباس، و أبىّ بن كعب، و اختاره جمهور المفسرين، و منهم ابن جرير، و أجمعوا: على أن الأمانات مردودة إلى أربابها: الأبرار منهم و الفجار، كما قال ابن المنذر. و الأمانات: جمع أمانة، و هى مصدر بمعنى المفعول. قوله: وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ أى: و إن اللّه يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. و العدل: هو فصل الحكومة على ما فى كتاب اللّه سبحانه و سنة رسوله صلّى اللّه عليه و سلم، لا الحكم بالرأى المجرد، فإن ذلك ليس من الحق فى شىء، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة فى كتاب اللّه و لا فى سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأى من الحاكم الذى يعلم بحكم اللّه سبحانه، و بما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، و أما الحاكم الذى لا يدرى بحكم اللّه و رسوله، و لا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدرى ما هو العدل، لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلا عن أن يحكم بها بين عباد اللّه. قوله: نِعِمَّا ما موصوفة أو موصولة، و قد قدّمنا البحث فى مثل ذلك.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما فتح مكة، و قبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، نزل جبريل عليه السلام بردّ المفتاح، فدعا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عثمان بن طلحة و ردّه إليه، و قرأ هذه الآية.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن عساكر عن ابن جريج: أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن طلحة لما قبض منه صلّى اللّه عليه و سلّم مفتاح الكعبة فدعاه و دفعه إليه. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن أبى

شیبة عن علی قال: حق علی الإمام أن یحکم بما أنزل اللّه، و أن یؤدی الأمانة، فإذا فعل ذلک فحقّ علی الناس أن یسمعوا له، و أن یطیعوا، و أن یجیبوا إذا دعوا. و أخرج أبو داود، و الترمذی، و الحاکم، و البیهقی عن أبی هریرة: أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «أدّ الأمانة لمن ائتمنک، و لا تخن من خانک». و قد ثبت فی الصحیح: أن من خان إذا اؤتمن ففیه خصلة من خصال النفاق.

[سورة النساء (۴): آیة ۵۹]

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِی شَیْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً (۵۹)

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۵۵۶

لما أمر سبحانه القضاة و الولاة إذا حکموا بین الناس أن یحکموا بالحق، أمر الناس بطاعتهم هاهنا، و طاعة اللّه عزّ و جلّ هی: امتثال أوامره و نواهیه، و طاعة رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم هی: فیما أمر به و نهی عنه. و أولی الأمر:

هم الأئمة، و السلاطین، و القضاة، و کل من کانت له ولایة شرعیة لا ولایة طاغوتیة، و المراد طاعتهم فیما یأمرون به و ینهون عنه ما لم تکن معصیة، فلا طاعة لمخلوق فی معصیة اللّه، کما ثبت ذلک عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم.

و قال جابر بن عبد اللّه و مجاهد: إن أولی الأمر: هم أهل القرآن و العلم، و به قال مالک و الضحاک، و روی عن مجاهد: أنهم أصحاب محمد صلّی اللّه علیه و سلم. و قال ابن کیسان: هم أهل العقل و الرأی، و الراجح: القول الأوّل.

قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِی شَیْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اللَّهِ وَ الرَّسُولِ المنازعة: المجاذبة، و النزع: الجذب، کأن کل واحد ینتزع حجة الآخر و یجذبها، و المراد: الاختلاف و المجادلة، و ظاهر قوله: فِی شَیْءٍ یتناول أمور الدین و الدنیا، و لکنه لما قال: فَرُدُّوهُ إِلَی اللَّهِ وَ الرَّسُولِ تبین به أن الشیء المتنازع فیه یختص بأمور الدین دون أمور الدنیا، و الردّ إلی اللّه: هو الردّ إلی کتابه العزیز، و الردّ إلی الرسول: هو الردّ إلی سنته المطهرة بعد موته، و أما فی حیاته فالردّ إلیه: سؤاله، هذا معنی الرد إلیهما؛ و قیل: معنی الردّ: أن یقولوا: اللّه أعلم، و هو قول ساقط، و تفسیر بارد، و لیس الردّ فی هذه الآیة إلا الرد المذکور فی قوله تعالی: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی الرَّسُولِ وَ إِلی أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِینَ یَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ «۱» قوله: إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ فیه دلیل: علی أن هذا الرد متحتم علی المتنازعین، و إنه شأن من یؤمن باللّه و الیوم الآخر، و الإشارة بقوله:

ذلِکَ إلی الردّ المأمور به خَیْرٌ لکم وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلًا أی: مرجعا، من الأوّل: آل، یؤول إلی کذا، أی: صار إلیه؛ و المعنی: أن ذلک الردّ خیر لکم و أحسن مرجعا ترجعون إلیه. و یجوز أن یکون المعنی: أن الردّ أحسن تأویلا من تأویلکم الذی صرتم إلیه عند التنازع.

و قد أخرج البخاری، و مسلم، و غیرهما عن ابن عباس فی قوله: أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ قال: نزلت فی عبد اللّه بن حذافة بن قیس بن عدّی، إذ بعثه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی سریة، و قصته معروفة. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن أبی حاتم عن عطاء فی الآیة قال: طاعة اللّه و الرسول:

اتباع الکتاب و السنة وَ أُولِی الْأَمْرِ قال: أولی الفقه و العلم. و أخرج سعید بن منصور، و ابن أبی شیبة، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن أبی هریرة. قال: وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ هم الأمراء، و فی لفظ: هم أمراء السرایا. و أخرج ابن أبی شیبة، و عبد بن حمید، و الحکیم الترمذی، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الحاکم، و صححه عن جابر بن عبد اللّه فی قوله: وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ قال: أهل العلم. و أخرج سعید بن منصور، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن أبی حاتم

عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير عن أبى العالية نحوه أيضا. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ قال: إلى كتاب اللّه و سنة رسوله. ثم قرأ: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، عن ميمون بن مهران فى الآية قال: الردّ

---

(١). النساء: ٨٣.

إلى اللّه: الردّ إلى كتابه، و الردّ إلى رسوله ما دام حيا، فإذا قبض فإلى سنته. و أخرج ابن جرير عن قتادة و السدى مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا يقول:

ذلك أحسن ثوابا و خير عاقبة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا قال: و أحسن جزاء. و قد وردت أحاديث كثيرة فى طاعة الأمراء، ثابتة فى الصحيحين و غيرهما، مقيدة بأن يكون ذلك فى المعروف، و أنه لا طاعة فى معصية اللّه.

[سورة النساء (٤): الآيات ٦٠ الى ٦٥]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً (٦٢) أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (٦٤)
فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥)

قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ فيه تعجيب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول اللّه- و هو القرآن- و ما أنزل على من قبله من الأنبياء، فجاؤوا بما ينقض عليهم هذه الدعوى، و يبطلها من أصلها، و يوضح أنهم ليسوا على شيء من ذلك أصلا، و هو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، و قد أمروا فيما أنزل على رسول اللّه، و على من قبله، أن يكفروا به، و سيأتى بيان سبب نزول الآية، و به يتضح معناها. و قد تقدّم تفسير الطاغوت، و الاختلاف فى معناه. قوله: وَ يُرِيدُ الشَّيْطانُ معطوف على قوله: يُرِيدُونَ و الجملتان مسوقتان لبيان محل التعجب، كأنه قيل: ما ذا يفعلون؟ فقيل: يريدون كذا، و يريد الشيطان كذا. و قوله: ضَلالًا مصدر لفعل المذكور بحذف الزوائد كقوله: وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً «١» أو مصدر لفعل محذوف دلّ عليه الفعل المذكور، و التقدير: و يريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالا. و الصدود: اسم للمصدر، و هو الصدّ عند الخليل، و عند الكوفيين: أنهما مصدران، أى: يعرضون عنك إعراضا. قوله: فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ بيان لعاقبة أمرهم و ما صار إليه حالهم، أى: كيف يكون حالهم إذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ؟

أى: وقت إصابتهم، فإنهم يعجزون عند ذلك، و لا يقدرون على الدفع. و المراد: بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ما فعلوه من المعاصى التى من جملتها: التحاكم إلى الطاغوت، ثُمَّ جاؤُكَ يعتذرون عن فعلهم، و هو عطف على أَصابَتْهُمْ و قوله: يَحْلِفُونَ حال: أى:

جاءوك حال كونهم حالفين إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً

(۱). نوح: ۱۷.

فتح القدير، ج۱، ص: ۵۵۸

أي: مـا أردنـا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الإحسان لا الإساءة، و التوفيق بين الخصـمين لا المخالفـة لك. و قال ابن كيسان: معناه: ما أردنا إلا عـدلا و حقا، مثل قوله: وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى «۱» فكـذبهم اللّه بقوله: أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ من النفاق و العداوة للحق. قال الزجاج:

معنـاه: قـد علم اللّه أنهم منافقون فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أي: عن عقابهم، و قيل: عن قبول اعتـذارهم وَ عِظْهُمْ أي: خوفهم من النفاق وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ أي: فى حق أنفسهم. و قيل: معناه:

قـل لهم خاليـا بهم ليس معهم غيرهم قَوْلًا بَلِيغاً أي: بالغـا فى وعظهم إلى المقصود، مؤثرا فيهم، و ذلـك بـأن توعـدهم بسـفك دمائهم، و سبى نسائهم، و سلب أموالهم. وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ مِنْ زائدة للتوكيد إِلَّا لِيُطاعَ فيما أمر به و نهى عنه بِإِذْنِ اللَّهِ بعلمه، و قيل: بتوفيقه، وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بترك طاعتك و التحاكم إلى غيرك جاؤُكَ متوسلين إليك، متنصلين عن جناياتهم و مخالفتهم فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ لذنوبهم، و تضرعوا إليك حتى قمت شفيعا لهم فاستغفرت لهم، و إنما قال:

وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ على طريقة الالتفات، لقصد التفخيم لشأن الرسول صـلّى اللّه عليه و سـلم لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً أي: كثير التوبـة عليهم، و الرحمـة لهم. قوله: فَلا وَ رَبِّكَ قال ابن جرير: فَلا رد على ما تقـدم ذكره، تقـديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بمـا أنزل إليـك و مـا أنزل من قبلـك، ثم اسـتأنف القسم بقوله: وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ و قيل: إنه قـدّم «لا» على القسم اهتماما بالنفى، و إظهارا لقوته، ثم كرره بعد القسم تأكيدا؛ و قيل: لا: مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفى، و التقدير: فوربك لا يؤمنون، كما فى قوله: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ «۲» حَتَّى يُحَكِّمُوكَ أي: يجعلوك حكما بينهم فى جميع أمورهم، لا يحكمون أحـدا غيرك؛ و قيـل: معنـاه: يتحـاكمون إليـك، و لاـ ملجئ لـذلك فِيمـا شَجَرَ بَيْنَهُمْ أي: اختلف بينهم و اختلط، و منه: الشـجر لاختلاف أغصانه، و منه قول طرفة:

و هم الحكّام أرباب الهدىو سعاة النّاس فى الأمر الشّجر

أي: المختلف، و منه: تشاجر الرماح، أي: اختلافها ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ قيل: هو معطوف على مقدّر ينساق إليه الكلام، أي: فتقضى بينهم ثم لا يجدوا. و الحرج: الضيق: و قيل:

الشـك، و منه قيـل للشـجر الملتـفّ: حرج، و حرجـة، و جمعهـا: حراج؛ و قيـل: الحرج: الإـثم، أي: لاـ يجـدون فى أنفسـهم إثما بإنكـارهم مـا قضيت وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً أي: ينقادوا لأمرك و قضائك انقيادا لا يخالفونه فى شـىء. قال الزجاج: تَسْلِيماً مصـدر مؤكد، أي: و يسـلمون لحكمك تسليما لا يدخلون على أنفسـهم شـكا و لا شـبهة فيه. و الظاهر: أن هذا شامل لكل فرد من كل حكم، كما يؤيـد ذلك قوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ فلا يختص بالمقصودين بقوله: يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ و هذا فى حياته صلّى اللّه عليه و سلم، و أما بعد موته: فتحكيم الكتاب و السنة. و تحكيم الحاكم بما فيهما من الأئمة و القضاة إذا كان لا يحكم بالرأى المجرد مع وجود الدليل فى الكتاب و السنة، أو فى أحدهما، و كان يعقل ما يردّ عليه من حجج الكتاب و السنة، بأن يكون عالما باللغة العربية، و ما يتعلق بها: من نحو، و تصريف،

(۱). التوبة: ۱۰۷.

(۲). الواقعة: ۷۵.

فتح القدير، ج۱، ص: ۵۵۹

و معانى، و بيان، عارفا بما يحتاج إليه من علم الأصول، بصيرا بالسنة المطهرة، مميزا بين الصحيح و ما يلحق به، و الضعيف و ما يلحق به، منصفا غير متعصب لمذهب من المذاهب و لا لنحلة من النحل. ورعا لا يحيف و لا يميل فى حكمه، فمن كان هكذا فهو قائم فى مقام النبوّة، مترجم عنها، حاكم بأحكامها، و فى هذا الوعيد الشديد: ما تقشعر له الجلود، و ترجف له الأفئدة. فإنه أوّلا أقسم سبحانه بنفسه، مؤكدا لهذا القسم بحرف النفى بأنهم لا يؤمنون، فنفى عنهم الإيمان الذى هو رأس مال صالحى عباد اللّه، حتى تحصل لهم غاية، هى:

تحكيم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال: ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ فضم إلى التحكيم أمرا آخر، هو عدم وجود حرج، أىّ حرج، فى صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم و الإذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا، و اطمئنان، و انثلاج قلب، و طيب نفس، ثم لم يكتف بهذا كله، بل ضمّ إليه قوله: وَ يُسَلِّمُوا أى: يذعنوا و ينقادوا ظاهرا و باطنا، ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال: تَسْلِيماً فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، و لا يجد الحرج فى صدره بما قضى عليه، و يسلم لحكم اللّه و شرعه، تسليما لا يخالطه ردّ و لا تشوبه مخالفة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى بسند، قال السيوطى: صحيح عن ابن عباس، قال: كان أبو برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل اللّه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ الآية، و أخرج ابن إسحاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال: كان الجلاس بن الصامت قبل توبته، و معقب بن قشير، و رافع بن زيد، كانوا يدّعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فدعوهم إلى الكهان، حكام الجاهلية، فنزلت الآية المذكورة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ قال: الطاغوت: رجل من اليهود كان يقال له كعب بن الأشرف، و كانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل اللّه و إلى الرسول ليحكم بينهم قالوا: بل نحاكمكم إلى كعب، فنزلت الآية. و أخرج ابن جرير عن الضحاك مثله. و أخرج البخارى، و مسلم، و أهل السنن، و غيرهم عن عبد اللّه بن الزبير: أن الزبير خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم، إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى شراج من الحرّة، و كانا يسقيان به كلاهما النخل. فقال الأنصارى سرح الماء يمرّ، فأبى عليه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصارى و قال: يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك، و استوعى «۱» رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للزبير حقه و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له و للأنصارى، فلما أحفظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلّا فى ذلك: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن

---

(۱). استوعى له حقه: أى استوفاه كله.

فتح القدير، ج۱، ص: ۵۶۰

مردويه من طريق ابن لهيعة عن الأسود: أن سبب نزول الآية: أنه اختصم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رجلان فقضى بينهما، فقال المقضىّ عليه: ردنا إلى عمر، فردهما، فقتل عمر الذى قال ردّنا، و نزلت الآية، فأهدر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم دم

المقتول. و أخرجه الترمذى فى نوادر الأصول عن مكحول فذكر نحوه، و بين أن الذى قتله عمر كان منافقا، و هما مرسلان، و القصة غريبة، و ابن لهيعة فيه ضعف.

[سورة النساء (۴): الآيات ۶۶ الى ۷۰]

وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً (۶۶) وَ إِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (۶۷) وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۶۸) وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (۶۹) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ عَلِيماً (۷۰)

لَوْ: حرف امتناع، و أن: مصدرية، أو تفسيرية، لأن كَتَبْنا فى معنى: أمرنا. و المعنى:

أن اللّه سبحانه لو كتب القتل و الخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود ما فعله إلّا القليل منهم، أو: لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله إلّا القليل منهم، و الضمير فى قوله: فَعَلُوهُ راجع إلى المكتوب الذى دلّ عليه كتبنا، أو إلى القتل و الخروج المدلول عليهما بالفعلين، و توحيد الضمير فى مثل هذا قد قدّمنا وجهه. قوله: إِلَّا قَلِيلٌ قرأه الجمهور: بالرفع على البدل. و قرأ عبد اللّه بن عامر، و عيسى بن عمر:

إلا قليلا: بالنصب على الاستثناء، و كذا هو فى مصاحف أهل الشام، و الرفع أجود عند النحاة. قوله:

وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ من اتباع الشرع و الانقياد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لَكانَ ذلك خَيْراً لَهُمْ فى الدنيا و الآخرة، وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً لأقدامهم على الحق فلا يضطربون فى أمر دينهم وَ إِذاً أى:

وقت فعلهم لما يوعظون به لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً لا عوج فيه، ليصلوا إلى الخير الذى يناله من امتثل ما أمر به، و انقاد لمن يدعوه إلى الحق. قوله: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ كلام مستأنف، لبيان فضل طاعة اللّه و الرسول، و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى المطيعين، كما تفيده من مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بدخول الجنة، و الوصول إلى ما أعدّ اللّه لهم. و الصدّيق: المبالغ فى الصدق، كما تفيده الصيغة؛ و قيل: هم فضلاء أتباع الأنبياء. و الشهداء: من ثبتت لهم الشهادة، و الصالحين: أهل الأعمال الصالحة. و الرفيق: مأخوذ من الرفق، و هو لين الجانب، و المراد به المصاحب، لارتفاقك بصحبته، و منه: الرفقة، لارتفاق بعضهم ببعض، و هو منتصب على التمييز أو الحال، كما قال الأخفش.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ هم يهود، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، عن سفيان: أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه. و قد روى من طرق: أن جماعة من الصحابة قالوا لما نزلت الآية: لو فعل ربنا لفعلنا. أخرجه ابن

المنذر، و ابن أبى حاتم عن الحسن. و أخرجه ابن أبى حاتم عن عامر بن عبد اللّه بن الزبير. و أخرجه أيضا عن شريح بن عبيد. و أخرج الطبرانى، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و الضياء المقدسى فى صفة الجنة، و حسنه، عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه! إنك لأحب إلىّ من نفسى، و إنك لأحب إلىّ من ولدى، و إنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتى فأنظر إليك، و إذا ذكرت موتى و موتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، و إنى إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردّ عليه النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزل جبريل بهذه الآية وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ

فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الآية. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه.

[سورة النساء (۴): الآيات ۷۱ الى ۷۶]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (۷۱) وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (۷۲) وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۳) فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۷۴) وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (۷۵)
الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (۷۶)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هذا خطاب لخلص المؤمنين، و أمر لهم بجهاد الكفار، و الخروج فی سبيل اللّه، و الحذر و الحذر لغتان، كالمثل و المثل. قال الفراء: أكثر الكلام الحذر، و الحذر مسموع أيضا.

يقال: خذ حذرك، أی: احذر؛ و قيل: معنى الآية: الأمر لهم بأخذ السلاح حذرا، لأن به الحذر. قوله:

فَانْفِرُوا نفر، ينفر، بكسر الفاء، نفيرا، و نفرت الدابة، تنفر، بضم الفاء، نفورا. و المعنى: انهضوا لقتال العدوّ. أو النفير: اسم للقوم الذين ينفرون، و أصله: من النفار و النفور، و هو الفزع، و منه قوله تعالى:

وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً «۱» أی: نافرين. قوله: ثُباتٍ جمع ثبة: أی جماعة، و المعنى: انفروا جماعات متفرقات. قوله: أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً أی: مجتمعين جيشا واحدا. و معنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين، ليكون ذلك أشدّ على عدوّهم، و ليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك؛ و قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا و بقوله: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ و الصحيح: أن الآيتين جميعا محكمتان: إحداهما: فی الوقت الذی يحتاج فيه إلى نفور الجميع، و الأخرى: عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض. قوله: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ التبطئة و الإبطاء: التأخر، و المراد: المنافقون كانوا يقعدون عن الخروج و يقعدون غيرهم. و المعنى: أن من دخلائكم و جنسكم، و من أظهر إيمانه لكم نفاقا، من يبطئ المؤمنين و يثبطهم. و اللام فی قوله: لَمَنْ

---

(۱). الإسراء: ۴۶.

لام توكيد. و فی قوله: لَيُبَطِّئَنَّ لام جواب القسم، و «من» فی موضع نصب، و صلتها: الجملة.

و قرأ مجاهد، و النخعی، و الكلبی لَيُبَطِّئَنَّ بالتخفيف فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ من قتل أو هزيمة أو ذهاب مال. قال هذا المنافق: قد أنعم اللّه عليّ إذ لم أكن معهم حتى يصيبنی ما أصابهم وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ غنيمة أو فتح لَيَقُولَنَ هذا المنافق قول نادم حاسد: يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً. قوله: كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ جملة معترضة بين الفعل الذی هو ليقولن و بين مفعوله، و هو: يا لَيْتَنِي و قيل: إن فی الكلام تقديما و تأخيرا- و قيل: المعنى: ليقولن كأن لم تكن بينكم و بينه مودّة، أی: كأن لم يعاقدكم على الجهاد؛ و قيل: هو فی موضع نصب على الحال. و قرأ الحسن:

لَيَقُولَنَ بضم اللام على معنى من. و قرأ ابن كثير و حفص عن عاصم: كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بالتاء، على لفظ المودّة. قوله: فَأَفُوزَ بالنصب،

على جواب التمنى. و قرأ الحسن: فَأَفُوزَ بالرفع.

قوله: فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هذا أمر للمؤمنين، و قدّم الظرف على الفاعل للاهتمام به، و الَّذِينَ يَشْرُونَ معناه: يبيعون، و هم المؤمنون، و الفاء فى قوله: فَلْيُقاتِلْ جواب الشرط مقدّر، أى: إن لم يقاتل هؤلاء المذكورون سابقا الموصوفون بأن منهم لمن ليبطئن، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم، البائعون للحياة الدنيا بالآخرة. ثم وعد المقاتلين فى سبيل اللّه بأنه سيؤتيهم أجرا عظيما لا يقادر قدره، و ذلك أنه:

إذا قتل فاز بالشهادة التى هى أعلى درجات الأجور، و إن غلب و ظفر كان له أجر من قاتل فى سبيل اللّه مع ما قد ناله من العلوّ فى الدنيا و الغنيمة، و ظاهر هذا: يقتضى التسوية بين من قتل شهيدا أو انقلب غانما، و ربما يقال: إن التسوية بينهما إنما هى فى إيتاء الأجر العظيم، و لا يلزم أن يكون أجرهما مستويا، فإن كون الشىء عظيما هو من الأمور النسبية التى يكون بعضها عظيما بالنسبة إلى ما هو دونه، و حقيرا بالنسبة إلى ما هو فوقه. قوله: وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات.

قوله: وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مجرور عطفا على الاسم الشريف، أى: ما لكم لا تقاتلون فى سبيل اللّه و سبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من الأسر، و تريحوهم مما هم فيه من الجهد. و يجوز أن يكون منصوبا على الاختصاص، أى: و أخص المستضعفين فإنهم من أعظم ما يصدق عليه سبيل اللّه، و اختار الأوّل الزجاج و الأزهرى. قال محمد بن يزيد: أختار أن يكون المعنى: و فى المستضعفين، فيكون عطفا على السبيل، و المراد بالمستضعفين هنا: من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال الكفار، و هم الذين كان يدعو لهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيقول:

«اللّهمّ أنج الوليد بن الوليد و سلمة بن هشام و عيّاش بن أبى ربيعة و المستضعفين من المؤمنين» كما فى الصحيح. و لا يبعد أن يقال: إن لفظ الآية أوسع، و الاعتبار بعموم اللفظ لو لا تقييده بقوله: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها فإنه يشعر: باختصاص ذلك بالمستضعفين الكائنين فى مكة، لأنه قد أجمع المفسرون: على أن المراد بالقرية الظالم أهلها: مكة. و قوله: مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ بيان للمستضعفين قوله: الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هذا ترغيب للمؤمنين، و تنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أى: سبيل الشيطان، أو الكهان،

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٦٣

أو الأصنام، و تفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى، لقوله: فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً أى: مكره و مكر من اتبعه من الكفار.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَانْفِرُوا ثُباتٍ قال:

عصبا، يعنى سرايا متفرقين أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً يعنى: كلكم. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عنه، قال فى سورة النساء: خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً نسختها وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً «١». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: ثُباتٍ أى: فرقا قليلا. و أخرج عن قتادة فى قوله: أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً أى: إذا نفر نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فليس لأحد أن يتخلف عنه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى نحوه. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ إلى قوله: فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ما بين ذلك فى المنافقين. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مقاتل ابن حيان فى الآية قال: هو فيما بلغنا عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول رأس المنافقين. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير: فَلْيُقاتِلْ يعنى: يقاتل المشركين فِي سَبِيلِ اللَّهِ فى طاعة اللّه وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ يعنى: يقتله العدوّ أَوْ يَغْلِبْ يعنى يغلب العدوّ من المشركين فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً

يعنى: جزاء وافرا فى الجنة، فجعل القاتل و المقتول من المسلمين فى جهاد المشركين شريكين فى الأجر.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قال: و فى المستضعفين.

و أخرج ابن جرير عن الزهرى قال: و سبيل المستضعفين و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه من طريق العوفى قال: المستضعفون: أناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها. و أخرج البخارى عنه قال:

«أنا و أمى من المستضعفين». و أخرج ابن جرير عنه قال: القرية الظالم أهلها: مكة. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة مثله. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: إذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه و احملوا عليه إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً. قال مجاهد: كان الشيطان يتراءى لى فى الصلاة، فكنت أذكر قول ابن عباس، فأحمل عليه، فيذهب عنى.

---

(۱). التوبة: ۱۲۲.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۶۴

[سورة النساء (۴): الآيات ۷۷ الى ۸۱]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۷) أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (۷۸) ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَ أَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (۷۹) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَ مَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (۸۰) وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَ اللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (۸۱)

قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ الآية، قيل: هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال فى مكة بعد أن تسرعوا إليه. فلما كتب عليهم بالمدينة تثبطوا عن القتال من غير شك فى الدين، بل خوفا من الموت، و فرقا من هول القتل؛ و قيل: إنها نزلت فى اليهود؛ و قيل: فى المنافقين، أسلموا قبل فرض القتال، فلما فرض كرهوه، و هذا أشبه بالسياق لقوله: وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ و قوله: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ الآية، و يبعد صدور مثل هذا من الصحابة. قوله:

كَخَشْيَةِ اللَّهِ صفة مصدر محذوف، أى: خشية كخشية اللّه، أو حال، أى: تخشونهم مشبهين أهل خشية اللّه، و المصدر مضاف إلى المفعول، أى: كخشيتهم اللّه. و قوله: أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً معطوف على كخشية اللّه، فى محل جر، أو معطوف على الجار و المجرور جميعا، فيكون: فى محل الحال، كالمعطوف عليه، و أو: للتنويع، على معنى: أن خشية بعضهم كخشية اللّه، و خشية بعضهم أشد منها. قوله: وَ قالُوا عطف على ما يدل عليه قوله: إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ أى: فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا أى: هلا أخرتنا، يريدون المهلة إلى وقت آخر قريب من الوقت الذى فرض عليهم فيه القتال، فأمره اللّه سبحانه بأن يجيب عليهم فقال: قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ

سريع الفناء لا يدوم لصاحبه، و ثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل لِمَنِ اتَّقى منكم، و رغب فى الثواب الدائم وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا أى: شيئا حقيرا يسيرا، و قد تقدّم تفسير الفتيل قريبا، و إذا كنتم توفرون أجوركم و لا تنقصون شيئا منها، فكيف ترغبون عن ذلك و تشغلون بمتاع الدنيا مع قلته و انقطاعه؟

و قوله: أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ كلام مبتدأ، و فيه حثّ لمن قعد عن القتال خشية الموت. و بيان لفساد ما خالطه من الجبن، و خامره من الخشية، فإن الموت إذا كان كائنا لا محالة، و البروج: جمع برج:

و هو البناء المرتفع، و المشيدة: المرفعة، من شاد القصر: إذا رفعه و طلاه بالشيد و هو الجصّ. و جواب لو لا:

محذوف لدلالة ما قبله عليه:

فمن لم يمت بالسّيف مات بغيره «۱» ....

و قد اختلف فى هذه البروج ما هى؟ فقيل: الحصون التى فى الأرض. و قيل: هى القصور. قال الزجاج و القتبى: و معنى مشيدة: مطوّلة؛ و قيل: معناه: مطلية بالشيد و هو الجص؛ و قيل: المراد بالبروج: بروج فى سماء الدنيا مبنية، حكاه مكّى عن مالك، و قال: ألا ترى إلى قوله: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ «۲»

---

(۱). و عجزه: تعددت الأسباب و الموت واحد.

(۲). البروج: ۱.

جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً «۱» وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً «۲» و قيل: إن المراد بالبروج المشيدة هنا: قصور من حديد. و قرأ طلحة بن سليمان: يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ بالرفع على تقدير الفاء كما فى قوله:

و قال رائدهم أرسوا نزاولها قوله: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ هذا و ما بعده مختص بالمنافقين، أى: إن تصبهم نعمة نسبوها إلى اللّه تعالى، و إن تصبهم بلية و نقمة نسبوها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فردّ اللّه ذلك عليهم بقوله: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ليس كما تزعمون، ثم نسبهم إلى الجهل و عدم الفهم فقال: فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً أى: ما بالهم هكذا. قوله: ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ هذا الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس، أو لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تعريضا لأمته، أى: ما أصابك من خصب و رخاء و صحة و سلامة فمن اللّه، بفضله و رحمته، و ما أصابك من جهد و بلاء و شدّة فمن نفسك، بذنب أتيته فعوقبت عليه؛ و قيل:

إن هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثا، أى: فيقولون ما أصابك من حسنة فمن اللّه، و قيل: إن ألف الاستفهام مضمرة، أى: أ فمن نفسك؟ و مثله قوله تعالى: وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَ «۳» و المعنى: أو تلك نعمة؟ و مثله قوله: فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي «۴» أى: أ هذا ربى، و منه قول أبى خراش الهذلى:

رمونى و قالوا يا خويلد لم ترعفقلت و أنكرت الوجوه هم هم

أى: أهم أهم؟ و هذا خلاف الظاهر، و قد ورد فى الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية، كقوله تعالى:

وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ «۵»، و قوله: أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ «۶». و قد يظن أن قوله: وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ مناف لقوله: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و لقوله: وَ ما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ «۷»، و قوله: وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً و قوله: وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ «۸» و ليس الأمر كذلك، فالجمع ممكن كما هو مقرّر فى مواطنه. قوله: وَ أَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا فيه البيان لعموم رسالته صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الجميع، كما يفيده التأكيد بالمصدر، و العموم فى الناس، و مثله قوله: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ «۹»، و قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً «۱۰» وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً «۱۱» على ذلك. قوله: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ فيه: أن طاعة الرسول طاعة للّه، و فى هذا من النداء بشرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و علوّ شأنه و

ارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره، و لا يبلغ مداه، و وجهه: أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر اللّه به، و لا ينهى إلا عما نهى اللّه عنه. وَ مَنْ تَوَلَّى أى:
أعرض فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً أى: حافظا لأعمالهم، إنما عليك البلاغ، و قد نسخ هذا بآية السيف وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ بالرفع، على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: أمرنا طاعة، أو شأننا طاعة. و قرأ الحسن، و الجحدرى، و نصر بن عاصم بالنصب على المصدر: أى: نطيع طاعة، و هذه فى المنافقين فى قول أكثر المفسرين، أى: يقولون إذا كانوا عندك طاعة فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ أى: خرجوا من عندك

---

(۱). الفرقان: ۶۱.

(۲). الحجر: ۱۶.

(۳). الشعراء: ۲۲.

(۴). الأنعام: ۷۷.

(۵). الشورى: ۳۰.

(۶). آل عمران: ۱۶۵.

(۷). آل عمران: ۱۶۶.

(۸). الرعد: ۱۱.

(۹). سبأ: ۲۸.

(۱۰). الأعراف: ۱۵۸.

(۱۱) الفتح: ۲۸.

بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ «۱» أى: زوّرت طائفة من هؤلاء القائلين غير الذى تقول لهم أنت و تأمرهم به، أو: غير الذى تقول لك هى من الطاعة لك؛ و قيل: معناه: غيروا و بدّلوا و حرّفوا قولك فيما عهدت إليهم، و التبييت:
التبديل، و منه قول الشاعر:
أتونى فلم أرض ما بيّتواو كانوا أتونى بأمر نكر
يقال: بيت الرجل الأمر: إذا دبره ليلا، و منه قوله تعالى: إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ أى: يثبته فى صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه. و قال الزجاج: المعنى: ينزله عليك فى الكتاب، قوله: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أى: دعهم و شأنهم، حتى يمكن الانتقام منهم؛ و قيل: معناه: لا تخبر بأسمائهم؛ و قيل: معناه: لا تعاقبهم. ثم أمره بالتوكل عليه، و الثقة به فى النصر على عدوه، قيل: و هذا منسوخ بآية السيف.
و قد أخرج النسائى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس:
أن عبد الرحمن بن عوف و أصحابا له أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فقالوا: يا نبى اللّه! كنا فى عزة و نحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة؟ فقال: إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوّله اللّه إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا، فأنزل اللّه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ الآية. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى تفسير الآية نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: أنها نزلت فى اليهود. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من

طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله:

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ الآية، قال: نهى اللّه هذه الأمة أن يصنعوا صنيعهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قال: هو الموت. و أخرجا نحوه عن ابن جريج. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة: فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ قال: فى قصور محصنة. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: هى قصور فى السماء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن سفيان نحوه، و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يقول: نعمة وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ قال: مصيبة قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قال: النعم و المصائب. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله:

وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ قال: هذه فى السّراء و الضرّاء، و فى قوله: ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ قال: هذه فى الحسنات و السيئات. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يقول: الحسنة و السيئة من عند اللّه، أما الحسنة: فأنعم بها عليك، و أما السيئة: فابتلاك بها، و فى قوله: وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ قال: ما أصابه يوم أحد: أن شجّ وجهه و كسرت رباعيته.

و أخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه فى قوله: وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ قال: هذا يوم أحد، يقول: ما كانت من نكبة فبذنبك، و أنا قدّرت ذلك. و أخرج ابن المنذر من طريق مجاهد أن ابن عباس كان يقرأ: و ما أصابك من سيّئة فمن نفسك و أنا كتبتها عليك قال مجاهد: و كذلك قراءة أبيّ و ابن

---

(١). النساء: ١٠٨.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٦٧

مسعود. و أخرج نحو قول مجاهد هذا ابن الأنبارى فى المصاحف. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ قال: هم أناس كانوا يقولون عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

آمنّا باللّه و رسوله، ليأمنوا على دمائهم و أموالهم فَإِذا بَرَزُوا من عند رسول اللّه بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يقول: خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعابهم اللّه. و أخرج ابن جرير عنه قال: غيّر أولئك ما قاله النبى صلّى اللّه عليه و سلم.

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٢ الى ٨٣]

أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢) وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلاً (٨٣)

الهمزة فى قوله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ للإنكار، و الفاء: للعطف على مقدّر، أى: أ يعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه؟ يقال: تدبرت الشيء. تفكرت فى عاقبته و تأملته، ثم استعمل فى كل تأمل، و التدبير: أن يدبر الإنسان أمره، كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته، و دلت هذه الآية، و قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها «١» على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه. و المعنى: أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفا غير مختلف، صحيح المعانى، قوى المبانى، بالغا فى البلاغة إلى أعلى درجاتها وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً أى: تفاوتا و تناقضا، و لا يدخل فى هذا اختلاف مقادير الآيات و السور، لأن المراد: اختلاف التناقض، و التفاوت، و عدم المطابقة للواقع، و هذا شأن كلام البشر، لا سيما إذا طال و تعرّض قائله للإخبار

بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحا مطابقا للواقع إلّا القليل النادر.

قوله: أذاع الشيء و أذاع به: إذا أفشاه و أظهره، و هؤلاء هم جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئا من أمر المسلمين فيه أمن- نحو ظفر المسلمين و قتل عدوّهم، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين و قتلهم- أفشوه، و هم يظنون: أنه لا شيء عليهم في ذلك. قوله: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ و هم أهل العلم و العقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم، أو هم الولاة عليهم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ أي: يستخرجونه بتدبيرهم و صحة عقولهم. و المعنى: أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي صلّى اللّه عليه و سلّم هو الذي يذيعها، أو يكون أولو الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك، لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يفشى و ما ينبغي أن يكتم. و الاستنباط: مأخوذ من استنبطت الماء: إذا استخرجته. و النبط: الماء المستنبط أوّل ما يخرج من ماء البئر عند حفرها؛ و قيل: إن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجافات المنافقين على المسلمين فيذيعونها فتحصل بذلك المفسدة. قوله: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا أي: لو لا ما تفضل اللّه به عليكم من إرسال رسوله، و إنزال كتابه، لا تبعتم الشيطان فبقيتم على كفركم إلا قليلا منكم، أو: إلا اتباعا قليلا منكم؛ و قيل: المعنى: أذاعوا به إلا قليلا منهم، فإنه لم يذع و لم يفش، قاله الكسائي، و الأخفش، و الفراء، و أبو عبيدة، و أبو حاتم، و ابن جرير، و قيل: المعنى: لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلا منهم، قاله الزجاج.

---

(۱). محمد: ۲۴.

فتح القدير، ج۱، ص: ۵۶۸

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم عن قتادة: وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً يقول: إن قول اللّه لا يختلف، و هو حق ليس فيه باطل، و إن قول الناس يختلف. و أخرج عبد بن حميد، و مسلم، و ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال:

لما اعتزل النبي صلّى اللّه عليه و سلّم نساءه دخلت المسجد، فوجدت الناس ينكتون بالحصى و يقولون: طلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم نساءه، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، و نزلت هذه الآية: وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس في الآية، قال: هذا في الإخبار؛ إذا غزت سرية من المسلمين أخبر الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من عدوهم كذا و كذا، و أصاب العدو من المسلمين كذا و كذا. فأفشوه بينهم من غير أن يكون النبي صلّى اللّه عليه و سلّم هو يخبرهم به. و أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك: وَ إِذا جاءَهُمْ قال: هم أهل النفاق. و أخرج ابن جرير عن أبي معاذ مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ قال: فانقطع الكلام. و قوله: إِلَّا قَلِيلًا فهو في أوّل الآية يخبر عن المنافقين. قال: وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ و إِلَّا قَلِيلًا يعني بالقليل المؤمنين.

[سورة النساء (۴): الآيات ۸۴ الى ۸۷]

فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلاً (۸۴) مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (۸۵) وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (۸۶) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ

لا رَيْبَ فِيهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (٨٧)

الفـاء فى قوله: فَقاتِلْ قيل: هى متعلقـة بقوله: وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إلـخ، أى: من أجل هـذا فقاتل؛ و قيل: متعلقـة بقوله: وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فقاتل؛ و قيل: هى جواب شرط محذوف يدل عليه السياق، تقديره: إذا كان الأمر ما ذكر من عدم طاعـة المنـافقين فقاتـل، أو إذا أفردوك و تركوك فقاتـل. قال الزجاج: أمر اللّه رسوله صـلّى اللّه عليه و سـلّم بالجهاد و إن قاتل وحده، لأنه قد ضمن له النصر. قال ابن عطية:

هذا ظاهر اللفظ، إلا أنه لم يجىء فى خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة، فالمعنى و اللّه أعلم: أنه خطاب له فى اللفظ، و فى المعنى له و لأمته، أى: أنت يا محمـد و كل واحد من أمتك يقال له: فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ أى: لا تكلف غير نفسك و لا تلزم فعل غيرك، و هو استئناف مقرّر لما قبله، لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشـرته للقتال وحـده، و قرئ: لاـ تُكَلَّفُ بـالجزم على النهى، و قرئ: بـالنون. قوله: وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ أى: حضـهم على القتال و الجهاد، يقال: حرّضـت فلانا على كذا: إذا أمرته به، و حارض فلان على الأمر، و أكبّ عليه، و واظب عليه، بمعنى واحد. قوله:

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٦٩

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فيه إطمـاع للمؤمنين بكفّ بأس الـذين كفروا عنهم، و الإطماع من اللّه عزّ و جلّ واجب، فهو وعـد منه سبحانه، و وعـده كائن لا محالـة وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً أى: أشـدّ صولة، و أعظم سـلطانا وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا أى: عقوبة، يقال: نكلت بالرجل تنكيلا: من النكال، و هو العذاب.

و المنكل: الشـىء الذى ينكل بالإنسان مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها أصل الشفاعة و الشفعة و نحوهما: من الشفع، و هو الزوج، و منه: الشفيع، لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا، و منه ناقة شفوع:

إذا جمعت بين محلبين فى حلبة واحدة، و ناقة شـفيع: إذا اجتمع لها حمل و ولد يتبعها. و الشـفع: ضمّ واحد إلى واحد. و الشفعة: ضم ملـك الشـريك إلى ملكـك، فالشـفاعة: ضم غيرك إلى جاهك و وسـيلتك، فهى على التحقيق إظهار لمنزلـة الشـفيع عند المشـفع، و اتصال منفعة إلى المشـفوع له. و الشـفاعة الحسنة: هى فى البرّ و الطاعة. و الشفاعة السيئة: فى المعاصى، فمن شفع فى الخير لينفع فله نصيب منها: أى من أجرها، و من شفع فى الشر- كمن يسعى بالنميمة و الغيبة- كان له كفل منها، أى: نصيب من وزرها. و الكفل: الوزر و الإثم، و اشـتقاقه من الكساء الـذى يجعله الراكب على سـنام البعير لئلا يسـقط؛ يقال: اكتفلت البعير: إذا أدرت على سنامه كساء و ركبت عليه، لأنه لم يستعمل الظهر كله، بل استعمل نصيبا منه، و يستعمل فى النصيب من الخير و الشرّ. و من اسـتعماله فى الخير قوله تعـالى: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ «١». وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً أى: مقتدرا، قاله الكسائى. و قال الفراء: المقيت: الذى يعطى كل إنسان قوته، يقال: قتّه، أقوته، قوتا، و أقتّه، أقيته، إقاتة، فأنا قائت، و مقيت، و حكى الكسائى: أقات يقيت. و قال أبو عبيدة: المقيت: الحافظ. قال النحاس: و قول أبى عبيدة أولى، لأنه مشتق من القوت، و القوت معناه:

مقدار ما يحفظ الإنسان. و قال ابن فارس فى المجمل: المقيت: المقتدر. و المقيت: الحافظ و الشاهد. و أما قول الشاعر:

ألى الفضل أم علىّ إذا حوسبت إنّى على الحساب مقيت

فقـال ابن جرير الطبرى: إنه من غير هـذا المعنى. قوله: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها التحيـة: تفعلـة من حييت، و الأصل تحيية، مثل: ترضية و تسمية، فأدغموا الياء فى الياء، و أصلها:

الدعاء بالحياة. و التحية: السـلام، و هذا المعنى هو المراد هنا، و مثله قوله تعالى: وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ «٢» و إلى هـذا ذهب جماعة المفسـرين، و روى عن مالك: أن المراد بالتحية هنا: تشـميت العاطس. و قال أصـحاب أبى حنيفة، التحية هنا: الهديـة، لقوله: أَوْ رُدُّوها و لا يمكن ردّ السـلام بعينه، و هـذا فاسـد لا ينبغى الالتفات إليه. و المراد بقوله: فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها:

أن يزيد فى الجواب على ما قاله المبتدئ بالتحية، فإذا قال المبتدئ: السـلام عليكم، قال المجيب: و عليكم السلام و رحمة اللّه، و إذا زاد المبتدئ لفظا، زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدئ لفظا أو ألفاظا نحو: و بركاته و مرضاته و تحياته.

قال القرطبى: أجمع العلماء على أن الابتداء بالسـلام سنة مرغب فيها، و ردّه فريضة، لقوله: فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها و اختلفوا إذا ردّ واحد من جماعة هل يجزئ أولا؟ فذهب مالك و الشافعى إلى

---

(١). الحديد: ٢٨.

(٢). المجادلة: ٨.

فتح القدير، ج١، ص: ٥٧٠

الإجزاء، و ذهب الكوفيون إلى أنه لا يجزئ عن غيره، و يردّ عليهم حديث علىّ عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يجزئ عن الجماعة إذا مرّوا أن يسلّم أحدهم، و يجزئ عن الجلوس أن يردّ أحدهم» أخرجه أبو داود، و فى إسناده سعيد بن خالد الخزاعى المدنى و ليس به بأس، و قد ضعفه بعضهم. و قد حسن الحديث ابن عبد البرّ.

و معنى قوله: أَوْ رُدُّوها الاقتصار على مثل اللفظ الذى جاء به المبتدئ، فإذا قال: السـلام عليكم، قال المجيب: و عليك السـلام. و قد ورد فى السنة المطهرة فى تعيين من يبتدئ بالسلام، و من يستحق التحية، و من لا يستحقها: ما يغنى عن البسط هاهنا. قوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً يحاسبكم على كل شىء؛ و قيل: معناه: حفيظا؛ و قيل: كافيا، من قولهم: أحسبنى كذا، أى: كفانى، و مثله:

«حسبك اللّه». قوله: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ مبتدأ و خبر، و اللام فى قوله: لَيَجْمَعَنَّكُمْ جواب قسم محذوف، أى: و اللّه ليجمعنكم اللّه بالحشر إلى يوم القيامة، أى: إلى حساب يوم القيامة؛ و قيل: إلى:

بمعنى فى؛ و قيل: إنها زائدة. و المعنى: ليجمعنكم يوم القيامة، و يَوْمِ الْقِيامَةِ: يوم القيام من القبور لا رَيْبَ فِيهِ أى: فى يوم القيامة، أو: فى الجمع، أى: جمعا لا ريب فيه وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً إنكار لأن يكون أحد أصدق منه سبحانه. و قرأ حمزة، و الكسائى: و من «أزدق» بالزاى. و قرأ الباقون: بالصاد، و الصاد الأصل. و قد تبدّل زايا لقرب مخرجها منها.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى سنان فى قوله: وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ قال: عظهم.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً الآية، قال: شفاعة الناس بعضهم لبعض. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها قال: حظ منها. و قوله: كِفْلٌ مِنْها قال: الكفل: هو الإثم.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدى قال: الكفل: الحظ. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً قال: حفيظا. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن رواحة: أنه سأله رجل عن قول اللّه: وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً قال: يقيت كل إنسان بقدر عمله. و فى إسناده رجل مجهول. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: مُقِيتاً قال: شهيدا. و أخرج ابن جرير عنه: مُقِيتاً قال: شهيدا حسيبا حفيظا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: مُقِيتاً قال: قادرا.

و أخرج ابن جرير عن السدّى قال: المقيت: القدير. و أخرج أيضا عن ابن زيد مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال: المقيت: الرزاق. و أخرج ابن أبى شيبة، و البخارى فى الأدب المفرد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق اللّه فاردد عليه، و إن كان يهوديا، أو نصرانيا، أو مجوسيا، ذلك بأن اللّه يقول: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ

الآیة. و أخرج أحمد فی الزهد، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی، و ابن مردویه قال السیوطی بسند حسن عن سلمان الفارسی قال: «جاء رجل إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: السلام علیک یا رسول اللّه! فقال: و علیک و رحمة اللّه، ثم أتی

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۵۷۱

آخر فقال: السلام علیک یا رسول اللّه و رحمة اللّه، فقال: و علیک و رحمة اللّه و برکاته، ثم جاء آخر فقال:

السلام علیک و رحمة اللّه و برکاته، فقال له: و علیک، فقال له الرجل: یا نبی اللّه! بأبی أنت و أمی، أتاک فلان و فلان فسلما علیک فرددت علیهما أکثر مما رددت علی؟ فقال: إنک لم تدع لنا شیئا، قال اللّه: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها فرددناها علیک». و أخرج البخاری فی الأدب المفرد عن أبی هریرة: «أنّ رجلا مرّ علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و هو فی مجلس فقال: سلام علیکم؛ فقال:

عشر حسنات، فمرّ رجل آخر فقال: السّلام علیکم و رحمة اللّه، فقال: عشرون حسنة، فمرّ رجل آخر فقال: السّلام علیکم و رحمة اللّه و برکاته، فقال: ثلاثون حسنة». و أخرج البیهقی فی شعب الإیمان عن ابن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج البیهقی عن سهل بن حنیف مرفوعا نحوه أیضا. و أخرج أحمد، و الدارمی، و أبو داود، و الترمذی، و حسنه، و النسائی، و البیهقی عن عمران بن حصین مرفوعا نحوه أیضا، و زاد بعد کل مرّة أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم ردّ علیه، ثم قال: عشر إلی آخره. و أخرج أبو داود، و البیهقی عن معاذ بن أنس الجهنی مرفوعا نحوه، و زاد بعد قوله: و برکاته: و مغفرته: فقال: أربعون، یعنی: حسنة.

[سورة النساء (۴): الآیات ۸۸ الی ۹۱]

فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (۸۸) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۸۹) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (۹۰) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (۹۱)

الاستفهام فی قوله: فَما لَكُمْ للإنکار، و اسم الاستفهام: مبتدأ، و ما بعده: خبره. و المعنی: أی شیء کائن لکم فِي الْمُنافِقِينَ أی: فی أمرهم، و شأنهم حال کونکم فِئَتَيْنِ فی ذلک. و حاصله:

الإنکار علی المخاطبین أن یکون لهم شیء یوجب اختلافهم فی شأن المنافقین، و قد اختلف النحویون فی انتصاب فئتین، فقال الأخفش و البصریون: علی الحال کقولک: مالک قائما. و قال الکوفیون: انتصابه علی أنه خبر لکان، و هی مضمرة، و التقدیر: فما لکم فی المنافقین کنتم فئتین. و سبب نزول الآیة ما سیأتی، و به یتضح المعنی. و قوله: وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ معناه: ردّهم إلی الکفر بِما كَسَبُوا و حکی الفراء، و النضر بن شمیل، و الکسائی: أرکسهم و رکسهم، أی: ردّهم إلی الکفر و نکسهم، فالرکس و النکس: قلب الشیء علی رأسه، أو ردّ أوله إلی آخره، و المنکوس: المرکوس، و فی قراءة عبد اللّه بن مسعود و أبیّ: و اللّه رکسهم

فتح القدیر، ج ۱، ص: ۵۷۲

و منه قول عبد اللّه بن رواحة:

أركسوا فى فتنة مظلمة كسواد اللّيل يتلوها فتن

و الباء فى قوله: بِما كَسَبُوا: سببية، أى: أركسهم بسبب كسبهم، و هو لحوقهم بدار الكفر، و الاستفهام فى قوله: أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ للتقريع و التوبيخ، و فيه دليل: على أن من أضله اللّه لا تنجع فيه هداية البشر إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «۱». قوله: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا أى: طريقا إلى الهداية. قوله: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً هذا كلام مستأنف، يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، و إيضاح أنهم يودّون أن يكفر المؤمنون كما كفروا، و يتمنوا ذلك عنادا و غلوّا فى الكفر، و تماديا فى الضلال، فالكاف فى قوله: كَما: نعت مصدر محذوف، أى: كفرا مثل كفرهم. أو حال، كما روى عن سيبويه. قوله: فَتَكُونُونَ سَواءً عطف على قوله: تَكْفُرُونَ داخل فى حكمه، أى: ودّوا كفركم ككفرهم، و ودّوا مساواتكم لهم. قوله:

فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ جواب شرط محذوف، أى: إذا كان حالهم ما ذكر؛ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا؛ و يحققوا إيمانهم بالهجرة، فَإِنْ تَوَلَّوْا عن ذلك فَخُذُوهُمْ إذا قدرتم عليهم وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ فى الحلّ و الحرم وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا توالونه وَ لا نَصِيراً تستنصرون به. قوله: إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ هو مستثنى من فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ أى: إلا الذين يتصلون و يداخلون فى قوم بينكم و بينهم ميثاق بالجوار و الحلف؛ فلا تقتلوهم لما بينهم و بين من بينكم و بينهم عهد و ميثاق؛ فإن العهد يشملهم، هذا أصلح ما قيل فى الآية. و قيل:

الاتصال هنا هو اتصال النسب، و المعنى: إلا الذين ينتسبون إلى قوم بينكم و بينهم ميثاق. قاله أبو عبيدة، و قد أنكر ذلك أهل العلم عليه، لأن النسب لا يمنع من القتال بالإجماع، فقد كان بين المسلمين و بين المشركين أنساب و لم يمنع ذلك من القتال. و قد اختلف فى هؤلاء القوم الذين كان بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ميثاق، فقيل: هم قريش، كان بينهم و بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ميثاق الَّذِينَ يَصِلُونَ إلى قريش هم بنو مدلج؛ و قيل:

نزلت فى هلال بن عويمر، و سراقة بن جعشم، و خزيمة بن عامر بن عبد مناف، كان بينهم و بين النبى صلّى اللّه عليه و سلم عهد؛ و قيل: خزاعة؛ و قيل: بنو بكر بن زيد. قوله: أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ عطف على قوله: يَصِلُونَ داخل فى حكم الاستثناء، أى: إلا الذين يصلون و الذين جاءوكم، و يجوز أن يكون عطفا على صفة قوم، أى: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم و بينهم ميثاق، و الذين يصلون إلى قوم جاءوكم حصرت صدورهم، أى: ضاقت صدورهم عن القتال فأمسكوا عنه، و الحصر: الضيق و الانقباض. قال الفراء: و هو أى: حصرت صدورهم، حال من المضمر المرفوع فى جاءوكم كما تقول: جاء فلان ذهب عقله، أى: قد ذهب عقله. و قال الزجاج: هو خبر بعد خبر، أى: جاءوكم، ثم أخبر فقال: حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ فعلى هذا: يكون حصرت: بدلا من جاءوكم؛ و قيل: حصرت فى موضع خفض على النعت لقوم؛ و قيل: التقدير: أو جاءوكم أو قوم حصرت صدورهم. و قرأ الحسن: أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ

---

(۱). القصص: ۵۶.

نصبا على الحال. و قرئ: حصرات و حاصرات، و قال محمد بن يزيد المبرّد: حصرت صدورهم: هو دعاء عليهم، كما تقول: لعن اللّه الكافر، و ضعفه بعض المفسرين؛ و قيل: أو: بمعنى الواو.

و قوله: أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ هو متعلق بقوله: حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أى: حصرت صدورهم عن قتالكم و القتال معكم لقومهم، فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين، و كرهوا ذلك وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ابتلاء منه لكم، و اختبارا، كما قال

سبحانه: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ «١». أو تمحيصا لكم، أو عقوبة بذنوبكم، و لكنه سبحانه لم يشأ ذلك، و اللام فى قوله: فَلَقاتَلُوكُمْ جواب لو، على تكرير الجواب، أى: لو شاء اللّه لسلطهم و لقاتلوكم، و الفاء للتعقيب فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ و لم يتعرضوا لقتالكم وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ أى: استسلموا لكم و انقادوا فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا أى: طريقا، فلا يحلّ لكم قتلهم، و لا أسرهم، و لا نهب أموالهم، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك و يحرّمه سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ فيظهرون لكم الإسلام، و يظهرون لقومهم الكفر، ليأمنوا من كلا الطائفتين، و هم قوم من أهل تهامة، طلبوا الأمان من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، ليأمنوا عنده و عند قومهم، و قيل: هى فى قوم من أهل مكة، و قيل: فى نعيم بن مسعود فإنه كان يأمن المسلمين و المشركين: و قيل فى قوم من المنافقين؛ و قيل: فى أسد و غطفان كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أى: دعاهم قومهم إليها و طلبوا منهم قتال المسلمين أُرْكِسُوا فِيها أى: قلبوا فيها، فرجعوا إلى قومهم، و قاتلوا المسلمين، و معنى الارتكاس: الانتكاس فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ يعنى: هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ أى: يستسلمون لكم و يدخلون فى عهدكم و صلحكم و ينسلخون عن قومهم وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ عن قتالكم فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ أى: حيث وجدتموهم و تمكنتم منهم وَ أُولئِكُمْ الموصوفون بتلك الصفات جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً أى: حجة واضحة، تتسلطون بها عليهم، و تقهرونهم بها، بسبب ما فى قلوبهم من المرض، و ما فى صدورهم من الدغل، و ارتكاسهم فى الفتنة بأيسر عمل و أقلّ سعى.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديث زيد بن ثابت: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، و فرقة تقول:

لا، فأنزل اللّه: فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ الآية كلها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنها طيبة، و إنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة». هذا أصح ما روى فى سبب نزول الآية، و قد رويت أسباب غير ذلك.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ يقول: أوقعهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه قال: ردهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ قال: نزلت فى هلال بن عويمر و سراقة بن مالك المدلجى، و فى خزيمة بن عامر بن عبد مناف. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و النحاس، و البيهقى فى سننه عنه فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ الآية، قال: نسختها براءة فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ

---

(١). محمد: ٣١.

الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن السدى:

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ يقول: ضاقت صدورهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن الربيع:

وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ قال: الصلح. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ الآية، قال: نسختها فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ و أخرج ابن جرير عن الحسن و عكرمة فى هذه الآية قال: نسختها براءة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: سَتَجِدُونَ آخَرِينَ الآية، قال: ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قومهم فيرتكسون فى الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا و هاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا و يصالحوا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة: أنهم ناس كانوا بتهامة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن السدّى: أنها نزلت فى نعيم بن مسعود.

[سورة النساء (۴): الآيات ۹۲ الى ۹۳]

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۹۲) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (۹۳)

قوله: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ هذا النفى هو بمعنى النهى المقتضى للتحريم، كقوله: وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ «۲» و لو كان هذا النفى على معناه لكان خبرا، و هو يستلزم صدقه، فلا يوجد مؤمن قتل مؤمنا قط؛ و قيل: المعنى ما كان له ذلك فى عهد اللّه، و قيل: ما كان له ذلك فيما سلف، كما ليس له الآن ذلك بوجه، ثم استثنى منه استثناء منقطعا فقال: إلّا خطأ، أى: ما كان له أن يقتله ألبتة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا، هذا قول سيبويه و الزجاج؛ و قيل: هو استثناء متصل؛ و المعنى: و ما ثبت، و لا وجد، و لا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلّا خطأ؛ إذ هو مغلوب حينئذ؛ و قيل المعنى: و لا خطأ. قال النحاس:

و لا يعرف ذلك فى كلام العرب، و لا يصح فى المعنى، لأن الخطأ لا يحظر؛ و قيل: إن المعنى: ما ينبغى أن يقتله لعلة من العلل إلّا للخطأ وحده، فيكون قوله: خطأ، منتصبا بأنه مفعول له. و يجوز أن ينتصب على الحال، و التقدير: لا يقتله فى حال من الأحوال إلّا فى حال الخطأ، و يجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، أى: إلّا قتلا خطأ، و وجوه الخطأ كثيرة، و يضبطها عدم القصد، و الخطأ: الاسم من أخطأ خطأ: إذا لم يتعمد. قوله: فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ أى: فعليه تحرير رقبة مؤمنة يعتقها كفارة عن قتل الخطأ، و عبر بالرقبة عن جميع الذات.

---

(۱). التوبة: ۵.

(۲). الأحزاب: ۵۳.

و اختلف العلماء فى تفسير الرقبة المؤمنة، فقيل: هى التى صلّت و عقلت الإيمان، فلا تجزئ الصغيرة، و به قال ابن عباس، و الحسن، و الشعبى، و النخعى، و قتادة، و غيرهم. و قال عطاء بن أبى رباح: إنها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين. و قال جماعة منهم مالك و الشافعى: يجزئ كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه إن مات، و لا يجزئ فى قول جمهور العلماء أعمى، و لا مقعد، و لا أشلّ، و يجزئ عند الأكثر الأعرج و الأعور. قال مالك: إلّا أن يكون عرجا شديدا. و لا يجزئ عند أكثرهم المجنون، و فى المقام تفاصيل طويلة مذكورة فى علم الفروع. قوله: وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ الدية: ما تعطى عوضا عن دم المقتول إلى ورثته، و المسلّمة: المدفوعة المؤداة، و الأهل: المراد بهم الورثة. و أجناس الدية و تفاصيلها قد بينتها السنة المطهرة.

قوله: إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا أى: إلّا أن يتصدّق أهل المقتول على القاتل بالدية، سمى العفو عنها: صدقة، ترغيبا فيه. و قرأ أبىّ: إلّا أن يتصدقوا، و هذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله: فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ أى: فعليه دية مسلمة إلّا أن يقع العفو من الورثة عنها. قوله: فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ أى: فإن كان المقتول من قوم عدوّ لكم، و هم الكفار الحربيون، و هذه مسألة المؤمن الذى يقتله المسلمون فى بلاد الكفار الذين كان منهم، ثم أسلم و لم يهاجر، و هم يظنون أنه لم يسلم، و أنه باق على دين قومه، فلا دية على قاتله بل عليه تحرير رقبة مؤمنة. و اختلفوا فى وجه سقوط الدية، فقيل: وجهه: أن أولياء القتيل كفار لا حق لهم فى الدّية؛ و قيل: وجهه: أن هذا الذى آمن و لم يهاجر حرمته قليلة، لقول اللّه تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ و قال بعض

أهل العلم: إن ديته واجبة لبيت المال. قوله: وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أى: مؤقت أو مؤبد. و قرأ الحسن: و هو مؤمن فديـة مسـلّمة إلى أهله أى: فعلى قاتله ديـة مؤداة إلى أهله من أهل الإسـلام، و هم ورثته وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ كما تقدم فَمَنْ لَمْ يَجِدْ أى: الرقبـة، و لا اتسع ماله لشـرائها فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ أى: فعليه صـيام شـهرين متتابعين، لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إفطار فى نهار، فلو أفطر اسـتأنف، هذا قول الجمهور، و أما الإفطار لعذر شرعى كالحيض و نحوه فلا يوجب الاستئناف. و اختلـف فى الإفطـار لعرض المرض. قـوله: تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ منصـوب على أنـه مفعـول له، أى: شـرع ذلـك لكم توبـة، أى: قبـولا لتوبتكم، أو منصوب على المصدرية، أى: تاب عليكم توبة، و قيل: منصوب على الحال، أى: حال كونه ذا توبة كائنة من اللّه.

قوله: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ لما بيّن سبحانه حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمدا.

و قـد اختلف العلماء فى معنى العمـد؛ فقال عطاء و النخعى و غيرهما: هو القتل بحديـدة، كالسـيف، و الخنجر، و سـنان الرمح، و نحو ذلـك من المحـدّد، أو بمـا يعلم أن فيه الموت، من ثقـال الحجـارة و نحوهمـا. و قـال الجمهور: إنه كل قتل من قاتل قاصـد للفعل، بحديـدة، أو بحجر، أو بعصا، أو بغير ذلك، و قيـده بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله فى العادة. و قـد ذهب بعض أهل العلم: إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

عمد، و شـبه عمد، و خطأ. و اسـتدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها. و ذهب آخرون: إلى أنه ينقسم إلى قسمين: عمد و خطأ و لا ثالث لهما. و استدلوا بأنه ليس فى القرآن إلّا القسمان. و يجاب عن ذلك:

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٧٦

بأن اقتصار القرآن على القسـمين لا ينفى ثبوت قسم ثالث بالسـنة و قد ثبت ذلك فى السـنة. و قد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمدا، فجمع اللّه له فيها بين كون جهنم جزاء له، أى: يستحقها بسبب هذا الذنب، و بين كونه خالدا فيها، و بين غضب اللّه عليه، و لعنته له، و إعـداده له عـذابا عظيما. و ليس وراء هـذا التشديـد تشديـد، و لا مثل هذا الوعيد وعيد. و انتصاب خالدا: على الحـال. و قـوله: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ معطوف على مقـدّر، يـدل عليه السـياق، أى: جعـل جزاءه جهنم، أو حكم عليه، أو جـازاه، و غضب عليه، و أعدّ له.

و قد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخارى عن سعيد بن جبير قال:

اختلف فيها علماء أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً و هى آخر ما نزل و ما نسـخها شـىء، و قد روى النسائى عنه نحو هذا. و روى النسائى عن زيد بن ثابت نحوه، و ممن ذهب: إلى أنه لا توبة له من السـلف أبو هريرة، و عبد اللّه بن عمرو، و أبو سـلمة، و عبيد بن عمير، و الحسن، و قتادة، و الضـحاك بن مزاحم، نقله ابن أبى حاتم عنهم. و ذهب الجمهور: إلى أن التوبة منه مقبولة، و استدلوا بمثل قوله تعالى: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ «١» و قوله: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ «٢». و قوله: وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ «٣»، قالوا أيضا: و الجمع ممكن بين آية النساء هذه و آيـة الفرقـان، فيكون معناهمـا: فجزاؤه جهنم إلّا من تاب، لا سـيما و قـد اتحـد السـبب- و هو القتل- و الموجب، و هو التوعد بالعقاب. و اسـتدلوا أيضا: بالحديث المذكور فى الصـحيحين عن عبادة بن الصامت أنه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «بايعونى على أن لا تشـركوا باللّه شـيئا، و لا تزنوا، و لا تقتلوا النفس التى حرّم اللّه إلّا بالحقّ، ثم قال: فمن أصاب من ذلك شـيئا فستره اللّه فهو إلى اللّه إن شاء عفا عنه و إن شاء عذّبه» و بحديث أبى هريرة الذى أخرجه مسلم فى صحيحه و غيره: فى الذى قتل مائة نفس، و ذهب جماعة منهم أبو حنيفة و أصحابه و الشافعى: إلى أن القاتل عمدا داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب.

و قد أوضحت فى شرحى على المنتقى «۴» متمسّك كلّ فريق.

و الحق: أن باب التوبـة لم يغلق دون كل عاص، بل هو مفتوح لكل من قصده و رام الدخول منه، و إذا كان الشـرك و هو أعظم

الـذنوب و أشدّها تمحوه التوبة إلى اللّه، و يقبل من صاحبه الخروج منه، و الدخول فى باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصـى التى من جملتهـا القتـل عمـدا؟ لكن لاـ بـدّ فى توبـة قاتل العمـد من الاعتراف بالقتل، و تسـليم نفسه للقصاص إن كان واجبا، أو تسليم الديـة إن لم يكن القصاص واجبا، و كان القاتل غنيا متمكنا من تسـليمها أو بعضـها، و أما مجرد التوبة من القاتل عمدا، و عزمه على أن لا يعود إلى قتل أحـد، من دون اعتراف، و لا تسـليم نفس، فنحن لا نقطع بقبولها، و اللّه أرحم الراحمين، هو الذى يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

---

(۱). هود: ۱۱۴.

(۲). الشورى: ۲۵.

(۳). النساء: ۴۸.

(۴). هو كتاب «نيل الأوطار».

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۷۷

و قـد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً يقول: ما كان له ذلـك فيمـا أتـاه من ربه من عهـد اللّه الـذى عهـد إليه. و أخرج عبـد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهـد فى قوله: وَ مـا كـانَ لِمُؤْمِنٍ الآيـة، قـال: إن عياش ابن أبى ربيعـة قتل رجلا مؤمنا كان يعـذبه هو و أبو جهل- و هو أخوه لأمه- فى اتباع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عياش يحسب أن ذلك الرجل كافر. و أوضـح من هذا السياق ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: كان الحارث ابن يزيد من بنى عامر بن لؤى يعذب عياش بن أبى ربيعة مع أبى جهل، ثم خرج مهاجرا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، يعنى: الحارث، فلقيه عياش بالحرّة فعلاه بالسيف و هو يحسب أنه كافر، ثم جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فنزلت وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً الآية، فقرأها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عليه ثم قال له: قم فحرّر.

و أخرجه ابن جرير، و ابن المنـذر عن السـدّىّ بأطول من هـذا. و قد روى من طرق غير هذه. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: نزلت فى رجل قتله أبو الدرداء كان فى سـرية، فعدل أبو الدرداء إلى شـعب يريد حاجة له، فوجد رجلا من القوم فى غنم فحمل عليه بالسـيف فقـال: لاـ إله إلّـا اللّه، فضـربه. و أخرج ابن منـدة، و أبـو نعيم نحو ذلـك، و لكن فيه: أن الـذى قتـل المتعوّذ بكلمة الشـهادة هو بكر بن حارثـة الجهنى. و أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ قال: يعنى بالمؤمنة:

من قـد عقل الإيمان و صـلّى، و كل رقبة فى القرآن لم تسمّ مؤمنة، فإنه يجوز المولود فما فوقه ممن ليس به زمانة، و فى قوله: وَ دِيَةٌ مُسَـلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا قال: عليه الدية مسلمة إلّا أن يتصدّق بها عليه. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن قتادة قال: فى حرف أبىّ «فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبى».

و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود، و البيهقى عن أبى هريرة: «أنّ رجلا أتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بجارية سوداء فقال: يا رسول اللّه! إن علىّ عتق رقبة مؤمنة، فقال لها: أين اللّه؟ فأشارت إلى السّماء بإصبعها، فقال لها:

فمن أنا؟ فأشارت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إلى السّماء. أى: أنت رسول اللّه، فقال: أعتقها فإنّها مؤمنة». و قد روى من طرق، و هو فى صـحيح مسـلم من حـديث معاوية بن الحكم السـلمى. و قد وردت أحاديث فى تقدير الدية، و فى الفرق بين ديـة الخطأ و دية شبه العمد، و دية المسـلم و دية الكافر، و هى معروفة، فلا حاجة لنا فى ذكرها فى هذا الموضع. و أخرج سـعيد بن منصور، و ابن أبى شـيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عن إبراهيم النخعى فى قوله: وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ قال: هذا المسلم الذى

ورثته مسلمون فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ قال: هذا الرجل المسلم و قومه مشركون، و ليس بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عقد وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ قال: هذا الرجل المسلم و قومه المشركون، و بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عقد، فيقتل، فيكون ميراثه للمسلمين، و تكون ديته لقومه، لأنهم يعقلون عنه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ يقول: فإن كان فى أهل الحرب و هو مؤمن، فقتله خطأ، فعلى قاتله أن يكفر بتحرير رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين و لا دية عليه، و فى قوله: وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ يقول: إذا كان كافرا فى ذمتكم فقتل،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۷۸

فعلى قاتله الدية مسلمة إلى أهله و تحرير رقبة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن جرير، و ابن المنذر من طريق عطاء ابن السائب عن أبى عياض قال: كان الرجل يجىء فيسلم، ثم يأتى قومه و هم مشركون فيقيم فيهم، فتغزوهم جيوش النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، فيقتل الرجل فيمن يقتل، فأنزل اللّه هذه الآية: فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ و ليست له دية. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه من طريق عطاء بن السائب عن أبى يحيى، عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ يعنى: تجاوزا من اللّه لهذه الأمة، حيث جعل فى قتل الخطأ الكفارة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن عكرمة: أن رجلا من الأنصار قتل أخا مقيس ابن صبابة، فأعطاه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الدية، فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه، و فيه نزلت الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه، و فيه: أن مقيس بن صبابة لحق بمكة بعد ذلك و ارتدّ عن الإسلام. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً بعد التى فى سورة الفرقان بثمان سنين و هى قوله: وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إلى قوله: غَفُوراً رَحِيماً «۱». و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن زيد بن ثابت أن قوله: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً نزلت بعد قوله: وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ بستة أشهر. و أخرج ابن المنذر عنه قال: نزلت هذه الآية التى فى النساء بعد قوله: وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* بأربعة أشهر، و الآثار عن الصحابة فى هذا كثيرة جدّا، و الحق ما عرّفناك.

[سورة النساء (۴): آية ۹۴]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

هذا متصل بذكر الجهاد و القتال، و الضرب: السير فى الأرض، تقول العرب: ضربت فى الأرض:

إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيرهما، و تقول: ضربت الأرض، بدون فى: إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «لا يخرج رجلان يضربان الغائط». قوله: فَتَبَيَّنُوا من التبين، و هو التأمل، و هى قراءة الجماعة إلّا حمزة، فإنه قرأ: «فثبتوا» من التثبت. و اختار القراءة الأولى أبو عبيدة، و أبو حاتم قالا:

لأن من أمر بالتبين فقد أمر بالتثبت، و إنما خصّ السفر بالأمر بالتبين، مع أن التبين و التثبت فى أمر القتل واجبان حضرا و سفرا بلا خلاف، لأن الحادثة التى هى سبب نزول الآية كانت فى السفر كما سيأتى. قوله: و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلم و قرىء السَّلامَ و معناهما واحد. و اختار أبو عبيدة السلام. و خالفه أهل النظر فقالوا: السلم هنا أشبه لأنه بمعنى الانقياد و التسليم. و المراد هنا: لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم و استسلم:

لست مؤمنا، فالسلم و السلام كلاهما بمعنى الاستسلام؛ و قيل: هما بمعنى الإسلام، أى: لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام- أى: كلمته، و هى الشهادة-: لست مؤمنا؛ و قيل: هما بمعنى التسليم، الذى هو تحية

---

(١). الفرقان: ۶٨.

فتح القدير، ج١، ص: ۵٧٩

أهل الإسلام، أى: لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم- فقال: السلام عليكم-: لست مؤمنا. و المراد:

نهى المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه، و يقولوا: إنه إنما جاء بذلك تعوذا و تقية، و قرأ أبو جعفر: لَسْتَ مُؤْمِناً من آمنته: إذا أجرته فهو مؤمن.

و قد استدلّ بهذه الآية: على أن من قتل كافرا بعد أن قال: لا إله إلّا اللّه، قتل به، لأنه قد عصم بهذه الكلمة دمه و ماله و أهله، و إنما سقط القتل عمن وقع منه ذلك فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنهم تأوّلوا، و ظنوا أن من قالها خوفا من السلاح لا يكون مسلما، و لا يصير بها دمه معصوما، و أنه لا بدّ من أن يقول هذه الكلمة و هو مطمئن غير خائف، و فى حكم التكلم بكلمة الإسلام: إظهار الانقياد، بأن يقول: أنا مسلم، أو:

أنا على دينكم، لما عرفت من أن معنى الآية: الاستسلام و الانقياد، و هو يحصل بكل ما يشعر بالإسلام، من قول أو فعل، و من جملة ذلك: كلمة الشهادة، و كلمة التسليم، فالقولان الآخران فى معنى الآية داخلان تحت القول الأوّل. قوله: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا الجملة فى محل نصب على الحال، أى: لا تقولوا تلك المقالة طالبين الغنيمة، على أن يكون النهى راجعا إلى القيد و المقيد، لا إلى القيد فقط، و سمى متاع الدنيا عرضا: لأنه عارض زائل غير ثابت. قال أبو عبيدة: يقال جميع متاع الدنيا: عرض، بفتح الراء، و أما العرض بسكون الراء: فهو ما سوى الدنانير و الدراهم، فكل عرض بالسكون عرض بالفتح، و ليس كل عرض بالفتح عرضا بالسكون. و فى كتاب العين: العرض ما نيل من الدنيا، و منه قوله تعالى: تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا و جمعه عروض. و فى المجمل لابن فارس: و العرض: ما يعترض للإنسان من مرض و نحوه، و عرض الدنيا: ما كان فيها من مال قلّ أو كثر، و العرض من الأثاث: ما كان غير نقد. قوله: فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ هو تعليل للنهى، أى: عند اللّه مما هو حلال لكم من دون ارتكاب محظور مغانم كثيرة تغتنمونها، و تستغنون بها عن قتل من قد استسلم و انقاد، و اغتنام ماله. كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ أى: كنتم كفارا، فحقنت دماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة، أو كذلك كنتم من قبل، تخفون إيمانكم عن قومكم خوفا على أنفسكم حتى منّ اللّه عليكم بإعزاز دينه فأظهرتم الإيمان و أعلنتم به، و كرّر الأمر بالتبين للتأكيد عليهم، لكونه واجبا لا فسحة فيه و لا رخصة.

و قد أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: لحق ناس من المسلمين رجلا معه غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه و أخذوا غنيمته، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا الآية.

و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى، و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: مرّ رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و هو يسوق غنما له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلّم علينا إلّا ليتعوّذ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، و أتوا بغنمه إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فنزلت هذه الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و أبو نعيم، و البيهقى عن عبد اللّه ابن أبى حدرد الأسلمى قال: بعثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى إضم، فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٨٠

الحارث بن ربعى، و محلّم بن جثّامة بن قيس الليثى، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له، معه متيع و وطب من لبن «١»، فلمّا مرّ بنا سلّم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، و حمل عليه محلم بن جثامة لشىء كان بينه و بينه، فقتله، و أخذ بعيره و متيعه، فلمّا قدمنا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و أخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا الآية. و فى لفظ عند ابن إسحاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من حديث أبى حدرد هذا:

أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال لمحلم: أ قتلته بعد ما قال آمنت باللّه؟ فنزل القرآن. و أخرج ابن جرير من حديث ابن عمر: أن محلما جلس بين يدى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليستغفر له، فقال: لا غفر اللّه لك، فقام و هو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت به ساعة حتى مات و دفنوه فلفظته الأرض، فجاؤوا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكروا ذلك له، فقال: إن الأرض تقبل من هو شرّ من صاحبكم، و لكن اللّه أراد أن يعظكم، ثم طرحوه فى جبل و ألقوا عليه الحجارة، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ الآية. و أخرج البزار، و الدارقطنى فى الأفراد، و الطبرانى، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس: أن سبب نزول الآية: أن المقداد بن الأسود قتل رجلا بعد ما قال: لا إله إلّا اللّه. و فى سبب النزول روايات كثيرة، و هذا الذى ذكرناه أحسنها. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ قال: تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعى بإيمانه، يعنى: الذى قتلوه بعد أن ألقى إليهم السلام. و فى لفظ: تكتمون إيمانكم من المشركين فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فأظهر الإسلام فأعلنتم إيمانكم فَتَبَيَّنُوا قال: وعيد من اللّه ثان. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ قال: كنتم كفارا حتى منّ اللّه عليكم بالإسلام و هداكم له.

[سورة النساء (٤): الآيات ٩٥ الى ٩٦]

لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٩٦)

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، و درجات من جاهد فى سبيل اللّه بماله و نفسه و إن كان معلوما، لكن أراد سبحانه بهذا الإخبار: تنشيط المجاهدين ليرغبوا، و تبكيت القاعدين ليأنفوا.

قوله: غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ قرأ أهل الكوفة، و أبو عمرو: بالرفع، على أنه وصف للقاعدين كما قال الأخفش، لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم، فصاروا كالنكرة، فجاز وصفهم بغير. و قرأ أبو حيوة: بكسر الراء، على أنه وصف للمؤمنين. و قرأ أهل الحرمين: بفتح الراء، على الاستثناء من القاعدين، أو من المؤمنين،

---

(١). «متيع»: تصغير متاع، و هو السلعة و أثاث البيت و ما يستمتع به الإنسان من حوائجه أو ماله. و «الوطب»: سقاء اللبن.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٨١

أى: إلّا أولى الضرر، فإنهم يستوون مع المجاهدين. و يجوز أن يكون: منتصبا، على الحال من القاعدين، أى: لا يستوى القاعدون الأصحاء فى حال صحتهم، و جازت الحال منهم: لأن لفظهم لفظ المعرفة. قال العلماء: أهل الضرر: هم أهل الأعذار، لأنها

أضرّت بهم حتى منعتهم عن الجهاد، و ظاهر النظم القرآني:

أن صاحب العذر يعطى مثل أجر المجاهد- و قيل: يعطى أجره من غير تضعيف، فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة. قال القرطبي: و الأوّل أصحّ إن شاء اللّه للحديث الصحيح في ذلك: «إن بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا و لا سرتم مسيرا إلّا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر». قال: و في هذا المعنى ما ورد في الخبر: «إذا مرض العبد قال اللّه تعالى اكتبوا لعبدي ما كان يعمله في الصحة إلى أن يبرأ أو أقبضه إليّ».

قوله: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم الاستواء إجمالا، و المراد هنا: غير أولي الضرر، حملا للمطلق على المقيد، و قال هنا:

دَرَجَةً، و قال فيما بعد: دَرَجاتٍ فقال قوم: التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغة و بيان و تأكيد. و قال آخرون: فضل اللّه المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر بدرجة واحدة و فضل اللّه المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر بدرجات، قاله ابن جريج، و السدّي، و غيرهما؛ و قيل: إن معنى درجة:

علوّا، أي: أعلى ذكرهم، و رفعهم بالثناء و المدح. و درجة: منتصبة على التمييز أو المصدرية، لوقوعها موقع المرة من التفضيل، أي: فضل اللّه تفضيله، أو على نزع الخافض، أو على الحالية من المجاهدين، أي: ذوي درجة. قوله: وَ كُلًّا مفعول أوّل لقوله: وَعَدَ اللَّهُ قدّم عليه لإفادته القصر، أي: كل واحد من المجاهدين و القاعدين وعده اللّه الحسنى، أي: المثوبة، و هي الجنة. قوله: أَجْراً هو منتصب على التمييز؛ و قيل: على المصدرية، لأن فضل، بمعنى: آجر، فالتقدير: آجرهم أجرا؛ و قيل: مفعول ثان لفضل، لتضمنه معنى الإعطاء؛ و قيل: منصوب بنزع الخافض؛ و قيل: على الحال من درجات مقدّم عليها، و أما انتصاب درجات و مغفرة و رحمة: فهي بدل من أجرا؛ و قيل: إن مغفرة و رحمة ناصبهما أفعال مقدّرة، أي: غفر لهم مغفرة، و رحمهم رحمة.

و قد أخرج البخاري، و أحمد، و أبو داود، و الترمذي، و النسائي، و غيرهم عن زيد بن ثابت: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أملى عليه لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فجاء ابن أم مكتوم و هو يمليها عليّ فقال: يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم! لو أستطيع الجهاد لجاهدت، و كان أعمى، فأنزل اللّه على رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و فخذه على فخذي: غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ. و قد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد، و الترمذي، و ابن جرير، و ابن أبي حاتم من حديث البراء. و أخرجه أيضا سعيد بن منصور، و أحمد، و أبو داود، و ابن المنذر، و الطبراني، و الحاكم، و صححه من حديث خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه. و أخرج الترمذي، و حسنه، و النسائي، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقي في سننه عن ابن عباس قال: لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ عن بدر و الخارجون إلى بدر. و أخرجه عنه أيضا عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و البخاري، و ابن جرير، و ابن المنذر. و أخرج عبد بن حميد، و الطبراني، و البيهقي عنه قال: نزلت في قوم كانت تشغلهم

أمراض و أوجاع، فأنزل اللّه عذرهم من السماء. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد عن أنس بن مالك قال: نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم، و لقد رأيته في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً قال: على أهل الضرر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة في قوله: وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى قال: الجنة. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: كان يقال: الإسلام درجة، و الهجرة درجة في الإسلام، و الجهاد في الهجرة درجة، و القتل في الجهاد درجة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم عن ابن محيريز في قوله: دَرَجاتٍ قال: الدرجات سبعون درجة، ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين سنة. و أخرج نحوه عبد الرزاق في المصنف عن أبي مجلز. و أخرج البخاري، و البيهقي في الأسماء و الصفات

عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ فى الجنّة مائة درجة أعدّها اللّه للمجاهدين فى سبيل اللّه، ما بين الدرجتين كما بين السّماء و الأرض، فإذا سألتم اللّه فسلوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنّة و أعلى الجنة، و فوقه عرش الرحمن، و منه تفجّر أنهار الجنة».

[سورة النساء (۴): الآيات ۹۷ الى ۱۰۰]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۹۷) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (۹۸) فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (۹۹) وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۰)

قوله: تَوَفَّاهُمُ يحتمل أن يكون فعلا ماضيا و حذفت منه علامة التأنيث، لأن تأنيث الملائكة غير حقيقى، و يحتمل أن يكون مستقبلا، و الأصل تتوفاهم، فحذفت إحدى التاءين. و حكى ابن فورك عن الحسن: أن المعنى: تحشرهم إلى النار، و قيل: تقبض أرواحهم، و هو الأظهر. و المراد بالملائكة: ملائكة الموت، لقوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ «۱». و قوله: ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ حال، أى: فى حال ظلمهم أنفسهم، و قول الملائكة: فِيمَ كُنْتُمْ سؤال توبيخ، أى: فى أىّ شىء كنتم من أمور دينكم؟ و قيل: المعنى: أ كنتم فى أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أم كنتم مشركين؛ و قيل: إن معنى السؤال: التقريع لهم بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين. و قولهم: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ يعنى مكة، لأن سبب النزول: من أسلم بها و لم يهاجر، كما سيأتى، ثم أوقفتهم الملائكة على دينهم، و ألزمتهم الحجة، و قطعت معذرتهم، فقالوا: أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها قيل: المراد بهذه الأرض: المدينة، و الأولى: العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو الحق، فيراد بالأرض: كل بقعة من بقاع الأرض تصلح للهجرة إليها، و يراد بالأرض الأولى: كل أرض ينبغى الهجرة منها. قوله: مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ هذه الجملة خبر لأولئك، و الجملة خبر إن فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ و دخول الفاء لتضمن

---

(۱). السجدة: ۱۱.

اسم إن معنى الشرط وَ ساءَتْ أى: جهنم مَصِيراً أى: مكانا يصيرون إليه. قوله: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ هو استثناء من الضمير فى مأواهم، و قيل: استثناء منقطع، لعدم دخول المستضعفين فى الموصول و ضميره. و قوله: مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ متعلق بمحذوف، أى: كائنين منهم، و المراد بالمستضعفين من الرجال: الزمنى و نحوهم، و الولدان: كعياش بن أبى ربيعة و سلمة بن هشام؛ و إنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة فى أمر الهجرة، و إيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف، فكيف من كان مكلفا؛ و قيل: أراد بالولدان: المراهقين و المماليك. قوله: لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً صفة للمستضعفين، أو: للرجال و النساء و الولدان، أو: حال من الضمير فى المستضعفين، و قيل: الحيلة: لفظ عام لأنواع أسباب التخلص، أى: لا يجدون حيلة و لا طريقا إلى ذلك، و قيل: السبيل: سبيل المدينة فَأُولئِكَ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ و جىء بكلمة الإطماع لتأكيد أمر الهجرة، حتى يظن أن تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنبا يجب طلب العفو عنه. قوله: وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً هذه الجملة متضمنة للترغيب فى الهجرة و التنشيط إليها. و قوله: فِي سَبِيلِ اللَّهِ فيه دليل:

على أن الهجرة لا بدّ أن تكون بقصد صحيح، و نية خالصة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا، و منه الحديث الصحيح: «فمن كانت هجرته إلى اللّه و رسوله فهجرته إلى اللّه و رسوله، و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

و قد اختلف فى معنى قوله سبحانه يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً: فقال ابن عباس، و جماعة من التابعين، و من بعدهم: المراغم: التحوّل و المذهب. و قال مجاهد: المراغم: المتزحزح. و قال ابن زيد: المراغم المهاجر، و به قال أبو عبيدة. قال النحاس: فهذه الأقوال متفقة المعانى، فالمراغم: المذهب و المتحول، و هو الموضع الذى يراغم فيه، و هو مشتق من الرغام و هو التراب، و رغم أنف فلان، أى: لصق بالتراب، و راغمت فلانا: هجرته و عاديته و لم أبال أن رغم أنفه، و قيل: إنما سمى مهاجرا و مراغما: لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه و هجرهم، فسمى خروجه مراغما، و سمى مسيره إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هجرة. و الحاصل فى معنى الآية: أن المهاجر يجد فى الأرض مكانا يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين جاورهم، أى: على ذلهم و هوانهم. قوله: وَ سَعَةً أى: فى البلاد؛ و قيل: فى الرزق، و لا مانع من حمل السعة على ما هو أعمّ من ذلك. قوله: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ قرئ: يدركه بالجزم، على أنه معطوف على فعل الشرط، و بالرفع، على أنه خبر مبتدأ محذوف، و بالنصب على إضمار أن. و المعنى: أن من أدركه الموت قبل أن يصل إلى مطلوبه، و هو المكان الذى قصد الهجرة إليه، أو الأمر الذى قصد الهجرة له فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ أى: ثبت ذلك عنده ثبوتا لا يتخلف وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً أى: كثير المغفرة رَحِيماً أى: كثير الرحمة. و قد استدلّ بهذه الآية: على أن الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك، أو بدار يعمل فيها بمعاصى اللّه جهارا، إذا كان قادرا على الهجرة و لم يكن من المستضعفين، لما فى هذه الآية الكريمة من العموم، و إن كان السبب خاصا كما تقدّم. و ظاهرها: عدم الفرق

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٨٤

بين مكان و مكان و زمان و زمان. و قد ورد فى الهجرة أحاديث، و ورد ما يدلّ على أنه لا هجرة بعد الفتح.

و قد أوضحنا ما هو الحقّ فى شرحنا على المنتقى فليرجع إليه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال:

كان قوم من أهل مكة أسلموا و كانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم و قتل البعض، فقال المسلمون: قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين و أكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت بهم هذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قال: فكتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية، و أنه لا عذر لهم، فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة «١»، فنزلت فيهم هذه الآية:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ «٢» إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا و أيسوا من كل خير، فنزلت فيهم: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٣» فكتبوا إليهم بذلك: أن اللّه قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا، فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، و قتل من قتل. و قد أخرجه البخارى و غيره عنه مقتصرا على أوله.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ إلى قوله: وَ ساءَتْ مَصِيراً قال: نزلت فى قيس بن الفاكه بن المغيرة، و الحارث بن ربيعة بن الأسود، و قيس بن الوليد بن المغيرة، و أبى العاص بن منبه بن الحجاج، و على بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش و أتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب و عير قريش من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه، و أن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخلة، خرجوا معهم بشباب كارهين، كانوا قد أسلموا، و

اجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفارا، و رجعوا عن الإسلام، و هم هؤلاء الذين سميناهم. و قد أخرج نحوه عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن إسحاق. و قد روى نحو هذا من طرق. و قد أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس أنه تلا هذا الآية: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ فقال: كنت أنا و أمى من المستضعفين، أنا من الولدان و أمى من النساء. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً قال:

قوّة. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله:

لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً قال: نهوضا إلى المدينة وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا قال: طريقا إلى المدينة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً قال: المراغم: المتحوّل من أرض إلى أرض. و السعة: الرزق. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد: مُراغَماً قال: متزحزحا عما يكره.

و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: وَ سَعَةً قال: و رخاء. و أخرج أيضا عن مالك قال: سعة البلاد. و أخرج أبو يعلى، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، قال السيوطى بسند رجاله ثقات: عن ابن عباس قال:

---

(١). فى ابن كثير، ط دار الأندلس [٢/ ٣٩٦]: التقية.

(٢). العنكبوت: ١٠.

(٣). النحل: ١١٠.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٨٥

خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجرا، فقال لقومه: احملونى فأخرجونى من أرض الشرك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فنزل الوحى: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من وجه آخر عنه نحوه. و أخرج ابن سعد، و أحمد، و الحاكم، و صححه عن عبد اللّه بن عتيك قال: سمعت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من خرج من بيته مجاهدا فى سبيل اللّه، و أين المجاهدون فى سبيل اللّه؟ فخرّ عن دابّته فمات فقد وقع أجره على اللّه، أو لدغته دابّة فمات فقد وقع أجره على اللّه، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على اللّه»- يعنى بحتف أنفه: على فراشه، و اللّه إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم- «و من قتل قعصا «١» فقد استوجب الجنّة». و أخرج أبو يعلى، و البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«من خرج حاجّا فمات كتب له أجر الحاجّ إلى يوم القيامة، و من خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، و من خرج غازيا فى سبيل اللّه فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة». قال ابن كثير: و هذا حديث غريب من هذا الوجه.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (١٠١) وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا

حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (١٠٢)

قوله: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ قد تقدّم تفسير الضرب فى الأرض قريبا. قوله: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فيه دليل: على أن القصر ليس بواجب، و إليه ذهب الجمهور. و ذهب الأقلون: إلى أنه واجب، و منهم:

عمر بن عبد العزيز، و الكوفيون، و القاضى إسماعيل، و حماد بن أبى سليمان، و هو مروىّ عن مالك.

و استدلوا بحديث عائشة الثابت فى الصحيح: «فرضت الصّلاة ركعتين ركعتين فزيدت فى الحضر و أقرّت فى السّفر». و لا يقدح فى ذلك مخالفتها لما روت، فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و مثله:

حديث يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا و قد أمن الناس، فقال لى عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذلك فقال: «صدقة تصدّق اللّه بها عليكم فاقبلوا صدقته» أخرجه أحمد، و مسلم، و أهل السنن. و ظاهر قوله: «فاقبلوا صدقته»: أن القصر واجب. قوله: إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ظاهر هذا الشرط أن القصر لا يجوز فى السفر إلّا مع خوف الفتنة من الكافرين لا مع الأمن، و لكنه قد تقرّر بالسنة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قصر مع الأمن كما عرفت، فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب، و القصر مع الأمن ثابت

---

(١). قعصا: قعصه بالرمح قعصا: طعنه بالرمح طعنا سريعا، و قعصه: قتله مكانه.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٨٦

بالسنة، و مفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من القصر مع الأمن. و قد قيل: إن هذا الشرط خرّج مخرج الغالب، لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف فى الأسفار، و لهذا قال يعلى ابن أمية لعمر ما قال كما تقدّم. و فى قراءة أبىّ: أن تقصروا من الصّلاة أن يفتنكم الذين كفروا بسقوط إِنْ خِفْتُمْ و المعنى على هذه القراءة: كراهة أن يفتنكم الذين كفروا. و ذهب جماعة من أهل العلم:

إلى أن هذه الآية إنما هى مبيحة للقصر فى السفر للخائف من العدوّ، فمن كان آمنا فلا قصر له. و ذهب آخرون إلى أن قوله: إِنْ خِفْتُمْ ليس متصلا بما قبله و أن الكلام تمّ عند قوله: مِنَ الصَّلاةِ ثم افتتح فقال:

إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فأقم لهم يا محمد صلاة الخوف. و قوله: إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً معترض، ذكر معنى هذا الجرجانى، و المهدوى، و غيرهما. و رده القشيرى، و القاضى أبو بكر بن العربى. و قد حكى القرطبى عن ابن عباس معنى ما ذكره الجرجانى و من معه، و مما يرد هذا و يدفعه:

الواو فى قوله: وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ و قد تكلف بعض المفسرين فقال: إن الواو زائدة، و إن الجواب للشرط المذكور، أعنى قوله: إِنْ خِفْتُمْ هو قوله: فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ و ذهب قوم إلى أن ذكر الخوف منسوخ بالسنة، و هى: حديث عمر الذى قدّمنا ذكره، و ما ورد فى معناه. قوله: أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: فتنت الرجل، و ربيعة و قيس و أسد و جميع أهل نجد يقولون: أفتنت الرجل، و فرق الخليل و سيبويه بينهما فقالا: فتنته: جعلت فيه فتنة مثل كحلته، و أفتنته: جعلته مفتنا، و زعم الأصمعى أنه لا يعرف أفتنته. و المراد بالفتنة: القتال و التعرّض بما يكره. قوله: عَدُوًّا أى أعداء. قوله: وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لمن بعده من أهل الأمر، حكمه كما هو معروف فى الأصول، و مثله قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً «١» و نحوه، و إلى هذا ذهب جمهور العلماء، و شذ أبو يوسف، و إسماعيل بن علية فقالا: لا تصلى صلاة الخوف بعد النبى صلّى اللّه عليه و سلم، لأن هذا الخطاب خاص برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قالا: و لا يلحق غيره به

لما له صلّى اللّه عليه و سلّم من المزية العظمى، و هذا مدفوع، فقد أمرنا اللّه باتباع رسوله و التأسى به، و قد قال صلّى اللّه عليه و سلم «صلّوا كما رأيتمونى أصلّى» و الصحابة رضى اللّه عنهم أعرف بمعانى القرآن، و قد صلوها بعد موته فى غير مرّة كما ذلك معروف. و معنى: فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ أردت الإقامة، كقوله:

إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ «٢»، و قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ «٣» قوله:

فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ يعنى: بعد أن تجعلهم طائفتين؛ طائفة تقف بإزاء العدوّ، و طائفة تقوم منهم معك فى الصلاة وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ أى: الطائفة التى تصلى معه؛ و قيل: الضمير راجع إلى الطائفة التى بإزاء العدوّ، و الأوّل أظهر، لأن الطائفة القائمة بإزاء العدوّ لا بدّ أن تكون قائمة بأسلحتها، و إنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان فى الصلاة، لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة فأمره اللّه بأن يكون آخذا لسلاحه، أى: غير واضع له. و ليس المراد الأخذ باليد، بل المراد أن يكونوا حاملين لسلاحهم ليتناولوه من قرب إذا احتاجوا إليه، و ليكون ذلك أقطع لرجاء عدوّهم من إمكان فرصته فيهم. و قد قال بإرجاع الضمير من قوله: وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ إلى الطائفة القائمة بإزاء العدوّ ابن عباس، قال: لأن المصلية لا تحارب،

---

(١). التوبة: ١٠٣.

(٢). المائدة: ۶.

(٣). النحل: ٩٨.

و قال غيره: إن الضمير راجع إلى المصلية، و جوّز الزجاج، و النحاس أن يكون ذلك أمرا للطائفتين جميعا، لأنه أرهب للعدوّ. و قد أوجب أخذ السلاح فى هذه الصلاة أهل الظاهر حملا للأمر على الوجوب. و ذهب أبو حنيفة: إلى أن المصلين لا يحملون السلاح و أن ذلك يبطل الصلاة، و هو مدفوع بما فى هذه الآية و بما فى الأحاديث الصحيحة. قوله: فَإِذا سَجَدُوا أى: القائمون فى الصلاة فَلْيَكُونُوا أى: الطائفة القائمة بإزاء العدوّ مِنْ وَرائِكُمْ أى: من وراء المصلين. و يحتمل أن يكون المعنى: فإذا سجد المصلون معه، أى: أتموا الركعة، تعبيرا بالسجود عن جميع الركعة، أو عن جميع الصلاة فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ أى: فلينصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدوّ للحراسة وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى و هى القائمة فى مقابلة العدو التى لم تصلّ فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ على الصفة التى كانت عليها الطائفة الأولى وَ لْيَأْخُذُوا أى: هذه الطائفة الأخرى حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح. قيل:

وجهه: أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى شغل شاغل، و أما فى المرة الأولى فربما يظنونهم قائمين للحرب، و قيل: لأن العدوّ لا يؤخر قصده عن هذا الوقت، لأنه آخر الصلاة، و السلاح: ما يدفع به المرء عن نفسه فى الحرب، و لم يبين فى الآية الكريمة كم تصلى كل طائفة من الطائفتين؟

و قد وردت صلاة الخوف فى السنة المطهرة على أنحاء مختلفة، و صفات متعددة، و كلها صحيحة مجزئة، من فعل واحدة منها فقد فعل ما أمر به، و من ذهب من العلماء إلى اختيار صفة دون غيرها فقد أبعد عن الصواب، و قد أوضحنا هذا فى شرحنا للمنتقى، و فى سائر مؤلفاتنا. قوله: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً هذه الجملة متضمنة للعلة التى لأجلها أمرهم اللّه بالحذر و أخذ السلاح، أى: ودّوا غفلتكم عن أخذ السلاح و عن الحذر ليصلوا إلى مقصودهم، و ينالوا فرصتهم، فيشدّون عليكم شدّة واحدة، و الأمتعة: ما يتمتع به فى الحرب، و منه: الزاد و الراحلة. قوله: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ رخص لهم سبحانه فى وضع السلاح إذا نالهم أذى

من المطر و فى حال المرض، لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح، ثم أمرهم بأخذ الحذر لئلا يأتيهم العدو على غرّة و هم غافلون.

و قد أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد عن أبى حنظلة قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر، فقال: ركعتان، قلت: فأين قوله تعالى: إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا و نحن آمنون؟ قال: سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج عبد بن حميد، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن حبان، و البيهقى عن أمية بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد أنه سأل ابن عمر: أ رأيت قصر الصلاة فى السفر؟ إنا لا نجدها فى كتاب اللّه، إنما نجد ذكر صلاة الخوف، فقال ابن عمر: يا ابن أخى! إن اللّه أرسل محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم و لا نعلم شيئا، فإنما نفعل كما رأينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يفعل، و قصر الصلاة فى السفر سنة سنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و فى الصحيحين و غيرهما عن حارثة بن وهب الخزاعى قال: صليت مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الظهر و العصر بمنى- أكثر ما كان الناس و آمنه- ركعتين. و أخرج ابن أبى شيبة، و الترمذى، و صححه، و النسائى عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۸۸

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين مكة و المدينة و نحن آمنون لا نخاف شيئا ركعتين. و أخرج ابن جرير عن علىّ قال: سأل قوم من التجار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: يا رسول اللّه! إنا نضرب فى الأرض فكيف نصلى؟ فأنزل اللّه: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ ثم انقطع الوحى، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فصلى الظهر، فقال المشركون: قد أمنكم محمد و أصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم؟

فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها فى أثرها. فأنزل اللّه بين الصلاتين: إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً. وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً فنزلت صلاة الخوف. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و أبو داود، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الدارقطنى، و الحاكم عن أبى عياش الزرقى قال: كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، و هم بيننا و بين القبلة، فصلى بنا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرّتهم، ثم قالوا: تأتى عليهم الآن صلاة هى أحبّ إليهم من أبنائهم و أنفسهم، فنزل جبريل بهذه الآيات: وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ ثم ذكر صفة الصلاة التى صلوها مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و الأحاديث فى صفة صلاة الخوف كثيرة، و هى مستوفاة فى مواطنها، فلا نطول بذكرها هاهنا. و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس فى قوله: إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى قال: نزلت فى عبد الرحمن بن عوف، كان جريحا.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۴]

فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (۱۰۳) وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

قَضَيْتُمُ بمعنى: فرغتم من صلاة الخوف، و هو أحد معانى القضاء، و مثله: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ «۱» فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ «۲» قوله: فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِكُمْ «۳» أى: فى جميع الأحوال، حتى فى حال القتال. و قد ذهب جمهور العلماء: إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو إثر صلاة الخوف، أى: إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا اللّه فى هذه الأحوال؛

و قيل: معنى قوله: فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ: إذا صليتم فصلوا قياما و قعودا أو على جنوبكم، حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال، فهى مثل قوله: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً «۴». قوله: فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ أى: أمنتم و سكنت قلوبكم، و الطمأنينة: سكون النفس من الخوف فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ أى: فأتوا بالصلاة التى دخل وقتها على الصفة المشروعة من الأذكار و الأركان، و لا تغفلوا ما أمكن، فإن ذلك إنما هو فى حال الخوف.

و قيل: المعنى فى الآية: أنهم يقضون ما صلوه فى حال المسايفة، لأنها حالة قلق و انزعاج و تقصير فى الأذكار و الأركان، و هو مرويّ عن الشافعيّ، و الأوّل أرجح. إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً أى: محدودا معينا، يقال: وقته فهو موقوت و وقّته فهو مؤقّت. و المعنى: إن اللّه افترض على عباده الصلوات،

---

(۱). البقرة: ۲۰۰.

(۲). الجمعة: ۱۰.

(۳). البقرة: ۲۳۹.

(۴). البقرة: ۲۳۹.

و كتبها عليهم فى أوقاتها المحدودة، لا يجوز لأحد أن يأتى بها فى غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعى، من نوم أو سهو أو نحوهما. قوله: وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ أى: لا تضعفوا فى طلبهم، و أظهروا القوّة و الجلد.

قوله: إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ تعليل للنهى المذكور قبله، أى: ليس ما تجدونه من ألم الجراح و مزاولة القتال مختصا بكم، بل هو أمر مشترك بينكم و بينهم، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال و مرارة الحرب، و مع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم، و هى: أنكم ترجون من اللّه من الأجر و عظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم و جحودهم، فأنتم أحقّ بالصبر منهم، و أولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية، لأنها ترى الموت مغنما، و هم يرونه مغرما. و نظير هذه الآية قوله تعالى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ «۱» و قيل: إن الرجاء هنا بمعنى الخوف، لأن من رجا شيئا فهو غير قاطع بحصوله، فلا يخلو من خوف ما يرجو. و قال الفراء و الزجاج: لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف إلّا مع النفى، كقوله تعالى: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً «۲» أى: لا تخافون له عظمة. و قرأ عبد الرحمن الأعرج: إِنْ تَكُونُوا بفتح الهمزة، أى: لأن تكونوا، و قرأ منصور بن المعتمر: تئلمون، بكسر التاء، و لا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقله.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِكُمْ قال: بالليل و النهار، فى البرّ و البحر، و فى السفر و الحضر، و الغنى و الفقر، و السقم و الصحة، و السرّ و العلانية، و على كل حال. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود: أنه بلغه أن قوما يذكرون اللّه قياما و قعودا و على جنوبهم، فقال: إنما هذه إذا لم يستطع الرجل أن يصلى قائما صلى قاعدا. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ قال: إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ قال: أتموها. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة نحوه.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً يعنى مفروضا. و أخرج ابن جرير عنه قال: الموقوت الواجب.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لا تَهِنُوا قال: و لا تضعفوا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: تَأْلَمُونَ قال: توجعون وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ قال: ترجون الخير.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۹]

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (۱۰۵) وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۶) وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً (۱۰۷) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (۱۰۸) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (۱۰۹)

قوله: بِما أَراكَ اللَّهُ إما بوحى، أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى اللّه به، و ليس المراد هنا

---

(۱). آل عمران: ۱۴۰.

(۲). نوح: ۱۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۹۰

رؤية العين، لأن الحكم لا يرى، بل المراد: بما عرّفه اللّه به و أرشده إليه. قوله: وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ أى: لأجل الخائنين، خصيما: أى: مخاصما عنهم، مجادلا للمحقين بسببهم. و فيه دليل، على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق. قوله: وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ أمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالاستغفار.

قال ابن جرير: إن المعنى: استغفر اللّه من ذنبك فى خصامك للخائنين. و سيأتى بيان السبب الذى نزلت لأجله الآية، و به يتضح المراد. و قيل: المعنى: و استغفر اللّه للمذنبين من أمتك، و المخاصمين بالباطل. قوله: وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ أى: لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم، و المجادلة: مأخوذة من الجدل، و هو الفتل؛ و قيل: مأخوذة من الجدالة، و هى وجه الأرض، لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يلقى صاحبه عليها، و سمى ذلك: خيانة لأنفسهم، لأن ضرر معصيتهم راجع إليهم.

و الخوّان: كثير الخيانة، و الأثيم: كثير الإثم، و عدم المحبة: كناية عن البغض. قوله: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ أى: يستترون منهم، كقوله: وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ أى: مستتر؛ و قيل: يستخفون من الناس و لا يستخفون من اللّه: أى لا يستترون منه، أو لا يستحيون منه و الحال أنه معهم فى جميع أحوالهم، عالم بما هم فيه، فكيف يستخفون منه؟ إِذْ يُبَيِّتُونَ أى: يديرون الرأى بينهم، و سماه: تبييتا؛ لأن الغالب أن تكون إدارة الرأى بالليل ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ أى: من الرأى الذى أداروه بينهم، و سماه: قولا، لأنه لا يحصل إلا بعد المقاولة بينهم. قوله: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ يعنى: القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق كما سيأتى، و الجملة مبتدأ و خبر. قال الزجاج: أولاء بمعنى الذين و جادَلْتُمْ بمعنى حاججتم فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ الاستفهام للإنكار و التوبيخ، أى: فمن يخاصم و يجادل اللّه عنهم يوم القيامة عند تعذيبهم بذنوبهم؟ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا أى: مجادلا و مخاصما، و الوكيل فى الأصل: القائم بتدبير الأمور. و المعنى: من ذاك يقوم بأمرهم إذا أخذهم اللّه بعذابه.

و قد أخرج الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و الحاكم، و صححه عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق بشر و بشير و مبشر، و كان بشر رجلا منافقا يقول الشعر، يهجو به أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان: كذا و كذا، قال فلان: كذا و كذا؛ فإذا سمع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ذلك الشعر قالوا: و اللّه ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، فقال:

أو كلّما قال الرّجال قصيدة أصمّوا فقالوا «۱» ابن الأبيرق قالها

قال: و كانوا أهل بيت حاجة و فاقة فى الجاهلية و الإسلام، و كان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر و الشعير، و كان الرجل إذا

كان له يسار فقدمت ضافطة «٢»، أى: حمولة من الشام من الدرمك «٣»؛ ابتاع الرجل منها

---

(١). فى القرطبى (٥/ ٣٧٦): نحلت و قالوا ...

(٢). الضافط: الذى يجلب الميرة و المتاع إلى المدن.

(٣). الدرمک: الدقيق الحوّارى.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٩١

فخصّ بها نفسه، و أما العيال فإنما طعامهم التمر و الشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمى رفاعة بن رافع جملا- من الدرمک، فجعله فى مشربة «١»، و فى المشربة سلاح له درعان و سيفاهما و ما يصلحهما، فعدى عليه من تحت الليل، فنقبت المشربة، و أخذ الطعام و السلاح، فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال: يا ابن أخى! تعلم أن قد عدى علينا فى ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا و سلاحنا، قال: فتحسسنا فى الدار و سألنا، فقيل لنا: قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا نارا فى هذه الليلة، و لا نرى فيما نرى إلا- على بعض طعامكم، و كان بنو أبيرق قالوا و نحن نسأل فى الدار: و اللّه ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلا منا له صلاح و إسلام، فلما سمع ذلک لبيد اخترط سيفه ثم أتى بنى أبيرق و قال: أنا أسرق؟ فو اللّه ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليک عنا أيها الرجل! فو اللّه ما أنت بصاحبها، فسألنا فى الدار حتى لم نشک أنهم أصحابها، فقال لى عمى: يا ابن أخى أو أتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكرت ذلک له؛ قال قتادة: فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: يا رسول اللّه! إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له، و أخذوا سلاحه و طعامه، فليردّوا علينا سلاحنا، و أما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: سأنظر فى ذلک؛ فلما سمع ذلک بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له: أسير بن عروة، فكلموه فى ذلک و اجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: يا رسول اللّه! إن قتادة بن النعمان و عمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام و صلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة و لا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فكلمته فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام و صلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة و لا ثبت؟ قال قتادة:

فرجعت و لوددت أنى خرجت من بعض مالى و لم أكلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلک، فأتانى عمى رفاعة فقال لى: يا بن أخى! ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: اللّه المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْکَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراکَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً بنى أبيرق وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ أى: مما قلت لقتادة إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً. وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إلى قوله: ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً أى: لو استغفروا لهم وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً إلى قوله: فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً قولهم للبيد. وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْکَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوکَ يعنى: أسير بن عروة، فلما نزل القرآن أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالسلاح فرده إلى رفاعة؛ قال قتادة: فلما أتيت عمى بالسلاح و كان شيخا قد غشى فى الجاهلية، أى: كبر، و كنت أرى إسلامه مدخولا، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخى! هو فى سبيل اللّه، فعرفت أن إسلامه كان صحيحا، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد فأنزل اللّه: وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى إلى قوله: ضَلالًا بَعِيداً «٢» فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت فرمت به فى الأبطح، ثم قالت: أهديت لى شعر حسان؟ ما كنت تأتينى بخير. قال الترمذى: هذا حديث غريب، لا

---

(١). المشربة: بفتح الراء و ضمها: الغرفة.

(٢). النساء: ١١٥- ١١٦.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٩٢

نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرانى. و رواه يونس بن بكير و غير واحد عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلا، لم يذكر فيه عن أبيه عن جدّه. و رواه ابن أبى حاتم عن هاشم بن القاسم الحرانى عن محمد بن سلمة به ببعضه. و رواه ابن المنذر فى تفسيره قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، يعنى:

الصانع، حدّثنا أحمد بن أبى شعيب الحرانى، حدثنا محمد بن سلمة، فذكره بطوله. و رواه أبو الشيخ الأصبهانى فى تفسيره عن محمد بن العباس بن أيوب، و الحسن بن يعقوب، كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبى شعيب الحرانى عن محمد بن سلمة به، ثم قال فى آخره: قال محمد بن سلمة: سمع منى هذا الحديث يحيى بن معين، و أحمد بن حنبل، و إسحاق بن أبى إسرائيل. و قد رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى العباس الأصم، عن أحمد ابن عبد الجبار العطاردى، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق بمعناه أتم منه، ثم قال: هذا صحيح على شرط مسلم. و قد أخرجه ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: غدا بشير، فذكره مختصرا، و قد رويت هذه القصة مختصرة و مطوّلة عن جماعة من التابعين.

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٠ الى ١١٣]

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (١١٢) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)

هذا من تمام القصة السابقة، و المراد بالسوء: القبيح الذى يسوء به أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ بفعل معصية من المعاصى، أو ذنب من الذنوب التى لا تتعدى إلى غيره ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً لذنبه رَحِيماً به، و فيه ترغيب لمن وقع منه السرق من بنى أبيرق أن يتوب إلى اللّه و يستغفره، و أنه غفور لمن يستغفره رحيم به. و قال الضحاك: إن هذه الآية نزلت فى شأن وحشى قاتل حمزة، أشرك باللّه و قتل حمزة، ثم جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: هل لى من توبة؟ فنزلت. و على كل حال فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهى لكل عبد من عباد اللّه أذنب ذنبا ثم استغفره اللّه سبحانه. قوله: وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً من الآثام بذنب يذنبه فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ أى: عاقبته عائدة عليه، و الكسب: ما يجر به الإنسان إلى نفسه نفعا أو يدفع به ضررا، و لهذا لا يسمى فعل الربّ كسبا، قال القرطبى. وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً قيل: هما بمعنى واحد، كرر للتأكيد. و قال الطبرى:

إن الخطيئة تكون عن عمد و عن غير عمد، و الإثم لا يكون إلا عن عمد، و قيل: الخطيئة: الصغيرة، و الإثم:

الكبيرة. قوله: ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً توحيد الضمير لكون العطف بأو، أو لتغليب الإثم على الخطيئة، و قيل: إنه يرجع إلى الكسب. قوله: فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل الذى يحمل، و مثله: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «١». و البهتان: مأخوذ من

---

(١). العنكبوت: ١٣.

البهت، و هو الكذب على البرىء بما ينبهت له و يتحير منه، يقال: بهته بهتا و بهتانا: إذا قال عليه ما لم يقل، و يقال: بهت الرجل بالكسر: إذا دهش و تحير، و بهت بالضم، و منه: فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ «1»، و الإثم المبين: الواضح. قوله: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و المراد بهذا الفضل و الرحمة لرسول اللّه: أنه نبهه على الحق في قصة بني أبيرق. و قيل: المراد بهما: النبوّة و العصمة لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أي: من الجماعة الذين عضدوا بني أبيرق كما تقدّم أَنْ يُضِلُّوكَ عن الحق وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ لأن وبال ذلك عائد عليهم وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْ‏ءٍ لأن اللّه سبحانه هو عاصمك من الناس، و لأنك عملت بالظاهر و لا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي، و الجار و المجرور: في محل نصب على المصدرية، أي: و ما يضرونك شيئا من الضرر. قوله: وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ قيل: هذا ابتداء كلام، و قيل: الواو: للحال، أي: و ما يضرّونك من شي‏ء حال إنزال اللّه عليك الكتاب و الحكمة، أو مع إنزال اللّه ذلك عليك. قوله: وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ معطوف على أنزل، أي: علمك بالوحي ما لم تكن تعلم من قبل وَ كانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً إذ لا فضل أعظم من النبوّة و نزول الوحي.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ الآية.

قال: أخبر اللّه عباده بحلمه و عفوه و كرمه و سعة رحمته و مغفرته، فمن أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا؛ ثم استغفر اللّه؛ يجد اللّه غفورا رحيما؛ و لو كانت ذنوبه أعظم من السموات و الأرض و الجبال. و أخرج عبد ابن حميد عن ابن مسعود قال: من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء؛ ثم استغفر اللّه؛ غفر له وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ «2» الآية. و أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ قال: علمه اللّه بيان الدنيا و الآخرة، بين حلاله و حرامه ليحتج بذلك على خلقه. و أخرج أيضا عن الضحاك قال: علمه الخير و الشر، و قد ورد في قبول الاستغفار، و أنه يمحو الذنب أحاديث كثيرة مدوّنة في كتب السنة.

[سورة النساء (4): الآيات 114 الى 115]

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (114) وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (115)

النجوى: السرّ بين الاثنين أو الجماعة، تقول: ناجيت فلانا مناجاة و نجاء و هم ينتجون و يتناجون، و نجوت فلانا أنجوه نجوى، أي: ناجيته، فنجوى: مشتقة من نجوت الشي‏ء أنجوه، أي: خلصته و أفردته.

و النجوة من الأرض: المرتفع، لانفراده بارتفاعه عما حوله، فالنجوى: المسارّة، مصدر. و قد تسمى به الجماعة كما يقال قوم عدل، قال اللّه تعالى: وَ إِذْ هُمْ نَجْوى «3» فعلى الأوّل يكون الاستثناء منقطعا، أي:

لكن من أمر بصدقة، أو متصلا، على تقدير: إلا نجوى من أمر بصدقة، و على الثاني يكون الاستثناء متصلا في موضع خفض على البدل من كثير. أي: لا خير في كثير إلا فيمن أمر بصدقة. و قد قال جماعة من المفسرين:

---

(1). البقرة: 258.

(2). النساء: 64.

(3). الإسراء: 47.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۹۴
إن النجوى كلام الجماعة المنفردة أو الاثنين سواء كان ذلك سرّا أو جهرا، و به قال الزجاج. قوله:
بِصَدَقَةٍ الظاهر أنها صدقة التطوّع، و قيل: إنها صدقة الفرض. و المعروف: صدقة التطوّع، و الأوّل أولى. و المعروف: لفظ عام يشمل جميع أنواع البرّ. و قال مقاتل: المعروف هنا: القرض. و الأوّل أولى، و منه قول الحطيئة:
من يفعل الخير لا يعدم جوازيهلا يذهب العرف بين اللّه و النّاس
و منه الحديث: «كلّ معروف صدقة، و إنّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»، و قيل:
المعروف: إغاثة الملهوف. و الإصلاح بين الناس عامّ فى الدماء و الأعراض و الأموال، و فى كل شىء يقع التداعى فيه. قوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ إشارة إلى الأمور المذكورة، جعل مجرّد الأمر بها خيرا، ثم رغب فى فعلها بقوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ لأن فعلها أقرب إلى اللّه من مجرّد الأمر بها، إذ خيرية الأمر بها إنما هى لكونه وسيلة إلى فعلها. قوله: ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ علة للفعل، لأن من فعلها لغير ذلك فهو غير مستحق لهذا المدح و الجزاء، بل قد يكون غير ناج من الوزر، و الأعمال بالنيات وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى المشاققة: المعاداة و المخالفة. و تبين الهدى: ظهوره، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المشاققة وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ أى: غير طريقهم، و هو ما هم عليه من دين الإسلام، و التمسك بأحكامه نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى أى: نجعله واليا لما تولاه من الضلال وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ قرأ عاصم، و حمزة، و أبو عمرو: نولّه و نصله بسكون الهاء فى الموضعين. و قرأ الباقون: بكسر هما، و هما لغتان، و قرئ: و نصله بفتح النون من صلاه، و قد تقدّم بيان ذلك. و قد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الإجماع لقوله: وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ و لا حجة فى ذلك عندى، لأن المراد بغير سبيل المؤمنين هنا: هو الخروج من دين الإسلام إلى غيره، كما يفيده اللفظ، و يشهد به السبب، فلا تصدق على عالم من علماء هذه الملة الإسلامية؛ اجتهد فى بعض مسائل دين الإسلام؛ فأدّاه اجتهاده إلى مخالفة من بعصره من المجتهدين، فإنه إنما رام السلوك فى سبيل المؤمنين، و هو الدين القويم و الملة الحنيفية و لم يتبع غير سبيلهم.
و قد أخرج عبد بن حميد، و الترمذى، و ابن ماجة، و غيرهم عن أمّ حبيبة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:
«كلام ابن آدم كلّه عليه لا له، إلا أمرا بمعروف، أو نهيا عن منكر، أو ذكرا للّه عزّ و جلّ». قال سفيان الثورى: هذا فى كتاب اللّه لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ الآية، و قوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً «۱»، و قوله: وَ الْعَصْرِ- إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ- إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ «۲». و قد وردت أحاديث صحيحة فى الصمت و التحذير من آفات اللسان و الترغيب فى حفظه، و فى الحثّ على الإصلاح بين الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ تصدق أو أقرض أو أصلح بين الناس. و أخرج أبو نصر السجزى فى الإبانة عن أنس قال: «جاء أعرابىّ إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: إن اللّه

(۱). النبأ: ۳۸.

(۲). العصر: ۱- ۳.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۹۵
أنزل علىّ فى القرآن يا أعرابىّ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إلى قوله: فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً يا أعرابىّ! الأجر العظيم: الجنة؛ قال الأعرابى: الحمد للّه الذى هدانا للإسلام». و أخرج الترمذى، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا يجمع اللّه بين هذه الأمة على الضلالة أبدا، و يد اللّه على الجماعة، فمن شذّ شذّ فى النّار». و

أخرجه الترمذى، و البيهقى أيضا عن ابن عباس مرفوعا.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۱۶ الى ۱۲۲]

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (۱۱۶) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اللَّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲۰)

أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (۱۲۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (۱۲۲)

قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ قد تقدّم تفسير هذه الآية، و تكريرها بلفظ للتأكيد؛ و قيل: كررت هنا لأجل قصة بنى أبيرق؛ و قيل: إنها نزلت هنا لسبب غير قصة بنى أبيرق. و هو ما رواه الثعلبى، و القرطبى فى تفسيريهما عن الضحاك: أن شيخا من الأعراب جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه! إنى شيخ منهمك فى الذنوب و الخطايا إلّا أنى لم أشرك باللّه شيئا مذ عرفته و آمنت به و لم أتخذ من دونه وليا و لم أوقع المعاصى جرأة على اللّه و لا مكابرة له، و إنى لنادم و تائب و مستغفر، فما حالى عند اللّه؟ فأنزل اللّه تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَ عن الحق ضَلالًا بَعِيداً لأن الشرك أعظم أنواع الضلال و أبعدها من الصواب إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً أى: ما يدعون من دون اللّه إلّا أصناما لها أسماء مؤنثة كاللات و العزى و مناة؛ و قيل: المراد بالإناث: الموات التى لا روح لها، كالخشبة و الحجر؛ و قيل: المراد بالإناث: الملائكة، لقولهم: الملائكة بنات اللّه. و قرئ «وثنا» بضم الواو و الثاء جمع وثن، روى هذه القراءة ابن الأنبارى عن عائشة. و قرأ ابن عباس: «إلّا أثنا» جمع وثن أيضا، و أصله: وثن، فأبدلت الواو همزة، و قرأ الحسن: إلّا أنثا، بضم الهمزة و النون بعدها مثلثة، جمع أنيث، كغدير و غدر. و حكى الطبرى: أنه جمع إناث، كثمار و ثمر. و حكى هذه القراءة أبو عمرو الدانى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: و قرأ بها ابن عباس، و الحسن و أبو حيوة. و على جميع هذه القراءات فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين، و الإزراء عليهم، و التضعيف لعقولهم، لكونهم عبدوا من دون اللّه نوعا ضعيفا وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً أى: و ما يدعون من دون اللّه إلّا شيطانا مريدا، و هو إبليس لعنه اللّه، لأنهم إذا أطاعوه فيما سوّل فقد عبدوه. و قد تقدّم اشتقاق لفظ الشيطان. و المريد: المتمرّد العاتى، من مرد:

إذا عتا. قال الأزهرى: المريد: الخارج عن الطاعة. و قد مرد الرجل مرودا: إذا عتا و خرج عن الطاعة، فهو مارد و مريد و متمرّد. و قال ابن عرفة: هو الذى ظهر شرّه، يقال: شجرة مرداء: إذا تساقط ورقها و ظهرت عيدانها، و منه قيل للرجل: أمرد، أى: ظاهر مكان الشعر من عارضيه. قوله: لَعَنَهُ اللَّهُ أصل اللعن: الطرد و الإبعاد. و قد تقدّم و هو فى العرف: إبعاد مقترن بسخط. قوله: وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً معطوف على قوله: لَعَنَهُ اللَّهُ و الجملتان صفة لشيطان، أى: شيطانا مريدا جامعا بين لعنة اللّه له و بين هذا القول الشنيع. و النصيب المفروض: هو المقطوع المقدّر؛ أى: لأجعلنّ قطعة مقدّرة من عباد اللّه تحت غوايتى، و فى جانب إضلالى، حتى أخرجهم من عبادة اللّه إلى الكفر به. قوله: وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ اللام: جواب قسم محذوف. و الإضلال: الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، و هكذا اللام فى قوله: وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ و المراد بالأمانى التى يمنيهم بها الشيطان: هى الأمانى الباطلة الناشئة عن تسويله و وسوسته. قوله: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ أى: و لآمرنهم ببتك آذان الأنعام، أى:

تقطيعها فليبتكنها بموجب أمرى. و البتك: القطع، و منه سيف باتک، يقال: بتكه و بتكه مخففا و مشدّدا، و منه قول زهير:
....

طارت و فى كفّه من ريشها بتک «١» أى: قطع. و قد فعل الكفار ذلک امتثالا لأمر الشيطان و اتباعا لرسمه، فشقوا آذان البحائر و السوائب، كما ذلک معروف. قوله: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ أى: و لآمرنهم بتغيير خلق اللّه، فليغيرنه بموجب أمرى لهم. و اختلف العلماء فى هذا التغيير ما هو؟ فقالت طائفة: هو الخصاء، و فقء الأعين، و قطع الآذان.

و قال آخرون: إن المراد بهذا التغيير: هو أن اللّه سبحانه خلق الشمس و القمر و الأحجار و النار و نحوها من المخلوقات لما خلقها له، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، و به قال الزجاج. و قيل: المراد بهذا التغيير:

تغيير الفطرة التى فطر اللّه الناس عليها، و لا مانع من حملى الآية على جميع هذه الأمور حملا شموليا أو بدليا.

و قد رخص طائفة من العلماء فى خصاء البهائم إذا قصد بذلک زيادة الانتفاع به لسمن أو غيره، و كره ذلک آخرون، و أما خصاء بنى آدم فحرام، و قد كره قوم شراء الخصى. قال القرطبى: و لم يختلفوا أن خصاء بنى آدم لا يحل و لا يجوز، و أنه مثلة، و تغيير لخلق اللّه، و كذلک قطع سائر أعضائهم فى غير حد و لا قود، قاله أبو عمر ابن عبد البر. وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ باتباعه و امتثال ما يأمر به، من دون اتباع لما أمر اللّه به و لا امتثال له فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً أى: واضحا ظاهرا يَعِدُهُمْ المواعيد الباطلة وَ يُمَنِّيهِمْ الأمانى العاطلة وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً أى: و ما يعدهم الشيطان بما يوقعه فى خواطرهم من الوساوس الفارغة إِلَّا غُرُوراً يغرّهم به، و يظهر لهم فيه النفع و هو ضرر محض،

---

(١). هذا عجز بيت، و صدره: حتّى إذا ما هوت كفّ الغلام لها.

فتح القدير، ج ١، ص: ٥٩٧

و انتصاب غرورا: على أنه نعت لمصدر محذوف، أى: وعدا غرورا، أو على أنه مفعول ثان، أو مصدر على غير لفظه. قال ابن عرفة: الغرور: ما رأيت له ظاهرا تحبه و له باطن مكروه. و هذه الجملة اعتراضية. قوله: أُولئِکَ إشارة إلى أولياء الشيطان، و هذا مبتدأ، و خبره الجملة، و هى قوله: مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ

قوله: مَحِيصاً أى: معدلا، من حاص يحيص؛ و قيل: ملجأ و مخلصا؛ و المحيص: اسم مكان، و قيل: مصدر. قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا إلخ، جعل هذا الوعد للذين آمنوا مقترنا بالوعيد المتقدّم للكافرين.

قوله: وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا قال فى الكشاف مصدران: الأوّل مؤكد لنفسه، و الثانى مؤكد لغيره، و وجهه، أن الأوّل مؤكد لمضمون الجملة الاسمية و مضمونها وعد، و الثانى مؤكد لغيره. أى: حق ذلک حقا. قوله:

وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا هذه الجملة مؤكدة لما قبلها، و القيل: مصدر قال كالقول، أى: لا أجد أصدق قولا من اللّه عزّ و جلّ؛ و قيل: إن قيلا: اسم لا مصدر، و إنه منتصب على التمييز.

و قد أخرج الترمذى من حديث علىّ أنه قال: ما فى القرآن آية أحبّ إلىّ من هذه الآية إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَکَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ يَشاءُ قال الترمذى: حسن غريب. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن أبى مالک فى قوله: إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً قال: اللات و العزى و مناة، كلها مؤنثة. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب فى الآية قال: مع كل صنم جنية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس: إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً قال: موتى. و أخرج مثله عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الحسن. و أخرج مثله أيضا عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة. و أخرج سعيد ابن منصور، و ابن جرير، و ابن

المنذر عن الحسن. قال: كان لكل حىّ من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها: أنثى بنى فلان، فأنزل اللّه: إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الضحاك: قال المشركون: إن الملائكة بنات اللّه، و إنما نعبدهم ليقربونا إلى اللّه زلفى، قال: اتخذوهنّ أربابا، و صوروهنّ صور الجوارى، فحلوا و قلدوا، و قالوا: هؤلاء يشبهن بنات اللّه الذى نعبده: يعنون: الملائكة. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله: وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ إلخ، قال:

هذا إبليس يقول: من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعون إلى النار و واحد إلى الجنة. و أخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس مثله. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله:

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ قال: التبتيك فى البحيرة و السائبة، يبتكون آذانها لطواغيتهم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن أنس: أنه كره الإخصاء و قال:

فيه نزلت: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن أبى شيبة، و البيهقى عن ابن عمر قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن خصاء البهائم و الخيل.

و أخرج ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عباس قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن صبر الروح و إخصاء البهائم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۵۹۸

قال: دين اللّه. و أخرج ابن جرير عن الضحاك مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله أيضا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: الوشم.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۶]

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۲۳) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (۱۲۴) وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً (۱۲۵) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (۱۲۶)

قرأ أبو جعفر: بتخفيف الياء من أمانى فى الموضعين، و اسم ليس محذوف، أى: ليس دخول الجنة أو الفضل أو القرب من اللّه بأمانيكم و لا أمانىّ أهل الكتاب، كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الآتى، و قيل:

ضمير يعود إلى وعد اللّه، و هو بعيد، و من أمانىّ أهل الكتاب قولهم: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى «۱» و قولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «۲» و قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً «۳». قوله:

مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ قيل: المراد بالسوء: الشرك، و ظاهر الآية أعمّ من ذلك، فكل من عمل سوءا أىّ سوء كان؛ فهو مجزىّ به، من غير فرق بين المسلم و الكافر. و فى هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد، و قد كان لها فى صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم، كما ثبت فى صحيح مسلم و غيره من حديث أبى هريرة، قال: لما نزلت: مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «قاربوا و سدّدوا، ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها و الشوكة يشاكها».

قوله: وَ لا يَجِدْ لَهُ قرأه الجماعة: بالجزم، عطفا على الجزاء، و روى ابن بكار عن ابن عامر: وَ لا يَجِدْ بالرفع استئنافا؛ أى: ليس لمن يعمل السوء من دون اللّه وليا يواليه، و لا نصيرا ينصره. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ أى: بعضها حال كونه مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى و حال

كونه مؤمنا، و الحال الأولى:

لبيان من يعمل، و الحال الأخرى: لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح فَأُولئِكَ إشارة إلى العمل المتصف بالإيمان يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قرأ أبو عمرو، و ابن كثير: يَدْخُلُونَ بضم حرف المضارعة على البناء المجهول. و قرأ الباقون: بفتحها على البناء للمعلوم وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً أي: لا ينقصون شيئا حقيرا، و قد تقدّم تفسير النقير: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أي: أخلص نفسه له حال كونه محسنا، أي: عاملا للحسنات وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ أي: دينه حال كون المتبع حَنِيفاً أي: مائلا عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، و هو الإسلام وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا أي: جعله صفوة له و خصه بكراماته، قال ثعلب: إنما سمى الخليل خليلا: لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا إلّا ملأته، و أنشد قول بشار:

قد تخلّلت مسلك الرّوح منّيو به سمّى الخليل خليلا

---

(١). البقرة: ١١١.

(٢). المائدة: ١٨.

(٣). البقرة: ٨٠.

و خليل: فعيل بمعنى فاعل، كالعليم بمعنى العالم، و قيل: هو بمعنى المفعول، كالحبيب بمعنى المحبوب، و قد كان إبراهيم عليه السلام محبوبا للّه و محبا له؛ و قيل: الخليل من الاختصاص، فاللّه سبحانه اختص إبراهيم برسالته في ذلك الوقت و اختاره لها، و اختار هذا النحاس. و قال الزجاج: معنى الخليل: الذى ليس في محبته خلل وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ فيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلا لطاعته، لا لحاجته، و لا للتكثر به و الاعتضاد بمخاللته وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً هذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التى قبلها، أي: أحاط علمه بكل شيء لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها «١».

و قد أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:

قالت العرب: لا نبعث و لا نحاسب، و قالت اليهود و النصارى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى «٢» و قالوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً «٣» فأنزل اللّه: لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مسروق قال: احتج المسلمون و أهل الكتاب، فقال المسلمون: نحن أهدى منكم، و قال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، فنزلت، ففلج عليهم المسلمون بهذه الآية: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مسروق قال: تفاخر النصارى و أهل الإسلام، فقال هؤلاء:

نحن أفضل منكم، و قال هؤلاء: نحن أفضل منكم، فنزلت. و قد ورد معنى هذه الروايات من طرق كثيرة مختصرة و مطوّلة. و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى، و ابن المنذر عن أبى بكر الصديق: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال له لما نزلت هذه الآية: «أما أنت و أصحابك يا أبا بكر فتجزون بذلك فى الدّنيا حتى تلقوا اللّه ليس لكم ذنوب، و أما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة». و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن أبى هريرة و أبى سعيد: أنهما سمعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ما يصيب المؤمن من وصب و لا نصب و لا سقم و لا حزن حتّى الهمّ يهمّه إلّا كفّر اللّه به من سيئاته». و قد ورد فى هذا المعنى أحاديث كثيرة. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أن ابن عمر لقيه فسأله عن هذه الآية: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ قال: الفرائض. و أخرج الحاكم، و صححه عن جندب: أنه سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول قبل أن يتوفى:

«إنّ اللّه اتّخذنى خليلا كما اتّخذ إبراهيم خليلا». و أخرج الحاكم أيضا و صححه عن ابن عباس قال: أ تعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم و الكلام لموسى و الرؤية لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم؟

[سورة النساء (۴): آية ۱۲۷]

وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً (۱۲۷)

سبب نزول هذه الآية: سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء و أحكامهن فى الميراث و غيره، فأمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ أى: يبين لكم حكم ما سألتم عنه، و هذه الآية رجوع إلى ما

---

(۱). الكهف: ۴۹.

(۲). البقرة: ۱۱۱.

(۳). البقرة: ۸۰.

فتح القدير، ج۱، ص: ۶۰۰

فتح القدير ج۲ ۵

افتتحت به السورة من أمر النساء، و كان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها، فسألوا، فقيل لهم: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ قوله: وَ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ معطوف على قوله: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ و المعنى: و القرآن الذى يتلى عليكم يفتيكم فيهن. و المتلوّ فى الكتاب فى معنى اليتامى: قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى «۱» و يجوز أن يكون قوله: وَ ما يُتْلى معطوفا على الضمير فى قوله: يُفْتِيكُمْ الراجع إلى المبتدأ، لوقوع الفصل بين المعطوف و المعطوف عليه بالمفعول و الجار و المجرور، و يجوز أن يكون مبتدأ، و فى الكتاب: خبره، على أن المراد به: اللوح المحفوظ، و قد قيل فى إعرابه غير ما ذكرنا، و لم نذكره لضعفه.

و قوله: فِي يَتامَى النِّساءِ على الوجه الأوّل و الثانى: صلة لقوله: يُتْلى و على الوجه الثالث: بدل من قوله: فِيهِنَ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَ أى: ما فرض لهنّ من الميراث و غيره وَ تَرْغَبُونَ معطوف على قوله: لا تُؤْتُونَهُنَ عطف جملة مثبتة على جملة منفية. و قيل: حال من فاعل تُؤْتُونَهُنَ و قوله: أَنْ تَنْكِحُوهُنَ يحتمل أن يكون التقدير: فى أن تنكحوهن، أى: ترغبون فى أن تنكحوهنّ لجمالهن، و يحتمل أن يكون التقدير: و ترغبون عن أن تنكحوهنّ لعدم جمالهنّ. قوله:

وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ معطوف على يتامى النساء، أى: و ما يتلى عليكم فى يتامى النساء، و فى المستضعفين من الولدان، و هو قوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ «۲» و قد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء و من كان مستضعفا من الولدان كما سلف، و إنما يورثون الرجال القائمين بالقتال و سائر الأمور. قوله:

وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ معطوف على قوله: فِي يَتامَى النِّساءِ كالمستضعفين، أى: و ما يتلى عليكم فى يتامى النساء و فى المستضعفين و فى أن تقوموا لليتامى بالقسط، أى: العدل، و يجوز أن يكون فى محل نصب، أى: و يأمركم أن تقوموا. وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فى حقوق المذكورين فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً يجازيكم بحسب فعلكم من خير و شر.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه عن ابن عباس فى قوله: وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ الآية، قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، و لا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فى أوّل السورة فى الفرائض.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء و لا الصبيان شيئا، كانوا يقولون: لا يغزون، و لا يغنمون خيرا. ففرض اللّه لهنّ الميراث حقا واجبا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه بأطول منه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن إبراهيم فى الآية قال: كانوا إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها و حبسوها من التزويج حتى تموت فيرثونها، فأنزل اللّه هذا. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن عائشة فى قوله: وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ إلى قوله: وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها و وارثها قد شركته فى ماله حتى فى العذق «٣»، فيرغب أن ينكحها، و يكره أن يزوّجها رجلا فتشركه فى ماله بما شركته، فيعضلها،

---

(١). النساء: ٣.

(٢). النساء: ١١.

(٣). قال فى القاموس: العذق بالفتح: النخلة بحملها، و العذق بالكسر: القنو منها، و العنقود من العنب.

فنزلت هذه الآية. و أخرج ابن المنذر من طريق ابن عون عن الحسن و ابن سيرين فى هذه الآية: قال أحدهما: ترغبون فيهنّ، و قال الآخر: ترغبون عنهن.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٢٨ الى ١٣٠]

وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٢٨) وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩) وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَ كانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً (١٣٠)

امرأة: مرفوعة بفعل مقدّر يفسره ما بعده، أى: و إن خافت امرأة، و خافت: بمعنى: توقعت ما تخاف من زوجها، و قيل: معناه: تيقنت، و هو خطأ. قال الزجاج: المعنى: وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها دوام النشوز. قال النحاس: الفرق بين النشوز و الإعراض: أن النشوز التباعد، و الإعراض أن لا يكلمها و لا يأنس بها، و ظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أىّ نشوز أو أىّ إعراض، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى سيأتى، و ظاهرها: أنه يجوز التصالح بأىّ نوع من أنواعه، إما بإسقاط النوبة أو بعضها، أو بعض النفقة، أو بعض المهر. قوله: أن يصّالحا هكذا قرأه الجمهور، و قرأ الكوفيون:

أَنْ يُصْلِحا و قراءة الجمهور أولى، لأن قاعدة العرب: أن الفعل إذا كان بين اثنين فصاعدا قيل: تصالح الرجلان أو القوم، لا أصلح. و قوله: صُلْحاً: منصوب على أنه اسم مصدر، أو على أنه مصدر محذوف الزوائد، أو منصوب بفعل محذوف، أى: فيصلح حالهما صلحا؛ و قيل: هو منصوب على المفعولية. و قوله:

بَيْنَهُما ظرف للفعل، أو فى محل نصب على الحال. قوله: وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ لفظ عام يقتضى: أن الصلح الذى تسكن إليه النفوس و يزول به الخلاف خير على الإطلاق، أو خير من الفرقة أو من الخصومة، و هذه جملة اعتراضية. قوله: وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ إخبار منه سبحانه: بأن الشح فى كل واحد منهما؛ بل فى كل الأنفس الإنسانية كائن، و أنه جعل كأنه حاضر لها؛ لا يغيب عنها بحال من الأحوال؛ و أن ذلك بحكم الجبلة و الطبيعة، فالرجل يشحّ بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة و حسن النفقة و نحوها، و المرأة تشحّ على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج، فلا تترك له شيئا منها. و شحّ الأنفس: بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله بوجه من

الوجوه، و منه: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* «۱». قوله: وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا أى: تحسنوا عشرة النساء و تتقوا ما لا يجوز من النشوز و الإعراض فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً فيجازيكم يا معشر الأزواج بما تستحقونه. قوله: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ أخبر سبحانه: بنفى استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذى لا ميل فيه ألبتة؛ لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه، و زيادة فى المحبة و نقصان هذه، و ذلك بحكم الخلقة، بحيث لا يملكون قلوبهم، و لا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية، و لهذا كان يقول الصادق المصدوق صلّى اللّه عليه و سلم: «اللهم

---

(۱). الحشر: ۹.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۰۲

هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك» و لما كانوا لا يستطيعون ذلك و لو حرصوا عليه و بالغوا فيه نهاهم عزّ و جلّ عن أن يميلوا كل الميل، لأن ترك ذلك و تجنب الجور كل الجور فى وسعهم، و داخل تحت طاقتهم، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهنّ إلى الأخرى كل الميل، حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التى ليست ذات زوج و لا مطلقة، تشبيها بالشىء الذى هو معلق غير مستقر على شىء، و فى قراءة أبيّ: «فتذروها كالمسجونة» قوله: وَ إِنْ تُصْلِحُوا أى: ما أفسدتم من الأمور التى تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء و العدل بينهنّ وَ تَتَّقُوا كل الميل الذى نهيتم عنه فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً لا يؤاخذكم بما فرط منكم.

قوله: وَ إِنْ يَتَفَرَّقا أى: لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا منهما، أى: يجعله مستغنيا عن الآخر، بأن يهيء للرجل امرأة توافقه و تقرّ بها عينه، و للمرأة رجلا تغتبط بصحبته، و يرزقهما مِنْ سَعَتِهِ رزقا يغنيهما به عن الحاجة وَ كانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً واسع الفضل، صادرة أفعاله على جهة الإحكام و الإتقان.

و قد أخرج الترمذى، و حسنه، و ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: يا رسول اللّه! لا تطلقنى، و اجعل يومى لعائشة، ففعل، و نزلت هذه الآية: وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً الآية، قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شىء فهو جائز. و أخرج أبو داود، و الحاكم، و صححه، و البيهقى عن عائشة: أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المذكورة. و أخرج البخارى و غيره عنها فى الآية قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأنى فى حلّ، فنزلت هذه الآية. و أخرج الشافعى، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و البيهقى عن سعيد بن المسيب: أن ابنة محمد بن سلمة كانت عند رافع بن خديج، فكره منها أمرا، إما كبرا أو غيره، فأراد طلاقها فقالت: لا تطلقنى و اقسم لى ما بدا لك، فاصطلحا، و جرت السنة بذلك، و نزل القرآن: وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً الآية. و أخرج أبو داود الطيالسى، و ابن أبى شيبة، و ابن راهويه، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى عن علىّ: أنه سئل عن هذه الآية فقال: هو رجل عنده امرأتان، فتكون إحداهما قد عجزت، أو تكون دميمة، فيريد فراقها، فتصالحه على أن يكون عندها ليلة، و عند الأخرى ليالى و لا يفارقها، فما طابت به نفسها فلا بأس به، فإن رجعت سوّى بينهما. و قد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا، و ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة قالت: «لمّا كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقسم لها بيوم سودة».

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ قال: هواه فى الشيء يحرص عليه، و فى قوله: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ قال:

فى الحبّ و الجماع، و فى قوله: فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ قال: لا هى أيمة و لا ذات زوج. و أخرج ابن أبى شيبة، و

أحمد، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن المنذر عن عائشة قالت: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: اللّهمّ هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما

تملك و لا أملك» و إسناده صحيح. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و أهل السنن عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة و أحد شقيه ساقط». قال الترمذى: إنما أسنده همام. و رواه هشام الدستوائى عن قتادة قال: كان يقال، و لا يعرف هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ قال: الجماع. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال: الحبّ.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۳۱ الى ۱۳۴]

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً (۱۳۱) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۱۳۲) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً (۱۳۳) مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۱۳۴)

قوله: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ هذه الجملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه؛ و شمول قدرته وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ أمرناهم فيما أنزلناه عليهم من الكتب، و اللام فى الكتاب: للجنس وَ إِيَّاكُمْ عطف على الموصول أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ أى: أمرناهم و أمرناكم بالتقوى، و هو فى موضع نصب بقوله: وَصَّيْنَا أو منصوب بنزع الخافض. قال الأخفش: أى: بأن اتقوا اللّه، و يجوز أن تكون أن: مفسرة، لأن التوصية فى معنى القول. قوله: وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ معطوف على قوله: أَنِ اتَّقُوا أى: وصيناهم و إياكم بالتقوى، و قلنا لهم و لكم:

إن تكفروا، و فائدة هذا التكرير: ليتنبه العباد على سعة ملكه، و ينظروا فى ذلك، و يعلموا أنه غنىّ عن خلقه إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أى: يفنكم وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ أى: بقوم آخرين غيركم، و هو كقوله تعالى:

وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ «۱». مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا هو من يطلب بعمله شيئا من أمور الدنيا، كالمجاهد يطلب الغنيمة دون الأجر فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فما باله يقتصر على أدنى الثوابين و أحقر الأجرين، و هلا طلب بعمله ما عند اللّه سبحانه، و هو ثواب الدنيا و الآخرة، فيحرزهما جميعا، و يفوز بهما، و ظاهر الآية العموم. و قال ابن جرير الطبرى: إنها خاصة بالمشركين و المنافقين وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً يسمع ما يقولونه، و يبصر ما يفعلونه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ كانَ اللَّهُ غَنِيًّا عن خلقه حَمِيداً قال: مستحمدا إليهم. و أخرجا أيضا عن على مثله. و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا قال: حفيظا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عنه فى قوله: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ قال: قادر و اللّه ربنا على ذلك أن يهلك من خلقه ما شاء، و يأتى بآخرين من بعدهم.

---

(۱). محمد: ۳۸.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۳۵) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (۱۳۶)

قوله: قَوَّامِينَ صيغة مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، و هو العدل في شهادتكم على أنفسكم، و هو الإقرار بما عليكم من الحقوق، و أما شهادته على والديه: فبأن يشهد عليهما بحق للغير، و كذلك الشهادة على الأقربين، و ذكر الأبوين لوجوب برّهما و كونهما أحبّ الخلق إليه، ثم ذكر الأقربين، لأنهم مظنة المودّة و التعصب، فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالأجنبي من الناس أحرى أن يشهدوا عليه. و قد قيل:

إن معنى الشهادة على النفس: أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه و هو بعيد. و قوله:

شُهَداءَ لِلَّهِ خبر بعد خبر لكان، أو حال، و لم ينصرف لأن فيه ألف التأنيث. و قال ابن عطية: الحال فيه ضعيفة في المعنى، لأنها تخصص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط. و قوله: لِلَّهِ أي: لمرضاته و ثوابه. و قوله: وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ متعلق بشهداء، هذا المعنى الظاهر من الآية؛ و قيل: معنى شُهَداءَ لِلَّهِ بالوحدانية، فيتعلق قوله: وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ بقوّامين، و الأوّل أولى. قوله: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً اسم كان مقدّر، أي: إن يكن المشهود عليه غنيا فلا يراعى لأجل غناه، استجلابا لنفعه، أو استدفاعا لضره، فيترك الشهادة عليه، أو فقيرا فلا يراعى لأجل فقره رحمة له، و إشفاقا عليه، فيترك الشهادة عليه، و إنما قال: فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما و لم يقل: به، مع أن التخيير إنما يدل على الحصول لواحد، لأن المعنى فاللّه أولى بكل واحد منهما. و قال الأخفش: تكون أو بمعنى الواو؛ و قيل: إنه يجوز ذلك مع تقدّم ذكرهما كما في قوله: وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ «۱». و قد تقدّم في مثل هذا ما هو أبسط مما هنا. و قرأ أبيّ: فاللّه أولى بهم. و قرأ ابن مسعود: إن يكن غنيّ أو فقير على أن: كان، تامة فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى نهاهم عن اتباع الهوى. و قوله: أَنْ تَعْدِلُوا في موضع نصب، و هو إما من العدل، كأنه قال: فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس؛ أو من العدول، كأنه قال:

فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق، أو كراهة أن تعدلوا عن الحق. قوله: وَ إِنْ تَلْوُوا من اللىّ، يقال: لويت فلانا حقه: إذا دفعته عنه. و المراد لىّ الشهادة ميلا إلى المشهود عليه. و قرأ ابن عامر و الكوفيون:

وَ إِنْ تَلْوُوا من الولاية، أي: و إن تلوا الشهادة و تتركوا ما يجب عليكم من تأديتها على وجه الحق. و قد قيل: إن هذه قراءة تفيد معنيين: الولاية، و الإعراض. و القراءة الأولى تفيد معنى واحدا و هو الإعراض.

و زعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط و لحن، لأنه لا معنى للولاية هاهنا، قال النحاس و غيره: و ليس يلزم هذا، و لكن يكون تلوا بمعنى تلووا، و ذلك أن أصله تلووا فاستثقلت الضمة على الواو بعدها واو أخرى فألقيت الحركة على اللام و حذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين. و ذكر الزجاج نحوه. قوله:

---

(۱). النساء: ۱۲.

أَوْ تُعْرِضُوا أي: عن تأدية الشهادة من الأصل فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً أي: لما تعملون من اللىّ و الإعراض أو من كل

عمل، و فى هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة كما تجب عليه، و قد روى أن هذه الآية تعمّ القاضى و الشهود، أما الشهود فظاهر، و أما القاضى فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين أو يلوى عن الكلام معه؛ و قيل: هى خاصة بالشهود. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى: اثبتوا على إيمانكم و دوموا عليه، و الخطاب هنا للمؤمنين جميعا وَ الْكِتابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ هو القرآن، و اللام للعهد وَ الْكِتابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ هو كل كتاب، و اللام للجنس. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو و ابن عامر: نزل و أنزل بالضم. و قرأ الباقون: بالفتح فيهما. و قيل: إن الآية نزلت فى المنافقين.

و المعنى: يا أيها الذين آمنوا فى الظاهر أخلصوا للّه. و قيل: نزلت فى المشركين، و المعنى: يا أيها الذين آمنوا باللات و العزى آمنوا باللّه، و هما ضعيفان. قوله: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أى: بشىء من ذلك فَقَدْ ضَلَّ عن القصد ضَلالًا بَعِيداً و ذكر الرسول فيما سبق لذكر الكتاب الذى أنزل عليه، و ذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة، فناسبه ذكر الرسل جملة، و تقديم الملائكة على الرسل: لأنهم الوسائط بين اللّه و بين رسله.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ الآية، قال: أمر اللّه المؤمنين أن يقولوا بالحق و لو على أنفسهم، أو آبائهم، أو أبنائهم، لا يحابون غنيا لغناه، و لا يرحمون مسكينا لمسكنته، و فى قوله: فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى فتذروا الحق فتجوروا وَ إِنْ تَلْوُوا يعنى: بألسنتكم بالشهادة أَوْ تُعْرِضُوا عنها. و أخرج أحمد، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية عنه فى معنى الآية قال: الرجلان يجلسان عند القاضى، فيكون ليّ القاضى و إعراضه لأحد الرجلين على الآخر. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال:

لما قدم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة؛ كانت البقرة أوّل سورة نزلت؛ ثم أردفها سورة النساء، قال: فكان الرجل تكون عنده الشهادة قبل ابن عمه، أو ذوى رحمه، فيلوى بها لسانه، أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر، فيقضى حين يوسر، فنزلت: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ الآية. و أخرج ابن جرير عنه أيضا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا يقول: تلوى لسانك بغير الحق، و هى اللجلجة، فلا تقيم الشهادة على وجهها. و الإعراض:

الترك. و أخرج الثعلبى عن ابن عباس: «أنّ عبد اللّه بن سلام و أسدا و أسيدا ابنى كعب و ثعلبة بن قيس و سلاما ابن أخت عبد اللّه بن سلام و سلمة ابن أخيه و يامين بن يامين أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: يا رسول اللّه! إنّا نؤمن بك و بكتابك و موسى و التوراة و عزير و نكفر بما سواه من الكتب و الرسل، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: بل آمنوا باللّه و رسوله محمد و كتابه القرآن، و بكلّ كتاب كان قبله. فقالوا: لا نفعل، فنزلت:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ الآية». و ينبغى النظر فى صحة هذا، فالثعلبى رحمه اللّه ليس من رجال الرواية، و لا يفرّق بين الصحيح و الموضوع. و أخرج ابن المنذر عن الضحاك فى هذه الآية قال: يعنى بذلك:

أهل الكتاب، كان اللّه قد أخذ ميثاقهم فى التوراة و الإنجيل، و أقرّوا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم،

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۰۶

فلما بعث اللّه رسوله دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد و القرآن، و ذكرهم الذى أخذ عليهم من الميثاق، فمنهم من صدّق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و اتبعه، و منهم من كفر.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۳۷ الى ۱۴۱]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (۱۳۷) بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۳۸) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (۱۳۹) وَ قَدْ

نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١۴٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١۴١)

أخبر اللّه سبحانه عن هذه الطائفة التى آمنت ثم كفرت، ثم آمنت ثم كفرت، ثم ازدادت كفرا بعد ذلك كله: أنه لم يكن اللّه سبحانه ليغفر لهم ذنوبهم، و لا ليهديهم سبيلا يتوصلون به إلى الحق، و يسلكونه إلى الخير، لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا للّه، و يؤمنوا إيمانا صحيحا، فإن هذا الاضطراب منهم- تارة يدّعون أنهم مؤمنون و تارة يمرقون من الإيمان و يرجعون إلى ما هو دأبهم و شأنهم من الكفر المستمرّ و الجحود الدائم- يدلّ أبلغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين، ليست لهم نية صحيحة، و لا قصد خالص. قيل: المراد بهؤلاء:

اليهود، فإنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى اللّه عليه و سلم؛ و قيل: آمنوا بموسى، ثم كفروا به بعبادتهم العجل، ثم آمنوا به عند عوده إليهم، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم، و المراد بالآية: أنهم ازدادوا كفرا، و استمروا على ذلك، كما هو الظاهر من حالهم، و إلا فالكافر إذا آمن و أخلص إيمانه و أقلع عن الكفر فقد هداه اللّه السبيل الموجب للمغفرة، و الإسلام يجبّ ما قبله، و لكن لما كان هذا مستبعدا منهم جدا؛ كان غفران ذنوبهم و هدايتهم إلى سبيل الحق مستبعدا.

قوله: بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً إطلاق البشارة على ما هو شرّ خالص لهم تهكم بهم، و قد مرّ تحقيقه. و قوله: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ وصف للمنافقين، أو منصوب على الذم، أى:

يجعلون الكفار أولياء لهم، يوالونهم على كفرهم، و يمالئونهم على ضلالهم. و قوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فى محل نصب على الحال، أى: يوالون الكافرين متجاوزين ولاية المؤمنين أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ هذا الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الجملة معترضة. قوله: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هذه الجملة تعليل لما تقدّم من توبيخهم بابتغاء العزّة عند الكافرين، و جميع أنواع العزّة و أفرادها مختص باللّه سبحانه، و ما كان منها مع غيره فهو من فيضه و تفضله كما فى قوله: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ «١» و العزة: الغلبة، يقال: عزّه يعزّه عزّا: إذا غلبه وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن و منافق،

---

(١). المنافقون: ٨.

لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزله اللّه؛ و قيل: إنه خطاب للمنافقين فقط، كما يفيده التشديد و التوبيخ. و قرأ عاصم و يعقوب: نَزَّلَ بفتح النون و الزاى و تشديدها، و فاعله ضمير راجع إلى اسم اللّه تعالى فى قوله: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً. و قرأ حميد: بتخفيف الزاى مفتوحة مع فتح النون، و قرأ الباقون: بضم النون مع كسر الزاى مشدّدة على البناء للمجهول. و قوله: أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ فى محل نصب على القراءة الأولى على أنه مفعول نزل، و فى محل رفع على القراءة الثانية على أنه فاعل، و فى محل رفع على أنه مفعول ما لم يسمّ فاعله على القراءة الثالثة. و أن هى المخففة من الثقيلة، و التقدير أنه إذا سمعتم آيات اللّه. فِي الْكِتابِ هو القرآن. و قوله: يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها حالان، أى: إذا سمعتم الكفر و الاستهزاء بآيات اللّه، فأوقع السماع على الآيات. و المراد: سماع الكفر و الاستهزاء. و قوله: فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ أى: أنزل عليكم فى الكتاب أنكم عند هذا السماع و الاستهزاء بآيات اللّه لا تعقدوا معهم ما داموا كذلك، حتى يخوضوا فى حديث غير حديث الكفر و

الاستهزاء بها. و الذى أنزله اللّه عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ «١» و قد كان جماعة من الداخلين فى الإسلام يقعدون مع المشركين و اليهود حال سخريتهم بالقرآن و استهزائهم به، فنهوا عن ذلك.

و فى هذه الآية- باعتبار عموم لفظها الذى هو المعتبر دون خصوص السبب- دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص و الاستهزاء للأدلة الشرعية، كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب و السنة، و لم يبق فى أيديهم سوى: قال إمام مذهبنا كذا، و قال فلان من أتباعه: بكذا، و إذا سمعوا من يستدلّ على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوى سخروا منه، و لم يرفعوا إلى ما قاله رأسا، و لا بالوا به بالة، و ظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع، و خطب شنيع، و خالف مذهب إمامهم الذى نزلوه منزلة معلم الشرائع، بل بالغوا فى ذلك حتى جعلوا رأيه الفائل «٢»، و اجتهاده الذى هو عن منهج الحق مائل، مقدّما على اللّه و على كتابه و على رسوله، فإنا للّه و إنا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، و الأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم، فإنهم قد صرّحوا فى مؤلفاتهم بالنهى عن تقليدهم كما أوضحنا ذلك فى رسالتنا المسماة ب [القول المفيد فى حكم التقليد] و فى مؤلفنا المسمى ب [أدب الطلب و منتهى الأرب اللهم انفعنا بما علمتنا، و اجعلنا من المقتدين بالكتاب و السنة، و باعد بيننا و بين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار، يا مجيب السائلين! قوله: إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ تعليل للنهى، أى: إنكم إن فعلتم ذلك و لم تنتهوا فأنتم مثلهم فى الكفر.

قيل: و هذه المماثلة ليست فى جميع الصفات، و لكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما فى قول القائل:

....

و كلّ قرين بالمقارن يقتدى «٣»

(١). الأنعام: ٦٨.

(٢). الفائل: رجل فائل الرأى؛ أى: ضعيفه.

(٣). و صدر البيت: عن المرء لا تسأل و سل عن قرينه.

فتح القدير، ج١، ص: ٦٠٨

و هذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم، إلا ما يروى عن الكلبى، فإنه قال: هى منسوخة بقوله تعالى:

وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ «١» و هو مردود، فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات اللّه و يستهزئون بها. قوله: إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً هذا تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر، قيل: و هم القاعدون و المقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجها إلى المنافقين.

قوله: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ أى: ينتظرون بكم ما يتجدد و يحدث لكم من خير أو شرّ، و الموصول:

فى محل نصب على أنه صفة للمنافقين، أو بدل منهم فقط دون الكافرين لأن التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الذم، فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ هذه الجملة و الجملة التى بعدها حكاية لتربصهم، أى: إن حصل لكم فتح من اللّه بالنصر على من يخالفكم من الكفار قالُوا لكم: أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ فى الاتصاف بظاهر الإسلام، و التزام أحكامه، و المظاهرة و التسويد و تكثير العدد؟ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ من الغلب لكم و الظفر بكم قالُوا للكافرين:

أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ أى: أ لم نقهركم و نغلبكم و نتمكن منكم و لكن أبقينا عليكم؟ و قيل المعنى: إنهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين: أ لم نستحوذ عليكم حتى هابكم المسلمون و خذلناهم عنكم؟ و الأوّل أولى، فإن معنى الاستحواذ: الغلب،

يقال: استحوذ على كذا، أى: غلب عليه، و منه قوله تعالى: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ «٢» و لا يصح أن يقال: ألم نغلبكم حتى هابكم المسلمون؟ و لكن المعنى: أ لم نغلبكم يا معشر الكافرين، و نتمكن منكم، فتركناكم و أبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين؟ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بتخذيلهم و تثبيطهم عنكم، حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم، و عجزوا عن الانتصاف منكم؛ و المراد: أنهم يميلون مع من له الغلب و الظفر من الطائفتين، و يظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة، و هذا شأن المنافقين أبعدهم اللّه، و شأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام من التظهر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى، و الميل إلى من معه الحظ فى الدنيا فى مال أو جاه، فيلقاه بالتملق و التودد و الخضوع و الذلة، و يلقى من لا حظ له من الدنيا بالشدّة و الغلظة و سوء الخلق، و يزدرى به و يكافحه بكل مكروه، فقبح اللّه أخلاق أهل النفاق و أبعدها. قوله: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق و البغض للحق و أهله، ففى هذا اليوم تنكشف الحقائق، و تظهر الضمائر، و إن حقنوا فى الدنيا دماءهم، و حفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقا وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا، هذا فى يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل النصر و الغلب، أو فى الدنيا إن كان المراد به الحجة. قال ابن عطية: قال جميع أهل التأويل: إن المراد بذلك: يوم القيامة. قال ابن العربى: و هذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه، و سببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوّله، يعنى قوله: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ و ذلك يسقط فائدته، إذ يكون تكرارا، هذا معنى كلامه، و قيل: المعنى: إن اللّه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين يمحو به دولتهم، و يذهب آثارهم، و يستبيح ببضتهم، كما يفيده الحديث الثابت فى الصحيح: «و أن لا أسلّط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم و لو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتّى يكون بعضهم يهلك بعضا و يسبى

---

(١). الأنعام: ٦٩.

(٢). المجادلة: ١٩.

بعضهم بعضا» و قيل: إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل و لا تاركين للنهى عن المنكر كما قال تعالى: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ «١» قال ابن العربى: و هذا نفيس جدا؛ و قيل: إن اللّه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا، فإن وجد فبخلاف الشرع. هذا خلاصة ما قاله أهل العلم فى هذه الآية، و هى صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا الآية، قال: هم اليهود و النصارى، آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، و آمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عنه فى الآية قال: هؤلاء اليهود آمنوا بالتوراة ثم كفروا، ثم ذكر النصارى فقال: ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا يقول: آمنوا بالإنجيل ثم كفروا، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم.

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآية قال: هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين، ثم كفروا مرتين، ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً قال: تموا على كفرهم حتى ماتوا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن أبى وائل قال: إن الرجل ليتكلم فى المجلس بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط اللّه عليهم جميعا، فذكروا ذلك لإبراهيم النخعى، فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك فى كتاب اللّه؟ فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: أنزل فى سورة الأنعام: حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ «٢» ثم نزل التشديد فى سورة النساء: إِنَّكُمْ إِذاً

مِثْلُهُمْ و أخرج ابن المنـذر عن سعيد بن جبير: أن اللّه جامع المنافقين من أهل المدينـة و الكافرين من أهل مكة الذين خاضوا و استهزءوا بالقرآن فى جهنم جميعا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد:

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ قال: هم المنافقون يتربصون بالمؤمنين فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ إن أصاب المسلمين من عدوّهم غنيمة قال المنـافقون: أَ لَمْ نَكُنْ قـد كنا مَعَكُمْ فأعطونا من الغنيمـة مثل ما تأخـذون وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ يصـيبونه من المسـلمين قال المنافقون للكفار: أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ أ لم نبين لكم أنا على ما أنتم عليه، قد كنا نثبطهم عنكم. و أخرج ابن جرير عن السدّى: أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ قال: نغلب عليكم. و أخرج عبـد الرزاق، و الفريابى، و عبـد بن حميـد، و ابن جرير، ابن المنذر، و البيهقى فى الشعب، و الحاكم، و صـححه عن علىّ أنه قيل له: أ رأيت هذه الآية وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا و هم يقاتلوننا فيظهرون و يقتلون، فقال: ادنه ادنه، ثم قال: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال:

فى الآخرة. و أخرج ابـن جرير، و ابن المنـذر عن ابن عباس نحـوه. و أخرج عبـد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن المنـذر عن أبى مالك نحوه أيضا- و أخرج ابن جرير عن السدّىّ سَبِيلًا قال: حجة.

---

(١). الشورى: ٣٠.

(٢). الأنعام: ٦٨.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٦١٠

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٢ الى ١٤٧]

إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً (١٤٤) إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦)

ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كانَ اللَّهُ شاكِراً عَلِيماً (١٤٧)

قوله: إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ هـذا كلام مبتـدأ يتضـمن بيان بعض قبائـح المنافقين و فضائحهم، و قـد تقـدّم معنى الخـدع فى البقرة، و مخادعتهم للّه هى: أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان و إبطال الكفر، و معنى كون اللّه خادعهم: أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه، و ذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظهر بالإسلام فى الدنيا، فعصم به أموالهم و دماءهم، و أخر عقوبتهم إلى الـدار الآخرة، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسـفل من النار. قال فى الكشاف: و الخادع اسم فاعل من: خادعته فخـدعته، إذا غلبتـه و كنـت أخـدع منـه. و الكسـالى بضـم الكـاف: جمـع كسـلان، و قرئ بفتحهـا، و المراد: أنهم يصـلون و هم متكاسـلون متثاقلون، لا يرجون ثوابا، و لا يخافون عقابا. و الرياء: إظهار الجميل ليراه الناس، لا لاتباع أمر اللّه، و قـد تقدّم بيانه، و المراءاة المفاعلـة. قوله: وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا معطوف على يراءون، أى: لا يذكرونه سبحانه إلا ذكرا قليلا، أو لا يصـلون إلا صلاة قليلـة، و وصف الـذكر بالقلة لعدم الإخلاص، أو لكونه غير مقبول، أو لكونه قليلا فى نفسه، لأن الذى يفعل الطاعة لقصـد الريـاء، إنمـا يفعلها فى المجامع و لا يفعلها خاليا كالمخلص. قوله: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ المذبـذب: المتردد بين أمرين، و الذبـذبة

الاضطراب، يقال: ذبذبه فتذبذب، و منه قول النابغة:

ألم تر أنّ اللّه أعطاك سورةترى كلّ ملك دونها يتذبذب

قال ابن جنى: المذبذب القلق الذى لا يثبت على حال، فهؤلاء المنافقون متردّدون بين المؤمنين و المشركين، لا مخلصين الإيمان و لا مصرّحين بالكفر. قال فى الكشاف: و حقيقة المذبذب: الذى يذبّ عن كلا الجانبين، أى: يذاد و يدفع فلا يقرّ فى جانب واحد، كما يقال: فلان يرمى به الرحوان، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذبّ؛ كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذبّ عنه. انتهى. و قرأ الجمهور: بضم الميم و فتح الذالين.

و قرأ ابن عباس: بكسر الذال الثانية، و فى حرف أبى: «متذبذبين»، و قرأ الحسن: بفتح الميم و الذالين، و انتصاب مذبذبين: إما على الحال، أو على الذمّ، و الإشارة بقوله: بين ذلك: إلى الإيمان و الكفر. قوله:

لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ أى: لا منسوبين إلى المؤمنين و لا إلى الكافرين، و محل الجملة: النصب على الحال، أو على البدل من مذبذبين، أو على التفسير له وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ أى: يخذله، و يسلبه التوفيق فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا أى: طريقا يوصله إلى الحق. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أى: لا تجعلوهم خاصة لكم، و بطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين، كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً الاستفهام للتقريع و التوبيخ: أى: أ تريدون أن تجعلوا للّه عليكم حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاة

فتح القدير، ج ١، ص: ٦١١

الكافرين؟ إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ قرأ الكوفيون: الدرك بسكون الراء، و قرأ غيرهم:

بتحريكها. قال أبو على: هما لغتان، و الجمع: أدراك؛ و قيل: جمع المحرك: أدراك، مثل: جمل و أجمال، و جمع الساكن: أدرك، مثل: فلس و أفلس. قال النحاس: و التحريك أفصح. و الدرك: الطبقة. و النار دركات سبع، فالمنافق فى الدرك الأسفل منها، و هى الهاوية، لغلظ كفره و كثرة غوائله، و أعلى الدركات:

جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. و قد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا، أعاذنا اللّه من عذابها وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً يخلصهم من ذلك الدرك، و الخطاب لكل من يصلح له، أو للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم إِلَّا الَّذِينَ تابُوا استثناء من المنافقين، أى: إلا الذين تابوا عن النفاق وَ أَصْلَحُوا ما أفسدوا من أحوالهم وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ أى: جعلوه خالصا له غير مشوب بطاعة غيره. و الاعتصام باللّه: التمسك به و الوثوق بوعده، و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى الذين تابوا و اتصفوا بالصفات السابقة.

قوله: مَعَ الْمُؤْمِنِينَ قال الفراء: أى من المؤمنين يعنى الذين لم يصدر منهم نفاق أصلا. قال القتبى:

حاد عن كلامهم غضبا عليهم فقال: فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ و لم يقل: هم المؤمنون. انتهى. و الظاهر أن معنى: مع، معتبر هنا، أى: فأولئك مصاحبون للمؤمنين فى أحكام الدنيا و الآخرة. ثم بين ما أعدّ اللّه للمؤمنين الذين هؤلاء معهم فقال: وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً و حذفت الياء من يؤت فى الخط كما حذفت فى اللفظ: لسكونها و سكون اللام بعدها، و مثله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ «١» و سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ «٢» و يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ «٣» و نحوها، فإن الحذف فى الجميع لالتقاء الساكنين. قوله: ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ هذه الجملة متضمنة لبيان: أنه لا غرض له سبحانه فى التعذيب إلا مجرّد المجازاة للعصاة. و المعنى: أىّ منفعة له فى عذابكم إن شكرتم و آمنتم؟ فإن ذلك لا يزيد فى ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه وَ كانَ اللَّهُ شاكِراً عَلِيماً أى: يشكر عباده على طاعته، فيثيبهم عليها، و يتقبلها منهم. و الشكر فى اللغة: الظهور، يقال دابة شكور: إذا ظهر من سمنها فوق ما تعطى من العلف.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن الحسن فى قوله: إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ الآية، قال:

يلقى على مؤمن و منافق نور يمشون به يوم القيامة، حتى إذا انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين، و مضى المؤمنون بنورهم، فتلك خديعة اللّه إياهم. و أخرج ابن جرير عن السدّى نحوه. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد و سعيد بن جبير نحوه أيضا، و لا أدرى من أين جاء لهم هذا التفسير، فإن مثله لا ينقل إلا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم.

و أخرج ابن جرير عن ابن جريج فى الآية قال: نزلت فى عبد اللّه بن أبىّ و أبى عامر بن النعمان. و قد ورد فى الأحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق، و أنه يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر اللّه فيها إلا قليلا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ قال: هم المنافقون لا إِلى هؤُلاءِ يقول: لا إلى أصحاب محمد وَ لا إِلى هؤُلاءِ اليهود، و ثبت فى الصحيح عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ مثل المنافق مثل الشاة العائرة [۴] بين الغنمين تعير إلى هذه مرة و إلى هذه مرّة، فلا تدرى

---

(۱). القمر: ۶.

(۲). العلق: ۱۸.

(۳). ق: ۴۱.

(۴). العائرة: المترددة بين قطيعين.

أيّهما تتبع؟». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً قال: إن للّه السلطان على خلقه و لكنه يقول: عذرا مبينا. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «كل سلطان فى القرآن فهو حجة» و اللّه سبحانه أعلم. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ قال: فى توابيت من حديد مقفلة عليهم، و فى لفظ: مبهمة عليهم، أى: مغلقة لا يهتدى لمكان فتحها. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه. و أخرج ابن أبى الدنيا عن ابن مسعود نحوه أيضا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ الآية، قال: إن اللّه لا يعذّب شاكرا و لا مؤمنا.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۸ الى ۱۴۹]

لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً (۱۴۹)

نفى الحبّ كناية عن البغض، و قراءة الجمهور: إِلَّا مَنْ ظُلِمَ على البناء للمجهول. و قرأ زيد بن أسلم، و ابن أبى إسحاق، و الضحاك، و ابن عباس، و ابن جبير، و عطاء بن السائب: إِلَّا مَنْ ظَلِمَ على البناء للمعلوم، و هو على القراءة الأولى: استثناء متصل، بتقدير مضاف محذوف، أى: إلا جهر من ظلم؛ و قيل: إنه على القراءة الأولى أيضا منقطع، أى: لكن من ظلم فله أن يقول ظلمنى فلان.

و اختلف أهل العلم: فى كيفية الجهر بالسوء الذى يجوز لمن ظلم، فقيل: هو أن يدعو على من ظلمه؛ و قيل: لا بأس أن يجهر

بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول: فلان ظلمنى، أو هو ظالم، أو نحو ذلك؛ و قيل: معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر أو نحوه، فهو مباح له، و الآية على هذا فى الإكراه، و كذا قال قطرب، قال: و يجوز أن يكون على البدل، كأنه قال لا يحبّ اللّه إلا من ظلم: أى لا يحبّ الظالم بل يحبّ المظلوم. و الظاهر من الآية: أنه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذى هو من السوء فى جانب من ظلمه، و يؤيده الحديث الثابت فى الصحيح بلفظ: «لىّ الواجد ظلم يحلّ عرضه و عقوبته»، و أما على القراءة الثانية: فالاستثناء منقطع، أى: إلا من ظلم فى فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول فى معنى النهى عن فعله، و التوبيخ له. و قال قوم: معنى الكلام: لا يحبّ اللّه أن يجهر أحد بالسوء من القول، لكن من ظلم فإنه يجهر بالسوء ظلما و عدوانا و هو ظالم فى ذلك، و هذا شأن كثير من الظلمة، فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه و ينالون من عرضه. و قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى إلا من ظلم فقال سوءا، فإنه ينبغى أن يأخذوا على يديه، و يكون استثناء ليس من الأوّل. وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً هذا تحذير للظالم بأن اللّه يسمع ما يصدر منه و يعلم به، ثم بعد أن أباح للمظلوم أن يجهر بالسوء ندب إلى ما هو الأولى و الأفضل فقال: إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ تصابون به فَإِنَّ اللَّهَ كانَ

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۱۳

عَفُوًّا عن عباده قَدِيراً على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم، فاقتدوا به سبحانه، فإنه يعفو مع القدرة.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ قال: لا يحبّ اللّه أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوما، فإنه رخص له أن يدعو على من ظلمه، و إن يصبر فهو خير له. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال: نزلت فى رجل ضاف رجلا بفلاة من الأرض فلم يضفه، ثم ذكر أنه لم يضفه، لم يزد على ذلك.

و أخرج ابن المنذر عن إسماعيل: لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ قال: كان الضحاك ابن مزاحم يقول: هذا على التقديم و التأخير، يقول اللّه: ما يفعل اللّه بعذابكم إن شكرتم و آمنتم إلا من ظلم، و كان يقرؤها كذلك، ثم قال: لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ أى: على كل حال، هكذا قال، و هو قريب من التحريف لمعنى الآية. و قد أخرج ابن أبى شيبة، و الترمذى عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر». و روى نحوه أبو داود عنها من وجه آخر. و قد أخرج أبو داود من حديث أبى هريرة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «المستبان ما قالا، فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم».

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۰ الى ۱۵۲]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (۱۵۰) أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (۱۵۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۵۲)

لما فرغ من ذكر المشركين و المنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب، و هم اليهود و النصارى، لأنهم كفروا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل و الكتب المنزلة، و الكفر بذلك كفر باللّه، و ينبغى حمل قوله:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب و الرسل، لا أنهم كفروا باللّه و رسله جميعا، فإن أهل الكتاب لم يكفروا باللّه و لا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا بالبعض كان ذلك كفر باللّه و بجميع الرسل. و معنى: وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ أنهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم و آمنوا باللّه، فكان ذلك تفريقا بين اللّه و بين رسله وَ يَقُولُونَ

نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ هم اليهود آمنوا بموسى و كفروا بعيسى و محمد، و كذلك النصارى آمنوا بعيسى و كفروا بمحمد وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا أى: يتخذوا بين الإيمان و الكفر دينا متوسطا بينهما، فالإشارة بقوله: ذلِكَ إلى قوله نؤمن و نكفر أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ أى: الكاملون فى الكفر. و قوله: حَقًّا مصدر مؤكد لمضمون الجملة، أى: حق ذلك حقا، أو هو صفة الكافرين، أى: كفرا حقا. قوله: وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بأن يقولوا نؤمن ببعض و نكفر ببعض، و دخول بين على أحد لكونه عاما فى المفرد مذكرا و مؤنثا و مثناهما و جمعهما. و قد تقدّم تحقيقه. و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الذين آمنوا باللّه و رسله و لم يفرّقوا بين أحد منهم.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۱۴

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة فى الآية، قال: أُولئِكَ أعداء اللّه اليهود و النصارى، آمنت اليهود بالتوراة و موسى و كفروا بالإنجيل و عيسى، و آمنت النصارى بالإنجيل و عيسى و كفروا بالقرآن و محمد، اتخذوا اليهودية و النصرانية و هما بدعتان ليستا من اللّه و تركوا الإسلام، و هو دين اللّه الذى بعث به رسله. و أخرج ابن جرير عن السدّى و ابن جريج نحوه.

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۹]

قوله: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ هم اليهود، سألوه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يرقى إلى السماء و هم يرونه، فينزل عليهم كتابا مكتوبا فيما يدّعيه، يدل على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى التوراة، تعنتا منهم، أبعدهم اللّه، فأخبره اللّه عزّ و جلّ بأنهم قد سألوا موسى سؤالا أكبر من هذا السؤال، فقالوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً أى:

عيانا، و قد تقدّم معناه فى البقرة، و جهرة: نعت لمصدر محذوف، أى: رؤية جهرة. و قوله: فَقَدْ سَأَلُوا جواب شرط مقدر، أى: إن استكبرت هذا السؤال منهم لك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك.

قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ هى: النار التى نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم، و الباء فى قوله:

بِظُلْمِهِمْ للسببية، أى: بسبب ظلمهم فى سؤالهم الباطل، لامتناع الرؤية عيانا فى هذه الحالة، و ذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة، فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة. و من استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطا بينا؛ ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذى نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات، بل ضموا إليه ما هو أقبح منه، و هو عبادة العجل. و فى الكلام حذف و التقدير: فأحييناهم فاتخذوا العجل. و البينات: البراهين و الدلائل، و المعجزات من اليد و العصا و فلق البحر و غيرها فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ أى: عما كان منهم من التعنت و عبادة العجل وَ آتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً أى: حجة بينة، و هى: الآيات التى جاء بها، و سميت: سلطانا، لأن من جاء بها قهر خصمه، و من ذلك أمر اللّه سبحانه له بأن يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم، فإنه من جملة السلطان الذى قهرهم به وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ أى: بسبب ميثاقهم ليعطوه، لأنه روى أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى فرفع اللّه عليهم الطور فقبلوها؛

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۱۵

و قيل: إن المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذى أخذ منهم، و هو العمل بما فى التوراة، و قد تقدّم رفع الجبل فى البقرة، و كذلك تفسير دخولهم الباب سجدا وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ فتأخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان، و قد تقدّم تفسير ذلك، و قرئ: لا تعتدوا، و تعدّوا، بفتح العين و تشديد الدال وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً مؤكدا، و هو العهد الذى أخذه عليهم فى التوراة؛ و قيل: إنه عهد مؤكد باليمين، فسمى غليظا لذلك. قوله: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ ما: مزيدة للتوكيد، أو نكرة، و نقضهم: بدل منها، و الباء: متعلقة بمحذوف، و التقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم. و قال الكسائى: هو متعلق بما قبله، و المعنى:

فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إلى قوله: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ قال: ففسر ظلمهم الذى أخذتهم الصاعقة بسببه بما بعده من نقضهم ميثاقهم و قتلهم الأنبياء و ما بعده. و أنكر ذلك ابن جرير الطبرى و غيره، لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، و الذين قتلوا الأنبياء و رموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برمتهم بالبهتان. قال المهدوى و غيره: و هذا لا يلزم لأنه يجوز أن يخبر عنهم، و المراد آباؤهم، و قال الزجاج: المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، لأن هذه القصة ممتدة إلى قوله: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا و نقضهم الميثاق: أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبى صلّى اللّه عليه و سلم؛ و قيل المعنى: فبنقضهم ميثاقهم و فعلهم كذا طبع اللّه على قلوبهم؛ و قيل المعنى: فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلا و الفاء فى قوله: فَلا يُؤْمِنُونَ مقحمة. قوله: وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ معطوف على ما قبله، و كذا قوله: وَ قَتْلِهِمُ و المراد بآيات اللّه: كتبهم التى حرّفوها، و المراد بالأنبياء الذين قتلوهم: يحيى و زكرياء. و غلف: جمع أغلف، و هو المغطى بالغلاف، أى: قلوبنا فى أغطية فلا نفقه ما تقول.

و قيل: إن غلف: جمع غلاف، و المعنى: أن قلوبهم أوعية للعلم، فلا حاجة لهم إلى علم غير ما قد حوته قلوبهم، و هو كقولهم: قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ «١» و غرضهم بهذا ردّ حجة الرسل. قوله: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ هذه الجملة اعتراضية؛ أى: ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفا بحسب مقصدهم الذى يريدونه، بل بحسب الطبع من اللّه عليها. و الطبع: الختم، و قد تقدم إيضاح معناه فى البقرة، و قوله: فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا أى: هى مطبوع عليها من اللّه بسبب كفرهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، أو إلا قليلا منهم: كعبد اللّه بن سلام و من أسلم معه منهم، و قوله: وَ بِكُفْرِهِمْ معطوف على قولهم، و إعادة الجار:

لوقوع الفصل بين المعطوف و المعطوف عليه، و هذا التكرير لإفادة أنهم كفروا كفرا بعد كفر؛ و قيل: إن المراد بهذا الكفر: كفرهم بالمسيح، فحذف لدلالة ما بعده عليه. قوله: وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً هو رميها بيوسف النجار، و كان من الصالحين. و البهتان: الكذب المفرط الذى يتعجب منه. قوله:

وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ معطوف على ما قبله، و هو من جملة جناياتهم و ذنوبهم، لأنهم كذبوا بأنهم قتلوه، و افتخروا بقتله، و ذكروه بالرسالة استهزاء، لأنهم ينكرونها و لا يعترفون بأنه نبىّ، و ما ادّعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته و إيضاح حقيقته الإنجيل، و ما فيه هو من تحريف النصارى، أبعدهم اللّه، فقد كذبوا، و صدق اللّه القائل فى كتابه العزيز: وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ و الجملة

---

(١). فصلت: ۵.

حالية: أى: قالوا ذلك و الحال أنهم ما قتلوه و ما صلبوه وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ أى: ألقى شبهه على غيره؛ و قيل: لم يكونوا يعرفون شخصه و قتلوا الذى قتلوه و هم شاكون فيه وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أى:

فى شأن عيسى، فقال بعضهم: قتلناه، و قال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه؛ و قيل: إن الاختلاف بينهم هو: أن النسطورية من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، و قالت الملكانية: وقع القتل و الصلب على المسيح بكماله ناسوته و لا هوته، و لهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له، و لهذا قال اللّه: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أى: فى تردّد لا يخرج إلى حيز الصحة، و لا إلى حيز البطلان فى اعتقادهم، بل هم مترددون مرتابون فى شكهم يعمهون، و فى جهلهم يتحيرون، و ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِ من: زائدة لتوكيد نفى العلم، و الاستثناء منقطع، أى: لكنهم يتبعون الظن؛ و قيل: هو بدل مما قبله. و الأوّل أولى. لا يقال: إن اتباع الظنّ ينافى الشكّ الذى أخبر اللّه عنهم بأنهم فيه، لأن المراد هنا بالشك:

التردد، كما قدمنا، و الظنّ نوع منه، و ليس المراد به هنا: ترجح أحد الجانبين. قوله: وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً أى: قتلا يقينا، على أنه صفة مصدر محذوف، أو متيقنين، على أنه حال، و هذا على أن الضمير فى قتلوه لعيسى؛ و قيل: إنه يعود إلى الظن، و المعنى: ما قتلوا ظنهم يقينا، كقولك: قتلته علما، إذا علمته علما تاما. قال أبو عبيدة: و لو كان المعنى: و ما قتلوا عيسى يقينا، لقال: و ما قتلوه فقط؛ و قيل: المعنى: و ما قتلوا الذى شبه لهم؛ و قيل: المعنى: بل رفعه إليه يقينا، و هو خطأ، لأنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها. و أجاز ابن الأنبارى: نصب يقينا بفعل مضمر هو جواب قسم، و يكون بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ كلاما مستأنفا، و لا وجه لهذه الأقوال، و الضمائر قبل قتلوه و بعده لعيسى، و ذكر اليقين هنا: لقصد التهكم بهم، لإشعاره بعلمهم فى الجملة. قوله: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ردّ عليهم و إثبات لما هو الصحيح، و قد تقدم ذكر رفعه عليه السلام فى آل عمران. قوله: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ المراد بأهل الكتاب: اليهود و النصارى، و المعنى: و ما من أهل الكتاب أحد إلا و اللّه ليؤمننّ به قبل موته، و الضمير فى به: راجع إلى عيسى، و الضمير فى موته: راجع إلى ما دلّ عليه الكلام، و هو لفظ أحد المقدّر، أو الكتابى المدلول عليه بأهل الكتاب، و فيه دليل: على أنه لا يموت يهودىّ أو نصرانىّ إلا و قد آمن بالمسيح؛ و قيل: كلا الضميرين لعيسى، و المعنى: أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابىّ فى عصره؛ و قيل: الضمير الأوّل للّه؛ و قيل: إلى محمد، و قد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير، و قال به جماعة من السلف، و هو الظاهر، و المراد: الإيمان به عند نزوله فى آخر الزمان، كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عيسى على أهل الكتاب شَهِيداً يشهد على اليهود بالتكذيب له، و على النصارى بالغلوّ فيه حتى قالوا هو ابن اللّه.

و قد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا:
إن موسى جاء بالألواح من عند اللّه، فأتنا بالألواح من عند اللّه حتى نصدقك، فأنزل اللّه: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ إلى وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً. و أخرج ابن جرير،

فتح القدير، ج‏١، ص: ٦١٧

و ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: إن اليهود و النصارى قالوا لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم: لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند اللّه إلى فلان أنك رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم و إلى فلان أنك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً قال:
إنهم إذا رأوه فقد رأوه، و إنما قالوا: جهرة أرنا اللّه قال: هو مقدم و مؤخر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ قال: جبل كانوا فى أصله فرفعه اللّه، فجعله فوقهم كأنه ظلة، فقال: لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به، فقالوا: نأخذه، فأمسكه اللّه عنهم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً قال: رموها بالزنا. و أخرج سعيد بن منصور و النسائى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد اللّه أن يرفع عيسى إلى السماء؛ خرج إلى أصحابه؛ و فى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين، فخرج عليهم من عين فى البيت و رأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى؛ فيقتل مكانى؛ و يكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب؛ فقال:
أجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب؛ فقال: أنا، فقال: أنت ذاك، فألقى عليه شبه عيسى، و رفع عيسى من روزنة «١» فى البيت إلى السماء؛ قال: و جاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه، فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به و افترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان اللّه فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية؛ و قالت فرقة: كان فينا ابن اللّه ما شاء ثم رفعه اللّه إليه، و هؤلاء النسطورية.

و قالت فرقة: كان فينا عبد اللّه و رسوله، و هؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث اللّه محمدا، فأنزل اللّه عليه: فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ يعنى:
الطائفة التى آمنت فى زمن عيسى وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ يعنى: التى كفرت فى زمن عيسى فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا «٢» فى زمن عيسى بإظهار محمد دينهم على دين الكافرين. قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عن ابن أبى حاتم قال: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فذكره، و هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، و صدق ابن كثير، فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح. و أخرجه النسائى من حديث أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه. و قد رويت قصته عليه السلام من طرق بألفاظ مختلفة، و ساقها عبد بن حميد، و ابن جرير عن وهب بن منبه على صفة قريبة مما فى الإنجيل، و كذلك ساقها ابن المنذر عنه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً قال: لم يقتلوا ظنهم يقينا. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن جويبر و السدّى مثله أيضا. و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و الحاكم، و صححه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ قال: خروج عيسى ابن مريم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من طرق عنه فى الآية قال: قبل موت عيسى. و أخرجا عنه أيضا قال: قبل موت اليهودى. و أخرج ابن جرير عنه قال: إنه سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث سيؤمنون به. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن

---

(١). روزنة: كوّة، أو خرق فى السقف.

(٢). الصف: ١٤.

فتح القدير، ج ١، ص: ٦١٨

جرير، و ابن المنذر عنه قال: «ليس يهودىّ يموت أبدا حتى يؤمن بعيسى؛ قيل لابن عباس: أ رأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال يتكلم به فى الهواء؛ فقيل أ رأيت إن ضرب عنق أحدهم؟ قال: يتلجلج بها لسانه».
و قد روى نحو هذا عنه من طرق، و قال به جماعة من التابعين، و ذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد: قبل موت عيسى كما روى عن ابن عباس قبل هذا، و قيده كثير منهم: بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض. و قد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك فى مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد فى المنتظر و الدجال و المسيح.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦٠ الى ١٦٥]

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦١) لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢) إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (١٦٣) وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً (١٦٤)
رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥)
الباء فى قوله: فَبِظُلْمٍ للسببية، و التنكير و التنوين للتعظيم، أى: فبسبب ظلم عظيم حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم، لا بسبب شى آخر، كما زعموا أنها كانت محرّمة على من قبلهم. و قال الزجاج: هذا بدل من قوله: فَبِما نَقْضِهِمْ و الطيبات المذكورة: هى ما

نصه اللّه سبحانه: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ «١» الآية وَ بِصَدِّهِمْ أنفسهم و غيرهم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و هو اتباع محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و تحريفهم، و قتلهم الأنبياء، و ما صدر منهم من الذنوب المعروفة. و قوله: كَثِيراً مفعول للفعل المذكور، أى: بصدّهم ناسا كثيرا، أو صفة مصدر محذوف، أى: صدّا كثيرا وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ أى: معاملتهم فيما بينهم بالربا و أكلهم له و هو محرّم عليهم وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ كالرشوة و السحت الذى كانوا يأخذونه. قوله: لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ استدراك من قوله: وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً أو مِنَ الَّذِينَ هادُوا و ذلك أن اليهود أنكروا و قالوا: إن هذه الأشياء كانت حراما فى الأصل و أنت تحلها، فنزل: لكِنِ الرَّاسِخُونَ و الراسخ: هو المبالغ فى علم الكتاب الثابت فيه، و الرسوخ: الثبوت. و قد تقدّم الكلام عليه فى آل عمران. و المراد: عبد اللّه بن سلام، و كعب الأحبار، و نحوهما. و الراسخون: مبتدأ، و يؤمنون: خبره، و المؤمنون: معطوف على الراسخون. و المراد بالمؤمنين:

إما من آمن من أهل الكتاب، أو من المهاجرين و الأنصار، أو من الجميع. قوله: وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ

---

(١). الأنعام: ١۴۶.

قرأ الحسن، و مالك بن دينار، و جماعة: و المقيمون الصّلاة على العطف على ما قبله، و كذا هو فى مصحف ابن مسعود، و اختلف فى وجه نصبه على قراءة الجمهور على أقوال: الأوّل: قول سيبويه: أنه نصب على المدح، أى: و أعنى المقيمين. قال سيبويه: هذا باب ما ينتصب على التعظيم، و من ذلك: وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ و أنشد:

و كلّ قوم أطاعوا أمر سيّدهم إلا نميرا أطاعت أمر غاويها

الظّاعنين و لمّا يظعنوا أحداو القائلون لمن دار نخلّيها

و أنشد:

لا يبعدنّ قومى الذين هم سمّ العداة و آفة الجزر

النّازلين بكلّ معترك و الطّيّبون معاقد الأزر

قال النحاس: و هذا أصح ما قيل فى المقيمين. و قال الكسائى و الخليل: هو معطوف على قوله: بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ قال الأخفش: و هذا بعيد لأن المعنى يكون هكذا: و يؤمنون بالمقيمين. و وجهه محمد بن يزيد المبرد: أن المقيمين هنا هم الملائكة، فيكون المعنى: يؤمنون بما أنزل إليك و بما أنزل من قبلك و بالملائكة، و اختار هذا. و حكى: أن النصب على المدح بعيد، لأن المدح إنما يأتى بعد تمام الخبر، و خبر الرّاسخون هو قوله: أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً و قيل: إن المقيمين معطوف على الضمير فى قوله: مِنْهُمْ و فيه أنه عطف على مضمر بدون إعادة الخافض. و حكى عن عائشة: أنها سئلت عن المقيمين فى هذه الآية و عن قوله تعالى: إِنْ هذانِ لَساحِرانِ «١» و عن قوله: وَ الصَّابِئُونَ «٢» فى المائدة؟ فقالت: يا ابن أخى! الكتاب أخطئوا. أخرجه عنها أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر.

و قال أبان بن عثمان: كان الكاتب يملى عليه فيكتب فكتب: لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ ثم قال ما أكتب؟ فقيل له اكتب وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ فمن ثم وقع هذا. و أخرج عنه عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر. قال القشيرى: و هذا باطل لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة فى اللغة فلا يظن بهم ذلك. و يجاب عن القشيرى: بأنه قد روى عن عثمان بن عفان أنه فرغ من المصحف و أتى به إليه قال: أرى فيه شيئا من لحن ستقيمه العرب بألسنها. أخرجه عنه ابن أبى داود من طرق. و قد رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو و التفسير، و رجح قول الخليل و الكسائى ابن جرير الطبرى و القفال، و على قول سيبويه تكون

الجملة معترضة بين المبتدأ و الخبر على قول من قال: إن خبر «الرّاسخون» هو قوله: أَولئِكَ سَيُؤْتِيهِمْ أو بين المعطوف و المعطوف عليه إن جعلنا خبر «الرّاسخون» هو يؤمنون، و جعلنا قوله: وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ عطفا على المؤمنون، لا على قول سيبويه: أن المؤتون الزكاة مرفوع على الابتداء أو على تقدير مبتدأ محذوف، أي: هم المؤتون الزكاة. قوله: وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ هم مؤمنو أهل الكتاب، و صفوا أوّلا بالرسوخ فى العلم، ثم بالإيمان بكتب اللّه، و أنهم: يقيمون الصلاة، و يؤتون الزكاة، و يؤمنون باللّه و اليوم

---

(١). طه: ٦٣.

(٢). المائدة: ٦٩.

فتح القدير، ج ١، ص: ٦٢٠

الآخر، و قيل: المراد بهم: المؤمنون من المهاجرين و الأنصار كما سلف، و أنهم جامعون بين هذه الأوصاف، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً إلى الرّاسخون و ما عطف عليه. قوله: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ هذا متصل بقوله: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ و المعنى: أن أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كأمر من تقدّمه من الأنبياء، فما بالكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل؟

و الوحى: إعلام فى خفاء، يقال: وحى إليه بالكلام وحيا، و أوحى يوحى إيحاء، و خصّ نوحا لكونه أوّل نبيّ شرعت على لسانه الشرائع، و قيل: غير ذلك، و الكاف فى قوله: كَما نعت مصدر محذوف، أي: إيحاء مثل إيحائنا إلى نوح، أو حال، أي: أوحينا إليك هذا الإيحاء حال كونه مشبها بإيحائنا إلى نوح.

قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ معطوف على أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ و هم أولاد يعقوب كما تقدّم وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ خص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم فى لفظ النبيين تشريفا لهم كقوله: وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ «١»، و قدّم عيسى على أيوب و من بعده مع كونهم فى زمان قبل زمانه، ردا على اليهود الذين كفروا به، و أيضا فالواو ليست إلا لمطلق الجمع.

قوله: وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً معطوف على أوحينا. و الزبور: كتاب داود. قال القرطبى: و هو مائة و خمسون سورة، ليس فيها حكم و لا حلال و لا حرام، و إنما هى حكم و مواعظ. انتهى. قلت: هو مائة و خمسون مزمورا. و المزمور: فصل يشتمل على كلام لداود يستغيث باللّه من خصومه و يدعو اللّه عليهم و يستنصره، و تارة يأتى بمواعظ، و كان يقول ذلك فى الغالب فى الكنيسة، و يستعمل مع تكلمه بذلك شيئا من الآلات التى لها نغمات حسنة، كما هو مصرّح بذلك فى كثير من تلك المزمورات. و الزبر: الكتابة.

و الزبور بمعنى المزبور، و قرأ حمزة: زَبُوراً بضم الزاى، جمع زبر كفلس و فلوس، و الزبر بمعنى المزبور، و الأصل فى الكلمة: التوثيق، يقال: بئر مزبورة، أى: مطوية بالحجارة، و الكتاب سمى زبورا: لقوّة الوثيقة به. قوله: وَ رُسُلًا منصوب بفعل مضمر يدل عليه أَوْحَيْنا أى: و أرسلنا رسلا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ و قيل: هو منصوب بفعل دلّ عليه قَصَصْناهُمْ أى: و قصصنا رسلا، و مثله ما أنشده سيبويه:

أصبحت لا أحمل السّلاح و لاأملك رأس البعير إن نفرا

و الذّئب أخشاه إن مررت بهوحدى و أخشى الرّياح و المطرا

أى: و أخشى الذئب. و قرأ أبيّ: رسل بالرفع على تقدير: و منهم رسل. و معنى: مِنْ قَبْلُ أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة، أو

من قبل هـذا اليوم. قيل: إنه لما قصّ اللّه فى كتابه بعض أسـماء أنبيائه و لم يذكر أسـماء بعض قالت اليهود: ذكر محمد الأنبياء و لم يذكر موسـى، فنزل: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسـى تَكْلِيماً و قراءة الجمهور: برفع الاسم الشـريف، على أن اللّه هو الذى كلم موسى. و قرأ النخعى، و يحيى بن وثاب:

بنصب الاسم الشريف، على أن موسى هو الذى كلم اللّه سبحانه و تَكْلِيماً مصدر مؤكد. و فائدة التأكيد: دفع توهم كون التكليم مجازا، كما قال الفراء: إن العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأىّ

---

(١). البقرة: ٩٨.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٦٢١

طريق؛ و قيل: ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. قال النحاس: و أجمع النحويون:

على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا. قوله: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ بدل من رسلا الأوّل، أو منصوب بفعل مقدّر، أى: و أرسلنا، أو على الحال بـأن يكون رسـلا موطئا لمـا بعـده، أو على المـدح: أى مبشـرين لأهـل الطاعـات و منـذرين لأهل المعاصـى. قوله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ أى: معـذرة يعتـذرون بهـا، كمـا فى قوله تعـالى: وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنـاهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ «١» و سـميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على اللّه حجـة: تنبيها على أن هـذه المعـذرة مقبولـة لـديه تفضـلا منه و رحمـة. و معنى قوله: بَعْدَ الرُّسُلِ بعد إرسال الرسل وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً لا يغالبه مغالب حَكِيماً فى أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد: وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً قال: أنفسـهم و غيرهم عن الحق. و أخرج ابن إسـحاق فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ قال: نزلت فى عبد اللّه بن سلام، و أسيد بن شعبة، و ثعلبة بن شـعبة، حين فارقوا اليهود و أسـلموا. و أخرج ابن إسـحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى فى الدلائل عنه أن بعض اليهود قال:

يا محمـد! ما نعلم اللّه أنزل على بشـر من شـىء بعـد موسـى، فأنزل اللّه: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ الآية. و أخرج عبد بن حميد، و الحكيم الترمـذى فى نوادر الأصول، و ابن حبان فى صـحيحه، و الحاكم، و ابن عساكر عن أبى ذر قال: «قلت: يا رسول اللّه! كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف و أربعة و عشـرون ألفا. قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة و ثلاثة عشر، جمّ غفير». و أخرج نحوه ابن أبى حاتم عن أبى أمامة مرفوعا إلا أنه قال:

«و الرّسل ثلاثمائة و خمسة عشر». و أخرج أبو يعلى و الحاكم بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كـان فيمن خلا- من إخوانى من الأنبيـاء ثمانيـة آلاف نبىّ، ثم كان عيسـى، ثم كنت أنا بعـده». و أخرج الحاكم عن أنس بسـند ضعيف نحوه. و أخرج البخارى، و مسـلم، و غيرهما عن ابن مسـعود قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «لا أحد أغير من اللّه، من أجـل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن؛ و لا أحـد أحبّ إليه المـدح من اللّه، من أجل ذلك مـدح نفسه؛ و لا أحد أحبّ إليه العذر من اللّه، من أجل ذلك بعث اللّه النبيّين مبشرين و منذرين».

---

(١). طه: ١٣٤.

فتح القدير، ج‏١، ص: ٦٢٢

لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (۱۶۶) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً (۱۶۷) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (۱۶۸) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۶۹) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷۰)

يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (۱۷۱)

قوله: لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ الاسم الشريف مبتدأ و الفعل خبره، و مع تشديد النون هو منصوب على أنه اسم لكنّ، و الاستدراك من محذوف مقدّر، كأنهم قالوا: ما نشهد لك يا محمد بهذا، أى: الوحى و النبوّة، فنزل: لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ. و قوله: وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ جملة معطوفة على الجملة الأولى أو جملة حالية، و كذلك قوله: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ جملة حالية، أى: متلبسا بعلمه الذى لا يعلمه غيره، من كونك أهلا لما اصطفاك اللّه له من النبوّة، و أنزله عليك من القرآن وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً أى: كفى اللّه شاهدا، و الباء زائدة، و شهادة اللّه سبحانه: هى ما يصنعه من المعجزات الدالة على صحة النبوة، فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بصدق ما أخبر به من هذا و غيره إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بكل ما يجب الإيمان به، أو بهذا الأمر الخاص، و هو ما فى هذا المقام: وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و هو دين الإسلام بإنكارهم نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و بقولهم: ما نجد صفته فى كتابنا، و إنما النبوّة فى ولد هارون و داود، و بقولهم: إن شرع موسى لا ينسخ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً عن الحقّ بما فعلوا، لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بجحدهم وَ ظَلَمُوا غيرهم بصدهم عن السبيل أو ظلموا محمدا بكتمانهم نبوّته أو ظلموا أنفسهم بكفرهم، و يجوز الحمل على جميع هذه المعانى لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ إذا استمروا على كفرهم و ماتوا كافرين وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ لكونهم اقترفوا ما يوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم، و فرط شقائهم، و جحدوا الواضح، و عاندوا البين خالِدِينَ فِيها أَبَداً أى: يدخلهم جهنم خالدين فيها، و هى حال مقدّرة. و قوله: أَبَداً منصوب على الظرفية، و هو لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل وَ كانَ ذلِكَ أى: تخليدهم فى جهنم، أو ترك المغفرة لهم و الهداية مع الخلود فى جهنم عَلَى اللَّهِ يَسِيراً لأنه سبحانه لا يصعب عليه شىء إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «۱» فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ اختلف أئمة النحو فى انتصاب خيرا على ماذا؟ فقال سيبويه و الخليل: بفعل مقدر، أى:

و اقصدوا أو ائتوا خيرا لكم، و قال الفراء: هو نعت لمصدر محذوف، أى: فآمنوا إيمانا خيرا لكم، و ذهب أبو عبيدة، و الكسائى: إلى أنه خبر لكان مقدّرة، أى: فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم، و أقوى هذه الأقوال الثالث، ثم الأوّل، ثم الثانى على ضعف فيه وَ إِنْ تَكْفُرُوا أى: و إن تستمروا على كفركم فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من مخلوقاته، و أنتم من جملتهم، و من كان خالقا لكم و لها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم، ففى هذه الجملة و عيد لهم، مع إيضاح وجه البرهان، و إماطة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول و الإذعان. لأنهم يعترفون بأن اللّه خالقهم وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ «۲» قوله:

يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ الغلو: هو التجاوز فى الحدّ، و منه: غلا السعر يغلو غلاء، و غلا الرجل فى الأمر غلوا، و غلا بالجارية لحمها و عظمها: إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها. و المراد بالآية:

النهى لهم عن الإفراط تارة و التفريط أخرى، فمن الإفراط: غلو النصارى فى عيسى حتى جعلوه ربا، و من

(۱). يس: ۸۲.

(۲). الزخرف: ۸۷.

فتح القدير، ج۱، ص: ۶۲۳

التفريط: غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة «۱»؛ و ما أحسن قول الشاعر:

و لا تغل فى شيء من الأمر و اقتصدكلا طرفى الأمور ذميم

وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ و هو ما وصف به نفسه و وصفته به رسله، و لا تقولوا: الباطل، كقول اليهود: عزير ابن اللّه، و قول النصارى: المسيح ابن اللّه إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ المسيح: مبتدأ، و عيسى: بدل منه، و ابن مريم: صفة لعيسى، و رسول اللّه: الخبر، و يجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان، و الجملة تعليل للنهى، و قد تقدّم الكلام على المسيح فى آل عمران. قوله: وَ كَلِمَتُهُ عطف على رسول اللّه، و أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ حال، أى: كوّنه بقوله: كن؛ فكان بشرا من غير أب، و قيل: وَ كَلِمَتُهُ بشارة اللّه مريم و رسالته إليها على لسان جبريل بقوله: إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ «۲» و قيل: الكلمة هاهنا بمعنى الآية، و منه: وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها «۳»، و قوله: ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ «۴». قوله: وَ رُوحٌ مِنْهُ أى: أرسل جبريل؛ فنفخ فى درع مريم؛ فحملت بإذن اللّه؛ و هذه الإضافة للتفضيل، و إن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى؛ و قيل: قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة: روحا و يضاف إلى اللّه فيقال: هذا روح من اللّه، أى: من خلقه، كما يقال فى النعمة: إنها من اللّه، و قيل: رُوحٌ مِنْهُ أى: من خلقه، كما قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ «۵». أى من خلقه، و قيل: رُوحٌ مِنْهُ أى: رحمة منه، و قيل: رُوحٌ مِنْهُ أى: برهان منه، و كان عيسى برهانا و حجة على قومه. و قوله: مِنْهُ متعلق بمحذوف وقع صفة لروح، أى: كائنة منه، و جعلت الروح منه سبحانه و إن كانت بنفخ جبريل: لكونه تعالى الآمر لجبريل بالنفخ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أى: بأنه سبحانه إله واحد، لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد، و بأن رسله صادقون مبلغون عن اللّه ما أمرهم بتبليغه، و لا تكذبوهم و لا تغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آلهة. قوله: وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ارتفاع ثلاثة: على أنه خبر مبتدأ محذوف، قال الزجاج: أى: لا تقولوا: آلهتنا ثلاثة، و قال الفراء و أبو عبيد: أى: لا تقولوا هم ثلاثة كقوله: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ «۶» و قال أبو على الفارسى: لا تقولوا هو ثالث ثلاثة، فحذف المبتدأ و المضاف، و النصارى مع تفرّق مذاهبهم متفقون على التثليث، و يعنون بالثلاثة أقانيم فيجعلونه سبحانه جوهرا واحدا و له ثلاثة أقانيم، و يعنون بالأقانيم: أقنوم الوجود، و أقنوم الحياة، و أقنوم العلم، و ربما يعبرون عن الأقانيم بالأب و الابن و روح القدس، فيعنون بالأب الوجود، و بالروح الحياة، و بالابن المسيح. و قيل: المراد بالآلهة الثلاثة: اللّه سبحانه و تعالى، و مريم، و المسيح. و قد اختبط النصارى فى هذا اختباطا طويلا.

و وقفنا فى الأناجيل الأربعة التى يطلق عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير فى عيسى: فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان، و تارة يوصف بأنه ابن اللّه، و تارة يوصف بأنه ابن الربّ، و هذا تناقض ظاهر و تلاعب

(۱). يقال ولد فلان لغير رشدة: «لغيّة و زنية» (لسان العرب)

(۲). آل عمران: ۴۵.

(۳). التحريم: ۱۲.

(۴). لقمان: ۲۷.

(۵). الجاثية: ۱۳.

(۶). الكهف: ۲۲.

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۲۴

بالدين. و الحق ما أخبرنا اللّه به فى القرآن، و ما خالفه فى التوراة أو الإنجيل أو الزبور فهو من تحريف المحرّفين، و تلاعب المتلاعبين. و من أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام.

و حاصل ما فيها جميعا: أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه اللّه إلى أن رفعه إليه، و ذكر ما جرى له من المعجزات و المراجعات لليهود و نحوهم، فاختلفت ألفاظهم، و اتفقت معانيها، و قد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ و الضبط، و ذكر ما قاله عيسى و ما قيل له، و ليس فيها من كلام اللّه سبحانه شيء، و لا أنزل على عيسى من عنده كتابا، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما فى التوراة و يذكر أنه لم يأت بما يخالفها، و هكذا الزبور فإنه من أوّله إلى آخره من كلام داود عليه السلام. و كلام اللّه أصدق، و كتابه أحق، و قد أخبرنا: أن الإنجيل كتابه أنزله على عبده و رسوله عيسى ابن مريم، و أن الزبور كتابه آتاه داود و أنزله عليه.

قوله: انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ أى: انتهوا عن التثليث، و انتصاب خَيْراً هنا فيه الوجوه الثلاثة التى تقدمت فى قوله: فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ و إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له، صاحبة و لا ولدا سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أى: أسبحه تسبيحا عن أن يكون له ولد لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و ما جعلتموه له شريكا أو ولدا هو من جملة ذلك، و المملوك المخلوق لا يكون شريكا و لا ولدا وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا فكلّ الخلق أمورهم إليه و لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا.

و قد أخرج إسحاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال لهم: «إنّى و اللّه أعلم أنّكم تعلمون أنّى رسول اللّه، قالوا: ما نعلم ذلك.

فأنزل اللّه: لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ الآية». و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى الدلائل، عن أبى موسى: أن النجاشى قال لجعفر: ما يقول صاحبك فى ابن مريم؟ قال: يقول فيه: قول اللّه، هو روح اللّه و كلمته، أخرجه من البتول العذراء، لم يقربها بشر. فتناول عودا من الأرض فرفعه فقال: يا معشر القسيسين و الرهبان! ما يزيد هؤلاء على ما تقولون فى ابن مريم ما يزن هذه. و أخرجه البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود بأطول من هذا. و أخرج البخارى عن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تطرونى كما أطرت النّصارى عيسى ابن مريم فإنّما أنا عبد، فقولوا: عبد اللّه و رسوله».

[سورة النساء (۴): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۵]

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (۱۷۲) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۷۳) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (۱۷۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۱۷۵)

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۲۵

أصل يستنكف: نكف، و باقى الحروف زائدة، يقال: نكفت من الشيء، و استنكفت منه، و أنكفته، أى: نزهته عما يستنكف منه. قال الزجاج: استنكف، أى: أنف، مأخوذ من نكفت الدمع: إذا نحيته بإصبعك عن خديك؛ و قيل: هو من النكف، و هو العيب، يقال: ما عليه فى هذا الأمر نكف و لا و كف.

أى: عيب. و معنى الأوّل: لم يأنف عن العبودية و لن يتنزه عنها. و معنى الثانى: لن يعيب العبودية و لن ينقطع عنها. وَ لَا الْمَلائِكَةُ

الْمُقَرَّبُونَ عطف على المسيح، أى: و لن يستنكف الملائكة المقرّبون عن أن يكونوا عبادا اللّه.

و قد استدل بهذا: القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء، و قرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن و لا يغنى من جوع، و ادعى أن الذوق قاض بذلك، و نعم، الذوق العربى إذا خالطه محبة المذهب، و شابه شوائب الجمود، كان هذا، و كل من يفهم لغة العرب يعلم أن من قال: لا يأنف من هذه المقالة إمام و لا مأموم، أو لا كبير و لا صغير، أو لا جليل و لا حقير، ثم يدل هذا: على أن المعطوف أعظم شأنا من المعطوف عليه، و على كل حال فما أردأ الاشتغال بهذه المسألة، و ما أقل فائدتها، و ما أبعدها عن أن تكون مركزا من المراكز الشرعية الدينية و جسرا من الجسور وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ أى: يأنف تكبرا و يعد نفسه كبيرا عن العبادة فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً المستنكف و غيره، فيجازى كلا بعمله. و ترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أول الكلام عليه، و لكون الحشر لكلا الطائفتين فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ من غير أن يفوتهم منها شيء وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً بسبب استنكافهم و استكبارهم وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا يواليهم وَ لا نَصِيراً ينصرهم. قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ بما أنزله عليكم من كتبه، و بمن أرسله إليكم من رسله، و ما نصبه لهم من المعجزات. و البرهان: ما يبرهن به على المطلوب وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً و هو القرآن، و سماه نورا: لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ أى:

باللّه، و قيل: بالنور المذكور فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ يرحمهم بها وَ فَضْلٍ يتفضل به عليهم وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ أى: إلى امتثال ما أمر به، و اجتناب ما نهى عنه، أو إليه سبحانه و تعالى باعتبار مصيرهم إلى جزائه و تفضله صِراطاً مُسْتَقِيماً أى: طريقا يسلكونه إليه مستقيما لا عوج فيه، و هو التمسك بدين الإسلام و ترك غيره من الأديان، قال أبو على الفارسى: الهاء فى قوله: إِلَيْهِ راجعة إلى ما تقدم من اسم اللّه، و قيل: راجعة إلى القرآن؛ و قيل: إلى الفضل؛ و قيل: إلى الرحمة و الفضل، لأنهما بمعنى الثواب، و انتصاب صراطا: على أنه مفعول ثان للفعل المذكور؛ و قيل: على الحال.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ لن يستكبر. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و الإسماعيلى فى معجمه بسند ضعيف عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ قال: أجورهم:

يدخلهم الجنة، و يزيدهم من فضله: الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف فى الدنيا. و قد

فتح القدير، ج ۱، ص: ۶۲۶

ساقه ابن كثير فى تفسيره فقال: و قد روى ابن مردويه من طريق بقية عن إسماعيل بن عبد اللّه الكندى، عن الأعمش، عن شقيق، عن ابن مسعود فذكره و قال: هذا إسناد لا يثبت، و إذا روى عن ابن مسعود موقوفا فهو جيد. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة: قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ أى: بينة وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً قال: هذا القرآن. و أخرجا أيضا عن مجاهد قال: برهان: حجة. و أخرجا أيضا عن ابن جريج فى قوله: وَ اعْتَصَمُوا بِهِ قال: القرآن.

[سورة النساء (۴): آية ۱۷۶]

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۷۶)

قد تقدّم الكلام فى الكلالة فى أوّل هذه السورة، و سيأتى ذكر المستفتى المقصود بقوله:

يَسْتَفْتُونَكَ قوله: إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ أى: إن هلك امرؤ هلك كما تقدم فى قوله: وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ «١». و قوله: لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ إما صفة ل: امرؤ، أو حال، و لا وجه للمنع من كونه حالا، و الولد:

يطلق على الذكر و الأنثى، و اقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الوالد معتبر فى الكلالة: اتكالا على ظهور ذلك؛ قيل: و المراد بالولد هنا الابن، و هو أحد معنى المشترك، لأن البنت لا تسقط الأخت. و قوله: وَ لَهُ أُخْتٌ عطف على قوله: لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ. و المراد بالأخت هنا: هى الأخت لأبوين، أو لأب، لا لأم، فإن فرضها السدس كما ذكر سابقا. و قد ذهب جمهور العلماء من الصحابة و التابعين و من بعدهم:

إلى أن الأخوات لأبوين أو لأب عصبة للبنات و إن لم يكن معهم أخ. و ذهب ابن عباس: إلى أن الأخوات لا يعصبن البنات، و إليه ذهب داود الظاهرى و طائفة، و قالوا: إنه لا ميراث للأخت لأبوين أو لأب مع البنت، و احتجوا بظاهر هذه الآية، فإنه جعل عدم الولد المتناول للذكر و الأنثى قيدا فى ميراث الأخت، و هذا استدلال صحيح لو لم يرد فى السنة ما يدل على ثبوت ميراث الأخت مع البنت، و هو ما ثبت فى الصحيح: أن معاذا قضى على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى بنت و أخت فجعل للبنت النصف و للأخت النصف. و ثبت فى الصحيح أيضا: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قضى فى بنت و بنت ابن و أخت: فجعل للبنت النصف، و لبنت الابن السدس، و للأخت الباقى» فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت. قوله: وَ هُوَ يَرِثُها أى:

المرء يرثها، أى: يرث الأخت إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ ذكر إن كان المراد بإرثه لها: حيازته لجميع ما تركته، و إن كان المراد: ثبوت ميراثه لها فى الجملة أعمّ من أن يكون كلا أو بعضا، صح تفسير الولد بما يتناول الذكر و الأنثى. و اقتصر سبحانه فى هذه الآية على نفى الولد- مع كون الأب يسقط الأخ كما يسقطه الولد الذكر-: لأن المراد بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا، و أما سقوطه مع الأب فقد تبين بالسنة، كما ثبت فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر» و الأب أولى من الأخ

---

(١). النساء: ١٢٨.

فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ أى: فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين، و العطف على الشرطية السابقة، و التأنيث و التثنية؛ و كذلك الجمع فى قوله: وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً باعتبار الخبر فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ المرء إن لم يكن له ولد كما سلف، و ما فوق الاثنتين من الأخوات يكون لهنّ الثلثان بالأولى وَ إِنْ كانُوا أى:

من يرث بالأخوة إِخْوَةً رِجالًا وَ نِساءً أى: مختلطين ذكورا و إناثا فَلِلذَّكَرِ منهم مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ تعصيبا يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا أى: يبين لكم حكم الكلالة و سائر الأحكام كراهة أن تضلوا، هكذا حكاه القرطبى عن البصريين. و قال الكسائى: المعنى لئلا تضلوا، و وافقه الفراء و غيره من الكوفيين وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ من الأشياء التى هذه الأحكام المذكورة منها عَلِيمٌ أى: كثير العلم.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و أهل السنن، و غيرهم عن جابر بن عبد اللّه قال: «دخل علىّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صبّ علىّ فعقلت، فقلت: إنه لا يرثنى إلا كلالة فكيف الميراث؟

فنزلت آية الفرائض» و أخرجه عنه ابن سعد، و ابن أبى حاتم بلفظ: أنزلت فى يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ. و أخرج ابن راهويه، و ابن مردويه عن عمر أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: كيف تورث الكلالة:

فأنزل اللّه: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ الآية. و أخرج مالك، و مسلم و ابن جرير و البيهقى عن عمر قال: ما سألت

النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن شىء أكثر مما سألته فى الكلالة حتى طعن بإصبعه فى صدرى و قال: «ما تكفيك آية الصيف «۱» التى فى آخر سورة النساء». و أخرج أحمد، و أبو داود، و الترمذى، و البيهقى عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فسأله عن الكلالة؟ فقال: «تكفيك آية الصيف».

و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن عمر قال: ثلاث وددت أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان عهد إلينا فيهنّ عهدا ننتهى إليه: الجدّ، و الكلالة، و أبواب من أبواب الربا. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن البراء ابن عازب قال: آخر سورة نزلت كاملة: براءة، و آخر آية نزلت: خاتمة سورة النساء: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن سيرين قال: كان عمر ابن الخطاب إذا قرأ: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا قال: اللهمّ من بيّنت له الكلالة فلم تتبين لى.

و قد أوضحنا الكلام خلافا و استدلالا و ترجيحا فى شأن الكلالة فى أوائل هذه السورة فلا نعيده.

إلى هنا انتهى الجزء الأوّل من التفسير المبارك: المسمى «فتح القدير» الجامع بين فنى الرواية و الدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه الراجى من ربه سبحانه أن يعينه على تمامه، و ينفع به من شاء من عباده، و يجعله ذخيرة له عند وفوده إلى دار الآخرة «محمد بن على بن محمد الشوكانى» غفر اللّه لهما.

و كان الانتهاء إلى هذا الموضع فى يوم العيد الأكبر، يوم النحر المبارك من سنة أربع و عشرين بعد مائتين

---

(۱). جاء فى الموطأ لمالك [۲/ ۵۱۵]: الآية التى أنزلت فى الصيف.

فتح القدير، ج۱، ص: ۶۲۸

و ألف من الهجرة النبوية، حامدا للّه و مصلّيا و مسلّما على رسوله و حبيبه محمد بن عبد اللّه و على آله و صحبه.

الحمد له: كمل سماعا و الحمد للّه فى شهر ذى القعدة من عام سنة ۱۲۳۲ ه.

يحيى بن على الشوكانى

فتح القدير، ج۱، ص: ۶۲۹

فهرس الجزء الأول

فتح القدير، ج ١، ص: ۶٣٠

فتح القدير، ج ١، ص: ۶٣١

الجزء الثاني

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تنبيه:

جرى المفسّر- رحمه اللّه- فى ضبط ألفاظ القرآن الكريم فى تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرّضه للقراءات السّبع، و أثبتنا القرآن الكريم طبق رسم المصحف العثمانى.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵

سورة المائدة

اشارة

قال القرطبي: هى مدنيّة بالإجماع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة قال: المائدة مدنيّة. و أخرج أحمد و النسائي و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقي فى سننه، عن جبير بن نفير، قال:

حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنّها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من

حلال فاستحلّوه، و ما وجدتم من حرام فحرّموه. و أخرج أحمد و الترمذى و حسّنه، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن عبد اللّه بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة و الفتح. و أخرج أحمد عنه قال: أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سورة المائدة و هو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها. قال ابن كثير: تفرّد به أحمد. قلت: و فى إسناده ابن لهيعة.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و محمد بن نصر فى كتاب الصلاة، و الطبرانى و أبو نعيم فى الدلائل، و البيهقى فى شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة فى مسنده، و البغوى فى معجمه، و ابن مردويه، و البيهقى فى دلائل النبوّة عن أم عمرو بنت عيسى عن عمّها نحوه أيضا. و أخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب القرظى نحوه. و زاد أنها نزلت فى حجة الوداع فيما بين مكة و المدينة. و هكذا أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة، و أخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب و عطية بن قيس قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «المائدة من آخر القرآن تنزيلا، فأحلّوا حلالها و حرّموا حرامها». و أخرج أبو داود و النحاس كلاهما فى الناسخ عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: لم ينسخ من المائدة شىء. و كذا أخرجه سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه. و كذا أخرجه عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبى.

و كذا أخرجه عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر عن الحسن البصرى. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبى قال: لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلائِدَ «١». و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان، آية القلائد. و قوله: فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ «٢». و أخرج عبد بن حميد فى مسنده عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ فى خطبته سورة المائدة و التوبة، و ذكر النقاش عن أبى سلمة أنه قال: «لما رجع صلّى اللّه عليه و سلّم من الحديبية قال:

«يا على أشعرت أنها نزلت علىّ سورة المائدة؟ و نعمت الفائدة»، قال ابن العربى: هذا حديث موضوع لا يحلّ لمسلم اعتقاده، و قال ابن عطية: هذا عندى لا يشبه كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

---

(١). المائدة: ٢.

(٢). المائدة: ۴٢.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ۶

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المائدة (۵): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لا الْهَدْيَ وَ لا الْقَلائِدَ وَ لا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢)

هـذه الآيـة التى افتتـح اللّه بها هـذه السورة إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ فيها من البلاغـة ما تتقاصـر عنـده القوى البشـرية، مع شمولها لأحكام عـدّة: منها الوفاء بالعقود، و منها تحليل بهيمة الأنعام، و منها اسـتثناء ما سـيتلى مما لا يحلّ، و منها تحريم الصـيد على المحرم، و منهـا إباحـة الصّـيد لمن ليس بمحرم. و قـد حكـى النقـاش أنّ أصـحاب الفيلسوف الكنـدى قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: و اللّه ما أقدر و لا يطيق هذا أحد، إنى فتحت المصـحف فخرجت سورة المائـدة، فنظرت فإذا هو قـد نطق بالوفاء و نهى عن النكث، و حلّل تحليلا عاما، ثم اسـتثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته و حكمته فى سطرين، و لا يقدر أحد أن يأتى بهذا. قوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، يقال:

أوفى و وفى لغتان، و قد جمع بينهما الشاعر فقال:

أمّا ابن طوق فقد أوفى بذمّته كما وفى بقلاص النّجم حاديها

و العقود: العهود، و أصل العقود الربوط، واحـدها عقـد، يقال: عقدت الحبل و العهد، فهو يسـتعمل فى الأجسام و المعانى، و إذا اسـتعمل فى المعانى كما هنا أفاد أنه شديـد الإحكام، قوىّ التوثيق؛ قيل: المراد بالعقود هى التى عقدها اللّه على عباده، و ألزمهم بهـا من الأحكـام؛ و قيـل: هى العقود التى يعقـدونها بينهم من عقود المعاملات، و الأولى شـمول الآيـة للأمرين جميعا، و لا وجه لتخصـيص بعضـها دون بعض. قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقـد اللّه عليكم و بعقـدكم بعضـكم على بعض، انتهى. و العقـد الـذى يجب الوفـاء به مـا وافق كتـاب اللّه و سـنة رسول اللّه، فـإن خالفهمـا فهو ردّ لا- يجب الوفاء به و لا يحلّ. قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ الخطاب للـذين آمنوا. و البهيمـة: اسم لكل ذى أربع، سـميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها و فهمها و عقلها، و منه باب مبهم: أى مغلق، و ليل بهيم، و بهمة للشجاع الذى لا يدرى من أين يؤتى، و حلقة مبهمة:

لا يدرى أين طرفاها. و الأنعام: اسم للإبل و البقر و الغنم، سمّيت بذلك لما فى مشيها من اللين؛ و قيل:

بهيمـة الأنعـام: وحشـيها كالظباء و بقر الوحش و الحمر الوحشـية و غير ذلك، حكاه ابن جرير الطبرى عن قوم، و حكاه غيره عن السـدّى و الربيع و قتادة و الضـحاك. قال ابن عطيـة: و هذا قول حسن، و ذلك أن الأنعام هى الثمانية الأزواج، و ما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له: أنعام مجموعة معها، و كأن المفترس كالأسد،

فتح القدير، ج۲، ص: ۷

و كلّ ذى ناب خارج عن حدّ الأنعام، فبهيمة الأنعام هى الراعى من ذوات الأربع؛ و قيل: بهيمة الأنعام:

ما لم تكن صـيدا؛ لأنّ الصّـيد يسـمّى وحشا لا بهيمـة؛ و قيل بهيمـة الأنعام: الأجنّـة التى تخرج عنـد الذبـح من بطون الأنعام فهى تؤكـل من دون ذكاة. و على القول الأوّل أعنى تخصـيص الأنعام بالإبل و البقر و الغنم تكون الإضافـة بيانيـة، و يلحق بها ما يحلّ ممـا هو خـارج عنهـا بالقيـاس، بـل و بـالنصوص التى فى الكتاب و السـنة كقوله تعالى: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً «۱» الآية، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يحرم كلّ ذى ناب من السّـبع و مخلب من الطير» فإنه يـدل بمفهومه على أن ما عـداه حلال، و كـذلك سائر النصوص الخاصـة بنوع كما فى كتب السـنة المطهرة. قوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ استثناء من قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ أى إلا مدلول ما يتلى عليكم فـإنه ليس بحلال. و المتلوّ: هو مـا نصّ اللّه على تحريمه، نحو قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ «۲» الآية، و يلحق به ما صـرّحت السّـنّة بتحريمه، و هـذا الاسـتثناء يحتمـل أن يكـون المراد به إلا- مـا يتلى عليكم الآـن، و يحتمـل أن يكون المراد به فى مسـتقبل الزمان، فيـدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجـة، و يحتمل الأمرين جميعا. قوله: غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ذهب البصـريون إلى أن قوله: إِلَّا مـا يُتْلى عَلَيْكُمْ اسـتثناء من بهيمـة الأنعـام و قوله: غَيْرَ مُحِلِّي الصَّـيْدِ اسـتثناء آخر منه أيضا، فالاسـتثناءان جميعا من بهيمة الأنعام، و التقدير: أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصـيد و أنتم محرمون؛ و قيل: الاستثناء الأوّل من بهيمة الأنعام،

و الاستثناء الثانى هو من الاستثناء الأوّل، و ردّ بأن هذا يستلزم إباحة الصيد فى حال الإحرام، لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحا، و أجاز الفراء أن يكون إِلَّا ما يُتْلى فى موضع رفع على البدل، و لا يجيزه البصريون. إلا فى النكرة و ما قاربها من الأجناس. قال: و انتصاب غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ على الحال من قوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و كذا قال الأخفش، و قال غيرهما: حال من الكاف و الميم فى لَكُمْ و التقدير: أحلّت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد: أى الاصطياد فى البرّ و أكل صيده. و معنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملا و اعتقادا، و هم حرم:

أى محرمون، و جملة وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ فى محل نصب على الحال من الضمير فى مُحِلِّي و معنى هذا التقييد ظاهر عند من يخصّ بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التى يحلّ أكلها؛ كأنه قال: أحلّ لكم صيد البرّ إلا فى حال الإحرام؛ و أما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى: أحلّت لكم بهيمة هى الأنعام حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم فى الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك، فيكون المراد بهذا التقييد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرّم عليهم فى تلك الحال. و المراد بالحرم من هو محرم بالحجّ أو العمرة أو بهما، و سمّى محرما لكونه يحرم عليه الصيد و الطّيب و النّساء، و هكذا وجه تسمية الحرم حرما، و الإحرام إحراما. و قرأ الحسن و النخعى و يحيى بن وثّاب «حرم» بسكون الراء، و هى لغة تميمية، يقولون فى رسل: رسل، و فى كتب كتب، و نحو ذلك. قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده، فهو مالك الكلّ يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لا معقّب لحكمه. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ الشعائر: جمع شعيرة على وزن فعيلة. قال ابن فارس: و يقال للواحدة شعارة؛ و هو أحسن، و منه الإشعار

---

(١). الأنعام: ١۴۵.

(٢). المائدة: ٣.

للهدى. و المشاعر: المعالم، واحدها مشعر، و هى المواضع التى قد أشعرت بالعلامات؛ قيل: المراد بها هنا جميع مناسك الحج: و قيل: الصفا و المروة، و الهدى و البدن. و المعنى على هذين القولين: لا تحلّوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشى‏ء منها أو بأن تحولوا بينها و بين من أراد فعلها. ذكر سبحانه النهى عن أن يحلّوا شعائر اللّه عقب ذكره تحريم صيد المحرم؛ و قيل: المراد بالشعائر هنا فرائض اللّه، و منه وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ و قيل: هى حرمات اللّه، و لا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و لا بما يدلّ عليه السياق. قوله: وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ المراد به الجنس، فيدخل فى ذلك جميع الأشهر الحرم و هى أربعة: ذو القعدة، و ذو الحجة، و محرّم، و رجب؛ أى لا تحلّوها بالقتال فيها؛ و قيل: المراد به هنا شهر الحج فقط. قوله: وَ لَا الْهَدْيَ هو ما يهدى إلى بيت اللّه من ناقة أو بقرة أو شاة، الواحدة هدية. نهاهم سبحانه عن أن يحلّوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه، أو يحولوا بينه و بين المكان الذى يهدى إليه، و عطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته و التشديد فى شأنه.

قوله: وَ لَا الْقَلائِدَ جمع قلادة، و هى ما يقلد به الهدى من نعل أو نحوه. و إحلالها بأن تؤخذ غصبا، و فى النهى عن إحلال القلائد تأكيد للنهى عن إحلال الهدى؛ و قيل: المراد بالقلائد المقلدات بها، و يكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى، و الأوّل أولى؛ و قيل: المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلّدونه أمنة لهم، فهو على حذف مضاف: أى و لا أصحاب القلائد. قوله: وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ أى قاصديه؛ من قولهم أممت كذا: أى قصدته. و قرأ الأعمش: «و لا امّى البيت الحرام» بالإضافة. و المعنى: لا تمنعوا من قصد البيت الحرام لحجّ أو عمرة أو ليسكن فيه؛ و قيل: إنّ سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجّون و

يعتمرون و يهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنزل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ إلى آخر الآية، فيكون ذلك منسوخا بقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١»، و قوله: فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا «٢»، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يحجنّ بعد العام مشرك». و قال قوم: الآية محكمة و هى فى المسلمين. قوله: يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً جملة حالية من الضمير المستتر فى (آمين).

قال جمهور المفسرين: معناه يبتغون الفضل و الأرباح فى التجارة، و يبتغون مع ذلك رضوان اللّه؛ و قيل:

كان منهم من يطلب التجارة، و منهم من يبتغي بالحج رضوان اللّه، و يكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم و فى ظنهم عند من جعل الآية فى المشركين؛ و قيل: المراد بالفضل هنا الثواب لا الأرباح فى التجارة.

قوله: وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا هذا تصريح بما أفاده مفهوم وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ أباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذى حرّم لأجله، و هو الإحرام. قوله: وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ قال ابن فارس:

جرم و أجرم و لا جرم بمعنى قولك لا بدّ و لا محالة، و أصلها من جرم أى كسب، و قيل المعنى: لا يحملنكم، قاله الكسائى و ثعلب، و هو يتعدّى إلى مفعولين، يقال: جرمنى كذا على بغضك: أى حملنى عليه، و منه قول الشاعر:

و لقد طعنت أبا عيينة طعنةجرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

---

(١). التوبة: ٥

(٢). التوبة: ٢٨.

أى حملتهم على الغضب. و قال أبو عبيدة و الفراء: معنى لا- يَجْرِمَنَّكُمْ لا- يكسبنّكم بغض قوم أن تعتدوا الحقّ إلى الباطل، و العدل إلى الجور و الجريمة. و الجارم بمعنى الكاسب، و منه قول الشاعر:

جريمة ناهض فى رأس نيقترى لعظام ما جمعت صليبا

معناه كاسب قوت. و الصليب: الودك، و منه قول الآخر:

أيا أيّها المشتكى عكلا و ما جرمتإلى القبائل من قتل و إبآس

أى كسبت، و المعنى فى الآية: لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم، أو لا يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق إلى الباطل، و يقال: جرم يجرم جرما: إذا قطع. قال علىّ بن عيسى الرماني: و هو الأصل، فجرم بمعنى حمل على الشيء لقطعه من غيره، و جرم بمعنى كسب لانقطاعه إلى الكسب، و لا- جرم بمعنى حقّ لأنّ الحق يقطع عليه، قال الخليل: معنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ «١» لقد حقّ أن لهم النار. و قال الكسائى: جرم و أجرم لغتان بمعنى واحد: أى اكتسب. و قرأ ابن مسعود: «لا يجرمنكم» بضم الياء، و المعنى: لا يكسبنكم و لا يعرف البصريون أجرم، و إنما يقولون: جرم لا غير. و الشنآن: البغض. و قرئ بفتح النون و إسكانها، يقال: شنئت أشنؤه شنأ و شنأة و شنآنا كل ذلك: إذا أبغضته. و شنآن هنا مضاف إلى المفعول: أى بغض قوم منكم لا بغض قوم لكم. قوله: أَنْ صَدُّوكُمْ بفتح الهمزة مفعول لأجله. أى لأن صدّوكم. و قرأ أبو عمرو و ابن كثير بكسر الهمزة على الشرطية، و هو اختيار أبى عبيد، و قرأ الأعمش: «إن يصدوكم» و المعنى على قراءة الشرطية: لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصدّ لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم.

قال النحاس: و أما إن صدّوكم بكسر إن، فالعلماء الجلة بالنحو و الحديث و النظر يمنعون القراءة بها لأشياء:

منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، و كان المشركون صدّوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست، فالصد كان قبل الآية؛ و إذا

قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلّا بعده كما تقول: لا تعط فلانا شيئا إن قاتلك، فهذا لا يكون إلّا للمستقبل و إن فتحت كان للماضى، و ما أحسن هذا الكلام. و قد أنكر أبو حاتم و أبو عبيدة شنآن بسكون النون. لأنّ المصادر إنّما تأتى فى مثل هذا متحركة و خالفهما غيرهما فقال: ليس هذا مصدرا، و لكنه اسم فاعل على وزن كسلان و غضبان. و لما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البرّ و التقوى: أى ليعن بعضكم بعضا على ذلك، و هو يشمل كلّ أمر يصدق عليه أنه من البرّ و التقوى كائنا ما كان؛ قيل: إن البرّ و التقوى لفظان لمعنى واحد، و كرر للتأكيد. و قال ابن عطية: إن البرّ يتناول الواجب و المندوب، و التقوى تختصّ بالواجب، و قال الماوردى: إن فى البرّ رضا الناس و فى التقوى رضا اللّه، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الإثم و العدوان، فالإثم: كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله، و العدوان: التعدّى على الناس بما فيه ظلم، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم و لا نوع من أنواع الظلم للناس الذين من جملتهم النفس إلا و هو داخل تحت هذا النهى لصدق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناهما، ثم أمر عباده بالتقوى و توعّد من خالف ما أمر به فتركه أو خالف ما نهى عنه ففعله بقوله: إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

---

(١). النحل: ٦٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٠

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ قال: ما أحل اللّه و ما حرّم و ما فرض و ما حدّ فى القرآن كله لا تغدروا و لا تنكثوا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة قال: هى عقود الجاهلية الحلف. و روى عنه ابن جرير أنه قال: ذكر لنا أن نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول: «و أوفوا بعقد الجاهلية، و لا تحدثوا عقدا فى الإسلام». و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن فى قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ قال: الإبل و البقر و الغنم. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر فى قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ قال: الإبل و البقر و الغنم. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر فى قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ قال: ما فى بطونها، قلت:

إن خرج ميتا آكله؟ قال: نعم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ قال: الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير اللّه به إلى آخر الآية، فهذا ما حرّم اللّه من بهيمة الأنعام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ قال: كان المشركون يحجّون البيت الحرام، و يهدون الهدايا، و يعظّمون حرمة المشاعر، و ينحرون فى حجّهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فقال اللّه لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ و فى قوله: وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ يعنى: لا تستحلوا قتالا فيه وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يعنى من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون و المشركون يحجون جميعا، فنهى اللّه المؤمنين أن يمنعوا أحدا حجّ البيت، أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل اللّه بعد هذه الآية: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا «١» و فى قوله: يَبْتَغُونَ فَضْلًا يعنى أنهم يرضون اللّه بحجّهم وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ يقول: لا يحملنكم شَنَآنُ قَوْمٍ يقول عداوة قوم وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى قال: البرّ ما أمرت به، و التقوى ما نهيت عنه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: شعائر اللّه ما نهى اللّه عنه أن تصيبه و أنت محرم، و الهدى: ما لم يقلد و القلائد مقلّدات الهدى وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يقول: من توجّه حاجا. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ قال: مناسك الحج. و أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالحديبية و أصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت، و قد اشتدّ ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: نصدّ هؤلاء كما صدّنا

أصحابنا، فأنزل اللّه وَ لا يَجْرِمَنَّكَمْ الآيةُ. و أخرج أحمد و عبد ابن حميد و البخارى فى تاريخه عن وابصة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: «البرّ ما اطمأنّ إليه القلب و اطمأنت إليه النفس، و الإثم ما حاك فى القلب و تردّد فى الصدر؛ و إن أفتاك الناس و أفتوك». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و البخارى فى «الأدب» و مسلم و الترمذى و الحاكم و البيهقى أنّ النّواس بن سمعان قال: سألت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن البرّ و الإثم، قال: «البرّ حسن الخلق، و الإثم ما حاك فى نفسك و كرهت أن يطّلع عليه الناس».

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن حبان و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى أمامة أن رجلا سأل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن الإثم، فقال: «ما حاك فى نفسك فدعه. قال: فما الإيمان؟ قال: من ساءته سيّئته و سرّته حسنته فهو مؤمن».

---

(١). التوبة: ٢٨.

فتح القدير، ج٢، ص: ١١

[سورة المائدة (٥): آية ٣]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

هذا شروع فى المحرّمات التى أشار إليها سبحانه بقوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ و الميتة قد تقدّم ذكرها فى البقرة، و كذلك الدم و لحم الخنزير و ما أهلّ به لغير اللّه، و ما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحا كما تقدم حملا للمطلق على المقيد، و قد ورد فى السّنّة تخصيص الميتة بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أحلّ لنا ميتتان و دمان، فأما الميتتان فالحوت و الجراد، و أما الدمان فالكبد و الطّحال» أخرجه الشافعى و أحمد و ابن ماجة و الدارقطنى و البيهقى، و فى إسناده مقال، و يقوّيه حديث: «هو الطهور ماؤه، الحلّ ميتته» و هو عند أحمد و أهل السنن و غيرهم، و صححه جماعة منهم ابن خزيمة و ابن حبان، و قد أطلنا الكلام عليه فى شرحنا للمنتقى. و الإهلال:

رفع الصوت لغير اللّه كأن يقول: باسم اللات و العزى و نحو ذلك، و لا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه ففيه ما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. وَ الْمُنْخَنِقَةُ هى التى تموت بالخنق: و هو حبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل رأسها فى حبل أو بين عودين، أو بفعل آدمىّ أو غيره، و قد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة، فإذا ماتت أكلوها. وَ الْمَوْقُوذَةُ هى التى تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية، يقال: وقذه يقذه وقذا فهو و قيذ، و الوقذ شدّة الضرب، و فلان و قيذ: أى مثخن ضربا، و قد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها، و منه قول الفرزدق:

شغّارة تقذ الفصيل برجلهافطّارة لقوادم الأبكار «١»

قال ابن عبد البرّ: و اختلف العلماء قديما و حديثا فى الصيد بالبندق و الحجر و المعراض، و يعنى بالبندق قوس البندقة، و بالمعراض السهم الذى لا ريش له أو العصا التى رأسها محدّد، قال: فمن ذهب إلى أنه و قيذ لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته على ما روى عن ابن عمر، و هو قول مالك و أبى حنيفة و أصحابه و الثورى و الشافعى و خالفهم الشاميون فى ذلك. قال الأوزاعى فى المعراض: كله خزق أو لم يخزق، فقد كان أبو الدرداء و فضالة بن عبيد و عبد اللّه بن عمر و مكحول لا يرون به بأسا. قال ابن

عبد البرّ: هكذا ذكر الأوزاعى عن عبد اللّه بن عمر، و المعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع، قال: و الأصل فى هذا الباب و الذى عليه العمل و فيه الحجّة حديث عدىّ بن حاتم، و فيه «ما أصاب بعرضه فلا تأكل فإنه و قيذ» انتهى.

قلت: و الحديث فى الصحيحين و غيرهما عن عدىّ قال: «قلت: يا رسول اللّه إنى أرمى بالمعراض الصيد

---

(١). فى المطبوع: الأظفار، و المثبت من تفسير القرطبى (۶/ ۴۸). «الشغارة»: الناقة ترفع قوائمها لتضرب. «الفطر»: الحلب بالسبابة و الوسطى مع الاستعانة بطرف الإبهام.

فأصيب، فقال: إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، و إن أصاب بعرضه فإنما هو و قيذ فلا تأكله» فقد اعتبر صلّى اللّه عليه و سلّم الخزق و عدمه، فالحق أنه لا يحلّ إلا ما خزق لا ما صدم، فلا بدّ من التذكية قبل الموت و إلا كان وقيذا. و أما البنادق المعروفة الآن: و هى بنادق الحديد التى يجعل فيها البارود و الرصاص و يرمى بها، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها، فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا فى المائة العاشرة من الهجرة، و قد سألنى جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات و لم يتمكّن الصائد من تذكيته حيا. و الذى يظهر لى أنه حلال لأنها تخزق و تدخل فى الغالب من جانب منه و تخرج من الجانب الآخر، و قد قال صلّى اللّه عليه و سلّم فى الحديث الصحيح السابق: «إذا رميت بالمعراض فخزق فكله» فاعتبر الخزق فى تحليل الصيد. قوله: وَ الْمُتَرَدِّيَةُ هى التى تتردّى من علو إلى أسفل فتموت من غير فرق بين أن تتردّى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها، و التردّى مأخوذ من الردى و هو الهلاك و سواء تردّت بنفسها أو ردّاها غيرها. قوله: وَ النَّطِيحَةُ هى فعيلة بمعنى مفعولة، و هى التى تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية.

و قال قوم أيضا: فعيلة بمعنى فاعلة، لأنّ الدابتين تتناطحان فتموتان، و قال: نطيحة و لم يقل نطيح مع أنه قياس فعيل، لأن لزوم الحذف مختصّ بما كان من هذا الباب صفة لموصوف مذكور فإن لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية. و قرأ أبو ميسرة: و المنطوحة. قوله: وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ أى ما افترسه ذو ناب كالأسد و النمر و الذئب و الضبع و نحوها، و المراد هنا ما أكل منه السبع، لأن ما أكله السبع كله قد فنى، و من العرب من يخصّ اسم السبع بالأسد، و كانت العرب إذا أكل السبع شاة، ثم خلصوها منه أكلوها، و إن ماتت لم يذكوها. و قرأ الحسن و أبو حيوة: السَّبْعُ بسكون الباء، و هى لغة لأهل نجد، و منه قول حسان فى عتبة بن أبى لهب:

من يرجع العام إلى أهلهفما أكيل السّبع بالرّاجع

و قرأ ابن مسعود: «و أكيلة السبع». و قرأ ابن عباس «و أكيل السبع». قوله: إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ فى محل نصب على الاستثناء المتصل عند الجمهور، و هو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقا، و فيه حياة، و قال المدنيون: و هو المشهور من مذهب مالك، و هو أحد قولى الشافعى أنه إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل. و حكاه فى الموطأ عن زيد بن ثابت، و إليه ذهب إسماعيل القاضى، فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعا؛ أى حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما ذكّيتم فهو الذى يحلّ و لا يحرم، و الأوّل أولى. و الذكاة فى كلام العرب الذبح، قاله قطرب و غيره. و أصل الذّكاة فى اللغة: التمام؛ أى تمام استكمال القوّة، و الذكاء حدة القلب، و الذكاء سرعة الفطنة، و الذّكوة ما تذكى منه النار، و منه أذكيت الحرب و النار: أوقدتهما، و ذكاء اسم الشمس، و المراد هنا: إلا ما أدركتم ذكاته على التمام، و التذكية فى الشرع: عبارة عن انهار الدم، و فرى الأوداج فى المذبوح و النحر فى المنحور و العقر فى غير المقدور مقرونا بالقصد للّه، و ذكر اسمه عليه. و أما الآلة التى تقع بها الذكاة، فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم، و فرى الأوداج، فهو آلة للذكاة ما خلا السن و العظم، و بهذا جاءت الأحاديث

الصحيحة. قوله: وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ قال ابن فارس: النصب حجر كان ينصب فيعبد و يصبّ عليه دماء الذبائح، و النصائب حجارة تنصب حوالى شفير البئر فتجعل عضائد. و قيل النصب: جمع واحده نصاب، كحمار و حمر. و قرأ طلحة بضم النون و سكون الصاد. و روى عن أبى عمرو بفتح النون و سكون الصاد. و قرأ الجحدرى

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۳

بفتح النون و الصاد، جعله اسما موحدا كالجبل و الجمل، و الجمع أنصاب كالأجبال و الإجمال، قال مجاهد: هى حجارة كانت حوالى مكة يذبحون عليها. قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة و تنضح بالدم ما أقبل من البيت و يشرّحون اللحم و يضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: نحن أحقّ أن نعظّم هذا البيت بهذه الأفعال، فأنزل اللّه وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ و المعنى: و النية بذلك تعظيم النصب لا أن الذبح عليها غير جائز، و لهذا قيل إن عَلَى بمعنى اللام: أى لأجلها. قاله قطرب، و هو على هذا داخل فيما أهلّ به لغير اللّه، و خصّ بالذكر لتأكيد تحريمه و لدفع ما كانوا يظنونه من أن ذلك لتشريف البيت و تعظيمه. قوله: وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ معطوف على ما قبله: أى و حرّم عليكم الاستقسام بالأزلام. و الأزلام: قداح الميسر واحدها زلم، قال الشاعر:

بات يقاسيها غلام كالزّلم ليس براعى إبل و لا غنم و لا بجزّار على لحم و ضم و قال آخر:

فلئن جذيمة قتّلت ساداتهافنساؤها يضربن بالأزلام

و الأزلام للعرب ثلاثة أنواع: أحدها مكتوب فيه افعل، و الآخر مكتوب فيه لا تفعل، و الثالث مهمل لا شىء عليه فيجعلها فى خريطة معه، فإذا أراد فعل شىء أدخل يده و هى متشابهة فأخرج واحدا منها، فإن خرج الأوّل فعل ما عزم عليه، و إن خرج الثانى تركه، و إن خرج الثالث أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأوّلين. و إنما قيل لهذا الفعل استقسام لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق و ما يريدون فعله كما يقال استسقى:

أى استدعى السّقى. فالاستقسام: طلب القسم و النصيب. و جملة قداح الميسر عشرة، و قد قدّمنا بيانها، و كانوا يضربون بها فى المقامرة، و قيل: إن الأزلام كعاب فارس و الروم التى يتقامرون بها، و قيل: هى الشطرنج، و إنما حرّم اللّه الاستقسام بالأزلام لأنه تعرّض لدعوى علم الغيب و ضرب من الكهانة. قوله:

ذلِكُمْ فِسْقٌ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا. و الفسق: الخروج عن الحدّ، و قد تقدّم بيان معناه، و فى هذا وعيد شديد، لأنّ الفسق هو أشدّ الكفر لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان و الكفر. قوله: الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ المراد اليوم الذى نزلت فيه الآية، و هو يوم فتح مكة لثمان بقين من رمضان سنة تسع و قيل: سنة ثمان؛ و قيل المراد باليوم الزمان الحاضر و ما يتصل به، و لم يرد يوما معينا. و يئس فيه لغتان ييئس بياءين يأسا، و أيس يأيس إياسا و إياسة.

قاله النضر بن شميل. أى حصل لهم اليأس من إبطال دينكم و أن يردوكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون فَلا تَخْشَوْهُمْ أى لا تخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطلوا دينكم وَ اخْشَوْنِ فأنا القادر على كل شىء إن نصرتكم فلا غالب لكم، و إن خذلتكم لم يستطع غيرى أن ينصركم. قوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ جعلته

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۴

كاملا غير محتاج إلى إكمال لظهوره على الأديان كلها و غلبته لها و لكمال أحكامه التى يحتاج المسلمون إليها من الحلال و الحرام و المشتبه، و وفى ما تضمنه الكتاب و السنة من ذلك، و لا يخفى ما يستفاد من تقديم قوله:

لَكُمْ قال الجمهور: المراد بالإكمال هنا: نزول معظم الفرائض و التحليل و التحريم. قالوا: و قد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا

و آيـة الكلالـة و نحوهما. و المراد باليوم المـذكور هنا هو يوم الجمعـة، و كان يوم عرفة بعد العصـر فى حجة الوداع سـنة عشـر، هكذا ثبت فى الصحيح من حديث عمر بن الخطاب؛ و قيل:

إنها نزلت فى يوم الحجّ الأكبر. قوله: وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي بإكمال الـدين المشـتمل على الأحكام و بفتح مكة و قهر الكفار و إياسهم عن الظهور عليكم كما وعدتكم بقولي: وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ «١». قوله:

وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً أى أخبرتكم برضاى به لكم فإنه سبحانه لم يزل راضيا لأمة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالإسلام فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره، و يحتمل أن يريد رضيت لكم الإسلام الذى أنتم عليه اليوم دينـا باقيـا إلى انقضـاء أيام الـدنيا. و دينا منتصب على التمييز، و يجوز أن يكون مفعولا ثانيا. قوله: فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ هـذا متصـل بـذكر المحرمـات و مـا بينهمـا اعتراض: أى من دعته الضـرورة فِي مَخْمَصَةٍ أى مجاعـة إلى أكـل الميتـة و ما بعـدها من المحرّمات. و الخمص: ضـمور البطن، و رجل خميص و خمصان، و امرأة خميصـة و خمصانـة، و منه أخمص القدم، و يسـتعمل كثيرا فى الجوع، قال الأعشى:

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكمو جاراتكم غرثى «٢» يبتن خمائصا

قوله: غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ الجنف: الميل، و الإثم: الحرام؛ أى حال كون المضـطرّ فى مخمصة غير مائل لإثم، و هو بمعنى غير باغ و لا عاد، و كل مائل فهو متجانف و جنف. و قرأ النخعى و يحيى بن وثّاب و السّلمى «متجنف»، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ به لا يؤاخذه بما ألجأته إليه الضـرورة فى الجوع مع عـدم ميله بأكل ما حرّم عليه إلى الإثم؛ بأن يكون باغيا على غيره أو متعـدّيا لما دعت إليه الضرورة حسبما تقدّم.

و قـد أخرج ابن أبى حـاتم و الطبراني و ابن مردويه، و الحاكم و صـحّحه، عن أبى أمامـة قال: بعثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قومى أدعوهم إلى اللّه و رسوله و أعرض عليهم شعائر الإسلام، فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعة دم و اجتمعوا عليها يأكلونها، قالوا: هلمّ يا صـدى فكل قلت: و يحكم إنما أتيتكم من عنـد من يحرّم هذا عليكم لما أنزل اللّه عليه، قالوا: و ما ذاك؟ قال: فتلوت عليهم هـذا الآيـة حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سـننه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ قال:

و مـا أهـلّ للطواغيت به وَ الْمُنْخَنِقَةُ قـال: التى تخنق فتموت وَ الْمَوْقُوذَةُ قـال: التى تضـرب بالخشـبة فتموت وَ الْمُتَرَدِّيَةُ قال: التى تتردّى من الجبل فتموت وَ النَّطِيحَةُ قال: الشاة التى تنطح الشاة

---

(١). البقرة: ١٥٠.

(٢). غرثى: جوعى.

وَ مـا أَكَلَ السَّبُعُ يقول: مـا أخـذ السبع إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ يقول: ذبحتم من ذلك و به روح فكلوه وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ قال: النصب أنصاب كانوا يذبحون و يهلون عليها وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ قال:

هى القداح كانوا يستقسـمون بها فى الأمور. ذلِكُمْ فِسْقٌ يعنى من أكل ذلك كله فهو فسق. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الرداة التى تتردّى فى البئر، و المترديـة التى تتردى من الجبـل. و أخرج ابن جرير عن سـعيد بن جبير فى قوله: وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ قال: حصـى بيض كانوا يضـربون بها. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير عن الحسن فى الآية قال: كانوا إذا أرادوا أمرا أو سـفرا يعمـدون إلى قداح ثلاثة يكتبون على واحد منها: أمرنى، و على الآخر: نهانى، و يتركون الثالث مخللا بينهما ليس عليه شـىء ثم

يجيلونها، فإن خرج الذى عليه أمرنى، مضوا لأمرهم، و إن خرج الذى عليه نهانى، كفوا، و إن خرج الذى ليس عليه شىء، أعادوها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ قال: يئسوا أن يرجعوا إلى دينهم أبدا. و أخرج البيهقى عنه فى الآية قال: يقول يئس أهل مكة أن يرجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبدا فَلا تَخْشَوْهُمْ فى اتباع محمد وَ اخْشَوْنِ فى عبادة الأوثان و تكذيب محمد، فلما كان واقفا بعرفات نزل عليه جبريل و هو رافع يديه و المسلمون يدعون اللّه الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ يقول: حلالكم و حرامكم فلم ينزل بعد هذا حلال و لا حرام وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي قال: منتى، فلم يحجّ معكم مشرك وَ رَضِيتُ يقول: اخترت لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فمكث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد نزول هذه الآية أحدا و ثمانين يوما، ثم قبضه اللّه إليه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال:

أخبر اللّه نبيّه و المؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، و قد أتمّه فلا ينقص أبدا، و قد رضيه فلا يسخطه أبدا. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: و أىّ آية؟ قالوا: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ قال عمر: و اللّه إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الساعة التى نزلت فيها، نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عشيّة عرفة فى يوم جمعة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَمَنِ اضْطُرَّ يعنى إلى ما حرّم مما سمى فى صدر هذه السورة فِي مَخْمَصَةٍ يعنى فى مجاعة غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ يقول: غير متعمّد لإثم.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۴ الى ۵]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۴) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (۵)

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۶

هذا شروع فى بيان ما أحله اللّه لهم بعد بيان ما حرمه اللّه عليهم، و سيأتى ذكر سبب نزول الآية. قوله:

ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ أى شىء أحلّ لهم؟ أو ما الذى أحلّ لهم من المطاعم إجمالا و من الصيد و من طعام أهل الكتاب و من نسائهم؟ قوله: قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ هى ما يستلذّه آكله و يستطيبه مما أحله اللّه لعباده؛ و قيل: هى الحلال، و قد سبق الكلام فى هذا؛ و قيل: الطّيبات: الذبائح لأنها طابت بالتّذكية، و هو تخصيص للعام بغير مخصص، و السبب و السّياق لا يصلحان لذلك. قوله: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ هو معطوف على الطيبات بتقدير مضاف لتصحيح المعنى: أى أحلّ لكم الطيبات و أحلّ لكم صيد ما علمتم من الجوارح.

و قرأ ابن عباس و محمد بن الحنفية عَلَّمْتُمْ بضم العين و كسر اللام: أى علمتم من أمر الجوارح و الصيد بها. قال القرطبى: و قد ذكر بعض من صنف فى أحكام القرآن أن الآية تدلّ على أن الإباحة تناولت ما علمنا من الجوارح، و هو يتضمّن الكلب و سائر جوارح الطير، و ذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع، فدلّ على جواز بيع الكلب و الجوارح و الانتفاع بها بسائر وجوه المنافع إلا ما خصّه الدليل: و هو الأكل من الجوارح.

أى الكواسب من الكلاب و سباع الطير. قال: أجمعت الأمة على أنّ الكلب إذا لم يكن أسود، و علمه مسلم و لم يأكل من صيده الذى صاده، و أثر فيه بجرح أو تنييب، و صاد به مسلم و ذكر اسم اللّه عند إرساله أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف. فإن انخزم

شرط من هـذه الشـروط دخل الخلاف، فإن كان الـذى يصاد به غير كلب كالفهد و ما أشـبه، و كالبازى و الصّـقر و نحوهما من الطير فجمهور الأمـة على أن كـل مـا صـاد بعـد التعليم فهو جارح كاسب، يقال: جرح فلان و اجترح: إذا اكتسب، و منه الجارحة لأنه يكتسب بها، و منه اجتراح السيئات، و منه قوله تعالى: وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ «١». و قوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ «٢». قوله: مُكَلِّبِينَ حال، و المكلّب: معلم الكلاب لكيفيـة الاصـطياد، و الأخصّ معلم الكلاب و إن كان معلم سائر الجوارح مثله، لأنّ الاصطياد بالكلاب هو الغالب، و لم يكتف بقوله: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مع أنّ التكليب هو التعليم، لقصد التأكيد لما لا بدّ منه من التعليم؛ و قيل: إن السبع يسـمى كلبا فيـدخل كل سـبع يصاد به؛ و قيل: إن هـذه الآيـة خاصـة بالكلاب. و قـد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال: ما يصاد بالبزاة و غيرها من الطّير فما أدركت ذكاته فهو لك حلال، و إلا فلا تطعمه. قال ابن المنذر: و سـئل أبو جعفر عن البازى هل يحلّ صـيده؟ قال: لا، إلا أن تـدرك ذكاته. و قال الضـحاك و السدىّ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ هى الكلاب خاصـة، فـإن كان الكلب الأسود بهيما فكره صـيده الحسن و قتادة و النخعى. و قال أحمـد: ما أعرف أحـدا يرخص فيه إذا كان بهيما، و به قال ابن راهويه. فأما عامة أهل العلم بالمدينة و الكوفة فيرون جواز صـيد كلّ كلب معلم، و احتج من منع من صـيد الكلب الأسود بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «الكلب الأسود شيطان». أخرجه مسلم و غيره، و الحق أنه يحلّ صيد كـلّ ما يـدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب و غيره و بين الأسود من الكلاب و غيره و بين الطير و غيره، و يؤيد هذا أن سبب نزول الآية سؤال عدىّ بن حاتم عن صيد البازى كما سيأتى. قوله: تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ الجملة فى محل نصب على الحال: أى مما علّمكم اللّه مما أدركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذى تهتدون به

---

(١). الأنعام: ٦٠.

(٢). الجاثية: ٢١.

إلى تعليمها و تدريبها حتى تصـير قابلة لإمساك الصـيد عند إرسالكم لها. قوله: فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ الفاء للتفريع، و الجملة متفرّعـة على مـا تقـدّم من تحليل صـيد ما علموه من الجوارح، و من فى قوله: مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ للتبعيض، لأنّ بعض الصـيد لا يؤكل كالجلد و العظم و ما أكله الكلب و نحوه، و فيه دليل على أنه لا بد أن يمسكه على صاحبه فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه، كما فى الحديث الثابت فى الصحيح. و قد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحلّ أكل الصيد الذى يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال. و قال عطاء ابن أبى رباح و الأوزاعى: و هو مروىّ عن سـلمان الفارسى و سعد بن أبى وقاص و أبى هريرة و عبد اللّه بن عمر، و روى عن علىّ و ابن عباس و الحسن البصـرى و الزهرى و ربيعة و مالك و الشافعى فى القديم أنه يؤكل صيده، و يردّ عليهم قوله تعالى: مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لعدى بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم و ذكرت اسم اللّه عليه فكـل مـا أمسك عليـك» و هو فى الصـحيحين و غيرهمـا، و فى لفـظ لهمـا: «فإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه». و أما ما أخرجه أبو داود بإسـناد جيـد من حـديث أبى ثعلبـة قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «إذا أرسلت كلبك المعلم و ذكرت اسم اللّه فكل و إن أكل منه». و قد أخرجه أيضا بإسناد جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جـدّه. و أخرجه أيضا النسائى، فقـد جمع بعض الشافعيـة بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدىّ بن حاتم، و إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار و جاع فأكل من الصيد لجوعه لا لكونه أمسكه على نفسه فإنه لا يؤثر ذلك و لا يحرم به الصـيد، و حملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة الخشـنى، و حديث عمرو بن شـعيب، و هذا جمع حسن. و قال آخرون: إنه إذا أكل الكلب منه حرم لحـديث عـدىّ، و إن أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين؛ و قيل: يحمل حديث أبى

ثعلبة على ما إذا أمسكه و خلاه، ثم عاد فأكل منه.

و قد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح و لم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد، قالوا: و حديث عدىّ بن حاتم أرجح لكونه فى الصحيحين. و قد قررت هذا المسلك فى شرحى للمنتقى بما يزيد الناظر فيه بصيرة. قوله: وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ الضمير فى عَلَيْهِ يعود إلى ما عَلَّمْتُمْ أى سمّوا عليه عند إرساله، أو مما أمسكن عليكم. أى سمّوا عليه إذا أردتم ذكاته. و قد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح، و استدلّوا بهذه الآية، و يؤيده حديث عدى بن حاتم الثابت فى الصحيحين و غيرهما بلفظ:

«إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم اللّه و إذا رميت بسهمك فاذكر اسم اللّه». و قال بعض أهل العلم: إن المراد التسمية عند الأكل. قال القرطبى: و هو الأظهر، و استدلّوا بالأحاديث التى فيها الإرشاد إلى التّسمية و هذا خطأ، فإن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد وقت التسمية بإرسال الكلب و إرسال السهم، و مشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر، و مسألة غير هذه المسألة فلا وجه لحمل ما ورد فى الكتاب و السنة هنا على ما ورد فى التسمية عند الأكل، و لا ملجئ إلى ذلك، و فى لفظ فى الصحيحين من حديث عدىّ: «إن أرسلت كلبك و سمّيت فأخذ فكل». و قد ذهب جماعة إلى أنّ التسمية شرط و ذهب آخرون إلى أنها سنّة فقط، و ذهب جماعة إلى أنها شرط على الذاكر لا الناسى، و هذا أقوى الأقوال و أرجحها. قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۸

أى حسابه سبحانه سريع إتيانه و كل آت قريب. قوله: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى، و هى قوله: أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ و قد تقدّم بيان الطيبات. قوله: وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ الطعام: اسم لما يؤكل، و منه الذبائح، و ذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبائح.

و فى هذه الآية دليل على أنّ جميع طعام أهل الكتب من غير فرق بين اللحم و غيره حلال للمسلمين و إن كانوا لا يذكرون على ذبائحهم اسم اللّه، و تكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ و ظاهر هذا أنّ ذبائح أهل الكتاب حلال، و إن ذكر اليهودىّ على ذبيحته اسم عزير، و ذكر النصرانىّ على ذبيحته اسم المسيح. و إليه ذهب أبو الدرداء و عبادة بن الصامت و ابن عباس و الزهرى و ربيعة و الشعبى و مكحول. و قال علىّ و عائشة و ابن عمر: إذا سمعت الكتابىّ يسمى غير اللّه فلا تأكل، و هو قول طاوس و الحسن و تمسكوا بقوله تعالى: وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ «۱» و يدلّ عليه أيضا قوله:

وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ و قال مالك: إنه يكره و لا يحرم. فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير اللّه، و أما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبرى «۲» و ابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، و لما ورد فى السّنّة من أكله صلّى اللّه عليه و سلّم من الشاة المصلية التى أهدتها إليه اليهودية، و هو فى الصحيح، و كذلك الجراب الشّحم الذى أخذه بعض الصحابة من خيبر و علم بذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى الصحيح أيضا و غير ذلك.

و المراد بأهل الكتاب هنا اليهود و النصارى. و أما المجوس، فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم و لا تنكح نساؤهم لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، و خالف فى ذلك أبو ثور، و أنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد بن حنبل: أبو ثور كاسمه، يعنى فى هذه المسألة، و كأنه تمسك بما يروى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مرسلا أنه قال فى المجوس: «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب» و لم يثبت بهذا اللفظ، و على فرض أن له أصلا ففيه زيادة تدفع ما قاله، و هى قوله: «غير آكلى ذبائحهم و لا ناكحى نسائهم». و قد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة له بفنّ الحديث من المفسرين و الفقهاء، و لم يثبت الأصل و لا الزيادة، بل الذى ثبت فى الصحيح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخذ الجزية من مجوس هجر، و أما بنو تغلب

فكان عليّ بن أبى طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب، و كان يقول: إنهم لم يتمسّكوا بشىء من النصرانية إلا بشرب الخمر، و هكذا سائر العرب المتنصّرة كتنوخ و جذام و لخم و عاملة و من أشبههم. قال ابن كثير: و هو قول غير واحد من السلف و الخلف.

و روى عن سعيد بن المسيب و الحسن البصرى أنهما كانا لا يريان بأسا بذبيحة نصارى بنى تغلب. و قال القرطبى: و قال جمهور الأمّة إنّ ذبيحة كلّ نصرانى حلال سواء كان من بنى تغلب أو من غيرهم، و كذلك اليهود. قال: و لا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى ذكاة كالطعام يجوز أكله. قوله: وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ أى و طعام المسلمين حلال لأهل الكتاب، و فيه دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من ذبائحهم، و هذا من باب المكافأة و المجازاة و إخبار المسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال

---

(١). الأنعام: ١٢١.

(٢). هو على بن محمد بن على، أبو الحسن الطبرى، المعروف بالكيا الهرّاسى، فقيه، مفسّر (ت ٥٠٤ ه)

فتح القدير، ج٢، ص: ١٩

لهم بطريق الدلالة الالتزامية. قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ اختلف فى تفسير المحصنات هنا، فقيل:

العفائف، و قيل: الحرائر. و قرأ الشّعبى بكسر الصاد، و به قرأ الكسائى. و قد تقدّم الكلام فى هذا مستوفى فى البقرة و النساء. و المحصنات مبتدأ، و من المؤمنات وصف له و الخبر محذوف أى حلّ لكم، و ذكرهنّ هنا توطئة و تمهيدا لقوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ و المراد بهنّ الحرائر دون الإماء، هكذا قال الجمهور، و حكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعمّ كل كتابية حرّة أو أمة؛ و قيل:

المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات، و به قال الشافعى، و هو تخصيص بغير مخصص. و قال عبد اللّه بن عمر:

لا تحلّ النصرانية، قال: و لا أعلم شركا أكبر من أن تقول: ربّها عيسى، و قد قال اللّه: وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ الآية، و يجاب عنه بأنّ هذه الآية مخصّصة للكتابيات من عموم المشركات فيبنى العام على الخاص. و قد استدلّ من حرّم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر، و بقوله تعالى:

فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ و قد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم و خالفهم من قال:

إن الآية تعمّ أو تخصّ العفائف كما تقدّم. و الحاصل أنه يدخل تحت هذه الآية الحرّة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال إلا على قول ابن عمر فى النصرانية، و يدخل تحتها الحرّة التى ليست بعفيفة و الأمة العفيفة، على قول من يقول: إنه يجوز استعمال المشترك فى كلا معنييه، و أما من لم يجوز ذلك فإن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة إلا بدليل آخر، و يقول: بجواز نكاح الحرّة العفيفة كانت أو غير عفيفة، و إن حمل المحصنات هنا على العفائف قال: بجواز نكاح الحرّة العفيفة و الأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما. قوله: إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ أى مهورهنّ، و جواب إذا محذوف: أى فهنّ حلال، أو هى ظرف لخبر المحصنات المقدر: أى حلّ لكم. قوله: مُحْصِنِينَ منصوب على الحال: أى حال كونكم أعفاء بالنكاح، و كذا قوله: غَيْرَ مُسافِحِينَ منصوب على الحال من الضمير فى محصنين أو صفة لمحصنين، و المعنى: غير مجاهرين بالزنا. قوله: وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ معطوف على غَيْرَ مُسافِحِينَ أو على مُسافِحِينَ وَ لا مزيدة للتأكيد، و الخدن يقع على الذكر و الأنثى. أى لم يتخذوا معشوقات، فقد شرط اللّه فى الرجال العفّة و عدم المجاهرة بالزنا و عدم اتخاذ أخدان، كما شرط فى النساء أن يكنّ محصنات.

وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ أى بشرائع الإسلام فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ أى بطل وَ هُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ و قرأ ابن السّميقع فقد حبط بفتح الباء اه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صححه و البيهقى فى سننه عن أبى رافع، أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمره بقتل الكلاب فى الناس، فقالوا: يا رسول اللّه ما ذا يحلّ لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها؟ فسكت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ الآية. و أخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه. و أخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أن عدىّ ابن حاتم و زيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالا: يا رسول اللّه إنّا قوم نصيد بالكلاب و البزاة، فنزلت. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن الشعبى: أن عدىّ بن حاتم الطائىّ أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسأله،

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۰

فذكر نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ قال: هى الكلاب المعلّمة، و البازى و الجوارح يعنى الكلاب و الفهود و الصّقور و أشباهها. و أخرج ابن جرير عنه قال: آية المعلّم أن يمسك صيده فلا يأكل منه حتى يأتى صاحبه.

و أخرج عنه أيضا قال: إذا أكل الكلب فلا تأكل، فإنما أمسك على نفسه. و أخرج عبد بن حميد عنه نحوه، و زاد: و إذا أكل الصقر فكل؛ لأنّ الكلب تستطيع أن تضربه و الصقر لا تستطيع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عنه فى قوله: وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: ذبائحهم، و فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ قال: حلّ لكم إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ يعنى مهورهنّ مُحْصِنِينَ يعنى تنكحونهنّ بالمهر و البينة غَيْرَ مُسافِحِينَ غير معالنين بالزنا وَ لا مُتَّخِذِی أَخْدانٍ يعنى يسرّون بالزنا. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: أحلّ اللّه لنا محصنتين محصنة مؤمنة و محصنة من أهل الكتاب، نساؤنا عليهم حرام و نساؤهم لنا حلال. و أخرج ابن جرير عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«نتزوج نساء أهل الكتاب و لا يتزوّجون نساءنا». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال: المسلم يتزوّج النصرانية و لا يتزوج النصرانىّ المسلمة. و أخرج الطبرانى و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال: إنما أحلّت ذبائح اليهود و النصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة و الإنجيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: الحرائر. و أخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: العفائف.

[سورة المائدة (۵): آية ۶]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۶)

قوله: إِذا قُمْتُمْ إذا أردتم القيام، تعبيرا بالمسبب عن السبب، كما فى قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ «۱».

و قد اختلف أهل العلم فى هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة، فقالت طائفة: هو عامّ فى كلّ قيام إليها، سواء كان القائم متطهرا أو محدثا، فإنه ينبغى له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ، و هو مروىّ عن علىّ و عكرمة. و قال ابن سيرين: كان الخلفاء

يتوضؤون لكل صلاة. و قالت طائفة أخرى: إن هذه الأمر خاصّ بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو ضعيف، فإنّ الخطاب للمؤمنين و الأمر لهم. و قالت طائفة: الأمر للندب طلبا للفضل.
و قال آخرون: إنّ الوضوء لكلّ صلاة كان فرضا عليهم بهذه الآية، ثم نسخ فى فتح مكة. و قال جماعة:

---

(۱). النحل: ۹۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۱

هذا الأمر خاصّ بمن كان محدثا. و قال آخرون: المراد إذا قمتم من النوم إلى- الصلاة، فيعمّ الخطاب كل قائم من نوم. و قد أخرج مسلم و أحمد و أهل السنن عن بريدة قال: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يتوضّأ عند كلّ صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ، و مسح على خفّيه، و صلّى الصّلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول اللّه إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله، فقال: «عمدا فعلته يا عمر». و هو مروىّ من طرق كثيرة بألفاظ متفقة فى المعنى. و أخرج البخارى و أحمد و أهل السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول: كان النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم يتوضّأ عند كلّ صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنّا نصلّى الصّلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. فتقرر بما ذكر أنّ الوضوء لا يجب إلا على المحدث، و به قال جمهور أهل العلم و هو الحق. قوله: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ الوجه فى اللغة مأخوذ من المواجهة، و هو عضو مشتمل على أعضاء، و له طول و عرض، فحدّه فى الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين، و فى العرض من الأذن إلى الأذن، و قد ورد الدليل بتخليل اللحية. و اختلف العلماء فى غسل ما استرسل، و الكلام فى ذلك مبسوط فى مواطنه. و قد اختلف أهل العلم أيضا: هل يعتبر فى الغسل الدلك باليد أم يكفى إمرار الماء؟
و الخلاف فى ذلك معروف، و المرجع اللغة العربية؛ فإن ثبت فيها أن الدّلك داخل فى مسمّى الغسل كان معتبرا و إلا فلا. قال فى شمس العلوم: غسل الشىء غسلا إذا أجرى عليه الماء و دلكه، انتهى. و أما المضمضة و الاستنشاق، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم و الأنف فقد ثبت غسلهما بالسّنة الصحيحة، و الخلاف فى الوجوب و عدمه معروف. و قد أوضحنا ما هو الحق فى مؤلفاتنا. قوله: وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ إلى الغاية، و أما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحلّ خلاف. و قد ذهب سيبويه و جماعة إلى أنّ ما بعدها إن كان من نوع ما قبلها دخل و إلا فلا؛ و قيل: إنها هنا بمعنى مع. و ذهب قوم إلى أنها تفيد الغاية مطلقا، و أما الدخول و عدمه فأمر يدور مع الدّليل. و قد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل؛ و استدلوا بما أخرجه الدارقطنى و البيهقى من طريق القاسم بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عقيل عن جدّه عن جابر بن عبد اللّه قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا توضّأ أدار الماء على مرفقيه». و لكن القاسم هذا متروك، و جدّه ضعيف. قوله:
وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ قيل: الباء زائدة، و المعنى: امسحوا رؤوسكم، و ذلك يقتضى تعميم المسح لجميع الرأس، و قيل: هى للتبعيض، و ذلك يقتضى أنه يجزئ مسح بعضه. و استدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى فى التيمم: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ و لا يجزئ مسح بعض الوجه اتّفاقا؛ و قيل: إنها للإلصاق؛ أى ألصقوا أيديكم برءوسكم، و على كلّ حال فقد ورد فى السّنة المطهرة ما يفيد أنه يكفى مسح بعض الرأس كما أوضحناه فى مؤلفاتنا، فكان هذا دليلا على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة، و لا شك أنّ من أمر غيره بأن يمسح رأسه كان ممتثلا بفعل ما يصدق عليه مسمى المسح، و ليس فى لغة العرب ما يقتضى أنه لا بدّ فى مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس، و هكذا سائر الأفعال المتعدية نحو اضرب زيدا أو اطعنه أو ارجمه، فإنه يوجد المعنى العربى بوقوع الضرب أو الطعن أو الرجم على عضو من أعضائه، و لا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها إنه لا يكون ضاربا إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد، و كذلك

فتح القدير، ج‏2، ص: 22
الطعن و الرجم و سائر الأفعال، فاعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال فى مسح الرأس. فإن قلت: يلزم مثل هذا فى غسل الوجه و اليدين و الرجلين. قلت: ملتزم لو لا البيان من السّنة فى الوجه و التحديد بالغاية فى اليدين و الرجلين بخلاف الرأس، فإنه ورد فى السّنة مسح الكل و مسح البعض. قوله: وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ قرأ نافع بنصب الأرجل، و هى قراءة الحسن البصرى و الأعمش، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حمزة بالجرّ. و قراءة النصب تدلّ على أنه يجب غسل الرجلين، لأنها معطوفة على الوجه، و إلى هذا ذهب جمهور العلماء. و قراءة الجرّ تدل على أنه يجوز الاقتصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس و إليه ذهب ابن جرير الطبرى و هو مرويّ عن ابن عباس. قال ابن العربى: اتفقت الأمة على وجوب غسلهما، و ما علمت من ردّ ذلك إلا الطبرى من فقهاء المسلمين و الرافضة من غيرهم، و تعلق الطبرى بقراءة الجرّ، قال القرطبى:
قد روى عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان و مسحتان، قال: و كان عكرمة يمسح رجليه؛ و قال:
ليس فى الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح. و قال عامر الشعبى: نزل جبريل بالمسح. قال: و قال قتادة:
افترض اللّه مسحتين و غسلتين. قال: و ذهب ابن جرير الطبرى إلى أنّ فرضهما التخيير بين الغسل و المسح، و جعل القراءتين كالروايتين، و قوّاه النحاس، و لكنه قد ثبت فى السّنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله صلّى اللّه عليه و سلّم و قوله غسل الرجلين فقط، و ثبت عنه أنه قال: «ويل للأعقاب من النار» و هو فى الصحيحين و غيرهما فأفاد وجوب غسل الرجلين، و أنه لا يجزئ مسحهما، لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب و يخطئ ما أخطأ، فلو كان مجزئا لما قال: «ويل للأعقاب من النار» و قد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ و غسل رجليه:
«هذا وضوء لا يقبل اللّه الصلاة إلا به». و قد ثبت فى صحيح مسلم و غيره أن رجلا توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له: «ارجع فأحسن وضوءك». و أما المسح على الخفين فهو ثابت بالأحاديث المتواترة. و قوله: إِلَى الْكَعْبَيْنِ الكلام فيه كالكلام فى قوله: إِلَى الْمَرافِقِ و قد قيل فى وجه جمع المرافق و تثنية الكعاب: إنه لما كان فى كلّ رجل كعبان و لم يكن فى كلّ يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعاب؛ تنبيها على أن لكلّ رجل كعبين، بخلاف المرافق فإنها جمعت لأنه لما كان فى كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره، ذكر معنى هذا ابن عطية. و قال الكواشى: ثنى الكعبين و جمع المرافق لنفى توهم أن فى كلّ واحدة من الرجلين كعبين، و إنما فى كل واحدة كعب واحد له طرفان من جانبى الرجل، بخلاف المرفق فهى أبعد عن الوهم، انتهى.
و بقى من فرائض الوضوء النية و التسمية و لم يذكرا فى هذه الآية، بل وردت بهما السّنّة؛ و قيل: إن فى هذه الآية ما يدلّ على النية، لأنه لما قال: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ كان تقدير الكلام:
فاغسلوا وجوهكم لها، و ذلك هو النية المعتبرة. قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا أى فاغتسلوا بالماء.
و قد ذهب عمر بن الخطاب و ابن مسعود إلى أنّ الجنب لا يتيمّم البتة، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالا بهذه الآية، و ذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنابة مع عدم الماء، و هذه الآية هى للواجد، على أن التطهر هو أعمّ من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه، و هو التراب. و قد صحّ عن عمر و ابن مسعود الرجوع
فتح القدير، ج‏2، ص: 23
إلى ما قاله الجمهور للأحاديث الصحيحة الواردة فى تيمّم الجنب مع عدم الماء. و قد تقدّم تفسير الجنب فى النساء. قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى‏ أَوْ عَلى‏ سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ «1» قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النساء مستوفى، و كذلك تقدّم الكلام على ملامسة النساء و على التيمم و على الصعيد، و من فى قوله:

مِنْهُ لابتداء الغاية، و قيل: للتبعيض. قيل: و وجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام فى أنواع الطهارة.

ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ أى ما يريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم فى الدين، و منه قوله تعالى: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «٢» ثم قال: وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ من الذنوب، و قيل: من الحدث الأصغر و الأكبر وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ أى بالترخيص لكم فى التيمم عند عدم الماء أو بما شرعه لكم من الشرائع التى عرّضكم بها للثواب لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمته عليكم فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين.

و قد أخرج مالك و الشافعى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن زيد بن أسلم فى قوله: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ قال: قمتم من المضاجع، يعنى النوم. و أخرج ابن جرير عن السدّىّ مثله. و أخرج ابن جرير أيضا عنه يقول: إذا قمتم و أنتم على غير طهر. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى قوله: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ قال: ذلك الغسل الدّلك. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير عن أنس أنه قيل له: إنّ الحجاج خطبنا فقال: اغسلوا وجوهكم و أيديكم، و امسحوا برءوسكم و أرجلكم، و أنه ليس شىء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه، فاغسلوا بطونهما و ظهورهما و عراقيبهما. قال أنس:

صدق اللّه و كذب الحجاج، قال اللّه: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ و كان أنس إذا مسح قدميه بلّهما. و أخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: اجتمع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على غسل القدمين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: مِنْ حَرَجٍ قال: من ضيق. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ قال: تمام النّعمة دخول الجنة، لم يتمّ نعمته على عبد لم يدخل الجنّة.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧ الى ١١]

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١٠) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

---

(١). النساء: ٤٣.

(٢). الحج: ٧٨.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٤

نِعْمَةَ اللَّهِ قيل: هى الإسلام. و الميثاق: العهد؛ قيل: المراد به هنا: ما أخذه على بنى آدم كما قال: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ «١» الآية. قال مجاهد و غيره: نحن و إن لم نذكره فقد أخبرنا اللّه به؛ و قيل: هو خطاب لليهود، و العهد: ما أخذه عليهم فى التّوراة. و ذهب جمهور المفسرين من السلف و من بعدهم إلى أنه العهد الذى أخذه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة العقبة عليهم، و هو السّمع و الطّاعة فى المنشط و المكره، و أضافه تعالى إلى نفسه لأنه عن أمره و إذنه كما قال: إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ «٢»، و بيعة العقبة مذكورة فى كتب السير، و هذا متصل بقوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ «٣». قوله: إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا أى وقت قولكم هذا القول، و هذا متعلّق ب واثَقَكُمْ أو بمحذوف وقع حالا: أى كائنا هذا الوقت، و بِذاتِ الصُّدُورِ: ما تخفيه الصّدور لكونها مختصّة بها لا يعلمها أحد، و لهذا أطلق عليها ذات التى بمعنى الصاحب، و إذا كان سبحانه عالما بها فكيف بما كان ظاهرا جليا. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ قد تقدّم تفسيرها فى النساء، و صيغة المبالغة فى قَوَّامِينَ تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتمّ قيام لِلَّهِ أى لأجله تعظيما لأمره و طمعا فى ثوابه. و القسط: العدل. و قد تقدّم الكلام على قوله: يَجْرِمَنَّكُمْ مستوفى؛ أى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل و كتم الشهادة اعْدِلُوا هُوَ أى العدل المدلول عليه بقوله اعدلوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى التى أمرتم بها غير مرة؛ أى أقرب لأن تتقوا اللّه، أو لأن تتقوا النار. قوله:

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ هذه الجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لقوله: وَعَدَ على معنى وعدهم أن لهم مغفرة، أو وعدهم مغفرة فوقعت الجملة موقع المفرد فأغنت عنه، و مثله قول الشاعر «۴»:

وجدنا الصّالحين لهم جزاءو جنّات و عينا سلسبيلا

قوله: أَصْحابُ الْجَحِيمِ أى ملابسوها. قوله: إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ظرف لقوله: اذْكُرُوا أو للنعمة أو لمحذوف وقع حالا منها أَنْ يَبْسُطُوا أى بأن يبسطوا. و قوله: فَكَفَّ معطوف على قوله: هَمَ و سيأتى بيان سبب نزول هذه الآية، و به يتّضح المعنى.

و قد أخرج ابن جرير و الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس فى قوله: إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا يعنى حين بعث اللّه النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أنزل عليه الكتاب قالوا: آمنا بالنبىّ و الكتاب و أقررنا بما فى التوراة، فذكّرهم اللّه ميثاقه الذى أقرّوا به على أنفسهم، و أمرهم بالوفاء به. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد قال: النّعم الآلاء، و ميثاقه الذى واثقهم به قال: الذى واثق به بنى آدم فى ظهر آدم عليه السلام.

و أخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن كثير فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ الآية.

قال: نزلت فى يهود خيبر، ذهب إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يستفتيهم فى دية فهمّوا أن يقتلوه، فذلك قوله:

وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا الآية. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد اللّه أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نزل منزلا فتفرّق الناس فى العضاه يستظلّون

---

(۱). الأعراف: ۱۷۲.

(۲). الفتح: ۱۰.

(۳). المائدة: ۱.

(۴). هو عبد العزيز الكلابى.

تحتها، فعلّق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى إلى سيفه فأخذه فسلّه، ثم أقبل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: من يمنعك منى؟ قال: اللّه، قال الأعرابى مرتين أو ثلاثا: من يمنعك منى؟ و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: اللّه، فشام الأعرابىّ السيف، فدعا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابى و هو جالس إلى جنبه لم يعاقبه. قال معمر: و كان قتادة يذكر نحو هذا. و يذكر أن قوما من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأرسلوا هذا الأعرابى، و يتأوّل: اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ الآية.

و أخرج الحاكم و صحّحه عنه بنحوه، و ذكر أن اسم الرجل غورث بن الحارث، و أنه لما قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«اللّه» سقط السيف من يده، فأخذه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: «من يمنعك منى؟» قال: كن خير آخذ، قال:

فشهد أن لا إله إلا اللّه. و أخرجه أيضا ابن إسحاق و أبو نعيم فى الدلائل عنه. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس: أنّ بنى النضير همّوا أن يطرحوا حجرا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه، فجاء جبريل فأخبره بما همّوا، فقام و من معه،

فنزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكَمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ الآية، و روى نحو هذا من طرق عن غيره، و قصة الأعرابى و هو غورث المذكور ثابتة فى الصحيح.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِى إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۲) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳) وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۴)

قوله: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ كلام مستأنف يتضمّن ذكر بعض ما صدر من بنى إسرائيل من الخيانة.

و قد تقدّم بيان الميثاق الذى أخذه اللّه عليهم. و اختلف المفسرون فى كيفية بعث هؤلاء النقباء بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم العالم بأمورهم الذى ينقب عنها و عن مصالحهم فيها. و النقاب: الرجل العظيم الذى هو فى الناس على هذه الطريقة، و يقال نقيب القوم لشاهدهم و ضمينهم. و النقيب: الطريق فى الجبل هذا أصله، و سمّى به نقيب القوم لأنه طريق إلى معرفة أمورهم. و النقيب أعلى مكانا من العريف، فقيل: المراد يبعث هؤلاء النقباء أنهم بعثوا أمناء على الاطلاع على الجبارين و النظر فى قوّتهم و منعتهم فساروا ليختبروا حال من بها و يخبروا بذلك، فاطلعوا من الجبارين على قوّة عظيمة و ظنوا أنهم لا قبل لهم بها، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بنى إسرائيل و أن يعلموا به موسى، فلما انصرفوا إلى بنى إسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قراباتهم،

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۶

ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو و قالوا: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا «۱» و قيل: إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سبطه بأن يؤمنوا و يتقوا اللّه، و هذا معنى بعثهم، و سيأتى ذكر بعض ما قاله جماعة من السلف فى ذلك. قوله: وَ قالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ أى قال ذلك لبنى إسرائيل، و قيل للنقباء؛ و المعنى: إنى معكم بالنصر و العون، و اللام فى قوله: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ هى الموطئة للقسم المحذوف، و جوابه لَأُكَفِّرَنَ و هو سادّ مسدّ جواب الشرط. و التعزير: التعظيم و التوقير، و أنشد أبو عبيدة:

و كم من ماجد لهم كريمو من ليث يعزّر فى النّدىّ

أى يعظّم و يوقّر. و يطلق التعزير على الضرب و الردّ، يقال: عزّرت فلانا: إذا أدّبته و رددته عن القبيح، فقوله: وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ أى عظمتموهم على المعنى الأوّل، أو رددتم عنهم أعداءهم و منعتموهم على الثانى.

قوله: وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أى أنفقتم فى وجوه الخير، و قَرْضاً مصدر محذوف الزوائد كقوله تعالى: وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً أو مفعول ثان لأقرضتم. و الحسن: قيل هو ما طابت به النفس؛ و قيل:

ما ابتغى به وجه اللّه؛ و قيل: الحلال. قوله: فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ أى بعد الميثاق أو بعد الشرط المذكور فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أى أخطأ وسط الطريق. قوله: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ الباء سببية و ما زائدة، أى فبسبب نقضهم ميثاقهم لَعَنَّاهُمْ أى طردناهم و أبعدناهم وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً أى صلبة لا تعى خيرا و لا تعقله. و قرأ حمزة و الكسائى «قسيّة» بتشديد الياء من غير ألف، و هى قراءة ابن مسعود و النخعى و يحيى بن وثّاب؛ يقال: درهم قسىّ مخفف السين مشدّد الياء: أى زائف، ذكر ذلك أبو عبيد. و قال الأصمعى

و أبو عبيدة: درهم قسىّ كأنه معرب قاس. و قرأ الأعمش «قسية» بتخفيف الياء. و قرأ الباقون:
قاسِيَةً. يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ الجملة مستأنفة لبيان حالهم، أو حالية: أى يبدّلونه بغيره أو يتأولونه على غير تأويله. و قرأ السلمى و النخعى الكلام. قوله: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ أى لا تزال يا محمد تقف على خائنة منهم، و الخائنة: الخيانة؛ و قيل: هو نعت لمحذوف، و التقدير فرقة خائنة، و قد تقع للمبالغة نحو علامة و نسابة إذا أردت المبالغة فى وصفه بالخيانة؛ و قيل: خائنة، معصية.
قوله: إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ استثناء من الضمير فى منهم فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ قيل: هذا منسوخ بآية السيف؛ و قيل: خاص بالمعاهدين.
قوله: وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ الجار و المجرور متعلق بقوله: أَخَذْنا و التقديم للاهتمام، و التقدير: و أخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقهم: أى فى التوحيد و الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و بما جاء به. قال الأخفش: هو كقولك أخذت من زيد ثوبه و درهمه، فرتبة الذين بعد أخذنا. و قال الكوفيون بخلافه؛ و قيل: إن الضمير فى قوله: مِيثاقَهُمْ راجع إلى بنى إسرائيل:
أى أخذنا. و قال الكوفيون بخلافه؛ و قيل: إن الضمير فى قوله: مِيثاقَهُمْ راجع إلى بنى إسرائيل:
أى أخذنا من النصارى مثل ميثاق المذكورين قبلهم من بنى إسرائيل، و قال: مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى و لم يقل و من النصارى للإيذان بأنهم كاذبون فى دعوى النصرانية و أنهم أنصار اللّه. قوله: فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ أى نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيبا وافرا عقب أخذه عليهم فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ أى ألصقنا ذلك بهم، مأخوذ من الغراء: و هو ما يلصق الشىء بالشىء كالصمغ و شبهه يقال:

---

(١). المائدة: ٢۴.

غرى بالشىء يغرى غريا بفتح الغين مقصورا، و غراء بكسرها ممدودا، أى أولع به حتى كأنه صار ملتصقا به، و مثل الإغراء التحرش، و أغريت الكلب: أى أولعته بالصيد، و المراد بقوله: بَيْنَهُمُ اليهود و النصارى لتقدم ذكرهم جميعا؛ و قيل: بين النصارى خاصة، لأنهم أقرب مذكور، و ذلك لأنهم افترقوا إلى اليعقوبية و النسطورية و الملكانية، و كفر بعضهم بعضا، و تظاهروا بالعداوة فى ذات بينهم. قال النحاس:
و ما أحسن ما قيل فى معنى فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إن اللّه عز و جل أمر بعداوة الكفار و إبغاضهم، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبتها و إبغاضها. قوله: وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ تهديد لهم:
أى سيلقون جزاء نقض الميثاق.
و قد أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ قال: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له و لا يعبدوا غيره وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً أى كفيلا كفلوا عليهم بالوفاء للّه بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به و فيما نهاهم عنه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً قال: من كلّ سبط من بنى إسرائيل رجال أرسلهم موسى إلى الجبارين فوجدوهم يدخل فى كمّ أحدهم اثنان منهم، و لا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة أنفس منهم فى خشبة، و يدخل فى شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقباء كلهم ينهى سبطه عن قتالهم إلا يوشع ابن نون و كالب بن يافنة، فإنهما أمرا الأسباط بقتال الجبارين و مجاهدتهم فعصوهما و أطاعوا الآخرين، فهما الرجلان اللذان أنعم اللّه عليهما، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا و يمسون حيث أصبحوا فى تيههم ذلك، فضرب موسى الحجر

لكل سبط عينا حجرا لهم يحملونه معهم، فقال لهم موسى:
اشربوا يا حمير، فنهاه اللّه عن سبهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً قال: هم من بنى إسرائيل بعثهم موسى لينظروا إلى المدينة فجاؤوا بحبة من فاكهتهم وقر رحل، فقال: اقدروا قوّة القوم و بأسهم و هذه فاكهتهم، فعند ذلك فتنوا فقالوا لا نستطيع القتال فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا و قد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الأسباط، و أسماؤهم مذكورة فى السفر الرابع من التوراة، و فيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ قال: أعنتموهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ قال:
نصرتموهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ قال: هو ميثاق أخذه اللّه على أهل التوراة فنقضوه. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ يعنى حدود اللّه، يقولون: إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، و إن خالفكم فاحذروا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ قال: نسوا الكتاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ قال: هم يهود مثل الذى همّوا به من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يوم دخل عليهم حائطهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ قال: كذب و فجور، و فى قوله: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ قال: لم يؤمر

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٨

يومئذ بقتالهم، فأمره اللّه أن يعفو عنهم و يصفح ثم نسخ ذلك فى براءة فقال: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ «١» الآية. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر عن إبراهيم النخعى فى قوله: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ قال: أغرى بعضهم ببعض بالخصومات و الجدال فى الدين.

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٥ الى ١٦]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)

الألف و اللام فى الكتاب للجنس و الخطاب لليهود و النصارى قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا أى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حال كونه يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ المنزل عليكم، و هو التوراة و الإنجيل؛ كآية الرجم و قصة أصحاب السبت الممسوخين قردة وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ مما تخفونه، فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإنّ ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرّد افتضاحكم؛ و قيل المعنى: إنه يعفو عن كثير فيتجاوزه و لا يخبركم به؛ و قيل: يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم، و الجملة فى محل نصب عطفا على الجملة الحالية: أعنى قوله: يُبَيِّنُ لَكُمْ قوله: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان.

قال الزجاج: النور محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: الإسلام. و الكتاب المبين: القرآن، فإنه المبين، و الضمير فى قوله:
يَهْدِي بِهِ راجع إلى الكتاب أو إليه و إلى النور لكونهما كالشى‏ء الواحد مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ أى ما رضيه اللّه، و سُبُلَ السَّلامِ طرق السلامة من العذاب، الموصلة إلى دار السلام، المنزهة عن كل آفة؛ و قيل: المراد بالسلام: الإسلام وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ الكفرية إِلَى النُّورِ الإسلامى وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق لا عوج فيها و لا مخافة.
و قد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: رَسُولُنا قال: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير أيضا عن عكرمة قال: إن

نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى و الذى رفع الطور و ناشده بالمواثيق التى أخذت عليهم حتى أخذه أفكل «٢»، فقال: إنه لما كثر فينا جلدنا مائة جلدة و حلقنا الرؤوس. فحكم عليهم بالرّجم، فنزلت هذه الآية. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ يقول عن كثير من الذنوب. و أخرج ابن جرير عن السدى قال: سُبُلَ السَّلامِ هى سبيل اللّه الذى شرعه لعباده و دعاهم إليه و ابتعث به رسله؛ و هو الإسلام.

---

(١). التوبة: ٢٩.

(٢). الأفكل: الرّعدة.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٩

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٧ الى ١٨]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

ضمير الفصل فى قوله: هُوَ الْمَسِيحُ يفيد الحصر؛ قيل: و قد قال بذلك بعض طوائف النصارى؛ و قيل: لم يقل به أحد منهم، و لكن استلزم قولهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ لا غيره، و قد تقدّم فى آخر سورة النساء ما يكفى و يغنى عن التكرار. قوله: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً الاستفهام للتوبيخ و التقريع.

و الملك؛ و الملك: الضبط و الحفظ و القدرة، من قولهم: ملكت على فلان أمره: أى قدرت عليه: أى فمن يقدر أن يمنع إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً و إذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إله إلا اللّه، و لا ربّ غيره، و لا معبود بحق سواه، و لو كان المسيح إلها كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شىء، و لقدر على أن يدفع عن نفسه أقلّ حال و لم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها، و تخصيصها بالذكر مع دخولها فى عموم من فى الأرض لكون الدفع منه عنها أولى و أحق من غيرها، فهو إذا لم يقدر على الدّفع عنها أعجز عن أن يدفع عن غيرها، و ذكر من فى الأرض للدلالة على شمول قدرته، و أنه إذا أراد شيئا كان لا معارض له فى أمره و لا مشارك له فى قضائه وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما أى ما بين النوعين من المخلوقات. قوله: يَخْلُقُ ما يَشاءُ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته، و أنه يقدر على كل شىء لا يستصعب عليه شىء. قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزيز حيث قالوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ و أثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ «١» و قيل: هو على حذف مضاف:

أى نحن أتباع أبناء اللّه، و هكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء اللّه بمجرد الدعوى الباطلة و الأمانى العاطلة، فأمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يردّ عليهم، فقال: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ أى إن كنتم كما تزعمون، فما باله يعذبكم بما تقترفونه من الذنوب بالقتل و المسخ و بالنار فى يوم القيامة كما تعترفون بذلك لقولكم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً «٢» فإن الابن من جنس أبيه لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب و أنتم تذنبون، و الحبيب لا يعذب حبيبه و أنتم تعذبون، فهذا يدلّ على أنكم

كاذبون فى هذه الدعوى. و هذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف. قوله: بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ عطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام: أى فلستم حينئذ كذلك بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ أى من جنس من خلقه اللّه تعالى يحاسبهم على الخير و الشرّ، و يجازى كل عامل بعمله يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما من الموجودات وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ أى تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

---

(١). التوبة: ٣٠.

(٢). البقرة: ٨٠.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نعمان بن أضاء و بحرىّ بن عمرو و شأس بن عدىّ فكلّموه و كلّمهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و دعاهم إلى اللّه و حذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوّفنا يا محمد نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ كقول النصارى فأنزل اللّه فيهم وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى إلى آخر الآية. و أخرج أحمد فى مسنده عن أنس قال: «مرّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى نفر من أصحابه، و صبىّ فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى و تقول: ابنى ابنى، فسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول اللّه ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار! فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا، و اللّه لا يلقى حبيبه فى النار». و إسناده فى المسند هكذا: حدّثنا ابن أبى عدى عن حميد عن أنس فذكره. و معنى الآية يشير إلى معنى هذا الحديث، و لهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه، فتلا الصوفىّ هذه الآية. و أخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا و اللّه لا يعذب اللّه حبيبه، و لكن قد يبتليه فى الدنيا».

و أخرج ابن جرير عن السدىّ فى قوله: يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ يقول: يهدى منكم من يشاء فى الدنيا فيغفر له، و يميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه.

[سورة المائدة (٥): آية ١٩]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى. و الرسول هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و يُبَيِّنُ لَكُمْ حال. و المبين هو ما شرعه اللّه لعباده و حذف للعلم به، لأنّ بعثة الرسل إنما هى بذلك. و الفترة أصلها السكون، يقال فتر الشيء:

سكن؛ و قيل: هى الانقطاع. قاله أبو على الفارسى و غيره؛ و منه فتر الماء: إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة؛ و فتر الرجل عن عمله: إذا انقطع عما كان عليه من الجدّ فيه، و امرأة فاترة الطرف: أى منقطعة عن حدة النظر. و المعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثه صلّى اللّه عليه و سلّم مدّة من الزمان. و اختلف فى قدر مدّة تلك الفترة و سيأتى بيان ذلك. قوله: أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حين فترة: أى كراهة أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم، و مِنَ فى قوله: مِنْ بَشِيرٍ زائدة للمبالغة فى نفى المجيء، و الفاء فى قوله: فَقَدْ جاءَكُمْ هى الفصيحة مثل قول الشاعر:

فقد جئنا خراسانا أى لا تعتذروا فقد جاءكم بشير و نذير، و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، و من جملة مقدوراته إرسال رسوله على فترة من الرسل.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال:

دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يهود إلى الإسلام، فرغّبهم فيه و حذّرهم فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل و سعد

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۱

ابن عبادة و عقبة بن وهب: يا معشر يهود اتقوا اللّه فو اللّه إنكم لتعلمون أنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه و تصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حرملة و وهب بن يهوذا: ما قلنا لكم هذا و ما أنزل اللّه من كتاب من بعد موسى و لا أرسل بشيرا و لا نذيرا بعده، فأنزل اللّه يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم جاء بالحق الذى فرّق اللّه به بين الحق و الباطل، فيه بيان و موعظة و نور و هدى و عصمة لمن أخذ به. قال: و كانت الفترة بين عيسى و محمد ستّمائة سنة و ما شاء اللّه من ذلك. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عنه قال: كانت خمسمائة سنة و ستين سنة. و قال الكلبى: خمسمائة سنة و أربعين سنة. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانت خمسمائة سنة. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كانت أربعمائة سنة و بضعا و ثلاثين سنة. و أخرج ابن سعد فى كتاب الطبقات عن ابن عباس قال:

كان بين موسى و عيسى ألف سنة و تسعمائة سنة و لم يكن بينهما فترة، فإنه أرسل بينهما ألف نبىّ من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، و كان بين ميلاد عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم خمسمائة سنة و تسع و ستون سنة، بعث فى أوّلها ثلاثة أنبياء كما قال اللّه تعالى: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ «۱» و الذى عزّز به شمعون و كان من الحواريين، و كانت الفترة التى لم يبعث اللّه فيها رسولا أربعمائة سنة و أربعة و ثلاثين سنة.

و قد قيل غير ما ذكرناه.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۲۰ الى ۲۶]

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۲۰) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (۲۱) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (۲۲) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۳) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴)

قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۵) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۶)

هذه الآيات متضمنة للبيان من اللّه سبحانه بأنّ أسلاف اليهود الموجودين فى عصر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم تمرّدوا على موسى و عصوه كما تمرّد هؤلاء على نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و عصوه، و فى ذلك تسلية له صلّى اللّه عليه و سلّم، و روى عن عبد اللّه بن كثير أنه قرأ يا قَوْمِ اذْكُرُوا بضم الميم و كذا قرأ فيما أشبهه، و تقديره: يا أيها القوم اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء: أى وقت هذا الجعل، و إيقاع الذّكر على الوقت مع كون المقصود ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، لأنّ الأمر بذكر الوقت أمر بذكر ما وقع فيه بطريق الأولى، و امتنّ عليهم سبحانه بجعل الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم، لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً أى: و جعل

(١). يس: ١۴.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٢

منكم ملوكا، و إنما حذف حرف الجرّ لظهور أنّ معنى الكلام على تقديره، و يمكن أن يقال: إن منصب النبوّة لما كان لعظم قدره و جلالة خطره بحيث لا ينسب إلى غير من هو له قال فيه: إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ و لما كان منصب الملك مما يجوز نسبته إلى غير من قال به كما تقول قرابة الملك نحن الملوك، قال فيه: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً و قيل المراد بالملك: أنهم ملوكا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون، فهم جميعا ملوك بهذا المعنى؛ و قيل معناه: أنه جعلهم ذوى منازل لا يدخل عليهم غيرهم إلا بإذن؛ و قيل: غير ذلك. و الظاهر أنّ المراد من الآية الملك الحقيقى، و لو كان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى. فإن قلت: قد جعل غيرهم ملوكا كما جعلهم. قلت: قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه الامتنان. قوله: وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ أى من المنّ و السلوى و الحجر و الغمام و كثرة الأنبياء و كثرة الملوك و غير ذلك. و المراد عالمى زمانهم. و قيل: إن الخطاب هاهنا لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو عدول عن الظاهر لغير موجب، و الصواب ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أنه من كلام موسى لقومه، و خاطبهم بهذا الخطاب توطئة و تمهيدا لما بعده من أمره لهم بدخول الأرض المقدّسة.

و قد اختلف فى تعيينها؛ فقال قتادة: هى الشام، و قال مجاهد: الطور و ما حوله، و قال ابن عباس و السدّى و غيرهما: أريحاء، و قال الزجاج: دمشق و فلسطين و بعض الأردن. و قول قتادة يجمع هذه الأقوال المذكورة بعده. و المقدسة: المطهرة، و قيل: المباركة الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أى قسّمها و قدّرها لهم فى سابق علمه و جعلها مسكنا لكم وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ أى لا ترجعوا عن أمرى و تتركوا طاعتى و ما أوجبته عليكم من قتال الجبارين جبنا و فشلا فَتَنْقَلِبُوا بسبب ذلك خاسِرِينَ لخير الدنيا و الآخرة قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ قال الزجاج: الجبار من الآدميين العاتى، و هو الذى يجبر الناس على ما يريد، و أصله على هذا من الإجبار و هو الإكراه، فإنه يجبر غيره على ما يريده، يقال أجبره: إذا أكرهه؛ و قيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل فى كلّ من جرّ إلى نفسه نفعا بحق أو باطل؛ و قيل: إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه. قال الفراء: لم أسمع فعّالا من أفعل إلا فى حرفين، جبّار من أجبر، و درّاك من أدرك. و المراد هنا: أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاظمون؛ قيل: هم قوم من بقية قوم عاد؛ و قيل: هم من ولد عيص بن إسحاق؛ و قيل: هم من الروم؛ و يقال: إن منهم عوج ابن عنق المشهور بالطوال المفرط، و عنق هى بنت آدم، قيل: كان طوله ثلاثة آلاف ذراع و ثلاثمائة و ثلاثة و ثلاثين ذراعا و ثلث ذراع. قال ابن كثير: و هذا شى‏ء يستحيا من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن اللّه خلق آدم و طوله ستّون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص». ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافرا، و أنه كان ولد زنية، و أنه امتنع من ركوب السفينة و أن الطوفان لم يصل إلى ركبته، و هذا كذب و افتراء، فإن اللّه ذكر أن نوحا دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١»، و قال تعالى: فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ- ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ «٢» و قال تعالى: لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ «٣». و إذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف

---

(١). نوح: ٢۶.

(٢). الشعراء: ١١٩- ١٢٠.

(٣). هود: ۴٣.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٣
يبقى عوج بن عنق و هو كافر ولد زنية؟ هذا لا يسوغ فى عقل و لا شرع، ثم فى وجود رجل يقال له عوج ابن عنق نظر و اللّه أعلم، انتهى كلامه.
قلت: لم يأت فى أمر هذا الرجل ما يقتضى تطويل الكلام فى شأنه، و ما هذا بأوّل كذبة اشتهرت فى الناس، و لسنا بملزومين بدفع الأكاذيب التى وضعها القصاص و نفقت عند من لا يميز بين الصحيح و السقيم، فكم فى بطون دفاتر التفاسير من أكاذيب و بلايا و أقاصيص كلها حديث خرافة، و ما أحقّ من لا تمييز عنده لفنّ الرواية و لا معرفة به أن يدع التعرّض لتفسير كتاب اللّه، و يضع هذه الحماقات و الأضحوكات فى المواضع المناسبة لها من كتب القصاص. قوله: فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التى قبل هذه الجملة لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السبب. قوله: قالَ رَجُلانِ هما يوشع و كالب بن يوفنا أو ابن فانيا، و كانا من الاثنى عشر نقيبا كما مرّ بيان ذلك. و قوله: مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أى يخافون من اللّه عزّ و جلّ؛ و قيل من الجبارين أى هذان الرجلان من جملة القوم الذين يخافون من الجبارين؛ و قيل: من الذين يخافون ضعف بنى إسرائيل و جبنهم و قيل: إن الواو فى يَخافُونَ لبنى إسرائيل: أى من الذين يخافهم بنو إسرائيل. و قرأ مجاهد و سعيد بن جبير يَخافُونَ بضم الياء: أى يخافهم غيرهم. قوله: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا فى محل رفع على أنه صفة ثانية لرجلان، بالإيمان و اليقين بحصول ما و عدوا به من النصر و الظفر ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ أى باب بلد الجبارين فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ قالا: هذه المقالة لبنى إسرائيل. و الظاهر أنهما قد علما بذلك من خبر موسى، أو قالاه ثقة بوعد اللّه، أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفا و رعبا قالُوا أى بنو إسرائيل لموسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها و كان هذا القول منهم فشلا و جبنا أو عنادا و جرأة على اللّه و على رسوله فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا قالوا: هذا جهلا باللّه عزّ و جلّ و بصفاته و كفرا بما يجب له، أو استهانة باللّه و رسوله؛ و قيل:
أرادوا بالذهاب الإرادة و القصد؛ و قيل: أرادوا بالربّ هارون، و كان أكبر من موسى، و كان موسى يطيعه إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ أى لا نبرح هاهنا، لا نتقدّم معك و لا نتأخر عن هذا الموضع؛ و قيل: أرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر قالَ موسى رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي يحتمل أن يعطف و أخى على نفسى، و أن يعطف على الضمير فى إِنِّي أى إنى لا أملك إلا نفسى و إن أخى لا يملك إلا نفسه، قال هذا تحسرا و تحزنا و استجلابا للنصر من اللّه عزّ و جلّ فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ أى افصل بيننا: يعنى نفسه و أخاه و بين القوم الفاسقين، و ميزنا عن جملتهم، و لا تحلقنا بهم فى العقوبة؛ و قيل المعنى:
فاقض بيننا و بينهم، و قيل: إنما أراد فى الآخرة. و قرأ عبيد بن عمير فَافْرُقْ بكسر الراء. قالَ فَإِنَّها أى الأرض المقدّسة. مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أى على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين أَرْبَعِينَ سَنَةً ظرف للتحريم: أى أنه محرّم عليهم دخولها هذه المدّة لا زيادة عليها، فلا يخالف هذا التحريم ما تقدّم من قوله: الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ فإنها مكتوبة لمن بقى منهم بعد هذه المدّة؛ و قيل: إنه لم يدخلها أحد من قال: إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها فيكون توقيت التحريم بهذه المدّة باعتبار ذراريهم؛ و قيل: إن أَرْبَعِينَ سَنَةً
فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٤
ظرف لقوله: يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ أى يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقا. و الموقت: هو التيه، و هو فى اللغة الحيرة، يقال منه: تاه يتيه تيها أو توها إذا تحيّر، فالمعنى: يتحيّرون فى الأرض؛ قيل: إن هذه الأرض التى تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ، كانوا يمسون حيث أصبحوا و يصبحون حيث أمسوا، و كانوا سيّارة مستمرّين على ذلك لا قرار لهم.
و اختلف أهل العلم هل كان معهم موسى و هارون أم لا؟ فقيل: لم يكونا معهم، لأن التيه عقوبة؛ و قيل:
كانا معهم لكن سهل اللّه عليهما ذلك كما جعل النار بردا و سلاما على إبراهيم. و قد قيل: كيف يقع هذا الجماعة من العقلاء

فى مثل هذه الأرض اليسيرة فى هذه المدّة الطويلة؟ قال أبو على: يكون ذلك بأن يحوّل اللّه الأرض التى هم عليها إذا ناموا إلى المكان الذى ابتدءوا منه، و قد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة للعادة.
و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً قال: ملّكهم الخدم، و كانوا أوّل من ملك الخدم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كانت له الزوجة و الخادم و الدار سمّى ملكا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد ابن جرير عنه فى الآية قال: الزوجة و الخادم و البيت. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه و البيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا فى قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً قال: المرأة و الخدم وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ قال: الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم و دابة و امرأة كتب ملكا».
و أخرج ابن جرير و الزبير بن بكار فى الموفقيات عن زيد بن أسلم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من كان له بيت و خادم فهو ملك». و أخرج أبو داود فى مراسيله عن زيد بن أسلم فى الآية قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«زوجة و مسكن و خادم». و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه سأله رجل: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ قال: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟
قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: إن لى خادما، قال: فأنت من الملوك. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً قال: جعل لهم أزواجا و خدما و بيوتا وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ قال: المنّ و السلوى و الحجر و الغمام. و أخرج ابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية قال: المنّ و السلوى و الحجر و الغمام، و قد ثبت فى الحديث الصحيح «من أصبح منكم معافى فى جسده، آمنا فى سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدّنيا بحذافيرها». و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ قال: الطور و ما حوله. و أخرج عنه أيضا قال:
هى أريحاء. و أخرج ابن عساكر عن معاذ بن جبل قال: هى ما بين العريش إلى الفرات. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة قال: هى الشام. و أخرج ابن جرير عن السدىّ فى قوله: الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٥

قال: التى أمركم اللّه بها. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال: أمر القوم بها كما أمرنا بالصلاة و الزكاة و الحجّ و العمرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، فسار بمن معه حتى نزل قريبا من المدينة و هى أريحاء، فبعث إليهم اثنى عشر عينا، من كل سبط منهم عين، ليأتوه بخبر القوم، فدخلوا المدينة فرأوا أمرا عظيما من هيئتهم و جسمهم و عظمهم، فدخلوا حائطا لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليجتنى الثمار من حائطه، فجعل يجتنى الثمار فنظر إلى آثارهم فتتبعهم، فكلما أصاب واحدا منهم أخذه فجعله فى كمّه مع الفاكهة حتى التقط الاثنى عشر كلهم فجعلهم فى كمّه مع الفاكهة، و ذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك: قد رأيتم شأننا و أمرنا اذهبوا فأخبروا صاحبكم، قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم، فقال: اكتموا عنا، فجعل الرجل يخبر أباه و صديقه و يقول: اكتم عنى، فأشيع ذلك فى عسكرهم و لم يكتم منهم إلا رجلان يوشع بن نون و كالب بن يوفنا، و هما اللذان أنزل اللّه فيهما:
قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ و قد روى نحو هذا مما يتضمن المبالغة فى وصف هؤلاء و عظم أجسامهم، و لا فائدة فى بسط ذلك فغالبه من أكاذيب القصاص كما قدّمنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَافْرُقْ يقول: اقض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه يقول: افصل بيننا و بينهم. و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ قال: أبدا، و فى قوله: يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ قال:

أربعين سنة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: تاهوا أربعين سنة، فهلك موسى و هارون فى التيه، و كل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، و هو الذى قام بالأمر بعد موسى، و هو الذى افتتحها و هو الذى قيل له: اليوم يوم جمعة! فهموا بافتتاحها فدنت الشمس للغروب، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا، فنادى الشمس: إنى مأمور و أنت مأمورة فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقرّبوه إلى النار فلم تأت، فقال: فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط و هم اثنا عشر رجلا فبايعهم و التصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت و أسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان فأتت النار فأكلتها.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خلق لهم فى التيه ثياب لا تخلق و لا تدرن.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۲۷ الى ۳۱]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (۲۸) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (۲۹) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (۳۰) فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (۳۱)

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۶

وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من اللّه على أن ظلم اليهود و نقضهم المواثيق و العهود هو كظلم ابن آدم لأخيه، فالداء قديم، و الشرّ أصيل.

و قد اختلف أهل العلم فى ابنى آدم المذكورين هل هما لصلبه أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأوّل. و ذهب الحسن و الضحّاك إلى الثانى، و قالا: إنهما كانا من بنى إسرائيل فضرب بهما المثل فى إبانة حسد اليهود، و كانت بينهما خصومة فتقرّبا بقربانين و لم تكن القرابين إلا فى بنى إسرائيل. قال ابن عطية: و هذا و هم كيف يجهل صورة الدفن أحد من بنى إسرائيل حتى يقتدى بالغراب؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: و اسمهما قابيل و هابيل، و كان قربان قابيل حزمة من سنبل، لأنه كان صاحب زرع و اختارها من أردأ زرعه، حتى إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها و أكلها، و كان قربان هابيل كبشا لأنه كان صاحب غنم أخذه من أجود غنمه، فتقبل قربان هابيل فرفع إلى الجنة، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به الذّبيح عليه السلام، كذا قال جماعة من السلف، و لم يتقبل قربان قابيل، فحسده و قال: لأقتلنك. و قيل: سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد فى كل بطن ذكرا و أنثى، إلا شيئا عليه السلام فإنها ولدته منفردا، و كان آدم عليه السلام يزوّج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر، و لا تحلّ له أخته التى ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت جميلة و اسمها إقليما، و مع هابيل أخت ليست كذلك و اسمها ليوذا فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختى، فأمره آدم فلم يأتمر و زجره فلم ينزجر، فاتّفقوا على القربان و أنه يتزوّجها من تقبل قربانه. قوله: بِالْحَقِ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر وَ اتْلُ أى تلاوة متلبسة بالحق، أو صفة لنبأ: أى نبأ متلبسا بالحق، و المراد بأحدهما هابيل و بالآخر قابيل، و قالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ استئناف بيانى كأنه فماذا قال الذى لم يتقبل قربانه؟ و قوله: قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ استئناف كالأوّل كأنه قيل: فماذا قال الذى تقبّل قربانه؟

و إنما للحصر: أى إنما يتقبل اللّه القربان من المتقين لا من غيرهم، و كأنه يقول لأخيه: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلى، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك. قوله: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي أى لأن قصدت قتلى، و اللام هى الموطئة، و ما

أَنَا بِباسِطٍ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط، و هـذا استسـلام للقتل من هابيل، كما ورد فى الحديث: «إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم» و تلا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية. قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ أن لا يسلّ أحد سيفا و أن لا يمتنع ممن يريـد قتله، قـال القرطبى: قـال علماؤنا: و ذلك مما يجوز ورود التعبـد به، إلا أن فى شرعنا يجوز دفعه إجماعا، و فى وجوب ذلـك عليه خلاف. و الأصح وجوب ذلـك لمـا فيه من النهى عن المنكر. و فى الحشويـة قوم لا يجوّزون للمصول عليه الـدفع، و احتجوا بحـديث أبى ذرّ، و حمله العلمـاء على ترك القتـال فى الفتنـة و كفّ اليـد عنـد الشبهة على مـا بيناه فى كتاب التـذكرة، انتهى كلام القرطبى. و حـديث أبى ذرّ المشار إليه هو عنـد مسـلم و أهل السـنن إلا النسائى، و فيه «أن النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم قال له: يا أبا ذرّ أ رأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا كيف تصنع؟ قلت:

اللّه و رسوله أعلم، قـال: اقعـد فى بيتك و أغلق عليك بابك، قال: فإن لم أترك، قال: فأت من أنت منهم فكن فيهم، قال: فآخذ سلاحى؟ قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه، و لكن إن خشيت أن يردعك

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۷

شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كى يبوء بإثمه و إثمك». و فى معناه أحاديث عن جماعـة من الصـحابة سـعد بن أبى وقاص و أبى هريرة و خباب بن الأرتّ و أبى بكر و ابن مسعود و أبى واقد و أبى موسى.

قوله: إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ هـذا تعليـل لامتناعه من المقاتلـة بعـد التعليل الأوّل و هو إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ

اختلف المفسرون فى المعنى فقيل: أراد هابيل إنّى أريد أن تبوء بالإثم الذى كان يلحقنى لو كنت حريصا على قتلك، و بإثمك الذى تحملته بسبب قتلى؛ و قيل: المراد بإثمى الذى يختصّ بى بسبب سيأتى فيطرح عليك بسبب ظلمك لى و تبوء بإثمك فى قتلى. و هذا يوافق معناه معنى ما ثبت فى صحيح مسلم من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يؤتى يوم القيامة بالظّالم و المظلوم، فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد فى حسـنات المظلوم حتى ينتصف، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه»، و مثله قوله تعالى: وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «۱» و قيل المعنى: إنى أريد أن لا تبوء بـإثمى و إثمك، كما فى قوله تعالى: وَ أَلْقى فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ «۲» أى أن لا تميـد بكم. و قوله: یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ أَنْ تَضِلُّوا «۳» أى أن لا تضـلوا. و قال أكثر العلماء: إن المعنى إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی أى بإثم قتلك لى وَ إِثْمِکَ الذى قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلى. قال الثعلبى: هذا قول عامة المفسرين و قيل: هو على وجه الإنكار: أى أو إنى أريد، على وجه الإنكار كقوله تعالى: وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ «۴» أى أو تلك نعمة. قاله القشـيرى، و وجهه بأن إرادة القتل معصـية. و سـئل أبو الحسن بن كيسان: كيف يريـد المؤمن أن يأثم أخوه و أن يـدخل النار؟ فقال: وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل، و هذا بعيد جدّا، و كـذلك الـذى قبله. و أصل باء: رجع إلى المباءة، و هى المنزل وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ «۵» أى رجعوا. قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ أى سـهلت نفسه عليه الأمر و شـجعته و صوّرت له أن قتل أخيه طوع يده سهل عليه، يقال: تطوّع الشىء: أى سهل و انقاد و طوعه فلان له: أى سهله. قال الهروى: طوّعت و طاوعت واحد، يقال: طاع له كذا: إذا أتاه طوعا، و فى ذكر تطويع نفسه له بعد ما تقـدّم من قول قابيل لَأَقْتُلَنَّکَ و قول هابيل لِتَقْتُلَنِی دليل على أنّ التطويع لم يكن قـد حصل له عنـد تلك المقاولة. قوله: فَقَتَلَهُ قال ابن جرير و مجاهد و غيرهما:

روى أنه جهل كيف يقتل أخاه فجاءه إبليس بطائر أو حيوان غيره، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدى به قابيل ففعل؛ و قيل: غير ذلك مما يحتاج إلى تصـحيح الروايـة. قوله: فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَةَ أَخِیهِ قيل: إنه لما قتل أخاه لم يدر كيف يواريه؛ لكونه أوّل ميت مات من بنى آدم، فبعث اللّه غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه فحفر له، ثم

حثا عليه، فلما رآه قابيل قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فواراه، و الضـمير المستكن فى لِيُرِيَهُ للغراب؛ و قيل للّه سبحانه، و كَيْفَ فى محل نصب على الحال من ضمير يُوارِي و الجملة ثانى مفعولى يريه. و المراد بالسوءة هنا ذاته كلها لكونها ميتة، و قالَ استئناف جواب سؤال مقدّر من سوق الكلام، كأنه قيل: فماذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل ذلك؟ و يا وَيْلَتى كلمة تحسّر و تحزّن،

---

(١). العنكبوت: ١٣.

(٢). النحل: ١٥.

(٣). النساء: ١٧۶.

(۴). الشعراء: ٢٢.

(۵). آل عمران: ١١٢.

و الألف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته بأن تحضر فى ذلك الوقت، و الويلة: الهلكة، و الكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم اهتدائه لمواراة أخيه كما اهتدى الغراب إلى ذلك فَأُوارِيَ بالنصب على أنه جواب الاستفهام، و قرئ بالسكون على تقدير فأنا أوارى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ على قتله؛ و قيل: لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده، لا على قتله، و قيل: غير ذلك.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، و أن ينكحها غيره من إخوتها، و كان يولد له فى كل بطن رجل و امرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة و ولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحنى أختك و أنكحك أختى، فقال: لا، أنا أحقّ بأختى، فقرّبا قربانا، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض، و صاحب الحرث بصبرة من طعام فتقبل من صاحب الكبش، و لم يتقبل من صاحب الزرع. قال ابن كثير فى تفسيره: إسناده جيد، و كذا قال السيوطى فى الدر المنثور. و أخرج ابن جرير عنه قال: كان من شأن بنى آدم أنه لم يكن مسكين يتصدّق عليه، و إنما كان القربان يقرّبه الرجل، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا قربانا ثم ذكرا ما قرباه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ قال:

كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلا تركه و لا يمتنع منه. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ يقول: إنّى أريد أن تكون عليك خطيئتك و دمى فتبوء بهما جميعا. و أخرج ابن جرير عنه بِإِثْمِي قال: بقتلك إياى وَ إِثْمِكَ قال: بما كان منك قبل ذلك. و أخرج عن قتادة و الضحاك مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ قال: شجّعته على قتل أخيه.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: زيّنت له نفسه. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه فى رؤوس الجبال، فأتاه يوما من الأيام و هو يرعى غنما له و هو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء و لا يعلم كيف يدفن، فبعث اللّه غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها؛ لأنه أوّل من سنّ القتل». و قد روى فى صفة قتله لأخيه روايات اللّه أعلم بصحتها.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲) إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۳۳) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۴)

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۹

قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أى من أجل ذلك القاتل و جريرته و بسبب معصيته، و قال الزجاج: أى من جنايته، قال: يقال أجل الرجل على أهله شرا يأجل أجلا إذا جنى؛ مثل أخذ يأخذ أخذا. و قرأ أبو جعفر «من أجل» بكسر النون و حذف الهمزة، و هى لغة. قال فى شرح الدرة: قرأ أبو جعفر منفردا «من إجل ذلك» بكسر الهمزة مع نقل حركتها إلى النون قبلها؛ و قيل: يجوز أن يكون قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ متعلّقا بقوله: مِنَ النَّادِمِينَ فيكون الوقف على قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ و الأولى ما قدّمنا، و المعنى:

أن نبأ ابنى آدم هو الذى تسبب عنه الكتب المذكور على بنى إسرائيل، و على هذا جمهور المفسرين. و خصّ بنى إسرائيل بالذكر لأن السياق فى تعداد جناياتهم، و لأنهم أوّل أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل الأنفس، و وقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء و قتلهم للأنبياء، و تقديم الجار و المجرور على الفعل الذى هو متعلق به أعنى كتبنا: يفيد القصر؛ أى من أجل ذلك لا من غيره، و من لابتداء الغاية أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً واحدة من هذه النفوس بِغَيْرِ نَفْسٍ أى بغير نفس توجب القصاص فيخرج عن هذا من قتل نفسا بنفس قصاصا.

قوله: أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ قرأ الجمهور بالجرّ عطفا على نفس. و قرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدلّ عليه أوّل الكلام تقديره: أو أحدث فسادا فى الأرض، و فى هذا ضعف. و معنى قراءة الجمهور:

أنّ من قتل نفسا بغير سبب من قصاص أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا. و قد تقرر أنّ كلّ حكم مشروط بتحقّق أحد شيئين فنقيضه مشروط بانتفائهما معا، و كل حكم مشروط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه.

و قد اختلف فى هذا الفساد المذكور فى هذه الآية ما ذا هو؟ فقيل: هو الشرك، و قيل: قطع الطريق.

و ظاهر النظم القرآنى أنه ما يصدق عليه أنه فساد فى الأرض، فالشرك فساد فى الأرض، و قطع الطريق فساد فى الأرض، و سفك الدماء و هتك الحرم و نهب الأموال فساد فى الأرض، و البغى على عباد اللّه بغير حق فساد فى الأرض، و هدم البنيان و قطع الأشجار و تغوير الأنهار فساد فى الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد فى الأرض، و هكذا الفساد الذى سيأتى فى قوله: وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً يصدق على هذه الأنواع، و سيأتى تمام الكلام على معنى الفساد قريبا. قوله: فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً اختلف المفسرون فى تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعا أشدّ من عقاب من قتل واحدا منهم.

فروى عن ابن عباس أنه قال: المعنى من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا و من أحياه بأن شدّ عضده و نصره فكأنما أحيا الناس جميعا. أخرج هذا عنه ابن جرير. و روى عن مجاهد أنه قال: المعنى أن الذى يقتل النفس المؤمنة متعمّدا جعل اللّه جزاءه جهنم، و غضب عليه، و لعنه، و أعدّ له عذابا عظيما، فلو قتل الناس جميعا لم يزد على هذا قال: و من سلّم من قتل فلم يقتل

أحدا فكأنما أحيا الناس جميعا.

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴۰

و قد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و روى عن ابن عباس أيضا أنه قال فى تفسير هذه الآية: من أوبق نفسه كما لو قتل النّاس جميعا، أخرجه عنه ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم. و روى عن الحسن أنه قال: فكأنما قتل الناس جميعا فى الوزر، و كأنما أحيا الناس جميعا فى الأجر. و قال ابن زيد:

المعنى أن من قتل نفسا فيلزمه من القود و القصاص ما يلزم من قتل الناس جميعا وَ مَنْ أَحْياها أى من عفا عمّن وجب قتله، حكاه عنه القرطبى. و حكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة: يعنى أحياها. و روى عن مجاهد أنّ إحياءها: إنجاؤها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة، حكاه عنه ابن جرير و ابن المنذر؛ و قيل المعنى: أن من قتل نفسا فالمؤمنون كلهم خصماؤه، لأنه قد وتر الجميع وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً أى وجب على الكلّ شكره؛ و قيل المعنى: أنه من استحلّ واحدا فقد استحلّ الجميع لأنه أنكر الشرع.

و على كل حال فالإحياء هنا عبارة عن الترك و الإنقاذ من هلكة فهو مجاز، إذ المعنى الحقيقى مختصّ باللّه عزّ و جلّ. و المراد بهذا التشبيه فى جانب القتل تهويل أمر القتل و تعظيم أمره فى النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجرأة و الجسارة، و فى جانب الإحياء الترغيب إلى العفو عن الجناة و استنقاذ المتورطين فى الهلكات. قوله: وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة و السلام قد جاءوا العباد بما شرعه اللّه لهم من الأحكام التى من جملتها أمر القتل، و ثم فى قوله: ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ للتراخى الرتبى و الاستبعاد العقلى، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر مما كتبه اللّه على بنى إسرائيل؛ أى إن كثيرا منهم بعد ذلك الكتب فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ فى قوله: إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قد اختلف الناس فى سبب نزول هذه الآية؛ فذهب الجمهور إلى أنها نزلت فى العرنيين. و قال مالك و الشافعى و أبو ثور و أصحاب الرأى: إنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق و يسعى فى الأرض بالفساد. قال ابن المنذر: قول مالك صحيح. قال أبو ثور محتجا لهذا القول:

إن قوله فى هذه الآية: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ يدلّ على أنها نزلت فى غير أهل الشرك، لأنهم قد أجمعوا على أنّ أهل الشرك إذا وقعوا فى أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم، فدلّ ذلك على أن الآية نزلت فى أهل الإسلام، انتهى. و هكذا يدلّ على هذا قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ «١»، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «الإسلام يهدم ما قبله» أخرجه مسلم و غيره، و حكى ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية: أعنى آية المحاربة نسخت فعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى العرنيين، و وقف الأمر على هذه الحدود.

و روى عن محمد بن سيرين أنه قال: كان هذا قبل أن تنزل الحدود: يعنى فعله صلّى اللّه عليه و سلّم بالعرنيين و بهذا قال جماعة من أهل العلم. و ذهب جماعة آخرون إلى أن فعله صلّى اللّه عليه و سلّم بالعرنيين منسوخ بنهى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن المثلة، و القائل بهذا مطالب ببيان تأخر الناسخ، و سيأتى سياق الروايات الواردة فى سبب النزول. و الحقّ أن هذه الآية تعمّ المشرك و غيره لمن ارتكب ما تضمنته، و لا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ. قال القرطبى فى تفسيره: و لا خلاف بين أهل العلم فى أنّ حكم هذه الآية مترتب فى المحاربين من أهل الإسلام و إن كانت نزلت فى المرتدين أو اليهود، انتهى. و معنى قوله مترتب: أى ثابت؛ قيل: المراد بمحاربة اللّه المذكورة فى

---

(١). الأنفال: ٣٨.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤١

الآيةَ، هى محاربة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و محاربة المسلمين فى عصره و من بعد عصره بطريق العبارة دون الدلالة و دون القياس، لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر؛ و قيل: إنها جعلت محاربة المسلمين محاربة للّه و لرسوله إكبارا لحربهم و تعظيما لأذيتهم، لأن اللّه سبحانه لا يحارب و لا يغالب. و الأولى أن تفسّر محاربة اللّه سبحانه بمعاصيه و مخالفة شرائعه، و محاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقى، و حكم أمته حكمه، و هم أسوته. و السعى فى الأرض فسادا يطلق على أنواع من الشرّ كما قدمنا قريبا. قال ابن كثير فى تفسيره: قال كثير من السلف منهم سعيد ابن المسيب: إن قرض الدراهم و الدنانير من الإفساد فى الأرض، و قد قال تعالى: وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ انتهى.

إذا تقرّر لك ما قررناه من عموم الآية و من معنى المحاربة و السعى فى الأرض فسادا، فاعلم أن ذلك يصدق على كلّ من وقع منه ذلك، سواء كان مسلما أو كافرا، فى مصر و غير مصر، فى كل قليل و كثير، و جليل و حقير، و أن حكم اللّه فى ذلك هو ما ورد فى هذه الآية من القتل أو الصلب، أو قطع الأيدى و الأرجل من خلاف، أو النفى من الأرض، و لكن لا يكون هذا حكم من فعل أىّ ذنب من الذنوب، بل من كان ذنبه هو التعدّى على دماء العباد و أموالهم فيما عدا ما قد ورد له حكم غير هذا الحكم فى كتاب اللّه أو سنة رسوله كالسرقة و ما يجب فيه القصاص، لأنا نعلم أنه قد كان فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم من تقع منه ذنوب و معاص غير ذلك، و لا يجرى عليه صلّى اللّه عليه و سلّم هذا الحكم المذكور فى هذه الآية، و بهذا تعرف ضعف ما روى عن مجاهد فى تفسير المحاربة المذكورة فى هذه الآية: أنها الزنا و السرقة، و وجه ذلك أن هذين الذنبين قد ورد فى كتاب اللّه و فى سنة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم لهما حكم غير هذا الحكم.

و إذا عرفت ما هو الظاهر من معنى هذه الآية على مقتضى لغة العرب التى أمرنا بأن نفسّر كتاب اللّه و سنة رسوله بها، فإياك أن تغترّ بشى‏ء من التفاصيل المروية، و المذاهب المحكية، إلا أن يأتيك الدليل الموجب لتخصيص هذا العموم أو تقييد هذا المعنى المفهوم من لغة العرب فأنت و ذاك اعمل به وضعه فى موضعه، و أما ما عداه:

فدع عنك نهبا صيح فى حجراتهو هات حديثا ما حديث الرّواحل

على أنا سنذكر من هذه المذاهب ما تسمعه: اعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحقّ اسم المحاربة؛ فقال ابن عباس و سعيد بن المسيب و مجاهد و عطاء و الحسن البصرى و إبراهيم النخعى و الضحاك و أبو ثور: إن من شهر السلاح فى قبة الإسلام و أخاف السبيل ثم ظفر به و قدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، و إن شاء صلبه، و إن شاء قطع يده و رجله. و بهذا قال مالك و صرّح بأن المحارب عنده من حمل على الناس فى مصر أو فى بريّة أو كابرهم على أنفسهم و أموالهم دون نائرة «١» و لا ذحل و لا عداوة. قال ابن المنذر:

---

(١). «نائرة»: فتنة حادثة و عداوة. و يقال: نار الحرب و نائرتها: شرّها و هيجها. و «الذّحل»: الثأر (النهاية ٥/ ١٢٧)

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٢

اختلف عن مالك فى هذه المسألة فأثبت المحاربة فى المصر مرّة و نفى ذلك مرة. و روى عن ابن عباس غير ما تقدّم فقال فى قطاع الطريق: إذا قتلوا و أخذوا المال قتلوا و صلبوا، و إذا قتلوا و لم يأخذوا المال قتلوا و لم يصلبوا، و إذا أخذوا المال و لم يقتلوا قطعت أيديهم و أرجلهم من خلاف، و إذا أخافوا السبيل و لم يأخذوا مالا نفوا من الأرض. و روى عن ابن مجلز و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعى و الحسن و قتادة و السدىّ و عطاء على اختلاف فى الرواية عن بعضهم، و حكاه ابن كثير عن الجمهور. و

قال أيضا: و هكذا عن غير واحد من السلف و الأئمة. و قال أبو حنيفة: إذا قتل قتل و إذا أخذ المال و لم يقتل قطعت يده و رجله من خلاف، و إذا أخذ المال و قتل فالسلطان مخيّر فيه: إن شاء قطع يديه و رجليه، و إن شاء لم يقطع و قتله و صلبه. و قال أبو يوسف:

القتل يأتى على كلّ شىء، و نحوه قول الأوزاعى. و قال الشافعى: إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى و حسمت، ثم قطعت رجله اليسرى و حسمت و خلى، لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة؛ و إذا قتل قتل و إذا أخذ المال و قتل قتل و صلب. و روى عنه أنه قال: يصلب ثلاثة أيام. و قال أحمد: إن قتل قتل، و إن أخذ المال قطعت يده و رجله كقول الشافعى، و لا أعلم لهذه التفاصيل دليلا لا من كتاب اللّه و لا من سنة رسوله إلا ما رواه ابن جرير فى تفسيره و تفرّد بروايته فقال: حدثنا علىّ بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبى حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره أن هذه الآية نزلت فى أولئك النفر العرنيين و هم من بجيلة، قال أنس: «فارتدّوا عن الإسلام، و قتلوا الراعى، و استاقوا الإبل، و أخافوا السبيل، و أصابوا الفرج الحرام؛ قال أنس: فسأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جبريل عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق و أخاف الطريق فاقطع يده لسرقته و رجله بإخافته، و من قتل فاقتله؛ و من قتل و أخاف السبيل و استحلّ الفرج الحرام فاصلبه». و هذا مع ما فيه من النكارة الشديدة لا يدرى كيف صحته؟ قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره لشىء من هذه التفاصيل التى ذكرناها ما لفظه: و يشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره إن صحّ سنده ثم ذكره.

قوله: وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً هو إما منتصب على المصدرية، أو على أنه مفعول له، أو على الحال بالتأويل: أى مفسدين.

قوله: أَوْ يُصَلَّبُوا ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا، لأنه أحد الأنواع التى خير اللّه بينها. و قال قوم: الصلب إنما يكون بعد القتل، و لا يجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه و بين الصلاة و الأكل و الشرب. و يجاب بأن هذه عقوبة شرعها اللّه سبحانه فى كتابه لعباده. قوله: أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ ظاهرة قطع إحدى اليدين و إحدى الرجلين من خلاف سواء كانت المقطوعة من اليدين هى اليمنى أو اليسرى، و كذلك الرجلان و لا يعتبر إلا أن يكون القطع من خلاف إما يمنى اليدين مع يسرى الرجلين أو يسرى اليدين مع يمنى الرجلين؛ و قيل: المراد بهذا قطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى فقط.

قوله: أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ اختلف المفسرون فى معناه، فقال السدىّ: هو أن يطلب بالخيل و الرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحدّ أو يخرج من دار الإسلام هربا. و هو محكّى عن ابن عباس و أنس و مالك و الحسن البصرى و السدى و الضحاک و قتادة و سعيد بن جبير و الربيع بن أنس و الزهرى، حكاه الرمانى فى كتابه عنهم.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۳

و حكى عن الشافعى أنهم يخرجون من بلد إلى بلد و يطلبون لتقام عليهم الحدود، و به قال الليث بن سعد.

و روى عن مالك أنه ينفى من البلد الذى أحدث فيه إلى غيره و يحبس فيه كالزانى، و رجحه ابن جرير و القرطبى.

و قال الكوفيون: نفيهم سجنهم، فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها. و الظاهر من الآية أنه يطرد من الأرض التى وقع منه فيها ما وقع من غير سجن و لا غيره. و النفى قد يقع بمعنى الإهلاک و ليس هو مرادا هنا. قوله:

ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا الإشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام، و الخزى: الذلّ و الفضيحة. قوله:

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ استثنى اللّه سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، و الظاهر عدم الفرق بين الدماء و الأموال و بين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشىء من ذلک، و عليه عمل الصحابة. و ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص و سائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة، و الحق الأوّل. و أما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة فى

الآیة، كما یدل علیه ذكر قید قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ قال القرطبی: و أجمع أهل العلم علی أن السلطان ولیّ من حارب فإن قتل محارب أخا امرئ و أتاه فی حال المحاربة، فلیس إلی طالب الدم من أمر المحاربة شیء، و لا یجوز عفو ولیّ الدم.
و قد أخرج ابن جریر عن الضحاك فی قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ یقول: من أجل ابن آدم الذی قتل أخاه ظلما. و أخرج ابن جریر عن الحسن أنه قیل له فی هذه الآیة یعنی قوله: فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً أهی لنا كما كانت لبنی إسرائیل؟ فقال: إی و الذی لا إله غیره. و أخرج أبو داود و النسائی عن ابن عباس فی قوله: إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قال: نزلت فی المشركین، فمن تاب منهم قبل أن یقدر علیه لم یكن علیه سبیل، و لیست تحرز هذه الآیة الرجل المسلم من الحدّ إن قتل أو أفسد فی الأرض أو حارب اللّه و رسوله. و أخرج ابن جریر و الطبرانی فی الكبیر عنه فی هذه الآیة قال: كان قوم من أهل الكتاب بینهم و بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عهد و میثاق، فنقضوا العهد و أفسدوا فی الأرض، فخیّر اللّه نبیه فیهم: إن شاء قتل، و إن شاء صلب، و إن شاء أن یقطع أیدیهم و أرجلهم من خلاف، و أما النفی فهو الضرب فی الأرض، فإن جاء تائبا فدخل فی الإسلام قبل منه، و لم یؤخذ بما سلف. و أخرج ابن مردویه عن سعد بن أبی وقاص أن هذه الآیة نزلت فی الحروریة. و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن أنس أن نفرا من عكل قدموا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فأسلموا و اجتووا «۱» المدینة، فأمرهم النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أن یأتوا إبل الصدقة، فیشربوا من أبوالها و ألبانها، فقتلوا راعیها و استاقوها، فبعث النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی طلبهم قافة «۲»، فأتی بهم فقطع أیدیهم و أرجلهم، و سمل أعینهم، و لم یحسمهم، و تركهم حتی ماتوا، فأنزل اللّه إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ الآیة. و فی مسلم عن أنس أنه قال: إنّما سمل النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أعین أولئك لأنهم سملوا أعین

---

(۱). اجتووا: أی أصابهم الجوی؛ و هو المرض و داء الجوف إذا تطاول.
(۲). القافة: جمع قائف، الذی یتتبع الأثر.

فتح القدیر، ج‏۲، ص: ۴۴

الرعاة. و أخرج الشافعی فی الأم و عبد الرزاق و الفریابی و ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البیهقی عن ابن عباس فی الآیة قال: إذا خرج المحارب فأخذ المال و لم یقتل قطع من خلاف، و إذا خرج فقتل و لم یأخذ المال قتل، و إذا خرج و أخذ المال و قتل قتل و صلب و إذا خرج فأخاف السبیل و لم یأخذ المال و لم یقتل نفی. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی الآیة قال: من شهر السلاح فی قبة الإسلام و أفسد السبیل فظهر علیه و قدر، فإمام المسلمین مخیّر فیه: إن شاء قتله، و إن شاء صلبه، و إن شاء قطع یده و رجله، قال: أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ یهربوا و یخرجوا من دار الإسلام إلی دار الحرب. و أخرج ابن جریر عنه قال: نفیه أن یطلب. و أخرج أیضا عن أنس نحوه. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن أبی الدنیا و ابن جریر و ابن أبی حاتم عن الشعبی قال: كان حارثة بن بدر التیمی من أهل البصرة قد أفسد فی الأرض و حارب، فكلّم رجالا من قریش أن یستأمنوا له علیا فأبوا فأتی سعید بن قیس الهمدانی، فأتی علیا فقال: یا أمیر المؤمنین ما جزاء الذین یحاربون اللّه و رسوله و یسعون فی الأرض فسادا؟
قال: أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ثم قال: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فقال سعید: و إن كان حارثة بن بدر، قال: و إن كان حارثة بن بدر، قال: هذا حارثة بن بدر، قد جاء تائبا فهو آمن، قال: نعم، فجاء به إلیه فبایعه، و قبل ذلك منه و كتب له أمانا.

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۳۶) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (۳۷)

ابْتَغُوا اطلبوا إِلَيْهِ لا إلى غيره، و الْوَسِيلَةَ فعيلة من توسلت إليه: إذا تقربت إليه.

قال عنترة:

إنّ الرّجال لهم إليك وسيلةأن يأخذوك تكحّلى و تخضّبى

و قال آخر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلناو عاد التّصابى «۱» بيننا و الوسائل

فالوسيلة: القربة التى ينبغى أن تطلب، و به قال أبو وائل و الحسن و مجاهد و قتادة و السدى و ابن زيد.

و روى عن ابن عباس و عطاء و عبد اللّه بن كثير. قال ابن كثير فى تفسيره: و هذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۶/ ۱۵۹): التّصافى.

خلاف بين المفسرين فيه. و الوسيلة أيضا درجة فى الجنة مختصة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة و الصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة و الفضيلة و ابعثه مقاما محمودا الذى وعدته، إلا حلّت له الشّفاعة يوم القيامة». و فى صحيح مسلم من حديث عبد اللّه بن عمرو أنه سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا علىّ، فإنه من صلّى علىّ صلاة صلى اللّه عليه عشرا، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد اللّه، و أرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلّت عليه الشّفاعة» و فى الباب أحاديث، و عطف وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ على يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ يفيد أن الوسيلة غير التقوى؛ و قيل: هى التقوى، لأنها ملاك الأمر و كلّ الخير، فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى. و الظاهر أنّ الوسيلة التى هى القربة تصدق على التقوى و على غيرها من خصال الخير التى يتقرب العباد بها إلى ربهم وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ من لم يقبل دينه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قوله:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كلام مبتدأ مسوق لزجر الكفار و ترغيب المسلمين فى امتثال أوامر اللّه سبحانه لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ من أموالها و منافعها؛ و قيل: المراد لكلّ واحد منهم ليكون أشدّ تهويلا، و إن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك، و جَمِيعاً تأكيد. و قوله: وَ مِثْلَهُ عطف على ما فى الأرض، و مَعَهُ فى محل نصب على الحال لِيَفْتَدُوا بِهِ يجعلوه فدية لأنفسهم، و أفرد الضمير إما لكونه راجعا إلى المذكور أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة: أى ليفتدوا بذلك، و مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ متعلق بالفعل المذكور ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ذلك، و هذا هو جواب لو. قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ هذا استئناف بيانى، كأنه قيل: كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم؟ فقيل: يريدون أن يخرجوا من النار. و قرئ: أَنْ يَخْرُجُوا من أخرج، و يضعف هذه القراءة وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها و محل هذه الجملة أعنى قوله: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها النصب على الحال؛ و قيل: إنّها جملة اعتراضية.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ قال: الوسيلة:

القربة. و أخرج الحاكم و صححه عن حذيفة مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ قال: تقرّبوا إلى اللّه بطاعته و العمل بما يرضيه.

و أخرج مسلم و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة». قال: يريد الفقير، فقلت لجابر يقول اللّه: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها قال: اتل أوّل الآية إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ ألا إنهم الذين كفروا. و أخرج ابن جرير عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس:

تزعم أنّ قوما يخرجون من النار و قد قال اللّه تعالى: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها فقال ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه للكفار. قال الزمخشرى فى الكشاف بعد ذكره لهذا: إنه مما لفّقته المجبرة، و يا للّه العجب من رجل لا يفرق بين أصحّ الصحيح و بين أكذب الكذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، يتعرّض للكلام على ما لا

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۶

يعرفه و لا يدرى ما هو؟ و قد تواترت الأحاديث تواترا لا يخفى على من له أدنى إلمام بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة، اللهم غفرا.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهارا و هو المحارب، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية و هو السارق، و ذكر السارقة مع السارق لزيادة البيان لأن غالب القرآن الاقتصار على الرجال فى تشريع الأحكام. و قد اختلف أئمة النحو فى خبر السارق و السارقة هل هو مقدر أم هو فاقطعوا؟ فذهب إلى الأول سيبويه، و قال تقديره:

فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم السارق و السارقة: أى حكمهما. و ذهب المبرد و الزجاج إلى الثانى، و دخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، إذ المعنى: الذى سرق و التى سرقت، و قرئ وَ السَّارِقَ وَ السَّارِقَةَ بالنصب على تقدير اقطعوا، و رجح هذه القراءة سيبويه، قال: الوجه فى كلام العرب النصب كما تقول زيدا اضربه، و لكن العامة أبت إلا الرفع، يعنى عامة القراء، و السرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق و المصدر من سرق يسرق سرقا قاله الجوهرى: و هو أخذ الشيء فى خفية من الأعين، و منه استرق السمع، و سارقه النظر. قوله: فَاقْطَعُوا القطع معناه الإبانة و الإزالة، و جمع الأيدى لكراهة الجمع بين تثنيتين، و قد بينت السّنّة المطهرة أن موضع القطع الرسغ. و قال قوم: يقطع من المرفق. و قال الخوارج: من المنكب.

و السرقة لا بدّ أن تكون ربع دينار فصاعدا، و لا بد أن تكون من حرز كما وردت بذلك الأحاديث الصّحيحة.

و قد ذهب إلى اعتبار الربع الدينار الجمهور. و ذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم. و ذهب الجمهور إلى اعتبار الحرز. و قال الحسن البصرى: إذا جمع الثياب فى البيت قطع. و قد أطال الكلام فى بحث السرقة أئمة الفقه و شرّاح الحديث بما لا يأتى التطويل به هاهنا بكثير فائدة. قوله: جَزاءً بِما كَسَبا مفعول له: أى فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعل محذوف: أى: فجاوزهما جزاء، و الباء سببية، و ما مصدرية: أى بسبب كسبهما، أو موصولة: أى جزاء بالذى كسباه من السرقة. و قوله: نَكالًا بدل من جزاء؛ و قيل:

هو علة للجزاء، و الجزاء علة للقطع، يقال: نكلت به: إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل.
قوله: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة؛ أى فمن تاب من بعد سرقته و أصلح أمره فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ و لكن اللفظ عام فيشمل السارق و غيره من المذنبين، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قد استدلّ بهذا عطاء و جماعة على أن القطع يسقط بالتوبة، و ليس هذا الاستدلال بصحيح، لأنّ هذه الجملة الشرطية لا تفيد إلا مجرد قبول التوبة، و إن اللّه يتوب على من تاب، و ليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب. و قد كان فى زمن النبوّة يأتى إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من وجب عليه حدّ

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٧

تائبا عن الذنب الذى ارتكبه طالبا لتطهيره بالحدّ فيحدّه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال للسارق بعد قطعه: «تب إلى اللّه، ثم قال: تاب اللّه عليك». أخرجه الدار قطنى من حديث أبى هريرة.
و أخرج أحمد و غيره، أن هذه الآية نزلت فى المرأة التى كانت تسرق المتاع، لما قالت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد قطعها: هل لى من توبة؟ و قد ورد فى السّنّة ما يدلّ على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت و امتنع إسقاطها.
قوله: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ هذا الاستفهام للإنكار مع تقرير العلم و هو كالعنوان لقوله: يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ أى من كان له ملك السموات و الأرض، فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة و المغفرة الموكولة إليها.
و قد أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ قال: لا ترثوا لهم فيه فإنه أمر اللّه الذى أمر به. قال: و ذكر لنا أنّ عمر بن الخطاب كان يقول: اشتدّوا على الفساق و اجعلوهم يدا يدا و رجلا رجلا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ يقول: الحدّ كفارته. و الأحاديث فى قدر نصاب السرقة و فى سائر ما يتعلق بتفاصيل هذا الحدّ مذكورة فى كتب الحديث فلا نطيل بذلك.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٤١ الى ٤٤]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (٤٤)
قوله: لا يَحْزُنْكَ قرأ نافع بضم الياء و كسر الزاى و الباقون بفتح الياء و ضم الزاى، و الحزن و الحزن خلاف السرور، و حزن الرجل بالكسر فهو حزن و حزين؛ و أحزنه غيره و حزنه. قال اليزيدى: حزنه لغة قريش و أحزنه لغة تميم، و قد قرئ بهما. و فى الآية النهى له صلّى اللّه عليه و سلّم عن التأثر لمسارعة الكفرة فى كفرهم تأثرا بليغا، لأن اللّه سبحانه قد وعده فى غير موطن بالنصر عليهم، و المسارعة إلى الشى‏ء: الوقوع فيه بسرعة.

و المراد هنا وقوعهم فى الكفر بسرعة عند وجود فرصة، و آثر لفظ فِي على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه، و من فى قوله: مِنَ الَّذِينَ قالُوا بيانية، و الجملة مبينة للمسارعين فى الكفر، و الباء فى بِأَفْواهِهِمْ متعلّقة بقالوا: لا بآمنا، و هؤلاء الذين قالوا: آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم هم المنافقون.

وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا يعنى اليهود، و هو معطوف على مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا و هو تمام الكلام.

و المعنى: أن المسارعين فى الكفر طائفة المنافقين و طائفة اليهود. و قوله: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ خبر مبتدأ محذوف: أى هم سماعون للكذب، فهو راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين، و اللام فى قوله: لِلْكَذِبِ للتقوية أو لتضمين السماع معنى القبول؛ و قيل: إن قوله: سَمَّاعُونَ مبتدأ خبره مِنَ الَّذِينَ هادُوا أى و من الذين هادوا قوم سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أى قابلون لكذب رؤسائهم المحرّفين للتوراة. قوله:

سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ خبر ثان، و اللام فيه كاللام فى لِلْكَذِبِ و قيل: اللام للتعليل فى الموضعين أى سماعون لكلام رسول اللّه لأجل الكذب عليه، و سماعون لأجل قوم آخرين وجهوهم عيونا لهم لأجل أن يبلغوهم ما سمعوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قوله: لَمْ يَأْتُوكَ صفة لقوم: أى لم يحضروا مجلسك و هم طائفة من اليهود كانوا لا يحضرون مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تكبرا و تمرّدا؛ و قيل: هم جماعة من المنافقين كانوا يتجنبون مجالس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال الفراء: و يجوز سماعين كما قال: مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا «۱». قوله: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ من جملة صفات القوم المذكورين: أى يميلونه عن مواضعه التى وضعه اللّه فيها و يتأوّلونه على غير تأويله. و المحرّفون هم اليهود؛ و قيل: إن هذه الجملة خبر مبتدأ محذوف؛ و قيل: فى محل نصب على الحال من لَمْ يَأْتُوكَ و قيل: مستأنفة لا محل لها من الإعراب لقصد تعداد معايبهم و مثالبهم.

و معنى: مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ من بعد كونه موضوعا فى مواضعه، أو من بعد وضعه فى مواضعه التى وضعه اللّه فيها من حيث لفظه، أو من حيث معناه. قوله: يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ جملة حالية من ضمير يحرفون، أو مستأنفة، أو صفة لقوم، أو خبر مبتدأ محذوف، و الإشارة بقوله: هذا إلى الكلام المحرّف: أى إن أوتيتم من جهة محمد هذا الكلام الذى حرّفناه فخذوه و اعلموا به و إن لم تؤتوه بل جاءكم بغيره فاحذروا من قبوله و العمل به. قوله: وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ أى ضلالته فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى فلا تستطيع دفع ذلك عنه و لا تقدر على نفعه و هدايته، و هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، و ظاهرها العموم و يدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولا أوّليا، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا: آمنا بأفواههم و من الذين هادوا، و هو مبتدأ و خبره الذين لم يرد اللّه أن يطهر قلوبهم؛ أى لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر و النفاق كما طهر قلوب المؤمنين لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ بظهور نفاق المنافقين و بضرب الجزية على الكافرين و ظهور تحريفهم و كتمهم لما أنزل اللّه فى التوراة. قوله:

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ كرّره تأكيدا لقبحه، و ليكون كالمقدّمة لما بعده، و هو أكالون للسحت، و هما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المقدّر سابقا. و السحت بضم السين و سكون الحاء: المال الحرام، و أصله الهلاك و الشدّة، من سحته: إذا هلكه، و منه فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ و منه قول الفرزدق:

---

(۱). الأحزاب: ۶۱.

 و عضّ زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو محلّق «۱»

و يقال للحالق أسحت: أى استأصل؛ و سمّى الحرام سحتا لأنه يسحت الطاعات: أى يذهبها و يستأصلها، و قال الفراء: أصله كلب الجوع؛ و قيل هو الرشوة، و الأوّل أولى، و الرشوة تدخل فى الحرام دخولا أوّليا. و قد فسّره جماعة بنوع من أنواع الحرام خاص كالهدية لمن يقضى له حاجة، و حلوان الكاهن، و التعميم أولى بالصواب. قوله: فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ فيه تخيير لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين الحكم بينهم و الإعراض عنهم.

و قد استدلّ به على أنّ حكام المسلمين مخيّرون بين الأمرين. و قد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم و الذمى إذا ترافعا إليهم. و اختلفوا فى أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم؛ فذهب قوم إلى التخيير، و ذهب آخرون إلى الوجوب، و قالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ «٢» و به قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة و الزهرى و عمر بن عبد العزيز و السدىّ، و هو الصحيح من قولى الشافعى، و حكاه القرطبى عن أكثر العلماء. قوله: وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً أى إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلا سبيل لهم عليك، لأن اللّه حافظك و ناصرك عليهم، و إن اخترت الحكم بينهم فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أى بالعدل الذى أمرك اللّه به و أنزله عليك. قوله: وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ فيه تعجيب له صلّى اللّه عليه و سلّم من تحكيمهم إياه مع كونهم لا يؤمنون به و لا بما جاء به، مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم فى التوراة كالرجم و نحوه، و إنما يأتون إليه صلّى اللّه عليه و سلّم و يحكمونه طمعا منهم فى أن يوافق تحريفهم و ما صنعوه بالتوراة من التغيير. قوله: ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ عطف على يحكمونك مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد تحكيمهم لك، و جملة قوله: وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ لتقرير مضمون ما قبلها. و قوله: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ استئناف يتضمّن تعظيم التوراة و تفخيم شأنها و أن فيها الهدى و النور، و هو بيان الشرائع و التبشير بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و إيجاب اتباعه. قوله: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ هم أنبياء بنى إسرائيل، و الجملة إما مستأنفة أو حالية، و الَّذِينَ أَسْلَمُوا صفة مادحة للنبيين، و فيه إرغام لليهود المعاصرين له صلّى اللّه عليه و سلّم بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام الذى دان به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل:

المراد بالنبيين محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و عبر عنه بلفظ الجمع تعظيما. قوله: لِلَّذِينَ هادُوا متعلّق بيحكم. و المعنى:

أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا و عليهم. و الربانيون: العلماء الحكماء، و قد سبق تفسيره، و الأحبار:

العلماء، مأخوذ من التحبير و هو التحسين فهم يحبرون العلم؛ أى يحسّنونه. قال الجوهرى: الحبر واحد أحبار اليهود بالفتح و بالكسر و الكسر أفصح، و قال الفراء: هو بالكسر. و قال أبو عبيدة: هو بالفتح. قوله:

بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ الباء للسببية، و استحفظوا أمروا بالحفظ؛ أى أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة

---

(١). فى لسان العرب مادة «سحت»: مجلّف. الذى بقيت منه بقية.

(٢). المائدة: ٤٩.

عن التغيير و التّبديل، و الجار و المجرور متعلق بيحكم: أى يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ. قوله:

وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ أى على كتاب اللّه، و الشهداء: الرقباء، فهم يحمونه عن التغيير و التبديل بهذه المراقبة، و الخطاب بقوله: فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ لرؤساء اليهود، و كذا فى قوله: وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا و الاشتراء الاستبدال، و قد تقدّم تحقيقه. قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ لفظ مِنْ من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختصّ بطائفة معينة بل بكل من ولى

الحكم؛ و قيل: إنها مختصّة بأهل الكتاب؛ و قيل: بالكفار مطلقا لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبيرة؛ و قيل: هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل اللّه وقع استخفافا، أو استحلالا، و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى من، و الجمع باعتبار معناها، و كذلك ضمير الجماعة فى قوله: هُمُ الْكافِرُونَ

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ قال: هم اليهود مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ قال: هم المنافقون. و أخرج أحمد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه قال: إن اللّه أنزل وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ الظَّالِمُونَ الْفاسِقُونَ أنزلها اللّه فى طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى فى الجاهلية، حتى اصطلحوا على أن كلّ قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا، و كل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة، فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ لم يظهر عليهم، فقتلت الذليلة من العزيزة، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت الذليلة: و هل كان هذا فى حيين قط دينهما واحد و نسبهما واحد و بلدهما واحد و دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا و فرقا منكم، فأما إذ قدم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بينهما، ففكّرت العزيزة فقالت: و اللّه ما محمد يعطيكم منهم ضعف ما نعطيهم منكم، و لقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيما و قهرا لهم، فدسّوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من يخبر لكم رأيه، فإن أعطاكم ما تريدون حكّمتوه، و إن لم يعطكم حذرتموه و لم تحكّموه؛ فدسّوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ناسا من المنافقين يختبرون لهم رأيه، فلما جاءوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أخبر اللّه رسوله بأمرهم كله و ما أرادوا، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ إلى قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ثم قال فيهم: «و اللّه فيهم أنزلت و إياهم عنى». و أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود و ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال: «أوّل مرجوم رجمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من اليهود، زنى رجل منهم و امرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبيّ، فإنه نبيّ بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها و احتججنا بها عند اللّه و قلنا: فتيا نبيّ من أنبيائك، قال: فأتوا النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو جالس فى المسجد و أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى فى رجل و امرأة منّا زنيا، فلم يكلّمهم حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: أنشدكم باللّه الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة

على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمّم «۱» و يجبّه و يجلد، و التجبية: أن يحمل الزانيان على حمار و تقابل أقفيتهما و يطاف بهما، و سكت شاب منهم فلما رآه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سكت ألظّ به النشدة فقال: اللهم إذ نشدتنا نجب فإنا نجد فى التوراة الرجم، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: فما أوّل ما ارتخصتم أمر اللّه؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخّر عنه الرجم، ثم زنى رجل فى أسرة من الناس فأراد رجمه، فحال قومه دونه، و قالوا: و اللّه لا ترجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «فإنى أحكم بما فى التوراة، فأمر بهما فرجما» قال الزهرى: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فكان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم منهم. و أخرجه ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى سننه من طريق أخرى عن أبى هريرة، و ذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبد اللّه بن صوريا. و أخرج نحو حديث أبى هريرة أحمد و مسلم و أبو داود و النسائى من حديث البراء ابن عازب. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث عبد اللّه بن عمر: أن اليهود جاءوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكروا له

أنّ رجلا منهم و امرأة زنيا، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما تجدون فى التوراة؟ قالوا:

نفضحهم و يجلدون، قال عبد اللّه بن سلام: كذبتم، إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها و ما بعدها، فقال عبد اللّه بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم، قالوا: صدق، فأمر بهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فرجما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن جابر بن عبد اللّه فى قوله: وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ قال: يهود المدينة سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ قال: يهود فدك يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ قال: يهود فدك يقولون ليهود المدينة إِنْ أُوتِيتُمْ هذا الجلد فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا الرجم. و أخرج أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدا، و ذكر القصة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ قال:

أخذوا الرشوة فى الحكم، و قضوا بالكذب. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: السّحت: الرّشوة فى الدين. قال سفيان: يعنى فى الحكم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود أيضا قال:

من شفع لرجل ليدفع عنه مظلمة أو يردّ عليه حقا فأهدى له هدية فقبلها فذلك السّحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن إنا كنا نعدّ السحت الرشوة فى الحكم، فقال ذلك الكفر وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: رشوة الحكّام حرام. و هى السّحت الذى ذكر اللّه فى كتابه. و أخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال: السّحت الرشوة.

و أخرج عبد بن حميد عن علىّ بن أبى طالب أنه سئل عن السحت، فقال: الرشا، فقيل له: فى الحكم؟

---

(١). يحمّم: يسوّد وجهه.

قال: ذاك الكفر. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عمر قال: بابان من السحت يأكلهما الناس:

الرشاء فى الحكم، و مهر الزانية. و قد ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تحريم الرشوة ما هو معروف. و أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: آيتان نسختا من سورة المائدة: آية القلائد، و قوله: فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مخيّرا: إن شاء حكم بينهم، و إن شاء أعرض عنهم، فردّهم إلى أحكامهم، فنزلت وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ «١» قال: فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يحكم بينهم بما فى كتابنا.

و أخرج نحوه فى الآية الآخرة عنه أبو عبيدة و ابن المنذر و ابن مردويه. و أخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه.

و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس أنّ الآيات من المائدة التى قال فيها: فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ إلى قوله: الْمُقْسِطِينَ إنما نزلت فى الدية من بنى النضير و قريظة، و ذلك أن قتلى بنى النضير كان لهم شرف يودون الدية كاملة، و أن بنى قريظة كانوا يودون نصف الدية، فتحاكموا فى ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه ذلك فيهم، فحملهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على الحقّ فى ذلك، فجعل الدية سواء. و أخرج نحوه عنه ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللّهِ يعنى حدود اللّه، فأخبره اللّه بحكمه فى التوراة،

قال: وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها إلى قوله: وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ «۲». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن فی قوله: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا يعنی النبی صلّى اللّه عليه و سلّم لِلَّذِينَ هادُوا يعنی اليهود. و أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: الذين أسلموا: النبی و من قبله من الأنبياء يحكمون بما فيها من الحقّ. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: الربانيون و الأحبار: الفقهاء و العلماء. و أخرج عن مجاهد قال:

الربانيون: العلماء الفقهاء، و هم فوق الأحبار. و أخرج ابن أبی حاتم عن الحسن قال: الربانيون: العبّاد، و الأحبار: العلماء. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: الربانيون: الفقهاء العلماء. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عنه قال: الربانيون هم المؤمنون، و الأحبار هم القراء. و أخرج ابن جرير عن السدی فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ فتكتموا ما أنزلت وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِی ثَمَناً قَلِيلًا على أن تكتموا ما أنزلت.

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِی ثَمَناً قَلِيلًا قال: لا تأكلوا السّحت على كتابی.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ يقول: من جحد الحكم بما أنزل اللّه فقد كفر، و من أقرّ به و لم يحكم به فهو ظالم فاسق. و أخرج الفريابی و سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الحاكم و صحّحه، و البيهقی فی سننه عن ابن عباس فی قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ قال: إنه ليس بالكفر الذی يذهبون إليه، و إنه ليس كفر ينقل من الملة، بل دون كفره. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عطاء ابن أبی رباح فی قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ هُمُ الْفاسِقُونَ قال: كفر دون كفر، و ظلم دون ظلم،

---

(۱). المائدة: ۴۹.

(۲). المائدة: ۴۵.

و فسق دون فسق. و أخرج سعيد بن منصور و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: إنّما أنزل اللّه وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ و- الظَّالِمُونَ و- الْفاسِقُونَ فی اليهود خاصة. و قد روی نحو هذا عن جماعة من السلف. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبی حاتم و الحاكم و صححه عن حذيفة، أن هذه الآيات ذكرت عنده وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ و- الظَّالِمُونَ و- الْفاسِقُونَ فقال رجل: إنّ هذا فی بنی إسرائيل، فقال حذيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوة و لهم كل مرّة، كلا؛ و اللّه لتسلكنّ طريقهم قدّ الشراك. و أخرج ابن المنذر نحوه عن ابن عباس.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰]

وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۴۵) وَ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۴۶) وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴۷) وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِی ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ

تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (۴۹)
أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۵۰)

قوله: وَ كَتَبْنا معطوف على أنزلنا التوراة، و معناها فرضنا، بيّن اللّه سبحانه فى هذه الآية ما فرضه على بنى إسرائيل؛ من القصاص فى النفس، و العين، و الأنف، و الأذن، و السنّ، و الجروح. و قد استدلّ أبو حنيفة و جماعة من أهل العلم بهذه الآية فقالوا: إنه يقتل المسلم بالذمىّ لأنه نفس. و قال الشافعى و جماعة من أهل العلم: إن هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا و ليس بشرع لنا. و قد قدّمنا فى البقرة فى شرح قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى «۱» ما فيه كفاية.

و قد اختلف أهل العلم فى شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنه يلزمنا إذا لم ينسخ و هو الحق. و قد ذكر ابن الصباغ فى الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه. قال ابن كثير فى تفسيره: و قد احتجّ الأئمة كلّهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية الكريمة، انتهى.

و قد أوضحنا ما هو الحقّ فى هذا فى شرحنا على «المنتقى»، و فى هذه الآية توبيخ لليهود و تقريع لكونهم

---

(۱). البقرة: ۱۷۸.

يخالفون ما كتبه اللّه عليهم فى التوراة كما حكاه هنا، و يفاضلون بين الأنفس كما سبق بيانه، و قد كانوا يقيدون بنى النضير من بنى قريظة و لا يقيدون بنى قريظة من بنى النضير. قوله: وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ قرأ نافع و عاصم و الأعمش و حمزة بالنصب فى جميعها على العطف. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمرو و أبو جعفر بالنصب أيضا فى الكل إلا فى الجروح فبالرفع. و قرأ الكسائى و أبو عبيد بالرفع فى الجميع عطفا على المحل، لأنّ النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء. و قال الزجاج: يكون عطفا على المضمر فى النفس، لأن التقدير: إنّ النفس هى مأخوذة بالنفس، فالأسماء معطوفة على هى. قال ابن المنذر: و من قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمّن بيان الحكم للمسلمين. و الظاهر من النظم القرآنى أنّ العين إذا فقئت حتى لم يبق مجال للإدراك أنها تفقأ عين الجانى بها، و الأنف إذا جدعت جميعها فإنها تجدع أنف الجانى بها، و الأذن إذا قطعت جميعها فإنها تقطع أذن الجانى بها، و كذلك السنّ؛ فأما لو كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين، أو ببعض الأنف، أو ببعض الأذن، أو ببعض السنّ، فليس فى هذه الآية ما يدلّ على ثبوت القصاص.

و قد اختلف أهل العلم فى ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته، و كلامهم مدوّن فى كتب الفروع. و الظاهر من قوله: وَ السِّنَّ بِالسِّنِ أنه لا فرق بين الثنايا و الأنياب و الأضراس و الرباعيات، و أنه يؤخذ بعضها ببعض، و لا فضل لبعضها على بعض. و إليه ذهب أكثر أهل العلم، كما قال ابن المنذر، و خالف فى ذلك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه و من تبعه، و كلامهم مدوّن فى مواطنه، و لكنه ينبغى أن يكون المأخوذ فى القصاص من الجانى هو المماثل للسنّ المأخوذة من المجنىّ عليه، فإن كانت ذاهبة فما يليها.

قوله: وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ أى ذوات قصاص. و قد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص فى الجروح التى يخاف منها التلف، و لا فيما كان لا يعرف مقداره عمقا أو طولا أو عرضا. و قد قدّر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقادير معلومة، و ليس هذا موضع بيان كلامهم، و لا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقدّر. قوله:

فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ أى من تصدّق من المستحقين للقصاص بالقصاص، بأن عفا عن الجانى فهو كفارة للمتصدّق يكفر اللّه عنه بها ذنوبه. و قيل: إن المعنى: فهو كفارة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته فى الآخرة لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه. و الأوّل

أرجح، لأنّ الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير مذكور. قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ضمير الفصل مع اسم الإشارة و تعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية. قوله: وَ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هذا شروع فى بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة؛ أى جعلنا عيسى ابن مريم يقفو آثارهم؛ أى آثار النبيين الذين أسلموا من بنى إسرائيل، يقال قفيته مثل عقبته: إذا أتبعته؛ ثم يقال: قفيته بفلان و عقبته به فيتعدى إلى الثانى بالباء، و المفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف، و هو على آثارهم لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، و انتصاب مُصَدِّقاً على الحال من عيسى وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ عطف على قفينا، و محل الجملة أعنى فِيهِ هُدىً النصب على الحال من الإنجيل وَ نُورٌ عطف على هدى. و قوله: وَ مُصَدِّقاً معطوف على محل فِيهِ هُدىً أى أن الإنجيل أوتيه عيسى حال كونه

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۵

مشتملا على الهدى و النور مصدقا لما بين يديه من التوراة؛ و قيل: إن مصدّقا معطوف على مصدّقا الأوّل فيكون حالا من عيسى مؤكدا للحال الأوّل و مقرّر له. و الأوّل أولى لأن التأسيس خير من التأكيد. قوله: وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ عطف على مصدّقا داخل تحت حكمه منضما إليه: أى مصدقا و هاديا و واعظا للمتقين.

قوله: وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل اللّه فيه، فإنه قبل البعثة المحمدية حقّ، و أما بعدها فقد أمروا فى غير موضع بأن يعملوا بما أنزل اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة. و قرأ الأعمش و حمزة بنصب الفعل من لْيَحْكُمْ على أنّ اللام لام كى، و قرأ الباقون بالجزم على أنّ اللام للأمر. فعلى القراءة الأولى تكون اللام متعلقة بقوله: و آتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل اللّه فيه، و على القراءة الثانية هو كلام مستأنف. قال مكى: و الاختيار الجزم، لأنّ الجماعة عليه، و لأن ما بعده من الوعيد و التهديد يدلّ على أنه إلزام من اللّه لأهل الإنجيل. و قال النحاس: و الصواب عندى أنهما قراءتان حسنتان لأن اللّه سبحانه لم ينزل كتابا إلا ليعمل بما فيه. قوله: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ خطاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و الكتاب: القرآن، و التعريف للعهد، و بِالْحَقِ متعلق بمحذوف وقع حالا: أى متلبسا بالحق؛ و قيل: هو حال من فاعل أنزلنا؛ و قيل: من ضمير النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ حال من الكتاب، و التعريف فى الكتاب أعنى قوله: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ للجنس؛ أى أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبسا بالحق، و حال كونه مصدّقا لما بين يديه من كتب اللّه المنزلة؛ لكونه مشتملا على الدعوة إلى اللّه و الأمر بالخير و النهى عن الشرّ، كما اشتمل عليه قوله: وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ عطف على مصدّقا، و الضمير فى عليه عائد إلى الكتاب الذى صدقه القرآن و هيمن عليه، و المهيمن الرقيب؛ و قيل: الغالب المرتفع؛ و قيل: الشاهد، و قيل: الحافظ؛ و قيل: المؤتمن. قال المبرد: أصله مؤيمن أبدل من الهمزة هاء، كما قيل فى أرقت الماء هرقت، و به قال الزجاج و أبو علىّ الفارسى. و قال الجوهرى: هو من أمن غيره من الخوف، و أصله أأمن فهو مؤامن بهمزتين قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى هاء، كما قالوا: هراق الماء و أراقه، يقال: هيمن على الشي‌ء يهيمن: إذا كان له حافظا، فهو له مهيمن كذا عن أبى عبيد. و قرأ مجاهد و ابن محيصن مُهَيْمِناً عَلَيْهِ بفتح الميم، أى هيمن عليه اللّه سبحانه. و المعنى على قراءة الجمهور: أن القرآن صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة و مقرّرا لما فيها مما لم ينسخ، و ناسخا لما خالفه منها، و رقيبا عليها و حافظا لما فيها من أصول الشرائع، و غالبا لها لكونه المرجع فى المحكم منها و المنسوخ، و مؤتمنا عليها لكونه مشتملا على ما هو معمول به منها و ما هو متروك. قوله: فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ أى بما أنزله إليك فى القرآن لاشتماله على جميع ما شرعه اللّه لعباده فى جميع الكتب السابقة عليه وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ أى أهواء أهل الملل السابقة. و قوله: عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِ متعلّق بلا تتبع على تضمينه معنى لا تعدل أو لا تنحرف عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِ متبعا لأهوائهم؛ و قيل متعلّق بمحذوف: أى لا تتبع أهواءهم عادلا أو منحرفا عن الحق. و فيه النهى له صلّى اللّه عليه و سلّم عن أن يتبع

أهوية أهل الكتاب و يعدل عن الحق الذى أنزله اللّه عليه، فإن كل ملة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ما هم عليه و ما أدركوا

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶

عليه سلفهم و إن كان باطلا منسوخا أو محرّفا عن الحكم الذى أنزله اللّه على الأنبياء، كما وقع فى الرجم و نحوه مما حرّفوه من كتب اللّه. قوله: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً الشرعة و الشريعة فى الأصل: الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى الماء، ثم استعملت فيما شرعه اللّه لعباده من الدين. و المنهاج: الطريقة الواضحة البينة. و قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الشريعة: ابتداء الطريق، و المنهاج الطريق المستمر. و معنى الآية:

أنه جعل التوراة لأهلها، و الإنجيل لأهله، و القرآن لأهله و هذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن و أما بعده فلا شرعة و لا منهاج إلا ما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً بشريعة واحدة و كتاب واحد و رسول واحد وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ أى و لكن لم يشأ ذلك الاتحاد، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع، فيكون لِيَبْلُوَكُمْ متعلقا بمحذوف دلّ عليه سياق الكلام و هو ما ذكرنا، و معنى فِي ما آتاكُمْ فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات و الرسل، هل تعملون بذلك و تذعنون له، أو تتركونه و تخالفون ما اقتضته مشيئة اللّه و حكمته، و تميلون إلى الهوى و تشترون الضلالة بالهدى. و فيه دليل على أنّ اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعنى الابتلاء و الامتحان لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات و الأشخاص. قوله: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أى إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمرتم بفعله و ترك ما أمرتم بتركه. و الاستباق: المسارعة. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً لا إلى غيره و هذه الجملة كالعلة لما قبلها. قوله: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عطف على الكتاب:

أى أنزلنا عليك الكتاب و الحكم بما فيه. و قد استدلّ بهذا على نسخ التخيير المتقدّم فى قوله: أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ و قد تقدم تفسير وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ قوله: وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ أى يضلّوك عنه و يصرفوك بسبب أهوائهم التى يريدون منك أن تعمل عليها و تؤثرها فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ أى إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل اللّه عليك فذلك لما أراده اللّه من تعذيبهم ببعض ذنوبهم و هو ذنب التولى عنك و الإعراض عما جئت به وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ متمرّدون عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف. قوله: أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ الاستفهام للإنكار و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر كما فى نظائره. و المعنى: أ يعرضون عن حكمك بما أنزل اللّه عليك و يتولون عنه و يبتغون حكم الجاهلية، و الاستفهام فى وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ للإنكار أيضا: أى لا أحسن من حكم اللّه عند أهل اليقين لا عند أهل الجهل و الأهواء.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها فى التوراة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عنه، قال: كتب عليهم هذا فى التوراة، و كانوا يقتلون الحر بالعبد فيقولون كتب علينا أن النفس بالنفس.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدّق به.

و أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ قال: للمجروح. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن ماجة عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ما من مسلم يصاب بشىء فى جسده

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۷

فيتصدّق به إلا رفعه اللّه به درجة، و حطّ عنه به خطيئة». و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن

أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ قال: مؤتمنا عليه.
و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى عنه قال: المهيمن: الأمين، و القرآن أمين على كل كتاب قبله.
و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه فى قوله:
شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً قال: سبيلا و سنّة. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد و عبد اللّه بن صوريا و شاس بن قيس: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا أن نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود و أشرافهم و ساداتهم، و إنا إن اتّبعناك اتّبعنا يهود، و إن بيننا و بين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم و نؤمن بك و نصدّقك، فأبى ذلك، و أنزل اللّه فيهم وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ إلى قوله: لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ قال: يهود. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: هذا فى قتيل اليهود.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۵۱ الى ۵۶]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۱) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (۵۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (۵۳) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۵۴) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ (۵۵)
وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (۵۶)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الظاهر أنه خطاب للمؤمنين حقيقة؛ و قيل: المراد بهم المنافقون، و وصفهم بالإيمان باعتبار ما كانوا يظهرونه. و قد كانوا يوالون اليهود و النصارى فنهوا عن ذلك.
و الأولى أن يكون خطابا لكل من يتصف بالإيمان أعمّ من أن يكون ظاهرا و باطنا أو ظاهرا فقط، فيدخل المسلم و المنافق، و يؤيد هذا قوله: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و الاعتبار بعموم اللفظ، و سيأتى فى بيان سبب نزول الآية ما يتضح به المراد. و المراد من النهى عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء فى المصادقة و المعاشرة و المناصرة. و قوله: بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ تعليل للنهى، و المعنى: أنّ بعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم، و بعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم، و ليس المراد بالبعض إحدى طائفتى اليهود و النصارى، و بالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع بأنهم فى غاية من العداوة و الشقاق وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ «۱» و قيل: المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالى الأخرى و تعاضدها و تناصرها على عداوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عداوة ما جاء به؛ و إن كانوا فى ذات بينهم متعادين متضادّين.

---

(۱). البقرة: ۱۱۳.

و وجه تعليل النهى بهذه الجملة أنها تقتضى أن هذه الموالاة هى شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا

مثلهم، و لهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أى فإنه من جملتهم و فى عدادهم، و هو وعيد شديد فإنّ المعصية الموجبة للكفر هى التى قد بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية. و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تعليل للجملة التى قبلها؛ أى أن وقوعهم فى الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالى الكافرين.

قوله: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ الفاء للسببية، و الخطاب إما للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أو لكلّ من يصلح له: أى ما ارتكبوه من الموالاة و وقعوا فيه من الكفر هو بسبب ما فى قلوبهم من مرض النفاق.

و قوله: يُسارِعُونَ فى محل نصب إما على أنه المفعول الثانى إذا كانت الرؤية قلبية أو على أنه حال إذا كانت بصرية، و جعل المسارعة فى موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة فى بيان رغوبهم فى ذلك حتى كأنهم مستقرّون فيهم داخلون فى عدادهم. و قد قرئ فيرى بالتحتية. و اختلف فى فاعله ما هو؟ فقيل: هو اللّه عزّ و جلّ؛ و قيل: هو كل من تصح منه الرؤيا؛ و قيل: هو الموصول. و مفعوله: يُسارِعُونَ فِيهِمْ على حذف أن المصدرية: أى فيرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم، فلما حذفت ارتفع الفعل كقوله:

ألا أيّهذا اللّائمى أحضر الوغى «١» ...

و المرض فى القلوب: هو النفاق و الشك فى الدين. و قوله: يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ جملة مشتملة على تعليل المسارعة فى الموالاة: أى أن هذه الخشية هى الحاملة لهم على المسارعة؛ و قيل: إن الجملة حال من ضمير يسارعون. و الدائرة: ما تدور من مكاره الدهر: أى نخشى أن تظفر الكفار بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم فتكون الدولة لهم و تبطل دولته فيصيبنا منهم مكروه، و منه قوله الشاعر:

يردّ عنك القدر المقدوراو دائرات الدّهر أن تدورا

أى دولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم. و قوله: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ردّ عليهم و دفع لما وقع لهم من الخشية، و عسى فى كلام اللّه وعد صادق لا يتخلّف. و الفتح: ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم على الكافرين، و منه ما وقع من قتل مقاتلة بنى قريظة و سبى ذراريهم، و إجلاء بنى النضير؛ و قيل: هو فتح بلاد المشركين على المسلمين؛ و قيل: فتح مكة. و المراد بالأمر من عنده سبحانه هو كلّ ما تندفع به صولة اليهود و من معهم و تنكسر به شوكتهم؛ و قيل: هو إظهار أمر المنافقين و إخبار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بما أسروا فى أنفسهم و أمره بقتلهم؛ و قيل: هو الجزية التى جعلها اللّه عليهم؛ و قيل: الخصب و السعة للمسلمين، فيصبح المنافقون عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ من النفاق الحامل لهم على الموالاة نادِمِينَ على ذلك لبطلان الأسباب التى تخيلوها و انكشاف خلافها. قوله: يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا قرأ أبو عمرو و ابن أبى إسحاق و أهل الكوفة بإثبات الواو،

---

(١). و تمامه: و أن أشهد اللذات، هل أنت مخلدى؟ و هو من معلقة طرفة بن العبد البكرى.

و قرأ الباقون بحذفها، فعلى القراءة الأولى مع رفع يقول يكون كلاما مبتدأ مسوقا لبيان ما وقع من هذه الطائفة، و على قراءة النصب يكون عطفا على فَيُصْبِحُوا و قيل: على يَأْتِيَ و الأولى أولى، لأن هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة الكافرين لا عند إتيان الفتح؛ و قيل: هو معطوف على الفتح كقول الشاعر:

للبس عباءة و تقرّ عينى «١» ...

و أما على قراءة حذف الواو فالجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الإشارة بقوله: أَ هؤُلاءِ إلى المنافقين: أى يقول الذين آمنوا

مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ بالمناصرة و المعاضدة فى القتال، أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين، و هذه الجملة مفسرة للقول. و جهد الأيمان: أغلظها، و هو منصوب على المصدر أو على الحال: أى أقسموا باللّه جاهدين.

قوله: حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ أى بطلت و هو من تمام قول المؤمنين أو جملة مستأنفة و القائل اللّه سبحانه.

و الأعمال هى التى عملوها فى الموالاة أو كل عمل يعملونه. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ قرأ أهل المدينة و الشام يرتدد بدالين بفك الإدغام، و هى لغة تميم، و قرأ غيرهم بالإدغام. و هذا شروع فى بيان أحكام المرتدّين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر، و ذلك نوع من أنواع الردّة. و المراد بالقوم الذين وعد اللّه سبحانه بالإتيان بهم هم أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه و جيشه من الصحابة و التابعين الذين قاتل بهم أهل الردّة، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدّين فى جميع الزمن، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف العظيمة المشتملة على غاية المدح و نهاية الثناء من كونهم يحبون اللّه و هو يحبهم، و من كونهم أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ و الأذلّة: جمع ذليل لا ذلول، و الأعزّة: جمع عزيز، أى يظهرون العطف و الحنوّ و التّواضع للمؤمنين و يظهرون الشدّة و الغلظة و الترفع على الكافرين، و يجمعون بين المجاهدة فى سبيل اللّه و عدم خوف الملامة فى الدين، بل هم متصلّبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق و حزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين و قلب محاسنهم مساوئ و مناقبهم مثالب حسدا و بغضا و كراهة للحق و أهله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من الصفات التى اختصهم اللّه بها. و الفضل: اللطف و الإحسان. قوله: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحلّ موالاته بيّن من هو الولىّ الذى تجب موالاته، و محل الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ الرفع على أنه صفة للذين آمنوا أو بدل منه أو النصب على المدح. و قوله: وَ هُمْ راكِعُونَ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله. و المراد بالركوع: الخشوع و الخضوع، أى يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم خاشعون خاضعون لا يتكبرون؛ و قيل: هو حال من فاعل الزكاة. و المراد بالركوع هو المعنى المذكور: أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء و لا مترفعين عليهم؛ و قيل: المراد بالركوع على المعنى الثانى: ركوع

---

(١). و تمام البيت: أحبّ إلىّ من لبس الشفوف. و هو لميسون بنت بحدل، و كانت زوجة لمعاوية بن أبى سفيان.

الصلاة، و يدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال، ثم وعد سبحانه من يتولّى اللّه و رسوله و الذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوّهم، و هو من وضع الظاهر موضع المضمر، و وضع حزب اللّه موضع ضمير الموالين للّه و لرسوله و للمؤمنين. و الحزب: الصنف من الناس، من قولهم حزبه كذا: أى نابه، فكأن المتحزّبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة التى تنوب، و حزب الرجل: أصحابه، و الحزب: الورد. و فى الحديث: «فمن فاته حزبه من الليل» و تحزّبوا: اجتمعوا. و الأحزاب: الطوائف. و قد وقع- و للّه الحمد- ما وعد اللّه به أولياءه و أولياء رسله و أولياء عباده المؤمنين من الغلب لعدوّهم، فإنهم غلبوا اليهود بالسبى و القتل و الإجلاء و ضرب الجزية، حتى صاروا لعنهم اللّه أذلّ الطوائف الكفرية و أقلها شوكة، و ما زالوا تحت كلكل المؤمنين يطحنونهم كيف شاؤوا، و يمتهنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغاية.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تشبث بأمرهم عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول و قام دونهم، و مشى عبادة بن الصّامت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و تبرّأ إلى اللّه و إلى رسوله من

حلفهم، و كان أحد بنى عوف بن الخزرج، و له من حلفهم مثل الذى كان لهم من عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، فخلعهم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: أتبرأ إلى اللّه و إلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار و ولايتهم. و فيه و فى عبد اللّه بن أبىّ نزلت الآيات فى المائدة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ إلى قوله: فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:

أسلم عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، ثم قال: إنّ بينى و بين قريظة و النضير حلفا و إنّى أخاف الدوائر، فارتدّ كافرا. و قال عبادة بن الصامت: أتبرأ إلى اللّه من حلف قريظة و النضير و أتولى اللّه و رسوله، فنزلت. و أخرج ابن مردويه أيضا من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جدّه نحو ذلك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة فذكر نحو ما تقدّم. و أخرج ابن جرير عن الزهرى قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمنوا قبل أن يصيبكم اللّه بيوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن الصيف: غرّكم أن أصبتم رهطا من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يدان بقتالنا، فقال عبادة و ذكر نحو ما تقدم عنه و عن عبد اللّه بن أبىّ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قال: إنها فى الذبائح «من دخل فى دين قوم فهو منهم». و أخرج عبد بن حميد عن حذيفة قال: ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا و هو لا يشعر، و تلا وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطية فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كعبد اللّه بن أبىّ يُسارِعُونَ فِيهِمْ فى ولايتهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و البيهقى فى سننه و ابن عساكر عن قتادة قال: أنزل اللّه هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ و قد علم أنه سيرتدّ مرتدّون من الناس، فلما قبض اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم ارتدّ عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد: أهل المدينة، و أهل مكة، و أهل الجؤاثا من عبد القيس؛

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٦١

و قال الذين ارتدّوا: نصلى الصلاة و لا نزكى و اللّه لا تغصب أموالنا، فكلّم أبا بكر فى ذلك ليتجاوز عنهم، و قيل له: إنهم لو قد فقهوا أدّوا الزكاة، فقال: و اللّه لا- أفرّق بين شى‏ء جمعه اللّه و لو منعونى عقالا- مما فرض اللّه و رسوله لقاتلتهم عليه، فبعث اللّه عصائب مع أبى بكر فقاتلوا حتى أقروا بالماعون و هو الزكاة.

قال قتادة: فكنا نتحدّث أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر و أصحابه فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ إلى آخر الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى الدلائل عن الحسن نحوه. و أخرج ابن جرير عن شريح بن عبيد قال: لما أنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ الآية، قال عمر: أنا و قومى يا رسول اللّه؟ قال: «لا بل هذا و قومه» يعنى أبا موسى الأشعرى. و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة فى مسنده و عبد بن حميد و الحكيم الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل عن عياض الأشعرى قال: لما نزلت فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هم قوم هذا»، و أشار إلى أبى موسى الأشعرى. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم فى جمعه لحديث شعبة و البيهقى و ابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى قال: تليت عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ الآية، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«قومك يا أبا موسى أهل اليمن». و أخرج ابن أبى حاتم فى الكنى و الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ و ابن مردويه بسند حسن عن جابر بن عبد اللّه قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ الآية، فقال: «هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم كندة ثم السّكون ثم تحبيب». و أخرج البخارى فى تاريخه و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: هم قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون. و أخرج ابن أبى شيبة عنه قال: هم أهل القادسية. و أخرج البخارى فى تاريخه

عن القاسم بن مخيمرة قال: أتيت ابن عمر فرحّب بى، ثم تلا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ الآية، ثم ضرب على منكبى و قال: أحلف باللّه إنهم لمنكم أهل اليمن، ثلاثا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عطية بن سعد، قال فى قوله: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إنها نزلت فى عبادة بن الصامت. و أخرج الخطيب فى المتفق و المفترق عن ابن عباس قال: تصدّق علىّ بخاتم و هو راكع، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال:

ذاك الراكع، فأنزل اللّه فيه إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت فى علىّ بن أبى طالب. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب نحوه. و أخرج ابن مردويه عن عمار نحوه أيضا. و أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند فيه مجاهيل عنه نحوه.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۵۷ الى ۶۳]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۵۸) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (۶۰) وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (۶۱)

وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (۶۳)

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۶۲

قوله: لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً هذا النهى عن موالاة المتخذين الدين هزؤا و لعبا يعمّ كلّ من حصل منه ذلك من المشركين و أهل الكتاب و أهل البدع المنتمين إلى الإسلام، و البيان بقوله: مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إلى آخره لا ينافى دخول غيرهم تحت النهى إذا وجدت فيه العلة المذكورة التى هى الباعثة على النهى. قوله: وَ الْكُفَّارَ قرأ أبو عمرو و الكسائى بالجر على تقدير من؛ أى و من الكفار.

قال الكسائى: و فى حرف أبى و من الكفار و قرأ من عداهما بالنصب. قال النحاس: و هو أوضح و أبين.

و قال مكى: لولا اتفاق الجماعة على النصب لاخترت الخفض لقوّته فى الإعراب و فى المعنى، و المراد بالكفار هنا المشركون، و قيل المنافقون وَ اتَّقُوا اللَّهَ بترك ما نهاكم عنه من هذا و غيره إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى ذلك. وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ، و النداء: الدعاء برفع الصوت، و ناداه مناداة و نداء:

صاح به، و تنادوا: أى نادى بعضهم بعضا. و تنادوا: أى جلسوا فى النادى، و الضمير فى اتَّخَذُوها للصلاة: أى اتّخذوا صلاتكم هزؤا و لعبا؛ و قيل: الضمير للمناداة المدلول عليها بناديتم. قيل: و ليس فى كتاب اللّه تعالى ذكر الأذان إلا فى هذا الموضع، و أما قوله تعالى فى الجمعة: إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ «۱» فهو خاصّ بنداء الجمعة. و قد اختلف أهل العلم فى كون الأذان واجبا أو غير واجب، و فى ألفاظه و هو مبسوط فى مواطنه. قوله: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ أى ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون، لأن الهزء و اللعب شأن أهل السفه و الخفة و الطيش. قوله: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا يقال: نقمت على الرجل بالكسر فأنا ناقم: إذا عبت عليه. قال الكسائى: نقمت بالكسر لغة، و نقمت الأمر أيضا و نقمت: إذا كرهته، و انتقم اللّه منه: أى عاقبه، و الاسم منه النقمة، و الجمع نقمات، مثل كلمة و كلمات، و إن شئت سكنت القاف و نقلت حركتها إلى النون، و الجمع نقم مثل

نعمة و نعم؛ و قيل: المعنى يسخطون؛ و قيل: ينكرون. قال عبد اللّه بن قيس الرقيات:

ما نقموا من بنى أميّة إلّاأنهم يحلمون إن غضبوا

و قال اللّه سبحانه: وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ و المعنى فى الآية: هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا إلا إيماننا باللّه و بكتبه المنزلة، و قد علمتم بأنا على الحق وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ بترككم للإيمان و الخروج عن امتثال أوامر اللّه. و قوله: وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ معطوف على أن آمنا: أى ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا و بين تمرّدكم و خروجكم عن الإيمان. و فيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين، فإنّ الإيمان من جهتهم، و التمرّد و الخروج من جهة الناقمين؛ و قيل: هو على تقدير محذوف: أى و اعتقادنا أن أكثركم

---

(١). الجمعة: ٩.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٦٣

فاسقون؛ و قيل: إن قوله: أَنْ آمَنَّا هو منصوب على أنه مفعول له و المفعول محذوف، فيكون وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ معطوفا عليه عطف العلة على العلة، و التقدير: و ما تنقمون منا إلا لأن آمنا، و لأن أكثركم فاسقون، و قيل: معطوف على علّة محذوفة، أى لقلّة إنصافكم، و لأنّ أكثركم فاسقون؛ و قيل: الواو فى قوله: وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ هى التى بمعنى مع: أى ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون؛ و قيل: هو منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون: أى و لا تنقمون أن أكثركم فاسقون؛ و قيل: هو مرفوع على الابتداء و الخبر محذوف؛ أى و فسقكم معلوم فتكون الجملة حالية، و قرئ بكسر إن من قوله:

وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ فتكون جملة مستأنفة. قوله: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ بيّن اللّه سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، و هو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن اللّه و غضبه و مسخه؛ و المعنى: هل أنبئكم بشرّ من نقمتكم علينا أو بشرّ مما تريدون لنا من المكروه أو بشرّ من أهل الكتاب أو بشرّ من دينهم. و قوله: مَثُوبَةً أى جزاء ثابتا، و هى مختصّة بالخير كما أنّ العقوبة مختصّة بالشرّ. و وضعت هنا موضع العقوبة على طريقة فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* و هى منصوبة على التمييز من بشرّ. و قوله: مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف: أى هو لعن من لعنه اللّه أو هو دين من لعنه اللّه، و يجوز أن يكون فى محل جر بدلا من شرّ. قوله: وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ أى مسخ بعضهم قردة و بعضهم خنازير و هم اليهود، فإن اللّه مسخ أصحاب السبت قردة، و كفار مائدة عيسى منهم خنازير. قوله:

وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ قرأ حمزة بضم الباء من عبد و كسر التاء من الطاغوت أى جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت. و المعنى: و جعل منهم من يبالغ فى عبادة الطاغوت، لأن فعل من صيغ المبالغة، كحذر و فطن للتبليغ فى الحذر و الفطنة. و قرأ الباقون بفتح الباء من عَبَدَ و فتح التاء من الطَّاغُوتَ على أنه فعل ماض معطوف على فعل ماض و هو غضب و لعن، كأنه قيل: و من عبد الطاغوت، أو معطوف على القردة و الخنازير: أى جعل منهم القردة و الخنازير و جعل منهم عبد الطاغوت حملا على لفظ من. و قرأ أبيّ و ابن مسعود و عبدوا الطاغوت حملا على معناها. و قرأ ابن عباس و عبد بضم العين و الباء كأنه جمع عبد، كما يقال: سقف و سقف. و يجوز أن يكون جمع عبيد كرغيف و رغف، أو جمع عابد كبازل و بزل. و قرأ أبو واقد «و عباد» جمع عابد للمبالغة، كعامل و عمال. و قرأ البصريون و عباد جمع عابد أيضا، كقائم و قيام، و يجوز أن يكون جمع عبد. و قرأ أبو جعفر الرقاشى و عبد الطاغوت على البناء للمفعول، و التقدير و عبد الطاغوت فيهم. و قرأ عون العقيلى و ابن بريدة: «و عابد الطاغوت» على التوحيد. و روى عن ابن مسعود و أبيّ أنهما قرءا و عبدة الطاغوت و قرأ عبيد بن عمير «و أعبد الطاغوت» مثل كلب و أكلب. و قرئ و عبد الطاغوت عطفا على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف، و هى قراءة ضعيفة جدا، و

الطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدّم مستوفى. قوله:
أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة، و جعلت الشرارة للمكان، و هى لأهله للمبالغة، و يجوز أن يكون الإسناد مجازيا. قوله: وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ معطوف على شرّ، أى

هم أضلّ من غيرهم عن الطريق المستقيم، و التفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا أو لكونهم أشرّ و أضل مما يشاركهم فى أصل الشرارة و الضلال. قوله: وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا أى إذا جاءوكم أظهروا الإسلام.

قوله: وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ جملتان حاليتان: أى جاءوكم حال كونهم قد دخلوا عندك متلبسين بالكفر و خرجوا من عندك متلبسين به لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك، بل خرجوا كما دخلوا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ عندك من الكفر، و فيه وعيد شديد، و هؤلاء هم المنافقون؛ و قيل: هم اليهود الذين قالوا: آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ «۱». قوله: وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح له، و الضمير فى مِنْهُمْ عائد إلى المنافقين أو اليهود أو إلى الطائفتين جميعا و يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ فى محل نصب على الحال على أن الرؤية بصرية أو هو مفعول ثان لترى على أنها قلبية، و المسارعة: المبادرة، و الإثم: الكذب أو الشرك أو الحرام، و العدوان: الظلم المتعدى إلى الغير أو مجاوزة الحدّ فى الذنوب، و السحت: الحرام، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة، و الربانيون علماء النصارى، و الأحبار: علماء اليهود؛ و قيل: الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم؛ ثم وبخ علماءهم فى تركهم لنهيهم فقال: لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ و هذا فيه زيادة على قوله: لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ لأنّ العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرّب فيه صاحبه، و لهذا تقول العرب: سيف صنيع: إذا جوّد عامله عمله، فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل، فوبخ سبحانه الخاصة، و هم العلماء التاركون للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بما هو أغلظ و أشدّ من توبيخ فاعل المعاصى، فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم و يفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافى لهم بأن كفّهم عن المعاصى مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن و لا يغنى من جوع، بل هم أشدّ حالا و أعظم و بالا من العصاة، فرحم اللّه عالما قام بما أوجبه اللّه عليه من فريضة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فهو أعظم ما افترضه اللّه عليه و أوجب ما أوجب عليه النهوض به. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، و أعنّا على ذلك و قوّنا عليه و يسّره لنا، و انصرنا على من تعدّى حدودك و ظلم عبادك، إنه لا ناصر لنا سواك و لا مستعان غيرك، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد و إياك نستعين.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: و كان رفاعة ابن زيد بن التابوت و سويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام و نافقا، و كان رجال من المسلمين يوادّونهما، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً إلى قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ و أخرج البيهقى فى الدلائل من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً قال: كان منادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود و النصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا رأوهم ركعوا و سجدوا استهزءوا بهم و ضحكوا منهم. قال: و كان رجل من اليهود تاجرا إذا سمع المنادى ينادى بالأذان قال: أحرق اللّه الكاذب؛ قال: فبينما هو كذلك إذ دخلت جاريته بشعلة من نار، فطارت شرارة منها فى البيت فأحرقته.

---

(۱). آل عمران: ۷۲.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۶۵

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: كان رجل من النصارى فذكر نحو قصّة الرجل اليهودى. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: أتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم نفر من اليهود، فسألوه عمّن يؤمن به من الرسل فقال: «أؤمن باللّه و ما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط، و ما أوتى موسى و عيسى، و ما أوتى النبيون من ربّهم، لا نفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون»، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته، و قالوا: لا نؤمن بعيسى و لا نؤمن بمن آمن به، فأنزل اللّه فيهم قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلى قوله: فاسِقُونَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ قال: مسخت من يهود. و أخرج أبو الشيخ عن أبى مالك أنه قيل له: كانت القردة و الخنازير قبل أن يمسخوا؟ قال: نعم، و كانوا مما خلق من الأمم. و أخرج مسلم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن القردة و الخنازير هما مما مسخ اللّه، فقال: «إن اللّه لم يهلك قوما، أو قال: لم يمسخ قوما فيجعل لهم نسلا و لا عاقبة، و إنّ القردة و الخنازير كانت قبل ذلك». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا الآية، قال أناس من اليهود:

كانوا يدخلون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذى جاء به، و هم متمسكون بضلالتهم و بالكفر، فكانوا يدخلون بذلك و يخرجون به من عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير عن السدى فى الآية قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهودا، يقول: دخلوا كفارا و خرجوا كفارا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ قال: هؤلاء اليهود لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلى قوله: لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ قال: يصنعون و يعملون واحد، قال: لهؤلاء حين لم ينتهوا كما قال لهؤلاء حين عملوا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ قال: فهلّا ينهاهم الربانيون و الأحبار؟ و هم الفقهاء و العلماء. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما فى القرآن آية أشدّ توبيخا من هذه الآية لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن الضحاك بن مزاحم نحوه، و قد وردت أحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لا حاجة لنا فى بسطها هنا.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۶۴ الى ۶۶]

وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۶۴) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (۶۶)

فتح القدير، ج ۲، ص: ۶۶

قوله: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ اليد عند العرب تطلق على الجارحة، و منه قوله تعالى: وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً «۱» و على النعمة، يقولون كم يد لى عند فلان؛ و على القدرة. و منه قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ أو على التأييد، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «يد اللّه مع القاضى حين يقضى» و تطلق على معان أخر. و هذه الآية هى على طريق التمثيل كقوله تعالى: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى

عُنُقِكَ و العرب تطلق غلّ اليد على البخل و بسطها على الجود مجازا، و لا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل، و مقبوض الكفّ، و منه قوله الشاعر:

كانت خراسان أرضا إذ يزيد بهاو كلّ باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت بعده جعدا أنامله كأنّما وجهه بالخلّ منضوح

فمراد اليهود هنا، عليهم لعائن اللّه، أنّ اللّه بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقا لما أرادوه بقوله: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ و يجوز أن يراد غلّ أيديهم حقيقة بالأسر فى الدنيا أو بالعذاب فى الآخرة، و يقوّى المعنى الأوّل أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظلّ للشمس فلا ترى يهوديا، و إن كان ماله فى غاية الكثرة، إلا و هو من أبخل خلق اللّه، و أيضا المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله. قوله: وَ لُعِنُوا بِما قالُوا معطوف على ما قبله و الباء سببية: أى أبعدوا من رحمة اللّه بسبب قولهم: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، ثم ردّ سبحانه بقوله: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ أى بل هو فى غاية ما يكون من الجود، و ذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة فى الردّ عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة، و هذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدّرة يقتضيها المقام: أى كلا ليس الأمر كذلك بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ و قيل: المراد بقوله:

بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ نعمة الدنيا الظاهرة و نعمتها الباطنة؛ و قيل: نعمة المطر و النبات؛ و قيل: الثواب و العقاب. و حكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ بل يداه بسيطتان: أى منطلقتان كيف يشاء. قوله:

يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه: أى إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، و إن شاء قتر، فهو الباسط القابض؛ فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة لا لشيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تفنى و موادّ جوده لا تتناهى. قوله: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ إلخ، اللام هى لام القسم:

أى ليزيدن كثيرا من اليهود و النصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة طُغْياناً وَ كُفْراً أى طغيانا إلى طغيانهم و كفرا إلى كفرهم. قوله: وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ أى بين اليهود الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ أو بين اليهود و النصارى. قوله: كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ أى كلما جمعوا للحرب جمعا، و أعدوا له عدّة، شتّت اللّه جمعهم، و ذهب بريحهم فلم يظفروا بطائل و لا عادوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، و هكذا لا يزالون يهيجون الحروب و يجمعون عليها، ثم يبطل اللّه ذلك، و الآية مشتملة على استعارة بليغة، و أسلوب بديع وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أى يجتهدون فى فعل ما فيه فساد، و من أعظمه ما يريدونه من إبطال الإسلام و كيد أهله؛ و قيل: المراد بالنار هنا الغضب:

---

(١). ص: ۴۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۷

أى كلما أثاروا فى أنفسهم غضبا أطفأه اللّه بما جعله من الرعب فى صدورهم و الذلة و المسكنة المضروبتين عليهم.

قوله: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ إن كانت اللام للجنس فهم داخلون فى ذلك دخولا أوّليا، و إن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمر لبيان شدّة فسادهم و كونهم لا ينفكون عنه. قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا أى لو أن المتمسكين بالكتاب، و هم اليهود و النصارى، على أنّ التعريف للجنس آمَنُوا الإيمان الذى طلبه اللّه منهم، و من أهمّه الإيمان بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كما أمروا بذلك فى كتب اللّه المنزلة عليهم وَ اتَّقَوْا المعاصى التى من أعظمها ما هم عليه من الشرك باللّه و الجحود لما جاء به رسول اللّه لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ التى اقترفوها، و إن كانت كثيرة متنوّعة؛ و قيل المعنى: لوسعنا عليهم فى

أرزاقهم وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ أى أقاموا ما فيهما من الأحكام التى من جملتها الإيمان بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

قوله: وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ من سائر كتب اللّه التى من جملتها القرآن فإنها كلها و إن نزلت على غيرهم فهى فى حكم المنزلة عليهم لكونهم متعبدين بما فيها لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ذكر فوق و تحت للمبالغة فى تيسر أسباب الرزق لهم و كثرتهم و تعدد أنواعها. قوله: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: هل جميعهم متّصفون بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون البعض، و المقتصدون منهم هم المؤمنون كعبد اللّه بن سلام و من تبعه و طائفة من النصارى وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ و هم المصرّون على الكفر المتمرّدون عن إجابة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و الإيمان بما جاء به.

و قد أخرج ابن إسحاق و الطبرانى فى الكبير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل اللّه وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ الآية. و أخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت فى فنحاص اليهودى. و أخرج مثله ابن جرير عن عكرمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ أى بخيلة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً قال: حملهم حسد محمد و العرب على أن تركوا القرآن و كفروا بمحمد و دينه و هم يجدونه مكتوبا عندهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ قال: حرب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية: كلما أجمعوا أمرهم على شىء فرّقه اللّه، و أطفأ حدّهم و نارهم، و قذف فى قلوبهم الرّعب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا قال: آمنوا بما أنزل على محمد و اتقوا ما حرّم اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ قال: العمل بهما، و أما ما أنزل إليهم فمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و ما أنزل عليه، و أما لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ فأرسلت عليهم مطرا، و أما مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ يقول: أنبت لهم من الأرض من رزقى ما يغنيهم. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ و هم مسلمة أهل الكتاب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ يعنى لأرسل

عليهم السماء مدرارا وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ قال: تخرج الأرض من بركتها. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال: الأمة المقتصدة: الذين لا هم فسقوا فى الدين و لا هم غلوا. قال: و الغلوّ:

الرغبة. و الفسق: التقصير عنه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ يقول: مؤمنة. و أخرج ابن مردويه قال: حدّثنا عبد اللّه بن جعفر، حدّثنا أحمد بن يونس الضبى، حدثنا عاصم بن علىّ، حدّثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر حديثا، قال: ثم حدّثهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «تفرقت أمة موسى على اثنتين و سبعين ملة، واحدة منها فى الجنة و إحدى و سبعون منها فى النار؛ و تفرّقت أمة عيسى على اثنتين و سبعين ملة، واحدة منها فى الجنة و إحدى و سبعون منها فى النار، تعلو أمتى على الفريقين جميعا ملة واحدة فى الجنة و ثنتان و سبعون منها فى النار، قالوا: من هم يا رسول اللّه؟ قال: الجماعات الجماعات». قال يعقوب بن زيد: كان علىّ بن أبى طالب إذا حدّث بهذا الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا فيه قرآنا، قال: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ إلى قوله: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ و تلا أيضا وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «۱» يعنى أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه: و حديث افتراق الأمم إلى

بضع و سبعين مرویّ من طرق عدیدة قد ذکرناها فی موضع آخر، انتهی. قلت: أما زیادة کونها فی النار إلا واحدة، فقد ضعّفها جماعة من المحدثین، بل قال ابن حزم:
إنها موضوعة.

[سورة المائدة (۵): آیة ۶۷]

یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ (۶۷)

العموم الکائن فی ما أُنْزِلَ یفید أنه یجب علیه صلّی اللّه علیه و سلّم أن یبلغ جمیع ما أنزله اللّه إلیه لا یکتم منه شیئا.
و فیه دلیل علی أنه لم یسرّ إلی أحد مما یتعلق بما أنزله اللّه إلیه شیئا، و لهذا ثبت فی الصحیحین عن عائشة رضی اللّه عنها أنها قالت: من زعم أن محمدا صلّی اللّه علیه و سلّم کتم شیئا من الوحی فقد کذب. و فی صحیح البخاری من حدیث أبی جحیفة وهب بن عبد اللّه السوائی قال: قلت لعلیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه: هل عندکم شیء من الوحی مما لیس فی القرآن؟ فقال: لا و الذی فلق الحبة و برأ النسمة، إلا فهما یعطیه اللّه رجلا فی القرآن و ما فی هذه الصحیفة، قلت: و ما فی هذه الصحیفة؟ قال: العقل، و فکاک الأسیر، و أن لا یقتل مسلم بکافر. وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ما أمرت به من تبلیغ الجمیع بل کتمت و لو بعضا من ذلک فما بلّغت رسالاته. قرأ أبو عمرو و أهل الکوفة إلا شعبة رِسالَتَهُ علی التوحید. و قرأ أهل المدینة و أهل الشام رسالاته علی الجمع، قال النحاس: و الجمع أبین لأنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کان ینزل علیه الوحی شیئا فشیئا، ثم یبینه، انتهی.
و فیه نظر، فإنّ نفی التبلیغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفیه عن الرسالات، کما ذکره علماء البیان علی خلاف فی ذلک، و قد بلغ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لأمته ما نزل إلیهم، و قال لهم فی غیر موطن: هل بلغت؟ فیشهدون له

---

(۱). الأعراف: ۱۸۱.

بالبیان، فجزاه اللّه عن أمته خیرا؛ ثم إنّ اللّه سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعا لما یظنّ أنه حامل علی کتم البیان، و هو خوف لحوق الضّرر من الناس، و قد کان ذلک بحمد اللّه فإنه بیّن لعباد اللّه ما نزل إلیهم علی وجه التمام، ثم حمل من أبی من الدخول فی الدین علی الدخول فیه طوعا أو کرها و قتل صنادید الشرک و فرّق جموعهم و بدّد شملهم، و کانت کلمة اللّه هی العلیا، فأسلم کلّ من نازعه ممن لم یسبق فیه السیف العذل حتی قال یوم الفتح لصنادید قریش و أکابرهم: ما تظنون أنی فاعل بکم؟ فقالوا: أخ کریم و ابن أخ کریم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، و هکذا من سبقت له العنایة من علماء هذه الأمة یعصمه اللّه من الناس، إن قام ببیان حجج اللّه و إیضاح براهینه، و صرخ بین ظهرانی من ضادّ اللّه و عانده و لم یمتثل لشرعه کطوائف المبتدعة، و قد رأینا من هذا فی أنفسنا و سمعنا منه فی غیرنا ما یزید المؤمن إیمانا و صلابة فی دین اللّه و شدّة شکیمة فی القیام بحجة اللّه، و کل ما یظنه متزلزلو الأقدام و مضطربو القلوب من نزول الضرر بهم و حصول المحن علیهم فهو خیالات مختلفة و توهمات باطلة، فإنّ کلّ محنة فی الظاهر هی منحة فی الحقیقة، لأنها لا تأتی إلا بخیر فی الأولی و الأخری إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِمَنْ کانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ «۱» قوله: إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ جملة متضمّنة لتعلیل ما سبق من العصمة؛ أی إن اللّه لا یجعل لهم سبیلا إلا الإضرار بک، فلا تخف و بلغ ما أمرت بتبلیغه.
و قد أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد قال: لما نزلت بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ قال: یا

رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟ يجتمع عليّ الناس، فنزلت وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ و أخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن اللّه بعثنى برسالته فضقت بها ذرعا، و عرفت أن الناس مكذّبى، فوعدنى لأبلغن أو ليعذّبنى، فأنزلت يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى قال: نزلت هذه الآية يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم غدير خمّ فى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك- إن عليا مولى المؤمنين- و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته و اللّه يعصمك من الناس». و أخرج ابن أبى حاتم عن عنترة قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئا لم يبده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للناس، فقال: ألم تعلم أنّ اللّه قال: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ و اللّه ما ورّثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سوداء فى بيضاء. و أخرج ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سئل: أىّ آية أنزلت من السماء أشدّ عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، فاجتمع مشركو العرب و أفناء الناس فى الموسم، فأنزل علىّ جبريل فقال: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ الآية، قال: فقمت عند العقبة فناديت يا أيها الناس من ينصرنى على أن أبلّغ رسالة ربى و له الجنة، أيها الناس قولوا لا إله إلا اللّه و أنا رسول اللّه إليكم،

---

(١). ق: ٣٧.

تفلحوا و تنجحوا و لكم الجنة، قال: فما بقى رجل و لا امرأة و لا صبىّ إلا يرمون بالتراب و الحجارة و يبزقون فى وجهى و يقولون: كذاب صابئ، فعرض علىّ عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول اللّه فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهمّ اهد قومى فإنهم لا يعلمون»، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم و طردهم عنه. قال الأعمش: فبذلك يفتخر بنو العباس و يقولون: فيهم نزلت: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «١» هوى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أبا طالب، و شاء اللّه عباس بن عبد المطلب. و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل عن عائشة قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحرس حتى نزلت وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فأخرج رأسه من القبة فقال: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى اللّه». قال الحاكم فى المستدرك: صحيح الإسناد و لم يخرّجاه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه من حديث أبى سعيد. و قد روى فى هذا المعنى أحاديث. و أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه قال: «لما غزا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بنى أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلّى رجليه، فقال الوارث من بنى النجار: لأقتلنّ محمدا، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له أعطنى سيفك فإذا أعطانيه قتلته به؛ فأتاه فقال: يا محمد أعطنى سيفك أشمه «٢»، فأعطاه إياه، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «حال اللّه بينك و بين ما تريد، فأنزل اللّه سبحانه يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ الآية. قال ابن كثير: و هذا حديث غريب من هذا الوجه. و أخرج ابن حبان فى صحيحه و ابن مردويه عن أبى هريرة نحو هذه القصة و لم يسمّ الرجل. و أخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظى نحوه، و فى الباب روايات. و قصة غورث بن الحارث ثابتة فى الصحيح، و هى معروفة مشهورة.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۶۸ الى ۷۵]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۶۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۹) لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (۷۰) وَ حَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۷۱) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۷۲)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۴) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۷۵)

---

(۱). القصص: ۵۶.

(۲). أشمه: أختبره.

فتح القدير، ج۲، ص: ۷۱

قوله: عَلى شَيْءٍ فيه تحقير و تقليل لما هم عليه: أى لستم على شىء يعتدّ به حتى تقيموا التوراة و الإنجيل: أى تعملوا بما فيهما من أوامر اللّه و نواهيه التى من جملتها أمركم باتباع محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و نهيكم عن مخالفته.

قال أبو علىّ الفارسى: و يجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما. قوله: وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ قيل:

هو القرآن، فإن إقامة الكتابين لا تصح بغير إقامته، و يجوز أن يكون المراد ما أنزل إليهم على لسان الأنبياء من غير الكتابين. قوله: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً أى كفرا إلى كفرهم و طغيانا إلى طغيانهم، و المراد بالكثير منهم من لم يسلم، و استمرّ على المعاندة؛ و قيل: المراد به العلماء منهم، و تصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها، قوله: فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أى دع عنك التأسف على هؤلاء، فإن ضرر ذلك راجع إليهم و نازل بهم، و فى المتبعين لك من المؤمنين غنى لك عنهم.

قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إلخ، جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين. و المراد بالمؤمنين هنا الذين آمنوا بألسنتهم و هم المنافقون وَ الَّذِينَ هادُوا أى دخلوا فى دين اليهود وَ الصَّابِئُونَ مرتفع على الابتداء و خبره محذوف، و التقدير: و الصابئون و النصارى كذلك. قال الخليل و سيبويه: الرفع محمول على التقديم و التأخير، و التقدير: إن الذين آمنوا و الذين هادوا من آمن باللّه و اليوم الآخر و عمل صالحا فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون و الصابئون و النصارى كذلك، و أنشد سيبويه، قول الشاعر:

و إلّا فاعلموا أنّا و أنتمبغاة ما بقينا فى شقاق

اى و إلا فاعلموا أنا بغاة و أنتم كذلك، و مثله قول ضابئ البرجمى:

فمن يك أمسى بالمدينة رحلهفإنّى و قيّار «۱» بها لغريب

أى فإنى لغريب و قيار كذلك. و قال الكسائى و الأخفش: إن «الصَّابِئُونَ» معطوف على المضمر فى «هادُوا». قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: و قد ذكر له قول الكسائى و الأخفش: هذا خطأ من وجهين:

أحدهما أن المضمر المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد. و ثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه، فيصير المعنى: إن الصابئين قد دخلوا فى اليهودية، و هذا محال. و قال الفراء: إنما جاز الرفع لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا فى الاسم دون الخبر، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إنّ، أو على مجموع إنّ و اسمها؛ و قيل: إنّ خبر إن مقدر، و الجملة الآتية خبر الصابئون و النصارى، كما فى قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بما* عندك راض و الرأى مختلف

---

(١). «قيّار»: اسم جمل ضابئ.

فتح القدير، ج٢، ص: ٧٢

و قيل: إنّ هنا بمعنى نعم، فالصابئون مرتفع بالابتداء، و مثله قول ابن قيس الرقيات:

بكر العواذل فى الصّباح يلمننى و ألومهنّه

و يقلن شيب قد علاك و قد كبرت فقلت إنّه

قال الأخفش: إنه بمعنى نعم و الهاء للسكت. و قد تقدم الكلام على الصابئين و النصارى فى البقرة، و قرئ الصابيون بياء صريحة تخفيفا للهمزة، و قرئ: الصابون بدون ياء، و هو من صبا يصبو لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى، و قرئ و الصابئين عطفا على اسم إن. قوله: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ مبتدأ خبره فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و المبتدأ و خبره خبر ل إِنَ و دخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، و العائد إلى اسم إن محذوف، أى من آمن منهم، و يجوز أن يكون من آمن بدلا من اسم إنّ و ما عطف عليه، و يكون خبر إنّ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و المعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قدّمنا: أن من آمن من هذه الطوائف إيمانا خالصا على الوجه المطلوب و عمل عملا صالحا، فهو الذى لا خوف عليه و لا حزن، و أما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام: المخلص و المنافق، فالمراد بمن آمن من اتّصف بالإيمان الخالص و استمرّ عليه، و من أحدث إيمانا خالصا بعد نفاقه. قوله: لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ كلام مبتدأ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة. و قد تقدّم فى البقرة بيان معنى الميثاق وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ليعرّفوهم بالشرائع و ينذروهم كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ جملة شرطية وقعت جوابا لسؤال ناس من الأحبار بإرسال الرسل كأنه قيل: ما ذا فعلوا بالرسل؟ و جواب الشرط محذوف، أى عصوه. و قوله: فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ جملة مستأنفة أيضا جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأوّل كأنه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقا منهم كذبوهم و لم يتعرضوا لهم بضرر، و فريقا آخر منهم قتلوهم، و إنما قال وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ لمراعاة رؤوس الآى، فمن كذّبوه عيسى و أمثاله من الأنبياء، و ممن قتلوه زكريا و يحيى. قوله: وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ أى حسب هؤلاء الذين أخذ اللّه عليهم الميثاق أن لا يقع من اللّه عز و جل ابتلاء و اختبار بالشدائد اعتزازا «١» بقولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «٢».

قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائى تكون بالرفع على أنّ أن هى المخففة من الثقيلة، و حسب بمعنى علم، لأن أن معناها التحقيق. و قرأ الباقون بالنصب على أنّ أن ناصبة للفعل، و حسب بمعنى الظن، قال النحاس:

و الرفع عند النحويين فى حسب و أخواتها أجود، و مثله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنّنى كبرت و ألّا يشهد اللّهو أمثالى «٣»

قوله فَعَمُوا وَ صَمُّوا أى عموا عن إبصار الهدى، و صمّوا عن استماع الحق، و هذه إشارة إلى ما

---

(١). فى القرطبى اغترارا.

(٢). المائدة: ١٨.

(٣). البيت لامرئ القيس. «بسباسة»: امرأة من بنى أسد.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٧٣

وقع من بنى إسرائيل فى الابتداء من مخالفة أحكام التوراة، و قتل شعيا، ثم تاب اللّه عليهم حين تابوا، فكشف عنهم القحط ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ و هذا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا و قصدهم قتل عيسى، و ارتفاع كَثِيرٌ على البدل من الضمير فى الفعلين. قال الأخفش: كما تقول رأيت قومك ثلاثتهم، و إن شئت كان على إضمار مبتدأ: أى العمى و الصمّ كثير منهم، و يجوز أن يكون كثير مرتفعا على الفاعلية على لغة من قال: أكلونى البراغيث، و منه قوله الشاعر:

و لكن ديافىّ أبوه و أمّه بحوران يعصرن السّليط أقاربه «١»

و قرئ عَمُوا وَ صَمُّوا بالبناء للمفعول: أى أعماهم اللّه و أصمهم. قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب، و القائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم: يقال لهم: اليعقوبية؛ و قيل: هم الملكانية، قالوا: إن اللّه عز و جل حلّ فى ذات عيسى، فردّ اللّه عليهم بقوله: وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ أى و الحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة، فكيف يدّعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم؟ قوله: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ الضمير للشأن، و هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة؛ و قيل: هو من قول عيسى وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار.

قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ و هذا كلام أيضا مبتدأ لبيان بعض مخازيهم، و المراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، و لهذا يضاف إلى ما بعده، و لا يجوز فيه التنوين كما قال الزجاج و غيره، و إنما ينوّن و ينصب ما بعده إذا كان ما بعده دونه بمرتبة نحو ثالث اثنين و رابع ثلاثة، و القائل بأنه سبحانه و تعالى ثالث ثلاثة هم النصارى، و المراد بالثلاثة: اللّه سبحانه، و عيسى، و مريم كما يدل عليه قوله: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ «٢» و هذا هو المراد بقولهم ثلاثة أقانيم: إقنيم «٣» الأب، و إقنيم الابن، و إقنيم روح و قد تقدّم فى سورة النساء كلام فى هذا، ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال: وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ أى ليس فى الوجود إلا اللّه سبحانه، و هذه الجملة حالية، و المعنى: قالوا تلك المقالة، و الحال أنه لا موجود إلا اللّه، و من فى قوله: مِنْ إِلهٍ لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفى وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ من الكفر لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ جواب قسم محذوف سادّ مسدّ جواب الشرط، و من فى مِنْهُمْ بيانية أو تبعيضية أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ الفاء للعطف على مقدّر، و الهمزة للإنكار. قوله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أى هو مقصور على الرسالة، لا يجاوزها كما زعمتم، و جملة قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ صفة لرسول: أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، و ما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلها، فقد

---

(١). البيت للفرزدق. «دياف»: قرية بالشام. «السليط»: الزيت.

(٢). المائدة: ١١٦.

(٣). فى معاجم اللغة: أقنوم.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٧٤

كان لمن قبله من الرسل مثلها، فإنّ اللّه أحيا العصا فى يد موسى، و خلق آدم من غير أب، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى و وجوده من غير أب يوجبان كونه إلها، فإن كان كما تزعمون إلها لذلك فمن قبله من الرسل الذين جاءوا بمثل ما جاء به آلهة، و

أنتم لا تقولون بذلک. قوله: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ عطف على المسيح:

أى و ما أمه إلا صدّيقة: أى صادقة فيما تقوله أو مصدّقة لما جاء به ولدها من الرسالة، و ذلک لا يستلزم الإلهية لها، بل هى كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء. قوله: كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ استئناف يتضمّن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أفراد البشر: أى من كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس بربّ، بل و عبد مربوب ولدته النساء، فمتى يصلح لأن يكون ربا؟ و أما قولكم إنه كان يأكل الطعام بناسوته لا لاهوته، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله و اجتماع الناسوت و اللاهوت، لو جاز اختلاط القديم الحادث لجاز أن يكون القديم حادثا، و لو صحّ هذا فى حق عيسى لصح فى حق غيره من العباد انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ أى الدلالات، و فيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزمة للإلهية و يغفلون عن كونها موجودة فى من لا يقولون بأنه إله ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان؟ يقال: أفكه يأفكه إذا صرفه. و كرر الأمر بالنظر للمبالغة فى العجيب، و جاء ب ثُمَ لإظهار ما بين العجيبين من التفاوت.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: جاء نافع ابن حارثة و سلام بن مشكم و مالک بن الصيف و رافع بن حرملة فقالوا: يا محمد! أ لست تزعم أنک على ملة إبراهيم و دينه و تؤمن بما عندنا من التوراة و تشهد أنها من اللّه حق؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «بلى، و لكنكم أحدثتم و جحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق و كفرتم منها بما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم» قالوا: فإنا نأخذ بما فى أيدينا و إنا على الهدى و الحق و لا نؤمن بک و لا نتبعک، فأنزل اللّه فيهم: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ إلى قوله: الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ قال:

بلاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ قال: النصارى يقولون إن اللّه ثالث ثلاثة و كذبوا.

أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: تفرّقت بنو إسرائيل ثلاث فرق فى عيسى، فقالت فرقة هو اللّه، و قالت فرقة هو ابن اللّه، و قالت فرقة هو عبد اللّه و روحه، و هى المقتصدة و هى مسلمة أهل الكتاب.

[سورة المائدة (5): الآيات 76 الى 81]

قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (78) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (79)
تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (80)
وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (81)

فتح القدير، ج2، ص: 75

أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم هذا القول إلزاما لهم و قطعا لشبهتهم؛ أى أ تعبدون من دون اللّه متجاوزين إياه ما لا يملک لكم ضرّا و لا نفعا؟ بل هو عبد مأمور، و ما جرى على يده من النفع، أو دفع من الضر، فهو بإقدار اللّه له و تمكينه منه، و أما هو، فهو يعجز عن أن يملک لنفسه شيئا من ذلک فضلا عن أن يملكه لغيره، و من كان لا ينفع و لا يضرّ فكيف تتخذونه إلها و تعبدونه، و أى سبب يقتضى ذلک؟ و المراد هنا المسيح عليه السلام، و قدّم سبحانه الضرّ على النفع لأنّ

دفع المفاسد أهمّ من جلب المصالح وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرّا و لا نفعا، و الحال أن اللّه هو السّميع العليم، و من كان كذلك فهو القادر على الضرّ و النفع لإحاطته بكل مسموع و معلوم، و من جملة ذلك مضارّكم و منافعكم.

قوله: تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلّقوا به من الشبه الباطلة نهاهم عن الغلوّ فى دينهم و هو المجاوزة للحد كإثبات الإلهية لعيسى، كما يقوله النصارى، أو حطّه عن مرتبته العلية كما يقوله اليهود فإن كل ذلك من الغلوّ المذموم و سلوك طريقة الإفراط أو التفريط و اختيارهما على طريق الصواب. و غَيْرَ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف: أى غلوّا غير غلوّ الحق، و أما الغلوّ فى الحق بإبلاغ كلية الجهد فى البحث عنه و استخراج حقائقه فليس بمذموم؛ و قيل: إن النصب على الاستثناء المتصل؛ و قيل: على المنقطع وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ و هم أسلاف أهل الكتاب من طائفتى اليهود و النصارى: أى قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة و التسليم وَ أَضَلُّوا كَثِيراً من الناس وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ أى عن قصدهم طريق محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بعد البعثة، و المراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة و أضلوا كثيرا من الناس إذ ذاك، و ضلوا من بعد البعثة، إما بأنفسهم، أو جعل ضلال من أضلّوه ضلالا لهم لكونهم سنوا لهم ذلك و نهجوه لهم؛ و قيل: المراد بالأول كفرهم بما يقتضيه العقل، و بالثانى كفرهم بما يقتضيه الشرع.

قوله: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ أى لعنهم اللّه سبحانه عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أى فى الزبور و الإنجيل على لسان داود و عيسى بما فعلوه من المعاصى كاعتدائهم فى السبت و كفرهم بعيسى.

قوله: ذلِكَ بِما عَصَوْا جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، و الإشارة بذلك إلى اللعن: أى ذلك اللعن بسبب المعصية و الاعتداء لا بسبب آخر، ثم بين سبحانه المعصية و الاعتداء بقوله: كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ فأسند الفعل إليهم لكون فاعله من جملتهم و إن لم يفعلوه جميعا. و المعنى: أنهم كانوا لا ينهون العاصى عن معاودة معصية قد فعلها، أو تهيّأ لفعلها، و يحتمل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار، و بيان العصيان و الاعتداء بترك التناهى عن المنكر لأن من أخلّ بواجب

فتح القدير، ج۲، ص: ۷۶

النهى عن المنكر فقد عصى اللّه سبحانه و تعدّى حدوده. و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية و أجلّ الفرائض الشرعية، و لهذا كان تاركه شريكا لفاعل المعصية و مستحقا لغضب اللّه و انتقامه كما وقع لأهل السبت، فإنّ اللّه سبحانه مسخ من لم يشاركهم فى الفعل و لكن ترك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين فصاروا جميعا قردة و خنازير إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ «۱» ثم إنّ اللّه سبحانه قال مقبحا لعدم التناهى عن المنكر: لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ أى من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ أى من اليهود مثل كعب بن الأشرف و أصحابه يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أى المشركين و ليسوا على دينهم لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أى سوّلت و زيّنت، أو ما قدّموه لأنفسهم ليردوا عليه يوم القيامة، و المخصوص بالذم هو أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أى موجب سخط اللّه عليهم على حذف مضاف أو هو سخط اللّه عليهم على حذف المبتدأ؛ و قيل هو: أى أنّ سخط اللّه عليهم بدل من ما وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِ أى نبيهم وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ من الكتاب مَا اتَّخَذُوهُمْ أى المشركين أَوْلِياءَ لأن اللّه سبحانه و رسوله المرسل إليهم و كتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ أى خارجون عن ولاية اللّه و عن الإيمان به و برسوله و بكتابه.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ يقول:

لا تبتدعوا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: كانوا مما غلوا فيه أن دعوا للّه صاحبة و ولدا. و أخرج عبد بن حميد و ابن

جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ قال: يهود. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو داود و الترمذى و حسنه و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أوّل ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا اتّق اللّه ودع ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله و شريبه و قعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب اللّه قلوب بعضهم ببعض ثم قال: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ إلى قوله: فاسِقُونَ ثم قال: كلا و اللّه لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر و لتأخذنّ على يد الظالم و لتأطرنّه على الحق أطرا»، و قد روى هذا الحديث من طرق كثيرة، و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدّا فلا نطول بذكرها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ يعنى الزبور وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ يعنى فى الإنجيل. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى مالك الغفارى فى الآية قال: لعنوا على لسان داود فجعلوا قردة، و على لسان عيسى فجعلوا خنازير. و أخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى عبيدة بن الجراح مرفوعا: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيا من أوّل النهار، فقام مائة و اثنا عشر رجلا من عبادهم فأمروهم بالمعروف و نهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا فى آخر النهار، فهم الذين ذكر اللّه لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ الآيات». و أخرج ابن أبى

---

(١). ق: ٣٧.

حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ قال: ما أمرتهم. و أخرج ابن أبى حاتم و الخرائطى فى مساوئ الأخلاق، و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان و ضعّفه عن حذيفة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يا معشر المسلمين إياكم و الزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاث فى الدنيا و ثلاث فى الآخرة؛ فأما التى فى الدنيا: فذهاب البهاء، و دوام الفقر، و قصر العمر؛ و أما الّتى فى الآخرة: فسخط اللّه، و سوء الحساب، و الخلود فى النار؛ ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِى الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ قال ابن كثير فى تفسيره: هذا الحديث ضعيف على كل حال. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ قال: المنافقون.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٢ الى ٨٦]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

قوله: لَتَجِدَنَ إلخ. هذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تعداد مساوئ اليهود و هناتهم، و دخول لام القسم عليها يزيدها تأكيدا و تقريرا، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكلّ من يصلح له كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز. و المعنى

فى الآيـة: أن اليهود و المشـركين، لعنهم اللّه، أشدّ جميع الناس عداوة للمؤمنين و أصـلبهم فى ذلك، و أنّ النّصارى أقرب الناس مودّة للمؤمنين، و اللام فى لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الموضـعين متعلقـة بمحـذوف وقع صـفة لعـداوة و مودّة؛ و قيـل: هو متعلّق بعـداوة و مودة؛ و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى كونهم أقرب مودّة، و الباء فى بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ للسـببية: أى ذلك بسبب أن منهم قسّيسين، و هو جمع قسّ و قسيس قاله قطرب. و القسّيس: العالم، و أصله من قسّ: إذا تتبع الشى‌ء و طلبه.

قال الراجز «۱»:

يصـبحن عن قسّ الأذى غوافلا و تقسّيست أصواتهم بالليل تسمّعتها. و القسّ: النميمة. و القسّ أيضا: رئيس النصارى فى الدين و العلم، و جمعه قسوس أيضا، و كذلك القسّيس: مثل الشرّ و الشرّير، و يقال فى جمع قسّيس تكسيرا قساوسة بإبدال

---

(۱). هو رؤبة بن العجاج.

فتح القدير، ج۲، ص: ۷۸

أحـد السينين واوا، و الأصـل قساسـة، فـالمراد بالقسيسـين فى الآيـة: المتبعون للعلمـاء و العبـاد، و هو إمـا عجمىّ خلطته العرب بكلامها، أو عربىّ. و الرهبان: جمع راهب كركبان و راكب، و الفعل رهب اللّه يرهبه: أى خافه. و الرهبانيـة و الترهّب: التّعبّـد فى الصّوامع. قال أبو عبيـد: و قد يكون رهبان للواحد و الجمع. قال الفرّاء: و يجمع رهبان إذا كان للمفرد: رهابنة و رهابين كقربان و قرابين. و قد قال جرير فى الجمع:

رهبان مدين لو رأوك تنزّلوا «۱» .....

و قال الشاعر فى استعمال رهبان مفردا:

لو أبصرت رهبان دير فى الجبللانحدر الرّهبان يسعى و يصل «۲»

ثم وصفهم اللّه سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحقّ، بل هم متواضعون، بخلاف اليهود فإنهم على ضدّ ذلك، و هذه الجملة معطوفـة على الجملـة التى قبلها وَ إِذا سَـمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ معطوف على جملـة وَ أَنَّهُمْ لا يَسْـتَكْبِرُونَ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ أى تمتلئ فتفيض، لأنّ الفيض لا يكون إلا بعـد الامتلاء، جعل الأعين تفيض، و الفائض: إنما هو الدمع قصدا للمبالغة كقولهم دمعت عينه. قال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين منّى صبابةعلى النّحر حتّى بلّ دمعى محملى

قوله: مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ من الأولى لابتـداء الغاية، و الثانية بيانية: أى كان ابتداء الفيض ناشـئا من معرفة الحق، و يجوز أن تكون الثانية تبعيضية، و قرئ: تَرى أَعْيُنَهُمْ على البناء للمجهول. و قوله:

يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا استئناف مسوق لجواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما حالهم عند سماع القرآن؟ فقال:

يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ أى آمنّا بهـذا الكتاب النازل من عندك على محمد و بمن أنزلته عليه فاكتبنا مع الشاهدين على الناس يوم القيامة من أمة محمد أو مع الشاهدين، بأنه حق، أو مع الشاهدين بصدق محمد و أنه رسولك إلى الناس. قوله: وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ كلام مسـتأنف، و الاسـتفهام للاسـتبعاد وَ لَنا متعلق بمحذوف، و لا نُؤْمِنُ فى محل نصب فى الحال، و التقدير: أىّ شـى‌ء حصـل لنـا حـال كوننـا لا نؤمن بـاللّه و بمـا جاءنـا من الحق؟ و المعنى: أنهم اسـتبعدوا انتفـاء الإيمـان منهم مع وجود المقتضى له، و هو الطمع فى إنعام اللّه، فالاستفهام و النفى متوجّهان إلى القيد و المقيد جميعا كقوله تعالى: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً «۳»، و الواو فى وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ للحال أيضا بتقدير مبتدأ:

أى أىّ شىء حصل لنا؟ غير مؤمنين و نحن نطمع فى الدخول مع الصّالحين، فالحال الأولى و الثانية صاحبهما الضمير فى لَنا و عاملهما الفعل المقدّر: أى حصل، و يجوز أن تكون الحال الثانية من الضمير فى

(١). و عجزه: و العصم من شعف العقول الفادر. «الفادر». المسنّ من الوعول.

(٢). فى المطبوع: و نزل. و المثبت من تفسير القرطبى (۶/ ٣٥٨)

(٣). نوح: ١٣.

نُؤْمِنُ و التقدير: و ما لنا نجمع بين ترك الإيمان و بين الطمع فى صحبة الصالحين. قوله: فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا إلخ أثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه. قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ التكذيب بالآيات كفر فهو من باب عطف الخاص على العام. و الجحيم: النار الشديدة الإيقاد، و يقال جحم فلان النار: إذا شدّد إيقادها، و يقال أيضا لعين الأسد: جحمة لشدّة اتقادها.

قال الشاعر:

و الحرب لا يبقى لجاحمها التّخيّل و المراح

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً الآية قال: هم الوفد الذين جاءوا مع جعفر و أصحابه من أرض الحبشة. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما خلا يهودىّ بمسلم إلا همّ بقتله» و فى لفظ «إلا حدّث نفسه بقتله». قال ابن كثير: و هو غريب جدّا. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: ما ذكر اللّه به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشى و أصحابه. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: هم ناس من الحبشة آمنوا إذا جاءتهم مهاجرة المؤمنين فذلك لهم. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: نزلت هذه الآية فى النجاشى و أصحابه وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و الواحدى من طريق ابن شهاب قال: أخبرنى سعيد بن المسيب و أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام و عروة بن الزبير قالوا: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عمرو بن أمية الضمرى و كتب معه كتابا إلى النجاشى، فقدم على النجاشى فقرأ كتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم دعا جعفر بن أبى طالب و المهاجرين معه، و أرسل النجاشى إلى الرهبان و القسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبى طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن و فاضت أعينهم من الدّمع، و هم الذين أنزل اللّه فيهم: وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً إلى قوله: مَعَ الشَّاهِدِينَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعيد بن جبير فى الآية قال: هم رسل النجاشى بإسلامه و إسلام قومه، كانوا سبعين رجلا يختارهم من قومه الخير، فالخير فى الفقه و السنّ. و فى لفظ: بعث من خيار أصحابه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثين رجلا، فلما أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن و عرفوا أنه الحق، فأنزل اللّه فيهم ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً الآية، و نزلت هذه الآية فيهم أيضا الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ «١» إلى قوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا «٢». و أخرج عبد بن حميد و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى قال: بعث النجاشىّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اثنى عشر رجلا سبعة قسيسين و خمسة رهبانا ينظرون إليه و يسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم مما أنزل اللّه بكوا و آمنوا، فأنزل اللّه فيهم: وَ إِذا سَمِعُوا ما

أَنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ الآيۀ، و الروايات فى هذا الباب كثيرۀ، و هذا المقدار يكفى، فليس المراد

---

(۱). القصص: ۵۲.

(۲). القصص: ۵۴.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۸۰

إلا بيان سبب نزول الآيۀ. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: قِسِّيسِينَ قال: هم علماؤهم.

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: القسيسون عبّادهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ قال: أمۀ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

[سورۀ المائدۀ (۵): الآيات ۸۷ الى ۸۸]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸)

الطّيّبات: هى المستلذّات ممّا أحلّه اللّه لعباده، نهى الذين آمنوا عن أن يحرّموا على أنفسهم شيئا منها، إما لظنّهم أن فى ذلك طاعۀ للّه و تقرّبا إليه، و أنه من الزّهد فى الدنيا فرفع النفس عن شهواتها، أو لقصد أن يحرّموا على أنفسهم شيئا مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم: حرام علىّ و حرّمته على نفسى و نحو ذلك من الألفاظ التى تدخل تحت هذا النهى القرآنى. قال ابن جرير الطبرى: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء مما أحلّ اللّه لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم و الملابس و المناكح، و لذلك ردّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم التبتل على عثمان بن مظعون.

فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحله اللّه لعباده، و أنّ الفضل و البرّ إنما هو فى فعل ما ندب اللّه عباده إليه، و عمل به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و سنه لأمته، و اتبعه على منهاجه الأئمۀ الراشدون، إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. فإذا كان ذلك كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر و الصوف على لباس القطن و الكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، و آثر أكل الخشن من الطعام و ترك اللحم و غيره حذرا من عارض الحاجۀ إلى النساء. قال: فإن ظنّ ظانّ أنّ الفضل فى غير الذى قلنا لما فى لباس الخشن و أكله من المشقۀ على النفس و صرف ما فضل بينهما من القيمۀ إلى أهل الحاجۀ، فقد ظنّ خطأ، و ذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه و عونه لها على طاعۀ ربها، و لا شىء أضرّ للجسم من المطاعم الرديۀ، لأنها مفسدۀ لعقله و مضعفۀ لأدواته التى جعلها اللّه سببا إلى طاعته. قوله: وَ لا تَعْتَدُوا أى لا تعتدوا على اللّه بتحريم طيبات ما أحلّ اللّه لكم، أو لا تعتدوا فتحلّوا ما حرّم اللّه عليكم: أى تترخّصوا فتحلّلوا حراما؛ كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال. و قد ذهب جمهور العلماء إلى أنّ من حرّم على نفسه شيئا مما أحلّه اللّه له فلا يحرم عليه و لا يلزمه كفارۀ.

و قال أبو حنيفۀ و أحمد و من تابعهما: إنّ من حرّم شيئا صار محرّما عليه، و إذا تناوله لزمته الكفارۀ، و هو خلاف ما فى هذه الآيۀ و خلاف ما دلّت عليه الأحاديث الصحيحۀ، و لعله يأتى فى سورۀ التحريم ما هو أبسط من هذا إن شاء اللّه. و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ تعليل لما قبله، و ظاهره أنه تحريم كلّ اعتداء:

أى مجاوزۀ لما شرعه اللّه فى كل أمر من الأمور وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حال كونه حَلالًا طَيِّباً أى غير محرّم و لا مستقذر، أو أكلا حلالا طيبا، أو كلوا حلالا طيبا مما رزقكم اللّه، ثم وصاهم اللّه سبحانه بالتقوى فقال: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ

فتح القدير، ج ۲، ص: ۸۱

و قد أخرج الترمذى و حسنه و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن عدىّ فى الكامل و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس: أن رجلا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه إنى إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء و أخذتنى شهوة، و إنى حرّمت علىّ اللحم، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ و قد روى من وجه آخر مرسلا، و روى موقوفا على ابن عباس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية قال: نزلت فى رهط من الصحابة قالوا: نقطع مذاكيرنا و نترك شهوات الدنيا و نسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«لكنى أصوم و أفطر و أصلى و أنام و أنكح النساء، فمن أخذ بسنّتى فهو منى، و من لم يأخذ بسنّتى فليس منى». و قد ثبت نحو هذا فى الصّحيحين و غيرهما من دون ذكر أن ذلك سبب نزول الآية. و أخرج عبد ابن حميد و أبو داود فى المراسيل و ابن جرير عن أبى مالك أن هؤلاء الرهط: هم عثمان بن مظعون و أصحابه، و فى الباب روايات كثيرة بهذا المعنى، و كثير منها مصرّح بأن ذلك سبب نزول الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم أن عبد اللّه بن رواحة ضافه ضيف من أهله و هو عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثم رجع إلى أهله، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له، فقال لامرأته: حبست ضيفى من أجلى، هو حرام علىّ، فقالت امرأته: هو حرام علىّ، فقال الضيف: هو حرام علىّ، فلما رأى ذلك وضع يده و قال: كلوا بسم اللّه، ثم ذهب إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قد أصبت»، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ و هذا أثر منقطع، و لكن فى صحيح البخارى فى قصة الصديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا. و أخرج ابن أبى حاتم عن مسروق قال: كنا عند عبد اللّه فجيء بضرع، فتنحّى رجل، فقال له عبد اللّه: ادن، فقال: إنى حرّمت أن آكله، فقال عبد اللّه: ادن فاطعم و كفر عن يمينك، و تلا هذه الآية. و أخرجه أيضا الحاكم فى مستدركه، و قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

[سورة المائدة (۵): آية ۸۹]

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۸۹)

قد تقدم تفسير اللغو، و الخلاف فيه، فى سورة البقرة، و فِي أَيْمانِكُمْ صلة يُؤاخِذُكُمُ قيل و فِي بمعنى من، و الأيمان جمع يمين. و فى الآية دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ اللّه الحالف بها و لا تجب فيها الكفارة. و قد ذهب الجمهور من الصحابة و من بعدهم إلى أنها قول الرجل: لا و اللّه و بلى و اللّه فى كلامه غير معتقد لليمين، و به فسّر الصّحابة الآية و هم أعرف بمعانى القرآن. قال الشافعى: و ذلك عند اللّجاج و الغضب و العجلة بقوله: وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ قرئ بتشديد عَقَّدْتُمُ و بتخفيفه، و قرئ عاقدتم. و العقد على ضربين: حسى كعقد الحبل، و حكمى كعقد البيع، و اليمين و العهد.

قال الشاعر «۱».

---

(۱). هو الحطيئة.

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۸۲
قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدّوا العناج و شدّوا فوقه الكربا

فاليمين المنعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لا يفعلن فى المستقبل؛ أى و لكن يؤاخذكم بأيمانكم المنعقدة الموثقة بالقصد و النية

إذا حنثتم فيها. و أما اليمين الغموس: فهى يمين مكر و خديعة و كذب قد باء الحالف بإثمها، و ليست بمعقودة و لا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور، و قال الشافعى: هى يمين معقودة مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم اللّه، و الراجح الأول و جميع الأحاديث الواردة فى تكفير اليمين متوجّهة إلى المعقودة، و لا يدلّ شىء منها على الغموس، بل ما ورد فى الغموس إلا الوعيد و الترهيب، و إنها من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، و فيها نزل قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا «۱» الآية. قوله: فَكَفَّارَتُهُ الكفارة: هى مأخوذة من التكفير و هو التستير، و كذلك الكفر هو الستر، و الكافر هو الساتر، لأنها تستر الذنب و تغطيه، و الضمير فى كفارته راجع إلى ما فى قوله: بِما عَقَّدْتُمُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ المراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفى الإسراف و التقتير، و ليس المراد به الأعلى كما فى غير هذا الموضع: أى أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه، و لا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه، و لا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه، و ظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا.

و قد روى عن على بن أبى طالب أنه قال: لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغدّيهم و يعشّيهم.

قال أبو عمر: هو قول أئمّة الفتوى بالأمصار. و قال الحسن البصرى و ابن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزا و سمنا أو خبزا و لحما. و قال عمر بن الخطاب و عائشة و مجاهد و الشعبى و سعيد ابن جبير و إبراهيم النخعى و ميمون بن مهران و أبو مالك و الضحّاك و الحكم و مكحول و أبو قلابة و مقاتل:

يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من برّ أو تمر. و روى ذلك عن علىّ. و قال أبو حنيفة نصف صاع برّ و صاع مما عداه. و قد أخرج ابن ماجة و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كفّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بصاع من تمر و كفّر الناس به، و من لم يجد فنصف صاع من برّ، و فى إسناده عمر بن عبد اللّه بن يعلى الثقفى، و هو مجمع على ضعفه. و قال الدارقطنى: متروك. قوله: أَوْ كِسْوَتُهُمْ عطف على إطعام. قرئ بضم الكاف و كسرها و هما لغتان مثل أسوة و إسوة. و قرأ سعيد بن جبير و محمد بن السّميقع اليمانى أو كأسوتهم: يعنى كأسوة أهليكم و الكسوة فى الرجال تصدق على ما يكسو البدن و لو كان ثوبا واحدا، و هكذا فى كسوة النساء؛ و قيل: الكسوة للنساء درع و خمار؛ و قيل: المراد بالكسوة ما تجزئ به الصلاة.

قوله: أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أى إعتاق مملوك، و التحرير: الإخراج من الرقّ، و يستعمل التحرير فى فكّ الأسير، و إعفاء المجهود بعمل عن عمله، و ترك إنزال الضرر به، و منه قول الفرزدق:

أبنى غدانة إنّنى حرّرتكم فوهبتكم لعطيّة بن جعال

أى حررتكم من الهجاء الذى كان سيضع منكم و يضرّ بأحسابكم.

و لأهل العلم أبحاث فى الرقبة التى تجزئ فى الكفارة، و ظاهر هذه الآية أنها تجزئ كلّ رقبة على أىّ صفة

---

(۱). آل عمران: ۷۷.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۸۳

كانت. و ذهب جماعة منهم الشافعى إلى اشتراط الإيمان فيها قياسا على كفارة القتل فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ أى فمن لم يجد شيئا من الأمور المذكورة؛ فكفارته صيام ثلاثة أيام، و قرئ متتابعات حكى ذلك عن ابن مسعود و أبىّ، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم. و به قال أبو حنيفة و الثورى و هو أحد قولى الشافعى. و قال مالك و الشافعى فى قوله الآخر: يجزئ التفريق ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ أى ذلك المذكور كفّارة أيمانكم إذا حلفتم و حنثتم، ثم أمرهم بحفظ الأيمان و عدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها، و الإشارة بقوله: كَذلِكَ إلى مصدر الفعل المذكور بعده، أى مثل ذلك البيان يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ و قد تكرّر

هذا فى مواضع من الكتاب العزيز لَعَلَّكَمْ تَشْكَرُونَ ما أنعم به عليكم من بيان شرائعه و إيضاح أحكامه.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: «لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ فى القوم الذين كانوا حرّموا على أنفسهم النساء و اللحم قالوا: يا رسول اللّه! كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها؟ فأنزل اللّه: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير فى اللغو قال: هو الرجل يحلف على الحلال. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: هما الرجلان يتبايعان، يقول أحدهما: و اللّه لا أبيعك بكذا، و يقول الآخر: و اللّه لا أشتريه بكذا. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن النخعى قال: اللغو أن يصل كلامه بالحلف: و اللّه لتأكلنّ و اللّه لتشربنّ و نحو هذا لا يريد به يمينا و لا يتعمّد حلفا، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة، و قد تقدّم الكلام فى البقرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ قال: بما تعمدتم. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقيم كفارة اليمين مدّا من حنطة، و فى إسناده النضر بن زرارة بن عبد الكريم الذّهلى الكوفى. قال أبو حاتم: مجهول، و ذكره ابن حبان فى الثقات. و قد تقدّم حديث ابن عباس و تضعيفه. و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت أبى بكر قالت: كنا نعطى فى كفارة اليمين بالمدّ الذى نقتات به. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال: إنى أحلف لا أعطى أقواما، ثم يبدو لى فأعطيهم، فأطعم عشرة مساكين كل مسكين صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو نصف صاع من قمح.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: فى كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين، لكلّ مسكين نصف صاع من حنطة. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. و أخرج عنه عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن زيد بن ثابت مثله. و أخرج هؤلاء أيضا عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب قال: تغدّيهم و تعشّيهم إن شئت خبزا و لحما أو خبزا و زيتا أو خبزا و سمنا أو خبزا و تمرا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٨٤

عن ابن عباس فى قوله: مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ قال: من عسركم و يسركم. و أخرج ابن ماجة عنه قال: الرجل يقوت أهله قوتا فيه سعة و كان الرجل يقوت أهله قوتا فيه شدّة، فنزلت: مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه نحو ذلك. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن عائشة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: أَوْ كِسْوَتُهُمْ قال: «عباءة لكل مسكين»، قال ابن كثير: حديث غريب. و أخرج ابن مردويه عن حذيفة قال: قلت: يا رسول اللّه! أَوْ كِسْوَتُهُمْ ما هو؟ قال: «عباءة عباءة». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: عباءة لكل مسكين أو شملة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: الكسوة ثوب أو إزار. و أخرج ابن جرير و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: فى كفّارة اليمين هو بالخيار فى هؤلاء الثلاثة الأوّل فالأوّل فإن لم يجد من ذلك شيئا فصيام ثلاثة أيام متتابعات. و أخرج ابن مردويه عنه نحوه.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا

الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۹۳)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خطاب لجميع المؤمنين. و قد تقدّم تفسير الميسر فى سورة البقرة وَ الْأَنْصابُ هى الأصنام المنصوبة للعبادة وَ الْأَزْلامُ قد تقدّم تفسيرها فى أوّل هذه السورة، و الرجس يطلق على العذرة و الأقذار. و هو خبر للخمر، و خبر المعطوف عليه محذوف. و قوله: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ صفة لرجس: أى كائن من عمل الشيطان، بسبب تحسينه لذلك و تزيينه له و قيل هو الذى كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنو آدم و الضمير فى فَاجْتَنِبُوهُ راجع إلى الرجس، أو إلى المذكور و قوله: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ علة لما قبله. قال فى الكشاف: أكد تحريم الخمر و الميسر وجوها من التأكيد، منها: تصدير الجملة بإنما، و منها: أنه قرنهما بعبادة الأصنام و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «شارب الخمر كعابد الوثن» و منها: أنه جعلهما رجسا، كما قال: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ «۱»، و منها: أنه جعلهما من عمل الشيطان و الشيطان لا يأتى منه إلا الشرّ البحت، و منها: أنه أمر بالاجتناب، و منها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح، و إذا كان الاجتناب فلاحا كان الارتكاب خيبة و محقة، و منها: أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، و هو وقوع التعادى و التباغض بين أصحاب الخمر و القمر، و ما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر اللّه و عن مراعاة أوقات الصلوات، انتهى.

و فى هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمّنه الأمر بالاجتناب من الوجوب و تحريم الصدّ، و لما تقرّر فى الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلا عن جعله شرابا يشرب. قال أهل العلم من المفسرين و غيرهم:

---

(۱). الحج: ۳۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۸۵

كان تحريم الخمر بتدريج و نوازل كثيرة، لأنهم كانوا قد ألفوا شربها و حببها الشيطان إلى قلوبهم، فأوّل ما نزل فى أمرها يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ «۱» فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها و لم يتركه آخرون، ثم نزل قوله تعالى: لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى «۲» فتركها البعض أيضا، و قالوا: لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، و شربها البعض فى غير أوقات الصلاة، حتى نزلت هذه الآية إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ فصارت حراما عليهم، حتى كان يقول بعضهم: ما حرّم اللّه شيئا أشدّ من الخمر، و ذلك لما فهموه من التشديد فيما تضمنته هذه الآية من الزواجر، و فيما جاءت به الأحاديث الصّحيحة من الوعيد لشاربها، و أنّها من كبائر الذنوب.

و قد أجمع على ذلك المسلمون إجماعا لا شكّ فيه و لا شبهة، و أجمعوا أيضا على تحريم بيعها و الانتفاع بها ما دامت خمرا، و كما دلت هذه الآية على تحريم الخمر دلت أيضا على تحريم الميسر و الأنصاب و الأزلام. و قد أشارت هذه الآية إلى ما فى الخمر و الميسر من المفاسد الدنيوية بقوله: إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ و من المفاسد الدينية بقوله: وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ. قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ فيه زجر بليغ يفيده الاستفهام الدال على التقريع و التوبيخ. و لهذا قال عمر رضى اللّه عنه لما سمع هذا: انتهينا، ثم أكد اللّه سبحانه هذا التحريم بقوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا أى مخالفتهما: أى مخالفة اللّه و رسوله، فإن هذا و إن كان أمرا مطلقا فالمجىء به فى هذا الموضع يفيد ما ذكرناه من التأكيد، و هكذا ما أفاده بقوله: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أى إن أعرضتم عن الامتثال، فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذى فيه رشادكم و صلاحكم، و لم تضرّوا بالمخالفة إلا أنفسكم، و فى هذا من الزجر ما لا يقادر قدره و لا يبلغ مداه. قوله: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا أى من المطاعم التى يشتهونها، و الطعم و إن

كـان اسـتعماله فى الأكل أكثر لكنه يجوز اسـتعماله فى الشـرب، و منه قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى «۳» أباح اللّه سبحانه لهم فى هـذه الآيهٔ جميع ما طعموا كائنا ما كان مقيدا بقوله: إِذا مَا اتَّقَوْا أى اتقوا ما هو محرّم عليهم كالخمر و غيره من الكبائر، و جميع المعاصـى وَ آمَنُوا باللّه وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ من الأعمال التى شـرعها اللّه لهم: أى اسـتمروا على عملها. قوله: ثُمَّ اتَّقَوْا عطف على اتقوا الأـوّل: أى اتقوا مـا حرّم عليهم بعـد ذلـك مع كونه كـان مباحـا فيما سـبق وَ آمَنُوا بتحريمه ثُمَّ اتَّقَوْا ما حرّم عليهم بعد التحريم المذكور قبله مما كان مباحا من قبل وَ أَحْسَنُوا أى عملوا الأعمال الحسنهٔ، هذا معنى الآيهٔ؛ و قيل: التكرير باعتبار الأوقات الثلاثـهٔ؛ و قيـل: إن التكرير باعتبـار المراتب الثلاث، المبـدأ، و الوسط، و المنتهى؛ و قيل: إنّ التكرار باعتبار ما يتقيه الإنسان، فإنه ينبغى له أن يـترك المحرّمـات توقيـا من العـذاب، و الشـبهات توقيـا من الوقوع فى الحرام، و بعض المباحـات حفظـا للنفس عن الخسـهٔ؛ و قيل: إنه لمجرّد التأكيـد، كما فى قوله تعالى: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ- ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ «۴»، هذه الوجوه كلّها مع قطع النظر عن سبب نزول الآيهٔ، و إما مع النظر إلى سبب نزولها، و هو أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابهٔ: كيف بمن مات منا و هو يشربها و يأكل

---

(۱). البقرهٔ: ۲۱۹.

(۲). النساء: ۴۳.

(۳). البقرهٔ: ۲۴۹.

(۴). التكاثر: ۳- ۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۸۶

الميسـر؟ فنزلت، فقـد قيـل: إن المعنى اتَّقَـوْا الشـرك وَ آمَنُوا بـاللّه و رسـوله ثُمَّ اتَّقَوْا الكبـائر وَ آمَنُوا أى ازدادوا إيمانـا ثُمَّ اتَّقَوْا الصغائر وَ أَحْسَنُوا أى تنفلوا. قال ابن جرير الطبرى:

الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقى أمر اللّه بالقبول و التصديق و الدينونـهٔ به و العمل، و الاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصـديق، و الثالث الاتقاء بالإحسان و التقرّب بالنوافل، و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: نزل فى الخمر ثلاث آيات، فأول شـىء يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ «۱» الآيـهٔ، فقيـل: حرّمت الخمر، فقيل: يا رسول اللّه! دعنا ننتفع بها كما قال اللّه، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآيهٔ: لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَٔ وَ أَنْتُمْ سُكارى «۲»، فقيل: حرّمت الخمر، فقالوا: يا رسول اللّه! لا نشربها قرب الصـلاهٔ، فسـكت عنهم، ثم نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ الآيهٔ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «حرّمت الخمر». و أخرج أحمد عن أبى هريرهٔ قال: حرّمت الخمر ثلاث مرات، و ذكر نحو حديث ابن عمر، فقال الناس: يا رسول اللّه نـاس قتلوا فى سبيـل اللّه و مـاتوا على فراشـهم كانوا يشـربون الخمر و يأكلون الميسـر، و قـد جعله اللّه رجسا من عمل الشـيطان، فأنزل اللّه: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا الآيهٔ، و قال النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم: «لو حرّم عليهم لتركوه كما تركتم». و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و النحـاس فى ناسـخه و أبو الشـيخ و ابن مردويه عن سـعد بن أبى وقـاص قـال: فى نزل تحريم الخمر، صـنع رجل من الأنصار طعاما فـدعا ناسا فأتوه، فأكلوا و شـربوا حتى انتشوا من الخمر، و ذلك قبل أن تحرم الخمر فتفـاخروا، فقـالت الأنصار: الأنصار خير من المهاجرين، و قالت قريش: قريش خير، فأهوى رجل بلحى جمل فضـرب على أنفى، فأتيت النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم فذكرت ذلك له، فنزلت هذه الآيهٔ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ الآيهٔ. و أخرج عبد بن حميـد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشـيخ و الحاكم و صـححه و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قـال: أنزل تحريم الخمر فى قبيلتين من الأنصار شـربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضـهم ببعض، فلما أن صـحوا جعل يرى الرجل

منهم الأثر بوجهه و برأسه و لحيته، فيقول: صنع بى هذا أخى فلان و كانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن، و اللّه لو كان بى رؤوفا رحيما ما صنع بى هذا، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم، فأنزل اللّه هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ إلى قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ فقال ناس من المتكلفين: هى رجس، و هى فى بطن فلان، قتل يوم بدر، و فلان قتل يوم أحد، فأنزل اللّه هذه الآية لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا الآية. و قد رويت فى سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد ذكرناه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الميسر هو القمار كله. و أخرج ابن مردويه عن وهب بن كيسان قال: قلت لجابر: متى حرّمت الخمر؟ قال: بعد أحد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة قال: نزل تحريم الخمر فى سورة المائدة، بعد غزوة الأحزاب. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كلّ القمار من الميسر حتى لعب الصّبيان بالجوز و الكعاب. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: النرد و الشّطرنج من الميسر.

---

(١). البقرة: ٢١٩.

(٢). النساء: ٤٣.

و أخرج عبد بن حميد عن علىّ قال: الشطرنج ميسر الأعاجم. و أخرج ابن أبى حاتم عن القاسم بن محمد أنه سئل عن النرد أ هى من الميسر؟ قال: كلّ ما ألهى عن ذكر اللّه و عن الصّلاة فهو ميسر. و أخرج عبد ابن حميد و ابن أبى الدنيا فى ذمّ الملاهى و البيهقى فى الشعب عنه أيضا أنه قيل له: هذه النرد تكرهونها، فما بال الشطرنج؟ قال: كل ما ألهى عن ذكر اللّه و عن الصلاة فهو من الميسر. و أخرجوا أيضا عن ابن الزبير قال: يا أهل مكة بلغنى عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النّردشير، و اللّه يقول فى كتابه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ إلى قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ و إنى أحلف باللّه لا أوتى بأحد يلعب بها إلا عاقبته فى شعره و بشره، و أعطيت سلبه من أتانى به. و أخرج ابن أبى الدنيا عن مالك بن أنس قال: الشطرنج من النرد، بلغنا عن ابن عباس أنه ولى مال يتيم فأحرقها. و أخرج ابن أبى الدنيا عن عبد اللّه بن عمير قال:

سئل ابن عمر عن الشطرنج؟ فقال هى شرّ من النرد. و أخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن عبيد قال:

رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن فى كل يوم اثنتى عشرة مرّة إلا أصحاب الشاة، يعنى أصحاب الشطرنج. و أخرج ابن أبى الدنيا عن أبى جعفر أنه سئل عن الشطرنج فقال: تلك المجوسية فلا تلعبوا بها.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من لعب بالنردشير فقد عصى اللّه و رسوله». و أخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلى مثل الذى يتوضّأ بالقيح و دم الخنزير ثم يقوم فيصلى». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا عن عبد اللّه بن عمر قال: اللاعب بالنرد قمارا كآكل لحم الخنزير، و اللاعب بها من غير قمار كالمدّهن بودك الخنزير. و أخرج ابن أبى الدنيا عن يحيى بن كثير قال: مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقوم يلعبون بالنرد فقال: «قلوب لاهية، و أيدى عليلة، و ألسنة لاغية». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عن قتادة قال: الميسر القمار. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طريق ليث عن عطاء و طاوس و مجاهد قالوا: كلّ شىء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز و الكعاب. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عن ابن سيرين قال:

القمار من الميسر. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عنه قال: ما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صياح أو شرّ فهو من الميسر. و

أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن شريح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ثلاث من الميسر:
الصّفير بالحمام، و القمار، و الضرب بالكعاب». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: حجارة كانوا يذبحون لها، و الأزلام قداح كانوا يستقسمون بها الأمور. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال:
كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فى الأزلام قال: هى كعاب فارس التى يقتمرون بها، و سهام العرب. و قد وردت أحاديث كثيرة فى ذمّ الخمر و شاربها و الوعيد الشديد عليه و أن كل مسكر حرام و هى مدوّنة فى كتب الحديث فلا نطوّل المقام بذكرها فلسنا بصدد ذلك، بل نحن بصدد ما هو متعلّق بالتفسير.
فتح القدير، ج ۲، ص: ۸۸

[سورة المائدة (۵): الآيات ۹۴ الى ۹۹]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (۹۴) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۹۷) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۸) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (۹۹)

قوله: لَيَبْلُوَنَّكُمُ أى ليختبرنكم، و اللام جواب قسم محذوف، كان الصيد أحد معايش العرب فابتلاهم اللّه بتحريمه مع الإحرام و فى الحرم، كما ابتلى بنى إسرائيل أن لا يعتدوا فى السبت، و كان نزول الآية فى عام الحديبية، أحرم بعضهم و بعضهم لم يحرم، فكان إذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم.

و قد اختلف العلماء فى المخاطبين بهذه الآية هل هم المحلون أو المحرمون؟ فذهب إلى الأوّل مالك و إلى الثانى ابن عباس، و الراجح أن الخطاب للجميع، و لا وجه لقصره على البعض دون البعض، و مِنَ فى مِنَ الصَّيْدِ للتبعيض و هو صيد البر، قاله ابن جرير الطبرى و غيره؛ و قيل: إن مِنَ بيانية: أى شىء حقير من الصيد، و تنكير شىء للتحقير. قوله: تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ قرأ ابن وثاب يناله بالياء التحتية، هذه الجملة تقتضى تعميم الصيد، و أنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد و هو ما لا يطيق الفرار كالصغار و البيض، و بين ما تناله الرماح: و هو ما يطيق الفرار، و خصّ الأيدى بالذكر: لأنها أكثر ما يتصرّف به الصائد فى أخذ الصيد، و خصّ الرماح بالذكر لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب. قوله: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ أى ليتميّز عند اللّه من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروى فإنه غائب عنكم غير حاضر فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ أى بعد هذا البيان الذى امتحنكم اللّه به، لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة للّه سبحانه و تجرئة عليه. قوله: لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ نهاهم عن قتل الصيد فى حال الإحرام، و فى معناه: غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ «۱» و هذا النهى شامل لكل أحد من ذكور المسلمين و إناثهم، لأنه يقال: رجل حرام و امرأة حرام و الجمع حرم، و أحرم الرجل: دخل فى الحرم. قوله: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً المتعمد: هو القاصد للشىء مع العلم بالإحرام، و المخطئ: هو الذى يقصد شيئا فيصيب صيدا، و الناسى: هو الذى يتعمّد الصيد و لا يذكر إحرامه. و قد استدل ابن عباس و أحمد فى رواية و داود عنه باقتصاره سبحانه على العامد بأنه لا كفارة على غيره، بل لا تجب إلا عليه وحده. و به قال سعيد بن جبير و طاوس و أبو ثور. و قيل: إنها تلزم الكفارة المخطئ و الناسى كما تلزم المتعمد، و جعلوا قيد التعمد

خارجا مخرج الغالب، روى عن عمر و الحسن و النخعى و الزهرى، و به قال مالك و الشافعى و أبو حنيفة و أصحابهم، و روى عن ابن عباس. و قيل: إنه يجب التكفير على العامد الناسى لإحرامه، و به قال مجاهد، قال: فإن كان ذاكرا لإحرامه

---

(١). المائدة: ١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٨٩

فقد حلّ و لا حج له لارتكابه محظور إحرامه، فبطل عليه كما لو تكلم فى الصلاة أو أحدث فيها. قوله: فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ أى فعليه جزاء مماثل لما قتله، و من النعم بيان للجزاء المماثل. قيل: المراد المماثلة فى القيمة، و قيل: فى الخلقة. و قد ذهب إلى الأوّل أبو حنيفة، و ذهب إلى الثانى مالك و الشافعى و أحمد و الجمهور، و هو الحق لأن البيان للماثل بالنعم يفيد ذلك، و كذلك يفيده هديا بالغ الكعبة. و روى عن أبى حنيفة أنه يجوز إخراج القيمة و لو وجد المثل، و أن المحرم مخير. و قرئ: فجزاؤه مثل ما قتل و قرئ:

فَجَزاءٌ مِثْلُ على إضافة جزاء إلى مثل، و قرئ بنصبهما على تقدير فليخرج جزاء مثل ما قتل، و قرأ الحسن النَّعَم بسكون العين تخفيفا يَحْكُمُ بِهِ أى بالجزاء أو بمثل ما قتل ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أى رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين، فإذا حكما بشىء لزم، و إن اختلفا رجع إلى غيرهما، و لا يجوز أن يكون الجانى أحد الحكمين؛ و قيل: يجوز، و بالأوّل قال أبو حنيفة، و بالثانى قال الشافعى فى أحد قوليه:

و ظاهر الآية يقتضى حكمين غير الجانى. قوله: هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ نصب هديا على الحال أو البدل من مثل، و بالِغَ الْكَعْبَةِ صفة لهديا، لأن الإضافة غير حقيقية، و المعنى أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدى من الإرسال إلى مكة و النحر هنالك، و الإشعار و التقليد، و لم يرد الكعبة بعينها فإن الهدى لا يبلغها، و إنما أراد الحرم، و لا خلاف فى هذا. قوله: أَوْ كَفَّارَةٌ معطوف على محل من النعم: و هو الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، و طَعامُ مَساكِينَ عطف بيان لكفارة أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف أَوْ عَدْلُ ذلِكَ معطوف على طعام؛ و قيل: هو معطوف على جزاء، و فيه ضعف، فالجانى مخير بين هذه الأنواع المذكورة، و عدل الشىء ما عادله من غير جنسه، و صِياماً منصوب على التمييز، و قد قرّر العلماء عدل كل صيد من الإطعام و الصيام، و قد ذهب إلى أنّ الجانى يخير بين الأنواع المذكورة جمهور العلماء. و روى عن ابن عباس أنه لا يجزئ المحرم الإطعام و الصوم إلا إذا لم يجد الهدى، و العدل بفتح العين و كسرها لغتان و هما الميل قاله الكسائى. و قال الفراء: عدل الشىء بكسر العين مثله من جنسه، و بفتح العين مثله من غير جنسه، و بمثل قول الكسائى قال البصريون. قوله: لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عليه لإيجاب الجزاء:

أى أوجبنا ذلك عليه ليذوق وبال أمره، و الذوق مستعار لإدراك المشقة، و مثله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «١» و الوبال: سوء العاقبة، و المرعى الوبيل: الذى يتأذى به بعد أكله، و طعام وبيل: إذا كان ثقيلا.

قوله: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ يعنى فى جاهليتكم من قتلكم للصيد، و قيل: عما سلف قبل نزول الكفارة وَ مَنْ عادَ إلى ما نهيتم عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ خبر مبتدأ محذوف؛ أى فهو ينتقم اللّه منه. قيل المعنى: إن اللّه ينتقم منه فى الآخرة فيعذبه بذنبه، و قيل: ينتقم منه بالكفارة. قال شريح و سعيد بن جبير: يحكم عليه فى أوّل مرة، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له: اذهب ينتقم اللّه منك:

أى ذنبك أعظم من أن يكفر. قوله: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ الخطاب لكلّ مسلم أو للمحرمين خاصة، و صيد البحر ما يصاد فيه؛ و المراد بالبحر هنا كل ماء يوجد فيه صيد بحرىّ و إن كان نهرا أو غديرا. قوله:

وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ الطعام لكلّ ما يطعم، و قد تقدّم. و قد اختلف فى المراد به هنا فقيل:

---

(١). الدخان: ۴۹.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٩٠

هو ما قذف به البحر و طفا عليه، و به قال كثير من الصحابة و التابعين؛ و قيل: طعامه ما ملح منه و بقى، و به قال جماعة، و روى عن ابن عباس؛ و قيل: طعامه ملحه الذى ينعقد من مائه و سائر ما فيه من نبات و غيره، و به قال قوم؛ و قيل: المراد به ما يطعم من الصيد: أى ما يحل أكله و هو السمك فقط، و به قالت الحنفية.

و المعنى: أحلّ لكم الانتفاع بجميع ما يصاد فى البحر، و أحلّ لكم المأكول منه و هو السمك، فيكون التخصيص بعد التعميم، و هو تكلف لا وجه له، و نصب مَتاعاً على أنه مصدر: أى متعتم به متاعا؛ و قيل: مفعول له مختص بالطعام: أى أحلّ لكم طعام البحر متاعا، و هو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير، بل إذا كان مفعولا له كان من الجميع: أى أحلّ لكم مصيد البحر و طعامه تمتيعا لكم: أى لمن كان مقيما منكم يأكله طريا وَ لِلسَّيَّارَةِ أى المسافرين منكم يتزوّدونه و يجعلونه قديدا، و قيل السيارة: هم الذين يركبونه خاصة.

قوله: وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً أى حرّم عليكم ما يصاد فى البر ما دمتم محرمين، و ظاهره تحريم صيده على المحرم و لو كان الصائد حلالا، و إليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله، و هو القول الراجح، و به يجمع بين الأحاديث؛ و قيل: إنه يحلّ له مطلقا، و إليه ذهب جماعة:

و قيل: يحرم عليه مطلقا، و إليه ذهب آخرون، و قد بسطنا هذا فى شرحنا للمنتقى. قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أى اتقوا اللّه فيما نهاكم عنه الذى إليه تحشرون لا إلى غيره، و فيه تشديد و مبالغة فى التحذير. و قرئ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ بالبناء للفاعل و قرئ ما دُمْتُمْ بكسر الدال. قوله:

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ جعل هنا بمعنى خلق، و سميت الكعبة كعبة لأنها مربعة و التكعيب التربيع و أكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة؛ و قيل: سميت كعبة لنتوئها و بروزها، و كل بارز كعب مستديرا كان أو غير مستدير، و منه كعب القدم، و كعوب القنا، و كعب ثدى المرأة، و الْبَيْتَ الْحَرامَ عطف بيان و قيل: مفعول ثان و لا وجه له، و سمى بيتا لأن له سقوفا و جدرا و هى حقيقة البيت و إن لم يكن به ساكن، و سمى حراما لتحريم اللّه سبحانه إياه. و قوله: قِياماً لِلنَّاسِ كذا قرأ الجمهور، و قرأ ابن عامر قيما و هو منصوب على أنه المفعول الثانى إن كان جعل هو المتعدى إلى مفعولين، و إن كان بمعنى خلق كما تقدّم فهو منتصب على الحال، و معنى كونه قياما: أنه مدار لمعاشهم و دينهم: أى يقومون فيه بما يصلح دينهم و دنياهم: يأمن فيه خائفهم، و ينصر فيه ضعيفهم، و يربح فيه تجارهم، و يتعبد فيه متعبدهم.

قوله: وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ عطف على الكعبة، و هو ذو الحجة، و خصه من بين الأشهر الحرم لكونه زمان تأدية الحج، و قيل: هو اسم جنس. و المراد به الأشهر الحرم: ذو القعدة، و ذو الحجة، و محرّم، و رجب، فإنهم كانوا لا يطلبون فيها دما، و لا يقاتلون بها عدوا، و لا يهتكون فيها حرمة، فكانت من هذه الحيثية قياما للناس وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ أى و جعل اللّه الهدى و القلائد قياما للناس. و المراد بالقلائد: ذوات القلائد من الهدى، و لا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها، و الإشارة بذلك إلى الجعل: أى ذلك الجعل لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى لتعلموا أن اللّه يعلم تفاصيل أمر السموات و الأرض و يعلم مصالحكم الدينية و الدنيوية فإنها من جملة ما فيهما، فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم، و دفع لما يضرّكم

فتح القدير، ج ٢، ص: ٩١

وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هـذا تعميم بعـد التخصـيص، ثم أمرهم بـأن يعلموا بـأن اللّه لمن انتهـك محارمه و لم يتب عن ذلك شديـد العقـاب، و أنه لمن تـاب و أنـاب غفور رحيم، ثم أخبرهم أن مـا على رسوله إلاـ البلاـغ لهم، فـإن لم يمتثلوا و يطيعوا فما ضرّوا إلا أنفسهم و ما جنوا إلا عليها، و أما الرسول عليه الصلاة و السلام فقد فعل ما يجب عليه، و قام بما أمره اللّه به.

و قـد أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و البيهقى فى سـننه عن ابن عبـاس فى قوله: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً قال: إن قتله متعمـدا أو ناسـيا أو خطأ حكم عليه، فإن عاد متعمّـدا عجلت له العقوبة إلا أن يعفو اللّه عنه، و فى قوله: فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ قال: إذا قتل المحرم شيئا من الصـيد حكم عليه فيه، فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه شاة تذبـح بمكـة، فإن لم يجـد فإطعام سـتة مساكين، فإن لم يجد فصـيام ثلاثـة أيام، فإن قتل أيلا و نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجـد أطعم عشـرين مسـكينا، فإن لم يجـد صام عشـرين يومـا، و إن قتل نعامـة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنـة، فإن لم يجـد أطعم ثلاثين مسـكينا، فإن لم يجـد صام ثلاثين يوما، و الطعام مدّ مدّ يشبعهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن الحكم أن عمر كتب أن يحكم عليه فى الخطأ و العمد. و أخرجا نحوه عن عطاء. و قـد روى نحو هـذا عن جماعات من السـلف من غير فرق بين العامد و الخاطئ و الناسـى، و روى عن آخرين اختصاص ذلك بالعامد.

و للسـلف فى تقدير الجزاء المماثل و تقدير القيمة أقوال مبسوطة فى مواطنها. و أخرج أبو الشـيخ عن أبى هريرة عن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال فى بيضة النعام: «صـيام يوم أو إطعام مسكين». و أخرج ابن أبى شيبة عن عبد اللّه ابن ذكوان عن النبى صلّى اللّه عليه و سـلّم مثله. و أخرج أيضـا عن عائشـة عنه صـلّى اللّه عليه و سـلّم نحوه. و أخرج أبو الشـيخ و ابن مردويه من طريق أبى المهزّم عن أبى هريرة عن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: «فى بيض النعام ثمنه». و قـد اسـتثنى النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم من حيوانـات الحرم الخمس الفواسق كمـا ورد ذلـك فى الأحـاديث فإنه يجوز للمحرم أن يقتلها و لا شـىء عليه. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ ما لفظه ميتا فهو طعـامه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتم عن أبى هريرة موقوفـا مثله. و أخرج أبو الشيخ عن أبى بكر الصـدّيق نحوه. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن أبى حـاتم و أبو الشـيخ عن عكرمـة أن أبـا بكر الصـدّيق قال فى قوله: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ قال: صـيد البحر ما تصـطاده أيـدينا، و طعامه ما لاثه البحر، و فى لفظ «طعامه كل ما فيه». و فى لفظ «طعامه ميتته». و يؤيد هـذا مـا فى الصـحيحين من حـديث العنبر التى ألقاهـا البحر فأكـل الصـحابة منها و قرّرهم رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم على ذلك، و حـديث هو «الطهور ماؤه و الحلّ ميتته». و حديث «أحلّ لكم ميتتان و دمان». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ قال: قياما لدينهم و معالم حجهم.

و أخرج ابن جرير عنه قـال: قيامهـا أن يـأمن من توجه إليهـا. و أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن شـهاب قال: جعل اللّه الكعبـة البيت الحرام و الشهر الحرام قياما للناس يأمنون به فى الجاهلية الأولى، لا يخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت أو فى الحرم أو فى الشهر الحرام. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو

الشيخ عن قتادة فى قوله: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ قال: حواجز أبقاها اللّه بين النـاس فى الجاهليـة، فكـان الرجـل لو جرّ كـل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول و لم يقرب، و كان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشـهر الحرام لم يعرض له و لم يقربه، و كان الرجل لو لقى الهدى مقلدا و هو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له و لم يقربه، و كـان الرجـل إذا أراد البيت تقلـد قلادة من شعر فحمته و منعته من الناس، و كان إذا نفر تقلـد قلادة من الإذخر أو من السـمر، فتمنعه من الناس حتى يأتى أهله، حواجز أبقاها اللّه بين الناس فى الجاهلية. و أخرج أبو الشـيخ عن زيد بن أسلم قِياماً لِلنَّاسِ قال:

أمنا.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۴]

قُلْ لا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۰۱) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (۱۰۲) ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (۱۰۴)

قيل: المراد بالخبيث و الطيب: الحرام و الحلال، و قيل: المؤمن و الكافر، و قيل: العاصى و المطيع، و قيل: الردىء و الجيد. و الأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات و غيرها مما يتصف بوصف الخبث و الطيب من الأشخاص و الأعمال و الأقوال، فالخبيث لا يساوى الطيب بحال من الأحوال. قوله:

وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ قيل الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا. و المراد نفى الاستواء فى كل الأحوال، و لو فى حال كون الخبيث معجبا للرائى للكثرة التى فيه، فإن هذه الكثرة مع الخبيث فى حكم العدم، لأن خبث الشيء يبطل فائدته، و يمحق بركته، و يذهب بمنفعته، و الواو إما للحال أو للعطف على مقدّر: أى لا يستوى الخبيث و الطيب لو لم تعجبك كثرة الخبيث، و لو أعجبك كثرة الخبيث، كقولك: أحسن إلى فلان و إن أساء إليك: أى أحسن إليه إن لم يسىء إليك و إن أساء إليك، و جواب لو محذوف: أى و لو أعجبك كثرة الخبيث فلا يستويان. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ أى لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها و لا هى مما يعنيكم فى أمر دينكم، فقوله: إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ فى محل جر صفة لأشياء أى لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بدت لكم: أى ظهرت و كلفتم بها، ساءتكم، نهاهم اللّه عن كثرة مساءلتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن السؤال عما لا يعنى و لا تدعو إليه حاجة قد يكون سببا لإيجابه على السائل و على غيره. قوله: وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ هذه الجملة من جملة صفة أشياء. و المعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، و ذلك مع وجود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين أظهركم و نزول الوحى عليه

فتح القدير، ج ۲، ص: ۹۳

تُبْدَ لَكُمْ أى تظهر لكم بما يجيب عليكم به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو ينزل به الوحى فيكون ذلك سببا للتكاليف الشاقة و إيجاب ما لم يكن واجبا و تحريم ما لم يكن محرّما، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحى بموت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإنه لا إيجاب و لا تحريم يتسبب عن السؤال.

و قد ظنّ بعض أهل التفسير أن إن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال مع وجود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نزول الوحى عليه، فقال: إن الشرطية الأولى أفادت عدم جواز السؤال، و الثانية أفادت جوازه، فقال: إن المعنى:

و إن تسألوا عن غيرها مما مست إليه الحاجة تبد لكم بجواب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عنها، و جعل الضمير فى عَنْها راجعا إلى أشياء غير الأشياء المذكورة، و جعل ذلك كقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ «۱» و هو آدم، ثم قال: ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً «۲» أى ابن آدم. قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْها أى عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى ذلك. و قيل المعنى: إن تلك الأشياء التى سألتم عنها هى مما عفا عنه و لم يوجبه عليكم، فكيف تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من اللّه غير لازم؟ و ضمير عَنْها

عائد إلى المسألة الأولى، و إلى أشياء على الثانى على أن تكون جملة عَفَا اللَّهُ عَنْها صفة ثالثة لأشياء، و الأوّل أولى، لأن الثانى يستلزم أن يكون ذلك المسؤول عنه قد شرعه اللّه ثم عفا عنه، و يمكن أن يقال إن العفو بمعنى الترك: أى تركها اللّه و لم يذكرها بشىء فلا تبحثوا عنها، و هذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة فى كونه غفورا حليما ليدلّ بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لكثرة مغفرته و سعة حلمه.

قوله: قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ الضمير يرجع إلى المسألة المفهومة من لا تَسْئَلُوا لكن ليست هذه المسألة بعينها، بل مثلها فى كونها مما لا حاجة إليه و لا توجبه الضرورة الدينية، ثم لم يعملوا بها، بل أصبحوا بها كافرين: أى ساترين لها تاركين للعمل بها، و ذلك كسؤال قوم صالح الناقة، و أصحاب عيسى المائدة، و لا بد من تقييد النهى فى هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قدمنا، لأن الأمر الذى تدعو الحاجة إليه فى أمور الدين و الدنيا قد أذن اللّه بالسؤال عنه فقال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ* «٣» و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «قاتلهم اللّه ألا سألوا، فإنّما شفاء العىّ السّؤال». قوله: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ هذا كلام مبتدأ يتضمن الردّ على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه، و جعل هاهنا بمعنى سمى كما قال:

إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا. و البحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة كالنّطيحة و الذّبيحة، و هى مأخوذة من البحر، و هو شقّ الأذن. قال ابن سيده: البحيرة هى التى خليت بلا راع؛ قيل: هى التى يجعل درّها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس، و جعل شق أذنها علامة لذلك. و قال الشافعى: كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثا بحرت أذنها فحرّمت؛ و قيل: إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذكرا بحروا أذنه فأكله الرجال و النساء، و إن كان الخامس أنثى بحروا أذنها و كانت حراما على النساء لحمها و لبنها؛ و قيل: إذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقوا أذنها و حرّموا ركوبها و درّها. و السائبة: الناقة تسيب، أو البعير يسيب بنذر يكون على الرجل إن سلمه اللّه من مرض أو بلغه منزلة، فلا يحبس عن رعى و لا ماء، و لا يركبه أحد قاله أبو عبيد. قال الشاعر:

---

(١). المؤمنون: ١٢.

(٢). المؤمنون: ١٣.

(٣). النحل: ٤٣.

 و سائبة للّه تنمى تشكّراإن اللّه عافى عامرا أو مجاشعا

و قيل هى التى تسيّب للّه فلا قيد عليها و لا راعى لها، و منه قول الشاعر:

عقرتم ناقة كانت لربّىمسيّبة فقوموا للعقاب

و قيل: هذه التى تابعت بين عشر إناث ليس بينهنّ ذكر، فعند ذلك لا يركب ظهرها، و لا يجزّ و برها و لا يشرب لبنها إلا ضيف؛ و قيل: كانوا يسيبون العبد فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد. و الوصيلة:

قيل: هى الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى؛ و قيل: هى الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهى لهم، و إن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم، و إن ولدت ذكرا و أنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم؛ و قيل: كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا؛ فإن كان السابع ذكرا ذبح فأكل منه الرجال و النساء، و إن كانت أنثى تركت فى الغنم، و إن كان ذكرا و أنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها، و كان لحمها حراما على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال و النساء. و الحام: الفحل الحامى ظهره عن أن يركب، و كانوا إذا ركب ولد ولد الفحل قالوا: حمى ظهره فلا يركب، قال الشاعر:

حماها أبو قابوس فى عزّ ملكهكما قد حمى أولاد أولاده الفحل

و قيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب و لا يمنع من كلأ و لا ماء، ثم وصفهم اللّه سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على اللّه و كذبا، لا لشرع شرعه اللّه لهم و لا لعقل دلهم عليه، و سبحان اللّه العظيم ما أركّ عقول هؤلاء و أضعفها، يفعلون هذه الأفاعيل التى هى محض الرقاعة و نفس الحمق وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا و هذه أفعال آبائهم و سننهم التى سنوها لهم، و صدق اللّه سبحانه حيث يقول: أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ أى و لو كانوا جهلة ضالّين، و الواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام؛ و قيل: للعطف على جملة مقدّرة: أى أحسبهم ذلك و لو كان آباؤهم. و قد تقدّم الكلام على مثل هذه الآية فى البقرة. و قد صارت هذه المقالة التى قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة و عصاهم التى يتوكؤون عليها إن دعاهم داعى الحقّ و صرخ لهم صارخ الكتاب و السنة فاحتجاجهم بمن قلدوه ممن هو مثلهم فى التعبد بشرع اللّه مع مخالفة قوله لكتاب اللّه أو لسنة رسوله هو كقول هؤلاء، و ليس الفرق إلا فى مجرّد العبارة اللفظية، لا فى المعنى الذى عليه تدور الإفادة و الاستفادة، اللهمّ غفرا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى الآية: قال الخبيث: هم المشركون، و الطيب: هم المؤمنون. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: خطب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال رجل: من أبى؟ فقال: فلان، فنزلت هذه الآية لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ. و أخرج البخارى و غيره نحوه من حديث ابن عباس. و قد بين هذا السائل فى روايات أخر أنه عبد اللّه بن حذافة و أنه قال: من أبى؟ قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أبوك حذافة». و أخرج ابن حبّان عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

خطب فقال: «يا أيها الناس إن اللّه قد افترض عليكم الحجّ، فقام رجل، فقال: أكل عام يا رسول اللّه؟

فسكت عنه، فأعادها ثلاث مرات، فقال: لو قلت نعم لوجبت، و لو وجبت ما قمتم بها، ذرونى ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، و إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم» و ذلك أن هذه الآية: أعنى لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ نزلت فى ذلك. و قد أخرج عنه نحو هذا ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أمامة الباهلى نحوه. و أخرج ابن مردويه عن أبى مسعود نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الدارقطنى و الحاكم و ابن مردويه عن علىّ نحوه، و كل هؤلاء صرحوا فى أحاديثهم أن الآية نزلت فى ذلك. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال: كانوا يسألون عن الشىء و هو لهم حلال، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم، و إذا حرّم عليهم وقعوا فيه. و أخرج ابن المنذر عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرّم فيحرم من أجل مسألته». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن أبى ثعلبة الخشنى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه حدّ حدودا فلا تعتدوها، و فرض لكم فرائض فلا تضيّعوها، و حرّم أشياء فلا تنتهكوها، و ترك أشياء فى غير نسيان و لكن رحمة لكم فاقبلوها و لا تبحثوا عنها». و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله:

لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ قال: البحيرة و السّائبة و الوصيلة و الحاكم. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة: التى يمنع درّها للطواغيت و لا يحلبها أحد من الناس؛ و السائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شىء؛ و الوصيلة: الناقة البكر تبكر فى أوّل نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى.

و كانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر؛ و الحامى فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا

قضى ضرابه و دعوه للطواغيت و أعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شىء و سموه الحامى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: البحيرة:

الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكرا و نحوه فأكله الرجال دون النساء، و إن كانت أنثى جدعوا آذانها فقالوا: هذه بحيرة؛ و أما السائبة: فكانوا يسيبون من أنعامهم لآلهتهم لا يركبون لها ظهرا، و لا يحلبون لها لبنا، و لا يجزون لها و برا، و لا يحملون عليها شيئا؛ و أما الوصيلة: فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع، فإن كان ذكرا أو أنثى و هو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، و إن كانت أنثى استحيوها، و إن كان ذكرا أو أنثى فى بطن استحيوهما و قالوا: وصلته أخته فحرّمته علينا.

و أما الحام: فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا: حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا، و لا يجزّون له وبرا، و لا يمنعونه من حمى و لا من حوض يشرب منه، و إن كان الحوض لغير صاحبه. و أخرج نحوه عنه ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق العوفىّ.

فتح القدير، ج۲، ص: ۹۶

[سورة المائدة (۵): آية ۱۰۵]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

أى الزموا أنفسكم أو احفظوها، كما تقول: عليك زيدا: أى الزمه، قرئ: لا يَضُرُّكُمْ بالجزم على أنه جواب الأمر الذى يدلّ عليه اسم الفعل. و قرأ نافع و غيره بالرفع على أنه مستأنف، كقول الشاعر:

فقال رائدهم أرسوا نزاولها أو على أنّ ضمّ الراء للاتباع، و قرئ: لا يَضُرُّكُمْ بكسر الضاد، و قرئ: «لا يضيركم» و المعنى:

لا يضرّكم ضلال من ضلّ من الناس إذا اهتديتم للحقّ أنتم فى أنفسكم، و ليس فى الآية ما يدلّ على سقوط الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد، و قد قال اللّه سبحانه: إِذَا اهْتَدَيْتُمْ و قد دلّت الآيات القرآنية، و الأحاديث المتكاثرة، على وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر وجوبا مضيقا متحتما، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، أو لا يظنّ التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحلّ به ما يضرّه ضررا يسوغ له معه الترك إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا فيجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبّان و الدار قطنى و الضياء فى المختارة و غيرهم، عن قيس بن أبى حازم قال: قام أبو بكر فحمد اللّه و أثنى عليه و قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ و إنكم تضعونها على غير مواضعها، و إنى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر و لم يغيّروه أوشك أن يعمّهم اللّه بعقاب». و فى لفظ لابن جرير عنه «و اللّه لتأمرنّ بالمعروف و لتنهونّ عن المنكر أو ليعمّنّكم اللّه منه بعقاب». و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن ماجة و ابن جرير، و البغوى فى معجمه، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن أبى أمية الشّعبانى قال: أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له: كيف تصنع فى هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ قال: أما و اللّه لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «بل ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت

شحّا مطاعا، و هوى متّبعا، و دنيا مؤثرة، و إعجاب كلّ ذى رأى برأيه، فعليك بخاصّة نفسك، ودع عنك أمر العوامّ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم» و فى لفظ: «قيل يا رسول اللّه أجر خمسين رجلا- منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم». و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن عامر الأشعرى أنه كان فيهم أعمى، فاحتبس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول اللّه قرأت هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ قال:

فتح القدير، ج۲، ص: ۹۷

فقال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أين ذهبتم؟ إنما هى لا يضرّكم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم». و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ عن الحسن: أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فقال: يا أيها الناس إنه ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة، و لكنه قد أوشك أن يأتى زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا و كذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد عنه فى الآية قال:

«مروا بالمعروف و انهوا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط و السيف، فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عمر أنه قال فى هذه الآية: إنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن رجل قال: كنت فى خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة فى حلقة فيهم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبىّ بن كعب، فقرأ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فقال: إنما تأويلها فى آخر الزمان. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن أبى مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة فإذا قوم جلوس فقرأ أحدهم عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فقال أكثرهم: لم يجىء تأويل هذه الآية اليوم. و أخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال: كنت فى حلقة فيها أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و إنى لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فقلت: أليس اللّه يقول:

عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فأقبلوا علىّ بلسان واحد فقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها و لا تدرى ما تأويلها؟ حتى تمنيت أنى لم أكن تكلمت، ثم أقبلوا يتحدّثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السّنّ، و إنك نزعت آية لا تدرى ما هى؟ و عسى أن تدرك ذلك الزمان «إذا رأيت شحا مطاعا و هوى متبعا و إعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك لا يضرّك من ضلّ إذا اهتديت». و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنحو حديث أبى ثعلبة الخشنى المتقدّم، و فى آخره «كأجر خمسين رجلا منكم» و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: ذكرت هذه الآية عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «لم يجىء تأويلها، لا- يجىء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام» و الروايات فى هذا الباب كثيرة، و فيما ذكرناه كفاية، ففيه ما يرشد إلى ما قدّمناه من الجمع بين هذه الآية و بين الآيات و الأحاديث الواردة فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۸]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۷) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى

وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (١٠٨)

فتح القدير، ج٢، ص: ٩٨

قال مكيّ: هـذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابا و معنى و حكما. قال ابن عطية: هذا كلام من لم يقع له الثلج في تفسيرها، و ذلك بيّن من كتابه رحمه اللّه: يعني من كتاب مكي.

قال القرطبي: ما ذكره مكي ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا. قال السعد في حاشيته على الكشاف: و اتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعرابا و نظما و حكما. قوله: شَهادَةُ بَيْنِكُمْ أضاف الشهادة إلى البين توسعا لأنها جارية بينهم؛ و قيل: أصله شهادة ما بينكم فحذفت ما و أضيفت إلى الظرف كقوله تعالى: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ «١» و منه قول الشاعر:

تصافح من لاقيت لي ذا عداوةصفاحا و عنّي بين عينيك منزوى

أراد ما بين عينيك، و مثله قول الآخر:

و يوما شهدناه سليما و عامرا «٢» .....

أي شهدنا فيه، و منه قوله تعالى: هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ «٣» قيل: و الشهادة هنا بمعنى الوصية؛ و قيل:

بمعنى الحضور للوصية. و قال ابن جرير الطبري: هي هنا بمعنى اليمين، فيكون المعنى: يمين ما بينكم أن يحلف اثنان. و استدلّ على ما قاله بأنه لا يعلم للّه حكما يجب فيه على الشاهد يمين. و اختار هذا القول القفال، و ضعف ذلك ابن عطية و اختار أنّ الشهادة هنا هي الشهادة التي تؤدّى من الشهود. قوله: إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ظرف للشهادة، و المراد إذا حضرت علاماته، لأن من مات لا يمكنه الإشهاد، و تقديم المفعول للاهتمام و لكمال تمكن الفاعل عند النفس. و قوله: حِينَ الْوَصِيَّةِ ظرف لحضر أو للموت، أو بدل من الظرف الأوّل. و قوله: اثْنانِ خبر شهادة على تقدير محذوف: أي شهادة اثنين أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف: أي فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان، ذكر الوجهين أبو عليّ الفارسي. قوله: ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ صفة للاثنان و كذا منكم: أي كائنان منكم: أي من أقاربكم أَوْ آخَرانِ معطوف على اثْنانِ و مِنْ غَيْرِكُمْ صفة له: أي كائنان من الأجانب؛ و قيل:

إن الضمير في مِنْكُمْ للمسلمين، و في غَيْرِكُمْ للكفار و هو الأنسب لسياق الآية، و به قال أبو موسى الأشعري و عبد اللّه بن عباس و غيرهما، فيكون في الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين في السفر في خصوص الوصايا كما يفيده النظم القرآني، و يشهد له السبب للنزول و سيأتي؛ فإذا لم يكن مع الموصي من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر، فإذا قدما و أدّيا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا و لا بدّلا، و أن ما شهدا به حق، فيحكم حينئذ بشهادتهما فَإِنْ عُثِرَ بعد ذلك عَلى أَنَّهُمَا كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصي، و غرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها، هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره، و به قال سعيد بن المسيب و يحيى بن يعمر و سعيد

---

(١). سبأ: ٣٣.

(٢). و عجزه: قليل سوى الطعن النهال نوافله. و البيت لرجل من بني عامر. و سلّم و عامر: قبيلتان من قيس عيلان.

(٣). الكهف: ٧٨.

فتح القدير، ج٢، ص: ٩٩

ابن جبير و أبو مجلز و النّخعي و شريح و عبيدة السّلماني و ابن سيرين و مجاهد و قتادة و السدّي و الثوري و أبو عبيد و أحمد بن حنبل. و ذهب إلى الأول: أعني تفسير ضمير مِنْكُمْ بالقرابة أو العشيرة، و تفسير مِنْ غَيْرِكُمْ بالأجانب الزهري و الحسن و

عكرمة. و ذهب مالك و الشافعى و أبو حنيفة و غيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة، و احتجوا بقوله: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ «۱». و قوله: وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ و الكفار ليسوا بمرضيين و لا عدول، و خالفهم الجمهور فقالوا: الآية محكمة، و هو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النّسخ. و أما قوله تعالى: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ و قوله: وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ «۲» فهما عامان فى الأشخاص و الأزمان و الأحوال، و هذه الآية خاصة بحالة الضرب فى الأرض و بالوصية و بحالة عدم الشهود المسلمين، و لا تعارض بين عامّ و خاص. قوله: إِنْ أَنْتُمْ هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم، أو مبتدأ و ما بعده خبره، و الأوّل مذهب الجمهور من النحاة، و الثانى مذهب الأخفش و الكوفيين. و الضرب فى الأرض هو السفر. و قوله: فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ معطوف على ما قبله و جوابه محذوف؛ أى إن ضربتم فى الأرض فنزل بكم الموت و أردتم الوصية و لم تجدوا شهودا عليها مسلمين، ثم ذهبا إلى ورثتكم بوصيتكم و بما تركتم فارتابوا فى أمرهما و ادّعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما، و يجوز أن يكون استئنافا لجواب سؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فكيف نصنع إن ارتبنا فى الشهادة؟ فقال: تحبسونهما من بعد الصّلاة إن ارتبتم فى شهادتهما. و خص بعد الصلاة: أى صلاة العصر، قاله الأكثر لكونه الوقت الذى يغضب اللّه على من حلف فيه فاجرا كما فى الحديث الصحيح؛ و قيل: لكونه وقت اجتماع الناس و قعود الحكام للحكومة؛ و قيل: صلاة الظهر؛ و قيل: أىّ صلاة كانت. قال أبو علىّ الفارسى: تَحْبِسُونَهُما صفة لآخران، و اعترض بين الصفة و الموصوف بقوله: إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ و المراد بالحبس:

توقيف الشاهدين فى ذلك الوقت لتحليفهما، و فيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام، و على جواز التغليظ على الحالف بالزمان و المكان و نحوهما. قوله: فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ معطوف على تَحْبِسُونَهُما أى يقسم باللّه الشاهدان على الوصية أو الوصيان.

و قد استدلّ بذلك ابن أبى ليلى على تحليف الشاهدين مطلقا إذا حصلت الريبة فى شهادتهما، و فيه نظر لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها. قوله: إِنِ ارْتَبْتُمْ جواب هذا الشرط محذوف دلّ عليه ما تقدّم كما سبق. قوله: لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً جواب القسم، و الضمير فى بِهِ راجع إلى اللّه تعالى. و المعنى: لا نبيع حظّنا من اللّه تعالى بهذا العرض النزر، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذى ادّعيتموه علينا؛ و قيل: يعود إلى القسم: أى لا نستبدل بصحة القسم باللّه عرضا من أعراض الدنيا؛ و قيل: يعود إلى الشهادة، و إنما ذكر الضمير لأنها بمعنى القول: أى لا نستبدل بشهادتنا ثمنا. قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن، فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و هذا مبنىّ على أن العروض لا تسمى ثمنا، و عند الأكثر أنها تسمى ثمنا كما تسمى مبيعا. قوله: وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى أى و لو كان المقسم له أو المشهود له قريبا فإنا نؤثر الحق و الصدق، و لا نؤثر العرض الدنيوى و لا القرابة، و جواب لو محذوف لدلالة

---

(۱). البقرة: ۲۸۲.

(۲). الطلاق: ۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۰۰

فتح القدير ج۲ ۱۴۹

ما قبله عليه: أى و لو كان ذا قربى لا نشترى به ثمنا. قوله: وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ معطوف على لا نَشْتَرِي داخل معه فى حكم القسم، و أضاف الشهادة إلى اللّه سبحانه لكونه الآمر بإقامتها و الناهى عن كتمها. قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً عثر على كذا: اطلع عليه، يقال: عثرت منه على خيانة:

أى اطلعت و أعثرت غيرى عليه، و منه قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ «۱» و أصل العثور الوقوع و السقوط على الشىء، و منه

قول الأعشى:

بذات لوث «۲» عفرناة إذا عثرتفالتّعس أدنى لها من أن أقول لعا

و المعنى: أنه إذا اطلع بعد التحليف على أنّ الشّاهدين أو الوصيين استحقّا إثما: أى استوجبا إثما إما بكذب الشهادة أو اليمين أو بظهور خيانة. قال أبو على الفارسى: الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ، لأن آخذه يأثم خذه، فسمى إثما كما سمى ما يؤخذ بغير حق مظلمة. و قال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك فكذلك سمى هذا المأخوذ باسم المصدر. قوله: فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما أى فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثما فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق، و ليس المراد أنهما يقومان مقامهما فى أداء الشهادة التى شهدها المستحقان للإثم. قوله: مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ استحق مبنيّ للمفعول، فى قراءة الجمهور: و قرأ على و أبيّ و ابن عباس و حفص على البناء للفاعل، و الْأَوْلَيانِ على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أى هما الأوليان، كأنه قيل: من هما؟ فقيل: هما الأوليان؛ و قيل: هو بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران. و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش و حمزة الأولين:

جمع أول على أنه بدل من الذين، أو من الهاء و الميم فى عليهم. و قرأ الحسن الأولان. و المعنى على بناء الفعل للمفعول: من الذين استحق عليهم الإثم: أى جنى عليهم، و هم أهل الميت و عشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم، فالأوليان تثنية أولى. و المعنى على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة و يظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت، فالأوليان فاعل استحق و مفعوله أن يجردوهما للقيام بالشهادة؛ و قيل: المفعول محذوف، و التقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التى أوصى بها. قوله: فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ عطف على يَقُومانِ

أى فيحلفان باللّه لشهادتنا: أى يميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين، كما فى قوله تعالى: فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ «۳» أى يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما: أى من يمينهما على أنهما صادقان أمينان وَ مَا اعْتَدَيْنا أى تجاوزنا الحق فى أيمننا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ إن كنا حلفنا على باطل.

قوله: ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أى ذلك البيان الذى قدمه اللّه سبحانه فى هذه القصة و عرفنا كيف يصنع من أراد الوصيّة فى السفر، و لم يكن عنده أحد من أهله و عشيرته و عنده كفار أَدْنى

أى أقرب إلى أن يؤدى الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها فلا يحرّفوا و لا يبدّلوا و لا

---

(۱). الكهف: ۲۱.

(۲). ذات لوث: أى قوة.

(۳). النور: ۶.

يخونوا و هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر المنفعة و الفائدة فى هذا الحكم الذى شرعه اللّه فى هذا الموضع من كتابه؛ فالضمير فى يَأْتُوا عائد إلى شهود الوصية من الكفار؛ و قيل: إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم.

و المراد تحذيرهم من الخيانة، و أمرهم بأن يشهدوا بالحق. قوله: أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ أى تردّ على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية، و هو معطوف على قوله: أَنْ يَأْتُوا فتكون الفائدة فى شرع اللّه سبحانه لهذا الحكم هى أحد الأمرين: إما احتراز شهود الوصية عن الكذب و الخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها. أو

يخافوا الافتضاح إذا ردّت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سببا لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب و لا خيانة؛ و قيل: إن يَخافُوا معطوف على مقدّر بعد الجملة الأولى، و التقدير: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها و يخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب و الخيانة أو يخافوا الافتضاح بردّ اليمين، فأىّ الخوفين وقع حصل المقصود وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفة أحكامه وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ الخارجين عن طاعته بأىّ ذنب، و منه الكذب فى اليمين أو الشهادة.

و حاصل ما تضمّنه هذا المقام من الكتاب العزيز أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين، فإن لم يجد شهودا مسلمين، و كان فى سفر، و وجد كفارا جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصى حلفا باللّه على أنهما شهدا بالحق و ما كتما من الشهادة شيئا و لا خانا مما تركه الميت شيئا، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقسما عليه من خلل فى الشهادة أو ظهور شىء من تركة الميت زعما أنه قد صار فى ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة و عمل بذلك.

و قد أخرج الترمذى و ضعّفه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و النحاس فى تاريخه، و أبو الشيخ و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة من طريق أبى النضر و هو الكلبى، عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس، عن تميم الدارى فى هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ قال: برىء الناس منها غيرى و غير عدىّ بن بداء، و كانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، و قدم عليهما مولى لبنى هاشم يقال له بديل بن أبى مريم بتجارة، و معه جام من فضّة يريد به الملك و هو عظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما و أمرهما أن يبلغا ما ترك أهله؛ قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا و عدىّ بن بداء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، و فقدوا الجام فسألونا عنه: فقلنا: ما ترك غير هذا، أو ما دفع إلينا غيره؛ قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، و أدّيت إليهم خمسمائة درهم، و أخبرتهم أن عند صاحبى مثلها، فأتوا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسألهم البينة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إلى قوله: أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ فقام عمرو بن العاص و رجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة درهم من عدىّ بن بداء. و فى إسناده أبو النّضر، و هو محمد بن السّائب الكلبى صاحب التفسير، قال الترمذى: تركه أهل العلم بالحديث. و أخرج

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۱۰۲

البخارى فى تاريخه و الترمذى و حسنه و ابن جرير و ابن المنذر و النحاس و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدّارىّ و عدىّ بن بداء، فمات السّهمىّ بأرض ليس فيها مسلم، فأوصى إليهما، فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوّصا بالذهب، فأحلفهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم باللّه ما كتمتماها و لا اطلعتما، ثم وجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناه من تميم و عدى، فقام رجلان من أولياء السهمىّ فحلفا باللّه لشهادتنا أحقّ من شهادتهما و إن الجام لصاحبهم، و أخذوا الجام، قال: و فيهم نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ الآية، و فى إسناده محمد بن أبى القاسم الكوفى، قال الترمذى: قيل: إنه صالح الحديث، و قد روى ذلك أبو داود من طريقه. و قد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هى السبب فى نزول الآية، و ذكرها المفسرون فى تفاسيرهم. و قال القرطبى: إنه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هى سبب نزول الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ الآية قال: هذا لمن مات و عنده المسلمون أمره اللّه أن يشهد على وصيته عدلين مسلمين، ثم قال: أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فهذا لمن مات و ليس عنده أحد من المسلمين أمر اللّه بشهادة

رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا باللّه بعد الصلاة ما اشتريا بشهادتهما ثمنا قليلا، فإن اطلع الأولياء على أنّ الكافرين كذبا فى شهادتهما، و ثمّ رجلان من الأولياء فحلفا باللّه أنّ شهادة الكافرين باطلة، فذلك قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا ذلِكَ أَدْنى أَنْ يأتى الكافران بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ فتترك شهادة الكافرين و يحكم بشهادة الأولياء، فليس على شهود المسلمين أقسام: إنما الأقسام إذا كانا كافرين. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا رجل خرج مسافرا و معه مال فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته و أشهد عليهما عدلين من المسلمين، فإن لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فإن أدّى فسبيل ما أدى «١»، و إن جحد استحلف باللّه الذى لا إله إلا هو دبر صلاة إن هذا الذى دفع إلىّ و ما غيبت منه شيئا، فإذا حلف برىء، فإذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا عليه، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم ما لهم جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه، فذلك الذى يقول اللّه: اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ قال: من غير المسلمين من أهل الكتاب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هذه الآية منسوخة. و أخرج ابن جرير عن زيد ابن أسلم فى الآية قال: كان ذلك فى رجل توفّى و ليس عنده أحد من أهل الإسلام، و ذلك فى أوّل الإسلام و الأرض حرب و الناس كفار إلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه بالمدينة، و كان النّاس يتوارثون بالوصية، ثم

---

(١). كذا فى المطبوع، و لعل الصواب: فإن أدّيا ... جحدا ... استحلفا .. حلفا ... برئا ... عليهما.

نسخت الوصية و فرضت الفرائض و عمل المسلمون بها. و أخرج ابن جرير أيضا عن الزهرى قال: مضت السّنّة أن لا تجوز شهادة كافر فى حضر و لا سفر، إنما هى فى المسلمين. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عبيدة فى قوله: تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ قال: صلاة العصر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً قال: لا نأخذ به رشوة وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ و إن كان صاحبها بعيدا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً أى اطّلع منهما على خيانة على أنهما كذبا أو كتما. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: الْأَوْلَيانِ قال: بالميت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها يقول: ذلك أحرى أن يصدقوا فى شهادتهم أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ يقول: و أن يخافوا العتب. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ قال: فتبطل أيمانهم و تؤخذ أيمان هؤلاء.

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٩ الى ١١١]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (١١١)

قوله: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ العامل فى الظرف فعل مقدّر: أى اسمعوا، أو اذكروا، أو احذروا.

و قال الزجاج: هو منصوب بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ المذكور فى الآية الأولى؛ و قيل: بدل من مفعول اتَّقُوا بدل اشتمال؛ و قيل: ظرف لقوله: لا يَهْدِي المذكور قبله؛ و قيل: منصوب بفعل مقدّر متأخر تقديره: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يكون من الأحوال كذا و كذا. قوله: ما ذا أُجِبْتُمْ أى أىّ إجابة أجابتكم به أممكم الذين بعثكم اللّه إليهم؟ أو أىّ جواب أجابوكم به؟ و على الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المذكور بعدها، و توجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم، و جوابهم بقولهم: لا عِلْمَ لَنا مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم، تفويض منهم، و إظهار للعجز، و عدم القدرة، و لا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فإن تفويض الجواب إلى اللّه أبلغ فى حصول ذلك؛ و قيل المعنى: لا علم لنا لما أحدثوا بعدنا؛ و قيل: لا علم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم؛ و قيل المعنى: لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا؛ و قيل: إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر. قوله: إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إذ: بدل من: يوم يجمع، و هو تخصيص بعد التعميم و تخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتى اليهود و النصارى فيه إفراطا و تفريطا، هذه تجعله إلها، و هذه تجعله كاذبا، و قيل: هو منصوب بتقدير اذكر.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۰۴

قوله: اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ ذكّره سبحانه نعمته عليه و على أمه- مع كونه ذاكرا لها عالما بتفضل اللّه سبحانه بها- لقصد تعريف الأمم بما خصّهما اللّه به من الكرامة و ميزهما به من علوّ المقام، أو لتأكيد الحجة و تبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند اللّه هذه المنزلة و توبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند اللّه سبحانه، و أنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم اللّه سبحانه ليس لهما من الأمر شىء. قوله: إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ إذ ظرف للنعمة لأنها بمعنى المصدر: أى اذكر إنعامى عليك وقت تأييدى لك، أو حال من النعمة: أى كائنة ذلك الوقت أَيَّدْتُكَ قوّيتك مأخوذ من الأيد، و هو القوّة. و فى روح القدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التى خصه اللّه بها، و قيل: إنه جبريل عليه السلام، و قيل: إنه الكلام الذى يحيى به الأرواح. و القدس: الطهر، و إضافته إليه لكونه سببه، و جملة تُكَلِّمُ النَّاسَ مبينة لمعنى التأييد، و فِي الْمَهْدِ فى محل نصب على الحال: أى تكلم الناس حال كونك صبيا و كهلا لا يتفاوت كلامك فى الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتا بينا. و قوله: وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ معطوف على إِذْ أَيَّدْتُكَ أى و اذكر نعمتى عليك وقت تعليمى لك الكتاب: أى جنس الكتاب، أو المراد بالكتاب الخطّ، و على الأوّل يكون ذكر التوراة و الإنجيل من عطف الخاص على العام، و تخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما: أما التوراة فقد كان يحتجّ بها على اليهود فى غالب ما يدور بينه و بينهم من الجدال كما هو مصرّح بذلك فى الإنجيل، و أما الإنجيل فلكونه نازلا عليه من عند اللّه سبحانه، و المراد بالحكمة جنس الحكمة؛ و قيل: هى الكلام المحكم وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ أى: تصوّر تصويرا مثل صورة الطير بِإِذْنِي لك بذلك و تيسيرى له فَتَنْفُخُ فى الهيئة المصوّرة فَتَكُونُ هذه الهيئة طَيْراً متحركا حيا كسائر الطيور وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي لك و تسهيله عليك و تيسيره لك، و قد تقدّم تفسير هذا مطوّلا فى البقرة فلا نعيده وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة بِإِذْنِي و تكرير بإذنى فى المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة اللّه ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر اللّه سبحانه. قوله: وَ إِذْ كَفَفْتُ معطوف على إِذْ تُخْرِجُ كففت معناه: دفعت و صرفت بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ حين هموا بقتلك إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحات فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أى ما هذا الذى جئت به إلا سحر بين، لما عظم ذلك فى صدرهم و انبهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية، بل نسبوه إلى السحر. قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي هو معطوف على ما قبله، و قد تقدّم تفسير ذلك. و الوحى فى كلام العرب معناه الإلهام: أى ألهمت الحواريين و قذفت فى قلوبهم؛ و قيل معناه: أمرتهم على ألسنة الرسل أن يؤمنوا بى بالتوحيد و الإخلاص و يؤمنوا برسالة رسولى. قوله: قالُوا آمَنَّا جملة مستأنفة كأنه قيل:

ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ أى مخلصون للإيمان: أى و اشهد يا رب، أو و اشهد يا عيسى.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۰۵

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ فيفزعون فيقولون: لا- عِلْمَ لَنا فترد إليهم أفئدتهم فيعلمون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى الآية قال: ذلك أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قالوا: لا علم لنا فرقا يذهل عقولهم، ثم يردّ اللّه إليهم عقولهم فيكونون هم الذين يسألون بقول اللّه: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ «۱». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء و أممها، ثم يدعى بعيسى فيذكره نعمته عليه فيقرّ بها، فيقول: يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ الآية، ثم يقول: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون: نعم هو أمرنا بذلك، فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه و جسده، فيجاثيهم بين يدى اللّه مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجّة، و يرفع لهم الصليب، و ينطلق بهم إلى النار». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى بالآيات التى وضع على يديه: من إحياء الموتى، و خلقه من الطين كهيئة الطير، و إبراء الأسقام و الخبر بكثير من الغيوب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ يقول: قذفت فى قلوبهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۵]

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۱۲) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (۱۱۳) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۱۱۴) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۱۱۵)

قوله: إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ الظرف منصوب بفعل مقدر: أى اذكر أو نحوه كما تقدّم، قيل: و الخطاب لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قرأ الكسائى «هل تستطيع» بالفوقية، و نصب ربك، و به قرأ علىّ و ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد، و قرأ الباقون بالتحتية و رفع ربك. و استشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا: آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ و السؤال عن استطاعته لذلك ينافى ما حكوه عن أنفسهم.

و أجيب بأن هذا كان فى أوّل معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم باللّه، و لهذا قال عيسى فى الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم: اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى لا- تشكوا فى قدرة اللّه؛ و قيل: إنهم ادّعوا الإيمان و الإسلام دعوى باطلة، و يردّه أن الحواريين هم خلصاء عيسى و أنصاره كما قال: مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ

---

(۱). الأعراف: ۶۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۰۶

الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ* «۱» و قيل: إن ذلك صدر ممن كان معهم، و قيل: إنهم لم يشكّوا فى استطاعة البارى سبحانه، فإنهم

كـانوا مؤمنين عـارفين بـذلك، و إنمـا هو كقول الرجـل: هـل يسـتطيع فلاـن أن يأتى؟ مع علمه بأنه يسـتطيع ذلك و يقـدر عليه؛ فـالمعنى: هـل يفعـل ذلـك و هـل يجيب إليه؟ و قيـل: إنهم طلبوا الطمأنينـهٔ كمـا قال إبراهيم عليه السـلام: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى «۲» الآيـهٔ، و يـدل على هذا قولهم من بعد وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا و أما على القراءهٔ الأولى، فالمعنى: هل تسـتطيع أن تسأل ربك. قال الزجاج: المعنى هل تستدعى طاعهٔ ربك فيما تسأله فهو من باب وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «۳»، و مائِدَةً: الخوان إذا كان عليه الطعام، من مادهٔ: إذا أعطاه و رفده كأنها تميد من تقدّم إليه قاله قطرب و غيره؛ و قيل: هى فاعلهٔ بمعنى مفعولهٔ ك عِيشَةٍ راضِيَةٍ* «۴» قاله أبو عبيـدهٔ. فأجـابهم عيسـى عليه السـلام بقـوله: اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى اتقـوه من هـذا السؤال و أمثـاله إن كنتم صـادقين فى إيمانكم، فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفهٔ، و قيل:

إنه أمرهم بـالتقوى ليكون ذلـك ذريعـهٔ إلى حصول مـا طلبوه. قوله: قـالُوا نُرِيـدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهـا بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدهٔ، و كذا ما عطف عليه من قولهم: وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ و المعنى: تطمئن قلوبنا بكمـال قـدرهٔ اللّه، أو بأنـك مرسـل إلينـا من عنـده، أو بـأنّ اللّه قـد أجابنـا إلى ما سألناه، و نعلم علما يقينا بأنك قـد صادقتنا فى نبوّتك، و نكون عليها من الشّاهدين:

عند من لم يحضرها من بنى إسرائيل أو من سائر الناس أو من الشّاهدين للّه بالوحدانيهٔ، أو من الشّاهدين:

أى الحاضـرين دون السّامعين. و لما رأى عيسـى ما حكوه عن أنفسـهم من الغرض بنزول المائـدهٔ قال: اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ أى كائنـهٔ أو نازلـهٔ من السـماء، و أصل اللهمّ عنـد سيبويه و أتباعه: يا اللّه، فجعلت الميم بدلا من حرف النداء، و ربنا نداء ثان، و ليس بوصف، و تَكُونُ لَنا عِيداً وصف لمائدهٔ.

و قرأ الأعمش يكون لنا عيـدا أى يكون نزولها لنا عيـدا. و قد كان نزولها يوم الأحد، و هو يوم عيد لهم؛ و العيد واحد الأعياد، و إنما جمع بالياء و أصـله الواو للزومها فى الواحد؛ و قيل: للفرق بينه و بين أعواد جمع عود، ذكر معناه الجوهرى، و قيل: أصله من عـاد يعود: أى رجع فهو عود بـالواو، و تقلب يـاء لانكسار ما قبلها مثل الميزان و الميقات و الميعاد، فقيل: ليوم الفطر و الأضـحى عيـدان، لأنهما يعودان فى كل سـنهٔ. و قال الخليل: العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه. قوله: لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا بدل من الضـمير فى لنـا بتكرير العامـل: أى لمن فى عصـرنا و لمن يأتى بعـدنا من ذرارينا و غيرهم. قوله: وَ آيَةً مِنْكَ عطف على عيـدا، أى دلالـهٔ و حجّهٔ واضحهٔ على كمال قدرتك و صحهٔ إرسالك من أرسلته وَ ارْزُقْنا أى: أعطنا هذه المائدهٔ المطلوبهٔ، أو ارزقنا رزقا نستعين به على عبادتـك وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ بـل لاـ رازق فى الحقيقـهٔ غيرك و لاـ معطى سـواك، فأجـاب اللّه سـبحانه سؤال عيسـى عليه السلام فقال: إِنِّي مُنَزِّلُها أى المائدهٔ عَلَيْكُمْ

و قد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدهٔ أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأوّل و هو الحق لقوله سبحانه:

إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ و وعده الحق و هو لا يخلف الميعاد. و قال مجاهد: ما نزلت و إنما هو ضرب

---

(۱). آل عمران: ۵۲.

(۲). البقرهٔ: ۲۶۰.

(۳). يوسف: ۸۲.

(۴). الحاقهٔ: ۲۱.

مثل ضـربه اللّه لخلقه نهيا لهم عن مسألهٔ الآيات لأنبيائه، و قال الحسن: وعدهم بالإجابهٔ، فلما قال: فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ اسـتغفروا

اللّه و قالوا: لا نريدها. قوله: فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ أى بعد تنزيلها فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً أى تعذيبا لا أُعَذِّبُهُ صفة لعذابا، و الضمير عائد إلى العذاب بمعنى التعذيب: أى لا أعذب مثل ذلك التعذيب أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ قيل: المراد عالمى زمانهم، و قيل: جميع العالمين، و فى هذا من التهديد و الترهيب ما لا يقادر قدره.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عائشة قالت:

كان الحواريون أعلم باللّه من أن يقولوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ إنما قالوا: هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه، و يؤيد هذا ما أخرجه الحاكم و صححه و الطبرانى و ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هل تستطيع ربك بالتاء يعنى الفوقية. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قرأها كذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: المائدة: الخوان، و تطمئن: توقن.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ فى قوله: تَكُونُ لَنا عِيداً يقول: نتخذ اليوم الذى نزلت فيه عيدا نعظمه نحن و من بعدنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس: أنه كان يحدّث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبنى إسرائيل: هل لكم أن تصوموا للّه ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم؟ فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت: لنا إن أجر العامل على من عمل له، و أمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا، و لم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوما إلا أطعمنا هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً إلى قوله: أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات و سبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم.

و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نزلت المائدة من السماء خبزا و لحما، و أمروا أن لا يخونوا و لا يدّخروا لغد، فخافوا و ادّخروا و رفعوا لغد فمسخوا قردة و خنازير» و قد روى موقوفا على عمار. قال الترمذى: و الوقف أصح. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المائدة سمكة و أريغفة. و أخرج ابن جرير من طريق العوفىّ عنه قال: نزلت على عيسى ابن مريم و الحواريين خوان عليه سمك و خبز يأكلون منه أينما تولوا إذا شاؤوا. و أخرج ابن جرير نحوه عنه من طريق عكرمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن عمرو قال: إن أشدّ الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة و المنافقون و آل فرعون.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۶ الى ۱۲۰]

وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (۱۱۶) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۱۸) قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۰۸

قوله: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ معطوف على ما قبله فى محل نصب بعامله أو بعامل مقدّر هنا: أى أذكر.

و قد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة. و النكتة توبيخ عباد المسيح و أمه من النصارى. و قال السدّى و قطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت، و الأوّل أولى: قيل: وَ إِذْ هنا بمعنى

إذا، كقوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا «۱» أى إذا فزعوا، و قول أبى النجم:

ثمّ جزاه اللّه عنّى إذ جزىجنّات عدن فى السّموات العلى

أى إذا جزى، و قول الأسود بن جعفر الأزدى:

فالآن إذ هازلتهنّ فإنّمايقلن ألا لم يذهب الشّيخ مذهبا

أى إذا هازلتهنّ تعبيرا عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقيق وقوعه. و قد قيل فى توجيه هذا الاستفهام منه تعالى إنه لقصد التوبيخ كما سبق؛ و قيل: لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده و ادّعوا عليه ما لم يقله. و قوله: مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلق بقوله: اتَّخِذُونِى على أنه حال: أى متجاوزين الحدّ، و يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لإلهين: أى كائنين من دون اللّه. قوله: سُبْحانَكَ تنزيه له سبحانه: أى أنزهك تنزيها ما يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِى بِحَقٍ أى ما ينبغى لى أن أدّعى لنفسى ما ليس من حقها إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ردّ ذلك إلى علمه سبحانه، و قد علم أنه لم يقله، فثبت بذلك عدم القول منه. قوله: تَعْلَمُ ما فِى نَفْسِى وَ لا أَعْلَمُ ما فِى نَفْسِكَ هذه الجملة فى حكم التعليل لما قبلها: أى تعلم معلومى و لا أعلم معلومك، و هذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعانى و البيان؛ و قيل المعنى: تعلم ما فى غيبى و لا أعلم ما فى غيبك؛ و قيل: تعلم ما أخفيه و لا أعلم ما تخفيه؛ و قيل: تعلم ما أريد و لا أعلم ما تريد. قوله: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِى بِهِ هذه جملة مقرّرة لمضمون ما تقدّم: أى ما أمرتهم إلا بما أمرتنى أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ هذا تفسير لمعنى ما قُلْتُ لَهُمْ أى ما أمرتهم، و قيل: عطف بيان للمضمر فى بِهِ و قيل: بدل منه وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً أى: حفيظا و رقيبا أرعى أحوالهم و أمنعهم عن مخالفة أمرك ما دُمْتُ فِيهِمْ أى: مدّة دوامى فيهم. فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى قيل: هذا يدل على أن اللّه سبحانه توفاه قبل أن يرفعه، و ليس بشىء لأن الأخبار قد تضافرت بأنه لم يمت، و أنه باق فى السماء على الحياة التى كان عليها فى الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان، و إنما المعنى: فلما رفعتنى إلى السماء. قيل: الوفاة فى كتاب اللّه سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت، و منه قوله تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها «۲» و بمعنى النوم، و منه قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ «۳» أى ينيمكم،

---

(۱). سبأ: ۵۱.

(۲). الزمر: ۴۲.

(۳). الأنعام: ۶۰.

و بمعنى الرفع، و منه فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى و إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ «۱». كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ أصل المراقبة: المراعاة، أى كنت الحافظ لهم. و العالم بهم و الشاهد عليهم إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ تصنع بهم ما شئت و تحكم فيهم بما تريد وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى القادر على ذلك الحكيم فى أفعاله، قيل: قاله على وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد لعبده. و لهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك؛ و قيل: قاله على وجه التسليم لأمر اللّه و الانقياد له، و لهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم. قوله: قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ أى صدقهم فى الدنيا، و قيل فى الآخرة، و الأوّل أولى. قرأ نافع و ابن محيصن يوم بالنصب، و قرأ الباقون بالرفع، فوجه النصب أنه ظرف للقول:

أى قال اللّه هذا القول يوم ينفع الصادقين، و وجه الرفع أنه خبر للمبتدأ هذا و ما أضيف إليه «۲». و قال الكسائى نصب يوم هاهنا لأنه مضاف إلى الجملة، و أنشد:

على حين عاتبت المشيب على الصّباو قلت ألمّا أصح و الشّيب وازع

و به قال الزجاج، و لا يجيز البصريون ما قالاه إلا إذا أضيف الظرف إلى فعل ماض. و قرأ الأعمش هذا يَوْمُ يَنْفَعُ بتنوين يوم كما فى قوله: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً «۳» فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتنوين. و قد تقدّم تفسير قوله: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً. قوله:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أى رضى عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، و رضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال و لا تتصوره عقولهم، و الرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم و أعلى منازل الكرامة، و الإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة و الخلود فيها أبدا، و رضوان اللّه عنهم. و الفوز:

الظفر بالمطلوب على أتمّ الأحوال. قوله: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ جاء سبحانه بهذه الخاتمة دفعا لما سبق من إثبات من أثبت إلهية عيسى و أمه، و أخبر بأن ملك السموات و الأرض له دون عيسى و أمه و دون سائر مخلوقاته، و أنه القادر على كلّ شيء دون غيره، و قيل المعنى: أن له ملك السموات و الأرض يعطى الجنات للمطيعين، جعلنا اللّه منهم.

و قد أخرج الترمذى و صحّحه و النسائى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: تلقّى عيسى حجّته و اللّه لقّاه فى قوله: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قال أبو هريرة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فلقّاه اللّه سبحانه ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ الآية. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: يقول اللّه هذا يوم القيامة، أ لا ترى أنه يقول: هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ قال: قال اللّه ذلك لما رفع عيسى إليه، و قالت النصارى ما قالت. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى

---

(۱). آل عمران: ۵۵.

(۲). الضمير فى إليه: يعود على يوم.

(۳). البقرة: ۴۸.

قوله: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ قال: سيدى و سيدكم. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ قال: الحفيظ. و أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ قال: ما كنت فيهم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ يقول: عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ أى من تركت منهم و مدّ فى عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال، فزالوا عن مقالتهم و وحدوك فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ يقول:

هذا يوم ينفع الموحّدين توحيدهم.

سورة الأنعام

اشارة

قال الثعلبىّ: سورة الأنعام مكية إلا ستّ آيات نزلت بالمدينة و هى: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ* إلى آخر ثلاث آيات، و قُلْ تَعالَوْا

أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إلى آخر ثلاث آيات. قال ابن عطية:
و هى الآيات المحكمات، يعنى فى هذه السورة. و قال القرطبى: هى مكية إلا آيتين هما وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ* نزلت فى مالك بن الصيف و كعب بن الأشرف اليهوديين، و قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه عنه؛ قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة و حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة. و أخرج ابن مردويه عن أسماء قالت: نزلت سورة الأنعام على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى مسير فى زجل «١» من الملائكة، و قد نظموا ما بين السماء و الأرض. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن أسماء بنت يزيد نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيّعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح و التحميد» و هو من طريق إبراهيم بن نائلة شيخ الطبرانى عن إسماعيل بن عمرو عن يوسف ابن عطية بن عون عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فذكره. و ابن مردويه رواه عن الطبرانى عن إسماعيل المذكور به. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و أبو الشيخ و البيهقى فى الشعب عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «نزلت سورة الأنعام و معها موكب من الملائكة يسدّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتّسبيح و التّقديس، و الأرض ترتجّ، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: سبحان اللّه العظيم، سبحان اللّه العظيم». و أخرج الحاكم و قال: صحيح على شرط مسلم، و الإسماعيلى فى معجمه، و البيهقى عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: «لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق». و أخرج البيهقى و ضعّفه، و الخطيب فى تاريخه عن عليّ بن أبى طالب قال: أنزل القرآن خمسا خمسا، و من حفظه خمسا خمسا لم ينسه، إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة يشيّعها من كلّ سماء سبعون ملكا حتى أدّوها إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، ما قرئت على عليل إلا شفاه اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن أبيّ بن كعب مرفوعا نحو حديث ابن عمر. و أخرج النحاس فى تاريخه عن ابن عباس قال: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ إلى تمام الآيات الثلاث. و أخرج الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعا: «ينادى مناد: يا قارئ سورة الأنعام هلمّ إلى الجنة بحبك إياها و تلاوتها». و أخرج ابن المنذر عن أبى جحيفة قال: نزلت سورة الأنعام جميعا معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ فإنها مدنية. و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و الدارمى فى مسنده، و محمد بن نصر فى كتاب

---

(١). زجل: صوت رفيع عال.

الصلاة، و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال: الأنعام من نواجب القرآن. و أخرج محمد بن نصر عن ابن مسعود مثله. و أخرج السلفى بسند واه عن ابن عباس مرفوعا: «من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام إلى وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم، و نزل إليه ملك من فوق سبع سماوات و معه مرزبّة من حديد، فإن أوحى الشيطان فى قلبه شيئا من الشرّ ضربه ضربة حتى يكون بينه و بينه سبعون حجابا، فإذا كان يوم القيامة، قال اللّه تعالى: أنا ربك و أنت عبدى، امش فى ظلّى، و اشرب من الكوثر، و اغتسل من السلسبيل، و ادخل الجنة بغير حساب و لا عذاب».
و أخرج الديلمى عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من صلى الفجر فى جماعة، و قعد فى مصلاه، و قرأ ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام؛ و كلّ اللّه به سبعين ملكا يسبّحون اللّه و يستغفرون له إلى يوم القيامة». و فى فضائل هذه

السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة و غير مرفوعة. قال القرطبى:

قال العلماء: هذه السورة أصل فى محاجّة المشركين و غيرهم من المبتدعين و من كذب بالبعث و النشور، و هذا يقتضى إنزالها جملة واحدة لأنها فى معنى واحد من الحجة و إن تصرّف ذلک بوجوه كثيرة، و عليها بنى المتكلّمون أصول الدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ*

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱) هُوَ الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲) وَ هُوَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ فِی الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (۳)

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد للّه، للدلالة على أن الحمد كله له، و لإقامة الحجّة على الذين هم بربهم يعدلون. و قد تقدّم فى سورة الفاتحة ما يغنى عن الإعادة له هنا، ثم وصف نفسه بأنه: الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ إخبارا عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلک و أوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء و تخصيصه بالحمد، و الخلق يكون بمعنى الاختراع، و بمعنى التقدير. و قد تقدّم تحقيق ذلک، و جمع السماوات لتعدد طباقها، و قدّمها على الأرض لتقدّمها فى الوجود وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها «۱». قوله: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ معطوف على خلق، ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ثم ذكر خلق الأعراض بقوله: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ لأنّ الجواهر لا تستغنى عن الأعراض.

و اختلف أهل العلم فى المعنى المراد بالظّلمات و النور؛ فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، و بالنور ضياء النهار. و قال الحسن: الكفر و الإيمان. قال ابن عطية: و هذا خروج عن الظاهر، انتهى. و الأولى أن يقال: إن الظلمات تشمل كلّ ما يطلق عليه اسم الظلمة، و النور يشمل كلّ ما يطلق عليه اسم النور،

---

(۱). النازعات: ۳۰.

فيدخل تحت ذلک ظلمة الكفر و نور الإيمان أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِی بِهِ فِی النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُماتِ «۱» و أفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه، و جمع الظلمات لكثرة أسبابها و تعدد أنواعها. قال النحاس: جعل هنا بمعنى خلق: و إذا كانت بمعنى خلق لم تتعدّ إلا إلى مفعول واحد. و قال القرطبى: جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره. قال ابن عطية: و عليه يتفق اللفظ و المعنى فى النسق، فيكون الجمع معطوفا على الجمع، و المفرد معطوفا على المفرد، و تقديم الظلمات على النور لأنها الأصل، و لهذا كان النهار مسلوخا من الليل. قوله: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ معطوف على الحمد للّه، أو على خلق السماوات و الأرض، و ثم: لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون مع ما تبين من أن اللّه سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السماوات و الأرض و الظلمات و النور، فإن هذا يقتضى الإيمان به و صرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر به و اتّخاذ شريک له، و تقديم المفعول للاهتمام، و رعاية الفواصل، و حذف المفعول لظهوره؛ أى يعدلون به ما لا يقدر على شىء مما يقدر عليه، و هذا نهاية الحمق و غاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلک النعم، و يكون من الكفرة الكفر. قوله: هُوَ الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ فى معناه قولان: أحدهما و هو الأشهر، و به قال الجمهور: أن المراد آدم عليه السلام، و أخرجه مخرج الخطاب للجميع، لأنهم

ولده و نسله. الثانى: أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها مخلوقة من الطين، ذكر اللّه سبحانه خلق آدم و بنيه بعد خلق السماوات و الأرض اتباعا للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، و المطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث و ردّ لجحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمترون فيه. قوله: ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ جاء بكلمة ثُم لما بين خلقهم و بين موتهم من التفاوت.

و قد اختلف السلف و من بعدهم فى تفسير الأجلين، فقيل: قَضى أَجَلًا يعنى الموت وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ يعنى القيامة، و هو مروى عن ابن عباس و سعيد بن جبير و الحسن و قتادة و الضحاك و مجاهد و عكرمة و زيد بن أسلم و عطية و السدى و خصيف و مقاتل و غيرهم، و قيل: الأوّل ما بين أن يخلق إلى أن يموت؛ و الثانى ما بين أن يموت إلى أن يبعث، و هو قريب من الأوّل. و قيل: الأوّل مدّة الدنيا؛ و الثانى عمر الإنسان إلى حين موته. و هو مرويّ عن ابن عباس و مجاهد. و قيل: الأوّل قبض الأرواح فى النوم؛ و الثانى: قبض الروح عند الموت. و قيل: الأوّل ما يعرف من أوقات الأهلة و البروج و ما يشبه ذلك؛ و الثانى أجل الموت.

و قيل: الأوّل لمن مضى؛ و الثانى لمن بقى و لمن يأتى. و قيل: إن الأوّل الأجل الذى هو محتوم؛ و الثانى: لزيادة فى العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برّا تقيا وصولا لرحمه زيد فى عمره، و إن كان قاطعا للرحم لم يزد له، و يرشد إلى هذا قوله تعالى: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ «٢». و قد صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن صلة الرحم تزيد فى العمر، و ورد عنه أن دخول البلاد التى قد فشا بها الطاعون و الوباء من أسباب الموت؛ و جاز الابتداء بالنكرة فى قوله: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ لأنها قد تخصصت بالصفة.

قوله: ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ استبعاد لصدور الشّكّ منهم مع وجود المقتضى لعدمه: أى كيف تشكّون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الابتداء و الانتهاء ما يذهب بذلك و يدفعه، فإن من خلقكم من طين،

---

(١). الأنعام: ١٢٢.

(٢). فاطر: ١١.

و صيّركم أحياء تعلمون و تعقلون، و خلق لكم هذه الحواس و الأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتا، وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم و يعيد هذه الأجسام كما كانت، و يردّ إليها الأرواح التى فارقتها بقدرته و بديع حكمته. قوله: وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ قيل: إن فى السموات و فى الأرض، متعلق باسم اللّه باعتبار ما يدل عليه من كونه معبودا و متصرفا و مالكا؛ أى هو المعبود أو المالك أو المتصرّف فى السموات و الأرض، كما تقول: زيد الخليفة فى الشرق و الغرب؛ أىّ حاكم أو متصرف فيهما؛ و قيل: المعنى: و هو اللّه يعلم سرّكم و جهركم فى السموات و فى الأرض فلا تخفى عليه خافية، فيكون العامل فيهما ما بعدهما. قال النحاس: و هذا من أحسن ما قيل فيه.

و قال ابن جرير: هو اللّه فى السموات و يعلم سركم و جهركم فى الأرض. و الأوّل أولى، و يكون يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى، لأن كونه سبحانه فى السماء و الأرض يستلزم علمه بأسرار عباده و جهرهم، و علمه بما يكسبونه من الخير و الشرّ و جلب النفع و دفع الضرر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ أن هذه الآية أعنى: الْحَمْدُ لِلَّهِ إلى قوله: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ نزلت فى أهل الكتاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو

الشيخ عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية فى الزّنادقة، قالوا: إن اللّه لم يخلق الظّلمة و لا الخنافس و لا العقارب و لا شيئا قبيحا، و إنما خلق النور و كلّ شىء حسن، فأنزلت فيهم هذه الآية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ قال: الكفر و الإيمان.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: إن الذين بربهم يعدلون هم أهل الشّرك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: يَعْدِلُونَ يشركون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ قال: الآلهة التى عبدوها عدلوها باللّه، و ليس للّه عدل و لا ندّ، و ليس معه آلهة و لا اتّخذ صاحبة و لا ولدا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ يعنى آدم ثُمَّ قَضى أَجَلًا يعنى أجل الموت وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ أجل الساعة و الوقوف عند اللّه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عنه فى قوله: ثُمَّ قَضى أَجَلًا قال: أجل الدنيا، و فى لفظ أجل موته وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ قال: الآخرة لا يعلمه إلّا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قَضى أَجَلًا قال: هو اليوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه من اليقظة وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ قال:

هو أجل موت الإنسان.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤ الى ١١]

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٥) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦) وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (٨) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (٩) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)

فتح القدير، ج ٢، ص: ١١٥

قوله: وَ ما تَأْتِيهِمْ إلخ كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم و تمرّدهم، و هو الإعراض عن آيات اللّه التى تأتيهم كمعجزات الأنبياء، و ما يصدر عن قدرة اللّه الباهرة مما لا يشكّ من له عقل أنه فعل اللّه سبحانه، و الإعراض: ترك النّظر فى الآيات التى يجب أن يستدلوا بها على توحيد اللّه و مِنْ فى مِنْ آيَةٍ مزيدة للاستغراق و مِنْ فى مِنْ آياتِ تبعيضية: أى و ما تأتيهم آية من الآيات التى هى بعض آيات ربّهم إلا كانوا عنها معرضين، و الفاء فى فَقَدْ كَذَّبُوا جواب شرط مقدر: أى إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك و هو الحق لَمَّا جاءَهُمْ قيل: المراد بالحق هنا القرآن، و قيل: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى أخبار الشىء الذى كانوا به يستهزئون و هو القرآن أو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، على أن: ما، عبارة عن ذلك تهويلا للأمر و تعظيما له: أى سيعرفون أن هذا الشىء الذى استهزءوا به ليس بموضع للاستهزاء، و ذلك عند إرسال عذاب اللّه عليهم، كما يقال: اصبر فسوف يأتيك الخبر، عند إرادة الوعيد و التهديد، و فى لفظ الأنباء ما يرشد إلى ذلك فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم. قوله: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ كلام مبتدأ لبيان ما تقدّمه، و الهمزة للإنكار، و كَمْ يحتمل أن تكون الاستفهامية و أن تكون الخبرية و هى معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده، و مِنْ قَرْنٍ

تمييز، و القرن يطلق على أهل كلّ عصر، سموا بذلك لاقترانهم، أى ألم يعرفوا بسماع الأخبار و معاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة فى عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم. و قيل: القرن مدّة من الزمان. و هى ستون عاما أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال، فيكون ما فى الآية على تقدير مضاف محذوف: أى من أهل قرن. قوله: مَكَّنّاهُمْ فِى الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ مكن له فى الأرض: جعل له مكانا فيها، و مكنه فى الأرض: أثبته فيها، و الجملة مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: كيف ذلك؟ و قيل:

إن هذه الجملة صفة لقرن، و الأوّل أولى، و ما فى ما لَمْ نُمَكِّنْ نكرة موصوفة بما بعدها؛ أى مكّناهم تمكينا لم نمكّنه لكم، و المعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا و طول الأعمار و قوّة الأبدان و قد أهلكناهم جميعا، فإهلاككم- و أنتم دونهم- بالأولى. قوله: وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً يريد المطر الكثير، عبر عنه بالسماء، لأنه ينزل من السماء، و منه قول الشاعر «۱»:

إذا نزل السّماء بأرض قوم .....

---

(۱). هو: معود الحكماء معاوية بن مالك و هذا صدر بيت له و عجزه: رعيناه و إن كانوا غضابا. (تفسير القرطبى ۶/ ۳۹۲)

و المدرار: صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة كمذكار للمرأة التى كثرت ولادتها للذكور، و ميناث للتى تلد الإناث، يقال درّ اللبن يدرّ: إذا أقبل على الحالب بكثرة. و انتصاب مِدْراراً على الحال؛ و جريان الأنهار من تحتهم معناه من تحت أشجارهم و منازلهم: أى أن اللّه وسّع عليهم النعم بعد التمكين لهم فى الأرض فكفروها، فأهلكهم اللّه بذنوبهم وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ أى من بعد إهلاكهم قَرْناً آخَرِينَ فصاروا بدلا من الهالكين، و فى هذا بيان لكمال قدرته سبحانه و قوّة سلطانه و أنه يهلك من يشاء و يوجد من يشاء. قوله:

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِى قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ فى هذه الجملة بيان شدّة صلابتهم فى الكفر، و أنهم لا يؤمنون و لو أنزل اللّه على رسوله كتابا مكتوبا فى قرطاس بمرأى منهم و مشاهدة فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، و حاسة اللمس لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا منهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ و لم يعملوا بما شاهدوا و لمسوا، و إذا كان هذا حالهم فى المرئىّ المحسوس، فكيف فيما هو مجرّد وحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بواسطة ملك لا يرونه و لا يحسونه؟ و الكتاب مصدر بمعنى الكتابة، و القرطاس: الصحيفة. قوله: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوّته صلّى اللّه عليه و سلّم و كفرهم بها: أى قالوا: هلا أنزل اللّه عليك ملكا نراه و يكلمنا أنه نبىّ حتى نؤمن به و نتبعه؟ كقولهم: لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً «۱» وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِىَ الْأَمْرُ أى لو أنزلنا ملكا على الصفة التى اقترحوها بحيث يشاهدونه و يخاطبونه و يخاطبهم لَقُضِىَ الْأَمْرُ أى لأهلكناهم إذ لم يؤمنوا عند نزوله و رؤيتهم له، لأن مثل هذه الآية البينة، و هى نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك و المعاجلة بالعقوبة ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ أى لا يمهلون بعد نزوله و مشاهدتهم له؛ و قيل إن المعنى: إن اللّه سبحانه لو أنزل ملكا مشاهدا لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزهق أرواحهم عند ذلك فيبطل ما أرسل اللّه له رسله و أنزل به كتبه من هذا التكليف الذى كلف به عباده لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «۲». قوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا أى لو جعلنا الرسول إلى النبىّ ملكا يشاهدونه و يخاطبونه لجعلنا ذلك الملك رجلا، لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التى خلقه اللّه عليها إلا بعد أن يتجسّم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بنى آدم، لأنّ كلّ جنس يأنس بجنسه، فلو جعل اللّه

سبحانه الرسول إلى البشر أو الرسول إلى رسوله ملكا مشاهدا مخاطبا لنفروا منه و لم يأنسوا به، و لداخلهم الرعب و حصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه و مشاهدته، هذا أقلّ حال فلا تتمّ المصلحة من الإرسال. و عند أن يجعله اللّه رجلا: أى على صورة رجل من بنى آدم ليسكنوا إليه و يأنسوا به سيقول الكافرون إنه ليس بملك و إنما هو بشر، و يعودون إلى مثل ما كانوا عليه. قوله وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ أى لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم لأنهم إذا رأوه فى صورة إنسان قالوا: هذا إنسان و ليس بملك، فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه. قال الزجاج: المعنى: للبسنا عليهم؛ أى على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم؛ و كانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر و ليس بينه و بينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا و يشكّكونهم، فأعلم اللّه عزّ و جلّ أنه لو نزل ملكا فى صورة رجل لوجدوا سبيلا إلى اللبس كما يفعلون.

---

(١). الفرقان: ٧.

(٢). الكهف: ٧.

فتح القدير، ج٢، ص: ١١٧

و اللبس: الخلط، يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبسا: أى خلطته، و أصله التستر بالثوب و نحوه، ثم قال سبحانه مؤنسا لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و مسليا له: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقال: حاق الشيء يحيق حيقا و حيوقا و حيقانا. نزل؛ أى فنزل ما كانوا به يستهزءون، و أحاط بهم: و هو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ أى قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا فى الأرض و انظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حلّ بهم من العقوبات، و كيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النّعيم العظيم الذى يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة و جناتهم مغبرة و أراضيهم مكفهرّة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون و بعد هلاكهم هالكون.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ يقول: ما يأتيهم من شيء من كتاب اللّه إلا أعرضوا عنه، و فى قوله فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقول: سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزءوا به من كتاب اللّه عزّ و جلّ.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: مِنْ قَرْنٍ قال: أمة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ يقول: أعطيناهم ما لم نعطكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً يقول: يتبع بعضها بعضا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن هارون التيمى فى الآية قال: المطر فى إبانه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ يقول: لو أنزلنا من السماء صحفا فيها كتاب فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لزادهم ذلك تكذيبا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ قال: فمسوه و نظروا إليه لم يصدقوا به. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قومه إلى الإسلام و كلّمهم فأبلغ إليهم فيما بلغنى، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب و النّضر بن الحارث بن كلدة و عبدة بن عبد يغوث و أبىّ ابن خلف بن وهب و العاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدّث عنك الناس و يرى معك، فأنزل اللّه وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ قال: ملك فى صورة رجل وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ لقامت الساعة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو

الشيخ عن قتادة فى قوله: لَقُضِيَ الْأَمْرُ يقول: لو أنزل اللّه ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً قال:

و لو أتاهم ملك فى صورته لَقُضِيَ الْأَمْرُ لأهلكناهم ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ لا يؤخرون وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا فى صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النّظر إلى الملائكة وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ يقول: لخلطنا عليهم ما يخلطون. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۱۸

فى قوله وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا قال: فى صورة رجل، و فى خلق رجل. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا يقول: فى صورة آدميّ. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ يقول: شبهنا عليهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال: شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال: مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما بلغنى بالوليد بن المغيرة و أمية بن خلف و أبى جهل بن هشام فهمزوه و استهزءوا به فغاظه ذلك، فأنزل اللّه وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲ الى ۲۱]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳) قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۴) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۱۶)

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱۸) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۱۹) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۱)

قوله: قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ هذا احتجاج عليهم و تبكيت لهم. و المعنى: قل لهم هذا القول، فإن قالوا فقل: للّه، و إذا ثبت أنّ له ما فى السموات و الأرض إما باعترافهم، أو بقيام الحجّة عليهم فاللّه قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، و لكنه كتب على نفسه الرّحمة: أى وعد بها فضلا منه و تكرّما. و ذكر النفس هنا عبارة عن تأكّد وعده و ارتفاع الوسائط دونه، و فى الكلام ترغيب للمتولّين عنه إلى الإقبال إليه و تسكين خواطرهم؛ بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة، و أنه يقبل منهم الإنابة و التوبة، و من رحمته لهم إرسال الرسل، و إنزال الكتب، و نصب الأدلّة. قوله: لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ اللام جواب قسم محذوف. قال الفراء و غيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: الرَّحْمَةَ و يكون ما بعدها مستأنفا على جهة التبيين فيكون المعنى: لَيَجْمَعَنَّكُمْ ليمهلنكم و ليؤخرنّ جمعكم. و قيل المعنى: ليجمعنكم فى القبور إلى اليوم الذى أنكرتموه. و قيل: إلى بمعنى فى: أى ليجمعنكم فى يوم القيامة. و قيل: يجوز أن يكون موضع لَيَجْمَعَنَّكُمْ النصب على البدل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى أن. و المعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعكم، كما قالوا فى قوله تعالى: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ «۱»

---

(١). يوسف: ٣٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ١١٩

أى أن يسجنوه، و قيل: إن جملة لَيَجْمَعَنَّكُمْ مسوقة للترهيب بعد الترغيب، و للوعيد بعد الوعد؛ أى إن أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم ثم معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة، و الضمير فى لا رَيْبَ فِيهِ لليوم أو للجمع. قوله: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ قال الزجاج: إنّ الموصول مرتفع على الابتداء، و ما بعده خبره كما تقول: الذى يكرمنى فله درهم، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط.

و قال الأخفش: إن شئت كان الَّذِينَ فى موضع نصب على البدل من الكاف و الميم فى لَيَجْمَعَنَّكُمْ أى ليجمعنّ المشركين الذين خسروا أنفسهم، و أنكره المبرد و زعم أنه خطأ، لأنه لا يبدل من المخاطب و لا من المخاطب. لا يقال مررت بك زيد و لا مررت بى زيد؛ و قيل: يجوز أن يكون الَّذِينَ مجرورا على البدل من المكذبين الذين تقدّم ذكرهم أو على النعت لهم؛ و قيل: إنه منادى و حرف النداء مقدّر. قوله:

وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أى للّه، و خصّ السّاكن بالذكر، لأنّ ما يتّصف بالسّكون أكثر مما يتّصف بالحركة؛ و قيل المعنى: ما سكن فيهما أو تحرّك فاكتفى بأحد الضدّين عن الآخر، و هذا من جملة الاحتجاج على الكفرة. قوله: قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا الاستفهام للإنكار، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام، و لما كان الإنكار لاتّخاذ غير اللّه وليا، لا لاتّخاذ الولى مطلقا، دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل. و المراد بالولىّ هنا: المعبود: أى كيف أتّخذ غير اللّه معبودا؟ و فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مجرور على أنه نعت لاسم اللّه، و أجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، و أجاز الزجاج النصب على المدح، و أجاز أبو على الفارسى نصبه بفعل مضمر كأنه قيل: أترك فاطر السموات و الأرض. قوله: وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قرأ الجمهور بضم الياء و كسر العين فى الأوّل، و ضمها و فتح العين فى الثانى: أى يرزق و لا يرزق، و قرأ سعيد بن جبير و مجاهد و الأعمش بفتح الياء فى الثانى و فتح العين، و قرئ بفتح الياء و العين فى الأوّل و ضمها و كسر العين فى الثانى على أن الضمير يعود إلى الولىّ المذكور، و خص الإطعام دون غيره من ضروب الإنعام لأن الحاجة إليه أمسّ. قوله: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ أمره سبحانه بعد ما تقدّم من اتّخاذ غير اللّه وليا أن يقول لهم: إنه مأمور بأن يكون أوّل من أسلم وجهه للّه من قومه، و أخلص من أمته، و قيل: معنى أَسْلَمَ استسلم لأمر اللّه، ثم نهاه اللّه عزّ و جلّ أن يكون من المشركين. و المعنى: أمرت بأن أكون أوّل من أسلم و نهيت عن الشرك؛ أى يقول لهم هذا، ثم أمره أن يقول: إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه. و الخوف: توقع المكروه، و قيل: هو هنا بمعنى العلم، أى إنى أعلم إن عصيت ربى أن لى عذابا عظيما. قوله: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ و قرأ أهل المدينة و أهل مكة و ابن عامر على البناء للمفعول: أى من يصرف عنه العذاب، و اختار هذه القراءة سيبويه. و قرأ الكوفيون على البناء للفاعل و هو اختيار أبى حاتم، فيكون الضمير على هذه القراءة للّه. و معنى يَوْمَئِذٍ يوم العذاب العظيم فَقَدْ رَحِمَهُ اللّه أى نجاه و أنعم عليه و أدخله الجنة، و الإشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة؛ أى فذلك الصرف أو الرحمة الْفَوْزُ الْمُبِينُ أى الظاهر الواضح، و قرأ أبىّ: «من يصرف اللّه عنه». قوله: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ أى إن ينزل اللّه بك ضرا من فقر أو مرض فَلا

فتح القدير، ج٢، ص: ١٢٠

كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ أى لا قادر على كشفه سواه وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ من رخاء أو عافية فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من جملة ذلك المسّ بالشرّ و الخير. قوله: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ القهر: الغلبة، و القاهر: الغالب، و أقهر الرجل: إذا صار مقهورا ذليلا، و منه قول

الشاعر «۱»:

تمنّى حصين أن يسود جذاعهفأمسى حصين قد أذلّ و أقهرا

و معنى فَوْقَ عِبادِهِ فوقية الاستعلاء بالقهر و الغلبة عليهم، لا فوقية المكان كما تقول: السلطان فوق رعيته: أى بالمنزلة و الرفعة. و فى القهر معنى زائد ليس فى القدرة، و هو منع غيره عن بلوغ المراد وَ هُوَ الْحَكِيمُ فى أمره الْخَبِيرُ بأفعال عباده. قوله: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً أيّ: مبتدأ، و أكبر:

خبره، و شهادة: تمييز، و الشيء: يطلق على القديم و الحادث، و المحال و الممكن. و المعنى: أيّ شهيد أكبر شهادة، فوضع شيء موضع شهيد؛ و قيل إن شَيْءٍ هنا موضوع موضع اسم اللّه تعالى. و المعنى: اللّه أكبر شهادة؛ أى انفراده بالربوبية، و قيام البراهين على توحيده، أكبر شهادة و أعظم فهو شهيد بينى و بينكم؛ و قيل إن قوله: اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ هو الجواب، لأنه إذا كان الشهيد بينه و بينهم كان أكبر شهادة له صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: إنه قد تمّ الجواب عند قوله: قُلِ اللَّهُ يعنى اللّه أكبر شهادة، ثم ابتدأ فقال: شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أى هو شهيد بينى و بينكم. قوله: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى أوحى اللّه إلىّ هذا القرآن الذى تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به و أنذر به من بلغ إليه؛ أى كلّ من بلغ إليه من موجود و معدوم سيوجد فى الأزمنة المستقبلة، و فى هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجودا وقت النزول ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة فى علم أصول الفقه، و قرأ أبو نهيك وَ أُوحِيَ على البناء للفاعل، و قرأ ابن عدى على البناء للمفعول. قوله: أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى الاستفهام للتوبيخ و التقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية، و أما من قرأ على الخبر فقد حقّق عليهم شركهم، و إنما قال: آلِهَةً أُخْرى لأنّ الآلهة جمع؛ و الجمع يقع عليه التأنيث، كذا قال الفرّاء، و مثله قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى «۲» و قال: فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى قُلْ لا أَشْهَدُ أى فأنا لا أشهد معكم، فحذف لدلالة الكلام عليه، و ذلك لكون هذه الشهادة باطلة، و مثله فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ و ما: فى مِمَّا تُشْرِكُونَ موصولة أو مصدرية؛ أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة، أو من إشراككم باللّه. قوله: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الكتاب: للجنس فيشمل التوراة و الإنجيل و غيرهما؛ أى يعرفون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، قال به جماعة من السلف، و إليه ذهب الزجاج؛ و قيل: إن الضمير يرجع إلى الكتاب: أى يعرفونه معرفة محققة بحيث لا يلتبس عليهم منه شىء، و كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ بيان لتحقق تلك المعرفة و كمالها و عدم وجود شك فيها، فإن معرفة الآباء للأبناء هى البالغة إلى غاية الإتقان إجمالا و تفصيلا. قوله: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

---

(۱). هو المخبل السعدى.

(۲). الأعراف: ۱۸۰.

فى محل رفع على الابتداء، و خبره فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و دخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ و قيل: إن الموصول خبر مبتدأ محذوف؛ و قيل: هو نعت للموصول الأوّل. و على الوجهين الأخيرين يكون فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ معطوفا على جملة الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ و المعنى على الوجه الأوّل: أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم و تمرّدهم لا يؤمنون بما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و على الوجهين الأخيرين: أن أولئك الذين آتاهم اللّه الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحقّ و عدم العمل بالمعرفة التى ثبتت لهم، فهم لا يؤمنون. قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى اختلق على اللّه الكذب فقال: إنّ فى التوراة أو الإنجيل ما لم يكن فيهما أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ التى يلزمه الإيمان بها من المعجزة

الواضحة البيّنة، فجمع بين كونه كاذبا على اللّه و مكذّبا بما أمره اللّه بالإيمان به، و من كان هكذا فلا أحد من عباد اللّه أظلم منه، و الضمير فى إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ للشأن.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سلمان الفارسىّ قال:

إنا نجد فى التوراة أن اللّه خلق السماوات و الأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة و أمسك عنده تسعا و تسعين رحمة فبها يتراحمون، و بها يتعاطفون، و بها يتباذلون، و بها يتزاورون، و بها تحنّ الناقة، و بها تنتج البقرة، و بها تيعر الشاة، و بها تتابع الطير، و بها تتابع الحيتان فى البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، و رحمته أفضل و أوسع. و قد أخرج مسلم و أحمد و غيرهما عن سلمان عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «خلق اللّه يوم خلق السموات و الأرض مائة رحمة: منها رحمة يتراحم بها الخلق، و تسعة و تسعون ليوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة». و ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لما قضى اللّه الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش: إنّ رحمتى سبقت غضبى». و قد روى من طرق أخرى بنحو هذا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ يقول ما استقرّ فى الليل و النهار، و فى قوله: قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا قال: أما الولى فالذى تولاه و يقرّ له بالربوبية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: بديع السموات و الأرض. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و ابن جرير و ابن الأنبارى عنه قال: كنت لا أدرى ما فاطر السموات و الأرض؟ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله: وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قال: يرزق و لا يرزق.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ قال: من يصرف عنه العذاب. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ يقول: بعافية. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: جاء النحام بن زيد و قردم ابن كعب و بحرى بن عمير فقالوا: يا محمد! ما تعلم مع اللّه إلها غيره؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا إله إلا اللّه، بذلك بعثت، و إلى ذلك أدعو» فأنزل اللّه: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً الآية. و أخرج

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۲۲

ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن مجاهد قال: أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسأل قريشا أى شىء أكبر شهادة؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول: اللّه شهيد بينى و بينكم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ يعنى أهل مكة وَ مَنْ بَلَغَ يعنى من بلغه هذا القرآن من الناس فهو له نذير. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى كسرى و قيصر و النجاشى و كلّ جبار يدعوهم إلى اللّه عزّ و جل، و ليس بالنجاشى الذى صلّى عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم و الخطيب و ابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به، ثم قرأ و أوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به و من بلغ». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن الضريس و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم» و فى لفظ: «من بلغه القرآن حتى تفهّمه و تعقّله كان كمن عاين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كلّمه». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن مجاهد فى قوله: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ قال: العرب

وَ مَنْ بَلَغَ قال: العجم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قال النضر و هو من بنى عبد الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات و العزى، فأنزل اللّه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً الآية.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۲ الى ۳۰]

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (۲۳) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۵) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۲۶)

وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۷) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۲۸) وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۲۹) وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۰)

قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ قرأ الجمهور بالنون فى الفعلين، و قرئ بالياء فيهما، و ناصب الظرف محذوف مقدّر متأخرا: أى يوم نحشرهم كان كيت و كيت، و الاستفهام فى أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ للتقريع و التوبيخ للمشركين. و أضاف الشركاء إليهم، لأنها لم تكن شركاء للّه فى الحقيقة، بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم، و هى ما كانوا يعبدونه من دون اللّه أو يعبدونه مع اللّه. قوله: الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أى تزعمونها شركاء، فحذف المفعولان معا، و وجه التوبيخ بهذا الاستفهام أن معبوداتهم غابت عنهم فى تلك الحال أو كانت حاضرة و لكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه، فكان وجودها كعدمها. قوله: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۱۲۳

وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ قال الزجاج: تأويل هذه الآية أن اللّه عزّ و جلّ أخبر بقصص المشركين و افتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، و نظير هذا فى اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا. فإذا وقع فى هلكة تبرأ منه فتقول: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه. انتهى. فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم: أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى افتخروا به و قاتلوا عليه إلا ما وقع منهم من الجحود و الحلف على نفيه بقوله: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ و قيل: المراد بالفتنة هنا جوابهم: أى لم يكن جوابهم إلا الجحود و التبرّى، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذبا، و جملة ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ معطوفة على عامل الظرف المقدّر كما مرّ و الاستثناء مفرّغ، و قرئ فِتْنَتُهُمْ بالرفع و بالنصب، و يكن و تكن و الوجه ظاهر، و قرئ و ما كان فتنتهم و قرئ: ربنا بالنصب على النداء انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ بإنكار ما وقع منهم فى الدنيا من الشرك وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى زال و ذهب افتراؤهم و تلاشى و بطل ما كانوا يظنّونه من أن الشركاء يقرّبونهم إلى اللّه، هذا على أنّ ما مصدرية؛ و قيل: هى موصولة، عبارة عن الآلهة: أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون اللّه فلم يغن عنهم شيئا، و هذا تعجيب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من حالهم المختلفة و دعواهم المتناقضة؛ و قيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب فى الآخرة لأنها دار لا يجرى فيها غير الصدق، فمعنى: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ نفى شركهم عند أنفسهم، و فى اعتقادهم و يؤيد هذا قوله تعالى: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً «۱». قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين فى الدنيا، و الضمير عائد إلى الذين أشركوا: أى و بعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، و الأكنة: الأغطية جمع كنان مثل الأسنة و السنان، كنت الشى‌ء فى كنه: إذا جعلته فيه، و أكننته أخفيته، و جملة جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً مستأنفة للإخبار بمضمونها، أو فى محل نصب على الحال: أى و قد جعلنا على

قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا القرآن، أو لئلا يفقهوه، و الوقر: الصمم؛ يقال: وقرت أذنه تقر وقرا: أى صمت.

و قرأ طلحة بن مصرف وقرا بكسر الواو: أى جعل فى آذانهم ما سدّها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، و هو مقدار ما يطيق أن يحمله، و ذكر الأكنة و الوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق و سماعه كأن قلوبهم لا تعقل و أسماعهم لا تدرك وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها أى لا يؤمنوا بشىء من الآيات التى يرونها من المعجزات و نحوها لعنادهم و تمرّدهم. قوله: حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ حتى هنا: هى الابتدائية التى تقع بعدها الجمل، و جملة يجادلونك فى محل نصب على الحال، و المعنى: أنهم بلغوا من الكفر و العناد أنهم إذا جاءوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون: إن هذا إلا أساطير الأوّلين؛ و قيل: حتى هى الجارة و ما بعدها فى محل جر، و المعنى: حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون: إن هذا إلا أساطير الأوّلين، و هذا غاية التكذيب و نهاية العناد. و الأساطير قال الزجاج: واحدها أسطار. و قال الأخفش: أسطورة. و قال أبو عبيدة: إسطارة. و قال النحاس: أسطور.

و قال القشيرى: أسطير. و قيل: هو جمع لا واحد له كعباديد و أبابيل. و المعنى: ما سطره الأوّلون فى الكتب

---

(١). النساء: ١٢٣.

من القصص و الأحاديث. قال الجوهرى: الأساطير: الأباطيل و الترهات. قوله: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ أى ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن أو بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و يبعدون هم فى أنفسهم عنه. و قيل:

إنها نزلت فى أبى طالب فإنه كان ينهى الكفار عن أذية النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و يبعد هو عن إجابته وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ أى ما يهلكون بما يقع منهم من النهى و النأى إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب اللّه و سخطه، و الحال أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذى جلبوه على أنفسهم. قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من تتأتى منه الرؤية، و عبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعانى. و وُقِفُوا معناه حبسوا، يقال: وقفته وقفا و وقف وقوفا؛ و قيل: معنى وُقِفُوا عَلَى النَّارِ: أدخلوها، فتكون على بمعنى فى؛ و قيل: هى بمعنى الباء: أى وقفوا بالنار، أى بقربها معاينين لها، و مفعول ترى محذوف، و جواب لو محذوف ليذهب السامع كل مذهب، و التقدير: لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظرا هائلا و حالا فظيعا فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ أى إلى الدنيا وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا أى التى جاءنا بها رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بها، العاملين بما فيها، و الأفعال الثلاثة داخلة تحت التمنى: أى تمنوا الرد، و أن لا يكذبوا، و أن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة كما هى قراءة الكسائى و أهل المدينة و شعبة و ابن كثير و أبى عمرو. و قرأ حفص و حمزة بنصب نكذب و نكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمنى، و اختار سيبويه القطع فى وَ لا نُكَذِّبَ فيكون غير داخل فى التمنى، و التقدير:

و نحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب: أى لا نكذب رددنا أو لم نردّ، قال: و هو مثل دعنى و لا أعود: أى لا أعود على كل حال تركتنى أو لم تتركنى. و استدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمنى بقوله: وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ لأن الكذب لا يكون فى التمنى. و قرأ ابن عامر وَ نَكُونَ بالنصب و أدخل الفعلين الأوّلين فى التمنى. و قرأ أبىّ و لا نكذّب بآيات ربّنا أبدا. و قرأ هو و ابن مسعود يا ليتنا نردّ فلا نكذّب بالفاء و النصب، و الفاء ينصب بها فى جواب التمنى كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، و قال أكثر البصريين: لا يجوز الجواب إلا بالفاء. قوله: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ هذا إضراب عما يدلّ عليه التمنى من الوعد بالإيمان و التصديق: أى لم يكن ذلك التمنى منهم عن صدق نية و خلوص اعتقاد بل هو لسبب آخر، و

هو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون: أى يجحدون من الشرك و عرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا إلى التمنى و المواعيد الكاذبة؛ و قيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق و الكفر بشهادة جوارحهم عليهم؛ و قيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ و قال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه و هو مثل القول الأوّل؛ و قيل: المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث و القيامة وَ لَوْ رُدُّوا إلى الدنيا حسبما تمنوا لَعادُوا لفعل ما نهوا عنه من القبائح التى رأسها الشرك كما عاين إبليس ما عاين من آيات اللّه ثم عاند وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ أى متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال و لو شاهدوا ما شاهدوا؛ و قيل المعنى: و إنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق و الإيمان. و قرأ يحيى بن وثاب وَ لَوْ رُدُّوا بكسر الراء

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۲۵

لأن الأصل رددوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء، و جملة وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ معترضة بين المعطوف، و هو و قالوا: و بين المعطوف عليه، و هو لعادوا؛ أى لعادوا إلى ما نهوا عنه وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا أى ما هى إلا حياتنا الدنيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد الموت، و هذا من شدّة تمرّدهم و عنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث. قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قد تقدّم تفسيره فى قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ أى حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم؛ و قيل: على بمعنى عند، و جواب لو محذوف؛ أى لشاهدت أمرا عظيما، و الاستفهام فى أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِ للتّقريع و التّوبيخ: أى أليس هذا البعث الذى ينكرونه كائنا موجودا، و هذا الجزاء الذى يجحدونه حاضرا.

قالُوا بَلى وَ رَبِّنا اعترفوا بما أنكروا و أكدوا اعترافهم بالقسم قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ الذى تشاهدونه و هو عذاب النار بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أى بسبب كفركم به أو بكل شىء مما أمرتم بالإيمان به فى دار الدنيا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ قال: معذرتهم.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ قال: حجّتهم، إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ يعنى المنافقين و المشركين قالوا و هم فى النار: هلم فلنكذب فلعله أن ينفعنا، فقال اللّه:

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ فى القيامة ما كانُوا يَفْتَرُونَ يكذبون فى الدنيا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ثم قال: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً قال: بجوارحهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ قال:

باعتذارهم الباطل وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ قال: ما كانوا يشركون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ قال: قريش، و فى قوله: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً قال: كالجعبة للنبل. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً قال:

يسمعونه بآذانهم و لا يعون منه شيئا، كمثل البهيمة التى لا تسمع النداء و لا تدرى ما يقال لها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: الغطاء أكنّ قلوبهم أن يفقهوه، و الوقر: الصمم، و أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أساجيع الأوّلين. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أساطير الأوّلين: أحاديث الأوّلين.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: أساطير الأوّلين: كذب الأوّلين و باطلهم.

و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ قال: نزلت

فى أبى طالب كان ينهى المشركين أن يردّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يتباعد عما جاء به. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن القاسم بن مخيمرة نحوه. و أخرج ابن جرير عن عطاء نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال:

ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به، و ينأون عنه: يتباعدون. و أخرج ابن جرير من طريق العوفىّ عنه قال:

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۲۶

لا يلقونه و لا يدعون أحدا يأتيه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن الحنفية فى الآية قال: كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه و لا يجيبونه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: ينهون عن القرآن و عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ينأون عنه يتباعدون عنه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال فى الآية قال: نزلت فى عمومة النبىّ و كانوا عشرة، فكانوا أشدّ الناس معه فى العلانية، و أشدّ الناس عليه فى السرّ. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ قال: من أعمالهم وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ يقول: و لو وصل اللّه لهم دنيا كدنياهم التى كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم أعمال السّوء التى كانوا نهوا عنها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أخبر اللّه سبحانه أنهم لو ردّوا لم يقدروا على الهدى، فقال: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ أى و لو ردّوا إلى الدنيا لحيل بينهم و بين الهدى كما حيل بينهم و بينه أوّل مرّة و هم فى الدنيا.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۳۱ الى ۳۶]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۳۲) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (۳۴) وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (۳۵)

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۳۶)

قوله: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ هم الذين تقدّم ذكرهم. و المراد من تكذيبهم بلقاء اللّه:

تكذيبهم بالبعث، و قيل: تكذيبهم بالجزاء. و الأوّل أولى، لأنهم الذين قالوا قريبا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ «۱» حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أى القيامة، و سمّيت ساعة لسرعة الحساب فيها.

و معنى بغتة: فجأة، يقال: بغتهم الأمر يبغتهم بغتا و بغتة. قال سيبويه: و هى مصدر فى موضع الحال، قال:

و لا يجوز أن يقاس عليه، فلا يقال جاء فلان سرعة، و حَتَّى غاية للتكذيب لا للخسران، فإنه لا غاية له قالُوا يا حَسْرَتَنا هذا جواب إذا جاءتهم، أوقعوا النداء على الحسرة، و ليست بمنادى فى الحقيقة، ليدلّ ذلك على كثرة تحسرهم. و المعنى: يا حسرتنا احضرى فهذا أوانك، كذا قال سيبويه فى هذا النداء و أمثاله كقولهم: يا للعجب، و يا للرجل، و قيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحلّ بهم من الحسرة، كأنهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة، و الحسرة: الندم الشديد عَلى ما فَرَّطْنا فِيها أى على تفريطنا فى الساعة: أى فى الاعتداد لها، و الاحتفال بشأنها، و التصديق بها. و معنى فرّطنا ضيعنا، و أصله

(۱). الأنعام: ۲۹.

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۱۲۷

التقدّم، يقال فرط فلان: أى تقدّم و سبق إلى الماء، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «و أنا فرطكم على الحوض»، و منه الفارط: أى المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم: عَلى ما فَرَّطْنا أى على ما قدّمنا من عجزنا من التصديق بالساعة و الاعتداد لها. و قال ابن جرير الطبرى: إن الضمير فى فرّطنا فيها يرجع إلى الصفقة، و ذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، و الدنيا بالآخرة قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فى صفقتنا، و إن لم تذكر فى الكلام فهو دالّ عليها، لأن الخسران لا يكون إلا فى صفقة؛ و قيل: الضمير راجع إلى الحياة:

أى على ما فرّطنا فى حياتنا. قوله: وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ هذه الجملة حالية: أى يقولون تلك المقالة، و الحال أنهم يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أى ذنوبهم، جمع وزر: يقال: وزر يزر، فهو وازر و موزور، و أصله من الوزر. قال أبو عبيدة: يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع: احمل وزرك: أى ثقلك، و منه الوزير، لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية. و المعنى: أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها، و جعلها محمولة على الظهور تمثيل أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ أى بئس ما يحملون. قوله:

وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ أى و ما متاع الدنيا إلا لعب و لهو، على تقدير حذف مضاف، أو ما الدنيا من حيث هى إلا لعب و لهو. و القصد بالآية تكذيب الكفار فى قولهم: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا و اللعب معروف، و كذلك اللهو، و كل ما يشغلك فقد ألهاك؛ و قيل: أصله الصرف عن الشى‌ء. و ردّ بأن اللهو بمعنى الصرف لامه ياء، يقال: لهيت عنه، و لام اللهو واو، يقال: لهوت بكذا وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا: أى هى خير للذين يتقون الشرك و المعاصى، أفلا تعقلون ذلك. قرأ ابن عامر «و لدار الآخرة» بلام واحدة و بالإضافة، و قرأ الجمهور باللام التى للتعريف معها، و جعل الآخرة نعتا لها و الخبر خير، و قرئ تعقلون بالفوقية و التحتية. قوله: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ هذا الكلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عما ناله من الغمّ و الحزن بتكذيب الكفار له، و دخول قد للتكثير فإنها قد تأتى لإفادته كما تأتى ربّ، و الضمير فى إِنَّهُ للشأن، و قرئ بفتح الياء من يحزنك و ضمها، و قرئ يُكَذِّبُونَكَ مشدّدا و مخففا، و اختار أبو عبيد قراءة التخفيف. قال النحاس:

و قد خولف أبو عبيد فى هذا. و معنى يُكَذِّبُونَكَ على التشديد: ينسبونك إلى الكذب و يردّون عليك ما قلته. و معنى المخفّف: أنهم لا يجدونك كذابا، يقال أكذبته: وجدته كذابا، و أبخلته: وجدته بخيلا.

و حكى الكسائى عن العرب: أكذبت الرجل: أخبرت أنه جاء بالكذب، و كذّبته: أخبرت أنه كاذب. و قال الزجاج: كذبته إذا قلت له كذبت، و أكذبته: إذا أردت أن ما أتى به كذب. و المعنى: أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق، و لكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به، و لهذا قال: وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ و وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ لهم و الإزراء عليهم، و وصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذى وقع منهم ظلم بين. قوله: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا هذا من جملة التسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أى أن هذا الذى وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأوّل ما صنعه الكفار مع من أرسله اللّه إليهم، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۱۲۸

بهم و لا تحزن و اصبر كما صبروا على ما كذبوا به و أوذوا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فإنا لا نخلف الميعاد و لِكُلِّ أَجَلٍ

كِتابٌ «١» إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا «٢» وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ- إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ- وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «٣» كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «٤»، وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ بل وعده كائن، و أنت منصور على المكذبين، ظاهر عليهم. و قد كان ذلك و للّه الحمد وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ما جاءك من تجرّى قومهم عليهم فى الابتداء و تكذيبهم لهم ثم نصرهم عليهم فى الانتهاء، و أنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل، فيرجعون إليك، و يدخلون فى الدين الذى تدعوهم إليه طوعا أو كرها. قوله: وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ كان النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم يكبر عليه إعراض قومه و يتعاظمه و يحزن له فبين له اللّه سبحانه أن هذا الذى وقع منهم من توليهم عن الإجابة له، و الإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة، لما سبق فى علم اللّه عزّ و جلّ، و ليس فى استطاعته و قدرته إصلاحهم و إجابتهم قبل أن يأذن اللّه بذلك، ثم علق ذلك بما هو محال، فقال: فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ فتأتيهم بآية منه أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ منها فافعل، و لكنك لا تستطيع ذلك، فدع الحزن فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ «٥»، و لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ «٦» و النفق: السّرب و المنفذ، و منه النّافقاء لجحر اليربوع، و منه المنافق. و قد تقدّم فى البقرة ما يغنى عن الإعادة. و السلم: الدرج الذى يرتقى عليه، و هو مذكر لا يؤنث، و قال الفراء: إنه يؤنث. قال الزجاج: و هو مشتق من السلامة، لأنه يسلك به إلى موضع الأمن، و قيل: إن الخطاب و إن كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فالمراد به أمته، لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرّد الكفرة و تصميمهم على كفرهم، و لا يشعرون أن للّه سبحانه فى ذلك حكمة لا تبلغها العقول و لا تدركها الأفهام، فإن اللّه سبحانه لو جاء لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء و الامتحان معنى، و لهذا قال: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى جمع إلجاء و قسر، و لكنه لم يشأ ذلك، و للّه الحكمة البالغة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ فإنّ شدّة الحرص و الحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن اللّه بذلك هو صنيع أهل الجهل و لست منهم، فدع الأمور مفوّضة إلى عالم الغيب و الشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة، و لا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التى لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطرارا إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ أى إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول و توجبه الأفهام، و هؤلاء ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون و لا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة و فى آذانهم من الوقر، و لهذا قال: وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعا لا يفهمون الصواب و لا يعقلون الحق: أى أن هؤلاء لا يلجئهم اللّه إلى الإيمان و إن كان قادرا على ذلك، كما يقدر على بعثه الموتى للحساب ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ إلى الجزاء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قالُوا يا حَسْرَتَنا قال: الحسرة الندامة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الخطيب بسند صحيح عن أبى سعيد الخدرى قال:

---

(١). الرعد: ٣٨.

(٢). غافر: ٥١.

(٣). الصافات: ١٧١- ١٧٣.

(٤). المجادلة: ٢١.

(٥). فاطر: ٨.

(٦). الغاشية: ٢٢.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يا حَسْرَتَنا قال: «الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة، فتلك الحسرة». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ قال: ما يعملون. و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لَعِبٌ وَ لَهْوٌ قال: كل لعب: لهو. و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صححه و الضياء فى المختارة عن علىّ بن أبى طالب قال: قال أبو جهل للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: إنا لا نكذبك و لكن نكذّب بما جئت به، فأنزل اللّه فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى يزيد المدنى أن أبا جهل قال: و اللّه إنى لأعلم أنه صادق، و لكن متى كنا تبعا لبنى عبد مناف؟.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى ميسرة نحو رواية علىّ بن أبى طالب. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ قال: يعلمون أنك رسول اللّه و يجحدون. و أخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ قال: يعزّى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس قال: فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ و النفق: السرب، فتذهب فيه فتأتيهم بآية أو تجعل لهم سلّما فى السّماء فتصعد عليه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيناهم به فافعل وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى يقول سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: نَفَقاً فِي الْأَرْضِ قال: سربا أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ قال: يعنى الدرج. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ قال: المؤمنون وَ الْمَوْتى قال: الكفار. و أخرج هؤلاء عن مجاهد مثله.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٣٧ الى ٣٩]

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

هذا كان منهم تعنّتا و مكابرة حيث لم يقتدوا بما قد أنزله اللّه على رسوله من الآيات البيّنات التى من جملتها القرآن، و قد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله، و مرادهم بالآية هنا، هى التى تضطرهم إلى الإيمان: كنزول الملائكة بمرأى منهم و مسمع، أو نتق الجبل، كما وقع لبنى إسرائيل، فأمره اللّه سبحانه أن يجيبهم بأن اللّه قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الإيمان، و لكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التّكليف الذى هو الابتلاء و الامتحان، و أيضا لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا. قال الزّجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى، يعنى جمع إلجاء وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن

فتح القدير، ج٢، ص: ١٣٠

اللّه قادر على ذلك، و أنه تركه لحكمة بالغة لا تبلغها عقولهم. قوله: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ الدابة: من دبّ يدبّ فهو دابّ: إذا مشى مشيا فيه تقارب خطو. و قد تقدّم بيان ذلك فى البقرة وَ لا طائِرٍ معطوف على دَابَّةٍ مجرور فى قراءة الجمهور. و قرأ الحسن و عبد اللّه بن أبى إسحاق وَ لا طائِرٌ بالرفع عطفا على موضع من دابة على تقدير زيادة من، و بِجَناحَيْهِ لدفع الإبهام، لأنّ العرب تستعمل الطّيران لغير الطير كقولهم: طر فى حاجتى: أى أسرع، و قيل: إنّ اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، و مع عدم الاعتدال يميل، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين؛ و قيل: ذكر

الجناحين للتأكيد كضرب بيده و أبصر بعينيه و نحو ذلك. و الجناح: أحد ناحيتى الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء، و أصله الميل إلى ناحية من النواحى. و المعنى: ما من دابة من الدواب التى تدبّ فى أىّ مكان من أمكنة الأرض، و لا طائر يطير فى أىّ ناحية من نواحيها إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ أى جماعات مثلكم خلقهم اللّه كما خلقكم، و رزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه و تقديره و إحاطته بكل شىء، و قيل:

أمثالنا فى ذكر اللّه و الدّلالة عليه، و قيل: أمثالنا فى كونهم محشورين، و روى ذلك عن أبى هريرة. و قال سفيان ابن عيينة: أى ما من صنف من الدوابّ و الطير إلا فى الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، و منهم من يشره كالخنزير، و منهم من يعوى كالكلب، و منهم من يزهو كالطاووس؛ و قيل: أَمْثالُكُمْ فى أن لها أسماء تعرف بها. و قال الزّجاج: أَمْثالُكُمْ فى الخلق و الرزق و الموت و البعث و الاقتصاص. و الأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان. قوله: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ أى ما أغفلنا عنه و لا ضيعنا فيه من شىء. و المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، فإنّ اللّه أثبت فيه جميع الحوادث؛ و قيل: إنّ المراد به القرآن؛ أى ما تركنا فى القرآن من شىء من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا، و مثله قوله تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «١»، و قال: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ «٢»، و من جملة ما أجمله فى الكتاب العزيز قوله: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «٣» فأمر فى هذه الآية باتباع ما سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فكل حكم سنه الرسول لأمته قد ذكره اللّه سبحانه فى كتابه العزيز، بهذه الآية و بنحو قوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي «۴» و بقوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «۵»، و مِنْ فى مِنْ شَيْءٍ مزيدة للاستغراق. قوله: ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ يعنى الأمم المذكورة، و فيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، و قد ذهب إلى هذا جمع من العلماء، و منهم أبو ذرّ و أبو هريرة و الحسن و غيرهم. و ذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها، و به قال الضحاك. و الأوّل أرجح للآية، و لما صح فى السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، و لقول اللّه تعالى: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ «۶»، و ذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور فى الآية حشر الكفار، و ما تخلل كلام معترض. قالوا: و أما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب و القصاص. و استدلوا أيضا: بأن فى هذا الحديث خارج الصحيح «٧» عن بعض الرواة

---

(١). النحل: ٨٩.

(٢). النحل: ۴۴.

(٣). الحشر: ٧.

(۴). آل عمران: ٣١.

(۵). الأحزاب: ٢١.

(۶). التكوير: ۶.

(٧). أى: فى غير الصحيح كما فى القرطبى (۶/ ۴٢١)

زيادة، و لفظه «حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، و للحجر لم ركب على الحجر؟ و العود لم خدش العود؟» قالوا: و الجمادات لا يعقل خطابها و لا ثوابها و لا عقابها. قوله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ أى لا يسمعون بأسماعهم و لا ينطقون بألسنتهم، نزلهم منزلة من لا يسمع و لا ينطق لعدم قبولهم لما ينبغى قبوله من الحجج الواضحة و الدلائل الصحيحة. و قال أبو على: يجوز أن يكون صممهم و بكمهم فى الآخرة. قوله: فِي الظُّلُماتِ أى فى ظلمات الكفر و الجهل و الحيرة لا يهتدون لشىء مما فيه

صلاحهم.
و المعنى: كائنين فى الظلمات التى تمنع من إبصار المبصرات و ضموا إلى الصمم و البكم عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسّهم كالمسلوبة التى لا ينتفع بها بحال، و قد تقدّم فى البقرة تحقيق المقام بما يغنى عن الإعادة، ثم بين سبحانه أنّ الأمرّ بيده ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضلّه، و من شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به إلى غير الحقّ، و لا يمشى فيه إلا إلى صوب الاستقامة.
و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ قال: أصنافا مصنّفة تعرف بأسمائها. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: الطير أمة، و الإنس أمة، و الجن أمة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ: قال: خلق أمثالكم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريح فى الآية قال: الذرّة فما فوقها من ألوان ما خلق اللّه من الدوابّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‌ءٍ يعنى: ما تركنا شيئا إلا و قد كتبناه فى أمّ الكتاب. و أخرج عبد الرزاق و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ قال: موت البهائم حشرها، و فى لفظ قال: يعنى بالحشر: الموت. و أخرج عبد الرزاق و أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن أبى هريرة قال: «ما من دابة و لا طائر إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتصّ لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن، ثم يقال لها: كونى ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً و إن شئتم فاقرؤوا وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ الآية».
و أخرج ابن جرير عن أبى ذرّ قال: انتطحت شاتان عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال لى: «يا أبا ذرّ أ تدرى فيم انتطحتا؟ قلت: لا، قال: لكنّ اللّه يدرى و سيقضى بينهما» قال أبو ذرّ: و لقد تركنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ما يقلب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علما. و أخرجه أيضا أحمد، و فى صحيح مسلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٠ الى ٤٥]

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (٤١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْ‌ءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)
فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٥)
فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٣٢
قوله: أَ رَأَيْتَكُمْ الكاف و الميم عند البصريين للخطاب و لا حظّ لهما فى الإعراب، و هو اختيار الزجاج. و قال الكسائى و الفراء و غيرهما: إن الكاف و الميم فى محل نصب بوقوع الرؤية عليهما. و المعنى:
أ رأيتم أنفسكم. قال فى الكشاف مرجّحا للمذهب الأوّل: إنه لا محل للضمير الثانى: يعنى الكاف من الإعراب، لأنك تقول: أ رأيتك زيدا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول: أ رأيت نفسك زيدا ما شأنه و هو خلف من القول. انتهى. و المعنى: أخبرونى إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ كما أتى غيركم من الأمم أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أى القيامة أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ هذا على طريقة التبكيت و التوبيخ: أى أ تدعون غير اللّه فى هذه الحالة من الأصنام التى تعبدونها أم تدعون اللّه سبحانه، و قوله: إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ تأكيد لذلك التوبيخ: أى أغير اللّه من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين: أن أصنامكم تضرّ و تنفع و أنها آلهة كما تزعمون. قوله: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ معطوف على منفىّ مقدّر أى لا تدعون غيره بل إياه تخصون بالدعاء فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ أى فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك. قوله: وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ أى و تنسون عند أن يأتيكم العذاب ما تشركون به تعالى:

أى ما تجعلونه شريكا له من الأصنام و نحوها فلا تدعونها، و لا ترجون كشف ما بكم منها، بل تعرضون عنها إعراض الناس. و قال الزّجاج: يجوز أن يكون المعنى: و تتركون ما تشركون. قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى و لقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلا فكذبوهم فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ أى البؤس و الضرّ و قيل: البأساء المصائب فى الأموال، و الضراء المصائب فى الأبدان، و به قال الأكثر: لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ أى يدعون اللّه بضراعة، مأخوذ من الضراعة و هى الذلّ، يقال: ضرع فهو ضارع، و منه قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومةو مختبط ممّا تطيح الطّوائح

قوله: فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أى فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا، و هذا عتاب لهم على ترك الدعاء فى كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدّة تمرّدهم و غلوّهم فى الكفر، و يجوز أن يكون المعنى أنهم تضرّعوا عند أن نزل بهم العذاب، و ذلك تضرّع ضرورى لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه، و الأول أولى كما يدل عليه وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ أى صلبت و غلظت وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى أغواهم بالتصميم على الكفر و الاستمرار على المعاصى. قوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أى تركوا ما ذكروا به، أو أعرضوا عما ذكروا به، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به، إذ ليس هو من فعلهم، و به قال ابن عباس و ابن جريج و أبو على الفارسى. و المعنى: أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء و الضرّاء و أعرضوا عن ذلك فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ أى لما نسوا ما ذكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا من الخير على أنواعه

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۳۳

فرح بطر و أشر و أعجبوا بذلك و ظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذى هم عليه حقا و صوابا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أى فجأة و هم غير مترقبين لذلك. و البغتة: الأخذ على غرّة من غير تقدمة أمارة، و هى مصدر فى موضع الحال لا يقاس عليها عند سيبويه. قوله: فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ المبلس: الحزين الآيس من الخير لشدّة ما نزل به من سوء الحال، و من ذلك اشتق اسم إبليس، يقال: أبلس الرجل إذا سكت، و أبلست الناقة إذا لم ترع. قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرساقال نعم أعرفه و أبلسا «۱»

أى تحيّر لهول ما رأى، و المعنى: فإذا هم محزونون متحيّرون آيسون من الفرح. قوله: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الدابر: الآخر، يقال: دبر القوم يدبرهم دبرا: إذا كان آخرهم فى المجىء، و المعنى:

أنه قطع آخرهم: أى استؤصلوا جميعا حتى آخرهم. قال قطرب: يعنى أنهم استؤصلوا و أهلكوا. قال أمية ابن أبى الصلت:

فأهلكوا بعذاب حصّ دابرهمفما استطاعوا له صرفا و لا انتصروا

و منه التّدبير لأنه إحكام عواقب الأمور. قوله: وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أى على هلاكهم، و فيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التى من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون فى الأرض و لا يصلحون، فإنهم أشدّ على عباد اللّه من كل شديد، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، و اقطع دابرهم و أبدلهم بالعدل الشامل لهم.

و قد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ قال: خوف السلطان و غلاء السعر. و أخرج ابن

جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ قال: يعنى تركوا ما ذكروا به. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ قال: ما دعاهم اللّه إليه و رسله؛ أبوه و ردّوه عليهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ قال: رخاء الدنيا و يسرها. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا قال: من الرزق أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ قال: مهلكون، متغير حالهم فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا يقول: فقطع أصل الذين ظلموا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثى فى قوله: أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً قال: أمهلوا عشرين سنة، و لا يخفى أن هذا مخالف لمعنى البغتة لغة، و محتاج

---

(١). «المكرس»: الذى صار فيه الكرس، و الكرس: أبوال الإبل و أبعارها يتلبّد بعضها على بعض فى الدار و الدمن.

«أبلس»: سكت غمّا.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٣۴

إلى نقل عن الشارع و إلا فهو كلام لا طائل تحته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: المبلس:

المجهود المكروب الذى قد نزل به الشرّ الذى لا يدفعه، و المبلس أشد من المستكين، و فى قوله: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قال: استؤصلوا.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۶ الى ۴۹]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظّالِمُونَ (۴۷) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹)

هذا تكرير للتّوبيخ لقصد تأكيد الحجّة عليهم، و وحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر و لهذا جمعه، و الختم: الطبع، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة، و المراد: أخذ المعانى القائمة بهذه الجوارح، أو أخذ الجوارح نفسها، و الاستفهام فى مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ للتوبيخ، و مَنْ مبتدأ، و إِلهٌ خبره، و غَيْرُ اللّهِ صفة للخبر، و وحد الضمير فى بِهِ مع أن المرجع متعدّد، على معنى: فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور، و قيل: الضمير راجع إلى أحد هذه المذكورات، و قيل:

إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أى يأتيكم بذلك المذكور، ثم أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالنظر فى تصريف الآيات و عدم قبولهم لها تعجيبا له من ذلك، و التصريف: المجيء بها على جهات مختلفة، تارة إنذار، و تارة إعذار، و تارة ترغيب، و تارة ترهيب، و قوله: ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ عطف على نصرف، و معنى يصدفون:

يعرضون، يقال: صدف عن الشيء: إذا أعرض عنه صدفا و صدوفا. قوله: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللّهِ أى أخبرونى عن ذلك، و قد تقدّم تفسير البغتة قريبا أنها الفجأة. قال الكسائى: بغتهم يبغتهم بغتا و بغتة:

إذا أتاهم فجأة، أى من دون تقديم مقدّمات تدل على العذاب، و الجهرة أن يأتى العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه؛ و قيل البغتة: إتيان العذاب ليلا و الجهرة: إتيان العذاب نهارا كما فى قوله تعالى: بَياتاً أَوْ نَهاراً «١». هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظّالِمُونَ الاستفهام للتقرير: أى ما يهلك هلاك تعذيب و سخط إلا القوم الظالمون. و قرئ: يُهْلَكُ على البناء للفاعل. قال الزجاج: معناه

هل يهلك إلا أنتم و من أشبهكم؟

انتهى. قوله: وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل، أى مبشرين لمن أطاعهم بما أعدّ اللّه له من الجزاء العظيم، و منذرين لمن عصاهم بما له عند اللّه من العذاب الوبيل؛ و قيل: مبشرين فى الدنيا بسعة الرزق و فى الآخرة بالثواب، و منذرين: مخوّفين بالعقاب، و هما حالان مقدّرتان: أى ما نرسلهم إلا مقدّرين تبشيرهم و إنذارهم فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ أى آمن بما جاءت به الرسل وَ أَصْلَحَ حال نفسه بفعل ما يدعونه إليه فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ بوجه من الوجوه وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ بحال من الأحوال، هذا حال من آمن و أصلح، و أما حال المكذبين؛ فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم؛ أى خروجهم عن التصديق و الطاعة.

---

(١). يونس: ٥٠.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٣٥

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: يَصْدِفُونَ قال:

يعدلون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: يَصْدِفُونَ قال: يعرضون، و قال فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً قال:

فجأة آمنين، أو جهرة، قال: و هم ينظرون. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: كلّ فسق فى القرآن فمعناه الكذب.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٠ الى ٥٥]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)

وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)

أمره اللّه سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه، و تعنّتهم بإنزال الآيات التى تضطرّهم إلى الإيمان، أنه لم يكن عنده خزائن اللّه حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات، و المراد: خزائن قدرته التى تشتمل على كلّ شى‏ء من الأشياء، و يقول لهم: إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به، و يعرّفهم بما سيكون فى مستقبل الدهر وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ حتى تكلّفونى من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر، و ليس فى هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، و قد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، و لا يترتب على ذلك فائدة دينية و لا دنيوية. بل الكلام فى مثل هذا من الاشتغال بما لا يعنى، و من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ أى ما أتبع إلا ما يوحيه اللّه إلىّ، و قد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملا بما يفيده القصر فى هذه الآية، و المسألة مدوّنة فى الأصول و الأدلة عليها معروفة، و قد صحّ عنه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أوتيت القرآن و مثله معه» قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ هذا الاستفهام للإنكار، و المراد: أنه لا يستوى الضالّ و المهتدى، أو المسلم و الكافر أو من اتبع ما أوحى إليه و من لم يتبعه، و الكلام تمثيل أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ فى ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء

بينهمـا، فـإنه بين، لاـ يلتبس على من له أدنى عقـل و أقـلّ تفكر. قـوله: وَ أَنْـذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخـافُونَ أَنْ يُحْشَـرُوا إِلى رَبِّهِمْ الإنـذار: الإعلام، و الضمير فى به راجع إلى مـا يوحى؛ و قيـل إلى اللّه؛ و قيل: إلى اليوم الآخر. و خصّ الـذين يخافون أن يحشـروا؛ لأنّ الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به و إنكاره

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۳۶

له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك. قيل: و معنى يخافون: يعلمون و يتيقنون أنهم محشورون، فيشـمل كل من آمن بالبعث من المسـلمين و أهل الذمة و بعض المشـركين؛ و قيل معنى الخوف على حقيقته، و المعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشـر عند أن يسمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يذكره و إن لم يكن مصدقا به فى الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع و التذكير له أنفع. قوله:

لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ الجملة فى محل نصب على الحال، أى أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولىّ لهم يواليهم و لا نصير يناصرهم و لا شفيع يشفع لهم من دون اللّه، و فيه ردّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشـفعون لهم، و هم أهـل الكتاب، أو أن أصـنامهم تشـفع لهم، و هم المشـركون. قوله: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَهُ الـدعاء: العبادة مطلقا؛ و قيل: المحافظـة على صـلاة الجماعـة؛ و قيل: الذكر و قراءة القرآن؛ و قيل: المراد: الدعاء للّه بجلب النفع و دفع الضـرر. قيل: و المراد بذكر الغداة و العشىّ: الدوام على ذلك و الاستمرار؛ و قيل: هو على ظاهره، و يُرِيـدُونَ وَجْهَهُ فى محـل نصب على الحـال. و المعنى: أنهم مخلصـون فى عبـادتهم لاـ يريـدون بـذلك إلاـ وجه اللّه تعـالى: أى يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره. قوله: ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ هذا كلام معترض بين النهى و جوابه، متضـمن لنفى الحامـل على الطرد: أى حسـاب هؤلاء الـذين أردت أن تطردهم موافقـة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسـهم ما عليك منه شـىء، و حسابك على نفسك ما عليهم منه شـىء، فعلام تطردهم؟ هذا على فرض صـحة وصف من وصـفهم بقوله: ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا «۱» و طعن عنـدك فى دينهم و حسبهم، فكيف و قد زكّاهم اللّه عزّ و جلّ بالعبادة و الإخلاص، و هـذا هو مثل قوله تعالى: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «۲» و قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى «۳» و قوله: إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي «۴». قوله: فَتَطْرُدَهُمْ جواب النفى فى قوله: ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ و هو من تمام الاعتراض: أى إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم، و جالسهم، و لا تطردهم، مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم فى الدين و الفضل، و من فى ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ للتبعيض، و الثانية للتوكيد، و كذا فى ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ. قوله: فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ جواب للنهى، أعنى: وَ لاـ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أى فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين، و حاشاه عن وقوع ذلك، و إنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره صـلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الإسلام كقوله تعالى: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ «۵»، و قيل: إن فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ معطوف على فَتَطْرُدَهُمْ على طريق التسبب، و الأوّل أولى. قوله: وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أى مثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض، و الفتنـة الاختبار: أى عاملناهم معاملة المختبرين، و اللام فى لِيَقُولُوا للعاقبة: أى ليقول البعض الأوّل مشيرين إلى البعض الثانى أَ هؤُلاءِ الذين مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أى أكرمهم بإصابة الحق دوننا. قال النحاس: و هذا من المشـكل، لأـنه يقال: كيف فتنوا ليقولوا هـذا القول و هو إن كان على طريقـة الإنكار كفر، و أجاب بجوابين: الأوّل أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار؛ و الثانى

---

(۱). هود: ۲۷.

(۲). الأنعام: ۱۶۴.

(٣). النجم: ٣٩.

(۴). الشعراء: ١١٣.

(۵). الزمر: ۶۵.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٣٧

أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبته هذا القول منهم كقوله: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً «١».

قوله: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ هذا الاستفهام للتقرير. و المعنى: أن مرجع الاستحقاق لنعم اللّه سبحانه هو الشكر، و هو أعلم بالشاكرين له، فما بالكم تعترضون بالجهل و تنكرون الفضل. قوله: وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا هم الذين نهاه اللّه عن طردهم، و هم المستضعفون من المؤمنين، كما سيأتى بيانه فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ أمره اللّه بأن يقول لهم هذا القول تطييبا لخواطرهم و إكراما لهم. و السلام، و السلامة:

بمعنى واحد، فمعنى سلام عليكم: سلمكم اللّه. و قد كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام؛ و قيل: إن هذا السلام هو من جهة اللّه: أى أبلغهم منا السلام. قوله: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أى أوجب ذلك إيجاب فضل و إحسان؛ و قيل: كتب ذلك فى اللوح المحفوظ. قيل: هذا من جملة ما أمره اللّه سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيرا بسعة مغفرة اللّه و عظيم رحمته.

قوله: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ قرأ ابن عامر و عاصم و نافع بفتح أن من أنه، و قرأ الباقون بكسرها. فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة بدلا من الرحمة: أى كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره. و على القراءة الثانية تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف، و موضع بجهالة النصب على الحال، أى عمله و هو جاهل. قيل: و المعنى أنه فعل فعل الجاهلين، لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه، فقد فعل فعل أهل الجهل و السفه لا فعل أهل الحكمة و التدبير؛ و قيل المعنى:

أنه عمل ذلك و هو جاهل لما يتعلّق به من المضرة، فتكون فائدة التقييد بالجهالة: الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدى إلى الضرر. قوله: ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ أى من بعد عمله وَ أَصْلَحَ ما أفسده بالمعصية، فراجع الصواب و عمل الطاعة فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قرأ ابن عامر و عاصم بفتح الهمزة من فَأَنَّهُ و قرأ الباقون بالكسر. فعلى القراءة الأولى تكون أن و ما بعدها خبر مبتدأ محذوف: أى فأمره أن اللّه غفور رحيم، و هذا اختيار سيبويه، و اختار أبو حاتم أن الجملة فى محل رفع على الابتداء و الخبر مضمر، كأنه قيل: فله فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قال: لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء. و أما على القراءة الثانية فالجملة مستأنفة.

قوله: وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أى مثل ذلك التفصيل نفصلها، و التفصيل: التبيين، و المعنى: أن اللّه فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، و بين لهم حكم كل طائفة. قوله: وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ

قال الكوفيون: هو معطوف على مقدّر: أى و كذلك نفصل الآيات لنبين لكم و لتستبين، قال النحاس:

و هذا الحذف لا يحتاج إليه. و قيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى: قرئ لِتَسْتَبِينَ بالفوقية و التحتية، فالخطاب على الفوقية للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أى لتستبين يا محمد سبيل المجرمين، و سبيل: منصوب على قراءة نافع. و أما على قراءة ابن كثير و أبى عمرو و ابن عامر و حفص بالرفع، فالفعل مسند إلى سبيل، و أما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضا، و هى قراءة حمزة و الكسائى و شعبة بالرفع. و إذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

(١). القصص: ٨.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٣٨

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ قال: الأعمى الكافر الذى عمى عن حقّ اللّه و أمره و نعمه عليه، و البصير: العبد المؤمن الذى أبصر بصرا نافعا فوحّد اللّه وحده، و عمل بطاعة ربه، و انتفع بما آتاه اللّه. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية عن عبد اللّه ابن مسعود قال: «مرّ الملأ من قريش على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عنده صهيب و عمّار و بلال و خبّاب و نحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أ نحن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنا، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل اللّه فيهم القرآن وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ إلى قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ و قد أخرج هذا السبب مطوّلا ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة، و فيه: إن الذين جاءوا إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و قرظة بن عبد عمرو بن نوفل و الحارث بن عامر بن نوفل و مطعم بن عدىّ بن الخيار بن نوفل فى أشراف الكفار من عبد مناف. و أخرجه ابن أبى شيبة و ابن ماجة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الدلائل عن خبّاب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمى و عيينة ابن حصن الفزارى، فذكر نحو حديث عبد اللّه بن مسعود مطوّلا. قال ابن كثير: هذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، و الأقرع و عيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر. و أخرج مسلم و النسائى و ابن ماجة و غيرهم عن سعد بن أبى وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية فى ستة: أنا و عبد اللّه بن مسعود و بلال و رجل من هذيل و رجلان لست أسمّيهما، فقال المشركون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: اطرد هؤلاء عنك لا يجترءون علينا، فوقع فى نفس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما شاء اللّه أن يقع فحدّث نفسه، فأنزل اللّه وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ و قد روى فى بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا فى المعنى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ قال: يعنى الصلاة المكتوبة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: الصلاة المكتوبة الصّبح و العصر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن إبراهيم النخعى فى الآية قال: هم أهل الذكر لا تطردهم عن الذكر. قال سفيان: أى أهل الفقه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ يعنى أنه جعل بعضهم أغنياء و بعضهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء: أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا يعنى أ هؤلاء هداهم اللّه، و إنما قالوا ذلك استهزاء و سخرية. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أ هؤلاء الذين منّ اللّه عليهم من بيننا أى لو كان لهم كرامة على اللّه ما أصابهم هذا الجهد.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ماهان قال: أتى قوم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالوا: إنا أصبنا ذنوبا عظاما، فما ردّ عليهم شيئا فانصرفوا، فأنزل اللّه وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا الآية. فدعاهم فقرأها عليهم. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: أخبرت أن قوله: سَلامٌ عَلَيْكُمْ كانوا إذا دخلوا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بدأهم بالسلام، فقال: سَلامٌ عَلَيْكُمْ و إذا لقيهم فكذلك أيضا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ قال: نبيّن الآيات.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٣٩

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ قال: الذين يأمرونك بطرد هؤلاء.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٦ الى ٥٩]

قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِینَ (۵۶) قُلْ إِنِّی عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِی ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ یَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَیْرُ الْفاصِلِینَ (۵۷) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِی ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِیَ الْأَمْرُ بَیْنِی وَ بَیْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِینَ (۵۸) وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ لا یَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَ یَعْلَمُ ما فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ یَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِی ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا یابِسٍ إِلاَّ فِی كِتابٍ مُبِینٍ (۵۹)

قوله: قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أمره اللّه سبحانه أن یعود إلی مخاطبة الكفار و یخبرهم بأنه نهی عن عبادة ما یدعونه و یعبدونه من دون اللّه، أی نهاه عن ذلک و صرفه و زجره، ثم أمره سبحانه بأن یقول لهم: لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ أی لا أسلک المسلک الذی سلکتموه فی دینکم من اتباع الأهواء و المشی علی ما توجبه المقاصد الفاسدة التی یتسبب عنها الوقوع فی الضلال. قوله: قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً أی اتبعت أهواءكم فیما طلبتموه من عبادة معبوداتكم و طرد من أردتم طرده وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِینَ إن فعلت ذلک، و هذه الجملة الاسمیة معطوفة علی الجملة التی قبلها، و المجیء بها اسمیة عقب تلک الفعلیة للدلالة علی الدوام و الثبات، و قرئ ضَلَلْتُ بفتح اللام و كسرها و هما لغتان. قال أبو عمرو: ضللت بكسر اللام لغة تمیم، و هی قراءة ابن وثاب و طلحة بن مصرف، و الأولی هی الأصح و الأفصح، لأنها لغة أهل الحجاز، و هی قراءة الجمهور.

قال الجوهری: و الضلال و الضلالة: ضدّ الرشاد، و قد ضللت أضلّ. قال اللّه تعالی: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلی نَفْسِی «۱» قال فهذه: یعنی المفتوحة لغة نجد و هی الفصیحة، و أهل العالیة یقول: ضللت بالكسر أضلّ انتهی. قوله: قُلْ إِنِّی عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّی البینة: الحجّة و البرهان، أی إنی علی برهان من ربی و یقین، لا علی هوی و شک، أمره اللّه سبحانه بأن یبین لهم أن ما هو علیه من عبادة ربه هو عن حجة برهانیة یقینیة، لا كما هم علیه من اتباع الشبه الداحضة و الشكوک الفاسدة التی لا مستند لها إلا مجرد الأهویة الباطلة. قوله:

وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ أی بالربّ، أو بالعذاب، أو بالقرآن، أو بالبینة، و التذكیر للضمیر باعتبار المعنی. و هذه الجملة إما حالیة بتقدیر قد: أی و الحال أن قد كذبتم به، أو جملة مستأنفة مبینة لما هم علیه من التكذیب بما جاء به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من الحجج الواضحة و البراهین البینة. قوله: ما عِنْدِی ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ أخبرهم بأنه لم یكن عنده ما یتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذیبهم یستعجلون نزوله، استهزاء، نحو قوله:

أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَیْنا كِسَفاً «۲»، و قولهم: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «۳»، و قولهم: مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِینَ* «۴»، و قیل: ما عِنْدِی ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من الآیات التی تقترحونها علیّ. قوله: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أی ما الحكم فی كل شیء إلا للّه سبحانه، و من جملة ذلک ما تستعجلون به من العذاب أو الآیات المقترحة. و المراد: الحكم الفاصل

---

(۱). سبأ: ۵۰.

(۲). الإسراء: ۹۲.

(۳). الأنفال: ۳۲.

(۴). سبأ: ۲۹.

بین الحق و الباطل. قوله: یَقُصُّ الْحَقَ قرأ نافع و ابن كثیر و عاصم یَقُصُ بالقاف و الصاد المهملة، و قرأ الباقون یقضی بالضاد المعجمة و الیاء، و كذا قرأ علیّ و أبو عبد الرحمن السلمی و سعید بن المسیب، و هو مكتوب فی المصحف بغیر یاء. فعلی

القراءة الأولى هو من القصص: أى يتبع الحق فيما يحكم به. و على القراءة الثانية هو من القضاء: أى يقضى القضاء بين عباده، و الحق منتصب على المفعولية، أو على أنه صفة لمصدر محذوف، أى يقضى القضاء الحق، أو يقص القصص الحق وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أى بين الحقّ و الباطل بما يقضى به بين عباده و يفصله لهم فى كتابه، ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ أى ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدورا لى و فى وسعى لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أى لقضى اللّه الأمر بيننا بأن ينزله اللّه سبحانه لكم بسؤالى له و طلبى ذلك؛ أو المعنى: لو كان العذاب الذى تطلبونه و تستعجلون به عندى و فى قبضتى لأنزلته بكم، و عند ذلك يقضى الأمر بينى و بينكم وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ و بالوقت الذى ينزل فيه عذابهم و بما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجا لهم و إعذارا إليهم. قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ المفاتح جمع مفتح بالفتح؛ و هو المخزن: أى عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة، أو جمع مفتح بكسر الميم، و هو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما فى المخازن منها على طريق الاستعارة أيضا، و يؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميقع و عنده مفاتيح الغيب فإن المفاتيح جمع مفتاح و المعنى: إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب، أو المفاتح التى يتوصل بها إلى المخازن. و قوله: لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ جملة مؤكّدة لمضمون الجملة الأولى، و أنه لا علم لأحد من خلقه بشىء من الأمور الغيبية التى استأثر اللّه بعلمها، و يندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجا أوّليا. و فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهّان و المنجّمين و الرمليين و غيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، و لا يدخل تحت قدرتهم و لا يحيط به علمهم، و لقد ابتلى الإسلام و أهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة و الأنواع المخذولة و لم يربحوا من أكاذيبهم و أباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أتى كاهنا أو منجّما فقد كفر بما أنزل على محمد». قوله: وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ خصّهما بالذّكر لأنهما من أعظم مخلوقات اللّه: أى يعلم ما فيهما من حيوان و جماد علما مفصلا لا يخفى عليه منه شىء، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس و يتطلعون لعلم ما فيهما وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها أى من ورق الشجر و هو تخصيص بعد التعميم: أى يعلمها و يعلم زمان سقوطها و مكانه، و قيل: المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال و الأرزاق، و حكى النقاش عن جعفر بن محمد: أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بنى آدم، قال ابن عطية: و هذا قول جار على طريقة الرموز و لا يصح عن جعفر بن محمد و لا ينبغى أن يلتفت إليه وَ لا حَبَّةٍ كائنة فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ أى فى الأمكنة المظلمة، و قيل: فى بطن الأرض وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ بالخفض عطفا على حبة: و هى معطوفة على ورقة. و قرأ ابن السميقع و الحسن و غيرهما بالرفع عطفا على موضع من ورقة، و قد شمل وصف الرطوبة و اليبوسة جميع الموجودات. قوله: إِلَّا فِي

كِتابٍ مُبِينٍ هو اللوح المحفوظ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من إِلَّا يَعْلَمُها و قيل: هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله: قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي قال:

على ثقة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ قال: لقامت الساعة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ قال: يقول خزائن الغيب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ قال: هنّ خمس: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ إلى قوله: عَلِيمٌ خَبِيرٌ «1». و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه:

لا يعلم ما في غد إلا اللّه، و لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللّه، و لا يعلم متى يأتى المطر إلا اللّه، و لا تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا الله، و لا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا اللّه». و أخرج سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها قال:

ما من شجرة فى برّ و لا بحر إلا و بها ملك يكتب ما يسقط من ورقها. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد نحوه.

و أخرج أبو الشيخ عن محمد بن جحادة فى قوله: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ قال: للّه تبارك و تعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده، فذلك قوله: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها. و أخرج الخطيب فى تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ما من زرع على الأرض و لا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب: بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان بن فلان» فذلك قوله تعالى: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ الآية. و قد رواه يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ فقال: الرطب و اليابس من كلّ شىء.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۰ الى ۶۲]

وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (۶۲)

قوله: يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ أى ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التى بها تميزون و ليس ذلك موتا حقيقة، فهو مثل قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنامِها «۲» و التوفى: استيفاء الشىء، و توفيت الشىء و استوفيته: إذا أخذته أجمع، قال الشاعر:

إنّ بنى الأدرد ليسوا من أحدو لا توفّاهم قريش فى العدد

---

(۱). لقمان: ۳۴.

(۲). الزمر: ۴۲.

قيل: الروح إذا خرجت من البدن فى المنام بقيت فيه الحياة؛ و قيل: لا تخرج منه الروح بل الذهن فقط، و الأولى أن هذا أمر لا يعرفه إلا اللّه سبحانه. قوله: وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ أى كسبتم بجوارحكم من الخير و الشرّ. قوله: ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ أى فى النهار، يعنى اليقظة؛ و قيل: يبعثكم من القبور فيه:

أى فى شأن ذلك الذى قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل و الكسب بالنهار؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: هو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار و يعلم ما جرحتم فيه؛ و قيل: ثم يبعثكم فيه، أى فى المنام، و معنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك و لكن لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى أى معين لكلّ فرد من أفراد العباد من حياة و رزق ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ أى رجوعكم بعد الموت ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيجازى المحسن بإحسانه و المسىء بإساءته. قوله: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ المراد:

فوقية القدرة و الرتبة، كما يقال: السلطان فوق الرعية، و قد تقدّم بيانه فى أوّل السورة. قوله: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً أى ملائكة جعلهم اللّه حافظين لكم، و منه قوله: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ «۱» و المعنى:

أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات و يحفظ أعمالكم، و الحفظة: جمع حافظ، مثل: كتبة: جمع كاتب وَ عَلَيْكُمْ متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، و تقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه و أنه أمر حقيق بذلك؛ و قيل: هو متعلق بحفظة. قوله: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا حتى: يحتمل أن تكون هى الغائية، أى و يرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ و يحتمل أن تكون الابتدائية، و المراد بمجيء الموت مجيء علاماته. و قرأ حمزة توفاه رسلنا و قرأ الأعمش تتوفّاه و الرسل: هم أعوان ملك الموت، و معنى توفته: استوفت روحه لا يُفَرِّطُونَ أى لا يقصرون و يضيعون، و أصله من التقدّم، و قال أبو عبيدة: لا يتوانون. و قرأ عبيد بن عمير لا يفرطون بالتخفيف: أى لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام و الإهانة. قوله: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ معطوف على توفته، و الضمير راجع إلى أحد لأنه فى معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، أى ردّوا بعد الحشر إلى اللّه: أى إلى حكمه و جزائه. مَوْلاهُمُ مالكهم الذى يلى أمورهم.

الْحَقِ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم اللّه. و قرأ الحسن الحق بالنصب على إضمار فعل، أى:

أعنى أو أمدح، أو على المصدر وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر و الروية و التدبر.

و قد أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «مع كلّ إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه، فإذا أذن اللّه فى قبض روحه قبضه و إلا ردّها إليه، فذلك قوله تعالى: يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: ما من ليلة إلا و اللّه يقبض الأرواح كلّها، فيسأل كلّ نفس عمّا عمل صاحبها من النهار، ثم يدعو ملك الموت فيقول: اقبض روح هذا؛ و ما من يوم إلا و ملك الموت ينظر فى كتاب حياة الناس، قائل يقول: ثلاثا، و قائل يقول: خمسا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: أما

(١). الانفطار: ١٠.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٤٣

وفاته إيّاهم بالليل فمنامهم، و ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ فيقول: ما اكتسبتم بالنّهار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ قال: فى النهار لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى و هو الموت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ قال: ما كسبتم من الإثم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً قال: هم المعقّبات من الملائكة يحفظونه و يحفظون عمله.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: أعوان ملك الموت من الملائكة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: هُمْ لا يُفَرِّطُونَ يقول: لا يضيعون.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٣ الى ٦٥]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)

قيل: المراد بظلمات البرّ و البحر: شدائدهما. قال النحاس: و العرب تقول: يوم مظلم: إذا كان شديدا، فإذا عظّمت ذلك قالت: يوم ذو كوكب، أى يحتاجون فيه لشدّة ظلمته إلى كوكب. و أنشد سيبويه:

بنى أسد هل تعلمون بلاءناإذا كان يوم ذو كواكب اشنعا

و الاستفهام للتقريع و التوبيخ: أى من ينجيكم من شدائدهما العظيمة؟ قرأ أبو بكر عن عاصم خفية بكسر الخاء، و قرأ الباقون بضمها، و هما لغتان. و قرأ الأعمش «و خيفة» من الخوف. و جملة تَدْعُونَهُ فى محل نصب على الحال: أى من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرّع و خفية أو متضرّعين و مخفين.

و المراد بالتضرع هنا: دعاء الجهر. قوله: لَئِنْ أَنْجَيْتَنا كذا قرأ أهل المدينة و أهل الشام. و قرأ الكوفيون لَئِنْ أَنْجانا و الجملة فى محل نصب على تقدير القول: أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدّة التى نزلت بنا و هى الظلمات المذكورة لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد.

قوله: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ قرأ الكوفيون و هشام ينجيكم بالتّشديد، و قرأ الباقون بالتخفيف، و قراءة التشديد تفيد التكثير؛ و قيل: معناهما واحد، و الضمير فى مِنْها راجع إلى الظلمات.

و الكرب: الغم يأخذ بالنفس، و منه: رجل مكروب. قال عنترة:

و مكروب كشفت الكرب عنهبطعنة فيصل لمّا دعانى

ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ باللّه سبحانه بعد أن أحسن إليكم بالخلوص من الشدائد و ذهاب الكروب شركاء لا ينفعونكم، و لا يضرّونكم، و لا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً أى الذى قدر على إنجائكم من تلك الشدائد و دفع عنكم تلك الكروب قادر على أن يعيدكم

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۴۴

فى شدّة و محنة و كرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب، فالعذاب المبعوث من جهة الفوق: ما ينزل من السماء من المطر و الصواعق. و المبعوث من تحت الأرجل: الخسف و الزلازل و الغرق، و قيل: مِنْ فَوْقِكُمْ يعنى الأمراء الظلمة و مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ يعنى السفلة و عبيد السوء. قوله: أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً قرأ الجمهور بفتح التحتية، من لبس الأمر: إذا خلطه، و قرأ أبو عبد اللّه المدينى بضمها: أى يجعل ذلك لباسا لكم؛ قيل و الأصل: أو يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجرّ كما فى قوله تعالى: وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ و المعنى: يجعلكم مختلطى الأهواء مختلفى النحل متفرقى الآراء؛ و قيل:

يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا. و الشيع: الفرق، أى يخلطكم فرقا. قوله: وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أى يصيب بعضكم بشدّة بعض من قتل و أسر و نهب وَ يُذِيقَ معطوف على يَبْعَثَ و قرئ: «نذيق» بالنون. انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ نبين لهم الحجج و الدلالات من وجوه مختلفة لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ الحقيقة فيعودون إلى الحق الذى بيناه لهم بيانات متنوّعة.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ يقول: من كرب البرّ و البحر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم فى تفسير الآية عن ابن عباس قال: يقول: إذا أضلّ الرجل الطريق دعا اللّه لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ «۱». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال: يعنى من أمرائكم أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ يعنى سفلتكم أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً يعنى بالشّيع الأهواء المختلفة وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ قال: يسلّط بعضكم على بعض بالقتل و العذاب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه من وجه آخر فى تفسير الآية قال: عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أئمة السوء أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: خدم السوء. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا من وجه آخر قال: مِنْ فَوْقِكُمْ من قبل أمرائكم و أشرافكم أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: من قبل سفلتكم و عبيدكم. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن أبى مالك عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال: القذف أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال:

الخسف. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد أيضا مِنْ فَوْقِكُمْ قال: الصيحة و الحجارة و الريح أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: الرجفة و الخسف، و هما عذاب أهل التكذيب وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ قال: عذاب أهل الإقرار. و أخرج البخارى و غيره عن جابر بن عبد اللّه قال: لما نزلت هذه الآية قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعوذ بوجهك أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: أعوذ بوجهك أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ قال: هذا أهون أو أيسر». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و غيرهم من حديث طويل عن ثوبان، و فيه: «و سألته أن لا يسلّط عليهم عدوّا من غيرهم فأعطانيها، و سألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها». و أخرج مسلم و غيره من حديث سعد بن أبى وقاص: «أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرّ بمسجد بنى معاوية

---

(١). يونس: ٢٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٤٥

دخل فركع فيه ركعتين و صلينا معه و دعا ربّه طويلا، ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربّى ثلاثا فأعطانى اثنتين و منعنى واحدة: سألته أن لا يهلك أمتى بالغرق، و سألته أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيهما و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» و أخرج أحمد، و الحاكم و صحّحه من حديث جابر بن عتيك نحوه. و أخرج نحوه أيضا ابن مردويه من حديث أبى هريرة. و أخرج أيضا ابن أبى شيبة و ابن مردويه من حديث حذيفة بن اليمان نحوه. و أخرج أحمد و النسائى و ابن مردويه عن أنس نحوه أيضا. و أخرج أحمد و الترمذى و حسّنه، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه الآية قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أما إنها كائنة و لم يأت تأويلها بعد».

و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية و الضياء فى المختارة عن أبيّ بن كعب فى هذه الآية قال: هنّ أربع و كلهنّ عذاب و كلهنّ واقع لا محالة، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بخمس و عشرين سنة: فألبسوا شيعا، و ذاق بعضهم بأس بعض؛ و بقيت اثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، و الرّجم. و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٦ الى ٧٣]

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٧١) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي

الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۷۳)

قوله: وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ الضمير راجع إلى القرآن أو إلى العذاب. و قومه المكذبون: هم قريش، و قيل: كل معاند، و جملة وَ هُوَ الْحَقُّ فى محل نصب على الحال، أى كذبوا بالقرآن أو العذاب، و الحال أنه حق. و قرأ ابن أبى عبلة «و كذبت» بالتاء قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أى: لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية القتال؛ و قيل: ليست بمنسوخة إذ لم يكن إيمانهم فى

فتح القدير، ج ٢، ص: ١۴۶

وسعه. قوله: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ أى لكلّ شىء وقت يقع فيه. و النبأ: الشىء الذى ينبأ عنه؛ و قيل المعنى: لكل عمل جزاء. قال الزجاج: يجوز أن يكون وعيدا لهم بما ينزل بهم فى الدنيا. و قال الحسن:

هذا وعيد من اللّه للكفار، لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ذلك بحصوله و نزوله بهم كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يتوعدهم به. قوله: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له. و الخوض: أصله فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء التى هى مجاهل تشبيها بغمرات الماء، فاستعير من المحسوس للمعقول؛ و قيل: هو مأخوذ من الخلط، و كلّ شىء خضته فقد خلطته، و منه: خاض الماء بالعسل: خلطه. و المعنى: إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب و الردّ و الاستهزاء فدعهم، و لا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا فى حديث مغاير له، أمره اللّه سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التى يستهان فيها بآيات اللّه إلى غاية هى الخوض فى غير ذلك.

و فى هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمّح بمجالسة المبتدعة الذين يحرّفون كلام اللّه و يتلاعبون بكتابه و سنة رسوله، و يردّون ذلك إلى أهوائهم المضلّة و بدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم و يغير ما هم فيه فأقلّ الأحوال أن يترك مجالستهم، و ذلك يسير عليه غير عسير. و قد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون فى حضوره مفسدة زائدة على مجرّد سماع المنكر.

و قد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتى عليه الحصر، و قمنا فى نصرة الحق و دفع الباطل بما قدرنا عليه، و بلغت إليه طاقتنا، و من عرف هذه الشريعة المطهرة حقّ معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما فى مجالسة من يعصى اللّه بفعل شىء من المحرّمات، و لا سيما لمن كان غير راسخ القدم فى علم الكتاب و السنة. فإنه ربما يتفق عليه من كذباتهم و هذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح فى قلبه، ما يصعب علاجه و يعسر دفعه فيعمل بذلك مدّة عمره و يلقى اللّه به معتقدا أنه من الحق و هو الباطل و أنكر المنكر. قوله: وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى إِمَّا هذه هى الشرطية و تلزمها غالبا نون التأكيد و لا تلزمها نادرا و منه قول الشاعر:

إمّا يصبك عدوّ فى مناوأة يوما فقد كنت تستعلى و تنتصر

و قرأ ابن عباس ينسيك بتشديد السين، و مثله قول الشاعر:

....

و قد ينسّيك بعض الحاجة الكسل «١» و المعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى: الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات و التكذيب بها. قيل: و هذا الخطاب و إن كان ظاهره للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فالمراد التعريض لأمته لتنزّهه عن أن ينسيه الشيطان؛ و قيل: لا وجه لهذا فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك

(۱). و صدره: قالت سليمى أ تسرى اليوم أم تقل.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۴۷

الأحاديث الصحيحة: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّرونى» و نحو ذلك. قوله: وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ أى ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم فى آيات اللّه من حساب الكفار من شىء. و قيل المعنى: ما على الذين يتقون ما يقع منهم من الخوض فى آيات اللّه فى مجالستهم لهم من شىء. و على هذا التفسير: ففى الآية التّرخيص للمتقين من المؤمنين فى مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى ذلك كما سيأتى عند ذكر السبب. قيل: و هذا الترخيص كان فى أوّل الإسلام، و كان الوقت وقت تقية، ثم نزل قوله تعالى: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ «۱» فنسخ ذلك. قوله: وَ لكِنْ ذِكْرى لهم، ذكرى: فى موضع نصب على المصدر، أو رفع على أنها مبتدأ؛ و خبرها محذوف: أى و لكن عليهم ذكرى. و قال الكسائى:

المعنى: و لكن هذه ذكرى. و المعنى على الاستدراك من النفى السابق: أى: و لكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة و البيان لهم بأن ذلك لا يجوز. أما على التفسير الأوّل فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون فى آيات اللّه لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. و أما على التفسير الثانى فالترخيص فى المجالسة لا يسقط التذكير لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ الخوض فى آيات اللّه إذا وقعت منكم الذكرى لهم. و أما جعل الضمير للمتقين؛ فبعيد جدّا. قوله: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذى كان يجب عليهم العمل به و الدخول فيه لعبا و لهوا؛ و لا تعلق قلبك بهم؛ فإنهم أهل تعنت و إن كنت مأمورا بإبلاغهم الحجة. و قيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال؛ و قيل المعنى: أنهم اتخذوا دينهم الذى هم عليه لعبا و لهوا كما فى فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات و الضلالات المتقدم ذكرها؛ و قيل: المراد بالدين هنا:

العيد: أى اتخذوا عيدهم لعبا و لهوا، و جملة وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا معطوفة على اتَّخَذُوا أى: غرّتهم حتى آثروها على الآخرة و أنكروا البعث و قالوا: إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ «۲». و قوله: وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ الضمير فى بِهِ للقرآن أو للحساب. و الإبسال: تسليم المرء للهلاك، و منه أبسلت ولدى: أى رهنته فى الدم، لأن عاقبة ذلك الهلاك.

قال النابغة:

و نحن رهنّا بالإفاقة عامرابما كان فى الدّرداء رهنا فأبسلا

أى فهلك، و الدرداء: كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم، فالمعنى: و ذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس بما كسبت: أى ترتهن و تسلم للهلكة، و أصل الإبسال: المنع، و منه شجاع باسل: أى ممتنع من قرنه. قوله: وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها العدل هنا: الفدية. و المعنى: و إن بذلت تلك النفس التى سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك، و فاعل يُؤْخَذْ ضمير يرجع إلى العدل، لأنه بمعنى المفدى به كما فى قوله: وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ و قيل: فاعله منها، لأن العدل هنا مصدر لا يسند إليه الفعل، و كل عدل: منصوب على المصدر: أى عدلا كل عدل، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتخذين دينهم لعبا و لهوا، و خبره الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا أى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا و لهوا هم الذين سلموا للهلاك بما كسبوا، و لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ جواب سؤال مقدّر

---

(۱). النساء: ۱۴۰.

(۲). المؤمنون: ۳۷.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٤٨

كأنه قيل: كيف حال هؤلاء؟ فقيل: لهم شراب من حميم، و هو الماء الحارّ، و مثله قوله تعالى: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ «١» و هو هنا شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم. قوله: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة، و الاستفهام: للتوبيخ أى كيف ندعو من دون اللّه أصناما لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن أردنا منها نفعا و لا نخشى ضرّها بوجه من الوجوه، و من كان هكذا فلا يستحق العبادة وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا عطف على نَدْعُوا. و الأعقاب: جمع عقب، أى كيف ندعو من كان كذلك و نرجع إلى الضلالة التى أخرجنا اللّه منها؟ قال أبو عبيدة: يقال لمن ردّ عن حاجته و لم يظفر بها قد ردّ على عقبيه. و قال المبرّد: تعقب بالشرّ بعد الخير. و أصله من المعاقبة و العقبى، و هما ما كان تاليا للشىء واجبا أن يتبعه، و منه: وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* «٢»، و منه: عقب الرجل، و منه:

العقوبة، لأنها تالية للذنب. قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ هوى يهوى إلى الشىء: أسرع إليه. و قال الزجاج: هو من هوى النفس، أى زين له الشيطان هواه، و اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ هوت به، و الكاف فى كَالَّذِي إما نعت مصدر محذوف: أى نردّ على أعقابنا ردّا كالذى، أو فى محل نصب على الحال من فاعل نردّ: أى نردّ حال كوننا مشبهين للذى استهوته الشياطين، أى ذهبت به مردة الجنّ بعد أن كان بين الإنس. قرأ الجمهور اسْتَهْوَتْهُ و قرأ حمزة استهواه على تذكير الجمع. و قرأ ابن مسعود و الحسن استهواه الشيطان و هو كذلك فى قراءة أبىّ، و حَيْرانَ حال: أى حال كونه متحيّرا تائها لا يدرى كيف يصنع؟ و الحيران هو الذى لا يهتدى لجهة، و قد حار يحار حيرة و حيرورة: إذا تردّد، و به سمى الماء المستنقع الذى لا منفذ له حائرا. قوله لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى صفة لحيران، أو حالية، أى له رفقة يدعونه إلى الهدى يقولون له ائتنا فلا يجيبهم و لا يهتدى بهديهم. قوله: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم: إِنَّ هُدَى اللَّهِ أى دينه الذى ارتضاه لعباده هُوَ الْهُدى و ما عداه باطل وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ «٣» وَ أُمِرْنا معطوف على الجملة الاسمية: أى من جملة ما أمره اللّه بأن يقوله، و اللام فى لِنُسْلِمَ هى لام العلة، و المعلل هو الأمر، أى أمرنا لأجل أن نسلم لربّ العالمين. و قال الفراء: المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب، و بأن تذهب، بمعنى. و قال النحاس: سمعت ابن كيسان يقول: هى لام الخفض. قوله: وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ معطوف على لِنُسْلِمَ على معنى: و أمرنا أن نسلم، و أن أقيموا، و يجوز أن يكون عطفا على يدعونه على المعنى: أى يدعونه إلى الهدى و يدعونه أن أقيموا وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فكيف تخالفون أمره وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ خلقا بِالْحَقِّ أو حال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة؟ قوله: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ أى و اذكر يوم يقول كن فيكون أو و اتقوا يوم يقول كن فيكون؛ و قيل: هو عطف على الهاء فى وَ اتَّقُوهُ و قيل: إن يَوْمَ ظرف لمضمون جملة قَوْلُهُ الْحَقُّ و المعنى: و أمره المتعلق بالأشياء، الحق: أى المشهود له بأنه حق؛ و قيل: قوله مبتدأ، و الحق صفة له وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ خبره مقدّما عليه، و المعنى: قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول:

---

(١). الحج: ١٦.

(٢). القصص: ٨٣.

(٣). آل عمران: ٨٥.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٤٩

كن فيكون؛ و قيل: إن قوله مرتفع بيكون، و الحق صفته: أى يوم يقول: كن يكون قوله الحق. و قرأ ابن عامر فَنَكُونَ بالنون، و هو إشارة إلى سرعة الحساب. و قرأ الباقون بالياء التحتية و هو الصواب. قوله:

وَ لَهُ الْمُلْکُ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ الظرف منصوب بما قبله: أی له الملک فی هـذا الیوم؛ و قیل: هو بدل من الیوم الأوّل، و الصور قرن ینفخ فیه النفخة الأولی للفناء، و الثانیة للإنشاء، و کذا قال الجوهری: إن الصور: القرن، قال الرّاجز:

لقد نطحناهم غداة الجمعین نطحا شدیدا لا کنطح الصّورین

و الصّور بضم الصاد و بکسرها لغة، و حکی عن عمرو بن عبید أنه قرأ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ بتحریک الواو، جمع صورة، و المراد: الخلق. قال أبو عبیدة: و هـذا و إن کان محتملا یردّ بما فی الکتاب و السنة. و قال الفراء: کن فیکون، یقال إنه للصور خاصة: أی و یوم یقول للصور کن فیکون. قوله: عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ رفع عالم علی أنه صفة للذی خلق السموات و الأرض، و یجوز أن یرتفع علی إضمار مبتدأ: أی هو عالم الغیب و الشهادة، و روی عن بعضهم أنه قرأ یُنْفَخُ بالبناء للفاعل، فیجوز علی هذه القراءة أن یکون الفاعل عالِمُ الْغَیْبِ و یجوز أن یرتفع بفعل مقدّر کما أنشد سیبویه:

لیبک یزید ضارع لخصومة و مختبط ممّا تطیح الطّوائح

أی یبکیه مختبط. و قرأ الحسن و الأعمش عالم بالخفض علی البدل من الهاء فی لَهُ الْمُلْکُ وَ هُوَ الْحَکِیمُ فی جمیع ما یصدر عنه الْخَبِیرُ بکل شیء.

و قد أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن السدّی فی قوله: وَ کَذَّبَ بِهِ قَوْمُکَ یقول:

کذبت قریش بالقرآن وَ هُوَ الْحَقُّ و أما الوکیل: فالحفیظ، و أما لِکُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ فکان نبأ القوم استقرّ یوم بدر بما کان یعدهم من العذاب. و أخرج النحاس فی ناسخه عن ابن عباس فی قوله: قُلْ لَسْتُ عَلَیْکُمْ بِوَکِیلٍ قال: نسخ هـذه الآیة آیة السیف: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۱». و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس لِکُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ یقول: حقیقة. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن الحسن أنه قال فی قوله: لِکُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ قال: حبست عقوبتها حتی عمل ذنبها أرسلت عقوبتها. و أخرج ابن جریر من طریق العوفی عن ابن عباس فی قوله: لِکُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ قال: فعل و حقیقة ما کان منه فی الدنیا و ما کان منه فی الآخرة. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ إِذا رَأَیْتَ الَّذِینَ یَخُوضُونَ فِی آیاتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ و نحو هـذا فی القرآن قال: أمر اللّه المؤمنین بالجماعة، و نهاهم عن الاختلاف و الفرقة، و أخبرهم أنما أهلک من کان قبلهم بالمراء و الخصومات فی دین اللّه. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ إِذا رَأَیْتَ الَّذِینَ یَخُوضُونَ فِی آیاتِنا قال: یستهزئون بها، نهی محمّدا صلّی اللّه علیه و سلّم

---

(۱). التوبة: ۵.

فتح القدیر، ج۲، ص: ۱۵۰

فتح القدیر ج۲ ۱۹۹

أن یقعد معهم إلا أن ینسی، فإذا ذکر فلیقم، و ذلک قول اللّه فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّکْری مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ و أخرج عبد بن حمید و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن محمد بن سیرین أنه کان یری أن هذه الآیة نزلت فی أهل الأهواء. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و أبو نعیم فی الحلیة عن أبی جعفر قال: لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذین یخوضون فی آیات اللّه. و أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر عن محمد بن علی قال:

إن أصحاب الأهواء من الذین یخوضون فی آیات اللّه. و أخرج أبو الشیخ عن مقاتل قال: کان المشرکون بمکّة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبی صلّی اللّه علیه و سلّم خاضوا و استهزءوا، فقال المسلمون: لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حین

نسمع قولهم و نجالسهم فلا نعيب عليهم، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج أبو الشيخ أيضا عن السدىّ أنه قال: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. و أخرج النحاس عن ابن عباس فى قوله:

وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ قال: نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية، و هى قوله:

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها «١» الآية. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن مجاهد وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إن قعدوا، و لكن لا يقعدوا. و أخرج ابن أبى شيبة عن هشام بن عروة عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه و قال:

لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً قال: هو مثل قوله: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً يعنى: أنه للتهديد. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه عن قتادة فى هذه الآية قال: نسختها آية السيف. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: لَعِباً وَ لَهْواً قال: أكلا و شربا. و أخرج ابن جرير و المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَنْ تُبْسَلَ قال: أن تفضح، و فى قوله:

أُبْسِلُوا قال: فضحوا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: أَنْ تُبْسَلَ قال: تسلم، و فى قوله: أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا قال: أسلموا بجرائرهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قال: هذا مثل ضربه اللّه للآلهة و للدعاة الذين يدعون إلى اللّه. و قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ يقول: أضلّته، و هم الغيلان يدعونه باسمه و اسم أبيه و جدّه فيتبعها و يرى أنه فى شىء فيصبح و قد ألقته فى هلكة، و ربما أكلته أو تلقيه فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشا، فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ قال: هو الرجل لا يستجيب لهدى اللّه، و هو الرجل أطاع الشيطان، و عمل فى الأرض بالمعصية، و حاد عن الحق، و ضلّ عنه، و لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى و يزعمون أن الذى يأمرونه به هدى، يقول اللّه ذلك لأوليائهم من الإنس، يقول: إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ و الضلالة ما تدعو إليه الجن. و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و أبو داود و الترمذى و حسّنه و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و الحاكم و صححه و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن عبد اللّه بن عمرو قال: «سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الصور فقال: ينفخ فيه». و الأحاديث الواردة فى كيفية

---

(١). النساء: ١٤٠.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ١٥١

النفخ ثابتة فى كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها هاهنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ يعنى أنّ عالم الغيب و الشهادة هو الذى ينفخ فى الصور.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٨٣]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَ قَدْ

هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

قوله: لِأَبِيهِ آزَرَ قال الجوهرى: آزر اسم أعجمى، و هو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام. و قال ابن فارس: إنه مشتق من القوّة. قال الجوينى فى النكت من التفسير له: ليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تارخ، و الذى فى القرآن يدل على أنّ اسمه آزر. و قد تعقّب فى دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق و الضحّاك و الكلبى أنه كان له اسمان: آزر و تارخ. و قال مقاتل: آزر: لقب، و تارخ: اسم، و قال سليمان التيمى: إنّ آزر سبّ و عتب، و معناه فى كلامهم المعوجّ.

و قال الضحّاك: معنى آزر: الشيخ الهمّ «١» بالفارسية. و قال الفرّاء: هى صفة ذم بلغتهم كأنه قال: يا مخطئ. و روى مثله عن الزجّاج. و قال مجاهد: هو اسم صنم. و على هذا إطلاق اسم الصّنم على أبيه إما للتعبير له لكونه معبوده، أو على حذف مضاف: أى قال لأبيه عابد آزر، أو: أتعبد آزر؟ على حذف الفعل.

و قرأ ابن عباس «أأزر» بهمزتين الأولى مفتوحة و الثانية مكسورة، و روى عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين، و محل إِذْ قالَ النصب على تقدير و اذكر إذ قال إبراهيم، و يكون هذا المقدر معطوفا على قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ و قيل: و هو معطوف على وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ و آزر عطف بيان. قوله: أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً الاستفهام للإنكار، أى أ تجعلها آلهة لك تعبدها إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ المتبعين لك فى عبادة الأصنام فِي ضَلالٍ عن طريق الحق مُبِينٍ واضح وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ أى و مثل تلك الإراءة

---

(١). الهمّ: الفانى.

نرى إبراهيم، و الجملة معترضة، و مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ملكهما، و زيدت التاء و الواو للمبالغة فى الصّفة، و مثله الرغبوت و الرهبوت مبالغة فى الرغبة و الرهبة. قيل: أراد بملكوت السّموات و الأرض ما فيهما من الخلق؛ و قيل: كشف اللّه له عن ذلك حتى رأى إلى العرش و إلى أسفل الأرضين؛ و قيل: رأى من ملكوت السموات و الأرض ما قصه اللّه فى هذه الآية؛ و قيل: المراد بملكوتهما الربوبية و الإلهية، أى نريه ذلك، و نوفقه لمعرفته بطريق الاستدلال التى سلكها؛ و معنى نُرِي أريناه، حكاية حال ماضية. قوله:

وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ متعلق بمقدّر: أى أريناه ذلك لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ و قد كان آزر و قومه يعبدون الأصنام و الكواكب و الشمس و القمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ؛ و قيل: إنه ولد فى سرب، و جعل رزقه فى أطراف أصابعه؛ فكان يمصها. و سبب جعله فى السرب أن النمروذ رأى رؤيا أنّ ملكه يذهب على يد مولود؛ فأمر بقتل كل مولود، و اللّه أعلم. قوله: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أى ستره بظلمته، و منه الجنة و المجنّ و الجنّ كلّه من الستر، قال الشاعر:

و لو لا جنان اللّيل أدرك ركضنابذى الرّمث و الأرطى عياض بن ناشب

و الفاء للعطف على قالَ إِبْراهِيمُ أى و اذكر إذ قال و إذ جنّ عليه، الليل فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه، و جواب لما رَأى كَوْكَباً قيل: رآه من شقّ الصّخرة الموضوعة على رأس السرب الذى كان فيه؛ و قيل: رآه لما أخرجه أبوه من السرب و كان وقت غيبوبة الشمس؛ قيل: رأى المشترى و قيل:

الزهرة. قوله: هذا رَبِّي جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فما ذا قال عند رؤية الكوكب؟

قيل: و كان هذا منه عند قصور النظر لأنه في زمن الطفولية؛ و قيل: أراد قيام الحجّة على قومه كالحاكي لما هو عندهم و ما يعتقدونه لأجل إلزامهم، و بالثاني قال الزجاج؛ و قيل: هو على حذف حرف الاستفهام:

أي أ هذا ربي؟ و معناه إنكار أن يكون مثل هذا ربا، و مثله قوله تعالى: أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ «١» أي أفهم الخالدون، و مثله قول الهذلي:

رفوني و قالوا يا خويلد لا ترعفقلت و أنكرت الوجوه هم هم

أي أهم هم، و قول الآخر «٢»:

لعمرك ما أدري و إن كنت داريابسبع رمين الجمر أم بثمان

أي أ بسبع، و قيل المعنى: و أنتم تقولون هذا ربي فأضمر القول؛ و قيل: المعنى على حذف مضاف: أي هذا دليل ربي فَلَمَّا أَفَلَ أي غرب قالَ إبراهيم لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ أي الآلهة التي تغرب، فإن الغروب تغير من حال إلى حال، و هو دليل الحدوث فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً أي طالعا، يقال:

بزغ القمر: إذا ابتدأ في الطلوع، و البزغ: الشق كان يشق بنوره الظلمة فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي

---

(١). الأنبياء: ٣٤.

(٢). هو عمر بن أبي ربيعة.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٥٣

أي لئن لم يثبتني على الهداية و يوفقني للحجة لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم و يحرمونها حظّها من الخير فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً بازغا و بازغة منصوبان على الحال، لأن الرؤية بصرية، و إنما قالَ هذا رَبِّي مع كون الشمس مؤنثة، لأن مراده هذا الطالع، قاله الكسائي و الأخفش، و قيل: هذا الضوء؛ و قيل: الشخص، هذا أَكْبَرُ أي مما تقدّمه من الكوكب و القمر قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ أي من الأشياء التي تجعلونها شركاء للّه و تعبدونها، و ما موصولة أو مصدرية، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع و لا تضرّ مستدلا على ذلك بأفولها الذي هو دليل حدوثها إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ أي قصدت بعبادتي و توحيدي اللّه عزّ و جلّ؛ و ذكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدّم، و قد تقدّم معنى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً مائلا إلى الدين الحق. قوله: وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ أي وقعت منهم المحاجة له في التوحيد بما يدلّ على ما يدّعونه من أن ما يشركون به و يعبدونه من الأصنام آلهة، فأجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه اللّه عنه أنه قال: أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ أي في كونه لا شريك له و لا ندّ و لا ضدّ. و قرأ نافع بتخفيف نون أ تحاجوني. و قرأ الباقون بتشديدها بإدغام نون الجمع في نون الوقاية و نافع خفف فحذف إحدى النونين، و قد أجاز ذلك سيبويه. و حكى عن أبي عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن، و جملة وَ قَدْ هَدانِ في محل نصب على الحال؛ أي هداني إلى توحيده و أنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة و الجهالة و عدم الهداية. قوله:

وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ قال هذا لما خوّفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه و تصيبه بمكروه، أي إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات اللّه لا يضر و لا ينفع، و الضمير في به يجوز رجوعه إلى اللّه و إلى معبوداتهم المدلول عليها بما في ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً أي إلا وقت مشيئة ربي بأن يلحقني شيئا من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه، و ذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التي لا تضرّ و لا تنفع. و المعنى:

على نفى حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال، و إثبات الضرر و النفع للّه سبحانه و صدورهما حسب مشيئته، ثم علل ذلك بقوله: وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أى إنّ علمه محيط بكلّ شىء، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، و إذا شاء إنزال شرّ بى كان، ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن، ثم قال لهم مكملا للحجة عليهم و دافعا لما خوّفوه به وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً أى كيف أخاف ما لا يضرّ و لا ينفع و لا يخلق و لا يرزق، و الحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك باللّه، و هو الضارّ النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامى الذى لا يجدون عنه مخلصا و لا متحوّلا، و الاستفهام للإنكار عليهم و التقريع، و ما فى ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً: مفعول أشركتم، أى و لا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التى لم ينزل بها عليكم سلطانا شركاء للّه، أو: المعنى أن اللّه سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له و لا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدوها و اتخذوها آلهة و جعلوها شركاء للّه سبحانه؟ قوله: فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ المراد بالفريقين فريق المؤمنين و فريق المشركين: أى إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودى هو اللّه المتصف بتلك الصفات،

و معبودكم هى تلك المخلوقات، فكيف تخوّفونى بها؟ و كيف أخافها و هى بهذه المنزلة و لا تخافون من إشراككم باللّه سبحانه؟ و بعد هذا فأخبرونى: أىّ الفريقين أحقّ بالأمن و عدم الخوف إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ بحقيقة الحال و تعرفون البراهين الصحيحة و تميزونها عن الشّبه الباطلة؟ ثم قال اللّه سبحانه قاضيا بينهم و مبينا لهم:

الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أى هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا، و قيل: هو من تمام قول إبراهيم؛ و قيل: هو من قول قوم إبراهيم. و معنى لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ لم يخلطوه بظلم. و المراد بالظلم: الشرك، لما ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليس هو كما تظنّون، إنما هو كما قال لقمان: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «۱»»، و العجب من صاحب الكشاف حيث يقول فى تفسير هذه الآية: و أبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس. و هو لا يدرى أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل «۲»، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول المتصف بما سبق، و لَهُمُ الْأَمْنُ جملة وقعت خبرا عن اسم الإشارة، هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه وَ هُمْ مُهْتَدُونَ إلى الحق ثابتون عليه، و غيرهم على ضلال و جهل، و الإشارة بقوله: تِلْكَ حُجَّتُنا إلى ما تقدّم من الحجج التى أوردها إبراهيم عليهم: أى تلك البراهين التى أوردها إبراهيم عليهم من قوله: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ إلى قوله: وَ هُمْ مُهْتَدُونَ. وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ أى أعطيناه إياها و أرشدناه إليها، و جملة آتَيْناها إِبْراهِيمَ فى محل نصب على الحال، أو فى محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة عَلى قَوْمِهِ أى حجة على قومه نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بالهداية و الإرشاد إلى الحق و تلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ أى حكيم فى كل ما يصدر عنه عليم بحال عباده، و أن منهم من يستحقّ الرفع و منهم من لا يستحقّه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ قال: الآزر الصنم و أبو إبراهيم اسمه: يازر و أمه اسمها: مثلى و امرأته اسمها: سارة، و سريته أم إسماعيل اسمها: هاجر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:

آزر لم يكن بأبيه و لكنه اسم صنم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: اسم أبيه تارخ و اسم الصنم:

آزر. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سليمان التيمى، أنه قرأ وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ قال: بلغنى: أنها أعوج، و أنها أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال:

إنّ والد إبراهيم لم يكن اسمه آزر، و إنما اسمه تارخ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه فى قوله تعالى: وَ كَذلِكَ نُرِى إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: الشمس و القمر و النجوم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال

---

(١). لقمان: ١٣.

(٢). هذا مثل يضرب فى الاستغناء عن الأشياء الصغيرة إذا وجد ما هو أكبر منها و أعظم نفعا (الأمثال اليمانية ١/ ٩٥)

فى الآية: كشف ما بين السموات حتى نظر إليهنّ على صخرة، و الصخرة على حوت، و هو الحوت الذى منه طعام الناس، و الحوت فى سلسلة، و السلسلة فى خاتم العزّة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى الآية: قال: سلطانهما. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله: وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ يقول: خاصموه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ تُحاجُّونِّي قال: أ تخاصمونى.

و أخرج ابن أبى شيبة و الحكيم الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى بكر الصديق أنه فسر وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ بالشرك، و كذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب، و كذلك أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن حذيفة بن اليمان، و كذلك أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سلمان الفارسى، و كذلك أخرجا أيضا عن أبىّ بن كعب، و كذلك أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس. و أخرج عنه من طريق أخرى عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ مثله، و قد روى عن جماعة من التابعين مثل ذلك، و يغنى عن الجميع ما قدّمنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تفسير الآية كما هو ثابت فى الصحيحين و غيرهما. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى: وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ قال: خصمهم. و أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى قوله: نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ قال: بالعلم. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (٨٦) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (٨٩) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (٩٠)

قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ معطوف على جملة وَ تِلْكَ حُجَّتُنا عطف جملة فعلية على جملة اسمية و قيل:

معطوف على آتيناها، و الأوّل أولى. و المعنى: و وهبنا ذلك جزاء له على الاحتجاج فى الدين و بذل النفس فيه، و كُلًّا هَدَيْنا انتصاب كُلًّا على أنه مفعول لما بعده مقدّم عليه للقصر: أى كلّ واحد منهما هديناه، و كذلك نوحا منصوب بهدينا الثانى أو بفعل مضمر يفسره ما بعده وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أى من ذرية إبراهيم، و قال الفراء: من ذرية نوح. و اختاره ابن جرير الطبرى و القشيرى و ابن عطية، و اختار الأوّل الزّجاج، و اعترض عليه بأنه عدّ من هذه الذّرية يونس و لوطا و ما كانا من ذرية إبراهيم، فإن لوطا هو

ابن أخى إبراهيم، و انتصب داوُدَ وَ سُلَيْمانَ بفعل مضمر أى و هدينا من ذريته داود و سليمان، و كذلك

ما بعدهما، و إنما عدّ اللّه سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التى عدّدها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء. و معنى: مِنْ قَبْلُ فى قوله: وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ أى من قبل إبراهيم، و الإشارة بقوله:

وَ كَذلِكَ إلى مصدر الفعل المتأخر: أى و مثل ذلك الجزاء نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَ إِلْياسَ قال الضحّاك: هو من ولد إسماعيل، و قال القتبى: هو من سبط يوشع بن نون. و قرأ الأعوج و الحسن و قتادة وَ إِلْياسَ بوصل الهمزة. و قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو و عاصم وَ الْيَسَعَ مخففا. و قرأ الكوفيون إلا عاصما بلامين. و كذا قرأ الكسائى و رد القراءة الأولى، و لا وجه للردّ فهو اسم أعجمى، و العجمة لا تؤخذ بالقياس بل تؤدّى على حسب السّماع، و لا يمتنع أن يكون فى الاسم لغتان للعجم، أو تغيره العرب تغييرين. قال المهدوى: من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع و الألف و اللام مزيدتان، كما فى قول الشاعر:

رأيت اليزيد بن الوليد مباركاشديدا بأعباء الخلافة كاهله

و من قرأ بلامين فالاسم ليسع، و قد توهم قوم أن اليسع هو إلياس و هو و هم، فإن اللّه أفرد كلّ واحد منهما، و قال وهب: اليسع صاحب إلياس، و كانوا قبل يحيى و عيسى و زكريا؛ و قيل: إلياس هو إدريس، و هذا غير صحيح لأنّ إدريس جدّ نوح و إلياس من ذريته؛ و قيل: إلياس هو الخضر؛ و قيل: لا، بل اليسع هو الخضر وَ كُلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ أى كل واحد فضلناه بالنبوّة على عالمى زمانه، و الجملة معترضة.

قوله: وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ أى هدينا، وَ مِنْ للتبعيض: أى هدينا بعض آبائهم و ذرياتهم و أزواجهم وَ اجْتَبَيْناهُمْ معطوف على فضلنا، و الاجتباء الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته، فالاجتباء ضم الذى تجتبيه إلى خاصيتك. قال الكسائى: جبيت الماء فى الحوض جبى مقصور، و الجابية الحوض، قال الشاعر:

... كجابية الشّيخ العراقىّ تفهق «١» و الإشارة بقوله: ذلِكَ هُدَى اللَّهِ إلى الهداية و التّفضيل و الاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة يَهْدِي بِهِ اللّه مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و هم الذين وفقهم للخير و اتباع الحق وَ لَوْ أَشْرَكُوا أى هؤلاء المذكورون بعبادة غير اللّه لَحَبِطَ عَنْهُمْ من حسناتهم ما كانُوا يَعْمَلُونَ و الحبوط البطلان.

و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ إلى الأنبياء المذكورين سابقا: أى جنس الكتاب ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين وَ الْحُكْمَ العلم وَ النُّبُوَّةَ الرسالة أو ما هو أعمّ من ذلك فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ الضمير فى بها: للحكم و النبوّة و الكتاب، أو للنبوّة فقط، و الإشارة بهؤلاء إلى كفّار قريش المعاندين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً هذا جواب الشرط، أى ألزمنا بالإيمان بها قوما لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ و هم المهاجرون و الأنصار، أو الأنبياء المذكورون

---

(١). و صدره: نفى الذم عن آل المحلق جفنة. و البيت للأعشى.

سابقا، و هذا أولى لقوله فيما بعد أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ فإنّ الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين و الأنصار إذ لا يصحّ أن يؤمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالاقتداء بهداهم، و تقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء: و الاقتداء: طلب موافقة الغير فى فعله. و قيل المعنى: اصبر كما صبروا؛ و قيل: اقتد بهم فى التوحيد، و إن كانت جزئيات الشرائع مختلفة، و فيها دلالة على أنه صلّى اللّه عليه و سلّم مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نصّ. قوله: قُلْ

لاـ أَسْئَلُكَمْ عَلَيْهِ أَجْراً أمره اللّه بـأن يخبرهم بـأنه لاـ يسألهم أجرا على القرآن، و أن يقـول لهم: مـا هُوَ إِلَّا ذِكْرى يعنى القرآن لِلْعالَمِينَ أى موعظة و تذكير للخلق كافة الموجودين عند نزوله و من سيوجد من بعد.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن كعب قال: الخال والد و العم والد، نسب اللّه عيسى إلى أخواله فقال: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ حتى بلغ إلى قوله: وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى و أخرج أبو الشيخ و الحـاكم و البيهقى عن عبـد الملك بن عمير قال: دخل يحيى بن يعمر على الحجّاج فذكر الحسين، فقال الحجّاج:

لم يكن من ذريـة النبى، فقـال يحيى: كـذبت، فقـال: لتأتينى على ما قلت ببينـة، فتلا وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إلى قوله: وَ عِيسى فأخبر اللّه أن عيسى من ذرية آدم بأمه، فقال: صدقت. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود قال: أرسل الحجّاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغنى أنك تزعم أن الحسن و الحسين من ذرية النبى، تجده فى كتاب اللّه، و قد قرأته من أوّله إلى آخره فلم أجده؟ فذكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدّم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

وَ اجْتَبَيْناهُمْ قـال: أخلصـناهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيـد فى قوله: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ قال: يريد هؤلاء الذين هديناهم و فعلنا بهم. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: الحكم:

اللب. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قوله: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهـا هؤُلاـءِ يعنى أهل مكـة، يقول: إن يكفروا بالقرآن فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ يعنى: أهل المدينـة و الأنصار. و أخرج عبـد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً قال: هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال اللّه فيهم: فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ و أخرج ابن أبى شيبة و عبـد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى رجاء العطاردى قال فى الآية: هم الملائكة. و أخرج البخارى و النسائى و غيرهما عن ابن عباس فى قوله: فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قال: أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقتـدى بهـداهم و كان يسجد فى ص، و لفظ ابن أبى حـاتم عن مجاهـد: سألت ابن عباس عن السجدة التى فى ص، فقال هـذه الآيـة «١»، و قـال: أمر نبيكم أن يقتدى بداود عليه السلام. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً قال: قل لهم يا محمد لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضا من عروض الدنيا.

---

(١). آية السجدة فى سورة ص هى وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ [سورة ص: ٢۴].

فتح القدير، ج‏٢، ص: ١۵٨

[سورة الأنعام (۶): الآيات ٩١ الى ٩۴]

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩٢) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْ‏ءٌ وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩۴)

قوله: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ قدرت الشـى‏ء و قدّرته عرفت مقداره، و أصـله: الستر، ثم استعمل فى معرفة الشى‏ء، أى لم يعرفوه

حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسل و إنزاله للكتب. و قيل المعنى: و ما قدروا نعم اللّه حق تقديرها. و قرأ أبو حيوة: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدَرِهِ بفتح الدال: و هى لغة، و لما وقع منهم هذا الإنكار و هم من اليهود أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها، فقال: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِى جاءَ بِهِ مُوسى و هم يعترفون بذلك و يذعنون له، فكان فى هذا من التبكيت لهم، و التقريع ما لا يقادر قدره، مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال اللّه «١» على البشر و هم الأنبياء عليهم السلام، فبطل جحدهم و تبيّن فساد إنكارهم؛ و قيل: إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش، فيكون إلزامهم بإنزال اللّه الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك و يعلمونه بالأخبار من اليهود، و قد كانوا يصدقونهم و نُوراً وَ هُدىً منتصبان على الحال و لِلنَّاسِ متعلّق بمحذوف هو صفة لهدى: أى كائنا للناس. قوله: تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ أى تجعلون الكتاب الذى جاء به موسى فى قراطيس تضعونه فيها ليتمّ لكم ما تريدونه من التحريف و التبديل و كتم صفة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المذكورة فيه، و هذا ذمّ لهم، و الضمير فى تُبْدُونَها راجع إلى القراطيس، و فى تَجْعَلُونَهُ راجع إلى الكتاب، و جملة تجعلونه فى محل نصب على الحال، و جملة تبدونها صفة لقراطيس وَ تُخْفُونَ كَثِيراً معطوف على تُبْدُونَها: أى و تخفون كثيرا منها، و الخطاب فى وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ لليهود، أى و الحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم و لا آباؤكم، و يحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقرّرة لما قبلها، و الذى علموه هو الذى أخبرهم به نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم من الأمور التى أوحى اللّه إليه بها، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم و لا على لسان أنبيائهم و لا علمه آباؤهم، و يجوز أن يكون ما فى ما لَمْ تَعْلَمُوا عبارة عما علموه من التوراة، فيكون ذلك على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة؛ و قيل: الخطاب للمشركين من قريش و غيرهم، فتكون ما

---

(١). أى إنزال الكتب السماوية على الأنبياء الذين هم من البشر.

عبارة عما علموه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أمر اللّه رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذى ألزمهم به حيث قال: مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِى جاءَ بِهِ مُوسى فقال: قُلِ اللَّهُ أى أنزله اللّه ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ أى ذرهم فى باطلهم حال كونهم يلعبون، أى يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون. قوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ هذا من جملة الرد عليهم فى قولهم: ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ أخبرهم بأن اللّه أنزل التوراة على موسى، و عقبه بقوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ يعنى على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فكيف تقولون:

ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ و مبارك و مصدق: صفتان لكتاب، و المبارك: كثير البركة، و المصدق: كثير التصديق، و الذى بين يديه: ما أنزله اللّه من الكتب على الأنبياء من قبله كالتوراة و الإنجيل، فإنه يوافقها فى الدعوة إلى اللّه و إلى توحيده و إن خالفها فى بعض الأحكام. قوله: وَ لِتُنْذِرَ قيل: هو معطوف على ما دل عليه مبارك، كأنه قيل: أنزلناه للبركات و لتنذر، و خص أم القرى و هى مكة لكونها أعظم القرى شأنا، و لكونها أوّل بيت وضع للناس، و لكونها قبلة هذه الأمة و محلّ حجهم، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض و المراد بمن حولها جميع أهل الأرض، و المراد بأنذر أمّ القرى: إنذار أهلها و أهل سائر الأرض فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مبتدأ، و يُؤْمِنُونَ بِهِ خبره، و المعنى: أن من حقّ من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب و يصدقه و يعمل بما فيه، لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرها و يندفع به ضرّها، و جملة وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ فى محل نصب على الحال، و خص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات لكونها عمادها و بمنزلة الرأس لها. قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً هذه

الجملة مقررة لمضمون ما تقدّم من الاحتجاج عليهم بأن اللّه أنزل الكتب على رسله: أى كيف تقولون: ما أنزل اللّه على بشر من شىء، و ذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام، و لا أحد أظلم ممن افترى على اللّه كذبا فزعم أنه نبىّ و ليس بنبىّ، أو كذب على اللّه فى شىء من الأشياء أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ أى و الحال أنه لم يوح إليه شىء، و قد صان اللّه أنبياءه عما تزعمون عليهم، و إنما هذا شأن الكذّابين رؤوس الإضلال كمسيلمة الكذّاب و الأسود العنسىّ و سجاح. و قوله: وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ معطوف على مِمَّنِ افْتَرى أى و من أظلم ممن افترى أو ممن قال: أوحى إلىّ و لم يوح إليه شىء، أو ممن قال: سأنزل مثل ما أنزل اللّه، و هم القائلون:

لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا و قيل: هو عبد اللّه بن أبى سرح، فإنه كان يكتب الوحى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأملى عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فقال عبد اللّه: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هكذا أنزلت» فشكّ عبد اللّه حينئذ و قال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه، و لئن كان كاذبا لقد قلت كما قال، ثم ارتدّ عن الإسلام و لحق بالمشركين، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف. قوله: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح له، و المراد كلّ ظالم، و يدخل فيه الجاحدون لما أنزل اللّه، و المدّعون للنبوات افتراء على اللّه دخولا أوّليا، و جواب لو: محذوف، أى لرأيت أمرا عظيما، و الغمرات: جمع غمرة، و هى الشدّة، و أصلها الشىء

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۶۰

الذى يغمر الأشياء فيغطيها، و منه غمرة الماء، ثم استعملت فى الشدائد، و منه غمرة الحرب. قال الجوهرى:

و الغمرة: الشدّة و الجمع غمر؛ مثل نوبة و نوب، و جملة وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ فى محل نصب:

أى و الحال أن الملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواح الكفار؛ و قيل: للعذاب، و فى أيديهم مطارق الحديد، و مثله قوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ «۱». قوله:

أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ أى قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التى وقعتم فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا و خلصوها من العذاب، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم و سلموها إلينا لنقبضها الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أى اليوم الذى تقبض فيه أرواحكم، أو أرادوا باليوم الوقت الذى يعذبون فيه الذى مبدؤه عذاب القبر، و الهون و الهوان بمعنى، أى اليوم تجزون عذاب الهوان الذى تصيرون به فى إهانة و ذلّة بعد ما كنتم فيه من الكبر و التّعاظم، و الباء فى بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِ للسببية: أى بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال اللّه كتبه على رسله و الإشراك به وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ عن التّصديق لها و العمل بها فكان ما جوزيتم به من عذاب الهون جَزاءً وِفاقاً. قوله: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى قرأ أبو حيوة فرادى بالتنوين، و هى لغة تميم، و قرأ الباقون بألف التأنيث للجمع فلم ينصرف. و حكى ثعلب «فراد» بلا تنوين مثل: ثلاث و رباع، و فرادى جمع فرد كسكارى جمع سكران و كسالى جمع كسلان، و المعنى:

جئتمونا منفردين واحدا واحدا كل واحد منفرد عن أهله و ماله و ما كان يعبده من دون اللّه فلم ينتفع بشىء من ذلك كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى على الصفة التى كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم، و الكاف نعت مصدر محذوف: أى جئتمونا مجيئا مثل مجيئكم عند خلقنا لكم، أو حال من ضمير فرادى: أى مشابهين ابتداء خلقنا لكم وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ أى أعطيناكم، و الخول ما أعطاه اللّه للإنسان من متاع الدنيا: أى تركتم ذلك خلفكم لم تأتونا بشىء منه و لا انتفعتم به بوجه من الوجوه وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ عبدتموهم و قلتم: ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى «۲» و زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ للّه يستحقّون منكم العبادة كما يستحقها. قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ قرأ نافع و الكسائى و حفص بنصب بينكم على الظرفية، و فاعل

تقطع محذوف، أى تقطع الوصل بينكم، أنتم و شركاؤكم كما يدل عليه: وَ ما نَرى مَعَكَمْ شُفَعاءَكُمُ و قرأ الباقون بالرفع على إسناد التقطع إلى البين، أى وقع التقطّع بينكم، و يجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع فى إسناد الفعل إلى الظرف، و إنما نصب لكثرة استعماله ظرفا. و قرأ ابن مسعود لقد تقطع ما بينكم على إسناد الفعل إلى ما، أى الذى بينكم وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ من الشركاء و الشرك، و حيل بينكم و بينهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ قال: هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة اللّه، فمن آمن أن اللّه على كل شىء قدير قد قدر اللّه حقّ قدره، و من لم يؤمن بذلك فلم يقدر اللّه حقّ قدره، إذ قالوا: ما أنزل اللّه على بشر من شىء.

قالت اليهود: يا محمد أنزل اللّه عليك كتابا؟ قال: نعم، قالوا: و اللّه ما أنزل اللّه من السماء كتابا،

---

(۱). الأنفال: ۵۰.

(۲). الزمر: ۳.

فأنزل اللّه قُلْ يا محمد مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِی جاءَ بِهِ مُوسی إلى آخر الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلی بَشَرٍ مِنْ شَیْءٍ قالها مشركو قريش. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ قال: قال فنحاص اليهودى: ما أنزل اللّه على محمد من شىء، فنزلت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة قال: نزلت فى مالك بن الصيف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف.

فخاصم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال له النبى: «أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التّوراة أن اللّه يبغض الحبر السّمين؟ و كان حبرا سمينا، فغضب و قال: و اللّه ما أنزل اللّه على بشر من شىء، فقال له أصحابه: ويحك و لا على موسى؟ قال: ما أنزل اللّه على بشر من شىء، فنزلت». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ قال: اليهود، و قوله: وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قال: هذه للمسلمين. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا قال: هم اليهود آتاهم اللّه علما فلم يقتدوا به، و لم يأخذوا به، و لم يعملوا به، فذمّهم اللّه فى علمهم ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ قال: هو القرآن الذى أنزله اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: مُصَدِّقُ الَّذِی بَيْنَ يَدَيْهِ أى من الكتب التى قد خلت قبله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُری قال: مكة و من حولها. قال: يعنى ما حولها من القرى إلى المشرق و المغرب. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: إنما سمّيت أمّ القرى لأن أوّل بيت وضعت «۱» بها. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُری قال: هى مكة، قال: و بلغنى أن الأرض دحيت من مكة. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار نحوه. و أخرج الحاكم فى المستدرك عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَیْءٌ الآية، فلما دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة فرّ إلى عثمان أخيه من الرضاعة، فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة، ثم استأمن له. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى خلف الأعمى: أنها نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح و كذلك روى ابن أبى حاتم عن السدىّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِیَ إِلَیَّ

وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ قال: نزلت فی مسيلمة الكذّاب و نحوه ممن دعا إلی مثل ما دعا إليه وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ قال: نزلت فی عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن عكرمة نحوه.

و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً- فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً «٢» قال النضر و هو من بنی عبد الدار: و الطّاحنات طحنا، و العاجنات عجنا، قولا كثيرا. فأنزل اللّه:

---

(١). أی: الكعبة المشرقة.

(٢). المرسلات: ١- ٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ١۶٢

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فی قوله: غَمَراتِ الْمَوْتِ قال: سكرات الموت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه قال فی قوله:

وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ هذا عند الموت، و البسط: الضرب يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ*.

و أخرج أبو الشيخ عنه قال فی الآية: هذا ملک الموت عليه السلام. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن الضحاک فی قوله: وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ قال: بالعذاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: عَذابَ الْهُونِ قال: الهوان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لی اللات و العزّی، فنزلت:

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فی قوله:

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى الآية، قال: كيوم ولد يردّ عليه كل شیء نقص منه يوم ولد. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن السدّی فی قوله: وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ قال: من المال و الخدم وَراءَ ظُهُورِكُمْ قال: فی الدنيا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فی قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ قال: ما كان بينهم من الوصل. و أخرج ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فی قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ قال: تواصلكم فی الدنيا.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ٩۵ الی ٩٩]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩۵) فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩۶) وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِی ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

قوله: إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى هذا شروع فی تعداد عجائب صنعه تعالی و ذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنی شیء منه، و الفلق: الشق؛ أی هو سبحانه فالق الحبّ فيخرج منه النبات، و فالق النوی فيخرج منه الشجر؛ و قيل: معنی فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى الشق الذی فيهما من أصل الخلقة؛ و قيل: معنی فالِقُ خالق. و النوی: جمع نواة يطلق علی كل ما فيه عجم كالتمر و المشمش و الخوخ. قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ هذه الجملة خبر بعد خبر فهی فی محل رفع؛ و قيل: هی جملة مفسرة لما قبلها، لأن معناها معناه، و الأول

أولى، فإن معنى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ يخرج الحيوان من مثل النطفة و البيضة و هى ميتة.

و معنى وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ مخرج النطفة و البيضة و هى ميتة من الحىّ، و جملة وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۶۳

مِنَ الْحَيِ معطوفة على يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ عطف جملة اسمية على جملة فعلية و لا ضير فى ذلك؛ و قيل: معطوفة على فالِقُ على تقدير أن جملة يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ مفسرة لما قبلها، و الأوّل أولى، و الإشارة ب ذلِكُمُ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقا و اللَّهَ خبره. و المعنى: أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكلّ كمال، و المفضل بكلّ إفضال، و المستحقّ لكلّ حمد و إجلال فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه و كمال قدرته. قوله: فالِقُ الْإِصْباحِ مرتفع على أنه من جملة أخبار إِنَ فى إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى و قيل: هو نعت للاسم الشريف فى ذلِكُمُ اللَّهُ و قرأ الحسن و عيسى بن عمر فالق الإصباح بفتح الهمزة، و قرأ الجمهور بكسرها، و هو على قراءة الفتح جمع صبح، و على قراءة الكسر مصدر أصبح، و الصبح و الصباح: أوّل النهار، و كذا الإصباح، و قرأ النّخعى «فلق الإصباح» بفعل و همزة مكسورة. و المعنى فى فالِقُ الْإِصْباحِ أنه شاقّ الضّياء عن الظلام و كاشفه، أو يكون المعنى على حذف مضاف: أى فالق ظلمة الإصباح، و هى الغبش، أو فالق عمود الفجر عن بياض النهار، لأنه يبدو مختلطا بالظلمة ثم يصير أبيض خالصا. و قرأ الحسن و عيسى ابن عمر و عاصم و حمزة و الكسائى وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً حملا على معنى فالِقُ عند حمزة و الكسائى، و أما عند الحسن و عيسى فعطفا على فلق. و قرأ الجمهور و جاعل عطفا على فالق. و قرئ فالق و جاعل بنصبهما على المدح. و قرأ يعقوب «و جاعل الليل ساكنا». و السكن: محل السكون، من سكن إليه: إذا اطمأنّ إليه، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة فى معاشهم و يستريحون من التعب و النصب. قوله: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً بالنصب على إضمار فعل: أى و جعل الشمس و القمر، و بالرفع على الابتداء، و الخبر محذوف تقديره و الشمس و القمر مجعولان حسبانا، و بالجرّ على الليل على قراءة من قرأ: و جاعل الليل. قال الأخفش: و الحسبان: جمع حساب، مثل شهبان و شهاب. و قال يعقوب: حسبان: مصدر حسبت الشىء أحسبه حسابا و حسبانا. و الحساب: الاسم؛ و قيل: الحسبان بالضم: مصدر حسب بالفتح، و الحسبان بالكسر: مصدر حسب. و المعنى: جعلهما محلّ حساب تتعلّق به مصالح العباد، و سيرهما على تقدير لا يزيد و لا ينقص، ليدلّ عباده بذلك على عظيم قدرته و بديع صنعه؛ و قيل الحسبان: الضّياء، و فى لغة أن الحسبان:

النار، و منه قوله تعالى: وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ «۱» و الإشارة ب ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل أو بجعل على القراءتين. و العزيز: القاهر الغالب. و العليم: كثير العلم، و من جملة معلوماته: تسييرهما على هذا التدبير المحكم. قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها أى خلقها للاهتداء بها فِي ظُلُماتِ الليل عند المسير فى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ و إضافة الظلمات إلى البرّ و البحر لكونها ملابسة لهما، أو المراد بالظلمات: اشتباه طرقهما التى لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، و هذه إحدى منافع النجوم التى خلقها اللّه لها، و منها ما ذكره اللّه فى قوله: وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ «۲». وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ «۳»، و منها: جعلها زينة للسّماء، و من زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على اللّه الفرية قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ التى بيناها بيانا مفصلا لتكون أبلغ فى الإعتبار لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بما فى هذه الآيات من

---

(۱). الكهف: ۴۰.

(۲). الصافات: ۷.

(۳). الملك: ۵.

فتح القدير، ج‏2، ص: 164
الدلالة على قدرة اللّه و عظمته و بديع حكمته. قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ أي آدم عليه السلام كما تقدّم، و هذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قرأ ابن عباس و سعيد بن جبير و الحسن و أبو عمرو و عيسى و الأعرج و النّخعي بكسر القاف و الباقون بفتحها، و هما مرفوعان على أنهما مبتداءان و خبرهما محذوف، و التقدير: فمنكم مستقرّ أو فلكم مستقرّ، التقدير الأوّل على القراءة الأولى، و الثاني على الثانية: أي فمنكم مستقرّ على ظهر الأرض، أو فلكم مستقرّ على ظهرها، و منكم مستودع في الرّحم أو في باطن الأرض أو في الصلب؛ و قيل: المستقرّ في الرحم، و المستودع في الأرض؛ و قيل: المستقرّ في القبر. قال القرطبي: و أكثر أهل التفسير يقولون: المستقرّ ما كان في الرحم، و المستودع ما كان في الصلب؛ و قيل: المستقرّ من خلق، و المستودع من لم يخلق؛ و قيل: الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث.

و مما يدل على تفسير المستقرّ بالكون على الأرض قول اللّه تعالى: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ* «1»، و ذكر سبحانه هاهنا يَفْقَهُونَ و فيما قبله يَعْلَمُونَ لأنّ في إنشاء الأنفس من نفس واحدة و جعل بعضها مستقرّا و بعضها مستودعا من الغموض و الدّقة ما ليس في خلق النجوم للاهتداء، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تدقيق و إمعان فكر. قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته. و الماء هو ماء المطر، و في فَأَخْرَجْنا بِهِ التفات من الغيبة إلى التكلّم إظهارا للعناية بشأن هذا المخلوق و ما ترتب عليه، و الضمير في بِهِ عائد إلى الماء، و نَباتَ كُلِّ شَيْ‏ءٍ يعني كل صنف من أصناف النبات المختلفة؛ و قيل: المعنى رزق كل شي‏ء، و التفسير الأوّل أولى. ثم فصل هذا الإجمال فقال:

فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً قال الأخفش: أي أخضر. و الخضر: رطب البقول، و هو ما يتشعّب من الأغصان الخارجة من الحبة؛ و قيل: يريد القمح و الشعير و الذرة و الأرز و سائر الحبوب نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا هذه الجملة صفة لخضرا: أي نخرج من الأغصان الخضر حبا متراكبا: أي مركبا بعضه على بعضه كما في السنابل وَ مِنَ النَّخْلِ خبر مقدّم، و مِنْ طَلْعِها بدل منه، و على قراءة من قرأ يخرج منه حبّ يكون ارتفاع قنوان على أنه معطوف على حب، و أجاز الفراء في غير القرآن قنوانا عطفا على حبا، و تميم يقولون قنيان. و قرئ بضم القاف و فتحها باعتبار اختلاف اللغتين، لغة قيس، و لغة أهل الحجاز. و الطلع: الكفرى قبل أن ينشق عن الإغريض «2»، و الإغريض يسمى طلعا أيضا. و القنوان: جمع قنو، و الفرق بين جمعه و تثنيته أن المثنى مكسور النون، و الجمع على ما يقتضيه الإعراب، و مثله صنوان. و القنو: العذق. و المعنى: أن القنوان أصله من الطلع. و العذق هو عنقود النخل، و قيل القنوان: الجمار. و الدانية: القريبة التي ينالها القائم و القاعد.

قال الزجاج: المعنى: منها دانية، و منها بعيدة فحذف، و مثله سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «3» و خصّ الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر و الامتنان، و ذلك فيما يقرب تناوله أكثر. قوله: وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ

---

(1). البقرة: 36.

(2). قال في القاموس: الطّلع من النخيل شي‏ء يخرج كأنه نعلان مطبقان و قشره يسمى الكفرى و ما في داخله الإغريض لشدة بياضه.

(3). النحل: 81.

فتح القدير، ج‏2، ص: 165
قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى و الأعمش و عاصم في قراءته الصحيحة عنه برفع جنات، و قرأ الباقون بالنصب. و أنكر القراءة الأولى أبو عبيدة و أبو حاتم حتى قال أبو حاتم: هي محال، لأنّ الجنّات لا تكون من النخل. قال النحاس: ليس تأويل

الرفع على هـذا، و لكنه رفع بالابتـداء، و الخبر محـذوف: أى و لهم جنات، كما قرأ جماعـة من القراء وَ حُورٌ عِينٌ «١» و قد أجاز مثل هذا سيبويه و الكسائى و الفراء، و أما على النصب فقيل:

هو معطوف على نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ أى و أخرجنا به جنات كائنة من أعناب، أو النصب بفعل يقدّر متأخرا:

أى وجنـات من أعنـاب أخرجناهـا، و هكـذا القول فى انتصـاب الزيتون و الرمان: و قيل: هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين، و مُشْتَبِهاً منتصب على الحال: أى كل واحد منهما يشبه بعضه بعضا فى بعض أوصافه و لا يشبه بعضه بعضا فى البعض الآخر؛ و قيل: إن أحدهما يشبه الآخر فى الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن و باعتبار حجمه، و لا يشبه أحدهما الآخر فى الطعم؛ و قيـل: خصّ الزيتون و الرمـان لقرب منابتهمـا من العرب كمـا فى قول اللّه سبحانه: أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ «٢»، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر و إلى ينعه إذا أينع. و الثمر فى اللغة: جنى الشجر. و اليانع:

الناضـج الـذى قـد أدرك و حان قطافه. قال ابن الأنبارى: الينع جمع يانع، كركب و راكب. و قال الفراء، أينع: احمرّ، قرأ حمزة و الكسائى ثَمَرِهِ بضم الثاء و الميم، و قرأ الباقون بفتحهما، إلا الأعمش فإنه قرأ ثمره بضم الثاء و سكون الميم تخفيفا. و قرأ محمد بن السّميقع و ابن محيصن و ابن أبى إسحاق وَ يَنْعِهِ بضم الياء التحتية. قال الفراء: هى لغة بعض أهل نجد. و قرأ الباقون بفتحها، و الإشـارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكُمْ إلى مـا تقـدّم ذكره مجملاـ و مفصـلا لَآيـاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه اسـتدلالا بما يشاهـدونه من عجائب مخلوقاته التى قصّها عليهم.

و قـد أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قـوله تعـالى: إِنَّ اللَّهَ فـالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يقـول: خلق الحب و النوى. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن قتادة قال: يفلق الحبّ و النوى عن النبات. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن مجاهد قال: الشقان اللذان فيهما. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن أبى مالك نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ قال: النخلة من النواة و السّـنبلة من الحبـة وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ قال: النواة من النخلـة، و الحبـة من السـنبلة. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ قـال: الناس الأحياء من النطف، و النطفـة ميتـة تخرج من الناس الأحياء، و من الأنعام و النبـات كـذلك أيضـا. و أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى فكيف تكـذبون. و أخرج أيضا عن الحسن قال: «أنى تصـرفون». و أخرج أيضـا عن ابن عباس فى فالِقُ الْإِصْـباحِ قال: «خلق الليل و النهار». و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عنه قال: يعنى بالإصباح: ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى فالِقُ الْإِصْباحِ قال: إضاءة الفجر. و أخرج عبد الرزاق و عبد

---

(١). الواقعة: ٢٢.

(٢). الغاشية: ١٧.

ابن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: فالِقُ الْإِصْـباحِ قال: فالق الصبح. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً قال: سـكن فيه كل طير و دابـة. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْـباناً يعنى عدد الأيام و الشـهور و السنين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهـا فِي ظُلُمـاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قـال: يضـلّ الرجـل و هـو فى الظّلمـة، و الجور: عن الطّريق. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر، و الخطيب فى كتاب النجوم عن عمر بن الخطاب قال: تعلموا من النجوم ما تهتـدون به فى برّكم و بحركم ثم أمسـكوا، فإنها و اللّه

ما خلقت إلا زينة للسماء، و رجوما للشياطين، و علامات يهتدى بها. و أخرج عبد الرزاق و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن مردويه و الخطيب عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «تعلّموا من النجوم ما تهتدون به فى ظلمات البرّ و البحر، ثم انتهوا».

و قد ورد فى استحباب مراعاة الشمس و القمر لذكر اللّه سبحانه، لا لغير ذلك؛ أحاديث، منها عند الحاكم و صححه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أحبّ عباد اللّه إلى اللّه الذين يراعون الشمس و القمر لذكر اللّه». و أخرج ابن شاهين و الطبرانى و الحاكم و الخطيب عن عبد اللّه بن أبى أوفى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر نحوه. و أخرج أحمد فى الزهد، و الخطيب عن أبى الدرداء نحوه. و أخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن أبى هريرة نحو حديثه الأول مرفوعا. و أخرج الحاكم فى تاريخه، و الديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثلاثة يظلّهم اللّه فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظله: التاجر الأمين، و الإمام المقتصد، و راعى الشمس بالنهار». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد عن سلمان الفارسى قال:

«سبعة فى ظلّ اللّه يوم لا ظلّ إلا ظله، فذكر منهم الرجل الذى يراعى الشمس لمواقيت الصلاة». فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر اللّه و الصلاة لا لغير ذلك. و قد جعل اللّه انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس، و أوّل صلاة الظهر زوالها، و وقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية، و وقت المغرب غروب الشمس. و ورد فى صلاة العشاء: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يصليها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر» و به يعرف أوائل الشهور و أوساطها و أواخرها. فمن راعى الشمس و القمر بهذه الأمور فهو الذى أراده صلّى اللّه عليه و سلّم، و من راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد، و هكذا النجوم، ورد النهى عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه و الخطيب عن علىّ قال: نهانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن النّظر فى النجوم. و أخرج ابن مردويه و المرهبى و الخطيب عن أبى هريرة قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن النّظر فى النجوم. و أخرج الخطيب عن عائشة مرفوعا مثله.

و أخرج الطبرانى و أبو نعيم فى الحلية و الخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا ذكر أصحابى فأمسكوا، و إذا ذكر القدر فأمسكوا، و إذا ذكرت النّجوم فأمسكوا». و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد». فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء و التفكر و الاعتبار. و ما ورد فى جواز النظر فى النجوم فهو مقيد بالاهتداء و التفكر و الاعتبار كما يدلّ عليه حديث ابن عمر السابق، و عليه يحمل

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٦٧

ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه: أنه سأل رجلا عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرّج أن يخبره، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه و وددت أنى علمته. و قد أخرج أبو داود و الخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أما بعد، فإن ناسا يزعمون أن كسوف هذه الشمس، و كسوف هذا القمر، و زوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، و إنهم قد كذبوا، و لكنها آيات من آيات اللّه يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة». و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما فى كسوف الشمس و القمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد و لا لحياته، و لكن يخوّف اللّه بهما عباده». و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة مرفوعا:

«إن اللّه نصب آدم بين يديه، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذرّيته من صلبه حتى ملؤوا الأرض»، فهذا الحديث هو معنى ما فى الآية، وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و

ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صحّحه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قال: المستقر ما كان فى الرّحم، و المستودع ما استودع فى أصلاب الرجال و الدواب. و فى لفظ: المستقر ما فى الرحم و على ظهر الأرض و بطنها مما هو حىّ و مما قد مات. و فى لفظ: المستقرّ ما كان فى الأرض، و المستودع ما كان فى الصّلب. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود فى الآية: قال: مستقرّها فى الدنيا، و مستودعها فى الآخرة. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: المستقرّ: الرحم، و المستودع: المكان الذى يموت فيه. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن و قتادة فى الآية قالا: مستقرّ فى القبر، و مستودع فى الدنيا، أوشك أن يلحق بصاحبه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله:

نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً قال: هذا السنبل. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قِنْوانٌ دانِيَةٌ قال قريبة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قِنْوانٌ دانِيَةٌ قال: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قنوان: الكبائس، و الدانية: المنصوبة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قِنْوانٌ دانِيَةٌ قال:

تهدل العذوق من الطّلع. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ قال: متشابها ورقه مختلفا ثمره. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله: انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ قال: رطبه و عنبه. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن البراء وَ يَنْعِهِ قال: نضجه.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٠ الى ١٠٣]

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

فتح القدير، ج٢، ص: ١٦٨

هذا الكلام يتضمّن ذكر نوع آخر من جهالاتهم و ضلالاتهم. قال النحاس: الجنّ: المفعول الأوّل، و شركاء: المفعول الثانى، كقوله تعالى: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً «١»، وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً «٢» و أجاز الفراء: أن يكون الجنّ بدلا من شركاء و مفسّرا له. و أجاز الكسائى رفع الجنّ بمعنى هم الجنّ، كأنه قيل:

من هم؟ فقيل: الجنّ، و بالرفع قرأ يزيد بن قطيب و أبو حيان، و قرئ بالجرّ على إضافة شركاء إلى الجنّ للبيان.

و المعنى: أنهم جعلوا شركاء للّه فعبدوهم كما عبدوه، و عظموهم كما عظموه. و قيل: المراد بالجنّ هاهنا الملائكة لاجتنانهم: أى استتارهم، و هم الذين قالوا: الملائكة بنات اللّه؛ و قيل: نزلت فى الزنادقة الذين قالوا: إن اللّه تعالى و إبليس أخوان، فاللّه خالق الناس و الدوابّ، و إبليس خالق الحيات و السباع و العقارب. و روى ذلك عن الكلبى، و يقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا: للعالم صانعان هما الربّ سبحانه و الشيطان. و هكذا القائلون: كل خير من النور، و كل شرّ من الظلمة، و هم المانوية.

قوله: وَ خَلَقَهُمْ جملة حالية بتقدير قد: أى و قد علموا أن اللّه خلقهم، أو خلق ما جعلوه شريكا للّه. قوله: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ قرأ نافع بالتشديد على التكثير، لأن المشركين ادّعوا أن الملائكة بنات اللّه، و النصارى ادّعوا أن المسيح ابن اللّه، و اليهود ادّعوا أن عزيزا ابن اللّه، فكثر ذلك من كفرهم فشدّد الفعل لمطابقة المعنى. و قرأ الباقون بالتخفيف. و قرئ «حرفوا» من التحريف: أى زوّروا. قال أهل اللغة: معنى خرقوا: اختلفوا و افتعلوا و كذبوا، يقال: اختلق الإفك و اخترقه و خرقه، أو أصله من خرق الثوب: إذا

شقه: أى اشتقوا له بنين و بنات. قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بمحذوف و هو حال: أى كائنين بغير علم، بل قالوا: ذلك عن جهل خالص، ثم بعد حكاية هذا الضلال البيّن و البهت الفظيع من جعل الجنّ شركاء للّه، و إثبات بنين و بنات له نزه اللّه نفسه، فقال: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَصِفُونَ و قد تقدّم الكلام فى معنى سبحانه. و معنى تَعالى تباعد و ارتفع عن قولهم الباطل الذى وصفوه به. قوله: بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى مبدعهما، فكيف يجوز أن يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ و قد جاء البديع: بمعنى المبدع كالسميع بمعنى المسمع كثيرا، و منه قول عمرو بن معدى كرب:

أمن ريحانة الدّاعى السّميع يورّقنى و أصحابى هجوع؟

أى المسمع، و قيل: هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل، و الأصل بديع سماواته و أرضه. و أجاز الكسائى خفضه على النعت للّه. و الظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ و خبره أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ و قيل: هو مرفوع على أنه فاعل تَعالى و قرئ بالنصب على المدح، و الاستفهام فى أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ للإنكار. و الاستبعاد، أى من كان هذا وصفه، و هو أنه خالق السموات و الأرض و ما فيهما كيف يكون له ولد؟ و هو من جملة مخلوقاته، و كيف يتخذ ما يخلقه ولدا، ثم بالغ فى نفى الولد، فقال: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ أى كيف يكون له ولد و الحال أنه لم تكن له صاحبة، و الصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد، و جملة وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لتقرير ما قبلها، لأن من كان خالقا لكل شىء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولدا وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، و الإشارة بقوله:

---

(١). المائدة: ٢٠.

(٢). المدثر: ١٢.

ذلِكُمُ إلى الأوصاف السابقة، و هو فى موضع رفع على الابتداء و ما بعده خبره، و هو الاسم الشريف، و رَبُّكُمْ خبر ثان، و لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خبر ثالث، و خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ خبر رابع، و يجوز أن يكون اللَّهُ رَبُّكُمْ بدلا من اسم الإشارة، و كذلك لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ خبر المبتدأ، و يجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ، و أجاز الكسائى و الفراء النصب فيه فَاعْبُدُوهُ أى: من كانت هذه صفاته، فهو الحقيق بالعبادة، فاعبدوه و لا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شىء.

قوله: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ الأبصار: جمع بصر، و هو الحاسة، و إدراك الشىء: عبارة عن الإحاطة به. قال الزجاج: أى لا تبلغ كنه حقيقته، فالمنفىّ هو هذا الإدراك لا مجرّد الرؤية. فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا شك فيه و لا شبهة، و لا يجهله إلا من يجهل السّنّة المطهرة جهلا عظيما، و أيضا قد تقرّر فى علم البيان و الميزان أن رفع الإيجاب الكلى سلب جزئى؛ فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار و هى أبصار الكفار، هذا على تسليم أنّ نفى الإدراك يستلزم نفى الرؤية، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة، و الآية من سلب العموم لا من عموم السلب، و الأوّل تخلفه الجزئية، و التقدير: لا تدركه كلّ الأبصار بل بعضها، و هى أبصار المؤمنين. و المصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرّفناك من تواتر الرؤية فى الآخرة. و اعتضادها بقوله تعالى:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ «١» الآية. قوله: وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ أى يحيط بها و يبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية، و خصّ الأبصار ليجانس ما قبله. و قال الزجاج: فى هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار:

أى لا يعرفون كيفية حقيقة البصر و ما الشىء الذى صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، انتهى. وَ هُوَ اللَّطِيفُ أى الرفيق بعباده: يقال لطف فلان بفلان: أى رفق به، و اللطف فى العمل: الرفق فيه، و اللطف من اللّه: التوفيق و العصمة، و ألطفه بكذا: إذا أبرّه. و الملاطفة:

المبارّة، هكذا قال الجوهرى و ابن فارس، و الْخَبِيرُ المختبر بكل شىء بحيث لا يخفى عليه شىء.
و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ قال: و اللّه خلقهم وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ قال: تخرّصوا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ خَرَقُوا قال: جعلوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:

كذبوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و العقيلى و ابن عدى و أبو الشيخ و ابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ قال: «لو أنّ الإنس و الجنّ و الملائكة و الشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفّوا صفّا واحدا ما أحاطوا باللّه أبدا». قال الذهبى: هذا حديث منكر. انتهى. و فى إسناده عطية العوفى و هو ضعيف. و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: رأى محمد ربّه. قال عكرمة: فقلت له أليس اللّه يقول: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ قال:

لا أمّ لك ذاك نوره إذا تجلّى بنوره لا يدركه شىء، و فى لفظ: إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر.

و أخرج ابن جرير عنه قال: لا يحيط بصر أحد باللّه. و أخرج أبو الشيخ، و البيهقى فى كتاب الرؤية عن الحسن

(۱). القيامة: ۲۲.

فى قوله: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ قال: فى الدّنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن إسماعيل بن علية مثله.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۸]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۱۰۴) وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۰۵) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۶) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۷) وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۰۸)

البصائر: جمع بصيرة، و هى فى الأصل: نور القلب، و المراد بها هنا الحجّة البيّنة و البرهان الواضح، و هذا الكلام وارد على لسان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لهذا قال فى آخره: وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ و وصف البصائر بالمجىء تفخيما لشأنها و جعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه كما يقال: جاءت العافية، و انصرف المرض، و أقبلت السعود، و أدبرت النحوس فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ أى: فمن تعقل الحجة و عرفها و أذعن لها فنفع ذلك لنفسه لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار وَ مَنْ عَمِيَ عن الحجّة و لم يتعقّلها و لا أذعن لها، فضرر ذلك على نفسه لأنه يتعرض لغضب اللّه فى الدنيا و يكون مصيره النار وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ برقيب أحصى عليكم أعمالكم، و إنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى و هو الحفيظ عليكم. قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف عن عبادة الأوثان وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أى مثل ذلك التصريف البديع نصرفها فى الوعد و الوعيد و الوعظ و التنبيه. قوله: وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ العطف على محذوف: أى نصرّف الآيات لتقوم الحجّة و ليقولوا درست، أو علة لفعل محذوف يقدّر متأخرا، أى:

و ليقولوا درست صرّفناها، و على هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة. و المعنى: و مثل ذلك التصريف نصرّف الآيات و ليقولوا:

درست، فإنه لا احتفال بقولهم، و لا اعتداد بهم، فيكون معناه: الوعيد و التهديد لهم، و عدم الاكتراث بقولهم. و قد أشار إلى مثل هذا الزجاج. و قال النحاس: و فى المعنى قول آخر حسن، و هو أن يكون معنى نُصَرِّفُ الْآياتِ نأتى بها آية بعد آية لِيَقُولُوا دَرَسْتَ علينا فيذكرون الأوّل بالآخر، فهذا حقيقته، و الذى قاله أبو إسحاق:- يعنى الزجاج- مجاز، و فى دَرَسْتَ قراءات، قرأ أبو عمرو و ابن كثير «دارست» بألف بين الدال و الراء كفاعلت، و هى قراءة علىّ و ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد و عكرمة و أهل مكة. و قرأ ابن عامر درست بفتح السين و إسكان التاء من غير ألف كخرجت، و هى قراءة الحسن. و قرأ الباقون دَرَسْتَ كضربت، فعلى القراءة الأولى المعنى: دارست أهل الكتاب و دارسوك: أى ذاكرتهم و ذاكروك، و يدلّ على هذا ما وقع فى الكتاب العزيز من إخبار اللّه عنهم بقوله:

وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ «١» أى أعان اليهود النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على القرآن، و مثله قولهم: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا «٢»، و قولهم: إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ «٣». و المعنى على القراءة الثانية: قدمت هذه الآيات و عفت و انقطعت، و هو كقولهم: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ*. و المعنى على القراءة الثالثة مثل المعنى على

---

(١). الفرقان: ۴.

(٢). الفرقان: ۵.

(٣). النحل: ١٠٣.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٧١

القراءة الأولى. قال الأخفش: هى بمعنى دارست إلا أنه أبلغ. و حكى عن المبرد أنه قرأ: و ليقولوا بإسكان اللام فيكون فيه معنى التهديد، أى: و ليقولوا ما شاؤوا فإن الحق بين، و فى هذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة فهو من الدرس و هو القراءة؛ و قيل من درسته: أى ذللته بكثرة القراءة، و أصله درس الطعام:

أى داسه. و الدّياس: الدّراس بلغة أهل الشام؛ و قيل: أصله من درست الثوب أدرسه درسا: أى أخلقته، و درست المرأة درسا: أى حاضت، و يقال: إن فرج المرأة يكنى أبا أدراس و هو فى الحيض، و الدّرس أيضا:

الطّريق الخفى. و حكى الأصمعى: بعير لم يدرّس: أى لم يركب. و روى عن ابن عباس و أصحابه و أبى و ابن مسعود و الأعمش أنهم قرءوا درس أى درس محمد الآيات، و قرئ درست و به قرأ زيد ابن ثابت: أى الآيات على البناء للمفعول، و دارست أى دارست اليهود محمدا، و اللام فى لِنُبَيِّنَهُ لام كى: أى نصرف الآيات لكى نبينه لقوم يعلمون، و الضمير راجع إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن، أو إلى القرآن و إن لم يجر له ذكر، لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين المدلول عليه بالفعل. قوله: اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ أمره اللّه باتباع ما أوحى إليه و أن لا يشغل خاطره بهم، بل يشتغل باتباع ما أمره اللّه، و جملة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ معترضة بين المعطوف و المعطوف عليه لقصد تأكيد إيجاد الاتباع وَ أَعْرِضْ معطوف على اتَّبِعْ أمره اللّه بالإعراض عن المشركين بعد ما أمره باتباع ما أوحى إليه، و هذا قبل نزول آية السيف وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا أى لو شاء اللّه عدم إشراكهم ما أشركوا، و فيه أن الشرك بمشيئة اللّه سبحانه، و الكلام فى تقرير هذا على الوجه الذى يتعارف به أهل علم الكلام، و الميزان معروف فلا نطيل بإيراده وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً أى: رقيبا وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى: قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم، ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة. قوله: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ الموصول عبارة عن الآلهة التى كانت تعبدها الكفار. و المعنى: لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التى يدعونها من دون اللّه، فيتسبّب عن ذلك سبّهم للّه عدوانا و تجاوزا عن الحقّ و جهلا منهم.

و فی هـذه الآیـة دلیل على أن الـداعی إلى الحقّ و النّاهی عن الباطل إذا خشـی أن یتسبب عن ذلک ما هو أشد منه من انتهاک حرم، و مخالفة حق، و وقوع فی باطل أشد کان الترک أولى به، بل کان واجبا علیه، و ما أنفع هذه الآیة و أجل فائدتها لمن کان من الحـاملین لحجج اللّه المتصـدین لبیانهـا للنـاس إذا کان بین قوم من الصم و البکم الـذین إذا أمرهم بمعروف ترکوه و ترکوا غیره من المعروف، و إذا نهـاهم عن منکر فعلوه و فعلوا غیره من المنکرات عنـادا للحق و بغضـا لاتباع المحقین و جراءة على اللّه سبحـانه، فإن هؤلاء لا یؤثر فیهم إلّا السـیف، و هو الحکم العـدل لمن عائـد الشـریعة المطهرة و جعل المخالفـة لها و التجرؤ على أهلها دیدنه و هجّیراه «۱»، کما یشاهـد ذلک فی أهل البدع الذین إذا دعوا إلى حقّ وقعوا فی کثیر من الباطل، و إذا أرشدوا إلى السّـنّة قابلوها بما لـدیهم من البدعـة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالـدّین، المتهاونون بالشـرائع، و هم شـرّ من الزنادقة، لأنهم یحتجّون بالباطل، و ینتمون

---

(۱). دیدنه و هجّیراه: دأبه و عادته و ما یولع بذکره.

إلى البدع، و یتظهرون بذلک غیر خائفین و لا وجلین، و الزنادقة قد ألجمتهم سـیوف الإسلام و تحاماهم أهله، و قد ینفق کیدهم و یتم باطلهم و کفرهم نادرا على ضـعیف من ضـعفاء المسـلمین مع تکتم و تحرز و خیفة و وجل، و قد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هـذه الآیـة محکمـة ثابتة غیر منسوخة، و هی أصل أصـیل فی سدّ الذرائع و قطع التطرّق إلى الشبه. و قرأ أهل مکة عدوا بضم العین و الـدال و تشدیـد الواو، و هی قراءة الحسن و أبی رجاء و قتادة. و قرأ من عـداهم بفتـح العین و ضم الـدال و تشدید الواو، و معنى القراءتین واحـد: أی ظلما و عـدوانا، و هو منتصب على الحال، أو على المصـدر أو على أنه مفعول له کَذلِکَ زَیَّنَّا لِکُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ أی مثل ذلک التزیین زینا لکل أمـة من أمم الکفار عملهم من الخیر و الشـرّ یُضِلُّ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ* «۱» ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ فی الدنیا من المعاصـی التی لم ینتهوا عنها، و لا قبلوا من المرسلین ما أرسلهم اللّه به إلیهم، و ما تضمنته کتبه المنزلة علیهم.

و قـد أخرج عبـد بن حمیـد و ابن المنـذر و ابن أبی حاتم و أبو الشـیخ عن قتادة فی قوله: قَدْ جاءَکُمْ بَصائِرُ أی بینـة فَمَنْ أَبْصَـرَ فَلِنَفْسِهِ أی فمن اهتدى فإنما یهتدی لنفسه وَ مَنْ عَمِیَ أی من ضلّ فَعَلَیْها. و أخرج سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن مردویه و الضـیاء فی المختارة عن ابن عباس أنه کان یقرأ دارست و قال: قرأت. و أخرج عبـد بن حمیـد و ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشـیخ و ابن مردویه عنه دَرَسْتَ قال: قرأت و تعلمت. و أخرج عبد الرزاق و سـعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و أبو الشـیخ و ابن مردویه عنه أیضا قال: دارست خاصـمت، جادلت، تلوت. و أخرج أبـو الشـیخ عن السـدیّ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْـرِکِینَ قـال: کفّ عنهم، و هـذا منسوخ، نسخه القتـال فَاقْتُلُوا الْمُشْـرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۲». و أخرج ابن أبی حاتم و البیهقی فی الأسـماء و الصـفات عن ابن عباس فی قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْـرَکُوا یقول اللّه تبارک و تعالى:

لو شـئت لجمعتهم على الهـدى أجمعین. و أخرج ابن أبی حـاتم عن قتـادة فی قوله: وَ مـا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ أی بحفیظ. و أخرج ابن جریر و ابن المنـذر و ابن أبی حـاتم و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: وَ لا تَسُـبُّوا الَّذِینَ یَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قال: قالوا یا محمد لتنتهینّ عن سبک آلهتنا أو لنهجونّ ربک، فنهاهم اللّه أن یسـبّوا أوثانهم فَیَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ و قد ثبت فی الصحیح أن رسول اللّه صـلّى اللّه علیه و سلّم قال: «ملعون من سبّ والدیه، قالوا: یا رسول اللّه! و کیف یسبّ الرجل والدیه؟ قال: یسبّ أبا الرجل فیسبّ أباه، و یسبّ أمه فیسبّ أمه».

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱۰) وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (۱۱۱) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (۱۱۲) وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (۱۱۳)

---

(۱). النحل: ۹۳.

(۲). التوبة: ۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۷۳

قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ أى الكفار مطلقا، أو كفار قريش، و جهد الأيمان: أشدّها، أى أقسموا باللّه أشدّ أيمانهم التى بلغتها قدرتهم، و قد كانوا يعتقدون أنّ اللّه هو الإله الأعظم، فلهذا أقسموا به، و انتصاب جهد على المصدرية و هو بفتح الجيم المشقة، و بضمها الطاقة، و من أهل اللغة من يجعلهما لمعنى واحد، و المعنى:

أنهم اقترحوا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم آية من الآيات التى كانوا يقترحونها، و أقسموا لئن جاءتهم هذه الآية التى اقترحوها لَيُؤْمِنُنَّ بِها و ليس غرضهم الإيمان، بل معظم قصدهم التحكّم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و التلاعب بآيات اللّه، فأمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم بقوله: إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ هذه الآية التى يقترحونها و غيرها و ليس عندى من ذلك شىء، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها، و إن أراد أن لا ينزلها لم ينزلها. قوله: وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ قرأ أبو عمرو و ابن كثير بكسر الهمزة من أنها و هى قراءة مجاهد، و يؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود و ما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون قال مجاهد و ابن زيد: المخاطب بهذا:

المشركون: أى و ما يدريكم، ثم حكم عليهم بقوله: أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ و قال الفراء و غيره:

الخطاب للمؤمنين، لأن المؤمنين قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: يا رسول اللّه! لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون، فقال اللّه تعالى: وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ و قرأ أهل المدينة و الأعمش و حمزة و الكسائى و عاصم و ابن عامر أَنَّها إِذا جاءَتْ بفتح الهمزة، قال الخليل: أنها بمعنى لعلها، و فى التنزيل وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى «۱» أى أنّه يزكّى. و حكى عن العرب: ائت السوق أنك تشترى لنا شيئا: أى لعلك، و منه قول عدى ابن زيد:

أعاذل ما يدريك أنّ منيّتى إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

أى لعل منيتى، و منه قول دريد بن الصّمّة:

أرينى جوادا مات هزلا لأنّنى أرى ما ترين أو بخيلا مخلّدا

أى لعلنى، و قول أبى النجم:

قلت لشيبان ادن من لقائه أنّ تغدّى اليوم من شوائه

أى لعلى، و قول جرير:

هل أنتم عائجون بنا لأنّ نرى العرصات أو أثر الخيام

أى لعلنا اه. و قد وردت فى كلام العرب كثيرا بمعنى لعل. و حكى الكسائى أنها كذلك فى مصحف أبىّ بن كعب. و قال الكسائى أيضا و الفرّاء: إن لا- زائدة، و المعنى: و ما يشعركم أنها: أى الآيات، إذا جاءت يؤمنون فزيدت كما زيدت فى قوله تعالى: وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ «٢» و فى

---

(١). عبس: ٣.

(٢). الأنبياء: ٩٥.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٧۴

قوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «١» و ضعّف الزجّاج و النحّاس و غيرهما زيادة لا و قالوا: هو غلط و خطأ.

و ذكر النحاس و غيره أن فى الكلام حذفا و التقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع.

قوله: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ معطوف على لا يُؤْمِنُونَ قيل: و المعنى: نقلّب أفئدتهم و أبصارهم يوم القيامة على لهب النار و حرّ الجمر كَما لَمْ يُؤْمِنُوا فى الدنيا وَ نَذَرُهُمْ فى الدنيا:

أى نمهلهم و لا- نعاقبهم فعلى هذا بعض الآية فى الآخرة. و بعضها فى الدنيا؛ و قيل: المعنى: و نقلب أفئدتهم و أبصارهم فى الدنيا، أى نحول بينهم و بين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية كما حلنا بينهم و بين ما دعوتهم إليه أوّل مرة عند ظهور المعجزة؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا، و نقلب أفئدتهم و أبصارهم و نذرهم فى طغيانهم يعمهون: أى يتحيّرون، و الكاف فى كَما لَمْ يُؤْمِنُوا نعت مصدر محذوف، و ما مصدرية، و يَعْمَهُونَ فى محل نصب على الحال. قوله: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ أى: لا يؤمنون و لو نزلنا إليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ «٢»، وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم، فقالوا لهم: إن هذا النبى صادق مرسل من عند اللّه فآمنوا به، لم يؤمنوا وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ مما سألوه من الآيات قُبُلًا أى كفلا و ضمنا بما جئناهم به من الآيات البينات. هذا على قراءة من قرأ قبلا بضم القاف و هم الجمهور. و قرأ نافع و ابن عامر قبلا بكسرها: أى مقابلة. و قال محمد بن يزيد المبرد: قبلا بمعنى ناحية، كما تقول: لى قبل فلان مال، فقبلا- نصب على الظرف، و على المعنى الأوّل ورد قوله تعالى: أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا أى: يضمنون، كذا قال الفرّاء. و قال الأخفش: هو بمعنى قبيل قبيل؛ أى جماعة جماعة. و حكى أبو زيد: لقيت فلانا قبلا و مقابلة و قبلا كله واحد بمعنى المواجهة، فيكون على هذا الضم كالكسر و تستوى القراءتان. و الحشر: الجمع ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إيمانهم، فإن ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن، و الاستثناء مفرغ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ جهلا يحول بينهم و بين درك الحق و الوصول إلى الصواب. قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍ هذا الكلام لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و دفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم، أى مثل هذا الجعل جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا و المعنى: كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار.

فجعلنا لكل واحد منهم عدوا من كفار زمنهم، و شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ بدل من عَدُوًّا و قيل:

هو المفعول الثانى لجعلنا. و قرأ الأعمش: الجن و الإنس بتقديم الجن، و المراد بالشّياطين: المردة من الفريقين، و الإضافة بيانية أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و الأصل الإنس و الجن: الشياطين، و جملة يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ فى محل نصب على الحال، أى حال كونه يوسوس بعضهم لبعض؛ و قيل: إنّ الجملة مستأنفة لبيان حال العدوّ، و سمى و حيا لأنه إنما يكون خفية بينهم، و جعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه، و المزخرف: المزين، و زخارف الماء طرائقه، و غُرُوراً منتصب على المصدر، لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض يغرونهم بذلك غرورا، و يجوز أن يكون فى موضع الحال، و يجوز أن يكون مفعولا له، و

الغرور:

الباطل. قوله: وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ ما فَعَلُوهُ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقا من الأمور التى جرت من

---

(۱). الأعراف: ۱۲.

(۲). الأنعام: ۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۷۵

الكفار فى زمنه و زمن الأنبياء قبله، أى: لو شاء ربک عدم وقوع ما تقدّم ذكره ما فعلوه و أوقعوه؛ و قيل:

ما فعلوا الإيحاء المدلول عليه بالفعل فَذَرْهُمْ أى اتركهم، و هذا الأمر لتهديد للكفار كقوله: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً «۱»، وَ ما يَفْتَرُونَ إن كانت ما مصدرية فالتقدير: اتركهم و افتراءهم، و إن كانت موصولة فالتقدير: اتركهم و الذى يفترونه. قوله: وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ اللام فى لتصغى لام كى، فتكون علة كقوله يُوحِي و التقدير. يوحى بعضهم إلى بعض ليغروهم و لتصغى؛ و قيل: هو متعلق بمحذوف يقدر متأخرا، أى: لتصغى جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا، و قيل: إن اللام للأمر و هو غلط، فإنها لو كانت لام الأمر جزمت الفعل، و الإصغاء: الميل، يقال: صغوت أصغو صغوا، و صغيت أصغى؛ و يقال: صغيت بالكسر؛ و يقال أصغيت الإناء: إذا أملته ليجتمع ما فيه، و أصله: الميل إلى الشىء لغرض من الأغراض، و يقال صغت النجوم: إذا مالت للغروب، و أصغت الناقة: إذا أمالت رأسها، و منه قول ذى الرّمّة:

تصغى إذا شدّها بالكور جانحةحتّى إذا ما استوى فى غرزها تثب

و الضمير فى إِلَيْهِ لزخرف القول، أو لما ذكر سابقا من زخرف القول و غيره: أى أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروهم وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ من الكفار وَ لِيَرْضَوْهُ لأنفسهم بعد الإصغاء إليه وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ من الآثام، و الاقتراف:

الاكتساب؛ يقال: خرج ليقترف لأهله: أى ليكتسب لهم، و قارف فلان هذا الأمر: إذا واقعه، و قرفه:

إذا رماه بالريبة، و اقترف: كذب، و أصله اقتطاع قطعة من الشىء.

و قد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ فى قريش وَ ما يُشْعِرُكُمْ يا أيها المسلمون أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ و أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: كلّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قريشا فقالوا: يا محمد! تخبرنا أنّ موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر، و أن عيسى كان يحيى الموتى، و أن ثمود لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدّقك، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«أى شىء تحبون أن آتيكم به»؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبا، قال: «فإن فعلت تصدقونى»؟ قالوا:

نعم، و اللّه لئن فعلت لنتبعنک أجمعون، فقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدعو، فجاءه جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهبا فإن لم يصدقوا عند ذلک لنعذبنهم، و إن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال: «بل يتوب تائبهم»، فأنزل اللّه وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إلى قوله: يَجْهَلُونَ و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ قال: لما جحد المشركون ما أنزل اللّه لم تثبت قلوبهم على شىء و ردّت عن كل أمر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا قال:

معاينة ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أى أهل الشقاء إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أى أهل السّعادة و الذين سبق لهم فى علمه أن يدخلوا فى الإيمان. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا

(١). المدثر: ١١.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٧۶

أى فعاينوا ذلک معاينة. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: أفواجا قبيلا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ قال: إنّ للجنّ شياطين يضلّونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، فيلتقى شيطان الإنس و شيطان الجنّ، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا و أضلله بكذا، فهو يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً و قال ابن عباس: الجنّ هم الجانّ و ليسوا شياطين، و الشياطين ولد إبليس و هم لا يموتون إلا مع إبليس و الجنّ يموتون، فمنهم المؤمن و منهم الكافر. و أخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: الكهنة هم شياطين الإنس. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قال: شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، فإن اللّه يقول: وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: من الإنس شياطين و من الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس زُخْرُفَ الْقَوْلِ قال: يحسن بعضهم لبعض القول؛ يتبعوهم فى فتنتهم. و قد أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا أبا ذر تعوّذ باللّه من شرّ شياطين الجنّ و الإنس، قال: يا نبيّ اللّه و هل للإنس شياطين؟ قال: نعم، شياطين الإنس و الجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا». و أخرج أحمد و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن أبى ذرّ مرفوعا نحوه.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لِتَصْغى تميل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه وَ لِتَصْغى تزيغ وَ لِيَقْتَرِفُوا يكتسبوا.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ١١۴ الى ١١٧]

أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١۴) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١۵) وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

قوله: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على فعل مقدّر، و الكلام هو على إرادة القول، و التقدير: قل لهم يا محمد: كيف أضلّ و أبتغى غير اللّه حكما؟ و غير: مفعول لأبتغى مقدّم عليه، و حكما:

المفعول الثانى أو العكس. و يجوز أن ينتصب حكما على الحال، و الحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر فى مثل هذه الصفة المشتقة. أمره اللّه سبحانه و تعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه من أن يجعل بينه و بينهم حكما فيما اختلفوا فيه، و إنّ اللّه هو الحكم العدل بينه و بينهم، و جملة وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا فى محل نصب على الحال: أى كيف أطلب حكما غير اللّه و هو الذى أنزل عليكم القرآن مفصلا مبينا واضحا مستوفيا لكلّ قضية على التفصيل، ثم أخبر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن أهل الكتاب و إن أظهروا الجحود و المكابرة، فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند اللّه بما دلتهم عليه كتب اللّه المنزلة كالتوراة و الإنجيل من أنه رسول اللّه و أنه خاتم الأنبياء،

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٧٧

و بِالْحَقِ متعلّق بمحذوف وقع حالا: أى متلبسا بالحق الذى لا شك فيه و لا شبهة، ثم نهاه اللّه عن أن يكون من الممترين فى أن

أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند اللّه بالحق، أو نهاه عن مطلق الامتراء و يكون ذلك تعريضا لأمته عن أن يمترى أحد منهم، أو الخطاب لكل من يصلح له، أى: فلا يكوننّ أحد من الناس من الممترين و لا يقدح فى ذلك كون الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإن خطابه خطاب لأمته. قوله:

وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا قرأ أهل الكوفة: كلمة، بالتوحيد، و قرأ الباقون: بالجمع، و المراد بالكلمات: العبارات أو متعلقاتها من الوعد و الوعيد. و المعنى: أنّ اللّه قد أتمّ وعده و وعيده، فظهر الحق و انطمس الباطل؛ و قيل: المراد بالكلمة أو الكلمات: القرآن، و صِدْقاً وَ عَدْلًا منتصبان على التمييز أو الحال أو على أنهما نعت مصدر محذوف، أى: تمام صدق و عدل لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ لا خلف فيها و لا مغير لما حكم به، و الجملة المنفية فى محل نصب على الحال أو مستأنفة وَ هُوَ السَّمِيعُ لكل مسموع الْعَلِيمُ بكل معلوم. قوله: وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أخبره اللّه سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من فى الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، و هم الطائفة التى لا تزال على الحق و لا يضرّها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: المراد بالأكثر: الكفار؛ و قيل: المراد بالأرض: مكة، أى: أكثر أهل مكة، ثم علل ذلك سبحانه بقوله: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ أى: ما يتبعون إلا الظنّ الذى لا أصل له، و هو ظنّهم أن معبوداتهم تستحق العبادة و أنها تقربهم إلى اللّه وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أى و ما هم إلا يخرصون، أى يحدسون و يقدّرون، و أصل الخرص: القطع، و منه خرص النخل يخرص: إذا حزره ليأخذ منه الزكاة، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين منه، و إذا كان هذا حال أكثر من فى الأرض فالعلم الحقيقى هو عند اللّه، فاتبع ما أمرك به ودع عنك طاعة غيره، و هو العالم بمن يضلّ عن سبيله و من يهتدى إليه. قال بعض أهل العلم: إن أَعْلَمُ فى الموضعين بمعنى يعلم، قال:

و منه قول حاتم الطائى:

تحالفت طيّ من دوننا حلفاو اللّه أعلم ما كنّا لهم خذلا

و الوجه فى هذا التأويل أن أفعل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر، فتكون من منصوبة بالفعل الذى جعل أفعل التفضيل نائبا عنه؛ إن أفعل التفضيل على بابه و النصب بفعل مقدّر؛ و قيل: إنها منصوبة بأفعل التفضيل أى إن ربك أعلم أىّ الناس يضلّ عن سبيله؛ و قيل: فى محل نصب بنزع الخافض: أى بمن يضلّ قاله بعض البصريين؛ و قيل: فى محل جرّ بإضافة أفعل التفضيل إليها.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مُفَصَّلًا قال: مبينا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: صِدْقاً وَ عَدْلًا قال: صدقا فيما وعد، و عدلا فيما حكم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و أبو نصر السجزى فى الإبانة عن محمد بن كعب القرظى فى قوله: لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ قال: لا تبديل لشىء قاله فى الدنيا و الآخرة لقوله: ما يُبَدَّلُ

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۷۸

الْقَوْلُ لَدَيَ «۱». و أخرج ابن مردويه و ابن النجار عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا قال: «لا إله إلا اللّه». و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى اليمان عامر بن عبد اللّه قال: دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد الحرام يوم فتح مكة و معه مخصرة، و لكل قوم صنم يعبدونه، فجعل يأتيها صنما صنما و يطعن فى صدر الصنم بعصا ثم يعقره، فكلما صرع صنما أتبعه الناس ضربا بالفؤوس حتى يكسروه و يطرحوه خارجا من المسجد، و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۸ الى ۱۲۰]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ ما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)

لما تقدّم ذكر ما يصنعه الكفار فى الأنعام من تلك السنن الجاهلية؛ أمر اللّه المسلمين بأن يأكلوا مما ذكر اسم اللّه عليه؛ و قيل: إنها نزلت فى سبب خاص و سيأتى، و لكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم اللّه حلّ إن كان مما أباح اللّه أكله. و قال عطاء: فى هذه الآية الأمر بذكر اللّه على الشراب و الذبح و كل مطعوم، و الشرط فى إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ للتهييج و الإلهاب: أى بأحكامه من الأوامر و النواهى التى من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم اللّه عليه، و الاستفهام فى وَ ما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ للإنكار: أى ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه بعد أن أذن اللّه لكم بذلك وَ الحال أن قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أى بين لكم بيانا مفصلا يدفع الشك و يزيل الشبهة بقوله: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً «٢» إلى آخر الآية، ثم استثنى فقال: إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ أى: من جميع ما حرّمه عليكم، فإن الضرورة تحلل الحرام، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة. قرأ نافع و يعقوب وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ بفتح الفعلين على البناء للفاعل، و هو اللّه سبحانه. و قرأ أبو عمرو و ابن عامر و ابن كثير بالضم فيهما على البناء للمفعول. و قرأ عطية العوفى فَصَّلَ بالتخفيف: أى أبان و أظهر. قوله:

وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ هم الكفار الذين كانوا يحرّمون البحيرة و السائبة و نحوهما. فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل كانوا يضلون الناس فيتبعونهم و لا يعلمون أن ذلك جهل و ضلالة لا يرجع إلى شىء من العلم، ثم أمرهم اللّه أن يتركوا ظاهر الإثم و باطنه. و الظاهر: ما كان يظهر كأفعال الجوارح، و الباطن: ما كان لا يظهر كأفعال القلب؛ و قيل: ما أعلنتم و ما أسررتم؛ و قيل: الزنا الظاهر و الزنا المكتوم.

و أضاف الظاهر و الباطن إلى الإثم لأنه يتسبب عنهما، ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على اللّه سبحانه.

و قد أخرج أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن

---

(١). ق: ٢٩.

(٢). الأنعام: ١٤٥.

مردويه عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قالوا: إنّا نأكل مما قتلنا و لا نأكل مما قتل اللّه فأنزل اللّه فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إلى قوله: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فإنه حلال إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ يعنى: القرآن مُؤْمِنِينَ قال: مصدقين وَ ما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يعنى: الذبائح وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ يعنى: ما حرّم عليكم من الميتة وَ إِنَّ كَثِيراً يعنى: من مشركى العرب لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ يعنى: فى أمر الذبائح. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ أى من الميتة و الدم و لحم الخنزير.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ قال: هو نكاح الأمهات و البنات وَ باطِنَهُ قال: هو الزّنا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: الظاهر منه: لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ «١» و حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ «٢» الآية، و الباطن: الزنا. و أخرج عبد الرزاق و

عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: علانيته و سرّه.

[سورة الأنعام (۶): آية ۱۲۱]

وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (۱۲۱)

نهى اللّه سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم اللّه عليه. و فيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه.

و قد اختلف أهل العلم فى ذلك؛ فذهب ابن عمر و نافع مولاه و الشعبى و ابن سيرين و هو رواية عن مالك و عن أحمد بن حنبل، و به قال أبو ثور و داود الظاهرى: أن ما لم يذكر اسم اللّه عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد و الناسى لهذه الآية، و لقوله تعالى فى آية الصيد: فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ «۳»، و يزيد هذا الاستدلال تأكيدا قوله سبحانه فى هذه الآية: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ

و قد ثبت فى الأحاديث الصّحيحة الأمر بالتسمية فى الصيد و غيره. و ذهب الشافعى و أصحابه و هو رواية عن مالك و رواية عن أحمد أن التسمية مستحبة لا واجبة، و هو مروىّ عن ابن عباس و أبى هريرة و عطاء بن أبى رباح، و حمل الشافعى الآية على من ذبح لغير اللّه و هو تخصيص للآية بغير مخصص. و قد روى أبو داود فى المرسل أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم اللّه أو لم يذكر». و ليس فى هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن قوما يأتوننا بلحمان لا ندرى أذكر اسم اللّه عليه أم لا؟ فقال: سمّوا أنتم و كلوا» يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح. و ذهب مالك و أحمد فى المشهور عنهما و أبو حنيفة و أصحابه و إسحاق بن راهويه أن التسمية إن

---

(۱). النساء: ۲۲.

(۲). النساء: ۲۳.

(۳). المائدة: ۴.

تركت نسيانا لم تضرّ، و إن تركت عمدا لم يحلّ أكل الذبيحة. و هو مروىّ عن علىّ و ابن عباس و سعيد بن المسيب و عطاء و طاوس و الحسن البصرى و أبى مالك و عبد الرحمن بن أبى ليلى و جعفر بن محمد و ربيعة بن أبى عبد الرحمن، و استدلوا بما أخرجه البيهقى عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «المسلم إن نسى أن يسمّى حين يذبح فليذكر اسم اللّه و ليأكله»، و هذا الحديث رفعه خطأ، و إنما هو من قول ابن عباس. و كذا أخرجه من قوله عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر؛ نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا «۱» كما سبق تقريره، و بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «رفع عن أمتى الخطأ و النّسيان» و أما حديث أبى هريرة الذى أخرجه ابن عدىّ: «أن رجلا جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه! أ رأيت الرجل منا يذبح و ينسى أن يسمّى؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «اسم اللّه على كلّ مسلم» فهو حديث ضعيف، قد ضعّفه البيهقى و غيره. قوله: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ الضمير يرجع إلى ما بتقدير مضاف أى: و إن أكل ما لم يذكر لفسق، و يجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا: أى فإن الأكل لفسق. و قد تقدّم تحقيق الفسق.

و قد استدلّ من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير اللّه بقوله: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ و وجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقا، بل الفسق الذّبح لغير اللّه. و يجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه اللّه عليه غير ممتنع شرعا وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ أى يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المباينة للصواب قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فيما يأمرونكم به و ينهونكم عنه إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ مثلهم.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: قال المشركون، و فى لفظ: قال اليهود: لا تأكلوا مما قتل اللّه و تأكلوا مما قتلتم أنتم! فأنزل اللّه وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ و أخرج ابن جرير و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه قال: لما نزلت وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدا، فقالوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، و ما ذبح اللّه بمسمار من ذهب- يعنى الميتة- فهو حرام، فنزلت وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ قال: الشياطين من فارس و أولياؤهم من قريش. و قد روى نحو ما تقدّم فى حديث ابن عباس الأوّل من غير طريق. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله: وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ قال: إبليس أوحى إلى مشركى قريش. و أخرج أبو داود و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله: وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ فنسخ، و استثنى من ذلك فقال: وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ و أخرج عبد بن حميد عن عبد اللّه بن يزيد الخطمى قال: كلوا ذبائح المسلمين و أهل الكتاب مما ذكر اسم اللّه عليه. و روى ابن أبى حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس فى النسخ.

---

(١). البقرة: ٢٨۶.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٨١

[سورة الأنعام (۶): الآيات ١٢٢ الى ١٢۴]

أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (١٢۴)

قوله: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام. و قرأ نافع و ابن أبى نعيم بإسكانها، قال النحاس: يجوز أن يكون محمولا على المعنى: أى انظروا و تدبروا: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً «١» أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ و المراد بالميت هنا: الكافر أحياه اللّه بالإسلام؛ و قيل معناه:

كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه. و الأوّل أولى، لأن السياق يشعر بذلك لكونه فى تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، و كثيرا ما تستعار الحياة للهداية و للعلم، و منه قول القائل:

و فى الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

و إنّ امرأ لم يحى بالعلم ميّت فليس له حتّى النّشور نشور

و النور: عبارة عن الهداية و الإيمان، و قيل: هو القرآن، و قيل: الحكمة، و قيل: هو النور المذكور فى قوله تعالى: يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ «٢» و الضمير فى به راجع إلى النور كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ أى: كمن صفته فى الظلمات، و مثله: مبتدأ، و

الظلمات: خبره، و الجملة: صفة لمن؛ و قيل: مثل زائدة، و المعنى: كمن فى الظلمات، كما تقول: أنا أكرم من مثلك، أى: منك، و مثله:
فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ «۳»، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «۴» و قيل المعنى: كمن مثله مثل من هو فى الظلمات، و لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها فى محل نصب على الحال أى: حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال. قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها أى: مثل ذلك الجعل جعلنا فى كل قرية، و الأكابر: جمع أكبر، قيل: هم الرؤساء و العظماء، و خصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد، و المكر: الحيلة فى مخالفة الاستقامة، و أصله الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة أى: يصرف عنه وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ أى: وبال مكرهم عائد عليهم وَ ما يَشْعُرُونَ بذلك لفرط جهلهم وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ من الآيات قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء، و هذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة و عجرفتهم العجيبة، و نظيره يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً «۵». و المعنى: إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة، فأجاب اللّه عنهم بقوله: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ أى إن اللّه أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولا و يكون موضعا لها و أمينا عليها، و قد اختار أن يجعل الرسالة فى محمد صفيه و حبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم، ثم توعّدهم بقوله: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ أى ذلّ و هوان، و أصله من الصغر كأنّ الذلّ يصغر إلى المرء نفسه؛ و قيل: الصغار هو

---

(۱). الأنعام: ۱۱۴.

(۲). الحديد: ۱۲.

(۳). المائدة: ۹۵.

(۴). الشورى: ۱۱.

(۵). المدثر: ۵۲.

الرضا بالذلّ، روى ذلك عن ابن السكيت.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ قال: كان كافرا ضالًّا فهديناه وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً و هو القرآن كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ الكفر و الضلالة.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: نزلت فى عمار بن ياسر.

و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ يعنى عمر بن الخطاب كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها يعنى أبا جهل بن هشام.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى الآية قال: نزلت فى عمر بن الخطاب و أبى جهل بن هشام كانا ميتين فى ضلالتهما فأحيا اللّه عمر بالإسلام و أعزّه، و أقرّ أبا جهل فى ضلالته و موته، و ذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دعا فقال: «اللهم أعزّ الإسلام بأبى جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب».

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها قال:

نزلت فى المستهزئين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: سلّطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد قال:

أَكابِرَ مُجْرِمِيها عظماؤها. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ الآية قال: قالوا لمحمد حين

دعـاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق: لو كان هـذا حقّا لكان فينا من هو أحقّ أن يؤتى به من محمـد وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هـذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١». و أخرج ابن المنـذر عن ابن عباس فى قوله: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا قال: أشركوا صَغارٌ قال: هوان.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٥ الى ١٢٨]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ الشرح: الشق و أصله التوسعة، و شرحت الأمر: بينته و أوضحته، و المعنى: من يرد اللّه هـدايته للحق يوسع صـدره حتى يقبله بصـدر منشرح، وَ مَنْ يُرِدْ إضـلاله يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً. قرأ ابن كثير ضَيِّقاً بـالتخفيف مثل هين و لين. و قرأ الباقون بالتشديـد و هما لغتان. و قرأ نافع حرجا بالكسر، و معناه الضـيق، كرر المعنى تأكيـدا، و حسن ذلك اختلاف اللفظ. و قرأ الباقون بالفتح: جمع حرجة و هى شدة الضيق، و الحرجة الغيضة، و الجمع حرج

---

(١). الزخرف: ٣١.

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٨٣

و حرجـات، و منه فلاـن يتحرج: أى يضـيق على نفسه. و قـال الجوهرى: مكان حرج و حرج: أى ضـيق كثير الشـجر لا تصل إليه الراعيـة، و الحرج: الإـثم. و قـال الزجـاج: الحرج: أضـيق الضـيق. و قال النحاس: حرج اسم الفاعل و حرج مصـدر وصف به كما يقال: رجل عدل. قوله: كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ. قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود، شبه الكافر فى ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف مـا لاـ يطيقه كصـعود السـماء. و قرأ النخعى «يصاعـد» و أصـله يتصاعـد. و قرأ الباقون يَصَّعَّدُ بالتشديـد و أصـله يتصـعد، و معناه: يتكلّف ما لا يطيق مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء. و قيل: المعنى على جميع القراءات: كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوّا عن الإسلام، و ما: فى كَأَنَّما هى المهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية.

قوله: كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاـ يُؤْمِنُونَ أى مثـل ذلـك الجعـل الـذى هو جعـل الصـدر ضـيّقا حرجـا يجعل اللّه الرجس. و الرجس فى اللغـة: النتن، و قيل: هو العـذاب، و قيل: هو الشـيطان يسـلّطه اللّه عليهم، و قيل: هو ما لا خير فيه؛ و المعنى الأوّل هو المشـهور فى لغـة العرب، و هو مستعار لما يحلّ بهم من العقوبـة و هو يصدق على جميع المعانى المذكورة. و الإشارة بقوله: وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ إلى ما عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه من المؤمنين، أى: هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه؛ و قيـل: الإشـارة إلى ما تقـدّم مما يـدل على التوفيق و الخـذلان، أى: هـذا هو عادة اللّه فى عباده يهـدى من يشاء و يضل من يشـاء، و انتصاب مُسْتَقِيماً على الحال كقوله تعالى: وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً «١»، وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً «٢»، قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ أى بيناها و أوضـحناها لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ما فيها و يتفهمون معانيها لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى: لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السـلامة من كـل مكروه، أو دار الرب السـلام مـدخرة لهم عنـد ربهم يوصـلهم إليهـا وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ أى ناصـرهم، و البـاء فى بِمـا كـانُوا يَعْمَلُونَ للسـببية: أى بسبب أعمالهم. قوله: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدما: أى و اذكر يوم نحشرهم أو وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ نقول: يا مَعْشَرَ الْجِنِ و المراد حشر جميع الخلق فى القيامة، و المعشر:

الجماعة، أى: يوم الحشر نقول: يا جماعة الجن! قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أى من الاستمتاع بهم كقوله: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ «۳» و قيل: استكثرتم من إغوائهم و إضلالهم حتى صاروا فى حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم، و مثله قولهم: استكثر الأمير من الجنود، و المراد: التقريع و التوبيخ، و على الأوّل فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم و دخولهم فيما يريدون منهم وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أما استمتاع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم، و أما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصى فوقعوا فيها و تلذذوا بها، فذلك هو استمتاعهم بالجن؛ و قيل:

استمتاع الإنس بالجن أنه كان إذا مرّ الرجل بواد فى سفره و خاف على نفسه قال: أعوذ بربّ هذا الوادى من جميع ما أحذر، يعنى ربه من الجن، و منه قوله تعالى: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً «۴» و قيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، و استمتاع الإنس بالجن أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب و ينالون بذلك شيئا من حظوظ

---

(۱). البقرة: ۹۱.

(۲). هود: ۷۲.

(۳). الأنعام: ۱۲۸.

(۴). الجن: ۶.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۸۴

الدنيا كالكهان وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا أى: يوم القيامة اعترافا منهم بالوصول إلى ما وعدهم اللّه به مما كانوا يكذبون به. و لما قالوا هذه المقالة أجاب اللّه عليهم ف قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ أى: موضع مقامكم.

و المثوى: المقام، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر. قوله: خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ المعنى الذى تقتضيه لغة العرب فى هذا التركيب: أنهم يخلدون فى النار فى كل الأوقات إلا فى الوقت الذى يشاء اللّه عدم بقائهم فيها. و قال الزجّاج: إنّ الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة أى: خالدين فى النار إلا ما شاء اللّه من مقدار حشرهم من قبورهم و مقدار مدّتهم فى الحساب، و هو تعسّف، لأنّ الاستثناء هو من الخلود الدائم و لا يصدق على من لم يدخل النار؛ و قيل: الاستثناء راجع إلى النار؛ أى: إلا ما شاء اللّه من تعذيبهم بغيرها فى بعض الأوقات كالزمهرير؛ و قيل: الاستثناء لأهل الإيمان، و ما بمعنى من؛ أى إلا من شاء اللّه إيمانه فإنه لا يدخل النار؛ و قيل المعنى: إلا ما شاء اللّه من كونهم فى الدنيا بغير عذاب. و كلّ هذه التأويلات متكلفة، و الذى ألجأ إليها ما ورد فى الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية من خلود الكفار فى النار أبدا، و لكن لا تعارض بين عام و خاص لا سيما بعد وروده فى القرآن مكررا كما سيأتى فى سورة هود خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ «۱» و لعله يأتى هنالك إن شاء اللّه زيادة تحقيق.

و قد أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبى جعفر المدائنى رجل من بنى هاشم، و ليس هو محمد بن على قال: «سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول اللّه؟! قال: «نور يقذف فيه فينشرح صدره له و ينفسح له»، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، و التّجافى عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل لقاء الموت». و أخرج عبد بن حميد عن فضيل نحوه. و أخرج ابن أبى الدنيا عن الحسن نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و

البيهقى فى الشعب من طرق عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين نزلت هذه الآية: فذكر نحوه. و أخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا من طريق أخرى. و أخرجه سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن النجار فى تاريخه عن عبد اللّه بن المستورد، و كان من ولد جعفر بن أبى طالب قال: تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية فذكر نحوه. و هذه الطرق يقوّى بعضها بعضا، و المتصل يقوّى المرسل، فالمصير إلى هذا التفسير النبوىّ متعين. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان و التوحيد قلبه حتى يدخله اللّه فى قلبه. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه فى الآية يقول: من أراد أن يضلّه يضيق عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقا، و الإسلام واسع، و ذلك حين يقول: ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «٢» يقول:

ما جعل عليكم فى الإسلام من ضيق. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: دارُ السَّلامِ قال: الجنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن زيد قال: السّلام: هو اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى

---

(١). هود: ١٠٧.

(٢). الحج: ٧٨.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٨٥

قال: اللّه هو السّلام، و داره الجنة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ يقول: من ضلالتكم إياهم، يعنى: أضللتم منهم كثيرا، و فى قوله:

خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ قال: إن هذه الآية لا ينبغى لأحد أن يحكم على اللّه فى خلقه لا ينزلهم جنّة و لا نارا.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٩ الى ١٣٢]

وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ (١٣١) وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

قوله: وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً أى: مثل ما جعلنا بين الجن و الإنس ما سلف كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً و المعنى: نجعل بعضهم يتولى البعض فيكونون أولياء لبعضهم بعضا، ثم يتبرأ بعضهم من البعض، فمعنى نولى على هذا: نجعله وليا له. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: معناه: نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. و روى عنه أيضا أنه فسر هذه الآية بأن المعنى: نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه و يذلّه، فيكون فى الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلّط اللّه عليه ظالما آخر.

و قال فضيل بن عياض: إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف و انظر متعجبا. و قيل معنى نولى: نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، و الباء فى بِما كانُوا يَكْسِبُونَ للسببية: أى بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضا. قوله: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أى: يوم نحشرهم نقول لهم:

أَ لَمْ يَأْتِكُمْ أو هو شروع فى حكاية ما سيكون فى الحشر، و ظاهره أن اللّه يبعث فى الدنيا إلى الجنّ رسلا منهم، كما يبعث إلى

الإنس رسلا منهم؛ و قيل: معنى منكم: أى ممن هو مجانس لكم فى الخلق و التكليف، و القصد بالمخاطبة، فإن الجنّ و الإنس متحدون فى ذلك، و إن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجنّ من تلك الحيثية؛ و قيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجنّ كما يغلب الذكر على الأنثى؛ و قيل: المراد بالرسل إلى الجنّ ها هنا هم النّذر منهم، كما فى قوله: وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ «١». قوله: يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي صفة أخرى لرسل، و قد تقدّم بيان معنى القصّ. قوله: قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا هذا إقرار منهم بأن حجة اللّه لازمة لهم بإرسال رسله إليهم، و الجملة جواب سؤال مقدّر، فهى مستأنفة، و جملة وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فى محل نصب على الحال، أو هى جملة معترضة وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا بالرسل المرسلين إليهم و الآيات التى جاءوا بها، و قد تقدّم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصرّحة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم، و مثل قولهم:

وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «٢» محمول على أنهم يقرّون فى بعض مواطن يوم القيامة و ينكرون فى بعض آخر لطول ذلك اليوم، و اضطراب القلوب فيه و طيشان العقول، و انغلاق الأفهام و تبلّد الأذهان، و الإشارة بقوله:

---

(١). الأحقاف: ٢٩.

(٢). الأنعام: ٢٣.

ذلِكَ إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم. و أن فى أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى هى المخفّفة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف. و المعنى: ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى، أو هى المصدرية، و الباء فى بِظُلْمٍ سببية: أى لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم، و الحال أن أهلها غافلون، لم يرسل اللّه إليهم رسولا. و المعنى: أن اللّه أرسل الرسل إلى عباده لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى، و الحال أنهم غافلون عن الإعذار و الإنذار بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، و ارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»؛ و قيل: المعنى: ما كان اللّه مهلك أهل القرى بظلم منه، فهو سبحانه يتعالى عن الظّلم بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقّوا ذلك و ترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء؛ و قيل: المعنى أن اللّه لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك، فهو مثل قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «٢»، وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أى لكلّ من الجنّ و الإنس درجات متفاوتة مما عملوا فنجازيهم بأعمالهم، كما قال فى آية أخرى: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ «٣»، و فيه دليل على أنّ المطيع من الجنّ فى الجنة، و العاصى فى النار وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ من أعمال الخير و الشر، و الغفلة: ذهاب الشي‏ء عنك لاشتغالك بغيره. قرأ ابن عامر «تعملون» بالفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً قال: يولّى اللّه بعض الظالمين بعضا فى الدنيا، يتبع بعضهم بعضا فى النار. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن زيد فى الآية مثل ما حكينا عنه قريبا. و أخرج أبو الشيخ عن الأعمش فى تفسير الآية قال: سمعتهم يقولون: إذا فسد الزمان أمر عليهم شرارهم. و أخرج الحاكم فى التاريخ، و البيهقى فى الشعب، من طريق يحيى بن هاشم حدّثنا يونس بن أبى إسحاق عن أبيه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كما تكونون كذلك يؤمر عليكم» قال البيهقى: هذا منقطع، و يحيى ضعيف. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: رُسُلٌ مِنْكُمْ قال: ليس فى الجنّ رسل، و إنّما الرسل فى الإنس، و النذارة فى الجنّ، و قرأ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ «٤». و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن الضحاك قال: الجنّ يدخلون الجنة و

يأكلون و يشربون. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن ليث بن أبى سليم قال: مسلمو الجنّ لا يدخلون الجنة و لا النار، و ذلك أن اللّه أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده و لا يعيد ولده. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن ابن عباس قال: الخلق أربعة: فخلق فى الجنة كلّهم، و خلق فى النار كلّهم، و خلقان فى الجنة و النار، فأما الذين فى الجنة كلّهم فالملائكة، و أما الذين فى النار كلّهم فالشياطين، و أما الذين فى الجنة و النار فالإنس و الجنّ، لهم الثواب و عليهم العقاب.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۷]

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (۱۳۳) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۱۳۴) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۱۳۵) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۱۳۶) وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (۱۳۷)

---

(۱). الإسراء: ۱۵.

(۲). الأنعام: ۱۶۴.

(۳). الأحقاف: ۱۹.

(۴). الأحقاف: ۲۹.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۸۷

قوله: وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ أى عن خلقه لا يحتاج إليهم و لا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم و لا يضرّه كفرهم و مع كونه غنيا عنهم، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعا من رحمته لهم، و ما أحسن هذا الكلام الربانى و أبلغه! و ما أقوى الاقتران بين الغنى و الرحمن فى هذا المقام! فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هى غاية التفضل و التطوّل إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضى إلى الهلاك وَ يَسْتَخْلِفْ من بعد إهلاككم ما يَشاءُ من خلقه ممن هو أطوع له و أسرع إلى امتثال أحكامه منكم كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ الكاف نعت مصدر محذوف، و ما مصدرية: أى و يستخلف استخلافا مثل إنشائكم من ذرية قوم آخرين، قيل: هم أهل سفينة نوح، و لكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم و لا استخلف غيرهم رحمة لهم و لطفا بهم إِنَّ ما تُوعَدُونَ من البعث و المجازاة لَآتٍ لا محالة، فإن اللّه لا يخلف الميعاد وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أى بفائتين عن ما هو نازل بكم، و واقع عليكم: يقال أعجزنى فلان: أى فاتنى و غلبنى. قوله: قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ المكانة: الطريقة، أى اثبتوا على ما أنتم عليه، فإنى غير مبال بكم و لا مكترث بكفركم، إنى ثابت على ما أنا عليه فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ من هو على الحق و من هو على الباطل، و هذا وعيد شديد، فلا يرد ما يقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر؟ و عاقِبَةُ الدَّارِ هى العاقبة المحمودة التى يحمد صاحبها عليها: أى من له النصر فى دار الدنيا، و من له وراثة الأرض، و من له الدار الآخرة. و قال الزجّاج: معنى مكانتكم: تمكنكم فى الدنيا، أى اعملوا على تمكنكم من أمركم، و قيل: على ناحيتكم، و قيل: على موضعكم. قرأ حمزة و الكسائى: من يكون بالتحتية، و قرأ الباقون:

بالفوقية. و الضمير فى إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ للشأن، أى: لا يفلح من اتصف بصفة الظلم، و هو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم. قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم و جهلهم و إيثارهم

لآلهتهم على اللّه سبحانه: أى جعلوا للّه سبحانه مما خلق من حرثهم و نتاج دوابهم نصيبا و لآلهتهم نصيبا من ذلك يصرفونه فى سدنتها و القائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه فى ذلك عوّضوا عنه ما جعلوه للّه، و قالوا: اللّه غنىّ عن ذلك. و الزعم: الكذب. قرأ يحيى بن وثّاب و السّلمى و الأعمش و الكسائى بِزُعْمِهِمْ بضم الزاى، و قرأ الباقون بفتحها، و هما لغتان فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ أى إلى المصارف التى شرع اللّه الصرف فيها كالصدقة و صلة الرحم،

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۸۸

و قرى الضيف وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ أى يجعلونه لآلهتهم و ينفقونه فى مصالحها ساءَ ما يَحْكُمُونَ أى ساء الحكم حكمهم فى إيثار آلهتهم على اللّه سبحانه؛ و قيل معنى الآية: أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه للّه ذكروا عليه اسم أصنامهم، و إذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم اللّه، فهذا معنى الوصول إلى اللّه، و الوصول إلى شركائهم، و قد قدّمنا الكلام فى ذرأ. قوله: وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ أى: و مثل ذلك التزيين الذى زيّنه الشّيطان لهم فى قسمة أموالهم بين اللّه و بين شركائهم زين لهم قتل أولادهم. قال الفرّاء و الزّجّاج: شركاؤهم هاهنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان؛ و قيل: هم الغواة من الناس؛ و قيل: هم الشياطين، و أشار بهذا إلى الوأد، و هو دفن البنات مخافة السبى و الحاجة؛ و قيل: كان الرجل يحلف باللّه لئن ولد له كذا من الذكور لينحرنّ أحدهم كما فعله عبد المطلب.

قرأ الجمهور زَيَّنَ بالبناء للفاعل و نصب قَتْلَ على أنه مفعول زين، و جرّ أولاد بإضافة قتل إليه، و رفع شُرَكاؤُهُمْ على أنه فاعل زين، و قرأ الحسن بضم الزاى و رفع قتل، و خفض أولاد، و رفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل، و رفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه: أى زينه شركاؤهم، و مثله قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومةو مختبط ما تطيح الطّوائح

أى يبكيه ضارع. و قرأ ابن عامر و أهل الشام بضم الزاى، و رفع قتل، و نصب أولاد، و خفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم، و معموله أولادهم؛ ففيه الفصل بين المصدر و ما هو مضاف إليه بالمفعول، و مثله فى الفصل بين المصدر و ما أضيف إليه قول الشاعر:

تمرّ على ما تستمرّ و قد شفتغلائل عبد القيس منها صدورها

بجر صدورها، و التقدير: شفت عبد القيس غلائل صدورها. قال النحاس: إن هذه القراءة لا تجوز فى كلام و لا فى شعر، و إنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف و المضاف إليه بالظرف فى الشعر لاتساعهم فى الظروف، و هو أى: الفصل بالمفعول به فى الشعر بعيد، فإجازته فى القرآن أبعد. و قال أبو غانم أحمد ابن حمدان النحوى: إن قراءة ابن عامر هذه لا تجوز فى العربية و هى زلة عالم، و إذا زلّ العالم لم يجز اتباعه و ردّ قوله إلى الإجماع، و إنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرّق بين المضاف و المضاف إليه بالظرف كقول الشاعر:

كما خطّ الكتاب بكفّ يومايهودىّ يقارب أو يزيل

و قول الآخر:

...

للّه درّ اليوم من لامها «۱» و قال قوم ممن انتصر لهذه القراءة: إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فهى فصيحة لا قبيحة. قالوا:

---

(۱). و صدره: لمّا رأت ساتيد ما استعبرت. و البيت لعمرو بن قميئة. «ساتيد ما»: اسم جبل.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۸۹

و قد ورد ذلك فى كلام العرب و فى مصحف عثمان رضى اللّه عنه شُرَكائِهِمْ بالياء.

و أقول: دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعتبرين كما بيّنا ذلك فى رسالة مستقلة، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوى فقراءته ردّ عليه، و لا يصحّ الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل فى النظم كما قدّمنا، و كقول الشاعر:

فزججتها بمزجّةزجّ القلوص أبى مزادة

فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها، و فى الآية قراءة رابعة و هى جرّ الأولاد و الشركاء، و وجه ذلك أنّ الشّركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاءهم فى النسب و الميراث. قوله: لِيُرْدُوهُمْ اللام لام كى أى:

لكى يردوهم من الإرداء و هو الإهلاك وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ معطوف على ما قبله: أى فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم و لخلط دينهم عليهم وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ أى لو شاء اللّه عدم فعلهم ما فعلوه، فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن، و إذا كان ذلك بمشيئة اللّه فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ فدعهم و افتراءهم فذلك لا يضرك.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبان بن عثمان قال: الذرية: الأصل، و الذرية: النسل. و أخرجا أيضا عن ابن عباس وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قال: بسابقين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

عَلى مَكانَتِكُمْ قال: على ناحيتكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ الآية قال: جعلوا للّه من ثمارهم و مائهم نصيبا و للشيطان و الأوثان نصيبا، فإن سقط من ثمره ما جعلوه للّه فى نصيب الشيطان تركوه، و إن سقط ممّا جعلوه للشياطين فى نصيب اللّه ردّوه إلى نصيب الشيطان، و إن انفجر من سقى ما جعلوه للّه فى نصيب الشيطان تركوه، و إن انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان فى نصيب اللّه نزحوه، فهذا ما جعلوا للّه من الحرث و سقى الماء، و أما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول اللّه: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ «۱» الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عنه نحوه من طريق أخرى.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: جعلوا للّه ممّا ذرأ من الحرث جزءا و لشركائهم جزءا، فما ذهب به الريح مما سموا للّه إلى جزء أوثانهم تركوه و قالوا اللّه عن هذا غنى، و ما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء اللّه أخذوه. و الأنعام التى سمّوا للّه: البحيرة و السائبة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ قال شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خوف العيلة.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۸ الى ۱۴۰]

وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳۸) وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۳۹) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۱۴۰)

---

(۱). المائدة: ۱۰۳.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۹۰

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم و ضلالاتهم. و الحجر بكسر أوّله و سكون ثانيه فى قراءة الجمهور. و قرأ أبان بن عثمان حجر

بضم الحاء و الجيم، و قرأ الحسن و قتادة بفتح الحاء و إسكان الجيم، و قرأ ابن عباس و ابن الزبير «حرج» بتقديم الراء على الجيم، و كذا هو فى مصحف أبىّ، و هو من الحرج، يقال فلان يتحرّج:

أى يضيق على نفسه الدخول فيما يشتبه عليه و الحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول، أى: محجور، و أصله المنع، فمعنى الآية: هذه أنعام و حرث ممنوعة، يعنون أنها لأصنامهم لا يطعمها إلا من يشاءون بزعمهم و هم خدام الأصنام. و القسم الثانى قولهم: وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها و هى البحيرة و السائبة و الحام؛ و قيل: إن هذا القسم الثانى مما جعلوه لآلهتهم أيضا. و القسم الثالث أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا و هى ما ذبحوا لآلهتهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم اللّه. و قيل: إن المراد لا يحجون عليها افْتِراءً عَلَى اللَّهِ أى للافتراء عليه سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ أى بافترائهم أو بالذى يفترونه، و يجوز أن يكون افتراء منتصبا على أنه مصدر، أى: افتروا افتراء، أو حال: أى مفترين، و انتصابه على العلة أظهر، ثم بين اللّه سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال: وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ يعنون البحائر و السوائب من الأجنة خالِصَةٌ لِذُكُورِنا أى حلال لهم وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا أى على جنس الأزواج، و هنّ النساء فيدخل فى ذلك البنات و الأخوات و نحوهنّ؛ و قيل: هو اللبن جعلوه حلالا للذكور محرّما على الإناث، و الهاء فى خالصة للمبالغة فى الخلوص كعلامة و نسابة، قاله الكسائى و الأخفش. و قال الفراء: تأنيثها لتأنيث الأنعام. و ردّ بأن ما فى بطون الأنعام غير الأنعام، و تعقب هذا الردّ بأن ما فى بطون الأنعام أنعام، و هى الأجنة، و ما: عبارة عنها، فيكون تأنيث خالصة باعتبار معنى ما، و تذكير محرّم باعتبار لفظها. و قرأ الأعمش خالص قال الكسائى: معنى خالص و خالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدّم عنه. و قرأ قتادة خالِصَةٌ بالنصب على الحال من الضمير فى متعلق الظرف الذى هو صلة لما، و خبر المبتدأ محذوف كقولك: الذى فى الدار قائما زيد، هذا قول البصريين. و قال الفراء: إنه انتصب على القطع. و قرأ ابن عباس خالِصَةٌ بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما. و قرأ سعيد بن جبير خالصا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً. قرئ بالتحتية و الفوقية، أى: و إن يكن الذى فى بطون الأنعام مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ أى فى الذى فى البطون شُرَكاءُ يأكل منه الذكور و الإناث سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ أى بوصفهم على أنه منتصب بنزع الخافض، و المعنى: سيجزيهم بوصفهم الكذب على اللّه؛ و قيل المعنى: سيجزيهم جزاء وصفهم. ثم بين اللّه سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً أى بناتهم بالوأد الذى كانوا يفعلونه سفها، أى: لأجل السفه: و هو الطيش و الخفة لا لحجة عقلية و لا شرعية كائنا ذلك منهم بِغَيْرِ عِلْمٍ يهتدون به. قوله: وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ من الأنعام التى سموها بحائر و سوائب

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٩١

افْتِراءً عَلَى اللَّهِ أى: للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه قَدْ ضَلُّوا عن طريق الصواب بهذه الأفعال وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ إلى الحق، و لا هم من أهل الاستعداد لذلك.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ قال:

الحجر ما حرموا من الوصيلة و تحريم ما حرموا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ قال: ما جعلوا للّه و لشركائهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة وَ حَرْثٌ حِجْرٌ قال: حرام. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى الآية قال: يقولون: حرام أن يطعم الابن شيئا وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها قال: البحيرة و السائبة و الحامى وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا إذا نحروها. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى وائل فى قوله: وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا قال:

لم تكن يحجّ عليها و هى البحيرة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ الآية قال: اللبن. و أخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال: السائبة و

البحيرة محرّم على أزواجنا قال: النساء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ قال: قولهم الكذب فى ذلك. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: كانت الشاة إذا ولدت ذكرا ذبحوه، فكان للرجال دون النساء و إن كانت أنثى تركوها فلم تذبح، و إن كانت ميتة كانوا فيها شركاء. و أخرج عبد بن حميد و البخارى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين و مائة من سورة الأنعام قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ إلى قوله: وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر و ربيعة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: هذا صنع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبى و الفاقة و يغذو كلبه وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ قال: جعلوه بحيرة و سائبة و وصيلة و حاميا تحكّما من الشيطان فى أموالهم.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤١ الى ١٤٢]

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢)

هذا فيه تذكير لهم ببديع قدرة اللّه و عظيم صنعه أَنْشَأَ أى: خلق، و الجنات: البساتين مَعْرُوشاتٍ مرفوعات على الأعمدة وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ غير مرفوعات عليها؛ و قيل المعروشات؛ ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم و الزرع و البطيخ، و غير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل و سائر الأشجار؛ و قيل المعروشات: ما أنبته الناس و عرشوه، و غير المعروشات: ما نبت فى البرارى

فتح القدير، ج٢، ص: ١٩٢

و الجبال. قوله: وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ معطوف على جنات، و خصهما بالذكر مع دخولهما فى الجنات لما فيهما من الفضيلة مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ أى حال كونه مختلفا أكله فى الطعم و الجودة و الرداءة. قال الزجاج:

و هذه مسألة مشكلة فى النحو، يعنى: انتصاب مختلفا على الحال لأنه يقال قد أنشأها و لم يختلف أكلها، فالجواب أنّ اللّه سبحانه أنشأها مقدّرا فيها الاختلاف، و قد بيّن هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صقر صائدا به غدا: أى مقدّرا للصيد به غدا، كما تقول: لتدخلنّ الدار آكلين شاربين: أى مقدّرين ذلك، و هذه هى الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدوّنة فى كتب النحو. و قال: مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ و لم يقل أكلهما اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها «١» أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أى أكل ذلك. قوله: وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ معطوف على جنات: أى و أنشأ الزيتون و الرمان حال كونه متشابها و غير متشابه، و قد تقدم الكلام على تفسير هذا كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أى من ثمر كل واحد منهما، أو من ثمر ذلك إِذا أَثْمَرَ أى إذا حصل فيه الثمر و إن لم يدرك و يبلغ حدّ الحصاد. قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ

و قد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب، فذهب ابن عمر و عطاء و مجاهد و سعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة، و أنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة و الضّغث و نحوهما. و ذهب ابن عباس و محمد ابن الحنفية و الحسن و النخعى و طاوس و أبو الشعثاء و قتادة و الضحاك و ابن جريج أن هذه الآية منسوخة بالزكاة. و اختاره ابن جرير، و يؤيده أن هذه الآية مكية و آية الزكاة مدنية فى السنة الثانية بعد الهجرة، و إلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف و الخلف. و قالت طائفة من العلماء: إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب. قوله: وَ لا تُسْرِفُوا أى فى التّصدّق، و أصل الإسراف فى اللغة: الخطأ، و الإسراف فى النفقة: التبذير؛ و قيل: هو خطاب للولاة يقول لهم: لا

تأخذوا فوق حقكم؛ و قيل: المعنى: لا تأخذوا الشىء بغير حقه و تضعونه فى غير مستحقه. قوله: وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً معطوف على جنات، أى: و أنشأ لكم من الأنعام حمولة و فرشا، و الحمولة: ما يحمل عليها، و هو يختصّ بالإبل فهى فعولة بمعنى فاعلة؛ و الفرش: ما يتّخذ من الوبر و الصوف و الشعر فراشا يفترشه الناس؛ و قيل: الحمولة الإبل، و الفرش: الغنم؛ و قيل الحمولة: كل ما حمل عليه من الإبل و البقر و الخيل و البغال و الحمير، و الفرش: الغنم، و هذا لا يتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات؛ و قيل: الحمولة: ما تركب، و الفرش: ما يؤكل لحمه كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ من هذه الأشياء وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ كما فعل المشركون من تحريم ما لم يحرمه اللّه و تحليل ما لم يحلله إِنَّهُ أى الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ مظهر للعداوة و مكاشف بها.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ قال: المعروشات ما عرش الناس وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ ما خرج فى الجبال و البريّة من الثمار. و أخرج عبد

---

(۱). الجمعة: ۱۱.

ابن حميد عن قتادة قال: معروشات: بالعيدان و القصب، و غير معروشات قال: الضاحى «۱». و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مَعْرُوشاتٍ قال: الكرم خاصة. و أخرج ابن المنذر و النحاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ قال: «ما سقط من السنبل». و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و النحاس و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ قال: كانوا يعطون من اعترّ «۲» بهم شيئا سوى الصدقة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن مجاهد فى الآية قال: إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ميمون بن مهران و يزيد الأصمّ قال: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه فى المسجد، فيجىء فيضربه بالعصا فيسقط منه، فهو قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن حماد بن أبى سليمان فى الآية قال: كانوا يطعمون منه رطبا. و أخرج أحمد و أبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد اللّه: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمر من كلّ حادى عشرة أوسق من التمر بقنو يعلّق فى المسجد للمساكين. و إسناده جيد. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ نسخها العشر و نصف العشر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر عن السدىّ نحوه. و أخرج النحاس و أبو الشيخ و البيهقى عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه.

و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن الضحّاك نحوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن الشعبى قال: إنّ فى المال حقّا سوى الزكاة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى العالية قال: ما كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة، ثم إنهم تباذروا و أسرفوا، فأنزل اللّه وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن جريج قال: نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس جذّ نخلا فقال: لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى و ليس له تمرة، فأنزل اللّه وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة اللّه لم يكن إسرافا، و لو أنفقت صاعا فى معصية اللّه كان إسرافا، و للسّلف فى هذا مقالات طويلة. و أخرج الفريابى و أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال:

الحمولة: ما حمل عليه من الإبل، و الفرش: صغار الإبل التى لا تحمل.

و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الحمولة: الكبار من الإبل، و الفرش: الصغار من الإبل. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: الحمولة: ما حمل عليه، و الفرش: ما أكل منه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن

---

(١). الشجرة الضاحية: البارزة للشمس.

(٢). يقال: عررته: إذا أتيته تطلب معروفه.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٩٤

أبى حاتم عنه أيضا قال: الحمولة: الإبل و الخيل و البغال و الحمير و كلّ شي‌ء يحمل عليه، و الفرش: الغنم.

و أخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال: الحمولة: الإبل و البقر، و الفرش: الضأن و المعز.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٣ الى ١٤٤]

ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٤٣) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)

اختلف فى انتصاب ثَمانِيَةَ على ما ذا؟ فقال الكسائى: بفعل مضمر، أى و أنشأ ثمانية أزواج، و قال الأخفش سعيد: هو منصوب على البدل من حمولة و فرشا؛ و قال الأخفش على بن سليمان: هو منصوب بكلوا، أى كلوا لحم ثمانية أزواج؛ و قيل: منصوب على أنه بدل من ما فى مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ و الزوج: خلاف الفرد، يقال: زوج أو فرد، كما يقال: شفع أو وتر، فقوله: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يعنى ثمانية أفراد، و إنما سمى الفرد زوجا فى هذه الآية لأن كل واحد من الذكر و الأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، و يقع لفظ الزوج على الواحد، فيقال: هما زوج و هو زوج، و يقول: اشتريت زوجى حمام، أى: ذكرا و أنثى. و الحاصل أن الواحد إذا كان منفردا سواء كان ذكرا أو أنثى، قيل: له فرد، و إن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما: زوج، و لكل واحد على انفراده منهما: زوج، و يقال لهما أيضا: زوجان، و منه قوله تعالى: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى «١». قوله: مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ بدل من ثمانية منتصب بناصبه على حسب الخلاف السابق، و الضأن: ذوات الصوف من الغنم، و هو جمع ضائن، و يقال للأنثى:

ضائنة، و الجمع ضوائن؛ و قيل: هو جمع لا واحد له؛ و قيل: فى جمعه ضئين كعبد و عبيد. و قرأ طلحة ابن مصرف الضَّأْنِ بفتح الهمزة، و قرأ الباقون بسكونها. و قرأ أبان بن عثمان و من الضّأن اثنان و من المعز اثنان رفعا بالابتداء. قوله: وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ معطوف على ما قبله مشارك له فى حكمه. و قرأ ابن عامر و أبو عمرو و ابن كثير و أهل البصرة بفتح العين من المعز. و قرأ الباقون بسكونها، قال النحاس:

الأكثر فى كلام العرب المعز و الضأن بالإسكان، و المعز من الغنم خلاف الضأن، و هى ذوات الأشعار و الأذناب القصار، و هو اسم جنس؛ و واحد المعز ماعز، مثل: صحب و صاحب، و ركب و راكب، و تجر و تاجر، و الأنثى ماعزة. و المراد من هذه الآية: أن اللّه سبحانه بين حال الأنعام و تفاصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحا للامتنان بها على عباده، و دفعا لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها و تحريم بعضها تقوّلا على اللّه سبحانه و افتراء عليه، و الهمزة فى قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ للإنكار. و المراد بالذكرين الكبش و التيس، و بالأنثيين النعجة و العنز، و انتصاب الذكرين بحرّم، و الأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه.

و المعنى:

الإنكار على المشركين فى أمر البحيرة و ما ذكر معها، و قولهم: ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا

---

(۱). القيامة: ۳۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۹۵

وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا أى قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام، و إن كان حرّم الإناث فكل أنثى حرام، و إن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعنى من الضأن و المعز فكل مولود حرام ذكرا كان أو أنثى و كلها مولود، فيستلزم أن كلها حرام. و قوله: نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى أخبرونى بعلم لا بجهل إن كنتم صادقين. و المراد من هذا: التبكيت لهم و إلزام الحجة، لأنه يعلم أنه لا علم عندهم، و هكذا الكلام فى قوله: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ إلى آخره. قوله: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا أم: هى المنقطعة، و الاستفهام للإنكار، و هى بمعنى بل و الهمزة، أى: بل كنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم اللّه بهذا التحريم. و المراد: التبكيت و إلزام الحجة كما سلف قبله. قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى لا أحد أظلم ممّن افترى على اللّه كذبا فحرم شيئا لم يحرّمه اللّه و نسب ذلك إليه افتراء عليه كما فعله كبراء المشركين، و اللام فى لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ للعلة: أى لأجل أن يضل الناس بجهل و هو متعلق بافترى إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ على العموم، و هؤلاء المذكورون فى السياق داخلون فى ذلك دخولا أوّليا، و ينبغى أن ينظر فى وجه تقديم المعز و الضأن على الإبل و البقر مع كون الإبل و البقر أكثر نفعا و أكبر أجساما و أعود فائدة، لا سيما فى الحمولة و الفرش اللذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح فى إعراب ثمانية.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس قال: الأزواج الثمانية من الإبل و البقر و الضأن و المعز. و ليت شعرى ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة، فإنها لا تتعلّق به فائدة، و كون الأزواج الثمانية هى المذكورة هو هكذا فى الآية مصرّحا به تصريحا لا لبس فيه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الذّكر و الأنثى زوجان. و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ قال: فى شأن ما نهى اللّه عنه من البحيرة و السائبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ليث بن أبى سليم قال: الجاموس و البختىّ من الأزواج الثمانية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قال: فهذه أربعة قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ يقول: لم أحرّم شيئا من ذلك أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ يعنى هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى، فلم يحرّمون بعضا و يحلون بعضا؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ يقول: كلّها حلال؛ يعنى ما تقدّم ذكره ممّا حرّمه أهل الجاهلية.

[سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۵]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴۵)

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۹۶

أمره اللّه سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد فى شىء مما أوحى إليه محرّما غير هذه المذكورات، فدلّ ذلك على انحصار المحرّمات فيها لو لا أنها مكية، و قد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة و زيد فيها على هذه المحرّمات المنخنقة و الموقوذة و المتردّية و النطيحة و صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تحريم كل ذى ناب من السباع و كل ذى مخلب من الطير و

تحريم الحمر الأهلية و الكلاب و نحو ذلك. و بالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدلّ عليه السياق و يفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده فى الكتاب أو السّنّة ممّا يدلّ على تحريم شىء من الحيوانات، و إن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شىء حرّمه اللّه من حيوان و غيره فإنه يضمّ إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شىء من الأشياء.

و قد روى عن ابن عباس و ابن عمر و عائشة أنه لا حرام إلا ما ذكره اللّه فى هذه الآية، و روى ذلك عن مالك و هو قول ساقط، و مذهب فى غاية الضعف لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن، و إهمال ما صح عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قاله بعد نزول هذه الآية بلا سبب يقتضى ذلك و لا موجب يوجبه. قوله: مُحَرَّماً صفة لموصوف محذوف: أى طعاما محرّما عَلى أى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ من المطاعم، و فى يَطْعَمُهُ زيادة تأكيد و تقرير لما قبله إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أى ذلك الشىء أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس. و قرئ يَكُونَ بالتحتية و الفوقية، و قرئ ميتة بالرفع على أن يكون تامة. و الدم المسفوح: الجارى، و غير المسفوح معفوّ عنه كالدم الذى يبقى فى العروق بعد الذّبح، و منه الكبد و الطحال، و هكذا ما يتلطّخ به اللحم من الدم. و قد حكى القرطبى الإجماع على هذا. قوله: أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم، و الضمير فى فَإِنَّهُ راجع إلى اللحم أو إلى الخنزير. و الرّجس: النّجس، و قد تقدّم تحقيقه. قوله: أَوْ فِسْقاً عطف على لحم الخنزير، و أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ صفة فسق: أى ذبح على الأصنام، و سمى فسقا لتوغله فى باب الفسق، قيل: و يجوز أن يكون فِسْقاً مفعولا له لأهلّ: أى أهلّ به لغير اللّه فسقا على عطف أهلّ على يكون، و هو تكلف لا حاجة إليه فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ قد تقدّم تفسيره فى سورة البقرة فلا نعيده فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى كثير المغفرة و الرحمة، فلا يؤاخذ المضطرّ بما دعت إليه ضرورته.

و قد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال: إنّ أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء و يحلّون أشياء، فنزلت قُلْ لا أَجِدُ الآية. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء و يتركون أشياء تقذّرا، فبعث اللّه نبيه و أنزل كتابه و أحلّ حلاله و حرّم حرامه، فما أحلّ فهو حلال، و ما حرّم فهو حرام، و ما سكت عنه فهو عفو، ثم تلا هذه الآية قُلْ لا أَجِدُ إلى آخرها. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عنه أنه تلا هذه الآية فقال:

ما خلا هذا فهو حلال. و أخرج البخارى و أبو داود و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد: إنهم يزعمون أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفارى عندنا بالبصرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكن أبى ذلك البحر ابن

عباس، و قرأ قُلْ لا أَجِدُ الآية. و أقول: و إن أبى ذلك البحر فقد صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و التمسّك بقول صحابى فى مقابلة قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من سوء الاختيار و عدم الإنصاف. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ليس شىء من الدوابّ حرام إلا ما حرّم اللّه فى كتابه قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً الآية. و أخرج سعيد بن منصور و أبو داود و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر: أنه سئل عن أكل القنفذ، فقرأ قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول:

ذكر عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «خبيثة من الخبائث»، فقال ابن عمر: إن كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قاله فهو كما قال.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحّاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عائشة: أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع و مخلب من الطير تلت: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً الآية. و أخرج أحمد و البخارى و النّسائى و ابن المنذر و ابن

أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس: أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت: يا رسول اللّه! ماتت فلانة: تعنى الشاة، قال: «فلو لا أخذتم مسكها»؟ قالت:

يا رسول اللّه! أ نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً «و أنتم لا تطعمونه، و إنما تدبغونه حتى تستنفعوا به» فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته، فاتّخذت منه قربة حتى تخرّقت عندها. و مثل هذا حديث شاة ميمونة، و هو فى الصّحيح.

و مثله حديث: «إنما حرم من الميتة أكلها» و هو أيضا فى الصحيح. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أَوْ دَماً مَسْفُوحاً قال: مهراقا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة، و أخذوا الدم فأكلوه، قال: هو دم مسفوح. و أخرج أبو الشيخ عن الشعبى: أنه سئل عن لحم الفيل و الأسد فتلا قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ الآية. و الأحاديث الواردة بتحريم كلّ ذى ناب من السباع و مخلب من الطير و الحمر الأهلية و نحوها مستوفاة فى كتب الحديث.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷]

وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۴۷)

قدّم عَلَى الَّذِينَ هادُوا على الفعل، للدلالة على أن هذا التحريم مختصّ بهم، لا يجاوزهم إلى غيرهم.

و الذين هادوا: اليهود، ذكر اللّه ما حرّمه عليهم عقب ذكر ما حرّمه على المسلمين. و الظفر: واحد الأظفار، و يجمع أيضا على أظافير، و زاد الفراء فى جموع ظفر أظافر و أظافرة، و ذو الظفر: ما له إصبع من دابة أو طائر، و يدخل فيه الحافر و الخف و المخلب، فيتناول الإبل و البقر و الغنم و النّعام و الإوز و البط و كلّ ما له مخلب من الطير، و تسمية الحافر و الخفّ ظفرا مجاز. و الأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر فى لغة العرب، لأن هذا التعميم يأباه ما سيأتى من قوله: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ فإن كان فى لغة العرب بحيث يقال على

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۹۸

البقر و الغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصا. حرّم اللّه ذلك عليهم عقوبة لهم على ما وقعوا فيه من الظلم كما قال تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ «۱». قوله: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما لا غير هذه المذكورات، كلحمهما، و الشحوم يدخل فيها الثّروب و شحم الكلية؛ و قيل: الثّروب جمع ثرب، و هو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش، ثم استثنى اللّه سبحانه من الشحوم ما حملت ظهورهما من الشحم فإنه لم يحرمه اللّه عليهم، و ما فى موضع نصب على الاستثناء أَوِ الْحَوايا معطوف على ظهورهما أى إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا، و هى المباعر التى يجتمع البعر فيها، فما حملته من الشحم غير حرام عليهم، و واحدها حاوية، مثل ضاربة و ضوارب؛ و قيل: واحدها حاوياء، مثل قاصعاء و قواصع؛ و قيل: حوية: كسفينة و سفائن. و قال أبو عبيدة: الحوايا ما تحوّى من البطن: أى استدار، و هى متحوية: أى مستديرة؛ و قيل الحوايا: خزائن اللبن، و هى تتصل بالمباعر؛ و قيل الحوايا: الأمعاء التى عليها الشحوم. قوله: أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ معطوف على ما فى ما حَمَلَتْ كذا قال الكسائى و الفراء و ثعلب؛ و قيل: إن الحوايا و ما اختلط بعظم معطوفة على الشحوم.

و المعنى: حرّمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرّم، و لا وجه لهذا التكلف و لا

موجب له، لأنه يكون المعنى إن اللّه حرّم عليهم إحدى هذه المذكورات. و المراد بما اختلط بعظم: ما لصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان، و منه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى التحريم المدلول عليه بحرّمنا أى: ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم؛ و قيل: إن الإشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله: جَزَيْناهُمْ أى: ذلك الجزاء جزيناهم، و هو تحريم ما حرّمه اللّه عليهم وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فى كلّ ما نخبر به، و من جملة ذلك هذا الخبر، و هو موجود عندهم فى التوراة، و نصّها: «حرّمت عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير، و كل دابة ليست مشقوقة الحافر، و كل حوت ليس فيه سفاسف» أى بياض، انتهى. و الضمير فى كَذَّبُوكَ لليهود، أى: فإن كذبك اليهود فيما وصفت من تحريم اللّه عليهم تلك الأشياء فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ و من رحمته حلمه عنكم و عدم معاجلته لكم بالعقوبة فى الدنيا، و هو و إن أمهلكم و رحمكم ف لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ إذا أنزله بهم و استحقّوا المعاجلة بالعقوبة. و قيل المراد: لا يردّ بأسه فى الآخرة عن القوم المجرمين. و الأوّل أولى، فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها: تحريم الطيبات عليهم فى الدنيا، و قيل: الضمير يعود إلى المشركين الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام و حللوا بعضها و حرّموا بعضها؛ و قيل المراد: أنه ذو رحمة للمطيعين وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ و لا ملجئ لهذا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كُلَّ ذِي ظُفُرٍ قال: هو الذى ليس بمنفرج الأصابع، يعنى: ليس بمشقوق الأصابع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عنه كُلَّ ذِي ظُفُرٍ قال: البعير و النّعامة. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هو كلّ شىء لم تنفرج قوائمه من البهائم، و ما انفرج أكلته اليهود، قال: انفرجت قوائم الدجاج و العصافير فاليهود تأكله، و لم ينفرج خفّ

---

(١). النساء: ١٦٠.

البعير و لا النعامة، و لا قائمة الوزينة «١» فلا تأكل اليهود الإبل و لا النعام و لا الوزينة، و لا كل شىء لم تنفرج قائمته كذلك، و لا تأكل حمار الوحش. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما يعنى ما علق بالظهر من الشحم أَوِ الْحَوايا هى المبعر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله:

إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما قال: الألية أَوِ الْحَوايا قال: المبعر أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ قال:

الشحم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَوِ الْحَوايا قال: المباعر.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن الضحاك أَوِ الْحَوايا قال: المرائض و المباعر. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ قال: الألية اختلط شحم الألية بالعصعص فهو حلال، و كلّ شحم القوائم و الجنب و الرأس و العين و الأذن يقولون قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم، إنما حرّم عليهم الثرب و شحم الكلية، و كلّ شىء كان كذلك ليس فى عظم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ قال: اليهود. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدىّ قال: كانت اليهود يقولون: إنّ ما حرمه إسرائيل فنحن نحرّمه، فذلك قوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ الآية.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٨ الى ١٥٠]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

أخبر اللّه عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة، و هم كفّار قريش أو جميع المشركين، يريدون أنه لو شاء اللّه عدم شركهم ما أشركوا هم و لا آباؤهم، و لا حرّموا شيئا من الأنعام كالبخيرة و نحوها، و ظنّوا أنّ هذا القول يخلّصهم عن الحجّة التى ألزمهم بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أنّ ما فعلوه حقّ، و لو لم يكن حقّا لأرسل اللّه إلى آبائهم الذين ماتوا على الشرك، و على تحريم ما لم يحرمه اللّه رسلا يأمرونهم بترك الشرك و بترك التحريم لما لم يحرمه اللّه، و التحليل لما لم يحلله كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء اللّه حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا أى: استمروا على التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذى أنزلناه بهم، ثم أمره اللّه أن يقول لهم: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا أى: هل عندكم دليل صحيح يعد من العلم النافع فتخرجوه إلينا لننظر فيه و نتدبّره؟ و المقصود من هذا: التبكيت لهم، لأنه قد علم أنه

---

(١). قال فى القاموس: الوزّ: الإوزّ، كالوزّين.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٠٠

فتح القدير ج٢ ٢٤٩

لا علم عندهم يصلح للحجّة و يقوم به البرهان، ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم، و أنهم إنما يتبعون الظّنون؛ أى: ما يتبعون إلا الظنّ الذى هو محلّ الخطأ و مكان الجهل وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ أى: تتوهمون مجرّد توهم فقط كما يتوهّم الخارص، و قد سبق تحقيقه، ثم أمره اللّه سبحانه بأن يخبرهم أن للّه الحجّة البالغة على الناس أى: التى تنقطع عندها معاذيرهم و تبطل شبههم و ظنونهم و توهماتهم. و المراد بها الكتب المنزلة، و الرسل المرسلة، و ما جاءوا به من المعجزات فَلَوْ شاءَ هدايتكم جميعا لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ و لكنه لم يشأ ذلك، و مثله قوله تعالى: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا «١» و ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء اللّه، و مثله كثير، ثم أمره اللّه أن يقول لهؤلاء المشركين هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ أى: هاتوهم و أحضروهم، و هم اسم فعل يستوى فيه المذكر و المؤنث، و المفرد و المثنى و المجموع عند أهل الحجاز، و أهل نجد يقولون: هلما، هلمى، هلموا، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال، و بلغة أهل الحجاز نزل القرآن، و منه قوله تعالى: وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا و الأصل عند الخليل: ها ضمت إليها لم، و قال غيره: أصلها هل، زيدت عليها الميم، و فى كتاب العين للخليل: أن أصلها هل أؤم: أى هل أقصدك، ثم كثر استعمالهم لها، و هذا أيضا من باب التبكيت لهم، حيث يأمرهم بإحضار الشهود، على أن اللّه حرّم تلك الأشياء مع علمه أن لا شهود لهم فَإِنْ شَهِدُوا لهم بغير علم بل مجازفة و تعصب فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ أى فلا تصدقهم، و لا تسلم لهم، فإنهم كاذبون جاهلون، و شهادتهم باطلة وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: و لا تتبع أهواءهم، فإنهم رأس المكذبين بآياتنا. قوله: وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ معطوف على الموصول: أى لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا، و أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ أى: يجعلون له عدلا من مخلوقاته كالأوثان، و الجملة: إما فى محل نصب على الحال، أو معطوفة على: لا يؤمنون.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن مجاهد فى قوله: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا قال: هذا قول قريش إن اللّه حرّم هذا:

أى: البحيرة، و السائبة، و الوصيلة و الحام. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ قال:

السلطان. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس أنه قيل له: إنّ ناسا يقولون: ليس الشرّ بقدر، فقال ابن عباس: بيننا و بين أهل القدر هذه الآية سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إلى قوله: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ قال ابن عباس: و العجز و الكيس من القدر. و أخرج أبو الشيخ عن علىّ بن زيد قال: انقطعت حجّة القدرية عند هذه الآية: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ قال: أرونى شهداءكم.

---

(١). الأنعام: ١٠٧.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٠١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٣]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

قوله: قُلْ تَعالَوْا أى تقدّموا. قال ابن الشّجرى: إنّ المأمور بالتقدّم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدا، فقيل له تعال: أى ارفع شخصك بالقيام و تقدّم، و اتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف و الماشى.

و هكذا قال الزمخشرى فى الكشاف: إنه من الخاص الذى صار عاما، و أصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر و اتسع فيه حتى عمّ. قوله: أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ أتل: جواب الأمر، و ما:

موصولة فى محل نصب به، أى: أتل الذى حرّمه ربكم عليكم. و المراد من تلاوة ما حرّم اللّه تلاوة الآيات المشتملة عليه، و يجوز أن تكون ما مصدرية، أى: أتل تحريم ربكم. و المعنى: ما اشتمل على التحريم؛ قيل:

و يجوز أن تكون ما استفهامية، أى: أتل أى شىء حرّم ربكم، على جعل التلاوة بمعنى القول، و هو ضعيف جدّا، و عليكم: إن تعلق بأتل، فالمعنى: أتل عليكم الذى حرّم ربكم، و إن تعلّق بحرّم، فالمعنى أتل الذى حرّم ربكم عليكم، و هذا أولى، لأن المقام مقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقا؛ و قيل: إن: عليكم، للإغراء و لا تعلق لها بما قبلها. و المعنى: عليكم أن لا تشركوا إلى آخره، أى: الزموا ذلك كقوله تعالى: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ «١» و هو أضعف مما قبله، و أن فى أَلَّا تُشْرِكُوا: مفسرة لفعل التلاوة، و قال النحاس: يجوز أن تكون فى موضع نصب بدلا من ما، أى: أتل عليكم تحريم الإشراك؛ و قيل:

يجوز أن يكون فى محل رفع بتقدير مبتدأ، أى: المتلوّ أن لا تشركوا، و شيئا: مفعول أو مصدر، أى: لا تشركوا به شيئا من الأشياء، أو شيئا من الإشراك. قوله: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً أى: أحسنوا بهما إحسانا، و الإحسان إليهما: البرّ بهما، و امتثال أمرهما و نهيهما. و قد تقدّم الكلام على هذا. قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ لما ذكر حقّ الوالدين على الأولاد، ذكر حقّ الأولاد على الوالدين، و هو أن لا يقتلوهم من أجل إملاق. و الإملاق: الفقر، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر و الإناث خشية الإملاق، و تفعله بالإناث خاصة خشية العار. و حكى النقاش عن مؤرّج أن الإملاق: الجوع بلغة لخم، و ذكر منذر بن سعيد البلوطى أن الإملاق: الإنفاق. يقال أملق ماله: بمعنى أنفقه. و المعنى الأوّل هو الذى أطبق عليه أئمة اللغة، و أئمة التفسير هاهنا و

لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ أى المعاصى، و منه وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً «٢» و ما: فى ما ظَهَرَ بدل من الفواحش، و كذا ما بطن. و المراد بما ظهر: ما أعلن به منها، و ما بطن: ما أسرّ. و قد تقدّم وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ اللام فى النفس للجنس، و الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ صفة للنفس، أى: لا تقتلوا شيئا من الأنفس التى حرّمها اللّه إِلَّا بِالْحَقِ أى إلا بما يوجبه

---

(١). المائدة: ١٠٥.

(٢). الإسراء: ٣٢.

الحق، و الاستثناء مفرّغ؛ أى لا تقتلوه فى حال من الأحوال إلا فى حال الحق، أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، و من الحق: قتلها قصاصا و قتلها بسبب زنا المحصن، و قتلها بسبب الردّة، و نحو ذلك من الأسباب التى ورد الشّرع بها، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم مما تلاه عليهم، و هو مبتدأ، و وَصَّاكُمْ بِهِ خبره، أى: أمركم به، و أوجبه عليكم وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ أى: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إِلَّا الخصلة بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ من غيرها، و هى ما فيه صلاحه و حفظه و تنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التى فيها نفع لليتيم و زيادة فى ماله؛ و قيل: المراد بالتى هى أحسن: التجارة حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ أى: إلى غاية هى أن يبلغ اليتيم أشدّه، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، كما قال تعالى: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ «١».

و اختلف أهل العلم فى الأشدّ؛ فقال أهل المدينة: بلوغه و إيناس رشده. و قال أبو حنيفة: خمس و عشرون سنة. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو البلوغ. و قيل: إنه انتهاء الكهولة، و منه قول سحيم الرّياحى:

أخو خمسين مجتمع أشدّى و نجّدنى مداورة الشّؤون

و الأولى فى تحقيق بلوغ الأشد: أنه البلوغ إلى سنّ التكليف مع إيناس الرشد، و هو أن يكون فى تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه و التبذير، و يدل على هذا قوله تعالى فى سورة النساء:

وَ ابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ «٢» فجعل بلوغ النكاح، و هو بلوغ سنّ التكليف مقيدا بإيناس الرشد، و لعله قد سبق هنالك كلام فى هذا، و الأشد: واحد لا جمع له؛ و قيل: واحده شدّ كفلس و أفلس و أصله من شدّ النهار: أى ارتفع. و قال سيبويه: واحده شدة. قال الجوهرى: و هو حسن فى المعنى، لأنه يقال: بلغ الكلام شدته، و لكن لا تجمع فعلة على أفعل. قوله:

وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ أى بالعدل فى الأخذ و الإعطاء عند البيع و الشراء لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أى: إلا طاقتها فى كل تكليف من التكاليف، و منه التكليف بإيفاء الكيل و الوزن، فلا يخاطب المتولى لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه فى الزيادة و النقصان وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا أى: إذا قلتم بقول فى خير أو شهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه و تحرّوا الصواب، و لا تتعصبوا فى ذلك لقريب و لا على بعيد، و لا تميلوا إلى صديق و لا على عدو، بل سوّوا بين الناس فإن ذلك من العدل الذى أمر اللّه به، و الضمير فى وَ لَوْ كانَ راجع إلى ما يفيده وَ إِذا قُلْتُمْ فإنه لا بد للقول من مقول فيه، أو مقول له: أى و لو كان المقول فيه، أو المقول له ذا قُرْبى أى صاحب قرابة لكم. و قيل إن المعنى: و لو كان الحق على مثل قراباتكم و الأوّل أولى، و مثل هذه الآية قوله: وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ «٣». قوله: وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا أى أوفوا بكلّ عهد عهده اللّه إليكم، و من جملة ما عهده إليكم ما تلاه عليكم رسوله بأمره فى هذا المقام، و يجوز أن يراد به كل عهد و لو كان بين المخلوقين، لأنّ اللّه سبحانه لما أمر بالوفاء به فى كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوّغا لإضافته إليه، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم ذكره وَصَّاكُمْ بِهِ أمركم به أمرا مؤكدا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فتتعظون بذلك. قوله: وَ أَنَّ هذا صِراطِی مُسْتَقِيماً أنّ

(۱). النساء: ۶.

(۲). النساء: ۶.

(۳). النساء: ۱۳۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۰۳

فى موضع نصب، أى: و اتـل أنّ هـذا صـراطى، قاله الفراء و الكسائى. قال الفرّاء: و يجوز أن يكون خفضا؛ أى وصّاكم به، و بأن هذا. و قال الخليل و سيبويه: إنّ التقدير: و لأن هذا صراطى مستقيما كما فى قوله سبحانه:

وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ «۱». و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى وَ أَنَّ هـذا بكسـر الهمزة على الاستئناف، و التقـدير: الذى ذكر فى هذه الآيـات صـراطى. و قرأ ابن أبى إسحاق و يعقوب و إن هـذا صـراطى بالتخفيف على تقـدير ضـمير الشأن. و قرأ الأعمش و هـذا صراطى و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود و هذا صـراط ربكم و فى مصحف أبىّ و هذا صراط ربّك و الصراط: الطريق، و هو طريق دين الإسـلام، و نصب مسـتقيما على الحال، و المسـتقيم المستوى الذى لا اعوجاج فيه، ثم أمرهم باتباعه و نهاهم عن اتّباع سائر السّبل، أى: الأديان المتباينـة طرقها فَتَفَرَّقَ بِكُمْ أى تميل بكم عَنْ سَبِيلِهِ أى عن سبيل اللّه المسـتقيم الذى هو دين الإسـلام. قال ابن عطية: و هذه السـبل تعمّ اليهودية و النصـرانية و المجوسية و سائر أهل الملل و أهل البدع و الضلالات من أهل الأهواء و الشّذوذ فى الفروع و غير ذلك من أهل التعمّق فى الجدل و الخوض فى الكلام.

هـذه كلّها عرضـة للزّلل و مظنّـة لسوء المعتقـد، و الإشارة ب ذلِكُمْ إلى ما تقـدّم، و هو مبتدأ و خبره وَصَّاكُمْ بِهِ أى: أكد عليكم الوصية به لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ما نهاكم عنه.

و قد أخرج الترمذى و حسّـنه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبادة ابن الصامت قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «أيّكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا قُلْ تَعالَوْا إلى ثلاث آيات، ثم قال: فمن و فى بهنّ فـأجره على اللّه، و من انتقص منهنّ شـيئا فـأدركه اللّه فى الـدنيا كـانت عقوبته، و من أخّره إلى الآخرة كان أمره إلى اللّه إن شاء آخذه و إن شاء عفا عنه». و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن الضّـريس و ابن المنذر عن كعب الأحبار قال: أوّل ما أنزل فى التوراة عشـر آيات، و هى العشر التى أنزلت من آخر الأنعام قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إلى آخرها. و أخرج أبو الشيخ عن عبيد اللّه ابن عبـد اللّه بن عـدى بن الخيـار قـال: سـمع كعب رجلاـ يقرأ: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئاً فقال كعب: و الـذى نفس كعب بيـده إنها لأول آيـة فى التوراة: بسم اللّه الرحمن الرحيم قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إلى آخر الآيات انتهى. قلت: هى الوصايا العشـر التى فى التوراة، و أوّلها أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصـر من بيت العبودية لا يكن لك إله آخر غيرى. و منها:

أكرم أبـاك و أمـك ليطول عمرك فى الأرض التى يعطيـك الرب إلهـك، لاـ تقتـل، لا تزن، لا تسـرق، لا تشـهد على قريبك شهادة زور، و لا تشـته بنت قريبك، و لا تشته امرأة قريبك و لا عبده و لا أمته و لا ثوره و لا حماره و لا شيئا مما لقريبك، فلعل مراد كعب الأحبـار هـذا؛ و لليهود بهـذه الوصايـا عنايـة عظيمـة و قـد كتبها أهل الزبور فى آخر زبورهم، و أهل الإنجيل فى أوّل إنجيلهم. و هى مكتوبـة فى لوحين، و قـد تركنـا منها ما يتعلّق بالسـبت. و أخرج عبـد بن حميـد و أبو الشـيخ عن قتادة وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ قال: من خشـية الفاقـة، قال: و كان أهل الجاهليـة يقتل أحـدهم ابنته مخافـة الفاقـة عليها و السبى وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما

(۱). الجن: ۱۸.

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۲۰۴

ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ قال: سرّها و علانيتها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ قال: خشية الفقر وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ قال: كانوا فى الجاهلية لا يرون بالزّنا بأسا فى السرّ و يستقبحونه فى العلانية، فحرّم اللّه الزنا فى السرّ و العلانية. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً قال:

اعلموا أنّ السّبيل سبيل واحد جماعه الهدى و مصيره الجنة، و أن إبليس اشترع سبلا متفرّقة جماعة الضلالة و مصيرها النار. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و البزار و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «خطّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خطا بيده ثم قال: هذا سبيل اللّه مستقيما، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط و عن شماله ثم قال: و هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

و أخرج أحمد و ابن ماجة و ابن مردويه من حديث جابر نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن مسعود أنّ رجلا سأله: ما الصّراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى أدناه و طرفه الجنة، و عن يمينه جوادّ و عن شماله جوادّ، و ثم رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، و من أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ قال: الضّلالات.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۴ الى ۱۵۷]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (۱۵۷)

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التى وصى اللّه عباده بها، و قد استشكل العطف بثم مع كون قصة موسى و إيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه، و هو ما تقدم من قوله: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ فقيل: إنّ ثم هاهنا بمعنى الواو؛ و قيل: تقدير الكلام: ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: المعنى:

قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم، ثم أتل إيتاء موسى الكتاب، و قيل: إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبيّ يوصى بها أمته؛ و قيل: إن ثم للتراخى فى الإخبار كما تقول: بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب. قوله: تَماماً مفعول لأجله أو مصدر، و عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ قرئ بالرفع و هى قراءة يحيى بن يعمر و ابن أبى إسحاق، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ: أى على الذى هو أحسن، و منه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع: ما أنا بالذى قائل لك شيئا. و قرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماض عند البصريين، و أجاز الفراء و الكسائى أن يكون اسما نعتا للذى، و هذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۲۰۵

قبل أن يتمّ، و المعنى عندهم تماما على من أحسن قبوله و القيام به كائنا من كان، و يؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ «تماما على الذين أحسنوا» و قال الحسن: كان فيهم محسن و غير محسن، فأنزل اللّه الكتاب تماما على المحسنين؛ و قيل المعنى: أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه اللّه قبل نزول التوراة عليه؛ و قيل المعنى: تماما على الذى أحسن به اللّه عزّ و جلّ إلى موسى من الرسالة و غيرها، و قيل: تماما على إحسان موسى بطاعة اللّه عزّ و جلّ، قاله الفراء. قوله: وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ معطوف على تماما، أى:

و لأجل تفصيل كل شىء، و كذا هُدىً وَ رَحْمَةً معطوفتان عليه: أى: و للهدى و الرحمة، و الضمير فى لعلهم راجع إلى بنى إسرائيل المدلول عليه بذكر موسى، و الباء فى بِلِقاءِ متعلقة بيؤمنون. قوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ الإشارة إلى القرآن، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره كتاب، و أنزلناه صفة لكتاب، و مبارك صفة أخرى له، و تقديم صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقا بها، و المبارك: كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية و الدينية فَاتَّبِعُوهُ فإنه لما كان من عند اللّه و كان مشتملا على البركة، كان اتباعه متحتما عليكم وَ اتَّقُوا مخالفته و التكذيب بما فيه لَعَلَّكُمْ إن قبلتموه و لم تخالفوه تُرْحَمُونَ برحمة اللّه سبحانه، و أن فى أَنْ تَقُولُوا فى موضع نصب. قال الكوفيون: لئلا تقولوا. و قال البصريون: كراهة أن تقولوا: و قال الفراء و الكسائى: المعنى: فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ أى التوراة و الإنجيل عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا و هم اليهود و النصارى و لم ينزل علينا كتاب وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ أى عن تلاوة كتبهم بلغاتهم لَغافِلِينَ أى: لا ندرى ما فيها، و مرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم و الغفلة عن معناهما. قوله: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ معطوف على تَقُولُوا أى: أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ إلى الحق الذى طلبه اللّه، فإن هذه المقالة و المعذرة منهم مندفعة بإرسال محمد صلّى اللّه عليه و سلّم إليهم، و إنزال القرآن عليه، و لهذا قال: فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أى: كتاب أنزله اللّه على نبيكم، و هو منكم يا معشر العرب، فلا تعتذروا بالأعذار الباطلة و تعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة، فقد أسفر الصبح لذى عينين وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ معطوف على بَيِّنَةٌ أى جاءكم البينة الواضحة و الهدى الذى يهتدى به كلّ من له رغبة فى الاهتداء، و رحمة من اللّه يدخل فيها كل من يطلبها و يريد حصولها، و لكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات اللّه و الصدوف عنها، أى: الانصراف عنها، و صرف من أراد الإقبال إليها فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ التى هى رحمة و هدى للناس وَ صَدَفَ عَنْها فضلّ بانصرافه عنها، و أضلّ بصرف غيره عن الإقبال إليها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ أى العذاب السيئ- ب سبب ما كانُوا يَصْدِفُونَ و قيل معنى صدف: أعرض، و يصدفون: يعرضون، و هو مقارب لمعنى الصرف، و قد تقدّم تحقيق معنى هذا اللفظ، و الاستفهام فى فَمَنْ أَظْلَمُ للإنكار، أى: إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات اللّه و صدف عنها، مع ما يفيده ذلك من التبكيت لهم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۰۶

قال: على المؤمنين المحسنين. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ قال: تماما لما كان قد أحسن اللّه. و أخرج أيضا عن ابن زيد قال: تماما لنعمته عليهم و إحسانه إليهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ هذا كِتابٌ قال: هو القرآن الذى أنزل اللّه على محمد فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا يقول: فاتبعوا ما أحلّ اللّه فيه و اتقوا ما حرّم. و أخرج هؤلاء عن مجاهد فى قوله: عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا قال: اليهود و النصارى، خاف أن تقوله قريش. و أخرج ابن المنذر و ابن حاتم عن ابن عباس قال: هم اليهود و النصارى وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ قال: تلاوتهم.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ قال: هذا قول كفار العرب. و أخرج ابن

أبى حاتم عن السدى فى قوله: فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يقول: قد جاءتكم بينة لسان عربى مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:
صَدَفَ عَنْها قال: أعرض عنها. و أخرج عبد بن حميد عن الضحّاك فى قوله: يَصْدِفُونَ قال:
يعرضون.

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٨]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)

أى: لما أقمنا عليهم الحجّة و أنزلنا الكتاب على رسولنا المرسل إليهم، فلم ينفعهم ذلك و لم يرجعوا به عن غوايتهم فما بقى بعد هذا إلا أنهم يَنْظُرُونَ أى: ينتظرون أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أى: ملائكة الموت لقبض أرواحهم، و عند ذلك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ يا محمد كما اقترحوه بقوله: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا «١» و قيل: معناه أو يأتى أمر ربك بإهلاكهم؛ و قيل المعنى:
أو يأتى كل آيات ربك بدليل قوله: أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ و قيل: هو من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا اللّه، و قد جاء فى القرآن حذف المضاف كثيرا كقوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «٢» و قوله: وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ «٣» أى حب العجل؛ و قيل: إتيان اللّه:
مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله:
وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا «٤». قوله: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ قرأ ابن عمر و ابن الزبير يوم تأتى بالفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية. قال المبرد: التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل و منه قول جرير:
لمّا أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة و الجبال الخشّع
و قرأ ابن سيرين «لا تنفع»: بالفوقية. قال أبو حاتم: إن هذا غلط عن ابن سيرين. و قد قال الناس فى هذا شيء دقيق من النحو ذكره نفطويه، و ذلك أن الإيمان و النفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فأنث الإيمان إذ هو من النفس. قال النحاس: و فيه وجه آخر و هو أن يؤنث الإيمان، لأنه مصدر كما يذكر المصدر المؤنث مثل فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ و معنى يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يوم يأتى الآيات

---

(١). الفرقان: ٢١.

(٢). يوسف: ٨٢.

(٣). البقرة: ٩٣.

(٤). الفجر: ٢٢.

التى اقترحوها، و هى التى تضطرهم إلى الإيمان لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها أو ما هو أعمّ من ذلك فيدخل فيه ما ينتظرونه؛ و قيل: هى الآيات التى هى علامات القيامة المذكورة فى الأحاديث الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فهى التى إذا جاءت لا ينفع نفسا إيمانها. قوله: لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أى: من قبل إتيان بعض الآيات، فأما التى قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها، و جملة لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ فى محل نصب على أنها صفة نفسها. قوله: أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً معطوف

على آمَنَتْ و المعنى: أنه لا ينفع نفسا إيمانها عند حضور الآيات متّصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل، أو آمنت من قبل و لكن لم تكسب فى إيمانها خيرا، فحصل من هذا أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجىء بعض الآيات مع كسب الخير فى الإيمان، فمن آمن من قبل فقط و لم يكسب خيرا فى إيمانه أو كسب خيرا و لم يؤمن فإن ذلك غير نافعه، و هذا التركيب هو كقولك: لا أعطى رجلا اليوم أتانى لم يأتنى بالأمس أو لم يمدحنى فى إتيانه إلىّ بالأمس، فإن المستفاد من هذا أنه لا يستحقّ العطاء إلا رجل أتاه بالأمس و مدحه فى إتيانه إليه بالأمس، ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: انتظروا ما تريدون إتيانه إنا منتظرون له، و هذا تهديد شديد و وعيد عظيم، و هو يقوّى ما قيل فى تفسير يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ أنها الآيات التى اقترحوها من إتيان الملائكة و إتيان العذاب لهم من قبل اللّه كما تقدّم بيانه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ قال:

عند الموت أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ قال: يوم القيامة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى تفسير الآية مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ قال يوم القيامة فى ظلل من الغمام. و أخرج أحمد و عبد بن حميد فى مسنده و الترمذى و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ قال: طلوع الشمس من مغربها. قال الترمذى: غريب. و رواه ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن أبى سعيد موقوفا. و أخرجه الطبرانى و ابن عدى و ابن مردويه من حديث أبى هريرة مرفوعا. و أخرجه سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و نعيم بن حماد و الطبرانى عن ابن مسعود موقوفا. فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوى من وجه صحيح لا قادح فيه فهو واجب التقديم له متحتم الأخذ به، و يؤيده ما ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت و رآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها، ثم قرأ الآية». و أخرج مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و غيرهم عن أبى ذرّ مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً يقول: كسبت فى تصديقها عملا صالحا هؤلاء أهل القبلة، و إن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيرا فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها، و إن عملت قبل الآية خيرا، ثم عملت بعد الآية خيرا قبل منها. و أخرج ابن أبى حاتم أبو الشيخ عن مقاتل فى قوله: أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قال: يعنى المسلم الذى لم يعمل فى إيمانه خيرا و كان

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٠٨

قبل الآية مقيما على الكبائر. و الآيات التى هى علامات القيامة قد وردت الأحاديث المتكاثرة فى بيانها و تعدادها، و هى مذكورة فى كتب السّنّة.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

قرأ حمزة و الكسائى «فارقوا دينهم» و هى قراءة علىّ بن أبى طالب؛ أى تركوا دينهم و خرجوا عنه.

و قرأ الباقون: فرّقوا بالتشديد إلا النخعى فإنه قرأ بالتخفيف. و المعنى: أنهم جعلوا دينهم متفرّقا، فأخذوا ببعضه و تركوا بعضه، قيل: المراد بهم اليهود و النصارى. و قد ورد فى معنى هذا؛ فى اليهود قوله تعالى:

وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ «١»؛ و قيل: المراد بهم المشركون عبد بعضهم الصّنم و بعضهم

الملائكة؛ و قيل: الآية عامة فى جميع الكفار و كلّ من ابتدع و جاء بما لم يأمر به اللّه، و هذا هو الصّواب لأنّ اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب و طوائف المشركين و غيرهم ممن ابتدع من أهل الإسلام، و معنى شيعا: فرقا و أحزابا، فتصدق على كل قوم كان أمرهم فى الدين واحدا مجتمعا، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبرائهم يخالف الصواب، و يباين الحق لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أى لست من تفرّقهم، أو من السؤال عن سبب تفرّقهم و البحث عن موجب تحزبهم فى شىء من الأشياء، فلا يلزمك من ذلك شىء و لا تخاطب به إنما عليك البلاغ، و هو مثل قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «من غشّنا فليس منّا» أى نحن برآء منه، و موضع فِي شَيْءٍ نصب على الحال. قال الفراء: هو على حذف مضاف: أى لست من عقابهم فى شىء، و إنما عليك الإنذار، ثم سلاه اللّه تعالى بقوله: إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ فهو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته، و الحصر بإنما: هو فى حكم التعليل لما قبله و التأكيد له ثُمَ هو يوم القيامة يُنَبِّئُهُمْ أى يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة بِما كانُوا يعملونه من الأعمال التى تخالف ما شرعه اللّه لهم و أوجبه عليهم، و هذه الآية من جملة ما هو منسوخ بآية السيف. قوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به؛ الممتثلين لما شرعه لهم؛ بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات؛ فله من الجزاء عشر حسنات، و التقدير: فله عشر حسنات أمثالها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف. قال أبو على الفارسى: حسن التأنيث فى عشر أمثالها لما كان الأمثال مضافا إلى مؤنث، نحو ذهبت بعض أصابعه. و قرأ الحسن و سعيد بن جبير و الأعمش فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها برفعهما.

و قد ثبت هذا التضعيف فى السنة بأحاديث كثيرة، و هذا التضعيف هو أقلّ ما يستحقه عامل الحسنة.

و قد وردت الزيادة على هذا عموما و خصوصا، ففى القرآن كقوله: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ «٢».

و ورد فى بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب، و ورد فى السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى ألوف مؤلفة. و قد قدمنا تحقيق هذا فى موضعين من هذا التفسير، فليرجع إليهما وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ من الأعمال

---

(١). البينة: ۴.

(٢). البقرة: ٢۶١.

السيئة فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها من دون زيادة عليها، على قدرها فى الخفّة و العظم، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده فى النار، و فاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرّحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، و ما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب؛ فعلينا أن نقول: يجازيه اللّه بمثله و إن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، و هذا إن لم يتب، أما إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته، أو تغمده اللّه برحمته، و تفضل عليه بمغفرته، فلا مجازاة، و أدلة الكتاب و السنة مصرّحة بهذا تصريحا لا يبقى بعده ريب لمرتاب، وَ هُمْ أى من جاء بالحسنة و من جاء بالسيئة لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب حسنات المحسنين، و لا بزيادة عقوبات المسيئين.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: اختلفت اليهود و النّصارى قبل أن يبعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فتفرقوا، فلما بعث محمد أنزل عليه إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ الآية. و أخرج النّحاس عنه فى ناسخه إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ قال: اليهود و النّصارى تركوا الإسلام و الدين الذى أمروا به وَ كانُوا شِيَعاً فرقا أحزابا مختلفة لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ نزلت بمكة ثم نسخها قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ «١». و أخرج أبو الشيخ عنه وَ كانُوا شِيَعاً قال: مللا شتّى. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ الآية قال:

هم فى هـذه الأمـة. و أخرج الحكيم الترمذى و ابن جرير و الطبرانى، و الشـيرازى فى الألقاب، و ابن مردويه عنه عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى الآيـة قال: «هم أهل البدع و الأهواء من هذه الأمة»، و فى إسـناده عباد بن كثير، و هو متروك الحديث، و لم يرفعه غيره، و من عـداه وقفوه على أبى هريرة. و أخرج عبـد بن حميد و أبو الشـيخ و ابن مردويه عن أبى أمامة فى الآية قال: هم الحرورية، و قـد رواه ابـن أبى حـاتم و النحـاس و ابن مردويه عن أبى غـالب عن أبى أمامـة مرفوعـا، و لا يصـحّ رفعه. و أخرج الحكيم الترمـذى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشـيخ و ابن شاهين و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و أبو نصـر السـجزى فى الإبانة، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لعائشة: «يا عائش؛ إنّ الذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعا هم أصحاب البدع و أصحاب الأهواء و أصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة، يا عائشة إنّ لكلّ صاحب ذنب توبـة غير أصحاب البـدع و أصحاب الأهـواء ليس لهم توبـة، و هم منى برآء» قال ابن كثير: هو غريب، و لا يصحّ رفعه. و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها قال رجل من المسلمين: يا رسول اللّه! لا إله إلا اللّه حسنة؟ قال: «نعم أفضل الحسنات»، و هـذا مرسل و لا نـدرى كيف إسـناده إلى سـعيد. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و أبو نعيم فى الحليـة عن ابن مسـعود مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ. قال: لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن المنـذر عن ابن عبـاس مثله. و أخرج أبو الشـيخ عن أبى هريرة مثله أيضـا. و قـد قـدّمنا الإشارة إلى أنها قـد ثبتت الأحاديث الصـحيحة بمضاعفة الحسـنة إلى عشـر أمثالهـا، فلا نطيل بـذكرها، و وردت أحاديث كثيرة فى الزيادة على هـذا المقـدار، و فضل اللّه واسع، و عطاؤه جمّ.

---

(١). التوبة: ٣۶.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢١٠

[سورة الأنعام (۶): الآيات ١۶١ الى ١۶٣]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١۶١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١۶٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١۶٣)

لمـا بيّن سـبحانه أنّ الكفـار تفرّقـوا فرقـا و تحزبـوا أحزابـا أمر رسـوله صـلّى اللّه عليه و سـلّم أن يقول لهم: إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي أى أرشدنى بما أوحاه إلىّ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و هو ملة إبراهيم عليه السلام، و دِيناً منتصب على الحال كما قال قطرب، أو على أنه مفعول هـدانى كما قال الأخفش؛ و قيل: منتصب بفعل يـدل عليه هـدانى، لأن معناه عرّفنى، أى: عرفنى دينا؛ و قيل: إنه بـدل من محل إلى صـراط، لأن معناه هدانى صـراطا مسـتقيما، كقوله تعالى: وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً و قيل: منصوب بإضمار فعل، كأنه قيل: اتبعوا دينا. قوله:

قِيَمـاً قرأه الكوفيون و ابن عـامر بكسـر القـاف، و التخفيف و فتـح الياء. و قرأه الباقون بفتـح القاف و كسـر الياء المشـدّدة، و هما لغتان: و معناه الدين المسـتقيم الذى لا عوج فيه، و هو صـفة لدينا، وصف به مع كونه مصدرا، مبالغة، و انتصاب مِلَّةَ إِبْراهِيمَ على أنها عطف بيان لدينا، و يجوز نصبها بتقدير أعنى، و حَنِيفاً منتصب على أنه حال من إبراهيم، قاله الزّجّاج. و قال على بن سليمان: هو منصوب بإضمار أعنى. و الحنيف: المائل إلى الحق، و قد تقدّم تحقيقه وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فى محل نصب معطوف على حنيفا، أو جملة معترضة مقررة لما قبلها. قوله: قُلْ إِنَّ صَلاتِي أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم بهذه المقالة عقب أمره بأن يقول لهم بالمقالـة السابقـة؛ قيـل: و وجه ذلـك أنّ مـا تضـمنه القول الأوّل إشارة إلى أصول الـدين، و هـذا إلى فروعها. و المراد بالصـلاة:

جنسها فيدخل فيه جميع أنواعها؛ و قيل: المراد بها هنا: صلاة الليل، و قيل: صلاة العيد. و النسك: جمع نسيكة، و هى الذبيحة كذا قال مجاهد و الضحاك و سعيد بن جبير و غيرهم، أي: ذبيحتى فى الحج و العمرة. و قال الحسن: دينى. و قال الزجاج: عبادتى من قولهم:

نسك فلان هو ناسك: إذا تعبد، و به قال جماعة من أهل العلم. وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي أي: ما أعمله فى حياتى و مماتى من أعمال الخير، و من أعمال الخير فى الممات الوصية بالصدقات و أنواع القربات؛ و قيل: نفس الحياة و نفس الموت لِلَّهِ و قرأ الحسن نسكى بسكون السين. و قرأ الباقون بضمها. و قرأ أهل المدينة محياى بسكون الياء. و قرأ الباقون بفتحها، لئلا يجتمع ساكنان قال النحاس: لم يجزه، أى السكون أحد من النحويين إلا يونس، و إنما أجازه لأن المدّة التى فى الألف تقوم مقام الحركة. و قرأ ابن أبى إسحاق و عيسى بن عمر و عاصم الجحدرى محيى من غير ألف و هى لغة عليا مضر، و منه قول الشاعر «١»:

سبقوا هوىّ و أعنقوا لهواهمفتخرّموا و لكلّ جنب مصرع

لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أى خالصا له لا شريك له فيه، و الإشارة بِذلِكَ إلى ما أفاده لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ من الإخلاص فى الطاعة و جعلها للّه وحده. قوله: وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ أى أوّل

---

(١). هو أبو ذؤيب.

مسلمى أمته؛ و قيل: أوّل المسلمين أجمعين، لأنه و إن كان متأخرا فى الرسالة فهو أولهم فى الخلق، و منه قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ «١» الآية، و الأوّل أولى. قال ابن جرير الطبرى:

استدل بهذه الآية الشافعى على مشروعية افتتاح الصلاة بهذا الذكر، فإن اللّه أمر به نبيه و أنزله فى كتابه، ثم ذكر حديث علىّ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهى للذى فطر السّموات و الأرض حنيفا و ما أنا من المشركين» إلى قوله: «و أنا أول المسلمين» قلت: هذا هو فى صحيح مسلم مطوّلا. و هو أحد التوجهات الواردة، و لكنّه مقيّد بصلاة الليل كما فى الروايات الصحيحة، و أصح التوجهات الذى كان يلازمه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و يرشد إليه هو «اللهم باعد بينى و بين خطاياى» إلى آخره، و قد أوضحنا هذا فى شرحنا للمنتقى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه هنا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله: إِنَّ صَلاتِي قال: يعنى المفروضة وَ نُسُكِي يعنى الحج. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير وَ نُسُكِي قال: ذبيحتى. و أخرجا أيضا عن قتادة إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي قال: حجّى و ذبيحتى. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ نُسُكِي قل: ذبيحتى فى الحج و العمرة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ نُسُكِي قال: ضحيتى. و فى قوله: وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قال: من هذه الأمة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى عن عمران بن حصين قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا فاطمة! قومى فاشهدى أضحيتك فإنه يغفر لك بأوّل قطرة تقطر من دمها كلّ ذنب عملته، و قولى: إنّ صلاتى إلى و أنا أوّل المسلمين، قلت: يا رسول اللّه هذا لك و لأهل بيتك خاصّة- فأهل ذلك أنتم- أم للمسلمين عامة؟ قال: لا، بل للمسلمين عامة».

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٦٤ الى ١٦٥]

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ

فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۵)

الاستفهام فى أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا للإنكار، و هو جواب على المشركين لما دعوه إلى عبادة غير اللّه، أى: كيف أبغى غير اللّه ربا مستقلا و أترك عبادة اللّه أو شريكا للّه فأعبدهما معا، و الحال أنه ربّ كل شيء، و الذى تدعوننى إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له مخلوق مثلى لا يقدر على نفع و لا ضرّ، و فى هذا الكلام من التقريع و التوبيخ لهم ما لا يقادر قدره، و غير: منصوب بالفعل الذى بعده، و ربا: تمييز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصبا لمفعولين قوله: وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها أى لا يؤاخذ مما أتت من الذنب و ارتكبت من المعصية سواها، فكل كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها، و هو مثل قوله تعالى: لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ «۲» و قوله: لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أصل الوزر: الثقل، و منه قوله تعالى: وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ «۳» و هو هنا: الذنب

---

(۱). الأحزاب: ۷.

(۲). البقرة: ۲۸۶.

(۳). الشرح: ۲.

وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ قال الأخفش: يقال: وزر يوزر، و وزر يزر وزرا، و يجوز إزرا، و فيه ردّ لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه، و الواحد من القبيلة بذنب الآخر و قد قيل:

إن المراد بهذه الآية فى الآخرة و كذلك التى قبلها لقوله تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «۱»، و مثله قول زينب بنت جحش: «يا رسول اللّه! أ نهلك و فينا الصّالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث». و الأولى: حمل الآية على ظاهرها، أعنى: العموم و ما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التى تحملها العاقلة و نحو ذلك، فيكون فى حكم المخصص بهذا العموم و يقرّ فى موضعه و لا يعارض هذه الآية قوله تعالى: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «۲» فإنّ المراد بالأثقال التى مع أثقالهم هى أثقال الذين يضلونهم كما فى الآية الأخرى لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «۳». ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فى الدنيا، و عند ذلك يظهر حق المحقين و باطل المبطلين. قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ خلائف: جمع خليفة، أى: جعلكم خلفاء الأمم الماضية و القرون السالفة، قال الشّمّاخ:

تصيبهم و تخطئنى المناياو أخلف فى ربوع عن ربوع

أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضا، أو أن هذا النوع الإنسانى خلفاء اللّه فى أرضه وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ فى الخلق، و الرزق، و القوة، و الفضل، و العلم، و درجات: منصوب بنزع الخافض، أى: إلى درجات لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ أى ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور، أو ليبتلى بعضكم ببعض كقوله تعالى: وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً «۴» ثمّ خوّفهم فقال: إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ فإنه و إن كان فى الآخرة فكل آت قريب كما قال: وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ «۵» ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال: وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران و الرحمة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ قال: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ قال: أهلك القرون الأولى فاستخلفنا فيها بعدهم وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ قال: فى الرّزق.

(۱). الأنفال: ۲۵.

(۲). العنكبوت: ۱۳.

(۳). النحل: ۲۵.

(۴). الفرقان: ۲۰.

(۵). النحل: ۷۷.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۱۳

سورة الأعراف

اشارة

هى مكيّة إلاـ ثمان آيات، و هى قوله: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ إلى قوله: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ «۱». و قد أخرج ابن الضّريس، و النحّاس فى ناسخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس، قال: سورة الأعراف نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزّبير مثله. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة: قال: آية من الأعراف مدنية، و هى وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ «۲» إلى آخر الآية، و سائرها مكية. و قد ثبت أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ بها فى المغرب يفرّقها فى الرّكعتين. و آياتها مائتان و ستّ آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱ الى ۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (۱) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (۳) وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (۴)

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۵) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (۷)

قوله: المص قد تقدّم فى فاتحة سورة البقرة ما يغنى عن الإعادة، و هو: إما مبتدأ و خبره كتاب، أى: المص حروف كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ أو هو: خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا المص أى المسمى به، و أما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التّعديد فلا محلّ له، و كتاب: خبر المبتدأ على الوجه الأوّل، أو خبر مبتدأ محذوف على الثانى، أى: هو كتاب. قال الكسائى: أى: هذا كتاب، و أنزل إليك صفة له فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ الحرج: الضيق، أى: لا يكن فى صدرك ضيق منه من إبلاغه إلى الناس مخافة أن يكذبوك و يؤذوك فإن اللّه حافظك و ناصرك. و قيل: المراد: لا يضق صدرك حيث لم يؤمنوا به و لم يستجيبوا لك فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ*، و قال مجاهد و قتادة: الحرج هنا: الشك، لأن الشاك ضيق الصدر، أى: لا تشك فى أنه منزل من عند اللّه، و على هذا يكون النهى له صلّى اللّه عليه و سلّم من باب التعريض، و المراد أمته، أى: لا يشك أحد منهم فى ذلك، و الضمير فى منه راجع إلى الكتاب، فعلى الوجه الأوّل يكون على تقدير مضاف محذوف، أى: من إبلاغه، و على الثانى

يكون التقدير، من إنزاله، و الضمير فى لِتُنْذِرَ بِهِ راجع إلى الكتاب أى: لتنذر الناس بالكتاب الذى أنزلناه إليك، و هو متعلق بأنزل، أى: أنزل إليك لإنذارك

---

(۱). الأعراف: ۱۶۳- ۱۶۵.

(۲). الأعراف: ۱۶۳.

للناس به، أو متعلق بالنهى، لأن انتفاء الشك فى كونه منزّلا من عند اللّه أو انتفاء الخوف من قومه يقوّيه على الإنذار و يشجعه، لأن المتيقن يقدم على بصيرة و يباشر بقوّة نفس. قوله: وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ الذكرى:

التذكير. قال البصريون: الذكرى: فى محل رفع على إضمار مبتدأ. و قال الكسائى: هى فى محل رفع عطفا على كتاب، و يجوز النصب على المصدر، أى: و ذكر به ذكرى، قاله البصريون. و يجوز الجر حملا على موضع لتنذر، أى: للإنذار و الذكرى، و تخصيص الذكرى بالمؤمنين لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك، و فيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين. قوله: اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى: الكتاب و مثله السنة لقوله:

وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۱» و نحوها من الآيات، و هو أمر للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لأمته؛ و قيل: هو أمر للأمة بعد أمره صلّى اللّه عليه و سلّم بالتبليغ، و هو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ نهى للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون اللّه يعبدونهم و يجعلونهم شركاء للّه، فالضمير على هذا فى مِنْ دُونِهِ يرجع إلى ربّ، و يجوز أن يرجع إلى ما فى ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ أى: لا تتبعوا من دون كتاب اللّه أولياء تقلدونهم فى دينكم كما كان يفعله أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم و يحرمونه عليهم. قوله: قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ انتصاب قليلا على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر، أى: تذكرا قليلا، و ما: مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل لا تتبعوا، و ما: مصدرية، أى: لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكرهم، قرئ تذكرون بالتخفيف بحذف إحدى التاءين، و قرئ بالتشديد على الإدغام، قوله: وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها كم: هى الخبرية المفيدة للتكثير و هى فى موضع رفع على الابتداء و أَهْلَكْناها الخبر، و من قرية: تمييز، و يجوز أن تكون فى محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها، لأن لها صدر الكلام، و لو لا اشتغال أهلكناها بالضمير لجاز انتصاب كم به، و القرية: موضع اجتماع الناس، أى: كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها، أو أهلكنا أهلها، و المراد: أردنا إهلاكها. قوله: فَجاءَها بَأْسُنا معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مرّ، لأن ترتيب مجىء البأس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير، إذ الإهلاك هو نفس مجىء البأس. و قال الفراء: إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير، و المعنى: أهلكناها و جاءها بأسنا، و الواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها؛ و قيل: إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية؛ فيكون المعنى: و كم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع؛ و قيل المعنى: و كم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا؛ و قيل: أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا، و البأس: هو العذاب. و حكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى: و كم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها، مثل دنا فقرب، و قرب فدنا بَياتاً أى:

ليلا، لأنه يبات فيه، يقال: بات يبيت بيتا و بياتا، و هو مصدر واقع موقع الحال، أى: بائتين. قوله:

أَوْ هُمْ قائِلُونَ معطوف على بياتا، أى: بائتين أو قائلين، و جاءت الجملة الحالية بدون واو استثقالا لاجتماع الواوين، واو العطف و واو الحال، هكذا قال الفراء. و اعترضه الزجاج فقال: هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو، تقول: جاءنى زيد راكبا أو هو ماش لأن فى الجملة ضميرا قد عاد إلى الأوّل، و أو فى هذا الموضع:

(١). الحشر: ٧.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢١٥

للتفصيل لا ـ للشك. و القيلولة: هى نوم نصف النهار. و قيل: هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت لشدّة الحرّ من دون نوم، و خص الوقتين لأنهما وقت السكون و الدعة فمجىء العذاب فيهما أشدّ و أفظع. قوله: فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا: إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ الدعوى: الدعاء، أى: فما كان دعاؤهم ربهم عند نزول العذاب إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم، و مثله: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ «١» أى: آخر دعائهم؛ و قيل: الدعوى هنا بمعنى الادّعاء، و المعنى: ما كان ما يدّعونه لدينهم و ينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه و فساده، و اسم كان إِلَّا أَنْ قالُوا و خبرها دَعْواهُمْ و يجوز العكس؛ و المعنى: ما كان دعواهم إلا قولهم:

إنا كنا ظالمين. قوله: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هذا وعيد شديد، و السؤال للقوم الذين أرسل اللّه إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع و التوبيخ، و اللام لام القسم، أى: لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم، و الفاء: لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ أى: الأنبياء الذين بعثهم اللّه، أى: نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم و من أطاع منهم و من عصى؛ و قيل: المعنى: فلنسألن الذين أرسل إليهم: يعنى: الأنبياء، و لنسألن المرسلين: يعنى الملائكة، و لا يعارض هذا قول اللّه سبحانه:

وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٢» لما قدّمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففى موطن يسألون، و فى موطن لا يسألون، و هكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة و نفى أخرى بالنسبة إلى يوم القيامة، فإنه محمول على تعدّد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا ـ عظيما فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ أى: على الرسل و المرسل إليهم ما وقع بينهم عند الدعوة منهم لهم بعلم لا بجهل، أى: عالمين بما يسرون و ما يعلنون وَ ما كُنَّا غائِبِينَ عنهم فى حال من الأحوال حتى يخفى علينا شىء مما وقع بينهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن النجار فى تاريخه، عن ابن عباس فى قوله: المص قال: أنا اللّه أفصل. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أن هذا و نحوه من فواتح السور: قسم أقسم اللّه به، و هى من أسماء اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله:

المص قال: هو المصوّر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى فى قوله:

المص قال: الألف من اللّه، و الميم من الرحمن، و الصاد من الصمد. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: معناه أنا اللّه الصّادق. و لا ـ يخفى عليك أن هذا كلّه قول بالظن و تفسير بالحدس، و لا حجّة فى شىء من ذلك، و الحق ما قدّمنا فى فاتحة سورة البقرة. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَلا ـ يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ قال: الشك، و قال لأعرابىّ: ما الحرج فيكم؟ قال: اللبس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: ضيق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم، ثم قرأ فَما كانَ دَعْواهُمْ الآية. و أخرجه ابن جرير عنه مرفوعا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ قال: نسأل الناس عما أجابوا المرسلين و نسأل المرسلين عما بلغوا فلنقصنّ

(١). يونس: ١٠.

(٢). القصص: ٧٨.

فتح القدير، ج‏2، ص: 216
عليهم بعلم قال: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون. و أخرج عبد بن حميد عن فرقد فى الآية قال: أحدهما الأنبياء، و أحدهما الملائكة. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: نسأل الناس عن قول لا إله إلا اللّه و نسأل جبريل.

[سورة الأعراف (7): الآيات 8 الى 18]

وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10) وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)
قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17)
قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)
قوله: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ الوزن: مبتدأ و خبره الحق، أى: الوزن فى هذا اليوم العدل الذى لا جور فيه، أو الخبر: يومئذ، و الحق: وصف للمبتدأ، أى: الوزن العدل كائن فى هذا اليوم؛ و قيل:
إن الحق خبر مبتدأ محذوف.
و اختلف أهل العلم فى كيفية هذا الوزن الكائن فى هذا اليوم، فقيل: المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزنا حقيقيا، و هذا هو الصحيح، و هو الذى قامت عليه الأدلة؛ و قيل: توزن نفس الأعمال و إن كانت أعراضا فإن اللّه يقلبها يوم القيامة أجساما كما جاء فى الخبر الصحيح: «إن البقرة و آل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صوافّ». و كذلك ثبت فى الصحيح أنه يأتى القرآن فى صورة شاب شاحب اللون و نحو ذلك؛ و قيل: الميزان: الكتاب الذى فيه أعمال الخلق؛ و قيل: الوزن و الميزان: بمعنى العدل و القضاء، و ذكرهما من باب ضرب المثل، كما تقول: هذا الكلام فى وزن هذا. قال الزجاج: هذا سائغ من جهة اللسان، و الأولى أن نتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. قال القشيرى: و قد أحسن الزجّاج فيما قال، إذ لو حمل الصراط على الدين الحقّ، و الجنة و النار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، و الشياطين و الجنّ على الأخلاق المذمومة، و الملائكة على القوى المحمودة، ثم قال:
و قد أجمعت الأمة فى الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل و إذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر و صارت هذه الظواهر نصوصا. انتهى. و الحق هو القول الأوّل: و أما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون فى استبعادهم بشى‏ء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، و ليس فى ذلك حجة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هى أقوى
فتح القدير، ج‏2، ص: 217
من عقولهم من الصحابة و التابعين و تابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم و قال كلّ ما شاء، و تركوا الشّرع خلف ظهورهم و ليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها، و يتحد قبولهم لها، بل كلّ فريق يدّعى على العقل ما يطابق هواه، و يوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له، فتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم، يعرف هذا كلّ منصف، و من أنكره فليصفّ

فهمه و عقله عن شوائب التعصب و التمذهب فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه.

و قد ورد ذكر الوزن و الموازين فى مواضع من القرآن كقوله: وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً «١»، و قوله: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ «٢»، و قوله:

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ- وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ «٣»، و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ «۴»، و قوله: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ- فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ- وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ- فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ «۵»، و الفاء فى فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ للتفصيل.

و الموازين: جمع ميزان، و أصله موزان قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، و ثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال؛ و قيل: إن الموازين جمع موزون، أى: فمن رجحت أعماله الموزونة، و الأوّل أولى.

و ظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله؛ و قيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال، و الإشارة بقوله:

فَأُولئِكَ إلى من، و الجمع باعتبار معناه، كما رجع إليه ضمير مَوازِينُهُ باعتبار لفظه، و هو مبتدأ، خبره هُمُ الْمُفْلِحُونَ و الكلام فى قوله: وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ مثله، و الباء فى بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ سببية، و ما مصدرية. و معنى يَظْلِمُونَ يكذبون. قوله:

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أى جعلنا لكم فيها مكانا، و هيأنا لكم فيها أسباب المعايش. و المعايش جمع معيشة، أى: ما يتعايش به من المطعوم و المشروب و ما تكون به الحياة، يقال: عاش يعيش عيشا و معاشا و معيشا. قال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش، و المعيشة عند الأخفش و كثير من النحويين مفعلة.

و قرأ الأعرج «معائش» بالهمز، و كذا روى خارجة بن مصعب عن نافع. قال النحاس: و الهمز لحن لا يجوز، لأن الواحدة معيشة و الياء أصلية كمدينة و مداين و صحيفة و صحايف. قوله: قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ الكلام فيه كالكلام فيما تقدّم قريبا من قوله تعالى: قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ «۶». و قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ هذا ذكر نعمة أخرى من نعم اللّه على عبيده. و المعنى: خلقناكم نطفا ثم صوّرناكم بعد ذلك، و قيل المعنى: خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم فى ظهره؛ و قيل: وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ يعنى: آدم، ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ راجع إليه، و يدلّ عليه ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فإنّ ترتيب هذا القول على الخلق و التصوير يفيد أن المخلوق المصوّر آدم عليه السلام. و قال الأخفش: إن ثم فى ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ بمعنى الواو؛ و قيل: المعنى: خلقناكم من ظهر آدم ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق.

قال النحاس: و هذا أحسن الأقوال؛ و قيل المعنى: و لقد خلقنا الأرواح أوّلا، ثم صوّرنا الأشباح، ثم قلنا

---

(١). الأنبياء: ۴٧.

(٢). المؤمنون: ١٠١.

(٣). المؤمنون: ١٠٢ و ١٠٣.

(۴). النساء: ۴٠.

(۵). القارعة: ۶- ٩.

(۶). الأعراف: ٣.

للملائكة اسجدوا لآدم، أى: أمرناهم بذلک فامتثلوا الأمر، و فعلوا السجود بعد الأمر إِلَّا إِبْلِيسَ قيل:
الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفردا بينهم، أو كما قيل: لأن من الملائكة جنسا يقال لهم الجنّ؛ و قيل غير ذلک، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة. قوله: لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء و من جعل الاستثناء منقطعا قال معناه: لكن إبليس لم يكن من الساجدين، و جملة قالَ ما مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل فماذا قال له اللّه؟ و لا فى أَلَّا تَسْجُدَ زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى فى سورة ص ما مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ «١»؛ و قيل: إن منع بمعنى قال، و التقدير: من قال لک أن لا تسجد؟ و قيل: منع بمعنى دعا، أى: ما دعاک إلى أن لا تسجد؟
و قيل: فى الكلام حذف، و التقدير: ما منعک من الطاعة و أحوجک إلى أن لا تسجد إِذْ أَمَرْتُکَ أى:
وقت أمرتک، و قد استدل به على أن الأمر للفور، و البحث مقرر فى علم الأصول، و الاستفهام فى ما مَنَعَکَ للتقريع و التوبيخ، و إلاـ فهو سبحانه عالم بذلک، و جملة قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما قال إبليس؟ و إنما قال فى الجواب: أنا خير منه، و لم يقل: منعنى كذا، لأن فى هذه الجملة التى جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع و هو اعتقاده أنه أفضل منه. و الفاضل لا يفعل مثل ذلک للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله. ثم علل ما ادّعاه من الخيرية بقوله:
خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ اعتقادا منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين. و قد أخطأ عدوّ اللّه فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته و سكونه و طول بقائه و هى خفيفة مضطربة سريعة النفاد، و مع هذا فهو «٢» موجود فى الجنة دونها، و هى «٣» عذاب دونه، و هى محتاجة إليه لتتحيز فيه، و هو مسجد و طهور، و لو لا سبق شقاوته «۴» و صدق كلمة اللّه عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة و قدوة، فعنصرهم النورى أشرف من عنصره النارى، و جملة قالَ فَاهْبِطْ استئنافية كالتى قبلها، و الفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر، أى: اهبط من السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون اللّه فيما أمرهم إلى الأرض التى هى مقرّ من يعصى و يطيع، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر و يعصى أمر ربه مثلک، و لهذا قال: فَما يَكُونُ لَکَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها. و من التفاسير الباطلة ما قيل: إن معنى فَاهْبِطْ مِنْها أى اخرج من صورتک النارية التى افتخرت بها إلى صورة مظلمة مشوّهة؛ و قيل: المراد هبوطه من الجنة؛ و قيل: من زمرة الملائكة، و جملة فَاخْرُجْ لتأكيد الأمر بالهبوط، و جملة إِنَّکَ مِنَ الصَّاغِرِينَ تعليل للأمر، أى: إنک من أهل الصغار و الهوان على اللّه و على صالحى عباده، و هكذا كل من تردّى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان و الصغار. و من لبس رداء التواضع ألبسه اللّه رداء الترفع،

---

(١). ص: ٧۵.

(٢). أى: الطين.

(٣). أى: النار.

(۴). أى: إبليس.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢١٩

و جملة قالَ أَنْظِرْنِى إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ استئنافية كما تقدّم فى الجمل السابقة، أى: أمهلنى إلى يوم البعث، و كأنه طلب أن لا يموت، لأن يوم البعث لاـ موت بعده، و الضمير فى يُبْعَثُونَ لآدم و ذريته، فأجابه اللّه بقوله: إِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ أى: الممهلين إلى ذلک اليوم، ثم تعاقب بما قضاه اللّه لک، و أنزله بک فى دركات النار. قيل: الحكمة فى إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه، و جملة قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِى مستأنفة كالجمل السابقة واردة جوابا لسؤال مقدّر، و الباء فى فَبِما للسببية، و الفاء: لترتيب

الجملة على ما قبلها؛ و قيل: الباء للقسم كقوله: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «۱» أى فبإغوائك إياى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ و الإغواء: الإيقاع فى الغىّ؛ و قيل: الباء بمعنى اللام، و قيل: بمعنى مع. و المعنى: فمع إغوائك إياى، و قيل ما فى فَبِما أَغْوَيْتَنِي للاستفهام. و المعنى: فبأى شىء أغويتنى؟ و الأوّل أولى. و مراده بهذا الإغواء الذى جعله سببا لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه و أن ذلك كان بإغواء اللّه له، حتى اختار الضلالة على الهدى؛ و قيل: أراد به اللعنة التى لعنه اللّه، أى: فبما لعنتنى فأهلكتنى لأقعدن لهم، و منه: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا «۲» أى: هلاكا. و قال ابن الأعرابى: يقال غوى الرجل يغوى غيا: إذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه، و منه وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى «۳» أى: فسد عيشه فى الجنة لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ أى لأجهدنّ فى إغوائهم حتى يفسدوا بسببى كما فسدت بسبب تركى السجود لأبيهم. و الصراط المستقيم: هو الطريق الموصل إلى الجنة. و انتصابه على الظرفية، أى: فى صراطك المستقيم كما حكى سيبويه: ضرب زيد الظهر و البطن، و اللام فى لَأَقْعُدَنَ لام القسم، و الباء فَبِما أَغْوَيْتَنِي متعلقة بفعل القسم المحذوف، أى: فبما أغويتنى أقسم لأقعدنّ. قوله: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ ذكر الجهات الأربع لأنها هى التى يأتى منها العدو عدوّه، و لهذا ترك ذكر جهة الفوق و التحت، و عدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بمن، و إلى الأخريين بعن، لأنّ الغالب فيمن يأتى من قدام و خلف أن يكون متوجها إلى ما يأتيه بكلية بدنه، و الغالب فيمن يأتى من جهة اليمين و الشمال أن يكون منحرفا، فناسب فى الأوليين التعدية بحرف الابتداء، و فى الأخريين التعدية بحرف المجاورة، و هو تمثيل لوسوسته و تسويله بمن يأتى حقيقة؛ و قيل المراد مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ من دنياهم وَ مِنْ خَلْفِهِمْ من آخرتهم وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ من جهة حسناتهم وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ من جهة سيئاتهم، و استحسنه النحاس. قوله: وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ أى: و عند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستى فيهم و إغوائى لهم، و هذا قاله على الظنّ و منه قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ «۴»، و قيل: إنه سمع ذلك من الملائكة فقاله، و عبر بالشكر عن الطاعة، أو هو على حقيقته و أنهم لم يشكروا اللّه بسبب الإغواء، و جملة قالَ اخْرُجْ مِنْها استئناف كالجمل التى قبلها، أى: من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدّم مَذْؤُماً أى مذموما من ذأمه إذا ذمه يقال ذأمته و ذممته بمعنى. و قرأ الأعمش «مذموما». و قرأ الزهرى مَذُوماً بغير همزة؛ و قيل: المذءوم: المنفى، و المدحور: المطرود. قوله:

لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم، و جوابه لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ

---

(۱). ص: ۸۲.

(۲). مريم: ۵۹.

(۳). طه: ۱۲۱.

(۴). سبأ: ۲۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۲۰

و قيل اللام فى لَمَنْ تَبِعَكَ للتوكيد، و فى لَأَمْلَأَنَ لام القسم. و الأوّل أولى، و جواب القسم سدّ مسدّ جواب الشرط، لأن من شرطية، و فى هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره. و قرأ عاصم فى رواية عنه لِمَنْ تَبِعَكَ بكسر اللام، و أنكره بعض النحويين. قال النحاس: و تقديره و اللّه أعلم: من أجل من اتبعك، كما يقال: أكرمت فلانا لك؛ و قيل: هو علة لأخرج، و ضمير مِنْكُمْ له و لمن اتبعه، و غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة، و الأصل منك و منهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُ قال: العدل فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ قال: حسناته وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ قال: حسناته. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى: توزن الأعمال. و قد ورد فى كيفية

الميزان و الوزن و الموزون أحاديث كثيرة. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن ماجة و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن عبد اللّه بن عمرو قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة و تسعون سجلا، كلّ سجل منها مدّ البصر، فيقول: أ تنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول:

لا، يا ربّ! فيقول: أ فلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، يا ربّ، فيقول: بلى، إنّ لك عندنا حسنة و إنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللّه و أشهد أن محمدا عبده و رسوله، فيقول: يا ربّ! ما هذه البطاقة مع هذه السّجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السّجلات فى كفة و البطاقة فى كفّة؛ فطاشت السّجلات و ثقلت البطاقة» و قد صححه أيضا الترمذى، و إسناد أحمد حسن. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ قال: خلقوا فى أصلاب الرجال و صوّروا فى أرحام النساء. و أخرج الفريابى عنه أنه قال: خلقوا فى ظهر آدم ثم صوّروا فى الأرحام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: أما خلقناكم: فآدم، و أما ثم صوّرناكم: فذريته.

و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: خلق إبليس من نار العزّة. و قد ثبت فى الصحيح من حديث عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خلقت الملائكة من نور، و خلق إبليس من نار، و خلق آدم مما وصفه لكم». و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: أوّل من قاس إبليس فى قوله: خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ و إسناده صحيح إلى الحسن. و أخرج أبو نعيم فى الحلية و الديلمى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أوّل من قاس أمر الدّين برأيه إبليس، قال اللّه له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه خلقتنى من نار و خلقته من طين» قال جعفر: فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه يوم القيامة بإبليس؛ لأنه اتبعه بالقياس. و ينبغى أن ينظر فى إسناد هذا الحديث فما أظنه يصح رفعه و هو لا يشبه كلام النبوّة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: فَبِما أَغْوَيْتَنِي أضللتنى. و أخرج عبد ابن حميد عنه فى قوله: لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ قال: طريق مكة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن مسعود مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٢١

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ قال: أشككهم فى آخرتهم وَ مِنْ خَلْفِهِمْ قال: أرغّبهم فى دنياهم وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ أشبه عليهم أمر دينهم وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ قال: أسنّ لهم المعاصى و أحقّ عليهم الباطل وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ قال: موحّدين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ يقول: من حيث يبصرون وَ مِنْ خَلْفِهِمْ من حيث لا يبصرون وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ من حيث يبصرون وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ من حيث لا يبصرون. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: لم يستطع أن يقول من فوقهم. و فى لفظ: علم أنّ الرّحمة تنزل من فوقهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

مَذْؤُماً قال: ملوما مَدْحُوراً قال: مقيتا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد مَذْؤُماً قال: منفيا مَدْحُوراً قال: مطرودا.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ

الْخالِدِينَ (٢٠) وَ قاسَمَهُما إِنِّی لَکُما لَمِنَ النَّاصِحِینَ (٢١) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا یَخْصِفانِ عَلَیْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَکُما عَنْ تِلْکُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَکُما إِنَّ الشَّیْطانَ لَکُما عَدُوٌّ مُبِینٌ (٢٢) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ (٢٣)

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلی حِینٍ (٢٤) قالَ فِیها تَحْیَوْنَ وَ فِیها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (٢٥)

قوله: وَ یا آدَمُ هو علی تقدیر القول، أی: و قلنا یا آدم. قال له هذا القول بعد إخراج إبلیس من الجنة، أو من السماء، أو من بین الملائکة کما تقدّم. و قد تقدّم معنی الإسکان، و معنی لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فی البقرة. و معنی مِنْ حَیْثُ شِئْتُما من أیّ نوع من أنواع الجنة شئتما أکله، و مثله ما تقدّم من قوله تعالی: وَ کُلا مِنْها رَغَداً حَیْثُ شِئْتُما «١» و حذف النون من فَتَکُونا لکونه معطوفا علی المجزوم أو منصوبا علی أنه جواب النهی. قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّیْطانُ الوسوسة: الصوت الخفی، و الوسوسة: حدیث النفس، یقال: وسوست إلیه نفسه وسوسة و وسواسا بکسر الواو، و الوسوسة بالفتح:

الاسم، مثل الزلزلة و الزلزال، و یقال لهمس الصائد و الکلاب و أصوات الحلی: وسواس. قال الأعشی:

تسمع للحلیّ وسواسا إذا انصرفت «٢» .....

و الوسواس: اسم الشیطان. و معنی وسوس له: وسوس إلیه، أو فعل الوسوسة لأجله. قوله: لِیُبْدِیَ

---

(١). البقرة: ٣٥.

(٢). و عجزه: کما استعان بریح عشرق زجل.

«عشرق»: شجر له حب صغار إذا جفّ صوّت بمرّ الریح.

لَهُمَا أی: لیظهر لهما، و اللام للعاقبة کما فی قوله: لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً؛ و قیل: هی لام کی، أی: فعل ذلک لیتعقبه الإیذاء، أو لکی یقع الإیذاء. قوله: ما وُورِیَ أی: ما ستر و غطی عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما سمّی الفرج سوءة؛ لأن ظهوره یسوء صاحبه، أراد الشیطان أن یسوءهما بظهور ما کان مستورا عنهما من عوراتهما، فإنهما کانا لا یریان عورة أنفسهما و لا یراها أحدهما من الآخر، و إنما لم تقلب الواو فی وُورِیَ همزة، لأن الثانیة مدة؛ قیل: إنما بدت عورتهما لهما لا لغیرهما، و کان علیهما نور یمنع من رؤیتها وَ قالَ أی: الشیطان لهما ما نَهاکُما رَبُّکُما عَنْ أکل هذه الشجرة إِلَّا أَنْ تَکُونا مَلَکَیْنِ أن فی موضع نصب، و فی الکلام مضاف محذوف تقدیره: إلا کراهة أن تکونا ملکین، هکذا قال البصریون. و قال الکوفیون: التقدیر لئلا تکونا ملکین أَوْ تَکُونا مِنَ الْخالِدِینَ فی الجنة أو من الذین لا یموتون. قال النحاس: فضل اللّه الملائکة علی جمیع الخلق فی غیر موضع فی القرآن، فمنها هذا، و منها وَ لا أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ و منها وَ لَا الْمَلائِکَةُ الْمُقَرَّبُونَ قال ابن فورک: لا حجة فی هذه الآیة، لأنّه یحتمل أن یرید: ملکین فی أن لا یکون لهما شهوة فی الطعام.

و قد اختلف الناس فی هذه المسألة اختلافا کثیرا و أطالوا الکلام فی غیر طائل، و لیست هذه المسألة مما کلفنا اللّه بعلمه، فالکلام فیها لا یعنینا. و قرأ ابن عباس و یحیی بن أبی کثیر و الضحاک «ملکین» بکسر اللام، و أنکر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة و قال: لم یکن قبل آدم ملک فیصیرا ملکین. و قد احتج من قرأ بالکسر بقوله تعالی: هَلْ أَدُلُّکَ عَلی شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْکٍ لا یَبْلی قال أبو عبید: هذه حجّة بیّنة لقراءة الکسر، و لکنّ الناس علی ترکها، فلهذا ترکناها. قال النحّاس: هی قراءة شاذة، و أنکر علی أبی عبید هذا الکلام و جعله من الخطأ الفاحش. قال: و هل یجوز أن یتوهم علی آدم علیه السلام أن یصل إلی أکثر من

ملك الجنة و هى غاية الطالبين، و إنما معنى وَ مُلْكٍ لا يَبْلى المقام فى ملك الجنة و الخلود فيه. قوله: وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ أى: حلف لهما فقال: أقسم إقساما أى: حلف، و منه قول الشاعر:

و قاسمها باللّه جهدا لأنتماألذّ من السّلوى إذا ما نشورها «۱»

و صيغة المفاعلة و إن كانت فى الأصل تدلّ على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك. و قد قدّمنا تحقيق هذا فى المائدة، و المراد بها هنا المبالغة فى صدور الإقسام لهما من إبليس؛ و قيل إنهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة. قوله: فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ التدلية و الإدلاء: إرسال الشىء من أعلى إلى أسفل، يقال:

أدلى دلوه: أرسلها، و المعنى: أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة؛ و قيل معناه: أوقعهما فى الهلاك؛ و قيل: خدعهما، و أنشد نفطويه:

إنّ الكريم إذا تشاء خدعتهو ترى اللّئيم مجرّبا لا يخدع

---

(۱). «السلوى»: العسل. و «شار العسل»: اجتناه و أخذه من موضعه.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۲۳

و قيل معنى: فَدَلَّاهُما دللهما من الدالة، و هى الجرأة: أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة.

قوله: فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما أى: لما طعماها ظهرت لهما عوراتهما بسبب زوال ما كان ساترا لها و هو تقلص النور الذى كان عليها. و قد تقدّم فى البقرة. قوله: وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ طفق يفعل كذا: بمعنى شرع يفعل كذا. و حكى الأخفش: طفق يطفق مثل ضرب يضرب، أى: شرعا أو جعلا يخصفان عليهما. قرأ الحسن «يخصفان» بكسر الخاء و تشديد الصاد، و الأصل: يختصفان فأدغم و كسرت الخاء لالتقاء الساكنين. و قرأ ابن بريدة و يعقوب بفتح الخاء. و قرأ الزهرى «يخصفان» من أخصف. و قرأ الجمهور «يخصفان» من خصف. و المعنى: أنهما أخذا يقطعان الورق و يلزقانه بعورتهما ليستراها، من خصف النعل: إذا جعله طبقة فوق طبقة وَ ناداهُما رَبُّهُما قائلا لهما:

أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ التى نهيتكما عن أكلها، و هذا عتاب من اللّه لهما و توبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه وَ أَقُلْ لَكُما معطوف على أَنْهَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ أى مظهر للعداوة. قوله: قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قالا؟ و هذا منهما اعتراف بالذنب، و أنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة، ثم قالا: وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ و جملة قالَ اهْبِطُوا استئناف كالتى قبلها، و الخطاب لآدم و حواء و ذريتهما، أو لهما و لإبليس، و جملة بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فى محل نصب على الحال وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ أى موضع استقرار وَ لكم مَتاعٌ تتمتعون به فى الدنيا و تنتفعون به من المطعم و المشرب و نحوهما إِلى حِينٍ أى: إلى وقت، و هو وقت موتكم، و جملة قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ استئنافية كالتى قبلها، أى: فى الأرض تحيون، و فيها يأتيكم الموت، و منها تخرجون إلى دار الآخرة. و مثله قوله تعالى: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى «۱» و اعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى فى البقرة فارجع إليه.

و قد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن وهب ابن منبه فى قوله: لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما قال: كان على كلّ واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوءة صاحبه، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أتاهما إبليس فقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين مثله، يعنى مثل اللّه عزّ و جلّ، فلم يصدّقاه حتى دخل فى جوف الحية فكلمهما. و أخرج أبو الشيخ

عن ابن عباس فى الآيـة إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ فإن أخطأكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالـدين فلا تموتان فيها أبدا وَ قاسَـمَهُما قـال: حلف لهمـا إِنِّی لَكُما لَمِنَ النَّاصِـحِينَ و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن محمـد بن كعب فی قوله: فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ قـال: مناهمـا بغرور. و أخرج ابن المنـذر و ابن أبی شـيبة عن عكرمـة قـال: لبـاس كـل دابـة منهـا، و لبـاس الإنسـان الظفر، فأدركت آدم التوبـة عنـد ظفره. و أخرج الفريابی و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبی حاتم و أبو الشـيخ و ابن مردويه و البيهقی و ابن عساكر عن ابن

---

(١). طه: ۵۵.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٢۴

عبـاس قال: كان لباس آدم و حواء كالظفر، فلما أكلا من الشـجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر وَ طَفِقا يَخْصِـفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ قال: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما. و أخرج ابن أبی حاتم عنه قال: لما أسـكن اللّه آدم الجنة كساه سـربالا من الظفر، فلمـا أصاب الخطيئـة سلبه السّـربال فبقى فی أطراف أصابعه. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عنه نحوه من طريق أخرى.

و أخرج ابن أبی حاتم عن أنس بن مالك قال: كان لباس آدم فی الجنة الياقوت، فلما عصى قلص فصار الظفر.

و أخرج ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فی قوله:

وَ طَفِقا يَخْصِـفانِ قال: يرقعان كهيئة الثوب. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدیّ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ قال آدم: ربّ إنه حلف لی بك، و لم أكن أعلم أن أحـدا من خلقك يحلف بك إلا صادقا. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا الآية قال: هی الكلمات التی تلقى آدم من ربه. و أخرج عبد بن حميد عن الضّحّاك مثله.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢۶ الى ٢٧]

يـا بَنِی آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِی سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢۶) يا بَنِی آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَـهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

عبّر سبحانه بالإنزال عن الخلق: أی خلقنا لكم لباسا يواری سوآتكم التی أظهرها إبليس من أبويكم، و السّوءة: العورة كما سلف، و الكلام فی قـدرها و ما يجب ستره منها مبين فی كتب الفروع. قوله: وَ رِيشاً قرأ الحسن و عاصم من رواية المفضل الضبی و أبو عمرو من روايـة الحسن بن علیّ الجعفی «و رياشـا» و قرأ الباقون «و ريشا» و الرياش جمع ريش: و هو اللباس. قال الفراء: ريش و ريـاش كما يقال لبس و لباس، و ريش الطائر ما ستره اللّه به. و قيل المراد بالريش هنا: الخصب و رفاهيـة العيش. قال القرطبی: و الذی عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة. و حكى أبو حاتم عن أبی عبيدة: و هبت له دابة و ريشـها، أی: و مـا عليهـا من اللبـاس. و قيـل المراد بـالريش هنا: لباس الزينـة لـذكره بعـد قوله: قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً و عطفه عليه. قوله: وَ لِباسُ التَّقْوى قرأ أهـل المدينـة و ابن عامر و الكسائی بنصب لباس. و قرأ الباقون بالرفع؛ فالنصب: على أنه معطوف على لباس الأوّل، و الرفـع: على أنه مبتـدأ، و جملـة ذلِـكَ خَيْرٌ خبره، و المراد بلبـاس التقـوى: لبـاس الورع و اتقـاء معاصـی اللّه، و هو الورع نفسه و الخشـية من اللّه، فـذلك خير لباس و أجمل زينـة؛ و قيل: لباس التقوى: الحياء؛ و قيل: العمل الصالح، و قيل: هو لباس الصوف و الخشن من الثياب لما فيه من التواضع للّه؛ و قيل: هو الدرع و المغفر الذی يلبسه من يجاهد فی سبيل اللّه، و الأوّل أولى.

و هو يصدق على كل ما فيه تقوى للّه فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال، و مثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع فى كلام العرب، و منه:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التّقى تقلّب عريانا و إن كان كاسيا

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۲۵

و مثله:

تغطّ بأثواب السّخاء فإنّنى أرى كلّ عيب و السّخاء غطاؤه

و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى لباس التقوى: أى هو خير لباس، و قرأ الأعمش و لباس التّقوى خير و الإشارة بقوله: ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ إلى الإنزال المدلول عليه بأنزلنا: أى ذلك الإنزال من آيات اللّه الدالة على أن له خالقا، ثم كرّر اللّه سبحانه النداء لبنى آدم تحذيرا لهم من الشيطان، فقال: يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ أى لا يوقعنكم فى الفتنة، فالنهى و إن كان للشيطان فهو فى الحقيقة لبنى آدم بأن لا يفتتنوا بفتنته و يتأثروا لذلك، و الكاف فى كَما أَخْرَجَ نعت مصدر محذوف، أى: لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة، و جملة يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما فى محل نصب على الحال، و قد تقدّم تفسيره، و اللام فى لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما لام كى، أى: لكى يريهما، و قد تقدّم تفسيره أيضا، قوله: إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ما تتضمنه من المبالغة فى تحذيرهم منه، لأن من كان بهذه المثابة- يرى بنى آدم من حيث لا يرونه- كان عظيم الكيد، و كان حقيقا بأن يحترس منه أبلغ احتراس وَ قَبِيلُهُ أعوانه من الشياطين و جنوده.

و قد استدلّ جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة، و ليس فى الآية ما يدل على ذلك، و غاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، و ليس فيها أنا لا نراه أبدا، فإن انتفاء الرؤية منا له فى وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقا، ثم أخبر اللّه سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده و هم الكفار.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ قال: كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة، و فى قوله:

وَ رِيشاً قال: المال. و أخرج ابن جرير عن عروة بن الزبير فى قوله: لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ قال:

الثياب وَ رِيشاً قال: المال وَ لِباسُ التَّقْوى قال: خشية اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن علىّ فى قوله: لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ قال: لباس العامة وَ رِيشاً قال: لباس الزينة وَ لِباسُ التَّقْوى قال: الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ رِيشاً قال: المال و اللباس و العيش و النعيم، و فى قوله: وَ لِباسُ التَّقْوى قال: الإيمان و العمل الصالح ذلِكَ خَيْرٌ قال: الإيمان و العمل خير من الريش و اللباس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: و رياشا يقول: المال. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما قال: التقوى، و فى قوله:

إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ قال: الجنّ و الشّياطين.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۲۶

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۲۸) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (۲۹) فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ

عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

الفاحشة: ما تبالغ فى فحشه و قبحه من الذنوب. قال أكثر المفسرين: هى طواف المشركين بالبيت عراة. و قيل: هى الشّرك، و الظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعا، و المعنى: أنهم إذا فعلوا ذنبا قبيحا متبالغا فى القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين: الأوّل: أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة؛ و الثانى: أنهم مأمورون بذلك من جهة اللّه سبحانه. و كلا العذرين فى غاية البطلان و الفساد، لأنّ وجود آبائهم على القبح لا يسوّغ لهم فعله، و الأمر من اللّه سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء، بل أمرهم باتباع الأنبياء و العمل بالكتب المنزلة و نهاهم عن مخالفتهما، و مما نهاهم عنه: فعل الفواحش، و لهذا ردّ سبحانه عليهم بأن أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم: إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ فكيف تدّعون ذلك عليه سبحانه، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه، فقال: أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ و هو من تمام ما أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم، و فيه من التّقريع و التّوبيخ أمر عظيم، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحا فى كل شىء فكيف إذا كان فى التقوّل على اللّه؟ و إن فى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر و أبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ «١» و القائلون وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها و المقلد لو لا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذى أمر اللّه به، و أنه الحق، لم يبق عليه، و هذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودىّ على اليهودية و النّصرانى على النصرانية و المبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية و النصرانية أو البدعة و أحسنوا الظنّ بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر اللّه به و لم ينظروا لأنفسهم، و لا طلبوا الحق كما يجب و بحثوا عن دين اللّه كما ينبغى، و هذا هو التقليد البحت و القصور الخالص، فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ فى التّحذير من أن تقول هذه المقالة و تستمر على الضلالة، فقد اختلط الشرّ بالخير و الصحيح بالسقيم و فاسد الرأى بصحيح الرواية. و لم يبعث اللّه إلى هذه الأمة إلا نبيا واحدا أمرهم باتباعه و نهى عن مخالفته فقال: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «٢» و لو كان محض رأى أئمة المذاهب و أتباعهم حجّة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعدّدون بعدد أهل الرأى المكلّفين للناس بما لم يكلّفهم اللّه به. و إن من أعجب الغفلة و أعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب اللّه، و وجود سنّة رسوله، و وجود من يأخذونهما عنه، و وجود آلة الفهم لديهم و ملكة العقل عندهم. قوله: قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ القسط: العدل و فيه أن اللّه سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من أن اللّه أمرهم بالفحشاء؛ و قيل: القسط

---

(١). الزخرف: ٢٣.

(٢). الحشر: ٧.

هنا هو لا إله إلا اللّه، و فى الكلام حذف، أى: قل أمر ربى بالقسط فأطيعوه. قوله: وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ معطوف على المحذوف المقدّر: أى توجهوا إليه فى صلاتكم إلى القبلة فى أى مسجد كنتم، أو فى كل وقت سجود، أو فى كل مكان سجود، على أن المراد بالسجود الصلاة وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء، أو العبادة له؛ و قيل: وحدوه و لا تشركوا به.

قوله: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ الكاف: نعت مصدر محذوف. و قال الزجاج: هو متعلق بما قبله. و المعنى:

كما أنشأكم في ابتداء الخلق يعيدكم، فيكون المقصود الاحتجاج على منكرى البعث، فيجازى المحسن بإحسانه، و المسيء بإساءته؛ و قيل: كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شيء، فيكون مثل قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ و قيل: كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب فَرِيقاً هَدى منتصب بفعل يفسره ما بعده؛ و قيل: منتصب على الحال من المضمر فى تعودون، أى:

تعودون فريقين: سعداء و أشقياء و يقويه قراءة أبىّ «فريقين فريقا هدى»، و الفريق الذى هداه اللّه هم المؤمنون باللّه المتبعون لأنبيائه، و الفريق الذى حقت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعليل لقوله: وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ أى: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين فى معصية اللّه، و مع هذا فإنهم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ و لم يعترفوا على أنفسهم بالضّلالة، و هذا أشدّ فى تمرّدهم و عنادهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنهوا عن ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى مثله.

و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال: و اللّه ما أكرم اللّه عبدا قط على معصيته و لا رضيها له و لا أمر بها، و لكن رضى لكم بطاعته و نهاكم عن معصيته. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ قال: بالعدل وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ قال: إلى الكعبة حيث صلّيتم فى كنيسة أو غيرها كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ قال: شقّى و سعيد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ الآية قال: إن اللّه بدأ خلق بنى آدم مؤمنا و كافرا كما قال: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ «١» ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا و كافرا. و أخرج ابن جرير، عن جابر فى الآية قال: يبعثون على ما كانوا عليه: المؤمن على إيمانه و المنافق على نفاقه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه أنه ذكر القدرية فقال: قاتلهم اللّه أليس قد قال اللّه تعالى: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ- فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية: يقول: كما خلقناكم أوّل مرّة كذلك تعودون.

---

(١). التغابن: ٢.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٢٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣١ الى ٣٣]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٣٣)

هذا خطاب لجميع بنى آدم و إن كان واردا على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و الزينة: ما يتزين به الناس من الملبوس، أمروا بالتّزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة و الطواف. و قد استدلّ بالآية على وجوب ستر العورة فى الصلاة، و إليه ذهب جمهور أهل العلم، بل سترها واجب فى كل حال من الأحوال و إن كان الرجل خاليا كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة. و الكلام على العورة و ما يجب ستره منها مفصل فى كتب الفروع. قوله: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا أمر

اللّه سبحانه عباده بالأكل و الشرب، و نهاهم عن الإسراف فلا زهد فى ترک مطعم و لا مشرب، و تاركه بالمرّة قاتل لنفسه و هو من أهل النار، كما صح فى الأحاديث الصحيحة، و المقلل منه على وجه يضعف به بدنه و يعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعى على نفسه، و على من يعول، مخالفا لما أمر اللّه به و أرشد إليه، و المسرف فى إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه و التبذير، مخالف لما شرعه اللّه لعباده واقع فى النهى القرآنى؛ و هكذا من حرّم حلالا أو حلل حراما، فإنه يدخل فى المسرفين و يخرج عن المقتصدين. و من الإسراف الأكل لا لحاجة، و فى وقت شبع. قوله: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ الزينة: ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن التى لم يرد نهى عن التزين بها و الجواهر و نحوها؛ و قيل: الملبوس خاصة، و لا وجه له، بل هو من جملة ما تشمله الآية، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرّمه اللّه، و لا حرج على من تزيّن بشىء من الأشياء التى لها مدخل فى الزينة و لم يمنع منها مانع شرعى، و من زعم أن ذلک يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا. و قد قدّمنا فى هذا ما يكفى، و هكذا الطيبات من المطاعم و المشارب و نحوهما مما يأكله الناس فإنه لا زهد فى ترک الطيب منها، و لهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلک على نفسه أو حرّمه على غيره. و ما أحسن ما قال ابن جرير الطبرى:

و لقد أخطأ من آثر لباس الشعر و الصوف على لباس القطن و الكتان مع وجود السبيل إليه من حله، و من أكل البقول و العدس و اختاره على خبز البرّ، و من ترک أكل اللحم خوفا من عارض الشهوة، و قد قدّمنا نقل مثل هذا عنه مطوّلا. و الطيبات: المستلذات من الطعام؛ و قيل: هو اسم عام لما طاب كسبا و مطعما. قوله:

قُلْ هِیَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَياةِ الدُّنْيا أى: أنها لهم بالأصالة و إن شاركهم الكفار فيها ما داموا فى الحياة خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: مختصة بهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار. و قرأ نافع «خالصة» بالرفع، و هى قراءة ابن عباس على أنها خبر بعد خبر. و قرأ الباقون بالنصب على الحال. قال أبو على الفارسى: و لا يجوز الوقف على الدنيا، لأن ما بعدها متعلق بقوله: لِلَّذِينَ آمَنُوا حال منه بتقدير: قل: هى ثابتة

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۲۹

للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها لهم يوم القيامة. قوله: كَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى: مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل و التحريم. قوله: قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَواحِشَ جمع فاحشة. و قد تقدّم تفسيرها ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ أى ما أعلن منها و ما أسرّ، و قيل: هى خاصة بفواحش الزنا و لا وجه لذلک، و الإثم يتناول كلّ معصية يتسبب عنها الإثم؛ و قيل هو الخمر خاصة، و منه قول الشاعر:

شربت الإثم حتّى ضلّ عقلى كذلک الإثم تذهب بالعقول

و مثله قول الآخر:

نشرب الإثم بالصّواع جهارا «۱» ....

و قد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصا بالخمر. قال النحاس: فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلک، و حقيقة أنه جميع المعاصى، كما قال الشاعر:

إنّى وجدت الأمر أرشده تقوى الإله و شرّه الإثم

قال الفراء: الإثم ما دون الحق و الاستطالة على الناس. انتهى. و ليس فى إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به، فهو أحد المعاصى التى يصدق عليها. قال فى الصحاح: و قد يسمّى الخمر إثما، و أنشد:

شربت الإثم .. البيت و كذا أنشده الهروى قبله فى غريبه. قوله: وَ الْبَغْیَ بِغَيْرِ الْحَقِّ أى: الظلم المجاوز للحد، و أفرده بالذكر بعد

دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله: وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ «٢» وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أى: و أن تجعلوا اللّه شريكا لم ينزل عليكم به حجّة. و المراد التهكّم بالمشركين، لأنّ اللّه لا ينزل برهانا بأن يكون غيره شريكا له وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ بحقيقته و أن اللّه قاله، و هذا مثل ما كانوا ينسبون إلى اللّه سبحانه من التحليلات و التحريمات التى لم يأذن بها.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و مسلم و النسائى و غيرهم عن ابن عباس: أنّ النساء كنّ يطفن عراة؛ إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة و تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلّهو ما بدا منه فلا أحلّه

فنزلت خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية قال: كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم اللّه بالزينة. و الزينة: اللباس و ما يوارى السّوءة و ما سوى ذلك من جيد البزّ و المتاع. و أخرج ابن عدى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول

---

(١). و عجزه: و ترى المسك بيننا مستعارا.

(٢). النحل: ٩٠.

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خذوا زينة الصلاة، قالوا: و ما زينة الصلاة؟ قال: البسوا نعالكم فصلّوا فيها». و أخرج العقيلى و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قول اللّه خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ قال: «صلّوا فى نعالكم». و الأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدّا، و أما كون ذلك هو تفسير الآية كما روى فى هذين الحديثين فلا أدرى كيف إسنادهما. و قد ورد النهى عن أن يصلى الرجل فى الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شىء، و هو فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: أحلّ اللّه الأكل و الشرب ما لم يكن سرفا أو مخيلة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قال: فى الطعام و الشراب. و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كلوا و اشربوا و تصدّقوا و البسوا فى غير مخيلة و لا سرف، فإنّ اللّه سبحانه يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت قريش تطوف بالبيت و هم عراة يصفرون و يصفقون، فأنزل اللّه قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ فأمروا بالثياب أن يلبسوها قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ قال: ينتفعون بها فى الدّنيا لا يتبعهم فيها مأثم يوم القيامة. و أخرج عبد ابن حميد و أبو الشيخ عن الضحاك قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا قال: المشركون يشاركون المؤمنين فى زهرة الدّنيا و هى خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قال: الودك و اللحم و السمن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها اللّه من الثياب و غيرها، و هو قول اللّه قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالًا «١» و هو هذا، فأنزل اللّه قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا يعنى: شارك المسلمون الكفار فى الطيبات فى الحياة الدنيا فأكلوا من طيبات طعامها و لبسوا من جياد ثيابها و نكحوا من صالحى نسائها، ثم يخلص اللّه الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا و ليس للمشركين فيها شىء. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما ظهر منها: العرية، و ما بطن: الزنا، و

كانوا يطوفون بالبيت عراة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال: ما ظهر منها: طواف الجاهلية عراة، و ما بطن: الزنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ الْإِثْمَ قال: المعصية وَ الْبَغْيَ قال: أن يبغى على الناس بغير حقّ.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٤ الى ٣٩]

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (٣٧) قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨)

وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

---

(١). يونس: ٥٩.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٣١

قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ أى: وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من اللّه أو يميتهم فيه، و يجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعا، و الضمير فى أَجَلُهُمْ لكلّ أمة، أى: إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدّره عليهم واقعا فى ذلك الأجل لا يستأخرون عنه ساعة و لا يستقدمون عنه ساعة.

قال أبو السعود ما معناه: إن قوله: وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ عطف على يَسْتَأْخِرُونَ لكن لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا؛ و قيل: المراد بالمجيء: الدنوّ بحيث يمكن التقدّم فى الجملة كمجيء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة منه و ليس بذاك. و قرأ ابن سيرين «آجالهم» بالجمع، و خصّ الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات. و قد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله و إن كان موته بالقتل أو التردى أو نحو ذلك، و البحث فى ذلك طويل جدّا، و مثل هذه الآية قوله تعالى: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ* «١». قوله: يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ الآية، إن: هى الشرطية و ما: زائدة للتوكيد، و لهذا لزمت الفعل النون المؤكدة، و القصص قد تقدّم معناه؛ و المعنى: إن أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامى و يبينونها لكم فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ أى: اتقى معاصى اللّه و أصلح حال نفسه باتباع الرسل، و إجابتهم فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و هذه الجملة الشرطية هى الجواب للشرط الأوّل؛ و قيل: جوابه ما دلّ عليه الكلام، أى: إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فأطيعوهم. و الأوّل أولى، و به قال الزجاج وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا التى يقصها عليهم رسلنا وَ اسْتَكْبَرُوا عن إجابتها و العمل بما فيها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لا يخرجون منها بسبب كفرهم بتكذيب الآيات و الرسل فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أى: لا أحد أظلم منه. و قد تقدّم تحقيقه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المكذبين المستكبرين يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ أى: مما كتب اللّه لهم من خير و شرّ؛ و قيل: ينالهم من العذاب بقدر كفرهم؛ و قيل: الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيها؛ و قيل: هو اللوح المحفوظ. قوله: حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا أى: إلى غاية هى هذه، و جملة يَتَوَفَّوْنَهُمْ فى محل نصب على الحال. و المراد بالرسل هنا: ملك الموت و أعوانه؛

و قيل: حتى هنا: هى التى للابتداء، و لكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافى كونها غاية لما قبلها، و الاستفهام فى قوله: أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ للتقريع و التوبيخ، أى: أين الآلهة التى كنتم تدعونها من دون اللّه و تعبدونها، و جملة قالُوا ضَلُّوا عَنَّا استئنافية بتقدير سؤال وقعت هى جوابا عنه، أى: ذهبوا عنا و غابوا فلا ندرى أين هم؟

---

(١). الحجر: ۵.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٣٢

وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ أى أقرّوا بالكفر على أنفسهم. قوله: قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ القائل: هو اللّه عزّ و جلّ، و فِي بمعنى مع، أى: مع أمم؛ و قيل: هى على بابها، و المعنى: ادخلوا فى جملتهم؛ و قيل: هو قول مالك خازن النار، و المراد بالأمم التى قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس: هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ من الأمم الماضية لَعَنَتْ أُخْتَها أى الأمة الأخرى التى سبقتها إلى النار، و جعلت أختا لها باعتبار الدين، أو الضلالة، أو الكون فى النار حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها أى: تداركوا، و التدارك: التلاحق و التتابع و الاجتماع فى النار. و قرأ الأعمش «تداركوا» على الأصل من دون إدغام. و قرأ ابن مسعود «حتى إذا أدركوا» أى: أدرك بعضهم بعضا. و روى عن أبى عمرو أنه قرأ بقطع ألف الوصل، فكأنه سكت على إذا للتذكر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها، و هو مثل قول الشاعر:

يا نفس صبرا كلّ حيّ لاقو كلّ اثنين إلى افتراق

قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ أى: أخراهم دخولا لأولاهم دخولا، و قيل: أخراهم: أى: سفلتهم و أتباعهم لِأُولاهُمْ لرؤسائهم و كبارهم، و هذا أولى كما يدل عليه رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فإن المضلين هم الرؤساء. و يجوز أن يراد أنهم أضلوهم لأنهم تبعوهم و اقتدوا بدينهم من بعدهم، فيصح الوجه الأوّل، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم، قوله: فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ الضعف: الزائد على مثله مرة أو مرات، و مثله قوله تعالى: رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً «١» و قيل الضعف هنا الأفاعى و الحيات، و جملة قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ استئنافية جوابا لسؤال مقدّر؛ و المعنى لكل طائفة منكم ضعف من العذاب، أى: الطائفة الأولى، و الطائفة الأخرى وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ بما لكل نوع من العذاب وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ أى: قال السابقون للاحقين، أو المتبوعون للتابعين فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بل نحن سواء فى الكفر باللّه و استحقاق عذابه فَذُوقُوا عذاب النار كما ذقناه بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ من معاصى اللّه و الكفر به.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الخطيب و ابن النجار عن أبى الدرداء قال:

تذاكرنا زيادة العمر عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقلنا: من وصل رحمه أنسئ فى أجله فقال: إنه ليس بزائد فى عمره، قال اللّه تعالى: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ و لكن الرجل يكون له الذرية الصالحة، فيدعون اللّه من بعده فيبلغه ذلك، فذلك الذى ينسأ فى أجله. و فى لفظ: فيلحقه دعاؤهم فى قبره، فذلك زيادة العمر. و هذا الحديث ينبغى أن يكشف عن إسناده ففيه نكارة، و قد جاءت الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين و غيرهما بخلافه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى عروبة قال: كان الحسن يقول: ما أحمق هؤلاء القوم يقولون: اللهم أطل عمره، و اللّه يقول: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طريق

---

(١). الأحزاب: ۶٨.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٣٣

الزهری عن ابن المسیب قال: لما طعن عمر قال کعب: لو دعا اللّه لأخر فی أجله، فقيل له: أليس قد قال اللّه: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ فقال کعب: و قد قال اللّه: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ «١». و أخرج الفريابی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فی قوله: أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ قال: ما قدّر لهم من خير و شرّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی الآية قال: من الأعمال من عمل خيرا جزی به و من عمل شرّا جزی به. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أيضا قال: نصيبهم من الشّقاوة و السّعادة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی الآية قال: ما سبق من الكتاب. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن محمد بن كعب فی الآية قال: رزقه و أجله و عمله. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن أبی صالح فی الآية قال: من العذاب. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن السدیّ فی قوله: قَدْ خَلَتْ قال: قد مضت كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها قال: كلما دخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك، يلعن المشركون المشركين، و اليهود اليهود، و النصارى النصارى، و الصابئون الصابئين، و المجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ الذين كانوا فی آخر الزمان لِأُولاهُمْ الذين شرعوا لهم ذلك الدين رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ الأولى و الآخرة وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ و قد ضللتم كما ضللنا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فی قوله: عَذاباً ضِعْفاً قال: مضاعفا قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ قال: مضاعف، و فی قوله: فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ قال: تخفيف من العذاب.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٤٢) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

قوله لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ قرأ ابن عباس و حمزة و الكسائی بفتح التحتية لكون تأنيث الجمع غير حقيقی فجاز تذكيره. و قرأ الباقون بالفوقية على التأنيث. و قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائی تفتح بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد، و المعنى: أنها لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، و قد دلّ على هذا المعنى و أنه المراد من الآية ما جاء فی الأحاديث الصحيحة: أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء

---

(١). فاطر: ١١.

الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء؛ و قيل: لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا، قاله مجاهد و النخعی؛ و قيل لأعمالهم، أی: لا تقبل، بل تردّ عليهم فيضرب بها فی وجوههم؛ و قيل المعنى: أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها، لأن الجنة فی السماء، فيكون على هذا القول العطف لجملة وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ من عطف التفسير، و لا مانع من حمل الآية على ما يعم

الأرواح و الدعاء و الأعمال، و لا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم الآية. قوله وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ أى أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، و لهذا علقه بالمستحيل، فقال حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ و هو لا يلج أبدا، و خص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل فى كبر الذات، و خص سمّ الخياط، و هو ثقب الإبرة بالذكر لكونه غاية فى الضيق، و الجمل الذكر من الإبل و الجمع جمال و أجمال و جمالات، و إنما يسمى جملا إذا أربع. و قرأ ابن عباس الْجَمَّلُ بضم الجيم و فتح الميم مشدّدة، و هو حبل السفينة الذى يقال له القلس و هو حبال مجموعة قاله ثعلب؛ و قيل الحبل الغليظ من القنب، و قيل الحبل الذى يصعد به فى النخل. و قرأ سعيد بن جبير الْجَمَلُ بضم الجيم و تخفيف الميم: و هو القلس أيضا. و قرأ أبو السمال الْجَمَلُ بضم الجيم و سكون الميم. و قرئ أيضا بضمهما. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «حتى يلج الجمل الأصغر فى سم الخياط» و قرئ فِي سَمِ بالحركات الثلاث، و السم: كل ثقب لطيف، و منه ثقب الإبرة، و الخياط ما يخاط به، يقال خياط و مخيط وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين، أى: جنس من أجرم و قد تقدّم تحقيقه. و المهاد: الفراش، و الغواش: جمع غاشية، أى:

نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من اتصف بصفة الظلم. قوله لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أى: لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم و يقدرون عليه، و لا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم، و هذه الجملة معترضة بين المبتدأ و الخبر، و مثله لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها «١» و قرأ الأعمش تكلف بالفوقية و رفع نفس، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى الموصول، و خبره أَصْحابُ الْجَنَّةِ و الجملة خبر الموصول، و جملة وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ فى محل نصب على الحال. قوله وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ هذا من جملة ما ينعم اللّه به على أهل الجنة، أن ينزع اللّه ما فى قلوبهم من الغلّ على بعضهم بعضا حتى تصفو قلوبهم و يودّ بعضهم بعضا، فإن الغلّ لو بقى فى صدورهم كما كان فى الدنيا لكان فى ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر، و الغلّ: الحقد الكامن فى الصدور؛ و قيل: نزع الغلّ فى الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضا فى تفاضل المنازل وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا أى: لهذا الجزاء العظيم، و هو الخلود فى الجنة و نزع الغلّ من صدورهم، و الهداية لهذا هى الهداية لسببه من الإيمان و العمل الصالح فى الدنيا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ قرأ ابن عامر بإسقاط الواو، و قرأ الباقون بإثباتها، و ما كنا نطيق أن نهتدى لهذا الأمر لولا هداية اللّه لنا، و الجملة مستأنفة أو حالية، و جواب لولا محذوف يدل عليه ما قبله، أى: لولا هداية اللّه لنا ما كنا لنهتدى. قوله لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ

---

(١). الطلاق: ٧.

اللام لام القسم، قالوا هذا: لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما صاروا فيه بسبب ما تقدّم منهم، من تصديق الرسل و ظهور صدق ما أخبروهم به فى الدنيا من أن جزاء الإيمان و العمل الصالح هو هذا الذى صاروا فيه. قوله: وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا و عملوا الصالحات، فقيل لهم تلكم الجنة أورثتموها: أى: ورثتم منازلها بعملكم.

قال فى الكشاف: بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقوله المبطلة انتهى.

أقول: يا مسكين! هذا قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما صح عنه «سدّدوا و قاربوا و اعلموا أنه لن يدخل أحد الجنّة بعمله، قالوا: و لا أنت يا رسول اللّه؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمّدنى اللّه برحمته»، و التصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، و لو لا

التفضّل من اللّه سبحانه و تعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلا، فلو لم يكن التفضّل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة، و فى التنزيل ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ «١» و فيه فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ «٢».

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ يعنى لا يصعد إلى اللّه من عملهم شيء.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال:

لا تفتح لهم لعمل و لا لدعاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا فى الآية قال: لا تفتح لأرواحهم، و هى تفتح لأرواح المؤمنين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ قال: ذو القوائم فِي سَمِّ الْخِياطِ قال: فى خرت «٣» الإبرة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى فى الكبير و أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ قال: زوج الناقة. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ الجمل بضم الجيم و تشديد الميم و قال:

هو الحبل الغليظ أو هو من حبال السفن. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عمر أنه سئل عن سم الخياط فقال:

الجمل فى ثقب الإبرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: المهاد: الفراش، و الغواش: اللحف. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن محمد بن كعب مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال: فينا- و اللّه أهل بدر- نزلت هذه الآية وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا اللّه فيكون حسرة عليهم، و كلّ أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لو لا أن هدانا اللّه فهذا شكرهم». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و الدارمى و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد و أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

وَ نُودُوا: أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال: «نودوا: أن صحّوا فلا تسقموا، و انعموا

---

(١). النساء: ٧٠.

(٢). النساء: ١٧٥.

(٣). قال فى القاموس: الخرت: الثقب فى الأذن و غيرها.

فلا تبأسوا، و شبّوا فلا تهرموا، و اخلدوا فلا تموتوا».

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٤ الى ٤٩]

وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (٤٥) وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨)

أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكَمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۴۹)

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبكيتهم و إيقاع الحسرة فى قلوبهم، و أَنْ قَدْ وَجَدْنا هو نفس النداء، أى: إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا اللّه به من النعيم فهل وصلتم إلى ما وعدكم اللّه به من العذاب الأليم، و الاستفهام هو للتقريع و التوبيخ، و حذف مفعول وعد الثانى لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس كالبعث و الحساب و العقاب، و قيل: حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد قالُوا نَعَمْ أى: وجدنا ما وعدنا ربّنا حقا. و قرأ الأعمش و الكسائى نعم بكسر العين. قال مكى: من قال نعم بكسر العين فكأنه أراد أن يفرّق بين نعم التى هى جواب و بين نعم التى هى اسم للبقر و الغنم و الإبل، و المؤذن: المنادى، أى: فنادى مناد بينهم، أى:

بين الفريقين؛ قيل: هو من الملائكة أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى و البزى بتشديد أن و هو الأصل. و قرأ الباقون بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة. و قرأ الأعمش بكسر همزة إن على إضمار القول، و جملة الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صفة للظالمين، و يجوز الرفع و النصب على إضمارهم، أو أعنى. و الصدّ: المنع، أى: يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أى: يطلبون اعوجاجها، أى: ينفرون الناس عنها و يقدحون فى استقامتها بقولهم: إنها غير حق و إن الحق ما هم فيه، و العوج بالكسر فى المعانى و الأعيان ما لم يكن منتصبا، و بالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح، و جملة وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ فى محل نصب على الحال. قوله وَ بَيْنَهُما حِجابٌ أى: بين الفريقين أو بين الجنة و النار. و الحجاب: هو السور المذكور فى قوله تعالى فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ «۱» قوله وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ الأعراف: جمع عرف، و هى شرفات السور المضروب بينهم، و منه عرف الفرس و عرف الديك و الأعراف فى اللغة: المكان المرتفع، و هذا الكلام خارج مخرج المدح كما فى قوله رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ «۲».

و قد اختلف العلماء فى أصحاب الأعراف من هم؟ فقيل: هم الشهداء، ذكره القشيرى و شرحبيل بن سعد؛ و قيل: هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم و تفرّغوا لمطالعة أحوال الناس، ذكره مجاهد؛ و قيل:

---

(۱). الحديد: ۱۳.

(۲). النور: ۳۷.

هم قوم أنبياء، ذكره الزجّاج؛ و قيل: هم قوم استوت حسناتهم و سيئاتهم، قاله ابن مسعود و حذيفة بن اليمان و ابن عباس و الشعبى و الضحّاك و سعيد بن جبير؛ و قيل: هم العباس و حمزة و على و جعفر الطيار يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، و مبغضيهم بسوادها، حكى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم و هم فى كل أمة، و اختار هذا القول النحاس؛ و قيل: هم أولاد الزنا، روى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: هم ملائكة موكولون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة و النار ذكره أبو مجلز، و جملة يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ صفة الرجال. و السيما: العلامة؛ أى: يعرفون كلا من أهل الجنة و النار بعلاماتهم كبياض الوجوه و سوادها، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، أو علامة يجعلها اللّه لكل فرق فى ذلك الموقف، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أى: نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ أى: نادوهم بقولهم: سلام عليكم تحية و إكراما و تبشيرا، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب. قوله لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ أى:

لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف و الحال أنهم يطمعون فى دخولها؛ و قيل: معنى يَطْمَعُونَ يعلمون أنهم يدخلونها و ذلك

معروف عند أهل اللغة، أى: طمع بمعنى علم، ذكره النحاس. و هذا القول أعنى كونهم أهل الأعراف مروىّ عن جماعة منهم ابن عباس و ابن مسعود. و قال أبو مجلز: هم أهل الجنة، أى: أن أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها و الحال أنهم يطمعون فى دخولها. قوله وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ أى: إذا صرفت أبصار أهل الأعراف تلقاء أصحاب النار، أى:

جهة أصحاب، و أصل معنى تِلْقاءَ جهة اللقاء، و هى: جهة المقابلة و لم يأت مصدر على تفعال بكسر أوّله غير مصدرين، أحدهما: هذا، و الآخر: تبيان، و ما عداهما بالفتح قالُوا أى قال أهل الأعراف رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ سألوا اللّه أن لا يجعلهم منهم وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا من الكفار يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ أى: بعلاماتهم قالُوا بدل من نادى ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ الذى كنتم تجمعون للصدّ عن سبيل اللّه، و الاستفهام: للتقريع و التوبيخ، قوله وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

ما مصدرية: أى و ما أغنى عنكم استكباركم أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ هذا من كلام أصحاب الأعراف، أى: قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذى صاروا إلى الجنة هذه المقالة. و قد كان الكفار يقسمون فى الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم، و هذا تبكيت للكفار و تحسير لهم.

قوله ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ هذا تمام كلام أصحاب الأعراف، أى: قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة، فقد انتفى عنكم الخوف و الحزن بعد الدخول. و قرأ طلحة بن مصرف «أدخلوا» بكسر الخاء.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا قال:

من النعيم و الكرامة فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قال: من الخزى و الهوان و العذاب. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمر: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما وقف على قليب بدر تلا هذه الآية. و أخرج

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۳۸

ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله وَ بَيْنَهُما حِجابٌ قال: هو السور و هو الأعراف، و إنما سمّى الأعراف لأنّ أصحابه يعرفون الناس. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن حذيفة قال:

الأعراف: سور بين الجنة و النار. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى البعث و النشور عن ابن عباس قال: الأعراف: هو الشىء المشرف. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عنه قال: الأعراف: سور له عرف كعرف الديك. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: الأعراف: جبال بين الجنة و النار فهم على أعرافها، يقول: على ذراها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنها تلّ بين الجنة و النار حبس عليه ناس من أهل الذنوب. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج قال: زعموا أنه الصراط.

و أخرج ابن جرير عن حذيفة قال: أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم اللّه بها من النار، و هم آخر من يدخل الجنة، قد عرفوا أهل الجنة و أهل النار. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود: أنهم من استوت حسناتهم و سيئاتهم يقفون على الصراط. و أخرج ابن جرير عن حذيفة نحوه. و كذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن أبى زرعة بن عمرو ابن جرير قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أصحاب الأعراف؟ فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار و لم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائى، فارعوا من الجنة حيث شئتم». قال ابن كثير: و هذا مرسل حسن. و أخرج البيهقى فى البعث عن حذيفة أراه

قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، و يؤمر بأهل النار إلى النار، ثم يقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها و حالت بينكم و بين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتى و رحمتى».

و أخرج سعيد بن منصور و ابن منيع و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن عبد الرحمن المزنى قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أصحاب الأعراف؟ فقال:

«هم قوم قتلوا فى سبيل اللّه فى معصية آبائهم، فمنعهم من النار قتلهم فى سبيل اللّه، و منعهم من الجنة معصيتهم آباءهم». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه و البيهقى فى البعث عن أبى هريرة مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده و ابن جرير و ابن مردويه عن عبد اللّه بن مالك الهلالى عن أبيه مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن رجل من مزينة مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار أنه سئل عن قوله لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ قال: سلمت عليهم الملائكة و هم لم يدخلوها و هم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن السدّى قال:

أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، أهل النار بسواد وجوههم، و أهل الجنة ببياض وجوههم،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٣٩

فإذا مرّوا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة قالوا سلام عليكم، و إذا مرّوا بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا قال: فى النار. يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ قال اللّه لأهل التكبر: أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ يعنى أصحاب الأعراف ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٠ الى ٥٤]

وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٥١) وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٥٤)

قوله أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ الإفاضة: التوسعة؛ يقال: أفاض عليه نعمه، طلبوا منهم أن يواسوهم بشىء من الماء أو بشىء مما رزقهم اللّه من غيره من الأشربة أو الأطعمة، فأجابوا بقولهم: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما أى: الماء و ما رزقهم اللّه من غيره عَلَى الْكافِرِينَ فلا نواسيكم بشىء مما حرّمه اللّه عليكم؛ و قيل:

إن هذا النداء من أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة، و جملة الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً فى محل جر صفة الكافرين. و قد تقدّم تفسير اللهو و اللعب و الغرور. قوله فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ أى نتركهم فى النار كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا الكاف: نعت مصدر محذوف، و ما: مصدرية، أى: نسيانا كنسيانهم لقاء يومهم هذا. قوله: وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ معطوف على ما نسوا، أى: كما نسوا، و كما كانوا بآياتنا يجحدون، أى: ينكرونها، و اللام فى وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ جواب القسم. و المراد بالكتاب:

الجنس، إن كان الضمير للكفار جميعا، و إن كان للمعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فالمراد بالكتاب القرآن، و التفصيل التبيين، و عَلى عِلْمٍ فى محل نصب على الحال، أى: عالمين حال كونه هُدىً للمؤمنين وَ رَحْمَةً لهم. قال الكسائى و الفراء: و يجوز هُدىً وَ رَحْمَةٌ لهم. قال الكسائى و الفراء: و يجوز هُدىً وَ رَحْمَةً بالخفض على النعت لكتاب. قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ بالهمز من آل، و أهل المدينة يخفون الهمزة. و النظر: الانتظار، أى: هل ينتظرون إلا ما وعدوا به فى الكتاب من العقاب الذى يؤول الأمر إليه؛ و قيل تأويله: جزاؤه؛ و قيل عاقبته. و المعنى متقارب. و يوم: ظرف ليقول، أى: يوم

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۰

يأتى تأويله، و هو يوم القيامة يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ أى: تركوه من قبل أن يأتى تأويله قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ الذى أرسلهم اللّه به إلينا فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ استفهام منهم، و معناه التمنى فَيَشْفَعُوا لَنا منصوب لكونه جوابا للاستفهام. قوله أَوْ نُرَدُّ قال الفراء: المعنى أو هل نردّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ و قال الزجاج: نردّ: عطف على المعنى، أى: هل يشفع لنا أحد أو نردّ.

و قرأ ابن أبى إسحاق أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ بنصبهما، كقول امرئ القيس:

فقلت له: لا تبك عينك، إنّمانحاول ملكا أو نموت فنعذرا

و قرأ الحسن برفعهما، و معنى الآية: هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب، أو هل نردّ إلى الدنيا فنعمل صالحا غير ما كنا نعمل من المعاصى قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ أى: لن ينتفعوا بها فكانت أنفسهم بلاء عليهم و محنة، فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله؛ و قيل: خسروا النعيم و حظ الأنفس وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: افتراؤهم أو الذى كانوا يفترونه. و المعنى: أنه بطل كذبهم الذى كانوا يقولونه فى الدنيا أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكا للّه، فلم ينفعهم و لا حضر معهم. قوله إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ هذا نوع من بديع صنع اللّه و جليل قدرته و تفرّده بالإيجاد الذى يوجب على العباد توحيده و عبادته. و أصل ستة سدسة أبدلت التاء من أحد السينين و أدغم فيها الدال، و الدليل على هذا: أنك تقول فى التصغير: سديسة، و فى الجمع: أسداس، و تقول: جاء فلان سادسا. و اليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها، قيل: هذه الأيام من أيام الدنيا؛ و قيل: من أيام الآخرة، و هذه الأيام الست أولها: الأحد، و آخرها: الجمعة، و هو سبحانه قادر على خلقها فى لحظة واحدة، يقول لها كونى فتكون، و لكنه أراد أن يعلم عباده الرفق و التأنى فى الأمور، أو خلقها فى ستة أيام لكون شىء عنده أجلا، و فى آية أخرى وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ «۱». قوله ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولا، و أحقّها و أولاها بالصواب:

مذهب السّلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه، و الاستواء فى لغة العرب: هو العلو و الاستقرار. قال الجوهرى: استوى على ظهر دابته، أى: استقرّ، و استوى إلى السماء، أى: صعد، و استوى، أى: استولى و ظهر، و منه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراقمن غير سيف و دم مهراق

و استوى الرجل، أى: انتهى شبابه، و استوى، أى: اتّسق و اعتدل. و حكى عن أبى عبيدة أن معنى (استوى) هنا: علا، و مثله قول الشاعر:

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرةو قد حلّق النّجم اليمانىّ فاستوى

أى علا و ارتفع. و العرش: قال الجوهرى: هو سرير الملك. و يطلق العرش على معان أخر منها عرش

---

(۱). ق: ۳۸.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۲۴۱
البيت: سقفه، و عرش البئر: طيها بالخشب، و عرش السماك: أربعة كواكب صغار، و يطلق على الملك و السلطان و العزّ و منه قول زهير:

تداركتما عبسا و قد ثلّ عرشهاو ذبيان إذ زلّت بأقدامها النّعل

و قول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهمبعتيبة بن الحرث بن شهاب

و قول الآخر:

رأوا عرشي تثلّم جانباهفلمّا أن تثلّم أفردوني

و قد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن و إحاطته بالسموات و الأرض و ما بينهما و ما عليهما، و هو المراد هنا. قوله يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه. و قرأ عاصم و حمزة و الكسائي يغشي بالتشديد، و قرأ الباقون بالتخفيف و هما لغتان، يقال: أغشى يغشي، و غشى يغشي، و التغشية في الأصل: إلباس الشي‏ء الشي‏ء، و لم يذكر في هذه الآية يغشي الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «۱». و قرأ حميد بن قيس: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ على إسناد الفعل إلى الليل، و محل هذه الجملة النصب على الحال، و التقدير: استوى على العرش مغشيا الليل النهار، و هكذا قوله يَطْلُبُهُ حَثِيثاً حال من الليل، أي: حال كون الليل طالبا للنهار طلبا حثيثا لا يفتر عنه بحال، و حثيثا صفة مصدر محذوف، أي: يطلبه طلبا حثيثا؛ أو حال من فاعل يطلب. و الحث:

الاستعجال و السرعة، يقال: و لى حثيثا، أي: مسرعا. قوله وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ قال الأخفش: معطوف على السموات، و قرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء و الخبر. و المعنى على الأوّل: و خلق الشمس و القمر و النجوم حال كونها مسخرات، و على الثاني: الإخبار عن هذه بالتسخير.

قوله أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له، و الخلق: المخلوق، و الأمر: كلامه، و هو كن في قوله: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْ‏ءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «۲». أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل، أو التصرّف في مخلوقاته، و لما ذكر سبحانه في هذه الآية خلق السموات و الأرض في ذلك الأمد اليسير، ثم ذكره استواءه على عرشه و تسخير الشمس و القمر و النجوم، و أن له الخلق و الأمر. قال تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أي: كثرت بركته و اتسعت، و منه بورك الشي‏ء و بورك فيه، كذا قال ابن عرفة. و قال الأزهري في تَبارَكَ معناه: تعالى و تعاظم. و قد تقدم تفسير رَبُّ الْعالَمِينَ في الفاتحة مستكملا.

و قد أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الآية قال: ينادي الرجل أخاه فيقول: يا أخي أغثني فإني قد احترقت، فأفض عليّ من الماء، فيقال: أجبه، فيقول: إنّ اللّه حرّمهما على الكافرين. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن السدّي في قوله أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قال:

---

(۱). النحل: ۸۱.

(۲). النحل: ۴۰.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۲۴۲
من الطعام. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال: يستسقونهم و يستطعمونهم، و في قوله إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما

عَلَى الْكافِرِينَ قال: طعام الجنة و شرابها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا يقول: نتركهم فى النار كما تركوا لقاء يومهم هذا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ قال: نؤخرهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ قال: عاقبته. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ جزاؤه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ قال يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ما كانُوا يَفْتَرُونَ قال: ما كانوا يكذبون فى الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ قال: كل يوم مقداره ألف سنة. و أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت فى قوله اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الكيف غير معقول، و الاستواء غير مجهول، و الإقرار به إيمان، و الجحود به كفر. و أخرج اللّالكائى عن مالك أن رجلا سأله كيف استوى على العرش؟ فقال:

الكيف غير معقول و الاستواء منه غير مجهول، و الإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعة. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الدعاء و الخطيب فى تاريخه عن الحسن بن علىّ قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية فى كل ليلة أن يعصمه اللّه من كل سلطان ظالم، و من كل شيطان مريد، و من كل سبع ضار، و من كل لص عاد: آية الكرسى، و ثلاث آيات من الأعراف إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ «۱» و عشرا من أوّل الصافات، و ثلاث آيات من الرحمن. أولها يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ «۲» و خاتمة الحشر. و أخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبى مرزوق قال: من قرأ عند نومه إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ الآية، بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح و قد عوفى من السرق. و أخرج أبو الشيخ عن محمد ابن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال: مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه، فقرأ رجل منهم إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ الآية كلّها، و قد أصمت الرجل فتحرّك ثم استوى جالسا، ثم سجد يومه و ليلته حتى كان من الغد من الساعة التى سجد فيها، قال له أهله: الحمد للّه الذى عافاك. قال: بعث إلى نفسى ملك يتوفاها، فلمّا قرأ صاحبكم الآية التى قرأ سجد الملك و سجدت بسجوده، فهذا حين رفع رأسه، ثم مال فقضى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ قال: يغشى الليل النهار فيذهب بضوئه و يطلبه سريعا حتى يدركه.

و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: يلبس الليل النهار. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: حَثِيثاً قال: سريعا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ قال: الخلق:

ما دون العرش، و الأمر: ما فوق ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم و البيهقى عنه قال: الخلق هو المخلوق، و الأمر هو الكلام.

---

(۱). الآيات: ۵۴- ۵۶.

(۲). الآيات: ۳۳- ۳۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۳

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۵ الى ۵۸]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۵۵) وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۵۷) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ

لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

أمرهم اللّه سبحانه بالدّعاء، و قيد ذلك بكون الداعى متضرّعا بدعائه مخفيا له، و انتصاب تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً على الحال، أى: متضرّعين بالدعاء مخفين له، أو صفة مصدر محذوف، أى: ادعوه دعاء تضرّع و دعاء خفية، و التضرّع: من الضراعة، و هى الذلة و الخشوع و الاستكانة، و الخفية: الإسرار به، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء، و أحسم لباب ما يخالف الإخلاص، ثم علّل ذلك بقوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أى:

المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء و فى كلّ شىء، فمن جاوز ما أمره اللّه به فى شىء من الأشياء فقد اعتدى، و اللّه لا يحبّ المعتدين، و تدخل المجاوزة فى الدعاء فى هذا العموم دخولا- أوليا. و من الاعتداء فى الدعاء أن يسأل الداعى ما ليس له، كالخلود فى الدنيا، أو إدراك ما هو محال فى نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء فى الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخا به. قوله وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها نهاهم اللّه سبحانه عن الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه، قليلا كان أو كثيرا، و منه قتل الناس، و تخريب منازلهم، و قطع أشجارهم و تغوير أنهارهم. و من الفساد فى الأرض: الكفر باللّه و الوقوع فى معاصيه، و معنى:

بَعْدَ إِصْلاحِها: بعد أن أصلحها اللّه بإرسال الرسل و إنزال الكتب و تقرير الشرائع. قوله وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إعرابها يحتمل الوجهين المتقدمين فى تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً و فيه: أنه يشرع للداعى أن يكون عند دعائه خائفا وجلا طامعا فى إجابة اللّه لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف و الرجاء ظفر بمطلوبه. و الخوف: الانزعاج من المضار التى لا يؤمن من وقوعها، و الطمع: توقع حصول الأمور المحبوبة.

قوله إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ هذا إخبار من اللّه سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأىّ نوع من الأنواع كان إحسانهم، و فى هذا ترغيب للعباد إلى الخير و تنشيط لهم، فإن قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد اللّه.

و قد اختلف أئمة اللغة و الإعراب فى وجه تذكير خبر رحمة اللّه حيث قال قريب و لم يقل قريبة، فقال الزجّاج: إن الرحمة مؤوّلة بالرحم لكونها بمعنى العفو و الغفران، و رجح هذا التأويل النحاس. و قال النضر ابن شميل: الرحمة مصدر بمعنى الترحم، و حقّ المصدر التذكير. و قال الأخفش سعيد: أراد بالرحمة هنا المطر، و تذكير بعض المؤنث جائز، و أنشد:

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٤٤ فلا مزنة و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها «١»

و قال أبو عبيدة: تذكير قريب على تذكير المكان، أى: مكان قريب. قال على بن سليمان الأخفش:

و هذا خطأ، و لو كان كما قال لكان قريب منصوبا كما تقول: إن زيدا قريبا منك. و قال الفراء: إن القريب إذا كان بمعنى المسافة فيذكر و يؤنث، و إن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم. و روى عن الفراء أنه قال: يقال فى النسب قريبة فلان، و فى غير النسب يجوز التذكير و التأنيث فيقال: دارك عنا قريب و فلانة منا قريب قال اللّه تعالى وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً «٢» و منه قول امرئ القيس:

له الويل إن أمسى و لا أمّ هاشمقريب و لا البسباسة ابنة يشكرا

و روى عن الزجّاج أنه خطّأ الفرّاء فيما قاله و قال: إن سبيل المذكر و المؤنث أن يجريا على أفعالهما؛ و قيل:

إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقى جاز فى خبرها التذكير، ذكر معناه الجوهرى. قوله وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ عطف على قوله يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يتضمن ذكر نعمة من النعم التى أنعم بها على عباده مع ما فى ذلك من الدلالة على وحدانيته و ثبوت إلاهيته. و رياح: جمع ريح، و أصل ريح:

روح، و قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو نشرا بضم النون و الشين جمع ناشر على معنى النسب: أى ذات نشر. و قرأ الحسن و قتادة و ابن عامر نشرا بضم النون و إسكان الشين من نشر. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى نشرا بفتح النون و إسكان الشين على المصدر، و يجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال، و معنى هذه القراءات يرجع إلى النشر الذى هو خلاف الطىّ فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة. و قال أبو عبيدة: معناه متفرقة فى وجوهها على معنى ننشرها هاهنا و هاهنا. و قرأ عاصم بُشْراً بالباء الموحدة و إسكان الشين جمع بشير، أى: الرياح تبشر بالمطر، و مثله قوله تعالى وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ «٣». قوله بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أراد بالرحمة هنا المطر، أى: قدّام رحمته، و المعنى: أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدى المطر. قوله حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا أقلّ فلان الشيء: حمله و رفعه، و السحاب يذكر و يؤنث، و المعنى: حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا بالماء الذى صارت تحمله سُقْناهُ أى: السحاب لِبَلَدٍ مَيِّتٍ أى: مجدب ليس فيه نبات، يقال: سقته لبلد كذا؛ و إلى بلد كذا؛ و قيل: اللام هنا لام العلة، أى: لأجل بلد ميت، و البلد: هو الموضع العامر من الأرض فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ أى: بالبلد الذى سقناه لأجله أو بالسحاب، أى: أنزلنا بالسحاب الماء الذى تحمله أو بالريح، أى: فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدى المطر الماء؛ و قيل إن الباء هنا بمعنى من، أى:
فأنزلنا منه الماء فَأَخْرَجْنا بِهِ أى: بالماء مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أى: من جميع أنواعها. قوله كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى أى: مثل ذلك الإخراج، و هو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

---

(١). البيت لعامر الطائى.

«المزنة»: السحابة. «الودق»: المطر.

(٢). الأحزاب: ٦٣.

(٣). الروم: ۴۶.

أى: تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة اللّه و بديع صنعته، و إنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التى تشاهدونها. قوله وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ أى: التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن اللّه و تيسيره إخراجا حسنا تاما وافيا وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً أى: و التربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدا، أى: لا خير فيه. و قرأ طلحة بن مصرّف نَكِداً بسكون الكاف. و قرأ ابن القعقاع نكدا بفتح الكاف: أى ذا نكد. و قرأ الباقون نَكِداً بفتح النون و كسر الكاف. و قرئ يخرج أى يخرجه البلد؛ قيل: معنى الآية التشبيه، شبّه تعالى السريع الفهم بالبلد الطّيّب، و البليد بالبلد الخبيث، ذكره النحّاس؛ و قيل: هذا مثل للقلوب، فشبّه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، و النائى عنه بالبلد الخبيث، قاله الحسن؛ و قيل: هو مثل لقلب المؤمن و المنافق، قاله قتادة؛ و قيل: هو مثل للطيب و الخبيث من بنى آدم، قاله مجاهد كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أى: مثل ذلك التصريف لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ اللّه و يعترفون بنعمته.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً قال: السر إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فى الدعاء و لا فى غيره. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: التضرّع: علانية، و الخفية: سرّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً يعنى:
مستكينا، و خفية: يعنى فى خفض و سكون فى حاجاتكم من أمر الدنيا و الآخرة إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ يقول: لا تدعوا على المؤمن و المؤمنة بالشرّ: اللهم اخزه و العنه و نحو ذلك؛ فإن ذلك عدوان. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى مجلز فى

قوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ قال: لا تسألوا منازل الأنبياء.
و أخرج ابن المبارك و ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن قال: لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء و ما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم و بين ربّهم، و ذلك أن اللّه يقول ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً و ذلك أن اللّه ذكر عبدا صالحا فرضى قوله فقال إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن صالح فى قوله وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها قال: بعد ما أصلحها الأنبياء و أصحابهم. و أخرج أبو الشيخ عن أبى سنان فى الآية قال: أحللت حلالى و حرّمت حرامى و حدّدت حدودى فلا تفسدوها. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً قال: خوفا منه، و طمعا لما عنده إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ يعنى: المؤمنين، و من لم يؤمن باللّه فهو من المفسدين. و أخرج ابن جريج و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ قال: إن اللّه يرسل الريح فيأتى بالسّحاب من بين الخافقين- طرف السماء و الأرض من حيث يلتقيان- فيخرجه من ثم، ثم ينشره فيبسطه فى السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب، ثم يمطر السحاب بعد ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ قال: يستبشر بها الناس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ قال: هو المطر، و فى قوله كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى قال: كذلك تخرجون، و كذلك النّشور كما يخرج الزرع بالماء. و أخرج

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۴۶

ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى قال: إذا أراد اللّه أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض، ثم يرسل الأرواح فيهوى كلّ روح إلى جسده، فكذلك يحيى اللّه الموتى بالمطر كإحيائه الأرض، و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ الآية قال: هو مثل ضربه اللّه للمؤمن، يقول:
هو طيب، عمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب وَ الَّذِي خَبُثَ ضرب مثلا للكافر كالبلد السبخة المالحة التى لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث و عمله خبيث، و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۹ الى ۶۴]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۵۹) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۶۰) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۱) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳)
فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴)
لما بيّن سبحانه كمال قدرته و بديع صنعته فى الآيات السابقة؛ ذكر هنا أقاصيص الأمم و ما فيها من تحذير الكفار و وعيدهم، لتنبيه هذه الأمة على الصّواب، و أن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة. و اللام:
جواب قسم محذوف. و هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، و قد تقدّم ذكر نوح فى آل عمران فأغنى عن الإعادة هنا، و ما قيل من أن إدريس قبل نوح، فقال ابن العربى: إنه وهم. قال المازرى: فإن صح ما ذكره المؤرخون كان محمولا على أن إدريس كان نبيا غير مرسل، و جملة فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ استئنافية، جواب سؤال مقدر. قوله ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هذه الجملة فى حكم العلة لقوله اعْبُدُوا أى: اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره، حتى يستحقّ منكم أن يكون معبودا. قرأ نافع و أبو عمرو و

عاصم و حمزة و ابن كثير و ابن عامر برفع غيره على أنه نعت لإله على الموضع. و قرأ الكسائى بالخفض فى جميع القرآن على أنه نعت على اللفظ. و أجاز الفراء و الكسائى النصب على الاستثناء: يعنى: ما لكم من إله إلا إياه. و قال أبو عمرو: ما أعرف الجرّ و لا النصب، و يردّه أن بعض بنى أسد ينصبون غير فى جميع الأحوال، و منه قول الشاعر «۱»:

لم يمنع الشّرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أوقال «۲»

و جملة إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة، أى: إن لم تعبدوه

---

(۱). هو أبو قيس بن الأسلت.

(۲). «أوقال»: ثمار.

فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، أو عذاب يوم الطوفان. قوله قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ جملة استئنافية جواب سؤال مقدّر، و الملأ: أشراف القوم و رؤساؤهم؛ و قيل: هم الرجال، و قد تقدّم بيانه فى البقرة، و الضلال: العدول عن طريق الحق و الذهاب عنه، أى: إنا لنراك فى دعائك إلى عبادة اللّه وحده فى ضلال عن طريق الحق، و جملة قالَ يا قَوْمِ استئنافية أيضا جواب سؤال مقدّر لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ كما تزعمون وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أرسلنى إليكم لسوق الخير إليكم و دفع الشرّ عنكم، نفى عن نفسه الضلالة، و أثبت لها ما هو أعلى منصبا و أشرف رفعة و هو أنه رسول اللّه إليهم، و جملة أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي فى محل رفع على أنها صفة لرسول، أو هى مستأنفة مبينة لحال الرسول. و الرسالات: ما أرسله اللّه به إليهم مما أوحاه إليه وَ أَنْصَحُ لَكُمْ عطف على أُبَلِّغُكُمْ يقال: نصحته و نصحت له، و فى زيادة اللام: دلالة على المبالغة فى إمحاض النصح. قال الأصمعى: الناصح: الخالص من الغلّ، و كلّ شيء خلص فقد نصح، فمعنى أنصح هنا: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد، و الاسم: النصيحة، و جملة وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ معطوفة على الجملة التى قبلها مقررة لرسالته و مبينة لمزيد علمه، و أنه يختصّ بعلم الأشياء التى لا يعلمونها بإخبار اللّه له بذلك. قوله أَ وَ عَجِبْتُمْ فتحت الواو لكونها العاطفة و دخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم. و المعطوف عليه مقدّر: كأنه قيل: استبعدتم و عجبتم أو أ كذبتم و عجبتم أو أنكرتم و عجبتم أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ أى: وحى و موعظة عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ أى: على لسان رجل منكم تعرفونه، و لم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته، و قيل على بمعنى مع، أى:

مع رجل منكم لأجل ينذركم به وَ لِتَتَّقُوا ما يخالفه وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بسبب ما يفيده الإنذار لكم و التقوى منكم من التعرّض لرحمة اللّه سبحانه لكم و رضوانه عنكم فَكَذَّبُوهُ أى فبعد ذلك كذبوه و لم يعملوا بما جاء به من الإنذار فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ من المؤمنين به المستقرين معه فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا و استمروا على ذلك و لم يرجعوا إلى التوبة، و جملة إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ علة لقوله وَ أَغْرَقْنَا أى: أغرقنا المكذبين لكونهم عمى القلوب لا تنجح فيهم الموعظة و لا يفيدهم التذكير. و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن أنس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أوّل نبى أرسل نوح». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و أبو نعيم و ابن عساكر عن يزيد الرقاشى قال: إنما سمّى نوح عليه السلام نوحا لطول ما ناح على نفسه. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: كان بين آدم و نوح عشرة قرون، كلّهم على شريعة من الحقّ.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: الملأ- يعنى الأشراف من قومه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ يقول: بيان من ربكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ قال: كفارا. و أخرج ابن أبى

شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ قال: عن الحقّ.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۸

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۶۵ الى ۷۲]

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۶۵) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۶۶) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۷) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (۶۸) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۶۹)

قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷۰) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۷۱) فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ (۷۲)

قوله وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً أى: و أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم، أى: واحدا من قبيلتهم أو صاحبهم و سمّاه أخا لكونه ابن آدم مثلهم، و عاد هو من ولد سام بن نوح. قيل: هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح، و هود هو ابن عبد اللّه بن رباح بن الخلود بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، و هُوداً عطف بيان. قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قد تقدّم تفسير هذا قريبا، و الاستفهام فى أَ فَلا تَتَّقُونَ للإنكار. و قد تقدّم أيضا تفسير الملأ، و السفاهة: الخفة و الحمق. و قد تقدّم بيان ذلك فى البقرة، نسبوه إلى الخفة و الطيش، و لم يكتفوا بذلك حتى قالوا إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة، ثم أجاب عليهم بنفى السفاهة عنه، و استدرك من ذلك بأنه رسول ربّ العالمين. و قد تقدّم بيان معنى هذا قريبا، و كذلك سبق تفسير أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي و تقدّم معنى الناصح، و الأمين: المعروف بالأمانة، و سبق أيضا تفسير أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ فى قصة نوح التى قبل هذه القصة. قوله وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ أذكرهم نعمة من نعم اللّه عليهم، و هى: أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، أى:

جعلهم سكان الأرض التى كانوا فيها، أو جعلهم ملوكا، و إذ منصوب باذكر و جعل الذكر للوقت. و المراد:

ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة، لأنّ الشيء إذا كان وقته مستحقا للذكر، فهو مستحقّ له بالأولى وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً أى: طولا فى الخلق و عظم جسم زيادة على ما كان عليه آباؤهم فى الأبدان. و قد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد. قوله فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ الآلاء:

جمع إليّ و من جملتها نعمة الاستخلاف فى الأرض، و البسطة فى الخلق و غير ذلك مما أنعم به عليهم، و كرر التذكير لزيادة التقرير، و الآلاء: النعم لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إن تذكرتم ذلك لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها، و من شكر فقد أفلح. قوله قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ هذا استنكار منهم لدعائه إلى

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۹

عبادة اللّه وحده دون معبوداتهم التى جعلوها شركاء للّه، و إنما كان هذا مستنكرا عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا أى: نترك الذى كانوا يعبدونه، و هذا داخل فى جملة ما استنكروه. قوله فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ هذا استعجال منهم للعذاب الذى كان هود يعدهم به، لشدة تمرّدهم على اللّه و نكوصهم عن طريق الحق، و بعدهم عن اتباع الصواب، فأجابهم بقوله: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيها على تحقق

وقوعه، كما ذكره أئمة المعانى و البيان، و قيل: معنى وقع وجب، و الرجس: العذاب، و قيل: هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة، فقال أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ يعنى: أسماء الأصنام التى كانوا يعبدونها جعلها أسماء، لأن مسمياتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطلة، فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها فقط سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ أى: سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم و آباؤكم و لا حقيقة لذلك ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ أى: من حجة تحتجون بها على ما تدّعونه لها من الدعاوى الباطلة ثم توعدهم بأشد وعيد فقال فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ أى: فانتظروا ما طلبتموه من العذاب فإنى معكم من المنتظرين له، و هو واقع بكم لا محالة و نازل عليكم بلا شك؛ ثم أخبر اللّه سبحانه أنه نجّى هودا و من معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به و لم يقبل رسالته، و أنه قطع دابر القوم المكذبين، أى: أستأصلهم جميعا. و قد تقدّم تحقيق معناه، و جملة وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ معطوفة على كذبوا، أى: استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا و عدم الإيمان.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قال: ليس بأخيهم فى الدّين، و لكنه أخوهم فى النسب لأنه منهم؛ فلذلك جعل أخاهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن خيثم قال:

كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذرّ. و أخرج ابن عساكر عن وهب قال: كان الرجل من عاد ستين ذراعا بذراعهم، و كان هامة الرجل مثل القبّة العظيمة، و كان عين الرجل لتفرخ فيها السّباع، و كذلك مناخرهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر ذراعا طولا. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس قال: كان الرجل منهم ثمانين باعا، و كانت البرّة فيهم ككلية البقرة، و الرمانة الواحدة يقعد فى قشرها عشرة نفر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً قال: شدة. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتّخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلّوه «١»، و إن كان أحدهم ليدخل قدمه فى الأرض فتدخل فيها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله آلاءَ اللَّهِ قال: نعم اللّه، و فى قوله رِجْسٌ قال: سخط.

و أخرج ابن عساكر قال: لما أرسل اللّه الريح على عاد اعتزل هود و من معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبهم

---

(١). قال فى القاموس: قلّه و أقلّه: حمله و رفعه.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٥٠

فتح القدير ج٢ ٢٩٩

من الريح إلا ما تلين عليه الجلود و تلتذ به الأنفس، و إنها لتمرّ بالعادى فتحمله بين السماء و الأرض و تدمغه بالحجارة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا قال:

استأصلناهم. و أخرج البخارى فى تاريخه و ابن جرير و ابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب قال: قبر هود يحضر موت فى كثيب أحمر عند رأسه سدرة. و أخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبى العاتكة قال: قبلة مسجد دمشق قبر هود. و أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال: كان عمر هود أربعمائة سنة و اثنتين و سبعين سنة.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٣ الى ٧٩]

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها

تَأْكُلْ فِی أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِی الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِی آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دارِهِمْ جاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّی وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

قوله وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً معطوف على ما تقدّم، أی: و أرسلنا إلى ثمود أخاهم، و ثمود:

قبيلة سموا باسم أبيهم، و هو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، و صالح عطف بيان، و هو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود، و امتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسما للقبيلة. و قال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه أعجمی. قال النحاس: و هو غلط لأنه من الثمد، و هو الماء القليل، و قد قرأ القراء ألا إنّ ثمودا كفروا ربهم «١» على أنه اسم للحیّ، و كانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز و الشام إلى وادی القرى. قوله قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قد تقدّم تفسيره فی قصة نوح قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أی: معجزة ظاهرة، و هی إخراج الناقة من الحجر الصلد، و جملة هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً مشتملة على بيان البينة المذكورة، و انتصاب آية: على الحال، و العامل فيها معنى الإشارة، و فی إضافة الناقة إلى اللّه تشريف لها و تكريم. قوله فَذَرُوها تَأْكُلْ فِی أَرْضِ اللَّهِ أی: دعوها تأكل فی أرض اللّه، فهی ناقة اللّه، و الأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم و لا تملكونه وَ لا تَمَسُّوها بشیء من السوء، أی: لا تتعرّضوا لها بوجه من الوجوه التی تسوؤها. قوله فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ هو جواب النهی: أی إذا لم تتركوا مسها بشیء من السوء أخذكم عذاب أليم، أی: شديد الألم. قوله وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ أی: استخلفكم فی الأرض أو جعلكم ملوكا فيها، كما تقدم

---

(١). هود: ٦٨.

فی قصة هود وَ بَوَّأَكُمْ فِی الْأَرْضِ أی: جعل لكم فيها مباءة، و هی المنزل الذی تسكنونه تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً أی: تتخذون من سهولة الأرض قصورا، أو هذه الجملة مبينة لجملة: وَ بَوَّأَكُمْ فِی الْأَرْضِ و سهول الأرض ترابها، يتخذون منه اللبن و الآجر و نحو ذلك فيبنون به القصور وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً أی تتخذون فی الجبال التی هی صخور بيوتا تسكنون فيها، و قد كانوا لقوّتهم و صلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفا يسكنون فيها؛ لأنّ الأبنية و السقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم، و انتصاب بيوتا على أنها حال مقدّرة، أو على أنها مفعول ثان لتنتحون على تضمينه معنى تتخذون. قوله فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ تقدّم تفسيره فی القصة التی قبل هذه. قوله وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ العثی و العثو لغتان، و قد تقدم تحقيقه فی البقرة بما يغنی عن الإعادة قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

أی: قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون، و لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من الذين استضعفوا بإعادة حرف الجر بدل البعض من الكل، لأن فی المستضعفين من ليس بمؤمن هذا على عود ضمير مِنْهُمْ إلى الذين استضعفوا، فإن عاد إلى قومه كان بدل كل من المستضعفين، و مقول القول: أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالوا هذا على طريق الاستهزاء و السخرية. قوله:

قالُوا إِنَّا بِما أَرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته، مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم، هل تعلمون برسالته أم لا؟ مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان، و تنبيها على أن كونه مرسلا أمر واضح مكشوف لا يحتاج إلى السؤال عنه، فأجابوا تمردا و عنادا بقولهم إِنَّا بِالَّذِی آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ و هـذه الجمل المعنويـة يقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقـدرة كمـا سـبق بيـانه. قوله فَعَقَرُوا النَّاقَةَ العقر: الجرح، و قيل: قطع عضو يؤثر فی تلف النفس؛ يقال: عقرت الفرس: إذا ضـربت قوائمه بالسيف، و قيل أصل العقر: كسر عرقوب البعير، ثم قيل للنحر عقر؛ لأنّ العقر سبب النحر فی الغالب، و أسند العقر إلى الجميع مع كون العاقر واحـدا منهم، لأنهم راضون بـذلك موافقون عليه. و قـد اختلف فی عاقر الناقة ما كان اسـمه، فقيل قدار بن سالف، و قيل غير ذلك وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أی: اسـتكبروا، يقال عتا يعتو عتوّا: اسـتكبر، و تعتى فلان: إذا لم يطع، و الليل العاتی: الشـديد الظلمـة وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ هذا اسـتعجال منهم للنقمة و طلب منهم لنزول العذاب و حلول البليـة بهم فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أی الزلزلـة، يقال رجف الشـیء يرجف رجفانا، و أصـله حركـة مع صوت، و منه يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ «١»؛ و قيل كانت صـيحة شديـدة خلعت قلوبهم فَأَصْبَحُوا فِی دارِهِمْ أی بلـدهم جاثِمِينَ لاصـقين بالأرض على ركبهم و وجوههم كمـا يجثم الطـائر، و أصـل الجثوم للأرنب و شـبهها، و قيـل للناس و الطير. و المراد أنهم أصبحوا فی دورهم ميتين لا حراك بهم فَتَوَلَّى عَنْهُمْ صالح عند اليأس من إجابتهم وَ قالَ لهم المقالة: لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّی وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ و يحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضـية، كما وقع من النبی صلّى اللّه عليه و سلّم من التكليم لأهل قليب بدر بعد موتهم، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم، و كأنه كان مشاهدا لذلك فتحسر على ما

---

(١). النازعات: ۶.

فاتهم من الإيمان و السـلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهدا فی إبلاغهم الرسالة و محض النصح، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب، و نزل بهم ما كذبوا به و استعجلوه.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابی و ابن أبی شـيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أبی الطفيل قال: قـالت ثمود لصالـح: ائتنا بآيـة إن كنت من الصّادقين، قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضـبة من الأرض فإذا هی تمخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح:

هـذه ناقـة اللّه لكم آيـة فلما ملوها عقروها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِی دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشـيخ عن قتادة: أن صالحا قال لهم حين عقروا الناقـة: تمتّعوا ثلاثـة أيام ثم قال لهم: آيـة هلاككم أن تصـبح وجوهكم غدا مصـفرّة، و تصـبح اليوم الثـانی محمرّة، ثم تصبح اليوم الثالث مسودّة، فأصـبحت كـذلك، فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفنوا و تحنطوا، ثم أخـذتهم الصيحة فأخمـدتهم. و قال عاقر الناقة: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة فی خدرها فيقولون:

أ ترضـين؟ فتقول: نعم، و الصبیّ، حتى رضوا أجمعون، فعقرها. و أخرج أحمـد و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی فی الأوسط و أبو الشـيخ و الحاكم و صـححه و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم لمـا نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات. فإن قوم صالـح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آيـة فبعث اللّه لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها و يحتلبون من لبنها مثل الذی كانوا يأخذون من مائها يوم غبها و تصـدر من هـذا الفـج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فوعـدهم اللّه العـذاب بعد ثلاثة أيام، و كان وعد من اللّه غير مكذوب، ثم

جاءتهم الصيحة فأهلك اللّه من كان منهم تحت مشارق الأرض و مغاربها، إلا رجلا كان فى حرم اللّه فمنعه حرم اللّه من عذاب اللّه، فقيل: يا رسول اللّه! من هو؟ فقال: أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

قال ابن كثير: هذا الحديث على شرط مسلم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه من حديث أبى الطفيل مرفوعا مثله. و أخرج أحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» و أصل الحديث فى الصحيحين من غير وجه، و فى لفظ لأحمد من هذا الحديث قال: لما نزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود. و أخرج أحمد و ابن المنذر نحوه مرفوعا من حديث أبى كبشة الأنمارى. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ قال: لا تعقروها. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً قال: كانوا ينقبون فى الجبال البيوت. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ قال: غلوا فى الباطل فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال: الصيحة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ قال: ميتين. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۵۳

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۰ الى ۸۴]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۸۰) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۸۴)

قوله وَ لُوطاً معطوف على ما سبق، أى: و أرسلنا لوطا، أو منصوب بفعل مقدّر، أى: و اذكر لوطا وقت قال لقومه. قال الفرّاء: لوط مشتق من قولهم: هذا أليط بقلبى؛ أى: ألصق، قال الزّجّاج:

زعم بعض النحويين أن لوطا يجوز أن يكون مشتقّا من لطت الحوض إذا ملسته بالطين، و هذا غلط. لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق. و قال سيبويه: نوح و لوط أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة، فلذلك صرفت، و لوط هو ابن هاران بن تارخ، فهو ابن أخى إبراهيم، بعثه اللّه إلى أمة تسمى سدوم أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أى:

الخصلة الفاحشة المتمادية فى الفحش و القبح، قال ذلك إنكارا عليهم و توبيخا لهم ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ أى: لم يفعلها أحد قبلكم، فإن اللواط لم يكن فى أمة من الأمم قبل هذه الأمة، و «من» مزيدة للتوكيد للعموم فى النفى، و إنه مستغرق لما دخل عليه، و الجملة مسوقة لتأكيد النكير عليهم و التوبيخ لهم. قوله إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً قرأ نافع و حفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة. و قرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ و التقريع و اختار القراءة الأولى أو عبيد و الكسائى و غيرهما، و اختار الخليل و سيبويه القراءة الثانية، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ و كذلك على القراءة الثانية مع مزيد الاستفهام و تكريره المفيد للمبالغة فى التقريع و التوبيخ، و انتصاب شهوة على المصدرية، أى: تشتهونهم شهوة، و يجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال، أى: مشتهين، و يجوز أن يكون مفعولا له، أى: لأجل الشهوة، و فيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة من غير أن يكون لهم فى ذلك غرض يوافق العقل، فهم فى هذا كالبهائم التى تنزو بعضها على بعض لما يتقاضاها من الشهوة مِنْ دُونِ النِّساءِ أى: متجاوزين فى فعلكم هذا للنساء اللاتى هنّ محل لقضاء الشهوة و موضع لطلب اللذة، ثم أضرب عن الإنكار المتقدّم إلى الإخبار بما هم عليه من الإسراف الذى تسبب عنه

إتيان هـذه الفاحشة الفظيعة. قوله وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ الواقعين في هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ أى: لوطـا و أتباعه مِنْ قَرْيَتِكُمْ أى: ما كان لهم جواب إلا هـذا القول المباين للإنصاف المخالف لما طلبه منهم و أنكره عليهم، و جملة إِنَّهُمْ أُنـاسٌ يَتَطَهَّرُونَ تعليـل لمـا أمروا به من الإخراج، و وصـفهم بـالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته. و أنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع فى هذه الفاحشة فلا يساكنونا فى قريتنا، و يحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية و الاستهزاء، ثم أخبر اللّه سبحانه أنه أنجى لوطا و أهله المؤمنين له، و استثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن له، و معنى كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أنها كانت من الباقين فى عذاب اللّه، يقال غبر الشيء: إذا مضى. و غبر: إذا بقى، فهو من الأضداد. و حكى

ابن فارس فى المجمل عن قوم أنهم قالوا: الماضى عابر بالعين المهملة، و الباقى غابر بالمعجمة. و قال الزجاج: مِنَ الْغـابِرِينَ أى: من الغـائبين عن النجاة. و قال أبو عبيـد: المعنى مِنَ الْغابِرِينَ أى: من المعمرين و كانت قـد هرمت، و أكثر أهل اللغـة على أن الغابر: الباقى. قوله وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً قيل: أمطر بمعنى إرسال المطر. و قال أبو عبيدة: مطر فى الرحمة و أمطر فى العـذاب، و المعنى هنـا: أن اللّه أمطر عليهم مطرا غير مـا يعتـادونه و هو رميهم بالحجـارة كما فى قوله وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «١» فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ هذا خطاب لكل من يصلح له، أو لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و سيأتى فى هود قصة لوط بأبين مما هنا.

و قـد أخرج ابن أبى الـدنيا و ابن أبى حـاتم و أبو الشـيخ، و البيهقى فى شـعب الإيمـان، و ابن عسـاكر عن ابن عبـاس فى قوله: أَ تَـأْتُونَ الْفاحِشَـةَ قـال: أدبـار الرجـال. و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: إنما كان بـدء عمل قوم لوط: أن إبليس جاءهم فى هيئـة صبىّ، أجمـل صبىّ رآه النـاس، فـدعاهم إلى نفسه فنكحوه ثم جسـروا على ذلـك. و أخرج عبـد الرزاق و ابن جرير و ابن المنـذر عنه فى قوله: إِنَّهُمْ أُنـاسٌ يَتَطَهَّرُونَ قـال: من أدبار الرجال و من أدبار النساء. و أخرج عبـد الرزاق و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن أبى حـاتم عن قتـادة فى قوله: إِلَّا امْرَأَتَهُ كـانَتْ مِنَ الْغـابِرِينَ قـال: من البـاقين فى عـذاب اللّه. و أخرج أبو الشـيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال: كان قوم لوط أربعة آلاف ألف.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨۵ الى ٩٣]

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨۵) وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨۶) وَ إِنْ كـانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِـالَّذِي أُرْسِـلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَـاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنـا وَ هُوَ خَيْرُ الْحـاكِمِينَ (٨٧) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُـعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَـيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (٨٩)

وَ قـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُـعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِـرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْـبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُـعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (٩٣)

قوله: وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً معطوف على ما تقدّم، أى: و أرسلنا. و مدين: اسم قبيلة،

(۱). الحجر: ۷۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۵۵

و قيل: اسم بلد و الأوّل أولى، و سميت القبيلة باسم أبيهم: و هو مدين بن إبراهيم كما يقال بكر و تميم. قوله:
أَخاهُمْ شُعَيْباً شعيب: عطف بيان، و هو شعيب بن ميكائيل بن مدين بن إبراهيم، قاله عطاء و ابن إسحاق و غيرهما. و قال الشرقيّ بن القطامى: إنه شعيب بن عيفاء بن يوبب بن مدين بن إبراهيم. و زعم ابن سمعان أنه شعيب بن جزى بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. و قال قتادة: هو شعيب ابن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. قوله: قالَ يا قَوْمِ إلى قوله: بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ قد سبق شرحه فى قصة نوح. قوله: فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ أمرهم بإيفاء الكيل و الميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل و الوزن، و كانوا لا يوفونهما، و ذكر الكيل الذى هو المصدر، و عطف عليه الميزان الذى هو اسم للآلة.
و اختلف فى توجيه ذلك، فقيل: المراد بالكيل: المكيال، فتناسب عطف الميزان عليه؛ و قيل: المراد بالميزان الوزن فيناسب الكيل، و الفاء فى فَأَوْفُوا للعطف على اعبدوا. قوله: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ البخس: النقص و هو يكون بالتعييب للسلعة أو التزهيد فيها أو المخادعة لصاحبها و الاحتيال عليه، و كل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل و ظاهر قوله: أَشْياءَهُمْ أنهم كانوا يبخسون الناس فى كل الأشياء، و قيل: كانوا مكاسين يمكسون كل ما دخل إلى أسواقهم، و منه قول زهير:
أفى كلّ أسواق العراق إتاوة‌و فى كلّ ما باع امرؤ مكس درهم
قوله: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها قد تقدّم تفسيره قريبا و يدخل تحته قليل الفساد و كثيره و دقيقه و جليله، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى العمل بما أمرهم به و ترك ما نهاهم عنه، و المراد بالخيرية هنا: الزيادة المطلقة، لأنه لا خير فى عدم إيفاء الكيل و الوزن، و فى بخس الناس، و فى الفساد فى الأرض أصلا.
قوله: وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ الصراط: الطريق، أى: لا تقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب، قيل: كانوا يقعدون فى الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعّدون من أراد المجيء إليه، و يقولون:
إنه كذّاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، قاله ابن عباس و قتادة و مجاهد و السدّى و غيرهم؛ و قيل: المراد القعود على طرق الدين و منع من أراد سلوكها، و ليس المراد به القعود على الطرق حقيقة، و يؤيده وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ و قيل: المراد بالآية: النهى عن قطع الطريق و أخذ السلب، و كان ذلك من فعلهم؛ و قيل: إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية فى الطرق من أموال الناس، فنهوا عن ذلك. و القول الأوّل أقربها إلى الصواب مع أنه لا مانع من حمل النهى على جميع هذه الأقوال المذكورة.
و جملة تُوعِدُونَ فى محل نصب على الحال، و كذلك ما عطف عليها، أى: لا تقعدوا بكل طريق موعدين لأهله صادّين عن سبيل اللّه، باغين لها عوجا، و المراد بالصدّ عن سبيل اللّه: صدّ الناس عن الطريق الذى قعدوا عليه و منعهم من الوصول إلى شعيب، فإن سلوك الناس فى ذلك السبيل للوصول إلى نبىّ اللّه هو سلوك سبيل اللّه، و مَنْ آمَنَ بِهِ مفعول تصدّون، و الضمير فى آمن به يرجع إلى اللّه، أو إلى سبيل اللّه، أو

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۵۶

إلى كل صراط أو إلى شعيب، وَ تَبْغُونَها عِوَجاً أى: تطلبون سبيل اللّه أن تكون معوجة غير مستقيمة، و قد سبق الكلام على العوج. قال الزجاج: كسر العين فى المعانى و فتحها فى الإجرام وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ أى: وقت كنتم قَلِيلًا عددكم فَكَثَّرَكُمْ بالنسل؛ و قيل: كنتم فقراء فأغناكم وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ من الأمم الماضية، فإن اللّه أهلكهم و أنزل بهم من العقوبات ما

ذهب بهم و محا أثرهم وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إليكم من الأحكام التي شرعها اللّه لكم وَ طائِفَةٌ منكم لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ هذا من باب التهديد و الوعيد الشديد لهم.

و ليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر. و حكم اللّه بين الفريقين: هو نصر المحقين على المبطلين، و مثله قوله تعالى: فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ «١» أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحلّ بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم اللّه عليهم قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أي: قال الأشراف المستكبرون لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ لم يكتفوا بترك الإيمان و التمرّد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغيا و بطرا و أشرا إلى توعد نبيهم و من آمن به الإخراج من قريتهم أو عوده هو و من معه فى ملتهم الكفرية، أي: لا بدّ من أحد الأمرين: إما الإخراج، أو العود. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء، يقال: عاد إليّ من فلان مكروه، أي: صار، و إن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك، فلا يرد ما يقال: كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه اللّه رسولا؟ و يحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه فى الخطاب بالعود إلى ملتهم، و جملة قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ مستأنفة، جواب عن سؤال مقدّر، و الهمزة: لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود، و الواو للحال، أي: أ تعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا للعود إليها، أو: أ تخرجوننا من قريتكم فى حال كراهتنا للخروج منها، أو فى الحال كراهتنا للأمرين جميعا، و المعنى: إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين و لا يصح لكم ذلك، فإنّ المكره لا اختيار له و لا تعدّ موافقته مكرها: موافقة، و لا عوده إلى ملتكم مكرها عودا، و بهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين فى هذا المقام، حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ التي هى الشرك بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها بالإيمان فلا يكون منا عود إليها أصلا وَ ما يَكُونُ لَنا أي: ما يصح لنا، و لا يستقيم أَنْ نَعُودَ فِيها بحال من الأحوال إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أي: إلا حال مشيئته سبحانه، فإنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن. قال الزّجّاج: أي إلا بمشيئة اللّه عزّ و جلّ، قال: و هذا قول أهل السّنّة، و المعنى: أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء اللّه ذلك، فالاستثناء منقطع؛ و قيل: إن الاستثناء هنا على جهة التسليم للّه عزّ و جلّ كما فى قوله: وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ «٢» و قيل: هو كقولهم: لا أكلمك حتى يبيضّ الغراب، و حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط، و الغراب لا يبيض، و الجمل لا يلج، فهو من باب التعليق بالمحال. وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أي: أحاط علمه بكل المعلومات فلا يخرج عنه منها شيء، و علما منصوب على التمييز؛ و قيل: المعنى وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها أي:

القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ عودنا إليها عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا أي: عليه اعتمدنا

---

(١). التوبة: ٢٥.

(٢). هود: ٨٨.

فى أن يثبتنا على الإيمان، و يحول بيننا و بين الكفر و أهله، و يتمّ علينا نعمته، و يعصمنا من نقمته. قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ الفتاحة: الحكومة، أى احكم بيننا و بين قومنا بالحق و أنت خير الحاكمين، دعوا اللّه سبحانه أن يحكم بينهم، و لا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقّين على المبطلين؛ كما أخبرنا به فى غير موضع من كتابه، فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكفرين و حلول نقمة اللّه بهم وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ معطوف على قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك، و يحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل إليهم شعيب. و اللام فى لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً موطئة لجواب قسم محذوف، أي: دخلتم فى دينه و تركتم دينكم إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ جواب القسم ساد مسدّ جواب الشرط، و

خسرانهم: هلاكهم أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل و الوزن و ترك التطفيف الذى كانوا يعاملون الناس به فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أى: الزلزلة؛ و قيل: الصيحة كما فى قوله:

وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ «١» فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ قد تقدم تفسيره فى قصة صالح.

قوله: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا هذه الجملة مستأنفة مبينة لما حلّ بهم من النعمة، و الموصول:

مبتدأ، و كأن لم يغنوا: خبره؛ يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به، و غنى القوم فى دارهم أى: طال مقامهم فيها، و المغنى: المنزل؛ و الجمع: المغانى. قال حاتم الطائى:

غنينا زمانا بالتّصعلك و الغنى كما الدّهر فى أيامه العسر و اليسر

كسبنا صروف الدّهر لينا و غلظة و كلّا سقاناه بكأسهما الدّهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا و لا أزرى بأحسابنا الفقر

و معنى الآية: الذين كذّبوا شعيبا كأن لم يقيموا فى دارهم؛ لأنّ اللّه سبحانه استأصلهم بالعذاب، و الموصول فى الذين كذبوا شعيبا مبتدأ، خبره كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ و هذه الجملة مستأنفة كالأولى، متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين فَتَوَلَّى عَنْهُمْ أى: شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي التى أرسلنى بها إليكم وَ نَصَحْتُ لَكُمْ ببيان ما فيه سلامة دينكم و دنياكم فَكَيْفَ آسى أى: أحزن عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ باللّه مصرّين على كفرهم متمردين عن الإجابة أو الأسى: شدة الحزن، آسى على ذلك: فهو آس. قال شعيب هذه المقالة تحسّرا على عدم إيمان قومه، ثم سلا نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم باللّه و عدم قبولهم لما جاء به رسوله.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن عساكر عن عكرمة و السدى قالا: ما بعث اللّه نبيا مرتين إلا شعيبا: مرة إلى مدين فأخذتهم الصيحة، و مرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم اللّه بعذاب يوم الظلة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ قال: لا تظلموا الناس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ قال: لا تظلموهم وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: كانوا يوعدون من أتى شعيبا و أراد الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: كانوا يجلسون فى الطريق فيخبرون من أتى عليهم

---

(١). هود: ٩٤.

أن شعيبا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: بكل سبيل حق وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: تصدّون أهلها وَ تَبْغُونَها عِوَجاً قال: تلتمسون لها الزيغ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: هو العاشر وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: تصدّون عن الإسلام وَ تَبْغُونَها عِوَجاً قال: هلاكا. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هم العشار. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية عن أبى هريرة أو غيره- شك أبو العالية- قال: أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة أسرى به على خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلا شقته و لا شىء إلا خرقته قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا- وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها قال: ما ينبغى لنا أن نعود فى شرككم بعد إذ نجّانا اللّه إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا و اللّه لا يشاء الشرك، و لكن يقول: إلا أن يكون اللّه قد علم شيئا، فإنه قد وسع كل شىء علما. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن

جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات و ابن الأنبارى فى الوقف و الابتداء عن ابن عباس قال: ما كنت أدرى ما قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول: تعال أفاتحك، تعنى أقاضيك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: رَبَّنَا افْتَحْ يقول: اقض. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: الفتح: القضاء، لغة يمانية إذا قال أحدهم تعال أقاضيك القضاء قال: تعال أفاتحك. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا قال: لم يعيشوا فيها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَكَيْفَ آسى قال: أحزن. و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما، قبر إسماعيل و قبر شعيب، فقبر إسماعيل فى الحجر، و قبر شعيب مقابل الحجر الأسود. و أخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن شعيبا مات بمكة و من معه من المؤمنين، فقبورهم فى غربى الكعبة بين دار الندوة و بين باب بنى سهم. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم عن ابن إسحاق قال: ذكر لى يعقوب ابن أبى مسلمة «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا ذكر شعيبا قال: ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به، فلما كذّبوه و توعّدوه بالرّجم و النفى من بلادهم و عتوا على اللّه أخذهم عذاب يوم الظلة».

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٤ الى ١٠٠]

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (٩٧) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)

أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (٩٩) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٥٩

قوله: وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍ لما فصل اللّه سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم، و هم المذكورون سابقا أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها، أى: و ما أرسلنا فى قرية من القرى من نبىّ من الأنبياء، و فى الكلام محذوف، أى: فكذب أهلها إلا أخذناهم، و الاستثناء مفرّغ، أى: ما أرسلنا فى حال من الأحوال إلا فى حال أخذنا أهلها، فمحل أخذنا: النصب، و البأساء: البؤس و الفقر، و الضراء: الضرّ، و قد تقدم تحقيق معنى البأساء و الضراء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ أى: لكى يتضرّعوا و يتذلّلوا، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار و تكذيب الأنبياء. قوله: ثُمَّ بَدَّلْنا معطوف على أخذنا، أى: ثم بعد الأخذ لأهل القرى بدّلناهم مَكانَ السَّيِّئَةِ التى أصبناهم بها من البلاء و الامتحان الْحَسَنَةَ أى: الخصلة الحسنة، فصاروا فى خير وسعة و أمن حَتَّى عَفَوْا يقال عفا: كثر، و عفا: درس، فهو من أسماء الأضداد، و المراد هنا:

أنهم كثروا فى أنفسهم و فى أموالهم، أى: أعطيناهم الحسنة مكان السيئة حتى كثروا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ أى: قالوا هذه المقالة عند أن صاروا فى الحسنة بعد السيئة، أى: أن هذا الذى مسّنا من البأساء و الضراء، ثم من الرخاء و الخصب من بعد، هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله، فمسّهم من البأساء و الضّرّاء ما مسنا و من النعمة و الخير ما نلناه، و معناهم: أن هذه العادة الجارية فى السّلف و الخلف، و أن ذلك ليس من اللّه سبحانه ابتلاء لهم و اختبارا لما عندهم، و فى هذا من شدّة عنادهم و قوة تمردهم و عتوّهم ما لا يخفى، و لهذا عاجلهم اللّه بالعقوبة و لم يمهلهم فقال: فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أى: فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ و لا إمهال وَ الحال أن هُمْ لا يَشْعُرُونَ بذلك و لا يترقبونه، و اللام فى الْقُرى للعهد، أى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى التى

أرسلنا إليها رسلنا آمَنُوا بالرسل المرسلين إليهم وَ اتَّقَوْا ما صمموا عليه من الكفر و لم يصرّوا على ما فعلوا من القبائح لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أى: يسرنا لهم خير السماء و الأرض كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها؛ قيل: المراد بخير السماء:

المطر، و خير الأرض: النبات، و الأولى حمل ما فى الآية على ما هو أعمّ من ذلك؛ و يجوز أن تكون اللام فى القرى للجنس، و المراد: لو أنّ أهل القرى أين كانوا، و فى أىّ بلاد سكنوا، آمنوا و اتقوا إلى آخر الآية وَ لكِنْ كَذَّبُوا بالآيات و الأنبياء و لم يؤمنوا و لا اتقوا فَأَخَذْناهُمْ بالعذاب بسبب ما كانُوا يَكْسِبُونَ من الذنوب الموجبة لعذابهم، و الاستفهام فى أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى للتقريع و التوبيخ، و أهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله، و الفاء للعطف، و هو مثل أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ «١»؛ و قيل:

المراد بالقرى مكة و ما حولها لتكذيبهم للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و الحمل على العموم أولى. قوله: أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً أى: وقت بيات، و هو الليل على أنه منصوب على الظرفية، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى: تبيتا، أو مصدرا

---

(١). المائدة: ٥٠.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٦٠

فى موضع الحال: أى مبيتين، و جملة وَ هُمْ نائِمُونَ فى محل نصب على الحال، و الاستفهام فى أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ كالاستفهام الذى قبله، و الضحى: ضحوة النهار، و هو فى الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت و ارتفعت. قرأ ابن عامر و الحرميان أَ وَ أَمِنَ بإسكان الواو و قرأ الباقون بفتحها، و جملة وَ هُمْ يَلْعَبُونَ فى محل نصب على الحال، أى: يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة، و الاستفهام فى أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ للتّقريع و التوبيخ و إنكار ما هم عليه من أمان ما لا يؤمن من مكر اللّه بهم و عقوبته لهم، و فى تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لإنكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من أمن مكر اللّه، فقال: فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ أى: الذين أفرطوا فى الخسران، و وقعوا فى وعيده الشديد، و قيل: مكر اللّه هنا هو استدراجه بالنعمة و الصحة. و الأولى: حمله على ما هو أعمّ من ذلك. قوله: أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها قرئ «نهد» بالنون، و بالتحتية، فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو اللّه سبحانه، و مفعول الفعل أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ أى أن الشأن هو هذا، و على القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ أى: أخذناهم بكفرهم و تكذيبهم، و الهداية هنا بمعنى التبيين، و لهذا عديت باللام. قوله: وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ أى:

و نحن نطبع على قلوبهم على الاستئناف، و لا يصحّ عطفه على أصبنا لأنهم ممن طبع اللّه على قلبه لعدم قبولهم للإيمان؛ و قيل: هو معطوف على فعل مقدّر دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: يغفلون عن الهداية و نطبع؛ و قيل:

معطوف على يرثون، قوله: فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ جواب لو، أى: صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم و الطّبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله اللّه إليهم من الوعظ و الإعذار و الإنذار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ قال: مكان الشدة الرخاء حَتَّى عَفَوْا قال: كثروا و كثرت أموالهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى عَفَوْا قال: جموا «١». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ قال: قالوا: قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئا فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا قال: بما أنزل اللّه وَ اتَّقَوْا قال: ما حرّمه اللّه لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ يقول: أعطتهم السماء بركتها و الأرض نباتها. و

أخرج ابن أبى حاتم من طريق معاذ بن رفاعة عن موسى الطائفى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أكرموا الخبز فإنّ اللّه أنزله من بركات السّماء و أخرجه من بركات الأرض». و أخرج البزار و الطبرانى، قال السيوطى بسند ضعيف عن عبد اللّه بن أمّ حرام قال:

صليت القبلتين مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أكرموا الخبز فإن اللّه أنزله من

---

(١). قال فى القاموس: الجمّ: الكثير من الشيء.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٦١

بركات السماء و سخّر له بركات الأرض، و من تتبع ما يسقط من السّفرة غفر له». و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال: كان أهل قرية أوسع اللّه عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث اللّه عليهم الجوع. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس «١» فى قوله: أَ وَ لَمْ يَهْدِ قال: أ و لم نبين. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها قال: المشركون.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (١٠١) وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (١٠٢)

قوله: تِلْكَ الْقُرى أى: التى أهلكناها، و هى قرى قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب المتقدّم ذكرها نَقُصُّ عَلَيْكَ أى: نتلو عليك مِنْ أَنْبائِها أى: من أخبارها، و هذه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين، و نقصّ إما فى محل نصب على أنه حال، و تِلْكَ الْقُرى مبتدأ و خبر، أو يكون فى محل رفع على أنه الخبر، و الْقُرى صفة لتلك، و من فى مِنْ أَنْبائِها للتبعيض، أى: نقصّ عليك بعض أنبائها، و اللام فى لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ جواب القسم. و المعنى: أن من أخبارهم أنها جاءتهم رسل اللّه ببيناته كما سبق بيانه فى قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيء الرسل بِما كَذَّبُوا به مِنْ قَبْلُ مجيئهم، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل فى حال من الأحوال و لا فى وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم، بل هم مستمرون على الكفر، متشبثون بأذيال الطّغيان دائما، و لم ينجع فيهم مجيء الرسل و لا ظهر له أثر، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله؛ و قيل المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم، كقوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا و قيل: سألوا المعجزات، فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها. و الأوّل أولى، و معنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل:

أنهم كانوا فى الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل، و إنزال الكتب. قوله: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ أى: مثل ذلك الطبع الشديد يطبع اللّه على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ و لا تذكير و لا ترغيب و لا ترهيب. قوله وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقا، أى: ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد، أى: عهد يحافظون عليه و يتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود فى كل حال؛ و قيل: الضمير يرجع إلى الناس على العموم؛ أى:

ما وجدنا لأكثر الناس من عهد، و قيل: المراد بالعهد: هو المأخوذ عليهم فى عالم الذرّ؛ و قيل: الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى؛ أى: الأكثر منهم لا عهد و لا وفاء، و القليل منهم قد يفى

(١). فى ابن جرير الطبرى (٩/ ٧): أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد ...

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٦٢

بعهده و يحافظ عليه، و إن فى وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ هى المخففة من الثقيلة، و ضمير الشأن محذوف، أى: أن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين، أو هى النافية، و اللام فى لَفاسِقِينَ بمعنى إلا: أى إلا فاسقين، خارجين عن الطاعة خروجا شديدا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبىّ بن كعب فى قوله: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ قال: كان فى علم اللّه يوم أقرّوا بالميثاق من يكذّب به ممن يصدّق به. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ قال: مثل قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ قال: الوفاء. و أخرج ابن أبى حاتم فى الآية قال: هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ قال: ذاك أن اللّه إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٣ الى ١٢٢]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٠٥) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (١٠٧)

وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (١١٠) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (١١٣) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (١١٧)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (١١٩) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (١٢٠) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (١٢٢)

قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى أى: من بعد نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، أى: ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل؛ و قيل الضمير فى مِنْ بَعْدِهِمْ راجع إلى الأمم السابقة، أى: من بعد إهلاكهم إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فرعون: هو لقب لكلّ من يملك أرض مصر بعد العمالقة، و ملأ فرعون:

أشراف قومه، و تخصيصهم بالذّكر مع عموم الرسالة لهم و لغيرهم؛ لأنّ من عداهم كالأتباع لهم. قوله:

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٦٣

فَظَلَمُوا بِها أى كفروا بها، و أطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التى جاء بها موسى كان كفرا متبالغا لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التى جاءهم بها، و المراد بالآيات هنا: هى الآيات التسع، أو معنى فَظَلَمُوا بِها ظلموا الناس بسببها لما صدّوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أى: المكذّبين بالآيات الكافرين بها و جعلهم مفسدين؛ لأنّ تكذيبهم و كفرهم من أقبح أنواع الفساد. قوله: وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أخبره

بـأنه مرسل من اللّه إليه، و جعل ذلك عنوانا لكلامه معه، لأنّ من كان مرسـلا من جهـة من هو ربّ العالمين أجمعين؛ فهو حقيق بـالقبول لمـا جـاء به، كما يقول من أرسـله الملك فى حاجـة إلى رعيته: أنا رسول الملك إليكم، ثم يحكى ما أرسل به فإن فى ذلك من تربيـة المهابـة و إدخال الروعـة ما لا يقادر قـدره. قوله: حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ قرئ «حقيق علىّ أن لا أقول». أى: واجب علىّ و لازم لى أن لا أقول فيما أبلغكم عن اللّه إلا القول الحقّ، و قرئ حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ بدون ضـمير فى على؛ قيل فى توجيهه أن على بمعنى الباء. أى: حقيق بأن لا أقول، و يؤيـده قراءة أبىّ و الأعمش فإنهما قرءا: «حقيق بأن لا أقول»؛ و قيـل: إن حَقِيقٌ مضـمن معنى حريص؛ و قيـل: إنه لمـا كـان لازما للحق كان الحقّ لازما له، فقول الحق حقيق عليه، و هو حقيق على قول الحق؛ و قيل: إنه أغرق فى وصف نفسه فى ذلك المقام؛ حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق؛ كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله. و قرأ عبد اللّه بن مسعود:

«حقيق أن لا أقول» بإسـقاط على، و معناها واضح ثم قال بعد هذا: قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أى بما يتبيّن به صدقى و أنّى رسول من رب العالمين. و قد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاورة كما فى موضع آخر أنه قال فرعون: فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى «١» ثم قال بعد جواب موسـى وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ الآيات الحاكية لما دار بينهما. قوله: فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ أمره بأن يدع بنى إسرائيل يـذهبون معه و يرجعون إلى أوطانهم و هى الأرض المقدّسة، و قد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم، و الفـاء لترتيب مـا بعـدها على مـا قبلهـا، فلمـا قال ذلك قالَ له فرعون: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ من عنـد اللّه كما تزعم فَأْتِ بِها حتى نشاهـدها و ننظر فيهـا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى هـذه الـدعوى التى جئت بها. قوله: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ أى وضـعها على الأرض فانقلبت ثعبانا، أى:

حيـة عظيمـة من ذكور الحيات، و معنى مُبِينٌ أن كونها حيـة فى تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه وَ نَزَعَ يَدَهُ أى أخرجها و أظهرهـا من جيبه أو من تحت إبطه، و فى التنزيـل وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ «٢». قوله: فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ أى: فإذا يده التى أخرجها بيضاء تتلألأ نورا يظهر لكل مبصـر قالَ الْمَلَأُ أى: الأشراف مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لما شاهدوا انقلاب العصا حيـة، و مصـير يده بيضاء من غير سوء إِنَّ هذا أى: موسى لَساحِرٌ عَلِيمٌ أى كثير العلم بالسحر، و لا تنافى بين نسبـة هذا القول إلى الملأ هنا و إلى فرعون فى سورة الشـعراء، فكلّهم قد قالوه، فكان ذلك مصحّحا لنسبته إليهـم تارة و إليه أخرى، و جملـة يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ وصف لساحر، و الأرض المنسوبة

---

(١). طه: ۴۹.

(٢). النمل: ١٢.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢۶۴

إليهم هى أرض مصـر: و هـذا من كلام الملأ، و أما فَما ذا تَأْمُرُونَ فقيل: هو من كلام فرعون، قال للملأ لما قالوا بما تقـدّم، أى: بأى شـىء تأمروننى؟ و قيل: هو من كلام الملأ؛ أى: قالوا لفرعون: فبأى شىء تأمرنا؟ و خاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيما له كما يخاطب الرؤساء أتباعهم، و ما: فى موضع نصب بالفعل الـذى بعدها، و يجوز أن تكون ذا بمعنى الذى كما ذكره النحاة فى: ماذا صـنعت، و كون هـذا من كلام فرعون هو الأولى بـدليل ما بعـده و هو قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ قال الملأ جوابا لكلام فرعون حيث استشارهم، و طلب ما عندهم من الرأى: أرجه، أى: أخّره و أخاه، يقال: أرجأته و أرجيته: أخّرته. قرأ عاصم و الكسائى و حمزة و أهل المدينة «أَرْجِهْ» بغير همز، و قرأ الباقون بالهمز، و قرأ أهل الكوفة إلا الكسائى أَرْجِهْ بسـكون الهاء. قال الفرّاء: هى لغة للعرب يقفون على الهـاء فى الوصـل، و أنكر ذلـك البصـريون؛ و قيـل: معنى أرجه: احبسه؛ و قيـل: هو من رجا يرجو: أى أطمعه و دعه

يرجوك، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ أي: أرسل جماعة حاشرين فى المدائن التى فيها السحرة، و حاشرين:

مفعول أرسل؛ و قيل: هو منصوب على الحال، و يَأْتُوكَ جواب الأمر، أى: يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ أى: بكل ماهر فى السحر كثير العلم بصناعته. قرأ أهل الكوفة إلا عاصم:

«سحار» و قرأ من عداهم: «ساحر». قوله: وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ فى الكلام طىّ، أى: فبعث فى المدائن حاشرين، و جاء السحرة فرعون. قوله: قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى: فلما جاءوا فرعون قالوا له إن لنا لأجرا، و الجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: أىّ شىء قالوا له لما جاءوه؟ و الأجر:

الجائزة و الجعل، الزموا فرعون أن يجعل لهم جعلا- إن غلبوا موسى بسحرهم. قرأ نافع و ابن كثير: «إِنَّ لَنا» على الإخبار، و قرأ الباقون: «أئن لنا» على الاستفهام، استفهموا فرعون عن الجعل الذى سيجعله لهم على الغلبة، و معنى الاستفهام التقرير. و أما على القراءة الأولى فكأنهم قاطعون بالجعل و أنه لا بدّ لهم منه، فأجابهم فرعون بقوله: نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ أى: إن لكم لأجرا، و إنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقرّبين لدينا. قوله: قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون: نعم و إنكم لمن المقرّبين. و المعنى:

أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بإلقاء ما يلقيه عليهم أو يبتدئوه هم بذلك تأدّبا معه و ثقة من أنفسهم بأنهم غالبون و إن تأخروا، و أن فى موضع نصب، قاله الكسائى و الفراء: أى: إما أن تفعل الإلقاء أو نفعله نحن.

فأجابهم موسى بقوله: أَلْقُوا اختار أن يكونوا المتقدّمين عليه بإلقاء ما يلقونه غير مبال بهم و لا هائب لما جاءوا به. قال الفراء: فى الكلام حذف. المعنى: قال لهم موسى إنكم لن تغلبوا ربكم و لن تبطلوا آياته؛ و قيل: هو تهديد، أى: ابتدئوا بالإلقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح، و الموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر فَلَمَّا أَلْقَوْا أى: حبالهم و عصيهم سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ أى قلبوها و غيروها عن صحة إدراكها بما جاءوا به من التمويه و التخييل الذى يفعله المشعوذون و أهل الخفة وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ أى أدخلوا الرهبة فى قلوبهم إدخالا شديدا وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ فى أعين

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۶۵

الناظرين لما جاءوا به، و إن كان لا حقيقة له فى الواقع. قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ أمره اللّه سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاءوا به من السحر أن يلقى عصاه فَإِذا هِيَ أى: العصا تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قرأ حفص تَلْقَفُ بإسكان اللام و تخفيف القاف من لقف يلقف. و قرأ الباقون: بفتح اللام و تشديد القاف من تلقّف يتلقّف، يقال: لقفت الشىء و تلقّفته؛ إذا أخذته أو بلعته. قال أبو حاتم:

و بلغنى فى بعض القراءات تلقّم بالميم و التشديد، قال الشاعر:

أنت عصا موسى الّتى لم تزل تلقم ما يأفكه السّاحر

و ما فى ما يَأْفِكُونَ مصدرية أو موصولة، أى: إفكهم أو ما يأفكونه، سمّاه إفكا، لأنه لا حقيقة له فى الواقع بل هو كذب و زور و تمويه و شعوذة فَوَقَعَ الْحَقُّ أى: ظهر و تبين لما جاء به موسى وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من سحرهم، أى: تبين بطلانه فَغُلِبُوا أى: السحرة هُنالِكَ أى:

فى الموقف الذى أظهروا فيه سحرهم وَ انْقَلَبُوا من ذلك الموقف صاغِرِينَ أذلاء مقهورين وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ أى: خروا ساجدين كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود، أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا أنفسهم، و جملة قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ- رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما ذا قالوا عند سجودهم أو فى سجودهم، و إنما قالوا هذه المقالة و

صرّحوا بأنهم آمنوا بربّ العالمين، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا: ربّ موسى و هارون لئلا يتوهّم متوهّم من قوم فرعون المقرّين بإلهيته أن السّجود له.

و قد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مُوسى قال: إنما سمّى موسى؛ لأنه ألقى بين ماء و شجر، فالماء بالقبطية مو و الشجر سى. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد: أن فرعون كان فارسيا من أهل إصطخر. و أخرج أيضا عن ابن لهيعة. أنه كان من أبناء مصر. و أخرج أيضا و أبو الشيخ عن محمد ابن المنكدر قال: عاش فرعون ثلاثمائة سنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طلحة أن فرعون كان قبطيا ولد زنا طوله سبعة أشبار. و أخرج أيضا عن الحسن قال: كان علجا من همذان. و أخرج أبو الشيخ عن إبراهيم بن مقسم الهذلى قال: مكث فرعون أربعمائة سنة لم يصدع له رأس. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَأَلْقى عَصاهُ قال: ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم أعطاه إياها ملك حين توجه إلى مدين، فكانت تضىء بالليل و يضرب بها الأرض بالنهار فتخرج له رزقه و يهشّ بها على غنمه فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ قال: حية تكاد تساوره. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لقد دخل موسى على فرعون و عليه «زرمانقة» من صوف ما تجاوز مرفقيه، فاستأذن على فرعون فقال: أدخلوه، فدخل فقال: إن إلهى أرسلنى إليك، فقال للقوم حوله: ما علمت لكم من إله غيرى، خذوه. قال: إنى قد جئتك بآية، قال: فائت بها إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فصارت ثعبانا بين لحييه ما بين السّقف إلى الأرض، و أدخل يده فى جيبه فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار، فخرّوا على وجوههم، و أخذ موسى

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۶۶

عصاه، ثم خرج ليس أحد من الناس إلا نفر منه، فلما أفاق و ذهب عن فرعون الروع قال للملأ حوله:

ماذا تأمرونى قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ و لا تأتنا به و لا يقربنا وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ و كانت السحرة يخشون من فرعون، فلما أرسل إليهم قالوا: قد احتاج إليكم إلهكم، قال: إن هذا فعل كذا و كذا، قالوا: إن هذا ساحر سحر إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ- قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: عصا موسى اسمها ماشا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عنه فى قوله: فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ قال: الحية الذكر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ قال: الذكر من الحيات فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض و الأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذعر منها و وثب، فأحدث و لم يكن يحدث قبل ذلك، فصاح يا موسى خذها و أنا أؤمن بربك و أرسل معك بنى إسرائيل، فأخذها موسى فصارت عصا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أَرْجِهْ قال: أخّره. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: احبسه و أخاه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس من طرق فى قوله: وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ قال: الشرط. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: وَ جاءَ السَّحَرَةُ قال: كانوا سبعين رجلا، أصبحوا سحرة، و أمسوا شهداء.

و قد اختلفت كلمة السلف فى عددهم؛ فقيل: كانوا سبعين كما قال ابن عباس، و قيل: كانوا اثنى عشر، و قيل: خمسة عشر ألفا، و قيل: سبعة عشر ألفا، و قيل: تسعة عشر ألفا، و قيل: ثلاثين ألفا، و قيل:

سبعين ألفا، و قيل: ثمانين ألفا، و قيل: ثلاثمائة ألف، و قيل: تسعمائة ألف. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى عطاء. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا أَلْقَوْا قال: ألقوا حبالا غلاظا و خشبا طوالا، فأقبلت يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: ألقى موسى عصاه فأكلت كلّ حيّة لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قال: ما يكذبون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قال: تسترط «۱» حبالهم و عصيهم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قال:

التقى موسى و أمير السحرة، فقال له موسى: أ رأيتك إن غلبتك أ تؤمن بى و تشهد أن ما جئت به حق؟

فقال الساحر: لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر، فو اللّه لئن غلبتنى لأومننّ بك و لأشهدنّ أنه حق، و فرعون ينظر إليهما، و هو قول فرعون إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى قال: لما خرّ السحرة سجّدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

---

(۱). تسترط: أى تبتلع.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۶۷

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۹]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (۱۲۶) وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (۱۲۷)

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۱۲۸) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۲۹)

قوله: آمَنْتُمْ بِهِ قرئ بحذف الهمزة على الإخبار و بإثباتها. أنكر على السحرة فرعون إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك، ثم قال بعد الإنكار عليهم مبينا لما هو الحامل لهم على ذلك فى زعمه إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ أى: حيلة احتلتموها أنتم و موسى عن مواطأة بينكم سابقة لِتُخْرِجُوا من مدينة مصر أَهْلَها من القبط، و تستولوا عليها، و تسكنوا فيها أنتم و بنو إسرائيل. و معنى فِي الْمَدِينَةِ أن هذه الحيلة و المواطأة كانت بينكم و أنتم بالمدينة مدينة مصر قبل أن تبرزوا أنتم و موسى إلى هذه الصحراء، ثم هدّدهم بقوله: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة صنعكم هذا و سوء مغبّته؛ ثم لم يكتف بهذا الوعيد المجمل بل فصله فقال: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ أى: الرجل اليمنى و اليد اليسرى، أو الرجل اليسرى و اليد اليمنى، ثم لم يكتف عدوّ اللّه بهذا، بل جاوزه إلى غيره فقال: ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جذوع النخل؛ أى أجعلكم عليها مصلوبين؛ زيادة تنكيل بهم و إفراطا فى تعذيبهم، و جملة قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ استئنافية، جواب سؤال كما تقدّم، و معناه: إنك و إن فعلت بنا هذا الفعل فتعدة يوم الجزاء، سيجازيك اللّه بصنعك و يحسن إلينا بما أصابنا فى ذاته، فتوعّدوه بعذاب اللّه فى الآخرة لما توعّدهم بعذاب الدنيا. و يحتمل أن يكون المعنى: إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ بالموت: أى لا بدّ لنا من الموت و لا يضرّنا كونه بسبب منك.

قوله: وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا قرأ الحسن بفتح القاف. قال الأخفش: هى لغة، و قرأ الباقون بكسرها، يقال:

نقمت الأمر: أنكرته، أى: لست تعيب علينا و تنكر منا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا مع أن هذا هو الشرف العظيم و الخير الكامل، و مثله لا يكون موضعا للعيب و مكانا للإنكار، بل هو حقيق بالثناء الحسن و الاستحسان البالغ، ثم تركوا خطابه، و قطعوا

الكلام معه، و التفتوا إلى خطاب الجناب العليّ، مفوّضين الأمر إليه، طالبين منه عزّ و جلّ أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً الإفراغ: الصبّ؛ أى: اصببه علينا حتى يفيض و يغمرنا. طلبوا أبلغ أنواع الصبر استعدادا منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدوّ اللّه و توطينا لأنفسهم على التصلّب فى الحق و ثبوت القدم على الإيمان، ثم قالوا:

وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ أى: توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرّفين و لا مبدّلين و لا مفتونين، و لقد كان ما هم عليه من السّحر و المهارة فى علمه مع كونه شرّا محضا سببا للفوز بالسعادة، لأنهم علموا أن هذا

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٦٨

الذى جاء به موسى خارج عن طوق البشر، و أنه من فعل اللّه سبحانه، فوصلوا بالشرّ إلى الخير، و لم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان و الاعتراف و الإيمان، و إذا كانت المهارة فى علم الشرّ قد تأتى بمثل هذه الفائدة فما بالك بالمهارة فى علم الخير، اللهم انفعنا بما علمتنا، و ثبت أقدامنا على الحق، و أفرغ علينا سجال الصبر و توفنا مسلمين. قوله: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه، أى: أ تتركه و قومه ليفسدوا فى الأرض بإيقاع الفرقة و تشتيت الشمل. و المراد بالأرض هنا: أرض مصر. قوله: وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قرأ نعيم بن ميسرة «و يذرك» بالرفع على تقدير مبتدأ، أى: و هو يذرك أو على العطف على أَ تَذَرُ مُوسى

أى: أ تذره و يذرك، و قرأ الأشهب العقيلى وَ يَذَرَكَ بالجزم: إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة، أو على ما قيل فى وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ فى توجيه الجزم. و قرأ أنس بن مالك «و نذرك» بالنون و الرفع، و معناه: أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونه و آلهته. و قرأ الباقون «و يذرك» بالنصب بأن مقدّرة على أنه جواب الاستفهام و الواو نائبة عن الفاء أو عطفا على لِيُفْسِدُوا أى: ليفسدوا و ليذرك، لأنهم على الفساد فى زعمهم، و هو يؤدّى إلى ترك فرعون و آلهته.

و اختلف المفسرون فى معنى وَ آلِهَتَكَ لكون فرعون كان يدّعى الربوبية كما فى قوله: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و قوله: أَنَا رَبُّكُمْ* فقيل معنى و آلهتك: و طاعتك، و قيل معناه: و عبادتك، و يؤيده قراءة على و ابن عباس و الضحاك «و إلهتك» و فى حرف أبى «أ تذر موسى و قومه ليفسدوا فى الأرض و قد تركوك أن يعبدوك» و قيل: إنه كان يعبد بقرة، و قيل: كان يعبد النجوم، و قيل: كان له أصنام يعبدها قومه تقرّبا إليه فنسبت إليه، و لهذا قال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى قاله الزجاج، و قيل: كان يعبد الشمس.

فقال فرعون مجيبا لهم و مثبتا لقلوبهم على الكفر: سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ قرأ نافع و ابن كثير «سنقتل» بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد، أى: سنقتل الأبناء و نستحيى النساء، أى: نتركهنّ فى الحياة، و لم يقل سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ أى: مستعلون عليهم بالقهر و الغلبة، أو هم تحت قهرنا و بين أيدينا، ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه، و جملة قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ مستأنفة، جواب سؤال مقدّر. بما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة باللّه و الصبر على المحنة، ثم أخبرهم إِنَّ الْأَرْضَ يعنى أرض مصر لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أو جنس الأرض، و هو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون و قومه، و أن اللّه سيورثهم أرضهم و ديارهم. ثم بشرهم بأن العاقبة للمتقين، أى:

العاقبة المحمودة فى الدنيا و الآخرة للمتقين من عباده، و هم موسى و من معه. و عاقبة كل شيء آخره. و قرئ «و العاقبة» بالنصب عطفا على الأرض، و جملة قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا مستأنفة: جواب سؤال مقدّر كالتى قبلها؛ أى أوذينا من قبل أن تأتينا رسولا و ذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا رسولا بقتل أبنائنا الآن؛ و قيل المعنى: أوذينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا فى الأعمال الشاقة بغير جعل وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا بما صرنا

فتح القدير، ج‏2، ص: 269

فيه الآن من الخوف على أنفسنا و أولادنا و أهلنا؛ و قيل: إن الأذى من قبل و من بعد واحد، و هو قبض الجزية منهم، و جملة قالَ عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ مستأنفة كالتي قبلها، وعدهم بإهلاك اللّه لعدوّهم، و هو فرعون و قومه. قوله: وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ هو تصريح بما رمز إليه سابقا من أن الأرض للّه.

و قد حقّق اللّه رجاءه، و ملكوا مصر في زمان داود و سليمان، و فتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، و أهلك فرعون و قومه بالغرق و أنجاهم فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ من الأعمال بعد أن يمنّ عليكم بإهلاك عدوّكم وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فيجازيكم بما عملتم فيه من خير و شرّ.

و قد أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن السدي في قوله: إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ إذ التقيتما لتظاهرا، فتخرجا منها أهلها لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ الآية، قال: فقتلهم و قطعهم كما قال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان أوّل من صلب فرعون، و هو أوّل من قطع الأيدي و الأرجل من خلاف. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: مِنْ خِلافٍ قال: يدا من هاهنا و رجلا من هاهنا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قال: من قبل إرسال اللّه إياك و من بعده. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن وهب بن منبه في الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلّفنا اللبن قبل أن تأتينا، فلما جئت كلّفنا اللّبن مع التبن أيضا، فقال موسى: أي ربّ! أهلك فرعون، حتى متى تبقيه؟

فأوحى اللّه إليه أنهم لم يعملوا الذنب الذي أهلكهم به. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال:

حزا «1» لعدوّ اللّه حاز أنه يولد في العام غلام يسلب ملكك، قال: فتتبع أولادهم في ذلك العام بذبح الذكر منهم، ثم ذبحهم أيضا بعد ما جاءهم موسى. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن بناء- أهل البيت- يفتح و يختم، و لا بدّ أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن تكونوا من بني هاشم؟ و فيهم نزلت عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ و ينبغي أن ينظر في صحة هذا عن ابن عباس، فالآية نازلة في بني إسرائيل لا في بني هاشم واقعة في هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى و فرعون.

[سورة الأعراف (7): الآيات 130 الى 136]

وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131) وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133) وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134)

فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى‏ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (136)

---

(1). قال في القاموس: حزا: تكهن.

فتح القدير، ج‏2، ص: 270

المراد بآل فرعون هنا: قومه، و المراد بالسنين: الجدب، و هذا معروف عند أهل اللغة، يقولون أصابتهم سنة: أى جدب سنة، و فى الحديث «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف». و أكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المذكر السالم، و من العرب من يعربه إعراب المفرد و يجرى الحركات على النون، و أنشد الفراء:

أرى مرّ السّنين أخذن منّى كما أخذ السّرار من الهلال

بكسر النون من السنين. قال النحاس: و أنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون.

أقول: قد ورد ما لا احتمال فيه و هو قول الشاعر:

و ماذا تزدرى الأقوام منّى و قد جاوزت حدّ الأربعين

و بعده:

أخو خمسين مجتمع أشدّى و نجّدنى مداورة الشّؤون

فإن الأبيات قبله و بعده مكسورة. و أوّل هذه الأبيات:

أنا ابن جلا و طلّاع الثّنايا متى أضع العمامة تعرفونى

و حكى الفرّاء عن بنى عامر أنهم يقولون: أقمت عنده سنينا، مصروفا، قال: و بنو تميم لا يصرفونه، و يقال أسنت القوم: أى أجدبوا، و منه قول ابن الزبعرى:

.....

و رجال مكّة مسنتون عجاف «١» وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ بسبب عدم نزول المطر و كثرة العاهات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيتعظون و يرجعون عن غوايتهم. قوله فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ أى: الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر و صلاح الثمرات و رخاء الأسعار قالُوا لَنا هذِهِ أى: أعطيناها باستحقاق، و هى مختصة بنا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أى: خصلة سيئة من الجدب و القحط و كثرة الأمراض و نحوها من البلاء يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أى: يتشاءموا بموسى و من معه من المؤمنين به، و الأصل يتطيروا أدغمت التاء فى الطاء. و قرأ طلحة تطيروا على أنه فعل ماض، و قد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور و الحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك فى كل من تشاءم بشىء، و مثل هذا قوله تعالى وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ «٢» قيل:

---

(١). و صدره: عمرو العلا هشم الثّريد لقومه.

(٢). النساء: ٧٨.

و وجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع، و وجه تنكير السيئة ندرة وقوعها. قوله أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أى: سبب خيرهم و شرهم بجميع ما ينالهم من خصب و قحط من عند اللّه ليس بسبب موسى و من معه، و كان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه و بما يفهمونه، و لهذا عبر بالطائر عن الخير و الشر الذى يجرى بقدر اللّه و حكمته و مشيئته وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ بهذا بل ينسبون الخير و الشر إلى غير اللّه جهلا منهم. و قرأ الحسن طيرهم قوله وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ قال الخليل: أصل مهما «ما» الشرطية زيدت عليه «ما» التى للتوكيد، كما تزاد فى سائر الحروف مثل:

حيثما و أينما و كيفما و متى ما، و لكنهم كرهوا اجتماع المثلين فأبدلوا ألف الأولى هاء. و قال الكسائى: أصله مه؛ أى: اكفف ما تأتينا به من آية، و زيدت عليها «ما» الشرطية؛ و قيل: هى كلمة مفردة يجازى بها، و محل مهما الرفع على الابتداء، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها، و من آية: لبيان مهما، و سموها آية استهزاء بموسى كما يفيده ما بعده، و هو لِتَسْحَرَنا بِها أى: لتصرفنا عما

نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم، و الضمير فى به عائد إلى مهما، و الضمير فى بها عائد إلى آية؛ و قيل: إنهما جميعا عائدان إلى مهما، و تذكير الأوّل باعتبار اللفظ، و تأنيث الثانى باعتبار المعنى فَما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ جواب الشرط، أى: فما نحن لك بمصدّقين، أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشىء مما يجىء به من الآيات التى هى زعمهم من السحر، فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من اللّه عزّ و جلّ المبينة بقوله فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ و هو المطر الشديد.

قال الأخفش: واحده طوفانة، و قيل: هو مصدر، كالرجحان و النقصان فلا واحد له، و قيل: الطوفان:

الموت. و قال النّحاس: الطوفان فى اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل، أى: ما يطيف بهم فيهلكهم وَ الْجَرادَ هو الحيوان المعروف أرسله اللّه لأكل زروعهم فأكلها وَ الْقُمَّلَ قيل: هى الدباء؛ و الدباء: الجراد قبل أن تطير، و قيل: هى السوس، و قيل: البراغيث، و قيل: دواب سود صغار، و قيل:

ضرب من القردان، و قيل: الجعلان. قال النحاس: يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. و قرأ الحسن القمل بفتح القاف و إسكان الميم. و قرأ الباقون بضم القاف و فتح الميم مشددة. و قد فسّر عطاء الخراسانى «القمل» بالقمل، وَ الضَّفادِعَ جمع ضفدع و هو الحيوان المعروف الذى يكون فى الماء وَ الدَّمَ روى أنه سأل النيل عليهم دما، و قيل: هو الرعاف. قوله آياتٍ مُفَصَّلاتٍ أى: مبينات، قال الزّجّاج: هو منصوب على الحال. و المعنى: أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات فَاسْتَكْبَرُوا أى: ترفعوا عن الإيمان باللّه وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ لا يهتدون إلى حق و لا ينزعون عن باطل، قوله وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ أى: العذاب بهذه الأمور التى أرسلها اللّه عليهم، و قرئ بضم الراء و هما لغتان، و قيل: كان هذا الرجز طاعونا مات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ أى: بما استودعك من العلم، أو بما اختصّك به من النبوّة؛ أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك، و الباء متعلقة بادع، على معنى: أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء، بحق ما عندك من عهد اللّه، أو ادع لنا متوسلا إليه بعهده عندك، و قيل: إن الباء للقسم، و جوابه لنؤمنن؛ أى: أقسمنا بعهد

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۷۲

اللّه عندك لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ على أن جواب الشرط سدّ جواب القسم، و على أن الباء ليست للقسم تكون اللام فى لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ جواب قسم محذوف، و لَنُؤْمِنَنَ جواب الشرط، سادّ مسدّ جواب القسم وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِی إِسْرائِيلَ معطوف على لنؤمنن، و قد كانوا حابسين لبنى إسرائيل عندهم يمتهنونهم فى الأعمال فوعدوه بإرسالهم معه فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ أى: رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا إلى موسى و سألوه ما سألوه، لكن لا رفعا مطلقا، بل رفعا مقيدا بغاية هى الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق، و جواب لما إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ أى: ينقضون ما عقدوه على أنفسهم، و إذا: هى الفجائية، أى: فاجؤوا النكث و بادروه فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ أى: أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدّم لهم من الذنوب المتعددة فَأَغْرَقْناهُمْ فِی الْيَمِ أى: فى البحر، قيل:

هو الذى لا يدرك قعره، و قيل: هو لجته و أوسطه، و جملة بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا تعليل للإغراق وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ معطوف على كذبوا، أى: كانوا غافلين عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا، أو عن الآيات التى لم يؤمنوا بها بل كذبوا بها و كانوا فى تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها، و الثانى أولى لأن الجملتين تعليل للإغراق.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ قال: السّنين الجوع. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: السّنين: الجوائح، وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ دون ذلك. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما أخذ اللّه آل فرعون بالسنين يبس كلّ شىء لهم، و ذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر، و اجتمعوا إلى فرعون، فقالوا:

إن كنت كما تزعم فائتنا فى نيل مصر بماء، قال: غدوة يصبحكم الماء فلما خرجوا من عنده قال: أى شىء صنعت إن لم أقدر على أن أجرى فى نيل مصر ماء غدوة كذبونى؟ فلما كان جوف الليل قام فاغتسل و لبس مدرعة صوف ثم خرج حافيا حتى أتى نيل مصر، فقال: اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء، فما علم إلا بجزر الماء يقبل، فخرج و أقبل النيل يزخ بالماء لما أراد اللّه بهم من الهلكة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قال: العافية و الرخاء قالُوا لَنا هذِهِ نحن أحقّ بها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ قال: بلاء و عقوبة يَطَّيَّرُوا بِمُوسى قال: يتشاءموا به. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قال: الأمر من قبل اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عائشة قالت:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الطوفان الموت» قال ابن كثير: هو حديث غريب. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الطوفان الغرق. و أخرج هؤلاء عن مجاهد قال: الطوفان الموت على كل حال.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الطوفان: مطروا دائما بالليل و النهار ثمانية أيام، و القمل: الجراد الذى له أجنحة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: الطوفان أمر من أمر ربك، ثم قرأ فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ «١». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن

---

(١). القلم: ١٩.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٧٣

أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: الطُّوفانَ الماء و الطاعون «١» وَ الْجَرادَ. قال: يأكل مسامير رتجهم؛ يعنى أبوابهم، و ثيابهم، وَ الْقُمَّلَ الدباء وَ الضَّفادِعَ تسقط على فرشهم و فى أطعمتهم، وَ الدَّمَ يكون فى ثيابهم و مائهم و طعامهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: القمل: الدباء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كانت الضفادع برّية، فلما أرسلها اللّه على آل فرعون سمعت و أطاعت فجعلت تقذف نفسها فى القدر و هى تغلى، و فى التنانير و هى تفور. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: سال النيل دما فكان الإسرائيلى يستقى ماء طيبا، و يستقى الفرعونى دما، و يشتركان فى إناء واحد؛ فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء طيبا و ما يلى الفرعونى دما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله وَ الدَّمَ قال: سلط اللّه عليهم الرعاف. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: مكث موسى فى آل فرعون بعد ما غلب السّحرة أربعين سنة يريهم الآيات و الجراد و القمل و الضفادع. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله آياتٍ مُفَصَّلاتٍ قال: كانت آيات مفصّلات يتبع بعضها بعضا ليكون للّه الحجّة عليهم. و أخرج ابن المنذر عنه قال: يتبع بعضها بعضا تمكث فيهم سبتا إلى سبت ثم ترفع عنهم شهرا. و أخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الرّجز: العذاب». و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: الرّجز: الطاعون. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ قال: الغرق. و أخرج ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: اليمّ البحر. و أخرج أيضا عن السدّى مثله.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٧ الى ١٤١]

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ

عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

قوله وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ يعنى: بنى إسرائيل الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ أى يذلّون و يمتهنون بالخدمة لفرعون و قومه مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا منصوبان بأورثنا. و قال الكسائى و الفراء: إن الأصل: فى مشارق الأرض و مغاربها، ثم حذفت فى فنصبا، و الأوّل أظهر لأنه يقال أورثته المال، و الأرض: هى

---

(١). قال فى القاموس: الطاعون: الوباء.

مصر و الشام، و مشارقها: جهات مشرقها. و مغاربها: جهات مغربها، و هى التى كانت لفرعون و قومه من القبط؛ و قيل: المراد جميع الأرض لأن داود و سليمان من بنى إسرائيل، و قد ملكا الأرض. قوله الَّتِي بارَكْنا فِيها صفة للمشارق و المغارب؛ و قيل: صفة الأرض، و المباركة فيها: إخراج الزرع و الثمار منها على أتمّ ما يكون و أنفع ما ينفع، قوله تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى أى: مضت و استمرت على التمام، و الكلمة هى وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ «١»، و هذا وعد من اللّه سبحانه بالنّصر و الظفر بالأعداء و الاستيلاء على أملاكهم، و الحسنى: صفة للكلمة، و هى تأنيث الأحسن، و تمام هذه الكلمة عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون و قومه. قوله وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ التدمير: الإهلاك، أى: أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ قرأ ابن عامر و أبو بكر عن عاصم يَعْرِشُونَ بضم الراء. قال الكسائى: هى لغة تميم. و قرأ إبراهيم بن أبى عبلة يَعْرِشُونَ بتشديد الراء و ضم حرف المضارعة. و قرأ الباقون بكسر الراء مخففة أى: ما كانوا يعرشونه من الجنات، و منه قوله تعالى وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ «٢» و قيل معنى يعرشون: يبنون، يقال: عرش يعرش، أى: بنى يبنى. قوله وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ هذا شروع فى بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون و قومه.

و معنى جاوزنا ببنى إسرائيل البحر: جزناه بهم و قطعناه. و قرئ جوزنا بالتشديد، و هو بمعنى قراءة الجمهور فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قرأ حمزة و الكسائى «يعكفون» بكسر الكاف، و قرأ الباقون بضمها، يقال عكف يعكف، و يعكف بمعنى: أقام على الشي‌ء و لزمه، و المصدر منهما عكوف؛ قيل هؤلاء القوم الذين أتاهم بنو إسرائيل هم من لخم كانوا نازلين بالرقة، كانت أصنامهم تماثيل بقر؛ و قيل كانوا من الكنعانيين قالُوا أى: بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً أى:

صنما كائنا كالذى لهؤلاء القوم، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة لإلها، فأجاب عليهم موسى، و قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ وصفهم بالجهل لأنهم قد شاهدوا من آيات اللّه ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير اللّه، و لكن هؤلاء القوم، أعنى: بنى إسرائيل أشد خلق اللّه عنادا و جهلا و تلوّنا. و قد سلف فى سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك، ثم قال لهم موسى: إِنَّ هؤُلاءِ يعنى القوم العاكفين على الأصنام مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ التبار: الهلاك، و كل إناء منكسر فهو متبر، أى: أن هؤلاء هالك ما هم فيه مدمّر مكسر، و الذى هم فيه: هو عبادة الأصنام، أخبرهم بأن هذا الدين الذى هؤلاء القوم عليه هالك مدمّر لا يتمّ منه شي‌ء. قوله وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام. قال فى الكشاف: و فى إيقاع هؤلاء اسما لإن و تقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها، و سم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار، و أنه لا

يعدوهم ألبتة، و أنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ما طلبوا و يبغض إليهم ما أحبوا. قوله أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً الاستفهام للإنكار و التوبيخ، أى: كيف أطلب لكم غير اللّه إلها تعبدونه و قد شاهدتم من آياته العظام ما يكفى البعض منه؟ و المعنى: أن هذا الذى طلبتم لا يكون

---

(۱). القصص: ۵.

(۲). الأنعام: ۱۴۱.

أبدا، و إدخال الهمزة على غير للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلها، و غير مفعول للفعل الذى بعده، و إلها تمييز أو حال، و جملة وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم، بما أنعم به عليكم، من إهلاك عدوكم، و استخلافكم فى الأرض، و إخراجكم من الذلّ و الهوان إلى العزّ و الرفعة، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره؟ قوله وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أى: و اذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون بعد أن كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيما يريدونه منكم و يمتهنونكم بأنواع الامتهانات، هذا على أن هذا الكلام محكىّ عن موسى، و أما إذا كان فى حكم الخطاب لليهود الموجودين فى عصر محمد، فهو بمعنى اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون، و جملة يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ فى محل نصب على الحال، أى: أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ و يجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه، و جملة يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ مفسرة للجملة التى قبلها، أو بدل منها. و قد سبق بيان ذلك، و الإشارة بقوله وَ فِي ذلِكُمْ إلى العذاب، أى: فى هذا العذاب الذى كنتم فيه بَلاءٌ عليكم مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ و قيل: الإشارة إلى الإنجاء، و البلاء: النعمة. و الأوّل أولى.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها قال: الشام. و أخرج هؤلاء عن قتادة مثله. و أخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن عبد اللّه بن شوذب قال: هى فلسطين، و قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى قال:

ظهور قوم موسى على فرعون و تمكين اللّه لهم فى الأرض و ما ورثهم منها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ قال: يبنون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى عمران الجونى مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامرى شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أوّل شأن العجل ليكون للّه عليهم الحجة فينتقم منهم بعد ذلك. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و صححه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل حنين فمررنا بسدرة، فقلت: يا رسول اللّه! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، و كان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة و يعكفون حولها، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللّه أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الّذين من قبلكم». و أخرج نحوه ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طريق كثير بن عبد اللّه بن عوف عن أبيه عن جدّه مرفوعا، و كثير: ضعيف جدّا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله مُتَبَّرٌ قال: خسران. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال: هلاك.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۷۶

[سورة الأعراف (۷): آية ۱۴۲]

وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (۱۴۲)

هذا من جملة ما كرم اللّه به موسى عليه السلام و شرفه. و الثلاثين: هى ذو القعدة و العشر هى عشر ذى الحجة، ضرب اللّه هذه المدة موعدا لمناجاة موسى و مكالمته، قيل: و كان التكليم فى يوم النحر، و الفائدة فى فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً مع العلم بأن الثلاثين و العشر أربعون لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها، فبين أن العشر غير الثلاثين، و أربعون ليلة منصوب على الحال، أي: فتم حال كونه بالغا أربعين ليلة.

قوله وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي أى: كن خليفتى فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضى إلى المناجاة وَ أَصْلِحْ أمر بنى إسرائيل بحسن سياستهم و الرفق بهم و تفقد أحوالهم وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ أى: لا تسلك سبيل العاصين و لا تكن عونا للظالمين.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله وَ واعَدْنا مُوسى الآية قال: ذو القعدة، و عشر من ذى الحجة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن مجاهد مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: إن موسى قال لقومه: إنّ ربّى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه و أخلف هارون فيكم، فلما فصل موسى إلى ربّه زاده اللّه عشرا، فكانت فتنتهم فى العشر الذى زاده اللّه، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامرى قد أبصر جبريل، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب، ثم ذكر قصة السامرىّ.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۳ الى ۱۴۷]

وَ لَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (۱۴۳) قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (۱۴۵) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (۱۴۶) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۷)

اللام فى لِمِيقاتِنا للاختصاص؛ أي: كان مجيئه مختصا بالميقات المذكور بمعنى أنه جاء فى الوقت الموعود وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ أي: أسمعه كلامه من غير واسطة. قوله أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ أى: أرنى نفسك أنظر إليك؛ أى سأله النظر إليه اشتياقا إلى رؤيته لما أسمعه كلامه. و سؤال موسى للرؤية يدلّ على أنها جائزة

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۷۷

عنده فى الجملة، و لو كانت مستحيلة عنده لما سألها، و الجواب بقوله لَنْ تَرانِي يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذى طلب رؤيته فيه،

أو أنه لا يرى ما دام الرّائى حيا فى دار الدنيا، و أما رؤيته فى الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، و الجدال فى مثل هذا و المراوغة لا تأتى بفائدة، و منهج الحقّ واضح، و لكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه و أدرك عليه آباءه و أهل بلده، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع فى التعصب، و المتعصّب و إن كان بصره صحيحا فبصيرته عمياء، و أذنه عن سماع الحق صمّاء، يدفع الحقّ و هو يظنّ أنه ما دفع غير الباطل، و يحسب أن ما نشأ عليه هو الحقّ؛ غفلة منه و جهلا بما أوجبه اللّه عليه من النظر الصحيح، و تلقى ما جاء به الكتاب و السنة بالإذعان و التسليم، و ما أقلّ المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب فى الأصول و الفروع، فإنه صار بها باب الحقّ مرتجا، و طريق الإنصاف مستوعرة، و الأمر للّه سبحانه، و الهداية منه:

يأبى الفتى إلا اتّباع الهوىو منهج الحقّ له واضح

جملة قالَ لَنْ تَرانِي مستأنفة، لكونها جوابا لسؤال مقدّر، كأنه قيل: فما قال اللّه له؟ و الاستدراك بقوله وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي معناه أنك لا تثبت لرؤيتى و لا يثبت لها ما هو أعظم منك جرما و صلابة و قوّة، و هو الجبل فانظر إليه فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ و لم يتزلزل عند رؤيتى له فَسَوْفَ تَرانِي و إن ضعف عن ذلك فأنت منه أضعف، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل؛ و قيل: هو من باب التعليق بالمحال، و على تسليم هذا فهو فى الرؤية فى الدنيا لما قدّمنا.

و قد تمسك بهذه الآية كلا طائفتى المعتزلة و الأشعرية؛ فالمعتزلة استدلوا بقوله لَنْ تَرانِي و بأمره بأن ينظر إلى الجبل، و الأشعرية قالوا: إنّ تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدلّ على أنها جائزة غير ممتنعة، و لا يخفاك أن الرؤية الأخروية هى بمعزل عن هذا كله، و الخلاف بينهم هو فيها، لا فى الرؤية فى الدنيا فقد كان الخلاف فيها فى زمن الصحابة و كلامهم فيها معروف. قوله فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا تجلى معناه:

ظهر، من قولك جلوت العروس: أى أبرزتها. و جلوت السيف: أخلصته من الصدأ، و تجلى الشىء:

انكشف. و المعنى: فلما ظهر ربه للجبل جعله دكا، و قيل المتجلى: هو أمره و قدرته، قاله قطرب و غيره، و الدك: مصدر بمعنى المفعول، أى: جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا. هذا على قراءة من قرأ دكا بالمصدر، و هم أهل المدينة و أهل البصرة، و أما على قراءة أهل الكوفة جَعَلَهُ دَكَّاءَ على التأنيث، و الجمع دكاوات كحمراء و حمراوات، و هى اسم للرابية الناشزة من الأرض أو للأرض المستوية، فالمعنى: أن الجبل صار صغيرا كالرابية أو أرضا مستوية. قال الكسائى: الدك: الجبال العراض، واحدها أدك. و الدكاوات جمع دكاء، و هى رواب من طين ليست بالغلاظ، والد كادك: ما التبد من الأرض فلم يرتفع، و ناقة دكاء: لا سنام لها وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً أى: مغشيا عليه مأخوذا من الصاعقة، و المعنى: أنه صار حاله لما غشى عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له. يقال صعق الرجل فهو صعق و مصعوق: إذا أصابته الصاعقة فَلَمَّا أَفاقَ من غشيته قالَ سُبْحانَكَ أى: أنزهك تنزيها من أن أسأل شيئا لم تأذن لى به تُبْتُ إِلَيْكَ

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۷۸

عن العود إلى مثل هذا السؤال. قال القرطبى: و أجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فإن الأنبياء معصومون؛ و قيل: هى توبة من قتله للقبطى، ذكره القشيرى، و لا وجه له فى مثل هذا المقام وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بك قبل قومى الموجودين فى هذا العصر المعترفين بعظمتك و جلالك، و جملة قالَ يا مُوسى مستأنفة كالتى قبلها، متضمنة لإكرام موسى و اختصاصه بما اختصه اللّه به. و الاصطفاء: الاجتباء و الاختيار، أى: اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتى كذا قرأ نافع و ابن كثير بالإفراد، و قرأ الباقون بالجمع. و الرسالة مصدر، و الأصل فيه الإفراد، و من جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هى على ضروب، فجمع لاختلاف الأنواع، و المراد بالكلام هنا: التكليم. امتنّ اللّه سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، و هما:

الرسالة و التكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه، أي: أعطاه من هذا الشرف الكريم، و أمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم و الإكرام الجليل. قوله وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ من كل شيء: أي من كلّ ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى دينهم و دنياهم، و هذه الألواح: هى التوراة، قيل: كانت من زمردة خضراء؛ و قيل: من ياقوتة حمراء، و قيل:

من زبرجد، و قيل: من صخرة صماء. و قد اختلف فى عدد الألواح و فى مقدار طولها و عرضها، و الألواح:

جمع لوح، و سمى لوحا لكونه تلوح فيه المعانى، و أسند اللّه سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفا للمكتوب فى الألواح، و هى مكتوبة بأمره سبحانه؛ و قيل: هى كتابة خلقها اللّه فى الألواح، و مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فى محل نصب على أنه مفعول كَتَبْنا و مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا بدل من محل كل شيء، أي: موعظة لمن يتعظ بها من بنى إسرائيل و غيرهم و تفصيلا للأحكام المحتاجة إلى التفصيل فَخُذْها بِقُوَّةٍ أي: خذ الألواح بقوّة، أي: بجدّ و نشاط، و قيل: الضمير عائد إلى الرسالات، أو إلى كل شيء، أو إلى التوراة، قيل: و هذا الأمر على إضمار القول، أي: فقلنا له: خذها، و قيل: إن فَخُذْها بدل من قوله فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها أي: بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره، و هو مثل قوله تعالى اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ «١»، و قوله فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ و من الأحسن الصبر على الغير، و العفو عنه، و العمل بالعزيمة دون الرخصة، و بالفريضة دون النافلة، و فعل المأمور به، و ترك المنهيّ عنه. قوله سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ قيل: هى أرض مصر التى كانت لفرعون و قومه، و قيل: منازل عاد و ثمود، و قيل: هى جهنم، و قيل: منازل الكفار من الجبارة و العمالقة ليعتبروا بها، و قيل الدار: الهلاك. و المعنى:

سأريكم هلاك الفاسقين. و قد تقدّم تحقيق معنى الفسق. قوله سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ قيل: معنى سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ سأمنعهم فهم كتابى، و قيل سأصرفهم عن الإيمان بها، و قيل سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما فى قوله فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ «٢»، و قيل: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكّروا فيها و لا يعتبروا بها. و اختلف فى تفسير الآيات، فقيل: هى المعجزات، و قيل: الكتب المنزلة، و قيل: هى خلق السموات و الأرض، و صرفهم عنها: أن لا يعتبروا بها، و لا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك، و حمل الصرف على

---

(١). الزمر: ٥٥.

(٢). الصف: ٥.

جميع المعانى المذكورة و بِغَيْرِ الْحَقِ إما متعلق بقوله يَتَكَبَّرُونَ أي: يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالا، أي: يتكبرون متلبسين بغير الحق. قوله وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها معطوف على يَتَكَبَّرُونَ منتظم معه فى حكم الصلة. و المعنى سأصرف عن آياتى المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، و يدخل تحت كل آية الآيات المنزلة، و الآيات التكوينية، و المعجزات، أي: لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت. و قرأ مالك بن دينار يروا بضم الياء فى الموضعين، و جملة وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا معطوفة على ما قبلها داخلة فى حكمها، و كذلك جملة وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا و المعنى: أنهم إذا وجدوا سبيلا من سبل الرشد تركوه و تجنبوه، و إن رأوا سبيلا من سبل الغيّ سلكوه و اختاروه لأنفسهم. قرأ أهل المدينة و أهل البصرة الرُّشْدِ بضم الراء و إسكان الشين. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما بفتح الراء و الشين. قال أبو عبيدة: فرق أبو عمرو بين الرشد و الرشد، فقال: الرشد الصلاح، و الرشد فى الدين. قال النحاس: سيبويه يذهب إلى أن الرشد كالسخط و السخط.

قال الكسائى: و الصحيح عن أبى عمرو و غيره ما قال أبو عبيدة. و أصل الرشد فى اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، و هو ضدّ الخيبة، و الإشارة بقوله ذلِكَ إلى الصرف، أى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو الإشارة إلى التكبر و عدم الإيمان بالآيات، و تجنب سبيل الرشد، و سلوك سبيل الغىّ، و اسم الإشارة مبتدأ، و خبره جملة بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ أى: بسبب تكذيبهم بالآيات و غفلتهم عنها، و الموصول فى وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ مبتدأ. و خبره حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ و المراد بلقاء الآخرة: لقاء الدار الآخرة، أى: لقائهم لها أو لقائهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف، و حباط الأعمال، بطلانها، أى: بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة كالصدقة و الصلة و إن كانوا فى حال كفرهم لا طاعات لهم، و يحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوّة النفع على تقدير إسلامهم لما فى الحديث الصحيح «أسلمت على ما أسلفت من خير». هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الكفر باللّه، و التّكذيب بآياته، و تنكب سبيل الحقّ، و سلوك سبيل الغىّ.

و قد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن كعب قال: لما كلّم اللّه موسى قال: يا ربّ! أ هكذا كلامك؟ قال: يا موسى إنما أكلمك بقوّة عشرة آلاف لسان و لى قوة الألسن كلها، و لو كلمتك بكنه كلامى لم تك شيئا. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، من حديث جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «لما كلّم اللّه موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذى كلمه به يوم ناداه فقال له موسى: يا ربّ! أ هذا كلامك الذى كلمتنى به؟ قال: يا موسى! إنما كلمتك بقوّة عشرة آلاف لسان و لى قوّة الألسن كلها و أقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا: يا موسى! صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، أ لم تروا إلى أصوات الصّواعق التى تقتل، فى أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه و ليس به». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن أبى الحويرث عبد الرحمن

ابن معاوية قال: إنّما كلّم اللّه موسى بقدر ما يطيق من كلامه، و لو تكلّم بكلامه كله لم يطقه شى‏ء، فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور ربّ العالمين. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ يقول: أعطنى أنظر إليك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: لما سمع الكلام طمع فى الرؤية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال موسى لربه تبارك و تعالى: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قال اللّه: يا موسى! إنك لن ترانى، قال يقول: ليس ترانى و لا يكون ذلك أبدا، يا موسى! إنه لن يرانى أحد فيحيا، قال موسى ربّ إنى أراك ثم أموت أحبّ إلىّ من أن لا أراك ثم أحيا، فقال اللّه لموسى: يا موسى! انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ يقول: فإن ثبت مكانه لم يتضعضع و لم ينهد لبعض ما يرى من عظمتى فَسَوْفَ تَرانِي أنت لضعفك و ذلتك، و إن الجبل انهدّ بقوته و شدته و عظمته فأنت أضعف و أذلّ. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن عدى فى الكامل، و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى كتاب الرؤية، من طرق عن أنس بن مالك: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا قال هكذا، و أشار بإصبعيه و وضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر، و فى لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً و فى لفظ فساخ الجبل فى الأرض فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، و هذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الجبل الذى أمره اللّه أن ينظر إليه الطور. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى كتاب الرؤية عن ابن عباس فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ قال: ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر جَعَلَهُ دَكًّا قال: ترابا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً قال: مغشيّا عليه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية و الديلمى عن أنس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لما تجلّى اللّه للجبل طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة و ثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد و ورقان و رضوى، و بمكة: حراء و ثبير و ثور». و

أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لما تجلّى اللّه لموسى تطايرت سبعة أجبل، ففى الحجاز خمسة منها، و فى اليمن اثنان، فى الحجاز: أحد و ثبير و حراء و ثور و ورقان، و فى اليمن: حضور و صبر». و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس أن موسى لما كلّمه ربه أحبّ أن ينظر إليه فسأله فقال لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ قال: فحفّ حول الجبل الملائكة، و حفّ حول الملائكة بنار؛ و حف حول النار بملائكة؛ و حفّ حولهم بنار، ثم تجلّى ربّه للجبل تجلّى منه مثل الخنصر، فجعل دكا و خرّ موسى صعقا، فلم يزل صعقا ما شاء اللّه، ثم أفاق فقال: سبحانك تبت إليك و أنا أوّل المؤمنين من بنى إسرائيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: كتب اللّه الألواح لموسى و هو يسمع صريف الأقلام فى لوح. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الألواح التى أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة، كان طول اللوح اثنى عشر ذراعا». و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا يقولون: كانت الألواح

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۸۱

من ياقوتة. و أنا أقول: إنما كانت من زمرّد و كتابها الذهب، كتبها اللّه بيده، فسمع أهل السموات صريف الأقلام.

أقول: رحم اللّه سعيدا ما كان أغناه عن هذا الذى قاله من جهة نفسه، فمثله لا يقال بالرأى و لا بالحدس، و الذى يغلب به الظنّ أن كثيرا من السلف- رحمهم اللّه- كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور، فلهذا اختلفت و اضطربت، فهذا يقول من خشب، و هذا يقول من ياقوت، و هذا يقول من زمرّد، و هذا يقول من زبرجد، و هذا يقول من برد، و هذا يقول من حجر. و أخرج أبو الشيخ عن السدى وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كل شىء أمروا به و نهوا عنه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و قد اختلف السلف فى المكتوب فى الألواح اختلافا كثيرا، و لا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافى. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فَخُذْها بِقُوَّةٍ قال بجدّ و حزم سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ قال: دار الكفار. و أخرج ابن جرير عنه وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها قال: أمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فَخُذْها بِقُوَّةٍ قال: بطاعة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله فَخُذْها بِقُوَّةٍ يعنى: بجدّ و اجتهاد وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها قال: بأحسن ما يجدون منها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ قال: مصيرهم فى الآخرة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: منازلهم فى الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن قال: جهنم. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: مصر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ قال: عن أن يتفكّروا فى آياتى. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج عَنْ آياتِيَ قال: عن خلق السّموات و الأرض و الآيات التى فيها، سأصرفهم عن أن يتفكّروا فيها أو يعتبروا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سفيان بن عيينة فى الآية قال: أنزع عنهم فهم القرآن.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۸ الى ۱۵۱]

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (۱۴۸) وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۱۴۹) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۱۵۰) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۱۵۱)

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٨٢

قوله وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى‏ مِنْ بَعْدِهِ أى: من بعد خروجه إلى الطور مِنْ حُلِيِّهِمْ متعلّق ب:

اتّخذ أو بمحذوف وقع حالا، و من للتبعيض، أو للابتداء، أو للبيان، و الحلى: جمع حلى، و قرأ أهل المدينة و أهل البصرة مِنْ حُلِيِّهِمْ بضم الحاء و تشديد الياء. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر الحاء. و قرأ يعقوب بفتح الحاء و تخفيف الياء، قال النحاس: جمع حلى و حلى و حلى مثل ثدى و ثدى و ثدى، و الأصل حلوى أدغمت الواو فى الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء و تكسر الحاء لكسرة اللام و ضمها على الأصل، و أضيفت الحلى إليهم و إن كانت لغيرهم لأن الإضافة تجوز لأدنى ملابسة، و عِجْلًا مفعول اتخذ، و قيل: هو بمعنى التصيير فيتعدى إلى مفعولين ثانيهما محذوف، أى: اتخذوا عجلا إلها، و جَسَداً بدل من عجلا، و قيل:

وصف له، و الخوار: الصياح؛ يقال: خار يخور خوارا إذا صاح، و كذلك جأر يجأر جؤارا. و نسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعا مع أنه اتخذه السامرىّ وحده لكونه واحدا منهم، و هم راضون بفعله. روى أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فأبطأ عليهم فى العشر المزيدة، قال السامرى لبنى إسرائيل، و كان مطاعا فيهم:

إنّ معكم حليا من حلى آل فرعون الذى استعرتموه منهم لتتزينوا به فى العيد و خرجتم و هو معكم، و قد أغرق اللّه أهله من القبط فهاتوها، فدفعوها إليه فاتخذ منها العجل المذكور. قوله أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: ألم يعتبروا بأن هذا الذى اتّخذوه إلها لا يقدر على تكليمهم، فضلا عن أن يقدر على جلب نفع لهم، أو دفع ضرّ عنهم وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أى: طريقا واضحة يسلكونها اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ أى: اتخذوه إلها وَ كانُوا ظالِمِينَ لأنفسهم فى اتخاذه أو فى كل شى‏ء، و من جملة ذلك: هذا الاتخاذ. قوله وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ أى: ندموا و تحيّروا بعد عود موسى من الميقات؛ يقال للنادم المتحيّر: قد سقط فى يده. قال الأخفش: يقال سقط فى يده و أسقط، و من قال: سقط فى أيديهم على البناء للفاعل، فالمعنى عنده: سقط الندم، و أصله أن من شأن من اشتدّ ندمه و حسرته أن يعضّ يده غما فتصير يده مسقوطا فيها، لأن فاه قد وقع فيها. و قال الأزهرى و الزجاج و النحاس و غيرهم: معنى سقط فى أيديهم: أى فى قلوبهم و أنفسهم، كما يقال: حصل فى يده مكروه، و إن كان محالا أن يكون فى اليد، تشبيها لما يحصل فى القلب و النفس بما يحصل فى اليد؛ لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد، قال اللّه تعالى: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ و أيضا الندم و إن حلّ القلب فأثره يظهر فى البدن، لأن النادم يعضّ يده و يضرب أحدى يديه على الأخرى، قال اللّه تعالى: فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى‏ ما أَنْفَقَ فِيها «١» و منه وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى‏ يَدَيْهِ «٢» أى: من الندم، و أيضا: النادم يضع ذقنه فى يده وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا معطوف على سقط، أى: تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل و أنهم قد ابتلوا بمعصية اللّه سبحانه قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا قرأ حمزة و الكسائى بالفوقية فى الفعلين جميعا، و قرأ الباقون بالتحتية، و اللام للقسم، و جوابه لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ و فى هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة باللّه و التضرع و الابتهال فى السؤال، و سيأتى فى سورة طه إن شاء اللّه ما يدل على أن هذا الكلام المحكى عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، و إنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول و الفعل فى موضع واحد. قوله وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى‏ إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً

---

(١). الكهف: ٤٢.

(٢). الفرقان: ٢٧.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٨٣

هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، و انتصاب غضبان و أسفا: على الحال، و الأسف: شديد الغضب. قيل: هو منزلة وراء

الغضب أشدّ منه، و هو أسف و أسيف و أسفان و أسوف، قال ابن جرير الطبرى: أخبره اللّه قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، فلذلك رجع و هو غضبان أسفا قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي هذا ذمّ من موسى لقومه؛ أى: بئس العمل ما عملتموه من بعدى؛ أى: من بعد غيبتى عنكم، يقال: خلفه بخير و خلفه بشرّ، استنكر عليهم ما فعلوه و ذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار و الإيمان باللّه وحده، و لكن هذا شأن بنى إسرائيل فى تلوّن حالهم و اضطراب أفعالهم، ثم قال منكرا عليهم أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ و العجلة: التقدّم بالشىء قبل وقته، يقال: عجلت الشىء: سبقته، و أعجلت الرجل حملته على العجلة، و المعنى: أ عجلتم عن انتظار أمر ربكم: أى ميعاده الذى وعدنيه، و هو الأربعون ففعلتم ما فعلتم، و قيل معناه: تعجلتم سخط ربكم؛ و قيل معناه: أ عجلتم بعبادة العجل أن يأتيكم أمر ربكم وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ أى: طرحها لما اعتراه من شدّة الغضب و الأسف حين أشرف على قومه و هم عاكفون على عبادة العجل. قوله وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ أى: أخذ برأس أخيه هارون أو بشعر رأسه حال كونه يجرّه إليه، فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامرىّ و لا غيره ما رآه من عبادة بنى إسرائيل للعجل فقال هارون معتذرا منه: ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي أى: إنى لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين: استضعافهم لى، و مقاربتهم لقتلى، و إنما قال ابن أمّ مع كونه أخاه من أبيه و أمه، لأنها كلمة لين و عطف، و لأنها كانت كما قيل مؤمنة. و قال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه. قرئ ابْنَ أُمَ بفتح الميم تشبيها له بخمسة عشر، فصار كقولك يا خمسة عشر أقبلوا. و قال الكسائى و الفرّاء و أبو عبيد:

إن الفتح على تقدير يا ابن أمّ، و قال البصريون: هذا القول خطأ، لأن الألف خفيفة لا تحذف، و لكن جعل الاسمين اسما واحدا كخمسة عشر، و اختاره الزجاج و النحاس. و أما من قرأ بكسر الميم فهو على تقدير ابن أمى، ثم حذفت الياء و أبقيت الكسرة لتدل عليها. و قال الأخفش و أبو حاتم: ابن أمّ بالكسر، كما تقول يا غلام أقبل، و هى لغة شاذّة و القراءة بها بعيدة، و إنما هذا فيما يكون مضافا إليك. و قرئ ابن أمى بإثبات الياء. قوله فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ الشماتة: السّرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه من المصائب، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء، و درك الشقاء، و جهد البلاء، و شماتة الأعداء» و هو فى الصحيح، و منه قول الشاعر:

إذا ما الدّهر جرّ على أناس كلاكلة أناخ بآخرينا

فقل للشّامتين بنا أفيقوا سيلقى الشّامتون كما لقينا

و المعنى: لا تفعل بى ما يكون سببا للشماتة منهم. و قرأ مجاهد و مالك بن دينار «فلا تشمت بى الأعداء» بفتح حرف المضارعة و فتح الميم و رفع الأعداء، على أن الفعل مسند إليهم، أى: لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بى. و روى عن مجاهد أنه قرأ (تشمت) كما تقدّم عنه مع نصب الأعداء. قال ابن جنى: و المعنى فلا تشمت بى أنت يا ربّ! و جاز هذا كما فى قوله اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ و نحوه، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۸۴

نصب به الأعداء كأنه قال: و لا تشمت يا ربّ بى الأعداء، و ما أبعد هذه القراءة عن الصواب، و أبعد تأويلها عن وجوه الإعراب. قوله وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى: لا تجعلنى بغضبك علىّ فى عداد القوم الظالمين، يعنى: الذين عبدوا العجل أو لا تعتقد أنى منهم. قوله قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي هذا كلام مستأنف، جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا؟ فقيل قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي طلب المغفرة له أوّلا، و لأخيه ثانيا ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه، و أظهر أنه لا وجه له، و طلب المغفرة من اللّه مما فرط منه فى جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم و تغيير ما وقع منهم، ثم طلب إدخاله و إدخال أخيه فى رحمة اللّه التى وسعت كلّ شىء، فهو

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى الآية، قال: حين دفنوها ألقى عليها السامرى قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: استعاروا حليا من آل فرعون، فجمعه السامرى فصاغ منه عِجْلًا فجعله جَسَداً لحما و دما لَهُ خُوارٌ. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله خُوارٌ قال: الصوت. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: خار العجل خورة لم يثن أ لم تر أن اللّه قال أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ قال: ندموا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس أَسِفاً قال: حزينا. و أخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال: الأسف: منزلة وراء الغضب أشدّ من ذلك. و أخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب قال: الأسف: الغضب الشديد. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: رفع اللّه منها ستة أسباعها و بقى سبع. و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال:

لما ألقاها موسى ذهب التّفصيل و بقى الهدى. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانت تسع رفع منها لوحان و بقى سبعة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قال: مع أصحاب العجل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٢ الى ١٥٤]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

الغضب: ما نزل بهم من العقوبة فى الدنيا بقتل أنفسهم، و ما سينزل بهم فى الآخرة من العذاب، و الذلّة:

هى التى ضربها اللّه عليهم بقوله ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ* «١»، و قيل: هى إخراجهم من ديارهم، و قيل هى الجزية، و فيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم، و إنما أخذت من ذراريهم، و الأولى: أن يقيد الغضب و الذلة بالدنيا

---

(١). البقرة: ٦١.

لقوله فِي الْحَياةِ الدُّنْيا و إن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلها لا لمن بعدهم من ذراريهم، و مجرّد ما أمروا به، من قتل أنفسهم هو غضب من اللّه عليهم، و به يصيرون أذلاء. و كذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب اللّه عليهم، و به يصيرون أذلاء، و أما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصحّ تفسير ما فى الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقى، و هو لم يتعذر هنا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ أى: ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين، و الافتراء مثل: الكذب، فمن افترى على اللّه سيناله من اللّه غضب و ذلة فى الحياة الدنيا، و إن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء، بل المراد: ما يصدق عليه أنه من غضب اللّه سبحانه و أن فيه ذلة بأىّ نوع كان وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ أى سيئة كانت ثُمَّ تابُوا عنها من بعد عملها وَ آمَنُوا باللّه إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها أى من بعد هذه التوبة، أو من بعد عمل هذه السيئات التى قد تاب عنها فاعلها و آمن باللّه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران لذنوب عباده، و كثير الرحمة لهم. قوله وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أصل السكوت: السكون و الإمساك؛ يقال: جرى الوادى ثلاثا ثم سكن؛

أی: أمسک عن الجری: قیل: هذا مثل کأن الغضب کان یغریه علی ما فعل، و یقول له قل لقومک کذا، و ألق الألواح و جرّ برأس أخیک فترک الإغراء و سکت؛ و قیل: هذا الکلام فیه قلب، و الأصل سکت موسی عن الغضب، کقولهم أدخلت الأصبع الخاتم، و الخاتم الأصبع، و أدخلت القلنسوة رأسی، و رأسی القلنسوة.

و قرأ معاویة بن قرّة و لما سکن عن موسی الغضب و قرئ سکت و أسکت أَخَذَ الْأَلْواحَ التی ألقاها عند غضبه وَ فِی نُسْخَتِها هُدیً وَ رَحْمَةٌ النسخ: نقل ما فی کتاب إلی کتاب آخر، و یقال للأصل الذی کان النقل منه، نسخة. و للمنقول: نسخة أیضا. قال القشیری: و المعنی: وَ فِی نُسْخَتِها: أی فیما نسخ من الألواح المتکسرة و نقل إلی الألواح الجدیدة هُدیً وَ رَحْمَةٌ و قیل المعنی: و فیما نسخ له منها، أی: من اللوح المحفوظ؛ و قیل المعنی: و فیما کتب له فیها هدی و رحمة، فلا یحتاج إلی أصل ینقل عنه، و هذا کما یقال: أنسخ ما یقول فلان، أی: أثبته فی کتابک و النسخة فعلة، بمعنی مفعولة کالخطبة. و الهدی:

ما یهتدون به من الأحکام؛ و الرحمة: ما یحصل لهم من اللّه عند عملهم بما فیها من الرحمة الواسعة؛ و اللام فی لِلَّذِینَ هُمْ متعلّقة بمحذوف، أی: کائنة لهم أو لأجلهم، و اللام فی لِرَبِّهِمْ یَرْهَبُونَ للتقویة للفعل، لما کان مفعوله متقدّما علیه فإنه یضعف بذلک بعض الضعف. و قد صرح الکسائی بأنها زائدة. و قال الأخفش: هی لام الأجل أی لأجل ربهم یرهبون. و قال محمد بن یزید المبرد: هی متعلّقة بمصدر الفعل المذکور، و التقدیر: للذین هم رهبتهم لربهم یرهبون.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن أیوب قال: تلا أبو قلابة هذه الآیة إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إلی قوله وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ قال: هو جزاء کلّ مفتر یکون إلی یوم القیامة أن یذله اللّه. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: أعطی موسی التوراة فی سبعة ألواح من زبرجد، فیها تبیان لکلّ شیء و موعظة، و لما جاء فرأی بنی إسرائیل عکوفا علی العجل رمی التوراة من یده فتحطّمت، و أقبل علی هارون فأخذ برأسه فرفع اللّه منها ستة أسباع و بقی سبع

فتح القدیر، ج۲، ص: ۲۸۶

وَ لَمَّا سَکَتَ عَنْ مُوسَی الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِی نُسْخَتِها هُدیً وَ رَحْمَةٌ قال: فیما بقی منها. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد أو سعید بن جبیر قال: کانت الألواح من زمرد فلما ألقاها موسی ذهب التّفصیل، و بقی الهدی و الرحمة، و قرأ وَ کَتَبْنا لَهُ فِی الْأَلْواحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِیلًا لِکُلِّ شَیْءٍ و قرأ: وَ لَمَّا سَکَتَ عَنْ مُوسَی الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِی نُسْخَتِها هُدیً وَ رَحْمَةٌ قال: و لم یذکر التفصیل هاهنا.

[سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۵۵ الی ۱۵۷]

وَ اخْتارَ مُوسی قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلاً لِمِیقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیَّایَ أَ تُهْلِکُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِیَ إِلاَّ فِتْنَتُکَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِی مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِیُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَیْرُ الْغافِرِینَ (۱۵۵) وَ اکْتُبْ لَنا فِی هذِهِ الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَیْکَ قالَ عَذابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ (۱۵۶) الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّباتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبائِثَ وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۵۷)

قوله وَ اخْتارَ مُوسی قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلًا لِمِیقاتِنا هذا شروع فی بیان ما کان من موسی و من القوم الذین اختارهم. و سبعین: مفعول اختار، و قومه منصوب بنزع الخافض، أی: من قومه علی الحذف و الإیصال، و مثله قول الرّاعی:

اخترتک النّاس إذ رثّت خلائقهمو اختلّ من كان يرجى عنده السّول

يريـد اخترتک من الناس، و معنى لِمِيقاتِنا للوقت الذى وقتناه له بعد أن وقع من قومه ما وقع، و الميقات: الكلام الذى تقدم ذكره لأن اللّه أمره أن يأتى إلى الطور فى ناس من بنى إسـرائيل يعتـذرون إليه سـبحانه من عبادة العجل كـذا قيل؛ و الرجفـة فى اللغـة: الزلزلـة الشديـدة، قيل: إنهم زلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسـى أخـذ الرجفة لهم قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ قاله عليه السـلام تحسـرا و تلهفا، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى اللّه عنهم من قولهم وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ على ما تقدّم فى البقرة؛ و قيل: هؤلاء السـبعون غير من قالوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً «۱» بل أخذتهم الرجفة، بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل؛ و قيل: إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل و لا نهوا السامرىّ و من معه عن عبادته، فأخذتهم الرجفة بسـبب سكوتهم، و المعنى: لو شـئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافا منه عليه السلام بالذنب، و تلهفا على ما فرط من قومه، و الاسـتفهام فى قوله: أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا للجحد، أى: لست ممن يفعل ذلک، قاله ثقة منه برحمة اللّه، و المقصود منه الاسـتعطاف و التضـرّع، و قيل معناه الدعاء و الطلب، أى: لا تهلكنا. قال المبرد: المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه

---

(۱). البقرة: ۵۵.

يقول: و قد علم موسى أنه لا يهلک أحد بذنب غيره، و لكنه كقول عيسى إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُکَ «۱»؛ و قيل: المراد بالسفهاء: السبعون، و المعنى: أ تهلـک بنى إسـرائيل لمـا فعـل هؤلاـء السـفهاء فى قـولهم: أَرِنَـا اللَّهَ جَهْرَةً؛ و قيـل: المراد بهـم: السـامرى و أصـحابه. قوله إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُکَ أى: مـا الفتنـة التى وقع فيها هؤلاء السـفهاء إلا فتنتک التى تختبر بها من شـئت و تمتحن بها من أردت، و لعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَکَ مِنْ بَعْدِکَ «۲» تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أى: تضـلّ بهـذه الفتنـة مـن تشاء من عبـادک، و تهـدى بهـا من تشـاء منهم، و مثله لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا* «۳»، ثم رجع إلى الاستعطاف و الدعاء فقال أَنْتَ وَلِيُّنا أى: المتولى لأمورنا فَاغْفِرْ لَنا ما أذنبناه وَ ارْحَمْنا برحمتک التى وسعت كل شىء وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ للذنوب وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً بتوفيقنا للأعمال الصّالحة، أو تفضل علينا بإفاضة النعم فى هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق وَ فِي الْآخِرَةِ أى: و اكتب لنا فى الآخرة الجنة بما تجازينا به، أو بما تتفضّل به علينا من النعيم فى الآخرة، و جملة إِنَّا هُدْنا إِلَيْکَ تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة و الرحمـة و الحسـنة فى الـدنيا و فى الآخرة، أى: إنا تبنا إليک و رجعنا عن الغواية التى وقعت من بنى إسـرائيل. و الهود: التوبة. و قد تقدّم فى البقرة، و جملة قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ مسـتأنفة كنظائرها فيما تقدّم، قيل: المراد بالعذاب هنا: الرجفة، و قيل: أمره سـبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسـهم، أى: ليس هذا إليک يا موسـى، بل ما شـئت كان، و ما لم أشأ لم يكن. و الظاهر أن العـذاب هنا يندرج تحته كل عذاب، و يدخل فيه عذاب هؤلاء دخولا أوّليا؛ و قيل: المراد من أشاء من المستحقين للعذاب، أو من أشاء أن أضـله و أسـلبه التوفيق وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ من الأشياء من المكلفين و غيرهم، ثم أخبر سـبحانه أنه سـيكتب هـذه الرحمـة الواسعـة لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الـذنوب وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ المفروضـة عليهم وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ أى: يصدّقون بها و يذعنون لها، ثم بين سـبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أوضح مما قبله و أصـرح فقال الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَ و هو محمد عليه الصـلاة و السّـلام، فخرجت اليهود و النصارى و سائر الملل. و الأمى: إما نسبة إلى الأمـة الأميـة التى لا تكتب و لا تحسب، و هم العرب، أو نسبة إلى الأم. و المعنى أنه باق على حالته التى ولـد عليها لا يكتب و لا يقرأ المكتوب؛ و قيل: نسبة إلى أمّ القرى، و هى مكة الَّذِي يَجِدُونَهُ يعنى اليهود و النصارى، أى:

يجدون نعته مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ و هما مرجعهم فى الدين، و هذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبىّ الذى يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف، أى: بكل ما تعرفه القلوب و لا تنكره من الأشياء التى هى من مكارم الأخلاق وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ أى: ما تنكره القلوب و لا تعرفه، و هو ما كان من مساوئ الأخلاق، قيل: إن قوله يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ إلى قوله أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التى وعد بها، ذكر معناه الزجاج، و قيل: هو فى محل نصب على الحال من النبىّ، و قيل: هو مفسر لقوله مَكْتُوباً. قوله يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ أى: المستلذات، و قيل: يحلّ لهم ما حرّم عليهم من الأشياء التى حرّمت عليهم بسبب

---

(١). المائدة: ١١٨.

(٢). طه: ٨٥.

(٣). هود: ٧.

ذنوبهم وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ أى: المستخبثات كالحشرات و الخنازير وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ الإصر: الثقل، أى: يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة. و قد تقدّم بيانه فى البقرة وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ أى: و يضع عنهم الأغلال التى كانت عليهم، الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التى كانوا قد كلفوها فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أى: بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ اتَّبَعُوهُ فيما جاء به من الشرائع وَ عَزَّرُوهُ أى: عظموه و وقروه، قاله الأخفش، و قيل: معناه منعوه من عدّوه، و أصل العزر: المنع، و قرأ الجحدرى وَ عَزَّرُوهُ بالتخفيف وَ نَصَرُوهُ أى: قاموا بنصره على من يعاديه وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أى: اتبعوا القرآن الذى أنزل عليه مع نبوّته؛ و قيل المعنى: و اتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتّباعه بالعمل بسنته مما يأمر به و ينهى عنه، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه، و الإشارة ب أُولئِكَ إلى المتصفين بهذه الأوصاف هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالخير و الفلاح لا غيرهم من الأمم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ الآية.

قال: كان اللّه أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا اللّه أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحدا من قبلنا و لا تعطه أحدا بعدنا، فكره اللّه ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة قالَ موسى رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ يقول: إن هى إلا عذابك تصيب به من تشاء و تصرفه عمّن تشاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد لِمِيقاتِنا قال: لتمام الموعد، و فى قوله: فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال:

ماتوا ثم أحياهم. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله: إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ قال:

بليتك. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ قال: مشيئتك. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنّ السّبعين الذين اختارهم موسى من قومه، إنما أخذتهم الرجفة، لأنهم لم يرضوا بالعمل و لم ينهوا عنه. و أخرج سعيد بن منصور عنه فى قوله وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ فلم يعطها موسى قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ إلى قوله الْمُفْلِحُونَ و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ قال: فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قال: تبنا إليك. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى وجرة السعدى،- و كان من أعلم الناس بالعربية- قال: لا و اللّه ما أعلمها فى كلام العرب هدنا؛ قيل: فكيف؟ قال: هدنا بكسر الهاء؟ يقول: ملنا. و أخرج عبد الرزاق و أحمد فى الزهد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن و قتادة فى قوله وَ

رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ قال: وسعت رحمته فى الدنيا البرّ و الفاجر، و هى يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. و أخرج مسلم و غيره عن سلمان عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال «إن للّه مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، و بها تعطف الوحوش على أولادها، و أخّر تسعة و تسعين إلى يوم القيامة». و أخرج نحوه أحمد و أبو داود و الطبرانى و الحاكم و الضياء المقدسى من حديث

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۸۹

جندب بن عبد اللّه البجلى. و أخرج أبو الشيخ عن السدى قال: لما نزلت وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ قال إبليس: و أنا من الشىء، فنسخها اللّه، فنزلت فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ إلى آخر الآية. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن أريج قال: لما نزلت وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ قال إبليس: أنا من الشىء، قال اللّه تعالى فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ قالت اليهود: فنحن نتقى و نؤتى الزكاة، قال اللّه الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَ فعزلها اللّه عن إبليس و عن اليهود، و جعلها لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج البزار فى مسنده و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، قوله: وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ إلى قوله فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ فأعطى محمدا كلّ شىء سأل موسى ربّه فى هذه الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ قال: كتبها اللّه لهذه الأمة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: يتقون الشّرك. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن النخعى فى قوله النَّبِيَّ الْأُمِّيَ قال: كان لا يقرأ و لا يكتب. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: هو نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم كان أميا لا يكتب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ قال: يجدون نعته و أمره و نبوته مكتوبا عندهم. و أخرج ابن سعد و البخارى و ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل، عن عطاء بن يسار قال:

لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقلت له: أخبرنى عن صفة رسول اللّه، قال: أجل، و اللّه إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن «يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا، و حرزا للأميين أنت عبدى و رسولى سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ و لا غليظ و لا صخّاب فى الأسواق و لا تجزى بالسيئة السيئة، و لكن تعفو و تصفح، و لن يقبضه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا اللّه، و يفتح به أعينا عميا و آذانا صمّا و قلوبا غلفا». و أخرج ابن سعيد و الدارمى فى مسنده و البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر عن عبد اللّه بن سلام مثله. و قد روى نحو هذا مع اختلاف بعض الألفاظ و زيادة و نقص فى بعض عن جماعة.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ قال: الحلال وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ قال: التثقيل الذى كان فى دينهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ قال: كلحم الخنزير و الربا و ما كانوا يستحلونه من المحرّمات من المآكل التى حرمها اللّه، و فى قوله وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ قال: هو ما كان اللّه أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ قال: ما غلظ على بنى إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم و نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ عَزَّرُوهُ يعنى: عظّموه و وقروه.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۹۰

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٨]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

لما تقدّم ذكر أوصاف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المكتوبة في التوراة و الإنجيل، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس، جميعا، لا- كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، و جَمِيعاً منصوب على الحال، أي: حال كونكم جميعا، و الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إما في محل جرّ على الصفة للاسم الشريف أو منصوب على المدح، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و جملة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بدل من الصلة، مقرر لمضمونها مبين لها، لأنّ من ملك السموات و الأرض و ما فيهما هو الإله على الحقيقة، و هكذا من كان يحيي و يميت هو المستحقّ لتفرّده بالربوبية و نفي الشركاء عنه، و الأمر بالإيمان باللّه و برسوله متفرع على ما قبله، و قد تقدّم تفسير النبيّ الأمّي، و هما وصفان لرسوله، و كذلك الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وصف له، و المراد بالكلمات ما أنزله اللّه عليه و على الأنبياء من قبله أو القرآن فقط، و جملة وَ اتَّبِعُوهُ مقررة لجملة فَآمِنُوا بِاللَّهِ و لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ علة للأمر بالإيمان و الاتّباع.

و قد أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: بعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الأحمر و الأسود فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً و الأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ قال: آياته. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد وَ كَلِماتِهِ قال: عيسى.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٩ الى ١٦٦]

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)

وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (١٦٦)

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٩١

قوله: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى لما قصّ اللّه علينا ما وقع من السامريّ و أصحابه، و ما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين، قصّ علينا سبحانه أن من قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدّم ذكرهم، و وصفهم بأنهم يَهْدُونَ بِالْحَقِ أي: يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق وَ بِهِ أي: بالحق يَعْدِلُونَ بين الناس في الحكم؛ و قيل: هم الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم منهم. قوله: وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدّم ذكرهم، لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين

يهدون بالحق و به يعدلون، و المعنى: صيرناهم قطعا متفرّقة و ميزنا بعضهم من بعض، و هذا من جملة ما قصّه اللّه علينا من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل، و المعنى: أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطا، كل سبط معروف على انفراده، لكل سبط نقيب، كما فى قوله تعالى: وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً «١» و قد تقدّم. و قوله:

اثْنَتَيْ عَشْرَةَ هو ثانى مفعولى قطعنا لتضمنه معنى التصيير، و أسباطا: تمييز له، أو بدل منه، و أُمَماً نعت للأسباط أو بدل منه، و الأسباط: جمع سبط: و هو ولد الولد، صاروا اثنتى عشرة أمة من اثنى عشر ولدا، و أراد بالأسباط: القبائل، و لهذا أنث العدد كما فى قول الشاعر:

و إنّ قريشا كلّها عشر أبطنو أنت برىء من قبائلها العشر

أراد بالبطن: القبيلة، و قد تقدّم تحقيق معنى الأسباط فى البقرة، و روى المفضّل عن عاصم أنه قرأ قَطَعْناهُمُ مخففا، و سماهم أمما، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد، و كانوا مختلفى الآراء يؤمّ بعضهم غير ما يؤمه الآخر وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أى: وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش فى التيه أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ تفسير لفعل الإيحاء فَانْبَجَسَتْ عطف على مقدّر يدل عليه السياق، أى: فضرب فانبجست، و الانبجاس: الانفجار، أى: فانفجرت مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً بعدد الأسباط لكل سبط عين يشربون منها قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ أى: كل سبط منهم العين المختصة به التى يشرب منها، و قد تقدّم فى البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ أى: جعلناه ظللا عليهم فى التيه، يسير بسيرهم، و يقيم بإقامتهم وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى أى: الترنجبين و السمانى، كما تقدّم تحقيقه فى البقرة كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ أى: و قلنا لهم كلوا من المستلذات التى رزقناكم وَ ما ظَلَمُونا بما وقع منهم من المخالفة و كفران النعم و عدم تقديرها حق قدرها وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ أى: كان ظلمهم مختصا بهم مقصورا عليهم، لا يجاوزهم إلى غيرهم وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ أى: و اذكر وقت قيل لهم هذا القول و هو اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ أى: ببيت المقدس أو أريحاء، و قيل:

---

(١). المائدة: ١٢.

غير ذلك مما تقدم بيانه وَ كُلُوا مِنْها أى: من المأكولات الموجودة فيها حَيْثُ شِئْتُمْ أى: فى أىّ مكان شئتم من أمكنتها لا مانع لكم من الأكل فيه وَ قُولُوا حِطَّةٌ قد تقدم تفسيرها فى البقرة وَ ادْخُلُوا الْبابَ أى: باب القرية المتقدمة حال كونكم سُجَّداً أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة، و بين الدخول ساجدين، فلا يقال كيف قدّم الأمر بالقول هنا على الدخول و أخره فى البقرة؟ و قد تقدّم بيان معنى السجود الذى أمروا به نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ جواب الأمر. و قرئ خطيتكم ثم وعدهم بقوله: سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ أى: سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضّل به عليهم من النعم، و الجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا لهم بعد المغفرة؟ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ قد تقدّم بيان ذلك فى البقرة فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ أى: عذابا كائنا منها بِما كانُوا يَظْلِمُونَ أى: بسبب ظلمهم. قوله: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ معطوف على عامل إذ المقدّر، أى: اذكر إذ قيل لهم و اسألهم، و هذا سؤال تقريع و توبيخ، و المراد من سؤال القرية: سؤال أهلها، أى: اسألهم عن هذا الحادث الذى حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم اللّه به. و فى ضمن هذا السؤال فائدة جليلة، و هى تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من اللّه سبحانه، فيكون دليلا على صدقه.

و اختلف أهل التفسير فى هذه القرية: أىّ قرية هى؟ فقيل: أيلة، و قيل: طبرية، و قيل: مدين، و قيل:

إيليا، و قيل: قرية من قرى ساحل الشام التى كانت حاضرة البحر؛ أى: التى كانت بقرب البحر، يقال كنت بحضرة الدار؛ أى:

بقربها. و المعنى: سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة. قرئ «و اسألهم» و قرئ «سلهم». إِذْ يَعْدُونَ أي: وقت يعدون، و هو ظرف لمحذوف دلّ عليه الكلام، لأن السؤال هو عن حالهم و قصتهم وقت يعدون؛ و قيل: إنه ظرف لكانت أو لحاضرة.

و قرئ «يعدّون» بضم الياء و كسر العين و تشديد الدال من الإعداد للآلة. و قرأ الجمهور يَعْدُونَ بفتح الياء و سكون العين و ضم الدال مخففة، أي: يتجاوزون حدود اللّه بالصيد يوم السبت الذى نهوا عن الاصطياد فيه، و قرئ «يعدّون» بفتح الياء و العين و ضم الدال مشدّدة، و بمعنى يعتدون، أدغمت التاء فى الدال. و السبت: هو اليوم المعروف، و أصله السكون، يقال سبت إذا سكن و سبت اليهود تركوا العمل فى سبتهم، و الجمع أسبت، و سبوت، و أسبات، و قرأ ابن السميقع فى «الأسبات» على الجمع إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ ظرف ليعدون. و الحيتان: جمع حوت و أضيفت إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه، و يَوْمَ سَبْتِهِمْ ظرف لتأتيهم. و قرئ «يوم أسباتهم» و شُرَّعاً حال، و هو جمع شارع، أى: ظاهرة على الماء، و قيل: رافعة رؤوسها، و قيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكباش البيض. قال فى الكشاف: يقال: شرع علينا فلان: إذا أدنى منا، و أشرف علينا، و شرعت على فلان فى بيته، فرأيته يفعل كذا، انتهى وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ أى: لا يفعلون السبت، و ذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيهم الحيتان كما كانت تأتيهم فى يوم السبت كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ أى:

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۹۳

مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم، و الابتلاء: الامتحان و الاختبار وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ معطوف على إذ يعدون معمول لعامله داخل فى حكمه، و الأمة: الجماعة، أى: قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد فى وعظ المتعدّين فى السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة، و إقلاعهم عن المعصية لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أى: مستأصل لهم بالعقوبة أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً بما انتهكوا من الحرمة، و فعلوا من المعصية؛ و قيل: إن الجماعة القائلة لم تعظون قوما؟ هم العصاة الفاعلون للصيد فى يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم. و المعنى: إذا علمتم أن اللّه مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ أى: قال الواعظون للجماعة القائلين لهم لم تعظون، و هم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأوّل، أو الفاعلين على الوجه الثانى مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ قرأ عيسى بن عمر و طلحة بن مصرف مَعْذِرَةً بالنصب، و هى قراءة حفص عن عاصم، و قرأ الباقون بالرفع. قال الكسائى: و نصبه على وجهين: أحدهما على المصدر، و الثانى: على تقدير فعلنا ذلك معذرة، أى: لأجل المعذرة. و الرفع على تقدير مبتدأ، أى: موعظتنا معذرة إلى اللّه حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر اللذين أوجبهما علينا، و لرجاء أن يتعظوا فيتقوا و يقلعوا عما هم فيه من المعصية.

قال جمهور المفسّرين: إنّ بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت و صادت و كانت نحو سبعين ألفا، و فرقة اعتزلت فلم تنه و لم تعص، و فرقة اعتزلت و نهت و لم تعص، فقالت الطائفة التى لم تنه و لم تعص للفرقة الناهية: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً يريدون: الفرقة العاصية اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ قالوا ذلك على غلبة الظنّ لما جرت به عادة اللّه من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى اللّه، و لعلهم يتقون، و لو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية، و عاصية، لقال: لعلكم تتقون.

قوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أى: لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسى للشىء المعرض عنه كلية الإعراض أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ أى: الذين فعلوا النهى، و لم يتركوه وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا و هم العصاة المعتدون فى السبت بِعَذابٍ بَئِيسٍ أى:

شديد، من بؤس الشىء يبؤس بأسا إذا اشتد، و فيه إحدى عشرة قراءة للسبعة و غيرهم بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أى: بسبب فسقهم، و

الجار و المجرور متعلق بأخذنا فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ أى: تجاوزوا الحد فى معصية اللّه سبحانه تمرّدا و تكبرا قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً أى: أمرناهم أمرا كونيا لا أمرا قوليا، أى:
مسخناهم قردة، قيل إنه سبحانه عذبهم أوّلا بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم قردة؛ و قيل إن قوله:
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا تكرير لقوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ للتأكيد و التقرير، و أن المسخ هو العذاب البئيس، و الخاسئ: الصاغر الذليل أو المباعد المطرود، يقال: خسأته فخسئ، أى: باعدته فتباعد. و اعلم أن ظاهر النظم القرآنى هو أنه لم ينج من العذاب إلا الفرقة الناهية التى لم تعص لقوله: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ و أنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله: فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ فإن كانت الطوائف منهم ثلاثا كما تقدّم فالطائفة التى لم تنه و لم تعص يحتمل
فتح القدير، ج۲، ص: ۲۹۴
أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهى و عتت عما نهاها اللّه عنه من ترك النهى عن المنكر، و يحتمل أنها لم تمسخ لأنها و إن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها و نهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة، و هى صيد الحوت فى يوم السبت، و لا عتت عن نهيه لها عن الصيد؛ و أما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية، و إنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قد جرت المقاولة بينها و بين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين، فهما فى الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما فى النهى و الاعتزال و النجاة من المسخ.
و قد أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال موسى: يا ربّ! أجد أمة أناجيلهم فى قلوبهم، قال: تلك أمة تكون بعدك؛ أمة أحمد، قال: يا ربّ! أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهنّ، قال: تلك أمة تكون بعدك؛ أمة أحمد، قال: يا ربّ! أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون، قال: تلك بعدك؛ أمة أحمد، قال: يا ربّ! اجعلنى من أمة أحمد، فأنزل اللّه كهيئة المرضاة «۱» لموسى: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ الآية، قال: بلغنى أنّ بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم و كفروا و كانوا اثنى عشر سبطا، تبرأ سبط منهم مما صنعوا، و اعتذروا، و سألوا اللّه أن يفرق بينهم و بينهم، ففتح اللّه لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً «۲» و وعد الآخرة: عيسى بن مريم. قال ابن عباس: ساروا فى السرب سنة و نصفا.
أقول: و مثل هذا الخبر العجيب و النبأ الغريب محتاج إلى تصحيح النقل.
و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى و سبعين فرقة كلّها فى النار إلا فرقة، و افترقت النصارى بعد عيسى اثنتين و سبعين فرقة كلّها فى النار إلا فرقة، و لتفترقن هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة كلّها فى النار إلا فرقة، فأما اليهود فإن اللّه يقول:
وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ فهذه التى تنجو، و أما النصارى فإن اللّه يقول: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ «۳» فهذه التى تنجو، و أما نحن فيقول: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «۴» فهذه التى تنجو من هذه الأمة. و قد قدّمنا: أنّ زيادة كلها فى النار لم تصح لا مرفوعة و لا موقوفة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فَانْبَجَسَتْ قال: فانفجرت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال: دخلت على ابن عباس، و هو يقرأ هذه الآية وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ قال: يا عكرمة! هل تدرى أىّ قرية هذه؟ قلت لا، قال: هى أيلة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال: هى طبرية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس

(۱). أی: ترضیة له.

(۲). الإسراء: ۱۰۴.

(۳). المائدة: ۶۶.

(۴). الأعراف: ۱۸۱.

فتح القدیر، ج ۲، ص: ۲۹۵

فی قوله: إِذْ یَعْدُونَ فِی السَّبْتِ قال: یظلمون. و أخرج ابن جریر عنه فی قوله: شُرَّعاً یقول:

من کل مکان. و أخرج ابن جریر عنه أیضا قال: ظاهرة علی الماء. و أخرج ابن المنذر عنه قال: واردة.

و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی الآیة قال: هی قریة علی شاطئ البحر بین مصر و المدینة یقال لها أیلة، فحرّم اللّه علیهم الحیتان یوم سبتهم فکانت تأتیهم یوم سبتهم شرعا فی ساحل البحر، فإذا مضی یوم السبت لم یقدروا علیها، فمکثوا کذلک ما شاء اللّه، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحیتان یوم سبتهم فنهتهم طائفة، فلم یزدادوا إلا غیا. فقالت طائفة من النهاة یعلمون أن هؤلاء قوم حق علیهم العذاب لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ و کانوا أشدّ غضبا من الطائفة الأخری و کل قد کانوا ینهون، فلما وقع علیهم غضب اللّه نجت الطائفتان اللتان قالوا لِمَ تَعِظُونَ و الذین قالوا مَعْذِرَةً إِلی رَبِّکُمْ و أهلک اللّه أهل معصیته الذین أخذوا الحیتان فجعلهم قردة. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عنه أنهم ثلاث فرق: فرقة العصاة، و فرقة الناهون، و فرقة القائلون لم تعظون؛ فما نجا إلا الذین نهوا و هلک سائرهم، فأصبح الذین نهوا ذات غداة فی مجالسهم یتفقدون الناس لا یرونهم، و قد باتوا من لیلتهم و غلقوا علیهم دورهم. فجعلوا یقولون إن للناس لشأنا فانظروا ما شأنهم؟ فاطلعوا فی دورهم فإذا القوم قد مسخوا یعرفون الرجل بعینه و إنه لقرد، و المرأة بعینها و إنها لقردة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جریر و ابن أبی حاتم و البیهقی فی سننه عن عکرمة عن ابن عباس فذکر القصة، و فی آخرها أنه قال: فأری الذین نهوا قد نجوا و لا أری الآخرین ذکروا، و نحن نری أشیاء ننکرها و لا نقول فیها. قال عکرمة: فقلت: جعلنی اللّه فداک، ألا تری أنهم قد کرهوا ما هم علیه و خالفوهم، و قالوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ قال:

فأمر بی فکسیت ثوبین غلیظین. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عباس أیضا قال: نجا الناهون و هلک الفاعلون، و لا أدری ما صنع بالساکتین. و أخرج عبد بن حمید و أبو الشیخ عنه قال: و اللّه لأن أکون علمت أن القوم الذین قالوا لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً نجوا مع الذین نهوا عن السوء أحبّ إلی مما عدل به. و فی لفظ: من حمر النعم. و لکن أخاف أن تکون العقوبة نزلت بهم جمیعا.

و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر عن عکرمة قال: قال ابن عباس: ما أدری أ نجا الذین قالوا:

لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ أم لا؟ قال: فما زلت أبصّره حتی عرف أنهم قد نجوا فکسانی حلة.

و أخرج عبد بن حمید عن لیث بن أبی سلیم قال: مسخوا حجارة الذین قالوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ و أخرج عبد الرزاق و ابن جریر عن ابن عباس فی قوله: بِعَذابٍ بَئِیسٍ قال: ألیم وجیع.

[سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۶۷ الی ۱۷۰]

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَیَبْعَثَنَّ عَلَیْهِمْ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ مَنْ یَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِیعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْناهُمْ فِی الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِکَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّیِّئاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۱۶۸) فَخَلَفَ مِنْ

بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٩٦

قوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ معطوف على ما قبله، أى: و اسألهم وقت تأذن ربك، و تأذن: تفعل، من الإيذان، و هو الإعلام. قال أبو على الفارسى: آذن بالمد: أعلم، و أذّن بالتشديد: نادى. و قال قوم:

كلاهما بمعنى أعلم كما يقال أيقن و تيقّن. و المعنى فى الآية: و اسألهم وقت أن وقع الإعلام لهم من ربك لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ قيل: و فى هذا الفعل معنى القسم كعلم اللّه و شهد اللّه، و لذلك أجيب بما يجاب به القسم حيث قال: لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ أى: ليرسلنّ عليهم و يسلطن كقوله: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ «١»، إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ غاية لسومهم سوء العذاب ممن يبعثه اللّه عليهم، و قد كانوا أبقاهم اللّه هكذا أذلاء مستضعفين معذبين بأيدى أهل الملل، و هكذا هم فى هذه الملة الإسلامية فى كل قطر من أقطار الأرض فى الذلة المضروبة عليهم و العذاب و الصغار، يسلمون الجزية بحقن دمائهم و يمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التى يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار. و معنى يَسُومُهُمْ يذيقهم، و قد تقدّم بيان أصل معناه، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ يعاجل به فى الدنيا كما وقع لهؤلاء وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران و الرحمة وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أى: فرّقناهم فى جوانبها، أو شتتنا أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة، و أُمَماً منتصب على الحال، أو مفعول ثان لقطعنا على تضمينه معنى صيرنا، و جملة مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ بدل من أُمَماً، قيل: هم الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و من مات قبل البعثة المحمدية غير مبدّل، و قيل: هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدّم بيانه قبل هذا وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ أى:

دون هذا الوصف الذى اتصفت به الطائفة الأولى و هو الصلاح، و محل دُونَ ذلِكَ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و التقدير: و منهم أناس دون ذلك، و المراد بهؤلاء: هم من لم يؤمن، بل انهمك فى المخالفة لما أمره اللّه به. قال النحاس: دُونَ منصوب على الظرف، و لا نعلم أحدا رفعه وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ أى: امتحناهم بالخير و الشرّ رجاء أن يرجعوا مما هم من الكفر و المعاصى فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ المراد بهم أولاد الذين قطعهم اللّه فى الأرض. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام: الأولاد، الواحد و الجمع سواء. و الخلف بفتح اللام: البدل ولدا كان أو غيره. قال ابن الأعرابى: الخلف بالفتح: الصالح، و بالسكون: الطالح. قال لبيد:

ذهب الّذين يعاش فى أكنافهمو بقيت فى خلف كجلد الأجرب

و منه قيل للردىء من الكلام خلف بالسكون، و قد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، و منه قول حسان بن ثابت:

لنا القدم الأولى إليك و خلفنالأوّلنا فى طاعة اللّه تابع

وَرِثُوا الْكِتابَ أى: التوراة من أسلافهم يقرءونها و لا يعملون بها يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى

---

(١). الإسراء: ٥.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٩٧

أخبر اللّه عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم و قوّة نهمتهم، و الأدنى: مأخوذ من الدنوّ، و هو القرب، أى: يأخذون عرض هذا الشىء الأدنى، و هو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء و ما هو مجعول لهم من السّحت فى مقابلة تحريفهم لكلمات اللّه، و تهوينهم للعمل بأحكام التوراة و كتمهم لما يكتمونه منها؛ و قيل: إن الأدنى مأخوذ من الدناءة و

السقوط، أی: إنهم یأخذون عرض الشیء الدنیء الساقط وَ یَقُولُونَ سَیُغْفَرُ لَنا أی: یعللون أنفسهم بالمغفرة مع تمادیهم فی الضلالة و عدم رجوعهم إلی الحق، و جملة یَأْخُذُونَ یحتمل أن تکون مستأنفة لبیان حالهم، أو فی محل نصب علی الحال، و جملة یَقُولُونَ معطوفة علیها، و المراد بهذا الکلام: التقریع و التوبیخ لهم، و جملة وَ إِنْ یَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ یَأْخُذُوهُ فی محل نصب علی الحال، أی: یتعللون بالمغفرة، و الحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذی کانوا یأخذونه أخذوه غیر مبالین بالعقوبة و لا خائفین من التبعة؛ و قیل: الضمیر فی یَأْتِهِمْ لیهود المدینة، أی: و إن یأت هؤلاء الیهود الذین هم فی عصر محمد صلّی اللّه علیه و سلّم عرض مثل العرض الذی کان یأخذه أسلافهم أخذوه کما أخذه أسلافهم أَ لَمْ یُؤْخَذْ عَلَیْهِمْ مِیثاقُ الْکِتابِ أی: التوراة أَنْ لا یَقُولُوا عَلَی اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ و الاستفهام للتقریع و التوبیخ، و جملة وَ دَرَسُوا ما فِیهِ معطوفة علی یُؤْخَذْ علی المعنی، و قیل: علی وَرِثُوا الْکِتابَ و الأولی أن تکون فی محل نصب علی الحال بتقدیر قد. و المعنی: أنهم ترکوا العمل بالمیثاق المأخوذ علیهم فی الکتاب، و الحال أن قد درسوا ما فی الکتاب و علموه، فکان الترک منهم عن علم لا عن جهل، و ذلک أشدّ ذنبا و أعظم جرما. و قیل: معنی دَرَسُوا ما فِیهِ أی: محوه بترک العمل به، و الفهم له، من قولهم درست الریح الآثار: إذا محتها وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَیْرٌ من ذلک العرض الذی أخذوه و آثروه علیها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ اللّه و یجتنبون معاصیه أَ فَلا تَعْقِلُونَ فتعلمون بهذا و تفهمونه، و فی هذا من التوبیخ و التقریع ما لا یقادر قدره قوله: وَ الَّذِینَ یُمَسِّکُونَ بِالْکِتابِ قرأ الجمهور یُمَسِّکُونَ بالتشدید من مسک و تمسک، أی: استمسک بالکتاب: و هو التوراة. و قرأ أبو العالیة و عاصم فی روایة أبی بکر بالتخفیف من أمسک و یمسک. و روی عن أبیّ بن کعب أنه قرأ مسکوا و المعنی: أن طائفة من أهل الکتاب لا یتمسکون بالکتاب و لا یعملون بما فیه مع کونهم قد درسوه و عرفوه و هم من تقدّم ذکره، و طائفة یتمسکون بالکتاب، أی: التوراة، و یعملون بما فیه و یرجعون إلیه فی أمر دینهم، فهم المحسنون الذین لا یضیع أجرهم عند اللّه، و الموصول: مبتدأ، و إِنَّا لا نُضِیعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِینَ خبره، أی: لا نضیع أجر المصلحین منهم، و إنما وقع التنصیص علی الصلاة مع کونها داخلة فی سائر العبادات التی یفعلها المتمسکون بالتوراة لأنها رأس العبادات و أعظمها، فکان ذلک وجها لتخصیصها بالذکر؛ و قیل: لأنها تقام فی أوقات مخصوصة، و التمسک بالکتاب مستمرّ فذکرت لهذا، و فیه نظر. فإن کل عبادة فی الغالب تختصّ بوقت معین، و یجوز أن یکون الموصول معطوفا علی الموصول الذی قبله و هو للذین یتقون، و لکون أَ فَلا تَعْقِلُونَ جملة معترضة.

و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: یَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ قال: محمد و أمته إلی یوم القیامة، و سوء العذاب: الجزیة. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ

فتح القدیر، ج ۲، ص: ۲۹۸

عنه قال: سُوءَ الْعَذابِ الخراج، و فی قوله: وَ قَطَّعْناهُمْ قال: هم الیهود بسطهم اللّه فی الأرض، فلیس منها بقعة إلا و فیها عصابة منهم و طائفة. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ فی قوله: لَیَبْعَثَنَّ عَلَیْهِمْ قال: علی الیهود و النصاری إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ مَنْ یَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ فبعث اللّه علیهم أمة محمد صلّی اللّه علیه و سلّم یأخذون منهم الجزیة و هم صاغرون وَ قَطَّعْناهُمْ فِی الْأَرْضِ أُمَماً قال: یهود مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ و هم مسلمة أهل الکتاب وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِکَ قال: الیهود وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ قال: الرخاء و العافیة وَ السَّیِّئاتِ قال: البلاء و العقوبة. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عباس وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّیِّئاتِ بالخصب و الجدب. و أخرج أبو الشیخ عنه أنه سئل عن هذه الآیة فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْکِتابَ یَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنی قال:

أقوام یقبلون علی الدنیا فیأکلونها و یتبعون رخص القرآن وَ یَقُولُونَ سَیُغْفَرُ لَنا و لا یعرض لهم شیء من الدنیا إلا أخذوه. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ قال:

النصارى يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى قال: ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالا أو حراما يشتهونه أخذوه و يتمنون المغفرة، و إن يجدوا آخر مثله يأخذوه.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ الآية، يقول: يأخذون ما أصابوا و يتركون ما شاؤوا من حلال أو حرام وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ فيما يوجبون على اللّه من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها و لا يتوبون منها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى زيد فى قوله: وَ دَرَسُوا ما فِيهِ قال: علموا ما فى الكتاب، لم يأتوه بجهالة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ قال: هى لأهل الإيمان منهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ قال: من اليهود و النصارى.

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧١]

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

قوله: وَ إِذْ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله، أى: و اسألهم إذ نتقنا الجبل؛ أى: رفعنا الجبل فَوْقَهُمْ و كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ أى: كأنه لارتفاعه سحابة تظلهم، و الظلة: اسم لكل ما أظلّ، و قرئ «طلة» بالطاء، من أطلّ عليه إذا أشرف وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ أى: ساقط عليهم. قيل: الظنّ هنا بمعنى العلم، و قيل: هو على بابه خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ هو على تقدير القول، أى: و قلنا لهم خذوا، و القوّة: الجدّ و العزيمة، أى: أخذا كائنا بقوّة وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ من الأحكام التى شرعها اللّه لكم و لا تنسوه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ رجاء أن تتقوا ما نهيتم عنه و تعملوا بما أمرتم به، و قد تقدّم تفسير ما هنا فى البقرة مستوفى فلا نعيده.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٩٩

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ يقول:

رفعناه، و هو قوله: وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ «١» فقال: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ و إلا أرسلته عليكم.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، فقيل لهم: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا و أطعنا، و إذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا و عصينا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا قال: إنى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف، قال اللّه وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ قال: لتأخذنّ أمرى أو لأرمينكم به، فسجدوا و هم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم، و كانت سجدة رضيها اللّه سبحانه فاتخذوها سنة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ قال: انتزعه اللّه من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، ثم قال: لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

قوله: وَ إِذْ منصوب بفعل مقدّر معطوف على ما قبله كما تقدّم، قوله: مِنْ بَنِي آدَمَ استدلّ بهذا على أنّ المراد بالمأخوذين هنا: هم ذرية بنى آدم، أخرجهم اللّه من أصلابهم نسلا بعد نسل.

و قد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين، قالوا: و معنى أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ دلّهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما فى قوله تعالى: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ «٢»، و قيل المعنى: أن اللّه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، و أنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه؛ و قيل: المراد ببنى آدم هنا: آدم نفسه كما وقع فى غير هذا الموضع. و المعنى: أن اللّه سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته و أخذ عليهم العهد، و هؤلاء هم عالم الذرّ، و هذا هو الحق الذى لا ينبغى العدول عنه و لا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و موقوفا على غيره من الصحابة و لا ملجئ للمصير إلى المجاز، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل، و سنذكر آخر هذا البحث إن شاء اللّه بعض ما ورد فى ذلك. قوله: مِنْ ظُهُورِهِمْ هو بدل من بنى آدم، بدل بعض من كل، و قيل بدل اشتمال قوله: ذرياتهم، قرأ الكوفيون و ابن كثير ذُرِّيَّتَهُمْ بالتوحيد، و هى تقع على الواحد و الجمع، و قرأ الباقون «ذرياتهم» بالجمع وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أى: أشهد كل واحد منهم أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ أى: قائلا أ لست بربكم، فهو على إرادة القول: قالُوا بَلى شَهِدْنا أى: على أنفسنا بأنك ربنا. قوله: أَنْ تَقُولُوا قرأ أبو عمرو بالياء التحتية فى هذا و فى قوله: أَوْ تَقُولُوا على الغيبة، كما كان فيما قبله على الغيبة، و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب. و المعنى:

---

(١). النساء: ١٥٤.

(٢). فصلت: ١١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠٠

فتح القدير ج٢ ٣٤٩

كراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا، أى: فعلنا ذلك الأخذ و الإشهاد كراهة أن يقولوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أى: عن كون اللّه ربنا وحده لا شريك له. قوله: أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ معطوف على تَقُولُوا الأوّل، أى: فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم، و أَوْ لمنع الخلوّ دون الجمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين. مِنْ قَبْلُ أى من قبل زماننا وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ لا نهتدى إلى الحق و لا نعرف الصواب أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ من آبائنا و لا ذنب لنا لجهلنا و عجزنا عن النظر و اقتفائنا آثار سلفنا، بين اللّه سبحانه فى هذه الحكمة؛ التى لأجلها أخرجهم من ظهر آدم و أشهدهم على أنفسهم، و أنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، و يعتلوا بهذه العلة الباطلة و يعتذروا بهذه المعذرة الساقطة وَ كَذلِكَ أى: و مثل ذلك التفصيل نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلى الحق و يتركون ما هم عليه من الباطل.

و قد أخرج مالك فى الموطأ و أحمد فى المسند و عبد بن حميد و البخارى فى تاريخه، و أبو داود و الترمذى و حسنه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان فى صحيحه، و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الضياء فى المختارة: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ الآية فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عنها فقال: «إنّ اللّه خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول اللّه! ففيم العمل؟

فقال: إنّ اللّه إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، و إذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار». و أخرج أحمد و النسائى و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم

قال: «إنّ اللّه أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان «۱» يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرها بين يديه، ثم كلّمهم فقال: أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا بَلى شَهِدْنا إلى قوله: الْمُبْطِلُونَ . و إسناده لا مطعن فيه. و قد أخرجه ابن أبى حاتم موقوفا على ابن عباس.

و أخرج ابن جرير و ابن مندة فى كتاب الردّ على الجهمية عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«و إذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم، قال: أخذهم من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس، فقال لهم: أ لست بربكم؟ قالوا: بلى، قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» و فى إسناده أحمد بن أبى ظبية أبو محمد الجرجانى قاضى قومس كان أحد الزهاد، و أخرج له النسائى فى سننه. و قال أبو حاتم الرازى: يكتب حديثه. و قال ابن عدىّ: حدّث بأحاديث كثيرة غرائب. و قد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد عن عبد اللّه بن عمر،

---

(۱). واد إلى جنب عرفة.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۰۱

و هؤلاء أئمة ثقات. و أخرج عبد بن حميد، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، عن أبى أمامة: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لمّا خلق اللّه الخلق و قضى القضية و أخذ ميثاق النبيين و عرشه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه و أخذ أهل الشمال بيده الأخرى و كلتا يدى الرحمن يمين، فقال: يا أصحاب اليمين، فاستجابوا له فقالوا: لبيك ربنا و سعديك، قال: أ لست بربكم؟

قالوا: بلى» الحديث، و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية، و بعضها مطلق يشتمل على ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره، و أخذ العهد عليهم كما فى حديث أنس مرفوعا فى الصحيحين و غيرهما.

و أما المروى عن الصحابة فى تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه فى عالم الذرّ و أخذ العهد عليهم و إشهادهم على أنفسهم فهى كثيرة، منها: عن ابن عباس عند عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الآية قال: [خلق اللّه آدم و أخذ ميثاقه أنه ربه و كتب أجله و رزقه و مصيبته «۱»، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذرّ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم و كتب آجالهم و أرزاقهم و مصائبهم «۲». و أخرج نحوه عنه ابن جرير و ابن أبى حاتم و أخرج نحوه عنه أيضا ابن جرير و ابن المنذر.

و أخرج نحوه عنه عبد الرزاق و ابن المنذر. و أخرج نحوه عنه عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مندة، و هذا المعنى مروى عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن عمر فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الآية قال: أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس. و أخرج ابن عبد البرّ فى التمهيد عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى تفسير الآية نحوه. و أخرج عبد بن حميد و عبد اللّه بن حنبل فى رواية المسند و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مندة و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات و الضياء فى المختارة و ابن عساكر فى تاريخه عن أبىّ بن كعب فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الآية قال: جمعهم جميعا فجعلهم أرواحا فى صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد و الميثاق، ثم أشهدهم على أنفسهم. و قد روى عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره، و فيما قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغنى عن التطويل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٨]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨)

قوله وَ اتْلُ معطوف على الأفعال المقدّرة فى القصص السابقة، و إيراد هذه القصة منه سبحانه و تذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم فى التوراة. و قد اختلف فى هذا الذى أوتى الآيات فَانْسَلَخَ مِنْها

---

(١). ما بين حاصرتين من الدر المنثور.

(٢). فى الأصل: «مصيباتهم» و التصحيح من الدر المنثور.

فقيل: هو بلعم بن باعوراء، و كان قد حفظ بعض الكتب المنزلة؛ و قيل: كان قد أوتى النبوّة و كان مجاب الدعوة، بعثه اللّه إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان، فأعطوه الأعطية الواسعة فاتبع دينهم و ترك ما بعث به، فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل لقتال الجبارين، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو عليه فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له فى ذلك فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، و اندلع لسانه على صدره فقال قد ذهبت منى الآن الدنيا و الآخرة فلم يبق إلا المكر و الخديعة و الحيلة، و سأمكر لكم، و إنى أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن اللّه يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا، فوقع بنو إسرائيل فى الزنا، فأرسل اللّه عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا؛ و قيل: إن هذا الرجل اسمه باعم و هو من بنى إسرائيل؛ و قيل: المراد به أمية بن أبى الصّلت الثّقفى، و كان قد قرأ الكتب و علم أنّ اللّه مرسل رسولا فى ذلك؛ فلما أرسل اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم حسده و كفر به؛ و قيل هو أبو عامر بن صيفى و كان يلبس المسوح فى الجاهلية، فكفر بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: نزلت فى قريش آتاهم اللّه آياته التى أنزلها على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فكفروا بها، و قيل: نزلت فى اليهود و النصارى انتظروا خروج محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فكفروا به. قوله فَانْسَلَخَ مِنْها أى: من هذه الآيات التى أوتيها كما تنسلخ الشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ عند انسلاخه عن الآيات، أى: لحقه فأدركه و صار قرينا له، أو فأتبعه خطواته، و قرئ فَأَتْبَعَهُ بالتشديد بمعنى تبعه فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ المتمكنين فى الغواية و هم الكفار. قوله وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها الضمير يعود إلى الذى أوتى الآيات، و المعنى: لو شئنا رفعه بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها، أى: بسببها، و لكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها و تركه للعمل بها؛ و قيل المعنى: و لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه إلى الجنة بها، أى: بالعمل بها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ أصل الإخلاد: اللزوم، يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به و لزمه، و المعنى هنا: أنه مال إلى الدنيا و رغب فيها و آثرها على الآخرة وَ اتَّبَعَ هَواهُ أى: اتبع ما يهواه و ترك العمل بما يقتضيه العلم الذى علمه اللّه، و هو حطام الدنيا؛ و قيل: كان هواه مع الكفار؛ و قيل: اتبع رضا زوجته، و كانت هى التى حملته على الانسلاخ من آيات اللّه. قوله فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ أى:

فصار لما انسلخ عن الآيات و لم يعمل بها منحطا إلى أسفل رتبة مشابها لأخس الحيوانات فى الدناءة، مماثلا له فى أقبح أوصافه، و هو أنه يلهث فى كلا حالتى قصد الإنسان له و تركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شدّ عليه أو لم يشد عليه، و ليس بعد هذا فى الخسة و الدناءة شىء، و جملة إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ فى محل نصب على الحال،

أی: مثله کمثل الکلب حال کونه متصفا بهذه الصفة، و المعنی: أن هذا المنسلخ عن الآیات لا یرعوی عن المعصیة فی جمیع أحواله سواء وعظه و ذکره المذکر، و زجره الزاجر أو لم یقع شیء من ذلک. قال القتبی: کلّ شیء یلهث فإنما یلهث من إعیاء أو عطش، إلا الکلب فإنه یلهث فی حال الکلال، و حال الراحة، و حال المرض، و حال الصحة، و حال الری، و حال العطش، فضربه اللّه مثلا لمن کذب بآیاته؛ فقال: إن وعظته ضلّ و إن ترکته ضلّ، فهو کالکلب إن ترکته لهث و إن طردته لهث کقوله تعالی: وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ

فتح القدیر، ج۲، ص: ۳۰۳

صامِتُونَ «۱» و اللهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش أو غیر ذلک. قال الجوهری: لهث الکلب بالفتح یلهث لهثا و لهاثا بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش، و کذلک الرجل إذا أعیا. قیل معنی الآیة: أنک إذا حملت علی الکلب نبح و ولّی هاربا، و إن ترکته شدّ علیک و نبح، فیتعب نفسه مقبلا علیک و مدبرا عنک، فیعتریه عند ذلک ما یعتریه عند العطش من إخراج اللسان، و الإشارة بقوله ذلک إلی ما تقدّم من التمثیل بتلک الحالة الخسیسة. و هو مبتدأ و خبره مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أی ذلک المثل الخسیس مثل القوم الذین کذبوا بآیاتنا من الیهود بعد أن علموا بها و عرفوها، فحرفوا و بدّلوا و کتموا صفة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و کذبوا بها فَاقْصُصِ الْقَصَصَ أی: فاقصص علیهم هذا القصص الذی هو صفة الرجل المنسلخ عن الآیات فإن مثله المذکور کمثل هؤلاء القوم المکذبین من الیهود الذین تقص علیهم لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فی ذلک و یعملون فیه أفهامهم، فینزجرون عن الضلال، و یقبلون علی الصواب. قوله ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا هذه الجملة متضمنة لبیان حال هؤلاء القوم البالغة فی القبح إلی الغایة، یقال: ساء الشیء: قبح، فهو لازم، و ساءه یسوؤه مساءة: فهو متعد و هو من أفعال الذم: کبئس، و فاعله ضمیر مستتر فیه، و مثلا تمییز مفسر له، و المخصوص بالذم هو: الذین کذبوا بآیاتنا، و لا بدّ من تقدیر مضاف محذوف لأجل المطابقة أی: ساء مثلا مثل القوم الذین کذبوا. و قال الأخفش: جعل المثل القوم مجازا، و القوم مرفوع بالابتداء، أو علی إضمار مبتدأ، التقدیر: ساء المثل مثلا هو مثل القوم، کذا قال. و قدره أبو علی الفارسی: ساء مثلا مثل القوم، کما قدّمنا. و قرأ الجحدری و الأعمش ساء مثل القوم. قوله وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ أی: ما ظلموا بالتکذیب إلا أنفسهم، لا یتعداها ظلمهم إلی غیرها، و لا یتجاوزها، و الجملة معطوفة علی التی قبلها، علی معنی أنهم جمعوا بین التکذیب بآیات اللّه و ظلم أنفسهم مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي لما أمر به و شرعه لعباده وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ الکاملون فی الخسران، من هداه فلا مضلّ له، و من أضلّه فلا هادی له؛ ما شاء کان و ما لم یشأ لم یکن.

و قد أخرج الفریابی و عبد الرزاق و عبد بن حمید و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و أبو الشیخ و ابن مردویه عن ابن مسعود فی قوله وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا قال: هو رجل من بنی إسرائیل یقال له بلعم بن آبز. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و أبو الشیخ و ابن مردویه من طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء، و فی لفظ: بلعام بن باعر الذی أوتی الاسم کان فی بنی إسرائیل.

و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا قال: هو رجل من مدینة الجبارین یقال له بلعم، تعلّم اسم اللّه الأکبر، فلما نزل بهم موسی أتاه بنو عمه و قومه فقالوا: إنّ موسی رجل حدید و معه جنود کثیرة، و إنه إن یظهر علینا یهلکنا، فادع اللّه أن یرد عنا موسی و من معه، قال: إنّی إن دعوت اللّه أن یردّ موسی و من معه مضت دنیای و آخرتی، فلم یزالوا به حتی دعا اللّه فسلخ ما کان فیه. و فی قوله إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ قال: إن حمل الحکمة لم یحملها، و إن ترک لم یهتد لخیر کالکلب إن کان رابضا لهث و إن یطرد لهث. و أخرج ابن أبی حاتم

(١). الأعراف: ١٩٣.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠٤

و أبو الشيخ عنه فى الآية قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، و كانت له امرأة له منها ولد، فقالت: أجعل لى منها واحدة، قال: فلك واحدة فما الذى تريدين؟ قالت: ادع اللّه أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل فدعا اللّه فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل؛ فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه و أرادت شيئا آخر، فدعا اللّه أن يجعلها كلبة فصارت كلبة، فذهبت دعوتان، فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع اللّه أن يردّها إلى الحال التى كانت عليه فدعا اللّه فعادت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث و سميت البسوس. و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمرو فى الآية قال: هو أمية بن أبى الصّلت الثّقفى، و فى لفظ: نزلت فى صاحبكم أمية بن أبى الصّلت. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عنه نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن الشعبى فى هذه الآية قال: قال ابن عباس: هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء، و كانت الأنصار تقول: هو ابن الراهب الذى بنى له مسجد الشقاق، و كانت ثقيف تقول: هو أمية بن أبى الصلت.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هو صيفى بن الراهب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله فَانْسَلَخَ مِنْها قال: نزع منه العلم و فى قوله وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها قال: رفعه اللّه بعلمه. و أخرج مسلم و النسائى و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن جابر بن عبد اللّه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى خطبته يحمد اللّه و يثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول «من يهد اللّه فلا مضلّ له، و من يضلل فلا هادى له، أصدق الحديث كتاب اللّه. و أحسن الهدى هدى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ محدثة بدعة، و كلّ بدعة ضلالة، و كلّ ضلالة فى النار» ثم يقول:

«بعثت أنا و السّاعة كهاتين».

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٩]

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٧٩)

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا أى: خلقنا، و قد تقدّم بيان أصل معناه مستوفى، و هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها لِجَهَنَّمَ أى: للتعذيب بها كَثِيراً أى: خلقا كثيرا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أى: من طائفتى الجنّ و الإنس جعلهم سبحانه للنار بعدله، و بعمل أهلها يعملون. و قد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة، ثم وصف هؤلاء فقال لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها كما يفقه غيرهم بعقولهم، و جملة لا يَفْقَهُونَ بِها فى محل رفع على أنها صفة لقلوب، و جملة لَهُمْ قُلُوبٌ فى محلّ نصب صفة لكثيرا، جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم و إرشادهم غير فاقهة مطلقا و إن كانت تفقه فى غير ما فيه النفع و الرشاد فهو كالعدم، و هكذا معنى وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها فإن الذى انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر و الاعتبار و إن كانت مبصرة فى غير ذلك،

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠٥

و الذى انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، و الشرائع التى اشتملت عليها الكتب المنزلة، و ما جاءت به رسل اللّه، و إن

كانوا يسمعون غير ذلك، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى هؤلاء المتّصفين بهذه الأوصاف كالأنعام فى انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنّهم أضلّ منها، لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها و يضرّها فتنتفع بما ينفع، و تجتنب ما يضرّ، و هؤلاء لا يميزون بين ما ينفع و ما يضرّ باعتبار ما طلبه اللّه منهم و كلفهم به، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذى هو من شأن من له عقل و بصر و سمع.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ لَقَدْ ذَرَأْنا قال: خلقنا.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: خلقنا لجهنم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن النجّار عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ اللّه لما ذرأ لجهنّم من ذرأ كان ولد الزّنا ممّن ذرأ لجهنم». و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ قال: لقد خلقنا لجهنم لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها قال: لا يفقهون شيئا من أمور الآخرة وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها الهدى وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها الحق، ثم جعلهم كالأنعام، ثم جعلهم شرا من الأنعام، فقال: بَلْ هُمْ أَضَلُّ ثم أخبر أنّهم الغافلون.

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٠]

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)

هذه الآية مشتملة على الإخبار من اللّه سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التّفصيل، و الحسنى تأنيث الأحسن؛ أى التى هى أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمّى و أشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة؛ فإنه إذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة، و قد ثبت فى الصحيح «إنّ للّه تسعة و تسعين اسما من أحصاها دخل الجنّة» و سيأتى، و يأتى أيضا بيان عددها آخر البحث إن شاء اللّه. قوله وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ الإلحاد: الميل و ترك القصد، يقال: لحد الرجل فى الدين و ألحد:

إذا مال، و منه اللحد فى القبر لأنه فى ناحية، و قرئ يُلْحِدُونَ و هما لغتان، و الإلحاد فى أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه، إما بالتغيير كما فعله المشركون، فإنهم أخذوا اسم اللات من اللّه، و العزّى من العزيز، و مناة من المنان؛ أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن اللّه بها، أو بالنقصان منها، بأن يدعوه ببعضها دون بعض. و معنى وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ اتركوهم و لا تحاجوهم و لا تعرضوا لهم، و على هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال؛ و قيل معناه الوعيد كقوله تعالى: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً «١» و قوله ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا «٢» و هذا أولى لقوله سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة و تحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم. و قد ذكر مقاتل و غيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى رجل من المسلمين كان يقول فى صلاته يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من المشركين: أ ليس يزعم محمد و أصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا، فما بال هذا يدعو ربّين اثنين؟ حكى ذلك القرطبى.

و قد أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن خزيمة و أبو عوانة و ابن جرير و ابن

---

(١). المدثر: ١١.

(٢). الحجر: ٣.

أبى حاتم و الطبرانى و ابن مندة و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ

للّه تسعة و تسعين اسما مائة إلّا واحدا من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر». و فى لفظ ابن مردويه و أبى نعيم: «من دعا بها استجاب اللّه دعاءه» و زاد الترمذى فى سننه بعد قوله يحبّ الوتر: «هو اللّه الذى لا إله إلا هو الرّحمن، الرّحيم، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبّر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرّافع، المعز، المذل، السّميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشّكور، العلىّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرّقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولىّ، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحىّ، القيّوم، الواجد، الماجد، الأحد، الصّمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخّر، الأوّل، الآخر، الظّاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البرّ، التوّاب، المنتقم، العفو، الرّؤوف، مالك الملك، ذو الجلال و الإكرام، المقسط، الجامع، الغنىّ، المغنى، المانع، الضارّ، النّافع، النّور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرّشيد، الصّبور».

هكذا أخرج الترمذى هذه الزيادة عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب ابن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعة و قال: هذا حديث غريب. و قد روى من غير وجه عن أبى هريرة، و لا يعلم فى كثير شىء من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث. و رواه ابن حبان فى صحيحه و ابن خزيمة و الحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق. و رواه ابن ماجة فى سننه من طريق أخرى عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا؛ فسرد الأسماء المتقدّمة بزيادة و نقصان. قال ابن كثير فى تفسيره: و الذى عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه. و إنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم و عبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك: أى أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد و سفيان بن عيينة و أبى زيد اللغوى. قال: ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة و التسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد اللّه بن مسعود عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال «ما أصاب أحدا قط همّ و لا حزن فقال:

اللهم إنى عبدك ابن عبدك و أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فىّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، و نور صدرى، و جلاء حزنى، و ذهاب همّى و غمّى، إلا أذهب اللّه همّه و حزنه، و أبدله مكانه فرجا؛ فقيل: يا رسول اللّه ألا نتعلّمها؟ فقال: بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها». و قد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان فى صحيحه بمثله انتهى. و أخرجه البيهقى أيضا

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٠٧

فى الأسماء و الصفات. قال ابن حزم: جاءت فى إحصائها، يعنى الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصحّ منها شىء أصلا. و قد أخرجها بهذا العدد الذى أخرجه الترمذى و ابن مردويه و أبو نعيم عن ابن عباس و ابن عمر قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكراه، و لا أدرى كيف إسناده. و أخرج ابن أبى الدنيا و الطبرانى كلاهما فى الدعاء و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أبى هريرة: إن للّه تسعة و تسعين اسما من أحصاها دخل الجنة: أسأل اللّه الرحمن، الرحيم، الإله، الربّ، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحىّ، القيّوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الودود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البادئ، و فى لفظ: القائم، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، العفوّ، الغفار، الوهاب، الفرد، و فى لفظ: القادر، الأحد، الصمد، الوكيل،

الكافى، الباقى، المغيث، الدائم، المتعالى، ذا الجلال و الإكرام، المولى، البصير، الحق، المتين، الوارث، المنير، الباعث، القدير، و فى لفظ: المجيب، المحيى، المميت، الحميد؛ و فى لفظ: الجميل: الصادق، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب، الفتّاح، التوّاب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلام، العلى، العظيم، الغنى، الملك، المقتدر، الأكرم، الرؤوف، المدبر، المالك، القاهر، الهادى، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الخلاق، الكفيل، الجليل.

و أخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبى جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة و التسعين التى من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هى فى القرآن، ففى الفاتحة خمسة أسماء، يا اللّه، يا ربّ، يا رحمن، يا رحيم، يا ملك؛ و فى البقرة ثلاثة و ثلاثون اسما: يا محيط، يا قدير، يا عليم، يا حكيم، يا على، يا عظيم، يا تواب، يا بصير، يا ولى، يا واسع، يا كافى، يا رؤوف، يا بديع، يا شاكر، يا واحد، يا سميع، يا قابض، يا باسط، يا حىّ، يا قيوم، يا غنى، يا حميد، يا غفور، يا حليم، يا إله، يا قريب، يا مجيب، يا عزيز، يا نصير، يا قوى، يا شديد، يا سريع، يا خبير؛ و فى آل عمران: يا وهاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل، و فى النساء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا مقيت، يا وكيل، يا علىّ، يا كبير، و فى الأنعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يا برهان، و فى الأعراف: يا محيى، يا مميت، و فى الأنفال: يا نعم المولى، و يا نعم النصير؛ و فى هود: يا حفيظ يا مجيد، يا ودود، يا فعال لما تريد؛ و فى الرعد: يا كبير، يا متعالى؛ و فى إبراهيم: يا منان، يا وارث؛ و فى الحجر: يا خلاق؛ و فى مريم: يا فرد؛ و فى طه: يا غفار، و فى قد أفلح: يا كريم؛ و فى النور: يا حق يا مبين؛ و فى الفرقان: يا هادى؛ و فى سبأ: يا فتاح، و فى الزمر: يا عالم؛ و فى غافر: يا قابل التوب، يا ذا الطول، يا رفيع؛ و فى الذاريات: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين؛ و فى الطور: يا برّ؛ و فى اقتربت:

يا مقتدر، يا مليك؛ و فى الرحمن: يا ذا الجلال و الإكرام، يا رب المشرقين، يا ربّ المغربين، يا باقى

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٠٨

يا معين، و فى الحديد: يا أوّل، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن؛ و فى الحشر: يا ملك، يا قدّوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا جبار، يا متكبر، يا خالق، يا بارئ، يا مصوّر، و فى البروج: يا مبدئ، يا معيد؛ و فى الفجر: يا وتر؛ و فى الإخلاص: يا أحد، يا صمد، انتهى.

و قد ذكر ابن حجر فى التلخيص أنه تتّبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررها منه تسعة و تسعين ثم سردها فابحثه. و يؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس و ابن عمر قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «للّه تسعة و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنة، و هى فى القرآن». و أخرج البيهقى عن عائشة أنها قالت: «يا رسول اللّه! علّمنى اسم اللّه الذى إذا دعى به أجاب، قال لها: قومى فتوضّئى و ادخلى المسجد فصلّى ركعتين ثم ادعى حتى أسمع، ففعلت؛ فلما جلست للدعاء قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: اللهمّ وفّقها، فقالت: اللهمّ إنى أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلّها ما علمنا منها و ما لم نعلم، و أسألك باسمك العظيم الأعظم الكبير الأكبر الذى من دعاك به أجبته، و من سألك به أعطيته، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أصبتيه، أصبتيه.

و قد أطال أهل العلم على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربى فى شرح الترمذى حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب و السنة من أسماء اللّه ألف اسم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ قال: الإلحاد: أن يدعو اللات و العزّى فى أسماء اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: الإلحاد: التكذيب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى الآية قال: اشتقوا العزّى من العزيز، و اشتقوا اللات من اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى الآية قال: الإلحاد: المضاهاة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش أنه قرأ يُلْحِدُونَ من لحد، و قال: تفسيرها: يدخلون فيها ما ليس منها. و أخرج عبد الرزاق بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى الآية قال:

يشركون.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨١ الى ١٨٦]

وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)
مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

قوله وَ مِمَّنْ خَلَقْنا خبر مقدّم و أُمَّةٌ مبتدأ مؤخر و يَهْدُونَ و ما بعده صفة ما، و يجوز أن يكون وَ مِمَّنْ خَلَقْنا هو المبتدأ كما تقدّم فى قوله وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ* و المعنى: أن من جملة من خلقه اللّه أمة يهدون الناس متلبسين بِالْحَقِ أو يهدونهم بما عرفوه من الحق وَ بالحق يَعْدِلُونَ بينهم، قيل هم من هذه الأمة، و إنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين كما ورد فى الحديث الصحيح، ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠٩

لا يَعْلَمُونَ و الاستدراج: هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، و الدرج: كفّ الشيء، يقال أدرجته و درجته، و منه إدراج الميت فى أكفانه؛ و قيل: هو من الدرجة، فالاستدراج: أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، و منه درج الصبيّ: إذا قارب بين خطاه، و أدرج الكتاب: طواه شيئا بعد شيء، و درج القوم:
مات بعضهم فى أثر بعض؛ و المعنى: سنستدرجهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم، و ذلك بإدرار النّعم عليهم و إنسائهم شكرها، فينهمكون فى الغواية، و يتنكبون طرق الهداية؛ لاغترارهم بذلك و أنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند اللّه من المنزلة و الزلفة، قوله وَ أُمْلِي لَهُمْ معطوف على سنستدرجهم، أى: أطيل لهم المدّة و أمهلهم و أؤخر عنهم العقوبة، و جملة إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ مقرّرة لما قبلها من الاستدراج و الإملاء و مؤكدة له، و الكيد: المكر، و المتين: الشديد القويّ؛ و أصله من المتن و هو اللحم الغليظ الذى على جانب الصّلب.
قال فى الكشاف: سمّاه كيدا، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه فى الظاهر إحسان و فى الحقيقة خذلان، و الاستفهام فى أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا للإنكار عليهم حيث لم يتفكّروا فى شأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و فيما جاء به و ما فى ما بِصاحِبِهِمْ للاستفهام الإنكارى، و هى فى محل رفع بالابتداء، و الخبر: بصاحبهم، و الجنة: مصدر، أى: وقع منهم التكذيب و لم يتفكروا أىّ شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون، فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا، و قولهم زورا و بهتانا؛ و قيل إنّ ما نافية و اسمها مِنْ جِنَّةٍ و خبرها بصاحبهم، أى: ليس بصاحبهم شيء مما يدّعونه من الجنون، فيكون هذا ردا لقولهم: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «١» و يكون الكلام قد تمّ عند قوله أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا و الوقف عليه من الأوقاف الحسنة، و جملة إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ مقررة لمضمون ما قبلها، و مبينة لحقيقة حال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستفهام فى أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ للإنكار و التقريع و التوبيخ و لقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر فى الآيات البينة الدالّة على كمال قدرته و تفرّده بالإلهية، و الملكوت: من أبنية المبالغة، و معناه: الملك العظيم و قد تقدّم بيانه، و المعنى: إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر، و لا نظروا فى مخلوقات اللّه حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به، بل هم سادرون فى ضلالتهم خائضون فى غوايتهم لا يعملون فكرا و لا يمعنون نظرا. قوله وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ أى: لم ينظروا فى ملكوت السموات و الأرض و لا فيما خلق اللّه من شيء من الأشياء كائنا ما كان، فإن فى كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين و موعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل

مصنوعاته كملكوت السموات و الأرض، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته، قوله:

وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ معطوف على ملكوت، و أن هى المخففة من الثقيلة و اسمها ضمير الشأن و خبرها عسى و ما بعدها: أى: أو لم ينظروا فى أن الشأن و الحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتون عن قريب. و المعنى: إنهم إذا كانوا يجوّزون قرب آجالهم فما لهم لا- ينظرون فيما يهتدون به و ينتفعون بالتفكر فيه و الاعتبار به فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ الضمير يرجع إلى ما تقدّم من التفكر و النظر فى الأمور المذكورة، أى: فبأىّ حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون؟ و فى هذا الاستفهام من التقريع و التوبيخ ما لا يقادر قدره؛ و قيل: الضمير للقرآن، و قيل: لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: للأجل المذكور قبله، و جملة

---

(١). الحجر: ۶.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣١٠

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ مقررة لما قبلها، أى: إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله اللّه و من يضلله فلا هادى له، أى: فلا يوجد من يهديه إلى الحق و ينزعه عن الضلالة ألبتة وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ قرئ بالرفع على الاستئناف و بالجزم عطفا على محل الجزاء، و قرئ بالنون، و معنى يعمهون: يتحيّرون، و قيل: يتردّدون، و هو فى محل نصب على الحال.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِ قال: ذكر لنا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «هذه أمتى بالحق يحكمون و يقضون و يأخذون و يعطون». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: بلغنا أن نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم و قد أعطى القوم بين أيديكم مثلها، وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «١»». و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ يقول: سنأخذهم من حيث لا يعلمون، قال: عذاب بدر. و أخرج أبو الشيخ عن يحيى ابن المثنى فى الآية قال: كلما أحدثوا ذنبا جدّدنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن سفيان فى الآية قال: نسبغ عليهم النعمة و نمنعهم شكرها. و أخرج ابن أبى الدنيا و البيهقى عن ثابت البنانى أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذلك مكر اللّه بالعباد المضيّعين. و أخرج أبو الشيخ فى قوله وَ أُمْلِي لَهُمْ يقول: أكفّ عنهم إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ إنّ مكرى شديد، ثم نسخها اللّه فأنزل فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «٢». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كيد اللّه:

العذاب و النقمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال:

ذكر لنا: أنّ نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قام على الصفا، فدعا قريشا فخذا فخذا: يا بنى فلان! يا بنى فلان! يحذّرهم بأس اللّه و وقائع اللّه إلى الصباح، حتى قال قائل: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوّت حتى أصبح، فأنزل اللّه: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٧ الى ١٩٢]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً

يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)

وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢)

---

(١). الأعراف: ١٥٩.

(٢). التوبة: ٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣١١

قوله يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ السائلون: هم اليهود، و قيل: قريش، و الساعة: القيامة، و هى من الأسماء الغالبة، و إطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، و أيان: ظرف زمان مبنى على الفتح.

قال الرّاجز:

أيّان تقضى حاجتى إيّاناأ ما ترى لنجحها أوانا

و معناه: معنى متى، و اشتقاقه: من أيّ، و قيل: من أين. و قرأ السلمى إيان بكسر الهمزة و هو فى موضع رفع على الخبر، و مُرْساها المبتدأ عند سيبويه، و مرساها بضم الميم: أى وقت إرسائها، من أرساها اللّه، أى: أثبتها، و بفتح الميم من رست: أى تثبتت، و منه وَ قُدُورٍ راسِياتٍ و منه رسا الجبل. و المعنى متى يرسيها اللّه: أى يثبتها و يوقعها، و ظاهر يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أن السؤال عن نفس الساعة، و ظاهر أَيَّانَ مُرْساها أن السؤال عن وقتها، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها فى الوقت المعين لذلك، ثم أمره اللّه سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی أى: علمها باعتبار وقوعها عند اللّه لا يعلمها غيره، و لا يهتدى إليها سواه لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ أى: لا يظهرها لوقتها و لا يكشف عنها إلا اللّه سبحانه، و التجلية: إظهار الشىء، يقال جلى لى فلان الخبر: إذا أظهره و أوضحه، و فى استئثار اللّه سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة و تدبير بليغ كسائر الأشياء التى أخفاها اللّه و استأثر بعلمها. و هذه الجملة مقررة لمضمون التى قبلها. قوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قيل: معنى ذلك: أنه لما خفى علمها على أهل السموات و الأرض كانت ثقيلة، لأنّ كلّ ما خفى علمه ثقيل على القلوب؛ و قيل المعنى: لا تطيقها السموات و الأرض لعظمها؛ لأنّ السماء تنشق، و النجوم تتناثر، و البحار تنضب؛ و قيل: عظم وصفها عليهم؛ و قيل: ثقلت المسألة عنها، و هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها أيضا لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً إلا فجأة على غفلة، و البغتة، مصدر فى موضع الحال، و هذه الجملة كالتى قبلها فى التقرير. قوله: يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها. قال ابن فارس: الحفيّ: العالم بالشىء، و الحفى: المستقصى فى السؤال، و منه قول الأعشى:

فإن تسألى عنّى فيا ربّ سائلحفىّ عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال: أحفى فى المسألة و فى الطلب فهو محف، و حفىّ على التكثير، مثل مخصب و خصيب. و المعنى:

يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها، أو كأنه مستقص للسؤال عنها، و مستكثر منه، و الجملة التشبيهية فى محلّ نصب على الحال، أى: يسألونك مشبها حالك حال من هو حفىّ عنها؛ و قيل المعنى: يسألونك عنها كأنك حفىّ بهم، أى: حفىّ ببرهم و فرح بسؤالهم. و الأوّل: هو معنى النظم القرآنى على مقتضى المسلك العربى. قوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی أمره اللّه سبحانه بأن

يكرّر ما أجاب به عليهم سابقا، لتقرير الحكم و تأكيده، و قيل: ليس بتكرير، بل أحدهما: معناه الاستئثار بوقوعها، و الآخر: الاستئثار بكنهها نفسها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ باستثناء اللّه بهذا و عدم علم خلقه به، لم يعلمه ملك مقرب و لا

نبيّ مرسل. قوله قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ هذه الجملة متضمّنة لتأكيد ما تقدّم من عدم علمه بالساعة، أيان تكون، و متى تقع، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له، أو دفع ضرّ عنه إلا ما شاء اللّه سبحانه مع النفع له و الدفع عنه؛ فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر اللّه بعلمه، و فى هذا من إظهار العبودية و الإقرار بالعجز عن الأمور التى ليست من شأن العبيد و الاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له صلّى اللّه عليه و سلّم ما فيه أعظم زاجر، و أبلغ واعظ لمن يدّعى لنفسه ما ليس من شأنها، و ينتحل علم الغيب بالنجامة، أو الرمل، أو الطرق بالحصى، أو الزجر، ثم أكد هذا و قرّره بقوله وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ أى: لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرّضت لما فيه الخير، فجلبته إلى نفسى و توقيت ما فيه السوء حتى لا يمسنى، و لكنّى عبد لا أدرى ما عند ربّى، و لا ما قضاه فىّ و قدّره لى، فكيف أدرى غير ذلك، و أتكلّف علمه؟ و قيل: المعنى لو كنت أعلم ما يريد اللّه عزّ و جلّ منى من قبل أن يعرّفنيه لفعلته؛ و قيل: لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلت فلم أغلب؛ و قيل: لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه، و الأولى: حمل الآية على العموم فتندرج هذه الأمور و غيرها تحتها، و قد قيل: إن وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ كلام مستأنف، أى: ليس بى ما تزعمون من الجنون، و الأولى أنه متصل بما قبله، و المعنى: لو علمت الغيب ما مسنى السوء و لحذرت عنه كما قدّمنا ذلك. قوله إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى: ما أنا إلا مبلغ عن اللّه لأحكامه، أنذر بها قوما، و أبشر بها آخرين، و لست أعلم بغيب اللّه سبحانه، و اللام فى لِقَوْمٍ متعلق بكلا الصفتين، أى: بشير لقوم، و نذير لقوم، و قيل: هو متعلق ببشير، و المتعلق بنذير: محذوف، أى: نذير لقوم يكفرون، و بشير لقوم يؤمنون. قوله هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم اللّه على عباده و عدم مكافأتهم لها مما يجب من الشكر و الاعتراف بالعبودية و أنه المنفرد بالإلهية. قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم، و قوله وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها معطوف على خَلَقَكُمْ أى: هو الذى خلقكم من نفس آدم و جعل من هذه النفس زوجها، و هى حواء خلقها من ضلع من أضلاعه، و قيل: المعنى جَعَلَ مِنْها من جنسها كما فى قوله جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً «١» و الأوّل أولى لِيَسْكُنَ إِلَيْها علة للجعل، أى: جعله منها لأجل يسكن إليها، يأنس إليها، و يطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكن و إليه آنس، و كان هذا فى الجنة كما وردت بذلك الأخبار، ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما فى الدنيا بعد هبوطهما، فقال فَلَمَّا تَغَشَّاها و التغشى: كناية عن الوقاع، أى: فلما جامعها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً علقت به بعد الجماع، و وصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخفّ منه عند كونه علقة، و عند كونه علقة أخفّ منه عند كونه مضغة، و عند كونه مضغة أخفّ مما بعده، و قيل: إنه خفّ عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه، و لم تجد منه ثقلا كما تجده الحوامل من النساء لقوله فَمَرَّتْ بِهِ أى: استمرت بذلك الحمل، تقوم و تقعد و تمضى فى حوائجها لا تجد به ثقلا، و الوجه الأوّل أولى لقوله فَلَمَّا أَثْقَلَتْ فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها، و قرئ فَمَرَّتْ بِهِ بالتخفيف، أى: فجزعت لذلك، و قرئ «فمارت به» من المور،

---

(١). النحل: ٧٢.

و هو المجي‏ء و الذهاب؛ و قيل المعنى: فاستمرت به. و قد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس و يحيى بن يعمر، و رويت قراءة فمارت عن عبد اللّه بن عمر، و روى عن ابن عباس أنه قرأ فاستمرت به قوله دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما جواب لما، أى: دعا آدم و حواء

ربهما و مالک أمرهما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً أى ولدا صالحا، و اللام جواب قسم محذوف، و لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط، أى: من الشاكرين لک على هذه النعمة؛ و فى هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث فى بطن حواء من أثر ذلک الجماع هو من جنسهما، و علما بثبوت النسل المتأثر عن ذلک السبب فَلَمَّا آتاهُما ما طلباه من الولد الصالح و أجاب دعاءهما جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما قال كثير من المفسرين: إنه جاء إبليس إلى حواء و قال لها: إن ولدت ولدا فسمّيه باسمى فقالت: و ما اسمک؟ قال: الحارث، و لو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحارث فكان هذا شركا فى التسمية و لم يكن شركا فى العبادة. و إنما قصد أنّ الحارث كان سبب نجاة الولد، كما يسمّى الرجل نفسه عبد ضيفه، كما قال حاتم الطائى:

و إنّى لعبد الضّيف ما دام ثاويا و ما فىّ إلا تلک من شيمة العبد

و قال جماعة من المفسرين: إن الجاعل شركا فيما آتاهما هم جنس بنى آدم، كما وقع من المشركين منهم، و لم يكن ذلک من آدم و حواء، و يدلّ على هذا جمع الضمير فى قوله فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ و ذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ من هيئة واحدة و شكل واحد وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها أى: من جنسها فَلَمَّا تَغَشَّاها يعنى جنس الذكر جنس الأنثى، و على هذا لا يكون لآدم و حوّاء ذكر فى الآية و تكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين. و قد قدّمنا الإشارة إلى نحو هذا، و ذكرنا أنه خلاف الأولى لأمور منها: وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها بأن هذا إنما هو لحواء، و منها: دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما فإن كل مولود يولد بين الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء. و قد قرأ أهل المدينة و عاصم شركا على التوحيد، و قرأ أبو عمر و سائر أهل الكوفة بالجمع. و أنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى، و أجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف، أى: جعلا له ذا شرک، أو ذوى شرک، و الاستفهام فى أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً للتقريع و التّوبيخ، أى: كيف يجعلون للّه شريكا لا يخلق شيئا و لا يقدر على نفع لهم و لا دفع عنهم. قوله وَ هُمْ يُخْلَقُونَ عطف على ما لا يَخْلُقُ و الضمير راجع إلى الشركاء الذين لا يخلقون شيئا، أى: و هؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون، و جمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلک وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ أى: لمن جعلهم شركاء نَصْراً إن طلبه منهم وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ إن حصل عليهم شىء من جهة غيرهم، و من عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال حمل بن أبى قشير و سمول بن زيد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول فإنا نعلم ما هى؟ فأنزل اللّه يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى إلى قوله وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ و أخرج

عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة أَيَّانَ مُرْساها أى: متى قيامها؟ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ قال: قالت قريش يا محمد! أسرّ إلينا الساعة لما بيننا و بينک من القرابة؟ قال يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ و ذكر لنا أن نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول: «تهيج الساعة بالناس و الرجل يسقى على ماشيته، و الرجل يصلح حوضه، و الرجل يخفض ميزانه و يرفعه، و الرجل يقيم سلعته فى السوق قضاء اللّه لا تأتيكم إلا بغتة» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله أَيَّانَ مُرْساها قال: منتهاها. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ يقول: لا يأتى بها إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: هو يجلّيها لوقتها لا يعلم ذلک إلا اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: ثقل علمها على أهل السموات و الأرض، يقول: كبرت عليهم. و أخرج ابن جرير و

ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: إذا جاءت انشقت السماء، و انتثرت النجوم، و كوّرت الشمس، و سيرت الجبال، و ما يصيب الأرض، و كان ما قال اللّه سبحانه فذلك ثقلها فيهما. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً قال: فجأة آمنين.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى البعث عن مجاهد فى قوله: كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمتها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها يقول: كأنك عالم بها، أى: لست تعلمها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عنه كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قال: لطيف بها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عنه أيضا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها يقول: كأن بينك و بينهم مودة كأنك صديق لهم، قال: لما سأل الناس محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفىّ بهم، فأوحى اللّه إليه إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ استأثر بعلمها فلم يطلع ملكا و لا رسولا.

و أخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ كأنّك حفىّ بها. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريج قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قال: الهدى و الضلالة وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ متى أموت لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ قال: العمل الصالح. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ قال: لعملت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا لا ربح فيه وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ قال: و لا يصيبنى الفقر. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ قال: لاجتنبت ما يكون من الشرّ قبل أن يكون.

و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الرويانى و الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن سمرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، و كان لا يعيش لها

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۱۵

ولد، فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمّته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحى الشيطان و أمره». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن سمرة فى قوله فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ قال: سمياه عبد الحارث. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن أبىّ بن كعب نحو حديث سمرة المرفوع موقوفا عليه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: حملت حواء فأتاها إبليس فقال: إنّى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعننى أو لأجعلن له قرنى أيل فيخرج من بطنك فيشقه و لأفعلنّ و لأفعلنّ يخوّفهما، سمّياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما أيضا فقال مثل ذلك، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حبّ الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: كان هذا فى بعض أهل الملل و ليس بآدم. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن سمرة فى قوله حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً لم يستبن فَمَرَّتْ بِهِ لما استبان حملها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله فَمَرَّتْ بِهِ قال: فشكت أحملت أم لا؟ و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن أيوب قال: سئل الحسن عن قوله فَمَرَّتْ بِهِ قال: لو كنت عربيا لعرفتها إنما هى استمرّت بالحمل.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً قال: هى النطفة فَمَرَّتْ بِهِ يقول استمرت به. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَمَرَّتْ بِهِ قال: فاستمرت به. و أخرج ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران فَمَرَّتْ بِهِ يقول: استخفته. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً فقال: أشفقا أن يكون بهيمة، فقالا لئن آتيتنا بشرا سويا. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال غلاما سويا. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ قال:

كان شريكا فى طاعة و لم يكن شريكا فى عبادة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: ما أشرك آدم، إنّ أوّلها: شكر، و آخرها: مثل ضربه لمن بعده. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ هذا فصل من آية آدم خاصة فى آلهة العرب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك نحوه و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: هذا فى الكفار يدعون اللّه فإذا آتاهما صالحا هوّدا أو نصرا، ثم قال: أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ يقول: يطيعون ما لا يخلق شيئا، و هى الشياطين لا تخلق شيئا و هى تخلق وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً يقول: لمن يدعوهم.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٣ الى ١٩٨]

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣١٦

قوله وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ هذا خطاب للمشركين، أى: و إن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى و الرشاد؛ بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم و يرشدوكم؛ لا يتبعوكم و لا يجيبوكم إلى ذلك، و هو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع و دفع الضرّ، و النّصر على الأعداء. قال الأخفش: معناه و إن تدعوهم؛ أى:

الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم؛ و قيل: المراد من سبق فى علم اللّه أنه لا يؤمن. و قرئ لا يَتَّبِعُوكُمْ مشدّدا و مخففا و هما لغتان. و قال بعض أهل اللغة: أتبعه مخففا: إذا مضى خلفه و لم يدركه، و اتبعه مشدّدا: إذا مضى خلفه فأدركه، و جملة سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ مقرّرة لمضمون ما قبلها، أى:

دعاؤكم لهم عند الشدائد و عدمه سواء لا فرق بينهما، لأنهم لا ينفعون و لا يضرون، و لا يسمعون و لا يجيبون، و قال أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ مكان أم صمتم، لما فى الجملة الاسمية من المبالغة. و قال محمد بن يحيى: إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية، يعنى لمطابقة وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ و ما قبله، قوله إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد للّه كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء تنطقون و تمشون و تسمعون و تبصرون، و هذه الأصنام ليست كذلك، و لكنها مثلكم فى كونها مملوكة للّه مسخرة لأمره. و فى هذا تقريع لهم بالغ و توبيخ لهم عظيم، و جملة فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ مقرة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، و أنهم لا يستطيعون شيئا، أى: ادعوا هؤلاء الشركاء، فإن كانوا كما تزعمون فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تدّعونه لهم من قدرتهم على النفع و الضرّ، و الاستفهام فى قوله أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ و ما بعده للتقريع و التوبيخ، أى:

هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شي‏ء من الآلات التى هى ثابتة لكم فضلا عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التى تعكفون على عبادتها ليست لهم أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها فى نفع أنفسهم فضلا عن أن يمشوا فى نفعكم و ليس لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها كما يبطش غيرهم من الأحياء، و ليس لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها كما تبصرون، و ليس لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، و بهذه المنزلة من العجز، و أم فى هذه

المواضع هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، كما ذكره أئمة النحو. و قرأ سعيد بن جبير إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ بتخفيف إن و نصب عبادا، أى: ما الذين تدعون مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية، و قد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه و غيره من اختيار الرفع فى خبرها، و بأن الكسائى قال:

إنها لا تكاد تأتى فى كلام العرب بمعنى ما إلا أن يكون بعدها إيجاب كما فى قوله: إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ، و البطش: الأخذ بقوّة. و قرأ أبو جعفر يَبْطِشُونَ بضم الطاء، و هى لغة، ثم لما بين لهم

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣١٧

حال هذه الأصنام، و تعاور وجوه النقص و العجز لها من كل باب، أمره اللّه بأن يقول لهم ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع و الضرّ ثُمَّ كِيدُونِ أنتم و هم جميعا بما شئتم من وجوه الكيد فَلا تُنْظِرُونِ أى: فلا تمهلونى، و لا تؤخرون إنزال الضرر بى من جهتها، و الكيد: المكر، و ليس بعد هذا التحدّى لهم و التعجيز لأصنامهم شى‌ء، ثم قال لهم: إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ أى: كيف أخاف هذه الأصنام التى هذه صفتها و لى ولىّ ألجأ إليه و أستنصر به و هو اللّه عزّ و جلّ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ و هذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها، و ولىّ الشى‌ء هو الذى يحفظه و يقوم بنصرته، و يمنع منه الضّرر وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ أى: يحفظهم و ينصرهم، و يحول ما بينهم و بين أعدائهم قال الأخفش: و قرئ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ يعنى: جبريل. قال النحاس: هى قراءة عاصم الجحدرى و القراءة الأولى أبين، لقوله وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ قوله وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ كرّر سبحانه هذا لمزيد التأكيد و التقرير، و لما فى تكرار التّوبيخ و التّقريع من الإهانة للمشركين و التنقيص بهم، و إظهار سخف عقولهم، و ركاكة أحلامهم وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ جملة مبتدأة لبيان عجزهم، أو حالية، أى: و الحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون، و المراد: الأصنام إنهم يشبهون النّاظرين، و لا أعين لهم يبصرون بها، قيل: كانوا يجعلون للأصنام أعينا من جواهر مصنوعة، فكانوا بذلك فى هيئة الناظرين و لا يبصرون، و قيل: المراد بذلك المشركون، أخبر اللّه عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم، و إن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

و قد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: يجاء بالشمس و القمر حتى يلقيا بين يدى اللّه تعالى، و يجاء بمن كان يعبدهما، فيقال فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ قال: هؤلاء المشركون. و أخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ ما تدعوهم إليه من الهدى.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٦]

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (١٩٩) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

قوله خُذِ الْعَفْوَ لما عدّد اللّه ما عدده من أحوال المشركين و تسفيه رأيهم و ضلال سعيهم؛ أمر رسوله

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣١٨

صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يأخذ العفو من أخلاقهم، يقال: أخذت حقّى عفوا: أى سهلا، و هذا نوع من التيسير الذى كان يأمر به

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما ثبت فى الصحيح أنه كان يقول: «يسّروا و لا تعسّروا و بشّروا و لا تنفّروا»، و المراد بالعفو هنا: ضد الجهد، و قيل: المراد؛ خذ العفو من صدقاتهم و لا تشدّد عليهم فيها، و تأخذ ما يشق عليهم، و كان هذا قبل نزول فريضة الزكاة وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ أى: بالمعروف. و قرأ عيسى بن عمر بِالْعُرُفِ بضمتين، و هما لغتان، و العرف و المعروف و العارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول و تطمئن إليها النفوس، و منه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيهلا يذهب العرف بين اللّه و النّاس

وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ أى: إذا أقمت الحجّة فى أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا، فأعرض عنهم و لا تمارهم، و لا تسافههم مكافأة لما يصدر منهم من المراء و السفاهة؛ قيل: و هذه الآية هى من جملة ما نسخ بآية السيف، قاله عبد الرحمن بن زيد و عطاء؛ و قيل: هى محكمة، قاله مجاهد و قتادة. قوله: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ النزغ: الوسوسة، و كذا النغز و النخس. قال الزجّاج: النزغ: أدنى حركة تكون، و من الشيطان: أدنى وسوسة، و أصل النزغ: الفساد، يقال نزغ بيننا: أى أفسد، و قيل: النزغ: الإغواء، و المعنى متقارب، أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أدرك شيئا من وسوسة الشيطان أن يستعيذ باللّه؛ و قيل: إنه لما نزل قوله خُذِ الْعَفْوَ قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «كيف يا ربّ بالغضب»؟ فنزلت، و جملة إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ علة لأمره بالاستعاذة، أى: استعذ به، و التجئ إليه، فإنه يسمع ذلك منك و يعلم به، و جملة إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا مقرّرة لمضمون ما قبلها، أى: إن شأن الذين يتقون اللّه و حالهم هو التذكر لما أمر اللّه به من الاستعاذة به و الالتجاء إليه عند أن يمسهم طائف من الشيطان و إن كان يسيرا. قرأ أهل البصرة طيف و كذا أهل مكة. و قرأ أهل المدينة و الكوفة طائِفٌ و قرأ سعيد ابن جبير طيف بالتشديد. قال النحاس: كلام العرب فى مثل هذا طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف. قال الكسائى: هو مخفف مثل ميت و ميت. قال النحاس: و معناه فى اللغة ما يتخيل فى القلب، أو يرى فى النوم، و كذا معنى طائف. قال أبو حاتم: سألت الأصمعى عن طيّف فقال: ليس فى المصادر فيعل. قال النحاس: ليس هو مصدرا و لكن يكون بمعنى طائف؛ و قيل: الطيف و الطائف معنيان مختلفان، فالأوّل التخيل، و الثانى الشيطان نفسه؛ فالأوّل من طاف الخيال يطوف طيفا، و لم يقولوا من هذا طائف. قال السهيلى: لأنه تخيل لا حقيقة له، فأما قوله فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ «١» فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة. قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، فطاف الخيال يطيف. قال حسان:

فدع هذا و لكن من لطيفيؤرّقنى إذا ذهب العشاء

و سمّيت الوسوسة طيفا، لأنها لمّة من الشيطان تشبه لمّة الخيال فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ بسبب التذكّر؛ أى: منتبهون، و قيل: على بصيرة. و قرأ سعيد بن جبير تَذَكَّرُوا بتشديد الذال. قال النحاس: و لا

---

(١). القلم: ١٩.

وجه له فى العربية. قوله وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِ قيل: المعنى: و إخوان الشياطين، و هم الفجار من ضلال الإنس، على أن الضمير فى إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقا، و المراد به: الجنس، فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه. يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِ أى: تمدّهم الشياطين فى الغىّ، و تكون مددا لهم، و سميت الفجار من الإنس: إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم و يقتدون بهم؛ و قيل: إن المراد بالإخوان: الشياطين، و بالضمير: الفجار من الإنس، فيكون الخبر جاريا على من هو له. و قال الزجاج: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: و الذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا و لا أنفسهم ينصرون وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِ لأن الكفار إخوان الشياطين، ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ الإقصار: الانتهاء عن الشىء، أى: لا تقصر الشياطين فى مدّ الكفار فى الغىّ،

قيل: إن فى الغىّ متصلا بقوله يَمُدُّونَهُمْ و قيل: بالإخوان، و الغى:

الجهل. قرأ نافع يَمُدُّونَهُمْ بضم حرف المضارعة و كسر الميم. و قرأ الباقون بفتح حرف المضارعة و ضم الميم، و هما لغتان: يقال مدّ و أمد. قال مكى: و مدّ أكثر. و قال أبو عبيدة و جماعة من أهل اللغة: فإنه يقال إذا كثر شىء شيئا بنفسه مدّة، و إذا كثره بغيره، قيل أمدّه نحو يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ «١» و قيل: يقال مددت فى الشرّ و أمددت فى الخير. و قرأ عاصم الجحدرى يمادونهم فى الغى. و قرأ عيسى ابن عمر ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ بفتح الياء و ضم الصاد و تخفيف القاف. قوله وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه: أى جمعه، أى: هلا اجتمعتها افتعالا لها من عند نفسك؛ و قيل:

المعنى اختلقتها، يقال اجتبيت الكلام: انتحلته و اختلقته و اخترعته، إذا جئت به من عند نفسك، كانوا يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا تراخى الوحى هذه المقالة، فأمره اللّه بأن يجيب عليهم بقوله إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَ أى: لست ممن يأتى بالآيات من قبل نفسه كما تزعمون قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي فما أوحاه إلىّ و أنزله علىّ أبلغه إليكم، و بصائر: جمع بصيرة، أى: هذا القرآن المنزل علىّ هو بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ يتبصر بها من قبلها، و قيل: البصائر، الحجج و البراهين. و قال الزجاج: البصائر: الطرق وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ معطوف على بصائر، أى: هذا القرآن هو بصائر و هدى، يهتدى به المؤمنون و رحمة لهم. قوله وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا أمرهم اللّه سبحانه بالاستماع للقرآن و الإنصات له عند قراءته لينتفعوا به، و يتدبّروا ما فيه من الحكم و المصالح؛ قيل: هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، و لا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا و العام لا يقصر على سببه، فيكون الاستماع و الإنصات عند قراءة القرآن فى كل حالة، و على أىّ صفة، مما يجب على السامع؛ و قيل: هذا خاص بقراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للقرآن، دون غيره، و لا وجه لذلك لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى: تنالون الرحمة، و تفوزون بها بامتثال أمر اللّه سبحانه، ثم أمره اللّه سبحانه أن يذكره فى نفسه، فإن الإخفاء أدخل فى الإخلاص و أدعى للقبول؛ قيل:

المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن و غيره من الأذكار التى يذكر اللّه بها. و قال النحاس: لم يختلف فى معنى وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ أنه الدعاء؛ و قيل: هو خاص بالقرآن؛ أى: اقرأ القرآن بتأمل و تدبر، و تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً منتصبان على الحال، أى: متضرعا و خائفا، و الخيفة: الخوف، و أصلها: خوفة

---

(١). آل عمران: ١٢٥.

قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، و حكى الفراء أنه يقال فى جمع خيفة: خيف. قال الجوهرى: و الخيفة:

الخوف و الجمع: خيف، و أصله الواو، أى: خوف وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ أى: دون المجهور به من القول و هو معطوف على ما قبله، أى: متضرعا، و خائفا، و متكلما بكلام هو دون الجهر من القول، و بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ متعلق باذكر أى أوقات الغدوات و أوقات الأصائل، و الغدو: جمع غدوة، و الآصال: جمع أصيل، قاله الزجّاج و الأخفش، مثل يمين و أيمان، و قيل: الآصال جمع أصل، و الأصل جمع أصيل فهو على هذا جمع الجمع، قاله الفرّاء. قال الجوهرى: الأصيل الوقت من بعد العصر إلى المغرب، و جمعه أصل و آصال و أصائل كأنه جمع أصيلة. قال الشاعر:

لعمرى لأنت البيت أكرم أهلهو أقعد فى أفنائه بالأصائل

و يجمع أيضا على أصلان مثل بعير و بعران، و قرأ أبو مجلز و الإيصال و هو مصدر. و خصّ هذين الوقتين لشرفهما، و المراد دوام الذكر للّه وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ أى: عن ذكر اللّه إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ المراد بهم: الملائكة. قال

القرطبى: بالإجماع. قال الزجاج: و قال:

عند ربک، و اللّه عزّ و جلّ بكل مكان، لأنهم قريبون من رحمته، و كل قريب من رحمة اللّه عزّ و جلّ فهو عنده. و قال غيره: لأنهم فى موضع لا ينفذ فيه إلا حكم اللّه؛ و قيل: إنهم رسل اللّه، كما يقال: عند الخليفة جيش كثير، و قيل هذا على جهة التشريف و التكريم لهم، و معنى يُسَبِّحُونَهُ يعظّمونه و ينزّهونه عن كل شين وَ لَهُ يَسْجُدُونَ أى: يخصّونه بعبادة السجود التى هى أشرف عبادة؛ و قيل: المراد بالسجود:

الخضوع و الذلة، و فى ذكر الملأ الأعلى تعريض لبنى آدم.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و البخارى و أبو داود و النسائى، و النحاس فى ناسخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن عبد اللّه بن الزبير فى قوله خُذِ الْعَفْوَ الآية، قال: ما نزلت هذه الآية إلا فى إختلاف الناس، و فى لفظ: أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله خُذِ الْعَفْوَ قال: أمر اللّه نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الشعبى قال:

لما أنزل اللّه خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما هذا يا جبريل؟

قال: لا أدرى حتى أسأل العالم، فذهب ثم رجع فقال: إن اللّه أمرک أن تعفو عمّن ظلمک، و تعطى من حرمک، و تصل من قطعک». و أخرج ابن مردويه عن جابر نحوه. و أخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال: لما نظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى حمزة بن عبد المطلب قال: «و اللّه لأمثلنّ بسبعين منهم، فجاء جبريل بهذه الآية، و أخرج ابن مردويه عن عائشة فى قوله خُذِ الْعَفْوَ قال: ما عفا لک من مكارم الأخلاق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله خُذِ الْعَفْوَ قال: خذ ما عفا من أموالهم

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۲۱

ما أتوک به من شىء فخذه، و هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة و تفصيلها. و أخرج ابن جرير و النحاس فى ناسخه عن السدّى فى الآية قال: الفضل من المال نسخته الزكاة. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال:

لما نزل خُذِ الْعَفْوَ الآية. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «كيف بالغضب يا ربّ؟ فنزل وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ . و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا قال: هم المؤمنون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ قال: الغضب. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الطيف: الغضب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله تَذَكَّرُوا قال:

إذا زلّوا تابوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: الطّائف:

اللمّة من الشيطان تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ يقول: فإذا هم منتهون عن المعصية آخذون بأمر اللّه عاصون للشيطان. وَ إِخْوانُهُمْ قال: إخوان الشيطان يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ قال:

لا الإنس يمسكون عما يعملون من السيئات، و لا الشياطين تمسک عنهم، و إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها يقول: لو لا أحدثتها، لو لا تلقّيتها فأنشأتها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِ قال: هم الجنّ يوحون إلى أولياؤهم من الإنس ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ يقول:

لاـ يسأمون وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها يقول: هلا افتعلتها من تلقاء نفسك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى هريرة فى قوله وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ الآية قال: نزلت فى رفع الأصوات و هم خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصلاة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: يعنى فى الصلاة المفروضة. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عنه قال:

صلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقرأ خلفه قوم فخلطوا، فنزلت وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ الآية. فهذه فى المكتوبة.

قال: و إن كنّا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم و البيهقى عن محمد بن كعب القرظى نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن عبد اللّه بن مغفل نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن ابن مسعود نحوه أيضا. و قد روى نحو هذا عن جماعة من السلف، و صرّحوا بأن هذه الآية نزلت فى قراءة الصلاة من الإمام. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى الآية قال:

عند الصلاة المكتوبة، و عند الذكر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: فى الصلاة و حين ينزل الوحى. و أخرج البيهقى عنه فى الآية أنه قال: هذا فى الصلاة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ الآية، قال:

أمره اللّه أن يذكره، و نهاه عن الغفلة، أما بالغدوّ: فصلاة الصبح، و الآصال: بالعشى. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر. قال: الآصال ما بين الظهر و العصر. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال: لا تجهر بذاك بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ بالبكر و العشىّ. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٢٢

بِالْغُدُوِّ قال: آخر الفجر: صلاة الصّبح، و الآصال: آخر العشى، صلاة العصر. و الأحاديث و الآثار عن الصحابة فى سجود التلاوة، و عدد المواضع التى يسجد فيها، و كيفية السجود و ما يقال فيه مستوفاة فى كتب الحديث و الفقه، فلا نطوّل بإيراد ذلك هاهنا.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٢٣

سورة الأنفال

اشارة

صرّح كثير من المفسرين بأنها مدنية، و لم يستثنوا منها شيئا، و به قال الحسن و عكرمة و جابر بن زيد و عطاء. و قد روى مثل هذا عن ابن عباس، أخرجه النحّاس فى ناسخه، و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه قال:

سورة الأنفال نزلت بالمدينة. و أخرجه ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير، و أخرجه ابن مردويه أيضا عن زيد بن ثابت. و أخرج سعيد بن منصور و البخارى و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

نزلت فى بدر. و فى لفظ تلك سورة بدر. قال القرطبى: قال ابن عباس هى مدنية إلا سبع آيات من قوله:

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى آخر سبع آيات، و جملة آيات هذه السورة ست و سبعون آية، و قد كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ بها فى صلاة المغرب، كما أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن أبى أيوب. و أخرج أيضا عن زيد بن ثابت عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه كان يقرأ فى الركعتين من المغرب بسورة الأنفال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنفال (٨): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

الأنفال: جمع نفل محرّكا، و هو: الغنيمة، و منه قول عنترة:

إنّا إذا احمرّ الوغى نروى القناو نعفّ عند مقاسم الأنفال

أى: الغنائم، و أصل النفل: الزيادة، و سميت الغنيمة به لأنها زيادة فيما أحلّ اللّه لهذه الأمة مما كان محرما على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد، و يطلق النفل على معان أخر منها: اليمين، و الانتفاء، و نبت معروف. و النافلة التطوّع لكونها زائدة على الواجب. و النافلة: ولد الولد، لأنه زيادة على الولد و كان سبب نزول الآية: اختلاف الصحابة رضى اللّه عنهم فى يوم بدر كما سيأتى بيانه فنزع اللّه ما غنموه من أيديهم و جعله للّه و الرسول، فقال: قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ أى حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول اللّه عن أمر اللّه سبحانه و ليس لكم حكم فى ذلك.

و قد ذهب جماعة من الصحابة و التابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة ليس لأحد فيها شىء حتى نزل قوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ثم أمرهم بالتقوى، و إصلاح ذات البين، و طاعة اللّه و الرسول بالتسليم لأمرهما، و ترك الاختلاف الذى وقع بينهم، ثم قال: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين باللّه، و فيه من التهييج و الإلهاب ما لا يخفى، مع

كونهم فى تلك الحال على الإيمان فكأنه قال: إن كنتم مستمرّين على الإيمان باللّه، لأنّ هذه الثلاثة الأمور التى هى تقوى اللّه، و إصلاح ذات البين، و طاعة اللّه و الرسول، لا يكمل الإيمان بدونها، بل لا يثبت أصلا لمن لم يمتثلها، فإن من ليس بمتق و ليس بمطيع للّه و رسوله ليس بمؤمن.

و قد أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أبى أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النّفل، و ساءت فيه أخلاقنا. فانتزعه اللّه من أيدينا و جعله إلى الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، فقسمه رسول اللّه بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء. و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس فهزم اللّه العدوّ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون و يقتلون، و أكبت طائفة على العسكر يحوزونه و يجمعونه، و أحدقت طائفة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يصيب العدوّ منه غرّة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها و جمعناها فليس لأحد فيها نصيب، و قال الذين خرجوا فى طلب العدوّ: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنه العدوّ و هزمناهم، و قال الذين أحدقوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و خفنا أن يصيب العدوّ منه غرّة فاشتغلنا به، فنزلت يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ قسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين المسلمين، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أغار فى أرض العدوّ نفل الربع، و إذا أقبل راجعا و كلّ الناس نفل الثلث، و كان يكره الأنفال و يقول: ليرد قويّ المسلمين على ضعيفهم. و أخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده، و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى

أيوب الأنصارى قال: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سرية فنصرها اللّه و فتح عليها، فكان من آتاه بشىء نفله من الخمس، فرجع رجال كانوا يستقدمون و يقتلون و يأسرون و تركوا الغنائم خلفهم، فلم ينالوا من الغنائم شيئا، فقالوا: يا رسول اللّه! ما بال رجال منا يستقدمون و يأسرون، و تخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة؟ فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نزل يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ الآية، فدعاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ردّوا ما أخذتم، و اقتسموا بالعدل و السوية؛ فإنّ اللّه يأمركم بذلك، فقالوا: قد أنفقنا و أكلنا، فقال: احتسبوا ذلك». و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و صححه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن سعد بن أبى وقاص قال قلت: يا رسول اللّه! قد شفانى اللّه اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف، فقال: «إنّ هذا السيف لا لك و لا لى، ضعه، فوضعته، ثم رجعت قلت: عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى إذا رجل يدعونى من ورائى، قلت: قد أنزل اللّه فىّ شيئا؟ قال: كنت سألتنى هذا السيف و ليس هو لى، و إنه قد وهب لى فهو لك» و أنزل اللّه هذه الآية يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ و فى لفظ لأحمد أن سعدا قال: لما قتل أخى يوم بدر و قتلت سعيد بن العاص و أخذت سيفه و كان يسمى ذا الكنيفة فأتيت به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم ذكر نحو ما تقدّم و قد روى هذا الحديث

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۲۵

عن سعد من وجوه أخر. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: أن الناس سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الغنائم يوم بدر فنزلت يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ و أخرج ابن مردويه عنه قال: لم ينفل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد إذ نزلت عليه يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ إلا من الخمس فإنه نفل يوم خيبر من الخمس. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«من قتل قتيلا فله كذا و كذا، و من أسر أسيرا فله كذا و كذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، و أما الشبان فسارعوا إلى القتل و الغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءا، و لو كان منكم شىء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ الآية، فقسم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الغنائم بينهم بالسوية». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: الأنفال المغانم، كانت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خالصة ليس لأحد منها شىء ما أصاب من سرايا المسلمين من شىء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول، فسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يعطيهم منها شيئا فأنزل اللّه يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لى جعلتها و لرسولى ليس لكم فيها شىء فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ إلى قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ثم أنزل اللّه وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ الآية، ثم قسم ذلك الخمس لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لذى القربى و اليتامى و المساكين و المهاجرين فى سبيل اللّه، و جعل أربعة أخماس الناس فيه سواء، للفرس سهمان، و لصاحبه سهم، و للراجل سهم. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: هى الغنائم، ثم نسخها وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ الآية. و أخرج مالك و ابن أبى شيبة و أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحّاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل و السلب من النفل، فأعاد المسألة فقال ابن عباس: هذا مثل ضبيع الذى ضربه عمر؛ و فى لفظ: فقال: ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراقى، و كان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: الأنفال المغانم، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها فيرد القوىّ على الضعيف.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و النحاس و أبو الشيخ عن عطاء فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: هو ما شذّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو دابة أو متاع فذلك للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصنع به ما شاء. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و أبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال: أرسلنا إلى سعيد ابن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألونى عن الأنفال و إنه لا نفل بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضا قال: ما كانوا ينفلون إلا من الخمس و روى عبد الرزاق عنه أنه قال: لا نفل فى غنائم المسلمين إلا فى خمس الخمس. و أخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميرا من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن الشعبى

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۲۶

فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: ما أصابت السرايا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و النحاس فى ناسخه عن مجاهد و عكرمة قال: كانت الأنفال للّه و الرسول حتى نسخها آية الخمس وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب المفرد، و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ قال: هذا تخريج من اللّه على المؤمنين أن يتقوا اللّه و أن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا فى الأنفال. و أخرج ابن أبى حاتم عن مكحول قال: كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم، فقسمت بين من ثبت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بين من قاتل و غنم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قال: طاعة الرسول: اتّباع الكتاب و السّنّة.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۲ الى ۴]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴)

الوجل: الخوف و الفزع، و المراد: أنّ حصول الخوف من اللّه و الفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملى الإيمان، المخلصين للّه، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان. قال جماعة من المفسرين:

هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما أمر به من قسمة الغنائم، و لا يخفاك أن هذا و إن صحّ إدراجه تحت معنى الآية من جهة: أن وجل القلوب عند الذكر و زيادة الإيمان عند تلاوة آيات اللّه يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال للّه و الرسول، و لكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، و لا بوقت دون وقت، و لا بواقعة دون واقعة، و المراد من تلاوة آياته: تلاوة الآيات المنزلة، أو التعبير عن بديع صنعته و كمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع و عجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون. قيل: و المراد بزيادة الإيمان، هو زيادة انشراح الصدر، و طمأنينة القلب، و انثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات؛ و قيل: المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل، لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد و لا ينقص، و الآيات المتكاثرة، و الأحاديث المتواترة، ترد ذلك و تدفعه وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ لا على غيره، و التوكل على اللّه: تفويض الأمر إليه فى جميع الأمور، و الموصول فى قوله: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ فى محل رفع على أنه وصف للموصول الذى قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو فى محل نصب على المدح، و خص إقامة الصلاة و الصدقة لكونهما أصل الخير و أساسه، و «من» فى مِمَّا للتبعيض، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدّمة، و هو مبتدأ و خبره هُمُ الْمُؤْمِنُونَ أى:

أنّ هؤلاء هم الكاملون الإيمان، البالغون فيه إلى أعلى درجاته و أقصى غاياته و حَقًّا مصدر مؤكّد لمضمون جملة هم المؤمنون،

أى: حق ذلك حقا، أو صفة مصدر محذوف، أى: هم المؤمنون إيمانا حقا، ثم ذكر ما أعدّ لمن كان جامعا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال: لَهُمْ دَرَجاتٌ أى: منازل خير و كرامة و شرف فى الجنة كائنة عند ربهم، و فى كونها عنده سبحانه: تشريف لهم و تكريم و تعظيم و تفخيم، و جملة لَهُمْ

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٢٧

دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ خبر ثان ل أُولئِكَ أو مستأنفة جوابا لسؤال مقدر، وَ مَغْفِرَةٌ معطوف على درجات، أى: مغفرة لذنوبهم وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ يكرمهم اللّه به من واسع فضله و فائض جوده.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ قال: فرقت قلوبهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر اللّه عند أداء فرائضه، و لا يؤمنون بشىء من آيات اللّه، و لا يتوكلون على اللّه، و لا يصلون إذا غابوا، و لا يؤدّون زكاة أموالهم، فأخبر اللّه أنّهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ فأدّوا فرائضه. و أخرج الحكيم الترمذى و ابن جرير و أبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء قالت: إنما الوجل فى القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب، أما تجد قشعريرة؟ قلت: بلى، قالت: فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك. و أخرج الحكيم الترمذى عن ثابت البنانى قال: قال فلان:

إنى لأعلم متى يستجاب لى؟ قالوا: و من أين لك؟ قال: إذا اقشعرّ جلدى، و وجل قلبى، و فاضت عيناى، فذلك حين يستجاب لى. و أخرج أيضا عن عائشة قالت: ما الوجل فى قلب المؤمن إلا كضرمة السّعفة، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو يهمّ بمعصية فيقال له اتق اللّه فيجل قلبه.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: زادَتْهُمْ إِيماناً قال: تصديقا.

و أخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس فى قوله: زادَتْهُمْ إِيماناً قال: خشية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ يقول: لا يرجون غيره. و أخرجا عنه فى قوله:

أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا قال: برئوا من الكفر. و أخرج أبو الشيخ عنه حَقًّا قال: خالصا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ يعنى: فضائل و رحمة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ قال: أعمال رفيعة. و أخرج عبد ابن حميد و ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه. و لا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: وَ مَغْفِرَةٌ قال: بترك الذنوب وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ قال: الأعمال الصالحة. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: إذا سمعتم اللّه يقول وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ فهى الجنة.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥ الى ٨]

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٢٨

قوله: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ قال الزجّاج: الكاف فى موضع نصب؛ أى: الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من

بيتك بالحق؛ أى: مثل إخراج ربك، و المعنى: امض لأمرك فى الغنائم و نفل من شئت و إن كرهوا، لأنّ بعض الصحابة قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال:

بقى أكثر الناس بغير شىء، فموضع الكاف نصب كما ذكرنا، و به قال الفراء و قال أبو عبيدة: هو قسم، أى: و الذى أخرجك، فالكاف: بمعنى الواو، و ما: بمعنى الذى. و قال الأخفش سعيد بن مسعدة: المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك. و قال عكرمة: المعنى: أطيعوا اللّه و رسوله كما أخرجك ربك؛ و قيل: كما أخرجك متعلق بقوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ أى: هذا الوعد للمؤمنين حق فى الآخرة كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ الواجب له، فأنجز وعدك و ظفرك بعدوّك و أوفى لك، ذكره النحاس و اختاره، و قيل: الكاف فى «كما» كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده: كما وجهتك إلى أعدائى فاستضعفوك، و سألت مددا فأمددتك، و قوّيتك، و أزحت علتك، فخذهم الآن، فعاقبهم؛ و قيل: إن الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك، يعنى: أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة، مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب، ذكره صاحب الكشاف، و بالحق متعلق بمحذوف، و التقدير: إخراجا متلبسا بالحق الذى لا شبهة فيه، و جملة وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ فى محل نصب على الحال، أى: كما أخرجك فى حال كراهتهم لذلك، لأنه لما وعدهم اللّه إحدى الطائفتين: إما العير أو النفير، رغبوا فى العير لما فيها من الغنيمة، و السلامة من القتال، كما سيأتى بيانه، و جملة يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ و ما: فى محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، و مجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين، و فات العير، و أمرهم بقتال النفير، و لم يكن معهم كثير أهبة، لذلك شق عليهم، و قالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة و أكملنا الأهبة، و معنى: فِي الْحَقِ أى: فى القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشىء إلا بإذن اللّه، أو بعد ما تبين لهم أن اللّه وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين، و أن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير، و بَعْدَ ظرف ليجادلونك، و ما مصدرية، أى:

يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم. قوله: كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ الكاف: فى محل نصب على الحال من الضمير فى لَكارِهُونَ أى: حال كونهم فى شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق ليقتل، و هو مشاهد لأسباب قتله، ناظر إليها، لا يشك فيها. قوله: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ الظرف: منصوب بفعل مقدّر، أى: و اذكروا وقت وعد اللّه إياكم إحدى الطائفتين، و أمرهم بذكر الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث، لقصد المبالغة، و الطائفتان: هما العير و النّفير، و إحدى:

هو ثانى مفعولى يعد، و أَنَّها لَكُمْ بدل منه، بدل اشتمال، و معناه: أنها مسخّرة لكم، و أنكم تغلبونها، و تغنمون منها، و تصنعون بها ما شئتم من قتل و أسر و غنيمة، لا يطيقون لكم دفعا، و لا يملكون لأنفسهم منكم ضرا و لا نفعا، و فى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم اللّه عليهم. قوله: وَ تَوَدُّونَ معطوف على يَعِدُكُمُ من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ من الطائفتين،

فتح القدير، ج‏2، ص: 329

و هى طائفة العير تَكُونُ لَكُمْ دون ذات الشوكة، و هى طائفة النفير. قال أبو عبيدة: أى غير ذات الحدّ. و الشوكة: السلاح، و الشوكة: النبت الذى له حدّ، و منه: رجل شائك السلاح، أى: حديد السلاح ثم يقلب فيقال شاكى السلاح؛ فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك، و المعنى: و تودّون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح، و هى طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها. قوله: وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ معطوف على تَوَدُّونَ و هو من جملة ما أمروا بذكر وقته، أى: و يريد اللّه غير ما تريدون، و هو أن يحقّ الحقّ بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة.

و قتلكم لصناديدهم، و أسر كثير منهم، و اغتنام ما غنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم و راموا دفعكم بها، و المراد بالكلمات: الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة، و وعدكم منه بالظفر بها وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ الدابر: الآخر، و قطعه عبارة عن الاستئصال. و المعنى: و يستأصلهم جميعا. قوله: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ هذه الجملة علة لما يريده اللّه، أى: أراد ذلك، أو يريد ذلك ليظهر الحق و يرفعه وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ و يضعه، أو اللام متعلقة بمحذوف، أى: فعل ذلك ليحق الحق، و قيل: متعلق بيقطع، و ليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين، و هذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، و العلة المقتضية له، و المصلحة المترتبة عليه، و إحقاق الحق: إظهاره، و إبطال الباطل: إعدامه بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ «١» و مفعول وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ محذوف، أى: و لو كرهوا أن يحقّ الحق و يبطل الباطل، و المجرمون: هم المشركون من قريش، أو جميع طوائف الكفار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن أبى أيوب الأنصارى قال: «قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نحن بالمدينة، و بلغه أنّ عير أبى سفيان قد أقبلت فقال: ما ترون فيها لعلّ اللّه يغنمناها و يسلمنا، فخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة و ثلاثة عشر، فأخبرنا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعدّتنا، فسرّ بذلك و حمد اللّه و قال: عدّة أصحاب طالوت، فقال: ما ترون فى قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا: يا رسول اللّه! لا و اللّه ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، ثم قال: ما ترون فى قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ «٢» فأنزل اللّه كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ إلى قوله: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ فلما وعدنا اللّه إحدى الطائفتين، إما القوم و إما العير، طابت أنفسنا، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اللهم إنى أنشدك وعدك، فقال ابن رواحة: يا رسول اللّه! إنّى أريد أن أشير عليك- و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أفضل من أن يشير عليه- إنّ اللّه أجلّ و أعظم من أن تنشده وعده. فقال: يا بن رواحة! لأنشدنّ اللّه وعده، فإنّ اللّه لا يخلف الميعاد، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى وجوه القوم فانهزموا، فأنزل اللّه وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى «٣» فقتلنا و أسرنا، فقال عمر: يا رسول اللّه! ما أرى أن يكون لك أسرى فإنما نحن داعون مؤلفون، فقلنا: يا معشر الأنصار إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام

---

(١). الأنبياء: ١٨.

(٢). المائدة: ٢٤.

(٣). الأنفال: ١٧.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم استيقظ فقال: ادعوا لى عمر، فدعى له فقال: إن اللّه قد أنزل علىّ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى الآية»، و فى إسناده ابن لهيعة، و فيه مقال معروف. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جدّه قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بدر حتى إذا كان بالرّوحاء خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال أبو بكر: يا رسول اللّه! بلغنا أنهم كذا و كذا ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال عمر مثل قول أبى بكر، ثم خطب الناس فقال:

كيف ترون؟ فقال سعد بن معاذ: يا رسول اللّه! إيانا تريد؟ فو الذى أكرمك و أنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط، و لا لى بها

علم، و لئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرنّ معك و لا نكونن كالذين قالوا لموسى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ «١» و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا معكم متبعون، و لعلك أن تكون خرجت لأمر و أحدث اللّه إليك غيره، فانظر الذى أحدث اللّه إليك فامض له، فصل حبال من شئت، و اقطع حبال من شئت، و عاد من شئت، و سالم من شئت، و خذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ إلى قوله: وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ و إنما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يريد الغنيمة مع أبى سفيان فأحدث اللّه إليه القتال. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ قال: كذلك يجادلونك فى خروج القتال. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ فقال: خروج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بدر وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ قال: لطلب المشركين يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ أنك لا تصنع إلا ما أمرك اللّه به. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ قال: هى عير أبى سفيان، ودّ أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن العير كانت لهم، و أن القتال صرف عنهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ أى: شأفتهم. و وقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث و السير و التاريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٩ الى ١٠]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

قوله: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ الظرف متعلق بمحذوف، أى: و اذكروا وقت استغاثتكم؛ و قيل بدل من وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ معمول لعامله؛ و قيل متعلق بقوله: لِيُحِقَّ الْحَقَ و الاستغاثة: طلب الغوث، يقال: استغاثنى فلان فأغثته، و الاسم: الغياث؛ و المعنى: أنّ المسلمين لما علموا أنه لا بدّ من قتال الطائفة ذات الشوكة و هم النفير، كما أمرهم اللّه بذلك، و أراده منهم، و رأوا كثرة عدد النفير، و قلّة عددهم، استغاثوا باللّه سبحانه، و قد ثبت فى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف، و عدد المسلمين ثلاثمائة و سبعة عشر رجلا، و أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما رأى ذلك استقبل القبلة، ثم

---

(١). المائدة: ٢٤.

مدّ يديه فجعل يهتف بربّه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض» الحديث. فَاسْتَجابَ لَكُمْ عطف على تستغيثون داخل معه فى التذكير، و هو و إن كان مستقبلا فهو بمعنى الماضى، و لهذا عطف عليه: استجاب. قوله: أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ أى: بأنى ممدكم، فحذف حرف الجرّ و أوصل الفعل إلى المفعول، و قرئ بكسر الهمزة على إرادة القول، أو على أن فى، استجاب: معنى القول. قوله: مُرْدِفِينَ قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول، و قرأ الباقون بكسرها اسم فاعل، و انتصابه على الحال، و المعنى على القراءة الأولى: أنه جعل بعضهم تابعا لبعض، و على القراءة الثانية: أنهم جعلوا بعضهم تابعا لبعض؛ و قيل: إن مردفين على القراءتين، نعت لألف، و قيل: إنه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب فى ممدكم، أى: ممدكم فى حال إردافكم بألف من الملائكة، و قد قيل: إن ردف و أردف بمعنى واحد، و أنكره أبو عبيدة قال لقوله تعالى: تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ «١» و لم يقل المردفة، قال سيبويه: و فى الآية قراءة ثالثة و

هى «مردّفين» بضم الراء و كسر الدال مشدّدة. و قراءة رابعة بفتح الراء و تشديد الدال. و قرأ جعفر بن محمد و عاصم الجحدرى «بآلاف» جمع ألف، و هو الموافق لما تقدّم فى آل عمران، و الضمير فى وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله: أَنِّي مُمِدُّكُمْ إِلَّا بُشْرى أى: إلا بشارة لكم بنصره، و هو استثناء مفرّغ، أى: ما جعل إمدادكم لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ أى: بالإمداد قُلُوبُكُمْ و فى هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل أمدّ اللّه المسلمين بهم للبشرى لهم و تطمين قلوبهم و تثبيتها، و اللام فى لتطمئن: متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخرا، أى: و لتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشىء آخر وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا من عند غيره، ليس للملائكة فى ذلك أثر، فهو الناصر على الحقيقة، و ليسوا إلا سببا من أسباب النصر التى سببها اللّه لكم، و أمدكم بها إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ فى كلّ أفعاله.

و قد أخرج ابن جرير عن علىّ رضى اللّه عنه قال: نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و فيها أبو بكر، و نزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنا فى الميسرة. و أخرج سنيد و ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد قال: ما أمدّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأكثر من هذه الألف التى ذكر اللّه فى الأنفال، و ما ذكر الثلاثة الآلاف و الخمسة الآلاف إلا بشرى. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: مُرْدِفِينَ قال: متتابعين. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله:

مُرْدِفِينَ يقول: المدد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه أيضا فى الآية قال: وراء كل ملك ملك. و أخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال: كان ألف مردفين و ثلاثة آلاف منزلين، فكانوا أربعة آلاف، و هم مدد المسلمين فى ثغورهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: مُرْدِفِينَ قال: مجدّين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال:

متتابعين أمدّهم اللّه بألف ثم بثلاثة، ثم أكملهم خمسة آلاف وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لكم وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ قال: يعنى نزول الملائكة. قال: و ذكر لنا أن عمر قال: أما يوم بدر فلا نشكّ أن الملائكة

---

(١). النازعات: ٧.

فتح القدير، ج۲، ص: ٣٣٢

كانوا معنا و أما بعد ذلك فاللّه أعلم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد مُرْدِفِينَ قال: بعضهم على أثر بعض.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١١ الى ١٤]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٣) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (١٤)

قوله: إِذْ يُغَشِّيكُمُ الظرف منصوب بفعل مقدّر كالذى قبله، أو بدل ثان من إذ يعدكم، أو منصوب بالنصر المذكور قبله؛ و قيل غير ذلك مما لا وجه له، و يُغَشِّيكُمُ هى قراءة نافع و أهل المدينة على أن الفاعل هو اللّه سبحانه، و هذه القراءة هى المطابقة لما قبلها: أعنى قوله: وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و لما بعدها أعنى وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ فيتشاكل الكلام و يتناسب. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو يغشاكم على أن الفاعل النعاس، و قرأ الباقون يُغَشِّيكُمْ بفتح الغين و تشديد الشين، و هى كقراءة نافع و أهل المدينة فى

إسناد الفعل إلى اللّه، و نصب النعاس قال مكى: و الاختيار ضم الياء و التشديد، و نصب النعاس لأن بعده أَمَنَةً مِنْهُ و الهاء فى منه: للّه فهو الذى يغشيهم النعاس، و لأن الأكثر عليه، و على القراءة الأولى و الثالثة يكون انتصاب أمنة على أنها مفعول له. و لا يحتاج فى ذلك إلى تأويل و تكلف، لأن فاعل الفعل المعلل و العلة واحد بخلاف انتصابها على العلة، باعتبار القراءة الثانية فإنه يحتاج إلى تكلف، و أما على جعل الأمنة مصدرا فلا إشكال، يقال أمن أمنة و أمنا و أمانا، و هذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم اللّه بها عليهم، و هى أنهم مع خوفهم من لقاء العدوّ، و المهابة لجانبه سكن اللّه قلوبهم و أمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين، و كان هذا النوم فى الليلة التى كان القتال فى غدها. قيل: و فى امتنان اللّه عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان: أحدهما: أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد، الثانى: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ و قيل: إن النوم غشيهم فى حال التقاء الصفين، و قد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران. قوله: وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ هذا المطر كان بعد النعاس، و قيل: قبل النعاس. و حكى الزجّاج: أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر، فنزلوا عليه و بقى المؤمنون لا ماء لهم، فأنزل اللّه المطر ليلة بدر. و الذى فى سيرة ابن إسحاق و غيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر و أنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم، و لم يصب المسلمين منه إلا ما شدّ لهم دهس الوادى «1»، و أعانهم على المسير، و معنى لِيُطَهِّرَكُمْ

---

(1). الدهس: الأرض يثقل فيها المشى للينها.

فتح القدير، ج2، ص: 333

بِهِ ليرفع عنكم الأحداث وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ أى: وسوسته لكم، بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التى هى منه، من الخوف و الفشل، حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب، و الضمير فى بِهِ من قوله: وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ راجع إلى الماء الذى أنزله اللّه، أى: يثبت بهذا الماء الذى أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم فى مواطن القتال؛ و قيل: الضمير راجع إلى الرابط المدلول عليه بالفعل. قوله: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه لا يقف على ذلك سواه، أى: و اذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة؛ و قيل: هو بدل من إِذْ يَعِدُكُمُ كما تقدّم، و لكنه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون فلا يكون من جملة النعم التى عدّدها اللّه عليهم؛ و قيل: العامل فيه يثبت فيكون المعنى: يثبت الأقدام وقت الوحى و ليس لهذا التقييد معنى، و قيل: العامل فيه لِيَرْبِطَ و لا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيحاء، و معنى الآية: أنى معكم بالنصر و المعونة، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول يُوحِي و على قراءة الكسر يكون بتقدير القول. و معنى فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا بشروهم بالنصر أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، و تكثير سوادهم، و هذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، و الفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها. قوله: سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ قد تقدّم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران، قيل: هذه الجملة تفسير لقوله: أَنِّي مَعَكُمْ قوله: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ قيل: المراد الأعناق أنفسها و فَوْقَ زائدة. قاله الأخفش و غيره. و قال محمد بن يزيد:

هذا خطأ، لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها و لكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه و ما قرب منها؛ و قيل المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ و قيل: المراد بفوق الأعناق: أعاليها لأنها المفاصل الذى يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع. قيل: و هذا أمر للملائكة، و قيل: للمؤمنين، و على الأوّل قيل: هو تفسير لقوله:

فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا. قوله: وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ قال الزجّاج: واحد البنان بنانة، و هى هنا الأصابع و غيرها من الأعضاء، و البنان مشتق من قولهم: أبّن الرجل بالمكان: إذا أقام به، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة و الحياة؛ و قيل: المراد بالبنان هنا: أطراف

الأصابع من اليدين و الرجلين، و هو عبارة عن الثبات فى الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنترة:

و كان فتى الهيجاء يحمى ذمارهاو يضرب عند الكرب كلّ بنان

و قال عنترة أيضا:

و إنّ الموت طوع يدى إذا ماوصلت بنانها بالهندوانى

قال ابن فارس: البنان: الأصابع، و يقال: الأطراف، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما وقع عليهم من القتل، و دخل فى قلوبهم من الرعب، و هو مبتدأ، و بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ خبره، أى: ذلك بسبب مشاقتهم، و الشقاق أصله: أن يصير كل واحد من الخصمين فى شق، و قد تقدّم تحقيق ذلك

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۳۴

وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ له، يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق. قوله: ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ الإشارة إلى ما تقدّم من العقاب، أو الخطاب هنا للكافرين، كما أن الخطاب فى قوله: ذلِكُمْ للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج: ذلكم: رفع بإضمار الأمر أو القصة، أى: الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه. قال: و يجوز أن يضمر و اعلموا. قال فى الكشاف:

و يجوز أن يكون نصبا على: عليكم ذلكم فذوقوه، كقولك زيدا فاضربه. قال أبو حيان: لا يجوز تقدير عليكم، لأنه اسم فعل، و أسماء الأفعال لا تضمر، و تشبيهه: بزيدا فاضربه، غير صحيح لأنه لم يقدّر فيه:

عليك، بل هو من باب الاشتغال، و جملة وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ معطوفة على ما قبلها، فتكون الإشارة على هذا: إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به و يكون وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ: إشارة إلى العقاب الآجل.

و قد أخرج أبو يعلى، و البيهقى فى الدلائل، عن علىّ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، و لقد رأيتنا و ما فينا إلا نائم إلّا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلّى تحت شجرة حتى أصبح. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت فى المؤمنين يوم بدر، فيما أغشاهم اللّه من النعاس أمنة منه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَمَنَةً مِنْهُ قال: أمنا من اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَمَنَةً مِنْهُ قال: رحمة منه، أمنة من العدو. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: النعاس فى الرأس، و النوم فى القلب. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: كان النعاس أمنة من اللّه، و كان النّعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، و نعاس يوم أحد. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب فى قوله:

وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ قال: طش «۱» كان يوم بدر. و أخرج هؤلاء عن مجاهد فى الآية قال: المطر أنزله اللّه عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار، و التبدت به الأرض، و طابت به أنفسهم، و ثبتت به أقدامهم. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: بعث اللّه السّماء و كان الوادى دهسا، و أصاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه ما لبد الأرض و لم يمنعهم المسير، و أصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن المشركين غلبوا المسلمين فى أوّل أمرهم على الماء، فظمئ المسلمون و صلوا مجنبين محدثين، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن و قال أ تزعمون أن فيكم نبيا و أنكم أولياء اللّه و تصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل اللّه من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء، فشرب المسلمون و تطهروا، و ثبتت أقدامهم، و ذهبت وسوسته. و قد قدّمنا المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء، و هذا المروىّ عن ابن عباس فى إسناده

العوفى، و هو ضعيف جدا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو

(١). قال فى القاموس: الطّشّ و الطّشيش: المطر الضعيف و هو فوق الرذاذ.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٣٥

الشيخ عن مجاهد فى قوله: رِجْزَ الشَّيْطانِ قال: وسوسته. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ قال: بالصبر وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ قال: كان بطن الوادى دهاسا، فلما مطروا اشتدت الرملة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ قال: حتى تشتدّ على الرمل و هو كهيئة الأرض. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علىّ قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى تلك الليلة و يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد»، و أصابهم تلك الليلة مطر شديد فذلك قوله: وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ و أخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال: قال لى أبى: يا بنىّ! لقد رأيتنا يوم بدر و إن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السّيف. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق و على البنان مثل سمة النار قد احترق به. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ يقول: الرؤوس. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عطية فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ قال: اضربوا الأعناق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ يقول: اضربوا الرقاب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ قال: يعنى بالبنان: الأطراف. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطية وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ قال: كلّ مفصل.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ١٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (١٥) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (١٨)

الزحف: الدنوّ قليلا قليلا، و أصله: الاندفاع على الإلية، ثم سمّى كلّ ماش فى الحرب إلى آخر: زاحفا، و التزاحف: التدانى و التقارب، تقول: زحف إلى العدوّ زحفا، و ازدحف القوم: أى مشى بعضهم إلى بعض، و انتصاب زحفا: إما على أنه مصدر لفعل محذوف: أى تزحفون زحفا، أو على أنه حال من المؤمنين، أى: حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا: أى حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين أى متزاحفين فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ نهى اللّه المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم و قد دبّ بعضهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن، و على كل حال إلا حالة التحرّف و التحيز. و قد روى عن عمر و ابن عمر و ابن عباس و أبى هريرة و أبى سعيد و أبى نضرة و عكرمة و نافع و الحسن و قتادة و زيد بن أبى حبيب و الضحّاك: أنّ تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختصّ بيوم

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٣٦

بدر، و أن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا، و لو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم و لا لهم فئة إلا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض، و به قال أبو حنيفة. قالوا:

و يؤيده قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ فإنه إشارة إلى يوم بدر؛ و قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف. و ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة، و أنّ الفرار من الزحف محرّم، و يؤيد هذا: أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر. و أجيب عن قول الأوّلين: بأن الإشارة في يَوْمَئِذٍ إلى يوم بدر: بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق، و لا منافاة بين هذه الآية و آية الضعف، بل هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه اللّه في آية الضعف، و لا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها، فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلّى اللّه عليه و سلّم بالخروج، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم و من خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال.

و يؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر، كما في حديث «اجتنبوا السّبع الموبقات، و فيه: و التولّي يوم الزّحف» و نحوه من الأحاديث، و هذا البحث تطول ذيوله و تتشعب طرقه، و هو مبين في مواطنه.

قال ابن عطية: و الأدبار: جمع دبر، و العبارة بالدبر في هذه الآية، متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفارّ و الذمّ له، قوله: إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ التحرف: الزوال عن جهة الاستواء، و المراد به هنا: التحرّف من جانب إلى جانب في المعركة طلبا لمكايد الحرب و خدعا للعدوّ، و كمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدوّ فيكرّ عليه و يتمكن منه، و نحو ذلك من مكائد الحرب فإن الحرب خدعة.

قوله: أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ أي: إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدوّ، و انتصاب متحرّفا و متحيزا على الاستثناء من المولين، أي: و من يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرّفا أو متحيزا، و يجوز انتصابهما على الحال، و يكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له، و جملة فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ جزاء للشرط.

و المعنى: من ينهزم و يفرّ من الزحف فقد رجع بغضب كائن من اللّه إلا المتحرّف و المتحيز وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ أي: المكان الذي يأوى إليه هو النار: ففراره أوقعه إلى ما هو أشدّ بلاء مما فرّ منه و أعظم عقوبة. و المأوى:

ما يأوى إليه الإنسان وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ما صار إليه من عذاب النار. و قد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الزحف، و في ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة. قوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ الفاء جواب شرط مقدّر، أي: إذا عرفتم ما قصه اللّه عليكم من إمداده لكم بالملائكة، و إيقاع الرعب في قلوبهم، فلم تقتلوهم و لكنّ اللّه قتلهم، بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر. قوله: وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى اختلف المفسّرون في هذا الرمي على أقوال: فروى عن مالك أن المراد به: ما كان منه صلّى اللّه عليه و سلّم في يوم حنين، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي فأصابت كل واحد منهم؛ و قيل: المراد به: الرمية التي رمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أبيّ بن خلف بالحربة في عنقه فانهزم و مات منها؛ و قيل:

المراد به: السهم الذي رمى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في حصن خيبر، فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق و هو على فراشه، و هذه الأقوال ضعيفة، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر. و أيضا المشهور في كتب السير

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٣٧

و الحديث في قتل ابن أبي الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة. و الصحيح كما قال ابن إسحاق و غيره أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية: هو ما كان منه صلّى اللّه عليه و سلّم في يوم بدر، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين، فأصابت كل واحد منهم، و دخلت في عينيه و منخريه و فمه. قال ثعلب: المعنى وَ ما رَمَيْتَ الفزع و الرعب في قلوبهم إِذْ رَمَيْتَ بالحصباء فانهزموا وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى أي:

أعانك و أظفرك، و العرب تقول: رمى اللّه لك، أي: أعانك و أظفرك و صنع لك. و قد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب

المجاز. و قال محمد بن يزيد المبرد: المعنى: وَ ما رَمَيْتَ بقوّتک إِذْ رَمَيْتَ و لکنک بقوّة اللّه رميت؛ و قيل المعنى: إن تلک الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنک لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمى البشر، و لکنها کانت رمية اللّه حيث أثرت ذلک الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأن صورتها وجدت منه، و نفاها عنه لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر فعل اللّه عزّ و جلّ، فکأنّ اللّه فاعل الرمية على الحقيقة، و کأنها لم توجد من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أصلا، هکذا فى الکشاف. قوله:

وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً البلاء هاهنا: النعمة؛ و المعنى: و لينعم على المؤمنين إنعاما جميلا، و اللام متعلقة بمحذوف، أى: و للإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلک لا لغيره، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها، أى: و لکن اللّه رمى ليمحق الکافرين و ليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لدعائهم عليم بأحوالهم، و الإشارة بقوله: ذلکم، إلى البلاء الحسن، و هو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: الغرض ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ أى: إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حکته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين و توهين کيد الکافرين؛ و قيل: المشار إليه القتل و الرمى. و قد قرئ بتشديد الهاء و تخفيفها مع التنوين. و قرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة. و الکيد: المکر، و قد تقدّم بيانه.

و قد أخرج البخارى فى تاريخه و النسائى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن نافع أنه سأل ابن عمر قال: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدوّنا، و لا ندرى من الفئة، أمامنا أو عسکرنا؟ فقال لى: الفئة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: إن اللّه يقول إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ قال: إنما نزلت هذه الآية فى أهل بدر لا لقبلها و لا لبعدها. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و النحّاس فى ناسخه، و أبو الشيخ و الحاکم و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ الآية قال: إنها کانت لأهل بدر خاصة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: لا تغرّنکم هذه الآية فإنما کانت يوم بدر و أنا فئة لکلّ مسلم. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: نزلت فى أهل بدر خاصة ما کان لهم أن ينهزموا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يترکوه. و قد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين و من بعدهم و قد قدمنا الإشارة إلى ذلک. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ يعنى مستطردا يريد الکرّة على المشرکين أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ يعنى: أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ يقول: استوجبوا سخطا من اللّه وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ فهذا يوم بدر خاصّة،

فتح القدير، ج‏2، ص: 338

کأن اللّه شدّد على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الکافرين و هو أوّل قتال قاتلوا فيه المشرکين من أهل مکة.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاک قال: المتحرف: المتقدّم من أصحابه أن يرى عورة من العدوّ فيصيبها. و المتحيّز: الفارّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و کذلک من فرّ اليوم إلى أميره و أصحابه.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ قال:

هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الآية. و أخرج سعيد بن منصور و ابن سعد و ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد، و البخارى فى الأدب المفرد و اللفظ له، و أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عمر قال: کنّا فى غزاة فحاص الناس حيصة، قلنا: کيف نلقى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قد فررنا من الزحف و بؤنا بالغضب؟ فأتينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفرّارون، فقال: لا، بل أنتم العکارون «1»، فقبلنا يده فقال: أنا فئتکم و أنا فئة

المسلمين، ثم قرأ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ. و قد روى فى تحريم الفرار من الزحف، و أنه من الكبائر أحاديث، و ورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس. و أخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عمر. و أخرجه ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ قال لأصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حين قال: هذا قتلت، و هذا قتلت. وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ قال لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم حين حصب الكفار.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ قال: رماهم يوم بدر بالحصباء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتا من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت فى طست، و رمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بتلك الحصباء و قال: شاهت الوجوه، فانهزمنا، فذلك قوله تعالى: وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ الآية. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن جابر قال: سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن فى طست، فلما اصطفّ النّاس أخذهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فرمى بهنّ فى وجوه المشركين، فانهزموا، فذلك قوله وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ قال: قال رسول اللّه لعلىّ: ناولنى قبضة من حصباء، فناوله، فرمى بها فى وجوه القوم فما بقى أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، فنزلت هذه الآية وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما كان يوم أحد أخذ أبىّ بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و اعترض رجال من المسلمين لأبىّ بن خلف ليقتلوه. فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «استأخروا، فاستأخروا، فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حربته فى يده

---

(١). قال فى القاموس: العكّار: الكرار، العطّاف.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٣٩

فرمى بها أبىّ بن خلف و كسر ضلعا من أضلاعه، فرجع أبىّ بن خلف إلى أصحابه ثقيلا فاحتملوه حين ولوا قافلين، فطفقوا يقولون لا بأس، فقال أبىّ حين قالوا له ذلك: و اللّه لو كانت بالناس لقتلتهم، أ لم يقل إنى أقتلك إن شاء اللّه، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه. قال ابن المسيب:

و فى ذلك أنزل اللّه وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب و الزهرى نحوه، و إسناده صحيح إليهما، و قد أخرجه الحاكم فى المستدرك. قال ابن كثير: و هذا القول عن هذين الإمامين غريب جدا، و لعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها، و هكذا قال فيما قال عبد الرحمن ابن جبير كما سيأتى- و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم ابن أبى الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن، فأقبل السهم يهوى حتّى قتل ابن أبى الحقيق فى فراشه، فأنزل اللّه وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى أى: لم يكن ذلك برميتك لو لا الذى جعل اللّه من نصرك و ما ألقى فى صدور عدوّك حتى هزمهم وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً أى: ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم فى إظهارهم على عدوّهم مع كثرة عدوّهم و قلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، و يشكروا بذلك نعمته.

[سورة الأنفال (٨): آية ١٩]

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

الاستفتاح: طلب النّصر، و قد اختلف في المخاطبين بالآية من هم؟ فقيل: إنها خطاب للكفار تهكما بهم، و المعنى: إن تستنصروا اللّه على محمد، فقد جاءكم النصر، و قد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا اللّه أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهكم اللّه بهم، و سمّى ما حلّ بهم من الهلاك نصرا؛ و معنى بقية الآية على هذا القول وَ إِنْ تَنْتَهُوا عما كنتم عليه من الكفر و العداوة لرسول اللّه فَهُوَ أي: الانتهاء خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا إلى ما كنتم عليه من الكفر و العداوة نَعُدْ بتسليط المؤمنين عليكم و نصرهم كما سلطناهم و نصرناهم في يوم بدر وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ أي: جماعتكم شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ أي:

لا تغني عنكم في حال من الأحوال و لو في حال كثرتها، ثم قال وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ و من كان اللّه معه فهو المنصور، و من كان اللّه عليه فهو المخذول. و قرئ بكسر إن و فتحها فالكسر: على الاستئناف، و الفتح على تقدير: و لأن اللّه مع المؤمنين فعل ذلك. و قيل: إن الآية خطاب للمؤمنين، و المعنى: إن تستنصروا اللّه فقد جاءكم النصر في يوم بدر، و إن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم، و فداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك، فهو خير لكم، و إن تعودوا إلى مثل ذلك، نعد إلى توبيخكم كما في قوله لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ الآية، و لا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً و يأباه أيضا وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ و توجيه ذلك لا يمكن إلا بتكليف و تعسف، و قيل: إن الخطاب في إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ للمؤمنين، و ما بعده للكافرين، و لا يخفى ما في هذا من تفكيك النّظم، و عود الضمائر الجارية

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٤٠

في الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين.

و قد أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و عبد بن حميد و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن مندة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن شهاب عن عبد اللّه بن ثعلبة بن صغير أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم! أقطعنا للرحم، و آتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحا منه فنزلت إِنْ تَسْتَفْتِحُوا الآية. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن عطية قال: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أهدى الفئتين، و أفضل الفئتين، و خير الفئتين، فنزلت الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس إِنْ تَسْتَفْتِحُوا يعني: المشركين، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم المدد. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ قال: كفار قريش في قولهم: ربنا افتح بيننا و بين محمد و أصحابه، ففتح بينهم يوم بدر.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة في قوله إِنْ تَسْتَفْتِحُوا قال: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء في يوم بدر. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن السدي في قوله وَ إِنْ تَنْتَهُوا قال: عن قتال محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ قال: إن تستفتحوا الثانية، أفتح لمحمد وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ قال: مع محمد و أصحابه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ يقول: نعد لكم بالأسر و القتل.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

أمر اللّه سبحانه المؤمنين بطاعته، و طاعة رسوله، و نهاهم عن التولّى عن رسوله، فالضّمير فى عَنْهُ عائد إلى الرسول، لأن طاعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى من طاعة اللّه، و مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ و يحتمل أن يكون هذا الضمير راجعا إلى اللّه و إلى رسوله كما فى قوله وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ و قيل:

الضمير راجع إلى الأمر الذى دلّ عليه أطيعوا، و أصل تولوا: تتولوا، فطرحت إحدى التاءين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين، و به قال الجمهور؛ و قيل: إنه خطاب للمنافقين، و المعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط. قال ابن عطية: و هذا و إن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدّا، لأن اللّه وصف من خاطبه فى هذه الآية بالإيمان و هو التصديق، و المنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء، و أبعد من هذا من قال: الخطاب لبنى إسرائيل، فإنه أجنبىّ من الآية، و جملة وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ فى محل نصب على الحال، و المعنى: و أنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج و البراهين، و تصدقون بها و لستم كالصمّ البكم وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا و هم المشركون، أو المنافقون، أو اليهود، أو الجميع من هؤلاء، فإنّهم يسمعون بآذانهم من غير فهم و لا عمل، فهم كالذى لم يسمع أصلا، لأنه لم ينتفع بما سمعه. ثم أخبر سبحانه بأنّ شَرَّ

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۴۱

الدَّوَابِ أى: ما دبّ على الأرض عِنْدَ اللَّهِ أى: فى حكمه الصُّمُّ الْبُكْمُ أى: الذين لا يسمعون، و لا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع و ينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع و النطق الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ما فيه النّفع لهم فيأتونه، و ما فيه الضّرر عليهم فيجتنبونه، فهم شرّ الدوابّ عند اللّه، لأنها تميز بعض تمييز، و تفرق بين ما ينفعها و يضرّها وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ أى: فى هؤلاء الصمّ البكم خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ سماعا ينتفعون به، و يتعقلون عنده الحجج و البراهين. قال الزجاج لَأَسْمَعَهُمْ جواب كل ما سألوا عنه؛ و قيل: لَأَسْمَعَهُمْ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم، لأنهم طلبوا إحياء قصىّ بن كلاب، و غيره ليشهدوا بنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون و جملة وَ هُمْ مُعْرِضُونَ فى محل نصب على الحال. و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ قال: غاضبون. و أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الآية قال: إنّ هذه الآية نزلت فى فلان و أصحاب له. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ قال: هم نفر من قريش من بنى عبد الدار. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ قال: لا يتبعون الحق. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية فى النّضر بن الحارث و قومه، و لعله المكنّى بعنه بفلان فيما تقدّم من قول علىّ رضى اللّه عنه. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ أى: لأنفذ لهم قولهم الذى قالوا بألسنتهم، و لكنّ القلوب خالفت ذلك منهم. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال:

قالوا نحن صمّ عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه، بكم لا نجيبه فيه بتصديق، قتلوا جميعا بأحد، و كانوا أصحاب اللواء يوم أحد.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۴ الى ۲۵]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۵)

الأمر هنا بالاستجابة مؤكّد لما سبق من الأمر بالطاعة، و وحد الضمير هنا حيث قال إِذا دَعاكُمْ كما وحده فى قوله وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ و قد قدّمنا الكلام فى وجه ذلك، و الاستجابة: الطاعة. قال أبو عبيدة معنى استجيبوا: أجيبوا، و إن كان استجاب: يتعدّى باللام، و

أجاب: بنفسه كما فى قوله: يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ «۱»، و قد يتعدّى بنفسه كما فى قول الشاعر «۲»:

---

(۱). الأحقاف: ۳۱.

(۲). هو كعب بن سعد الغنوى.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۴۲ وداع دعا يا من يجيب إلى النّدىفلم يستجبه عند ذاك مجيب

إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ اللام متعلقة بقوله اسْتَجِيبُوا أى: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم، و لا مانع من أن تكون متعلقة بدعا، أى: إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، فإن العلم حياة، كما أن الجهل موت، فالحياة هنا: مستعارة للعلم، قال الجمهور من المفسّرين: المعنى استجيبوا للطاعة و ما تضمّنه القرآن من أوامر و نواه، ففيه الحياة الأبدية، و النعمة السّرمدية؛ و قيل: المراد بقوله لِما يُحْيِيكُمْ الجهاد، فإنّه سبب الحياة فى الظاهر، لأن العدوّ إذا لم يغز غزا، و يستدلّ بهذا الأمر بالاستجابة على أنه:

يجب على كل مسلم إذا بلغه قول اللّه، أو قول رسوله فى حكم من الأحكام الشرعية؛ أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان، و يدع ما خالفه من الرأى، و أقوال الرجال. و فى هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، و ترك التقيد بالمذاهب، و عدم الاعتداد بما يخالف ما فى الكتاب و السنة كائنا ما كان. قوله وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ قيل معناه: بادروا إلى الاستجابة، قبل أن لا تتمكّنوا منها، بزوال القلوب التى تعقلون بها، بالموت الذى كتبه اللّه عليكم؛ و قيل معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدوّ، فأعلمهم اللّه أنه يحول بين المرء و قلبه، بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا، و يبدل عدوّهم من الأمن خوفا؛ و قيل:

هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ «۱» و معناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب لا تخفى عليه منها خافية. و اختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من اللّه عزّ و جلّ، بأنه أملك لقلوب عباده منهم، و أنه يحول بينهم و بينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئته عزّ و جلّ، و لا يخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ معطوف على أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ و أنكم محشورون إليه و هو مجازيكم بالخير خيرا، و بالشرّ شرّا، قال الفراء: و لو استأنفت فكسرت همزة أَنَّهُ لكان صوابا، و لعل مراده: أن مثل هذا جائز فى العربية. قوله وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً أى: اتّقوا فتنة تتعدى الظالم، فتصيب الصالح و الطالح، و لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

و قد اختلف النحاة فى دخول هذه النون المؤكدة فى تُصِيبَنَ فقال الفراء: هو بمنزلة قولك: انزل عن الدابة لا تطرحنك، فهو جواب الأمر بلفظ النهى، أى: إن تنزل عنها لا تطرحنك، و مثله قوله تعالى ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ «۲» أى: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء، و قال المبرد: إنه نهى بعد أمر. و المعنى: النهى للظالمين، أى: لا يقربنّ الظلم، و مثله ما روى عن سيبويه لا أرينك هاهنا، فإن معناه: لا تكن هاهنا، فإن من كان هاهنا رأيته. و قال الجرجانى:

إنّ: لا تصيبنّ، نهى فى موضع وصف لفتنة، و قرأ علىّ و زيد بن ثابت و أبىّ و ابن مسعود لتصيبنّ على أن اللام جواب لقسم محذوف، و التقدير: اتقوا فتنة و اللّه لتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة، فيكون معنى هذه القراءة مخالفا لمعنى قراءة الجماعة، لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة.

وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ و من شدّة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه، و قد وردت

---

(۱). ق: ۱۶.

(۲). النمل: ۱۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۴۳

الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه، و لا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما فى هذه الآية على العقوبات التى تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، و يمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة، و اللّه أعلم، و يمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب، كترك الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، فتكون الإصابة المتعدّية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ قال: للحق. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية: قال: هو هذا القرآن فيه الحياة و الثقة و النجاة و العصمة فى الدنيا و الآخرة. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله: إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ أى: للحرب التى أعزّكم اللّه بها بعد الذلّ، و قوّاكم بها بعد الضعف، و منعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم. و قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى سعيد بن المعلى قال: «كنت أصلّى فى المسجد فدعانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول اللّه! إنى كنت أصلى، فقال: ألم يقل اللّه تعالى استجيبوا للّه و للرسول إذا دعاكم».

الحديث، و فيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعمّ كل دعاء من اللّه أو من رسوله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه من طرق عن ابن عباس فى قوله وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ قال: يحول بين المؤمن و بين الكفر و معاصى اللّه، و يحول بين الكافر و بين الإيمان و طاعة اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى الآية قال: علمه يحول بين المرء و قلبه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: يحول بين المرء و قلبه حتى يتركه لا يعقل. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال: فى القرب منه. و أخرج أحمد و البزار و ابن المنذر و ابن مردويه و ابن عساكر عن مطرف قال: قلت للزبير: يا أبا عبد اللّه! ضيّعتم الخليفة حتى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه. قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبى بكر و عمر و عثمان وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً و لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: قرأ الزبير وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً قال: البلاء و الأمر الذى هو كائن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن فى الآية قال: نزلت فى علىّ و عثمان و طلحة و الزبير. و أخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال نزلت فى أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن السدى قال: نزلت فى أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، فكان من المقتولين طلحة و الزبير، و هما من أهل بدر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال: تصيب الظالم، و الصالح عامة. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: هى مثل. يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ حتى يتركه لا يعقل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: أمر اللّه المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم اللّه بالعذاب و قد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف، و ينهوا عن المنكر

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۴۴

عمهم اللّه بعذاب من عنده.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

الخطاب بقوله: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ للمهاجرين، أي: اذكروا وقت قلتكم، و مُسْتَضْعَفُونَ خبر ثان للمبتدأ، و الأرض: هى أرض مكة، و الخطف: الأخذ بسرعة، و المراد بالناس: مشركو قريش؛ و قيل: فارس و الروم فَآواكُمْ يقال: آوى إليه بالمد و بالقصر بمعنى: انضمّ إليه. فالمعنى: ضمكم اللّه إلى المدينة أو إلى الأنصار وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ أى: قوّاكم بالنصر فى مواطن الحرب التى منها يوم بدر، أو قوّاكم بالملائكة يوم بدر وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ التى من جملتها الغنائم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى: إرادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم، و الخون أصله كما فى الكشاف: النقص، كما أن الوفاء التمام، ثم استعمل فى ضد الأمانة و الوفاء، لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان؛ و قيل معناه: الغدر و إخفاء الشىء، و منه قوله تعالى: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ «١» نهاهم اللّه عن أن يخونوه بترك شىء مما افترضه عليهم، أو يخونوا رسوله بترك شىء مما أمنهم عليه، أو بترك شىء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى اؤتمنوا عليها، و سميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، و جملة وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و أنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد، أو و أنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل، ثم قال: وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر اللّه بها عباده، و إن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا، كما فى الآية الأخرى وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فآثروا حقّه على أموالكم و أولادكم، ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ قال: كان هذا الحيّ من العرب أذلّ الناس ذلا و أشقاه عيشا، و أجوعه بطونا، و أعراه جلودا، و أبينه ضلالة، من عاش عاش شقيا، و من مات منهم ردّى فى النار، يؤكلون و لا يأكلون، لا و اللّه ما نعلم قبيلا من حاضرى الأرض يومئذ كان أشرّ منزلا منهم، حتى جاء اللّه بالإسلام، فمكن به فى البلاد، و وسع به فى الرزق، و جعلهم به ملوكا على رقاب الناس، و بالإسلام أعطى اللّه ما رأيتم، فاشكروا للّه نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، و أهل الشكر فى مزيد من اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ قال: فى الجاهلية بمكة فَآواكُمْ إلى الإسلام. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن وهب فى قوله: يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ قال: الناس إذ ذاك فارس و الروم.

---

(١). غافر: ١٩.

و أخرج أبو الشيخ و أبو نعيم و الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله:
وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ قيل: يا رسول اللّه! و من الناس؟ قال: أهل فارس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: فَآواكُمْ قال: إلى الأنصار بالمدينة وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ قال: يوم بدر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن جابر بن عبد اللّه أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنّ أبا سفيان بمكان كذا و كذا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن أبا سفيان فى مكان كذا و كذا

فـاخرجوا إليه و اكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان إن محمدا يريـدكم فخذوا حذركم، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ الآية. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن أبى قتادة قال: نزلت هـذه الآيـة لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فى أبى لبابة بن عبد المنذر، سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبـح فنزلت. قال أبو لبابة: ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت اللّه و رسوله. و أخرج سـنيد و ابن جرير عن الزهرى نحوه بأطول منه و أخرج عبد بن حميد عن الكلبى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث أبا لبابة إلى قريظة و كان حليفا لهم، فأومأ بيـده أنه الذبـح فنزلت. و أخرج أبو الشيخ عن السدى فى هذه الآية أنها نزلت فى أبى لبابة و نسختها الآية التى فى براءة وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ «١» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا تَخُونُوا اللَّهَ قال: بترك فرائضه وَ الرَّسُولَ بترك سـننه، و ارتكاب معصـيته وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ يقول: لا تنقصوها، و الأمانـة: الأعمال التى ائتمن اللّه عليهـا العبـاد. و أخرج ابن جرير عن المغيرة بن شـعبة قـال: نزلت هـذه الآيـة فى قتل عثمان، و لعل مراده أن من جملـة ما يـدخل تحت عمومها قتل عثمان. و أخرج أبو الشيخ عن يزيد بن حبيب فى الآية قال: هو الإخلال «٢» بالسّلاح فى المغازى، و لعل مراده أن هذا يندرج تحت عمومها.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن ابن مسعود قال: ما منكم من أحـد إلا و هو يشـتمل على فتنـة. لأن اللّه يقول أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ فمن استعاذ منكم فليستعذ باللّه من مضلات الفتن.

و أخرج هؤلاء عن ابن زيد فى الآية قال: فتنة الأخبار اختبرهم، و قرأ: وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً «٣».

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

جعل سـبحانه التّقوى شـرطا فى الجعل المـذكور، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون، جريا على ما يخاطب به الناس بعضـهم بعضا. و التقوى: اتقاء مخالفة أوامره و الوقوع فى مناهيه. و الفرقان: ما يفرق به

---

(١). التوبة: ١٠٢.

(٢). قال فى لسان العرب: أخلّ بالشيء: غاب عنه و تركه.

(٣). الأنبياء: ٣٥.

بيـن الحقّ و الباطـل، و المعنى: أنه يجعـل لهم من ثبـات القلـوب، و ثقـوب البصـائر، و حسن الهدايـة مـا يفرقـون به بينهمـا عند الالتباس؛ و قيل: الفرقان: المخرج من الشبهات، و النجاة من كل ما يخافونه، و منه قول الشاعر:

مالك من طول الأسى فرقان‏بعد قطين رحلوا و بانوا

و منه قول الآخر:

و كيف أرجى الخلد و الموت طالبى‏و ما لى من كأس المنيّة فرقان

و قـال الفرّاء: المراد بالفرقـان: الفتـح و النصـر. قـال ابن إسـحاق: الفرقـان الفصـل بين الحق و الباطل، و بمثله قال ابن زيـد. و قال السـدىّ: الفرقـان: النجاة، و يؤيّـد تفسير الفرقان بالمخرج و النجاة، قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً و به قال مجاهـد و مالـك بن أنس. وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أى: يسترها حتى تكون غير ظاهرة وَ يَغْفِرْ لَكُمْ «١» ما اقترفتم من الذنوب؛ و قد قيل: إن

المراد بالسيئات: الصغائر، و بالذنوب التى تغفر: الكبائر؛ و قيل: المعنى: أنه يغفر لهم ما تقدّم من الذنوب و ما تأخر وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات و مغفرة الذنوب.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً قال: هو المخرج. و أخرج ابن جرير عنه قال: هو النجاة. و أخرج ابن جرير عن عكرمة مثله. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: هو النّصر.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٣٠) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

قوله: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا الظرف معمول لفعل محذوف. أى: و اذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك، أو معطوف على ما تقدّم من قوله وَ اذْكُرُوا ذكر اللّه رسوله هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه، و هى نجاته من مكر الكافرين و كيدهم، كما سيأتى بيانه لِيُثْبِتُوكَ أى: يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب و أبو حاتم و غيرهما، و عنه قول الشاعر:

فقلت ويحكما ما فى صحيفتكمقالوا الخليفة أمسى مثبتا وجعا

و قيل: المعنى ليحبسوك، يقال: أثبته: إذا حبسه؛ و قيل ليوثقوك، و منه: فَشُدُّوا الْوَثاقَ «٢». و قرأ الشّعبى «ليبيتوك» من البيات. و قرئ ليثبتوك بالتشديد أَوْ يُخْرِجُوكَ معطوف على ما قبله، أى: يخرجوك من مكة التى هى بلدك و بلد أهلك. و جملة وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ مستأنفة، و المكر:

---

(١). الطلاق: ٢.

(٢). محمد: ۴.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣۴٧

التدبير فى الأمر فى خفية، و المعنى: أنهم يخفون ما يعدّونه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المكايد، فيجازيهم اللّه على ذلك، و يردّ كيدهم فى نحورهم، و سمى ما يقع منه تعالى: مكرا، مشاكلة كما فى نظائره وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ أى: المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشدّ ضررا عليهم و أعظم بلاء من مكرهم. قوله: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا أى التى تأتيهم بها و تتلوها عليهم قالُوا تعنتا و تمردا و بعدا عن الحق قَدْ سَمِعْنا ما تتلوه علينا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا الذى تلوته علينا، قيل: إنهم قالوا هذا توهما منهم أنهم يقدرون على ذلك، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه، ثم قال عنادا و تمرّدا: إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: ما يستطره الوراقون من أخبار الأوّلين، و قد تقدّم بيانه مستوفى وَ إِذْ قالُوا أى: و اذكر إذ قالوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ بنصب الحقّ على أنه خبر كان، و الضمير للفصل، و يجوز الرفع، قال الزجّاج: و لا أعلم أحدا قرأ بها، و لا اختلاف بين النّحويين فى إجازتها، و لكن القراءة سنة، و المعنى: إن كان القرآن الذى جاءنا به محمد هو الحق فَأَمْطِرْ عَلَيْنا قالوا هذه المقالة مبالغة فى الجحود و الإنكار. قال أبو عبيدة: يقال: أمطر: فى العذاب، و مطر: فى الرحمة. و قال فى الكشاف: قد كثر الإمطار فى معنى العذاب أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من

السماء أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد، فأجاب اللّه عليهم بقوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ يا محمد فِيهِمْ موجود فإنك ما دمت فيهم فهم فى مهلة من العذاب الذى هو الاستئصال وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ روى أنهم كانوا يقولون فى الطواف غفرانك، أى:

و ما كان اللّه معذبهم فى حال كونهم يستغفرونه؛ و قيل: المعنى: لو كانوا ممن يؤمن باللّه و يستغفره لم يعذبهم، و قيل: إنّ الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم، أى: و ما كان اللّه ليعذبهم و فيهم من يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر و ما بعده؛ و قيل: المعنى: و ما كان اللّه معذّبهم و فى أصلابهم من يستغفر اللّه.

و قد أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و الخطيب عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال بعضهم: بل اقتلوه، و قال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع اللّه نبيه على ذلك، فبات علىّ على فراش النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه عليا ردّ اللّه مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدرى، فاقتصّوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا فى الجبل، فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس فذكر القصة بأطول مما هنا.

و فيها ذكر الشيخ النجدى؛ أى: إبليس و مشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما و يعطوا كل واحد منهم سيفا ثم

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٤٨

يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه فى القبائل، فقال الشيخ الجندى: هذا و اللّه هو الرأى، فتفرّقوا على ذلك. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال: لما ائتمروا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه؛ قال له عمّه أبو طالب: هل تدرى ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى أو يخرجونى، قال: من حدّثك بهذا؟ قال: ربى، قال:

نعم الربّ ربك، استوص به خيرا، قال: أنا أستوصى به؟ بل هو يستوصى بى. و أخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه. و هذا لا يصح، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: قال عكرمة هى مكية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطاء فى قوله لِيُثْبِتُوكَ يعنى: ليوثقوك. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: قتل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر صبرا عقبة بن أبى معيط، و طعيمة ابن عدى، و النّضر بن الحارث؛ و كان المقداد أسر النّضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول اللّه! أسيرى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إنه كان يقول فى كتاب اللّه ما يقول، قال: و فيه أنزلت هذه الآية وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا، و هذا مرسل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى أنها نزلت فى النّضر بن الحارث. و أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل بن هشام: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ الآية، فنزلت وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية.

و أخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت فى أبى جهل، و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية أنّها نزلت فى النّضر بن الحارث، و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن عطاء نحوه و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: كان المشركون

يطوفون بالبيت و يقولون: لبيك اللهم لبيك. لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه و ما ملك. و يقولون: غفرانك غفرانك. فأنزل اللّه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستغفار؛ فذهب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بقى الاستغفار.

و أخرج الترمذى و ضعّفه عن أبى موسى الأشعرى قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنزل اللّه علىّ أمانين لأمتى وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية. فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار». و أخرج أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال: كان فيكم أمانان مضى أحدهما و بقى الآخر، قال: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و الطبرانى و ابن مردويه و الحاكم و ابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى نحوه أيضا، و الأحاديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى مطلق الاستغفار كثيرة جدا، معروفة فى كتب الحديث.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣۴ الى ٣٧]

وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣۴) وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣۵) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣۶) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٣٧)

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣۴٩

قوله: وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ لما بيّن سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدّمان: وجود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين ظهورهم، و وقوع الاستغفار. ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار، أعنى: كفار مكة مستحقون لعذاب اللّه لما ارتكبوا من القبائح. و المعنى: أىّ شىء لهم يمنع من تعذيبهم؟ قال الأخفش: إن أن زائدة. قال النحاس: لو كان كما قال لرفع يعذبهم، و جملة وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فى محل نصب على الحال، أى: و ما يمنع من تعذيبهم؟ و الحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه من البيت. و جملة وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ فى محل نصب على أنها حال من فاعل يَصُدُّونَ و هذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاة البيت. و أن أمره مفوض إليهم، ثم قال مبينا لمن له ذلك إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ أى: ما أولياؤه إلا من كان فى عداد المتقين للشرك و المعاصى وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ذلك، و الحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون و لكنهم يعاندون. قوله وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً المكاء: الصفير من مكا يمكو مكاء، و منه قول عنترة:

و حليل غانية تركت مجدّلاتمكو فريصته كشدق الأعلم

أى تصوّت. و منه: مكت است الدابة: إذا نفخت بالريح، قيل المكاء: هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكّاء. قال الشاعر:

إذا غرّد المكّاء فى غير دوحةفويل لأهل الشّاء و الحمرات

و التّصدية: التصفيق، يقال: صدّى يصدّى تصدية: إذا صفق، و منه قول عمرو بن الإطنابة:

و ظلّوا جميعا لهم ضجّةمكاء لدى البيت بالتّصدية

أى: بالتصفيق؛ و قيل المكاء: الضرب بالأيدى، و التّصدية: الصياح؛ و قيل المكاء: إدخالهم أصابعهم فى أفواههم، و التّصدية: الصفير؛ و قيل التصدية: صدّهم عن البيت؛ قيل: و الأصل على هذا تصددة فأبدل من إحدى الدالين ياء. و معنى الآية: أن

المشركين كانوا يصفرون و يصفقون عند البيت، الذى هو موضع للصلاة و العبادة، فوضعوا ذلک موضع الصلاة، قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، و قرئ بنصب صلاتهم على أنها خبر كان، و ما بعده اسمها. قوله فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديدا لهم و مبالغة فى إدخال الروعة فى قلوبهم، و المراد به: عذاب الدنيا كيوم بدر، و عذاب الآخرة. قوله إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لما فرغ سبحانه

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۰

فتح القدير ج۲ ۳۹۹

من شرح أحوال هؤلاء الكفرة فى الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم فى الطاعات المالية. و المعنى: أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيل الحق بمحاربة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و جمع الجيوش لذلک، و إنفاق أموالهم عليها، و ذلک كما وقع من كفار قريش يوم بدر، و يوم أحد، و يوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش؛ ثم أخبر اللّه سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: فَسَيُنْفِقُونَها أى: سيقع منهم هذا الإنفاق ثُمَّ تَكُونُ عاقبة ذلک أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم، و كأن ذات الأموال تنقلب حسرة و تصير ندما، ثُم آخر الأمر يُغْلَبُونَ كما وعد اللّه به فى مثل قوله كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي و معنى (ثم) فى الموضعين: إما التراخى فى الزمان، لما بين الإنفاق المذكور، و بين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، و إما التراخى فى الرتبة، لما بين بذل المال، و عدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ أى: استمروا على الكفر، لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم و حسن إسلامه، أى: يساقون إليها لا إلى غيرها، ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله فقال: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ أى: الفريق الخبيث من الكفار مِنَ الفريق الطَّيِّبِ و هم المؤمنون وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ أى: يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً عبارة عن الجمع و الضم، أى: يجمع بعضهم إلى بعض، و يضمّ بعضهم إلى بعض، حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم، يقال: ركم الشيء يركمه: إذا جمعه و ألقى بعضه على بعض، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى الفريق الخبيث هُمُ الْخاسِرُونَ أى: الكاملون فى الخسران؛ و قيل: الخبيث و الطيب: صفة للمال، و التقدير: يميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون، من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون، فيضمّ تلک الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيه فى جهنم، و يعذبهم بها، كما فى قوله تعالى: فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ قال فى الكشاف: و اللام على هذا متعلقة بقوله: ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً، و على الأوّل:

ب: يُحْشَرُونَ و أُولئِکَ إشارة إلى الذين كفروا. انتهى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ثم استثنى أهل الشرک فقال وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ قال: عذابهم فتح مكة. و أخرج ابن إسحاق و أبو حاتم عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ و هم يجحدون بآيات اللّه و يكذبون رسله. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أى: من آمن باللّه و عبده، أنت و من أتبعک، وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ الذين يخرجون منه و يقيمون الصلاة عنده، أى:

أنت و من آمن بک. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ قال: من كانوا حيث كانوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش يعارضون النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الطواف و يستهزئون و يصفرون و يصفقون، فنزلت وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۱

و ابن مردويه و الضياء عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر و تصفق، فأنزل اللّه وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً قال: و المكاء: الصفير، إنما شبهوا بصفير الطير، و تصدية: التصفيق، و أنزل اللّه فيهم قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ «۱» الآية. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: المكاء: الصفير، و التصدية: التصفيق. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد، قال: المكاء: إدخال أصابعهم فى أفواههم، و التصدية: الصفير، يخلطون بذلك كله على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم صلاته.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى. قال: المكاء: الصفير، على نحو طير أبيض يقال له: المكاء بأرض الحجاز، و التّصدية: التصفيق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله إِلَّا مُكاءً قال: كانوا يشبكون أصابعهم و يصفرون فيهنّ وَ تَصْدِيَةً قال: صدّهم الناس.

و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال، و هو قوله وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فالمكاء: مثل نفخ البوق، و التّصدية: طوافهم على الشمال.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ قال: يعنى أهل بدر، عذبهم اللّه بالقتل و الأسر. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، كلّهم من طريقه: قال: حدّثنى الزهرى و محمد بن يحيى بن حيان و عاصم ابن عمر بن قتادة و الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر و رجع فلهم إلى مكة و رجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد اللّه بن أبى ربيعة و عكرمة بن أبى جهل و صفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم، فكلموا أبا سفيان و من كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم و قتل خياركم، فأعينوا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثارا. ففعلوا، ففيهم كما ذكر ابن عباس أنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إلى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى أبى سفيان بن حرب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج هؤلاء و غيرهم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة فى الآية قال: نزلت فى أبى سفيان، أنفق على مشركى قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب، و كانت الوقية يومئذ اثنين و أربعين مثقالا «۲» من ذهب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن شمر بن عطية فى قوله لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح فى الدنيا، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى فى جهنم.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً قال: يجمعه جميعا.

---

(۱). الأعراف: ۳۲.

(۲). المثقال: ۶۰، ۳ غرام.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۲

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (۳۸) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ

الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول للكفار هذا المعنى، و سواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: و لو كان كما قال الكسائى: إنه فى مصحف عبد اللّه بن مسعود قل للّذين كفروا إن تنتهوا يعنى بالتاء المثناة من فوق لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها. و قال فى الكشاف: أى: قل لأجلهم هذا القول، و هو إِنْ يَنْتَهُوا و لو كان بمعنى: خاطبهم، لقيل: إن تنتهوا يغفر لكم، و هى قراءة ابن مسعود، و نحوه وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ «١» خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه، أى:

إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قتاله بالدخول فى الإسلام يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ لهم من العداوة، انتهى. و قيل معناه: إن ينتهوا عن الكفر، قال ابن عطيّة: و الحامل على هذا جواب الشرط:

يغفر لهم ما قد سلف، و مغفرة ما قد سلف لا تكون إلّا لمنته عن الكفر. و فى هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله وَ إِنْ يَعُودُوا إلى القتال و العداوة، أو إلى الكفر الذى هم عليه، و يكون العود بمعنى الاستمرار فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ هذه العبارة مشتملة على الوعيد و التهديد و التمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب اللّه؛ أى: قد مضت سنّة اللّه فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأوّلين من الأمم أن يصيبه بعذاب، فليتوقّعوا مثل ذلك وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ أى: كفر، و قد تقدم تفسير هذا فى البقرة مستوفى فَإِنِ انْتَهَوْا عما ذكر فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء، وَ إِنْ تَوَلَّوْا عما أمروا به من الانتهاء، فَاعْلَمُوا أيها المؤمنون أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ أى: ناصركم عليهم نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ فمن والاه فاز، و من نصره غلب.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ قال: فى قريش و غيرها يوم بدر، و الأمم قبل ذلك. و أخرج أحمد و مسلم عن عمرو بن العاص قال: لما جعل اللّه الإسلام فى قلبى أتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدى، قال: مالك؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط ماذا»؟ قلت: أن تستغفر لى، قال:

«أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ و أن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ و أن الحجّ يهدم ما كان قبله».

و قد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الإسلام يجبّ ما قبله، و التوبة تجبّ ما قبلها». و قد فسر كثير من السلف قوله تعالى فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ بما مضى فى الأمم المتقدّمة من عذاب من قاتل الأنبياء و صمّم على الكفر، و قال السدّى و محمد بن إسحاق: المراد بالآية يوم بدر. و فسّر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا بالكفر. و قال محمد بن إسحاق: بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير و غيره من علمائنا حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

---

(١). الأحقاف: ١١.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٥٣

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ

حَیَّ عَنْ بَیِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِیعٌ عَلِیمٌ (۴۲)

لما أمر اللّه سبحانه بالقتال بقوله: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّی لا تَکُونَ فِتْنَةٌ و کانت المقاتلة مظنّة حصول الغنیمة ذکر حکم الغنیمة، و الغنیمة قد قدّمنا أنّ أصلها: إصابة الغنم من العدوّ، ثم استعملت فی کلّ ما یصاب منهم، و قد تستعمل فی کلّ ما ینال بسعی، و منه قول الشاعر:

و قد طوّفت فی الآفاق حتّی‌رضیت من الغنیمة بالإیاب

و مثله قول الآخر:

و مطعم الغنم یوم الغنم مطعمه‌أنّی توجّه و المحروم محروم

و أما معنی الغنیمة فی الشرع، فحکی القرطبی الاتفاق علی أنّ المراد بقوله تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ: مال الکفار إذا ظفر بهم المسلمون علی وجه الغلبة و القهر. قال: و لا تقتضی اللغة هذا التخصیص، و لکن عرف الشرع قید اللفظ بهذا النوع. و قد ادّعی ابن عبد البر الإجماع علی هذه الآیة بعد قوله: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ و أن أربعة أخماس الغنیمة مقسومة علی الغانمین، و أن قوله: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ نزلت حین تشاجر أهل بدر فی غنائم بدر، علی ما تقدّم أوّل السورة؛ و قیل إنها أعنی قوله:

یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ محکمة غیر منسوخة، و أنّ الغنیمة لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و لیست مقسومة بین الغانمین و کذلک لمن بعده من الأئمة، حکاه الماوردی عن کثیر من المالکیة، قالوا: و للإمام أن یخرجها عنهم، و احتجّوا بفتح مکة و قصّة حنین، و کان أبو عبیدة یقول: افتتح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم مکة عنوة و منّ علی أهلها فردّها علیهم و لم یقسمها و لم یجعلها فیئا، و قد حکی الإجماع جماعة من أهل العلم علی أنّ أربعة أخماس الغنیمة للغانمین، و ممّن حکی ذلک ابن المنذر و ابن عبد البرّ و الداودی و المازری و القاضی عیاض و ابن العربی، و الأحادیث الواردة فی قسمة الغنیمة بین الغانمین و کیفیتها کثیرة جدا. قال القرطبی: و لم یقل أحد فیما أعلم أن قوله تعالی:

یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ الآیة ناسخ لقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ الآیة، بل قال الجمهور:

إن قوله وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ ناسخ، و هم الذین لا یجوز علیهم التّحریف و لا التّبدیل لکتاب اللّه. و أما قصّة فتح مکة فلا حجّة فیها لاختلاف العلماء فی فتحها، قال: و أما قصّة حنین فقد عوّض الأنصار لما قالوا: تعطی الغنائم قریشا و تترکنا و سیوفنا تقطر من دمائهم نفسه، فقال لهم: «أما ترضون أن یرجع الناس بالدنیا و ترجعون برسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إلی بیوتکم» کما فی مسلم و غیره، و لیس لغیره أن یقول هذا القول، بل

فتح القدیر، ج۲، ص: ۳۵۴

ذلک خاص به. قوله أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ یشمل کلّ شیء یصدق علیه اسم الغنیمة و مِنْ شَیْءٍ بیان لما الموصولة، و قد خصص الإجماع من عموم الآیة الأساری. فإن الخیرة فیها إلی الإمام بلا خلاف.

و کذلک سلب المقتول إذا نادی به الإمام؛ و قیل: کذلک الأرض المغنومة. و ردّ بأنه لا إجماع علی الأرض.

قوله: فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ قرأ النّخعی فإن لله بکسر إن. و قرأ الباقون بفتحها علی أن: أنّ و ما بعدها مبتدأ و خبره محذوف، و التقدیر: فحق أو فواجب أن للّه خمسه.

و قد اختلف العلماء فی کیفیة قسمة الخمس علی أقوال ستة: الأوّل: قالت طائفة: یقسم الخمس علی ستة، فیجعل السدس للکعبة.

و هو الذی للّه، و الثانی: لرسول اللّه، و الثالث: لذوی القربی، و الرابع:

للیتامی، و الخامس: للمساکین، و السادس: لابن السبیل. و القول الثانی: قاله أبو العالیة و الربیع: إنها تقسم الغنیمة علی خمسة، فیعزل منها سهم واحد، و یقسم أربعة علی الغانمین، ثم یضرب یده فی السهم الذی عزله فما قبضه من شیء جعله للکعبة، ثم

يقسم بقيۀ السهم الذى عزله على خمسۀ للرسول و من بعده الآيۀ. القول الثالث: روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال: إن الخمس لنا، فقيل له: إن اللّه يقول وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فقال: يتامانا و مساكيننا و أبناء سبيلنا. القول الرابع: قول الشافعى: إنّ الخمس يقسم على خمسۀ، و إن سهم اللّه، و سهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين، و الأربعۀ الأخماس على الأربعۀ الأصناف المذكورۀ فى الآيۀ. القول الخامس: قول أبى حنيفۀ: إنه يقسم الخمس على ثلاثۀ: اليتامى، و المساكين، و ابن السبيل، و قد ارتفع حكم قرابۀ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بموته كما ارتفع حكم سهمه. قال: و يبدأ من الخمس بإصلاح القناطر و بناء المساجد و أرزاق القضاۀ و الجند. و روى نحو هذا عن الشافعى. القول السادس: قول مالك: إنه موكول إلى نظر الإمام و اجتهاده، فيأخذ منه بغير تقدير، و يعطى منه الغزاۀ باجتهاد، و يصرف الباقى فى مصالح المسلمين. قال القرطبى: و به قال الخلفاء الأربعۀ و به عملوا، و عليه يدل قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «مالى مما أفاء اللّه عليكم إلا الخمس. و الخمس مردود عليكم» فإنه لم يقسمه أخماسا و لا أثلاثا. و إنما ذكر ما فى الآيۀ من ذكره على وجه التنبيه عليهم. لأنهم من أهل من يدفع إليه. قال الزجاج محتجا لهذا القول:

قال اللّه تعالى يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ «۱» و جائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. قوله وَ لِذِي الْقُرْبى قيل: إعادۀ اللام فى ذى القربى دون من بعدهم، لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قد اختلف العلماء فى القربى على أقوال: الأول أنهم قريش كلّها. روى ذلك عن بعض السلف، و استدلّ بما روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا: يا بنى فلان يا بنى فلان.

و قال الشافعى و أحمد و أبو ثور و مجاهد و قتادۀ و ابن جريج و مسلم بن خالد: هم بنو هاشم و بنو المطلب لقوله صلّى اللّه عليه و سلّم «إنما بنو هاشم و بنو المطلب شىء واحد. و شبّك بين أصابعه» و هو فى الصحيح، و قيل: هم بنو هاشم خاصۀ، و به قال مالك و الثورى و الأوزاعى و غيرهم، و هو مروى عن على بن الحسين و مجاهد. قوله إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ قال الزجاج عن فرقۀ: إن المعنى فاعلموا أن اللّه مولاكم إن كنتم آمنتم باللّه، و قالت

---

(۱). البقرۀ: ۲۱۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۵

فرقۀ أخرى: إن إِنْ متعلقۀ بقوله وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ قال ابن عطيۀ: و هذا هو الصحيح لأن قوله وَ اعْلَمُوا يتضمّن الأمر بالانقياد و التسليم لأمر اللّه فى الغنائم، فعلق إن بقوله وَ اعْلَمُوا على هذا المعنى، أى: إن كنتم مؤمنين باللّه، فانقادوا، و سلموا لأمر اللّه فيما أعلمكم به من حال قسمۀ الغنيمۀ.

و قال فى الكشاف: إنه متعلق بمحذوف يدلّ عليه وَ اعْلَمُوا بمعنى: إن كنتم آمنتم باللّه فاعلموا أنّ الخمس من الغنيمۀ يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطماعكم، و اقتنعوا بالأخماس الأربعۀ، و ليس المراد بالعلم المجرد، و لكن العلم المضمن بالعمل، و الطاعۀ لأمر اللّه، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن و الكافر، انتهى. قوله وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا معطوف على الاسم الجليل؛ أى: إن كنتم آمنتم باللّه و بما أنزلنا، و يَوْمَ الْفُرْقانِ يوم بدر. لأنه فرق بين أهل الحق، و أهل الباطل و الْجَمْعانِ الفريقان: من المسلمين و الكافرين وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من قدرته العظيمۀ نصر الفريق الأقلّ على الفريق الأكثر. قوله:

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى قرأ ابن كثير و أبو عمرو و يعقوب بكسر العين فى العدوۀ، فى الموضعين، و قرأ الباقون بالضم فيهما، و إِذْ بدل من يوم الفرقان، و يجوز أن يكون العامل محذوفا، أى: و اذكروا إذ أنتم. و العدوۀ: جانب الوادى،

و الـدنيا: تأنيث الأدنى. و القصوى: تأنيث الأقصـى، من: دنا يـدنو، و قصا يقصو، و يقال: القصـيا، و الأصل الواو، و هى لغـة أهل الحجـاز، و العـدوة الـدنيا كـانت ممـا يلى المدينـة، و القصوى كـانت مما يلى مكـة. و المعنى: وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى إلى جهـة المدينـة، و عـدوّكم بالجـانب الأقصـى منه ممـا يلى مكـة. و جملـة وَ الرَّكْبُ أَسْـفَلَ مِنْكُمْ فى محل نصب على الحال، و انتصاب أَسْـفَلَ على الظرف، و محله الرفع على الخبرية، أى: و الحال أنّ الركب فى مكان أسـفل من المكان الذى أنتم فيه، و أجاز الأخفش و الكسائى و الفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلا منكم، و الركب:

جمع راكب، و لاـ تقول العرب ركب إلاـ للجماعـة الراكبى الإبل، و لا يقال لمن كان على فرس و غيرها: ركب، و كـذا قال ابن فارس، و حكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة. و المراد بالركب هاهنا: ركب أبى سـفيان، و هى: المراد بالعير، فإنهم كانوا فى موضع أسـفل منهم، ممّا يلى ساحل البحر. قيل: و فائـدة ذكر هـذه الحالـة التى كانوا عليها، من كونهم بالعـدوة الـدنيا، و عدوّهم بالعـدوة القصـوى، و الركب أسـفل منهم الدلالـة على قـوّة شـأن العـدوّ و شـوكته، و ذلـك لأـن العـدوة القصوى الـتى أنـاخ بها المشـركون كان فيها الماء، و كانت أرضا لا بأس بها، و أما العـدوة الـدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقـدام و لا ماء بها، و كانت العير وراء ظهر العـدوّ مع كثرة عددهم، فامتنّ اللّه على المسـلمين بنصـرتهم عليهم، و الحال هذه. قوله وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ أى: لو تواعـدتم أنتم و المشـركون من أهل مكـة على أن تلتقوا فى هـذا الموضع للقتال، لخالف بعضـكم بعضا، فثبطكم قلتكم و كثرتهم عن الوفاء بالموعد و ثبطهم ما فى قلوبهم من المهابة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لكِنْ جمع اللّه بينكم فى هـذا الموطن لِيَقْضِـيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا أى: حقيقا بأن يفعل من نصـر أوليائه، و خـذلان أعـدائه، و إعزاز دينه، و إذلال الكفر، فأخرج المسلمين لأخذ العير و غنيمتها عند أنفسهم، و أخرج الكافرين للمدافعة عنها. و لم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة، و اللام فى

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٥۶

لِيَقْضِـيَ متعلقـة بمحـذوف، و التقـدير: جمعهم ليقضـى. و جملـة لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَ بدل من الجملة التى قبلها، أى: ليموت من يموت عن بينـة، و يعيش عن بينـة لئلا يبقى لأحد على اللّه حجة؛ و قيل: الهلاك و الحياة مستعار للكفر و الإسـلام، أى: ليصـدر إسـلام من أسـلم عن وضوح بينـة، و يقين بـأنه دين الحق؛ و يصـدر كفر من كفر عن وضوح بينـة، لاـ عن مخالجـة شـبهة. قرأ نافع و خلف و سـهل و يعقوب و البزى و أبو بكر من حيى بياءين على الأصل، و قرأ الباقون بياء واحـدة على الإدغام، و هى اختيار أبى عبيـد، لأنها كذلك وقعت فى المصحف وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَـمِيعٌ عَلِيمٌ أى: سـميع بكفر الكافرين، عليم به، و سميع بإيمان المؤمنين، عليم به.

و قـد أخرج ابن إسـحاق و ابن أبى حاتم عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير قال: ثم وضع مقاسم الفىء، فقال وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ بعد الذى كان مضى من بدر فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ إلى آخر الآية.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى قـال: سـألت الحسن بن محمـد بن علىّ بن أبى طالب ابن الحنفيـة عن قول اللّه وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ قال: هـذا مفتـاح كلام، للّه الـدّنيا و الآـخرة وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى فـاختلفوا بعـد وفاة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى هـذين السـهمين. قال قائل منهم: سـهم ذى القربى لقرابة رسول اللّه، و قال قائل منهم: سـهم ذى القربى لقرابة الخليفة، و قال قائل منهم: سهم النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم للخليفة من بعده، و اجتمع رأى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على أن يجعلوا هذين السـهمين فى الخيل و العدّة فى سبيل اللّه؛ فكان ذلك فى خلافة أبى بكر و عمر. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم إذا بعث سـرية فغنموا، خمس الغنيمة فضرب ذلك فى خمسه،

ثم قرأ وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ الآيهٔ، قال قوله فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ مفتاح كلام، للّه ما فى السّموات و ما فى الأرض، فجعل اللّه سهم اللّه و الرسول واحدا وَ لِذِي الْقُرْبى فجعل هذين السّهمين قوّهٔ فى الخيل و السلاح، و جعل سهم اليتامى و المساكين و ابن السبيل لا يعطيه غيرهم، و جعل الأربعهٔ الأسهم الباقيهٔ للفرس سهما و لراكبه سهما و للراجل سهما. و أخرج ابن جرير و أبو المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: كانت الغنيمهٔ تقسم على خمسهٔ أخماس: فأربعهٔ منها بين من قاتل عليها، و خمس واحد يقسم على أربعهٔ أخماس، فربع للّه و للرسول و لذى القربى، يعنى قرابهٔ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فما كان للّه و للرسول فهو لقرابهٔ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و لم يأخذ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الخمس شيئا، و الربع الثانى لليتامى؛ و الربع الثالث للمساكين؛ و الربع الرابع لابن السبيل، و هو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين. و أخرج ابن أبى شيبهٔ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى العاليهٔ فى قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الآيهٔ قال: كان يجاء بالغنيمهٔ فتوضع، فيقسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على خمسهٔ أسهم، فيعزل سهما منها و يقسم أربعهٔ أسهم بين الناس، يعنى لمن شهد الوقعهٔ، ثم يضرب بيده فى جميع السهم الذى عزله، فما قبض عليه من شىء جعله للكعبهٔ. فهو الذى سمى اللّه، لا تجعلوا للّه نصيبا فأن للّه الدنيا و الآخرهٔ- ثم يعمد إلى بقيهٔ السهم فيقسمه على خمسهٔ أسهم: سهم للنبى

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۵۷

صلّى اللّه عليه و سلّم، و سهم لذى القربى و سهم لليتامى، و سهم للمساكين، و سهم لابن السبيل. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يجعل سهم اللّه فى السلاح و الكراع، و فى سبيل اللّه، و فى كسوهٔ الكعبهٔ و طيبها و ما تحتاج إليه الكعبهٔ، و يجعل سهم الرسول فى الكراع و السلاح و نفقهٔ أهله، و سهم ذى القربى لقرابته، يضعه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم مع سهمهم مع الناس، و لليتامى و المساكين و ابن السبيل ثلاثهٔ أسهم يضعها رسول اللّه فيمن شاء حيث شاء، ليس لبنى عبد المطلب فى هذه الثلاثهٔ الأسهم و لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سهم مع سهام الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن حسين المعلم قال: سألت عبد اللّه بن بريدهٔ عن قوله فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ فقال: الذى للّه لنبيه و الذى للرسول لأزواجه. و أخرج الشافعى و عبد الرزاق و ابن أبى شيبهٔ و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس أن نجدهٔ كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر اللّه. فكتب إليه: إنا كنّا نرى أنّا هم فأبى ذلک علينا قومنا. و قالوا: قريش كلّها ذوو قربى. و زيادهٔ قوله: و قالوا قريش كلها، تفرّد بها أبو معشر، و فيه ضعف. و أخرج ابن أبى شيبهٔ و ابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس: أنّ نجدهٔ الحرورى أرسل إليه يسأله عن سهم ذى القربى، و يقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس: هو لقربى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قسمه لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد كان عمر عرض علينا من ذلک عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم و أبينا أن نقبله، و كان عرض عليهم أن يعين ناكحهم و أن يقضى عن غارمهم و أن يعطى فقيرهم و أبى أن يزيدهم على ذلک.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: رغبت لكم عن غسالهٔ الأيدى، لأنّ لكم فى خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم». رواه ابن أبى حاتم عن إبراهيم بن مهدى المصيصى حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمهٔ عنه مرفوعا، قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، و إبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم.

و قال: يحيى بن معين يأتى بمناكير. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن الزهرى و عبد اللّه بن أبى بكر عن جبير بن مطعم: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قسم سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم و بنى المطلب، قال: فمشيت أنا و عثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول اللّه! هؤلاء إخوانک من بنى هاشم لا ننكر فضلهم لمكانک منهم، أ رأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا؟ فإنما نحن و هم بمنزلهٔ واحدهٔ فى النسب، فقال: «إنهم لم يفارقونا فى الجاهليهٔ و الإسلام». و قد أخرجه

مسلم فى صحيحه. و أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس: آل علىّ، و آل العباس، و آل جعفر، و آل عقيل.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم شىء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم و إما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن مردويه عن علىّ قال: قلت: يا رسول اللّه! أ لا ـ ولّيتنى ما خصّنا اللّه به من الخمس؟ فولانيه. و أخرج الحاكم و صححه عنه قال: ولانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خمس الخمس فوضعته مواضعه حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبى بكر و عمر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ الْفُرْقانِ قال: هو يوم بدر، و بدر ما بين مكة و المدينة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۵۸

الدلائل عن ابن عباس فى قوله يَوْمَ الْفُرْقانِ قال: هو يوم بدر، فرق اللّه فيه بين الحق و الباطل. و أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: كانت ليلة الفرقان- ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها- ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، و أخرج عنه ابن جرير أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا قال: العدوة الدنيا شاطئ الوادى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ قال: أبو سفيان. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: العدوة الدنيا: شفير الوادى الأدنى، و العدوة القصوى: شفير الوادى الأقصى.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۳ الى ۴۴]

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴۴)

إذ منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان. و المعنى: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رآهم فى منامه قليلا، فقصّ ذلك على أصحابه، فكان ذلك سببا لثباتهم، و لو رآهم فى منامه كثيرا لفشلوا، و جبنوا عن قتالهم، و تنازعوا فى الأمر، هل يلاقونهم أم لا؟ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أى: سلمهم و عصمهم من الفشل و التنازع فقللهم فى عين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المنام؛ و قيل: عنى بالمنام: محل النوم، و هو العين، أى: فهو موضع منامك و هو عينك، روى ذلك عن الحسن. قال الزجاج: هذا مذهب حسن و لكنّ الأوّل أسوغ فى العربية لقوله وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ فدلّ بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء، و أن تلك رؤية النوم. قوله وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأوّل، أى: و اذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلا، حتى قال القائل من المسلمين لآخر: أ تراهم سبعين؟

قال: هم نحو المائة، و قلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال قائلهم: إنما هم أكلة جزور، و كان هذا قبل القتال، فلما شرعوا فيه كثر اللّه المسلمين فى أعين المشركين، كما قال فى آل عمران: يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ و وجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين، هو أنهم إذا رأوهم قليلا ـ أقدموا على القتال غير خائفين، ثم يرونهم كثيرا فيفشلون، و تكون الدائرة عليهم، و يحلّ بهم عذاب اللّه، و سوط عقابه، و اللام فى لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريبا، و إنما كرره لاختلاف المعلل به وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كلها يفعل فيها ما يريد، و يقضى فى شأنها ما يشاء.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا قال: أراه اللّه إياهم فى منامه قليلا، فأخبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو

الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ يقول: لجبنتم وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ قال: لاختلفتم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۹

أى: أتمّ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ يقول: سلّم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوّهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله:

وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ الآية قال: لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى: تراهم سبعين؟

قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه قال: كنّا ألفا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: حضض بعضهم على بعض. قال ابن كثير: إسناده صحيح. و أخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير فى قوله: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا أى: ليلف بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، و الإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ۴۵ الى ۴۹]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۴۶) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۴۷) وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (۴۸) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۹)

قوله: إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً اللقاء: الحرب، و الفئة: الجماعة، أى: إذا حاربتم جماعة من المشركين فَاثْبُتُوا لهم، و لا تجبنوا عنهم، و هذا لا ينافى الرخصة المتقدّمة فى قوله: إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فإن الأمر بالثبات هو فى حال السعة، و الرخصة هى فى حال الضرورة. و قد لا يحصل الثبات إلا بالتحرّف و التحيز وَ اذْكُرُوا اللَّهَ أى: اذكروا اللّه عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد؛ و قيل المعنى: اثبتوا بقلوبكم، و اذكروا بألسنتكم، فإن القلب قد يسكن عند اللقاء، و يضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب و اللسان، قيل: و ينبغى أن يكون الذكر فى هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ «۱». و فى الآية دليل على مشروعية الذّكر فى جميع الأحوال، حتى فى هذه الحالة التى ترجف فيها القلوب، و تزيغ عندها البصائر، ثم أمرهم بطاعة اللّه فيما يأمرهم به، و طاعة رسوله فيما يرشدهم إليه، و نهاهم عن التنازع، و هو الاختلاف فى الرأى، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل، و هو الجبن فى الحرب. و الفاء جواب النهى، و الفعل منصوب بإضمار أن، و يجوز أن يكون الفعل معطوفا على تنازعوا، مجزوما بجازمه. قوله: وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ قرئ بنصب الفعل، و جزمه عطفا على تفشلوا على الوجهين، و الريح: القوّة و النصر، كما يقال:

الريح لفلان، إذا كان غالبا فى الأمر؛ و قيل: الريح الدولة، شبهت فى نفوذ أمرها بالريح فى هبوبها، و منه قول الشاعر:

---

(۱). البقرة: ۲۵۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۶۰ إذا هبّت رياحك فاغتنمهافعقبى كلّ خافقة سكون

و قيل: المراد بالريح: ريح الصبا، لأنّ بها كان ينصر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أمرهم بالصّبر على شدائد الحرب، و أخبرهم بأنه مع الصابرين فى كل أمر ينبغى الصبر فيه، و يا حبذا هذه المعية التى لا يغلب من رزقها غالب، و لا يؤتى صاحبها من جهة

من الجهات، و إن كانت كثيرة، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطرا و رئاء النّاس، و هم قريش، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التى مع أبى سفيان، و معهم القيان و المعازف، فلما بلغوا الجحفة، بلغهم أن العير قد نجت و سلمت، فلم يرجعوا، بل قالوا:

لا بدّ لهم من الوصول إلى بدر، ليشربوا الخمر، و تغنى لهم القيان، و تسمع العرب بمخرجهم، فكان ذلك منهم بطرا و أشرا و طلبا للثناء من الناس، و للتمدح إليهم، و الفخر عندهم، و هو الرياء؛ قيل: و البطر فى اللغة:

التقوّى بنعم اللّه على معاصيه، و هو مصدر فى موضع الحال، أى: خرجوا بطرين مرائين؛ و قيل: هو مفعول له، و كذا، رياء، أى: خرجوا للبطر و الرياء. و قوله: وَ يَصُدُّونَ معطوف على بطرا، و المعنى كما تقدّم، أى: خرجوا بطرين مرائين صادّين عن سبيل اللّه، أو للصدّ عن سبيل اللّه. و الصدّ: إضلال الناس، و الحيلولة بينهم و بين طرق الهداية. و يجوز أن يكون و يصدّون: معطوفا على يخرجون، و المعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة و الصدّ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم عليها. قوله: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ الظرف متعلق بمحذوف، أى: و اذكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم، و التزيين: التحسين، و قد روى: أن الشيطان تمثل لهم و قال لهم تلك المقالة و هى لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ أى: مجير لكم من كل عدوّ، أو من بنى كنانة، و معنى الجار هنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار، و كان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، و هو من بنى بكر بن كنانة، و كانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ و قيل المعنى: إنه ألقى فى روعهم هذه المقالة، و خيل إليهم أنهم لا يغلبون و لا يطاقون فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ أى: فئة المسلمين و المشركين نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ أى: رجع القهقرى، و منه قول الشاعر:

ليس النّكوص على الأعقاب مكرمةإنّ المكارم إقدام على الأسل

و قول الآخر:

و ما ينفع المستأخرين نكوصهمو لا ضرّ أهل السّابقات التّقدّم

و قيل: معنى نكص هاهنا: بطل كيده و ذهب ما خيله وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ أى: تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد اللّه لهم بالملائكة، ثم علل ذلك بقوله: إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ يعنى: الملائكة، ثم علل بعلة أخرى فقال: إِنِّي أَخافُ اللَّهَ قيل: خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة؛ و قيل إن دعوى الخوف كذب منه، و لكنه رأى أنه لا قوّة له و لا للمشركين فاعتلّ بذلك، و جملة وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس، و يحتمل أن تكون كلاما

مستأنفا من جهة اللّه سبحانه. قوله: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ الظرف معمول لفعل محذوف هو اذكر، و يجوز أن يتعلق بنكص، أو بزين، أو بشديد العقاب؛ قيل: المنافقون: هم الذين أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم الشاكون من غير نفاق، بل لكونهم حديثى عهد بالإسلام فوافقوا المنافقين فى قولهم بهذه المقالة، أعنى غَرَّ هؤُلاءِ أى: المسلمين دِينُهُمْ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش؛ و قيل الذين فى قلوبهم مرض هم المشركون، و لا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون فى المدينة و ما حولها، و أنهم هم و المنافقون من أهل المدينة قالوا هذا المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر، لما رأوهم فى قلة من العدد و ضعف من العدد، فأجاب اللّه عليهم بقوله: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغلبه غالب، و لا يذلّ من توكل عليه حَكِيمٌ له الحكمة البالغة التى تقصر عندها العقول.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ قال: افترض اللّه ذكره عند أشغل ما يكونون: عند الضّراب بالسيوف. و أخرج الحاكم و صححه عن سهل بن سعد قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثنتان لا يردّان: الدعاء عند النّداء، و عند البأس، حين يلحم بعضهم بعضا».
و أخرج الحاكم و صححه عن أبى موسى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يكره الصوت عند القتال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ يقول: لا تختلفوا فتجبنوا و يذهب نصركم. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ قال: نصركم، و قد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ الآية، يعنى المشركين الذين قاتلوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر. و أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان و الدّفوف، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال: أبو جهل و أصحابه يوم بدر. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر خرجوا و لهم بغى و فخر، و قد قيل لهم: ارجعوا فقد انطلقت عيركم و قد ظفرتم، فقالوا: لا و اللّه، حتى يتحدّث أهل الحجاز بمسيرنا و عددنا، و ذكر لنا أن نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال يومئذ: «اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها و خيلائها لتجادل رسولك»، و ذكر لنا أنه قال يومئذ: «جاءت من مكة أفلاذها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: جاء إبليس فى جند من الشياطين و معه راية فى صورة رجال من بنى مدلج، و الشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم فقال الشيطان: لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ و أقبل جبريل على إبليس، فلما رآه و كانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده و ولى مدبرا هو و شيعته، فقال الرجال: يا سراقة إنك جار لنا فقال: إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ و ذلك حين رأى الملائكة إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ قال: و لما دنا القوم بعضهم من بعض قلّل اللّه المسلمين فى أعين المشركين، و قلّل المشركين فى أعين المسلمين،

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٦٢

فقال المشركون: و ما هؤلاء؟ غرّ هؤلاء دينهم، و إنما قالوا ذلك من قلّتهم فى أعينهم و ظنّوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون فى ذلك، فقال اللّه وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ و أخرج الطبرانى و أبو نعيم عن رفاعة بن رافع الأنصارى قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه، فتشبث به الحارث بن هشام و هو يظنّ أنه سراقة بن مالك، فوكز فى صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه فى البحر، و رفع يديه فقال: اللهم إنى أسألك نظرتك إياى. و أخرج الواقدى و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ قال: ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فعلم عدوّ اللّه أنه لا يدان له بالملائكة، و قال: إِنِّي أَخافُ اللَّهَ و كذب عدوّ اللّه، ما به مخافة اللّه، و لكن علم أنه لا قوّة له به و لا منعة له. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن معمر قال: ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك، فأنكر أن يكون قال شيئا من ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ قال: و هم يومئذ فى المسلمين. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن الكلبى فى قوله: وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال: هم قوم كانوا أقرّوا بالإسلام و هم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا: غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن الشعبى نحوه.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٠ الى ٥٤]

وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (۵۰) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (۵۱) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (۵۲) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (۵۴)

قوله: وَ لَوْ تَرى الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له، كما تقدّم تحقيقه فى غير موضع، و المعنى: و لو رأيت، لأن لو تقلب المضارع ماضيا، و إِذْ ظرف لترى، و المفعول محذوف، أى:

و لو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم؛ قيل أراد بالذين كفروا: من لم يقتل يوم بدر؛ و قيل هى فيمن قتل ببدر و جواب لو محذوف، تقديره: لرأيت أمرا عظيما، و جملة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ فى محل نصب على الحال، و المراد بأدبارهم: أستاههم، كنى عنها بالأدبار، و قيل: ظهورهم؛ قيل: هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر التوفّى، و قيل: هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار. قوله: وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ قاله الفراء: المعنى: و يقولون ذوقوا عذاب الحريق، و الجملة معطوفة على يضربون؛ و قيل إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، و الذوق قد يكون محسوسا، و قد يوضع موضع الابتلاء و الاختبار، و أصله من

الذوق بالفم، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من الضرب و العذاب و الباء فى بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ سببية، أى: ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصى، و اقترفتم من الذنوب، و جملة وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: و الأمر أنه لا يظلمهم، و يجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبرا لقوله: ذلِكَ و هى بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ أى: ذلك العذاب بسبب المعاصى، و بسبب أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله، و أنزل عليهم كتبه، و أوضح لهم السبيل، و هداهم النجدين، كما قال سبحانه: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «۱» قوله:

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ لما ذكر اللّه سبحانه ما أنزله بأهل بدر، أتبعه بما يدل على أن هذه سنته فى فرق الكافرين، و الدأب: العادة، و الكاف: فى محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، أى: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و المعنى: أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك، فكانت العادة فى عذاب هؤلاء كالعادة الماضية للّه فى تعذيب طوائف الكفر، و جملة قوله: كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ مفسرة لدأب آل فرعون، أى: دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات اللّه، فتسبب عن كفرهم أخذ اللّه سبحانه لهم، و المراد بذنوبهم:

معاصيهم المترتبة على كفرهم، فيكون الباء فى بِذُنُوبِهِمْ للملابسة، أى: فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها، و جملة إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ معترضة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى العقاب الذى أنزله اللّه بهم، و هو مبتدأ و خبره ما بعده، و الجملة جارية مجرى التعليل لما حلّ بهم من عذاب اللّه. و المعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة اللّه فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من الأحوال و الأخلاق بكفران نعم اللّه، و غمط إحسانه، و إهمال أوامره و نواهيه، و ذلك كما كان من آل فرعون و من قبلهم، و من قريش و من يماثلهم من المشركين، فإن اللّه فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا، و منّ عليهم بإرسال الرسل و إنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم، كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه، و العمل به من شكرها و قبولها، و جملة وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ معطوفة على بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً داخلة معها فى التعليل، أى: ذلك بسبب أن اللّه لم يك مغيرا إلخ، و بسبب أن اللّه سميع عليم يسمع ما يقولونه و يعلم ما يفعلونه. و قرئ بكسر الهمزة على الاستئناف، ثم كرّر ما تقدّم، فقال كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لقصد التأكيد، مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق؛ و قيل: إن الأوّل

باعتبار ما فعله آل فرعون و من شبه بهم، و الثانى باعتبار ما فعل بهم؛ و قيل المراد بالأوّل كفرهم باللّه، و بالثانى تكذيبهم الأنبياء؛ و قيل:

غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف، و الكلام فى فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ كالكلام المتقدّم فى: فأخذهم اللّه بذنوبهم وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ معطوف على أهلكناهم، عطف الخاص على العام، لفظاعته و كونه من أشدّ أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون و الذين من قبلهم، و من كفار قريش بالظلم لأنفسهم، بما تسببوا به لعذاب اللّه من الكفر باللّه و آياته و رسله، و بالظلم لغيرهم، كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم.

---

(۱). النحل: ۱۱۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۶۴

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ قال:

الذين قتلهم اللّه ببدر من المشركين. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: قال رجل: يا رسول اللّه! إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك، قال: ذلك ضرب الملائكة. و هذا مرسل. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ أَدْبارَهُمْ قال: و أستاهم، و لكنّ اللّه كريم يكنى. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ قال: نعمة اللّه: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أنعم اللّه به على قريش فكفروا، فنقله اللّه إلى الأنصار.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۵ الى ۶۰]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (۵۸) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (۵۹)

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (۶۰)

قوله: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ أى: شرّ ما يدب على وجه الأرض عِنْدَ اللَّهِ أى: فى حكمه الَّذِينَ كَفَرُوا أى: المصرّون على الكفر المتمادون فى الضلال، و لهذا قال: فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أى: إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبدا، و لا يرجعون عن الغواية أصلا، و جعلهم شرّ الدوابّ، لا شرّ الناس، إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية و دخولهم فى جنس غير الناس من أنواع الحيوان، لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم. قوله:

الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ بدل من الذين كفروا، أو عطف بيان، أو فى محل نصب على الذمّ. و المعنى:

أن هؤلاء الكافرين الذين همّ شرّ الدوابّ عند اللّه هم هؤلاء الذين عاهدت منهم، أى: أخذت منهم عهدهم ثُم هم يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ الذى عاهدتهم فِي كُلِّ مَرَّةٍ من مرّات المعاهدة وَ الحال أن هُمْ لا يَتَّقُونَ النقض و لا يخافون عاقبته و لا يتجنبون أسبابه؛ و قيل: إن من فى قوله مِنْهُمْ للتبعيض، و مفعول عاهدت محذوف، أى: الذين عاهدتهم، و هم بعض أولئك الكفرة، يعنى: الأشراف منهم، و عطف المستقبل، و هو ثم ينقضون، على الماضى، و هو عاهدت للدلالة على استمرار النقض منهم، و هؤلاء هم قريظة، عاهدهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن لا يعينوا الكفار، فلم يفوا بذلك، كما سيأتى، ثم أمر رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و سلّم بالشدّة و الغلظة عليهم، فقال فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أى: فإما تصادفنّهم فى ثقاف «١» و تلقاهم فى حالة تقدر عليهم فيها، و تتمكن من غلبهم فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أى: ففرّق

---

(١). قال القرطبى: تأسرهم و تجعلهم فى ثقاف أو تلقاهم بحال ضعف.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٦٥

بقتلهم و التنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك، حتى يهابوا جانبك، و يكفوا عن حربك، مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء. و الثقاف فى أصل اللغة: ما يشد به القناة أو نحوها، و منه قول النابغة:

تدعو قعينا و قد عضّ الحديد بهاعضّ الثّقاف على ضمّ الأنابيب

يقال ثقفته: وجدته، و فلان ثقف: سريع الوجود لما يحاوله، و التّشريد: التفريق مع الاضطراب. و قال أبو عبيدة فَشَرِّدْ بِهِمْ سمع بهم. و قال الزجاج: افعل بهم فعلا من القتل تفرّق به من خلفهم، يقال شردت بنى فلان: قلعتهم عن مواضعهم، و طردتهم عنها، حتى فارقوها. قال الشاعر:

أطوّف فى الأباطح كلّ يوممخافة أن يشرّد بى حكيم

و منه شرد البعير: إذا فارق صاحبه، و روى عن ابن مسعود أنه قرأ فشرذ بهم بالذال المعجمة.

قال قطرب: التشريذ بالذال المعجمة: هو التنكيل، و بالمهملة: هو التفريق. و قال المهدوى: الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما. قال: و لا يعرف فشرّذ فى اللغة، و قرئ مَنْ خَلْفَهُمْ بكسر الميم و الفاء. قوله وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً أى غشا و نقضا للعهد من القوم المعاهدين فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أى: فاطرح إليهم العهد الذى بينك و بينهم عَلى سَواءٍ على طريق مستوية. و المعنى:

أنه يخبرهم إخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض و لا يناجزهم الحرب بغتة؛ و قيل: معنى: عَلى سَواءٍ على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم و أدناهم، أو تستوى أنت و هم فيه. قال الكسائى: السواء العدل، و قد يكون بمعنى الوسط، و منه قوله فِي سَواءِ الْجَحِيمِ «١»، و منه قول حسان:

يا ويح أنصار النّبىّ و رهطهبعد المغيّب فى سواء الملحد

و من الأوّل قول الشاعر:

فاضرب وجوه الغدّر الأعداءحتّى يجيبوك إلى السّواء

و قيل: معنى: فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ على جهر، لا على سرّ، و الظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه. قال ابن عطية: و الذى يظهر من ألفاظ القرآن، أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله: فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ثم ابتدأ تبارك و تعالى فى هذه الآية يأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة، و جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ تعليل لما قبلها، يحتمل أن تكون تحذيرا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، و يحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة.

قوله و لا تحسبن قرأ ابن عامر و يزيد و حمزة و حفص بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالمثناة من فوق. فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا: فاعل الحسبان، و يكون مفعوله الأوّل: محذوفا، أى: لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم، و مفعوله الثانى: سبقوا، و معناه: فاتوا و أفلتوا من أن يظفر بهم. و على القراءة الثانية: يكون الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و مفعوله الأول: الذين كفروا، و الثانى: سبقوا، و قرئ: إنهم سبقوا و قرئ يحسبن بكسر الياء، و جملة إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ تعليل لما قبلها، أى: إنهم لا

يفوتون، و لا

---

(۱). الصافات: ۵۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۶۶

يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم. و قرأ ابن عامر: أنهم، بفتح الهمزة، و الباقون بكسرها، و كلا القراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية؛ و قيل: المراد بهذه الآية: من أفلت من وقعة بدر من المشركين. و المعنى: أنهم و إن أفلتوا من هذه الوقعة، و نجوا فإنهم لا يعجزون، بل هم واقعون فى عذاب اللّه فى الدنيا أو فى الآخرة.

و قد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن قراءة من قرأ يحسبنّ بالتحتية لحن، لا تحلّ القراءة بها، لأنه لم يأت ليحسبنّ بمفعول، و هو يحتاج إلى مفعولين. قال النحّاس: و هذا تحامل شديد. و معنى هذه القراءة:

و لا يحسبنّ من خلفهم الذين كفروا سبقوا، فيكون الضمير يعود على ما تقدّم إلا أن القراءة بالتاء أبين. و قال المهدوى: يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلا، و المفعول الأوّل محذوف. و المعنى و لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم سبقوا. قال مكى: و يجوز أن يضمر مع سَبَقُوا أن فتسدّ مسد المفعولين، و التقدير: و لا يحسبنّ الذين كفروا أن سبقوا، فهو مثل أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا «۱» فى سدّ أن مسدّ المفعولين، ثم أمر سبحانه بإعداد القوّة للأعداء، و القوّة: كل ما يتقوّى به فى الحرب، و من ذلك السلاح و القسىّ. و قد ثبت فى صحيح مسلم و غيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو على المنبر يقول «و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إنّ القوّة الرمى، قالها ثلاث مرات» و قيل: هى الحصون، و المصير إلى التفسير الثابت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم متعين. قوله: وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ قرأ الحسن و عمرو بن دينار و أبو حيوة و من ربط الخيل بضم الراء و الباء، ككتب: جمع كتاب. قال أبو حاتم:

الرباط من الخيل: الخمس فما فوقها، و هى الخيل التى ترتبط بإزاء العدو، و منه قول الشاعر:

أمر الإله بربطها لعدوّهفى الحرب إنّ اللّه خير موفّق

قال فى الكشاف: و الرباط: اسم للخيل التى تربط فى سبيل اللّه، و يجوز أن يسمّى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة، و يجوز أن يكون جمع ربيط، كفصيل و فصال، انتهى. و من فسر القوّة بكل ما يتقوّى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، و جملة تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ فى محل نصب على الحال، الترهيب: التخويف، و الضمير فى به عائد إلى مَا فى مَا اسْتَطَعْتُمْ أو إلى المصدر المفهوم من وَ أَعِدُّوا و هو الإعداد. و المراد بعدوّ اللّه و عدوّهم: هم المشركون من أهل مكة، و غيرهم من مشركى العرب. قوله وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ معطوف على عدوّ اللّه و عدوّكم، و معنى من دونهم:

من غيرهم؛ قيل: هم اليهود، و قيل فارس و الروم، و قيل: الجن و رجحه ابن جرير. و قيل: المراد بالآخرين من غيرهم، كل من لا تعرف عداوته، قاله السهيلى. و قيل: هم بنو قريظة خاصة، و قيل: غير ذلك، و الأولى: الوقف فى تعيينهم لقوله لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ قوله وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى: فى الجهاد، و إن كان يسيرا حقيرا يُوَفَّ إِلَيْكُمْ جزاؤه فى الآخرة. فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قرّرناه سابقا وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ فى شىء من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل اللّه، أى: من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافيا وافرا كاملا وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً «۲» أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ «۳».

---

(۱). العنكبوت: ۲.

(٢). النساء: ٤٠.

(٣). آل عمران: ١٩٥.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٦٧

و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الآية فى ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ قال: قريظة يوم الخندق مالؤوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أعداءه.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ قال: نكّل بهم من بعدهم.

و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: نكّل بهم من وراءهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال: أنذر بهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: عظ بهم من سواهم من الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: أخفهم بهم.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك. و أخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: قد وضعت السلاح، و ما زلنا فى طلب القوم؛ فاخرج، فإن اللّه أذن لك فى قريظة، و أنزل فيهم وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ قال:

لا يفوتونا. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ قال: الرمى و السيوف و السلاح. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير فى قوله وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ قال: أمرهم بإعداد الخيل. و أخرج أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عن عكرمة فى الآية قال: القوّة ذكور الخيل، و الرباط الإناث. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى الآية قال: القوّة الحصون، و مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ قال: الإناث. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ قال: تخزون به عدو اللّه و عدوكم. و قد ورد فى استحباب الرمى و ما فيه من الأجر أحاديث كثيرة. و كذلك ورد فى استحباب اتّخاذ الخيل و إعدادها، و كثرة ثواب صاحبها، أحاديث لا يتّسع المقام لبسطها. و قد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦١ الى ٦٣]

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

الجنوح: الميل، يقال: جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه؛ و منه قيل للأضالع: جوانح، لأنها مالت إلى الحنوّة، و جنحت الإبل: إذا مالت أعناقها فى السير، و منه قول ذى الرّمّة:

إذا مات فوق الرّحل أحييت روحه‏بذكراك و العيس المراسيل جنّح

و مثله قول النابغة:

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٦٨ جوانح قد أيقنّ أنّ قبيله‏إذا ما التقى الجمعان أوّل غالب

يعنى: الطير، و السلم: الصلح. قرأ الأعمش و أبو بكر و ابن محيصن و المفضل بكسر السين، و قرأ الباقون بفتحها. و قرأ العقيلى فَاجْنَحْ بضم النون، و قرأ الباقون بفتحها. و الأولى: لغة قيس، و الثانية: لغة تميم. قال ابن جنى: و لغة قيس: هى القياس، و السلم تؤنث كما تؤنث الحرب، أو هى مؤوّلة بالخصلة، أو الفعلة.

و قد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة؟ فقيل: هى منسوخة بقوله فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ و قيل: ليست بمنسوخة، لأن المراد بها قبول الجزية، و قد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصة بأهل الكتاب؛ و قيل: إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه، و تمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ «١» و قيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون فى عزّة و قوّة، لا إذا لم يكونوا كذلك، فهو جائز، كما وقع منه صلّى اللّه عليه و سلّم من مهادنة قريش، و ما زالت الخلفاء و الصحابة على ذلك، و كلام أهل العلم فى هذه المسألة معروف، مقرّر فى مواطنه وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فى جنوحك للسلم و لا تخف من مكرهم، ف إِنَّهُ سبحانه هُوَ السَّمِيعُ لما يقولون الْعَلِيمُ بما يفعلون وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ بالصلح، و هم مضمرون الغدر و الخدع فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ أى: كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث و الغدر، و جملة هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ تعليلية، أى: لا تخف من خدعهم و مكرهم فإن اللّه الذى قوّاك عليهم بالنصر فيما مضى، و هو يوم بدر، هو الذى سينصرك، و يقوّيك عليهم عند حدوث الخدع و النكث، و المراد بالمؤمنين: المهاجرون و الأنصار، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ و ظاهره العموم، و أن ائتلاف قلوب المؤمنين، هو من أسباب النصر التى أيد اللّه بها رسوله. و قال جمهور المفسرين: المراد: الأوس، و الخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة، و حروب عظيمة، فألف اللّه بين قلوبهم بالإيمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: أراد التأليف بين المهاجرين و الأنصار، و الحمل على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا، و لا يحترم ماله، و لا دمه، حتى جاء الإسلام، فصاروا يدا واحدة، و ذهب ما كان بينهم من العصبية، و جملة لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ مقرّرة لمضمون ما قبلها.

و المعنى: أن ما كان بينهم من العصبية و العداوة، قد بلغ إلى حدّ لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، و لو أنفق الطالب له جميع ما فى الأرض لم يتم له ما طلبه من التأليف، لأن أمرهم فى ذلك قد تفاقم جدّا وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ بعظيم قدرته و بديع صنعه إِنَّهُ عَزِيزٌ لا يغالبه مغالب، و لا يستعصى عليه أمر من الأمور حَكِيمٌ فى تدبيره و نفوذ نهيه و أمره.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ قال: قريظة. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال: نزلت فى بنى قريظة، نسختها فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ إلى

---

(١). محمد: ٣٥.

آخر الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السلم: الطاعة. و أخرج أبو الشيخ عنه فى الآية قال: إن رضوا فارض. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: إن أرادوا الصّلح فأرده. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: نسختها هذه الآية قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ «١» إلى قوله: وَ هُمْ صاغِرُونَ*. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و النحاس فى ناسخه و أبو الشيخ عن قتادة قال: ثم نسخ ذلك فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «٢».

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ قال: قريظة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ بِالْمُؤْمِنِينَ قال: الأنصار. و أخرج ابن مردويه عن النعمان ابن بشير نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا و أخرج ابن عساكر عن أبى هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا اللّه، أنا اللّه وحدى لا شريك لى، و محمد عبدى و رسولى أيدته بعلمى. و ذلك قوله هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ و أخرج ابن المبارك و ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا و النسائى و البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى اللّه لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً الآية. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و أبو الشيخ، و البيهقى فى شعب الإيمان، و اللفظ له عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع، و منّة المنعم تكفر، و لم نر مثل تقارب القلوب، يقول اللّه: لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً الآية. و أخرج ابن المبارك و عبد الرزاق و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و البيهقى عنه نحوه، و ليس فى هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول، و لكن الشأن فى قول ابن مسعود رضى اللّه عنه: إن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى اللّه مع أن الواقع قبلها هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ و الواقع بعدها يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و مع كون الضمير فى قوله ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك و لا شبهة، و كذلك الضمير فى قوله وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ فإن هذا يدلّ على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد اللّه بهم رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦۴ الى ۶۶]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۶۴) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۶۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (۶۶)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ليس هذا تكريرا لما قبله، فإن الأوّل مقيد بإرادة الخدع وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هذه كفاية خاصة، و فى قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ كفاية عامة غير مقيّدة، أى: حسبك اللّه فى كل حال، و الواو فى قوله: وَ مَنِ اتَّبَعَكَ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف. و المعنى: حسبك اللّه و حسبك المؤمنون، أى: كافيك اللّه،

---

(١). التوبة: ٢٩.

(٢). التوبة: ۵.

و كافيك المؤمنون، و يحتمل أن تكون بمعنى مع، كما تقول: حسبك و زيدا درهم، و المعنى: كافيك و كافى المؤمنين اللّه، لأنّ عطف الظاهر على المضمر فى مثل هذه الصورة ممتنع، كما تقرّر فى علم النحو، و أجازه الكوفيون. قال الفرّاء: ليس بكثير فى كلامهم أن تقول حسبك و أخيك، بل المستعمل أن يقال: حسبك و حسب أخيك بإعادة الجار، فلو كان قوله: وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مجرورا، لقيل: حسبك أو حسب من اتبعك. و اختار النصب على المفعول معه النحّاس. و قيل: يجوز أن يكون المعنى: و من اتّبعك من المؤمنين حسبهم اللّه، فحذف الخبر. قوله حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ أى: حثّهم و حضّهم، و التّحريض فى اللغة: المبالغة فى الحثّ، و هو كالتحضيض، مأخوذ من الحرض، و هو أن ينهكه المرض و يتبالغ فيه حتى يشفى على الموت؛ كأنه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به، ثم بشّرهم تثبيتا لقلوبهم و تسكينا لخواطرهم بأن الصابرين منهم فى القتال

يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار، فقال إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ثم زاد هذا إيضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد، بل هى جارية فى كل عدد فقال وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً و فى هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال، و قد وجد فى الخارج ما يخالف ذلك، فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين، بل مثل نصفهم بل مثلهم. و أجيب عن ذلك بأن وجود هذا فى الخارج لا يخالف ما فى الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر؛ و قيل:

إن هذا الخبر و الواقع فى الآية فى معنى الأمر، كقوله تعالى: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ «١» وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ «٢» فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة اللّه سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم، ثم لما شق ذلك عليهم و استعظموه، خفف عنهم، و رخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم، فقال: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ إلى آخر الآية، فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار.

و قرأ حمزة و حفص عن عاصم ضعفا بفتح الضاد. قوله بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ متعلق بقوله يَغْلِبُوا أى: إن هذا الغلب بسبب جهلهم و عدم فقههم، و أنهم يقاتلون على غير بصيرة؛ و من كان هكذا فهو مغلوب فى الغالب. و قد قيل فى نكتة التّنصيص على غلب العشرين للمائتين. و المائة للألف أنّ سراياه التى كان يبعثها صلّى اللّه عليه و سلّم كان لا ينقص عددها عن العشرين، و لا يجاوز المائة، و قيل فى التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين و الألف للألفين، على أنه بشارة للمسلمين، بأنّ عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات و المئات إلى الألوف، ثم أخبرهم بأنّ هذا الغلب هو بإذن اللّه و تسهيله و تيسيره لا بقوتهم و جلادتهم، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين، و فيه الترغيب إلى الصبر، و التأكيد عليهم بلزومه و التوصية به، و أنه من أعظم أسباب النجاح و الفلاح و النّصر و الظفر؛ لأنّ من كان اللّه معه لم يستقم لأحد أن يغلبه. و قد اختلف أهل العلم، هل هذا التخفيف نسخ أم لا؟ و لا يتعلق بذلك كثير فائدة.

و قد أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منّا اليوم، و أنزل اللّه يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن

---

(١). البقرة: ٢٣٣.

(٢). البقرة: ٢٢٨.

ابن عباس قال: لما أسلم مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تسعة و ثلاثون رجلا و امرأة، ثم إنّ عمر أسلم صاروا أربعين، فنزل يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: لما أسلم مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثة و ثلاثون، و ستّ نسوة، ثم أسلم عمر نزلت يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن الزهرى فى الآية قال: نزلت فى الأنصار. و أخرج البخارى فى تاريخه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الشعبى فى قوله يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قال: حسبك اللّه و حسب من اتّبعك. و أخرج البخارى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: لما نزلت إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ فكتب عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، و أن لا يفرّ عشرون من مائتين، ثم نزلت الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الآية فكتب أن لا يفرّ مائة من مائتين، قال سفيان و قال ابن شبرمة: و أرى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مثل هذا، إن كانا رجلين أمرهما و إن كانوا ثلاثة فهو فى سعة من تركهم. و أخرج البخارى و النحاس فى ناسخه و ابن مردويه و

البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: لما نزلت إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ شق على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، فجاء التخفيف الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الآية قال: فلما خفّف اللّه عنهم من العدّة نقص من الصبر بقدر ما خفّف عنهم.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد. و معنى ما كانَ لِنَبِيٍ ما صح له و ما استقام، قرأ أبو عمرو و سهيل و يعقوب و يزيد، و المفضل: أن تكون بالفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية، و قرأ أيضا يزيد و المفضل أسارى و قرأ الباقون أَسْرى و الأسرى: جمع أسير، مثل: قتلى و قتيل، و جرحى و جريح. و يقال: فى جمع أسير أيضا: أسارى بضم الهمزة و بفتحها، و هو مأخوذ من الأسر، و هو القدّ، لأنهم كانوا يشدّون به الأسير، فسمّى كل أخيذ و إن لم يشدّ بالقدّ أسيرا. قال الأعشى:

و قيّدنى الشّعر فى بيته كما قيّد الآسرات الحمارا

و قال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى: هم غير الموثقين عند ما يؤخذون، و الأسارى: هم الموثقون ربطا.

و الإثخان: كثرة القتل، و المبالغة فيه؛ تقول العرب: أثخن فلان فى هذا الأمر: أى بالغ فيه. فالمعنى: ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى قتل الكافرين، و يستكثر من ذلك، و قيل: معنى الإثخان: التمكن؛ و قيل: هو القوّة. أخبر اللّه سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم، و فدائهم، ثم لما كثر المسلمون رخص اللّه فى ذلك فقال: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً «١» كما يأتى فى سورة القتال إن شاء اللّه. قوله

---

(١). محمد: ٤.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٧٢

تُرِيدُونَ عَرَضَ الحياة الدُّنْيا أى: نفعها و متاعها بما قبضتم من الفداء؛ و سمى عرضا: لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض التى هى مقابل الجواهر وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ أى: يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب فى الإثخان بالقتل، و قرئ يريد الآخرة بالجر على تقدير مضاف و هو المذكور قبله، أى: و اللّه يريد عرض الآخرة وَ اللَّهُ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ فى كل أفعاله.

قوله لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ اختلف المفسرون فى هذا الكتاب الذى سبق ما هو؟

على أقوال: الأوّل: ما سبق فى علم اللّه من أنه سيحلّ لهذه الأمة الغنائم، بعد أن كانت محرّمة على سائر الأمم.

و الثانى: أنه مغفرة اللّه لأهل بدر، ما تقدم من ذنوبهم و ما تأخر، كما فى الحديث الصحيح: «إنّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». القول الثالث: هو أنه لا يعذبهم و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم، كما قال سبحانه: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ القول الرابع: أنه لا يعذب أحدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا. القول الخامس: أنه ما قضاه اللّه من محو الصغائر باجتناب الكبائر. القول السادس:

أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة، و تقديم النهى، و لم يتقدّم نهى عن ذلك. و ذهب ابن جرير الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ، و أنه يعمها لَمَسَّكُمْ أى: لحلّ بكم فِيما أَخَذْتُمْ أى:

لأجل ما أخذتم من الفداء عَذابٌ عَظِيمٌ و الفاء فى فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ لترتيب ما بعدها على سبب محذوف، أى: قد أبحت لكم

الغنائم فكلوا مما غنمتم، و يجوز أن تكون عاطفة على مقدّر محذوف؛ أى: اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره؛ و قيل: إن ما عبارة عن الفداء، أى: كلوا من الفداء الذى غنمتم، فإنه من جملة الغنائم التى أحلها اللّه لكم و حَلالًا طَيِّباً منتصبان على الحال، أو صفة المصدر المحذوف، أى: أكلا حلالا طيبا وَ اتَّقُوا اللَّهَ فيما يستقبل، فلا تقدموا على شىء لم يأذن اللّه لكم به إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما فرط منكم رَحِيمٌ بكم، فلذلك رخّص لكم فى أخذ الفداء فى مستقبل الزمان.

و قد أخرج أحمد عن أنس قال: استشار النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم الناس فى الأسارى يوم بدر فقال: «إن اللّه قد أمكنكم منهم». فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللّه! أضرب أعناقهم!؟ فأعرض عنه النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم.

ثم عاد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «يا أيها الناس إن اللّه قد أمكنكم منهم؛ و إنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول اللّه! أضرب أعناقهم؟ فأعرض عنه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثم عاد، فقال مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول اللّه نرى أن تعفو عنهم، و أن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم، و قبل منهم الفداء، فأنزل اللّه لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن مسعود قال: لمّا كان يوم بدر جىء بالأسارى و فيهم العباس، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى»؟ فقال أبو بكر: يا رسول اللّه! قومك و أهلك فاستبقهم لعلّ اللّه يتوب عليهم؛ و قال عمر:

يا رسول اللّه! كذبوك و أخرجوك و قاتلوك قدّمهم فاضرب أعناقهم، و قال عبد اللّه بن رواحة: يا رسول اللّه انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا، فقال العباس و هو يسمع: قطعت رحمك، فدخل النبى

صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم و لم يردّ عليهم شيئا، فقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر، و قال أناس: يأخذ بقول عمر، و قال قوم: يأخذ بقول عبد اللّه بن رواحة، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «إن اللّه ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، و إن اللّه ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» و مثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٢»، و مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «٣» و مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ «۴»، أنتم عالة، فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء! أو ضرب عنق، فقال عبد اللّه: يا رسول اللّه إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم؛ حتى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل اللّه ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى الآية. و أخرج الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن علىّ قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الأسارى يوم بدر «إن شئتم قتلتموهم، و إن شئتم فاديتم و استمتعتم بالفداء، و استشهد منكم بعدّتهم» فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استشهد باليمامة. و أخرج عبد الرزاق فى مصنفه و ابن أبى شيبة عن عبيدة نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار و قد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس. و قد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه، فقال له عمر: فآتيهم؟ قال نعم. فأتى عمر الأنصار فقال: أرسلوا العباس، فقالوا: لا و اللّه لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رضا، قالوا: فإن كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رضا فخذه، فأخذه عمر، فلما صار فى يده قال له: يا

عباس أسلم، فو اللّه إن تسلم أحبّ إليّ من أن يسلم الخطاب، و ما ذاك إلا لما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول اللّه أبا بكر فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه، ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ يقول حتى يظهروا على الأرض. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد قال: الإثخان هو القتل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن مجاهد أيضا فى الآية قال: ثم نزلت الرّخصة بعد، إن شئت فمنّ، و إن شئت ففاد. و أخرج ابن المنذر عن قتادة تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا قال: أراد أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر الفداء، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا قال: الخراج. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ قال: سبق لهم المغفرة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: ما سبق لأهل بدر من السعادة. و أخرج النسائى و ابن مردويه و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: سبقت لهم من اللّه الرحمة

---

(١). إبراهيم: ٣۶.

(٢). المائدة: ١١٨.

(٣). نوح: ٢۶.

(۴). يونس: ٨٨.

قبل أن يعملوا بالمعصية. و أخرج أبو حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: سبق أن لا يعذّب أحدا حتى يبيّن له و يتقدّم إليه.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٠ الى ٧١]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

اختلاف القراء فى أسرى و الأسارى هو هنا كما سبق فى الآية التى قبل هذه، خاطب اللّه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بهذا:

أى: قل لهؤلاء الأسرى الذين هم فى أيديكم أسرتموهم يوم بدر و أخذتم منهم الفداء إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً من حسن إيمان، و صلاح نية، و خلوص طوية يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ من الفداء: أى:

يعوّضكم فى هذه الدنيا رزقا خيرا منه، و أنفع لكم، أو فى الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذنوبكم وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ شأنه المغفرة لعباده، و الرحمة لهم، و لما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم فى قلبه خيرا ذكر من هو على ضدّ ذلك منهم فقال وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ بما قالوه لك بألسنتهم، من أنهم قد آمنوا بك و صدّقوك، و لم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة و نية خالصة، بل هو مماكرة و مخادعة، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه، و هو أنّهم خانوا اللّه من قبل أن تظفر بهم، فكفروا به و قاتلوا رسوله فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ بأن نصرك عليهم فى يوم بدر، فقتلت منهم من قتلت، و أسرت من أسرت وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بما فى ضمائرهم حَكِيمٌ فى أفعاله بهم.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى فداء أبى العاص، و بعثت فيه بقلادة، فلما رآها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رقّ رقّة شديدة و قال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، و قال العباس: إنى كنت مسلما يا رسول اللّه! قال: اللّه أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول

فاللّه يجزيك، فافد نفسك و ابنى أخويك نوفل بن الحارث و عقيل بن أبى طالب و حليفك عتبة بن عمرو، قال: ما ذاك عندى يا رسول اللّه! قال: فأين المال الذى دفنت أنت و أمّ الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت فهذا المال لبنىّ؟ فقال: و اللّه يا رسول اللّه! إن هذا لشىء ما علمه غيرى و غيرها، فاحسب لى ما أصبتم منى عشرون أوقية من مال كان معى، قال: لا أفعل، ففدى نفسه، و ابنى أخويه، و حليفه، و نزلت: قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى‌ الآية، فأعطانى مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة اللّه. و أخرج ابن سعد، و الحاكم و صحّحه، عن أبى موسى أن العلاء بن الحضرمى بعث إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمال من البحرين ثمانين ألفا، فما أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مال أكثر منه، فنشر على حصير، و جاء الناس فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعطيهم، و ما كان يومئذ عدد و لا وزن، فجاء العباس فقال: يا رسول اللّه! إنى أعطيت فدائى و فداء عقيل يوم بدر، أعطنى هذا المال. فقال: خذ، فجثا فى خميصته، ثم ذهب ينصرف، فلم يستطع، فرفع

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٧٥

رأسه و قال: يا رسول اللّه! ارفع علىّ. فتبسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ذهب و هو يقول: أما أحد اللذين وعد اللّه فقد أنجزنا و ما ندرى ما يصنع فى الأخرى قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى‌ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ فهذا خير مما أخذ منى، و لا أدرى ما يصنع فى المغفرة.

و الروايات فى هذا الباب كثيرة، و أخرج ابن سعد و ابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال: نزلت فى الأسارى يوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب، و نوفل بن الحارث، و عقيل بن أبى طالب. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عنه فى قوله: وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ إن كان قولهم كذبا فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فقد كفروا و قاتلوك فَأَمْكَنَ ك اللّه مِنْهُمْ

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى‌ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‌ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

ختم اللّه سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة؛ ليعلم كلّ فريق وليه الذى يستعين به، و سمّى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم، لأنهم هجروا أوطانهم و فارقوها طلبا لما عند اللّه، و إجابة لداعيه وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا هم الأنصار، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إشارة إلى الموصول الأوّل و الآخر، و هو مبتدأ و خبره الجملة المذكورة بعده، و يجوز أن يكون بَعْضُهُمْ بدلا من اسم الإشارة، و الخبر أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى: بعضهم أولياء بعض فى النصرة و المعونة، و قيل: المعنى: إن بعضهم أولياء بعض فى الميراث. و قد كانوا يتوارثون بالهجرة و النصرة، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‌ بِبَعْضٍ قوله:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا مبتدأ، و خبره ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش و حمزة مِنْ وَلايَتِهِمْ بكسر الواو. و قرأ الباقون بفتحها، أى: ما لكم من نصرتهم و إعانتهم، أو من ميراثهم، و لو كانوا من قراباتكم؛ لعدم وقوع الهجرة منهم حَتَّى يُهاجِرُوا فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان و الهجرة وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ أى: هؤلاء الذين آمنوا، و لم

يهاجروا، إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ أى: فواجب عليكم النصر إِلَّا أن يستنصروكم عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فلا تنصروهم، و لا تنقضوا العهد الذى بينكم و بين أولئك القوم حتى تنقضى مدّته.

قال الزجاج: و يجوز: فعليكم النصر، بالنصب على الإغراء. قوله وَ الَّذِينَ كَفَرُوا مبتدأ خبره بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى: بعضهم ينصر بعضا، و تولاه فى أموره، أو يرثه إذا مات، و فيه تعريض

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۷۶

للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار و لا يتولونهم. قوله: إِلَّا تَفْعَلُوهُ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا، من موالاة المؤمنين، و مناصرتهم على التفصيل المذكور، و ترك موالاة الكافرين تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ أى: تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك وَ فَسادٌ كَبِيرٌ أى: مفسدة كبيرة فى الدّين و الدّنيا، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل اللّه، و المؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم و نصروهم، و هم الأنصار، فقال: أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا أى الكاملون فى الإيمان، و ليس فى هذا تكرير لما قبله فإنه وارد فى الثناء على هؤلاء، و الأوّل وارد فى إيجاب الموالاة و النصرة، ثم أخبر سبحانه أن لَهُمْ منه مَغْفِرَةٌ لذنوبهم فى الآخرة وَ لهم فى الدنيا رِزْقٌ كَرِيمٌ خالص عن الكدر، طيّب مستلذ، ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم، و جاهد مع المهاجرين الأوّلين و الأنصار، فهو من جملتهم، أى: من جملة المهاجرين الأوّلين و الأنصار فى استحقاق ما استحقوه من الموالاة، و المناصرة، و كمال الإيمان، و المغفرة، و الرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم، ممن لم يكن بينه و بينهم رحم فى الميراث، و المراد بهم القرابات، فيتناول كل قرابة؛ و قيل: المراد بهم هنا العصبات، قالوا: و منه قول العرب: وصلتك رحم، فإنهم لا يريدون قرابة الأم. قالوا: و منه قول قتيلة:

ظلّت سيوف بنى أبيه تنوشهللّه أرحام هناك تشقّق

و لا يخفاك أنه ليس فى هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصبات، و قد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام، و هم: من ليس بعصبة، و لا ذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث، و الخلاف فى ذلك معروف مقرر فى مواطنه، و قد قيل: إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة و النصرة عند من فسر ما تقدّم من قوله بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ و ما بعده بالتوارث، و أما من فسرها بالنصرة، و المعونة، فيجعل هذه الآية إخبارا منه سبحانه و تعالى بأن القرابات بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ أى: فى حكمه، أو فى اللوح المحفوظ، أو فى القرآن، و يدخل فى هذه الأولوية الميراث دخولا أوّليا لوجود سببه، أعنى: القرابة إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شىء من الأشياء كائنا ما كان، و من جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا الآية قال:

إنّ المؤمنين كانوا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على ثلاث منازل، منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه، و فى قوله وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا قال: آووا و نصروا و أعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، و شهروا السيوف على من كذب و جحد، فهذان مؤمنان جعل اللّه بعضهم أولياء بعض، و فى قوله وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية فى الدين، و كان الذى آمن و لم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر و لم ينصر، فبرأ اللّه المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، و هى الولاية التى قال ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۷۷

كان حقّا على المؤمنين الذين آووا و نصروا إذا استنصروهم فى الدّين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم و بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدوّ الذى لا ميثاق لهم، ثم أنزل اللّه بعد ذلك أن ألحق كلّ

ذی رحم برحمه من المؤمنين الـذين آمنوا وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهـاجِرُوا فجعـل لكـلّ إنسـان من المؤمنين نصـيبا مفروضا لقوله وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ الآيـة، و فی روايـة لابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ قـال: يعنی فی الميراث، جعـل اللّه الميراث للمهـاجرين و الأنصـار دون الأرحـام وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهـاجِرُوا مـا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ما لكم من ميراثهم من شـیء حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ يعنی: إن استنصـر الأعراب المسلمون المهـاجرين و الأنصـار، علی عـدوّ لهم، فعليهم أن ينصـروهم، إلاـ علی قوم بينكم و بينهم ميثـاق، فكانوا يعملون علی ذلك حتی أنزل اللّه هذه الآيۀ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فنسـخت الآيۀ التی قبلها، و صارت المواريث لذوی الأرحام. و أخرج أبو عبيـد و أبو داود و ابن المنـذر و ابن أبی حـاتم عنه أيضـا فی هـذه الآيـات قـال: كـان المهـاجر لا يتولی الأعرابی و لا يرثه و هو مؤمن، و لا يرث الأعرابی المهاجر، فنسختها هذه الآيۀ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ و أخرج ابن جرير و ابن أبی حـاتم و أبو الشـيخ و ابن مردويه عنه أيضـا: قال رجل من المسـلمين: لنورثن ذوی القربی منا من المشـركين، فنزلت وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ. و أخرج أحمد و ابن أبی حاتم و الحاكم و صـححه عن جرير بن عبـد اللّه قال: قال رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و سـلّم: «المهاجرون بعضـهم أولياء بعض فی الـدنيا و الآخرۀ، و الطّلقاء من قريش، و العتقـاء من ثقيف بعضـهم أوليـاء بعض فی الـدنيا و الآـخرۀ». و أخرج الحاكم و صـحّحه، و ابن مردويه عن أسامـۀ عن النبی صـلّی اللّه عليه و سـلّم قال: «لا يتوارث أهل ملّتين، و لا يرث مسـلم كافرا، و لا كافر مسـلما، ثم قرأ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيـاءُ بَعْضٍ الآيـۀ». و أخرج ابن سـعد و ابن أبی حـاتم و الحـاكم و صححه و ابن مردويه عن الزبير بن العوام قال: أنزل اللّه فينا خاصۀ معشـر قريش وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ و ذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينۀ قدمنا و لا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم و وارثناهم فآخونا، فآخی أبو بكر خارجۀ بن زيد، و آخی عمر فلانا، و آخی عثمان بن عفان رجلا من بنی زريق بن أسعد الزّرقی، قال الزبير: و آخيت أنا كعب ابن مالك، و وارثونا و وارثناهم، فلما كان يوم أحد قيل لی قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجئته فانتقلته فوجدت السـلاح قد ثقلته فيما نری، فو اللّه يا بنیّ لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيری، حتی أنزل اللّه هذه الآيۀ فينا معشـر قريش و الأنصار فرجعنا إلی مواريثنا. و أخرج أبو داود الطيالسـی و الطبرانی و أبو الشـيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: آخی رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و سـلّم بين أصـحابه و ورّث بعضهم من بعض، حتی نزلت هذه الآيۀ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فتركوا ذلك و توارثوا بالنسب.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۷۸

سورۀ التّوبۀ

اشارۀ

هی مائۀ و ثلاثون آيۀ، و قيل: مائۀ و سبع و عشـرون آيۀ، و لها أسماء: منها: سورۀ التوبۀ؛ لأنّ فيها التوبۀ علی المؤمنين؛ و تسمّی: الفاضـحۀ لأنـه مـا زال ينزل فيهـا: و منهم، و منهم، حتـی كـادت أن لاـ تـدع أحـدا؛ و تسـمّی: البحوث، لأنهـا تبحث عن أسـرار المنافقين؛ و تسـمّی: المبعثرۀ، و البعثرۀ: البحث؛ و تسـمّی أيضا بأسـماء: كالمقشقشۀ، لكونها تقشقش من النفاق: أی تبرئ منه؛ و المخزيۀ: لكونها أخزت المنافقين؛ و المثيرۀ.

لكونها تثير أسرارهم؛ و الحافرۀ: لكونها تحفر عنها؛ و المنكّلۀ؛ لما فيها من التنكيل لهم؛ و المدمدمۀ؛ لأنها تدمدم عليهم.

و هی مدنيۀ. قال القرطبی: باتفاق. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت براءۀ بعد فتح مكۀ.

و أخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة التوبة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير نحوه.
و أخرج ابن المنـذر عن قتادة نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شـيبة و البخارى و النسائى و ابن الضـريس و ابن المنـذر و النحّاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن البراء قال: آخر آية نزلت يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ «١» و آخر سورة نزلت تامة: براءة.
و قـد اختلف العلمـاء فى سـبب سـقوط البسـملة من أوّلهـا على أقوال. الأوّل: عن المبرّد و غيره، أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم و بين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا، و لم يكتبوا فيه بسـملة «٢»؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذى كان بين النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم و المشركين، بعث بها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم علىّ بن أبى طالب، فقرأها عليهم، و لم يبسمل فى ذلـك على مـا جرت به عـادة العرب. و أخرج أبو الشـيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت علىّ بن أبى طالب لم لا تكتب فى براءة بسم اللّه الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم اللّه الرحمن الرحيم أمان. و براءة نزلت بالسـيف. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و الترمذى و حسنه و النسائى و الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفـال و هى من المثـانى، و إلى براءة و هى من المئين، فقرنتم بينهمـا و لـم تكتبوا بينهمـا سـطر: بسم اللّه الرحمن الرحيم، و وضعتموها فى السّبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مما يأتى عليه الزمان و هو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول:
ضعوا هؤلاـء الآيـات فى السورة التى يـذكر فيهـا كـذا و كـذا، و كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينـة، و كانت براءة من آخر القرآن نزولا، و كانت قصّتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، و قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(١). النساء: ١٧٦.

(٢). أى: باسمك اللهم.

و لم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما و لم أكتب بينهما سطر: بسم اللّه الرحمن الرحيم و وضعتها فى السبع الطوال.
و أخرج أبو الشـيخ عن أبى رجـاء قـال: سـألت الحسن عن الأنفال و براءة أ سورتان أو سورة؟ قال: سورتان. و أخرج أبو عبيـد و ابن المنذر و أبو الشـيخ و ابن مردويه عن حذيفة قال: يسـمون هذه السورة: سورة التوبة، و هى سورة العذاب. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس قال فى هذه السورة:
هى: الفاضـحة ما زالت تنزل: و منهم، حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها. و أخرج أبو الشـيخ عن عمر نحوه. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن زيد بن أسلم أن رجلا قال لعبد اللّه بن عمر:
سـورة التوبـة، فقـال ابن عمر: و أيتهنّ سورة التوبـة قـال: براءة، فقـال: و هـل فعـل بالنـاس الأفاعيـل إلّـا هى؟ مـا كنـا نـدعوها إلّا المقشـقشة. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسـعود قـال: يسـمونها سورة التوبـة، و إنهـا لسورة عـذاب. و أخرج ابن المنـذر عن ابن إسـحاق قال: كانت براءة تسـمى فى زمن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم و بعده المبعثرة لما كشـفت من سـرائر الناس. و أخرج أبو الشـيخ عن عبيد اللّه بن عبيد بن عمير قال: كانت براءة تسـمى المنقرة، نقرت عما فى قلوب المشركين. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و أبو الشـيخ، و البيهقى فى الشـعب، عن أبى عطيـة الهمـدانى قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلّموا سورة براءة؛ و علّموا نسـاءكم سورة النور. و من جملـة الأـقوال فى حـذف البسـملة أنهـا كانت تعـدل سورة البقرة، أو قريبا منها، و أنه لما سـقط أولها سقطت البسـملة، روى هذا عن مالك بن أنس و ابن عجلان. و من جملة الأقوال فى سقوط البسملة أنهم لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف الصحابة، فقال بعضهم: براءة و الأنفال: سورة واحدة، و قال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول

من قال: هما سورتان، و تركت بسم اللّه الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة، فرضى الفريقان. قاله خارجة و أبو عصمة و غيرهما. و قول من جعلهما سورة واحدة أظهر، لأنهما جميعا فى القتال، و تعدّان جميعا سابعة السبع الطوال.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١ الى ٣]

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (٢) وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣)

قوله: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ برئت من الشيء أبرأ براءة، و أنا منه بريء: إذا أزلته عن نفسك، و قطعت سبب ما بينك و بينه، و براءة: مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه براءة، و يجوز أن ترتفع على الابتداء لأنها نكرة موصوفة، و الخبر إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ و قرأ عيسى بن عمر بَراءَةٌ بالنصب على تقدير: اسمعوا براءة، أو على تقدير: التزموا براءة، لأن فيها معنى الإغراء، و مِنَ فى قوله مِنَ اللَّهِ لابتداء الغاية، متعلق بمحذوف وقع صفة، أي: واصلة من اللّه و رسوله إلى الذين عاهدتم. و العهد:

العقد الموثق باليمين. و الخطاب فى عاهدتم للمسلمين، و قد كانوا عاهدوا مشركى مكة و غيرهم بإذن من اللّه

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٨٠

و من الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: الإخبار بأن اللّه و رسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض، فصار النبذ إليه بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين، و معنى براءة اللّه سبحانه، وقوع الإذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين، لعهد المشركين، بعد وقوع النقض منهم، و فى ذلك من التفخيم لشأن البراءة، و التهويل لها، و التسجيل على المشركين بالذلّ و الهوان ما لا يخفى. قوله: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هذا أمر منه سبحانه بالسّياحة بعد الإخبار بتلك البراءة، و السياحة: السير، يقال: ساح فلان فى الأرض يسيح سياحة و سيوحا و سيحانا، و منه: سيح الماء فى الأرض، و سيح الخيل، و منه قول طرفة بن العبد:

لو خفت هذا منك ما نلتنى حتّى ترى خيلا أمامى تسيح

و معنى الآية: أنّ اللّه سبحانه بعد أن أذن بالنّبذ إلى المشركين بعهدهم، أباح للمشركين الضّرب فى الأرض، و الذهاب إلى حيث يريدون، و الاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر، و ليس المراد من الأمر بالسياحة تكليفهم بها. قال محمد بن إسحاق و غيره: إن المشركين صنفان: صنف كانت مدة عهده أقلّ من أربعة أشهر، فأمهل تمام أربعة أشهر، و الآخر: كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، و هو حرب بعد ذلك للّه و لرسوله و للمؤمنين، يقتل حيث يوجد، و ابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، و انقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر، فأما من لم يكن له عهد، فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، و ذلك خمسون يوما: عشرون من ذى الحجة و شهر محرم. و قال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد دون أربعة أشهر، و من كان عهده أكثر من ذلك فهو الذى أمر اللّه أن يتمّ له عهده بقوله:

فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ و رجح هذا ابن جرير و غيره، و سيأتى فى آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ أي: اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز، و لكن لمصلحة، ليتوب من تاب، و فى ذلك ضرب من التهديد، كأنه قيل: افعلوا فى هذه المدّة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات و الأدوات، فإنكم لا تفوتون اللّه و هو مخزيكم، أي: مذلكم و مهينكم فى الدنيا بالقتل و الأسر، و فى الآخرة بالعذاب، و فى وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو الكفر، و يجوز أن يكون المراد جنس الكافرين، فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوّليا. قوله وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى

النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه: مبتدأ خبره ما بعده على ما تقدّم فى ارتفاع براءة، و الجملة هذه معطوفة على جملة بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ و قال الزّجّاج: إن قوله و أَذانٌ معطوف على قوله: براءة. و اعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكن أذان مخبر عنه بالخبر الأوّل، و هو إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ و ليس ذلك بصحيح، بل الخبر عنه هو إِلَى النَّاسِ و الأذان: بمعنى الإيذان، و هو الإعلام، كما أن الأمان و العطاء بمعنى: الإيمان و الإعطاء، و معنى قوله إِلَى النَّاسِ التّعميم فى هذا، أى: أنه إيذان من اللّه إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس، و الجملة الأولى متضمّنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٨١

خاصة، و يَوْمَ الْحَجِ ظرف لقوله و أذان، و وصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه.

و قد اختلف العلماء فى تعيين هذا اليوم المذكور فى الآية، فذهب جمع منهم: علىّ بن أبى طالب، و ابن مسعود، و ابن أبى أوفى، و المغيرة بن شعبة، و مجاهد، أنه يوم النحر، و رجحه ابن جرير. و ذهب آخرون منهم: عمر، و ابن عباس، و طاوس، أنه يوم عرفة، و الأوّل أرجح، لأن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر. قوله: أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ قرئ بفتح أن على تقدير بأنّ اللّه برىء من المشركين، فحذفت الباء تخفيفا. و قرئ بكسرها، لأن فى الإيذان معنى القول، و ارتفاع رسوله على أنه معطوف على موضع اسم أن، أو على الضمير فى برىء، أو على أنه مبتدأ و خبره محذوف، و التقدير: و رسوله برىء منهم. و قرأ الحسن و غيره و رسوله بالنصب عطفا على لفظ اسم أن. و قرئ و رسوله بالجرّ على أن الواو للقسم، روى ذلك عن الحسن، و هى قراءة ضعيفة جدا، إذ لا معنى للقسم برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هاهنا مع ما ثبت من النهى عن الحلف بغير اللّه؛ و قيل إنه مجرور على الجوار.

قوله فَإِنْ تُبْتُمْ أى: من الكفر، و فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، قيل: و فائدة هذا الالتفات زيادة التهديد، و الضمير فى قوله فَهُوَ راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم خَيْرٌ لَكُمْ مما أنتم فيه من الكفر وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أى: أعرضتم عن التوبة، و بقيتم على الكفر فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ أى: غير فائتين عليه، بل هو مدرككم، فمجازيكم بأعمالكم. قوله وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ هذا تهكّم بهم، و فيه من التّهديد ما لا يخفى.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إلى أهل العهد خزاعة و مدلج؛ و من كان له عهد قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج، ثم قال: إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحبّ أن أحجّ حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر و عليا فطافا فى الناس بذى المجاز، و بأمكنتهم التى كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله، فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، و هى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، و آذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا. و أخرج عبد اللّه بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علىّ قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعانى فقال لى: أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة، فلحقته فأخذت الكتاب منه، و رجع أبو بكر و قال: يا رسول اللّه! نزل فىّ شىء؟ قال: لا، و لكن جبريل جاءنى فقال: لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و حسنه و أبو الشيخ و ابن مردويه من حديث أنس نحوه. و أخرج ابن مردويه من حديث سعيد بن أبى وقاص نحوه أيضا. و أخرج أحمد و النسائى و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: كنت مع علىّ حين بعثه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أهل مكة ببراءة، فكنا نادى: أنه لا يدخل

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٨٢

الجنة إلا مؤمن و لا يطوف بالبيت عريان، و من كان بينه و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد فإن أجله و أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن اللّه بريء من المشركين و رسوله، و لا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: بعثنى أبو بكر فى تلك الحجّة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عليّ بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن على فى يوم النحر ببراءة: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان. و أخرج الترمذى و حسنه و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث أبا بكر و أمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه عليا و أمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجّا، فقام عليّ فى أيام التشريق فنادى: إن اللّه بريء من المشركين و رسوله، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر، و لا يحجنّ بعد العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان، و لا يدخل الجنة إلا مؤمن؛ فكان عليّ ينادى، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادى بها. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و النحاس، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، عن زيد بن تبيع قال: سألت عليّا بأيّ شيء بعثت مع أبى بكر فى الحج؟ قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلّا نفس مؤمنة. و لا يطوف بالبيت عريان. و لا يجتمع مؤمن و كافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا. و من كان بينه و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد فعهده إلى مدّته، و من لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ الآية قال: حدّ اللّه للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاؤوا، و حدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم؛ من يوم النحر إلى انسلاخ المحرّم خمسين ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام؛ و نقض ما سمى لهم من العهد و الميثاق، و أذهب الشرط الأوّل: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ يعنى أهل مكة.

و أخرج النحاس عنه نحو هذا، و قال: و لم يعاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد هذا أحد. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و النحاس عن الزهرى فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ قال: نزلت فى شوّال فهى الأربعة أشهر: شوّال، و ذو القعدة، و ذو الحجة و المحرّم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قال: هو إعلام من اللّه و رسوله. و أخرج الترمذى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عليّ قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن يوم الحجّ الأكبر فقال: «يوم النّحر». و أخرجه ابن أبى شيبة و الترمذى و أبو الشيخ عنه نحو قوله، و أخرج أبو داود و النسائى و الحاكم و صححه عن عبد اللّه بن قرط قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعظم الأيام عند اللّه يوم النّحر ثم يوم القرّ «١»». و أخرج البخارى تعليقا و أبو داود و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر:

---

(١). هو أول يوم من أيام التشريق.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٨٣

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وقف يوم النّحر بين الجمرات فى الحجّة التى حجّ فقال: أيّ يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال: «هذا يوم الحجّ الأكبر». و أخرج البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: أن لا يحجّ بعد العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان، و يوم الحجّ الأكبر: يوم النّحر، و الحجّ الأكبر:

الحجّ؛ و إنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحجّ الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحجّ عام حجّة الوداع التى حجّ فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مشرك، و أنزل اللّه فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ الآية. و أخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال زمن الفتح: «إن هذا عام الحجّ الأكبر، قال: اجتمع حجّ المسلمين و حجّ المشركين فى ثلاثة أيام متتابعات، و اجتمع النّصارى و اليهود فى ثلاثة أيام متتابعات، فاجتمع حجّ المسلمين و المشركين و النصارى و اليهود فى ستة أيام متتابعات، و لم يجتمع منذ خلق السموات و الأرض كذلك قبل العام، و لا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة». و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال: ما لكم و للحج الأكبر؟ ذاك عام حجّ فيه أبو بكر استخلفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فحج بالناس، و اجتمع فيه المسلمون و المشركون فلذلك سمى الحج الأكبر، و وافق عيد اليهود و النصارى. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال: الحجّ الأكبر:

اليوم الثانى من يوم النحر، ألم تر أن الإمام يخطب فيه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن المسور بن مخرمة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يوم عرفة هذا يوم الحجّ الأكبر». و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال: الحج الأكبر يوم عرفة. و أخرج ابن جرير عن أبى الصهباء البكرى قال: سألت علىّ بن أبى طالب عن يوم الحجّ الأكبر فقال: يوم عرفة. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن يوم عرفة يوم الحجّ الأكبر. و أخرج ابن جرير عن الزبير نحوه.

و لا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هى ثابتة فى الصحيحين و غيرهما من طرق، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرّحة بأنه يوم عرفة. و أخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى أنه سئل: هذا الحجّ الأكبر، فما الحجّ الأصغر؟ قال: عمرة فى رمضان. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن إسحاق قال: سألت عبد اللّه بن شدّاد عن الحجّ الأكبر فقال: الحجّ الأكبر يوم النحر، و الحجّ الأصغر: العمرة.

و أخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن مسعود قال: سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون فى المكروه، فقال: أ لم تسمع قوله وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ

[سورة التوبة (٩): الآيات ۴ الى ۶]

إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (۶)

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۸۴

الاستثناء بقوله إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ قال الزّجّاج: إنه يعود إلى قوله بَراءَةٌ و التقدير: براءة من اللّه و رسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم. و قال فى الكشاف: إنه مستثنى من قوله فَسِيحُوا و التقدير: فقولوا لهم: فسيحوا إلا الذين عاهدتم، ثم لم ينقصوكم، فأتموا إليهم عهدهم. قال: و الاستثناء: بمعنى الاستدراك، كأنه قيل- بعد أن أمروا فى الناكثين-: و لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم و لا تجروهم مجراهم. و قد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى و المستثنى منه، و هو وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ إلخ. و أجيب: بأن ذلك لا يضرّ، لأنه ليس بأجنبى؛ و قيل: إن الاستثناء من

المشركين المذكورين قبله، فيكون متصلا و هو ضعيف. قوله: ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً أى: لم يقع منهم أىّ نقص. و إن كان يسيرا، و قرأ عكرمة و عطاء بن يسار ينقضوكم بالضاد المعجمة؛ أى: لم ينقضوا عهدكم، و فيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده، و منهم من ثبت عليه، فأذن اللّه سبحانه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بنقض عهد من نقض، و بالوفاء لمن لم ينقض إلى مدّته وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً المظاهرة:

المعاونة، أى: لم يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ أى: أدّوا إليهم عهدهم تاما غير ناقص إِلى مُدَّتِهِمْ التى عاهدتموهم إليها، و إن كانت أكبر من أربعة أشهر، و لا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضى المدّة المذكورة سابقا، و هى أربعة أشهر أو خمسون يوما على الخلاف السابق.

قوله: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ انسلاخ الشهر: تكامله جزءا فجزءا إلى أن ينقضى، كانسلاخ الجلد عمّا يحويه. شبّه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، و أصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان و جلده، فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال: سلخت الشهر تسلخه سلخا و سلوخا بمعنى: خرجت منه، و منه قول الشاعر:

إذا ما سلخت الشّهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخى الشّهور و إهلالى

و يقال: سلخت المرأة درعها: نزعته، و فى التنزيل: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ «١».

و اختلف العلماء فى تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا، فقيل: هى الأشهر الحرم المعروفة التى هى ذو القعدة و ذو الحجة، و محرّم، و رجب: ثلاثة سرد، و واحد فرد. و معنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم. و قد وقع النداء و النبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقى من الأشهر الحرم التى هى الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر المحرم فأمرهم اللّه بقتل المشركين حيث يوجدون، و به قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك و الباقر. و روى عن ابن عباس و اختاره ابن جرير؛ و قيل: المراد بها: شهور العهد المشار إليه بقوله فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ و سمّيت حرما لأن اللّه سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين، و التعرّض لهم، و إلى هذا ذهب جماعة

---

(١). يس: ٣٧.

من أهل العلم منهم مجاهد و ابن إسحاق و ابن زيد و عمرو بن شعيب. و قيل: هى الأشهر المذكورة فى قوله فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. و قد روى ذلك عن ابن عباس و جماعة، و رجحه ابن كثير، و حكاه عن مجاهد و عمرو بن شعيب و محمد بن إسحاق و قتادة و السدّى و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و سيأتى بيان حكم القتال فى الأشهر الحرم الدائرة فى كل سنة فى هذه السورة إن شاء اللّه. و معنى حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

فى أىّ مكان وجدتموهم من حلّ أو حرم. و معنى خُذُوهُمْ الأسر، فإن الأخيذ هو الأسير. و معنى الحصر: منعهم من التصرّف فى بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، و المرصد: الموضع الذى يرقب فيه العدوّ، يقال: رصدت فلانا أرصده، أى: رقبته، أى: اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها. قال عامر بن الطّفيل:

و لقد علمت و ما إخالك عالما أنّ المنيّة للفتى بالمرصد

و قال عدىّ:

أعاذل إنّ الجهل من لذّة الفتى و إنّ المنايا للنفوس بمرصد

و كل فى كُلَّ مَرْصَدٍ منتصب على الظرفية و هو اختيار الزّجّاج، و قيل: هو منتصب بنزع الخافض، أى: فى كل مرصد، و خطّأ أبو

علىّ الفارسى الزّجّاج فى جعله ظرفا. و هذه الآية المتضمّنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم؛ عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته السنة، و هو المرأة و الصبىّ و العاجز الذى لا يقاتل، و كذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، و هذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين، و الصبر على أذاهم. و قال الضحّاك و عطاء و السدّى: هى منسوخة بقوله فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً «١» و أن الأسير لا يقتل صبرا، بل يمن عليه، أو يفادى. و قال مجاهد و قتادة: بل هى ناسخة لقوله فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً و أنه لا يجوز فى الأسارى من المشركين إلا القتل. و قال ابن زيد: الآيتان محكمتان. قال القرطبى: و هو الصّحيح لأن المنّ و القتل و الفداء لم تزل من حكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم من أوّل حرب جاء بهم، و هو يوم بدر. قوله: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ أى: تابوا عن الشرك الذى هو سبب القتل، و حقّقوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام، و هو إقامة الصّلاة، و هذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها، و اكتفى بالركن الآخر المالى، و هو إيتاء الزّكاة عن كلّ ما يتعلّق بالأموال من العبادات، لأنه أعظمها فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أى: اتركوهم و شأنهم، فلا تأسروهم، و لا تحصروهم، و لا تقتلوهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لهم رَحِيمٌ بهم. قوله: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ يقال: استجرت فلانا، أى: طلبت أن يكون جارا؛ أى: محاميا و محافظا من أن يظلمنى ظالم، أو يتعرّض لى متعرّض، و أحد مرتفع بفعل مقدّر يفسره المذكور بعده، أى: و إن استجارك أحد استجارك، و كرهوا الجمع بين المفسر و المفسر. و المعنى: و إن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فأجره، أى: كن جارا له مؤمنا

---

(١). محمد: ۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۸۶

محاميا حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ منك و يتدبره حق تدبره، و يقف على حقيقة ما تدعو إليه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ أى: إلى الدار التى يأمن فيها بعد أن يسمع كلام اللّه، إن لم يسلم، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك و رجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه، و وجوب قتله حيث يوجد، و الإشارة بقوله ذلِكَ إلى ما تقدّم من الأمر بالإجارة و ما بعده بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ أى: بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز، بين الخير و الشر: فى الحال و المآل.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ قال: هم قريش. و أخرج أيضا عن قتادة قال: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبىّ اللّه زمن الحديبية، و كان بقى من مدّتهم أربعة أشهر بعد يوم النّحر، فأمر نبيه أن يوفى بعهدهم هذا إلى مدّتهم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن عباد بن جعفر فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ قال: هم بنو جذيمة بن عامر من بنى بكر ابن كنانة. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ قال: كان بقى لبنى مذحج و خزاعة عهد، فهو الذى قال اللّه: فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ و أخرج أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قال: هؤلاء بنو ضمرة و بنو مدلج من بنى كنانة كانوا حلفاء للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة العشيرة من بطن ينبع ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً قال: لم يظاهروا عدوكم عليكم فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ يقول: أجلهم الذى شرطتم لهم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ يقول: الذين يتقون اللّه فيما حرّم عليهم؛ فيوفون بالعهد. قال: فلم يعاهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد هؤلاء الآيات أحدا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ قال: هى الأربعة: عشرون من ذى الحجّة، و المحرّم، و صفر، و شهر ربيع الأوّل، و عشر من ربيع الآخر. قلت: مراد السدّى أنّ هذه الأشهر تسمّى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال، لا أنها الأشهر الحرم المعروفة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال:

هى عشر من ذى القعدة، و ذو الحجّة، و المحرم، سبعون ليلة. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هى الأربعة الأشهر التى قال فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. و أخرج ابن المنذر عن قتادة نحو قول السدّى السابق. و أخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ثم نسخ و استثنى. فقال فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ و قال وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ يقول: من جاءك و استمع ما تقول.

و استمع ما أنزل إليك، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام اللّه حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ قال: إن لم يوافقه ما يقصّ عليه و يخبر به فأبلغه مأمنه، و هذا ليس بمنسوخ. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ أى كتاب اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال: كان الرجل يجىء؛ إذا سمع كلام اللّه و أقرّ به و أسلم

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۸۷

فذاك الذى دعى إليه، و إن أنكر و لم يقرّ به ردّ إلى مأمنه، ثم نسخ ذلك، فقال: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۷ الى ۱۱]

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (۸) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (۱۰) فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۱)

قوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ الاستفهام هنا للتعجّب المتضمّن للإنكار، و عهد: اسم يكون. و فى خبره ثلاثة أوجه: الأوّل أنه كيف، و قدم الاستفهام؛ و الثانى للمشركين، و عِنْدَ على هذين: ظرف للعهد، أو ليكون، أو صفة للعهد؛ و الثالث: أن الخبر عند اللّه، و فى الآية إضمار. و المعنى: كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه يأمنون به من عذابه؛ و قيل: معنى الآية: محال أن يثبت لهؤلاء عهد، و هم أضداد لكم، مضمرون للغدر، فلا يطمعوا فى ذلك، و لا يحدثوا به أنفسهم، ثم استدرك، فقال: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أى: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، و لم ينقضوا، و لم ينكثوا، فلا تقاتلوهم، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذى بينكم و بينهم فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ قيل: هم بنو بكر، و قيل: بنو كنانة، و بنو ضمرة، و فى «ما» وجهان:

أحدهما: أنها مصدرية زمانية، و الثانى: أنها شرطية، و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ إشارة إلى أنّ الوفاء بالعهد و الاستقامة عليه من أعمال المتقين، فيكون تعليلا للأمر بالاستقامة. قوله: كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أعاد الاستفهام التعجيبى للتأكيد و التقرير، و التقدير: كيف يكون لهم عهد عند اللّه و عند رسوله؟

و الحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم لا يَرْقُبُوا أى: لا يراعوا فيكم إِلًّا أى: عهدا وَ لا ذِمَّةً. قال فى الصحاح: الإلّ العهد و القرابة، و منه قول حسان:

لعمرك أنّ إلّك من قريش كإلّ السّقب من رأل النّعام

قال الزجّاج: الإلّ عندى على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحدة، و منه الإلة للحربة، و منه: أذن مؤللة: أى: محددة، و منه: قول طرفة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدة و الانتصاب:

مؤلّلتان يعرف العتق «۱» فيهماكسامعتى شاة بحومل مفرد

(۱). العتق: الكرم و الجمال و النجابة و الشرف.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۸۸

قال أبو عبيدة: الإلّ العهد، و الذمة و النديم. و قال الأزهرى: هو اسم للّه بالعبرانية، و أصله من الأليل، و هو البريق، يقال: ألّ لونه يؤلّ ألّا؛ أى صفا و لمع، و الذمة: العهد، و جمعها ذمم، فمن فسر الإلّ بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين. و قال أبو عبيدة: الذمة: التذمم. و قال أبو عبيد: الذمّة: الأمان كما فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «و يسعى بذمّتهم أدناهم». و روى عن أبى عبيدة أيضا أن الذمة ما يتذمّم به، أى: ما يجتنب فيه الذمّ. قوله: يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ أى: يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة و محاسنة لكم طلبا لمرضاتكم و تطييب قلوبكم، و قلوبهم تأبى ذلك و تخالفه و تودّ ما فيه مساءتكم و مضرتكم، كما يفعله أهل النفاق و ذوو الوجهين؛ ثم حكم عليهم بالفسق، و هو التمرد و التجرّى، و الخروج عن الحق لنقضهم العهود، و عدم مراعاتهم للعقود، ثم وصفهم بقوله: اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أى: استبدلوا بآيات القرآن التى من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا قليلا حقيرا؛ و هو ما آثروه من حطام الدنيا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ أى: فعدلوا و أعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا غيرهم عنه. قوله: لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً قال النحّاس: ليس هذا تكريرا، و لكن الأوّل: لجميع المشركين، و الثانى: لليهود خاصة، و الدليل على هذا اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا يعنى: اليهود، و قيل: هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، و فى الأوّل المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ أى: المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد، أو البالغون فى الشرّ و التمرد إلى الغاية القصوى فَإِنْ تابُوا عن الشرك و التزموا أحكام الإسلام فَإِخْوانُكُمْ أى: فهم إخوانكم فِي الدِّينِ أى: فى دين الإسلام وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أى: نبيّنها، و نوضحها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بما فيها من الأحكام و يفهمونه، و خص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، و المراد بالآيات: ما مرّ من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم.

و قد أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: قريش. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مقاتل قال:

كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عاهد أناسا من بنى ضمرة بنى بكر و كنانة خاصة، عاهدهم عند المسجد الحرام و جعل مدتهم أربعة أشهر. و هم الذين ذكر اللّه إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ يقول: ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هم بنو جذيمة.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: هو يوم الحديبية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِلًّا وَ لا ذِمَّةً قال: الإلّ: القرابة، و الذمة: العهد. و أخرج الفريابى و أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: الإلّ: اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن عكرمة مثله.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا قال:

أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه و ترك حلفاء محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَإِنْ تابُوا الآية يقول: إن تركوا اللات و العزّى و شهدوا أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۸۹

اللّه فإخوانكم فى الدّين. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: حرّمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصّلاة.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢ الى ١٦]

وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٦)

قوله: وَ إِنْ نَكَثُوا معطوف على فَإِنْ تابُوا و النكث: النقض، و أصله: نقض الخيط بعد إبرامه، ثم استعمل فى كلّ نقض، و منه نقض الأيمان و العهود على طريق الاستعارة. و معنى مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ أى: من بعد أن عاهدوكم. و المعنى: أن الكفار إن نكثوا العهود التى عاهدوا بها المسلمين، و وثقوا لهم بها، و ضمّوا إلى ذلك الطعن فى دين الإسلام، و القدح فيه، فقد وجب على المسلمين قتالهم. و أئمة الكفر:

جمع إمام، و المراد صناديد المشركين، و أهل الرئاسة فيهم على العموم، و قرأ حمزة أإمة، و أكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن؛ لأن فيه الجمع بين همزتين فى كلمة واحدة، و قرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية بين بين، أى:

بين مخرج الهمزة و الياء، و قرئ بإخلاص الياء و هو لحن؛ كما قال الزمخشرى، قوله: إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ هذه الجملة تعليل لما قبلها، و الأيمان: جمع يمين فى قراءة الجمهور. و قرأ ابن عامر «لا إيمان لهم» بكسر الهمزة، و المعنى على قراءة الجمهور: أن أيمان الكافرين، و إن كانت فى الصورة يمينا، فهى فى الحقيقة ليست بيمين، و على القراءة الثانية: أن هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين فى الدين ليسوا من أهل الإيمان باللّه، حتى يستحقوا العصمة لدمائهم و أموالهم، فقتالهم واجب على المسلمين. قوله: لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أى: عن كفرهم و نكثهم و طعنهم فى دين الإسلام، و المعنى: أن قتالهم يكون إلى الغاية هى: الانتهاء عن ذلك.

و قد استدلّ بهذه الآية على أن الذمىّ إذا طعن فى الدّين، لا يقتل حتى ينكث العهد، كما قال أبو حنيفة، لأن اللّه إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما: نقض العهد، و الثانى: الطعن فى الدين، و ذهب مالك و الشافعى و غيرهما: إلى أنه إذا طعن فى الدين قتل، لأنه ينتقض عهده بذلك، قالوا: و كذلك إذا حصل من الذمىّ مجرد النكث فقط من دون طعن فى الدين فإنه يقتل. قوله: أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ الهمزة الداخلة على حرف النفى: للاستفهام التوبيخى مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال، و المبالغة فى تحققه، و المعنى: أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد، و إخراج الرسول من مكة، و البداءة بالقتال، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله، و أن يوبخ من فرط فى ذلك، ثم زاد فى التوبيخ فقال: أَ تَخْشَوْنَهُمْ فإن هذا

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩٠

الاستفهام للتوبيخ و التقريع، أى: تخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه، فقال: فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى: هو أحق بالخشية منكم، فإنه الضارّ النّافع بالحقيقة، و من خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم، ثم زاد فى تأكيد الأمر بالقتال فقال: قاتِلُوهُمْ و رتّب على هذا الأمر فوائد: الأولى: تعذيب اللّه للكفار بأيدى المؤمنين بالقتل و الأسر؛ و الثانية: إخزاؤهم، قيل: بالأسر، و قيل: بما نزل بهم من الذل و الهوان؛ و الثالثة: نصر المسلمين عليهم، و غلبتهم لهم؛ و الرابعة: أن اللّه يشفى بالقتال صدور قوم مؤمنين ممّن لم يشهد القتال و لا حضره؛ و الخامسة: أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين، الذى نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ، و حرج الصدر. فإن قيل: شفاء الصدور، و إذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى، فيكون تكرارا. قيل فى الجواب: إن

القلب أخصّ من الصدر، و قيل: إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح، و لا ريب أن الانتظار لإنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، و أنّ إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، و قد وقعت للمؤمنين و للّه الحمد هذه الأمور كلها، ثم قال: وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ و هو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون، و هو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره، كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح، فإنهم أسلموا، و حسن إسلامهم، و هذا على قراءة الرفع فى يتوب، و هى قراءة الجمهور، و قرئ بنصب يتوب بإضمار أن، و دخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى.

قرأ بذلك ابن أبى إسحاق و عيسى الثقفى و الأعرج، فإن قيل: كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟ و أجيب بأن القتال قد يكون سببا لها، إذا كانت من جهة الكفار، و أما إذا كانت من جهة المسلمين؛ فوجهه أن النصر و الظفر من جهة اللّه يكون سببا لخلوص النية، و التوبة عن الذنوب، قوله: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل، و الهمزة و الاستفهام للتوبيخ، و حرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، و المعنى: كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه، و قوله: أَنْ تُتْرَكُوا فى موضع مفعولى الحسبان عند سيبويه، و قال المبرد: إنه حذف الثانى، و التقدير: أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن و المنافق الظهور الذى يستحق به الثواب و العقاب، و جملة وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ فى محل نصب على الحال، و المراد من نفى العلم نفى المعلوم، و المعنى كيف تحسبون أنكم تتركون و لما يتبين المخلص منكم فى جهاده من غير المخلص، و جملة وَ لَمْ يَتَّخِذُوا معطوفة على جاهدوا داخلة معه فى حكم النفى، واقعة فى حيز الصلة، و الوليجة من الولوج: و هو الدخول، ولج يلج ولوجا:

إذ دخل، فالوليجة: الدخيلة. قال أبو عبيدة: كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة. قال أبان بن تغلب:

فبئس الوليجة للهاربين و المعتدين و أهل الرّيب

و قال الفراء: الوليجة: البطانة من المشركين، و المعنى واحد؛ أى: كيف تتّخذون دخيلة، أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم، و تعلمونهم أموركم من دون اللّه وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ أى: بجميع أعمالكم.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۹۱

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ قال: عهدهم. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: يقول اللّه لنبيّه و إن نكثوا العهد الذى بينك و بينهم فقاتلهم إنّهم أئمة الكفر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله أئمة الكفر قال: أبو سفيان بن حرب، و أميّة بن خلف، و عتبة بن ربيعة، و أبو جهل بن هشام، و سهيل بن عمرو، و هم الذين نكثوا عهد اللّه، و همّوا بإخراج الرسول من مكة. و أخرج ابن عساكر عن مالك ابن أنس مثله. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ قال: رؤوس قريش.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: أبو سفيان بن حرب منهم. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن حذيفة أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد، و أخرج ابن مردويه عن علىّ نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و ابن مردويه عن حذيفة قال: ما بقى من أهل هذه الآية إلا ثلاثة، و لا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابىّ: إنكم أصحاب محمد تخبروننا بأمور و لا ندرى ما هى فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا و يسرقون أعلاقنا «۱»، قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده، و الأولى أن الآية عامة فى كل رؤساء الكفار من غير تقييد بزمن معنى أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب، و مما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير أنه كان فى عهد أبى بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوما مجوفة رؤوسهم، فاضربوا مقاعد الشّيطان منهم

بالسيوف، فو اللّه لأن أقتل رجلا منهم أحبّ إلىّ من أن أقتل سبعين من غيرهم، و ذلك بأن اللّه يقول: فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ. و أخرج أبو الشيخ عن حذيفة لا أَيْمانَ لَهُمْ قال: لا عهود لهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عمار مثله. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ قال: قتال قريش حلفاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و همّهم بإخراج الرسول، زعموا أن ذلك عام عمرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى العام التابع للحديبية «٢»، نكثت قريش العهد، عهد الحديبية، و جعلوا فى أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها؛ فذلك همّهم بإخراجه، فلم تتابعهم خزاعة على ذلك، فلما خرج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة قالت قريش لخزاعة: عميتمونا عن إخراجه، فقاتلوهم، فقتلوا منهم رجالا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال:

نزلت فى خزاعة قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه أيضا، و قد ساق القصة ابن إسحاق فى سيرته، و أورد فيها النظم الذى أرسلته خزاعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أوّله:

---

(١). قال فى القاموس: العلق: النفيس من كل شى‌ء.

(٢). أى فى العام السابع للهجرة حيث أدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عمرة القضاء.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩٢ يا ربّ إنّى ناشد محمّداحلف أبينا و أبيه الأتلدا

و أخرج القصة البيهقى فى الدّلائل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال:

الوليجة: البطانة من غير دينهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة قال: وليجة: أى خيانة.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٧ الى ٢٢]

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (١٧) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)

خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

قرأ الجمهور يَعْمُرُوا بفتح حرف المضارعة و ضم الميم من عمر يعمر، و قرأ ابن السميقع بضم حرف المضارعة من أعمر يعمر، أى: يجعلون لها من يعمرها. و قرأ ابن عباس و سعيد بن جبير و عطاء بن أبى رباح و مجاهد و ابن كثير و أبو عمرو و ابن محيصن و سهم و يعقوب مسجد اللّه بالإفراد، و قرأ الباقون مَساجِدَ بالجمع، و اختارها أبو عبيدة قال النحاس: لأنها أعم، و الخاص يدخل تحت العام، و قد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة، و هذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال فلان يركب الخيل و إن لم يركب إلا فرسا قال: و قد أجمعوا على الجمع فى قوله: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ و روى عن الحسن البصرى أنه تعالى إنما قال مَساجِدَ و المراد المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد كلها و إمامها، فعامره كعامر جميع المساجد. قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم: فلان كثير الدرهم و بالعكس كقولهم فلان يجالس الملوك و لعله لم يجالس إلا ملكا واحدا و المراد بالعمارة: إما المعنى الحقيقى، أو المعنى المجازى، و هو ملازمته، و التعبد فيه، و كلاهما ليس

للمشركين، أما الأول فلأنه يستلزم المنّة على المسلمين بعمارة مساجدهم، و أما الثانى فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام، و معنى ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ ما صح لهم و ما استقام أن يفعلوا ذلك، و شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ حال، أى:

ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان، و العبادة لها، و جعلها آلهة، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، و إن أبوا ذلك بألسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين: عمارة المسجد التى هى من شأن المؤمنين، و الشهادة على أنفسهم بالكفر التى ليست من شأن من يتقرّب إلى اللّه بعمارة مساجده. و قيل: المراد بهذه الشهادة قولهم فى طوافهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه و ما ملك؛ و قيل: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: إن اليهودى يقول هو يهودى،

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۹۳

و النصرانى يقول هو نصرانى، و الصابئ، و المشرك يقول هو مشرك أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ التى يفتخرون بها و يظنون أنها من أعمال الخير، أى: بطلت، و لم يبق لها أثر وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ و فى هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها، ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و فعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة وَ لَمْ يَخْشَ أحدا إِلَّا اللَّهَ فمن كان جامعا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد، لا من كان خاليا منها أو من بعضها، و اقتصر على ذكر الصلاة و الزكاة و الخشية؛ تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه؛ مما افترضه اللّه على عباده، لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، و قد تقدّم الكلام فى وجه جمع المساجد، و فى بيان ماهية العمارة، و من جوّز الجمع بين الحقيقة و المجاز؛ حمل العمارة هنا عليهما، و فى قوله: فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم، فإنّ الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوّا فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات؛ و قيل: عسى من اللّه واجبة؛ و قيل: هى بمعنى خليق، أى: فخليق أن يكونوا من المهتدين؛ و قيل: إن الرجاء راجع إلى العباد، و الاستفهام فى أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ للإنكار، و السقاية و العمارة: مصدران كالسعاية و الحماية، و فى الكلام حذف، و التقدير: أ جعلتم أصحاب سقاية الحاج و عمارة المسجد، أو أهلهما كَمَنْ آمَنَ حتى يتفق الموضوع و المحمول، أو يكون التقدير فى الخبر، أى: جعلتم سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كعمل من آمن، أو كإيمان من آمن، و قرأ ابن أبى وجرة السعدى و ابن الزبير و سعيد بن جبير «أ جعلتم سقاة الحاج و عمرة المسجد الحرام»، جمع ساق و عامر، و على هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف، و المعنى: أن اللّه أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التى صورتها صورة الخير، و إن لم ينتفعوا بها و بين إيمان المؤمنين و جهادهم فى سبيل اللّه، و قد كان المشركون يفتخرون بالسقاية و العمارة و يفضلونهما على عمل المسلمين، فأنكر اللّه عليهم ذلك، ثم صرّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين و تفاوتهم، و عدم استوائهم فقال: لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ أى:

لا تساوى تلك الطّائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام، هذه الطائفة المؤمنة باللّه و اليوم الآخر المجاهدة فى سبيله، و دلّ سبحانه بنفى الاستواء على نفى الفضيلة التى يدّعيها المشركون، أى: إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم و أنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك، لا يستحقون الهداية من اللّه سبحانه، و فى هذا إشارة إلى الفريق المفضول، ثم صرّح بالفريق الفاضل فقال: الَّذِينَ آمَنُوا إلى آخره، أى: الجامعون بين الإيمان و الهجرة، و الجهاد بالأموال و الأنفس أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ و أحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة، و فى قوله: عِنْدَ اللَّهِ تشريف عظيم للمؤمنين، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتصفين

بالصفات المذكورة هُمُ الْفائِزُونَ أى: المختصون بالفوز عند اللّه، ثم فسر الفوز بقوله:
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ و التنكير فى الرحمة و الرضوان و الجنات
فتح القدير، ج۲، ص: ۳۹۴
للتعظيم؛ و المعنى أنها فوق وصف الواصفين، و تصوّر المتصورين. و النعيم المقيم: الدائم المستمر الذى لا يفارق صاحبه، و ذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، و جملة إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل، أى: أعطاهم اللّه سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذى عنده عظيم، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، و هو ذو الفضل العظيم.
و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ و قال: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فنفى المشركين من المسجد «۱» مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ يقول: من وحد اللّه و آمن بما أنزل اللّه وَ أَقامَ الصَّلاةَ يعنى الصلوات الخمس وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ يقول: لم يعبد إلا اللّه فَعَسى أُولئِكَ يقول: أولئك هم المهتدون كقوله لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «۲» يقول: إن ربك سيبعثك مقاما محمودا، و هى الشّفاعة، و كلّ عسى فى القرآن: فهى واجبة. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الدارمى و الترمذى و حسنه و ابن ماجة و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» قال اللّه تعالى: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ. و قد وردت أحاديث كثيرة فى استحباب ملازمة المساجد و عمارتها و التردّد إليها للطاعات. و أخرج مسلم و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبّان و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم:
ما أبالى أن لا أعمل للّه عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، و قال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، و قال آخر: بل جهاد فى سبيل اللّه خير مما قلتم، فزجرهم عمر، و قال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ذلك يوم الجمعة، و لكن إذا صلّيت الجمعة دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل اللّه أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ إلى قوله: لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ الآية، و ذلك أنّ المشركين قالوا:
عمارة بيت اللّه و قيام على السّقاية خير ممّن آمن و جاهد، فكانوا يفخرون بالحرم، و يستكبرون به من أجل أنّهم أهله و عمّاره، فذكر اللّه سبحانه استكبارهم و إعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ- مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ «۳» يعنى: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم، و قال: به سامرا: كانوا به يسمرون و يهجرون بالقرآن و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فخير الإيمان باللّه و الجهاد مع نبىّ اللّه على عمران المشركين البيت و قيامهم على السعاية و لم يكن لينفعهم عند اللّه مع الشرك به و إن كانوا يعمرون بيته و يخدمونه، قال اللّه لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يعنى:
الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئا، و فى إسناده العوفى

---

(۱). المقصود: ما ينبغى للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه.

(۲). الإسراء: ۷۹.

(۳). المؤمنون: ۶۶- ۶۷.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۳۹۵

و هو ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام و الهجرة و الجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام و نسقى الحاج و نفكّ العانى، فأنزل اللّه أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ الآية: يعنى أن ذلك كان فى الشرك؛ فلا أقبل ما كان فى الشرك.

و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نزلت فى عليّ بن أبى طالب و العباس. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الشعبى قال: تفاخر عليّ و العباس و شيبة فى السقاية و الحجابة فأنزل اللّه أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ الآية، و قد روى معنى هذا من طرق.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۲۳ الى ۲۴]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۲۴)

الخطاب للمؤمنين كافّة، و هو حكم باق إلى يوم القيامة، يدل على قطع الولاية بين المؤمنين و الكافرين، و قالت طائفة من أهل العلم: إنها نزلت فى الحضّ على الهجرة و رفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكّة و غيرها من بلاد العرب، نهوا بأن يوالوا الآباء و الإخوة فيكونون لهم تبعا فى سكنى بلاد الكفر إِنِ اسْتَحَبُّوا: أى أحبوا، كما يقال استجاب بمعنى أجاب، و هو فى الأصل طلب المحبّة، و قد تقدّم تحقيق المقام فى سورة المائدة فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ «۱» ثم حكم على من يتولّى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء و الإخوان بالظلم، فدلّ ذلك على أن تولى من كان كذلك من أعظم الذنوب و أشدّها، ثم أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم: إِنْ كانَ آباؤُكُمْ إلى آخره، و العشيرة: الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد، و عشيرة الرجل قرابته الأدنون، و هم الذين يعاشرونه و هى اسم جمع. و قرأ أبو بكر و حماد: عشيراتكم بالجمع. قال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات، و إنما يجمعونها على عشائر. قرأ الحسن عشائركم. و قرأ الباقون عَشِيرَتُكُمْ و الاقتراف: الاكتساب، و أصله اقتطاع الشيء من مكانه، و التركيب يدور على الدنوّ، و الكاسب يدنى الشيء من نفسه و يدخله تحت ملكه، و التجارة: الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها، و الكساد: عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة و مفارقة الأوطان. و من غرائب التفسير ما روى عن ابن المبارك أنه قال: إن المراد بالتجارة فى هذه الآية: البنات و الأخوات إذا كسدن فى البيت لا يجدن لهنّ خاطبا، و استشهد لذلك بقول الشاعر:

كسدن من الفقر فى قومهنّ و قد زادهنّ مقامى كسادا

و هذا البيت و إن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ، فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة

---

(۱). المائدة: ۵۱.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۳۹۶

عليهنّ، و المراد بالمساكن التى يرضونها: المنازل التى تعجبهم و تميل إليها أنفسهم و يرون الإقامة فيها أحبّ إليهم من المهاجرة إلى اللّه و رسوله، و أحبّ خبر كان، أى: كانت هذه الأشياء المذكورة فى الآية أحبّ إليكم من اللّه و رسوله و من الجهاد فى سبيل اللّه فَتَرَبَّصُوا أى: انتظروا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فيكم و ما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم؛ و قيل: المراد بأمر اللّه سبحانه: القتال؛

و قيل: فتح مكة و فيه بعد، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح. و فى هذا وعيد شديد و يؤكده إبهام الأمر و عدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب و تتردّد بين أنواع العقوبات وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أى: الخارجين عن طاعته، النّافرين عن امتثال أوامره و نواهيه.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: أمروا بالهجرة فقال العباس ابن عبد المطلب: أنا أسقى الحاجّ. و قال طلحة أخو بنى عبد الدار: أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر، فأنزلت لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى هذه الآية قال: هى الهجرة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة اقْتَرَفْتُمُوها قال: أصبتموها.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ قال: بالفتح، فى أمره بالهجرة، هذا كله قبل فتح مكة. و أخرج البيهقى من حديث عبد اللّه بن شوذب قال: جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، و جعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجرّاح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل اللّه لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ الآية، و هى تؤكّد معنى هذه الآية، و قد تقدّم بيان حكم الهجرة فى سورة النساء.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

المواطن: جمع موطن، و مواطن الحرب: مقاماتها، و المواطن التى نصر اللّه المسلمين فيها: هى يوم بدر و ما بعد، من المواطن التى نصر اللّه المسلمين على الكفار فيها، قبل يوم حنين، وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ معطوف على مواطن بتقدير مضاف، إما فى الأوّل و تقديره فى أيام مواطن، أو فى الثانى و تقديره و موطن يوم حنين، لئلا يعطف الزمان على المكان. و ردّ بأنه لا استبعاد فى عطف الزمان على المكان، فلا يحتاج إلى تقدير؛ و قيل:

إن يوم حنين: منصوب بفعل مقدّر معطوف على نَصَرَكُمُ أى: و نصركم يوم حنين، و رجح هذا صاحب الكشاف. قال: و موجب ذلك أن قوله: إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح، لأن كثرتهم لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن، و لم يكونوا كثيرا فى جميعها، و ردّ بأن العطف

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩٧

لا يجب فيه تشارك المتعاطفين فى جميع ما ثبت للمعطوف، كما تقول: جاءنى زيد و عمرو مع قومه، أو فى ثيابه، أو على فرسه؛ و قيل: إن إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ليس ببدل من يوم حنين، بل منصوب بفعل مقدّر: أى اذكروا إذ أعجبتكم كثرتكم، و حنين: واد بين مكة و الطائف، و انصرف على أنه اسم للمكان، و من العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة، و منه قول الشاعر:

نصروا نبيّهم و شدّوا أزرهبحنين يوم تواكل الأبطال

و إنما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثنى عشر ألفا، و قيل: أحد عشر ألفا، و قيل:

ستة عشر ألفا؛ فقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلّة، فوكلوا إلى هذه الكلمة فلم تغن الكثرة شيئا عنهم، بل انهزموا و ثبت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ثبت معه طائفة يسيرة منهم: عمه العباس و أبو سفيان بن الحارث، ثم تراجع المسلمون، فكان النصر و الظفر. و الإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة؛ أى: لم تعطكم الكثرة شيئا يدفع حاجتكم، و لم تفدكم. قوله: بِما رَحُبَتْ الرحب بضم

الراء: السّعة، و الرّحب بفتح الراء: المكان الواسع، و الباء بمعنى مع، و ما مصدرية، و محل الجار و المجرور النصب على الحال. و المعنى: أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف؛ ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم من الخوف و الوجل؛ و قيل: إن الباء بمعنى على، أى: على رحبها ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ أى: انهزمتم حال كونكم مدبرين، أى: مولين أدباركم، جاعلين لها إلى جهة عدوّكم. قوله: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أى: أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، و المراد بالمؤمنين: هم الذين لم ينهزموا، و قيل: الذين انهزموا، و الظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك، و قاتلوا، و انتصروا.

قوله: وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها هم الملائكة.

و قد اختلف فى عددهم على أقوال: قيل خمسة آلاف، و قيل: ثمانية آلاف، و قيل: ستة عشر ألفا، و قيل: غير ذلك، و هذا لا يعرف إلا من طريق النبوّة، و اختلفوا أيضا هل قاتلت الملائكة فى هذا اليوم أم لا؟ و قد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر، و أنهم إنما حضروا فى غير يوم بدر، لتقوية قلوب المؤمنين، و إدخال الرعب فى قلوب المشركين وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا بما وقع عليهم من القتل و الأسر، و أخذ الأموال، و سبى الذرية، و الإشارة بقوله: وَ ذلِكَ إلى التعذيب المفهوم من عذب، و سمى ما حلّ بهم من العذاب فى هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف؛ بل لا بدّ من عذاب الآخرة مبالغة فى وصف ما وقع عليهم، و تعظيما له ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ أى: من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام وَ اللَّهُ غَفُورٌ يغفر لمن أذنب فتاب رَحِيمٌ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: حنين: ما بين مكة و الطائف، قاتل نبىّ اللّه هوازن و ثقيف، و على هوازن مالك بن عوف، و على ثقيف عبد يا ليل بن عمرو الثّقفى. و أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة و أهل المدينة قالوا: الآن نقاتل حين اجتمعنا، فكره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۹۸

قالوا، و ما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا، فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ينادى أحياء العرب: إلىّ إلىّ، فو اللّه ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه، فالتفت إلى الأنصار و هم ناحية فناداهم: يا أنصار اللّه! و أنصار رسوله، إلىّ عباد اللّه، أنا رسول اللّه، فجثوا يبكون و قالوا:

يا رسول اللّه! و ربّ الكعبة إليك و اللّه، فنكسوا رؤوسهم يبكون و قدّموا أسيافهم يضربون بين يدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى فتح اللّه عليهم. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع أن رجلا قال يوم حنين: لن نغلب من قلّة، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ قال الرّبيع:

و كانوا اثنى عشر ألفا، منهم ألفان من أهل مكة. و أخرج الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم حنين، فولّى عنه الناس و بقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين و الأنصار، فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما و لم نولّهم الدّبر، و هم الذين أنزل اللّه عليهم السكينة، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على بغلته البيضاء يمضى قدما، فقال: ناولنى كفّا من تراب، فناولته فضرب به وجوههم، فامتلأت أعينهم ترابا، و ولّى المشركون أدبارهم، و وقعة حنين مذكورة فى كتب السّير و الحديث بطولها و تفاصيلها فلا نطول بذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله:

وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها قال: هم الملائكة وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: قتلهم بالسيف. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: فى يوم حنين أمدّ اللّه رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، و يومئذ سمّى اللّه الأنصار مؤمنين قال: فأنزل سكينته على

رسوله و على المؤمنين. و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن جبير بن مطعم قال: رأيت قبل هزيمة القوم و الناس يقتتلون مثل النّجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى، لم أشك أنّها الملائكة، و لم تكن إلا هزيمة القوم.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ (٢٩)

النّجس: مصدر لا يثنّى و لا يجمع، يقال رجل نجس، و امرأة نجس، و رجلان نجس، و امرأتان نجس، و رجال نجس، و نساء نجس؛ و يقال: نجس و نجس بكسر الجيم و ضمها؛ و يقال: نجس، بكسر النون و سكون الجيم، و هو تخفيف من المحرك، قيل: لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس، و قيل: ذلك أكثرىّ لا كلّى. و المشركون مبتدأ، و خبره المصدر مبالغة فى وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة، أو على تقدير مضاف: أى ذوو نجس، لأن معهم الشرك و هو بمنزلة النجس. و قال قتادة و معمر و غيرهما: إنهم وصفوا بذلك؛ لأنهم لا يتطهرون، و لا يغتسلون، و لا يتجنّبون النجاسات.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٩٩

و قد استدل بالآية من قال: بأن المشرك نجس الذات، كما ذهب إليه بعض الظاهرية و الزيدية. و روى عن الحسن البصرى و هو محكىّ عن ابن عباس. و ذهب الجمهور من السلف و الخلف و منهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات، لأن اللّه سبحانه أحلّ طعامهم، و ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلك من فعله و قوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل فى آنيتهم، و شرب منها، و توضأ فيها، و أنزلهم فى مسجده. قوله:

فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ الفاء للتفريع، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرّع على نجاستهم. و المراد بالمسجد الحرام جميع الحرم، روى ذلك عن عطاء، فيمنعون عنده من جميع الحرم، و ذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم.

و قد اختلف أهل العلم فى دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كلّ مشرك عن كل مسجد. و قال الشافعى: الآية عامة فى سائر المشركين خاصة فى المسجد الحرام، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد. قال ابن العربى: و هذا جمود منه على الظاهر، لأن قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ تنبيه على العلّة بالشرك و النجاسة، و يجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه صلّى اللّه عليه و سلّم لثمامة بن أثال فى مسجده، و إنزال وفد ثقيف فيه. و روى عن أبى حنيفة مثل قول الشافعى، و زاد أنه يجوز دخول الذمى سائر المساجد من غير حاجة، و قيده الشافعى بالحاجة. و قال قتادة: إنه يجوز ذلك للذمّى دون المشرك.

و روى عن أبى حنيفة أيضا أنه يجوز لهم دخول الحرم و المسجد الحرام و سائر المساجد، و نهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك، فهو من باب قولهم: لا أرينك هاهنا.

قوله: بَعْدَ عامِهِمْ هذا فيه قولان: أحدهما: أنه سنة تسع، و هى التى حج فيها أبو بكر على الموسم.

و الثانى: أنه سنة عشر، قاله قتادة، قال ابن العربى: و هو الصّحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ، و من العجب أن يقال: إنه سنة تسع، و هو العام الذى وقع فى الأذان، و لو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه:

لاـ تـدخل هـذه الـدار بعـد يومـك، لم يكن المراد اليوم الـذى دخـل فيه انتهى. و يجاب عنه بأن الـذى يعطيه مقتضـى اللفظ هو خلاف ما زعمه، فإن الإشارة بقوله: بَعْدَ عامِهِمْ هذا إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة و هو عام النداء، و هكذا فى المثال الذى ذكره المراد: النهى عن دخولهـا بعـد يـوم الـدخول الـذى وقـع فيه الخطـاب، و الأـمر ظـاهر لاـ يخفى، و لعله أراد تفسـير مـا بعد المضـاف إلى عـامهم و لا شك أنه عام عشـر، و أما تفسير العام المشار إليه بهـذا، فلا شك و لا ريب أنه عام تسع، و على هـذا يحمل قول قتادة. و قـد اسـتدلّ من قال بأنه يجوز للمشـركين دخول المسـجد الحرام و غيره من المساجـد بهذا القيد، أعنى قوله: بَعْدَ عـامِهِمْ هـذا قائلاـ إن النهى مختصّ بوقت الحـج و العمرة، فهم ممنوعون عن الحـج و العمرة فقـط لاـ عن مطلق الـدخول. و يجاب عنه بأن ظاهر النهى عن القربان بعـد هـذا العام يفيـد المنع من القربان فى كل وقت من الأوقات الكائنة بعده، و تخصـيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص. قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ العيلة:

الفقر، يقال: عال الرجل يعيل: إذا افتقر، قال الشاعر:

و ما يدرى الفقير متى غناهو ما يدرى الغنىّ متى يعيل

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۰

فتح القدير ج۲ ۴۴۹

و قرأ علقمة و غيره من أصحاب ابن مسعود «عايلة» و هو مصدر كالقائلة و العافية و العاقبة؛ و قيل معناه:

خصلة شاقة، يقال عالنى الأمر يعولنى: أى شقّ علىّ و اشتدّ. و حكى ابن جرير الطبرى أنه يقال عال يعول:

إذا افتقر، و كـان المسـلمون لمـا منعوا المشـركين من الموسم و هم كـانوا يجلبون إليه الأطعمـة و التجارات، قـذف الشـيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر و قالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم اللّه أن يغنيهم من فضله. قال الضحاك:

ففتح اللّه عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية، و قال عكرمة:

أغناهم بإدرار المطر و النّبات و خصب الأرض، و أسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم اللّه به. و قيل:

أغناهم بالفىء، و فائدة التقييد بالمشـيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك فى كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل، و لئلا يفتروا عن الـدعاء و التضـرّع إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بـأحوالكم حَكِيمٌ فى إعطائه و منعه، ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن. قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لاـ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآيـة، فيه الأمر بقتال من جمع بين هـذه الأوصاف. قال أبو الوفاء بن عقيل: إن قوله: قاتِلُوا أمر بالعقوبـة، ثم قال: الَّذِينَ لاـ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فبين الـذنب الـذى توجبه العقوبـة، ثم قال: وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فأكـد الـذنب فى جانب الاعتقاد، ثم قال: وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ فيه زيادة للـذنب فى مخالفة الأعمال، ثم قال: وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ فيه إشارة إلى تأكيد المعصـية بالانحراف و المعانـدة و الأنفـة عن الاستسـلام، ثم قال: مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ تأكيـد للحجـة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عنـدهم فى التوراة و الإنجيل، ثم قال: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ فبين الغايـة التى تمتد إليها العقوبة. انتهى قوله: مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بيان للموصول مع ما فى حيزه، و هم أهل التوراة و الإنجيل. قوله: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ الجزية، وزنها فعلة من جزى يجزى: إذا كافأ عمـا أسـدى إليه، فكـأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن؛ و قيل: سـميت جزيـة لأنها طائفـة مما على أهل الذمـة أن يجزوه، أى: يقضوه، و هى فى الشـرع: مـا يعطيـه المعاهـد على عهـده، و عَنْ يَدٍ فى محـل نصب على الحـال. و المعنى: عن يد مواتيـة، غير ممتنعـة، و قيل: معناه يعطونها بأيـديهم غير مسـتنيبين فيها أحـدا؛ و قيل: معناه: نقد غير نسيئة؛ و قيل: عن قهر؛ و قيل: معنـاه؛ عن إنعام منكم عليهم، لأن أخـذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم؛ و قيل معناه مـذمومون. و قـد ذهب جماعـة من أهل العلم منهم الشافعى و أحمد و أبو حنيفة و أصحابه الثورى و أبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب. و قال الأوزاعى و مالك: إن الجزيـة تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان، و يدخل فى أهل الكتاب على القول الأوّل المجوس، قال ابن

المنذر: لا أعلم خلافا فى أن الجزية تؤخذ منهم.
و اختلف أهل العلم فى مقدار الجزية، فقال عطاء: لا مقدار لها، و إنما تؤخذ على ما صولحوا عليه، و به قال يحيى بن آدم و أبو عبيد و ابن جرير إلا أنه قال: أقلها دينار و أكثرها لا حدّ له. و قال الشافعي: دينار على الغنيّ و الفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شيء، و به قال أبو ثور. قال الشافعي: و إن صولحوا على أكثر من دينار جاز، و إذا زادوا و طابت بذلك أنفسهم قبل منهم. و قال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، و أربعون درهما على أهل الورق، الغنيّ و الفقير سواء، و لو كان مجوسيا، لا يزيد و لا ينقص. و قال

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٠١

أبو حنيفة و أصحابه و محمد بن الحسن و أحمد بن حنبل: اثنا عشر و أربعة و عشرون و ثمانية و أربعون، و الكلام فى الجزية مقرّر فى مواطنه، و الحق من هذه الأقوال قد قرّرناه فى شرحنا للمنتقى و غيره من مؤلفاتنا، قوله:
وَ هُمْ صاغِرُونَ فى محلّ نصب على الحال، و الصغار: الذلّ. و المعنى: إن الذميّ يعطى الجزية حال كونه صاغرا، قيل: و هو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب، و يسلمها و هو قائم، و المتسلم قاعد. و بالجملة ينبغى للقابض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغرا ذليلا.
و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه فى قوله:
إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ الآية قال: إلا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة. و قد روى مرفوعا من وجه آخر أخرجه ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد و خدمكم». قال ابن كثير: تفرد به أحمد مرفوعا. و الموقوف: أصح. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، و يجيئون معهم بالطعام يتجرون به. فلما نهوا عن أن يأتوا البيت. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل اللّه وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ قال: فأنزل اللّه عليهم المطر، و كثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم. و أخرج ابن مردويه عنه قال: فأغناهم اللّه من فضله و أمرهم بقتال أهل الكتاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً قال:
الفاقة. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قال: بالجزية.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن الضحاك مثله. و أخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ قال: قذر. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال: من صافحهم فليتوضأ. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من صافح مشركا فليتوضّأ أو ليغسل كفّيه». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ قال: نزلت هذه الآية حين أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه بغزوة تبوك. و أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال: نزلت فى كفار قريش و العرب وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ* و أنزلت فى أهل الكتاب قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية إلى قوله: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ يعنى: الذين لا يصدّقون بتوحيد اللّه وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ يعنى: الخمر و الحرير وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ يعنى: دين الإسلام مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ يعنى مذللون. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: عَنْ يَدٍ قال: عن قهر. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله: عَنْ يَدٍ قال: من يده و لا يبعث بها غيره. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى سنان فى قوله: عَنْ يَدٍ قال: عن قدرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ هُمْ

صاغِرُونَ قال: يمشون بها

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۲

متلتلين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: يلكزون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سلمان فى الآية قال: غير محمودين.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۳۰) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۳۱) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۳۲) هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۳۳)

قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، و عزيز: مبتدأ، و ابن اللّه: خبره، و قد قرأ عاصم و الكسائى «عزيز» بالتنوين، و قرأ الباقون بترك التنوين لاجتماع العجمة و العلمية فيه. و من قرأ بالتنوين فقد جعله عربيا؛ و قيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعا بل لاجتماع الساكنين، و منه قراءة من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ- اللَّهُ الصَّمَدُ «۱». قال أبو علىّ الفارسى: و هو كثير فى الشعر، و أنشد ابن جرير الطبرى:

لتجدنّى بالأمير برّاو بالقناة مدعسا مكرّا

إذا غطيف السّلمىّ فرّا و ظاهر قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ إن هذه المقالة لجميعهم، و قيل: هو لفظ خرج على العموم، و معناه: الخصوص؛ لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم. و قال النقاش: لم يبق يهودى يقولها؟ بل قد انقرضوا؛ و قيل: إنه قال ذلك للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم، قوله: وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب، فكان ذلك سببا لهذه المقالة، و الأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكونه فى الإنجيل وصفه تارة بابن اللّه، و تارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك فى مواضع متعددة من الإنجيل، و لم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف و التكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة؛ قيل: و هذه المقالة إنما هى لبعض النصارى؛ لا لكلهم. قوله: ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. و وجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا بالفم، بأن هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان، و لا عضده برهان، كان مجرّد دعوى لا معنى تحتها، فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتدّ بها؛ و قيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد،

---

(۱). الإخلاص: ۱- ۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۳

كما فى كتبت بيدى، و مشيت برجلى، و منه قوله تعالى: يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ «۱». قوله: وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «۲». و قال بعض أهل العلم: إن اللّه سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه، و الألسن إلا و كان قولا زورا كقوله: يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِی قُلُوبِهِمْ «۳»، و قوله: كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ «۴»، و قوله: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِی قُلُوبِهِمْ «۵». قوله: يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا المضاهاة: المشابهة، قيل: و منه قول العرب: امرأة ضهياء: و هى التى لا تحيض لأنها شابهت الرجال. قال أبو

عليّ الفارسی: من قال: يضاهون مأخوذ من قولهم: امرأة ضهياء فقوله خطأ، لأن الهمزة فی ضاهأ أصلية، و فی ضهياء زائدة كحمراء، و أصله: يضاهئون، و امرأة ضهياء. و معنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم: الأوّل: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان فی قولهم: اللات و العزى و مناة بنات اللّه. القول الثانی: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين: إنّ الملائكة بنات اللّه، الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيز ابن اللّه و أن المسيح ابن اللّه. قوله: قاتَلَهُمُ اللَّهُ دعاء عليهم بالهلاك، لأن من قاتله اللّه هلك؛ و قيل: هو تعجب من شناعة قولهم؛ و قيل: معنى قاتلهم اللّه: لعنهم اللّه، و منه قول أبان بن تغلب:

قاتلها اللّه تلحانی و قد علمت أنّی لنفسی إفسادی و إصلاحی

و حكى النقاش أن أصل «قاتل اللّه»: الدعاء، ثم كثر فی استعمالهم حتى قالوه على التعجب فی الخير و الشرّ و هم لا يريدون الدعاء، و أنشد الأصمعی:

يا قاتل اللّه ليلى كيف تعجبنی و أخبر النّاس أنّی لا أباليها

أَنَّى يُؤْفَكُونَ أی: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. قوله: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ الأحبار: جمع حبر، و هو الذی يحسن القول، و منه ثوب محبّر؛ و قيل: جمع حبر بكسر الحاء، قال يونس: لم أسمعه إلا بكسر الحاء. و قال الفراء: الفتح و الكسر لغتان. و قال ابن السكيت:

الحبر بالكسر: المداد، و الحبر بالفتح العالم. و الرهبان: جمع راهب، مأخوذ من الرهبة، و هم علماء النصارى، كما أن الأحبار علماء اليهود. و معنى الآية: أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به و ينهونهم عنه؛ كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا، لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب. قوله: وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ معطوف على رهبانهم، أی: اتخذه النصارى ربا معبودا، و فيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزير ربا معبودا. و فی هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد عن التقليد فی دين اللّه، و تأثير ما يقوله الأسلاف على ما فی الكتاب العزيز و السّنّة المطهّرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدی بقوله و يستنّ بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص، و قامت به حجج اللّه و براهينه، و نطقت به كتبه و أنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود و النصارى للأحبار و الرهبان أربابا من دون اللّه، للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، و حرّموا ما حرّموا، و حللوا ما حللوا. و هذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، و هو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة،

---

(١). البقرة: ٧٩.

(٢). الأنعام: ٣٨.

(٣). آل عمران: ١٦٧.

(٤). الكهف: ٥.

(٥). الفتح: ١١.

و التمرة بالتمرة، و الماء بالماء؛ فيا عباد اللّه! و يا أتباع محمد بن عبد اللّه ما بالكم تركتم الكتاب و السنة جانبا، و عمدتم إلى رجال هم مثلكم فی تعبد اللّه لهم بهما، و طلبه منهم للعمل بما دلا عليه و أفاده، فعلتم بما جاءوا به من الآراء التی لم تعمد بعماد الحق، و لم تعضد بعضد الدين و نصوص الكتاب و السنة، تنادی بأبلغ نداء و تصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك و يباينه، فأعرتموهما آذانا صما، و قلوبا غلفا، و أفهاما مريضة، و عقولا مهيضة، و أذهانا كليلة، و خواطر عليلة، و أنشدتم بلسان الحال:

و ما أنا إلا من غزيّة إن غوت‌غويت و إن ترشد غزيّة أرشد

فدعوا أرشدكم اللّه و إياى كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم، و استبدلوا بها كتاب اللّه خالقهم و خالقكم، و متعبدهم و متعبدكم، و معبودهم و معبودكم، و استبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم و ما جاءوكم به من الرأى بأقوال إمامكم و إمامهم و قدوتكم و قدوتهم، و هو الإمام الأوّل محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

دعوا كلّ قول عند قول محمّدفما آمن فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل، اهدنا إلى الحق، و أرشدنا إلى الصواب، و أوضح لنا منهج الهداية. قوله: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى:

اتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا، و الحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة اللّه وحده، أو ما أمر الذين اتخذوهم أربابا من الأحبار و الرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابا؟ قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ صفة ثانية لقوله إلها سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: تنزيها له عن الإشراك فى طاعته و عبادته. قوله:

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ هذا كلام يتضمّن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم و بعدهم عن الحق، و هو ما راموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة التى هى مجرّد كلمات ساذجة و مجادلات زائفة، و هذا تمثيل لحالهم فى محاولة إبطال دين الحق و نبوّة نبىّ الصدق، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم قد أنارت به الدنيا، و انقشعت به الظلمة؛ ليطفئه و يذهب أضواءه وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ أى: دينه القويم، و قد قيل: كيف دخلت إلا الاستثنائية على يأبى؟ و لا يجوز كرهت أو بغضت إلا زيدا. قال الفرّاء: إنما دخلت لأن فى الكلام طرفا من الجحد. و قال الزّجّاج: إن العرب تحذف مع «أبى»، و التقدير: و يأبى اللّه كلّ شىء إلا أن يتم نوره، و قال على بن سليمان: إنما جاز هذا فى «أبى»؛ لأنها منع أو امتناع فضارعت النفى. قال النحاس: و هذا أحسن كما قال الشاعر:

و هل لى أمّ غيرها إن تركتهاأبى اللّه إلا أن أكون لها ابنما

و قال صاحب الكشاف: إن «أبى» قد أجرى مجرى لم يرد؛ أى: و لا يريد إلا أن يتمّ نوره. قوله:

وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ معطوف على جملة قبله مقدرة، أى: أبى اللّه إلا أن يتمّ نوره و لو لم يكره الكافرون ذلك و لو كرهوا، ثم أكد هذا بقوله: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى أى: بما يهدى به الناس من البراهين و المعجزات و الأحكام التى شرعها اللّه لعباده وَ دِينِ الْحَقِ و هو الإسلام لِيُظْهِرَهُ أى: ليظهر

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٠٥

رسوله، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج و البراهين، و قد وقع ذلك و للّه الحمد وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الكلام فيه كالكلام فى وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ كما قدّمنا ذلك.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سلام بن مشكم، و نعمان بن أوفى، و أبو أنس، و شاس بن قيس، و مالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك و قد تركت قبلتنا و أنت لا تزعم أن عزير ابن اللّه؟ فأنزل اللّه وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عنه قال: كنّ نساء بنى إسرائيل يجتمعن بالليل فيصلين و يعتزلن و يذكرن ما فضل اللّه به بنى إسرائيل و ما أعطاهم، ثم سلّط عليهم شرّ خلقه بختنصر، فحرق التوراة و خرّب بيت المقدس، و عزير يومئذ غلام، فقال عزير: أو كان هذا؟ فلحق بالجبال و الوحش فجعل يتعبّد فيها، و جعل لا يخالط الناس، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر و هى تبكى. فقال: يا أمه! اتقى اللّه، و احتسبى، و اصبرى، أ ما تعلمين أنّ سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت: يا عزيز! أ تنهانى أن أبكى و أنت قد خلفت بنى

إسرائيل و لحقت بالجبال و الوحش؟ ثم قالت: إني لست بامرأة و لكنّي الدنيا، و إنه سينبع في مصلّاك عين و تنبت شجرة، فاشرب من ماء العين، و كل من ثمر الشجرة، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا؛ فلما كان من الغد نبعت العين و نبتت الشجرة، فشرب من ماء العين و أكل من ثمرة الشجرة، و جاء ملكان و معهما قارورة فيها نور، فأوجراه ما فيها: فألهمه اللّه التوراة، فجاء فأملاه على الناس، فعند ذلك قالوا عزير ابن اللّه، تعالى اللّه عن ذلك. و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا فذكر قصة و فيها: أن عزير سأل اللّه بعد ما أنسى بني إسرائيل التوراة؛ و نسخها من صدورهم؛ أن يردّ الذي نسخ من صدره. فبينما هو يصلي نزل نور من اللّه عزّ و جلّ فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم! قد آتاني اللّه التوراة و ردّها إليّ. و أخرج أبو الشيخ عن كعب قال: دعا عزير ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى في قلبه، فأنزلها اللّه عليه، فبعد ذلك قالوا: عزير ابن اللّه. و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عباس قال: ثلاث أشك فيهن: فلا أدري عزير كان نبيا أو لا؟ و لا أدري ألعن تبع أم لا؟ قال: و نسيت الثالثة. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه في قوله: يُضاهِؤُنَ قال: يشبهون. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ عنه في قوله: قاتَلَهُمُ اللَّهُ قال: لعنهم اللّه، و كلّ شيء في القرآن قتل فهو: لعن. و أخرج ابن سعد، و عبد بن حميد، و الترمذي و حسّنه، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقي في سننه، عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يقرأ في سورة براءة: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، و لكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه، و إذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه. و أخرجه أيضا أحمد و ابن جرير. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابي، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقي في سننه، عن أبي البحتري قال: سأل رجل حذيفة فقال:

أ رأيت قوله: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ أ كانوا يعبدونهم؟ قال: لا، و لكنهم

كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه، و إذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبي حاتم عن الضحّاك قال: أحبارهم: قراؤهم، و رهبانهم: علماؤهم. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال:

الأحبار من اليهود، و الرهبان من النّصارى. و أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي مثله. و أخرج أيضا عن الفضيل ابن عياض قال: الأحبار: العلماء، و الرهبان: العباد. و أخرج أيضا عن السدّي في قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ قال: يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم. و أخرج ابن أبي حاتم عن الضحّاك في قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ يقول: يريدون أن يهلك محمد و أصحابه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة في الآية قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج أبو الشيخ عن السدّي هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى يعني: بالتوحيد و الإسلام و القرآن.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳۴) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (۳۵)

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار و الرهبان و المتّخذين لهم أربابا؛ ذكر حال المتبوعين فقال:

إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ إلى آخره، و معنى أكلهم لأموال الناس بالباطل: أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة، و أثبت هذا للكثير منهم، لأن فيهم من لم يتلبّس بذلك، بل بقي على ما يوجبه دينه من غير تحريف، و لا تبديل، و لا ميل إلى حطام الدّنيا، و لقد

اقتدى بهؤلاء الأحبار و الرهبان من علماء الإسلام من لا يأتى عليه الحصر فى كل زمان، فاللّه المستعان. قوله: وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: عن الطريق إليه، و هو دين الإسلام، أو عن ما كان حقا فى شريعتهم قبل نسخها، بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل. قوله:

وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قيل: هم المتقدّم ذكرهم من الأحبار و الرهبان، و إنهم كانوا يصنعون هذا الصنع؛ و قيل: هم من يفعل ذلك من المسلمين، و الأولى: حمل الآية على عموم اللفظ، فهو أوسع من ذلك، و أصل الكنز فى اللغة: الضمّ و الجمع، و لا يختصّ بالذّهب و الفضّة. قال ابن جرير: الكنز كلّ شيء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها انتهى. و منه ناقة كناز: أى مكتنزة اللحم، و اكتنز الشيء: اجتمع.

و اختلف أهل العلم فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، و قال آخرون:

ليس بكنز. و من القائلين بالقول الأوّل أبو ذرّ. و قيده بما فضل عن الحاجة. و من القائلين بالقول الثانى عمر ابن الخطاب و ابن عمر و ابن عباس و جابر و أبو هريرة و عمر بن عبد العزيز و غيرهم، و هو الحق لما سيأتى من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز. قوله وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ اختلف فى وجه إفراد

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٠٧

الضمير مع كون المذكور قبله شيئين، هما الذهب و الفضة، فقال ابن الأنبارى: إنه قصد إلى الأعمّ الأغلب و هو الفضة قال: و مثله قوله تعالى وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ «١» ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ، و مثله قوله وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها «٢» أعاد الضمير إلى التجارة، لأنها الأهمّ؛ و قيل:

إن الضمير راجع إلى الذهب و الفضة معطوفة عليه، و العرب تؤنث الذهب و تذكره؛ و قيل: إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله يَكْنِزُونَ و قيل: إلى الأموال، و قيل: للزكاة، و قيل: إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى، و هو كثير فى كلام العرب، و أنشد سيبويه:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرأى مختلف

و لم يقل راضون، و مثله قول الآخر:

رمانى بأمر كنت منه و والدىبريئا و من أجل الطّوىّ رمانى

و لم يقل بريئين، و مثله قول حسان:

إنّ شرح الشّباب و الشّعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

و لم يقل يعاصيا. و قيل: إن إفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد من الذهب و الفضة جملة وافية، و عدّة كثيرة، و دنانير و دراهم، فهو كقوله وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا «٣» و إنما خصّ الذهب و الفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمن الأشياء، و غالب ما يكنز، و إن كان غيرهما له حكمهما فى تحريم الكنز. قوله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ هو خبر الموصول، و هو من باب التهكّم بهم، كما فى قوله:

تحّية بينهم ضرب وجيع و قيل: إنّ البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة لتأثيره فى القلب، سواء كان من الفرح أو من الغمّ.

و معنى يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ أن النار توقد عليها و هى ذات حمى و حرّ شديد، و لو قال يوم تحمى: أى الكنوز، لم يعط هذا المعنى، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذف النار و أسند الفعل إلى الجارّ كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت رفع إلى الأمير، و قرأ ابن عامر تحمى بالمثناة الفوقية. و قرأ أبو حيوة فيكوى بالتحتية. و خص الجباه و الجنوب و الظهور، لكون التألم بكيها أشدّ، لما فى داخلها من الأعضاء الشريفة، و قيل: ليكون الكيّ فى الجهات الأربع: من قدّام، و

خلف، و عن يمين، و عن يسار؛ و قيل: لأن الجمال فى الوجه، و القوّة فى الظهر و الجنبين، و الإنسان إنما يطلب المال للجمال و القوّة؛ و قيل: غير ذلك، مما لا يخلو عن تكلف. قوله: هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أى:

يقال لهم ما كنزتم لأنفسكم، أى: كنزتموه لتنتفعوا به، فهذا نفعه على طريقة التهكم، و التوبيخ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ما مصدرية أو موصولة؛ أى: ذوقوا وباله، و سوء عاقبته، و قبح مغبّته، و شؤم فائدته.

---

(۱). البقرة: ۴۵.

(۲). الجمعة: ۱۱.

(۳). الحجرات: ۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۸

و قد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ يعنى علماء اليهود و النصارى لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ و الباطل: كتب كتبوها لم ينزلها اللّه فأكلوا بها أموال الناس، و ذلك قول اللّه تعالى فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ «۱». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قال: هؤلاء الذين لا يؤدّون الزكاة من أموالهم، و كلّ مال لا تؤدى زكاته، كان على ظهر الأرض، أو فى بطنها فهو كنز، و كلّ مال أدّيت زكاته فليس بكنز، كان على ظهر الأرض، أو فى بطنها. و أخرجه عنه ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ من وجه آخر: و أخرج مالك و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر نحوه. و أخرج ابن مردويه عنه نحوه مرفوعا. و أخرج ابن عدّى و الخطيب عن جابر نحوه مرفوعا أيضا. و أخرجه ابن أبى شيبة عنه موقوفا. و أخرج أحمد فى الزهد، و البخارى و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عمر فى الآية قال: إنما كان هذا قبل أن تنزل الزّكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها اللّه طهرة للأموال، ثم قال: ما أبالى لو كان عند مثل أحد ذهبا أعلم عدده و أزكيه، و أعمل فيه بطاعات اللّه، و أخرج ابن أبى شيبة و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال: ليس بكنز ما أدّى زكاته. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن أمّ سلمة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة فى مسنده و أبو داود و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ كبر ذلك على المسلمين، و قالوا: ما يستطيع أحد منا لولده مالا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فانطلق عمر و اتبعه ثوبان فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا نبى اللّه إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال:

إن اللّه لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم، و إنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم، فكبر عمر، ثم قال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرّته، و إذا أمرها أطاعته، و إذا غاب عنها حفظته. و قد أخرجه أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة عن سالم ابن أبى الجعد من غير وجه عن ثوبان. و حكى البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قال: هم أهل الكتاب، و قال: هى خاصة و عامة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة و ما فوقها كنز. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى عن أبى أمامة قال: حلية السيوف من الكنوز، ما أحدّثكم إلا ما سمعت.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عراك بن مالك و عمر بن عبد العزيز أنهما قالا فى قوله: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ إنها نسختها الآية الأخرى خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً الآية. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال «ما من صاحب ذهب و لا فضة لا يؤدّى زكاتها إلا جعلها يوم القيامة صفائح، ثم أحمى عليها فى نار

جهنم، ثم يكوى بها جنباه و جبهته و ظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله، إمّا إلى الجنة، و إمّا إلى النار». و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن زيد بن وهب قال: مررت على أبى ذرّ بالرّبذة فقلت:

---

(۱). البقرة: ۷۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۹

ما أنزلك بهذه الأرض؟ فقال: كنا بالشام فقرأت وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ الآية، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا فى أهل الكتاب، قلت: إنّها لفينا و فيهم.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۳۶) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۳۷)

قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً هذا كلام مبتدأ يتضمّن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار، و ذلك أنّ اللّه سبحانه لما حكم فى كلّ وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسيء و الكبيسة، فأخبرنا اللّه بما هو حكمه فقال إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ أى: عدد شهور السنة عند اللّه فى حكمه و قضائه و حكمته اثنا عشر شهرا. قوله: فِي كِتابِ اللَّهِ أى: فيما أثبته فى كتابه. قال أبو على الفارسى: لا يجوز أن يتعلّق فى كتاب اللّه بقوله: عدّة الشهور، للفصل بالأجنبى و هو الخبر؛ أعنى اثنا عشر شهرا؛ فقوله:

فى كتاب اللّه، و قوله: يوم خلق، بدل من قوله: عند اللّه، و التقدير: إن عدّة الشهور عند اللّه فى كتاب اللّه يوم خلق السّموات و الأرض. و فائدة الإبدالين: تقرير الكلام فى الأذهان لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند اللّه فى كتاب اللّه، و ثابت فى علمه فى أوّل ما خلق اللّه العالم. و يجوز أن يكون فى كتاب اللّه:

صفة اثنا عشر: أى: اثنا عشر مثبتة فى كتاب اللّه و هو اللوح المحفوظ. و فى هذه الآية بيان أن اللّه سبحانه وضع هذه الشهور و سمّاها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات و الأرض، و أن هذا هو الذى جاءت به الأنبياء و نزلت به الكتب، و أنه لا اعتبار بما عند العجم و الروم و القبط من الشهور التى يصطلحون عليها و يجعلون بعضها ثلاثين يوما، و بعضها أكثر، و بعضها أقلّ. قوله مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ هى: ذى القعدة، و ذو الحجة، و المحرم، و رجب، ثلاثة سرد، و واحد فرد، كما ورد بيان ذلك فى السنة المطهرة. قوله: ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أى: كون هذه الشهور كذلك، و منها أربعة حرم، هو الدين المستقيم، و الحساب الصحيح، و العدد المستوفى. قوله: فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ أى: فى هذه الأشهر الحرم، بإيقاع القتال فيها، و الهتك لحرمتها؛ و قيل: إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها؛ الحرم و غيرها، و إن اللّه نهى عن الظّلم فيها، و الأوّل أولى. و قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أنّ تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية، و لقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ «۱» و لقوله: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ الآية.

و قد ذهب جماعة آخرون إلى أنّ تحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف. و يجاب عنه بأن الأمر

---

(۱). المائدة: ۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۱۰

بقتل المشركين و مقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما فى الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم، كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه، و أما ما استدلوا به من أنه صلّى اللّه عليه و سلّم حاصر أهل الطائف فى شهر حرام و هو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين و غيرهما، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم فى ذى القعدة بل فى شوّال، و المحرّم إنما هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا إتمامه، و بهذا يحصل الجمع. قوله: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً أى:

جميعا، و هو مصدر فى موضع الحال. قال الزجاج: مثل هذا من المصادر: كعامة، و خاصة، لا يثنى و لا يجمع كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً أى: جميعا. و فيه دليل على وجوب قتال المشركين، و أنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ أى: ينصرهم و يثبتهم، و من كان اللّه معه فهو الغالب، و له العاقبة و الغلبة، قوله إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ قرأ نافع فى رواية ورش عنه النسىّ بياء مشدّدة بدون همز. و قرأ الباقون بياء بعدها همزة. قال النّحاس: و لم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده، و هو مشتق من نسأه و أنسأه: إذا أخّره، حكى ذلك الكسائى. قال الجوهرى: النسىء فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشىء فهو منسوء: إذا أخّرته، ثم تحوّل منسوء إلى نسىء كما تحوّل مقتول إلى قتيل. قال ابن جرير: فى النسىء بالهمزة معنى: الزيادة، يقال: نسأ ينسأ: إذا زاد، قال: و لا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان كما قال تعالى نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ و ردّ على نافع قراءته. و كانت العرب تحرّم القتال فى الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها و حرّموا غيرها، فإذا قاتلوا فى المحرّم حرّموا بدله شهر صفر، و هكذا فى غيره، و كان الذى يحملهم على هذا أن كثيرا منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض، و نهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، و يقع بينهم بسبب ذلك القتال. و كانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليها و تشتدّ حاجتهم و تعظم فاقتهم، فيحللون بعضها و يحرّمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم، فهذا هو معنى النسىء الذى كانوا يفعلونه. و قد وقع الخلاف فى أوّل من فعل ذلك فقيل هو رجل من بنى كنانة يقال له: حذيفة بن عتيد، و يلقب: القلمس، و إليه يشير الكميت بقوله:

ألسنا النّاسئين على معدّشهور الحلّ نجعلها حراما

و فيه يقول قائلهم:

و منّا ناسئ الشّهر القلمّس و قيل: هو عمرو بن لحىّ، و قيل: هو نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة. و سمّى اللّه سبحانه النسىء زيادة فى الكفر لأنه نوع من أنواع كفرهم، و معصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم باللّه و كتبه و رسله و اليوم الآخر. قوله يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو و ابن عامر يضل على البناء للمعلوم. و قرأ الكوفيون على البناء للمجهول، و معنى القراءة الأولى: أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسىء، و معنى القراءة الثانية: أن الذى سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة، و قد اختار القراءة

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۱۱

الأولى أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد. و قرأ الحسن و أبو رجاء و يعقوب: يضل بضم الياء و كسر الضاد على أن فاعله الموصول، و مفعوله محذوف، و يجوز أن يكون فاعله هو اللّه سبحانه و مفعوله الموصول. و قرئ بفتح الياء و الضاد من ضلّ يضلّ. و قرئ نضلّ بالنون. قوله يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً الضمير راجع إلى النسىء، أى: يحلون النسىء عاما و يحرّمونه عاما، أو إلى الشهر الذى يؤخرونه و يقاتلون فيه، أى: يحلونه عاما بإبداله بشهر آخر من شهور الحل، و يحرّمونه عاما، أى: يحافظون

عليه فلا- يحلون فيه القتال، بل يبقونه على حرمته. قوله: لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ أى: لكى يواطئوا، و المواطأة: الموافقة، يقال: تواطأ القوم على كذا: أى: توافقوا عليه و اجتمعوا. و المعنى: إنهم لم يحلوا شهرا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة. قال قطرب: معناه: عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحرم و قرنوه بالمحرّم فى التحريم. و كذا قال الطبرى. قوله: فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ أى: من الأشهر الحرم التى أبدلوها بغيرها زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ أى: زيّن لهم الشيطان الأعمال السّيئة التى يعملونها. و من جملتها النسىء. و قرئ على البناء للفاعل وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ أى: المصرّين على كفرهم، المستمرين عليه، فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب. و أما الهداية بمعنى الدلالة على الحق و الإرشاد إليه فقد نصبها اللّه سبحانه لجميع عباده.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى بكر أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خطب فى حجته قال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السّموات و الأرض، السّنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، و ذو الحجة، و المحرّم، و رجب مضر الذى بين جمادى و شعبان». و أخرج نحوه ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من حديث ابن عمر. و أخرج نحوه ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه من حديث ابن عباس. و أخرج نحوه أيضا البزار و ابن جرير و ابن مردويه من حديث أبى هريرة.

و أخرجه أحمد و ابن مردويه من حديث أبى حرة الرقاشى عن عمه مرفوعا مطوّلا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن ابن عباس مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ قال: المحرّم، و رجب، و ذو القعدة، و ذو الحجة.

و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: إنما سمّين حرما لئلا يكون فيهنّ حرب. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشّعب، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ ثم اختصّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهنّ حرما، و عظّم حرماتهنّ. و جعل الدّين فيهنّ أعظم، و العمل الصّالح و الأجر أعظم فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ قال: كلهنّ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً يقول جميعا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مقاتل فى قوله وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً قال: نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة. و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كانت العرب يحلون عاما شهرا و عاما شهرين، و لا يصيبون الحجّ إلا فى كلّ عشرين سنة مرة، و هى النسىء الذى ذكره اللّه فى كتابه، فلما كان عام حجّ أبو بكر بالناس وافق ذلك العام، فسمّاه اللّه الحجّ الأكبر، ثم حج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من العام المقبل، و استقبل الناس الأهلة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات و الأرض». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر قال: وقف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالعقبة فقال: «إنّما النّسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما و يحرّمونه عاما، فكانوا يحرّمون المحرّم عاما و يستحلّون صفر، و يحرّمون صفر عاما و يستحلّون المحرّم، و هى النّسىء». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان جنادة بن عوف الكنانى يوافى الموسم كلّ عام، و كان يكنى أبا ثمامة، فينادى: ألا إن أبا ثمامة لا يحاب و لا يعاب، ألا و إن صفر الأوّل العام حلال فيحلّه للناس، فيحرّم صفر عاما، و يحرّم المحرّم عاما. فذلك قوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: المحرّم كانوا يسمّونه صفر، و صفر يقولون صفران الأوّل و الآخر، يحلّ لهم مرّة الأوّل، و مرّة الآخر. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كانت النساة حيا من بنى مالك من كنانة من بنى فقيم، فكان آخرهم رجلا يقال له القلمّس، و هو الذى أنسأ المحرم.

[سورة التوبة (9): الآيات 38 الى 42]

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٤٢)

قوله: يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لما شرح معايب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين في قتالهم، و الاستفهام في ما لَكُمْ للإنكار و التوبيخ، أي: أيّ شيء يمنعكم عن ذلك، و لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في غزوة تبوك، و كانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، و النفر:

هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث. قوله: اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أصله تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، و جيء بألف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن، و مثله: ادّاركوا، و اطيرتم، و اطيروا، و أنشد الكسائي:

تولى الضّجيع إذا ما استافها خصراعذب المذاق إذا ما اتّابع القبل

و قرأ الأعمش تثاقلتم على الأصل، و معناه تباطأتم، و عدّى بإلى لتضمنه معنى الميل و الإخلاد؛

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٤١٣

و قيل: معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم، و البقاء فيها، و قرئ آثاقلتم على الاستفهام، و معناه التوبيخ، و العامل في الظرف ما في ما لَكُمْ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما يمنعكم؟ أو ما تصنعون إذا قيل لكم؟

و إِلَى الْأَرْضِ متعلق باثاقلتم و كما مرّ. قوله أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا أي: بنعيمها بدلا من الآخرة، كقوله تعالى: وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ «١» أي: بدلا منكم، و مثله قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربةمبرّدة باتت على طهيان

أي: بدلا من ماء زمزم، و الطهيان: عود ينصب في ناحية الدار للهواء يعلق عليه ليبرد، و معنى فِي الْآخِرَةِ أي: في جنب الآخرة، و في مقابلها إِلَّا قَلِيلٌ أي: إلا متاع حقير لا يعبأ به، و يجوز أن يراد بالقليل: العدم، إذ لا نسبة للمتناهي الزائل إلى غير المتناهي الباقي، و الظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعا على التباطؤ و التثاقل، و إنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل، و هو كثير شائع. قوله إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ هذا تهديد شديد، و وعيد مؤكد لمن ترك النفير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً أي: يهلككم بعذاب شديد مؤلم؛ قيل: في الدنيا فقط، و قيل: هو أعم من ذلك. قوله وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ أي: يجعل لرسله بدلا منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم.

و اختلف في هؤلاء القوم من هم. فقيل: أهل اليمن، و قيل: أهل فارس، و لا وجه للتعيين بدون دليل.

قوله: وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً معطوف على يَسْتَبْدِلْ و الضمير قيل: للّه، و قيل: للنبي صلّى اللّه عليه و سلّم، أي:

و لا تضرّوا اللّه بترك امتثال أمره بالنفير شيئا، أو تضرّوا رسول اللّه بترك نصره، و النفير معه شيئا وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من جملة مقدوراته تعذيبكم، و الاستبدال بكم. قوله: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ أي: إن تركتم نصره فاللّه سيتكفل به، فقد نصره في مواطن القلة، و أظهره على عدوه بالغلبة و القهر؛ أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ثانِيَ اثْنَيْنِ أي: أحد اثنين، و هما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه. قرئ

بسكون الياء. قال ابن جنى:
حكاها أبو عمرو بن العلاء، و وجهها أن تسكن الياء تشبيها لها بالألف. قال ابن عطية: فهى كقراءة الحسن:
ما بقى من الربا. و كقول جرير:
هو الخليفة فارضوا ما رضى لكمماضى العزيمة ما فى حكمه جنف
قوله: إِذْ هُما فِي الْغارِ بدل من إِذْ أَخْرَجَهُ بدل بعض، و الغار: ثقب فى الجبل المسمى ثورا، و هو المشهور بغار ثور، و هو جبل قريب من مكة، و قصة خروجه صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة إلى المدينة هو و أبو بكر و دخولهما الغار مشهورة مذكورة فى كتب السير و الحديث. قوله إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ بدل ثان، أى: وقت قوله لأبى بكر: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا أى: دع الحزن فإن اللّه بنصره و عونه و تأييده معنا، و من كان اللّه معه فلن يغلب، و من لا يغلب فيحق له أن لا يحزن، قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ السكينة: تسكين جأشه و تأمينه حتى ذهب روعه و حصل له الأمن، على أنّ الضمير فى عَلَيْهِ لأبى

---

(١). الزخرف: ٦٠.

بكر؛ و قيل: هو للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و يكون المراد بالسكينة النازلة عليه: عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له، و يؤيد كون الضمير فى عَلَيْهِ للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم الضمير فى وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها فإنه للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه المؤيد بهذه الجنود التى هى الملائكة كما كان فى يوم بدر؛ و قيل: إنه لا محذور فى رجوع الضمير من عَلَيْهِ إلى أبى بكر و من وَ أَيَّدَهُ إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن ذلك كثير فى القرآن و فى كلام العرب وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى أى: كلمة الشرك، و هى دعوتهم إليه، و نداؤهم للأصنام وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا قرأ الأعمش و يعقوب بنصب كلمة حملا على جعل، و قرأ الباقون برفعها على الاستئناف.

و قد ضعف قراءة النصب الفراء و أبو حاتم، و فى ضمير الفصل، أعنى: هِيَ تأكيد لفضل كلمته فى العلوّ و أنها المختصة به دون غيرها، و كلمة اللّه: هى كلمة التوحيد، و الدعوة إلى الإسلام وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أى: غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة و صواب، ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و ضرب له من الأمثال ما ذكره عقبه بالأمر الجزم فقال: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا أى: حال كونكم خفافا و ثقالا، قيل: المراد منفردين أو مجتمعين، و قيل: نشاطا و غير نشاط، و قيل: فقراء و أغنياء، و قيل:

شبابا و شيوخا، و قيل: رجالا و فرسانا، و قيل: من لا عيال له و من له عيال؛ و قيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع، و من يتأخر كالجيش، و قيل غير ذلك. و لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى، لأن معنى الآية: انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت. قيل: و هذه الآية منسوخة بقوله تعالى لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى و قيل: الناسخ لها قوله فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ الآية، و قيل: هى محكمة و ليست بمنسوخة، و يكون إخراج الأعمى و الأعرج بقوله لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ* «١» و إخراج الضعيف و المريض بقوله لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى من باب التخصيص، لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: خِفافاً وَ ثِقالًا و الظاهر عدم دخولهم تحت العموم.

قوله: وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس و الأموال و إيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، و الأغنياء بأموالهم و أنفسهم. و الجهاد من آكد الفرائض و أعظمها، و هو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدوّ و بدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدوّ إلا جميع المسلمين فى قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين، و

الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم من الأمر بالنفير و الأمر بالجهاد خَيْرٌ لَكُمْ أى: خير عظيم فى نفسه، و خير من السكون و الدعة إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذلك، و تعرفون الأشياء الفاضلة و تميزونها عن المفضولة. قوله: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ قال الزجاج: لو كان المدعو إليه، فحذف لدلالة ما تقدّم عليه، و العرض: ما يعرض من منافع الدنيا. و المعنى: غنيمة قريبة غير بعيدة وَ سَفَراً قاصِداً عطف على ما قبله، أى: سفرا متوسطا بين القرب و البعد، و كل متوسط بين الإفراط و التفريط فهو قاصد وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ قال أبو عبيدة و غيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه: شقّة شاقة. قال الجوهرى: الشقّة بالضم من الثياب، و الشّقّة أيضا: السفر البعيد، و ربما قالوه بالكسر، و المراد بهذه غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة،

---

(١). الفتح: ١٧.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤١٥

و قرأ عيسى بن عمر بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ بكسر العين و الشين وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أى: المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونهم قائلين لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ أى: لو قدرنا على الخروج و وجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بدّ منه لَخَرَجْنا مَعَكُمْ هذه الجملة سادّة مسدّ جواب القسم و الشرط. قوله:

يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ هو بدل من قوله: سَيَحْلِفُونَ لأن من حلف كاذبا فقد أهلك نفسه، أو يكون حالا: أى مهلكين أنفسهم، موقعين لها موقع الهلاك وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى حلفهم الذى سيحلفون به لكم.

و قد أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا الآية، قال: هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، و حين أمرهم بالنّفير فى الصّيف، و حين خرفت النخل، و طابت الثمار، و اشتهوا الظلال، و شقّ عليهم المخرج، فأنزل اللّه: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا و أخرج أبو داود، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً قال: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأنزل اللّه هذه الآية فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً و قد كان تخلف عنه أناس فى البدو يفقهون قومهم، فقال المؤمنون: قد بقى ناس فى البوادى، و قالوا هلك أصحاب البوادى، فنزلت: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. و أخرج أبو داود، و ابن أبى حاتم، و النحاس، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله إِلَّا تَنْفِرُوا الآية قال:

نسختها وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ قال: ذكر ما كان من أوّل شأنه حين بعث، يقول: فأنا فاعل ذلك به، و ناصره كما نصرته إذ ذاك و هو ثانى اثنين. و أخرج أبو نعيم، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن شهاب و عروة: أنهم ركبوا فى كل وجه يعنى المشركين يطلبون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و بعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم و يجعلون لهم الجعل العظيم، و أتوا على ثور: الجبل الذى فيه الغار، و الذى فيه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، حتى طلعوا فوقه، و سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر و أقبل عليه الهمّ و الخوف، فعند ذلك يقول له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا و دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت عليه السكينة من اللّه فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ الآية. و أخرج ابن شاهين و ابن مردويه و ابن عساكر عن حبشى بن جنادة قال: قال أبو بكر: يا رسول اللّه! لو أن أحدا من المشركين رفع قدمه لأبصرنا، فقال:

يا أبا بكر لا تحزن إن اللّه معنا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن الزهرى فى قوله: إِذْ هُما فِي الْغارِ قال: هو الغار الذى فى

الجبل الذى يسمى ثورا. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ قال:

على أبى بكر لأن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم لم تزل معه السكينة. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: دخل النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۱۶

بكر غار ثور، فقال أبو بكر للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى و إياك، فقال صلّى اللّه عليه و سلّم:

«ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما يا أبا بكر؟! إن اللّه أنزل سكينته عليك و أيدنى بجنود لم يروها». و أخرج الخطيب فى تاريخه عن حبيب بن أبى ثابت: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ قال: على أبى بكر، فأما النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقد كانت عليه السكينة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى قال: هى الشرك باللّه وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا قال: لا إله إلا اللّه. و أخرج الفريابى و أبو الشيخ عن أبى الضحى قال: أوّل ما أنزل من براءة انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا ثم نزل أوّلها و آخرها.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن أبى مالك نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خِفافاً وَ ثِقالًا قال: نشاطا و غير نشاط. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن الحكم فى الآية قال: مشاغيل و غير مشاغيل. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الحسن قال: فى العسر و اليسر.

و أخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال: فتيانا و كهولا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن عكرمة قال:

شبابا و شيوخا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: قالوا إن فينا الثقيل و ذا الحاجة و الضيعة و الشغل فأنزل اللّه: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا و أبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا و ثقالا، و على ما كان منهم. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى قال: جاء رجل زعموا أنه المقداد، و كان عظيما سمينا، فشكا إليه و سأله أن يأذن له فأبى، فنزلت: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا فلما نزلت هذه الآية اشتدّ على الناس شأنها فنسخها اللّه، فقال: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى الآية. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قيل له: أ لا تغزو بنى الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟

فقال رجلان: قد علمت يا رسول اللّه! أن النساء فتنة فلا تفتنا بهنّ فأذن لنا، فأذن لهما، فلما انطلقا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأوّل آكل، فسار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم ينزل عليه شىء فى ذلك، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه و هو على بعض المياه لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ و نزل عليه:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ و نزل عليه: إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و نزل عليه: إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً قال: غنيمة قريبة، وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ قال: المسير. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ قال: لقد كانوا يستطيعون الخروج، و لكن كان تبطئة من عند أنفسهم، و زهادة فى الجهاد.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۴۳ الى ۴۹]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (۴۳) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ

فِی رَیْبِهِمْ یَتَرَدَّدُونَ (۴۵) وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لکِنْ کَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِیلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِینَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِیکُمْ ما زادُوکُمْ إِلاَّ خَبالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَکُمْ یَبْغُونَکُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِیکُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ (۴۷)
لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَکَ الْأُمُورَ حَتَّی جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ کارِهُونَ (۴۸) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ ائْذَنْ لِی وَ لا تَفْتِنِّی أَلا فِی الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ (۴۹)

فتح القدیر، ج۲، ص: ۴۱۷

الاستفهام فی: عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ للإنکار من اللّه تعالی علی رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم حیث وقع منه الإذن لمن استأذنه فی القعود، قبل أن یتبیّن من هو صادق منهم فی عذره الذی أبداه، و من هو کاذب فیه.

و فی ذکر العفو عنه صلّی اللّه علیه و سلّم ما یدل علی أن هذا الإذن الصادر منه کان خلاف الأولی، و فی هذا عتاب لطیف من اللّه سبحانه؛ و قیل: إن هذا عتاب له صلّی اللّه علیه و سلّم فی إذنه للمنافقین بالخروج معه، لا فی إذنه لهم بالقعود عن الخروج. و الأوّل أولی، و قد رخص له سبحانه فی سورة النور بقوله: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ «۱» و یمکن أن یجمع بین الآیتین بأن العتاب هنا متوجّه إلی الإذن قبل الاستثبات حتی یتبین الصادق من الکاذب، و الإذن هنالک متوجه إلی الإذن بعد الاستثبات و اللّه أعلم. و قیل: إن قوله عَفَا اللَّهُ عَنْکَ هی افتتاح کلام کما تقول: أصلحک اللّه، و أعزّک، و رحمک، کیف فعلت کذا؟ و کذا حکاه مکّی و النحّاس و المهدوی، و علی هذا التأویل یحسن الوقف علی عفا اللّه عنک، و علی التأویل الأوّل لا یحسن. و لا یخفاک أن التفسیر الأوّل هو المطابق لما یقتضیه اللفظ علی حسب اللغة العربیة، و لا وجه لإخراجه عن معناه العربی.

و فی الآیة دلیل علی جواز الاجتهاد منه صلّی اللّه علیه و سلّم، و المسألة مدوّنة فی الأصول، و فیها أیضا: دلالة علی مشروعیة الاحتراز عن العجلة و الاغترار بظواهر الأمور، و حَتَّی فی حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا للغایة، کأنه قیل: لم سارعت إلی الإذن لهم؟ و هلا تأنیت حتی یتبین لک صدق من هو صادق منهم فی العذر الذی أبداه، و کذب من هو کاذب منهم فی ذلک؟ ثم ذکر سبحانه أنه لیس من عادة المؤمنین أن یستأذنوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی القعود عن الجهاد، بل کان من عادتهم أنه صلّی اللّه علیه و سلّم إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق علیه ذلک.

فقال: لا یَسْتَأْذِنُکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ أَنْ یُجاهِدُوا و هذا علی أن معنی الآیة أن لا یجاهدوا، علی حذف حرف النفی؛ و قیل المعنی: لا یستأذنک المؤمنون فی التخلف کراهة الجهاد؛ و قیل: إن معنی الاستئذان فی الشیء الکراهة له، و أما علی ما یقتضیه ظاهر اللفظ فالمعنی: لا یستأذنک المؤمنون فی الجهاد بل دأبهم أن یبادروا إلیه من غیر توقف و لا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منک فضلا عن أن یستأذنوک فی التخلف.

قال الزجاج: أن یجاهدوا فی موضع نصب بإضمار فی: أی فی أن یجاهدوا وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالْمُتَّقِینَ و هم هؤلاء الذین لم یستأذنوا إِنَّما یَسْتَأْذِنُکَ فی القعود عن الجهاد، و التخلف عنه الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ و هم المنافقون، و ذکر الإیمان باللّه أوّلا، ثم بالیوم الآخر ثانیا فی الموضعین، لأنهما الباعثان علی الجهاد فی سبیل اللّه. قوله: وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ عطف علی قوله الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ و جاء بالماضی للدلالة علی تحقق الریب فی قلوبهم، و هو الشک. قوله فَهُمْ فِی رَیْبِهِمْ یَتَرَدَّدُونَ أی: فی شکهم الذی

(۱). النور: ۶۲.

فتح القدیر، ج۲، ص: ۴۱۸

حلّ بقلوبهم یتحیرون، و التردّد: التحیر. و المعنی: فهؤلاء الذین یستأذنوک لیسوا بمؤمنین بل مرتابین حائرین لا یهتدون إلی

طريق الصواب، و لا يعرفون الحق. قوله وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً أى: لو كانوا صادقين فيما يدّعونه- و يخبرونك به- من أنهم يريدون الجهاد معك، و لكن لم يكن معهم من العدّة للجهاد ما يحتاج إليه، لما تركوا إعداد العدّة، و تحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعدّ لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام: أنهم لم يريدوا الخروج أصلا، و لا استعدّوا للغزو. و العدّة: ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد و الراحلة، و السلاح. قوله: وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ أى: و لكن كره اللّه خروجهم، فتثبطوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا و لكن تثبطوا، لأن كراهة اللّه انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، و الانبعاث: الخروج، أى: حبسهم اللّه عن الخروج معك و خذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا فى الجلوس أفسدنا و حرّضنا على المؤمنين؛ و قيل المعنى: لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة، و لكن ما أرادوه لكراهة اللّه له؛ قوله: وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ قيل: القائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليه من الوسوسة، و قيل:

قاله بعضهم لبعض، و قيل: قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غضبا عليهم، و قيل: هو عبارة عن الخذلان، أى: أوقع اللّه فى قلوبهم القعود خذلانا لهم. و معنى مَعَ الْقاعِدِينَ أى: مع أولى الضرر من العميان و المرضى، و النساء، و الصبيان، و فيه من الذمّ، و الإزراء عليهم، و التنقص بهم ما لا يخفى. قوله: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا هذه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين عن تخلّف المنافقين، و الخبال: الفساد و النميمة، و إيقاع الاختلاف، و الأراجيف. قيل: هذا الاستثناء منقطع؛ أى ما زادوكم قوّة، و لكن طلبوا الخبال؛ و قيل المعنى: لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأى إلا خبالا، فيكون متصلا؛ و قيل: هو استثناء من أعمّ العام، أى: ما زادوكم شيئا إلا خبالا، فيكون الاستثناء من قسم المتصل، لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء. قوله: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ الإيضاع: سرعة السير، و منه قول ورقة بن نوفل:

يا ليتنى فيها جذع أخبّ فيها و أضع

يقال أوضع البعير: إذا أسرع السير، و قيل الإيضاع: سير الخبب، و الخلل: الفرجة بين الشيئين، و الجمع الخلال؛ أى: الفرج التى تكون بين الصفوف. و المعنى: لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف، و النمائم الموجبة لفساد ذات البين. قوله: يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ يقال بغيته كذا: طلبته له، و أبغيته كذا: أعنته على طلبه. و المعنى: يطلبون لكم الفتنة فى ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش و الإفساد؛ و قيل: الفتنة هنا: الشرك. و جملة وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنّ فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله إليكم، فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم، و الفساد لإخوانكم وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ و بما يحدث منهم لو خرجوا معكم، فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم، و كره انبعاثهم معكم؛ و لا ينافى حالهم هذا لو خرجوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما تقدّم من عتابه على الإذن لهم فى التخلف، لأنه سارع إلى الإذن لهم، و لم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم

يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب صلّى اللّه عليه و سلّم على تسرّعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم فى عذره من الكاذب، و لهذا قال اللّه سبحانه فيما يأتى فى هذه السورة فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً الآية، و قال فى سورة الفتح: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ إلى قوله قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا «1». قوله: لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ أى: لقد طلبوا الإفساد، و الخبال، و تفريق كلمة المؤمنين، و تشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التى تخلفوا عنك فيها. كما وقع من عبد اللّه ابن أبى و غيره وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ قوله: وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ أى:

صرّفوها من أمر إلى أمر، و دبروا لك الحيل و المكائد، و منه قول العرب: «حوّل قلّب» إذا كان دائرا حول المكائد و الحيل يدير الرأى فيها و يتدبره. و قرئ وَ قَلَّبُوا بالتخفيف حَتَّى جاءَ الْحَقُّ أى: إلى غاية هى مجيء الحق، و هو النصر لك و التأييد وَ ظَهَرَ أَمْرُ

اللَّهِ بـإعزاز دينه، و إعلاء شرعه، و قهر أعـدائه؛ و قيل: الحق: القرآن، وَ هُمْ كارِهُونَ أى: و الحال أنهم كارهون لمجىء الحق، و ظهور أمر اللّه، و لكن كـان ذلك على رغم منهم وَ مِنْهُمْ أى: من المنافقين مَنْ يَقُولُ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ائْذَنْ لِي فى التخلف عن الجهاد وَ لا تَفْتِنِّي أى: لا توقعنى فى الفتنة: أى الإثم إذا لم تأذن لى، فتخلفت بغير إذنك؛ و قيل معناه: لا توقعنى فى الهلكة بالخروج أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا أى: فى نفس الفتنة سقطوا، و هى فتنة التخلف عن الجهاد، و الاعتذار الباطل. و المعنى: أنهم ظنّوا: أنهم بـالخروج أو بـترك الإذن لهم يقعـون فى الفتنـة، و هم بهـذا التخلـف سـقطوا فى الفتنـة العظيمـة. و فى التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها، وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل، و ذلك أشدّ من مجرّد الدخول فى الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أى: مشتملة عليهم من جميع الجوانب، لا يجدون عنها مخلصا، و لا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال.

و قد أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن جرير عن عمرو بن ميمون قال: اثنتان فعلهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لم يؤمر فيهما بشىء: إذنه للمنافقين، و أخذه من الأسارى، فأنزل اللّه عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن عون بن عبد اللّه قال: سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبـة، فقال: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ الآية، قال: ناس قالوا: استأذنوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإن أذن لكم فاقعدوا، و إن لم يأذن لكم فاقعدوا. و أخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ الثلاث الآيات، قال: نسخها: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ «٢». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و النحاس فى ناسخه عنه فى قوله:

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية، قال: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا فى القعود عن الجهاد بغير عذر، و عذر اللّه المؤمنين فقـال: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ و أخرج أبو عبيـد، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله: لا يَسْتَأْذِنُكَ

---

(١). الفتح: ١٥.

(٢). النور: ٦٢.

الآيتين قـال: نسختها الآيـة التى فى سورة النور إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ إلى إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» فجعل اللّه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأعلى النظرين فى ذلك، من غزا غزا فى فضيلة، و من قعد قعد فى غير حرج إن شاء اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ قال: خروجهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَثَبَّطَهُمْ قـال: حبسـهم. و أخرج ابن أبى حـاتم، و أبو الشـيخ عن ابن زيـد فى قوله: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا قال: هؤلاء المنافقون فى غزوة تبوك. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ قال: لأسرعوا بينكم. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ قال: لأوفضوا يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ يبطئونكم: عبـد اللّه بن نبتل، و عبـد اللّه بن أبىّ ابن سـلول، و رفاعة بن تابوت، و أوس بن قيظى وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ محـدّثون لهم بأحـاديثكم غير منـافقين، و هم عيون للمنـافقين. و أخرج ابن المنـذر و الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن ابن عباس قال: لما أراد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجدّ بن قيس: يا جدّ بن

قيس ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر؟ فقال: يا رسول اللّه! إنى امرؤ صاحب نساء، و متى أرى نساء بنى الأصفر أفتتن، فأذن لى و لا تفتنى، فأنزل اللّه وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج ابن مردويه عن عائشة نحوه أيضا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَفْتِنِّي قال: لا تخرجنى أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا يعنى:

فى الخروج. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله وَ لا تَفْتِنِّي قال: لا تؤثمنى أَلا فِي الْفِتْنَةِ قال: ألا فى الإثم، و قصة تبوك مذكورة فى كتب الحديث و السير، فلا نطول بذكرها.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٠ الى ٥٧]

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (٥٣) وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَ هُمْ كُسالى وَ لا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَ هُمْ كارِهُونَ (٥٤)

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (٥٥) وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)

قوله: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ أىّ حسنة كانت، بأىّ سبب اتفق، كما يفيده وقوعها فى حيز الشرط،

---

(١). النور: ٦٢.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٤٢١

و كذلك القول فى المصيبة، و تدخل الحسنة و المصيبة الكائنة فى القتال كما يفيده السياق دخولا أوّليا، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة: الغنيمة و الظفر، و من جملة ما تصدق عليه المصيبة: الخيبة و الانهزام، و هذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين و سوء أفعالهم، و الإخبار بعظيم عداوتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، و الفرح بالمصيبة من أعظم ما يدلّ على أنهم فى العداوة قد بلغوا إلى الغاية، و معنى:

يَتَوَلَّوْا يرجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع؛ و مواطن التحدّث؛ حال كونهم فرحين بالمصيبة التى أصابت المؤمنين، و معنى قولهم: قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ أى: احتطنا لأنفسنا، و أخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة، ثم لما قالوا هذا القول؛ أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يجيب عليهم بقوله: لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا أى: فى اللوح المحفوظ، أو فى كتابه المنزّل علينا، و فائدة هذا الجواب: أن الإنسان إذا علم أن ما قدّره اللّه كائن، و أن كل ما ناله من خير أو شرّ إنما هو بقدر اللّه و قضائه؛ هانت عليه المصائب، و لم يجد مرارة شماتة الأعداء، و تشفى الحسدة هُوَ مَوْلانا أى:

ناصرنا، و جاعل العاقبة لنا، و مظهر دينه على جميع الأديان، و التوكل على اللّه: تفويض الأمور إليه؛ و المعنى:

أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصا باللّه سبحانه، لا يتوكلون على غيره. و قرأ طلحة بن مصرف يصيبنا بتشديد الياء. و قرأ أعين قاضى الرى يصيبنا بنون مشدّدة، و هو لحن لأن الخبر لا يؤكد، و ردّ بمثل قوله تعالى: هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ «١» و

قال الزجاج: معناه لا يصيبنا إلّا ما اختصنا اللّه من النصرة عليكم أو الشهادة، و على هذا القول يكون قوله: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ تكريرا لغرض التأكيد، و الأوّل أولى، حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيدا لفائدة غير فائدة الآخر، و التأسيس خير من التأكيد، و معنى: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيين؟ إما النصرة أو الشهادة، و كلاهما مما يحسن لدينا، و الحسنى: تأنيث الأحسن، و معنى الاستفهام التقريع و التوبيخ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ إحدى المساءتين لكم: إما أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أى: قارعة نازلة من السماء فيسحتكم بعذابه، أَوْ بعذاب لكم بِأَيْدِينا أى: بإظهار اللّه لنا عليكم بالقتل و الأسر و النهب و السبى. و الفاء فى: فتربصوا، فصيحة، و الأمر للتهديد كما فى قوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «٢» أى: تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا، فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم، فستنظرون عند ذلك ما يسرّنا و يسوءكم. و قرأ البزى و ابن فليح: هَلْ تَرَبَّصُونَ بإظهار اللام و تشديد التاء. و قرأ الكوفيون: بإدغام اللام فى التاء.

و قرأ الباقون: بإظهار اللام و تخفيف التاء. قوله: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ هذا الأمر معناه الشرط و الجزاء، لأن اللّه سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، و التقدير: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم؛ و قيل: هو أمر فى معنى الخبر، أى: أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم، فهو كقوله:

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ و فيه الإشعار بتساوى الأمرين فى عدم القبول، و انتصاب طوعا أو كرها:

على الحال، فهما مصدران فى موقع المشتقين، أى: أنفقوا طائعين من غير أمر من اللّه و رسوله أو مكرهين

---

(١). الحج: ١٥.

(٢). الدخان: ٤٩.

بأمر منهما، و سمى الأمر منهما: إكراها لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر، فكانوا بأمرهم الذى لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم، و جملة إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ تعليل لعدم قبول إنفاقهم، و الفسق: التمرّد و العتوّ، و قد سبق بيانه لغة و شرعا؛ ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ أى: كفرهم باللّه و برسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور: الأوّل: الكفر؛ الثانى: أنهم لا يصلون فى حال من الأحوال إلا فى حال الكسل و التثاقل، لأنهم لا يرجون ثوابا و لا يخافون عقابا؛ فصلاتهم ليست إلا رياء للناس، و تظهرا بالإسلام الذى يبطنون خلافه؛ و الثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا و هم كارهون، و لا ينفقونها طوعا لأنهم يعدّون إنفاقها وضعا لها فى مضيعة؛ لعدم إيمانهم بما وعد اللّه و رسوله. قوله: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ الإعجاب بالشى‏ء: أن يسرّ به سرورا راض به متعجب من حسنه، قيل:

مع نوع من الافتخار و اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه؛ و المعنى: لا تستحسن ما معهم من الأموال و الأولاد إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بما يحصل معهم من الغمّ و الحزن عند أن يغنمها المسلمون و يأخذوها قسرا من أيديهم؛ مع كونها زينة حياتهم و قرّة أعينهم، و كذا فى الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذى أعطاهم ذلك، و ترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، و التّصدّق بما يحقّ التّصدق به، و قيل فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: فلا تعجبك أموالهم و لا أولادهم فى الحياة الدنيا، إنما يريد اللّه ليعذبهم بها فى الآخرة لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون. قوله: وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ الزّهوق: الخروج بصعوبة، و المعنى: أن اللّه يريد أن تزهق أنفسهم، و تخرج أرواحهم حال كفرهم،

لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء، و أرسلت به الرسل، و تصميمهم على الكفر و تماديهم فى الضلالة، ثم ذكر اللّه سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال: وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ أى: من جملتكم فى دين الإسلام و الانقياد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لكتاب اللّه سبحانه وَ ما هُمْ مِنْكُمْ فى ذلك إلا بمجرّد ظواهرهم دون بواطنهم وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ أى: يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل و السبى، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم، لا عن حقيقة لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً يلتجئون إليه، و يحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره أَوْ مَغاراتٍ جمع مغارة، من غار يغير. قال الأخفش: و يجوز أن يكون من: أغار يغير، و المغارات: الغيران و السراديب، و هى المواضع التى يستتر فيها، و منه غار الماء و غارت العين؛ و المعنى: لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هربا منكم أَوْ مُدَّخَلًا من الدخول، أى: مكانا يدخلون فيه من الأمكنة التى ليست مغارات. قال النحاس: الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالا، و قيل:

أصله مدتخل. و قرأ أبيّ متدخلا و روى عنه أنه مندخلا بالنون. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق و ابن محيصن: أو مدخلا بفتح الميم و إسكان الدال. قال الزجاج: و يقرأ أو مدخلا بضم الميم و إسكان الدال. و قرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم لَوَلَّوْا إِلَيْهِ أى: لالتجئوا إليه و أدخلوا أنفسهم فيه وَ الحال أن هُمْ يَجْمَحُونَ أى: يسرعون إسراعا لا يردّهم شىء، من جمع الفرس: إذا لم

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٢٣

يردّه اللجام، و منه قول الشاعر:

سبوحا جموحا و إحضارها كمعمعة السّعف الموقد

و المعنى: لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هربا من المسلمين.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه قال: جعل المنافقون الذين تخلّفوا بالمدينة يخبرون عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخبار السوء، يقولون: إن محمدا و أصحابه قد جهدوا فى سفرهم و هلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم و عافية النبيّ و أصحابه، فساءهم ذلك فأنزل اللّه إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ الآية. و أخرج سنيد و ابن جرير عن ابن عباس إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ يقول: إن يصبك فى سفرك هذه الغزوة تبوك حسنة تسؤهم قال: الجدّ و أصحابه، يعنى الجدّ بن قيس. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا قال: إلا ما قضى اللّه لنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ قال: فتح أو شهادة. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله أَوْ بِأَيْدِينا قال: القتل بالسيوف. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قال الجدّ بن قيس:

إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن، و لكن أعينك بمالى، قال: ففيه نزلت قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ قال: هذه من تقاديم الكلام، يقول: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ فى الحياة الدنيا إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فى الآخرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: إنما يريد اللّه ليعذبهم بها فى الآخرة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ قال: تزهق أنفسهم فى الحياة الدنيا وَ هُمْ كافِرُونَ قال: هذه آية فيها تقديم و تأخير. و أخرج أبو حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله فَلا تُعْجِبْكَ يقول: لا يغررك وَ تَزْهَقَ قال: تخرج أنفسهم، قال فى الدنيا و هم كافرون.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً الآية قال: الملجأ: الحرز فى الجبال، و المغارات: الغيران، و المدّخل: السرب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى وَ هُمْ يَجْمَحُونَ قال: يسرعون.

[سورة التوبة (٩): الآيات ۵٨ الى ۶٠]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (۵٩) إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶٠)

قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم، يقال: لمزه يلمزه؛ إذا عابه. قال الجوهرى: اللمز العيب، و أصله الإشارة بالعين و نحوها، و قد لمزه يلمزه و يلمزه، و رجل لمّاز، و لمزة:

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴٢۴

أى عيّاب. قال الزّجّاج: لمزت الرجل ألمزه و ألمزه، بكسر الميم و ضمها: إذا عبته، و كذا همزته. و معنى الآية: و من المنافقين من يعيبك فى الصدقات؛ أى: فى تفريقها و قسمتها. و روى عن مجاهد أنه قال: معنى يَلْمِزُكَ يرزؤك و يسألك، و القول عند أهل اللغة هو الأوّل كما قال النحاس. و قرئ يلمزك بضم الميم، و يلمزك بكسرها مع التشديد. و قرأ الجمهور بكسرها مخففة، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها أى: من الصّدقات بقدر ما يريدون رَضُوا بما وقع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يعيبوه، و ذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، و ليسوا من الدين فى شىء وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها أى: من الصدقات ما يريدونه و يطلبونه إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ أى: و إن لم يعطوا فاجؤوا السخط، و فائدة إذا الفجائية أن الشرط مفاجىء للجزاء و هاجم عليه. و قد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أى: ما فرضه اللّه لهم، و ما أعطاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الصدقات، و جواب لو محذوف، أى: لكان خيرا لهم فإن فيما أعطاهم الخير العاجل و الآجل وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ أى: قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما هو لهم، أى: كفانا اللّه، سيعطينا من فضله، و يعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه و نؤمله إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ فى أن يعطينا من فضله ما نرجوه. قوله: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ لما لمز المنافقون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قسمة الصدقات بين اللّه لهم مصرفها دفعا لطعنهم و قطعا لشغبهم، و إِنَّمَا من صيغ القصر، و تعريف الصدقات للجنس، أى: جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا تجاوزها، بل هى لهم لا لغيرهم.

و قد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟ فذهب إلى الأوّل الشافعى و جماعة من أهل العلم، و ذهب إلى الثانى مالك و أبو حنيفة، و به قال عمر و حذيفة و ابن عباس و أبو العالية و سعيد بن جبير و ميمون ابن مهران. قال ابن جرير و هو قول عامة أهل العلم: احتج الأوّلون بما فى الآية من القصر و بحديث زياد ابن الحرث الصدائى عند أبى داود و الدارقطنى قال: أتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطنى من الصدقة، فقاله له: إن اللّه لم يرض بحكم نبىّ و لا غيره من الصدقات حتى حكم فيها هو؛ فجزّأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك. و أجاب الآخرون: بأن ما فى الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف و المصرف، لا لوجوب استيعاب الأصناف، و بأن فى إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى و هو ضعيف. و مما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ «١» و الصّدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة. و صح عنه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أمرت أن آخذ الصّدقة من أغنيائكم و أردّها فى فقرائكم». و قد ادّعى مالك الإجماع على القول الآخر. قال ابن عبد البرّ: يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفا منهم. قوله: لِلْفُقَراءِ قدمهم لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدّة فاقتهم و حاجتهم.

و قد اختلف أهل العلم فى الفرق بين الفقير و المسكين على أقوال؛ فقال يعقوب بن السّكّيت و القتبى و يونس

---

(١). البقرة: ٢٧١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٢٥

ابن حبيب: إن الفقير أحسن حالا من المسكين، قالوا: لأنّ الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه و يقيمه، و المسكين الذى لا شىء له، و ذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة. و قال آخرون بالعكس، فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير، و احتجوا بقوله تعالى أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ «١» فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر، و ربما ساوت جملة من المال، و يؤيده تعوّذ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من الفقر مع قوله: «اللهم أحينى مسكينا و أمتنى مسكينا» و إلى هذا ذهب الأصمعى و غيره من أهل اللغة، و حكاه الطّحاوى عن الكوفيين، و هو أحد قولى الشافعى و أكثر أصحابه. و قال قوم: إن الفقير و المسكين سواء لا فرق بينهما و هو أحد قولى الشافعى، و إليه ذهب ابن القاسم و سائر أصحاب مالك، و به قال أبو يوسف. و قال قوم: الفقير: المحتاج المتعفف، و المسكين: السائل. قاله الأزهرى، و اختاره ابن شعبان، و هو مروىّ عن ابن عباس. و قد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتى الاستكثار منه بفائدة يعتدّ بها. و الأولى فى بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عند البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ليس المسكين بهذا الطّوّاف الذى يطوف على الناس فتردّه اللقمة و اللقمتان و التمرة و التمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول اللّه؟

قال: الذى لا يجد غنى يغنيه، و لا يفطن له فيتصدّق عليه. و لا يسأل الناس شيئا». قوله: وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها أى: السّعاة و الجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة، فإنهم يستحقون منها قسطا.

و قد اختلف فى القدر الذى يأخذونه منها، فقيل: الثمن، روى ذلك عن مجاهد و الشافعى. و قيل:

على قدر أعمالهم من الأجرة، روى ذلك عن أبى حنيفة و أصحابه. و قيل: يعطون من بيت المال قدر أجرتهم، روى ذلك عن مالك، و لا وجه لهذا، فإن اللّه قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة، فكيف يمنعون منها، و يعطون من غيرها؟ و اختلفوا: هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أم لا؟ فمنعه قوم، و أجازه آخرون. قالوا:

و يعطى من غير الصدقة. قوله: وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ هم قوم كانوا فى صدر الإسلام، فقيل: هم الكفار الذين كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يتألفهم ليسلموا، كانوا لا يدخلون فى الإسلام بالقهر و السيف، بل بالعطاء، و قيل:

هم قوم أسلموا فى الظاهر، و لم يحسن إسلامهم، فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يتألفهم بالعطاء؛ و قيل: هم من أسلم من اليهود، و النصارى؛ و قيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع، أعطاهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليتألّفوا أتباعهم على الإسلام. و قد أعطى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبى سفيان بن حرب و الحارث بن هشام و سهيل بن عمرو و حويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك، و أعطى آخرين دونهم.

و قد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا؟ فقال عمر و الحسن و الشعبى:

قد انقطع هذا الصنف بعزّة الإسلام و ظهوره، و هذا مشهور من مذهب مالك و أصحاب الرأى. و قد ادّعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك. و قال جماعة من العلماء: سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام، و إنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهرى عنهم فقال:

لا أعلم نسخ ذلك، و على القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف. قوله: وَ فِى الرِّقابِ أى: فى

(۱). الكهف: ۷۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۶

فك الرقاب بأن يشترى رقابا ثم يعتقها. روى ذلك عن ابن عباس و ابن عمر، و به قال مالك و أحمد بن حنبل و إسحاق و أبو عبيد. و قال الحسن البصرى و مقاتل بن حيان و عمر بن عبد العزيز و سعيد بن جبير و النّخعى و الزّهرى و ابن زيد: إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة، و هو قول الشافعى و أصحاب الرأى و رواية عن مالك، و الأولى حمل ما فى الآية على القولين جميعا، لصدق الرقاب على شراء العبد و إعتاقه، و على إعانة المكاتب على مال الكتابة. قوله: وَ الْغارِمِينَ هم الذين ركبتهم الدّيون و لا وفاء عندهم بها، و لا خلاف فى ذلك إلّا من لزمه دين فى سفاهة فإنه لا يعطى منها و لا من غيرها إلا أن يتوب. و قد أعان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من الصدقة من تحمل حمالة، و أرشد إلى إعانته منها. قوله وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هم الغزاة و المرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون فى غزوهم و مرابطتهم، و إن كانوا أغنياء، و هذا قول أكثر العلماء. و قال ابن عمر: هم الحجاج و العمار، و روى عن أحمد و إسحاق أنهما جعلا الحج من سبيل اللّه. و قال أبو حنيفة و صاحباه: لا يعطى الغازى إلا إذا كان فقيرا منقطعا به. قوله وَ ابْنِ السَّبِيلِ هو المسافر، و السبيل:

الطريق، و نسب إليها المسافر لملازمته إياها، و المراد: الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده، و مستقرّه، فإنه يعطى منها و إن كان غنيا فى بلده، و إن وجد من يسلفه. و قال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى.

قوله فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ مصدر مؤكد، لأن قوله إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ معناه: فرض اللّه الصدقات لهم. و المعنى: أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم، فرضه اللّه على عباده، و نهاهم عن مجاوزته وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بأحوال عباده حَكِيمٌ فى أفعاله؛ و قيل: إن فَرِيضَةً منتصبة بفعل مقدّر، أى: فرض اللّه ذلك فريضة. قال فى الكشاف: فإن قلت لم عدل عن اللام إلى فِي فى الأربعة الآخرة؟ قلت: للإيذان بأنها أرسخ فى استحقاق التصدّق عليهم ممن سبق ذكره؛ و قيل: النكتة فى العدول:

أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى يتصرفوا به كما شاؤوا، و فى الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقّوا سهم الزكاة، كذا قيل.

و قد أخرج البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: «بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقسم قسما إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التيمى فقال: اعدل يا رسول اللّه، فقال: ويحك، و من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لى فأضرب عنقه فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: دعه؛ فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، و صيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السّهم من الرمية». الحديث، حتى قال: و فيهم نزلت وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ قال:

يرزؤك، يسألك. و أخرج ابن المنذر عن قتادة قال: يطعن عليك. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال:

لما قسم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم غنائم حنين سمعت رجلا يقول: إن هذه لقسمة ما أريد بها اللّه، فأتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ذكرت ذلك له، فقال «رحمة اللّه على موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر، و نزل وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ . و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نسخت هذه آية كل صدقة فى القرآن

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۷

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ الآية. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و أبو الشيخ عن حذيفة فى قوله إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ الآية قال: إن شئت جعلتها فى صنف واحد من الأصناف الثّمانية التى سمى اللّه أو صنفين أو

ثلاثة. و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى العالية و الحسن و عطاء و إبراهيم و سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن المنذر و النحاس عن ابن عباس قال: الفقراء: فقراء المسلمين، و المساكين: الطّوّافون. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و أبو الشيخ عن قتادة قال:

الفقير: الذى به زمانة، و المسكين: المحتاج الذى ليس به زمانة. و أخرج ابن أبى شيبة عن عمر فى قوله إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ قال: هم زمنى أهل الكتاب. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها قال: السعاة أصحاب الصدقة. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ قال: هم قوم كانوا يأتون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أسلموا، و كان يرضخ لهم من الصّدقات، فإذا أعطاهم من الصّدقة فأصابوا منها خيرا قالوا: هذا دين صالح، و إن كان غير ذلك؛ عابوه و تركوه. و أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد قال: بعث علىّ بن أبى طالب من اليمن إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بذهيبة فيها تربتها «١»، فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلى، و علقمة بن علاثة العامرى، و عيينة بن بدر الفزارى، و زيد الخيل الطائى؛ فقالت قريش و الأنصار: يقسم بين صناديد أهل نجد و يدعنا؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنما أتألّفهم». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الزهرى أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال: من أسلم من يهودى أو نصرانىّ، قلت:

و إن كان موسرا؟ قال: و إن كان موسرا. و أخرج هؤلاء عن أبى جعفر قال: ليس اليوم مؤلفة قلوبهم.

و أخرج هؤلاء أيضا عن الشعبى مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله: وَ فِي الرِّقابِ قال:

هم المكاتبون. و أخرج ابن المنذر عن النخعى نحوه. و أخرج أيضا عن عمر بن عبد اللّه قال: سهم الرقاب نصفان: نصف لكل مكاتب ممن يدّعى الإسلام، و النصف الآخر يشترى به رقاب ممّن صلّى و صام و قدم إسلامه من ذكر و أنثى يعتقون للّه. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو عبيد و ابن المنذر عن ابن عباس أنه كان لا يرى بأسا أن يعطى الرجل من زكاته فى الحجّ و أن يعتق منها رقبة. و أخرج ابن أبى شيبة عن الزهرى أنه سئل عن الغارمين قال: أصحاب الدين. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى جعفر فى قوله وَ الْغارِمِينَ قال: هو الذى يسأل فى دم أو جائحة تصيبه وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قال: هم المجاهدون وَ ابْنِ السَّبِيلِ قال: المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:

ابن السبيل هو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «لا تحلّ الصّدقة لغنىّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو الرجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز فى سبيل اللّه، أو مسكين تصدّق عليه فأهدى منها

---

(١). يعنى أنها غير مسبوكة، لم تخلص من ترابها.

لغنىّ». و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و الترمذى عن عبد اللّه بن عمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال «لا تحلّ الصدقة لغنىّ و لا لذى مرّة سوىّ». و أخرج أحمد عن رجل من بنى هلال قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر مثله.

و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و النسائى عن عبيد اللّه بن عدى بن الخيار قال: أخبرنى رجلان أنهما أتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى حجّة الوداع و هو يقسم الصدقة فسألاه منها، فرفع فينا البصر و خفضه فرآنا جلدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، و لا حظّ فيها لغنىّ و لا لقوىّ مكتسب».

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦١ الى ٦٦]

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (٦٤) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٥)

لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

قوله: وَ مِنْهُمُ هذا نوع آخر مما حكاه اللّه من فضائح المنافقين و قبائحهم، و ذلك أنهم كانوا يقولون للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم على وجه الطعن و الذم: هُوَ أُذُنٌ قال الجوهري: يقال: رجل أذن: إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوى فيه الواحد و الجمع و مرادهم، أقمأهم اللّه، أنهم إذا آذوا النبيّ و بسطوا فيه ألسنتهم، و بلغه ذلك اعتذروا له، و قبل ذلك منهم، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدّقه، و إنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدّقه أنه أذن، مبالغة، لأنهم سموه بالجارحة التى هى آلة السماع، حتى كأن جملته أذن سامعة، و نظيره قولهم للربيئة: عين، و إيذاؤهم له هو قوله: هُوَ أُذُنٌ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدّق كل ما يقال له، و لا يفرق بين الصحيح و الباطل، اغترارا منهم بحلمه عنهم، و صفحه عن جناياتهم كرما و حلما و تغاضيا، ثم أجاب اللّه عن قولهم هذا، فقال: قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ بالإضافة على قراءة الجمهور. و قرأ الحسن بالتنوين، و كذا قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه، كأنه قيل: نعم هو أذن، و لكن نعم الأذن هو، لكونه:

أذن خير لكم، و ليس بأذن فى غير ذلك، كقولهم: رجل صدق، يريدون الجودة و الصلاح. و المعنى: أنه يسمع الخير و لا يسمع الشرّ. و قرئ أُذُنٌ بسكون الذال و ضمها، ثم فسر كونه أذن خير بقوله:

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ أى: يصدّق باللّه، و يصدّق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان، فتكون اللام فى لِلْمُؤْمِنِينَ للتقوية، كما قال الكوفيون، أو متعلقة بمصدر محذوف، كما قال المبرد. و قرأ الجمهور وَ رَحْمَةٌ بالرفع عطف على أذن. و قرأ حمزة بالخفض عطفا على خير. و المعنى على القراءة الأولى: هو أنه أذن خير، و أنه هو رحمة للمؤمنين، و على القراءة الثانية: أنه أذن خير، و أذن رحمة. قال النحاس: و هذا عند أهل العربية بعيد، يعنى قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين، و هذا يقبح فى المخفوض. و المعنى: أن

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۹

النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أذن خير للمنافقين وَ رَحْمَةٌ لهم، حيث لم يكشف أسرارهم، و لا فضحهم، فكأنه قال:

هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم، لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسّره بما هو مدح له، و ثناء عليه، و إن كانوا قصدوا به المذمة، و التقصير بفطنته، و معنى لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أى: الذين أظهروا الإيمان؛ و إن لم يكونوا مؤمنين حقيقة وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللّه عليه و سلّم بما تقدّم من قولهم: هو أذن، و نحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: شديد الألم. و قرأ ابن أبى عبلة: وَ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف؛ أى: و رحمة لكم يأذن لكم. ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة، فقال: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ و الخطاب للمؤمنين. و ذلك أنّ المنافقين كانوا فى خلواتهم يطعنون على المؤمنين، و على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا بلغ ذلك إلى رسول اللّه؛ و إلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم، قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن

يرضوا رسول اللّه و من معه من المؤمنين، فنعى اللّه ذلك عليهم، و قال: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ أى: هما أحق بـذلك من إرضـاء المـؤمنين بالأيمـان الكاذبـة، فـإنهم لـو اتقوا اللّه؛ و آمنوا به؛ و تركوا النفـاق لكـان ذلـك أولى لهم، و إفراد الضـمير فى يرضوه: إما للتعظيم للجناب الإلهىّ بإفراده بالـذكر؛ أو لكونه لا فرق بين إرضاء اللّه، و إرضاء رسوله، فإرضاء اللّه إرضاء لرسوله؛ أو المراد: اللّه أحق أن يرضوه و رسوله كذلك، كما قال سـيبويه، و رجحه النحاس؛ أو لأن الضـمير موضوع موضع اسم الإشارة، فإنه يشار به إلى الواحـد و المتعـدّد؛ أو الضـمير راجع إلى المـذكور، و هو يصدق عليهما. و قال الفراء: المعنى و رسوله أحق أن يرضوه، وَ اللَّهُ افتتـاح كلام كما تقول: ما شاء اللّه و شـئت، و هـذه الجملـة أعنى وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ فى محل نصب على الحال، و جواب إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ محذوف، أى: إن كانوا مؤمنين فليرضوا اللّه و رسوله. قوله أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ قرأ الحسن و ابن هرم أ لم تعلموا بالفوقيـة. و قرأ الباقون بالتحتية، و المحاددة: وقوع هذا فى حدّ، و ذلك فى حد كالمشاققة: يقال: حادّ فلان فلانا: أى: صار فى حدّ غير حده فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: فحق أن له نار جهنم. و قال الخليل و سيبويه: إن «أن» الثانية مبدلة من الأولى، و زعم المبرد أن هذا القول مردود، و أن الصحيح ما قال الجرمى: أن الثانية مكرّرة للتوكيد لما طال الكلام. و قال الأخفش:

المعنى فوجوب النار له، و أنكره المبرد و قال: هـذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحـة المشـدّدة لا يبتدأ بها و يضـمر الخبر. و قرئ بكسر الهمزة. قال سيبويه: و هى قراءة جيدة، و أنشد:

و أنّى إذا ملّت ركابى مناخهافإنّى على حظّى من الأمر جامح

و انتصاب خالـدا على الحال، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من العذاب، و هو مبتدأ، و خبره الْخِزْيُ الْعَظِيمُ أى: الخزى البالغ إلى الغايـة التى لاـ يبلغ إليها غيره، و هو الـذلّ و الهوان. قوله: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ قيل: هو خبر، و ليس بأمر. و قال الزّجّاج: معناه: ليحذر. فالمعنى على القول الأوّل: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم، و على الثانى: الأمر لهم بأن يحذروا ذلك،

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۳۰

و أَنْ تُنَزَّلَ فى موضع نصب، أى: من أن تنزل، و يجوز على قول سـيبويه أن يكون فى موضع خفض على تقـدير من و إعمالها، و يجوز أن يكون النصب على المفعولية، و قد أجاز سيبويه: حذرت زيدا، و أنشد:

حذر أمورا لا تضير و آمن‌ما ليس منجيه من الأقدار

و منع من النصب على المفعولية المبرّد. و معنى: عَلَيْهِمْ أى: على المؤمنين فى شأن المنافقين، على أن الضمير للمؤمنين، و الأولى أن يكون الضـمير للمنافقين، أى: فى شأنهم تُنَبِّئُهُمْ أى: المنافقين بِما فِي قُلُوبِهِمْ مما يسرّونه فضلا عما يظهرونه، و هم و إن كانوا عـالمين بمـا فى قلوبهم؛ فـالمراد من إنباء السورة لهم: اطلاعهم على أن المؤمنين قـد علموا بما فى قلوبهم، ثم أمر اللّه رسوله بأن يجيب عليهم، فقـال: قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ هو أمر تهديـد، أى: افعلوا الاسـتهزاء إن اللّه مخرج ما تحـذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون، إمـا بـإنزال سورة؛ أو بإخبـار رسوله بـذلك، أو نحو ذلـك. قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ أى: و لئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الـدين، و ثلب المؤمنين بعـد أن يبلغ إليك ذلك، و يطلعك اللّه عليه ليقولنّ: إنما كنا نخوض و نلعب، و لم نكن فى شىء من أمرك و لا أمر المؤمنين، ثم أمره اللّه أن يجيب عنهم فقال: قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آيـاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ و الاسـتفهام للتقريع و التوبيـخ، و أثبت وقوع ذلك منهم و لم يعبأ بإنكارهم، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكـار، بـل جعلهم كـالمعترفين بوقوع ذلـك منهم حيث جعـل المسـتهزأ به، و الباء لحرف النفى، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاسـتهزاء و ثبوته، ثم قـال: لاـ تَعْتَذِرُوا نهيا لهم عن الاشـتغال بالاعتـذارات الباطلـة، فإن ذلك غير مقبول منهم. و قـد نقل

الواحدى عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار: محو أثر الذنب و قطعه، من قولهم: اعتذر المنزل، إذا درس، و اعتذرت المياه، إذا انقطعت قَدْ كَفَرْتُمْ أى: أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور بَعْدَ إِيمانِكُمْ أى: بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ و هم: من أخلص الإيمان و ترك النفاق و تاب عنه. قال الزجاج: الطائفة فى اللغة الجماعة. قال ابن الأنبارى: و يطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب نُعَذِّبْ طائِفَةً سبب بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ مصرّين على النفاق لم يتوبوا منه، قرئ نعذب بالنون، و بالتاء الفوقية على البناء للمفعول و بالتحتية على البناء للفاعل، و هو اللّه سبحانه.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحارث يأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيجلس إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، و هو الذى قال لهم: إنما محمد أذن.

من حدثه بشىء صدقه، فأنزل اللّه فيه: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم خلاس بن سويد بن صامت، و مخشى بن حمير و وديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا فى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فنهى بعضهم بعضا، و قالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن؛ نحلف له فيصدّقنا، فنزل: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: هُوَ أُذُنٌ

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٣١

يعنى: أنه يسمع من كل أحد. قال اللّه تعالى: أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ يعنى:

يصدق باللّه و يصدّق المؤمنين. و أخرج الطبرانى و ابن عساكر و ابن مردويه عن عمر بن سعد قال: فىّ أنزلت هذه الآية وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ و ذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة، فيأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيسارّه، حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد، و كرهوا مجالسته، و قالوا: هُوَ أُذُنٌ فأنزلت فيه.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: و اللّه إنّ هؤلاء لخيارنا و أشرافنا، و لئن كان ما يقول محمد حقّا لهم شرّ من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: و اللّه إن ما يقول محمد لحق، و لأنت شرّ من الحمار، فسعى بها الرجل إلى نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذى قلت؟ فجعل يلتعن، و يحلف باللّه ما قال ذلك، و جعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق، و كذب الكاذب، فأنزل اللّه فى ذلك: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله، و سمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يقول: يعادى اللّه و رسوله. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ الآية قال:

يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون عسى اللّه أن لا يفشى علينا هذا. و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن شريح ابن عبيد أن رجلا قال لأبى الدرداء: يا معشر القراء! ما بالكم أجبن منا و أبخل إذا سئلتم، و أعظم لقما إذا أكلتم؟ فأعرض عنه أبو الدرداء، و لم يردّ عليه بشىء، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فانطلق عمر إلى الرّجل الذى قال ذلك، فأخذه بثوبه و خنقه و قاده إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال الرجل: إنّما كنّا نخوض و نلعب، فأوحى اللّه إلى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن عبد اللّه ابن عمر قال: قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما:

ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، و لا أكذب ألسنة، و لا أجبن عند اللقاء، فقال رجل فى المجلس: كذبت؛ و لكنك منافق، لأخبرنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نزل القرآن.

قال عبد اللّه: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الحجارة تنكبه و هو يقول: يا رسول اللّه! إنما كنا نخوض و نلعب، و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ و أخرجه ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و العقيلى فى الضعفاء، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و الخطيب فى رواية مالك عن ابن عمر، فقال: رأيت عبد اللّه بن أبيّ و هو يشتد قدّام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و الأحجار تنكبه و هو يقول: يا محمد! إنما كنا نخوض و نلعب، و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة إلى تبوك؛ و بين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: أ يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام و حصونها؟ هيهات هيهات، فأطلع اللّه نبيه على ذلك، فقال نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: احبسوا علىّ هؤلاء الركب، فأتاهم فقال: قلتم: كذا، قالوا:

يا نبىّ اللّه إنّما كنّا نخوض و نلعب، فأنزل اللّه فيهم ما تسمعون. و قد روى نحو هذا من طرق عن جماعة

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٣٢

من الصّحابة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ قال: الطائفة: الرّجل و النّفر.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٧ الى ٧٠]

الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٩) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

قوله: الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين، و أن ذكورهم فى ذلك كإناثهم، و أنهم متناهون فى النفاق و البعد عن الإيمان، و فيه إشارة إلى نفى أن يكونوا من المؤمنين، و ردّ لقولهم: وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادّة حالهم لحال المنافقين فقال:

يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ و هو كل قبيح عقلا أو شرعا وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ و هو كل حسن عقلا أو شرعا، قال الزجاج: هذا متصل بقوله وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ أى: ليسوا من المؤمنين، و لكن بعضهم من بعض، أى: متشابهون فى الأمر بالمنكر و النّهى عن المعروف وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ أى:

يشحّون فيما ينبغى إخراجه من المال فى الصّدقة و الصّلة و الجهاد، فالقبض كناية عن الشحّ، كما أن البسط كناية عن الكرم، و النسيان: الترك؛ أى: تركوا ما أمرهم به، فتركهم من رحمته و فضله، لأنّ النّسيان الحقيقى لا يصحّ إطلاقه على اللّه سبحانه، و إنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة فى علم البيان، ثم حكم عليهم بالفسق، أى: الخروج عن طاعة اللّه إلى معاصيه، و هذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون فى الفسق. ثم بين مآل حال أهل النفاق و الكفر بأنه: نارَ جَهَنَّمَ و خالِدِينَ فِيها حال مقدّرة، أى:

مقدّرين الخلود؛ و فى هذه الآية دليل على أن: وعد، يقال فى الشر، كما يقال فى الخير هِيَ حَسْبُهُمْ أى: كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، وَ مع ذلك فقد لَعَنَهُمُ اللَّهُ أى: طردهم و أبعدهم من رحمته وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ أى: نوع آخر من العذاب دائم

لاـ ينفـك عنهم. قوله: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَمْ شبه حال المنافقين بالكفـار الـذين كانوا من قبلهم، ملتفتا من الغيبـة إلى الخطاب، و الكـاف محلها رفع على خبريـة مبتـدأ محـذوف، أى: أنتم مثل الـذين من قبلكم، أو محلها نصب، أى: فعلتم مثل فعل الـذين من قبلكم من الأمم. و قال الزّجّاج: التقدير: وعد اللّه الكفار نار جهنّم وعدا كما وعد الذين من قبلكم؛

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۳۳

و قيل المعنى: فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى ترك الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر، فحذف المضاف.

ثم وصف حـال أولئك الكفّـار الـذين من قبلهم، و بين وجه تشبيههم بهم، و تمثيـل حالهم بحالهم، بأنهم كانوا أشـدّ من هؤلاء المنافقين و الكفار المعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا أى: تمتعوا بِخَلاقِهِمْ أى: نصيبهم الذى قدّره اللّه لهم من ملاذ الدنيا فَاسْتَمْتَعْتُمْ أنتم بِخَلاقِكُمْ أى:

نصـيبكم الـذى قـدّره اللّه لكم كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ أى: انتفعتم به كما انتفعوا به، و الغرض من هذا التمثيل ذمّ هؤلاء المنافقين و الكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار فى الاستمتاع بما رزقهم اللّه.

و قـد قيـل: مـا فائـدة ذكر الاسـتمتاع بالخلاـق فى حقّ الأـولين مرّة، ثم فى حقّ المنافقين ثانيا، ثم تكريره فى حقّ الأوّلين ثالثا؟ و أجيب بـأنه تعـالى ذمّ الأـوّلين بالاسـتمتاع بما أوتوا من حظوظ الـدنيا، و حرمانهم عن سـعادة الآخرة بسـبب اسـتغراقهم فى تلك الحظوظ، فلمـا قرّر تعـالى هـذا؛ عاد فشـبه حال المنافقين بحالهم؛ فيكون ذلك نهايـة فى المبالغـة. قوله وَ خُضْتُمْ كَالَّذِى خاضُوا معطوف على ما قبله، أى: كالفوج الـذى خاضوا، أو كالخوض الـذى خاضوا؛ و قيل: أصـله كالذين، فحذفت النون، و الأولى أن يقال: إن الـذى: اسم موصول مثل: من و ما، يعبر به عن الواحد و الجمع. يقال: خضت الماء أخوضه خوضا و خياضا، و الموضع: مخاضـة، و هو مـا جـاز النـاس فيه مشـاة و ركبانـا، و جمعهـا: المخـاض و المخـاوض؛ و يقـال منه: خـاض القوم فى الحـديث، و تخاوضوا فيه، أى: تفاوضوا فيه، و المعنى: خضـتم فى أسـباب الدنيا و اللهو و اللعب؛ و قيل: فى أمر محمد صـلّى اللّه عليه و سلّم بالتكـذيب، أى: دخلتم فى ذلـك، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتصـفين بهـذه الأوصاف من المشـبهين، و المشبه بهم حَبِطَتْ أَعْمـالُهُمْ أى: بطلت، و المراد بالأعمال: ما عملوه مما هو فى صورة طاعـة، لا هـذه الأعمال المـذكورة هنا فإنها من المعاصـى؛ و معنى: فِى الـدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ أنهـا باطلـة على كـل حال، أما بطلانها فى الـدنيا: فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم، بل يصـير ما يرجونه من الغنى فقرا، و من العزّ ذلا، و من القوّة ضعفا؛ و أما فى الآخرة: فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار، و لا ينتفعون بشـىء ممـا عملوه من الأعمال التى يظنونها طاعـة و قربـة وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أى: المتمكنون فى الخسـران الكاملون فيه فى الـدنيا و الآـخرة أَ لَمْ يَأْتِهِمْ أى: المنـافقين نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: خبرهم الـذى له شأن، و هو ما فعلوه و ما فعل بهم، و لما شـبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال فى المشبه بهم ذكر منهم هاهنا ست طوائف، قد سمع العرب أخبارهم، لأن بلادهم و هى الشام قريبـة من بلاد العرب، فالاسـتفهام للتقرير، و أوّلهم: قوم نوح و قـد أهلكوا بالإغراق، و ثانيهم: قوم عاد و قـد أهلكوا بالريح العقيم، و ثالثهم:

قوم ثمود و قـد أخـذوا بالصـيحة، و رابعهم: قوم إبراهيم و قـد سـلط اللّه عليهم البعوض، و خامسـهم: أصـحاب مدين، و هم قوم شعيب و قـد أخـذتهم الرجفـة. و سادسـهم: أصـحاب المؤتفكـات، و هى قرى قـوم لوط، و قـد أهلكهم اللّه بمـا أمطر عليهم من الحجارة؛ و سـميت مؤتفكات: لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، و الائتفاك: الانقلاب أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: رسـل هذه الطوائف الست؛ و قيل: رسل أصـحاب المؤتفكات؛ لأن رسولهم لوط؛ و قد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا، و الفاء فى فَما كانَ اللَّهُ

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۳۴

لِيَظْلِمَهُمْ للعطف على مقدّر يدل عليه الكلام، أى: فكذبوهم، فأهلكهم اللّه، فما ظلمهم بذلك، لأنه قد بعث إليهم رسله فأنذروهم، و حذروهم وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بسبب ما فعلوه من الكفر باللّه، و عدم الانقياد لأنبيائه، و هذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمرا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ قال: هو التّكذيب، قال:

و هو أنكر المنكر وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ شهادة أن لا إله إلا اللّه، و الإقرار بما أنزل اللّه، و هو أعظم المعروف. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ قال: لا يبسطونها بنفقة فى حق. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ قال: تركوا اللّه فتركهم من كرامته و ثوابه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قال: صنيع الكفار كالكفار. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً إلى قوله: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِی خاضُوا هؤلاء بنو إسرائيل: أشبهناهم، و الذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: بِخَلاقِهِمْ قال: بدينهم. و أخرجا أيضا عن أبى هريرة قال الخلاق: الدين. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ قال:

بنصيبهم فى الدنيا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِی خاضُوا قال:

لعبتم كالذى لعبوا. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ الْمُؤْتَفِكاتِ قال: قوم لوط، ائتفك بهم أرضهم، فجعل عاليها سافلها.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِی جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

قوله بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى: قلوبهم متحدة فى التّوادد، و التّحابب، و التّعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين، و ضمهم من الإيمان باللّه، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين، فقال: يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ أى: بما هو معروف فى الشرع غير منكر، و من ذلك توحيد اللّه سبحانه، و ترك عبادة غيره وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أى: عما هو معروف فى الشرع غير منكر، و خصص إقامة الصلاة؛ و إيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان و الأموال، و قد تقدّم معنى هذا. وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ فى صنع ما أمرهم بفعله؛ أو نهاهم عن تركه، و الإشارة ب أُولئِكَ إلى المؤمنين و المؤمنات؛ المتصفين بهذه الأوصاف، و السين فى سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ للمبالغة

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٣٥

فى إنجاز الوعد إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ فى أقواله و أفعاله، ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت الرّحمة إجمالا، باعتبار الرحمة فى الدار الآخرة، فقال: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و الإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير؛ و معنى: جرى الأنهار من تحت الجنات، أنها تجرى تحت أشجارها و غرفها، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً أى: منازل يسكنون فيها من الدرّ و الياقوت، و جَنَّاتِ عَدْنٍ يقال: عدن بالمكان: إذا أقام به، و منه المعدن؛ و قيل: هى أعلى الجنة، و قيل: أوسطها، و قيل: قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبىّ، أو صدّيق، أو شهيد. وصف الجنة بأوصاف:

الأوّل: جرى الأنهار من تحتها، و الثانی: أنهم فیها خالدون، و الثالث: طیب مساكنها، و الرابع: أنها دار عدن، أی: إقامة غیر منقطعة، هذا علی ما هو معنی عدن لغة؛ و قیل: هو علم، و التنكیر فی رضوان:

للتحقیر، أی: وَ رِضْوانٌ حقیر یسیر مِنْ رضوان اللَّهِ أَكْبَرُ من ذلک كله الذی أعطاهم اللّه إیاه، و فیه دلیل علی أنه لا شیء من النعم و إن جلت و عظمت یماثل رضوان اللّه سبحانه؛ و أن أدنی رضوان منه لا یساویه شیء من اللذات الجسمانیة، و إن كانت علی غایة لیس وراءها غایة، اللهمّ ارض عنا رضا لا یشوبه سخط، و لا یكدّره نكد، یا من بیده الخیر كله دقه و جله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلی ما تقدّم مما وعد اللّه به المؤمنین و المؤمنات هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ دون كل فوز مما یعدّه الناس فوزا.

و قد أخرج أبو الشیخ عن الضحاک فی قوله: یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ قال: یدعون إلی الإیمان باللّه و رسوله، و النفقات فی سبیل اللّه، و ما كان من طاعة اللّه وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عن الشرک و الكفر قال:

الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر فریضة من فرائض اللّه، كتبها اللّه علی المؤمنین. و أخرج أبو الشیخ عن ابن عباس فی قوله بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ قال: إخاؤهم فی اللّه، یتحابون بجلال اللّه و الولایة للّه، و قد ثبت عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی الأمر بالمعروف، و النهی عن المنكر من الأحادیث ما هو معروف. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن الحسن قال: سألت عمران بن حصین و أبا هریرة عن تفسیر قوله تعالی:

وَ مَساكِنَ طَیِّبَةً فِی جَنَّاتِ عَدْنٍ قالا: علی الخبیر سقطت، سألنا عنها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: «قصر من لؤلؤة فی الجنة، فی ذلک القصر سبعون دارا من یاقوتة حمراء، فی كل دار سبعون بیتا من زمرّدة خضراء، فی كل بیت سبعون سریرا، علی كل سریر سبعون فراشا من كل لون، علی كل فراش امرأة من الحور العین، فی كل بیت سبعون مائدة، فی كل مائدة سبعون لونا من كل طعام، فی كل بیت سبعون و صیفا و وصیفة فیعطی المؤمن من القوة فی كل غداة ما یأتی علی ذلک كله». و أخرج ابن جریر عن ابن عباس فی قوله:

جَنَّاتِ عَدْنٍ قال: معدن الرجل: الذی یكون فیه: و أخرج ابن أبی حاتم عنه قال: معدنهم فیها أبدا.

و أخرج أبو الشیخ عن سعید بن جبیر فی قوله: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ یعنی: إذا أخبروا أن اللّه عنهم راض، فهو أكبر عندهم من التّحف و التّسنیم. و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما من حدیث أبی سعید قال:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «إن اللّه یقول لأهل الجنة: یا أهل الجنة، فیقولون: لبیک ربنا و سعدیک و الخیر فی یدیک، فیقول: هل رضیتم؟ فیقولون: ربنا و ما لنا لا نرضی و قد أعطیتنا ما لم تعطه أحدا من خلقک،

فتح القدیر، ج۲، ص: ۴۳۶

فیقول: ألا أعطیكم أفضل من ذلک؟ قالوا: یا ربنا و أیّ شیء أفضل من ذلک؟ قال: أحلّ علیكم رضوانی، فلا أسخط علیكم بعده أبدا».

[سورة التوبة (۹): الآیات ۷۳ الی ۷۴]

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِینَ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ (۷۳) یَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ یَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ یَتُوبُوا یَكُ خَیْراً لَهُمْ وَ إِنْ یَتَوَلَّوْا یُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِیماً فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِی الْأَرْضِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ (۷۴)

الأمر للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده، و جهاد الكفار یكون بمقاتلتهم حتی یسلموا، و جهاد المنافقین یكون بإقامة الحجة علیهم حتی یخرجوا عنه و یؤمنوا باللّه. و قال الحسن: إن جهاد المنافقین بإقامة الحدود علیهم، و اختاره قتادة.

قيـل فى توجيهه: إن المنـافقين كـانوا أكثر من يفعـل موجبـات الحـدود. قـال ابن العربى: إن هـذه دعوى لاـ برهان عليها، و ليس العاصـى بمنـافق، إنمـا المنـافق بمـا يكون فى قلبه من النفـاق دائمـا؛ لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا، و أخبار المحـدودين تشـهد بسياقتها أنهم لم يكونوا منافقين. قوله: وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ الغلظ: نقيض الرأفـة، و هو شـدّة القلب و خشونـة الجانب؛ قيل: و هذه الآية نسـخت كل شىء من العفو و الصلح و الصفح، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة، فقال: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا.

و قـد اختلف أئمـة التّفسـير فى سـبب نزول هذه الآية، فقيل: نزلت فى الجلاس بن سويد بن الصّامت، و وديعة بن ثابت، و ذلك أنه لما كثر نزول القرآن فى غزوة تبوك فى شأن المنافقين و ذمّهم، قالا: لئن كان محمـد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا و خيارنا لنحن شرّ من الحمير، فقال له عامر بن قيس: أجل و اللّه إن محمدا لصادق مصدّق، و إنّك لشرّ من الحمار؛ و أخبر عامر بذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و جاء الجلاس فحلف باللّه أن عامرا لكاذب، و حلف عامر: لقد قال، و قال: اللهم أنزل على نبيك شيئا فنزلت. و قيل: إن الذى سـمع ذلك عاصم بن عدىّ، و قيل: حذيفة، و قيل: بل سمعه ولد امرأته، أى: امرأة الجلاس، و اسـمه: عمير ابن سـعد، فهمّ الجلاـس بقتله لئلا يخبر بخبره. و قيل: إن هـذه الآيـة نزلت فى عبـد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين لما قال: ما مثلنا و مثل محمد إلا كما قال القائل «سمن كلبك يأكلك»، و لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ «١» فأخبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بـذلك، فجاء عبـد اللّه بن أبىّ فحلف: أنه لم يقله. و قيل: إنه قول جميع المنافقين، و أن الآيـة نزلت فيهم، و على تقـدير أن القائل واحـد أو اثنان؛ فنسـبة القول إلى جميعهم هى باعتبار موافقـة من لم يقل و لم يحلف من المنافقين لمن قد قال و حلف. ثم ردّ اللّه على المنافقين و كذبهم و بين أنهم حلفوا كذبا، فقال: وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ و هى ما تقدّم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ أى: كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام و إن كانوا كفارا فى الباطن. و المعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم. قوله: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا قيل:

---

(١). المنافقون: ٨.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٣٧

هو همهم بقتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة العقبة فى غزوة تبوك، و قيل: هموا بعقد التاج على رأس عبد اللّه بن أبىّ؛ و قيل: هو همّ الجلاس بقتل من سـمعه يقول تلك المقالـة، فأخبر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم. قوله: وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ أى: و ما عابوا و أنكروا إلا ما هو حقيق بالمـدح و الثناء، و هو إغناء اللّه لهم من فضـله، و الاسـتثناء مفرّغ من أعمّ العامّ، و هو من باب قول النابغة:

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهمبهنّ فلول من قراع الكتائب

و من باب قول الشاعر:

ما نقموا من بنى أميّة إلّاأنّهم يحلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشـبه الذم. و قد كان هؤلاء المنافقون فى ضيق من العيش، فلما قدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة اتسـعت معيشـتهم و كثرت أموالهم. قوله: فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ أى: فإن تحصل منهم التوبـة و الرجوع إلى الحق يكن ذلك الـذى فعلوه من التوبـة خيرا لهم فى الـدين و الـدنيا. و قـد تاب الجلاس بن سويـد، و حسن إسـلامه. و فى ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق و الكافر.

و قـد اختلف العلمـاء فى قبولهـا من الزنـديق، فمنع من قبولها مالك و أتباعه، لأنه لا يعلم صـحة توبته، إذ هو فى كل حين يظهر

التوبة و الإسلام وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا أى: يعرضوا عن التوبة و الإيمان يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا بالقتل و الأسر و نهب الأموال وَ فى الْآخِرَةِ بعذاب النار وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍ يواليهم وَ لا نَصِيرٍ ينصرهم.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس: و اللّه لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شرّ من الحمير، فسمعها عمير بن سعد، فقال: و اللّه يا جلاس إنك لأحبّ الناس إلىّ، و أحسنهم عندى أثرا، و أعزّهم أن يدخل عليه شىء يكرهه، و قد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك، و لئن سكت عنها لتهلكنى، و لإحداهما أشدّ علىّ من الأخرى، فمشى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر له ما قال الجلاس، فحلف باللّه ما قال: و لكن كذب علىّ عمير، فأنزل اللّه:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك قال: سمع زيد بن أرقم رجلا من المنافقين يقول و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب: إن كان هذا صادقا لنحن شرّ من الحمير؛ قال زيد: هو و اللّه صادق و أنت شرّ من الحمار، فرفع ذلك إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فجحد القائل، فأنزل اللّه: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا الآية.

و أخرج ابن جرير، و الطبرانى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا فى ظلّ شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: علام تشتمنى أنت و أصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا باللّه ما قالوا حتى تجاوز عنهم، و أنزل اللّه: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا الآية. و أخرج

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٣٨

ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا، أحدهما من جهينة و الآخر من غفار، و كانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغفارى على الجهنى، فقال عبد اللّه بن أبىّ للأوس:

انصروا أخاكم، و اللّه ما مثلنا و مثل محمد إلا كما قال القائل: «سمّن كلبك يأكلك» و اللّه لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ «١» فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف باللّه ما قاله، فأنزل اللّه: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ الآية، و فى الباب أحاديث مختلفة فى سبب نزول هذه الآية، و فيما ذكرناه كفاية. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا قال: همّ رجل يقال له الأسود بقتل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا قال: أرادوا أن يتوّجوا عبد اللّه ابن أبىّ بتاج. و أخرج ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: قتل رجل على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فجعل ديته اثنى عشر ألفا، و ذلك قوله:

وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ قال: بأخذهم الدّية.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٥ الى ٧٩]

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٩)

اللام الأولى و هى لَئِنْ آتانا اللّه مِنْ فَضْلِهِ لام القسم، و اللام الثانية، و هى لَنَصَّدَّقَنَ لام الجواب للقسم و الشرط. و معنى: لَنَصَّدَّقَنَ لنخرج الصدقة، و هى أعمّ من المفروضة و غيرها وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ أى: من جملة أهل الصلاح من المؤمنين، القائمين بواجبات الدّين، التاركين لمحرماته فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ أى: لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به، أى: بما آتاهم من فضله، فلم يتصدّقوا بشىء منه كما حلفوا به وَ تَوَلَّوْا أى: أعرضوا عن طاعة اللّه، و إخراج صدقات ما أعطاهم اللّه من فضله، وَ الحال أن هُمْ مُعْرِضُونَ فى جميع الأوقات، قبل أن يعطيهم اللّه ما أعطاهم من الرزق و بعده. قوله: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ الفاعل:

هو اللّه سبحانه، أى: فأعقبهم اللّه بسبب البخل الذى وقع منهم و الإعراض نفاقا كائنا فى قلوبهم، متمكّنا منها، مستمرا فيها إِلى يَوْمِ يلقون اللّه عزّ و جلّ، و قيل: إن الضمير يرجع إلى البخل، أى: فأعقبهم البخل بما عاهدوا اللّه عليه نفاقا كائنا فى قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم، أى: جزاء بخلهم. و معنى فَأَعْقَبَهُمْ أن اللّه سبحانه جعل النفاق المتمكن فى قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، و الباء فى بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ للسببية، أى: بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدّق و الصلاح، و كذلك الباء

---

(١). المنافقون: ٨.

فى وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ أى: بسبب تكذيبهم بما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أنكر عليهم فقال: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أى: المنافقون، و قرئ بالفوقية خطابا للمؤمنين أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ أى: جميع ما يسرونه من النفاق، و جميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و على أصحابه، و على دين الإسلام وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء المغيبة كائنا ما كان، و من جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين. قوله: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ الموصول: محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجرّ بدلا من الضمير فى سرّهم و نجواهم، و معنى يَلْمِزُونَ يعيبون. و قد تقدّم تحقيقه، و المطّوّعين:

أى المتطوّعين، و التطوّع: التبرّع. و المعنى: أنّ المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوّعوا بشىء من أموالهم، و أخرجوه للصدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى اللّه عن هذا، و يقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء، و لم يكن للّه خالصا، و فِي الصَّدَقاتِ متعلق بيلمزون، أى: يعيبونهم فى شأنها. قوله وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ معطوف على المطّوّعين، أى: يلمزون المتطوّعين، و يلمزون الذى لا يجدون إلا جهدهم؛ و قيل:

معطوف على المؤمنين، أى: يلمزون المتطوّعين من المؤمنين، و من الذين لا يجدون إلا جهدهم، و قرئ جُهْدَهُمْ بفتح الجيم، و الجهد بالضم: الطاقة، و بالفتح: المشقة، و قيل: هما لغتان، و معناهما واحد، و قد تقدّم بيان ذلك. و المعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدّقون بما فضل عن كفايتهم. قوله فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ معطوف على يلمزون، أى: يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه فى الصدقة، مع كون ذلك جهد المقلّ، و غاية ما يقدر عليه، و يتمكن منه. قوله: سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ أى:

جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر اللّه منهم بأن أهانهم و أذلهم و عذبهم، و التعبير بذلك من باب المشاكلة كما فى غيره، و قيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر اللّه بهم كما سخروا بالمسلمين وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: ثابت مستمر شديد الألم.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و العسكرى فى الأمثال، و الطبرانى و ابن مندة و الماوردى و أبو نعيم و ابن

مردویه و البیهقی و ابن عساکر عن أبی أمامة الباهلی قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: یا رسول اللّه! ادع اللّه أن یرزقنی مالا، قال: ویلک یا ثعلبة! قلیل تؤدّی شکره، خیر من کثیر لا تطیقه، قال: یا رسول اللّه! ادع اللّه أن یرزقنی مالا، قال: ویحک یا ثعلبة؛ أما تحبّ أن تکون مثلی؟

فلو شئت أن یسیر ربی هذه الجبال معی ذهبا لسارت، فقال: یا رسول اللّه! ادع اللّه أن یرزقنی مالا، فو الذی بعثک بالحق إن آتانی اللّه مالا لأعطین کل ذی حق حقه، قال: ویحک یا ثعلبة قلیل تطیق شکره، خیر من کثیر لا تطیقه، قال: یا رسول اللّه! ادع اللّه تعالی، فقال یا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: اللهمّ ارزقه مالا؛ قال: فاتخذ غنما فنمت کما تنمو الدود حتی ضاقت بها المدینة، فتنحی بها فکان یشهد الصلاة بالنهار مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و لا یشهدها باللیل، ثم نمت کما تنمو الدود، فتنحی بها، فکان لا یشهد الصلاة باللیل و لا بالنهار إلا من جمعة إلی جمعة مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، ثم نمت کما تنمو الدود فضاق بها مکانه، فتنحی بها فکان لا یشهد جمعة و لا جنازة مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، فجعل یتلقی الرکبان و یسألهم عن الأخبار، و فقده

فتح القدیر، ج۲، ص: ۴۴۰

رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فسأل عنه. فأخبروه أنه اشتری غنما، و أن المدینة ضاقت به و أخبروه خبره، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: ویح ثعلبة بن حاطب، ویح ثعلبة بن حاطب، ثم إن اللّه تعالی أمر رسوله أن یأخذ الصدقات، و أنزل خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً الآیة، فبعث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم رجلین، رجلا من جهینة، و رجلا من بنی سلمة یأخذان الصّدقات، و کتب لهما أسنان الإبل و الغنم کیف یأخذانها علی وجوهها، و أمرهما أن یمرّا علی ثعلبة بن حاطب، و برجل من بنی سلیم، فخرجا فمرّا بثعلبة فسألا الصّدقة، فقال: أریانی کتابکما، فنظر فیه فقال: ما هذه إلا جزیة، انطلقا حتی تفرغا ثم مرّا إلیّ، فانطلقا، و سمع بهما السّلمی فاستقبلهما بخیار إبله، فقالا: إنما علیک دون هذا، فقال: ما کنت أتقرّب إلی اللّه إلّا بخیر مالی، فقبلا، فلما فرغا مرّا بثعلبة، فقال: أریانی کتابکما، فنظر فیه فقال: ما هذه إلّا جزیة، انطلقا حتی أری رأیی، فانطلقا حتی قدما المدینة، فلما رآهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال قبل أن یکلمهما: ویح ثعلبة بن حاطب، و دعا للسلمیّ بالبرکة، و أنزل اللّه وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ الثلاث الآیات، قال: فسمع بعض أقارب ثعلبة، فأتی ثعلبة فقال: ویحک یا ثعلبة! أنزل فیک: کذا و کذا، قال: فقدم ثعلبة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقال:

یا رسول اللّه! خذ صدقة مالی، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: إن اللّه قد منعنی أن أقبل منک، فجعل یبکی و یحثی التراب علی رأسه، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: هذا عملک بنفسک أمرتک فلم تطعنی، فلم یقبل منه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم حتی مضی؛ ثم أتی أبا بکر، فقال: یا أبا بکر! اقبل منی صدقتی فقد عرفت منزلتی من الأنصار، فقال أبو بکر: لم یقبلها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و أقبلها؟ فلم یقبلها أبو بکر؛ ثم ولی عمر بن الخطاب فأتاه فقال: یا أبا حفص! یا أمیر المؤمنین! اقبل منی صدقتی، قال: و یثقل علیه بالمهاجرین و الأنصار و أزواج النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فقال عمر: لم یقبلها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و لا أبو بکر أقبلها أنا؟ فأبی أن یقبلها؛ ثم ولی عثمان فسأله أن یقبل صدقته، فقال: لم یقبلها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و لا أبو بکر و لا عمر و أنا أقبلها منک؟

فلم یقبلها منه، فهلک فی خلافة عثمان، و فیه نزلت الَّذِینَ یَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِینَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ فِی الصَّدَقاتِ قال: و ذلک فی الصّدقة، و هذا الحدیث هو مرویّ من حدیث معاذ بن رفاعة عن علیّ بن زید عن أبی عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولی عبد اللّه بن یزید بن معاویة عن أبی أمامة الباهلی. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل، عن ابن عباس فی قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ الآیة، و ذلک أن رجلا کان یقال له: ثعلبة، من الأنصار أتی مجلسا، فأشهدهم فقال: لئن

آتانى اللّه من فضله آتيت كل ذى حقّ حقه، و تصدّقت منه، و جعلت منه للقرابة؛ فابتلاه اللّه فآتاه من فضله فأخلف ما وعده، فأغضب اللّه بما أخلفه ما وعده، فقص اللّه شأنه فى القرآن. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلا من الأنصار هو الذى قال هذا، فمات ابن عمّ له فورث منه مالا فبخل به و لم يف بما عاهد اللّه عليه، فأعقبه بذلك نفاقا فى قلبه إلى أن يلقاه. قال ذلك بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدّق بشىء كثير، فقالوا: مراء؛ و جاء أبو عقيل بنصف صاع، فقال المنافقون: إن اللّه لغنىّ عن

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۴۱

صدقة هذا، فنزلت: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ الآية، و فى الباب روايات كثيرة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ أى: يطعنون على المطوّعين.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۸۰ الى ۸۳]

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۸۰) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (۸۳)

أخبر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأنّ صدور الاستغفار منه للمنافقين و عدمه سواء، و ذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا للمغفرة من اللّه سبحانه لهم، فهو كقوله تعالى: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ثم قال: إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ و فيه بيان لعدم المغفرة من اللّه سبحانه للمنافقين و إن أكثر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الاستغفار لهم، و ليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما فى سائر مفاهيم الأعداد، بل المراد بهذا: المبالغة فى عدم القبول. فقد كانت العرب تجرى ذلك مجرى المثل فى كلامها عند إرادة التكثير، و المعنى: أنه لن يغفر اللّه لهم؛ و إن استغفرت لهم استغفارا بالغا فى الكثرة غاية المبالغ. و قد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، و يدل لذلك ما سيأتى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: لأزيدنّ على السبعين. و ذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها فقال: إنّ السبعة عدد شريف، لأنّها عدد السموات، و الأرضين، و البحار، و الأقاليم، و النجوم السيارة، و الأعضاء، و أيام الأسبوع، فصير كلّ واحد من السبعة إلى عشرة؛ لأنّ الحسنة بعشر أمثالها. و قيل: خصّت السبعون بالذكر لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة، فكأنه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة. و انتصاب سبعين على المصدر كقولهم: ضربته عشرين ضربة. ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى: ذلك الامتناع بسبب كفرهم باللّه و رسوله وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أى: المتمرّدين، الخارجين عن الطاعة، المتجاوزين لحدودها، و المراد هنا الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التى بمعنى الدلالة و إراءة الطريق. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال:

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ المخلفون: المتروكون، و هم الذين استأذنوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المنافقين، فأذن لهم، و خلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك، أو الذين خلفهم اللّه و ثبطهم، أو الشيطان، أو كسلهم، أو المؤمنون، و معنى بِمَقْعَدِهِمْ أى: بقعودهم، يقال: قعد قعودا و مقعدا؛ أى: جلس، و أقعده غيره، ذكر معناه الجوهرى فهو متعلق بفرح، أى:

فرح المخلفون بقعودهم، و خلاف رسول اللّه:

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۴۲

منتصب على أنه ظرف لمقعدهم. قال الأخفش و يونس: الخلاف بمعنى الخلف، أى: بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ذلك أن جهة الإمام التى يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف، و قال قطرب و الزجاج: معنى خلاف رسول اللّه: مخالفة الرسول حين سار و أقاموا، فانتصابه على مفعول له، أى: قعدوا لأجل المخالفة، أو على الحال مثل: و أرسلها العراک، أى: مخالفين له، و يؤيد ما قاله الأخفش و يونس قراءة أبى حيوة: خلف رسول اللّه.

قوله: وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سبب ذلك الشحّ بالأموال و الأنفس، و عدم وجود باعث الإيمان و داعى الإخلاص وجود الصارف عن ذلک، و هو ما هم فيه من النفاق، و فيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم و أنفسهم فى سبيل اللّه لوجود الداعى معهم، و انتفاء الصارف عنهم وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ أى: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطا لهم، و كسرا لنشاطهم: و تواصيا بينهم بالمخالفة لأمر اللّه و رسوله، ثم أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم: نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ و المعنى:

إنكم أيها المنافقون! كيف تفرّون من هذا الحرّ اليسير، و نار جهنم التى ستدخلونها خالدين فيها أبدا أشدّ حرّا مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حرّ يسير فى زمن قصير، و وقعتم فى حرّ كثير فى زمن كبير، بل غير متناه أبد الآبدين و دهر الداهرين.

فكنت كالسّاعى إلى مثعب موائلا من سبل الرّاعد

و جواب لو فى لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ مقدّر، أى: لو كانوا يفقهون أنها كذلک لما فعلوا ما فعلوا.

قوله: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً هذان الأمران معناهما الخبر، و المعنى: فسيضحكون قليلا و يبكون كثيرا، و إنما جيء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلک أمر محتوم لا يكون غيره، و قليلا و كثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية، أى: ضحكا قليلا و بكاء كثيرا، أو زمانا قليلا و زمانا كثيرا جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أى: جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصى، و انتصاب جزاء على المصدرية، أى:

يجزون جزاء فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ الرجع متعدّ كالردّ، و الرجوع لازم، و الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها و إنما قال: إِلى طائِفَةٍ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذارا صحيحة، و فيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و تاب اللّه عليهم كالثلاثة الذين خلفوا، و سيأتى بيان ذلک. و قيل إنما قال: إلى طائفة، لأن منهم من تاب عن النفاق، و ندم على التخلف فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ معک فى غزوة أخرى بعد غزوتک هذه فَقُلْ لهم لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا أى: قل لهم ذلک عقوبة لهم، و لما فى استصحابهم من المفاسد كما تقدم فى قوله: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا. و قرئ بفتح الياء من معى فى الموضعين.

و قرئ بسكونها فيهما، و جملة إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ للتعليل، أى: لن تخرجوا معى و لن تقاتلوا لأنكم رضيتم بالقعود و التخلف أوّل مرّة، و هى غزوة تبوک، و الفاء فى فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، و الخالفين: جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، و المراد بهم: من تخلف عن الخروج.

و قيل المعنى: فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم، من قولک خلف

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۴۳

اللبن، أى: فسد بطول المكث فى السقاء. ذكر معناه الأصمعى. و قرئ: فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ و قال الفراء: معناه المخالفين.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عروة أن عبد اللّه بن أبىّ قال: لو لا أنكم تنفقون على محمد و أصحابه لانفضوا من

حوله، و هو القائل: لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ «١» فأنزل اللّه اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ فقال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: لأزیدنّ علی السبعین، فأنزل اللّه سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

و أخرج ابن أبی شیبهٔ و ابن جریر و ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس نحوه.

و أخرج أحمد و البخاری و الترمذی و النسائی و ابن ماجهٔ و ابن أبی حاتم و النحاس و ابن حبان و ابن مردویه و أبو نعیم فی الحلیهٔ عن ابن عباس قال: سمعت عمر یقول: لما توفی عبد اللّه بن أبیّ دعا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم للصلاهٔ علیه فقام علیه، فلما وقف قلت: أعلی عدوّ اللّه عبد اللّه بن أبیّ القائل کذا و کذا، و القائل کذا و کذا؟

أعدد أیامه، و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یتبسم حتی إذا أکثرت قال: یا عمر أخر عنی، إنی قد خیرت، قد قیل لی: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً فَلَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فلو أعلم أنی إن زدت علی السبعین غفر له لزدت علیها، ثم صلی علیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و مشی معه حتی قام علی قبره حتی فرغ منه، فعجبت لی و لجرأتی علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و اللّه و رسوله أعلم، فو اللّه ما کان إلا یسیرا حتی نزلت هاتان الآیتان وَ لا تُصَلِّ عَلی أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلی قَبْرِهِ فما صلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم علی منافق بعد حتی قبضه اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن قتادهٔ فی قوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ الآیهٔ قال: عن غزوهٔ تبوک. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أمر الناس أن ینبعثوا معه، و ذلک فی الصیف، فقال رجل: یا رسول اللّه! الحر شدید و لا نستطیع الخروج فلا تنفروا فی الحر، فقال اللّه: قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ کانُوا یَفْقَهُونَ فأمره بالخروج. و أخرج ابن مردویه عن جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله:

فَلْیَضْحَکُوا قَلِیلًا وَ لْیَبْکُوا کَثِیراً قال: هم المنافقون و الکفار الذین اتخذوا دینهم هزوا و لعبا، یقول اللّه: فلیضحکوا قلیلا فی الدنیا: و لیبکوا کثیرا فی الآخرهٔ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن قتادهٔ فی قوله: فَإِنْ رَجَعَکَ اللَّهُ إِلی طائِفَةٍ مِنْهُمْ قال: ذکر لنا أنهم کانوا اثنی عشر رجلا من المنافقین و فیهم قیل ما قیل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِینَ قال: هم الرجال الذین تخلفوا عن الغزو.

[سورهٔ التوبهٔ (٩): الآیات ٨٤ الی ٨٩]

وَ لا تُصَلِّ عَلی أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلی قَبْرِهِ إِنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (٨٤) وَ لا تُعْجِبْکَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُعَذِّبَهُمْ بِها فِی الدُّنْیا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ کافِرُونَ (٨٥) وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَکَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَکُنْ مَعَ الْقاعِدِینَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَفْقَهُونَ (٨٧) لکِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِکَ لَهُمُ الْخَیْراتُ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (٨٩)

---

(١). المنافقون: ٨.

فتح القدیر، ج‌٢، ص: ٤٤٤

قوله: ماتَ صفهٔ لأحد، و أَبَداً ظرف لتأبید النفی. قال الزجاج: معنی قوله: وَ لا تَقُمْ عَلی قَبْرِهِ أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کان إذا دفن المیت وقف علی قبره و دعا له؛ فمنع هاهنا منه؛ و قیل معناه: لا تقم بمهمات إصلاح قبره، و جملهٔ إِنَّهُمْ کَفَرُوا تعلیل للنهی، و إنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالکفر؛ لأنّ الکافر قد یکون عدلا فی دینه، و الکذب و النّفاق و الخداع و الجبن و

الخبث مستقبحة فى كلّ دين. ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم و أولادهم، و هو تكرير لما سبق فى هذه السورة و تقرير لمضمونه؛ و قيل: إن الآية المتقدّمة فى قوم، و هذه فى آخرين، و قيل: هذه فى اليهود، و الأولى: فى المنافقين؛ و قيل: غير ذلك. و قد تقدّم فى الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه فى تفسير هذه الآية، ثم عاد اللّه سبحانه إلى توبيخ المنافقين، فقال: وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أى: من القرآن، و يجوز أن يراد بعض السورة، و أن يراد: تمامها؛ و قيل: هى هذه السورة، أى: سورة براءة و «أن» فى أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ مفسرة لما فى الإنزال من معنى القول؛ أو مصدرية حذف منها الجارّ، أى: بأن آمنوا، و إنما قدّم الأمر بالإيمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلّا بعد الإيمان اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ أى: ذوو الفضل و السعة، من طال عليه طولا، كذا قال ابن العباس و الحسن، و قال الأصمّ: الرؤساء، و الكبراء المنظور إليهم، و خصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم، إذ لا عذر لهم فى القعود وَ قالُوا ذَرْنا أى: اتركنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ أى: المتخلفين عن الغزو من المعذورين؛ كالضعفاء و الزمنى، و الخوالف: النساء اللاتى يخلفن الرجال فى القعود فى البيوت، جمع خالفة، و جوّز بعضهم أن يكون جمع خالف، و هو من لا خير فيه وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ هو كقوله:

خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ و قد مرّ تفسيره فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ شيئا مما فيه نفعهم و ضرهم، بل هم كالأنعام.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر قال: لما توفى عبد اللّه بن أبىّ بن سلول أتى ابنه عبد اللّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول اللّه! أ تصلى عليه و قد نهاك اللّه أن تصلى على المنافقين؟

فقال: «إنّ ربى خيرنى و قال: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ و سأزيد على السبعين، فقال: إنه منافق، فصلّى عليه فأنزل اللّه: وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً الآية فترك الصلاة عليهم». و أخرج ابن ماجة و البزار و ابن جرير و ابن مردويه عن جابر قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أن يكفنه فى قميصه، فجاء ابنه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إن أبى أوصى أن يكفن فى قميصك، فصلى عليه و ألبسه قميصه و قام على قبره، فأنزل اللّه وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أُولُوا الطَّوْلِ قال: أهل الغنى. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله: رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ قال: مع النساء. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: الخوالف: النساء.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۴۵

المقصود من الاستدراك بقوله: لكِنِ الرَّسُولُ إلى آخره؛ الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم، و أخلص نية كما فى قوله: فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ «۱». و قد تقدّم بيان الجهاد بالأموال، و الأنفس، ثم ذكر منافع الجهاد فقال:

وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ و هى: جمع خير، فيشمل منافع الدنيا و الدين؛ و قيل المراد به: النساء الحسان كقوله تعالى: فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ «۲» و مفردة خيرة بالتشديد، ثم خففت مثل هينة و هينة. و قد تقدّم معنى الفلاح، و المراد به هنا: الفائزون بالمطلوب، و تكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم، و تعظيم أمرهم، و الجنات: البساتين. و قد تقدم بيان جرى الأنهار من تحتها، و بيان الخلود و الفوز، و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى ما تقدّم من الخيرات و الفلاح، و إعداد الجنّات الموصوفة بتلك الصفة؛ و وصف الفوز بكونه عظيما؛ يدلّ على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز.

و قد أخرج القرطبى فى تفسيره عن الحسن أنه قال الخيرات: هنّ النّساء الحسان.

[سورة التوبة (٩): آية ٩٠]

وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٩٠)

قرأ الأعرج و الضّحّاك: الْمُعَذِّرُونَ بالتّخفيف، من أعذر، و رواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم، و رواها أصحاب القراءات عن ابن عباس. قال فى الصحاح: و كان ابن عباس يقرأ وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مخففة من أعذر. و يقول: و اللّه هكذا أنزلت. قال النحاس: إلا أن مدارها على الكلبى، و هى من أعذر: إذا بالغ فى العذر، و منه «من أنذر فقد أعذر» أى: بالغ فى العذر. و قرأ الجمهور الْمُعَذِّرُونَ بالتشديد ففيه وجهان، أحدهما أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء فى الذال، و هم الذين لهم عذر، و منه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السّلام عليكماو من يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا: هم المحقّون فى اعتذارهم. و قد روى هذا عن الفرّاء، و الزّجّاج، و ابن الأنبارى؛ و قيل: هو من عذّر، و هو الذى يعتذر و لا عذر له، يقال: عذر فى الأمر: إذا قصر و اعتذر بما ليس بعذر، ذكره الجوهرى، و صاحب الكشاف؛ فالمعذرون على هذا: هم المبطلون، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها. و روى عن الأخفش، و الفراء، و أبى حاتم، و أبى عبيد، أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين و ضمها للاتباع. و المعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالتخلف عن الغزو، و طائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر،

---

(١). الأنعام: ٨٩.

(٢). الرحمن: ٧٠.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ۴۴۶

و هم منافقو الأعراب الذين كذبوا اللّه و رسوله، و لم يؤمنوا، و لا صدّقوا، ثم توعدهم اللّه سبحانه، فقال:

سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أى: من الأعراب، و هم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، و الذين لم يعتذروا، بل كذبوا باللّه و رسوله عَذابٌ أَلِيمٌ أى: كثير الألم؛ فيصدق على عذاب الدنيا و عذاب الآخرة.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ أى: أهل العذر منهم. و روى ابن أبى حاتم عنه نحو ذلك. و أخرج ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد عنه أيضا أنه كان يقول:

«لعن اللّه المعذرين» و يقرأ بالتشديد، كأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد: هو المظهر للعذر اعتلالا من غير حقيقة. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن إسحاق فى قوله: وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ قال: ذكر لى أنهم نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا، منهم خفاف بن إيماء، و قيل:

هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا و مواشينا.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩١ الى ٩٣]

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)

لما ذكر سبحانه «المعذّرون»؛ ذكر بعدهم أهل الأعذار الصّحيحة المسقطة للغزو، و بدأ بالعذر فى أصل الخلقة، فقال: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ و هم أرباب الزمانة، و الهرم، و العمى، و العرج، و نحو ذلك، ثم ذكر العذر العارض فقال: وَ لا عَلَى الْمَرْضى و المراد بالمرض: كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا؛ و قيل: إنه يدخل فى المرض: الأعمى، و الأعرج، و نحوهما. ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال: وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ أى: ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج؛ و أبان أن الجهاد مع هذه الأعذار ساقط عنهم، غير واجب عليهم، مقيدا بقوله: إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ و أصل النصح: إخلاص العمل من الغش، و منه التوبة النصوح. قال نفطويه: نصح الشىء: إذا خلص، و نصح له القول: أى: أخلصه له، و النصح للّه:

الإيمان به و العمل بشريعته، و ترك ما يخالفها كائنا ما كان، و يدخل تحته دخولا أوّليا نصح عباده، و محبة المجاهدين فى سبيله، و بذل النصيحة لهم فى أمر الجهاد، و ترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه؛ و نصيحة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم: التصديق بنبوته، و بما جاء به، و طاعته فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه، و موالاة من والاه، و معاداة من عاداه، و محبته، و تعظيم سنته، و إحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة. و قد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الدّين النّصيحة- ثلاثا-، قالوا: لمن؟ قال: للّه، و لكتابه،

و لرسوله، و لأئمة المسلمين، و عامتهم»، و جملة ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ مقرّرة لمضمون ما سبق، أى: ليس على المعذورين الناصحين من سبيل، أى: طريق عقاب و مؤاخذة، و من: مزيدة للتأكيد، و على هذا فيكون لفظ الْمُحْسِنِينَ موضوعا فى موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا، أو يكون المراد:

ما على جنس المحسنين من سبيل، و هؤلاء المذكورين سابقا من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية، و جملة وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ تذييلية، و فى معنى هذه الآية قوله تعالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها، و قوله:

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ «١»، و إسقاط التّكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم؛ الذى عذرهم اللّه عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه، و منه حديث أنس عند أبى داود و أحمد، و أصله فى الصحيحين: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لقد تركتم بعدكم قوما؛ ما سرتم من مسير؛ و لا أنفقتم من نفقة؛ و لا قطعتم واديا؛ إلا و هم معكم فيه»، قالوا:

يا رسول اللّه! و كيف يكونون معنا و هم بالمدينة؟ فقال: حبسهم العذر». و أخرجه أحمد و مسلم من حديث جابر، ثم ذكر اللّه سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ و العطف على جملة ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ أى: و لا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل، و يجوز أن تكون عطفا على الضعفاء، أى: و لا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره حرج.

و المعنى: أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه فى الغزو؛ فلم تجد ذلك الذى طلبوه منك. قيل: و جملة لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ فى محل نصب على الحال من الكاف فى أتوك بإضمار قد، أى: إذا ما أتوك قائلا

لا أجد؛ و قيل: هى بدل من أتوك؛ و قيل: جملة معترضة بين الشرط و الجزاء، و الأوّل أولى. و قوله: تَوَلَّوْا جواب إذا، و جملة وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ فى محل نصب على الحال، أى: تولوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه حال كونهم باكين، و حَزَناً منصوب على المصدرية، أو على العلية، أو الحالية، و أَلَّا يَجِدُوا مفعول له، و ناصبه حَزَناً، و قال الفرّاء: أن لا بمعنى ليس؛ أى حزنا أن ليس يجدوا؛ و قيل المعنى: حزنا على أن لا يجدوا؛ و قيل المعنى:

حزنا أنهم لا يجدون ما ينفقون لا عند أنفسهم و لا عندك. ثم ذكر اللّه سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال: إِنَّمَا السَّبِيلُ أى: طريق العقوبة و المؤاخذة عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ فى التخلف عن الغزو، وَ الحال أن هُمْ أَغْنِياءُ أى: يجدون ما يحملهم و ما يتجهزون به، و جملة رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ مستأنفة، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا و هم أغنياء؟ و قد تقدّم تفسير الخوالف قريبا. و جملة وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ معطوفة على رَضُوا أى: سبب الاستئذان مع الغنى أمران: أحدهما: الرضا بالصفقة الخاسرة، و هى أن يكونوا مع الخوالف و الثانى: الطبع من اللّه على قلوبهم فَهُمْ بسبب هذا الطبع لا يَعْلَمُونَ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و الدار قطنى فى الإفراد و ابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت براءة، فكنت أكتب ما أنزل عليه، فإنى لواضع القلم عن أذنى إذ أمرنا بالقتال، فجعل

---

(١). النور: ٦١.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بى يا رسول اللّه و أنا أعمى؟ فنزلت لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: أنزلت هذه الآية فى عابد بن عمر المزنى. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: نزل من عند قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ إلى قوله: ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فى المنافقين. و أخرج أبو الشيخ عن الضّحّاك فى قوله: ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ قال: ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا اللّه و رسوله، و لم يطيقوا الجهاد، فعذرهم اللّه، و جعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين، أ لم تسمع أن اللّه يقول: لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ «١» فجعل اللّه للذين عذر من الضعفاء، و أولى الضرر، و الذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ قال: وَ اللَّهُ لأهل الإساءة غَفُورٌ رَحِيمٌ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ الآية، قال: أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد اللّه بن مغفل المزنى، فقالوا: يا رسول اللّه! احملنا، فقال: و اللّه ما أجد ما أحملكم عليه، فتولوا و لهم بكاء، و عزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، و لا يجدون نفقة، و لا محملا، فأنزل اللّه عذرهم وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ الآية. و أخرج ابن سعد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عبد اللّه بن مغفل قال: إنى لا أجد الرّهط الذين ذكر اللّه وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ الآية. و أخرج ابن جرير عن محمد ابن كعب قال: هم سبعة نفر: من بنى عمر بن عوف: سالم بن عمير، و من بنى واقف: حرميّ بن عمرو، و من بنى مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، و من بنى المعلى: سلمان بن صخر، و من بنى حارثة: عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة، و من بنى سلمة:

عمرو بن غنمة، و عبد اللّه بن عمرو المزنى. و قد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة. و اختلفوا فى البعض، و لا يأتى التطويل فى ذلك بكثير فائدة، و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الزهرى و يزيد بن رومان و عبد اللّه بن أبى بكر و

عاصم بن عمر بن قتادة و غيرهم أن رجالا من المسلمين أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هم البكّاؤون، و هم سبعة نفر من الأنصار و غيرهم، ثم ذكروا أسماءهم، و فيه: فاستحملوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كانوا أهل حاجة. قال لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن الحسن قال: كان معقل بن يسار من البكّائين الذين قال اللّه: وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ الآية.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك فى قوله: لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ قال: الماء و الزاد. و أخرج ابن المنذر عن علىّ بن صالح قال: حدّثنى مشيخة من جهينة، قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الحملان، فقالوا: ما سألناه إلا الحملان على النّعال. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن إبراهيم ابن أدهم عمن حدّثه فى قوله: وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قال: ما سألوه الدوابّ، ما سألوه إلا النّعال. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح فى الآية قال: استحملوه النّعال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ قال: هى و ما بعدها إلى

---

(١). النساء: ٩٥.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ۴۴۹

قوله: فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ فى المنافقين.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩۴ الى ٩٩]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٩۶) الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

قوله: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إخبار من اللّه سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو، و هذا كلام مستأنف، و إنما قال: إِلَيْهِمْ أى: إلى المعتذرين بالباطل، و لم يقل: إلى المدينة، لأنّ مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة، و ربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها، ثم أخبر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بما يجيب به عليهم، فقال: قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ فنهاهم أوّلا عن الاعتذار بالباطل، ثم علله بقوله لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ أى: لن نصدّقكم، كأنهم ادّعوا أنهم صادقون فى اعتذارهم، لأن غرض المعتذر أن يصدّق فيما يعتذر به، فإذا عرف أنه لا يصدّق ترك الاعتذار، و جملة قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ تعليلية للتى قبلها، أى: لا يقع منا تصديق لكم لأن اللّه قد أعلمنا بالوحى ما هو مناف لصدق اعتذاركم، و إنما خصّ الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم بالجواب عليهم، فقال: قُلْ لا تَعْتَذِرُوا مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم رأسهم، و المتولى لما يرد عليهم من جهة الغير، و يحتمل أن يكون المراد بالضمير فى قوله: إِلَيْكُمْ هو الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم على التأويل المشهور فى مثل هذا. قوله: وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ أى: ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد، هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشرّ، أم تبقون عليه؟. قوله: وَ رَسُولُهُ معطوف على الاسم الشريف، و وسط

مفعول الرؤية إيذانا بأن رؤية اللّه سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شرّ هى التى يدور عليها الإثابة أو العقوبة، و فى جملة:
ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ إلى آخرها: تخويف شديد، لما هى مشتملة عليه من التهديد، و لا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شىء يقع منهم مما يكتمونه و يتظاهرون به، و إخباره لهم به و مجازاتهم عليه، ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة؛ بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو، و غرضهم من هذا التأكيد: هو أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم، و لا يؤاخذونهم بالتخلف، و يظهرون الرضا عنهم، كما يفيده ذكر الرضا من بعد،

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٥٠

فتح القدير ج٢ ٤٩٩

و حذف المحلوف عليه: لكون الكلام يدلّ عليه، و هو اعتذارهم الباطل، و أمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد: به تركهم و المهاجرة لهم، لا الرضا عنهم و الصفح عن ذنوبهم، كما تفيده جملة إِنَّهُمْ رِجْسٌ الواقعة علّة للأمر بالإعراض. و المعنى: أنهم فى أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة، فكأنها قد صيّرت ذواتهم رجسا، أو أنهم ذوو رجس، أى: ذوو أعمال قبيحة، و مثله إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ و هؤلاء لما كانوا هكذا؛ كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير، و التحذير من الشرّ، فليس لهم إلا الترك، و قوله وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ من تمام التعليل؛ فإن من كان من أهل النار لا يجدى فيه الدعاء إلى الخير، و المأوى:
كل مكان يأوى إليه الشىء ليلا أو نهارا. و قد أوى فلان إلى منزله يأوى أويا و إيواء، و جَزاءً منصوب على المصدرية، أو على العلية، و الباء فى بِما كانُوا يَكْسِبُونَ للسببية، و جملة يَحْلِفُونَ لَكُمْ بدل مما تقدّم. و حذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق، و المحلوف عليه لمثل ما تقدّم، و بين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ و إذا كان هذا هو ما يريده اللّه سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغى لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم، على أنّ رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتدّ به، و لا مفيد لهم، و المقصود من إخبار اللّه سبحانه بعدم رضاه عنهم: نهى المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا على من لا يرضى اللّه عليه مما لا يفعله مؤمن. قوله: الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً لما ذكر اللّه سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة؛ ذكر حال من كان خارجا عنها من الأعراب؛ و بيّن أن كفرهم و نفاقهم أشدّ من كفر غيرهم، و من نفاق غيرهم، لأنهم أقسى قلبا، و أغلظ طبعا، و أجفى قولا، و أبعد عن سماع كتب اللّه، و ما جاءت به رسله. و الأعراب: هم من سكن البوادى بخلاف العرب، فإنه عام لهذا النوع من بنى آدم، سواء سكنوا البوادى أو القرى، هكذا قال أهل اللغة، و لهذا قال سيبويه: إن الأعراب صيغة جمع، و ليست بصيغة جمع العرب. قال النيسابورى: قال أهل اللغة: رجل عربى إذا كان نسبه إلى العرب ثابتا، و جمعه عرب كالمجوسىّ و المجوس. و اليهودىّ و اليهود؛ فالأعرابى إذا قيل له يا عربى فرح، و إذا قيل للعربى يا أعرابى غضب، و ذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربى، و من نزل البادية فهو أعرابى، و لهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين و الأنصار أعراب، و إنما هم عرب، قال: قيل إنما سمى العرب عربا لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشئوا بالعرب، و هى من تهامة فنسبوا إلى بلدهم، و كل من يسكن جزيرة العرب و ينطق بلسانهم فهو منهم؛ و قيل: لأن ألسنتهم معربة عما فى ضمائرهم، و لما فى لسانهم من الفصاحة، و البلاغة، انتهى.
وَ أَجْدَرُ معطوف على أشد، و معناه: أخلق، يقال: فلان جدير بكذا، أى: خليق به، و أنت جدير أن تفعل كذا، و الجمع: جدر، أو جديرون. و أصله من جدر الحائط، و هو رفعه بالبناء. و المعنى: أنهم أحق و أخلق ب أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ من الشرائع، و الأحكام، لبعدهم عن مواطن الأنبياء، و ديار التنزيل وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بأحوال مخلوقاته على العموم، و هؤلاء منهم حَكِيمٌ فيما يجازيهم

به من

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۴۵۱

خير و شرّ، قوله: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً هذا تنويع لجنس إلى نوعين، الأوّل: هؤلاء و الثاني: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ و المغرم: الغرامة و الخسران، و هو ثان مفعولى يتّخذ، لأنه بمعنى الجعل، و المعنى: اعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل اللّه غرامة و خسران، و أصل الغرم و الغرامة: ما ينفقه الرجل، و ليس بلازم له فى اعتقاده، و لكنه ينفقه للرياء و التقية؛ و قيل: أصل الغرم اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس. و الدَّوائِرَ جمع دائرة، و هى الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية، و أصلها ما يحيط بالشى‌ء، و دوائر الزمان: نوبه و تصاريفه و دولة، و كأنها لا تستعمل إلا فى المكروه، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ و جعل ما دعا به عليهم مماثلا لما أرادوه بالمسلمين، و السوء بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق. و قرأ أبو عمرو و ابن كثير بضم السين، و هو المكروه. قال الأخفش: أى عليهم دائرة الهزيمة و الشرّ. و قال الفرّاء عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ العذاب و البلاء. قال: و السوء بالفتح مصدر سؤته سوءا و مساءة، و بالضم اسم لا مصدر، و هو كقولك: دائرة البلاء، و المكروه وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولونه عَلِيمٌ بما يضمرونه. قوله: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ هذا النوع الثانى من أنواع الأعراب كما تقدّم، أى: يصدّق بهما وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ أى: يجعل ما ينفقه فى سبيل اللّه قُرُباتٍ و هى جمع قربة، و هى ما يتقرّب به إلى اللّه سبحانه، تقول منه: قرّبت للّه قربانا، و الجمع قرب و قربات. و المعنى: أنه يجعل ما ينفقه سببا لحصول القربات عِنْدَ اللَّهِ وَ سببا ل صَلَواتِ الرَّسُولِ أى لدعوات الرسول لهم، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يدعو للمتصدقين، و منه قوله: وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ و منه قوله «اللهمّ صلّ على آل أبى أوفى» ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقرّبا إلى اللّه مقبول واقع على الوجه الذى أرادوه فقال: أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ فأخبر سبحانه بقبولها خبرا مؤكدا باسمية الجملة، و حرفى التنبيه و التحقيق، و فى هذا من التطييب لخواطرهم، و التطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره؛ مع ما يتضمنه من النعى على من يتخذ ما ينفق مغرما، و التوبيخ له بأبلغ وجه، و الضمير فى إنها راجع إلى «ما» فى ما ينفق، و تأنيثه باعتبار الخبر. و قرأ نافع، فى رواية عنه قُرُبَةٌ بضم الراء، و قرأ الباقون بسكونها تخفيفا، ثم فسر سبحانه القربة بقوله: سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ و السين لتحقيق الوعد.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ قال: أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالا و فى قوله: فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ قال: لما رجع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال للمؤمنين لا تكلموهم، و لا تجالسوهم، فأعرضوا عنهم كما أمر اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ قال: لتجاوزوا عنهم. و أخرج أبو الشيخ عنه فى قوله: الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً قال: من منافقى المدينة وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ يعنى: الفرائض و ما أمر به من الجهاد. و أخرج أبو الشيخ عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أسد و غطفان. و أخرج أحمد، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من سكن

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۴۵۲

البادية جفا، و من اتّبع الصيد غفل، و من أتى السّلطان افتتن». و إسناد أحمد هكذا: حدّثنا عبد الرحمن ابن مهدى، حدّثنا سفيان، عن أبى موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره.

قال فى التقريب: و أبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة، و وهم من قال إنه إسرائيل بن موسى، و قال الترمذى بعد إخراجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثورى. و أخرج أبو داود، و البيهقى من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من بدا جفا، و من اتبع الصّيد غفل، و من أتى أبواب السلطان افتتن، و ما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا

ازداد من اللّه بعدا». و أخرج أبو الشيخ عن الضحّاك فى قوله: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً قال: يعنى بالمغرم: أنه لا يرجو له ثوابا عند اللّه و لا مجازاة، و إنما يعطى ما يعطى من الصدقات كرها وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ الهلكات. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتّقاء على أن يغزوا، و يحاربوا، و يقاتلوا، و يرون نفقاتهم مغرما. و أخرج ابن أبى جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ قال: هم بنو مقرن من مزينة، و هم الذين قال اللّه:
وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ الآية. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معقل قال: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ يعنى استغفار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۶]

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۰۰) وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (۱۰۱) وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۰۲) خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۰۳) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۰۴)
وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵) وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۰۶)
لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين و الأنصار، و بين أن منهم السابقين إلى الهجرة، و أن منهم التابعين لهم. و روى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قرأ: وَ الْأَنْصارِ بالرفع عطفا على وَ السَّابِقُونَ و قرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجرّ. قال الأخفش: الخفض فى الأنصار الوجه،
فتح القدير، ج۲، ص: ۴۵۳
لأن السابقين منهم يدخلون فى قوله وَ السَّابِقُونَ و فى الآية تفضيل السابقين الأوّلين من المهاجرين و الأنصار، و هم الذين صلّوا القبلتين فى قول سعيد بن المسيب و طائفة، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان، و هى بيعة الحديبية فى قول الشعبى، أو أهل بدر فى قول محمد بن كعب و عطاء بن يسار، و لا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها، قال أبو منصور البغدادى: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون، ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية. قوله وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ قرأ عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ محذوف الواو، وصفا للأنصار على قراءته برفع الأنصار، فراجعه فى ذلك زيد بن ثابت، فسأل أبىّ بن كعب؛ فصدّق زيدا؛ فرجع عمر عن القراءة المذكورة، كما رواه أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و معنى الذين اتبعوهم بإحسان:
الذين اتّبعوا السابقين الأوّلين من المهاجرين و الأنصار، و هم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، و ليس المراد بهم: التابعين اصطلاحا، و هم كلّ من أدرك الصحابة و لم يدرك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية، فتكون «من» فى قوله مِنَ الْمُهاجِرِينَ على هذا للتّبعيض، و قيل:

إنها للبيان، فيتناول المدح جميع الصحابة، و يكون المراد بالتابعين: من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة. و قوله: بِإِحْسانٍ قيد للتابعين، أى: و الذين اتبعوهم متلبسين بإحسان فى الأفعال و الأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأوّلين. قوله: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خبر للمتبدأ و ما عطف عليه، و معنى رضاه سبحانه عنهم: أنه قبل طاعاتهم، و تجاوز عنهم، و لم يسخط عليهم وَ رَضُوا عَنْهُ بما أعطاهم من فضله، و مع رضاه عنهم فقد أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ فى الدار الآخرة. و قرأ ابن كثير: تجرى من تحتها الأنهار بزيادة من. و قرأ الباقون بحذفها و النصب على الظرفية، و قد تقدّم تفسير جرى الأنهار من تحت الجنات، و تفسير الخلود و الفوز. قوله: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة و من يقرب منها من الأعراب، و ممّن حولكم: خبر مقدّم، و من الأعراب: بيان، و هو فى محل نصب على الحال، و منافقون هو المبتدأ؛ قيل: و هؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة و مزينة و أشجع و غفار، و جملة وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ معطوفة على الجملة الأولى؛ عطف جملة على جملة. و قيل: إن من أهل المدينة: عطف على الخبر فى الجملة الأولى، فعلى الأول: يكون المبتدأ مقدّرا، أى: و من أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، و على الثانى يكون التقدير: و ممن حولكم من الأعراب و من أهل المدينة منافقون مردوا، و لكون جملة مردوا على النفاق مستأنفة لا محل لها، و أصل مرد و تمرّد: اللين و الملاسة و التجرّد، فكأنهم تجرّدوا للنفاق، و منه غصن أمرد: لا ورق عليه، و فرس أمرد: لا شعر فيه، و غلام أمرد:

لا شعر بوجهه، و أرض مرداء: لا نبات فيها، و صرح ممرّد: مجرّد؛ فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق و ثبتوا عليه و لم ينثنوا عنه. قال ابن زيد: معناه لجوا فيه و أبوا غيره، و جملة لا تَعْلَمُهُمْ مبينة للجملة الأولى، و هى مردوا على النفاق، أى: ثبتوا عليه ثبوتا شديدا، و مهروا فيه، حتى خفى أمرهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فكيف سائر المؤمنين؟ و المراد عدم علمه صلّى اللّه عليه و سلّم بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإنّ للنفاق دلائل لا تخفى

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۵۴

عليه صلّى اللّه عليه و سلّم، و جملة نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ مقرّرة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم فى النفاق و رسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر، و لا يظهر لغير اللّه سبحانه لعلمه بما يخفى و ما تجنه الضمائر و تنطوى عليه السرائر، ثم توعدهم سبحانه فقال: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ قيل: المراد بالمرّتين: عذاب الدنيا بالقتل و السبى، و عذاب الآخرة، و قيل: الفضيحة بانكشاف نفاقهم، و العذاب فى الآخرة؛ و قيل: المصائب فى أموالهم و أولادهم، و عذاب القبر؛ و قيل غير ذلك، مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه. و الظاهر أنّ هذا العذاب المكرّر هو فى الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب، و أنهم يعذبون مرّة بعد مرّة، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة، و هو المراد بقوله: ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ و من قال إن العذاب فى المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال: معنى قوله: ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ أنهم يردّون بعد عذابهم فى النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها؛ أو أنهم يعذبون فى النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار، ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم و لسائر الكفار. ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين و هم المخلطون فى دينهم فقال: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ و هو معطوف على قوله منافقون؛ أى: و ممن حولكم من الأعراب و من أهل المدينة قوم آخرون. و يجوز أن يكون آخرون: مبتدأ، و اعترفوا بذنوبهم: صفته، و خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا: خبره، و المعنى: أن هؤلاء الجماعة تخلّفوا عن الغزو لغير عذر مسوّغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، و لم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا و اعترفوا بالذنب، و رجوا أن يتوب اللّه عليهم. و المراد بالعمل الصالح: ما تقدّم من إسلامهم و قيامهم بشرائع الإسلام و خروجهم إلى الجهاد فى سائر المواطن. و المراد بالعمل السيئ: هو تخلّفهم عن هذه الغزوة، و قد أتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا، و هو الاعتراف به و التوبة عنه. و أصل الاعتراف الإقرار بالشىء، و مجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضى، و العزم على تركه فى الحال و الاستقبال، و قد وقع

منهم ما يفيد هذا، كما سيأتى بيانه إن شاء اللّه. و معنى الخلط: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن و اللبن بالماء؛ و يجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولك بعت الشاة شاة و درهما: أى بدرهم، و فى قوله: عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو أن مقدّمة التوبة و هى الاعتراف قامت مقام التوبة، و حرف الترجى و هو عسى؛ هو فى كلام اللّه سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من اللّه سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: يغفر الذنوب و يتفضل على عباده.

قوله خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً اختلف أهل العلم فى هذه الصدقة المأمور بها؛ فقيل: هى صدقة الفرض، و قيل: هى مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها، لأنهم بعد التوبة عليهم؛ عرضوا أموالهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ فنزلت هذه الآية، و مِنْ للتبعيض على التفسيرين، و الآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة، و الصدقة: مأخوذة من الصدق، إذ هى دليل على صدق مخرجها فى إيمانه. قوله: تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها الضمير فى الفعلين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: تطهركم و تزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم. و قيل: الضمير فى تطهرهم: للصدقة؛ أى: تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم، و الضمير فى تزكيهم: للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أى:

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۵۵

تزكيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة، و الأوّل أولى لما فى الثانى من الاختلاف فى الضميرين فى الفعلين المتعاطفين؛ و على الأوّل: فالفعلان منتصبان على الحال، و على الثانى فالفعل الأوّل صفة لصدقة، و الثانى حال منه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و معنى التطهير: إذهاب ما يتعلّق بهم من أثر الذنوب، و معنى التّزكية: المبالغة فى التطهير. قال الزجّاج:

و الأجود أن تكون المخاطبة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أى: فإنك يا محمد تطهرهم و تزكيهم بها، على القطع و الاستئناف، و يجوز الجزم على جواب الأمر. و المعنى: أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم. و قد قرأ الحسن بجزم تطهرهم.

و على هذه القراءة فيكون وَ تُزَكِّيهِمْ على تقدير مبتدأ؛ أى: و أنت تزكيهم بها. قوله: وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ أى: ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم. قال النحّاس: و حكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصّلاة فى كلام العرب: الدعاء، ثم علّل سبحانه أمره لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالصّلاة على من يأخذ من الصدقة فقال إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ قرأ حفص و حمزة و الكسائى «صلاتك» بالتوحيد. و قرأ الباقون بالجمع، و السكن ما تسكن إليه النفس و تطمئن به. قوله: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ لما تاب اللّه سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا. قال اللّه: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أى غير التّائبين، أو التّائبون قبل أن يتوب اللّه عليهم و يقبل صدقاتهم أَنَّ اللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ لاستغنائه عن طاعة المطيعين، و عدم مبالاته بمعصية العاصين. و قرئ: أ لم تعلموا بالفوقية، و هو إما خطاب للتائبين، أو لجماعة من المؤمنين، و معنى وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ أى: يتقبلها منهم، و فى إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة و لمن فعلها. و قوله: وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ معطوف على قوله: أَنَّ اللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه، أى:

أن هذا شأنه سبحانه. و فى صيغة المبالغة فى التواب و فى الرحيم مع توسيط ضمير الفصل. و التأكيد من التبشير لعباده، و الترغيب لهم، ما لا يخفى. قوله: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ فيه تخويف و تهديد؛ أى: إنّ عملكم لا يخفى على اللّه و لا على رسوله و لا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، و أخلصوا أعمالكم للّه عزّ و جلّ، و فيه أيضا ترغيب و تنشيط، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيرا أو شرّا رغب إلى أعمال الخير، و تجنب أعمال الشرّ، و ما أحسن قول زهير:

و مهما تكن عند امرئ من خليقةو إن خالها تخفى على النّاس تعلم

و المراد بالرؤيـة هنا العلم بما يصـدر منهم من الأعمال، ثم جاء سبحانه بوعيـد شديـد فقال وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: و ستردون بعد الموت إلى اللّه سبحانه الذى يعلم ما تسرّونه، و ما تعلنونه، و ما تخفونه و ما تبدونه، و فى تقديم الغيب على الشهادة؛ إشعار بسعة علمه عزّ و جلّ، و أنه لا يخفى عليه شىء، و يستوى عنده كل معلوم. ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردّهم إليه فقال فَيُنَبِّئُكُمْ أى: يخبركم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا، فيجازى المحسن بإحسانه، و المسىء بإساءته، و يتفضل على من يشاء من عباده.

قوله: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين: الأوّل: المنافقون الذين مردوا على النفاق، و الثانى: التائبون المعترفون بذنوبهم، الثالث: الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال، و هم

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۵۶

المرجون لأمر اللّه، من أرجيته و أرجأته: إذا أخرته، قرأ حمزة و الكسائى و نافع و حفص: مُرْجَوْنَ بالواو من غير همز. و قرأ الباقون: بالهمزة المضمومة بعد الجيم. و المعنى: أنهم مؤخرون فى تلك الحال؛ لا يقطع لهم بالتوبة و لا بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر اللّه سبحانه فى شأنهم إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ إن بقوا على ما هم عليه، و لم يتوبوا وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ إن تابوا توبة صحيحة، و أخلصوا إخلاصا تاما، و الجملة:

فى محل نصب على الحال، و التقدير: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ حال كونهم: إما معذّبين، و إما متوبا عليهم وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بأحوالهم حَكِيمٌ فيما يفعله بهم من خير أو شرّ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و أبو نعيم فى المعرفة عن أبى موسى أنه سئل عن قوله:

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ فقال: هم الذين صلّوا القبلتين جميعا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم عن سعيد بن المسيب مثله. و أخرج ابن المنذر و أبو نعيم عن الحسن و محمد بن سيرين مثله أيضا و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: هم أبو بكر و عمر و علىّ و سلمان و عمار بن ياسر.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى المعرفة عن الشعبى قال:

هم من أدرك بيعة الرضوان. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ قال:

التابعون. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: هم من بقى من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة. و أخرج أبو الشيخ و ابن عساكر عن أبى صخر حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظى: أخبرنى عن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إنما أريد الفتن، قال: إن اللّه قد غفر لجميع أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أوجب لهم الجنة فى كتابه محسنهم و مسيئهم، قلت له: و فى أىّ موضع أوجب اللّه لهم الجنة فى كتابه؟ قال: ألا تقرؤون قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ الآية أوجب لجميع أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الجنة و الرضوان، و شرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم قلت: و ما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتّبعوهم بإحسان. يقول:

يقتدون بهم فى أعمالهم الحسنة، و لا يقتدون بهم فى غير ذلك. قال أبو صخر: فو اللّه لكأنى لم أقرأها قبل ذلك، و ما عرفت تفسيرها حتى قرأها علىّ ابن كعب. و أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعى قال: حدّثنى يحيى بن أبى كثير و القاسم و مكحول و عبدة بن أبى لبابة و حسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقولون لما أنزلت هذه الآية: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ إلى قوله: وَ رَضُوا عَنْهُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هذا لأمتى كلّهم، و ليس بعد الرّضا سخط». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ الآية، قال:

قـام رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يوم جمعـة خطيبـا، فقـال: «قم يـا فلاـن؛ فـاخرج فإنک منافق، اخرج يا فلان؛ فإنک منافق، فأخرجهم بأسـمائهم ففضـحهم»، و لم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلک الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر و هم يخرجون من المسـجد فاختبأ منهم اسـتحياء أنه لم يشـهد الجمعـة، و ظن الناس قد انصـرفوا، و اختبئوا هم من عمر، و ظنّوا أنه قد علم بأمرهم، فـدخل عمر المسـجد فـإذا النـاس لم ينصـرفوا، فقال له رجل: أبشـر يا عمر فقـد فضـح اللّه المنافقين اليوم، فهو العـذاب الأوّل، و العذاب الثانى: عذاب القبر.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۵۷

و أخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ قال: جهينة و مزينة و أشجع و أسلم و غفار. و أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن زيـد فى قوله: مَرَدُوا عَلَى النِّفـاقِ قال: أقاموا عليه و لم يتوبوا كما تاب آخرون. و أخرج ابن المنـذر عن ابن جريج فى الآيـة قال: ماتوا عليه: عبد اللّه بن أبىّ، و أبو عامر الراهب، و الجدّ ابن قيس. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهـد فى قوله سَـنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ قال: بالجوع و القتل. و أخرج ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن أبى مالک قال: بالجوع و عذاب القبر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن قتادة قال: عذاب فى القبر، و عذاب فى النار.

و قد روى عن جماعة من السـلف نحو هذا فى تعيين العذابين، و الظاهر ما قدّمنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الـدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً قال: كانوا عشـرة رهط تخلفوا عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى غزوة تبوک، فلما حضر رجوع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أوثق سبعة منهم أنفسـهم بسوارى المسـجد، و كان ممرّ النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم إذا رجع عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة و أصحاب له تخلفوا عنک يا رسول اللّه حتى تطلقهم و تعذرهم، قال: و أنا أقسم باللّه لا أطلقهم و لا أعذرهم حتى يكون اللّه هو الذى يطلقهم، رغبوا عنى و تخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلک قالوا: و نحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون اللّه هو الذى يطلقنا، فنزلت: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ و عسى من اللّه: واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأطلقهم و عذرهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول اللّه! هذه أموالنا، فتصدق بها عنا، و استغفر لنا، قال: ما أمرت أن آخذ أموالكم، فأنزل اللّه عزّ و جلّ: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ يقول: اسـتغفر لهم إِنَّ صَـلاتَکَ سَـكَنٌ لَهُمْ يقول: رحمة لهم، فأخذ منهم الصدقة و اسـتغفر لهم، و كانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسـهم بالسوارى فأرجئوا سـنة لا يدرون أ يعذبون أو يتاب عليهم؟

فأنزل اللّه عزّ و جلّ: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِ إلى قوله وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا إلى قوله ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يعنى: إن اسـتقاموا. و أخرج أبو الشـيخ عن الضّـحّاک مثله سواء. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الـدلائل، عن مجاهـد فى قوله اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ قال: هو أبو لبابـة إذ قال لقريظـة ما قال، و أشار إلى حلقه بأن محمـدا يذبحكم إن نزلتم على حكمه، و القصة مذكورة فى كتب السـير. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً قال: غزوهم مع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم وَ آخَرَ سَيِّئاً قال: تخلفهم عنه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ قال: اسـتغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوها إِنَّ صَـلاتَکَ سَكَنٌ لَهُمْ قال: رحمة لهم. و أخرج البخارى و مسـلم و غيرهما عن عبد اللّه بن أبى أوفى قال: كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم إذا أتى بصدقة قال: «اللهم صلّ على آل فلان، فأتاه أبى بصدقته فقال: اللهم صلّ على آل أبى أوفى». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ قال: هذا وعيد من اللّه عزّ و جلّ. و أخرج أحمد و أبو يعلى و ابن حبّان و الحاكم، و البيهقى

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۵۸

فى الشعب، و ابن أبى الدنيا، و الضياء فى المختارة، عن أبى سعيد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو أنّ أحدكم يعمل فى صخرة صمّاء ليس لها باب و لا كوّة، لأخرج اللّه عمله للناس كائنا ما كان». و أخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ قال: هم الثلاثة الذى خلّفوا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: هم هلال بن أمية و مرارة بن الربيع و كعب بن مالك من الأوس و الخزرج. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ يقول: يميتهم على معصية وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ فأرجأ أمرهم، ثم نسخها فقال: وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

لما ذكر اللّه أصناف المنافقين و بيّن طرائقهم المختلفة عطف على ما سبق هذه الطّائفة منهم، و هم الذين اتّخذوا مسجدا ضرارا، فيكون التقدير: و منهم الذين اتخذوا على أن الذين مبتدأ، و خبره منهم محذوف، و الجملة معطوفة على ما تقدّمها، و يجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على الذمّ. و قرأ المدنيون و ابن عامر: الَّذِينَ اتَّخَذُوا بغير واو، فتكون قصة مستقلة، الموصول مبتدأ، و خبره لا تَقُمْ قاله الكسائى. و قال النحاس: إن الخبر هو لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا و قيل: الخبر محذوف، و التقدير: يعذبون، و سيأتى بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار، و ضِراراً منصوب على المصدرية، أو على العلية وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً معطوفة على ضِراراً. فقد أخبر اللّه سبحانه: أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة: الأوّل: الضّرار لغيرهم، و هو المضاررة. الثانى: الكفر باللّه و المباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق. الثالث: التّفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقلّ جماعة المسلمين، و فى ذلك من اختلاف الكلمة و بطلان الألفة ما لا يخفى. الرابع: الإرصاد لمن حارب اللّه و رسوله، أى: الإعداد لأجل من حارب اللّه و رسوله. قال الزّجّاج: الإرصاد: الانتظار. و قال ابن قتيبة: الإرصاد الانتظار مع العداوة. و قال الأكثرون: هو الإعداد، و المعنى متقارب؛ يقال: أرصدت لكذا: إذا أعددته مرتقبا له به. و قال أبو زيد: يقال: رصدته و أرصدته فى الخير، و أرصدت له فى الشرّ.

و قال ابن الأعرابى: لا يقال إلا أرصدت، و معناه: ارتقبت، و المراد بمن حارب اللّه و رسوله: المنافقون، و منهم أبو عامر الراهب، أى: أعدّوه لهؤلاء، و ارتقبوا به وصولهم، و انتظروهم ليصلوا فيه، حتى يباهوا بهم المؤمنين، و قوله: مِنْ قَبْلُ متعلق باتخذوا، أى: اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء و يبنوا مسجد

الضرار، أو متعلق بحارب، أى: لمن وقع منه الحرب للّه و لرسوله من قبل بناء مسجد الضرار. قوله:

وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى أى: ما أردنا إلّا الخصلة الحسنى، و هى الرفق بالمسلمين، فردّ اللّه عليهم بقوله: وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما حلفوا عليه، ثم نهى اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم عن الصلاة فى مسجد الضرار، فقال: لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً أى: فى وقت من الأوقات، و النهى عن القيام فيه يستلزم النهى عن الصلاة فيه. و قد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال: فلان يقوم الليل، أى: يصلى، و منه الحديث الصحيح:

«من قام رمضان إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه». ثم ذكر اللّه سبحانه علّة النهى عن القيام فيه بقوله: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ و اللام فى: لَمَسْجِدٌ لام القسم، و قيل: لام الابتداء، و فى ذلك تأكيد لمضمون الجملة، و تأسيس البناء: تثبيته و رفعه. و معنى تأسيسه على التقوى: تأسيسه على الخصال التى تتقى بها العقوبة.

و اختلف العلماء فى المسجد الذى أسّس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس و الضّحّاك و الحسن و الشعبى و غيرهم. و ذهب آخرون إلى أنه مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و الأول أرجح لما سيأتى قريبا إن شاء اللّه، و مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ متعلق بأسس، أى: أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه، قال بعض النحاة: إن مِنْ هنا بمعنى منذ، أى: منذ أوّل يوم ابتدئ ببنائه، و قوله أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ خبر المبتدأ. و المعنى: لو كان القيام فى غيره جائزا لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة و لذكر اللّه، لكونه أسس على التقوى من أوّل يوم، و لكون فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا و هذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه صلّى اللّه عليه و سلّم فيه، أى: كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحالّ فيه، و يجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا، و يجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد. و معنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه و يحرصون عليه عند عروض موجبه؛ و قيل:

معناه: يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة و الاستغفار. و الأوّل أولى. و قيل: يحبّون أن يتطهّروا بالحمّى المطهرة من الذنوب فحمّوا جميعا، و هذا ضعيف جدّا. و معنى محبة اللّه لهم: الرضا عنهم، و الإحسان إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه. ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيدا، فقال: أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ و الهمزة للإنكار التقريرى، و البنيان: مصدر كالعمران، و أريد به: المبنىّ، و الجملة مستأنفة. و المعنى: أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة، و هى تقوى اللّه و رضوانه؛ خير ممن أسس دينه على ضد ذلك، و هو الباطل و النفاق، و الموصول: مبتدأ، و خبره: خير، و قرئ: أَسَّسَ بُنْيانَهُ على بناء الفعل للفاعل، و نصب بنيانه، و اختار هذه القراءة أبو عبيدة، و قرئ: على البناء للمجهول، و قرئ: أساس بنيانه بإضافة أساس إلى بنيانه؛ و قرئ: أسّ بنيانه و المراد: أصول البناء. و حكى أبو حاتم قراءة أخرى، و هى آساس بنيانه على الجمع، و منه:

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العبّاس

و الشّفا: الشفير، و الجرف: ما يتجرّف بالسيول، و هى الجوانب التى تنجرف بالماء، و الاجتراف:

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۶۰

اقتلاع الشيء من أصله، و قرئ: بضم الراء من جرف، و بإسكانها. و الهار: السّاقط، يقال هار البناء:

إذا سقط، و أصله هائر، كما قالوا: شاك السلاح و شائك، كذا قال الزجّاج. و قال أبو حاتم: إن أصله هاور.

قال فى شمس العلوم: الجرف ما جرف السيل أصله، و أشرف أعلاه، فإن انصدع أعلاه فهو الهار اه. جعل اللّه سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحلّ بسرعة، ثم قال: فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ و فاعل فانهار ضمير يعود إلى الجرف، أى: فانهار الجرف بالبنيان فى النار، و يجوز أن يكون الضمير فى بِهِ يعود إلى من، و هو البانى. و المعنى: أنه طاح الباطل بالبناء، أو البانى فى نار جهنم، و جاء بالانهيار الذى هو للجرف ترشيحا للمجاز، و سبحان اللّه ما أبلغ هذا الكلام، و أقوى تراكيبه، و أوقع معناه، و أفصح مبناه.

ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم، و استمرار تردّدهم، و شكهم، فقال: لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ أى: شكا فى قلوبهم و نفاقا، و منه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو ليس وراء اللّه للمرء مذهب

و قيل معنى الريبة: الحسرة و الندامة، لأنهم ندموا على بنيانه. و قال المبرد: أى حزازة و غيظا. و قد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد

الضرار منافقين شاكين فى دينهم، و لكنهم ازدادوا بهدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم له نفاقا و تصميما على الكفر، و مقتا للإسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد و الغضب العظيم بهدمه، ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على استمرار هذه الريبة و دوامها، و هو قوله: إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ أى: لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعا، و تتفرّق أجزاء، إما بالموت أو بالسيف، و المقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، و يجوز أن يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة. و قيل: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما و أسفا على تفريطهم. و قرأ ابن عامر و حمزة و حفص و يعقوب و أبو جعفر بفتح حرف المضارعة. و قرأ الجمهور بضمها. و روى عن يعقوب أنه قرأ تقطع بالتخفيف، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم. و قرأ أصحاب عبد اللّه بن مسعود و لو تقطعت قلوبهم. و قرأ الحسن و يعقوب و أبو حاتم إلى أن تقطع على الغاية. أى: لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله:

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً قال: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا، فقال لهم أبو عامر الراهب: ابنوا مسجدكم، و استمدوا بما استطعتم من قوة و سلاح؛ فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتى بجند من الروم، فأخرج محمدا و أصحابه؛ فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلى فيه و تدعو بالبركة، فأنزل اللّه لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: لما بنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جدّ عبد اللّه بن حنيف و وديعة بن حزام و مجمع بن جارية الأنصارى فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لبجدح: ويلك يا بجدح ما أردت إلى ما أرى؟!، فقال: يا رسول اللّه و اللّه ما أردت إلا الحسنى- و هو كاذب- فصدّقه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أراد أن يعذره، فأنزل اللّه تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً

وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يعنى: رجلا يقال له أبو عامر كان محاربا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كان قد انطلق إلى هرقل، و كانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلّى فيه، و كان قد خرج من المدينة محاربا للّه و لرسوله. و أخرج ابن إسحاق و ابن مردويه عنه أيضا قال: دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مالك بن الدخشم، فقال مالك لعاصم: أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد و فيه أهله فحرقوه و هدموه، و خرج أهله فتفرّقوا عنه، فأنزل اللّه هذه الآية. و لعل فى هذه الرواية حذفا بين قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: دعا رسول اللّه مالك بن الدخشم و بين قوله فقال مالك لعاصم، و يبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق و ابن مردويه عن أبى رهم كلثوم بن الحصين الغفارى، و كان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال: أقبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزل بذى أوان:

بلد بينه و بين المدينة ساعة من نهار، و كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه و هو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول اللّه! إنا بنينا مسجدا لذى العلة و الحاجة و الليلة الشاتية و الليلة المطيرة، و إنا نحبّ أن تأتينا فتصلى لنا فيه؛ قال: إنى على جناح سفر، و لو قدمنا إن شاء اللّه أتيناكم فصلينا لكم فيه؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مالك بن الدخشم- أخا بنى سالم بن عوف- و معن ابن عدىّ، و أخاه عاصم بن عدىّ أحد بنى العجلان، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدماه و حرّقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف، و هم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن:

أنظرنى حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشتدان، و فيه أهله فحرقاه و هدماه و

تفرقوا عنه، و نزل فيهم من القرآن ما نزل: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً إلى آخر القصّة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم إنّ الذين بنوا مسجد الضّرار كانوا اثنى عشر رجلا، و ذكرا أسماءهم. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و مسلم و الترمذى و النسائى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن خزيمة و ابن حبان و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، عن أبى سعيد الخدرى قال: اختلف رجلان: رجل من بنى خدرة، و فى لفظ: تماريت أنا و رجل من بنى عمرو ابن عوف فى المسجد الذى أسّس على التقوى، فقال الخدرى: هو مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال العمرى: هو مسجد قباء، فأتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال: «فى ذلك خير كثير» يعنى مسجد قباء. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و الزبير بن بكار فى أخبار المدينة، و أبو يعلى و ابن حبّان و الطبرانى، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه عن سهل بن سعد السّاعدى نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه و الخطيب و الضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب قال: «سألت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن المسجد الذى أسس على التقوى قال:

هو مسجدى هذا». و أخرج الطبرانى، و الضياء المقدسى فى المختارة، عن زيد بن ثابت مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن مردويه و الطبرانى من طريق عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال: المسجد الذى أسّس على التقوى من أوّل يوم مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. قال عروة: مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خير منه، إنما أنزلت فى مسجد

قباء. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن مردويه عن ابن عمر قال: المسجد الذى أسّس على التقوى: مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج المذكوران عن أبى سعيد الخدرى مثله. و قد روى عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن عباس: أنه مسجد قباء. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله. و لا يخفاك أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد عين هذا المسجد الذى أسّس على التقوى، و جزم بأنه مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم كما قدّمنا من الأحاديث الصّحيحة، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة و لا جماعة منهم و لا غيرهم و لا يصحّ لإيراده فى مقابلة ما قد صحّ عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا فائدة فى إيراد ما ورد فى فضل الصّلاة فى مسجد قباء، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذى أسس على التقوى، على أن ما ورد فى فضائل مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم أكثر مما ورد فى فضل مسجد قباء بلا شك و لا شبهة تعمّ. و أخرج أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: نزلت هذه الآية فى أهل قباء فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا قال: و كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية، و فى إسناده يونس بن الحارث، و هو ضعيف. و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية:

فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى عويم بن ساعدة فقال: ما هذا الطهور الذى أثنى اللّه عليكم؟ فقالوا: يا رسول اللّه! ما خرج من رجل و لا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال:

مقعدته، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «هو هذا». و أخرج أحمد و ابن خزيمة و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عن عويم ابن ساعدة الأنصارى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أتاهم فى مسجد قباء فقال: «إن اللّه قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذى تتطهّرون به؟ قالوا: و اللّه يا رسول اللّه ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا»، رواه أحمد عن حسن ابن محمد. حدّثنا أبو أويس حدّثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة فذكره. و قد أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه.

و أخرج ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الجارود فى المنتقى، و الدارقطنى و الحاكم و ابن مردويه و ابن عساكر عن طلحة بن نافع قال: حدّثنى أبو أيوب و جابر بن عبد اللّه و أنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا معشر الأنصار إن اللّه قد أثنى عليكم خيرا فى الطهور، فما طهوركم هذا؟ قالوا: نتوضأ للصّلاة و نغتسل من الجنابة، قال: فهل مع ذلك غيره؟

قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجى بالماء، قال: هو ذاك فعليكموه». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير، و البغوى فى معجمه، و الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن محمد بن عبد اللّه بن سلام عن أبيه قال: لما أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد الذى أسّس على التقوى مسجد قباء فقال: «إن اللّه قد أثنى عليكم فى الطهور خيرا أ فلا تخبرونى؟ يعنى قوله تعالى: فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ فقالوا: يا رسول اللّه! إنا لنجده مكتوبا علينا فى التوراة الاستنجاء بالماء، و نحن نفعله اليوم». و إسناد أحمد فى هذا الحديث هكذا: حدّثنا يحيى بن آدم حدّثنى مالك يعنى ابن مغول سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد اللّه بن سلام. و قد روى عن

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۶۳

جماعة من التابعين فى ذكر سبب نزول الآية نحو هذا. و لا يخفاك أنّ بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء و أهله، و بعضها ضعيف، و بعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء، و على كل حال لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى صحتها و صراحتها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ قال: يعنى قواعده فى نار جهنّم. و أخرج مسدد فى مسنده و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار، حيث انهار على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن المنذر، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن عباس فى قوله: لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ قال: يعنى: الشك إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ يعنى: الموت.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن حبيب بن أبى ثابت. فى قوله رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ قال: غيظا فى قلوبهم إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ قال: إلى أن يموتوا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ قال: إلا أن يتوبوا.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۱) التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۲)

لما شرح فضائح المنافقين و قبائحهم بسبب تخلّفهم عن غزوة تبوك، و ذكر أقسامهم، و فرّع على كلّ قسم منها ما هو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد و الترغيب فيه، و ذكر الشراء تمثيل كما فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى «۱» مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم و أموالهم فى سبيل اللّه بالشراء، و أصل الشراء بين العباد: هو إخراج الشىء عن الملك بشىء آخر، مثله أو دونه، أو أنفع منه، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من اللّه بالجنة التى أعدها للمؤمنين، أى: بأن يكونوا من جملة أهل الجنة، و ممن يسكنها، فقد جادوا بأنفسهم، و هى أنفس الأعلاق «۲»، و الجود بها غاية الجود:

يجود بالنفس إن ضنّ الجبان بهاو الجود بالنفس أقصى غاية الجود

و جاد اللّه عليهم بالجنة، و هى أعظم ما يطلبه العباد، و يتوسلون إليه بالأعمال؛ و المراد بالأنفس هنا: أنفس المجاهدين، و بالأموال: ما ينفقونه فى الجهاد. قوله: يُقاتِلُونَ فِی سَبِيلِ اللَّهِ بيان للبيع يقتضيه

(١). البقرة: ١۶.

(٢). قال فى القاموس: العلق: النفيس من كل شىء، ج أعلاق، و علوق.

فتح القدير، ج٢، ص: ۴۶۴

الاشتراء المذكور، كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم و أموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون فى سبيل اللّه، ثم بين هذه المقاتلة فى سبيل اللّه بقوله: فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ و المراد: أنهم يقدمون على قتل الكفار فى الحرب، و يبذلون أنفسهم فى ذلك، فإن فعلوا فقد استحقّوا الجنة، و إن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء فى الجهاد و التعرّض للموت بالإقدام على الكفار. قرأ الأعمش و النّخعى و حمزة و الكسائى و خلف: بتقديم المبنىّ للمفعول على المبنىّ للفاعل. و قرأ الباقون بتقديم المبنى للفاعل على المبنى للمفعول. و قوله: وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ إخبار من اللّه سبحانه: أن فريضة الجهاد استحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من اللّه فى التوراة و الإنجيل، كما وقع فى القرآن، و انتصاب وعدا و حقا: على المصدرية، أو الثانى نعت للأوّل، و فى التوراة: متعلّق بمحذوف؛ أى: وعدا ثابتا فيها. قوله: وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فى هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين فى الجهاد، و التنشيط لهم على بذل الأنفس و الأموال ما لا يخفى، فإنه أوّلا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنة، و جاء بهذه العبارة الفخيمة، و هى كون الجنة قد صارت ملكا لهم، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك فى كتبه المنزّلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لا بدّ من حصول الموعود به، فإنه لا أحد أوفى بعهده من اللّه سبحانه، و هو صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سرورا و حبورا، فقال: فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِی بايَعْتُمْ بِهِ أى: أظهروا السرور بذلك، و البشارة: هى إظهار السّرور، و ظهوره يكون فى بشرة الوجه، و لذا يقال: أسارير الوجه، أى: التى يظهر فيها السّرور. و قد تقدّم إيضاح هذا، و الفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله. و المعنى: أظهروا السرور بهذا البيع الذى بايعتم به اللّه عزّ و جلّ فقد ربحتم فيها ربحا لم يربحه أحد من الناس، إلا من فعل مثل فعلكم. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الجنة، أو إلى نفس البيع الذى ربحوا فيه الجنة، و وصف الفوز و هو: الظفر بالمطلوب، بالعظم: يدل على أنه فوز لا فوز مثله. قوله: التَّائِبُونَ خبر مبتدأ محذوف، أى: هم التائبون، يعنى: المؤمنون، و التائب:

الراجع، أى: هم الراجعون إلى طاعة اللّه عن الحالة المخالفة للطاعة. و قال الزجاج: الذى عندى أن قوله:

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ رفع بالابتداء، و خبره مضمر، أى: التائبون و من بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا و إن لم يجاهدوا. قال: و هذا أحسن، إذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين فى قوله: اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لكان الوعد خاصّا بمجاهدين. و قد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج: من أن هذا الكلام منفصل عما قبله، طائفة من المفسرين، و ذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين فى الآية الأولى.

و أنها على جهة الشرط، أى: لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف. و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود: «التّائبين العابدين إلى آخرها» و فيه وجهان: أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين. الثانى: أن النصب على المدح. و قيل: إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير يقاتلون، و جوز صاحب الكشاف: أن يكون التائبون مبتدأ، و خبره العابدون، و ما بعده أخبار كذلك، أى: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال. و فيه من البعد ما لا يخفى، و العابدون: القائمون بما أمروا به من عبادة اللّه مع الإخلاص، و الْحامِدُونَ الذين يحمدون اللّه سبحانه على السراء و الضراء،

و السَّائِحُونَ قيل: هم الصائمون، و إليه ذهب جمهور المفسرين، و منه قوله تعالى: عابِداتٍ سائِحاتٍ و إنما قيل للصائم: سائح، لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح فى الأرض، و منه قول أبى طالب ابن عبد المطلب:

و بالسّائحين لا يذوقون قطرةلربّهم و الذاكرات العوامل

و قال آخر:

برّا يصلّى ليله و نهاره يظلّ كثير الذّكر للّه سائحا

قال الزّجّاج: و مذهب الحسن: أنّ السّائحين هاهنا هم الذين يصومون الفرض؛ و قيل: إنهم الذين يديمون الصيام، و قال عطاء: السّائحون: المجاهدون. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: السائحون المهاجرون. و قال عكرمة: هم الذين يسافرون لطلب الحديث و العلم. و قيل: هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم، و ملكوته، و ما خلق من العبر، و السّياحة فى اللغة أصلها: الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء، و هى مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق، و لما يحصل له من الاعتبار بالتفكر فى مخلوقات اللّه سبحانه، و الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ معناه: المصلون، و الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ القائمون بأمر الناس بما هو معروف فى الشريعة وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ: القائمون بالإنكار على من فعل منكرا، أى:

شيئا ينكره الشرع وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه و على لسان رسله، و إنما أدخل الواو فى الوصفين الآخرين، و هما: وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ إلخ، لأن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه؛ و قيل: إن العطف فى الصفات يجىء بالواو و بغيرها كقوله: غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ «۱»؛ و قيل: إن الواو زائدة؛ و قيل: هى واو الثمانية المعروفة عند النحاة، كما فى قوله تعالى: ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً «۲»، و قوله:

وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها «۳»، و قوله: سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ «۴»، و قد أنكر: و الثمانية، أبو على الفارسى، و ناظره فى ذلك ابن خالويه وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الموصوفين بالصّفات السابقة.

و قد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى و غيره قالوا: «قال عبد اللّه بن رواحة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اشترط لربك و لنفسك ما شئت، قال: أشترط لربى أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا، و أشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم و أموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قال:

ربح البيع لا نقيل و لا نستقيل، فنزلت إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: «أنزلت هذه الآية على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى المسجد:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ فكبر الناس فى المسجد، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال: يا رسول اللّه! أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصارى: بيع ربيح لا نقيل و لا نستقيل». و قد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم اشترط فى بيعة العقبة على من بايعه

---

(۱). غافر: ۳.

(۲). التحريم: ۵.

(۳). الزمر: ۷۳.

(۴). الكهف: ۲۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۶۶

من الأنصار: «أن يشهدوا أن لا إله إلا اللّه و أنه رسول اللّه، و يقيموا الصلاة، و يؤتوا الزكاة، و السّمع و الطّاعة، و لا ينازعوا فى الأمر أهله، و يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم و أهليهم، قالوا: نعم؛ قال قائل الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول اللّه! فما لنا؟ قال: الجنة». و أخرج ابن سعد أيضا من وجه آخر ليس فى قصّة العقبة ما يدلّ على أنها سبب نزول الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس قال:

من مات على هذه التسع فهو فى سبيل اللّه التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ إلى آخر الآية. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الشّهيد من كان فيه التّسع الخصال المذكورة فى هذه الآية. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: العابدون الذين يقيمون الصّلاة. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أول من يدعى إلى الجنّة الحمّادون؛ الذين يحمدون اللّه على السرّاء و الضراء». و أخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال: سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن السائحين فقال: «هم الصّائمون». و أخرج الفريابى و ابن جرير، و البيهقى فى شعب الإيمان، من طريق عبيد بن عمير عن أبى هريرة مرفوعا مثله. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن النجار من طريق أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله. و قد روى عن أبى هريرة موقوفا، و هو أصحّ من المرفوع من طريقه، و حديث عبيد بن عمير مرسل، و قد أسنده من طريق أبى هريرة فى الرواية الثانية. و قد روى من قول جماعة من الصحابة مثل هذا: منهم عائشة عند ابن جرير و ابن المنذر، و منهم ابن عباس عند ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبى الشيخ، و منهم ابن مسعود عند هؤلاء المذكورين قبله.

و روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن أبى أمامة أنّ رجلا استأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى السياحة فقال «إنّ سياحة أمّتى الجهاد فى سبيل اللّه» و صحّحه عبد الحق. و أخرج أبو الشيخ عن الربيع فى هذه الآية قال: هذه أعمال قال فيها أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: إن اللّه قضى على نفسه فى التّوراة و الإنجيل و القرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند اللّه شهيدا، و من مات منهم عليها فقد وجب أجره على اللّه. و أخرج ابن المنذر عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: الشّهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة. قال: و قال ابن عباس: من مات و فيه تسع فهو شهيد. و قرأ هذه الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ يعنى بالجنّة، ثم قال: التَّائِبُونَ إلى قوله: وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ يعنى: القائمين على طاعة اللّه، و هو شرط اشترطه اللّه على أهل الجهاد، و إذا وفوا للّه بشرطه؛ وفى لهم بشرطهم.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۴]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۱۳) وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (۱۱۴)

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۶۷

لما بيّن سبحانه فى أول السورة و ما بعده: أنّ البراءة من المشركين و المنافقين واجبة، بيّن سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدا، و صرّح بأنّ ذلك متحتّم، و لو كانوا أولى قربى، و أنّ القرابة فى مثل هذا الحكم لا تأثير لها. و قد ذكر أهل التفسير: أن ما كانَ* فى القرآن، يأتى على وجهين: الأوّل: على النفى نحو: ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «۱». و الآخر: على معنى النهى، نحو: ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ «۲» و ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ و هذه الآية متضمنة لقطع الموالاة

للكفار، و تحريم الاستغفار لهم، و الدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا، و لا ينافى هذا ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته و شجّوا وجهه: «اللهمّ اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون»، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين، و على فرض أنه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول، فإنه قبل يوم أحد بمدّة طويلة، و سيأتى. فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء، كما فى صحيح مسلم عن عبد اللّه، قال: كأنى أنظر إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه و هو يمسح الدم عن وجهه و يقول: «ربّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». و فى البخارى أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ذكر نبيا قبله شجه قومه، فجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخبر عنه بأنه قال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». قوله: مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهى عن الاستغفار، و المعنى أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، و عدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك، و قد قال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ «٣» فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد اللّه و وعيده. قوله: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ الآية: ذكر اللّه سبحانه السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان لأجل وعد تقدّم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، و لكنه ترك ذلك و تبرّأ منه لما تبيّن له أنه عدوّ للّه، و أنه غير مستحقّ للاستغفار، و هذا يدلّ على أنه إنما وعده قبل أن يتبيّن له أنه من أهل النار، و من أعداء اللّه، فلا حاجة إلى السؤال الذى يورده كثير من المفسرين: أنه كيف خفى ذلك على إبراهيم؟ فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصرّ على الكفر و مات عليه، و هو لم يعلم ذلك إلا بإخبار اللّه سبحانه له بأنه عدوّ اللّه، فإن ثبوت هذه العداوة تدلّ على الكفر، و كذلك لم يعلم نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره اللّه بهذه الآية، و هذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل. و قيل: المراد من استغفار إبراهيم لأبيه: دعاؤه إلى الإسلام. و هو ضعيف جدّا. و قيل: المراد بالاستغفار فى هذه الآية: النهى عن الصلاة على جنائز الكفار، فهو كقوله: وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً «٤» و لا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة و لا ملجئ إلى ذلك، ثم ختم اللّه سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم، فقال: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ و هو كثير التأوّه، كما تدلّ على ذلك صيغة المبالغة.

و قد اختلف أهل العلم فى معنى الأوّاه، فقال ابن مسعود و عبيد بن عمير: إنه الذى يكثر الدعاء. و قال الحسن و قتادة: إنه الرّحيم بعباد اللّه. و روى عن ابن عباس: أنه المؤمن بلغة الحبشة. و قال الكلبى: إنه الذى يذكر اللّه فى الأرض القفر. و روى مثله عن ابن المسيب، و قيل: الذى يكثر الذكر للّه من غير تقييد، روى

---

(١). آل عمران: ١٤٥.

(٢). الأحزاب: ٥٣.

(٣). النساء: ٤٨.

(٤). التوبة: ٨٤.

ذلك عن عقبة بن عامر. و قيل: هو الذى يكثر التلاوة، حكى ذلك عن ابن عباس. و قيل: إنه الفقيه، قاله مجاهد و النخعى، و قيل: المتضرّع الخاضع، روى ذلك عن عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد. و قيل: هو الذى إذا ذكر خطاياه استغفر لها، روى ذلك عن أبى أيوب. و قيل: هو الشفيق، قاله عبد العزيز بن يحيى.

و قيل: إنه المعلم للخير. و قيل: إنه الرّاجع عن كلّ ما يكرهه اللّه، قاله عطاء. و المطابق لمعنى الأوّاه لغة، أن يقال: إنه الذى يكثر التأوّه من ذنوبه، فيقول مثلا: آه من ذنوبى، آه مما أعاقب به بسببها، و نحو ذلك، و به قال الفرّاء، و هو مروىّ عن أبى ذرّ، و

معنى التأوّه: هو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء.

قال فى الصحاح: و قد أوّه الرجل تأويها، و تأوّه تأوّها إذا قال أوّه، و الاسم منه: آهة بالمدّ، قال:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه آهة الرّجل الحزين

و الحليم الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة، و هو: الذى يصفح عن الذنوب، و يصبر على الأذى؛ و قيل: الذى لا يعاقب أحدا قطّ إلا للّه.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عنده أبو جهل و عبد بن أمية، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أى عم! قل: لا إله إلا اللّه أحاج بها عند اللّه، فقال أبو جهل و عبد اللّه بن أمية: يا أبا طالب: أ ترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعرضها عليه، و أبو جهل و عبد اللّه يعاندانه بتلك المقالة، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، و أبى أن يقول لا إله إلا اللّه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لأستغفر لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: ما كانَ لِلنَّبِيِ الآية، و أنزل اللّه فى أبى طالب: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «١». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و النسائى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، و الضياء فى المختارة عن علىّ قال:

سمعت رجلا يستغفر لأبويه و هما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك و هما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت: ما كانَ لِلنَّبِيِ الآية. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر عن علىّ قال: أخبرت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بموت أبى طالب، فبكى، فقال: اذهب فغسله و كفنه و واره غفر اللّه له و رحمه، ففعلت، و جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يستغفر له أياما، و لا يخرج من بيته حتى نزل عليه: ما كانَ لِلنَّبِيِ الآية. و قد روى كون سبب نزول الآية استغفار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى طالب من طرق كثيرة، منها: عن محمد بن كعب عند ابن أبى حاتم و أبى الشيخ و هو مرسل. و منها: عن عمرو بن دينار عند ابن جرير و هو مرسل أيضا. و منها: عن سعيد بن المسيب عند ابن جرير، و هو مرسل أيضا. و منها: عن عمر ابن الخطاب عند ابن سعد و أبى الشيخ و ابن عساكر. و منها: عن الحسن البصرى عند ابن عساكر و هو مرسل.

و روى أنها نزلت بسبب زيارة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لقبر أمه، و استغفاره لها، من طريق ابن عباس عند الطبرانى و ابن مردويه و من طريق ابن مسعود عند ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل، و عن بريدة عند

---

(١). القصص: ٥٦.

ابن مردويه، و ما فى الصحيحين مقدّم على ما لم يكن فيهما على فرض أنه صحيح. فكيف و هو ضعيف غالبه؟

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ إلى قوله: كَما رَبَّيانِي صَغِيراً «١» قال: ثم استثنى فقال: ما كانَ لِلنَّبِيِ إلى قوله: إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ قال: تبين له حين مات و علم أنّ التّوبة قد انقطعت منه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و أبو بكر الشافعى فى فوائده، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبيّن له أنه عدوّ للّه فتبرأ منه. و أخرج ابن مردويه عن جابر: أن رجلا كان يرفع صوته بالذّكر، فقال رجل: لو أنّ هذا خفض صوته، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «دعه فإنه أوّاه». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن عقبة بن عامر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

سلّم قال لرجل يقال له ذو النجادين: «إنه أوّاه»، و ذلك أنه كان يكثر ذكر اللّه بالقرآن و الدعاء. و أخرجه أيضا أحمد قال: حدّثنا موسى بن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن عليّ بن رباح عن عقبة بن عامر فذكره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد قال: قال رجل: يا رسول اللّه! ما الأواه؟ قال: «الخاشع المتضرّع بالدّعاء». و هذا إن ثبت وجب المصير إليه و تقديمه على ما ذكره أهل اللغة فى معنى الأوّاه، و إسناده عند ابن جرير هكذا: حدّثنى المثنى، حدثنى الحجاج بن منهال، حدّثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب عن عبد اللّه بن شداد فذكره. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ قال: كان من حلمه أنه كان إذا آذاه الرجل من قومه قال له: هداك اللّه.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٥ الى ١١٩]

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

لما نزلت الآية المتقدّمة فى النّهى عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من اللّه بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل اللّه سبحانه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً إلخ، أى: أن اللّه سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، و لا يسمّيهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام، و القيام بشرائعه ما لم يقدموا على شىء من المحرّمات بعد أن يتبين لهم أنه محرّم، و أما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم و لا يؤاخذون به، و معنى حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرّمات الشرع إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ مما يحلّ لعباده و يحرم عليهم، و من سائر الأشياء التى خلقها، ثم بيّن لهم أن له سبحانه ملك السّموات

---

(١). الإسراء: ٢٤.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٧٠

و الأرض لا يشاركه فى ذلك مشارك، و لا ينازعه منازع، يتصرّف فى ملكه بما شاء من التصرفات التى من جملتها أنه يحيى من قضت مشيئته بإحيائه، و يميت من قضت مشيئته بإماتته، و ما لعباده من دونه من وليّ يواليهم و نصير ينصرهم، فلا يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولى قربى، فإن القرابة لا تنفع شيئا و لا تؤثر أثرا، بل التصرف فى جميع الأشياء للّه وحده. قوله: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِ فيما وقع منه صلّى اللّه عليه و سلّم من الإذن فى التخلف، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين. و ليس من لازم التوبة أن يسبق الذّنب ممّن وقعت منه أوله؛ لأنّ كلّ العباد محتاج إلى التوبة و الاستغفار. و قد تكون التوبة منه تعالى على النبى من باب أنه ترك ما هو الأولى و الأليق كما فى قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ «١». و يجوز أن يكون ذكر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأجل التّعريض للمذنبين، بأن يتجنّبوا الذّنوب و يتوبوا عما قد لابسوه منها، و كذلك تاب اللّه سبحانه على المهاجرين و الأنصار فيما قد اقترفوه من الذّنوب. و من هذا القبيل ما صحّ عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: «إنّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ثم وصف سبحانه المهاجرين و الأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يتخلّفوا عنه، و ساعة العسرة هى غزوة تبوك، فإنهم كانوا فى عسرة شديدة، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة، و

لم يرد ساعة بعينها، و العسرة صعوبة الأمر. قوله: مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فى كاد ضمير الشأن، و قلوب مرفوع بتزيغ عند سيبويه؛ و قيل: هى مرفوعة بكاد، و يكون التقدير: من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ. و قرأ الأعمش و حمزة و حفص: يَزِيغُ بالتحتية. قال أبو حاتم: من قرأ بالياء التحتية، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد. قال النحاس: و الذى لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع، و معنى: تزيغ تتلف بالجهد و المشقة و الشدّة، و قيل: معناه:

تميل عن الحقّ و تترك المناصرة و الممانعة؛ و قيل: معناه: تهمّ بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدّة العظيمة.

و فى قراءة ابن مسعود: من بعد ما زاغت و هم المتخلفون على هذه القراءة، و فى تكرير التوبة عليهم بقوله: ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا تأكيد ظاهر، و اعتناء بشأنها، هذا إن كان الضمير راجعا إلى من تقدّم ذكر التوبة عنهم، و إن كان الضمير إلى الفريق؛ فلا تكرار. قوله: وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا أى:

و تاب على الثلاثة الذين خلفوا، أى: أخروا، و لم تقبل توبتهم فى الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم. قال ابن جرير: معنى: خلفوا تركوا، يقال خلفت فلانا فارقته. و قرأ عكرمة بن خالد:

خلفوا بالتخفيف، أى: أقاموا بعد نهوض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمنين إلى الغزو. و قرأ جعفر بن محمد:

خالفوا و هؤلاء الثلاثة: هم كعب بن مالك، و مرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامرى، و هلال بن أمية الواقفى، و كلهم من الأنصار، لم يقبل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم توبتهم حتى نزل القرآن بأن اللّه قد تاب عليهم؛ و قيل:

معنى خلفوا: فسدوا، مأخوذ من خلوف الفم. قوله: حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ معناه: أنهم أخّروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية؛ و هى وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، و ما:

مصدرية، أى: برحبها، لإعراض الناس عنهم، و عدم مكالمتهم من كل أحد، لأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نهى الناس أن يكلموهم، و الرحب: الواسع، يقال: منزل رحب و رحيب و رحاب. و فى هذه الآية دليل على جواز

---

(١). التوبة: ۴٣.

هجران أهل المعاصى تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصى. و معنى ضيق أنفسهم عليهم: أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة، و بما حصل لهم من الجفوة، و عبر بالظن فى قوله: وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ عن العلم، أى: علموا أن لا ملجأ يلجئون إليه قط إلا إلى اللّه سبحانه بالتوبة و الاستغفار. قوله:

ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا أى: رجع عليهم بالقبول و الرحمة، و أنزل فى القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان؛ إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها؛ و يرجعوا إلى اللّه فيها، و يندموا على ما وقع منهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ أى: الكثير القبول لتوبة التائبين، الرَّحِيمُ أى: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده. قوله: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة اللّه، و ظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ قال:

نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، و لكن ما كان اللّه ليعذب قوما بذنب أذنبوه حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ قال: حتى ينهاهم قبل ذلك.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: بيان اللّه للمؤمنين فى الاستغفار للمشركين خاصّة، و فى بيانه طاعته و معصيته عامة ما فعلوا أو تركوا. و أخرج ابن جرير، و ابن خزيمة، و ابن حبّان، و الحاكم و

صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و البيهقى، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب: حدّثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول اللّه إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أنّ رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه و يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول اللّه! إن اللّه قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع لنا، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء؛ فأهطلت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. و قد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هى غزوة تبوك. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن مندة، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن جابر ابن عبد اللّه فى قوله وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا قال: كعب بن مالك، و هلال بن أمية، و مرارة بن الربيع، و كلّهم من الأنصار. و أخرج ابن مندة، و ابن عساكر عن ابن عباس مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن كعب بن مالك قال: لم أتخلّف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر و لم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يريد عير قريش حتى جمع اللّه بينهم و بين عدوّهم على غير ميعاد، و لقد شهدت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام و ما أحبّ أن لى بها مشهد بدر، و إن كانت بدر أذكر منها فى الناس و أشهر، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة فى كتب الحديث و السير، و هى معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا قال: يعنى خلفوا عن التوبة لم يتب عليهم حين تاب اللّه على أبى لبابة و أصحابه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٧٢

و ابن عساكر عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن نافع فى قوله وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال: نزلت فى الثّلاثة الذين خلفوا، قيل لهم: كونوا مع محمد و أصحابه. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال: مع أبى بكر و عمر. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن عساكر عن الضحاك فى الآية قال: مع أبى بكر و عمر و أصحابهما. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: مع على بن أبى طالب. و أخرج ابن عساكر عن أبى جعفر قال: مع الثلاثة الذين خلّفوا.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٠ الى ١٢١]

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

فى قول: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ إلخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تحريم التخلف عنه، أى: ما صح و ما استقام لأهل المدينة وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ كمزينة و جهينة و أشجع و أسلم و غفار أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة تبوك، و إنما خصّهم اللّه سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم، و جوارهم أحق بالنصرة و المتابعة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ أى: و ما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيشحّون بها و يصونونها، و لا يشحّون بنفس رسول اللّه و يصونونها كما شحّوا بأنفسهم و صانوها، يقال:

رغبت عن كـذا؛ أي: ترفعت عنه، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاقّ، و يجاهدوا بين يديه أهل الشّقاق، و يبذلوا أنفسـهم دون نفسه؛ و فى هـذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيـده إيراده على هـذه الصّيغة من التّوبيـخ لهم، و التّقريع الشّديد، و التّهييج لهم، و الإزراء عليهم. و الإشارة بقوله: ذٰلِكَ إلى ما يفيـده السياق من وجوب المتابعـة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: ذلـك الوجوب عليهـم بسـبب أنهـم مثابون على أنـواع المتـاعب، و أصـناف الشّدائـد. و الظّمـأ: العطش، و النّصـب: التعـب، و المخمصة: المجاعة الشديدة التى يظهر عندها ضـمور البطن. و قرأ عبيد بن عمير ظَمَاءٌ بالمدّ. و قرأ غيره بالقصـر، و هما لغتان مثل خطأ و خطاء، و لا فى هذه المواضع زائدة للتأكيد. و معنى: فِي سَبِيلِ اللَّهِ فى طاعة اللّه. قوله: وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ أى: لا يـدوسون مكانـا من أمكنـة الكفـار بأقـدامهم، أو بحوافر خيولهم، أو بأخفـاف رواحلهم، فيحصـل بسـبب ذلـك الغيظ للكفار. و الموطئ: اسم مكـان، و يجوز أن يكون مصـدرا وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا أى: يصـيبون من عـدوّهم قتلا، أو أسـرا، أو هزيمـة، أو غنيمة، و أصله من نلت الشىء أنال: أى أصيب. قال الكسائى: هو من قولهم: أمر منيل منه، و ليس هو من التناول، إنما التناول

من نلته بالعطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، و نلته أناله: أدركته، و الضمير فى (به) يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة، و العمل الصالـح: الحسـنة المقبولة، أى: إلا كتبه اللّه لهم حسـنة مقبولة يجازيهم بها، و جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ فى حكم التّعليل لما سبق مع كونه يشـمل كل محسن، و يصـدق على المـذكورين هنا صـدقا أوّليا. قوله: وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً معطوف على مـا قبله، أى: و لا يقع منهم الإنفاق فى الحرب، و إن كان شـيئا صـغيرا يسيرا وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً و هو فى الأصل كل منفرج بين جبـال، و آكام يكون منفـذا للسـيل، و العرب تقول: واد و أوديـة على غير قياس. قال النحاس: و لا يعرف فيما علمت فاعل و أفعلة إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ أى: كتب لهم ذلـك الـذى عملوه من النفقـة و السـفر فى الجهاد لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ به أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: أحسن جزاء مـا كـانوا يعملون من الأعمـال، و يجوز أن يكون فى قوله: إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ضـمير يرجع إلى عمـل صالـح. و قـد ذهب جماعـة إلى أن هـذه الآيـة منسوخـة بالآيـة المـذكورة بعـدها، و هى قوله: وَ مـا كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فإنها تـدلّ على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض، و سيأتى.

و قـد أخرج ابن أبى حاتم من طريق عمر بن مالك عن بعض الصـحابة قال: لما نزلت: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الآية، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم «و الذى بعثنى بالحقّ لو لا ضـعفاء الناس ما كانت سـرية إلا كنت فيها». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيـد فى قوله: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ قال هـذا حين كان الإسـلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم، فلما كثر الإسلام، و فشا قال اللّه: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى و عبد اللّه بن المبارك و إبراهيم بن محمـد الفزارى و عيسـى بن يونس السّبيعى أنهم قالوا فى قوله تعالى: وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا قالوا: هـذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

اختلف المفسـرون فى معنى: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد، لأنه سـبحانه لما بالغ فى الأمر بالجهاد، و الانتداب إلى الغزو كان المسـلمون إذا بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سرية من الكفار ينفرون جميعا، و يتركون المدينة خالية، فأخبرهم اللّه سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك؛ أى:

ما صحّ لهم، و لا استقام أن ينفروا جميعا، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة، و يبقى من عدا هذه الطائفة النافرة. قالوا: و يكون الضمير فى قوله: لِيَتَفَقَّهُوا عائدا إلى الفرقة الباقية. و المعنى: أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، و من بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم، و يعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين،

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴۷۴

و ينذروا قومهم؛ وقت رجوعهم إليهم؛ و ذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، و هى:

حكم مستقلّ بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم، و التفقه فى الدين، جعله اللّه سبحانه متّصلا بما دلّ على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين: الأوّل: سفر الجهاد، و الثانى: السّفر لطلب العلم.

و لا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم؛ إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر.

و الفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية، و بما يتوصّل به إلى العلم بها؛ من لغة، و نحو، و صرف، و بيان، و أصول. و معنى: فَلَوْ لا نَفَرَ فهلّا نفر، و الطائفة فى اللغة: الجماعة. و قد جعل اللّه سبحانه الغرض من هذا: هو التفقه فى الدين، و إنذار من لم يتفقه، فجمع بين المقصدين الصالحين، و المطلبين الصحيحين، و هما تعلم العلم، و تعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالب لغرض دنيوى، لا لغرض دينىّ، فهو كما قلت:

و طالب الدنيا بعلم الدّين أىّ بائس كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

و معنى: لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ الترجّى لوقوع الحذر منهم عن التّفريط فيما يجب فعله: فيترك، أو فيما يجب تركه: فيفعل، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا فى مقاتلة من يليهم من الكفار، و أن يأخذوا فى حربهم بالغلظة. و الشدّة و الجهاد واجب لكل الكفار، و إن كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهمّ و أقدم، ثم الأقرب فالأقرب، ثم أخبرهم اللّه بما يقوّى عزائمهم، و يثبت أقدامهم، فقال: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ أى:

بالنّصرة له و تأييدهم على عدوّهم، و من كان اللّه معه لم يقم له شىء.

و قد أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نسخ هؤلاء الآيات انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا «١» و إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ «٢» قوله: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً يقول: لتنفر طائفة و تمكث طائفة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فالماكثون مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هم الذين يتفقهون فى الدين، و ينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، و لعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء اللّه فى كتابه و حدوده. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى عنه نحوه من طريق أخرى بسياق أتمّ. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآية قال: ليست هذه الآية فى الجهاد، و لكن لما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على مضر بالسّنين أجدبت بلادهم، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد و يقبلوا بالإسلام و هم كاذبون، فضيقوا على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أجهدوهم، فأنزل اللّه يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين، فردّهم إلى عشائرهم، و حذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ و فى الباب روايات عن جماعة من التابعين، و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ قال:

الأدنى، فالأدنى. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ قال: «الروم».

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً قال: شدّة.

(١). التوبة: ٤١.

(٢). التوبة: ٣٩.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٧٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٤ الى ١٢٩]

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (١٢٥) أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

قوله: وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين، أي: إذا ما أنزل اللّه على رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم سورة من كتابه العزيز فمن المنافقين مَنْ يَقُولُ لإخوانه منهم أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ السورة النازلة إِيماناً يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، و يجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام و تزهيدهم فيه، و أيكم: مرفوع بالابتداء و خبره: زادته. و قد تقدّم بيان معنى السورة. ثم حكى اللّه سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيمانا إلى إيمانهم، و الحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحى و ما يشتمل عليه من المنافع الدينية و الدنيوية وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و هم المنافقون فَزادَتْهُمْ السورة المنزلة رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ أى: خبثا إلى خبثهم الذى هم عليه من الكفر و فساد الاعتقاد، و إظهار غير ما يضمرونه و ثبتوا على ذلك و استمروا عليه إلى أن ماتوا كفارا منافقين، و المراد بالمرض هنا: الشك و النفاق؛ و قيل: المعنى: زادتهم إثما إلى إثمهم. قوله: أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ قرأ الجمهور يَرَوْنَ بالتحتية. و قرأ حمزة و يعقوب بالفوقية، خطابا للمؤمنين. و قرأ الأعمش «أو لم يروا» و قرأ طلحة بن مصرف/ أ و لا ترى خطابا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هى قراءة ابن مسعود. و معنى: يُفْتَنُونَ يختبرون، قاله ابن جرير و غيره أو يبتليهم اللّه سبحانه بالقحط و الشدّة، قاله مجاهد. و قال ابن عطية: بالأمراض و الأوجاع. قال قتادة و الحسن: بالغزو و الجهاد مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و يرون ما وعد اللّه من النصر ثُمَّ لا يَتُوبُونَ بسبب ذلك وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ و ثم لعطف ما بعدها على يرون، و الهمزة فى: أو لا يرون، للإنكار و التوبيخ، و الواو للعطف على مقدّر، أى: لا ينظرون و لا يرون، و هذا تعجيب من اللّه سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين، و تصلبهم فى النفاق، و إهمالهم للنظر و الاعتبار، ثم ذكر اللّه سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه، فقال وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ أى: نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين: هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ من المؤمنين لننصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحى، فإنه لا صبر لنا على استماعه، و لنتكلم بما نريد من الطعن و السخرية و الضحك؛ و قيل: المعنى: و إذا أنزلت سورة ذكر اللّه فيها فضائح المنافقين و مخازيهم قال بعض من يحضر مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للبعض الآخر منهم: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم. و حكى

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٧٦

ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال: نَظَرَ فى هذه الآية موضوع موضع قال، أى: قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد. قوله: ثُمَّ انْصَرَفُوا أى: عن ذلك المجلس إلى منازلهم، أو عن ما يقتضى الهداية و الإيمان إلى ما يقتضى الكفر و النفاق، ثم دعا اللّه

سبحانه عليهم، فقال: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ أى: صرفها عن الخير و ما فيه الرشد لهم و الهداية، و هو سبحانه مصرّف القلوب و مقلّبها؛ و قيل: المعنى:

أنه خذلهم عن قبول الهداية؛ و قيل: هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم: قاتله اللّه. ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية، أو السبب الذى لأجله استحقوا الدّعاء عليهم بقوله:

صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فقال: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ما يسمعونه لعدم تدبرهم و إنصافهم، ثم ختم اللّه سبحانه هذه السورة بما يهوّن عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة، فقال: لَقَدْ جاءَكُمْ يا معشر العرب رَسُولٌ أرسله اللّه إليكم له شأن عظيم مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم، فى كونه عربيا، و إلى كون هذه الآية خطابا للعرب ذهب جمهور المفسرين. و قال الزجاج: هى خطاب لجميع العالم.

و المعنى: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ جنسكم فى البشرية عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ما مصدرية. و المعنى:

شاق عليه عنتكم، لكونه من جنسكم و مبعوثا لهدايتكم، و العنت: التعب لهم و المشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف و نحوه، أو بعذاب الآخرة بالنار، أو بمجموعهما حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أى: شحيح عليكم بأن تدخلوا النّار، أو حريص على إيمانكم. و الأوّل أولى، و به قال الفرّاء. و الرؤوف و الرحيم، قد تقدّم بيان معناهما؛ أى: هذا الرسول بِالْمُؤْمِنِينَ منكم أيها العرب أو الناس رَؤُفٌ رَحِيمٌ ثم قال مخاطبا لرسوله، و مسليا له، و مرشدا له إلى ما يقوله عند أن يعصى: فَإِنْ تَوَلَّوْا أى: أعرضوا عنك، و لم يعملوا بما جئت به، و لا قبلوه فَقُلْ يا محمد: حَسْبِيَ اللَّهُ أى: كافى اللّه سبحانه المنفرد بالألوهية عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ أى: فوّضت جميع أمورى وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وصفه بالعظم، لأنه أعظم المخلوقات. و قد قرأ الجمهور بالجرّ على أنه صفة لعرش. و قرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب. و قد رويت هذه القراءة عن ابن كثير.

و قد أخرج ابن جرير و ابن حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم اللّه إيمانا و تصديقا و كانوا بها يستبشرون. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ قال: شكا إلى شكهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ قال: يقتلون. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه و قال: بالسنة و الجوع. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: بالعدوّ.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: بالغزو فى سبيل اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن بكار ابن مالك قال: يمرضون فى كلّ عام مرّة أو مرّتين. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال: كانت لهم فى كلّ عام كذبة أو كذبتان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن حذيفة قال: كنا نسمع فى كلّ عام كذبة أو كذبتين، فيضلّ بها فئة من الناس كثير. و أخرج ابن جرير و ابن أبى

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۷۷

حاتم عن ابن عباس فى قوله نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قال: هم المنافقون. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: لا تقولوا: انصرفنا من الصّلاة، فإن قوما انصرفوا صرف اللّه قلوبهم، و لكن قولوا: قضينا الصلاة. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر نحوه. و أقول: الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشرّ، و ليس فى إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك؛ و إلا لزم أن كل لفظ يستعمل فى لغة العرب فى الأمور المتعدّدة إذا استعمل فى القرآن فى حكاية ما وقع من الكفار، لا يجوز استعماله فى حكاية ما وقع عن أهل الخير، كالرجوع و الذهاب، و الدخول، و الخروج، و القيام، و القعود. و اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله، و

وجه الملازمة ظاهر لا يخفى. و أخرج عبد بن حميد و الحارث بن أبى أسامة فى مسنده و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم فى دلائل النبوّة و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قال:

ليس من العرب قبيلة إلا و قد ولدت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مضريها و ربيعها و يمانيها. و أخرج ابن سعد عنه فى قوله مِنْ أَنْفُسِكُمْ قال: قد ولدتموه يا معشر العرب. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، و أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قال: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية، و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خرجت من نكاح، و لم أخرج من سفاح». و هذا فيه انقطاع، و لكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى و الواعى، فقال: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال:

أشهد على أبى يحدثنى عن أبيه عن جدّه عن علىّ بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «خرجت من نكاح و لم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى و أمى». و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فقال علىّ بن أبى طالب: يا رسول اللّه ما معنى من أنفسكم؟ قال: «نسبا و صهرا و حسبا، ليس فىّ و لا فى آبائى من لدن آدم سفاح، كلّنا نكاح». و أخرج الحاكم عن ابن عباس «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يعنى من أعظمكم قدرا». و أخرج ابن سعد عنه نحو حديث على الأول. و أخرج الطبرانى عنه أيضا نحوه. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر عن عائشة نحوه. و فى الباب أحاديث بمعناه، و يؤيد ما فى صحيح مسلم و غيره من حديث واثلة ابن الأسقع قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «إنّ اللّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، و اصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، و اصطفى من بنى كنانة قريشا، و اصطفى من قريش بنى هاشم، و اصطفانى من بنى هشام».

و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه، ثم حين فرّقهم جعلنى فى خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة، و حين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتا و خيرهم نفسا» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن أبى شيبة و إسحاق ابن راهويه و ابن منيع و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، من طريق يوسف

ابن مهران عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال: آخر آية أنزلت على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى لفظ: آخر ما أنزل من القرآن: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إلى آخر الآية، و روى عنه نحوه من طريق أخرى أخرجها عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن الضريس فى فضائله، و ابن أبى داود فى المصاحف، و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، و الخطيب فى تلخيص المتشابه، و الضياء فى المختارة. و أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة جاءته جهينة فقالوا له: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك و تأمنا قال: و لم سألتم هذا؟ قالوا: نطلب الأمن، فأنزل اللّه هذه الآية لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ يعنى: الكفار تولّوا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال:

إنّما سمّى العرش عرشا لارتفاعه، و قد رويت أحاديث كثيرة فى صفة العرش و ماهيته و قدره.

و إلى هنا انتهى الثلث الأوّل من التفسير المسمى «فتح القدير» الجامع بين فنى الرواية و الدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه: محمد بن على الشوكانى، غفر اللّه لهما. و كان تمام هذا الثلث فى نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرّم سنة ١٢٢٧ ه.

و الحمد للّه ربّ العالمين، و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و آله و صحبه أجمعين.

الحمد له: انتهى سماعا على مؤلفه. أطال اللّه مدّته فى جمادى الأولى من عام سنة ١٢٣٥ ه.

يحيى بن على الشوكانى غفر اللّه لهما آمين

سورة يونس

اشارة

هى مكيـة إلاـ ثلاث آيات من قوله: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ إلى آخرهنّ، و هكـذا روى القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس. و حكى عن مقاتل أنها مكيـة إلا آيتين، و هى قوله: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ فإنها نزلت فى المدينـة. و حكى عن الكلبى أنها مكية إلا قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ فإنها نزلت بالمدينة.

و حكى عن الحسن، و عكرمـة، و عطاء، و جابر: أنها مكية من غير اسـتثناء. و أخرج النّحّاس، و أبو الشـيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة يونس بمكة. و أخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: كانت سورة يونس بعد السابعة. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه أعطانى الرائيات إلى الطّواسين مكان الإنجيل» «١». و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن الأحنف قال: صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس و هود و غيرهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يونس (١٠): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (١) أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

قوله: الر قـد تقدّم الكلام مسـتوفى على هـذه الحروف الواقعـة فى أوائل السور فى أوّل سورة البقرة، فلا نعيده، ففيه ما يغنى عن الإعادة. و قـد قرأ بالإمالـة أبو عمرو، و حمزة، و خلف، و غيرهم. و قرأ جماعة من غير إمالة؛ و قد قيل: إن معنى: الر أنا اللّه أرى. قال النحاس: و رأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، و أنشد:

بالخير خيرات و إن شرّا فا «٢» ...

---

(١). الرائيات: هى السور المبدوءة ب «الر» و الطواسين: هى السور المبدوءة ب «طسم» أو «طس».

(٢). و عجزه: و لا أريد الشرّ إلا أن تا.

أی: و إن شـرّا فشـرّ. و قال الحسن و عكرمة: الر قسم، و قال سعيد عن قتادة: الر اسم للسورة، و قيل غير ذلك مما فيه تكلّف لعلم مـا اسـتأثر اللّه بعلمه، و قـد اتفق القراء: على أن الر ليس بآيـة، و على أن: طه، آيـة، و فی مقنع أبی عمرو الـدانی: أن العادّين لطه آية، هم الكوفيون فقط، قيل:

و لعل الفرق أن الر لا يشاكل مقاطع الآی التی بعـده، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلی ما تضـمنته السورة من الآيات، و التبعيد للتعظيم، و اسم الإشارة مبتـدأ و خبره ما بعده. و قال مجاهد و قتادة: أراد التوراة، و الإنجيل، و سائر الكتب المتقدمة؛ فإن تلك إشارة إلی غائب مؤنث؛ و قيل: تِلْكَ بمعنی هذه، أی:

هـذه آيـات الكتاب الحكيم، و هو القرآن، و يؤيـد كون الإشارة إلی القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمـة ذكر، و أن الحكيم من صفـات القرآن لاـ من صـفات غيره، و الْحَكِيمِ المحكم بالحلال، و الحرام، و الحـدود، و الأحكام، قاله أبو عبيـدة و غيره؛ و قيل: الحكيم معنـاه: الحـاكم، فهو فعيـل بمعنی فاعل كقوله: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ «١»؛ و قيل: الحكيم بمعنی المحكوم فيه، فهو فعيـل بمعنی مفعول، أی: حكم اللّه فيه بالعـدل و الإحسان، قاله الحسن و غيره؛ و قيل: الحكيم: ذو الحكمة، لاشتماله عليها، و الاستفهام فی قوله: أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع و التوبيخ، و اسم كان أَنْ أَوْحَيْنا و خبرها عَجَباً أی: أ كان إيحاؤنا عجبا للناس. و قرأ ابن مسعود:

عجب علی أنه اسم كـان «٢»، علی أن كان تامـة «٣»، و أَنْ أَوْحَيْنا بـدل من عجب. و قرئ بإسكان الجيم من رَجُلٍ فی قوله: إِلی رَجُلٍ مِنْهُمْ أی: من جنسـهم و ليس فی هـذا الإيحاء إلی رجل من جنسـهم ما يقتضـی العجب فإنه لا يلابس الجنس و يرشـده و يخبره عن اللّه سـبحانه إلا من كان من جنسه، و لو كان من غير جنسـهم لكان من الملائكـة أو من الجنّ و يتعذر المقصود حينئذ من الإرسال، لأنهم لا يأنسون إليه و لا يشاهدونه، و لو فرضـنا تشكّله لهم و ظهوره، فإمّا أن يظهر فی غير شكل النوع الإنسانی، و ذلك أوحش لقلوبهم و أبعد من أنسـهم، أو فی الشـكل الإنسانی، فلا بدّ من إنكارهم لكونه فی الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسـهم، و إن كان لكونه يتيما أو فقيرا، فـذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعا من خصال الخير و الشـرف ما لا يجمعه غيره، و بالغا فی كمال الصفات إلی حدّ يقصّر عنه من كان غنيا، أو كان غير يتيم، و قد كان لرسول اللّه صـلّی اللّه عليه و سـلّم قبل أن يصـطفيه اللّه بإرساله من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس و أظهر من النهار، حتی كانوا يسـمونه الأمين. قوله: أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ فی موضع نصب بنزع الخافض، أی: بأن أنذر الناس، و قيل: هی المفسرة لأن فی الإيحاء معنی القول، و قيل: هی المخففـة من الثقيلة. قوله قَدَمَ صِدْقٍ أی: منزل صدق، و قال الزجاج: درجة عالية. و منه قول ذی الرمة:

---

(١). البقرة: ٢١٣.

(٢). أی: و خبرها: أَنْ أَوْحَيْنا.

(٣). جاء فی الكشاف [٢/ ٢٢٤] و الأجود أن تكون كان تامة.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٨١ لكم قدم لا ينكر النّاس أنّهامع الحسب العالی طمّت علی البحر

و قال ابن الأعرابی: القدم: المتقدّم فی الشـرف، و قال أبو عبيدة و الكسائی: كل سابق من خير أو شـر فهو عند العرب قدم؛ يقال: لفلان قدم فی الإسلام، و له عندی قدم صدق، و قدم خير، و قدم شرّ؛ و منه قول العجاج:

زلّ بنو العوّام عند آل الحكمو تركوا الملك لملك ذی قدم

و قال ثعلب: القـدم: كلّ ما قـدمت من خير، و قال ابن الأنباری: القـدم: كنايـة عن العمل الذی لا يقع فيه تأخير و لا إبطاء، و قال

قتادة: سلف صدق، و قال الربيع: ثواب صدق، و قال الحسن: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال الحكيم التّرمذى: قدمه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المقام المحمود، و قال مقاتل: أعمالا قدّموها، و اختاره ابن جرير، و منه قول ابن الوضّاح:

صلّ لذى العرش و اتّخذ قدماينجك يوم الخصام و الزّلل

و قيل: غير ما تقدّم، مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده. قوله: قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ

قرأ ابن كثير و عاصم و حمزة و الكسائى و خلف و الأعمش و ابن محيصن: لَساحِرٌ على أنهم أرادوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم باسم الإشارة. و قرأ الباقون: لسحر على أنهم أرادوا القرآن، و قد تقدّم معنى السحر فى البقرة، و جملة قالَ الْكافِرُونَ مستأنفة كأنه قيل: ما ذا صنعوا بعد التعجب؟ و قال القفال: فيه إضمار، و التقدير: فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك. ثم إن اللّه سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذى حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم، فقال: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ «۱» أى: من كان له هذا الاقتدار العظيم؛ الذى تضيق العقول عن تصوّره؛ كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلّا للتعجب؛ مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى الأعراف فى قوله: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ فلا نعيده هنا، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته و عظيم شأنه فقال: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ و ترك العاطف، لأن جملة يدبر كالتفسير و التفصيل لما قبلها؛ و قيل: هى فى محل نصب على الحال من ضمير استوى؛ و قيل: مستأنفة؛ جواب سؤال مقدّر، و أصل التّدبير النّظر فى أدبار الأمور و عواقبها لتقع على الوجه المقبول. و قال مجاهد: يقضيه و يقدّره وحده، و قيل: يبعث الأمر، و قيل: ينزل الأمر، و قيل: يأمر به و يمضيه، و المعنى متقارب، و اشتقاقه من الدبر، و الأمر: الشأن، و هو أحوال ملكوت السموات و الأرض و العرش و سائر الخلق. قال الزّجّاج: إنّ الكفّار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند اللّه، فردّ اللّه عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه فى شىء إلا بعد إذنه، لأنه أعلم بموضع الحكمة و الصواب. و قد تقدّم معنى الشفاعة فى البقرة، و فى هذه بيان لاستبداده بالأمور فى كل شىء سبحانه و تعالى، و الإشارة بقوله: ذلِكُمُ إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق و التدبير، أى:

---

(۱). الأعراف: ۵۴.

الذى فعل هذه الأشياء العظيمة اللَّهُ رَبُّكُمْ و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره: الاسم الشريف، و ربكم بدل منه، أو بيان له، أو خبر ثان، و فى هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه و عظيم اقتداره، فكيف يعبدون الجمادات التى لا تسمع و لا تبصر و لا تنفع و لا تضر؟ و الاستفهام فى قوله: أَ فَلا تَذَكَّرُونَ للإنكار و التوبيخ و التقريع، لأن من له أدنى تذكر و أقلّ اعتبار يعلم بهذا و لا يخفى عليه، ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا، فقال إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً و فى هذا من التهديد و التخويف ما لا يخفى، و انتصاب وَعْدَ اللَّهِ على المصدر، لأن فى قوله: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً معنى الوعد، أو هو منصوب بفعل مقدر، و المراد بالمرجع: الرجوع إليه سبحانه إما بالموت، أو بالبعث، أو كل واحد منهما، ثم أكد ذلك الوعد بقوله: حَقًّا فهو تأكيد لتأكيد، فيكون فى الكلام من الوكادة ما هو الغاية فى ذلك. و قرأ ابن أبى عبلة: وعد الله حق على الاستئناف، ثم علّل سبحانه ما تقدّم بقوله: إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أى: إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التّراب ثم يعيده إلى التّراب، أو معنى الإعادة: الجزاء يوم القيامة. قال مجاهد: ينشئه ثم يميته، ثم يحييه للبعث؛ و قيل: ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال. و قرأ يزيد بن القعقاع: أنه يبدأ

الخلق، بفتح الهمزة، فتكون الجملة فى موضع نصب بما نصب به وعد اللّه، أى: وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، و يجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق، و أجاز الفراء أن تكون أن فى موضع رفع، فتكون اسما. قال أحمد بن يحيى بن ثعلب: يكون التقدير: حقا إبداؤه الخلق، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ أى: بالعدل الذى لا جور فيه وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفا على الموصول الأوّل، أى: ليجزى الذين آمنوا، و يجزى الذين كفروا، و تكون جملة لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ فى محل نصب على الحال هى و ما عطف عليها، أى: و عذاب أليم، و يكون التقدير هكذا: و يجزى الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب و هذا العذاب، و لكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب و هذا العذاب الأليم هما من الجزاء، و يمكن أن يقال: إن الموصول فى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا مبتدأ و ما بعده خبره، فلا يكون معطوفا على الموصول الأوّل، و الباء فى بِما كانُوا يَكْفُرُونَ للسّببية، أى: بسبب كفرهم، و الحميم:

الماء الحار، و كلّ مسخّن عند العرب فهو حميم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الر قال: فواتح أسماء من أسماء اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن النجار فى تاريخه عنه قال: فى قوله: الر أنا اللّه أرى. و أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك مثله أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال:

يعنى هذه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: الكتب التى خلت قبل القرآن. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما بعث

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٤٨٣

اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد، فأنزل اللّه: أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ الآية وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ* «١» الآية، فلما كرر اللّه سبحانه عليهم الحجج قالوا: و إذا كان بشرا، فغير محمد كان أحق بالرسالة، ف لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «٢» يقول: أشرف من محمد، يعنون: الوليد بن المغيرة من مكة، و مسعود بن عمرو الثقفى من الطائف، فأنزل اللّه ردّا عليهم:

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ «٣» الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله:

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قال: ما سبق لهم من السعادة فى الذكر الأوّل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: أجرا حسنا بما قدّموا من أعمالهم. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: القدم هو العمل الذى قدموا. قال اللّه سبحانه نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ و الآثار ممشاهم.

قال: مشى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: قَدَمَ صِدْقٍ قال: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يشفع لهم. و أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب مثله. و أخرج الحاكم و صححه عن أبى بن كعب قال: سلف صدق. و الروايات عن التابعين و غيرهم فى هذه كثيرة، و قد قدّمنا أكثرها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ قال: يقضيه وحده، و فى قوله إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قال: يحييه ثم يميته ثم يحييه.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥ الى ٦]

هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلاَّ بِالْحَقِّ یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ (۶)

ذکر هاهنا بعض نعمه علی المکلّفین، و هی ممّا یستدل به علی وجوده، و وحدته، و قدرته، و علمه، و حکمته بإتقان صنعه فی هذین النیرین المتعاقبین علی الدّوام بعد ما ذکر قبل هذا إبداعه للسّماوات و الأرض، و استواءه علی العرش و غیر ذلک. و الضیاء قیل: جمع ضوء کالسیاط و الحیاض. و قرأ قنبل عن ابن کثیر ضئاء بجعل الیاء همزة مع الهمزة، و لا وجه له لأن یاءه کانت واوا مفتوحة، و أصله ضواء فقلبت یاء لکسر ما قبلها. قال المهدوی: و من قرأ ضئاء بالهمزة فهو مقلوب، قدّمت الهمزة التی بعد الألف، فصارت قبل الألف، ثم قلبت الیاء همزة، و الأولی أن یکون ضیاء مصدرا لا جمعا، مثل قام یقوم قیاما، و صام یصوم صیاما، و لا بدّ من تقدیر مضاف، أی: جعل الشمس ذات ضیاء و القمر ذا نور إلا أن یحمل علی المبالغة، و کأنهما جعلا نفس الضیاء و النور. قیل: الضیاء أقوی من النور، و قیل: الضیاء هو ما کان بالذات، و النور ما کان بالعرض، و من هنا قال الحکماء: إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس. قوله: وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ أی: قدر مسیره فی منازل، أو قدره ذا منازل، و الضمیر راجع إلی القمر، و منازل القمر: هی المسافة التی

---

(١). الأنبیاء: ٧.

(٢). الزخرف: ٣١.

(٣). الزخرف: ٣٢.

یقطعها فی یوم و لیلة بحرکته الخاصة به و جملتها ثمانیة و عشرون و هی معروفة، ینزل القمر فی کل لیلة منها منزلا لا یتخطاه، فیبدو صغیرا فی أول منازله، ثم یکبر قلیلا قلیلا حتی یبدو کاملا، و إذا کان فی أواخر منازله رقّ و استقوس، ثم یستتر لیلتین إذا کان الشهر کاملا، أو لیلة إذا کان ناقصا، و الکلام فی هذا یطول و قد جمعنا فیه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أورده علینا بعض الأعلام. و قیل: إن الضمیر راجع إلی کل واحد من الشمس و القمر، کما قیل فی قوله تعالی: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَیْها «١»، و فی قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بماعندک راض و الرأی مختلف

و قد قدّمنا تحقیق هذا فیما سبق من هذا التّفسیر، و الأولی: رجوع الضمیر إلی القمر وحده، کما فی قوله تعالی: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ «٢»، ثم ذکر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدیر، فقال: لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ فإن فی العلم بعدد السّنین من المصالح الدینیة و الدنیویة ما لا یحصی، و فی العلم بحساب الأشهر و الأیام و اللیالی من ذلک ما لا یخفی، و لولا هذا التقدیر الذی قدّره اللّه سبحانه لم یعلم الناس بذلک و لا عرفوا ما یتعلق به کثیر من مصالحهم. و السّنة تتحصل من اثنی عشر شهرا، و الشّهر یتحصّل من ثلاثین یوما إن کان کاملا، و الیوم یتحصّل من ساعات معلومة هی أربع و عشرون ساعة للیل و النهار قد یکون لکل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة فی أیام الاستواء، و یزید أحدهما علی الآخر فی أیام الزیادة و أیام النقصان، و الاختلاف بین السنة الشمسیة و القمریة معروف؛ ثم بین سبحانه أنه ما خلق الشمس و القمر و اختلاف تلک الأحوال إلا بالحق و الصواب دون الباطل و العبث، فالإشارة بقوله: ذلِکَ إلی المذکور قبله، و الاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال، و معنی تفصیل الآیات

تبيينها، و المراد بالآيات: التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، و تدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوّليا فى ذلك. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حفص و يعقوب يُفَصِّلُ بالتحتية. و قرأ ابن السّميقع تفصل بالفوقية على البناء للمفعول، و قرأ الباقون بالنون.

و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الأولى، و لعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ و بعده وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل و النهار و ما خلق فى السموات و الأرض من تلك المخلوقات، فقال إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ أى: الذين يتقون اللّه سبحانه و يجتنبون معاصيه و خصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر و التفكر فى مخلوقات اللّه سبحانه حذرا منهم عن الوقوع فى شىء مما يخالف مراد اللّه سبحانه، و نظرا لعاقبة أمرهم، و ما يصلحهم فى معادهم. قال القفال: من تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها، و أن خالقها و خالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل، و إذا كان كذلك فلا بدّ من أمر و نهى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله تعالى: جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً قال: لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكى يعرف الليل من النهار، و هو قوله فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ «۳» الآية.

و أخرج أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: وجوههما إلى السّموات، و أقفيتهما إلى الأرض.

---

(۱). الجمعة: ۱۱.

(۲). يس: ۳۹.

(۳). الإسراء: ۱۲.

و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمرو مثله. و أخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدى قال: لو أن اللّه تبارك و تعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، و لكن المؤمنون تفكّروا فى مجىء هذا الليل إذا جاء الليل جاء فملأ كل شىء و غطّى كلّ شىء، و فى مجىء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، و فى السحاب المسخّر بين السماء و الأرض، و فى النجوم، و فى الشتاء و الصيف، فو اللّه ما زال المؤمنون يتفكّرون فيما خلق ربهم تبارك و تعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۷ الى ۱۰]

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (۷) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۹) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰)

شرع اللّه سبحانه فى شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد، و من يؤمن به، و قدّم الطائفة التى لم تؤمن، لأنّ الكلام فى هذه السورة مع الكفّار الذين يعجبون مما لا عجب فيه، و يهملون النّظر و التّفكّر فيما لا ينبغى إهماله مما هو مشاهد لكل حيّ طول حياته، فيتسبب عن إهمال النظر، و التفكر الصادق: عدم الإيمان بالمعاد. و معنى الرجاء هنا الخوف، و منه قول الشاعر:

إذا لسعته النّحل لم يرج لسعهاو خالفها فى بيت نوب عواسل

و قيل: يرجون: يطمعون، و منه قول الشاعر:

أ ترجو بنى مروان سمعى و طاعتى‌و قومى تميم و الفلاة و رائيا

فـالمعنى على الأوّل: لاـ يخـافون عقابـا، و على الثـانى: لا يطمعون فى ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته؛ فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى: لا يخافون رؤيتنا، أو لا يطمعون فى رؤيتنا؛ و قيل المراد بالرجاء هنا:

التوقع فيـدخل تحته الخوف و الطمع، فيكون المعنى: لاـ يَرْجُونَ لِقاءَنـا لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه و لا يطمعون فيه وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا أى: رضوا بها عوضا عن الآخرة، فعملوا لها وَ اطْمَأَنُّوا بِها أى سكنت أنفسهم إليها و فرحوا بها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غـافِلُونَ لاـ يعتبرون بهـا و لاـ يتفكرون فيها أُولئِكَ مَأْواهُمُ أى: مثواهم و مكان إقامتهم النار، و الإشارة إلى المتصـفين بالصـفات السابقـة من عـدم الرجـاء، و حصول الرضـا، و الاطمئنـان، و الغفلـة بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أى: بسـبب ما كانوا يكسـبون من الكفر و التكـذيب بالمعاد، فهـذا حال الـذين لا يؤمنون بالمعاد، و أما حال الـذين يؤمنون به فقـد بينه سـبحانه بقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أى: فعلوا الإيمـان الـذى طلبه اللّه منهم بسـبب مـا وقع منهم من التفكر و الاعتبار فيما تقـدّم ذكره من الآيات وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ التى يقتضـيها الإيمان، و هى ما شرعه اللّه لعباده المؤمنين يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ أى: يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۸۶

إلى الجنـة، و جملـة تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهـارُ مسـتأنفة، أو خبر ثـان، أو فى محل نصب على الحال. و معنى من تحتهم: من تحت بساتينهم، أو من بين أيديهم، لأنهم على سـرر مرفوعة. و قوله: فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ متعلق بتجرى أو بيهديهم أو خبر آخر أو حال من الأنهار. قوله: دَعْواهُمْ أى: دعاؤهم و نـداؤهم، و قيل: الدعاء العبادة، كقوله تعالى: وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ «۱» و قيل معنى دعواهم هنا:

الادّعاء الكائن بين المتخاصـمين. و المعنى: أن أهل الجنـة يـدعون فى الـدنيا و الآخرة تنزيه اللّه سـبحانه من المعايب و الإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصـله من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصـمه إلى من يحكم بينهما، و قيل معناه: طريقتهم و سيرتهم، و ذلك أن المـدّعى للشـىء مواظب عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة و إن لم يكن فى قوله سُبْحانَكَ اللَّهُمَ دعوى و لا دعاء؛ و قيل معناه: تمنيهم كقوله: وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ «۲» و كأن تمنيهم فى الجنة ليس إلا تسبيح اللّه و تقديسه، و هو مبتدأ و خبره سبحانك اللهم، و فِيها أى:

فى الجنة. و المعنى على القول الأوّل: أن دعاءهم الذى يدعون به فى الجنة هو تسبيح اللّه و تقديسه. و المعنى:

نسـبحك يا اللّه تسبيحا، قوله: وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أى: تحية بعضهم للبعض، فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل، أو تحية اللّه، أو الملائكـة لهم، فيكون من إضافـة المصدر إلى المفعول. و قد مضـى تفسـير هذا فى سورة النساء، قوله: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أى: و خاتمـة دعائهم الـذى هو التسبيح أن يقولوا: الحمد للّه رب العالمين. قال النّحاس: مذهب الخليل أن «أن» هذه مخففة من الثقيلة. و المعنى:

أنه الحمـد للّه، و قـال محمـد بن يزيـد المـبرّد: و يجوز أن تعملهـا خفيفـة عملهـا ثقيلـة. و الرفع أقيس، و لم يحـك أبو عبيـد إلا التخفيف. و قرأ ابن محيصن: بتشديد أنّ و نصب الحمد.

و قـد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حـاتم عن مجاهـد فى قوله: وَ رَضُوا بِالْحَيـاةِ الـدُّنْيا قال: مثل قوله مَنْ كانَ يُرِيـدُ الْحَياةَ الـدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها «۳» الآية. و أخرج ابن أبى شـيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد أيضا فى قوله: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ قال: يكون لهم نور يمشون به. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ قال: حدّثنا الحسن قال: بلغنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسنة و ريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فو اللّه إنّى لأراك عين امرئ صدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون نورا و قائدا إلى الجنة؛ و أما الكافر فإذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة سيئة و ريح منتنة، فيقول له: ما أنت؟ فو اللّه إنى لأراك عين امرئ سوء، فيقول له:

أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن جرير نحوه.

و أخرج ابن مردويه عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنّة من ربّهم». و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن أبى الهذيل قال: الحمد أوّل الكلام و آخر الكلام، ثم تلا: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

---

(١). مريم: ٤٨.

(٢). يس: ٥٧.

(٣). هود: ١٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٨٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٦]

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٦)

لما ذكر اللّه سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد، ذكر أنّ هذا العذاب من حقّه أن يتأخّر عن هذه الحياة الدنيا. قال القفّال: لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب، فبين اللّه سبحانه أنه لا مصلحة فى إيصال الشرّ إليهم، فلعلهم يتوبون و يخرج من أصلابهم من يؤمن، قيل معنى: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لو عجل اللّه للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب و الخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أى: ماتوا؛ و قيل المعنى: لو فعل اللّه مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم؛ و قيل: الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث، و ما يترتب عليه. قال فى الكشاف: وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته و إسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له، و المراد أهل مكة، و قوله: فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «١» الآية. قيل: و التقدير: و لو يعجّل اللّه لهم الشرّ عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به، فحذف ما حذف لدلالة الباقى عليه. قال أبو علىّ الفارسى: فى الكلام حذف، و التقدير:

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ تعجيلا مثل اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ، ثم حذف تعجيلا و أقام صفته مقامه، ثم حذف صفته و أقام المضاف

إليه مقامه قال: هذا مذهب الخليل و سيبويه، و هو قول الأخفش و الفرّاء، قالوا: و أصله كاستعجالهم، ثم حذف الكاف و نصب. قال الفراء: كما تقول ضربت زيدا ضربك: أى كضربك، و معنى: لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ لأهلكوا، و لكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأمهلوا، و قيل معناه: أميتوا، و قرأ ابن عامر: لقضى على البناء للفاعل، و هى قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ قوله: فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ الفاء للعطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام، لأن قوله: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ يتضمن نفى التعجيل، فكأنه قيل: لكن لا يعجل لهم الشرّ، و لا يقضى إليهم أجلهم، فنذرهم إلخ؛ أى: فنتركهم و نمهلهم، و الطغيان: التطاول، و هو العلوّ و الارتفاع، و معنى يَعْمَهُونَ يتحيرون؛ أى: نتركهم يتحيرون فى تطاولهم، و تكبرهم، و عدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه و خذلانا؛ ثم بين اللّه سبحانه أنهم كاذبون فى استعجال الشرّ و لو أصابهم ما طلبوه

---

(١). الأنفال: ٣٢.

لأظهروا العجز و الجزع فقال: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ أى: هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به دَعانا لِجَنْبِهِ اللام للوقت كقوله جئته لشهر كذا، أو فى محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدا أو قائما عليه، و تكون اللام بمعنى على، أى: دعانا مضطجعا أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً و كأنه قال:

دعانا فى جميع الأحوال المذكورة و غيرها، و خصّ المذكورة بالذكر لأنها الغالب على الإنسان، و ما عداها نادر كالركوع و السجود، و يجوز أن يراد أنه يدعو اللّه حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود، و قاعدا غير قادر على القيام، و قائما غير قادر على المشى، و الأوّل أولى. قال الزجاج: إن تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرّة، لأنه إذا كان داعيا على الدوام، ثم نسى فى وقت الرخاء كان أعجب. قوله: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ أى: فلما كشفنا عنه ضرّه الذى مسه كما تفيده الفاء مضى على طريقته التى كان عليها قبل أن يمسه الضرّ، و نسى حالة الجهد و البلاء، أو مضى عن موقف الدعاء و التضرّع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به، كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذى مسه. و قيل:

معنى مَرَّ استمرّ على كفره و لم يشكر و لم يتعظ. قال الأخفش: «أن» فى كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا هى المخففة من الثقيلة، و المعنى: كأنه. انتهى. و الجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال. و هذه الحال التى ذكرها اللّه سبحانه للداعى لا تختصّ بأهل الكفر، بل تتّفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء، و قلوبهم بالخشوع و التذلّل عند نزول ما يكرهون بهم. فإذا كشفه اللّه عنهم غفلوا عن الدّعاء و التضرّع، و ذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم اللّه بها عليهم من إجابة دعائهم، و رفع ما نزل بهم من الضرّ، و دفع ما أصابهم من المكروه. و هذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم و الكافر كما يشعر به لفظ الناس، و لفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمك، و ذكرنا الأحوال التى مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر الذى لا نطيق سواه و لا نقدر على غيره، و ما أغناك عنه و أحوجنا إليه و لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «١» و الإشارة بقوله: كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلى مصدر الفعل المذكور بعد كما مرّ غير مرة أى:

مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم. و المسرف فى اللغة: هو الذى ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، و محل كذلك النصب على المصدرية. و التزيين هو إما من جهة اللّه تعالى على طريقة التحلية و عدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. و المعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، و الغفلة عن الشكر، و الاشتغال بالشهوات. ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الردع و الزجر عما صنعه هؤلاء فقال: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا يعنى الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: أهلكناهم من قبل زمانكم؛ و قيل:

الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة فى الزجر، و لَمَّا ظرف لأهلكنا، أى: أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب، و التجارى «٢» على الرسل، و التطاول فى المعاصى من غير تأخير لإهلاكهم كما أخرنا إهلاككم، و الواو فى

---

(١). إبراهيم: ٧.

(٢). قال فى القاموس: و الجراية بالياء نادر: الشجاعة.

وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ للحال بإضمار قد، أى: و قد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات، أى: الآيات البينات الواضحات الدلالة على صدق الرسل؛ و قيل: الواو للعطف على ظَلَمُوا و الأول أولى؛ و قيل: المراد بالظلم هنا هو الشرك، و الواو فى وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا للعطف على ظلموا، أو الجملة اعتراضية، و اللام لتأكيد النفى، أى و ما صح لهم و ما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك و سلب الألطاف عنهم كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الجزاء نجزى القوم المجرمين، و هو الاستئصال الكلى لكل مجرم، و هذا وعيد شديد لمن كان فى عصره من الكفار. أو لكفار مكة على الخصوص، ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ أى: استخلفناكم فى الأرض بعد تلك القرون التى تسمعون أخبارها، و تنظرون آثارها، و الخلائف جمع خليفة، و قد تقدّم الكلام عليه فى آخر سورة الأنعام، و اللام فى لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ لام كى، أى: لكى ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشرّ، و كَيْفَ فى محل نصب بالفعل الذى بعده، أى: لننظر أى عمل تعملونه، أو فى محل نصب على الحالية، أى: على أىّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف، ثم حكى اللّه سبحانه نوعا ثالثا من تعنّتهم و تلاعبهم بآيات اللّه فقال: وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ و فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم، و المراد بالآيات: الآيات التى فى الكتاب العزيز، أى: و إذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد، و إبطال الشرك حال كونها بينات، أى: واضحات الدلالة على المطلوب قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا و هم المنكرون للمعاد، و قد تقدّم تفسيره قريبا، أى: قالوا لمن يتلوها عليهم و هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ طلبوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان، و الوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله، و إما تبديل هذا القرآن بنسخ آياته، أو كلها و وضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم، و يلائم غرضهم، فأمره اللّه أن يقول فى جوابهم: ما يَكُونُ لِي أى: ما ينبغى لى، و لا يحلّ لى أن أبدّله من تلقاء نفسى؛ فنفى عن نفسه أحد القسمين، و هو التبديل لأنه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا، بخلاف القسم الآخر و هو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس فى وسعه، و لا يقدر عليه، و قيل: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نفى أصعبهما بالطريق الأولى، و هذا منه صلّى اللّه عليه و سلّم من باب مجاراة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره اللّه سبحانه بذلك. و هو أعلم بمصالح عباده، و بما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة، و السؤالات الباردة، و تِلْقاءِ مصدر استعمل ظرفا، من قبل نفسى، قال الزجاج:

سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث و النشور؛ و قيل: سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم و تسفيه أحلامهم؛ و قيل: سألوه أن يحوّل الوعد وعيدا، و الحرام حلالا، و الحلال حراما، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له و لا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَ أى: ما أتبع شيئا من الأشياء إلا ما يوحى إلىّ من عند اللّه سبحانه من غير تبديل، و لا تحويل، و لا تحريف، و لا تصحيف، فقصر حاله صلّى اللّه عليه و سلّم على اتباع ما يوحى إليه، و ربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأن

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٩٠
القرآن كلامه، و أنه يقدر على الإتيان بغيره، و التبديل له، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدّمه من الجواب قبلها، و اليوم العظيم هو يوم القيامة، أي: إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند اللّه، و أنه صلّى اللّه عليه و سلّم إنما يبلغ إليهم منه ما أمره اللّه بتبليغه لا يقدر على غير ذلك، فقال: قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ أي: إن هذا القرآن المتلوّ عليكم هو بمشيئة اللّه و إرادته و لو شاء اللّه أن لا أتلوه عليكم، و لا أبلغكم إياه ما تلوته، فالأمر كله منوط بمشيئة اللّه ليس لي في ذلك شي‏ء، قوله: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ معطوف على ما تلوته، و لو شاء ما أدراكم بالقرآن: أي ما أعلمكم به على لساني يقال: دريت الشي‏ء و أدراني اللّه به. هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه:

أعلمه يعلمه. و قرأ ابن كثير: و لأدراكم به بغير ألف بين اللام و الهمزة و المعنى: و لو شاء اللّه لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم، فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل. و قد قرئ أدرؤكم بالهمزة فقيل هي منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد، و يحتمل أن يكون من درأته: إذا دفعته، و أدرأته: إذا جعلته داريا. و المعنى: لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال و تكذبونني. و قرأ ابن عباس و الحسن و لا أدراتكم به قال أبو حاتم: أصله و لا أدريتكم به، فأبدل من الياء ألفا. قال النحّاس: و هذا غلط.

و الرواية عن الحسن و لا أدرأتكم بالهمزة. قوله: فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ تعليل لكون ذلك بمشيئة اللّه و لم يكن من النبي صلّى اللّه عليه و سلّم إلا التبليغ؛ أي قد أقمت فيما بينكم عمرا من قبله، أي: زمانا طويلا و هو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفونني بالصدق و الأمانة، لست ممن يقرأ، و لا ممن يكتب أَ فَلا تَعْقِلُونَ الهمزة: للتقريع و التّوبيخ؛ أي: أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدّة الطويلة بالصدّق و الأمانة، و عدم قراءتي للكتب المنزلة على الرّسل، و تعلّمي لما عند أهلها من العلم، و لا طلبي لشي‏ء من هذا الشأن و لا حرصي عليه، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بسورة منه، و قصرتم عن معارضته و أنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟

و قد أخرج ابن أبي شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد في قوله:

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ الآية، قال: هو قول الإنسان لولده و ماله إذا غضب عليهم: اللهم لا تبارك فيه و العنه لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ قال: لأهلك من دعا عليه و أماته. و أخرج أبو الشيخ عن سعيد ابن جبير في الآية قال: قول الرجل للرجل: اللهم العنه، اللهم اخزه، و هو يحبّ أن يستجاب له. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هو دعاء الرجل على نفسه و ماله بما يكره أن يستجاب له. و حكى القرطبي في تفسيره عن ابن إسحاق و مقاتل في الآية قالا: هو قول النّضر بن الحارث: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فلو عجّل لهم هذا لهلكوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: دَعانا لِجَنْبِهِ قال: مضطجعا. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٩١
في قوله: دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً قال: على كل حال. و أخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال:

ادع اللّه يوم سرّائك يستجاب لك يوم ضرّائك.

و أقول أنا: أكثر من شكر اللّه على السرّاء يدفع عنك الضرّاء، فإنّ وعده للشّاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم، لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم و سلب النقم، فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل

لسان فى كل زمان، و نحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان فى كل زمان. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ الآية، قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا، ما جعلنا خلائف فى الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا اللّه خير أعمالكم بالليل و النهار و السرّ و العلانية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن جريج قال: خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قال: هذا قول مشركى أهل مكة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ أعلمكم به. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ و لا أشعركم به. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ و لا- أنذرتكم به. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ قال: لم أتل عليكم و لم أذكر. و أخرجا عنه قال: لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه، و رأى الرؤيا سنتين، و أوحى اللّه إليه عشر سنين بمكة، و عشرا بالمدينة، و توفى و هو ابن اثنتين و ستين سنة.

و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و الترمذى عن ابن عباس قال: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، و مات و هو ابن ثلاث و ستين سنة.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٧ الى ١٩]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ ما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ استفهام فيه معنى الجحد، أى: لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الكذب، و زيادة كَذِباً مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على اللّه هو كذب فى نفسه. فربما يكون الافتراء كذبا فى الإسناد فقط، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو، ذكر معنى هذا أبو السعود فى تفسيره، قيل: و هذا من جملة رده صلّى اللّه عليه و سلّم على المشركين لما طلبوا منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن، أو يبدله، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على اللّه، و لا ظلم يماثل ذلك، و قيل: المفترى على اللّه

فتح القدير، ج٢، ص: ۴٩٢

الكذب: هم المشركون، و المكذب بآيات اللّه: هم أهل الكتاب إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على اللّه كذبا أو كذب بآياته، أى: لا- يظفرون بمطلوب، و لا- يفوزون بخير، و الضمير فى إِنَّهُ للشأن: أى: إن الشأن هذا. ثم نعى اللّه سبحانه عليهم عبادة الأصنام، و بين أنها لا تنفع من عبدها و لا تضرّ من لم يعبدها فقال: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: متجاوزين اللّه سبحانه إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ أى: ما ليس من شأنه الضرّر و لا النفع، و من حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه، معاقبا لمن عصاه، و الواو لعطف هذه الجملة على جملة وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا و ما فى ما لا يَضُرُّهُمْ موصولة أو موصوفة، و الواو فى وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ للعطف على وَ يَعْبُدُونَ زعموا: أنهم يشفعون لهم عند اللّه فلا يعذبهم بذنوبهم، و هذا غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع و لا ضرّ فى الحال؛ و قيل:

أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يجيب عنهم فقال: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ

اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ قرأ أبو السّمّال العدوىّ: تُنَبِّئُونَ بالتخفيف من أنبأ ينبئ. و قرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبئ. و المعنى: أ تخبرون اللّه أن له شركاء فى ملكه يعبدون كما يعبد، أو أ تخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه، و اللّه سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا و لا شفيعا بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم فى سماواته و فى أرضه؟ و هذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلا، و فى هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثم نزّه اللّه سبحانه نفسه عن إشراكهم، و هو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل فى الكلام الذى أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم، و يحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم جوابا عليهم. قرأ حمزة و الكسائى: عما يشركون بالتحتية. و قرأ الباقون:

بالفوقية، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد. قوله: وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قد تقدّم تفسيره فى البقرة. و المعنى: أن الناس ما كانوا جميعا إلا أمة واحدة موحّدة للّه سبحانه مؤمنة به، فصار البعض كافرا و بقى البعض الآخر مؤمنا، فخالف بعضهم بعضا. و قال الزّجّاج: هم العرب كانوا على الشّرك. و قال:

كلّ مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ. و الأوّل أظهر. و ليس المراد: أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى، بل المراد: كفر البعض و بقى البعض على التوحيد كما قدّمنا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ و هى أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلّا يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فى الدنيا فِيما هم فِيهِ يَخْتَلِفُونَ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التى لا تتخلف، و قيل معنى: لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بإقامة الساعة عليهم، و قيل: لفرغ من هلاكهم، و قيل: الكلمة إن اللّه أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا؛ و قيل: الكلمة: أنه لا يأخذ أحدا إلّا بحجة، و هى إرسال الرسل كما قال تعالى: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»؛ و قيل: الكلمة: قوله: «سبقت رحمتى غضبى». و قرأ عيسى بن عمر لَقُضِيَ بالبناء للفاعل. و قرأ من عداه: بالبناء للمفعول.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قال النّضر: إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات و العزّى،

---

(١). الإسراء: ١٥.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٤٩٣

فأنزل اللّه: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ، وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ الآية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قال ابن مسعود: كانوا على هدى. و روى أنه قرأ هكذا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً قال: آدم وحده فَاخْتَلَفُوا قال: حين قتل أحد ابنى آدم أخاه. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا، فلولا أن ربّك أجّلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

قوله: وَ يَقُولُونَ ذكر سبحانه هاهنا نوعا رابعا من مخازيهم، و هو معطوف على قوله:
وَ يَعْبُدُونَ و جاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه. قيل: و القائلون هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الآيات الباهرة، و المعجزات القاهرة التى لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلا بينا، و مصدّقا قاطعا؛ أى: هلّا أنزلت عليه آية من الآيات التى نقترحها عليه، و نطلبها منه كإحياء الأموات، و جعل الجبال ذهبا، و نحو ذلك؟ ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم فقال: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ أى: إن نزول الآية غيب، و اللّه هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لى، و لا لكم، و لا لسائر مخلوقاته فَانْتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه من الآيات إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لنزولها، و قيل:
المعنى: انتظروا قضاء اللّه بينى و بينكم بإظهار الحق على الباطل. قوله وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آياتِنا لما بيّن سبحانه فى الآية المتقدّمة أنّهم طلبوا آية عنادا، و مكرا، و لجاجا، و أكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء؛ فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم فى آيات اللّه؛ و المراد بإذاقتهم رحمته سبحانه: أنه وسع عليهم فى الأرزاق، و أدرّ عليهم النعم بالمطر و صلاح الثمار بعد أن مستهم الضرّاء بالجدب و ضيق المعايش، فما شكروا نعمته، و لا قدروها حق قدرها، بل أضافوها إلى أصنامهم التى لا تنفع و لا تضرّ، و طعنوا فى آيات اللّه، و احتالوا فى دفعها بكل حيلة، و هو معنى المكر فيها. و إذا الأولى: شرطية، و جوابها: إذا لهم مكر، و هى: فجائية، ذكر معنى ذلك الخليل

و سيبويه. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً أى: أعجل عقوبة، و قد دلّ أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعا، و لكن مكر اللّه أسرع منه. و إذا الفجائية: يستفاد منها السرعة، لأن المعنى أنهم فاجؤوا المكر، أى: أوقعوه على جهة الفجاءة و السرعة، و تسمية عقوبة اللّه سبحانه: مكرا، من باب المشاكلة كما قرر فى مواطن من عبارات الكتاب العزيز إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ قرأ يعقوب فى رواية، و أبو عمرو فى رواية: يمكرون بالتحتية، و قرأ الباقون: بالفوقية. و المعنى: أن رسل اللّه و هم الملائكة يكتبون مكر الكفار لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة، فكيف يخفى على العليم الخبير؟
و فى هذا وعيد لهم شديد، و هذه الجملة تعليلية للجملة التى قبلها، فإن مكرهم إذا كان ظاهرا لا يخفى، فعقوبة اللّه كائنة لا محالة، و معنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدّمة و هى: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ «1» و فى هذه زيادة، و هى أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض، بل يطلبون الغوائل لآيات اللّه بما يدبرونه من المكر هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما، و معنى تسييرهم فى البر أنهم يمشون على أقدامهم التى خلقها لهم لينتفعوا بها و يركبون ما خلقه اللّه لركوبهم من الدواب، و معنى تسييرهم فى البحر: أنه ألهمهم لعمل السفائن التى يركبون فيها فى لجج البحر، و يسر ذلك لهم، و دفع عنهم أسباب الهلاك. و قد قرأ ابن عامر و هو الذى ينشركم فى البحر بالنون و الشين المعجمة من النشر كما فى قوله فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ «2» أى: ينشرهم سبحانه فى البحر فينجى من يشاء، و يغرق من يشاء حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ الفلك: يقع على الواحد و الجمع، و يذكر و يؤنث، و قد تقدّم تحقيقه وَ جَرَيْنَ أى: السفن بهم؛ أى: بالراكبين عليها، و حتى: لانتهاء الغاية، و الغاية:
مضمون الجملة الشرطية بكمالها، فالقيود المعتبرة فى الشرط ثلاثة: أوّلها: الكون فى الفلك، و الثانى: جريها بهم بالريح الطيبة التى ليست بعاصفة، و ثالثها: فرحهم. و القيود المعتبرة فى الجزاء ثلاثة: الأوّل:
جاءَتْها أى: جاءت الفلك ريح عاصف، أو جاءت الريح الطيبة، أى: تلقتها ريح عاصف، و العصوف: شدّة هبوب الريح؛ و الثانى: وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ أى: من جميع الجوانب للفلك، و المراد: جاء الراكبين فيها، و الموج: ما ارتفع من الماء فوق البحر؛ و الثالث: ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ أى: غلب على ظنونهم الهلاك، و أصله من إحاطة العدوّ بقوم أو ببلد، فجعل هذه

الإحاطة مثلا- فی الهلاک، و إن کان بغیر العدو کما هنا، و جواب إذا فی قوله إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ قوله جاءَتْها إلی آخره، و یکون قوله: دَعَوُا اللَّهَ بدلا من ظنوا، لکون هذا الدعاء الواقع منهم إنما کان عند ظنّ الهلاک، و هو الباعث علیه، فکان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله علیه، و یمکن أن یکون جملة دعوا: مستأنفة، کأنه قیل: ماذا صنعوا؟ فقیل: دعوا اللّه، و فی قوله: وَ جَرَیْنَ بِهِمْ التفات من الخطاب إلی الغیبة، جعل الفائدة فیه صاحب الکشاف: المبالغة. و قال الرازی: الانتقال من مقام الخطاب إلی مقام الغیبة فی هذا المقام دلیل المقت، و التبعید، کما أن عکس ذلک فی قوله: إِیَّاکَ نَعْبُدُ «۳» دلیل الرّضا و التّقریب، و انتصاب مخلصین علی الحال؛ أی: لم یشوبوا دعاءهم بشیء من الشوائب، کما جرت عادتهم فی غیر هذا الموطن أنهم یشرکون

---

(۱). یونس: ۱۲.

(۲). الجمعة: ۱۰.

(۳). الفاتحة: ۵.

فتح القدیر، ج۲، ص: ۴۹۵

أصنامهم فی الدعاء، و لیس هذا لأجل الإیمان باللّه وحده، بل لأجل أن ینجیهم مما شارفوه من الهلاک لعلمهم أنه لا ینجیهم سوی اللّه سبحانه. و فی هذا دلیل علی أنّ الخلق جبلوا علی الرجوع إلی اللّه فی الشدائد، و أن المضطرّ یجاب دعاؤه و إن کان کافرا. و فی هذه الآیة بیان أن هؤلاء المشرکین کانوا لا یلتفتون إلی أصنامهم فی هذه الحالة، و ما یشابهها، فیا عجبا! لما حدث فی الإسلام من طوائف یعتقدون فی الأموات؟ فإذا عرضت لهم فی البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، و لم یخلصوا الدعاء للّه کما فعله المشرکون کما تواتر ذلک إلینا تواترا یحصل به القطع، فانظر هداک اللّه ما فعلت هذه الاعتقادات الشیطانیة، و أین وصل بها أهلها، و إلی أین رمی بهم الشیطان، و کیف اقتادهم و تسلط علیهم؟ حتی انقادوا له انقیادا ما کان یطمع فی مثله و لا فی بعضه من عباد الأوثان، فإنا للّه و إنا إلیه راجعون، و اللام فی: لَئِنْ أَنْجَیْتَنا مِنْ هذِهِ هی اللام الموطئة للقسم، أی: قائلین ذلک، و الإشارة بقوله: مِنْ هذِهِ إلی ما وقعوا فیه من مشارفة الهلاک فی البحر، و اللام فی لَنَکُونَنَ جواب القسم، أی: لنکونن فی کل حال ممن یشکر نعمتک التی أنعمت بها علینا، منها هذه النعمة التی نحن بصدد سؤالک أن تفرجها عنا، و تنجینا منها؛ و قیل: إن هذه الجملة مفعول دعوا فَلَمَّا أَنْجاهُمْ اللّه من هذه المحنة التی وقعوا فیها، و أجاب دعاءهم لم یفعلوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدین لا فعل الشاکرین، و جعلوا البغی فی الأرض بغیر الحق مکان الشکر. و إذا فی: إِذا هُمْ یَبْغُونَ هی: الفجائیة؛ أی: فاجؤوا البغی فی الأرض بغیر الحق، و البغی: هو الفساد، من قولهم بغی الجرح:

إذا ترامی فی الفساد، و زیادة: فی الأرض، للدلالة علی أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، و البغی و إن کان ینافی أن یکون بحق، بل لا یکون إلا بالباطل، لکن زیادة: بغیر الحق، إشارة إلی أنهم فعلوا ذلک بغیر شبهة عندهم، بل تمرّدا، و عنادا، لأنهم قد یفعلون ذلک لشبهة یعتقدونها مع کونها باطلة. قوله: یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْیُکُمْ عَلی أَنْفُسِکُمْ مَتاعَ الْحَیاةِ الدُّنْیا لما ذکر سبحانه أنّ هؤلاء المتقدّم ذکرهم یبغون فی الأرض بغیر الحق، ذکر عاقبة البغی، و سوء مغبّته. قرأ ابن إسحاق و حفص و المفضّل بنصب متاع، و قرأ الباقون بالرفع. فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة، أی: بغیکم وبال علی أنفسکم، فیکون بغیکم: مبتدأ، و علی أنفسکم: خبره، و یکون: متاع، فی موضع المصدر المؤکد، کأنه قیل: تتمتعون متاع الحیاة الدنیا، و یکون المصدر مع الفعل المقدّر: استئنافا؛ و قیل: إن متاع علی قراءة النصب: ظرف زمان، نحو مقدم الحاج، أی: زمن متاع الحیاة الدنیا؛ و قیل: هو مفعول له، أی: لأجل متاع الحیاة الدنیا؛ و قیل: منصوب بنزع الخافض، أی: کمتاع؛ و قیل: علی الحال، علی أنه مصدر بمعنی المفعول، أی: ممتعین، و قد نوقش غالب هذه الأقوال فی توجیه النصب. و أما من قرأ: برفع متاع، فجعله خبر المبتدأ، أی: بغیکم متاع

الحياة الدنيا، و يكون: على أنفسكم، متعلق بالمصدر، و التقدير: إنما بغيكم على أمثالكم، و الذين جنسهم جنسكم. متاع الحياة الدنيا و منفعتها التى لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسهم على هذا الوجه: أبناء جنسهم، و عبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة، و قيل: ارتفاع متاع: على أنه خبر ثان؛ و قيل:

على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: هو متاع. قال النحاس: على قراءة الرفع يكون بغيكم مرتفعا بالابتداء،

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۹۶

و خبره: متاع الحياة الدنيا، و على أنفسكم: مفعول البغى، و يجوز أن يكون خبره: على أنفسكم، و يضمر مبتدأ، أى: ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا. انتهى. و قد نوقش أيضا بعض هذه الوجوه المذكورة فى توجيه الرفع بما يطول به البحث فى غير طائل. و الحاصل: أنه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم، فالمعنى، أن ما يقع من البغى على الغير هو بغى على نفس الباغى باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه، و إن جعل الخبر: متاع، فالمراد أن بغى هذا الجنس الإنسانى على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا، فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة و لا عظيم جدوى. ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغى من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال:

ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ و تقديم الخبر للدلالة على القصر، و المعنى: أنكم بعد هذه الحياة الدنيا، و متاعها ترجعون إلى اللّه فيجازى المسيئ بإساءته، و المحسن بإحسانه فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا، أى:

فنخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير و شرّ، و المراد بذلك: المجازاة، كما تقول لمن أساء: سأخبرك بما صنعت، و فيه أشد وعيد، و أفظع تهديد.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله: فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ قال: خوّفهم عذابه و عقوبته. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قال: استهزاء و تكذيب.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ قال: هلكوا. و أخرج ابن أبى شيبة، و أبو داود، و النسائى و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص ما حاصله: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبى جهل، هرب من مكة و ركب البحر فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا، فقال عكرمة: لئن لم ينجنى فى البحر الإخلاص ما ينجينى فى البرّ غيره، اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوّا كريما، فجاء فأسلم. و أخرج أبو الشيخ، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و الخطيب فى تاريخه، و الديلمى فى مسند الفردوس، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثلاث هنّ رواجع على أهلها: المكر، و النكث، و البغى، ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «۱» فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ «۲». و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن أبى بكرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تبغ و لا تكن باغيا، فإن اللّه يقول: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ . و أخرج أبو الشيخ عن مكحول قال: ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه: المكر، و البغى، و النكث، قال اللّه سبحانه: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ

أقول أنا: و ينبغى أن يلحق بهذه الثلاث التى دلّ القرآن على أنها تعود على فاعلها: الخدع، فإن اللّه يقول:

يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ «۳» و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغى منهما». و أخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله.

---

(۱). فاطر: ۴۳.

(۲). الفتح: ۱۰.

(۳). البقرة: ۹.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۴۹۷

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۴ الى ۳۰]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۴) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۵) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۶) وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۷) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (۲۸)

فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (۲۹) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰)

لما ذكر اللّه سبحانه ما تقدّم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها و سرعة تقضيها، و أنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها، و تجتلب النفوس ببهجتها. و تحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا، و يهتكوا حرمهم حبا لها و عشقا لجمالها الظاهرى، و تكالبا على التمتع بها، و تهافتا على نيل ما تشتهى الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ إلى آخر الآية.

و المعنى: أن مثلها فى سرعة الذهاب و الاتصاف بوصف يضادّ ما كانت عليه و يباينه، مثل ما على الأرض ما أنواع النبات فى زوال رونقه و ذهاب بهجته و سرعة تقضيه، بعد أن كان غضّا مخضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة، و زهت أوراقه المتصافحة، و تلألأت أنوار نوره، و حاكت الزهر أنواع زهره، و ليس المشبه به هو ما دخله الكاف فى قوله: كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ بل ما يفهم من الكلام، و الباء فى: فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ للسببية؛ أى فاختلط بسببه نبات الأرض، بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حدّ الكمال، و يحتمل أن يراد: أن النبات كان فى أوّل بروزه و مبدأ حدوثه غير مهتز و لا مترعرع، فإذا نزل الماء عليه اهتز و ربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ من الحبوب و الثمار و الكلأ و التبن، و أخذت الأرض زخرفها. قال فى الصحاح: الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموّه مزوّر، انتهى. و المعنى:

أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب، و بعضه للون الفضة، و بعضه للون الياقوت، و بعضه للون الزمرّد. و أصل ازينت: تزينت: أدغمت التاء فى الزاى و جى‏ء بألف الوصل لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن، و الساكن لا يمكن الابتداء به. و قرأ ابن مسعود و أبيّ بن كعب: و تزينت على الأصل. و قرأ الحسن و الأعرج و أبو العالية: و ازينت على وزن أفعلت؛ أى: ازينت بالزينة التى عليها، شبّهها بالعروس التى تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألوانا كثيرة. و قال عوف بن أبى جميلة: قرأ أشياخنا و ازيانت على وزن اسوادّت، و فى رواية المقدمى: و ازاينت و الأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت. و قرأ الشعبى، و قتادة ازينت، و معنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۴۹۸

وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أی: غلب علی ظنونهم أو تیقنوا أنهم قادرون علی حصادها و الانتفاع بها، و الضمیر فی: علیها للأرض، و المراد: النبات الذی هو علیها أَتاها أَمْرُنا جواب إذا، أی: جاءها أمرنا بإهلاکها و استئصالها و ضربها ببعض العاهات فَجَعَلْناها حَصِيداً أی: جعلنا زرعها شبیها بالمحصود فی قطعة من أصوله. قال أبو عبیدة: الحصید: المستأصل كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ أی: کأن لم یکن زرعها موجودا فیها بالأمس مخضرّا طریا، من غنی بالمکان بالکسر یغنی بالفتح إذا أقام به، و المراد بالأمس: الوقت القریب، و المغانی فی اللغة: المنازل. و قال قتادة: کأن لم تنعم، قال لبید:

و غنیت سبتا قبل مجری داحسلو کان للنفس اللّجوج خلود

و قرأ قتادة: کأن لم یغن بالتحتیة بإرجاع الضمیر إلی الزخرف. و قرأ من عداه: تَغْنَ بالفوقیة بإرجاع الضمیر إلی الأرض كَذلِكَ أی: مثل ذلک التفصیل البدیع نُفَصِّلُ الْآياتِ القرآنیة التی من جملتها هذه الآیة لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فیما اشتملت علیه، و یجوز أن یراد: الآیات التکوینیة. قوله:

وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ لما نفر عباده عن المیل إلی الدنیا بما ضربه لهم من المثل السابق؛ رغبهم فی الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عزّ و جلّ إلی دار السلام، قال الحسن و قتادة: السلام: هو اللّه تعالی، و داره: الجنة. و قال الزجاج: المعنی: و اللّه یدعو إلی دار السلامة: و معنی السلام و السلامة: واحد؛ کالرضاع و الرضاعة، و منه قول الشاعر:

تحیی بالسّلامة أمّ بکرو هل لک بعد قومک من سلام

و قیل: أراد دار السلام الذی هو التحیة، لأن أهلها ینالون من اللّه السلام بمعنی التحیة کما فی قوله:

تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ و قیل: السلام اسم لأحد الجنان السبع؛ أحدها: دار السلام، و الثانیة: دار الجلال، و الثالثة: جنة عدن، و الرابعة: جنة المأوی، و الخامسة: جنة الخلد، و السادسة: جنة الفردوس، و السابعة: جنة النعیم. و قیل: المراد دار السلام الواقع من المؤمنین بعضهم علی بعض فی الجنة، و قد اتفقوا علی أن دار السلام هی الجنة، و إنما اختلفوا فی سبب التسمیة بدار السلام وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ جعل سبحانه الدعوة إلی دار السلام عامة، و الهدایة خاصة بمن یشاء أن یهدیه تکمیلا للحجة، و إظهارا للاستغناء عن خلقه، ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلی قسمین، و بین حال کل طائفة فقال: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ أی: الذین أحسنوا بالقیام بما أوجبه اللّه علیهم من الأعمال، و الکفّ عما نهاهم عنه من المعاصی، و المراد بالحسنی: المثوبة الحسنی. قال ابن الأنباری: العرب توقع هذه اللفظة علی الخصلة المحبوبة المرغوب فیها، و لذلک ترک موصوفها؛ و قیل: المراد بالحسنی الجنة، و أما الزیادة فقیل: المراد بها ما یزید علی المثوبة من التفضل کقوله: لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «۱» و قیل: الزیادة: النظر إلی وجهه الکریم؛ و قیل: الزیادة هی مضاعفة الحسنة إلی عشر أمثالها؛ و قیل: الزیادة غرفة من لؤلؤ، و قیل: الزیادة مغفرة من اللّه و رضوان؛ و قیل: هی أنه سبحانه یعطیهم فی الدنیا من فضله ما لا یحاسبهم علیه؛ و قیل

---

(۱). فاطر: ۳۰.

غیر ذلک مما لا فائدة فی ذکره، و سیأتی بیان ما هو الحق فی آخر البحث وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ معنی یرهق: یلحق، و منه قیل: غلام مراهق إذا لحق بالرجال، و قیل: یعلو، و قیل: یغشی، و المعنی متقارب؛ و القتر: الغبار، و منه قول الفرزدق:

متوّج برداء الملک یتبعهموج تری فوقه الرایات و القترا

و قرأ الحسن: قتر بإسکان المثناة، و المعنی واحد، قاله النحّاس، و واحد القتر: قترة، و الذلّة:

ما یظهر علی الوجه من الخضوع، و الانکسار و الهوان، و المعنی: أنه لا یعلو وجوههم غبرة، و لا یظهر فیها هوان؛ و قیل: القتر:

الكآبة، و قيل: سواد الوجوه، و قيل: هو دخان النار أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ الإشارة إلى المتّصفين بالصفات السابقة، هم أصحاب الجنة الخالدون فيها، المتنعمون بأنواع نعيمها وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها هذا الفريق الثانى من أهل الدعوة، و هو معطوف على لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا كأنه قيل: و للذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أو يقدر: و جزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أى: يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها، و هذا أولى من الأوّل لكونه من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين؛ و المراد بالسيئة: إما الشرك، أو المعاصى التى ليست بشرك، و هى ما يتلبس به العصاة من المعاصى، قال ابن كيسان: الباء زائدة، و المعنى: جزاء سيئة مثلها؛ و قيل:

الباء ما بعدها الخبر، و هى متعلقة بمحذوف قامت مقامه، و المعنى: جزاء سيئة كائن بمثلها، كقولك: إنما أنا بك، و يجوز أن يتعلق بجزاء، و التقدير: جزاء بمثلها كائن، فحذف خبر المبتدأ، و يجوز أن يكون جَزاءُ مرفوعا على تقدير: فلهم جزاء سيئة، فيكون مثل قوله: فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ* أى: فعليه عدّة، و الباء على هذا التقدير: متعلّقة بمحذوف كأنه قال لهم: جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة، أو زائدة. قوله: تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أى: يغشاهم هوان، و خزى. و قرئ: يرهقهم بالتحتية، ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ أى: لا يعصمهم أحد كائنا من كان من سخط اللّه و عذابه، أو ما لهم من جهة اللّه و من عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، و الأوّل أولى، و الجملة: فى محل نصب على الحالية، أو مستأنفة. كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً قطعا: جمع قطعة، و على هذا يكون مظلما: منتصبا على الحال من الليل، أى: أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حالة ظلمته. و قد قرأ بالجمع جمهور القراء. و قرأ الكسائى و ابن كثير قِطَعاً بإسكان الطاء، فيكون مظلما على هذا صفة لقطعا، و يجوز أن يكون حالا من الليل. قال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل أُولئِكَ أى: الموصوفون بهذه الصفات الذميمة أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ و إطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين. قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الحشر: الجمع، و جميعا: منتصب على الحال وَ يَوْمَ منصوب بمضمر، أى: أنذرهم يوم نحشرهم، و الجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة.

و المعنى: أن اللّه سبحانه يحشر العابد و المعبود لسؤالهم ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا فى حالة الحشر، و وقت الجمع تقريعا لهم على رؤوس الأشهاد، و توبيخا لهم مع حضور من يشاركهم فى العبادة، و حضور معبوداتهم

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۰

فتح القدير ج۲ ۵۴۹

مَكانَكُمْ أى: الزموا مكانكم، و اثبتوا فيه، وقفوا فى موضعكم أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ هذا الضمير تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسدّه مسدّ الزموا، و شركاؤكم: معطوف عليه. و قرئ بنصب شركاؤكم على أن الواو واو مع. قوله: فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ أى فرّقنا و قطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا. يقال زيلته فتزيل: أى: فرقته فتفرق، و المزايلة: المفارقة، يقال زايله مزايلة و زيالا- إذا فارقه، و التزايل: التباين قال الفراء: و قرأ بعضهم فزايلنا و المراد بالشركاء هنا: الملائكة، و قيل: الشياطين، و قيل: الأصنام، و إن اللّه سبحانه ينطقها فى هذا الوقت. و قيل: المسيح، و عزير، و الظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان، و جملة وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ فى محل نصب على الحال بتقدير قد، و المعنى:

و قد قال شركاؤهم الذين عبدوهم و جعلوهم شركاء للّه سبحانه: ما كنتم إيانا تعبدون، و إنما عبدتم هواكم و ضلالكم و شياطينكم الذين أغووكم، و إنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء للّه سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم، فهم شركاؤهم فى أموالهم من هذه الحيثية، و قيل: لكونهم شركاؤهم فى هذا الخطاب، و هذا الجحد من الشركاء و إن كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم بالعبادة فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إن كنا أمرنا بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ إن هى المخففة من الثقيلة، و اللام هى الفارقة بينها

و بين النافيـة، و القائـل لهـذا الكلام: هم المعبودون. قـالوا لمن عبـدهم من المشـركين: إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين، و المراد بالغفلة هنا: عدم الرضا بما فعله المشـركون من العبادة لهم، و فى هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشـياطين لأنهم يرضون بمـا فعلـه المشـركون مـن عبـادتهم، و يمكن أن يكونـوا من الشـياطين، و يحمـل هـذا الجحـد منهم على أنهم لم يجبـروهم على عبادتهم، و لا أكرهوهم عليها. هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ أى: فى ذلك المكان، و فى ذلك الموقف، أو فى ذلك الوقت على اسـتعارة اسم الزمان للمكان، تذوق كل نفس و تختبر جزاء ما أسلفت من العمل، فمعنى تَبْلُوا تذوق و تختبر، و قيل: تعلم، و قيل: تتبع، و هـذا على قراءة من قرأ تَبْلُوا بالمثناة الفوقية بإسـناد الفعل إلى كل نفس؛ و أما على قراءة من قرأ نبلو بالنون، فالمعنى: أن اللّه يبتلى كـل نفس و يختبرهـا، و يكون مـا أسـلفت بـدلا من كـل نفس. و المعنى: أنه يعاملهـا معاملـة من يختبرهـا، و يتفقد أحوالهـا. قـوله: وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاـهُمُ الْحَقِ معطوف على فَزَيَّلْنـا، و الضـمير فى ردّوا عائـد إلى الـذين أشـركوا، أى: ردّوا إلى جزائه، و ما أعدّ لهم من عقابه، و مولاهم: ربهم، و الحق صفة له، أى:

الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، و قرئ: الحق بالنصب على المدح، كقولهم:

الحمـد للّه أهـل الحمـد وَ ضَـلَّ عَنْهُمْ مـا كـانُوا يَفْتَرُونَ أى: ضاع و بطل ما كانوا يفترون، من أن الآلهـة التى لهم حقيقـة بالعبادة لتشـفع لهم إلى اللّه و تقرّبهم إليه. و الحاصـل أن هؤلاـء المشـركين يرجعون فى ذلـك المقام إلى الحقّ، و يعترفون به، و يقرّون ببطلان ما كانوا يعبدونه و يجعلونه إلها، و لكن حين لا ينفعهم ذلك.

و قـد أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر عن ابن عبـاس فى قوله: فَاخْتَلَـطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ قال: اختلط فنبت بالماء كل لون مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ كالحنطة، و الشعير، و سائر حبوب الأرض، و البقول، و الثمار،

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۱

و مـا تـأكله الأنعـام، و البهـائم من الحشـيش و المراعى. و أخرج عبـد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ عن قتـادة فى قوله: وَ ازَّيَّنَتْ قـال: أنبتت و حسـنت، و فى قوله: كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ قـال: كأن لم تعش، كأن لم تنعم. و أخرج ابن جرير عن أبىّ بن كعب و ابن عبـاس و مروان ابن الحكم أنهم كانوا يقرءون بعـد قوله: وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها و مـا كـان اللّـه ليهلكهـا إلّـا بـذنوب أهلهـا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر عن أبى سـلمة بن عبـد الرحمن أنه كـان يقرأ: و ما أهلكناهـا إلّـا بـذنوب أهلهـا كَـذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيـاتِ و أخرج ابن المنـذر و أبو الشـيخ عن أبى مجلز قال: كان مكتوب فى سورة يونس إلى حيث هذه الآية حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها إلى يَتَفَكَّرُونَ و لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا، و لا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب، و يتوب اللّه على من تاب. فمحيت.

و أخرج أبو نعيم و الـدمياطى فى معجمه من طريق الكلـبى عن أبى صالـح عن ابن عبـاس فى قوله: وَ اللَّهُ يَـدْعُوا إِلى دارِ السَّلاـمِ يقول: يـدعو إلى عمل الجنـة. و اللّه: السـلام، و الجنـة: داره. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله:

وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ قال: يهديهم للمخرج من الشـبهات، و الفتن، و الضـلالات. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشـعب عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من يوم طلعت شـمسه إلا و كل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسـمعه خلق اللّه كلّهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلمّوا إلى ربكم فما قلّ و كفى خير ممّا كثر و ألهى، و لا آبت شـمسه إلا و كل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسـمعه خلق اللّه كلهم غير الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا، و أعط ممسكا تلفا [فأنزل اللّه فى ذلك كله قرآنا، فى قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلاـمِ و أنزل فى قولهمـا: اللهم أعـط منفقا خلفا ...] «۱» وَ اللَّيْـلِ إِذا يَغْشـى وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى إلى قوله لِلْعُسْـرى «۲». و

أخرج ابن جرير، و الحاكم، و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن سعيد بن أبى هلال سمعت أبا جعفر محمد بن على يتلو وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ فقال: حدّثنى جابر قال: «خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوما فقال: «إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى، و ميكائيل عند رجلى، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، فقال:

اسمع سمعت أذنک، و اعقل عقل قلبک، إنما مثلک و مثل أمتک مثل ملک اتخذ دارا، ثم بنى فيها بيتا، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، و منهم من ترک؛ فاللّه هو الملک، و الدار الإسلام، و البيت الجنة، و أنت يا محمد رسول، فمن أجابک دخل الإسلام، و من دخل الإسلام دخل الجنة، و من دخل الجنة أكل منها». و قد روى معنى هذا من طرق. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ قال: ذكر لنا

---

(١). ما بين حاصرتين استدرک من الدر المنثور [۴/ ۳۵۵].

(٢). الليل: ١- ١٠.

أن فى التوراة مكتوبا: يا باغى الخير هلمّ، و يا باغى الشر اتقه. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه كان إذا قرأ: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ قال: لبيک ربّنا و سعديک. و أخرج أحمد، و مسلم، و الترمذى، و ابن ماجة، و ابن خزيمة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ و غيرهم عن صهيب: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا هذه الآية: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند اللّه موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: و ما هو؟ أ لم يثقل موازيننا، و يبيض وجوهنا، و يدخلنا الجنة، و يزحزحنا عن النار؛ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فو اللّه ما أعطاهم اللّه شيئا أحب إليهم من النظر إليه، و لا أقر لأعينهم». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الرؤية و ابن مردويه عن أبى موسى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يبعث يوم القيامة مناديا ينادى بصوت يسمعه أوّلهم و آخرهم: إن اللّه وعدكم الحسنى و زيادة». فالحسنى: الجنة، و الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه، و البيهقى فى الرؤية عن كعب بن عجرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ قال: «الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن».

و أخرج هؤلاء، و الدارقطنى، و ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ قال: «الذين أحسنوا: أهل التوحيد، و الحسنى: الجنة، و الزيادة: النّظر إلى وجه اللّه». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشيخ، و الدارقطنى، و ابن مردويه، و الخطيب، و ابن النجار عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن خزيمة، و ابن المنذر، و أبو الشيخ، و الدارقطنى و ابن مردويه و البيهقى عن أبى بكر الصدّيق فى الآية قال: الحسنى: الجنة، و الزّيادة: النّظر إلى وجه اللّه. و أخرج ابن مردويه من طريق الحارث عن علىّ بن أبى طالب فى الآية مثله. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ، و الدارقطنى، و البيهقى عن حذيفة فى الآية قال: الزيادة: النظر إلى وجه اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و الدارقطنى، و البيهقى عن أبى موسى نحوه. و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و اللالكائى عن ابن مسعود نحوه. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و

ابن أبی حـاتم، و أبو الشـیخ، و البیهقی عن علیّ قال: الزیادة: غرفـة من لؤلؤة واحـدة، لها أربعـة أبواب، غرفها و أبوابها من لؤلؤة واحـدة. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس فی قوله: وَ زِیادَةٌ قال: هو مثل قوله: وَ لَدَیْنا مَزِیدٌ «۱» یقول: یجزیهم بعملهم، و یزیدهم من فضـله. و قال: مَنْ جاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «۲» و قـد روی عن التابعین و من بعدهم روایات فی تفسـیر الزیادة غالبها أنها النظر إلی وجه اللّه سبحانه. و قـد ثبت التفسـیر بـذلک من قول رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلّم فلم یبق حینئذ لقائل مقال، و لا التفات إلی المجادلات الواقعـة بین المتمذهبـة الذین لا یعرفون من السـنة المطهرة ما ینتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلک لکفّوا عن کثیر من هذیانهم، و اللّه المستعان. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله وَ لا یَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قال: لا یغشاهم

---

(۱). ق: ۳۵.

(۲). الأنعام: ۱۶۰.

فتح القدیر، ج۲، ص: ۵۰۳

قَتَرٌ قال: سواد الوجوه. و أخرج أبو الشـیخ عن عطاء فی الآیـة قال: القتر: سواد الوجه. و أخرج ابن أبی حاتم عن مجاهـد فی الآیة قال: خزی. و أخرج أبو الشیخ، و ابن مردویه عن صهیب عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم:

وَ لا یَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ قال: «بعد نظرهم إلیه عزّ و جلّ». و أخرج أبو الشیخ عن السدّی فی قوله: وَ الَّذِینَ کَسَبُوا السَّیِّئاتِ قال: الذین عملوا الکبائر جَزاءُ سَـیِّئَةٍ بِمِثْلِها قال: النار کَأَنَّما أُغْشِـیَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِماً القطع: السواد نسـختها الآیة فی البقرة: بَلی مَنْ کَسَبَ سَیِّئَةً «۱» الآیـة. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس فی قوله: وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ قال: تغشاهم ذلـة و شدّة. و أخرج ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عنه فی قوله: ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ یقول: من مانع.

و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ قال:

الحشر الموت. و أخرج ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن ابن زید فی قوله: فَزَیَّلْنا بَیْنَهُمْ قال: فرّقنا بینهم.

و أخرج ابن أبی شیبة، و ابن المنـذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشـیخ عن مجاهـد قال: تنصب الآلهـة التی کانوا یعبدونها من دون اللّه، فیقول: هؤلاء الذین کنتم تعبدون من دون اللّه؟ فیقولون نعم، هؤلاء الذین کنا نعبد، فتقول لهم الآلهة: و اللّه ما کنا نسـمع و لا نبصر و لا نعقل و لا نعلم أنکم کنتم تعبدوننا، فیقولون:

بلی و اللّه لإیـاکم کنـا نعبـد، فتقول لهم الآلهـة: فَکَفی بِاللَّهِ شَـهِیداً بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ إِنْ کُنَّا عَنْ عِبادَتِکُمْ لَغافِلِینَ و أخرج ابن مردویه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلّم: «یمثل لهم یوم القیامـة ما کانوا یعبـدون من دون اللّه، فیتبعونهم حتی یؤدّوهم النار، ثم تلا رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلّم هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ . و أخرج أبو الشیخ عن السدّی: هُنالِکَ تَبْلُوا یقول: تتبع. و أخرج ابن أبی شـیبة، و ابن جریر، و ابن المنـذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشـیخ عن مجاهـد قال: تَبْلُوا تختبر. و أخرج ابن جریر و أبو الشـیخ عن ابن زیـد تَبْلُوا قـال: تعـاین کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْـلَفَتْ ما عملت وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ ما کانوا یـدعون معه من الأنداد. و أخرج أبو الشیخ عن السدّی فی قوله: وَ رُدُّوا إِلَی اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ قال: نسـخها قوله: اللَّهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْکافِرِینَ لا مَوْلی لَهُمْ «۲».

[سورة یونس (۱۰): الآیات ۳۱ الی ۴۱]

قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ یَمْلِـکُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصـارَ وَ مَنْ یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ وَ مَنْ

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣۵)

وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٣۶) وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (۴٠)

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۴١)

---

(١). البقرة: ٨١.

(٢). محمد: ١١.

فتح القدير، ج٢، ص: ۵٠۴

لما بيّن فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدّامغة من أحوال الرّزق، و الحواس، و الموت، و الحياة، و الابتداء، و الإعادة، و الإرشاد، و الهدى، و بنى سبحانه الحجج على الاستفهام و تفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ فى إلزام الحجة، و أوقع فى النفوس، فقال: قُلْ يا محمد للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد، و بطلان ما هم عليه من الشرك مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ من السماء بالمطر، و من الأرض بالنبات و المعادن، فإن اعترفوا حصل المطلوب، و إن لم يعترفوا: فلا بدّ أن يعترفوا بأن اللّه هو الذى خلقهما أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ أم: هى المنقطعة، و فى هذا انتقال من سؤال إلى سؤال، و خصّ السّمع؛ و البصر بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة، و القدرة الباهرة العظيمة، أى: من يستطيع ملكهما و تسويتهما على هذه الصفة العجيبة، و الخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم، و يحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين؟ ثم انتقل إلى حجة ثالثة، فقال: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ الإنسان من النطفة، و الطير من البيضة، و النبات من الحبة، أو المؤمن من الكافر وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ أى: النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن، و المراد من هذا الاستفهام: عمن يحيى و يميت، ثم انتقل إلى حجة رابعة، فقال: وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ أى: يقدّره و يقضيه، و هذا من عطف العام على الخاص لأنه قد عمّ ما تقدّم و غيره فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ أى: سيكون قولهم فى جواب هذه الاستفهامات: إن الفاعل لهذه الأمور هو اللّه سبحانه؛ إن أنصفوا و عملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح، و العقل السليم، و ارتفاع الاسم الشريف: على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أى: اللّه يفعل ذلك، ثم أمره اللّه سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم: أَ فَلا تَتَّقُونَ و الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر، أى: تعلمون ذلك أفلا تتقون و تفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى اللّه الذى يفعل هذه الأفعال؟ فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ أى: فذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق، لا ما جعلتموهم شركاء له، و الاستفهام فى قوله: فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ

للتقريع و التوبيخ إن كانت ما استفهامية، لا إن كانت نافية كما يحتمله الكلام، و المعنى: أىّ شىء بعد الحق إلا الضلال؟ فإن ثبوت ربوبية الربّ سبحانه حق بإقرارهم فكان غيره باطلا لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحدا فى ذاته و صفاته فَأَنَّى تُصْرَفُونَ أى: كيف تستجيزون العدول عن الحقّ الظاهر، و تقعون فى الضلال إذ لا واسطة بينهما؟ فمن تخطّى أحدهما وقع فى

الآخر، و الاستفهام للإنكار، و الاستبعاد، و التعجب كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أى: كما حقّ و ثبت أن الحقّ بعده الضّلال، أو كما حقّ أنهم مصروفون عن الحقّ، كذلك حقّت كلمة ربك؛ أى: حكمه و قضاؤه على

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٠٥

الذين فسقوا، أى: خرجوا من الحقّ إلى الباطل، و تمرّدوا فى كفرهم عنادا و مكابرة، و جملة أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بدل من الكلمة. قاله الزّجّاج؛ أى: حقّت عليهم هذه الكلمة، و هى عدم إيمانهم، و يجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام، أى: لأنهم لا يؤمنون. و قال الفرّاء: إنه يجوز إنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف، و قد قرأ نافع و ابن عامر كلمات ربك بالجمع. و قرأ الباقون بالإفراد. قوله قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أورد سبحانه فى هذا حجة خامسة على المشركين، أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقولها لهم، و هم و إن كانوا لا يعترفون بالمعاد، لكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا، و قد أقام الأدلة عليه فى هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف، و لم يكابر كان كالمسلّم عندهم الذى لا جحد له و لا إنكار فيه، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى هو الذى يفعل ذلك لا غيره، و هذا القول الذى قاله النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن أمر اللّه سبحانه له هو نيابة عن المشركين فى الجواب، إما: على طريق التلقين لهم، و تعريفهم كيف يجيبون، و إرشادهم إلى ما يقولون، و إما: لكون هذا المعنى قد بلغ فى الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، و معرفة ما لديه، و إما: لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصّواب فى هذا الجواب فرارا منهم عن أن تلزمهم الحجّة، أو أن يسجل عليهم بالعناد و المكابرة إن حادوا عن الحقّ، و معنى: فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف تؤفكون؟ أى: تصرفون عن الحق و تنقلبون منه إلى غيره.

ثم أمره اللّه سبحانه أن يورد عليهم حجة سادسة فقال: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِ و الاستفهام هاهنا كالاستفهامات السابقة، و الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا فى القرآن كقوله: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ «١» و قوله: الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى «٢» و قوله: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى- وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى «٣» و فعل الهداية يجىء متعديا باللام و إلى، و هما: بمعنى واحد. روى ذلك عن الزّجّاج. و المعنى: قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، و يدعو الناس إلى الحق؟

فإذا قالوا لا، فقل لهم: اللّه يهدى للحق دون غيره، و دليل ذلك ما تقدّم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، و هداية اللّه سبحانه لعباده إلى الحقّ هى: بما نصبه لهم من الآيات فى المخلوقات، و إرساله للرسل، و إنزاله للكتب، و خلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول و الأفهام و الأسماع و الأبصار، و الاستفهام فى قوله: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى للتقرير، و إلزام الحجّة.

و قد اختلف القراء فى لا يَهِدِّي فقرأ أهل المدينة إلا نافعا يهدى بفتح الياء و إسكان الهاء و تشديد الدال فجمعوا فى قراءتهم هذه بين ساكنين. قال النحّاس: و الجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به.

قال محمد بن يزيد: لا بدّ لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر، و سيبويه يسمى هذا اختلاسا.

و قرأ أبو عمرو و قالون فى رواية بين الفتح و الإسكان. و قرأ ابن عامر و ابن كثير و ورش و ابن محيصن بفتح الياء و الهاء و تشديد الدال. قال النحاس: هذه القراءة بينة فى العربية، و الأصل فيها يهتدى، أدغمت التاء فى الدال و قلبت حركتها إلى الهاء. و قرأ حفص و يعقوب و الأعمش مثل قراءة ابن كثير إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا: لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. و قرأ أبو بكر عن عاصم يهدى بكسر الياء و الهاء

(۱). الشعراء: ۷۸.

(۲). طه: ۵۰.

(۳). الأعلى: ۲ و ۳.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۶

و تشديد الدال و ذلك للاتباع. و قرأ حمزة و الكسائى و خلف و يحيى بن وثاب يهدى بفتح الياء و إسكان الهاء و تخفيف الدال من هدى يهدى. قال النحاس: و هذه القراءة لها وجهان فى العربية، و إن كانت بعيدة:

الأوّل: أن الكسائى و الفراء قالا- إن يهدى بمعنى يهتدى. الثانى: أن أبا العباس قال: إن التقدير أم من لا يهدى غيره، ثم تمّ الكلام، و قال بعد ذلك إِلَّا أَنْ يُهْدى أى لكنه يحتاج أن يهدى، فهو استثناء منقطع، كما تقول: فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع، أى: لكنه يحتاج أن يسمع. و المعنى على القراءات المتقدّمة:

أ فمن يهدى الناس إلى الحق، و هو اللّه سبحانه أحق أن يتبع و يقتدى به، أم الأحق بأن يتبع و يقتدى به من لا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلا عن أن يهدى غيره؟ و الاستثناء على هذا استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال.

قوله: فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين: أى: أىّ شىء لكم؟

كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء للّه؟ و كلا- الاستفهامين للتقريع و التوبيخ، و كيف فى محل نصب بتحكمون، ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه فى أمر دينهم، و على أىّ شىء بنوه، و بأىّ شىء اتبعوا هذا الدين الباطل، و هو الشرك فقال: وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً و هذا كلام مبتدأ غير داخل فى الأوامر السابقة. و المعنى: ما يتبع هؤلاء المشركون فى إشراكهم باللّه و جعلهم له أندادا إلا- مجرّد الظن و التّخمين و الحدس، و لم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظنّ من ظنّ من سلفهم أن هذه المعبودات تقرّبهم إلى اللّه، و أنها تشفع لهم، و لم يكن ظنه هذا لمستند قط، بل مجرد خيال مختل، و حدس باطل، و لعل تنكير الظّنّ هنا للتحقير؛ أى: إلا ظنّا ضعيفا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظّنون. و قيل: المراد بالآية إنه ما يتبع أكثرهم فى الإيمان باللّه، و الإقرار به إلا ظنا، و الأوّل أولى. ثم أخبرنا اللّه سبحانه بأن مجرّد الظّنّ لا يغنى من الحق شيئا، لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم، و به يتضح الحق من الباطل، و الظن لا يقوم مقام العلم، و لا يدرك به الحق، و لا يغنى عن الحق فى شىء من الأشياء، و يجوز انتصاب شيئا على المصدرية، أو على أنه مفعول به، و من الحق حال منه، و الجملة مستأنفة لبيان شأن الظن، و بطلانه إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان. قوله وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ لما فرغ سبحانه من دلائل التّوحيد و حججه شرع فى تثبيت أمر النبوّة؛ أى: و ما صح و ما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة، و البراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون اللّه، و إنما هو من عند اللّه عزّ و جلّ، و كيف يصحّ أن يكون مفترى، و قد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا و أدقهم أذهانا وَ لكِنْ كان هذا القرآن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب المنزلة على الأنبياء، و نفس هذا التّصديق معجزة مستقلة، لأنّ أقاصيصه موافقة لما فى الكتب المتقدمة؛ مع أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يطلع على ذلك و لا- تعلمه و لا- سأل عنه و لا- اتصل بمن له علم بذلك، و انتصاب تصديق على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن، و يجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف؛ أى: لكن أنزله اللّه تصديق الذين بين يديه. قال الفراء:

و معنى الآية، و ما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى كقوله: وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَ «۱» وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً «۲». و قيل: إن «أن» بمعنى اللام، أى: و ما كان هذا القرآن ليفترى؛ و قيل: بمعنى لا، أى:

(۱). آل عمران: ۱۶۱.

(۲). التوبة: ۱۲۲.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۰۷

لا يفترى. قال الكسائى و الفراء: إن التقدير فى قوله: وَ لكِنْ تَصْدِيقَ و لكن كان تصديق، و يجوز عندهما الرفع، أى: و لكن هو تصديق؛ و قيل المعنى: و لكن القرآن تصديق الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب، أى: أنها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدّقا لها؛ و قيل المعنى: و لكن تصديق النبىّ الذى بين يدى القرآن، و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن. قوله وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ عطف على قوله وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ فجىء فيه الرفع و النصب على الوجهين المذكورين فى تصديق، و التّفصيل: التبيين؛ أى: يبين ما فى كتب اللّه المتقدّمة، و الكتاب: للجنس؛ و قيل: أراد ما بين فى القرآن من الأحكام، فيكون المراد بالكتاب: القرآن. قوله: لا رَيْبَ فِيهِ الضمير عائد إلى القرآن، و هو داخل فى حكم الاستدراك خبر ثالث، و يجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال من الكتاب، و يجوز أن تكون الجملة استئنافية لا محل لها، و مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ خبر رابع، أى: كائن من ربّ العالمين، و يجوز أن يكون حالا من الكتاب، أو من ضمير القرآن فى قوله: لا رَيْبَ فِيهِ أى: كائنا من ربّ العالمين، و يجوز أن يكون متعلقا بتصديق و تفصيل، و جملة لا رَيْبَ فِيهِ معترضة. قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ الاستفهام للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجّة، و أم: هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، أى: بل أ يقولون افتراه و اختلقه. و قال أبو عبيدة: أم بمعنى الواو، أى: و يقولون افتراه؛ و قيل: الميم زائدة، و التقدير:

أ يقولون افتراه، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، ثم أمره اللّه سبحانه أن يتحدّاهم حتى يظهر عجزهم و يتبين ضعفهم فقال: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أى: إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدا افتراه، فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله فى البلاغة، و جودة الصناعة، فأنتم مثله فى معرفة لغة العرب، و فصاحة الألسن، و بلاغة الكلام وَ ادْعُوا بمظاهريكم و معاونيكم مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دعاءه و الاستعانة به من قبائل العرب، و من آلهتكم التى تجعلونهم شركاء للّه. و قوله: مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلق بادعوا، أى: ادعوا من سوى اللّه من خلقه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم أن هذا القرآن مفترى.

و سبحان اللّه العظيم ما أقوى هذه الحجّة و أوضحها و أظهرها للعقول، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم فى البشرية و العربية، قال لهم: هذا الذى نسبتموه إلىّ و أنا واحد منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا و أنتم الجمع الجمّ بسورة مماثلة لسورة من سوره، و استعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم و تباين مساكنهم، أو من غيرهم من بنى آدم، أو من الجنّ، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا و التى فأنتم صادقون فيما نسبتموه إلىّ و ألصقتموه بى. فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف و التنزّل البالغ بكلمة، و لا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب، و تشبثوا بأذيال العناد البارد، و المكابرة المجردة عن الحجّة، و ذلك مما لا يعجز عنه مبطل، و لهذا قال سبحانه عقب هذا التحدّى البالغ: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ فأضرب عن الكلام الأوّل، و انتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه و يفهموا معانيه و ما اشتمل عليه، و هكذا صنع من تصلّب فى التقليد و لم يبال لما جاء به من دعا إلى الحق و تمسك بذيول الإنصاف، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، و لا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، و يعلم مبناه،

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۰۸

كما تراه عيانا، و تعلمه وجدانا. و الحاصل أن من كذب بالحجّة النّيرة و البرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسّك بشى‏ء فى هذا التكذيب إلا مجرد كونه جاهلا لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت، و مسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، و ليس على الحجة و لا على من جاء بها من تكذيبه شى‏ء:

ما يبلغ الأعداء من جاهل‌ما يبلغ الجاهل من نفسه

قوله: وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ معطوف على: لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ أى: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و بما لم يأتهم تأويله، أو هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به، و لا بلغته عقولهم. و المعنى: أنّ التّكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه، و قبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من أخبار الرسل المتقدّمين و الأمم السابقين، و من حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلة التى أخبر عنها قبل كونها، أو قبل أن يفهموه حق الفهم و تتعقله عقولهم، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغى، و عرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام اللّه؛ و على هذا: فمعنى: تأويله، ما يؤول إليه لمن تدبره من المعانى الرشيقة و اللطائف الأنيقة، و كلمة التوقع أظهر فى المعنى الأوّل كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: مثل ذلك التّكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج اللّه و براهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، و قبل أن يأتيهم تأويله فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف، و المسخ، و نحو ذلك من العقوبات التى حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم، و اشتملت عليه كتب اللّه المنزّلة عليهم. قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ أى: و من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به فى نفسه، و يعلم أنه صدق و حق، و لكنه كذب به مكابرة و عنادا، و قيل: المراد: و منهم من يؤمن به فى المستقبل و إن كذب به فى الحال، و الموصول مبتدأ، و خبره منهم وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ و لا يصدّقه فى نفسه، بل كذب به جهلا كما مرّ تحقيقه، أو لا يؤمن به فى المستقبل، بل يبقى على جحوده و إصراره؛ و قيل: الضمير فى الموضعين، للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد قيل: إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة، و قيل عام فى جميع الكفار وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ فيجازيهم بأعمالهم، و المراد بهم: المصرّون المعاندون، أو بكلا الطائفتين، و هم الذين يؤمنون به فى أنفسهم و يكذبون به فى الظاهر، و الذين يكذبون به جهلا، أو الذين يؤمنون به فى المستقبل، و الذين لا يؤمنون به. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم إن أصرّوا على تكذيبه و استمرّوا عليه:

لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أى: لى جزاء عملى، و لكم جزاء عملكم فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، و ليس علىّ غير ذلك، ثم أكد هذا بقوله: أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ أى: لا تؤاخذون بعملى، و لا أؤاخذ بعملكم. و قد قيل: إن هذا منسوخ بآية السيف، كما ذهب إليه جماعة من المفسرين.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۹

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ يقول:

سبقت كلمة ربك. و أخرج أبو الشيخ عن الضّحّاك قال: صدقت. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى قال:

الأوثان. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخه، فأمره بجهادهم.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۲ الى ۴۹]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۴) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۴۵) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (۴۶)

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۴۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹)

قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلخ، بين اللّه سبحانه فى هذا أن فى أولئك الكفار من بلغت حاله فى النّفرة و العداوة إلى هذا الحدّ، و هى: أنهم يستمعون إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ القرآن و علم الشرائع فى الظاهر، و لكنهم لا يسمعون فى الحقيقة لعدم حصول أثر السماع، و هو: حصول القبول و العمل بما يسمعونه و لهذا قال أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَ يعنى: أن هؤلاء و إن استمعوا فى الظّاهر فهم صمّ، و الصمم مانع من سماعهم، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع؟ و هو الصمم، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك أنهم لا يعقلون؟ فإن من كان أصمّ غير عاقل لا يفهم شيئا و لا يسمع ما يقال له. و جمع الضمير فى يستمعون حملا على معنى من، و أفرده فى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ حملا على لفظه. قيل: و النكتة: كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين، لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة، و انتفاء الحائل، و انفصال الشعاع، و النور الموافق لنور البصر، و التقدير فى قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ: و منهم ناس يستمعون، و منهم بعض ينظر، و الهمزتان فى أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي للإنكار، و الفاء فى الموضعين للعطف على مقدّر، كأنه قيل: أ يستمعون إليك فأنت تسمعهم؟ أ ينظرون إليك فأنت تهديهم؟ و الكلام فى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ كالكلام فى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلخ. لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه فى النظر؟ و قد انضمّ إلى فقد البصر فقد البصيرة، لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به فى بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر، و كذلك الأصمّ العاقل قد يتحدّس تحدّسا يفيده بعض فائدة، بخلاف من جمع له بين عمى البصر و البصيرة فقد تعذر عليه الإدراك. و كذا من جمع له بين الصمم و ذهاب العقل؛ فقد انسدّ عليه باب الهدى، و جواب لو فى الموضعين: محذوف دلّ عليهما ما قبلهما، و المقصود من هذا الكلام: تسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۱۰

فإنّ الطبيب إذا رأى مريضا لا يقبل العلاج أصلا أعرض عنه و استراح من الاشتغال به. قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع و الأبصار، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه اللّه لهم من السّمع و العقل و البصر و البصيرة، بل لأجل ما صار فى طبائعهم من التعصب و المكابرة للحق، و المجادلة بالباطل، و الإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، و لم يظلمهم اللّه شيئا من الأشياء، بل خلقهم، و جعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، و ركّب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، و وفّر مصالحهم الدنيوية عليهم، و خلّى بينهم و بين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش تجنى. و قرأ حمزة و الكسائى: وَ لكِنَّ النَّاسَ بتخفيف النون و رفع الناس، و قرأ الباقون: بتشديدها و نصب الناس. قال النحاس: زعم جماعة من النحويين منهم الفراء: أن العرب إذا قالت: وَ لكِنَ بالواو شدّدوا النون، و إذا حذفوا الواو خففوها. قيل: و النكتة فى وضع الظاهر موضع المضمر: زيادة التعيين و التقرير، و تقديم المفعول على الفعل: لإفادة القصر، أو بمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة. قوله: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ الظرف منصوب بمضمر، أى: و اذكر يوم نحشرهم كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا أى: كأنهم لم يلبثوا، و الجملة فى محلّ نصب على الحال، أى: مشبهين من لم يلبث إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ أى: شيئا قليلا منه، و المراد باللبث هو اللبث فى الدنيا، و قيل: فى القبور، استقلوا المدّة الطويلة إما: لأنهم ضيعوا أعمارهم فى الدنيا، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش و الحيرة، أو: لطول وقوفهم فى المحشر، أو: لشدّة ما هم فيه من العذاب

نسوا لـذات الـدنيا و كأنهـا لم تكن، و مثل هـذا قولهم: لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ «۱» و جملـة: يَتَعـارَفُونَ بَيْنَهُمْ فی محل نصب على الحـال، أو مستأنفة. و المعنى: يعرف بعضـهم بعضـا كـأنهم لم يتفـارقوا إلاـ قليلاـ و ذلـك عنـد خروجهم من القبـور، ثم تنقطع التعـاريف بينهم؛ لمـا بين أيـديهم من الأـمور المدهشـة للعقول المذهلـة للأفهـام. و قيـل: إن هـذا التعارف هو تعارف التوبيـخ و التقريع، يقول بعضـهم لبعض: أنت أضـللتنى و أغويتنى، لاـ تعارف شـفقة و رأفـة كما قال تعالى: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً «۲» و قوله: فَإِذا نُفِخَ فِی الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ «۳» فيجمع: بأن المراد بالتعارف: هو تعارف التوبيخ؛ و عليه يحمل قوله: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ «۴»، و قد جمع بين الآيات المختلفة فی مثل هذا و غيره: بأن المواقف يوم القيامـة مختلفـة فقـد يكون فی بعض المواقف ما لا يكون فی الآخر قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ هذا تسـجيل من اللّه سبحانه عليهم بالخسران، و الجملة فی محل النصب على الحال، و المراد بلقاء اللّه يوم القيامة: عنـد الحسـاب و الجزاء، و نفى عنهـم أن يكونـوا مـن جنس المهتـدين لجهلهم و عـدم طلبهم لمـا ينجيهم و ينفعهم. قـوله: وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أصـله: إن نرک، و مـا مزيـدة لتأكيـد معنى الشـرط و زيـدت نون التأكيـد، و المعنى: إن حصـلت منا الإراءة لک بعض الذی وعدناهم: من إظهار دينک فی حياتک بقتلهم و أسـرهم، و جواب الشـرط محذوف، و التقدير فتراه، أو فـذاک، و جملـة: أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ معطوفـة على مـا قبلهـا، و المعنى: أو لاـ نرينـک ذلـک فی حياتـک، بـل نتوفينک قبل ذلک فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ

---

(۱). الكهف: ۱۹.

(۲). المعارج: ۱۰.

(۳). المؤمنون: ۱۰۱.

(۴). سبأ: ۳۱.

فعند ذلک نعذبهم فی الآخرة فنريک عذابهم فيها، و جواب أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ محذوف أيضا، و التقدير:

أو نتوفينـک قبـل الإراءة فنحن نريک ذلک فی الآخرة؛ و قيل: إن جواب أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ هو قوله: فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ لـدلالته على ما هو المراد من إراءة النبی صـلّى اللّه عليه و سـلّم تعذيبهم فی الآخرة، و قيل: العدول إلى صـيغة المسـتقبل فی الموضـعين لاسـتحضار الصورة، و الأصل: أريناک أو توفيناک، و فيه نظر، فإن إراءته صـلّى اللّه عليه و سلّم لبعض ما وعد اللّه المشركين من العذاب لم تكن قـد وقعت كالوفـاة. و حاصـل معنى هـذه الآيـة: إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا. و قـد أراه اللّه سـبحانه قتلهم، و أسـرهم، و ذلهم، و ذهاب عزّهم، و انكسار سورة كبرهم بما أصابهم به فی يوم بـدر و ما بعده من المواطن، فلله الحمد. قوله: ثُمَّ اللَّهُ شَـهِيدٌ عَلى مـا يَفْعَلُونَ جاء بثم الدالـة على التبعيـد مع كون اللّه سـبحانه شـهيدا على ما يفعلونه فی الـدارين: للدلالـة على أن المراد بهـذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء، أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشـهادة عليهم يوم القيامـة، فجعل ذلک بمنزلة شهادة اللّه عليهم، كما ذكره النيسابوری وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم الخالية فی وقت من الأوقات رَسُولٌ يرسله اللّه إليهم، و يبين لهم ما شرعه اللّه لهم من الأحكـام على حسب مـا تقتضـيه المصـلحة فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ إليهم، و بلغهم ما أرسـله اللّه به، فكـذبوه جميعا قُضِیَ بَيْنَهُمْ أی: بين الأمـة و رسولها بِالْقِسْطِ أی: العـدل، فنجا الرسول، و هلک المكذبون له، كما قال سـبحانه: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا و يجوز أن يراد بالضـمير فی: بينهـم، الأمـة على تقـدير أنـه كـذبه بعضـهم و صـدقه البعض الآـخر، فيهلک المكـذبون، و ينجو المصـدقون وَ هُمْ لاـ يُظْلَمُونَ فی ذلک القضاء، فلا يعـذبون بغير ذنب، و لا يؤاخـذون بغير حجّـة، و منه قوله

تعالى: وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ «۱» و قوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ «۲» و المراد: المبالغة فى إظهار العدل و النّصفة بين العباد، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار، و ذلك أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ و الاستفهام منهم للإنكار، و الاستبعاد، و للقدح فى النبوّة إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ خطابا منهم للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين، و جواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله، و يحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة: جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم اللّه إليهم، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادّة الشبهة، و يقطع اللجاج، فقال:

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً أى: لا أقدر على جلب نفع لها و لا دفع ضرّ عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيرى، و قدّم الضرّ، لأن السياق: لإظهار العجز عن حضور الوعد الذى استعجلوه و استبعدوه، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ منقطع، كما ذكره أئمة التفسير، أى: و لكن ما شاء اللّه من ذلك كان، فكيف أقدر على أن أملك لنفسى ضرا أو نفعا. و فى هذه أعظم واعظ، و أبلغ زاجر لمن صار ديدنه و هجيراه المناداة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا اللّه سبحانه، و كذلك من صار يطلب من الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم ما لا يقدر على تحصيله إلا اللّه سبحانه. فإن هذا مقام ربّ العالمين؛ الذى خلق الأنبياء، و الصالحين، و جميع المخلوقين، و رزقهم، و أحياهم، و يميتهم، فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه، غير قادر عليه،

---

(۱). الزمر: ۶۹.

(۲). النساء: ۴۱.

و يترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شىء، الخالق، الرزاق، المعطى، المانع؟ و حسبك بما فى هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، و خاتم الرسل، يأمره اللّه بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسى ضرّا و لا نفعا، فكيف يملكه لغيره، و كيف يملكه غيره- من رتبته دون رتبته و منزلته لا تبلغ إلى منزلته- لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره، فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثّرى، و يطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا اللّه عزّ و جلّ؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، و لا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى: لا إله إلّا اللّه، و مدلول: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ؟ و أعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء و لا ينكرون عليهم، و لا يحولون بينهم و بين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشدّ منها، فإن أولئك يعترفون بأن اللّه سبحانه هو الخالق، الرازق، المحيى، المميت، الضارّ، النافع، و إنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند اللّه و مقرّبين لهم إليه، و هؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضرّ و النفع، و ينادونهم تارة على الاستقلال، و تارة مع ذى الجلال. و كفاك من شرّ سماعه، و اللّه ناصر دينه و مطهر شريعته من أوضار الشرك و أدناس الكفر، و لقد توسّل الشيطان، أخزاه اللّه، بهذه الذريعة إلى ما تقرّ به عينه و ينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً «۱» إنا للّه و إنا إليه راجعون- ثم بين سبحانه: أن لكل طائفة حدّا محدودا لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال:

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فإذا جاء ذلك الوقت أنجز وعده، و جازى كلا بما يستحقه، و المعنى: أن لكلّ أمة ممن قضى بينهم و بين رسولهم، أو بين بعضهم البعض، أجلا معينا و وقتا خاصا يحلّ بهم ما يريده اللّه سبحانه لهم عند حلوله إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ أى: ذلك الوقت المعيّن، و الضمير راجع إلى كل أمة فَلا يَسْتَأْخِرُونَ عن ذلك الأجل المعين ساعَةً أى: شيئا قليلا من الزمان وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ عليه، و جملة لا يستقدمون: معطوفة على جملة: لا يستأخرون، و مثله قوله تعالى: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ «۲» و

الكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدّم فى تفسير الآية التى فى أوّل الأعراف فلا نعيده.
و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قال: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ الآية، قال: سوء العذاب فى حياتك أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ و فى قوله:
وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قال: يوم القيامة.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٠ الى ٥٨]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤)
أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

---

(١). الكهف: ١٠٤.

(٢). الحجر: ٥.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٥١٣

قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ هذا منه سبحانه تزييف لرأى الكفار فى استعجال العذاب بعد التّزييف الأوّل، أى: أخبرونى إن أتاكم عذاب اللّه بَياتاً أى: وقت بيات، و المراد به: الوقت الذى يبيتون فيه، و ينامون و يغفلون عن التّحرّز، و البيات: بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، و هو منصب على الظرفية، و كذلك: نهارا، أى: وقت الاشتغال بطلب المعاش و الكسب، و الضمير فى: منه، راجع إلى العذاب؛ و قيل: راجع إلى اللّه، و الاستفهام فى ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ للإنكار المتضمن للنهى، كما فى قوله: أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ «١» و وجه الإنكار عليهم فى استعجالهم: أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب، و تأباه الطبائع، فما المقتضى لاستعجالهم له؟ و الجملة المصدرة بالاستفهام جواب الشرط، بحذف الفاء؛ و قيل: إن الجواب محذوف، و المعنى: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه؛ و قيل: إن الجواب قوله: أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ و تكون جملة: ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ اعتراضا، و المعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. و الأوّل أولى. و إنما قال: يستعجل منه المجرمون، و لم يقل يستعجلون منه، للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال، و هو الإجرام، لأن من حقّ المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه، فكيف يستعجله؟ كما يقال لمن يستوهم أمرا إذا طلبه: ما ذا تجنى على نفسك؟ و حكى النحاس عن الزجاج أن الضمير فى مِنْهُ إن عاد إلى العذاب كان لك فى ما ذا تقديران: أحدهما أن تكون ما فى موضع رفع بالابتداء، و ذا بمعنى الذى، و هو خبر ما، و العائد محذوف.
و التقدير الآخر: أن يكون ما ذا اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء، و الخبر: ما بعده، و إن جعل الضمير فى مِنْهُ عائدا إلى اللّه تعالى كان ما ذا شيئا واحدا فى موضع نصب بيستعجل، و المعنى:

أىّ شـىء يسـتعجل منـه المجرمـون، أى: مـن اللّـه عزّ و جـلّ، و دخـول الهمزة الاسـتفهامية فى أَ ثُمَّ إِذا مـا وَقَـعَ آمَنْتُمْ بِهِ على ثم كـدخولها على الواو و الفاء، و هى لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان و ذلك بعـد نزول العـذاب، و هو يتضـمّن معنى التهويل عليهم، و تفظيع مـا فعلوه فى غير وقته، مع تركهم له فى وقته الـذى يحصـل به النّفع و الـدّفع، و هـذه الجملـة داخلـة تحت القول المأمور به، و جىء بكلمة ثم التى للتراخى: دلالة على الاسـتبعاد، و جىء بإذا مع زيادة ما للتأكيد: دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم فى غير وقته ليكون فى ذلك زيادة اسـتجهال لهم، و المعنى: أبعـد ما وقع عـذاب اللّه عليكم، و حلّ بكم سـخطه و انتقامه، آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئا؟ و لا يدفع عنكم ضرّا؛ و قيل: إن هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به، و إنها من قول الملائكـة: اسـتهزاء بهم، و إزراء عليهم. و الأول أولى. و قيل: إن ثم هاهنا هى بفتـح الثاء فتكون ظرفيـة بمعنى هناك. و الأوّل أولى. قوله: آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْـتَعْجِلُونَ قيل: هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذى أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، أى: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به و قد كنتم به تستعجلون؟ أى: بالعذاب، تكذيبا منكم و استهزاء، لأن استعجالهم كان على جهة التّكذيب

---

(۱). النحل: ۱.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۱۴

و الاسـتهزاء، و يكون المقصود بأمره صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم هذا القول: التوبيخ لهم و الاستهزاء بهم و الإزراء عليهم، و جملة: وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ فى محل نصب على الحال، و قرئ الآن بحذف الهمزة التى بعد اللام و إلقاء حركتها على اللام. قوله: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ معطوف على الفعل المقدّر، قيل: الآن، و المراد منه: التقريع و التوبيخ لهم؛ أى: قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر و عدم الإيمان:

إنّ هذا الذى تطلبونه ضرر محض، عار عن النفع من كل وجه، و العاقل لا يطلب ذلك، و يقال لهم على سبيل الإهانة لهم: ذوقوا عـذاب الخلد، أى: العذاب الدائم الذى لا ينقطع، و القائل لهم هذه المقالة، و التى قبلها قيل: هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم، و لا يبعـد أن يكون القائـل لـذلك هم الأنبيـاء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ فى الحياة من الكفر و المعاصى، و الاستفهام:

للتقرير، و كـأنه يقال لهم هـذا القول عنـد اسـتغاثتهم من العـذاب و حلول النقمـة. ثم حكى اللّه سـبحانه عنهم بعـد هـذه البيانات البالغـة، و الجوابـات عـن أقـوالهم الباطلـة. أنهـم اسـتفهموا تـارة أخرى عـن تحقـق العـذاب، فقـال وَ يَسْـتَنْبِئُونَكَ أَ حَـقٌّ هُـوَ أى: يستخبرونك على جهـة الاسـتهزاء منهم و الإنكـار: أحق ما تعـدنا به من العـذاب فى العاجل و الآجل، و هـذا السؤال منهم جهل محض. و ظلمات بعضـها فوق بعض، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه، فصنيعهم فى هذا التّكرير صنيع من لا يعقل ما يقول و لا ما يقال له؛ و قيل: المراد بهذا الاسـتخبار منهم: هو عن حقية القرآن، و ارتفاع حق: على أنه خبر مقدّم، و المبتدأ: هو الضمير الـذى بعده، و تقديم الخبر للاهتمام، أو هو مبتدأ، و الضـمير مرتفع به سادّ مسدّ الخبر، و الجملة فى موضع نصب بيسـتنبؤنك، و قرئ الْحَقِّ هُوَ على أن اللام للجنس، فكـأنه قيـل: أهو الحق لا الباطل؟ قوله: قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ أمر اللّه سـبحانه رسوله صـلّى اللّه عليه و سـلّم أن يقول لهم هذه المقالة جوابا عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء، أى: قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء: إى و ربّى إنه لحق؛ أى نعم و ربى إن ما أعدكم به من العذاب لحقّ ثابت كائن لا محالة. و فى هذا الجواب تأكيـد من وجوه. الأوّل: القسم مع دخول الحرف الخاص بـالقسم الواقع موقع نعم؛ الثانى: دخول إن المؤكـدة؛ الثالث: اللام فى لحق؛ الرابع: اسـمية الجملـة، و ذلك يـدلّ: على أنهم قـد بلغوا فى الإنكار و التمرّد إلى الغاية التى ليس وراءها غاية، ثم

توعدهم بأشدّ توعد، و رهبهم بأعظم ترهيب، فقال: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أى: فائتين العذاب بالهرب و التحيل الذى لا ينفع، و المكابرة التى لا تدفع من قضاء اللّه شيئا، و هذه الجملة: إما معطوفة على جملة جواب القسم، أو: مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب اللّه بوجه من الوجوه؛ ثم زاد فى التأكيد، فقال: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ أى: و لو أن لكل نفس من الأنفس المتّصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر باللّه؛ و عدم الإيمان به؛ ما فى الأرض من كل شىء من الأشياء التى تشتمل عليها من الأموال النفيسة و الذخائر الفائقة لافتدت به، أى: جعلته فدية لها من العذاب، و مثله قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ «١» و قد تقدّم قوله: وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ الضمير راجع إلى الكفار الذين سياق الكلام معهم، و قيل: راجع إلى الأنفس المدلول

---

(١). آل عمران: ٩١.

عليها بكل نفس. و معنى أسروا: أخفوا، أى: لم يظهروا الندامة بل أخفوها لما قد شاهدوه فى ذلك الموطن مما سلب عقولهم، و ذهب بتجلدهم، و يمكن أنه بقى فيهم- و هم على تلك الحالة- عرق ينزعهم إلى العصبية التى كانوا عليها فى الدنيا، فأسرّوا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون؛ و قيل أسرّها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم: خوفا من توبيخهم لهم، لكونهم هم الذين أضلوهم، و حالوا بينهم و بين الإسلام، و وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب، و أما بعد الدخول فيه فهم الذين قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا «١» و قيل:

معنى أسروا: أظهروا، و قيل: وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم، لأن الندامة لا يمكن إظهارها، و منه قول كثير:

فأسررت النّدامة يوم نادىبردّ جمال غاضرة المنادى

و ذكر المبرّد فى ذلك وجهين: الأوّل: أنها بدت فى وجوههم أسرة الندامة، و هى الانكسار، واحدها سرار، و جمعها أسارير، و الثانى: ما تقدّم؛ و قيل: معنى: أَسَرُّوا النَّدامَةَ أخلصوها، لأن إخفاءها إخلاصها، و لَمَّا فى قوله لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ظرف بمعنى: حين، منصوب بأسرّوا؛ أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أى: قضى اللّه بين المؤمنين و بين الكافرين، أو بين الرؤساء و الأتباع، أو بين الظالمين من الكفار و المظلومين؛ و قيل: معنى: القضاء بينهم: إنزال العقوبة عليهم، و القسط: العدل، و جملة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: لا يظلمهم اللّه فيما فعله بهم من العذاب الذى حلّ بهم فإنه بسبب ما كسبوا، و جملة أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مسوقة لتقرير كمال قدرته، لأنّ من ملك ما فى السموات و الأرض تصرّف به كيف يشاء، و غلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات، قيل: لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما فى الأرض لو كان لهم ذلك؛ بين أن الأشياء كلها للّه، و ليس لهم شىء يتمكنون من الافتداء به؛ و قيل: لما أقسم على حقية ما جاء به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين: بأن ما فى العالم على اختلاف أنواعه ملكه، يتصرف به كيف يشاء، و فى تصدير الجملة بحرف التنبيه: تنبيه للغافلين، و إيقاظ للذاهلين، ثم أكد ما سبق بقوله: أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: كائن لا محالة، و هو عامّ يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجا أوّليا، و تصدير الجملة بحرف التنبيه: كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أى: الكفار لا يَعْلَمُونَ ما فيه صلاحهم فيعملون به، و ما فيه فسادهم فيجتنبونه هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ يهب الحياة و يسلبها وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه، و يتفضل على من يشاء من عباده.

قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى: القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه و عرف معناه، و الوعظ فى الأصل: هو

التـذكير بـالعواقب، سواء كان بالترغيب أو الترهيب، و الواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضـرّه، و من فى مِنْ رَبِّكُمْ متعلقة بالفعل، و هو جاءتكم، فتكون ابتدائيـة، أو متعلقـة بمحذوف، فتكون تبعيضـية وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ من الشّكوك التى تعترى بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائـد الحقّـة، و اشتماله على تزييف العقائـد الباطلـة، و الهـدى: الإرشاد لمن اتبع القرآن، و تفكر فيه، و تدبّر معانيه إلى الطّريق الموصلة إلى الجنّة، و الرّحمة: هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأمور

---

(١). المؤمنون: ١٠۶.

فتح القدير، ج٢، ص: ۵١۶

التى يرحم اللّه بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور، ثم أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و جعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم، فقال: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا المراد بالفضل من اللّه سبحانه: هو تفضله على عباده فى الآجل و العاجل بما لا يحيط به الحصر، و الرحمة: رحمته لهم. و روى عن ابن عباس أنـه قـال: فضـل اللّه: القرآن، و رحمته: الإسـلام، و روى عن الحسن، و الضـحاك، و مجاهـد، و قتـادة أن فضـل اللّه: الإيمـان، و رحمته: القرآن. و الأولى: حمل الفضل و الرحمة على العموم، و يدخل فى ذلك ما فى القرآن منهما دخولا أوّليا، و أصل الكلام: قل: بفضل اللّه و برحمته فليفرحوا، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثانى فى قوله: فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا عليه، قيل: و الفاء فى هذا الفعل المحذوف داخلة فى جواب شرط مقدّر كأنه قيل: إن فرحوا بشىء فليخصوا فضل اللّه و رحمته بالفرح.

و تكرير الباء فى: برحمته، للدلالة على أن كل واحد من الفضل و الرحمة سبب مستقلّ فى الفرح، و الفرح:

هو اللذة فى القلب بسبب إدراك المطلوب، و قد ذمّ اللّه سبحانه الفرح فى مواطن، كقوله: لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ «١» و جوّزه فى قوله: فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ «٢» و كما فى هذه الآية، و يجوز أن تتعلق الباء فى بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ بقوله: جاءَتْكُمْ و التقدير: جاءتكم موعظة بفضل اللّه و برحمته فبذلك، أى: فبمجيئها فليفرحوا، و قرأ يزيد بن القعقاع، و يعقوب: فلتفرحوا بالفوقية، و قرأ الجمهور بالتحتية؛ و الضمير فى هُوَ خَيْرٌ راجع إلى المذكور من الفضل و الرحمة، أو: إلى المجىء على الوجه الثانى، أو إلى اسم الإشارة فى قوله فَبِذلِكَ و المعنى: أن هذا خير لهم مما يجمعونه من حطام الدنيا. و قد قرئ بالتاء الفوقية فى يَجْمَعُونَ مطابقة للقراءة بها فى فلتفرحوا. و قد تقرّر فى العربية: أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا فى لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها، و قرأ الجمهور: بالمثناة التحتية فى يجمعون، كما قرءوا فى: فليفرحوا. و روى عن ابن عامر أنه قرأ: بالفوقية فى: يجمعون، و التحتية:

فى: فلتفرحوا.

و قد أخرج الطبرانى، و أبو الشيخ عن أبى الأحوص قال: جاء رجل إلى عبد اللّه بن مسعود فقال: إن أخى يشتكى بطنه؛ فوصف له الخمر، فقال: سبحان اللّه! ما جعل اللّه فى رجس شفاء، إنما الشفاء فى شىء من القرآن و العسل، فهما شفاء لما فى الصّدور و شفاء للناس. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال:

«إن اللّه جعل القرآن شفاء لما فى الصدور، و لم يجعله شفاء لأمراضكم». و أخرج ابن المنذر، و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: «جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى أشتكى صدرى، فقال: اقرأ القرآن، يقول اللّه: شفاء لما فى الصدور». و أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وجع حلقه قال: «عليك بقراءة القرآن و العسل، فالقرآن شفاء لما فى الصدور، و العسل شفاء من كل داء». و أخرج أبو داود، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالتاء، يعنى: الفوقية، و قد روى نحو هذا من غير هذه

الطريق. و أخرج أبو الشيخ، و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ قال: بفضل اللّه: القرآن، و برحمته: أن

---

(۱). القصص: ۷۶.

(۲). آل عمران: ۱۷۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۱۷

جعلكم من أهله». و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن البراء مثله من قوله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عن أبى سعيد الخدرى مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: بكتاب اللّه و بالإسلام.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عنه قال: فضله: الإسلام، و رحمته: القرآن.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عنه أيضا قال: بفضل اللّه:

القرآن، و برحمته: حين جعلهم من أهله. و قد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس: هو خير مما يجمعون من الأموال و الحرث و الأنعام.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۹ الى ۶۴]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (۶۰) وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۶۱) أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۶۳)

لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۴)

أشار سبحانه بقوله قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إلخ، إلى طريق أخرى غير ما تقدّم من إثبات النبوّة، و تقرير ذلك ما حاصله: أنكم تحكمون بتحليل البعض و تحريم البعض، فإن كان بمجرد التشهى و الهوى:

فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم و كافرهم، و إن كان لاعتقادكم أنه حكم اللّه فيكم و فيما رزقكم: فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى اللّه، و لا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم اللّه إلى عباده، و معنى أرأيتم: أخبرونى، و ما فى محل نصب بأرأيتم المتضمن لمعنى أخبرونى و قيل:

إن ما فى محل الرفع بالابتداء، و خبرها: آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ و قُلْ فى قوله: قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ تكرير للتأكيد و الرابط محذوف، و مجموع المبتدأ و الخبر فى محل نصب بأرأيتم، و المعنى: أخبرونى الذى أنزل اللّه إليكم من رزق، فجعلتم منه حراما و حلالا، آللّه أذن لكم فى تحليله و تحريمه؟ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ و على الوجهين: فمن فى: منه حراما، للتبعيض، و التقدير: فجعلتم بعضه حراما و جعلتم بعضه حلالا، و ذلك كما كانوا يفعلونه فى الأنعام حسبما سبق ذلك عنهم فى الكتاب العزيز؛ و معنى إنزال الرزق:

كون المطر ينزل من جهة العلوّ، و كذلك يقضى الأمر فى أرزاق العباد فى السماء على ما قد ثبت فى اللوح المحفوظ من ذكره

سبحانه و تعالى لكل شىء فيه. و روى عن الزجاج أن ما فى موضع نصب بأنزل، و أنزل بمعنى: خلق، كما قال: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ «۱» وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ «۲»

---

(۱). الزمر: ۶.

(۲). الحديد: ۲۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۱۸

و على هذا القول و القول الأوّل يكون قوله: قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ مستأنفا، قيل: و يجوز أن تكون الهمزة فى: آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ للإنكار، و أم منقطعة بمعنى: بل أ تفترون على اللّه، و إظهار الاسم الشريف و تقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء. و فى هذه الآية الشريفة ما يصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد اللّه فى شريعته، بالتحليل و التحريم و الجواز و عدمه، مع كونهم من المقلّدين الذين لا يعقلون حجج اللّه، و لا يفهمونها، و لا يدرون ما هى، و مبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه فى دينهم، و جعلوه شارعا مستقلا، ما عمل به من الكتاب و السّنّة فهو المعمول به عندهم، و ما لم يبلغه أو بلغه و لم يفهمه حق فهمه؛ أو فهمه و أخطأ الصواب فى اجتهاده و ترجيحه؛ فهو فى حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلّدوه متعبّدا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها و محكوما عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها، و قد اجتهد رأيه و أدّى ما عليه، و فاز بأجرين مع الإصابة و أجر مع الخطأ؛ إنّما الشّأن فى جعلهم لرأيه الذى أخطأ فيه شريعة مستقلة، و دليلا معمولا به، و قد أخطئوا فى هذا خطأ بينا، و غلطوا غلطا فاحشا، فإنّ التّرخيص للمجتهد فى اجتهاد رأيه يخصه وحده، و لا قائل من أهل الإسلام المعتدّ بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له و اقتداء به. و ما جاء به المقلدة فى تقوّل هذا الباطل، فهو من الجهل العاطل، اللهمّ كما رزقتنا من العلم ما تميز به بين الحق و الباطل، فارزقنا من الإنصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير. ثم قال: وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: أىّ شىء ظنّهم فى هذا اليوم؟

و ما يصنع بهم فيه؟ و هذه الجملة الاستفهامية المتضمّنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذى أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحلّ بهم من عذاب اللّه، و يَوْمَ الْقِيامَةِ:

منصوب بالظنّ، و ذكر الكذب بعد الافتراء، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لزيادة التأكيد. و قرأ عيسى ابن عمر: وَ ما ظَنُ على أنه فعل إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ يتفضل عليهم بأنواع النعم فى الدنيا و الآخرة وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ اللّه على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه فى كل وقت من الأوقات، و طرفة من الطرفات. قوله: وَ ما تَكُونُ فِى شَأْنٍ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ما نافية، و الشأن:

الأمر، بمعنى: القصد، و أصله الهمز، و جمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنت شأنه: أى ما عملت عمله وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ قال الفرّاء و الزّجّاج: الضمير فى منه يعود على الشّأن، و الجار و المجرور صفة لمصدر محذوف؛ أى: تلاوة كائنة منه، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و المعنى:

أنه يتلو- من أجل الشأن الذى حدث- القرآن فيعلم كيف حكمه، أو يتلو القرآن الذى فى ذلك الشأن.

و قال ابن جرير الطبرى: الضمير عائد فى منه إلى الكتاب،: أى: ما يكون من كتاب اللّه من قرآن، و أعاده تفخيما له كقوله: إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ «۱»، و الخطاب فى: وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ لرسول اللّه و للأمة؛ و قيل:

الخطاب لكفار قريش إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال للمخاطبين، أى: شهودا عليكم بعمله منكم، و الضمير فى: فيه، من قوله: تُفِيضُونَ فِيهِ عائد على العمل، يقال: أفاض فلان فى الحديث و العمل: إذا اندفع فيه. و قال الضحاك: الضمير

فى فيه عائد على القرآن؛ و المعنى: إذ تشيعون

(۱). طه: ۱۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۱۹

فى القرآن الكذب. قوله: وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ قرأ الكسائى: يعزب بكسر الزاى، و قرأ الباقون: بالضم، و هما لغتان فصيحتان، و معنى يعزب: يغيب، و قيل: يبعد. و قال ابن كيسان: يذهب، و هذه المعانى متقاربة، و من: فى مِنْ مِثْقالِ زائدة للتأكيد، أى: و ما يغيب عن ربك وزن ذرة، أى: نملة حمراء، و عبر بالأرض و السماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شىء لا فيهما و لا فيما هو خارج عنهما، لأن الناس لا يشاهدون سواهما و سوى ما فيهما من المخلوقات، و قدّم الأرض على السماء: لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب، و الواو فى وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ للعطف على لفظ مثقال، و انتصبا لكونهما ممتنعين، و يجوز أن يكون العطف على ذرّة، و قيل: انتصابهما بلا التى لنفى الجنس، و الواو للاستئناف، و ليس من متعلقات و ما يعزب، و خبر لا: إِلَّا فِي كِتابٍ و المعنى: و لا أصغر من مثقال الذرّة و لا أكبر منه إلا و هو فى كتاب مبين فكيف يغيب عنه؟ و قرأ يعقوب و حمزة: برفع أصغر و أكبر، و وجه ذلك: أنه معطوف على محل من مثقال، و محله الرفع، و قد أورد على توجيه النصب و الرفع على العطف على لفظ مثقال و محله؛ أو على لفظ ذرّة إشكال، و هو أنه يصير تقدير الآية: لا يعزب عنه شىء فى الأرض و لا فى السماء إلا فى كتاب، و يلزم منه أن يكون ذلك الشىء الذى فى الكتاب خارجا عن علم اللّه و هو محال. و قد أجيب عن هذا الإشكال: بأن الأشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده اللّه ابتداء من غير واسطة، كخلق الملائكة و السموات و الأرض؛ و قسم آخر أوجده بواسطة القسم الأوّل من حوادث عالم الكون و الفساد، و لا شك أن هذا القسم الثانى متباعد فى سلسلة العلية عن مرتبة الأوّل، فالمراد من الآية: أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شىء فى الأرض و لا فى السماء إلا و هو فى كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات، و الغرض: الردّ على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات. و أجيب أيضا: بأن الاستثناء منقطع، أى: و لكن هو فى كتاب مبين. و ذكر أبو على الجرجانى: أن إلا بمعنى الواو، على أن الكلام قد تمّ عند قوله وَ لا أَكْبَرَ ثم وقع الابتداء بقوله: إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أى: و هو أيضا فى كتاب مبين. و العرب قد تضع إلا موضع الواو، و منه قوله تعالى: إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ- إِلَّا مَنْ ظَلَمَ «۱» يعنى: و من ظلم، و قوله لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا «۲» أى: و الذين ظلموا، و قدّر هو بعد الواو التى جاءت إلا بمعناها كما فى قوله: وَ قُولُوا حِطَّةٌ* «۳» أى: هى حطة، و مثله: وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ «۴» وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ «۵». و قال الزّجّاج: إن الرفع على الابتداء فى قراءة من قرأ بالرفع، و خبره: إِلَّا فِي كِتابٍ و اختاره صاحب الكشاف، و اختار فى قراءة النصب التى قرأ بها الجمهور: أنهما منصوبان بلا التى لنفى الجنس، و استشكل العطف بنحو ما قدّمنا. ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء، و كان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين، و كسر لقلوب العاصين، ذكر حال المطيعين، فقال: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ الولىّ فى اللغة: القريب. و المراد بأولياء اللّه: خلّص المؤمنين، كأنهم قربوا من اللّه سبحانه بطاعته و اجتناب معصيته. و قد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ أى:

(۱). النحل: ۱۰ و ۱۱.

(٢). البقرة: ١٥٠.

(٣). البقرة: ٥٨.

(۴). النساء: ١٧١.

(۵). الأنعام: ۵٩.

فتح القدير، ج٢، ص: ۵٢٠

يؤمنون بما يجب الإيمان به، و يتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصى اللّه سبحانه، و المراد بنفى الخوف عنهم:

أنهم لا يخافون أبدا كما يخاف غيرهم، لأنهم قد قاموا بما أوجب اللّه عليهم، و انتهوا عن المعاصى التى نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم و حسن ظنّ بربهم، و كذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء اللّه و قدره فيسلمون للقضاء و القدر، و يريحون قلوبهم عن الهمّ و الكدر، فصدورهم منشرحة، و جوارحهم نشطة، و قلوبهم مسرورة؛ و محل الموصول: النصب، على أنه بدل من أولياء، أو الرفع: على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ: و خبره: لهم البشرى، فيكون غير متصل بما قبله، أو النصب أيضا على المدح أو على أنه وصف لأولياء. قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ تفسير لمعنى كونهم أولياء اللّه، أى: لهم البشرى من اللّه ما داموا فى الحياة بما يوحيه إلى أنبيائه، و ينزله فى كتبه، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة و رضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين فى القرآن الكريم، و كذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة، و ما يتفضل اللّه به عليهم من إجابة دعائهم، و ما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: لا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنة؛ و أما البشرى فى الآخرة: فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم و السلامة من العذاب. و البشرى: مصدر أريد به المبشر به، و الظرفان فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم فى الدنيا و حال كونهم فى الآخرة، و معنى:

لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ لا تغيير لأقواله على العموم، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولا أوّليا، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين فى الدارين هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذى لا يقادر قدره و لا يماثله غيره، و الجملتان: أعنى: لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ و ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ اعتراض فى آخر الكلام عند من يجوّزه، و فائدتهما: تحقيق المبشر به و تعظيم شأنه، أو الأولى:

اعتراضية، و الثانية: تذييلية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ قال: هم أهل الشرك كانوا يحلّون من الأنعام و الحرث ما شاؤوا، و يحرّمون ما شاؤوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ قال:

إذ تفعلون. و أخرج الفريابى و ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ قال: لا يغيب عنه وزن ذرة. وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ قال: هو الكتاب الذى عند اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ قيل: من هم يا ربّ؟ قال: هم الذين آمنوا و كانوا يتّقون. و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: هم الذين إذا رأوا ذكر اللّه. و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا و موقوفا قال: هم الذين إذا رأوا يذكر اللّه لرؤيتهم. و أخرج عنه ابن المبارك، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه مرفوعا مثله. و أخرجه ابن المبارك و ابن أبى شيبة و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعيد بن جبير مرفوعا، و هو مرسل. و روى

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۲۱
نحوه من طرق أخرى مرفوعا و موقوفا. و أخرج أحمد و الحكيم الترمذى عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لا يحقّ العبد حقّ صريح الإيمان حتى يحبّ للّه و يبغض للّه، فإذا أحبّ للّه و أبغض للّه فقد استحقّ الولاء من اللّه، و إن أوليائى من عبادى و أحبّائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى و أذكر بذكرهم».
و أخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «خيار عباد اللّه الذين إذا رأوا ذكر اللّه، و شرار عباده المشّاءون بالنّميمة المفرّقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت». و أخرج الحكيم الترمذى عن عبد اللّه ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خياركم من ذكركم اللّه رؤيته، و زاد فى علمكم منطقه، و رغبكم فى الآخرة عمله». و أخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عمر مرفوعا: «إن للّه عبادا ليسوا بالأنبياء و لا شهداء، يغبطهم النبيون و الشهداء يوم القيامة بقربهم و مجلسهم منه، فجثا أعرابى على ركبتيه فقال: يا رسول اللّه! صفهم لنا، و حلهم لنا؟ قال: قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل، تصافوا فى اللّه و تحابّوا فى اللّه، يضع اللّه لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم، يخاف الناس و لا يخافون، هم أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون». و أخرج أبو داود و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عمر بن الخطاب قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر نحوه، قال ابن كثير: و إسناده جيد. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال:
«سئل النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ الآية فقال: الذين يتحابّون فى اللّه». و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا مثله. و قد ورد فى فضل المتحابين فى اللّه أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية.
و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و حسنه و الحكيم فى نوادر الأصول و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فقال: ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت علىّ: «هى الرّؤيا الصّالحة يراها المسلم، أو ترى له، فهى: بشراه فى الحياة الدّنيا .. و بشراه فى الآخرة: الجنة». و فى إسناده هذا الرجل المجهول. و أخرج أبو داود الطيالسى و أحمد و الدارمى و الترمذى و ابن ماجة و الحكيم الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن عبادة بن الصامت قال:
«سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا قال: هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له». و أخرج أحمد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن عبد اللّه بن عمرو عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا قال: «الرؤيا الصّالحة يبشّر بها المؤمن جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوّة، فمن رأى ذلك فليخبر بها». الحديث. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «هى فى الدّنيا الرّؤيا الصّالحة يراها العبد الصّالح أو ترى له،
فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۲۲
و فى الآخرة: الجنة». و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن مندة من طريق أبى جعفر عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسّر البشرى فى الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة، و فى الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت:

إن اللّه قد غفر لك و لمن حملك إلى قبرك. و أخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثل حديث جابر. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا الشطر الأوّل من حديث جابر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن ابن عباس مثله. و قد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصّالحة من المبشّرات، و أنها جزء من أجزاء النبوّة، و لكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية. و قد روى أن المراد بالبشرى فى الآية هى قوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً «۱» أخرج ذلك ابن جرير و ابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس. و أخرج ابن المنذر عنه من طريق مقسم: أنها قوله: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا* «۲». و أخرج ابن جرير و الحاكم و البيهقى عن نافع قال: خطب الحجاج فقال: إن ابن الزبير بدّل كتاب اللّه، فقال ابن عمر: لا تستطيع ذلك أنت و لا ابن الزبير، لا تبديل لكلمات اللّه.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۵ الى ۷۰]

وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۵) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۷) قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۶۹)
مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰)

قوله: وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ نهى للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الحزن من قول الكفار المتضمّن للطعن عليه، و تكذيبه، و القدح فى دينه، و المقصود: التسلية له و التبشير. ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم معلّلا لما ذكره من النهى لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً أى: الغلبة و القهر له فى مملكته و سلطانه ليست لأحد من عباده، و إذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة و هم لا يملكون من الغلبة شيئا؟ و قرئ: يحزنك من أحزنه، و قرئ: إِنَّ الْعِزَّةَ بفتح الهمزة على معنى: لأن العزّة للّه، و لا ينافى ما فى هذه الآية من جعل العزّة جميعها للّه تعالى قوله سبحانه: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ «۳» لأن كل عزّة باللّه فهى كلها للّه، و منه قوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۴» إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا «۵». أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ و من جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و إذا كانوا فى ملكه يتصرّف فيهم كيف يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بما لا يأذن اللّه به؟ و غلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف. و فى الآية نعى على عبّاد البشر و الملائكة و الجمادات،

---

(۱). الأحزاب: ۴۷.

(۲). فصلت: ۳۰.

(۳). المنافقون: ۸.

(۴). المجادلة: ۲۱.

(۵). غافر: ۵۱.

لأنهم عبدوا المملوك و تركوا المالك، و ذلك مخالف لما يوجبه العقل، و لهذا عقبه بقوله: وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ و المعنى: أنهم و إن سموا معبوداتهم: شركاء للّه، فليست شركاء له على الحقية، لأن ذلك محال لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ

إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «۱» و ما: فى: و ما يتبع: نافية، و شركاء: مفعول يتبع، و على هذا يكون مفعول يدعون محذوفا، و الأصل: و ما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء فى الحقيقة، إنما هى أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، و يجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون، و حذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، و يجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء؟ و يكون على هذا الوجه شركاء: منصوبا بيدعون، و الكلام خارج مخرج التوبيخ لهم و الإزراء عليهم. و يجوز أن تكون ما: موصولة معطوفة على من فى السّموات؛ أى للّه من فى السموات و من فى الأرض و ما يتبع الذين من دون اللّه شركاء؛ و المعنى: أنّ اللّه مالك لمعبوداتهم؛ لكونها من جملة من فى السّموات و من فى الأرض. ثم زاد سبحانه فى تأكيد الردّ عليهم؛ و الدفع لأقوالهم فقال: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ أى:

ما يتبعون يقينا إنما يتبعون ظنا، و الظن لا يغنى من الحق شيئا إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أى: يقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا و كذبا بحتا، و قد تقدّمت هذه الآية فى الأنعام. ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً أى:

جعل لعباده الزمان منقسما إلى قسمين؛ أحدهما مظلم، و هو الليل، لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة و التّعب، و يريحون أنفسهم عن الكدّ و الكسب؛ و الآخر مبصر، لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم و توفير معايشهم، و يحصلون ما يحتاجون إليه فى وقت مضىء منير، لا يخفى عليهم فيه كبير و لا حقير، و جعله سبحانه للنهار مبصرا: مجاز. و المعنى: أنه مبصر صاحبه، كقولهم: نهاره صائم، و الإشارة بقوله إِنَّ فِي ذلِكَ إلى الجعل المذكور لَآياتٍ عجيبة كثيرة لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أى: يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المتبهة على الآيات التكوينية مما ذكره سبحانه هاهنا منها و من غيرها مما لم يذكره، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون و يعتبرون، فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان. قوله: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التى كانوا يتكلمون بها، و هو زعمهم بأن اللّه سبحانه اتخذ ولدا، فردّ ذلك عليهم بقوله سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُ فنزّه جل و علا نفسه عما نسبوه إليه من هذا الباطل البيّن، و بين أنه غنىّ عن ذلك، و أن الولد إنما يطلب للحاجة، و الغنىّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، و إذا انتفت الحاجة انتفى الولد، و أيضا إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، و الأزلىّ القديم لا يفتقر إلى ذلك. و قد تقدّم تفسير الآية فى البقرة. ثم بالغ فى الردّ عليهم بما هو كالبرهان، فقال: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و إذا كان الكل له؛ و فى ملكه؛ فلا يصح أن يكون شىء مما فيهما ولدا له؛ للمنافاة بين الملك و البنوة و الأبوّة. ثم زيف دعواهم الباطلة، و بين أنها بلا دليل، فقال: إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أى ما عندكم من حجة و برهان بهذا القول الذى تقولونه، و مِنْ فى: مِنْ سُلْطانٍ زائدة للتأكيد، و الجار و المجرور فى بِهذا متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة

---

(۱). الأنبياء: ۲۲.

و البرهان، أو متعلق ب: ما عندكم، لما فيه من معنى الاستقرار. ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء، فقال: أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ و يستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم فى شىء، بل من الجهل المحض، ثم أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم قولا يدلّ على أن ما قالوه كذب، و أن من كذب على اللّه لا يفلح، فقال: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ أى: كل مفتر هذا شأنه، و يدخل فيه هؤلاء دخولا أوّليا. و ذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد، كما سبق فى مواضع من الكتاب العزيز. و المعنى: أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من

المطالب. ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء؛ و إن فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل فى الدنيا، ثم يتعقبه الموت و الرجوع إلى اللّه، فيعذب المفترى عذابا مؤبدا. فيكون متاع: خبر مبتدأ محذوف، و الجملة:
مستأنفة، لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة يعتدّ بها، بل هو متاع يسير فى الدنيا يتعقّبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها: الكذب على اللّه. و قال الأخفش: إنّ التقدير: لهم متاع فى الدنيا، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر. و قال الكسائى: التقدير: ذلك متاع، أو هو متاع، فيكون المحذوف على هذا: هو المبتدأ.
و قد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى: وَ لا يَحْزُنْكَ لما لم ينتفعوا بما جاءهم من اللّه: و أقاموا على كفرهم، كبر ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فجاءه من اللّه فيما يعاتبه: وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ يسمع ما يقولون و يعلمه، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ النَّهارَ مُبْصِراً قال: منيرا. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله:
إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا يقول: ما عندكم سلطان بهذا.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)
لما بالغ سبحانه فى تقرير البراهين الواضحة و دفع الشبهة المنهارة؛ شرع فى ذكر قصص الأنبياء لما فى ذلك من التسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ أى: على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة نَبَأَ نُوحٍ أى: خبره، و النبأ: هو الخبر الذى له خطر و شأن، و المراد: ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش و أمثالهم إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أى: وقت قال لقومه، و الظرف: منصوب بنبإ، أو بدل منه بدل اشتمال، و اللام فى: لِقَوْمِهِ لام التبليغ يا قَوْمِ إِنْ كانَ

كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي أى: عظم و ثقل، و المقام بفتح الميم: الموضع الذى يقام فيه، و بالضم: الإقامة. و قد اتفق القراء على الفتح، و كنى بالمقام عن نفسه كما يقال: فعلته لمكان فلان، أى: لأجله، و منه: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ «١» أى: خاف ربّه، و يجوز أن يراد بالمقام المكث، أى: شقّ عليكم مكثى بين أظهركم، و يجوز أن يراد بالمقام: القيام؛ لأنّ الواعظ يقوم حال وعظه؛ و المعنى: إن كان كبر عليكم قيامى بالوعظ فى مواطن اجتماعكم، و كبر عليكم تذكيرى لكم بِآياتِ اللَّهِ التكوينية و التنزيلية فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ هذه الجملة جواب الشرط، و المعنى: إنى لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على اللّه، فإن ذلك دأبى الذى أنا عليه قديما و حديثا. و يجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل، و يجوز أن يكون جواب الشرط فَأَجْمِعُوا و جملة فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ اعتراض، كقولك: إن كنت أنكرت علىّ شيئا فاللّه حسبى.
و معنى: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ اعتزموا عليه، من أجمع الأمر: إذا نواه و عزم عليه، قاله الفراء. و روى عن الفراء أنه قال: أجمع الشيء: أعدّه. و قال مؤرج السدوسى: أجمع الأمر: أفصح من أجمع عليه، و أنشد:

يا ليت شعرى و المنى لا تنفع هل أغدون يوما و أمرى مجمع

و قال أبو الهيثم: أجمع أمره: جعله جميعا بعد ما كان متفرّقا، و تفرّقه أن تقول مرّة: أفعل كذا، و مرّة:

أفعل كذا، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه، أى: جعله جميعا، فهذا هو الأصل فى الإجماع، ثم صار بمعنى العزم. و قد اتفق جمهور القراء على نصب شُرَكاءَكُمْ و قطع الهمزة من أجمعوا. و قرأ يعقوب و عاصم الجحدرى بهمزة وصل فى اجمعوا على أنه من جمع يجمع جمعا. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق و يعقوب:

و شركاؤكم بالرفع. قال النحّاس: و فى نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه: الأوّل بمعنى و ادعوا شركاءكم، قاله الكسائى و الفرّاء، أى: ادعوهم لنصرتكم، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر.

و قال محمد بن يزيد المبرّد: هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر:

يا ليت زوجك فى الوغى متقلّدا سيفا و رمحا

و الرمح لا يتقلّد به، لكنه محمول كالسيف. و قال الزجّاج: المعنى مع شركائكم، فالواو على هذا، واو مع. و أما على قراءة اجمعوا بهمزة وصل فالعطف ظاهر؛ أى: اجمعوا أمركم و اجمعوا شركاءكم. و أما توجيه قراءة الرفع، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع فى اجمعوا، و حسّن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر فى ذلك أن الكلام قد طال. قال النحّاس و غيره: و هذه القراءة بعيدة لأنه لو كان شركاءكم مرفوعا لرسم فى المصحف بالواو، و ليس ذلك موجودا فيه. قال المهدوى: و يجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء، و الخبر محذوف، أى: و شركاؤكم ليجمعوا أمرهم، و نسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل: لقصد التوبيخ، و التقريع لمن عبدها. و روى عن أبيّ أنه قرأ: و ادعوا شركاءكم بإظهار الفعل. قوله ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً الغمة: التغطية من قولهم، غمّ الهلال: إذا استتر؛ أى: ليكن أمركم ظاهرا منكشفا. قال طرفه:

---

(١). الرحمن: ۴۶.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۲۶ لعمرك ما أمرى علىّ بغمّة نهارى و لا ليلى علىّ بسرمد

هكذا قال الزّجاج. و قال الهيثم: معناه لا يكن أمركم عليكم مبهما. و قيل: إن الغمّة: ضيق الأمر، كذا روى عن أبى عبيدة. و المعنى: لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتى و المجاملة لى ضيقا شديدا، بل ادفعوا هذا الضيق و الشدّة بما شئتم و قدرتم عليه، و على الوجهين الأوّلين يكون المراد بالأمر الثانى هو الأمر الأول، و على الثالث يكون المراد به غيره. قوله: ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ أى: ذلك الأمر الذى تريدونه بى.

و أصل اقضوا من القضاء، و هو الإحكام. و المعنى: أحكموا ذلك الأمر. قال الأخفش و الكسائى: هو مثل وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ «١» أى: أنهيناه إليه و أبلغناه إياه، ثم لا تنظرون: أى لا تمهلون، بل عجلوا أمركم و اصنعوا ما بدا لكم. و قيل معناه: ثم امضوا إلىّ و لا تؤخرون. قال النحاس: هذا قول صحيح فى اللغة، و منه قضى الميت: مضى. و حكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ ثم أفضوا بالفاء و قطع الهمزة، أى:

توجهوا، و فى هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدلّ على وثوقه بنصر ربه، و عدم مبالاته بما يتوعده به قومه.

ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار و الإنذار و تبليغ الشريعة عن اللّه ليس هو لطمع دنيوىّ، و لا لغرض خسيس، فقال: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أى: إن أعرضتم عن العمل بنصحى لكم و تذكيرى إياكم، فما سألتكم فى مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه إلىّ حتى تتهمونى فيما جئت به، و الفاء فى فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و الفاء فى فَما سَأَلْتُكُمْ جزائية إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ أى: ما ثوابى فى النصح و التذكير إلا عليه سبحانه، فهو يثيبنى آمنتم أو توليتم. قرأ أهل المدينة و أبو عمر

و ابن عامر و حفص بتحريك الياء من أجرى، و قرأ الباقون بالسكون. وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ المنقادين لحكم اللّه الذين يجعلون أعمالهم خالصة للّه سبحانه لا يأخذون عليها أجرا فى عاجل. قوله: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ أى: استمروا على تكذيبه و أصرّوا على ذلك، و ليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن، و المراد معه من قد أجابه و صار على دينه، و الخلائف جمع خليفة، و المعنى: أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التى كانت للمهلكين بالغرق، و يخلفونهم فيها وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به أغرقهم اللّه بالطوفان فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ فيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تهديد للمشركين و تهويل عليهم ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ أى: من بعد نوح رُسُلًا كهود و صالح و إبراهيم و لوط و شعيب فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بالمعجزات و بما أرسلهم اللّه به من الشرائع التى شرعها اللّه لقوم كل نبىّ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أى: فما أحدثوا الإيمان بل استمرّوا على الكفر و أصرّوا عليه. و المعنى: أنه ما صح و لا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل اللّه إليهم رسله أن يؤمنوا فى وقت من الأوقات بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ أى: من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجىء الرسل إليهم. و المعنى:

أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل اللّه إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه إليهم، لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، و لو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولا، و هذا مبنىّ على أن الضمير فى: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا و فى بِما كَذَّبُوا راجع إلى القوم المذكورين فى

---

(١). الحجر: ۶۶.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ۵٢٧

قوله: إِلى قَوْمِهِمْ و قيل: ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح، أى: فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتى هؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بعدهم وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ و قيل:

إن الباء فى بما كذبوا به من قبل للسّببية؛ أى: فما كانوا ليؤمنوا عند مجىء الرّسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم، و فيه نظر. و قيل المعنى: بما كذبوا به من قبل: أى فى عالم الذرّ فإن فيهم من كذب بقلبه، و إن آمنوا ظاهرا. قال النحاس: و من أحسن ما قيل: إنه لقوم بأعيانهم كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ أى: مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود فى الكفر. و قد تقدّم تفسير هذا فى غير موضع.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الأعرج فى قوله: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ يقول: فأحكموا أمركم و ادعوا شركاءكم. و أخرج أيضا عن الحسن فى الآية. أى: فليجمعوا أمرهم معكم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً قال: لا يكبر عليكم أمركم ثُمَّ اقْضُوا ما أنتم قاضون. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله:

ثُمَّ اقْضُوا قال: انهضوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ يقول: و لا تؤخرون.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧۵ الى ٨٧]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧۵) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧۶) قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩)

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)

فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٨٦) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ معطوف على قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا و الضمير فى: من بعدهم، راجع إلى الرسل المتقدّم ذكرهم، و خصّ موسى و هارون بالذّكر مع دخولهما تحت الرسل: لمزيد شرفهما و خطر شأن ما جرى بينهما و بين فرعون، و المراد بالملإ: الأشراف، و المراد بالآيات: المعجزات، و هى التّسع المذكورة فى الكتاب العزيز فَاسْتَكْبَرُوا عن قبولها، و لم يتواضعوا لها، و يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ أى: كانوا ذوى إجرام عظام و آثام

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٢٨

كبيرة، فبسبب ذلك اجترءوا على ردّها، لأن الذنوب تحول بين صاحبها و بين إدراك الحق و إبصار الصواب، قيل: و هذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها. قوله: فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ أى: فلما جاء فرعون و ملأه الحقّ من عند اللّه و هو المعجزات، لم يؤمنوا بها، بل حملوها على السحر مكابرة منهم، فردّ عليهم موسى قائلا: أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا قيل فى الكلام حذف، و التقدير: أ تقولون للحقّ: سحر، فلا تقولوا ذلك، ثم استأنف إنكارا آخر من جهة نفسه فقال:

أَ سِحْرٌ هذا فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى، و الملجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكى ما قالوه بقوله: أَ سِحْرٌ هذا بل هم قاطعون بأنه سحر، لأنهم قالوا: إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ فحينئذ لا يكون قوله: أَ سِحْرٌ هذا من قولهم، و قال الأخفش: هو من قولهم، و فيه نظر لما قدّمنا؛ و قيل: معنى: أَ تَقُولُونَ أ تعيبون الحقّ و تطعنون فيه و كان عليكم أن تذعنوا له، ثم قال: أسحر هذا؟

منكرا لما قالوه؛ و قيل: إن مفعول أَ تَقُولُونَ محذوف، و هو ما دلّ عليه قولهم: إِنَّ هذا لَسِحْرٌ و التقدير: أ تقولون ما تقولون، يعنى: قولهم: إن هذا لسحر مبين، ثم قيل: أسحر هذا؟ و على هذا التقدير و التقدير الأوّل فتكون جملة أَ سِحْرٌ هذا مستأنفة من جهة موسى عليه السلام، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا قال لهم موسى لما قالوا:

إن هذا لسحر مبين؟ فقيل: قال أ تقولون للحق لما جاءكم؟ على طريقة الاستفهام الإنكارى، و المعنى: أ تقولون للحق لما جاءكم إنّ هذا لسحر مبين؟ و هو أبعد شيء من السحر. ثم أنكر عليهم و قرّعهم و وبخهم فقال:

أَ سِحْرٌ هذا فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد إنكار، و توبيخ بعد توبيخ، و تجهيل بعد تجهيل، و جملة لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: أ تقولون للحق إنه سحر، و الحال أنه لا يفلح الساحرون، فلا يظفرون بمطلوب و لا يفوزون بخير، و لا ينجون من مكروه، فكيف يقع فى هذا من هو مرسل من عند اللّه، و قد أيده بالمعجزات و البراهين الواضحة؟ و جملة قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؟ و فى هذا ما يدلّ على أنهم انقطعوا عن الدليل و عجزوا عن إبراز الحجّة، و لم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل و البلادة، و هو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، و ضموا إلى ذلك ما هو غرضهم، و غاية مطلبهم، و

سبب مكابرتهم للحق، و جحودهم للآيات البينة، و هو الرياسة الدنيوية التى خافوا عليها و ظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، و كم بقى على الباطل، و هو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم فى سابق الدهر و لا حقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، و منهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، و إلى الرواية الصحيحة من الرأى البحت. يقال: لفته لفتا: إذا صرفه عن الشيء و لواه عنه، و منه قول الشاعر:

تلفّت نحو الحيّ حتّى رأيتنىو جعت من الإصغاء ليتا و أخدعا

أى: تريد أن تصرفنا عن الشيء الذى وجدنا عليه آباءنا، و هو عبادة الأصنام. و المراد بالكبرياء:

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۲۹

الملك. قال الزجاج: سمى الملك: كبرياء، لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا؛ و قيل: سمى بذلك: لأن الملك يتكبر.

و الحاصل: أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسّك بالتقليد للآباء، و الحرص على الرياسة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوا النبى و صدّقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه و لم يبق للملك رئاسة تامة، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات و العادات، ثم قالوا: وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ تصريحا منهم بالتكذيب، و قطعا للطمع فى إيمانهم، و قد أفرد الخطاب لموسى فى قولهم: أ جئتنا لتلفتنا، ثم جمعوا بينه و بين هارون فى الخطاب فى قولهم: وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ و وجه ذلك:

أنهم أسندوا المجيء و الصرف عن طريق آبائهم إلى موسى، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن اللّه ما شرعه لهم، و جمعوا بينهما فى الضميرين الآخرين، لأنّ الكبرياء شامل لهما فى زعمهم، و لكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون، و قد مرّت القصة فى الأعراف. قوله: وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ قال هكذا لما رأى اليد البيضاء و العصا، لأنه اعتقد أنهما من السحر، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم، هكذا قرأ حمزة و الكسائى و ابن وثاب و الأعمش: سحار. و قرأ الباقون: ساحِرٍ و قد تقدّم الكلام على هذا فى الأعراف. و السحار: صيغة مبالغة؛ أى: كثير السحر، كثير العلم بعمله و أنواعه فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ فى الكلام حذف، و التقدير هكذا: و قال فرعون ائتونى بكل سحار عليم فأتوا بهم إليه، فلما جاء السحرة، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف. قوله: قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ أى: قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له: إما أن تلقى، و إما أن نكون نحن الملقون، أى: اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم و عصيكم فَلَمَّا أَلْقَوْا ما ألقوه من ذلك قالَ لهم مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ أى: الذى جئتم به السحر، على أن ما موصولة مبتدأ، و الخبر: السحر؛ و المعنى: أنه سحر، لا أنه آية من آيات اللّه. و أجاز الفرّاء نصب السحر بجئتم، و تكون ما شرطية، و الشرط جئتم، و الجزاء:

إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ على تقدير الفاء؛ فإن اللّه سيبطله؛ و قيل: إن السحر منتصب على المصدر؛ أى: ما جئتم به سحرا، ثم دخلت الألف و اللام فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء، و اختاره النحّاس. و قال: حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر. و قرأ أبو عمرو، و أبو جعفر: السحر على أن الهمزة للاستفهام، و التقدير: أهو السحر؟ فتكون ما على هذه القراء استفهامية. و قرأ أبيّ: ما أتيتم به سحر إنّ اللّه سيبطله أى: سيمحقه، فيصير باطلا بما يظهره على يدىّ من الآيات المعجزة إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ أى: عمل هذا الجنس، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، و يدخل فيه السحر و السحرة دخولا أوّليا، و الواو فى: وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَ للعطف على سيبطله، أى: يبينه و يوضحه بِكَلِماتِهِ التى أنزلها فى كتبه على. أنبيائه لاشتمالها على الحجج و البراهين وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ من آل فرعون، أو المجرمون على العموم، و يدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوليا، و الإجرام: الآثام. قوله فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ الضمير يرجع إلى موسى، أى: من قوم موسى، و هم طائفة من ذرارى

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۳۰

بنى إسرائيل؛ و قيل: المراد طائفة من ذرارى فرعون، فيكون الضمير عائدا على فرعون، قيل: و منهم مؤمن آل فرعون و امرأته و ماشطة ابنته و امرأة خازنه؛ و قيل: هم قوم آباؤهم من القبط و أمهاتهم من بنى إسرائيل، روى هذا عن الفراء. عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ الضمير لفرعون، و جمع لأنه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له؛ و قيل: إن قوم فرعون سموا: بفرعون، مثل ثمود، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار، و قيل: إنه عائد على مضاف محذوف، و التقدير: على خوف من آل فرعون، و روى هذا عن الفراء. و منع ذلك الخليل و سيبويه، فلا يجوز عندهما: قامت هند، و أنت تريد غلامها، و روى عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية، و قوّاه النحاس: أَنْ يَفْتِنَهُمْ أى: يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذى كان ينزله بهم، و هو بدل اشتمال. و يجوز أن يكون فى موضع نصب بالمصدر. وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِی الْأَرْضِ أى: عات متكبر متغلب على أرض مصر وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ المجاوزين للحد فى الكفر و ما يفعله من القتل و الصلب و تنويع العقوبات. قوله: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ قيل:

إن هذا من باب التكرير للشرط، فشرط فى التوكل على اللّه الإيمان به، و الإسلام: أى الاستسلام لقضائه و قدره؛ و قيل: إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين، بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل، و المشروط بالإسلام وجوده؛ و المعنى: أن يسلموا أنفسهم للّه، أى: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. قال فى الكشاف: و نظيره فى الكلام: إن ضربك زيد فاضربه إن كانت لك به قوّة فَقالُوا أى: قوم موسى مجيبين له عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا ثم دعوا اللّه مخلصين فقالوا: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً أى: موضع فتنة لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و المعنى: لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، و لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا، فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم و عذبناهم، و على المعنى الأوّل تكون الفتنة بمعنى المفتون. و لما قدّموا التضرّع إلى اللّه سبحانه فى أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و فى هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم. قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً أن هى المفسرة، فى الإيحاء معنى: القول: أن تبوّأ: أى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا؛ يقال: بوّأت زيدا مكانا، و بوّأت لزيد مكانا، و المبوأ: المنزل الملزوم، و منه: بوّأه اللّه منزلا: أى ألزمه إياه و أسكنه فيه، و منه: الحديث: «من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار» و منه قول الراجز:

نحن بنو عدنان ليس شكتبوّأ المجد بنا و الملك

قيل: و مصر فى هذه الآية هى الإسكندرية، و قيل: هى مصر المعروفة لا الإسكندرية وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً أى: متوجهة إلى جهة القبلة، قيل: و المراد بالبيوت هنا المساجد، و إليه ذهب جماعة من السلف؛ و قيل: المراد بالبيوت التى يسكنون فيها، أمروا بأن يجعلوها متقابلة، و المراد بالقبلة على القول الأوّل هى جهة بيت المقدس، و هو قبلة اليهود إلى اليوم؛ و قيل: جهة الكعبة، و أنها كانت قبلة موسى و من معه؛ و قيل:

المراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرّا لئلا يصيبهم من الكفار معرّة بسبب الصلاة، و مما

يؤيد هذا قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ أى: التى أمركم اللّه بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هى: قبلة الصلاة إما فى المساجد، أو فى البيوت لا جعل البيوت متقابلة، و إنما جعل الخطاب فى أوّل الكلام مع موسى و هارون، ثم جعله لهما و لقومهما فى قوله: وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ لأنّ اختيار المكان مفوّض إلى الأنبياء، ثم جعل عاما فى استقبال القبلة، و إقامة الصلاة، لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصا بموسى لأنه الأصل فى الرسالة و هارون تابع له، فكان ذلك تعظيما للبشارة و للمبشر بها؛ و قيل: إن الخطاب فى وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ لنبينا محمد صلّى اللّه

عليه و سلّم على طريقة الالتفات و الاعتراض، و الأوّل أولى.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لِتَلْفِتَنا قال: لتلوينا.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: لتصدّنا عن آلهتنا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ قال: العظمة و الملك و السلطان. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ قال: الذرية: القليل. و أخرج هؤلاء عنه فى قوله: ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ قال: من بنى إسرائيل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان و مات آباؤهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت الذرية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون و مؤمن آل فرعون و خازن فرعون و امرأة خازنه. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و نعيم بن حماد فى الفتن و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قال: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال فى تفسير الآية: لا تعذّبنا بأيدى قوم فرعون و لا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحقّ ما عذبوا و لا سلّطنا عليهم فيفتنون بنا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ عن أبى قلابة فى الآية قال: سأل ربه أن لا يظهر علينا عدوّنا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى مجلز نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ الآية، قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم و أن يوجهوها نحو القبلة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ قال: مصر الإسكندرية. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: كانوا لا يصلون إلا فى البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلّوا فى بيوتهم. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: أمروا أن يتّخذوا فى بيوتهم مساجد. و أخرج أبو الشيخ عن أبى سنان قال: القبلة الكعبة، و ذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلّون قبل الكعبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً قال:

يقابل بعضها بعضا.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۵۳۲

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۸۸ الى ۹۲]

وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۸۸) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸۹) وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۹۱) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (۹۲)

لما بالغ موسى عليه السلام فى إظهار المعجزات و إقامة الحجج البينات، و لم يكن لذلك تأثير فى من أرسل إليهم دعا عليهم بعد أن بيّن سبب إصرارهم على الكفر، و تمسكهم بالجحود و العناد، فقال مبينا للسبب أوّلا:

رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا قد تقدّم أن الملأ هم الأشراف، و الزينة:

اسم لكل ما يتزين به: من ملبوس و مركوب و حلية و فراش و سلاح، و غير ذلك، ثم كرّر النداء للتأكيد فقال: رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ

سَبِيلِكَ

و قد اختلف فى هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال الخليل و سيبويه: إنه لام العاقبة و الصّيرورة. و المعنى:

أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم من النعم ليضلوا، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت؛ و قيل: إنها لام كى؛ أى: أعطيتهم لكى يضلّوا. و قال قوم: إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلّوا، فحذفت لا كما قال سبحانه يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا «١». قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن، فموّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، و قيل: اللام للدعاء عليهم. و المعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، و استدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: اطمس و اشدد. و قد أطال صاحب الكشاف فى تقرير هذا بما لا طائل تحته، و القول الأوّل هو الأولى. و قرأ الكوفيون لِيُضِلُّوا بضم حرف المضارعة؛ أى: يوقعوا الإضلال على غيرهم. و قرأ الباقون بالفتح، أى: يضلون فى أنفسهم رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ قال الزّجّاج: طمس الشيء:

إذهابه عن صورته؛ و المعنى: الدعاء عليهم بأن يمحق اللّه أموالهم و يهلكها، و قرئ: بضم الميم من اطمس وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ أى: اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق، و لا تنشرح للإيمان، قوله فَلا يُؤْمِنُوا قال المبرد و الزجاج: هو معطوف على ليضلوا، و المعنى: آتيتهم النعم ليضلوا و لا يؤمنوا، و يكون ما بين المعطوف عليه اعتراضا. و قال الفراء و الكسائى و أبو عبيدة: هو دعاء بلفظ النهى، و التقدير: اللهمّ فلا يؤمنوا، و منه قول الأعشى:

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوىو لا تلقنى إلا و أنفك راغم

و قال الأخفش: إنه جواب الأمر، أى: اطمس و اشدد فلا يؤمنوا، فيكون منصوبا. و روى هذا عن الفرّاء أيضا، و منه:

---

(١). النساء: ١٧٦.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٣٣ يا ناق سيرى عنقا فسيحاإلى سليمان فنستريحا

حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ أى: لا يحصل منهم الإيمان إلّا مع المعاينة لما يعذبهم اللّه به، و عند ذلك لا ينفع إيمانهم. و قد استشكل بعض أهل العلم ما فى هذه الآية من الدعاء على هؤلاء، و قال: إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم و إيمانهم. و أجيب بأنه لا يجوز لنبىّ أن يدعو على قومه إلا بإذن اللّه سبحانه، و إنما يأذن اللّه بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، و لهذا لما أعلم اللّه نوحا عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن، قال: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١». قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما جعل الدعوة هاهنا مضافة إلى موسى و هارون، و فيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده، فقيل: إن هارون كان يؤمن على دعاء موسى، فسمى هاهنا داعيا، و إن كان الداعى موسى وحده، ففى أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعى، و هاهنا أضافه إليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعى، و يجوز أن يكونا جميعا داعيين، و لكن أضاف الدعاء إلى موسى فى أوّل الكلام لأصالته فى الرسالة. قال النحاس: سمعت علىّ بن سليمان يقول:

الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى ربنا و لم يقل رب. و قرأ علىّ و السّلمى دعواتكما و قرأ ابن السميقع: دعواكما و الاستقامة: الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى اللّه. قال الفرّاء و غيره: أمرا بالاستقامة على أمرهما، و الثبات عليه، على دعاء فرعون و قومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا؛ و قيل معنى الاستقامة: ترك الاستعجال و لزوم السكينة و الرضا و التسليم لما يقضى به اللّه سبحانه. قوله: وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ بتشديد النون للتأكيد، و حرّكت بالكسر لكونه الأصل، و لكونها أشبهت نون التثنية. و قرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفى لا على النهى. و قرئ بتخفيف الفوقية الثانية من تتبعان. و المعنى: النهى لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة اللّه سبحانه فى إجراء الأمور على ما تقتضيه

المصالح تعجيلا و تأجيلا. قوله: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ هو من جاوز المكان:
إذا خلفه و تخطاه، و الباء للتعدية، أى: جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط، لأن اللّه سبحانه جعل البحر يبسا فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البرّ. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة البقرة فى قوله سبحانه: وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ «٢» و قرأ الحسن: و جوّزنا و هما لغتان فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ يقال: تبع و أتبع بمعنى واحد: إذا لحقه. و قال الأصمعى: يقال أتبعه بقطع الألف: إذا لحقه و أدركه، و اتّبعه بوصل الألف:
إذا اتبع أثره أدركه، أو لم يدركه. و كذا قال أبو زيد. و قال أبو عمرو: إنّ اتبعه بالوصل: اقتدى به، و انتصاب بغيا و عدوا على الحال، و البغى: الظلم، و العدو: الاعتداء، و يجوز أن يكون انتصابهما على العلة، أى: للبغى و العدو. و قرأ الحسن و عدوا بضم العين و الدال و تشديد الواو مثل: علا يعلو علوّا؛ و قيل:
إن البغى: طلب الاستعلاء فى القول بغير حق، و العدو فى الفعل حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ أى: ناله و وصله و ألجمه. و ذلك أن موسى خرج ببنى إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففرق اللّه البحر لموسى و بنى إسرائيل، فمشوا فيها حتى خرجوا من الجانب الآخر، و تبعهم فرعون و البحر باق على الحالة التى كان عليها عند مضىّ موسى و من معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون و كادوا أن يخرجوا

---

(١). نوح: ٢٦.

(٢). البقرة: ٥٠.

من الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى اللّه سبحانه ذلك قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ أى: صدّقت أنه، بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه، فحذفت الباء، و الضمير للشأن. و قرئ بكسر إنّ على الاستئناف، و زعم أبو حاتم أن القول محذوف، أى: آمنت، فقلت إنه و لم ينفعه هذا الإيمان لأنه وقع منه بعد إدراك الغرق، كله كما تقدّم فى النساء، و لم يقل اللعين: آمنت باللّه أو بربّ العالمين، بل قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية. قوله: وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: المستسلمين لأمر اللّه، المنقادين له الذين يوحدونه، و ينفون ما سواه، و هذه الجملة إما فى محل نصب على الحال، أو معطوفة على آمنت. قوله: آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ هو مقول قول مقدّر معطوف على قال آمنت، أى: فقيل له: أ تؤمن الآن؟
و قد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هى من قول اللّه سبحانه، و قيل: من قول جبريل، و قيل: من قول ميكائيل، و قيل: من قول فرعون، قال ذلك فى نفسه لنفسه. و جملة و قد عصيت قبل فى محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر، و هو أ تؤمن الآن؛ و المعنى: إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق، و الحال أنه قد عصى اللّه من قبل، و المقصود: التقريع و التوبيخ له. و جملة و كنت من المفسدين: معطوفة على عصيت داخلة فى الحال، أى: كنت من المفسدين فى الأرض بضلالك عن الحق، و إضلالك لغيرك. قوله: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ قرئ نُنَجِّيكَ بالتخفيف، و الجمهور على التثقيل. و قرأ اليزيدى: ننحيك بالحاء المهملة من التنحية، و حكاها علقمة عن ابن مسعود؛ و معنى ننجيك بالجيم: نلقيك على نجوة من الأرض، و ذلك أن بنى إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غرق، و قالوا:
هو أعظم شأنا من ذاك، فألقاه اللّه على نجوة من الأرض، أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه؛ و قيل المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب فى قعر البحر، و نجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق، و معنى ننحيك بالمهملة: نطرحك على

ناحیة من الأرض. و روی عن ابن مسعود أنه قرأ: بأبدانک.
و قد اختلف المفسرون فی معنی ببدنک، فقیل معناه: بجسدک بعد سلب الروح منه؛ و قیل معناه:
بدرعک، و الدرع یسمی بدنا، و منه قول کعب بن مالک:
تری الأبدان فیها مسبغات‌علی الأبطال و الیلب الحصینا «۱»
أراد بالأبدان الدروع، و قال عمرو بن معدی کرب:
و مضی نساؤهم بکلّ مفاضة‌جدلاء سابغة و بالأبدان
أی: بدروع سابغة و دروع قصیرة؛ و هی التی یقال لها: أبدان، کما قال أبو عبیدة. و قال الأخفش:
و أما قول من قال: بدرعک، فلیس بشیء، و رجح أنّ البدن المراد به هنا: الجسد. قوله: لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَةً

---

(۱). الیلب: الدروع الیمانیة.

هـذا تعلیل لتنجیته ببدنه، و فی ذلک دلیل علی أنه لم یظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوی، و المراد بالآیة: العلامة، أی: لتکون لمن خلفک من الناس علامة یعرفون بها هلاکک، و أنک لست کما تدّعی، و یندفع عنهم الشک: فی کونک قد صرت میتا بالغرق؛ و قیل المراد لیکون طرحک علی الساحل وحدک دون المغرقین من قومک آیة من آیات اللّه، یعتبر بها الناس، أو یعتبر بها من سیأتی من الأمم إذا سمعوا ذلک حتی یحذروا من التکبر و التجبر و التمرّد علی اللّه سبحانه، فإن هذا الذی بلغ إلی ما بلغ إلیه من دعوی الإلهیة و استمرّ علی ذلک دهرا طویلا کانت له هذه العاقبة القبیحة. و قرئ: لِمَنْ خَلْفَکَ علی صیغة الفعل الماضی، أی: لمن یأتی بعدک من القرون، أو من خلفک فی الریاسة، أو فی السکون فی المسکن الذی کنت تسکنه وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آیاتِنا التی توجب الاعتبار و التفکر و توقظ من سنة الغفلة لَغافِلُونَ عما توجبه الآیات، و هذه الجملة تذییلیة.
و قد أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن ابن عباس فی قوله: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلی أَمْوالِهِمْ یقول: دمر علی أموالهم و أهلکها وَ اشْدُدْ عَلی قُلُوبِهِمْ قال: اطبع فَلا یُؤْمِنُوا حَتَّی یَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِیمَ و هو الغرق، و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن محمد بن کعب القرظی قال:
سألنی عمر بن عبد العزیز عن قوله: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلی أَمْوالِهِمْ فأخبرته أن اللّه طمس علی أموال فرعون و آل فرعون حتی صارت حجارة، فقال عمر: کما أنت حتّی آتیک، فدعا بکیس مختوم ففکه، فإذا فیه الفضة مقطوعة کأنها الحجارة، و الدّنانیر و الدّراهم و أشباه ذلک من الأموال حجارة کلها. و قد روی أن أموالهم تحوّلت حجارة من طریق جماعة من السلف. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: قد أجیبت دعوتکما، قال: فاستجاب له و حال بین فرعون و بین الإیمان. و أخرج أبو الشیخ عن أبی هریرة قال:
کان موسی إذا دعا أمّن هارون علی دعائه یقول: آمین. قال أبو هریرة: و هو اسم من أسماء اللّه، فذلک قوله: قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُما. و أخرج أبو الشیخ عن ابن عباس نحوه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جریر، و أبو الشیخ عن عکرمة نحوه. و أخرج سعید بن منصور عن محمد بن کعب القرظی نحوه أیضا. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: یزعمون أن فرعون مکث بعد هذه الدعوة أربعین سنة. و أخرج ابن جریر عن ابن جریج مثله. و أخرج الحکیم الترمذی عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر عن ابن عباس:
فاستقیما: فامضیا لأمری، و هی الاستقامة. و أخرج ابن أبی حاتم عن عکرمة قال: العدو و العتوّ و العلوّ فی کتاب اللّه: التجبّر. و

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما خرج آخر أصحاب موسى و دخل آخر أصحاب فرعون أوحى اللّه إلى البحر أن انطبق عليهم، فخرجت إصبع فرعون بلا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: فعرفت أن الربّ رحيم و خفت أن تدركه الرحمة، فرمسته بجناحى و قلت:

آلان و قد عصيت قبل؟ فلما خرج موسى و أصحابه قال من تخلف من قوم فرعون: ما غرق فرعون و لا أصحابه، و لكنهم فى جزائر البحر يتصيدون، فأوحى اللّه إلى البحر أن الفظ فرعون عريانا، فلفظه عريانا أصلع أخينس قصيرا فهو قوله فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً لمن قال: إن فرعون لم

فتح القدير، ج ۲، ص: ۵۳۶

يغرق، و كانت نجاة عبرة لم تكن نجاة عافية؛ ثم أوحى اللّه إلى البحر أن الفظ ما فيك، فلفظهم على الساحل، و كان البحر لا يلفظ غريقا فى بطنه حتى يأكله السمك، فليس يقبل البحر غريقا إلى يوم القيامة. و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أغرق اللّه فرعون فقال: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ قال لى جبريل: يا محمد! لو رأيتنى و أنا آخذ من حال «۱» البحر فأدسّه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة» و قد روى هذا الحديث الترمذى من غير وجه، و قال حسن صحيح غريب، و صححه أيضا الحاكم. و روى عن ابن عباس مرفوعا من طرق أخرى. و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«قال لى جبريل: ما كان على الأرض شىء أبغض إلى من فرعون، فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة و أنا أغطه خشية أن تدركه الرّحمة». و أخرج ابن جرير، و البيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة مرفوعا نحوه أيضا، و فى إسناد حديث أبى هريرة رجل مجهول، و باقى رجاله ثقات. و العجب كل العجب ممن لا علم له بفنّ الرواية من المفسرين، و لا يكاد يميز بين أصحّ الصّحيح من الحديث و أكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام فى أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الحكم ببطلان ما صح منها، و يرسل لسانه و قلمه بالجهل البحت، و القصور الفاضح الذى يضحك منه كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث، فيا مسكين مالك و لهذا الشأن الذى لست منه فى شىء؟ ألا تستر نفسك و تربع على ضلعك، و تعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، و تشتغل بما هو علمك الذى لا تجاوزه، و حاصلك الذى ليس لك غيره، و هو علم اللغة و توابعه من العلوم الآلية، و لقد صار صاحب الكشاف رحمه اللّه بسبب ما يتعرّض له فى تفسيره من علم الحديث الذى ليس هو منه فى ورد و لا صدر سخرة للسّاخرين و عبرة للمعتبرين، فتارة يروى فى كتابه الموضوعات و هو لا يدرى أنها موضوعات، و تارة يتعرض لردّ ما صح، و يجزم بأنه من الكذب على رسول اللّه و البهت عليه، و قد يكون فى الصحيحين و غيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج، و أدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم فى علم لا يعلمه و لا يدرى به أقلّ دراية، و إن كان ذلك العلم من علوم الإصطلاح التى يتواضع عليها طائفة من الناس، و يصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذى هو قسيم كتاب اللّه، و قائله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و راويه عنه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، و كل حرف من حروفه و كلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ لجميع أهل الإسلام. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ قال: أنجى اللّه فرعون لبنى إسرائيل من البحر فنظروا إليه بعد ما غرق. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى، و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: بجسدك، قال: كذب بعض بنى إسرائيل بموت فرعون، فألقى على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيرا كأنه ثور. و أخرج ابن الأنبارى عن محمد بن كعب فى قوله: فَالْيَوْمَ

نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

---

(١). قال فى القاموس: الحال: الطين الأسود.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٣٧

قال: بدرعك، و كان درعه من لؤلؤة يلاقى فيها الحروب.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٣ الى ١٠٠]

وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا هذا من جملة ما عدّده اللّه سبحانه من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل، و معنى بوّأنا: أسكنا، يقال بوّأت زيدا منزلا: أسكنته فيه، و المبوأ: اسم مكان أو مصدر، و إضافته إلى الصّدق على ما جرت عليه قاعدة العرب، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق، و المراد به هنا: المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض مصر، و قيل: الأردن و فلسطين، و قيل: الشام وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى: المستلذات من الرزق فَمَا اخْتَلَفُوا فى أمر دينهم و تشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ أى: لم يقع منهم الاختلاف فى الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة و علمهم بأحكامها، و ما اشتملت عليه من الأخبار بنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم- و قيل المعنى: أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، و هو: القرآن النازل على نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم، فاختلفوا فى نعته و صفته، و آمن به من آمن منهم، و كفر به من كفر. فيكون المراد بالمختلفين على القول الأوّل: هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة و علموا بها، و على القول الثانى: هم اليهود المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته، و المحقّ بعمله بالحق، و المبطل بعمله بالباطل فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الشّكّ فى أصل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، و منه شك الجوهر فى العقد، و الشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه فيتردّد و يتحير، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و المراد غيره، كما ورد فى القرآن فى غير موضع. قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعت الإمامين ثعلبا و المبرد يقولان: معنى فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ أى: قل يا محمد للكافر: فإن كنت فى شك: فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ يعنى: مسلمى أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام و أمثاله، و قد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم و يقرّون بأنهم أعلم منهم، فأمر اللّه سبحانه نبيه أن يرشد الشّاكّين فيما أنزله اللّه إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب اللّه حقا، و أن هذا رسوله،

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٣٨

و أنّ التوراة شاهدة بذلك ناطقة به، و فى هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر. و قال القتبىّ: المراد بهذه الآية من كان من الكفار

غير قاطع بتكذيب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لا بتصديقه، بل كان فى شك. و قيل: المراد بالخطاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لا- غيره. و المعنى: لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك. و قيل: الشك هو ضيق الصدر، أى: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر و اسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم. و قيل: معنى الآية: الفرض و التقدير، كأنه قال له: فإن وقع لك شك مثلا، و خيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا، فاسأل الذين يقرءون الكتاب، فإنهم سيخبرونك عن نبوّتك و ما نزل عليك، و يعترفون بذلك لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم، و قد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم. قوله: لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فى هذا بيان ما يقلع الشك من أصله، و يذهب به بجملته، و هو شهادة اللّه سبحانه بأن هذا الذى وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير فى الشاك هو الحق الذى لا يخالطه باطل، و لا تشوبه شبهة، ثم عقبه بالنهى للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الامتراء فيما أنزل اللّه عليه، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين و انتفاء الشك. و يمكن أن يكون هذا النهى له تعريضا لغيره كما فى مواطن من الكتاب العزيز، و هكذا القول فى نهيه صلّى اللّه عليه و سلّم عن التكذيب بآيات اللّه، فإن الظاهر فيه التعريض و لا سيما بعد تعقيبه بقوله: فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ و فى هذا التعريض من الزجر للممترين و المكذبين ما هو أبلغ و أوقع من النهى لهم أنفسهم، لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصوّر صدوره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك. قوله: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ قد تقدّم مثله فى هذه السورة، و المعنى: أنه حق عليهم قضاء اللّه و قدره: بأنهم يصرّون على الكفر، و يموتون عليه، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال، و إن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان، كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو فى حكم العدم وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ من الآيات التكوينية و التنزيلية، فإن ذلك لا ينفعهم؛ لأن اللّه سبحانه قد طبع على قلوبهم و حق منه القول عليهم حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان و ليس بإيمان، و لا يترتب عليه شىء من أحكامه. قوله: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها لولا هذه: هى التحضيضية التى بمعنى هلا، كما قال الأخفش و الكسائى و غيرهما، و يدل على ذلك ما فى مصحف أبىّ و ابن مسعود فهلا قرية و المعنى: فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها آمنت إيمانا معتدّا به، و ذلك بأن يكون خالصا للّه قبل معاينة عذابه، و لم يؤخره كما أخره فرعون، و الاستثناء بقوله: إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ منقطع، و هو استثناء من القرى لأن المراد أهلها: و المعنى: لكن قوم يونس لَمَّا آمَنُوا إيمانا معتدّا به قبل معاينة العذاب أو عند أوّل المعاينة قبل حلوله بهم كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ و قد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة، منهم الكسائى و الأخفش و الفراء؛ و قيل:

يجوز أن يكون متصلا، و الجملة فى معنى النفى، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، و انتصابه على أصل الاستثناء. و قرئ بالرفع على البدل. و قال الزّجّاج فى توجيه الرفع: يكون المعنى غير قوم يونس. و لكن حملت «إلا» عليها و تعذر جعل الإعراب عليها، فأعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير،

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۳۹

قال ابن جرير: خصّ قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب، و حكى ذلك عن جماعة من المفسرين. و قال الزجّاج: إنه لم يقع العذاب، و إنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب، و لو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان، و هذا أولى من قول ابن جرير. و المراد بعذاب الخزى: الذى كشفه اللّه عنهم، و هو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم و لم يروه، أو الذى قد رأوا علاماته دون عينه وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ أى: بعد كشف العذاب عنهم متعهم اللّه فى الدنيا إلى حين معلوم قدره لهم. ثم بين سبحانه: أن الإيمان و ضده كلاهما بمشيئة اللّه و تقديره، فقال: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ بحيث لا- يخرج عنهم أحد جَمِيعاً مجتمعين على الإيمان لا- يتفرّقون فيه و يختلفون، و لكنه لم يشأ ذلك، لكونه مخالفا

للمصلحة التى أرادها اللّه سبحانه، و انتصاب «جَمِيعاً» على الحال كما قال سيبويه. قال الأخفش: جاء بقوله: جميعا، بعد كلهم للتأكيد، كقوله: لا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ «۱» و لما كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم حريصا على إيمان جميع الناس أخبره اللّه بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة و المصالح الراجحة لا تقتضى ذلك، فقال: أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتّٰى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فإن ذلك ليس فى وسعك يا محمد! و لا داخل تحت قدرتك، و فى هذا تسلية له صلّى اللّه عليه و سلّم، و دفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل، الذى لو كان، لم يكن صلاحا محققا بل يكون إلى الفساد أقرب، و للّه الحكمة البالغة. ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله: وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلّٰا بِإِذْنِ اللّٰهِ أى: ما صح و ما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن باللّه إلا بإذنه، أى: بتسهيله و تيسيره و مشيئته لذلك، فلا يقع غير ما يشاؤه كائنا ما كان وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ أى: العذاب، أو الكفر، أو الخذلان الذى هو سبب العذاب. و قرأ الحسن و أبو بكر و المفضل وَ نَجْعَلُ* بالنون. و فى الرجس لغتان: ضم الراء، و كسرها، و المراد بالذين لا يعقلون:

هم الكفار الذى لا يتعقلون حجج اللّه، و لا يتفكرون فى آياته، و لا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن قتادة فى قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِى إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ قال: بوّأهم اللّه الشام و بيت المقدس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك قال: منازل صدق: مصر و الشام. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّٰى جاءَهُمُ الْعِلْمُ قال: العلم كتاب اللّه الذى أنزله، و أمره الذى أمرهم به. و قد ورد فى الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى و سبعين فرقة، و أن النصارى اختلفوا على اثنتين و سبعين فرقة، و ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة، و هو فى السنن و المسانيد، و الكلام فيه يطول.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ الآية، قال: لم يشك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يسأل. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة قال:

ذكر لنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: لا أشك و لا أسأل. و هو مرسل. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ قال: التوراة و الإنجيل، الذين أدركوا محمدا من أهل الكتاب و آمنوا به، يقول: سلهم إن كنت فى شكّ بأنك مكتوب عندهم. و أخرج عبد

---

(۱). النحل: ۵۱.

الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ قال: حق عليهم سخط اللّه بما عصوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله:

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ يقول: فما كانت قرية آمنت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: لم يكن هذا فى الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى اللّه قوم يونس. قال: و ذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم قذف اللّه فى قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح و أخرجوا المواشى و فرّقوا بين كل بهيمة و ولدها، فعجّوا إلى اللّه أربعين صباحا، فلما عرف اللّه الصدق من قلوبهم و التوبة و الندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ما تدلّى عليهم لم يكن بينهم و بين العذاب إلا ميل. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: إن يونس دعا قومه، فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب، فقال:

إنه يأتيكم يوم كذا و كذا، ثم خرج عنهم، و كانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا

بين المرأة و ولدها، و بين السخلة و ولدها «۱»، و خرجوا يعجون إلى اللّه، و علم اللّه منهم الصدق فتاب عليهم و صرف عنهم العذاب، و قعد يونس فى الطريق يسأل عن الخبر، فمرّ به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحدّثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم، و انطلق مغاضبا:

يعنى مراغما. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه. و مطرت السماء دما. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير عن ابن عباس أنّ العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم و بينه إلّا قدر ثلثى ميل، فلما دعوا كشفه اللّه عنهم. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى الجلد قال: لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم، فقالوا له: ما ترى؟ قال:

قولوا يا حيّ حين لا حيّ، و يا حيّ محيى الموتى، و يا حيّ لا إله إلّا أنت، فقالوا؛ فكشف عنهم العذاب.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ قال: السّخط. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: الرّجس: الشيطان، و الرّجس: العذاب.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۹]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (۱۰۱) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۱۰۲) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۳) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۵)

وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۶) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۰۷) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (۱۰۹)

---

(۱). هكذا وردت العبارة. و الأولى أن يقول: بين السخلة و والدتها.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۱

قوله: قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لما بيّن سبحانه أنّ الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة اللّه، أمر بالنظر و الاستدلال بالدلائل السّماوية و الأرضية، و المراد بالنظر: التفكّر و الاعتبار؛ أى: قل يا محمد للكفار تفكروا و اعتبروا بما فى السموات و الأرض من المصنوعات الدالة على الصانع، و وحدته، و كمال قدرته.

و ما ذا مبتدأ، و خبره فى السّموات و الأرض. أو: المبتدأ ما، و ذا: بمعنى الذى، و فى السموات و الأرض:

صلته، و الموصول و صلته: خبر المبتدأ، أى: أىّ شىء الذى فى السموات و الأرض، و على التقديرين فالجملة فى محل نصب بالفعل الذى قبلها. ثم ذكر سبحانه أن التفكر و التدبر فى هذه الدلائل لا ينفع فى حق من استحكمت شقاوته فقال: وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ أى: ما تنفع، على أن ما نافية، و يجوز أن تكون استفهامية، أى: أىّ شىء ينفع؟ و الآيات هى التى عبر عنها بقوله: ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و النذر جمع نذير، و هم الرسل أو جمع إنذار و هو المصدر عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ فى علم اللّه سبحانه؛

و المعنى:

أن من كان هكذا لا يجدى فيه شىء، و لا يدفعه عن الكفر دافع، قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أى: فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم إلا مثل وقائع اللّه سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء؟ فقد كان الأنبياء المتقدّمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب، و هم يكذبونهم و يصممون على الكفر حتى ينزل اللّه عليهم عذابه و يحلّ بهم انتقامه، ثم قال: قُلْ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك فَانْتَظِرُوا أى: تربصوا لوعد ربكم إنى معكم من المتربصين لوعد ربى، و فى هذا تهديد شديد، و وعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك، و ثم فى قوله: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا للعطف على مقدّر يدلّ عليه ما قبله، كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم. و قرأ يعقوب ثم نُنَجِّي مخففا. و قرأ كذلك أيضا فى: حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ و روى كذلك عن الكسائى و حفص فى الثانية. و قرأ الباقون بالتشديد، و هما لغتان فصيحتان، أنجى، ينجى، إنجاء، و نجى، ينجى، تنجية بمعنى واحد وَ الَّذِينَ آمَنُوا معطوف على رسلنا، أى: نجيناهم و نجينا الذين آمنوا، و التعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لأمرها كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا أى: حقّ ذلك علينا حقا، أو إنجاء مثل ذلك الإنجاء حقا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ من عذابنا للكفار، و المراد بالمؤمنين: الجنس، فيدخل فى ذلك الرسل و أتباعهم، أو يكون خاصا بالمؤمنين، و هم أتباع الرسل، لأن الرسل داخلون فى ذلك بالأولى. قوله قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته و طريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس، أو للكفار منهم، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله: إن كنتم فى شك من دينى الذى أنا عليه، و هو عبادة اللّه وحده لا شريك له، و لم تعلموا بحقيقته و لا عرفتم صحته، و أنه الدين

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۲

الحق الذى لا دين غيره، فأعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فى حال من الأحوال وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ أى: خصّه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام و غيرها، و خصّ صفة المتوفّى من بين الصّفات: لما فى ذلك من التّهديد لهم؛ أى: أعبد اللّه الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، و لكونه يدل على الخلق: أوّلا و على الإعادة: ثانيا، و لكونه أشدّ الأحوال مهابة فى القلوب، و لكونه قد تقدّم ذكر الإهلاك و الوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة، فكأنه قال: أعبد اللّه الذى وعدنى بإهلاككم. و لما ذكر أنه لا يعبد إلا اللّه بين أنه مأمور بالإيمان فقال:

وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أى: بأن أكون من جنس من آمن باللّه و أخلص له الدين، و جملة: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ معطوفة على جملة أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و لا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر لأن المقصود من إنْ الدلالة على المصدر، و ذلك لا يختلف بالخبرية و الإنشائية، أو يكون المعطوف عليه فى معنى الإنشاء؛ كأنه قيل: كن مؤمنا ثم أقم؛ و المعنى: أن اللّه سبحانه أمره بالاستقامة فى الدين و الثبات فيه، و عدم التزلزل عنه بحال من الأحوال. و خص الوجه: لأنه أشرف الأعضاء، أو أمره باستقبال القبلة فى الصلاة، و عدم التحوّل عنها. و حنيفا: حال من الدين، أو من الوجه، أى: مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام. ثم أكد الأمر المتقدّم للنهى عن ضدّه فقال: وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ و هو معطوف على أقم، و هو من باب التعريض لغيره صلّى اللّه عليه و سلّم. قوله: وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ معطوف على قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ غير داخل تحت الأمر، و قيل: معطوف على: وَ لا تَكُونَنَ أى:

لا تدع من دون اللّه على حال من الأحوال ما لا ينفعك و لا يضرّك بشىء من النفع و الضرّ إن دعوته، و دعاء من كان هكذا لا يجلب نفعا، و لا يقدر على ضرّ، ضائع لا يفعله عاقل على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع و الضرّ غيره؛ فكيف إذا كان

موجودا؟ فإن العدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح و أقبح فَإِنْ فَعَلْتَ أى: فإن دعوت، و لكنه كنى عن القول بالفعل فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ هذا جزاء الشرط؛ أى: فإن دعوت من دون اللّه ما لا ينفعك و لا يضرّك فإنك فى عداد الظالمين لأنفسهم، و المقصود من هذا الخطاب التعريض بغيره صلّى اللّه عليه و سلّم، و جملة وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ إلى آخرها مقرّرة لمضمون ما قبلها. و المعنى أن اللّه سبحانه هو الضار النافع، فإن أنزل بعبده ضرا لم يستطع أحد أن يكشفه كائنا من كان، بل هو المختص بكشفه كما اختصّ بإنزاله وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ أىّ خير كان، لم يستطع أحد أن يدفعه عنك، و يحول بينك و بنيه كائنا من كان، و عبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقون بأعمالهم. قال الواحدى: إن قوله وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ هو من القلب، و أصله و إن يرد بك الخير، و لكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر. قال النيسابورى: و فى تخصيص الإرادة بجانب الخير، و المسّ بجانب الشرّ دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، و الشرّ بالعرض.

قلت: و فى هذا نظر فإن المسّ هو أمر وراء الإرادة فهو مستلزم لها، و الضمير فى يصيب به راجع إلى فضله، أى: يصيب بفضله من يشاء من عباده، و جملة: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ تذييلية. ثم ختم هذه السورة

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۳

بما يستدل به على قضائه و قدره، فقال: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ أى: القرآن فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أى: منفعة اهتدائه مختصة به، و ضرر كفره مقصور عليه لا يتعدّاه، و ليس للّه حاجة فى شىء من ذلك، و لا غرض يعود إليه وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أى:

بحفيظ يحفظ أموركم و توكل إليه، إنما أنا بشير و نذير. ثم أمره اللّه سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر و النواهى التى يشرعها اللّه له و لأمته ثم أمره بالصبر على أذى الكفار، و ما يلاقيه من مشاقّ التبليغ، و ما يعانيه من تلوّن أخلاق المشركين و تعجرفهم، و جعل ذلك الصبر ممتدا إلى غاية هى قوله: حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ أى: يحكم اللّه بينه و بينهم فى الدنيا بالنصر له عليهم، و فى الآخرة بعذابهم بالنار و هم يشاهدونه صلّى اللّه عليه و سلّم، هو و أمته، و المتبعون له، المؤمنون به، و العاملون بما يأمرهم به، المنتهون عما ينهاهم عنه، يتقلبون فى نعيم الجنة الذى لا ينفد، و لا يمكن وصفه، و لا يوقف على أدنى مزاياه.

و قد أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ يقول: عند قوم لا يُؤْمِنُونَ نسخت قوله: حكمة بالغة فما تغنى النّذر «۱». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قال: وقائع اللّه فى الذين خلوا من قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الربيع فى الآية قال: خوّفهم عذابه و نقمته و عقوبته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى اللّه رسله و الذين آمنوا، فقال ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآية. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ يقول: بعافية. و أخرج البيهقى فى الشعب عن عامر بن قيس قال: ثلاث آيات فى كتاب اللّه اكتفيت بهنّ عن جميع الخلائق: أولهنّ:

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ و الثانية: ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ «۲»، و الثالثة: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها «۳». و أخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ قال: هو الحق المذكور فى قوله: قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم فى قوله: وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ قال: هذا منسوخ، أمره بجهادهم و الغلظة عليهم.

---

(۱). القمر: ۵.

(۲). فاطر: ۲.

(۳). هود: ۶.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۴

سورة هود

اشارة

هى مكية فى قول الحسن، و عكرمة، و عطاء، و جابر. قال ابن عباس و قتادة: إلا آية، و هى قوله:

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ و أخرج النحاس فى ناسخه، و أبو الشيخ، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة هود بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله. و أخرج الدارمى، و أبو داود فى مراسيله، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و ابن عساكر، و البيهقى فى الشعب عن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اقرءوا هود يوم الجمعة». و أخرج ابن المنذر، و الطبرانى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و ابن عساكر من طريق مسروق عن أبى بكر الصديق قال: «قلت: يا رسول اللّه! لقد أسرع إليك الشّيب، فقال: شيّبتنى هود، و الواقعة، و المرسلات، و عمّ يتساءلون، و إذا الشمس كوّرت». و أخرجه البزار، و ابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعا بلفظ «قلت: يا رسول اللّه عجل إليك الشّيب، قال: شيّبتنى هود و أخواتها، و الواقعة، و الحاقة، و عم يتساءلون، و هل أتاك حديث الغاشية». و أخرج سعيد بن منصور، و ابن مردويه عن أنس قال: قال أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لقد عجل إليك الشّيب، فقال:

شيّبتنى هود و أخواتها من المفصل». و أخرج الترمذى، و حسنه، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث و النشور من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: «قال أبو بكر: يا رسول اللّه! قد شبت، قال: شيّبتنى هود، و الواقعة، و المرسلات، و عمّ يتساءلون، و إذا الشّمس كوّرت».

و أخرج ابن عساكر من طريق عطاء عنه أن الصحابة قالوا: يا رسول اللّه! لقد أسرع إليك الشّيب، قال:

أجل شيّبتنى هود و أخواتها». قال عطاء: و أخواتها: اقتربت الساعة، و المرسلات، و إذا الشّمس كوّرت. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال: «قال عمر بن الخطاب: يا رسول اللّه! أسرع إليك الشيب، قال: شيبتنى هود و أخواتها: الواقعة، و عمّ يتساءلون، و إذا الشمس كوّرت».

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «شيّبتنى هود و أخواتها: الواقعة، و الحاقة، و إذا الشّمس كوّرت». و أخرجا أيضا عن ابن مسعود: «أن أبا بكر قال:

يا رسول اللّه! ما شيبك؟ قال: هود و الواقعة». و فى إسناده عمرو بن ثابت و هو متروك. و أخرج الطبرانى، و ابن مردويه بسند صحيح عن عقبة بن عامر «أن رجلا قال: يا رسول اللّه! قد شبت، قال:

شيّبتنى هود، و إذا الشّمس كوّرت و أخواتها». و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و أبو يعلى، و الطبرانى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن أبى جحيفة قال:

«قالوا: يا رسول اللّه! نراك قد شبت، قال: شيّبتنى هود و أخواتها». و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن عمران بن حصين: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال له أصحابه: قد أسرع إليك الشّيب، قال: شيّبتنى هود و أخواتها من المفصّل». و أخرج ابن

عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۵

«شيّبتنى هود و أخواتها و ما فعل بالأمم قبل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

[سورة هود (۱۱): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (۱) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (۲) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (۳) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴)

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۵) وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ (۶) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸)

قوله: الر إن كان مسرودا على سبيل التعديد كما فى سائر فواتح السور فلا محل له، و إن كان اسما للسورة فهو فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، و كِتابٌ يكون على هذا الوجه خبرا لمبتدأ محذوف، أى: هذا كتاب: و كذا على تقدير أن الر لا محل له، و يجوز أن يكون الر فى محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: اذكر، أو اقرأ، فيكون كتاب على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف، و الإشارة فى المبتدأ المقدّر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن، و معنى: أُحْكِمَتْ آياتُهُ صارت محكمة متقنة لا نقص فيها و لا نقض لها كالبناء المحكم، و قيل معناه: إنها لم تنسخ بخلاف التوراة و الإنجيل، و على هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، و هو المحكم الذى لم ينسخ؛ و قيل معناه:

أحكمت آياته بالأمر و النهى، ثم فصلت بالوعد و الوعيد و الثواب و العقاب؛ و قيل: أحكمها اللّه من الباطل ثم فصلها بالحلال و الحرام؛ و قيل: أحكمت جملته، ثم فصلت آياته؛ و قيل: جمعت فى اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحى؛ و قيل: أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند اللّه؛ و قيل: معنى إحكامها: أن لا فساد فيها، أخذا من قولهم أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح، و ثُمَّ فُصِّلَتْ معطوف على أحكمت، و معناه ما تقدّم، و التراخى المستفاد من ثم إما زمانى إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، و إما رتبىّ إن فسر بغيره مما تقدّم، و الجمل فى محل رفع على أنها صفة لكتاب، أو خبر للمبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، و فى قوله: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ لف و نشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم و فصلها خبر عالم بمواقع الأمور. قوله: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ مفعول له حذف منه اللام، كذا: فى الكشاف، و فيه: أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلل، و قيل: أن، هى المفسرة لما فى التّفصيل من معنى القول؛ و قيل:

هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله، محكيا على لسان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. قال الكسائى و الفرّاء: التقدير أحكمت بأن

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۶

لا تعبدوا إلا اللّه. و قال الزجّاج: أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا اللّه، ثم أخبرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأنه نذير و

بشير فقال: إِنَّنِى لَكَمْ مِنْهُ نَـذِيرٌ وَ بَشِـيرٌ أى: ينـذرهم و يخوفهم من عذابه لمن عصاه، و يبشـرهم بالجنة و الرضوان لمن أطاعه، و الضـمير فى: منه، راجع إلى اللّه سـبحانه، أى: إننى لكم نذير و بشير من جهة اللّه سبحانه؛ و قيل: هو من كلام اللّه سبحانه كقوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ*. قوله: وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ معطوف على ألا تعبدوا، و الكلام فى: أن، هذه كالكلام فى التى قبلها. و قوله: ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ معطوف على استغفروا، و قـدم الإرشاد إلى الاسـتغفار على التوبة: لكونه وسـيلة إليها؛ و قيل: إن التوبة من متممات الاستغفار؛ و قيل: معنى استغفروا: توبوا، و معنى توبوا: أخلصوا التوبة و استقيموا عليها؛ و قيل:

استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها؛ و قيل: استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة. قال الفراء: ثم: هاهنا بمعنى الواو، أى: و توبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة، و التوبة هى الاستغفار؛ و قيل:

إنما قـدم ذكر الاسـتغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب، و التوبـة هى السـبب إليها، و ما كان آخرا فى الحصول كان أوّلا فى الطلب؛ و قيل: استغفروا فى الصغائر و توبوا إليه فى الكبائر؛ ثم رتب على ما تقدّم أمرين الأول:

يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَـناً أصل الإمتاع: الإطالة، و منه أمتع اللّه بك؛ فمعنى الآية: بطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسـنة مرضية من سعة الرزق و رغد العيش إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى إلى وقت مقدّر عند اللّه و هو الموت؛ و قيل: القيامة؛ و قيل: دخول الجنة؛ و الأوّل أولى. و الأمر الثانى: قوله: وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ أى: يعط كل ذى فضل فى الطاعة و العمل فضله: أى: جزاء فضله، إما فى الدنيا، أو فى الآخرة، أو فيهما جميعا، و الضـمير فى فضـله راجع إلى كل ذى فضل؛ و قيل: راجع إلى اللّه سبحانه على معنى: أن اللّه يعطى كل من فضـلت حسـناته فضـله الـذى يتفضل به على عباده. ثم توعـدهم على مخالفة الأمر فقال: وَ إِنْ تَوَلَّوْا أى: تتولوا و تعرضوا عن الإخلاص فى العبادة و الاسـتغفار و التوبـة فَإِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَـذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ و هو يوم القيامـة، و وصـفه بالكبر لما فيه من الأهوال؛ و قيل: اليوم الكبير: يوم بدر. ثم بين سـبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ أى: رجوعكم إليه بالموت، ثم البعث، ثم الجزاء، لا إلى غيره وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ و من جملة ذلك: عذابكم على عدم الامتثال، و هذه الجملة مقرّرة لما قبلها.

ثم أخبر اللّه سـبحانه بـأن هـذا الإنـذار، و التحـذير، و التوعـد لم ينجع فيهم، و لا ـ لانـت له قلوبهم، بـل هم مصـرّون على العنـاد، مصـممون على الكفر، فقال مصدرا لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، و أنه أمر ينبغى أن يتنبه له العقلاء و يفهموه: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يقال: ثنى صدره عن الشىء:

إذا ازورّ عنه و انحرف منه، فيكون فى الكلام كناية عن الإعراض؛ لأنّ من أعرض عن الشىء ثنى عنه صدره و طوى عنه كشحه؛ و قيـل معنـاه: يعطفون صـدورهم على ما فيها من الكفر و الإعراض عن الحق، فيكون فى الكلام كنايـة عن الإخفاء لما يعتقـدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين. و الوجه الثانى أولى، و يؤيده قوله:

لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أى: ليسـتخفوا من اللّه فلا يطلع عليه رسوله و المؤمنين، أو: ليسـتخفوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذى يثنون فيه صدورهم فقال: أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۷

أى: يسـتخفون فى وقت اسـتغشاء الثياب، و هو التغطى بها، و قـد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابنا، و استغشـينا ثيابنا و ثنينا صدورنا على عـداوة محمد، فمن يعلم بنا؟ و قيل معنى: حين يسـتغشون: حين يأوون إلى فراشـهم و يتدثرون بثيابهم؛ و قيل: إنه حقيقة، و ذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم ثنى صدره، و ولى ظهره، و استغشى ثيابه، لئلا يسمع كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم، و جملـة يَعْلَمُ مـا يُسِـرُّونَ وَ مـا يُعْلِنُونَ مسـتأنفة، لبيان أنه لا فائـدة لهم فى الاسـتخفاء، لأن اللّه سبحانه يعلم ما يسرّونه فى أنفسهم أو فى ذات بينهم، و ما يظهرونه، فالظاهر و الباطن عنده سواء، و السرّ و الجهر سيان، و جملة:

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ تعليل لما قبلها و تقرير له، و ذات الصدور: هى الضمائر التى تشتمل عليها الصدور؛ و قيل: هى القلوب، و المعنى: إنه عليم بجميع الضمائر، أو عليم بالقلوب و أحوالها فى الإسرار و الإظهار، فلا يخفى عليه شىء من ذلك؛ ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان، و نهاية الإحسان، فقال: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها أى: الرزق الذى تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف أنواعه، تفضلا منه و إحسانا، و إنما جىء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة عَلَى اعتبارا بسبق الوعد به منه، و «مِنْ» زائدة للتأكيد، و وجه اتصال هذا الكلام بما قبله، أن اللّه سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله، و أقواله، و أفعاله! و الدابة: كل حيوان يدب وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها أى: محل استقرارها فى الأرض أو محل قرارها فى الأصلاب وَ مُسْتَوْدَعَها موضعها فى الأرحام، و ما يجرى مجراها كالبيضة و نحوها. و قال الفراء: مستقرها: حيث تأوى إليه ليلا و نهارا، و مستودعها موضعها الذى تموت فيه، و قد مرّ تمام الأقوال فى سورة الأنعام، و وجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر. و أما على القول الأوّل فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هى عليه حال كونها دابة. و المعنى: و ما من دابة فى الأرض إلا يرزقها اللّه حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة و قبل كونها دابة، و ذلك حيث تكون فى الرحم و نحوه؛ ثم ختم الآية بقوله: كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ أى: كل من ما تقدّم ذكره من الدواب، و مستقرّها، و مستودعها، و رزقها فى كتاب مبين، و هو اللوح المحفوظ، أى: مثبت فيه. ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات و الأرض، و كيف كان الحال قبل خلقها فقال:

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف، قيل: و المراد بالأيام الأوقات، أى: فى ستة أوقات كما فى قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ «1» و قيل: مقدار ستة أيام، و لا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا: الأيام المعروفة، و هى المقابلة للّيالى، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض و لا سماء، و ليس اليوم إلا عبارة عن مدّة كون الشمس فوق الأرض، و كان خلق السموات فى يومين، و الأرضين فى يومين، و ما عليهما من أنواع الحيوان و النبات و الجماد فى يومين، كما سيأتى فى حم السجدة. قوله: وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ أى: كان قبل خلقهما عرشه على الماء، و فيه بيان تقدّم خلق العرش و الماء على السموات و الأرضين.

قوله: لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا اللام متعلقة بخلق، أى: خلق هذه المخلوقات ليبتلى عباده بالاعتبار، و التفكر، و الاستدلال على كمال قدرته، و على البعث و الجزاء، أيهم أحسن عملا فيما أمر به و نهى عنه، فيجازى

---

(1). الأنفال: 16.

المحسن بإحسانه و المسىء بإساءته، و يوفر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره، و يدخل فى العمل الاعتقاد، لأنه من أعمال القلب، و قيل: المراد بالأحسن عملا: الأتمّ عقلا، و قيل: الأزهد فى الدنيا، و قيل: الأكثر شكرا، و قيل: الأتقى للّه. قوله: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ثم لما كان الابتلاء يتضمّن حديث البعث أتبع ذلك بذكره، و المعنى: لئن قلت لهم يا محمد على ما توجبه قضية الابتلاء: إنكم مبعوثون من بعد الموت فيجازى المحسن بإحسانه و المسيئ بإساءته، ليقولن الذين كفروا من الناس: إن هذا الذى تقوله يا محمد: إلا باطل كبطلان السحر و خدع كخدعه. و يجوز أن تكون الإشارة بهذا: إلى القرآن، لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث. و قرأ حمزة، و الكسائى: إن هذا إلا ساحر يعنون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و كسرت إنّ من قوله: إِنَّكُمْ لأنها بعد القول. و حكى سيبويه: الفتح، على تضمين: قلت، معنى ذكرت، أو على أن بمعنى علّ: أى و لئن قلت لعلكم مبعوثون، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين، أى: توقعوا ذلك و لا تبتوا القول

بإنكاره وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ أى: الذى تقدّم ذكره فى قوله: عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ و قيل: عذاب يوم القيامة و ما بعده، و قيل: يوم بدر إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ أى: إلى طائفة من الأيام قليلة، لأن ما يحصره العدّ قليل، و الأمة اشتقاقها من الأم: و هو القصد، و أراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب؛ و قيل: هى فى الأصل: الجماعة من الناس، و قد يسمى الحين: باسم ما يحصل فيه، كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر، أى: فى ذلك الحين، فالمراد على هذا إلى حين تنقضى أمة معدودة من الناس لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أى: أىّ شىء يمنعه من النزول؟ استعجالا له على جهة الاستهزاء و التكذيب، فأجابهم اللّه بقوله: أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ أى: ليس محبوسا عنهم، بل واقع بهم لا محالة، و يوم: منصوب بمصروفا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى:

أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، و وضع يستهزئون مكان يستعجلون، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، و عبر بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه، فكأنه قد حاق بهم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قرأ: الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ قال: هى كلها محكمة يعنى سورة هود ثُمَّ فُصِّلَتْ قال: ثم ذكر محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم فحكم فيها بينه و بين من خالفه، و قرأ: مثل الفريقين الآية كلها، ثم ذكر قوم نوح ثم هود، فكان هذا تفصيل ذلك، و كان أوّله محكما قال: و كان أبى يقول ذلك، يعنى زيد بن أسلم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله:

كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ قال: أحكمت بالأمر و النهى، و فصلت بالوعد و الوعيد. و أخرج هؤلاء عن مجاهد فُصِّلَتْ قال: فسرت. و أخرج هؤلاء أيضا عن قتادة فى الآية قال: أحكمها اللّه من الباطل ثم فصلها بعلمه، فبين حلاله و حرامه و طاعته و معصيته، و فى قوله: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ يعنى من عند حكيم، و فى قوله: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً قال: فأنتم فى ذلك المتاع فخذوه بطاعة اللّه و معرفة حقه، فإن اللّه منعم يحبّ الشاكرين و أهل الشكر فى مزيد من اللّه، و ذلك قضاؤه الذى قضاه؛ و فى قوله: إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى يعنى الموت، و فى قوله: يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ أى: فى الآخرة. و أخرج هؤلاء

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٤٩

أيضا عن مجاهد فى قوله: يؤت كل ذى فضل فضله، أى: فى الآخرة. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال:

يؤت كل ذى فضل فى الإسلام فضل الدرجات فى الآخرة. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله:

وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، و من عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات، و إن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة و بقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره «١».

و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس فى قوله: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، و أن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم. قال البخارى:

و عن ابن عباس يَسْتَغْشُونَ يغطون رؤوسهم. و روى البخارى أيضا عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية، يعنى به: الشك فى اللّه و عمل السيئات. و كذا روى عن مجاهد و الحسن و غيرهما؛ أى: أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من اللّه بذلك، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ من القول وَ ما يُعْلِنُونَ و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن شداد بن الهاد فى قوله: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ قال: كان المنافقون إذا مرّ أحدهم بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثنى صدره و تغشى ثوبه لكيلا يراه، فنزلت.

و أخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله: أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ قال: فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم. و أخرج ابن أبى شيبة و

ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى رزين فى الآية قال: كان أحدهم يحنى ظهره و يستغشى بثوبه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال:

كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب اللّه. قال تعالى: أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ و ذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره و استغشى بثوبه و أضمر همه فى نفسه، فإن اللّه لا يخفى عليه ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى الآية: يكتمون ما فى قلوبهم أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما عملوا بالليل و النهار. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ الآية قال: يعنى كل دابّة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ الآية قال: يعنى ما جاءها من رزق فمن اللّه، و ربما لم يرزقها حتى تموت جوعا، و لكن ما كان لها من رزق فمن اللّه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها قال: حيث تأوى، وَ مُسْتَوْدَعَها قال: حيث تموت. و أخرج ابن أبى حاتم عنه وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها قال: يأتيها رزقها حيث كانت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: مستقرّها فى الأرحام و مستودعها حيث تموت. و يؤيد هذا التفسير الذى ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر

---

(١). الصواب: عشراته.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٥٠

فتح القدير ج٢ ٥٩٩

الأصول، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتنى». و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله:

وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ على أىّ شىء كان الماء؟ قال: على متن الريح. و قد وردت أحاديث كثيرة فى صفة العرش و فى كيفية خلق السموات و الأرض ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم فى التاريخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فقال: ما معنى ذلك يا رسول اللّه؟ قال: ليبلوكم أيّكم أحسن عقلا، ثم قال: و أحسنكم عقلا أورعكم عن محارم اللّه و أعملكم بطاعة اللّه». و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: أيكم أتمّ عقلا. و أخرج أيضا عن سفيان قال: أزهدكم فى الدنيا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: لما نزلت اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ قال ناس: إن الساعة قد اقتربت فتناهوا، فتناهى القوم قليلا ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء، فأنزل اللّه أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ «١» فقال ناس من أهل الضلال: هذا أمر اللّه قد أتى، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء، فأنزل اللّه هذه الآية وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله:

إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ قال: إلى أجل معدود. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ يعنى: أهل النفاق. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقول: وقع بهم العذاب الذى استهزءوا به.

[سورة هود (١١): الآيات ٩ الى ١٧]

وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٣)
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)

---

(١). النحل: ١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٥١

اللام فى وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ هى الموطّئة للقسم، و الإنسان الجنس، فيشمل المؤمن و الكافر، و يدلّ على ذلك الاستثناء بقوله: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا و قيل: المراد جنس الكفار، و يؤيده أن اليأس و الكفران و الفرح و الفخر هى أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام فى الغالب؛ و قيل: المراد بالإنسان: الوليد بن المغيرة، و قيل: عبد اللّه بن أمية المخزومى: و المراد بالرحمة هنا: النعمة من توفير الرزق و الصحة و السلامة من المحن ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ أن سلبناه إياها إِنَّهُ لَيَؤُسٌ أى: آيس من الرحمة، شديد القنوط من عودها و أمثالها، و الكفور: عظيم الكفران، و هو الجحود بها، قاله ابن الأعرابى؛ و فى إيراد صيغتى المبالغة فى لَيَؤُسٌ كَفُورٌ ما يدلّ على أن الإنسان كثير اليأس، و كثير الجحد عند أن يسلبه اللّه بعض نعمه فلا يرجو عودها، و لا يشكر ما قد سلف له منها. و فى التعبير بالذوق ما يدلّ على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم اللّه بها عليه، لأن الإذاقة و الذوق أقلّ ما يوجد به الطعم، و النعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، و الضرّاء:

ظهور أثر الإضرار على من أصيب به. و المعنى: أنه إن أذاق اللّه سبحانه العبد نعماءه من الصّحّة، و السّلامة، و الغنى، بعد أن كان فى ضرّ من فقر أو مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر للّه سبحانه، بل يقول: ذهب السيئات، أى: المصائب التى ساءته من الضرّ و الفقر و الخوف و المرض عنه، و زال أثرها غير شاكر للّه، و لا مثن عليه بنعمه إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ أى: كثير الفرح بطرا و أشرا، كثير الفخر على الناس و التطاول عليهم بما يتفضل اللّه به عليه من النعم، و فى التعبير عن ملابسة الضرّ له: مناسبة للتعبير فى جانب النعماء بالإذاقة، فإن كلاهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة، كما تقدّم إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن، و الشكر عند حصول المنن. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأوّل، أى:

و لكن الذين صبروا و عملوا الصالحات فى حالتى النعمة و المحنة. و قال الفراء: هو استثناء من لئن أذقناه، أى:

من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، و الناس يشمل الكافر و المؤمن، فهو استثناء متصل، و الإشارة بقوله:

أُولئِكَ إلى الموصول، باعتبار اتصافه بالصبر و عمل الصالحات لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لذنوبهم وَ أَجْرٌ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة كَبِيرٌ متناه فى الكبر. ثم سلا اللّه سبحانه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال:

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ أى: فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر و التكذيب، و اقتراح الآيات التى يقترحونها على حسب هواهم و تعنّتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله اللّه عليك و أمرك بتبليغه، مما يشقّ عليهم سماعه أو يستشقون العمل به، كسبّ آلهتهم، و أمرهم بالإيمان باللّه وحده. قيل: و هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام، أى: هل أنت تارك؟ و قيل:

هو فی معنی النفی مع الاستبعاد؛ أی: لا یکون منک ذلک، بل تبلغهم جمیع ما أنزل اللّه علیک، أحبوا ذلک أم کرهوه، شاؤوا أم أبوا وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ معطوف علی تارک، و الضّمیر فی: به، راجع إلی: ما، أو: إلی بعض، و عبر بضائق دون ضیق: لأن اسم الفاعل فیه معنی الحدوث و العروض، و الصفة المشبهة فیها معنی اللزوم أَنْ یَقُولُوا أی: کراهة أن یقولوا، أو مخافة أن یقولوا، أو لئلا یقولوا: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ کَنْزٌ أی: هلّا أنزل علیه کنز؛ أی: مال مکنوز مخزون ینتفع به أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَکٌ یصدّقه و یبین لنا صحّة رسالته؛ ثم بیّن سبحانه: أن حاله صلّی اللّه علیه و سلّم مقصور

فتح القدیر، ج۲، ص: ۵۵۲

علی النذارة، فقال: إِنَّما أَنْتَ نَذِیرٌ لیس علیک إلا الإنذار بما أوحی إلیک، و لیس علیک حصول مطلوبهم، و إیجاد مقترحاتهم وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ یحفظ ما یقولون و هو فاعل بهم ما یجب أن یفعل.

قوله: أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ أم: هی المنقطعة التی بمعنی بل و الهمزة، و أضرب عما تقدّم من تهاونهم بالوحی، و عدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، و شرع فی ذکر ارتکابهم لما هو أشدّ من ذلک، و هو افتراؤهم علیه بأنه افتراه، و الاستفهام للتوبیخ و التقریع، و الضمیر المستتر فی افتراه: للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و البارز: إلی ما یوحی. ثم أمره اللّه سبحانه أن یجیب علیهم بما یقطعهم، و یبین کذبهم، و یظهر به عجزهم، فقال: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ أی: مماثلة له فی البلاغة، و حسن النظم، و جزالة اللفظ، و فخامة المعانی، و وصف السور بما یوصف به المفرد، فقال: مثله، و لم یقل: أمثاله، لأن المراد مماثلة کل واحد من السور، أو لقصد الإیماء إلی وجه الشبه، و مداره المماثلة فی شیء واحد، و هو البلاغة البالغة إلی حدّ الإعجاز، و هذا إنما هو علی القول بأن المطابقة فی الجمع و التثنیة و الإفراد شرط، ثم وصف السور بصفة أخری، فقال: مُفْتَرَیاتٍ وَ ادْعُوا للاستظهار علی المعارضة بالعشر السور مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دعاءه و قدرتم علی الاستعانة به من هذا النوع الإنسانی، و ممن تعبدونه و تجعلونه شریکا للّه سبحانه. و قوله: مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلّق بادعوا؛ أی: ادعوا من استطعتم متجاوزین اللّه تعالی: إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ فیما تزعمون من افترائی له فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ أی: فإن لم یفعلوا ما طلبته منهم و تحدّیتهم به من الإتیان بعشر سور مثله، و لا استجابوا إلی المعارضة المطلوبة منهم، و یکون الضمیر فی لکم لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و للمؤمنین، أو للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم وحده، و جمع تعظیما و تفخیما فَاعْلَمُوا أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و للمؤمنین، أو للرسول وحده، علی التأویل الذی سلف قریبا. و معنی أمرهم بالعلم: أمرهم بالثبات علیه، لأنهم عالمون بذلک من قبل عجز الکفار عن الإتیان بعشر سور مثله، أو المراد بالأمر بالعلم: الأمر بالازدیاد منه إلی حدّ لا یشوبه شک، و لا تخالطه شبهة، و هو علم الیقین، و الأوّل أولی. و معنی أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ أنه أنزل متلبّسا بعلم اللّه المختص به، الذی لا تطلع علی کنهه العقول، و لا تستوضح معناه الأفهام، لما اشتمل علیه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أی: و اعلموا أن اللّه هو المتفرد بالألوهیة لا شریک له، و لا یقدر غیره علی ما یقدر علیه. ثم ختم الآیة بقوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أی: ثابتون علی الإسلام، مخلصون له، مزادون من الطاعات، لأنه قد حصل لکم بعجز الکفار عن الإتیان بمثل عشر سور من هذا الکتاب طمأنینة فوق ما کنتم علیه و بصیرة زائدة، و إن کنتم مسلمین من قبل هذا، فإن الثبوت علیه و زیادة البصیرة فیه و الطمأنینة به مطلوب منکم. و قیل: إن الضمیر فی فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیبُوا للموصول فی من استطعتم، و ضمیر لکم: للکفار الذین تحدّاهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و کذلک ضمیر: فاعلموا، و المعنی: فإن لم یستجب لکم من دعوتموهم للمعاضدة و المناصرة علی الإتیان بعشر سور من سائر الکفار و من یعبدونهم، و یزعمون: أنهم یضرّون و ینفعون، فاعلموا أن هذا القرآن الذی أنزله اللّه علی هذا الرسول خارج عن قدرة غیره سبحانه و تعالی، لما اشتمل علیه من الإعجاز الذی تتقاصر دونه قوّة المخلوقین، و أنه أنزل بعلم اللّه الذی لا تحیط به العقول و لا

فتح القدیر، ج۲، ص: ۵۵۳

تبلغه الأفهام، و اعلموا أنه المنفرد بالألوهية لا شريک له، فهل أنتم بعد هذا مسلمون؟ أى داخلون فى الإسلام، متّبعون لأحكامه، مقتدون بشرائعه. و هذا الوجه أقوى من الوجه الأوّل من جهة، و أضعف منه من جهة، فأما جهة قوّته: فلا تساق الضمائر و تناسبها و عدم احتياج بعضها إلى تأويل، و أما ضعفه: فلما فى ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم و استعانوا بهم من الخفاء و احتياجه إلى تكلف، و هو أن يقال:

إن عدم استجابة من دعوهم و استعانوا بهم من الكفار و الآلهة مع حرصهم على نصرهم و معاضدتهم و مبالغتهم فى عدم إيمانهم و استمرارهم على الكفر يفيد حصول العلم لهؤلاء الكفار بأنّ هذا القرآن من عند اللّه، و أن اللّه سبحانه هو الإله وحده لا شريک له، و ذلک يوجب دخولهم فى الإسلام. و اعلم أنه قد اختلف التحدّى للكفار بمعارضة القرآن، فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ و بعشر سور كما فى هذه الآية، و ذلک لأن العشرة أوّل عقد من العقود، و بسورة منه كما تقدّم و ذلک لأن السورة أقلّ طائفة منه، ثم إن اللّه سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا، لا يطلب غيرها، و لا يريد سواها، فقال: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها «۱» قال الفرّاء: إن: كان هذه، زائدة، و لهذا جزم الجواب. و قال الزّجّاج: مَنْ كانَ فى موضع جزم بالشرط، و جوابه نوفّ إليهم؛ أى من يكن يريد.

و اختلف أهل التفسير فى هذه الآية، فقال الضحاک: نزلت فى الكفار و اختاره النحاس بدليل الآية التى بعدها أُولئِکَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ؛ و قيل: الآية واردة فى الناس على العموم كافرهم و مسلمهم. و المعنى أن من كان يريد بعمله حظّ الدنيا يكافأ بذلک، و المراد بزينتها: ما يزينها و يحسنها من الصحّة و الأمن و السّعة فى الرزق و ارتفاع الحظّ و نفاذ القول و نحو ذلک. و إدخال كانَ فى الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة، و لهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا، و لم يعملوا للآخرة. و ظاهر قوله: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوى و لا محالة، و لكن الواقع فى الخارج يخالف ذلک، فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته، و إن عمل لها و أرادها، فلا بدّ من تقييد ذلک بمشيئة اللّه سبحانه.

قال القرطبى: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، و كذلک الآية التى فى الشورى: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها «۲»، و كذلک وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها «۳» قيدتها و فسرتها التى فى سبحان: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ «۴» قوله: وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أى: و هؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها: أى فى الدنيا لا يبخسون؛ أى: لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، و ذلک فى الغالب و ليس بمطرد، بل إن قضت به مشيئته سبحانه، و رجحته حكمته البالغة.

و قال القاضى: معنى الآية: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا و زينتها نوفّ إليهم أعمالهم وافية كاملة، من غير بخس فى الدنيا، و هو ما ينالون من الصحة و الكفاف و سائر اللذات و المنافع، فخصّ الجزاء بمثل ما ذكره، و هو حاصل لكل عامل للدنيا و لو كان قليلا يسيرا. قوله: أُولئِکَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ

---

(۱). الإسراء: ۸۸.

(۲). الشورى: ۲۰.

(۳). آل عمران: ۱۴۵.

(۴). الإسراء: ۱۸.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۵۴
الإشارة إلى المريدين المذكورين، و لا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشي‏ء من الأعمال المعتدّ بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدّم وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا أي: ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروي، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم، و عدم الخلوص، و إرادة ما عند اللّه في دار الجزاء، بل قصروا ذلك على الدنيا و زينتها؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي: أنه كان عملهم في نفسه باطلا غير معتدّ به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء، و يترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح. قوله: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ بيّن سبحانه أنّ بين من كان طالبا للدنيا فقط، و من كان طالبا للآخرة، تفاوتا عظيما، و تباينا بعيدا؛ المعنى: أ فمن كان على بينة من ربه في اتباع النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و الإيمان باللّه كغيره ممن يريد الحياة الدنيا و زينتها؛ و قيل: المراد بمن كان على بينة من ربه: النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، أي:
أ فمن كان معه بيان من اللّه و معجزة كالقرآن و معه شاهد كجبريل، و قد بشّرت به الكتب السالفة، كمن كان يريد الحياة الدنيا و زينتها. و معنى البينة: البرهان الذي يدلّ على الحق، و الضمير في قوله: وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ راجع إلى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان، و الضمير في منه: راجع إلى القرآن، لأنه قد تقدّم ذكره في قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ أو راجع إلى اللّه تعالى. و المعنى: و يتلو البرهان الذي هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن، أو من اللّه سبحانه. و الشّاهد: هو الإعجاز الكائن في القرآن، أو المعجزات التي ظهرت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإن ذلك من الشّواهد التّابعة للقرآن. و قال الفرّاء: قال بعضهم: و يتلوه شاهد منه:
الإنجيل، و إن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق، و الهاء في منه: للّه عزّ و جلّ؛ و قيل: المراد بمن كان على بيّنة من ربه: هم مؤمنوا أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام و أضرابه. قوله: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى معطوف على شاهد، و التقدير: و يتلو الشّاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى، فهو و إن كان متقدّما في النزول فهو يتلو الشّاهد في الشّهادة، و إنما قدّم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا في الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق، فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى. و معنى شهادة موسى، و هو التوراة أنه بشر بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أخبر بأنه رسول من اللّه. قال الزّجّاج: و المعنى و يتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم موصوف في كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة و الإنجيل. و حكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى بالنصب. و حكاه المهدوي عن الكلبي فيكون معطوفا على الهاء في يتلوه.
و المعنى: و يتلو كتاب موسى جبريل، و انتصاب إماما و رحمة على الحال. و الإمام: هو الذي يؤتمّ به في الدين و يقتدى به، و الرحمة: النعمة العظيمة التي أنعم اللّه بها على من أنزله عليهم و على من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة، و هو الكون على البينة من اللّه، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره يُؤْمِنُونَ بِهِ أي: يصدّقون بالنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أو بالقرآن وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ أي: بالنبيّ أو بالقرآن. و الأحزاب: المتحزّبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل مكة و غيرهم، أو: المتحزّبون من أهل الأديان كلها فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ أي: هو من أهل النار لا

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۵۵
محالة، و في جعل النار موعدا إشعار بإن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب، و مثله قول حسان:
أوردتموها حياض الموت ضاحيةفالنّار موعدها و الموت لاقيها
فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ أي: لا تك في شكّ من القرآن، و فيه تعريض بغيره صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه معصوم عن الشك في القرآن، أو من الموعد إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ بذلك مع

وجوب الإيمان به، و ظهور الدّلائل الموجبة له، و لكنّهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا.

و قد أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ قال: لأصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن أنس فى قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها قال: نزلت فى اليهود و النصارى. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن معبد قال: قام رجل إلى علىّ فقال: أخبرنا عن هذه الآية: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا إلى قوله: وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ قال: ويحك، ذاك من كان يريد الدّنيا لا يريد الآخرة. و أخرج النحاس عن ابن عباس:

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا أى: ثوابها وَ زِينَتَها مالها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ نوفر لهم بالصحة و السرور فى الأهل و المال و الولد وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ لا ينقصون، ثم نسخها: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ «١» الآية. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: من عمل صالحا التماس الدّنيا: صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدّنيا، يقول اللّه: أو فيه الذى التمس فى الدّنيا و حبط عمله الذى كان يعمل، و هو فى الآخرة من الخاسرين.

و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نزلت هذه الآية فى أهل الشرك. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ قال: طيباتهم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها قال: حبط ما عملوا من خير، و بطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: هم أهل الرياء. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن علىّ بن أبى طالب قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بينة من ربه و أنا شاهد منه. و أخرج ابن عساكر و ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أنا، و يتلوه شاهد منه «علىّ».

و أخرج أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ قال: ذاك محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو الشيخ عن إبراهيم نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو الشيخ عن محمد بن علىّ بن أبى طالب قال: قلت لأبى: إن الناس يزعمون فى قول اللّه سبحانه وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ أنك أنت التالى، قال: وددت أنى أنا هو، و لكنه لسان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس أن الشاهد جبريل و وافقه سعيد بن جبير. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى

---

(١). الإسراء: ١٨.

حاتم، و أبو الشيخ و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: جبريل، فهو شاهد من اللّه بالذى يتلوه من كتاب اللّه الذى أنزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى قال: و من قبله التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن عساكر عن الحسن بن علىّ فى قوله: وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ قال: محمد هو الشاهد من اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن إبراهيم: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى قال: و من قبله جاء الكتاب إلى موسى. و أخرج عبد الرزاق و أبو الشيخ عن قتادة: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ قال: الكفّار أحزاب كلّهم على الكفر.

و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ قال: من اليهود و النّصارى.

[سورة هود (١١): الآيات ١٨ الى ٢٤]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (١٩) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى: لا أحد أظلم منهم لأنفسهم؛ لأنهم افتروا على اللّه كذبا بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه، و قولهم: الملائكة بنات اللّه، و أضافوا كلامه سبحانه إلى غيره، و اللفظ و إن كان لا يقتضى إلا نفى وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكارى، فالمقام يفيد نفى المساوى لهم فى الظّلم. فالمعنى على هذا: لا أحد مثلهم فى الظلم، فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم، و الإشارة بقوله: أولئك، إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ، و هو: مبتدأ، و خبره: يعرضون على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ الأشهاد: هم الملائكة الحفظة، و قيل: المرسلون، و قيل: الملائكة و المرسلون و العلماء الذى بلغوا ما أمرهم اللّه بإبلاغه، و قيل: جميع الخلائق. و المعنى: أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه، و لم يصرّحوا بما كذبوا به كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف. قوله: أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ هذا من تمام كلام الأشهاد، أى: يقولون:

هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، و يقولون: ألا لعنة اللّه على الظّالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء، و يجوز أن يكون من كلام اللّه سبحانه قاله بعد ما قال الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. و الأشهاد: جمع شهيد، و رجحه أبو علىّ بكثرة ورود شهيد فى القرآن كقوله: وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «١». فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً؛ و قيل: هو جمع شاهد، كأصحاب و صاحب،

---

(١). البقرة: ١٤٣.

و الفائدة فى قول الأشهاد بهذه المقالة: المبالغة فى فضيحة الكفار، و التّقريع لهم على رؤوس الأشهاد، ثم وصف هؤلاء الظّالمين الذين لعنوا: بأنهم الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: يمنعون من قدروا على منعه عن دين اللّه و الدخول فيه وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أى: يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها، أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر، يقال: بغيتك شرّا؛ أى طلبته لك وَ الحال أن هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أى: يصفونها بالعوج، و الحال أنهم بالآخرة غير مصدّقين فكيف يصدون الناس عن طريق الحق و هم على الباطل البحت؟ و تكرير الضمير: لتأكيد كفرهم و اختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة إلى عظيم كفرهم أُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أى: ما كانوا يعجزون اللّه فى الدنيا إن أراد عقوبتهم وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يدفعون عنهم ما يريده اللّه سبحانه من عقوبتهم و إنزال بأسه بهم، و جملة:

يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ مستأنفة، لبيان أن تأخير العذاب و التراخى عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا. و قرأ ابن كثير، و ابن عامر، و يزيد، و يعقوب يضعف مشدّدا ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ أى أفرطوا فى إعراضهم عن الحق و بغضهم له، حتى كأنهم لا يقدرون على السمع، و لا يقدرون على الإبصار لفرط تعاميهم عن الصواب.

و يجوز أن يراد بقوله: وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ: أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون اللّه و لا ينفعهم ذلك، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع و ما كانوا يبصرون، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا أو يدفعون عنهم ضررا؟ و يجوز أن تكون ما هى المدية «١». و المعنى: أنه يضاعف لهم العذاب مدّة استطاعتهم السمع و البصر. قال الفرّاء: ما كانوا يستطيعون السّمع لأن اللّه أضلهم فى اللوح المحفوظ. و قال الزجّاج: لبغضهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه و لا يفهموا عنه. قال النحاس: هذا معروف فى كلام العرب، يقال فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان: إذا كان ثقيلا عليه أُولئِكَ المتصفون بتلك الصفات الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بعبادة غير اللّه. و المعنى: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة اللّه فكان خسرانهم فى تجارتهم أعظم خسران وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: ذهب و ضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التى يدّعون أنها تشفع لهم، و لم يبق بأيديهم إلا الخسران، قوله: لا جَرَمَ قال الخليل و سيبويه:

لا جَرَمَ بمعنى: حق، فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة، و به قال الفرّاء. و روى عن الخليل و الفرّاء:

أنها بمنزلة قولك لا بدّ و لا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا. و قال الزجّاج: إن جرم بمعنى:

كسب، أى: كسب ذلك الفعل لهم الخسران، و فاعل كسب مضمر، و أنّ منصوبة بجرم. قال الأزهرى:

و هذا من أحسن ما نقل فى هذه اللغة. و قال الكسائى: معنى لا جرم: لا صدّ، و لا منع عن أنهم فى الآخرة هم الأخسرون. و قال جماعة من النحويين: إن معنى لا جرم لا قطعه قاطع أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ قالوا: و الجرم، القطع، و قد جرم النخل و اجترمه: أى: قطعه، و فى هذه الآية بيان أنهم

---

(١). أى: ما: المصدرية الظرفية.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٥٥٨

فى الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم و لا يبلغ إليه، و هذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفى المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا و زينتها، و بين من كان على بينة من ربه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أى: صدقوا بكل ما يجب التّصديق به، من كون القرآن من عند اللّه و غير ذلك من خصال الإيمان وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أى: أنابوا إليه، و قيل: خشعوا، و قيل: خضعوا، قيل: و أصل الإخبات الاستواء فى الخبت:

و هو الأرض المستوية الواسعة، فيناسب معنى الخشوع و الاطمئنان. قال الفراء: إلى ربهم، و لربهم واحد أُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ قوله: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ ضرب للفريقين مثلا، و هو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى و الأصمّ، و تشبيه فريق المؤمنين بالبصير و السميع، على أن كل فريق شبه بشيئين، أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى و الصمم، و المؤمن شبه بمن جمع بين السمع و البصر، و على هذا تكون الواو فى وَ الْأَصَمِ و فى وَ السَّمِيعِ بعطف الصفة على الصفة، كما فى قول الشاعر:

إلى الملك القرم و ابن الهمام ...

و الاستفهام فى قوله هَلْ يَسْتَوِيانِ للإنكار: يعنى الفريقين، و هذه الجملة مقرّرة لما تقدّم من قوله:

أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ و انتصاب مثلا على التمييز من فاعل يستويان، أى: هل يستويان حالا و صفة أَ فَلا تَذَكَّرُونَ فى عدم

استوائهما و فيما بينهما من التفاوت الظاهر الذى لا يخفى على من له تذكّر، و عنده تفكّر و تأمّل، و الهمزة لإنكار عدم التّذكّر و استبعاد صدوره عن المخاطبين.

و قد أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله وَ مَنْ أَظْلَمُ قال: الكافر و المنافق أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ فيسألهم عن أعمالهم وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ شهدوا به عليهم يوم القيامة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال:

الأشهاد: الملائكة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه، و فى الصحيحين و غيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه يدنى المؤمن حتى يضع عليه كنفه و يستره من الناس و يقرّره بذنوبه، و يقول له: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: ربّ أعرف، حتى إذا قرّره بذنوبه و رأى فى نفسه أنه قد هلك قال: فإنى سترتها عليك فى الدنيا، و أنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. و أمّا الكافر و المنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة اللّه على الظالمين». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: هو محمد، يعنى: سبيل اللّه، صدّت قريش عنه الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: وَ يَبْغُونَها عِوَجاً يعنى يرجون بمكة غير الإسلام دينا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ الآية قال: أخبر اللّه سبحانه أنه حال بين أهل الشّرك و بين طاعته فى الدنيا و الآخرة، أما فى الدنيا فإنه قال: ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ و أما فى الآخرة فإنه قال:

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۵۹

فَلا يَسْتَطِيعُونَ- خاشِعَةً «۱». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ قال: ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به، و لا يبصروا خيرا فيأخذوا به. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله أَخْبَتُوا قال: خافوا. و أخرج ابن جرير عنه قال: الإخبات: الإنابة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ قال: الإخبات: الخشوع و التّواضع. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد قال: اطمأنوا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِ قال: الكافر وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ قال: المؤمن.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۲۵ الى ۳۴]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۵) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (۲۸) وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹)

وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۳۱) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۲) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴)

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم أنواع الدلائل التى هى أوضح من الشمس، أكد ذلك

بذكر القصص على طريقة التفنن فى الكلام، و نقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر و الحجة أبين، و القبول أتمّ، فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّی لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ قرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائى بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر؛ أى: أرسلناه بأنى؛ أى: أرسلناه متلبّسا بذلك الكلام، و هو أنى لكم نذير مبين. و قرأ الباقون بالكسر على إرادة القول: أى قائلا إنى لكم، و الواو فى و لقد: للابتداء، و اللام هى الموطّئة للقسم، و اقتصر على النّذارة دون البشارة، لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به، و جملة: أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ بدل من إِنِّی لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أى: أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا اللّه، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا، أو بنذير، أو بمبين، و جملة: إِنِّی أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ تعليلية. و المعنى: نهيتكم عن عبادة غير اللّه لأنى أخاف عليكم، و فيها تحقيق لمعنى الإنذار، و اليوم الأليم: هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان؛ و وصفه بالأليم من باب الإسناد المجازى مبالغة. ثم ذكر ما أجاب

---

(۱). سورة القلم [الآية ۴۲- ۴۳].

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶۰

به قومه عليه و هذا الجواب يتضمن الطعن منهم فى نبوّته من ثلاث جهات فقال: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ و الملأ: الأشراف، كما تقدم غير مرة، و وصفهم بالكفر: ذما لهم، و فيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم فى نبوّته، أى: نحن و أنت مشتركون فى البشرية، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوّة دوننا، و الجهة الثانية: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا و لم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك، و الأراذل: جمع أرذل، و أرذل: جمع رذل، مثل: أكالب و أكلب و كلب؛ و قيل: الأراذل جمع الأرذل كالأساود جمع أسود، و هم السفلة. قال النحاس: الأراذل: الفقراء و الذين لا حسب لهم، و الحسب الصناعات. قال الزجّاج: نسبوهم إلى الحياكة، و لم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الدّيانة. و قال ثعلب عن ابن الأعرابى: السّفلة هو الذى يصلح الدّنيا بدينه، قيل له: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذى يصلح دنيا غيره بفساد دينه. و الظاهر من كلام أهل اللغة أنّ السفلة هو الذى يدخل فى الحرف الدنية. و الرؤية فى الموضعين إن كانت القلبية، فبشرا فى الأوّل: و اتبعك فى الثانى هما المفعول الثانى، و إن كانت البصرية: فهما منتصبان على الحال، و انتصاب بادى الرأى على الظرفية و العامل فيه اتبعك. و المعنى: فى ظاهر الرأى من غير تعمق، يقال بدا يبدو: إذا ظهر. قال الأزهرى: معناه فيما يبدو لنا من الرأى. و الوجه الثالث: من جهات قدحهم فى نبوّته: وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ خاطبوه فى الوجهين الأولين منفردا و فى هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه، أى: ما نرى لك و لمن اتبعك من الأرذال علينا من فضل تتميزون به و تستحقون ما تدّعونه، ثم أضربوا على الثلاثة المطاعن، و انتقلوا إلى ظنهم المجرّد عن البرهان الذى لا مستند له إلا مجرد العصبية و الحسد، و استبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، فقالوا: بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ فيما تدّعونه، و يجوز أن يكون هذا خطابا للأراذل وحدهم، و الأوّل أولى، لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له. ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم، فقال: قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّی أى: أخبرونى إن كنت على برهان من ربى فى النبوّة يدل على صحتها يوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحا ليس بقادح فى الحقيقة، فإن المساواة فى صفة البشرية لا تمنع المفارقة فى صفة النبوّة، و اتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوّة، فإنهم مثلكم فى البشرية و العقل و الفهم، فاتباعهم لى حجة عليكم لا لكم، و يجوز أن يريد بالبينة: المعجزة وَ آتانِی رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ هى: النبوّة، و قيل: الرحمة: المعجزة، و البينة: النبوّة.

قيل: و يجوز أن تكون الرحمة هى البينة نفسها، و الأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة، و الإفراد فى فَعُمِّيَتْ على إرادة

كل واحدة منهما، أو على إرادة البينة، لأنها هى التى تظهر لمن تفكّر و تخفى على من لم يتفكّر، و معنى عميت: خفيت؛ و قيل: الرحمة: هى على الخلق، و قيل: هى الهداية إلى معرفة البرهان، و قيل: الإيمان، يقال عميت عن كذا، و عمى علىّ كذا: إذا لم أفهمه. قيل: و هو من باب القلب، لأنّ البينة أو الرحمة لا تعمى، و إنما يعمى عنها فهو كقولهم: أدخلت القلنسوة رأسى. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى و حفص فَعُمِّيَتْ بضم العين و تشديد الميم على البناء للمفعول، أى: فعماها اللّه عليكم، و فى

قراءة أبىّ، فعماها عليكم. و الاستفهام فى: أَ نُلْزِمُكُمُوها للإنكار، أى: لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها، و الحال أنكم لها كارهون؛ و المعنى: أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتى إلا أنها خافية عليكم، أ يمكننا أن نضطركم إلى العلم بها؟ و الحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا اللّه عزّ و جلّ. و حكى الكسائى و الفراء إسكان الميم الأولى فى أ نلزمكموها تخفيفا كما فى قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه و لا واغل «۱»

فإن إسكان الباء فى أشرب للتخفيف. و قد قرأ عمرو كذلك. قوله: وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فيه التّصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلا للتهمة، و يكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادّعى طلبا للدنيا، و الضمير فى عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا. و قوله: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا كالجواب عما يفهم من قولهم: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه؛ و قيل: إنهم سألوه طردهم تصريحا لا تلميحا، ثم علل ذلك بقوله: إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ أى: لا أطردهم، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم، فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه، و كأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم، و يحتمل أنه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم؛ ثم بيّن لهم ما هم عليه فى هذه المطالب التى طلبوها منه، و العلل التى اعتلوا بها عن إجابته فقال: وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ كل ما ينبغى أن يعلم، و من ذلك استرذالهم للذين اتبعوه و سؤالهم له أن يطردهم. ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله: وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أى: من يمنعنى من عذاب اللّه و انتقامه إن طردتهم؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان، و الإجابة إلى الدعوة التى أرسل اللّه رسوله لأجلها ظلم عظيم، لا يقع من أنبياء اللّه المؤيدين بالعصمة، و لو وقع ذلك منهم فرضا و تقديرا لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس. و قوله:

أَ فَلا تَذَكَّرُونَ معطوف على مقدّر؛ كأنه قيل: أ تستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر أ فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغى تذكره و تتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، و ما هم عليه من الصواب؟

قوله: وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدّعى أن عنده خزائن اللّه حتى يستدلوا بعدمها على كذبه، كما قالوا: وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ و المراد بخزائن اللّه: خزائن رزقه وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ أى: و لا أدّعى أنى أعلم بغيب اللّه، بل لم أقل لكم: إلا أنى نذير مبين، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم وَ لا أَقُولُ لكم إِنِّي مَلَكٌ حتى تقولوا ما نراك إلا بشرا مثلنا. و قد استدلّ بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الأنبياء، و الأدلة فى هذه المسألة مختلفة، و ليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة، فليست مما كلفنا اللّه بعلمه وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ

---

(۱). احتقب الإثم: ارتكبه. و البيت لامرئ القيس.

أى: تحتقر، و الازدراء مأخوذ من أزرى عليه: إذا عابه، و زرى عليه: إذا احتقره، و أنشد الفرّاء:

يباعده الصّديق و تزدريه‌حليلته و ينهره الصّغير

و المعنى: إنى لاـ أقول لهؤلاـء المتّبعين لى، المؤمنين باللّه، الـذين تعيبونهم و تحتقرونهم لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً بل قـد آتاهم الخير العظيـم بالإيمـان به و اتبـاع نـبيه، فهـو مجـازيهم بـالجزاء العظيم فى الآـخرة، و رافعهم فى الـدنيا إلى أعلى محـل، و لاـ يضـرّهم احتقاركم لهم شـيئا اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِـهِمْ من الإيمان به، و الإخلاص له، فمجازيهم على ذلک، ليس لى و لا لكم من أمرهم شىء إِنِّي إِذاً لَمِـنَ الظَّالِمِينَ لهم؛ إن فعلت مـا تريـدونه بهم، أو من الظـالمين لأنفسـهم، إن فعلت ذلـک بهم، ثم جـاوبوه بغير ما تقـدّم من كلامهم و كلامه عجزا عن القيام بالحجة، و قصورا عن رتبة المناظرة، و انقطاعا عن المباراة، بقولهم: يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِـدالَنا أى: خاصـمتنا بأنواع الخصام، و دفعتنا بكل حجّـة لها مـدخل فى المقام، و لم يبق لنا فى هـذا الباب مجال، فقد ضاقت علينا المسالک، و انسـدّت أبواب الحيل فَأْتِنا بِما تَعِـدُنا من العـذاب الـذى تخوّفنا منه و تخافه علينا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيمـا تقوله لنـا، فأجـاب بأن ذلک ليس إليه و إنما هو بمشـيئة اللّه و إرادته، و قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ فإن قضت مشـيئته و حكمته بتعجيله عجله لكم، و إن قضت مشيئته و حكمته بتـأخيره أخره وَ مـا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بفـائتين عمـا أراده اللّه بكم بهرب أو مدافعة وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي الذى أبذله لكم، و أستكثر منه قياما منى بحق النصيحة للّه بإبلاغ رسالته، و لكم بإيضاح الحق و بيان بطلاـن مـا أنتم عليه إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ و جـواب هـذا الشـرط محـذوف، و التقـدير: إن أردت أن أنصـح لكم لاـ ينفعكم نصـحى، كما يدل عليه ما قبله إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ أى: إن كان اللّه يريد إغواءكم فلا ينفعكم النّصح منّى، فكان جواب هـذا الشـرط محذوفا كالأوّل، و تقديره ما ذكرنا، و هذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدّم الجزاء على الشـرط، و أما على مذهب من يجيزه، فجزاء الشـرط الأوّل: و لا ينفعكم نصـحى، و جزاء الشرط الثانى الجملة الظرفية الأولى و جزاؤها. قال ابن جرير: معنى يغويكم: يهلككم بعذابه، و ظاهر لغة العرب أن الإغواء: الإضـلال؛ فمعنى الآية: لا ينفعكم نصـحى إن كان اللّه يريد أن يضـلكم عن سبيل الرشاد و يخذلكم عن طريق الحق. و حكى عن طىّ: أصبـح فلان غاويا: أى مريضا، و ليس هذا المعنى هو المراد فى الآية. و قد ورد الإغواء بمعنى: الإهلاک، و منه:

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا «۱» و هو غير ما فى هـذه الآية هُوَ رَبُّكُمْ فإليه الإغواء و إليه الهداية وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ.

و قـد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ قال: فيما ظهر لنا. و أخرج أبو الشـيخ عن عطـاء مثله. و أخرج ابن جرير، و أبو الشـيخ عن ابن جريـج فى قوله: إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي قـال: قد عرفتها و عرفت بها أمره، و أنه لا إله إلا هو، وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ قال: الإسـلام و الهدى و الإيمان و الحكم و النبوّة. و أخرج ابن جرير،

---

(۱). مريم: ۵۹.

و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: أَ نُلْزِمُكُمُوها قال: أما و اللّه لو استطاع نبىّ اللّه لألزمها قومه، و لكنه لم يستطع ذلک و لم يمكنه. و أخرج سـعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «أ نلزمكموها من شطر أنفسـنا و أنتم لهـا كـارهون» و أخرج ابن جرير عن أبى العاليـة قـال فى قراءة أبىّ: «أ نلزمكموها من شـطر أنفسـنا و أنتم لها كـارهون». و أخرج ابـن جرير و ابـن المنـذر عـن أبىّ بن كعب أنه قرأ «أ نلزمكموهـا من شـطر قلوبنـا». و أخرج ابن جرير، و أبو الشـيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا، قال: قالوا له: يا نوح إن أحببت أن نتبعک فاطردهم، إلا فلن نرضى أن

نكون نحن و هم فى الأرض سواء، و فى قوله: إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ قال: فيسألهم عن أعمالهم. وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ التى لاـ يفنيها شىء، فأكون إنما دعوتكم لتتبعونى عليها، لأعطيكم منها بملكك لى عليها وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ لا أقول: اتبعونى على علمى بالغيب وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلّا بشر مثلكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ قال: حقرتموهم. و أخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله: لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً قال: يعنى إيمانا. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا قال: تكذيبا بالعذاب و أنه باطل.

[سورة هود (١١): الآيات ٣٥ الى ٤٤]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاـ تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٩)

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (٤٢) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّـ مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ أنكر سبحانه عليهم قولهم: إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ثم أمره أن يجيب بكلام منصف، فقال: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي بكسر الهمزة على قراءة الجمهور، مصدر أجرم، أى: فعل ما يوجب الإثم، و جرم و أجرم بمعنى، قاله النحاس، و المعنى:

فعلىّ إثمى أو جزاء كسبى. و من قرأ بفتح الهمزة، قال: هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا وَ أَنَا بَرِيءٌ

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٦٤

مِمَّا تُجْرِمُونَ أى: من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إلىّ من الافتراء، قيل: و فى الكلام حذف، و التقدير:

لكن ما افتريته، فالإجرام و عقابه ليس إلا عليكم و أنا برىء منه.

و قد اختلف المفسرون فى هذه الآية فقيل: إنها حكاية عن نوح و ما قاله لقومه، و قيل: هى حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و كفار مكة. و الأوّل أولى، لأن الكلام قبلها و بعدها مع نوح عليه السلام.

قوله: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ أنه لن يؤمن: فى محل رفع على أنه نائب الفاعل الذى لم يسمّ. و يجوز أن يكون فى موضع نصب بتقدير الباء، أى: بأنه، و فى الكلام تأييس له من إيمانهم، و أنهم مستمرّون على كفرهم، مصممون عليه، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ البؤس: الحزن، أى: فلا تحزن، و البائس: المستكين، فنهاه اللّه سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن فى استكانة. و منه قول الشاعر:

و كم من خليل أو حميم رزئتهفلم أبتئس و الرّزء فيه جليل

ثم إنّ اللّه سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون ألبتة عرفه وجه إهلاكهم، و ألهمه الأمر الذى يكون به خلاصه و خلاص من آمن معه، فقال: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا أى: اعمل السفينة متلبسا بأعيننا؛ أى:

بمرأى منا، و المراد: بحراستنا لك، و حفظنا لك، و عبّر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية، و الرؤية هى التى تكون بها الحراسة و الحفظ فى الغالب، و جمع الأعين للتعظيم لا للتكثير؛ و قيل المعنى: بِأَعْيُنِنا أى:

بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك؛ و قيل: بِأَعْيُنِنا بعلمنا؛ و قيل: بأمرنا. و معنى بوحينا: بما أوحينا إليك من كيفية صنعتها وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا أى: لا تطلب إمهالهم، فقد حان وقت الانتقام منهم، و جملة إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ للتعليل، أى: لا تطلب منا إمهالهم، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق و قد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه و لا تأخيره؛ و قيل: المعنى و لا تخاطبنى فى تعجيل عقابهم فإنهم مغرقون فى الوقت المضروب لذلك، لا يتأخر إغراقهم عنه؛ و قيل: المراد بالذين ظلموا: امرأته و ابنه وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ أى: و طفق يصنع الفلك، أو و أخذ يصنع الفلك؛ و قيل: هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة، و جملة: وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ فى محل نصب على الحال؛ أى: استهزءوا به لعمله السفينة. قال الأخفش و الكسائى: يقال سخرت به و منه. و فى وجه سخريتهم منه قولان: أحدهما أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون: يا نوح! صرت بعد النبوّة نجارا. و الثانى: أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة، و كانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوح ما تصنع بها؟ قال: أمشى بها على الماء فعجبوا من قوله، و سخروا به. ثم أجاب عليهم بقوله: إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ و هذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ و المعنى: إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم نسخر منكم غدا عند الغرق. و معنى السخرية هنا: الاستجهال، أى: إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلون، و استجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم و مشافهتهم، و إلا فهم عنده جهال قبل هذا و بعده، و التشبيه فى قوله كَما تَسْخَرُونَ لمجرد التحقق و الوقوع، أو التجدّد و التكرّر،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٦٥

و المعنى: إنا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة، كما تسخرون منا كذلك، أو متجدّدة متكرّرة كما تسخرون منا كذلك، و قيل معناه: نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق، و فيه نظر فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية إذ هم فى شغل شاغل عنها، ثم هدّدهم بقوله: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ و هو عذاب الغرق فى الدنيا وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ و هو عذاب النار الدائم، و معنى يحلّ: يجعل المؤجل حالا، مأخوذ من حلول الدين المؤجل، و من موصولة فى محل نصب، و يجوز أن تكون استفهامية فى محل رفع، أى: أينا يأتيه عذاب يخزيه؛ و قيل: فى موضع رفع بالابتداء، و يأتيه الخبر، و يخزيه صفة لعذاب، قال الكسائى: إنّ ناسا من أهل الحجاز يقولون سوف تعلمون؛ قال: و من قال ستعلمون أسقط الواو و الفاء جميعا، و جوّز الكوفيون «سوف تعلمون» و منعه البصريون، و المراد بعذاب الخزى:

العذاب الذى يخزى صاحبه و يحل عليه العار. قوله حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ حتى هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية و جعلت غاية لقوله: و اصنع الفلك بأعيننا.

و التنور اختلف فى تفسيرها على أقوال: الأوّل: أنها وجه الأرض، و العرب تسمى وجه الأرض تنورا، روى ذلك عن ابن عباس و عكرمة و الزهرى و ابن عيينة. الثانى: أنه تنور الخبز الذى يخبزون فيه، و به قال مجاهد و عطية و الحسن، و روى عن ابن عباس أيضا. الثالث: أنه موضع اجتماع الماء فى السفينة، روى عن الحسن. الرابع: أنه طلوع الفجر، من قولهم تنوّر الفجر، روى عن علىّ بن أبى طالب. الخامس: أنه مسجد الكوفة، روى عن علىّ أيضا و مجاهد؛ قال مجاهد: كان ناحية التنوّر بالكوفة. السادس: أنه أعالى الأرض و المواضع المرتفعة، قاله قتادة. السابع: أنه العين التى بالجزيرة المسماة عين الوردة، روى ذلك عن عكرمة.

الثامن أنه موضع بالهند؛ قال ابن عباس: كان تنور آدم بالهند. قال النحاس: و هذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنّ اللّه سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء و الأرض، قال: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ- وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً «١» فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة، هكذا قال، و فيه نظر، فإن القول الرابع ينافى هذا الجمع، و لا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء. إلا إذا كان

المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا.
و قد ذكر أهل اللغة أن الفور: الغليان، و التنور: اسم عجمي عرّبته العرب؛ و قيل معنى فار التنور: التمثيل بحضور العذاب، كقولهم: حمي الوطيس؛ إذا اشتدّ الحرب، و منه قول الشاعر:
تركتم قدركم لا شيء فيهاو قدر القوم حامية تفور
يريد الحرب.
قوله: قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أي: قلنا يا نوح احمل في السفينة من كل زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا و أنثى. و قرأ حفص: مِنْ كُلٍّ بتنوين كل أي من كل شيء زوجين؛ و الزوجان: للاثنين الذين لا يستغني أحدهما عن الآخر، و يطلق على كل واحد منهما زوج، كما يقال للرجل:
زوج و للمرأة زوج، و يطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلا للفرد، و يطلق الزوج على الضرب و الصنف،

---

(١). القمر: ١١- ١٢.

و مثله قوله تعالى: وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ «١» و مثله قول الأعشى:
و كلّ ضرب من الدّيباج يلبسهأبو قدامة محبوّ بذاك معا
أراد كل صنف من الديباج وَ أَهْلَكَ عطف على زوجين، أو على اثنين على قراءة حفص، و على محل كل زوجين، فإنه في محلّ نصب باحمل، أو على اثنين على قراءة الجمهور، و المراد: امرأته و بنوه و نساؤهم إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أي من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين في قوله: وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ على الاختلاف السابق فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله و غيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ و من قال: المراد بهم: ولده كنعان و امرأته واعلة أمّ كنعان، جعل الاستثناء من أهلك، و يكون متصلا إن أريد بالأهل ما هو أعمّ من المسلم و الكافر منهم، و منقطعا إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط. قوله: وَ مَنْ آمَنَ معطوف على أهلك، أي:
و احمل في السفينة من آمن من قومك، و أفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم على القول الآخر.
ثم وصف اللّه سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به فقال: وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ قيل:
هم ثمانون إنسانا؛ منهم: ثلاثة من بنيه، و هم سام، و حام، و يافث، و زوجاتهم، و لما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها: قرية الثمانين، و هي موجودة بناحية الموصل؛ و قيل: كانوا عشرة، و قيل: سبعة، و قيل:
كانوا اثنين و سبعين، و قيل غير ذلك. قوله: وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها القائل نوح، و قيل: اللّه سبحانه.
و الأوّل أولى، لقوله: إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و الركوب: العلوّ على ظهر الشيء حقيقة، نحو ركب الدابة، أو مجازا، نحو ركبه الدين، و في الكلام حذف، أي: اركبوا الماء في السفينة فلا يرد: أن ركب يتعدّى بنفسه؛ و قيل: إن الفائدة في زيادة في أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها؛ و قيل: إنها زيدت لرعاية جانب المحلية في السفينة، كما في قوله: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ «٢»، و قوله: حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ «٣» قيل: و لعلّ نوحا قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج، كأنه قيل:
فحمل الأزواج و أدخلها في الفلك و قال للمؤمنين. و يمكن أن يقال: إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج و الأهل و المؤمنين، و لا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب. قوله: بِسْمِ اللَّهِ متعلّق باركبوا،

أو حال من فاعله، أى: مسمّين اللّه، أو قائلين: بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها قرأ أهل الحرمين و أهل البصرة: بضمّ الميم فيهما إلا من شذّ منهم على أنهما اسما زمان، و هما فى موضع نصب على الظرفية، أى: وقت مجراها و مرساها، و يجوز أن يكونا مصدرين، أى: وقت إجرائها و إرسائها. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى و حفص: مَجْراها بفتح الميم، و مرساها بضمها، و قرأ يحيى بن وثاب: بفتحها فيهما. و قرأ مجاهد، و سليمان بن جندب، و عاصم الجحدرى، و أبو رجاء العطاردى: مجريها و مرسيها على أنهما وصفان للّه، و يجوز أن يكونا فى موضع رفع بإضمار مبتدأ: أى هو مجراها و مرسيها إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ للذّنوب رَحِیمٌ بعباده، و من رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء هذا الجنس الحيوانى، و عدم استئصاله بالغرق. قوله: وَ هِیَ تَجْرِی بِهِمْ فِی مَوْجٍ كَالْجِبالِ

---

(۱). الحجر: ۵.

(۲). العنكبوت: ۶۵.

(۳). الكهف: ۷۱.

هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب، و التقدير: فركبوا مسمين و هى تجرى بهم، و الموج: جمع موجة، و هى: ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، و شبهها بالجبال المرتفعة على الأرض. قوله: وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ هو كنعان، قيل: و كان كافرا، و استبعد كون نوح ينادى من كان كافرا مع قوله: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «۱»؛ و أجيب بأنه كان منافقا فظنّ نوح أنه مؤمن؛ و قيل: حملته شفقة الأبوّة على ذلك؛ و قيل: إنه كان ابن امرأته و لم يكن بابنه، و يؤيده ما روى أن عليا قرأ: و نادى نوح ابنها؛ و قيل: إنه كان لغير رشدة، و ولد على فراش نوح. و ردّ بأن قوله: وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ و قوله: إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوّة وَ كانَ فِی مَعْزِلٍ أى: فى مكان عزل فيه نفسه عن قومه و قرابته بحيث لم يبلغه قول نوح: ارْكَبُوا فِیها، و قيل: فى معزل من دين أبيه، و قيل: من السفينة، قيل: و كان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان فى أوّل فور التنور. قوله: يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا قرأ عاصم بفتح الياء، و الباقون بكسرها، فأما الكسر: فلجعله بدلا من ياء الإضافة، لأن الأصل يا بنىّ، و أما الفتح: فلقلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف و بقيت الفتحة لتدلّ عليه. قال النحّاس: و قراءة عاصم مشكلة. و قال أبو حاتم: أصله يا بنياه ثم تحذف، و قد جعل الزجاج للفتح وجهين، و للكسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأوّل: ما ذكرناه، و الوجه الثانى: أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين. و أما الكسر فالوجه الأوّل: ما ذكرناه، و الثانى: أن تحذف لالتقاء الساكنين، كذا حكى عنه النحاس. و قرأ أبو عمرو، و الكسائى، و حفص: ارْكَبْ مَعَنا بإدغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج. و قرأ الباقون بعد الإدغام وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِینَ نهاه عن الكون مع الكافرين، أى: خارج السفينة، و يمكن أن يراد بالكون معهم: الكون على دينهم، ثم حكى اللّه سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال: قالَ سَآوِی إِلی جَبَلٍ يَعْصِمُنِی مِنَ الْماءِ أى: يمنعنى بارتفاعه من وصول الماء إلىّ، فأجاب عنه نوح بقوله: لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أى: لا مانع فإنه يوم قد حقّ فيه العذاب و جفّ القلم بما هو كائن فيه، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق فى ذلك اليوم اندراجا أوّليا، و عبر عن الماء أو عن الغرق بأمر اللّه سبحانه: تفخيما لشأنه و تهويلا لأمره. و الاستثناء: قال الزجاج: هو منقطع، أى: لكن من رحمه اللّه فهو يعصمه، فيكون مَنْ رَحِمَ فى موضع نصب، و يجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون عاصم بمعنى معصوم، أى: لا معصوم اليوم من أمر اللّه إلّا من رحمه اللّه:

مثل ماءٍ دافِقٍ «۲»- و عِيشَةٍ راضِيَةٍ* «۳» و منه قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتهاو اقعد فإنّك أنت الطّاعم الكاسى

أى: المطعم المكسوّ، و اختار هذا الوجه ابن جرير؛ و قيل: العاصم بمعنى ذى العصمة، كلابن و تامر، و التقدير: لا عاصم قط إلا مكان من رحم اللّه، و هو: السفينة، و حينئذ فلا يرد ما يقال: إن معنى من رحم، من رحمه اللّه، و من رحمه اللّه: هو معصوم، فكيف يصحّ استثناؤه عن العاصم؟ لأن فى كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال. و قرئ: إلا من رحم على البناء للمفعول وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

---

(۱). نوح: ۲۶.

(۲). الطارق: ۶.

(۳). الحاقة: ۲۱.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶۸

أى: حال بين نوح و ابنه فتعذر خلاصه من الغرق؛ و قيل: بين ابن نوح، و بين الجبل، و الأوّل أولى، لأن تفرّع فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ عليه يدل على الأوّل لا على الثانى، لأن الجبل ليس بعاصم. قوله: وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ يقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع، و بلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائى و الفراء: و البلع: الشرب، و منه البالوعة، و هى الموضع الذى يشرب الماء، و الازدراد، يقال: بلع ما فى فمه من الطعام إذا ازدرده، و استعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي الإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر، إذا انقطع.

و المعنى: أمر السماء بإمساك الماء عن الإرسال، و قدّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها وَ غِيضَ الْماءُ: أى نقص، يقال غاض الماء و غضته أنا وَ قُضِيَ الْأَمْرُ أى: احكم و فرغ منه، يعنى:

أهلك اللّه قوم نوح على تمام و إحكام وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ أى: استقرّت السفينة على الجبل المعروف بالجودى، و هو جبل بقرب الموصل؛ و قيل: إن الجودى اسم لكل جبل، و منه قول زيد بن عمرو بن نفيل:

سبحانه ثم سبحانا يعود لهو قبلنا سبّح الجودىّ و الجمد

و يقال: إنه من جبال الجنة فلذا استوت عليه وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ القائل: هو اللّه سبحانه ليناسب صدر الآية؛ و قيل: هو نوح و أصحابه. و المعنى: و قيل هلاكا للقوم الظالمين، و هو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء، و وصفهم بالظلم: للإشعار بأنه علة الهلاك، و للإيماء إلى قوله: وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا. و قد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة و البلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، و تضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة، الثابتين الأقدام فى علم البيان، الراسخين فى علم اللغة، المطلعين على ما هو مدوّن من خطب مصاقع خطباء العرب، و أشعار بواقع شعرائهم، المرتاضين بدقائق علوم العربية و أسرارها. و قد تعرّض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فأطالوا و أطابوا، رحمنا اللّه و إياهم برحمته الواسعة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَعَلَيَّ إِجْرامِي قال: عملى وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ أى: مما تعملون، و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ و ذلك حين دعا عليهم نوح قال: لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «۱».

و أخرج أحمد فى الزهد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الحسن قال: إن نوحا لم يدع على قومه حتّى نزلت الآية هذه، فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَلا تَبْتَئِسْ قال: فلا تحزن. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو

الشيخ و البيهقى عنه فى قوله: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا قال: بعين اللّه و وحيه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك، فأوحى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كان نوح مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت و ذهبت كلّ مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة يمرّون فيسألونه فيقول

---

(١). نوح: ٢٦.

أعملها سفينة فيسخرون منه و يقولون يعمل سفينة فى البرّ، و كيف تجرى؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها و فار التنور و كثر الماء فى السكك خشيته أمّ الصبى عليه، و كانت تحبّه حبّا شديدا، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم اللّه منهم أحدا لرحم أمّ الصبىّ». و قد ضعّفه الذهبى فى مستدركه على مستدرك الحاكم. و قد روى فى صفة السفينة و قدرها أحاديث و آثار ليس فى ذكرها هنا كثير فائدة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ قال: هو الغرق وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ قال: هو الخلود فى النار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه عنه قال: كان بين دعوة نوح و بين هلاك قومه ثلاثمائة سنة، و كان فار التنور بالهند و طافت سفينة نوح بالبيت أسبوعا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: التنور: العين التى بالجزيرة عين الوردة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة.

و قد روى عنه نحو هذا من طرق. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: التنور: وجه الأرض، قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت و من معك. و العرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن علىّ وَ فارَ التَّنُّورُ قال: طلع الفجر قيل له: إذا طلع الفجر فاركب أنت و أصحابك. و قد روى فى تفسير التنور غير هذا، و قد قدّمنا الإشارة إلى ذلك. و روى فى صفة القصة و ما حمله نوح فى السفينة، و كيف كان الغرق، و كم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها فى تفسير كلام اللّه سبحانه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها قال: حين يركبون و يجرون و يرسون. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كان إذا أراد أن ترسى قال بسم اللّه فأرست، و إذا أراد أن تجرى قال بسم اللّه فجرت.

و أخرج أبو يعلى و الطبرانى و ابن السنى و ابن عدى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن الحسن بن علىّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: بسم اللّه الملك الرحمن. بسم اللّه مجراها و مرساها. إنّ ربّى لغفور رحيم. و ما قدروا اللّه حق قدره إلى آخر الآية». و أخرجه ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرجه أيضا أبو الشيخ عنه مرفوعا من طريق أخرى. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: كان اسم ابن نوح الذى غرق كنعان. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه فى النية و العمل.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ قال:

لا ناج إلا أهل السفينة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن القاسم بن أبى برّة فى قوله وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ قال: بين ابن نوح و الجبل. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله يا أَرْضُ ابْلَعِي قال:

هو بالحبشية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن وهب بن منبه فى ابلعى قال بالحبشية: أى ازدرديه. و أخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: معناه: اشربى، بلغة الهند. و أخرج ابن جرير

و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله. أقول: و ثبوت لفظ البلع و ما يشتق منه فى لغة العرب ظاهر مكشوف، فما لنا و للحبشة و الهند؟!.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۴۵ الى ۴۹]

وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْکَمُ الْحاکِمِینَ (۴۵) قالَ یا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْجاهِلِینَ (۴۶) قالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاَّ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخاسِرِینَ (۴۷) قِیلَ یا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَکاتٍ عَلَیْکَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِیمٌ (۴۸) تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیها إِلَیْکَ ما کُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِینَ (۴۹)

و معنى: وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ دعاه، و المراد: أراد دعاءه، بدليل الفاء فى: فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی و عطف الشىء على نفسه غير سائغ، فلا بدّ من التقدير المذكور، و معنى قوله: إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی أنه من الأهل الذين وعدتنى بتنجيتهم بقولك: و أهلك. فإن قيل: كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده اللّه بقوله: وَ أَهْلَکَ و هو المستثنى منه، و ترك ما يفيده الاستثناء، و هو إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ فيجاب: بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين وَ إِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ الذى لا خلف فيه، و هذا منه وَ أَنْتَ أَحْکَمُ الْحاکِمِینَ أى: أتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض، و قيل: أراد بأحكم الحاكمين، أعلمهم و أعدلهم، أى: أنت أكثر علما و عدلا من ذوى الحكم؛ و قيل: إن الحاكم بمعنى: ذى الحكمة كدارع، ثم أجاب اللّه سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل فى عموم الأهل، و أنه خارج بقيد الاستثناء ف قالَ یا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ الذين آمنوا بك و تابعوك، و إن كان من أهلك باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له، بأن المراد بالقرابة: قرابة الدين لا قرابة النسب وحده، فقال: إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صالِحٍ قرأ الجمهور: عمل، على لفظ المصدر. و قرأ ابن عباس، و عكرمة، و الكسائى، و يعقوب: عمل، على لفظ الفعل؛ و معنى القراءة الأولى المبالغة فى ذمه كأنه جعل نفس العمل، و أصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف و جعل نفس العمل، كذا قال الزجاج و غيره. و معنى القراءة الثانية ظاهر، أى: إنه عمل عملا غير صالح، و هو كفره و تركه لمتابعة أبيه، ثم نهاه عن مثل هذا السؤال، فقال: فَلا تَسْئَلْنِ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله فرّع على ذلك النهى عن السؤال، و هو و إن كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوّليا، و فيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع، و سمى دعاءه سؤالا لتضمنه معنى السؤال إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْجاهِلِینَ أى: أحذّرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: یَعِظُکُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً «۱» و قيل: المعنى: أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربى: و هذه زيادة من اللّه

---

(۱). النور: ۱۷.

و موعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين، و يعليه بها إلى مقام العلماء العاملين. ثم لمّا علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع، و أن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه بادر إلى الاعتراف بالخطإ و طلب المغفرة و الرحمة، ف قالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ أی: أعوذ بک أن أطلب منک ما لا علم لی بصحته و جوازه، وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِی ذنب ما دعوت به علی غیر علم منی وَ تَرْحَمْنِی برحمتک التی وسعت کل شیء فتقبل توبتی أَکُنْ مِنَ الْخاسِرِینَ فی أعمالی فلا أربح فیها. القائل هو اللّه، أو الملائکة:

قِیلَ یا نُوحُ اهْبِطْ أی: أنزل من السفینة إلى الأرض، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض، فقد بلعت الأرض ماءها و جفت بِسَلامٍ مِنَّا أی: بسلامة و أمن، و قیل: بتحیة وَ بَرَکاتٍ أی: نعم ثابتة، مشتق من بروک الجمل، و هو ثبوته، و منه البرکة لثبوت الماء فیها، و فی هذا الخطاب له دلیل علی قبول توبته و مغفرة زلته وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ أی: ناشئة ممن معک، و هم المتشعبون من ذریة من کان معه فی السفینة؛ و قیل: أراد من فی السفینة، فإنهم أمم مختلفة و أنواع من الحیوانات متباینة. قیل: أراد اللّه سبحانه بهؤلاء الأمم الذین کانوا معه من صار مؤمنا من ذریتهم، و أراد بقوله: وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِیمٌ من صار کافرا من ذریتهم إلى یوم القیامة، و ارتفاع أمم فی قوله: وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ علی أنه خبر مبتدأ محذوف: أی: و منهم أمم؛ و قیل: علی تقدیر: و یکون أمم. و قال الأخفش: هو کما تقول: کلمت زیدا و عمرو جالس، و أجاز الفراء فی غیر القراءة: و أمما سنمتعهم: أی و نمتع أمما؛ و معنى الآیة: و أمم سنمتعهم فی الدنیا بما فیها من المتاع، و نعطیهم منها ما یعیشون به، ثم یمسهم منا فی الآخرة عذاب ألیم؛ و قیل: یمسهم إما فی الدنیا أو فی الآخرة، و الإشارة بقوله: تِلْکَ إلى قصة نوح، و هی مبتدأ، و الجمل بعده أخبار مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ من جنس أنباء الغیب، و الأنباء: جمع نبأ و هو الخبر، أی: من أخبار الغیب التی مرّت بک فی هذه السورة، و الضمیر فی: نُوحِیها إِلَیْکَ راجع إلى القصة، و المجیء بالمضارع لاستحضار الصورة ما کُنْتَ یا محمد تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا یعلمها قَوْمُکَ بل هی مجهولة عندکم من قبل الوحی، أو من قبل هذا الوقت فَاصْبِرْ علی ما تلاقیه من کفار زمانک، و الفاء لتفریع ما بعدها علی ما قبلها إِنَّ الْعاقِبَةَ المحمودة فی الدنیا و الآخرة لِلْمُتَّقِینَ للّه، المؤمنین بما جاءت به رسله، و فی هذا تسلیة لرسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلّم و تبشیر له بأن الظفر للمتقین فی عاقبة الأمر، و لا اعتبار بمبادیه.

و قد أخرج ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن الحسن قال: نادى نوح ربّه فقال: ربّ إن ابنی من أهلی، و إنک قد وعدتنی أن تنجی لی أهلی، و إن ابنی من أهلی. و أخرج عبد الرزاق، و الفریابی، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ، و ابن عساکر عن ابن عباس قال: «ما بغت امرأة نبیّ قط»، و قوله إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ یقول: لیس من أهلک الذین وعدتک أن أنجیهم معک. و أخرج ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عنه قال: إن نساء الأنبیاء لا یزنین، و کان یقرؤها إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صالِحٍ یقول: مسألتک إیای یا نوح عمل غیر صالح لا أرضاه لک. و أخرج ابن جریر، و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: فَلا تَسْئَلْنِ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ قال: بین اللّه لنوح أنه لیس بابنه. و أخرج أبو الشیخ عن ابن زید فی قوله: یا نُوحُ اهْبِطْ

بِسَلامٍ مِنَّا قال: اهبطوا و اللّه عنهم راض. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن محمد بن کعب القرظی قال: دخل فی ذلک السلام و البرکات کل مؤمن و مؤمنة إلى یوم القیامة، و دخل فی ذلک العذاب الألیم کل کافر و کافرة إلى یوم القیامة. و أخرج ابن جریر عن الضحاک: وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ یعنی ممن لم یولد، أوجب اللّه لهم البرکات لما سبق لهم فی علم اللّه من السعادة وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ یعنی: متاع الحیاة الدنیا ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِیمٌ لما سبق لهم فی علم اللّه من الشقاوة. و أخرج أبو الشیخ قال: ثم رجع إلى محمد صلّى اللّه علیه و سلّم فقال: تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیها إِلَیْکَ ما کُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ یعنی العرب مِنْ قَبْلِ هذا القرآن.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۵۰ الى ۶۰]

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (۵۰) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲) قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۵۴)

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۵۷) وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۵۹)

وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

قوله: وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً معطوف على و أرسلنا نوحا؛ أى: و أرسلنا إلى عاد أخاهم؛ أى:

واحدا منهم، و هودا عطف بيان، و قوم عاد كانوا عبدة أوثان، و قد تقدّم مثل هذا فى الأعراف. و قيل:

هم عاد الأولى و عاد الأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى، و عاد الأخرى: هم شداد و لقمان و قومهما المذكورون فى قوله: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ «۱»، و أصل عاد: اسم رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم و بكر و نحوهما: ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قرئ غيره بالجرّ على اللفظ، و بالرفع على محل من إله، و قرئ بالنصب على الاستثناء:

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ أى: ما أنتم باتخاذ إله غير اللّه إلا كاذبون على اللّه عزّ و جلّ، ثم خاطبهم فقال:

يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً أى: لا أطلب منكم أجرا على ما أبلغه إليكم، و أنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة اللّه وحده، و أنه لا إله لكم سواه، فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام. و قد تقدّم معنى هذا فى قصة نوح إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أى: ما أجرى الذى أطلب إلا من الذى فطرنى، أى:

خلقنى فهو الذى يثيبنى على ذلك أَ فَلا تَعْقِلُونَ أنّ أجر الناصحين إنما هو من ربّ العالمين، قيل: إنما

---

(۱). الفجر: ۷.

قال فيما تقدّم فى قصة نوح: مالا، و هنا قال: أجرا: لذكر الخزائن بعده فى قصة نوح، و لفظ المال بها أليق، ثم أرشدهم إلى الاستغفار و التوبة. و المعنى: اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم، ثم توسلوا إليه بالتوبة.

و قد تقدّم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح، ثم رغبهم فى الإيمان بالخير العاجل، فقال يُرْسِلِ السَّماءَ أى: المطر عَلَيْكُمْ مِدْراراً أى: كثير الدّرور، و هو منصوب على الحال، درّت السماء تدرّ و تدرّ فهى مدرار، و كان قوم هود أهل بساتين و زرع و عمارة، و كانت مساكنهم الرمال التى بين الشام و اليمن وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ معطوف على يرسل، أى: شدّة مضافة إلى شدّتكم، أو: خصبا إلى خصبكم، أو:

عزّا إلى عزّكم. قال الزجاج: المعنى يزدكم قوّة فى النعم وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ أى: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، و تقيموا على الكفر مصرّين عليه، و الإجرام: الآثام كما تقدّم، ثم أجابه قومه بما يدلّ على فرط جهالتهم، و عظيم غباوتهم، ف قالُوا يا هُودُ ما

جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ أی: بحجة واضحة نعمل علیها، و نؤمن لک بها غیر معترفین بما جاءهم به من حجج اللّه و براهینه عنادا و بعدا عن الحق وَ ما نَحْنُ بِتارِکِی آلِهَتِنا التی نعبدها من دون اللّه. و معنی عَنْ قَوْلِکَ صادرین عن قولک، فالظرف فی محل نصب علی الحال وَ ما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ أی: بمصدّقین فی شیء مما جئت به إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراکَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ أی: ما نقول إلا أنه أصابک بعض آلهتنا التی تعیبها و تسفّه رأینا فی عبادتها بسوء: بجنون، حتی نشأ عن جنونک ما تقوله لنا و تکرره علینا من التنفیر عنها، یقال عراه الأمر و اعتراه: إذا ألمّ به، فأجابهم بما یدلّ علی عدم مبالاته بهم و علی وثوقه بربه و توکله علیه، و أنهم لا یقدرون علی شیء مما یرده الکفار به، بل اللّه سبحانه هو الضار النافع ف قالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أنتم أَنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ به مِنْ دُونِهِ أی: من إشراککم من دون اللّه من غیر أن ینزل به سلطانا فَکِیدُونِی جَمِیعاً أنتم و آلهتکم إن کانت کما تزعمون من أنها تقدر علی الإضرار بی و أنها اعترتنی بسوء ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ أی: لا تمهلونی، بل عاجلونی و اصنعوا ما بدا لکم؛ و فی هذا من إظهار عدم المبالاة بهم و بأصنامهم التی یعبدونها ما یصکّ مسامعهم، و یوضح عجزهم و عدم قدرتهم علی شیء إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ فهو یعصمنی من کیدکم، و إن بلغتم فی تطلب وجوه الإضرار بی کل مبلغ، فمن توکل علی اللّه کفاه. ثم لما بین لهم توکله علی اللّه، و ثقته بحفظه و کلاءته؛ وصفه بما یوجب التوکل علیه، و التفویض إلیه من اشتمال ربوبیته علیه و علیهم، و أنه مالک للجمیع، و أن ناصیة کل دابة من دوابّ الأرض بیده، و فی قبضته و تحت قهره، و هو تمثیل لغایة التسخیر و نهایة التذلیل، و کانوا إذا أسروا الأسیر و أرادوا إطلاقه، و المنّ علیه جزوا ناصیته فجعلوا ذلک علامة لقهره. قال الفراء: معنی آخذ بناصیتها: مالکها و القادر علیها، و قال القتبی: قاهرها لأن من أخذت بناصیته فقد قهرته، و الناصیة قصاص الشعر من مقدّم الرأس، ثم علل ما تقدّم بقوله: إِنَّ رَبِّی عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ أی: هو علی الحق و العدل فلا یکاد یسلطکم علیّ فَإِنْ تَوَلَّوْا أی: تتولوا فحذفت إحدی التاءین، و المعنی فإن تستمروا علی الإعراض عن الإجابة، و التصمیم علی ما أنتم علیه من الکفر فَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ لیس علیّ إلا ذلک، و قد لزمتکم الحجة وَ یَسْتَخْلِفُ رَبِّی قَوْماً غَیْرَکُمْ جملة مستأنفة لتقریر الوعید بالهلاک، أی:

فتح القدیر، ج۲، ص: ۵۷۴

یستخلف فی دیارکم و أموالکم قوما آخرین، و یجوز أن یکون عطفا علی: فقد أبلغتکم. و روی حفص عن عاصم أنه قرأ وَ یَسْتَخْلِفُ بالجزم حملا علی موضع فقد أبلغتکم وَ لا تَضُرُّونَهُ شَیْئاً أی: بتولیکم، و لا تقدرون علی کثیر من الضرر و لا حقیر إِنَّ رَبِّی عَلی کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ أی: رقیب مهیمن علیه بحفظه من کل شیء، قیل: و علی بمعنی اللام، فیکون المعنی: لکل شیء حفیظ فهو یحفظنی من أن تنالونی بسوء وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا أی: عذابنا الذی هو إهلاک عاد نَجَّیْنا هُوداً وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ من قومه بِرَحْمَةٍ مِنَّا أی: برحمة عظیمة کائنة منا لأنه لا ینجو أحد إلا برحمة اللّه، و قیل: هی الإیمان مِنْ عَذابٍ غَلِیظٍ أی: شدید، قیل: و هو السموم التی کانت تدخل أنوفهم وَ تِلْکَ عادٌ مبتدأ و خبر، و أنت الإشارة اعتبارا بالقبیلة. قال الکسائی: إن من العرب من لا یصرف عاد و یجعله اسما للقبیلة جَحَدُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ أی: کفروا بها و کذبوها و أنکروا المعجزات وَ عَصَوْا رُسُلَهُ أی: هودا وحده، لأنه لم یکن فی عصره رسول سواه، و إنما جمع هنا لأنّ من کذب رسولا فقد کذب جمیع الرسل؛ و قیل: إنهم عصوا هودا و من کان قبله من الرسل، أو کانوا بحیث لو بعث اللّه إلیهم رسلا متعدّدین لکذبوهم وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ کُلِّ جَبَّارٍ عَنِیدٍ الجبار المتکبر، و العنید: الطاغی الذی لا یقبل الحق و لا یذعن له. قال أبو عبیدة: العنید و العنود و العاند و المعاند، و هو المعارض بالخلاف منه، و منه قیل للعرق الذی یتفجر بالدم عاند. قال الراجز:

إنّی کبیر لا أطیق العنّدا وَ أُتْبِعُوا فِی هذِهِ الدُّنْیا لَعْنَةً أی: ألحقوها، و هی الإبعاد من الرحمة، و الطرد من الخیر، و المعنی: أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا فی الدنیا وَ أتبعوها یَوْمَ الْقِیامَةِ فلعنوا هنالک کما لعنوا فی الدنیا أَلا إِنَّ عاداً کَفَرُوا رَبَّهُمْ أی:

بربهم. و قال الفراء: كفروا نعمة ربهم، يقال: كفرته، و كفرت به: مثل: شكرته و شكرت له أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ أى: لا زالوا مبعدين من رحمة اللّه، و البعد:

الهلاك، و البعد: التباعد من الخير، يقال: بعد يبعد بعدا: إذا تأخر و تباعد، و بعد يبعد بعدا: إذا هلك، و منه قول الشاعر:

لا يبعدن قومى الّذين همسمّ العداة و آفة الجزر

و قال النابغة:

فلا تبعدن إنّ المنيّة منهلو كلّ امرئ يوما به الحال زائل

و منه قول الشاعر:

ما كان ينفعنى مقال نسائهمو قتلت دون رجالهم لا تبعد

و قد تقدّم أن العرب تستعمله فى الدعاء بالهلاك.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة: إِلَّا عَلَى الَّذِی فَطَرَنِی

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۷۵

أى: خلقنى. و أخرج ابن عساكر عن الضحاك قال: أمسك اللّه عن عاد القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً فأبوا إلا تماديا. و أخرج أبو الشيخ عن هارون التيمى فى قوله: يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً قال: المطر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ قال: شدّة إلى شدّتكم.

و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ قال: ولد الولد.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قال: أصابتك بالجنون. و أخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن سعيد قال: ما من أحد يخاف لصا عاديا، أو سبعا ضاريا؛ أو شيطانا ماردا فيتلو هذه الآية إلا صرفه اللّه عنه. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد: إِنَّ رَبِّی عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ قال: الحق. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: عَذابٍ غَلِيظٍ قال:

شديد. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ قال: المشرك. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: العنيد: المشاقّ. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله:

وَ أُتْبِعُوا فِی هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً قال: لم يبعث نبىّ بعد عاد إلا لعنت على لسانه. و أخرج ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: تتابعت عليهم لعنتان من اللّه: لعنة فى الدنيا، و لعنة فى الآخرة.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۶۱ الى ۶۸]

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِيبٌ مُجِيبٌ (۶۱) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَ إِنَّنا لَفِی شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۶۲) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ آتانِی مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِی مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِی غَيْرَ تَخْسِيرٍ (۶۳) وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِی أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (۶۴) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِی دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (۶۵)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا

الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸)

قوله: وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً معطوف على ما تقدّم، و التقدير: و أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، و الكلام فيه و فى قوله: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ كما تقدّم فى قصة هود. و قرأ الحسن و يحيى بن وثّاب: و إلى ثمود بالتنوين فى جميع المواضع. و اختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع و لم يصرفوه فى موضع. فالصرف باعتبار التأويل بالحىّ، و المنع باعتبار التأويل بالقبيلة، و هكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، و أنشد سيبويه فى التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة:

غلب المساميح الوليد سماحةو كفى قريش المعضلات و سادها

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۷۶

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أى: ابتدأ خلقكم من الأرض، لأن كل بنى آدم من صلب آدم، و هو مخلوق من الأرض وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها أى: جعلكم عمارها و سكانها، من قولهم: أعمر فلان فلانا داره فهى له عمرى، فيكون استفعل بمعنى أفعل، مثل: استجاب بمعنى أجاب. و قال الضحاك: معناه: أطال أعماركم، و كانت أعمارهم من ثلاثمائة إلى ألف؛ و قيل: معناه: أمركم بعمارتها من بناء المساكن و غرس الأشجار فَاسْتَغْفِرُوهُ أى: سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ أى: ارجعوا إلى عبادته إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ أى: قريب الإجابة لمن دعا، و قد تقدّم القول فيه فى البقرة عند قوله تعالى: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ «۱» قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أى: كنا نرجو أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك، و نسعد بسيادتك قبل هذا الذى أظهرته، من ادّعائك النبوّة، و دعوتك إلى التوحيد؛ و قيل: كان صالح يعيب آلهتهم و كانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى اللّه قالوا: انقطع رجاؤنا منك، و الاستفهام فى قوله: أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا للإنكار، أنكروا عليه هذا النهى، و أن نعبد: فى محل نصب بحذف الجار، أى: بأن نعبد، و معنى: ما يعبد آباؤنا: ما كان يعبد آباؤنا، فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ من أربته فأنا أريبه:

إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة، و هى: قلق النفس و انتفاء الطمأنينة، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة، و المعنى: إننا لفى شك مما تدعونا إليه من عبادة اللّه وحده و ترك عبادة الأوثان موقع فى الريب قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي أى: حجّة ظاهرة، و برهان صحيح وَ آتانِي مِنْهُ أى: من جهته رَحْمَةً أى: نبوّة، و هذه الأمور و إن كانت متحققة الوقوع، لكنها صدّرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين، لأنهم فى شك من ذلك، كما وصفوه عن أنفسهم فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ استفهام معناه النفى، أى: لا ناصر لى يمنعنى من عذاب اللّه إِنْ عَصَيْتُهُ فى تبليغ الرسالة، و راقبتكم، و فترت عما يجب علىّ من البلاغ فَما تَزِيدُونَنِي بتثبيطكم إياى غَيْرَ تَخْسِيرٍ بأن تجعلونى خاسرا بإبطال عملى، و التعرّض لعقوبة اللّه لى. قال الفراء: أى: تضليل و إبعاد من الخير؛ و قيل المعنى: فما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم. قوله: وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً قد مرّ تفسير هذه الآية فى الأعراف، و معنى لكم آية: معجزة ظاهرة، و هى منتصبة على الحال، و لكم فى محل نصب على الحال من آية مقدّمة عليها، و لو تأخرت لكانت صفة لها؛ و قيل: إن ناقة: اللّه بدل من هذه، و الخبر لكم، و الأوّل أولى؛ و إنما قال: ناقَةُ اللَّهِ لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم؛ و قيل: من صخرة صماء فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أى: دعوها تأكل فى أرض اللّه مما فيها من المراعى التى تأكلها الحيوانات.

قال أبو إسحاق الزجّاج: و يجوز رفع تأكل على الحال و الاستئناف، و لعله يعنى فى الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا فى الآية، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ قال الفراء: بعقر، و الظاهر أن النهى عما هو أعمّ من ذلك فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ جواب النهى، أى: قريب من عقرها، و ذلك ثلاثة أيام فَعَقَرُوها أى: فلم يمتثلوا الأمر من صالح و لا النهى، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم

(۱). البقرة: ۱۸۶.

العقر لها فَقالَ لهم صالح: تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ أى: تمتعوا بالعيش فى منازلكم ثلاثة أيام، فإنّ العقاب نازل عليكم بعدها؛ قيل: إنهم عقروها يوم الأربعاء، فأقاموا الخميس و الجمعة و السبت و أتاهم العذاب يوم الأحد، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ أى: غير مكذوب فيه، فحذف الجارّ اتساعا، أو من باب المجاز كأن الوعد إذا و فى به، صدق و لم يكذب، و يجوز أن يكون مصدرا، أى: وعد غير كذب فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا أى: عذابنا، أو أمرنا بوقوع العذاب نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا قد تقدّم تفسير هذا فى قصة هود وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ أى: و نجيناهم من خزى يومئذ و هو هلاكهم بالصيحة، و الخزى: الذل و المهانة؛ و قيل: من عذاب يوم القيامة، و الأوّل أولى. و قرأ نافع و الكسائى: بفتح يوم، على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه. و قرأ الباقون: بالكسر إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ القادر الغالب الذى لا يعجزه شىء وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ أى: فى اليوم الرابع من عقر الناقة، صيح بهم فماتوا، و ذكر الفعل لأن الصيحة و الصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقى؛ قيل: صيحة جبريل، و قيل: صيحة من السماء، فتقطعت قلوبهم و ماتوا، و تقدّم فى الأعراف: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ «۱» قيل: و لعلها وقعت عقب الصيحة فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ أى: ساقطين على وجوههم، موتى قد لصقوا بالتراب، كالطير إذا جثمت كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أى: كأنهم لم يقيموا فى بلادهم أو ديارهم، و الجملة فى محل نصب على الحال، و التقدير: مماثلين لمن لم يوجد و لم يقم فى مقام قط أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة البيان، و صرح بكفرهم مع كونه معلوما: تعليلا للدعاء عليهم بقوله: أَلا بُعْداً لِثَمُودَ و قرأ الكسائى: بالتنوين. و قد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما فى إحدى القصّتين من الفوائد إلى الأخرى.

و قد أخرج أبو الشيخ عن السدى هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ قال: خلقكم من الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها قال: أعمركم فيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها قال: استخلفكم فيها. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خسارا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطاء الخراسانى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ قال: ميتين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها قال: كأن لم يعيشوا فيها.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه، قال: كأن لم يعمروا فيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: كأن لم ينعموا فيها.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۶۹ الى ۷۶]

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (۷۵) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)

(١). الأعراف: ٧٨.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٥٧٨

هذه قصّة لوط عليه السلام و قومه، و هو ابن عمّ إبراهيم عليه السلام، و كانت قرى لوط بنواحى الشام، و إبراهيم ببلاد فلسطين. فلما أنزل اللّه الملائكة بعذاب قوم لوط مرّوا بإبراهيم و نزلوا عنده، و كان كلّ من نزل عنده يحسن قراه، و كان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة، فظنهم أضيافا، و هم جبريل و ميكائيل و إسرافيل. و قيل: كانوا تسعة، و قيل: أحد عشر، و البشرى التى بشروه بها: هى بشارته بالولد؛ و قيل: بإهلاك قوم لوط، و الأولى أولى قالُوا سَلاماً منصوب بفعل مقدر، أي: سلمنا عليك سلاما قالَ سَلامٌ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: أمركم سلام، أو مرتفع على أنه مبتدأ، و الخبر محذوف، و التقدير: عليكم سلام فَما لَبِثَ أي: إبراهيم أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ قال أكثر النحويين أَنْ هنا بمعنى حتى، أي: فما لبث حتى جاء؛ و قيل: إنها فى محل نصب بسقوط حرف الجر، و التقدير فما لبث عن أن جاء، أي: ما أبطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل، و ما: نافية قاله سيبويه. و قال الفراء فما لبث مجيئه أي: ما أبطأ مجيئه، و قيل: إن ما موصولة و هى مبتدأ، و الخبر: أن جاء بعجل حنيذ و التقدير: فالذى لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ، و الحنيذ: المشوىّ مطلقا، و قيل: المشوىّ بحرّ الحجارة من غير أن تمسّه النار، يقال: حنذ الشاة يحنذها: جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ؛ و قيل معنى حنيذ: سمين؛ و قيل: الحنيذ هو السّميط؛ و قيل: النّضيج، و هو فعيل بمعنى مفعول، و إنما جاءهم بعجل، لأن البقر كانت أكثر أمواله فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ أي: لا يمدونها إلى العجل كما يمدّ يده من يريد الأكل نَكِرَهُمْ يقال: نكرته و أنكرته و استنكرته: إذا وجدته على غير ما تعهد، و منه قول الشاعر:

فأنكرتنى و ما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشّيب و الصّلعا

فجمع بين اللغتين، و مما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازىّ علىّ سواد

و قيل يقال: أنكرت لما تراه بعينك، و نكرت لما تراه بقلبك، قيل: و إنما استنكر منهم ذلك، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم و لم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشرّ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ أي: أحسّ فى نفسه منهم خِيفَةً أي: خوفا و فزعا؛ و قيل معنى أوجس: أضمر فى نفسه خيفة، و الأول ألصق بالمعنى اللغوى، و منه قول الشاعر:

جاء البريد بقرطاس يخبّ به فأوجس القلب من قرطاسه جزعا

و كأنه ظنّ أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره، لتعذيب قومه قالُوا لا تَخَفْ قالوا له هذه المقالة مع كونه

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٥٧٩

لم يتكلم بما يدل على الخوف، بل أوجس ذلك فى نفسه، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه، أو قالوه له بعد ما قال- عقب ما أوجس فى نفسه من الخيفة-: قولا يدلّ على الخوف كما فى قوله فى سورة الحجر: قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ «١»، و لم يذكر ذلك هاهنا اكتفاء بما هناك، ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم: إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ أي: أرسلنا إليهم خاصة، و يمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه، قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ- قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ و جملة وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فى محل نصب على الحال، قيل: كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر، و قيل: كانت قائمة تخدم الملائكة و هو جالس، و الضحك هنا: هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور. و قال مجاهد و عكرمة: إنه الحيض، و منه قول الشاعر:

و إنّى لآتى العرس عند طهورها و أهجرها يوما إذا تك ضاحكا

و قال الآخر:

و ضحك الأرانب فوق الصّفاكمثل دم الجوف يوم اللقا

و العرب تقول ضحكت الأرانب: إذا حاضت. و قد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك. و قال الفراء: فيه تقديم و تأخير. و المعنى: فبشرناها فضحكت سرورا بالولد. و قرأ محمد بن زياد من قراء مكة: فضحكت بفتح الحاء، و أنكره المهدوى وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قرأ حمزة و ابن عامر و حفص: بنصب يعقوب، على أنه مفعول فعل دل عليه فبشرناها، كأنه قال: و وهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب. و أجاز الكسائى و الأخفش و أبو حاتم أن يكون يعقوب فى موضع جرّ. و قال الفرّاء: لا يجوز الجرّ إلا بإعادة حرفه. قال سيبويه: و لو قلت مررت بزيد أوّل من أمس، و أمس عمر، كان قبيحا خبيثا، لأنك فرقت بين المجرور و ما يشركه كما يفرق بين الجار و المجرور. و قرأ الباقون برفع يعقوب على أنه مبتدأ و خبره الظرف الذى قبله، و قيل:

الرفع بتقدير فعل محذوف، أى: و يحدث لها، أو و ثبت لها. و قد وقع التبشير هنا لها، و وقع لإبراهيم فى قوله تعالى فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ «٢»- وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ «٣»، لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما، و جملة قالَتْ يا وَيْلَتى مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا قالت؟ قال الزجاج:

أصلها يا ويلتى، فأبدل من الياء ألف لأنها أخفّ من الياء و الكسرة، و هى لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، و لكنها كلمة تقع كثيرا على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه، و أصل الويل: الخزى، ثم شاع فى كل أمر فظيع، و الاستفهام فى قولها: أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ للتعجب، أى: كيف ألد و أنا شيخة قد طعنت فى السنّ، يقال: عجزت تعجز مخففا و مثقلا عجزا و تعجيزا، أى: طعنت فى السنّ، و يقال عجوز و عجوزة، و أما عجزت بكسر الجيم: فمعناه عظمت عجيزتها، قيل: كانت بنت تسع و تسعين، و قيل:

بنت تسعين وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً أى: و هذا زوجى إبراهيم شيخا لا تحبل من مثله النساء، و شيخا: منتصب

---

(١). الحجر: ٥٢.

(٢). الصافات: ١٠١.

(٣). الذاريات: ٢٨.

على الحال، و العامل فيه معنى الإشارة. قال النحاس: و فى قراءة أبىّ و ابن مسعود شيخ: بالرفع على أنه خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف؛ و على الأول يكون بَعْلِي بدلا من اسم الإشارة؛ قيل:

كان إبراهيم ابن مائة و عشرين سنة؛ و قيل: ابن مائة، و هذه المبشرة هى: سارة امرأة إبراهيم. و قد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل، فتمنت سارة أن يكون لها ابن و أيست منه لكبر سنها، فبشرها اللّه به على لسان ملائكته إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ أى: ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد- مع كونها فى هذه السنّ العالية التى لا يولد لمثلها- شىء يقضى منه العجب، و جملة قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الاستفهام فيها للإنكار، أى: كيف تعجبين من قضاء اللّه و قدره، و هو لا يستحيل عليه شىء، و إنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوّة، و لا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، و لهذا قالوا: رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ أى:

الرحمة التى وسعت كل شىء و البركات و هى النموّ و الزيادة و قيل الرحمة: النبوّة، و البركات: الأسباط من بنى إسرائيل لما

فيهم من الأنبياء، و انتصاب: أهل البيت، على المدح أو الاختصاص، و صرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم إِنَّهُ حَمِيدٌ أى: يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة مَجِيدٌ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات، و الجملة تعليل لقوله: رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ قوله: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ أى: الخيفة التى أوجسها فى نفسه، يقال ارتاع من كذا: إذا خاف، و منه قول النابغة:

فارتاع من صوت كلّاب فبات لهطوع الشّوامت من خوف و من صرد

وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى أى: بالولد، أو بقولهم: لا تخف. قوله: يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ. قال الأخفش و الكسائى: إن يجادلنا فى موضع جادلنا، فيكون هو جواب: لما، لما تقرّر من أن جوابها يكون بالماضى لا بالمستقبل. قال النحّاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضى مكان المستقبل فى الشرط؛ و قيل: إن الجواب محذوف، و يجادلنا فى موضع نصب على الحال، قاله الفراء، و تقديره: فلما ذهب عنه الروع و جاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا، أى: يجادل رسلنا؛ و قيل: إن المعنى: أخذ يجادلنا، و مجادلته لهم قيل:

إنه لما سمع قولهم: إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ قال: أ رأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أ تهلكونهم؟

قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فعشرون؟ قالوا: لا، ثم قال: فعشرة، فخمسة؟ قالوا لا. قال: فواحد؟ قالوا: لا، قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ الآية، فهذا معنى مجادلته فى قوم لوط: أى: فى شأنهم و أمرهم. ثم أثنوا على إبراهيم، أو أثنى اللّه عليه فقال إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أى ليس بعجول فى الأمور، و لا بموقع لها على غير ما ينبغى. و الأوّاه: كثير التأوّه، و المنيب: الراجع إلى اللّه. و قد تقدّم فى براءة الكلام على الأوّاه. قوله: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا هذا قول الملائكة له، أى: أعرض عن هذا الجدال فى أمر قد فرغ منه، و جفّ به القلم، و حق به القضاء إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ الضمير للشأن، و معنى مجىء أمر اللّه: مجىء عذابه الذى قدّره عليهم، و سبق به قضاؤه وَ إِنَّهُمْ

آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ أى: لا يردّه دعاء و لا جدال، بل هو واقع بهم لا محالة، و نازل بهم على كل حال، ليس بمصروف و لا مدفوع.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن عثمان بن محصن فى ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، و ميكائيل، و إسرافيل، و رافائيل. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: بِعِجْلٍ حَنِيذٍ قال:

نضيج. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: مشوىّ. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال: سميط. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الضحاك قال: الحنيذ الذى أنضج بالحجارة. و أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد ابن أبى يزيد البصرى فى قوله: فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ قال: لم ير لهم أيديا فنكرهم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: نَكِرَهُمْ قال: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنّوا أنه لم يأت بخير، و أنه يحدّث نفسه بشرّ، ثم حدّثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته. و أخرج ابن المنذر عن المغيرة قال: فى مصحف ابن مسعود و امرأته قائمة و هو جالس. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد: وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ قال: فى خدمة أضياف إبراهيم.

و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة قال: لما أوجس إبراهيم فى نفسه خيفة حدّثوه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة، و مما أتاهم من العذاب. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس:

فَضَحِكَتْ قال: فحاضت و هى بنت ثمان و تسعين سنة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله:

فَضَحِكَتْ قال: حاضت و كانت ابنة بضع و تسعين سنة، و كان إبراهيم ابن مائة سنة. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال: حاضت. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قال: هو ولد الولد. و أخرج ابن الأنبارى فى كتاب الوقف و الابتداء عن حسان بن أبجر قال: كنت عند ابن عباس فجاء رجل من هذيل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات و ترك أربعة من الولد و ثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس:

فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قال: ولد الولد. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن عباس: أنه كان ينهى عن أن يزاد فى جواب التحية على قولهم: عليكم السلام و رحمة اللّه و بركاته، و يتلو هذه الآية رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ و أخرج البيهقى عن ابن عمر نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ قال: الفرق. يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ قال:

يخاصمنا. و أخرج عبد الرزاق، و أبو الشيخ عن قتادة فى تفسير المجادلة قال: إنه قال لهم يومئذ: أ رأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم، قال: أربعون؟ قالوا: و أربعون، قال: ثلاثون؟ قالوا: و ثلاثون، حتى بلغوا عشرة، قالوا: إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم، قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير؟ قال قتادة: إنه كان فى قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۲

شاء اللّه من ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم: إن كان فيها خمسة يصلّون رفع عنهم العذاب. و أخرج أبو الشيخ عن عمرو بن ميمون قال: الأوّاه:

الرحيم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المنيب: المقبل إلى طاعة اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: المنيب: المخلص.

[سورة هود (11): الآيات 77 الى 83]

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (۷۷) وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (۷۸) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (۷۹) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (۸۰) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (۸۱)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (۸۳)

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، و كان بين إبراهيم و قرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا إلى لوط، فلما رآهم لوط، و كانوا فى صورة غلمان حسان مرد سِيءَ بِهِمْ أى: ساءه مجيئهم، يقال: ساءه يسوءه، و أصل سيئ بهم: سوئ بهم، نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء، و لما خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء. و قرأ نافع، و ابن عامر، و الكسائى، و أبو عمرو بإشمام السين الضم وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً قال الأزهرى: الذرع يوضع موضع الطاقة، و أصله أن البعير يذرع بيده فى سيره على قدر سعة خطوه: أى:

يبسطها، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع و الطاقة و شدّة الأمر؛ و قيل: هو من: ذرعه القيء: إذا غلب و ضاق عن حبسه. و المعنى: أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة فى تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم و ارتكابهم لفاحشة اللواط وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ أى: شديد. قال الشاعر:

و إنّك إلّا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب

يقال: عصيب و عصبصب و عصوصب على التكثير: أى يوم مكروه يجتمع فيه الشر، و منه قيل عصبة و عصابة: أى مجتمعو الكلمة، و رجل معصوب: أى مجتمع الخلق وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ أى:

جاءوا لوطا، الجملة فى محل نصب على الحال. و معنى يهرعون إليه: يسرعون إليه. قال الكسائى و الفراء و غيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراع مع رعدة، يقال أهرع الرجل إهراعا: أى أسرع فى رعدة من برد أو غضب أو حمى، قال مهلهل:

فجاؤوا يهرعون و هم أسارى نقودهم على رغم الأنوف

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٨٣

و قيل يهرعون: يهرولون، و قيل: هو مشى بين الهرولة و العدو. و المعنى: أنّ قوم لوط لما بلغهم مجىء الملائكة فى تلك الصورة أسرعوا إليه، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أى: و من قبل مجىء الرسل فى هذا الوقت كانوا يعملون السيئات؛ و قيل: و من قبل لوط كانوا يعملون السيئات، أى: كانت عادتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط، و قصدوا أضيافه لذلك العمل، قام إليهم لوط مدافعا و قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أى: تزوّجوهنّ، و دعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافى، و قد كان له ثلاث بنات، و قيل: اثنتان، و كانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهنّ فيمتنع لخبثهم، و كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه؛ و قيل: أراد بقوله: هؤُلاءِ بَناتِي النساء جملة، لأن نبىّ القوم أب لهم، و قالت طائفة: إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة و لم يرد الحقيقة.

و معنى: هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أى: أحلّ و أنزه؛ و التطهر: التنزه عما لا يحلّ، و ليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل، بل هى مثل «اللّه أكبر». و قرأ الحسن و عيسى بن عمر بنصب أطهر، و قرأ الباقون بالرفع؛ و وجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ و خبره بناتى، و هنّ ضمير فصل، و أطهر حال. و قد منع الخليل و سيبويه و الأخفش مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذى يسمى عمادا إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتمّ الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أى: اتقوا اللّه بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، و لا تذلونى و تجلبوا علىّ العار فى ضيفى، و الضيف: يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، لأنه فى الأصل مصدر، و منه قول الشاعر:

لا تعدمى الدّهر شفار الجازر للضّيف و الضّيف أحقّ زائر

و يجوز فيه التثنية و الجمع، و الأوّل أكثر. يقال: خزى الرجل خزاية: أى استحيا أو ذلّ أو هان، و خزى خزيا: إذا افتضح، و معنى فى ضيفى: فى حق ضيفى، فخزى الضيف خزى للمضيف، ثم وبخهم فقال:

أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح. و يمنعكم منه، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به، و أرشدهم إليه بقولهم: ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ أى ما لنا فيهم من شهوة و لا حاجة، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق. و معنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور و شدّة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثة كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء؛ و يمكن أن يريدوا:

أنه لا حق لنا فى نكاحهنّ، لأنه لا ينكحهنّ و يتزوج بهن إلا مؤمن و نحن لا نؤمن أبدا، و قيل: إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردّهم، و كان من سنتهم أن من خطب فردّ فلا تحل المخطوبة أبدا وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ من إتيان الذكور، ثم إنه لما علم

تصميمهم على الفاحشة و أنهم لا يتركون ما قد طلبوه قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً و جواب لو محذوف، و التقدير: لدافعتكم عنهم و منعتكم منهم، و هذا منه عليه السلام على طريق التمنى: أى: لو وجدت معينا و ناصرا، فسمى ما يتقوّى به قوّة أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ عطف على ما بعد لو لما فيه من معنى الفعل، و التقدير: لو قويت على دفعكم أو آويت إلى ركن شديد.

و قرئ أَوْ آوِي بالنصب عطفا على قوّة كأنه قال: لو أن لى بكم قوّة أو إيواء إلى ركن شديد؛ و مراده

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۴

بالركن الشديد: العشيرة، و ما يمتنع به عنهم هو و من معه؛ و قيل: أراد بالقوّة الولد، و بالركن الشديد:

من ينصره من غير ولده؛ و قيل أراد بالقوة: قوته فى نفسه. و لما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة، و وجدوا قومه قد غلبوه و عجز عن مدافعتهم قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ أخبروه أوّلا أنهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم: لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ و هذه الجملة موضّحة لما قبلها، لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند اللّه إليه لم يصل عدوّه إليه و لم يقدروا عليه؛ ثم أمروه أن يخرج عنهم فقالوا له: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ قرأ نافع و ابن كثير بالوصل، و قرأ غيرهما بالقطع، و هما لغتان فصيحتان. قال اللّه تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ و قال سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى و قد جمع الشاعر بين اللغتين فقال:

حىّ النّضيرة ربّة الخدرأسرت إليك و لم تكن تسرى

و قيل: إن أسرى للمسير من أول الليل، و سرى للمسير من آخره، و القطع من الليل: الطائفة منه.

قال ابن الأعرابى: بقطع من الليل: بساعة منه، و قال الأخفش: بجنح من الليل، و قيل: بظلمة من الليل، و قيل: بعد هدوّ من الليل. قيل: إن السرى لا يكون إلا فى الليل، فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل:

لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون فى أوّله قبل اجتماع الظلمة، و ليس ذلك بمراد وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أى: لا ينظر إلى ما وراءه، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره. قيل: وجه النهى عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم، و هول ما نزل بهم فيرحموهم و يرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات، فإنه لا بدّ للملتفت من فترة فى سيره إِلَّا امْرَأَتَكَ بالنصب على قراءة الجمهور، و قرأ أبو عمرو و ابن كثير بالرفع على البدل، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ أى: أسر بأهلك جميعا إلا امرأتك فلا تسر بها، ف إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ من العذاب، و هو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة؛ و أنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد و قال: لا يصحّ ذلك إلا برفع يلتفت و يكون نعتا، لأن المعنى يصير إذا أبدلت و جزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات و ليس المعنى كذلك. قال النحاس:

و هذا العمل من أبى عبيد و غيره على مثل أبى عمرو مع جلالته و محله من العربية لا يجب أن يكون، و الرفع على البدل له معنى صحيح، و هو أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات؛ أى: لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت و تهلك؛ و قيل: إن الرفع على البدل من أحد، و يكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف، فكأنه قال: و لا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تتخلف، و الملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين، و الضمير فى: إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ للشأن؛ و الجملة خبر إنّ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ هذه الجملة تقليل لما تقدّم من الأمر بالإسراء و النهى عن الالتفات، و المعنى: أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، و الاستفهام فى أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ للإنكار التقريرى، و الجملة تأكيد للتعليل. و قرأ عيسى بن عمر أَ لَيْسَ الصُّبُحُ بضم الباء و هى لغة، و لعلّ جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن و الناس فيه مجتمعون لم يتفرّقوا إلى أعمالهم فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا أى: الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالأمر: نفس العذاب جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها أى: عالى قرى لوط سافلها،

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۵

و المعنى: أنه قلبها على هذه الهيئة، و هى كون عاليها صار سافلها و سافلها صار عاليها، و ذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ قيل: إنه يقال أمطرنا فى العذاب و مطرنا فى الرحمة؛ و قيل: هما لغتان، يقال مطرت السماء و أمطرت، حكى ذلك الهروى، و السّجّيل: الطين المتحجّر بطبخ أو غيره؛ و قيل: هو الشديد الصلب من الحجارة؛ و قيل:

السّجّيل: الكثير؛ و قيل: إنّ السجيل لفظة غير عربية، أصله سج و جيل، و هما بالفارسية حجر و طين عرّبتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا؛ و قيل: هو من لغة العرب. و ذكر الهروى: أن السجيل اسم لسماء الدنيا.

قال ابن عطية: و هذا ضعيف يردّه وصفه بمنضود؛ و قيل هو بحر معلق فى الهواء بين السماء و الأرض؛ و قيل هى جبال فى السماء. و قال الزجاج: هو من التسجيل لهم: أى ما كتب لهم من العذاب فهو فى معنى سجين، و منه قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ- كِتابٌ مَرْقُومٌ «1» و قيل: هو من أسجلته إذا أعطيته، فكأنه عذاب أعطوه، و منه قول الشاعر:

من يساجلنى يساجل ما جدايملأ الدّلو إلى عقد الكرب

و معنى: مَنْضُودٍ أنه نضد بعضه فوق بعض، و قيل: بعضه فى أثر بعض، يقال: نضدت المتاع:

إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود و نضيد، و المسوّمة: المعلمة، أى: التى لها علامة، قيل: كان عليها أمثال الخواتيم؛ و قيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به. و قال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة و سواد فى بياض. فذلك تسويمها؛ و معنى: عِنْدَ رَبِّكَ فى خزائنه وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ أى: و ما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين و هم قوم لوط ببعيد، أو ما هى من كل ظالم من الظلمة و منهم كفار قريش و من عاضدهم على الكفر بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم ببعيد، فهم لظلمهم مستحقون لها. و قيل: وَ ما هِيَ أى: قرى مِنَ الظَّالِمِينَ من كفر بالنبىّ بِبَعِيدٍ فإنها بين الشام و المدينة. و فى إمطار الحجارة قولان: أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. و الثانى: أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها و كان خارجا عنها. و تذكير البعيد: على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف مذكر، أى:

شىء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدرا، كالزّفير و الصّهيل، و المصادر يستوى فى الوصف بها المذكر و المؤنث.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً قال: ساء ظنا بقومه، و ضاق ذرعا بأضيافه وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ يقول: شديد. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ قال: يسرعون وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قال: يأتون الرجال. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عنه أيضا قال: يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ يستمعون إليه. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله: هؤُلاءِ بَناتِي قال: ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحا و لا نكاحا، إنما قال هؤلاء نساؤكم، لأن النبىّ إذا كان بين ظهرانى قوم فهو أبوهم، قال اللّه تعالى فى القرآن: «و أزواجه أمّهاتهم و هو أبوهم» فى قراءة أبىّ. و أخرج ابن جرير، و ابن

---

(1). المطففين: 8- 9.

أبى حاتم عن مجاهد قال: لم تكن بناته و لكن كن من أمّته، و كل نبىّ أبو أمّته. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و ابن عساكر عن السدّى نحوه. قال: و فى قراءة عبد اللّه «النّبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم و هو أب لهم و أزواجه أمهاتهم». و أخرج ابن أبى حاتم عن حذيفة ابن اليمان قال: عرض عليهم بناته تزويجا، و أراد أن يقى أضيافه بتزويج بناته. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي قال: لا تفضحونى. و أخرج ابن أبى

حاتم عن أبی مالک أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قال: رجل يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر. و أخرج أبو الشيخ و البيهقی فی الأسماء و الصفات عن ابن عباس أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قال: واحد يقول: لا إله إلا اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن السدّی وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ قال: إنما نريد الرجال قالَ لوط لَوْ أَنَّ لِی بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِی إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ يقول: إلى جند شديد لمقاتلتكم. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس: أَوْ آوِی إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ قال: عشيرة. و قد ثبت فی البخاری و غيره من حديث أبی هريرة أن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يغفر اللّه للوط إن «۱» كان ليأوی إلى ركن شديد».

و هو مرویّ فی غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن عباس: بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ قال: جوف الليل. و أخرجا عنه قال: بسواد الليل. و أخرج عبد الرزاق عن قتادة قال: بطائفة من الليل. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ قال: لا يتخلف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ قال: لا ينظر وراءه أحد إِلَّا امْرَأَتَكَ و أخرج أبو عبيد و ابن جرير عن هارون قال:
فی حرف ابن مسعود «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك». و أخرج ابن جرير عن مجاهد فی قوله:
فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه، ثم حملها على خوافی جناحه بما فيها ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أوّل ما سقط منها سرادقها، فلم يصب قوما ما أصابهم، ثم إن اللّه طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، و أمطر عليهم حجارة من سجيل و قد ذكر المفسرون روايات و قصصا فی كيفية هلاک قوم لوط طويلة متخالفة، و ليس فی ذكرها فائدة، لا سيما و بين من قال بشیء من ذلک و بين هلاک قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له فی مثله إسناد صحيح، و غالب ذلک مأخوذ عن أهل الكتاب، و حالهم فی الرواية معروف.

و قد أمرنا بأنا لا نصدّقهم و لا نكذبهم، فاعرف هذا، فهو الوجه فی حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة فی قصص الأنبياء و قومهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فی قوله:
وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ قال: يرهب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی فی الآية قال: من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ، و ابن أبی حاتم عن قتادة قال: من ظالمی هذه الأمة.

---

(۱). إن: مخففة من الثقيلة و المعنى: إنه كان يأوی إلى ركن شديد و هو اللّه تعالى، كما ورد فی آثار أخرى.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۸۷

[سورة هود (۱۱): الآيات ۸۴ الى ۹۵]

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّی أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّی أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶) قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِی أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (۸۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ رَزَقَنِی مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِی إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸)

وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (٩١) قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

أى: و أرسلنا إلى مدين- و هم قوم شعيب- أخاهم فى النّسب شعيبا، و سمّوا مدين: باسم أبيهم، و هو مدين بن إبراهيم؛ و قيل: باسم مدينتهم. قال النحاس: لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة، و قد تقدّم الكلام على هذا فى الأعراف بأبسط مما هنا، و قد تقدّم تفسير: قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ فى أوّل السورة، و هذه الجملة مستأنفة؛ كأنه قيل: ماذا قال لهم شعيب لما أرسله اللّه إليهم؟ و قد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه، أمرهم أوّلا بعبادة اللّه سبحانه الذى هو الإله وحده لا شريك له، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال و الميزان، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد و كذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد، و إذا باعوا باعوا بكيل ناقص و وزن ناقص؛ و جملة: إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ تعليل للنهى، أى: لا تنقصوا المكيال و الميزان لأنى أراكم بخير، أى: بثروة واسعة فى الرزق فلا تغيروا نعمة اللّه عليكم بمعصيته و الإضرار بعباده، ففى هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها، ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى، فقال: وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا؛ و وصف اليوم بالإحاطة و المراد: العذاب، لأن العذاب واقع فى اليوم؛ و معنى إحاطة عذاب اليوم بهم أنه لا يشذ منهم أحد عنه و لا يجدون منه ملجأ و لا مهربا، و اليوم هو يوم القيامة، و قيل: هو يوم

الانتقام منهم فى الدنيا بالصيحة؛ ثم أكد النهى عن نقص الكيل و الوزن بقوله: وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ و الإيفاء: هو الإتمام، و القسط: العدل، و هو عدم الزيادة و النقص و إن كان الزيادة على الإيفاء فضل و خير، و لكنها فوق ما يفيده اسم العدل، و النهى عن النقص و إن كان يستلزم الإيفاء ففى تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة و تأكيد حسن، ثم زاد ذلك تأكيدا فقال: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ قد مرّ تفسير هذا فى الأعراف، و فيه النهى عن البخس على العموم، و الأشياء أعمّ مما يكال و يوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل و الوزن فى هذا دخولا أوّليا؛ و قيل: البخس المكس خاصة، ثم قال: وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قد مرّ أيضا تفسيره فى البقرة، و العثى فى الأرض: يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس، فيدخل فيه ما فى السياق من نقص المكيال و الميزان؛ و قيده بالحال و هو قوله: مُفْسِدِينَ ليخرج ما كان صورته من العثى فى الأرض، و المقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر فى السفينة بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ أى:

ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا و بركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف و البخس و الفساد فى الأرض، ذكر معناه ابن جرير و غيره من المفسرين. و قال مجاهد: بقية اللّه: طاعته. و قال الربيع:

وصيته. و قال الفراء: مراقبته، و إنما قيد ذلك بقوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، أو المراد بالمؤمنين هنا: المصدّقون لشعيب وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظكم من الوقوع فى المعاصى من التطفيف و البخس و غيرهما، أو أحفظ عليكم أعمالكم و أحاسبكم بها و أجازيكم عليها، و جملة:

قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل:
فماذا قالوا لشعيب؟ و قرئ أَ صَلاتُكَ من غير جمع، و أن نترك فى موضع نصب. و قال الكسائى:
موضعها خفض على إضمار الباء، و مرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان، و الاستفهام للإنكار عليه و الاستهزاء به، لأنّ الصلوات عندهم ليست من الخير الذى يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه؛ و تذليل صعوبته؛ كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب: أصدقتك أمرتك بهذا؛ و قيل: المراد بالصلاة هنا القراءة، و قيل: المراد بها الدين، و قيل: المراد بالصلوات أتباعه، و منه المصلى الذى يتلو السابق؛ و هذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة اللّه وحده، و قولهم: أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل و الوزن، و نهيهم عن نقصهما و عن بخس الناس و عن العثى فى الأرض، و هذه الجملة معطوفة على ما فى ما يَعْبُدُ آباؤُنا. و المعنى: أ صلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، و تأمرك أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الأخذ و الإعطاء و الزيادة و النقص. و قرئ تفعل ما تشاء بالفوقية فيهما. قال النحاس: فتكون أو: على هذه القراءة للعطف على: أن، الأولى، و التقدير: أ صلواتك تأمرك أن تفعل فى أموالنا ما تشاء. و قرئ نَفْعَلَ بالنون و ما تشاء بالفوقية، و معناه: أ صلواتك تأمرك أن نفعل نحن فى أموالنا ما تشاؤه أنت و ندع ما نشاؤه نحن و ما يجرى به التّراضى بيننا؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا: إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ على طريقة التهكم به، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك و فى اعتقادك، و معناهم: أن هذا الذى نهيتنا عنه و أمرتنا به يخالف ما

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٥٨٩

تعتقده فى نفسك من الحلم و الرشد؛ و قيل: إنهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك، و أنكروا عليه الأمر و النهى منه لهم بما يخالف الحلم و الرشد فى اعتقادهم. و قد تقدّم تفسير الحلم و الرشد، و جملة: قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي مستأنفة كالجمل التى قبلها؛ و المعنى: أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من عند ربى فيما أمرتكم به و نهيتكم عنه وَ رَزَقَنِي مِنْهُ أى: من فضله و خزائن ملكه رِزْقاً حَسَناً أى: كثيرا واسعا حلالا طيبا، و قد كان عليه السلام كثير المال؛ و قيل: أراد بالرزق النبوّة، و قيل: الحكمة، و قيل: العلم، و قيل: التوفيق، و جواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام، تقديره: أترك أمركم و نهيكم، أو أ تقولون فى شأنى: ما تقولون مما تريدون به السّخرية و الاستهزاء وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ أى: و ما أريد بنهيى لكم عن التطفيف و البخس أن أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله دونكم، يقال: خالفه إلى كذا: إذا قصده و هو مولّ عنه، و خالفته عن كذا: فى عكس ذلك إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ أى: ما أريد بالأمر و النهى إلا الإصلاح لكم و دفع الفساد فى دينكم و معاملاتكم مَا اسْتَطَعْتُ ما بلغت إليه استطاعتى، و تمكنت منه طاقتى وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ أى:
ما صرت موفقا هاديا نبيا مرشدا إلا بتأييد اللّه سبحانه و إقدارى عليه و منحى إياه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى جميع أمورى التى منها أمركم و نهيكم وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أى: أرجع فى كل ما نابنى من الأمور و أفوّض جميع أمورى إلى ما يختاره لى من قضائه و قدره، و قيل معناه: و إليه أرجع فى الآخرة؛ و قيل: إن الإنابة: الدعاء، و معناه:
و له أدعو. قوله: وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي قال الزجاج: معناه لا يكسبنكم شقاقى إصابة العذاب إياكم كما أصاب من كان قبلكم؛ و قيل معناه: لا يحملنكم شقاقى، و الشقاق: العداوة، و منه قول الأخطل:

ألا من مبلغ عنّى رسولافكيف وجدتم طعم الشّقاق

و أَنْ يُصِيبَكُمْ فى محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنكم مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ من الغرق أَوْ قَوْمَ هُودٍ من الريح أَوْ قَوْمَ صالِحٍ من الصيحة، و قد تقدّم تفسير: يجرمنكم، و تفسير:

الشقاق وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ يحتمل أن يريد: ليس مكانهم ببعيد من مكانكم، أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم، أو ليسوا ببعيد منكم فى السبب الموجب لعقوبتهم، و هو مطلق الكفر، و أفرد لفظ بعيد لمثل ما سبق فى وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار و التوبة فقال: وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ و قد تقدّم تفسير: الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه فى أوّل السورة، و تقدّم تفسير: الرحيم، و المراد هنا: أنه عظيم الرحمة للتائبين. و الودود: المحبّ. قال فى الصّحاح: وددت الرجل أودّه ودّا: إذا أحببته، و الودود: المحب، و الودّ و الودّ و الودّ: المحبة؛ و المعنى هنا: أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به، و سوق الخير إليه، و دفع الشرّ عنه.

و فى هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار و التوبة. و جملة: قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ مستأنفة كالجمل السّابقة، و المعنى: أنك تأتينا بما لا عهد لنا به: من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث و النشور، و لا نفقه ذلك: أى: نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة. فيكون نفى الفقه على هذا حقيقة لا مجازا؛

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۰

و قيل: قالوا ذلك إعراضا عن سماعه؛ و احتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم، فلا يكون نفى الفقه حقيقة، بل مجازا. يقال فقه يفقه: إذا فهم، فقها و فقها، و حكى الكسائى فقهانا، و يقال فقه فقها: إذا صار فقيها وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً أى: لا قوّة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا، و تتمكن بها من مخالفتنا؛ و قيل: المراد أنه ضعيف فى بدنه، قاله علىّ بن عيسى؛ و قيل: إنه كان مصابا ببصره. قال النحاس: و حكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى: ضعيف، أى: قد ضعف بذهاب بصره، كما يقال له:

ضرير، أى: قد ضرّ بذهاب بصره؛ و قيل: الضعيف: المهين، و هو قريب من القول الأوّل وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ رهط الرجل: عشيرته الذين يستند إليهم و يتقوّى بهم، و منه: الراهط: لجحر اليربوع، لأنه يتوثق به و يخبأ فيه ولده، و الرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، و إنما جعلوا رهطه مانعا من إنزال الضرر به، مع كونهم فى قلة، و الكفار ألوف مؤلفة، لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احتراما لهم لا خوفا منهم، ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم: وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ حتى نكفّ عنك لأجل عزتك عندنا، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، و معنى لرجمناك: لقتلناك بالرجم و كانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة، و قيل: معنى لرجمناك: لشتمناك، و منه قول الجعدى:

تراجمنا بمرّ القول حتّى‌نصير كأنّنا فرسا رهان

و يطلق الرجم على اللعن، و منه الشيطان الرجيم، و جملة: قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ مستأنفة، و إنما قال: أعزّ عليكم من اللّه، و لم يقل: أعزّ عليكم منى، لأن نفى العزّة و إثباتها لقومه، كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفى، استهانة به، و الاستهانة بأنبياء اللّه استهانة باللّه عزّ و جلّ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليهم من اللّه، فاستنكر ذلك عليهم، و تعجب منه، و ألزمهم ما لا مخلص لهم عنه، و لا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، و فى هذا من قوّة المحاجّة؛ و وضوح المجادلة؛ و إلقام الخصم الحجر؛ ما لا يخفى، و لأمر ما سمّى شعيب: خطيب الأنبياء، و الضمير فى وَ اتَّخَذْتُمُوهُ راجع إلى اللّه سبحانه.

و المعنى: و اتخذتم اللّه عزّ و جلّ بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذى أرسله إليكم وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا أى: منبوذا وراء الظهر لا تبالون به؛ و قيل: المعنى: و اتّخذتم أمر اللّه الذى أمرنى بإبلاغه إليكم، و هو ما جئتكم به، وراء ظهوركم، يقال: جعلت أمره بظهر: إذا قصرت فيه، و ظهريا، منسوب إلى الظهر، و الكسر لتغيير النسب إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ لا يخفى عليه شى‌ء من أقوالكم و أفعالكم وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ لما رأى إصرارهم على الكفر و تصميمهم على دين آبائهم، و عدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم و نهاية استطاعتهم، يقال: مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ تمكن، و

أخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه و يقدّر اللّه له؛ ثم بالغ فى التهديد و الوعيد بقوله: سَوْفَ تَعْلَمُونَ أى: عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير اللّه و الإضرار بعباده، و قد تقدّم مثله فى الأنعام مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ من: فى محل نصب بتعلمون، أى: سوف تعلمون من هو الذى يأتيه العذاب المخزى الذى يتأثر عنه الذلّ و الفضيحة و العار وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ معطوف على: من يأتيه؛ و المعنى: ستعلمون من هو المعذب و من

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٥٩١

هو الكاذب؟ و فيه تعريض بكذبهم فى قولهم: لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ؛ و قيل:

إن: من، مبتدأ، و ما بعدها صلتها، و الخبر محذوف، و التقدير: من هو كاذب فسيعلم كذبه و يذوق وبال أمره. قال الفراء: إنما جاء ب: هو فى مَنْ هُوَ كاذِبٌ لأنهم لا يقولون من قائم: إنما يقولون من قام، و من يقوم، و من القائم، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل و يفعل. قال النحاس: و يدل على خلاف هذا قول الشاعر:

من رسولى إلى الثريّا بأنّى ضقت ذرعا بهجرها و الكتاب

وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ أى: انتظروا إنى معكم منتظر لما يقضى به اللّه بيننا وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أى: لما جاء عذابنا، أو أمرنا بعذابهم؛ نجينا شعيبا و أتباعه الذين آمنوا به بِرَحْمَةٍ مِنَّا لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم، و هى: هدايتهم للإيمان وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه و ظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر الصَّيْحَةُ التى صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، و فى الأعراف: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ و كذا فى العنكبوت. و قد قدّمنا أن الرجفة: الزلزلة، و أنها تكون تابعة للصيحة لتموّج الهواء المفضى إليها فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ أى: ميتين. و قد تقدّم تفسيره و تفسير: كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها قريبا، و كذا تفسير: أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ و حكى الكسائى: أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ: كما بعدت ثمود بضم العين. قال المهدوى: من ضم العين من بعدت فهى لغة يستعمل فى الخير و الشرّ، و بعدت بالكسر على قراءة الجمهور يستعمل فى الشرّ خاصة، و هى هنا بمعنى اللعنة.

و قد أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ قال: رخص السعر وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ قال: غلاء السعر. و أخرج ابن جرير عنه بَقِيَّتُ اللَّهِ قال:

رزق اللّه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة: بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ يقول: حظّكم من ربّكم خير لكم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد قال: طاعة اللّه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله:

أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ قال: أ قراءتك. و أخرج ابن عساكر عن الأحنف: أن شعيبا كان أكثر الأنبياء صلاة. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا قال:

نهاهم عن قطع هذه الدنانير و الدراهم فقالوا: إنما هى أموالنا نفعل فيها ما نشاء، إن شئنا قطعناها، و إن شئنا أحرقناها، و إن شئنا طرحناها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه. و أخرجنا عن زيد بن أسلم نحوه أيضا. و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن المنذر، و أبو الشيخ، و عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قال: يقولون إنك لست بحليم و لا رشيد. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة قال: استهزاء به. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً قال: الحلال.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٥٩٢

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ قال:

يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر و أركبه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:
وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ قال: إليه أرجع. و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن علىّ قال: «قلت: يا رسول اللّه أوصنى، قال: قل اللّه ربى ثم استقم، قلت: ربى اللّه و ما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت و إليه أنيب، قال: ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شربا و نهلته نهلا، و فى إسناده محمد بن يوسف الكديمى. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة: لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي لا يحملنكم فراقى. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: شقاقى عداوتى. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى قال: لا تحملنكم عداوتى. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ قال: إنما كانوا حديثى عهد قريب بعد نوح و ثمود. و أخرج أبو الشيخ و ابن عساكر عن سعيد بن جبير: وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان أعمى، و إنما عمى من بكائه من حبّ اللّه عزّ و جلّ. و أخرج الواحدى، و ابن عساكر، عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «بكى شعيب عليه السلام من حبّ اللّه حتى عمى». و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه، و الخطيب، و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان ضرير البصر. و أخرج أبو الشيخ عن أبى صالح مثله. و أخرج أبو الشيخ عن سفيان فى قوله: وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان أعمى، و كان يقال له خطيب الأنبياء.
و أخرج أبو الشيخ عن السدّى قال: معناه إنما أنت واحد. و أخرج أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب: أنه خطب فتلا هذه الآية فى شعيب وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان مكفوفا، فنسبوه إلى الضعف وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ قال علىّ: فو اللّه الذى لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة.
و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا قال: نبذتم أمره.
و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال فى الآية: لا تخافونه. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: تهاونتم به.

[سورة هود (١١): الآيات ٩٦ الى ١٠٨]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (١٠٠)
وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (١٠٥)
فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (١٠٦) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (١٠٧) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٩٣

المراد بالآيات: التوراة، و السّلطان المبين: المعجزات؛ و قيل: المراد بالآيات: هى التسع المذكورة فى غير هذا الموضع، و السّلطان المبين: العصا، و هى و إن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر؛ و قيل: المراد بالآيات: ما يفيد الظنّ، و

السلطان المبين: ما يفيد القطع بما جاء به موسى؛ و قيل: هما جميعا عبارة عن شىء واحد، أى: أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية؛ و كونه سلطانا مبينا؛ و قيل: إن السلطان المبين: ما أورده موسى على فرعون فى المحاورة بينهما إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أى: أرسلناه بذلك إلى هؤلاء.
و قد تقدّم أن الملأ أشراف القوم، و إنما خصّهم بالذكر دون سائر القوم، لأنهم أتباع لهم فى الإصدار و الإيراد، و خصّ هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله: فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ أى: أمره لهم بالكفر، لأن حال فرعون فى الكفر أمر واضح، إذ كفر قومه من الأشراف و غيرهم إنما هو مستند إلى كفره، و يجوز أن يراد بأمر فرعون:
شأنه و طريقته، فيعمّ الكفر و غيره وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أى: ليس فيه رشد قط، بل هو غىّ و ضلال، و الرشيد بمعنى: المرشد، و الإسناد مجازى، أو بمعنى ذى رشد، و فيه تعريض بأن الرشد فى أمر موسى يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ من قدمه بمعنى تقدّمه، أى: يصير متقدما لهم يوم القيامة سابقا لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدّمهم فى الدنيا فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ أى: إنه لا يزال متقدّما لهم و هم يتبعونه حتى يوردهم النار؛ و عبر بالماضى: تنبيها على تحقق وقوعه، ثم ذمّ الورد الذى أوردهم إليه، فقال: وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ لأن الوارد إلى الماء الذى يقال له: الورد، إنما يرده ليطفىء حرّ العطش، و يذهب ظمأه، و النار على ضدّ ذلك، ثم ذمهم بعد ذمّ المكان الذى يردونه، فقال: وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً أى: أتبع قوم فرعون مطلقا، أو الملأ خاصة، أو هم و فرعون فى هذه الدنيا لعنة عظيمة، أى: طردا و إبعادا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: و أتبعوا لعنة يوم القيامة، يلعنهم أهل المحشر جميعا، ثم إنه جعل اللعنة رفدا لهم، على طريقة التهكم، فقال: بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ. قال الكسائى و أبو عبيدة: رفدته، أرفده، رفدا: أمنته و أعطيته، و اسم العطية: الرفد، أى: بئس العطاء و الإعانة ما أعطوهم إياه، و أعانوهم به، و المخصوص بالذمّ محذوف، أى: رفدهم، و هو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا و الآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الأولى و تؤبدها. و ذكر الماوردى حكاية عن الأصمعى أنّ الرّفد بالفتح: القدح، و بالكسر: ما فيه من الشراب فكأنه ذمّ ما يستقون فى النار، و هذا أنسب بالمقام، و قيل: إن الرفد: الزيادة، أى: بئس ما يرفدون به بعد الغرق، و هو الزيادة، قاله الكلبى؛ و الإشارة بقوله: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ أى: ما قصه اللّه سبحانه فى هذه السورة من أخبار الأمم السالفة و ما فعلوه مع أنبيائهم، أى: هو مقصوص عليك خبر بعد خبر، و قد تقدّم تحقيق معنى القصص، و الضمير فى: منها، عائد إلى القرى، أى: من القرى قائم، و منها حصيد، و القائم: ما كان قائما على عروشه، و الحصيد: ما لا أثر له؛ و قيل: القائم: العامر، و الحصيد: الخراب؛ و قيل: القائم: القرى الخاوية على عروشها، و الحصيد: المستأصل بمعنى محصود، شبه القرى بالزرع القائم على ساقه و المقطوع، قال الشاعر:
فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۴ و النّاس فى قسم المنيّة بينهم كالزّرع منه قائم و حصيد
وَ ما ظَلَمْناهُمْ بما فعلنا بهم من العذاب وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكفر و المعاصى فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ أى: فما دفعت عنهم أصنامهم التى يعبدونها من دون اللّه شيئا من العذاب لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ أى: لما جاء عذابه وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ الهلاك و الخسران، أى: ما زادتهم الأصنام التى يعبدونها إلا هلاكا و خسرانا، و قد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ قرأ الجحدرى و طلحة بن مصرف أخذ على أنه فعل و قرأ غيرهما أَخْذُ على المصدر إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ أى: أهلها و هم ظالمون إِنَّ أَخْذَهُ أى: عقوبته للكافرين أَلِيمٌ شَدِيدٌ أى: موجع غليظ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أى: فى أخذ اللّه سبحانه لأهل القرى، أو فى القصص الذى قصّه على رسوله؛ لعبرة و موعظة لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر، و يتعظون بالمواعظ، و الإشارة بقوله:
ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة، أى: يجمع فيه الناس للمحاسبة و المجازاة وَ ذلِكَ أى: يوم القيامة يَوْمٌ مَشْهُودٌ أى: يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيه الخلائق، فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا

لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أى: و ما نؤخر ذلک اليوم إلا لانتهاء أجل معدود معلوم بالعدد، قد عين اللّه سبحانه وقوع الجزاء بعده يَوْمَ يَأْتِ قرأ أهل المدينة و أبو عمرو و الكسائى بإثبات الياء فى الدرج، و حذفها فى الوقف. و قرأ أبىّ و ابن مسعود بإثباتها وصلا و وقفا. و قرأ الأعمش بحذفها فيهما، و وجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائى أن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذفت الياء كما تحذف الضمة. و وجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رسم المصحف كذلک.

و حکى الخليل و سيبويه أن العرب تقول لا أدر، فتحذف الياء و تجتزئ بالكسر. و أنشد الفراء فى حذف الياء:

كفّاک کفّ ما تليق درهماجودا و أخرى تعط بالسّيف الدّما

قال الزجّاج: و الأجود فى النحو إثبات الياء، و المعنى: حين يأتى يوم القيامة لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ أى: لا تتكلّم، حذفت إحدى التاءين تخفيفا، أى: لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام؛ و قيل: لا تكلم بحجة و لا شفاعة إِلَّا بِإِذْنِهِ سبحانه- لها فى التكلم بذلک، و قد جمع بين هذا و بين قوله هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ- وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «۱» باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة. و قد تكرّر مثل هذا الجمع فى مواضع فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ أى: من الأنفس شقىّ، و منهم سعيد؛ فالشقىّ من كتبت عليه الشقاوة، و السعيد من كتبت له السعادة، و تقديم الشقىّ على السعيد لأن المقام مقام تحذير فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ أى: فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرّون فى النار لهم فيها زفير و شهيق. قال الزجّاج: الزّفير من شدّة الأنين، و هو المرتفع جدّا، قال: و زعم أهل اللغة من البصريين و الكوفيين أن الزفير: بمنزلة ابتداء صوت الحمير. و الشهيق: بمنزلة آخره؛ و قيل الزفير: الصوت الشديد، و الشهيق: الصوت الضعيف؛ و قيل: الزفير: إخراج النفس، و الشهيق: ردّ النفس؛ و قيل: الزفير من

---

(۱). المرسلات: ۳۵- ۳۶.

الصدر، و الشهيق من الحلق، و قيل: الزفير: ترديد النفس من شدّة الخوف، و الشهيق: النفس الطويل الممتد، و الجملة إما مستأنفة كأنه قيل: ما حالهم فيها؟ أو فى محل نصب على الحال خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أى: مدّة دوامهما.

و قد اختلف العلماء فى بيان معنى هذا التّوقيت، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأييد عذاب الكفار فى النار، و عدم انقطاعه عنهم، و ثبت أيضا أن السموات و الأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا، فقالت طائفة: إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة فى دوام الشىء، قالوا: هو دائم ما دامت السموات و الأرض، و منه قولهم: لا آتيک ما جنّ ليل، و ما اختلف الليل و النهار، و ما ناح الحمام و نحو ذلک. فيكون معنى الآية أنهم خالدون فيها أبدا لا انقطاع لذلک و لا انتهاء له؛ و قيل: إن المراد سموات الآخرة و أرضها، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات و أرضا غير هذه الموجودة فى الدنيا، و هى دائمة بدوام دار الآخرة، و أيضا لا بدّ لهم من موضع يقلهم، و آخر يظلهم، و هما أرض و سماء. قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ قد اختلف أهل العلم فى معنى هذا الاستثناء على أقوال: الأوّل أنه من قوله: فَفِي النَّارِ كأنه قال: إلا ما شاء ربک من تأخير قوم عن ذلک. روى هذا أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى. الثانى: فى الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين، و أنهم يخرجون بعد مدة من النار، و على هذا يكون قوله سبحانه: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا عاما فى الكفرة و العصاة، و يكون الاستثناء من خالدين، و تكون ما بمعنى من، و بهذا قال قتادة و الضحاک و أبو سنان و غيرهم. و قد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلک مخصصا لكلّ عموم. الثالث: أن الاستثناء من الزفير و الشهيق، أى: لهم فيها زفير و شهيق إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ من أنواع العذاب غير الزّفير و الشّهيق، قاله ابن الأنبارى. الرابع: أن معنى الاستثناء: أنهم خالدون فيها ما دامت السموات و الأرض

لا يموتون إلا ما شاء ربك، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا، ثم يجدّد اللّه خلقهم؛ روى ذلك عن ابن مسعود. الخامس: أن إلا بمعنى سوى. و المعنى ما دامت السموات و الأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود، كأنه ذكر فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له حكاه الزجاج. السادس: ما روى عن الفراء و ابن الأنبارى و ابن قتيبة من أن هذا لا ينافى عدم المشيئة كقولك: و اللّه لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، و نوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التى شاء اللّه، فالمشيئة قد حصلت جزما، و قد حكى هذا القول الزجاج أيضا. السابع:

أن المعنى خالدين فيها ما دامت السموات و الأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم فى قبورهم و للحساب، حكاه الزجاج أيضا. الثامن: أن المعنى: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم، و زيادة العذاب لأهل الجحيم؛ حكاه أيضا الزجاج، و اختاره الحكيم الترمذى. التاسع أن إلا بمعنى الواو قاله الفراء، و المعنى و ما شاء ربك من الزيادة، قال مكى: و هذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو.

العاشر: أن إلا بمعنى الكاف. و التقدير: كما شاء ربك، و منه قوله تعالى: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ «١» أى كما قد سلف، الحادى عشر: أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء

---

(١). النساء: ٢٢.

الذى ندب إليه الشارع فى كل كلام فهو على حدّ قوله: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ «١» روى نحو هذا عن أبى عبيد، و هذه الأقوال هى جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم. و قد نوقش بعضها بمناقشات، و دفعت بدفوعات، و قد أوضحت ذلك فى رسالة مستقلة جمعتها فى جواب سؤال ورد من بعض الأعلام. وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ قرأ الأعمش و حفص و حمزة و الكسائى سُعِدُوا بضم السين، و قرأ الباقون بفتح السين، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم. قال سيبويه: لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقى فلان لكونه مما لا يتعدى قال النحاس: و رأيت علىّ ابن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى بضم السين مع علمه بالعربية، و هذا لحن لا يجوز، و معنى الآية كما مرّ فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا. قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قد عرف من الأقوال المتقدّمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ أى يعطيهم اللّه عطاء غير مجذوذ، و المجذوذ: المقطوع، من جذه يجذه إذا قطعه، و المعنى: أنه ممتد إلى غير نهاية.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ يقول: أضلّهم فأوردهم النار. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال:

فرعون يمضى بين أيدى قومه حتى يهجم بهم على النار. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ قال: الورود: الدخول. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ قال: لعنة الدنيا و الآخرة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه: مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ يعنى قرى عامرة، و قرى خامدة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة:

منها قائم يرى مكانه، و حصيد لا يرى له أثر. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج: منها قائم خاو على عروشه، و حصيد ملصق بالأرض. و أخرج أبو الشيخ عن أبى عاصم: فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ قال: ما نفعت. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن عمر فى قوله: وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ أى: هلكة.

و أخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال: تخسير. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة معناه. و أخرج البخارى، و مسلم، و

غيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه سبحانه و تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ يقول:

إنا سوف نفى لهم بما وعدناهم فى الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم. و أخرج ابن أبى شيبة، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ قال: يوم القيامة. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: يَوْمَ يَأْتِ قال:

ذلك اليوم. و أخرجه الترمذى، و حسنه، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: «لما نزلت فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ قلت: يا رسول اللّه! فعلام نعمل على شىء قد فرغ منه، أو على شىء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شىء قد فرغ منه و جرت

---

(١). الفتح: ٢٧.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٩٧

به الأقلام يا عمر، و لكن كلّ ميسر لما خلق له». و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: هاتان من المخبئات قول اللّه: فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ و يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا أما قوله: فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة، يعذبهم اللّه بالنار ما شاء بذنوبهم، ثم يأذن فى الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون، فيخرجهم من النار، فيدخلهم الجنة، فسماهم: أشقياء حين عذبهم فى النار فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ- خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ حين أذن فى الشفاعة لهم و أخرجهم من النار و أدخلهم الجنة و هم هم وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا يعنى: بعد الشقاء الذى كانوا فيه فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ يعنى: الذين كانوا فى النار. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن قتادة: أنه تلا هذه الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فقال: حدّثنا أنس:

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يخرج قوم من النار، و لا نقول كما قال أهل حروراء: إن من دخلها بقى فيها».

و أخرج ابن مردويه عن جابر قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا إلى قوله إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن شاء اللّه أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن خالد بن معدان فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: إنها فى التوحيد من أهل القبلة. و أخرج عبد الرزاق، و ابن الضريس، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى نضرة، عن جابر بن عبد اللّه، أو عن أبى سعيد الخدرى أو رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: هذه الآية قاضية على القرآن كله، يقول:

حيث كان فى القرآن خالدين فيها: تأتى عليه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقى عن أبى نضرة قال: ينتهى القرآن كله إلى هذه الآية: إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ قال: لكل جنة سماء و أرض. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الحسن نحوه أيضا. و أخرج البيهقى فى البعث و النشور عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء فى النار، و أن يخلد هؤلاء فى الجنة. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: استثنى اللّه من النار أن تأكلهم.

و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة اللّه ما نسخها، فأنزل بالمدينة: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إلى آخر الآية، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها، و أوجب لهم خلود الأبد. و قوله: وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا الآية: قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة اللّه ما نسخها، فأنزل بالمدينة: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ إلى قوله: ظِلًّا ظَلِيلًا «۱» فأوجب لهم خلود الأبد. و أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: قال عمر: لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه. و أخرج إسحاق بن راهويه عن أبى هريرة قال: «سيأتى على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، و قرأ

---

(۱). النساء: ۵۷.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۵۹۸

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا الآية». و أخرج ابن المنذر، و أبو الشيخ عن إبراهيم: «ما فى القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: و قال ابن مسعود «ليأتينّ عليها زمان تخفق أبوابها». و أخرج ابن جرير عن الشعبى قال: «جهنم أسرع الدارين عمرانا و أسرعها خرابا». و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: اللّه أعلم بتثنيته على ما وقعت؟ و قد روى عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر، و أبو هريرة، و ابن مسعود كابن عباس و عبد اللّه بن عمر و جابر و أبى سعيد من الصحابة، و عن أبى مجلز، و عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، و غيرهما من التابعين. و ورد فى ذلك حديث فى معجم الطبرانى الكبير عن أبى أمامة صدى ابن عجلان الباهلى. و إسناده ضعيف. و لقد تكلم صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما كان له فى تركه سعة، و فى السكوت عنه غنى، فقال: و لا يخدعنك قول المجبرة إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم و يسجل بافترائهم، و ما ظنك بقوم نبذوا كتاب اللّه لما روى لهم بعض الثوابت عن ابن عمرو: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، ثم قال: و أقول: ما كان لابن عمرو فى سيفيه و مقاتلته بهما علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. انتهى.

و أقول: أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار، فالقائل بذلك- يا مسكين- رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما صحّ عنه فى دواوين الإسلام التى هى دفاتر السّنّة المطهّرة، و كما صحّ عنه فى غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر؛ فمالك و الطعن على قوم عرفوا ما جهلته و عملوا بما أنت عنه فى مسافة بعيدة؛ و أىّ مانع من حمل الاستثناء على هذا الذى جاءت به الأدلّة الصّحيحة الكثيرة كما ذهب إلى ذلك و قال به جمهور العلماء من السلف و الخلف؛ و أما ما ظننته من أن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم و يسجل بافترائهم فلا مناداة و لا مخالفة، و أىّ مانع من حمل الاستثناء فى الموضعين على العصاة من هذه الأمة. فالاستثناء الأوّل يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار، و الاستثناء الثانى يحمل على معنى: إلا ما شاء ربك من عدم خلودهم فى الجنة كما يخلد غيرهم، و ذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدّة التى لبثوا فيها فى النار؛ و قد قال بهذا من أهل العلم من قدّمنا ذكره. و به قال ابن عباس حبر الأمة. و أما الطعن على صاحب رسول اللّه و حافظ سنته و عابد الصحابة عبد اللّه بن عمرو رضى اللّه عنه، فإلى أين يا محمود، أ تدرى ما صنعت، و فى أى واد وقعت، و على أى جنب سقطت؟ و من أنت حتى تصعد إلى هذا المكان و تتناول نجوم السماء بيدك القصيرة و رجلك العرجاء، أما كان لك فى مكسرى طلبتك من أهل النحو و اللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف و التكلم بما لا تدرى، فيا للّه العجب ما يفعل القصور فى علم الرواية و البعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه و لا أوقفها

حيث أوقفها اللّه سبحانه.

[سورة هود (11): الآيات 109 الى 115]

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَ إِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (١١٣)
وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٩٩

لما فرغ اللّه سبحانه من أقاصيص الكفرة و بيان حال السّعداء و الأشقياء، سلى رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي له عن الامتراء في أن ما يعبدونه غير نافع و لا ضار و لا تأثير له في شيء. و حذف النون في فَلا تَكُ لكثرة الاستعمال، و المرية: الشك، و الإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل المعنى: لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء؛ و قيل: لا تك في شك من سوء عاقبتهم. و لا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني، و هذا النهي له صلّى اللّه عليه و سلّم هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك، فإنه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يشك في ذلك أبدا. ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل، و في هذا استثناء تعليل للنهي عن الشك. و المعنى: أنهم سواء في الشرك باللّه و عبادة غيره، فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، و جاء بالمضارع في: كما يعبد آباؤهم، لاستحضار الصورة. ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال: وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ من العذاب كما وفينا آباءهم لا ينقص من ذلك شيء. و انتصاب غير: على الحال، و التوفية لا تستلزم عدم النقص، فقد يجوز أن يوفى و هو ناقص كما يجوز أن يوفى و هو كامل؛ و قيل: المراد نصيبهم من الرزق، و قيل: ما هو أعمّ من الخير و الشرّ وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ أي: التوراة فَاخْتُلِفَ فِيهِ أي: في شأنه و تفاصيل أحكامه، فآمن به قوم و كفر به آخرون، و عمل بأحكامه قوم، و ترك العمل ببعضها آخرون، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أي: لولا أن اللّه سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح لقضى بينهم: أي بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فأثيب المحقّ و عذب المبطل، أو الكلمة هي أنّ رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم و لم يعاجلهم لذلك؛ و قيل: إن الكلمة هي أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال، و هذا من جملة التسلية له صلّى اللّه عليه و سلّم ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال: وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ أي:
من القرآن إن حمل على قوم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام، و المريب: الموقع في الريبة. ثم جمع الأوّلين و الآخرين في حكم توفية العذاب لهم، أو هو و الثواب فقال: وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ قرأ نافع و ابن كثير و أبو بكر و إن بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة و عملت في «كُلًّا»، النصب، و قد جوّز عملها الخليل و سيبويه، و قد جوّز البصريون تخفيف إن مع إعمالها، و أنكر ذلك الكسائي و قال: ما أدري على أيّ شيء قرئ وَ إِنَّ كُلًّا؟ و زعم الفراء أن انتصاب كُلًّا بقوله ليوفينهم، و التقدير و إن ليوفينهم كلا، و أنكر ذلك عليه جميع النحويين، و قرأ الباقون بتشديد إنّ و نصبوا بها كلا. و على كلا القراءتين: فالتنوين في كلا عوض عن المضاف إليه، أي: و إن كل المختلفين. و قرأ عاصم و حمزة و

ابن عامر لَمَّا بالتشديد، و خففها الباقون. قال الزجاج: لام لما لام إن، و ما: زائدة مؤكدة،

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۰۰

فتح القدير ج۳ ۴

و قال الفراء: ما بمعنى: من، كقوله: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ «۱» أى: و إن كلا لمن ليوفينهم؛ و قيل:

ليست بزائدة بل هى اسم دخلت عليها لام التوكيد، و التقدير: و إن كلا لمن خلق. قيل: و هى مركبة، و أصلها: لمن ما، فقلبت النون ميما و اجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى، حكى ذلك النحاس عن النحويين. و زيف الزجاج هذا و قال: من اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون. و ذهب بعض النحويين إلى أن لما هذه بمعنى إلا، و منه قوله تعالى: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ «۲» و قال المازنى: الأصل لما المخففة ثم ثقلت. قال الزجّاج: و هذا خطأ، إنما يخفف المثقل و لا يثقل المخفف. و قال أبو عبيد القاسم بن سلام:

يجوز أن يكون التشديد من قولهم لممت الشىء ألمه: إذا جمعته، ثم بنى منه فعلى كما قرئ ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا «۳» و أحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية. و قد روى ذلك عن الخليل و سيبويه و جميع البصريين و رجّحه الزجّاج و يؤيده أن فى حرف أبىّ و إن كلّا إلا ليوفينهم كما حكاه أبو حاتم عنه. و قرئ بالتنوين:

أى جميعا. و قرأ الأعمش وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا بتخفيف إن و رفع كل و تشديد لما، و تكون: إن على هذه القراءة نافية إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ أيها المختلفون خَبِيرٌ لا يخفى عليه منه شىء، و الجملة تعليل لما قبلها، ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ أى: كما أمرك اللّه، فيدخل فى ذلك جميع ما أمره به و جميع ما نهاه عنه، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله، و أمته أسوته فى ذلك، و لهذا قال: وَ مَنْ تابَ مَعَكَ أى: رجع من الكفر إلى الإسلام و شاركك فى الإيمان، و هو معطوف على الضمير فى فاستقم، لأن الفصل بين المعطوف و الضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد، أى: و ليستقم من تاب معك و ما أعظم موقع هذه الآية و أشدّ أمرها، فإن الاستقامة- كما أمر اللّه- لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة و الذوات المقدسة، و لهذا يقول المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم «شيّبتنى هود» كما تقدّم وَ لا تَطْغَوْا الطغيان مجاوزة الحد، لما أمر اللّه سبحانه بالاستقامة المذكورة؛ بين أن الغلوّ فى العبادة؛ و الإفراط فى الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذى حدّه؛ و المقدار الذى قدّره ممنوع منه منهىّ عنه، و ذلك كمن يصوم و لا يفطر، و يقوم الليل و لا ينام، و يترك الحلال الذى أذن اللّه به، و رغب فيه، و لهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه «أما أنا فأصوم و أفطر؛ و أقوم و أنام، و أنكح النساء؛ فمن رغب عن سنّتى فليس منى»، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لأمته تغليبا لحالهم على حاله، أو النهى عن الطغيان خاص بالأمة إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يجازيكم على حسب ما تستحقون، و الجملة تعليل لما قبلها. قوله وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا. قرأ الجمهور بفتح الكاف، و قرأ طلحة بن مصرّف و قتادة و غيرهما تَرْكُنُوا بضم الكاف. قال الفرّاء: و هى لغة تميم و قيس، قال أبو عمرو: و قراءة الجمهور هى لغة أهل الحجاز، قال: و لغة تميم بكسر التاء و فتح الكاف، و هم يكسرون حرف المضارعة فى كل ما كان من باب علم يعلم. و قرأ ابن أبى عبلة بضم التاء و فتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه. قال فى الصحاح: ركن إليه يركن بالضم. و حكى أبو زيد ركن إليه بالكسر يركن ركونا فيهما، أى: مال إليه و سكن. قال اللّه تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا و أما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع

---

(۱). النساء: ۷۲.

(۲). الطارق: ۴.

(۳). المؤمنون: ۴۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۰۱

بين اللغتين انتهى. و قال فى شمس العلوم: الركون السكون يقال ركن إليه ركونا، قال اللّه تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا انتهى. و قال فى القاموس: ركن إليه كنصر و علم و منع ركونا: مال و سكن انتهى، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل و السكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير، و هكذا فسره المفسرون بمطلق الميل و السكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف؛ و من المفسرين من ذكر فى تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة. قال القرطبى فى تفسيره: الركون حقيقته الاستناد و الاعتماد و السّكون إلى الشىء و الرضا به. و من أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخصّ من معناه اللغوى. فروى عن قتادة و عكرمة فى تفسير الآية أن معناها: لا تودوهم و لا تطيعوهم. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية: الركون هنا الإدهان، و ذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم، و قال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم.

و قد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين فى هذه الآية هل هى خاصة بالمشركين أو عامة؟ فقيل خاصة، و إن معنى الآية النهى عن الركون إلى المشركين، و أنهم المرادون بالذين ظلموا، و قد روى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: إنها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر و مسلم، و هذا هو الظاهر من الآية: و لو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فإن قلت: و قد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة و السلاطين و الأمراء حتى ورد فى بعض ألفاظ الصحيح: «أطيعوا السّلطان و إن كان عبدا حبشيا رأسه كالزّبيبة». و ورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة، و ما لم يظهر منهم الكفر البواح، و ما لم يأمروا بمعصية اللّه. و ظاهر ذلك أنهم و إن بلغوا فى الظلم إلى أعلى مراتبه، و فعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية اللّه؛ و من جملة ما يأمرون به تولى الأعمال لهم، و الدّخول فى المناصب الدّينية التى ليس الدخول فيها من معصية اللّه؛ و من جملة ما يأمرون به الجهاد، و أخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، و إقامة الشّريعة بين المتخاصمين منهم، و إقامة الحدود على من وجبت عليه؛ و بالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم و نهيهم فى كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية اللّه، و لا بدّ فى مثل ذلك من المخالطة لهم و الدخول عليهم، و نحو ذلك مما لا بدّ منه، و لا محيص عن هذا الذى ذكرناه، من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة، لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ «۱» بل ورد: أنهم يعطون الذى لهم من الطاعة، و إن منعوا ما هو عليهم للرعايا، كما فى بعض الأحاديث الصحيحة «أعطوهم الذى لهم، و اسألوا اللّه الذى لكم» بل ورد الأمر بطاعة السلطان، و بالغ فى ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى قال: «و إن أخذ مالك و ضرب ظهرك». فإن اعتبرنا مطلق الميل و السكون فمجرّد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة، هى ميل و سكون؛ و إن اعتبرنا الميل و السكون ظاهرا و باطنا فلا يتناول النهى فى هذه الآية من مال إليهم فى الظاهر لأمر يقتضى ذلك شرعا كالطاعة، أو للتقية و مخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة،

---

(۱). النساء: ۵۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۰۲

إذا لم يكن له ميل إليهم فى الباطن و لا محبة و لا رضا بأفعالهم. قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن فى

معصيـة اللّه، فهى على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهى عنه بأدلتها التى قدّمنا الإشارة إليها، و لا شك فى هـذا و لا ريب، فكل من أمروه ابتـداء أن يدخل فى شـيء من الأعمال التى أمرها إليهم مما لم يكن من معصيـة اللّه كالمناصب الدينيـة و نحوهـا، إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه، فـذلك واجب عليه فضـلا عن أن يقال: جائز له، و أما ما ورد من النهى عن الـدخول فى الإمارة: فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة و السـلاطين و الأمراء، جمعا بين الأدلة، أو مع ضعف المـأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهى عن الـدخول فى الإمارة بـذلك فى بعض الأحاديث الصـحيحة، و أما مخالطتهم و الـدخول عليهم لجلب مصـلحة عامـة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم و عدم ميـل النفس إليهم و محبتهـا لهم، و كراهـة المواصـلة لهم لو لا جلب تلك المصـلحة، أو دفع تلك المفسـدة فعلى فرض صـدق مسمى الركون على هذا، فهو مخصّص بالأدلة على مشروعية جلب المصالح و دفع المفاسد، و الأعمال بالنيات، و إنّما لكلّ امرئ مـا نوى، و لاـ تخفى على اللّه خافيـة؛ و بالجملـة فمن ابتلى بمخالطـة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله و أفعاله و ما يأتى و ما يـذر بميزان الشـرع، فإن زاغ عن ذلك «فعلى نفسـها براقش تجنى» و من قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له و الأليق به.

يا مالك يوم الـدين، إياك نعبد و إياك نسـتعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الذين لا يخافون فيك لومة لائم، و قوّنا على ذلك و يسّره لنا، و أعنّا عليه. قال القرطبى فى تفسيره:

و صـحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار. انتهى. و قال النيسابورى فى تفسيره: قال المحققون: الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمـة، أو تحسـين الطريقة و تزيينها عند غيرهم، و مشاركتهم فى شـيء من تلك الأبواب، فأما مداخلتهم لرفع ضرر و اجتلاب منفعة عاجلة، فغير داخلة فى الركون. قال:

و أقول هذا من طريق المعاش و الرخصة، و مقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ «۱» انتهى.

قوله: فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ بسـبب الركون إليهم، و فيه إشارة إلى أن الظّلمـة أهل النار، أو كالنار، و مصاحبـة النار توجب لا محالـة مس النـار، و جملـة: وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ فى محل نصب على الحال من قوله: فتمسـكم النار. و المعنى: أنها تمسـكم النار حال عدم وجود من ينصـركم و ينقذكم منها ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ من جهة اللّه سبحانه، إذ قد سبق فى علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الـذى نهيتم عنه فلم تنتهوا عنـادا و تمرّدا. قوله: وَ أَقِمِ الصَّلاـةَ طَرَفَيِ النَّهارِ لما ذكر اللّه سـبحانه الاسـتقامة خصّ من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان، و انتصاب: طرفى النهار، على الظرفية، و المراد: صلاة الغداة و العشىّ، و هما:

الفجر و العصر، و قيل: الظهر موضع العصر، و قيل: الطرفان الصبح و المغرب، و قيل: هما الظهر و العصر.

و رجّح ابن جرير أنهما الصـبح و المغرب، قال: و الدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصـبح، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ أى: فى زلف من الليل، و الزلف: الساعات القريبة

---

(۱). الزمر: ۳۶.

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۰۳

بعضـها من بعض، و منه سـميت المزدلفـة: لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة. و قرأ ابن القعقاع و أبو إسـحاق و غيرهما: زُلُفاً بضـم اللام: جمع زليف، و يجوز أن يكون واحدة زلفة. و قرأ ابن محيصن: بإسكان اللام. و قرأ مجاهد: زلفى مثل فعلى. و قرأ الباقون: زُلَفاً بفتـح اللاـم كغرفـة و غرف. قال ابن الأعرابى: الزلف: الساعات، واحـدتها زلفـة. و قال قوم: الزلفـة أوّل ساعـة من الليل بعد مغيب الشمس.

قال الأخفش: معنى زلفا من الليل: صلاة الليل. إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ أى: إن الحسنات على العموم، و من جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم؛ و قيل: المراد بالسيئات: الصغائر، و معنى يذهبن السيئات: يكفرونها حتى كأنها لم تكن، و الإشارة بقوله: ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ إلى قوله: فَاسْتَقِمْ و ما بعده. و قيل: إلى القرآن. ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ أى: موعظة للمتّعظين وَ اصْبِرْ على ما أمرت به من الاستقامة و عدم الطغيان و الركون إلى الذين ظلموا، و قيل: إن المراد الصبر:

على ما أمر به دون ما نهى عنه، لأنه لا مشقة فى اجتنابه، و فيه نظر، فإن المشقة فى اجتناب المنهىّ عنه كائنة، و على فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر، فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ أى: يوفيهم أجورهم، و لا يضيع منها شيئا، فلا يهمله، و لا يبخسه بنقص.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ قال: ما قدّر لهم من خير أو شرّ. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال: من العذاب. و أخرجا عن أبى العالية. قال: من الرزق. و أخرجا أيضا عن قتادة فى قوله: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ قال: أمر اللّه نبيه أن يستقيم على أمره، و لا يطغى فى نعمته. و أخرج أبو الشيخ عن سفيان فى الآية قال: استقم على القرآن. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن قال:

لما نزلت هذه الآية فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ قال: شمروا، شمروا، فما رؤى ضاحكا. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وَ مَنْ تابَ مَعَكَ قال: آمن. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن العلاء بن عبد اللّه ابن بدر فى قوله: وَ لا تَطْغَوْا قال: لم يرد أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إنما عنى: الذين يجيئون من بعدهم.

و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس وَ لا تَطْغَوْا يقول: لا تظلموا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: الطغيان: خلاف أمره، و ارتكاب معصيته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قال: يعنى الركون إلى الشرك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ لا تَرْكَنُوا قال: لا تميلوا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: وَ لا تَرْكَنُوا لا تدهنوا.

و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: أن تطيعوهم أو تودّوهم أو تصطنعوهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ قال: صلاة المغرب و الغداة وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: صلاة العتمة. و أخرجا عن الحسن قال: الفجر و العصر وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: هما زلفتان: صلاة المغرب و صلاة العشاء. قال: و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «هما زلفتا الليل». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الطرفين قال: صلاة الفجر، و صلاتى العشىّ:

فتح القدير، ج ٢، ص: ۶۰۴

يعنى الظهر و العصر وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: المغرب و العشاء. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: ساعة بعد ساعة، يعنى صلاة العشاء الآخرة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء، و يقرأ: زلفا من الليل. و أخرج ابن جرير و محمد بن نصر و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ قال: الصلوات الخمس. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و محمد ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ قال: الصلوات الخمس، و الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن ابن مسعود: أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ

النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ فقال الرجل: يا رسول اللّه ألى هذه؟ قال: «هى لمن عمل بها من أمتى». و أخرج أحمد و مسلم و أبو داود و غيرهم عن أبى أمامة. أن رجلا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه أ قمّ فىّ حدّ اللّه مرّة أو مرّتين، فأعرض عنه، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ قال: أين الرجل؟ قال: أنا ذا، قال: أتممت الوضوء و صليت معنا آنفا؟ قال: نعم. قال: فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد، و أنزل اللّه حينئذ على رسوله:

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ». و فى الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة، و وردت أحاديث أيضا «إن الصّلوات الخمس كفارات لما بينهنّ». و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ قال: هم الذين يذكرون اللّه فى السرّاء و الضرّاء، و الشدّة و الرخاء، و العافية و البلاء.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزع الذى قبّل المرأة تذكر فذلك قوله ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ

[سورة هود (11): الآيات 116 الى 123]

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (۱۱۷) وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۱۹) وَ كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۱۲۰)

وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (۱۲۱) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۲۲) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۲۳)

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم: أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد و يأمر بالرشاد، فقال: فَلَوْ لا أى: فهلّا كانَ مِنَ الْقُرُونِ الكائنة مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ من الرأى و العقل و الدين يَنْهَوْنَ قومهم عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ و يمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع اللّه له بين جودة العقل، و قوّة الدين، و فى هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى، و البقية فى الأصل

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۰۵

لما يستبقيه الرجل مما يخرجه، و هو لا يستبقى إلا أجوده و أفضله، فصار لفظ البقية مثلا فى الجودة، و الاستثناء فى: إِلَّا قَلِيلًا منقطع؛ أى: لكن قليلا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ ينهون عن الفساد فى الأرض، و قيل:

هو متصل، لأن فى حرف التحضيض معنى النفى، فكأنه قال: ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم، و من فى ممن أنجينا، بيانية لأنه لم ينج إلا الناهون؛ قيل: هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر: إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ و قيل: هم أتباع الأنبياء و أهل الحق من الأمم على العموم وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ معطوف على مقدّر الكلام، تقديره: إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد؛ و المعنى: أنه اتبع الذين ظلموا- بسبب مباشرتهم الفساد و تركهم للنهى عنه- ما أترفوا فيه.

و المترف: الذى أبطرته النعمة، يقال صبىّ مترف: منعم البدن، أى: صاروا تابعين للنعم التى صاروا بها مترفين من خصب العيش و رفاهية الحال و سعة الرزق، و آثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة و استغرقوا أعمارهم فى الشهوات النفسانية؛ و قيل: المراد بالذين ظلموا تاركو النهى. و ردّ بأنه يستلزم خروج مباشرى الفساد عن الذين ظلموا و هم أشدّ ظلما ممن لم يباشر، و كان ذنبه ترك النهى. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه وَ اتُّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا على البناء للمفعول، و معناه: اتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، و جملة:

وَ كانُوا مُجْرِمِينَ متضـمنهٔ لبيان سبب إهلاكهم، و هى معطوفهٔ على أترفوا، أى: و كان هؤلاء الذين اتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين، و الإجرام: الآثـام. و المعنى: أنهم أهـل إجرام بسـبب اتبـاعهم الشـهوات بهـا عن الأمور التى يحق الاشـتغال بها، و يجوز أن تكون جملـهٔ: وَ كـانُوا مُجْرِمِينَ معطوفـهٔ على و اتبع الـذين ظلموا؛ أى: اتبعوا شـهواتهم و كـانوا بـذلك الاتبـاع مجرمين وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ أى: ما صحّ و لا استقام أن يهلك اللّه سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به و هو الشرك، و الحـال أن أهلها مصـلحون فيما بينهم فى تعاطى الحقوق لا يظلمون الناس شيئا، و المعنى: أنه لا يهلكهم بمجرد الشـرك وحـده حتى ينضمّ إليه الفساد فى الأرض، كما أهلك قوم شـعيب بنقص المكيال و الميزان و بخس النـاس أشياءهم، و أهلك قوم لوط بسبب ارتكـابهم للفاحشـهٔ الشـنعاء؛ و قيـل: إن قوله: بِظُلْمٍ حال من الفاعل. و المعنى: و ما كان اللّه ليهلك القرى ظالما لهم حال كونهم مصلحين غير مفسدين فى الأرض. و يكون المراد بالآيهٔ تنزيهه سبحانه و تعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجبه على تصوير ذلـك بصورهٔ ما يسـتحيل منه، و إلّا فكل أفعاله كائنـهٔ ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سـبحانه ليس بظلام للعبيـد. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: و ما كان ربك ليهلك أحدا و هو يظلمه، و إن كان على نهايهٔ الصـلاح لأن تصرفه فى ملكه، دليله قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً «١» و قيل المعنى: و ما كان ليهلكهم بذنوبهم و هم مصلحون: أى مخلصون فى الإيمان، فالظلم المعاصـى على هـذا. وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً أى: أهل دين واحـد، إما أهل ضـلالهٔ، أو أهل هـدى؛ و قيل معناه: جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه، أو مجتمعين على دين الإسـلام دون سـائر الأديـان و لكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، و لهـذا قـال وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ فى ذات بينهم على أديان شتى، أو لا يزالون مختلفين فى الحق أو دين الإسـلام، و قيل: مختلفين فى الرزق: فهذا غنىّ، و هذا فقير.

---

(١). يونس: ۴۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۰۶

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ بالهدايـهٔ إلى الـدين الحق، فـإنهم لم يختلفوا، أو إلا من رحم ربك من المختلفين فى الحق أو دين الإسـلام، بهـدايته إلى الصواب الـذى هو حكم اللّه، و هو الحق الـذى لا حق غيره، أو إلا من رحم ربك بالقناعـهٔ. و الأولى تفسـير: لجعل الناس أمهٔ واحدهٔ، بالمجتمعهٔ على الحق حتى يكون معنى الاستثناء فى إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ واضحا غير محتاج إلى تكلف وَ لِذلِكَ أى: لما ذكر من الاختلاف خَلَقَهُمْ أو لرحمته خلقهم، و صـحّ تذكير الإشارهٔ إلى الرحمهٔ لكون تأنيثها غير حقيقى، و الضـمير فى خلقهم راجع إلى النـاس، أو إلى: من فى: من رحم ربك؛ و قيل: الإشارهٔ بـذلك إلى مجموع الاختلاف و الرحمـهٔ، و لا مانع من الإشارهٔ بها إلى شيئين كما فى قوله عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «١» وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا «٢» فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا «٣». قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ معنى تمت ثبتت كمـا قـدّره فى أزله، و إذا تمت امتنعت من التغيير و التبـديل و قيـل الكلمـهٔ: هى قـوله لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ أى: ممن يسـتحقّها من الطائفتين، و التنوين فى وَ كُلًّا للتعويض عن المضاف إليه، و هو منصوب بنقص. و المعنى: و كل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقصّ عليك: أى نخبرك به. و قال الأخفش كُلًّا حال مقدّمهٔ كقولك:
كلا ضـربت القوم، و الأنبـاء: الأخبـار مـا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ أى: مـا نجعـل به فؤادك مثبتا بزيادهٔ يقينه بما قصصـناه عليك و وفور طمأنينته، لأن تكاثر الأدلهٔ أثبت للقلب و أرسخ فى النفس و أقوى للعلم، و جملهٔ ما نُثَبِّتُ بدل من أنباء الرسل، و هو بيان لكلا، و يجوز أن يكون ما نُثَبِّتُ مفعولا لنقصّ، و يكون كلا مفعولا مطلقا، و التقدير: كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقصّ عليك ما نثبت به فؤادك وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ أى: جاءك فى هذه السورهٔ، أو فى هذه الأنباء البراهين القاطعهٔ الدالهٔ على صـحهٔ المبدأ و المعـاد وَ مَوْعِظَةٌ يتعـظ بهـا الواقـف عليهـا من المـؤمنين وَ ذِكْرى يتـذكر بهـا من تفكر فيهـا منهم، و خصّ المـؤمنين لكـونهم

المتأهلين للاتعاظ و التذكر؛ و قيل المعنى: و جاءك فى هذه الدنيا الحق، و هو النبوّة؛ و على التفسير الأوّل يكون تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء فى غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بهذا الحق و لا يتعظون و لا يتذكرون اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ على تمكنكم و حالكم و جهتكم، و قد تقدّم تحقيقه إِنَّا عامِلُونَ على مكانتنا و حالنا و جهتنا من الإيمان بالحق و الاتعاظ و التذكر، و فى هذا تشديد للوعيد و التهديد لهم، و كذلك قوله: وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ فيه من الوعيد و التهديد ما لا يخفى. و المعنى: انتظروا عاقبة أمرنا فإنا منتظرون عاقبة أمركم و ما يحلّ بكم من عذاب اللّه و عقوبته وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما؛ و خصّ الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود، كما يعلم بما هو مغيب، لكونه من العلم الذى لا يشاركه فيه غيره، و قيل: إن غيب السموات و الأرض: نزول العذاب من السماء، و طلوعه من الأرض، و الأوّل أولى، و به قال أبو علىّ الفارسى و غيره، و أضاف الغيب إلى المفعول توسعا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ أى: يوم القيامة فيجازى كلا بعمله. و قرأ نافع و حفص يُرْجَعُ على البناء للمفعول.

و قرأ الباقون على البناء للفاعل فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ فإنه كافيك كل ما تكره، و معطيك كل ما تحبّ،

---

(١). البقرة: ۶٨.

(٢). الإسراء: ١١٠.

(٣). يونس: ۵٨.

و الفاء لترتيب الأمر بالعبادة، و التوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى اللّه سبحانه وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ بل عالم بجميع ذلك و مجاز عليه إن خيرا فخير، و إن شرّا فشر. و قرأ أهل المدينة، و الشام و حفص تَعْمَلُونَ بالفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مالك فى قوله فَلَوْ قال: فهلّا. و أخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية و أحلام ينهون عن الفساد فى الأرض. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ يستقلهم اللّه من كل قوم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ قال: فى ملكهم و تجبرهم و تركهم الحق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ من طريق ابن جريج قال: قال ابن عباس: أترفوا فيه أبطروا فيه، و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن جرير قال:

«سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عن تفسير هذه الآية وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «و أهلها ينصف بعضهم بعضا»». و أخرجه ابن أبى حاتم و الخرائطى فى مساوئ الأخلاق موقوفا على جرير. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً قال: أهل دين واحد، أهل ضلالة، أو أهل هدى. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ قال: أهل الحق و أهل الباطل إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ قال: أهل الحق وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ قال: للرحمة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عنه إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ قال: إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: لا يزالون مختلفين فى الأهواء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ أى: اليهود و النصارى و المجوس و الحنيفية، و هم الذين رحم ربك الحنيفية. و أخرج هؤلاء

عن الحسن فی الآیـة قال: الناس مختلفون علی أدیان شتی إلا من رحم ربک، فمن رحم ربک غیر مختلف وَ لِذلِکَ خَلَقَهُمْ قال: للاختلاف. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ عن مجاهد وَ لا یَزالُونَ مُخْتَلِفِینَ قال: أهل الباطل إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ قال: أهل الحق وَ لِذلِکَ خَلَقَهُمْ قال: للرحمـة. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن عکرمـة نحوه. و أخرجا عن الحسن قال: لا یزالون مختلفین فی الرزق. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس و لذلک خلقهم قال: خلقهم فریقین فریقا یرحم فلا یختلف، و فریقا لا یرحم یختلف، فذلک قوله فَمِنْهُمْ شَقِیٌّ وَ سَعِیدٌ. و أخرج جریر و ابن المنذر و أبو الشیخ عن ابن جریج فی قوله وَ کُلًّا نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَکَ لتعلم یا محمـد ما لقیت الرّسل قبلک من أممهم. و أخرج عبـد الرزاق و الفریابی و سعید ابن منصور و ابن جریر و ابن المنـذر و ابن أبی حـاتم و أبو الشـیخ و ابن مردویه من طرق عن ابن عباس قال وَ جاءَکَ فِی هذِهِ الْحَقُ قال: فی هذه السورة. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ و ابن مردویه عن أبی موسـی الأشعری مثله. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ عن سعید بن جبیر مثله أیضا. و أخرج أبو الشیخ عن الحسن مثله. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن قتادة قال: فی هذه الدنیا. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ

فتح القدیر، ج۲، ص: ۶۰۸

عن قتـادة اعْمَلُوا عَلی مَکانَتِکُمْ أی: منـازلکم. و أخرج ابن جریر و أبـو الشـیخ عن ابن جریـج وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ قـال: یقول انتظروا مواعید الشیطان إیاکم علی ما یزیّن لکم، و فی قوله وَ إِلَیْهِ یُرْجَعُ الْأَمْرُ کُلُّهُ قال: فیقضـی بینهم بحکم العدل. و أخرج عبد اللّه بن أحمـد فی زوائد المسـند، و ابن الضـریس فی فضائل القرآن، و ابن جریر و أبو الشیخ عن کعب قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، و خاتمة التوراة خاتمة هود وَ لِلَّهِ غَیْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إلی آخر الآیة.

بحمد اللّه تعالی تمّ طبع الجزء الثانی، و یلیه الجزء الثالث و أوّله: تفسیر سورة یوسف علیه السلام

الجزء الثالث

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

تنبیه:

جری المفسّـر- رحمه اللّه- فی ضـبط ألفـاظ القرآن الکریم فی تفسیره هـذا علی روایـة نافع مع تعرّضه للقراءات السّـبع، و أثبتنا القرآن الکریم طبق رسم المصحف العثمانی.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۵

(بسم اللّه الرحمن الرحیم)

سورة یوسف

اشارة

و هی مکیة کلّها، و قیل: نزلت ما بین مکة و المدینة وقت الهجرة. و قال ابن عباس فی روایة عنه و قتادة: إلا أربع آیات. و أخرج النّحاس و أبو الشیخ و ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت سورة یوسف بمکة.

و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج الحاكم و صحّحه عن رفاعة بن رافع الزرقى: أنه خرج هو و ابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة، و ذكر قصة، و فى آخرها أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم علّمهما سورة يوسف، و اقرأ باسم ربك، ثم رجعا. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى صالح عن ابن عباس: «أن حبرا من اليهود دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فوافقه و هو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد من علّمكها؟ قال: اللّه علّمنيها، فعجب الحبر لما سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: و اللّه إن محمدا ليقرأ القرآن كما أنزل فى التوراة، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، و نظروا إلى خاتم النبوّة بين كتفيه، فجعلوا سمعهم إلى قراءته لسورة يوسف فتعجبوا منه، و أسلموا عند ذلك». و أخرج الثعلبى عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «و علّموا أقاربكم سورة يوسف، فإنه أيّما مسلم تلاها، أو علّمها أهله و ما ملكت يمينه؛ هوّن اللّه عليه سكرات الموت، و أعطاه القوّة أن لا يحسد مسلما». و فى إسناده سلام بن سالم، و يقال ابن سليم المدائنى، و هو متروك، عن هارون بن كثير. قال أبو حاتم: مجهول، و قد ذكر له الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، و من طريق شبابة عن مجلز ابن عبد الواحد، عن عليّ بن زيد بن جدعان، و عن عطاء بن ميمون، عن زرّ بن حبيش، عن أبيّ بن كعب مرفوعا فذكر نحوه، و هو منكر من جميع طرقه. قال القرطبى: قال سعد بن أبى وقّاص: أنزل القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فتلاه عليهم زمانا، فقالوا: لو حدّثتنا، فنزل قوله تعالى- اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ «۱» «۲»- قال: قال العلماء: و ذكر اللّه أقاصيص الأنبياء فى القرآن، و كرّرها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، و قد ذكر قصة يوسف و لم يكرّرها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر، و لا على معارضة غير المتكرّر.

---

(۱). تنبيه: جرى المفسر رحمه اللّه فى ضبط ألفاظ القرآن على رواية نافع، مع تعرّضه للقراءات السبع، و أثبتنا القرآن طبق رسم المصحف العثمانى.

(۲). الزمر: ۲۳.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۶

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۲) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (۳) إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (۴)

قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶)

قوله: الر قد تقدّم الكلام فيه فى فاتحة سورة يونس، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى آيات السورة، و الكتاب المبين، السورة، أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة، آيات السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب و تبكيتهم، و المبين من أبان بمعنى بان؛ أى الظاهر أمره فى كونه من عند اللّه و فى إعجازه، أو المبين بمعنى الواضح المعنى بحيث لا يلتبس على قارئه و سامعه، أو

المبين لما فيه من الأحكام إِنَّا أَنْزَلْناهُ أى الكتاب المبين حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا، فعلى تقدير أن الكتاب السورة تكون تسميتها قرآنا؛ باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل و على البعض، و على تقدير أن المراد بالكتاب كل القرآن، فتكون تسميته قرآنا واضحة؛ و عربيا صفة لقرآنا؛ أى على لغة العرب لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: لكى تعلموا معانيه و تفهموا ما فيه نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ القصص: تتبع الشىء، و منه قوله تعالى: وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ «١»؛ أى تتبعى أثره، و هو مصدر، و التقدير: نحن نقصّ عليك قصصا أحسن القصص، فيكون بمعنى الاقصاص، أو هو بمعنى المفعول؛ أى المقصوص: بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أى بإيحائنا إليك هذَا الْقُرْآنَ و انتصاب القرآن على أنه صفة لاسم الإشارة، أو بدل منه، أو عطف بيان. و أجاز الزجّاج الرفع على تقدير المبتدأ، و أجار الفرّاء الجرّ، و لعل وجهه أن يقدّر حرف الجرّ فى بِما أَوْحَيْنا داخلا على اسم الإشارة، فيكون المعنى: نحن نقصّ عليك أحسن القصص بهذا القرآن وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ إن هى المخففة من الثقيلة بدليل اللام الفارقة بينها و بين النافية، و الضمير فى من قبله عائد على الإيحاء المفهوم من أوحينا، و المعنى: أنك قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة.

و اختلف فى وجه كون ما فى هذه السورة هو أحسن القصص، فقيل: لأنّ ما فى هذه السورة من القصص يتضمّن من العبر و المواعظ و الحكم ما لم يكن فى غيرها؛ و قيل: لما فيها من حسن المحاورة، و ما كان من يوسف من الصبر على أذى إخوته و عفوه عنهم؛ و قيل: لأنّ فيها ذكر الأنبياء و الصّالحين و الملائكة و الشّياطين و الجنّ و الإنس و الأنعام و الطير و سير الملوك و المماليك و التجّار و العلماء و الجهّال و الرجال و النّساء و حيلهنّ و مكرهنّ؛

---

(١). القصص: ١١.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٧

و قيل: لأن فيها ذكر الحبيب و المحبوب و ما دار بينهما؛ و قيل: إن أحسن هنا بمعنى أعجب؛ و قيل: إن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة. قوله: إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ إذ منصوب على الظرفية بفعل مقدّر؛ أى اذكر وقت قال يوسف. قرأ الجمهور «يوسف» بضم السين، و قرأ طلحة بن مصرّف بكسرها مع الهمز مكان الواو، و حكى ابن زيد الهمز و فتح السين، و هو غير منصرف للعجمة و العلمية؛ و قيل: هو عربى.

و الأول أولى بدليل عدم صرفه. لِأَبِيهِ أى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم يا أَبَتِ بكسر التاء فى قراءة أبى عمرو و عاصم و حمزة و الكسائى و نافع و ابن كثير، و هى عند البصريين علامة التأنيث، و لحقت فى لفظ أب فى النداء خاصة بدلا من الياء، و أصله يا أبى، و كسرها للدلالة على أنها عوض عن حرف يناسب الكسر. و قرأ ابن عامر بفتحها؛ لأن الأصل عنده يا أبتا، و لا يجمع بين العوض و المعوّض، فيقال يا أبتى، و أجاز الفراء يا أبت بضم التاء إِنِّي رَأَيْتُ من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية، كما يدلّ عليه لا- تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ قوله: أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً قرئ بسكون العين تخفيفا لتوالى الحركات، و قرئ بفتحها على الأصل وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ إنّما أخّرهما عن الكواكب لإظهار مزيتهما و شرفهما؛ كما فى عطف جبريل و ميكائيل على الملائكة؛ و قيل: إن الواو بمعنى مع، و جملة رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها، و أجريت مجرى العقلاء فى الضمير المختص بهم؛ لوصفها بوصف العقلاء، و هو كونها ساجدة، كذا قال الخليل و سيبويه، و العرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ الرؤيا مصدر رأى فى المنام رؤيا على وزن فعلى كالسّقيا و البشرى، و ألفه للتأنيث، و لذلك لم يصرف، نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقصّ رؤياه على إخوته؛ لأنه قد علم تأويلها، و خاف أن يقصّها على إخوته فيفهمون تأويلها و يحصل منهم الحسد له، و لهذا قال:

فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً و هذا جواب النهى و هو منصوب بإضمار أن؛ أى: فيفعلوا لك؛ أى لأجلك كيدا مثبتا راسخا لا تقدر على الخلوص منه، أو كيدا خفيا عن فهمك؛ و هذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال فيكيدوا كيدا؛ و قيل: إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدّى باللام، فيفيد هذا التضمين معنى الفعلين جميعا الكيد و الاحتيال، كما هو القاعدة فى التضمين أن يقدّر أحدهما أصلا و الآخر حالا، و جملة إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ مستأنفة، كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم، فنبهه بأنّ الشّيطان يحملهم على ذلك، لأنه عدو للإنسان مظهر للعداوة مجاهر بها. قوله: وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ أى: مثل ذلك الاجتباء البديع الذى رأيته فى النوم من سجود الكواكب و الشمس و القمر، يجتبيك ربك، و يحقّق فيك تأويل تلك الرؤيا، فيجعلك نبيا، و يصطفيك على سائر العباد، و يسخّرهم لك كما تسخّرت لك تلك الأجرام التى رأيتها فى منامك فصارت ساجدة لك. قال النحّاس: و الاجتباء أصله من جبيت الشيء حصلته، و منه جبيت الماء فى الحوض: جمعته، و معنى الاجتباء: الاصطفاء، و هذا يتضمّن الثّناء على يوسف و تعديد نعم اللّه عليه، و منها وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أى تأويل الرؤيا. قال القرطبى: و أجمعوا أنّ ذلك فى تأويل الرؤيا، و قد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها؛ و قيل: المراد: و يعلّمك من

فتح القدير، ج‏3، ص: 8

تأويل أحاديث الأمم و الكتب؛ و قيل: المراد به إحواج إخوته إليه؛ و قيل: إنجاؤه من كلّ مكروه؛ و قيل:

إنجاؤه من القتل خاصة وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ فيجمع لك بين النبوّة و الملك، كما تدلّ عليه هذه الرؤيا التى أراك اللّه، أو يجمع لك بين خيرى الدنيا و الآخرة، وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ و هم قرابته من إخوته و أولاده و من بعدهم، و ذلك أن اللّه سبحانه أعطاهم النبوّة كما قاله جماعة من المفسرين، و لا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم؛ التى من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ أى إتماما مثل إتمامها على أبويك؛ و هى نعمة النبوّة عليهما، مع كون إبراهيم اتّخذه اللّه خليلا، و مع كون إسحاق نجّاه اللّه سبحانه من الذّبح و صار لهما الذرّية الطيبة؛ و هم يعقوب، و يوسف، و سائر الأسباط. و معنى مِنْ قَبْلُ من قبل هذا الوقت الذى أنت فيه، أو من قبلك، و إبراهيم و إسحاق عطف بيان لأبويك، و عبّر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدّا؛ و هو إبراهيم؛ لأنّ الجدّ أب إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ بكل شيء حَكِيمٌ فى كلّ أفعاله، و الجملة مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها تعليلا له؛ أى فعل ذلك لأنه عليم حكيم، و كان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيرا لرؤياه على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحى، أو عرفه بطريق الفراسة و ما تقتضيه المخايل اليوسفية.

و قد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ قال: بيّن اللّه حلاله و حرامه.

و أخرج ابن جرير عن معاذ قال: بيّن اللّه الحروف التى سقطت عن ألسن الأعاجم، و هى ستة أحرف. و أخرج الحاكم عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا قرآنا عربيا، ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألهم إسماعيل هذا اللسان العربىّ إلهاما». و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش، و هو كلامهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول اللّه؛ لو قصصت علينا، فنزلت: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ قال: من الكتب الماضية و أمور اللّه السالفة فى الأمم، وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ أى من قبل هذا القرآن لَمِنَ الْغافِلِينَ

و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ قال: القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً قال: رؤيا الأنبياء وحى. و أخرج سعيد

بن منصور و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و العقيلى، و ابن حبان فى الضعفاء، و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه. و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن جابر بن عبد اللّه قال: «جاء بستانى اليهودى إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف ساجدة له، ما أسماؤها؟ فسكت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يجبه بشىء، فنزل عليه جبريل فأخبره بأسمائها، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى البستانى اليهودى فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال:

نعم، قال: جريان، و الطارق، و الذيال، و ذو الكتفين، و قابس، و وثّاب، و عمودان، و الفيلق، و المصبح، و الضروح، و ذو القرع، و الضياء، و النور، رآها فى أفق السماء ساجدة له، فلما قصّ يوسف

فتح القدير، ج٣، ص: ٩

على يعقوب قال: هذا أمر مشتّت يجمعه اللّه من بعد، فقال اليهودى: إى و اللّه إنها لأسماؤها» هكذا ساقه السيوطى فى الدرّ المنثور، و أما ابن كثير فجعل قوله: «فلما قصّ إلخ» رواية منفردة و قال: تفرّد بها الحكم ابن ظهير الفزارى، و قد ضعّفوه و تركه الأكثرون. و قال الجوزجانى: ساقط. و قال ابن الجوزى: هو موضوع. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً قال: إخوته، و الشمس قال:

أمه، و القمر قال: أبوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن السدّى نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه أيضا.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ قال: يصطفيك. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ قال: عبارة الرؤيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ قال: تأويل العلم و الحلم، و كان يوسف من أعبر الناس. و أخرج ابن جرير عن عكرمة كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ قال: فنعمته على إبراهيم: أن نجّاه من النار، و على إسحاق: أن نجّاه من الذّبح.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ١٠]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (٩) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (١٠)

أى لَقَدْ كانَ فى قصّتهم علامات دالّة على عظيم قدرة اللّه و بديع صنعه لِلسَّائِلِينَ من النّاس عنها. و قرأ أهل مكة «آية» على التوحيد. و قرأ الباقون على الجمع، و اختار قراءة الجمع أبو عبيد. قال النحّاس: و آية هاهنا قراءة حسنة؛ و قيل: المعنى: لقد كان فى يوسف و إخوته آيات دالّة على نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم للسّائلين له من اليهود، فإنّه روى أنه قال له جماعة من اليهود و هو بمكة: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى، و لم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب و لا من يعرف خبر الأنبياء، و إنّما وجّهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا، فأنزل اللّه سورة يوسف جملة واحدة كما فى التوراة. و قيل: معنى آياتٌ لِلسَّائِلِينَ عجب لهم، و قيل: بصيرة، و قيل: عبرة. قال القرطبى:

و أسماؤهم يعنى إخوة يوسف: روبيل، و هو أكبرهم، و شمعون، و لاوى، و يهوذا، و زيالون، و يشجر، و أمهم ليا بنت ليان، و هى بنت خال يعقوب، و ولد له من سريتين أربعة، و هم: دان، و نفتالى، و جاد، و آشر، ثم ماتت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل،

فولدت له يوسف، و بنيامين. و قال السهيلى: إن أمّ يوسف اسمها رفقا، و راحيل ماتت فى نفاس بنيامين و هو أكبر من يوسف إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أى وقت قالوا، و الظرف متعلّق بكان أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا. و المراد بقوله: وَ أَخُوهُ هو بنيامين، و خصّوه بكونه أخاه مع أنهم جميعا إخوته؛ لأنه أخوه لأبويه كما تقدّم، و وحّد الخبر فقال: أحب مع تعدّد المبتدأ؛

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۰

لأنّ أفعل التفضيل يستوى فيه الواحد و ما فوقه إذا لم يعرّف، و اللام فى لَيُوسُفُ هى الموطئة للقسم، و إنما قالوا هذه لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده، و جملة وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ فى محل نصب على الحال، و العصبة: الجماعة، قيل: و هى ما بين الواحد إلى العشرة، و قيل: إلى الخمسة عشر، و قيل: من العشرة إلى الأربعين، و لا واحد لها من لفظها بل هى كالنّفر و الرّهط، و قد كانوا عشرة إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: لفى ذهاب عن وجه التدبير و بالترجيح لهما علينا و إيثارهما دوننا مع استوائنا فى الانتساب إليه، و لا يصحّ أن يكون مرادهم أنه فى دينه فى ضلال مبين اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً أى: قالوا:

افعلوا به أحد الأمرين؛ إما القتل، أو الطّرح فى أرض، أو المشير بالقتل بعضهم و المشير بالطرح البعض الآخر؛ أو كان المتكلّم بذلك واحد منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالقائل فى نسبة هذا المقول إليهم، و انتصاب أرضا على الظرفية، و التنكير للإبهام؛ أى أرضا مجهولة، و جواب الأمر يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ أى يصف و يخلص فيقبل عليكم و يحبكم حبا كاملا. وَ تَكُونُوا معطوف على يخل، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن. مِنْ بَعْدِهِ أى من بعد يوسف، و المراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه؛ و قيل: من بعد الذنب الذى اقترفوه فى يوسف قَوْماً صالِحِينَ فى أمور دينكم و طاعة أبيكم، أو صالحين فى أمور دنياكم لذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك، و هو الحسد ليوسف و تكدّر خواطركم بتأثيره عليكم هو و أخوه؛ أو المراد بالصالحين:

التائبون من الذنب قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ أى من الإخوة، قيل: هو يهوذا، و قيل: روبيل، و قيل: شمعون لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ قيل: و وجه الإظهار فى لا تقتلوا يوسف استجلاب شفقتهم عليه، قرأ أهل مكة و أهل البصرة و أهل الكوفة و أهل الشام «فى غيابة الجب» بالإفراد. و قرأ أهل المدينة «فى غيابات» بالجمع، و اختار أبو عبيد الإفراد و أنكر الجمع، لأن الموضع الذى ألقوه فيه واحد. قال النحاس:

و هذا تضييق فى اللغة، و غيابات على الجمع تجوّز، و الغيابة: كلّ شىء غيب عنك شيئا؛ و قيل للقبر غيابة، و المراد بها هنا غور البئر الذى لا يقع البصر عليه، أو طاقة فيه. قال الشاعر:

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالث أنا ذاكما كما قد غيّبتنى غيابيا

و الجب: البئر التى لم تطو، و يقال لها قبل الطىّ: ركيّة، فإذا طويت قيل لها بئر، سمّيت جبا لأنها قطعت فى الأرض قطعا، و جمع الجبّ جببة و جباب و أجباب، و جمع بين الغيابة و الجبّ مبالغة فى أن يلقوه فى مكان من الجبّ شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين. قيل: و هذه البئر ببيت المقدس، و قيل:

بالأردن، و جواب الأمر يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ قرأ مجاهد و أبو رجاء و الحسن و قتادة «تلتقطه» بالمثناة الفوقية، و وجهه أن بعض السيارة سيارة. و حكى عن سيبويه: سقطت بعض أصابعه، و منه قول الشاعر:

أرى مرّ السّنين أخذن منّى كما أخذ السّرار «۱» من الهلال

و قرأ الباقون «يلتقطه» بالتحتية، و السيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق، و الالتقاط: هو أخذ شىء

---

(۱). السرار: سرار الشهر: آخر ليلة منه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۱

مشرف على الضياع، و كأنهم أرادوا أنّ بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفى عن أبيه و من يعرفه، و لا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد، فربما أن والدهم لا يأذن لهم بذلك، و معنى إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ إن كنتم عاملين بما أشرت به عليكم فى أمره، كأنه لم يجزم بالأمر، بل و كله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره. و فى هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء، فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلما و بغيا؛ و قيل: كانوا أنبياء، و كان ذلك منهم زلّة قدم، و أوقعهم فيها التهاب نار الحسد فى صدورهم و اضطرام جمرات الغيظ فى قلوبهم. و ردّ بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة فى الكبر، مع ما فى ذلك من قطع الرحم و عقوق الوالد و افتراء الكذب؛ و قيل: إنهم لم يكونوا فى ذلك الوقت أنبياء، بل صاروا أنبياء من بعد.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: آياتٌ لِلسَّائِلِينَ قال: عبرة. و أخرج أيضا عن قتادة فى الآية يقول: من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قصّ اللّه عليكم و أنبأكم به. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق قال: إنما قصّ اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم خبر يوسف و بغى إخوته عليه و حسدهم إياه حين ذكر رؤياه، لما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من بغى قومه عليه و حسدهم إياه حين أكرمه اللّه بنبوّته ليأتسى به. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ يعنى بنيامين هو أخوه لأبيه و أمه، و فى قوله: وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ قال: العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد قال: العصبة: الجماعة إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ قال: لفى خطأ من رأيه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ فى قوله: قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ قال: قاله كبيرهم الذى تخلف، قال: و الجبّ بئر بالشام يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ قال: التقطه ناس من الأعراب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ يعنى الركية. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: الجبّ البئر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ قال:

هى بئر ببيت المقدس، يقول: فى بعض نواحيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: الجبّ حذاء طبرية، بينه و بينها أميال.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١١ الى ١٨]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (١٢) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (١٣) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥)

وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (١٦) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ (١٧) وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١٨)

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٢

لما أجمع رأيهم على أن يلقوه فى غيابات الجبّ، جاءوا إلى أبيهم و خاطبوه بلفظ الأبوّة استعطافا له، و تحريكا للحنوّ الذى جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، و توسّلا بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذى دبّروه، و استفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغى أن يكون الواقع على خلافه، ف قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ أى: أىّ شى‏ء لك لا تجعلنا أمناء عليه؟ و كأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى. و قرأ يزيد بن القعقاع و عمرو بن عبيد و الزّهرى «لا تأمنا» بالإدغام بغير إشمام. و قرأ طلحة بن مصرف «لا تأمننا» بنونين ظاهرتين على الأصل. و قرأ يحيى بن وثّاب و أبو رزين و الأعمش «لا تيمنا» و هو لغة تميم كما تقدّم. و قرأ سائر القرّاء بالإدغام و الإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ فى حفظه و

حيطته حتى نردّه إليك أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً أى إلى الصّحراء التى أرادوا الخروج إليها، و غدا ظرف، و الأصل عند سيبويه غدو. قال النّضر بن شميل: ما بين الفجر و طلوع الشمس، يقال له غدوة، و كذا يقال له بكرة. يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ هذا جواب الأمر. قرأ أهل البصرة و أهل مكة و أهل الشام بالنون و إسكان العين كما رواه البعض عنهم. و قرءوا أيضا بالاختلاس، و قرأ الباقون بالنون و كسر العين، و القراءة الأولى مأخوذة من قول العرب رتع الإنسان أو البعير؛ إذا أكل كيف شاء، أو المعنى: نتسع فى الخصب، و كلّ مخصب راتع؛ قال الشاعر:

فارعى فزارة لا هناك المرتع و منه قول الشاعر «۱»:

ترتع ما رتعت «۲» حتى إذا ادّكرتفإنّما هى إقبال و إدبار

و القراءة الثانية مأخوذة من: رعى الغنم. و قرأ مجاهد و قتادة يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ بالتحتية فيهما، و رفع يلعب على الاستئناف، و الضمير ليوسف. و قال القتبى: معنى نرتع نتحارس و نتحافظ و يرعى بعضنا بعضا، من قولهم: رعاك اللّه؛ أى حفظك، و نلعب من اللعب. قيل لأبى عمرو بن العلاء: كيف قالوا و نلعب و هم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء؛ و قيل: المراد به اللعب المباح من الأنبياء، و هو مجرّد الانبساط؛ و قيل: هو اللعب الذى يتعلّمون به الحرب و يتقوّون به عليه، كما فى قولهم: إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ لا اللعب المحظور الذى هو ضدّ الحق، و لذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا: و نلعب، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لجابر: «فهلّا بكرا تلاعبها و تلاعبك»، فأجابهم يعقوب بقوله: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ أى ذهابكم به، و اللام فى لَيَحْزُنُنِي لام الابتداء للتأكيد و لتخصيص المضارع بالحال، أخبرهم أنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له و خوفه عليه. وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ أى: و مع ذلك أخاف أن يأكله الذئب. قال يعقوب هذا تخوّفا عليه منهم، فكنى عن ذلك بالذئب. و قيل: إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة، لأن ذلك المكان

---

(۱). البيت للخنساء، من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا.

(۲). فى تفسير القرطبى (۹/ ۱۳۹): ما غفلت.

كان كثير الذئاب، و لو خاف منهم عليه أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه. قال ثعلب: و الذئب مأخوذ من تذأبت الريح؛ إذا هاجت من كلّ وجه. قال: و الذئب مهموز لأنه يجىء من كلّ وجه. و قد قرأ ابن كثير و نافع فى رواية عنه بالهمز على الأصل، و كذلك أبو عمرو فى رواية عنه و ابن عامر و عاصم و حمزة. و قرأ الباقون بالتّخفيف وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ لاشتغالكم بالرّتع و اللعب، أو لكونهم غير مهتمّين بحفظه قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ اللام هى الموطئة للقسم. و المعنى: و اللّه لئن أكله الذئب و الحال إن نحن عصبة؛ أى جماعة كثيرة، عشرة إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ أى: إنما فى ذلك الوقت، و هو أكل الذئب له لخاسرون هالكون ضعفا و عجزا، أو مستحقّون للهلاك لعدم الاعتداد بنا، و انتفاء القدرة على أيسر شىء و أقلّه، أو مستحقّون لأن يدعى علينا بالخسار و الدّمار؛ و قيل: لَخاسِرُونَ لجاهلون حقه، و هذه الجملة جواب القسم المقدّر فى الجملة التى قبلها فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ من عند يعقوب وَ أَجْمَعُوا أمرهم أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ قد تقدّم تفسير الغيابة و الجب قريبا، و جواب لما محذوف لظهوره و دلالة المقام عليه، و التقدير:

فعلوا به ما فعلوا؛ و قيل: جوابه قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ و قيل: و الجواب المقدّر جعلوه فيها، و قيل: الجواب أوحينا و الواو مقحمة، و مثله قوله تعالى: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ- وَ نادَيْناهُ «۱» أى:

ناديناه وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ أى: إلى يوسف تيسيرا له، و تأنيسا لوحشته؛ مع كونه صغيرا اجتمع على إنزال الضرر به عشرة رجال من

إخوته، بقلوب غليظة؛ فقد نزعت عنها الرحمة، و سلبت منها الرّأفة، فإنّ الطّبع البشرى يأبى ذلک. و إن كان قد وقع منه خطأ فدع عنک الدين يتجاوز عن ذنب الصغير و يغفره لضعفه عن الدفع و عجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له، بل كيف بصغير هو أخ لهم و له أب مثل يعقوب، فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء فى ذلک الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء و لا فعل الصالحين. و فى هذا دليل على أنه يجوز أن يوحى اللّه إلى من كان صغيرا و يعطيه النبوّة حينئذ، كما وقع فى عيسى و يحيى بن زكريا؛ و قد قيل: إنه كان فى ذلک الوقت قد بلغ مبالغ الرجال، و هو بعيد جدّا، فإن من كان قد بلغ مبالغ الرجال لا يخاف عليه أن يأكله الذئب لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا أى لتخبرنّ إخوتک بأمرهم هذا الذى فعلوه معک بعد خلوصک مما أرادوه بک من الكيد، و أنزلوه عليک من الضرر، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال؛ أى: لا يشعرون بأنک أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكک بإلقائهم لک فى غيابة الجبّ، و لبعد عهدهم بک، و لكونک قد صرت عند ذلک فى حال غير ما كنت عليه و خلاف ما عهدوه منک، و سيأتى ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملک مصر. قوله: وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ عشاء منتصب على الظرفية، و هو آخر النهار، و قيل: فى الليل؛ و يبكون فى محل نصب على الحال، أى: باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة، بل فعلوا فعل من يبكى ترويجا لكذبهم و تنفيقا لمكرهم و غدرهم، فلما وصلوا إلى أبيهم قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ أى: نتسابق فى العدو أو فى الرمى؛ و قيل: ننتضل، و يؤيده قراءة ابن مسعود «ننتضل» قال الزّجّاج: و هو نوع من المسابقة. و قال الأزهرى: النضال فى السهام،

---

(۱). الصافات: ۱۰۳- ۱۰۴.

و الرهان فى الخيل، و المسابقة تجمعهما. قال القشيرى: نستبق، أى: فى الرمى أو على الفرس أو على الأقدام، و الغرض من المسابقة التدرّب بذلک فى القتال وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا أى: عند ثيابنا ليحرسها فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ الفاء للتعقيب؛ أى: أكله عقب ذلک. و قد اعتذروا عليه بما خافه سابقا عليه. و ربّ كلمة تقول لصاحبها دعنى وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا بمصدق لنا فى هذا العذر الذى أبدينا، و الكلمة التى قلناها وَ لَوْ كُنَّا عندک أو فى الواقع صادِقِينَ لما قد علق بقلبک من التهمة لنا فى ذلک مع شدة محبتک له. قال الزّجّاج: و المعنى و لو كنا عندک من أهل الثقة و الصدق ما صدّقتنا فى هذه القضية لشدّة محبتک ليوسف.

و كذا ذكره ابن جرير و غيره وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ على قميصه فى محل نصب على الظرفية، أى: جاءوا فوق قميصه بدم، و وصف الدم بأنه كذب مبالغة، كما هو معروف فى وصف اسم العين باسم المعنى؛ و قيل: المعنى: بدم ذى كذب أو بدم مكذوب فيه. و قرأ الحسن و عائشة «بدم كدب» بالدال المهملة، أى بدم طرىّ، يقال للدم الطرىّ كدب. و قال الشعبى: إنه المتغير، و الكدب أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبّه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر من جهة اللونين.

و قد استدلّ يعقوب على كذبهم بصحة القميص، و قال لهم: متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف و لا يخرق القميص؟ ثم ذكر اللّه سبحانه ما أجاب به يعقوب عليهم فقال: قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أى زيّنت و سهلت. قال النيسابورى: التسويل تقرير فى معنى النفس مع الطمع فى تمامه، و هو تفعيل من السول و هو الأمنية. قال الأزهرى: و أصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال الزجّاج: أى فشأنى، أو الذى أعتقده صبر جميل. و قال قطرب: أى فصبرى صبر جميل؛ و قيل: فصبر جميل أولى بى. قيل: و الصبر الجميل هو الذى لا شكوى معه. قال الزجّاج: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف «فصبرا جميلا» قال: و كذا فى مصحف أنس. قال المبرد: فصبر جميل بالرفع أولى من النصب، لأن المعنى: قال ربّ

عندى صبر جميل، و إنما النصب على المصدر، أى: فلأصبرنّ صبرا جميلا.

قال الشاعر:

شكا إلىّ جملى طول السّرى‌صبرا جميلا فكلانا مبتلى

وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ أى المطلوب منه العون عَلى ما تَصِفُونَ أى على إظهار حال ما تصفون، أو على احتمال ما تصفون، و هذا منه عليه السلام إنشاء لا إخبار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ قال: نسعى و ننشط و نلهو. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه، و السّلفى فى الطّيوريات، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تلقّنوا الناس فيكذبوا، فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس، فلما لقّنهم أبوهم كذبوا، فقالوا: أكله الذئب».

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ الآية قال: أوحى إلى يوسف و هو فى الجب لتنبئن إخوتك بما صنعوا و هم لا

فتح القدير، ج‌٣، ص: ١٥

يشعرون بذلك الوحى. و أخرج هؤلاء عن قتادة قال: أوحى اللّه إليه و حيا و هو فى الجبّ أن سينبئهم بما صنعوا، و هم- أى إخوته- لا يشعرون بذلك الوحى، فهوّن ذلك الوحى عليه ما صنع به.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ قال: لم يعلموا بوحى اللّه إليه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم و هم له منكرون جى‌ء بالصّواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنّ، فقال: إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يدنيه دونكم، و أنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجبّ فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، و جئتم على قميصه بدم كذب، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم، فقال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فى ذلك لتنبئنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى بكر ابن عياش قال: كان يوسف فى الجبّ ثلاثة أيام.

و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا قال: بمصدّق لنا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قال: كان دم سخلة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قال: لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقا قال: كذبتم، لو كان كما تقولون أكله الذئب لخرق القميص. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً قال: أمرتكم أنفسكم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً يقول: بل زيّنت لكم أنفسكم أمرا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ أى على ما تكذبون. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن حبّان بن أبى جبلة قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال: لا شكوى فيه. من بثّ لم يصبر. و هو من طريق هشيم عن عبد الرحمن عن حبّان بن أبى جبلة، و هو مرسل. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ قال: ليس فيه جزع.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٩ الى ٢٢]

وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٩) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ

بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (۲۰) وَ قالَ الَّذِی اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِی مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِی الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۱) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِينَ (۲۲)

هذا شروع فی حكاية خلاص يوسف و ما كان بعد ذلک من خبره، و قد تقدّم تفسير السّيارة، و المراد بها هنا رفقة مارّة تسير من الشام إلى مصر، فأخطئوا الطريق و هاموا حتى نزلوا قريبا من الجبّ، و كان فی

قفرة بعيدة عن العمران. و الوارد: الذی يرد الماء ليستقی للقوم، و كان اسمه فيما ذكر المفسرون «مالک بن ذعر» من العرب العاربة فَأَدْلى دَلْوَهُ أی أرسله، يقال: أدلى دلوه؛ إذا أرسلها ليملأها، و دلاها: إذا أخرجها، قاله الأصمعی و غيره. فتعلّق يوسف بالحبل، فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد ف قال يا بشرای هكذا قرأ أهل المدينة و أهل مكة و أهل البصرة، و أهل الشام بإضافة البشرى إلى الضمير. و قرأ أهل الكوفة «يا بُشْرى غير مضاف، و معنى مناداته للبشرى؛ أنه أراد حضورها فی ذلک الوقت. فكأنه قال: هذا وقت مجيئک و أوان حضورک. و قيل: إنه نادى رجلا اسمه بشرى. و الأوّل أولى. قال النحاس:

و المعنى نداء البشرى التبشير لمن حضر، و هو أوكد من قولک بشرته، كما تقول يا عجبا، أی: يا عجب هذا من أيامک فاحضر. قال: و هذا مذهب سيبويه وَ أَسَرُّوهُ أی أسرّ الوارد و أصحابه الذين كانوا معه يوسف فلم يظهروه لهم؛ و قيل: إنهم لم يخفوه، بل أخفوا وجدانه لهم فی الجبّ، و زعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر؛ و قيل: ضمير الفاعل فی أسرّوه لإخوة يوسف، و ضمير المفعول ليوسف، و ذلک أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام، فأتاه يوم خروجه من البئر فأخبر إخوته فأتوا الرفقة و قالوا: هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم، و سكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه. و الأوّل أولى. و انتصاب بضاعة على الحال، أی: أخفوه حال كونه بضاعة، أی: متاعا للتجارة، و البضاعة: ما يبضع من المال، أی: يقطع منه لأنها قطعة من المال الذی يتّجر به، قيل: قاله لهم الوارد و أصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركوهم فيه، و فی قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ وعيد شديد لمن كان فعله سببا لما وقع فيه يوسف من المحن، و ما صار فيه من الابتذال يجری البيع و الشراء فيه، و هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم فی وصفه بذلک. قوله: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ يقال: شراه بمعنى اشتراه، و شراه بمعنى باعه. قال الشاعر «١»:

و شريت بردا ليتنی‏من بعد برد كنت هامة

أی بعته.

و قال آخر «٢»:

فلمّا شراها فاضت العين عبرة «٣» أی اشتراها، و المراد هنا: و باعوه، أی: باعه الوارد و أصحابه بِثَمَنٍ بَخْسٍ أی ناقص أو زائف.
و قيل: يعود إلى إخوة يوسف على القول السابق؛ و قيل: عائد إلى الرفقة، و المعنى: اشتروه؛ و قيل: بخس:
ظلم، و قيل: حرام. قيل: باعوه بعشرين درهما، و قيل: بأربعين، و دراهم بدل من ثمن؛ أی دنانير،

____

(١). هو يزيد بن مفرغ الحميری. و «برد»: اسم عبد كان له ندم على بيعه.

(٢). هو الشمّاخ.

(٣). و تمام البيت: و فی الصّدر حزّاز من اللّوم حامز. و «حامز»: عاصر.

و معـدودة وصف لـدراهم، و فيه إشارة إلى أنها قليلـة تعدّ و لا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية و هى أربعون درهما. وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ يقال: زهـدت و زهـدت بفتـح الهاء و كسـرها. قال سـيبويه و الكسائى: قال أهل اللغة: يقال زهد فيه، أى: رغب عنه، و زهـد عنه، أى: رغب فيه، و المعنى: أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه، الـذين لا يبالون به، فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس، و ذلـك لأنـهم التقطوه، و الملتقط للشـيء متهاون به، و الضـمير من كانوا يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال فيه وَ قـالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ هو العزيز الـذى كان على خزائن مصـر، و كان وزيرا لملك مصـر، و هو «الريان ابن الوليـد» من العمالقة؛ و قيل: إن الملك هو فرعون موسى، قيل: اشتراه بعشرين دينارا، و قيل: تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكا و عنبرا و حريرا و ورقا و ذهبا و لآلئ و جواهر، فلما اشتراه العزيز قال لِامْرَأَتِهِ و اللام متعلّقة باشتراه أَكْرِمِي مَثْواهُ أى منزله الذى يثوى فيه بالطعـام و اللبـاس الحسن، يقال: ثوى بالمكان، أى: أقام به عَسـى أَنْ يَنْفَعَنا أى: يكفينا بعض المهمات ممّا نحتاج إلى مثله فيه أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أى: نتبنّاه فنجعله ولـدا لنا، قيل: كان العزيز حصورا لا يولـد له، و قيل: كان لا يأتى النساء، و قـد كان تفرّس فيه أنه ينـوب عنه فيمـا إليه من أمر المملكـة. قـوله: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ الكـاف فى محـل نصب على أنه نعت مصـدر محـذوف، و الإشـارة إلى مـا تقـدّم من إنجـائه من إخوته و إخراجه من الجبّ، و عطف قلب العزيز عليه، أى: مثل ذلك التمكين البـديع مكّنا ليوسـف حـتى صـار متمكّنـا من الأـمر و النهى، يقـال: مكنه فيه، أى: أثبته فيه، و مكن له فيه، أى: جعـل له فيه مكانـا، و لتقـارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر. قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ هو علّة لمعلل محذوف، كأنه قيل:

فعلنـا ذلـك التّمكين لنعلمه من تأويـل الأحاديث أو كان ذلك الإنجاء لهـذه العلـة، أو معطوف على مقـدّر، و هو أن يقال: مكنّا ليوسف ليترتب على ذلـك مـا يترتب ممـا جرى بينه و بين امرأة العزيز وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيـلِ الْأَحـادِيثِ و معنى تأويـل الأحـاديث: تأويـل الرؤيا، فإنها كانت من الأسباب التى بلغ بها ما بلغ من التمكن؛ و قيل: معنى تأويل الأحاديث فهم أسـرار الكتب الإلهيـة و سنن من قبله من الأنبيـاء، و لا مانع من حمل ذلك على الجميع وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ أى: على أمر نفسه لا يمتنع منه شـىء، و لا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «١»، و من جملـة ما يدخل تحت هذا العامّ كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضـمير ما يتعلق بيوسف عليه السلام من الأمور التى أرادها اللّه سبحانه فى شأنه؛ و قيل معنى وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ أنه كان من أمر يعقوب أن لا يقصّ رؤيا يوسف على إخوته، فغلب أمر اللّه سـبحانه حتى قصّت عليهم حتى وقع منهم مـا وقع، و هـذا بعيـد جـدّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أى لا يطلعون على غيب اللّه و مـا فى طيّه من الأسـرار العظيمـة و الحكم النافعـة؛ و قيل: المراد بالأكثر: الجميع؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا اللّه؛ و قيل: إن اللّه سـبحانه قـد يطلع بعض عبيـده على بعض غيبه كما فى قوله: فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً- إِلَّا مَنِ ارْتَضـى مِنْ رَسُولٍ «٢»؛ و قيـل: المعنى: و لكن أكثر الناس لا يعلمون أن اللّه غالب

---

(١). يس: ٨٢.

(٢). الجن: ٢٦ و ٢٧.

على أمره و هم المشـركون و من لا يؤمن بالقدر. قوله وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً الأشدّ: قال سيبويه: جمع، واحده شدّة. قال الكسائى: واحده شدّ. و قال أبو عبيد: إنه لا واحد له من لفظه عند العرب، و يردّه قول الشاعر:

عهدى به شدّ النّهار كأنّماخضب البنان و رأسه بالعظلم «١»

و الأشدّ: هو وقت اسـتكمال القوّة ثم يكون بعده النقصان. قيل: هو ثلاث و ثلاثون سـنة، و قيل: بلوغ الحلم، و قيل: ثمانى عشـرة

سنة، و قيل غير ذلك مما قد قدّمنا بيانه فى النساء و الأنعام. و الحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام فى سلطان ملك مصر، و العلم: هو العلم بالحكم الذى كان يحكمه؛ و قيل: العقل و الفهم و النبوّة؛ و قيل: الحكم هو النبوّة، و العلم: هو العلم بالدين؛ و قيل: علم الرؤيا. و من قال إنه أوتى النبوّة صبيا قال: المراد بهذا الحكم و العلم الذى آتاه اللّه هو الزيادة فيهما وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى و مثل ذلك الجزاء العجيب نجزى المحسنين، فكلّ من أحسن فى عمله أحسن اللّه جزاءه، و جعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به، و هذا عامّ يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولا أوليّا. قال الطبرى: هذا و إن كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، يقول اللّه تعالى كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة و أمكّن لك فى الأرض. و الأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبرى.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الضحّاك فى قوله: وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ قال: جاءت سيارة فنزلت على الجبّ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فاستسقى الماء فاستخرج يوسف، فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاما لا يعلمون علمه و لا منزلته من ربّه، فزهدوا فيه فباعوه، و كان بيعه حراما، و باعوه بدراهم معدودة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ يقول:

فأرسلوا رسولهم فَأَدْلى دَلْوَهُ فنشب الغلام بالدلو، فلما خرج قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ تباشروا به حين استخرجوه، و هى بئر ببيت المقدس معلوم مكانها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: يا بشراى قال: كان اسم صاحبه بشرى، كما تقول يا زيد، و هذا على ما فيه من البعد لا يتمّ إلا على قراءة من قرأ «يا بُشْرى بدون إضافة. و أخرج أبو الشيخ عن الشعبى نحوه.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً يعنى إخوة يوسف أسرّوا شأنه و كتموا أن يكون أخاهم، و كتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته و اختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد قال: أسرّه التجار بعضهم من بعض. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً قال: صاحب الدلو و من معه، قالوا لأصحابهم: إنا استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا به، و اتبعهم إخوته يقولون للمدلى و أصحابه: استوثقوا منه لا

---

(١). شدّ النهار: أى: أشدّه، يعنى أعلاه. «العظلم»: نبت يختضب به.

يأبق حتى وقفوا بمصر، فقال: من يبتاعنى و يبشر، فابتاعه الملك و الملك مسلم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ شَرَوْهُ قال: إخوة يوسف باعوه حين أخرجه المدلى دلوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: بيع بينهم بثمن بخس، قال: حرام لم يحلّ لهم بيعه، و لا أكل ثمنه. و أخرج ابن جرير عن قتادة وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ قال: هم السيارة. و أخرج أبو الشيخ عن على ابن أبى طالب أنه قضى فى اللقيط أنه حر، و قرأ: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: البخس القليل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبى مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: إنما اشترى يوسف بعشرين درهما، و كان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلاثمائة و تسعين إنسانا، رجالهم أنبياء، و نساؤهم صدّيقات، و اللّه ما خرجوا مع موسى حتى بلغوا ستّمائة ألف و سبعين ألفا. و قد روى فى مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة إلى التطويل بذكره.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَ الَّذِی اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ قال: كان اسمه قطفير. و أخرج أبو الشيخ عن شعيب الجبائى: أن اسم امرأة العزيز زليخا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال: الذى اشتراه أطيفير بن روحب، و كان اسم امرأته راعيل بنت رعاييل. و أخرج ابن جرير و ابن إسحاق و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: اسم الذى باعه من العزيز مالك بن ذعر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: أَكْرِمِی مَثْواهُ قال: منزلته. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن سعد و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرّس فى يوسف فقال لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِی مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً و المرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ و أبو بكر حين استخلف عمر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ قال: عبارة الرؤيا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ قال: ثلاثا و ثلاثين سنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: أربعين سنة. و أخرج عن عكرمة قال: خمسا و عشرين سنة. و أخرج عن السدّى قال: ثلاثين سنة. و أخرج عن سعيد بن جبير قال: ثمانية عشر سنة. و أخرج عن ربيعة قال: الحلم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الشعبى نحوه. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك قال: عشرين سنة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً قال: هو الفقه و العلم و العقل قبل النبوّة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ كَذلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِينَ قال: المهتدين.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٣ الى ٢٩]

وَ راوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قالَ هِیَ راوَدَتْنِی عَنْ نَفْسِی وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٦) وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِی لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (٢٩)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٠

المراودة الإرادة و الطلب برفق ولين، و قيل: هى مأخوذة من الرّود: أى الرّفق و التّأنى، يقال: أرودنى:

أمهلنى؛ و قيل المراودة مأخوذة من راد يرود؛ إذا جاء و ذهب، كأن المعنى: أنها فعلت فى مراودتها له فعل المخادع، و منه الرائد لمن يطلب الماء و الكلأ، و قد يخصّ بمحاولة الوقاع، فيقال: راود فلان جاريته عن نفسها و راودته هى عن نفسه؛ إذا حاول كل منهما الوطء و الجماع، و هى مفاعلة، و أصلها أن تكون من الجانبين، فجعل السبب هنا فى أحد الجانبين قائما مقام المسبب، فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق و الزيادة فى الحسن سببا لمراودة امرأة العزيز له مراود. و إنما قال: الَّتِی هُوَ فِی بَيْتِها و لم يقل امرأة العزيز، و زليخا، قصدا إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة و المحافظة على الستر عليها وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ قيل فى هذه الصيغة ما يدلّ على التكثير، فيقال: غلّق الأبواب، و لا يقال: غلّق الباب، بل يقال: أغلق الباب، و قد يقال: أغلق الأبواب، و منه قول الفرزدق فى أبى عمرو بن العلاء:

ما زلت أغلق أبوابا و أفتحهاحتى أتيت أبا عمرو بن عمّار
قيل: و كانت الأبواب سبعة. قوله: هَيْتَ لَكَ قرأ أبو عمرو و عاصم و الكسائى و حمزة و الأعمش بفتح الهاء و سكون الياء و فتح التاء، و بها قرأ ابن مسعود و ابن عباس و سعيد بن جبير و الحسن و مجاهد و عكرمة.
قال ابن مسعود: لا تنطعوا فى القراءة، فإنما هو مثل قول أحدكم هلمّ و تعال. و قرأ ابن أبى إسحاق النحوى بفتح الهاء و كسر التاء. و قرأ عبد الرحمن السلمى و ابن كثير هيت بفتح الهاء و ضم التاء، و منه قول طرفة:
ليس قومى بالأبعدين إذا ماقال داع من العشيرة هيت
و قرأ أبو جعفر و نافع بكسر الهاء و سكون الياء و فتح التاء. و قرأ علىّ و ابن عباس فى رواية عنه و هشام بكسر الهاء و بعدها همزة ساكنة و ضم التاء. و قرأ ابن عامر و أهل الشام بكسر الهاء و بالهمزة و فتح التاء. و معنى هيت على جميع القراءات معنى هلمّ و تعال؛ لأنها من أسماء الأفعال إلا فى قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة و تاء مضمومة، فإنها بمعنى: تهيأت لك. و أنكر أبو عمرو هذه القراءة. و قال أبو عبيدة: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء و الهمزة و ضم التاء فقال: باطل، جعلها بمعنى تهيأت، اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن، هل تعرف أحدا يقول هكذا؟ و أنكرها أيضا الكسائى. و قال النحاس: هى جيدة عند البصريين؛ لأنه يقال: هاء الرجل يهاء و يهيئ هيئة، و رجّح الزجّاج القراءة الأولى، و أنشد بيت طرفة المذكور هيت بالفتح، و منه قول الشاعر فى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه:
فتح القدير، ج‏3، ص: 21 أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا
إنّ العراق و أهلهسلم إليك فهيت هيتا
و تكون اللام فى لَكَ على القراءات الأولى التى هى فيها بمعنى اسم الفعل للبيان، أى: لك. أقول هذا كما فى هلمّ لك. قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث؛ فالفتح للخفة، و الكسر لالتقاء الساكنين، و الضم تشبيها بحيث، و إذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له، أى: لك أقول هذا. و إن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل، إما خبر: أى تهيأت، و إما أمر: أى أقبل. و قال فى الصحاح: يقال هوّت به و هيّت به إذا صاح به و دعاه، و منه قول الشاعر:
يحدو بها كلّ فتى هيّات و قد روى عن ابن عباس و الحسن أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه إلى نفسها. قال أبو عبيدة: كان الكسائى يقول: هى لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، معناها تعال. قال أبو عبيدة: فسألت شيخا عالما من حوران فذكر أنها لغتهم قالَ مَعاذَ اللَّهِ أى أعوذ باللّه معاذا ممّا دعوتنى إليه، فهو مصدر منتصب بفعل محذوف مضاف إلى اسم اللّه سبحانه، و جملة إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوايَ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التى هى أقرب إلى فهم امرأة العزيز، و الضمير للشأن، أى: إن الشأن ربى، يعنى العزيز:
أى سيدى الذى ربّانى و أحسن مثواى حيث أمرك بقوله: أَكْرِمِی مَثْواهُ فكيف أخونه فى أهله و أجيبك إلى ما تريدين من ذلك؟ و قال الزجّاج: إن الضمير للّه سبحانه، أى: إن اللّه ربى تولانى بلطفه فلا أركب ما حرّمه، و جملة إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها، و الفلاح: الظفر. و المعنى:
أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم، و من جملة الظالمين الواقعون فى مثل هذه المعصية التى تطلبها امرأة العزيز من يوسف. قوله: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها يقال: همّ بالأمر؛ إذا قصده و عزم عليه. و المعنى: أنه همّ بمخالطتها كما همّت بمخالطته، و مال كل واحد منهما إلى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية و الجبلّة الخلقية، و لم يكن من يوسف عليه السلام القصد إلى ذلك اختيارا كما يفيده ما تقدّم من استعاذته باللّه، و إن ذلك نوع من الظلم. و لما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية و القصد إليها شطح أهل

العلم فى تفسير هذه الآيهٔ بما فيه نوع تكلّف، فمن ذلک ما قاله أبو حاتم قال: کنت أقرأ على أبى عبيدهٔ غريب القرآن، فلما أتيت على وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها قال: هذا على التقديم و التأخير، کأنه قال: و لقد همت به و لو لا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. و قال أحمد بن يحيى ثعلب: أى همّت زليخا بالمعصيهٔ و كانت مصرّهٔ، و همّ يوسف و لم يوقع ما همّ به، فبين الهمّين فرق، و من هذا قول الشاعر «۱»:

هممت بهمّ من ثنيهٔ لؤلؤ «۲»شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

---

(۱). هو جميل بثينهٔ.

(۲). فى تفسير القرطبى (۹/ ۱۶۶): بثينهٔ لو بدا.

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، و قيل: همّ بها؛ أى همّ بضرب بها، و قيل: همّ بها بمعنى تمنى أن يتزوّجها. و قد ذهب جمهور المفسرين من السلف و الخلف إلى ما قدّمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوى، و يدل على هذا ما سيأتى من قوله: ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ «۱»، و قوله: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ «۲» و مجرد الهمّ لا ينافى العصمهٔ، فإنها قد وقعت العصمهٔ عن الوقوع فى المعصيهٔ، و ذلک المطلوب، و جواب لو فى لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ محذوف، أى: لو لا أن رأى برهان ربه لفعل ما همّ به.

و اختلف فى هذا البرهان الذى رآه ما هو؟ فقيل: إن زليخا قامت عند أن همّت به و همّ بها إلى صنم لها فى زاويهٔ البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحى من إلهى هذا أن يرانى على هذه الصورهٔ، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحى من اللّه تعالى. و قيل: إنه رأى فى سقف البيت مكتوبا: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً «۳» الآيهٔ؛ و قيل رأى كفا مكتوبا عليها: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ «۴» و قيل: إن البرهان هو تذكره عهد اللّه و ميثاقه و ما أخذه على عباده؛ و قيل: نودى: يا يوسف أنت مكتوب فى الأنبياء و تعمل عمل السفهاء؟! و قيل: رأى صورهٔ يعقوب على الجدار عاضّا على أنملته يتوعّده؛ و قيل غير ذلک مما يطول ذكره. و الحاصل أنه رأى شيئا حال بينه و بين ما همّ به. قوله: كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ الكاف نعت مصدر محذوف، و الإشارة بذلک إلى الإراءهٔ المدلول عليها بقوله: لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلک، أى: مثل تلک الإراءهٔ أريناه، أو مثل ذلک التثبيت ثبتناه لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ أى كل ما يسوؤه، و الفحشاء: كلّ أمر مفرط القبح؛ و قيل: السوء: الخيانهٔ للعزيز فى أهله، و الفحشاء: الزنا، و قيل: السوء: الشهوهٔ، و الفحشاء: المباشرهٔ؛ و قيل: السوء: الثناء القبيح. و الأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولا أوليا، و جملهٔ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ تعليل لما قبله. قرأ ابن عامر و ابن كثير و أبو عمرو «المخلصين» بكسر اللام. و قرأ الآخرون بفتحها. و المعنى على القراءهٔ الأولى أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته للّه، و على الثانيهٔ أنه كان ممن استخلصه اللّه للرسالهٔ، و قد كان عليه السلام مخلصا مستخلصا. وَ اسْتَبَقَا الْبابَ أى تسابقا إليه، فحذف حرف الجرّ و أوصل الفعل بالمفعول، أو ضمن الفعل معنى فعل آخر يتعدّى بنفسه كابتدرا الباب، و هذا الكلام متصل بقوله:

وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ و ما بينهما اعتراض، و وجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار و الخروج من الباب، و امرأهٔ العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه، و وحّد الباب هنا و جمعه فيما تقدّم؛ لأن تسابقهما كان إلى الباب الذى يخلص منه إلى خارج الدار وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ أى جذبت قميصه من ورائه فانشق إلى أسفله، و القدّ: القطع، و أكثر ما يستعمل فيما كان طولا، و القط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا، وقع منها ذلک عند أن فرّ يوسف لما رأى برهان ربه، فأرادت أن تمنعه من

الخروج بجلبها لقميصه وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ أى وجدا العزيز هنالك، و عنى بالسيد الزوج؛ لأن القبط يسمّون الزوج

(١). يوسف: ٥٢.

(٢). يوسف: ٥٣.

(٣). الإسراء: ٣٢.

(٤). الانفطار: ١٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣

سيدا، و إنما لم يقل سيدهما، لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيدا له، و جملة قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب، و ما استفهامية، و المراد بالسوء هنا الزنا؛ قالت هذه المقالة طلبا منها للحيلة و للستر على نفسها، فنسبت ما كان منها إلى يوسف؛ أىّ جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا، ثم أجابت عن استفهامها بقولها: إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أى ما جزاؤه إلا أن يسجن. و يحتمل أن تكون ما نافية، أى: ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم؛ قيل: و العذاب الأليم هو الضرب بالسياط، و الظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره، و فى الإبهام للعذاب زيادة تهويل، و جملة قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي مستأنفة كالجملة الأولى.

و قد تقدّم بيان معنى المراودة، أى: هى التى طلبت منى ذلك و لم أرد بها سوءا وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها أى من قرابتها، و سمّى الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت و التأمل، قيل: لما التبس الأمر على العزيز احتاج إلى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب. قيل: كان ابن عمّ لها واقفا مع العزيز فى الباب، و قيل: ابن خال لها، و قيل: إنه طفل فى المهد تكلم. قال السهيلى: و هو الصحيح للحديث الوارد فى ذلك عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذكر من تكلّم فى المهد، و ذكر من جملتهم شاهد يوسف؛ و قيل: إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره، و كان من قرابة المرأة إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ أى فقال الشاهد هذه المقالة مستدلا على بيان صدق الصادق منهما و كذب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعا من قبل، أى: من جهة القبل فَصَدَقَتْ أى فقد صدقت بأنه أراد بها سوءا وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ فى قوله إنها راودته عن نفسه.

و قرأ يحيى بن يعمر و ابن أبى إسحاق «من قبل» بضم اللام. و كذا قرأ: مِنْ دُبُرٍ قال الزّجّاج: جعلاهما غايتين كقبل و بعد، و كأنه قيل من قبله و من دبره، فلما حذف المضاف إليه، و هو مراد، صار المضاف غاية بعد أن كان المضاف إليه هو الغاية وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ أى من ورائه فَكَذَبَتْ فى دعواها عليه وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواه عليها، و لا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدّميهما و تالييهما، لا عقلا و لا عادة، و ليس هاهنا إلا مجرد أمارة غير مطردة، إذ من الجائز أن تجذبه إليها و هو مقبل عليها فينقدّ القميص من دبر، و أن تجذبه و هو مدبر عنها فينقدّ القميص من قبل فَلَمَّا رَأى أى العزيز قَمِيصَهُ أى قميص يوسف قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ أى هذا الأمر الذى وقع فيه الاختلاف بينكما، أو أن قولك: ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً مِنْ كَيْدِكُنَ أى من جنس كيدكنّ يا معشر النساء إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ و الكيد: المكر و الحيلة، ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله:

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا أى عن هذا الأمر الذى جرى و اكتمه و لا تتحدّث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ الذى وقع منك إِنَّكِ كُنْتِ بسبب ذلك مِنَ الْخاطِئِينَ أى من جنسهم، و الجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار و لم يقل من الخاطئات تغليبا للمذكر على المؤنث كما فى قوله:

وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ و معنى من الخاطئين من المتعمدين، يقال: خطىء، إذا أذنب متعمدا؛ و قيل:

إن القائل ليوسف و لامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذى حكم بينهما.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ قال: هى امرأة العزيز. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: راودته حين بلغ مبلغ الرجال. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: هَيْتَ لَكَ قال: هلمّ لك، تدعوه إلى نفسها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: هلم لك بالقبطية. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: هى كلمة بالسريانية، أى: عليك. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: معناها تعال. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد: إنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

و أخرج أبو عبيد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قرأ: «هئت لك» مكسورة الهاء مضمومة التاء مهموزة قال: تهيأت لك.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِنَّهُ رَبِّي قال: سيدى، قال: يعنى زوج المرأة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن لمنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: لما همّت به تزينت ثم استلقت على فراشها، و همّ بها جلس بين رجليها يحلّ ثيابه، فنودى من السماء: يا ابن يعقوب لا تكن كطائر نتف ريشه فبقى لا ريش له، فلم يتّعظ على النداء شيئا حتى رأى برهان ربه جبريل فى صورة يعقوب عاضّا على إصبعه.

ففزع فخرجت شهوته من أنامله، فوثب إلى الباب فوجده مغلقا، فرفع يوسف رجله فضرب بها الباب الأدنى فانفرج له و اتبعته فأدركته، فوضعت يديها فى قميصه فشقته حتى بلغت عضلة ساقه، فألفيا سيدها لدى الباب.

و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها قال: طمعت فيه و طمع فيها، و كان فيه من الطمع أن همّ أن يحلّ التكة، فقامت إلى صنم لها مكلل بالدرّ و الياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها و بينه، فقال: أىّ شىء تصنعين؟ فقالت: أستحى من إلهى أن يرانى على هذه الصورة، فقال يوسف: تستحين من صنم لا يأكل و لا يشرب، و لا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تناليها منى أبدا، و هو البرهان الذى رأى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ قال: مثّل له يعقوب، فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله. و قد أطال المفسرون فى تعيين البرهان الذى رآه، و اختلفت أقوالهم فى ذلك اختلافا كثيرا. و أخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال: السيد: الزوج، يعنى فى قوله:

وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ قال: القيد.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قال:

صبىّ أنطقه اللّه كان فى الدار. و أخرج أحمد و ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «تكلّم أربعة و هم صغار: ابن ماشطة فرعون، و شاهد يوسف، و صاحب جريج، و عيسى ابن

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۵

مريم». و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قال: كان رجلا ذا لحية. و أخرج الفريابى و ابن جرير و أبو الشيخ عنه قال: كان من خاصّة الملك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: هو رجل له فهم و علم. و أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال: ابن عمّ

لها كان حكيما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: إنه ليس بإنسىّ و لا جنّى، هو خلق من خلق اللّه. قلت: و لعله لم يستحضر قوله تعالى: مِنْ أَهْلِها.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٠ الى ٣٤]

وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

يقال نسوة بضم النون، و هى قراءة الأعمش و الفضل و سليمان، و يقال نسوة بكسر النون، و هى قراءة الباقين، و المراد جماعة من النساء و يجوز التذكير فى الفعل المسند إليهنّ كما يجوز التأنيث. قيل: و هنّ امرأة ساقى العزيز و امرأة خبازه، و امرأة صاحب دوابه، و امرأة صاحب سجنه، و امرأة حاجبه. و الفتى فى كلام العرب:

الشاب، و الفتاة: الشابة، و المراد به هنا: غلامها، يقال: فتاى و فتاتى، أى: غلامى و جاريتى، و جملة قَدْ شَغَفَها حُبًّا فى محل رفع على أنها خبر ثان للمبتدأ، أو فى محل نصب على الحال، و معنى شغفها حبا:

غلبها حبه، و قيل: دخل حبّه فى شغافها. قال أبو عبيدة: و شغاف القلب غلافه، و هو جلدة عليه؛ و قيل:

هو وسط القلب، و على هذا يكون المعنى: دخل حبّه إلى شغافها فغلب عليه، و أنشد الأصمعى قول الراجز:

يتبعها و هى له شغاف و قرأ جعفر بن محمد و ابن محيصن و الحسن و شعفها؛ بالعين المهملة. قال ابن الأعرابى: معناه أجرى حبّه عليها «١» و قرأ غيرهم بالمعجمة. قال الجوهرى: شعفه الحبّ أحرق قلبه. و قال أبو زيد: أمرضه. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كل مذهب؛ لأن شعاف الجبال: أعاليها، و قد شغف بذلك شغفا بإسكان الغين المعجمة. إذا أولع به، و أنشد أبو عبيدة بيت امرئ القيس:

أ تقتلنى من قد شغفت فؤادها كما شغف المهنوءة «٢» الرجل الطّالى

---

(١). فى تفسير القرطبى (٩/ ١٧٦): أحرق حبه قلبها.

(٢). «المهنوءة»: المطلية بالقطران.

قال: فشبهت لوعة الحب بذلك. و قرأ الحسن: «قد شغفها» بضم الغين. قال النحاس: و حكى قد شغفها بكسر الغين، و لا يعرف ذلك فى كلام العرب إلا شغفها بفتح الغين؛ و يقال: إن الشغاف: الجلدة اللاصقة بالكبد التى لا ترى، و هى الجلدة البيضاء، فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد، و جملة إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ مقرّرة لمضمون ما قبلها. و المعنى: إنا لنراها، أى: نعلمها فى فعلها هذا، و هو المراودة لفتاها فى ضلال عن طريق الرشد و الصواب مُبِينٍ واضح لا يلتبس على من نظر فيه فَلَمَّا سَمِعَتْ امرأة العزيز بِمَكْرِهِنَ أى غيبتهنّ إياها، سمّيت الغيبة مكرا لاشتراكهما فى الإخفاء؛ و قيل: أردن أن يتوصّلن بذلك إلى رؤية يوسف، فلهذا سمّى قولهنّ مكرا؛ و قيل: إنها أسرّت عليهنّ فأفشين سرّها، فسمّى ذلك مكرا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَ أى تدعوهنّ إليها لينظرن إلى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً أى هيأت لهن مجالس يتكئن عليها، و أعتدت من

الاعتداد، و هو كل ما جعلته عدّة لشيء. و قرأ مجاهد و سعيد بن جبير «متكا» مخففا غير مهموز، و المتك: هو الأترجّ بلغة القبط، و منه قول الشاعر:

نشرب الإثم بالصّواع جهاراو ترى المتك بيننا مستعارا

و قيل: إن ذلك هو لغة أزد شنوءة، و قيل: حكى ذلك عن الأخفش. و قال الفراء: إنه الزّماورد «١».

و قرأ الجمهور «متكأ» بالهمز و التشديد، و أصح ما قيل فيه إنه المجلس، و قيل: هو الطعام، و قيل: المتكأ:

كل ما أتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث. و حكى القتبى أنه يقال اتكأنا عند فلان، أي: أكلنا، و منه قول الشاعر «٢»:

فظلنا بنعمة و اتّكأناو شربنا الحلال من قلله

و يؤيد هذا قوله: وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً فإن ذلك إنما يكون لشيء يأكله بعد أن يقطعنه، و السكين تذكر و تؤنث، قاله الكسائى و الفراء. قال الجوهرى: و الغالب عليه التذكير، و المراد من إعطائها لكل واحدة سكينا أن يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة، و يمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهنّ من تقطيع أيديهنّ وَ قالَتِ ليوسف اخْرُجْ عَلَيْهِنَ أى فى تلك الحالة التى هنّ عليها من الاتكاء و الأكل و تقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام. قوله: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ أى: عظّمنه، و قيل: أمذين، و منه قول الشاعر:

إذا ما رأين الفحل من فوق قلةصهلن و أكبرن المنيّ المقطّرا «٣»

---

(١). «الزماورد» الرقاق الملفوف باللحم.

(٢). هو جميل بن معمر.

(٣). فى تفسير القرطبى: إذا ما رأين الفحل من فوق قارهصهلن و أكبرن المنى المدفقا

«القلة»: الجبيل الصغير.

و قيل: حضن. قال الأزهرى. أكبرن بمعنى حضن، و الهاء للسكت؛ يقال: أكبرت المرأة؛ أى:

دخلت فى الكبر بالحيض، وقع منهنّ ذلك دهشا و فزعا لما شاهدنه من جماله الفائق، و حسنه الرائق، و من ذلك قول الشاعر:

نأتى النساء على أطهارهنّ و لانأتى النّساء إذا أكبرن إكبارا

و أنكر ذلك أبو عبيدة و غيره، و قالوا: ليس ذلك فى كلام العرب. قال الزجّاج: يقال أكبرنه و لا يقال حضنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض. و أجاب الأزهرى فقال: يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية.

و قد زيّف هذا بأن هاء الوقف تسقط فى الوصل. و قال ابن الأنبارى: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أى:

أكبرن إكبارا بمعنى حضن حيضا وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ أى: جرحنها، و ليس المراد به القطع الذى تبين منه اليد، بل المراد به الخدش و الحزّ، و ذلك معروف فى اللغة كما قال النحاس: يقال: قطع يد صاحبه؛ إذا خدشها، و قيل: المراد بأيديهنّ هنا: أناملهنّ، و قيل: أكمامهنّ. و المعنى: أنه لما خرج يوسف عليهنّ أعظمنه و دهشن و راعهنّ حسنه حتى اضطربت أيديهنّ، فوقع القطع عليها و هنّ فى شغل عن ذلك بما دهمهنّ؛ مما تطيش عنده الأحلام، و تضطرب له الأبدان، و تزول به العقول و قلن حاشا للّه كذا قرأ أبو عمرو ابن العلاء بإثبات الألف فى حاشا. و قرأ الباقون بحذفها. و قرأ الحسن «حاش للّه» بإسكان الشين. و روى عنه أنه قرأ «حاش الإله»، و قرأ ابن مسعود و أبيّ «حاشا اللّه». قال الزّجّاج: و أصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية، تقول: كنت فى حاشية فلان، أى: فى ناحيته، فقولك: حاشا لزيد من هذا، أى: تباعد منه. و قال أبو عليّ: هو من المحاشاة، و قيل: إن حاش حرف. و حاشا

فعل، و كلام أهل النحو فى هذه الكلمة معروف، و معناها هنا التنزيه، كما تقول: أسى القوم حاشا زيدا، فمعنى حاشا للّه: براءة للّه و تنزيه له. قوله: ما هذا بَشَراً إعمال «ما» عمل ليس هى لغة أهل الحجاز، و بها نزل القرآن كهذه الآية، و كقوله سبحانه: ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ و أما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس. و قال الكوفيون: أصله ما هذا ببشر، فلما حذفت الباء انتصب. قال أحمد بن يحيى ثعلب: إذا قلت ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، و هكذا سائر حروف الخفض. و أما الخليل و سيبويه و جمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس، و به قال البصريون، و البحث مقرّر فى كتب النحو بشواهده و حججه، و إنما نفين عنه البشرية لأنه قد برز فى صورة قد لبست من الجمال البديع ما لم يعهد على أحد من البشر، و لا أبصر المبصرون ما يقاربه فى جميع الصور البشرية؛ ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية و إن كن لا يعرفن الملائكة؛ لكنه قد تقرّر فى الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر فى الذات و الصفات، و أنهم فائقون فى كل شىء، كما تقرّر أن الشياطين على العكس من ذلك، و من هذا قول الشاعر «١»:

---

(١). قال ابن السيرافى: هو أبو وجزة يمدح عبد اللّه بن الزبير. و قال أبو عبيدة: هو لرجل من عبد القيس، جاهلى يمدح بعض الملوك (لسان العرب)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٨ فلست لإنسىّ و لكن لملأك تنزّل من جوّ السماء يصوب

و قرأ الحسن «ما هذا بشرى» على أن الباء حرف جرّ، و الشين مكسورة، أى: ما هذا بعبد يشترى، و هذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ و اعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بنى آدم، فإنهنّ لم يقلنه لدليل، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز فى طباعهنّ و ذلك ممنوع، فإن اللّه سبحانه يقول: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «١».

و ظاهر هذا أنه لم يكن شىء مثله من أنواع المخلوقات فى حسن تقويمه و كمال صورته، فما قاله صاحب الكشاف فى هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ فى عقله من أقوال المعتزلة، على أن هذه المسألة- أعنى مسألة المفاضلة بين الملائكة و البشر- ليست من مسائل الدين فى ورد و لا صدر، فما أغنى عباد اللّه عنها و أحوجهم إلى غيرها من مسائل التكليف قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ الإشارة إلى يوسف، و الخطاب للنسوة، أى: عيرتننى فيه. قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهنّ بيوسف إظهارا لعذر نفسها؛ و معنى فيه: أى فى حبه؛ و قيل بالإشارة إلى الحب، و الضمير له أيضا؛ و المعنى: فذلك الحب الذى لمتننى فيه هو ذلك الحب، و الأوّل أولى. و رجحه ابن جرير. و أصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ ضاق صدرها عن كتم ما تجده فى قلبها من حبه، فأقرت بذلك و صرّحت بما وقع منها من المراودة له، فقالت: وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ أى استعف و امتنع مما أريده طالبا لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدته إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف، فقالت:

وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ أى لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند ما غلقت الأبواب و قالت هيت لك لَيُسْجَنَنَ أى: يعتقل فى السجن و ليكونن من الصاغرين الأذلاء لما يناله من الإهانة، و يسلب عنه من النعمة و العزّة فى زعمها، قرئ «ليكونن» بالتثقيل و التخفيف، قيل:

و التخفيف أولى؛ لأن النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف، و ذلك لا يكون إلا فى الخفيفة، و أما ليسجنن فبالتثقيل لا غير؛ فلما سمع يوسف مقالها هذا، و عرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز قال مناجيا لربه سبحانه رَبِّ السِّجْنُ أى: يا ربّ السجن الذى أوعدتنى هذه به أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ من إتيانها و الوقوع فى المعصية

العظيمة التى تذهب بخير الدنيا و الآخرة.

قال الزجاج: أى دخول السجن، فحذف المضاف. و حكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضى اللّه عنه قرأ «السّجن» بفتح السين، و قرأ كذلك ابن أبى إسحاق و عبد الرحمن الأعرج و يعقوب، و هو مصدر سجنه سجنا، و إسناد الدعوة إليهنّ جميعا؛ لأن النسوة رغّبنه فى مطاوعتها و خوّفنه من مخالفتها، ثم جرى على هذا فى نسبة الكيد إليهنّ جميعا، فقال: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَ أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصّه اللّه سبحانه فى هذه السورة، و أما كيد سائر النسوة فهو ما تقدّم من الترغيب له فى المطاوعة و التخويف من المخالفة؛ و قيل: إنها كانت كلّ واحدة تخلو به وحدها، و تقول له: يا يوسف اقض لى حاجتى فأنا خير لك

---

(۱). التين: ۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۹

من امرأة العزيز؛ و قيل: إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيما لها، أو عدولا عن التصريح إلى التعريض، و الكيد: الاحتيال، و جزم أَصْبُ إِلَيْهِنَ على أنه جواب الشرط، أى: أمل إليهنّ، من صبا يصبو؛ إذا مال و اشتاق، و منه قول الشاعر:

إلى هند صبا قلبىو هند حبّها يصبى «۱»

وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ معطوف على أصب، أى: أكن ممن يجهل ما يحرم ارتكابه و يقدم عليه، أو ممن يعمل عمل الجهال. قوله: فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ لما قال: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَ كان ذلك منه تعرّضا للدعاء، و كأنه قال: اللهمّ اصرف عنّى كيدهنّ، فالاستجابة من اللّه تعالى له هى بهذا الاعتبار، لأنه إذا صرف عنه كيدهنّ لم يقع شىء مما رمنه منه، و وجه إسناد الكيد قد تقدّم، و جملة إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه، أى: إنه هو السميع لدعوات الداعين له: العليم بأحوال الملتجئين إليه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: قَدْ شَغَفَها قال: غلبها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قَدْ شَغَفَها قال: قتلها حبّ يوسف، الشغف: الحبّ القاتل، و الشعف:

حبّ دون ذلك، و الشغاف: حجاب القلب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قَدْ شَغَفَها قال: قد علقها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَ قال:

بحديثهنّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَ قال: بعملهنّ، و كلّ مكر فى القرآن فهو عمل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً قال:

هيأت لهنّ مجلسا، و كان سنّتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كلّ إنسان سكينا يأكل بها فَلَمَّا رَأَيْنَهُ قال:

فلما خرج عليهن يوسف أَكْبَرْنَهُ قال: أعظمته و نظرن إليه، و أقبلن يحززن أيديهنّ بالسكاكين و هنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الطعام.

و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً قال:

أعطتهنّ أترنجا، و أعطت كل واحدة منهنّ سكينا، فلما رأين يوسف أكبرنه، و جعلن يقطعن أيديهنّ و هنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الأترنج. و أخرج مسدّد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه المتكأ:

الأترنج، و كان يقرؤها خفيفة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد مُتَّكَأً قال:

طعاما. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عنه قال: هو الأترنج. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: هو كلّ شىء يقطع بالسكين.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الضحّاك مثله. و أخرج أبو الشيخ من طريق عبد العزيز ابن الوزير بن الكميت بن زيد قال حدّثنى أبى عن جدّى يقول فى قوله: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ قال: أمنين، و أنشد:

---

(١). الشاعر هو زيد بن ضبّة.

و فى لسان العرب: .... و هند مثلها يصبى.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠ و لما رأته الخيل من رأس شاهقصهلن و أمنين المنىّ المدفّقا

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عبد الصمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس عن أبيه عن جدّه ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ قال: لما خرج عليهنّ يوسف حضن من الفرح و ذكر قول الشاعر الذى قدّمنا ذكره:

نأتى النساء لدى أطهارهنّ .... البيت و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَكْبَرْنَهُ قال: أعظمنه وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ قال: حزّا بالسكين حتى ألقينها وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ قال: معاذ اللّه.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قال: قلن ملك من الملائكة من حسنه. و أخرج أبو الشيخ عن منبه عن أبيه قال: مات من النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ تسع عشرة امرأة كمدا. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الحاكم عن أنس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أعطى يوسف و أمّه شطر الحسن»، و قد وردت روايات عن جماعة من السلف فى وصف حسن يوسف؛ و المبالغة فى ذلك، ففى بعضها أنه أعطى نصف الحسن، و فى بعضها ثلثه، و فى بعضها ثلثيه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فَاسْتَعْصَمَ قال:

امتنع. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فَاسْتَعْصَمَ قال: فاستعصى. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَ قال: إن لا تكن منك أنت القوى و المنعة لا تكن منى و لا عندى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ أَصْبُ إِلَيْهِنَ قال: أتبعهنّ. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: أطاوعهنّ.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٥ الى ٤٠]

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)

معنى بَدا لَهُمْ ظهر لهم، و الضمير للعزيز و أصحابه الذين يدبرون الأمر معه و يشيرون عليه، و أما فاعل بَدا لَهُمْ فقال سيبويه هو ليسجننه، أى: ظهر لهم أن يسجنوه. قال المبرد: و هذا غلط لأن الفاعل

فتح القدير، ج٣، ص: ٣١

لا يكون جملة، و لكن الفاعل ما دلّ عليه «بدا» و هو المصدر، كما قال الشاعر:

و حقّ لمن أبو موسى أبوه‌يوفّقه الذى نصب الجبالا

أى: و حقّ الحقّ، فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه، و قيل: الفاعل المحذوف هو رأى؛ أى: و ظهر لهم رأى لم يكونوا يعرفونه من قبل، و هذا الفاعل حذف لدلالة ليسجننه عليه، و اللام فى ليسجننه جواب قسم محذوف على تقدير القول: أى ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين: و اللّه ليسجننه. و قرئ «لتسجننه» بالمثناة الفوقية على الخطاب، إما للعزيز و من معه، أو له وحده على طريق التعظيم، و الآيات؛ قيل: هى القميص و شهادة الشاهد و قطع الأيدى؛ و قيل: هى البركات التى فتحها اللّه عليهم بعد وصول يوسف إليهم، و لم يجد ذلك فيهم، بل كانت امرأته هى الغالبة على رأيه، الفاعلة لما يطابق هواها فى يوسف، و إنفاذ ما تقدّم منها من الوعيد له بقولها: وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ قيل:

و سبب ظهور هذا الرأى لهم فى سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة، و كتم ما شاع فى الناس من قصة امرأة العزيز معه؛ و قيل: إنّ العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه و بين امرأته، لما علم أنها قد صارت بمكان من حبّه لا تبالى معه بحمل نفسها عليه على أىّ صفة كانت. و معنى قوله: حَتَّى حِينٍ إلى مدّة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين، و قيل: إلى انقطاع ما شاع فى المدينة. و قال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين، و قيل:

إلى خمس، و قيل: إلى ستة أشهر، و قد تقدّم فى البقرة الكلام فى تفسير الحين، و حتى بمعنى إلى. قوله:

وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ فى الكلام حذف متقدّم عليه، و التقدير: و بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين فسجنوه، و دخل معه السجن فتيان، و مع للمصاحبة، و فتيان تثنية فتى، و ذلك يدلّ على أنهما عبدان له، و يحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم و إن لم يكن مملوكا؛ و قد قيل: إن أحدهما خبّاز الملك، و الآخر ساقيه، و قد كانا وضعا للملك سمّا لما ضمن لهما أهل مصر مالا فى مقابلة ذلك، ثم إن الساقى رجع عن ذلك و قال للملك: لا تأكل الطعام فإنه مسموم، و قال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب فشرب فلم يضرّه، و قال للخباز: كل، فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما، و كان دخولهما السجن مع دخول يوسف، و قيل: قبله، و قيل: بعده. قال ابن جرير:

إنهما سألا يوسف عن علمه فقال: إنى أعبر الرؤيا، فسألاه عن رؤياهما كما قصّ اللّه سبحانه: قالَ أَحَدُهُما إِنِّی أَرانِی أَعْصِرُ خَمْراً أى رأيتنى، و التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة. و المعنى: إنى أرانى أعصر عنبا، فسمّاه باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر. و فى قراءة ابن مسعود أعصر عنبا. قال الأصمعى:

أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا و معه عنب، فقال له: ما معك؟ فقال: خمر. و قيل: معنى أعصر خمرا؛ أى: عنب خمر، فهو على حذف المضاف، و هذا الذى رأى هذه الرؤيا هو الساقى، و هذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال، و كذلك الجملة التى بعدها و هى: وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّی أَرانِی أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِی خُبْزاً ثم وصف الخبز هذا بقوله: تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ و هذا الرائى لهذه الرؤيا هو الخباز، ثم قالا ليوسف جميعا بعد أن قصّا رؤياهما عليه: نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ أى بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين، أو بتأويل

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۲

المذكور لك من كلامنا، و قيل: إن كل واحد منهما قال له ذلك عقب قصّ رؤياه عليه، فيكون الضمير راجعا إلى ما رآه كل واحد منهما؛ و قيل: إن الضمير فى بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة، و التقدير بتأويل ذلك إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ أى من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، و كذا قال الفراء: إن معنى من المحسنين من العالمين الذين أحسنوا العلم. و قال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك؛ أو من المحسنين إلى أهل السجن، فقد روى أنه كان كذلك، و جملة قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و معنى ذلك أنه يعلم شيئا من الغيب، و أنه لا يأتيهما إلى

السجن طعام إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما، و هذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصّاه عليه، بل جعله عليه السلام مقدّمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلوّ مرتبته فى العلم، و أنه ليس من المعبّرين الذين يعبّرون الرؤيا عن ظنّ و تخمين، فهو كقول عيسى عليه السلام: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ «۱» و إنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان باللّه و الخروج من الكفر؛ و معنى ترزقانه:

يجرى عليهما من جهة الملك أو غيره، و الجملة صفة الطعام، أو يرزقكما اللّه سبحانه، و الاستثناء بقوله:

إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى: لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما، أى: بيّنت لكما ماهيته و كيفيته قبل أن يأتيكما، و سمّاه تأويلا بطريق المشاكلة، لأن الكلام فى تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبر كما به للواقع، و الإشارة بقوله:

ذلِكُما إلى التأويل، و الخطاب للسّائلين له عن تعبير رؤياهما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي بما أوحاه إلىّ و ألهمنى إياه لا من قبيل الكهانة و التّنجيم و نحو ذلك ممّا يكثر فيه الخطأ، ثم بين لهما أن ذلك الذى ناله من هذه الرتبة العلية و العلوم الجمة هو بسبب ترك الملّة التى لا يؤمن أهلها باللّه و لا بالآخرة و اتباعه لملّة الأنبياء من آبائه فقال: إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ و هو كلام مستأنف يتضمّن التّعليل لما قبله، و المراد بالترك هو عدم التلبّس بذلك من الأصل، لا أنه قد كان تلبس به، ثم تركه كما يدلّ عليه قوله: ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ ثم وصف هؤلاء القوم بما يدلّ على تصلبهم فى الكفر و تهالكهم عليه. فقال: وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أى: هم مختصّون بذلك دون غيرهم لإفراطهم فى الكفر باللّه. و قوله: وَ اتَّبَعْتُ معطوف على تركت، مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ و سمّاهم آباء جميعا لأنّ الأجداد آباء، و قدّم الجد الأعلى، ثم الجدّ الأقرب ثم الأب؛ لكون إبراهيم هو أصل هذه الملّة التى كان عليها أولاده، ثم تلقاها عنه إسحاق ثم يعقوب، و هذا منه عليه السلام لترغيب صاحبيه فى الإيمان باللّه ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ أى ما صحّ لنا ذلك فضلا عن وقوعه، و الضّمير فى لنا له و للأنبياء المذكورين، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الإيمان المفهوم من قوله ما كان لنا أن نشرك باللّه، و مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا خبر اسم الإشارة، أى: ناشئ من تفضلات اللّه علينا و لطفه بنا بما جعله لنا من النبوّة المتضمّنة للعصمة عن معاصيه، و من فضل اللّه على الناس كافة ببعثه الأنبياء إليهم، و هدايتهم إلى ربّهم، و تبيين

---

(۱). آل عمران: ۴۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۳

طرائق الحق لهم، وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ اللّه سبحانه على نعمه التى أنعم بها عليهم فيؤمنون به و يوحّدونه و يعملون بما شرعه لهم. قوله: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه، و قيل: المراد: يا صاحبىّ فى السجن؛ لأن السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه، و أن ذلك من باب: يا سارق الليلة. و على الأوّل يكون من باب قوله:

أَصْحابُ الْجَنَّةِ* أَصْحابُ النَّارِ* و الاستفهام للإنكار مع التقريع و التوبيخ، و معنى التفرّق هنا هو التفرّق فى الذّوات و الصّفات و العدد، أى: هل الأرباب المتفرقون فى ذواتهم المختلفون فى صفاتهم المتنافون فى عددهم خير لكما يا صاحبى السجن، أم اللّه المعبود بحق المتفرّد فى ذاته و صفاته الذى لا ضدّ له و لا ندّ و لا شريك، القهار الذى لا يغالبه مغالب و لا يعانده معاند؟ أورد يوسف عليه السلام على صاحبى السجن هذه الحجّة القاهرة على طريق الاستفهام، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام؛ و قد قيل: إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب، و لهذا قال لهما: ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أى:

إلا أسماء فارغة سمّيتموها و لا مسمّيات لها، و إن كنتم تزعمون أن لها مسمّيات، و هى الآلهة التى تعبدونها، لكنها لما كانت لا تستحق التّسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لا- مسمّيات لها؛ و قيل: المعنى: ما تعبدون من دون اللّه إلا مسمّيات أسماء سمّيتموها أنتم و آباؤكم من تلقاء أنفسكم، و ليس لها من الإلهية شىء إلا مجرد الأسماء؛ لكونها جمادات لا تسمع و لا تبصر و لا تنفع و لا تضرّ، و إنما قال: ما تَعْبُدُونَ على خطاب الجمع و كذلك ما بعده من الضمائر؛ لأنه قصد خطاب صاحبى السجن و من كان على دينهم، و مفعول سميتموها الثانى محذوف، أى: سمّيتموها آلهة من عند أنفسكم ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها أى بتلك التسمية مِنْ سُلْطانٍ من حجة تدلّ على صحّتها إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أى ما الحكم إلا للّه فى العبادة، فهو الذى خلقكم و خلق هذه الأصنام التى جعلتموها معبودة بدون حجة و لا برهان، و جملة أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ مستأنفة، و المعنى: أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بيّن لهم أن عبادته وحده دون غيره هى دين اللّه الذى لا- دين غيره فقال: ذلِكَ أى تخصيصه بالعبادة الدِّينُ الْقَيِّمُ أى:

المستقيم الثابت وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك هو دينه القويم، و صراطه المستقيم، لجهلهم و بعدهم عن الحقائق.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال: سألت ابن عباس عن قوله: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ فقال: ما سألنى عنها أحد قبلك، من الآيات: قدّ القميص، و أثرها فى جسده، و أثر السّكين، و قالت امرأة العزيز: إن أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس. و أخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال:

من الآيات كلام الصّبى. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: الآيات حزّهنّ أيديهنّ، و قدّ القميص.

و أقول: إن كان المراد بالآيات: الآيات الدالة على براءته فلا يصحّ عدّ قطع أيدى النسوة منها، لأنه وقع منهنّ ذلك لما حصل لهنّ من الدهشة عند ظهوره لهنّ، مع ما ألبسه اللّه سبحانه من الجمال الذى تنقطع عند مشاهدته عرى الصبر و تضعف عند رؤيته قوى التجلد، و إن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطى من

الحسن ما يسلب عقول المبصرين، و يذهب بإدراك الناظرين، فنعم يصح عدّ قطع الأيدى من جملة الآيات، و لكن ليست هذه الآيات هى المرادة هنا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات؛ أما أوّل مرة فبالحبس لما كان من همه بها، و الثانية لقوله: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ «۱» عوقب بطول الحبس، و الثالثة حيث قال: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ «۲»، فاستقبل فى وجهه إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ «۳».

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما خازن الملك على طعامه، و الآخر ساقيه على شرابه. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً قال:

عنبا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ قال: عبارته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قال: كان إحسانه فيما ذكر لنا أنه كان يعزّى حزينهم، و يداوى مريضهم، و رأوا منه عبادة و اجتهادا فأحبوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عن الضحّاك قال: كان إحسانه أنه إذا مرض إنسان فى السجن قام عليه، و إذا ضاق عليه المكان أوسع له، و إذا احتاج جمع له. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال: اللهمّ لا تعمّ عليهم الأخبار، و هوّن عليهم مرّ الأيام.

و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن جرير فى قوله: لا- يَأْتِيكُما طَعامٌ الآية قال: كره العبارة لهما فأجابهما بغير جوابهما ليريهما أن عنده علما، و كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معلوما فأرسل به إليه، فقال يوسف

لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إلى قوله: يَشْكُرُونَ فلم يدعه صاحبا الرؤيا حتى يعبر لهما، فكره العبارة فقال: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ إلى قوله: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ قال: فلم يدعاه فعبر لهما.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة في قوله: ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ قال: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة اللّه، و يشكر ما بالناس من نعم اللّه، ذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول: يا ربّ شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدرى، و يا ربّ حامل فقه غير فقيه. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة في قوله: أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ الآية قال: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظّهما من ربّهما و إلى نصيبهما من آخرتهما. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله: ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ قال: العدل، فقال:

---

(۱). يوسف: ۴۲.

(۲). يوسف: ۷۰.

(۳). يوسف: ۷۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۵

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (۴۱) وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲)

هذا هو بيان ما طلباه منه من تعبير رؤياهما، و المراد بقوله: أَمَّا أَحَدُكُما هو السّاقي، و إنما أبهمه لكونه مفهوما، أو لكراهة التصريح للخباز بأنه الذي سيصلب فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً أي مالكه، و هي عهدته التي كان قائما بها في خدمة الملك، فكأنه قال: أما أنت أيها الساقي فستعود إلى ما كنت عليه و يدعو بك الملك و يطلقك من الحبس وَ أَمَّا الْآخَرُ و هو الخباز فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ تعبيرا لما رآه من أنه يحمل فوق رأسه خبزا فتأكل الطير منه قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ و هو ما رأياه و قصاه عليه، يقال استفتاه: إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه، و هما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا أي قال يوسف، و الظانّ هو أيضا يوسف، و المراد بالظنّ العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي و هلاك الخباز، هكذا قال جمهور المفسرين، و قيل: الظاهر على معناه، لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظنا، و الأوّل أولى و أنسب بحال الأنبياء، و لا سيما و قد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه اللّه على شيء من علم الغيب كما في قوله: لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ «۱» الآية و جملة اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ هي مقول القول، أمره بأن يذكره عند سيده، و يصفه بما شاهده منه من جودة التعبير و الاطلاع على شيء من علم الغيب، و كانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول و نسيان عن ذكر اللّه بسبب الشيطان، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائدا إلى يوسف، هكذا قال بعض المفسرين، و يكون المراد بربه في قوله: ذِكْرَ رَبِّهِ هو اللّه سبحانه، أي: إنساء الشيطان يوسف ذكر اللّه تعالى في تلك الحال وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا يذكره عند سيده ليكون ذلك سببا لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته. و ذهب كثير من المفسّرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربّه هو الذي نجا من الغلامين؛ و هو الشرابي، و المعنى: إنساء الشيطان الشرابي ذكر سيده؛ أي: ذكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف من ذكره عند سيده، و يكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن و رجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك، و قد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على

الأنبياء. و أجيب بأن النسيان وقع من يوسف، و نسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، و الأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن اللّه سبحانه، و قد صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّرونى». و رجح أيضا بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه فى السجن بضع سنين. و أجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، و أنه عوقب بسبب استعانته بغير اللّه

---

(١). يوسف: ٣٧.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦

سبحانه، و يؤيد رجوع الضمير إلى يوسف ما بعده من قوله: فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ و يؤيد رجوعه إلى الذى نجا من الغلامين قوله فيما سيأتى وَ قالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ سنة فَلَبِثَ أى يوسف فِي السِّجْنِ بسبب ذلك القول الذى قاله للذى نجا من الغلامين، أو بسبب ذلك الإنساء بِضْعَ سِنِينَ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع كما حكاه الهروى عن العرب. و حكى عن أبى عبيدة أن البضع:

ما دون نصف العقد، يعنى ما بين واحد إلى أربعة؛ و قيل: ما بين ثلاث إلى سبع، حكاه قطرب. و حكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. و قد اختلف فى تعيين قدر المدّة التى لبث فيها يوسف فى السجن فقيل:

سبع سنين، و قيل: ثنتا عشرة سنة، و قيل: أربع عشرة سنة، و قيل: خمس سنين.

و قد أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله: أَمَّا أَحَدُكُما قال: أتاه فقال: رأيت فيما يرى النائم أنى غرست حبة من عنب فنبتت، فخرج فيه عناقيد فعصرتهنّ ثم سقيتهنّ الملك؛ فقال: تمكث فى السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئا، إنما تحالما ليجرّبا علمه، فلما أوّل رؤياهما قالا: إنما كنا نلعب و لم نر شيئا، فقال: قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ يقول: وقعت العبارة فصار الأمر على ما عبر يوسف. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن أبى مجلز قال: كان أحد اللذين قصّا على يوسف الرؤيا كاذبا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن سباط وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ قال: عند ملك الأرض. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب العقوبات و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو لم يقل يوسف الكلمة التى قال ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير اللّه». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن عكرمة مرفوعا نحوه و هو مرسل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم أبو الشيخ عن الحسن مرفوعا نحوه، و هو مرسل. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فذكر نحوه و هو مرسل أيضا.

و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أنس قال: أوحى إلى يوسف: من استنقذك من القتل حين همّ إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا ربّ، قال: فمن استنقذك من الجبّ إذ ألقوك فيه؟ قال: أنت يا ربّ، قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همّت بك؟ قال: أنت يا ربّ، قال: فما لك نسيتنى و ذكرت آدميا؟ قال: جزعا و كلمة تكلّم بها لسانى، قال:

فوعزتى لأخلدنك فى السجن بضع سنين، فلبث فيه سبع سنين. و قد اختلف السلف فى تقدير مدّة لبثه فى السجن على حسب ما قدّمنا ذكره، فلم نشتغل ها هنا بذكر من قال بذلك و من خرّجه.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٧

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴۳ الى ۴۹]

وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّی أَری سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی رُءْيایَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (۴۳) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (۴۴) وَ قالَ الَّذِی نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِی سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّی أَرْجِعُ إِلَی النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِی سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (۴۷)

ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹)

المراد بالملک هنا: هو الملک الأكبر، و هو الريان بن الوليد الذی كان العزيز وزيرا له، رأى فی نومه لما دنا فرج يوسف عليه السلام أنه خرج من نهر يابس سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ جمع سمين و سمينة، فی إثرهنّ سبع عجاف، أی: مهازيل، و قد أقبلت العجاف على السمان فأكلتهنّ. و المعنى: إنی رأيت، و لكنه عبر بالمضارع لاستحضار الصورة، و كذلك قوله: يَأْكُلُهُنَّ عبر بالمضارع للاستحضار، و العجاف جمع عجفاء، و قياس جمعه عجف؛ لأن فعلاء و أفعل لا تجمع على فعال، و لكنه عدل عن القياس حملا على سمان وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ معطوف على سَبْعَ بَقَراتٍ و المراد بقوله: خُضْرٍ أنه قد انعقد حبها، و اليابسات التی قد بلغت حدّ الحصاد. و المعنى: و أرى سبعا أخر يابسات، و كان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر و التوت عليها حتى غلبتها، و لعل عدم التعرّض لذكر هذا فی النظم القرآنی للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات يا أَيُّهَا الْمَلَأُ خطاب للأشراف من قومه أَفْتُونِی فِی رُءْيایَ أی: أخبرونی بحكم هذه الرؤيا إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ أی: تعلمون عبارة الرؤيا، و أصل العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر: بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول إليه أمرها. قال الزّجّاج: اللام فی للرؤيا للتبيين؛ أی إن كنتم تعبرون، ثم بيّن فقال: «للرؤيا»، و قيل: هو للتقوية، و تأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل، و جملة قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الأضغاث: جمع ضغث، و هو كلّ مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما؛ و المعنى: أخاليط أحلام، و الأحلام: جمع حلم؛ و هی الرؤيا الكاذبة التی لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس و وسواس الشيطان، و الإضافة بمعنى من، و جمعوا الأحلام و لم يكن من الملک إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم فی وصفها بالبطلان، و يجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصّه اللّه علينا وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ قال الزّجّاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا مطلق العلم بالتأويل؛ و قيل: إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقا، و لم يدّعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا؛ و قيل: إنهم قصدوا محوها من صدر الملک حتى لا يشتغل بها، و لم يكن ما ذكروه من نفی العلم حقيقة وَ قالَ الَّذِی نَجا مِنْهُما أی: من الغلامين، و هو الساقی الذی قال له يوسف: اذْكُرْنِی عِنْدَ رَبِّكَ وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ بالدال المهملة على قراءة الجمهور، و هی القراءة

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸

الفصيحة، أی: تذكر الساقی يوسف و ما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا. و قرئ بالمعجمة؛ و معنى بَعْدَ أُمَّةٍ: بعد حين، و منه: إِلی أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ «۱» أی: إلى وقت. قال ابن درستويه: و الأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف، و إقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال: و اللّه أعلم و ادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة، و الأمة: الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو فی اللفظ واحد، و فی المعنى جمع، و كل جنس من الحيوان أمة. و قرأ ابن عباس و عكرمة «بعد أمة» بفتح الهمزة و تخفيف الميم:

أى بعد نسيان، و منه قول الشاعر:

أممت «٢» و كنت لا أنسى حديثاكذاک الدّهر يودى بالعقول

و يقال: أمه يأمه أمها: إذا نسى. و قرأ الأشهب العقيلى «بعد إمة» بكسر الهمزة؛ أى بعد نعمة؛ و هى نعمة النجاة أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ أى أخبركم به بسؤالى عنه من له علم بتأويله، و هو يوسف فَأَرْسِلُونِ خاطب الملك بلفظ التعظيم، أو خاطبه و من كان عنده من الملأ، طلب منهم أن يرسلوه إلى يوسف ليقصّ عليه رؤيا الملک حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلک إلى الملک يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا أى: يا يوسف، و فى الكلام حذف، و التقدير: فأرسلوه إلى يوسف فسار إليه، فقال له: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ إلى آخر الكلام؛ و المعنى: أخبرنا فى رؤيا من رأى سبع بقرات إلخ و ترک ذکر ذلک اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بأن ذلک رؤيا، و أن المطلوب منه تعبيرها لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ أى: إلى الملك و من عنده من الملأ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ما تأتى به من تأويل هذه الرؤيا أو يعلمون فضلک و معرفتک لفنّ التعبير، و جملة قالَ تَزْرَعُونَ إلخ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كغيرها مما يرد هذا المورد سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً أى متوالية متتابعة، و هو مصدر، و قيل: هو الحال، أى: دائبين، و قيل: صفة لسبع، أى: دائبة، و حكى أبو حاتم عن يعقوب أنه قرأ دَأَباً بتحريک الهمزة، و كذا روى حفص عن عاصم و هما لغتان، قال الفرّاء: حرّک لأن فيه حرفا من حروف الحلق، و كذلک كلّ حرف فتح أوّله و سكن ثانيه فتثقيله جائز فى كلمات معروفة.

فعبّر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان بسبع سنين فيها خصب، و العجاف بسبع سنين فيها جدب، و هكذا عبر السبع السنبلات الخضر و السبع السنبلات اليابسات، و استدل بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره فى التعبير من قوله: فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ أى ما حصدتم فى كلّ سنة من السّنين المخصبة فذروا ذلک المحصود فى سنبله و لا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس، إلا قليلا مما تأكلون فى هذه السنين المخصبة، فإنه لا بدّ لكم من فصله عن سنبله و إخراجه عنها، و اقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون إليه من البذر الذى يبذرونه فى أموالهم لأنه قد علم من قوله تزرعون ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد السبع السنين المخصبة سَبْعٌ شِدادٌ أى سبع سنين مجدبة يصعب أمرها على الناس يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَ من تلک الحبوب المتروكة فى سنابلها، و إسناد الأكل إلى السنين مجاز، و المعنى: يأكل الناس فيهنّ أو يأكل أهلهنّ ما

---

(١). هود: ٨.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٢٠١): أمهت.

قدمتم لهنّ، أى: ما ادخرتم لأجلهنّ فهو من باب: نهاره صائم، و منه قول الشاعر:

نهارک يا مغرور سهو و غفلةو ليلک نوم و الرّدى لک لازم

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ أى مما تحبسون من الحب لتزرعوا به؛ لأنّ فى استبقاء البذر تحصين الأقوات.

و قال أبو عبيدة: معنى تحصنون: تحرزون، و قيل: تدّخرون، و المعنى واحد. قوله: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ أى من بعد السّنين المجدبات، فالإشارة إليها، و العام السنة فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ من الإغاثة أو الغوث، و الغيث المطر، و قد غاث الغيث الأرض، أى أصابها، و غاث اللّه البلاد يغيثها غوثا: أمطرها، فمعنى يغاث الناس: يمطرون وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ أى يعصرون الأشياء التى تعصر كالعنب و السمسم و الزيتون، و قيل: أراد حلب الألبان؛ و قيل: معنى يعصرون: ينجون. مأخوذ من العصرة، و هى المنجاة. قال أبو عبيدة: و العصر بالتحريک الملجأ و المنجاة، و منه قول الشاعر:

صاديا يستغيث غير مغاثو لقد كان عصرة المنجود

و اعتصرت بفلان: التجأت به. و قرأ حمزة و الكسائى (تعصرون) بناء الخطاب. و قرئ «يعصرون» بضم حرف المضارعة و فتح الصاد، و معناه يمطرون، و منه قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً «۱».

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: قال يوسف للساقى: اذكرنى عند ربك؛ أى:

الملك الأعظم و مظلمتى و حبسى فى غير شىء، فقال: أفعل؛ فلما خرج الساقى ردّ على ما كان عليه، و رضى عنه صاحبه، و أنساه الشيطان ذكر الملك الذى أمره يوسف أن يذكره له، فلبث يوسف بعد ذلك فى السجن بضع سنين؛ ثم إن الملك ريان بن الوليد رأى رؤياه التى أرى فيها، فهالته، و عرف أنها رؤيا واقعة، و لم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته: إِنِّی أَری سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ فلما سمع من الملك ما سمع منه و مسألته عن تأويلها ذكر يوسف ما كان عبر له و لصاحبه و ما جاء من ذلك على ما قاله فقال: أنا أنبئكم بتأويله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَضْغاثُ أَحْلامٍ يقول: مشتبهة. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير عنه قال: من الأحلام الكاذبة.

و أخرج ابن جرير عن الضحّاك مثله. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ قال: بعد حين. و أخرج ابن جرير عن مجاهد و الحسن و عكرمة و عبد اللّه بن كثير و السدّى مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بعد سنين. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: بعد أمة من الناس. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: أَفْتِنا فِی سَبْعِ بَقَراتٍ الآية، قال: أما السّمان فسنون فيها خصب، و أما العجاف فسنون مجدبة، و سبع سنبلات خضر هى السّنون المخاصيب تخرج الأرض نباتها و زرعها و ثمارها، و أخر يابسات المحول الجدوب لا تنبت شيئا.

(۱). النبأ: ۱۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۰

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لقد عجبت من يوسف و كرمه و صبره، و اللّه يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف و السمان، و لو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط عليهم أن يخرجونى، و لقد عجبت من يوسف و صبره و كرمه و اللّه يغفر له حين أتاه الرسول، و لو كنت مكانه لبادرتهم الباب، و لكنه أراد أن يكون له العذر». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ يقول: تخزنون، و فى قوله:

وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ يقول: الأعناب و الدهن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ يقول: يصيبهم فيه غيث يَعْصِرُونَ يقول: يعصرون فيه العنب و يعصرون فيه الزبيب و يعصرون من كل الثمرات. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ قال: يحتلبون. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أيضا ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ قال: أخبرهم بشىء لم يسألوه عنه كأنّ اللّه قد علمه إياه فيه يغاث الناس بالمطر. و فيه يعصرون السّمسم دهنا، و العنب خمرا، و الزيتون زيتا.

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۰ الى ۵۷]

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِی بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِی قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّی بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا

راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۵۱) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (۵۲) وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳) وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴)

قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

قوله: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ في الكلام حذف قبل هذا، و التقدير: فذهب الرسول إلى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا، و قال الملك لمن بحضرته ائتوني به، أي: بيوسف، رغب إلى رؤيته و معرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له و من تعبيره لرؤياه فَلَمَّا جاءَهُ أي جاء إلى يوسف الرَّسُولُ و استدعاه إلى حضرة الملك، و أمره بالخروج من السجن قالَ يوسف للرسول ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ أي سيدك فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك و توقف عن الخروج من السجن، و لم يسارع إلى إجابة الملك، ليظهر للناس براءة ساحته و نزاهة جانبه، و أنه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلما بينا، و لقد أعطى عليه السلام من الحلم و الصبر و الأناة ما تضيق الأذهان عن تصوّره، و لهذا ثبت في الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «و لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعي» يعني الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك. قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف أناة و صبرا، و طلبا لبراءة ساحته، و ذلك أنه خشي أن يخرج و ينال من الملك مرتبة، و يسكت عن أمر ذنبه، فيراه الناس

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۱

بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز، و إنما قال: فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ و سكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز، أو خوفا منه من كيدها و عظيم شرّها، و ذكر السؤال عن تقطيع الأيدي و لم يذكر مراودتهنّ له، تنزها منه عن نسبة ذلك إليهنّ، و لذلك لم ينسب المراودة فيما تقدّم إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها و انسلت. و قد اكتفى هنا بالإشارة الإجمالية بقوله: إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فجعل علم اللّه سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهنّ مغنيا عن التصريح، و جملة قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف؟

و الخطب: الشأن العظيم الذي يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة. و المعنى: ما شأنكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه. و قد تقدّم معنى المراودة، و إنما نسب إليهنّ المراودة؛ لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم، و من جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز؛ أو أراد بنسبة ذلك إليهنّ وقوعه منهنّ في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشيا عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها لكونها امرأة وزيره و هو العزيز، فأجبن عليه بقولهنّ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ أي معاذ اللّه ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ أي من أمر سيئ ينسب إليه، فعند ذلك قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ منزهة لجانبه، مقرّة على نفسها بالمراودة له الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أي تبين و ظهر. و أصله حصص، فقيل حصحص كما قيل في كببوا كبكبوا، قاله الزّجّاج، و أصل الحصّ: استئصال الشيء، يقال:

حصّ شعره: إذا استأصله، و منه قول أبي قيس بن الأسلت:

قد حصّت البيضة رأسي فماأطعم نوما غير تهجاع «۱»

و المعنى أنه انقطع الحق عن الباطل بظهوره و بيانه، و منه:

فمن مبلغ عنّي خداشا فإنّه كذوب إذا ما حصحص الحقّ ظالم

و قيل: هو مشتق من الحصّة. و المعنى: بانت حصّة [الحق من حصة] «۲» الباطل. قال الخليل: معناه ظهر الحق بعد خفائه، ثم أوضحت ذلك بقولها: أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ و لم تقع منه المراودة لي أصلا وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما قاله من تبرئة نفسه و نسبة

المراودة إليها، و أرادت ب الْآنَ زمان تكلمها بهذا الكلام. قوله: ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام قال الفراء: و لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصّارفة لكلّ منهما إلى ما يليق به، و الإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، و هى تثبته و تأنّيه؛ أى فعلت ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى أهله بالغيب؛ و المعنى بظهر الغيب، و الجار و المجرور فى محل نصب على الحال؛ أى: و هو غائب عنى، أو و أنا غائب عنه. قيل: إنه قال ذلك و هو فى السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالته النسوة، و ما قالته امرأة العزيز؛ و قيل: إنه قال ذلك و قد صار عند الملك، و الأوّل أولى. و ذهب الأقلّون من المفسرين إلى أن هذا من كلام

---

(١). «البيضة»: الخوذة. «التهجاع»: النومة الخفيفة.

(٢). ما بين معقوفتين من تفسير القرطبى (٩/ ٢٠٨)

امرأة العزيز؛ و المعنى: ذلك القول الذى قلته فى تنزيهه، و الإقرار على نفسى بالمراودة ليعلم يوسف أنى لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن منه و هو غائب عنى، أو و أنا غائبة عنه وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ أى لا يثبته و يسدّده، أو لا يهديهم فى كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به و يدوم، و إذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له و الخيانة لزوجها، و تعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته و نزاهته وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس، و عدم التزكية بها مع أنه قد علم هو و غيره من الناس أنه بريء، و ظهر ذلك ظهور الشمس، و أقرّت به المرأة التى ادّعت عليه الباطل، و نزهته النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ، و إن كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة؛ لأنها قد أقرّت بالذنب، و اعترفت بالمراودة و بالافتراء على يوسف. و قد قيل: إن هذا من قول العزيز، و هو بعيد جدّا؛ و معناه: و ما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف، و المساعدة على حبسه بعد أن علمت ببراءته إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أى إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، و تأثيرها بالطبع، و صعوبة قهرها، و كفها عن ذلك إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي أى إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء، أو إلا وقت رحمة ربى و عصمته لها، و قيل:

الاستثناء منقطع؛ و المعنى: لكن رحمة ربى هى التى تكفّها عن أن تكون أمارة بالسوء، و جملة إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ تعليل لما قبلها، أى: إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده و الرحمة لهم. قوله: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدّم؛ و معنى أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي

أجعله خالصا لى دون غيرى، و قد كان قبل ذلك خالصا للعزيز، و الاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة، قال ذلك لما كان يوسف نفيسا، و عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم فَلَمَّا كَلَّمَهُ فى الكلام حذف، و تقديره فأتوه به فلما كلمه، أى: فلما كلم الملك يوسف، و يحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسف الملك. قيل: و الأوّل أولى؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم؛ و قيل: الثانى أولى؛ لقول الملك قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ فإن هذا يفيد أنه لما تكلم يوسف فى مقام الملك جاء بما حببه إلى الملك، و قرّبه من قلبه، فقال له هذه المقالة، و معنى مكين: ذو مكانة و أمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك و يأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره، أو على ما يكله إليه من ذلك. قيل: إنه لما وصل إلى الملك أجلسه على سريره، و قال له: إنى أحبّ أن أسمع منك تعبير رؤياى، فعبرها له بأكمل بيان و أتمّ عبارة، فلما سمع الملك منه ذلك قال له: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ فلما سمع يوسف منه ذلك قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ أى ولنى أمر الأرض التى أمرها إليك و هى أرض مصر، أو اجعلنى على حفظ خزائن الأرض، و

هی الأمکنة التی تخزن فیها الأموال، طلب یوسف علیه السلام منه ذلک لیتوصل به إلی نشر العدل و رفع الظلم، و یتوصل به إلی دعاء أهل مصر إلی الإیمان باللّه و ترک عبادة الأوثان، و فیه دلیل علی أنه یجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل فی أمر من أمور السلطان أن یرفع منار الحق و یهدم ما أمکنه من الباطل، طلب ذلک لنفسه، و یجوز له أن یصف نفسه بالأوصاف التی

لها ترغیبا فیما یرومه، و تنشیطا لمن یخاطبه من الملوک بإلقاء مقالید الأمور إلیه و جعلها منوطة به، و لکنه یعارض هذا الجواز ما ورد عن نبینا صلی اللّه علیه و آله و سلم من النهی عن طلب الولایة و المنع من تولیة من طلبها أو حرص علیها. و الخزائن: جمع خزانة، و هی اسم للمکان الذی یخزن فیه الشیء و الحفیظ: الذی یحفظ الشیء، أی: إِنِّی حَفِیظٌ لما جعلته إلیّ من حفظ الأموال لا أخرجها فی غیر مخارجها، و لا أصرفها فی غیر مصارفها عَلِیمٌ بوجود جمعها و تفریقها و مدخلها و مخرجها وَ کَذلِکَ مَکَّنَّا لِیُوسُفَ أی: و مثل ذلک التمکین العجیب مکّنا لیوسف فی الأرض، أی: جعلنا له مکانا، و هو عبارة عن کمال قدرته و نفوذ أمره و نهیه حتی صار الملک یصدر عن رأیه، و صار الناس یعملون علی أمره و نهیه یَتَبَوَّأُ مِنْها حَیْثُ یَشاءُ أی: ینزل منها حیث أراد و یتخذه مباءة، و هو عبارة عن کمال قدرته کما تقدّم، و کأنه یتصرف فی الأرض التی أمرها إلی سلطان مصر کما یتصرف الرجل فی منزله. و قرأ ابن کثیر بالنون. و قد استدل بهذه الآیة علی أنه یجوز تولّی الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الکافر لمن وثق من نفسه بالقیام بالحق. و قد قدّمنا الکلام علی هذا مستوفی فی قوله سبحانه: وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا «۱». نُصِیبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ من العباد فنرحمه فی الدنیا بالإحسان إلیه و الإنعام علیه، و فی الآخرة بإدخاله الجنة و إنجائه من النار وَ لا نُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ فی أعمالهم الحسنة التی هی مطلوب اللّه منهم، أی: لا نضیع ثوابهم فیها، و مجازاتهم علیها وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أی أجرهم فی الآخرة، و أضیف الأجر إلی الآخرة للملابسة، و أجرهم هو الجزاء الذی یجازیهم اللّه به فیها، و هو الجنة التی لا ینفد نعیمها و لا تنقضی مدّتها خَیْرٌ لِلَّذِینَ آمَنُوا باللّه وَ کانُوا یَتَّقُونَ الوقوع فیما حرّمه علیهم، و المراد بهم المحسنون المتقدّم ذکرهم، و فیه تنبیه علی أن الإحسان المعتدّ به هو الإیمان و التقوی.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: ما بالُ النِّسْوَةِ قال: أراد یوسف العذر قبل أن یخرج من السجن. و أخرج الفریابی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ، و البیهقی فی الشعب، عنه قال: لما قالت امرأة العزیز: أنا راودته، قال یوسف: ذلِکَ لِیَعْلَمَ أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَیْبِ فغمزه جبریل فقال: و لا حین هممت بها؟ فقال: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِی الآیة. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا: حَصْحَصَ الْحَقُّ قال: تبین. و أخرج ابن جریر عن مجاهد و قتادة و الضحاک و ابن زید و السدّی مثله. و أخرج سعید بن منصور و ابن أبی حاتم عن حکیم بن حزام فی قوله: ذلِکَ لِیَعْلَمَ أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَیْبِ فقال له جبریل: و لا حین حللت السراویل؟ فقال عند ذلک وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِی

و أخرج ابن عبد الحکم فی «فتوح مصر» من طریق الکلبی عن أبی صالح عن ابن عباس فی قوله: وَ قالَ الْمَلِکُ ائْتُونِی بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِی قال: فأتاه الرسول فقال: ألق عنک ثیاب السجن، و البس ثیابا جددا، و قم إلی الملک، فدعا له أهل السجن و هو یومئذ ابن ثلاثین سنة، فلما أتاه رأی غلاما حدثا، فقال: أ یعلم هذا رؤیای و لا یعلمها السّحرة و الکهنة؟ و أقعده قدّامه و قال: لا تخف، و ألبسه طوقا من ذهب و ثیاب حریر،

---

(۱). هود: ۱۱۳.

و أعطاه دابة مسروجة مزینة کدابة الملک، و ضرب الطبل بمصر: إن یوسف خلیفة الملک. و أخرج سعید بن منصور و ابن

المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملك ليوسف: إنى أحبّ أن تخالطنى فى كلّ شىء إلا فى أهلى، و أنا آنف أن تأكل معى، فغضب يوسف و قال: أنا أحق أن آنف، أنا ابن إبراهيم خليل اللّه، و أنا ابن إسحاق ذبيح اللّه، و أنا ابن يعقوب نبىّ اللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن شيبة بن نعامة الضبى فى قوله: اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ يقول على جميع الطعام إِنِّي حَفِيظٌ لما استودعتنى عَلِيمٌ بسنى المجاعة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ قال: ملكناه فيها يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا يصنع فيها ما يشاء. و أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم: أن يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرا، و كان زوجها عنينا.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]

وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لا تَقْرَبُونِ (٦٠) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ (٦١) وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٦٣) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَ نَمِيرُ أَهْلَنا وَ نَحْفَظُ أَخانا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

قوله: وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ أى جاءوا إلى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط فَدَخَلُوا على يوسف فَعَرَفَهُمْ لأنه فارقهم رجالا وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ لأنّهم فارقوه صبيا يباع بالدراهم فى أيدى السّيّارة بعد أن أخرجوه من الجبّ، و دخلوا عليه الآن و هو رجل عليه أبهة الملك، و رونق الرئاسة، و عنده الخدم و الحشم، و قيل: إنهم أنكروه لكونه كان فى تلك الحال على هيئة ملك مصر، و لبس تاجه و تطوّق بطوقه، و قيل: كانوا بعيدا منه فلم يعرفوه؛ و قيل غير ذلك وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة و ما يصلحون به سفرهم من العدّة التى يحتاجها المسافر، يقال: جهزت القوم تجهيزا؛ إذا تكلّفت لهم جهازا للسفر. قال الأزهرى: القراء كلّهم على فتح الجيم، و الكسر لغة جيدة قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ قيل: لا بدّ من كلام ينشأ عنه طلبه لهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، فروى أنه لما رآهم و كلّموه بالعبرانية قال لهم: ما أنتم؟ و ما شأنكم؟ فإنى أنكركم، فقالوا: نحن قوم من

أهل الشام، جئنا نمتار، و لنا أب شيخ صديق نبىّ من الأنبياء اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: عشرة، و قد كنا اثنى عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، و كان أحبنا إلى أبينا، و قد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه هو باق لديه يتسلى به، فقال لهم حينئذ: ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ يعنى أخاه بنيامين الذى تقدّم ذكره، و هو أخو يوسف لأبيه و أمه، فوعدوه بذلك، فطلب منهم أن يتركوا أحدهم رهينة عنده حتى يأتوه بالأخ الذى طلبه، فاقترعوا فأصابت القرعة شمعون فخلّفوه عنده، ثم قال لهم: أَ لا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ أى أتممه. و جاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرّة، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقا به و تصديقا لقوله، فقال: وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ أى: و الحال أنى خير المنزلين لمن نزل بى كما فعلته بكم من حسن الضيافة و حسن الإنزال. قال الزجاج: قال يوسف: وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم،

ثم توعّدهم إذا لم يأتوه به فقال: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى وَ لا تَقْرَبُونِ أى فلا أبيعكم شيئا فيما بعد، و أما فى الحال فقد أوفاهم كيلهم، و معنى لا تَقْرَبُونِ

لا تدخلون بلادى فضلا عن أن أحسن إليكم. و قيل: معناه: لا أنزلكم عندى كما أنزلتكم هذه المرّة. و لم يرد أنهم لا يقربون بلاده، و تقربون مجزوم إما على أن لا ناهية أو على أنها نافية، و هو معطوف على محل الجزاء داخل فى حكمه، كأنّه قال: فإن لم تأتونى تحرموا و لا تقربوا، فلما سمعوا منه ذلك و عدوه بما طلبه منهم ف قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ أى سنطلبه منه، و نجتهد فى ذلك بما نقدر عليه. و قيل: معنى المراودة هنا:

المخادعة منهم لأبيهم و الاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ هذه المراودة غير مقصرين فيها. و قيل:

معناه: و إنا لقادرون على ذلك، لا نتعانى به و لا نتعاظمه وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِى رِحالِهِمْ قرأ أهل المدينة و أبو عمرو و عاصم من رواية شعبة و ابن عامر «لفتيته»، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و النحاس و غيرهما، و قرأ سائر الكوفيين «لفتيانه»، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود كالقراءة الآخرة، قال النحّاس: لفتيانه مخالف للسواد الأعظم، و لا يترك السواد المجمع عليه لهذا الإسناد المنقطع، و أيضا فإن فتية أشبه من فتيان، لأن فتية عند العرب لأقل العدد، و أمر القليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه، و الجملة مستأنفة جواب سؤال، كأنه قيل: فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك؟ فأجيب بأنه قال لفتيته. قال الزّجّاج: الفتية و الفتيان فى هذا الموضع المماليك، و قال الثعلبى: هما لغتان جيدتان مثل الصبيان و الصبية. و المراد بالبضاعة هنا هى التى و صلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام، و كانت نعالا و أدما، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم؛ و قيل: فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن، قاله الفراء؛ و قيل فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام؛ و قيل: إنه استقبح أن يأخذ من أبيه و إخوته ثمن الطعام، ثم علّل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة فى رحالهم بقوله:

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ فجعل علّة جعل البضاعة فى الرحال هى معرفتهم لها إذا انقلبوا إلى أهلهم، و ذلك لأنهم لا يعلمون بردّ البضاعة إليهم إلا عند تفريغ الأوعية التى جعلوا فيها الطعام، و هم لا يفرغونها إلا عند الوصول إلى أهلهم، ثم علّل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم المجعولة فى رحالهم بقوله:

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۶

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فإنهم إذا عرفوا ذلك و علموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمن، و أن ما دفعوه عوضا عنه قد رجع إليهم، و تفضّل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، و لا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد و الحاجة إلى الطعام و عدم وجوده لديهم، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع، و بهذا يظهر أن يوسف عليه السلام لم يردّ البضاعة إليهم إلا لهذا المقصد، و هو رجوعهم إليه فلا يتمّ تعليل ردّها بغير ذلك. و الرّحال:

جمع رحل، و المراد به هنا ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث. قال الواحدى: الرّحل: كلّ شىء معدّ للرحيل من وعاء للمتاع و مركب للبعير و مجلس و رسن انتهى. و المراد هنا الأوعية التى يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام.

قال ابن الأنبارى: يقال للوعاء رحل، و للبيت رحل فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ أرادوا بهذا ما تقدّم من قول يوسف لهم: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى أى: منع منا الكيل فى المستقبل، و فيه دلالة على أن الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما بينهم و بينه، و لعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل أن يفتحوا متاعهم و يعلموا بردّ بضاعتهم، كما يفيد ذلك قوله فيما بعد: وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ إلى آخره، ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف، فقالوا: فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا يعنون بنيامين و نَكْتَلْ جواب الأمر، أى: نكتل بسبب إرساله معنا ما نريده من الطعام. قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو و ابن عامر و عاصم «نكتل» بالنون. و قرأ

سائر الكوفيين بالياء التحتيـة، و اختار أبو عبيـد القراءة الأولى، و قال: ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال، و زعم أنه إذا كان بالياء كـان للأخ وحـده، أى: يكتـال أخونا بنيامين، و اعترضه النحاس مما حاصـله أن إسـناد الكيل إلى الأخ لا ينافى كونه للجميع، و المعنى: يكتال بنيامين لنا جميعا. قال الزّجّاج:

أى إن أرسلته اكتلنا و إلا منعنا الكيل وَ إِنَّا لَهُ أى لأخيهم بنيامين لَحافِظُونَ من أن يصـيبه سوء أو مكروه، و جملة قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ مسـتأنفة جواب سؤال مقـدّر كما تقـدّم فى نظائر ذلك فى مواضع كثيرة، و المعنى: أنه لا يـأمنهم على بنيـامين إلاـ كمـا أمنهم على أخيه يوسف، و قـد قـالوا له فى يوسف: وَ إِنَّا لَهُ لَحـافِظُونَ «١»، كمـا قـالوا هنا: وَ إِنَّا لَهُ لَحـافِظُونَ ثم خانوه فى يوسف، فهو إن أمنهم فى بنيامين خاف أن يخونوه فيه كما خانوه فى يوسف فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ لعل هنا إضـمار، و التقـدير: فتوكل يعقوب على اللّه و دفعه إليهم، و قال: فاللّه خير حافظا. و قرأ أهل المدينـة «حفظا» و هو منتصب على التميز، و هى قراءة أبى عمرو و عـاصم و ابن عامر. و قرأ سائر الكوفيين «حافظا» و هو منتصب على الحال. و قال الزّجّـاج: على البيـان يعنى التميز؛ و معنى الآيـة: أن حفـظ اللّه إيـاه خير من حفظهم له، لما و كل يعقوب حفظه إلى اللّه سبحانه حفظه و أرجعه إليه، و لمـا قـال فى يوسف: وَ أَخـافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الـذِّئْبُ «٢» وقع له من الامتحـان مـا وقع. وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ أى: أوعيـة الطعـام، أو مـا هو أعمّ من ذلك مما يطلق عليه لفظ المتاع سواء كان الـذى فيه طعاما أو غير طعام وَجَـدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ أى: البضاعـة التى حملوهـا إلى مصر ليمتـاروا بهـا، و قـد تقـدّم بيانهـا، و جملـة قالُوا يا أَبانا مسـتأنفة كما تقـدّم ما نَبْغِی ما استفهامية، و المعنى: أىّ شىء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا ما صنع من الإحسان

---

(١). يوسف: ١٢.

(٢). يوسف: ١٣.

بردّ البضاعـة و الإكرام عند القدوم إليه، و توفير ما أردناه من الميرة؟ و يكون الاسـتفهام للإنكار، و جملة هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا مقرّرة لما دلّ عليه الاستفهام من الإنكار لطلب شىء مع كونها قد ردّت إليهم؛ و قيل:

إن «ما» فى ما نَبْغِی نافيـة، أى: ما نبغى فى القول و ما نتزيـد فيما وصـفنا لك من إحسان الملك إلينا و إكرامه لنا، ثم برهنوا على مـا لقوه من التزيـد فى وصف الملـك بقولهم: هـذِهِ بِضاعَتُنـا رُدَّتْ إِلَيْنـا فـإنّ من تفضل عليهم بردّ ذلك حقيق بالثناء عليه منهم، مسـتحق لمـا وصـفوه به، و معنى وَ نَمِيرُ أَهْلَنـا نجلب إليهم الميرة و هى الطعام، و المائر: الـذى يأتى بالطعام. و قرأ السـلمى بضـم النون، و هو معطوف على مقدر يدلّ عليه السياق، و التقدير: هذه بضاعتنا ردّت إلينا فنحن نستعين بها على الرجوع و نمير أهلنا وَ نَحْفَـظُ أَخانا بنيامين ممّا تخافه عليه وَ نَزْدادُ بسـبب إرساله معنا كَيْلَ بَعِيرٍ أى حمل بعير زائـد على ما جئنا به هـذه المرة؛ لأنه كان يكـال لكـل رجل وقر بعير، و معنى ذلِكَ كَيْلٌ يَسِـيرٌ أن زيادة كيل بعير لأخينا يسـهل على الملك، و لا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيرا لاـ يتعـاظمه و لا يضايقنا فيه؛ و قيل: إن المعنى: ذلك المكيل لأجلنا قليل نريـد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخينا. و اختار الزّجّاج الأوّل. و قيل: إن هذا من كلام يعقوب جوابا على ما قاله أولاده: وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ يعنى إن حمل بعير شىء يسير لا يخاطر لأجله بالولد، و هو ضعيف؛ لأن جواب يعقوب هو قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ أى حتى تعطونى ما أثق به و أركن إليه من جهـة اللّه سـبحانه، و هو الحلف به، و اللاـم فى لَتَـأْتُنَّنِی بِهِ جواب القسم، لأـن معنى حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ حتى تحلفوا بـاللّه لتـأتنى به، أى: لتردّن بنيـامين إلىّ، و الاسـتثناء بقوله: إِلَّا أَنْ يُحـاطَ بِكُمْ هو من أعمّ العـام، لأنّ لَتَأْتُنَّنِی بِهِ و إن كان كلاما مثبتا فهو فى معنى النفى، فكأنه قال: لا تمنعون من إتيانى به فى حال من الأحوال لعلة من العلل إلا لعلة الإحاطة بكم،

و الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدوّ، و من أحاط به العدوّ فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن يغلبوا عليه أو يهلكوا دونه، فيكون ذلك عذرا لكم عندى فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ أى أعطوه ما طلبه منهم من اليمين قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أى: قال يعقوب: اللّه على ما قلناه من طلبى الموثق منكم و إعطائكم لى ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس فى عهده و فجر فى الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنّ إخوة يوسف لما دخلوا عليه فعرفهم و هم له منكرون، جاء بصواع الملك الذى كان يشرب فيه، فوضعه على يده فجعل ينقره و يطنّ، و ينقره و يطنّ، فقال: إن هذا الجام ليخبرنى عنكم خبرا، هل كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف؟ و كان أبوه يحبه دونكم، و إنكم انطلقتم به فألقيتموه فى الجب و أخبرتم أباكم أن الذئب أكله، و جئتم على قميصه بدم كذب؟ قال:

فجعل بعضهم ينظر إلى بعض و يعجبون. و أخرج أبو الشيخ عن وهيب قال: لما جعل يوسف ينقر الصواع و يخبرهم قام إليه بعض إخوته فقال: أنشدك باللّه أن لا تكشف لنا عورة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ائْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ قال: يعنى بنيامين، و هو أخو يوسف لأبيه و أمه

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ قال: خير من يضيف بمصر.

و أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: لِفِتْيانِهِ أى لغلمانه اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ أى أوراقهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ما نَبْغِى هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا يقولون: ما نبغى وراء هذا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ أى حمل بعير. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ قال: حمل حمار، قال: و هى لغة، قال أبو عبيد: يعنى مجاهدا أن الحمار يقال له فى بعض اللغات بعير. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ قال: تهلكوا جميعا، و فى قوله: فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قال: عهدهم.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ قال:

إلا أن تغلبوا حتّى لا تطيقوا ذلك.

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۷ الى ۷۶]

وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۶۷) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶۸) وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۶۹) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (۷۰) قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (۷۱)

قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (۷۲) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ (۷۳) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (۷۴) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (۷۵) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (۷۶)

لما تجهز أولاد يعقوب للمسير إلى مصر خاف عليهم أبوهم أن تصيبهم العين؛ لكونهم كانوا ذوى جمال ظاهر و ثياب حسنة مع

كونهم أولاد رجل واحد. فنهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد لأن فى ذلك مظنة لإصابة الأعين لهم، و أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرّقة، و لم يكتف بقوله: لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ عن قوله: وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا قد امتثلوا النية عن الدخول من باب واحد، و لكنه لما كان فى الدخول من بابين مثلا نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: و كانت أبواب مصر أربعة.

و قد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم و البلخى أنّ للعين تأثيرا، و قالا: لا يمتنع أن صاحب العين إذا شاهد الشيء و أعجب به كانت المصلحة له فى تكليفه أن يغير اللّه ذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف معلقا

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۹

به. و ليس هذا بمستنكر من هذين و أتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب و السنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم و ديدنهم، و أىّ مانع من إصابة العين بتقدير اللّه سبحانه لذلك؟ و قد وردت الأحاديث الصحيحة بأنّ العين حقّ، و أصيب بها جماعة فى عصر النبوّة، و منهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلى و التنطع فى العبارات كالزمخشرى فى تفسيره؛ فإنه فى كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذى يدّعيه على العقل حتى يضمّ إلى ذلك الوقاحة فى العبارة على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة و المذاهب الزائفة. و بالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلّة المتكاثرة و إجماع من يعتدّ به من هذه الأمة سلفا و خلفا، و بما هو مشاهد فى الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى و غيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب.

و قد اختلف العلماء فيمن عرف بالإصابة بالعين، فقال قوم: يمنع من الاتصال بالناس دفعا لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته، و قيل: ينفى؛ و أبعد من قاله إنه يقتل إلا إذا كان يتعمد ذلك و تتوقف إصابته على اختياره و قصده و لم ينزجر عن ذلك، فإنه إذا قتل كان له حكم القاتل. ثم قال يعقوب لأولاده: وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أى لا أدفع عنكم ضررا و لا أجلب إليكم نفعا بتدبيرى هذا، بل ما قضاه اللّه عليكم فهو واقع لا محالة. قال الزّجّاج و ابن الأنبارى: لو سبق فى علم اللّه أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرّقهم كاجتماعهم. و قال آخرون: ما كان يغنى عنهم يعقوب شيئا قطّ حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم، ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا للّه سبحانه فقال: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ لا لغيره لا يشاركه فيه مشارك فى ذلك عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى كلّ إيراد و إصدار لا على غيره، أى: اعتمدت و وثقت وَ عَلَيْهِ لا على غيره فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ على العموم، و يدخل فيه أولاده دخولا أوّليا وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أى من الأبواب المتفرقة و لم يجتمعوا داخلين من باب واحد، و جواب لما ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ ذلك الدخول مِنَ اللَّهِ أى من جهته مِنْ شَيْءٍ من الأشياء مما قدّره اللّه عليهم لأن الحذر لا يدفع القدر، و الاستثناء بقوله: إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها منقطع؛ و المعنى: و لكن حاجة كانت فى نفس يعقوب. و هى شفقته عليهم و محبته لسلامتهم قضاها يعقوب، أى:

أظهرها لهم و وصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذى دبره لهم تأثيرا فى دفع ما قضاه اللّه عليهم، و قيل: إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة، و سيما الشجاعة أوقع بهم حسدا و حقدا أو خوفا منهم، فأمرهم بالتفرق لهذه العلة. و قد اختار هذا النحّاس و قال: لا معنى للعين ها هنا، و فيه أن هذا لو كان هو السبب لأمرهم بالتفرّق و لم يخصّ النهى عن ذلك الاجتماع عند الدخول من باب واحد؛ لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد. و قيل: إن الفاعل فى قضاها ضمير يعود إلى الدخول لا إلى يعقوب. و المعنى: ما كان الدخول يغنى عنهم من جهة اللّه شيئا، و لكنه قضى ذلك الدخول حاجة فى نفس يعقوب لوقوعه حسب إرادته وَ إِنَّهُ لَذُو

عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ أى و إن يعقوب لصاحب علم لأجل تعليم اللّه إياه بما أوحاه اللّه من أن الحذر لا يدفع

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۰

فتح القدير ج۳ ۹۹

القدر، و أن ما قضاه اللّه سبحانه فهو كائن لا محالة وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ بذلك كما ينبغى؛ و قيل: لا يعلمون أنّ الحذر مندوب إليه و إن كان لا يغنى من القدر شيئا، و السّياق يدفعه؛ و قيل: المراد بأكثر الناس المشركون وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ أى ضمّ إليه أخاه بنيامين، قيل: إنه أمر بإنزال كلّ اثنين فى منزل فبقى أخوه منفردا فضمّه إليه و قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ يوسف، قال له ذلك سرّا، من دون أن يطلع عليه إخوته فَلا تَبْتَئِسْ أى فلا تحزن بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أى إخوتك من الأعمال الماضية التى عملوها؛ و قيل: إنه لم يخبره بأنه يوسف، بل قال له: إنى أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسدا و بغيا؛ و قيل: إنه أخبره بما سيدبّره معهم من جعل السقاية فى رحله، فقال: لا أبالى؛ و قيل: إنه لما أخبر يوسف أخاه بنيامين بأنه أخوه قال: لا تردّنى إليهم، فقال: قد علمت اغتمام أبينا يعقوب، فإذا حبستك عندى ازداد غمّه، فأبى بنيامين، فقال له يوسف: لا يمكن حبسك عندى إلا بأن أنسبك إلى ما لا يجمل بك، فقال: لا أبالى، فدسّ الصّاع فى رحله، و هو المراد بالسقاية، و أصلها المشربة التى يشرب بها، جعلت صاعا يكال به؛ و قيل: كانت تسقى بها الدّواب و يكال بها الحبّ؛ و قيل: كانت من فضة، و قيل: كانت من ذهب، و قيل غير ذلك. و قد تقدم تفسير الجهاز و الرّحل. و المعنى: أنه جعل السقاية التى هو الصواع فى رحل أخيه الذى هو الوعاء الذى يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ثُمَ بعد ذلك أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أى نادى مناد قائلا أَيَّتُهَا الْعِيرُ قال الزّجّاج: معناه يا أصحاب العير، و كل ما امتير عليه من الإبل و الحمير و البغال فهو عير؛ و قيل: هى قافلة الحمير. و قال أبو عبيدة: العير الإبل المرحولة المركوبة إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ نسبة السرقة إليهم على حقيقتها؛ لأن المنادى غير عالم بما دبّره يوسف؛ و قيل: إن المعنى:

إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك قالُوا أى إخوة يوسف وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ أى حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادى من أصحاب الملك ما ذا تَفْقِدُونَ أى: ما الذى فقدتموه؛ يقال: فقدت الشىء إذا عدمته بضياع أو نحوه، فكأنهم قالوا: ماذا ضاع عليكم؟

و صيغة المستقبل لاستحضار الصورة قالُوا فى جوابهم نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ قرأ يحيى بن يعمر «صواغ» بالغين المعجمة. و قرأ أبو رجاء «صوع» بضم الصاد المهملة و سكون الواو بعدها عين مهملة.

و قرأ أبىّ «صياع». و قرأ أبو جعفر: صاع، و بها قرأ أبو هريرة. و قرأ الجمهور «صُواعَ» بالصاد و العين المهملتين. قال الزّجّاج: الصواع هو الصاع بعينه، و هو يذكّر و يؤنّث، و هو السقاية، و منه قول الشاعر:

نشرب الخمر بالصّواع جهارا «۱» ....

وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ أى قالوا: و لمن جاء بالصّواع من جهة نفسه حمل بعير. و البعير: الجمل، و فى لغة بعض العرب أنه الحمار، و المراد بالحمل هاهنا ما يحمله البعير من الطّعام، ثم قال المنادى: وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ أى بحمل البعير الذى جعل لمن جاء بالصّواع قبل التفتيش للأوعية، و الزعيم: هو الكفيل، و لعل

---

(۱). و تتمة البيت: و ترى المتك بيننا مستعارا. و قد تقدم فى تفسير الآية (۳۱) من سورة يوسف.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۱

القائل نفقد صواع الملك هو المنادى، و إنما نسب القول إلى الجماعة لكونه واحدا منهم، ثم رجع الكلام إلى نسبة القول إلى

المنادى وحده لأنه القائل بالحقيقة قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، و قيل: من الباء، و قيل: أصل بنفسها، و لا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه، و قد دخلت نادرا على الربّ، و على الرحمن، و الكلام على هذا مستوفى فى علم الإعراب؛ و جعلوا المقسم عليه هو علم يوسف و أصحابه بنزاهة جانبهم و طهارة ذيلهم عن التلوّث بقذر الفساد فى الأرض الذى من أعظم أنواعه السرقة، لأنهم قد شاهدوا منهم فى قدومهم عليه المرّة الأولى، و هذه المرّة من التّعفف و الزّهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم؛ بأنهم ليسوا بمن يتجارأ على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد، و لو لم يكن من ذلك إلا ردّهم لبضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم.

و المراد بالأرض هنا أرض مصر، ثم أكّدوا هذه الجملة التى أقسموا باللّه عليها بقوله: وَ ما كُنَّا سارِقِينَ لزيادة التبرّى ممّا قذفوهم به، و التنزه عن هذه النقيصة الخسيسة و الرذيلة الشنعاء قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ هذه الجملة مستأنفة كما تقدّم غير مرّة فى نظائرها، و القائلون هم أصحاب يوسف، أو المنادى منهم وحده كما مرّ، و الضمير فى جَزاؤُهُ للصّواع على حذف مضاف، أى: فما جزاء سرقة الصّواع عندكم، أو الضمير للسارق؛ أى: فما جزاء سارق الصّواع عندكم إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ فيما تدّعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة، و ذلك بأن يوجد الصّواع معكم، فأجاب إخوة يوسف و قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ أى جزاء سرقة الصّواع أو جزاء سارق الصّواع و جزاؤه مبتدأ، و الجملة الشرطية: و هى من وجد فى رحله فهو جزاؤه خبر المبتدأ على إقامة الظاهر مقام المضمر فيها، و الأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو، فيكون الضمير الثانى عائد إلى المبتدأ، و الأوّل إلى من، و يجوز أن يكون خبر المبتدأ من وجد فى رحله، و التقدير: جزاء السّرقة للصّواع أخذ من وجد فى رحله، و تكون جملة فهو جزاؤه لتأكيد الجملة الأولى و تقريرها. قال الزّجّاج: و قوله: فَهُوَ جَزاؤُهُ زيادة فى البيان؛ أى جزاؤه أخذ السّارق فهو جزاؤه لا غير. قال المفسّرون: و كان حكم السّارق فى آل يعقوب أن يسترقّ سنة، فلذلك استفتوهم فى جزائه كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الظالمين لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم، و هذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام إخوة يوسف، و يجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف، أى: كذلك نحن نجزى الظالمين بالسرق، ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا أن يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر، فأقبل يوسف على ذلك فبدأ بتفتيش أوعيتهم أى أوعية الإخوة العشرة قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ أى قبل تفتيشه لوعاء أخيه بنيامين دفعا للتهمة و رفعا لما دبّره من الحيلة ثُمَّ اسْتَخْرَجَها أى السقاية أو الصواع، لأنه يذكّر و يؤنّث كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ أى مثل ذلك الكيد العجيب كدنا ليوسف؛ يعنى علّمناه إياه و أوحيناه إليه، و الكيد مبدؤه السعى فى الحيلة و الخديعة، و نهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر فى أمر مكروه لا سبيل إلى دفعه، و هو محمول فى حق اللّه سبحانه على النهاية لا على البداية. قال القتبىّ:

معنى كدنا دبرنا. و قال ابن الأنبارى: أردنا. و فى الآية دليل على جواز التوصّل إلى الأغراض الصحيحة بما

صورته صورة الحيلة و المكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه بنيامين فى دين الملك؛ أى ملك مصر، و فى شريعته التى كان عليها، بل كان دينه و قضاؤه أن يضرب السّارق و يغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب و شريعته. و حاصله أنّ يوسف ما كان يتمكّن من إجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفا لدين الملك و شريعته لو لا ما كاد اللّه له و دبّره و أراده حتى وجد السبيل إليه، و هو ما أجراه على ألسن إخوته من قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، فكان قولهم هذا هو بمشيئة اللّه و تدبيره، و هو معنى قوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أى إلا حال مشيئته و إذنه بذلك و إرادته له، و هذه الجملة؛ أعنى ما كان ليأخذ أخاه إلخ تعليل لما صنعه اللّه من الكيد ليوسف أو تفسير له نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بضروب العلوم و المعارف و العطايا و الكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك وَ فَوْقَ كُلِّ

ذِی عِلْمٍ ممّن رفعه اللّه بالعلم عَلِیمٌ أرفع رتبة منهم و أعلی درجة لا یبلغون مداه و لا یرتقون شأوه. و قیل: معنی ذلک: أنّ فوق کلّ أهل العلم علیم، و هو اللّه سبحانه.

و قد أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ قالَ یا بَنِیَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ قال: رهب یعقوب علیهم العین. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر عن محمد بن کعب قال: خشی علیهم العین. و أخرج سعید بن منصور و ابن المنذر و أبو الشیخ عن النخعی فی قوله: وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ قال: أحب یعقوب أن یلقی یوسف أخاه فی خلوة. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: إِلَّا حاجَةً فِی نَفْسِ یَعْقُوبَ قَضاها قال: خیفة العین علی بنیه. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن قتادة فی قوله: وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ قال: إنه لعامل بما علم، و من لا یعمل لا یکون عالما. و أخرج هؤلاء عنه فی قوله: آوی إِلَیْهِ أَخاهُ قال: إنه إلیه. فی قوله: فَلا تَبْتَئِسْ قال: لا تحزن و لا تیأس، فی قوله: فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قال: قضی حاجتهم و کال لهم طعامهم، فی قوله: جَعَلَ السِّقایَةَ قال: هو إناء الملک الذی یشرب منه فِی رَحْلِ أَخِیهِ قال: فی متاع أخیه. و أخرج ابن أبی حاتم، و ابن الأنباری فی المصاحف، عن ابن عباس فی قوله: جَعَلَ السِّقایَةَ قال: هو الصّواع، و کلّ شیء یشرب منه فهو صواع. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن زید نحوه أیضا.

و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: أَیَّتُهَا الْعِیرُ قال: کانت العیر حمیرا.

و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِیرٍ قال:
حمل حمار طعام، و هی لغة.

و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ أَنَا بِهِ زَعِیمٌ یقول: کفیل. و أخرج ابن جریر عن سعید بن جبیر و مجاهد و قتادة و الضحّاک مثله. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن الربیع بن أنس فی قوله: ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِی الْأَرْضِ یقول: ما جئنا لنعصی فی الأرض. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن زید فی قوله: فَما جَزاؤُهُ قال: عرفوا الحکم فی حکمهم فقالوا: من وجد

فتح القدیر، ج۳، ص: ۵۳

فی رحله فهو جزاؤه، و کان الحکم عند الأنبیاء یعقوب و بنیه أن یؤخذ السارق بسرقته عبدا یسترقّ.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن قتادة فی قوله: فَبَدَأَ بِأَوْعِیَتِهِمْ قال: ذکر لنا أنه کان کلما فتح متاع رجل استغفر تأثما مما صنع حتی بقی متاع الغلام، قال:
ما أظن أن هذا أخذ شیئا، قالوا: بلی، فاستبره. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن الضحّاک فی قوله: کَذلِکَ کِدْنا لِیُوسُفَ قال: کذلک صنعنا لیوسف ما کانَ لِیَأْخُذَ أَخاهُ فِی دِینِ الْمَلِکِ یقول: فی سلطان الملک، قال: کان فی دین ملکهم أنه من سرق أخذت منه السرقة و مثلها معها من ماله فیعطیه المسروق. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عباس فی قوله: ما کانَ لِیَأْخُذَ أَخاهُ فِی دِینِ الْمَلِکِ یقول: فی سلطان الملک. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ قال: إلا بعلة کادها اللّه لیوسف فاعتل بها.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عنه فی قوله: نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ قال: یوسف و إخوته أوتوا علما فرفعنا یوسف فی العلم فوقهم درجة. و أخرج الفریابی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن سعید بن جبیر قال: کنا عند ابن عباس فحدّث بحدیث، فقال رجل عنده: وَ فَوْقَ کُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِیمٌ فقال ابن عباس: بئس ما قلت، اللّه العلیم الخبیر، و هو فوق کلّ عالم. و أخرج ابن جریر عن محمد بن کعب قال: سأل رجل علیا عن مسألة، فقال فیها، فقال الرجل: لیس هکذا و لکن

كـذا و كـذا، قـال عليّ: أصبت و أخطأت وَ فَوْقَ كُـلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن عكرمة فى قوله: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ قال:

علم اللّه فوق كلّ عالم.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧٧ الى ٨٢]

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (٧٧) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ ما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١)

وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢)

قوله: قالُوا إِنْ يَسْرِقْ أى بنيامين فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ يعنون يوسف.

و قد اختلف المفسّرون فى هذه السّرقة التى نسبوها إلى يوسف ما هى؟ فقيل: إنه كان ليوسف عمة هى

فتح القدير، ج٣، ص: ٥۴

أكبر من يعقوب، و كانت عندها منطقة «١» إسحاق لكونها أسنّ أولاده و كانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سنا من ذكر أو أنثى، و كانت قد حضنت يوسف و أحبته حبا شديدا، فلما ترعرع قال لها يعقوب: سلّمى يوسف إلىّ، فأشفقت من فراقه، و احتالت فى بقائه لديها، فجعلت المنطقة تحت ثيابه و حزمته بها، ثم قالت: قد سرقت منطقة إسحاق فانظروا من سرقها، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء فى ذلك الوقت من آل إبراهيم. و قد سبق بيان شريعتهم فى السرقة. و قيل: إن يوسف أخذ صنما كان لجدّه أبى أمه فكسره و ألقاه على الطريق تغييرا للمنكر. و حكى عن الزّجّاج أنه كان صنما من ذهب. و حكى الواحدى عن الزّجّاج أنه قال: اللّه أعلم، أسرق أخ له أم لا؟ و حكى القرطبى فى تفسيره عن الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه. قلت: و هذا أولى، فما هذه الكذبة بأوّل كذباتهم، و قدّمنا ما يدفع قول من قال إنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم. قوله: فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ قال الزجّاج و غيره:

الضمير فى أسرّها يعود إلى الكلمة أو الجملة، كأنه قيل فأسرّ الجملة فى نفسه وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ ثم فسرها بقوله: قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً و قد ردّ أبو عليّ الفارسى هذا فقال: إنّ هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل؛ و قيل: الضمير عائد إلى الإجابة، أى: أسرّ يوسف إجابتهم فى ذلك الوقت إلى وقت آخر؛ و قيل: أسرّ فى نفسه قولهم: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ و هذا هو الأولى، و يكون معنى وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ أنه لم يبد لهم هذه المقالة التى أسرّها فى نفسه بأن يذكر لهم صحّتها أو بطلانها، و جملة قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً مفسّرة على القول الأوّل، و مستأنفة على القولين الآخرين، كأنه قيل: فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة؟ أى أنتم شرّ مكانا، أى: موضعا و منزلا ممن نسبتموه إلى السرقة و هو برىء، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف إلى الجبّ و الكذب على أبيكم و غير ذلك من أفاعيلكم، ثم قال:

وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف، و أنه لا حقيقة لذلك. ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاهم بنيامين يكون معهم يرجعون به إلى أبيهم لما تقدّم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردّوه إليه، قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً أى إنّ لبنيامين هذا أبا متّصفا بهذه الصفة، و هو كونه شيخا كبيرا لا يستطيع فراقه و لا يصبر عنه و لا يقدر على الوصول

إليه فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ يبقى لديک، فإن له منزلة فى قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرّر بفراق أحدنا كما يتضرّر بفراق بنيامين، ثم علّلوا ذلـک بقولهم: إِنَّا نَراکَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إلى النـاس كافـة، و إلينا خاصـة، فتمّم إحسانک إلينا بإجابتنا إلى هـذا المطلب، فأجاب يوسف عليهم بقوله: مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ أى نعوذ باللّه معاذا، فهو مصدر منصوب بفعل محذوف، و المستعيذ بـاللّه هو المعتصم به، و أن نأخـذ منصوب بنزع الخـافض، و الأصـل من أن نأخـذ إلاـ من وجـدنا متاعنا عنـده، و هو بنيامين لأنه الذى وجد الصواع فى رحله فقد حلّ لنا استعباده بفتواكم التى أفتيتمونا بقولكم: جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ

---

(١). المنطقة: المنطق، و هو ما يشدّ به الوسط.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٥

أى إنّـا إذا أخـذنا غير من وجـدنا متاعنـا عنـده لظـالمون فى دينكم و ما تقتضيه فتواكم فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ أى يئسوا من يوسف و إسعافهم منه إلى مطلبهم الـذى طلبوه، و السـين و التـاء للمبالغـة خَلَصُوا نَجِيًّا أى انفردوا حـال كونهم متنـاجين فيمـا بينهم، و هو مصـدر يقع على الواحد و الجمع كما فى قوله: وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا. قال الزّجّاج: معناه انفردوا و ليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به فى ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم. قالَ كَبِيرُهُمْ و قيل: هو روبيل لأنّه الأسنّ، و قيل: يهوذا لأنه الأوفر عقلا، و قيل:

شمعون لأنه رئيسـهم أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ أى عهدا من اللّه فى حفظ ابنه و ردّه إليه، و معنى كونه من اللّه أنه بإذنه وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ معطوف على ما قبله، و التقدير:

ألم تعلموا أنّ أباكم [قد أخذ عليكم موثقا من اللّه «١» و تعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكر هذا النحّاس و غيره، وَ مِنْ قَبْلُ متعلّقة بتعلموا، أى: و تعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل، على أنّ ما مصدريـة، و يجوز أن تكون زائدة؛ و قيل: ما فرّطتم مرفوع المحل على الابتـداء، و خبره من قبل؛ و قيل: إن ما موصولـة أو موصوفـة، و كلاهما فى محل النصب أو الرفع، و ما ذكرناه هو الأولى، و معنى فرّطتم: قصـرتم فى شأنه، و لم تحفظوا عهد أبيكم فيه فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ يقال: برح براحا و بروحا، أى: زال، فإذا دخله النفى صـار مثبتـا، أى: لن أبرح من الأـرض، بـل ألزمهـا و لاـ أزال مقيما فيها حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي فى مفارقتها و الخروج منها، و إنما قال ذلک لأنه يستحى من أبيه أن يأتى إليه بغير ولـده الـذى أخـذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلا أن يحاط بهم كما تقـدّم أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي بمفارقتهـا و الخروج منها؛ و قيـل: المعنى: أو يحكم اللّه لى بخلاـص أخى من الأسر حتّى يعود إلى أبى و أعود معه؛ و قيـل: المعنى: أو يحكم اللّه لى بالنصر على من أخـذ أخى فأحـاربه و آخـذ أخى منه، أو أعجز فأنصـرف بعـد ذلـک وَ هُوَ خَيْرُ الْحـاكِمِينَ لأـنّ أحكامه لا تجرى إلا على ما يوافق الحقّ، و يطابق الصواب، ثم قال كبيرهم مخاطبا لهم ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يـا أَبانا إِنَّ ابْنَکَ سَرَقَ قرأ الجمهور «سَرَقَ» على البناء للفاعل، و ذلک لأنهم قـد شاهـدوا اسـتخراج الصواع من وعائه. و قرأ ابن عباس و الضّحّاک و أبو رزين على البناء للمفعول، و روى ذلک النّحّاس عن الكسائى.

قال الزجّاج: إنّ سرق يحتمل معنيين: أحدهما علم منه السرق، و الآخر اتهم بالسرق وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا من استخراج الصواع من وعـائه، و قيل: المعنى: ما شـهدنا عنـد يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شـريعتک و شـريعة آبائک وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ حتّى يتّضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه؟ و قيل: المعنى: ما كنّا وقت أخذناه منک ليخرج معنا إلى مصر للغيب حافظين بأنه سـيقع منه السـرق الذى افتضـحنا به؛ و قيل: الغيب هو الليل، و مرادهم أنه سـرق و هم نيام؛ و قيل: مرادهم أنه فعل ذلک و هو غائب عنهم، فخفى عليهم فعله وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها هذا من تمام قول كبيرهم لهم، أى: قولوا لأبيكم اسأل القرية التى كنّا فيها، أى: مصر، و المراد أهلها، أى: اسأل أهل القرية؛

(۱). من تفسير القرطبى (۹/ ۲۴۲)

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۶

و قيل: هى قرية من قرى مصر نزلوا فيها و امتاروا منها؛ و قيل: المعنى: و اسأل القرية نفسها و إن كانت جمادا فإنك نبىّ اللّه، و اللّه سبحانه سينطقها فتجيبك؛ و مما يؤيد هذا أنه قال سيبويه: لا يجوز: كلّم هندا و أنت تريد غلام هند وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها أى: و قولوا لأبيكم: اسأل العير التى أقبلنا فيها، أى: أصحابها و كانوا قوما معروفين من جيران يعقوب وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فيما قلنا، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد، لأن ما قد تقدّم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة فى خبرهم هذا عند السامع.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ قال:

يعنون يوسف. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: سرق مكحلة لخالته، يعنى يوسف. و أخرج أبو الشيخ عن عطية قال: سرق فى صباه ميلين من ذهب. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«سرق يوسف صنما لجدّه أبى أمه من ذهب و فضة فكسره، و ألقاه على الطريق، فعيّره بذلك إخوته».

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله غير مرفوع. و قد روى نحوه عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ قال: أسرّ فى نفسه قوله: أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق فى قوله: فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ قال:

أيسوا منه، و رأوا شدّته فى أمره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: خَلَصُوا نَجِيًّا قال: وحدهم.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: قالَ كَبِيرُهُمْ قال: شمعون الذى تخلّف أكبرهم عقلا، و أكبر منه فى الميلاد روبيل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قالَ كَبِيرُهُمْ هو روبيل، و هو الذى كان نهاهم عن قتله و كان أكبر القوم.

و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي قال: أقاتل بسيفى حتى أقتل. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن أبى صالح نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ قال: ما كنّا نعلم أن ابنك يسرق. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ قال: يعنون مصر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة مثله.

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۳ الى ۸۸]

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (۸۵) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۸۶) يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (۸۷)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (۸۸)

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۷

قوله: قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أى زيّنت، و الأمر هنا قولهم: إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ «١» و ما سرق فى الحقيقة؛ و قيل: المراد بالأمر إخراجهم بنيامين، و المضىّ به إلى مصر طلبا للمنفعة فعاد ذلك بالمضرّة؛ و قيل: التسويل: التخييل، أى: خيّلت لكم أنفسكم أمرا لا أصل له؛ و قيل: الأمر الذى سوّلت لهم أنفسهم فتياهم بأنّ السّارق يؤخذ بسرقته، و الإضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لأنفسهم، لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح، و الجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدّر كغيرها، و جملة فَصَبْرٌ جَمِيلٌ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أى: فأمرى صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل بى و أولى لى، و الصّبر الجميل هو الذى لا يبوح صاحبه بالشكوى، بل يفوّض أمره إلى اللّه و يسترجع، و قد ورد أن «الصبر عند أوّل الصدمة». عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً أى بيوسف و أخيه بنيامين، و الأخ الثالث الباقى بمصر، و هو كبيرهم كما تقدّم، و إنما قال هكذا لأنه قد كان عنده أن يوسف لم يمت، و أنه باق على الحياة و إن غاب عنه خبره إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بحالى الْحَكِيمُ فيما يقضى به وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ أى أعرض عنهم، و قطع الكلام معهم وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ قال الزّجّاج: الأصل يا أسفى، فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة، و الأسف: شدة الجزع؛ و قيل: شدة الحزن، و منه قول كثيّر:

فيا أسفا للقلب كيف انصرافهو للنّفس لمّا سلّيت فتسلّت

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف، و انضمام فراقه لأخيه بنيامين، و بلوغ ما بلغه من كونه أسيرا عند ملك مصر، فتضاعفت أحزانه، و هاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر لأخيه. و قد روى عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت فى شريعتنا من الاسترجاع و الصبر على المصائب، و لو كان عنده ذلك لما قال: يا أسفا على يوسف. و معنى المناداة للأسف طلب حضوره، كأنه قال: تعال يا أسفى و أقبل إلىّ، وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ أى انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء. قيل: إنه زال إدراكه بحاسة البصر بالمرة، و قيل: كان يدرك إدراكا ضعيفا. و قد قيل فى توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضى إلى ذهاب بصره كلا أو بعضا بأنه إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف حىّ، فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر و أهلها حينئذ كفار؛ و قيل: إن مجرد الحزن ليس بمحرّم، و إنما المحرّم ما يفضى منه إلى الوله و شقّ الثياب و التكلّم بما لا ينبغى، و قد قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عند موت ولده إبراهيم: «تدمع العين، و يحزن القلب، و لا نقول ما يسخط الربّ، و إنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون» «٢». و يؤيّد هذا قوله: فَهُوَ كَظِيمٌ أى مكظوم، فإن معناه: أنه مملوء من الحزن ممسك له لا

---

(١). يوسف: ٨١.

(٢). حديث رواه البخارى من حديث أنس.

يبثه، و منه كظم الغيظ و هو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه، من كظم السقاء؛ إذا سدّه على ما فيه، و الكظم بفتح الظاء: مخرج النفس، يقال: أخذ بأكظامه. و قيل: الكظيم بمعنى الكاظم، أى:

المشتمل على حزنه الممسك له، و منه:

فإنّ أك كاظما لمصاب ناس «١»فإنّى اليوم منطلق لسانى

و منه: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ «٢». و قال الزّجّاج: معنى كظيم: محزون. و روى عن ابن عباس أنه قال:

معناه مغموم مكروب. قال بعض أهل اللغة: الحزن بالضم و السكون: البكاء، بفتحتين: ضدّ الفرح.

و قال أكثر أهل اللغة: هما لغتان بمعنى، قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ أى لا تفتأ، فحذف حرف النفى لعدم اللبس. قال الكسائى:

فتأت و فتئت أفعل كذا، أى: ما زلت. و قال الفرّاء: إن لا مضمرة، أى:
لا تفتأ. قال النحّاس: و الذى قال صحيح. و قد روى عن الخليل و سيبويه مثل قول الفراء، و أنشد الفرّاء محتجّا على ما قاله:
فقلت يمين اللّه أبرح قاعداو لو قطعوا رأسى لديك و أوصالى «٣»
و يقال: فتئ و فتأ لغتان، و منه قول الشاعر «۴»:
فما فتئت حتى كأنّ غبارهاسرادق يوم ذى رياح ترفّع
حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً الحرض: مصدر يستوى فيه الواحد و الجمع و المذكر و المؤنث و الصفة المشبهة، حرض بكسر الراء كدنف و دنف، و أصل الحرض: الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، حكى ذلك عن أبى عبيدة و غيره، و منه قول الشاعر:
سرى همّى فأمرضنىو قدما زادنى مرضا
كذاك الحبّ قبل اليوم ممّا يورث الحرضا
و قيل: الحرض: ما دون الموت، و قيل: الهرم، و قيل: الحارض: البالى الداثر. و قال الفرّاء: الحارض:
الفاسد الجسم و العقل، و كذا الحرض. و قال مؤرّج: هو الذائب من الهمّ، و يدلّ عليه قول الشاعر «۵»:
إنى امرؤ لجّ بى حبّ فأحرضنىحتّى بليت و حتّى شفّنى السّقم
و يقال رجل محرض، و منه قول الشاعر:
طلبته الخيل يوما كاملاو لو ألفته لأضحى محرضا

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۹/ ۲۴۹): شاس.
(۲). آل عمران: ۱۳۴.
(۳). البيت لامرئ القيس. و «الأوصال»: جمع وصل: و هو المفصل.
(۴). هو أوس بن حجر.
(۵). هو العرجىّ.

قال النّحّاس: و حكى أهل اللغة أحرضه الهمّ؛ إذا أسقمه، و رجل حارض: أى أحمق. و قال الأخفش:
الحارض الذاهب. و قال ابن الأنبارى: هو الهالك. و الأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت و الهلاك من هذه المعانى المذكورة حتى يكون لقوله: أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ معنى غير معنى الحرض، فالتأسيس أولى من التأكيد، و معنى من الهالكين: من الميتين؛ و غرضهم منع يعقوب من البكاء و الحزن شفقة عليه، و إن كانوا هم سبب أحزانه و منشأ همومه و غمومه قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّی وَ حُزْنِی إِلَى اللَّهِ هذه الجملة مستأنفة، كأنه قيل: فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا؟ و البثّ: ما يرد على الإنسان من الأشياء التى يعظم حزن صاحبها بها حتى لا- يقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة، و هو مأخوذ من بثثته: أى فرّقته، فسمّيت المصيبة بثّا مجازا. قال ذو الرمّة:
وقفت على ربع لميّة ناقتىفما زلت أبكى عنده و أخاطبه
و أسقيه حتّى كاد مما أبثّه «۱»تكلّمنى أحجاره و ملاعبة
و قد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنا، و إن لم يقدر على كتمه كان ذلك

بثّا، فالبثّ على هذا: أعظم الحزن و أصعبه؛ و قيل: البثّ: الهمّ؛ و قيل: هو الحاجة، و على هذا القول يكون عطف الحزن على البثّ واضح المعنى. و أما على تفسير البثّ بالحزن العظيم، فكأنه قال: إنما أشكو حزنى العظيم و ما دونه من الحزن إلى اللّه لا إلى غيره من الناس. و قد قرئ «حزنى» بضم الحاء و سكون الزاى «و حزنى» بفتحهما وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أى أعلم من لطفه و إحسانه و ثوابه على المصيبة ما لا تعلمونه أنتم؛ و قيل: أراد علمه بأن يوسف حىّ؛ و قيل: أراد علمه بأن رؤياه صادقة؛ و قيل: أعلم من إجابة المضطرين إلى اللّه ما لا تعلمون يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ التحسّس بمهملات: طلب الشىء بالحواس، مأخوذ من الحسّ، أو من الإحساس، أى: اذهبوا فتعرّفوا خبر يوسف و أخيه و تطلبوه، و قرئ بالجيم، و هو أيضا التطلب وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ أى: لا تقنطوا من فرجه و تنفيسه. قال الأصمعى: الروح ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، و التركيب يدلّ على الحركة و الهزّة، فكلّ ما يهتزّ الإنسان بوجوده و يلتذّ به فهو روح. و حكى الواحدى عن الأصمعى أيضا أنه قال:

الروح الاستراحة من غمّ القلب. و قال أبو عمرو: الروح: الفرج، و قيل: الرحمة إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ لكونهم لا يعلمون بقدرة اللّه سبحانه، و عظيم صنعه، و خفىّ ألطافه. قوله:

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أى على يوسف، و فى الكلام حذف، و التقدير: فذهبوا كما أمرهم أبوهم إلى مصر ليتحسّسوا من يوسف و أخيه، فلما دخلوا على يوسف قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ أى الملك الممتنع القادر مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ أى الجوع و الحاجة. و فيه دليل على أنه تجوز الشّكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة، و هذه المرّة التى دخلوا فيها مصر

---

(١). أبثّه: بضم الهمزة و كسر الباء أفصح من أبثّه بفتح الهمزة و ضم الباء (ديوان ذى الرمة ٢/ ٨٢١)

هى المرّة الثالثة كما يفيده ما تقدّم من سياق الكتاب العزيز وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ البضاعة: هى القطعة من المال يقصد بها شراء شىء، يقال: أبضعت الشىء و استبضعته؛ إذا جعلته بضاعة، و فى المثل «كمستبضع التمر إلى هجر» «١» و الإزجاء: السوق بدفع. قال الواحدى: الإزجاء فى اللغة السوق و الدفع قليلا قليلا، و منه قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً «٢»، و المعنى: أنها بضاعة تدفع و لا يقبلها التجار. قال ثعلب:

البضاعة المزجاة: الناقصة غير التامة. قال أبو عبيدة: إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة.

و اختلف فى هذه البضاعة ما هى؟ فقيل: كانت قديدا و حيسا «٣»، و قيل: صوف و سمن، و قيل: الحبة الخضراء و الصنوبر، و قيل: دراهم رديئة، و قيل: النعال و الأدم. ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التى معهم أن يوفى لهم الكيل، أى: يجعله تاما لا نقص فيه، و طلبوا منه أن يتصدّق عليهم إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التى جاءوا بها، و أن يجعلها كالبضاعة الجيدة فى إيفاء الكيل لهم بها، و بهذا قال أكثر المفسرين؛ و قد قيل: كيف يطلبون التصدّق عليهم و هم أنبياء و الصدقة محرّمة على الأنبياء؟ و أجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم: إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ بما يجعله لهم من الثواب الأخروى، أو التّوسيع عليهم فى الدنيا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً قال: يوسف و أخيه و روبيل. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: يوسف و أخيه و كبيرهم الذى تخلف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ قال: يا حزنا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر

عن قتادة مثله. و أخرجوا عن مجاهد قال: يا جزعا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَهُوَ كَظِيمٌ قال: حزين. و أخرج ابن المبارك و عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: كظم على الحزن فلم يقل إلا خيرا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال: كظيم مكروب. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك قال: الكظيم الكمد. و أخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ قال: لا تزال تذكر يوسف حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً قال:

دنفا من المرض أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ قال: الميتين. و أخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ قال: لا تزال تذكر يوسف حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً قال: هرما، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ قال: أبو تموت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً قال: الحرض: البالى،

---

(١). هجر: مدينة بالبحرين.

(٢). النور: ٤٣.

(٣). الحيس: طعام يتخذ من التمر و السمن و اللبن المجفف.

أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ قال: من الميّتين. و أخرج ابن جرير و عبد الرزاق عن مسلم بن يسار يرفعه إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من بثّ لم يصبر، ثم قرأ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ . و أخرج ابن مندة فى المعرفة، عن مسلم بن يسار عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فذكره. و أخرج ابن مردويه من حديث عبد اللّه بن عمرو مرفوعا مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد الرحمن بن يعمر مرفوعا مرسلا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي قال: همّى.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قال: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة و أنى سأسجد له. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ قال: من رحمة اللّه. و أخرج ابن جرير عن الضحاك مثله. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد قال: من فرج اللّه أن يفرج عنكم الغمّ الذى أنتم فيه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ قال: أى الضرّ فى المعيشة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِبِضاعَةٍ قال: دراهم مُزْجاةٍ قال: كاسدة. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال: مزجاة: رثة المتاع خلقة الحبل و الغرارة و الشى‏ء «١». و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا مزجاة قال: الورق الزيوف التى لا تنفق حتى يوضع منها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله: وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا قال:

اردد علينا أخانا.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٩ الى ٩٨]

قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (٨٩) قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (٩١) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (٩٧) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

---

(١). كذا فى تفسير ابن جرير و ابن كثير و المطبوع، و لعل الصواب (الشنّ) و هو القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها.

فتح القدير، ج٣، ص: ٦٢

الاستفهام فى قوله: هَلْ عَلِمْتُمْ للتّوبيخ و التّقريع، و قد كانوا عالمين بذلك، و لكنه أراد ما ذكرناه، و يستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه فى قوّة؛ ما أعظم الأمر الذى ارتكبتم من يوسف و أخيه، و ما أقبح ما أقدمتم عليه؟ كما يقال للمذنب: هل تدرى من عصيت؟ و الذى فعلوا بيوسف هو ما تقدّم ممّا قصّه اللّه سبحانه علينا فى هذه السورة، و أما ما فعلوا بأخيه؛ فقال جماعة من المفسرين: هو ما أدخلوه عليه من الغمّ بفراق أخيه يوسف، و ما كان يناله منهم من الاحتقار و الإهانة، و لم يستفهمهم عمّا فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد ناله منهم ما قصّه فيما سبق من صنوف الأذى. قال الواحدى: و لم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغمّ بفراقه تعظيما له و رفعا من قدره، و علما بأن ذلك كان بلاء له من اللّه عزّ و جلّ ليزيد فى درجته عنده إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ نفى عنهم العلم و أثبت لهم صفة الجهل؛ لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم، و قيل:

إنه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم و تخفيف الأمر عليهم، فكأنه قال: إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم و قصور معارفكم عن عاقبته، و ما يترتّب عليه، أو أراد أنهم عند ذلك فى أوان الصبا و زمان الصغر، اعتذارا لهم و دفعا لما يدهمهم من الخجل و الحيرة مع علمه و علمهم بأنهم كانوا فى ذلك الوقت كبارا قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قرأ ابن كثير «إنك» على الخبر بدون استفهام، و قرأ الباقون على الاستفهام التقديرى، و كان ذلك منهم على طريق التعجب و الاستغراب، قيل:

سبب معرفتهم له بمجرد قوله لهم: ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا و فهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو؛ و قيل: إنه لما قال لهم بهذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه؛ و قيل: إنه تبسّم فعرفوا ثناياه قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه. قال ابن الأنبارى: أظهر الاسم فقال أنا يوسف و لم يقل أنا هو، تعظيما لما وقع به من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحل منه المحرّم المراد قتله. فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعانى، و قال: و هذا أخى مع كونهم يعرفونه و لا ينكرونه؛ لأنّ قصده و هذا أخى المظلوم كظلمى قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالخلاص عمّا ابتلينا به؛ و قيل: منّ اللّه علينا بكل خير فى الدنيا و الآخرة؛ و قيل: بالجمع بيننا بعد التفرق، و لا مانع من إرادة جميع ذلك إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ قرأ الجمهور بالجزم على أنّ من شرطية. و قرأ ابن كثير بإثبات الياء فى يتقى. كما فى قول الشاعر:

إ لم يأتيك و الأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد

و قيل: إنه جعل من موصولة لا شرطية، و هو بعيد. و المعنى: إنه من يفعل التقوى أو يفعل ما يقيه عن الذنوب و يصير على المصائب فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ على العموم، فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولا أوّليا، و جاء بالظاهر، و كان المقام

مقام المضمر، أى: أجرهم للدلالة على أنّ الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الإحسان قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا أى لقد اختارك و فضّلك علينا بما خصّك به من صفات الكمال، و هذا اعتراف منهم بفضله و عظيم قدره، و لا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإنّ

فتح القدير، ج ۳، ص: ۶۳

درج الأنبياء متفاوتة، قال اللّه تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ «۱». وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ أى: و إن الشأن ذلك. قال أبو عبيدة: خطىء و أخطأ بمعنى واحد. و قال الأزهرى: المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، و منه قولهم: المجتهد يخطئ و يصيب، و الخاطئ من تعمّد ما لا ينبغى. قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطإ و الذنب استجلابا لعفوه و استجذابا لصفحه قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ التثريب: التّعيير و التوبيخ؛ أى: لا تعيير و لا توبيخ، و لا لوم عليكم. قال الأصمعى: ثرّبت عليه: قبّحت عليه فعله. و قال الزّجّاج: المعنى لا إفساد لما بينى و بينكم من الحرمة و حقّ الأخوّة، و لكم عندى الصّلح و العفو، و أصل التثريب الإفساد، و هى لغة أهل الحجاز. و قال ابن الأنبارى: معناه قد انقطع عنكم توبيخى عند اعترافكم بالذنب. قال ثعلب: ثرب فلان على فلان إذا عدّد عليه ذنوبه، و أصل التثريب من الثرب، و هو الشّحم الذى هو غاشية الكرش، و معناه إزالة التثريب، كما أنّ التجليد و التّقريع إزالة الجلد و القرع و انتصاب اليوم بالتثريب؛ أى: لا أثرب عليكم أو منتصب بالعامل المقدّر فى عليكم و هو مستقرّ أو ثابت أو نحوهما، أى: لا تثريب مستقرّ أو ثابت عليكم. و قد جوّز الأخفش الوقف على عَلَيْكُمُ فيكون اليوم متعلّق بالفعل الذى بعده. و قد ذكر مثل هذا ابن الأنبارى، ثم دعا لهم بقوله: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ على تقدير الوقف على اليوم، أو أخبرهم بأن اللّه قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على عليكم وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم، فيجازى محسنهم و يغفر لمسيئهم. قوله: اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا قيل: هذا القميص هو القميص الذى ألبسه اللّه إبراهيم لما ألقى فى النار، و كساه إبراهيم إسحاق، و كساه إسحاق يعقوب. و كان يعقوب أدرج هذا القميص فى صبة «۲» و علّقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأنّ فيه ريح الجنة، و ريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفى و لا مبتلى إلا عوفى فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً أى يصير بصيرا، على أن «يأت» هى التى من أخوات كان، قال الفرّاء: يرجع بصيرا. و قال السدّى: يعود بصيرا.

و قيل معناه: يأت إلىّ إلى مصر و هو بصير قد ذهب عنه العمى، و يؤيده قوله: وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ أى جميع من شمله لفظ الأهل من النساء و الذرارى، قيل: كانوا نحو سبعين، و قيل: ثلاثة و تسعين وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام. يقال: فصل فصولا، و فصلته فصلا، لازم و متعد، و يقال: فصل من البلد فصولا: إذا انفصل عنه و جاوز حيطانه قالَ أَبُوهُمْ أى يعقوب لمن عنده فى أرض كنعان من أهله إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ قيل: إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة، فأخبرهم بما وجد. ثم قال: لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ لو لا أن تنسبونى إلى الفند، و هو ذهاب العقل من الهرم، يقال أفند الرجل: إذا خرف و تغيّر عقله. و قال أبو عبيدة: لو لا أن تسفهون، فجعل الفند السفه، و قال الزجاج: لو لا أن تجهلون، فجعل الفند الجهل، و يؤيد قول من قال إنه السفه قول النابغة:

---

(۱). البقرة: ۲۵۳.

(۲). فى تفسير القرطبى (۹/ ۲۵۸): قصبة من فضة.

فتح القدير، ج ۳، ص: ۶۴ إلّا سليمان إذ قال المليك له قم فى البريّة فاحددها عن الفند

أى أمنعها عن السّفه. و قال أبو عمرو الشيبانى: التفنيد: التقبيح، و منه قول الشاعر:

يا صاحبيّ دعا لومى و تفنيدىفليس ما فات من أمرى بمردود

و قيل: هو الكذب، و منه قول الشاعر:

هل فى افتخار الكريم من أود «١»أم هل لقول الصدّيق من فند

و قال ابن الأعرابى لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ لو لا أن تضعّفوا رأيى. و روى مثله عن أبى عبيدة. و قال الأخفش: التفنيد اللوم و ضعف الرأى. و كل هذه المعانى راجع إلى التعجيز و تضعيف الرأى، يقال: فنّده تفنيدا: إذا أعجزه، و أفند: إذا تكلم بالخطإ، و الفند: الخطأ فى الكلام، و ممّا يدل على إطلاقه على اللوم قول الشاعر:

يا عاذلىّ دعا الملام و أقصراطال الهوى و أطلتما التّفنيدا

أخبرهم يعقوب بأن الصبا قد حملت إليه ريح حبيبه، و أنه لو لا ما يخشاه من التفنيد لما شكّ فى ذلك:

فإن الصّبا ريح إذا ما تنفستعلى نفس مهموم تجلت همومها

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنىنسيم الصّبا من حيث ما يطلع الفجر

و لقد تهبّ لى الصّبا من أرضهافيلذّ مسّ هبوبها و يطيب

قالُوا تَاللَّهِ إِنَّکَ لَفِی ضَلالِکَ الْقَدِیمِ أى قال الحاضرون عنده من أهله: إنک يا يعقوب لفى ذهابک عن طريق الصواب الذى كنت عليه قديما من إفراط حبک ليوسف لا تنساه، و لا تفتر عنه، و لسان حال يعقوب يقول لهم:

لا يعرف الشوق إلا من يكابدهو لا الصّبابة إلا من يعانيها

لا تعذل المشتاق فى أشواقهحتى تكون حشاک فى أحشائه

و قيل: المعنى: إنک لفى جنونک القديم، و قيل: فى محبتک القديمة. قالوا له ذلک لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ قال المفسرون: البشير: هو يهوذا بن يعقوب قال لإخوته: أنا جئته بالقميص ملطخا بالدم، فأعطنى اليوم قميصک لأخبره أنک حىّ، فأفرحه كما أحزنته أَلْقاهُ عَلی وَجْهِهِ أى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه فَارْتَدَّ بَصِيراً الارتداد:

انقلاب الشىء إلى حال قد كان عليها، و المعنى: عاد و رجع إلى حالته الأولى من صحة بصره قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ أى قال يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم: إنّى لأجد ريح يوسف، ألم أقل لكم هذا القول

---

(١). «أود»: عوج.

فقلتم ما قلتم، و يكون قوله: إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ كلاما مبتدأ لا يتعلق بالقول، و يجوز أن تكون جملة إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ مقول القول، و يريد بذلک إخبارهم بما قاله لهم سابقا:

إِنَّما أَشْكُوا بَثِّی وَ حُزْنِی إِلَی اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ «١». قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ طلبوا منه أن يستغفر لهم، و اعترفوا بالذنب، و فى الكلام حذف، و التقدير: و لما رجعوا من مصر و وصلوا إلى أبيهم قالوا هذا القول، فوعدهم بما طلبوه منه و قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّی قال الزّجّاج: أراد يعقوب أن يستغفر لهم فى وقت السحر؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء، لا أنه بخل عليهم بالاستغفار، و قيل: أخّره إلى ليلة الجمعة، و قيل: أخّره إلى أن يستحلّ لهم من يوسف، و لم يعلم أنه قد عفا عنهم، و جملة إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ تعليل لما قبله.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة فى قوله: لا تَثْرِيبَ قال: لا تعيير. و أخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن

أبيه عن جدّه قال: «لما فتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة التفت إلى الناس فقال: ماذا تقولون؟ و ماذا تظنون؟ فقالوا: ابن عمّ كريم، فقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم».

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج البيهقى فى «الدلائل» عن أبى هريرة مرفوعا نحوه.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطاء الخراسانى قال: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ؛ ألم تر إلى قول يوسف لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ و قال يعقوب: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى

أقول: و فى هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف أن يعفو عنهم بقولهم: لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا فقال: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ لأنّ مقصودهم صدور العفو منه عنهم، و طلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر اللّه لهم، و هو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى اللّه عزّ و جلّ، و بين المقامين فرق، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلا عليهم بسؤال اللّه لهم، و لا سيما إذا صح ما تقدّم من أنه أخّر ذلك إلى وقت الإجابة؛ فإنه لو طلبه لهم فى الحال لم يحصل له علم بالقبول.

و أخرج الحكيم الترمذى و أبو الشيخ عن وهب بن منبه قال: لما كان من أمر إخوة يوسف ما كان، كتب يعقوب إلى يوسف و هو لا يعلم أنه يوسف: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز آل فرعون، سلام عليك فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء، كان جدّى إبراهيم خليل اللّه ألقى فى النار فى طاعة ربه، فجعلها اللّه عليه بردا و سلاما، و أمر اللّه جدّى أن يذبح له أبى ففداه اللّه بما فداه، و كان لى ابن و كان من أحبّ الناس إلىّ ففقدته، فأذهب حزنى عليه نور بصرى، و كان له أخ من أمه كنت إذا ذكرته ضممته إلى صدرى فأذهب عنى بعض وجدى، و هو المحبوس عندك فى السرقة، و إنى أخبرك أنى لم أسرق، و لم ألد سارقا؛ فلما قرأ يوسف الكتاب بكى و صاح و قال:

اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً. و أخرج أبو الشيخ عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(١). يوسف: ٨۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ۶۶

قال فى قوله: اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذا: «أنّ نمروذ لما ألقى إبراهيم فى النار؛ نزل إليه جبريل بقميص من الجنة و طنفسة من الجنة، فألبسه القميص و أقعده على الطنفسة، و قعد معه يتحدّث، فأوحى اللّه إلى النار فى قوله: كُونِى بَرْداً وَ سَلاماً. و لو لا أنه قال و سلاما لآذاه البرد». و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعا: «إن اللّه كسا إبراهيم ثوبا من الجنة، فكساه إبراهيم إسحاق، و كساه إسحاق يعقوب، فأخذه يعقوب فجعله فى قصبة من حديد و علّقه فى عنق يوسف، و لو علم إخوته إذ ألقوه فى الجب لأخذوه؛ فلما أراد اللّه أن يردّ يوسف على يعقوب كان بين رؤياه و تعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل، فوجد يعقوب ريحه فقال: إنى لأجد ريح يوسف لو لا أن تفندون، فلما ألقاه على وجهه ارتدّ بصيرا، و ليس يقع شىء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن اللّه».

و أخرج عبد الرزاق و الفريابى، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قال: لما خرجت العير هاجت الريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال: وجد ريحه من مسيرة عشرة أيام. و أخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عنه قال: وجده من مسيرة ثمانين فرسخا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أيضا: لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ قال: تجهلون. و أخرج ابن جرير عنه أيضا، قال: تكذبون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو

الشيخ عن مجاهد قال: تهرمون، يقولون قد ذهب عقلك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن الربيع قال: لو لا أن تحمّقون. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن ابن عباس إِنَّکَ لَفِی ضَـلالِکَ الْقَـدِیمِ یقول: خطئک القـدیم. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر قال: جنونک القدیم. و أخرج ابن جریر عن مجاهد قال:
حبک القدیم. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: البشـیر البرید. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ عن الضحّاک مثله. و أخرج ابن جریر و ابن المنـذر و ابن أبی حاتم و أبو الشـیخ عن سـفیان قال: البشـیر هو یهوذا بن یعقوب. و أخرج ابن أبی حـاتم عن الحسن قـال: لما أن جاء البشـیر إلی یعقوب فألقی علیه القمیص قال: علی أیّ دین خلفت یوسف؟ قال: علی الإسـلام. قال: الآن تمت النعمـة. و أخرج أبو عبید و سـعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی عن ابن مسـعود فی قـوله: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی قـال: إن یعقوب أخّر بنیه إلی السّـحر. و أخرج ابن المنـذر و ابن مردویه عن ابن عبـاس قـال: أخّرهـم إلی السّحر، و کـان یصلّی بالسّـحر. و أخرج أبـو الشـیخ و ابـن مردویه عنه قـال: أخّرهم إلی السحر لأنّ دعـاء السّـحر مسـتجاب. و أخرج ابن جریر و أبو الشـیخ عنه أیضـا قال: قال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی قصـة: «هو قول أخی یعقوب لبنیه: سوف أستغفر لکم ربی» یقول: حتی تأتی لیلهٔ الجمعهٔ.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۶۷

[سورهٔ یوسف (۱۲): الآیات ۹۹ الی ۱۰۱]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلی یُوسُفَ آوی إِلَیْهِ أَبَوَیْهِ وَ قـالَ ادْخُلُوا مِصْـرَ إِنْ شـاءَ اللَّهُ آمِنِینَ (۹۹) وَ رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُـجَّداً وَ قالَ یا أَبَتِ هـذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِکُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّیْطـانُ بَیْنِی وَ بَیْنَ إِخْـوَتِی إِنَّ رَبِّی لَطِیفٌ لِمـا یَشـاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ (۱۰۰) رَبِّ قَـدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْـکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ (۱۰۱)
قوله: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلی یُوسُفَ لعـلّ فی الکلاـم محـذوفا مقـدّرا، و هو: فرحـل یعقوب و أولاـده و أهله إلی مصـر، فلما دخلوا علی یوسف آوی إلیه أبویه، أی: ضـمّهما و أنزلهما عنـده. قال المفسرون: المراد بالأبوین هنا یعقوب و زوجته خالـهٔ یوسف؛ لأنّ أمه قد کانت ماتت فی ولادتها لأخیه بنیامین کما تقدم؛ و قیل: أحیا اللّه له أمه تحقیقا للرؤیا حتی سجدت له، فی قوله: وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْـرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ ممّا تکرهون، و قـد کانوا فیما مضـی یخافون ملوک مصـر، و لا یدخلونها إلا بجواز منهم. قیل: و التقیید بالمشیئهٔ عائـد إلی الأـمن، و لاـ مـانع من عوده إلی الجمیع؛ لأنّ دخولهم لا یکون إلا بمشـیئهٔ اللّه سـبحانه، کما أنهم لا یکونون آمنین إلاـ بمشیئته؛ و قیـل: إنّ التقییـد بالمشیئهٔ راجع إلی قوله: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی و هو بعیـد. و ظاهر النظم القرآنی: أن یوسف قال لهم هذه المقالهٔ، أی: ادخلوا مصـر قبل دخولهم، و قد قیل فی توجیه ذلک أنه تلقّاهم إلی خارج مصر، فوقف منتظرا لهم فی مکان أو خیمهٔ، فدخلوا علیه ف آوی إِلَیْهِ أَبَوَیْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ فلما دخلوا مصر، و دخلوا علیه دخولا آخر فی المکان الذی له بمصـر رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ أی أجلسهما معه علی السریر الذی یجلس علیه کما هو عادهٔ الملوک وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً أی الأبوان و الإخوهٔ؛ و المعنی: أنهم خرّوا لیوسف سـجدا، و کان ذلک جائزا فی شریعتهم، منزّلا منزلهٔ التحیهٔ؛ و قیل: لم یکن ذلک سجودا بل هو مجرد إیماء، و کانت تلک تحیتهم، و هو یخالف معنی: و خرّوا له سـجدا، فإن الخرور فی اللغهٔ المقید بالسجود لا یکون إلا بوضع الوجه علی الأرض؛ و قیل: الضـمیر فی قوله: لَهُ راجع إلی اللّه سـبحانه، أی: و خرّوا للّه سجدا، و هو بعید جدا؛ و قیل: إن الضـمیر لیوسف، و اللام للتعلیل، أی: و خرّوا لأجله، و فیه أیضا بعـد. و قال یوسف: یا أَبَتِ هـذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ یعنی التی تقـدّم ذکرها مِنْ قَبْلُ أی: من قبل هـذا الوقت قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا بوقوع تأویلها علی ما دلّت علیه وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ

السِّجْنِ الأصل أن يتعدّى فعل الإحسان بإلى، و قد يتعدّى بالباء كما فى قوله تعالى: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً، و قيل: إنه ضمن أحسن معنى لطف، أى: لطف بى محسنا، و لم يذكر إخراجه من الجبّ؛ لأن فى ذكره نوع تثريب للإخوة، و قد قال: لا تثريب عليكم، و قد تقدّم سبب سجنه و مدّة بقائه فيه؛ و قد قيل: إن وجه عدم ذكر إخراجه من الجبّ أن المنة كانت فى إخراجه من السجن أكبر من المنة فى إخراجه من الجبّ، و فيه نظر وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ أى البادية، و هى أرض كنعان بالشام، و كانوا أهل مواش و بريّة؛ و قيل: إن اللّه لم يبعث نبيا من البادية، و أن المكان الذى كان فيه يعقوب يقال

فتح القدير، ج٣، ص: ٦٨

له «بدا»، و إياه عنى جميل بقوله:

و أنت التى «١» حبّبت شغبا إلى بدا «٢»إلىّ و أوطانى بلاد سواهما

و فيه نظر مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي أى أفسد بيننا، و حمل بعضنا على بعض، يقال نزغه إذا نخسه، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها، و أحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرّما منه و تأدّبا إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ اللطيف: الرفيق، قال الأزهرى: اللطيف من أسماء اللّه تعالى معناه الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان يلطف؛ إذا رفق به، و قال عمرو بن أبى عمرو: اللطيف الذى يوصل إليك أربك فى لطف. قال الخطابى: اللطيف هو البرّ بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون، و يسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، و قيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور، و معنى لما يشاء: لأجل ما يشاء حتى يجىء على وجه الصواب إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أى العليم بالأمور الحكيم فى أفعاله، و لما أتم اللّه نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه منه من المحن العظيمة و بما خوّله من الملك و علّمه من العلم، تاقت نفسه إلى الخير الأخروى الدائم الذى لا ينقطع، فقال: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ من للتبعيض، أى: بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتى ملكا خاصا، و هو ملك مصر فى زمن خاص وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أى بعضها، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم و الفهم، أو مجرد تأويل الرؤيا؛ و قيل: من للجنس كما فى قوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ و قيل: زائدة، أى: آتيتنى الملك و علّمتنى تأويل الأحاديث فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ منتصب على أنه صفة لربّ، لكونه منادى مضافا، و يجوز أن يكون انتصابه على أنه منادى بحرف مقدّر، أى: يا فاطر، و الفاطر: الخالق و المنشئ و المخترع و المبدع أَنْتَ وَلِيِّي أى ناصرى و متولّى أمورى فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ تتولانى فيهما تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ أى توفنى على الإسلام لا يفارقنى حتى أموت، و ألحقنى بالصالحين من النبيين من آبائى و غيرهم؛ فأظفر بثوابهم منك و درجاتهم عندك. قيل: إنه لما دعا بهذا الدعاء توفّاه اللّه عزّ و جلّ، قيل: كان عمره عند أن ألقى فى الجبّ سبع عشرة سنة، و كان فى العبودية و السجن و الملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذى سيأتى و توفاه اللّه. قيل:

لم يتمنّ الموت أحد غير يوسف لا نبىّ و لا غيره. و ذهب الجمهور إلى أنه لم يتمنّ الموت بهذا الدعاء، و إنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام و يلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله.

و قد أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال: دخل يعقوب مصر فى ملك يوسف و هو ابن مائة و ثلاثين سنة، و عاش فى ملكه ثلاثين سنة، و مات يوسف و هو ابن مائة و عشرين سنة. قال أبو هريرة: و بلغنى أنه كان عمر إبراهيم خليل اللّه مائة و خمسة و تسعين سنة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

---

(١). فى المطبوع: الذى! و المثبت من الديوان ص (٢٠٠)

(٢). شغب: موضع بين المدينة و الشام. بدا: واد قرب أيلة من ساحل البحر.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۶۹

آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ قال: أبوه و أمه ضمهما. و أخرجا عن وهب قال أبوه و خالته، و كانت توفّيت أمّ يوسف فى نفاس أخيه بنيامين. و أخرج أبو الشيخ نحوه عن سفيان بن عيينة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ قال: السرير. و أخرج ابن أبى حاتم عن عدىّ بن حاتم فى قوله: وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً قال: كانت تحية من كان قبلكم فأعطاكم اللّه السلام مكانها. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد قال: ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم، و ليس سجود عبادة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ قال: لطيف ليوسف و صنع له حين أخرجه من السجن، و جاء بأهله من البدو، و نزع من قلبه نزغ الشيطان و تحريشه على إخوته. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ما سأل نبىّ الوفاة غير يوسف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه قال:

اشتاق إلى لقاء اللّه و أحب أن يلحق به و بآبائه، فدعا اللّه أن يتوفاه، و أن يلحقه بهم و أخرج أبو الشيخ عن الضحّاك فى قوله: وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ قال: يعنى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب. و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: يعنى أهل الجنة.

[سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۲ الى ۱۰۸]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (۱۰۲) وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۱۰۴) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (۱۰۵) وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (۱۰۶)

أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۰۷) قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۸)

الخطاب بقوله: ذلِكَ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو مبتدأ خبره مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ و نُوحِيهِ إِلَيْكَ خبر ثان. قال الزّجّاج: و يجوز أن يكون ذلك بمعنى الذى و نوحيه خبره، أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك. و المعنى: الإخبار من اللّه تعالى لرسوله بأن هذا الذى قصّه عليه من أمر يوسف و إخوته من الأخبار التى كانت غائبة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأوحاه اللّه إليه و أعلمه به، و لم يكن عنده قبل الوحى شيء من ذلك، و فيه تعريض بكفار قريش، لأنّهم كانوا مكذّبين له صلّى اللّه عليه و سلّم بما جاء به جحودا و عنادا و حسدا مع كونهم يعلمون حقيقة الحال وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ أى لدى إخوة يوسف إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ إجماع الأمر: العزم عليه، أى: و ما كنت لدى إخوة يوسف إذ عزموا جميعا على إلقائه فى الجبّ وَ هُمْ فى تلك الحالة يَمْكُرُونَ به: أى بيوسف فى هذا الفعل الذى فعلوه به و يبغونه الغوائل، و قيل: الضمير ليعقوب، أى: يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص يوسف ملطخا بالدم، و قالوا: أكله الذئب. و إذا لم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لديهم عند أن فعلوا ذلك؛ انتفى علمه بذلك مشاهدة، و لم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة و لا خالطهم و لا خالطوه، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير، فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرّد الوحى من

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۷۰

اللّه سبحانه، فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به، فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار، قال اللّه سبحانه ذاكرا لهذا: وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ أى و ما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد، أو ما أكثر الناس على العموم و لو حرصت على

هدايتهم، و بالغت فى ذلك، بمؤمنين باللّه لتصميمهم على الكفر الذى هو دين آبائهم، يقال: حرص يحرص مثل ضرب يضرب، و فى لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمد، و الحرص: طلب الشىء باجتهاد «۱». قال الزجّاج: و معناه: و ما أكثر الناس بمؤمنين و لو حرصت على أن تهديهم؛ لأنك لا تهدى من أحببت و لكن اللّه يهدى من يشاء. قال ابن الأنبارى:

إن قريشا و اليهود سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قصة يوسف و إخوته فشرحهما شرحا شافيا، و هو يؤمل أن يكون ذلك سببا لإسلامهم، فخالفوا ظنّه، و حزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لذلك، فعزّاه اللّه بقوله: وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ الآية وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أى على القرآن و ما تتلوه عليهم منه، أو على الإيمان و حرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدّثهم به من هذا الحديث من أجر من مال يعطونك إياه و يجعلونه لك كما يفعله أحبارهم إِنْ هُوَ أى القرآن أو الحديث الذى حدّثتهم به إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ أى ما هو إلا ذكر للعالمين كافة لا يختص بهم وحدهم وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال الخليل و سيبويه:

و الأكثرون أن كأين أصلها أيّ دخل عليها كاف التشبيه، لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الإفرادى، و صار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية، و الأكثر إدخال «من» فى مميزه، و هو تمييز عن الكاف لا عن أيّ كما فى: مثلك رجلا. و قد مرّ الكلام على هذا مستوفى فى آل عمران. و المعنى: كم من آية تدلهم على توحيد اللّه كائنة فى السموات من كونها منصوبة بغير عمد، مزينة بالكواكب النيرة السيارة و الثوابت، و فى الأرض من جبالها و قفارها و بحارها و نباتها و حيواناتها تدلّهم على توحيد اللّه سبحانه، و أنه الخالق لذلك، الرزاق له المحيى و المميت، و لكنّ أكثر الناس يمرّون على هذه الآيات غير متأملين لها، و لا مفكّرين فيها، و لا ملتفتين إلى ما تدلّ عليه من وجود خالقها، و أنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ و إن نظروا إليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة، و هى التفكر و الاعتبار و الاستدلال. و قرأ عكرمة و عمرو بن فائد برفع الأرض على أنه مبتدأ، و خبره يمرّون عليها. و قرأ السدّى بنصب الأرض بتقدير فعل. و قرأ ابن مسعود «يمشون عليها» وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ أى و ما يصدّق و يقرّ أكثر الناس باللّه من كونه الخالق الرزاق المحيى المميت إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ باللّه يعبدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية، فإنهم مقرّون باللّه سبحانه و بأنه الخالق لهم، وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ «۲»، وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ «۳»، لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقرّبوهم إلى اللّه، ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ «۴» و مثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللّه، المعتقدون فى الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا اللّه سبحانه كما يفعله كثير من عبّاد القبور، و لا ينافى هذا ما قيل من أن الآية نزلت فى قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۹/ ۲۷۱): باختيار.

(۲). الزخرف: ۸۷.

(۳). لقمان: ۲۵.

(۴). الزمر: ۳.

الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ الاستفهام للإنكار، و الغاشية: ما يغشاهم و يغمرهم من العذاب كقوله تعالى: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ «۱»، و قيل: هى الساعة، و قيل: الصواعق و القوارع، و لا مانع من الحمل على العموم أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أى فجأة، و انتصاب بغتة على الحال. قال المبرّد: جاء عن العرب

حال بعد نكرة، و هو قولهم وقع أمر بغتة، يقال: بغتهم الأمر بغتا و بغتة؛ إذا فاجأهم وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانه، و يجوز انتصاب بغتة على أنها صفة مصدر محذوف قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أي: قل يا محمد للمشركين هذه الدعوة التى أدعو إليها و الطريقة التى أنا عليها سبيلي: أي طريقتي و سنّتي، فاسم الإشارة مبتدأ و خبره سبيلي، و فسّر ذلك بقوله:

أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أي على حجّة واضحة، و البصيرة: المعرفة التى يتميّز بها الحق من الباطل و الجملة فى محل نصب على الحال أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي أي: و يدعو إليها من اتبعني و اهتدى بهديي. قال الفرّاء: و المعنى و من اتبعني يدعو إلى اللّه كما أدعو. و فى هذا دليل على أنّ كلّ متّبع لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حقّ عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى اللّه، أي: الدعاء إلى الإيمان به و توحيده و العمل بما شرعه لعباده وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي: و قل يا محمد لهم سبحان اللّه و ما أنا من المشركين باللّه الذين يتّخذون من دونه أندادا.

قال ابن الأنباري: و يجوز أن يتمّ الكلام عند قوله: أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ثم ابتدأ فقال: عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ قال: هم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية يقول: و ما كنت لديهم و هم يلقونه فى غيابة الجب و هم يمكرون بيوسف. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ قال: كم من آية فى السماء يعنى شمسها و قمرها و نجومها و سحابها، و فى الأرض ما فيها من الخلق و الأنهار و الجبال و المدائن و القصور. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ قال: سلهم من خلقهم و من خلق السموات و الأرض فسيقولون اللّه، فذلك إيمانهم و هم يعبدون غيره، و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عطاء فى قوله: وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ قال: كانوا يعلمون أن اللّه ربهم و هو خالقهم و هو رازقهم، و كانوا مع ذلك يشركون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال: كانوا يشركون به فى تلبيتهم، يقولون: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: ذلك المنافق يعمل بالرياء و هو مشرك بعمله.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ قال: وقيعة تغشاهم: و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هذِهِ سَبِيلِي قل: هذه دعوتى.

و أخرج أبو الشيخ عنه قُلْ هذِهِ سَبِيلِي قال: صلاتى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى

---

(١). العنكبوت: ۵۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۷۲

الآية قال: أمرى و مشيئتى و منهاجي. و أخرجا عن قتادة فى قوله: عَلى بَصِيرَةٍ أي: على هدى أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٩ الى ١١١]

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

قوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا هذا ردّ على من قال: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ أى:
لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالا لا ملائكة، فكيف ينكرون إرسالنا إياك. و تدلّ الآية على أنّ اللّه سبحانه لم يبعث نبيا من النساء و لا من الجنّ، و هذا يرد على من قال: إن فى النساء أربع نبيات: حواء، و آسية، و أم موسى، و مريم. و قد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم فى سجاح المتنبئة:
أضحت نبيّتنا أنثى نطيف بهاو أصبحت أنبياء اللّه ذكرانا
فلعنة اللّه و الأقوام كلّهمعلى سجاح و من باللوم أغرانا
نُوحِي إِلَيْهِمْ كما نوحى إليك مِنْ أَهْلِ الْقُرى أى المدائن دون أهل البادية لغلبة الجفاء و القسوة على البدو، و لكون أهل الأمصار أتمّ عقلا و أكمل حلما و أجلّ فضلا أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يعنى المشركين المنكرين لنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: أ فلم يسر المشركون هؤلاء فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم؛ حتى ينزعوا عمّا هم فيه من التكذيب وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أى لدار الساعة الآخرة، أو الحالة الآخرة على حذف الموصوف. و قال الفرّاء: إنّ الدار هى الآخرة، و أضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة و صلاة الأولى و مسجد الجامع، و الكلام فى ذلك مبين فى كتب الإعراب، و المراد بهذه الدار: الجنة، أى: هى خير للمتقين من دار الدنيا، و قرئ:
و للدار الآخرة و قرأ نافع و عاصم و يعقوب أَ فَلا تَعْقِلُونَ بالتاء الفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ هذه الغاية لمحذوف دلّ عليه الكلام، و تقديره: و ما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالا، و لم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ من النصر بعقوبة قومهم، أو حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم لانهماكهم فى الكفر وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا. قرأ ابن عباس و ابن مسعود و أبو عبد الرحمن السلمى و أبو جعفر بن القعقاع و الحسن و قتادة و أبو رجاء العطاردى و عاصم و حمزة و الكسائى و يحيى بن وثّاب و الأعمش و خلف «كُذِبُوا» بالتخفيف،
فتح القدير، ج‌٣، ص: ٧٣
أى: ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب و لم يصدقوا. و قيل: المعنى: ظنّ القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادّعوا من نصرهم؛ و قيل: المعنى: و ظنّ الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنهم ينصرون عليهم، أو كذبهم رجاؤهم للنصر. و قرأ الباقون «كذبوا» بالتشديد، و المعنى عليها واضح، أى: ظنّ الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما و عدوهم به من العذاب، و يجوز فى هذا أن يكون فاعل ظنّ القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد و الوعيد. و قرأ مجاهد و حميد «قد كذبوا» بفتح الكاف و الذال مخففتين على معنى: و ظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا؛ و قد قيل: إن الظنّ فى هذه الآية بمعنى اليقين؛ لأن الرسل قد تيقّنوا أن قومهم كذبوهم، و ليس ذلك مجرد ظنّ منهم. و الذى ينبغى أن يفسر الظنّ باليقين فى مثل هذه الصورة و يفسر بمعناه الأصلى فيما يحصل فيه مجرّد ظنّ فقط من الصور السابقة جاءَهُمْ نَصْرُنا أى: فجاء الرسل نصر اللّه سبحانه فجأة، أو جاء قوم الرّسل الذين كذبوهم نصر اللّه لرسله بإيقاع العذاب على المكذّبين فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ قرأ عاصم «فَنُجِّيَ» بنون واحد. و قرأ الباقون «فننجى» بنونين، و اختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لأنها فى مصحف عثمان كذلك.

و قرأ ابن محيصن «فنجا» على البناء للفاعل، فتكون «مَنْ» على القراءة الأولى فى محل رفع على أنها نائب الفاعل، و تكون على القراءة الثانية فى محل نصب على أنها مفعول، و على القراءة الثالثة فى محل رفع على أنها فاعل، و الذين نجاهم اللّه هم الرسل و من آمن معهم، و هلك المكذّبون وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ عند نزوله بهم، و فيه بيان من يشاء اللّه نجاته من العذاب و هم من عدا هؤلاء المجرمين لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ أى قصص الرسل و من بعثوا إليه من الأمم، أو فى قصص يوسف و إخوته و

أبيه عِبْرَةٌ لِأُولِی الْأَلْبابِ و العبرة: الفكرة و البصيرة المخلصة من الجهل و الحيرة. و قيل: هى نوع من الاعتبار، و هى العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، و أولو الألباب هم ذوو العقول السليمة الذى يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم، و إنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدّة بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بين الرسل الذين قصّ حديثهم، و منهم يوسف و إخوته و أبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم و لا اتصل بأحبارهم ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى أى ما كان هذا المقصوص الذى يدلّ عليه ذكر القصص و هو القرآن المشتمل على ذلك حديثا يفترى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِی بَيْنَ يَدَيْهِ أى ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة و الإنجيل و الزبور. و قرئ برفع «تصديق» على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو تصديق و تفصيل كل شىء من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها؛ لأن اللّه سبحانه لم يفرّط فى الكتاب من شىء؛ و قيل: تفصيل كلّ شىء من قصة يوسف مع إخوته و أبيه. قيل: و ليس المراد به ما يقتضيه من العموم، بل المراد به الأصول و القوانين و ما يؤول إليها وَ هُدىً فى الدنيا يهتدى به كلّ من أراد اللّه هدايته وَ رَحْمَةً فى الآخرة يرحم اللّه بها عباده العاملين بما فيه شرط الإيمان الصحيح، و لهذا قال: لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى يصدّقون به و بما تضمّنه من الإيمان باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و شرائعه و قدره، و أمّا من عداهم فلا ينتفع به و لا يهتدى بما اشتمل عليه من الهدى، فلا يستحقّ ما يستحقونه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۷۴

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا قال: أى ليسوا من أهل السماء كما قلتم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: ما نعلم أن اللّه أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم و أحلم من أهل المعمور. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قال: كيف عذّب اللّه قوم نوح و قوم لوط و قوم صالح و الأمم التى عذّب اللّه. و أخرج البخارى و غيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول اللّه سبحانه حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا قال: قلت أكذبوا أم كذّبوا؟ يعنى على هذه الكلمة مخففة أم مشددة، فقالت: بل كذّبوا تعنى بالتشديد، قلت: و اللّه لقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم، فما هو بالظن، قالت: أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك، فقلت: لعلها و ظنوا أنهم قد كذبوا، مخففة، قالت:

معاذ اللّه، لم تكن الرسل لتظنّ ذلك بربّها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا و صدّقوهم، و طال عليهم البلاء، و استأخر عليهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممّن كذّبهم من قومهم، و ظنّت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم، جاءهم نصر اللّه عند ذلك.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن أبى مليكة: أن ابن عباس قرأها عليه وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا مخففة يقول: أخلفوا. و قال ابن عباس: كانوا بشرا، و تلا: حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ قال ابن أبى مليكة: و أخبرنى عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك و أبته، و قالت: و اللّه ما وعد اللّه رسوله من شىء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، و لكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنّوا أنّ من معهم من المؤمنين قد كذبوهم، و كانت تقرؤها مثقلة. و أخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة أن النبى قرأ: و ظنوا أنهم قد كذبوا مخففة. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ قَدْ كُذِبُوا مخففة، قال: يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم، و ظنّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاءوا به جاءَهُمْ نَصْرُنا قال: جاء الرسل نصرنا. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ عن تميم بن حذلم قال: قرأت على ابن مسعود القرآن فلم يأخذ علىّ إلا حرفين:

كلّ آتوه داخرين فقال: أتوه مخففة. و قرأت عليه وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا فقال: كذبوا مخففة، قال: استيأس الرسل من إيمان

قومهم أن يؤمنوا بهم، و ظنّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا. و أخرج ابن مردويه من طريق أبى الأحوص عنه قال: حفظت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سورة يوسف: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا خفيفة. و للسلف فى هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ قال: فننجى الرسل و من نشاء وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ و ذلك أن اللّه بعث الرسل يدعون قومهم، فأخبروهم أنّ من أطاع اللّه نجا و من عصاه عذّب و غوى. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: جاءَهُمْ نَصْرُنا العذاب. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا قال: عذابه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لَقَدْ

فتح القدير، ج۳، ص: ۷۵

كانَ فِي قَصَصِهِمْ قال: يوسف و إخوته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ قال: معروفة لذوى العقول. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى قال: الفرية: الكذب، وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ قال: القرآن يصدّق الكتب التى كانت قبله من كتب اللّه التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة و الإنجيل و الزبور، و يصدّق ذلك كله و يشهد عليه أن جميعه حقّ من عند اللّه وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ فصل اللّه بين حلاله و حرامه، و طاعته و معصيته.

فتح القدير، ج۳، ص: ۷۶

سورة الرّعد

اشارة

قد وقع الخلاف هل هى مكية أم مدنية؟ فروى النحّاس فى ناسخه عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. و روى أبو الشيخ و ابن مردويه عنه أنها نزلت بالمدينة. و ممّن ذهب إلى أنها مكية سعيد بن جبير و الحسن و عكرمة و عطاء و جابر بن زيد. و ممّن ذهب إلى أنها نزلت بالمدينة ابن الزبير و الكلبى و مقاتل. و قول ثابت: أنها مدنية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بمكة، و هما قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ «۱» [إلى آخرها] «۲».

و قيل: [مدنية إلا] «۳» قوله: وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ «۴». و قد روى هذا عن ابن عباس أيضا و قتادة. و قد أخرج ابن أبى شيبة، و المروزى فى الجنائز، عن جابر بن زيد قال: كان يستحبّ إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد؛ فإن ذلك يخفّف عن الميت، و إنه أهون لقبضه، و أيسر لشأنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۱) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ

وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴)

قوله: المر قد تقدّم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور بما يغنى عن الإعادة، و هو اسم للسورة مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده، و التقدير على الأوّل هذه السورة اسمها هذا، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى آيات هذه السورة، و المراد بالكتاب السورة، أى:

تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن، و يكون قوله: وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ مرادا به القرآن كلّه، أى: هو الحقّ البالغ فى اتّصافه بهذه الصفة، أو تكون الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى آيات القرآن جميعه على أن المراد بالكتاب جميع القرآن، و يكون قوله: وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ جملة مبينة لكون هذا المنزل هو الحقّ. قال الفرّاء: و الذى رفع بالاستئناف و خبره الحق. قال: و إن شئت

---

(۱). الرعد: ۳۱.

(۲). ما بين حاصرتين من تفسير البحر.

(۳). ما بين حاصرتين من الدر المنثور.

(۴). الرعد: ۳۱.

جعلت الذى خفضا نعتا للكتاب، و إن كانت فيه الواو كما فى قوله:

إلى الملك القرم و ابن الهمام «۱» ....

و يجوز أن يكون محل وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ الجرّ على تقدير: و آيات الذى أنزل إليك، فيكون الحق على هذا خبرا لمبتدأ محذوف وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ بهذا الحق الذى أنزله اللّه عليك، قال الزّجّاج:

ما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذى يوجب التصديق بالخالق فقال: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ و العمد: الأساطين، جمع عماد؛ أى قائمات بغير عمد تعتمد عليه؛ و قيل لها عمد و لكن لا نراه.

قال الزجّاج: العمد قدرته التى يمسك بها السموات، و هى غير مرئية لنا، و قرئ «عمد» على أنه جمع عمود يعمد به؛ أى يسند إليه. قال النابغة:

و خبّر الجنّ أنّى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصّفّاح «۲» و العمد

و جملة ترونها مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك، و قيل: هى صفة لعمد، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: رفع السموات ترونها بغير عمد، و لا ملجئ إلى مثل هذا التكلف ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ أى استولى عليه بالحفظ و التّدبير، أو استوى أمره، أو أقبل على خلق العرش، و قد تقدّم الكلام على هذا مستوفى، و الاستواء على العرش صفة للّه سبحانه بلا كيف كما هو مقرّر فى موضعه من علم الكلام وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ أى ذلّلهما لما يراد منهما من منافع الخلق و مصالح العباد كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أى كلّ من الشمس و القمر يجرى إلى وقت معلوم؛ و هو فناء الدنيا و قيام الساعة التى تكوّر عندها الشمس، و يخسف القمر، و تنكدر النجوم و تنتثر، و قيل: المراد بالأجل المسمّى درجاتهما و منازلهما التى تنتهيان إليها لا يجاوزانها، و هى سنة للشمس، و شهر للقمر يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أى يصرّفه على ما يريد، و هو أمر ملكوته و ربوبيته يُفَصِّلُ الْآياتِ أى: يبيّنها، و هى الآيات الدالة على كمال قدرته و ربوبيته، و منها ما تقدّم من رفع السماء بغير عمد و تسخير الشمس و القمر و جريهما لأجل مسمّى، و الجملتان فى محل نصب على الحال أو خبر إن لقوله اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ على أن الموصول صفة للمبتدأ، و المراد من هذا

تنبيه العباد أنّ من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث و الإعادة، و لذا قال: لَعَلَّكَمْ بِلِقاءِ رَبِّكَمْ تُوقِنُونَ أى لعلّكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه، و لا تمترون فى صدقه، و لما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال: وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ قال الفرّاء: بسطها طولا و عرضا.

و قال الأصمّ: إن المدّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، و هذا المدّ الظاهر للبصر لا ينافى كرويتها فى نفسها لتباعد أطرافها وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ أى جبالا ثوابت. واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو بها، أى:

---

(١). و تتمة البيت: و ليث الكتيبة فى المزدحم.

«القرم»: السيد. «الكتيبة»: الجيش. «المزدحم»: محلّ الازدحام.

(٢). «الصفاح»: حجارة عراض رقاق.

فتح القدير، ج٣، ص: ٧٨

تثبت، و الإرساء: الثبوت. قال عنترة:

فصبرت «١» عارفة لذلك حرّةترسو إذا نفس الجبان تطلّع

و قال جميل:

أحبّها و الذى أرسى قواعدهحتى «٢» إذا ظهرت آياته بطنا

وَ أَنْهاراً أى مياها جارية فى الأرض فيها منافع الخلق، أو المراد جعل فيها مجارى الماء وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ من كلّ الثمرات متعلّق بالفعل الذى بعده، أى: جعل فيها من كلّ الثمرات زوجين اثنين، الزوج يطلق على الاثنين، و على الواحد المزاوج لآخر، و المراد هنا بالزوج الواحد، و لهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريد بالزوج هنا الاثنين، و قد تقدّم تحقيق هذا مستوفى، أى جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين، إما فى اللونية؛ كالبياض و السواد و نحوهما، أو فى الطّعمية؛ كالحلو و الحامض و نحوهما، أو فى القدر؛ كالصغر و الكبر، أو فى الكيفية؛ كالحر و البرد. قال الفراء: يعنى بالزوجين هنا الذكر و الأنثى، و الأول أولى يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أى يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلما بعد ما كان أبيض منيرا، شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التى تسترها، و قد سبق تفسير هذه فى الأعراف إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أى فيما ذكر من مدّ الأرض و إثباتها بالجبال، و ما جعله اللّه فيها من الثّمرات المتزاوجة، و تعاقب النور و الظلمة آيات بينة للناظرين المتفكرين المعتبرين: وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ هذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات، قيل: و فى الكلام حذف؛ أى: قطع متجاورات، و غير متجاورات كما فى قوله: سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٣» أى: و تقيكم البرد. قيل: و المتجاورات: المدن و ما كان عامرا، و غير المتجاورات: الصحارى و ما كان غير عامر، و قيل: المعنى:

متجاورات متدانيات، ترابها واحد و ماؤها واحد، و فيها زرع و جنات، ثم تتفاوت فى الثمار فيكون البعض حلوا و البعض حامضا، و البعض طيبا و البعض غير طيب، و البعض يصلح فيه نوع و البعض الآخر نوع آخر.

وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ الجنات: البساتين، و قرأ الجمهور برفع جنات على تقدير: و فى الأرض جنات، فهو معطوف على قطع متجاورات، أو على تقدير: و بينها جنات. و قرأ الحسن بالنصب على تقدير: و جعل فيها جنات، و ذكر سبحانه الزرع بين الأعناب و النخيل؛ لأنه يكون فى الخارج كثيرا كذلك، و مثله فى قوله سبحانه: جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً «٤». صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حفص وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ برفع هذه الأربع عطفا على جنات. و قرأ الباقون بالجرّ عطفا على أعناب. و قرأ مجاهد و السّلمى بضم الصاد من صنوان. و قرأ الباقون

(۱). فى المطبوع: فصرت. و المثبت من الديوان ص (۲۶۴).

«صبرت عارفة»: أى حبست نفسا صابرة أى تصبر للشدائد و لا تنكرها. «ترسو»: تثبت و تستقر.

(۲). فى تفسير القرطبى (۹/ ۲۸۰): حبا.

(۳). النحل: ۸۱.

(۴). الكهف: ۳۲.

بالكسر، و هما لغتان. و قال أبو عبيدة: صنوان: جمع صنو، و هو أن يكون الأصل واحد، ثم يتفرع فيصير نخيلا، ثم يحمل، و هذا قول جميع أهل اللغة و التفسير. قال ابن الأعرابى: الصنو: المثل، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «عمّ الرجل صنو أبيه»، فمعنى الآية على هذا: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة و قد لا تكون.

قال فى الكشاف: و الصنوان: جمع صنو، و هى النخلة لها رأسان و أصلها واحد، و قيل: الصنوان: المجتمع.

و غير الصنوان: المتفرّق. قال النحّاس: و هو كذلك فى اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر: صنوان، و الصنو: المثل، و لا فرق بين التثنية و الجمع إلا بكسر النون فى المثنى، و بما يقتضيه الإعراب فى الجمع: يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ قرأ عاصم و ابن عامر: يسقى بالتحتية، أى: يسقى ذلك كله. و قرأ الباقون بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات. و اختاره أبو حاتم و أبو عبيد و أبو عمرو، قال أبو عمرو: التأنيث أحسن لقوله: وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ و لم يقل بعضه. و قرأ حمزة و الكسائى «يفضل» بالتحتية كما فى قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ و قرأ الباقون بالنون على تقدير: و نحن نفضل.

و فى هذا من الدلالة على بديع صنعه و عظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل؛ فإنّ القطع المتجاورة و الجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد، و تتفاضل الثمرات فى الأكل، فيكون طعم بعضها حلوا و الآخر حامضا، و هذا فى غاية الجودة، و هذا ليس بجيد، و هذا فائق فى حسنه، و هذا غير فائق، ممّا يقنع من تفكر و اعتبر و نظر نظر العقلاء؛ أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جلّ سلطانه و تعالى شأنه، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها و يحصل من ثمراتها لا يكون فى نظر العقلاء إلا لسببين: إما اختلاف المكان الذى هو المنبت، أو اختلاف الماء الذى تسقى به، فإذا كان المكان متجاورا؛ و قطع الأرض متلاصقة، و الماء الذى تسقى به واحدا، لم يبق سبب للاختلاف فى نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة و الصنع العجيب، و لهذا قال اللّه سبحانه: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أى يعملون على قضية العقل و ما يوجبه، غير مهملين لما يقتضيه من التفكر فى المخلوقات و الاعتبار فى العبر الموجودات.

و قد أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: المر قال: أنا اللّه أرى. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد المر فواتح يفتتح بها كلامه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: التوراة و الإنجيل وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ قال: القرآن. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها قال: و ما يدريك لعلها بعمد لا ترونها. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه فى الآية قال: يقول لها عمد و لكن لا ترونها؛ يعنى الأعماد. و أخرج ابن جرير عن إياس بن معاوية فى الآية قال: السماء مقببة على الأرض مثل القبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: السماء على أربعة أملاك، كل زاوية موكّل بها ملك. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ فى قوله: لِأَجَلٍ مُسَمًّى قال الدنيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ قال: يقضيه وحده. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن عمرو قال: الدنيا مسيرة خمسمائة عام: أربعمائة خراب،

و مائة عمران فی أيدی المسلمين

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۸۰

من ذلک مسيرة سنة. و قد روی عن جماعة من السلف فی ذلک تقديرات لم يأت عليها دليل يصحّ. و أخرج ابن جرير عن عليّ بن أبی طالب قال: لما خلق اللّه الأرض قمصت «۱» و قالت: أی ربّ تجعل عليّ بنی آدم يعملون عليّ الخطايا و يجعلون عليّ الخبث، فأرسل اللّه فيها من الجبال ما ترون و ما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم ترجرج. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد فی قوله: جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ قال: ذكرا و أنثی من كل صنف. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فی قوله: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أی يلبس الليل النهار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فی قوله: وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ قال: يريد الأرض الطيبة العذبة التی يخرج نباتها بإذن ربها تجاورها السبخة القبيحة المالحة التی لا تخرج، و هما أرض واحدة، و ماؤها شی‏ء واحد، ملح أو عذب، ففضلت إحداهما علی الأخری. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فی الآية قال: قرئ «مُتَجاوِراتٌ» قريب بعضها من بعض. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی الآية قال: الأرض تنبت حلوا، و الأرض تنبت حامضا، و هی متجاورات تسقی بماء واحد. و أخرج الفريابی و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن البراء بن عازب فی قوله: صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ قال: الصنوان ما كان أصله واحد و هو متفرّق، و غير صنوان التی تنبت وحدها، و فی لفظ: صنوان النخلة فی النخلة ملتصقة، و غير صنوان النخل المفرّق.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس صِنْوانٌ قال: مجتمع النخل فی أصل واحد وَ غَيْرُ صِنْوانٍ قال: النخل المتفرّق. و أخرج الترمذی و حسّنه، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبی هريرة عن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم فی قوله: وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلی بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ قال:

«الدقل «۲» و الفارسی «۳» و الحلو و الحامض». و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی الآية قال:

هذا حامض، و هذا حلو، و هذا دقل، و هذا فارسی.

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۵ الی ۱۱]

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلی ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (۶) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (۷) اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثی وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ وَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (۸) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (۹) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ (۱۰) لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّی يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (۱۱)

---

(۱). «قمصت»: تحرّكت و اضطربت.

(۲). «الدقل»: ردی‏ء الثمر.

(۳). «الفارسی»: نوع جيد من التمر، نسبة إلی فارس.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۸۱

قوله: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث. و اللّه تعالى لا يجوز عليه التعجب، لأنه تغير النفس بشىء تخفى أسبابه و إنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله و أتباعه. قال الزجّاج: أى هذا موضوع عجب أيضا أنهم أنكروا البعث، و قد بين لهم من خلق السموات و الأرض ما يدلّ على أن البعث أسهل فى القدرة، و قيل: الآية فى منكرى الصانع؛ أى: إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلّة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير، فهو محل التعجب، و الأول أولى لقوله: أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ و هذه الجملة فى محل رفع على البدلية من قولهم، و يجوز أن تكون فى محل نصب على أنها مقول القول، و العجب على الأول كلامهم، و على الثانى تكلمهم بذلك، و العامل فى «إذا» ما يفيده قوله: أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ و هو نبعث أو نعاد، و الاستفهام منهم للإنكار المفيد لكمال الاستبعاد، و تقديم الظرف فى قوله: لَفِي خَلْقٍ لتأكيد الإنكار بالبعث، و كذلك تكرير الهمزة فى قوله: أَ إِنَّا ثم لما حكى اللّه سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة: الأوّل أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أى أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون فى الكفر الكاملون فيه. و الثانى: وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ الأغلال: جمع غلّ، و هو طوق تشدّ به اليد إلى العنق، أى: يغلون بها يوم القيامة، و قيل: الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق. و الثالث: وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال، و فى توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكرى البعث وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ السيئة العقوبة المهلكة، و الحسنة: العافية و السلامة، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم و شدّة تصميمهم و تهالكهم على الكفر؛ و قيل: معنى الآية: أنهم طلبوا العقوبة قبل الحسنة، و هى الإيمان وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ قرأ الجمهور «مثلات» بفتح الميم و ضمّ المثلثة جمع مثلة كسمرة، و هى العقوبة، قال ابن الأنبارى: المثلة العقوبة التى تبقى فى المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه، من قولهم: مثل فلان بفلان إذا شأن خلقه بقطع أنفه و سمل عينيه و بقر بطنه. و قرأ الأعمش بفتح الميم و إسكان المثلثة تخفيفا لثقل الضمة، و فى لغة تميم: بضم الميم و المثلثة جميعا، واحدتها على لغتهم: مثلة بضم الميم و سكون المثلثة، مثل غرفة و غرفات. و حكى عن الأعمش فى رواية أخرى أنه قرأ هذا الحرف بضمها على لغة تميم. و المعنى: أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم، و قد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون بهم و يحذرون من حلول ما حلّ بهم، و الجملة فى محل نصب على الحال، و هذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء؛ كقولهم: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «١» لآية وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ أى لذو تجاوز عظيم لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ أنفسهم باقترافهم الذنوب و وقوعهم فى المعاصى إن تابوا عن ذلك، و رجعوا إلى اللّه سبحانه، و الجارّ و المجرور، أى: عَلى ظُلْمِهِمْ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم ظالمين، و على بمعنى مع، أى: مع ظلمهم، و فى الآية بشارة عظيمة و رجاء كبير؛ لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا

---

(١). الأنفال: ٣٢.

يكون تائبا، و لهذا قيل: إنها فى عصاة الموحدين خاصة. و قيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه اللّه من استعجال الكفار للعقوبة، و كما تفيده الجملة المذكورة بعد هذه الآية، و هى: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ يعاقب العصاة المكذبين من الكافرين عقابا شديدا على ما تقتضيه مشيئته فى الدار الآخرة وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أى هلّا أنزل عليه آية غير ما قد جاء به من الآيات، و هؤلاء الكفار القائلون هذه المقالة هم المستعجلون للعذاب. قال الزجاج: طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى و عيسى، فقال اللّه تعالى: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ تنذرهم بالنار، و ليس إليك من

الآيات شيء انتهى، و هذا مكابرة من الكفار و عناد، و إلا فقد أنزل اللّه على رسوله من الآيات ما يغنى البعض منه، و جاء فى: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ بصيغة الحصر لبيان أنه صلّى اللّه عليه و سلّم مرسل لإنذار العباد، و بيان ما يحذرون عاقبته، و ليس عليه غير ذلك. و قد فعل ما هو عليه، و أنذر أبلغ إنذار، و لم يدع شيئا مما يحصل به ذلك إلا أتى به و أوضحه و كرره، فجزاه اللّه عن أمته خيرا وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أى نبىّ يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم و رشادهم، و إن لم تقع الهداية لهم بالفعل و لم يقبلوها، و آيات الرسل مختلفة، هذا يأتى بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه اللّه منها، و من طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ فى التعنت إلى مكان عظيم، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوّة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية، و ذلك لا يختصّ بفرد منها و لا بأفراد معينة، و قيل: إن المعنى و لكل قوم هاد، و هو اللّه عزّ و جلّ فإنه القادر على ذلك، و ليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى الجملة مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته بالعلم سبحانه، و علمه بالغيب الذى هذه الأمور المذكورة منه. قيل: و يجوز أن يكون الاسم الشريف خبرا لمبتدأ محذوف، أى: و لكل قوم هاد و هو اللّه، و جملة يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى تفسير لهاد على الوجه الأخير، و هذا بعيد جدّا، و ما موصولة، أى: يعلم الذى تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة، أو مضغة، أو ذكر، أو أنثى، أو صبيح، أو قبيح، أو سعيد، أو شقى. و يجوز أن تكون استفهامية؛ أى يعلم أىّ شىء فى بطنها، و على أىّ حال هو. و يجوز أن تكون مصدرية، أى: يعلم حملها وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ الغيض النقص: أى يعلم الذى تغيضه الأرحام: أى تنقصه، و يعلم ما تزداده. فقيل: المراد نقص خلقة الحمل و زيادته كنقص إصبع أو زيادتها: و قيل: إن المراد نقص مدّة الحمل على تسعة أشهر، أو زيادتها، و قيل: إذا حاضت المرأة فى حال حملها كان ذلك نقصا فى ولدها؛ و قيل: الغيض: ما تنقصه الأرحام من الدم، و الزيادة ما تزداده منه، و «ما» فى ما تغيض، و ما تزداد، تحتمل الثلاثة الوجوه المتقدّمة فى ما تحمل كل أنثى وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ أى كل شىء من الأشياء التى من جملتها الأشياء المذكورة عند اللّه سبحانه بمقدار، و المقدار: القدر الذى قدره اللّه، و هو معنى قوله سبحانه: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ «١» أى:

كل الأشياء عند اللّه سبحانه جارية على قدره الذى قد سبق و فرغ منه، لا يخرج عن ذلك شىء عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى عالم كلّ غائب عن الحسّ، و كلّ مشهود حاضر، أو كلّ معدوم و موجود، و لا مانع من

---

(١). القمر: ۴۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۸۳

حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ أى العظيم الذى كلّ شىء دونه، المتعالى عمّا يقوله المشركون، أو المستعلى على كلّ شىء بقدرته و عظمته و قهره، ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادره شىء منها، بيّن أنه عالم بما يسرّونه فى أنفسهم و ما يجهرون به لغيره، و أن ذلك لا يتفاوت عنده، فقال:

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ فهو يعلم ما أسرّه الإنسان كعلمه بما جهر به من خير و شر.

و قوله: مِنْكُمْ متعلق بسواء على معنى: يستوى منكم من أسرّ و من جهر، أو سرّ من أسر و جهر من جهر وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ أى مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل، متوار عن الأعين، يقال: خفى الشىء و استخفى، أى: استتر و توارى وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ قال الكسائى: سرب يسرب سربا و سروبا إذا ذهب، و منه قول الشاعر «١»:

و كلّ أناس قاربوا قيد فحلهمو نحن خلعنا قيده فهو سارب

أى ذهب. و قال القتبى: سارب بالنهار متصرّف فى حوائجه بسرعة، من قولهم: أسرب الماء، قال الأصمعى: حلّ سربه، أى: طريقته. و قال الزجّاج: معنى الآية الجاهر بنطقه، و المضمر فى نفسه، و الظاهر فى الطرقات و المستخفى فى الظلمات علم اللّه

فيهم جميعا سوىّ، و هذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفى و السارب؛ فالمستخفى المستتر، و السارب البارز الظاهر لَهُ مُعَقِّباتٌ الضمير فى «له» راجع إلى من فى قوله: من أسر القول و من جهر به و من هو مستخف؛ أى لكلّ من هؤلاء معقبات، و المعقبات بالمتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه، و يكون بدلا منه، و هم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين. قال الزجّاج: المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض، و إنما قال: معقبات مع كون الملائكة ذكورا لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة، ثم جمع معقبة على معقبات، ذكر معناه الفراء، و قيل: أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة و علامة. قال الجوهرى: و التعقّب العود بعد البدء. قال اللّه تعالى: وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ* و قرئ «معاقيب» جمع معقب مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أى من بين يدى من له المعقبات.

و المراد: إن الحفظة من الملائكة من جميع جوانبه، و قيل: المراد بالمعقبات الأعمال، و معنى من بين يديه و من خلفه: ما تقدم منها و ما تأخر يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أى من أجل أمر اللّه، و قيل: يحفظونه من بأس اللّه إذا أذنب بالاستمهال له و الاستغفار حتى يتوب. قال الفرّاء: فى هذا قولان: أحدهما: أنه على التقديم و التأخير، تقديره: له معقبات من أمر اللّه يحفظونه من بين يديه و من خلفه. و الثانى: أن كون الحفظة يحفظونه هو ممّا أمر اللّه به. قال الزجّاج: المعنى حفظهم إياه من أمر اللّه، أى: ممّا أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر اللّه. قال ابن الأنبارى: و فى هذا قول آخر. و هو أن «من» بمعنى الباء، أى: يحفظونه بأمر اللّه؛ و قيل: إن من بمعنى عن، أى: يحفظونه عن أمر اللّه بمعنى من عند اللّه، لا من عند أنفسهم، كقوله:

أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ «٢» أى: عن جوع؛ و قيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، و قيل: يحفظونه من الجن.

---

(١). هو الأخنس بن شهاب التغلبى.

(٢). قريش: ۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۸۴

و اختار ابن جرير أن المعقبات المواكب بين أيدى الأمراء، على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ من النعمة و العافية حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من طاعة اللّه. و المعنى: أنه لا يسلب قوما نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذى بأنفسهم من الخير و الأعمال الصالحة، أو يغيروا الفطرة التى فطرهم اللّه عليها. قيل: و ليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتّى يتقدّم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما فى الحديث إنه: «سأل رسول اللّه سائل فقال: أ نهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث». وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً أى هلاكا و عذابا فَلا مَرَدَّ لَهُ أى فلا ردّ له؛ و قيل:

المعنى: إذا أراد اللّه بقوم سوءا أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ يلى أمرهم و يلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من اللّه سبحانه من العقاب، أو من ناصر ينصرهم و يمنعهم من عذاب اللّه. و المعنى: أنه لا رادّ لعذاب اللّه و لا ناقض لحكمه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم، و هم رأوا من قدرة اللّه و أمره، و ما ضرب لهم من الأمثال و أراهم من حياة الموتى و الأرض الميتة فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أولا يرون أنه خلقهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد من الخلق من تراب و عظام. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ قال: العقوبات. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى المثلات قال: وقائع اللّه فى الأمم فيمن خلا قبلكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:

المثلات ما أصاب القرون الماضية من العذاب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو لا عفو اللّه و تجاوزه ما هنأ لأحد العيش، و لو لا وعيده و عقابه لاتّكل كلّ أحد». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ قال: داع.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ قال: المنذر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ نبىّ يدعوهم إلى اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: محمد المنذر و الهادى اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هو المنذر و هو الهادى. و أخرج ابن جرير عن عكرمة و أبى الضحى نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، و الديلمى و ابن عساكر و ابن النجار عن ابن عباس قال: لما نزلت إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ «وضع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يده على صدره فقال: أنا المنذر، و أومأ بيده إلى منكب علىّ فقال: أنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى» قال ابن كثير فى تفسيره:

و هذا الحديث فيه نكارة شديدة. و أخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

فتح القدير، ج۳، ص: ۸۵

فذكر نحوه. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج عبد اللّه ابن أحمد فى زوائد المسند، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و ابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية نحوه أيضا.

و أخرج ابن جرير عن الضحّاك اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى قال: كلّ أنثى من خلق اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال: يعلم ذكرا هو أو أنثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: هى المرأة ترى الدم فى حملها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: خروج الدم وَ ما تَزْدادُ قال: استمساكه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: أن ترى الدم فى حملها وَ ما تَزْدادُ قال: فى التسعة أشهر. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحّاك عنه فى الآية قال: ما تزداد على تسعة، و ما تنقص من التسعة. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عنه أيضا فى الآية ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ قال: السقط وَ ما تَزْدادُ ما زادت فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما، و ذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، و منهنّ من تحمل تسعة أشهر، و منهنّ من تنقص، فذلك الغيض و الزيادة التى ذكر اللّه، و كلّ ذلك يعلمه تعالى.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ قال: السرّ و العلانية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ قال:

راكب رأسه فى المعاصى وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ قال: ظاهر بالنهار بالمعاصى. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ قال: الظاهر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو صاحب ريبة مستخف بالليل، و إذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الكبير، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس أن سبب نزول الآية قدوم عامر بن الطفيل، و أربد بن قيس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى القصة المشهورة، و أنه لما أصيب عامر بن الطفيل بالغدّة نزل قوله تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ

أَنْثى إلى قوله:

مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قال: المعقبات من أمر اللّه يحفظون محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم ذكر أربد بن قيس و ما قتله، فقال: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ إلى قوله: وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: مُعَقِّباتٌ الآية قال: هذه للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قال: ذلك الحفظ من أمر اللّه بأمر اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قال: بإذن اللّه. و أخرج ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: ولىّ السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه و من خلفه، يقول: يحفظونه من أمرى، فإنى إذا أردت بقوم سوءا فلا مردّ له. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى الآية قال: الملوك يتخذون الحرس

فتح القدير، ج۳، ص: ۸۶

يحفظونه من أمامه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله يحفظونه من القتل، ألم تسمع أن اللّه يقول فى قوله: إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ أى إذا أراد سوءا لم يغن الحرس عنه شيئا. و أخرج ابن جرير عن عكرمة فى الآية قال: هؤلاء الأمراء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه و من خلفه، فإذا جاء قدر اللّه خلوا عنه. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن علىّ فى الآية قال:

ليس من عبد إلا و معه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط، أو ينزوى فى بئر، أو يأكله سبع أو غرق أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه و بين القدر. و قد ورد فى ذكر الحفظة الموكّلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة فى كتب الحديث.

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱۲ الى ۱۸]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (۱۲) وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (۱۳) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (۱۴) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۱۵) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۱۶)

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (۱۷) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۸)

لما خوّف سبحانه عباده بإنزال ما لا مردّ له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه و يخاف من بعضها، و هى البرق و السحاب و الرعد و الصاعقة، و قد مرّ فى أوّل البقرة تفسير هذه الألفاظ و أسبابها.

و قد اختلف فى وجه انتصاب خَوْفاً وَ طَمَعاً فقيل على المصدرية، أى: لتخافوا خوفا و لتطمعوا طمعا، و قيل: على العلة بتقدير

إرادة الخوف و الطمع لئلا يختلف فاعل الفعل المعلل و فاعل المفعول له، أو على الحالية من البرق، أو من المخاطبين بتقدير ذوى خوف، و قيل غير ذلك مما لا حاجة إليه. قيل: و المراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق، و بالطمع هو الحاصل فى المطر. و قال الزجاج: الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر، و الطمع للحاضر؛ لأنه إذا رأى البرق طمع فى المطر الذى هو سبب الخصب وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ التعريف للجنس و الواحدة سحابة، و الثقال: جمع ثقيلة، و المراد أن اللّه سبحانه يجعل السحاب

فتح القدير، ج٣، ص: ٨٧

التى ينشئها ثقالا بما يجعله فيها من الماء وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ أى يسبح الرعد نفسه بحمد اللّه، أى:

متلبسا بحمده، و ليس هذا بمستبعد، و لا مانع من أن ينطقه اللّه بذلك وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

و أما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك، و يكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له، و عناية به؛ و قيل: المراد و يسبح سامعو الرعد، أى: يقولون: سبحان اللّه و الحمد للّه وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ أى: و تسبح الملائكة من خيفة اللّه سبحانه؛ و قيل: من خيفة الرعد. و قد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد، و أن اللّه سبحانه جعل له أعوانا وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ من خلقه فيهلكه، و سياق هذه الأمور هنا للغرض الذى سيقت له الآيات التى قبلها، و هى الدلالة على كمال قدرته وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ الضمير راجع إلى الكفار المخاطبين فى قوله: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ أى: و هؤلاء الكفرة مع هذه الآيات التى أراهم اللّه يجادلون فى شأن اللّه سبحانه فينكرون البعث تارة و يستعجلون العذاب أخرى. و يكذبون الرسل و يعصون اللّه، و هذه الجملة فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون مستأنفة وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ قال ابن الأعرابى: المحال المكر، و المكر من اللّه:

التدبير بالحق. و قال النحاس: المكر من اللّه إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. و قال الأزهرى:

المحال القوّة و الشدّة؛ و الميم أصلية، و ما حلت فلانا محالا أينا أشدّ. و قال أبو عبيد: المحال العقوبة و المكروه.

قال الزّجّاج: يقال ما حلته محالا؛ إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشدّ. و المحل فى اللغة: الشدّة. و قال ابن قتيبة «١»: أى شديد الكيد، و أصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان، و أصله من الكون، ثم يقال تمكنت.

قال الأزهرى: غلط ابن قتيبة «٢» أن الميم فيه زائدة بل هى أصلية، و إذا رأيت الحرف على مثال فعال أوّله ميم مكسورة فهى أصلية مثل مهاد و ملاك و مراس غير ذلك من الحروف. و قرأ الأعرج: وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ بفتح الميم. و قد فسّرت هذه القراءة بالحول.

و للصّحابة و التّابعين فى تفسير المحال هنا أقوال ثمانية: الأول العداوة، الثانى الحول، الثالث الأخذ، الرابع الحقد، الخامس القوّة، السادس الغضب، السابع الهلاك، الثامن الحيلة لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة؛ أى الدعوة الملابسة للحق المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق؛ و المعنى أنها دعوة مجابة واقعة فى موقعها، لا كدعوة من دونه. و قيل: الحق هو اللّه سبحانه؛ و المعنى: أن اللّه سبحانه دعوة المدعوّ الحق و هو الذى يسمع فيجيب. و قيل: المراد بدعوة الحق هاهنا كلمة التوحيد و الإخلاص؛ و المعنى: للّه من خلقه أن يوحّدوه و يخلصوا له. و قيل: دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه، كما قال تعالى: ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ و قيل: الدعوة العبادة، فإنّ عبادة اللّه هى الحق و الصدق وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ أى: و الآلهة الذين

---

(١). انظر كتابه: تفسير غريب القرآن (٢٢٦)

(٢). كذا فى المطبوع و تفسير القرطبى، و فى لسان العرب مادة: محل: القتيبى.

فتح القدير، ج‏3، ص: 88

يدعونهم يعنى الكفار من دون اللّه عزّ و جلّ لا يستجيبون لهم بشي‏ء مما يطلبونه منهم كائنا ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه، و لا يدرى أنه طلب منه أن يبلغ فاه، و لهذا قال: وَ ما هُوَ أى الماء بِبالِغِهِ أى ببالغ فيه. قال الزجّاج: إلا كما يستجاب للذى يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، و الماء لا يستجيب، أعلم اللّه سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه، و ما الماء ببالغه. و قيل: المعنى: أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل فى كفّه شي‏ء منه، و قد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بينى و بينهامن الودّ مثل القابض الماء باليد

و قال الآخر:

و من يأمن الدنيا يكن مثل قابض‏على الماء خانته فروج الأصابع

و قال الفرّاء: إنّ المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء، و أنه شبهه بمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب اللّه سبحانه هذا مثلا لمن يدعو غيره من الأصنام وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ أى: يضلّ عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه شيئا، و لا ينفعهم بوجه من الوجوه، بل هو ضائع ذاهب وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقى، و هو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع و التذلل، فذلك ظاهر فى المؤمنين و الملائكة و مسلمى الجنّ؛ و أما فى الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا فى حقهم، فلا بدّ أن يحمل السجود المذكور فى الآية على معنى حقّ للّه السجود و وجب حتى يتناول السجود بالفعل و غيره، أو يفسر السجود بالانقياد؛ لأن الكفار و إن لم يسجدوا للّه سبحانه فهم منقادون لأمره، و حكمه فيهم بالصحة و المرض و الحياة و الموت و الفقر و الغنى، و يدل على إرادة هذا المعنى قوله: طَوْعاً وَ كَرْهاً فإن الكفار ينقادون كرها كما ينقاد المؤمنون طوعا، و هما منتصبان على المصدرية؛ أى: انقياد طوع و انقياد كره، أو على الحال، أى: طائعين و كارهين. و قال الفرّاء: الآية خاصة بالمؤمنين فإنهم يسجدون طوعا، و بعض الكفار يسجدون إكراها و خوفا كالمنافقين، فالآية محمولة على هؤلاء؛ و قيل:

الآية فى المؤمنين، فمنهم من سجد طوعا لا يثقل عليه السجود، و منهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقة و لكنهم يتحمّلون المشقة إيمانا باللّه و إخلاصا له وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ و ظلالهم: جمع ظل، و المراد به ظل الإنسان الذى يتبعه، جعل ساجدا بسجوده حيث صار لازما له لا ينفكّ عنه. قال الزجاج و ابن الأنبارى: و لا يبعد أن يخلق اللّه للظلال أفهاما «1» تسجد بها للّه سبحانه كما جعل للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيحه، فظلّ المؤمن يسجد للّه طوعا، و ظل الكافر يسجد للّه كرها، و خص الغدوّ و الآصال بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما، و هما ظرف للسجود المقدّر، أى: و يسجد ظلالهم فى هذين الوقتين.

---

(1). أى عقولا.

فتح القدير، ج‏3، ص: 89

و قد تقدّم تفسير الغدوّ و الآصال فى الأعراف، و فى معنى هذه الآية قوله سبحانه: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ «1» و جاء بمن فى مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تغليبا للعقلاء على غيرهم، و لكون سجود غيرهم تبعا لسجودهم، و ممّا يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم للّه على الفعل من الاختصاص، فإن

سجود الكفار لأصنامهم معلوم، و لا ينقادون لهم كانقيادهم للّه فى الأمور التى يقرّون على أنفسهم بأنها من اللّه، كالخلق و الحياة و الموت و نحو ذلك. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أمر اللّه سبحانه رسوله أن يسأل الكفار من رب السموات و الأرض؟ ثم لما كانوا يقرّون بذلك و يعترفون به كما حكاه اللّه سبحانه فى قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ «٢» و قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ «٣» أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب، فقال: قُلِ اللَّهُ فكأنه حكى جوابهم و ما يعتقدونه، لأنهم ربما تلعثموا فى الجواب حذرا ممّا يلزمهم، ثم أمره بأن يلزمهم الحجة و يبكتهم فقال: قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ و الاستفهام للإنكار، أى:

إذا كان رب السموات و الأرض هو اللّه كما تقرون بذلك و تعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ «٤» فما بالكم اتخذتم لأنفسكم من دونه أولياء عاجزين لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً ينفعونها به وَ لا ضَرًّا يضرّون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم، فكيف ترجون منهم النفع و الضر و هم لا يملكونهما لأنفسهم، و الجملة فى محل نصب على الحال، ثم ضرب اللّه سبحانه لهم مثلا و أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، فقال: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أى:

هل يستوى الأعمى فى دينه و هو الكافر، و البصير فيه و هو الموحّد، فإن الأول جاهل لما يجب عليه و ما يلزمه، و الثانى عالم بذلك. قرأ ابن محيصن و أبو بكر و الأعمش و حمزة و الكسائى: أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ بالتحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد. و المراد بالظلمات الكفر، و بالنور الإيمان، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: كيف يكونان مستويين و بينهما من التفاوت ما بين الأعمى و البصير، و ما بين الظلمات و النور، و وحد النور و جمع الظلمة؛ لأنّ طريق الحق واحدة لا تختلف، و طرائق الباطل كثيرة غير محصورة أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ أم هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، أى: بل أ جعلوا للّه شركاء خلقوا كخلقه، و الاستفهام لإنكار الوقوع. قال ابن الأنبارى: معناه أ جعلوا للّه شركاء خلقوا مثل ما خلق اللّه فتشابه خلق الشركاء بخلق اللّه عندهم، أى: ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر عليهم، بل إذا فكّروا بعقولهم وجدوا اللّه هو المنفرد بالخلق، و سائر الشركاء لا يخلقون شيئا، و جملة خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فى محل نصب صفة لشركاء. و المعنى: إنهم لم يجعلوا للّه شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه فَتَشابَهَ بهذا السبب الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ حتى يستحقّوا بذلك العبادة منهم، بل إنما جعلوا له شركاء الأصنام و نحوها، و هى بمعزل عن أن تكون كذلك، ثم أمره اللّه سبحانه بأن يوضح لهم الحق و يرشدهم إلى الصواب فقال: قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ كائنا ما كان ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه.

---

(١). النحل: ٤٨.

(٢). الزخرف: ٩.

(٣). الزخرف: ٨٧.

(٤). المؤمنون: ٨٦ و ٨٧.

فتح القدير، ج٣، ص: ٩٠

قال الزجاج: و المعنى أنه خالق كلّ شىء مما يصح أن يكون مخلوقا، ترى أنه تعالى خالق كل شىء و هو غير مخلوق وَ هُوَ الْواحِدُ أى المتفرّد بالربوبية الْقَهَّارُ لما عداه، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب، ثم ضرب سبحانه مثلا آخر للحق و ذويه، و للباطل و منتحليه فقال: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً أى من جهتها و التنكير للتكثير أو للنوعية فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ جمع واد، و هو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما. قال أبو على الفارسى: لا نعلم فاعلا جمع على أفعلة إلا هذا، و كأنه حمل على فعيل فجمع على أفعلة مثل

جريب و أجربة، كما أن فعيلا حمل على فاعل، فجمع على أفعال مثل يتيم و أيتام و شريف و أشراف، كأصحاب و أنصار فى صاحب و ناصر قال: و فى قوله: فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ توسع، أى: سال ماؤها، قال: و معنى بِقَدَرِها بقدر مائها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. قال الواحدى: و القدر مبلغ الشىء، و المعنى: بقدرها من الماء، فإن صغر الوادى قلّ الماء و إن اتسع كثر، و قال فى الكشاف: بقدرها بمقدارها الذى يعرف اللّه أنه نافع للممطور عليهم غير ضارّ. قال ابن الأنبارى: شبه نزول القرآن الجامع للهدى و البيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعمّ كعموم نفع نزول المطر، و شبه الأودية بالقلوب؛ إذ الأودية يستكنّ فيها الماء كما يستكنّ القرآن و الإيمان فى قلوب المؤمنين فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً الزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل، و يقال له الغثاء و الرغوة، و الرابى: العالى المرتفع فوق الماء. قال الزجّاج: هو الطافى فوق الماء، و قال غيره: هو الزائد بسبب انتفاخه، من ربا يربو إذا زاد. و المراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء، فإنه يضمحلّ و يعلق بجنبات الوادى و تدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر و يضمحلّ. و قد تمّ المثل الأوّل، ثم شرع سبحانه فى ذكر المثل الثانى فقال: وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ من لابتداء الغاية، أى: و منه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: و بعضه زبد مثله، و الضمير للناس، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره، هذا على قراءة يوقدون بالتحتية، و بها قرأ حميد و ابن محيصن و الأعمش و حمزة و الكسائى و حفص. و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد. و المعنى: و مما توقدون عليه فى النار فيذوب من الأجسام المنطرقة الذائبة ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أى لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها و تتجمّلون كالذهب و الفضة أَوْ مَتاعٍ أى: أو طلب متاع تتمتعون به من الأوانى و الآلات المتّخذة من الحديد و الصفر و النحاس و الرصاص زَبَدٌ مِثْلُهُ المراد بالزبد هنا الخبث؛ فإنه يعلو فوق ما أذنب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء، فالضمير فى مثله يعود إلى زَبَداً رابِياً و ارتفاع زبد على الابتداء و خبره مما يوقدون كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب اللّه مثل الحق و مثل الباطل، ثم شرع فى تقسيم المثل فقال: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً يقال: جفأ الوادى بالهمز جفاء؛ إذا رمى بالقذر و الزبد. قال الفرّاء: الجفاء: الرمى، يقال: جفأ الوادى غثاء جفاء: إذا رمى به، و الجفاء بمنزلة الغثاء.

و كذا قال أبو عمرو بن العلاء، و حكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ جفالا. قال أبو عبيدة: يقال أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها، و أجفلت الريح السحاب إذا قطعته. قال أبو حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤبة؛ لأنه كان يأكل الفأر. و اعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين فى الزبد الذى يحمله السيل و الزبد الذى يعلو الأجسام المنطرقة

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٩١

أن تراب الأرض لما خالط الماء و حمله معه صار زبدا رابيا فوقه، و كذلك ما يوقد عليه فى النار حتى يذوب من الأجسام المنطرقة، فإن أصله من المعادن التى تنبت فى الأرض فيخالطها التراب، فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذى خالطها خبثا مرتفعا فوقها وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ منهما و هو الماء الصافى، و الذائب الخالص من الخبث فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أى يثبت فيها، أما الماء فإنه يسلك فى عروق الأرض فتنتفع الناس به، و أما ما أذيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية و أمتعة، و هذان مثلان ضربهما اللّه سبحانه للحق و الباطل، يقول: إن الباطل و إن ظهر على الحق فى بعض الأحوال و علاه، فإن اللّه سبحانه سيمحقه و يبطله و يجعل العاقبة للحق و أهله كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء و يضمحلّ و كخبث هذه الأجسام فإنه و إن علا عليها فإن الكير يقذفه و يدفعه. فهذا مثل الباطل؛ و أما الماء الذى ينفع الناس و ينبت المراعى فيمكث فى الأرض، و كذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه، و هو مثل الحق. قال الزجّاج: فمثل المؤمن و اعتقاده و نفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض و حياة كل شىء، و كمثل نفع الفضة و الذهب و سائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا بها، و مثل الكافر و كفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء، و كمثل خبث الحديد و ما تخرجه النار من وسخ الفضة و الذهب الذى لا ينتفع به. و قد حكينا عن ابن

الأنبارى فيما تقدّم أنه شبه نزول القرآن إلى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلا ضربه اللّه للقرآن كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب اللّه الأمثال فى كل باب؛ لكمال العناية بعباده و اللطف بهم، و هذا تأكيد لقوله:
كذلك يضرب اللّه الحق و الباطل، ثم بيّن سبحانه من ضرب له مثل الحق و مثل الباطل من عباده، فقال فيمن ضرب له مثل الحق لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ أى أجابوا دعوته إذ دعاهم إلى توحيده و تصديق أنبيائه و العمل بشرائعه، و الحسنى صفة موصوف محذوف، أى: المثوبة الحسنى و هى الجنة، و قال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لدعوته إلى ما دعاهم إليه، و الموصول مبتدأ و خبره الجملة الشرطية، و هى لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً من أصناف الأموال التى يتملّكها العباد و يجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شىء وَ مِثْلَهُ مَعَهُ أى مثل ما فى الأرض جميعا كائنا معه و منضمّا إليه لَافْتَدَوْا بِهِ أى بمجموع ما ذكر و هو ما فى الأرض و مثله. و المعنى: ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير و الهول العظيم، ثم بيّن اللّه سبحانه ما أعدّه لهم فقال: أُولئِكَ يعنى الذين لم يستجيبوا لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ قال الزجّاج: لأن كفرهم أحبط أعمالهم، و قال غيره: سوء الحساب المناقشة فيه؛ و قيل: هو أن يحاسب الرجل بذنبه كلّه لا يغفر منه شىء وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أى مرجعهم إليها وَ بِئْسَ الْمِهادُ أى المستقرّ الذى يستقرّون فيه. و المخصوص بالذم محذوف.
و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً قال: خوفا للمسافر يخاف أذاه و مشقته، و طمعا للمقيم يطمع فى رزق اللّه و يرجو بركة المطر و منفعته. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: خوفا لأهل البحر و طمعا لأهل البر. و أخرج أبو الشيخ عن الضحّاك قال: الخوف ما يخاف من الصواعق و الطمع: الغيث. و أخرج عبد بن حميد و ابن

فتح القدير، ج۳، ص: ۹۲

جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الخرائطى فى مكارم الأخلاق، و البيهقى فى سننه، من طرق عن علىّ بن أبى طالب قال: البرق مخاريق من نار بأيدى ملائكة السحاب يزجرون به السحاب. و روى عن جماعة من السلف ما يوافق هذا و يخالفه، و لعلنا قد قدّمنا فى سورة البقرة شيئا من ذلك. و أخرج أحمد عن شيخ من بنى غفار قد صحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه ينشئ السحاب فتنطق أحسن النطق، و تضحك أحسن الضحك». قيل: و المراد بنطقها الرعد، و بضحكها البرق. و قد ثبت عند أحمد و الترمذى، و النسائى فى اليوم و الليلة، و الحاكم فى مستدركه، من حديث ابن عمر قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا سمع الرعد و الصواعق قال: «اللهمّ لا تقتلنا بغضبك، و لا تهلكنا بعذابك، و عافنا قبل ذلك». و أخرج العقيلى و ضعّفه، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ينشئ اللّه السحاب، ثم ينزل فيه الماء، فلا شىء أحسن من ضحكه، و لا شىء أحسن من نطقه، و منطقه الرعد، و ضحكه البرق». و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه أن خزيمة بن ثابت، و ليس بالأنصارى، سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن منشأ السحاب قال: «إنّ ملكا موكلا يلمّ القاصية و يلحم الدانية، فى يده مخراق، فإذا رفع برقت، و إذا زجر رعدت، و إذا ضرب صعقت».
و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و الضّياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: «أقبلت يهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنّ عرفنا أنك نبىّ و اتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال اللّه على ما نقول وكيل، قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبىّ؟
قال: تنام عيناه و لا ينام قلبه؛ قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة و كيف تذكر؟ قال: يلتقى الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة

أذكرت، و إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت؛ قالوا: أخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان كذا و كذا: يعنى الإبل، فحرّم لحومها، قالوا: صدقت؛ قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة اللّه موكّل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره اللّه، قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال: صوته. قالوا: صدقت إنما بقيت واحدة، و هى التى نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبىّ إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذاك ينزل بالخراب و القتال و العذاب عدوّنا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة و النبات و القطر لكان، فأنزل اللّه قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ «۱» إلى آخر الآية.

و أخرج البخارى فى الأدب المفرد، و ابن أبى الدنيا فى المطر، و ابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذى سبّحت له، و قال: إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعى بغنمه.

---

(۱). البقرة: ۹۷.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۹۳

و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة: إن الرعد صوت الملك و كذا أخرج نحوه أبو الشيخ عن ابن عمر. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الرعد ملك اسمه الرعد، و صوته هذا تسبيحه؛ فإذا اشتدّ زجره احتك السحاب و اضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه. و أخرج ابن أبى حاتم و الخرائطى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن أبى عمران الجونى قال: إن بحورا من نار دون العرش تكون منها الصواعق. و أخرج أبو الشيخ عن السدى قال: الصواعق نار. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ قال: شديد القوّة. و أخرج ابن جرير عن علىّ قال: شديد الأخذ.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه فى قوله: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ قال: التوحيد: لا إله إلا اللّه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصّفات، من طرق عن ابن عباس فى قوله: دَعْوَةُ الْحَقِ قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير عن على فى قوله: إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ قال: كأنّ الرجل العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه و ما هو ببالغه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: هذا مثل المشرك الذى عبد مع اللّه غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذى ينظر إلى خياله فى الماء من بعيد و هو يريد أن يتناوله و لا يقدر عليه.

و أخرج أبو الشيخ عنه فى قوله: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ قال: المؤمن و الكافر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً الآية قال: هذا مثل ضربه اللّه احتملت منه القلوب على قدر يقينها و شكّها، فأمّا الشّكّ فلا ينفع معه العمل، و أما اليقين فينفع اللّه به أهله، و هو قوله: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً و هو الشك وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ و هو اليقين، و كما يجعل الحلىّ فى النار فيؤخذ خالصه و يترك خبثه، فكذلك يقبل اللّه اليقين و يترك الشك. و أخرج هؤلاء عنه أيضا: فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها قال: الصغير قدر صغره، و الكبير قدر كبره.

[سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱۹ الى ۲۵]

أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱۹) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (۲۰) وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (۲۱) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ

رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (٢٣)

سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢۴) وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢۵)

الهمزة فى قوله: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ للإنكار على من يتوهّم المماثلة بين من يعلم أنما أنزل اللّه سبحانه إلى رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم من الحق الذى لا شك فيه و لا شبهة، و هو القرآن، و بين من هو أعمى لا يعلم ذلک فإن الحال

فتح القدير، ج٣، ص: ٩۴

بينهما متباعد جدّا كالتباعد الذى بين الماء و الزبد، و بين الخبث و الخالص من تلک الأجسام، ثم بيّن سبحانه أنه إنما يقف على تفاوت المنزلتين، و تباين الرتبتين أهل العقول الصحيحة، فقال: إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ثم وصفهم بهذه الأوصاف المادحة، فقال: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ أى بما عقدوه من العهود فيما بينهم و بين ربهم، أو فيما بينهم و بين العباد وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ الذى وثقوه على أنفسهم، و أكّدوه بالأيمان و نحوها، و هذا تعميم بعد التخصيص، لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور و نحوها، و يحتمل أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود اللّه، و هى أوامره و نواهيه التى وصّى بها عبيده، و يدخل فى ذلک الالتزامات التى يلزم بها العبد نفسه، و يراد بالميثاق ما أخذه اللّه على عباده حين أخرجهم من صلب آدم فى عالم الذرّ المذكور فى قوله سبحانه: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِي آدَمَ «١» الآية. وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ظاهره شمول كلّ ما أمر اللّه بصلته، و نهى عن قطعه من حقوق اللّه و حقوق عباده، و يدخل تحت ذلک صلة الأرحام دخولا أوّليا، و قد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم، و اللفظ أوسع من ذلک وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خشية تحملهم على فعل ما وجب، و اجتناب ما لا يحلّ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ و هو الاستقصاء فيه و المناقشة للعبد، فمن نوقش الحساب عذّب، و من حقّ هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ قيل: هو كلام مستأنف، و قيل: معطوف على ما قبله و التعبير عنه بلفظ المضىّ للتنبيه على أنه ينبغى تحققه، و المراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر اللّه به، و اجتناب ما نهى عنه؛ و قيل: على الرزايا و المصائب، و معنى كون ذلک الصبر لابتغاء وجه اللّه؛ أن يكون خالصا له، لا شائبة فيه لغيره وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى فعلوها فى أوقاتها على ما شرعه اللّه سبحانه فى أذكارها و أركانها مع الخشوع و الإخلاص، و المراد بها الصلوات المفروضة، و قيل: أعمّ من ذلک وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ أى أنفقوا بعض ما رزقناهم، و المراد بالسرّ: صدقة النفل، و العلانية: صدقة الفرض؛ و قيل: السرّ لمن لم يعرف بالمال، أو لا يتهم بترک الزكاة، و العلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترک الزكاة وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أى يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه كما فى قوله تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ* «٢»، أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ، أو يدفعون الشرّ بالخير، أو المنكر بالمعروف، أو الظلم بالعفو، أو الذنب بالتوبة، و لا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، و الإشارة بقوله: أُولئِکَ إلى الموصوفين بالصفات المتقدّمة لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ العقبى مصدر كالعاقبة؛ و المراد بالدار الدنيا، و عقباها الجنة؛ و قيل: المراد بالدار: الدار الآخرة، و عقباها الجنة للمطيعين، و النار للعصاة جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها بدل من عقبى الدار، أى: لهم جنات عدن، و يجوز أن يكون مبتدأ، و خبره يدخلونها، و العدن أصله الإقامة، ثم صار علما لجنة من الجنان. قال القشيرى:

و جنات عدن: وسط الجنة و قصبتها، و سقفها عرش الرحمن، و لكن فى صحيح البخارى و غيره: «إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، و أعلى الجنة، و فوقه عرش الرحمن، و منه تفجر أنهار الجنة».

(۱). الأعراف: ۱۷۲.

(۲). فصلت: ۳۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۹۵

وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ يشمل الآباء و الأمهات وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ معطوف على الضمير فى يدخلون، و جاز ذلك للفصل بين المعطوف و المعطوف عليه، أى: و يدخلها أزواجهم و ذرياتهم، و ذكر الصلاح دليل على أن لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات أولئك، و لا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ أى من جميع أبواب المنازل التى يسكنونها، أو المراد من كل باب من أبواب التحف و الهدايا من اللّه سبحانه سَلامٌ عَلَيْكُمْ أى قائلين سلام عليكم، أى: سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة بِما صَبَرْتُمْ أى بسبب صبركم، و هو متعلّق بالسلام، أى: إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم. أو بمحذوف، أى: هذه الكرامة بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاقّ الصبر فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمّنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب و التشويق، ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء، فقال وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ و قد مرّ تفسير عدم النقض و عدم القطع فعرف منهما تفسير النقض و القطع، و لم يتعرض لنفى الخشية و الخوف عنهم و ما بعدهما من الأوصاف المتقدّمة لدخولها فى النقض و القطع وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالكفر و ارتكاب المعاصى و الإضرار بالأنفس و الأموال أُولئِكَ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة لَهُمُ بسبب ذلك اللَّعْنَةُ أى: الطّرد و الإبعاد من رحمة اللّه سبحانه وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أى سوء عاقبة دار الدنيا، و هى النار أو عذاب النار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ قال: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب اللّه و عقلوه و وعوه كَمَنْ هُوَ أَعْمى قال:

عن الحق فلا يبصره و لا يعقله إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ فبيّن من هم، فقال: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أُولُوا الْأَلْبابِ قال: من كان له لبّ؛ أى عقل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة: أن اللّه ذكر الوفاء بالعهد و الميثاق فى بضع و عشرين آية من القرآن. و أخرج الخطيب و ابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن البرّ و الصّلة ليخفّفان سوء الحساب يوم القيامة، ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ . و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ يعنى من إيمان بالنبيين و بالكتب كلها وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ يعنى يخافون من قطيعة ما أمر اللّه به أن يوصل وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ يعنى شدّة الحساب.

و قد ورد فى صلة الرحم و تحريم قطعها أحاديث كثيرة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحّاك وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ قال يدفعون بالحسنة السيئة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله: جَنَّاتُ عَدْنٍ قال: بطنان الجنة، يعنى وسطها. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن أن عمر قال لكعب: ما عدن؟

فتح القدير، ج۳، ص: ۹۶

قال: هو قصر فى الجنة لا يدخله إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيد أو حكم عدل. و أخرج ابن مردويه عن علىّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «جنّة عدن قضيب غرسه اللّه بيده، ثم قال له كن فكان». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ قال: من آمن فى الدنيا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى

حاتم و أبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله: سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ قال: على دينكم فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ قال: نعم ما أعقبكم اللّه من الدنيا فى الجنة.

و أخرج أحمد و البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان و أبو الشيخ و ابن مردويه، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أوّل من يدخل الجنة من خلق اللّه فقراء المهاجرين الذين تسدّ بهم الثغور، و تتّقى بهم المكاره، و يموت أحدهم و حاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول اللّه لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة:

ربنا نحن سكان سمائك و خيرتك من خلقك، أ فتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال اللّه: إن هؤلاء عبادى كانوا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا، و تسدّ بهم الثغور، و تتّقى بهم المكاره، و يموت أحدهم و حاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى أمامة: «إن المؤمن ليكون متكئا على أريكة إذا دخل الجنة و عنده سماطان من خدم، و عند طرف السماطين باب مبوّب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول أقصى الخدم للذى يليه: ملك يستأذن، و يقول الذى يليه: ملك يستأذن، حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا له، و يقول الذى يليه للذى يليه ائذنوا له، حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب، فيفتح له فيدخل و يسلّم عليه، ثم ينصرف». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ قال: سوء العاقبة.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ (٢٦) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتابِ (٣٠)

لما ذكر اللّه سبحانه عاقبة المشركين بقوله: وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيرا منهم قد وفّر اللّه له الرزق و بسط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا، و يقتره على من كان مؤمنا ابتلاء و امتحانا، و لا يدلّ البسط على الكرامة و لا القبض على الإهانة، و معنى يقدر: يضيق، و منه وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ «١» أى ضيق؛ و قيل: معنى

---

(١). الطلاق: ٧.

يقدر: يعطى بقدر الكفاية، و معنى الآية: أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا أى مشركوا مكة فرحوا بالدنيا و جهلوا ما عند اللّه، قيل: و فى هذه الآية تقديم و تأخير، و التقدير:

الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل و يفسدون فى الأرض و فرحوا بالحياة الدنيا، فيكون و فرحوا معطوفا على يفسدون وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ أى: ما هى إلا شىء يستمتع به، و قيل: المتاع واحد الأمتعة كالقصعة و السكرجة و نحوهما؛ و قيل: المعنى: شىء قليل ذاهب، من متع النهار: إذا ارتفع فلا بدّ له من زوال؛ و قيل: زاد كزاد الراكب يتزوّد به منها إلى الآخرة وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أى: يقول أولئك المشركون من أهل مكة هلا

أنزل على محمد آية من ربه؟ و قد تقدّم تفسير هذا قريبا، و تكرر فى مواضع قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم بهذا، و هو أن الضلال بمشيئة اللّه سبحانه، من شاء أن يضله ضلّ كما ضلّ هؤلاء القائلون: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ أى و يهدى إلى الحق، أو إلى الإسلام، أو إلى جنابه عزّ و جلّ مَنْ أَنابَ أى: من رجع إلى اللّه بالتوبة و الإقلاع عمّا كان عليه، و أصل الإنابة الدخول فى نوبة الخير، كذا قال النيسابورى، و محل الذين آمنوا النصب على البدلية من قوله: «مَنْ أَنابَ» أى أنهم هم الذين هداهم اللّه و أنابوا إليه، و يجوز أن يكون الذين آمنوا خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أى تسكن و تستأنس بذكر اللّه سبحانه بألسنتهم، كتلاوة القرآن و التسبيح و التحميد و التكبير و التوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، و قد سمّى سبحانه القرآن ذكرا قال: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ «١»، و قال: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ «٢» قال الزجاج:

أى: إذا ذكر اللّه وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ «٣» و قيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد اللّه، و قيل: المراد بالذكر هنا الطاعة، و قيل: بوعد اللّه، و قيل: بالحلف باللّه، فإذا حلف خصمه باللّه سكن قلبه، و قيل: بذكر رحمته، و قيل:

بذكر دلائله الدالة على توحيده أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ وحده دون غيره تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و النظر فى مخلوقات اللّه سبحانه و بدائع صنعه و إن كان يفيد طمأنينة فى الجملة، لكن ليست كهذه الطمأنينة، و كذلك النظر فى المعجزات من الأمور التى لا يطيقها البشر، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر اللّه، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر؛ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ الموصول مبتدأ خبره الجملة الدعائية، و هى طوبى لهم على التأويل المشهور، و يجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على المدح، و طوبى لهم خبر مبتدأ محذوف، و يجوز أن يكون الموصول بدلا من القلوب على حذف مضاف؛ أى قلوب الذين آمنوا. قال أبو عبيدة و الزّجّاج و أهل اللغة: طوبى فعلى من الطيب. قال ابن الأنبارى: و تأويلها الحال المستطابة، و قيل: طوبى شجرة فى الجنة، و قيل: هى الجنة، و قيل: هى البستان بلغة الهند، و قيل: معنى طوبى لهم: حسنى لهم، و قيل: خير لهم، و قيل: كرامة لهم، و قيل: غبطة لهم. قال النحّاس: و هذه الأقوال

---

(١). الأنبياء: ٥٠.

(٢). الحجر: ٩.

(٣). الزمر: ٤٥.

متقاربة، و الأصل طيبى فصارت الياء واوا لسكونها و ضم ما قبلها، و اللام فى لهم للبيان مثل سقيا لك و رعيا لك. و قرئ «حُسْنُ مَآبٍ» بالنصب و الرفع، من آب إذا رجع، أى: و حسن مرجع، و هو الدار الآخرة؛ كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ أى: مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة أرسلناك يا محمد، و قيل شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله، و معنى فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ فى قرن قد مضت من قبله قرون، أو فى جماعة من الناس قد مضت من قبلها جماعات لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أى لتقرأ عليهم القرآن، وَ الحال أن هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ أى: بالكثير الرحمة لعباده، و من رحمته لهم إرسال الرسل إليهم و إنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١» و جملة قُلْ هُوَ رَبِّي مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا: و ما الرحمن؟ فقال سبحانه: قُلْ يا محمد هُوَ رَبِّي أى خالقى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أى: لا يستحق العبادة له و الإيمان به سواه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى جميع أمورى وَ إِلَيْهِ لا

إلى غيره مَتابِ أى: توبتى، و فيه تعريض بالكفار، و حثّ لهم على الرجوع إلى اللّه، و التوبة من الكفر، و الدخول فى الإسلام.
و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن سابط فى قوله: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ قال: كزاد الراعى يزوده أهله الكفّ من التمر أو الشىء من الدقيق أو الشىء يشرب عليه اللبن. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: كان الرجل يخرج فى الزمان الأول فى إبله، أو غنمه، فيقول لأهله: متعونى، فيمتعونه فلقة الخبز أو التمر، فهذا مثل ضربه اللّه للدنيا. و أخرج الترمذى و صحّحه عن عبد اللّه بن مسعود قال: «نام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على حصير فقام و قد أثّر فى جنبه، فقلنا:
يا رسول اللّه لو اتّخذنا لك؟ فقال: ما لى و للدنيا، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة، ثم راح و تركها». و أخرج مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجة عن المستورد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليمّ فلينظر بم يرجع؟ و أشار بالسبابة».
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ قال: هشت إليه و استأنست به. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال: إذا حلف لهم باللّه صدقوا أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ قال: تسكن. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: بمحمد و أصحابه. و أخرج أبو الشيخ عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأصحابه حين نزلت هذه الآية: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ هل تدرون ما معنى ذلك؟
قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: من أحبّ اللّه و رسوله و أحبّ أصحابى». و أخرج ابن مردويه عن علىّ:
«أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما نزلت هذه الآية أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ قال: ذاك من أحبّ اللّه

---

(۱). الأنبياء: ۱۰۷.

و رسوله، و أحبّ أهل بيتى صادقا غير كاذب، و أحبّ المؤمنين شاهدا و غائبا، ألا بذكر اللّه يتحابّون».
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: طُوبى لَهُمْ قال: فرح و قرّة عين. و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: طُوبى لَهُمْ قال: نعم ما لهم.
و قد روى عن جماعة من السلف نحو ما قدّمنا ذكره من الأقوال، و الأرجح تفسير الآية بما روى مرفوعا إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كما أخرجه أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى عن عتبة ابن عبد قال: «جاء أعرابى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه فى الجنة فاكهة؟ قال: نعم فيها شجرة تدعى طوبى» الحديث. و أخرج أحمد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الخطيب فى تاريخه، عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أن رجلا قال: يا رسول اللّه طوبى لمن رآك و آمن بك، قال: طوبى لمن آمن بى و رآنى، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى و لم يرنى، فقال رجل: و ما طوبى؟
قال: شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها». و فى الباب أحاديث و آثار عن السلف. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة، اقرءوا إن شئتم وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ «۱»» و فى بعض الألفاظ: «إنها شجرة الخلد». و أخرج أبو الشيخ عن السدى وَ حُسْنُ مَآبٍ قال: حسن منقلب. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك مثله و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ

قال: ذكر لنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب فى الكتاب: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه، و كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم، فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم، فقال: لا، و لكن اكتبوا كما يريدون». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى هذه الآية نحوه.

و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ إِلَيْهِ مَتابِ قال: توبتى.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣١ الى ٣٥]

وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٣١) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٣٢) أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

---

(١). الواقعة: ٣٠.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٠٠

فتح القدير ج‏٣ ١٤٩

قوله: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ قيل: هذا متصل بقوله: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ و أن جماعة من الكفار سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة، فأمره اللّه سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمّن لتعظيم شأن القرآن و فساد رأس الكفار؛ حيث لم يقنعوا به و أصرّوا على تعنتهم و طلبهم ما لو فعله اللّه سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم إنزال الآيات التى يؤمن عندها جميع العباد. و معنى سيرت به الجبال، أى: بإنزاله و قراءته فسارت عن محل استقرارها أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أى صدّعت حتى صارت قطعا متفرّقة أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى أى صاروا أحياء بقراءته عليهم، فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء.

و قد اختلف فى جواب لو ماذا هو؟ فقال الفرّاء: هو محذوف، و تقديره: لكان هذا القرآن، و روى عنه أنه قال: إن الجواب لكفروا بالرحمن، أى: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن؛ و قيل: جوابه لما آمنوا كما سبق فى قوله: ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «١» و قيل: الجواب متقدّم، و فى الكلام تقديم و تأخير، أى: و هم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلى آخره، و كثيرا ما تحذف العرب جواب لو إذا دلّ عليه سياق الكلام، و منه قول امرئ القيس:

فلو أنّها نفس تموت جميعةو لكنّها نفس تساقط أنفسا

أى لهان علىّ ذلك بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أى: لو أن قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن، و لكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن، فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا و إذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال و سائر ما اقترحوه من الآيات، فالإضراب متوجّه إلى ما يؤدّى إليه كون الأمر للّه سبحانه و يستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته و مشيئته، و يدلّ على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله: أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً قال الفرّاء: قال الكلبى أ فلم ييأس بمعنى أ فلم

يعلم، و هى لغة النّخع. قال فى الصّحاح: و قيل: هى لغة هوازن، و بهذا قال جماعة من السلف. قال أبو عبيدة: أ فلم يعلموا و يتبيّنوا. قال الزّجّاج: و هو مجاز لأن اليائس من الشىء عالم بأنه لا يكون، نظيره استعمال الرجاء فى معنى الخوف، و النسيان فى الترك لتضمنهما إياهما، و يؤيده قراءة علىّ و ابن عباس و جماعة: أ فلم يتبين، و من هذا قول رباح بن عدىّ:

ألم ييأس الأقوام أنّى أنا ابنهو إن كنت عن أرض العشيرة نائيا

أى: ألم يعلم، و أنشد فى هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النّضرى:

أقول لهم بالشّعب إذ يأسروننى «٢»ألم تيأسوا أنّى ابن فارس زهدم

---

(١). الأنعام: ١١١.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٣٢٠): ييسروننى، من الميسر. و فى لسان العرب أن قائل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعى.

أى: ألم تعلموا، فمعنى الآية على هذا: أ فلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات؛ و قيل: إن الإياس على معناه الحقيقى، أى: أ فلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن اللّه تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنّوا نزول الآيات التى اقترحها الكفار طمعا فى إيمانهم وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ هذا وعيد للكفار على العموم أو لكفار مكة على الخصوص، أى: لا يزال الذين كفروا تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر و التكذيب للرسل قارعة، أى: داهية تفجؤهم، يقال: قرعه الأمر إذا أصابه، و الجمع قوارع، و الأصل فى القرع الضرب. قال الشاعر «١»:

أفنى تلادى و ما جمّعت من نشبقرع القواقيز أفواه الأباريق «٢»

و المعنى: أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم داهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو نحو ذلك من العذاب؛ و قد قيل: إن القارعة: النكبة، و قيل: الطلائع و السرايا، و لا يخفى أن القارعة تطلق على ما هو أعمّ من ذلك أَوْ تَحُلُّ أى: القارعة قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ فيفزعون منها و يشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم و ترعد منه بوادرهم «٣»، و قيل: إن الضمير فى تَحُلُّ للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و المعنى: أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم محاصرا لهم آخذا بمخانقهم كما وقع منه صلّى اللّه عليه و سلّم لأهل الطائف حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ و هو موتهم، أو قيام الساعة عليهم، فإنه إذا جاء وعد اللّه المحتوم حلّ بهم من عذابه ما هو الغاية فى الشدّة؛ و قيل: المراد بوعد اللّه هنا الإذن منه بقتال الكفار، و الأوّل أولى إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ فما جرى به وعده فهو كائن لا محالة وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا التنكير فى رسل للتكثير، أى: برسل كثيرة، و الإملاء: الإمهال، و قد مرّ تحقيقه فى الأعراف ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ بالعذاب الذى أنزلته بهم فَكَيْفَ كانَ عِقابِ الاستفهام للتقريع و التهديد، أى: فكيف كان عقابى لهؤلاء الكفار الذى استهزءوا بالرسل، فأمليت لهم ثم أخذتهم، ثم استفهم سبحانه استفهاما آخر للتوبيخ و التقريب يجرى مجرى الحجاج للكفار و استركاك صنعهم و الإزراء عليهم، فقال أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ القائم الحفيظ و المتولّى للأمور، و أراد سبحانه نفسه، فإنّه المتولى لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال و الأرزاق، و إحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، و الجواب محذوف، أى: أ فمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لا تنفع و لا تضرّ. قال الفراء: كأنه فى المعنى أ فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون اللّه، و المراد من الآية إنكار المماثلة بينهما؛ و قيل: المراد بمن هو قائم على كل نفس الملائكة الموكّلون ببنى آدم، و الأوّل أولى، و جملة وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ معطوفة على الجواب المقدّر مبينة له أو حالية بتقدير قد، أى: و قد جعلوا، أو معطوفة على وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ

(۱). هو الأقيشر الأسدى.

(۲). «نشب»: هو الضياع و البساتين. «القواقيز»: جمع قاقوزة، و هى أوان يشرب بها الخمر.

(۳). بوادرهم: بادرة السيف: شباته؛ أى: طرفه و حدّه.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۰۲

أى استهزءوا و جعلوا قُلْ سَمُّوهُمْ أى: قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم؟ و فى هذا تبكيت لهم و توبيخ، لأنه إنما يقال هكذا فى الشى‏ء المستحقر الذى لا يستحقّ أن يلتفت إليه، فيقال: سمّه إن شئت، يعنى أنه أحقر من أن يسمى؛ و قيل: إن المعنى سمّوهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديدا لهم أَمْ تُنَبِّئُونَهُ أى: بل أ تنبئون اللّه بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما فى السموات و الأرض أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ أى: بل أ تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن تكون له حقيقة؛ و قيل: المعنى: قل لهم أ تنبئون اللّه بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه؟ فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة، و إن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم سمّوهم، فإذا سمّوا اللات و العزى و نحوهما، فقل لهم إن اللّه لا يعلم لنفسه شريكا، و إنما خص الأرض بنفى الشريك عنها، و إن لم يكن له شريك فى غير الأرض، لأنهم ادّعوا له شريكا فى الأرض؛ و قيل: معنى: أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ أم بزائل من القول باطل، و منه قول الشاعر:

أ عيّرتنا ألبانها و لحومهاو ذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

أى: زائل باطل، و قيل: بكذب من القول، و قيل معنى بظاهر من القول بحجة من القول ظاهرة على زعمهم بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ أى ليس للّه شريك، بل زين للذين كفروا مكرهم. و قرأ ابن عباس «زين» على البناء للفاعل على أن الذى زين لهم ذلك هو مكرهم. و قرأ من عداه بالبناء للمفعول، و المزين هو اللّه سبحانه، أو الشيطان و يجوز أن يسمّى المكر كفرا، لأنّ مكرهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان كفرا، و أما معناه الحقيقى فهو الكيد، أو التمويه بالأباطيل وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ قرأ حمزة و الكسائى و عاصم صُدُّوا على البناء للمفعول أى: صدّهم اللّه، أو صدّهم الشيطان. و قرأ الباقون على البناء للفاعل أى:

صدّوا غيرهم، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و قرأ يحيى بن وثّاب بكسر الصاد وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ أى يجعله ضالا و تقتضى مشيئته إضلاله، فما له من هاد يهديه إلى الخير. قرأ الجمهور هادٍ من دون إثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة. و قرئ بإثباتها على اللغة القليلة، ثم بيّن سبحانه ما يستحقّونه، فقال: لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بما يصابون به من القتل و الأسر و غير ذلك وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ عليهم من عذاب الحياة الدنيا وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ يقيهم عذابه، و لا عاصم يعصمهم منه، ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب فى الأولى و الآخرة، ذكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى صفتها العجيبة الشأن التى هى فى الغرابة كالمثل، قال ابن قتيبة: المثل الشبه فى أصل اللغة، ثم قد يصير بمعنى صورة الشى‏ء و صفته، يقال: مثلت لك كذا، أى:

صوّرته و وصفته، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها و صفتها، ثم ذكرها، فقال: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و هو كالتفسير للمثل. قال سيبويه: و تقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة. و قال الخليل و غيره: إن مثل الجنة مبتدأ و الخبر تجرى. و قال الزجاج: إنه تمثيل للغائب بالشاهد، و معناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار؛ و قيل إن فائدة الخبر ترجع إلى أُكُلُها دائِمٌ أى لا ينقطع، و مثله قوله سبحانه: لا مَقْطُوعَةٍ

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۰۳

وَ لا مَمْنُوعَةٍ «۱» و قال الفراء: المثل مقحم للتأكيد، و المعنى: الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار، و العرب تفعل

ذلک کثیرا وَ ظِلُّها أی: کذلک دائم لا یتقلص و لا تنسخه الشمس، و الإشارة بقوله:
تِلْکَ إلی الجنة الموصوفة بالصفات المتقدّمة، و هو مبتدأ خبره عُقْبَی الَّذِینَ اتَّقَوْا أی: عاقبة الذین اتقوا المعاصی، و منتهی أمرهم وَ عُقْبَی الْکافِرِینَ النَّارُ لیس لهم عاقبة و لا منتهی إلا ذلک.
و قد أخرج الطبرانی و أبو الشیخ عن ابن عباس قال: «قالوا للنبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم: إن کان کما تقول فأرنا أشیاخنا الأول من الموتی نکلّمهم، و افسح لنا هذه الجبال جبال مکة التی قد ضمتنا، فنزلت وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ الآیة. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه عن عطیة العوفی قال: قالوا لمحمد صلّی اللّه علیه و سلّم:
لو سیّرت لنا جبال مکة حتی تتسع فنحرث فیها، أو قطعت لنا الأرض کما کان سلیمان یقطع لقومه بالریح، أو أحییت لنا الموتی کما کان یحیی عیسی الموتی لقومه، فأنزل اللّه وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ الآیة إلی قوله: أَ فَلَمْ یَیْأَسِ الَّذِینَ آمَنُوا قال: أ فلم یتبیّن الذین آمنوا، قالوا هل تروی هذا الحدیث عن أحد من أصحاب النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم؟ قال: عن أبی سعید الخدریّ عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم. و أخرجه أیضا ابن أبی حاتم قال:
حدّثنا أبو زرعة حدّثنا منجاب بن الحرث، أخبرنا بشر بن عمارة، حدّثنا عمر بن حسان، عن عطیة العوفی فذکره. و أخرج ابن جریر و ابن مردویه من طریق العوفی عن ابن عباس نحوه مختصرا. و أخرج أبو یعلی، و أبو نعیم فی الدلائل، و ابن مردویه عن الزبیر بن العوام فی ذکر سبب نزول الآیة نحو ما تقدّم مطوّلا. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِیعاً لا یصنع من ذلک إلا ما یشاء و لم یکن لیفعل. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس أَ فَلَمْ یَیْأَسِ یقول: یعلم.
و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ من طریق أخری عنه نحوه. و أخرج أبو الشیخ عن ابن زید نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن أبی العالیة أَ فَلَمْ یَیْأَسِ قال: قد یئس الذین آمنوا أن یهدوا و لو شاء اللّه لهدی الناس جمیعا. و أخرج الفریابی و ابن جریر و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: تُصِیبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ قال: السرایا. و أخرج الطیالسی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل، عنه نحوه، و زاد أَوْ تَحُلُّ قَرِیباً مِنْ دارِهِمْ قال: أنت یا محمد حتی یأتی وعد اللّه، قال:
فتح مکة. و أخرج ابن مردویه عن أبی سعید نحوه. و أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قارِعَةٌ قال: نکبة. و أخرج ابن جریر و ابن مردویه من طریق العوفی عنه قارعة قال: عذاب من السماء، أو تحلّ قریبا من دارهم: یعنی نزول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بهم و قتاله آباءهم. و أخرج ابن جریر و ابن مردویه عنه أیضا فی قوله: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلی کُلِّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ قال: یعنی بذلک نفسه. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ قال: الظاهر من القول هو الباطل. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن عکرمة فی قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ

---

(۱). الواقعة: ۳۳.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۱۰۴

قال: نعت الجنة، لیس للجنة مثل. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن إبراهیم التیمی فی قوله: أُکُلُها دائِمٌ قال: لذاتها دائمة فی أفواههم.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٦ الى ٣٩]

وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ (٣٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (٣٩)

اختلف المفسرون فى تفسير الكتاب المذكور، فقيل: هو التوراة و الإنجيل، و الذين يفرحون بما أنزل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هم من أسلم من اليهود و النصارى. و قيل: الذين يفرحون هم أهل الكتابين لكون ذلك موافقا لما فى كتبهم مصدّقا له، فعلى الأوّل يكون المراد بقوله: وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ من لم يسلم من اليهود و النصارى، و على الثانى يكون المراد به المشركين من أهل مكة و من يماثلهم، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتابين، أى: من أحزابهما، فإنهم أنكروه لما يشتمل عليه من كونه ناسخا لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما فى الكتابين، و إنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما، و قيل: المراد بالكتاب القرآن، و المراد بمن يفرح به المسلمون، و المراد بالأحزاب المتحزّبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المشركين و اليهود و النصارى، و المراد بالبعض الذى أنكروه ما خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم.
و اعترض على هذا بأنّ فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة من ذكره. و أجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح و الاستبشار.
و قال كثير من المفسرين: إن عبد اللّه بن سلام و الذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة، فأنزل اللّه قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ «١» ففرحوا بذلك، ثم لما بيّن ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض و الإنكار للبعض صرّح بما عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أمره أن يقول لهم ذلك، فقال قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ أى لا أشرك به بوجه من الوجوه؛ أى:
قل لهم يا محمد إلزاما للحجة و ردّا للإنكار إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بعبادة اللّه و توحيده، و هذا أمر اتفقت عليه الشرائع و تطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل، و قد اتفق القرّاء على نصب وَ لا أُشْرِكَ بِهِ عطفا على أَعْبُدَ و قرأ أبو خليد بالرفع على الاستئناف، و روى هذه القراءة عن نافع إِلَيْهِ أَدْعُوا أى: إلى اللّه لا إلى غيره أو إلى ما أمرت به و هو عبادة اللّه وحده، و الأوّل أولى لقوله: وَ إِلَيْهِ مَآبِ فإن الضمير للّه سبحانه؛ أى: إليه وحده لا إلى غيره مرجعى. ثم ذكر بعض فضائل القرآن، و أوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرّض لردّ ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا

---

(١). الإسراء: ١١٠.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٠٥

أى مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملا على أصول الشرائع و فروعها؛ و قيل: المعنى:
و كما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب، و يريد بالحكم ما فيه من الأحكام أو حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، و انتصاب حكما على الحال وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ التى يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم و عدم مخالفتك لشى‏ء ممّا يعتقدونه بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ الذى علّمك اللّه إياه ما لَكَ مِنَ اللَّهِ أى: من جنابه مِنْ وَلِيٍ يلى أمرك و ينصرك وَ لا واقٍ يقيك من عذابه، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تعريض

لأمته، و اللام فى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ هى الموطئة للقسم، و ما لك سادّ مسدّ جواب القسم و الشرط وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً أى: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر لهم أزواج من النساء و لهم ذرّية توالدوا منهم و من أزواجهم، و لم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوّجون و لا يكون لهم ذرّية. و فى هذا ردّ على من كان ينكر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تزوّجه بالنساء؛ أى: إن هذا شأن رسل اللّه المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتى بآية من الآيات، و من جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن اللّه سبحانه. و فيه ردّ على الكفار حيث اقترحوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الآيات ما اقترحوا بما سبق ذكره لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ أى:

لكل أمر ممّا قضاه اللّه، أو لكل وقت من الأوقات التى قضى اللّه بوقوع أمر فيها كتاب عند اللّه يكتبه على عباده و يحكم به فيهم. و قال الفراء: فيه تقديم و تأخير. و المعنى: لكلّ كتاب أجل، أى: لكل أمر كتبه اللّه أجل مؤجل و وقت معلوم كقوله سبحانه: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ «۱»، و ليس الأمر على حسب إرادة الكفار و اقتراحاتهم، بل على حسب ما يشاؤه و يختاره يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ أى: يمحو من ذلك الكتاب و يثبت ما يشاء منه، يقال: محوت الكتاب محوا إذا أذهبت أثره. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و عاصم «و يثبت» بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد. و ظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شيء مما فى الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شرّ، و يبدل هذا بهذا، و يجعل هذا مكان هذا و لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «۲»، و إلى هذا ذهب عمر بن الخطاب و عبد اللّه بن مسعود و ابن عباس و أبو وائل و قتادة و الضحّاك و ابن جريج و غيرهم. و قيل: الآية خاصة بالسّعادة و الشّقاوة؛ و قيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة، و هو ما ليس فيه ثواب و لا عقاب و يثبت ما فيه الثواب و العقاب؛ و قيل: يمحو ما يشاء من الرزق، و قيل: يمحو من الأجل؛ و قيل: يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه و يثبت ما يشاء فلا ينسخه؛ و قيل: يمحو ما يشاء من ذنوب عباده و يترك ما يشاء؛ و قيل: يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة و يترك ما يشاء منها مع عدم التوبة؛ و قيل: يمحو الآباء و يثبت الأبناء؛ و قيل:

يمحو القمر و يثبت الشمس كقوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً «۳» و قيل: يمحو ما يشاء من الأرواح التى يقبضها حال النوم فيميت صاحبه و يثبت ما يشاء فيردّه إلى صاحبه؛ و قيل: يمحو ما يشاء

---

(۱). الأنعام: ۶۷.

(۲). الأنبياء: ۲۳.

(۳). الإسراء: ۱۲.

من القرون و يثبت ما يشاء منها؛ و قيل: يمحو الدنيا و يثبت الآخرة؛ و قيل غير ذلك ممّا لا حاجة إلى ذكره، و الأوّل أولى كما تفيده ما فى قوله ما يَشاءُ من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ و مع قوله: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أى: أصله، و هو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، و يثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه و قدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، و هذا لا ينافى ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: «جفّ القلم» و ذلك لأن المحو و الإثبات هو من جملة ما قضاه اللّه سبحانه؛ و قيل: إن أم الكتاب هو علم اللّه تعالى بما خلق و ما هو خالق.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ قال: أولئك أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فرحوا بكتاب اللّه و برسوله و صدّقوا به وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ يعنى اليهود و النصارى و

المجوس. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية، قال: هؤلاء من آمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الكتاب يفرحون بذلك، و منهم من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قال: الأحزاب الأمم اليهود و النصارى و المجوس. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ إِلَيْهِ مَآبِ قال: إليه مصير كل عبد. و أخرج ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة قال: «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن التّبتّل». و قرأ قتادة وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ الآية.

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سعد بن هشام قال: دخلت على عائشة فقلت: إنى أريد أن أتبتل، قالت: لا تفعل، أما سمعت اللّه يقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً. و قد ورد فى النهى عن التبتل و الترغيب فى النكاح ما هو معروف.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ما نراك يا محمد تملك من شىء، و لقد فرغ من الأمر، فأنزل هذه الآية تخويفا لهم و وعيدا لهم يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا شيئا، و يحدث اللّه فى كل رمضان فيمحو ما يشاء و يثبت من أرزاق الناس و مصائبهم و ما يعطيهم و ما يقسم لهم. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشّعب، عن ابن عباس فى قوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ قال: ينزل اللّه فى كلّ شهر رمضان إلى سماء الدّنيا، فيدبّر أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء و يثبت إلا الشقاوة و السعادة و الحياة و الموت.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة اللّه، ثم يعود لمعصية اللّه فيموت على ضلالة، فهو الذى يمحو، و الذى يثبت الرجل يعمل بمعصية اللّه و قد سبق له خير حتى يموت على طاعة اللّه. و أخرج ابن جرير و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و صحّحه، عنه أيضا فى الآية قال: هما كتابان يمحو اللّه ما يشاء من أحدهما و يثبت وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أى: جملة الكتاب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: «إنّ للّه لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درّة بيضاء له دفتان من ياقوت،

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۰۷

و الدفتان لوحان: للّه كل يوم ثلاث و ستون لحظة يمحو ما يشاء و يثبت و عنده أمّ الكتاب». و إسناده عند ابن جرير: هكذا حدّثنا محمد بن شهر بن عسكر حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فذكره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الطبرانى عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر فى الساعة الأولى منها ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو اللّه ما يشاء و يثبت» الحديث. و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه، بإسناد، قال السّيوطى: ضعيف، عن ابن عمر سمعت رسول اللّه يقول: «يمحو اللّه ما يشاء و يثبت إلا الشقاوة و السعادة و الحياة و الممات». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر من القدر، و لكنّ اللّه يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر». و أخرج ابن جرير عن قيس بن عباد قال: «العاشر من رجب و هو يوم يمحو اللّه فيه ما يشاء». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عنه نحوه بأطول منه.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال و هو يطوف بالبيت: اللهمّ إن كنت كتبت علىّ شقوة أو ذنبا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء و تثبت، و عندك أمّ الكتاب، فاجعله سعادة و مغفرة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى المدخل، عن ابن

عباس فی قوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ قال:

يبدّل اللّه ما يشاء من القرآن فينسخه، و يثبت ما يشاء فلا يبدّله وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ يقول: و جملة ذلك عنده فی أمّ الكتاب: الناسخ و المنسوخ، ما يبدّل و ما يثبت، كل ذلك فی كتاب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ قال: الذكر. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعبا عن أمّ الكتاب؟ فقال: علم اللّه ما هو خالق، و ما خلقه عاملون، فقال لعلمه كن كتابا، فكان كتابا.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ (٤٠) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤١) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (٤٣)

وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ ما زائدة، و أصله: و إن نرك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا: لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، و بقولنا: وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ، و المراد أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك، أو توفيناك قبل إراءتك لذلك فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ أی: فليس عليك إلّا تبليغ أحكام الرسالة، و لا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ أی:

محاسبتهم بأعمالهم و مجازاتهم عليها، و ليس ذلك عليك، و هذا تسلية من اللّه سبحانه لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و إخبار له

فتح القدير، ج‌٣، ص: ١٠٨

أنه قد فعل ما أمره اللّه به، و ليس عليه غيره، و أن من لم يجب دعوته، و يصدّق نبوّته فاللّه سبحانه محاسبة على ما اجترم و اجترأ عليه من ذلك أَ وَ لَمْ يَرَوْا يعنی أهل مكة، و الاستفهام للإنكار، أی أو لم ينظروا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أی: نأتی أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئا فشيئا. قال الزجاج: أعلم اللّه أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر، يقول:

أو لم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم، فكيف لا يعتبرون؟ و قيل: إن معنى الآية:

موت العلماء و الصلحاء. قال القشيری: و على هذا فالأطراف الأشراف، و قد قال ابن الأعرابی: الطرف:

الرجل الكريم. قال القرطبی: و هذا القول بعيد؛ لأنّ مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان فی أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود و النصارى. و قيل: المراد من الآية:

خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران فی ناحية منها؛ و قيل: المراد بالآية: هلاك من هلك من الأمم؛ و قيل: المراد: نقص ثمرات الأرض؛ و قيل: المراد: جور ولاتها حتى تنقص وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ أی: يحكم ما يشاء فی خلقه، فيرفع هذا و يضع هذا، و يحيی هذا و يميت هذا، و يغنی هذا و يفقر هذا، و قد حكم بعزّة الإسلام و علوّه على الأديان، و جملة لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ فی محل نصب على الحال، و قيل: معترضة. و المعقب: الذی يكرّ على الشی‌ء فيبطله، و حقيقته الذی يقفيه بالردّ و الإبطال. قال الفراء:

معناه لا رادّ لحكمه. قال: و المعقب الذی يتبع الشی‌ء فيستدركه، و لا يستدرك أحد عليه، و المراد من الآية أنه لا يتعقب أحد حكم اللّه سبحانه بنقص و لا تغيير وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ فيجازی المحسن بإحسانه، و المسی‌ء بإساءته على السرعة وَ قَدْ مَكَرَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً أی: قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله اللّه إليهم من الرسل فكادوهم و كفروا بهم، و هذا تسلية من اللّه سبحانه لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل اللّه سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، و أن المكر كلّه للّه. فقال فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً لا اعتداد بمكر غيره، ثم فسّر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره، فقال: يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ من خير و شرّ فيجازيها على ذلك، و من علم ما تكسب كل نفس و أعدّ لها جزاءها كان المكر كله له، لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون. و قال الواحدی: إنّ مكر الماكرين مخلوق فلا يضرّ إلا بإرادته؛ و قيل: المعنى: فلله جزاء مكر الماكرين وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو «الكافر» بالإفراد، و قرأ الباقون «الكفار» بالجمع، أی: سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين فی دار الدنيا، أو فی الدار الآخرة، أو فيهما؛ و قيل: المراد بالكافر: أبو جهل وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا أی: يقول المشركون أو جميع الكفار: لست يا محمد مرسلا إلى الناس من اللّه، فأمره اللّه سبحانه بأن يجيب عليهم، فقال: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِی وَ بَيْنَكُمْ فهو يعلم صحة رسالتی، و صدق دعواتی، و يعلم كذبكم وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ أی:

علم جنس الكتاب كالتّوراة و الإنجيل، فإن أهلهما العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد اللّه بن سلام و سلمان الفارسی و تميم الدّاریّ و نحوهم، و قد كان المشركون

فتح القدير، ج٣، ص: ١٠٩

من العرب يسألون أهل الكتاب و يرجعون إليهم، فأرشدهم اللّه سبحانه فی هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك؛ و قيل: المراد بالكتاب القرآن و من عنده علم منه هم المسلمون؛ و قيل: المراد من عنده علم اللوح المحفوظ، و هو اللّه سبحانه و اختار هذا الزجاج، و قال: لأن الأشبه أن اللّه لا يستشهد على خلقه بغيره.

و قد أخرج ابن مردويه عن أبی هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فی قوله: نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها قال: «ذهب العلماء». و أخرج عبد الرزاق و ابن أبی شيبة، و نعيم بن حماد فی الفتن، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فی قوله: نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها قال: موت علمائها و فقهائها و ذهاب خيار أهلها. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن جرير عن مجاهد فی تفسير الآية قال: موت العلماء. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی الآية: قال: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض.

و أخرج ابن جرير و ابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبی شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن الضحّاك فی الآية قال: يعنی أنّ نبیّ اللّه كان ينتقص له ما حوله الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون. و قال اللّه فی سورة الأنبياء: نَأْتِی الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ «١»، بل نبیّ اللّه و أصحابه هم الغالبون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی الآية قال:

نقصان أهلها و بركتها. و أخرج ابن المنذر عنه قال: أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران فی ناحية منها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن زيد وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ليس أحد يتعقب حكمه فيردّه كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيردّه.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أسقف من اليمن فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل تجدنی فی الإنجيل؟ قال: لا، فأنزل اللّه قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِی وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ يقول عبد اللّه بن سلام. و أخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال: جاء عبد اللّه بن سلام حتى أخذ بعضادتی باب المسجد، ثم قال: أنشدكم باللّه أ تعلمون أنی الذی أنزلت وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ قالوا: اللهم نعم. و أخرج ابن جرير و ابن

مردویه من طریق أخری عنه نحوه. و أخرج ابن جریر من طریق العوفی عن ابن عباس وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ قال: هم أهل الکتاب من الیهود و النصاری. و أخرج عبد الرزاق و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم فی الآیة قال: کان قوم من أهل الکتاب یشهدون بالحق و یعرفونه، منهم عبد اللّه بن سلام و الجارود و تمیم الداری و سلمان الفارسی. و أخرج أبو یعلی و ابن جریر و ابن مردویه و ابن عدیّ بسند ضعیف عن ابن عمر أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قرأ: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ قال: و من عند اللّه علم الکتاب. و أخرج أبو عبید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس أنه کان یقرأ: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ یقول: و من عند اللّه علم الکتاب. و أخرج سعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و النحّاس فی ناسخه، عن سعید بن جبیر أنه سئل عن قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ

---

(۱). الأنبیاء: ۴۴.

فتح القدیر، ج‌۳، ص: ۱۱۰

أهو عبد اللّه بن سلام؟ قال: کیف و هذه السورة مکیة؟! و أخرج ابن المنذر عن الشعبی قال: ما نزل فی عبد اللّه بن سلام شی‌ء من القرآن. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر فی قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ قال: جبریل. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد قال: هو اللّه.

فتح القدیر، ج‌۳، ص: ۱۱۱

سورة إبراهیم

اشارة

و هی مکیة کما أخرجه ابن مردویه عن ابن عباس. و أخرجه ابن مردویه أیضا عن الزبیر، و حکاه القرطبی عن الحسن و عکرمة و جابر بن زید و قتادة إلا آیتین منها، و قیل: إلا ثلاث آیات نزلت فی الذین حاربوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و هی قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ کُفْراً إلی قوله: فَإِنَّ مَصِیرَکُمْ إِلَی النَّارِ. و أخرج النحّاس فی ناسخه عن ابن عباس قال: هی مکیة سوی آیتین منها نزلتا بالمدینة، و هی:

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ کُفْراً الآیتین نزلتا فی قتلی بدر من المشرکین.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۱ الی ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الر کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ (۱) اللَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ وَیْلٌ لِلْکافِرِینَ مِنْ عَذابٍ شَدِیدٍ (۲) الَّذِینَ یَسْتَحِبُّونَ الْحَیاةَ الدُّنْیا عَلَی الْآخِرَةِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِکَ فِی ضَلالٍ بَعِیدٍ (۳) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِیُبَیِّنَ لَهُمْ فَیُضِلُّ اللَّهُ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۴)

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآیاتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَکَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ ذَکِّرْهُمْ بِأَیَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ (۵)

قوله: الر قد تقدّم الكلام فى أمثال هذا، و بيان قول من اللّه قال إنه متشابه، و بيان قول من قال إنه غير متشابه، و هو إما مبتدأ خبره كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، و يكون كِتابٌ خبرا لمحذوف مقدّر أو خبرا ثانيا لهذا المبتدأ أو يكون الر مسرودا على نمط التعديد فلا محلّ له، و أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ صفة لكتاب، أى: أنزلنا الكتاب إليك يا محمد و معنى لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ لتخرجهم من ظلمات الكفر و الجهل و الضلالة إلى نور الإيمان و العلم و الهداية؛ جعل الكفر بمنزلة الظلمات، و الإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة، و اللام فى لتخرج للغرض و الغاية، و التعريف فى الناس للجنس، و المعنى: أنه صلّى اللّه عليه و سلّم يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه اللّه لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور؛ و قيل: إن الظلمة مستعارة للبدعة، و النور مستعار للسنة؛ و قيل: من الشك إلى اليقين، و لا مانع من إرادة جميع هذه الأمور، و الباء فى بِإِذْنِ رَبِّهِمْ متعلقة بتخرج، و أسند الفعل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه الداعى و الهادى و المنذر. قال الزّجّاج: بما أذن لك من تعليمهم و دعائهم إلى الإيمان إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ هو بدل من إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيرا، أى: لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد، و هو طريقة اللّه الواضحة التى شرعها لعباده، و أمرهم بالمصير إليها و الدخول فيها؛ و يجوز أن

فتح القدير، ج٣، ص: ١١٢

يكون مستأنفا بتقدير سؤال كأنه قيل: ما هذا النور الذى أخرجهم إليه؟ فقيل: صراط العزيز الحميد.

و العزيز هو القادر الغالب، و الحميد هو الكامل فى استحقاق الحمد اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قرأ نافع و ابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو اللّه المتّصف بملك ما فى السموات و ما فى الأرض. و قرأ الجمهور بالجرّ على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصحّ وصف ما قبله به؛ لأنّ العلم لا يوصف به؛ و قيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى. و قال أبو عمرو: إنّ قراءة الجرّ محمولة على التقديم و التأخير، و التقدير: إلى صراط اللّه العزيز الحميد. و كان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع، و إذا وصل خفض. قال ابن الأنبارى: من خفض وقف على وَ ما فِي الْأَرْضِ ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال: وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ قد تقدّم بيان معنى الويل، و أصله النصب كسائر المصادر، ثم رفع للدلالة على الثبات. قال الزجاج: هى كلمة تقال للعذاب و الهلكة، فدعا سبحانه و تعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم له بما أنزله اللّه عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان و مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ متعلق بويل على معنى يولولون و يضجون من العذاب الشديد الذى صاروا فيه، ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا أى يؤثرونها لمحبتهم لها عَلَى الْآخِرَةِ الدائمة و النعيم الأبدى؛ و قيل: إن الموصول فى موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أى: هم الذين؛ و قيل: الموصول مبتدأ و خبره أولئك، و جملة وَ يَصُدُّونَ و كذلك و يبغون معطوفتان على يستحبون، و معنى الصدّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صرف الناس عنه و منعهم منه، و سبيل اللّه دينه الذى شرعه لعباده وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أى: يطلبون لها زيغا و ميلا لموافقة أهوائهم و قضاء حاجاتهم و أغراضهم، و العوج بكسر العين فى المعانى و بفتح العين فى الأعيان و قد سبق تحقيقه. و الأصل يبغون لها فحذف الحرف و أوصل الفعل إلى الضمير، و اجتماع هذه الخصال نهاية الضلال، و لهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال: أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ و الإشارة إلى الموصوفين بتلك الصفات القبيحة و البعد و إن كان من صفة الضالّ لكنه يجوز وصف الضلال به مجازا لقصد المبالغة، ثم لما منّ على المكلفين بإنزال الكتاب و إرسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ أى: متلبّسا بلسانهم متكلما بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم و سهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول و لا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرا طويلا، و مع ذلك فلا بدّ أن يصعب عليهم فهم

ذلک بعض صعوبة، و لهذا علّل سبحانه ما امتنّ به على العباد بقوله:

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أی: ليوضح لهم ما أمرهم اللّه به من الشريعة التی شرعها لهم و وحد اللسان لأن المراد بها اللغة. و قد قيل فی هذه الآية إشكال؛ لأن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل إلى الناس جميعا بل إلى الجنّ و الإنس و لغاتهم متباينة و ألسنتهم مختلفة. و أجيب بأنه و إن كان صلّى اللّه عليه و سلّم مرسلا إلى الثقلين كما مرّ لكن لما كان قومه العرب و كانوا أخصّ به و أقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، و هم يبينونه لمن كان على غير لسانهم و يوضحونه حتى يصير فإهماله كفهمهم إياه، و لو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۱۳

إليهم، و بيّنه رسول اللّه لكل قوم بلسانهم لكان ذلک مظنة للاختلاف و فتحا لباب التنازع؛ لأنّ كلّ أمة قد تدّعی من المعانی فی لسانها ما لا يعرفه غيرها، و ربما كان ذلک أيضا مفضيا إلى التحريف و التصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التی يقع فيها المتعصبون و جملة فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ مستأنفة، أی: يضلّ من يشاء إضلاله و يهدی من يشاء هدايته. قال الفراء: إذا ذكر فعل و بعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلا للأوّل فالرفع على الاستئناف هو الوجه، فيكون معنى هذه الآية: و ما أرسلنا من رسول اللّه إلا بلسان قومه ليبين لهم تلک الشرائع باللغة التی ألفوها و فهموها، و مع ذلک فإن المضلّ و الهادی هو اللّه عزّ و جلّ؛ و البيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله اللّه سبحانه واسطة و سببا، و تقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدّم عليها، إذ هو إبقاء على الأصل و الهداية إنشاء ما لم يكن وَ هُوَ الْعَزِيزُ الذی لا يغالبه مغالب الْحَكِيمُ الذی يجری أفعاله على مقتضى الحكمة، ثم لمّا بيّن أن المقصود من بعثة نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلک، و خصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدّمة على هذه الأمة المحمدية فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أی:

متلبسا بها. و المراد بالآيات: المعجزات التی لموسى، و معنى أَنْ أَخْرِجْ أی: أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول، و يجوز أن يكون التقدير بأن أخرج، و المراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملک فرعون مِنَ الظُّلُماتِ من الكفر أو من الجهل الذی قالوا بسببه: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ «۱». إِلَى النُّورِ إلى الإيمان أو إلى العلم وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ أی: بوقائعه. قال ابن السكيت: العرب تقول الأيام فی معنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أی: بوقائعها. و قال الزجاج: أی ذكرهم بنعم اللّه عليهم و بنقم أيام اللّه التی انتقم فيها من قوم نوح و عاد و ثمود. و المعنى: عظهم بالتّرغيب و التّرهيب و الوعد و الوعيد إِنَّ فِی ذلِکَ أی: فی التذكير بأيام اللّه أو فی نفس أيام اللّه لَآياتٍ لدلالات عظيمة دالة على التوحيد و كمال القدرة لِكُلِّ صَبَّارٍ أی: كثير الصبر على المحن و المنح شَكُورٍ كثير الشكر للنعم التی أنعم اللّه بها عليه؛ و قيل: المراد بذلک كل مؤمن، و عبّر عنه بالوصفين المذكورين لأنهما ملاک الإيمان، و قدّم الصبار على الشكور؛ لكون الشكر عاقبة الصبر.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ قال: من الضلالة إلى الهدى. و أخرج ابن أبی حاتم عن أبی مالک فی قوله: يَسْتَحِبُّونَ قال: يختارون. و أخرج عبد بن حميد و أبو يعلى و ابن أبی حاتم و الطبرانی، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقی فی الدلائل، عن ابن عباس قال: إن اللّه فضل محمدا على أهل السماء و على الأنبياء، و قيل: ما فضله على أهل السماء؟ قال: إن اللّه قال لأهل السماء: وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّی إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِکَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ «۲» و قال لمحمد: لِيَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ «۳» فكتب له براءة من النار؛ قيل فما هو فضله على الأنبياء؟ قال: إن اللّه يقول: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ و قال لمحمد:

(۱). الأعراف: ۱۳۸.

(۲). الأنبياء: ۲۹.

(۳). الفتح: ۲.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۱۴

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ «۱» فأرسله إلى الإنس و الجنّ. و أخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ قال: نزل القرآن بلسان قريش. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد و عطاء و عبيد بن عمير فى قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا قال: بالآيات التسع الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم و العصا و يده و السنين و نقص من الثمرات. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ قال: من الضلالة إلى الهدى. و أخرج النسائى، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب لإيمان؛ عن أبىّ بن كعب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ قال: «بنعم اللّه و آلائه». و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر عن ابن عباس وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ قال: نعم اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ قال: وعظهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال:

بوقائع اللّه فى القرون الأولى. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ قال: نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر، و إذا أعطى شكر.

[سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۶ الى ۱۲]

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (۷) وَ قالَ مُوسى‏ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (۸) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۹) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۰)

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۱) وَ ما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى‏ ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۱۲)

قوله: وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر، أى: اذكر وقت قول موسى و إِذْ أَنْجاكُمْ متعلق باذكروا، أى: اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه لكم من آل فرعون، أو بالنعمة، أو بمتعلق عليكم: أى: مستقرة عليكم وقت إنجائه، و هو بدل اشتمال من النعمة مرادا بها الإنعام أو العطية يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ أى: يبغونكم، يقال سامه ظلما، أى: أولاه ظلما، و أصل السوم الذهاب فى طلب الشي‏ء

---

(۱). سبأ: ۲۸.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۱۵

و سوء العذاب: مصدر ساء يسوء، و المراد جنس العذاب السيئ، و هو استعبادهم و استعمالهم فی الأعمال الشاقة، و عطف يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ على يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ و إن كان التذبيح من جنس سوء العذاب إخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدّة، و مع طرح الواو كما فی الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيرا لسوء العذاب وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ أی: يتركونهنّ فی الحياة لإهانتهنّ و إذلالهنّ وَ فِي ذلِكُمْ المذكور من أفعالهم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ أی: ابتلاء لكم، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فی سورة البقرة مستوفی وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ تأذّن بمعنى أذّن قاله الفراء. قال فی الكشاف: و لا بدّ فی تفعل من زيادة معنى ليست فی أفعل، كأنه قيل: و إذ أذّن ربكم إيذانا بليغا تنتفی عنه الشكوك و تنزاح الشبه. و المعنى: و إذ تأذّن ربكم فقال: لَئِنْ شَكَرْتُمْ أو أجرى تأذّن مجرى قال؛ لأنه ضرب من القول انتهى، و هذا من قول موسى لقومه، و هو معطوف على نعمة اللّه، أی: اذكروا نعمة اللّه عليكم و اذكروا حين تأذّن ربكم، و قيل: هو معطوف على قوله: إذ أنجاكم؛ أی: اذكروا نعمة اللّه تعالى فی هذين الوقتين، فإن هذا التأذّن أيضا نعمة، و قيل: هو من قول اللّه سبحانه، أی: و اذكر يا محمد إذ تأذّن ربكم.

و قرأ ابن مسعود «و إذ قال ربّكم» و المعنى واحد كما تقدم، و اللام فی لئن شكرتم هی الموطئة للقسم، و قوله:

لَأَزِيدَنَّكُمْ سادّ مسدّ جوابی الشرط و القسم، و كذا اللام فی وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ و قوله: إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ سادّ مسدّ الجوابين أيضا؛ و المعنى: لئن شكرتم إنعامی عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلا منی؛ و قيل: لأزيدنكم من طاعتی؛ و قيل: لأزيدنكم من الثواب؛ و الأوّل أظهر فالشكر سبب المزيد، و لئن كفرتم ذلک و جحدتموه إن عذابی لشديد، فلا بدّ أن يصيبكم منه ما يصيب؛ و قيل: إنّ الجواب محذوف؛ أی: و لئن كفرتم لأعذبنكم، و المذكور تعليل للجواب المحذوف وَ قالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أی: إن تكفروا نعمته تعالى أنتم و جميع الخلق و لم تشكروها فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه لَغَنِيٌّ عن شكركم لا يحتاج إليه و لا يلحقه بذلک نقص حَمِيدٌ أی: مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه، و إن لم تشكروه، أو يحمده غيركم من الملائكة أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه، فيكون داخلا تحت التذكير بأيام اللّه، و يحتمل أن يكون من كلام اللّه سبحانه ابتداء خطابا لقوم موسى و تذكيرا لهم بالقرون الأولى و أخبارهم و مجیء رسل اللّه إليهم، و يحتمل أنه ابتداء خطاب من اللّه سبحانه لقوم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم تحذيرا لهم عن مخالفته، و النبأ: الخبر، و الجمع الأنباء و منه قول الشاعر «١»:

ألم تأتيک و الأنباء تنمی بما لاقت لبون بنی زياد

و قَوْمِ نُوحٍ بدل من الموصول، أو عطف بيان وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أی: من بعد هؤلاء المذكورين لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ أی: لا يحصی عددهم و يحيط بهم علما إلا اللّه سبحانه، و الموصول مبتدأ و خبره لا يعلمهم إلا اللّه و الجملة معترضة، أو يكون الموصول معطوفا على ما قبله و لا يعلمهم

---

(١). هو قيس بن زهير.

إلا اللّه اعتراض، و عدم العلم من غير اللّه إما أن يكون راجعا إلى صفاتهم و أحوالهم و أخلاقهم و مدد أعمارهم، أی: هذه الأمور لا يعلمها إلا اللّه و لا يعلمها غيره، أو يكون راجعا إلى ذواتهم، أی: أنه لا يعلم ذوات أولئک الذين من بعدهم إلا اللّه سبحانه، و جملة جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ مستأنفة لبيان النبأ المذكور فی أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أی: جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة و بالشرائع الواضحة فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ أی: جعلوا أيدی أنفسهم فی أفواههم ليعضوها غيظا مما جاءت به الرسل، كما فی قوله تعالى: عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ «١» لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم و شتم أصنامهم؛ و

قيل:

إن المعنى: أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات، أى: اسكتوا و اتركوا هذا الذى جئتم به تكذيبا لهم و ردّا لقولهم؛ و قيل: المعنى أنهم أشاروا إلى أنفسهم و ما يصدر عنها من المقالة و هى قولهم:

إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ أى: لا جواب لكم سوى هذا الذى قلناه لكم بألسنتنا هذه؛ و قيل: وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء و تعجبا كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه؛ و قيل: المعنى: ردّوا على الرسل قولهم و كذبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأوّل للرسل و الثانى للكفار؛ و قيل: جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار و الثانى للرسل؛ و قيل: معناه: أومئوا إلى الرسل أن اسكتوا؛ و قيل: أخذوا أيدى الرسل و وضعوها على أفواه الرسل ليسكنوهم و يقطعوا كلامهم؛ و قيل: إن الأيدى هنا النعم، أى: ردّوا نعم الرسل بأفواههم، أى: بالنطق و التكذيب، و المراد بالنعم هنا ما جاءوهم به من الشرائع. و قال أبو عبيدة: و نعم ما قال: هو ضرب مثل، أى: لم يؤمنوا و لم يجيبوا، و العرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب و سكت: قد ردّ يده فى فيه، و هكذا قال الأخفش، و اعترض ذلك القتبى فقال: لم يسمع أحد من العرب يقول ردّ يده فى فيه: إذ ترك ما أمر به، و إنما المعنى عضّوا على الأيدى حنقا و غيظا، كقول الشاعر:

يردّنّ فى فيه غيظ الحسود حتى يعضّ علىّ الأكفّا «٢»

و هذا هو القول الذى قدّمناه على جميع هذه الأقوال، و منه قول الشاعر:

أو أنّ سلمى أبصرت تخدّدى و دقّة فى عظم ساقى و يدى

[و بعد أهلى و جفاء عوّدى عضّت من الوجد بأطراف اليدا «٣»

و هو أقرب التفاسير للآية إن لم يصح عن العرب ما ذكره أبو عبيدة و الأخفش، فإن صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ أى: قال الكفار للرسل إنا كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ أى: فى شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان باللّه وحده

---

(١). آل عمران: ١١٩.

(٢). فى تفسير القرطبى (٩/ ٣٤٦): تردّون بدل: يردنّ، و غشّ بدل: غيظ.

(٣). ما بين معقوفتين مستدرك من تفسير القرطبى (٩/ ٣٤٥). «التخدّد»: أن يضطرب اللحم من الهزال.

و ترك ما سواه مُرِيبٍ أى: موجب للريب، يقال: أربته؛ إذا فعلت أمرا أوجب ريبة و شكا، و الريب:

قلق النفس و عدم سكونها. و قد قيل: كيف صرّحوا بالكفر ثم أقرهم على الشك. و أجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم، و إن نزلنا عن هذا المقام فلا أقلّ من أنا نشك فى صحة نبوتكم، و مع كمال الشك لا مطمع فى الاعتراف بنبوّتكم. و جملة قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل:

فماذا قالت لهم الرسل؟ و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: أفى وحدانيته سبحانه شك، و هى فى غاية الوضوح و الجلاء، ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك فى وجوده سبحانه و وحدانيته. فقالوا: فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى خالقهما و مخترعهما و مبدعهما و موجدهما بعد العدم يَدْعُوكُمْ إلى الإيمان به و توحيده لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ قال أبو عبيدة: من زائدة، و وجه ذلك قوله فى موضع آخر: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، و قال سيبويه:

هى للتبعيض، و يجوز أن يـذكر البعض و يراد منه الجميع؛ و قيـل: التبعيض على حقيقته، و لا يلزم من غفران جميع الـذنوب لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم غفران جميعها لغيرهم، و بهذه الآية احتجّ من جوّز زيادة من فى الإثبات؛ و قيل:
من للبـدل و ليست بزائدة و لا تبعيضـية، أى: لتكون المغفرة بدلا من الذنوب وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى أى: إلى وقت مسـمّى عنده سبحانه، و هو الموت فلا يعذّبكم فى الدنيا قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا أى:
ما أنتم إلا بشـر مثلنا فى الهيئـة و الصورة، تأكلون و تشـربون كما نأكل و نشـرب و لسـتم ملائكـة تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا وصـفوهم بالبشـر أوّلا، ثم بإرادة الصـدّ لهم عما كان يعبـد آباؤهم ثانيا، أى: تريدون أن تصـرفونا عن معبودات آبائنا من الأصـنام و نحوها فَأْتُونـا إن كنتم صادقين بأنكم مرسـلون من عنـد اللّه بِسُـلْطانٍ مُبِينٍ أى بحجّـة ظاهرة تـدل على صـحة ما تـدّعونه، و قـد جاءوهم بالسـلطان المبين و الحجـة الظـاهرة، و لكن هـذا النوع من تعنتاتهم، و لون من تلوناتهم قالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ أى: ما نحن فى الصورة و الهيئة إلا بشـر مثلكم كما قلتم وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أى: يتفضل على من يشاء منهم بالنبوّة؛ و قيل: بالتوفيق و الهداية وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُـلْطانٍ أى: ما صح و لا اسـتقام لنا أن نأتيكم بحجّة من الحجج إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: إلاـ بمشيئته و ليس ذلـك فى قـدرتنا. قيل: المراد بالسـلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت، و قيل أعـم من ذلـك، فـإن مـا شـاءه اللّه كـان و مـا لم يشـأه لم يكن وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ أى: عليه وحـده، و هـذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على اللّه دون من عـداه، و كأنّ الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسـهم قصدا أوّليا، و لهذا قالوا وَ مـا لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ أى: و أىّ عـذر لنا فى ألا نتوكل عليه سـبحانه وَ قَدْ هَـدانا سُـبُلَنا أى: و الحال أنه قـد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته، و هو ما شـرعه لعباده و أوجب عليهم سـلوكه وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا بما يقع منكم من التكذيب لنا و الاقتراحات الباطلة وَ عَلَى اللَّهِ وحده دون من عداه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ قيل: المراد بالتوكل الأوّل اسـتحداثه، و بهذا السـعى فى بقائه و ثبوته؛ و قيل: معنى الأوّل: إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا فى حصولها على

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۱۸

اللّه سـبحانه لاـ علينـا، فـإن شاء سـبحانه أظهرها و إن شاء لم يظهرها. و معنى الثانى: إبـداء التوكل على اللّه فى دفع شـرّ الكفار و سفاهتهم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ قال: أخبرهم موسى عن ربّه أنهم إن شكروا النعمـة زادهم من فضـله، و أوسع لهم من الرزق، و أظهرهم على العالم. و أخرج ابن جرير عن الحسن لَأَزِيدَنَّكُمْ قال: من طاعتى. و أخرج ابن المبـارك و ابن جرير و ابن أبى حـاتم و البيهقى فى الشـعب، عن علىّ بن صالـح مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سـفيان الثورى فى الآيـة قال: لا تـذهب أنفسـكم إلى الـدنيا فإنها أهون عنـد اللّه من ذلك، و لكن يقول: لئن شـكرتم لأزيدنكم من طاعتى. و أخرج أحمد و البيهقى عن أنس قال: «أتى النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها، و أتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها، و قال: تمرة من رسول اللّه، فقال للجارية: اذهبى إلى أمّ سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها» و فى إسناد أحمد عمارة بن زاذان، وثّقه أحمد و يعقوب بن سفيان و ابن حبّان، و قال ابن معين:
صالح، و قال أبو زرعة: لا بأس به، و قال أبو حاتم: يكتب حديثه و لا يحتجّ به، ليس بالمتين، و قال البخارى:
ربما يضـطرب فى حـديثه، و قال أحمـد: روى عنه أحاديث منكرة، و قال أبو داود: ليس بـذاك، و ضـعّفه الدارقطنى، و قال ابن عـدى: لا بأس به. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الضـياء المقدسـى فى المختارة، عن أنس قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «من ألهم خمسة لم يحرم خمسة، و فيها: و من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة».

و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادره عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أربع من أعطيهنّ لم يمنع من اللّه أربعا، و فيها: و من أعطى الشكر لم يمنع الزيادة». و لا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة فى الطاعة، بل الظاهر من الآية العموم، كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر، فمن شكر اللّه على ما رزقه وسع اللّه عليه فى رزقه، و من شكر اللّه على ما أقدره عليه من طاعته زاده من طاعته، و من شكره على ما أنعم عليه به من الصحة زاده اللّه صحة، و نحو ذلك.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ و يقول: كذب النسابون. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن عمرو بن ميمون مثله. و أخرج ابن الضريس عن أبى مجلز قال: قال رجل لعلى بن أبى طالب: أنا أنسب الناس، قال: إنك لا تنسب الناس، فقال: بلى، فقال له علىّ: أ رأيت قوله: وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً «١» قال: أنا أنسب ذلك الكثير، قال: أ رأيت قوله: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ فسكت. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير قال: ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء معدّ بن عدنان. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: بين عدنان و إسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

---

(١). الفرقان: ٣٨.

فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ قال: لما سمعوا كتاب اللّه عجبوا و رجعوا بأيديهم إلى أفواههم وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ يقولون: لا نصدّكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكا قويا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود: فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ قال: عضّوا عليها. و فى لفظ: على أناملهم غيظا على رسلهم.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٣ الى ١٨]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ (١٤) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (١٧)

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْ‌ءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)

قوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هؤلاء القائلون هم طائفة من المتمرّدين عن إجابة الرسل، و اللام فى لَنُخْرِجَنَّكُمْ هى الموطئة للقسم، أى: و اللّه لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا، لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل و عدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترءوا عليهم بهذا، و خيّروهم بين الخروج من أرضهم، أو العود فى ملّتهم الكفرية، و قد قيل: إن أَوْ فى أَوْ لَتَعُودُنَ بمعنى حتى أو، يعنى: إلا أن تعودوا كما قاله بعض المفسرين؛ و ردّ بأنه لا حاجة إلى ذلك، بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، و قد تقدّم تفسير الآية فى سورة الأعراف. قيل: و العود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة و بعدها؛ و قيل: إن الخطاب للرسل و لمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أى: إلى الرسل لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ أى: قال لهم: لنهلكنّ الظالمين وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ أى: أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود، و

مثل هـذه الآيـة قوله سبحانه: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا «۱»، و قـال: وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ «۲».

و قرئ ليهلكنّ و ليسكننكم بالتحتيـة فى الفعلين اعتبارا بقوله فأوحى، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من إهلاک الظالمين و إسكان المؤمنين فى مساكنهم لِمَنْ خافَ مَقامِي أى: موقفى، و ذلك يوم الحساب، فإنه موقف اللّه سبحانه، و المقام بفتح الميم مكـان الإقامـة، و بـالضم فعـل الإقامـة؛ و قيـل: إنّ المقام هنا مصـدر بمعنى القيام، أى: لمن خاف قيامى عليه و مراقبتى له كقوله تعـالى: أَ فَمَنْ هُوَ قـائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ «۳» و قـال الأخفش: ذلک لمن خاف مقامى، أى: عـذابى وَ خافَ وَعِيـدِ أى: خاف

---

(۱). الأعراف: ۱۳۷.

(۲). الأحزاب: ۳۷.

(۳). الرعد: ۳۳.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۲۰

وعيدى بالعذاب، و قيل: بالقرآن و زواجره، و قيل: هو نفس العذاب، و الوعيد الاسم من الوعد وَ اسْتَفْتَحُوا معطوف على أوحى، و المعنى: أنهم استنصروا باللّه على أعدائهم، أو سألوا اللّه القضاء بينهم، من الفتاحة و هى الحكومة؛ و من المعنى الأوّل قوله: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ «۱» أى: إن تستنصـروا فقـد جاءكم النصر؛ و من المعنى الثانى قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ «۲» أى: احكم، و الضـمير فى اسـتفتحوا للرسـل؛ و قيـل: للكفار، و قيل: للفريقين وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيـدٍ الجبار المتكبر الـذى لا يرى لأحـد عليه حقـا، هكـذا حكـاه النحّاس عن أهل اللغـة، و العنيـد: المعانـد للحق و المجانب له، و هو مأخوذ من العنـد، و هو الناحية، أى: أخذ فى ناحية معرضا. قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلونى وسطاإنّى كبير لا أطيق العنّدا

قـال الزجّاج: العنيـد: الـذى يعـدل عن القصـد، و بمثله قال الهروى. و قال أبو عبيـد: هو الـذى عنـد و بغى، و قال ابن كيسان: هو الشّامخ بأنفه؛ و قيل: المراد به العاصـى، و قيل: الذى أبى أن يقول لا إله إلا اللّه؛ و معنى الآية: أنه خسـر و هلک من كان متّصـفا بهذه الصفة مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ أى: من بعده جهنم، و المراد بعد هلاكه على أن وراءها هنا بمعنى بعد، و منه قول النّابغة:

حلفت فلم أترک لنفسک ريبةو ليس وراء اللّه للمرء مذهب

أى: ليس بعـد اللّه، و مثله قوله: وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ أى: من بعـده. كـذا قال الفرّاء، و قيل: مِنْ وَرائِهِ أى: من أمامه. قال أبو عبيد: هو من أسماء الأضداد، لأنّ أحدهما ينقلب إلى الآخر، و منه قول الشاعر:

و من ورائک يوم أنت بالغهلا حاضر معجز عنه و لا بادى

و قال آخر:

أ ترجو بنو مروان سمعى و طاعتىو قومى تميم و الفلاة و رائيا

أى: أمامى. و منه قوله تعالى: وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً «۳» أى: أمامهم، و بقول أبى عبيـدة هذا قال قطرب. و قـال الأخفش: هو كمـا يقـال: هـذا الأمر من ورائـک؛ أى: سوف يأتيک، و أنا من وراء فلان، أى: فى طلبه. و قال النحّاس: من ورائه؛ أى: من أمامه، و ليس من الأضداد، و لكنه من توارى؛ أى: استتر فصارت جهنم من ورائه، لأنها لا ترى، و حكى مثله ابن الأنبارى وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ معطوف على مقدّر جوابا عن سؤال سائل. كأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ قيل: يلقى فيها و يسقى،

و الصديد ما يسيل من جلود أهل النار و اشتقاقه من الصدّ. لأنه يصدّ الناظرين عن رؤيته، و هو دم مختلط بقيح، و الصديد صفة لماء، و قيل: عطف بيان عنه و يَتَجَرَّعُهُ فى محل جر على أنه صفة لماء،

---

(۱). الأنفال: ۱۹.

(۲). الأعراف: ۸۹.

(۳). الكهف: ۷۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۲۱

أو فى محل نصب على أنه حال، و قيل: هو استئناف مبنىّ على سؤال، و التجرع: التحسى، أى: يتحساه مرة بعد مرّة، لا مرّة واحدة لمرارته و حرارته وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ أى: يبتلعه، يقال: ساغ الشراب فى الحلق يسوغ سوغا؛ إذا كان سهلا، و المعنى: و لا يقارب إساغته، فكيف تكون الإساغة؟ بل يغصّ به فيطول عذابه بالعطش تارة، و بشربه على هذه الحال أخرى؛ و قيل: إنه يسيغه بعد شدة و إبطاء، كقوله:

وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ «۱» أى: يفعلون بعد إبطاء، كما يدلّ عليه قوله تعالى فى آية أخرى يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ «۲». وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ أى: تأتيه أسباب الموت من كلّ جهة من الجهات، أو من كلّ موضع من مواضع بدنه. و قال الأخفش: المراد بالموت هنا البلايا التى تصيب الكافر فى النار، سمّاها موتا لشدّتها وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ أى: و الحال أنه لم يمت حقيقة فيستريح؛ و قيل: تعلّق نفسه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، و لا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا، و مثله قوله تعالى: لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى ؛ و قيل: معنى و ما هو بميت؛ لتطاول شدائد الموت به و امتداد سكراته عليه. و الأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه: لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى «۳» و قوله: لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها «۴». وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ أى: من أمامه، أو من بعده عذاب شديد، و قيل: هو الخلود، و قيل: حبس النفس مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ قال سيبويه: مثل مرتفع على الابتداء، و الخبر مقدّر، أى: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، و به قال الزجاج. و قال الفراء:

التقدير مثل أعمال الذين كفروا فحذف المضاف. و روى عنه أنه قال بإلغاء مثل، و التقدير: الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد، و قيل: هو أعنى مثل مبتدأ و خبره أعمالهم كرماد على أن معناه الصفة، فكأنه قال صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد. و المراد: أن أعمالهم باطلة غير مقبولة، و الرماد ما يبقى بعد احتراق الشىء ضرب اللّه سبحانه هذه الآية مثلا لأعمال الكفار فى أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى يوم عاصف.

و معنى: اشتدّت به الريح: حملته بشدّة و سرعة، و العصف شدّة الريح، وصف به زمانها مبالغة كما يقال:

يوم حار و يوم بارد، و البرد و الحرّ فيهما لا منهما لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ أى: لا يقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شىء منها، و لا يرون له أثرا فى الآخرة يجازون به و يثابون عليه، بل جميع ما عملوه فى الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما دلّ عليه التمثيل، أى: هذا البطلان لأعمالهم و ذهاب أثرها هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ عن طريق الحقّ المخالف لمنهج الصواب، لما كان هذا خسرانا لا يمكن تداركه سمّاه بعيدا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا الآية، قال: كانت الرسل و المؤمنون يستضعفهم قومهم و يقهرونهم و يكذبونهم و يدعونهم إلى أن يعودوا فى ملّتهم، فأبى اللّه لرسوله و المؤمنين أن يعودوا فى ملّة الكفر، و أمرهم أن يتوكّلوا على اللّه، و أمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، و وعدهم أن يسكنهم الأرض من

بعدهم، فأنجز لهم ما وعدهم، و استفتحوا كما أمرهم اللّه أن

---

(١). البقرة: ٧١.

(٢). الحج: ٢٠.

(٣). الأعلى: ١٣.

(۴). فاطر: ٣۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٢٢

يستفتحوا، و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: وعدهم النصر فى الدنيا و الجنة فى الآخرة، فبين اللّه من يسكنها من عباده فقال: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ «١» و إن للّه مقاما هو قائمه، و إن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا و دأبوا الليل و النهار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ اسْتَفْتَحُوا قال: للرسل كلها يقول استنصروا، و فى قوله:

وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ قال: معاند للحقّ مجانب له. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: استنصرت الرسل على قومها وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ يقول: عنيد عن الحقّ معرض عنه، أبى أن يقول لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعى قال: العنيد، الناكب عن الحق. و أخرج أحمد و الترمذى و النسائى و ابن أبى الدنيا و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى أمامة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله:

وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ قال: «يقرّب إليه فيتكرّهه، فإذا دنا منه شوى وجهه، و وقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره». يقول اللّه تعالى: وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ «٢» و قال: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ «٣». و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عباس فى قوله: مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ قال: يسيل من جلد الكافر و لحمه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ هو القيح و الدم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ قال: أنواع العذاب، و ليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، و لكنه لا يموت؛ لأنّ اللّه يقول: لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا «۴». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ميمون ابن مهران وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ قال: من كلّ عظم و عرق و عصب. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة عن محمد بن كعب نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى قال: من موضع كلّ شعرة فى جسده وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ قال: الخلود. و أخرج ابن المنذر عن الفضيل بن عياض وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ قال: حبس الأنفاس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ الآية قال: مثل الذين عبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون على شىء من أعمالهم ينفعهم، كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل فى يوم عاصف.

[سورة إبراهيم (١۴): الآيات ١٩ الى ٢٣]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ

فَأَخْلَفْتُكَمْ وَ ما كانَ لِی عَلَیْکَمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُکَمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی فَلا تَلُومُونِی وَ لُومُوا أَنْفُسَکَمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِکَمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَّ إِنِّی کَفَرْتُ بِما أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ (۲۳)

---

(۱). الرحمن: ۴۶.

(۲). محمد: ۱۵.

(۳). الکهف: ۲۹.

(۴). فاطر: ۳۶.

فتح القدیر، ج‏۳، ص: ۱۲۳

قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ الرؤیة هنا هی القلبیة، و الخطاب لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم تعریضا لأمته، أو الخطاب لکلّ من یصلح له. و قرأ حمزة و الکسائی: «خالق السموات» و معنی بالحقّ:

بالوجه الصحیح الذی یحقّ أن یخلقها علیه لیستدلّ بها علی کمال قدرته. ثم بیّن کمال قدرته سبحانه و استغناءه عن کل واحد من خلقه فقال: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ فیعدم الموجودین و یوجد المعدومین و یهلک العصاة و یأتی بمن یطیعه من خلقه، و المقام یحتمل أن یکون هذا الخلق الجدید من نوع الإنسان، و یحتمل أن یکون من نوع آخر وَ ما ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ أی: بممتنع؛ لأنه سبحانه قادر علی کل شی‏ء، و فیه أن یکون من نوع آخر وَ ما ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ أی: بممتنع؛ لأنه سبحانه قادر علی کل شی‏ء، و فیه أن اللّه تعالی هو الحقیق بأن یرجی ثوابه و یخاف عقابه، فلذلک أتبعه بذکر أحوال الآخرة فقال: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِیعاً أی: برزوا من قبورهم یوم القیامة، و البروز: الظهور، و البراز: المکان الواسع لظهوره، و منه امرأة برزة، أی: تظهر للرجال؛ فمعنی برزوا ظهروا من قبورهم. و عبّر بالماضی عن المستقبل تنبیها علی تحقیق وقوعه کما هو مقرّر فی علم المعانی، و إنما قال: و برزوا للّه مع کونه سبحانه عالما بهم لا تخفی علیه خافیة من أحوالهم برزوا أو لم یبرزوا، لأنهم کانوا یستترون عن العیون عند فعلهم للمعاصی، و یظنون أن ذلک یخفی علی اللّه تعالی، فالکلام خارج علی ما یعتقدونه فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا أی: قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقویاء المتکبرین لما هم فیه من الریاسة إِنَّا کُنَّا لَکُمْ تَبَعاً أی: فی الدنیا، فکذبنا الرسل و کفرنا باللّه متابعة لکم، و التبع: جمع تابع، أو مصدر وصف به للمبالغة أو علی تقدیر ذوی تبع، قال الزجاج:

جمعهم فی حشرهم؛ فاجتمع التّابع و المتبوع، فقال الضعفاء للذین استکبروا من أکابرهم عن عبادة اللّه إنّا کنا لکم تبعا جمع تابع مثل خادم و خدم، و حارس و حرس، و راصد و رصد فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا أی:

أی دافعون عنا من عذاب اللّه من شی‏ء، من الأولی للبیان، و الثانیة للتبعیض؛ أی: بعض الشی‏ء الذی هو عذاب اللّه یقال أغنی عنه إذا دفع عنه الأذی، و أغناه إذا أوصل إلیه النفع قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَیْناکُمْ أی: قال المستکبرون مجیبین عن قول المستضعفین، و الجملة مستأنفة بتقدیر سؤال کأنه قیل: کیف أجابوا؟

أی: لو هدانا اللّه إلی الإیمان لهدیناکم إلیه؛ و قیل: لو هدانا اللّه إلی طریق الجنة لهدیناکم إلیها؛ و قیل: لو نجانا اللّه من العذاب لنجیناکم منه سَواءٌ عَلَیْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِیصٍ أی: مستو علینا الجزع و الصبر، و الهمزة و أم لتأکید التسویة کما فی قوله: سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ* «۱». ما لَنا مِنْ مَحِیصٍ أی: من منجا و مهرب من العذاب، یقال: حاص فلان عن کذا، أی: فرّ و زاغ یحیص حیصا

---

(۱). البقرة: ۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۲۴

و حيوصا و حيصانا، و المعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار. و يجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين، و إن كان الظاهر أنه من كلام المستكبرين وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ أى: قال للفريقين هذه المقالة، و معنى لما قضى الأمر: لما دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار على ما يأتى بيانه فى سورة مريم إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِ و هو وعده سبحانه بالبعث و الحساب، و مجازاة المحسن بإحسانه و المسىء بإساءته وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ أى: وعدتكم وعدا باطلا، بأنه لا بعث و لا حساب و لا جنة و لا نار فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك. قال الفراء: وعد الحق هو من إضافة الشىء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع، و قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحق وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ أى: تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به و زينته لكم إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي أى: إلا مجرّد دعائى لكم إلى الغواية و الضلال بلا حجة و لا برهان، و دعوته إياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه، بل الاستثناء منقطع، أى: لكن دعوتكم فاستجبتم لى، أى: فسارعتم إلى إجابتى؛ و قيل: المراد بالسلطان هنا القهر؛ أى: ما كان لى عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتى؛ و قيل: هذا الاستثناء هو من باب:

تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة فى نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال: إنما يكون لى عليكم سلطان إذا كان مجرّد الدعاء من السلطان، و ليس منه قطعا فَلا تَلُومُونِي بما وقعتم فيه بسبب وعدى لكم بالباطل و إخلافى لهذا الموعد وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ باستجابتكم لى بمجرّد الدعوة التى لا سلطان عليها و لا حجة، فإن من قبل المواعيد الباطلة و الدعاوى الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، و لمارنه «۱» قطع و لا سيما و دعوتى هذه الباطلة و موعدى الفاسد وقعا معارضين لوعد اللّه لكم وعد الحق و دعوته لكم إلى الدار السلام مع قيام الحجة التى لا تخفى على عاقل و لا تلتبس إلا على مخذول. و قريب من هذا من يقتدى بآراء الرجال المخالفة لما فى كتاب اللّه سبحانه، و لما سنّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و يؤثرها على ما فيهما، فإنه قد استجاب للباطل الذى لم تقم عليه حجة و لا دلّ عليه برهان، و ترك الحجة و البرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكبين طريق الحق بسوء اختيارهم، اللهم غفرا ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ يقال: صرخ فلان إذا استغاث يصرخ صراخا و صرخا، و استصرخ بمعنى صرخ، و المصرخ: المغيث، و المستصرخ: المستغيث، يقال: استصرخنى فأصرخته، و الصريخ: صوت المستصرخ، و الصريخ أيضا: الصارخ و هو المغيث و المستغيث، و هو من أسماء الأضداد كما فى الصحاح. قال ابن الأعرابى: الصّارخ: المستغيث، و المصرخ: المغيث. و معنى الآية: ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، و ما أنتم بمغيثىّ مما أنا فيه، و فيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان فى تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج إلى من يغيثه و يخلصه مما هو فيه، فكيف يطمعون فى إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه؟

و ممّا ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبى الصّلت:

---

(۱). المارن: الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه و من الرّمح.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۲۵ فلا تجزعوا إنّى لكم غير مصرخو ليس لكم عندى غناء و لا نصر

و «مصرخىّ» بفتح الياء فى قراءة الجمهور. و قرأ الأعمش و حمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين.

قال الفراء: قراءة حمزة و هم منه، و قلّ من سلم عن خطأ. و قال الزّجاج: هى قراءة رديئة و لا وجه لها إلا وجه ضعيف يعنى ما ذكرناه من أنه كسرها على الأصل فى التقاء الساكنين. و قال قطرب: هذه لغة يربوع يزيدون على ياء الإضافة ياء، و أنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر «۱»:

قال لها هل لك يا تافىّ «٢»قالت له ما أنت بالمرضىّ

إِنِّی كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغنى عنهم من عذاب اللّه شيئا، و لا ينصرهم بنوع من أنواع النصر، صرّح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع اللّه فى الرّبوبية من قبل هذا الوقت الذى قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، و هو ما كان منهم فى الدنيا من جعله شريكا، و لقد قام لهم الشيطان فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم و يقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولا أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من اللّه سبحانه و أنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد و لم يف لهم بشىء منها؛ ثم أوضح لهم ثانيا بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، و لا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التى لا بدّ للعاقل منها فى قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثا بأنه لم يكن منه إلا مجرّد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شىء مما يتمسك به العقلاء؛ ثم نعى عليهم رابعا ما وقعوا فيه، و دفع لومهم له و أمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنّهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل؛ ثم و أضح لهم خامسا بأنه لا نصر عنده و لا إغاثة و لا يستطيع لهم نفعا و لا يدفع عنهم ضرّا، بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية و العجز عن الخلوص عن هذه المحنة؛ ثم صرح لهم سادسا بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه و أثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات و توالت عليهم المصائب، و إذا كان جملة إِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ من تتمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به، فأثبت لهم الظلم، ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم، لا على قول من قال: إنه ابتداء كلام من جهة اللّه سبحانه. و قد ذهب جمهور المفسرين إلى أن ما مصدرية فى بِما أَشْرَكْتُمُونِ و قيل: يجوز أن تكون موصولة على معنى إنى كفرت بالذى أشركتمونيه و هو اللّه عزّ و جلّ، و يكون هذا حكاية لكفره باللّه عند أن أمره بالسجود لآدم وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة. و قرأ الجمهور «أُدْخِلَ» على البناء للمفعول، و قرأ الحسن «و أدخل» على الاستقبال و البناء للفاعل، أى: و أنا أدخل الذين آمنوا، ثم ذكر سبحانه خلودهم فى الجنات و عدم انقطاع نعيمهم، ثم ذكر أن ذلك بإذن ربهم، أى: بتوفيقه و لطفه و هدايته، هذا على قراءة الجمهور؛ و إما على قراءة الحسن فيكون بِإِذْنِ رَبِّهِمْ متعلقا بقوله:

---

(١). هو الأغلب العجلى.

(٢). فى المطبوع: قلت لها يا تاء هل لك فى. و المثبت من معانى القرآن للفراء (٢/ ٧٦)

تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أى: تحية الملائكة فى الجنة سلام بإذن ربهم. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة يونس.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ قال: بخلق آخر.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: فَقالَ الضُّعَفاءُ قال: الأتباع لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا قال: للقادة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى قوله: سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا قال زيد بن أسلم: جزعوا مائة سنة، و صبروا مائة سنة. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن كعب ابن مالك يرفعه إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: سَواءٌ عَلَيْنا الآية قال: «يقول أهل النار هلمّوا فلنصبر، فيصبروا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هلموا فلنجزع، فبكوا خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: سواء علينا أ جزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص». الظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما فى قوله تعالى: وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِی النّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُنّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّا نَصِيباً مِنَ النّارِ- قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ «١».

و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن عقبة بن عامر يرفعه، و

ذكر فيه حديث الشفاعة، ثم قال: «و يقول الكافرون عند ذلك: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس فهو الذى أضلّنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمّها أحد قط، ثم يعظهم بجهنّم، و يقول عند ذلك إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ الآية». و ضعّف السيوطى إسناده، و لعلّ سبب ذلك كون فى إسناده رشدين بن سعد بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن دخين الحجرى عن عقبة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار فقال: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ إلى قوله: وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ قال:

بناصرىّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ قال: بطاعتكم إياى فى الدنيا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبى فى هذه الآية قال: خطيبان يقومان يوم القيامة: إبليس، و عيسى؛ فأما إبليس فيقوم فى حزبه فيقول هذا القول، يعنى المذكور فى الآية؛ و أما عيسى فيقول: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «٢». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ قال: ما أنا بنافعكم و ما أنتم بنافعىّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ قال: شركه: عباده. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن قتادة: ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ قال: ما أنا بمغيثكم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ قال: الملائكة يسلّمون عليهم فى الجنّة.

---

(١). غافر: ٤٧ و ٤٨.

(٢). المائدة: ١١٧.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٢٧

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٤ الى ٢٧]

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (٢٧)

لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار، و أنها كرماد اشتدّت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، و ما جازاهم اللّه به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، و تحيّة الملائكة لهم ذكر تعالى هاهنا مثلا للكلمة الطيبة، و هى كلمة الإسلام، أى: لا إله إلا اللّه، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الخير، و ذكر مثلا للكلمة الخبيثة، و هى كلمة الشرك، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الشرّ، فقال مخاطبا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو مخاطبا لمن يصلح للخطاب أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى: اختار مثلا وضعه فى موضعه اللائق به، و انتصاب مثلا على أنه مفعول ضرب، و كلمة بدل منه، و يجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان لمثلا، و يجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقدّر؛ أى: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، و حكم بأنها مثلها، و محل كشجرة النصب على أنها صفة لكلمة، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أى: هى كشجرة، و يجوز أن تكون كلمة أوّل مفعولى ضرب، و أخّرت عن المفعول الثانى، و هو مثلا لئلا تبعد عن صفتها، و الأوّل أولى، و كلمة و ما بعدها تفسير للمثل، ثم وصف الشجرة بقوله: أَصْلُها ثابِتٌ أى: راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكّنها من الأرض بعروقها وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ أى: أعلاها ذاهب إلى جهة السّماء مرتفع فى الهواء، ثم وصفها سبحانه بأنها تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ كلّ وقت بِإِذْنِ رَبِّها بإرادته و مشيئته، قيل: و هى النخلة، و قيل: غيرها.

قيل: و المراد بكونها تؤتى أكلها كلّ حين؛ أى: كلّ ساعة من السّاعات من ليل أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء و صيف؛ و قيل: المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين، و قيل: كلّ غدوة و عشية، و قيل: كل شهر، و قيل: كل ستة أشهر. قال النحاس: و هذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان و كثيره، و أنشد الأصمعى قول النّابغة:

....

تطلّقه حينا و حينا تراجع «١» قال النحاس: و هذا يبيّن لك أنّ الحين بمعنى الوقت. و قد ورد الحين فى بعض المواضع يراد به أكثر كقوله:

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ «٢». و قد تقدّم بيان أقوال العلماء فى الحين فى سورة البقرة فى قوله:

وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ «٣». و قال الزجّاج: الحين الوقت طال أم قصر

---

(١). صدر البيت: تناذرها الرّاقون من سوء سمّها.

«تناذرها»: أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها. «تطلقه حينا و حينا تراجع»: أى أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة، و تارة تشتدّ عليه.

(٢). الإنسان: ١.

(٣). البقرة: ٣۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٢٨

وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ يتفكّرون أحوال المبدأ و المعاد، و بدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده و وحدانيته، و فى ضرب الأمثال زيادة تذكير و تفهيم و تصوير للمعانى وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ قد تقدّم تفسيرها، و قيل: هى الكافر نفسه، و الكلمة الطيبة: المؤمن نفسه كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ أى: كمثل شجرة خبيثة، قيل: هى شجرة الحنظل، و قيل: هى شجرة الثوم، و قيل: الكمأة، و قيل: الطحلبة، و قيل:

هى الكشوث بالضم و آخره مثلثة، و هى شجرة لا ورق لها و لا عروق فى الأرض. قال الشاعر:

و هم كشوث فلا أصل و لا ورق «١» ....

و قرئ «و مثلا كلمة» بالنصب عطفا على «كَلِمَةً طَيِّبَةً» اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ أى:

استؤصلت و اقتلعت من أصلها، و منه قول الشاعر:

هو الجلاء الذى يجتثّ أصلكم «٢» ....

قال المؤرج: أخذت جثّتها و هى نفسها، و الجثة: شخص الإنسان، يقال جثّه: قلعه، و اجتثه: اقتلعه، و معنى مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ أنه ليس لها أصل راسخ و عروق متمكنة من الأرض ما لَها مِنْ قَرارٍ أى: من استقرار على الأرض. و قيل: من ثبات على الأرض، كما أن الكافر و كلمته لا حجة له و لا ثبات فيه و لا خير يأتى منه أصلا، و لا يصعد له قول طيب و لا عمل طيب يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أى: بالحجّة الواضحة، و هى الكلمة الطيبة المتقدّم ذكرها. و قد ثبت فى الصحيح أنها كلمة الشهادة «شهادة أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه»، و ذلك إذا قعد المؤمن فى قبره قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: فذلك قوله تعالى:

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ و قيل: معنى تثبيت اللّه لهم هو أن يدوموا على القول الثابت، و منه قول عبد اللّه بن رواحة:

يثبّت اللّه ما آتاك من حسن تثبيت موسى و نصرا كالذى نصرا

و معنى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أنهم يستمرّون على القول الثابت فى الحياة الدنيا، قال جماعة: المراد بالحياة الدنيا فى هذه الآية القبر لأن الموتى فى الدنيا حتى يبعثوا، و معنى وَ فِي الْآخِرَةِ وقت الحساب. و قيل:
المراد بالحياة الدنيا: وقت المساءلة فى القبر، و فى الآخرة: وقت المساءلة يوم القيامة: و المراد أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم و دينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم و لا تردّد و لا جهل، كما يقول من لم يوفّق:
لا أدرى، فيقال له: لا دريت و لا تليت وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ أى: يضلهم عن حجّتهم التى هى القول الثابت، فلا يقدرون على التكلّم بها فى قبورهم و لا عند الحساب، كما أضلّهم عن اتّباع الحق فى الدنيا. قيل:

---

(١). فى المطبوع: و هى كشوث فلا أصل و لا ثمر.
و تمامه: و لا نسيم و لا ظل و لا ثمر.
(٢). و تمامه: فمن رأى مثل ذا يوما و من سمعا.
و الشاعر: لقيط الإيادى.
فتح القدير، ج٣، ص: ١٢٩
و المراد بالظالمين هنا الكفرة، و قيل: كلّ من ظلم نفسه و لو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت فى مواقف الفتن و لا يهتدى إلى الحق، ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت و الخذلان لا رادّ لحكمه، و لا يسأل عمّا يفعل. قال الفرّاء:
أى: لا تنكر له قدرة و لا يسأل عما يفعل، و الإظهار فى محل الإضمار فى الموضعين لتربية المهابة كما قيل، و اللّه أعلم.
و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ و هو المؤمن أَصْلُها ثابِتٌ يقول: لا إله إلا إلا اللّه ثابت فى قلب المؤمن وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ و هى الشرك كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ يعنى الكافر اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر و لا برهان، و لا يقبل اللّه مع الشرك عملا. و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين و من بعدهم. و أخرج الترمذى و النسائى و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس قال: أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم [بقناع «١» بسر فقال: «و مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» حتى بلغ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها قال: هى النّخلة، وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ حتى بلغ ما لَها مِنْ قَرارٍ قال: هى الحنظلة». و روى موقوفا على أنس، قال الترمذى: الموقوف أصح. و أخرج أحمد و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند جيد، عن عمر، عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ: قال: هى التى لا ينقص ورقها قال: هى النخلة. و أخرج البخارى و غيره من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوما لأصحابه: «إنّ شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن، قال: فوقع الناس فى شجر البوادى، و وقع فى قلبى أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى النخلة» و فى لفظ للبخارى قال: «أخبرونى عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها و لا، و لا، و لا «٢»، و تؤتى أكلها كل حين، فذكر نحوه». و فى لفظ لابن جرير و ابن مردويه من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هل تدرون ما الشجرة الطيبة؟، ثم قال: هى النخلة». و روى نحو هذا عن جماعة من الصحابة و التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها قال: كلّ ساعة بالليل و النهار و الشتاء و الصيف، و ذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل و النهار و الشتاء و الصيف. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: يكون أخضر ثم يكون أصفر. و أخرج عنه أيضا فى قوله: كُلَّ حِينٍ قال: جذاذ النخل. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا:

تُؤْتِی أُكُلَها كُلَّ حِینٍ قال: تطعم فی كلّ ستة أشهر. و أخرج أبو عبید و ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر عنه أیضا قال: الحین هنا سنة. و أخرج البیهقی عنه أیضا قال: الحین قد یكون غدوة و عشیة. و قد

---

(۱). من مسند أبی یعلی (۴۱۶۵) و الترمذی (۳۱۱۹). و القناع: هو الطبق الذی یؤكل علیه.

(۲). كذا ذكر النفی ثلاث مرات علی طریق الاكتفاء. فقیل فی تفسیره: و لا ینقطع ثمرها و لا یعدم فیؤها و لا یبطل نفعها [فتح الباری ۱/ ۱۴۶].

روی عن جماعة من السلف فی هذا أقوال كثیرة. و أخرج البخاری و مسلم و أهل السنن و غیرهم عن البراء ابن عازب: أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «المسلم إذا سئل فی القبر یشهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، فذلك قوله سبحانه یُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَةِ».

و أخرج ابن أبی شیبة و البیهقی عن البراء بن عازب فی قوله: یُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا الآیة قال: التثبیت فی الحیاة الدنیا إذا جاء الملكان إلی الرجل فی القبر فقالا: من ربك؟ فقال: ربی اللّه، قال: و ما دینك؟

قال: دینی الإسلام، قال: و من نبیك؟ قال: نبیی محمد صلّی اللّه علیه و سلّم، فذلك التثبیت فی الحیاة الدنیا. و أخرج البیهقی عن ابن عباس نحوه. و أخرج الطبرانی فی الأوسط و ابن مردویه عن أبی سعید فی الآیة قال: فِی الْآخِرَةِ القبر. و أخرج ابن مردویه عن عائشة قال: «قال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله تعالی یُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا الآیة قال: هذا فی القبر». و أخرج البیهقی من حدیثها نحوه. و أخرج البزار عنها أیضا قالت:

«قلت: یا رسول اللّه تبتلی هذه الأمة فی قبورها، فكیف بی و أنا امرأة ضعیفة؟ قال: یُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا الآیة». و قد وردت أحادیث كثیرة فی سؤال الملائكة للمیت فی قبره، و فی جوابه علیهم، و فی عذاب القبر و فتنته، و لیس هذا موضع بسطها، و هی معروفة.

[سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۲۸ الی ۳۴]

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (۲۸) جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (۲۹) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِیرَكُمْ إِلَی النَّارِ (۳۰) قُلْ لِعِبادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا یُقِیمُوا الصَّلاةَ وَ یُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِیَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا بَیْعٌ فِیهِ وَ لا خِلالٌ (۳۱) اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (۳۲)

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَیْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ (۳۳) وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴)

قوله: أَ لَمْ تَرَ هذا خطاب لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أو لكلّ من یصلح له، و هو تعجیب من حال الكفار حیث جعلوا بدل نعمة اللّه علیهم الكفر، أی: بدل شكرها الكفر بها، و ذلك بتكذیبهم محمدا صلّی اللّه علیه و سلّم حین بعثه اللّه منهم و أنعم علیهم به. و قد ذهب جمهور المفسّرین إلی أنهم كفار مكة و أن الآیة نزلت فیهم، و قیل:

نزلت فی الذین قاتلوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یوم بدر؛ و قیل: نزلت فی بطنین من بطون قریش بنی مخزوم و بنی أمیة؛ و قیل: نزلت فی متنصرة العرب، و هم جبلة بن الأیهم و أصحابه، و فیه نظر، فإن جبلة و أصحابه لم یسلموا إلا فی خلافة عمر بن

الخطاب رضى اللّه عنه؛ و قيل: إنها عامة فى جميع المشركين؛ و قيل: المراد بتبديل نعمة اللّه كفرا أنهم لما كفروها سلبهم اللّه ذلك فصاروا متبدّلين بها الكفر وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ أى: أنزلوا قومهم بسبب ما زيّنوه لهم من الكفر دار البوار، و هى جهنم، و البوار: الهلاك؛ و قيل: هم

فتح القدير، ج٣، ص: ١٣١

قادة قريش أحلّوا قومهم يوم بدر دار البوار؛ أى: الهلاك، و هو القتل الذى أصيبوا به، و منه قول الشاعر:

فلم أر مثلهم أبطال حرب غداة الحرب إذ خيف البوار

و الأوّل أولى لقوله: جَهَنَّمَ فإنه عطف بيان لدار البوار، و يَصْلَوْنَها فى محل نصب على الحال، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها وَ بِئْسَ الْقَرارُ أى: بئس القرار قرارهم فيها، أو بئس المقرّ جهنم، فالمخصوص بالذمّ محذوف وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً معطوف على و أحلوا؛ أى: جعلوا للّه شركاء فى الرّبوبية، أو فى التّسمية و هى الأصنام. قرأ ابن كثير و أبو عمرو لِيُضِلُّوا بفتح الياء؛ أى: ليضلوا أنفسهم عن سبيل اللّه، و تكون اللام للعاقبة؛ أى: ليتعقّب جعلهم للّه أندادا ضلالهم؛ لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، و حسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض و الغاية من جهة حصولها فى آخر المراتب، و المشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز. و قرأ الباقون بضم الياء ليوقعوا قومهم فى الضلال عن سبيل اللّه، فهذا هو الغرض من جعلهم للّه أندادا. ثم هدّدهم سبحانه، فقال لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم: قُلْ تَمَتَّعُوا بما أنتم فيه من الشّهوات، و ما زيّنته لكم أنفسكم من كفران النّعم و إضلال الناس فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ أى: مردّكم و مرجعكم إليها ليس إلا، و لما كان هذا حالهم، و قد صاروا لفرط تهالكهم عليه و انهماكهم فيه لا يقلعون عنه، و لا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرته مكان النهى عن قربانه إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم، و أنهم لا محالة صائرون إلى النار، فلا بدّ لهم من تعاطى الأسباب المقتضية ذلك، فجملة فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ تعليل للأمر بالتمتع، و فيه من التهديد ما لا يقادر قدره، و يجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دلّ عليه سياق الكلام، كأنه قيل: فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، و الأوّل أولى، و النظم القرآنى عليه أدلّ، و ذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة؛ فإن مصيرك إلى السيف قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً لما أمره بأن يقول للمبدّلين نعمة اللّه كفرا، الجاعلين للّه أندادا، ما قاله لهم أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم، و هى طائفة المؤمنين هذا القول، و المقول محذوف دلّ عليه المذكور؛ أى: قل لعبادى أقيموا و أنفقوا و يقيموا و ينفقوا، فجزم يقيموا على أنه جواب الأمر المحذوف، و كذلك ينفقوا، ذكر معنى هذا الفراء. و قال الزجاج: إنّ يقيموا مجزوم بمعنى اللام، أى:

ليقيموا فأسقطت اللام، ثم ذكر وجها آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء: و انتصاب سرّا و علانية، إما على الحال، أى: مسرّين و معلنين، أو على المصدر، أى: إنفاق سرّ و إنفاق علانية، أو على الظرف، أى:

وقت سر و وقت علانية. قال الجمهور: السرّ ما خفى، و العلانية ما ظهر. و قيل: السرّ التطوّع، و العلانية الفرض، و قد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ «١». مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ قال أبو عبيدة: البيع هاهنا الفداء، و الخلال المخالة، و هو مصدر. قال الواحدى:

هذا قول جميع أهل اللغة. و قال أبو علىّ الفارسى: يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة و برام، و علبة و علاب، و المعنى: أنّ يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصّر فى العمل نفسه من عذاب اللّه بدفع عوض عن ذلك،

(١). البقرة: ٢٧١.

فتح القدير، ج‏3، ص: 132

و ليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله و ينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإنفاق فى وجوه الخير مما رزقهم اللّه ما داموا فى الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتى يوم القيامة، فإنهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة أعنى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق ممّا رزقهم اللّه، و يمكن أن يكون فيها أيضا تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة، و ذلك لأنّ تركها كثيرا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع و رعاية حقوق الأخلاء، و قد تقدّم فى البقرة تفسير البيع و الخلال اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أى: أبدعهما و اخترعهما على غير مثال و خلق ما فيهما من الأجرام العلوية و السفلية، و الاسم الشريف مبتدأ و ما بعده خبره وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً المراد بالسماء هنا جهة العلوّ، فإنه يدخل فى ذلك الفلك عند من قال: إن ابتداء المطر منه، و يدخل فيه السحاب عند من قال:

إن ابتداء المطر منها، و تدخل فيه الأسباب التى تثير السحاب كالرياح، و تنكير الماء هنا للنوعية، أى: نوعا من أنواع الماء، و هو ماء المطر فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ أى: أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقا لبنى آدم يعيشون به، و «من» فى مِنَ الثَّمَراتِ للبيان كقولك: أنفقت من الدراهم؛ و قيل: للتبعيض لأن الثمرات منها ما هو رزق لبنى آدم، و منها ما ليس برزق لهم، و هو ما لا يأكلونه و لا ينتفعون به وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ فجرت على إرادتكم و استعملتموها فى مصالحكم، و لذا قال: لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ كما تريدون و على ما تطلبون بِأَمْرِهِ أى: بأمر اللّه و مشيئته، و قد تقدم تفسير هذا فى البقرة وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ أى: ذللها لكم بالركوب عليها و الإجراء لها إلى حيث تريدون وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لتنتفعوا بهما و تستضيئوا بضوئهما، و انتصاب دائِبَيْنِ على الحال، و الدؤوب:

مرور الشي‏ء فى العمل على عادة جارية، أى دائبين فى إصلاح ما يصلحانه من النبات و غيره؛ و قيل: دائبين فى السير امتثالا لأمر اللّه، و المعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران و لا ينقطع سيرهما وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ يتعاقبان، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم و ما تحتاجون إليه من أمور دنياكم، و الليل لتسكنوا؛ كما قال سبحانه: وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ «1». وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ قال الأخفش: أى أعطاكم من كلّ مسؤول سألتموه شيئا فحذف شيئا؛ و قيل: المعنى:

و آتاكم من كل ما سألتموه و من كلّ ما لم تسألوه، فحذفت الجملة الأخرى قاله ابن الأنبارى؛ و قيل: من زائدة، أى: آتاكم كلّ ما سألتموه؛ و قيل: للتبعيض، أى: آتاكم بعض كلّ ما سألتموه. و قرأ ابن عباس و الضحاك و الحسن و قتادة «من كلّ» بتنوين كلّ، و على هذه القراءة يجوز أن تكون «ما» نافية، أى: آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له، و يجوز أن تكون موصولة، أى: آتاكم من كل شي‏ء الذى سألتموه وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها أى: و إن تتعرّضوا لتعداد نعم اللّه التى أنعم بها عليكم إجمالا فضلا عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه، و لا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال، و أصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد وضع حصاة ليحفظه بها، و معلوم أنه لو رام فرد

(1). القصص: 73.

فتح القدير، ج‏3، ص: 133

من أفراد العباد أن يحصى ما أنعم اللّه به عليه فى خلق عضو من أعضائه، أو حاسّة من حواسّه لم يقدر على ذلك قط و لا أمكنه أصلا، فكيف بما عدا ذلك من النعم فى جميع ما خلقه اللّه فى بدنه، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه فى كلّ وقت على تنوعها و اختلاف أجناسها. اللهم إنا نشكرك على كلّ نعمة أنعمت بها علينا ممّا لا يعلمه إلا أنت، و مما علمناه شكرا لا

يحيط به حصر و لا يحصره عدّ، و عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كلّ زمان إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ لنفسه بإغفاله لشكر نعم اللّه عليه، و ظاهره شمول كلّ إنسان.

و قال الزجاج: إن الإنسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ «١» كَفَّارٌ أى شديد كفران نعم اللّه عليه، جاحد لها، غير شاكر للّه سبحانه عليها؛ كما ينبغى و يجب عليه.

و قد أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً قال: هم كفّار أهل مكة.

و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة، و بنو أمية؛ فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر؛ و أما بنو أمية فمتّعوا إلى حين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن عمر نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن علىّ فى الآية نحوه أيضا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى الطفيل أن ابن الكوّاء سأل عليا عن الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا قال: هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر. قال: فمن الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا؟ قال: منهم أهل حروراء. و قد روى فى تفسير هذه الآية عن علىّ من طرق نحو هذا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: هم جبلة بن الأيهم و الذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ قال: الهلاك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً قال: أشركوا باللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ قال: بكل فائدة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ قال: دؤوبهما فى طاعة اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ قال: من كل شىء رغبتم إليه فيه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: من كل الذى سألتموه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و البيهقى فى الشّعب، عن سليمان التيمى قال: إن اللّه أنعم على العباد على قدره، و كلّفهم الشكر على قدرهم.

و أخرجا أيضا عن بكر بن عبد اللّه المزنى قال: يا ابن آدم إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم اللّه عليك فغمّض عينيك.

و أخرج البيهقى عن أبى الدرداء قال: من لم يعرف نعمة اللّه عليه إلا فى مطعمه و مشربه، فقد قلّ عمله و حضر عذابه. و أخرج ابن أبى الدنيا و البيهقى عن أبى أيوب القرشى مولى بنى هاشم قال: قال داود عليه السلام:

---

(١). العصر: ٢.

ربّ أخبرنى ما أدنى نعمتك علىّ؟ فأوحى إلىّ: يا داود تنفّس فتنفس، فقال: هذا أدنى نعمتى عليك. و أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قال: اللهمّ اغفر لى ظلمى و كفرى، فقال قائل: يا أمير المؤمنين هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: إن الإنسان لظلوم كفّار.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٣٥ الى ٤١]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۶) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (۳۷) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (۳۸) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (۳۹)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (۴۱)

قوله: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ متعلّق بمحذوف؛ أى: اذكر وقت قوله، و لعلّ المراد بسياق ما قاله إبراهيم عليه السلام فى هذا الموضع بيان كفر قريش بالنّعم الخاصّة بهم، و هى إسكانهم مكة بعد ما بيّن كفرهم بالنعم العامة؛ و قيل: إن ذكر قصة إبراهيم هاهنا لمثال الكلمة الطيبة؛ و قيل: لقصد الدعاء إلى التوحيد، و إنكار عبادة الأصنام رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً المراد بالبلد هنا مكة؛ دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمنا، أى:

ذا أمن، و قدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشىء آخر من أمور الدين و الدنيا، و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى البقرة عند قوله تعالى: رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً «۱»، و الفرق بين ما هنا و ما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد، و المطلوب هنالك البلدية و الأمن وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ يقال: جنبته كذا و أجنبته و جنّبته؛ أى: باعدته عنه، و المعنى:

باعدنى، و باعد بنىّ عن عبادة الأصنام؛ قيل: أراد بنيه من صلبه و كانوا ثمانية، و قيل: أراد من كان موجودا حال دعوته من بنيه و بنى بنيه، و قيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، و يؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنما، و الصنم: هو التمثال الذى كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار و نحوها فيعبدونه.

و قرأ الجحدرى و عيسى بن عمر «و أجنبنى» بقطع الهمزة، على أن أصله أجنب رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل؛ لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم، و هذه الجملة تعليل لدعائه لربّه، ثم قال: فَمَنْ تَبِعَنِي أى: من تبع دينى من الناس فصار مسلما موحدا فَإِنَّهُ مِنِّي أى: من أهل دينى: جعل أهل ملّته كنفسه مبالغة وَ مَنْ عَصانِي فلم يتابعنى و يدخل فى ملّتى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ قادر على أن تغفر له، و قيل: قال هذا قبل أن يعلم أن اللّه لا يغفر أن يشرك

---

(۱). البقرة: ۱۲۶.

به كما وقع منه الاستغفار لأبيه و هو مشرك، كذا قال ابن الأنبارى؛ و قيل: المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك؛ و قيل: إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك، ثم قال: رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي قال الفراء:

للتبعيض، أى: بعض ذرّيتى. و قال ابن الأنبارى: إنها زائدة، أى: أسكنت ذرّيتى، و الأوّل أولى؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل و هو بعض ولده بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ أى: لا زرع فيه، و هو وادى مكة عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ أى: الذى يحرم فيه ما يستباح فى غيره؛ و قيل: إنه محرّم على الجبابرة، و قيل: محرّم من أن تنتهك حرمته، أو يستخفّ به. و قد تقدّم فى سورة المائدة ما يغنى عن الإعادة، ثم قال: رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ اللام متعلقة بأسكنت؛ أى: أسكنتهم ليقيموا الصلاة فيه، متوجّهين إليه، متبركين به، و خصّها دون سائر العبادات لمزيد فضلها، و لعلّ تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ الأفئدة: جمع فؤاد، و هو القلب، عبّر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه.

و قيل: هو جمع وفد و الأصل أوفدة فقدّمت الفاء، و قلبت الواو ياء، فكأنه قال: و جعل و فودا من الناس تهوى إليهم، و «من» فى مِنَ النَّاسِ للتبعيض؛ و قيل: زائدة، و لا يلزم منه أن يحج اليهود و النصارى بدخولهم تحت لفظ الناس، لأنّ المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم و الجلب إليهم لا توجيهها إلى الحجّ، و لو كان هذا مرادا لقال لتهوى إليه؛ و قيل: من للابتداء، كقولك: القلب منى سقيم، يريد قلبى، و معنى تهوى إليهم: تنزع إليهم، يقال: هوى نحوه؛ إذا مال، و هو الناقة تهوى هويا فهى هاوية؛ إذا عدت عدوا شديدا كأنها تهوى فى بئر، و يحتمل أن يكون المعنى: تجىء إليهم أو تسرع إليهم، و المعنى متقارب وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ أى: ارزق ذريتى الذين أسكنتهم هنالك أو هم و من يساكنهم من الناس من أنواع الثمرات التى تنبت فيه، أو تجلب إليه لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ نعمك التى أنعمت بها عليهم رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ أى: ما نكتمه و ما نظهره؛ لأن الظاهر و المضمر بالنسبة إليه سبحانه سيان.

قيل: و المراد هنا بما نخفى ما يقابل ما نعلن، فالمعنى ما نظهره و ما لا نظهره، و قدّم ما نخفى على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان فى علم اللّه سبحانه. و ظاهر النظم القرآنى عموم كلّ ما لا يظهر و ما يظهر من غير تقييد بشىء معين من ذلك؛ و قيل: المراد ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل و أمه حيث أسكنهما بواد غير ذى زرع، و ما يعلنه من ذلك؛ و قيل: ما يخفيه إبراهيم من الوجد و يعلنه من البكاء و الدعاء، و المجىء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكأن المعنى: إن اللّه سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد و بكل ما لا يظهرونه. و أمّا قوله: وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ فقال جمهور المفسرين: هو من كلام اللّه سبحانه تصديقا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد و ما يعلنونه، فقال سبحانه: و ما يخفى على اللّه شىء من الأشياء الموجودة كائنا ما كان، و إنما ذكر السموات و الأرض لأنّها المشاهدة للعباد، و إلا فعلمه سبحانه محيط بكلّ ما هو داخل فى العالم، و كلّ ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية.

قيل: و يحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقا لقوله الأوّل، و تعميما بعد التّخصيص، ثم حمد اللّه سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۳۶

إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ أى: وهب لى على كبر سنّى و سنّ امرأتى، و قيل: ولد له إسماعيل و هو ابن تسع و تسعين سنة، و ولد له إسحاق و هو ابن مائة و اثنتى عشرة سنة، قيل: و «على» هنا بمعنى مع، أى: و هو لى مع كبرى و يأسى عن الولد إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ أى: لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه؛ إذا أجابه و اعتدّ به و عمل بمقتضاه، و هو من إضافة الصفة المتضمّنة للمبالغة إلى المفعول؛ و المعنى: إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك. ثم سأل اللّه سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة، محافظا عليها، غير مهمل لشىء منها، ثم قال: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي أى: بعض ذريتى؛ أى: اجعلنى و اجعل بعض ذريتى مقيمين للصلاة، و إنما خصّ البعض من ذريته؛ لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغى. قال الزجاج: أى: اجعل من ذرّيتى من يقيم الصلاة، ثم سأل اللّه سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، و يدخل فى ذلك دعاؤه فى هذا المقام دخولا أوّليا.

قيل: و المراد بالدعاء هنا العبادة، فيكون المعنى: و تقبّل عبادتى التى أعبدك بها، ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر له ما وقع منه ممّا يستحق أن يغفره اللّه و إن لم يكن كبيرا؛ لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر.

ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر لوالديه. و قد قيل: إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوّان للّه سبحانه كما فى قوله سبحانه: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «۱». و قيل: كانت أمه مسلمة، و قيل: أراد بوالديه آدم و حوّاء. و قرأ سعيد بن جبير «و لوالدى» بالتوحيد على إرادة الأب وحده. و قرأ إبراهيم النخعى «و لولدىّ» يعنى إسماعيل و إسحاق، و كذا قرأ يحيى ابن يعمر، ثم استغفر للمؤمنين. و ظاهره شمول كلّ مؤمن سواء كان من ذرّيته

أو لم يكن منهم، و قيل: أراد المؤمنين من ذريته فقط يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ أى: يوم يثبت حساب المكلّفين فى المحشر، استعير له لفظ يقوم الذى هو حقيقته فى قيام الرجل لدلالة على أنه فى غاية الاستقامة؛ و قيل: إن المعنى يوم يقوم الناس للحساب، و الأول أولى.

و قد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ الآية قال: فاستجاب اللّه لإبراهيم دعوته فى ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، و استجاب اللّه له، و جعل هذا البلد آمنا، و رزق أهله من الثمرات، و جعله إماما، و جعل من ذرّيّته من يقيم الصلاة، و تقبل دعاءه فأراه مناسكه و تاب عليه. و أخرج أبو نعيم فى «الدلائل» عن عقيل بن أبى طالب أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم لما أتاه الستة النفر من الأنصار جلس إليهم عند جمرة العقبة، فدعاهم إلى اللّه و إلى عبادته و المؤازرة على دينه، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه، فقرأ من سورة إبراهيم: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ إلى آخر السورة، فرقّ القوم و أخبتوا حين سمعوا منه ما سمعوا و أجابوه. و أخرج الواقدى و ابن عساكر عن طريق عامر ابن سعد عن أبيه قال: كانت سارة تحت إبراهيم، فمكثت تحته دهرا لا ترزق منه ولدا، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية، فولدت له إسماعيل، فغارت من ذلك سارة و وجدت فى نفسها و عتبت على هاجر، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أشرافا «٢»، فقال لها إبراهيم: هل لك أن تبرّى يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟

---

(١). التوبة: ١١٤.

(٢). أشراف الإنسان: أذناه و أنفه. (اللسان: شرف)

قال: اثقبى أذنيها و اخفضيها، و الخفض: هو الختان، ففعلت ذلك بها، فوضعت هاجر فى أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا، فقالت سارة: أرانى إنما زدتها جمالا فلم تقارّه «١» على كونه معها، و وجد بها إبراهيم وجدا شديدا، فنقلها إلى مكة، فكان يزورها فى كلّ يوم من الشام على البراق من شغفه بها و قلّة صبره عنها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي قال: أسكن إسماعيل و أمه مكة. و أخرج ابن المنذر عنه قال: إن إبراهيم حين قال فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ لو قال أفئدة الناس تهوى إليهم لازدحمت عليه فارس و الروم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحكم قال: سألت عكرمة و طاوسا و عطاء بن أبى رباح عن هذه الآية: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ فقالوا: البيت تهوى إليه قلوبهم يأتونه؛ و فى لفظ قالوا: هواهم إلى مكة أن يحجّوا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: تَهْوِي إِلَيْهِمْ قال: تنزع إليهم.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم الطائفى أن إبراهيم لما دعا للحرم وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ نقل اللّه الطائف من فلسطين!. و أخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال: إن اللّه نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى شعب الإيمان، قال السيوطى: بسند حسن عن ابن عباس قال: لو كان إبراهيم عليه السلام قال فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم لحجّ اليهود و النصارى و الناس كلهم، و لكنه قال أفئدة من الناس فخصّ به المؤمنين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ قال: من الحزن. و أخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى فى قوله:

رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي قال: من حبّ إسماعيل و أمه وَ ما نُعْلِنُ قال: ما نظهر لسارة من الجفاء لهما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ قال: هذا بعد ذلك

بحين. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: بشر إبراهيم بعد سبع عشرة سنة و مائة سنة.

[سورة إبراهيم (١۴): الآيات ۴٢ الى ۴۶]

وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (۴٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (۴٣) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (۴۴) وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (۴۵) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (۴۶)

---

(١). قارّة مقارة: أى قرّ معه و سكن.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٣٨

قوله: وَ لا تَحْسَبَنَ خطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو تعريض لأمته، فكأنه قال: و لا تحسب أمتك يا محمد، و يجوز أن يكون خطابا لكلّ من يصلح له من المكلّفين، و إن كان الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم من غير تعريض لأمته فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله: وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* «١» و نحوه؛ و قيل: المراد: و لا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عمّا يعملون، و لكن معاملة الرقيب عليهم؛ أو يكون المراد بالنهى عن الحسبان الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية. و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنّة اللّه سبحانه فى إمهال العصاة إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ أى: يؤخّر جزاءهم و لا يؤاخذهم بظلمهم. و هذه الجملة تعليل للنهى السابق.

و قرأ الحسن و السلمى و هو رواية عن أبى عمرو بالنون فى نؤخرهم. و قرأ الباقون بالتحتية. و اختارها أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ و معنى لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ أى: ترفع فيه أبصار أهل الموقف، و لا تغمض من هول ما تراه فى ذلك اليوم، هكذا قال الفراء. يقال: شخص الرجل بصره و شخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى، و المراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرّك من شدّة الحيرة و الدهشة مُهْطِعِينَ أى: مسرعين، من أهطع يهطع إهطاعا؛ إذا أسرع؛ و قيل: المهطع: الذى ينظر فى ذلّ و خشوع. و منه:

بدجلة دارهم و لقد أراهمبدجلة مهطعين إلى السّماع «٢»

و قيل: المهطع: الذى يديم النظر. قال أبو عبيدة: قد يكون الوجهان جميعا، يعنى الإسراع مع إدامة النظر؛ و قيل: المهطع الذى لا يرفع رأسه. و قال ثعلب: المهطع الذى ينظر فى ذلّ و خضوع؛ و قيل: هو الساكت. قال النحاس: و المعروف فى اللغة أهطع؛ إذا أسرع مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ أى: رافعى رؤوسهم، و إقناع الرأس: رفعه، و أقنع صوته: إذا رفعه، و المعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع و ذلّ و لا ينظر بعضهم إلى بعض. و قيل: إن إقناع الرأس نكسه؛ و قيل: يقال أقنع؛ إذا رفع رأسه، و أقنع: إذا طأطأ ذلة و خضوعا، و الآية محتملة للوجهين. قال المبرد: و القول الأوّل أعرف فى اللغة.

قال الشاعر:

أنغض «٣» نحوى رأسه و أقنعاكأنّما أبصر شيئا أطمعا

لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ أى: لا ترجع إليهم أبصارهم، و أصل الطرف: تحريك الأجفان؛ و سمّيت العين طرفا لأنه يكون بها، و من إطلاق الطرف على العين قول عنترة:

و أغضّ طرفى ما بدت لى جارتى‌حتى يوارى جارتى مأواها

---

(١). الأنعام: ١۴.

(٢). فى المطبوع: السماء. و المثبت من تفسير القرطبى (٩/ ٣٧۶)

(٣). «أنغض» حرّك.

وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ الهواء فى اللغة: المجوّف الخالى الذى لم تشغله الأجرام، و المعنى: أن قلوبهم خالية عن العقل و الفهم لما شاهدوا من الفزع و الحيرة و الدهش، و جعلها نفس الهوى مبالغة، و منه قيل للأحمق و الجبان قلبه هواء، أى: لا رأى فيه و لا قوّة؛ و قيل: معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت فى الحناجر.

و قيل: المعنى: إنّ أفئدة الكفار فى الدنيا خالية عن الخير؛ و قيل: المعنى: و أفئدتهم ذات هواء. و ممّا يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً «١» أى: خاليا من كل شىء إلا من همّ موسى وَ أَنْذِرِ النَّاسَ هذا رجوع إلى خطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أمره اللّه سبحانه بأن ينذر الناس، و المراد الناس على العموم، و قيل: المراد كفّار مكة، و قيل: الكفار على العموم. و الأوّل أولى لأنّ الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضا للمسلم. و منه قوله تعالى: إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ «٢». و معنى: يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ يوم القيامة، أى: خوّفهم هذا اليوم، و هو يوم إتيان العذاب، و إنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب؛ لأنّ المقام مقام تهديد؛ و قيل: المراد به يوم موتهم؛ فإنه أوّل أوقات إتيان العذاب؛ و قيل: المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، و انتصاب يوم على أنه مفعول ثان لأنذر فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ المراد بالذين ظلموا هاهنا هم الناس، أى: فيقولون، و العدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار. و على تقدير كون المراد بهم من يعمّ المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم و هم الكفار رَبَّنا أَخِّرْنا أمهلنا إلى أجل قريب إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد نُجِبْ دَعْوَتَكَ أى دعوتك لعبادك على ألسن أنبيائك إلى توحيدك وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، و نتدارك ما فرط منّا من الإهمال، و إنما جمع الرسل، لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة، فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، و هذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق فى الآخرة: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «٣». ثم حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة، فقال: أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ أى: فيقال لهم هذا القول توبيخا و تقريعا، أى: أو لم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا؛ و قيل: إنه لا قسم منهم حقيقة، و إنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم فى الشهوات و إخلادهم إلى الحياة الدنيا، و قيل: قسمهم هذا هو ما حكاه اللّه عنهم فى قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ «۴»، و جواب القسم ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ و إنما جاء بلفظ الخطاب فى ما لكم من زوال لمراعاة أقسمتم، و لو لا ذلك لقال: ما لنا من زوال وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أى: استقررتم، يقال: سكن الدار و سكن فيها، و هى بلاد ثمود و نحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر باللّه و العصيان له وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ قرأ عبد الرحمن السّلمى نبين بالنون و الفعل المضارع. و قرأ من عداه بالتاء الفوقية و الفعل الماضى، أى: تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة و العذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب، و فاعل تبيّن ما دلّت عليه الجملة المذكورة بعده، أى: تبيّن لكم فعلنا العجيب بهم

---

(١). القصص: ١٠.

(٢). يس: ١١.

(٣). الأنعام: ٢٨.

(۴). النحل: ٣٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ١۴٠

وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ فى كتب اللّه و على ألسن رسله إيضاحا لكم و تقريرا و تكميلا للحجّة عليكم وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ الجملة فى محل نصب على الحال، أى: فعلنا بهم ما فعلنا، و الحال أنهم قد مكروا فى ردّ الحق و إثبات الباطل مكرهم العظيم، الذى استفرغوا فيه وسعهم وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أى: و عند اللّه جزاء مكرهم، أو و عند اللّه مكتوب مكرهم فهو مجازيهم، أو عند اللّه مكرهم الذى يمكرهم به على أن يكون المكر مضافا إلى المفعول؛ و قيل: و المراد بهم قوم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم مكروا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم حين همّوا بقتله أو نفيه؛ و قيل: المراد ما وقع من النمروذ حيث حاول الصعود إلى السماء، فاتّخذ لنفسه تابوتا و ربط قوائمه بأربعة نسور وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ قرأ عمر و على و ابن مسعود و أبىّ و إن كاد مكرهم بالدال المهملة مكان النون. و قرأ غيرهم من القراء وَ إِنْ كانَ بالنون. و قرأ ابن محيصن و ابن جريج و الكسائى «لتزول» بفتح اللام على أنها لام الابتداء. و قرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود. قال ابن جرير: الاختيار هذه القراءة، يعنى قراءة الجمهور لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ فعلى قراءة الكسائى و من معه تكون إن هى المخففة من الثقيلة، و اللام هى الفارقة، و زوال الجبال مثل لعظم مكرهم و شدّته، أى: و إن الشأن كان مكرهم معدّا لذلك. قال الزجاج: و إن كان مكرهم يبلغ فى الكيد إلى إزالة الجبال؛ فإنّ اللّه ينصر دينه؛ و على قراءة الجمهور يحتمل وجهين: أحدهما أن تكون إن هى المخفّفة من الثقيلة، و المعنى كما مرّ. و الثانى أن تكون نافية و اللام المكسورة لتأكيد النفى كقوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ «١» و المعنى: و محال أن تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل لآيات اللّه و شرائعه الثابتة على حالها مدى الدّهر، فالجملة على هذا حال من الضمير فى مكروا لا من قوله: وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أى: و الحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الخرائطى فى مساوئ الأخلاق، عن ميمون بن مهران فى قوله: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ قال: هى تعزية للمظلوم و وعيد للظالم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ قال: شخصت فيه و اللّه أبصارهم فلا ترتدّ إليهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مُهْطِعِينَ قال: يعنى بالإهطاع النظر من غير أن يطرف مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ قال: الإقناع رفع رؤوسهم لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ قال: شاخصة أبصارهم وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ ليس فيها شىء من الخير، فهى كالخربة.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد مُهْطِعِينَ قال: مديمى النظر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة مُهْطِعِينَ قال: مسرعين. و أخرج هؤلاء عن قتادة فى قوله: وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ قال: ليس فيها شىء، خرجت من صدورهم فنشبت فى حلوقهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مرة وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ قال: منخرقة لا تعى شيئا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ يقول: أنذرهم فى الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ هو يوم القيامة.

---

(١). البقرة: ١۴٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ١۴١

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ قال: عما أنتم فيه إلى ما تقولون. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله:

ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ قال: بعث بعد الموت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن الحسن فى قوله: وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ قال: عملتم بمثل أعمالهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ يقول: ما كان مكرهم لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ يقول: شركهم كقوله: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا «١». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ هذه الآية: وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ ثم فسّرها فقال: إن جبارا من الجبابرة قال:

لا- أنتهى حتى أنظر إلى ما فى السماء، فأمر بفراخ النسور تعلف اللحم حتى شبّت و غلظت، و أمر بتابوت فنجر يسع رجلين، ثم جعل فى وسطه خشبة، ثم ربط أرجلهنّ بأوتاد، ثم جوّعهنّ، ثم جعل على رأس الخشبة لحمة، ثم دخل هو و صاحبه فى التابوت، ثم ربطهنّ إلى قوائم التابوت، ثم خلى عنهنّ يردن اللحم، فذهبن به ما شاء اللّه، ثم قال لصاحبه: افتح فانظر ماذا ترى ففتح فقال: أنظر إلى الجبال كأنها الذباب، قال:

أغلق فأغلق، فطرن به ما شاء اللّه، ثم قال: افتح ففتح، فقال: انظر ماذا ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء و ما أراها تزداد إلا بعدا، قال: صوّب الخشبة، فصوّبها فانقضت تريد اللحم، فسمع الجبال هدّتها فكادت تزول عن مراتبها. و قد روى نحو هذه القصة لبختنصر و للنمروذ من طرق ذكرها فى «الدرّ المنثور».

[سورة إبراهيم (١۴): الآيات ۴٧ الى ۵٢]

فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۴٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۴٨) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (۴٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (۵٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۵١)

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (۵٢)

مُخْلِفَ منتصب على أنه مفعول تحسبنّ، و انتصاب رسله على أنه مفعول وعده، و قيل: و ذلك على الاتساع، و المعنى: مخلف رسله وعده. قال القتبى: هو من المقدّم الذى يوضّحه التأخير، و المؤخر الذى يوضّحه التقديم و سواء فى ذلك مخلف وعده رسله و مخلف رسله وعده، و مثل ما فى الآية قول الشاعر:

ترى الدّور مدخل الظّلّ رأسهو سائره باد إلى الشّمس أجمع

و قال الزّمخشرى: قدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ* «٢» ثم قال رسله: ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا، و ليس من شأنه إخلاف المواعيد، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته و صفوته و المراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا «٣» و

---

(١). مريم: ٩٠.

(٢). آل عمران: ٩.

(٣). غافر: ۵١.

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «١» و قرئ: «مخلف وعده رسله» بجرّ رسله و نصب وعده. قال الزّمخشرى: و هذه القراءة فى

الضعف كمن قرأ: «قتل أولادهم شركائهم». إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب لا يغالبه أحد ذُو انْتِقامٍ ينتقم من أعدائه لأوليائه و الجملة تعليل للنهى، و قد مرّ تفسيره فى أوّل آل عمران يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قال الزجاج: انتصاب يوم على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام انتهى، و يجوز أن ينتصب بمقدّر يدل عليه الكلام، أى: و اذكر أو و ارتقب، و التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدّلت الدراهم دنانير، و قد يكون فى الصفات كما فى بدّلت الحلقة خاتما، و الآية تحتمل الأمرين، و قد قيل: المراد تغير صفاتها، و به قال الأكثر، و قيل: تغير ذاتها، و معنى وَ السَّماواتُ أى: و تبدّل السّموات غير السّموات على الاختلاف الذى مرّ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ أى: برز العباد للّه أو الظّالمون كما يفيده السياق؛ أى:

ظهروا من قبورهم، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه، و التعبير على المستقبل بلفظ الماضى للتنبيه على تحقّق وقوعه، كما فى قوله: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ* «٢» و الْواحِدِ الْقَهَّارِ «٣» المتفرّد بالألوهية الكثير القهر لمن عانده وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ معطوف على برزوا أو على تبدّل، و المجىء بالمضارع لاستحضار الصورة، و المجرمون هم المشركون، و يومئذ يعنى يوم القيامة، و مُقَرَّنِينَ أى: مشدودين إما بجعل بعضهم مقرونا مع بعض، أو قرنوا مع الشياطين كما فى قوله: نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ «۴» أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم، و الأصفاد: الأغلال و القيود، و الجار و المجرور متعلّق بمقرّنين أو حال من ضميره، يقال: صفدته صفدا، أى: قيدته. و الاسم الصّفد، فإذا أردت التكثير قلت: صفّدته. قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنّهاب و بالسّباياو أبنا بالملوك مصفّدينا

و قال حسّان بن ثابت:

من بين مأسور يشدّ صفادهصقر إذا لاقى الكريهة حام

و يقال: صفدته و أصفدته؛ إذا أعطيته، و منه قول النّابغة:

....

و لم أعرض أبيت اللعن بالصّفد «۵» سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ السّرابيل: القمص، واحدها سربال، و منه قول كعب بن مالك:

تلقاكم عصب حول النّبىّ لهممن نسج داود فى الهيجا سرابيل

و القطران: هو قطران الإبل الذى تهنأ به؛ أى: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل؛ و خصّ القطران لسرعة اشتعال النهار فيه مع نتن رائحته. و قال جماعة هو

---

(١). المجادلة: ٢١.

(٢). الكهف: ٩٩.

(٣). يوسف: ٣٩.

(۴). الزخرف: ٣۶.

(۵). و صدره: هذا الثناء فإن تسمع لقائله. و معنى «أبيت اللعن»: أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه.

النحاس: أى: قمصانهم من نحاس. و قرأ عيسى بن عمر مِنْ قَطِرانٍ بفتح القاف و تسكين الطاء.

و قرئ بكسر القاف و سكون الطاء، و قرئ بفتح القاف و الطاء، رويت هذه القراءة عن ابن عباس و أبى هريرة و عكرمة و سعيد بن جبير و يعقوب، و هذه الجملة فى محل نصب على الحال وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ أى: تعلو وجههم و تضربها؛ و خصّ الوجوه لأنّها أشرف ما فى البدن، و فيها الحواس المدركة، و الجملة فى محل نصب على الحال أيضا، و لِيَجْزِيَ اللَّهُ متعلق بمحذوف،

أی: يفعل ذلک بهم ليجزی كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ من المعاصی؛ أی: جزاء موافقا لما كسبت من خير أو شرّ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ لا يشغله عنه شیء. و قد تقدّم تفسيره هذا بَلاغٌ أی: هذا الذی أنزل إليک بلاغ، أی: تبليغ و كفاية فی الموعظة و التذكير. قيل: إنّ الإشارة إلی ما ذكره سبحانه هنا من قوله: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا إلی سَرِيعُ الْحِسابِ أی: هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة، و قيل: الإشارة إلی جميع السورة، و قيل: إلی القرآن، و معنی لِلنَّاسِ للكفار، أو لجميع الناس علی ما قيل فی قوله: وَ أَنْذِرِ النَّاسَ

وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ معطوف علی محذوف، أی: لينصحوا و لينذروا به، و المعنی: و ليخوّفوا به، و قرئ «و لينذروا» بفتح الياء التحتية و الذال المعجمة، يقال: نذرت بالشیء أنذر؛ إذا علمت به فاستعددت له وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ أی: ليعلموا بالأدلة التكوينية المذكورة سابقا وحدانية اللّه سبحانه، و أنه لا شريک له وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ أی: و ليتّعظ أصحاب العقول، و هذه اللامات متعلّقة بمحذوف، و التقدير: و كذلک أنزلنا، أو متعلقة بالبلاغ المذكور، أی: كفاية لهم فی أن ينصحوا و ينذروا و يعلموا بما أقام اللّه من الحجج و البراهين وحدانيته سبحانه و أنه لا شريک له، و ليتّعظ بذلک أصحاب العقول التی تعقل و تدرک.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ قال: عزيز و اللّه فی أمره، يملی و كيده متين، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة. و أخرج مسلم و غيره من حديث ثوبان قال: «جاء رجل من اليهود إلی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم فقال: أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: فی الظلمة دون الجسر». و أخرج مسلم أيضا و غيره من حديث عائشة. قالت: «أنا أوّل من سأل رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قلت: أين الناس يومئذ؟ قال: علی الصراط». و أخرج البزار و ابن المنذر و الطبرانی فی الأوسط و ابن مردويه، و البيهقی فی البعث، و ابن عساكر عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «فی قول اللّه يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قال: أرض بيضاء، كأنها فضة لم يسفک فيها دم حرام، و لم يعمل بها خطيئة». و أخرجه عبد الرزاق و ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی، و أبو الشيخ فی العظمة، و الحاكم و صحّحه البيهقی فی البعث، عنه موقوفا نحوه، قال البيهقی: الموقوف أصح. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن زيد ابن ثابت قال: «أتی اليهود النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فقال: جاءونی يسألوننی و سأخبرهم قبل أن يسألونی يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قال: أرض بيضاء كالفضة، فسألهم فقالوا: أرض بيضاء كالنقیّ». و أخرج ابن

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۴۴

مردويه مرفوعا عن علیّ نحو ما تقدّم عن ابن مسعود. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن أنس موقوفا نحوه، و قد روی نحو ذلک عن جماعة من الصحابة. و ثبت فی الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم يقول: «يحشر الناس يوم القيامة علی أرض بيضاء عفراء كقرصة نقی». و فيهما أيضا من حديث أبی سعيد قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفّؤها الجبّار بيده» الحديث. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: مُقَرَّنِينَ فِی الْأَصْفادِ قال الكبول.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة فِی الْأَصْفادِ قال: القيود و الأغلال. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير قال: فی السلاسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فِی الْأَصْفادِ يقول: فی وثاق. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی سَرابِيلُهُمْ قال: قمصهم. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن الحسن فی قوله:

مِنْ قَطِرانٍ قال: قطران الإبل. و أخرج ابن أبی حاتم عن عكرمة فی الآية قال: هذا القطران يطلی به حتی يشتعل نارا. و أخرج ابن

جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هو النحّاس المذاب. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أنه قرأ مِنْ قَطِرانٍ فقال: القطر: الصّفر، و: الآن: الحارّ. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة نحوه. و أخرج مسلم و غيره عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «النّائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة و عليها سربال من قطران، و درع من جرب». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ قال: القرآن وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ قال: بالقرآن.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۴۵

سورة الحجر

اشارة

و هى مكية بالاتفاق كما قال القرطبى. و أخرج النحّاس فى ناسخه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:
نزلت سورة الحجر بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱ الى ۱۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (۱) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (۲) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۳) وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (۴)
ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (۵) وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (۸) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹)
وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (۱۰) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۱) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۱۲) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴)
لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵)
قوله: الر قد تقدّم الكلام فى محله مستوفى، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى ما تضمنته السورة من الآيات و التعريف فى الكتاب. قيل: هو للجنس، و المراد جنس الكتب المتقدّمة؛ و قيل: المراد به القرآن، و لا يقدح فى هذا ذكر القرآن بعد الكتاب، فقد قيل إنه جمع له بين الاسمين؛ و قيل: المراد بالكتاب هذه السورة، و تنكير القرآن للتفخيم، أى: القرآن الكامل رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ قرأ نافع و عاصم بتخفيف الباء من ربما. و قرأ الباقون بتشديدها، و هما لغتان. قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخففون، و منه قول الشاعر «۱»:

ربما ضربة بسيف صقيل بين بصرى و طعنة نجلاء

و تميم و ربيعة يثقّلونها. و قد تزداد فيها التاء الفوقية «۲»، و أصلها أن تستعمل فى القليل. و قد تستعمل فى الكثير. قال الكوفيون: أى يودّ الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين. و منه قول الشاعر:

ربّ رفد هرقته ذلك اليوم و أسرى من معشر أقيال

(۱). هو عدى بن الرعلاء الغسانى.

(۲). أى: ربّتما أو: ربتما، و كذلك بضم الراء و فتحها.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۴۶

و قيل: هى هنا للتقليل؛ لأنهم ودّوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلّها لشغلهم بالعذاب. قيل: و ما هنا لحقت ربّ لتهيئها للدخول على الفعل؛ و قيل: هى نكرة بمعنى شى‏ء، و إنما دخلت ربّ هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضى، لأنّ المترقب فى أخباره سبحانه كالواقع المتحقّق، فكأنه قيل: ربما ودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين، أى: منقادين لحكمه مذعنين له من جملة أهله. و كانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة. و المراد أنه لما انكشف لهم الأمر، و اتّضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر، و أن الدين عند اللّه سبحانه هو الإسلام لا دين غيره، حصلت منهم هذه الودادة التى لا تسمن و لا تغنى من جوع، بل هى لمجرد التحسّر و التندّم و لوم النفس على ما فرّطت فى جنب اللّه؛ و قيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم و حال المسلمين؛ و قيل: عند خروج عصاة الموحّدين من النار، و الظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم فى كلّ وقت مستمرة فى كلّ لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا هذا تهديد لهم، أى: دعهم عمّا أنت بصدده من الأمر لهم و النهى، فهم لا يرعوون أبدا، و لا يخرجون من باطل، و لا يدخلون فى حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل و التمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالأنعام التى لا تهتم إلا بذلك و لا تشتغل بغيره، و المعنى: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل و نحوه من متاع الدنيا، و من إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم و سوء صنيعهم. و فى هذا من التهديد و الزجر ما لا يقدر قدره، يقال: ألهاه كذا، أى: شغله، و لهى هو عن الشى‏ء يلهى، أى: شغلهم الأمل عن اتباع الحق، و ما زالوا فى الآمال الفارغة و التمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذى عينين، و انكشف الأمر، و رأوا العذاب يوم القيامة، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا. و الأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر، و هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ أى: و ما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب إِلَّا وَ لَها أى: لتلك القرية كِتابٌ أى: أجل مقدّر لا تتقدم عليه و لا تتأخر عنه مَعْلُومٌ غير مجهول و لا منسىّ، فلا يتصوّر التخلف عنه بوجه من الوجوه، و جملة لَها كِتابٌ فى محل نصب على الحال من قرية و إن كانت نكرة لأنها قد صارت بما فيها من العموم فى حكم الموصوفة، و الواو للفرق بين كون هذه الجملة حالا، أو صفة فإنها تعينها للحالية كقولك: جاءنى رجل على كتفه سيف، و قيل: إنّ الجملة صفة لقرية، و الواو لتأكيد اللصوق بين الصفة و الموصوف ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها أى: ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها المكتوب فى اللوح المحفوظ؛ و المعنى: أنه لا يأتى هلاكها قبل مجى‏ء أجلها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ أى: و ما يتأخرون عنه، فيكون مجى‏ء هلاكهم بعد مضى الأجل المضروب له، و إيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب و لرعاية الفواصل، و لذلك حذف الجار و المجرور، و الجملة مبينة لما قبلها، فكأنه قيل: إنّ هذا الإمهال لا ينبغى أن يغترّ به العقلاء، فإن لكل أمة وقتا معينا فى نزول العذاب لا يتقدّم و لا يتأخر. و قد تقدم تفسير الأجل فى أوّل سورة الأنعام. ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع فى بيان بعض عتوّهم فى الكفر، و تماديهم فى الغىّ مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب، فقال: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ أى: قال كفار

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۱۴۷

مكة مخاطبين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و متهكمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه، مع إنكارهم لذلك فى الواقع أشدّ إنكار و نفيهم له أبلغ نفى، أو أرادوا: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ فى زعمه، و على وفق ما يدعيه إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ أى: إنك

بسبب هـذه الـدعوى التى تـدّعيها من كونك رسولا للّه مأمورا بتبليغ أحكامه لمجنون، فإنه لا يـدّعى مثل هـذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلا، فقولهم هذا لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم هو كقول فرعون: إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ «١».

لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ لو ما: حرف تحضيض، مركب من لو المفيدة للتمنى و من ما المزيدة، فأفاد المجموع الحثّ على الفعل الداخلة هى عليه؛ و المعنى:

هلا- تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قال الفراء: الميم فى «لو ما» بدل من اللام فى لو لا. و قال الكسائى: لو لا- و لو ما سواء فى الخبر و الاستفهام. قال النحاس: لو ما و لو لا و هلا واحد؛ و قيل: المعنى: لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ قرئ «ما نُنَزِّلُ» بالنون مبنيا للفاعل، و هو اللّه سبحانه فهو على هذا من التنزيل؛ و المعنى على هذه القراءة: قال اللّه سبحانه مجيبا على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم ما ننزل نحن الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ أى: تنزيلا متلبسا بالحق الذى يحقّ عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية و المشيئة الربانية، و ليس هذا الذى اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة، و قرئ «ننزل» مخففا من الإنزال، أى: ما ننزل نحن الملائكة إلا بالحق، و قرئ «ما تنزل» بالمثناة من فوق؛ مضارعا مثقلا- مبنيا للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين، أى: تتنزل، و قرئ أيضا بالفوقية مضارعا مبنيا للمفعول؛ و قيل: معنى إلا بالحق؛ إلا بالقرآن، و قيل: بالرسالة، و قيل:

بالعذاب وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ فى الكلام حذف، و التقدير: و لو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة و ما كانوا إذا منظرين، فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة، ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقولهم: يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ فقال سبحانه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ أى: نحن نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه و نسبوك بسببه إلى الجنون وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ عن كل ما لا يليق به من تصحيف و تحريف و زيادة و نقص و نحو ذلك. و فيه وعيد شديد للمكذّبين به، المستهزئين برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: الضمير فى لَهُ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الأوّل أولى بالمقام. ثم ذكر سبحانه أنّ عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ أى: رسلا، و حذف لدلالة الإرسال عليه، أى: رسلا كائنة من قبلك فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ فى أممهم و أتباعهم و سائر فرقهم و طوائفهم.

قال الفراء: الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضا فيما يجتمعون عليه، و أصله من شاعه إذا تبعه، و إضافته إلى الأوّلين من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: ما يأتى رسول من الرسل شيعته إلا كانوا به يستهزئون كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و جملة إلا كانوا به يستهزئون فى محل نصب على الحال، أو فى محل

---

(١). الشعراء: ٢٧.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٤٨

رفع على أنّها صفة رسول، أو فى محل جر على أنّها صفة له على اللفظ لا على المحل كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم نَسْلُكُهُ أى: الذكر فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ فالإشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق من إلقاء الوحى مقرونا بالاستهزاء، و السلك إدخال الشى‏ء فى الشى‏ء كالخيط فى المخيط، قاله الزجّاج، قال: و المعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال فى قلوب المجرمين، و جملة لا يُؤْمِنُونَ بِهِ فى محل نصب على الحال من ضمير نسلكه: أى: لا يؤمنون بالذكر الذى أنزلناه، و يجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها؛ و قيل:

إن الضمير فى نسلكه للاستهزاء، و فى لا يؤمنون به للذكر، و هو بعيد، و الأولى أن الضميرين للذكر وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أى: مضت طريقتهم التى سنها اللّه فى إهلاكهم، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب و الاستهزاء. و قال الزجّاج: و قد مضت سنة اللّه فى الأولين بأن سلك الكفر و الضلال فى قلوبهم. ثم حكى اللّه سبحانه إصرارهم على الكفر و تصميمهم على التكذيب و الاستهزاء، فقال: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أى:

على هؤلاء المعاندين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم المكذبين له المستهزئين به باباً مِنَ السَّماءِ أى: من أبوابها المعهودة و مكناهم من الصعود إليه فَظَلُّوا فِيهِ أى: فى ذلك الباب يَعْرُجُونَ يصعدون بآلة أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما فى السماء من عجائب الملكوت التى لا يجحدها جاحد و لا يعاند عند مشاهدتها معاند، و قيل: الضمير فى فَظَلُّوا للملائكة، أى: فظل الملائكة يعرجون فى ذلك الباب، و الكفار يشاهدونهم و ينظرون صعودهم من ذلك الباب لَقالُوا أى: الكفار؛ لفرط عنادهم و زيادة عتوّهم إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا قرأ ابن كثير سكرت بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد و هو من سكر الشراب، أو من السكر، و هو سدّها عن الإحساس، يقال: سكر النهر؛ إذا سدّه و حبسه عن الجرى، و رجح الثانى بقراءة التخفيف. و قال أبو عمرو بن العلاء: سكرت غشيت و غطيت، و منه قول الشاعر:

و طلعت شمس عليها مغفر «1»و جعلت عين الحرور تسكر

و به قال أبو عبيد و أبو عبيدة، و روى عن أبى عمرو أيضا أنه من سكر الشراب، أى: غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله؛ و قيل: معنى سكرت حبست كما تقدم، و منه قول أوس بن حجر:

قصرت «2» على ليلة ساهرةفليست بطلق و لا ساكره

قال النحّاس: و هذه الأقوال متقاربة بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا، ثم ادّعوا أنهم مسحورون، أى: سحرهم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى هذا بيان لعنادهم العظيم الذى لا يقلعهم عنه شىء من الأشياء كائنا ما كان، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان باللّه و ملائكته و كتبه و رسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض السكر، أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح، و من بلغ فى التعنّت إلى هذا الحدّ فلا تنفع فيه موعظة، و لا يهتدى بآية.

---

(1). فى اللسان مادة سكر: جاء الشّتاء و اجثألّ القبّر.

(2). فى اللسان مادة سكر: جذلت.

و قد أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: التوراة و الإنجيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: الكتب التى كانت قبل القرآن وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ قال: مبين و اللّه هداه و رشده و خيره. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ قال: ودّ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال: هذا فى الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار. و أخرج سعيد بن منصور و هناد ابن السرىّ فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن ابن عباس قال: ما يزال اللّه يشفع و يدخل و يشفع و يرحم حتى يقول: من كان مسلما فليدخل الجنة، فذلك قوله:

رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس و أنس أنهما تذاكرا هذه الآية رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ فقالا: هذا حيث يجمع اللّه من أهل

الخطايا من المسلمين و المشركين فى النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب اللّه لهم فيخرجهم بفضله و رحمته. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه بسند، قال السيوطى: صحيح، عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إنّ ناسا من أمتى يعذّبون بذنوبهم، فيكونون فى النار ما شاء اللّه أن يكونوا، ثم يعيّرهم أهل الشرك، فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحّد إلا أخرجه اللّه من النار، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ .

و أخرج ابن أبى عاصم فى السنّة، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا نحوه. و أخرج إسحاق بن راهويه و ابن حبان و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج هناد بن السرىّ و الطبرانى فى الأوسط و أبو نعيم عن أنس مرفوعا نحوه أيضا. و فى الباب أحاديث فى تعيين هذا السبب فى نزول هذه الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا الآية قال: هؤلاء الكفرة. و أخرج أيضا عن أبى مالك فى قوله: ذَرْهُمْ قال: خلّ عنهم. و أخرج ابن جرير عن الزهرى فى قوله: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ قال: نرى أنه إذا حضره أجله، فإنه لا يؤخر ساعة و لا يقدّم، و أما ما لم يحضر أجله فإن اللّه يؤخر ما شاء و يقدّم ما شاء. قلت: و كلام الزهرى هذا لا حاصل له و لا مفاد فيه. و أخرج ابن جرير عن الضحّاك فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ قال: القرآن. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ قال: بالرسالة و العذاب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ قال: و ما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ قال: عندنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فِي شِيَعِ

فتح القدير، ج٣، ص: ١٥٠

فتح القدير ج٣ ١٩٩

الْأَوَّلِينَ قال: أمم الأوّلين.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس فى قوله: كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ قال: الشرك نسلكه فى قلوب المشركين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن مثله أيضا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ قال: وقائع اللّه فيمن خلا من الأمم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ قال ابن جريج: قال ابن عباس: فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا قال: قريش تقوله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى الآية عن ابن عباس أيضا يقول: و لو فتحنا عليهم بابا من أبواب السماء فظلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين و جائين لقال أهل الشرك: إنما أخذت أبصارنا، و شبّه علينا، و إنما سحرنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد سُكِّرَتْ أَبْصارُنا قال: سدّت. و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال: و من قرأ: سُكِّرَتْ مخففة، فإنه يعنى سحرت.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٦ الى ٢٥]

وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (١۶) وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (١٨) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (٢٠)

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (٢٢) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢۵)

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين و عجزهم و عجز أصنامهم، ذكر قدرته الباهرة و خلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته، فقال: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً الجعل إن كان بمعنى الخلق، ففى السّماء متعلّق به، و إن كان بمعنى التّصيير ففى السماء خبره، و البروج فى اللغة: القصور و المنازل، و المراد بها هنا منازل الشمس و القمر و النجوم السيارة، و هى الاثنا عشر المشهورة كما تدلّ على ذلك التجربة، و العرب تعدّ المعرفة بمواقع النجوم و منازلها من أجلّ العلوم، و يستدلّون بها على الطرقات و الأوقات و الخصب و الجدب، و قالوا:

الفلك اثنا عشر برجا، و أسماء هذه البروج: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو، الحوت. كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة و المشتغلين بهذا العلم يسمون الحمل و الأسد و القوس مثلثة نارية، و الثور و السنبلة و الجدى مثلثة أرضية، و الجوزاء و الميزان و الدلو مثلثة هوائية، و السرطان و العقرب و الحوت مثلثة مائية. و أصل البروج الظهور، و منه تبرّج المرأة بإظهار زينتها. و قال الحسن و قتادة: البروج النجوم، و سميت بذلك لظهورها و ارتفاعها، و قيل: السبعة

فتح القدير، ج٣، ص: ١۵١

السيارة منها؛ قاله أبو صالح، و قيل: هى قصور و بيوت فى السماء فيها حرس، و الضمير فى وَ زَيَّنَّاها راجع إلى السماء، أى: و زينا السماء بالشمس و القمر و النجوم و البروج للناظرين إليها، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلّين إذا كان من النظر، و هو الاستدلال وَ حَفِظْناها أى: السماء مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ قال أبو عبيدة: الرجيم المرجوم بالنجوم، كما فى قوله: رُجُوماً لِلشَّياطِينِ و الرجم فى اللغة هو الرمى بالحجارة، ثم قيل للّعن و الطرد و الإبعاد رجم؛ لأن الرامى بالحجارة يوجب هذه المعانى إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ استثناء متصل، أى: إلا ممن استرق السمع، و يجوز أن يكون منقطعا، أى: و لكن من استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ و المعنى: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى و غيره، إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله. و معنى فَأَتْبَعَهُ تبعه و لحقه أو أدركه. و الشهاب:

الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما فى قوله: بِشِهابٍ قَبَسٍ قال ذو الرّمة:

كأنّه كوكب فى إثر عفرية «١» ....

و سمّى الكوكب شهابا لبريقه شبه النار، و المبين: الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم. قال القرطبى: و اختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح و يحرق و يخبل و لا يقتل، و قال الحسن و طائفة: يقتل. فعلى هذا القول فى قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجنّ قولان؛ أحدهما:

أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم، فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، و لذلك انقطعت الكهانة. و الثانى: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجنّ، قال: ذكره الماوردى، ثم قال: و القول الأوّل أصحّ. قال: و اختلف هل كان رمى بالشهب قبل المبعث، فقال الأكثرون:

نعم، و قيل: لا، و إنما ذلك بعد المبعث. قال الزجاج: و الرمى بالشهب من آيات النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ممّا حدث بعد مولده لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم. قال كثير من أهل العلم: نحن نرى انقضاض الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى، ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان، و يجوز أن يقال: يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل إلينا أنه نجم يسرى وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها أى: بسطناها و فرشناها كما فى قوله:

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «٢»، و فى قوله: وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ «٣»، و فيه ردّ على من زعم أنها كالكرة «۴» وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ أى: جبال ثابتة لئلا تحرك بأهلها، و قد تقدم بيان ذلك فى سورة الرعد وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ أى: أنبتنا فى الأرض من كلّ شىء مقدّر معلوم، فعبّر عن ذلك بالوزن؛ لأنه مقدار تعرف به الأشياء، و منه قول الشاعر:

---

(١). و عجزه: مسوّم فى سواد الليل منقضب.

(٢). النازعات: ٣٠.

(٣). الذاريات: ۴٨.

(۴). قوله تعالى: «فرشناها» هذا ما يبدو للناظر أنها مبسوطة ممدودة، و «دحاها»: جعلها كالبيضة ليست تامة الكروية، فهى مفلطحة من جانبيها. و ليس فى الآيات المذكورة ما ينفى أن الأرض كروية، خاصة و قد أثبتت الحقائق العلمية كرويتها.

فتح القدير، ج٣، ص: ١۵٢ قد كنت قبل لقائكم ذا مرّةعندى لكلّ مخاصم ميزانه

و قيل: معنى موزون مقسوم، و قيل: معدود، و المقصود من الإنبات: الإنشاء و الإيجاد؛ و قيل: الضمير راجع إلى الجبال، أى: أنبتنا فى الجبال من كلّ شىء موزون من الذهب و الفضة و النحاس و الرصاص و نحو ذلك؛ و قيل: موزون بميزان الحكمة، و مقدّر بقدر الحاجة؛ و قيل: الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون، أى: حسن وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ تعيشون بها من المطاعم و المشارب جمع معيشة، و قيل:

هى الملابس، و قيل: هى التصرف فى أسباب الرزق مدّة الحياة. قال الماوردى: و هو الظاهر. قلت: بل القول الأوّل أظهر، و منه قول جرير:

تكلّفنى معيشة آل زيدو من لى بالمرقّق و الصّنابا «١»

وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ معطوف على معايش؛ أى: و جعلنا لكم فيها من لستم له برازقين؛ و هم المماليك و الخدم و الأولاد الذين رازقهم فى الحقيقة هو اللّه، و إن ظنّ بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب، و يجوز أن يكون معطوفا على محل لكم، أى: جعلنا لكم فيها معايش و جعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش، و هم من تقدّم ذكره، و يدخل فى ذلك الدوابّ على اختلاف أجناسها، و لا يجوز العطف على الضمير المجرور فى لكم؛ لأنه لا يجوز عند الأكثر إلا بإعادة الجارّ؛ و قيل: أراد الوحش وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ إن هى النافية و من مزيدة للتأكيد، و هذا التركيب عام لوقوع النكرة فى حيز النفى مع زيادة من، و مع لفظ شىء المتناول لكل الموجودات الصادق على كل فرد منها، فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند اللّه خزائنها لا يخرج منها شىء. و الخزائن: جمع خزانة، و هى المكان الذى يحفظ فيه نفائس الأمور، و ذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور؛ و المعنى: أن كل الممكنات مقدورة و مملوكة يخرجها من العدم إلى الوجوب بمقدار كيف شاء. و قال جمهور المفسرين: إن المراد بما فى هذه الآية هو المطر؛ لأنه سبب الأرزاق و المعايش؛ و قيل: الخزائن: المفاتيح، أى: ما من شىء إلا عندنا فى السماء مفاتيحه، و الأولى ما ذكرناه من العموم لكل موجود، بل قد يصدق الشىء على المعدوم على الخلاف المعروف فى ذلك وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ أى: ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلا بقدر معلوم، و القدر

المقدار؛ و المعنى:

أن اللّه سبحانه لا يوجد للعباد شيئا من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبسا ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه كما قال سبحانه: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ «٢» و قد فسّر الإنزال بالإعطاء، و فسّر بالإنشاء، و فسّر بالإيجاد، و المعنى متقارب، و جملة و ما ننزله معطوفة على مقدّر: أى و إن من شيء إلا عندنا خزائنه ننزله و ما ننزله، أو فى محل نصب على الحال وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ معطوف على وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ و ما بينهما اعتراض. قرأ حمزة «الريح» بالتوحيد. و قرأ من عداه «الرِّياحَ» بالجمع، و على قراءة حمزة فتكون اللام فى الريح للجنس. قال

---

(١). «المرقّق»: الأرغفة الرقيقة الواسعة. «الصناب»: صباغ يتّخذ من الخردل و الزبيب، يؤتدم به.

(٢). الشورى: ٢٧.

الأزهرى: و جعل الرّياح لواقح لأنها تحمل السحاب، أى: تقله و تصرفه، ثم تمرّ به فتنزله. قال اللّه سبحانه: حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا، أى: حملت. و ناقة لاقح؛ إذا حملت الجنين فى بطنها، و به قال الفراء و ابن قتيبة؛ و قيل: لواقح بمعنى ملقحة. قال ابن الأنبارى: تقول العرب: أبقل النبت فهو باقل، و قيل: مبقل؛ و المعنى: أنها تلقح الشجر، أى: بقوّتها؛ و قيل: معنى لواقح: ذوات لقح. قال الزجّاج:

معناه: ذات لقحة؛ لأنها تعصر السحاب و تدرّه كما تدرّ اللقحة؛ يقال رامح، أى: ذو رمح، و لابن، أى:

ذو لبن، و تامر، أى: ذو تمر. قال أبو عبيدة: لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنها جمع ملقحة. و فى هذه الآية تشبيه الرياح التى تحمل الماء بالحامل، و لقاح الشجر بلقاح الحمل فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً أى:

من السحاب، و كلّ ما علاك فأظلّك فهو سماء، و قيل: من جهة السماء، و المراد بالماء هنا ماء المطر فَأَسْقَيْناكُمُوهُ أى: جعلنا ذلك المطر لسقياكم و لشرب مواشيكم و أرضكم. قال أبو علىّ: يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروى؛ و أسقيته نهرا، أى: جعلته شربا له، و على هذا فَأَسْقَيْناكُمُوهُ أبلغ من سقيناكموه؛ و قيل: سقى و أسقى بمعنى واحد وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ أى: ليست خزائنه عندكم، بل خزائنه عندنا، و نحن الخازنون له، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه فى قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ و قيل: المعنى: ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم، أى: لا تقدرون على حفظه فى الآبار و الغدران و العيون، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ أى: نوجد الحياة فى المخلوقات و نسلبها عنها متى شئنا، و الغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عزّ و جلّ، و أنه القادر على البعث و النشور و الجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه و تقتضيه مشيئته، و لهذا قال: وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ أى: للأرض و من عليها؛ لأنه سبحانه الباقى بعد فناء خلقه، الحىّ الذى لا يموت، الدائم الذى لا ينقطع وجوده، وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ* «١». وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ هذه اللام هى الموطئة للقسم، و هكذا اللام فى وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ و المراد من تقدّم ولادة و موتا، و من تأخر فيهما؛ و قيل: من تقدّم طاعة و من تأخر فيها، و قيل: من تقدم فى صف القتال و من تأخر؛ و قيل: المراد بالمستقدمين الأموات، و بالمستأخرين الأحياء؛ و قيل: المستقدمين هم الأمم المتقدّمون على أمة محمد، و المستأخرون هم أمة محمد، و قيل: المستقدمون من قتل فى الجهاد، و المستأخرون من لم يقتل. وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ و هو المتولى لذلك، القادر عليه دون غيره، كما يفيده ضمير الفصل من الحصر. و فيه أنه سبحانه يجازى المحسن بإحسانه، و المسيئ بإساءته؛ لأنه الأمر المقصود من

الحشر إِنَّهُ حَكِيمٌ يجرى الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة عَلِيمٌ أحاط علمه بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها، و من كان كذلك فله القدرة البالغة على كلّ شيء ممّا وسعه علمه، و جرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو.

---

(١). آل عمران: ١٨٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٥۴

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً قال: كواكب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال:

الكواكب العظام. و أخرج أيضا عن عطية قال: قصورا فى السماء فيها الحرس. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال الرجيم: الملعون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ أراد أن يخطف السمع كقوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ «١». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: كان ابن عباس يقول: إن الشهب لا تقتل، و لكن تحرق و تخبل و تجرح من غير أن تقتل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ قال: معلوم.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ قال: بقدر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: الأشياء التى توزن. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: ما أنبتت الجبال مثل الكحل و شبهه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ قال: الدوابّ و الأنعام. و أخرج هؤلاء عن منصور قال: الوحش. و أخرج البزار و ابن مردويه، و أبو الشيخ فى العظمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خزائن اللّه الكلام، فإذا أراد شيئا قال له كن فكان». و أخرج ابن جرير عن ابن جريج فى قوله: إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ قال:

المطر خاصة. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ما نقص المطر منذ أنزله اللّه، و لكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى، ثم قرأ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما من عام بأمطر من عام، و لكنّ اللّه يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ و أخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ قال: يرسل اللّه الريح فتحمل الماء، فتلقح به السحاب، فتدرّ كما تدرّ اللقحة، ثم تمطر. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال: يبعث اللّه المبشرة فتقمّ «٢» الأرض قمّا، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فتجعله كسفا، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاما، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و الديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ريح الجنوب من الجنة، و هى الريح اللواقح التى ذكر اللّه فى كتابه». و أخرج الطيالسى و سعيد بن منصور و أحمد و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن خزيمة و ابن حبّان و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: «كانت امرأة تصلّى خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،

---

(١). الصافات: ١٠.

(٢). «قمّ»: كنس.

فتح القدير، ج‏3، ص: 155

حسناء من أحسن النساء، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها، و يستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل اللّه: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ و هذا الحديث هو من رواية أبى الجوزاء عن ابن عباس. و قد رواه عبد الرزاق و ابن المنذر من قول أبى الجوزاء، قال الترمذى: و هذا أشبه أن يكون أصح. و قال ابن كثير:

فى هذا الحديث نكارة شديدة.

و أخرج الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: المستقدمين: الصفوف المقدّمة، و المستأخرين:

الصفوف المؤخرة. و قد وردت أحاديث كثيرة فى أن خير صفوف الرجال أوّلها و شرها آخرها، و خير صفوف النساء آخرها، و شرّها أولها. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء و مقاتل بن حيان أن الآية فى صفوف [الصلاة و] «1» القتال. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: المستقدمين فى طاعة اللّه، و المستأخرين فى معصية اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: يعنى بالمستقدمين من مات، و بالمستأخرين من هو حىّ لم يمت. و أخرج هؤلاء عنه أيضا قال: المستقدمين آدم و من مضى من ذريته، و المستأخرين فى أصلاب الرجال. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن قتادة نحوه.

[سورة الحجر (15): الآيات 26 الى 44]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (27) وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30)

إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى‏ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ (35)

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)

قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (42) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

المراد بالإنسان فى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ هو آدم لأنه أصل هذا النوع، و الصلصال قال أبو عبيدة: هو الطين المخلوط بالرمل الذى يتصلصل إذا حرّك، فإذا طبخ فى النار فهو الفخار. و هذا قول أكثر المفسرين. و قال الكسائى: هو الطين المنتن، مأخوذ من قول العرب صلّ اللحم و أصلّ: إذا أنتن؛ مطبوخا كان أو نيئا. قال الحطيئة:

ذاك فتى يبذل ذا قدره لا يفسد اللحم لديه الصّلول

---

(1). من الدر المنثور (5/ 75)

فتح القدير، ج‏3، ص: 156

و الحمأ: الطين الأسود المتغير. أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. قال ابن السكّيت: تقول منه:

حمئت البئر حمأ بالتسكين؛ إذا نزعت حمأتها، و حمئت البئر حمأ بالتحريك: كثرت حمأتها، و أحمأتها إحماء: ألقيت فيها الحمأة. قال أبو عبيدة: الحمأة بسكون الميم مثل الكمأة يعنى بالتحريك، و الجمع حمء مثل تمرة و تمر، و الحمأ المصدر مثل الهلع و الجزع، ثم سمّى به. و المسنون قال الفراء: هو المتغيّر، و أصله من سننت الحجر على الحجر؛ إذا حككته، و ما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة و السّنين، و منه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم خاصرتها إلى القبّة الحمراء «۱» تمشى فى مرمر مسنون

أى: محكوك، و يقال: أسن الماء إذا تغير، و منه قوله: لَمْ يَتَسَنَّهْ «۲» و قوله: ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ «۳».

و كلا الاشتقاقين يدلّ على التغير، لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتنا. و قال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، و هو من قول العرب سننت الماء على الوجه؛ إذا صببته، و السنّ الصب. و قال سيبويه: المسنون المصوّر، مأخوذ من سنّة الوجه، و هى صورته، و منه قول ذى الرمة:

تريك سنّة وجه غير مقرفةملساء ليس بها خال و لا ندب «۴»

و قال الأخفش: المسنون المنصوب القائم، من قولهم: وجه مسنون؛ إذا كان فيه طول. و الحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بلّ صار طينا، فلما أنتن صار حمأ مسنونا، فلما يبس صار صلصالا. فأصل الصلصال: هو الحمأ المسنون، و لهذا وصف بهما وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ الجانّ أبو الجنّ عند جمهور المفسرين. و قال عطاء و الحسن و قتادة و مقاتل: هو إبليس. و سمى جانا لتواريه عن الأعين.

يقال: جن الشىء إذا ستره. فالجانّ يستر نفسه عن أعين بنى آدم، و معنى من قبل: من قبل خلق آدم، و السّموم: الريح الحادة النافذة فى المسامّ، تكون بالنهار و قد تكون بالليل، كذا قال أبو عبيدة، و ذكر خلق الإنسان و الجانّ فى هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلهية، و بيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ الظرف منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر، بيّن سبحانه بعد ذكره الخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له و قد تقدّم تفسير ذلك فى البقرة، و البشر مأخوذ من البشرة، و هى ظاهر الجلد، و قد تقدّم تفسير الصلصال و الحمأ المسنون قريبا مستوفى. فَإِذا سَوَّيْتُهُ أى: سويت خلقه و عدلت صورته الإنسانية و كملت أجزائه وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي النفخ: إجراء الريح فى تجاويف جسم آخر؛ فمن قال: إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر، و من قال: إنه جوهر مجرد غير متحيز و لا حال فى متحيز. فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لتعلّق النفس الناطقة به. قال النيسابورى: و لا خلاف فى أن الإضافة فى روحى للتشريف و التكريم، مثل ناقة اللّه، و بيت اللّه. قال القرطبى: و الروح: جسم لطيف

---

(۱). فى لسان العرب: الخضراء.

(۲). البقرة: ۲۵۹.

(۳). محمد: ۱۵.

(۴). «السنة»: الصورة. «المقرفة»: التى دنت من الهجينة. «خال»: شامة. «ندب»: الأثر من الجرح و القراح.

أجرى اللّه العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم، و حقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا و تكريما، قال: و مثله: وَ رُوحٌ مِنْهُ «۱»، و قد تقدّم فى النساء فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ الفاء تدلّ على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية و النفخ من غير تراخ، و هو أمر بالوقوع من وقع يقع. و فيه دليل على أن المأمور به هو السجود لا مجرّد

الانحناء كما قيل، و هذا السجود هو سجود تحية و تكريم لا سجود عبادة، و للّه أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء، و قيل: كان السجود للّه تعالى و كان آدم قبلة لهم فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعا عند أمر اللّه سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرد: قوله: كُلُّهُمْ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، و قوله: أَجْمَعُونَ توكيد بعد توكيد، و رجّح هذا الزجّاج. قال النيسابورى: و ذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالا و لو صح أن يكون حالا لكان منتصبا، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال: إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قيل: هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة، و لكنه أبى ذلك استكبارا و استعظاما لنفسه و حسدا لآدم، فحقّت عليه كلمة اللّه؛ و قيل: إنه لم يكن من الملائكة، و لكنه كان معهم، فغلب اسم الملائكة عليه و أمر بما أمروا به، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا؛ و قيل: إن الاستثناء منفصل بناء على عدم كونه منهم، و عدم تغليبهم عليه، أى: و لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين و قد تقدّم الكلام فى هذا فى سورة البقرة. و جملة أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ استئناف مبين لكيفية ما فيهم من الاستثناء من عدم السجود؛ لأنّ عدم السجود قد يكون مع التردّد، فبيّن سبحانه أنه كان على وجه الإباء، و جملة قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ مستأنفة أيضا جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال اللّه سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود؟ و هذا الخطاب له ليس للتشريف و التكريم، بل للتقريع و التوبيخ، و المعنى: أىّ غرض لك فى الامتناع؟ و أىّ سبب حملك عليه على أن لا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة؟ و هم فى الشرف و علوّ المنزلة و القرب من اللّه بالمنزلة التى قد علمتها، و جملة قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ مستأنفة كالتى قبلها، جعل العلّة لترك سجوده كون آدم بشرا مخلوقا من صلصال من حمأ مسنون زعما منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم، و فيه إشارة إجمالية فى كونه خيرا منه. و قد صرّح بذلك فى موضع آخر، فقال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* «٢»، و قال فى موضع آخر: أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً «٣»، و اللام فى لأسجد لتأكيد النفى، أى: لا يصح ذلك منى، فأجاب اللّه سبحانه عليه بقوله: قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ و الضمير فى منها، قيل: عائد إلى الجنة، و قيل: إلى السماء، و قيل: إلى زمرة الملائكة، أى: فاخرج من زمرة الملائكة؛ فإنك رجيم، أى: مرجوم بالشهب. و قيل: معنى رجيم ملعون، أى: مطرود، لأن من يطرد يرجم بالحجارة وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ أى: عليك الطرد و الإبعاد من رحمة اللّه سبحانه مستمرا عليك لازما لك إلى يوم الجزاء، و هو يوم القيامة، و جعل يوم الدين غاية للّعنة لا يستلزم انقطاعها

---

(١). النساء: ١٧١.

(٢). ص: ٧٦.

(٣). الإسراء: ٦١.

فى ذلك الوقت؛ لأنّ المراد دوامها من غير انقطاع، و ذكر يوم الدين للمبالغة، كما فى قوله تعالى: ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ* «١»، أو أن المراد أنه فى يوم الدين و ما بعده يعذب بما هو أشدّ من اللعن من أنواع العذاب، فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسّه العذاب قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي أى: أخّرنى و أمهلنى و لا تمتنى إلى يوم يبعثون؛ أى: آدم و ذريته. طلب أن يبقى حيا إلى هذا اليوم لما سمع ذلك علم أن اللّه قد أخّر عذابه إلى الدّار الآخرة، و كأنه طلب أن لا يموت أبدا، لأنّه إذا أخّر موته إلى ذلك اليوم فهو يوم لا موت فيه؛ و قيل: إنه لم يطلب أن لا يموت، بل طلب أن يؤخّر عذابه إلى يوم القيامة و لا يعذّب فى الدنيا قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ لما سأل الإنظار أجابه اللّه سبحانه إلى ما طلبه و أخبره بأنه من جملة من أنظره ممّن أخّر آجالهم من

مخلوقاته، أو من جملة من أخّر عقوبتهم بما اقترفوا، ثم بيّن سبحانه الغاية التى أمهله إليها. فقال: إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ و هو يوم القيامة، فإن يوم الدين و يوم يبعثون و يوم الوقت المعلوم كلّها عبارات عن يوم القيامة؛ و قيل: المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث، فعند ذلك يموت قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ الباء للقسم، و ما مصدرية، و جواب القسم لأزينن لهم، أى: أقسم بإغوائك إياى لأزينن لهم فى الأرض، أى: ما داموا فى الدنيا، و التزيين منه إما بتحسين المعاصى و إيقاعهم فيها، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم اللّه به فلا يلتفتون إلى غيرها. و إقسامه هاهنا بإغواء اللّه له لا ينافى إقسامه فى موضع آخر بعزة اللّه التى هى سلطانه و قهره؛ لأن الإغواء له هو من جملة ما تصدق عليه العزّة وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ أى: لأضلنهم عن طريق الهدى، و أوقعهم فى طريق الغواية و أحملهم عليها إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قرأ أهل المدينة و أهل الكوفة بفتح اللام، أى: الذين استخلصتهم من العباد.

و قرأ الباقون بكسر اللام، أى: الذين أخلصوا لك العبادة فلم يقصدوا بها غيرك قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ أى: حق علىّ أن أراعيه، و هو أن لا يكون لك على عبادى سلطان. قال الكسائى: هذا على الوعيد و التهديد، كقولك لمن تهدد: طريقك علىّ و مصيرك إلىّ، و كقوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ، فكأنّ معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه إلىّ فأجازى كلا بعمله، و قيل: على هنا بمعنى إلىّ؛ و قيل: المعنى على أن أدلّ على الصراط المستقيم بالبيان و الحجة؛ و قيل: بالتوفيق و الهداية. و قرأ ابن سيرين و قتادة و الحسن و قيس بن عباد و أبو رجاء و حميد و يعقوب «هذا صراط علىّ» على أنه صفة مشبهة، و معناه رفيع إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ المراد بالعباد هنا هم المخلصون، و المراد أنه لا تسلّط له عليهم بإيقاعهم فى ذنب يهلكون به و لا يتوبون منه، فلا ينافى هذا ما وقع من آدم و حواء و نحوهما، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء، و هم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحقّ، الواقعين فى الضلال، و هو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ- إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ و يمكن أن يقال: إن بين الكلامين فرقا، فكلام اللّه سبحانه فيه نفى سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين، فيدخل فى ذلك المخلصون و غيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين؛ و كلام

---

(١). هود: ١٠٧، ١٠٨.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٥٩

إبليس اللعين يتضمّن إغواء الجميع إلا المخلصين، فدخل فيهم من لم يكن مخلصا و لا تابعا لإبليس غاويا. و الحاصل أنّ بين المخلصين و الغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة و لا غاوية تابعة لإبليس؛ و قد قيل: إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون، و يدلّ على ذلك قوله تعالى: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ «١»، ثم قال اللّه سبحانه متوعّدا لأتباع إبليس: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ أى: موعد المتبعين الغاوين، و أجمعين تأكيد للضمير أو حال لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ يدخل أهل النار منها و إنما كانت سبعة لكثرة أهلها لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ أى: من الأتباع الغواة جُزْءٌ مَقْسُومٌ أى: قدر معلوم متميز عن غيره؛ و قيل: المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق، و هى: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية؛ فأعلاها للموحدين، و الثانية لليهود، و الثالثة للنصارى، و الرابعة للصابئين، و الخامسة للمجوس، و السادسة للمشركين، و السابعة للمنافقين، فجهنّم أعلى الطباق، ثم ما بعدها تحتها، ثم كذلك، كذا قيل.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس قال: خلق الإنسان من ثلاث من طين لازب و صلصال و حمأ مسنون، فالطين اللازب: اللازم الجيد، و الصلصال: المدقّق الذى يصنع منه الفخار، و الحمأ المسنون: الطين الذى فيه الحمأة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: الصلصال الماء يقع على الأرض

الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الصلصال هو التراب اليابس الذى يبلّ بعد يبسه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: قال: الصلصال طين خلط برمل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا. قال: الصلصال الذى إذا ضربته صلصل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا. قال: الصلصال: الطين تعصر بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قال: من طين رطب. و أخرج هؤلاء عنه أيضا: مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قال: من طين منتن. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الجان مسيخ الجنّ، كالقردة و الخنازير مسيخ الإنس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة: قال: الجانّ. هو إبليس خلق من قبل آدم.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ قال: من أحسن النار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: نار السموم: الحارة التى تقتل. و أخرج الطيالسى و الفريابى و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود قال: السموم التى خلق منها الجانّ جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، ثم قرأ: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ و أخرج ابن مردويه عنه مرفوعا.

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قال:

---

(١). النحل: ١٠٠.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٦٠

أراد إبليس أن لا يذوق الموت فقيل إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، و بين النفخة و النفخة أربعون سنة. و أخرج أبو عبيدة و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن سيرين هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ أى: رفيع. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ بعدد أطباق جهنم كما قدّمنا. و أخرج ابن المبارك و ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و هناد و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى صفة النار، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، من طرق عن علىّ قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأوّل، ثم الثانى، ثم الثالث حتى تملأ كلها. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الترمذى و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «بجهنّم سبعة أبواب: باب منها لمن سلّ السّيف على أمتى». و قد ورد فى صفة النار أحاديث و آثار. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فى قوله تعالى: لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ قال: جزء أشركوا باللّه، و جزء شكّوا فى اللّه، و جزء غفلوا عن اللّه».

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٥ الى ٦٦]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)

وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤)

قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (٥٥) قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)

إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (٦٤)
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦)

قوله: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ أى: المتقين للشرك باللّه كما قاله جمهور الصحابة و التابعين، و قيل: هم الذين اتقوا جميع المعاصى فى جنات و هى البساتين، و عيون و هى الأنهار. قرئ بضم العين من عيون على الأصل، و بالكسر مراعاة للياء، و التركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات و عيون، أو لكل واحد منهم جنات و عيون، أو لكل واحد منهم جنة و عين ادْخُلُوها قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول، أى: قيل لهم ادخلوها. و قرأ الحسن و أبو العالية، و روى عن يعقوب؛ بضم الهمزة مقطوعة، و فتح الخاء، على أنه فعل مبنى للمفعول، أى: أدخلهم اللّه إياها. و قد قيل: إنهم إذا كانوا فى جنات و عيون،

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٦١

فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور؟ فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها.

و أجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا فى الجنات، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التى أرادوا الانتقال إليها ادخلوها، و معنى بِسَلامٍ آمِنِينَ بسلامة من الآفات، و أمن من المخافات، أو مسلمين على بعضهم بعضا، أو مسلما عليهم من الملائكة، أو من اللّه عزّ و جلّ. وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ الغلّ: الحقد و العداوة، و قد مرّ تفسيره فى الأعراف، و انتصاب إِخْواناً* على الحال، أى: إخوة فى الدين و التعاطف عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ أى: حال كونهم على سرر، و على صورة مخصوصة و هى التقابل، ينظر بعضهم إلى وجه بعض، و السرر جمع سرير، و قيل: هو المجلس الرفيع المهيّأ للسرور، و منه قولهم:

سرّ الوادى؛ لأفضل موضع منه لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ أى: تعب و إعياء؛ لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك فى الجنة؛ لأنها نعيم خالص، و لذّة محضة، تحصل لهم بسهولة، و توافيهم مطالبهم بلا كسب و لا جهد، بل بمجرد خطور شهوة الشىء بقلوبهم يحصل ذلك الشىء عندهم صفوا عفوا وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ أبدا، و فى هذا الخلود الدائم و علمهم به تمام اللذة و كمال النعيم، فإنّ علم من هو فى نعمة و لذّة بانقطاعها و عدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه و تكدّر لذّته، ثم قال سبحانه بعد أن قصّ علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم و الأجر الجزيل نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أى: أخبرهم يا محمد أنى أنا الكثير المغفرة لذنوبهم، الكثير الرحمة لهم، كما حكمت به على نفسى: «إنّ رحمتى سبقت غضبى». اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة، و أدخلتهم تحت واسع الرحمة. ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة، أمره بأن يذكر لهم شيئا ممّا يتضمن التخويف و التحذير حتى يجتمع الرجاء و الخوف، و يتقابل التبشير و التحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ أى: الكثير الإيلام، و عند ما جمع اللّه لعباده بين هذين الأمرين من التبشير و التحذير صاروا فى حالة وسطا بين اليأس و الرجاء، و خير الأمور أوساطها، و هى القيام على قدمى الرجاء و الخوف، و بين حالتى الأنس و الهيبة، و جملة وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ معطوفة على جملة نبىء عبادى؛ أى: أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذى اجتمع فيه له الرجاء و الخوف، و التبشير الذى خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك و يعلموا أنها سنّة اللّه سبحانه فى عباده. و أيضا لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين و إهلاك الظالمين؛ كان فى ذلك تقديرا لكونه الغفور الرحيم و أن عذابه هو العذاب الأليم، و قد مرّ تفسير هذه القصة فى سورة هود، و انتصاب إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ بفعل مضمر معطوف على نَبِّئْ عِبادِي أى: و اذكر لهم دخولهم عليه، أو فى محل نصب على الحال، و الضيف فى الأصل مصدر، و لذلك وحّد و إن كانوا جماعة، و سمى ضيفا لإضافته إلى المضيف فَقالُوا سَلاماً أى: سلمنا سلاما قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ أى: فزعون خائفون، و إنما قال

هـذا بعـد أن قرّب إليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه، كما تقـدم فى سورة هود: فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً «۱». و قيل: أنكر السلام منهم لأنه لم يكن فى بلادهم، و قيل: أنكر دخولهم عليه بغير استئذان

---

(۱). هود: ۷۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۶۲

قـالُوا لا تَوْجَلْ أى: قالت الملائكـة لا تخف، و قرئ لا تأجل و لا توجل؛ من أوجله، أى: أخافه، و جملـة إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ مسـتأنفة لتعليـل النهى عن الوجـل، و العليم: كثير العلم، و قيـل: هو الحليم كما وقع فى موضع آخر من القرآن؛ و هـذا الغلام: هو إسـحاق كمـا تقـدّم فى هود، و لم يسـمّه هنـا و لا ذكر التبشـير بيعقوب اكتفـاء بمـا سـلف قـالَ أَ بَشَّرْتُمُونِى قرأ الجمهور بـألف الاستفهام، و قرأ الأعمش «بشرتمونى» بغير الألف عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فى محل نصب على الحال، أى: مع حالة الكبر و الهرم فَبِمَ تُبَشِّرُونَ استفهام تعجب، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذى جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه، و المعنى: فبأىّ شىء تبشرون، فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصحّ. و قرأ نافع «تبشرون» بكسر النون و التخفيف و إبقاء الكسرة لتدلّ على الياء المحذوفة. و قرأ ابن كثير و ابن محيصن بكسر النون مشدّدة على إدغام النون فى النون، و أصله تبشروننى. و قرأ الباقون «تبشرون» بفتح النون قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِ أى: باليقين الذى لا خلف فيه، فإن ذلك وعد اللّه و هو لا يخلف الميعاد و لا يستحيل عليه شىء، فإنه القادر على كلّ شىء فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ هكذا قرأ الجمهور بإثبات الألف. و قرأ الأعمش و يحيى بن وثّاب «من القنطين» بغير ألف، و روى ذلك عن أبى عمرو، أى: من الآيسين من ذلك الذى بشرناك به قـالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ قرئ بفتح النـون من يقنط و بكسرها و همـا لغتـان. و حكى فيه ضم النـون. و الضـالون: المكـذبون، أو المخطئون الـذاهبون عن طريق الصواب، أى: إنمـا اسـتبعدت الولـد لكبر سنّى لا لقنوطى من رحمـة ربى؛ ثم سـألهم عمّا لأجله أرسلهم اللّه سبحانه ف قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ الخطب: الأمر الخطير و الشأن العظيم، أى: فما أمركم و شأنكم و ما الذى جئتم به غير ما قد بشرتمونى به، و كأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ أى: إلى قوم لهم إجرام، فيـدخل تحت ذلـك الشّـرك و مـا هو دونه، و هؤلاء القوم: هم قوم لوط، ثم اسـتثنى منهم من ليسـوا مجرمين فقـال: إِلَّا آلَ لُوطٍ و هو اسـتثناء متصـل؛ لأنه من الضـمير فى مجرمين، و لو كـان من قوم لكـان منقطعا لكونهم قـد وصـفوا بكونهم مجرمين، و ليس آل لوط مجرمين، ثم ذكر مـا سـيختص به آل لوط من الكرامـة لعـدم دخولهم مع القوم فى إجرامهم فقـال: إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ أى: آل لوط، و هم أتباعه و أهل دينه، و هـذه الجملـة مسـتأنفة على تقـدير كون الاستثناء متصلا، كأنه قيل:

مـاذا يكون حـال آل لوط؟ فقـال: إنـا لمنجوهم أجمعين، و أمـا على تقـدير كون الاسـتثناء منقطعـا فهى خبر، أى: لكن آل لوط نـاجون من عـذابنا. و قرأ حمزة و الكسـائى لَمُنَجُّوهُمْ بالتخفيف من أنجى. و قرأ الباقون بالتشديـد من نجّى. و اختار هـذه القراءة الأخيرة أبو عبيـد و أبو حاتم، و التنجيـة و الإنجاء: التخليص ممّا وقع فيه غيرهم إِلَّا امْرَأَتَهُ هـذا الاسـتثناء من الضـمير فى منجوهم إخراجا لها من التنجيـة؛ أى: إلا امرأته فليست ممّن ننجيه بل ممّن نهلكه؛ و قيل: إن الاسـتثناء من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية، و المعنى:

قالوا: إننا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم إلا آل لوط إنا لمنجوهم إلا امرأته فإنها من الهالكين، و معنى قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ قضينا و حكمنا أنها من الباقين فى العذاب مع الكفرة، و الغابر الباقى، قال الشاعر «۱»:

---

(١). هو الحارث بن حلزة.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٦٣ لا تكسع الشّول بأغبارهاإنّك لا تدرى من النّاتج «١»

و الإغبار: بقايا اللبن. قال الزجّاج: معنى قدّرنا دبرنا، و هو قريب من معنى قضينا، و أصل التقدير:

جعل الشيء على مقدار الكفاية. و قرأ عاصم من رواية أبى بكر و المفضل «قدرنا» بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد. قال الهروى: هما بمعنى، و إنما أسند التقدير إلى الملائكة مع كونه من فعل اللّه سبحانه لما لهم من القرب عند اللّه فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ هذه الجملة مستأنفة لبيان و إهلاك من يستحق الهلاك و تنجية من يستحق النجاة قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أى: قال لوط مخاطبا لهم إنكم قوم منكرون، أى: لا أعرفكم بل أنكركم قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أى: بالعذاب الذى كانوا يشكون فيه، فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره؛ كأنهم قالوا: ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه، بل جئناك بما فيه سرورك، و هو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه و هم يكذبونك وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِ أى: باليقين الذى لا مرية فيه و لا تردّد، و هو العذاب النازل بهم لا محالة وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فى ذلك الخبر الذى أخبرناك. و قد تقدّم تفسير قوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ «٢» فى سورة هود: وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ كن من ورائهم تذودهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أى: لا تلتفت أنت و لا يلتفت أحد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب، فيشتغل بالنظر فى ذلك و يتباطأ عن سرعة السير و البعد عن ديار الظالمين؛ و قيل:

معنى لا يلتفت؛ لا يتخلف وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أى: إلى الجهة التى أمركم اللّه سبحانه بالمضىّ إليها، و هى جهة الشام، و قيل: مصر، و قيل: قرية من قرى لوط، و قيل: أرض الخليل وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ أى:

أوحينا إلى لوط ذلِكَ الْأَمْرَ و هو إهلاك قومه، ثم فسّره بقوله: أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ قال الزّجّاج: موضع أن نصب، و هو بدل من ذلك الأمر، و الدابر هو الآخر، أى: أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح، و انتصاب مُصْبِحِينَ على الحال، أى: حال كونهم داخلين فى وقت الصبح، و مثله:

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: آمِنِينَ قال: أمنوا الموت فلا يموتون و لا يكبرون و لا يسقمون و لا يعرون و لا يجوعون. و أخرج ابن جرير عن علىّ وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ قال: العداوة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن الحسن البصرى قال: قال علىّ بن أبى طالب: فينا و اللّه أهل الجنة نزلت وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ

و أخرج ابن عساكر و ابن مردويه عنه فى الآية قال: نزلت فى ثلاثة أحياء من العرب: فى بنى هاشم، و بنى تيم، و بنى عدىّ، فىّ و فى أبى بكر و عمر. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن كثير النّوّاء. قال: قلت

---

(١). «الكسع»: ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها و يترادّ فى ظهرها فيكون أقوى لها على الجدب فى العام القابل. «الشول»: جمع شائلة، و هى من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخفّ لبنها.

(٢). هود: ٨١.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٦٤

لأبى جعفر: إن فلانا حدثنى عن علىّ بن الحسين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر و عمر و علىّ: وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ قال: و اللّه إنها لفيهم أنزلت؛ و فيمن تنزل إلا فيهم؟ قلت: و أى غلّ هو؟ قال:

غلّ الجاهلية، إن بنى تيم و بنى عدىّ و بنى هاشم كان بينهم فى الجاهلية، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابّوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة «۱»، فجعل علىّ يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبى بكر، فنزلت هذه الآية. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه عن علىّ من طرق أنه قال لابن طلحة: إنى لأرجو أن أكون أنا و أبوك من الذين قال اللّه فيهم وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ الآية، فقال رجل من همدان: اللّه أعدل من ذلك، فصاح علىّ عليه صيحة تداعى لها القصر و قال: فيمن إذن إن لم نكن نحن أولئك. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و الطبرانى و ابن مردويه عن علىّ قال: إنى لأرجو أن أكون أنا و عثمان و الزبير و طلحة فيمن قال اللّه: وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى هذه الآية قال: نزلت فى عشرة: أبى بكر، و عمر، و عثمان، و علىّ، و طلحة، و الزبير، و سعد، و سعيد، و عبد الرحمن بن عوف، و عبد اللّه بن مسعود. و أخرجه ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى صالح موقوفا عليه. و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ قال: لا يرى بعضهم قفا بعض. و أخرجه ابن المنذر و ابن مردويه عن مجاهد عن ابن عباس. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو القاسم البغوى و ابن مردويه و ابن عساكر عن زيد بن أبى أوفى قال: «خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فتلا هذه الآية إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ قال: المتحابّون فى اللّه فى الجنّة ينظر بعضهم إلى بعض». و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ قال: المشقة و الأذى. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: اطلع علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة فقال: «ألا أراكم تضحكون، ثم أدبر حتّى إذا كان عند الحجر رجع القهقرى فقال: إنى لما خرجت جاء جبريل فقال: يا محمد إن اللّه عزّ و جلّ يقول: لم تقنط عبادى؟ نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ . و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مصعب بن ثابت قال: مرّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على ناس من أصحابه يضحكون فقال: «اذكروا الجنة و اذكروا النار، فنزلت نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

و أخرج الطبرانى و البزار و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: مرّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر نحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ اللّه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا و تسعين رحمة، و أرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذى عند اللّه من رحمته لم ييأس من الرحمة، و لو يعلم المؤمن بكل الذى عند اللّه من العذاب لم يأمن من النار».

---

(۱). أى وجع الخاصرة.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۶۵

و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قالُوا لا تَوْجَلْ لا تخف. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مِنَ الْقانِطِينَ قال: الآيسين. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ يعنى الباقين فى عذاب اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قال: أنكرهم لوط، و فى قوله: بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ قال: بعذاب قوم لوط. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ قال: يشكون. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ قال: أمر أن يكون خلف أهله يتبع أدبارهم فى آخرهم إذا مشوا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ قال: أخرجهم اللّه إلى الشام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ قال: أوحيناه إليه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ يعنى: استئصالهم و هلاكهم.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦٧ الى ٧٧]

وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (٦٩) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (٧٠) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٧١)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ أى: أهل مدينة قوم لوط، و هى سدوم كما سبق، و جملة يستبشرون فى محل نصب على الحال، أى: مستبشرون بأضياف لوط طمعا فى ارتكاب الفاحشة منهم ف قالَ لهم لوط إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي و حدّ الضيف لأنه مصدر كما تقدّم، و المراد أضيافى، و سماهم ضيفا لأنه رآهم على هيئة الأضياف، و قومه رأوهم مردا حسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيهم فَلا تَفْضَحُونِ يقال: فضحه يفضحه فضيحة و فضحا؛ إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره، و المعنى: لا تفضحون عندهم بتعرّضكم لهم بالفاحشة فيعلمون أنى عاجز عن حماية من نزل بى، أو لا تفضحون فضيحة ضيفى، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى أمرهم وَ لا تُخْزُونِ يجوز أن تكون من الخزى؛ و هو الذلّ و الهوان، و يجوز أن يكون من الخزاية و هى الحياء و الخجل، و قد تقدّم تفسير ذلك فى هود قالُوا أى: قوم لوط مجيبين له أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ الاستفهام للإنكار، و الواو للعطف على مقدّر، أى: ألم نتقدّم إليك و ننهك عن أن تكلمنا فى شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟ و قيل: نهوه عن ضيافة الناس، و يجوز حمل ما فى الآية على ما هو أعمّ من هذين الأمرين قالَ هؤُلاءِ بَناتِي فتزوّجوهنّ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفى فهؤلاء بناتى تزوّجوهنّ حلالا و لا ترتكبوا الحرام؛ و قيل: أراد بناته نساء قومه؛ لكون النبىّ بمنزلة الأب لقومه، و قد تقدّم تفسير هذا فى هود لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ العمر و العمر بالفتح و الضم واحد، لكنهم خصّوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم، ذكر ذلك

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٦٦

الزجاج. قال القاضى عياض: اتفق أهل التفسير فى هذا أنه قسم من اللّه جلّ جلاله بمدة حياة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و كذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربى فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم اللّه تعالى هاهنا بحياة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم تشريفا له. قال أبو الجوزاء: ما أقسم اللّه سبحانه بحياة أحد غير محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه أكرم البرية عنده. قال ابن العربى: ما الذى يمتنع أن يقسم اللّه سبحانه بحياة لوط و يبلغ به من التشريف ما شاء، و كلّ ما يعطيه اللّه تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه أكرم على اللّه منه، أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة و موسى التكليم، و أعطى ذلك لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم؟ فإذا أقسم اللّه سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع. قال القرطبى: ما قاله حسن، فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كلاما معترضا فى قصة لوط، فإن قيل: قد أقسم اللّه سبحانه بالتين و الزيتون و طور سينين، و نحو ذلك فما فيهما من فضل؟ و أجيب بأنه ما من شى‏ء أقسم اللّه به إلا و فى ذلك دلالة على فضله على جنسه، و ذكر صاحب الكشاف و أتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول، أى: قالت الملائكة للوط لعمرك، ثم قال: و قيل: الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه أقسم بحياته و ما أقسم بحياة أحد قط كرامة له انتهى. و قد كره كثير من العلماء القسم بغير اللّه سبحانه، و جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة فى النهى عن القسم بغير

اللّه، فليس لعباده أن يقسموا بغيره، و هو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «۱»، و قيل: الإقسام منه سبحانه بالتين و الزيتون و طور سينين و النجم و الضحى و الشمس و الليل و نحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به، أي: و خالق التين و كذلك ما بعده، و في قوله: لَعَمْرُكَ أي: و خالق عمرك، و معنى إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ لفي غوايتهم يتحيرون، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة، و الضمير لقريش على أن القسم بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لقوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ العظيمة أو صيحة جبريل حال كونهم مُشْرِقِينَ أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: أشرقت الشمس، أي: أضاءت و شرقت إذا طلعت، و قيل: هما لغتان بمعنى واحد، و أشرق القوم إذا دخلوا في وقت شروق الشمس؛ و قيل: أراد شروق الفجر؛ و قيل: أوّل العذاب كان عند شروق الفجر و امتدّ إلى طلوع الشمس. و الصيحة: العذاب فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها أي: عالي المدينة سافلها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ من طين متحجّر، و قد تقدّم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود إِنَّ فِي ذلِكَ أي: في المذكور من قصّتهم و بيان ما أصابهم لَآياتٍ لعلامات يستدلّ بها لِلْمُتَوَسِّمِينَ للمتفكرين الناظرين في الأمر، و منه قول زهير:

و فيهنّ ملهى للصّديق و منظرأنيق لعين النّاظر المتوسّم

و قال آخر «۲»:

أو كلّما وردت عكاظ قبيلةبعثوا إليّ عريفهم يتوسّم

---

(۱). الأنبياء: ۲۳.

(۲). هو طريف بن تميم العنبري.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۱۶۷

و قال أبو عبيدة: للمتبصرين، و قال ثعلب: الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، و المعنى متقارب.

و أصل التوسّم التثبت و التفكّر، مأخوذ من الوسم و هو التأثير بحديدة في جلد البعير وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ يعني قرى قوم لوط أو مدينتهم على طريق ثابت، و هي الطريق من المدينة إلى الشام؛ فإن السالك في هذه الطريق يمرّ بتلك القرى إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من المدينة أو القرى لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ يعتبرون بها فإنّ المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قال: استبشروا بأضياف نبيّ اللّه لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه في قوله: أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ قال: يقولون أو لم ننهك أن تضيف أحدا أو تؤويه. قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ أمرهم لوط بتزويج النساء، و أراد أن يقي أضيافه ببناته.

و أخرج ابن أبي شيبة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم عن ابن عباس قال: ما خلق اللّه و ما ذرأ و ما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و ما سمعت اللّه أقسم بحياة أحد غيره قال: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ يقول: و حياتك يا محمد و عمرك و بقائك في الدنيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه في قوله: لَعَمْرُكَ قال: لعيشك. و أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: ما حلف اللّه بحياة أحد إلا بحياة محمد قال: لَعَمْرُكَ الآية. و أخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل لعمري، يرونه كقوله و حياتي. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ أي: في ضلالهم يلعبون. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن الأعمش في الآية: لفي غفلتهم يتردّدون.

و أخرج ابن جرير عنه مُشْرِقِينَ قال: حين أشرقت الشمس. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً قال: علامة أما ترى الرجل يرسل خاتمه إلى أهله، فيقول: هاتوا كذا و كذا، فإذا رأوه عرفوا أنه حق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لِلْمُتَوَسِّمِينَ قال: للناظرين. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن قتادة قال: للمعتبرين. و أخرج ابن جريج و ابن المنذر عن مجاهد قال: للمتفرّسين. و أخرج البخارى فى التاريخ، و الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن السنى و أبو نعيم و ابن مردويه و الخطيب عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اتّقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور اللّه، ثم قرأ: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ . و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ يقول:

لبهلاك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: لبطريق مقيم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: لبطريق واضح.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۶۸

[سورة الحجر (۱۵): الآيات ۷۸ الى ۸۶]

وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (۷۸) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (۷۹) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (۸۰) وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۸۱) وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (۸۲)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (۸۳) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۴) وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (۸۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (۸۶)

قوله: وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ إن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن المحذوف، أى:

و إن الشأن كان أصحاب الأيكة. و الأيكة: الغيضة، و هى جماع الشجر، و الجمع: الأيك. و يروى أن شجرهم كان دوما، و هو المقل، فالمعنى: و إن كان أصحاب الشجر المجتمع؛ و قيل: الأيكة اسم القرية التى كانوا فيها. قال أبو عبيدة: الأيكة و ليكة مدينتهم كمكة و بكّة، و أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، و قد تقدّم خبرهم، و اقتصر اللّه سبحانه هنا على وصفهم بالظلم، و قد فصّل ذلك الظلم فيما سبق، و الضمير فى وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ يرجع إلى مدينة قوم لوط، و مكان أصحاب الأيكة أى: و إن المكانين لبطريق واضح، و الإمام اسم لما يؤتمّ به، و من جملة ذلك الطريق التى تسلك. قال الفراء و الزجاج: سمّى الطريق إماما لأنه يؤتمّ و يتبع. و قال ابن قتيبة: لأن المسافر يأتمّ به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده؛ و قيل: الضمير للأيكة و مدين لأن شعيبا كان ينسب إليهما. ثم إنّ اللّه سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ الحجر: اسم لديار ثمود. قاله الأزهرى، و هى ما بين مكة و تبوك. و قال ابن جرير:

هى أرض بين الحجاز و الشام. و قال: المرسلين، و لم يرسل إليهم إلا صالح، لأنّ من كذّب واحدا من الرسل فقد كذب الباقين؛ لكونهم متفقين فى الدعوة إلى اللّه؛ و قيل: كذّبوا صالحا و من تقدّمه من الأنبياء، و قيل:

كذّبوا صالحا و من معه من المؤمنين وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا أى: الآيات المنزلة على نبيهم، و من جملتها الناقة؛ فإن فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة و دنوّ نتاجها عند خروجها و عظمها و كثرة لبنها فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ أى: غير معتبرين، و لهذا عقروا الناقة و خالفوا ما أمرهم به نبيّهم وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً النحت فى كلام العرب: البرى و النجر، نحته ينحته بالكسر نحتا، أى: براه، و فى التنزيل:

أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ «۱» أى: تنجرون، و كانوا يتّخذون لأنفسهم من الجبال بيوتا؛ أى: يخرقونها فى الجبال، و انتصاب آمِنِينَ على

الجر، قال الفراء: آمنين من أن يقع عليهم، و قيل: آمنين من الموت، و قيل: من العذاب، ركونا منهم على قوّتها و وثاقتها فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ أى: داخلين فى وقت الصبح، و قد تقدم ذكر الصيحة فى الأعراف و فى هود، و تقدم أيضا قريبا فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ أى: لم يدفع عنهم شيئا من عذاب اللّه ما كانوا يكسبون من الأموال و الحصون فى الجبال وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِ أى: متلبّسة بالحق، و هو ما فيهما من الفوائد و المصالح، و قيل: المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه و المسيئ بإساءته، كما فى قوله سبحانه: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ*

---

(١). الصافات: ٩٥.

وَ ما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى «١»، و قيل: المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة و كلّ مخلوق زائل وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ و عند إتيانها ينتقم اللّه ممن يستحق العذاب، و يحسن إلى من يستحق الإحسان، و فيه وعيد للعصاة و تهديد، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يصفح عن قومه، فقال: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أى: تجاوز عنهم و اعف عفوا حسنا؛ و قيل: فأعرض عنهم إعراضا جميلا و لا تعجل عليهم، و عاملهم معاملة الصفوح الحليم. قيل: و هذا منسوخ بآية السيف إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ أى: الخالق للخلق جميعا العليم بأحوالهم و بالصالح و الطالح منهم.

و قد أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ مدين و أصحاب الأيكة أمّتان بعث اللّه إليهما شعيبا». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، و الأيكة ذات آجام و شجر كانوا فيها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأيكة الغيضة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: أصحاب الأيكة أهل مدين، و الأيكة: الملتفة من الشجر. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الأيكة: مجمع الشىء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال فى قوله: وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ طريق ظاهر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى أصحاب الحجر قال: أصحاب الوادى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كان أصحاب الحجر: ثمود و قوم صالح. و أخرج البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأصحاب الحجر «٢»: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم». و أخرج ابن مردويه عنه قال: نزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود و عجنوا منها و نصبوا القدور باللحم، فأمرهم بإهراق القدور، و علفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، و نهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذّبوا، فقال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم». و أخرج ابن مردويه عن سبرة بن معبد أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال بالحجر لأصحابه: «من عمل من هذا الماء شيئا فليلقه». قال: و منهم من عجن العجين، و منهم من حاس الحيس. و أخرج ابن مردويه و ابن النجار عن علىّ فى قوله: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ قال: الرضا بغير عتاب. و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد قال: هذه الآية قبل القتال. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة مثله.

---

(١). النجم: ٣١.

(٢). قال فى فتح البارى فى شرح الحديث (٤٤٢٠): اللام فى قوله: لأصحاب الحجر بمعنى: عن، و حذف المقول لهم ليعم كل

سامع، و التقدير: قال لأمته عن أصحاب الحجر، و هم ثمود.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٧٠

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٧ الى ٩٩]

وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)

وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماذا هي؟ فقال جمهور المفسرين: إنها الفاتحة. قال الواحدي و أكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، و هو قول عمر و عليّ و ابن مسعود و الحسن و مجاهد و قتادة و الربيع و الكلبي.

و زاد القرطبي أبا هريرة و أبا العالية، و زاد النيسابوري الضحّاك و سعيد بن جبير. و قد روى ذلك من قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما سيأتي بيانه فتعيّن المصير إليه. و قيل: هي السبع الطوال: البقرة، و آل عمران، و النساء، و المائدة، و الأنعام، و الأعراف. و السابعة الأنفال و التوبة، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روى هذا القول عن ابن عباس. و قيل: المراد بالمثاني السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف، و المثاني جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية. و قال الزجاج: تثنى بما يقرأ بعدها معها. فعلى القول الأوّل يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تثنى، أي: تكرّر في كل صلاة، و على القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية إن العبر و الأحكام و الحدود كررت فيها، و على القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص و نحوها. و قد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحّاك و طاوس و أبو مالك، و هو رواية عن ابن عباس، و استدلوا بقوله تعالى: كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ «١». و قيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن؛ و هي الأمر، و النهي، و التبشير، و الإنذار، و ضرب الأمثال، و تعريف النعم، و أنباء قرون ماضية. قاله زياد ابن أبي مريم، و لا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم، و قد تقرّر أنها المرادة بهذه الآية، فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ معطوف على سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي و يكون من عطف العام على الخاص؛ لأن الفاتحة بعض من القرآن، و كذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنّها بعض من القرآن، و أما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر، كما قيل في قول الشاعر:

إلى الملك القرم و ابن الهمام «٢» ....

و مما يقوّى كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، و أكثر السبع الطوال مدنية، و كذلك أكثر القرآن و أكثر أقسامه، و ظاهر قوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي أنه قد تقدّم إيتاء السبع على

---

(١). الزمر: ٢٣.

(٢). و عجزه: و ليث الكتيبة في المزدحم.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٧١

نزول هـذه الآيـة، و «من» فى من المثانى للتبعيض أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال: هى للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، و للبيان إذا أردت الأسباع. ثم لمّا بيّن لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم ما أنعم به عليه من هـذه النعمة الدينية نفره عن اللذات العاجلة الزائلة فقال: لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ أى: لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها و تمنّ لها، و الأزواج الأصناف، قاله ابن قتيبة. و قال الجوهرى: الأزواج: القرناء. قال الواحدى: إنما يكون مادا عينيه إلى الشىء إذا أدام النظر نحوه، و إدامة النظر إليه تدلّ على استحسانه و تمنيه. و قال بعضهم: معنى الآية لا تحسدنّ أحدا على ما أوتى من الدنيا، و ردّ بأن الحسد منهى عنه مطلقا، و إنما قال فى هـذه السورة لا تمدنّ بغير واو، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما فى سورة طه، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم و أمتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم، فقال: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ حيث لم يؤمنوا و صمّموا على الكفر و العناد؛ و قيل: المعنى: لا تحزن على ما متعوا به فى الدنيا فلك الآخرة، و الأوّل أولى، ثم لما نهاه عن أن يمدّ عينيه إلى أموال الكفار و لا يحزن عليهم.

و كان ذلك يستلزم التهاون بهم و بما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين، فقال: وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ و خفض الجناح كناية عن التواضح و لين الجانب، و منه قوله سبحانه: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِ و قول الكميت:

خفضت لهم منى جناحى مودّةإلى كنف عطفاه أهل و مرحب

و أصله أن الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفا لتواضع الإنسان لأتباعه؛ و يقال: فلان خافض الجناح، أى: وقور ساكن، و الجناحان من ابن آدم جانباه، و منه:

وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ و منه قول الشاعر:

و حسبك فتية لزعيم قوميمدّ على أخى سقم جناحا

وَ قُلْ إِنِّی أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أى: المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب اللّه كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ قيل: المفعول محذوف، أى: مفعول أنزلنا، و التقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عذابا، فيكون المعنى: إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذى أنزلناه عليهم، كقوله تعالى: أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ «۱»، و قيل: إن الكاف زائدة، و التقدير: إنى أنا النذير المبين أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب؛ و قيل: هو متعلّق بقوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ أى: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب و هم المقتسمون، و الأولى أن يتعلّق بقوله: إِنِّی أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ لأنه فى قوّة الأمر بالإنذار. و قد اختلف فى المقتسمين من هم؟ فقال الفراء: هم ستة عشر رجلا، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أنقاب مكة و فجاجها يقولون لمن دخلها: لا تغترّوا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون، و ربما قالوا ساحر، و ربما قالوا شاعر، و ربما قالوا كاهن، فقيل لهم مقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق. و قيل:

---

(۱). فصلت: ۱۳.

إنهم قوم من قريش اقتسموا كتاب اللّه، فجعلوا بعضه شعرا، و بعضه سحرا، و بعضه كهانة، و بعضه أساطير الأوّلين. قاله قتادة، و قيل: هم أهل الكتاب، و سمّوا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء، فيقول بعضهم هذه السورة لى و هذه لك، روى هذا عن ابن عباس. و قيل: إنهم قسموا كتابهم و فرّقوه و بدّدوه و حرّفوه؛ و قيل: المراد قوم صالح تقاسموا على قتله قسموا مقتسمين كما قال تعالى: تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ «۱»، و قيل: تقاسموا أيمانا تحالفوا عليها، قاله الأخفش؛ و قيل: إنهم العاص بن وائل و عتبة و شيبة ابنا ربيعة و أبو جهل بن هشام و النضر بن الحارث و أمية بن خلف و منبه بن الحجاج؛ ذكره الماوردى.

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ جمع عضـة، و أصـلها عضوة فعلـة من عضـى الشاة إذا جعلها أجزاء، فيكون المعنى على هـذا: الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرّقة، بعضه شعر، و بعضه سحر، و بعضه كهانة و نحو ذلک؛ و قيل:

هو مأخوذ من عضـهه إذا بهته، فالمحـذوف منه الهاء لا الواو، و جمعت العضـة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحذف فجعلوا ذلک عوضا عما لحقها من الحـذف؛ و قيل: معنى عضـين: إيمانهم ببعض الكتاب و كفرهم ببعض، و ممّا يؤيـد أن معنى عضين التفريق، قول رؤبة:

و ليس دين اللّه بالعضين «٢» أى: بالمفرّق، و قيل: العضة و العضين فى لغة قريش السحر؛ و هم يقولون للساحر عاضه، و للساحرة عاضهة، و منه قول الشاعر:

أعوذ بربّى من النافثات فى عقد العاضه المعضه

و فى الحديث أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعن العاضهة و المستعضهة، و فسّر بالساحرة و المستسحرة، و المعنى:

أنهم أكثروا البهت على القرآن، و سمّوه سحرا و كـذبا و أساطير الأوّلين، و نظير عضـة فى النقصان شفة، و الأصل شـفهة، و كذلک سنة، و الأصل سنهة، قال الكسائى: العضة الكذب و البهتان، و جمعها عضون. و قال الفراء: إنه مأخوذ من العضاء، و هى شجر يؤذى و يجرح كالشّوک، و يجوز أن يراد بالقرآن التوراة و الإنجيل لكونهما مما يقرأ، و يراد بالمقتسمين هم اليهود و النصارى، أى: جعلوهما أجزاء متفرّقة، و هو أحد الأقوال المتقدّمة فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ أى: لنسألنّ هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة عمّا كانوا يعملون فى الدنيا من الأعمال التى يحاسبون عليها و يسألون عنها؛ و قيل: إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد، و العموم فى عمّا كانوا يعملون، يفيد ما هو أوسع من ذلک؛ و قيل: إن المسؤولين هاهنا هم جميع المؤمنين و العصاة و الكفار، و يدلّ عليه قوله: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ «٣»، و قوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ «٤»، و قوله: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ- ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ «٥»، و يمكن أن يقال: إن قصر هذا السؤال على المذكورين فى السياق و صرف العموم إليهم لا ينافى سؤال غيرهم فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ قال الزجّاج: يقول أظهر ما

---

(١). النمل: ٤٩.

(٢). فى تفسير القرطبى (١٠/ ٥٩): بالمعضّى.

(٣). التكاثر: ٨.

(٤). الصافات: ٢٤.

(٥). الغاشية: ٢٥ و ٢٦.

تؤمر به، أخذ من الصديع و هو الصبح انتهى. و أصل الصّدع الفرق و الشق، يقال: صدعته فانصدع؛ أى:

انشق، و تصدّع القوم، أى: تفرّقوا، و منه: يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ «١» أى: يتفرّقون. قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر؛ أى: أظهر دينک فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر، و قال ابن الأعرابى: معنى اصدع بما تؤمر؛ أى: اقصد؛ و قيل: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ أى: فرق جمعهم و كلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرّقون، و الأولى أن الصدع الإظهار، كما قاله الزجّاج و الفراء و غيرهم. قال النحويون: المعنى بما تؤمر به من الشرائع، و جوّزوا أن تكون مصدرية، أى: بأمرک و شأنک. قال الواحدى: قال المفسرون: أى: اجهر بالأمر. أى: بأمرک بعد إظهار الدعوة، و ما زال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض و عدم الالتفات إلى المشركين، فقال: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أى: لا تبال بهم و لا تلتفت إليهم إذا

لاموک على إظهار الدعوة، ثم أکّد هذا الأمر و ثبّت قلب رسوله بقوله:

إِنَّا كَفَيْنـاكَ الْمُسْـتَهْزِئِينَ مع کونهم کـانوا من أکابر الکفار، و أهل الشوکـة فيهم، فإذا کفاه اللّه أمرهم بقمعهم و تـدميرهم کفاه أمر من هو دونهم بالأولى، و هؤلاء المستهزئون کانوا خمسة من رؤساء أهل مکة:

الوليد بن المغيرة، و العاص بن وائل، و الأسود بن المطلب بن الحارث بن زمعة، و الأسود بن عبد يغوث، و الحارث بن الطلاطلة. کذا قال القرطبى و وافقه غيره من المفسرين. و قد أهلکهم اللّه جميعا، و کفاه أمرهم فى يوم واحد، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشـرک فقال: الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فلم يکن ذنبهم مجرّد الاستهزاء، بل لهم ذنب آخر و هو الشرک باللّه سبحانه، ثم توعـدهم فقـال: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ کيف عاقبتهم فى الآخرة و ما يصيبهم من عقوبـة اللّه سبحانه، ثم ذکر تسليـة أخرى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعـد التسلية الأولى بکفايته شرهم و دفعه لمکرهم فقال: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِـيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ من الأقوال الکفرية المتضـمنة للطعن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالسحر و الجنون و الکهان و الکذب، و قد کان يحصل ذلک مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمقتضى الجبلة البشرية و المزاج الإنسانى، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لکشف ما نابه من ضيق الصـدر إلى تسبيـح اللّه سبحانه و حمـده فقال: فَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أى: متلبّسا بحمده؛ أى: افعل التسبيح المتلبس بالحمد وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أى: المصلّين، فإنک إذا فعلت ذلک کشف اللّه همک و أذهب غمک و شرح صدرک، ثم أمره بعبادة ربه، أى: بالدوام عليها إلى غاية هى قوله حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أى: الموت.

قال الواحدى. قال جماعة المفسـرين: يعنى الموت لأنه موقن به. قال الزّجّاج: المعنى اعبد ربک أبدا؛ لأنه لو قيل اعبد ربک بغير توقيت لجاز إذا عبد الإنسان مرّة أن يکون مطيعا، فإذا قال حتى يأتيک اليقين، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبدا ما دام حيا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عمر فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي قال: السبع المثانى فاتحة الکتاب. و أخرجه سعيـد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الدارقطنى و ابن مردويه و البيهقى من طرق عن علىّ بمثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود مثله و زاد: و القرآن العظيم

---

(۱). الروم: ۴۳.

سـائر القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و الطبرانى، و الحـاکم و صـحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عبـاس فى الآية قال: فاتحـة الکتاب استثناها اللّه لأمـة محمد، فرفعها فى أمّ الکتاب فادّخرها لهم حتى أخرجها و لم يعطها أحد قبل؛ و قيل: فأين الآية السابعة؟ قال: بسم اللّه الرحمن الرحيم. و روى عنه نحو هذا من طرق. و أخرج ابن الضّـريس و أبو الشـيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: السـبع المثانى فاتحـة الکتاب. و أخرج ابن جرير عن أبىّ بن کعب قال: السبع المثانى الحمـد للّه رب العالمين. و روى نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين.

و قد ثبت فى صـحيح البخارى من حديث أبى سـعيد بن المعلى أنه قال له النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أعلّمک أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليخرج فذکرته، فقال: الحمد للّه رب العالمين هى السبع المثانى و القرآن العظيم».

و أخرج البخارى أيضا من حـديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «أمّ القرآن هى السـبع المثانى و القرآن العظيم» فوجب بهـذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الکتاب، و لکن تسـميتها بذلک لا ينافى تسـمية غيرها به کما قدّمنا. و أخرج الفريابى و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاکم و صـحّحه، و ابن مردويه و البيهقى

عن ابن عباس قال فی الآیة: هی السبع الطوال. و أخرج الدارمی و ابن مردویه عن أبیّ بن کعب مثله. و روی نحو ذلک عن جماعة من التابعین. و أخرج ابن مردویه من طریق سعید ابن جبیر عن ابن عباس قال: هی فاتحة الکتاب و السبع الطوال. و أخرج ابن جریر عنه فی الآیة قال: ما ثنی من القرآن، ألم تسمع لقول اللّه: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ «۱». و أخرج ابن جریر عن الضحّاک قال: المثانی القرآن یذکر اللّه القصة الواحدة مرارا. و أخرج سعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البیهقی عن زیاد بن أبی مریم فی الآیة قال: أعطیتک سبعة أجزاء. مر، و انه، و بشّر، و أنذر، و اضرب الأمثال، و اعدد النعم، و اتل نبأ القرآن.

و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: لا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ قال: نهی الرجل أن یتمنّی مال صاحبه. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: أَزْواجاً مِنْهُمْ قال: الأغنیاء، و الأمثال، و الأشباه. و أخرج ابن المنذر عن سفیان بن عیینة قال: من أعطی القرآن فمدّ عینه إلی شیء منها فقد صغر القرآن أی: فقد خالف القرآن، ألم یسمع إلی قوله: وَ لَقَدْ آتَیْناکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِی و إلی قوله: وَ رِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ أَبْقی و قد فسّر ابن عیینة أیضا الحدیث الصحیح: «لیس منا من لم یتغنّ بالقرآن» فقال:

إن المعنی یستغنی به.

و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر فی قوله: وَ اخْفِضْ جَناحَکَ قال: اخضع. و أخرج الفریابی و سعید بن منصور و البخاری و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الحاکم و ابن مردویه من طرق عن ابن عباس فی قوله: کَما أَنْزَلْنا عَلَی الْمُقْتَسِمِینَ الآیة قال: هم أهل الکتاب جزّءوه أجزاء فآمنوا ببعضه و کفروا

---

(۱). الزمر: ۲۳.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۱۷۵

ببعضه. و أخرج ابن جریر من طریق علیّ بن أبی طلحة عنه قال: عضین: فرقا. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبی حاتم و أبو نعیم و البیهقی عن ابن عباس أنها نزلت فی نفر من قریش کانوا یصدّون الناس عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم منهم الولید بن المغیرة. و أخرج الترمذی و أبو یعلی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أنس عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله: فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ قال: «عن قول لا إله إلا اللّه». و أخرجه ابن أبی شیبة و الترمذی و ابن جریر و ابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفا. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم من طریق علیّ بن أبی طلحة عن ابن عباس فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ فامضه، و فی علیّ بن أبی طلحة مقال معروف. و أخرج ابن جریر عن أبی عبیدة بن عبد اللّه بن مسعود قال: ما زال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم مستخفیا حتی نزل فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ فخرج هو و أصحابه.

و أخرج ابن إسحاق و ابن جریر عن ابن عباس فی الآیة قال: هذا أمر من اللّه لنبیه بتبلیغ رسالته قومه و جمیع من أرسل إلیه. و أخرج ابن المنذر عنه فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ قال: أعلن بما تؤمر. و أخرج أبو داود فی ناسخه، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ قال: نسخه قوله تعالی: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ «۱».

و أخرج الطبرانی فی الأوسط و ابن مردویه و أبو نعیم، و الضیاء فی المختارة، عن ابن عباس فی قوله: إِنَّا کَفَیْناکَ الْمُسْتَهْزِئِینَ قال: المستهزئون: الولید بن المغیرة، و الأسود بن عبد یغوث، و الأسود بن المطلب، و الحارث بن عیطل السهمی، و العاص بن وائل، و ذکر قصة هلاکهم. و قد روی هذا عن جماعة من الصّحابة مع زیادة فی عددهم و نقص علی طول فی ذلک. و أخرج

سعید بن منصور و ابن المنذر، و الحاکم فی التّاریخ، و ابن مردویه و الدیلمی عن أبی مسلم الخولانی قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «ما أوحی إلیّ أن أجمع المال و أکن من التّاجرین، و لکن أوحی إلیّ أن سبّح بحمد ربک و کن من السّاجدین، و اعبد ربّک حتی یأتیک الیقین». و أخرج ابن مردویه عن ابن مسعود مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردویه و الدیلمی عن أبی الدرداء مرفوعا نحوه. و أخرج الخطیب فی المتفق و المفترق من طریق عبید اللّه بن أبان بن عثمان بن حذیفة بن أوس الطائفی قال: حدّثنی أبان بن عثمان عن أبیه عن جدّه یرفعه مثل حدیث أبی مسلم الخولانی. و أخرج ابن أبی شیبة عن سالم بن عبد اللّه بن عمر حَتَّی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ قال الموت. و أخرج ابن المبارک عن الحسن مثله.

و أخرج ابن جریر عن ابن زید مثله.

---

(۱). التوبة: ۵.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۱۷۶

سورة النّحل

اشارة

و هی مکیة کلّها فی قول الحسن و عکرمة و عطاء و جابر، و رواه ابن مردویه عن ابن عباس و عن أبی الزبیر.

و أخرج النّحاس من طریق مجاهد عن ابن عباس قال: سورة النحل نزلت بمکة سوی ثلاث آیات من آخرها فإنهن نزلن بین مکة و المدینة فی منصرف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من أحد، و قیل: و هی قوله: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ «۱» الآیة، و قوله: وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُکَ إِلَّا بِاللَّهِ «۲» فی شأن التّمثیل بحمزة و قتلی أحد، و قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا «۳» الآیة، و قیل: الثالثة: وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِیلًا إلی قوله: بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ «۴» و تسمّی هذه السورة سورة النّعم؛ بسبب ما عدّد اللّه فیها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة النحل (۱۶): الآیات ۱ الی ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

أَتی أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ (۱) یُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (۲) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ (۳) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ (۴) وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَکُمْ فِیها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْکُلُونَ (۵) وَ لَکُمْ فِیها جَمالٌ حِینَ تُرِیحُونَ وَ حِینَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقالَکُمْ إِلی بَلَدٍ لَمْ تَکُونُوا بالِغِیهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۷) وَ الْخَیْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِیرَ لِتَرْکَبُوها وَ زِینَةً وَ یَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (۸) وَ عَلَی اللَّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداکُمْ أَجْمَعِینَ (۹)

قوله: أَتی أَمْرُ اللَّهِ أی: عقابه للمشرکین، و قال جماعة من المفسّرین: القیامة. قال الزجّاج:

هو ما وعدهم به من المجازاة علی کفرهم، و عبّر عن المستقبل بلفظ الماضی تنبیها علی تحقّق وقوعه؛ و قیل:

إن المراد بأمر اللّه حکمه بذلک، و قد وقع و أتی، فأما المحکوم به فإنه لم یقع؛ لأنه سبحانه حکم بوقوعه فی وقت معین، فقبل

مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود؛ و قيل: إن المراد بإتيانه إتيان مباديه و مقدّماته فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ نهاهم عن استعجاله، أى: فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت، و قد كان المشركون يستعجلون عذاب اللّه كما قال النّضر بن الحارث: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «٥» الآية، و المعنى:

قرب أمر اللّه فلا تستعجلوه، و قد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة،

---

(١). النحل: ١٢۶.

(٢). النحل: ١٢٧.

(٣). النحل: ١١٠.

(۴). النحل: ٩۵ و ٩۶.

(۵). الأنفال: ٣٢.

و فى نهيهم عن الاستعجال تهكّم بهم سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: تنزّه و ترفّع عن إشراكهم، أو عن أن يكون له شريك، و شركهم هاهنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب، أو قيام الساعة استهزاء و تكذيبا، فإنّه يتضمّن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك، و أنه عاجز عنه و العجز و عدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق، فكان ذلك شركا يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ قرأ المفضّل عن عاصم: تنزّل الملائكة، و الأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. و قرأ الأعمش تنزّل على البناء للمفعول، و قرأ الجعفيّ عن أبى بكر عن عاصم «ننزّل» بالنون، و الفاعل هو اللّه سبحانه. و قرأ الباقون «ينزّل الملائكة» بالياء التحتية، إلا أن ابن كثير و أبا عمرو يسكنان النون، و الفاعل هو اللّه سبحانه؛ و وجه اتّصال هذه الجملة بما قبلها أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما أخبرهم عن اللّه أنه قد قرب أمره، و نهاهم عن الاستعجال تردّدوا فى الطريق التى علم بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك، فأخبر أنه علم بها بالوحى على ألسن رسل اللّه سبحانه من ملائكته، و الروح: الوحى، و مثله: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ «١» و سمّى الوحى روحا لأنه يحيى قلوب المؤمنين، فإن من جملة الوحى القرآن، و هو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد؛ و قيل:

المراد أرواح الخلائق؛ و قيل: الروح الرحمة، و قيل: الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح.

قال الزجّاج: الروح ما كان فيه من اللّه حياة بالإرشاد إلى أمره. و قال أبو عبيد: الروح هنا جبريل، و تكون الباء على هذا بمعنى مع، «و من» فى «من أمره» بيانية، أى: بأشياء أو مبتدأ من أمره أو صفة للروح، أو متعلّق بينزل، و معنى عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ على من اختصّه بذلك، و هم الأنبياء أَنْ أَنْذِرُوا قال الزجّاج: «أَنْ أَنْذِرُوا» بدل من الروح، أى: ينزلهم بأن أنذروا، و أن إما مفسرة لأن تنزل الوحى فيه معنى القول، و إما مخففة من الثقيلة و ضمير الشأن مقدّر، أى: بأن الشأن أقول لكم أنذروا، أى: أعلموا الناس أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا أى: مروهم بتوحيدى و أعلموهم ذلك مع تخويفهم؛ لأن فى الإنذار تخويفا و تهديدا، و الضمير فى أنه للشأن فَاتَّقُونِ الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات، و هو تحذير لهم من الشرك باللّه، ثم إنّ اللّه سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: أوجدهما على هذه الصفة التى هما عليها بالحق؛ أى: للدلالة على قدرته و وحدانيته؛ و قيل: المراد بالحق هنا الفناء و الزوال تَعالى اللّه عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: ترفّع و تقدّس عن إشراكهم أو عن شركة الذى يجعلونه شريكا له. ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدّمه و خصّه بالذكر، فقال: خَلَقَ الْإِنْسانَ و هو اسم لجنس هذا النوع مِنْ نُطْفَةٍ من جماد يخرج من حيوان، و هو المنىّ «٢»، فنقله أطوارا إلى أن كملت صورته، و

نفخ فيه الروح و أخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش

---

(۱). غافر: ۱۵.

(۲). المنىّ: هو مجموع المواد المفرزة من الجهاز التناسلى الذكرى أثناء الدفق من القضيب، و يشمل: النطاف من الخصية و مفرزات الغدد الجنسية اللاحقة، و يحتوى كل ۱ سم ۳ منه على (۵۰- ۳۵۰) مليون نطفة، و عدد المتحركة فيها: (۶۰- ۷۵) و النطاف المتوسطة الحركة (۱۵) و غير المتحركة (۱۰)

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۷۸

فيها فَإِذا هُوَ بعد خلقه على هذه الصفة خَصِيمٌ أى: كثير الخصومة و المجادلة، و المعنى: أنه كالمخاصم للّه سبحانه فى قدرته، و معنى مُبِينٌ ظاهر الخصومة واضحها، و قيل: يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل، و المبين هو المفصح عمّا فى ضميره بمنطقه، و مثله قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ «۱»، عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها، فقال: وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ و هى الإبل و البقر و الغنم، و أكثر ما يقال نعم و أنعام للإبل، و يقال للمجموع، و لا يقال للغنم مفردة، و منه قول حسّان:

و كانت لا يزال بها أنيسخلال مروجها نعم و شاء

فعطف الشاء على النعم، و هى هنا الإبل خاصة. قال الجوهرى: و النّعم واحد الأنعام، و أكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبنى آدم بين المنفعة التى فيها لهم فقال: فِيها دِفْءٌ الدفء: السخانة، و هو ما استدفئ به من أصوافها و أوبارها و أشعارها، و الجملة فى محلّ النصب على الحال وَ مَنافِعُ معطوف على دفء، و هى درّها و ركوبها و نتاجها و الحراثة بها و نحو ذلك. و قد قيل: إن الدفء: النتاج و اللبن. قال فى الصّحاح: الدفء نتاج الإبل و ألبانها و ما ينتفع به منها، ثم قال: و الدفء أيضا السّخونة، و على هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأوّل، فلا بدّ من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها، و إن حمل على المعنى الثانى كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحا؛ و قيل: المراد بالمنافع النتاج خاصة؛ و قيل: الركوب وَ مِنْها تَأْكُلُونَ أى: من لحومها و شحومها؛ و خصّ هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها؛ و قيل: خصّها لأن الانتفاع بلحمها و شحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التى فيها، و تقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، و غيره نادر وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ أى: لكم فيها مع ما تقدّم ذكره جمال، و الجمال: ما يتجمّل به و يتزين، و الجمال: الحسن، و المعنى هنا: لكم فيها تجمل و تزين عند الناظرين إليها حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ أى: فى هذين الوقتين، و هما وقت ردّها من مراعيها، و وقت تسريحها إليها، فالرواح رجوعها بالعشىّ من المراعى؛ و السراح: مسيرها إلى مراعيها بالغداة، يقال: سرحت الإبل أسرحها سرحا و سروحا؛ إذا غدوت بها إلى المرعى، و قدّم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل، و ذواتها أحسن لكونها فى تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل و الشرب، فعظمت بطونها و انتفخت ضروعها، و خصّ هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها لأنها عند استقرارها فى الحظائر لا يراها أحد، و عند كونها فى مراعيها هى متفرّقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى فى جانب وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ الأثقال: جمع ثقل، و هو متاع المسافر من طعام و غيره، و سمّى ثقلا لأنه يثقل الإنسان حمله؛ و قيل: المراد أبدانهم إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ أى: لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلا بشق الأنفس لبعده عنكم، و عدم وجود ما يحمل ما لا بدّ لكم منه فى السفر. و ظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين؛ و قيل: المراد بالبلد مكة،

---

(١). يس: ٧٧.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٧٩

و قيل: اليمن و مصر و الشام لأنها متاجر العرب، و شق الأنفس: مشقتها. قرأ الجمهور بكسر الشين، و قرأ أبو جعفر بفتحها. قال الجوهرى: و الشق: المشقة، و منه قوله: لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ و حكى أبو عبيدة بفتح الشين، و هما بمعنى؛ و يجوز أن يكون المفتوح مصدرا من شققت عليه أشقّ شقّا، و المكسور بمعنى النصف، يقال: أخذت شقّ الشاة و شقّة الشاة، و يكون المعنى على هذا فى الآية: لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب، و قد امتنّ اللّه سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم، ثم خصّ الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر و الغنم، و الاستثناء من أعمّ العام، أى: لم تكونوا بالغيه بشىء من الأشياء إلا بشقّ الأنفس وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ بالنصب عطفا على الأنعام؛ أى:

و خلق لكم هذه الثلاثة الأصناف، و قرأ ابن أبى عبلة بالرفع فيها كلها؛ و سميت الخيل خيلا لاختيالها فى مشيها، و واحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن، و قيل: لا واحد له. ثم علّل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله: لِتَرْكَبُوها و هذه العلة هى باعتبار معظم منافعها لأن الانتفاع بها فى غير الركوب معلوم كالتحميل عليها وَ عطف زِينَةً على محل لِتَرْكَبُوها لأنه فى محل نصب على أنه علة لخلقها و لم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها؛ لأن الركوب فعل المخاطبين، و الزينة فعل الزائن و هو الخالق، و التحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر فى المقصود، بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب، فكأنه سبحانه قال: خلقتها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء و المشقة، و أما التزين بها فهو حاصل فى نفس الأمر و لكنه غير مقصود بالذات. و قد استدلّ بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب يدلّ على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها. قالوا: و يؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر و إخراجها عن الأنعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الأكل. قالوا: و لو كان أكل الخيل جائزا لكان ذكره و الامتنان به أولى من ذكر الركوب، لأنه أعظم فائدة منه، و قد ذهب إلى هذا مالك و أبو حنيفة و أصحابهما و الأوزاعى و مجاهد و أبو عبيد و غيرهم. و ذهب الجمهور من الفقهاء و المحدّثين و غيرهم إلى حلّ لحوم الخيل، و لا حجة لأهل القول الأوّل فى التعليل: لِتَرْكَبُوها لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافى غيره، و لا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر و يكون ذكره أقدم من ذكر الركوب، و أيضا لو كانت هذه الآية تدلّ على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية، و حينئذ لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خيبر، و قد قدّمنا أن هذه السورة مكية. و الحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حلّ أكل لحوم الخيل، فلو سلمنا أن فى هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، و دافعة لهذا الاستدلال، و قد أوضحنا هذه المسألة فى مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ أى: يخلق ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدّده هاهنا؛ و قيل: المراد من أنواع الحشرات و الهوامّ فى أسافل الأرض، و فى البحر ممّا لم يره البشر و لم يسمعوا به؛ و قيل: هو ما أعدّ اللّه لعباده فى الجنة و فى النار ممّا لم تره عين، و لم تسمع به أذن، و لا خطر على قلب بشر؛ و قيل: هو خلق السوس فى النبات و الدود فى الفواكه؛ و قيل: عين تحت العرش؛ و قيل: نهر من النور؛ و قيل: أرض بيضاء، و لا

فتح القدير، ج٣، ص: ١٨٠

وجه للاقتصار فى تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع، بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد، فيشمل كل شىء لا يحيط علمهم به، و التعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة؛ لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ القصد مصدر بمعنى الفاعل، فالمعنى و على اللّه قاصد السّبيل؛ أى: هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم و تفضله الواسع؛ و قيل: هو على حذف مضاف، و التقدير: و على اللّه بيان قصد السبيل، و السبيل: الإسلام، و بيانه بإرسال الرسل و

إقامة الحجج و البراهين، و القصد فى السبيل هو كونه موصلا إلى المطلوب، فالمعنى: و على اللّه بيان الطريق الموصل إلى المطلوب وَ مِنْها جائِرٌ الضمير فى «منها» راجع إلى السبيل بمعنى الطريق، لأنها تذكر و تؤنث؛ و قيل: راجع إليها بتقدير مضاف، أى: و من جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل منه، فلا يهتدى به، و منه قول امرئ القيس:

و من الطريقة جائر و هدىقصد السبيل منه ذو دخل «١»

و قيل: إن الطريق كناية عن صاحبها، و المعنى: و منهم جائر عن سبيل الحق؛ أى: عادل عنه، فلا يهتدى إليه قيل و هم أهل الأهواء المختلفة، و قيل: أهل الملل الكفرية، و فى مصحف عبد اللّه: «و منكم جائر» و كذا قرأ علىّ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ أى: و لو شاء أن يهديكم جميعا إلى الطريق الصحيح، و المنهج الحق لفعل ذلك، و لكنه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق و الدلالة عليها: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ و أما الإيصال إليها بالفعل فذلك يستلزم أن لا يوجد فى العباد كافر، و لا من يستحق النار من المسلمين، و قد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمنا و البعض كافرا، كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزل أَتى أَمْرُ اللَّهِ ذعر أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزلت فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ فسكنوا». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن حفص قال: «لما نزلت أَتى أَمْرُ اللَّهِ قاموا، فنزلت فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .

و أخرج ابن مردويه من طريق الضحّاك عن ابن عباس أَتى أَمْرُ اللَّهِ قال: خروج محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج قال: «لما نزلت هذه الآية أَتى أَمْرُ اللَّهِ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن أمر اللّه أتى، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شىء قالوا: ما نراه نزل شىء، فنزلت: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ «٢»، فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضا، فلما رأوا أنه لا ينزل شىء قالوا: ما نراه نزل شىء، فنزلت: وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ الآية» «٣». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى قوله: أَتى أَمْرُ اللَّهِ قال: الأحكام و الحدود و الفرائض. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ قال:

بالوحى. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و البيهقى عنه قال الروح: أمر من أمر اللّه و خلق من خلق اللّه، و صورهم على صورة بنى آدم، و ما ينزل من السماء

---

(١). «دخل»: أى: فساد.

(٢). الأنبياء: ١.

(٣). هود: ٨.

ملك إلا و معه واحد من الروح، ثم تلا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا «١». و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ قال: القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَكُمْ فِيها دِفْءٌ قال: الثياب وَ مَنافِعُ قال: ما تنتفعون به من الأطعمة و الأشربة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: نسل كل دابة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ يعنى مكة لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ قال: لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد.

و قد ورد فى حلّ أكل لحوم الخيل أحاديث منها فى الصحيحين و غيرهما من حديث أسماء قالت: «نحرنا فرسا على عهد رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأكلناه». و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن جابر قال: «أطعمنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لحوم الخيل، و نهانا عن لحوم الحمر الأهلية». و أخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا، و هما على شرط مسلم. و ثبت أيضا فى الصحيحين من حديث جابر قال: «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن لحوم الحمر الأهلية و أذن فى الخيل». و أما ما أخرجه أبو عبيد و أبو داود و النسائى من حديث خالد بن الوليد قال: «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أكل كل ذى ناب من السباع، و عن لحوم الخيل و البغال و الحمير». ففى إسناده صالح بن يحيى بن أبى المقدام و فيه مقال. و لو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحلّ على أنه يكون أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر فيكون منسوخا. و أخرج الخطيب و ابن عساكر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله:

وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ قال: البراذين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إنّ ممّا خلق اللّه أرضا من لؤلؤة بيضاء». ثم ساق من أوصافها ما يدلّ على أن الحديث موضوع، ثم قال فى آخره: «فذلك قوله وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ . و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ يقول: على اللّه أن يبيّن الهدى و الضلالة وَ مِنْها جائِرٌ قال: من السبل ناكب عن الحق، قال: و فى قراءة ابن مسعود «و منكم جائر». و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن علىّ أنه كان يقرأ هذه الآية: «و منكم جائر».

---

(۱). النبأ: ۳۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۸۲

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۰ الى ۱۹]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (۱۰) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۲) وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۳) وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۴) وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸) وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۱۹)

لما استدل سبحانه على وجوده و كمال قدرته و بديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ أى: من جهة السماء، و هى السحاب ماءً أى: نوعا من أنواع الماء، و هو المطر لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ يجوز أن يتعلّق لكم بأنزل أو هو خبر مقدّم، و شراب مبتدأ مؤخر، و الجملة صفة لماء وَ مِنْهُ فى محل نصب على الحال، و الشارب اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم، و المعنى: أن الماء النازل من السماء قسمان: قسم يشربه الناس، و من جملته ماء الآبار و العيون، فإنه من المطر لقوله: فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ و قسم يحصل منه شجر ترعاه المواشى. قال الزجاج: كلّ ما ينبت من الأرض فهو شجر؛ لأن التركيب يدل على الاختلاط، و منه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض، و معنى الاختلاط حاصل فى العشب و الكلأ و فيما له ساق. و قال ابن قتيبة: المراد من الشجر فى الآية الكلأ، و قيل: الشجر كل ما له

ساق كقوله تعالى: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ «١» و العطف يقتضى التغاير، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ما له ساق، و أجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز فِيهِ تُسِيمُونَ أى: فى الشجر ترعون مواشيكم، يقال:
سامت السائمة تسوم سوما: رعت: فهى سائمة، و أسمتها، أى: أخرجتها إلى الرّعى فأنا مسيم، و هى مسامة و سائمة، و أصل السّوم الإبعاد فى المرعى. قال الزجاج: أخذ من السّومة و هى العلامة، لأنها تؤثر فى الأرض علامات برعيها يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ قرأ أبو بكر عن عاصم «ننبت» بالنون، و قرأ الباقون بالياء التحتية؛ أى: ينبت اللّه لكم بذلك الماء الذى أنزله من السماء، و قدّم الزرع لأنه أصل الأغذية التى يعيش بها الناس، و أتبعه بالزيتون لكونه فاكهة من وجه و إداما من وجه لكثرة ما فيه من الدّهن، و هو جمع زيتونة، و يقال للشجرة نفسها زيتونة؛ ثم ذكر النخيل لكونه غذاء و فاكهة و هو مع العنب أشرف الفواكه، و جمع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المختلفة، ثم أشار إلى سائر الثمرات فقال: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كما أجمل الحيوانات التى لم يذكرها فيما سبق بقوله: وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ و قرأ أبىّ ابن كعب «ينبت لكم به الزرع» برفع الزرع و ما بعده إِنَّ فِي ذلِكَ أى: الإنزال و الإنبات لَآيَةً عظيمة دالة على كمال القدرة و التفرّد بالربوبية لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى مخلوقات اللّه و لا يهملون النظر فى مصنوعاته وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم و تستدعيه حاجاتهم، يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به و لا يخرج عن إرادته و لا يهمل السعى فى نفعه، و كذا الكلام فى تسخير الشمس و القمر و النجوم، فإنها تجرى على نمط متّحد يستدل

---

(١). الرحمن: ٦.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ١٨٣

بها العباد على مقادير الأوقات، و يهتدون بها و يعرفون أجزاء الزمان؛ و معنى مسخرات مذلّلات. و قرأ ابن عامر و أهل الشام وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بالرفع على الابتداء و الخبر. و قرأ الباقون بالنصب عطفا على الليل و النهار، و قرأ حفص عن عاصم برفع النجوم على أنه مبتدأ و خبره: مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ و على قراءة النصب فى مسخرات يكون حالا مؤكدة؛ لأن التسخير قد فهم من قوله: «وَ سَخَّرَ»؛ و قرأ حفص فى رواية برفع مسخرات مع نصب ما قبله على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هى مسخرات إِنَّ فِي ذلِكَ التسخير لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أى: يعملون عقولهم فى هذه الآثار الدالة على وجود الصانع و تفرّده و عدم وجود شريك له، و ذكر الآيات لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، و أبين شهادة للكبرياء و العظمة، و جمعها ليطابق قوله مسخرات؛ و قيل: إن وجه الجمع هو أن كلا من تسخير الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم آية فى نفسها بخلاف ما تقدّم من الإنبات فإنه آية واحدة، و لا يخلو كل هذا عن تكلّف؛ و الأولى أن يقال: إن هذه المواضع الثلاثة التى أفرد الآية فى بعضها و جمعها فى بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار و للإفراد باعتبار، فلم يجرها على طريقة واحدة افتنانا و تنبيها على جواز الأمرين و حسن كل واحد منهما وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ أى: خلق، يقال: ذرأ اللّه الخلق يذرؤهم ذرءا: خلقهم، فهو ذارئ، و منه الذّرية، و هى نسل الثقلين، و قد تقدّم تحقيق هذا، و هو معطوف على النجوم رفعا و نصبا، أى: و سخر لكم ما ذرأ فى الأرض. فالمعنى: أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية و المخلوقات الأرضية، و انتصاب مختلفا ألوانه على الحال، و ألوانه: هيئاته و مناظره، فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان و الأشكال مع تساوى الكلّ فى الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه و تفرّده إِنَّ فِي ذلِكَ التسخير لهذه الأمور لَآيَةً واضحة لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ فإن من تذكّر اعتبر، و من اعتبر استدلّ على المطلوب؛ و قيل: و إنما خصّ المقام الأوّل بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة المذكورة؛ و خصّ المقام الثانى بالعقل لذكره بعد إماطة الشبه و إزاحة العلة، فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له؛ و خصّ المقام الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة،

فمن شک بعد ذلک فلا حسّ له، و فی هذا من التکلّف ما لا یخفی. و الأولی أن یقال هنا کما قلنا فیما تقدّم فی إفراد الآیة فی البعض و جمعها فی البعض الآخر، و بیانه أن کلا من هذه المواضع الثلاثة یصلح لذکر التفکر و لذکر التعقل و لذکر التذکر لاعتبارات ظاهرة غیر خفیة، فکان فی التعبیر فی کلّ موضع بواحد منها افتنان حسن لا یوجد فی التعبیر بواحد منها فی جمیع المواضع الثلاثة وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ امتنّ اللّه سبحانه بتسخیر البحر بإمکان الرکوب علیه و استخراج ما فیه من صید و جواهر؛ لکونه من جملة النعم التی أنعم اللّه بها علی عباده مع ما فیه من الدلالة علی وحدانیة الربّ سبحانه و کمال قدرته، و قد جمع اللّه سبحانه لعباده فی هذا المقام بین التذکیر لهم بآیاته الأرضیة و السماویة و البحریة، فأرشدهم إلی النظر و الاستدلال بالآیات المتنوّعة المختلفة الأمکنة إتماما للحجة، و تکمیلا للإنذار، و توضیحا لمنازع الاستدلال و مناطات البرهان، و مواضع النظر و الاعتبار؛ ثم ذکر العلّة فی تسخیر البحر فقال: لِتَأْکُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِیًّا المراد به السمک، و وصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، و الإرشاد إلی المسارعة بأکله لکونه مما یفسد بسرعة

فتح القدیر، ج۳، ص: ۱۸۴

وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْیَةً تَلْبَسُونَها أی: لؤلؤا و مرجانا کما فی قوله سبحانه: یَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ و ظاهر قوله: تَلْبَسُونَها أنه یجوز للرجال أن یلبسوا اللؤلؤ و المرجان؛ أی: یجعلونه حلیة لهم کما یجوز للنساء، و لا حاجة لما تکلفه جماعة من المفسرین فی تأویل قوله: تَلْبَسُونَها بقوله تلبسه نساؤهم، لأنهنّ من جملتهم، أو لکونهنّ یلبسها لأجلهم، و لیس فی الشریعة المطهرة ما یقتضی منع الرجال من التحلی باللؤلؤ و المرجان ما لم یستعمله علی صفة لا یستعمله علیها إلا النساء خاصة، فإن ذلک ممنوع من جهة کونه تشبها بهنّ، و قد ورد الشرع بمنعه لا من جهة کونه حلیة لؤلؤ أو مرجان وَ تَرَی الْفُلْکَ مَواخِرَ فِیهِ أی: تری السفن شواقّ للماء تدفعه بصدرها. و مخر السفینة: شقّها الماء بصدرها. قال الجوهری: مخر السابح: إذا شقّ الماء بصدره، و مخر الأرض: شقّها للزراعة، و قیل: مواخر: جواری، و قیل: معترضة، و قیل: تذهب و تجیء، و قیل: ملججة. قال ابن جریر: المخر فی اللغة: صوت هبوب الریح، و لم یقیّد بکونه فی ماء وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ معطوف علی تستخرجوا، و ما بینهما اعتراض، أو علی علّة محذوفة تقدیره لتنتفعوا بذلک و لتبتغوا، أو علی تقدیر فعل ذلک لتبتغوا، أی: لتتجروا فیه فیحصل لکم الربح من فضل اللّه سبحانه وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ أی: إذا وجدتم فضله علیکم و إحسانه إلیکم اعترفتم بنعمته علیکم فشکرتم ذلک باللسان و الأرکان. قیل: و لعلّ وجه تخصیص هذه النعمة بالتعقیب بالشکر من حیث أن فیها قطعا لمسافة طویلة مع أحمال ثقیلة من غیر مزاولة أسباب السفر، بل من غیر حرکة أصلا مع أنها فی تضاعیف المهالک، و یمکن أن یضم إلی ما ذکر من قطع المسافة علی الصفة المذکورة ما اشتمل علیه البحر من کون فیه أطیب مأکول و أنفس ملبوس و کثرة النعم مع نفاستها و حسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعیة للشکر الموجبة له، ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحید المفیدة للاستدلال علی المطلوب بنعمة أخری و آیة کبری فقال: وَ أَلْقی فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أی: جبالا ثابتة، یقال: رسا یرسو؛ إذا ثبت و أقام، قال الشاعر «۱»:

فصبرت عارفة لذلک حرّةترسو إذا نفس الجبان تطلّع

أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ أی: کراهة أن تمید بکم علی ما قاله البصریون، أو لئلا تمید بکم علی ما قاله الکوفیون.

و المید: الاضطراب یمینا و شمالا، ماد الشیء یمید میدا تحرّک، و مادت الأغصان تمایلت، و ماد الرجل تبختر وَ أَنْهاراً أی: و جعل فیها أنهارا، لأن الإلقاء هاهنا بمعنی الجعل و الخلق کقوله: وَ أَلْقَیْتُ عَلَیْکَ مَحَبَّةً مِنِّی «۲»- وَ سُبُلًا أی: و جعل فیها سبلا و أظهرها و بینها لأجل تهتدون بها فی أسفارکم إلی مقاصدکم.

و السبل: الطرق وَ عَلاماتٍ أی: و جعل فیها علامات و هی معالم الطرق. و المعنی: أنه سبحانه جعل للطرق علامات یهتدون بها وَ بِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُونَ المراد بالنجم الجنس، أی: یهتدون به فی سفرهم لیلا.

و قرأ ابن وثاب و بالنجم بضم النون و الجيم، و مراده النجوم فقصره، أو هو جمع نجوم كسقف و سقف؛ و قيل: المراد بالنجم هنا الجدى و الفرقدان قاله الفراء؛ و قيل: الثريا، و قيل: العلامات الجبال، و قيل: هى النجوم؛

---

(١). هو عنترة العبسى.

(٢). طه: ٣٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٨٥

لأن من النجوم ما يهتدى به، و منها ما يكون علامة لا يهتدى بها. و ذهب الجمهور إلى أن المراد فى الآية الاهتداء فى الأسفار؛ و قيل: هو الاهتداء إلى القبلة، و لا مانع من حمل ما فى الآية على ما هو أعمّ من ذلك. قال الأخفش: ثمّ الكلام عند قوله و علامات، و قوله: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ كلام منفصل عن الأول؛ ثم لما عدّد الآيات الدالة على الصانع و وحدانيته و كمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك و العناد فقال: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ هذه المصنوعات العظيمة و يفعل هذه الأفاعيل العجيبة كَمَنْ لا يَخْلُقُ شيئا منها و لا يقدر على إيجاد واحد منها، و هو هذه الأصنام التى تعبدونها و تجعلونها شركاء للّه سبحانه، و أطلق عليها لفظ «من» إجراء لها مجرى أولى العلم جريا على زعمهم بأنها آلهة، أو مشاكلة لقوله: «أ فمن يخلق» لوقوعها فى صحبته، و فى هذا الاستفهام من التقريع و التوبيخ للكفار ما لا يخفى، و ما أحقهم بذلك، فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه: فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «١»- أَ فَلا تَذَكَّرُونَ مخلوقات اللّه الدالة على وجوده و تفرّده بالربوبية و بديع صنعته فتستدلون بها على ذلك، فإنها لوضوحها يكفى فى الاستدلال بها مجرّد التذكر لها؛ ثم لما فرغ من تعديد الآيات التى هى بالنسبة إلى المكلفين نعم قال: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها و قد مرّ تفسير هذا فى سورة إبراهيم، قال العقلاء: إن كلّ جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل و أيسر نقص لنغّص النعم على الإنسان، و تمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يدبّر بدن هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر بعض نعم اللّه عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكّن من شكر أدناها؟

يا ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظيم نعمك، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشىء منها، لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، و لا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا، و اغفر لنا، و أسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك إن لا تفعل ذلك نهلك بمجرّد التقصير فى شكر نعمك، فكيف بما قد فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك و الانتهاء عن مناهيك، و ما أحسن ما قال من قال:

العفو يرجى من بنى آدمفكيف لا يرجى من الرّب

فقلت مذيّلا لهذا البيت الذى هو قصر مشيد:

فإنه أرأف بى منهمحسبى به حسبى به حسبى

و ما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذى لا يلتبس على إنسان مشيرا إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته، فقال:

إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة و الرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه، و القصور عن إحصائها، و العجز عن القيام بأدناها، و من رحمته إدامتها عليكم و إدرارها فى كل لحظة و عند كل نفس تتنفسونه و حركة تتحركون بها. اللهم إنى أشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكلّ لسان فى كلّ زمان، و عدد ما سيشكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان، فقد خصصتنى بنعم لم أرها على كثير من خلقك، و إن رأيت

---

(۱). الأعراف: ۱۹۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۸۶

منها شيئا على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها، فإنّى أطيق شكرك! و كيف أستطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها؟ فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها؟ ثم بيّن لعباده بأنه عالم بجميع ما يصدر منهم، لا تخفى عليه منه خافية، فقال: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ أى: تضمرونه من الأمور وَ ما تُعْلِنُونَ أى:

تظهرونه منها، و فيه وعيد و تعريض و توبيخ، و تنبيه على أنّ الإله يجب أن يكون عالما بالسرّ و العلانية لا ـ كالأصنام التى يعبدونها، فإنها جمادات لا شعور لها بشىء من الظواهر فضلا عن السرائر فكيف يعبدونها؟

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ قال: ما خلق لكم فى الأرض مختلفا من الدواب، و الشجر و الثمار نعم من اللّه متظاهرة فاشكروها للّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا يعنى حيتان البحر وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها قال: هذا اللؤلؤ. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا قال: هو السمك و ما فيه من الدواب. و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى جعفر قال: ليس فى الحلى زكاة، ثم قرأ: وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها. أقول: و فى هذا الاستدلال نظر. و الذى ينبغى التعويل عليه أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شىء من أنواع المال فتلزم، و قد ورد فى الذهب و الفضة ما هو معروف، و لم يرد فى الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدلّ على وجوب الزكاة فيها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مواخر قال: جوارى. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة مَواخِرَ قال: تشقّ الماء بصدرها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك مَواخِرَ قال: تشقّ الماء بصدرها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك مَواخِرَ قال: السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة و مدبرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ قال: هى التجارة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: رَواسِيَ قال: الجبال أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ قال: حتى لا تميد بكم، كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقرّ، فأصبحوا صبحا و قد جعل اللّه الجبال، و هى الرواسى أوتادا فى الأرض.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ سُبُلًا قال: السبل هى الطرق بين الجبال. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الخطيب عن قتادة وَ سُبُلًا قال: طرقا، وَ عَلاماتٍ قال: هى النّجوم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: علامات النهار الجبال.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن الكلبى وَ عَلاماتٍ قال: الجبال: و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس وَ عَلاماتٍ يعنى معالم الطرق بالنهار، وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ يعنى بالليل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ قال: اللّه هو الخالق الرازق، و هذه الأوثان التى تعبد من دون اللّه تخلق و لا تخلق شيئا و لا تملك لأهلها ضرّا و لا نفعا.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۸۷

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۲۰ الى ۲۶]

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا ـ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۲۰) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۲۱) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۲۲) لا ـ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ

الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢۴)
لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (٢۵) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢۶)
شرع سبحانه فى تحقيق كون الأصنام التى أشار إليها بقوله: كَمَنْ لا يَخْلُقُ عاجزة على أن يصدر منها خلق شىء فلا تستحق عبادة فقال: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون اللّه سبحانه صفتهم هذه الصفات المذكورة، و هى أنهم لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً من المخلوقات أصلا لا كبيرا و لا صغيرا، و لا جليلا و لا حقيرا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أى: وصفتهم أنهم يخلقون، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره؟ ففى هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال، بخلاف قوله: أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال. و قراءة الجمهور و الذين تدعون بالمثناة الفوقية على الخطاب مطابقة لما قبله. و روى أبو بكر عن عاصم، و روى هبيرة عن حفص «يدعون» بالتحتية، و هى قراءة يعقوب، ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال: أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ يعنى أن هذه الأصنام أجسادها ميتة لا حياة بها أصلا، فزيادة «غَيْرُ أَحْياءٍ» لبيان أنها ليست كبعض الأجساد التى تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه أصلا، فكيف يعبدونها و هم أفضل منها؟
لأنهم أحياء وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ الضمير فى يشعرون للآلهة، و فى يبعثون للكفار الذين يعبدون الأصنام، و المعنى: ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار، و يكون هذا على طريقة التهكّم بهم؛ لأنّ شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا اللّه سبحانه؛ و قيل: يجوز أن يكون الضمير فى يبعثون للآلهة، أى: و ما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث، و يؤيد ذلك ما روى أن اللّه يبعث الأصنام و يخلق لها أرواحا معها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار، و يدلّ على هذه قوله: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ «١»، و قيل قد تمّ الكلام عند قوله: وَ هُمْ يُخْلَقُونَ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء و ما يشعرون أيان يبعثون، فيكون الضميران على هذا للكفار، و على القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل. و قرأ السلمى «إيان» بكسر الهمزة، و هما لغتان، و هو فى

---

(١). الأنبياء: ٩٨.

محل نصب بالفعل الذى قبله إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لما زيف سبحانه طريقة عبدة الأوثان صرح بما هو الحق فى نفس الأمر، و هو وحدانيته سبحانه، ثم ذكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال: فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ و لا ينجع فيها تذكير وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ قال الخليل: لا جرم كلمة تحقيق و لا تكون إلا جوابا، أى: حقا أن اللّه يعلم ما يسرّون من أقوالهم و أفعالهم و ما يعلنون من ذلك، و قد مرّ تحقيق الكلام فى لا جرم إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ أى: لا يحبّ هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد اللّه و الاستجابة لأنبيائه، و الجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدّم وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ أى: و إذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ماذا أنزل ربكم؟ أى:
أىّ شىء أنزل ربكم؟ أو ماذا الذى أنزل؟ قيل: القائل النضر بن الحارث و الآية نزلت فيه، فيكون هذا القول منه على طريق التهكم؛ و قيل: القائل هو من يفد عليهم؛ و قيل: القائل المسلمون، فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون ف قالُوا أَساطِيرُ

الْأَوَّلِينَ بالرفع؛ أى: ما تدّعون أيها المسلمون نزوله أساطير الأوّلين، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم أساطير الأوّلين، و على هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح أن يكون جوابا من المشركين، و إلا لكان المعنى الذى أنزله ربّنا أساطير الأوّلين و الكفار لا يقرّون بالإنزال، و وجه عدم وروده هو ما ذكرناه؛ و قيل: هو كلام مستأنف، أى: ليس ما تدّعون إنزاله أيها المسلمون منزلا بل هو أساطير الأوّلين؛ و قد جوّز على مقتضى علم النحو نصب أساطير و إن لم تقع القراءة به، و لا بد فى النصب من التأويل الذى ذكرنا، أى: أنزل على دعواكم أساطير الأولين، أو يقولون ذلك من أنفسهم على طريق السخرية. و الأساطير: الأباطيل و الترّهات التى يتحدّث الناس بها عن القرون الأولى، و ليس من كلام اللّه فى شىء و لا مما أنزله اللّه أصلا فى زعمهم لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً أى: قالوا هذه المقالة لكى يحملوا أوزارهم كاملة، لم يكفر منها شىء لعدم إسلامهم الذى هو سبب لتكفير الذنوب؛ و قيل: إن اللام هى لام العاقبة، لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل يحملون الأوزار، و لكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله: لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً «١». و قيل: هى لام الأمر وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ أى: و يحملون بعض أوزار الذى أضلوهم لأن من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها؛ و قيل: من للجنس لا للتبعيض، أى: يحملون كل أوزار الذين يضلّونهم، و محلّ بِغَيْرِ عِلْمٍ النصب على الحال من فاعل «يُضِلُّونَهُمْ» أى: يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم إليه، و لا عارفين بما يلزمهم من الآثام؛ و قيل: إنه حال من المفعول، أى: يضلون من لا علم له، و مثل هذه الآية:

وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «٢». و قد تقدّم فى الأنعام الكلام على قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «٣». أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ أى: بئس شيئا يزرونه ذلك. ثمّ حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدّمين فقال: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمروذ بن كنعان حيث

---

(١). القصص: ٨.

(٢). العنكبوت: ١٣.

(٣). الأنعام: ١۶۴.

بنى بناء عظيما ببابل، و رام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فأهبّ اللّه الريح، فخرّ ذلك البناء عليه و على قومه فهلكوا، و الأولى أن الآية عامة فى جميع المبطلين من المتقدّمين الذين يحاولون إلحاق الضرّ بالمحقّين؛ و معنى المكر هنا الكيد و التدبير الذى لا يطابق الحق، و فى هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلّى اللّه عليه و سلّم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ أى: أتى أمر اللّه، و هو الريح التى أخربت بنيانهم. قال المفسرون: أرسل اللّه ريحا فألقت رأس الصرح فى البحر، و خرّ عليهم الباقى مِنَ الْقَواعِدِ قال الزجّاج: من الأساطين، و المعنى: أنه أتاها أمر اللّه من جهة قواعدها فزعزعها فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ قرأ ابن أبى هريرة و ابن محيصن «السقف» بضم السين و القاف جميعا. و قرأ مجاهد بضم السين و سكون القاف، و قرأ الباقون «السقف» بفتح السين و سكون القاف، و المعنى: أنه سقط عليهم السّقف؛ لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها. قال ابن الأعرابى: و إنما قال من فوقهم ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته، و العرب تقول: خرّ علينا سقف، و وقع علينا حائط إذا كان يملكه و إن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: مِنْ فَوْقِهِمْ ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب، فقال: مِنْ فَوْقِهِمْ أى: عليهم وقع، و كانوا تحته فهلكوا، و ما أفلتوا؛ و قيل: إن المراد بالسقف السماء، أى: أتاهم العذاب من السماء التى فوقهم؛ و قيل: إن هذه الآية تمثيل لهلاكهم؛ و المعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه عليه.

و قد اختلف فى هؤلاء الذين خرّ عليهم السقف، فقيل: هو نمروذ كما تقدّم، و قيل: إنه بختنصر و أصحابه، و قيل: هم المقتسمون الـذين تقـدّم ذكرهم فى سورة الحجر وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ أى: الهلاك مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ به، بل من حيث أنهم فى أمان، ثم بيّن سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا.

فقال: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ بإدخالهم النار، و يفضحهم بذلك و يهينهم، و هو معطوف على مقدّر، أى: هذا عذابهم فى الدنيا، ثم يوم القيامة يخزيهم وَ يَقُولُ لهم مع ذلك توبيخا و تقريعا أَيْنَ شُرَكائِيَ كما تزعمون و تدّعون، قرأ ابن كثير من رواية البزى «شركاى» من دون همز، و قرأ الباقون بالهمز، ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله: الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قرأ نافع بكسر النون على الإضافة، و قرأ الباقون بفتحها، أى: تخاصمون الأنبياء و المؤمنين فيهم، و على قراءة نافع تخاصموننى فيهم و تعادوننى: ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: لا جَرَمَ يقول: بلى. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك لا جَرَمَ قال: يعنى الحق. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: لا كذب. و أخرج مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و غيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر، و لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرّة من إيمان، فقال رجل: يا رسول اللّه الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا و نعله حسنا،

فقال: إن اللّه جميل يحبّ الجمال، الكبر بطر الحق و غمص الناس «١»»، و فى ذمّ الكبر و مدح التواضع أحاديث كثيرة، و كذلك فى إخراج محبة حسن الثوب و حسن النعل، و نحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة. و الحاصل أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد بين ماهية الكبر أنه بطر الحق و غمص الناس، فهذا هو الكبر المذموم. و قد ساق صاحب الدرّ المنثور عند تفسيره لهذه الآية؛ أعنى قوله سبحانه: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ أحاديث كثيرة ليس هذا مقام إيرادها، بل المقام مقام ذكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أن ناسا من مشركى العرب كان يقعدون بطريق من أتى نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا مرّوا سألوهم فأخبروهم بما سمعوا من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا إنما هو أساطير الأوّلين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ الآية يقول يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذى يضلونهم بغير علم و ذلك مثل قوله سبحانه: وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه، و زاد: و لا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قال: نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه النمروذ أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ قال: أتاها أمر اللّه من أصلها فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ و السقف: أعالى البيوت فائتفكت بهم بيوتهم، فأهلكهم اللّه و دمرهم وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قال: تخالفونى.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٧ الى ٣٢]

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى

الْكافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

قوله: قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قيل: هم العلماء قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم و لا يلتفتون إلى وعظهم. و كان هذا القول منهم على طريق الشماتة؛ و قيل: هم الأنبياء، و قيل: الملائكة، و الظاهر الأوّل لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك و إن كان الأنبياء و الملائكة هم من أهل العلم، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف، و هو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة، و لا يقدح فى هذا

---

(١). (غمص الناس) و (غمط الناس) بمعنى واحد، و هو: الاستهانة بهم. انظر النهاية: غمص، غمط.

جواز الإطلاق؛ لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ أى: الذلّ و الهوان و الفضيحة يوم القيامة وَ السُّوءَ أى: العذاب عَلَى الْكافِرِينَ مختصّ بهم الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قد تقدّم تفسيره، و الموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين، أو بدل منه، أو فى محل نصب على الاختصاص، أو فى محل رفع على تقدير مبتدأ، أى: هم الذين تتوفاهم، و انتصاب ظالمى أنفسهم على الحال فَأَلْقَوُا السَّلَمَ معطوف على «وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ» و ما بينهما اعتراض أى أقرّوا بالربوبية، و انقادوا عند الموت، و معناه الاستسلام قاله قطرب، و قيل معناه المسالمة، أى: سالموا و تركوا المشاقة قاله الأخفش؛ و قيل معناه الإسلام أى أقرّوا بالإسلام و تركوا ما كانوا فيه من الكفر، و جملة ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ يجوز أن تكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه، و يجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك، و يكون هذا القول منهم على وجه الجحود و الكذب، و من لم يجوّز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءا فى اعتقادهم و على حسب ظنونهم، و مثله قولهم: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم: بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: بلى كنتم تعملون السوء إن اللّه عليم بالذى كنتم تعملونه فمجازيكم عليه و لا ينفعكم هذا الكذب شيئا فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ أى: يقال لهم ذلك عند الموت. و قد تقدّم ذكر أبواب جهنم و أن جهنم درجات بعضها فوق بعض، و خالِدِينَ فِيها حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ المخصوص بالذم محذوف، و التقدير: لبئس مثوى المتكبرين جهنم، و المراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الإيمان و العبادة كما فى قوله: إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ «١»، ثم أتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء، فقال: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا و هم المؤمنون ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً أى: أنزل خيرا.

قال الثّعلبى: فإن قيل لم ارتفع الجواب فى قوله: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ و انتصب فى قوله: خَيْراً فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا الذى يقولونه محمد هو أساطير الأوّلين، و المؤمنون آمنوا بالنزول، فقالوا أنزل خيرا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ قيل: هذا من كلام اللّه عزّ و جلّ، و قيل: هو حكاية لكلام الذين اتقوا، فيكون على هذا بدلا من خيرا، و على الأوّل يكون كلاما مستأنفا مسوقا للمدح للمتقين، و المعنى: للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا حسنة، أى: مثوبة حسنة وَ لَدارُ الْآخِرَةِ أى مثوبتها خَيْرٌ مما أوتوا فى الدنيا وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه، و ارتفاع جَنَّاتُ عَدْنٍ على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، أو خبر مبتدأ محذوف، و قيل: يجوز أن تكون هى المخصوص بالمدح يَدْخُلُونَها هو إما

خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، و على تقدير تنكير عدن تكون صفة لجنات و كذلك تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و قيل يجوز أن تكون الجملتان في محل نصب على الحال على تقدير أن لفظ عدن علم، و قد تقدّم معنى جرى الأنهار من تحت الجنات لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ أي: لهم في الجنات ما تقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرّد ذلك

---

(۱). الصافات: ۳۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۹۲

كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ أي مثل ذلك الجزاء يجزيهم، و المراد بالمتقين كل من يتقى الشرك و ما يوجب النار من المعاصى، و الموصول في قوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ في محل نصب نعت للمتقين المذكور قبله، قرأ الأعمش و حمزة «تتوفاهم» في هذا الموضع، و في الموضع الأوّل بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالمثناة الفوقية. و اختار القراءة الأولى أبو عبيد مستدلا بما روى عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أنتم. و طيبين فيه أقوال: طاهرين من الشرك، أو الصالحين، أو زاكية أفعالهم و أقوالهم، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب اللّه، أو طيبة نفوسهم بالرجوع إلى اللّه، أو طيبين الوفاة، أي: هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها، و جملة يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ في محل نصب على الحال من الملائكة: أي قائلين سلام عليكم؛ و معناه يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة. الثاني أن يكون تبشيرا لهم بالجنة لأن السلام أمان. و قيل: إن الملائكة يقولون: السلام عليك وليّ اللّه إن اللّه يقرأ عليك السلام ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي: بسبب عملكم، قيل: يحتمل هذا وجهين: الأوّل أن يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت، الثاني أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. و لا ينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح: «سدّدوا و قاربوا و اعلموا أنه لن يدخل أحد الجنّة بعمله، قيل: و لا أنت يا رسول اللّه؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمته» و قد قدّمنا البحث عن هذا.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا قال: هؤلاء المؤمنون، يقال لهم: ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ فيقولون: خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أي: آمنوا باللّه و كتبه و أمروا بطاعته و حثوا عباد اللّه على الخير و دعوهم إليه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ قال: أحياء و أمواتا قدّر اللّه لهم ذلك.

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۳ الى ۴۰]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۴) وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۷)

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۸) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (۳۹) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۰)

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۹۳

قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ الآية هذا جواب شبهة أخرى لمنكرى النبوّة، فإنهم طلبوا من النبي صلّى اللّه عليه و سلّم أن ينزل عليهم ملكا

من السماء يشهد على صدقه فى ادّعاء النبوّة، فقال: هل ينظرون فى تصديق نبوتك إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ شاهدين بذلك، و يحتمل أن يقال: إنهم لما طعنوا فى القرآن بأنه أساطير الأوّلين أوعدهم اللّه بقوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ لقبض أرواحهم أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ أى: عذابه فى الدنيا المستأصل لهم، أو المراد بأمر اللّه القيامة. و قرأ الأعمش و ابن وثّاب و حمزة و الكسائى و خلف «إلا أن يأتيهم الملائكة» بالياء التحتية و قرأ الباقون بالمثناة الفوقية؛ و المراد بكونهم ينظرون- أى: ينتظرون إتيان الملائكة، أو إتيان أمر اللّه على التفسير الآخر- أنهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب و صار منتظرا له، و ليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة، فإنهم لا يؤمنون بذلك و لا يصدّقونه كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: مثل فعل هؤلاء من الإصرار على الكفر و التكذيب و الاستهزاء؛ فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار، فأتاهم أمر اللّه فهلكوا وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ بتدميرهم بالعذاب فإنه أنزل بهم ما استحقّوه بكفرهم وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بما ارتكبوه من القبائح، و فيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما إليه يؤول، و جملة فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا معطوفة على فعل الذين من قبلهم، و ما بينهما اعتراض؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم، فأصابهم سيئات ما عملوا و ما ظلمهم اللّه، و المعنى: فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم السيئة وَ حاقَ بِهِمْ أى: نزل بهم على وجه الإحاطة ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: العذاب الذى كانوا به يستهزئون أو عقاب استهزائهم وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا هذا نوع آخر من كفرهم الذى حكاه اللّه عنهم، و المراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ أى: لو شاء عدم عبادتنا لشىء غيره ما عبدنا ذلك نَحْنُ وَ لا آباؤُنا الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من دين الكفر و الشرك باللّه. قال الزجاج: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، و لو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين، و قد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة الأنعام وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ من السوائب و البحائر و نحوهما، و مقصودهم بهذا القول المعلّق بالمشيئة الطعن فى الرسالة، أى: لو كان ما قاله الرسول حقا من المنع من عبادة غير اللّه، و المنع من تحريم ما لم يحرّمه اللّه، حاكيا ذلك عن اللّه لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا فإنه قد شاء ذلك، و ما شاءه كان و ما لم يشأه لم يكن، فلما وقع منا العبادة لغيره و تحريم ما لم يحرمه؛ كان ذلك دليلا على أن ذلك هو المطابق لمراده و الموافق لمشيئته، مع أنهم فى الحقيقة لا يعترفون بذلك و لا يقرّون به، لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من طوائف الكفر فإنهم أشركوا باللّه، و حرّموا ما لم يحرمه، و جادلوا رسله بالباطل، و استهزءوا بهم، ثم قال: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ الذين يرسلهم اللّه إلى عباده بما شرعه لهم من شرائعه التى رأسها توحيده، و ترك الشرك به إِلَّا الْبَلاغُ إلى من أرسلوا إليهم بما أمروا بتبليغه بلاغا واضحا يفهمه المرسل إليهم و لا يلتبس عليهم، ثم إنه سبحانه أكّد هذا و زاده إيضاحا فقال: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا كما بعثنا فى هؤلاء لإقامة الحجة عليهم، وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «۱»،

---

(۱). الإسراء: ۱۵.

و «أن» فى قوله: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ إما مصدرية، أى: بعثنا بأن اعبدوا اللّه، أو مفسرة لأن فى البعث معنى القول وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ أى: اتركوا كلّ معبود دون اللّه كالشيطان و الكاهن و الصنم و كلّ من دعا إلى الضلال فَمِنْهُمْ أى: من هذه الأمم التى بعث اللّه إليها رسله مَنْ هَدَى اللَّهُ أى: أرشده إلى دينه و توحيده و عبادته و اجتناب الطاغوت وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ أى: وجبت و ثبتت لإصراره على الكفر و العناد. قال الزّجّاج: أعلم اللّه أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة، و هو من وراء الإضلال و الهداية، و مثل هذه الآية قوله تعالى: فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ «۱». و فى هذه الآية التصريح بأن اللّه أمر جميع عباده بعبادته، و

اجتناب الشيطان و كل ما يدعو إلى الضلال، و أنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى و منهم من حقّت عليه الضلالة، فكان فى ذلك دليل على أن أمر اللّه سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان، و لا يريد الهداية إلا للبعض، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد، و هذا معنى ما حكيناه عن الزجّاج هنا فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ سير معتبرين فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد و ثمود، أى: كيف صار آخر أمرهم إلى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب، ثم خصّص الخطاب برسوله صلّى اللّه عليه و سلّم مؤكدا لما تقدّم، فقال: إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ أى: تطلب بجهدك ذلك فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ قرأ ابن مسعود و أهل الكوفة «لا يَهْدِي» بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند إلى اللّه سبحانه، أى: فإن اللّه لا يرشد من أضله، و «مَنْ» فى موضع نصب على المفعولية. و قرأ الباقون «لا يهدى» بضم حرف المضارعة على أنه مبنى للمجهول «٢»، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم على معنى أنه لا يهديه هاد كائنا من كان، و «مَنْ» فى موضع رفع على أنها نائب الفاعل المحذوف، فتكون هذه الآية على هذه القراءة كقوله فى الآية الأخرى: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ «٣»، و العائد على القراءتين محذوف، أى: من يضله. و روى أبو عبيد عن الفراء على القراءة الأولى أن معنى لا يَهْدِي لا يهتدى، كقوله تعالى: أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى «٤»، بمعنى يهتدى. قال أبو عبيد: و لا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء، و ليس بمتهم فيما يحكيه. قال النحّاس: حكى عن محمد بن يزيد المبرّد:

كأن معنى لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ من علم ذلك منه و سبق له عنده وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ينصرونهم على الهداية لمن أضله اللّه أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم؛ ثم ذكر عناد قريش و إنكارهم للبعث فقال:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ مصدر فى موضع الحال؛ أى: جاهدين لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ من عباده، زعموا أن اللّه سبحانه عاجز عن بعث الأموات، فردّ اللّه عليهم ذلك بقوله: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا هذا إثبات لما بعد النفى، أى: بلى يبعثهم، و «وَعْداً» مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى و هو يبعثهم؛ لأن البعث وعد من اللّه وعد عباده به، و التقدير: وعد البعث وعدا عليه حقا لا خلف فيه، و حقا صفة لوعد، و كذا «عَلَيْهِ» فإنه صفة لوعد، أى: كائنا عليه، أو نصب حقا على المصدرية، أى: حق حقا

---

(١). الأعراف: ٣٠.

(٢). يراجع فى ذلك زاد المسير (۴/ ۴۴۶)

(٣). الأعراف: ١٨٦.

(۴). يونس: ٣۵.

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير. و قوله: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ أى:

ليظهر لهم، و هو غاية لما دلّ عليه بلى من البعث، و الضمير فى لَهُمُ راجع إلى من يموت، و الموصول فى قوله: الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ فى محل نصب على أنه مفعول ليبين، أى: الأمر الذى وقع الخلاف بينهم فيه، و بيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل، و نزلت عليهم فيه كتب اللّه؛ و قيل: إن ليبين متعلّق بقوله:

وَ لَقَدْ بَعَثْنا أى: بعثنا فى كلّ أمة رسولا ليبيّن، و هو بعيد وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا باللّه سبحانه و أنكروا البعث أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ فى جدالهم و إنكارهم البعث بقولهم: لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ و جملة إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ مستأنفة لبيان كيفية الإبداء و الإعادة بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه. قال الزجّاج: أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه، فأخبر أنه متى أراد الشيء كان، و هذا كقوله: وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «١»، و قرأ ابن عامر و الكسائى «فيكون» بالنصب عطفا

على أن نقول. قال الزجّاج: يجوز أن يكون نصبا على جواب كن. و قرأ الباقون بالرفع على معنى: فهو يكون. قال ابن الأنباری: أوقع لفظ الشیء على المعلوم عند اللّه تعالى قبل الخلق؛ لأنه بمنزلة ما قد وجد و شوهد. و قال الزجّاج: إن معنى «لشیء» لأجل شیء، فجعل اللام سببیة؛ و قیل: هی لام التبلیغ، كما فی قولک: قلت له قم فقام، و إِنَّما قَوْلُنا مبتدأ و أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ خبره، و هذا الكلام من باب التمثيل على معنى: أنه لا يمتنع عليه شیء، و أن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطیع، و لیس هناک قول و لا مقول له، و لا أمر و لا مأمور، حتى يقال إنه يلزم منه أحد محالين: إما خطاب المعدوم، أو تحصيل لحاصل. و قد مضى تفسير ذلک فی سورة البقرة مستوفى.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ قال: بالموت، و قال فی آية أخرى: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ «٢» و هو ملک الموت، و له رسل أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ و ذاكم يوم القيامة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد نحوه.

و أخرج ابن أبی حاتم عن عكرمة فی قوله: فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ قال: من يضله اللّه لا يهديه أحد. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أبی العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به: و الذی أرجوه بعد الموت إنه لكذا و كذا، فقال له المشرک: إنک لتزعم أنک تبعث من بعد الموت، فأقسم باللّه جهد يمينه لا يبعث اللّه من يموت، فأنزل اللّه وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ الآية. و أخرج ابن العقيلی و ابن مردويه عن علیّ فی قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ قال: نزلت فیّ «٣» .... و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن المنذر عن أبی هريرة قال: قال اللّه تعالى: سبّنی ابن آدم و لم يكن ينبغی له أن يسبنی، و كذبنی

---

(١). البقرة: ١١٧.

(٢). الأنفال: ٥٠.

(٣). كذا فی الدر المنثور.

و لم يكن ينبغی له أن يكذبنی، أما تكذيبه إيای فقال: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ و قلت: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا و أما سبّه إيای، فقال: إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ، و قلت: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ. وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ هكذا ذكره أبو هريرة موقوفا، و هو فی الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله:

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ يقول: للناس عامة.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤١ الى ٥٠]

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥)

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ

مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ (۴۸) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (۴۹) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (۵۰)

قد تقدّم تحقيق معنى الهجرة فى سورة النساء، و هى ترك الأهل و الأوطان، و معنى هاجَرُوا فِي اللَّهِ فى شأن اللّه سبحانه و فى رضاه، و قيل: فِي اللَّهِ فى دين اللّه، و قيل: «فى» بمعنى اللام، أى: للّه مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا أى: عذّبوا و أهينوا، فإنّ أهل مكة عذّبوا جماعة من المسلمين حتى قالوا ما أرادوا منهم، فلما تركوهم هاجروا. و قد اختلف فى سبب نزول الآية، فقيل: نزلت فى صهيب و بلال و خبّاب و عمار.

و اعترض بأن السورة مكية، و ذلك يخالف قوله: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا. و أجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية فى هذه السورة كما قدّمنا فى عنوانها، و قيل: نزلت فى أبى جندل بن سهيل، و قيل: نزلت فى أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لما ظلمهم المشركون بمكة و أخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً.

اختلف فى معنى هذا على أقوال؛ فقيل: المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس و الحسن و الشعبى و قتادة؛ و قيل: المراد الرزق الحسن؛ قاله مجاهد؛ و قيل: النصر على عدوّهم؛ قاله الضحّاك: و قيل: ما استولوا عليه من فتوح البلاد و صار لهم فيها من الولايات؛ و قيل: ما بقى لهم فيها من الثناء و صار لأولادهم من الشرف.

و لا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور؛ و معنى لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً لنبوّئنهم مباءة حسنة أو تبوئة حسنة، فحسنة صفة مصدر محذوف وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أى: جزاء أعمالهم فى الآخرة أَكْبَرُ من أن يعلمه أحد من خلق اللّه قبل أن يشاهده، و منه قوله تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً

فتح القدير، ج۳، ص: ۱۹۷

كَبِيراً «۱». لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أى: لو كان هؤلاء الظلمة يعلمون ذلك، و قيل: إن الضمير فى يَعْلَمُونَ راجع إلى المؤمنين، أى: لو رأوا ثواب الآخرة و عاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا الَّذِينَ صَبَرُوا الموصول فى محل نصب على المدح، أو الرفع على تقدير مبتدأ، أو هو بدل من الموصول الأوّل، أو من الضمير فى «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أى: على ربهم خاصّة يتوكلون فى جميع أمورهم معرضين عمّا سواه، و الجملة معطوفة على الصلة، أو فى محل نصب على الحال وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ قرأ حفص عن عاصم «نوحى» بالنون، و قرأ الباقون «يوحى» بالياء التحتية، و هذه الآية ردّ على قريش حيث زعموا أن اللّه سبحانه أجلّ من أن يرسل رسولا من البشر، فردّ اللّه عليهم بأن هذه عادته و سنته أن لا يرسل إلا رجالا من البشر يوحى إليهم. و زعم أبو علىّ الجبائى أن معنى الآية أن اللّه سبحانه لم يرسل إلى الأنبياء بوحيه إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة. و يردّ عليه بأن جبريل كان يأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على صورة مختلفة، و لما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود و النصارى هم أهل العلم بما أنزل اللّه فى التوراة و الإنجيل، صرف الخطاب إليهم، و أمرهم أن يرجعوا إلى أهل الكتاب، فقال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أى: فاسألوا أيها المشركون مؤمنى أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون؛ فإنهم سيخبروكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا، أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر فإنهم كانوا يعترفون بذلك و لا يكتمونه؛ و قيل: المعنى: فاسألوا أهل القرآن، و بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ يتعلّق بأرسلنا، فيكون داخلا فى حكم الاستثناء مع رجالا، و أنكر الفرّاء ذلك، و قال: إن صلة ما قبل إلا لا تتأخر إلى ما بعدها، لأن المستثنى منه هو مجموع ما قبل إلا مع صلته، كما لو قيل: أرسلنا إلا رجالا بالبينات، فلما لم يصر هذا المجموع مذكورا بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: و ما أرسلنا من قبلك بالبينات و الزبر إلا رجالا؛ و قيل: يتعلّق بمحذوف دل عليه المذكور، أى: أرسلناهم بالبينات و الزّبر، و يكون جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل: لما ذا أرسلهم؟ فقال: أرسلناهم بالبينات و الزبر؛ و قيل:

متعلّق بتعلمون على أنه مفعوله و الباء زائدة، أى: إن كنتم لا تعلمون بالبينات و الزبر، و قيل: متعلق برجالا، أى: رجالا متلبسين بالبينات و الزبر؛ و قيل: بنوحى، أى: نوحى إليهم بالبينات و الزبر؛ و قيل: منصوب بتقدير أعنى، و الباء زائدة، و أهل الذكر هم أهل الكتاب كما تقدّم. و قال الزجّاج: اسألوا كل من يذكر بعلم، و البينات: الحجج و البراهين، و الزّبر: الكتب. و قد تقدّم الكلام على هذا فى آل عمران وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ أى: القرآن، ثم بيّن الغاية المطلوبة من الإنزال، فقال: لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ جميعا ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ فى هذا الذكر من الأحكام الشرعية و الوعد و الوعيد وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أى: إرادة أن يتأملوا و يعملوا أفكارهم فيتّعظوا أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ يحتمل أن تكون السيئات صفة مصدر محذوف، أى: مكروا المكرات السيئات، و أن تكون مفعولة للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل، أى: عملوا السيئات، أو صفة لمفعول مقدّر، أى: أ فأمن الماكرون العقوبات السيئات، أو على حذف حرف الجرّ،

---

(١). الإنسان: ٢٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ١٩٨

أى: مكروا بالسيئات أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ هو مفعول أمن، أو بدل من مفعوله على القول بأن مفعوله محذوف، و أن السيئات صفة للمحذوف، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و مكر السيئات: سعيهم فى إيذاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إيذاء أصحابه على وجه الخفية، و احتيالهم فى إبطال الإسلام، و كيد أهله أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ كما خسف بقارون، يقال: خسف المكان يخسف خسوفا؛ ذهب فى الأرض، و خسف اللّه به الأرض خسوفا، أى: غاب به فيها، و منه قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ «١»، و خسف هو فى الأرض و خسف به أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ به فى حال غفلتهم عنه كما فعل بقوم لوط و غيرهم، و قيل: يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا ذلك اليوم و لم يكن فى حسبانهم. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ذكر المفسرون فيه وجوها؛ فقيل: المراد فى أسفارهم و متاجرهم، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم فى السفر كما يهلكهم فى الحضر، و هم لا يفوتونه بسبب ضربهم فى الأرض، و بعدهم عن الأوطان؛ و قيل: المراد فى حال تقلّبهم فى قضاء أو طارهم بوجود الحيل، فيحول اللّه بينهم و بين مقاصدهم و حيلهم؛ و قيل: فى حال تقلّبهم فى الليل على فرشهم، و قيل: فى حال إقبالهم و إدبارهم، و ذهابهم و مجيئهم بالليل و النهار، و القلب بالمعنى الأوّل مأخوذ من قوله: لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ «٢»، و بالمعنى الثانى مأخوذ من قوله:

وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ «٣». فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ أى: بفائتين و لا ممتنعين أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ أى: حال تخوّف و توقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدّم من قوله: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ و قيل: معنى «على تخوّف»: على تنقص. قال ابن الأعرابى، أى: على تنقص من الأموال و الأنفس و الثمرات حتى أهلكهم. قال الواحدى: قال عامّة المفسّرين: على تخوّف، قال: تنقّص؛ إما بقتل أو بموت، يعنى بنقص من أطرافهم و نواحيهم يأخذهم الأوّل فالأوّل حتى يأتى الأخذ على جميعهم. قال: و التخوّف التنقص، يقال: هو يتخوف المال؛ أى: يتنقصه، و يأخذ من أطرافه، انتهى. يقال: تخوّفه الدهر و تخونه بالفاء و النون: تنقصه، قال ذو الرّمة:

لا بل هو الشّوق من دار تخوّنهامرّا سحاب و مرّا بارح «۴» ترب

و قال لبيد:

....

تخوّنها نزولى و ارتحالى «۵» أى: تنقص لحمها و شحمها. قال الهيثم بن عدىّ: التخوّف، بالفاء، التنقص لغة لأزد شنوءة، و أنشد:

تخوّف غدرهم مالی و أهدی‌سلاسل فی الحلوق لها صلیل

(۱). القصص: ۸۱.

(۲). آل عمران: ۱۹۶.

(۳). التوبة: ۴۸.

(۴). «البارح»: الریح الحارة فی الصیف التی فیها تراب کثیر.

(۵). هذا عجز البیت، و صدره کما فی اللسان: عذافرة تقمّص بالرّدافی.

و قیل: علی تخوف: علی تعجل، قاله اللیث بن سعد، و قیل: علی تقریع بما قدّموه من ذنوبهم، روی ذلک عن ابن عباس؛ و قیل: علی تخوّف: أن یعاقب و یتجاوز، قاله قتادة فَإِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ لا یعاجل، بل یمهل رأفة بکم و رحمة لکم مع استحقاقکم «۱» للعقوبة أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلی ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَیْ‌ءٍ لما خوّف سبحانه الماکرین بما خوّف أتبعه ذکر ما یدل علی کمال قدرته فی تدبیر أحوال العالم العلوی و السفلی و مکانهما، و الاستفهام فی أَ وَ لَمْ یَرَوْا للإنکار، و «ما» مبهمة مفسرة بقوله: مِنْ شَیْ‌ءٍ، قرأ حمزة و الکسائی و خلف و یحیی بن وثاب و الأعمش «تروا» بالمثناة الفوقیة علی أنه خطاب لجمیع الناس، و قرأ الباقون بالتحتیة بإرجاع الضمیر إلی الذین مکروا السیئات. و قرأ أبو عمرو و یعقوب تتفیؤا ظلاله بالمثناة الفوقیة. و قرأ الباقون بالتحتیة، و اختارها أبو عبید، أی: یمیل من جانب إلی جانب، و یکون أوّل النهار علی حال و یتقلّص، ثم یعود فی آخر النهار علی حالة أخری. قال الأزهری: تفیؤ الظلال: رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفیؤ لا یکون إلا بالعشیّ و ما انصرف عنه الشمس و القمر، و الذی یکون بالغداة هو الظلّ. و قال ثعلب: أخبرت عن أبی عبیدة أن رؤبة قال: کل ما کانت علیه الشمس فزالت عنه فهو فی‌ء، و ما لم تکن علیه الشمس فهو ظلّ؛ و معنی مِنْ شَیْ‌ءٍ من شی‌ء له ظلّ، و هی الأجسام، فهو عام أرید به الخاص، و ظلاله: جمع ظلّ، و هو مضاف إلی مفرد؛ لأنه واحد یراد به الکثرة عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمائِلِ أی: عن جهة أیمانها و شمائلها، أی: عن جانبی کل واحد منها. قال الفراء: وحّد الیمین؛ لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال، و جمع الشمائل لأنه أراد کلّها، لأن ما خلق اللّه لفظه مفرد و معناه جمع. و قال الواحدی: وحّد الیمین و المراد به الجمیع إیجازا فی اللفظ کقوله: وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ، و دلّت الشمائل علی أن المراد به الجمع؛ و قیل: إن العرب إذا ذکرت صیغتی جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد کقوله: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ «۲»، و: خَتَمَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ عَلی سَمْعِهِمْ «۳»؛ و قیل: المراد بالیمین: النقطة التی هی مشرق الشمس، و أنها واحدة. و الشمائل: عبارة عن الانحراف فی فلک الإظلال بعد وقوعها علی الأرض و هی کثیرة، و إنما عبّر عن المشرق بالیمین لأن أقوی جانبی الإنسان یمینه، و منه تظهر الحرکة القویة سُجَّداً لِلَّهِ منتصب علی الحال، أی: حال کون الظلال سجدا للّه. قال الزجّاج: یعنی أن هذه الأشیاء مجبولة علی الطاعة.

و قال أیضا: سجود الجسم انقیاده و ما یری من أثر الصنعة وَ هُمْ داخِرُونَ فی محل نصب علی الحال، أی: خاضعون صاغرون، و الدّخور: الصغار و الذلّ، یقال: دخر الرجل فهو داخر، و أدخره اللّه. قال الشاعر «۴»:

فلم یبق إلّا داخر فی مخیّس‌و منجحر فی غیر أرضک فی جحر

و مخیس: اسم سجن کان بالعراق. وَ لِلَّهِ یَسْجُدُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ أی:

(۱). فی المطبوع: (استحقاقهم) و الصواب ما أثبتناه.

(۲). الأنعام: ۱.

(۳). البقرة: ۷.

(۴). نسبه الجوهری للفرزدق.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۰

فتح القدير ج۳ ۲۴۹

له وحده يخضع و ينقاد لا لغيره ما فى السموات جميعا، و ما فى الأرض من دابة تدبّ على الأرض، و المراد به كلّ دابة. قال الأخفش: هو كقولك ما أتانى من رجل مثله، و ما أتانى من الرجال مثله. و قد دخل فى عموم ما فى السموات و ما فى الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما، و إنما خصّ الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ انقياد الجمادات، و عطف الملائكة على ما قبلهم تشريفا لهم، و تعظيما لدخولهم فى المعطوف عليه وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ أى: و الحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم و المراد الملائكة؛ و يحتمل أن تكون الجملة مستأنفة. و فى هذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات اللّه، و يجوز أن تكون حالا من فاعل يسجد و ما عطف عليه، أى: يسجد للّه ما فى السموات و ما فى الأرض و الملائكة و هم جميعا لا يستكبرون عن السجود يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم يخافون ربهم من فوقهم، أو جملة مستأنفة لبيان نفى استكبارهم، و من آثار الخوف عدم الاستكبار، و من فوقهم متعلق بيخافون على حذف مضاف، أى: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، أو يكون حالا من الربّ، أى: يخافون ربهم حال كونه من فوقهم، و قيل: معنى يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف، أى: يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم، و هو تكلّف لا حاجة إليه، و إنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحماة على مذاهب قد رسخت فى الأذهان، و تقرّرت فى القلوب، قيل: و هذه المخافة هى مخافة الإجلال، و اختاره الزجّاج فقال: يَخافُونَ رَبَّهُمْ خوف مجلّين، و يدلّ على صحة هذا المعنى قوله: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ* «۱»، و قوله إخبارا عن فرعون:

وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ «۲». وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ أى: ما يؤمرون به من طاعة اللّه، يعنى الملائكة، أو جميع من تقدّم ذكره، و حمل هذه الجمل على الملائكة أولى؛ لأن فى مخلوقات اللّه من يستكبر عن عباده، و لا يخافه و لا يفعل ما يؤمر به، كالكفار و العصاة الذين لا يتّصفون بهذه الصفات و إبليس و جنوده.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا قال: هم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ظلمهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن داود بن أبى هند قال: نزلت هذه الآية فى أبى جندل بن سهيل.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ الآية قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوّأهم اللّه المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، و جعل لهم أنصارا من المؤمنين وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ قال: إى و اللّه لما يصيبهم اللّه من جنته و نعمته أكبر لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ و أخرج ابن جرير ابن المنذر عن الشعبى فى قوله: فِي الدُّنْيا حَسَنَةً قال: المدينة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: لنرزقنهم فى الدنيا رزقا حسنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم

---

(۱). الأنعام: ۶۱.

(۲). الأعراف: ۱۲۷.

فتح القدير، ج‏3، ص: 201

عن ابن عباس قال: لما بعث اللّه محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك، فأنزل اللّه وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ الآية، يعنى: مشركى قريش أن محمدا رسول اللّه فى التوراة و الإنجيل. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: نزلت فى عبد اللّه بن سلام و نفر من أهل التوراة.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: بِالْبَيِّناتِ قال: الآيات وَ الزُّبُرِ قال: الكتب. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ قال: نمروذ بن كنعان و قومه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال:

أي: الشرك. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: تكذيبهم الرسل، و إعمالهم بالمعاصى.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ قال: فى اختلافهم.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فِي تَقَلُّبِهِمْ قال: إن شئت أخذته فى سفره أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى‏ تَخَوُّفٍ يقول: على أثر موت صاحبه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا عَلى‏ تَخَوُّفٍ قال: تنقّص من أعمالهم. و أخرج ابن جرير عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى‏ تَخَوُّفٍ فقالوا: ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردّده من الآيات، فقال عمر: ما أرى إلا أنه على ما يتنقصون من معاصى اللّه، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقى أعرابيا، فقال: يا فلان، ما فعل ربك؟ قال: قد تخيفته، يعنى انتقصته، فرجع إلى عمر فأخبره، فقال: قد رأيته ذلك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى‏ تَخَوُّفٍ قال: يأخذهم بنقص بعضهم بعضا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَتَفَيَّؤُا قال: يتميل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ هُمْ داخِرُونَ قال: صاغرون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ الآية قال: لم يدع شيئا من خلقه إلا عبده له طائعا أو كارها. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: يسجد من فى السّموات طوعا، و من فى الأرض طوعا و كرها.

[سورة النحل (16): الآيات 51 الى 62]

وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (53) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى‏ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى‏ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى‏ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى‏ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)

فتح القدير، ج‏3، ص: 202

لما بيّن سبحانه أن مخلوقاته السماوية و الأرضية منقادة له، خاضعة لجلاله، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك بقوله: وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فنهى سبحانه عن اتّخاذ إلهين، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة فى إله واحد و هو اللّه سبحانه؛

و قد قيل: إنّ التثنية فى إلهين قد دلّت على الاثنينية، و الإفراد فى إله قد دلّ على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، و وصف إله بواحد؟ فقيل فى الجواب: إن فى الكلام تقديما و تأخيرا، و التقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله، و قيل: إن التكرير لأجل المبالغة فى التنفير عن اتخاذ الشريك؛ و قيل: إن فائدة زيادة اثنين هى أن يعلم أن النهى راجع إلى التعدّد لا إلى الجنسية، و فائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة فى نفسها، و إنما خلاف المشركين فى الواحدية، ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال: فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ أى: إن كنتم راهبين شيئا فإياى فارهبون لا غيرى، و قد مرّ مثل هذا فى أوّل البقرة. ثم لما قرّر سبحانه وحدانيته، و أنه الذى يجب أن يخصّ بالرهبة منه و الرغبة إليه، ذكر أن الكلّ فى ملكه و تحت تصرّفه فقال: وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و هذه الجملة مقررة لمن تقدّم فى قوله: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إلى آخره، و تقديم الخبر لإفادة الاختصاص وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً أى: ثابتا واجبا دائما لا يزول، و الدين: هو الطاعة و الإخلاص. قال الفراء: واصِباً معناه دائما، و منه قول الدّؤلى:

أبتغى الحمد القليل بقاؤهبذمّ يكون الدّهر أجمع واصبا

أى: دائما. و روى عن الفراء أيضا أنه قال: الواصب: الخالص، و الأوّل أولى، و منه قوله سبحانه:

وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ «۱» أى: دائم. و قال الزجّاج: أى: طاعته واجبة أبدا. ففسّر الواصب بالواجب.

و قال ابن قتيبة فى تفسير الواصب: أى: ليس أحد يطاع إلا انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير اللّه تعالى فإن الطاعة تدوم له، ففسّر الواصب بالدائم، و إذا دام الشىء دواما لا ينقطع فقد وجب و ثبت، يقال وصب الشىء يصب وصوبا فهو واصب؛ إذا دام، و وصب الرجل على الأمر؛ إذا واظب عليه؛ و قيل: الوصب التعب و الإعياء، أى: يجب طاعة اللّه سبحانه و إن تعب العبد فيها و هو غير مناسب لما فى الآية، و الاستفهام فى قوله: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ للتقريع و التوبيخ، و هو معطوف على مقدّر كما فى نظائره، و المعنى: إذا كان الدين، أى: الطاعة واجبا له دائما لا ينقطع؛ كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به و عدم إيقاعها لغيره. ثم امتنّ سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال: وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ أى: ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن اللّه: أى فهى منه، فتكون ما شرطية، و يجوز أن تكون موصولة متضمّنة معنى الشرط، و بكم صلتها، و من نعمة حال من الضمير فى الجار و المجرور،

---

(۱). الصافات: ۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۳

أو بيان لما. و قوله: فَمِنَ اللَّهِ الخبر، و على كون ما شرطية يكون فعل الشرط محذوفا أى: ما يكن، و النعمة إما دينية و هى معرفة الحق لذاته و معرفة الخير لأجل العمل به، و إما دنيوية نفسانية، أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية و غيرها، و كلّ واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها، و الكل من اللّه سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه، ثم بيّن تلوّن الإنسان بعد استغراقه فى بحر النعم فقال: ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ أى: إذا مسكم الضرّ، أىّ مس، فإلى اللّه سبحانه لا إلى غيره تتضرّعون فى كشفه فلا كاشف له إلا هو، يقال: جأر يجأر جؤارا: إذا رفع صوته فى تضرع. قال الأعشى «۱» يصف بقرة:

فطافت ثلاثا بين يوم و ليلةو كان النّكير أن تضيف «۲» و تجأرا

و الضرّ: المرض و البلاء و الحاجة و القحط، و كلّ ما يتضرّر به الإنسان ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ أى: إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضرّ إِذا فَرِيقٌ أى: جماعة منكم بِرَبِّهِمْ الذى رفع الضر عنهم يشركون فيجعلون معه إلها آخر من صنم أو نحوه، و الآية مسوقة للتعجيب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراك باللّه الذى أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من

الضرّ مكان الشكر له، و هذا المعنى قد تقدّم فى الأنعام و يونس، و يأتى فى سبحان «٣». قال الزجّاج: هذا خاص بمن و كفر. و قابل كشف الضرّ عنه بالجحود و الكفر، و على هذا فتكون «من» فى «مِنْكُمْ» للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعا، و الفريق هم الكفرة و إن كان الخطاب موجها إلى الكفار فمن للبيان، و اللام فى لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ لام كى، أى: لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضرّ، و حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع فى موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم و مقصد من مقاصدهم، و هذا غاية فى العتوّ و العناد ليس وراءها غاية؛ و قيل: اللام للعاقبة، يعنى: ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا هذا الكفر. ثم قال سبحانه على سبيل التهديد و الترهيب ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب فَتَمَتَّعُوا بما أنتم فيه من ذلك فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة أمركم و ما يحل بكم فى هذه الدار و ما تصيرون إليه فى الدار الآخرة. ثم حكى سبحانه نوعا آخر من قبائح أعمالهم فقال: وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ أى: يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار إلى اللّه سبحانه فى كشف الضرّ عنهم و ما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم باللّه و الإشراك به، و مع ذلك يجعلون لما لا- يعلمون حقيقته من الجمادات و الشياطين نصيبا مما رزقناهم من أموالهم يتقرّبون به إليه. و قيل: المعنى: أنهم، أى: الكفار، يجعلون للأصنام و هم لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات، ففاعل يعلمون على هذا هى الأصنام، و أجراها مجرى العقلاء فى جمعها بالواو و النون جريا على اعتقاد الكفار فيها.

و حاصل المعنى: و يجعل هؤلاء الكفار للأصنام التى لا تعقل شيئا نصيبا من أموالهم التى رزقهم اللّه إياها

---

(١). الذى فى اللسان مادة «ضيف» أنه النابغة الجعدى.

(٢). فى المطبوع: تطيف، و التصحيح من اللسان و تفسير القرطبى (١٠/ ١١٥). «تضيف»: تشفق و تحذر.

«النكير»: الإنكار. «تجأر»: تصيح.

(٣). أى: فى سورة الإسراء.

تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، و هذا السؤال سؤال تقريع و توبيخ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ تختلقونه من الكذب على اللّه سبحانه فى الدنيا وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ هذا نوع آخر من فضائحه و قبائحهم، و قد كانت خزاعة و كنانة تقول: الملائكة بنات اللّه سُبْحانَهُ نزّه سبحانه نفسه عما نسبه إليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة و لا أفهام مستقيمة إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ «١» و فى هذا التنزيه تعجيب من حالهم وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ أى: و يجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين على أن «ما» فى محل نصب بالفعل المقدّر، و يجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء. و أنكر النصب الزجاج قال: لأن العرب لا يقولون جعل له كذا و هو يعنى نفسه، و إنما يقولون جعل لنفسه كذا، فلو كان منصوبا لقال و لأنفسهم ما يشتهون. و قد أجاز النصب الفراء. ثم ذكر سبحانه كراهتهم للإناث التى جعلوها للّه سبحانه فقال: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى أى: إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا أى:

متغيرا، و ليس المراد السواد الذى هو ضدّ البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار و التغير بما يحصل من الغمّ، و العرب تقول لكل من لقى مكروها قد اسودّ وجهه غمّا و حزنا قاله الزجاج. و قال الماوردى:

بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: و هو قول الجمهور، و الأوّل أولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب و حزن و اغتمّ لا يحصل فى لونه إلا- مجرد التغير و ظهور الكآبة و الانكسار لا السواد الحقيقى، و جملة وَ هُوَ كَظِيمٌ فى محل نصب على الحال، أى: ممتلئ من الغمّ، مأخوذ من الكظامة و هو سدّ فم البئر قاله علىّ ابن عيسى، و قد تقدّم فى سورة يوسف «٢» يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ

أی: يتغيب و يختفی مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أی: من سوء الحزن و العار و الحياء الـذی يلحقه بسبب حـدوث البنت له أَ يُمْسِـكُهُ عَلى هُونٍ أی:

لا يزال متردّدا بين الأمرين: و هو إمساك البنت التی بشّر بها، أو دفنها فی التراب عَلى هُونٍ أی: هوان، و كذا قرأ عيسـى الثقفیّ. قـال اليزيـدیّ: و الهون الهوان بلغـة قريش، و كـذا حكاه أبو عبيـد عن الكسائیّ، و حكی عن الكسائیّ أنه البلاء و المشـقة، قالت الخنساء:

نهين النفوس و هون النفوس يوم الكريهة أبقى لها

و قال الفراء: الهون القليل بلغـة تميم. و حكی النحاس عن الأعمش أنه قرأ: «أ يمسـكه على سوء» أَمْ يَدُسُّهُ فِی التُّرابِ أی: يخفيه فی التراب بالوأد كما كانت تفعله العرب، فلا يزال الـذی بشـر بحدوث الأنثى متردّدا بين هذين الأمرين، و التذكير فی يمسكه و يـدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعايـة اللفظ. و قرأ الجحدری «أم يدسـها فی التراب» و يلزمه أن يقرأ أ يمسـكها، و قيل: دسّـها: إخفاؤهـا عن الناس حتى لا تعرف كالمـدسوس لإخفائه عن الأبصار أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ حيث أضافوا البنات التی يكرهونها إلى اللّه سـبحانه و أضافوا البنين المحبوبين عندهم إلى أنفسهم، و مثل هذا قوله تعالى: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى «٣». لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ أی: لهؤلاء الذين وصفهم اللّه سبحانه بهذه القبائح

---

(١). الفرقان: ۴۴.

(٢). أی: الآية: ٨۴.

(٣). النجم: ٢١ و ٢٢.

الفظيعة مثل السوء، أی: صفة السوء من الجهل و الكفر باللّه؛ و قيل: هو وصفهم للّه سبحانه بالصاحبة و الولد؛ و قيل: هو حاجتهم إلى الولـد ليقوم مقـامهم و وأد البنات لـدفع العار و خشـية الإملاق؛ و قيل: العـذاب و النار وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى و هو أضـداد صـفة المخلوقين من الغنى الكامـل و الجود الشامل و العلم الواسع، أو التوحيـد و إخلاص العبادة، أو أنه خالق رازق قادر مجاز؛ و قيل: شهـادة أن لا إله إلا اللّه، و قيل: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ «١». وَ هُوَ الْعَزِيزُ الذی لا يغالب فلا يضرّه نسبتهم إليه ما لا يليق به الْحَكِيمُ فی أفعاله و أقواله. ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بيّن سعة كرمه و حلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة و لم يؤاخـذهم بظلمهم، فقال: وَ لَوْ يُؤاخِـذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ و المراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة ما تَرَكَ عَلَيْها أی: على الأرض و إن لم يـذكر فقد دلّ عليها ذكر الناس و ذكر الدابة، فإن الجميع مستقرّون على الأرض، و المراد بالدابة الكافر، و قيل: كـلّ مـا دبّ؛ و قـد قيل على هـذا كيف يعمّ بالهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له؟ و أجيب بإهلاك الظالم انتقاما منه، و إهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره، و إن كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين، و للّه الحكمـة البالغة لا يُسْـئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْـئَلُونَ «٢»، و مثل هـذا قوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «٣». و فی معنى هـذا أحاديث منها ما عند مسلم و غيره من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إذا أراد اللّه بقوم عذابا أصاب العذاب من كـان فيهم ثم بعثوا على نيـاتهم»، و كـذلك حـديث الجيش: «الـذين يخسف بهم فی البيـداء، و فی آخره: أنهم يبعثون على نياتهم» و قـد قدّمنا عند تفسير قوله سـبحانه: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً الآية تحقيقا حقيقا بالمراجعة له وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى معلوم عنـده و هو منتهى حياتهم و انقضاء أعمارهم أو أجل عـذابهم، و فی هـذا التأخير حكمـة بالغة منها الإعذار إليهم و إرخاء العنان معهم، و منهـا حصول من سبق فی علمه من أولادهم فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ الـذی سـمّاه لهم حقت عليهم كلمـة اللّه سـبحانه فی ذلك

الوقت من دون تقدّم عليه و لا تأخر عنه، و الساعة المدّة القليلة، و قد تقدّم تفسيرها هذا و تحقيقه.
ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم و حمقهم فقال: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ أى: ينسبون إليه سبحانه ما يكرهون نسبته إلى أنفسهم من البنات، و هو تكرير لما قد تقدّم لقصد التأكيد و التقرير و لزيادة التوبيخ و التقريع وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ هذا من النوع الآخر الذى ذكره سبحانه من قبائحهم و هو، أى: هذا الذى تصفه ألسنتهم من الكذب هو قولهم: أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى أى: الخصلة الحسنى، أو العاقبة الحسنى. قال الزجّاج: يصفون أن لهم مع قبح قولهم من اللّه الجزاء الحسن. قال الزجاج أيضا و الفراء: أبدل من قوله و تصف ألسنتهم الكذب قوله أن لهم الحسنى، و الكذب منصوب على أنه مفعول تصف. و قرأ ابن عباس و أبو العالية و مجاهد و ابن محيصن: الكذب برفع الكاف و الذال و الباء على أنه صفة للألسن و هو جمع كذوب، فيكون المفعول على هذا هو أن لهم الحسنى. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ أى: حقا أن لهم مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار، و قد تقدّم تحقيق هذا وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ قال ابن الأعرابى

---

(١). النور: ٣٥.

(٢). الأنبياء: ٢٣.

(٣). الأنفال: ٢٥.

و أبو عبيدة: أى: متروكون منسيون فى النار، و به قال الكسائى و الفراء فيكون مشتقا من أفرطت فلانا خلفى:
إذا خلفته و نسيته. و قال قتادة و الحسن: معجّلون إليها مقدّمون فى دخولها من أفرطته، أى: قدّمته فى طلب الماء، و الفارط هو الذى يتقدّم إلى الماء، و الفرّاط المتقدّمون فى طلب الماء، و الورّاد المتأخرون، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنا فرطكم على الحوض» أى: متقدّمكم. قال القطامىّ:
فاستعجلونا و كانوا من صحابتنا كما تعجّل فرّاط لورّاد
و قرأ نافع فى رواية ورش مُفْرِطُونَ بكسر الراء و تخفيفها، و هى قراءة ابن مسعود و ابن عباس؛ و معناه: مسرفون فى الذنوب و المعاصى؛ يقال: أفرط فلان على فلان؛ إذا أربى عليه و قال له أكثر مما قال من الشرّ. و قرأ أبو جعفر القارى: مُفَرِّطُونَ بكسر الراء و تشديدها؛ أى: مضيعون أمر اللّه، فهو من التفريط فى الواجب. و قرأ الباقون «مفرطون» بفتح الراء مخففا، و معناه: مقدّمون إلى النار.
و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً قال: الدين الإخلاص، و واصبا دائما. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً قال:
لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس واصِباً قال: دائما. و أخرج الفريابى و ابن جرير عنه قال واجبا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد تَجْئَرُونَ قال: تتضرعون دعاء. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: تصيحون بالدعاء. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ قال: وعيد. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ الآية قال: يعلمون أن اللّه خلقهم و يضرّهم و ينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرّهم و لا ينفعهم نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم و شياطينهم مما رزقهم اللّه، و جزءوا من أموالهم جزءا؛ فجعلوه لأوثانهم و شياطينهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: هو قولهم: «هذا للّه بزعمهم و هذا لشركائنا» «١». و أخرج ابن جرير و ابن أبى

حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ الآيـة يقول: يجعلون لى البنات يرتضونهن لى و لا يرتضونهنّ لأنفسهم، و ذلک أنهم كانوا فى الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هوان أو دسّها فى التراب و هى حية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاک وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ قال: يعنى به البنين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ قال: يئد ابنته. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ قال: بئس ما حكموا، يقول: شىء لا يرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لى. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى قال: يقول ليس كمثله شىء.

---

(١). الأنعام: ١٣۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٠٧

و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ قال: ما سقاهم المطر.

و أخرج أيضا عن السدّى نحوه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: قد فعل ذلک فى زمن نوح، أهلک اللّه ما على ظهر الأرض من دابة إلا ما حمل فى سفينته. و أخرج أحمد فى الزهد، عن ابن مسعود قال: ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره، ثم قال: إى و اللّه، زمن غرق قوم نوح. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عنه قال: كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا عن أنس نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة، أنه سمع رجلا يقول: إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه، قال أبو هريرة: بلى و اللّه إن الحبارى لتموت هزالا فى و كرها من ظلم الظالم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاک وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ قال: يجعلون له البنات و يكرهون ذلک لأنفسهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى قال:

قول كفار قريش لنا البنون و له البنات. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ قال: منسيّون. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة قال: معجلون. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه.

[سورة النحل (١۶): الآيات ۶٣ الى ۶٩]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶٣) وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۶۴) وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۶٧)

وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (۶٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶٩)

بيّن سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم، فقال مسليا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ أى: رسلا فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ الخبيثة فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قرينهم فى الدنيا، و يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة و ما بعده، فيكون للحال الآتية، و يكون الولىّ بمعنى الناصر، و المراد نفى الناصر عنهم على أبلغ الوجوه؛ لأن الشيطان لا يتصوّر منه النصرة أصلا فى الدار الآخرة، و إذا كان الناصر منحصرا فيه لزم أن لا نصرة من غيره، و يحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا، و هو على وجهين: الأوّل: أن يراد البعض

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٠٨

الذى قد مضى، و هو الذى وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية.

الثانى: أن يراد البعض الحاضر، و هو وقت نزول الآية. و المراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير فى وَلِيُّهُمُ لكفار قريش، أى: فهو ولىّ هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف، أى: فهو ولىّ أمثال أولئك الأمم اليوم وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: فى الآخرة و هو عذاب النار. ثم ذكر سبحانه أنه ما هلك من هلك إلا بعد إقامة الحجة عليهم و إزاحة العلة منهم، فقال: وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ و هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المراد بالكتاب القرآن، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى: ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال و لا لعلة من العلل إلا لعلّة التبيين لهم، أى: للناس الذى اختلفوا فيه من التوحيد و أحوال البعث و سائر الأحكام الشرعية، وَ انتصاب هُدىً وَ رَحْمَةً على أنهما مفعول لهما معطوفان على محل لتبين، و لا حاجة إلى اللام؛ لأنهما فعلا فاعل الفعل المعلل، بخلاف التبيين فإنه فعل المخاطب لا فعل المنزل لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه سبحانه و يصدّقون ما جاءت به الرسل و نزلت به الكتب.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير وجوده و تفرّده بالإلهية بذكر آياته العظام فقال: وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً أى: من السحاب، أو من جهة العلو كما مرّ، أى: نوعا من أنواع الماء فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أى: أحياها بالنبات بعد أن كانت يابسة لا حياة بها إِنَّ فِي ذلِكَ الإنزال و الإحياء لَآيَةً أى:

علامة دالة على وحدانيته و على بعثه للخلق و مجازاتهم لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ كلام اللّه و يفهمون ما يتضمنه من العبر، و يتفكّرون فى خلق السموات و الأرض وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً الأنعام هى الإبل و البقر و الغنم و يدخل فى الغنم المعز، و العبرة أصلها تمثيل الشى‏ء بالشى‏ء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة، و منه: فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ «١». و قال أبو بكر الوراق: العبرة فى الأنعام تسخيرها لأربابها و طاعتها لهم، و الظاهر أن العبرة هى قوله: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة. قرأ أهل المدينة و ابن عامر و عاصم فى رواية أبى بكر نُسْقِيكُمْ بفتح النون من سقى يسقى. و قرأ الباقون و حفص عن عاصم بضم النون من أسقى يسقى، قيل: هما لغتان. قال لبيد:

سقى قومى بنى مجد و أسقى نميرا و القبائل من هلال

و قرئ بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الأنعام، و قرئ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى اللّه سبحانه، و هما ضعيفتان، و جميع القرّاء على القراءتين الأوليين، و الفتح لغة قريش، و الضم لغة حمير؛ و قيل: إن بين سقى و أسقى فرقا، فإذا كان الشراب من يد الساقى إلى فم المسقى فيقال سقيته، و إن كان بمجرّد عرضه عليه و تهيئته له قيل أسقاه. و الضمير فى قوله: مِمَّا فِي بُطُونِهِ راجع إلى الأنعام. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. و قال الزجّاج: لما كان لفظ الجمع يذكّر و يؤنّث، فيقال هو الأنعام، و هى الأنعام جاز عود الضمير بالتذكير. و قال الكسائى: معناه ممّا فى بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد إلى المذكور.

---

(١). الحشر: ٢.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۰۹

قال الفراء: و هو صواب. و قال المبرد: هذا فاش فى القرآن كثير مثل قوله للشمس هذا رَبِّي* «۱» يعنى هذا الشىء الطالع، و كذلك: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ «۲»، ثم قال: فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ «۳»، و لم يقل جاءت لأن المعنى جاء الشىء الذى ذكرنا انتهى، و من ذلك قوله: إِنَّها تَذْكِرَةٌ- فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ «۴» و مثله قول الشاعر:

مثل الفراخ نتفت حواصله و لم يقل حواصلها. و قول الآخر:

و طاب إلقاح اللبان و برد و لم يقل و بردت. و حكى عن الكسائى أن المعنى مما فى بطون بعضه و هى الإناث؛ لأن الذكور لا ألبان لها، و به قال أبو عبيدة، و حكى عن الفراء أنه قال: النعم و الأنعام واحد يذكر و يؤنث، و لهذا تقول العرب:

هذه نعم وارد فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذى هو بمعنى الأنعام، و هو كقول الزجّاج و رجّحه ابن العربى فقال: إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع، و التأنيث إلى معنى الجماعة، فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع و أنّثه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَم الفرث: الزبل الذى ينزل إلى الكرش، فإذا خرج منه لم يسم فرثا، يقال: أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها. و المعنى: أن الشىء الذى تأكله يكون منه ما فى الكرش، و هو الفرث و يكون منه الدم، فيكون أسفله فرثا، و أعلاه دما، و أوسطه لَبَناً فيجرى الدم فى العروق و اللبن فى الضروع، و يبقى الفرث كما هو خالِصاً يعنى من حمرة الدم و قذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحد سائِغاً لِلشَّارِبِينَ أى: لذيذا هنيئا لا يغصّ به من شربه، يقال: ساغ الشراب يسوغ سوغا، أى: سهل مدخله فى الحلق وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ قال ابن جرير: التقدير:

و من ثمرات النخيل و الأعناب ما تتخذون، فحذف و دلّ على حذفه قوله منه، و قيل: هو معطوف على الأنعام، و التقدير: و إن لكم من ثمرات النخيل و الأعناب لعبرة، و يجوز أن يكون معطوفا على مما فى بطونه، أى:

نسقيكم مما فى بطونه و من ثمرات النخيل، و يجوز أن يتعلق بمحذوف دلّ عليه ما قبله تقديره: و نسقيكم من ثمرات النخيل، و يكون على هذا تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً بيانا للإسقاء و كشفا عن حقيقته، و يجوز أن يتعلّق بتتخذون، تقديره و من ثمرات النخيل و الأعناب ثمر تتخذون منه سكرا، و يكون تكرير الظرف، و هو قوله منه للتأكيد كقولك زيد فى الدار فيها، و إنما ذكر الضمير فى منه لأنه يعود إلى المذكور، أو إلى المضاف المحذوف؛ و هو العصير، كأنه قيل: و من عصير ثمرات النخيل و الأعناب تتخذون منه، و السكر ما يسكر من الخمر، و الرزق الحسن جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالثمر و الدبس و الزبيب و الخل، و كان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر؛ و قيل: إن السكر الخلّ بلغة الحبشة، و الرزق الحسن الطعام من الشجرتين؛ و قيل:

السكر العصير الحلو الحلال، و سمّى سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى، فإذا بلغ الإسكار حرم. و القول

---

(۱). الأنعام: ۷۸.

(۲). النمل: ۳۵.

(۳). النمل: ۳۶.

(۴). عبس: ۱۱ و ۱۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۰

الأوّل أولى و عليه الجمهور، و قد صرّح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر، و لم يخالف فى ذلك إلا أبو عبيدة، فإنه قال: السكر: الطعم، و ممّا يدلّ على ما قاله جمهور أهل اللغة قول الشاعر:

بئس الصحاب «۱» و بئس الشرب شربهمإذا جرى فيهم الهذى «۲» و السّكر

و ممّا يدلّ على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده:

جعلت عيب الأكرمين سكرا أى: جعلت ذمّهم طعما، و رجّح هذا ابن جرير فقال: إن السكر ما يطعم من الطعام و يحلّ شربه من ثمار النخيل و الأعناب و هو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف و المعنى واحد، مثل: إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ «۳». قال الزجاج: قول أبى عبيدة هذا لا يعرف، و أهل التفسير على خلافه و لا حجة فى البيت الذى أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس، و قد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة و على ما ذهب ثلثاه بالطبخ، قالوا: و إنما يمتنّ اللّه على عباده بما أحلّه لهم لا بما حرّمه عليهم، و هذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر، اه. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أى: لدلالة لمن يستعمل العقل و يعمل بما يقتضيه عند النظر فى الآيات التكوينية وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ قد تقدّم الكلام فى الوحى و أنه يكون بمعنى الإلهام، و هو ما يخلقه فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، و منه قوله سبحانه: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها «۴»، و من ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها و ترك ما يضرّها، و قرأ يحيى بن وثّاب إِلَى النَّحْلِ بفتح الحاء. قال الزجاج: و سمى نحلا لأن اللّه سبحانه نحله العسل الذى يخرج منه. قال الجوهرى: و النحل و النحلة الدّبر يقع على الذكر و الأنثى أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً أى: بأن اتخذى، على أنّ «أن» هى المصدرية، و يجوز أن تكون تفسيرية؛ لأن فى الإيحاء معنى القول، و أنّث الضمير فى اتخذى لكونه أحد الجائزين كما تقدّم، أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعا، و أهل الحجاز يؤنّثون النحل و مِنَ فى «مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً» و كذا فى مِنَ الشَّجَرِ و كذا فى مِمَّا يَعْرِشُونَ للتبعيض، أى: مساكن توافقها و تليق بها فى كوى الجبال و تجويف الشجر، و فى العروش التى يعرشها بنو آدم من الأجباح «۵» و الحيطان و غيرها، و أكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب، يقال عرش يعرش بكسر الراء و ضمها. و بالضم قرأ ابن عامر و شعبة. و قرأ الباقون بالكسر.

و قرئ أيضا بيوتا بكسر الباء و ضمّها ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ من للتبعيض لأنها تأكل النّور من الأشجار فإذا أكلتها فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ أى: الطرق التى فهّمك اللّه و علّمك، و أضافها إلى الربّ لأنه خالقها

---

(۱). فى تفسير القرطبى: الصّحاة.

(۲). فى تفسير القرطبى: المزّاء.

(۳). يوسف: ۸۶.

(۴). الشمس: ۷ و ۸.

(۵). جاء فى القاموس: الجبح- يثلث-: خلية العسل، ج أجبح و أجباح.

و ملهم النحل أن تسلكها؛ أى ادخلى طرق ربّك لطلب الرزق فى الجبال و خلال الشجر، أو اسلكى ما أكلت فى سبل ربك، أى: فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته النّور عسلا أو إذا أكلت الثمار فى الأمكنة البعيدة فاسلكى إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلّين فيها، و انتصاب ذُلُلًا على الحال من السّبل، و هى جمع ذلول؛ أى: مذلّلة غير متوعّرة، و اختار هذا الزجاج و ابن جرير، و قيل: حال من النحل، يعنى: مطيعة للتسخير و إخراج العسل من بطونها، و اختار هذا ابن قتيبة، و جملة يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها مستأنفة عدل به عن خطاب النحل، تعديدا للنعم، و تعجيبا لكل سامع، و تنبيها على العبرة، و إرشادا إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب، و المراد بال شَرابٌ فى الآية هو العسل، و معنى مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ أن بعضه أبيض و بعضه أحمر و بعضه

أزرق و بعضه أصفر باختلاف ذوات النحل و ألوانها و مأكولاتها. و جمهور المفسّرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل؛ و قيل: من أسفلها؛ و قيل: لا يدرى من أين يخرج منها، و الضمير فى قوله: فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ راجع إلى الشراب الخارج من بطون النحل و هو العسل، و إلى هذا ذهب الجمهور. و قال الفراء و ابن كيسان و جماعة من السلف: إن الضمير راجع إلى القرآن، و يكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات و البراهين شفاء للناس، و لا وجه للعدول عن الظاهر و مخالفة المرجع الواضح و السياق البيّن.

و قد اختلف أهل العلم: هل هذا الشّفاء الذى جعله اللّه فى العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض؟

فقالت طائفة: هو على العموم، و قالت طائفة: إن ذلك خاصّ ببعض الأمراض، و يدل على هذا أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عاما، و تنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض أو أمراض، لا لكل مرض، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم، و الظاهر المستفاد من التجربة و من قوانين علم الطب، أنه إذا استعمل منفردا كان دواء لأمراض خاصة و إن خلط مع غيره كالمعاجين و نحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض. و بالجملة فهو من أعظم الأغذية و أنفع الأدوية، و قليلا ما يجتمع هذان الأمران فى غيره إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من أمر النحل لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أى: يعملون أفكارهم عند النظر فى صنع اللّه سبحانه و عجائب مخلوقاته، فإن أمر النحل من أعجبها و أغربها و أدقّها و أحكمها.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحّاس، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، و ابن مردويه عن ابن عباس أنه سئل عن قوله:

تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً قال: السكر: ما حرم من ثمرتهما، و الرزق الحسن: ما حلّ. و أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: السكر: الحرام، و الرزق الحسن: زبيبه و خلّه و عنبه و منافعه.

و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: السكر النبيذ، و الرزق الحسن الزبيب، فنسختها هذه الآية: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عنه أيضا فى الآية قال: فحرّم اللّه بعد ذلك السكر منع تحريم الخمر لأنه منه، ثم قال: وَ رِزْقاً حَسَناً فهو الحلال من الخلّ و الزبيب و النبيذ و أشباه ذلك، فأقرّه اللّه و جعله حلالا للمسلمين. و أخرج الفريابى و ابن أبى

شيبة و ابن حاتم عن ابن عمر أنه سئل عن السكر، فقال: الخمر بعينها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود قال: السكر خمر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ أَوْحى‏ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ قال: ألهمها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا قال: طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة ذُلُلًا قال: مطيعة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: ذليلة.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ قال: العسل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: هو العسل فيه الشفاء و فى القرآن. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن ابن مسعود قال: إن العسل شفاء من كل داء، و القرآن شفاء لما فى الصدور. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاءين العسل و القرآن. و أخرج ابن ماجة، و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ابن السنى و أبو نعيم و الخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «عليكم بالشّفاءين العسل و القرآن». و قد وردت أحاديث فى كون العسل شفاء؛ منها ما أخرجه البخارى من حديث ابن عباس

عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الشّفاء فی ثلاثة فی شرطة محجم أو شربة عسل أو كيّة بنار، و أنا أنهى أمتی عن الكیّ».
و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما من حديث أبی سعيد: «أن رجلا أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه إن أخی استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلا، فسقاه عسلا، ثم جاء فقال: سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا، قال: اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: صدق اللّه و كذب بطن أخيك؛ اذهب فاسقه عسلا، فذهب فسقاه عسلا فبرأ» «۱».

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۰ الى ۷۴]

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۷۰) وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۷۱) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (۷۲) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لا يَسْتَطِيعُونَ (۷۳) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۷۴)

لما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان و ما فيها من عجائب الصنعة الباهرة، و خصائص القدرة القاهرة، أتبعه بعجائب خلق الإنسان و ما فيه من العبر، فقال: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ و لم تكونوا شيئا ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ عند انقضاء آجالكم وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ يقال: رذل يرذل رذالة، و الأرذل و الرذالة: أردأ الشيء و أوضعه. قال النيسابوری: و اعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان فی أربع: أولاها سنّ النشو.

---

(۱). جاء فی لسان العرب: أهل الحجاز يقولون: برأت من المرض برءا بالفتح، و سائر العرب يقولون: برئت من المرض.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۳

و ثانيها: سنّ الوقوف و هو سنّ الشباب. و ثالثها: سنّ الانحطاط اليسير، و هو سنّ الكهولة. و رابعها: سنّ الانحطاط الظاهر، و هو سنّ الشيخوخة. قيل: و أرذل العمر هو عند أن يصير الإنسان إلى الخرف، و هو أن يصير بمنزلة الصبیّ الذی لا عقل له؛ و قيل: خمس و سبعون سنة، و قيل: تسعون سنة، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ- ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ «۱». ثم علل سبحانه ردّ من يرده إلى أرذل العمر بقوله: لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ كان قد حصل له شَيْئاً من العلم لا كثيرا و لا قليلا أو شيئا من المعلومات إذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم؛ و قيل: المراد بالعلم هنا العقل، و قيل: المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذی قد حصل له قبل ذلك. ثم لما بيّن سبحانه خلق الإنسان و تقلبه فی أطوار العمر ذكر طرفا من أحواله لعلّه يتذكر عند ذلك فقال: وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فجعلكم متفاوتين فيه فوسّع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفی ألوفا مؤلفة من بنی آدم، و ضيّقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس و التكفّف لهم، و ذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقّلها و الاطلاع على حقيقة أسبابها، و كما جعل التفاوت بين عباده فی المال جعله بينهم فی العقل و العلم و الفهم و قوّة البدن و ضعفه و الحسن و القبح و الصحة و السقم و غير ذلك من الأحوال؛ و قيل: معنى الآية:
أن اللّه سبحانه أعطى الموالی أفضل مما أعطى مماليكهم بدليل قوله: فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ أی: فما الذين فضلهم اللّه بسعة الرزق على غيرهم برادّی رزقهم الذی رزقهم اللّه إياه على ما ملكت أيمانهم من المماليك فَهُمْ أی: المالكون و المماليك فِيهِ أی: فی الرزق سَواءٌ أی: لا يردّونه عليهم بحيث يساوونهم، فالفاء على هذا للدلالة على أن التساوی

مترتب على الترادّ، أى: لا يردونه عليهم ردّا مستتبعا للتساوى، و إنما يردّون عليهم منه شيئا يسيرا، و هذا مثل ضربه اللّه سبحانه بعبدة الأصنام، أى: إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء و لا ترضون بذلك، فكيف تجعلون عبيدى معى سواء و الحال أن عبيدكم مساوون لكم فى البشرية و المخلوقية، فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم فى أموالكم، فكيف تجعلون بعض عباد اللّه سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه، أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له فى العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ «٢». و قيل: إن الفاء فى «فهم فيه سواء» بمعنى حتى أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ حيث تفعلون ما تفعلون من الشرك، و النعمة هى كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك، و قد قرئ يَجْحَدُونَ بالتحتية و الفوقية. قال أبو عبيدة و أبو حاتم: و قراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه، و لأنه لو كان خطابا لكان ظاهره للمسلمين، و الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر، أى: يشركون به فيجحدون نعمته، و يكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّى رزقهم على مماليكهم، بل أنا الذى أرزقهم و إياهم فلا يظنوا أنهم يعطونهم شيئا، و إنما هو رزقى أجريه على أيديهم، و هم جميعا فى ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم، فيكون المعطوف عليه المقدّر فعلا يناسب هذا المعنى، كأن

---

(١). التين: ۴ و ۵.

(٢). الروم: ٢٨.

يقال: لا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة اللّه. ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً قال المفسرون: يعنى النساء فإنه خلق حوّاء من ضلع آدم، أو المعنى:

خلق لكم من جنسكم أزواجا لتستأنسوا بها، لأن الجنس يأنس إلى جنسه و يستوحش من غير جنسه، و بسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال و النساء ما هو سبب للنسل الذى هو المقصود بالزواج، و لهذا قال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً الحفدة: جمع حافد، يقال: حفد يحفد حفدا و حفودا؛ إذا أسرع، فكل من أسرع فى الخدمة فهو حافد، قال أبو عبيد: الحفد: العمل و الخدمة.

قال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب الخدم، و من ذلك قول الشاعر، و هو الأعشى:

كلّفت مجهولها نوقا يمانيةإذا الحداة على أكتافها «١» حفدوا

أى: الخدم و الأعوان. و قال الأزهرى: قيل: الحفدة: أولاد الأولاد، و روى عن ابن عباس؛ و قيل:

الأختان، قاله ابن مسعود و علقمة و أبو الضّحى و سعيد بن جبير و إبراهيم النّخعى، و منه قول الشاعر «٢»:

فلو أنّ نفسى طاوعتنى لأصبحت‌لها حفد مما يعدّ كثير

و لكنّها نفس علىّ أبيةعيوف لإصهار «٣» اللئام قذور

و قيل: الحفدة الأصهار. قال الأصمعى: الختن من كان من قبل المرأة كابنها و أخيها و ما أشبههما، و الأصهار منهما جميعا، يقال: أصهر فلان إلى بنى فلان و صاهر؛ و قيل: هم أولاد امرأة الرجل من غيره؛ و قيل: الأولاد الذين يخدمونه؛ و قيل: البنات الخادمات لأبيهنّ. و رجّح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد؛ لأنه سبحانه امتنّ على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين و حفدة، فالحفدة فى الظاهر معطوفون على البنين و إن كان يجوز أن يكون المعنى: جعل لكم من أزواجكم بنين و جعل لكم حفدة، و لكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم، و بالحفدة من يخدم الأب منهم، أو يراد بالحفدة البنات فقط، و لا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية: و جعل لكم من أزواجكم بنين، و من البنين حفدة وَ رَزَقَكُمْ

مِنَ الطَّيِّباتِ التى تستطيبونها و تستلذونها، و من للتبعيض؛ لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا فى الجنة، ثم ختم سبحانه الآية بقوله: أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ و الاستفهام للإنكار التوبيخى، و الفاء للعطف على مقدّر، أى: يكفرون باللّه فيؤمنون بالباطل، و فى تقدّم فَبِالْباطِلِ على الفعل دلالة على أنه ليس لهم إيمان إلا به، و الباطل هو اعتقادهم فى أصنامهم أنها تضر و تنفع؛ و قيل: الباطل ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البحيرة و السائبة و نحوهما. قرأ الجمهور يُؤْمِنُونَ بالتحتية، و قرأ أبو بكر بالفوقية على الخطاب وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ أى: ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر، و فى تقديم النعمة و توسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك، لا يتجاوزه لقصد المبالغة و التأكيد وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هو معطوف على

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٠/ ١٤٣): اكسائها. و هو جمع كسى، و هو مؤخّر العجز.

(٢). هو جميل بن معمر.

(٣). فى البحر: لأصحاب.

يكفرون داخل تحت الإنكار التوبيخى إنكارا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام، و هى لا تنفع و لا تضرّ، و لهذا قال: ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً قال الأخفش: إن شيئا بدل من الرزق. و قال الفراء: هو منصوب بإيقاع الرزق عليه، فجعل رزقا مصدرا عاملا فى شيئا، و الأخفش جعله اسما للرزق؛ و قيل: يجوز أن يكون تأكيدا لقوله: لا يَمْلِكُ أى: لا يملك شيئا من الملك، و المعنى:

أن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقا أىّ رزق، و من السموات و الأرض صفة لرزق، أى:

كائنا منهما، و الضمير فى وَ لا يَسْتَطِيعُونَ راجع إلى ما، و جمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل، و الفائدة فى نفى الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق، فبيّن سبحانه أنها لا تملك و لا تستطيع؛ و قيل: يجوز أن يكون الضمير فى يستطيعون للكفار: أى لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرّفين، فكيف بالجمادات التى لا حياة لها و لا تستطيع التصرّف؟ ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه، فقال: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ فإن ضارب المثل يشبه حالا بحال و قصة بقصة. قال الزجاج: لا تجعلوا للّه مثلا لأنه واحد لا مثل له، و كانوا يقولون: إن إله العالم أجلّ من أن يعبده الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام و الكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، و أولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك، و علل النهى بقوله: إِنَّ اللَّهَ عليم يَعْلَمُ ما عليكم من العبادة وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ما فى عبادتها من سوء العاقبة، و التعرّض لعذاب اللّه سبحانه، أو أنتم لا تعلمون بشى‌ء من ذلك، و فعلكم هذا هو عن توهم فاسد و خاطر باطل و خيال مختلّ، و يجوز أن يراد فلا تضربوا للّه الأمثال إن اللّه يعلم كيف تضرب الأمثال و أنتم لا تعلمون ذلك.

و قد أخرج ابن جرير عن علىّ فى قوله: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ قال: خمس و سبعون سنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هو الخرف. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، ثم قرأ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً.

و أخرج ابن أبى شيبة عن طاوس قال: العالم لا يخرف. و قد ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيح و غيره أنه كان يتعوّذ باللّه أن يردّ إلى أرذل العمر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ قال: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم و نسائهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: هذا مثل لآلهة الباطل مع اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و

ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً قال: خلق آدم، ثم خلق زوجته منه. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن ابن مسعود فى قوله: بَنِينَ وَ حَفَدَةً قال: الحفدة الأختان. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الحفدة الأصهار. و أخرجا عنه قال: الحفدة الولد و ولد الولد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الحفدة بنو البنين.

و أخرج ابن جرير عن أبى جمرة قال: سئل ابن عباس عن قوله: بَنِينَ وَ حَفَدَةً قال: من أعابك فقد

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۶

حفدك، أما سمعت الشاعر يقول:

حفد الولائد حولهنّ و أسلمت بأكفهنّ أزمّة الإجمال

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الحفدة بنو امرأة الرجل ليسوا منه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ قال: الشرك. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: هو الشيطان وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ قال: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الآية قال: هذه الأوثان التى تعبد من دون اللّه لا تملك لمن يعبدها رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و لا خيرا و لا حياة و لا نشورا فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ فإنه أحد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سبحانه: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ يعنى اتّخاذهم الأصنام، يقول: لا تجعلوا معى إلها غيرى، فإنه لا إله غيرى.

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۵ الى ۷۹]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۷۵) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۶) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۷۷) وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۸) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۷۹)

قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لما قال سبحانه إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أى: بالمعلومات التى من جملتها كيف يضرب الأمثال و أنتم لا تعلمون، علمهم سبحانه كيف تضرب الأمثال فقال: ضرب اللّه مثلا؛ أى: ذكر شيئا يستدلّ به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، و بين ما جعلوه شريكا له من الأصنام، ثم ذكر ذلك فقال: عَبْداً مَمْلُوكاً و المثل فى الحقيقة هى حالة للعبد عارضة له، و هى المملوكية و العجز عن التصرّف، فقوله: عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ تفسير للمثل و بدل منه، و وصفه بكونه مملوكا؛ لأن العبد و الحرّ مشتركان فى كون كل واحد منهما عبدا للّه سبحانه، و وصفه بكونه لا يقدر على شىء؛ لأن المكاتب و المأذون يقدران على بعض التصرفات، فهذا الوصف لتمييزه عنهما وَ مَنْ رَزَقْناهُ من هى الموصولة، و هى معطوفة على عَبْداً أى: و الذى رزقناه مِنَّا أى: من جهتنا رِزْقاً حَسَناً من الأحرار الذين يملكون الأموال و يتصرّفون بها كيف شاؤوا، و المراد يكون الرزق حسنا أنه ممّا يحسن فى عيون الناس؛ لكونه رزقا كثيرا مشتملا على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين إليها، و الفاء فى قوله:

فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ لترتيب الإنفاق على الرزق، أى: ينفق منه فى وجوه الخير و يصرف منه إلى أنواع البرّ

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۷

و المعروف، و انتصاب سِرًّا وَ جَهْراً على الحال، أى: ينفق منه فى حال السرّ و حال الجهر؛ و المراد بيان عموم الإنفاق للأوقات، و تقديم السرّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه، و أن الثواب فيه أكثر؛ و قيل: إن مَنْ فى وَ مَنْ رَزَقْناهُ موصوفة كأنه قيل: و حرّا رزقناه ليطابق عبدا هَلْ يَسْتَوُونَ أى: الحرّ و العبد الموصوفان بالصّفات المتقدّمة، و جمع الضمير لمكان من؛ لأنه اسم مبهم يستوى فيه الواحد و الاثنان و الجمع و المذكر و المؤنث؛ و قيل: إنه أريد بالعبد و الموصول الذى هو عبادة عن الحرّ الجنس، أى: من اتّصف بتلك الأوصاف من الجنسين، و الاستفهام للإنكار، أى: هل يستوى العبيد و الأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع كون كلا الفريقين مخلوقين للّه سبحانه من جملة البشر، و من المعلوم أنهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون للّه سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرّا و لا نفعا، و يجعلونهم مستحقّين للعبادة مع اللّه سبحانه؟

و حاصل المعنى: أنه كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شىء و رجل حرّ قد رزقه اللّه رزقا حسنا فهو ينفق منه، كذلك لا يستوى الربّ الخالق الرازق و الجمادات من الأصنام التى تعبدونها و هى لا تبصر و لا تسمع و لا تضرّ و لا تنفع؛ و قيل: المراد بالعبد المملوك فى الآية هو الكافر المحروم من طاعة اللّه و عبوديته، و الآخر هو المؤمن؛ و الغرض أنهما لا يستويان فى الرتبة و الشرف؛ و قيل: العبد هو الصنم، و الثانى عابد الصنم، و المراد أنهما لا يستويان فى القدرة و التصرّف؛ لأن الأوّل جماد، و الثانى إنسان الْحَمْدُ لِلَّهِ أى: الحمد للّه كله؛ لأنه المنعم لا يستحق غيره من العباد شيئا منه، فكيف تستحق الأصنام منه شيئا و لا نعمة منها أصلا لا بالأصالة و لا بالتوسط؛ و قيل: أراد الحمد للّه على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد؛ و قيل: أراد قل الحمد للّه، و الخطاب إما لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم أو لمن رزقه اللّه رزقا حسنا؛ و قيل: إنه لما ذكر مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال الحمد للّه، أى: على قوّة هذه الحجة بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ذلك حتى يعبدوا من تحقّ له العبادة و يعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة، و نفى العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم، أو هم يتركون الحق عنادا مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له، و خصّ الأكثر بنفى العلم؛ إما لكونه يريد الخلق جميعا، و أكثرهم المشركون، أو ذكر الأكثر و هو يريد الكلّ، أو المراد أكثر المشركين، لأن فيهم من يعلم و لا يعمل بموجب العلم. ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه، و لما يفيض على عباده من النعم الدينية و الدنيوية، و للأصنام التى هى أموات لا تضرّ و لا تنفع فقال: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى: مثلا آخر أوضح مما قبله و أظهر منه، و رَجُلَيْنِ بدل من مثل و تفسير له، و الأبكم:

العيىّ المفحم؛ و قيل: هو الأقطع اللسان الذى لا يحسن الكلام، و روى ثعلب عن ابن الأعرابى أنه الذى لا يسمع و لا يبصر، ثم وصف الأبكم فقال: لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه و عدم قدرته على النطق، و معنى كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ ثقيل على وليه و قرابته و عيال على من يلى أمره و يعوله و وبال على إخوانه، و قد يسمّى اليتيم كلا لثقله على من يكفله، و منه قول الشاعر:

أكول لمال الكلّ قبل شبابه إذا كان عظم الكلّ غير شديد

و فى هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شىء مطلقا. ثم وصفه بصفة

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۱۸

رابعة فقال: أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ أى: إذا وجّهه إلى أىّ جهة لا يأت بخير قط؛ لأنه لا يفهم و لا يعقل ما يقال له و لا يمكنه أن يقول. و قرأ يحيى بن وثّاب «أينما يوجّه» على البناء للمجهول، و قرأ ابن مسعود «أينما توجّه» على صيغة الماضى هَلْ يَسْتَوِي هُوَ فى نفسه مع هذه الأوصاف التى اتّصف بها وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ أى: يأمر الناس بالعدل مع كونه فى نفسه ينطق بما يريد النطق به و يفهم، و يقدر على التصرّف فى الأشياء وَ هُوَ فى نفسه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ على دين قويم و سيرة صالحة ليس فيه ميل إلى أحد جانبى الإفراط و التفريط، قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر؛ لأن حاصل أوصاف الأوّل عدم استحقاقه

لشىء، و حاصل وصفى هذا أنه مستحق أكمل استحقاق، و المقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين المذكورين على امتناع التساوى بينه سبحانه و بين ما يجعلونه شريكا له. و لما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يختصّ ذلك به لا يشاركه فيه غيره و لا يستقل به، و المراد علم ما غاب عن العباد فيهما، أو أراد بغيبهما يوم القيامة؛ لأن علمه غائب عن العباد، و معنى الإضافة إليهما التعلق بهما. و المعنى: التوبيخ للمشركين و التقريع لهم، أى: أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلا عاجزا لا يضرّ و لا ينفع و لا يعلم بشىء من أنواع العلم وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ التى هى أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصّة به سبحانه إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ اللمح النظر بسرعة، و لا بدّ فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئى و كل زمان قابل للتجزئة، و لذا قال: أَوْ هُوَ أى: أمرهما أَقْرَبُ و ليس هذا من قبيل المبالغة، بل هو كلام فى غاية الصدق؛ لأن مدّة ما بين الخطاب و قيام الساعة متناهية، و منها إلى الأبد غير متناه، و لا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى؛ أو يقال: إن الساعة لما كانت آتية و لا بدّ جعلت من القرب كلمح البصر. و قال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر، و إنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها، لأنه يقول للشىء كن فيكون؛ و قيل: المعنى: هى عند اللّه كذلك و إن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة، و مثله قوله سبحانه: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً- وَ نَراهُ قَرِيباً «١». و لفظ أو فى:

أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ليس للشك بل للتمثيل؛ و قيل: دخلت لشك المخاطب، و قيل: هى بمنزلة بل إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و مجىء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته. ثم إنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالة على غاية قدرته و نهاية رأفته فقال: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً و هذا معطوف على قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد؛ أى: أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشىء، و جملة لا تعلمون شيئا فى محل نصب على الحال؛ و قيل: المراد لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق، و قيل: لا تعلمون شيئا ممّا قضى به عليكم من السعادة و الشقاوة، و قيل: لا تعلمون شيئا من منافعكم. و الأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور و غيرها اعتبارا بعموم اللفظ، فإن شيئا نكرة واقعة فى سياق النفى. و قرأ الأعمش و ابن وثاب و حمزة «إمهاتكم» بكسر الهمزة و الميم- هنا- و فى النور و الزمر و النجم. و قرأ الكسائى بكسر الهمزة و فتح الميم. و قرأ الباقون بضم الهمزة و فتح الميم

---

(١). المعارج: ۶ و ۷.

وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ أى: ركب فيكم هذه الأشياء، و هو معطوف على أخرجكم، و ليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع. و المعنى: جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذى كان مسلوبا عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم، و تعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم و عبادته و القيام بحقوقه، و الأفئدة: جمع فؤاد، و هو وسط القلب، منزل منه بمنزلة القلب من الصدر، و قد قدّمنا الوجه فى إفراد السمع و جمع الأبصار و الأفئدة، و هو أن أفراد السمع لكونه مصدرا فى الأصل يتناول القليل و الكثير لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى: لكى تصرفوا كلّ آلة فيما خلقت له، فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم اللّه به عليكم فتشكرونه، أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر. ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته، فقال: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ أى: ألم ينظروا إليها حال كونها مسخرات، أى: مذللات للطيران بما خلق اللّه لها من الأجنحة و سائر الأسباب المؤاتية لذلك كرقة قوام الهواء، و إلهامها بسط الجناح و قبضه؛ كما يفعل السابح فى الماء فِي جَوِّ السَّماءِ أى: فى الهواء المتباعد من الأرض فى سمت العلو، و إضافته إلى السماء لكونه فى جانبها ما يُمْسِكُهُنَّ فى الجوّ إِلَّا اللَّهُ سبحانه بقدرته الباهرة، فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها، لأنها لم تتعلق بشىء من فوقها، و لا

اعتمدت على شيء تحتها. و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش و ابن عامر و حمزة و يعقوب «ألم تروا» بالفوقية على الخطاب، و اختار هذه القراءة أبو عبيد. و قرأ الباقون بالتحتية إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أى: إن فى ذلك التسخير على تلك الصفة لآيات ظاهرات تدلّ على وحدانية اللّه سبحانه و قدرته الباهرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه سبحانه و بما جاءت به رسله من الشرائع التى شرعها اللّه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً الآية.

قال: يعنى الكافر أنه لا يستطيع أن ينفق نفقة فى سبيل اللّه وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً الآية قال:

يعنى المؤمن، و هذا المثل فى النفقة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم نحوه بأطول منه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية، و فى قوله: مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ قال: كل هذا مثل إله الحق و ما تدعون من دونه الباطل. و أخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: فى المثل الأوّل يعنى بذلك الآلهة التى لا تملك ضرّا و لا نفعا و لا تقدر على شيء ينفعها وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً قال: علانية، الذى ينفق سرّا و جهرا للّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عنه قال: نزلت هذه الآية: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً فى رجل من قريش و عبده، و فى هشام بن عمرو، و هو الذى ينفق سرّا و جهرا، و فى عبده أبى الجوزاء الذى كان ينهاه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ الآية قال: يعنى بالأبكم الذى: هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ الكافر وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ المؤمن، و هذا المثل فى الأعمال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عنه أيضا قال: نزلت هذه الآية: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ الآية فى عثمان بن عفان و مولى له كافر، و هو أسيد

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۲۰

ابن أبى العيص كان يكره الإسلام، و كان عثمان ينفق عليه و يكفله و يكفيه المؤنة، و كان الآخر ينهاه عن الصدقة و المعروف، فنزلت فيهما. و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة، و البخارى فى تاريخه، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه أيضا فى قوله: وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ قال: عثمان بن عفان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: كَلٌّ قال: الكلّ: العيال، كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير ذلول، و جعلوا معه نفرا يمسكونه خشية أن يسقط عليهم، فهو عناء و عذاب و عيال عليهم هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يعنى نفسه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ هو أن يقول: كن فهو كلمح البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ فالساعة كلمح البصر أو هى أقرب. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ قال: من الرحم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فِي جَوِّ السَّماءِ أى: فى كبد السماء.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٠ الى ٨٣]

وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (٨٠) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (٨٣)

قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ معطوف على ما قبله و هذا المذكور من جملة أحوال الإنسان، و من تعديد نعم اللّه عليه، و السكن مصدر يوصف به الواحد و الجمع، و هو بمعنى مسكون، أى: تسكنون فيها و تهدأ جوارحكم من الحركة، و هذه نعمة؛ فإن اللّه سبحانه

لو شاء لخلق العبد مضطربا دائما كالأفلاك، و لو شاء لخلقه ساكنا أبدا كالأرض وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً لما ذكر سبحانه بيوت المدن، و هى التى للإقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية و الرحلة، أى: جعل لكم من جلود الأنعام، و هى الأنطاع و الأدم بيوتا كالخيام و القباب تَسْتَخِفُّونَها أى: يخفّ عليكم حملها فى الأسفار و غيرها، و لهذا قال: يَوْمَ ظَعْنِكُمْ و الظعن بفتح العين و سكونها، و قرئ بهما، سير أهل البادية للانتجاع، و التحوّل من موضع إلى موضع، و منه قول عنترة:

ظعن الّذين فراقهم أتوقّعو جرى ببينهم الغراب الأبقع

و الظعن: الهودج أيضا. وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً معطوف على جَعَلَ أى:

و جعل لكم من أصواف الأنعام و أوبارها و أشعارها، و الأنعام تعمّ الإبل و البقر و الغنم كما تقدّم، و الأصواف للغنم، و الأوبار للإبل، و الأشعار للمعز، و هى من جملة الغنم، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٢١

كل واحد منها لواحد من الثلاثة، أعنى الإبل، و نوعى الغنم، و الأثاث متاع البيت، و أصله الكثرة و الاجتماع، و منه شعر أثيث: أى كثير مجتمع، قال الشاعر «١»:

و فرع يزين المتن أسود فاحمأثيث كقنو النّخلة المتعثكل «٢»

قال الخليل: أثاثا، أى: منضمّا بعضه إلى بعض، من أثّ إذا أكثر، قال الفراء: لا واحد له، و المتاع:

ما يتمتع به بأنواع التمتع، و على قول أبى زيد الأنصارى: إن الأثاث المال أجمع: الإبل و الغنم و العبيد و المتاع، يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام؛ و قيل: إن الأثاث ما يكتسى به الإنسان و يستعمله من الغطاء و الوطاء، و المتاع: ما يفرش فى المنازل و يتزيّن به، و معنى إِلى حِينٍ إلى أن تقضوا أو طاركم منه، أو إلى أن يبلى و يفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة؛ ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يستظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظلّ بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال: جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا أى: أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة. و الحاصل أن الظلال تعمّ الأشياء التى تظلّ؛ ثم لما كان المسافر قد يحتاج إلى ركن يأوى إليه فى نزوله، و إلى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر و البرد، نبّه سبحانه على ذلك فقال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً و هى جمع كنّ، و هو ما يستكنّ به من المطر، و هى هنا الغيران فى الجبال، و جعلها اللّه سبحانه عدّة للخلق يأوون إليها، و يتحصنون بها، و يعتزلون عن الخلق فيها: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ جمع سربال، و هى القمصان و الثياب من الصوف و القطن و الكتان و غيرهما. قال الزجاج: كل ما لبسته فهو سربال، و معنى تَقِيكُمُ الْحَرَّ تدفع عنكم ضرر الحرّ، و خصّ الحرّ و لم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر؛ لأن ما وقى من الحرّ وقى من البرد. و وجه تخصيص الحرّ بالذكر أن الوقاية منه كانت أهمّ عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحرّ فى بلادهم وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ و هى الدروع و الجواشن يتقون بها الطعن و الضرب و الرمى.

و المعنى: أنها تقيم البأس الذى يصل من بعضهم إلى بعض فى الحرب كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ أى:

مثل ذلك الإتمام البالغ يتمّ نعمته عليكم، فإنه سبحانه قد منّ على عباده بصنوف النعم المذكورة هاهنا و بغيرها، و هو بفضله و إحسانه سيتمّ لهم نعمة الدين و الدنيا لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ إرادة أن تسلموا، إن من أمعن النظر فى هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام و الانقياد للحق. و قرأ ابن محيصن و حميد «تتم نعمته» بتاءين فوقيتين على أن فاعله نعمته، و قرأ الباقون بالتحتية على أن الفاعل هو اللّه سبحانه. و قرأ ابن عباس و عكرمة تُسْلِمُونَ بفتح التاء و اللام من السلامة من الجراح، و قرأ الباقون بضم التاء و كسر اللام من الإسلام. قال أبو عبيد:

و الاختيار قراءة العامة؛ لأن ما أنعم اللّه به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح؛ و قيل:

الخطاب لأهل مكة، أى: لعلّكم يا أهل مكة تخلصون للّه الربوبية، و الأولى الحمل على العموم، و إفراد النعمة،

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). «الفرع»: الشعر التام. «المتن»: ما عن يمين الصلب و شماله من العصب و اللحم. «الفاحم»: الشديد السواد. «القنو»: العذق و هو الشمراخ. «المتعثكل»: الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته.

هنا، لأنّ المراد بها المصدر فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ أى: إن تولوا عنك و لم يقبلوا ما جئت به فقد تمهّد «١» عذرك، فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم المبين، أى: الواضح، و ليس عليك غير ذلك، و صرف الخطاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تسلية له، و جملة يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها استئناف لبيان توليهم، أى: هم يعرفون نعمة اللّه التى عدّدها، و يعترفون بأنها من عند اللّه سبحانه، ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير اللّه و بأقوالهم الباطلة، حيث يقولون هى من اللّه و لكنها بشفاعة الأصنام، و حيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، و أيضا كونهم لا يستعملون هذه النعم فى مرضاة الربّ سبحانه، و فى وجوه الخير التى أمرهم اللّه بصرفها فيها؛ و قيل: نعمة اللّه نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا يعرفونه ثم ينكرون نبوّته وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ أى: الجاحدون لنعم اللّه أو الكافرون باللّه، و عبّر هنا بالأكثر عن الكلّ، أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال و نحوهم، أو أراد كفر الجحود و لم يكن كفر كلهم كذلك، بل كان كفر بعضهم كفر جهل، و كفر بعضهم بسبب تكذيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مع اعترافهم باللّه و عدم الجحد لربوبيته، و مثل هذه الآية قوله تعالى: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ «٢».

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد سكنا قال: تسكنون فيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه قال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً و هى خيام العرب تَسْتَخِفُّونَها يقول: فى الحمل وَ مَتاعاً يقول بلاغا إِلى حِينٍ قال: إلى الموت. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ قال: بعض بيوت السيارة بنيانه فى ساعة، و فى قوله: وَ أَوْبارِها قال: الإبل وَ أَشْعارِها قال الغنم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: أَثاثاً قال: الأثاث: المتاع. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأثاث: المال وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ يقول: تنتفعون به إلى حين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا قال: من الشجر و من غيرها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً قال: غيران يسكن فيها وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ قال: من القطن و الكتان و الصوف وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ من الحديد كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ و لذلك هذه السورة تسمّى سورة النعم. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ قال:

يعنى الثياب، وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ قال: يعنى الدروع و السلاح كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ يعنى من الجراحات، و كان ابن عباس يقرؤها تسلمون كما قدّمنا، و إسناده ضعيف.

(١). «تمهّد»: قبل.

(٢). النمل: ١٤.

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (٨٦) وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

لمّا بيّن سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة اللّه ثم أنكروها، و أن أكثرهم كافرون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة، فقال: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً أي: و اذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، و شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان و التصديق، و عليهم بالكفر و الجحود و التكذيب ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أي: في الاعتذار، إذ لا حجة لهم و لا عذر كقوله سبحانه: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ أو في كثرة الكلام، أو في الرجوع إلى دار الدنيا، و إيراد ثم هاهنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الإقناط الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ لأنّ العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب. و المعنى: أنهم لا يسترضون؛ أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، و لا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون، و أصل الكلمة من العتب و هو الموجد، يقال عتب عليه يعتب؛ إذا وجد عليه، فإذا أفاض عليه ما عتب فيه عليه قيل عاتبه، فإذا رجع إلى مسرّته قيل أعتبه، و الاسم العتبى، و هو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب قاله الهروي، و منه قول النابغة:

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمتهو إن كنت ذا عتبى فمثلك يعتب

وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ أي: و إذا رأى الذين أشركوا العذاب الذي يستحقونه بشركهم، و هو عذاب جهنم فَلا يُخَفَّفُ ذلك العذاب عَنْهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ أي: و لا هم يمهلون ليتوبوا إذ لا توبة هنالك وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ أي: أصنامهم و أوثانهم التي عبدوها، لما تقرّر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم من كان يعبد شيئا فليتبعه، كما ثبت في الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم. قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ أي: الذين كنّا نعبدهم من دونك. قال أبو مسلم الأصفهاني: مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك و استرواحا مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، و لكن الغريق يتعلّق بكل ما تقع يده عليه فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ

فتح القدير، ج3، ص: 224

أي: ألقى أولئك الأصنام و الأوثان و الشياطين و نحوهم إلى المشركين القول إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ أي: قالوا لهم إنكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا، الذي هو مقصودكم من هذا القول.

فإن قيل إن المشركين أشاروا إلى الأصنام و نحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك، و قد كانوا صادقين في ذلك، فكيف كذبتهم الأصنام و نحوها؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا: هؤلاء شركاء اللّه في المعبودية، فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشركة؛ و الأصنام و الأوثان و إن كانت لا تقدر على النطق فإنّ اللّه سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين و توبيخهم، و هذا كما قالت الملائكة: بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ «1» يعنون أن الجنّ هم الذين كانوا

راضين بعبادتهم لهم وَ أَلْقَوْا إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ أى: ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام و الانقياد لعذابه و الخضوع لعزّته، و قيل: استسلم العابد و المعبود و انقادوا لحكمه فيهم وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: ضاع و بطل ما كانوا يفترونه من أن للّه سبحانه شركاء و ما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم، و أن عبادتهم لهم تقرّبهم إلى اللّه سبحانه الَّذِينَ كَفَرُوا فى أنفسهم وَ صَدُّوا غيرهم عَنْ سَبِيلِ اللّهِ أى: عن طريق الحق، و هى طريق الإسلام و الإيمان بأن منعوهم من سلوكها و حملوهم على الكفر؛ و قيل: المراد بالصدّ عن سبيل اللّه: الصدّ عن المسجد الحرام، و الأولى العموم. ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله: زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ أى:

زادهم اللّه عذابا لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذى استحقوه لأجل ضلالهم؛ و قيل: المعنى: زدنا القادة عذابا فوق عذاب أتباعهم، أى: أشد منه؛ و قيل: إن هذه الزيادة هى إخراجهم من النار إلى الزمهرير، و قيل غير ذلك وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ أى: نبيا يشهد عليهم مِنْ أَنْفُسِهِمْ من جنسهم، إتماما للحجة و قطعا للمعذرة، و هذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد و التهديد وَ جِئْنا بِكَ يا محمد شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ أى: تشهد على هذه الأمم و تشهد لهم، و قيل: على أمتك، و قد تقدّم مثل هذا فى البقرة و النساء وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ أى: القرآن، و الجملة مستأنفة أو فى محل نصب على الحال بتقدير قد تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ أى: بيانا له، و التاء للمبالغة، و نظيره من المصادر التلقاء، و لم يأت غيرهما، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «٢»، و معنى كونه تبيانا لكلّ شىء أن فيه البيان لكثير من الأحكام، و الإحالة فيما بقى منها على السنة، و أمرهم باتباع رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فيما يأتى به من الأحكام، و طاعته كما فى الآيات القرآنية الدالة على ذلك، و قد صحّ عنه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إنّى أوتيت القرآن و مثله معه».

وَ هُدىً للعباد وَ رَحْمَةً لهم وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ خاصة دون غيرهم، أو يكون الهدى و الرحمة و البشرى خاصة بهم، لأنهم المنتفعون بذلك. ثم لما ذكر سبحانه أن فى القرآن تبيان كل شىء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقا لذلك فقال: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ

و قد اختلف أهل العلم فى تفسير العدل و الإحسان، فقيل: العدل لا إله إلا اللّه، و الإحسان أداء الفرائض؛ و قيل: العدل الفرض، و الإحسان النافلة. و قيل: العدل استواء العلانية و السريرة، و الإحسان أن تكون

---

(١). سبأ: ٤١.

(٢). الأنعام: ٣٨.

السريرة أفضل من العلانية. و قيل: العدل الإنصاف، و الإحسان التفضل. و الأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوى، و هو التوسط بين طرفى الإفراط و التفريط؛ فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده فى الدين على حالة متوسطة؛ ليست بمائلة إلى جانب الإفراط و هو الغلوّ المذموم فى الدين، و لا إلى جانب التفريط و هو الإخلال بشىء مما هو من الدين؛ و أما الإحسان فمعناه اللغوى يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوّع، و من الإحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه اللّه عليه فى العبادات و غيرها، و قد صحّ عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه فسّر الإحسان بأن يعبد اللّه العبد حتى كأنه يراه، فقال فى حديث ابن عمر الثابت فى الصحيحين:

«و الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» و هذا هو معنى الإحسان شرعا وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى أى: إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم، و فى الآية إرشاد إلى صلة الأقارب و ترغيب فى التصدق عليهم، و هو من باب عطف الخاص على

العام إن كان إعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل و الإحسان؛ و قيل:

من باب عطف المندوب على الواجب، و مثل هذه الآية قوله: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ «١». و إنما خصّ ذوى القربى لأن حقهم آكد، فإن الرحم قد اشتق اللّه اسمها من اسمه، و جعل صلتها من صلته و قطيعتها من قطيعته وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ هى الخصلة المتزايدة فى القبح من قول أو فعل، و قيل: هى الزنا، و قيل: البخل وَ الْمُنْكَرِ ما أنكره الشرع بالنهى عنه، و هو يعمّ جميع المعاصى على اختلاف أنواعها، و قيل: هو الشرك وَ أما الْبَغْيِ فقيل: هو الكبر، و قيل: الظلم، و قيل: الحقد، و قيل: التعدّى، و حقيقته تجاوز الحدّ فيشمل هذه المذكورة و يندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، و إنما خصّ بالذكر اهتماما به لشدّة ضرره و وبال عاقبته، و هو من الذنوب التى ترجع على فاعلها لقوله سبحانه: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ «٢»، و هذه الآية هى من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله:

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى: يعظكم بما ذكره فى هذه الآية مما أمركم به و نهاكم عنه، فإنها كافية فى باب الوعظ و التذكير، لعلّكم تذكرون إرادة أن تتذكروا ما ينبغى تذكره فتتّعظوا بما وعظكم اللّه به.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً قال: شهيدها نبيها على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال اللّه: وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ قال: ذكر لنا أن نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ قال: حدّثوهم. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ قال: استسلموا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد بن السريّ و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن ابن مسعود فى قوله: زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ قال: زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال. و أخرج ابن مردويه و الخطيب عن البراء: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن قول اللّه تعالى زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ فقال: عقارب أمثال

---

(١). الإسراء: ٢٦.

(٢). يونس: ٢٣.

النخل الطوال ينهشونهم فى جهنّم». و أخرج أبو يعلى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ قال: خمسة أنهار من نار صبّها اللّه عليهم يعذّبون ببعضها بالليل، و ببعضها بالنهار. و قد روى ابن مردويه من حديث جابر عن النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الزيادة خمسة أنهار تجرى من تحت العرش على رؤوس أهل النار: ثلاثة أنهار على مقدار الليل، و نهران على مقدار النهار» فذلك قوله:

زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إن اللّه أنزل فى هذا الكتاب تبيانا لكل شىء، و لكن علمنا يقصر عمّا بيّن لنا فى القرآن، ثم قرأ: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن الضريس فى فضائل القرآن، و محمد بن نصر فى كتاب الصلاة، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود قال: من أراد العلم فليتنوّر القرآن، فإن فيه علم الأوّلين و الآخرين. و أخرج أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال: «كنت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا إذ شخص بصره فقال: أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ الآية». و فى إسناده شهر بن حوشب. و قال ابن كثير فى تفسيره:

إسناده لا بأس به. و قد أخرجه مطوّلا أحمد، و البخاري فى الأدب، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من حديث ابن عباس، و حسّن ابن كثير إسناده. و أخرج الباوردى و ابن السكن و ابن مندة، و أبو نعيم فى معرفة الصحابة، عن عبد الملك بن عمير أن هذه الآية لما بلغت أكثم ابن صيفى حكيم العرب قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، و ينهى عن ملائمها، ثم قال لقومه: كونوا فى هذا الأمر رؤوسا، و لا تكونوا فيه أذنابا، و كونوا فيه أوّلا و لا تكونوا فيه آخرا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه، و الإحسان أداء الفرائض وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى قال: إعطاء ذوى الأرحام الحق الذى أوجبه اللّه عليك بسبب القرابة و الرحم وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ قال:

الزنا وَ الْمُنْكَرِ قال: الشرك وَ الْبَغْيِ قال: الكبر و الظلم يَعِظُكُمْ قال: يوصيكم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ و أخرج سعيد بن منصور، و البخارى فى الأدب، و محمد بن نصر فى الصلاة، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب قال: أعظم آية فى كتاب اللّه اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ «١»، و أجمع آية فى كتاب اللّه للخير و الشرّ الآية التى فى النحل إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ و أكثر آية فى كتاب اللّه تفويضا: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً- وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «٢»، و أشدّ آية فى كتاب اللّه رجاء: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ «٣» الآية.

و أخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن أنه قرأ هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ إلى آخرها ثم قال: إن اللّه عزّ و جلّ جمع لكم الخير كله و الشرّ كله فى آية واحدة، فو اللّه ما ترك العدل و الإحسان من طاعة اللّه شيئا إلا جمعه، و لا ترك الفحشاء و المنكر و البغى من معصية اللّه شيئا إلا جمعه. و أخرج البخارى

---

(١). البقرة: ٢٥٥.

(٢). الطلاق: ٢ و ٣.

(٣). الزمر: ٥٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٢٧

فى تاريخه، من طريق الكلبى عن أبيه قال: مرّ علىّ بن أبى طالب بقوم يتحدّثون فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم اللّه عزّ و جلّ ذلك فى كتابه إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ فالعدل الإنصاف، و الإحسان التفضل، فما بقى بعد هذا؟.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩١ الى ٩٦]

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٩١) وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)

ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

خصّ سبحانه من جملة المأمورات التى تضمّنها قوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ الوفاء بالعهد فقال:

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ و ظاهره العموم فى كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة و غيره، و خصّ هذا العهد المذكور فى هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن فى بيعة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم على الإسلام و هو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسم اللّه سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود اللّه، و لو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبا لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و فسره بعضهم باليمين، و هو مدفوع بذكر الوفاء بالأيمان بعده حيث قال سبحانه: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها أى: بعد تشديدها و تغليظها و توثيقها، و ليس المراد اختصاص النهى عن النقض بالأيمان المؤكدة، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، و لكن فى نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذى فى نقض ما لم يوكد منها، يقال وكد و أكد توكيدا و تأكيدا، و هما لغتان. و قال الزجاج:

الأصل الواو و الهمزة بدل منها، و هذا العموم مخصوص بما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير و ليكفّر عن يمينه» حتى بالغ فى ذلك صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

«و اللّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير و كفّرت عن يمينى» و هذه الألفاظ ثابتة فى الصحيحين و غيرهما، و يخصّ أيضا من هذا العموم يمين اللغو؛ لقوله سبحانه: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ* «١»، و يمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللغو، و قد تقدّم بسط الكلام على الأيمان فى البقرة وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا أى: شهيدا، و قيل: حافظا، و قيل: ضامنا، و قيل:

---

(١). البقرة: ٢٢٥.

رقيبا؛ لأن الكفيل يراعى حال المكفول به، و قيل: إن توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشىء الواحد مرارا. و حكى القرطبىّ عن ابن عمر أن التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ، و فيه ترغيب و ترهيب.

ثم أكد وجوب الوفاء و تحريم النقض فقال: وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها أى: لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالتى نقضت غزلها، أى: ما غزلته مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أى: من بعد إبرام الغزل و إحكامه، و هو متعلق بنقضت أَنْكاثاً جمع نكث بكسر النون، ما ينكث فتله. قال الزجّاج:

انتصب أنكاثا على المصدر؛ لأن معنى نقضت نكثت؛ و ردّ بأن أنكاثا ليس بمصدر، و إنما هو جمع كما ذكرنا.

و قال الواحدى: هو منصوب على أنه مفعول ثان كما تقول كسرته أقطاعا و أجزاء، أى: جعلته أقطاعا و أجزاء، و يحتمل أن يكون حالا. قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلّقة بما قبلها، و التقدير: و أوفوا بعهد اللّه و لا تنقضوا الأيمان، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلا و أحكمته ثم جعلته أنكاثا، و جملة تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فى محل نصب على الحال. قال الجوهرى: و الدّخل المكر و الخديعة، و قال أبو عبيدة: كلّ أمر لم يكن صحيحا فهو دخل. و قيل: الدّخل ما أدخل فى الشىء على فساده. و قال الزجاج: غشا و دغلا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ أى بأن تكون جماعة هى أربى من جماعة؛ أى: أكثر عددا منها و أوفر مالا. يقال: ربا الشىء يربو إذا كثر. قال الفرّاء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم و كثرتكم أو لقلتكم و كثرتهم و قد عزّرتموهم بالأيمان. قيل: و قد كانت قريش إذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم و حالفوا أعداءهم، و قيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغترّوا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ أى: يختبركم

بكونكم أكثر و أوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغترارا بالكثرة؟

فالضمير فى «به» راجع إلى مضمون جملة أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ أى: إنما يبلوكم اللّه بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون، أو إنما يبلوكم اللّه بما يأمركم و ينهاكم وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فيوضح الحق و المحقين و يرفع درجاتهم، و يبين الباطل و المبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه، و فى هذا إنذار و تحذير من مخالفة الحق و الركون إلى الباطل، أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث و الجنة و النار.

ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين و الكافرين على الوفاء أو على الإيمان فقال: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً متفقة على الحق وَ لكِنْ بحكم الإلهية يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ بخذلانه إياهم عدلا منه فيهم وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ بتوفيقه إياهم فضلا منه عليهم: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «١»، و لهذا قال:

وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال فى الدنيا، و اللام فى. «و ليبيننّ لكم»، و فى «و لتسألنّ» هما الموطئتان للقسم. ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأيمان نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة فقال: وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ و هى أيمان البيعة. قال الواحدى: قال المفسرون: و هذا فى نهى الذين بايعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن نقض العهد على الإسلام و نصرة الدين، و استدلوا على هذا التخصيص بما فى قوله:

---

(١). الأنبياء: ٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٢٩

فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها من المبالغة، و بما فى قوله: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صدّوا غيرهم عن الدخول فى الإسلام. و على تسليم أن هذه الأيمان مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قال جماعة من المفسرين: إن هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد و التقرير، و معنى «فتزلّ قدم بعد ثبوتها» فتزل قدم من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها و رسوخها فيها. قيل: و أفرد القدم للإيذان بأن زلل قدم واحد أىّ قدم كانت عزّت أو هانت محذور عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ و هذا استعارة للمستقيم الحال يقع فى شرّ عظيم و يسقط فيه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ، و يقال لمن أخطأ فى شيء: زلّت به قدمه، و منه قول الشاعر «١»:

تداركتما عبسا «٢» و قد ثلّ عرشهاو ذبيان قد زلّت بأقدامها النّعل

وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ أى: تذوقوا العذاب السيئ فى الدنيا أو فى الآخرة، أو فيهما بما صددتم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: بسبب صدودكم أنتم عن سبيل اللّه و هو الإسلام، أو بسبب صدّكم لغيركم عن الإسلام، فإن من نقض البيعة و ارتدّ اقتدى به غيره فى ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها و وزر من عمل بها، و لهذا قال: وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ أى: متبالغ فى العظم، و هو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا.

ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا و الرجوع عن العهد لأجله فقال: وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أى: لا تأخذوا فى مقابلة عهدكم عوضا يسيرا حقيرا، و كل عرض دنيوى و إن كان فى الصورة كثيرا فهو لكونه ذاهبا زائلا يسير، و لهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند اللّه فقال: إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ أى: ما عنده من النصر فى الدنيا و الغنائم و الرزق الواسع، و ما عنده فى الآخرة من نعيم الجنة الذى لا يزول و لا ينقطع هو خير لهم، ثم علّل النهى عن أن يشتروا بعهد اللّه ثمنا قليلا- و أن ما عند اللّه هو خير لهم بقوله: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: إن كنتم من أهل العلم و التمييز بين الأشياء. ثم ذكر دليلا

قاطعا على حقارة عرض الدنيا و خيرية ما عند اللّه فقال: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ و معلوم لكل عاقل أن ما ينفد و يزول، و إن بلغ فى الكثرة إلى أى مبلغ فهو حقير يسير، و ما كان يبقى و لا يزول فهو كثير جليل، أما نعيم الآخرة فظاهر، و أما نعيم الدنيا الذى أنعم اللّه به على المؤمنين فهو و إن كان زائلا لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية فى حكم الباقى الذى لا ينقطع، ثم قال: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ اللام هى الموطئة، أى: لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاقّ التكليف و جهاد الكافرين و الصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات. قيل: و إنما خصّ أحسن أعمالهم، لأن ما عداه و هو الحسن مباح، و الجزاء إنما يكون على الطاعة؛ و قيل: المعنى: و لنجزينهم بجزاء أشرف و أوفر من عملهم، كقوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «٣»

---

(١). هو زهير بن أبى سلمى.

(٢). فى اللسان: الأحلاف.

(٣). الأنعام: ١٦٠.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٣٠

أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أنّا نعطى الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالأجر الحسن، و الأحسن بالأحسن، كذا قيل. قرأ عاصم و ابن كثير «لنجزين» بالنون.

و قرأ الباقون بالياء التحتية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مزيد بن جابر فى قوله: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ قال: أنزلت هذه الآية فى بيعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كأنّ من أسلم بايع على الإسلام، فقال:

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ الآية فلا يحملنكم قلة محمد و أصحابه و كثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها يقول: بعد تغليظها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أن سعيدة الأسدية كانت تجمع الشّعر و الليف، فنزلت فيها هذه الآية وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن حفص مثله، و فى الروايتين جميعا أنها كانت مجنونة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى سبب نزول الآية قال: كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة، كانت تغزل، فإذا أبرمت غزلها نقضته. و أخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن كثير معناه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ قال: ناس أكثر من ناس. و أخرجوا عن مجاهد فى الآية قال: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم و أعزّ؛ فينقضون حلف هؤلاء، و يحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ، فنهوا عن ذلك.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٧ الى ١٠٥]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا

يَعْلَمُونَ (١٠١)
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٠٥)

هذا شروع فى ترغيب كلّ مؤمن فى كلّ عمل صالح، و تعميم للوعد؛ و معنى مَنْ عَمِلَ صالِحاً من عمل عملا صالحا أىّ عمل كان، و زيادة التمييز بذكر أو أنثى مع كون لفظ مَنْ شاملا لهما لقصد

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣١

التأكيد و المبالغة فى تقرير الوعد؛ و قيل: إن لفظ «من» ظاهر فى الذكور، فكان فى التنصيص على الذكر و الأنثى بيان لشموله للنوعين و جملة وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فى محل نصب على الحال، جعل سبحانه الإيمان قيدا فى الجزاء المذكور لأن عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه: وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً «١»، ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً و قد وقع الخلاف فى الحياة الطيبة بما ذا تكون؟ فقيل: بالرزق الحلال، روى ذلك عن ابن عباس و سعيد بن جبير و عطاء و الضحّاك. و قيل: بالقناعة، قاله الحسن البصرى و زيد بن وهب و وهب بن منبه. و روى أيضا عن علىّ و ابن عباس. و قيل: بالتوفيق إلى الطاعة قاله الضحّاك. و قيل: الحياة الطيبة هى حياة الجنة، روى عن مجاهد و قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. و حكى عن الحسن أنه قال: لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة، و قيل: الحياة الطيبة هى السعادة، روى ذلك عن ابن عباس. و قيل: هى المعرفة باللّه، حكى ذلك عن جعفر الصادق. و قال أبو بكر الورّاق: هى حلاوة الطاعة. و قال سهل بن عبد اللّه التسترى: هى أن ينزع عن العبد تدبير نفسه و يردّ تدبيره إلى الحق. و قيل: هى الاستغناء عن الخلق و الافتقار إلى الحق، و أكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هى فى الدنيا لا فى الآخرة، لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ و قد قدّمنا قريبا تفسير الجزاء بالأحسن، و وحّد الضمير فى لنحيينه، و جمعه فى و لنجزينهم حملا على لفظ من، و على معناه. ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح و الجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية فقال: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ و الفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح، و قيل: هذه الآية متصلة بقوله: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «٢»، و التقدير: فإذا أخذت فى قراءته فاستعذ. قال الزجاج و غيره من أئمة اللغة:

معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ، و ليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن، و مثله: إذا أكلت فقل بسم اللّه. قال الواحدى: و هذا إجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة، إلا ما روى عن أبى هريرة و ابن سيرين و داود و مالك و حمزة من القراء فإنهم قالوا: الاستعاذة بعد القراءة، ذهبوا إلى ظاهر الآية؛ و معنى فاستعذ باللّه: اسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم، أى: من وساوسه، و تخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهمّ، لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى، كذا قيل. و توجيه الخطاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته، فكيف بسائر أمته؟ و قد ذهب الجمهور إلى أن الأمر فى الآية للندب. و روى عن عطاء الوجوب أخذا بظاهر الأمر. و قد تقدّم الكلام فى الاستعاذة مستوفى فى أوّل هذا التفسير، و الضمير فى إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ للشأن أو للشيطان، أى: ليس له تسلط عَلَى إغواء الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ و حكى الواحدى عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة. و قالوا: المعنى ليس

(١). الفرقان: ٢٣.

(٢). النحل: ٨٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣٢

له حجّة على المؤمنين فى إغوائهم و دعائهم إلى الضلالة؛ و معنى وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ يفوضون أمورهم إليه فى كل قول و فعل، فإن الإيمان باللّه و التوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، و إن وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته و هذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة، و هؤلاء الجامعون بين الإيمان و التوكل هم الذين قال فيهم إبليس: إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ*، و قال اللّه فيهم: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ «١»، ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان، فقال: إِنَّما سُلْطانُهُ أى: تسلطه على الإغواء عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ أى: يتخذونه وليا و يطيعونه فى وساوسه وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ الضمير فى به يرجع إلى اللّه تعالى، أى: الذين هم باللّه مشركون، و قيل: يرجع إلى الشيطان؛ و المعنى:

و الذين هم من أجله و بسبب وسوسته مشركون باللّه وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ هذا شروع منه سبحانه فى حكاية شبه كفرية و دفعها، و معنى التبديل: رفع الشىء مع وضع غيره مكانه، و تبديل الآية رفعها بأخرى غيرها، و هو نسخها بآية سواها. و قد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة قالُوا أى: كفار قريش الجاهلون للحكمة فى النسخ إِنَّما أَنْتَ يا محمد مُفْتَرٍ أى: كاذب مختلق على اللّه متقوّل عليه بما لم يقل، حيث تزعم أنه أمرك بشىء، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فردّ اللّه سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شيئا من العلم أصلا، أو لا يعلمون بالحكمة فى النسخ، فإنه مبنىّ على المصالح التى يعلمها اللّه سبحانه، فقد يكون فى شرع هذا الشىء مصلحة مؤقتة بوقت، ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت فى شرع غيره، و لو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أنّ ذلك وجه الصواب و منهج العدل و الرفق و اللطف.

ثم بيّن سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند اللّه، و أن رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم افتراه فقال: قُلْ نَزَّلَهُ أى: القرآن المدلول عليه بذكر الآية رُوحُ الْقُدُسِ أى جبريل، و القدس التطهير؛ و المعنى: نزله الروح المطهر من أدناس البشرية، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة مِنْ رَبِّكَ أى: ابتداء تنزيله من عنده سبحانه، و بِالْحَقِ فى محل نصب على الحال: أى متلبسا بكونه حقا ثابتا لحكمة بالغة لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا على الإيمان، فيقولون: كلّ من الناسخ و المنسوخ من عند ربنا، و لأنهم أيضا إذا عرفوا ما فى النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الإيمان و رسخت عقائدهم. و قرئ لِيُثَبِّتَ من الإثبات وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ و هما معطوفان على محل ليثبت، أى: تثبيتا لهم و هداية و بشارة، و فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم. ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ اللام هى الموطئة، أى: و لقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون إنما يعلم محمدا القرآن بشر من بنى آدم غير ملك. و قد اختلف أهل العلم فى تعيين هذا البشر الذى زعموا عليه ما زعموا، فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة، و اسمه جبر، و كان نصرانيا فأسلم، و كان كفار قريش إذا سمعوا من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخبار القرون الأولى مع كونه أميا، قالوا: إنما يعلمه جبر. و قيل: اسمه يعيش، عبد لبنى الحضرمىّ، و كان يقرأ الكتب الأعجمية. و قيل: غلام لبنى عامر بن لؤىّ. و قيل: هما غلامان؛ اسم أحدهما

(١). الحجر: ٤٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣٣

يسار، و اسم الآخر جبر، و كانا صيقلين «١» يعملان السيوف. و كانا يقرآن كتابا لهم، و قيل: كانا يقرآن التوراة و الإنجيل. و قيل:

عنوا سلمان الفارسی. و قیل: عنوا نصرانیا بمکة اسمه بلعام، و کان یقرأ التوراة. و قیل:

عنوا رجلا نصرانیا کان اسمه أبا میسرة یتکلم بالرومیة، و فی روایة اسمه عداس. قال النحاس: و هذه الأقوال غیر متناقضة، لأنه یجوز أنهم زعموا أنهم جمیعا یعلمونه، و لکن لا یمکن الجمع باعتبار قول من قال إنه سلمان، لأن هذه الآیة مکیة، و هو إنما أتی إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم بالمدینة. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: لِسانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَیْهِ أَعْجَمِیٌّ الإلحاد: المیل، یقال: لحد و ألحد؛ أی: مال عن القصد. و قد تقدّم فی الأعراف. و قرأ حمزة و الکسائی یلحدون بفتح الیاء و الحاء. و قرأ من عداهما بضم الیاء و کسر الحاء، أی:

لسان الذین یمیلون إلیه و یزعمون أنه یعلمک أعجمیّ، یقال: رجل أعجم و امرأة عجماء؛ أی: لا یفصحان، و العجمة: الإخفاء، و هی ضدّ البیان، و العرب تسمّی کلّ من لا یعرف لغتهم و لا یتکلم بها أعجمیا. قال الفرّاء: الأعجم الذی فی لسانه عجمة و إن کان من العرب، و الأعجمیّ: هو العجمی الذی أصله من العجم.

و قال أبو علی الفارسی: العجمی المنسوب إلی العجم الذی لا یفصح سواء کان من العرب أو من العجم، و کذلک الأعجم، و الأعجمی المنسوب إلی العجم و إن کان فصیحا وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ الإشارة إلی القرآن، و سمّاه لسانا لأن العرب تقول للقصیدة و البیت لسانا، و منه قول الشاعر:

لسان الشرّ تهدیها إلیناو خنت و ما حسبتک أن تخونا

أو أراد باللسان البلاغة، فکأنه قال: و هذا القرآن ذو بلاغة عربیة و بیان واضح، فکیف تزعمون أن بشرا یعلمه من العجم. و قد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، و أنتم أهل اللسان العربی و رجال الفصاحة و قادة البلاغة و هاتان الجملتان مستأنفتان سیقتا لإبطال طعنهم و دفع کذبهم. و لما ذکر سبحانه جوابهم وبخهم و هدّدهم فقال: إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِآیاتِ اللَّهِ أی: لا یصدّقون بها لا یَهْدِیهِمُ اللَّهُ إلی الحق الذی هو سبیل النجاة هدایة موصلة إلی المطلوب لما علم من شقاوتهم وَ لَهُمْ فی الآخرة عَذابٌ أَلِیمٌ بسبب ما هم علیه من الکفر و التکذیب بآیات اللّه. ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ردّ علیهم بقوله: إِنَّما یَفْتَرِی الْکَذِبَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِآیاتِ اللَّهِ فکیف یقع الافتراء من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و هو رأس المؤمنین بها، و الداعین إلی الإیمان بها، و هؤلاء الکفار هم الذین لا یؤمنون بها، فهم المفترون للکذب.

قال الزجاج: المعنی إنما یفتری الکذب الذین إذا رأوا الآیات التی لا یقدر علیها إلا اللّه کذبوا بها هؤلاء أکذب الکذبة، ثم سمّاهم الکاذبین، فقال: وَ أُولئِکَ أی: المتّصفون بذلک هُمُ الْکاذِبُونَ أی: إن الکذب نعت لازم لهم و عادة من عاداتهم فهم الکاملون فی الکذب، إذ لا کذب أعظم من تکذیبهم بآیات اللّه.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفریابی و سعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الحیاة الطیبة المذکورة فی الآیة فقال: الحیاة الطیبة الرزق الحلال فی هذه الحیاة الدنیا، و إذا صار

---

(۱). الصیقل: الصقّال و هو من صناعته صقل السیوف.

إلی ربه جازاه بأحسن ما کان یعمل. و أخرج ابن أبی حاتم عنه قال: الکسب الطیب و العمل الصالح. و أخرج العسکری فی الأمثال عن علیّ فی الآیة قال: القناعة. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، و البیهقی فی الشّعب، من طرق عن ابن عباس قال: القنوع، قال: و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یدعو:

«اللهم قنّعنی بما رزقتنی، و بارک لی فیه، و اخلف علی کلّ غائبة لی بخیر». و أخرج أحمد و مسلم و الترمذی و ابن ماجة عن

ابن عمرو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «قد أفلح من أسلم، و رزق كفافا، و قنّعه اللّه بما آتاه».
و أخرج الترمذى و النسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «قد أفلح من هدى إلى الإسلام، و كان عيشه كفافا، و قنع به». و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن المنذر عن عطاء قال:
الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة و غيرها من أجل قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ و قد ورد فى مشروعية الاستعاذة عند التلاوة ما لعلنا قد قدّمنا ذكره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ يقول: سلطان الشيطان على من تولى الشيطان و عمل بمعصية اللّه. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن مردويه، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ و قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا «١» قال:
عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح كان يكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأزلّه الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأجاره. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ قال: هو كقوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها «٢». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعلم بمكة قينا اسمه بلعام، و كان أعجميا، فكان المشركون يرون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدخل عليه و يخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلّمه بلعام، فأنزل اللّه: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الآية. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عنه فى الآية. قال: قالوا إنما يعلم محمدا عبد ابن الحضرمى و هو صاحب الكتب، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج آدم بن أبى إياس و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن عبد اللّه بن مسلم الحضرمى قال: كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما يسار و الآخر جبر، و كانا يصنعان السيوف بمكة، و كانا يقرآن الإنجيل، فربما مرّ بهما النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هما يقرآن فيقف و يستمع، فقال المشركون: إنما يتعلّم منهما، فنزلت هذه الآية.

---

(١). النحل: ١١٠.

(٢). البقرة: ١٠۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣٥

[سورة النحل (١۶): الآيات ١٠۶ الى ١١١]

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠۶) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (١٠٧) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١)
قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ قد اختلف أهل العلم فى إعرابه، فذهب الأكثرون على أنه بدل، إما من الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ و ما بينهما اعتراض، و المعنى: إنما يفترى الكذب من كفر، و استثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء. ثم قال: وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أى: اعتقده، و طابت به نفسه، و اطمأن إليه فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ و إما من المبتدأ الذى هو: أُولئِكَ أو من

الخبر الـذى هو: الْكاذِبُونَ و ذهب الزجاج إلى الأوّل، و قال الأخفش: إن من مبتـدأ و خبره محـذوف اكتفى منه بخبر من الثانيۀ، كقولـك: من يأتنـا من يحسن نكرمه؛ و قيل: هو، أى مَنْ ١٠۶ فى مَنْ كَفَرَ منصوب على الـذمّ، و قيـل: إن من شـرطيۀ و الجواب محـذوف؛ لأـن جواب مَنْ شَرَحَ دالّ عليه، و هو كقول الأـخفش، و إنمـا خالفه فى إطلاق لفظ الشـرط على من و الجواب على خبرهـا فكأنه قيل على هـذا من كفر باللّه فعليهم غضب إلا من أكره، و لكن من شـرح بالكفر صـدرا فعليهم غضب، و إنما صـح اسـتثناء المكره من الكـافر مع أنه ليس بكافر لأنه ظهر منه بعـد الإيمان ما لا يظهر إلا من الكافر لو لا الإكراه. قال القرطبى: أجمع أهـل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشـى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر و قلبه مطمئن بالإيمان، و لا تبين منه زوجته، و لا يحكم عليه بحكم الكفر. و حكى عن محمـد بن الحسن: أنه إذا أظهر الكفر كان مرتدا فى الظاهر، و فيما بينه و بين اللّه على الإسـلام، و تبين منه امرأته، و لاـ يصـلى عليه إن مـات، و لاـ يرث أبـاه إن مـات مسـلما، و هـذا القول مردود على قائله، مدفوع بالكتاب و السنۀ، و ذهب الحسن البصـرى و الأوزاعى و الشافعى و سـحنون إلى أن هذه الرخصۀ المذكورۀ فى هذه الآيۀ إنما جاءت فى القول، و أما فى الفعل فلا رخصـۀ، مثل أن يكره على السـجود لغير اللّه و يدفعه ظاهر الآيۀ، فإنها عامۀ فيمن أكره من غير فرق بين القول و الفعل، و لا دليل لهؤلاء القاصـرين للآيۀ على القول و خصوص السبب لا اعتبار به مع عموم اللفظ؛ كما تقرر فى علم الأصول، و جملۀ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ فى محل نصب على الحال من المستثنى، أى:

إلا من كفر بإكراه، و الحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيـدته، و ليس بعـد هـذا الوعيـد العظيم و هو الجمع للمرتدين بين غضب اللّه و عظيم عـذابه، و الإشارۀ بقوله: ذلِـكَ إلى الكفر بعـد الإيمـان، أو إلى الوعيـد بالغضب و العـذاب، و الباء فى بِأَنَّهُمُ اسْـتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا للسـببيۀ، أى: ذلك بسبب تأثيرهم للحياۀ الدنيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ معطوف على: بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا، أى: ذلك بأنهم استحبوا، و بأن اللّه لا يهدى القوم الكافرين إلى الإيمان به، ثم وصفهم بقوله: أُولئِكَ أى:

الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحۀ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَـمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ فلم يفهموا المواعظ و لا سمعوها. و لا أبصـروا الآيات التى يستدل بها على الحق، و قد سبق تحقيق الطبع فى أوّل البقرۀ، ثم أثبت لهم صفۀ نقص غير الصفۀ المتقدّمۀ فقال: وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ عمّا يراد بهم، و ضمير الفصل

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٣۶

يفيد أنهم متناهون فى الغفلۀ، إذ لا غفلۀ أعظم من غفلتهم هذه لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ أى:

الكاملون فى الخسـران البالغون إلى غايـۀ منه ليس فوقها غايـۀ، و قد تقدّم تحقيق الكلام فى معنى: لا جَرَمَ فى مواضع منها ما هو فى هـذه السـورۀ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هـاجَرُوا من دار الكفر إلى دار الإسـلام، و خـبر إن محـذوف، و التقـدير لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و إنما حـذف لدلالـۀ خبر إن ربـك المتأخرۀ عليه؛ و قيل: الخبر هو لِلَّذِينَ هاجَرُوا أى: إن ربك لهم بالولايـۀ و النصـرۀ لا عليهم، و فيه بعـد؛ و قيل: إن خبرها هو قوله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و إن ربك الثانيـۀ تأكيـد للأولى. قال فى الكشاف: ثم ها هنا للدلالۀ على تباعد حال هؤلاء، يعنى الذين نزلت الآيۀ فيهم عن حال أولئك، و هم عمار و أصحابه، و يدل على ذلك ما روى أنها نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح «١»، و سيأتى بيـان ذلـك مِنْ بَعْـدِ مـا فُتِنُوا أى: فتنهم الكفـار بتعـذيبهم لهم ليرجعوا فى الكفر، و قرئ فتنوا على البناء للفاعل، أى: اللـذين فتنوا المؤمنين و عـذّبوهم على الإسـلام ثُمَّ جاهَدُوا فى سبيل اللّه و صبروا على ما أصابهم من الكفار، و على ما يلقونه من مشاق التكليف لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران و الرحمـۀ لهم، و معنى الآيـۀ على قراءۀ من قرأ فتنوا على البناء للفاعل واضح ظاهر، أى: إن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم و عذبوهم ثم جاهدوا و صبروا لغفور رحيم، و أما على قراءۀ البناء للمفعول و هى قراءۀ الجمهور، فالمعنى: أن هؤلاء المفتونين الـذين تكلّموا بكلمۀ الكفر مكرهين و صدورهم غير منشـرحۀ للكفر إذا صـلحت أعمالهم، و جاهدوا فى اللّه، و صبروا على المكاره، لغفور لهم رحيم بهم؛ و أما إذا كان سـبب الآيۀ هذه هو عبد اللّه

بن أبی سرح الذی ارتدّ عن الإسلام، ثم رجع بعد ذلک إلی الإسلام، فالمعنی: أن هذا المفتون فی دینه بالرّدة إذا أسلم و جاهد و صبر فاللّه غفور له رحیم به، و الضمیر فی بعدها یرجع إلی الفتنة أو إلی المهاجرة و الجهاد و الصبر، أو إلی الجمیع یَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها قال الزجاج: یوم تأتی منتصب بقوله «رحیم»، أو بإضمار اذکر، أو ذکرهم، أو أنذرهم، و قد استشکل إضافة ضمیر النفس إلی النفس، و لا بد من التغایر بین المضاف و المضاف إلیه. و أجیب بأن المراد بالنفس الأولی جملة بدن الإنسان، و بالنفس الثانیة الذات، فکأن قیل: یوم یأتی کل إنسان یجادل عن ذاته لا یهمّه غیرها، و معنی المجادلة عنها الاعتذار عنها، فهو مجادل و مخاصم عن نفسه لا یتفرّغ لغیرها یوم القیامة.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس قال: لما أراد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أن یهاجر إلی المدینة قال لأصحابه: تفرّقوا عنی، فمن کانت به قوّة فلیتأخر إلی آخر اللیل، و من لم تکن به قوّة فلیذهب فی أوّل اللیل، فإذا سمعتم بی قد استقرّت بی الأرض فالحقوا بی، فأصبح بلال المؤذن و خبّاب و عمار و جاریة من قریش کانت أسلمت، فأخذهم المشرکون و أبو جهل، فعرضوا علی بلال أن یکفر فأبی، فجعلوا یضعون درعا من حدید فی الشمس ثم یلبسونها إیاه، فإذا ألبسوها إیاه قال: أحد أحد؛ و أما خباب فجعلوا یجرّونه فی الشوک؛ و أما عمار فقال لهم کلمة أعجبتهم تقیة؛ و أما الجاریة فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد، ثم مدّها فأدخل الحربة فی قبلها حتی قتلها، ثم خلّوا عن بلال و خباب و عمار فلحقوا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فأخبروه بالذی کان من أمرهم، و اشتدّ علی عمار الذی کان تکلّم به، فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: کیف کان قلبک حین قلت

---

(۱). هو عبد اللّه بن سعد بن أبی السرح.

الذی قلت؟ کان منشرحا بالذی قلت أم لا؟ قال: لا، فأنزل اللّه إِلَّا مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ

و أخرج عبد الرزاق و ابن سعد و ابن جریر و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه و البیهقی و ابن عساکر من طریق أبی عبیدة بن محمد بن عمار عن أبیه قال: أخذ المشرکون عمار بن یاسر فلم یترکوه حتی سبّ النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم و ذکر آلهتهم بخیر؛ فترکوه، فلما أتی النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: ما وراءک؟ قال: شرّ ما ترکت حتی نلت منک و ذکرت آلهتهم بخیر، قال: کیف تجد قلبک؟ قال: مطمئنا بالإیمان، قال: إن عادوا فعد، فنزلت إِلَّا مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ قال: ذاک عمار بن یاسر وَ لکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً عبد اللّه بن أبی سرح. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن عساکر عن أبی مالک فی قوله: إِلَّا مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ قال: نزلت فی عمار بن یاسر، و فی الباب روایات مصرّحة بأنها نزلت فی عمار بن یاسر. و أخرج ابن أبی حاتم عن محمد بن سیرین قال: نزلت هذه الآیة إِلَّا مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمانِ فی عیاش بن أبی ربیعة. و أخرج ابن مردویه من طریق عکرمة عن ابن عباس قال: فی سورة النحل: فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ ثم نسخ و استثنی من ذلک فقال: ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا الآیة قال: و هو عبد اللّه بن أبی سرح الذی کان یکتب لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، فأزلّه الشیطان فلحق بالکفار، فأمر به النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم أن یقتل یوم فتح مکة، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم. و أخرج ابن جریر عن عکرمة و الحسن مثله. و أخرج ابن مردویه، و البیهقی فی سننه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآیة: ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا فیمن کان یفتن من أصحاب النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم. و أخرج ابن مردویه عنه قال: کان قوم من أهل مکة قد أسلموا و کانوا یستخفون بالإسلام فنزلت فیهم ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا الآیة، فکتبوا إلیهم بذلک إنّ اللّه قد جعل لکم مخرجا فاخرجوا،

فأدركهم المشركون فقاتلوهم فنجا من نجا، و قتل من قتل. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول اللّه؟ قال:

نعم، قال: أتشهد أنى رسول اللّه؟ فأهوى إلى أذنيه فقال: إنى أصمّ، فأمر به فقتل؛ و قال للآخر: أتشهد أن محمدا رسول اللّه؟ قال: نعم، قال: أتشهد أنى رسول اللّه؟ قال: نعم، فأرسله فأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال له أما صاحبك فمضى على إيمانه، و أما أنت فأخذت بالرخصة. و هو مرسل.

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۹]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۱۳) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۵) وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۱۱۶)

مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۹)

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۳۸

قوله: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً قد قدّمنا أن ضرب مضمن معنى جعل حتى تكون قرية المفعول الأوّل و مثلا المفعول الثانى، و إنما تأخرت قرية لئلا يقع الفصل بينها و بين صفاتها. و قدّمنا أيضا أنه يجوز أن يكون ضرب على بابه غير مضمن و يكون مثلا مفعوله الأوّل و قرية بدلا منه. و قد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة، أو المراد قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم اللّه عليهم، فأبطرتهم النعمة؟ فذهب الأكثر إلى الأوّل و صرّحوا بأنها مكة، و ذلك لما دعا عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف»، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام. و الثانى أرجح لأن تنكير قرية يفيد ذلك، و مكة تدخل فى هذا العموم البدلى دخولا أوّليا، و أيضا يكون الوعيد أبلغ، و المثل أكمل، و غير مكة مثلها، و على فرض إرادتها ففى المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها، ثم وصف القرية بأنها كانَتْ آمِنَةً غير خائفة مُطْمَئِنَّةً غير منزعجة، أى: لا يخاف أهلها و لا ينزعجون يَأْتِيها رِزْقُها أى: ما يرتزق به أهلها رَغَداً واسعا مِنْ كُلِّ مَكانٍ من الأمكنة التى يجلب ما فيها إليها فَكَفَرَتْ أى: كفر أهلها بِأَنْعُمِ اللَّهِ التى أنعم بها عليهم، و الأنعم جمع نعمة كالأشدّ جمع شدّة، و قيل: جمع نعمى، مثل بؤسى و أبؤس، و هذا الكفر منهم هو كفرهم باللّه سبحانه و تكذيب رسله فَأَذاقَهَا اللَّهُ أى: أذاق أهلها لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ سمى ذلك لباسا لأنه يظهر به عليهم من الهزال و شحوبة اللون و سوء الحال ما هو كاللباس، فاستعير له اسمه و أوقع عليه الإذاقة، و أصلها الذوق بالفم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدّة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين: إدراك اللمس، و الذوق. روى أن ابن الراوندى الزنديق قال لابن الأعرابى إمام اللغة و الأدب: هل يذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابى: لا بأس أيها النسناس، هب أن محمدا ما كان نبيا، أما كان عربيا؟ كأنه طعن فى الآية بأن المناسب أن يقال: فكساها اللّه لباس الجوع أو فأذاقها اللّه طعم الجوع، فردّ عليه ابن الأعرابى. و قد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، و ذلك أنه استعار اللباس لما غشى الإنسان من بعض الحوادث كالجوع و الخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له و هو الجوع و الخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع و الخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق

فلان البؤس و الضر و أذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجرّدة، و لو قال فكساها كانت مرشحة. و قيل: و ترشيح الاستعارة و إن كان مستحسنا من جهة المبالغة، إلا أنّ للتجريد ترجيحا من حيث إنه روعى جانب المستعار له، فازداد الكلام وضوحا، و قيل: إن أصل الذوق بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف و الاختبار، و من ذلك قول الشاعر:

و من يذق الدّنيا فإنّى طعمتهاو سيق إلينا عذبها و عذابها

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٣٩

و قرأ حفص بن غياث و نصر بن عاصم و ابن أبى إسحاق و أبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث بنصب الخوف عطفا على لباس، و قرأ الباقون بالخفض عطفا على الجوع. قال الفراء: كلّ الصفات أجريت على القرية إلا قوله: يَصْنَعُونَ تنبيها على أن المراد فى الحقيقة أهلها وَ لَقَدْ جاءَهُمْ يعنى أهل مكة رَسُولٌ مِنْهُمْ من جنسهم يعرفونه و يعرفون نسبه، فأمرهم بما فيه نفعهم و نهاهم عما فيه ضرّهم فَكَذَّبُوهُ فيما جاء به فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ النازل بهم من اللّه سبحانه، و الحال أنهم فى حال أخذ العذاب لهم ظالِمُونَ لأنفسهم بإيقاعها فى العذاب الأبدىّ و لغيرهم بالإضرار بهم و صدّهم عن سبيل اللّه، و هذا الكلام من تمام المثل المضروب. و قيل: إن المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذى أصابهم، و قيل: القتل يوم بدر، ثم لما وعظهم اللّه سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم اللّه من الغنائم و نحوها، و جاء بالفاء للإشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر. و المعنى: أنكم لما آمنتم و تركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب و هو الغنيمة و اتركوا الخبائث و هو الميتة و الدم وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ التى أنعم بها عليكم و اعرفوا حقّها إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ و لا تعبدون غيره، أو إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة التى زعمتم عبادة اللّه تعالى، و قيل: إن الفاء فى فكلوا داخلة على الأمر بالشكر، و إنما أدخلت على الأمر بالأكل لأن الأكل ذريعة إلى الشكر إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ كرّر سبحانه ذكر هذه المحرمات فى البقرة و المائدة و الأنعام و فى هذه السورة قطعا للأعذار و إزالة للشبهة، ثم ذكر الرخصة فى تناول شى‏ء مما ذكر فقال: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و قد تقدّم الكلام على جميع ما هو مذكور هنا مستوفى. ثم زيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة و السائبة و فى النقصان عنها كتحليل الميتة و الدمّ فقال: وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ قال الكسائى و الزجاج: ما هنا مصدرية و انتصاب الكذب بلا تقولوا، أى: لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم، و معناه: لا تحرموا و لا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة، و يجوز أن تكون ما موصولة و الكذب منتصب بتصف، أى: لا تقولوا للذى تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ فحذف لفظة فيه لكونه معلوما، فيكون قوله هذا حلال و هذا حرام بدلا من الكذب. و يجوز أن يكون فى الكلام حذف بتقدير القول، أى: و لا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال و هذا حرام، أو قائلة هذا حلال و هذا حرام، و يجوز أن ينتصب الكذب أيضا بتصف و تكون ما مصدرية، أى: لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب. و قرئ الكذب بضم الكاف و الذال و الباء على أنه نعت للألسنة، و قرأ الحسن بفتح الكاف و كسر الذال و الباء نعتا لما. و قيل: على البدل من ما، أى: و لا تقولوا الكذب الذى تصفه ألسنتكم هذا حلال و هذا حرام، و اللام فى لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ هى لام العاقبة لا لام العرض، أى: فيتعقب ذلك افتراؤكم على اللّه الكذب بالتحليل و التحريم و إسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أىّ افتراء كان لا يُفْلِحُونَ بنوع من أنواع الفلاح و هو الفوز بالمطلوب؛ و ارتفاع مَتاعٌ قَلِيلٌ على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الزجاج: أى: متاعهم متاع قليل،

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٤٠

أو هو مبتدأ خبره محذوف، أى: لهم متاع قليل وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ يردّون إليه فى الآخرة. ثم خصّ محرمات اليهود بالذكر فقال: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا أى: حرّمنا عليهم خاصة دون غيرهم ما قَصَصْنا عَلَيْكَ بقولنا: حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ

حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما «۱» الآيـة، و مِنْ قَبْلُ متعلّق بقصصـنا أو بحرمنـا وَ ما ظَلَمْناهُمْ بـذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث فعلوا أسباب ذلك فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم. ثم بيّن سبحانه أن الافتراء على اللّه سبحانه و مخالفـة أمره لاـ يمنعهم من التوبـة و حصول المغفرة فقال: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ أى: متلبسـين بجهالـة، و قد تقـدّم تفسير هذه الآية فى سورة النساء ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد عملهم للسوء، و فيه تأكيد فإن ثم قد دلّت على البعدية فأكـدها بزيادة ذكر البعديـة وَ أَصْلَحُوا أعمالهم التى كان فيها فساد بالسوء الـذى عملوه، ثم كرّر ذلك تأكيدا و تقريرا فقال: إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها أى:

من بعد التوبة لَغَفُورٌ رَحِيمٌ كثير الغفران واسع الرحمة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً قال: يعنى مكة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطية فى الآية مثله و زاد فقال: ألا ترى أنه قال: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شـهاب قال: القرية التى قال اللّه: كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً هى: يثرب. قلت: و لا أدرى أىّ دليـل دلّه على هـذا التعيين، و لاـ أىّ قرينـة قامت له على ذلك، و متى كفرت دار الهجرة و مسـكن الأنصار بأنعم اللّه، و أىّ وقت أذاقهـا اللّه لبـاس الجـوع و الخوف، و هى الـتى تنفى خبثهـا كمـا ينفى الكير خبث الحديـد كمـا صـحّ ذلـك عن الصـادق المصـدوق. و صحّ عنه أيضا أنه قال: «و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ الآية قال: فى البحيرة و السائبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى نضرة قال: قرأت هذه الآية فى سورة النحل وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ إلى آخر الآية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا. قلت: صدق رحمه اللّه، فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما فى كتاب اللّه أو فى سـنة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأى المقدّمين له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب و السـنّة كالمقلـدة، و إنهم لحقيقون بأن يحال بينهم و بين فتاويهم و يمنعوا من جهالاتهم، فإنهم أفتوا بغير علم من اللّه و لا هدى و لا كتاب منير فضلّوا و أضلّوا، فهم و من يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمة عمياء قاد زمامهاأعمى على عوج الطريق الجائر

و أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال: عسى رجل أن يقول إن اللّه أمر بكذا أو نهى عن كذا، فيقول اللّه عزّ و جلّ له: كذبت؛ أو يقول: إن اللّه حرّم كذا أو أحلّ كذا، فيقول اللّه له: كذبت. و أخرج ابن

---

(۱). الأنعام: ۱۴۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۱

جرير و ابن أبى حـاتم عن الحسن فى قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ قال: فى سورة الأنعام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة مثله، و قال حيث يقول: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا إلى قوله: وَ إِنَّا لَصادِقُونَ «۱»

[سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۸]

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۰) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۲۱) وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۳) إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۲۴)

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

لما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين و إبطال مطاعنهم، و كان إبراهيم عليه السلام من الموحّدين، و هو قدوة كثير من النبيين، ذكره اللّه فى آخر هذه السورة فقال: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قال ابن الأعرابىّ:

يقال للرجل العالم أمة، و الأمة: الرجل الجامع للخير. قال الواحدى: قال أكثر أهل التفسير: أى: معلّما للخير، و على هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمة أنه كان معلما للخير، أو جامعا لخصال الخير، أو عالما بما علّمه اللّه من الشرائع؛ و قيل: أمة بمعنى مأموم، أى: يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، كما قال سبحانه: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «٢». و القانت: المطيع، و قد تقدّم بيان معانى القنوت فى البقرة. و الحنيف: المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، و قد تقدم بيانه فى الأنعام وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ باللّه كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل شاكِراً لِأَنْعُمِهِ التى أنعم اللّه بها عليه، و إن كانت قليلة، كما يدلّ عليه جمع القلة، فهو شاكر لما كثر منها بالأولى اجْتَباهُ أى: اختاره للنبوة، و اختصّه بها وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و هو ملّة الإسلام و دين الحق وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً أى: خصلة حسنة أو حالة حسنة، و قيل: هى الولد الصالح، و قيل: الثناء الحسن، و قيل: النبوّة، و قيل: الصلاة منا عليه فى التشهد، و قيل:

هى أنه يتولاه جميع أهل الأديان، و لا مانع أن يكون ما آتاه اللّه شاملا لذلك كلّه و لما عداه من خصال الخير وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال: وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ- وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ- وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ «٣». ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ يا محمّد مع علوّ درجتك و سموّ منزلتك و كونك سيد ولد آدم أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ و أصل الملة: اسم لما شرعه اللّه لعباده على لسان نبىّ من أنبيائه، قيل: و المراد هنا اتباع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لملة إبراهيم فى التوحيد و الدعوة إليه. و قال ابن جرير:

---

(١). الأنعام: ١۴۶.

(٢). البقرة: ١٢۴.

(٣). الشعراء: ٨٣- ٨۵.

فى التبرّى من الأوثان و التديّن بدين الإسلام؛ و قيل: فى مناسك الحج؛ و قيل: فى الأصول دون الفروع؛ و قيل: فى جميع شريعته إلا ما نسخ منها، و هذا هو الظاهر. و قد أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم، فقال تعالى: فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ «١»، و انتصاب حَنِيفاً على الحال من إبراهيم، و جاز مجىء الحال منه؛ لأنّ الملّة كالجزء منه، و قد تقرّر فى علم النحو أن الحال من المضاف إليه جائز، إذا كان يقتضى المضاف العمل فى المضاف إليه، أو كان جزءا منه، أو كالجزء وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ و هو تكرير لما سبق للنكتة التى ذكرناها إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أى: إنما جعل وبال السبت، و هو المسخ، على الذين اختلفوا فيه، أو إنما جعل فرض تعظيم السبت و ترك الصيد فيه على الذين اختلفوا فيه لا على غيرهم من الأمم.

و قد اختلف العلماء فى كيفية الاختلاف الكائن بينهم فى السبت، فقالت طائفة: إن موسى أمرهم بيوم الجمعة، و عيّنه لهم، و أخبرهم بفضيلته على غيره، فخالفوه، و قالوا: إن السبت أفضل، فقال اللّه له: دعهم و ما اختاروا لأنفسهم. و قيل: إن اللّه سبحانه

أمرهم بتعظيم يوم فى الأسبوع، فاختلف اجتهادهم فيه، فعينت اليهود السبت لأن اللّه سبحانه فرغ فيه من الخلق، و عينت النصارى يوم الأحد لأن اللّه بدأ فيه الخلق، فألزم اللّه كلا منهم ما أدّى إليه اجتهاده، و عين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلا منه و نعمة.

و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع إبراهيم، فأخبر اللّه سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه و لم يجعله على إبراهيم و لا على غيره وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أى:

بين المختلفين فيه يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازى كلا فيه بما يستحقه ثوابا و عقابا، كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم و التنجية لأخرى، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يدعو أمّته إلى الإسلام فقال:

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ و حذف المفعول للتعميم؛ لكونه بعث إلى الناس كافة، و سبيل اللّه هو الإسلام بِالْحِكْمَةِ أى: بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: و هى الحجج القطعية المفيدة لليقين وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ و هى المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التى يستحسنها السامع، و تكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها. قيل: و هى الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدّمات مقبولة، قيل: و ليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان، و لكن الداعى قد يحتاج مع الخصم الألدّ إلى استعمال المعارضة و المناقضة و نحو ذلك من الجدل، و لهذا قال سبحانه: وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: بالطريق التى هى أحسن طرق المجادلة، و إنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعى محقّا و غرضه صحيحا، و كان خصمه مبطلا و غرضه فاسدا إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ لما حثّ سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة؛ بيّن أن الرشد و الهداية ليس إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و إنما ذلك إليه تعالى، فقال: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ أى: هو العالم بمن يضلّ و من يهتدى وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أى: بمن يبصر الحقّ فيقصده غير متعنت، و إنما شرع لك الدعوة و أمرك بها قطعا للمعذرة و تتميما للحجة و إزاحة للشبهة، و ليس عليك غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمّن تكليف

---

(١). الأنعام: ٩٠.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٤٣

المدعوّين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعى بأن يعدل فى العقوبة فقال: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ أى:

أردتم المعاقبة فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ أى: بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك. قال ابن جرير: أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاها إلى غيرها، و هذا صواب؛ لأن الآية و إن قيل إن لها سببا خاصا كما سيأتى، فالاعتبار بعموم اللفظ، و عمومه يؤدّى هذا المعنى الذى ذكره، و سمّى سبحانه الفعل الأوّل الذى هو فعل البادئ بالشرّ عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثانى و هو المجازى للمشاكلة، و هى باب معروف وقع فى كثير من الكتاب العزيز. ثم حثّ سبحانه على العفو فقال:

وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ أى: لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم من الانتصاف، و وضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من اللّه عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة فى الصبر عن المعاقبة و الثناء على الصابرين على العموم؛ و قيل: هى منسوخة بآيات القتال، و لا وجه لذلك. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بالصبر فقال: وَ اصْبِرْ على ما أصابك من صنوف الأذى وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ أى: بتوفيقه و تثبيته، و الاستثناء مفرغ من أعمّ الأشياء، أى: و ما صبرك مصحوبا بشىء من الأشياء إلا بتوفيقه لك، و فيه تسلية للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم. ثم نهاه عن الحزن فقال: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أى: على الكافرين فى إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة اللّه وَ لا تَكُ فِي

ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ قرأ الجمهور بفتح الضاد، و قرأ ابن كثير بكسرها. قال ابن السّكّيت:

هما سواء، يعنى المفتوح و المكسور. و قال الفراء: الضّيق بالفتح ما ضاق عنه صدرك، و الضّيق بالكسر ما يكون فى الذى يتسع مثل الدار و الثوب، و كذا قال الأخفش، و هو من الكلام المقلوب؛ لأنّ الضّيق وصف للإنسان يكون فيه و لا يكون الإنسان فيه، و كأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالإنسان من جميع جوانبه؛ و معنى مِمَّا يَمْكُرُونَ من مكرهم لك فيما يستقبل من الزمان. ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات و المنهيات فقال: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى: اتقوا المعاصى على اختلاف أنواعها وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ بتأدية الطاعات و القيام بما أمروا بها منها؛ و قيل: المعنى: إن اللّه مع الذين اتقوا الزيادة فى العقوبة، و الذين هم محسنون فى أصل الانتقام، فيكون الأوّل إشارة إلى قوله: فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ و الثانى إشارة إلى قوله: وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ و قيل: الَّذِينَ اتَّقَوْا إشارة إلى التعظيم لأمر اللّه وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ إشارة إلى الشفقة على عباد اللّه تعالى.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود: أنه سئل عن الأمة ما هى؟ فقال: الذى يعلّم الناس الخير، قالوا:

فما القانت؟ قال: الذى يطيع اللّه و رسوله. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ قال: كان على الإسلام، و لم يكن فى زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال اللّه: كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ و أخرج ابن المنذر عند فى قوله: كانَ أُمَّةً قال: إماما فى الخير قانِتاً قال: مطيعا. و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من عبد

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۴

تشهد له أمة إلا قبل اللّه شهادتهم»، و الأمة: الرجل فما فوقه، إن اللّه يقول: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً و الأمة: الرجل فما فوقه. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عمرو قال: صلى جبريل بإبراهيم الظهر و العصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به، ثم صلى المغرب و العشاء بجمع، ثم صلى الفجر به كأسرع ما يصلى أحدكم من المسلمين، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين دفع به، ثم رمى الجمرة ثم ذبح ثم حلق ثم أفاض به إلى البيت فطاف به، فقال اللّه لنبيه: ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ قال: أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق السدّى عن أبى مالك و سعيد ابن جبير فى الآية قال: باستحلالهم إياه؛ رأى موسى رجلا يحمل حطبا يوم السبت فضرب عنقه. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم: يعنى الجمعة، فاختلفوا فيه فهدانا اللّه له فالناس فيه لنا تبع، اليهود غدا و النصارى بعد غد». و أخرج مسلم و غيره من حديث حذيفة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:

وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: أعرض عن أذاهم إياك. و أخرج الترمذى و حسّنه، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن خزيمة فى الفوائد، و ابن حبان و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارة، عن أبىّ بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة و ستون رجلا، و من المهاجرين ستة منهم حمزة فمثّلوا بهم، فقالت الأنصار:

لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربينّ عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل اللّه تعالى وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نصبر و لا نعاقب، كفّوا عن القوم إلا أربعة». و أخرج ابن سعد و البزار و ابن المنذر و الطبراني، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم في المعرفة، و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة: أن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم وقف على حمزة حيث استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، و نظر إليه قد مثّل به، فقال: «رحمة اللّه عليك، فإنك كنت ما علمت وصولا للرحم، فعولا للخير، و لو لا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك اللّه من أرواح شتى، أما و اللّه لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك» فنزل جبريل و النبي صلّى اللّه عليه و سلّم واقف بخواتيم سورة النحل وَ إِنْ عاقَبْتُمْ الآية، فكفّر النبي صلّى اللّه عليه و سلّم عن يمينه، و أمسك عن الذي أراد و صبر. و أخرج ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه، و البيهقي في الدلائل، عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ الآية، قال: هذا حين أمر اللّه نبيه أن يقاتل من قاتله، ثم نزلت براءة و انسلاخ الأشهر الحرم، فهذا منسوخ. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ قال: اتقوا فيما حرّم عليهم، و أحسنوا فيما افترض عليهم.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۴۵

سورة الإسراء

اشارة

آياتها مائة و إحدى عشرة آية، و هي مكية إلا ثلاث آيات: قوله عزّ و جلّ: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ نزلت حين جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وفد ثقيف، و حين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء، و قوله:

وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ و قوله: إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ و زاد مقاتل قوله: إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ و أخرج النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة بني إسرائيل بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخاري و ابن الضريس و ابن مردويه عن ابن مسعود قال في بني إسرائيل و الكهف و مريم: إنهنّ من العتاق الأول، و هنّ من تلادي «۱». و أخرج أحمد و الترمذي و حسّنه، و النسائي و الحاكم و ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ كل ليلة بني إسرائيل و الزمر. و أخرج ابن أبي شيبة عن أبي عمرو الشيباني قال: صلى بنا عبد اللّه الفجر فقرأ السورتين الآخرة منهما بنو إسرائيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (٣)

قوله: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا هو مصدر سبّح، يقال سبّح يسبّح تسبيحا و سبحانا، مثل كفّر اليمين تكفيرا و كفرانا، و معناه: التنزيه و البراءة للّه من كل نقص. و قال سيبويه: العامل فيه فعل [من معناه «۲» لا من لفظه، و التقدير: أنزّه اللّه تنزيها، فوقع سبحان

مكان تنزيها، فهو على هذا مثل قعد القرفصاء و اشتمل الصّمّاء «٣»؛ و قيل: هو علم للتسبيح كعثمان للرجل، و انتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح اللّه سبحان، ثم نزل منزلة الفعل و سدّ مسدّه، و قد قدّمنا فى قوله: سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا «۴» طرفا من الكلام المتعلق بسبحان. و الإسراء قيل: هو سير الليل، يقال: سرى و أسرى؛

---

(۱). العتاق: هو كل ما بلغ الغاية فى الجودة. و التلاد: يريد أن هذه السور من أول ما تعلم من القرآن، و أن لهنّ فضلا لما فيهن من القصص و أخبار الأنبياء و الأمم.

(۲). من تفسير القرطبى (۱۰/ ۲۰۴)

(۳). هو أن يردّ الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى و عاتقه الأيسر، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى و عاتقه الأيمن، فيغطيهما جميعا.

(۴). البقرة: ۳۲.

كسقى و أسقى لغتان، و قد جمع بينهما الشاعر «۱» فى قوله:

حىّ النّضيرة ربّة الخدرأسرت إلىّ و لم تكن تسرى

و قيل: هو سير أوّل الليل خاصة، و إذا كان الإسراء لا يكون إلا فى الليل فلا بدّ للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة، فقيل: أراد بقوله ليلا تقليل مدّة الإسراء، و أنه أسرى به فى بعض الليل من مكة إلى الشام مسافة أربعين ليلة. و وجه دلالة ليلا على تقليل المدّة ما فيه من التنكير الدالّ على البعضية، بخلاف ما إذا قلت سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعا. و قد استدلّ صاحب الكشاف على إفادة ليلا للبعضية بقراءة عبد اللّه و حذيفة «من الليل». و قال الزجّاج: معنى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا سيّر عبده يعنى محمدا ليلا، و على هذا فيكون معنى أسرى معنى سير؛ فيكون للتقييد بالليل فائدة، و قال بعبده و لم يقل بنبيه أو رسوله أو بمحمد تشريفا له صلّى اللّه عليه و سلّم، قال أهل العلم: لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسمّاه اللّه سبحانه به فى هذا المقام العظيم و الحالة العلية:

لا تدعنى إلا بياعبدهافإنه أشرف أسمائى

ادعاء بأسماء نبزا فى قبائلهاكأن أسماء أضحت بعض أسمائى

مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال الحسن و قتادة: يعنى المسجد نفسه، و هو ظاهر القرآن. و قال عامة المفسرين: أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من دار أم هانئ، فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام، أو لأن الحرم كله مسجد. ثم ذكر سبحانه الغاية التى أسرى برسوله صلّى اللّه عليه و سلّم إليها فقال: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى و هو بيت المقدس، و سمّى الأقصى لبعد المسافة بينه و بين المسجد الحرام، و لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ثم وصف المسجد الأقصى بقوله: الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ بالثمار و الأنهار و الأنبياء و الصالحين، فقد بارك اللّه سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا و الآخرة، و فى باركنا بعد قوله أسرى التفات من الغيبة إلى التكلم. ثم ذكر العلّة التى أسرى به لأجلها فقال: لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا أى: ما أراه اللّه سبحانه فى تلك الليلة من العجائب التى من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة فى جزء من الليل إِنَّهُ سبحانه هُوَ السَّمِيعُ بكل مسموع، و من جملة ذلك قول رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم: الْبَصِيرُ بكل مبصر، و من جملة ذلك ذات رسوله و أفعاله.

و قد اختلف أهل العلم هل كان الإسراء بجسده صلّى اللّه عليه و سلّم مع روحه أو بروحه فقط؟ فذهب معظم السلف و الخلف إلى الأوّل. و ذهب إلى الثانى طائفة من أهل العلم منهم عائشة و معاوية و الحسن و ابن إسحاق، و حكاه ابن جرير عن حذيفة

بن اليمان. و ذهبت طائفة إلى التفصيل فقالوا: كان الإسراء بجسده يقظة إلى بيت المقدس، و إلى السماء بالروح، و استدلّوا على هذا التفصيل بقوله إلى المسجد الأقصى، فجعله غاية للإسراء بذاته صلّى اللّه عليه و سلّم، فلو كان الإسراء من بيت المقدس إلى السماء وقع بذاته لذكره، و الذى دلّت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة

---

(١). هو حسان بن ثابت.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٤٧

هو ما ذهب إليه معظم السلف و الخلف من أن الإسراء بجسده و روحه يقظه إلى بيت المقدس، ثم إلى السموات، و لا حاجة إلى التأويل و صرف هذا النظم القرآنى و ما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، و لا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد و تحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنه لا يستحيل عليه سبحانه شىء، و لو كان مجرد رؤيا كما يقوله من زعم أن الإسراء كان بالروح فقط، و أن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم عند إخباره لهم بذلك حتى ارتدّ من ارتدّ ممّن لم يشرح بالإيمان صدرا، فإن الإنسان قد يرى فى نومه ما هو مستبعد، بل ما هو محال و لا ينكر ذلك أحد؛ و أما التمسك لمن قال بأن هذا الإسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله: وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ «١» فعلى تسليم أن المراد بهذه الرؤيا هو هذا الإسراء، فالتّصريح الواقع هنا بقوله: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا و التصريح فى الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا تقصر عن الاستدلال بها على تأويل هذه الرؤيا الواقعة فى الآية برؤية العين، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا، و كيف يصحّ حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ركب البراق؟ و كيف يصحّ وصف الروح بالركوب؟ و هكذا كيف يصح حمل هذا الإسراء على الرؤيا مع تصريحه صلّى اللّه عليه و سلّم بأنه كان عند ما أسرى به بين النائم و اليقظان؟.

و قد اختلف أيضا فى تاريخ الإسراء، فروى أن ذلك كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة. و روى أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام. و وجه ذلك أن خديجة صلّت مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين، و قيل: بثلاث، و قيل: بأربع، و لم تفرض الصلاة إلا ليلة الإسراء. و قد استدل بهذا ابن عبد البرّ على ذلك، و قد اختلفت الرواية عن الزهرى. و ممّن قال بأن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهرى فى رواية عنه، و كذلك الحربى فإنه قال: أسرى بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة سبع و عشرين من ربيع الأوّل قبل الهجرة بسنة. و قال ابن القاسم فى تاريخه: كان الإسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا. قال ابن عبد البرّ: لا أعلم أحدا من أهل السير قال بمثل هذا. و روى عن الزهرى أنه أسرى به قبل مبعثه بسبعة أعوام، و روى عنه أنه قال: كان قبل مبعثه بخمس سنين. و روى يونس عن عروة عن عائشة أنها قالت: توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة.

وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ أى: التوراة، قيل: و المعنى: كرّمنا محمدا بالمعراج و أكرمنا موسى بالكتاب وَ جَعَلْناهُ أى: ذلك الكتاب، و قيل: موسى هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ يهتدون به أَلَّا تَتَّخِذُوا.

قرأ أبو عمرو بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، أى: لئلا يتخذوا. و المعنى: آتيناه الكتاب لهداية بنى إسرائيل لئلا يتخذوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا قال الفراء: أى: كفيلا بأمورهم، و روى عنه أنه قال: كافيا؛ و قيل: معناه: أى: متوكلون عليه فى أمورهم؛ و قيل: شريكا، و معنى الوكيل فى اللغة: من توكل إليه الأمور ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ نصب على الاختصاص أو النداء، ذكرهم سبحانه إنعامه عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الغرق، و يجوز أن يكون المفعول الأوّل لقوله أَلَّا تَتَّخِذُوا أى: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا، كقوله: وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً «٢». و قرئ بالرفع

---

(۱). الإسراء: ۶۰.

(۲). آل عمران: ۸۰.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۲۴۸

على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من فاعل تتخذوا. و قرأ مجاهد بفتح الذال. و قرأ زيد بن ثابت بكسرها، و المراد بالذرية هنا جميع من فى الأرض لأنهم من ذرية من كان فى السفينة، و قيل: موسى و قومه من بنى إسرائيل، و هذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء و النصب على الاختصاص، و الرفع على البدل و على الخبر؛ فإنها كلها راجعة إلى بنى إسرائيل المذكورين، و أما على جعل النصب على أن ذرية هى المفعول الأوّل لقوله: أَلَّا تَتَّخِذُوا فالأولى تفسير الذرية بجميع من فى الأرض من بنى آدم إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً أى: نوحا، وصفه اللّه بكثرة الشكر، و جعله كالعلة لما قبله إيذانا بكون الشكر من أعظم أسباب الخير، و من أفضل الطاعات، حثّا لذريته على شكر اللّه سبحانه.

و قد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال: أسرى بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال: أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. و أخرج البيهقى عن عروة مثله. و أخرج البيهقى أيضا عن السدّى قال: أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل مهاجرته بستة عشر شهرا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله:

الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ قال: أنبتنا حوله الشجر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ قال: جعله اللّه هدى يخرجهم من الظلمات إلى النور، و جعله رحمة لهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا قال: شريكا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ قال:

هو على النداء: يا ذرية من حملنا مع نوح. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن زيد الأنصارى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد: حام، و سام، و يافث، و كوش، فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق». و اعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير و السيوطى و غيرهما فى هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء على اختلاف ألفاظها، و ليس فى ذلك كثير فائدة، فهى معروفة فى موضعها من كتب الحديث، و هكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام و المسجد الأقصى، و هو مبحث آخر، و المقصود فى كتب التفسير ما يتعلّق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز، و ذكر أسباب النزول، و بيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية، و ما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة.

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴ الى ۱۱]

وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (۴) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً (۵) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (۶) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (۷) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (۸)

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۰) وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (۱۱)

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۲۴۹

قوله: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ أى: أعلمنا و أخبرنا، أو حكمنا و أتممنا؛ و أصل القضاء: الإحكام للشيء و الفراغ منه؛ و قيل: أوحينا، و يدلّ عليه قوله: إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ و لو كان بمعنى الإعلام و الإخبار لقال: قضينا بنى إسرائيل، و لو كان بمعنى حكمنا لقال: على بنى إسرائيل، و لو كان بمعنى أتممنا: لقال لبنى إسرائيل؛ و المراد بالكتاب: التوراة، و يكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه؛ و قيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. و قرأ أبو العالية و سعيد بن جبير «فى الكتب». و قرأ عيسى الثقفى لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ بفتح المثناة، و معنى هذه القراءة قريب من معنى قراءة الجمهور، لأنهم إذا أفسدوا فسدوا فى نفوسهم، و المراد بالفساد: مخالفة ما شرعه اللّه لهم فى التوراة، و المراد بالأرض:

أرض الشام و بيت المقدس، و قيل: أرض مصر، و اللام فى لَتُفْسِدُنَ جواب قسم محذوف. قال النيسابورى: أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم، كأنه قيل: و أقسمنا لتفسدنّ و انتصاب مَرَّتَيْنِ على أنه صفة مصدر محذوف، أو على أنه فى نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه، و المرة الأولى قتل شعياء، أو حبس أرمياء، أو مخالفة أحكام التوراة، و الثانية قتل يحيى بن زكريا و العزم على قتل عيسى وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً هذه اللام كاللام التى قبلها، أى: لتستكبرنّ عن طاعة اللّه، و لتستعلنّ على الناس بالظلم و البغى مجاوزين للحدّ فى ذلك فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما أى: أولى المرتين المذكورتين بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ أى: قوّة فى الحروب و بطش عند اللقاء. قيل: هو بختنصر و جنوده، و قيل: جالوت، و قيل: جند من فارس، و قيل: جند من بابل فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ أى: عاثوا و تردّدوا، يقال:

جاسوا و هاسوا و داسوا بمعنى، ذكره ابن عزيز و القتبى. قال الزجاج: معناه طافوا خلال الديار هل بقى أحد لم يقتلوه؟ قال: و الجوس: طلب الشيء باستقصاء. قال الجوهرى: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار؛ أى: تخلّلوها كما يجوس الرجل للأخبار؛ أى: يطلبها، و كذا قال أبو عبيدة. و قال: ابن جرير:

معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم و يقتلونهم ذاهبين و جائين. و قال الفراء: معناه قتلوهم بين بيوتهم، و أنشد لحسان:

و منّا الذى لاقى بسيف محمدفجاس به الأعداء عرض العساكر

و قال قطرب: معناه نزلوا، و أنشد قول الشاعر:

فجسنا ديارهم عنوةو أبنا بساداتهم موثّقينا

و قرأ ابن عباس «فحاسوا» بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحوس و الجوس و العوس و الهوس: الطوف بالليل. و قيل: الطوف بالليل هو الجوسان محركا، كذا قال أبو عبيدة. و قرئ «خلل الديار» و معناه معنى خلال و هو وسط الديار وَ كانَ ذلك وَعْداً مَفْعُولًا أى: كائنا لا- محالة ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ أى: الدولة و الغلبة و الرجعة و ذلك عند توبتهم. قيل: و ذلك حين قتل داود جالوت، و قيل: حين

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٥٠

فتح القدير ج٣ ٢٩٩

قتل بختنصر وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ بعد نهب أموالكم و سبى أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً قال أبو عبيدة: النفير العدد من الرجال؛ فالمعنى: أكثر رجالا من عدوكم.

و النفير: من ينفر مع الرجل من عشيرته، يقال: نفير و نافر مثل قدير و قادر، و يجوز أن يكون النفير جمع نفر إِنْ أَحْسَنْتُمْ أى: أفعالكم و أقوالكم على الوجه المطلوب منكم أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ لأن ثواب ذلك عائد إليكم وَ إِنْ أَسَأْتُمْ أفعالكم و أقوالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم فَلَها أى:

فعليها. و مثله قول الشاعر:

....

فخرّ صريعا لليدين و للفم «١» أى: على اليدين و على الفم. قال ابن جرير: اللام بمعنى إلى، أى: فإليها ترجع الإساءة كقوله تعالى:

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها أى: إليها؛ و قيل: المعنى: فلها الجزاء أو العقاب. و قال الحسين بن الفضل:

فلها ربّ يغفر الإساءة. و هذا الخطاب قيل: هو لبنى إسرائيل الملابثين لما ذكر فى هذه الآيات؛ و قيل: لبنى إسرائيل الكائنين فى زمن محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و معناه: إعلامهم ما حلّ بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك، و قيل: هو خطاب لمشركى قريش فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أى: حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة، و المرة الآخرة هى قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق، و قصة قتله مستوفاة فى الإنجيل و اسمه فيه يوحنا، قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله، و اسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة. و قال ابن جرير: هيردوس، و جواب إذا محذوف تقديره: بعثناهم لدلالة جواب إذا الأولى عليه، و لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ متعلّق بهذا الجواب المحذوف، أى: ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة و تتبين فى وجوهكم الكآبة؛ و قيل: المراد بالوجوه السادة منهم. و قرأ الكسائى «لنسوء» بالنون؛ على أن الضمير للّه سبحانه. و قرأ أبيّ «لنسوءن» بنون التأكيد. و قرأ أبو بكر و الأعمش و ابن وثاب و حمزة و ابن عامر «ليسوء» بالتحتية و الإفراد.

قال الزجاج: كلّ شىء كسرته و فتنه فقد تبرته، و الضمير للّه أو الوعد وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ معطوف على ليسوءوا كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا أى: يدمروا و يهلكوا، و قال قطرب: يهدموا، و منه قول الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فعامل يتبر ما يبنى و آخر رافع

و قرأ الباقون بالتحتية و ضم الهمزة و إثبات واو بعدها على أن الفاعل عباد لنا ما عَلَوْا أى: ما غلبوا عليه من بلادكم أو مدة علوهم تَتْبِيراً أى: تدميرا، ذكر المصدر إزالة للشك و تحقيقا للخبر عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ يا بنى إسرائيل بعد انتقامه منكم فى المرة الثانية وَ إِنْ عُدْتُمْ للثالثة عُدْنا إلى عقوبتكم. قال أهل السير: ثم إنهم عادوا إلا ما لا ينبغى، و هو تكذيب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و كتمان ما ورد فى

---

(١). و صدره: و هتكت بالرمح الطويل إهابه. و البيت لربيعة بن مكدم.

بعثه فى التوراة و الإنجيل، فعاد اللّه إلى عقوبتهم على أيدى العرب، فجرى على بنى قريظة و النضير و بنى قينقاع و خيبر ما جرى من القتل و السبى و الإجلاء و ضرب الجزية على من بقى منهم، و ضرب الذلة و المسكنة وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً و هو المحبس، فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول. و المعنى: أنهم محبوسون فى جهنّم لا يتخلّصون عنها أبدا. قال الجوهرى: حصره يحصره حصرا؛ ضيق عليه و أحاط به، و قيل: فراشا و مهادا، و أراد على هذا بالحصير الحصير الذى يفرشه الناس إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ يعنى القرآن يهدى الناس الطريقة التى هى أقوم من غيرها من الطرق و هى ملّة الإسلام، فالتى هى أقوم صفة لموصوف محذوف و هى الطريق. و قال الزجّاج: للحال التى هى أقوم الحالات، و هى توحيد اللّه و الإيمان برسله، و كذا قال الفراء وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ قرأ حمزة و الكسائى «يبشر» بفتح الياء و ضم الشين. و قرأ الباقون بضم الياء و كسر الشين من التبشير؛ أى: يبشر بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلا و عاجلا للمؤمنين الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ التى أرشد إلى عملها القرآن أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً أى: بأنّ لهم وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ و أحكامها المبينة فى القرآن أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً و هو عذاب النار، و هذه الجملة معطوفة على جملة يبشر بتقدير يخبر، أى: و يخبر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة، و قيل: معطوفة على قوله: أَنَّ لَهُمْ

أَجْراً كَبِيراً و يراد بالتبشير مطلق الإخبار، أو يكون المراد منه معناه الحقيقى، و يكون الكلام مشتملا على تبشير المؤمنين ببشارتين: الأولى: ما لهم من الثواب، و الثانية: ما لأعدائهم من العقاب وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ المراد بالإنسان هنا الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده و هو دعاء الرجل على نفسه و ولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ أى: مثل دعائه لربه بالخير لنفسه و لأهله كطلب العافية و الرزق و نحوهما، فلو استجاب اللّه دعاءه على نفسه بالشرّ هلك، لكنه لم يستجب تفضلا منه و رحمة، و مثل ذلك: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ «١» و قد تقدّم؛ و قيل: المراد بالإنسان هنا القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشرّ، و هو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقول القائل: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «٢». و قيل: هو أن يدعو فى طلب المحظور كدعائه فى طلب المباح، و حذفت الواو من و يدع الإنسان فى رسم المصحف لعدم التلفظ بها لوقوع اللام الساكنة بعدها كقوله: سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ «٣»، وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ «۴»، وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ «۵» و نحو ذلك وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا أى: مطبوعا على العجلة، و من عجلته أنه يسأل الشرّ كما يسأل الخير؛ و قيل: إشارته إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تكمل فيه الروح، و المناسب للسّياق هو الأول.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ قال: أعلمناهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: أخبرناهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قضينا

---

(١). يونس: ١١.

(٢). الأنفال: ٣٢.

(٣). العلق: ١٨.

(۴). الشورى: ٢۴.

(۵). النساء: ١۴۶.

إلى بنى إسرائيل: قضينا عليهم. و أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن علىّ فى قوله: لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ قال: الأولى قتل زكريا، و الآخرة قتل يحيى. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال:

كان أوّل الفساد قتل زكريا، فبعث اللّه عليهم ملك النبط، ثم إن بنى إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم، فذلك قوله: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال:

بعث اللّه عليهم فى الأولى جالوت، و بعث عليهم فى المرة الأخرى بختنصر، فعادوا فسلط اللّه عليهم المؤمنين.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فَجاسُوا قال: فمشوا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال:

تَتْبِيراً تدميرا. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى قوله: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ قال: كانت الرحمة التى وعدهم بعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا قال: فعادوا فبعث اللّه سبحانه عليهم محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، فهم يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون.

و اعلم أنها قد اختلفت الروايات فى تعيين الواقع منهم فى المرّتين، و فى تعيين من سلّطه اللّه عليهم، و فى كيفية الانتقام منهم، و لا يتعلّق بذلك كثير فائدة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً قال: سجنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه. قال:

معنى حَصِيراً جعل اللّه مأواهم فيها. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: حَصِيراً

قال: فراشا و مهادا. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ قال: للتى هى أصوب. و أخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه كان يتلو كثيرا إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ بالتخفيف. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ يعنى قول الإنسان: اللهم العنه و اغضب عليه. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا قال: ضجرا لا صبر له على سرّاء و لا ضرّاء. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن سلمان الفارسى قال: أوّل ما خلق اللّه من آدم رأسه، فجعل ينظر و هو يخلق و بقيت رجلاه، فلما كان بعد العصر قال: يا ربّ أعجل قبل الليل، فذلك قوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٢ الى ١٧]

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (١٢) وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (١٦)
وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧)

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٥٣

لمّا ذكر سبحانه دلائل النبوة و التوحيد أكّدها بدليل آخر من عجائب صنعه و بدائع خلقه، فقال:

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ و ذلك لما فيهما من الإظلام و الإنارة مع تعاقبهما و سائر ما اشتملا عليه من العجائب التى تحارّ فى وصفها الأفهام، و معنى كونهما آيتين أنهما يدلّان على وجود الصانع و قدرته، و قدّم الليل على النهار لكونه الأصل فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ أى: طمسنا نورها، و قد كان القمر كالشّمس فى الإنارة و الضوء. قيل: و من آثار المحو السواد الذى يرى فى القمر، و قيل: المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة، و ليس المراد أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أى جعل سبحانه شمسه مضيئة تبصر فيها الأشياء. قال أبو عمرو بن العلاء و الكسائى: هو من قول العرب: أبصر النهار؛ إذا صار بحالة يبصر بها؛ و قيل: مبصرة للناس من قوله أبصره فبصر. فالأوّل وصف لها بحال أهلها، و الثانى وصف لها بحال نفسها، و إضافة آية إلى الليل و النهار بيانية، أى: فمحونا الآية التى هى الليل و الآية التى هى النهار كقولهم نفس الشىء و ذاته لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ أى: لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرّف فى وجوه المعاش، و اللام متعلّق بقوله: وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أى: جعلناها لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ أى: رزقا، إذ غالب تحصيل الأرزاق و قضاء الحوائج يكون بالنهار، و لم يذكر هنا السّكون فى الليل اكتفاء بما قاله فى موضع آخر: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً «١»، ثم ذكر مصلحة أخرى فى ذلك الجعل فقال: وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ و هذا متعلّق بالفعلين جميعا، أعنى محونا آية الليل و جعلنا آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط كالأوّل، إذ لا يكون علم عدد السنين و الحساب، إلا باختلاف الجديدين «٢» و معرفة الأيام و الشهور و السنين. و الفرق بين العدد و الحساب أن العدد إحصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصّل منه شىء، و الحساب إحصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حدّ معين منه له اسم خاص؛ فالسنة مثلا إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد؛ و إن وقع النظر إليها من حيث تحققها و تحصلها من عدّة أشهر، قد يحصل كل شهر من عدّة أيام، قد يحصل كل يوم من عدّة ساعات، قد تحصلت كلّ ساعة من عدّة دقائق، فذلك هو الحساب وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا أى: كل ما تفتقرون إليه فى أمر دينكم و دنياكم بيّناه تبيينا واضحا لا يلتبس، و عند ذلك تنزاح العلل و تزول الأعذار: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ

بَيِّنَةٍ «٣»، و لهـذا قال: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال أبو عبيدة: الطائر عند العرب الحظ، و يقال له البخت، فالطائر ما وقع للشخص فى الأزل بما هو نصيبه من العقل و العمل و العمر و الرزق و السعادة و الشقاوة، كأنّ طائرا يطير إليه من و كر الأزل و ظلمات عالم الغيب طيرانا لا نهايـة له و لا غايـة إلى أن انتهى إلى ذلك الشخص فى وقته المقـدّر من غير خلاص و لا مناص. و قال الأزهرى: الأصل فى هذا أن اللّه سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته و العاصى، فكتب ما علمه منهم أجمعين، و قضى سعادة من علمه مطيعا و شقاوة من علمه عاصيا، فطار لكل منهم ما هو صائر إليه عنـد خلقه و إنشائه، و ذلك قوله: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ أى: ما طار له فى علم اللّه، و فى عنقه

---

(١). يونس: ٦٧.

(٢). الجديدان و الأجدّان: الليل و النهار.

(٣). الأنفال: ٤٢.

عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين مـا يلبس. قـال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً قرأ ابن عباس و الحسن و مجاهـد و ابن محيصن و أبو جعفر و يعقوب «و يخرج» بالمثناة التحتية المفتوحة و بالراء المضمومة على معنى: و يخرج له الطائر، و كتابا منصوب على الحال، و يجوز أن يكون المعنى: يخرج له الطائر فيصير كتابا. و قرأ يحيى بن وثّاب «يخرج» بضم الياء و كسر الراء: أى يخرج اللّه. و قرأ شيبة و محمد بن السّميقع. و روى أيضا عن أبى جعفر «يخرج» بضم الياء و فتح الراء على البناء للمفعول، أى: و يخرج له الطائر كتابا. و قرأ الباقون «و نخرج» بالنون على أن المخرج هو اللّه سبحانه و كتابا مفعول به، و احتج أبو عمرو لهـذه القراءة بقوله تعالى: أَلْزَمْناهُ و قرأ أبو جعفر و الحسن و ابن عامر يلقاه بضم الياء و فتح اللام و تشديـد القاف. و قرأ الباقون بفتح الياء و سكون اللام و تخفيف القاف، و إنما قال سبحانه يَلْقاهُ مَنْشُوراً تعجيلا للبشرى بالحسنة و للتوبيخ على السيئة اقْرَأْ كِتابَكَ أى: نقول له: اقرأ كتابك، أو قائلين له، قيل: يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئا، و من لم يكن قارئا. كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً الباء فى بِنَفْسِكَ زائدة و حَسِيباً تمييز؛ أى: حاسبا. قال سيبويه: ضريب القداح بمعنى ضاربها، و صريم بمعنى صارم، و يجوز أن يكون الحسيب بمعنى الكافى، ثم وضع موضع الشهيد فعدّى بعلى، و النفس بمعنى الشخص، و يجوز أن يكون الحسيب بمعنى المحاسب؛ كالشريك و الجليس. مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ بيّن سبحانه أنّ ثواب العمل الصالح و عقاب ضدّه يختصان بفاعلهما لا يتعدان منه إلى غيره، فمن اهتـدى بفعل ما أمره اللّه به و ترك ما نهاه اللّه عنه، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه وَ مَنْ ضَلَ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به، و لم يترك مـا نهى عنه فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أى: فإن وبـال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها، فكل أحـد محاسب عن نفسه، مجزىّ بطاعته، معاقب بمعصيته، ثم أكّد هـذا الكلام بأبلغ تأكيـد فقال: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى و الوزر: الإثم، يقال: وزر يزر وزرا و وزرة. أى: إثمـا، و الجمع أوزار، و الـوزر: الثقـل. و منه: يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ «١» أى: أثقـال ذنوبهم. و معنى الآيـة: لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها و تؤخـذ به الأولى، و قـد تقدّم مثل هذا فى الأنعام. قال الزجاج فى تفسير هـذه الآيـة: إن الآثم و المـذنب لا يؤاخـذ بـذنب غيره وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدى بهدايته و الضالّ بضلاله، و عدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره، ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، و إنزال كتبه، فبيّن سبحانه أنه لم يتركهم سدى، و لا يؤاخذهم قبل إقامة الحجّة عليهم، و الظاهر أنه لا يعذّبهم لا فى الـدنيا و لا فى الآخرة إلا بعـد الإعـذار إليهم بإرسال الرسل، و به قالت طائفة من أهل العلم. و ذهب الجمهور إلى

أن المنفى هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا اختلف المفسرون فى معنى أمرنا على قولين: الأوّل: أن المراد به الأمر الذى هو نقيض النهى، و على هذا اختلفوا فى المأمور به، فالأكثر على أنه الطاعة و الخير. و قال فى الكشاف: معناه أمرناهم

(۱). الأنعام: ۳۱.

بالفسق ففسقوا، و أطال الكلام فى تقرير هذا و تبعه المقتدون به فى التفسير، و ما ذكره هو و من تابعه معارض بمثل قول القائل أمرته فعصانى، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شىء غير المعصية، لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شىء غير الفسق، لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به، فكونه فسقا ينافى كونه مأمورا به و يناقضه. القول الثانى: أن معنى أَمَرْنا مُتْرَفِيها أكثرنا فسّاقها. قال الواحدى: تقول العرب: أمر القوم إذا كثروا، و أمرهم اللّه إذا أكثرهم. و قد قرأ أبو عثمان النهدى و أبو رجاء و أبو العالية و الربيع و مجاهد و الحسن أَمَّرْنا بتشديد الميم، أى: جعلناهم أمراء مسلّطين. و قرأ الحسن أيضا و قتادة و أبو حيوة الشامى و يعقوب و خارجة عن نافع و حماد بن سلمة عن ابن كثير و علىّ و ابن عباس «آمرنا» بالمدّ و التخفيف، أى: أكثرنا جبابرتها و أمراءها، قاله الكسائى. و قال أبو عبيدة: آمرته بالمدّ و أمرته لغتان بمعنى كثرته، و منه الحديث: «خير المال مهرة مأمورة» أى: كثيرة النتاج و النسل، و كذا قال ابن عزيز. و قرأ الحسن أيضا و يحيى بن يعمر «أمرنا» بالقصر و كسر الميم على معنى فعلنا، و رويت هذه القراءة عن ابن عباس. قال قتادة و الحسن: المعنى أكثرنا. و حكى نحوه أبو زيد و أبو عبيد، و أنكره الكسائى و قال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمدّ. قال فى الصحاح: و قال أبو الحسن: أمر ماله- بالكسر- أى: كثر، و أمر القوم: أى كثروا، و منه قول لبيد:

إن يغبطوا يهبطوا و إن أمروايوما يصيروا للهلك و النّكد «۱»

و قرأ الجمهور أَمَرْنا من الأمر، و معناه ما قدّمنا فى القول الأوّل، و معنى مُتْرَفِيها المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، و المفسرون يقولون فى تفسير المترفين: إنهم الجبارون المتسلطون و الملوك الجائرون، قالوا: و إنما خصّوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم، و معنى فَفَسَقُوا فِيها خرجوا عن الطاعة، و تمردوا فى كفرهم؛ لأن الفسوق الخروج إلى ما هو أفحش فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ أى: ثبت و تحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً أى: تدميرا عظيما لا يوقف على كنهه لشدته و عظم موقعه؛ و قد قيل فى تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق، و هو إدرار النعم عليهم؛ و قيل أيضا:

إن المراد بأردنا أن نهلك قرية أنه قرب إهلاك قرية، و هو عدول عن الظاهر بدون ملجئ إليه. ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية، فقال: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ أى: كثيرا ما أهلكنا منهم، ف «كم» مفعول «أهلكنا»، و «من القرون» بيان ل «كم» و تمييز له، أى: كم من قوم كفروا من بعد نوح كعاد و ثمود، فحلّ بهم البوار، و نزل بهم سوط العذاب، و فيه تخويف لكفار مكة. ثم خاطب رسوله بما هو ردع للناس كافة فقال: وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً قال الفراء: إنما يجوز إدخال الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذمّ به، كقولك: كفاك، و أكرم به رجلا، و طاب بطعامك طعاما، و لا يقال قام بأخيك و أنت تريد قام أخوك. و فى الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة، و تخويف شديد لأهل

(۱). فى المطبوع: يوما يكن للهلاك و الفند. و المثبت من الديوان ص (۱۶۰). «يهبطوا»- هنا-: يموتوا.

المعصية؛ لأن العلم التام و الخبرة الكاملة و البصيرة النافذة تقتضى إيصال الجزاء إلى مستحقّه بحسب استحقاقه، و لا ينافيه مزيد التفضّل على من هو أهل لذلك، و المراد بكونه سبحانه خبيرا بصيرا أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهرا و باطنا، لا تخفى عليه منها خافية.

و قد أخرج البيهقى فى دلائل النبوّة، و ابن عساكر عن سعيد المقبرى «أن عبد اللّه بن سلام سأل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن السواد الذى فى القمر؛ فقال: كانا شمسين، قال اللّه: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ فالسواد الذى رأيت هو المحو».

و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معنى هذا بأطول منه. قال السيوطى: و إسناده واه.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن علىّ فى قوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ قال: هو السواد الذى فى القمر.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً قال: منيرة لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ قال: جعل لكم سبحا طويلا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَصَّلْناهُ قال: بيّناه. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير بسند حسن عن جابر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «طائر كلّ إنسان فى عنقه». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال: سعادته و شقاوته، و ما قدّر اللّه له و عليه، لازمه أينما كان. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن أنس فى قوله: طائِرَهُ قال: كتابه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: عمله: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً قال: هو عمله الذى أحصى عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشورا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: اقْرَأْ كِتابَكَ قال: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا فى الدنيا. و أخرج ابن عبد البرّ فى «التمهيد» عن عائشة فى قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى قال:

سألت خديجة «1» عن أولاد المشركين فقال: «هم مع آبائهم»، ثم سألته بعد ذلك فقال: «اللّه أعلم بما كانوا عاملين» ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام، فنزلت: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى فقال: «هم على الفطرة، أو قال، فى الجنة». قال السيوطى: و سنده ضعيف. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما:

«أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سئل فقيل له: يا رسول اللّه إنّا نصيب فى البيات من ذرارى المشركين، قال: «هم منهم» «2» و فى ذلك أحاديث كثيرة و بحث طويل. و قد ذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين، ثم نقل كلام أهل العلم فى المسألة فليرجع إليه. و أخرج إسحاق بن راهويه و أحمد و ابن حبان، و أبو نعيم فى المعرفة، و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى كتاب الاعتقاد، عن الأسود بن سريع

---

(1). يعنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

(2). «البيات»: أن يغار على المشركين بالليل حيث لا يعرف الرجل من المرأة و الصبى.

«هم منهم»: أى فى الحكم، و ليس المراد إباحة قتلهم بطريق القصد إليهم، بل المراد إذا لم يمكن الوصول إلى الآباء إلا بوطء الذرية- أى بالأرجل-، فإذا أصيبوا لاختلاطهم بهم، جاز قتلهم.

أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أربعة يحتجّون يوم القيامة: رجل أصمّ لا يسمع شيئا، و رجل أحمق، و رجل هرم، و رجل مات فى الفترة ... ثم قال: فيأخذ اللّه مواثيقهم ليطيعنه، و يرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار، قال: فو الذى نفس محمد بيده لو

دخلوها لكانت عليهم بردا و سلاما، و من لم يدخلها يسحب إليها» و إسناده عند أحمد هكذا: حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن أبى قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع.

و أخرج نحوه إسحاق بن راهويه و أحمد و ابن مردويه عن أبى هريرة، و هو عند أحمد بالإسناد المذكور عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة. و أخرج قاسم بن أصبغ و البزار و أبو يعلى، و ابن عبد البرّ فى التمهيد، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره نحوه، و جعل مكان الأحمق المعتوه. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول و الطبرانى و أبو نعيم عن معاذ بن جبل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوح عقلا، و بالهالك فى الفترة، و بالهالك صغيرا» فذكر معناه مطولا. و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله: أَمَرْنا مُتْرَفِيها قال: بطاعة اللّه فعصوا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن شهر بن حوشب قال: سمعت ابن عباس يقول فى الآية: أَمَرْنا مُتْرَفِيها بحقّ فخالفوه، فحق عليهم بذلك التدمير. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه فى الآية قال: سلطنا شرارها فعصوا، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. و هو كقوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها «١». و أخرج البخارى و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقول للحى إذا كثروا فى الجاهلية: قد أمر بنو فلان.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٨ الى ٢٤]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (١٨) وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩) كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (٢٢)

وَ قَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (٢٤)

قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ هذا تأكيد لما سلف من جملة كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ و من جملة مَنِ اهْتَدى و المراد بالعاجلة: المنفعة العاجلة أو الدار العاجلة. و المعنى: من كان يريد بأعمال البرّ أو بأعمال الآخرة ذلك، فيدخل تحته الكفرة و الفسقة و المراؤون و المنافقون عَجَّلْنا لَهُ أى: عجلنا لذلك المريد فِيها أى: فى تلك العاجلة، ثم قيّد المعجل بقيدين: الأوّل: قوله: ما نَشاءُ أى: ما يشاء اللّه سبحانه تعجيله له منها، لا ما يشاؤه ذلك المريد، و لهذا ترى كثيرا من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون

---

(١). الأنعام: ١٢٣.

من الدنيا ما لا ينالون، و يتمنون ما لا يصلون إليه؛ و القيد الثانى: قوله: لِمَنْ نُرِيدُ أى: لمن نريد التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا، و جملة لِمَنْ نُرِيدُ بدل من الضمير فى له بإعادة الجار؛ بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى «من» و هو للعموم، و هذه الآية تقيد الآيات المطلقة، كقوله سبحانه: وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها «١». مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ «٢». و قد قيل: إنه قرئ «ما يشاء» بالياء التحتية، و لا ندرى من قرأ بذلك من أهل الشواذّ، و على هذه القراءة قيل: الضمير للّه سبحانه، أى: ما يشاؤه اللّه، فيكون معناها معنى القراءة بالنون، و فيه بعد لمخالفته لما

قبله، و هو عجلنا و ما بعده و هو لمن نريد؛ و قيل: الضمير راجع إلى من فى قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ فيكون ذلك مقيدا بقوله: لِمَنْ نُرِيدُ؛ أى: عجلنا له ما يشاؤه، لكن بحسب إرادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا إذا أراد اللّه له ذلك، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التى لا تأثير لها إلا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم، و لهذا قال: ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ أى: جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة و إخلاصه عن الشوائب عذاب جهنم على اختلاف أنواعه يَصْلاها فى محل نصب على الحال، أى: يدخلها مَذْمُوماً مَدْحُوراً أى: مطرودا من رحمة اللّه مبعدا عنها، فهذه عقوبته فى الآخرة مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره اللّه سبحانه له، فأين حال هذا الشقىّ من حال المؤمن التقىّ؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدّره اللّه له و أراده بلا هلع منه و لا جزع، مع سكون نفسه و اطمئنان قلبه و ثقته بربه، و هو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من اللّه سبحانه، و هو الجنة، و لهذا قال: وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ أى: أراد بأعماله الدار الآخرة وَ سَعى لَها سَعْيَها أى: السعى الحقيق بها اللائق بطالبها، و هو الإتيان بما أمر به و ترك ما نهى عنه خالصا للّه غير مشوب، و كان الإتيان به على القانون الشرعى من دون ابتداع و لا هوى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ باللّه إيمانا صحيحا، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه إلا إذا كان من المؤمنين إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «٣» و الجملة فى محل نصب على الحال، و الإشارة بقوله:

فَأُولئِكَ إلى المريدين للآخرة الساعين لها سعيها و خبره كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً عند اللّه، أى: مقبولا غير مردود؛ و قيل: مضاعفا إلى أضعاف كثيرة، فقد اعتبر سبحانه فى كون السعى مشكورا أمورا ثلاثة:

الأول: إرادة الآخرة. الثانى: أن يسعى لها السعى الذى يحقّ لها. و الثالث: أن يكون مؤمنا. ثم بيّن سبحانه كمال رأفته و شمول رحمته، فقال: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ التنوين فى كلا عوض عن المضاف إليه، و التقدير: كل واحد من الفريقين نمدّ، أى: نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين و الكفار و أهل الطاعة و أهل المعصية، لا تؤثر معصية العاصى فى قطع رزقه، و ما به الإمداد:

هو ما عجله لمن يريد الدنيا، و ما أنعم به فى الأولى و الأخرى على من يريد الآخرة، و فى قوله: مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ إشارة إلى أن ذلك بمحض التفضل، و هو متعلق بنمدّ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً أى:

ممنوعا، يقال: حظره يحظره حظرا؛ منعه، و كل ما حال بينك و بين شىء فقد حظره عليك، و هؤُلاءِ

---

(١). الشورى: ٢٠.

(٢). هود: ١٥.

(٣). المائدة: ٢٧.

بدل من كُلًّا و هؤُلاءِ معطوف على البدل. قال الزجاج: أعلم اللّه سبحانه أنه يعطى المسلم و الكافر و أنه يرزقهما جميعا الفريقين، فقال: هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ الخطاب لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و يحتمل أن يكون لكل من له أهلية النظر و الاعتبار، و هذه الجملة مقررة لما مرّ من الإمداد و موضحة له؛ و المعنى: انظر كيف فضّلنا فى العطايا العاجلة بعض العباد على بعض، فمن غنىّ و فقير، و قوى و ضعيف، و صحيح و مريض و عاقل و أحمق و ذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا و ذلك لأن نسبة التفاضل فى درجات الآخرة أكبر درجات و أكبر تفضيلا. و قيل: المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة و الكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين. و حاصل المعنى أن التفاضل فى الآخرة و درجاتها فوق التفاضل فى الدنيا و مراتب أهلها فيها من بسط و قبض و نحوهما. ثم لما

أجمل سبحانه أعمال البرّ فى قوله: وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أخذ فى تفصيل ذلك مبتدئا بأشرفها الذى هو التوحيد فقال: لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و المراد به أمته تهييجا و إلهابا، أو لكل متأهل له صالح لتوجيهه إليه؛ و قيل: هو على إضمار القول، و التقدير:
قل لكل مكلّف لا تجعل، و انتصاب تقعد على جواب النهى، و التقدير: لا يكن منك جعل فقعود؛ و معنى تقعد تصير، من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة، و ليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام؛ و قيل: هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات، فإن السعى فيه إنما يتأتّى بالقيام، و العجز عنه يلزمه أن يكون قاعدا عن الطلب؛ و قيل: إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادما مفكرا على ما فرط منه، فالقعود على هذا حقيقة، و انتصاب مَذْمُوماً مَخْذُولًا على خبرية تقعد أو على الحال، أى: فتصير جامعا بين الأمرين الذمّ لك من اللّه و من ملائكته، و من صالحى عباده، و الخذلان لك منه سبحانه، أو حال كونك جامعا بين الأمرين. ثم لما ذكر ما هو الركن الأعظم و هو التوحيد أتبعه سائر الشعائر و الشرائع فقال: وَ قَضى رَبُّكَ أى: أمر أمرا جزما، و حكما قطعا، و حتما مبرما أَلَّا تَعْبُدُوا أى: بأن لا تعبدوا، فتكون أن ناصبة، و يجوز أن تكون مفسرة و لا نهى. و قرئ و وصّى ربك أى: وصّى عباده بعبادته وحده، ثم أردفه بالأمر ببرّ الوالدين فقال: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً أى: و قضى بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا، أو و أحسنوا بهما إحسانا، و لا يجوز أن يتعلّق بالوالدين بإحسانا، لأن المصدر لا يتقدّم عليه ما هو متعلّق به.
قيل: و وجه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة اللّه سبحانه أنهما السبب الظاهر فى وجود المتولّد بينهما، و فى جعل الإحسان إلى الأبوين قرينا لتوحيد اللّه و عبادته من الإعلان بتأكد حقّهما و العناية بشأنهما ما لا يخفى، و هكذا جعل سبحانه فى آية أخرى شكرهما مقترنا بشكره فقال: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ «۱»، ثم خصّ سبحانه حالة الكبر بالذّكر لكونها إلى البرّ من الولد أحوج من غيرها فقال: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما إما مركبة من إن الشرطية و ما الإبهامية لتأكيد معنى الشرط، ثم أدخلت نون التوكيد فى الفعل لزيادة التقرير كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سيقع البتة عادة «۲». قال النحويون: إن الشرط يشبه النهى من

---

(۱). لقمان: ۱۴.

(۲). قال الرازى فى تفسيره: المراد أن هذا الحكم المتقرر المتأكد إما أن يقع و إما ألا يقع.

حيث الجزم و عدم الثبوت، فلهذا صحّ دخول النون المؤكدة عليه. و قرأ حمزة و الكسائى «يبلغانّ» قال الفراء:
ثنّى لأن الوالدين قد ذكرا قبله فصار الفعل على عددهما، ثم قال: أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما على الاستئناف، و أما على قراءة يَبْلُغَنَ فأحدهما فاعل بالاستقلال و قوله: أَوْ كِلاهُما فاعل أيضا لكن لا بالاستقلال بل بتبعية العطف، و الأولى أن يكون أحدهما على قراءة «يبلغان» بدل من الضمير الراجع إلى الوالدين فى الفعل و يكون كلاهما عطفا على البدل، و لا يصحّ جعل كلاهما تأكيدا للضمير لاستلزام العطف المشاركة، و معنى عندك فى كنفك و كفالتك، و توحيد الضمير فى عندك و لا تقل و ما بعدهما للإشعار بأن كل فرد من الأفراد منهىّ بما فيه النهى، و مأمور بما فيه الأمر، و معنى فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ لا تقل لواحد منهما فى حالتى الاجتماع و الانفراد، و ليس المراد حالة الاجتماع فقط؛ و فى أفّ لغات: ضم الهمزة مع الحركات الثلاث فى الفاء، و بالتنوين و عدمه، و بكسر الهمز و الفاء بلا تنوين، و أفّى ممالا «۱»، و أفّه بالهاء. قال الفراء: تقول العرب: فلان يتأفف من ريح وجدها، أى: يقول أف أف. و قال الأصمعى: الأف: وسخ الأذن، و التّف: وسخ الأظفار، يقال ذلك عند استقذار الشىء، ثم كثر

حتى استعملوه فى كل ما يتأذون به. و روى ثعلب عن ابن الأعرابىّ أن الأف الضجر، و قال القتبى: أصله أنه إذا سقط عليه تراب و نحوه نفخ فيه ليزيله، فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل: أفّ، ثم توسّعوا فذكروه عند كل مكروه يصل إليهم.
و قال الزجاج: معناه النتن. و قال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار و التّف قلامتها. و الحاصل أنه اسم فعل ينبئ عن التضجر و الاستثقال، أو صوت ينبئ عن ذلك، فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما، و بهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو متقرّر فى الأصول وَ لا تَنْهَرْهُما النهر: الزجر و الغلظة، يقال: نهره و انتهره؛ إذا استقبله بكلام يزجره، قال الزجاج: معناه لا تكلّمهما ضجرا صائحا فى وجوههما وَ قُلْ لَهُما بدل التأفيف و النهر قَوْلًا كَرِيماً أى: لينا لطيفا أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول و كرامته مع التأدب و الحياء و الاحتشام وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ذكر القفال فى معنى خفض الجناح وجهين: الأوّل:
أن الطائر إذا أراد ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه، فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك. و الثانى: أن الطائر إذا أراد الطيران و الارتفاع نشر جناحه، و إذا أراد النزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع و ترك الارتفاع. و فى إضافة الجناح إلى الذلّ وجهان: الأوّل: أنها كإضافة حاتم إلى الجود فى قولك حاتم الجود، فالأصل فيه الجناح الذليل، و الثانى: سلوك سبيل الاستعارة، كأنه تخيل للذلّ جناحا، ثم أثبت لذلك الجناح خفضا. و قرأ الجمهور الذلّ بضم الذال من ذلّ يذلّ ذلا و ذلة و مذلة فهو ذليل. و قرأ سعيد بن جبير و عروة بن الزبير بكسر الذال، و روى ذلك عن ابن عباس و عاصم، من قولهم دابة ذلول بيّنة الذّلّ؛ أى: منقادة سهلة لا صعوبة فيها، و من الرحمة فيه معنى التعليل، أى: من أجل فرط الشفقة و العطف

---

(١). قراءة على الإمالة.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٦١

عليهما لكبرهما و افتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق اللّه إليهما بالأمس، ثم كأنه قال له سبحانه و لا تكتف برحمتك التى لا دوام لها وَ لكن قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً و الكاف فى محل نصب على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: رحمة مثل تربيتهما لى أو مثل رحمتهما لى؛ و قيل: ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانهما فى الوجود فلتقع هذه كما وقعت تلك. و التربية: التنمية، و يجوز أن يكون الكاف للتعليل، أى:
لأجل تربيتهما لى كقوله: وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ «١» و لقد بالغ سبحانه فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعرّ لها جلود أهل العقوق، و تقف عندها شعورهم.
و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ قال: من كان يريد بعمله الدنيا عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ذاك به. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، عن الحسن فى قوله: كُلًّا نُمِدُّ الآية قال: كل يرزق اللّه فى الدنيا البرّ و الفاجر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال: يرزق من أراد الدنيا و يرزق من أراد الآخرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: مَحْظُوراً ممنوعا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد مثله. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، عن سلمان عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة فارتفع بها إلا وضعه اللّه فى الآخرة درجة أكبر منها و أطول، ثم قرأ: أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا» و هو من رواية زاذان عن سلمان. و ثبت فى الصحيحين «أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر فى أفق السماء». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مَذْمُوماً يقول: ملوما. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير

و ابن المنذر، و ابن الأنباری فی المصاحف، من طریق سعید بن جبیر عن ابن عباس أنه قرأ: و وصّی ربّک، مکان وَ قَضی و قال: التزقت الواو و الصاد و أنتم تقرؤونها «وَ قَضی رَبُّکَ». و أخرج ابن أبی حاتم من طریق الضحّاک عنه مثله. و أخرج أبو عبید و ابن منیع و ابن المنذر و ابن مردویه من طریق میمون بن مهران عنه أیضا مثله، و زاد: و لو نزلت علی القضاء ما أشرک به أحد. و أقول: إنما یلزم هذا لو کان القضاء بمعنی الفراغ من الأمر، و هو و إن کان أحد معانی مطلق القضاء، کما فی قوله: قُضِیَ الْأَمْرُ الَّذِی فِیهِ تَسْتَفْتِیانِ «۲»، و قوله: فَإِذا قَضَیْتُمْ مَناسِکَکُمْ «۳» فَإِذا قَضَیْتُمُ الصَّلاةَ «۴» و لکنه- هاهنا- بمعنی الأمر، و هو أحد معانی القضاء، و الأمر لا یستلزم ذلک، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجمیع ما أوجبه، و من جملة ذلک إفراده بالعبادة و توحیده و ذلک لا یستلزم أن لا یقع الشرک من المشرکین، و من معانی مطلق القضاء معان أخر غیر هذین المعنیین کالقضاء بمعنی الخلق، و منه: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ «۵». و بمعنی الإرادة کقوله: إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ* «۶». و بمعنی العهد کقوله: وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِیِّ إِذْ قَضَیْنا إِلی مُوسَی الْأَمْرَ «۷». و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر من طریق علیّ بن أبی طلحة عن ابن عباس فی قوله:

---

(۱). البقرة: ۱۹۸.

(۲). یوسف: ۴۱.

(۳). البقرة: ۲۰۰.

(۴). النساء: ۱۰۳.

(۵). فصلت: ۱۲.

(۶). البقرة: ۱۱۷.

(۷). القصص: ۴۴.

وَ قَضی رَبُّکَ قال: أمر. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فی الآیة قال: عهد ربک. و أخرج ابن أبی حاتم عن الحسن فی قوله: وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً یقول: برّا. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ فیما تمیط عنهما من الأذی: الخلاء و البول، کما کانا لا یقولانه فیما کانا یمیطان عنک من الخلاء و البول. و أخرج الدیلمی عن الحسن بن علیّ مرفوعا: «لو علم اللّه شیئا من العقوق أدنی من أف لحرّمه». و أخرج ابن أبی حاتم عن زهیر بن محمد فی قوله: وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا کَرِیماً قال: إذا دعواک فقل لبیکما و سعدیکما. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی الآیة قال: قولا لینا سهلا. و أخرج البخاری فی الأدب، و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن عروة فی قوله:
وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِ قال: یلین لهما حتی لا یمتنع من شیء أحبّاه. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید ابن جبیر فی الآیة قال: اخضع لوالدیک کما یخضع العبد للسید الفظّ الغلیظ. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم من طریق علیّ بن أبی طلحة عن ابن عباس فی قوله: وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما ثم أنزل اللّه بعد هذا: ما کانَ لِلنَّبِیِّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ یَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِکِینَ وَ لَوْ کانُوا أُولِی قُرْبی «۱». و أخرج البخاری فی الأدب المفرد، و أبو داود و ابن جریر و ابن المنذر من طرق عنه نحوه، و قد ورد فی برّ الوالدین أحادیث کثیرة ثابتة فی الصحیحین و غیرهما، و هی معروفة فی کتب الحدیث.

[سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۲۵ الی ۳۳]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِی نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِینَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِینَ غَفُوراً (٢٥) وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ وَ الْمِسْكِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ كانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ وَ كانَ الشَّیْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَیْسُوراً (٢٨) وَ لا تَجْعَلْ یَدَكَ مَغْلُولَةً إِلی عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩)

إِنَّ رَبَّكَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (٣٠) وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْیَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِیراً (٣١) وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنی إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِیلاً (٣٢) وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِیِّهِ سُلْطاناً فَلا یُسْرِفْ فِی الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (٣٣)

قوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِی نُفُوسِكُمْ أی: بما فی ضمائركم من الإخلاص و عدمه فی كلّ الطاعات، و من التوبة من الذنب الذی فرط منكم أو الإصرار علیه، و یندرج تحت هذا العموم ما فی النفس من البرّ و العقوق اندراجا أوّلیا؛ و قیل: إن الآیة خاصة بما یجب للأبوین من البرّ، و یحرم علی الأولاد من العقوق، و الأوّل أولی اعتبارا بعموم اللفظ، فلا تخصّصه دلالة السیاق و لا تقیده إِنْ تَكُونُوا صالِحِینَ قاصدین الصلاح، و التوبة من الذنب و الإخلاص للطاعة فلا یضرّكم ما وقع من الذنب الذی تبتم عنه فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِینَ غَفُوراً أی: الرجّاعین عن الذنوب إلی التوبة، و عن عدم الإخلاص إلی محض الإخلاص غفورا لما فرط منهم من قول

---

(١). التوبة: ١١٣.

فتح القدیر، ج٣، ص: ٢٦٣

أو فعل أو اعتقاد، فمن تاب تاب اللّه علیه، و من رجع إلی اللّه رجع اللّه إلیه، ثم ذكر سبحانه التوصیة بغیر الوالدین من الأقارب بعد التوصیة بهما فقال: وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ و الخطاب إمّا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم تهییجا و إلهابا لغیره من الأمة، أو لكل من هو صالح لذلك من المكلّفین، كما فی قوله: وَ قَضی رَبُّكَ و المراد بذی القربی ذو القرابة، و حقّهم هو صلة الرحم التی أمر اللّه بها، و كرّر التوصیة فیها، و الخلاف بین أهل العلم فی وجوب النفقة للقرابة، أو لبعضهم كالوالدین علی الأولاد، و الأولاد علی الوالدین معروف، و الذی ینبغی الاعتماد علیه وجوب صلتهم بما تبلغ إلیه القدرة و حسبما یقتضیه الحال وَ الْمِسْكِینَ معطوف علی «ذا القربی» و فی هذا العطف دلیل علی أن المراد بالحق الحق المالیّ وَ ابْنَ السَّبِیلِ معطوف علی المسكین، و المعنی: و آت من اتصف بالمسكنة، أو بكونه من أبناء السبیل حقه. و قد تقدّم بیان حقیقة المسكین و ابن السبیل فی البقرة، و فی التوبة، و المراد فی هذه الآیة التصدّق علیهما بما بلغت إلیه القدرة من صدقة النفل، أو ممّا فرضه اللّه لهما من صدقة الفرض، فإنهما من الأصناف الثمانیة التی هی مصرف الزكاة. ثم لما أمر سبحانه بما أمر به هاهنا نهی عن التبذیر فقال: وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً التبذیر: تفریق المال، كما یفرّق البذر كیفما كان من غیر تعمّد لمواقعه، و هو الإسراف المذموم لمجاوزته للحدّ المستحسن شرعا فی الإنفاق، أو هو الإنفاق فی غیر الحق، و إن كان یسیرا. قال الشافعی: التبذیر: إنفاق المال فی غیر حقه، و لا تبذیر فی عمل الخیر.

قال القرطبیّ بعد حكایته لقول الشافعی هذا: و هذا قول الجمهور. قال أشهب عن مالك: التبذیر: هو أخذ المال من حقه، و وضعه فی غیر حقه، و هو الإسراف، و هو حرام لقوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ كانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ فإن هذه الجملة تعلیل للنهی عن التبذیر، و المراد بالأخوة المماثلة التامة، و تجنّب مماثلة الشیطان و لو فی خصلة واحدة من خصاله واجب، فكیف فیما هو أعمّ من ذلك كما یدلّ علیه إطلاق المماثلة، و الإسراف فی الإنفاق من عمل الشیطان، فإذا فعله أحد من بنی آدم فقد أطاع الشیطان و اقتدی به وَ كانَ الشَّیْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً أی: كثیر الكفران، عظیم التمرّد عن الحق؛ لأنه مع كفره لا یعمل إلا شرا، و لا یأمر إلا

بعمل الشرّ، و لا يوسوس إلا بما لا خير فيه. و فى هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور، فاقتضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان، و كل مماثل للشيطان له حكم الشيطان، و كل شيطان كفور، فالمبذّر كفور وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ قد تقدّم قريبا أن أصل إما هذه مركب من إن الشرطية و ما الإبهامية، و أن دخول نون التأكيد على الشرط لمشابهته للنهى، أى: إن أعرضت عن ذى القربى و المسكين و ابن السبيل لأمر اضطرك إلى ذلك الإعراض ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ أى: لفقد رزق من ربك و لكنه أقام المسبب الذى هو ابتغاء رحمة اللّه مقام السبب الذى هو فقد الرزق؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له؛ و المعنى: و إن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح اللّه به عليك فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً أى: قولا سهلا لينا؛ كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول. قال الكسائى: يسرت له القول أى لينته. قال الفراء: معنى الآية إن تعرض عن السائل إضاقة و إعسارا فقل لهم قولا ميسورا؛ عدهم عدة حسنة. و يجوز أن يكون المعنى: و إن تعرض عنهم و لم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولا ميسورا، و ليس المراد هنا الإعراض

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۶۴

بالوجه. و فى هذه الآية تأديب من اللّه سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون و بما يردّون، و لقد أحسن من قال:

إن لا يكن ورق يوما أجود بهاللسّائلين فإنى ليّن العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقىإمّا نوالى و إما حسن مردودى

لما ذكر سبحانه أدب المنع بعد النهى عن التبذير بين أدب الإنفاق فقال: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ و هذا النهى يتناول كلّ مكلّف، سواء كان الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم تعريضا لأمته و تعليما لهم، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين، و المراد النهى للإنسان بأن يمسك إمساكا يصير به مضيقا على نفسه و على أهله، و لا يوسع فى الإنفاق توسيعا لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفا، فهو نهى عن جانبى الإفراط و التفريط. و يتحصّل من ذلك مشروعية التوسط، و هو العدل الذى ندب اللّه إليه:

و لا تك فيها مفرطا أو مفرّطاكلا طرفى قصد الأمور ذميم

و قد مثّل اللّه سبحانه فى هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرّف بها، و مثل حال من يجاوز الحدّ فى التصرف بحال من يبسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها شىء مما تقبض الأيدى عليه، و فى هذا التصوير مبالغة بليغة، ثم بيّن سبحانه غائلة الطرفين المنهىّ عنهما فقال: فَتَقْعُدَ مَلُوماً عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح مَحْسُوراً بسبب ما فعلته من الإسراف، أى: منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر، و المحسور فى الأصل: المنقطع عن السير، من حسره السفر إذا بلغ منه، و البعير الحسير: هو الذى ذهبت قوّته فلا انبعاث به، و منه قوله تعالى: يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ «۱»، أى: كليل منقطع، و قيل: معناه نادما على ما سلف، فجعله هذا القائل من الحسرة التى هى الندامة، و فيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران، و لا يقال محسور إلا للملوم ثم سلّى رسوله و المؤمنين بأن الذين يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على اللّه سبحانه، و لكن لمشيئة الخالق الرازق فقال: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ أى: يوسعه على بعض و يضيقه على بعض؛ لحكمة بالغة، لا لكون من وسّع له رزقه مكرما عنده، و من ضيّقه عليه هائنا لديه. قيل: و يجوز أن يراد أن البسط و القبض إنما هما من أمر اللّه الذى لا تفنى خزائنه، فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا، ثم علل ما ذكره من البسط للبعض و التضييق على البعض بقوله:

إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً أى: يعلم ما يسرّون و ما يعلنون، لا يخفى عليه من ذلك خافية، فهو الخبير بأحوالهم، البصير بكيفية تدبيرهم فى أرزاقهم. و فى هذه الآية دليل على أنه المتكفّل بأرزاق عباده، فلذلك قال بعدها: وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ

أملق الرجل: لم يبق له إلا الملقات؛ و هى الحجارة العظام الملس. قال الهذلى يصف صائدا:

أتيح لها أقيدر ذو حشيف إذا سامت على الملقات ساما

---

(١). الملک: ۴.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢۶۵

الأقيدر: تصغير الأقدر؛ و هو الرجل القصير، و الحشيف من الثياب: الخلق، و سامت: مرّت، و يقال: أملق إذا افتقر و سلب الدهر ما بيده. قال أوس:

....

و أملق ما عندى خطوب تنبّل «١» نهاهم اللّه سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، و قد كانوا يفعلون ذلک، ثم بيّن لهم أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلک إلى قتل الأولاد لا وجه له، فإن اللّه سبحانه هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ و لستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، و قد مرّ مثل هذه الآية فى الأنعام، ثم علّل سبحانه النهى عن قتل الأولاد لذلک بقوله: إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً قرأ الجمهور بكسر الخاء و سكون الطاء و بالهمز المقصور. و قرأ ابن عامر، خطأ، بفتح الخاء و الطاء و القصر فى الهمز، يقال: خطىء فى ذنبه خطأ؛ إدا أثم، و أخطأ: إذا سلک سبيل خطأ عامدا أو غير عامد. قال الأزهرى: خطىء يخطأ خطئا مثل أثم يأثم إثما؛ إذا تعمّد الخطأ، و أخطأ: إذا لم يتعمّد، إخطاء و خطأ، قال الشاعر:

دعينى إنما خطئى و صوبى علىّ و إنّ ما أهلكت مال «٢»

و الخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، و فيه لغتان القصر، و هو الجيد، و المدّ و هو قليل. و قرأ ابن كثير بكسر الخاء و فتح الطاء و مد الهمز. قال النحاس: و لا أعرف لهذه القراءة وجها، و كذلک جعلها أبو حاتم غلطا.

و قرأ الحسن «خطىّ» بفتح الخاء و الطاء منوّنة من غير همزة. و لما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعى لإفناء النسل ذكر النهى عن الزنا المفضى إلى ذلک لما فيه من اختلاط الأنساب فقال: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى و فى النهى عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى، فإن الوسيلة إلى الشىء إذا كانت حراما كان المتوسل إليه حراما بفحوى الخطاب، و الزنى فيه لغتان: المد، و القصر. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزّناء فريضة الرّجم

ثم علّل النهى عن الزنا بقوله: إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً أى: قبيحا متبالغا فى القبح مجاوزا للحدّ وَ ساءَ سَبِيلًا أى: بئس طريقا طريقه، و ذلک لأنه يؤدى إلى النار، و لا خلاف فى كونه من كبائر الذنوب.

و قد ورد فى تقبيحه و التنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم، و لما فرغ من ذكر النهى عن القتل لخصوص الأولاد و عن النهى عن الزنا الذى يفضى إلى ما يفضى إليه قتل الأولاد من اختلاط الأنساب و عدم استقرارها، نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ و المراد بالتى

---

(١). و صدره: لما رأيت العدم قيد نائلى.

(٢). فى المطبوع: دعينى إنما خطاء و صداعلى و إنما أهلكت مالى

و المثبت من اللسان و الشعر و الشعراء لابن قتيبة.

فتح القدير، ج‏3، ص: 266
حرّم اللّه التى جعلها معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد، و المراد بالحق الذى استثناه هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة فى الأصل، و ذلك كالردّة و الزنا من المحصن، و كالقصاص من القاتل عمدا عدوانا و ما يلتحق بذلك، و الاستثناء مفرّغ، أى: لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبّس بالحق، أو إلا متلبسين بالحق، و قد تقدّم الكلام فى هذا فى الأنعام. ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً أى: لا بسبب من الأسباب المسوّغة لقتله شرعا فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً أى: لمن يلى أمره من ورثته إن كانوا موجودين، أو ممن له سلطان إن لم يكونوا موجودين، و السلطان: التسلط على القاتل إن شاء قتل، و إن شاء عفا، و إن شاء أخذ الدية. ثم لما بيّن إباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول، أو ما هو عوض عن القصاص نهاه عن مجاوزة الحدّ فقال: فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أى: لا يجاوز ما أباحه اللّه له فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة، أو يمثّل بالقاتل، أو يعذّبه. قرأ الجمهور «لا يسرف» بالياء التحتية، أى: الولى، و قرأ حمز و الكسائى تسرف بالتاء الفوقية، و هو خطاب للقاتل الأوّل، و نهى له عن القتل، أى: فلا تسرف أيها القاتل بالقتل فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة اللّه و سخطه و لعنته. و قال ابن جرير:
الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و للأئمة من بعده، أى: لا تقتل يا محمد غير القاتل و لا يفعل ذلك الأئمة بعدك. و فى قراءة أبيّ «و لا تسرفوا» ثم علّل النهى عن السرف فقال: إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً أى: مؤيدا معانا، يعنى الولى، فإن اللّه سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج، و أوضحه من الأدلة، و أمر أهل الولايات بمعونته و القيام بحقّه حتى يستوفيه، و يجوز أن يكون الضمير راجعا إلى المقتول، أى: إن اللّه نصره بوليه، قيل: و هذه الآية من أوّل ما نزل من القرآن فى شأن القتل؛ لأنها مكية.
و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ قال: تكون البادرة من الولد إلى الوالد، فقال اللّه: إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ إن تكن النية صادقة فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً للبادرة التى بدرت منه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و البيهقى فى الشعب، عنه فى قوله:
فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً قال: الرجّاعين إلى الخير. و أخرج سعيد بن منصور و هناد و ابن أبى حاتم و البيهقى عن الضحّاك فى الآية قال: الرجّاعين من الذنب إلى التوبة، و من السيئات إلى الحسنات. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لِلْأَوَّابِينَ قال: للمطيعين المحسنين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عنه قال: للتوابين. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ قال: أمره بأحقّ الحقوق، و علّمه كيف يصنع إذا كان عنده، و كيف يصنع إذا لم يكن عنده فقال: وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها قال: إذا سألوك و ليس عندك شى‏ء انتظرت رزقا من اللّه فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً يقول: إن شاء اللّه يكون شبه العدة. قال سفيان: و العدة من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم دين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: هو أن تصل ذا القرابة و تطعم المسكين و تحسن إلى ابن السبيل. و أخرج ابن جرير عن على بن الحسين أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فما قرأت فى بنى إسرائيل وَ آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ قال:
فتح القدير، ج‏3، ص: 267
و إنكم للقرابة التى أمر اللّه أن يؤتى حقهم. قال: نعم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية. قال:
و القربى قربى بنى عبد المطلب.
و أقول: ليس فى السياق ما يفيد هذا التخصيص، و لا دلّ على ذلك دليل، و معنى النظم القرآنى واضح إن كان الخطاب مع كل

من يصلح له من الأمة، لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقّهم، و هو الصّلة التى أمر اللّه بها. و إن كان الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن كان على وجه التعريض لأمته فالأمر فيه كالأوّل، و إن كان خطابا له من دون تعريض، فأمته أسوته، فالأمر له صلّى اللّه عليه و سلّم بإيتاء ذى القربى حقه أمر لكل فرد من أفراد أمته، و الظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بدليل ما قبل هذه الآية، و هى قوله: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ و ما بعدها، و هى قوله: وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً- إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ

و فى معنى هذه الآية الدالة على وجوب صلة الرحم أحاديث كثيرة. و أخرج أحمد، و الحاكم و صحّحه، عن أنس «أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنى ذو مال كثير و ذو أهل و ولد و حاضرة، فأخبرنى كيف أنفق و كيف أصنع؟ قال: تخرج الزكاة المفروضة، فإنها طهرة تطهرك، و تصل أقاربك، و تعرف حق السائل و الجار و المسكين، فقال: يا رسول اللّه أقلل لى؟ قال: فآت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل و لا تبذر تبذيرا. قال: حسبى يا رسول اللّه». و أخرج البزار و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت هذه الآية وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاطمة فأعطاها فدك.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ أقطع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاطمة فدك. قال ابن كثير بعد أن ساق حديث أبى سعيد هذا ما لفظه: و هذا الحديث مشكل لو صحّ إسناده، لأن الآية مكية، و فدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتئم هذا مع هذا؟ انتهى. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و البخارى فى الأدب، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود فى قوله: وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً قال:

التبذير: إنفاق المال فى غير حقه. و أخرج ابن جرير عنه قال: كنا أصحاب محمد نتحدّث أن التبذير النفقة فى غير حقه. و أخرج سعيد بن منصور، و البخارى فى الأدب، و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ قال: هم الذين ينفقون المال فى غير حقه. و أخرج البيهقى فى الشعب عن علىّ قال: ما أنفقت على نفسك و أهل بيتك فى غير سرف و لا تبذير و ما تصدقت فلك، و ما أنفقت رياء و سمعة فذلك حظ الشيطان. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً قال: العدة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن سيار أبى الحكم قال: أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم برّ من العراق، و كان معطاء كريما، فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قوما من العرب، فقالوا: إنا نأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نسأله، فوجدوه قد فرغ منه، فأنزل اللّه: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ قال: محبوسة وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً يلومك الناس مَحْسُوراً ليس بيدك شىء.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۶۸

أقول: و لا أدرى كيف هذا؟ فالآية مكية، و لم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا يحمل إليه شىء من العراق و لا مما هو أقرب منه، على أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته صلّى اللّه عليه و سلّم! و أخرج ابن جرير عن المنهال بن عمرو «بعثت امرأة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بابنها فقالت: قل له اكسنى ثوبا. فقال: ما عندى شىء، فقالت: ارجع إليه فقل له اكسنى قميصك، فرجع إليه فنزع قميصه فأعطاها إياه، فنزلت وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً الآية». و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه. و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال لعائشة و ضرب بيده: أنفقى ما على ظهر كفى، قالت: إذن لا يبقى شىء. قال ذلك ثلاث مرات، فأنزل اللّه وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً الآية» و يقدح فى ذلك أنه صلّى اللّه عليه و سلّم لم يتزوج بعائشة إلا بعد الهجرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً

قال: يعنى بذلك البخل. و أخرجا عنه فى الآية قال: هذا فى النفقة يقول: لا تجعلها مغلولة لا تبسطها بخير، وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ، يعنى التبذير فَتَقْعُدَ مَلُوماً، يلوم نفسه على ما فاته من ماله مَحْسُوراً ذهب ماله كله.

و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيرا له أغناه، و إن كان الفقر خيرا له أفقره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خَشْيَةَ إِمْلاقٍ قال: مخافة الفقر و الفاقة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله:

خِطْأً قال: خطيئة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى قال: يوم نزلت هذه الآية لم يكن حدود، فجاءت بعد ذلك الحدود فى سورة النور. و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عن أبىّ ابن كعب أنه قرأ: «و لا تقربوا الزّنا إنه كان فاحشة و مقتا و ساء سبيلا- إلا من تاب فإنّ اللّه كان غفورا رحيما» فذكر لعمر فأتاه فسأله، فقال: أخذتها من فى رسول اللّه، و ليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع. و قد ورد فى الترهيب عن فاحشة الزنا أحاديث كثيرة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الضحّاك فى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الآية قال: هذا بمكة و نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بها، و هو أوّل شىء نزل من القرآن فى شأن القتل، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال اللّه: من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أبا أو أخا أو واحدا من عشيرته و إن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم، و هذا قبل أن تنزل براءة، و قبل أن يؤمر بقتال المشركين فذلك قوله: فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً يقول: لا تقتل غير قاتلك، و هى اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم. و أخرج البيهقى فى سننه عن زيد بن أسلم: إن الناس فى الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلا- لم يرضوا حتى يقتلوا به رجلا شريفا، إذا كان قاتلهم غير شريف، لم يقتلوا قاتلهم و قتلوا غيره، فوعظوا فى ذلك بقول اللّه سبحانه: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ إلى قوله: فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً قال: بينة من اللّه أنزلها يطلبها ولىّ المقتول القود أو العقل، و ذلك السلطان. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عنه فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ قال: لا يكثر فى القتل. و أخرج ابن المنذر من طريق أبى صالح عنه أيضا: لا يقتل إلا قاتل رحمه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۶۹

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣۴ الى ۴١]

وَ لا- تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (٣۴) وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣۵) وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (٣۶) وَ لا- تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨)

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لا- تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩) أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (۴٠) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (۴١)

لما ذكر سبحانه النهى عن إتلاف النفوس أتبعه بالنهى عن إتلاف الأموال، و كان أهمها بالحفظ و الرعاية مال اليتيم، فقال: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ و النهى عن قربانه مبالغة فى النهى عن المباشرة له و إتلافه، ثم بيّن سبحانه أن النهى عن قربانه، ليس المراد منه النهى عن مباشرته فيما يصلحه و يفسده، بل يجوز لولىّ اليتيم أن يفعل فى مال اليتيم ما يصلحه، و ذلك يستلزم مباشرته، فقال: إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: إلا- بالخصلة التى هى أحسن الخصال، و هى حفظه و طلب الربح فيه و السعى فيما يزيد به. ثم ذكر

الغايـة التى للنهى عن قربـان مـال اليتيم فقـال: حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ أى: لا تقربوه إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اليتيم أشدّه، فإذا بلغ أشدّه كان لكم أن تدفعوه إليه، أو تتصرّفوا فيه بإذنه، و قد تقدّم الكلام على هذا مستوفى فى الأنعام.

وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ قـد مضـى الكلام فيه فى غير موضع. قال الزجّاج: كلّ ما أمر اللّه به و نهى عنه فهو من العهد، فيدخل فى ذلك ما بين العبد و ربه، و ما بين العباد بعضـهم البعض. و الوفاء بالعهد: هو القيام بحفظه على الوجه الشـرعى و القانون المرضـى، إلا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقض إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا أى: مسؤولا عنه، فالمسؤول هنا هو صاحبه، و قيل: إن العهـد يسأل تبكيتا لناقضه وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ أى: أتموا الكيل و لا تخسروه وقت كيلكم للناس وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ قال الزجّاج:

هو ميزان العدل، أىّ ميزان كان من موازين الدراهم و غيرها، و فيه لغتان: ضم القاف، و كسرها. و قيل:

هو القبان المسـمّى بالقرسـطون؛ و قيل: هو العـدل نفسه، و هى لغة الروم؛ و قيل: لغة سـريانية. و قرأ ابن كثير و نافع و أبو عمرو و ابن عامر و عاصم فى رواية أبى بكر القسـطاس بضم القاف. و قرأ حمزة و الكسائى و حفص عن عاصم بكسـر القاف، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى إيفـاء الكيـل و الوزن، و هو مبتـدأ و خـبره خَيْرٌ أى: خير لكم عنـد اللّه و عنـد النـاس يتـأثر عنه حسن الـذكر و ترغيب الناس فى معاملـة من كان كـذلك وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا أى: أحسن عاقبـة، من آل إذا رجع. ثم أمر سـبحانه بإصـلاح اللسان و القلب فقال: وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أى: لا تتبع ما لا تعلم، من قولك: قفوت فلانا إذا اتبعت أثره، و منه قافيـة الشـعر لأنها تقفو كل بيت، و منه القبيلـة المشـهورة بالقافـة لأنهم يتبعون آثار أقـدام الناس. و حكى ابن جرير عن فرقـة أنها قالت: قفا و قاف مثل عتا و عات. قال منذر بن سعيد البلوطى: قفا و قاف، مثل جذب و جبذ. و حكى الكسائى عن بعض القراء أنه قرأ: تقف بضم القاف و سكون الفاء. و قرأ الفراء بفتح القاف و هى لغة

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۰

لبعض العرب، و أنكرهـا أبو حـاتم و غيره. و معنى الآيـة: النهى عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، و هـذه قضـية كلية، و قد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور؛ فقيل: لا تذم أحدا بما ليس لك به علم؛ و قيل: هى فى شهادة الزور، و قيـل: هى فى القـذف. و قـال القتبى: معنى الآيـة: لا تتبع الحـدس و الظنون، و هـذا صواب، فإن ما عـدا ذلك هو العلم؛ و قيل: المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المسـتفاد من مسـتند قطعيا كان أو ظنيا، قال أبو السـعود فى تفسـيره: و استعماله بهذا المعنى ممّا لا ينكر شيوعه. و أقول:

إن هـذه الآيـة قـد دلّت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم، و لكنها عامة مخصّـِصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظنّ، كالعمل بالعـامّ، و بخبر الواحـد، و العمـل بالشـهادة، و الاجتهـاد فى القبلـة، و فى جزاء الصـيد، و نحو ذلك، فلا تخرج من عمومها و من عموم إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً* إلا ما قـام دليـل جواز العمـل به، فالعمل بالرأى فى مسائل الشـرع إن كان لعـدم وجود الدليل فى الكتاب و السنة، فقد رخّص فيه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كما فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لمعاذ لما بعثه قاضيا: «بم تقضـى؟ قال: بكتاب اللّه، قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنّة رسول اللّه، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيى» و هو حديث صالح للاحتجـاج به، كما أوضـحنا ذلك فى بحث مفرد. و أما التوثب على الرأى مع وجود الـدليل فى الكتاب أو السنّة- و لكنه قصـر صاحب الرأى عن البحث فجاء برأيه- فهو داخل تحت هـذا النهى دخولا أوّليا، لأنه محض رأى فى شـرع اللّه، و بالناس عنه غنى بكتاب اللّه سبحانه و بسنّة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، و لـم تدع إليه حاجة، على أن الترخيص فى الرأى عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصـة للمجتهـد يجوز له أن يعمل به، و لم يـدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به و ينزله منزلة مسائل الشـرع، و بهذا يتّضح لك أتمّ اتضاح، و يظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدوّنة فى الكتب الفروعية ليست من الشـرع فى شىء، و العامل بها على شـفا جرف هار، فالمجتهد المسـتكثر من الرأى قد قفا ما ليس له به علم، و المقلّد المسـكين العامل برأى ذلك المجتهد

قد عمل بما ليس له به علم و لا لمن قلّده ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ و قد قيل: إن هذه الآية خاصة بالعقائد، و لا دليل على ذلك أصلا. ثم علّل سبحانه النهى عن العمل بما ليس بعلم بقوله: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا إشارة إلى الأعضاء الثلاثة، و أجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها. و قال الزجّاج: إن العرب تعبّر عمّا يعقل و عمّا لا يعقل بأولئك، و أنشد ابن جرير مستدلا على جواز هذا قول الشاعر «١»:

ذمّ المنازل بعد منزلة اللّوى و العيش بعد أولئك الأيّام

و اعترض بأن الرواية بعد أولئك الأقوام، و تبعه غيره على هذا الخطأ كصاحب الكشاف. و الضمير فى كان من قوله: كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا يرجع إلى كل، و كذا الضمير فى عنه، و قيل: الضمير فى كان يعود إلى القافى المدلول عليه بقوله: وَ لا تَقْفُ و قوله: عَنْهُ فى محل رفع لإسناد مسؤولا إليه، ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جارا أو مجرورا. قيل: و الأولى

---

(١). هو جرير.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٧١

أن يقال إنه فاعل مسؤولا المحذوف، و المذكور مفسر له. و معنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات، و المستعمل لها هو الروح الإنسانى، فإن استعملها فى الخير استحقّ الثواب، و إن استعملها فى الشرّ استحق العقاب. و قيل: إن اللّه سبحانه ينطق الأعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً المرح: قيل هو شدّة الفرح، و قيل: التكبر فى المشى، و قيل:

تجاوز الإنسان قدره، و قيل: الخيلاء فى المشى، و قيل: البطر و الأشر، و قيل: النشاط. و الظاهر أن المراد به هنا الخيلاء و الفخر، قال الزجّاج فى تفسير الآية: لا تمش فى الأرض مختالا فخورا، و ذكر الأرض مع أن المشى لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيدا و تقريرا، و لقد أحسن من قال:

و لا تمش فوق الأرض إلا تواضعافكم تحتها قوم هم منك أرفع

و إن كنت فى عزّ و حرز و منعةفكم مات من قوم هم منك أمنع

و المرح مصدر وقع حالا، أى: ذا مرح، و فى وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد. و قرأ الجمهور مَرَحاً بفتح الراء على المصدر. و حكى يعقوب عن جماعة كسرها على أنه اسم فاعل، ثم علّل سبحانه هذا النهى فقال: إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ يقال خرق الثوب، أى: شقّه، و خرق الأرض قطعها، و الخرق: الواسع من الأرض، و المعنى: إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبرا، و فيه تهكّم بالمختال المتكبر وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا أى: و لن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملا لك على الكبر و الاختيال، فلا قوّة لك حتى تخرق الأرض بالمشى عليها، و لا عظم فى بدنك حتى تطاول الجبال، فما الحامل لك على ما أنت فيه؟ و طولا مصدر فى موضع الحال أو تمييز أو مفعول له. و قيل: المراد بخرق الأرض نقبها لا قطعها بالمسافة. و قال الأزهرى: خرقها: قطعها. قال النحّاس: و هذا أبين؛ كأنه مأخوذ من الخرق، و هو الفتحة الواسعة؛ و يقال: فلان أخرق من فلان، أى: أكثر سفرا، و الإشارة بقوله: كُلُّ ذلِكَ إلى جميع ما تقدّم ذكره من الأوامر و النواهى، أو إلى ما نهى عنه فقط من قوله: وَ لا تَقْفُ- وَ لا تَمْشِ قرأ عاصم و ابن عامر و حمزة و الكسائى و مسروق سَيِّئُهُ على إضافة سيئ إلى الضمير، و يؤيد هذه القراءة قوله: مَكْرُوهاً فإن السيئ هو المكروه، و يؤيدها أيضا قراءة أبيّ: «كان سيئاته»، و اختار هذه القراءة أبو عبيد. و قرأ ابن كثير و نافع و أبو عمرو «سيئة» على أنها واحدة السيئات، و انتصابها على خبرية كان، و يكون مَكْرُوهاً صفة لسيئة على

المعنى، فإنها بمعنى سيئا، أو هو بدل من سيئة؛ و قيل: هو خبر ثان لكان حملا على لفظ كل، و رجح أبو على الفارسى البدل، و قد قيل فى توجيهه بغير هذا ممّا فيه تعسف لا يخفى. قال الزجّاج: و الإضافة أحسن؛ لأن ما تقدّم من الآيات فيها سيئ و حسن، فسيئه المكروه و يقوّى ذلک التذكير فى المكروه؛ قال: و من قرأ بالتنوين جعل كُلُّ ذلِكَ إحاطة بالمنهىّ عنه دون الحسن، المعنى: كل ما نهى اللّه عنه كان سيئة و كان مكروها، قال: و المكروه على هذه القراءة بدل من السيئة و ليس بنعت، و المراد بالمكروه عند اللّه هو الذى يبغضه و لا يرضاه، لا أنه غير مراد مطلقا؛ لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه، و ذكر مطلق الكراهة مع أن فى الأشياء المتقدّمة ما هو

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۲

من الكبائر إشعارا بأن مجرّد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع و اجتنابه لذلک. و الحاصل أن فى الخصال المتقدّمة ما هو حسن و هو المأمور به، و ما هو مكروه و هو المنهىّ عنه، فعلى قراءة الإضافة تكون الإشارة بقوله:

كُلُّ ذلِكَ إلى جميع الخصال حسنها و مكروهها، ثم الإخبار بأن ما هو سيئ من هذه الأشياء و هو المنهى عنه مكروه عند اللّه، و على قراءة الإفراد من دون إضافة تكون الإشارة إلى المنهيات، ثم الإخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند اللّه ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الإشارة إلى ما تقدّم ذكره من قوله:

لا تَجْعَلْ إلى هذه الغاية، و ترتقى إلى خمسة و عشرين تكليفا، مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ أى: من جنسه أو بعض منه، و سمّى حكمة لأنه كلام محكم، و هو ما علمه من الشرائع أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرّق إليها الفساد. و عند الحكماء أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته، و مِنَ الْحِكْمَةِ متعلّق بمحذوف وقع حالا، أى: كائنا من الحكمة، أو بدل من الموصول بإعادة الجار، أو متعلّق بأوحى وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ كرّر سبحانه النهى عن الشرک تأكيدا و تقريرا و تنبيها على أنه رأس خصال الدين و عمدته. قيل: و قد راعى سبحانه فى هذا التأكيد دقيقة «۱» فرتب على الأوّل كونه مذموما مخذولا، و ذلک إشارة إلى حال الشرک فى الدنيا، و رتّب على الثانى أنه يلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً و ذلک إشارة إلى حاله فى الآخرة، و فى القعود هناک، و الإلقاء هنا، إشارة إلى أن للإنسان فى الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة، و قد تقدّم تفسير الملوم و المدحور. أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً قال أبو عبيدة:

أصفاكم خصّكم، و قال الفضل: أخلصكم، و هو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات اللّه، و فيه توبيخ شديد و تقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره ممّا قد كررناه. إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ يعنى القائلين بأن لهم الذكور و للّه الإناث قَوْلًا عَظِيماً بالغا فى العظم و الجرأة على اللّه إلى مكان لا يقادر قدره وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ أى: بيّنا ضروب القول فيه من الأمثال و غيرها، أو كرّرنا فيه؛ و قيل: فِي زائدة، و التقدير و لقد صرّفنا هذا القرآن، و التصريف فى الأصل: صرف الشيء من جهة إلى جهة؛ و قيل: معنى التصريف المغايرة، أى: غايرنا بين المواعظ ليتذكّروا و يعتبروا، و قراءة الجمهور صَرَّفْنا بالتشديد، و قرأ الحسن بالتخفيف، ثم علّل تعالى ذلک فقال: لِيَذَّكَّرُوا أى: ليتّعظوا و يتدبّروا بعقولهم و يتفكروا فيه؛ حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه.

قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش و حمزة و الكسائى «ليذكروا» مخففا، و الباقون بالتشديد، و اختارها أبو عبيد لما تفيده من معنى التكثير، و جملة وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً فى محل نصب على الحال؛ أى: و الحال أن هذا التصريف و التذكير ما يزيدهم إلا تباعدا عن الحقّ و غفلة عن النظر فى الصواب؛ لأنهم قد اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة و سحر و كهانة و شعر، و هم لا ينزعون عن هذه الغواية و لا وازع لهم يزعهم إلى الهداية.

و قد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ قال: كانوا لا يخالطونهم فى مال

(١). أی: مسألة دقیقة.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٧٣

و لا- مأكل و لا مركب حتى نزلت: وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ «١». و أخرج ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير فی قوله: إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا قال: يسأل اللّه ناقض العهد عن نقضه. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فی الآية قال: يسأل عهده من أعطاه إياه. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير فی قوله:

وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ يعنی لغيركم وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ يعنی الميزان، و بلغة الروم: الميزان:

القسطاس ذلِكَ خَيْرٌ يعنی وفاء الكيل و الميزان خير من النقصان وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا عاقبة. و أخرج ابن أبی شيبة و الفريابی و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد قال: القسطاس: العدل، بالرومية. و أخرج ابن المنذر عن الضحّاك قال: القسطاس: القبّان. و أخرج ابن أبی حاتم عن الحسن قال:

الحديث. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا- تَقْفُ قال: لا تقل. و أخرج ابن جرير عنه قال: لا ترم أحدا لما ليس لك به علم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن الحنفية فی الآية قال: شهادة الزور. و أخرج ابن أبی حاتم عن عكرمة فی قوله: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا يقول: سمعه و بصره و فؤاده تشهد عليه. و أخرج الفريابی عن ابن عباس فی قوله: كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا قال: يوم القيامة أ كذلك كان أم لا؟. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: وَ لا- تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً قال: لا تمش فخرا و كبرا، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال و لا أن تخرق الأرض بفخرك و كبرك. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن التوراة فی خمس عشرة آية من بنی إسرائيل، ثم تلا- وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم من طريق علیّ بن أبی طلحة عن ابن عباس فی قوله: مَدْحُوراً قال: مطرودا.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٢ الی ٤٨]

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا- يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (٤٥) وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (٤٦)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)

قوله: قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ قرأ ابن كثير و حفص يقولون بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع اللّه آلهة أخرى، و إِذاً جواب عن مقالتهم الباطلة و جزاء للو لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ و هو اللّه سبحانه سَبِيلًا طريقا للمغالبة و الممانعة، كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة و المصاولة؛ و قيل: معناه: إذا لابتغت الآلهة إلى اللّه القربة و الزّلفى عنده، لأنهم دونه، و المشركون

(١). البقرة: ٢٢٠.

إنما اعتقدوا أنها تقرّبهم إلى اللّه. و الظاهر المعنى الأول، و مثل معناه قوله سبحانه: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١». ثم نزّه تعالى نفسه، فقال: سُبْحانَهُ و التسبيح: التنزيه، و قد تقدّم. وَ تَعالى متباعد عَمَّا يَقُولُونَ من الأقوال الشنيعة و الفرية العظيمة عُلُوًّا أى: تعاليا، و لكنه وضع العلوّ موضع التعالى كقوله: وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً «٢». ثم وصف العلوّ بالكبر مبالغة فى النزاهة، و تنبيها على أن بين الواجب لذاته و الممكن لذاته، و بين الغنىّ المطلق و الفقير المطلق، مباينة لا تعقل الزيادة عليها.

ثم بيّن سبحانه جلالة ملكه و عظمة سلطانه فقال: تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ قرئ بالمثناة التحتية فى يسبح و بالفوقية، و قال: فِيهِنَ بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذى هو فعل العقلاء، و قد أخبر سبحانه عن السموات و الأرض بأنها تسبّحه، و كذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول، و هم الملائكة و الإنس و الجن و غيرهم من الأشياء التى لا تعقل، ثم زاد ذلك تعميما و تأكيدا فقال:

وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ فشمل كل ما يسمى شيئا كائنا ما كان، و قيل: إنه يحمل قوله: وَ مَنْ فِيهِنَ على الملائكة و الثقلين، و يحمل وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ على ما عدا ذلك من المخلوقات.

و قد اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا؟ فقالت طائفة: ليس بمخصوص، و حملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه و يدلّ غيره بأن اللّه خالق قادر. و قالت طائفة:

هذا التسبيح على حقيقته و العموم على ظاهره. و المراد أن كل المخلوقات تسبح للّه سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه، و إن كان البشر لا يسمعون ذلك و لا يفهمونه، و يؤيد هذا قوله سبحانه: وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ فإنّه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمرا مفهوما لكل أحد. و أجيب بأن المراد بقوله لا تفقهون الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار. و قالت طائفة: إن هذا العموم مخصوص بالملائكة و الثقلين دون الجمادات، و قيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات، كما روى هذا القول عن عكرمة و الحسن، و خصّا تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها، و قد استدلّ لذلك بحديث «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مرّ على قبرين» و فيه «ثم دعا بعسيب رطب فشقّه اثنين، و قال: إنه يخفّف عنهما ما لم ييبسا» و يؤيد حمل الآية على العموم قوله: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ «٣» و قوله: وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ «۴»، و قوله: وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا «۵» و نحو ذلك من الآيات، و ثبت فى الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام، و هم يأكلون مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هكذا حديث حنين الجذع، و حديث «أن حجرا بمكة كان يسلّم على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم»، و كلها فى الصحيح «و من ذلك تسبيح الحصى فى كفه» صلّى اللّه عليه و سلّم، و مدافعة عموم هذه الآية بمجرّد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن باللّه سبحانه و يؤمن بما جاء من عنده، و معنى إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ إلا يسبح متلبسا بحمده وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ قرأ الحسن و أبو عمرو و يعقوب و حفص و حمزة و الكسائى و خلف تُسَبِّحُ بالمثناة الفوقية على الخطاب، و قرأ الباقون بالتحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً فمن حلمه الإمهال لكم، و عدم إنزال عقوبته عليكم، و من مغفرته لكم

---

(١). الأنبياء: ٢٢.

(٢). نوح: ١٧.

(٣). ص: ١٨.

(۴). البقرة: ٧۴.

(۵). مريم: ٩٠.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۲۷۵

أنه لا يؤاخذ من تاب منكم. و لما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع فى ذكر بعض من آيات القرآن و ما يقع من سامعيه فقال: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً جعلنا بينك يا محمد و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا، أى: إنهم لإعراضهم عن قراءتك و تغافلهم عنك كمن بينك و بينه حجاب يمرّون بك و لا يرونك. ذكر معناه الزجّاج و غيره، و معنى مستورا ساتر.

قال الأخفش: أراد ساترا، و الفاعل قد يكون فى لفظ المفعول كما تقول: إنك لمشئوم و ميمون، و إنما هو شائم و يا من؛ و قيل: معنى مستورا ذا ستر، كقولهم سيل مفعم: أى ذو إفعام، و قيل: هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها، و قيل: حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره، و قيل: المراد بالحجاب المستور الطبع و الختم وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً الأكنة: جمع كنان. و قد تقدّم تفسيره فى الأنعام، و قيل: هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم قُلُوبُنا غُلْفٌ* «۱» وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ «۲» و أَنْ يَفْقَهُوهُ مفعول لأجله، أى: كراهة أن يفقهوه، أو لئلا يفقهوه، أى: يفهموا ما فيه من الأوامر و النواهى و الحكم و المعانى وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً أى: صمما و ثقلا، و فى الكلام حذف، و التقدير: أن يسمعوه. و من قبائح المشركين أنهم كانوا يحبون أن يذكر آلهتهم كما يذكر اللّه سبحانه، فإذا سمعوا ذكر اللّه دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس، و لهذا قال اللّه: وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ أى: واحدا غير مشفوع بذكر آلهتهم، فهو مصدر وقع موقع الحال وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً هو مصدر، و التقدير: هربوا نفورا، أو نفروا نفورا؛ و قيل: جمع نافر كقاعد و قعود. و الأوّل أولى. و يكون المصدر فى موضع الحال: أى: ولّوا نافرين نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ أى: يستمعون إليك متلبسين به من الاستخفاف بك و بالقرآن و اللغو فى ذكرك لربك وحده، و قيل: الباء زائدة و الظرف فى إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ متعلق بأعلم، أى: نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به، و فيه تأكيد للوعيد، و قوله: وَ إِذْ هُمْ نَجْوى متعلق بأعلم أيضا، أى: و نحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم، و قد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب و الاستهزاء، يقول: بدل من إِذْ هُمْ نَجْوى إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً أى: يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم: ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختلط عقله و زال عن حدّ الاعتدال.

قال ابن الأعرابيّ: المسحور: الذاهب العقل الذى أفسد من قولهم طعام مسحور إذا أفسد عمله، و أرض مسحورة: أصابها من المطر أكثر مما ينبغى فأفسدها. و قيل: المسحور: المخدوع؛ لأن السحر حيلة و خديعة، و ذلك لأنهم زعموا أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم كان يتعلّم من بعض الناس، و كانوا يخدعونه بذلك التعليم. و قال أبو عبيدة:

معنى مسحورا أن له سحرا؛ أى: رئة، فهو لا يستغنى عن الطعام و الشراب فهو مثلكم، و تقول العرب للجبان: قد انتفخ سحره، و كل من كان يأكل من آدمى أو غيره مسحور، و منه قول امرئ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب «۳»و نسحر بالطّعام و بالشّراب

---

(۱). البقرة: ۸۸.

(۲). فصلت: ۵.

(۳). «موضعين»: مسرعين. «لأمر غيب»: أى للموت المغيّب.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۲۷۶

أىّ: نغذى و نعلّل. قال ابن قتيبة: لا أدرى ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسّروه بالوجوه الواضحة. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ أى: قالوا تارة إنك كاهن، و تارة ساحر، و تارة شاعر، و تارة مجنون فَضَلُّوا عن طريق الصواب فى جميع

ذلك فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا إلى الهدى، أو إلى الطعن الذى تقبله العقول و يقع التصديق له لا أصل الطعن، فقد فعلوا منه ما قدروا عليه؛ و قيل: لا يستطيعون مخرجا لتناقض كلامهم كقولهم: ساحر مجنون.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِی الْعَرْشِ سَبِيلًا قال:

على أن يزيلوا ملكه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن عبد الرحمن بن قرط «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه و ميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السّموات العلى، فلما رجع قال: سمعت تسبيحا من «۱» السّموات العلى مع تسبيح كثير، سبحت السّموات العلى من ذى المهابة، مشفقات لذى العلوّ بما علا، سبحان العلىّ الأعلى سبحانه و تعالى». و أخرج ابن مردويه عن أنس «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال و هو جالس مع أصحابه إذ سمع هدّة فقال: أطّت السماء و حقّ لها أن تئط، و الذى نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح بحمده». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن جابر قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا قال لابنه: يا بنى آمرك أن تقول سبحان اللّه، فإنها صلاة الخلائق، و تسبيح الخلق، و بها يرزق الخلق» قال اللّه تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و أخرج أحمد و ابن مردويه من حديث ابن عمر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال: «ما من عبد سبّح تسبيحة إلا سبّح ما خلق اللّه من شىء» قال اللّه: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ قال ابن كثير: إسناده فيه ضعف. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى اللّه إليه: من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبّح». و أخرج النسائى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمرو قال «نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قتل الضفدع و قال: نقيقها تسبيح».

و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ قال: الزرع يسبح و أجره لصاحبه، و الثوب يسبح، و يقول الوسخ: إن كنت مؤمنا فاغسلنى إذا. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: كل شىء يسبح إلا الكلب و الحمار. و أخرج ابن راهويه فى مسنده من طريق الزهرى قال: أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين، فجعل ينشر جناحيه و يقول: ما صيد من صيد و لا عضد من شجرة إلا بما ضيّعت من التسبيح. و أخرج أحمد فى الزهد و أبو الشيخ عن ميمون بن مهران قال: أتى أبو بكر الصديق فذكره من قوله غير مرفوع. و أخرج أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه من حديث أبى هريرة بنحوه. و أخرج

---

(۱). فى الحلية (۲/ ۷): فى.

ابن مردويه من حديث ابن مسعود بمعنى بعضه. و أخرج أبو الشيخ من حديث أبى الدرداء بمعناه. و أخرج ابن عساكر من حديث أبى رهم نحوه.

و أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: هذه الآية فى التوراة كقدر ألف آية وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ قال: فى التوراة تسبح له الجبال، و يسبح له الشجر، و يسبح له كذا، و يسبح له كذا. و أخرج أحمد و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: صلى داود ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد فى نفسه سرورا «۱»، فنادته ضفدعة: يا داود كنت أدأب منك، قد أغفيت إغفاء. و أخرج البيهقى فى الشعب، عن صدقة بن يسار قال: كان داود فى محرابه فأبصر دودة صغيرة ففكر فى خلقها و قال: ما يعبأ اللّه بخلق هذه؟ فأنطقها اللّه فقالت: يا داود أ تعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما آتانى اللّه أذكر للّه و أشكر له منك على ما آتاك اللّه، قال اللّه: وَ إِنْ مِنْ

شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و فى الباب أحاديث و روايات عن السلف فيها التصريح بتسبيح جميع المخلوقات. و أخرج أبو يعلى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أسماء بنت أبى بكر قال: لما نزلت تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ أقبلت العوراء أم جميل و لها ولولة، و فى يدها فهر «٢»، و هى تقول:

مذمّما أبيناو دينه قلينا

و أمره عصينا و رسول اللّه جالس و أبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه و أنا أخاف أن تراك، فقال:

إنها لن ترانى، و قرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً فجاءت حتى قامت على أبى بكر فلم تر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: يا أبا بكر بلغنى أن صاحبك هجانى، فقال أبو بكر: لا و ربّ هذا البيت ما هجاك، فانصرفت و هى تقول: قد علمت قريش أنى بنت سيدها. و قد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً قال: الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه و أن ينتفعوا به أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن زهير ابن محمد فى الآية قال: ذاك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ القرآن على المشركين بمكة سمعوا قراءته و لا يرونه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً قال:

الشياطين. و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ قال: عتبة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد ابن المغيرة و العاص بن وائل.

---

(١). فى الدر المنثور (٥/ ٩٣): غرورا.

(٢). «فهر»: حجر ملء الكف.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٧٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٩ الى ٥٥]

وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (٥٣)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (٥٥)

لما فرغ سبحانه من حكاية شبه القوم فى النبوّات حكى شبهتهم فى أمر المعاد، فقال: وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً و الاستفهام للاستنكار و الاستبعاد. و تقرير الشبهة أنّ الإنسان إذا مات جفت عظامه و تناثرت و تفرقت فى جوانب العالم، و اختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع؟ فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن، و لو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شىء من الحياة و من رطوبة الحى كالحجارة و الحديد، فهو كقول القائل: أ تطمع فى و أنا ابن فلان، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت، فسأطلب منك حقى. و الرفات: ما تكسر و بلى من كلّ شىء كالفتات و الحطام و الرضاض، قاله أبو عبيدة و الكسائى و الفراء و الأخفش، تقول منه:

رفت الشىء رفتا، أى: حطم؛ فهو مرفوت. و قيل الرفات: الغبار، و قيل: التراب أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً كرّر الاستفهام الدالّ على الاستنكار و الاستبعاد تأكيدا و تقريرا، و العامل فى إذا هو ما دلّ عليه لمبعوثون، لا هو نفسه، لأن ما بعد إنّ و الهمزة و اللام لا يعمل فيما قبلها، و التقدير: أَ إِذا كُنَّا عِظاماً و رفاتا نبعث أ إنا لمبعوثون، و انتصاب خلقا على المصدرية من غير لفظه، أو على الحال، أى: مخلوقين، و جديدا صفة له قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً- أَوْ خَلْقاً آخر مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ قال ابن جرير:

معناه إن عجبتم من إنشاء اللّه لكم عظاما و لحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم على ذلك، و قال على ابن عيسى: معناه إنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا اللّه عزّ و جلّ إذا أرادكم. إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ فى الإلزام؛ و قيل: معناه: لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم و لأماتكم ثم أحياكم، قال النحاس: و هذا قول حسن، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدا، و إنما المعنى أنهم قد أقرّوا بخالقهم و أنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة. قلت: و على هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ أى: يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة و الحديد مباينة للحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، و قيل: المراد به السموات و الأرض و الجبال لعظمها فى النفوس. و قال جماعة من الصحابة و التابعين: المراد به الموت؛ لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه. و المعنى: لو كنتم الموت لأماتكم اللّه ثم بعثكم، و لا يخفى ما فى هذا من البعد، فإن معنى الآية الترقى من الحجارة إلى الحديد، ثم من الحديد إلى ما هو أكبر فى صدور القوم منه، و الموت

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۷۹

نفسه ليس بشىء يعقل و يحسّ حتى يقع الترقى من الحديد إليه فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا إذا كنا عظاما و رفاتا، أو حجارة أو حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى: يعيدكم الذى خلقكم و اخترعكم عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق و لا صورة متقدّمة فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ أى:

يحرّكونها استهزاء، يقال: نغض رأسه ينغض و ينغض نغضا و نغوضا، أى: تحرّك، و أنغض رأسه حرّكه كالمتعجّب، و منه قول الراجز:

أنغض نحوى رأسه و أقنعا و قول الراجز الآخر:

و نغضت من هرم أسنانها و قال آخر:

لمّا رأتنى أنغضت لى رأسها «۱» وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ أى: البعث و الإعادة، استهزاء منهم و سخرية قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً أى: هو قريب؛ لأن عسى فى كلام اللّه واجب الوقوع، و مثله وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً «۲» و كلّ ما هو آت قريب يَوْمَ يَدْعُوكُمْ الظرف منتصب بفعل مضمر، أى: اذكر، أو بدل من قريبا، أو التقدير: يوم يدعوكم كان ما كان، الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق؛ و قيل: هو الصيحة التى تسمعونها، فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض المحشر فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ أى: منقادين له، حامدين لما فعله بكم، فهو فى محل نصب على الحال. و قيل: المعنى: فتستجيبون و الحمد للّه، كما قال الشاعر:

و إنى بحمد اللّه لا ثوب فاجرلبست و لا من غدرة أتقنّع

و قد روى أنّ الكفّار عند خروجهم من قبورهم يقولون: سبحانك و بحمدك؛ و قيل: المراد بالدعاء هنا البعث و بالاستجابة أنهم يبعثون، فالمعنى: يوم يبعثكم فتبعثون منقادين وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أى:

تظنون عند البعث أنكم ما لبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا؛ و قيل: بين النفختين، و ذلك أن العذاب يكفّ عن المعذبين بين النفختين، و ذلك أربعون عاما ينامون فيها، فلذلك: قالُوا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا «۳»، و قيل:

إن الدنيا تحقرت فى أعينهم و قلت حين رأوا يوم القيامة، فقالوا هذه المقالة وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: قل يا محمد لعبادى المؤمنين إنهم يقولون عند محاورتهم للمشركين الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن، كقوله سبحانه: وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ «۴» و قوله:

فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً «۵» لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة أو تؤدى إلى ما قال سبحانه: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ «۶» و هذا كان قبل نزول آية السيف؛ و قيل: المعنى:

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۱۰/ ۲۷۵): الرأسا.

(۲). الأحزاب: ۶۳.

(۳). يس: ۵۲.

(۴). العنكبوت: ۴۶.

(۵). طه: ۴۴.

(۶). الأنعام: ۱۰۸.

قل لهم يأمروا بما أمر اللّه و ينهوا عما نهى عنه؛ و قيل: هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة، و الأوّل أولى كما يشهد به السبب الذى سنذكره إن شاء اللّه إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ أى: بالفساد و إلقاء العداوة و الإغراء. قال اليزيدى: يقال: نزغ بيننا، أى: أفسد. و قال غيره: النزغ: الإغراء إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً أى: متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها، و هو تعليل لما قبله، و قد تقدّم مثل هذا فى البقرة رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ قيل: هذا خطاب للمشركين. و المعنى: إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتكم على الشرك فيعذبكم؛ و قيل: هو خطاب للمؤمنين، أى: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ و قيل: إن هذا تفسير لكلمة «التى هى أحسن» وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا أى: ما وكّلناك فى منعهم من الكفر، و قسرهم على الإيمان؛ و قيل: ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم، و منه قول الشاعر:

ذكرت أبا أروى فبتّ كأنّنى بردّ الأمور الماضيات وكيل

أى: كفيل وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أعلم بهم ذاتا و حالا و استحقاقا، و هو أعمّ من قوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ لأن هذا يشمل كل ما فى السموات و الأرض من مخلوقاته، و ذاك خاص ببنى آدم أو ببعضهم، و هذا كالتوطئة لقوله: وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ أى: إن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة و بمن دونه، و بمن يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله و فواضله. و قد تقدّم هذا فى البقرة. و قد اتخذ اللّه إبراهيم خليلا، و موسى كليما، و جعل عيسى كلمته و روحه، و جعل لسليمان ملكا عظيما، و غفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر، و جعله سيد ولد آدم. و فى هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار ممّا يحكيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من ارتفاع درجته عند ربه عزّ و جلّ، ثم ذكر ما فضل به داود، فقال: وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً أى: كتابا مزبورا. قال الزجّاج: أى: فلا تنكروا تفضيل محمد و إعطاءه القرآن؛ فقد أعطى اللّه داود زبورا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ رُفاتاً قال: غبارا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ رُفاتاً قال: ترابا، و فى قوله:

قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً قال: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم اللّه كما كنتم. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ قال: الموت، لو كنتم

موتى لأحييتكم. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و الحاكم عن ابن عباس مثله. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، عن الحسن مثله أيضا. و أخرج عبد اللّه ابن أحمد و ابن جرير و ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه، و زاد: قال: فكونوا الموت إن استطعتم فإن الموت سيموت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ قال: سيحركونها استهزاء. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قال: الإعادة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله:

فتح القدير، ج‏3، ص: 281

فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ قال: بأمره. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال: يخرجون من قبورهم و هم يقولون: سبحانك اللهم و بحمدك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ قال: بمعرفته و طاعته وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أى: فى الدنيا تحاقرت الدنيا فى أنفسهم، و قلّت حين عاينوا يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن سيرين فى قوله:

وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: يعفوا عن السيئة. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: يقول له يرحمك اللّه، يغفر اللّه لك. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: نزغ الشيطان: تحريشه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً قال: كنا نحدّث أنه دعاء علمه داود و تحميد و تمجيد للّه عزّ و جلّ، ليس فيه حلال و لا حرام و لا فرائض و لا حدود. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال: الزبور: ثناء على اللّه و دعاء و تسبيح. قلت: الأمر كما قاله قتادة و الربيع، فإنا وقفنا على الزّبور فوجدناه خطبا يخطبها داود عليه السلام، و يخاطب بها ربه سبحانه عند دخوله الكنيسة، و جملته مائة و خمسون خطبة، كل خطبة تسمى مزمورا بفتح الميم الأولى و سكون الزاى و ضم الميم الثانية و آخره راء، ففى بعض هذه الخطب يشكو داود إلى ربه من أعدائه و يستنصره عليهم، و فى بعضها يحمد اللّه و يمجده و يثنى عليه بسبب ما وقع من النصر عليهم و الغلبة لهم، و كان عند الخطبة يضرب بالقيثارة، و هى آلة من آلات الملاهى. و قد ذكر السيوطى فى «الدرّ المنثور» ها هنا روايات عن جماعة من السّلف يذكرون ألفاظا وقفوا عليها فى الزبور ليس لها كثير فائدة، فقد أغنى عنها و عن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ و الزواجر.

[سورة الإسراء (17): الآيات 56 الى 60]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا (56) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57) وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (58) وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (59) وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً (60)

قوله: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ هذا ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، و على طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى و مريم و عزير، فأمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون اللّه؛ و قيل: أراد بالذين زعمتم نفرا من الجن عندهم ناس من العرب، و إنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله: يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ فإن هذا لا يليق بالجمادات فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ أى: لا يستطيعون

ذلک، و المعبود الحق هو الذى يقدر على كشف الضرّ، و على تحويله من حال إلى حال، و من مكان إلى مكان، فوجب القطع بأن

هذه التى تزعمونها آلهة ليست بآلهة، ثم إنه سبحانه أكّد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم إلى اللّه فى جلب المنافع و دفع المضارّ، فقال: أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ فأولئك مبتدأ و الذين يدعون صفته، و ضمير الصلة محذوف، أى: يدعونهم، و خبر المبتدأ يبتغون إلى ربهم الوسيلة، و يجوز أن يكون الذين يدعون خبر المبتدأ، أى: الذين يدعون عباده إلى عبادتهم، و يكون يبتغون فى محل نصب على الحال. و قرأ ابن مسعود تدعون بالفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية على الخبر؛ و لا خلاف فى يبتغون أنه بالتحتية و الوسيلة القربة بالطاعة و العبادة: أى يتضرّعون إلى اللّه فى طلب ما يقربهم إلى ربهم، و الضمير فى ربهم يعود إلى العابدين أو المعبودين أَيُّهُمْ أَقْرَبُ مبتدأ و خبر. قال الزجّاج: المعنى: أيهم أقرب بالوسيلة إلى اللّه، أى: يتقرّب إليه بالعمل الصالح، و يجوز أن يكون بدلا من الضمير فى يبتغون، أى: يبتغى من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة، فكيف بمن دونه؟ و قيل: إن يبتغون مضمن معنى يحرصون، أى: يحرصون أيهم أقرب إليه سبحانه بالطاعة و العبادة وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ كما يرجوها غيرهم وَ يَخافُونَ عَذابَهُ كما يخافه غيرهم إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً تعليل قوله: يَخافُونَ عَذابَهُ أى: إن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة و الأنبياء و غيرهم. ثم بيّن سبحانه مآل الدنيا و أهلها فقال: وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ إن نافية، و من للاستغراق، أى: ما من قرية، أىّ قرية كانت من قرى الكفار. قال الزجّاج: أى ما من أهل قرية إلا سيهلكون إما بموت و إما بعذاب يستأصلهم، فالمراد بالقرية أهلها، و إنما قيل قبل يوم القيامة لأن الإهلاک يوم القيامة غير مختص بالقرى الكافرة، بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا؛ و قيل: الإهلاک للصالحة و التعذيب للطالحة، و الأوّل أولى لقوله: وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ «١». كانَ ذلِكَ المذكور من الإهلاک، و التعذيب فِي الْكِتابِ أى: اللوح المحفوظ مَسْطُوراً أى: مكتوبا، و السطر الخط و هو فى الأصل مصدر، و السطر بالتحريک مثله. قال جرير:

من شاء بايعته مالى و خلعته ما تكمل التّيم فى ديوانها سطرا

و الخلعة بضم الخاء خيار المال، و السطر: جمع أسطار، و جمع السطر بالسكون أسطر. وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ قال المفسرون: إن أهل مكة سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجعل لهم الصفا ذهبا و أن ينحّى عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأل قومک، و لكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا، و إن شئت استأنيت بهم، فأنزل اللّه هذه الآية. و المعنى: و ما منعنا من إرسال الآيات التى سألوها إلا تكذيب الأوّلين، فإن أرسلناها و كذب بها هؤلاء عوجلوا و لم يمهلوا كما هو سنّة اللّه سبحانه فى عباده، فالمنع مستعار للترک، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأشياء، أى: ما تركنا إرسالها لشى‌ء من الأشياء إلا تكذيب الأوّلين، فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئک لاشتراكهم فى الكفر و العناد حلّ بهم ما حلّ

---

(١). القصص: ٥٩.

بهم، و «أن» الأولى فى محل نصب بإيقاع المنع عليها، و أن الثانية فى محل رفع، و الباء فى الآيات زائدة.

و الحاصل أن المانع من إرسال الآيات التى اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاک الكلى و هو الاستئصال، و قد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم إلى يوم القيامة؛ و قيل: معنى الآية:

إن هؤلاء الكفار من قريش و نحوهم مقلدون لآبائهم، فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن أولئک، فيكون إرسال الآيات ضائعا، ثم إنه

سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح و ناقته، فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة و صفتها التى قد بينت فى محل آخر، و أعطاهم اللّه ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب، و إنما خصّ قوم صالح بالاستشهاد؛ لأن آثار إهلاكهم فى بلاد العرب قريبة من قريش و أمثالهم يبصرها صادرهم و واردهم، فقال: وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً أى: ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم، كقوله:

وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازا، أو أنها جعلتهم ذوى إبصار، من أبصره جعله بصيرا. و قرئ على صيغة المفعول. و قرئ بفتح الميم و الصاد و انتصابها على الحال. و قرئ برفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف، و الجملة معطوفة على محذوف يقتضيه سياق الكلام، أى: فكذّبوها؛ و آتينا ثمود الناقة. و معنى فَظَلَمُوا بِها فظلموا بتكذيبها أو على تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا، أى:

فجحدوا بها أو كفروا بها ظالمين، و لم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً اختلف فى تفسير الآيات على وجوه: الأوّل: أن المراد بها العبر و المعجزات التى جعلها اللّه على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذبين؛ الثانى: أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى؛ الثالث: تقلّب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى شيب؛ ليعتبر الإنسان بتقلّب أحواله فيخاف عاقبة أمره؛ الرابع: آيات القرآن؛ الخامس: الموت الذريع و المناسب للمقام أن تفسر الآيات المذكورة بالآيات المقترحة، أى: لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم. و الجملة مستأنفة لا محل لها؛ و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير ظلموا بها، أى: فظلموا بها و لم يخافوا، و الحال أنّ ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها إلا تخويفا. قال ابن قتيبة: و ما نرسل بالآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب العاجل. و لما ذكر سبحانه الامتناع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للصارف المذكور قوّى قلبه بوعد النصر و الغلبة، فقال: وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ الظرف متعلق بمحذوف، أى: اذكر إذ قلنا لك، أى: أنهم فى قبضته و تحت قدرته، فلا سبيل لهم إلى الخروج ممّا يريده بهم لإحاطته لهم بعلمه و قدرته؛ و قيل: المراد بالناس أهل مكة، و إحاطته بهم إهلاكه إياهم، أى: إن اللّه سيهلكهم، و عبّر بالماضى تنبيها على تحقق وقوعه، و ذلك كما وقع يوم بدر و يوم الفتح؛ و قيل: المراد أنه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ لما بيّن سبحانه أن إنزال الآيات يتضمّن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء، و هى المذكورة فى صدر السورة وجها آخر فى تفسير هذه الرؤيا، و كانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه أسرى به، و قيل: كانت رؤيا نوم، و أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رأى أنه يدخل مكة فافتتن المسلمون لذلك، فلما فتح اللّه مكة نزل قوله: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ

الرُّؤْيا بِالْحَقِ «۱» و قد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية، و الرؤيا المذكورة كانت بالمدينة؛ و قيل: إن هذه الرؤيا المذكورة فى هذه الآية هى أنه رأى بنى مروان ينزون «۲» على منبره نزو القردة فساءه ذلك، فقيل: إنما هى الدنيا أعطوها فسرّى عنه، و فيه ضعف، فإنه لا فتنة للناس فى هذه الرؤيا إلا أن يراد بالناس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وحده، و يراد بالفتنة ما حصل من المساءة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو يحمل على أنه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا.

و قيل: إن اللّه سبحانه أراه فى المنام مصارع قريش، حتى قال: «و اللّه لكأنى أنظر مصارع القوم» و هو يومئ إلى الأرض و يقول: «هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان»، فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية.

وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ عطف على الرؤيا، قيل: و فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: و ما جعلنا الرؤيا التى أريناك و الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس. قال جمهور المفسرين: و هى شجرة الزقوم، و المراد بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه:

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ- طَعامُ الْأَثِيمِ «۳». و قال الزجّاج: إن العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون، و معنى الفتنة فيها أن أبا جهل و غيره قالوا: زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول ينبت فيها الشجر، فأنزل اللّه هذه الآية. و روى أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمرا و زبدا و قال لأصحابه: تزقّموا. و قال ابن الزّبعرى: كثر اللّه من الزقّوم فى داركم فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن. و قيل:

إن الشجرة الملعونة هى الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتلها، و هى شجرة الكشوث، و قيل: هى الشيطان، و قيل: اليهود، و قيل: بنو أمية وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً أى: نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانا متجاوزا للحد، متماديا غاية التمادى، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة فى الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، و هو عذاب الاستئصال، و لكنّا قد قضينا بتأخير العقوبة.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، عن ابن مسعود فى قوله: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرا من الجنّ، فأسلم النفر من الجنّ، و تمسّك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل اللّه أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ كلاهما، يعنى الفعلين بالياء التحتية، و روى نحو هذا عن ابن مسعود من طرق أخرى.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: كان أهل الشرك يعبدون الملائكة و المسيح و عزيرا. و روى عنه من وجه آخر بلفظ عيسى و أمه و عزير. و روى عنه أيضا من وجه آخر بلفظ:

هم عيسى، و عزير، و الشمس، و القمر. و أخرج الترمذى و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «سلوا اللّه لى الوسيلة، قالوا: و ما الوسيلة؟ قال: القرب من اللّه، ثم قرأ: يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ . و أخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى فى قوله: كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً قال: فى اللوح المحفوظ. و أخرج أحمد و النسائى و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة

---

(۱). الفتح: ۲۷.

(۲). «ينزون»: يتحرّكون.

(۳). الدخان: ۴۳ و ۴۴.

النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، و أن ينحّى عنهم الجبال فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأنى بهم، و إن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم، قال: لا، بل أستأنى بهم، فأنزل اللّه وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ الآية. و أخرج أحمد و البيهقى من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج البيهقى فى الدلائل، عن الربيع بن أنس قال: قال الناس لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح و النبيون؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن شئتم دعوت اللّه فأنزلها عليكم، فإن عصيتم هلكتم، فقالوا: لا نريدها». و أخرج ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً قال: الموت. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن قال: هو الموت الذريع. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله:

وَ إِذْ قُلْنا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحاطَ بِالنَّاسِ قال: عصمک من الناس. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی الآیة قال: فهم فی قبضته.

و أخرج عبد الرزاق و سعید بن منصور و أحمد و البخاری و الترمذی و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و الحاکم و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل، عن ابن عباس فی قوله: وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الآیة قال: هی رؤیا عین أریها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لیلة أسری به إلی بیت المقدس، و لیست برؤیا منام.

وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ قال: هی شجرة الزقوم. و أخرج أبو سعید و أبو یعلی و ابن عساکر عن أمّ هانئ أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لما أسری به أصبح یحدّث نفرا من قریش و هم یستهزئون به، فطلبوا منه آیة فوصف لهم بیت المقدس، و ذکر لهم قصة العیر، فقال الولید بن المغیرة: هذا ساحر، فأنزل اللّه إلیه وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الآیة. و أخرج ابن جریر عن سهل بن سعد قال: رأی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بنی فلان ینزون علی منبره نزو القردة فساءه ذلک، فما استجمع ضاحکا حتی مات، فأنزل اللّه وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِی أَرَيْناکَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ قال ابن کثیر بعد أن ساق إسناده: و هذا السند ضعیف جدّا، و ذکر من جملة رجال السند محمد بن الحسن بن زبالة و هو متروک، و شیخه عبد المهیمن بن عباس بن سهل بن سعد ضعیف جدّا. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عمرو أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «رأیت ولد الحکم بن أبی العاص علی المنابر کأنهم القردة، فأنزل اللّه وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِی أَرَيْناکَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ»: یعنی الحکم و ولده.

و أخرج ابن أبی حاتم عن یعلی بن مرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «رأیت بنی أمیة علی منابر الأرض، و سیملکونکم، فتجدونهم أرباب سوء، و اهتمّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لذلک، فأنزل اللّه الآیة». و أخرج ابن مردویه عن الحسین بن علیّ نحوه مرفوعا، و هو مرسل. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه و البیهقی و ابن عساکر عن سعید بن المسیّب نحوه، و هو مرسل. و أخرج ابن مردویه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحکم:

سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول لأبیک و جدّک: «إنکم الشجرة الملعونة فی القرآن» و فی هذا نکارة لقولها:

یقول لأبیک و جدّک، و لعل جدّ مروان لم یدرک زمن النبوّة. و أخرج ابن جریر و ابن مردویه عن ابن عباس فی الآیة قال: إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أری أنه دخل مکة هو و أصحابه، و هو یومئذ بالمدینة، فسار إلی مکة قبل

فتح القدیر، ج۳، ص: ۲۸۶

الأجل فردّه المشرکون، فقال ناس: قد ردّ، و قد کان حدّثنا أنه سیدخلها فکانت رجعته فتنتهم، و قد تعارضت هذه الأسباب و لم یمکن الجمع بینها، فالواجب المصیر إلی الترجیح، و الراجح کثرة و صحة هو کون سبب نزول هذه الآیة قصة الإسراء فیتعین ذلک. و قد حکی ابن کثیر إجماع الحجة من أهل التأویل علی ذلک فی الرؤیا، و فی تفسیر الشجرة و أنها شجرة الزقوم، فلا اعتبار بغیرهم معهم. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبی حاتم و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لما ذکر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم شجرة الزقوم تخویفا لهم: یا معشر قریش هل تدرون ما شجرة الزقوم التی یخوفکم بها محمد؟ قالوا: لا، قال:

عجوة یثرب بالزّبد. و اللّه لئن استمکنا منها لنزقمنها تزقما، قال اللّه سبحانه: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ- طَعامُ الْأَثِيمِ «۱»، و أنزل وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ الآیة. و أخرج ابن المنذر عنه فی قوله: وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ قال: ملعونة لأنه قال: طَلْعُها کَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّیاطِینِ و الشیاطین ملعونون.

[سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۶۱ الی ۶۵]

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (۶۱) قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (۶۲) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (۶۵)

لما ذكر سبحانه أنّ الرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان فى بلية عظيمة من قومه و محنة شديدة؛ أراد أن يبين أن جميع الأنبياء كانوا كذلك، حتى أن هذه عادة قديمة سنّها إبليس اللعين، و أيضا لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب و يرجون رحمته و يخافون عذابه، ذكر هاهنا ما يحقق ذلك فقال: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ هذه القصة قد ذكرها اللّه سبحانه فى سبعة مواضع: فى البقرة، و الأعراف، و الحجر، و هذه السورة، و الكهف، و طه، و ص، و قد تقدّم تفسيرها مبسوطا، فلنقتصر هاهنا على تفسير ما لم يتقدّم ذكره من الألفاظ، فقوله: طِيناً منتصب بنزع الخافض، أى: من طين، أو على الحال.
قال الزجّاج: المعنى لمن خلقته طينا، و هو منصوب على الحال أَ رَأَيْتَكَ أى: أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ لم فضلته؟ و قد: خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* «۲» فحذف هذا للعلم به لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ أى: لأستولينّ عليهم بالإغواء و الإضلال، قال الواحدى: أصله من احتناك الجراد الزرع، و هو أن تستأصله بإحناكها و تفسده، هذا هو الأصل، ثم سمّى الاستيلاء على الشىء و أخذه كله احتناكا؛ و قيل: معناه:
لأسوقنهم حيث شئت، و أقودنهم حيث أردت، من قولهم حنكت الفرس أحنكه حنكا؛ إذا جعلت فى فيه الرّسن، و المعنى الأوّل أنسب بمعنى هذه الآية، و منه قول الشاعر:

---

(۱). الدخان: ۴۳ و ۴۴.

(۲). الأعراف: ۱۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۸۷ أشكو إليك سنة قد أجحفتجهدا إلى جهد بنا و أضعفت

و احتنكت أموالنا و اجتلفت أى: استأصلت أموالنا. و اللام فى لَئِنْ أَخَّرْتَنِ هى الموطئة، و إنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلم قد سبق إليه من سمع استرقه، أو قاله لما ظنّه من قوة نفوذ كيده فى بنى آدم، و أنه يجرى منهم فى مجارى الدم، و أنهم بحيث يروج عندهم كيده، و تنفق لديهم وسوسته؛ إلا من عصم اللّه، و هم المرادون بقوله: إِلَّا قَلِيلًا و فى معنى هذا الاستثناء قوله سبحانه: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ و يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ «۱» فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتمادا على الظنّ؛ و قيل: إنه استنبط ذلك من قول الملائكة: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها «۲»، و قيل: علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات، أو ظنّ ذلك لأنه وسوس لآدم؛ فقبل منه ذلك، و لم يجد له عزما، كما روى عن الحسن قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أى: أطاعك فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ أى: إبليس و من أطاعه جَزاءً مَوْفُوراً أى: وافرا مكملا، يقال: و فرته أفره وفرا، و وفر المال بنفسه يفر وفورا، فهو وافر، فهو مصدر، و منه قول زهير:
و من يجعل المعروف من دون عرضهيفره و من لا يتّقى الشّتم يشتم
ثم كرّر سبحانه الإمهال لإبليس اللعين فقال: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ أى: استزعج و استخف من استطعت من بنى آدم، يقال: أفزه و استفزه، أى: أزعجه و استخفّه، و المعنى: استخفهم بصوتك داعيا لهم إلى معصية اللّه، و قيل: هو الغناء و اللهو و اللعب و المزامير وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ قال الفراء و أبو عبيدة: أجلب من الجلبة و الصياح، أى: صح عليهم. و قال الزجّاج: أى اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك، فالإجلاب: الجمع، و الباء فى بِخَيْلِكَ زائدة. و قال ابن السّكّيت:

الإجلاب الإعانة، و الخيل تقع على الفرسان كقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا خيل اللّه اركبى»، و تقع على الأفراس، و الرجل بسكون الجيم: جمع رجل، كتاجر و تجر، و صاحب و صحب؛ و قرأ حفص بكسر الجيم على أنه صفة.

قال أبو زيد: يقال رجل و رجل، بمعنى راجل، فالخيل و الرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان، أو المراد كل راكب و راجل فى معصية اللّه وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ أما المشاركة فى الأموال، فهى:

كلّ تصرّف فيها يخالف وجه الشرع، سواء كان أخذا من غير حق، أو وضعا فى غير حق كالغصب و السرقة و الربا، و من ذلك تبتيك آذان الأنعام و جعلها بحيرة و سائبة، و المشاركة فى الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعى، و تحصيله بالزنا و تسميتهم بعبد اللات و عبد العزّى، و الإساءة فى تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر و أفعال السوء، و يدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق، و وأد البنات و تصيير أولادهم على الملة الكفرية التى هم عليها، و من ذلك مشاركة الشيطان للمجامع إذا لم يسمّ، ثم قال: وَ عِدْهُمْ قال الفراء:

---

(١). سبأ: ٢٠.

(٢). البقرة: ٣٠.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٢٨٨

قل لهم لا جنة لا نار. و قال الزجّاج: وعدهم بأنهم لا يبعثون وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً أى:

باطلا، و أصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب؛ و قيل: معناه: وعدهم النصرة على من خالفهم، و هذه الأوامر للشيطان من باب التهديد و الوعيد الشديد؛ و قيل: هى على طريقة الاستخفاف به و بمن تبعه إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ يعنى عباده المؤمنين كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون؛ لما فى الإضافة من التشريف؛ و قيل: المراد جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله فى غير هذا الموضع: إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ «١»، و المراد بالسلطان: التّسلّط وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا يتوكّلون عليه، فهو الذى يدفع عنهم كيد الشيطان، و يعصمهم من إغوائه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال إبليس: إنّ آدم خلق من تراب و من طين، خلق ضعيفا و إنى خلقت من نار، و النار تحرق كلّ شى‏ء لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا فصدّق ظنّه عليهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ قال: لأستولينّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ قال: لأحتوينهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال:

لأضلنّهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مَوْفُوراً قال: وافرا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ قال: صوته كلّ داع إلى معصية اللّه وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ قال: كل راكب فى معصية اللّه وَ رَجِلِكَ قال: كل راجل فى معصية اللّه وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ قال: كل مال فى معصية اللّه وَ الْأَوْلادِ قال: كل ما قتلوا من أولادهم و أتوا فيهم الحرام. و أخرج الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية قال: كلّ خيل تسير فى معصية اللّه، و كل مال أخذ بغير حقّه، و كل ولد زنا. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: الْأَمْوالِ ما كانوا يحرّمون من أنعامهم وَ الْأَوْلادِ أولاد الزنا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الْأَمْوالِ البحيرة و السائبة و الوصيلة لغير اللّه وَ الْأَوْلادِ سمّوا عبد الحارث و عبد شمس.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٦ الى ٧٠]

رَبُّكُمُ الَّذِی یُزْجِی لَکُمُ الْفُلْکَ فِی الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ کانَ بِکُمْ رَحِیماً (۶۶) وَ إِذا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فِی الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِیَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاکُمْ إِلَی الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ کانَ الْإِنْسانُ کَفُوراً (۶۷) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَکُمْ وَکِیلاً (۶۸) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ یُعِیدَکُمْ فِیهِ تارَةً أُخْری فَیُرْسِلَ عَلَیْکُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّیحِ فَیُغْرِقَکُمْ بِما کَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَکُمْ عَلَیْنا بِهِ تَبِیعاً (۶۹) وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِیلاً (۷۰)

---

(۱). الحجر: ۴۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۸۹

قوله: رَبُّکُمُ الَّذِی یُزْجِی لَکُمُ الْفُلْکَ فِی الْبَحْرِ الإزجاء: السّوق و الإجراء و التسيير، و منه قوله سبحانه: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُزْجِی سَحاباً «۱»، و قول الشاعر «۲»:

يا أيّها الراكب المزجى مطيّتهسائل بنى أسد ما هذه الصّوت؟

و قول الآخر:

عوذا تزجى خلفها أطفالها و المعنى: أن اللّه سبحانه يسير الفلك فى البحر بالريح، و الفلك هاهنا جمع، و قد تقدّم، و البحر: هو الماء الكثير عذبا كان أو مالحا، و قد غلب هذا الاسم على المشهور لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أى: من رزقه الذى تفضّل به على عباده أو من الربح بالتجارة، و من زائدة أو للتبعيض، و فى هذه الآية تذكير لهم بنعم اللّه سبحانه عليهم حتى لا يعبدوا غيره و لا يشركوا به أحدا، و جملة إِنَّهُ کانَ بِکُمْ رَحِیماً تعليل لما تقدّم، أى:

كان بكم رحيما فهداكم إلى مصالح دنياكم وَ إِذا مَسَّکُمُ الضُّرُّ يعنى خوف الغرق فِی الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ من الآلهة و ذهب عن خواطركم، و لم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم، أو جنّ، أو ملك، أو بشر إِلَّا إِیَّاهُ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته و إغاثته، و الاستثناء منقطع، و معنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم و سائر معبوداتهم أنها نافعة لهم فى غير هذه الحالة، فأما فى هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام و نحوها لا فعل لها. فَلَمَّا نَجَّاکُمْ إِلَی الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ عن الإخلاص للّه و توحيده، و رجعتم إلى دعاء أصنامكم و الاستغاثة بها وَ کانَ الْإِنْسانُ کَفُوراً أى: كثير الكفران لنعمة اللّه، و هو تعليل لما تقدّمه، و المعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة اللّه، و فى الرخاء يعرضون عنه. ثم أنكر سبحانه عليهم سوء معاملتهم قائلا: أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمْ جانِبَ الْبَرِّ الهمزة للإنكار، و الفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض، فبيّن لهم أنه قادر على هلاكهم فى البرّ و إن سلموا من البحر. و الخسف: أن تنهار الأرض بالشىء، يقال: بئر خسيف، إذا انهدم أصلها، و عين خاسف، أى: غائرة حدقتها فى الرأس، و خسفت عين الماء: إذا غار ماؤها، و خسفت الشمس: إذا غابت عن الأرض، و جانب البرّ: ناحية الأرض، و سمّاه جانبا لأنه يصير بعد الخسف جانبا، و أيضا فإن البحر جانب من الأرض و البرّ جانب. و قيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، و ساحله جانب البرّ، فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البرّ كما حذرهم ما خافوه من البحر أَوْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حاصِباً قال أبو عبيدة و القتبى: الحاصب: التراب الذى فيه حصباء، فالحاصب ذو الحصباء؛ كاللابن و التامر؛ و قيل: الحاصب حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط؛

---

(۱). النور: ۴۳.

(٢). هو رويشد بن كثير الطائى.

«ما هذه الصوت»: ما هذه القصة التى تتأدّى إلىّ عنكم.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩٠

و يقال للسحابة التى ترمى بالبرد حاصب، و منه قول الفرزدق:

مستقبلين جبال «١» الشام تضربنابحاصب كنديف القطن منثور

ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أى: حافظا و نصيرا يمنعكم من بأس اللّه أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى أى: فى البحر مرة أخرى بأن يقوى دواعيكم و يوفر حوائجكم إلى ركوبه، و جاء بفى و لم يقل إلى البحر للدلالة على استقرارهم فيه فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ القاصف: الريح الشديدة التى تكسر بشدّة، من قصف الشىء يقصفه، أى: كسره بشدّة، و القصف: الكسر، أو هو الريح التى لها قصيف، أى: صوت شديد، من قولهم: رعد قاصف، أى: شديد الصوت فَيُغْرِقَكُمْ قرأ أبو جعفر و شيبة و رويس و مجاهد فتغرقكم بالتاء الفوقية على أن فاعله الريح، و قرأ الحسن و قتادة و ابن وردان فيغرّقكم بالتحتية و التشديد فى الراء. و قرأ أبو جعفر أيضا: الرياح. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالنون فى جميع هذه الأفعال. و قرأ الباقون بالياء التحتية فى جميعها أيضا، و الباء فى بما كفرتم للسببية؛ أى:

بسبب كفركم ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً أى: ثائرا يطالبنا بما فعلنا. قال الزّجّاج: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم. قال النحّاس: و هو من الثأر، و كذا يقال لكل من طلب بثأر أو غيره: تبيع و تابع وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ هذا إجمال لذكر النعمة التى أنعم اللّه بها على بنى آدم، أى: كرّمناهم جميعا، و هذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة و تخصيصهم بما خصّهم به من المطاعم و المشارب و الملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله. و حكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التّكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم، و سائر الحيوانات تأكل بالفم، و كذا حكاه النحّاس. و قيل: ميّزهم بالنطق و العقل و التمييز، و قيل: أكرم الرجال باللّحى و النساء بالذوائب. و قال ابن جرير: أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق و تسخير سائر الخلق لهم، و قيل: بالكلام و الخط و الفهم، و لا مانع من حمل التكريم المذكور فى الآية على جميع هذه الأشياء. و أعظم خصال التكريم العقل، فإن به تسلّطوا على سائر الحيوانات، و ميّزوا بين الحسن و القبيح، و توسّعوا فى المطاعم و المشارب، و كسبوا الأموال التى تسبّبوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، و به قدروا على تحصيل الأبنية التى تمنعهم ممّا يخافون، و على تحصيل الأكسية التى تقيهم الحرّ و البرد؛ و قيل: تكريمهم هو أن جعل محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم منهم وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم، حملهم سبحانه فى البرّ على الدواب، و فى البحر على السفن، و قيل: حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم و لم نغرقهم وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى: لذيذ المطاعم و المشارب و سائر ما يستلذّونه و ينتفعون به وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا أجمل سبحانه هذا الكثير و لم يبين أنواعه، فأفاد ذلك أن بنى آدم فضّلهم سبحانه على كثير من مخلوقاته، و قد جعل بعض أهل العلم الكثير هنا بمعنى الجميع، و هو تعسف لا حاجة إليه.

و قد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة و لا تتعلّق به فائدة، و هو مسألة تفضيل الملائكة على

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٠/ ٢٩٢): شمال.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩١

الأنبياء أو الأنبياء على الملائكة، و من جملة ما تمسّك به مفضّلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية، و لا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من إجمال الكثير و عدم تبيينه، و التعصب فى هذه المسألة هو الذى حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا

بالجميع حتى يتمّ له التفضيل على الملائكة، و تمسّك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء، و لا دلالة بها على ذلك، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، و لو سلّمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنه أفضل من بنى آدم، بل غاية ما فيه أنه لم يكن الإنسان مفضّلا عليه، فيحتمل أن يكون مساويا للإنسان، و يحتمل أن يكون أفضل منه، و مع الاحتمال لا يتمّ الاستدلال، و التأكيد بقوله: تَفْضِيلًا يدلّ على عظم هذا التفضيل و أنه بمكان مكين، فعلى بنى آدم أن يتلقّوه بالشكر، و يحذروا من كفرانه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُزْجِي قال: يجرى.

و أخرجوا عن قتادة قال: يسيّرها فى البحر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: حاصِباً قال:

مطر الحجارة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: حجارة من السماء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ قال: التى تغرق. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن عبد اللّه بن عمرو قال: القاصف و العاصف فى البحر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

قاصِفاً قال: عاصفا، و فى قوله: ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً قال: نصيرا. و أخرج الطبرانى، و البيهقى فى الشعب، و الخطيب فى تاريخه، عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من شىء أكرم على اللّه يوم القيامة من ابن آدم، قيل: يا رسول اللّه و لا الملائكة؟ قال: و لا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس و القمر». و أخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفا قال: و هو الصحيح.

و أخرج البيهقى فى الشّعب عن أبى هريرة قال: المؤمن أكرم على اللّه من ملائكته. و أخرج الطبرانى عن ابن عمرو عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ الملائكة قالت: يا ربّ أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها و يشربون و يلبسون، و نحن نسبح بحمدك و لا نأكل و لا نشرب و لا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرّية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان». و أخرجه عبد الرزاق و ابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة. و إسناد الطبرانى هكذا: حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى، حدّثنا إبراهيم بن عبد اللّه بن خالد المصيصى، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد اللّه بن عمرو، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج ابن عساكر من طريق عروة بن رويم قال: حدثنى أنس بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فذكر نحو حديث ابن عمرو الأول مع زيادة. و أخرج نحوه البيهقى أيضا فى الأسماء و الصفات من وجه آخر عن عروة بن رويم عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ قال: جعلناهم يأكلون بأيديهم و سائر الخلق

فتح القدير، ج۳، ص: ۲۹۲

يأكلون بأفواههم. و أخرج الحاكم فى التاريخ، و الديلمى عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الكرامة: الأكل بالأصابع».

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۱ الى ۷۷]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۱) وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلاً (۷۲) وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (۷۳) وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (۷۴) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا

نَصِيراً (٧٥)
وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (٧٧)

قوله: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ قال الزجّاج: يعنى يوم القيامة، و هو منصوب على معنى اذكر يوم ندعوا. و قرئ يدعوا بالياء التحتية على البناء للفاعل، و يدعى على البناء للمفعول، و الباء فى بإمامهم للإلصاق، كما تقول: أدعوك باسمك، و يجوز أن تكون متعلّقة بمحذوف هو حال، و التقدير:
ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم، أى يدعون و إمامهم فيهم، نحو ركب بجنوده، و الأوّل أولى. و الإمام فى اللغة: كلّ ما يؤتمّ به من نبيّ، أو مقدّم فى الدين، أو كتاب.
و قد اختلف المفسرون فى تعيين الإمام الذى يدعى كل أناس به، فقال ابن عباس و الحسن و قتادة و الضحّاك:
إنه كتاب كل إنسان الذى فيه عمله، أى: يدعى كلّ إنسان بكتاب عمله، و يؤيد هذا قوله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ* الآية، و قال ابن زيد: الإمام: هو الكتاب المنزّل عليهم، فيدعى أهل التوراة بالتوراة، و أهل الإنجيل بالإنجيل، و أهل القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن. و قال مجاهد و قتادة: إمامهم نبيهم، فيقال: هاتوا متبعى إبراهيم، هاتوا متبعى موسى، هاتوا متبعى عيسى، هاتوا متبعى محمد، و به قال الزجاج. و قال عليّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذى كانوا يأتمرون بأمره و ينتهون بنهيه. و قال الحسن و أبو العالية: المراد بإمامهم أعمالهم، فيقال مثلا: أين المجاهدون؟ أين الصابرون؟ أين الصائمون؟ أين المصلون؟ و نحو ذلك. و روى عن ابن عباس و أبى هريرة. و قال أبو عبيدة: المراد بإمامهم صاحب مذهبهم، فيقال مثلا: أين التابعون للعالم فلان ابن فلان؟ و هذا من البعد بمكان. و قال محمد بن كعب: بِإِمامِهِمْ بأمهاتهم، على أنّ إمام جمع أمّ كخف و خفاف، و هذا بعيد جدّا. و قيل: الإمام هو كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعلم و الكرم و الشجاعة، أو قبيح كأضدادها، فالداعى إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام، ذكر معناه الرازى فى تفسيره فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ من أولئك المدعوّين، و تخصيص اليمين بالذكر للتشريف و التبشير فَأُولئِكَ الإشارة إلى من باعتبار معناه. قيل: و وجه الجمع الإشارة إلى أنهم مجتمعون على شأن جليل، أو الإشعار بأن قراءتهم

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩٣

لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ الذى أوتوه وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل، و هو القشرة التى فى شق النواة، أو هو عبارة عن أقلّ شيء و لم يذكر أصحاب الشمال تصريحا، و لكنه ذكر سبحانه ما يدلّ على حالهم القبيح فقال: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى أى من كان من المدعوّين فى هذه الدنيا أعمى: أى فاقد البصيرة. قال النيسابورى: لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب، و أما قوله: فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً و فى هذا زيادة العقوبة. و يحتمل أن يراد عمى القلب. و قيل: المراد بالآخرة عمل الآخرة، أى: فهو فى عمل، أو فى أمر الآخرة أعمى؛ و قيل: المراد من عمى عن النّعم التى أنعم اللّه بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى؛ و قيل: من كان فى الدنيا التى تقبل فيها التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى؛ و قيل: من كان فى الدنيا أعمى عن حجج اللّه فهو فى الآخرة أعمى، و قد قيل: إن قوله: فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى أفعل تفضيل؛ أى: أشدّ عمى، و هذا مبنيّ على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك فى عمى العين. قال الخليل و سيبويه: لأنه خلقة بمنزلة اليد و الرجل، فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. و قال الأخفش: لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من [ثلاثة] «١» أحرف. و قد حكى الفراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول: ما أسود شعره، و من ذلك قول الشاعر:

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم‌لؤما و أبيضهم سربال طبّاخ
و البحث مستوفى فى النحو. و قرأ أبو بكر و حمزة و الكسائى و خلف أَعْمى بالإمالة فى الموضعين و قرأهما أبو عمرو و يعقوب و الباقون بغير إمالة، و أمال أبو عبيد الأوّل دون الثانى. وَ أَضَلُّ سَبِيلًا يعنى أن هذا أضلّ سبيلا من الأعمى لكونه لا يجد طريقا إلى الهداية، بخلاف الأعمى فقد يهتدى فى بعض الأحوال.
ثم لمّا عدّد سبحانه فى الآيات المتقدّمة أقسام النّعم على بنى آدم أردفه بما يجرى مجرى التّحذير من الاغترار بوساوس الأشقياء، فقال: وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ إن هى المخفّفة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، و اللام هى الفارقة بينها و بين النافية؛ و المعنى: و إن الشأن قاربوا أن يخدعوك فاتنين، و أصل الفتنة: الاختبار، و منه فتن الصائغ الذّهب، ثم استعمل فى كلّ من أزال الشىء عن حدّه و جهته، و ذلك لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن، و افتراء على اللّه سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد و غير ذلك عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من الأوامر و النواهى و الوعد و الوعيد لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ لتتقوّل علينا غير الذى أوحينا إليك مما اقترحه عليك كفار قريش وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا أى: لو اتبعت أهواءهم لاتخذوك خليلا لهم، أى: والوك و صافوك، مأخوذ من الخلّة بفتح الخاء وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ على الحق و عصمناك عن موافقتهم لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ لقاربت أن تميل إليهم أدنى ميل، و الركون: هو الميل

---

(١). من تفسير القرطبى (١٠/ ٢٩٩)

اليسير، و لهذا قال: شَيْئاً قَلِيلًا لكن أدركته صلّى اللّه عليه و سلّم العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، فضلا عن نفس الركون، و هذا دليل على أنه صلّى اللّه عليه و سلّم ما همّ بإجابتهم، ذكر معناه القشيرى و غيره؛ و قيل:
المعنى: و إن كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم، فنسب فعلهم إليه مجازا و اتساعا، كما تقول للرجل:
كدت تقتل نفسك، أى: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكر معناه المهدوى. ثم توعّده سبحانه فى ذلك أشدّ الوعيد، فقال: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ أى: لو قاربت أن تركن إليهم، أى: مثلى ما يعذّب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل فى الدارين، و المعنى: عذابا ضعفا فى الحياة و عذابا ضعفا فى الممات، أى: مضاعفا، ثم حذف الموصوف و أقيمت الصفة مقامه و أضيفت، و ذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه: يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ «١» و ضعف الشىء: مثلاه، و قد يكون الضعف النصيب كقوله: لِكُلٍّ ضِعْفٌ «٢» أى: نصيب. قال الرازى: حاصل الكلام أنك لو مكّنت خواطر الشيطان من قلبك، و عقدت على الركون همّك، لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا و الآخرة؛ و لصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا و مثلى عذابه فى الآخرة ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً ينصرك فيدفع عنك هذا العذاب. قال النيسابورى: اعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها، و التهديد على المعصية لا يدلّ على الإقدام عليها، فلا يلزم من الآية طعن فى العصمة وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ الكلام فى هذا كالكلام فى وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ أى: و إن الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لتخرج عنها، و لكنه لم يقع ذلك منهم، بل منعهم اللّه منه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن همّوا به، و قيل: إنّه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجويزا وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا معطوف على ليستفزونك، أى: لا يبقون بعد إخراجك إلا زمنا قليلا، ثم عوقبوا عقوبة تستأصلهم جميعا.
و قرأ عطاء بن أبى رباح لا يلبثوا بتشديد الباء الموحدة. و قرئ لا يلبثوا بالنصب على إعمال إذن على أن الجملة معطوف على جملة: وَ إِنْ كادُوا لا على الخبر فقط. و قرأ نافع و ابن كثير و أبو بكر و أبو عمرو خَلْفَكَ و معناه بعدك. و قرأ ابن عامر و حفص

و حمزة و الكسائى خِلافَكَ و معناه أيضا بعدك. و قال ابن الأنبارى: خلافك بمعنى مخالفتك، و اختار أبو حاتم القراءة الثانية لقوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ «٣» و ممّا يدلّ على أن خلاف بمعنى بعد قول الشاعر «۴»:

عفت الدّيار خلافها «۵» فكأنّمابسط الشّواطب بينهنّ حصيرا

يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقّته لتعمل منه الحصر. قال أبو عبيدة: ثم تلقيه الشاطبة إلى المنقّية سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا سنة منتصبة على المصدرية، أى: سنّ اللّه سنة. و قال الفراء: أى يعذبون كسنّة من قد أرسلنا، فلما سقط الخافض عمل الفعل. و قيل المعنى: سنّتنا سنّة من قد أرسلنا. قال الزجّاج: يقول إن سنّتنا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك إليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه

---

(١). الأحزاب: ٣٠.

(٢). الأعراف: ٣٨.

(٣). التوبة: ٨١.

(۴). هو الحارث بن خالد المخزومى.

(۵). كذا فى مجاز القرآن لأبى عبيدة (١/ ٣٨٧)، و ابن جرير (١۵/ ١٣٣) و فى تفسير القرطبى: خلافهم.

أن ينزل العذاب بهم وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا أى: ما أجرى اللّه به العادة لم يتمكّن أحد من تحويله، و لا يقدر على تغييره.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ قال: إمام هدى و إمام ضلالة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، عن أنس فى الآية قال: نبيهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: بكتاب أعمالهم. و أخرج ابن مردويه عن على فى الآية قال: يدعى كل قوم بإمام زمانهم، و كتاب ربّهم، و سنّة نبيهم. و أخرج الترمذى و حسّنه، و البزار و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، و يمدّ له فى جسمه ستين ذراعا و يبيض وجهه، و يجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، و بارك لنا فى هذا، حتى يأتيهم فيقول:

أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا؛ و أما الكافر فيسودّ وجهه و يمدّ له فى جسمه ستين ذراعا على صورة آدم، و يلبس تاجا من نار فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ باللّه من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم، فيقولون: اللهم أخزه، فيقول: أبعدكم اللّه، فإن لكل رجل منكم مثل هذا». قال البزار بعد إخراجه:

لا- يروى إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى يقول: من كان فى الدنيا أعمى عمّا يرى من قدرتى من خلق السماء و الأرض و الجبال و البحار و الناس و الدواب و أشباه هذا فَهُوَ عمّا و صفت له فِي الْآخِرَةِ و لم يره أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا يقول: أبعد حجة. و أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه نحو هذا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا يقول: من عمى عن قدرة اللّه فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا قال: «إنّ أمية بن خلف و أبا جهل بن هشام و رجالا من قريش أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: تعال فتمسح «١» آلهتنا و ندخل معك فى دينك، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يشتدّ عليه فراق قومه و يحب إسلامهم، فرقّ لهم، فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ إلى قوله: نَصِيراً».

و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن باذان عن جابر بن عبد اللّه مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يستلم الحجر، فقالوا: لا ندعك تستلمه حتى تستلم آلهتنا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: و ما علىّ لو فعلت و اللّه يعلم منّى خلافه؟ فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ الآية». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير «أن قريشا أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس و مواليهم لنكون نحن أصحابك، فركن إليهم، فأوحى اللّه إليه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ الآية». و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: أنزل اللّه وَ النَّجْمِ إِذا هَوى «٢» فقرأ عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية

---

(١). فى الدر المنثور (٥/ ٣١٨): فاستلم.

(٢). النجم: ١.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩٦

أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى «١» فألقى عليه الشّيطان: تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتهم لترتجى، فقرأ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ما بقى من السورة و سجد، فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ الآية، فما زال مهموما مغموما حتى أنزل اللّه: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى «٢» الآية. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس «أن ثقيفا قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أجّلنا سنة حتى يهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا الذى يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا و كسرنا الآلهة، فهمّ أن يؤجلهم، فنزلت وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ الآية.

و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ يعنى ضعف عذاب الدنيا و الآخرة.

و أخرج البيهقى عن الحسن فى الآية قال: هو عذاب القبر. و أخرج أيضا عن عطاء مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: كانت الأنبياء تسكن الشام، فمالك و المدينة؟

فهمّ أن يشخص، فأنزل اللّه وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ الآية. و أخرج ابن جرير عن حضرمى أنه بلغه أن بعض اليهود فذكر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر عن عبد الرحمن ابن غنم أن اليهود أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: إن كنت نبيا فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر و أرض الأنبياء، فصدّق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ما قالوا، فتحرّى غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل اللّه عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ إلى قوله: تَحْوِيلًا فأمره بالرجوع إلى المدينة، و قال: فيها محياك و فيها مماتك و منها تبعث، و قال له جبريل: سل ربّك فإن لكلّ نبىّ مسألة، فقال: ما تأمرنى أن أسأل؟ قال: قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً فهؤلاء نزلن عليه فى رجعته من تبوك. قال ابن كثير: و فى هذا الإسناد نظر، و الظاهر أنه ليس بصحيح فإن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يغز تبوك عن قول اليهود، و إنما غزاها امتثالا لقوله: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ «٣» و غزاها ليقتصّ و ينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ قال: همّ أهل مكة بإخراج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة و قد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم اللّه يوم بدر و لم يلبثوا بعده إلا قليلا حتى أهلكهم اللّه يوم بدر، و كذلك كانت سنّة اللّه فى الرسل إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا قال: يعنى بالقليل يوم أخذهم ببدر، فكان ذلك هو القليل الذين لبثوا بعده.

(١). النجم: ١٩.

(٢). الحج: ٥٢.

(٣). التوبة: ١٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٨ الى ٨٥]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (٧٩) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (٨٠) وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (٨١) وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (٨٢)

وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (٨٤) وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)

لما ذكر سبحانه الإلهيات و المعاد و الجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات، و هى الصلاة، فقال: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ و قد أجمع المفسرون على أن هذه الآية المراد بها الصلوات المفروضة.

و قد اختلف العلماء فى الدلوك المذكور فى هذه الآية على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء، قاله عمر و ابنه و أبو هريرة و أبو برزة و ابن عباس و الحسن و الشعبى و عطاء و مجاهد و قتادة و الضحّاك و أبو جعفر الباقر، و اختاره ابن جرير. و القول الثانى: أنه غروب الشمس، قاله على و ابن مسعود و أبىّ بن كعب، و روى عن ابن عباس. قال الفراء: دلوك الشمس من لدن زوالها إلى غروبها. قال الأزهرى:

معنى الدلوك فى كلام العرب الزوال، و لذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، و قيل لها إذا أفلت:

دالكة؛ لأنها فى الحالتين زائلة. قال: و القول عندى أنه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس، و المعنى: أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ فيدخل فيها الظهر و العصر و صلاتا غسق الليل، و هما العشاءان، ثم قال: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ هذه خمس صلوات. و قال أبو عبيد: دلوكها غروبها، و دلكت براح: يعنى الشمس، أى: غابت، و أنشد قطرب على هذا قول الشاعر:

هذا مقام قدمى رباح ذبّب حتى دلكت براح

اسم من أسماء الشمس «١» على وزن حذام و قطام، و من ذلك قول ذى الرّمّة:

مصابيح ليست باللواتى تقودها نجوم و لا بالآفات الدوالك

أى: الغوارب، و غسق الليل: اجتماع الظلمة. قال الفرّاء و الزجّاج: يقال: غسق الليل و أغسق؛ إذا أقبل بظلامه. قال أبو عبيد: الغسق سواد الليل. قال ابن قيس الرّقيّات:

إنّ هذا الليل قد غسقا و اشتكيت الهمّ و الأرقا

و قيل: غسق الليل: مغيب الشفق، و منه قول زهير:

ظلّت تجود يداها و هى لاهية حتى إذا جعجع «٢» الإظلام و الغسق

و أصل الكلمة من السيلان، يقال: غسقت إذا سالت. و حكى الفراء غسق الليل و أغسق، و ظلم و أظلم، و دجا و أدجى، و غبش و أغبش، و قد استدل بهذه الغاية أعنى قوله: إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ من قال إن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب، روى ذلك عن الأوزاعى و أبى حنيفة، و جوّزه مالك

---

(١). فى حاشية القرطبى (١٠/ ٣٠٣): و الصواب: من أسماء النساء.

(٢). فى تفسير القرطبى (١٠/ ٣٠٤): جنح.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩٨

و الشافعى فى حال الضرورة، و قد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تعيين أوقات الصّلوات، فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنّة، فلا نطيل بذكر ذلك. قوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ انتصاب قرآن لكونه معطوفا على الصلاة؛ أى: و أقم قرآن الفجر، قاله الفرّاء. و قال الزّجّاج و البصريون:

انتصابه على الإغراء، أى: فعليك قرآن الفجر. قال المفسرون: المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح. قال الزجاج: و فى هذه فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سمّيت الصلاة قرآنا، و قد دلّت الأحاديث الصحيحة على أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، و فى بعض الأحاديث: الخارجة من مخرج حسن و قرآن معها، و ورد ما يدل على وجوب الفاتحة فى كل ركعة، و قد حرّرته فى مؤلفاتى تحريرا مجوّدا. ثم علّل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً أى: تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح، و بذلك قال جمهور المفسرين وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ من للتبعيض، و انتصابه على الظرفية بمضمر، أى: قم بعض الليل فتهجد به، و الضمير المجرور راجع إلى القرآن، و ما قيل من أنه منتصب على الإغراء، و التقدير: عليك بعض الليل فبعيد جدّا، و التهجد مأخوذ من الهجود. قال أبو عبيدة و ابن الأعرابى: هو من الأضداد؛ لأنه يقال هجد الرجل: إذا نام، و هجد إذا سهر، فمن استعماله فى السهر قول الشاعر:

ألا زارت و أهل منىّ هجودفليت خيالها بمنىّ يعود

يعنى منتبهين، و من استعماله فى النوم قول الآخر:

ألا طرقتنا و الرّفاق هجودفباتت بعلّات «١» النّوال تجود

يعنى نياما. و قال الأزهرى: الهجود فى الأصل هو النوم بالليل، و لكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب، و منه تأثم تتحرّج؛ أى: تجنب الإثم و الحرج، فالمتهجّد من تجنّب الهجود، فقام بالليل. و روى عن الأزهرى أيضا أنه قال: المتهجد القائم إلى الصلاة من النوم، هكذا حكى عنه الواحدى، فقيّد التهجد بالقيام من النوم، و هكذا قال مجاهد و علقمة و الأسود فقالوا: التهجّد بعد النوم. قال الليث: تهجد إذا استيقظ للصلاة نافِلَةً لَكَ معنى النافلة فى اللغة الزيادة على الأصل، فالمعنى أنها للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم نافلة زائدة على الفرائض، و الأمر بالتهجد و إن كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر؛ و قيل: المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس فى حقه صلّى اللّه عليه و سلّم، و يدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة؛ و قيل: كانت صلاة الليل فريضة فى حقّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوّعا، و على هذا يحمل ما ورد فى الحديث أنها عليه فريضة، و لأمته تطوّع. قال الواحدى: إن صلاة الليل كانت زيادة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة لرفع الدرجات، لا للكفارات، لأنّه غفر له من ذنبه ما تقدم و ما تأخّر، و ليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: و هو قول جميع المفسرين. و الحاصل أن الخطاب فى هذه الآية و إن كان خاصا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: أَقِمِ الصَّلاةَ*

---

(١). أى ما يتعلّل به.

فتح القدير، ج٣، ص: ٢٩٩

فالأمر له أمر لأمته، فهو شرع عام، و من ذلك الترغيب فى صلاة الليل، فإنه يعمّ جميع الأمة، و التصريح بكونه نافلة يدلّ على عدم الوجوب، فالتهجد من الليل مندوب إليه و مشروع لكل مكلّف. ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض و النوافل فقال: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً قد ذكرنا فى مواضع أن عسى من الكريم إطماع واجب الوقوع، و انتصاب مقاما على الظرفية بإضمار فعل، أو بتضمين البعث معنى الإقامة، و يجوز أن يكون انتصابه على الحال؛ أى: يبعثك ذا مقام محمود؛ و معنى كون المقام محمودا؛ أنه يحمده كل من علم به. و قد اختلف فى تعيين هذا المقام على أقوال: الأوّل أنه المقام الذى يقومه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه ممّا هم فيه، و هذا القول هو الذى دلت عليه الأدلة الصحيحة فى تفسير الآية، و حكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل. قال الواحدى: و إجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة. القول الثانى: أن المقام المحمود إعطاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لواء الحمد يوم القيامة. و يمكن أن يقال إن هذا لا ينافى القول الأوّل، إذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة و بيده لواء الحمد. القول الثالث: أن المقام المحمود هو أن اللّه سبحانه يجلس محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم معه على كرسيه، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد، و قد ورد فى ذلك حديث. و حكى النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متّهم، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا الحديث. قال ابن عبد البرّ: مجاهد و إن كان أحد الأئمة بالتأويل فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، و الثانى فى تأويل: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ «١» قال: معناه تنتظر الثواب، و ليس من النظر، انتهى. و على كل حال فهذا القول غير مناف للقول الأوّل لإمكان أن يقعده اللّه سبحانه هذا المقعد و يشفع تلك الشفاعة. القول الرابع: أنه مطلق فى كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، ذكره صاحب الكشاف و المقتدون به فى التفسير، و يجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة فى تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعين، و ليس فى الآية عموم فى اللفظ حتى يقال: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و معنى قوله و هو مطلق فى كل ما يجلب الحمد أنه عام فى كل ما هو كذلك، و لكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق، كما ذكره فى ذبح البقرة، و لهذا قال هنا. و قيل:

المراد الشفاعة، و هى نوع واحد مما يتناوله يعنى لفظ المقام، و الفرق بين العموم البدلىّ و العموم الشمولىّ معروف، فلا نطيل بذكره وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ و قرأ الجمهور مُدْخَلَ صِدْقٍ و مُخْرَجَ صِدْقٍ بضم الميمين. و قرأ الحسن و أبو العالية و نصر بن عاصم بفتحهما، و هما مصدران بمعنى الإدخال و الإخراج، و الإضافة إلى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجود؛ أى: إدخالا يستأهل أن يسمّى إدخالا، و لا يرى فيه ما يكره. قال الواحدى: و إضافتهما إلى الصدق مدح لهما، و كل شىء أضفته إلى الصدق فهو مدح.

و قد اختلف المفسّرون فى معنى الآية، فقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة و الإخراج من مكة و اختاره ابن جرير؛ و قيل: المعنى: أمتنى إماتة صدق و ابعثنى يوم القيامة مبعث صدق؛ و قيل المعنى:

---

(١). القيامة: ٢٢- ٢٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠٠

فتح القدير ج٣ ٣٤٩

أدخلنى فيما أمرتنى به، و أخرجنى مما نهيتنى عنه؛ و قيل: إدخاله موضع الأمن و إخراجه من بين المشركين، و هو كالقول

الأوّل؛ و قيل: المراد إدخال عزّ و إخراج نصر؛ و قيل: المعنى: أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوّة مدخل صدق، و أخرجنى منه إذا أمتنى مخرج صدق؛ و قيل: أدخلنى القبر عند الموت مدخل صدق، و أخرجنى منه عند البعث مخرج صدق؛ و قيل: أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق و أخرجنى بالصدق؛ و قيل: الآية عامة فى كل ما تتناوله من الأمور فهى دعاء، و معناها: ربّ أصلح لى وردى فى كل الأمور و صدرى عنها وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً أى: حجة ظاهرة قاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى، و قيل: اجعل لى من لدنك ملكا و عزا قويّا، و كأنه صلّى اللّه عليه و سلّم علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا. و به قال الحسن و قتادة و اختاره ابن جرير. قال ابن كثير: و هو الأرجح، لأنه لا بدّ مع الحق من قهر لمن عاداه و ناوأه، و لهذا يقول تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ «١».

و فى الحديث: «إن اللّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أى: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش و الآثام ما لا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن، و ما فيه من الوعيد الأكيد و التهديد الشديد، و هذا هو الواقع، انتهى.

وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ المراد بالحق الإسلام، و قيل: القرآن، و قيل: الجهاد، و لا مانع من حمل الآية على جميع ذلك و على ما هو حق كائنا ما كان، و المراد بالباطل الشرك؛ و قيل: الشيطان و لا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل و باطل. و معنى زهق: بطل و اضمحل، و منه زهوق النفس و هو بطلانها إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً أى: إن هذا شأنه فهو يبطل و لا يثبت، و الحق ثابت دائما وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ قرأ الجمهور نُنَزِّلُ بالنون «٢». و قرأ أبو عمرو بالتخفيف. و قرأ مجاهد بالياء التحتية و التخفيف، و رواها المروزى عن حفص، و من لابتداء الغاية، و يصحّ أن تكون لبيان الجنس، و قيل: للتبعيض، و أنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، و ردّه ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله.

و اختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على القولين؛ الأوّل: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها و ذهاب الريب و كشف الغطاء عن الأمور الدالة على اللّه سبحانه. القول الثانى: أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى و التعوّذ و نحو ذلك، و لا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنييه. ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين و الدنيا، و لما فى تلاوته و تدبّره من الأجر العظيم الذى يكون سببا لرحمة اللّه سبحانه و مغفرته و رضوانه، و مثل هذه الآية قوله تعالى: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ، وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى «٣».

ثم لما ذكر سبحانه ما فى القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عداهم من المضرّة عليهم فقال: وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً أى: و لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الظالمين الذى وضعوا التكذيب موضع

---

(١). الحديد: ٢٥.

(٢). (قوله بالنون)، صوابه: بالنون و التشديد للزاى.

(٣). فصلت: ۴۴.

التصديق، و الشك و الارتياب موضع اليقين و الاطمئنان إِلَّا خَساراً أى: هلاكا؛ لأن سماع القرآن يغيظهم و يحنقهم و يدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرّدا و عنادا، فعند ذلك يهلكون؛ و قيل: الخسار:

النقص، كقوله: فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ «١» ثم نبّه سبحانه على فتح بعض ما جبل عليه الإنسان من الطبائع المذمومة فقال: وَ

إذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أى: على هذا الجنس بالنعم التى توجب الشكر كالصحة و الغنى أَعْرَضَ عن الشكر للّه و الذكر له وَ نَأى بِجانِبِهِ النأى: البعد، و الباء للتعدية أو للمصاحبة، و هو تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشىء هو أن يوليه عرض وجهه، أى: ناحيته، و النأى بالجانب أن يلوى عنه عطفه و يوليه ظهره، و لا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء و الابتهال الذى كان يفعله عند نزول البلوى و المحنة به، و يراد بالنأى بجانبه التكبر و البعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم. و قرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان و أبو جعفر «ناء» مثل باغ بتأخير الهمزة على القلب، و قرأ حمزة «نئى» بإمالة الفتحتين، و وافقه الكسائى، و أمال شعبة و السوسى الهمزة فقط. و قرأ الباقون بالفتح فيهما. وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ من مرض أو فقر كانَ يَؤُساً شديد اليأس من رحمة اللّه؛ و المعنى: أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوى، و ظفر بالمقصود نسى المعبود، و إن فاته شىء من ذلك استولى عليه الأسف، و غلب عليه القنوط، و كلتا الخصلتين قبيحة مذمومة، و لا ينافى ما فى هذه الآية قوله تعالى: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ «٢» و نظائره، فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور فى هذه الآية، و لا يبعد أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه و كثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ الشاكلة قال الفراء: الطريقة، و قيل: الناحية، و قيل: الطبيعة، و قيل: الدين، و قيل: النية، و قيل: الجبلّة، و هى مأخوذة من الشكل، يقال: لست على شكلى و لا على شاكلتى، و الشكل: هو المثل و النظير. و المعنى:

أن كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التى ألفها، و هذا ذمّ للكافر و مدح للمؤمن فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع و ما تباينتم فيه من الطرائق، فهو الذى يميز بين المؤمن الذى لا يعرض عند النعمة و لا ييأس عند المحنة، و بين الكافر الذى شأنه البطر للنعم و القنوط عند النقم. ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر الإنسان و ما جبل عليه، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الروح فقال: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قد اختلف الناس فى الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المدبّر للبدن الذى تكون به حياته، و بهذا قال أكثر المفسرين. قال الفراء: الروح الذى يعيش به الإنسان لم يخبر اللّه سبحانه به أحدا من خلقه، و لم يعط علمه أحدا من عباده، فقال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي أى: إنكم لا تعلمونه، و قيل: الروح المسؤول عنه جبريل، و قيل: عيسى، و قيل: القرآن، و قيل: ملك من الملائكة عظيم الخلق، و قيل: خلق كخلق بنى آدم، و قيل غير ذلك مما لا طائل تحته و لا فائدة فى إيراده، و الظاهر القول الأوّل، و سيأتى ذكر سبب نزول هذه الآية، و بيان السائلين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الروح، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح، لأن معرفة حقيقة الشىء أهمّ و أقدم من معرفة حال من أحواله، ثم

(١). التوبة: ١٢٥.

(٢). فصلت: ٥١.

أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي من بيانية، و الأمر الشأن، و الإضافة للاختصاص، أى: هو من جنس ما استأثر اللّه بعلمه من الأشياء التى لم يعلم بها عباده؛ و قيل: معنى مِنْ أَمْرِ رَبِّي من وحيه و كلامه لا من كلام البشر؛ و فى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الرّوح المتكلّفين لبيان ما هيئته و إيضاح حقيقته أبلغ زجر، و يردعهم أعظم ردع، و قد أطالوا المقال فى هذا البحث بما لا يتمّ له المقام، و غالبه بل كلّه من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين و لا دنيا.

و قد حكى بعض المحقّقين أنّ أقوال المختلفين فى الروح بلغت إلى ثمانية عشر و مائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ و التعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن اللّه سبحانه قد استأثر بعلمه، و لم يطلع عليه أنبياءه، و لا أذن لهم بالسؤال عنه و لا

البحث عن حقيقته، فضلا عن أممهم المقتدين بهم، فيا للّه العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحدّ الذى لم تبلغه و لا بعضه فى غير هذه المسألة مما أذن اللّه بالكلام فيه، و لم يستأثر بعلمه. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا أى: إن علمكم الذى علمكم اللّه، ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، و إن أوتى حظا من العلم وافرا، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم اللّه سبحانه إلا كما يأخذ الطائر فى منقاره من البحر، كما فى حديث موسى و الخضر عليهما السلام.

و قد أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: دلوك الشمس غروبها، تقول العرب إذا غربت الشمس: دلكت الشمس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن على قال: دلوكها: غروبها.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس، قال: لِدُلُوكِ الشَّمْسِ لزوال الشمس، و أخرج البزار و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «دلوك الشمس زوالها» و ضعّف السيوطى إسناده. و أخرجه مالك فى الموطأ و عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عمر من قوله. و أخرج عبد الرزاق عنه قال: «دلوك الشمس زياغها بعد نصف النهار». و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير عن ابن عباس قال: دلوكها: زوالها.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عنه فى قوله: لِدُلُوكِ الشَّمْسِ قال: إذا فاء الفىء. و أخرج ابن جرير عن أبى مسعود و عقبة بن عمرو قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلّى بى الظهر». و أخرج ابن جرير عن أبى برزة الأسلمى قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى الظهر إذا زالت الشمس، ثم تلا أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ و أخرج ابن مردويه من حديث أنس نحوه، مما يستشهد به على أن الدلوك الزوال وسط النهار ما أخرجه ابن جرير عن جابر قال دعوت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و من شاء من أصحابه يطعمون عندى، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشّمس»، و فى إسناده رجل مجهول، و لكنه أخرجه عنه من طريق أخرى عن سهل بن بكار عن أبى عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر فذكر نحوه مرفوعا. و أخرج الطبرانى عن

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠٣

ابن مسعود فى قوله: إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ قال: إلى العشاء الآخرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال:
غَسَقِ اللَّيْلِ اجتماع الليل و ظلمته. و أخرج ابن جرير عنه قال: غَسَقِ اللَّيْلِ بدوّ الليل. و أخرج عبد الرزاق عن أبى هريرة قال: دلوك الشمس إذا زالت الشمس عن بطن السماء، و غسق الليل غروب الشمس.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ قال: صلاة الصبح. و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً قال: «تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار تجتمع فيها»، و هو فى الصحيحين عنه مرفوعا بلفظ: «تجتمع ملائكة الليل و ملائكة النهار فى صلاة الفجر» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى عن ابن مسعود موقوفا نحوه. و أخرج الحكيم الترمذى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً قال: «تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار».

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: نافِلَةً لَكَ يعنى خاصة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أمر بقيام الليل و كتب عليه. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى سننه، عن عائشة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ثلاث هنّ علىّ فرائض و هنّ لكم سنة: الوتر، و السواك، و قيام الليل». و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى أمامة فى قوله: نافِلَةً لَكَ قال: كانت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم نافلة و لكم فضيلة، و فى لفظ: إنما كانت النافلة خاصة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً و سئل عنه، قال: «هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأمتى». و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا و أمتى على تلّ، و يكسونى ربى حلّة خضراء، ثم يؤذن لى فأقول ما شاء اللّه أن أقول، فذلك المقام المحمود». و أخرج البخارى و غيره عن ابن عمر قال: إن كل أمة يوم القيامة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فذلك يوم يبعثه اللّه مقاما محمودا. و أخرج عنه نحوه مرفوعا، و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدّا ثابتة فى الصحيحين و غيرهما فلا نطيل بذكرها، و من رام الاستيفاء نظر فى أحاديث الشفاعة فى الأمهات «۱» و غيرها. و أخرج الطبرانى فى قوله: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً قال: يجلسه فيما بينه و بين جبريل و يشفع لأمته، فذلك المقام المحمود. و أخرج الديلمى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً قال: يجلسنى معه على السرير» و ينبغى الكشف عن إسناد هذين الحديثين.

---

(۱). الصواب أن يقول: الأمّات.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۰۴

و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل اللّه وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عن قتادة فى قوله: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى الآية قال: أخرجه اللّه من مكة مخرج صدق، و أدخله المدينة مدخل صدق. قال: و علم نبى اللّه أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب اللّه و حدوده و فرائضه و لإقامة كتاب اللّه، فإن السلطان عزة من اللّه جعلها بين أظهر عباده، و لو لا ذلك لأغار بعضهم على بعض، و أكل شديدهم ضعيفهم. و أخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب قال: و اللّه لما يزع اللّه بالسلطان أعظم ممّا يزع بالقرآن. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: «دخل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مكة و حول البيت ستون و ثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود فى يده و يقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ «۱» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ نَأى بِجانِبِهِ قال: تباعد.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كانَ يَؤُساً قال: قنوطا، و فى قوله: كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ قال: على ناحيته. و أخرج هناد و ابن المنذر عن الحسن قال: عَلى شاكِلَتِهِ على نيته. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت أمشى مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى خرب المدينة و هو متكئ على عسيب، فمرّ بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: اسألوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متّكئا على العسيب فظننت أنه

یوحی إلیه، فقال: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا». و أخرج أحمد، و الترمذی و صحّحه، و النسائی و ابن المنذر و ابن حبان، و أبو الشیخ فی العظمة، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه و أبو نعیم و البیهقی عن ابن عباس قال: قالت قریش للیهود أعطونا شیئا نسأل هذا الرجل، قالوا:

سلوه عن الروح، فنزلت وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا قالوا: أوتینا علما کثیرا، أوتینا التوراة، و من أوتی التوراة فقد أوتی خیرا کثیرا، فأنزل اللّه: قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِماتُ رَبِّی وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً «۲». و فی الباب أحادیث و آثار.

---

(۱). سبأ: ۴۹.

(۲). الکهف: ۱۰۹.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۰۵

[سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۸۶ الی ۹۳]

وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنا وَکِیلاً (۸۶) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ کانَ عَلَیْکَ کَبِیراً (۸۷) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِی هذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ فَأَبی أَکْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ کُفُوراً (۸۹) وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ قَبِیلاً (۹۲) أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتَّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (۹۳)

لمّا بیّن سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قلیلا بیّن أنه لو شاء أن یأخذ منهم هذا القلیل لفعل، فقال:

وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ و اللام هی الموطئة، و لنذهبن جواب القسم سادّ مسد جواب الشرط. قال الزجّاج: معناه لو شئنا لمحوناه من القلوب و من الکتب حتی لا یوجد له أثر، انتهی. و عبّر عن القرآن بالموصول تفخیما لشأنه ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ أی: بالقرآن عَلَیْنا وَکِیلًا أی: لا تجد من یتوکل علینا فی ردّ شیء منه بعد أن ذهبنا به، و الاستثناء بقوله: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إن کان متّصلا فمعناه إلا أن یرحمک ربک فلا نذهب به، و إن کان منقطعا فمعناه لکن لا یشأ ذلک رحمة من ربک، أو لکن رحمة من ربک ترکته غیر مذهوب به إِنَّ فَضْلَهُ کانَ عَلَیْکَ کَبِیراً حیث جعلک رسولا و أنزل علیک الکتاب و صیّرک سید ولد آدم، و أعطاک المقام المحمود و غیر ذلک مما أنعم به علیه. ثم احتجّ سبحانه علی المشرکین بإعجاز القرآن فقال: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ المنزل من عند اللّه الموصوف بالصفات الجلیلة من کمال البلاغة و حسن النظم و جزالة اللفظ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ أظهر فی مقام الإضمار، و لم یکتف بأن یقول لا یأتون به علی أن الضمیر راجع إلی المثل المذکور، لدفع توهّم أن یکون له مثل معین، و للإشعار بأن المراد نفی المثل علی أی صفة کان، و هو جواب قسم محذوف کما تدلّ علیه اللام الموطئة، و سادّ مسدّ جواب الشرط، ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء کان المتصدّی لها کل واحد منهم علی الانفراد، أو کان المتصدّر بها المجموع بالمظاهرة فقال: وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً أی:

عونا و نصیرا، و جواب لو محذوف، و التقدیر: و لو کان بعضهم لبعض ظهیرا لا یأتون بمثله، فثبت أنهم لا یأتون بمثله علی کل حال، و قد تقدّم وجه إعجاز القرآن فی أوائل سورة البقرة فی هذه الآیة ردّ لما قاله الکفار:

لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا «۱» و إكذاب لهم. ثم بيّن سبحانه أنّ الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم و عدم إيمانهم، فقال: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أى: رددنا القول فيه بكلّ مثل يوجب الاعتبار من الآيات و العبر و الترغيب و الترهيب و الأوامر و النواهى و أقاصيص الأوّلين و الجنة و النار و القيامة فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً يعنى من أهل مكة، فإنهم جحدوا و أنكروا كون القرآن كلام اللّه بعد قيام الحجة عليهم، و اقترحوا من الآيات ما ليس لهم، و أظهر فى مقام الإضمار حيث قال:

فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ توكيدا أو توضيحا، و لما كان أبى مؤوّلا بالنفى، أى: ما قبل أو لم يرض صحّ الاستثناء منه قوله: إِلَّا كُفُوراً وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ أى: قال رؤساء مكة كعتبة و شيبة ابنى ربيعة

---

(۱). الأنفال: ۳۱.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۰۶

و أبى سفيان و النضر بن الحارث، ثم علّقوا نفى إيمانهم بغاية طلبوها فقالوا: حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً قرأ حمزة و الكسائى و عاصم «حتى تفجر» مخففا مثل تقتل. و قرأ الباقون بالتشديد، و لم يختلفوا فى فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ أنها مشدّدة، و وجّه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع و هو واحد، و الثانية بعدها الأنهار و هى جمع. و أجيب عنه بأن الينبوع و إن كان واحدا فى اللفظ فالمراد به الجمع، فإن الينبوع العيون التى لا تنضب.

و يردّ بأن الينبوع عين الماء و الجمع الينابيع، و إنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع، و الياء زائدة كيعبوب من عبّ الماء أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ أى: بستان تستر أشجاره أرضه.

و المعنى: هب أنك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ أى: تجريها بقوة خِلالَها تَفْجِيراً أى: وسطها تفجيرا كثيرا أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً قرأ مجاهد أَوْ تُسْقِطَ مسندا إلى السماء. و قرأ من عداه أَوْ تُسْقِطَ على الخطاب، أى: أو تسقط أنت يا محمد السماء. و الكسف بفتح السين جمع كسفة، و هى قراءة نافع و ابن عامر و عاصم، و الكسفة: القطعة. و قرأ الباقون كِسَفاً بإسكان السّين. قال الأخفش: من قرأ بإسكان السين جعله واحدا و من قرأ بفتحها جعله جمعا. قال المهدوى: و يجوز أن يكون على قراءة السكون جمع كسفة، و يجوز أن يكون مصدرا. قال الجوهرى: الكسفة القطعة من الشىء، يقال: أعطنى كسفة من ثوبك، و الجمع كسف و كسف، و يقال: الكسف و الكسفة واحد، و انتصاب كسفا على الحال، و الكاف فى كما زعمت فى محل نصب على أنه صفة مصدر محذوف، أى: إسقاطا مماثلا لما زعمت، يعنون بذلك قول اللّه سبحانه:

إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ «۱». قال أبو على: الكسف: بالسكون؛ الشىء المقطوع، كالطحن للمطحون، و اشتقاقه على ما قال أبو زيد من كسفت الثوب كسفا إذا قطعته.

و قال الزجّاج: من كسفت الشىء إذا غطّيته، كأنه قيل: أو تسقطها طبقا علينا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا.

اختلف المفسرون فى معنى قَبِيلًا فقيل: معناه: معاينة، قاله قتادة و ابن جريج، و اختاره أبو على الفارسى فقال: إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير و النذير. و قيل: معناه كفيلا، قاله الضحّاك، و قيل: شهيدا، قاله مقاتل، و قيل: هو جمع القبيلة، أى: تأتى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، قاله مجاهد و عطاء، و قيل: ضمنا، و قيل: مقابلا كالعشير و المعاشر أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أى: من ذهب، و به قرأ ابن مسعود، و أصله الزينة، و المزخرف: المزيّن، و زخارف الماء: طرائقه. و قال الزجاج: هو الزينة، فرجع إلى الأصل معنى الزخرف، و هو بعيد لأنه يصير المعنى: أو يكون لك بيت من زينة أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ أى:

تصعد فى معارجها، يقال: رقيت فى السلم إذا صعدت و ارتقيت مثله. وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ أى: لأجل رقيك، و هو مصدر نحو مضى يمضى مضيا و هوى يهوى هويا حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ أى حتى تنزل علينا من السماء كتابا يصدقك و يدل على نبوّتك نقرؤه جميعا، أو يقرؤه

---

(١). سبأ: ٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠٧

كل واحد منا، و قيل: معناه: كتابا من اللّه إلى كل واحد منا كما فى قوله: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً «١» فأمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأتى بما يفيد التعجب من قولهم، و التنزيه للربّ سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال: قُلْ سُبْحانَ رَبِّى أى: تنزيها للّه عن أن يعجز عن شىء. و قرأ أهل مكة و الشام «قال سبحان ربى» يعنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً من البشر لا ملكا حتى أصعد السماء رَسُولًا مأمورا من اللّه سبحانه بإبلاغكم، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشرا قدر على شىء منها؟ و إن أردتم أنّى أطلب ذلك من اللّه سبحانه حتى يظهرها على يدى، فالرسول إذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك، لأنّ بها يتبيّن صدقه، و لا ضرورة إلى طلب الزيادة، و أنا عبد مأمور ليس لى أن أتحكّم على ربى بما ليس بضرورى، و لا دعت إليه حاجة، و لو لزمتنى الإجابة لكل متعنّت لاقترح كلّ معاند فى كل وقت اقتراحات، و طلب لنفسه إظهار آيات، فتعالى اللّه عما يقول الظالمون علوّا كبيرا، و تنزّه عن تعنتاتهم، و تقدّس عن اقتراحاتهم.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود قال: إن هذا القرآن سيرفع، قيل: كيف يرفع و قد أثبته اللّه فى قلوبنا و أثبتناه فى المصاحف؟ قال: يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا يترك منه آية فى قلب و لا مصحف إلا رفعت، فتصبحون و ليس فيكم منه شىء، ثم قرأ: وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ و قد روى عنه هذا من طرق. و أخرج ابن عدىّ عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج محمد بن نصر عن عبد اللّه بن عمرو نحوه موقوفا. و أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن معاذ بن جبل مرفوعا نحوه أيضا.

و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن أبى هريرة موقوفا نحوه أيضا. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن حذيفة بن اليمان مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم محمود بن سيحان و نعيمان بن أحى «٢» و بحرى بن عمرو و سلام بن مشكم، فقالوا: أخبرنا يا محمد بهذا الذى جئت به أحق من عند اللّه، فإنا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة؟

فقال لهم: و اللّه إنكم لتعرفونه أنه من عند اللّه، قالوا: إنا نجيئك بمثل ما تأتى به، فأنزل اللّه: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ الآية. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أن عتبة و شيبة ابنى ربيعة و أبا سفيان بن حرب، و رجلا من بنى عبد الدار و أبا البخترى أخا بنى أسيد و الأسود ابن عبد المطلب و زمعة بن الأسود و الوليد بن المغيرة و أبا جهل بن هشام و عبد اللّه بن أبى أمية و أمية بن خلف و العاص بن وائل و نبيها و منبها ابنى الحجاج السهميين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد و كلموه و خاصموه، و ذكر حديثا طويلا يشتمل على ما سألوه عنه و تعنتوه، و أن ذلك كان سبب نزول قوله: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ إلى قوله: بَشَراً رَسُولًا. و إسناده عند

---

(١). المدثر: ٥٢.

(٢). كذا في الدر المنثور. و في ابن جرير: عمر بن أضا.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠٨

ابن جرير هكذا: حدّثنا أبو كريب حدّثنا يونس بن بكير حدّثنا محمد بن إسحاق حدّثنى شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع و أربعين سنة، عن عكرمة عن ابن عباس فذكره، ففيه هذا الرجل المجهول.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ قال: نزلت فى أخى أمّ سلمة عبد اللّه بن أبى أمية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: يَنْبُوعاً قال: عيونا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: الينبوع هو النهر الذى يجرى من العين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ يقول:

ضيعة. و أخرج ابن جرير عنه كِسَفاً قال: قطعا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: قَبِيلًا قال:

عيانا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا: مِنْ زُخْرُفٍ قال: من ذهب. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى و أبو نعيم عن مجاهد قال: لم أكن أحسن ما الزخرف؟

حتى سمعتها فى قراءة عبد اللّه أو يكون لك بيت من ذهب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: كِتاباً نَقْرَؤُهُ قال: من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان. يصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٤ الى ١٠٠]

وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (٩٤) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (٩٥) قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (١٠٠)

حكى سبحانه عنهم شبهة أخرى، قد تكرر فى الكتاب العزيز التعرّض لإيرادها و ردّها فى غير موضع، فقال: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا المراد الناس على العموم، و قيل: المراد أهل مكة على الخصوص، أى: ما منعهم الإيمان بالقرآن و النبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و هو المفعول الثانى لمنع؛ و معنى إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى أنه جاءهم الوحى من اللّه سبحانه على رسوله، و بيّن ذلك لهم و أرشدهم إليه، و هو ظرف لمنع أو يؤمنوا، أى: ما منعهم وقت مجىء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن و النبوّة إِلَّا أَنْ قالُوا أى: ما منعهم إلا قولهم، فهو فى محل رفع على أنه فاعل منع، و الهمزة فى أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا للإنكار منهم أن يكون الرسول بشرا، و المعنى: أن هذا الاعتقاد الشامل لهم، و هو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر، هو الذى منعهم عن

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٠٩

الإيمان بالكتاب و بالرسول، و عبّر عنه بالقول للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم، ثم أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب عن شبهتهم هذه، فقال: قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ أى: لو وجد و ثبت أن فى الأرض بدل من فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشى الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها. قال الزجّاج: مطمئنين:

مستوطنين فى الأرض، و معنى الطمأنينة السكون، فالمراد هاهنا المقام و الاستيطان، فإنه يقال سكن البلد فلان إذا أقام فيها و إن كان ماشيا متقلّبا فى حاجاته لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا حتى يكون من جنسهم، و فيه إعلام من اللّه سبحانه بأن الرسل ينبغى أن تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنّه سبحانه اعتبر فى تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين: الأوّل: كون سكان الأرض ملائكة. و الثانى: كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، و سمعوا من أهلها ما يجب معرفته و سماعه، فلا يكون فى بعثة الملائكة إليهم فائدة. و انتصاب بشرا و ملكا على أنهما مفعولان للفعلين، و رسولا فى الموضعين وصف لهما. و جوّز صاحب الكشاف أن يكونا حالين فى الموضعين من رسولا فيهما و قوّاه صاحب الكشاف، و لعل وجه ذلك أن الإنكار يتوجه إلى الرسول المتصف بالبشرية فى الموضع الأوّل، فيلزم بحكم التقابل أن يكون الآخر كذلك، ثم ختم الكلام بما يجرى مجرى التهديد، فقال: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أى: قل لهم يا محمد من جهتك كفى باللّه وحده شهيدا على إبلاغى إليكم ما أمرنى به من أمور الرسالة، و قال بينى و بينكم، و لم يقل بيننا، تحقيقا للمفارقة الكلية؛ و قيل: إن إظهار المعجزة على وفق دعوى النبىّ شهادة من اللّه له على الصدق، ثم علّل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله: إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً أى: عالما بجميع أحوالهم محيطا بظواهرها و بواطنها بصيرا بما كان منها و ما يكون، ثم بيّن سبحانه أن الإقرار و الإنكار مستندان إلى مشيئته فقال:

وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ أى: من يرد اللّه هدايته فهو المهتدى إلى الحق أو إلى كل مطلوب وَ مَنْ يُضْلِلْ أى: يرد إضلاله فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ ينصرونهم مِنْ دُونِهِ يعنى اللّه سبحانه و يهدونهم إلى الحق الذى أضلّهم اللّه عنه أو إلى طريق النجاة، و قوله: فَهُوَ الْمُهْتَدِ حملا على لفظ من، و قوله:

فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ حملا على المعنى، و الخطاب فى قوله: فلن تجد إما للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكلّ من يصلح له وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأوّل: أنه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قد مرّ القوم على وجوههم؛ إذا أسرعوا. الثانى: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته و تعذيبه، و هذا هو الصحيح، لقوله تعالى: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ «١»، و لما صحّ فى السّنّة كما سيأتى، و محل على وجوههم النصب على الحال من ضمير المفعول و عُمْياً منتصب على الحال وَ بُكْماً وَ صُمًّا معطوفان عليه، و الأبكم:

الذى لا ينطق، و الأصمّ: الذى لا يسمع، و هذه هيئة يبعثون عليها فى أقبح صورة، و أشنع منظر، قد جمع اللّه لهم بين عمى البصر و عدم النطق و عدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم، ثم من وراء ذلك

---

(١). القمر: ۴۸.

مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أى: المكان الذى يأوون إليه، و الجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة لا محل لها كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً أى: كلما سكن لهبها، يقال: خبت النار تخبو خبوا: إذا خمدت و سكن لهبها. قال ابن قتيبة: و معنى زِدْناهُمْ سَعِيراً تسعرا، و هو التلهب. و قد قيل: إن فى خبوّ النار تخفيفا لعذاب أهلها، فكيف يجمع بينه و بين قوله: لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ «۱»؟ و أجيب بأن المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبوّ و التسعر؛ و قيل: إنها تخبو من غير تخفيف عنهم من عذابها ذلِكَ أى: العذاب جَزاؤُهُمْ الذى أوجبه اللّه لهم و استحقوه عنده، و الباء فى قوله: بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا للسببية، أى: بسبب كفرهم بها فلم يصدّقوا بالآيات التنزيلية و لا تفكّروا فى الآيات التكوينية، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره جزاؤهم، و بأنهم كفروا خبر آخر،

و يجوز أن يكون جزاؤهم مبتدأ ثانيا، و خبره ما بعده، و الجملة خبر المبتدأ الأوّل وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً الهمزة للإنكار، و قد تقدّم تفسير الآية فى هذه السورة، و خلقا فى قوله: أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً مصدر من غير لفظه أو حال، أى: مخلوقين. فجاء سبحانه بحجّة تدفعهم عن الإنكار و تردّهم عن الجحود. فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ أى: من هو قادر على خلق هذا، فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر، و قيل:

المراد أنه قادر على إفنائهم و إيجاد غيرهم، و على القول الأوّل يكون الخلق بمعنى الإعادة، و على هذا القول هو على حقيقته، و جملة وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ عطف على أو لم يروا، و المعنى: قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات و الأرض فهو قادر على خلق أمثالهم، لأنهم ليسوا بأشدّ خلقا منهنّ كما قال: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ «٢». وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ و هو الموت أو القيامة، و يحتمل أن تكون الواو للاستئناف، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: أو لم يروا أن اللّه الذى خلق السموات و الأرض، و جعل لهم أجلا- لا- ريب فيه، قادر على أن يخلق مثلهم فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً أى: أبى المشركون إلا جحودا، و فيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم و مجاوزة الحدّ؛ ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب إجراء الأنهار و العيون فى أراضيهم لتتّسع معايشهم، بيّن اللّه سبحانه أنهم لا يقنعون، بل يبقون على بخلهم و شحّهم، فقال: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى أنتم مرتفع على أنه فاعل فعل محذوف يفسره ما بعده، أى: لو تملكون أنتم تملكون، على أن الضمير المنفصل مبدل من الضمير المتصل و هو الواو، و خزائن رحمته سبحانه: هى خزائن الأرزاق. قال الزجّاج: أعلمهم اللّه أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحّا و بخلا، و هو خشية الإنفاق، أى: خشية أن ينفقوا فيفتقروا، و فى حذف الفعل الذى ارتفع به أنتم، و إيراد الكلام فى صورة المبتدأ و الخبر دلالة على أنهم هم المختصّون بالشحّ. قال أهل اللغة: أنفق و أصرم و أعدم و أقتر؛ بمعنى قلّ ماله، فيكون المعنى: لأمسكتم خشية قلّ المال وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً أى: بخيلا مضيّقا عليه. يقال: قتر على عياله يقتر و يقتر قترا و قتورا: ضيّق عليهم فى النفقة، و يجوز أن يراد وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً أى: قليل المال، و الظاهر أن المراد المبالغة فى وصفه بالشحّ، لأن الإنسان ليس

---

(١). البقرة: ١٦٢.

(٢). النازعات: ٢٧.

بقليل المال على العموم. بل بعضهم كثير المال، إلا أن يراد أن جميع النوع الإنسانى قليل المال بالنسبة إلى خزائن اللّه و ما عنده. و قد اختلف فى هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها نزلت فى المشركين خاصة، و به قال الحسن، و الثانى: أنها عامة، و هو قول الجمهور، حكاه الماوردى.

و قد أخرج و مسلم و غيرهما عن أنس قال: «قيل: يا رسول اللّه؛ كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم». و أخرج أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة. قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف مشاة، و صنف ركبانا، و صنف على وجوههم» ثم ذكر نحو حديث أنس.

و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس، فى قوله: مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ قال:

يعنى أنهم وقودها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عنه فى قوله:

كُلَّما خَبَتْ قال: سكنت. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى الآية قال: كلما أحرقتهم سعرتهم حطبا، فإذا أحرقتهم فلم يبق منهم شىء

صارت جمرا تتوهّج فذلك خبوها، فإذا بدّلوا خلقا جديدا عاودتهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى قال: الرزق. و أخرج أيضا عن عكرمة فى قوله:

إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ قال: إذا ما أطعمتم أحدا شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ قال: الفقر وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً قال: بخيلا. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ قال: خشية الفاقة وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً قال:

بخيلا ممسكا.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠١ الى ١٠٩]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِى إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (١٠١) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣) وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤) وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (١٠٥)

وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (١٠٧) وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩)

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ أى: علامات دالّة على نبوّته. قيل: و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التى اقترحها كفّار قريش، بل أقوى منها، فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة فى استئصالهم إن لم يؤمنوا بها قال أكثر المفسرين: الآيات التسع: هى الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و العصا، و اليد، و السنين، و نقص الثمرات. و جعل الحسن مكان السنين و نقص الثمرات: البحر و الجبل. و قال محمد بن كعب القرظى: هى

الخمس التى فى الأعراف، و البحر، و العصا، و الحجر، و الطمس على أموالهم. و قد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى، و سيأتى حديث صفوان بن عسال فى تعداد هذه الآيات التسع. فَسْئَلْ بَنِى إِسْرائِيلَ قرأ ابن عباس و ابن نهيك «فسئل» على الخبر، أى: سأل موسى فرعون أن يخلى بنى إسرائيل و يطلق سبيلهم و يرسلهم معه، و قرأ الآخرون فَسْئَلْ على الأمر، أى: سلهم يا محمد حين جاءَهُمْ موسى، و السؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة و الإيقان؛ لأن الأدلة إذا تضافرت كان ذلك أقوى، و المسؤولون مؤمنو بنى إسرائيل كعبد اللّه بن سلام و أصحابه فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً الفاء هى الفصيحة، أى فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات و بلغه ما أرسل به فقال له فرعون.

المسحور: الذى سحر فخولط عقله. و قال أبو عبيدة و الفراء: هو بمعنى الساحر، فوضع المفعول موضع الفاعل، ف قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ يعنى الآيات التى أظهرها، و أنزل بمعنى أوجد إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ أى: دلالات يستدلّ بها على قدرته و وحدانيته، و انتصاب بصائر على الحال.

قرأ الكسائى بضمّ التاء من علمت على أنها لموسى، و روى ذلك عن علىّ، و قرأ الباقون بفتحها على الخطاب لفرعون. و وجه القراءة الأولى أن فرعون لم يعلم ذلك، و إنما علمه موسى. و وجه قراءة الجمهور أن فرعون كان عالما بذلك كما قال تعالى: وَ

جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا «۱» قال أبو عبيد: المأخوذ به عندنا فتح التاء، و هو الأصح للمعنى، لأن موسى لا يقول علمت أنا و هو الداعى، و روى نحو هذا عن الزجاج وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً الظنّ هنا بمعنى اليقين، و الثبور: الهلاك و الخسران. قال الكميت:

و رأت قضاعة فى الأيامن رأى مثبور و ثابر

أى: مخسور و خاسر، و قيل: المثبور: الملعون، و منه قول الشاعر «۲»:

يا قومنا لا ترموا حربنا سفهاإنّ السّفاه و إن البغى مثبور

أى: ملعون، و قيل: المثبور: ناقص العقل، و قيل: هو الممنوع من الخير، يقال: ما ثبرك عن كذا؛ ما منعك منه، حكاه أهل اللغة، و قيل: المسحور فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أى: أراد فرعون أن يخرج بنى إسرائيل و موسى و يزعجهم من الأرض، يعنى أرض مصر بإبعادهم عنها، و قيل: أراد أن يقتلهم و على هذا يراد بالأرض مطلق الأرض، و قد تقدم قريبا معنى الاستفزاز فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً فوقع عليه و عليهم الهلاك بالغرق، و لم يبق منهم أحدا وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ أى: من بعد إغراقه و من معه، و المراد بالأرض هنا: أرض مصر التى أراد أن يستفزّهم منها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أى: الدار الآخرة و هو القيامة، أو الكرّة الآخرة، أو الساعة الآخرة جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً قال الجوهرى:

اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، يقال: جاء القوم بلّفهم و لفيفهم، أى: بأخلاطهم، فالمراد هنا

---

(۱). النمل: ۱۴.

(۲). هو: أبان بن تغلب.

جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر. قال الأصمعى: اللفيف جمع و ليس له واحد، و هو مثل الجمع وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ الضمير يرجع إلى القرآن، و معنى بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ أوحيناه متلبسا بالحق و معنى وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ أنه نزل و فيه الحق، و قيل: الباء فى «و بالحق» الأول بمعنى مع، أى: مع الحق أنزلناه، كقولهم: ركب الأمير بسيفه، أى: مع سيفه وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ أى:

بمحمد كما تقول نزلت بزيد. و قال أبو على الفارسى: الباء فى الموضعين بمعنى مع، و قيل: يجوز أن يكون المعنى:

و بالحق قدرنا أن ينزل و كذلك نزل، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا، و ما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين، و التقديم فى الموضعين للتخصص وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً أى: مبشرا لمن أطاع بالجنة و نذيرا مخوّفا لمن عصى بالنار وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ انتصاب قرآنا بفعل مضمر يفسره ما بعده، قرأ على و ابن عباس و ابن مسعود و أبىّ بن كعب و قتادة و أبو رجاء و الشعبى فَرَقْناهُ بالتشديد؛ أى:

أنزلناه شيئا بعد شيء لا جملة واحدة. و قرأ الجمهور فرقناه بالتخفيف، أى: بيناه و أوضحناه، و فرقنا فيه بين الحق و الباطل. و قال الزجاج: فرقه فى التنزيل ليفهمه الناس. قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إلىّ؛ لأن تفسيره بيناه، و ليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقا. و يؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال:

فرقت مخففا بين الكلام، و فرقت مشددا بين الأجسام، ثم ذكر سبحانه العلة لقوله: فرقناه، فقال: لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ أى: على تطاول فى المدّة شيئا بعد شيء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، و سورة سورة. و معناه على القراءة الثانية على مكث، أى: على ترسل و تمهل فى التلاوة، فإن ذلك أقرب إلى الفهم و أسهل للحفظ. و قد اتفق القراء على ضم الميم فى مكث إلا

ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا التأكيد بالمصدر للمبالغة، و المعنى: أنزلناه منجما مفرّقا لما فى ذلك من المصلحة، و لو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا و لم يطيقوا قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول للكافرين المقترحين للآيات آمنوا به أو لا تؤمنوا، فسواء إيمانكم به و امتناعكم عنه لا يزيده ذلك و لا ينقصه. و فى هذا وعيد شديد لأمره صلّى اللّه عليه و سلّم بالإعراض عنهم و احتقارهم، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ أى: أن العلماء الذين قرءوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن، و عرفوا حقيقة الوحى و أمارات النبوّة كزيد ابن عمرو بن نفيل و ورقة بن نوفل و عبد اللّه بن سلام إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ أى: القرآن يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً أى: يسقطون على وجوههم ساجدين للّه سبحانه. و إنما قيد الخرور، و هو السقوط بكونه للأذقان، أى: عليها، لأن الذقن، و هو مجتمع اللحيين، أوّل ما يحاذى الأرض. قال الزجّاج: لأنّ الذقن مجتمع اللحيين، و كما يبتدئ الإنسان بالخرور للسجود، فأوّل ما يحاذى الأرض به من وجهه الذقن؛ و قيل: المراد تعفير اللحية فى التراب، فإن ذلك غاية الخضوع، و إيثار اللام فى الأذقان على الدلالة على الاختصاص، فكأنهم خصّوا أذقانهم بالخرور، أو خصّوا الخرور بأذقانهم؛ و قيل: الضمير فى قوله: مِنْ قَبْلِهِ راجع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن لدلالة السياق على ذلك، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و حاصلها أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم و لا معرفة بكتب اللّه و لا بأنبيائه، فلا تبال

فتح القدير، ج‏3، ص: 314

بذلك، فقد آمن به أهل العلم و خشعوا له و خضعوا عند تلاوته عليهم خضوعا ظهر أثره البالغ بكونهم يخرّون على أذقانهم سجدا للّه وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا أى: يقولون فى سجودهم تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيها له عن خلف وعده إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا إن هذه هى المخففة من الثقيلة، و اللام هى الفارقة. ثم ذكر أنهم خروا لأذقانهم باكين فقال: وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ و كرّر ذكر الخرور للأذقان لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم اللّه سبحانه و تنزيهه، و الثانى للبكاء بتأثير مواعظ القرآن فى قلوبهم و مزيد خشوعهم، و لهذا قال: وَ يَزِيدُهُمْ أى: سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له خُشُوعاً أى: لين قلب و رطوبة عين.

و قد أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

تِسْعَ آياتٍ فذكر ما ذكرناه عن أكثر المفسرين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: يده، و عصاه و لسانه، و البحر، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضّفادع، و الدم. و أخرج الطيالسى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن قانع، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم و البيهقى و ابن مردويه عن صفوان بن عسّال: «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبيّ نسأله، فأتياه فسألاه عن قول اللّه وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فقال: لا تشركوا باللّه شيئا، و لا تزنوا، و لا تسرفوا، و لا تقتلوا النفس التى حرم اللّه إلا بالحق، و لا تسرقوا، و لا تسحروا، و لا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله، و لا تأكلوا الربا، و لا تقذفوا محصنة. أو قال: لا تفروا من الزحف- شك شعبة- و عليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا فى السبت، فقبّلا يديه و رجليه و قالا: نشهد أنك نبيّ اللّه، قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالا: إن داود دعا اللّه أن يزاد فى ذريته نبيّ، و إنا نخاف إن أسلمنا أن يقتلنا اليهود». و أخرج ابن أبى الدنيا فى «ذمّ الغضب» عن أنس بن مالك أنه سئل عن قوله: وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً قال: مخالفا، و قال: الأنبياء أكرم من أن تلعن أو تسبّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس مَثْبُوراً قال:

ملعونا. و أخرج الشيرازى فى الألقاب، و ابن مردويه عنه قال: قليل العقل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لفيفا قال: جميعا. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس أنه قرأ «و قرآنا فرقناه» مثقلا

قال: نزل القرآن إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر من رمضان جملة واحدة، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث اللّه لهم جوابا، ففرّقه اللّه فى عشرين سنة. و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فَرَقْناهُ قال: فصّلناه على مكث بأمد يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يقول: للوجوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قال: كتابهم.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۵

[سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۱]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (۱۱۰) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً (۱۱۱)

أراد سبحانه أن يعلم عباده كيفية الدعاء و الخشوع فقال: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ و معناه:

أنهما مستويان فى جواز الإطلاق و حسن الدعاء بهما، و لهذا قال: أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى التنوين فى «أيّا» عوض عن المضاف إليه، و ما مزيدة لتوكيد الإبهام فى أيّا، و الضمير فى له راجع إلى المسمّى، و كان أصل الكلام: أيّا ما تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة، و للدلالة على أنها إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان، و معنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال و الإكرام، ذكر معنى هذا النيسابورى و تبعه أبو السعود. قال الزجاج: أعلمهم اللّه أن دعاءهم اللّه و دعاءهم الرحمن يرجعان إلى قول واحد، و سيأتى ذكر سبب نزول الآية، و به يتّضح المراد منها، ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال:

وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها أى: بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر و المخافتة من نعوت الصوت، لا من نعوت أفعال الصلاة، فهو من إطلاق الكل و إرادة الجزء، يقال: خفت صوته خفوتا؛ إذا انقطع كلامه و ضعف و سكن، و خفت الزرع إذا ذبل، و خافت الرجل بقراءته: إذا لم يرفع بها صوته؛ و قيل: معناه: لا تجهر بصلاتك كلها و لا تخافت بها كلها، و الأوّل أولى وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ أى: الجهر و المخافتة المدلول عليها بالفعلين سَبِيلًا أى: طريقا متوسطا بين الأمرين فلا تكن مجهورة و لا مخافتا بها، و على التفسير الثانى يكون معنى ذلك النهى عن الجهر بقراءة الصلوات كلها، و النهى عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها، و الأمر بجعل البعض منها مجهورا به، و هو صلاة الليل و المخافتة بصلاة النهار، و ذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً «۱» و لما أمر أن لا يذكر و لا ينادى إلا بأسمائه الحسنى نبّه على كيفية الحمد له، فقال: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً كما تقوله اليهود و النصارى، و من قال من المشركين إن الملائكة بنات اللّه، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ أى: مشارك له فى ملكه و ربوبيته كما تزعمه الثنوية و نحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ أى: لم يحتج إلى موالاة أحد لذلّ يلحقه فهو مستغن عن الولىّ و النصير. قال الزجّاج:

أى: لم يحتج أن ينتصر بغيره، و فى التعرّض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات، لأنّه القادر على الإيجاد و إفاضة النعم لكون الولد مجبنة و مبخلة، و لأنه أيضا يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه، و المحدث غير قادر على كمال الإنعام، و الشركة فى الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، و من لا يقدر على الاستقلال عاجز، عن تمام ما هو له، فضلا عن تمام ما هو عليه، و أيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين، فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه، و مؤدية

(۱). الأعراف: ۵۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۶

إلى الفساد: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «۱» و المحتاج إلى ولىّ يمنعه من الذلّ و ينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً أى: عظّمه تعظيما وصفه بأنه أعظم من كل شيء.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة ذات يوم فقال فى دعائه: يا اللّه يا رحمن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، و هو يدعو إلهين، فأنزل اللّه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ الآية». و أخرج ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى قال: إن اليهود سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الرحمن، و كان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن، فنزلت الآية.

و هو مرسل. و أخرج ابن جرير عن مكحول «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يتهجّد بمكة ذات ليلة يقول فى سجوده يا رحمن يا رحيم، فسمعه رجل من المشركين، فلما أصبح قال لأصحابه: إن ابن أبى كبشة يدعو الليلة الرحمن الذى باليمن، و كان رجل باليمن يقال له رحمن، فنزلت». و أخرج البيهقى فى الدلائل، من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا إلى آخر الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هو أمان من السرق» و إن رجلا من المهاجرين من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلاها حيث أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق فجمع ما فى البيت و حمله، و الرجل ليس بنائم، حتى انتهى إلى الباب فوجد الباب مردودا، فوضع الكارة، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار ثم قال: إنى حصّنت بيتى. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ الآية قال: نزلت و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم متوار، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن و من أنزله و من جاء به، فقال اللّه لنبيه: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ أى: بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبّوا القرآن وَ لا تُخافِتْ بِها عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا يقول: بين الجهر و المخافتة. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى، فأنزل اللّه وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ

و أخرج ابن أبى شيبة عنه أيضا نحوه. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا قال: كان مسيلمة الكذاب قد سمّى الرحمن، فكان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذا صلى فجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم قال المشركون: يذكر إله اليمامة، فأنزل اللّه وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الشعب، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا قرأ خفض، و كان عمر إذا قرأ جهر، فقيل لأبى بكر لم تصنع هذا؟ قال: أنا أناجى ربى، و قد عرف حاجتى؛ و قيل:

لعمر لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان و أوقظ الوسنان، فلما نزل وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها قيل لأبى بكر: ارفع شيئا، و قيل لعمر: اخفض شيئا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و البخارى و مسلم و غيرهم عن عائشة قالت: إنما نزلت هذه الآية: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها

(۱). الأنبياء: ۲۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۷

فى الـدعاء. و أخرج ابن جرير و الحاكم عنها قالت: نزلت فى التشـهد. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن منيع و ابن جرير و محمـد بن نصـر و ابن المنـذر و ابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأوّل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: إن اليهود و النصارى قالوا: اتخذ اللّه ولدا، و قالت العرب:

لبيـك لاـ شـريك لك إلا شـريكا، هو لك تملكه و ما ملك، و قال الصابئون و المجوس: لو لا أولياء اللّه لـذلّ، فأنزل اللّه هـذه الآية: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ إلى آخرها.

و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ قال: لم يحالف أحدا و لم يبتغ نصر أحد. و أخرج أحمد و الطبرانى عن معاذ بن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «آية العزّ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً الآية كلها». و أخرج أبو يعلى و ابن السـنى عن أبى هريرة قال: «خرجت أنا و رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم و يده فى يدى، فأتى علىّ رجل رثّ الهيئة فقال: أى فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السـقم و الضرّ، قال: ألا أعلمك كلمات تـذهب عنك السـقم و الضـرّ؟ توكلت على الحىّ الـذى لا يموت الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم و قـد حسـنت حاله فقال: مهْ؟ قال: لم أزل أقول الكلمات التى علمتنى». و فى لفظ أن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم علّم ذلك أبا هريرة. قال ابن كثير: و إسـناده ضـعيف، و فى متنه نكارة. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: «ذكر لنا أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم كان يعلّم أهله هذه الآية الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً إلى آخرها الصغير من أهله و الكبير». و أخرج عبد الرزاق فى المصنف عن عبد الكريم بن أبى أمية قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعلّم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح سـبع مرّات الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً إلى آخر السورة» و أخرج ابن أبى شـيبة فى المصنف، من طريق عبد الكريم عن عمرو بن شعيب فذكره. و أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم و الليلة» من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۱۸

سورة الكهف

اشارة

قال القرطبى: و هى مكية فى قول جميع المفسرين. و روى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله:

جُرُزاً و الأوّل أصـحّ انتهى. و من القـائلين إنهـا مكيـة جميعهـا ابن عبـاس، أخرجه عنه النحّاس و ابن مردويه، و منهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مردويه. و قد ورد فى فضلها أحاديث: منها ما أخرجه أحمد و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و غيرهم عن أبى الـدرداء عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: «من حفظ عشـر آيات من أوّل سورة الكهف عصم من فتنة الدجّال». و أخرج أحمد و مسـلم و النسائى و ابن حبّان عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنـة الـدجّال». و أخرج البخـارى و مسـلم و غيرهمـا عن البراء قال: «قرأ رجل سورة الكهف و فى الـدار دابـة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضـبابة أو سـحابة قد غشـيته، فذكر ذلك للنبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم، فقال: اقرأ فلان، فإن السكينة نزلت للقرآن» و هذا الذى كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بيّنه الطبرانى. و أخرج الترمذى و صحّحه، عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجّال» و فى قراءة العشر الآيات من أوّلها أو من آخرها أحاديث. و أخرج ابن مردويه، و الضـياء فى المختارة، عن علىّ قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ الكهف يوم الجمعـة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجّال عصم منه». و أخرج الطبرانى فى الأوسط،

و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى و الضياء عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه إلى مكة، و من قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجّال لم يضرّه». و أخرج الحاكم و صحّحه، من حديث أبى سعيد أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النّور ما بين الجمعتين». و أخرجه البيهقى أيضا فى السنن من هذا الوجه و من وجه آخر. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء، يضىء له يوم القيامة، و غفر له ما بين الجمعتين». و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء و الأرض، و لكاتبها من الأجر مثل ذلك، و من قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه و بين الجمعة الأخرى و زيادة ثلاثة أيام، و من قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه اللّه من أىّ الليل شاء؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: سورة أصحاب الكهف». و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن مغفل قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «البيت الذى تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة» و فى الباب أحاديث و آثار، و فيما أوردناه كفاية مغنية.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (٣) وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (۴)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (٥) فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلی آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (۶) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (٨)

علّم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم، و وصفه بالموصول يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله، و وجه كون إنزال الكتاب، و هو القرآن، نعمة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد، و أحوال الملائكة و الأنبياء، و على كيفية الأحكام الشرعية التى تعبّده اللّه و تعبّد أمته بها، و كذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه فى النبىّ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً أى: شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال فى اللفظ و المعنى، و العوج بالكسر فى المعانى، و بالفتح فى الأعيان كذا قيل: و يرد عليه قوله سبحانه: لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً «١» يعنى الجبال، و هى من الأعيان.

قال الزجاج: المعنى فى الآية لم يجعل فيها اختلافا كما قال: وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «٢». و القيّم: المستقيم الذى لا ميل فيه، أو القيم بمصالح العباد الدينية و الدنيوية، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها، و على الأوّل يكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج، فربّ مستقيم فى الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج فى الحقيقة، و انتصاب قيما بمضمر، أى: جعله قيما، و منع صاحب الكشاف أن يكون حالا من الكتاب، لأن قوله: وَ لَمْ يَجْعَلْ معطوف على أَنْزَلَ فهو داخل فى حيز الصلة، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال و ذى الحال ببعض الصلة. و قال الأصفهانى: هما حالان متواليان إلا أن الأوّل جملة و الثانى مفرد، و هذا صواب لأن قوله: وَ لَمْ يَجْعَلْ لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال و ذى الحال ببعض الصلة، و قيل: إن قَيِّماً حال من ضمير لَمْ يَجْعَلْ لَهُ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: أنزل على عبده

الكتاب قيما و لم يجعل له عوجا، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله فى قوله قيما فقال: لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً و حذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم، و المعنى لينذر الكافرين. و البأس العذاب، و معنى مِنْ لَدُنْهُ صادرا من لدنه نازلا من عنده. روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ من لـدنه بإشـمام الـدال الضـمة، و بكسـر النون و الهاء. و هى لغـة الكلابيين. و روى أبو زيـد عن جميع القراء فتح اللام و ضم الـدال و سـكون النون وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ قرئ يبشـر بالتشديد و التخفيف، و أجرى الموصول على موصوفه المذكور، لأنّ مدار قبول الأعمال هو الإيمان أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً

---

(١). طه: ١٠٧.

(٢). النساء: ٨٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٢٠

و هو الجنـة حـال كونهم ماكِثِينَ فِيهِ أى: فى ذلك الأجر أَبَداً أى: مكثا دائما لا انقطاع له، و تقـديم الإنـذار على التبشير لإظهار كمال العنايـة بزجر الكفار، ثم كرر الإنذار و ذكر المنذر لخصوصه و حذف المنذر به، و هو البأس الشديد، لتقدّم ذكره فقال: وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً و هم اليهود و النصارى و بعض كفار قريش. القائلون بأن الملائكة بنات اللّه، فذكر سبحانه أوّلا قضـية كليـة، و هى إنـذار عموم الكفـار، ثم عطف عليهـا قضـية خاصـة هى بعض جزئيـات تلك الكليـة، تنبيها على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية. فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى اللّه سبحانه أقبح أنواع الكفر ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أى: بالولد، أو اتّخاذ اللّه إياه، و من مزيدة لتأكيد النفى، و الجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة، و المعنى:

مـا لهم بـذلك علم أصـلا وَ لا لِآبائِهِمْ علم، بل كانوا فى زعمهم هـذا على ضـلالة، و قلـدهم أبناؤهم فضـلوا جميعا كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ انتصاب كلمـة على التمييز، و قرئ بالرفع على الفاعليـة. قال الفراء: كبرت تلك الكلمـة كلمـة. و قال الزجاج: كبرت مقالتهم كلمـة، و المراد بهـذه الكلمـة هى قولهم اتخـذ اللّه ولـدا. ثم وصف الكلمة بقوله: تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ و فائدة هذا الوصف اسـتعظام اجترائهم على التفوّه بهـا، و الخـارج من الفم و إن كـان هو مجرد الهوى، لكن لما كانت الحروف و الأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحالّ ما هو من شأن المحل. ثم زاد فى تقبيح ما وقع منهم فقال: إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً أى:

ما يقولون إلا كذبا لا مجال للصدق فيه بحال، ثم سـلّى رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ قال الأخفش و الفراء: البخع: الجهـد. و قال الكسائى: بخعت الأرض بالزراعـة إذا جعلتها ضـعيفة بسـبب متابعة الحراثة، و بخع الرجل نفسه إذا نهكها. و قال أبو عبيدة: معناه مهلكك نفسك، و منه قول ذى الرمّة:

ألا أيّهذا الباخع الوجد نفسه «١» ....

فيكـون المعنى على هـذه الأـقوال لعلـك مجهـد نفسـك أو مضـعفها أو مهلكهـا عَلى آثـارِهِمْ على فراقهـم و من بعـد تـوليهم و إعراضـهم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أى: القرآن، و جواب الشـرط محذوف دلّ عليه ما قبله. و قرئ بفتح أن: أى لأن لم يؤمنوا أَسَفاً أى غيظا و حزنا و هو مفعول له أو مصـدر فى موضع الحال كـذا قال الزجّاج إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها هـذه الجملة استئنـاف. و المعنى: إنـا جعلنا ما على الأرض ممّا يصـلح أن يكون زينـة لها من الحيوانات و النبات و الجماد كقوله سـبحانه: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «٢» و انتصاب زينـة على أنها مفعول ثان لجعل، و اللام فى لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا متعلّقة بجعلنا، و هى إما للغرض أو للعاقبة، و المراد بالابتلاء أنه سـبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء و الامتحان. و قال الزجّاج: أيهم رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاسـتفهام، و المعنى: لنمتحن أ هذا أحسن عملا أم ذاك؟ قال الحسن: أيهم أزهد، و قال مقاتل: أيّهم أصلح

(۱). و عجزه: لشیء نحته عن یدیک المقادر.

(۲). البقرة: ۲۹.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۲۱

فیما أوتی من المال، ثم أعلم سبحانه أنه مبید لذلک کله و مفنیه، فقال: وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَیْها صَعِیداً جُرُزاً أی: لجاعلون ما علیها من هذه الزینة عند تناهی عمر الدنیا صعیدا ترابا. قال أبو عبیدة: الصعید المستوی من الأرض. و قال الزجّاج: هو الطریق الذی لا نبات فیه. قال الفراء: الجرز الأرض التی لا نبات فیها، و من قولهم: امرأة جرزا إذا کانت أکولا، و سیفا جرازا إذا کان مستأصلا، و جرز الجراد و الشاة و الإبل الأرض إذا أکلت ما علیها. قال ذو الرمّة:

طوی النحز و الأجراز ما فی بطونها «۱» ....

و معنی النظم: لا تحزن یا محمد مما وقع من هؤلاء من التکذیب فإنا قد جعلنا ما علی الأرض زینة لاختبار أعمالهم، و إنا لمذهبون ذلک عند انقضاء عمر الدنیا فمجازوهم إن خیرا فخیر، و إن شرا فشر.

و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه من طریق علی بن أبی طلحة عن ابن عباس فی قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْکِتابَ الآیة قال: أنزل الکتاب عدلا قیما وَ لَمْ یَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ملتبسا. و أخرج ابن المنذر عن الضحّاک قَیِّماً قال: مستقیما. و أخرج ابن أبی حاتم عن قتادة مِنْ لَدُنْهُ أی: من عنده. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدی حَسَناً یعنی الجنة وَ یُنْذِرَ الَّذِینَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً قال: هم الیهود و النصاری. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال: اجتمع عتبة بن ربیعة و شیبة بن ربیعة و أبو جهل و النضر بن الحارث و أمیة بن خلف و العاص بن وائل و الأسود بن عبد المطلب و أبو البختری فی نفر من قریش، و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قد کبر علیه ما یری من خلاف قومه إیاه، و إنکارهم ما جاء به من النصیحة، فأحزنه حزنا شدیدا، فأنزل اللّه سبحانه فَلَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ

و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عنه باخِعٌ نَفْسَکَ یقول: قاتل نفسک. و أخرج عبد بن حمید عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد أَسَفاً قال:

جزعا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة أَسَفاً قال: حزنا. و أخرج ابن المنذر و ابن مردویه من طریق سعید بن جبیر عن ابن عباس فی قوله: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَی الْأَرْضِ زِینَةً لَها قال:

الرجال. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر من قوله مثله. و أخرج أبو نصر السجزی فی الإبانة، من طریق مجاهد عن ابن عباس فی الآیة قال: العلماء زینة الأرض. و أخرج ابن أبی حاتم عن الحسن قال: هم الرجال العباد العمال للّه بالطاعة. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم، و الحاکم فی التاریخ، و ابن مردویه عن ابن عمر قال: «تلا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم هذه الآیة لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فقلت: ما معنی ذلک یا رسول اللّه؟ قال: لیبلوکم أیکم أحسن عقلا و أورع عن محارم اللّه و أسرعکم فی طاعة اللّه». و أخرج

(۱). و عجزه: فما بقیت إلا الضلوع الجراشع.

«النحز»: الضرب و الدفع. «الجراشع»: الغلاظ، واحدها جرشع.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۲۲

ابن أبی حاتم عن قتادة قال: لیختبرهم أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا قال: أیهم أتمّ عقلا. و أخرج عن الحسن أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا قال: أشدهم

للدنيا تركا. و أخرج أيضا عن الثورى قال: أزهدهم فى الدنيا.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً قال: يهلك كل شىء و يبيد. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: الصعيد: التراب و الجبال التى ليس فيها زرع. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: يعنى بالجرز الخراب.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩ الى ١٦]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً (١٣)

وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (١٤) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (١٥) وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (١٦)

قوله: أَمْ حَسِبْتَ «أم» هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة عند الجمهور، و ببل وحدها عند بعضهم، و التقدير: بل أحسبت، أو: بل حسبت، و معناها الانتقال من حديث إلى حديث آخر، لا لإبطال الأول و الإضراب عنه كما هو معنى بل فى الأصل. و المعنى: أن القوم لما تعجّبوا من قصة أصحاب الكهف و سألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان، قال سبحانه: بل أ ظننت يا محمد أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط؟

لا ـ تحسب ذلك فإن آياتنا كلّها عجب، فإن من كان قادرا على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء، ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس، لا تستبعد قدرته و حفظه و رحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة، و إن كانت قصتهم خارقة للعادة، فإن آيات اللّه سبحانه كذلك و فوق ذلك. و عَجَباً منتصبة على أنه خبر كان، أى ذات عجب، أو موصوفة بالعجب مبالغة، و «مِنْ آياتِنا» فى محل نصب على الحال، و إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ظرف لحسبت أو لفعل مقدّر، و هو اذكر، أى: صاروا إليه و جعلوه مأواهم، و الفتية هم أصحاب الكهف، و الكهف: هو الغار الواسع فى الجبل. فإن كان صغيرا سمّى غارا، و الرقيم قال كعب و السدى: إنه اسم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف. و قال سعيد بن جبير و مجاهد: إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف. قال الفراء: و يروى أنه إنّما سمّى رقيما لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه. و الرقم: الكتابة. و روى مثل ذلك عن ابن عباس. و منه قول العجاج فى أرجوزة له:

و مستقرّ المصحف المرقّم و قيل: إن الرقيم اسم كلبهم، و قيل: هو اسم الوادى الذى كانوا فيه، و قيل: اسم الجبل الذى فيه الغار.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٢٣

قال الزجّاج: أعلم اللّه سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات اللّه، لأنّ خلق السماوات و الأرض و ما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً أى: من عندك، و من ابتدائية متعلقة بآتنا، أو لمحذوف وقع حالا، و التنوين فى رحمة إما للتعظيم أو للتنويع، و تقديم من لدنك للاختصاص، أى: رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك، و هى المغفرة فى الآخرة و الأمن من الأعداء، و الرزق فى الدنيا وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً أى: أصلح لنا، من قولك هيأت الأمر فتهيأ، و المراد بأمرهم الأمر الذى هم عليه و هو مفارقتهم للكفار، و الرشد نقيض الضلال، و من للابتداء. و يجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك رأيت منك رشدا: و تقديم المجرورين للاهتمام بهما فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ قال المفسرون: أنمناهم.

و المعنى: سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، و المفعول محذوف، أى: ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، و فِي الْكَهْفِ ظرف لضربنا، و انتصاب سِنِينَ على الظرفية، و عَدَداً صفة لسنين؛ أى: ذوات عدد على أنه مصدر أو بمعنى معدودة على أنه لمعنى المفعول، و يستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة. قال الزجّاج: إن الشىء إذا قلّ فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد، و إن كثر احتاج إلى أن يعدّ، و قيل: يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند اللّه: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «١». ثُمَّ بَعَثْناهُمْ أى: أيقظناهم من تلك النومة لِنَعْلَمَ أى: ليظهر معلومنا، و قرئ بالتحتية مبنيا للفاعل على طريقة الالتفات، و أَيُّ الْحِزْبَيْنِ مبتدأ معلق عنه العلم لما فى أى من الاستفهام، و خبره أَحْصى و هو فعل ماض، قيل:

و المراد بالعلم الذى جعل علّة للبعث هو الاختبار مجازا، فيكون المعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم، و الأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم اللّه سبحانه لعباده، و المراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين و الكافرين من أصحاب الكهف المختلفين فى مدّه لبثهم. و معنى أحصى: أضبط. و كأنه وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف، فبعثهم اللّه ليتبين لهم ذلك، و يظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه، و ما فى لِما لَبِثُوا مصدرية؛ أى: أحصى للبثهم، و قيل: اللام زائدة، و ما: بمعنى الذى، و أَمَداً تمييز، و الأمد: الغاية، و قيل: إن أحصى أفعل تفضيل. و ردّ بأنه خلاف ما تقرر فى علم الإعراب، و ما ورد من الشاذ لا يقاس عليه، كقولهم: أفلس من ابن المذلّق «٢»، و أعدى من الجرب. و أجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه و ابن عصفور، و قيل: إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا، و قيل: إن أصحاب الكهف حزب و أصحابهم حزب. و قال الفرّاء: إن طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله: إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ أى: نحن نخبرك بالحق، أى: قصصناه بالحق، أو متلبّسا بالحق إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ أى: أحداث شبان، و آمَنُوا بِرَبِّهِمْ صفة لفتية و الجملة مستأنفة بتقدير سؤال،

---

(١). الحج: ٤٧.

(٢). ابن المذلق: من عبد شمس، لم يكن يجد بيت ليلة، و لا أبوه، و لا أجداده، فقيل: أفلس من ابن المذلّق.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٢٤

و الفتية جمع قلّة، و زِدْناهُمْ هُدىً بالتثبيت و التوفيق، و فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أى: قويناها بالصبر على هجر الأهل و الأوطان، و فراق الخلان و الأخدان إِذْ قامُوا الظرف منصوب بربطنا. و اختلف أهل التفسير فى هذا القيام على أقوال، فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال رجل منهم هو أكبر القوم: إنى لأجد فى نفسى شيئا، إن ربى ربّ السماوات و الأرض، فقالوا: و نحن أيضا كذلك نجد فى أنفسنا، فقاموا جميعا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قاله مجاهد.

و قال أكثر المفسرين: إنه كان لهم ملك جبار يقال له دقيانوس، و كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت اللّه هؤلاء الفتية و عصمهم حتى قاموا بين يديه فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و قال عطاء و مقاتل: إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً أى: لن نعبد معبودا آخر غير اللّه لا اشتراكا و لا استقلالا لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً أى: قولا ذا شطط، أو قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر و اللام هى الموطئة للقسم، و الشطط: الغلو و مجاوزة الحد. قال أعشى بنى قيس:

أ تنتهون و لن ينهى ذوى شططكالطعن يذهب فيه الزّيت و الفتل

هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً هؤلاء مبتدأ، و خبره اتخذوا، و قومنا عطف بيان، و فى هذا الإخبار معنى للإنكار، و فى الإشارة إليهم تحقير لهم لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ أى: هلا يأتون بحجّة ظاهرة تصلح للتمسّك بها فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى

عَلَى اللَّهِ كَذِباً فزعم أن له شريكا فى العبادة، أى: لا أحد أظلم منه وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ أى: فارقتموهم و تنحيتم عنهم جانبا، أى: عن العابدين للأصنام، و قوله: وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ معطوف على الضمير المنصوب، و «ما» موصولة أو مصدرية، أى: و إذ اعتزلتموهم و اعتزلتم معبودهم أو الذى يعبدونه، و قوله: إِلَّا اللَّهَ استثناء منقطع على تقدير أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام، أو متّصل على تقدير أنهم أشركوها فى العبادة مع اللّه سبحانه، و قيل: هو دليل على جوابه، أى: إذ اعتزلتموهم اعتزالا ـ اعتقاديا، فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا، و إذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ أى: يبسط و يوسّع وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً أى: يسهّل و ييسّر لكم من أمركم الذى أنتم بصدده مِرْفَقاً المرفق بفتح الميم و كسرها لغتان قرئ بهما، مأخوذ من الارتفاق و هو الانتفاع؛ و قيل: فتح الميم أقيس، و كسرها أكثر. قال الفراء: و أكثر العرب على كسر الميم من الأمر، و من مرفق الإنسان، و قد تفتح العرب الميم فيهما، فهما لغتان، و كأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر، و المرفق من الإنسان. و قال الكسائى: الكسر فى مرفق اليد، و قيل: المرفق بالكسر ما ارتفقت به، و المرفق: بالفتح الأمر الرافق، و المراد هنا ما يرتفقون به و ينتفعون بحصوله، و التقديم فى الموضعين يفيد الاختصاص.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: الرقيم: الكتاب.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفىّ عنه قال: الرقيم: واد دون فلسطين قريب من أيلة. و الراويان

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۲۵

عن ابن عباس ضعيفان. و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه أيضا قال: هو الجبل الذى فيه الكهف.

و أخرج ابن المنذر عنه، قال: و اللّه ما أدرى ما الرقيم الكتاب أم بنيان؟ و فى رواية عنه من طريق أخرى قال:

و سألت كعبا فقال: اسم القرية التى خرجوا منها. و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: الرقيم: الكلب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً يقول: الذى آتيتك من العلم و السنة و الكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف و الرقيم. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ يقول: أرقدناهم ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ من قوم الفتية، أهل الهدى، و أهل الضلالة أَحْصى لِما لَبِثُوا، و ذلك أنهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه و الشهر و السنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله: وَ زِدْناهُمْ هُدىً قال: إخلاصا. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ قال: بالإيمان. و فى قوله: لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً قال: كذبا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: جورا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى فى قوله: وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ قال: كان قوم الفتية يعبدون اللّه و يعبدون معه آلهة شتى، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة و لم تعتزل عبادة اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآى قال: هى فى مصحف ابن مسعود، و ما يعبدون من دون اللّه، فهذا تفسيرها.

[سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (۱۷) وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (۱۸) وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (۱۹) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ

فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (۲۰)

قوله: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ شرع سبحانه فى بيان حالهم، بعد ما أووا إلى الكهف تَزاوَرُ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل، و قرأ ابن عامر «تزوّر» قال الأخفش: لا يوضع الازورار فى هـذا المعنى، إنما يقال هو مزوّر عنى، أى: منقبض. و قرأ الباقون بتشديد الزاى و إدغـام تـاء التفاعـل فيه بعـد تسـكينها، و تزاور مأخوذ من الزّور بفتـح الواو، و هو الميل، و منه زاره إذا مال إليه، و الزور: الميل، فمعنى الآية أن الشمس إذا طلعت تميل و تتنحّى عَنْ كَهْفِهِمْ قال الرّاجز الكليبى:

جـدب المنـدّى عـن هوانـا أزور أى: مائـل ذاتَ الْيَمِيـنِ أى: ناحيـة اليمين، و هى الجهـة المسـمّاة بـاليمين، و انتصـاب ذات على الظرف،

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۲۶

وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُـهُمْ القرض: القطع. قـال الكسـائى و الأـخفش و الزجـاج و أبو عبيـدة: تعـدل عنهم و تتركهم، قرضت المكان: عدلت عنه، تقول لصاحبك: هل وردت مكان كذا؟ فيقول: إنما قرضته:

إذا مرّ به و تجاوز عنه، و المعنى: أن الشـمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين؛ أى: يمين الكهف، و إذا غربت تمرّ ذاتَ الشِّمالِ أى: شمال الكهف لا تصيبه. بل تعدل عن سمته إلى الجهتين، و الفجوة:

المكان المتسع، و جملة وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ فى محل نصب على الحال، و للمفسرين فى تفسير هذه الجملة قولان: الأوّل: أنهم مع كونهم فى مكـان منفتـح انفتاحـا واسـعا فى ظلّ جميع نهارهم، لا تصـيبهم الشـمس فى طلوعها و لا فى غروبها؛ لأن اللّه سـبحانه حجبها عنهم. و الثانى: أنّ باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، و إذا غربت كـانت عن يسـاره، و يؤيّـد القول الأـوّل قوله: ذلِـكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ فإنّ صـرف الشـمس عنهم مع توجّه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آيـة، و يؤيـده أيضا إطلاق الفجوة و عـدم تقييـدها بكونها إلى جهة كذا، و ممّا يدلّ على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر:

ألبست قومك مخزاة و منقصةحتى أبيحوا و حلّوا فجوة الدّار

ثم أثنى سبحانه عليه بقوله: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ أى: إلى الحق فَهُوَ الْمُهْتَدِ الذى ظفر بالهدى، و أصاب الرشد و الفلاح وَ مَنْ يُضْـلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً أى: ناصرا يهديه إلى الحق كدقيانوس و أصحابه.

ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم، فقال: وَ تَحْسَـبُهُمْ أَيْقاظاً جمع يقظ بكسر القاف و فتحها وَ هُمْ رُقُودٌ أى: نيام، و هو جمع راقـد، كقعود فى قاعـد. قيـل: و سـبب هـذا الحسـبان أن عيونهم كانت مفتحة و هم نيام. و قال الزجاج: لكثرة تقلّبهم وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ أى: نقلّبهم فى رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ حكاية حال ماضـية؛ لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضىّ كما تقرر فى علم النحو. قال أكثر المفسرين: هربوا من ملكهم ليلا، فمرّوا براع معه كلب فتبعهم. و الوصيد، قال أبو عبيد و أبو عبيدة: هو فناء الباب، و كذا قال المفسرون، و قيل:

العتبـة، و ردّ بـأن الكهف لاـ يكون له عتبـة و لا باب، و إنما أراد أن الكلب موضع العتبـة من البيت لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً قال الزجّاج: فرارا منصوب على المصدرية بمعنى التولية، و الفرار: الهرب.

وَ لَمُلِئْتَ قرئ بتشديد اللام و تخفيفها مِنْهُمْ رُعْباً قرئ بسكون العين و ضمّها، أى: خوفا يملأ الصدر، و انتصاب رعبا على التميز، أو على أنه مفعول ثان، و سبب الرّعب الهيبة التى ألبسهم اللّه إياها؛ و قيل:

طول أظفـارهم و شـعور هم و عظم أجرامهم و وحشـة مكانهم، و يـدفعه قوله تعالى: لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فإن ذلك يـدلّ على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئا، و لا وجـدوا من أظفارهم و شـعورهم ما يـدلّ على طول المدّة وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ

الإشارة إلى المذكور قبله، أي: و كما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم، و فيه تذكير لقدرته على الإماتة و البعث جميعا، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم فقال:

لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ أى: ليقع التساؤل بينهم و الاختلاف و التنازع فى مدة اللبث لما يترتب على ذلك من

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٢٧

انكشاف الحال و ظهور القدرة الباهرة، و الاقتصار على علّة التساؤل لا ينفى غيرها، و إنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار، و جملة: قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ مبينة لما قبلها من التساؤل، أى: كم مدّة لبثكم فى النوم؟

قالوا ذلك لأنهم رأوا فى أنفسهم غير ما يعهدونه فى العادة قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ أى: قال بعضهم جوابا عن سؤال من سأل منهم، قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة، و بعثهم اللّه سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا يوما، فلما رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم، و كان قد بقيت بقية من النهار، و قد مرّ مثل هذا الجواب فى قصة عزير فى البقرة: قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ أى: قال البعض الآخر هذا القول، إما على طريق الاستدلال، أو كان ذلك إلهاما لهم من اللّه سبحانه، أى: إنكم لا تعلمون مدّة لبثكم، و إنما يعلمها اللّه سبحانه فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ أعرضوا عن التحاور فى مدّة اللبث، و أخذوا فى شىء آخر، كأنه قال القائل منهم: اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة، و خذوا فى شىء آخر ممّا يهمّكم، و الفاء للسببية، و الورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة. و قرأ ابن كثير و نافع و ابن عامر و الكسائى و حفص عن عاصم بكسر الراء، و قرأ أبو عمرو و حمزة و أبو بكر عن عاصم بسكونها، و قرئ بكسر الراء و إدغام القاف فى الكاف، و قرأ ابن محيصن بكسر الواو و سكون الراء. و فى حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافى التوكل على اللّه، و المدينة دقسوس، و هى مدينتهم التى كانوا فيها، و يقال لها اليوم طرسوس، كذا قال الواحدى: فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً أى: ينظر أىّ أهلها أطيب طعاما، و أحلّ مكسبا، أو أرخص سعرا؛ و قيل: يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها فى المقام، كما يقال:

زيد طبت أبا على أن الأب هو زيد، و فيه بعد. و استدل بالآية على حلّ ذبائح أهل الكتاب؛ لأن عامة أهل المدينة كانوا كفارا، و فيهم قوم يخفون إيمانهم، و وجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام وَ لْيَتَلَطَّفْ أى: يدقّق النظر حتى لا يعرف أو لا يغبن، و الأوّل أولى، و يؤيّده وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً أى: لا يفعلنّ ما يؤدّى إلى الشعور و يتسبّب له، فهذا النهى يتضمّن التأكيد للأمر بالتلطف. ثم علّل ما سبق من الأمر و النهى فقال: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أى: يطلعوا عليكم و يعلموا بمكانكم، يعنى أهل المدينة يَرْجُمُوكُمْ يقتلوكم بالرجم، و هذه القتلة هى أخبث قتلة، و كان ذلك عادة لهم، و لهذا خصّه من بين أنواع ما يقع به القتل أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ أى: يردّوكم إلى ملتهم التى كنتم عليها قبل أن يهديكم اللّه، أو المراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملّتهم، و إيثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً فى إذا معنى الشرط، كأنه قال:

إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: تَزاوَرُ قال: تميل، و فى قوله: تَقْرِضُهُمْ قال: تذرهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:

تَقْرِضُهُمْ قال: تتركهم وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ قال: المكان الداخل. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير، قال: الفجوة: الخلوة من الأرض، و يعنى بالخلوة: الناحية من الأرض. و أخرج ابن أبى حاتم

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٢٨

و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ نُقَلِّبُهُمْ الآية قال: ستة أشهر على ذى الجنب اليمين، و ستة أشهر على ذى الجنب الشمال.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن سعيد بن جبير فى الآية قال: كى لا تأكل الأرض لحومهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد: أن اسم كلبهم قطمور. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: اسمه قطمير. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: بِالْوَصِيدِ قال: بالفناء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: بالباب. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَزْكى طَعاماً قال: أحلّ ذبيحة، و كانوا يذبحون للطّواغيت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أَزْكى طَعاماً: يعنى أطهر؛ لأنهم كانوا يذبحون للطّواغيت.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٢١ الى ٢٦]

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (٢٤) وَ لَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (٢٥)

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦)

قوله: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ أى: و كما أنمناهم و بعثناهم، أعثرنا عليهم؛ أى أطلعنا الناس عليهم، و سمّى الإعلام إعثارا؛ لأنّ من كان غافلا عن شىء فعثر به نظر إليه و عرفه، فكان الإعثار سببا لحصول العلم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: ليعلم الذين أعثرهم اللّه عليهم أن وعد اللّه بالبعث حق. قيل: و كان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث، فأراه اللّه هذه الآية. قيل: و سبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذى بعثوه بالورق، و كانت من ضربة «١» دقيانوس، إلى السوق، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزا، فذهبوا به إلى الملك، فقال له: من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعت بها أمس شيئا من التمر، فعرف الملك صدقه، ثم قصّ عليه القصة، فركب الملك و ركب أصحابه معه حتى و صلوا إلى الكهف وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها أى: و ليعلموا أن القيامة لا شكّ فى حصولها، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد اللّه به من البعث إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ الظرف متعلق بأعثرنا، أى: أعثرنا عليهم وقت التّنازع و الاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم اللّه فى أمر البعث؛ و قيل: فى أمر أصحاب الكهف فى

---

(١). ضرب الدرهم: سكّه و طبعه.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣٢٩

قدر مكثهم، و فى عددهم، و فيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً لئلا يتطرّق الناس إليهم، و ذلك أن الملك و أصحابه لما وقفوا عليهم و هم أحياء أمات اللّه الفتية، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس، ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم و فى عددهم، و فى مدّة لبثهم، و فى نحو ذلك ممّا يتعلق بهم رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ من هؤلاء المتنازعين فيهم، قالوا ذلك تفويضا للعلم إلى اللّه سبحانه، و قيل: هو من كلام اللّه سبحانه، ردّا لقول المتنازعين فيهم؛ أى: دعوا ما أنتم فيه من التنازع، فإنى أعلم بهم منكم؛ و قيل: إن الظرف فى إِذْ يَتَنازَعُونَ متعلّق بمحذوف هو اذكر، و يؤيده أن الإعثار ليس فى زمن التنازع بل قبله، و يمكن أن يقال: إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعثار، و يؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوبا على باب الغار، كتبه بعض المعاصرون لهم من المؤمنين الذين كانوا

يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون: قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون، و قيل: هم أهل السلطان و الملک من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم، و الأوّل أولى. قال الزجاج:

هذا يدلّ على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث و النشور؛ لأن المساجد للمؤمنين سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة، هم المتنازعون فى عددهم فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الكتاب و المسلمين، و قيل: هم أهل الكتاب خاصة، و على كلّ تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلک، بل قال بعضهم بكذا، و بعضهم بكذا، و بعضهم بكذا ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ أى: هم ثلاثة أشخاص، و جملة رابعهم كلبهم فى محل نصب على الحال، أى: حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ الكلام فيه كالكلام فيما قبله، و انتصاب رَجْماً بِالْغَيْبِ على الحال، أى: راجمين أو على المصدر، أى: يرجمون رجما، و الرجم بالغيب: هو القول بالظن و الحدس من غير يقين، و الموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة، و القائلين بأنهم خمسة وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ كأن قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إدخالهم فى سلک الراجمين بالغيب. قيل: و إظهار الواو فى هذه الجملة يدلّ على أنها مرادة فى الجملتين الأوليين. قال أبو علىّ الفارسى قوله: رابعهم كلبهم، و سادسهم كلبهم، جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى و هى قوله ثلاثة، و التقدير: هم ثلاثة، هكذا حكاه الواحدى عن أبى علىّ، ثم قال: و هذا معنى قول الزجاج فى دخول الواو فى و ثامنهم و إخراجها من الأوّل، و قيل: هى مزيدة للتوكيد، و قيل: إنها واو الثمانية، و إن ذكره متداول على ألسن العرب إذا و صلوا إلى الثمانية كما فى قوله تعالى: وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها و قوله: ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً. ثم أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال:

قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ منكم أيها المختلفون، ثم أثبت علم ذلک لقليل من الناس فقال: ما يَعْلَمُهُمْ أى: يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف إِلَّا قَلِيلٌ من الناس، ثم نهى اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم عن الجدال مع أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف فقال: فَلا تُمارِ

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٣٠

فِيهِمْ المراء فى اللغة الجدال: يقال مارى يمارى مماراة و مراء، أى: جادل، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهرا واضحا فقال: إِلَّا مِراءً ظاهِراً أى: غير متعمق فيه و هو أن يقصّ عليهم ما أوحى اللّه إليه فحسب. و قال الرازى: هو أن لا يكذبهم فى تعيين ذلک العدد، بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه، فوجب التوقف، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء فى شأنهم فقال: وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً أى:

لا تستفت فى شأنهم من الخائضين فيهم أحدا منهم، لأن المفتى يجب أن يكون أعلم من المستفتى، و هاهنا الأمر بالعكس، و لا سيما فى واقعة أهل الكهف، و فيما قصّ اللّه عليک فى ذلک ما يغنيک عن سؤال من لا علم له وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّی فاعِلٌ ذلِكَ غَداً أى: لأجل شى‏ء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبّر عنه بالغد، و لم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوّليا.

قال الواحدى: قال المفسرون لما سألت اليهود النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن خبر الفتية فقال: أخبركم غدا، و لم يقل إن شاء اللّه، فاحتبس الوحى عنه حتى شقّ عليه، فأنزل اللّه هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة اللّه يقول: إذا قلت لشى‏ء إنى فاعل ذلک غدا، فقل إن شاء اللّه. و قال الأخفش و المبرد و الكسائى و الفراء: لا تقولنّ لشى‏ء إنى فاعل ذلک غدا إلا أن تقول إن شاء اللّه، فأضمر القول و لما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال، قيل: و هذا الاستثناء مفرّغ، أى: لا تقولنّ ذلک فى حال من الأحوال، إلا حال ملابسته لمشيئة اللّه و هو أن تقول إن شاء اللّه، أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء اللّه أن تقوله مطلقا؛ و

قيل: الاستثناء جار مجرى التأبيد، كأنه قيل: لا تقولنه أبدا كقوله: وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «١» لأن عودهم فى ملّتهم ممّا لا يشاؤه اللّه وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ الاستثناء بمشيئة اللّه؛ أى: فقل إن شاء اللّه، سواء كانت المدّة قليلة أو كثيرة.

و قد اختلف أهل العلم فى المدّة التى يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة فى مواضعها، و قيل: المعنى وَ اذْكُرْ رَبَّكَ بالاستغفار إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً المشار إليه بقوله من هذا هو نبأ أصحاب الكهف، أى: قل يا محمد عسى أن يوفّقنى ربى لشىء أقرب من هذا النبأ من الآيات و الدلائل الدالة على نبوّتى. قال الزجاج: عسى أن يعطينى ربى من الآيات و الدلالات على النبوة ما يكون أقرب فى الرشد، و أدلّ من قصة أصحاب الكهف، و قد فعل اللّه به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين و خبرهم ما كان أوضح فى الحجّة، و أقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف؛ و قيل: الإشارة إلى قوله: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ أى: عسى أن يهدينى ربى عند هذا النسيان لشىء آخر بدل هذا المنسىّ، و أقرب منه رشدا و أدنى منه خيرا و منفعة، و الأوّل أولى وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً قرأ الجمهور بتنوين مائة و نصب سنين، فيكون سنين على هذه القراءة بدلا أو عطف بيان. و قال الفرّاء و أبو عبيدة و الزجاج و الكسائى: فيه تقديم و تأخير، و التقدير سنين ثلاثمائة. و رجح الأوّل أبو علىّ الفارسى. و قرأ حمزة و الكسائى بإضافة مائة إلى سنين، و على هذه القراءة تكون سنين تمييزا على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز، كقوله تعالى: بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا «٢». قال الفراء: و من العرب من يضع

---

(١). الأعراف: ٨٩.

(٢). الكهف: ١٠٣.

سنين موضع سنة. قال أبو على الفارسى: هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل و ثوب قد تضاف إلى المجموع، و فى مصحف عبد اللّه «ثلاثمائة سنة». و قال الأخفش: لا تكاد العرب تقول مائة سنين. و قرأ الضحّاك «ثلاثمائة سنون» بالواو. و قرأ الجمهور «تسعا» بكسر التاء. و قرأ أبو عمرو بفتحها، و هذا إخبار من اللّه سبحانه بمدّة لبثهم. قال ابن جرير: إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإعثار عليهم، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة و تسع سنين، فأخبر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن هذه المدّة فى كونهم نياما، و أن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر اللّه أن يردّ علم ذلك إليه، فقال: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا قال ابن عطية: فقوله على هذا لبثوا الأوّل يريد فى يوم الكهف، و لبثوا الثانى يريد بعد الإعثار عليهم إلى مدة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو إلى أن ماتوا. و قال بعضهم: إنه لما قال: وَ ازْدَادُوا تِسْعاً لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام، و اختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر اللّه بردّ العلم إليه فى التسع، فهى على هذا مبهمة. و الأوّل أولى، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام، بدليل أن العدد فى هذه الكلام للسنين لا للشهور و لا للأيام و لا للساعات. و عن الزجاج أن المراد ثلاثمائة سنة شمسية و ثلاثمائة و تسع سنين قمرية، و هذا إنما يكون من الزجّاج على جهة التقريب. ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله: لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: ما خفى فيهما و غاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شى‏ء، ثم زاد فى المبالغة و التأكيد فجاء بما يدلّ على التعجب من إدراكه للمبصرات و المسموعات، فقال: أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ فأفاد هذا التعجّب على أن شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات و المسموعات خارج عمّا عليه إدراك المدركين، و أنه يستوى فى علمه الغائب و الحاضر، و الخفىّ و الظاهر، و الصغير و الكبير، و اللطيف و الكثيف، و كأن أصله ما أبصره و ما أسمعه، ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، و الباء زائدة عند سيبويه و خالفه الأخفش، و البحث مقرّر فى علم

النحو ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ الضمير لأهل السموات و الأرض، و قيل: لأهل الكهف، و قيل: لمعاصرى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم من الكفار، أى: ما لهم من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم، و فى هذا بيان لغاية قدرته و أن الكل تحت قهره وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً قرأ الجمهور برفع الكاف فى يشرك على الخبر عن اللّه سبحانه. و قرأ ابن عباس و الحسن و أبو رجاء و قتادة بالتاء الفوقية و إسكان الكاف على أنه نهى للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجعل اللّه شريكا فى حكمه، و رويت هذه القراءة عن ابن عامر. و قرأ مجاهد بالتحتية و الجزم. قال يعقوب: لا أعرف وجهها، و المراد بحكم اللّه:

ما يقضيه، أو علم الغيب. و الأوّل أولى. و يدخل علم الغيب فى ذلك دخولا أوّليا، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ قال: أطلعنا. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ قال: الأمراء، أو قال:

السلاطين. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ قال: اليهود وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ قال: النصارى. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: رَجْماً بِالْغَيْبِ قال:

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۳۲

قذفا بالظنّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس، قال السيوطى: بسند صحيح، فى قوله: ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ قال: أنا من أولئك القليل، كانوا سبعة، ثم ذكر أسماءهم. و حكاه ابن كثير عن ابن عباس فى رواية قتادة و عطاء و عكرمة، ثم قال: فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَلا تُمارِ فِيهِمْ يقول: حسبك ما قصصت عليك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً قال: اليهود. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ الآية قال: إذا نسيت أن تقول لشىء إنى أفعله فنسيت أن تقول إن شاء اللّه، فقل إذا ذكرت إن شاء اللّه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عنه: أنه كان يرى الاستثناء و لو بعد سنة، ثم قرأ: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هى خاصة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ليس لأحد أن يستثنى إلا فى صلة يمين. و أخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه، و إذا كان غير موصول فهو حانث. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال سليمان بن داود: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، و فى رواية: تسعين، تلد كل امرأة منهنّ غلاما يقاتل فى سبيل اللّه، فقال له الملك: قل إن شاء اللّه، فلم يقل، فطاف فلم يلد منهنّ إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: و الذى نفسى بيده لو قال إن شاء اللّه لم يحنث، و كان دركا لحاجته». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الشعب عن عكرمة إِذا نَسِيتَ قال: إذا غضبت. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن الحسن إِذا نَسِيتَ قال: إذا لم تقل إن شاء اللّه.

و أخرج ابن أبى حاتم ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء و الأرض، ثم تلا وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ الآية، ثم قال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة و تسع سنين، قال: لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل اللّه قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا و لكنه حكى مقالة القوم فقال:

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ إلى قوله: رَجْماً بِالْغَيْبِ فأخبر أنهم لا يعلمون، ثم قال: سيقولون: وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى حرف ابن مسعود، و قالوا: وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ

الآیة: یعنی إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا. و أخرج ابن مردویه عن الضحاک عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآیة: وَ لَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ قیل: یا رسول اللّه؛ أیاما أم أشهرا أم سنین؟ فأنزل اللّه سِنِینَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً.

و أخرجه ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن الضحّاک بدون ذکر ابن عباس. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ قال: اللّه یقوله.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۳۳

[سورة الکهف (۱۸): الآیات ۲۷ الى ۳۱]

وَ اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ کِتابِ رَبِّکَ لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۷) وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَیْناکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ کانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (۲۸) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْیُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْیَکْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِینَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ یَسْتَغِیثُوا یُغاثُوا بِماءٍ کَالْمُهْلِ یَشْوِی الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً (۲۹) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِیعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (۳۰) أُولئِکَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ یُحَلَّوْنَ فِیها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ یَلْبَسُونَ ثِیاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّکِئِینَ فِیها عَلَى الْأَرائِکِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (۳۱)

قوله: وَ اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ أمره اللّه سبحانه أن یواظب على تلاوة الکتاب الموحى إلیه، قیل:

و یحتمل أن یکون معنى قوله: وَ اتْلُ و اتبع، أمرا من التلوّ، لا من التلاوة، و مِنْ کِتابِ رَبِّکَ بیان للذى أوحى إلیه لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِهِ أی: لا قادر على تبدیلها و تغییرها، و إنما یقدر على ذلک هو وحده. قال الزجّاج: أی: ما أخبر اللّه به و ما أمر به فلا مبدّل له، و على هذا یکون التقدیر: لا مبدّل لحکم کلماته وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً الملتحد: الملتجأ، و أصل اللحد: المیل. قال الزجاج: لن تجد معدلا عن أمره و نهیه، و المعنى: أنک إن لم تتبع القرآن و تتله، و تعمل بأحکامه لن تجد معدلا تعدل إلیه و مکانا تمیل إلیه، و هذه الآیة آخر قصة أهل الکهف. ثم شرع سبحانه فی نوع آخر، کما هو دأب الکتاب العزیز، فقال: وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ قد تقدّم فی الأنعام نهیه صلّى اللّه علیه و سلّم عن طرد فقراء المؤمنین بقوله:

وَ لا تَطْرُدِ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ «۱» و أمره سبحانه هاهنا بأن یحبس نفسه معهم، فصبر النفس هو حبسها، و ذکر الغداة و العشی کنایة عن الاستمرار على الدعاء فی جمیع الأوقات. و قیل: فی طرفی النهار، و قیل: المراد صلاة العصر و الفجر. و قرأ نصر بن عاصم و مالک بن دینار و أبو عبد الرحمن و ابن عامر «بالغدوة» بالواو، و احتجّوا بأنها فی المصحف کذلک مکتوبة بالواو. قال النحّاس: و هذا لا یلزم لکتبهم الحیاة و الصلاة بالواو، و لا تکاد العرب تقول الغدوة، و معنى یُرِیدُونَ وَجْهَهُ أنهم یریدون بدعائهم رضا اللّه سبحانه، و الجملة فی محل نصب على الحال، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم، فقال: وَ لا تَعْدُ عَیْناکَ عَنْهُمْ أی: لا تتجاوز عیناک إلى غیرهم. قال الفرّاء: معناه لا تصرف عیناک عنهم، و قال الزجّاج: لا تصرف بصرک إلى غیرهم من ذوی الهیئات و الزینة، و استعماله ب «عن» لتضمّنه معنى النبوّ، من عدوته عن الأمر، أی: صرفته منه، و قیل: معناه لا تحتقرهم عیناک تُرِیدُ زِینَةَ الْحَیاةِ الدُّنْیا أی: مجالسة أهل الشرف و الغنى، و الجملة فی محل نصب على الحال، أی: حال کونک مریدا لذلک، هذا إذا کان فاعل ترید هو النبی صلّى اللّه علیه و سلّم، و إن کان الفاعل ضمیرا یعود إلى العینین، فالتقدیر: مریدة زینة الحیاة الدنیا، و إسناد الإرادة إلى العینین مجاز، و توحید

---

(۱). الأنعام: ۵۲.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٣٤

الضمير للتلازم كقول الشاعر:

لمن زحلوقة زلّ‏بها العينان تنهلّ

وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا أى: جعلناه غافلا بالختم عليه، نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن طاعة من جعل اللّه قلبه غافلا عن ذكره، كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحّى الفقراء عن مجلسه، فإنهم طالبو تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة و العشىّ يريدون وجهه و هم غافلون عن ذكر اللّه، و مع هذا فهم ممّن اتبع هواه، و آثره على الحق، فاختار الشرك على التوحيد وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً أى: متجاوزا عن حدّ الاعتدال، من قولهم: فرس فرط إذا كان متقدما للخيل، فهو على هذا من الإفراط، و قيل: هو من التفريط، و هو التقصير و التضييع. قال الزجّاج: و من قدم العجز فى أمره أضاعه و أهلكه، ثم بين سبحانه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم ما يقوله لأولئك الغافلين، فقال: وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ أى: قل لهم: إن ما أوحى إليك، و أمرت بتلاوته، هو الحق الكائن من جهة اللّه، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل و التغيير؛ و قيل: المراد بالحق الصبر مع الفقراء.

قال الزجّاج: أى: الذى أتيتكم به الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى لم آتكم به من قبل نفسى إنما أتيتكم به من اللّه فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ قيل: هو من تمام القول الذى أمر رسوله أن يقوله، و الفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها، و يجوز أن يكون من كلام اللّه سبحانه لا- من القول الذى أمر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و فيه تهديد شديد، و يكون المعنى: قل لهم يا محمد الحقّ من ربكم، و بعد أن تقول لهم هذا القول؛ من شاء أن يؤمن باللّه و يصدقك فليؤمن، و من شاء أن يكفر به و يكذّبك فليكفر. ثم أكّد الوعيد و شدّده فقال: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ أى: أعددنا و هيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر باللّه و الجحد له و الإنكار لأنبيائه نارا عظيمة أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها أى: اشتمل عليهم. و السرادق: واحد السرادقات. قال الجوهرى: و هى التى تمدّ فوق صحن الدار، و كل بيت من كرسف «١» فهو سرادق، و منه قول رؤبة:

يا حكم بن المنذر بن الجارودسرادق المجد عليك ممدود

و قال الشاعر:

هو المدخل النّعمان بيتا سماؤه‏صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلامة بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. و قال ابن الأعرابى: سرادقها: سورها. و قال القتبى: السرادق: الحجرة التى تكون حول الفسطاط. و المعنى: أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا من حرّ النار يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ و هو الحديد المذاب. قال الزجّاج: إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر، و قيل: هو دردىّ الزيت. و قال أبو عبيدة و الأخفش: هو كلّ ما أذيب من جواهر الأرض من

---

(١). «الكرسف»: القطن.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٣٥

حديد و رصاص و نحاس. و قيل: هو ضرب من القطران. ثم وصف هذا الماء الذى يغاثون به بأنه يَشْوِي الْوُجُوهَ إذا قدّم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته بِئْسَ الشَّرابُ شرابهم هذا وَ ساءَتْ النار مُرْتَفَقاً متكأ، يقال ارتفقت: أى: اتكأت، و أصل الارتفاق نصب المرفق، و يقال:

ارتفق الرجل: إذا نام على مرفقه، و قال القتبى: هو المجلس، و قيل: المجتمع. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هذا شروع فى

وعـد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين. و المعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك و عملوا الصالحات من الأعمال إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا هـذا خبر إن الـذين آمنوا، و العائـد محـذوف، أى: من أحسن منهم عملا، و جملـۀ أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ استئنـاف لبيـان الأجر، و الإشارۀ إلى من تقـدّم ذكره، و قيل: يجوز أن يكون أولئك خبر إن الـذين آمنوا، و تكون جملـۀ إِنَّا لا نُضِيعُ اعتراضا، و يجوز أن يكون أولئك خبرا بعد خبر، و قد تقدّم الكلام فى جنات عدن، و فى كيفيۀ جرى الأنهار من تحتهـا يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ قال الزجّاج: أساور جمع أسورۀ، و أسورۀ جمع سوار، و هى زينـۀ تلبس فى الزنـد من اليـد، و هى من زينـۀ الملوک، قيل: يحلّى كل واحـد منهم ثلاثـۀ أساور؛ واحـد من فضۀ واحد من لؤلؤ واحد من ذهب، و ظاهر الآيـۀ أنهـا جميعهـا من ذهب، و يمكن أن يكون قول القائل هـذا جمعا بين الآيات لقوله سبحانه فى آيـۀ أخرى: أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ «١»، و لقوله فى آيۀ أخرى وَ لُؤْلُؤاً «٢» و من فى قوله من أساور للابتـداء، و فى من ذهب للبيان. و حكى الفراء يحلّون بفتح الياء و سكون الحاء و فتح اللام، يقال: حليت المرأۀ تحلّى، فهى حاليۀ إذا لبست الحلىّ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ قال الكسـائى: السـندس الرقيق واحـده سـندسۀ، و الإسـتبرق: ما ثخن، و كـذا قال المفسـرون، و قيل: الإسـتبرق هو الـديباج؛ كما قال الشاعر:

....

و إستبرق الديباج طورا لباسها «٣» و قيل: هو المنسوج بالذهب. قال القتبى: هو فارسىّ معرّب. قال الجوهرى: و تصغيره أبيرق، و خصّ الأخضر لأنه الموافق للبصر، و لكونه أحسن الألوان مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ قال الزجّاج: الأرائک:

جمع أريكـۀ، و هى السـرر فى الحجـال، و قيل: هى أسـرۀ من ذهب مكلّلـۀ بالـدرّ و الياقوت، و أصل اتكأ اوتكأ، و أصل متكئين موتكئين، و الاتكاء: التحامل على الشىء نِعْمَ الثَّوابُ ذلک الذى أثابهم اللّه.

وَ حَسُنَتْ تلک الأرائک مُرْتَفَقاً أى: متكأ، و قد تقدّم قريبا.

و قـد أخرج ابن أبى شـيبۀ و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: مُلْتَحَداً قال: ملتجأ. و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحليـۀ، و البيهقى فى الشـعب، عن سـلمان قال: جاءت المؤلفۀ قلوبهم: عيينۀ بن بدر، و الأقرع بن حابس، فقالوا: يا رسول اللّه لو جلست فى صدر المجلس، و تغيبت عن هؤلاء و أرواح جبابهم، يعنون سلمان و أبا ذر و فقراء المسلمين و كانت عليهم جباب الصوف، جالسناک و حادثناک و أخذنا

---

(١). الإنسان: ٢١.

(٢). الحج: ٢٣، و فاطر: ٣٣.

(٣). و صدره: تراهنّ يلبسن المشاعر مرّۀ.

عنک، فأنزل اللّه وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْکَ إلى قوله: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً زاد أبو الشـيخ عن سـلمان: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قام يلتمسـهم، حتى أصابهم فى مؤخر المسـجد يذكرون اللّه تعالى فقال: «الحمد للّه الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسـى مع رجـال من أمتى، معكم المحيـا و الممـات». و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن عبـد الرحمن بن سـهل بن حنيف قـال: نزلت على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم و هو فى بعض أبيـاته وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون اللّه منهم ثائر الرأس و جاف الجلد و ذو الثوب الخلق، فلما رآهم جلس معهم و قال: «الحمد للّه الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم».

و أخرج البزار عن أبى سعيد و أبى هريرة قالا: «جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و رجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم» و فى الباب روايات. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن نافع قال: أخبرنى عبد اللّه بن عمر فى هذه الآية وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه فى قوله: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ الآية قال: نزلت فى صلاة الصبح و صلاة العصر. و أخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا قال: نزلت فى أمية بن خلف، و ذلك أنه دعا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أمر كرهه اللّه من طرد الفقراء عنه و تقريب صناديد أهل مكة، فأنزل اللّه هذه الآية، يعنى من ختمنا على قلبه يعنى التوحيد وَ اتَّبَعَ هَواهُ يعنى الشرك وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً يعنى فرطا فى أمر اللّه و جهالة باللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن بريدة قال: دخل عيينة بن حصن على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى يوم حارّ، و عنده سلمان عليه جبة صوف، فثار منه ريح العرق فى الصوف، فقال عيينة: يا محمد إذا نحن أتيناك فأخرج هذا و ضرباءه من عندك لا يؤذونا، فإذا خرجنا فأنت و هم أعلم، فأنزل اللّه وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ الآية. و قد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية، و هى قوله تعالى: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ «۱» عن سعد بن أبى وقاص قال:

كنّا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ستة نفر، فقال المشركون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: اطرد هؤلاء لا يجترءون علينا، قال: و كنت أنا و ابن مسعود و رجل من هذيل و بلال و رجلان نسيت اسمهما، فوقع فى نفس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما شاء اللّه أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل اللّه وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ الآية.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً قال: ضياعا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة وَ قُلِ الْحَقُّ قال: هو القرآن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ

---

(۱). الأنعام: ۵۲.

يقول: من شاء اللّه له الإيمان آمن، و من شاء له الكفر كفر، و هو قوله: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ «۱». و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: فى الآية هذه تهديد و وعيد. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها قال: حائط من نار. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كلّ جدار منها مسيرة أربعين سنة». و أخرج أحمد و البخارى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن البحر هو من جهنم، ثم تلا ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها». و أخرج أحمد و الترمذى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: بِماءٍ كَالْمُهْلِ قال: «كعكر الزيت، فإذا قرّب إليه سقطت فروة وجهه فيه».

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَالْمُهْلِ قال: أسود كعكر الزيت.

و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطية قال: سئل ابن عباس عن المهل فقال: ماء غليظ

کـدردیّ الزیت. و أخرج هناد و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی عن ابن مسـعود أنه سـئل عن المهل، فـدعا بـذهب و فضة فأذابه، فلما ذاب قال: هذا أشبه شـیء بالمهل الذی هو شـراب أهل النار و لونه لون السـماء، غیر أن شراب أهل النار أشدّ حرا من هذا. و أخرج ابن جریر عن ابن عمر قال: هل تدرون ما المهل؟ مهل الزیت، یعنی آخره «۲».

و أخرج ابن المنـذر و ابن أبی حاتم عن مجاهـد فی قوله: وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً قال: مجتمعا. و أخرج البخاری و مسـلم عن أبی هریرة أن النبی صـلّی اللّه علیه و سـلّم قال: «تبلغ الحلیة من المؤمن حیث یبلغ الوضوء». و أخرج البیهقی عن أبی الخیر مرثد بن عبد اللّه قال: فی الجنـة شـجرة تنبت السـندس منه یکون ثیاب أهل الجنـة. و أخرج ابن أبی شـیبة و ابن جریر عن عکرمـة قال: الإسـتبرق: الـدیباج الغلیظ. و أخرج ابن أبی شـیبة و ابن أبی حاتم عن مجاهـد مثله. و أخرج ابن أبی حاتم عن الهیثم بن مالک الطائی قال: قال رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلّم: «إنّ الرجل لیتکئ المتکأ مقدار أربعین سنة ما یتحوّل منه و لا یمله، یأتیه ما اشتهت نفسه و لذّت عینه». و أخرج ابن أبی شـیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: الأرائک: السـرر فی جوف الحجال، علیها الفرش منضود فی السماء فرسخ. و أخرج البیهقی فی البعث عنه قال: لا تکون أریکة حتی یکون السریر فی الحجلة «۳». و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر عن عکرمة أنه سئل عن الأرائک فقال: هی الحجال علی السرر.

---

(۱). التکویر: ۲۹.

(۲). أی: الزیت العکر.

(۳). الحجلة: ساتر کالقبة یتخذ للعروس، یزین بالثیاب و الستور (ج: حجل، حجال)

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۳۸

[سورة الکهف (۱۸): الآیات ۳۲ الی ۴۴]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَیْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُما زَرْعاً (۳۲) کِلْتَا الْجَنَّتَیْنِ آتَتْ أُکُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَیْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (۳۳) وَ کانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً (۳۴) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هذِهِ أَبَداً (۳۵) وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلی رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْها مُنْقَلَباً (۳۶)

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَ کَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاکَ رَجُلاً (۳۷) لکِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّی وَ لا أُشْرِکُ بِرَبِّی أَحَداً (۳۸) وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مالاً وَ وَلَداً (۳۹) فَعَسی رَبِّی أَنْ یُؤْتِیَنِ خَیْراً مِنْ جَنَّتِکَ وَ یُرْسِلَ عَلَیْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِیداً زَلَقاً (۴۰) أَوْ یُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِیعَ لَهُ طَلَباً (۴۱) وَ أُحِیطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ یُقَلِّبُ کَفَّیْهِ عَلی ما أَنْفَقَ فِیها وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها وَ یَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُشْرِکْ بِرَبِّی أَحَداً (۴۲) وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ فِئَةٌ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما کانَ مُنْتَصِراً (۴۳) هُنالِکَ الْوَلایَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَیْرٌ ثَواباً وَ خَیْرٌ عُقْباً (۴۴)

قوله: وَ اضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَیْنِ هذا المثل ضربه اللّه سبحانه لمن یتعزّز بالدنیا و یستنکف عن مجالسة الفقراء فهو علی هذا متصل بقوله: وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ

و قـد اختلف فی الرجلین هـل همـا مقـدّران أو محقّقـان؟ فقـال بالأـوّل بعض المفسـرین. و قال بالآخر بعض آخر. و اختلفوا فی تعیینهمـا؛ فقیـل: هما أخوان من بنی إسـرائیل؛ و قیل: هما أخوان مخزومیان من أهل مکـة؛ أحـدهما مؤمن، و الآخر کافر؛ و قیل: همـا المـذکوران فی سورة الصافات فی قوله: قـالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّی کانَ لِی قَرِینٌ «۱» و انتصـاب مثلاـ و رجلین علی أنهما مفعولا

اضرب، قيل و الأوّل هو الثانى و الثانى هو الأوّل جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ هو الكافر، و مِنْ أَعْنابٍ بيان لما فى الجنتين، أى: من كروم متنوعة وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ الحفّ: الإحاطة، و منه: حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ «٢» و يقال: حف القوم بفلان يحفّون حفّا، أى: أطافوا به، فمعنى الآية: و جعلنا النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً أى: بين الجنتين، و هو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعا للأقوات و الفواكه، ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كلّ واحدة منهما كانت تؤدّى حملها و ما فيها، فقال: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها أخبر عن كلتا بآتت، لأن لفظه مفرد، فراعى جانب اللفظ. و قد ذهب البصريون إلى أن كلتا و كلا اسم مفرد غير مثنى. و قال الفراء: هو مثنى، و هو مأخوذ من كلّ فخفّفت اللام و زيدت الألف للتثنية. و قال سيبويه: ألف كلتا للتأنيث، و التاء بدل من لام الفعل، و هى واو، و الأصل كلو، و قال أبو عمرو: التاء ملحقة. و أكلهما: هو ثمرهما، و فيه دلالة على أنه قد صار صالحا للأكل. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «كلّ الجنتين آتى أكله» وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً أى: لم تنقص من أكلها شيئا، يقال: ظلمه حقّه، أى: نقصه، و وصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين فإنها فى الغالب تكثر فى عام، و تقلّ

---

(١). الصافات: ٥١.

(٢). الزمر: ٧٥.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٣٩

فى عام وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً أى: أجرينا و شققنا وسط الجنتين نهرا ليسقيهما دائما من غير انقطاع، و قرئ «فجرنا» بالتشديد للمبالغة، و بالتخفيف على الأصل وَ كانَ لَهُ أى: لصاحب الجنتين ثَمَرٌ قرأ أبو جعفر و شيبة و عاصم و يعقوب و ابن أبى إسحاق «ثمر» بفتح الثاء و الميم، و كذلك قرءوا فى قوله: أُحِيطَ بِثَمَرِهِ و قرأ أبو عمرو بضم الثاء و إسكان الميم فيهما، و قرأ الباقون بضمهما جميعا فى الموضعين. قال الجوهرى: الثمرة واحدة الثمر، و جمع الثمر ثمار؛ مثل جبل و جبال. قال الفراء: و جمع الثمار ثمر، مثل كتاب و كتب، و جمع الثمر أثمار، مثل عنق و أعناق، و قيل: الثمر جميع المال من الذهب و الفضة و الحيوان و غير ذلك. و قيل: هو الذهب و الفضة خالصة فَقالَ لِصاحِبِهِ أى: قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أى: و الكافر يحاور المؤمن، و المعنى: يراجعه الكلام و يجاوبه، و المحاورة:
المراجعة، و التحاور: التجاوب أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً النفر: الرهط، و هو ما دون العشرة، و أراد هاهنا الأتباع و الخدم و الأولاد وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ أى دخل الكافر جنة نفسه. قال المفسرون: أخذ بيد أخيه المسلم، فأدخله جنته يطوف به فيها، و يريه عجائبها، و إفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة، أو لأنه أدخله فى واحدة، ثم واحدة أو لعدم تعلّق الغرض بذكرهما، و ما أبعد ما قاله صاحب الكشاف أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون، و جملة وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ فى محل نصب على الحال، أى: و ذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره و عجبه قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً أى: قال الكافر لفرط غفلته و طول أمله: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التى تشاهدها وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته. قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا و قيام الساعة وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً اللام هى الموطئة للقسم، و المعنى: أنه إن يردّ إلى ربه فرضا و تقديرا كما زعم صاحبه، و اللام فى «لأجدن» جواب القسم، و الشرط، أى: لأجدنّ يومئذ خيرا من هذه الجنة، فى مصاحف مكة و المدينة و الشام خيرا منهما و فى مصاحف أهل البصرة و الكوفة «خَيْراً مِنْها» على الإفراد، و مُنْقَلَباً منتصب على التمييز، أى: مرجعا و عاقبة، قال هذا قياسا للغائب على الحاضر، و أنه لما كان غنيا فى الدنيا، سيكون غنيا فى الأخرى، اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو استدراج له من

اللّه قالَ لَهُ صاحِبُهُ أى: قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرا عليه ما قاله: أَ كَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ بقولک: ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً و قال: خلقک من تراب؛ أى: جعل أصل خلقک من تراب حيث خلق أباک آدم منه، و هو أصلک، و أصل البشر فلکلّ فرد حظ من ذلک؛ و قيل: يحتمل أنه کان کافرا باللّه فأنکر عليه ما هو عليه من الکفر، و لم يقصد أن الکفر حدث له بسبب هذه المقالة ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ و هى المادّة القريبة ثُمَّ سَوَّاکَ رَجُلًا أى: صيرک إنسانا ذکرا و عدل أعضاءک و کمّلک، و فى هذا تلويح بالدليل على البعث، و أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، و انتصاب رجلا على الحال أو التمييز لکِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّی کذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لکنّ المشدّدة. و أصله لکن أنا حذفت الهمزة و ألقيت حرکتها على النون الساکنة قبلها فصار لکننا، ثم

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۴۰

استثقلوا اجتماع النونين فسکنت الأولى و أدغمت الثانية، و ضمير هو للشأن، و الجملة بعده خبره و المجموع خبر أنا، و الراجع ياء الضمير، و تقدير الکلام: لکن أنا الشأن اللّه ربى. قال أهل العربية: إثبات ألف أنا فى الوصل ضعيف. قال النحاس: مذهب الکسائى و الفراء و المازنى أن الأصل لکن أنا، و ذکر نحو ما قدّمنا.

و روى عن الکسائى أن الأصل لکن اللّه هو ربى أنا. قال الزجاج: إثبات الألف فى لکنا فى الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا فجاؤوا بها عوضا، قال: و فى قراءة أبىّ «لکن أنا هو اللّه ربى» و قرأ ابن عامر و المسيّبى عن نافع، و ورش عن يعقوب «لکِنَّا» فى حال الوصل و الوقف معا بإثبات الألف، و مثله قول الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفونىحميدا فإنّى قد تذرّيت السّناما

و منه قول الأعشى:

فکيف أنا و انتحال «۱» القوافىبعد الشيب يکفى ذاک عارا

و لا خلاف فى إثباتها فى الوقف، و قرأ أبو عبد الرحمن السّلمى و أبو العالية، و روى عن الکسائى «لکن هو اللّه ربى»، ثم نفى عن نفسه الشرک باللّه، فقال: وَ لا أُشْرِکُ بِرَبِّی أَحَداً و فيه إشارة إلى أن أخاه کان مشرکا، ثم أقبل عليه يلومه فقال: وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لو لا للتحضيض:

أى: هلا قلت عند ما دخلتها هذا القول. قال الفرّاء و الزّجاج: ما فى موضع رفع على معنى الأمر ما شاء اللّه، أى: هلا قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة اللّه، و ما شاء اللّه کان، و يجوز أن تکون ما مبتدأ و الخبر مقدّر، أى: ما شاء اللّه کائن، و يجوز أن تکون ما شرطية و الجواب محذوف، أى: أىّ شىء شاء اللّه کان لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ أى: هلا قلت ما شاء اللّه لا قوّة إلا باللّه، تحضيضا له على الاعتراف بأنها و ما فيها بمشيئة اللّه، إن شاء أبقاها و إن شاء أفناها، و على الاعتراف بالعجز، و أن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة اللّه لا بقوّته و قدرته. قال الزجّاج: لا يقوى أحد على ما فى يده من ملک و نعمة إلا باللّه، و لا يکون إلا ما شاء اللّه. ثم لمّا علمه الإيمان و تفويض الأمور إلى اللّه سبحانه أجابه على افتخاره بالمال و النفر فقال: إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مالًا وَ وَلَداً المفعول الأوّل ياء الضمير، و أنا ضمير فصل، و أقلّ المفعول الثانى للرؤية إن کانت علمية، و إن جعلت بصرية کان انتصاب أقلّ على الحال، و يجوز أن يکون أنا تأکيد لياء الضمير، و انتصاب مالا و ولدا على التمييز فَعَسى رَبِّی أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِکَ هذا جواب الشرط، أى: إن ترنى أفقر منک، فأنا أرجو أن يرزقنى اللّه سبحانه جنة خيرا من جنتک فى الدنيا أو فى الآخرة أو فى فيهما وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً أى: و يرسل على جنتک حسبانا، و الحسبان مصدر، بمعنى الحساب کالغفران؛ أى: مقدار قدّره اللّه عليها، و وقع فى حسابه سبحانه، و هو الحکم بتخريبها. قال الزجّاج: الحسبان من الحساب؛ أى: يرسل عليها عذاب الحساب، و هو حساب ما کسبت يداک. و قال الأخفش: حسبانا؛ أى: مرامى مِنَ السَّماءِ واحدها حسبانة، و کذا قال أبو عبيدة و القتبى. و

قال ابن الأعرابى: الحسبانة: السّحابة،

---

(۱). فى المطبوع: و ألحان.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۴۱

و الحسبانة: الوسادة، و الحسبانة: الصّاعقة، و قال النّضر بن شميل: الحسبان سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة تنزع فى قوس، ثم يرمى بعشرين منها دفعة؛ و المعنى: يرسل عليها مرامى من عذابه؛ إما برد، و إما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. و منه قول زياد الكلابى: أصاب الأرض حسبان، أى: جراد فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أى: فتصبح جنة الكافر بعد إرسال اللّه سبحانه عليها حسبانا صعيدا، أى: أرضا لا نبات بها، و قد تقدّم تحقيقه، زلقا: أى: تزلّ فيها الأقدام لملاستها، يقال: مكان زلق بالتحريك: أى دحض، و هو فى الأصل مصدر قولك: زلقت رجله تزلق زلقا، و أزلقها غيره، و المزلقة: الموضع الذى لا يثبت عليه قدم، و كذا الزّلاقة، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة، أو أريد به المفعول، و جملة أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً معطوفة على الجملة التى قبلها، و الغور: الغائر. وصف الماء بالمصدر مبالغة، و المعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، و كان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما، و يجىء الغور بمعنى الغروب، و منه قول أبى ذؤيب:

هل الدهر إلا ليلة و نهارهاو إلا طلوع الشمس ثم غيارها

فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً أى: لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلا عن وجوده و ردّه، و لا تقدر عليه بحيلة من الحيل؛ و قيل: المعنى: فلن تستطيع طلب غيره عوضا عنه. ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن و توقعه من إهلاك جنة الكافر، فقال: وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ قد قدّمنا اختلاف القراء فى هذا الحرف و تفسيره، و أصل الإحاطة من إحاطة العدوّ بالشخص كما تقدّم فى قوله: إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ «۱» و هى عبارة عن إهلاكه و إفنائه، و هو معطوف على مقدّر كأنه قيل فوقع ما توقعه المؤمن و أحيط بثمره فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ أى: يضرب إحدى يديه على الأخرى، و هو كناية عن الندم، كأنه قيل فأصبح يندم عَلى ما أَنْفَقَ فِيها أى: فى عمارتها و إصلاحها من الأموال؛ و قيل: المعنى: يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم: فى يده مال، و هو بعيد جدّا، و جملة وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التى تعمد بها الكروم، أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض، مأخوذ من خوت النجوم تخوى إذا سقطت و لم تمطر فى نوئها، و منه قوله تعالى: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا «۲» قيل: و تخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل و الزرع لأنه الأصل، و أيضا إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقى، و جملة وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً معطوفة على يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ أو حال من ضميره، أى: و هو يقول تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك باللّه حتى تسلم جنته من الهلاك، أو كان هذا القول منه على حقيقته، لا لما فاته من الغرض الدنيوى، بل لقصد التوبة من الشرك و الندم على ما فرط منه وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فئة اسم كان و له خبرها، و ينصرونه صفة لفئة، أى: فئة ناصرة، و يجوز أن تكون ينصرونه الخبر، و رجّح الأوّل سيبويه و رجّح الثانى المبرّد، و احتج بقوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ «۳» و المعنى: أنه لم تكن له فرقة و جماعة يلتجئ

---

(۱). يوسف: ۶۶.

(۲). النمل: ۵۲.

(۳). الإخلاص: ۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۴۲

إليها و ينتصر بها، و لا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق وَ ما كانَ في نفسه مُنْتَصِراً أي: ممتنعا بقوته عن إهلاك اللّه لجنته، و انتقامه منه هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِ قرأ أبو عمرو و الكسائي «الحقّ» بالرفع نعتا للولاية، و قرأ أهل المدينة و أهل مكة و عاصم و حمزة «الحقّ» بالجرّ نعتا للّه سبحانه. قال الزجاج: و يجوز النصب على المصدر و التوكيد كما تقول: هذا لك حقا. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائي الولاية بكسر الواو، و قرأ الباقون بفتحها، و هما لغتان بمعنى؛ و المعنى هنالك: أي: في ذلك المقام النصر للّه وحده لا يقدر عليها غيره؛ و قيل: هو على التقديم و التأخير، أي: الولاية للّه الحق هنالك هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً أي:

هو سبحانه خير ثوابا لأوليائه في الدنيا و الآخرة وَ خَيْرٌ عُقْباً أي: عاقبة، و قرأ الأعمش و عاصم و حمزة «عقبا» بسكون القاف، و قرأ الباقون بضمها، و هما بمعنى واحد، أي: هو خير عاقبة لمن رجاه و آمن به، يقال هذا عاقبة أمر فلان، و عقباه: أي: أخراه.

و قد أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ قال: الجنة هي البستان، فكان له بستان واحد و جدار واحد، و كان بينهما نهر، فلذلك كانتا جنتين، و لذلك سمّاه جنة من قبل الجدار الذي يليها. و أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: نهر أبي فرطس نهر الجنتين. قال ابن أبي حاتم: و هو نهر مشهور بالرملة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً قال: لم تنقص، كل شجر الجنة أطعم. و أخرج ابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عنه وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ يقول: مال. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة، قال: قرأها ابن عباس وَ كانَ لَهُ ثُمُرٌ بالضم، و قال: هي أنواع المال. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ قال: ذهب و فضة. و أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ يقول: كفور لنعمة ربه. و أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت: علّمني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كلمات أقولهنّ عند الكرب: «اللّه اللّه ربي لا أشرك به شيئا». و أخرج عبد اللّه بن أحمد في زوائد الزهد، عن يحيى بن سليم الطائفي عمّن ذكره قال: «طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال: ما شاء اللّه، فإذا حاجته بين يديه، فقال: يا رب إني أطلب حاجتي منذ كذا و كذا أعطيتها الآن، فأوحى اللّه إليه: يا موسى، أما علمت أن قولك ما شاء اللّه أنجح ما طلبت به الحوائج». و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما أنعم اللّه على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء اللّه لا قوّة إلا باللّه؛ إلا دفع اللّه عنه كل آفة حتى تأتيه منيته، و قرأ: وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ و في إسناده عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس. قال أبو الفتح الأزدي:

عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه. و أخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن أنس نحوه موقوفا. و أخرج البيهقي في الشعب عنه نحوه مرفوعا. و أخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال:

قال لي نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قلت: نعم، قال: أن تقول لا قوّة إلا باللّه». و قد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى أن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: «ألا أدلّك على كنز

من كنوز الجنة؟ لا حول و لا قوّة إلا باللّه» و قد وردت أحاديث و آثار عن السلف في فضل هذه الكلمة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً قال: مثل الجرز. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: حُسْباناً مِنَ السَّماءِ قال: عذابا فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أي: قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شي‏ء أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً أي: ذاهبا قد غار في الأرض وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ قال: يصفق على ما أَنْفَقَ فِيها متلهفا على ما فاته.

[سورة الكهف (18): الآيات 45 الى 46]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (۴۵) الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلاً (۴۶)

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا أى: اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا فى حسنها و نضارتها و سرعة زوالها لئلا يركنوا إليها، و قد تقدّم هذا المثل فى سورة يونس، ثم بيّن سبحانه هذا المثل فقال: كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ و يجوز أن يكون هذا هو المفعول الثانى لقوله:

اضْرِبْ على جعله بمعنى صير فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ أى: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى؛ و قيل: المعنى: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط و يكثر بالمطر، فتكون الباء فى «به» سببية فَأَصْبَحَ النبات هَشِيماً الهشيم: الكسير، و هو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه و تفتت، و رجل هشيم: ضعيف البدن، و تهشم عليه فلان: إذا تعطف، و اهتشم ما فى ضرع الناقة: إذا احتلبه، و هشم الثريد: كسره و ثرده، و منه قول ابن الزّبعرى:

عمرو الذى «۱» هشم الثريد لقومهو رجال مكة مسنتون عجاف

تَذْرُوهُ الرِّياحُ تفرّقه. قال أبو عبيدة و ابن قتيبة: تذروه: تنسفه، و قال ابن كيسان: تذهب به و تجىء، و المعنى متقارب. و قرأ طلحة بن مصرّف «تذريه الريح»، قال الكسائى: و فى قراءة عبد اللّه «تذريه» يقال: ذرته الريح تذروه، و أذرته تذريه. و حكى الفراء: أذريت الرجل عن فرسه، أى: قلبته وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً أى: على كل شىء من الأشياء يحييه و يفنيه بقدرته لا يعجز عن شىء الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا هذا ردّ على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال و الغنى و الأبناء فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزيّن به فى الدنيا لا مما ينفع فى الآخرة، كما قال فى الآية الأخرى: أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ «۲» و قال: إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ «۳» و لهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله:

وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ أى: أعمال الخير، و هى ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات

---

(۱). عمرو العلا فى اللسان مادة «هشم»، و تفسير القرطبى (۱۰/ ۴۱۳): العلا.

(۲). التغابن: ۱۵.

(۳). التغابن: ۱۴.

خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً أى: أفضل من هذه الزينة بالمال و البنين ثوابا، و أكثر عائدة و منفعة لأهلها وَ خَيْرٌ أَمَلًا أى: أفضل أملا، يعنى أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل ممّا يؤمله أهل المال و البنين؛ لأنهم ينالون بها فى الآخرة أفضل ممّا كان يؤمله هؤلاء الأغنياء فى الدنيا، و ليس فى زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة، و لكن هذا التفضيل خرّج مخرج قوله تعالى: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا «۱»، و الظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير، فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض «۲»، و لا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر، و لا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و بهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات فى الأحاديث بما سيأتى لا ينافى إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ قال: الْمالُ وَ الْبَنُونَ حرث الدنيا، و العمل الصالح حرث الآخرة، و قد جمعهما اللّه لأقوام. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ قال: سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر. و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبّان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه

عن أبی سعید الخدری أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال:

«استکثروا من الباقیات الصّالحات، قیل: و ما هنّ یا رسول اللّه؟ قال: التکبیر و التهلیل و التسبیح و التحمید و لا حول و لا قوّة إلا باللّه» و أخرج الطبرانی و ابن شاهین و ابن مردویه عن أبی الدرداء مرفوعا بلفظ:

«سبحان اللّه، و الحمد للّه، و لا إله إلا اللّه، و اللّه أکبر، و لا حول و لا قوّة إلا باللّه، هنّ الباقیات الصّالحات». و أخرج النسائی و ابن جریر و ابن أبی حاتم، و الطبرانی فی الصغیر، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه و البیهقی عن أبی هریرة مرفوعا: «خذوا جنّتکم، قیل: یا رسول اللّه من أیّ عدوّ قد حضر؟ قال:

بل جنتکم من النار قول سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أکبر، فإنهنّ یأتین یوم القیامة مقدّمات معقبات و مجنّبات، و هی الباقیات الصّالحات». و أخرج سعید بن منصور و أحمد و ابن مردویه عن النعمان ابن بشیر أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «ألا و إن سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه الباقیات الصالحات».

و أخرج ابن مردویه نحوه من حدیث أنس مرفوعا، و زاد التکبیر و سمّاهنّ الباقیات الصالحات. و أخرج ابن مردویه نحوه من حدیث أبی هریرة. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر و ابن مردویه من حدیث عائشة مرفوعا نحوه، و زادت «و لا حول و لا قوّة إلا باللّه». و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه من حدیث علیّ مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردویه من طریق الضحّاک عن ابن عباس مرفوعا فذکر نحوه دون الحوقلة. و أخرج الطبرانی عن سعد بن جنادة مرفوعا نحوه. و أخرج البخاری فی تاریخه، و ابن جریر عن ابن عمر من قوله نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس من قوله نحوه. و کل هذه الأحادیث مصرحة بأنها الباقیات الصالحات، و أما ما ورد فی فضل هذه الکلمات من غیر تقیید بکونها المرادة فی الآیة فأحادیث کثیرة لا فائدة

---

(۱). الفرقان: ۲۴.

(۲). أی بعض المفسّرین.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۴۵

فی ذکرها هنا. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة قال: کل شیء من طاعة اللّه؛ فهو من الباقیات الصالحات.

[سورة الکهف (۱۸): الآیات ۴۷ الی ۵۳]

وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَی الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴۷) وَ عُرِضُوا عَلی رَبِّکَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا کَما خَلَقْناکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَکُمْ مَوْعِداً (۴۸) وَ وُضِعَ الْکِتابُ فَتَرَی الْمُجْرِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا فِیهِ وَ یَقُولُونَ یا وَیْلَتَنا ما لِهذَا الْکِتابِ لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً (۴۹) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِیسَ کانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّیَّتَهُ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِی وَ هُمْ لَکُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِینَ بَدَلاً (۵۰) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما کُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّینَ عَضُداً (۵۱)

وَ یَوْمَ یَقُولُ نادُوا شُرَکائِیَ الَّذِینَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُمْ مَوْبِقاً (۵۲) وَ رَأَی الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَ لَمْ یَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (۵۳)

و قوله: وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبالَ قرأ الحسن و ابن کثیر و أبو عمرو و ابن عامر تسیر بمثناة فوقیة مضمومة و فتح الیاء التحتیة علی البناء

للمفعول، و رفع الجبال على النيابـة عن الفاعل. و قرأ ابن محيصن و مجاهـد «تسـير» بفتـح التاء الفوقية و التخفيف على أن الجبال فاعـل. و قرأ الباقون «نسير» بالنون على أن الفاعل هو اللّه سبحانه و الجبال منصوبـة على المفعوليـة، و يناسب القراءة الأولى قوله تعالى: وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ «١»، و يناسب القراءة الثانية قوله تعالى: وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً «٢»، و اختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله:

وَ حَشَرْناهُمْ قـال بعض النحويين: التقـدير و الباقيـات الصالحات خير عنـد ربك يوم نسيّر الجبال؛ و قيل: العامل فى الظرف فعل محذوف، و التقدير: و اذكر يوم نسير الجبال، و معنى تسيير الجبال إزالتها من أماكنها و تسييرها كما تسير السحاب، و منه قوله تعالى: وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ «٣»، ثم تعود إلى الأرض بعـد أن جعلها اللّه كما قال: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا- فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا «۴». و الخطـاب فى قوله: وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، أو لكل من يصـلح للرؤيـة، و معنى بروزها: ظهورها و زوال ما يسترها من الجبال و الشجر و البنيان؛ و قيل: المعنىّ ببروزها بروز ما فيها من الكنوز و الأموات، كما قال سبحانه:

وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ «۵»، و قال: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها «۶»، فيكون المعنى: و ترى الأرض بارزا ما فى جوفها وَ حَشَرْناهُمْ أى: الخلائق، و معنى الحشر: الجمع؛ أى: جمعناهم إلى الموقف من كلّ مكان فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً فلم نترك منهم أحدا، يقال: غادره و أغدره إذا تركه، قال عنترة:

---

(١). التكوير: ٣.

(٢). الطور: ١٠.

(٣). النمل: ٨٨.

(۴). الواقعة: ۵- ۶.

(۵). الانشقاق: ۴.

(۶). الزلزلة: ٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣۴۶ غادرته متعفّرا أوصالهو القوم بين مجرّح و مجندل «١»

أى: تركته، و منه الغـدر؛ لأن الغادر ترك الوفاء للمغـدور، قالوا: و إنّما سـمّى الغدير غديرا؛ لأن الماء ذهب و تركه، و منه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا انتصاب صفا على الحال، أى: مصفوفين كل أمة و زمرة صفا؛ و قيل: عرضوا صفا واحدا، كما فى قوله: ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا «٢» أى:

جميعا؛ و قيل: قياما. و فى الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذى يعرض على السلطان لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ هو على إضـمار القول، أى: قلنـا لهم لقـد جئتمونا، و الكاف فى كما خلقناكم نعت مصـدر محـذوف، أى: مجيئا كائنا كمجيئكم عنـد ما خلقناكم أوّل مرّة، أو كائنين كما خلقناكم أوّل مرّة، أى: حفاة عراة غرلا، كما ورد ذلك فى الحـديث. قال الزجّاج: أى: بعثناكم و أعـدناكم كما خلقناكم؛ لأن قوله لقـد جئتمونا معناه بعثناكم بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً هذا إضـراب و انتقال من كلام إلى كلام للتقريع و التوبيخ، و هـو خطـاب لمنكرى البعث، أى: زعمتـم فى الـدنيا أن لـن تبعثـوا، و أن لن نجعـل لكم موعـدا نجازيكم بأعمالكم، و ننجز ما وعـدناكم به من البعث و العـذاب، و جملة وَ وُضِعَ الْكِتابُ معطوفة على عرضوا، و المراد بالكتاب صحائف الأعمال، و أفرده لكون التعريف فيه للجنس، و الوضع إما حسّى بأن توضع صحيفة كل واحد فى يده: السعيد فى يمينه، و الشـقىّ فى شـماله؛ أو فى الميزان. و إما عقلى: أى: أظهر عمل كل واحـد من خير و شـرّ بالحساب الكائن فى ذلك اليوم فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ أى: خـائفين وجلين ممّـا فى الكتـاب الموضـوع لمـا يتعقّب ذلـك من الافتضـاح فى ذلـك الجمع، و

المجازاة بالعذاب الأليم وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم فى الهلاك، و معنى هذا النداء قد تقدّم تحقيقه فى المائدة ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها أى: أىّ شىء له لا يترك معصية صغيرة و لا معصية كبيرة إلا حواها و ضبطها و أثبتها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا فى الدنيا من المعاصى الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزاء ما عملوا حاضِراً مكتوبا مثبتا وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً أى: لا يعاقب أحدا من عباده بغير ذنب، و لا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذى يستحقّه، ثم إنه سبحانه عاد إلى الردّ على أرباب الخيلاء من قريش، فذكر قصة آدم و استكبار إبليس عليه، فقال: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ أى: و اذكر وقت قولنا لهم اسجدوا سجود تحية و تكريم، كما مرّ تحقيقه فَسَجَدُوا طاعة لأمر اللّه و امتثالا لطلبه السجود إِلَّا إِبْلِيسَ فإنه أبى و استكبر و لم يسجد، و جملة كانَ مِنَ الْجِنِ مستأنفة لبيان سبب عصيانه و أنه كان من الجنّ و لم يكن من الملائكة فلهذا عصى، و معنى فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أنه خرج عن طاعة ربه.

قال الفراء: العرب تقول فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحّاس: اختلف فى معنى فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ على قولين: الأوّل مذهب الخليل و سيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب

---

(١). فى الديوان: مجدّل.

«المتعفر»: اللاصق بالعفر؛ و هو التراب.

(٢). طه: ۶۴.

الفسق أمر ربه. كما تقول: أطعمته عن جوع. و القول الآخر قول قطرب: أن المعنى على حذف المضاف:

أى فسق عن ترك أمره. ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس فى الكفر و المعاصى و خالف أمر اللّه، فقال: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ كأنه قال: أ عقيب ما وجد منه من الإباء و الفسق تتخذونه و تتخذون ذريته، أى: أولاده؛ و قيل: أتباعه- مجازا- أولياء مِنْ دُونِي فتطيعونهم بدل طاعتى، و تستبدلونهم بى، و الحال أنهم، أى: إبليس و ذريته لَكُمْ عَدُوٌّ أى: أعداء، و أفرده لكونه اسم جنس، أو لتشبيهه بالمصادر، كما فى قوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي «١»، و قوله: هُمُ الْعَدُوُّ «٢» أى: كيف تصنعون هذا الصنع و تستبدلون بمن خلقكم و أنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدوّ لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل وقت بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا أى: الواضعين للشىء فى غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان، فبئس ذلك البدل الذى استبدلوه بدلا عن اللّه سبحانه ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال أكثر المفسرين: إنّ الضمير للشركاء، و المعنى: أنهم لو كانوا شركاء لى فى خلق السموات و الأرض و فى خلق أنفسهم لكانوا شاهدين خلق ذلك مشركين لى فيه، و لم يشاهدوا ذلك و لا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لى بشركاء. و هذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوى على انتفاء اللازم. و قيل:

الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين، و المراد أنهم ما كانوا شركاء لى فى تدبير العالم؛ بدليل أنى ما أشهدتهم خلق السموات و الأرض وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق؛ و قيل: المعنى: أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم فى الأزل؛ لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند اللّه، و الأوّل من هذه الوجوه أولى لما يلزم فى الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين، و هذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور، و قرأ أبو جعفر «ما أشهدناهم»، و قرأ الباقون «ما أشهدتهم»، و يؤيده وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً و العضد يستعمل كثيرا فى معنى العون، و ذلك أن العضد قوام اليد، و منه قوله: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ «٣» أى: سنعينك و نقوّيك به، و يقال:

أعضدت بفلان إذا استعنت به، و ذكر العضد على جهة المثل، و خصّ المضلين بالذكر لزيادة الذمّ و التوبيخ. و المعنى: ما استعنت على خلق السماوات و الأرض بهم و لا شاورتهم، و ما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانا، و وحد العضد لموافقة الفواصل. و قرأ أبو جعفر الجحدرى «و ما كنت» بفتح التاء على أن الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: و ما كنت يا محمد متّخذا لهم عضدا، و لا صحّ لك ذلك، و قرأ الباقون بضم التاء، و فى عضد لغات ثمان أفصحها فتح العين و ضمّ الضاد، و بها قرأ الجمهور. و قرأ الحسن «عضدا» بضم العين و الضاد، و قرأ عكرمة بضم العين و إسكان الضاد، و قرأ الضحّاك بكسر العين و فتح الضاد، و قرأ عيسى بن عمر بفتحهما، و لغة تميم فتح العين و سكون الضاد. ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال: وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ قرأ حمزة و يحيى بن وثّاب و عيسى بن عمر «نقول» بالنون، و قرأ الباقون بالياء التحتية؛ أى: اذكر يوم يقول اللّه عزّ و جلّ للكفار توبيخا لهم و تقريعا: نادوا

---

(١). الشعراء: ٧٧.

(٢). المنافقون: ۴.

(٣). القصص: ٣۵.

شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم و يشفعون لكم، و أضافهم سبحانه إلى نفسه جريا على ما يعتقده المشركون، تعالى اللّه عن ذلك فَدَعَوْهُمْ أى: فعلوا ما أمرهم اللّه به من دعاء الشركاء فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ إذ ذاك، أى: لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم، فضلا عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً أى: جعلنا بين هؤلاء المشركين و بين من جعلوهم شركاء للّه موبقا، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق، فرّق اللّه به تعالى بينهم، و على هذا فهو اسم مكان. قال ابن الأعرابى: كل حاجز بين شيئين فهو موبق. و قال الفرّاء: الموبق: المهلك. و المعنى: جعلنا تواصلهم فى الدنيا مهلكا لهم فى الآخرة، يقال: وبق يوبق فهو وبق، هكذا ذكره الفراء فى المصادر. و حكى الكسائى وبق يبق وبوقا فهو وابق، و المراد بالمهلك على هذا هو عذاب النار يشتركون فيه. و الأوّل أولى، لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء اللّه الملائكة و عزير و المسيح، فالموبق هو المكان الحائل بينهم. و قال أبو عبيدة: الموبق هنا الموعد للهلاك، و قد ثبت فى اللغة أوبقه بمعنى أهلكه، و منه قول زهير:

و من يشترى حسن الثّناء بماله يصن عرضه عن كلّ شنعاء موبق

و لكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأوّل وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها المجرمون موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذمّ لهم بهذا الوصف المسجّل عليهم به، و الظن هنا بمعنى اليقين.

و المواقعة: المخالطة بالوقوع فيها؛ و قيل: إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنّون ذلك ظنا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً أى: معدلا يعدلون إليه، أو انصرافا؛ لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب. قال الواحدى: المصرف: الموضع الذى ينصرف إليه. و قال القتبى: أى معدلا ينصرفون إليه، و قيل: ملجأ يلجئون إليه. و المعنى متقارب فى الجميع.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً قال: ليس عليها بناء و لا شجر.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً قال: الصغيرة: التبسم، و الكبيرة: الضحك. و زاد ابن أبى الدنيا و ابن أبى حاتم عنه قال: الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، و الكبيرة: القهقهة بذلك. و أقول: صغيرة و كبيرة نكرتان فى سياق النفى، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتّصف بصغر، و كل ذنب يتّصف بالكبر، فلا يبقى من الذنوب شىء إلا أحصاه اللّه، و ما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا أو كبيرا، فذلك إنما هو

بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى اللّه سبحانه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: إنّ من الملائكة قبيلة يقال لم الجنّ فكان إبليس منهم، و كان يوسوس ما بين السماء و الأرض، فعصى فسخط اللّه عليه، فمسخه اللّه شيطانا رجيما. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: كانَ مِنَ الْجِنِ قال: كان خازن الجنان، فسمى بالجنّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا: قال إن إبليس كان من أشرف الملائكة و أكرمهم قبيلة، و كان خازنا على الجنان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن قال:

قاتل اللّه أقواما زعموا أن إبليس كان من الملائكة طرفة عين، إنه لأصل الجنّ كما أن آدم أصل الإنس. و أخرج

ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: يقول: ما أشهدت الشياطين الذين اتخذتم معى هذا وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً قال: الشياطين عضدا، قال: و لا اتخذتهم عضدا على شي‏ء عضدونى عليه فأعانونى. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً يقول: مهلكا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن مجاهد مثله. و أخرج أبو عبيد و هناد و ابن المنذر عنه قال: واد فى جهنم. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن أنس فى الآية قال: واد فى جهنم من قيح و دم. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عمرو قال: هو واد عميق فى النار فرق اللّه به يوم القيامة بين أهل الهدى و أهل الضلالة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها قال: علموا.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٤ الى ٥٩]

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْ‏ءٍ جَدَلاً (٥٤) وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (٥٥) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً (٥٦) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (٥٧) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨)

وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (٥٩)

لما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم و عشائرهم، و أجابهم عن ذلك و ضرب لهم الأمثال الواضحة، حكى بعض أهوال الآخرة فقال: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا أى: كرّرنا و رددنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ أى: لأجلهم و لرعاية مصلحتهم و منفعتهم مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من الأمثال التى من جملتها الأمثال المذكورة فى هذه السورة، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة بنى إسرائيل، و حين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدال بالباطل، ختم الآية بقوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْ‏ءٍ جَدَلًا قال الزجّاج: المراد بالإنسان الكافر، و استدل على أن المراد الكفار بقوله تعالى: وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ و قيل: المراد به فى الآية النضر بن الحارث، و الظاهر العموم و أن هذا النوع أكثر الأشياء التى يتأتّى منها الجدال جدلا، و يؤيّد هذا ما ثبت فى الصّحيحين و غيرهما من حديث علىّ: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم طرقه و فاطمة ليلا، فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول اللّه إنما أنفسنا بيد اللّه إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك و لم يرجع إلىّ شيئا، ثم سمعته يضرب فخذه و يقول: وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْ‏ءٍ جَدَلًا». و انتصاب جدلا على التمييز. وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ قد تقدّم الكلام

على مثل هذا فى سورة بنى إسرائيل، و ذكرنا أنّ «أن» الأولى فى محل نصب، و الثانية فى

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣٥٠

فتح القدير ج‌٣ ٣٩٩

محل رفع، و الهدى القرآن و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و الناس- هنا- هم أهل مكة، و المعنى على حذف مضاف، أى: ما منع الناس من الإيمان و الاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأوّلين، أو انتظار إتيان سنة الأوّلين، و زاد الاستغفار فى هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التى من جملتها جدالهم بالباطل، و سنة الأوّلين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال. قال الزجّاج: سنّتهم هو قولهم: إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «١» الآية: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ أى: عذاب الآخرة قُبُلًا قال الفراء: إن قبلا جمع قبيل؛ أى: متفرّقا يتلو بعضه بعضا، و قيل: عيانا، و قيل: فجأة. و يناسب ما قاله الفرّاء قراءة أبى جعفر و عاصم و الأعمش و حمزة و الكسائى و يحيى بن وثّاب و خلف قُبُلًا بضمتين، فإنه جمع قبيل، نحو سبيل و سبل، و المراد أصناف العذاب؛ و يناسب التفسير الثانى؛ أى عيانا، قراءة الباقين بكسر القاف و فتح الباء: أى: مقابلة و معاينة، و قرئ بفتحتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلا، و انتصابه على الحال.

فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون و لا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ من رسلنا إلى الأمم إِلَّا حال كونهم مُبَشِّرِينَ للمؤمنين وَ مُنْذِرِينَ للكافرين، فالاستثناء مفرّغ من أعمّ العام، و قد تقدّم تفسير هذا وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ أى: ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق و يبطلوه. و أصل الدحض الزّلق؛ يقال دحضت رجله: أى: زلقت تدحض دحضا، و دحضت الشمس عن كبد السماء زالت، و دحضت حجّته دحوضا: بطلت، و من ذلك قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبتهوحدت كما حاد البعير عن الدّحض

و من مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل: ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا «٢»، و نحو ذلك: وَ اتَّخَذُوا آياتِي أى: القرآن وَ ما أُنْذِرُوا به من الوعيد و التهديد هُزُواً أى: لعبا و باطلا، و قد تقدّم هذا فى البقرة وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها أى: لا أحد أظلم لنفسه ممّن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما، فتهاون بها و أعرض عن قبولها، و لم يتدبّرها حقّ التدبر، و يتفكّر فيها حقّ التفكّر وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ من الكفر و المعاصى، فلم يتب عنها. قيل: و النسيان هنا بمعنى الترك، و قيل: هو على حقيقته إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ أى: أغطية. و الأكنة: جمع كنان، و الجملة تعليل لإعراضهم و نسيانهم. قال الزجاج: أخبر اللّه سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً أى: و جعلنا فى آذانهم ثقلا يمنع من استماعه، و قد تقدّم تفسير هذا فى الأنعام وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً لأنّ اللّه قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم و معاصيهم وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ أى: كثير المغفرة، و صاحب الرحمة التى وسعت كل شي‌ء فلم يعاجلهم بالعقوبة، و لهذا قال:

لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا أى: بسبب ما كسبوه من المعاصى التى من جملتها الكفر و المجادلة و الإعراض

---

(١). الأنفال: ٣٢.

(٢). يس: ١٥.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٣٥١

لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ لاستحقاقهم لذلك بَلْ جعل لَهُمْ مَوْعِدٌ أى: أجل مقدّر لعذابهم، قيل: هو عذاب الآخرة، و قيل: يوم بدر لَنْ

يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا أی: ملجأ یلجئون إلیه. و قال أبو عبیدة: منجی، و قیل: محیصا، و منه قول الشاعر:

لا و ألت نفسک خلّیتهاللعامریّین و لم تکلم

و قال الأعشی:

و قد أخالس ربّ البیت غفلتهو قد یحاذر منّی ثم ما یئل

أی: ما ینجو.

وَ تِلْکَ الْقُرى أی: قری عاد و ثمود و أمثالها أَهْلَكْناهُمْ هـذا خبر اسم الإشارة و القری صـفته، و الكلام علی حـذف مضاف، أی: أهل القری أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا أی: وقت وقوع الظلم منهم بالكفر و المعاصـی وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً أی: وقتا معینا، و قرأ أبو بكر عن عاصم «مهلکهم» بفتـح المیم و اللام، و هو مصـدر هلک، و أجاز الكسائی و الفراء و كسـر اللام و فتـح المیم، و بذلک قرأ حفص، و قرأ الجمهور بضم المیم و فتح اللام. و قال الزجّاج: مهلک اسم للزمان، و التقدیر: لوقت مهلكهم.

و قـد أخرج ابن أبی حـاتم عن قتادة فی قوله: إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ قال: عقوبـة الأوّلین. و أخرج ابن أبی حاتم عن الأعمش فی قوله: قُبُلًا قال: جهارا. و أخرج ابن أبی شـیبة و ابن المنـذر و ابن أبی حاتم عن مجاهـد قال: فجأة. و أخرج ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ قال: نسـی ما سـلف من الذنوب الكثیرة. و أخرج أیضا عن ابن عباس بِما كَسَبُوا یقول: بما عملوا. و أخرج ابن أبی حاتم عن السـدّی بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ قال: الموعـد یوم القیامـة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم من طریق علیّ بن أبی طلحـة عن ابن عباس فی قوله: مَوْئِلًا قال: ملجأ. و أخرج ابن أبی شـیبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد مَوْئِلًا قال: محرزا.

[سورة الكهف (۱۸): الآیات ۶۰ الی ۷۰]

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (۶۰) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (۶۱) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (۶۲) قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (۶۳) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (۶۴)

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (۶۵) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (۶۶) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۶۷) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (۶۸) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (۶۹)

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (۷۰)

فتح القدیر، ج۳، ص: ۳۵۲

الظرف فی قوله: وَ إِذْ قالَ متعلّق بفعل محـذوف هو اذكر. قیل: و وجه ذكر هذه القصة فی هذه السورة، أن الیهود لما سألوا النبی صلّی اللّه علیه و سـلّم عن قصة أصـحاب الكهف و قالوا: إن أخبركم فهو نبیّ و إلا فلا. ذكر اللّه قصة موسی و الخضر تنبیها علی أن النبیّ لا یلزمه أن یكون عالما بجمیع القصـص و الأخبار. و قـد اتّفق أهل العلم علی أن موسـی المذكور هو موسـی بن عمران النبیّ المرسـل إلی فرعون، و قـالت فرقـة- لا التفات إلی ما تقوله- منهم نوف البكالی: إنه لیس ابن عمران، و إنما هو موسـی بن میشی بن یوسف بن یعقوب، و كان نبیا قبل موسی بن عمران، و هذا باطل قد ردّه السلف الصالح من الصحابة و من بعدهم كما فی صـحیح البخاری و غیره، و المراد بفتاه هنا هو یوشع بن نون. قال الواحدی: أجمعوا علی أنه یوشع بن نون، و قد مضـی ذكره

فى المائدة، و فى آخر سورة يوسف، و من قال: إن موسى هو ابن ميشى قال: إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع ابن نون. قال الفراء: و إنما سمّى فتى موسى لأنه كان ملازما له يأخذ عنه العلم و يخدمه، و معنى لا أَبْرَحُ لا أزال، و منه قوله: لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ «١». و منه قول الشاعر:

و أبرح ما أدام اللّه قومى بحمد اللّه منتطقا مجيدا

و برح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة، و خبره هنا محذوف اعتمادا على دلالة ما بعده و هو حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ قال الزجاج: لا أبرح بمعنى لا أزال، و قد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه، و لأن قوله: حَتَّى أَبْلُغَ غاية مضروبة، فلا بدّ لها من ذى غاية، فالمعنى: لا أزال أسير إلى أن أبلغ، و يجوز أن يراد لا يبرح مسيرى حتى أبلغ؛ و قيل: معنى لا أبرح: لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين؛ و قيل:

يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى زال يزال، و مجمع البحرين ملتقاهما. قيل: المراد بالبحرين بحر فارس و الروم، و قيل: بحر الأردن و بحر القلزم، و قيل: مجمع البحرين عند طنجة، و قيل: بإفريقية. و قالت طائفة:

المراد بالبحرين موسى و الخضر، و هو من الضعف بمكان، و قد حكى عن ابن عباس و لا يصحّ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً أى: أسير زمانا طويلا. قال الجوهرى: الحقب بالضم ثمانون سنة. و قال النحّاس: الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب و الحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود، كما أن رهطا و قوما منهم غير محدود، و جمعه أحقاب. و سبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام: ما روى أنه سئل موسى من أعلم الناس؟ فقال:

أنا، فأوحى اللّه إليه: إنّ أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين فَلَمَّا بَلَغا أى: موسى و فتاه مَجْمَعَ بَيْنِهِما أى: بين البحرين، و أضيف مجمع إلى الظرف توسّعا، و قيل: البين: بمعنى الافتراق، أى: البحران المفترقان يجتمعان هناك، و قيل: الضمير لموسى و الخضر، أى: وصلا الموضع الذى فيه اجتماع شملهما، و يكون البين على هذا بمعنى الوصل، لأنه من الأضداد، و الأوّل أولى نَسِيا حُوتَهُما قال المفسرون: إنهما تزوّدا حوتا مملّحا فى زنبيل، و كان يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام، و كان قد جعل اللّه فقدانه أمارة لهما على وجدان المطلوب. و المعنى أنهما نسيا تفقّد أمره، و قيل: الذى نسى إنما هو فتى موسى؛ لأنه و كل أمر الحوت إليه، و أمره أن يخبره إذا فقده، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذى فيه الحوت فأحياه اللّه،

---

(١). طه: ٩١.

فتحرّك و اضطرب فى المكتل، ثم انسرب فى البحر، و لهذا قال: فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً انتصاب سربا على أنه المفعول الثانى لاتخذ، أى: اتّخذ سبيلا سربا، و السرب: النّفق الذى يكون فى الأرض للضبّ و نحوه من الحيوانات، و ذلك أن اللّه سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت، فصار كالطاق، فشبّه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه و انجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوّة المحفورة فى الأرض.

قال الفراء: لما وقع فى الماء جمد مذهبه فى البحر فكان كالسرب، فلما جاوزا ذلك المكان الذى كانت عنده الصخرة و ذهب الحوت فيه انطلقا، فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب و الكلال، و لم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه الخضر، و لهذا قال سبحانه: فَلَمَّا جاوَزا أى: مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا و هو ما يؤكل بالغداة، و أراد موسى أن يأتيه بالحوت الذى حملاه معهما لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً أى: تعبا و إعياء، قال المفسرون: الإشارة بقوله سفرنا هذا إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور، فإنهما لم يجدا النصب إلا فى ذلك دون ما قبله قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا

إِلَى الصَّخْرَةِ أى: قال فتى موسى لموسى، و معنى الاستفهام تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر ممّا لا ينسى؛ لأنه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة اللّه الباهرة، و مفعول أ رأيت محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه، و التقدير: أ رأيت ما دهاني، أو نابني في ذلك الوقت و المكان. و تلك الصّخرة كانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد، و إنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمّنة لزيادة تعيين المكان؛ لاحتمال أن يكون المجمع مكانا متّسعا يتناول مكان الصخرة و غيره، و أوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى تقدّم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذى جعلاه زادا لهما، و أمارة لوجدان مطلوبهما. ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان، فقال: وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ بما يقع منه من الوسوسة، و أَنْ أَذْكُرَهُ بدل اشتمال من الضمير فى أنسانيه، و فى مصحف عبد اللّه: «و ما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً انتصاب عجبا على أنه المفعول الثانى كما مرّ فى سربا، و الظرف فى محل نصب على الحال، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس، و موضع التعجّب أن يحيا حوت قد مات و أكل شقّه، ثم يثب إلى البحر، و يبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر، و يحتمل أن يكون من كلام اللّه سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت، فيكون ما بين الكلامين اعتراضا قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ أى: قال موسى لفتاه ذلك الذى ذكرت من فقد الحوت فى ذلك الموضع هو الذى كنّا نطلبه، فإن الرجل الذى نريده هو هنالك فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً أى: رجعا على الطريق التى جاءا منها يقصّان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما، و انتصاب قصصا على أنه مصدر لفعل محذوف، أو على الحال، أى: قاصين أو مقتصين، و القصص فى اللغة: اتباع الأثر فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا هو الخضر فى قول جمهور المفسرين، و على ذلك دلّت الأحاديث الصحيحة، و خالف فى ذلك ما لا يعتدّ بقوله، فقال ليس هو الخضر بل عالم آخر، قيل: سمّى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرّ ما حوله، قيل: و اسمه بليا بن ملكان، ثم وصفه اللّه سبحانه فقال: آتَيْناهُ

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا قيل: الرحمة هى النبوّة، و قيل: النعمة التى أنعم اللّه بها عليه وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً و هو ما علمه اللّه سبحانه من علم الغيب الذى استأثر به. و فى قوله من لدنا تفخيم لشأن ذلك العلم، و تعظيم له. قال الزجاج: و فيما فعل موسى و هو من جملة الأنبياء من طلب العلم، و الرحلة فى ذلك ما يدلّ على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم و إن كان قد بلغ نهايته، و أن يتواضع لمن هو أعلم منه. ثم قصّ اللّه سبحانه علينا ما دار بين موسى و الخضر بعد اجتماعهما فقال: قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً فى هذا السؤال ملاطفة و مبالغة فى حسن الأدب؛ لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه ممّا علمه اللّه من العلم. و الرشد: الوقوف على الخير و إصابة الصواب، و انتصابه على أنه مفعول ثان لتعلمنى، أى: علما ذا رشد أرشد به، و قرئ «رشدا» بفتحتين، و هما لغتان كالبخل و البخل. و فى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم و إن تفاوتت المراتب. و ليس فى ذلك ما يدلّ على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل، و قد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية و القضاء بظاهرها، و كان علم الخضر علم بعض الغيب و معرفة البواطن قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً أى: قال الخضر لموسى: إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى؛ لأن الظواهر التى هى علمك لا توافق ذلك، ثم أكّد ذلك مشيرا إلى علّة عدم الاستطاعة، فقال: وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً أى: كيف تصبر على علم ظاهره منكر، و أنت لا تعلم، و مثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر و الإقرار عليه، و خبرا منتصب على التميز، أى: لم تحط به خبرك، و الخبر: العلم بالشى‌ء، و الخبير بالأمور: هو العالم بخفاياها، و بما يحتاج إلى الاختبار منها قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً أى: قال موسى للخضر: ستجدنى صابرا معك، ملتزما طاعتك وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً فجملة و لا أعصى معطوفة على صابرا، فيكون التقييد بقوله: إن شاء اللّه شاملا للصبر و نفى

المعصية؛ و قيل: إن التقييد بالمشيئة مختصّ بالصبر؛ لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه، و نفى المعصية معزوم عليه فى الحال، و يجاب عنه بأن الصبر، و نفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزوم عليه فى الحال، و فى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل. قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ممّا تشاهده من أفعالى المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذى بعثك اللّه به حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً أى: حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره، و بيان وجهه و ما يؤول إليه، و هذه الجمل المعنونة بقال و قال مستأنفة؛ لأنها جوابات عن سؤالات مقدّرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها ممّا قبلها.

و قد أخرج الدارقطنى فى الأفراد، و ابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحّاك عن ابن عباس قال: الخضر ابن آدم لصلبه، و نسئ له فى أجله، حتى يكذّب الدجّال. و أخرج البخارى و غيره عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّما سمّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تهتزّ من خلفه خضراء». و أخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن مجاهد: إنما سمى الخضر لأنه إذا صلّى اخضرّ ما حوله. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٥٥

فى قوله: لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ قال: بحر فارس و الروم، و هما نحو المشرق و المغرب و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبيّ بن كعب قال: مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ إفريقية. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال: طنجة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً قال: سبعين خريفا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: دهرا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: نَسِيا حُوتَهُما قال: كان مملوحا مشقوق البطن. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً قال: أثره يابس فى البحر كأنه فى حجر. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً قال: عودهما على بدئهما. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا قال: أعطيناه الهدى و النبوة.

و اعلم أنها قد رويت فى قصة الخضر مع موسى المذكورة فى الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، و أتمها و أكملها ما روى عن ابن عباس و لكنها اختلفت فى بعض الألفاظ، و كلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه، و بعضها فى الصحيحين و غيرهما، و بعضها فى أحدهما، و بعضها خارج عنهما. و قد رويت من طريق العوفى عنه كما أخرجه ابن جرير و ابن أبى حاتم، و من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عنه عند ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الخطيب و ابن عساكر، فلنقتصر على الرواية التى هى أتمّ الروايات الثابتة فى الصحيحين، ففى ذلك ما يغنى عن غيره، و هى: قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: إنّ نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدوّ اللّه. حدّثنا أبيّ بن كعب أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب اللّه عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى اللّه إليه: إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل. ثم انطلق و انطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، و اضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر، فاتخذ سبيله فى البحر سربا، و أمسك اللّه عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما و ليلتهما، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه: آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً قال: و لم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره اللّه به، فقال له فتاه: أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً قال: فكان للحوت سربا، و لموسى و فتاه عجبا؛ فقال موسى: ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً قال

سفيان: يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا إلا عاش، قال: و كان الحوت قد أكل منه، فلما قطر عليه الماء عاش، قال: فرجعا يقصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلّم عليه موسى، فقال الخضر: و أنّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۵۶

لتعلّمنى ممّا علّمت رشدا، قال: إنك لن تستطيع معى صبرا، يا موسى إنى على علم من اللّه علّمنيه لا تعلمه أنت، و أنت على علم من اللّه علّمكه اللّه لا أعلمه؛ قال موسى: ستجدنى إن شاء اللّه صابرا و لا أعصى لك أمرا، فقال له الخضر: فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْ‌ءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت بهما سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا و الخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم؛ فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً؟ قال: أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً، قالَ: لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً. قال: و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

فكانت الأولى من موسى نسيانا. قال: و جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ما نقص علمى و علمك من علم اللّه إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذى وقع على حرف السفينة من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده؛ فقتله، فقال موسى: أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً- قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قال: و هذه أشدّ من الأولى. قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْ‌ءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً- فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قال: مائل، فقال خضر بيده هكذا فأقامه، ف قالَ موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا و لم يضيفونا لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً- قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصّ اللّه علينا من خبرهما. قال سعيد بن جبير: و كان ابن عباس يقرأ: «و كان أمامهم ملك يأخذ كلّ سفينة غصبا» و كان يقرأ: «و أما الغلام فكان كافرا و كان أبواه مؤمنين» و بقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب هى موافقة لهذه الرواية فى المعنى، و إن تفاوتت الألفاظ فى بعضها، فلا فائدة فى الإطالة بذكرها، و كذلك روايات غير سعيد عنه.

[سورة الكهف (۱۸): الآيات ۷۱ الى ۸۲]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (۷۱) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۲) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (۷۳) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (۷۴) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۵)

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْ‌ءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (۷۶) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (۷۷) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (۷۸) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (۷۹) وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (۸۰)

فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (۸۱) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ

تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٨٢)

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٥٧

قوله: فَانْطَلَقا أی: موسی و الخضر علی ساحل البحر یطلبان السفینة، فمرّت بهم سفینة فکلّموهم أن یحملوهم فحملوهم حَتَّی إِذا رَکِبا فِی السَّفِینَةِ خَرَقَها قیل: قلع لوحا من ألواحها، و قیل: لوحین ممّا یلی الماء، و قیل: خرق جدار السفینة لیعیبها، و لا یتسارع الغرق إلی أهلها قالَ موسی: أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَیْئاً إِمْراً أی: لقد أتیت أمرا عظیما، یقال: أمر الأمر إذا کبر، و الإمر: الاسم منه. و قال أبو عبیدة: الإمر: الداهیة العظیمة؛ و أنشد:

قد لقی الأقران منّی نکراداهیة دهیاء إدّا «١» إمرا

و قال القتبی: الإمر: العجب. و قال الأخفش: أمر أمره یأمر إذا اشتد، و الاسم الإمر. قرأ حمزة و الکسائی لیغرق أهلها بالیاء التحتیة المفتوحة، و رفع أهلها علی أنه فاعل. و قرأ الباقون بالفوقیة المضمومة و نصب أهلها علی المفعولیة قالَ أی: الخضر أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً أذکره ما تقدم من قوله له سابقا: إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً ف قالَ له موسی لا تُؤاخِذْنِی بِما نَسِیتُ یحتمل أن تکون ما مصدریة، أی: لا تؤاخذنی بنسیانی أو موصولة، أی: لا تؤاخذنی بالذی نسیته، و هو قول الخضر: فَلا تَسْئَلْنِی عَنْ شَیْ‌ءٍ حَتَّی أُحْدِثَ لَکَ مِنْهُ ذِکْراً فالنسیان إمّا علی حقیقته علی تقدیر أن موسی نسی ذلک، أو بمعنی الترک علی تقدیر أنه لم ینس ما قاله له، و لکنه ترک العمل به وَ لا تُرْهِقْنِی مِنْ أَمْرِی عُسْراً قال أبو زید: أرهقته عسرا: إذا کلفته ذلک، و المعنی عاملنی بالیسر لا بالعسر. و قرئ عسرا بضمتین فَانْطَلَقا حَتَّی إِذا لَقِیا غُلاماً فَقَتَلَهُ أی: الخضر، و لفظ الغلام یتناول الشاب البالغ کما یتناول الصغیر، قیل: کان الغلام یلعب مع الصبیان فاقتلع الخضر رأسه قالَ موسی أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَکِیَّةً بِغَیْرِ نَفْسٍ قرأ نافع و ابن کثیر و أبو عمرو و أبو جعفر و أویس بألف بعد الزای و تخفیف الیاء اسم فاعل.

و قرأ الباقون بتشدید الیاء من دون ألف، الزاکیة: البریئة من الذنوب. قال أبو عمرو: الزاکیة: التی لم تذنب، و الزکیة: التی أذنبت ثم تابت. و قال الکسائی: الزاکیة و الزکیة لغتان. و قال الفراء: الزاکیة و الزکیة مثل القاسیة و القسیّة، و معنی بِغَیْرِ نَفْسٍ بغیر قتل نفس محرّمة حتی یکون قتل هذه قصاصا لَقَدْ جِئْتَ شَیْئاً نُکْراً أی: فظیعا منکرا لا یعرف فی الشرع. قیل: معناه أنکر من الأمر الأوّل لکون القتل لا یمکن تدارکه، بخلاف نزع اللوح من السفینة فإنه یمکن تدارکه بإرجاعه؛ و قیل: النکر أقلّ من الأمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفینة. قیل: استبعد موسی أن یقتل نفسا بغیر نفس، و لم یتأوّل للخضر بأنه یحلّ القتل بأسباب أخری قالَ الخضر أَ لَمْ أَقُلْ لَکَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً زاد هنا لفظ لک؛ لأن سبب العتاب أکثر، و موجبه أقوی؛ و قیل: زاد لفظ لک لقصد التأکید کما تقول لمن توبّخه:

---

(١). فی المطبوع: و أمرا، و المثبت من مجاز القرآن (١/ ٤٠٩) و تفسیر القرطبی (١١/ ١٩)

فتح القدیر، ج٣، ص: ٣٥٨

لک أقول و إیاک أعنی قالَ موسی إِنْ سَأَلْتُکَ عَنْ شَیْ‌ءٍ بَعْدَها أی: بعد هذه المرّة، أو بعد هذه النفس المقتولة فَلا تُصاحِبْنِی أی: لا تجعلنی صاحبا لک، نهاه عن مصاحبته مع حرصه علی التعلم لظهور عذره، و لذا قال: قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّی عُذْراً یرید أنک قد أعذرت حیث خالفتک ثلاث مرّات، و هذا کلام نادم شدید الندامة، اضطره الحال إلی الاعتراف و سلوک سبیل الإنصاف. قرأ الأعرج تصحبنی بفتح التاء و الباء و تشدید النون. و قرأ الجمهور تُصاحِبْنِی و قرأ یعقوب تصحبنی بضم التاء و کسر الحاء و رواها سهل عن أبی عمرو. قال الکسائی: معناه لا تترکنی أصحبک. و قرأ الجمهور لَدُنِّی بضم الدال إلا أن نافعا و عاصما خففا النون، و شددها الباقون. و قرأ أبو بکر عن عاصم لَدُنِّی بضم اللام و سکون الدال. قال ابن مجاهد: و هی غلط. قال أبو علیّ: هذا

التغليط لعلّه من جهـة الروايـة، فأما على قياس العربيـة فصـحيحة. و قرأ الجمهور عُـذْراً بسـكون الذال. و قرأ عيسـى بن عمر بضـم الذال. و حكى الدّانى أن أبيّا روى عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم بكسـر الراء و ياء بعدها، بإضافة العذر إلى نفسه فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ قيل: هى أيلة، و قيل: أنطاكية، و قيل: برقة، و قيل: قرية من قرى أذربيجان، و قيل: قرية من قرى الروم اسْتَطْعَما أَهْلَها هذه الجملة فى محلّ الجر على أنها صـفة لقرية، و وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد، أو لكراهة اجتماع الضميرين فى هـذه الكلمـة لما فيه من الكلفـة، أو لزيادة التشـنيع على أهل القرية بإظهارهم فَأَبَوْا أَنْ يُضَـيِّفُوهُما أى: أبوا أن يعطوهما ما هو حقّ واجب عليهم من ضـيافتهما، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال و حلّ الكدية «١» فقد أخطأ خطأ بينا، و من ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس:

فإن رددت فما فى الرّدّ منقصةعلىّ قد ردّ موسى قبل و الخضر

و قد ثبت فى السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة فَوَجَدا فِيها أى:

فى القرية جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز. قال الزجّاج: الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة، و منه قول الرّاعى:

فى مهمه فلقت به هاماتهافلق الفؤوس إذا أردن نصولا

و معنى الانقضاض: السـقوط بسـرعة، يقال: انقضّ الحائط إذا وقع، و انقضّ الطائر: إذا هوى من طيرانه فسقط على شىء، و معنى فأقامه: فسوّاه؛ لأنه وجده مائلا فردّه كما كان، و قيل: نقضه و بناه، و قيل:

أقامه بعمود، و قد تقدّم فى الحديث الصـحيح أنه مسـحه بيده قالَ موسى لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً أى: على إقامته و إصلاحه، تحريضا من موسـى للخضـر على أخـذ الأجر. قال الفراء: معناه لو شـئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر، قرأ أبو عمرو و يعقوب و ابن كثير و ابن محيصن و اليزيـدى و الحسن «لتخـذت» يقال: تخذ فلان يتخذ تخذا مثل اتخذ. و قرأ الباقون لَاتَّخَذْتَ قالَ الخضـر هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ

---

(١). «الكدية»: تكفّف الناس و الاستجداء.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٥٩

على إضافة فراق إلى الظرف اتساعا، أى: هـذا الكلام و الإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا. قال الزجاج: المعنى هذا فراق بيننا، أى: هـذا فراق اتصالنا، و كرّر بين تأكيـدا، و لما قال الخضـر لموسـى بهـذا أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسـببه تلك الأفعال التى أنكرها موسـى فقال: سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْـتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً و التأويل: رجوع الشـىء إلى مآله. ثم شرع فى البيان له فقال: أَمَّا السَّفِينَةُ يعنى التى خرقها فَكانَتْ لِمَساكِينَ لضعفاء لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ و لم يكن لهم مال غير تلك السـفينة يكرونها من الـذى يركبون البحر و يأخـذون الأجرة، و قـد اسـتدلّ الشافعى بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها أى: أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ قال المفسرون: يعنى أمامهم، و وراء يكون بمعنى أمام، و قـد مرّ الكلام على هذا فى قوله: وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ «١» و قيل: أراد خلفهم، و كان طريقهم فى الرجوع عليه، و ما كان عنـدهم خبر بأنه يَأْخُذُ كُلَّ سَـفِينَةٍ غَصْـباً أى كل سـفينة صالحـة لا معيبة، و قد قرئ بزيادة «صالحة» روى ذلك عن أبىّ و ابن عباس. و قرأ جماعة بتشديد السـين من مساكين، و اختلف فى معناها، فقيل: هم ملاحو السـفينة، و ذلك أن المساك هو الـذى يمسك السـفينة، و الأظهر قراءة الجمهور: بالتخفيف وَ أَمَّا الْغُلامُ يعنى الذى قتله فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ أى: و لم يكن هو كذلك فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما أى: يرهق الغلام أبويه، يقال: رهقه، أى: غشيه، و أرهقه: أغشاه. قال المفسرون: معناه خشينا

أن يحملهما حبه على أن يتبعاه فى دينه، و هو الكفر، و طُغْياناً مفعول يرهقهما وَ كُفْراً معطوف عليه، و قيل: المعنى: فخشينا أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما و كفرا لنعمتهما بعقوقه. قيل: و يجوز أن يكون فخشينا من كلام اللّه، و يكون المعنى: كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره، و هذا ضعيف جدا، فالكلام كلام الخضر. و قد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلّة، فقيل: إنه كان بالغا، و قد استحقّ ذلك بكفره، و قيل: كان يقطع الطريق فاستحقّ القتل لذلك، و يكون معنى فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً: أنّ الخضر خاف على الأبوين أن يذبّا عنه و يتعصّبا له فيقعا فى المعصية، و قد يؤدّى ذلك إلى الكفر و الارتداد. و الحاصل أنه لا إشكال فى قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا، أو قاطعا للطريق، هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، و يمكن أن يكون للخضر شريعة من عند اللّه سبحانه تسوّغ له ذلك، و أما إذا كان الغلام صبيا غير بالغ، فقيل: إن الخضر علم بإعلام اللّه له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبّب عن كفره إضلال أبويه و كفرهما، و هذا و إن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه، فإن قتل من لا ذنب له و لا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحلّ فى الشريعة المحمدية، و لكنه حلّ فى شريعة أخرى، فلا إشكال. و قد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبيا فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة و تشديد الدال. و قرأ عاصم و ابن عامر و أبو جعفر و يعقوب بسكون الباء و تخفيف الدال، و المعنى: أردنا أن يرزقهما اللّه بدل هذا الولد ولدا خيرا منه زَكاةً أى: دينا و صلاحا

---

(١). إبراهيم: ١٧.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٠

و طهارة من الذنوب وَ أَقْرَبَ رُحْماً قرأ ابن عباس و حمزة و الكسائى و ابن كثير و ابن عامر رُحْماً بضم الحاء. و قرأ الباقون بسكونها، و معنى الرحم: الرحمة، يقال: رحمه اللّه رحمة و رحمى، و الألف للتأنيث وَ أَمَّا الْجِدارُ يعنى الذى أصلحه فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ هى القرية المذكورة سابقا، و فيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قيل: كان مالا- جسيما كما يفيده اسم الكنز، إذ هو المال المجموع. قال الزجّاج: المعروف فى اللغة أن الكنز إذا أفرد؛ فمعناه المال المدفون، فإذا لم يكن مالا قيل: كنز علم و كنز فهم؛ و قيل: لوح من ذهب؛ و قيل: صحف مكتوبة وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه و حفظ مالهما، قيل: هو الذى دفنه، و قيل هو الأب السابع من عند الدافن له، و قيل العاشر فَأَرادَ رَبُّكَ أى: مالكك و مدبّر أمرك، و أضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفا له أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما أى: كمالهما و تمام نموّهما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما من ذلك الموضع الذى عليه الجدار، و لو انقضّ لخرج الكنز من تحته رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لهما، و هو مصدر فى موضع الحال، أى:

مرحومين من اللّه سبحانه وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي أى: عن اجتهادى و رأيى، و هو تأكيد لما قبله، فقد علم بقوله: فَأَرادَ رَبُّكَ أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً أى: ذلك المذكور من تلك البيانات التى بينتها لك و أوضحت وجوهها تأويل ما ضاق صبرك عنه و لم تطق السكوت عليه؛ و معنى التأويل هنا هو المآل الذى آلت إليه تلك الأمور، و هو اتّضاح ما كان مشتبها على موسى و ظهور وجهه، و حذف التاء من تسطع تخفيفا.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً يقول: نكرا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِمْراً فقال: عجبا. و أخرج ابن جرير عن أبيّ بن كعب فى قوله: لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ قال: لم ينس، و لكنها من معاريض الكلام. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: كان الخضر عبدا لا تراه الأعين، إلا من أراد اللّه أن يريه إياه، فلم يره من

القوم إلا موسى، و لو رآه القوم لحالوا بينه و بين خرق السفينة و بين قتل الغلام. و أقول: ينبغى أن ينظر من أين له هذا؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله:

و لو رآه القوم إلخ، فليس ذلك بموجب لما ذكره، أما أوّلا فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة و أهل الغلام، لا لكونه لا تراه الأعين، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم. و أما ثانيا فيمكن أن أهل السفينة و أهل الغلام قد عرفوه و عرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من اللّه كما يفعل الأنبياء، فسلموا لأمر اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: نَفْساً زَكِيَّةً قال: مسلمة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، قال: لم تبلغ الخطايا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن الحسن نحوه. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: شَيْئاً نُكْراً قال: النكر: أنكر من العجب. و أخرج أحمد عن عطاء قال: كتب نجدة الحرورى إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان، فكتب إليه إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم. و زاد ابن أبى شيبة من طريق أخرى

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۶۱

عنه: و لكنك لا تعلم، قد نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قتلهم فاعتزلهم. و أخرج مسلم و أبو داود و الترمذى، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا، و لو أدرك لأرهق أبويه طغيانا و كفرا. و أخرج أبو داود و الترمذى و عبد اللّه بن أحمد و البزار و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه عن أبىّ أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً مثقلة. و أخرج ابن مردويه عن أبىّ أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: أَنْ يُضَيِّفُوهُما مشددة. و أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قرأ: فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فهدمه، ثم قعد يبنيه. قلت: و رواية الصحيحين التى قدّمناها أنه مسحه بيده أولى. و أخرج الفريابى فى معجمه، و ابن حبان و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبىّ أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً مخففة. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و الترمذى و النسائى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «رحمة اللّه علينا و على موسى، لو صبر لقصّ اللّه علينا من خبره، و لكن قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ: و كان أمامهم ملك يأخذ كلّ سفينة صالحة غصبا. و أخرج ابن الأنبارى عن أبىّ بن كعب أنه قرأها كذلك. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن أبى الزاهرية قال: كتب عثمان «و كان وراءهم ملك يأخذ كلّ سفينة صالحة غصبا».

و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «و أما الغلام فكان كافرا و كان أبواه مؤمنين». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: هى فى مصحف عبد اللّه «فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا و كفرا». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

خَيْراً مِنْهُ زَكاةً قال: دينا وَ أَقْرَبَ رُحْماً قال: مودّة، فأبدلا جارية ولدت نبيا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قال: كان الكنز لمن قبلنا و حرّم علينا، و حرّمت الغنيمة على من كان قبلنا و أحلّت لنا، فلا يعجبنّ الرجل، فيقول: فما شأن الكنز؟ أحلّ لمن قبلنا و حرّم علينا؟ فإن اللّه يحل من أمره ما يشاء و يحرّم ما يشاء، و هى السنن و الفرائض، يحلّ لأمة و يحرّم على أخرى. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الترمذى و حسّنه، و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى الدرداء عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قال:

«ذهب و فضة». و أخرج الطبرانى عن أبى الدرداء فى قوله: وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قال: أحلّت لهم الكنوز و حرّمت عليهم الغنائم، و أحلت لنا الغنائم، و حرّمت علينا الكنوز. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى ذرّ رفعه قال: إن الكنز الذى ذكره اللّه فى كتابه لوح من ذهب مصمت فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب، و عجبت لمن ذكر النار ثم ضحك، و عجبت لمن ذكر الموت ثم غفل، لا- إله إلا- اللّه محمد رسول اللّه. و فى نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلّق بذكرها فائدة. و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و الحميدى فى مسنده، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٢

قوله: وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً قال: حفظا بصلاح أبيهما. و أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه عزّ و جلّ يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده و ولد ولده و أهل دويرته و أهل دويرات حوله، فما يزالون فى حفظ اللّه تعالى ما دام فيهم». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: إن اللّه يصلح بصلاح الرجل ولده و ولد ولده و يحفظه فى دويرته، و الدويرات حوله، فما يزالون فى ستر من اللّه و عافية.

و أخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر و قد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: إنه شرب من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، و ذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه. قال ابن كثير: إسناده ضعيف، الحسن متروك، و أبوه غير معروف.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ٩١]

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (٨٧)

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (٩٠) كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (٩١)

لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود، و انتهى الكلام إلى حيث انتهى؛ شرع سبحانه فى السؤال الثالث و الجواب عنه، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود.

و اختلفوا فى ذى القرنين اختلافا كثيرا؛ فقيل: هو الإسكندر بن فيلقوس؛ الذى ملك الدنيا بأسرها؛ اليونانى بانى الإسكندرية. و قال ابن إسحاق: هو رجل من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مردبة اليونانى، من ولد يونان بن يافث بن نوح. و قيل: هو ملك اسمه هرمس، و قيل: ملك اسمه هرديس، و قيل: شاب من الروم، و قيل: كان نبيا، و قيل: كان عبدا صالحا، و قيل: اسمه عبد اللّه بن الضحاك، و قيل: مصعب بن عبد اللّه، من أولاد كهلان بن سبأ. و حكى القرطبى عن السهيلى أنه قال: إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام، و الآخر كان قريبا من عيسى عليه السلام. و قيل: هو أبو كرب الحميرى، و قيل: هو ملك من الملائكة، و رجّح الرازى القول الأوّل، قال: لأن من بلغ ملكه من السعة و القوّة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التاريخ، قال:

فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: و فيه إشكال لأنه كان تلميذا لأرسطاطاليس الحكيم، و كان على مذهبه، فتعظيم اللّه إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق و صدق، و ذلك ممّا لا سبيل إليه.

قال النيسابورى: قلت: ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا و ترك ما كدر و اللّه أعلم. و رجّح ابن كثير ما ذكره السّهيلى أنهما اثنان كما قدّمنا ذلك، و بيّن أن الأوّل طاف بالبيت مع إبراهيم أوّل ما بناه و آمن به و اتبعه، و كان وزيره الخضر. و أما الثانى فهو الإسكندر المقدونى اليونانى، و كان وزيره

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٣

الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس، و كان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة. فأما الأوّل المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل، هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الأزرقى و غيره؛ ثم قال: و قد ذكرنا طرفا صالحا من أخباره فى كتاب «البداية و النهاية» بما فيه كفاية. و حكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير أنه قال: و إنّما بينا هذا؛ يعنى أنهما اثنان؛ لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد، و أن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير و فساد كثير، كيف لا، و الأوّل كان عبدا صالحا مؤمنا، و ملكا عادلا، و وزيره الخضر، و قد قيل: إنه كان نبيا. و أما الثانى فقد كان كافرا، و وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف، و كان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة، فأين هذا من ذاك؟ انتهى. قلت: لعله ذكر هذا فى الكتاب الذى ذكره سابقا، و سمّاه بالبداية و النهاية، و لم يقف عليه، و الذى يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلى و الأزرقى و ابن كثير و غيرهم، لا كما ذكره الرازى و ادّعى أنه الذى تشهد به كتب التواريخ، و قد وقع الخلاف هل هو نبيّ أم لا؟ و سيأتى ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء اللّه.

و أما السبب الذى لأجله سمّى ذا القرنين، فقال الزجّاج و الأزهرى: إنما سمّى ذا القرنين، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها، و قرن الشمس من مغربها، و قيل: إنه كان له ضفيرتان من شعر، و الضفائر تسمّى قرونا، و منه قول الشاعر «١»:

فلثمت فاها آخذا بقرونهاشرب النّزيف «٢» ببرد ماء الحشرج

و الحشرج: ماء من مياه العرب؛ و قيل: إنه رأى فى أوّل ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس فسمى بذلك؛ و قيل: كان له قرنان تحت عمامته؛ و قيل: إنه دعا إلى اللّه فشجّه قومه على قرنه، ثم دعا إلى اللّه فشجوه على قرنه الآخر؛ و قيل: إنما سمّى بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه و أمه؛ و قيل: لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس و هو حيّ؛ و قيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه و ركابيه جميعا؛ و قيل: لأنه أعطى علم الظاهر و الباطن؛ و قيل: لأنه دخل النور و الظلمة؛ و قيل: لأنه ملك فارس و الروم؛ و قيل: لأنه ملك الروم و الترك؛ و قيل: لأنه كان لتاجه قرنان. قوله: قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً أى: سأتلو عليكم أيها السائلون من ذى القرنين خبرا، و ذلك بطريق الوحى المتلوّ. ثم شرع سبحانه فى بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا، فقال: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ أى: أقدرناه بما مهّدنا له من الأسباب، فجعلنا له مكنة و قدرة على التصرّف فيها، و سهّل عليه المسير فى مواضعها، و ذلّل له طرقها حتى تمكّن منها أين شاء و كيف شاء؟ و من جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل و النهار سواء فى الإضاءة وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ممّا يتعلّق بمطلوبه سَبَباً أى: طريقا يتوصّل بها إلى ما يريده فَأَتْبَعَ سَبَباً من تلك الأسباب. قال المفسرون: و المعنى طريقا تؤديه إلى مغرب الشمس. قال الزجاج: فاتبع سببا من

---

(١). هو عمر بن أبى ربيعة.

(٢). «النزيف»: المحموم الذى منع من الماء.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٤

الأسباب التى أوتى، و ذلك أنه أوتى من كل شيء سببا، فاتبع من تلك الأسباب التى أوتى سببا فى المسير إلى المغرب، و قيل: اتبع من كل شيء علما يتسبّب به إلى ما يريد؛ و قيل: بلاغا إلى حيث أراد؛ و قيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق، و قيل: من

كل شـىء تستعين به الملوك من فتح المدائن و قهر الأعداء. و أصل السبب الحبل، فاستعير لكل ما يتوصّل به إلى شىء. قرأ ابن عـامر و أهـل الكوفـة و عـاصم و حمزة و الكسائى فَأَتْبَعَ بقطع الهمزة، و قرأ أهل المدينـة و أهل مكـة و أبو عمرو بوصـلها. قال الأخفش: تبعته و أتبعته بمعنى، مثل ردفته و أردفته، و منه قوله: فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ «١». قال النحّاس: و اختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال:

لأنهـا مـن السّـير. و حكى هـو و الأصـمعى أنه يقـال: تبعه و اتّبعه إذا سـار و لم يلحقه، و أتبعه إذا لحقه. قـال أبـو عبيـدة: و مثله: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ «٢» .. قال النحاس: و هـذا من الفرق و إن كان الأصـمعى قد حكاه فلا يقبل إلا بعلّة أو دليل، و قوله عزّ و جلّ: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ليس فى الحديث أنهم لحقوهم، و إنما الحديث لما خرج موسى و أصحابه من البحر و حصر فرعون و أصحابه فى البحر انطبـق عليهم البحر. و الحقّ فى هـذا أن تبـع و اتّبـع و أتبع لغـات بمعنى واحـد، و هو بمعنى السّـير حَـتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ أى: نهاية الأرض من جهة المغرب؛ لأنّ من وراء هذه النهاية البحر المحيط، و هو لا يمكن المضىّ فيه وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ قرأ ابن عامر و عاصم و حمزة و الكسائى حامية: أى حارة. و قرأ الباقون حَمِئَةٍ أى: كثيرة الحمأة، و هى الطينة السوداء، تقول: حمـأت البئر حمـأ بالتسـكين إذا نزعت حمأتها، و حمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها، و يجوز أن تكون حاميـة من الحمـأة، فخففت الهمزة و قلبت يـاء، و قـد يجمع بين القراءتين فيقـال كـانت حـارة و ذات حمـأة. قيـل: و لعـل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كـذلك فى نظره؛ و لا يبعد أن يقال: لا مانع من أن يمكنه اللّه من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التى تغرب فيها الشمس «٣»، و ما المانع من هذا بعد أن حكى اللّه عنه أنه بلغ مغرب الشـمس، و مكّن له فى الأرض و البحر من جملتها، و مجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً الضـمير فى عندها إما للعين أو للشـمس. قيل: هم قوم لباسـهم جلود الوحش، و كانوا كفارا، فخيّره اللّه بين أن يعذّبهم و بين أن يتركهم، فقال: إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْـناً أى: إما أن تعذّبهم بالقتل من أوّل الأمر، و إما أن تتّخذ فيهم أمرا ذا حسن، أو أمرا حسنا، مبالغة بجعل المصـدر صـفة للأـمر، و المراد دعوتهم إلى الحق و تعليمهم الشـرائع. قـالَ ذو القرنين مختـارا للـدعوة الـتى هى الشق الأـخير من الترديـد أَمَّا مَنْ ظَلَمَ نفسه بالإصـرار على الشـرك و لم يقبـل دعـوتى فَسَوْفَ نُعَـذِّبُهُ بالقتـل فى الـدنيا ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فى الآـخرة فَيُعَذِّبُهُ فيها عَذاباً نُكْراً أى: منكرا فظيعا. قال الزجّاج: خيّره اللّه بين الأمرين. قال النحّاس: و ردّ علىّ بن سـليمان قوله لأنه لم يصحّ أن ذا القرنين نبىّ فيخاطب بهـذا، فكيف يقول لربه عزّ و جلّ: ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ و كيف يقول فَسَوْفَ نُعَـذِّبُهُ فيخاطبه بالنون، قال: و التقدير قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين. قال النحّاس: و هذا الذى ذكره لا يلزم لجواز أن يكون اللّه عزّ و جلّ خاطبه

---

(١). الحجر: ١٨.

(٢). الشعراء: ٦٠.

(٣). القول الأول هو السديد الذى يتطابق مع الحقيقة العلمية.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٥

على لسـان نبىّ فى وقته، و كـأن ذا القرنين خـاطب أولئـك القوم فلا يلزم ما ذكره. و يمكن أن يكون مخاطبا للنبىّ الـذى خاطبه اللّه على لسـانه، أو خـاطب قومه الـذين وصـل بهم إلى ذلك الموضع. قال ثعلب: إنّ فى قوله: إِمَّا أَنْ تُعَـذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِـذَ فى موضع نصب، و لو رفعت لكان صوابا بمعنى فأما هو، كقول الشاعر:

فسيرا فإمّا حاجة تقضيانهاو إمّا مقيل صالح و صديق

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ بـاللّه و صـدّق دعوتى وَ عَمِـلَ عملاـ صالِحاً ممّا يقتضـيه الإيمان فَلَهُ جَزاءً الْحُسْـنى قرأ أهل المدينـة و أبو عمرو و

عاصم و ابن كثير و ابن عامر فَلَهُ جَزاءً بالرفع على الابتداء، أى: جزاء الخصلة الحسنى عند اللّه، أو الفعلة الحسنى و هى الجنة، قاله الفرّاء. و إضافة الجزاء إلى الحسنى التى هى الجنة كإضافة حق اليقين و دار الآخرة، و يجوز أن يكون هذا الجزاء من ذى القرنين، أى: أعطيه و أتفضّل عليه، و قرأ سائر الكوفيين فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى بنصب جزاء و تنوينه. قال الفراء: انتصابه على التمييز. و قال الزجاج: هو مصدر فى موضع الحال، أى: مجزيا بها جزاء، و قرأ ابن عباس و مسروق بنصب جَزاءً من غير تنوين. قال أبو حاتم: هى على حذف التنوين لالتقاء الساكنين. قال النحّاس: و هذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين. و قرئ برفع جزاء منوّنا على أنه مبتدأ، و الحسنى بدل منه و الخبر الجارّ و المجرور وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً أى: ممّا نأمر به قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغة ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً أى: طريقا آخر غير الطريق الأولى، و هى التى رجع بها من المغرب، و سار فيها إلى المشرق حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ أى: الموضع الذى تطلع عليه الشمس أوّلا من معمور الأرض، مكان طلوع، لعدم المانع شرعا و لا عقلا من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً يسترهم، لا من البيوت و لا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شىء من العمارة. قيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرّ عليها البناء كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً أى: كذلك أمر ذى القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ، و قد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك و الاستقلال به؛ و قيل: المعنى: لم نجعل لهم سترا مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الأبنية و الثياب؛ و قيل: المعنى: كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها؛ و قيل:

المعنى: كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم، فقضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين و الإحسان إلى المؤمنين، و يكون تأويل الإحاطة بما لديه فى هذه الوجوه على ما يناسب ذلك، كما قلنا فى الوجه الأوّل.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: قالت اليهود للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: يا محمد إنك إنما تذكر إبراهيم و موسى و عيسى و النبيين، إنك سمعت ذكرهم منّا، فأخبرنا عن نبىّ لم يذكره اللّه فى التوراة إلا فى مكان واحد، قال: و من هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغنى عنه شىء، فخرجوا فرحين قد غلبوا فى أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ و أخرج عبد الرزاق

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۶۶

و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم، و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما أدرى أتبع كان نبيا أم لا؟ و ما أدرى أ ذو القرنين كان نبيا أم لا؟ و ما أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا؟». و أخرج ابن مردويه عن سالم بن أبى الجعد قال: سئل علىّ عن ذى القرنين أ نبىّ هو؟ قال: سمعت نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «هو عبد ناصح اللّه فنصحه». و أخرج ابن عبد الحكم فى «فتوح مصر»، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن أبى عاصم فى السّنّة، و ابن مردويه من طريق أبى الطفيل أن ابن الكواء سأل علىّ بن أبى طالب عن ذى القرنين: أ نبيا كان أم ملكا؟ قال: لم يكن نبيا و لا ملكا، و لكن كان عبدا صالحا أحبّ اللّه فأحبه اللّه، و نصح للّه فنصحه اللّه، بعثه اللّه إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه اللّه لجهادهم، ثم بعثه اللّه إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات، فأحياه اللّه لجهادهم، فلذلك سمّى ذا القرنين، و إن فيكم مثله. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمرو قال: ذو القرنين نبىّ.

و أخرج ابن أبى حاتم عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن ذى القرنين فقال: «هو ملك مسح الأرض بالأسباب». و أخرج ابن عبد الحكم فى «فتوح مصر»، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن خالد بن معدان الكلاعى مرفوعا مثله. و أخرج ابن عبد الحكم و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب «الأضداد»، و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا ينادى بمنى:

يا ذا القرنين، فقال عمر: ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالكم و أسماء الملائكة؟ و في الباب غير ما ذكرناه مما يغنى عنه ما قد أوردناه. و قد أخرج ابن عبد الحكم في «فتوح مصر»، و ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الدلائل، عن عقبة بن عامر الجهنى حديثا يتضمّن أن نفرا من اليهود سألوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذى القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء، و كان فيما أخبرهم به أنه كان شابا من الروم، و أنه بنى الإسكندرية، و أنه علا به ملك فى السماء، و ذهب به إلى السدّ. و إسناده ضعيف، و فى متنه نكارة، و أكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل، ذكر معنى هذا ابن كثير فى تفسيره و عزاه إلى ابن جرير و الأموى فى مغازيه؛ ثم قال بعد ذلك: و العجب أن أبا زرعة الرازى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه «دلائل النبوّة» انتهى.

و قد ساقه بتمامه السيوطى فى «الدرّ المنثور»، و ساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه و عزاه إلى ابن إسحاق و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و الشيرازى فى الألقاب؛ و أبى الشيخ، و فيه أشياء منكرة جدّا، و كذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم و أبو الشيخ، و لعل هذه الأخبار و نحوها منقولة عن أهل الكتاب، و قد أمرنا بأن لا نصدقهم و لا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً قال: علما. و أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا، قال له كعب:

إن كنت قلت ذلك فإن اللّه قال: وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق عثمان بن حاضر «١» أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبي

---

(١). فى المطبوع: عثمان بن أبي حاضر، قال ابن حجر فى التقريب (٢/ ٧): و هو و هم.

سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف «تغرب فى عين حامية» قال ابن عباس: فقلت لمعاوية ما نقرؤها إلا حَمِئَةٍ فسأل معاوية عبد بن عمرو كيف تقرؤها؟ فقال عبد اللّه: كما قرأتها، قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: فى بيتى نزل القرآن، فأرسل إلى كعب، فقال له: أين تجد الشمس تغرب فى التوراة؟ فقال له كعب:

سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، و أما أنا فإنى أجد فى التوراة فى ماء و طين، و أشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أنى عند كما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة فى حمئة: قال ابن عباس: و ما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين فى كلفه بالعلم و اتّباعه إياه:

قد كان ذو القرنين عمرو مسلماملكا تذلّ له الملوك و تحسد

فأتى المشارق و المغارب يبتغىأسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبهافى عين ذى خلب و ثأط حرمد

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم، قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود؛ فدعا ابن عباس غلاما فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل. و أخرج الترمذى و أبو داود الطيالسى و ابن جرير و ابن المنذر عن أبىّ بن كعب أن النبى كان يقرأ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ. و أخرج الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا مثله.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٢ الى ٩٨]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦)

فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)

ثم حكى سبحانه سفر ذى القرنين إلى ناحية أخرى، و هى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه، فقال:

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً أى: طريقا ثالثا معترضا بين المشرق و المغرب حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حفص و ابن محيصن و يحيى اليزيدى و أبو زيد عن المفضل بفتح السين. و قرأ الباقون بضمها.

قال أبو عبيدة و ابن الأنبارى و أبو عمرو بن العلاء: السد إن كان بخلق اللّه سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول، أى: هو مما فعله اللّه و خلقه، و إن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا. و قال ابن الأعرابى: كل ما قابلك فسدّ ما وراءه فهو سدّ و سدّ نحو الضّعف و الضّعف، و الفقر و الفقر، و السدّان هما جبلان من قبل أرمينية و أذربيجان، و انتصاب بين على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية فى قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ «١». و قيل: موضع بين السدّين هو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية و أذربيجان.

---

(١). الأنعام: ٩٤.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٦٨

و حكى ابن جرير فى «تاريخه» أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنسانا من ناحية الجزر فشاهده، و وصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع، و وَجَدَ مِنْ دُونِهِما أى: من ورائهما مجازا عنهما، و قيل: أمامهما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قرأ حمزة و الكسائى يفقهون بضم الياء و كسر القاف من أفقه إذا أبان، أى: لا يبينون لغيرهم كلاما، و قرأ الباقون بفتح الياء و القاف، أى: لا يفهمون كلام غيرهم، و القراءتان صحيحتان، و معناهما لا يفهمون عن غيرهم و لا يفهمون غيرهم، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم قالُوا أى: هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا، قيل: إن فهم ذى القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التى أعطاه اللّه، و قيل: إنهم قالوا ذلك لترجمانهم، فقال لذى القرنين بما قالوا له: يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ يأجوج و مأجوج اسمان عجميان بدليل منع صرفهما، و به قال الأكثر.

و قيل: مشتقان من أجّ الظليم فى مشيه إذا هرول، و تأججت النار إذا تلهبت، قرأهما الجمهور غير همز، و قرأ عاصم بالهمز. قال ابن الأنبارى: وجه همزهما و إن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم: كبأثت و رثأت و استشأت الريح. قال أبو على: يجوز أن يكونا عربيين، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل يربوع، و من لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل رأس. و أما مأجوج، فهو مفعول من أجّ، و الكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق. قال: و ترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث و التعريف كأنه اسم للقبيلة.

و اختلف فى نسبهم؛ فقيل: هم من ولد يافث بن نوح، و قيل يأجوج من الترك و مأجوج من الجيل و الديلم. و قال كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبى: و هذا فيه نظر، لأنّ الأنبياء لا يحتلمون، و إنما هم من ولد يافث، كذلك قال مقاتل و غيره.

و قد وقع الخلاف فى صفتهم؛ فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث و قصر القامة، و منهم من يصفهم بكبر الجثث و طول القامة، و منهم من يقول لهم مخالب كمخالب السباع، و إن منهم صنفا يفترش إحدى أذنيه و يلتحف بالأخرى، و لأهل العلم من السلف و من بعدهم أخبار مختلفة فى صفاتهم و أفعالهم.

و اختلف فى إفسادهم فى الأرض، فقيل: هو أكل بنى آدم، و قيل: هو الظلم و الغشم و القتل و سائر وجوه الإفساد؛ و قيل: كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذى القرنين فى أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذى القرنين.

و قرئ خراجا. قال الأزهرى: الخراج يقع على الضريبة، و يقع على مال الفىء، و يقع على الجزية، و على الغلّة. و الخراج أيضا: اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال، و الخرج المصدر. و قال قطرب: الخرج الجزية، و الخراج فى الأرض؛ و قيل: الخرج ما يخرجه كل أحد من ماله، و الخراج: ما يجبيه السلطان؛ و قيل:

هما بمعنى واحد عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا أى: ردما حاجزا بيننا و بينهم. و قرئ سدّا بفتح السين.

قال الخليل و سيبويه: الضم هو الاسم، و الفتح المصدر. و قال الكسائى: الفتح و الضم لغتان بمعنى واحد، و قد سبق قريبا ما حكيناه عن أبى عمرو بن العلاء و أبى عبيدة و ابن الأنبارى من الفرق بينهما. و قال ابن أبى

فتح القدير، ج‏3، ص: 369

إسحاق: ما رأته عيناك فهو سدّ بالضم، و ما لا ترى فهو سدّ بالفتح، و قد قدّمنا بيان من قرأ بالفتح و بالضم فى السدّين قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي أى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه اللّه لى من القدرة و الملك خَيْرٌ من خرجكم، ثم طلب منهم المعاونة له فقال: فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أى: برجال منكم يعملون بأيديهم، أو أعينونى بآلات البناء، أو بمجموعهما. قال الزّجّاج: بعمل تعملونه معى. قرأ ابن كثير وحده «ما مكننى» بنونين، و قرأ الباقون بنون واحدة أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً هذا جواب الأمر، و الردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل. قال الهروى: يقال ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما، أى: سددتها، و الردم أيضا الاسم، و هو السدّ، و قيل: الردم أبلغ من السدّ، إذ السدّ كل ما يسدّ به، و الردم: وضع الشى‏ء على الشى‏ء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع، و منه ردم ثوبه: إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض، و منه قول عنترة:

هل غادر الشّعراء من متردّم «1» ....

أى: من قول يركب بعضه على بعض آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ أى: أعطونى و ناولونى، و زبر الحديد جمع زبرة، و هى القطعة. قال الخليل: الزّبرة من الحديد القطعة الضخمة. قال الفراء: معنى آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ايتونى بها، فلما ألقيت الياء زيدت ألفا، و على هذا فانتصاب زبر بنزع الخافض حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ و الصدفان: جانبا الجبل. قال الأزهرى: يقال لجانبى الجبل صدفان إذا تحاذيا لتصادفهما، أى: تلاقيهما، و كذا قال أبو عبيدة و الهروى. قال الشاعر:

كلا الصّدفين ينفذه سناهاتوقّد مثل مصباح الظّلام

و قد يقال لكلّ بناء عظيم مرتفع صدف، قاله أبو عبيدة، قرأ نافع و حمزة و الكسائى و حفص الصدفين بفتح الصاد و الدال. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمرو و يعقوب و اليزيدى و ابن محيصن بضم الصاد و الدال.

و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر بضم الصاد و سكون الدال. و قرأ ابن الماجشون بفتح الصاد و ضم الدال، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد لأنها أشهر اللغات، و معنى الآية: أنهم أعطوه زبر الحديد، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما قالَ انْفُخُوا أى: قال للعملة «2»: انفخوا على هذه الزبر بالكيران حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً أى جعل ذلك المنفوخ فيه، و هو الزبر نارا: أى كالنار فى حرّها و إسناد الجعل إلى ذى القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ. قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزبر و الحجارة ثم يوقد عليها الحطب و

الفحم بالمنافخ حتى يتحمّى، و الحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة، و هو معنى قوله: قالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً قال أهل اللغة: القطر النحاس الذائب، و الإفراغ: الصبّ، و كذا قال أكثر المفسرين. و قالت طائفة: القطر الحديد المذاب. و قالت فرقة أخرى منهم ابن الأنبارى:

هو الرصاص المذاب فَمَا اسْطاعُوا أصله استطاعوا، فلما اجتمع المتقاربان، و هما التاء و الطاء خففوا

---

(١). و عجزه: أم هل عرفت الدّار بعد توهّم.

(٢). أى العمّال.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٧٠

بالحذف. قال ابن السّكّيت: يقال ما أستطيع، و ما أسطيع، و ما أستيع. و بالتخفيف قرأ الجمهور، و قرأ حمزة وحده فَمَا اسْطاعُوا بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء فى الطاء و هى قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو على الفارسى: هى غير جائزة. و قرأ الأعمش فما استطاعوا على الأصل، و معنى أَنْ يَظْهَرُوهُ أن يعلوه؛ أى فما استطاع يأجوج و مأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه و ملاسته وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً يقال نقبت الحائط: إذا خرقت فيه خرقا فخلص إلى ما وراءه. قال الزجّاج: ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه و انملاسه، و ما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدّته و صلابته قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى أى قال ذو القرنين مشيرا إلى السدّ: هذا السدّ رحمة من ربى، أى: أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسدّ و لمن خلفهم ممن يخشى عليه معرّتهم لو لم يكن ذلك السدّ؛ و قيل: الإشارة إلى التمكين من بنائه فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّى أى: أجل ربى أن يخرجوا منه، و قيل: هو مصدر بمعنى المفعول، و هو يوم القيامة جَعَلَهُ دَكَّاءَ أى: مستويا بالأرض، و منه قوله: كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا «١». قال الترمذى: أى:

مستويا، يقال ناقة دكاء: إذا ذهب سنامها. و قال القتبى: أى: جعله مدكوكا ملصقا بالأرض. و قال الحليمى: قطعا متكسرا. قال الشاعر:

هل غير غاد دكّ غارا فانهدم قال الأزهرى: دككته، أى: دققته. و من قرأ دكاء بالمد و هو عاصم و حمزة و الكسائى أراد التشبيه بالناقة الدكاء، و هى التى لا سنام لها، أى: مثل دكاء؛ لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء. و قرأ الباقون دكا بالتنوين على أنه مصدر، و معناه ما تقدّم، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال، أى: مدكوكا وَ كانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا أى: وعده بالثواب و العقاب، أو الوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلّف، و هذا آخر قول ذى القرنين.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ قال: الجبلين أرمينية و أذربيجان. و أخرج أيضا عن ابن جريج لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قال: الترك. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: يأجوج و مأجوج شبر و شبران و أطولهم ثلاثة أشبار؛ و هم من ولد آدم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و ابن عساكر عن ابن عمرو عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن يأجوج و مأجوج من ولد آدم و لو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، و لا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا، و إن من ورائهم ثلاث أمم:

تأويل، و تاريس، و منسك». و أخرج النسائى من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعا: «إنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا». و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

(۱). الفجر: ۲۱.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷۱

«إنّ يأجوج و مأجوج مفسدون فى الأرض يحفرون السدّ كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستفتحونه غدا، فيعودون إليه أشدّ ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، و أراد اللّه أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستفتحونه غدا إن شاء اللّه، و يستثنى، فيعودون إليه و هو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه و يخرجون على الناس فيستقون المياه، و يتحصّن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا من فى الأرض و علونا من فى السماء قسرا و علوا، فيبعث اللّه عليهم نغفا فى أقفائهم فيهلكون» قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فو الذى نفس محمد بيده، إن دوابّ الأرض لتسمن و تبطر و تشكر شكرا من لحومهم». و قد ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت: «استيقظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من نومه و هو محمرّ وجهه و هو يقول: لا إله إلا اللّه، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج و مأجوج مثل هذه، و حلّق، قلت: يا رسول اللّه أ نهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث». و أخرجا نحوه من حديث أبى هريرة مرفوعا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً قال: أجرا عظيما. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: رَدْماً قال: هو كأشد الحجاب. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: زُبَرَ الْحَدِيدِ قال:

قطع الحديد. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قال: الجبلين. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: رؤوس الجبلين. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله: قِطْراً قال: النحاس. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ قال: أن يرتقوه.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: أن يعلوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: جَعَلَهُ دَكَّاءَ قال: لا أدرى الجبلين يعنى به أم بينهما.

[سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹۹ الى ۱۰۸]

وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (۹۹) وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (۱۰۰) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (۱۰۱) أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (۱۰۲) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (۱۰۳)

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (۱۰۴) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (۱۰۵) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً (۱۰۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (۱۰۷) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (۱۰۸)

قوله: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ هذا من كلام اللّه سبحانه بعد انقضاء كلام ذى القرنين، و الضمير فى بعضهم ليأجوج و مأجوج، أى: تركنا بعض يأجوج و مأجوج يوم مجىء الوعد، أو يوم خروج يأجوج و مأجوج يموج فى بعض آخر منهم، يقال: ماج الناس؛ إذا دخل بعضهم فى بعض حيارى كموج الماء. و المعنى أنهم يضطربون و يختلطون؛ و قيل: الضمير فى بعضهم للخلق، و اليوم يوم القيامة، أى: و جعلنا

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷۲

بعض الخلق من الجنّ و الإنس يموج فى بعض؛ و قيل: المعنى: و تركنا يأجوج و مأجوج يوم كمال السدّ و تمام عمارته بعضهم يموج فى بعض، و قد تقدّم تفسير وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فى الأنعام، قيل: هى النفخة الثانية بدليل قوله بعد فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً فإن الفاء تشعر بذلك، و لم يذكر النفخة الأولى؛ لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة.
و المعنى: جمعنا الخلائق بعد تلاشى أبدانهم و مصيرهم ترابا جمعا تاما على أكمل صفة و أبدع هيئة و أعجب أسلوب وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً المراد بالعرض هنا الإظهار، أى: أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم، و فى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع و الروعة.
ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله: الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي أى: كانت أعينهم فى الدنيا فى غطاء و هو ما غطّى الشىء و ستره من جميع الجوانب عَنْ ذِكْرِي عن سبب ذكرى، و هو الآيات التى يشاهدها من له تفكّر و اعتبار، فيذكر اللّه بالتوحيد و التمجيد، فأطلق المسبّب على السبب، أو عن القرآن العظيم، و تأمّل معانيه و تدبّر فوائده. ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال: وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً أى: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام اللّه و كلام رسوله، و هذا أبلغ ممّا لو قال و كانوا صما؛ لأن الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به، و هؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية، و فى ذكر غطاء الأعين و عدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار و إعراضهم عن الأدلة السمعية أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا الحسبان هنا بمعنى الظنّ، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر، كنظائره. و المعنى: أ فظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبّر آيات اللّه، و تمرّدهم عن قبول الحق، و معنى أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أى: يتخذوهم من دون اللّه، و هم الملائكة و المسيح و الشياطين أَوْلِياءَ أى: معبودين، قال الزجّاج:
المعنى أ يحسبون أن ينفعهم ذلك، و قرئ أَ فَحَسِبَ بسكون السين، و معناه أكافيهم و محسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ و خبر، يريد أن ذلك لا يكفيهم و لا ينفعهم عند اللّه كما حسبوا إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا أى: هيأناها لهم نزلا يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجّاج: النزل: المأوى و المنزل، و قيل: إنه الذى يعدّ للضيف، فيكون تهكما بهم كقوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* «1»، و المعنى: أن جهنم معدّة لهم عندنا كما يعد النزل للضيف قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا انتصاب أعمالا على التّميز، و الجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها، و محل الموصول و هو الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا الفعل على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: هم الذين ضلّ سعيهم، و المراد بضلال السعى بطلانه و ضياعه، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الذمّ، و يكون الجواب أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ و يجوز أن يكون فى محل جرّ على أنه نعت للأخسرين أو بدل منه، و يكون الجواب أيضا هو أولئك و ما بعده، و أوّل هذه الوجوه هو أولاها، و جملة وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً فى محل نصب على الحال من

---

(1). آل عمران: 21.

فتح القدير، ج3، ص: 373

فاعل ضلّ، أى: و الحال أنهم يظنون أنهم محسنون فى ذلك منتفعون بآثاره، و تكون جملة أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران و بيان سببه، هذا على الوجه الأوّل الراجح لا على الوجوه الآخرة، فإنها هى الجواب كما قدّمنا، و معنى كفرهم بآيات ربهم: كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية و التنزيلية، و معنى كفرهم بلقائه: كفرهم بالبعث و ما بعده من أمور الآخرة، ثم رتّب على ذلك قوله: فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ أى: التى عملوها ممّا يظنونه حسنا، و هو خسران و ضلال، ثم

حكم عليهم بقوله: فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً أى: لا يكون لهم عندنا قدر و لا نعبأ بهم، و قيل: لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات و السيئات من الموحدين، و هؤلاء لا حسنات لهم. قال ابن الأعرابى: العرب تقول ما لفلان عندنا وزن، أى: قدر لخسته، و يوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته، و سرعة طيشه، و قلّة تثبته. و المعنى على هذا أنهم لا يعتدّ بهم و لا يكون لهم عند اللّه قدر و لا منزلة، و قرأ مجاهد يقيم بالياء التحتية، أى: فلا يقيم اللّه، و قرأ الباقون بالنون. ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء و ما يؤول إليه أمرهم فقال: ذلِكَ أى: الذى ذكرناه من أنواع الوعيد جزاؤهم، و يكون قوله: جهنم عطف بيان للجزاء، أو جملة جزاؤهم جهنم مبتدأ و خبر الجملة خبر ذلك، و السبب فى ذلك أنهم ضمّوا إلى الكفر اتخاذ آيات اللّه و اتخاذ رسله هزوا، فالباء فى بِما كَفَرُوا للسببية، و معنى كونهم هزوا أنهم مهزوء بهم. و قد اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالا، فقيل: اليهود و النصارى، و قيل: كفار مكة، و قيل: الخوارج، و قيل: الرهبان أصحاب الصوامع، و الأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة. ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: جمعوا بينهما حتى كانوا على ضدّ صفة من قبلهم كانَتْ لَهُمْ قال ابن الأنبارى: كانت فيما سبق من علم اللّه كانت لأهل طاعته جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا قال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف و الأغلب عليه العنب. و اختار الزجّاج ما قاله مجاهد: إن الفردوس البستان باللغة الرومية، و قد تقدّم بيان النزل، و انتصابه على أنه خبر كان. و المعنى:

كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا معدّا لهم مبالغة فى إكرامهم، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال، و كذلك جملة لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا فى محل نصب على الحال، و الحول مصدر، أى: لا يطلبون تحوّلا عنها إذ هى أعزّ من أن يطلبوا غيرها، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها. قال ابن الأعرابى و ابن قتيبة و الأزهرى:

الحول اسم بمعنى التحوّل يقوم مقام المصدر، و قال أبو عبيدة و الفراء: إن الحول التحويل.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ الآية قال: الجنّ و الإنس يَمُوجُ بعضهم فِي بَعْضٍ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً قال: لا يعقلون سمعا. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن المنذر عن علىّ أنه قرأ أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال أبو عبيد بجزم السين و ضم الباء. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد الرزاق

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷۴

و البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه من طريق مصعب بن سعد قال:

سألت أبى قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود و النصارى، أما اليهود فكذبوا محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم و أما النصارى فكذبوا بالجنة و قالوا: لا طعام فيها و لا شراب، و الحرورية الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ «۱»، و كان سعد يسميهم الفاسقين. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد ابن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن مصعب قال: قلت لأبى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الحرورية هم؟ قال: لا، و لكنهم أصحاب الصوامع، و الحرورية: قوم زاغوا فأزاغ اللّه قلوبهم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى خميصة عبد اللّه بن قيس قال: سمعت علىّ ابن أبى طالب يقول: فى هذه الآية قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى.

و أخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال: سمعت علىّ بن أبى طالب و سأله ابن الكوّاء فقال:

هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا قال: فجرة قريش. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من

طريقين عن عليّ أنه سئل عن هذه الآية قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا قال:
لا أظنّ إلا أن الخوارج منهم. و فى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند اللّه جناح بعوضة، و قال: اقرءوا إن شئتم فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «سلوا اللّه الفردوس، فإنها سرّة الجنة، و إن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش». و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، و أعلى الجنة، و فوقه عرش الرحمن، و منه تفجر أنهار الجنة». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أحمد و الترمذى و ابن جرير و الحاكم و البيهقى و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن فى الجنة مائة درجة، كل درجة منها ما بين السماء و الأرض، و الفردوس أعلاها درجة، و من فوقها يكون العرش، و منه تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس»، و الأحاديث بهذا المعنى كثيرة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:
الفردوس بستان بالرومية. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هو الكرم بالنبطية، و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر عن عبد اللّه بن الحارث أنّ ابن عباس سأل كعبا عن الفردوس قال: هى جنات الأعناب بالسريانية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا قال: متحوّلا.

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)

---

(١). البقرة: ٢٧.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٧٥

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبّه على كمال القرآن فقال: قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّى قال ابن الأنبارى: سمّى المداد مدادا لإمداده الكاتب، و أصله من الزيادة و مجى‏ء الشى‏ء بعد الشى‏ء، و يقال للزيت الذى يوقد به السراج مداد، و المراد بالبحر هنا الجنس. و المعنى: لو كتبت كلمات علم اللّه و حكمته، و فرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات، و لو جئنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا، و قيل فى بيان المعنى: لو كان البحر مدادا للقلم و القلم يكتب لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى و قوله:
وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله: قُلْ لَوْ كانَ و فيه زيادة مبالغة و تأكيد، و الواو لعطف ما بعده على جملة مقدّرة مدلول عليها بما قبلها، أى: لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجى‏ء بمثله مدادا و لو جئنا بمثله مددا، و المدد الزيادة؛ و قيل: عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له و لا منتهى، و هو و إن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد، و قد عبّرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع، قال الأعشى:
و وجه نقىّ اللون صاف يزينه	مع الجيد لبّات لها و معاصم
فعبّر باللبات عن اللبة. قال الجبائى: إن قوله: قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى يدل على أن كلماته قد تنفد فى الجملة، و ما ثبت عدمه امتنع قدمه. و أجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية؛ و قيل فى الجواب: إن نفاد شى‏ء قبل نفاد شى‏ء

آخر لا يدلّ على نفاد الشىء الآخر، و لا على عدم نفاده، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات اللّه بحيث لا تضبطها عقول البشر؛ أما أنها متناهية، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى الآية. و الحق أن كلمات اللّه تابعة لمعلوماته، و هى غير متناهية، فالكلمات غير متناهية.

و قرأ مجاهد و ابن محيصن و حميد و لو جئنا بمثله مدادا و هى كذلك فى مصحف أبىّ، و قرأ الباقون مَدَداً و قرأ حمزة و الكسائى قبل أن ينفد بالتحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، ثم أمر سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسلك مسلك التواضع، فقال: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أى: إن حالى مقصور على البشرية لا- يتخطّاها إلى الملكية، و من كان هكذا فهو لا يدّعى الإحاطة بكلمات اللّه إلا- أنه امتاز عنهم بالوحى إليه من اللّه سبحانه فقال: يُوحى إِلَيَ و كفى بهذا الوصف فارقا بينه و بين سائر أنواع البشر، ثم بين أن الذى أوحى إليه هو قوله: أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له فى ألوهيته، و فى هذا إرشاد إلى التوحيد، ثم أمرهم بالعمل الصالح و التوحيد فقال: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل، و المعنى، من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً و هو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً من خلقه سواء كان صالحا، أو طالحا، حيوانا أو جمادا، قال الماوردى: قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية: إن المعنى لا يرائى بعمله أحدا. و أقول:

إن دخول الشرك الجلىّ الذى كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدّم على دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء، و لا مانع من دخول هذا الخفى تحتها، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۷۶

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لِكَلِماتِ رَبِّی يقول: علم ربى. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: يقول ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام اللّه و حكمته. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآية قال: أنزلت فى المشركين الذين عبدوا مع اللّه إلها غيره، و ليست هذه فى المؤمنين. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن عباس قال: «قال رجل: يا نبىّ اللّه إنى أقف المواقف أبتغى وجه اللّه، و أحبّ أن يرى موطنى، فلم يردّ عليه شيئا حتى نزلت هذه الآية وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً». و أخرج ابن مندة، و أبو نعيم فى الصّحابة، و ابن عساكر من طريق السدّى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدّق فذكر بخير ارتاح له، فزاد فى ذلك لقالة الناس فلا يريد به اللّه، فنزل فى ذلك فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآية. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: «قال رجل: يا رسول اللّه أعتق و أحبّ أن يرى، و أتصدّق و أحبّ أن يرى، فنزلت فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآية» و هو مرسل. و أخرجه هناد فى الزهد عنه أيضا. و أخرج ابن سعد و أحمد و الترمذى و ابن ماجة، و البيهقى فى الشعب، عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى و كان من الصحابة: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«إذا جمع اللّه الأوّلين و الآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله للّه أحدا فليطلب ثوابه من عند غير اللّه، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك». و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى هريرة «أن رجلا- قال: يا رسول اللّه الرجل يجاهد فى سبيل اللّه و هو يبتغى عرضا من الدنيا؟ فقال:

لا- أجر له، فأعظم الناس ذلك، فعاد الرجل فقال: لا أجر له». و أخرج ابن أبى الدنيا فى الإخلاص، و ابن جرير فى تهذيبه، و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن شدّاد بن أوس قال: كنا نعدّ الرياء على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الشرك الأصغر. و أخرج الطيالسىّ و أحمد و ابن أبى الدنيا و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن شدّاد بن أوس أيضا قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من صلى يرائى فقد أشرك، و من صام يرائى فقد

أشرك، و من تصدّق يرائى فقد أشرك، ثم قرأ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآيهٔ». و أخرج الطيالسيّ و أحمد و ابن مردويه و أبو نعيم عن شدّاد أيضا قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله و كثيره لشريكه الذى أشركه أنا عنه غنىّ». و أخرج أحمد و الحكيم و الترمذى، و ابن جرير فى تهذيبه، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيخ: الشرك الخفىّ، أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل». و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن شدّاد بن أوس: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أتخوّف على أمتى الشرك و الشهوهٔ الخفيهٔ، قلت: أ تشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمسا و لا قمرا و لا حجرا و لا وثنا، و لكن يراءون الناس بأعمالهم، قلت: يا رسول اللّه ما الشهوهٔ الخفيهٔ؟ قال: يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوهٔ من شهواته فيترك صومه و يواقع شهوته». و أخرج أحمد و مسلم و ابن جرير

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٧٧

و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرهٔ عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن ربه أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه، و هو للذى أشرك» و فى لفظ: «فمن أشرك بى أحدا فهو له كله»، و فى الباب أحاديث كثيرهٔ فى التحذير من الرياء و أنه الشرك الأصغر، و أن اللّه لا يقبله، و قد استوفاها صاحب «الدرّ المنثور» فى هذا الموضع فليرجع إليه، و لكنها لا تدلّ على أنه المراد بالآيهٔ، بل الشرك الجلىّ يدخل تحتها دخولا أوّليا، و على فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدّمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرّر فى علم الأصول.

و قد ورد فى فضائل هذه الآيهٔ بخصوصها ما أخرجه الطبرانى و ابن مردويه عن أبى حكيم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو لم ينزل على أمتى إلا خاتمهٔ سورهٔ الكهف لكفتهم». و أخرج ابن راهويه و البزار، و الحاكم و صحّحه، و الشيرازى فى الألقاب، و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ فى ليلهٔ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ الآيهٔ، كان له نور من عدن أبين إلى مكهٔ حشوه الملائكهٔ» قال ابن كثير بعد إخراجه: غريب جدا. و أخرج ابن الضريس عن أبى الدرداء قال: من حفظ خاتمهٔ الكهف كان له نور يوم القيامهٔ من لدن قرنه إلى قدمه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن معاويهٔ بن أبى سفيان أنه تلا هذه الآيهٔ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ و قال: إنها آخر آيهٔ نزلت من القرآن. قال ابن كثير: و هذا أثر مشكل، فإن هذه الآيهٔ هى آخر سورهٔ الكهف، و الكهف كلها مكيهٔ، و لعل معاويهٔ أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها و لا يغير حكمها، بل هى مثبتهٔ محكمهٔ، فاشتبه ذلك على بعض الرواهٔ؛ فروى بالمعنى على ما فهمه.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٧٨

سورهٔ مريم

اشارهٔ

أخرج النحّاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكهٔ سورهٔ كهيعص و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورهٔ مريم بمكهٔ. و أخرج ابن مردويه عن عائشهٔ مثله. و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، عن أمّ سلمهٔ أن النجاشى قال لجعفر بن أبى طالب: هل معك ممّا جاء به، يعنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، عن اللّه شىء؟ قال: نعم، فقرأ عليه صدرا من كهيعص فبكى النجاشى حتى أخضل لحيته، و بكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال

النجاشى: إن هذا و الذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. و قد ذكر ابن إسحاق القصّة بطولها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة مريم (١٩): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (٣) قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)

وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (٩)

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (١١)

قوله: كهيعص قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطّعة، و وصلها الباقون، و أمال أبو عمرو الهاء و فتح الياء، و عكس ذلك ابن عامر و حمزة، و أمالهما جميعا الكسائى و أبو بكر و خلف، و قرأهما بين اللفظين أهل المدينة، و فتحهما الباقون. و عن خارجة أن الحسن كان يضمّ كاف، و حكى عن غيره أنه كان بضم ها.

و قال أبو حاتم: لا يجوز ضمّ الكاف و لا الهاء و لا الياء. قال النحاس: قراءة أهل المدينة من أحسن ما فى هذا، و الإمالة جائزة فى ها و فى يا، و قد اعترض على قراءة الحسن جماعة. و قيل فى تأويلها أنه كان يشمّ الرفع فقط. و أظهر الدال من هجاء: صاد نافع و أبو جعفر و ابن كثير و عاصم و يعقوب، و هو اختيار أبى عبيد و أدغمها الباقون. و قد قيل فى توجيه هذه القراءات أن التفخيم هو الأصل، و الإمالة فرع عنه، فمن قرأ بتفخيم الهاء و الياء فقد عمل بالأصل، و من أمالهما فقد عمل بالفرع، و من أمال أحدهما و فخم الآخر فقد عمل بالأمرين، و قد تقدّم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى فواتح السور مستوفى فى أوائل سورة البقرة، و محل هذه الفاتحة إن جعلت اسما للسورة على ما عليه الأكثر الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها، قاله الفرّاء. و اعترضه

الزجاج فقال: هذا محال لأن كهيعص ليس هو مما أنبأنا اللّه عزّ و جلّ به عن زكريا، و قد أخبر اللّه تبارك و تعالى عنه و عما بشّر به، و ليس كهيعص من قصته، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، و إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فقوله: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ خبر لمبتدأ محذوف، أى: هذا ذكر رحمة ربك. و قيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أى: فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك. قال الزجّاج: ذكر مرتفع بالمضمر، و المعنى: هذا الذى نتلوه عليك ذكر رحمة ربك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا يعنى إجابته إياه حين دعاه و سأله الولد، و انتصاب عبده على أنه مفعول للرحمة قاله الأخفش. و قيل: للذكر. و معنى ذكر الرحمة بلوغها و إصابتها، كما يقال: ذكرنى معروف فلان، أى: بلغنى. و قرأ يحيى بن يعمر ذِكْرُ بالنصب، و قرأ أبو العالية «عبده» بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول، و فاعل الذكر هو عبده، و زكريا على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه، و قرأ الكلبى ذكر على صيغة الفعل الماضى مشدّدا و مخفّفا على أن الفاعل عبده، و قرأ ابن معمر على الأمر، و تكون الرحمة على هذا عبارة عن زكريا، لأنّ كل نبىّ رحمة لأمته إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا العامل فى الظرف رحمة، و قيل: ذكر، و قيل: هو بدل اشتمال من زكريا. و اختلف فى وجه كون ندائه هذا خفيا، فقيل: لأنه أبعد عن الرياء، و قيل: أخفاه؛ لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته، و لكونه من أمور

الـدنيا، و قيل: أخفاه مخافـۀ من قومه، و قيل: كان ذلك منه لكونه قـد صار ضـعيفا، هرما، لا يقـدر على الجهر قالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی هـذه الجملۀ مفسـرۀ لقوله: نادی ربه، يقال: وهن يهن و هنا إذا ضـعف، فهو واهن، و قرئ بالحركات الثلاث، أراد أن عظـامه فترت و ضـعفت قوّته، و ذكر العظم؛ لأنـه عمود البـدن، و به قوامه، و هو أصل بنائه، فإذا وهن تـداعی و تساقطت قوّته، و لأن أشدّ ما فی الإنسان صـلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، و وحّد العظم قصدا إلى الجنس المفيد لشـمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً قرأ أبو عمرو بإدغام السين فی الشين، و الباقون بعدمه، و الاشتعال فی الأصل: انتشار شعاع النار، فشبّه به انتشار بياض شـعر الرأس فی سواده بجامع البياض و الإنارۀ، ثم أخرجه مخرج الاستعارۀ بالكنايۀ، بأن حذف المشبه به و أداۀ التشبيه، و هذه الاستعارۀ من أبدع الاستعارات و أحسنها. قال الزجّاج: يقال للشيب إذا كثر جدّا قد اشتعل رأس فلان، و أنشد للبيد:

إن ترى رأسی أمسی واضحاسلّط الشّيب عليه فاشتعل

و انتصاب شيبا على التميز، قاله الزجّاج. و قال الأخفش: انتصابه على المصدر؛ لأن معنى اشتعل: شاب.

قال النّحّاس: قول الأخفش أولى لأنه مشـتق من فعل، و المصدريـۀ أظهر فيما كان كـذلك، و كان الأصل اشـتعل شـيب رأسـی، فأسـند الاشـتعال إلى الرأس لإفادۀ الشـمول وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا أی: لم أكن بدعائی إياك خائبا فی وقت من الأوقات، بل كلما دعوتک استجبت لی.

قال العلماء: يستحبّ للمرء أن يجمع فی دعائه بين الخضوع، و ذكر نعم اللّه عليه كما فعل زكريا هاهنا، فإن فی قوله: وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً غايۀ الخضوع و التذلل و إظهار الضعف و القصور عن نيل مطالبه، و بلوغ مآربه، و فی قوله: وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ذكر ما عوّده اللّه من الإنعام

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸۰

عليه بإجابۀ أدعيته، يقال: شقی بكذا، أی: تعب فيه، و لم يحصل مقصوده منه وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِی قرأ عثمان بن عفان و محمد بن علی بن الحسين و أبوه علی و يحيى بن يعمر «خفّت» بفتح الخاء و تشديد الفاء و كسر التاء و فاعله الْمَوالِيَ أی: قلّوا و عجزوا عن القيـام بـأمر الـدين بعـدی، أو انقطعوا بـالموت، مـأخوذا من خفت القوم إذا ارتحلوا، و هـذه قراءۀ شـاذۀ بعيـدۀ عن الصواب. و قرأ الباقون «خفت» بكسـر الخاء و سـكون الفاء على أن فاعله ضـمير يعود إلى زكريا، و مفعوله الموالی، و من ورائی متعلّق بمحـذوف لا بخفت، و تقـديره: خفت فعل الموالی من بعـدی. قرأ الجمهور وَرائِی بالهمز و المدّ و سـكون الياء، و قرأ ابن كثير بالهمز و المدّ و فتح الياء. و روی عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء، مثل عصای، و الموالی هنا:

هم الأقارب الذين يرثون و سائر العصبات من بنی العمّ و نحوهم، و العرب تسمّی هؤلاء موالی، قال الشاعر «۱»:

مهلا بنی عمّنا مهلا موالينالا تنشروا «۲» بيننا ما كان مدفونا

قيل: الموالی الناصرون له. و اختلفوا فی وجه المخافۀ من زكريا لمواليه من بعده، فقيل: خاف أن يرثوا ماله، و أراد أن يرثه ولده، فطلب من اللّه سـبحانه أن يرزقه ولـدا. و قـال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الـدين، فخاف أن يضـيع الـدين بموته، فطلب وليا يقوم به بعـد موته. و هـذا القول أرجـح من الأـوّل؛ لأن الأنبياء لا يورثون، و هم أجلّ من أن يعتنوا بأمور الـدنيا، فليس المراد هنا وراثـۀ المـال، بل المراد وراثـۀ العلم و النبوّۀ و القيام بأمر الـدين، و قـد ثبت عن نبينا صـلّی اللّه عليه و سـلّم أنه قال: «نحن معاشـر الأنبيـاء لا نورّث، ما تركناه صدقـۀ». وَ كانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً العاقر: هی التی لا تلـد لكبر سـنها، و التی لا تلـد أيضا لغير كبر، و هی المرادۀ هنا، و يقال للرجل الذی لا يلد عاقر أيضا، و منه قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا «۳» ....

قال ابن جرير: و كان اسم امرأته أشاع بنت فاقود بن ميل، و هى أخت حنة، و حنة هى أمّ مريم. و قال القتبى: هى أشاع بنت عمران، فعلى القول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أمّ عيسى، و على القول الثانى يكونان ابنى خالة كما ورد فى الحديث الصحيح. فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا أی: أعطنی من فضلك وليا، و لم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو و امرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما و حصوله منهما. و قد قيل: إنه كان ابن بضع و تسعين سنة، و قيل: بل أراد بالولىّ الذى طلبه هو الولد، و لا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة، فإن اللّه سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك، فيكون من جملة المعجزات الدالّة على صدقهم یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ قرأ أهل الحرمين و الحسن و عاصم

---

(١). هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب.

(٢). فى تفسير القرطبى (١١/ ٧٨): لا تنبشوا.

(٣). و عجزه: جبانا فما عذرى لدى كلّ محضر.

و حمزة و ابن محيصن و اليزيدى و يحيى بن المبارك «١» بالرفع فى الفعلين جميعا على أنهما صفتان للولىّ و ليسا بجواب للدعاء. و قرأ يحيى بن يعمر و أبو عمرو و يحيى بن وثّاب و الأعمش و الكسائى بالجزم فيهما على أنهما جواب للدّعاء. و رجّح القراءة الأولى أبو عبيد، و قال: هى أصوب فى المعنى؛ لأنه طلب وليا هذه صفته فقال: هب لى الذى يكون وارثى. و رجّح ذلك النحّاس و قال: لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط و المجازاة، تقول: أطع اللّه يدخلك الجنة، أى: إن تطعه يدخلك الجنة، و كيف يخبر اللّه سبحانه بهذا، أعنى كونه أن يهب له وليا يرثه، و هو أعلم بذلك، و الوراثة هنا هى وراثة العلم و النبوّة على ما هو الراجح كما سلف. و قد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. و زعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماهان أخو عمران بن ماهان، و به قال الكلبى و مقاتل، و آل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين، و قد كان فيهم أنبياء و ملوك، و قرئ: يرثنى وارث من آل يعقوب، على أنه فاعل يرثنى. و قرئ و أرث آل يعقوب أى: أنا. و قرئ أو يرث آل يعقوب بلفظ التخيير على أن المخيّر فاعل و هذه القراءات فى غاية الشذوذ لفظا و معنى وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا أى: مرضيا فى أخلاقه و أفعاله، و قيل: راضيا بقضائك و قدرك، و قيل: رجلا صالحا ترضى عنه، و قيل: نبيا كما جعلت آباءه أنبياء یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی قال جمهور المفسرين: إن هذا النداء من اللّه سبحانه، و قيل: إنه من جهة الملائكة، لقوله فى آل عمران: فَنادَتْهُ الْمَلائِکَةُ «٢»، و فى الكلام حذف، أى: فاستجاب له دعاءه، فقال: يا زكريا، و قد تقدّم فى آل عمران وجه التسمية بيحيى و زكريا.

قال الزجّاج: سمّى يحيى لأنه حيى بالعلم و الحكمة التى أوتيها لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا قال أكثر المفسرين:

معناه لم نسمّ أحدا قبله يحيى. و قال مجاهد و جماعة: معنى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا أنه لم يجعل له مثلا و لا نظيرا، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ، و ردّ هذا بأنه يقتضى تفضيله على إبراهيم و موسى؛ و قيل: معناه: لم تلد عاقر مثله، و الأوّل أولى. و فى إخباره سبحانه بأنه لم يسمّ بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين: الأولى أن اللّه سبحانه هو الذى تولّى تسميته به، و لم يكلها إلى الأبوين. و الجهة الثانية: أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه و تعظيمه قالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلامٌ أى: كيف أو من أين يكون لى غلام؟ و ليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة اللّه و بديع صنعه، حيث يخرج ولدا من امرأة عاقر و شيخ كبير، و قد تقدّم الكلام على مثل هذا فى آل عمران وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا يقال: عتا الشيخ يعتو عتيا إذا انتهى سنّه و كبر، و شيخ عات إذا صار إلى حال اليبس و الجفاف، و الأصل عتوّ لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء

لكونها أخفّ، و مثل ما فى الآية قول الشاعر:

إنّما يعذر الوليد و لا يعذر من كان فى الزّمان عتيّا

و قرأ يحيى بن وثّاب و حمزة و الكسائى و حفص و الأعمش عِتِيًّا بكسر العين، و قرأ الباقون بضم

---

(۱). قوله: (و اليزيدى و يحيى بن المبارک)، الصواب: و يحيى بن المبارک اليزيدى.

(۲). آل عمران: ۳۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸۲

العين، و هما لغتان، و محل جملة وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً النصب على الحال من ضمير المتكلم، و محل جملة وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا النصب أيضا على الحال، و كلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد و التعجب المستفاد من قوله: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ أى: كيف يحصل بيننا ولد الآن، و قد كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها و شبابى، و هى الآن عجوز، و أنا شيخ هرم؟ ثم أجاب اللّه سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجّب و الاستبعاد بقوله: قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّکَ الكاف فى محل رفع، أى: الأمر كذلک، و الإشارة إلى ما سبق من قول زكريا، ثم ابتدأ بقوله: قالَ رَبُّکَ و يحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية، أى:

قال قولا مثل ذلک، و الإشارة بذلک إلى مبهم يفسّره قوله: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ و أما على الاحتمال الأوّل فتكون جملة هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره، أى: قال هو مع بعده عندک علىّ هين، و هو فيعل من هان الشىء يهون إذا لم يصعب و لم يمتنع من المراد. قال الفراء: أى: خلقه علىّ هين وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَيْئاً هذه الجملة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أى: فخلق الولد لک كخلقک، و المعنى: أن اللّه سبحانه خلقه ابتداء و أوجده من العدم المحض، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلک و أسهل منه، و إنما لم ينسب ذلک إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول: و قد خلقت أباک آدم من قبل و لم يک شيئا، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم قرأ أهل المدينة و أهل مكة و البصرة و عاصم و ابن عامر وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ و قرأ سائر الكوفيين و قد خلقناک من قبل قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أى علامة تدلنى على وقوع المسؤول و تحقّقه و حصول الحبل، و المقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه.

قال ابن الأنبارى: وجه ذلک أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر، فسأل اللّه آية يستدلّ بها على قرب ما منّ به عليه، و قيل: طلب آية تدله على أن البشرى من اللّه سبحانه لا من الشيطان؛ لأن إبليس أوهمه بذلک، كذا قال الضحاک و السدّى، و هو بعيد جدّا قالَ آيَتُکَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا قد تقدّم تفسير هذا فى آل عمران مستوفى، و انتصاب «سويا» على الحال، و المعنى: آيتک أن لا تقدر على الكلام و الحال أنک سوىّ الخلق ليس بک آفة تمنعک منه، و قد دلّ بذكر الليالى هنا و الأيام فى آل عمران أن المراد ثلاثة أيام و لياليهنّ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ و هو مصلّاه، و اشتقاقه من الحرب، كأنّ ملازمه يحارب الشيطان؛ و قيل: من الحرب محركا، كأن ملازمه يلقى حربا و تعبا و نصبا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا قيل: معنى أوحى: أومأ، بدليل قوله فى آل عمران: إِلَّا رَمْزاً؛ و قيل: كتب لهم فى الأرض، و بالأوّل قال الكلبى و القرظى و قتادة و ابن منبه، و بالثانى قال مجاهد، و قد يطلق الوحى على الكتابة، و منه قول ذى الرّمّة:

سوى الأربع الدّهم اللواتى كأنّهابقيّة وحى فى بطون الصّحائف

و قال عنترة:

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۸۳ كوحى صحائف من عهد كسرىفأهداها لأعجم طمطمىّ «۱»

و أَنْ فى قوله: أَنْ سَبِّحُوا مصدرية أو مفسرة، و المعنى: فأوحى إليهم بأن صلّوا، أو أى صلّوا، و انتصاب بكرة و عشيا على الظرفية. قال الفراء: العشى يؤنث، و يجوز تذكيره إذا أبهم. قال: و قد يقال العشىّ جمع عشية، قيل: و المراد صلاة الفجر و العصر، و قيل: المراد بالتسبيح هو قولهم سبحان اللّه فى الوقتين، أى: نزّهوا ربكم طرفى النهار.

و قد أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس فى قوله:

كهيعص كبير هاد أمين عزيز صادق، و فى لفظ كاف بدل كبير. و أخرج عبد الرزاق و آدم بن أبى إياس، و عثمان بن سعيد الدارمى فى التوحيد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس كهيعص قال: كاف من كريم، و هاء من هاد، و ياء من حكيم، و عين من عليم، و صاد من صادق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود و ناس من الصحابة كهيعص هو الهجاء المقطّع؛ الكاف من الملك، و الهاء من اللّه، و الياء و العين من العزيز، و الصاد من المصوّر. و أخرج ابن مردويه عن الكلبى أنه سئل عن كهيعص فحدّث عن أبى صالح عن أمّ هانئ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كاف هاد عالم صادق». و أخرج عثمان بن سعيد الدارمى و ابن ماجة و ابن جرير عن فاطمة ابنة علىّ قالت: كان علىّ يقول يا كهيعص اغفر لى. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى كهيعص قال: الكاف الكافى، و الهاء الهادى، و العين العالم، و الصاد الصادق. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن السدّى قال: كان ابن عباس يقول فى كهيعص و حم و يس و أشباه هذا: هو اسم اللّه الأعظم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم اللّه به، و هو من أسماء اللّه.

و كما وقع الخلاف فى هذا و أمثاله بين الصحابة وقع بين من بعدهم و لم يصح مرفوعا فى ذلك شىء، و من روى عنه من الصحابة فى ذلك شىء فقد روى عن غيره ما يخالفه، و قد يروى عن الصحابى نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة فى هذه الفواتح، فلا يقوم شىء من ذلك حجة، بل الحق الوقف، و ردّ العلم فى مثلها إلى اللّه سبحانه، و قد قدّمنا تحقيق هذا فى فاتحة سورة البقرة. و أخرج أحمد و أبو يعلى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان زكريا نجارا». و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: كان آخر أنبياء بنى إسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم، من ذرية يعقوب دعا ربّه سرّا قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي إلى قوله: خِفْتُ الْمَوالِيَ قال: و هم العصبة يَرِثُنِي نبوتى و نبوّة آل يعقوب، فنادته الملائكة، و هو جبريل: أن اللّه يبشرك بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال:

---

(١). «الطمطمى»: الأعجم الذى لا يفصح.

يا زكريا إن الصوت الذى سمعت ليس من اللّه إنما هو من الشيطان سخر بك، فشكّ و قال: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ يقول من أين يكون و قد بلغنى الكبر و امرأتى عاقر، قال اللّه: وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي قال: الورثة، و هم عصبة الرجل. و أخرج الفريابى عنه قال: كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: ربّ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ قال: يرث مالى و يرث من آل يعقوب النبوّة. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قال: مثلا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و أبو داود و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عنه قال: لا أدرى كيف كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ هذا الحرف عتيا أو عسيا. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: عِتِيًّا

قال: لبث زمانا فى الكبر. و أخرج أيضا عن السدّى قال: هرما.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا قال: اعتقل لسانه من غير مرض، و فى لفظ من غير خرس؛ أخرجه ابن المنذر و ابن أبى حاتم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا:

فَأَوْحى إِلَيْهِمْ قال: كتب لهم كتابا. و أخرج ابن أبى الدنيا، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: أَنْ سَبِّحُوا قال: أمرهم بالصلاة بُكْرَةً وَ عَشِيًّا.

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٢ الى ١٥]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا (١٣) وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (١٤) وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

قوله: يا يَحْيى هاهنا حذف، و تقديره: و قال اللّه للمولود يا يحيى، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذى يجوز أن يخاطب فيه، فقلنا له: يا يحيى. و قال الزجّاج: المعنى فوهبنا له و قلنا له يا يحيى. و المراد بالكتاب التوراة لأنه المعهود حينئذ، و يحتمل أن يكون كتابا مختصّا به و إن كنّا لا نعرفه الآن، و المراد بالأخذ إما الأخذ الحسى أو الأخذ من حيث المعنى، و هو القيام بما فيه كما ينبغى، و ذلك بتحصيل ملكة تقتضى سهولة الإقدام على المأمور به، و الإحجام عن المنهىّ عنه، ثم أكّده بقوله: بِقُوَّةٍ أى: بجدّ و عزيمة و اجتهاد وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا المراد بالحكم الحكمة، و هى الفهم للكتاب الذى أمر بأخذه و فهم الأحكام الدينية، و قيل: هى العلم و حفظه و العمل به، و قيل: النبوة، و قيل: العقل، و لا مانع من أن يكون الحكم صالحا لحمله على جميع ما ذكر. قيل: كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين، و قيل: ابن ثلاث وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا معطوف على الحكم. قال جمهور المفسرين: الحنان: الرحمة و الشفقة و العطف و المحبة، و أصله توقان النفس، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة: تقول حنانك يا ربّ و حنانيك يا ربّ، بمعنى واحد، يريد رحمتك. قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضناحنانيك بعض الشّرّ أهون من بعض

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٨٥

و قال امرؤ القيس:

و يمنحها بنو شمجى بن جرم «١»معيزهم حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابى: الحنّان: مشدّدا، من صفات اللّه عزّ و جلّ، و الحنان مخفّفا: العطف و الرحمة، و الحنان: الرزق و البركة. قال ابن عطية: و الحنان فى كلام العرب أيضا ما عظم من الأمور فى ذات اللّه، و منه قول زيد بن عمرو بن نفيل: و اللّه لئن قتلتم هذا العبد لأتّخذن قبره حنانا، يعنى بلالا، لما مرّ به و هو يعذب؛ و قيل: إن القائل لذلك هو ورقة بن نوفل. قال الأزهرى: معنى ذلك لأترحمنّ عليه، و لأتعطفنّ عليه لأنه من أهل الجنة، و مثله قول الحطيئة:

تحنّن علىّ هداك المليكفإنّ لكلّ مقام مقالا

و معنى مِنْ لَدُنَّا من جنابنا، قيل: و يجوز أن يكون المعنى أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنّن بها على الناس، و منهم أبواه و قرابته حتى يخلصهم من الكفر وَ زَكاةً معطوف على ما قبله، و الزكاة:

التطهير و البركة و التنمية و البرّ، أى: جعلناه مباركا للناس يهديهم إلى الخير؛ و قيل: زكّيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهود؛ و قيل: صدقة تصدّقنا به على أبويه، قاله ابن قتيبة وَ كانَ تَقِيًّا أى: متجنّبا لمعاصى اللّه مطيعا له. و قد روى أنه لم يعمل معصية قط وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ معطوف على «تَقِيًّا»، البرّ هنا بمعنى:

البارّ، فعل بمعنى فاعل، و المعنى: لطيفا بهما محسنا إليهما وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا أى: لم يكن متكبرا و لا عاصيا لوالديه أو لربه، و هذا وصف له عليه السلام بلين الجانب و خفض الجناح وَ سَلامٌ عَلَيْهِ قال ابن جرير و غيره: معناه أمان عليه من اللّه. قال ابن عطية: و الأظهر عندى أنها التحية المتعارفة، فهى أشرف و أنبه من الأمان، لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه، و هو أقلّ درجاته، و إنما الشرف فى أن يسلم اللّه عليه، و معنى يَوْمَ وُلِدَ أنه أمن من الشيطان و غيره فى ذلك اليوم، أو أن اللّه حياه فى ذلك اليوم، و هكذا معنى يَوْمَ يَمُوتُ و هكذا معنى يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا قيل: أوحش ما يكون الإنسان فى ثلاثة مواطن: يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه، و يوم يموت لأنه يرى قوما لم يكن قد عرفهم و أحكاما ليس له بها عهد، و يوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة. فخصّ اللّه سبحانه يحيى بالكرامة و السلامة فى المواطن الثلاثة.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ قال: بجدّ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا قال: الفهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: يقول اعمل بما فيه من فرائض. و أخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال: اللب. و أخرج أبو نعيم و الديلمى و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا قال: «أعطى الفهم و العبادة و هو ابن سبع سنين». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم عن قتادة بدله: و هو ابن ثلاث سنين. و أخرج الحاكم فى تاريخه، من طريق نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس

---

(١). فى المطبوع: بنو سلخ بن بكر، و المثبت من الديوان ص (١٤٣)

قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال الغلمان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال يحيى: ما للعب خلقنا، اذهبوا نصلى، فهو قول اللّه وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممّن أوتى الحكم صبيا». و أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس موقوفا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: وَ حَناناً قال: لا أدرى ما هو إلا أنّى أظنّه يعطف اللّه على عبده بالرحمة، و قد فسّرها جماعة من السّلف بالرحمة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ زَكاةً قال: بركة، و فى قوله: وَ كانَ تَقِيًّا قال: طهر فلم يعمل بذنب.

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ٢٦]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (١٧) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (١٩) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (٢٢) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (٢٣) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (٢٥)

فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)

قوله: وَ اذْكُرْ فِی الْكِتابِ مَرْیَمَ هذا شروع فی ابتداء خلق عیسی، و المراد بالكتاب هذه السورة، أی: اذكر یا محمد للناس فی هذه السورة قصة مریم، و یجوز أن یراد بالكتاب جنس القرآن، و هذه السورة منه، و لما كان الذكر لا یتعلّق بالأعیان احتیج إلی تقدیر مضاف یتعلّق به الذكر، و هو قصة مریم، أو خبر مریم إِذِ انْتَبَذَتْ العامل فی الظرف هو ذلك المضاف المقدّر، و یجوز أن یجعل بدل اشتمال من مریم؛ لأن الأزمان مشتملة علی ما فیها، و یكون المراد بمریم خبرها، و فی هذا الإبدال دلالة علی تفخیم شأن الوقت لوقوع قصّتها العجیبة فیه، و النبذ: الطرح و الرمی. قال اللّه سبحانه: فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ «١». و المعنی: أنها تنحّت و تباعدت. و قال ابن قتیبة: اعتزلت، و قیل: انفردت، و المعانی متقاربة. و اختلفوا فی سبب انتباذها، فقیل: لأجل أن تعبد اللّه سبحانه، و قیل: لتطهر من حیضها، و مِنْ أَهْلِها متعلّق بانتبذت، و انتصاب مَكاناً شَرْقِیًّا علی المفعولیة للفعل المذكور، أی: مكانا من جانب الشرق، و الشّرق بسكون الراء:

المكان الذی تشرق فیه الشمس، و إنما خصّ المكان بالشرق لأنهم كانوا یعظّمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكی معناه ابن جریر.

---

(١). آل عمران: ١٨٧.

و قد اختلف الناس فی نبوّة مریم، فقیل: إنها نبیة بمجرّد هذا الإرسال إلیها و مخاطبتها للملك؛ و قیل: لم تكن نبیة؛ لأنّه إنّما كلّمها الملك و هو علی مثال البشر، و قد تقدّم الكلام فی هذا فی آل عمران فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً أی: اتخذت من دون أهلها حجابا یسترها عنهم لئلا یروها حال العبادة، أو حال التطهر من الحیض، و الحجاب: الستر و الحاجز فَأَرْسَلْنا إِلَیْها رُوحَنا هو جبریل علیه السلام، و قیل: هو روح عیسی؛ لأن اللّه سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد، و الأوّل أولی لقوله: فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِیًّا أی:

تمثّل جبریل لها بشرا مستوی الخلق لم یفقد من نعوت بنی آدم شیئا، قیل: و وجه تمثل الملك لها بشرا أنها لا تطیق أن تنظر إلی الملك و هو علی صورته، فلما رأته فی صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق علیها الحجاب ظنت أنه یریدها بسوء، فاستعاذت باللّه منه، و قالَتْ إِنِّی أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِیًّا أی:

ممّن یتقی اللّه و یخافه؛ و قیل: إن تقیا اسم رجل صالح، فتعوّذت منه تعجّبا؛ و قیل: إنه اسم رجل فاجر معروف فی ذلك الوقت، و الأوّل أولی. و جواب الشرط محذوف، أی: فلا تتعرّض لی قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ أی: قال لها جبریل: إنما أنا رسول ربك الذی استعذت به، و لست ممّن یتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِیًّا جعل الهبة من قبله لكونه سببا فیها من جهة كون الإعلام لها من جهته، أو من جهة كون النفخ قام به فی الظاهر. و قرأ أبو عمرو و یعقوب و ورش عن نافع لیهب علی معنی أرسلنی لیهب لك، و قرأ الباقون بالهمز. و الزكیّ: الطاهر من الذنوب الذی ینمو علی النزاهة و العفة، و قیل: المراد بالزكیّ النبیّ قالَتْ أَنَّی یَكُونُ لِی غُلامٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ أی: لم یقربنی زوج و لا غیره وَ لَمْ أَكُ بَغِیًّا البغیّ: هی الزانیة التی تبغی الرجال. قال المبرد: أصله بغوی علی فعول، قلبت الواو یاء، ثم أدغمت فی الیاء و كسرت الغین للمناسبة. و قال ابن جنی: إنه فعیل؛ و زیادة ذكر كونها لم تك بغیا مع كون قولها لم یمسسنی بشر یتناول الحلال و الحرام لقصد التأكید تنزیها لجانبها من الفحشاء؛ و قیل: ما استبعدت من قدرة اللّه شیئا، و لكن أرادت كیف یكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوّجه فی المستقبل أم یخلقه اللّه سبحانه ابتداء؟ و قیل: إن المسّ عبادة عن النكاح الحلال، و علی هذا لا یحتاج إلی بیان وجه قولها: وَ لَمْ أَكُ بَغِیًّا، و ما ذكرناه من شموله أولی باستعمالات أهل اللغة، و ما یوجد فی محاوراتهم ممّا یطول تعداده اه. وَ لِنَجْعَلَهُ آیَةً لِلنَّاسِ

أى: و لنجعل هـذا الغلام، أو خلقه من غير أب، آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة، و هو علّة لمعلّل محذوف، و التقدير: خلقناه لنجعله، أو معطوف على علّة أخرى مضـمرة تتعلّق بما يدلّ عليه قوله سبحانه هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ و جملة: قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ مستأنفة، و القائـل هو الملـك، و الكلام فيها كالكلام فيما تقـدّم من قول زكريا. و قوله: وَ رَحْمَـةً مِنَّا معطوف على آيـة: أى و لنجعله رحمـة عظيمـة كائنـة منا للناس لما ينالونه منه من الهدايـة و الخير الكثير؛ لأنّ كل نبىّ رحمة لأمته وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا أى: و كان ذلك المذكور أمرا مقدّرا قد قدّره اللّه سبحانه و جف به القلم فَحَمَلَتْهُ هاهنا كلام مطوىّ، و التقدير: فاطمأنت إلى قوله فـدنا منها فنفخ فى جيب درعها فوصـلت النفخة إلى بطنها فحملته؛ و قيل: كانت النفخة فى ذيلها، و قيل: فى فمها. قيل: إن وضعها كان متّصلا بهذا الحمل من

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٨٨

غير مضىّ مدة للحمل، و يدلّ على ذلك قوله: فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا أى: تنحّت و اعتزلت إلى مكان بعيد، و القصّى: هو البعيد. قيل: كان هذا المكان وراء الجبل، و قيل: أبعد مكان فى تلك الدار، و قيل:

أقصى الوادى، و قيل: إنها حملت به ستة أشهر، و قيل: ثمانية أشهر، و قيل: سبعة فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ أى: ألجأها و اضطرها، و منه قول زهير:

أجاءته المخافة و الرّجاء «١» و قرأ شبيـل فاجأهـا مـن المفاجـأة، و رويـت هـذه القراءة عن عـاصم، و قرأ الحسن بغير همز، و فى مصحف أبىّ فلمّا أجاءها قال فى الكشاف: إن أجاءها منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء، و فيه بعـد، و الظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مسـتقلّ، و المخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخاضا و مخاضا؛ إذا دنا ولادها. و قرأ الجمهور بفتح الميم، و قرأ ابن كثير بكسـرها، و الجذع: ساق النخلة اليابسة، كأنها طلبت شيئا تستند إليه و تتعلق به، كما تتعلق الحامل؛ لشـدّة وجع الطلق بشـىء ممّا تجده عندها، و التعريف إما للجنس أو للعهد قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا أى: قبل هذا الوقت، تمنّت الموت لأنها خافت أن يظنّ بها السوء فى دينها، أو لئلا يقع قوم بسـببها فى البهتان وَ كُنْتُ نَسْـياً النّسـى فى كلام العرب: الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى، و لا يذكر، و لا يتألم لفقده؛ كالوتد و الحبل، و منه قول الكميت:

أ تجعلنا جسرا لكلب قضاعةو لسنا بنسى فى معدّ و لا دخل

و قال الفراء: النّسـى: ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها، فتقول مريم نَسْياً مَنْسِيًّا أى: حيضة ملقاة، و قد قرئ بفتح النون و كسرها، و همـا لغتـان مثـل الحجر و الحجر، و الوتر و الوتر. و قرأ محمـد بن كعب القرظى نسـئا بـالهمز مع كسـر النون. و قرأ نوف البكالى بالهمز مع فتـح النون. و قرأ بكر بن حبيب نسـيّا بفتـح النون و تشديـد الياء بـدون همز، و المنسـى: المتروك الـذى لا يـذكر و لا يخطر ببال أحـد من الناس فَناداها مِنْ تَحْتِها أى: جبريل لما سـمع قولها، و كان أسـفل منها تحت الأكمـة، و قيل: تحت النخلة، و قيل: المنادى هو عيسى. و قد قرئ بفتح الميم من مِنْ و كسرها. و قوله: أَلَّا تَحْزَنِي تفسير للنداء؛ أى:

لا تحزنى، أو المعنى بأن لا تحزنى على أنها المصدرية قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا قال جمهور المفسرين:

السـرىّ النهر الصـغير، المعنى: قد جعل ربك تحت قدمك نهرا. قيل: كان نهرا قد انقطع عنه الماء، فأرسل اللّه فيه الماء لمريم، و أحيـا به ذلـك الجـذع اليـابس الـذى اعتمـدت عليه حتى أورق و أثمر؛ و قيـل: المراد بالسـرىّ هنا عيسـى، و السرىّ: العظيم من الرجال؛ و منه قولهم فلان سرىّ، أى: عظيم، و من قوم سراة، أى:

عظـام وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِـذْعِ النَّخْلَـةِ الهزّ التحريك: يقال هزّه فاهتزّ، و الباء فى بجـذع النخلـة مزيـدة للتوكيـد. و قال الفراء: العرب تقول هزّه و هزّ به، و الجذع: هو أسفل الشجرة. قال قطرب: كلّ خشبة

(١). و صدره: و جار سار معتمدا إلينا.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٨٩

فى أصل شجرة فهى جذع، و معنى إليك: إلى جهتك، و أصل تساقط تتساقط فأدغم التاء فى السين. و قرأ حمزة و الأعمش تُساقِطْ مخففا. و قرأ عاصم فى رواية حفص و الحسن بضم التاء مع التخفيف و كسر القاف. و قرئ تتساقط بإظهار التاءين. و قرئ بالتحتية مع تشديد السين. و قرئ تسقط، و يسقط. و قرأ الباقون بإدغام التاء فى السين، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة، و من قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع؛ و انتصاب رُطَباً على بعض هذه القراءات للتمييز، و على البعض الآخر على المفعولية لتساقط. قال المبرد و الأخفش: يجوز انتصاب رطبا بهزّى، أى: هزّى إليك رطبا جَنِيًّا بجذع النّخلة، أى: على جذعها، و ضعّفه الزمخشرى، و الجنّى: المأخوذ طريا، و قيل: هو ما طلب و صلح للاجتناء، و هو فعيل بمعنى مفعول. قال الفراء: الجنّى و المجنى واحد. و قيل: هو فعيل بمعنى فاعل، أى:

رطبا طريا طيبا فَكُلِي وَ اشْرَبِي أى: من ذلك الرطب و ذلك الماء، أو من الرطب و عصيره، و قدّم الأكل مع أن ذكر النهر مقدّم على الرطب؛ لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشدّ من احتياجها إلى شرب الماء.

ثم قال: وَ قَرِّي عَيْناً قرأ الجمهور بفتح القاف. و حكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها، قال: و هى لغة نجد. و المعنى: طيبى نفسا و ارفضى عنك الحزن، و هو مأخوذ من القرّ و القرّة و هما البرد، و المسرور بارد القلب ساكن الجوارح؛ و قيل: المعنى: و قرّى عينا برؤية الولد الموهوب لك. و قال الشيبانى: معناه نامى.

قال أبو عمرو: أقرّ اللّه عينه، أى: أنام عينه و أذهب سهره فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً أصله ترأيين، مثل تسمعين، خففت الهمزة و سقطت النون للجزم و ياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد، و مثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد:

إما ترى رأسى حاكى لونهطرّة صبح تحت أذيال الدّجى

و قرأ طلحة و أبو جعفر و شيبة ترين بسكون الياء و فتح النون مخففة. قال أبو الفتح: و هى شاذة، و جواب الشرط فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً أى: قولى إن طلب منك الكلام أحد من الناس إنى نذرت للرحمن صوما أى صمتا؛ و قيل المراد به الصوم الشرعى، و هو الإمساك عن المفطرات، و الأوّل أولى.

و فى قراءة أبىّ «إنّى نذرت للرّحمن صوما صمتا» بالجمع بين اللفظين، و كذا روى عن أنس. و روى عنه أنه قرأ: «صوما و صمتا» بالواو، و الذى عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت، و يدل عليه: فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا و معنى الصوم فى اللغة أوسع من المعنيين. قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. و قراءة أبىّ تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت؛ لأنه تفسير للصوم. و قراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو. و معنى فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا أنها لا تكلم أحدا من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر، بل إنما تكلم الملائكة و تناجى ربها؛ و قيل: إنها لم تخبرهم هنا باللفظ، بل بالإشارة المفيدة للنذر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا قال: مكانا أظلتها الشمس أن يراها أحد منهم. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٩٠

حاتم عنه قال: إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لأن مريم اتخذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذوا ميلاده قبلة، و إنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل، فجعلوا ينحرفون و هم ينظرون إليه، يتخوّفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة رضيها اللّه، فاتخذوها سنة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن عساكر من طريق السدّى عن أبى مالك

عن ابن عباس، و عن مرّة عن ابن مسعود قالا:

خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها، فلما طهرت إذا هى برجل معها فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً ففزعت و قالَتْ إِنِّی أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْکَ إِنْ کُنْتَ تَقِيًّا فخرجت و عليها جلبابها، فأخذ بكمها فنفخ فى جيب درعها، و كان مشقوقا من قدّامها، فدخلت النفخة صدرها فحملت، فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكريا: يا مريم أشعرت أنى حبلى، قالت مريم: أشعرت [أيضا] «١» أنى حبلى، فقالت امرأة زكريا: فإنى وجدت ما فى بطنى سجد للذى فى بطنك، فذلك قوله تعالى:

مُصَدِّقاً بِکَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ «٢» فولدت امرأة زكريا يحيى، و لما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلی جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِی مِتُّ قَبْلَ هذا الآية فَناداها جبريل مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِی فلما ولدته ذهب الشيطان، فأخبر بنى إسرائيل أن مريم ولدت، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم ف قالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتانِیَ الْکِتابَ الآيات، و لما ولد لم يبق فى الأرض صنم إلا خرّ لوجهه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى مريم قال: حين حملت وضعت. و أخرج ابن عساكر عنه قال: وضعت لثمانية أشهر. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا قال: جبريل. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه.

و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن عساكر عن أبىّ بن كعب فى الآية قال: تمثل لها روح عيسى فى صورة بشر فحملته، قال:

حملت الذى خاطبها، دخل فى فيها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مَکاناً قَصِيًّا قال:

نائيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِلی جِذْعِ النَّخْلَةِ قال: كان جذعا يابسا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ کُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا قال: لم أخلق و لم أك شيئا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة وَ کُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا قال: حيضة ملقاة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد نحوه و أخرج عبد بن حميد عن نوف البكالى و الضحّاك مثله، و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله: فَناداها مِنْ تَحْتِها قال: الذى ناداها جبريل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الذى ناداها من تحتها جبريل، و لم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. و قد اختلفت الروايات عن السلف، هل هذا المنادى هو جبريل أو عيسى. و أخرج عبد بن حميد عن أبى بكر بن عياش قال: قرأ عاصم بن أبى النّجود فَناداها مِنْ تَحْتِها بالنصب، قال: و قال عاصم من قرأ بالنصب فهو عيسى، و من قرأ بالخفض فهو جبريل. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و ابن النجار عن

---

(١). ما بين حاصرتين من الدر المنثور.

(٢). آل عمران: ٣٩.

ابن عمر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن السرىّ الذى قال اللّه لمريم قَدْ جَعَلَ رَبُّکِ تَحْتَکِ سَرِيًّا نهر أخرجه اللّه لها لتشرب منه». و فى إسناده أيوب بن نهيك الحلبى قال فيه أبو حاتم الرازى: ضعيف، و قال أبو زرعة: منكر الحديث، قال أبو فتح الأزدى: متروك الحديث، و قال الطبرانى بعد إخراج هذا الحديث: إنه غريب جدّا. و أخرج الطبرانى فى الصغير و ابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: قَدْ جَعَلَ رَبُّکِ تَحْتَکِ سَرِيًّا قال «النهر». و أخرج عبد الرزاق

و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و صحّحه، و الحاكم و ابن مردويه عن البراء قال فى الآية: هو الجدول، و هو النهر الصغير، فظهر بهذا أن الموقوف أصح. و قد روى عن جماعة من التابعين أن السرىّ هو عيسى.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: رُطَباً جَنِيًّا قال: طريا. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه فى قوله: إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً قال: صمتا. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى عنه أنه قرأ:

«صوما صمتا».

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٧ الى ٣٣]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (٢٧) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (٣١)

وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (٣٢) وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات و فرغت من نفاسها فَأَتَتْ بِهِ أى: بعيسى، و جملة تَحْمِلُهُ فى محل نصب على الحال، و كان إتيانها إليهم من المكان القصىّ الذى انتبذت فيه، فلما رأوا الولد معها حزنوا، و كانوا أهل بيت صالحين ف قالُوا منكرين لذلك يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ أى: فعلت شَيْئاً فَرِيًّا قال أبو عبيدة: الفرىّ العجيب النادر، و كذا قال الأخفش. و الفرى: القطع، كأنه ممّا يخرق العادة، أو يقطع بكونه عجيبا نادرا. و قال قطرب: الفرى: الجديد من الأسقية، أى: جئت بأمر بديع جديد لم تسبقى إليه. و قال سعيد بن مسعدة: الفرىّ: المختلق المفتعل، يقال: فريت و أفريت بمعنى واحد، و الولد من الزّنا كالشىء المفترى، قال تعالى: وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَ «١». و قال مجاهد: الفرىّ: العظيم.

يا أُخْتَ هارُونَ قد وقع الخلاف فى معنى هذه الأخوّة، و فى هارون المذكور من هو؟ فقيل: هو هارون أخو موسى، و المعنى: أن من كانت نظنّها مثل هارون فى العبادة كيف تأتى بمثل هذا؟ و قيل: كانت مريم من ولد هارون أخى موسى، فقيل لها يا أخت هارون، كما يقال لمن كان من العرب: يا أخا العرب؛ و قيل: كان لها آخر من أبيها اسمه هارون؛ و قيل: هارون هذا رجل صالح فى ذلك الوقت؛ و قيل: بل كان

---

(١). الممتحنة: ١٢.

فى ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون، فنسبوها إليه على و جهة التعيير و التوبيخ، حكاه ابن جرير و لم يسمّ قائله و هو ضعيف. ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ، وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا هذا فيه تقرير لما تقدّم من التعيير و التوبيخ، و تنبيه على أن الفاحشة من ذرّية الصالحين مما لا ينبغى أن تكون فَأَشارَتْ إِلَيْهِ أى: إلى عيسى، و إنما اكتفت بالإشارة و لم تأمره بالنطق؛ لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدّم، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك فى أيام نذرها، و على تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها، فيمكن أن يقال: إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة، و أن هذا المولود يفهم الإشارة و يقدر على العبارة قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا هذا الاستفهام للإنكار و التعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم.

قال أبو عبيدة: فى الكلام حشو زائد، و المعنى: كيف نكلّم صبيا فى المهد، كقول الشاعر «١»:

....

و جيران لنا كانوا كرام «٢» و قال الزجّاج: الأجود أن تكون «من» فى معنى الشرط و الجزاء، و المعنى: من يكون فى المهد صبيا فكيف نكلّمه. و رجّحه ابن الأنبارى و قال: لا يجوز أن يقال: إن «كان» زائدة و قد نصبت صبيا، و يجاب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل، و هو نكلم كما سبق تقديره؛ و قيل: إن «كان» هنا هى التامة التى بمعنى الحدوث و الوجود. و ردّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر. و المهد: هو شىء معروف يتخذ لتنويم الصبى. و المعنى كيف نكلم من سبيله أن ينوّم فى المهد لصغره، و قيل: هو هنا حجر الأمّ، و قيل:

سرير كالمهد، فلما سمع عيسى كلامهم قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ فكان أوّل ما نطق به الاعتراف بالعبودية له آتانِيَ الْكِتابَ أى: الإنجيل، أى: حكم لى بإيتائى الكتاب و النبوّة فى الأزل، و إن لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال و لا قد صار نبيا؛ و قيل: إنه آتاه الكتاب و جعله نبيا فى تلك الحال، و هو بعيد وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ أى: حيثما كنت، و البركة: أصلها من بروك البعير، و المعنى: جعلنى ثابتا فى دين اللّه؛ و قيل: البركة هى الزيادة و العلوّ، فكأنه قال: جعلنى فى جميع الأشياء زائدا عاليا منجحا؛ و قيل معنى المبارك النفاع للعباد، و قيل: المعلم للخير، و قيل: الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ أى: أمرنى بها وَ الزَّكاةِ زكاة المال، أو تطهير النفس ما دُمْتُ حَيًّا أى: مدة دوام حياتى، و هذه الأفعال الماضية هى من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع؛ تنبيها على تحقيق وقوعه لكونه قد سبق فى القضاء المبرم وَ بَرًّا بِوالِدَتِي معطوف على مباركا، و اقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم فى تلك الحال أنه لم يكن له أب، و قرئ وَ بَرًّا بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا الجبار: المتعظّم الذى لا يرى لأحد عليه حقا، و الشقىّ: العاصى لربه، و قيل: الخائب، و قيل: العاقّ وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا قال المفسرون: السلام هنا بمعنى السلامة، أى: السلامة علىّ يوم ولدت، فلم يضرّنى الشيطان فى ذلك الوقت و لا أغوانى عند الموت و لا عند البعث؛

---

(١). هو الفرزدق.

(٢). و صدره: فكيف إذا رأيت ديار قوم.

و قيل: المراد به التحية. قيل: و اللام للجنس، و قيل: للعهد، أى: و ذلك السلام الموجّه إلى يحيى فى هذه المواطن الثلاثة موجّه إلىّ. قيل: إنه لم يتكلّم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدّة التى تتكلم فيها الصبيان فى العادة.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قال:

بعد أربعين يوما بعد ما تعافت من نفاسها. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و النسائى و غيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أهل نجران، فقالوا: أ رأيت ما تقرؤون يا أُخْتَ هارُونَ و موسى قبل عيسى بكذا و كذا، قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال:

«ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمّون بالأنبياء و الصالحين قبلهم؟» و هذا التفسير النبوىّ يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل و أحكامها فى بطن أمه، فذلك قوله: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: آتانِيَ الْكِتابَ الآية، قال: قضى أن أكون كذلك. و أخرج الإسماعيلى فى معجمه، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه و ابن النجار عن أبى هريرة قال: «قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قول عيسى: وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ قال: جعلنى نفاعا للناس أينما اتجهت».

و أخرج ابن عدىّ و ابن عساكر عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً قال: «معلما و مؤدّبا».

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا يقول: عصيّا.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٣٤ الى ٤٠]

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٨)

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٤٠)

الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى المتّصف بالأوصاف السابقة. قال الزجّاج: ذلك الذى قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ عيسى ابن مريم، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن اللّه و أنه إله. و قرأ ابن عامر و عاصم و يعقوب قَوْلَ الْحَقِّ بالنصب. و قرأ الباقون بالرفع. فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح، أو على أنه مصدر مؤكد ل قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ قاله الزجّاج. و وجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى؛ أى: ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ، قاله الكسائى. و سمّى قول الحق كما سمّى كلمة اللّه، و الحقّ: هو اللّه عزّ و جلّ. و قال أبو حاتم:

المعنى هو قول الحق؛ و قيل: التقدير: هذا الكلام قول الحق، و هو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل حَقُّ الْيَقِينِ* و قيل: الإضافة للبيان، و قرئ: «قال الحق»، و روى ذلك عن ابن مسعود، و قرأ الحسن قَوْلَ الْحَقِّ بضم القاف، و القول و القول و القال و المقال بمعنى واحد، و الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٣٩٤

صفة لعيسى؛ أى: ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون قول الحق، و معنى يمترون يختلفون على أنه من المماراة، أو يشكو على أنه من المرية. و قد وقع الاختلاف فى عيسى؛ فقالت اليهود: هو ساحر، و قالت النصارى: هو ابن اللّه ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ أى: ما صحّ و لا استقام ذلك، و «أن» فى محل رفع على أنها اسم كان. قال الزجاج: «من» فى مِنْ وَلَدٍ مؤكدة تدلّ على نفى الواحد و الجماعة؛ ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَهُ أى: تنزّه و تقدّس عن مقالتهم هذه؛ ثم صرّح سبحانه بما هو شأنه، تعالى سلطانه، فقال: إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أى: إذا قضى أمرا من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير. و قد سبق الكلام على هذا مستوفى فى البقرة، و فى إيراده فى هذا الموضع تبكيت عظيم للنصارى، أى: من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ قرأ أهل المدينة و ابن كثير و أبو عمرو بفتح أن، و قرأ ابن عامر و أهل الكوفة بكسرها، و هو من تمام كلام عيسى، و قرأ أبيّ إِنَّ اللَّهَ بغير واو، قال الخليل و سيبويه فى توجيه قراءة النصب بأن المعنى: و لأن اللّه ربى و ربكم، و أجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض عطفا على الصلاة، و جوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على أمرا هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى: هذا الذى ذكرته لكم من أنه ربى و ربكم، هو الطريق القيم الذى لا اعوجاج فيه، و لا يضلّ سالكه فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ من زائدة للتوكيد، و الأحزاب: اليهود و النصارى، أى: فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى، فاليهود قالوا: إنه ساحر، كما تقدّم، و قالوا: إنه ابن يوسف النجار، و النصارى اختلفت فرقهم فيه، فقالت النسطورية منهم: هو ابن اللّه، و قالت الملكية: هو ثالث ثلاثة، و قالت اليعقوبية: هو اللّه تعالى، فأفرطت النصارى و غلت، و فرّطت اليهود و قصّرت فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا و هم المختلفون فى أمره مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى: من شهود يوم القيامة و ما يجرى فيه من الحساب و العقاب، أو من مكان الشهود فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم؛ و قيل:

المعنى: فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ قال أبو العباس: العرب تقول هذا

فى موضع التعجب، فيقولون: أسمع بزيد و أبصر به، أى: ما أسمعه و أبصره، فعجّب اللّه سبحانه نبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم منهم. يَوْمَ يَأْتُونَنا أى: للحساب و الجزاء لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ أى: فى الدنيا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: واضح ظاهر، و لكنهم أغفلوا التفكّر و الاعتبار و النظر فى الآثار وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ أى: يوم يتحسّرون جميعا، فالمسىء يتحسّر على إساءته، و المحسن على عدم استكثاره من الخير إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ أى: فرغ من الحساب و طويت الصحف، و صار أهل الجنة فى الجنة و أهل النار فى النار، و جملة وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ فى محل نصب على الحال، أى: غافلين عمّا يعمل بهم، و كذلك جملة وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ فى محل نصب على الحال إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها أى: نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات، فكأنه سبحانه ورث الأرض و من عليها حيث أماتهم جميعا وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ أى: يردّون إلينا يوم القيامة فنجازى كلا بعمله، و قد تقدّم مثل هذا فى سورة الحجر.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قَوْلَ الْحَقِ قال: اللّه الحقّ عزّ و جلّ. و أخرج

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۹۵

عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ قال: اجتمع بنو إسرائيل و أخرجوا منهم أربعة نفر، من كل قوم عالمهم، فامتروا فى عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو اللّه هبط إلى الأرض، و أحيا من أحيا، و أمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، و هم اليعقوبية؛ فقالت الثلاثة: كذبت؛ ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، فقال: هو ابن اللّه، و هم النسطورية؛ فقال اثنان: كذبت؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، اللّه إله، و عيسى إله، و أمه إله، و هم الإسرائيلية، و هم ملوك النصارى؛ فقال الرابع: كذبت، هو عبد اللّه و رسوله و روحه من كلمته، و هم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا، فظهروا على المسلمين، فذلك قول اللّه سبحانه: وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ «۱»، قال قتادة: و هم الذى قال اللّه: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزابا، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم باللّه هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام و أن اللّه لا يطعم؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فهل تعلمون أن عيسى كان ينام و أن اللّه لا ينام؟ قالوا: اللهم نعم، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ و أصيب المسلمون، فأنزل اللّه فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يقول: الكفار يومئذ أسمع شىء و أبصره، و هم اليوم لا يسمعون و لا يبصرون. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: يَوْمَ يَأْتُونَنا قال: ذلك يوم القيامة. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة و النار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون و ينظرون إليه، فيقولون:

نعم هذا الموت، و كلهم قد رآه؛ ثم ينادى: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون و ينظرون، فيقولون: نعم هذا الموت، و كلهم قد رآه، فيؤمر به فيذبح و يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، و يا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ الآية، و أشار بيده و قال:

أهل الدنيا فى غفلة». و أخرج النسائى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس، قال: يوم الحسرة: هو من أسماء يوم القيامة، و قرأ:

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ «۲»، و علىّ هذا ضعيف، و الآية التى استدلّ بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة و لا تضمّن و لا التزام.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٥٠]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٤١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (٤٤) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (٤٥)

قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (٤٩) وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

---

(١). آل عمران: ٢١.

(٢). الزمر: ٥٦.

فتح القدير، ج٣، ص: ٣٩٦

قوله: وَ اذْكُرْ معطوف على و أنذر، و المراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ «١»، و جملة إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا تعليل لما تقدّم من الأمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يذكره، و هي معترضة ما بين البدل و المبدل منه، و الصدّيق كثير الصدق، و انتصاب نبيا على أنه خبر آخر لكان، أي: اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين، و إِذْ قالَ لِأَبِيهِ بدل اشتمال من إبراهيم، و تعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، و أبو إبراهيم هو آزر على ما تقدّم تقريره، و التاء في «يا أبت» عوض عن الياء، و لهذا لا يجتمعان، و الاستفهام في لِمَ تَعْبُدُ للإنكار و التوبيخ ما لا يَسْمَعُ ما تقوله من الثناء عليه و الدعاء له وَ لا يُبْصِرُ ما تفعله من عبادته و من الأفعال التي تفعلها مريدا بها الثواب، و يجوز أن يحمل نفي السمع و الإبصار على ما هو أعمّ من ذلك؛ أي: لا يسمع شيئا من المسموعات، و لا يبصر شيئا من المبصرات وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً من الأشياء، فلا يجلب لك نفعا و لا يدفع عنك ضررا، و هي الأصنام التي كان يعبدها آزر، أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل و النصائح، و صدّر كلا منها بالنداء المتضمّن للرفق و اللين استمالة لقلبه، و امتثالا لأمر ربه، ثم كرّر دعوته إلى الحق فقال: يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه، و أنه قد تجدّد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق، و يقتدر به على إرشاد الضالّ، و لهذا أمره باتباعه فقال: فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا مستويا موصلا إلى المطلوب منجيا من المكروه، ثم أكّد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عمّا هو فيه، فقال: يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ أي: لا تطعه، فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، و من أطاع من هو عاص للّه سبحانه فهو عاص للّه، و العاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم و تحلّ به النقم. قال الكسائي: العصيّ و العاصي بمعنى واحد. ثم بيّن له الباعث على هذه النصائح فقال: يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ قال الفراء: معنى أخاف هنا أعلم. و قال الأكثرون: إن الخوف هنا محمول على ظاهره؛ لأنّ إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازما بذلك لم يشتغل بنصحه، و معنى الخوف على الغير: هو أن يظنّ وصول الضرر إلى ذلك الغير فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا أي: إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه في النار و اللعنة، فتكون بهذا السبب مواليا، أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه، و ليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه:

---

(۱). الشعراء: ۶۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۹۷

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ «۱» و قيل: الولىّ بمعنى التالى، و قيل: الولىّ بمعنى القريب، أى: تكون للشيطان قريبا منه فى النار، فلما مرّت هذه النصائح النافعة و المواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة و الفظاظة و القسوة، ف قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ و الاستفهام للتقريع و التوبيخ و التعجيب، و المعنى: أ معرض أنت عن ذلك و منصرف إلى غيره؟ ثم توعّده فقال: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ أى: بالحجارة، و قيل: باللسان، فيكون معناه لأشتمنك، و قيل: معناه لأضربنك، و قيل: لأظهرنّ أمرك وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا أى: زمانا طويلا.

قال الكسائى: يقال: هجرته مليّا و ملوة و ملوة و ملاوة، بمعنى الملاوة من الزمان، و هو الطويل، و منه قول مهلهل:

فتصدّعت صمّ الجبال لموتهو بكت عليه المرملات مليّا

و قيل: معناه: اعتزلنى سالم العرض لا تصيبك منى معرّة، و اختار هذا ابن جرير، فمليا على هذا منتصب على الحال من إبراهيم، و على القول الأوّل منتصب على الظرفية، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ أى: تحية توديع و متاركة، كقوله: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً «۲» و قيل معناه:

أمنة منى لك، قاله ابن جرير، و إنما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله، و الأوّل أولى، و به قال الجمهور؛ و قيل: معناه: الدعاء له بالسلامة، استمالة له و رفقا به، ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من اللّه سبحانه تألفا له و طمعا فى لينه و ذهاب قسوته:

و الشّيخ لا يترك أخلاقهحتى يوارى فى ثرى رمسه «۳»

و كان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر، و تحقّ عليه الكلمة، و لهذا قال اللّه سبحانه فى موضع آخر: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «۴» بعد قوله: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ «۵». و جملة إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا تعليل لما قبلها؛ و المعنى: سأطلب لك المغفرة من اللّه، فإنه كان بى كثير البرّ و اللطف، يقال: حفى به و تحفّى إذا برّه. قال الكسائى: يقال حفى بى حفاوة و حفوة.

و قال الفراء: إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا أى: عالما لطيفا يجيبنى إذا دعوته. ثم صرّح الخليل بما تضمّنه سلامه من التوديع و المتاركة فقال: وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: أهاجر بدينى عنكم و عن معبوداتكم؛ حيث لم تقبلوا نصحى، و لا نجعت فيكم دعوتى وَ أَدْعُوا رَبِّي وحده عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا أى: خائبا، و قيل: عاصيا. قيل: أراد بهذا الدعاء: هو أن يهب اللّه له ولدا و أهلا يستأنس بهم فى اعتزاله، و يطمئن إليهم عند وحشته؛ و قيل: أراد دعاءه لأبيه بالهداية، و عسى للشك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا، و الأوّل أولى لقوله: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أى: جعلنا هؤلاء الموهوبين له أهلا و ولدا بدل الأهل الذين فارقهم

---

(۱). الزخرف: ۶۷.

(۲). الفرقان: ۶۹.

(۳). البيت لصالح بن عبد القدوس. (تاريخ بغداد ۹/ ۳۰۳)

(۴). التوبة: ۱۱۴.

(۵). التوبة: ۱۱۴.

فتح القدير، ج۳، ص: ۳۹۸

وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا أى: كل واحد منهما، و انتصاب «كلا» على أنه المفعول الأوّل لجعلنا، قدّم عليه للتخصيص، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا- بالنسبة إلى من عداهم، أى: كل واحد منهم جعلنا نبيا، لا بعضهم دون بعض وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا بأن جعلناهم أنبياء، و ذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوّة هى من باب الرحمة. و قيل: المراد بالرحمة هنا المال، و قيل: الأولاد، و قيل: الكتاب، و لا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا لسان الصدق: الثناء الحسن، عبّر عنه باللسان لكونه يوجد به «1»، كما عبّر باليد عن العطية، و إضافته إلى الصدق و وصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَأَرْجُمَنَّكَ قال: لأشتمنّك وَ اهْجُرْنِى مَلِيًّا قال: حينا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ اهْجُرْنِى مَلِيًّا قال: اجتنبنى سويّا.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: اجتنبنى سالما قبل أن تصيبك منى عقوبة. و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير و عكرمة مَلِيًّا: دهرا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة قال: سالما.

و أخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِنَّهُ كانَ بِى حَفِيًّا قال: لطيفا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ قال: يقول وهبنا له إسحاق ولدا «2» و يعقوب ابن ابنه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا قال: الثناء الحسن.

[سورة مريم (19): الآيات 51 الى 63]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (51) وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا (52) وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53) وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60)

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63)

قفّى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلوه فى الشرف، و قدّمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه و بين ذكر يعقوب، أى: و اقرأ عليهم من القرآن قصة موسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً قرأ أهل الكوفة بفتح اللام،

---

(1). أى الثناء الحسن.

(2). من الدر المنثور (5/ 514)

أى: جعلناه مختارا و أخلصناه، و قرأ الباقون بكسرها، أى: أخلص العبادة و التوحيد للّه غير مراء للعباد وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا أى:

أرسله اللّه إلى عباده فأنبأهم عن اللّه بشرائعه التى شرعها لهم، فهذا وجه ذكر النبىّ بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوّة، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوى لا الشرعى، و اللّه أعلم. و قال النيسابورى: الرسول: الذى معه كتاب من الأنبياء، و النبىّ: الذى ينبئ عن اللّه عزّ و جلّ و إن لم يكن معه كتاب، و كان المناسب ذكر الأعمّ قبل الأخص، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك، كقوله فى:

طه: بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى «١» انتهى. وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ أى: كلّمناه من جانب الطور، و هو جبل بين مصر و مدين اسمه زبير، و معنى الأيمن: أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى، فإن الشجرة كانت فى ذلك الجانب و النداء وقع منها، و ليس المراد يمين الجبل نفسه. فإن الجبال لا يمين لها و لا شمال. و قيل: معنى الأيمن الميمون، و معنى النداء: أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا أى: أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلّمناه، و النجىّ بمعنى المناجى كالجليس و النديم، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف و الإكرام، مثلت حاله بحال من قربه الملك لمناجاته. قال الزجاج: قرّبه منه فى المنزلة حتى سمع مناجاته. و قيل: إن اللّه سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم. روى هذا عن بعض السلف. وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أى: من نعمتنا، و قيل: من أجل رحمتنا، و هارُونَ عطف بيان، و نَبِيًّا حال منه، و ذلك حين سأل ربه قال: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي- هارُونَ أَخِي «٢». و وصف اللّه سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك؛ لأنه كان مشهورا بذلك مبالغا فيه، و ناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفّى بذلك، و كان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام و الليالى، حتى قيل: إنه انتظر بعض من وعده حولا. و المراد بإسماعيل هنا هو إسماعيل بن إبراهيم، و لم يخالف فى ذلك إلا من لا يعتدّ به، فقال:

هو إسماعيل بن حزقيل، بعثه اللّه إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره اللّه فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه و رضى بثوابه، و قد استدل بقوله تعالى فى إسماعيل وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة؛ فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، و قيل: إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ قيل: المراد بأهله هنا أمته، و قيل: جرهم، و قيل: عشيرته كما فى قوله: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٣». و المراد بالصلاة و الزكاة- هنا- هما العبادتان الشرعيتان، و يجوز أن يراد معناهما اللغوى وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا أى: رضيا زاكيا صالحا. قال الكسائى و الفراء: من قال مرضىّ بنى على رضيت، قالا: و أهل الحجاز يقولون مرضوّ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ اسم إدريس أخنوخ، قيل: هو جدّ نوح، فإن نوحا هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، و على هذا فيكون جدّ أبى نوح، ذكره الثعلبى و غيره، و قد قيل: إن هذا خطأ، و امتناع إدريس للعجمة و العلمية. و هو أوّل من خط بالقلم، و نظر فى النجوم و الحساب، و أوّل من خاط الثياب. قيل: و هو أوّل من أعطى النبوّة من بنى آدم.

و قد اختلف فى معنى قوله: وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا فقيل: إن اللّه رفعه إلى السماء الرابعة، و قيل: إلى

---

(١). طه: ٧٠.

(٢). طه: ٢٩- ٣٠.

(٣). الشعراء: ٢١٤.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٠٠

فتح القدير ج‏٣ ٤٤٩

السادسة، و قيل: إلى الثانية. و قد روى البخارى فى صحيحه من حديث الإسراء و فيه: «و منهم إدريس فى الثانية»، و هو غلط من رواية شريك بن عبد اللّه بن أبى نمر. و الصحيح أنه فى السماء الرابعة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس بن مالك

عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: إن المراد برفعه مكانا عليا: ما أعطيه من شرف النبوّة، و قيل: إنه رفع إلى الجنة أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، و الموصول صفته، و من النبيين بيان للموصول، و مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ بدل منه بإعادة الخافض، و قيل: إن من فى «من ذرية آدم» للتبعيض وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ أى: من ذرية من حملنا معه و هم من عدا إدريس، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ و هم الباقون وَ إِسْرائِيلَ أى: و من ذرية إسرائيل، و منهم موسى و هارون و يحيى و عيسى؛ و قيل: إنه أراد بقوله:

مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ إدريس وحده، و أراد بقوله: وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إبراهيم وحده، و أراد بقوله:

وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ إسماعيل و إسحاق و يعقوب، و أراد بقوله: وَ من ذرّية إِسْرائِيلَ موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى وَ مِمَّنْ هَدَيْنا أى: من جملة من هدينا إلى الإسلام وَ اجْتَبَيْنا بالإيمان إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا و هذا خبر لأولئك، و يجوز أن يكون الخبر هو الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و هذا استئناف لبيان خشوعهم للّه و خشيتهم منه. و قد تقدم فى سبحان «١» بيان معنى خرّوا سجّدا؛ يقال: بكى يبكى بكاء و بكيا. قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن؛ أى: ليس معه صوت، و منه قول الشاعر «٢»:

بكت عينى و حقّ لها بكاهاو ما يغنى البكاء و لا العويل

و «سُجَّداً» منصوب على الحال. قال الزجاج: قد بيّن اللّه أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات اللّه بكوا و سجدوا، و قد استدلّ بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة، و لما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيبا لغيرهم فى الاقتداء بهم و سلوك طريقتهم ذكر أضدادهم تنفيرا للناس عن طريقتهم، فقال: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أى: عقب سوء. قال أهل اللغة: يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام، و لعقب الشر خلف بسكون اللام، و قد قدّمنا الكلام على هذا فى آخر الأعراف أَضاعُوا الصَّلاةَ قال الأكثر: معنى ذلك أنهم أخّروها عن وقتها، و قيل: أضاعوا الوقت، و قيل: كفروا بها و جحدوا وجوبها، و قيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. و الظاهر أنّ من أخّر الصلاة عن وقتها، أو ترك فرضا من فروضها، أو شرطا من شروطها، أو ركنا من أركانها؛ فقد أضاعها، و يدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرّة أو جحدها دخولا أوّليا.

و اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية؟ فقيل: فى اليهود، و قيل: فى النصارى، و قيل: فى قوم من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يأتون فى آخر الزمان، و معنى وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ أى: فعلوا ما تشتهيه أنفسهم و ترغب إليه من المحرّمات كشرب الخمر و الزّنا فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا الغىّ: هو الشرّ عند أهل اللغة، كما أن الخير هو

---

(١). سورة الإسراء.

(٢). هو عبد اللّه بن رواحة.

الرشاد. و المعنى: أنهم سيلقون شرّا لا خيرا؛ و قيل: الغىّ الضلال، و قيل: الخيبة، و قيل: هو اسم واد فى جهنم، و قيل: فى الكلام حذف، و التقدير: سيلقون جزاء الغىّ، كذا قال الزجاج، و مثله قوله سبحانه:

يَلْقَ أَثاماً «١»، أى: جزاء أثام إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً أى: تاب ممّا فرط منه من تضييع الصلوات و اتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة اللّه و آمن به و عمل عملا صالحا، و فى هذا الاستثناء دليل على أن الآية فى الكفرة لا فى المسلمين فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قرأ أبو جعفر و شيبة و ابن كثير و ابن محيصن و أبو عمرو و يعقوب و أبو بكر يَدْخُلُونَ بضم الياء و فتح الخاء، و قرأ الباقون بفتح الياء و ضم الخاء وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً أى: لا ينقص من أجورهم شىء و إن كان قليلا، فإن اللّه سبحانه يوفى إليهم

أجورهم، و انتصاب جَنَّاتِ عَدْنٍ على البدل من الجنة، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة. قال الزجاج: و يجوز جنات عدن بالرفع على الابتداء، و قرئ كذلك. قال أبو حاتم: و لو لا الخط لكان جنة عدن، يعنى: بالإفراد مكان الجمع، و ليس هذا بشىء، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التى هى بمنزلة الأنواع للجنس. و قرئ بنصب الجنات على المدح، و قد قرئ جنة بالإفراد الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ هذه الجملة صفة لجنات عدن، و بالغيب فى محل نصب على الحال من الجنات، أو من عباده، أى: متلبسة، أو متلبسين بالغيب، و قرئ بصرف عدن، و منعها على أنها علم لمعنى العدن و هو الإقامة، أو علم لأرض الجنة إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا أى: موعوده على العموم، فتدخل فيه الجنات دخولا أوّليا. قال الفراء:

لم يقل آتيا، لأن كل ما أتاك فقد أتيته، و كذا قال الزجاج لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً هو الهذر من الكلام الذى يلغى و لا طائل تحته، و هو كناية عن عدم صدور اللغو منهم، و قيل: اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر اللّه إِلَّا سَلاماً هو استثناء منقطع: أى سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم. و قال الزجّاج:

السلام اسم جامع للخير، لأنه يتضمّن السلامة، و المعنى: إن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم و إنما يسمعون ما يسلمهم وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا قال المفسرون: ليس فى الجنة بكرة و لا عشية، و لكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء و العشاء تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا أى:

هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه. قرأ يعقوب نُورِثُ بفتح الواو و تشديد الراء، و قرأ الباقون بالتخفيف؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير:

نورث من كان تقيا من عبادنا.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا قال:

النبىّ الذى يكلم و ينزل عليه و لا يرسل، و لفظ ابن أبى حاتم: الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى إلى أحدهم و لا يرسل إلى أحد. و الرسل: الأنبياء الذين يوحى إليهم و يرسلون. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ قال: جانب الجبل الأيمن وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا قال:

نجا بصدقه. و أخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال: قربه حتى سمع صريف القلم، يكتب فى اللوح. و أخرجه الديلمى عنه مرفوعا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ

---

(١). الفرقان: ٦٨.

قال: كان هارون أكبر من موسى، و لكن إنما وهب له نبوّته. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا قال: كان إدريس خياطا، و كان لا يغرز غرزة إلا قال سبحان اللّه، و كان يمسى حين يمسى و ليس على الأرض أفضل عملا منه، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال: يا ربّ ائذن لى فأهبط إلى إدريس، فأذن له فأتى إدريس فقال: إنى جئتك لأخدمك، قال: كيف تخدمنى و أنت ملك و أنا إنسان؟ ثم قال إدريس: هل بينك و بين ملك الموت شىء؟ قال الملك: ذاك أخى من الملائكة، قال: هل يستطيع أن ينسئنى؟ قال: أما أن يؤخّر شيئا أو يقدّمه فلا، و لكن سأكلّمه لك فيرفق بك عند الموت، فقال:

اركب بين جناحىّ، فركب إدريس فصعد إلى السماء العليا، فلقى ملك الموت و إدريس بين جناحيه، فقال له الملك: إن لى إليك حاجة، قال: علمت حاجتك تكلّمنى فى إدريس، و قد محى اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين، فمات إدريس بين جناحى الملك. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصاحف، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: سألت كعبا فذكر

نحوه، فهذا هو من الإسرائيليات التى يرويها كعب.
و أخرج ابن أى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: رفع إدريس إلى السماء السادسة. و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و ابن مردويه قال: حدثنا أنس بن مالك عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لمّا عرج بى رأيت إدريس فى السماء الرابعة». و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرىّ مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: رفع إدريس كما رفع عيسى و لم يمت. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إدريس هو إلياس. و حسّنه السيوطى. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إلى آخره، قال: هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم؛ أما من ذرية آدم: فإدريس و نوح؛ و أما من حمل مع نوح فإبراهيم؛ و أما ذرية إبراهيم: فإسماعيل، و إسحاق، و يعقوب؛ و أما ذرية إسرائيل: فموسى، و هارون، و زكريا، و يحيى، و عيسى. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى الآية قال: هم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام، لا يستحيون من الناس، و لا يخافون من اللّه فى السماء. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى قوله: أَضاعُوا الصَّلاةَ قال: ليس إضاعتها تركها، قد يضيع الإنسان الشيء و لا يتركه، و لكن إضاعتها: إذا لم يصلّها لوقتها. و أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى سعيد الخدرى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تلا هذه الآية فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ الآية قال: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، و يقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، و منافق، و فاجر». و أخرج أحمد، و الحاكم و صحّحه، عن عقبة بن عامر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «سيهلك من أمتى أهل الكتاب و أهل اللّين، قلت: يا رسول اللّه ما أهل الكتاب؟ قال: قوم يتعلّمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا. قلت: ما أهل اللّين؟ قال: قوم يتبعون الشهوات و يضيعون الصلوات». و أخرج

فتح القدير، ج٣، ص: ۴٠٣

ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الحاكم و صحّحه، عن عائشة أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة و تقول:
لا تعطوا منها بربريا و لا بربرية، فإنى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «هم الخلف الذين قال اللّه فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ . و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا قال:
خسرا. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث، من طرق عن ابن مسعود فى قوله: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا قال: الغىّ نهر، أو واد فى جهنم؛ من قيح بعيد القعر، خبيث الطعم، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات. و قد قال بأنه واد فى جهنم البراء بن عازب. و روى ذلك عنه ابن المنذر و الطبرانى. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفا، ثم تنتهى إلى غىّ و أثام، قلت: و ما غىّ و أثام؟
قال: نهران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، و هما اللذان ذكر اللّه فى كتابه فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً «١»». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الغىّ واد فى جهنّم». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: بُكْرَةً وَ عَشِيًّا قال: يؤتون به فى الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به فى الدنيا. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، من طريق أبان عن الحسن و أبى قلابة قالا: قال رجل: يا رسول اللّه هل فى الجنة من ليل؟ قال: و ما هيّجك على هذا؟ قال: سمعت اللّه يذكر فى الكتاب وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا فقلت: الليل من البكرة و العشى، فقال رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ليس هناك ليل، و إنما هو ضوء و نور، يرد الغدوّ على الرواح و الرواح على الغدوّ، تأتيهم طرف الهدايا من اللّه لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا، و تسلم عليهم الملائكة». و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ما من غداة من غدوات الجنة، و كل الجنة غدوات، إلّا أنه يزف إلى ولىّ اللّه فيها زوجة من الحور العين و أدناهنّ التى خلقت من الزعفران» قال بعد إخراجه: قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦۴ الى ٧٢]

وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (۶۴) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (۶۵) وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (۶۶) أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً (۶۷) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (۶۸)
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (۶۹) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (٧٠) وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (٧٢)

---

(١). الفرقان: ۶٨.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴٠۴

قوله: وَ ما نَتَنَزَّلُ أى: قال اللّه سبحانه: قل يا جبريل و ما نتنزل، و ذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم استبطأ نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل عليه إلا بأمر اللّه. قيل: احتبس جبريل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أربعين يوما، و قيل: خمسة عشر، و قيل: اثنى عشر، و قيل: ثلاثة أيام، و قيل: إن هذا حكاية عن أهل الجنة، و أنهم يقولون عند دخولها: و ما نتنزل هذه الجنان إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ و الأوّل أولى بدلالة ما قبله، و معناه يحتمل وجهين: الأوّل: و ما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل. و الثانى: و ما نتنزل عليك إلا بأمر ربك الذى يأمرك به بما شرعه لك و لأمتك، و التنزّل: النزول على مهل، و قد يطلق على مطلق النزول. ثم أكّد جبريل ما أخبر به النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ أى:
من الجهات و الأماكن، أو من الأزمنة الماضية و المستقبلة، و ما بينهما من الزمان أو المكان الذى نحن فيه، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة إلى جهة، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك و مشيئته؛ و قيل: المعنى: له ما سلف من أمر الدنيا و ما يستقبل من أمر الآخرة و ما بين ذلك، و هو ما بين النفختين؛ و قيل: الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا، و السماء التى وراءنا و ما بين السماء و الأرض؛ و قيل: ما مضى من أعمارنا و ما غبر «١» منها و الحالة التى نحن فيها. و على هذه الأقوال كلها يكون المعنى: أن اللّه سبحانه هو المحيط بكل شى‌ء، لا يخفى عليه خافية، و لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه، و قال: «و ما بين ذلك»، و لم يقل و ما بين ذينك؛ لأن المراد: و ما بين ما ذكرنا، كما فى قوله سبحانه: عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «٢». وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا أى: لم ينسك و إن تأخّر عنك الوحى؛ و قيل: المعنى: إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئا؛ و قيل: المعنى: و ما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذى يرسل فيه رسله رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما أى: خالقهما و خالق ما بينهما، و مالكهما و مالك ما بينهما، و من كان هكذا فالنسيان محال عليه. ثم أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بعبادته و الصبر عليها فقال: فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ و الفاء للسببية؛ لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد، و عدّى فعل الصبر باللام دون على التى يتعدّى بها لتضمّنه معنى الثبات هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا الاستفهام للإنكار. و المعنى: أنه ليس له مثل و لا نظير حتى يشاركه فى

العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه، فلما انتفى المشارك استحق اللّه سبحانه أن يفرد بالعبادة و تخلص له، هذا مبنىّ على أن المراد بالسمىّ هو الشريك فى المسمى؛ و قيل: المراد به: الشريك فى الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل المعنى: إنه لم يسمّ شىء من الأصنام و لا غيرها باللّه قط، يعنى بعد دخول الألف و اللام التى عوّضت عن الهمزة و لزمت؛ و قيل: المراد هل تعلم أحدا اسمه الرحمن غيره.

قال الزّجّاج: تأويله و اللّه أعلم: هل تعلم له سميّا يستحق أن يقال له خالق و قادر و عالم بما كان و بما يكون، و على هذا لا سمىّ للّه فى جميع أسمائه؛ لأن غيره و إن سمّى بشىء من أسمائه، فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، و المراد بنفى العلم المستفاد من الإنكار هنا نفى المعلوم على أبلغ وجه و أكمله وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا قرأ الجمهور على الاستفهام، و قرأ ابن ذكوان «إذا ما متّ» على الخبر، و المراد بالإنسان

---

(۱). غبر هنا: بمعنى بقى، و تأتى بمعنى: مضى. انظر القاموس.

(۲). البقرة: ۶۸.

هاهنا الكافر؛ لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار و الاستهزاء و التكذيب بالبعث؛ و قيل: اللام فى الإنسان للجنس بأسره و إن لم يقل هذه المقالة إلا البعض، و هم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم، و المراد بقوله «أخرج» أى: من القبر، و العامل فى الظرف فعل دلّ عليه «أخرج»؛ لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً الهمزة للإنكار التوبيخى، و الواو لعطف الجملة التى بعدها على الجملة التى قبلها، و المراد بالذكر هنا إعمال الفكر، أى: ألا يتفكر هذا الجاحد فى أوّل خلقه فيستدلّ بالابتداء على الإعادة، و الابتداء أعجب و أغرب من الإعادة؛ لأن النشأة الأولى هى إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعا و اختراعا، لم يتقدّم عليه ما يكون كالمثال له، و أما النشأة الآخرة فقد تقدّم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها، و معنى مِنْ قَبْلُ قبل الحالة التى هو عليها الآن، و جملة وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنه لم يكن حينئذ شيئا من الأشياء أصلا، فإعادته بعد أن كان شيئا موجودا أسهل و أيسر. قرأ أهل مكة و أبو عمرو و أبو جعفر و أهل الكوفة إلا عاصما أ و لا يذّكّر بالتشديد، و أصله يتذكر. و قرأ شيبة و نافع و عصام و ابن عامر يَذْكُرُ بالتخفيف، و فى قراءة أبىّ أو لا يتذكّر. ثم لما جاء سبحانه و تعالى بهذه الحجة التى أجمع العقلاء على أنه لم يكن فى حجج البعث حجّة أقوى منها، أكّدها بالقسم باسمه سبحانه مضافا إلى رسوله تشريفا له و تعظيما، فقال: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ و معنى لنحشرنهم: لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا، و الواو فى قوله: وَ الشَّياطِينَ للعطف على المنصوب، أو بمعنى مع. و المعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم اللّه مع شياطينهم الذين أغروهم و أضلّوهم، و هذا ظاهر على جعل اللام فى الإنسان للعهد، و هو الإنسان الكافر، و أما على جعلها للجنس فكونه قد وجد فى الجنس من يحشر مع شيطانه ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا الجثىّ: جمع جاث، من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثوا، و هو منتصب على الحال؛ أى: جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف و روعة الحساب، أو لكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه:

وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً «۱»، و قيل: المراد بقوله جثيا جماعات، و أصله جمع جثوة، و الجثوة: هى المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة:

ترى جثوتين من تراب عليهماصفائح صمّ من صفيح منضّد

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ الشيعة: الفرقة التى تبعت دينا من الأديان، و خصّص ذلك الزمخشرى فقال: هى الطائفة التى شاعت،

أى: تبعت غاويا من الغواة، قال اللّه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً «٢». و معنى: أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا من كان أعصى للّه و أعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغىّ و الفساد أعصاهم و أعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم فى جهنم. و العتىّ هاهنا مصدر كالعتوّ، و هو التمرّد فى العصيان. و قيل: المعنى: لننزعن من أهل كلّ دين قادتهم و رؤوسهم فى الشرّ. و قد

---

(١). الجاثية: ٢٨.

(٢). الأنعام: ١٥٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴٠۶

اتفق القراء على قراءة «أيهم» بالضم إلا هارون القارئ فإنه قرأها بالفتح. قال الزجاج: فى رفع «أيهم» ثلاثة أقوال: الأوّل قول الخليل بن أحمد إنه مرفوع على الحكاية. و المعنى: ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشدّ، و أنشد الخليل فى ذلك قول الشاعر:

و قد أبيت من الفتاة بمنزلفأبيت لا حرج و لا محروم

أى: فأبيت بمنزلة الذى يقال له هو لا حرج و لا محروم. قال النحّاس: و رأيت أبا إسحاق، يعنى الزجّاج، يختار هذا القول و يستحسنه. القول الثانى قول يونس: و هو أن لننزعنّ بمنزلة الأفعال التى تلغى و تعلق، فهذا الفعل عنده معلّق عن العمل فى أىّ، و خصّص الخليل و سيبويه و غيرهما التعليق بأفعال الشك و نحوها ممّا لم يتحقّق وقوعه. القول الثالث قول سيبويه: إن أيهم هاهنا مبنىّ على الضم؛ لأنه خالف أخواته فى الحذف، و قد غلّط سيبويه فى قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج: ما تبيّن لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما. و للنحويين فى إعراب أيهم هذه فى هذا الموضع كلام طويل. ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا يقال: صلى يصلى صليا «١»، مثل مضى الشيء يمضى مضيا، قال الجوهرى: يقال:

صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار و جعلته يصلاها، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت: أصليته بالألف و صلّيته تصلية، و منه وَ يَصْلى سَعِيراً «٢» و من خفّف فهو من قولهم: صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق، قال اللّه تعالى: بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا. قال العجّاج «٣»:

و اللّه لو لا النار أن نصلاها و معنى الآية: أن هؤلاء الذين هم أشدّ على الرحمن عتيا هم أولى بصليها، أو صليهم أولى بالنار وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها الخطاب للناس من غير التفات، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتا، أى: ما منكم من أحد إلا واردها، أى: واصلها.

و قد اختلف الناس فى هذا الورود، فقيل: الورود الدخول، و يكون على المؤمنين بردا و سلاما كما كانت على إبراهيم. و قالت فرقة: الورود هو المرور على الصراط؛ و قيل: ليس الورود الدخول، إنما هو كما تقول:

وردت البصرة و لم أدخلها. و قد توقّف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود، و حمله على ظاهره لقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «۴» قالوا: فلا يدخل النار من ضمن اللّه أن يبعده عنها، و ممّا يدلّ على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ «۵» فإن المراد أشرف عليه لا أنه دخل فيه، و منه قول زهير:

فلمّا وردن الماء زرقا جمامهو ضعن عصىّ الحاضر المتخيّم

و لا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط، أو الورود على جهنم و هى خامدة فيه جمع بين

---

(١). صليا: بضم الصاد، قراءة نافع و عليها التفسير.

(٢). الانشقاق: ١٢.

(٣). نسبه فى اللسان مادة (فيه) إلى الزفيان، و أورده فى أبيات.

(٤). الأنبياء: ١٠١.

(٥). القصص: ٢٣.

الأدلة من الكتاب و السنة، فينبغى حمل هذه الآية على ذلك؛ لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدا من عذابها، أو بحمله على المضىّ فوق الجسر المنصوب عليها، و هو الصراط كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا أى: كان ورودهم المذكور أمرا محتوما قد قضى سبحانه أنه لا بدّ من وقوعه لا محالة، و قد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على اللّه، و عند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرّق الخلف إليه ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا أى: اتقوا ما يوجب النار، و هو الكفر باللّه و معاصيه، و ترك ما شرعه، و أوجب العمل به. قرأ عاصم الجحدرى و معاوية بن قرة ننجى بالتخفيف من أنجى، و بها قرأ حميد و يعقوب و الكسائى، و قرأ الباقون بالتشديد، و قرأ ابن أبى ليلى «ثمّه نذر» بفتح الثاء «١» من ثم، و المراد بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة فى النفس أو المال أو العرض، و الجثىّ: جمع جاث، و قد تقدّم قريبا تفسير الجثىّ و إعرابه.

و قد أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ إلى آخر الآية» و زاد ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم: و كان ذلك الجواب لمحمد. و أخرج ابن مردويه من حديث أنس قال: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أىّ البقاع أحبّ إلى اللّه، و أيها أبغض إلى اللّه؟ قال: ما أدرى حتى أسأل، فنزل جبريل، و كان قد أبطأ عليه، فقال: لقد أبطأت علىّ حتى ظننت أن بربى علىّ موجدة، فقال: و ما نتنزّل إلا بأمر ربك».

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: «أبطأ جبريل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أربعين يوما ثم نزل، فقال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما نزلت حتى اشتقت إليك، فقال له جبريل: أنا كنت إليك أشوق، و لكنى مأمور، فأوحى اللّه إلى جبريل أن قل له وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ و هو مرسل. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أتاه جبريل فقال: «ما حبسك عنى؟ قال: و كيف نأتيكم و أنتم لا تقصّون أظفاركم، و لا تنقون براجمكم، و لا تأخذون شواربكم، و لا تستاكون؟ و قرأ وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ و هو مرسل أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا قال: من أمر الآخرة وَ ما خَلْفَنا قال: من أمر الدنيا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ قال: ما بين الدنيا و الآخرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة وَ ما بَيْنَ ذلِكَ قال: ما بين النفختين. و أخرج ابن المنذر عن أبى العالية مثله. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الطبرانى و البيهقى، و الحاكم و صحّحه، عن أبى الدرداء رفع الحديث قال: «ما أحلّ اللّه فى كتابه فهو حلال، و ما حرّم فهو حرام، و ما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من اللّه عافيته، فإن اللّه لم يكن لينسى شيئا، ثم تلا وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»، و أخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا قال: هل تعرف للربّ شبها أو مثلا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم

---

(١). فى القرطبى: أى: هناك.

فتح القدير، ج‏3، ص: 408

و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عنه هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟ قال: ليس أحد يسمّى الرحمن غيره. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد؟. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ قال: العاص بن وائل. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جِثِيًّا قال: قعودا، و فى قوله: عِتِيًّا قال: معصية. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: عِتِيًّا قال: عصيا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَ قال: لننزعنّ من أهل كلّ دين قادتهم و رؤوسهم فى الشرّ. و أخرج ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود قال: نحشر الأوّل على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعا، ثم بدأ بالأكابر جرما، ثم قرأ: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ إلى قوله:

عِتِيًّا. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا قال:

يقول إنهم أولى بالخلود فى جهنم. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الحكيم الترمذى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى سمية قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن، و قال بعضنا يدخلونها جميعا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا فلقيت جابر بن عبد اللّه فذكرت له، فقال و أهوى بإصبعه إلى أذنيه صمّتا إن لم أكن سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لا يبقى برّ و لا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردا و سلاما كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجا من بردها ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا».

و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس، فقال ابن عباس: الورود الدخول، و قال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ «1»، و قال: وردوا أم لا؟ و قرأ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ «2» أوردوا أم لا؟ أما أنا و أنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا؟. و أخرج الحاكم عن ابن مسعود فى قوله: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها قال: و إن منكم إلا داخلها. و أخرج هناد و الطبرانى عنه فى الآية قال: ورودها الصراط. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى و ابن الأنبارى و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليرد الناس كلّهم النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأوّلهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس «3»، ثم كالراكب فى رحله، ثم كشدّ الرحل، ثم كمشيه» و قد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «و إن منكم إلا واردها» يقول: مجتاز فيها. و أخرج مسلم و غيره عن أم مبشر قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يدخل النار أحد شهد بدرا و الحديبية، قالت حفصة: أليس اللّه يقول: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها قالت: ألم تسمعيه يقول: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما

---

(1). الأنبياء: 98.

(2). هود: 98.

(3). الحضر بالضم: العدو.

فتح القدير، ج‏3، ص: 409

قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلّة القسم» ثم قرأ سفيان:

وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها.

و أخرج أحمد، و البخاری فی تاریخه، و أبو یعلی و الطبرانی و ابن مردویه عن معاذ بن أنس عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «من حرس من وراء المسلمین فی سبیل اللّه متطوّعا، لا یأخذه سلطان، لم یر النار بعینیه إلا تحلّة القسم، فإن اللّه یقول: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها» و الأحادیث فی تفسیر هذه الآیة کثیرة جدّا.

و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: حَتْماً مَقْضِيًّا قال: قضاء من اللّه. و أخرج الخطیب فی تالی التلخیص عن عکرمة حَتْماً مَقْضِيًّا قال: قسما واجبا. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا قال: باقین فیها.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٣ الى ٨٠]

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً (٧٤) قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (٧٥) وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَ وَلَداً (٧٧)

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (٧٩) وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً (٨٠)

الضمیر فی عَلَيْهِمْ راجع إلی الکفار الذین سبق ذکرهم فی قوله: أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أی: هؤلاء إذا قرئ علیهم القرآن تعذروا بالدنیا، و قالوا: لو کنتم علی الحق و کنا علی الباطل لکان حالکم فی الدنیا أطیب من حالنا، و لم یکن بالعکس؛ لأن الحکیم لا یلیق به أن یهین أولیاءه و یعزّ أعداءه، و معنی «البینات»: الواضحات التی لا تلتبس معانیها؛ و قیل: ظاهرات الإعجاز، و قیل: إنها حجج و براهین، و الأوّل أولی. و هی حال مؤکدة؛ لأن آیات اللّه لا تکون إلا واضحة، و وضع الظاهر موضع المضمر فی قوله: قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا للإشعار بأن کفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم، و قیل:

المراد بالذین کفروا هنا هم المتمرّدون المصرّون منهم، و معنی قالوا: لِلَّذِينَ آمَنُوا قالوا: لأجلهم، و قیل: هذه اللام هی لام التبلیغ، کما فی قوله: وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ أی: خاطبوهم بذلک و بلغوا القول إلیهم أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً المراد بالفریقین المؤمنون و الکافرون، کأنهم قالوا أ فریقنا خیر أم فریقکم، قرأ ابن کثیر و ابن محیصن و حمید و شبل بن عباد «مقاما» بضم المیم و هو موضع الإقامة، و یجوز أن یکون مصدرا بمعنی الإقامة، و قرأ الباقون بالفتح، أی: منزلا و مسکنا، و قیل: المقام الموضع الذی یقام فیه بالأمور الجلیلة، و المعنی: أیّ الفریقین أکبر جاها و أکثر أنصارا و أعوانا، و الندیّ و النادی: مجلس القوم و مجتمعهم، و منه قوله تعالی: تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ «١» و ناداه: جالسه فی النادی، و منه دار الندوة؛ لأن

---

(١). العنکبوت: ٢٩.

المشرکین کانوا یتشاورون فیها فی أمورهم، و منه أیضا قول الشاعر:

أنادی به آل الولید و جعفرا وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ القرن: الأمة و الجماعة هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً الأثاث: المال أجمع: الإبل و الغنم و البقر و العبید و المتاع، و قیل: هو متاع البیت خاصة، و قیل: هو الجدید من الفرش، و قیل: اللباس خاصة. و اختلفت القراءات فی «و رئیا» فقرأ أهل المدینة و ابن ذکوان «وریا» بیاء مشدّدة، و فی ذلک وجهان: أحدهما أن

يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء و أدغمت الياء فى الياء، و المعنى على هذه القراءة: هم أحسن منظرا و به قول جمهور المفسرين، و حسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس، أو حسن الأبدان و تنعمها، أو مجموع الأمرين. و قرأ أهل الكوفة و أبو عمرو و ابن كثير «و رئيا» بالهمز، و حكاها ورش عن نافع و هشام عن ابن عامر، و معناها معنى القراءة الأولى. قال الجوهرى: من همز جعله من المنظر من رأيت، و هو ما رأته العين من حال حسنة و كسوة ظاهرة، و أنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثّقفى:

أ شاقتك الظّعائن يوم بانوابذى الرّئى الجميل من الأثاث

و من لم يهمز: إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريا؛ أى: امتلأت و حسنت. و قد ذكر الزّجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدى. و حكى يعقوب أن طلحة بن مصرّف قرأ بياء واحدة خفيفة، فقيل إن هذه القراءة غلط، و وجّهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، و روى عن ابن عباس أنه قرأ بالزاى مكان الراء، و روى مثل ذلك عن أبىّ بن كعب و سعيد بن جبير و الأعسم المكى و يزيد البربرى، و الزىّ: الهيئة و الحسن. قيل: و يجوز أن يكون من زويت، أى: جمعت، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء، و الزىّ: محاسن مجموعة قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية، أى: من كان مستقرّا فى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا هذا و إن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، و إنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة، و أن ذلك كائن لا محالة لتنقطع معاذير أهل الضلال، و يقال لهم يوم القيامة:

أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ «١»، أو للاستدراج كقوله سبحانه: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً «٢» و قيل: المراد بالآية الدعاء بالمد و التنفيس. قال الزجّاج: تأويله أن اللّه جعل جزاء ضلالته أن يتركه و يمدّه فيها؛ لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول أفعل ذلك و آمر به نفسى حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ يعنى الذين مدّ لهم فى الضلالة، و جاء بضمير الجماعة اعتبارا بمعنى من، كما أن قوله: كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ اعتبار بلفظها، و هذه غاية للمدّ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ هذا تفصيل لقوله ما يوعدون؛ أى: هذا الذى توعدون هو أحد أمرين إما العذاب فى الدنيا بالقتل و الأسر، و إما يوم القيامة و ما يحلّ بهم حينئذ من العذاب الأخروى فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً

---

(١). فاطر: ٣٧.

(٢). آل عمران: ١٧٨.

هذا جواب الشرط، و هو جواب على المفتخرين؛ أى: هؤلاء القائلون؛ أىّ الفريقين خير مقاما، إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بأيدى المؤمنين، أو الأخروى، فسيعلمون عند ذلك من هو شرّ مكانا من الفريقين، و أضعف جندا منهما، أى: أنصارا و أعوانا. و المعنى: أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكانا لا خير مكانا، و أضعف جندا لا أقوى و لا أحسن من فريق المؤمنين؛ و ليس المراد أن للمفتخرين هنالك جندا ضعفاء، بل لا جند لهم أصلا؛ كما فى قوله سبحانه: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً «١». ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال: وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً و ذلك أن بعض الهدى يجرّ إلى البعض الآخر، و الخير يدعو إلى الخير؛ و قيل: المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين، و الواو فى «و يزيد» للاستئناف، و الجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين؛ و قيل: الواو للعطف على فليمدد؛ و قيل: للعطف على جملة: من كان فى الضلالة. قال الزجّاج: المعنى أن اللّه يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقينا، كما جعل جزاء

الكافرين أن يمدّهم فى ضلالتهم وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً هى الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، و معنى كونها خيرا عند اللّه ثوابا، أنها أنفع عائدة ممّا يتمتّع به الكفار من النعم الدنيوية وَ خَيْرٌ مَرَدًّا المردّ هاهنا مصدر كالردّ، و المعنى: و خير مردّ للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها، و المردّ: المرجع و العاقبة و التفضل؛ للتهكم بهم و للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلا. ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا أى: أخبرنى بقصة هذا الكافر و اذكر حديثه عقب حديث أولئك، و إنما استعملوا أ رأيت بمعنى أخبر؛ لأن رؤية الشىء من أسباب صحة الخبر عنه، و الآيات تعمّ كل آية و من جملتها آية البعث، و الفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام، أى: أنظرت فرأيت، و اللام فى لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً هى الموطئة للقسم، كأنه قال: و اللّه لأوتينّ فى الآخرة مالا و ولدا، أى: انظر إلى حال هذا الكافر، و تعجّب من كلامه؛ و تألّيه على اللّه مع كفره به و تكذيبه بآياته. ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه و يبطله، فقال: أَطَّلَعَ على الْغَيْبَ أى:

أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه فى الجنة أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً بذلك، فإن لا يتوصّل إلى العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين؛ و قيل: المعنى: أنظر فى اللوح المحفوظ؟ أم اتّخذ عند الرحمن عهدا؟ و قيل:

معنى أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً؟: أم قال لا إله إلا اللّه فأرحمه بها. و قيل: المعنى أم قدّم عملا صالحا فهو يرجوه. و اطلع مأخوذ من قولهم: اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. و قرأ حمزة و الكسائى و يحيى بن وثّاب و الأعمش و ولدا بضم الواو، و الباقون بفتحها، فقيل: هما لغتان معناهما واحد، يقال: ولد و ولد كما يقال عدم و عدم، قال الحارث بن حلّزة:

و لقد رأيت معاشراقد ثمّروا مالا و ولدا

---

(۱). الكهف: ۴۳.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۱۲

و قال آخر:

فليت فلانا كان فى بطن أمّهو ليت فلانا كان ولد حمار

و قيل: الولد بالضم للجمع و بالفتح للواحد. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله: لأوتينّ مالا و ولدا أنه يؤتى ذلك فى الدنيا. و قال جماعة: فى الجنة، و قيل: المعنى: إن أقمت على دين آبائى لأوتينّ، و قيل: المعنى: لو كنت على باطل لما أوتيت مالا و ولدا كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ كلا حرف ردع و زجر؛ أى: ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال و الود سيكتب ما يقول، أى: سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه فى الآخرة، أو سنظهر ما يقول، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا أى: نزيده عذابا فوق عذابه مكان ما يدّعيه لنفسه من الإمداد بالمال و الولد، أو نطوّل له من العذاب ما يستحقّه و هو عذاب من جمع بين الكفر و الاستهزاء وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ أى: نميته فنرثه المال و الولد الذى يقول إنه يؤتاه. و المعنى: مسمّى ما يقول و مصداقه، و قيل: المعنى: نحرمه ما تمنّاه و نعطيه غيره وَ يَأْتِينا فَرْداً أى: يوم القيامة لا مال له و لا ولد، بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع فى أن نؤتيه. و قيل: المراد بما يقول نفس القول لا مسمّاه، و المعنى: إنما يقول هذا القول ما دام حيا، فإذا أمتناه حلنا بينه و بين أن يقوله، و يأتينا رافضا له منفردا عنه، و الأوّل أولى.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً قال: قريش تقوله لها و لأصحاب محمد. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خَيْرٌ مَقاماً قال: المنازل وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا قال: المجالس، و فى قوله: أَحْسَنُ أَثاثاً قال: المتاع و المال وَ رِءْياً قال: المنظر. و

أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا فليدعه اللّه فى طغيانه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن حبيب بن أبى ثابت قال فى حرف أبيّ:

«قل من كان فى الضلالة فإنه يزيده اللّه ضلالة». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما فى قوله: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ من حديث خبّاب بن الأرت قال: كنت رجلا قينا «١» و كان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال: لا و اللّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: و اللّه لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإنى إذا متّ ثم بعثت جئتنى ولى ثمّ مال و ولد فأعطيك، فأنزل اللّه فيه هذه الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً قال: لا إله إلا اللّه يرجو بها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ قال: ماله و ولده.

---

(١). أى حدّادا.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤١٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٩٥]

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (٨٥)

وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٨٧) وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (٩٠)

أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (٩٥)

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنّوا ما لا يستحقّونه، و تألّوا على اللّه سبحانه من اتّخاذهم الآلهة من دون اللّه لأجل يتعزّزون بذلك. قال الهرويّ: معنى لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ليكونوا لهم أعوانا.

قال الفراء: معناه ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة، و قيل: معناه: ليتعزّزوا بهم من عذاب اللّه و يمتنعوا بها كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ أى: ليس الأمر كما ظنّوا و توهّموا، و الضمير فى الفعل إما للآلهة، أى: ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها اللّه سبحانه؛ لأنها عند ما عبدوها جمادات لا تعقل ذلك، و إما للمشركين، أى: سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام، و يدلّ على الوجه الأوّل قوله تعالى: ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ «١» و قوله: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ «٢»، و يدلّ على الوجه الثانى قوله تعالى: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «٣» و قرأ أبو نهيك كلا بالتنوين، و روى عنه مع ذلك ضمّ الكاف و فتحها، فعلى الضمّ هى بمعنى جميعا و انتصابها بفعل مضمر، كأنه قال: سيكفرون «كَلًّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ» «٤»، و على الفتح يكون مصدرا لفعل محذوف تقديره: كلّ هذا الرأى كلّا، و قراءة الجمهور هى الصواب، و هى حرف ردع و زجر وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا أى: تكون هذه الآلهة التى ظنوها عزّا لهم ضدّا عليهم: أى ضدا للعزّ و ضدّ العزّ: الذلّ هذا على الوجه الأوّل، و أما على الوجه الثانى فيكون المشركون للآلهة ضدّا و أعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبّونها و يؤمنون بها أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ ذكر الزجاج فى معنى هذا وجهين: أحدهما: أن معناه خلينا بين الكافرين و بين الشياطين فلم نعصمهم منهم و لم نعذهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ* «٥». الوجه الثانى: أنهم أرسلوا عليهم و قيّضوا لهم بكفرهم، قال: و

مَـنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَـيْطاناً «۶» فمعنى الإرسال هاهنا التسـليط، و من ذلك قوله سـبحانه لإبليس: وَ اسْـتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ «۷» و يؤيد الوجه الثانى تمام الآية، و هو تَؤُزُّهُمْ أَزًّا فإن الأزّ و الهزّ و الاسـتفزاز معناه التحريك و التهييج و الإزعاج، فأخبر اللّه سبحانه أن الشياطين

---

(۱). القصص: ۶۳.

(۲). النحل: ۸۶.

(۳). الأنعام: ۲۳.

(۴). أى اتخاذهم الآلهة.

(۵). الحجر: ۴۲ و الإسراء: ۶۵.

(۶). الزخرف: ۳۶.

(۷). الإسراء: ۶۴.

تحرّك الكافرين و تهيّجهم و تغويهم، و ذلك هو التسـليط لها عليهم، و قيل: معنى الأزّ الاسـتعجال، و هو مقارب لما ذكرنا؛ لأن الاسـتعجال تحريك و تهييج و اسـتفزاز و إزعاج، و سـياق هذه الآية لتعجيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من حالهم و للتنبيه له على أن جميع ذلـك بإضـلال الشـياطين و إغوائهم، و جملـة: «تؤزهم أزّا» فى محل نصب على الحال، أو مسـتأنفة على تقـدير سؤال يـدلّ عليه المقام، كأنه قيل: ماذا تفعل الشـياطين بهم؟ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ بأن تطلب من اللّه إهلاكهم بسـبب تصـميمهم على الكفر، و عنادهم للحق، و تمرّدهم عن داعى اللّه سـبحانه، ثم علّل سـبحانه هـذا النهى بقوله: إِنَّما نَعُـدُّ لَهُمْ عَـدًّا يعنى نعدّ الأيام و الليالى و الشهور و السنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم، و قيل: نعدّ أنفاسهم، و قيل: خطواتهم، و قيل: لحظاتهم، و قيل: الساعات. و قال قطرب: نعدّ أعمالهم. و قيل: المعنى: لا تعجل عليهم؛ فإنما نؤخّرهم ليزدادوا إثما. ثم لما قرّر سبحانه أمر الحشر و أجاب عن شـبهة منكريه؛ أراد أن يشـرح حال المكلفين حينئذ، فقال: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً الظرف منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر يا محمد يوم الحشر، و قيل: منصـوب بالفعـل الـذى بعـده، و معنى حشرهم إلى الرحمن؛ حشـرهم إلى جنته و دار كرامته، كقوله: إِنِّى ذاهِبٌ إِلى رَبِّى «۱» و الوفـد: جمع وافـد؛ كالركب جمع راكب، و صـحب جمع صاحب، يقال: وفد يفد وفدا إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهرى وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً السوق: الحثّ على السير، و الورد: العطاش، قاله الأخفش و غيره. و قال الفراء و ابن الأعرابى: هم المشاة، و قال الأزهرى: هم المشـاة العطـاش كالإبـل ترد المـاء. و قيـل: وردا، أى: للورد، كقولـك: جئتك إكراما، أى: للإكرام، و قيل: أفرادا. قيل: و لا تنـاقض بين هـذه الأقوال، فهم يسـاقون مشـاة عطاشـا أفرادا، و أصـل الورد الجماعـة التى ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك. و الورد: الماء الـذى يورد، و جملة لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ مسـتأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الأمور، و الضـمير فى «يملكون» راجع إلى الفريقين، و قيل: للمتقين خاصة، و قيل: للمجرمين خاصة، و الأوّل أولى. و معنى «لا يملكون الشـفاعة»: أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم. و قيل: لاـ يملـك غيرهم أن يشـفع لهم، و الأـوّل أولى إِلَّا مَنِ اتَّخَـذَ عِنْـدَ الرَّحْمنِ عَهْـداً هـذا الاسـتثناء متّصل على الوجه الأوّل؛ أى: لا يملك الفريقان المـذكوران الشـفاعة إلا من استعدّ لـذلك بما يصير به من جملـة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمنا متقيا، فهـذا

معنى اتّخاذ العهـد عند اللّه. و قيل: معنى اتّخاذ العهد أن اللّه أمره بذلك، كقولهم: عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به. و قيل: معنى اتّخاذ العهد شـهادة أن لا إله إلا اللّه، و قيل غير ذلك. و على الاتصال فى هذا الاستثناء يكون محل «من» فى مَنِ اتَّخَذَ الرفع على البدل، أو النصب على أصل الاسـتثناء. و أما على الوجه الثانى فالاسـتثناء منقطع؛ لأن التقدير: لا يملك المجرمون الشفاعة إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً و هم المسـلمون، و قيل: هو متصل على هذا الوجه أيضا، و التقدير: لا يملك المجرمون الشـفاعة إلا من كان منهم مسـلما وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش و حمزة و الكسائى ولدا بضم الواو و إسـكان اللام. و قرأ الباقون فى المواضع

---

(١). الصافات: ٩٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۱۵

الأربعـة المـذكورة فى هـذه السورة بفتـح الواو و اللام، و قـد قـدّمنا الفرق بين القراءتين، و الجملـة مسـتأنفة لبيـان قول اليهود و النصـارى و من يزعم من العرب أن الملائكـة بنـات اللّه، و فى قوله: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا التفات من الغيبـة إلى الخطاب، و فيه ردّ لهذه المقالة الشنعاء، و الإدّ كما قال الجوهرى: الداهية و الأمر الفظيع، و كذلك الإدّة، و جمع الإدّة إدد، يقال: أدّت فلانا الداهية تؤدّه أدا بالفتح. و قرأ أبو عبد الرحمن السـلمى «أدا» بفتح الهمزة، و قرأ الجمهور بالكسـر، و قرأ ابن عباس و أبو العالية «آدا» مثل «مادّا»، و هى مأخوذة من الثقل، يقال: آده الحمل يؤوده أودا: أثقله. قال الواحدى لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا أى: عظيما فى قول الجميع، و معنى الآيـة: قلتم قولا عظيما. و قيل: الإدّ: العجب، و الإدّة: الشدة، و المعنى متقارب، و التركيب يدور على الشدة و الثقل. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ قرأ نافع و الكسائى و حفص و يحيى بن وثّاب «يكاد» بالتحتية، و قرأ الباقون بالفوقية، و قرأ نافع و ابن كثير و حفص تتفطّرن بالتـاء الفوقيـة، و قرأ حمزة و ابن عـامر و أبو عمرو و أبو بكر و المفضّـل ينفطرن بالتحتيـة من الانفطـار، و اختار هـذه القراءة أبو عبيد لقوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ «١» و قوله: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ «٢» و قرأ ابن مسعود «يتصدّعن» و الانفطار و التفطر: التشـقق وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ أى: و تكاد أن تنشق الأرض، و كرّر الفعل للتأكيـد؛ لأن تتفطرن و تنشق معناهما واحد وَ تَخِرُّ الْجِبالُ أى: تسـقط و تنهـدم، و انتصاب هَدًّا على أنه مصدر مؤكد لأن الخرور فى معناه، أو هو مصدر لفعل مقدّر، أى: و تنهد هدّا، أو على الحال، أى: مهدودة، أو على أنه مفعول له، أى: لأنها تنهد. قال الهروى: يقال هدنى الأمر و هدّ ركنى، أى: كسرنى و بلغ منى. قال الجوهرى: هدّ البناء يهدّه هدّا كسره و ضعضعه، و هدّته المصيبة أوهنت ركنه، و انهدّ الجبل، أى: انكسـر، و الهـدّة: صوت وقع الحائـط، كما قال ابن الأعرابى، و محل أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً الجرّ بـدلا من الضـمير فى منه. و قال الفراء: فى محل نصب بمعنى لأن دعوا. و قال الكسائى: هو فى محل خفض بتقـدير الخافض، و قيل: فى محل رفع على أنه فاعل هدّا. و الدعاء بمعنى التسـمية، أى: سمّوا للرحمن ولدا، أو بمعنى النسبة، أى: نسبوا له ولدا وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً أى: لا يصـلح له و لا يليق به؛ لاسـتحالة ذلك عليه؛ لأن الولد يقتضـى الجنسية و الحدوث، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: قالوا اتخـذ الرحمن ولـدا، أو أن دعوا للرحمن ولدا، و الحال أنه ما يليق به سـبحانه ذلك إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: ما كل من فى السموات و الأرض إِلَّا و هو آتِي اللّه يوم القيامة مقرّا بالعبودية خاضعا ذليلا، كما قال: وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ «٣» أى: صـاغرين. و المعنى: أن الخلـق كلهـم عبيـده فكيـف يكـون واحـد منهم ولـدا له؟ و قرئ «آتى» على الأصـل لَقَدْ أَحْصاهُمْ أى: حصرهم و علم عددهم وَ عَدَّهُمْ عَدًّا أى: عدّ أشخاصهم بعد أن حصرهم، فلا يخفى عليه أحد منهم وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً أى: كلّ واحد منهم يأتيه يوم القيامة فردا لا ناصر له و لا مال معه، كما قال سبحانه: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ «۴».

(١). الإنفطار: ١.

(٢). المزمل: ١٨.

(٣). النمل: ٨٧.

(۴). الشعراء: ١٨٨.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴١۶

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا قال: أعوانا.

و أخرج عبد بن حميد عنه ضِدًّا قال: حسرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: تَؤُزُّهُمْ أَزًّا تغويهم إغواء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا: تَؤُزُّهُمْ أَزًّا قال: تحرّض المشركين على محمد و أصحابه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: تزعجهم إزعاجا إلى معاصى اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس وَفْداً قال: ركبانا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن أبى هريرة وَفْداً قال: على الإبل. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق: راغبين و راهبين، و اثنان على بعير، و أربعة على بعير، و عشرة على بعير، و تحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، و تبيت معهم حيث باتوا» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس وِرْداً قال: عطاشا. و أخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصّفات، عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه، و تبرأ من الحول و القوّة، و لا يرجو إلا اللّه. و أخرج ابن مردويه عنه فى الآية قال: من مات لا يشرك باللّه شيئا دخل الجنة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً قال: إن اللّه يقول يوم القيامة: من كان له عندى عهد فليقم، فلا يقوم إلا من قال هذا فى الدنيا، قولوا: اللهم فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة؛ إنّى أعهد إليك فى الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عملى تقربنى من الشرّ و تباعدنى من الخير، و إنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لى عندك عهدا تؤديه إلىّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرّنى، و من سرّنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدا، و من اتّخذ عند الرحمن عهدا فلا تمسّه النار، إن اللّه لا يخلف الميعاد». و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها و مواقيتها و ركوعها و سجودها لم ينقص منها شيئا جاء و له عند اللّه عهد أن لا يعذّبه، و من جاء قد انتقص منهم شيئا فليس له عند اللّه عهد، إن شاء رحمه و إن شاء عذّبه». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا قال: قولا عظيما، و فى قوله: تَكادُ السَّماواتُ قال: إن الشرك فرغت منه السموات و الأرض و الجبال و جميع الخلائق إلا الثقلين، و كادت تزول منه لعظمة اللّه سبحانه، و كما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك يرجو أن يغفر اللّه ذنوب الموحدين، و فى قوله: وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا قال: هدما. و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال: إن الجبل لينادى الجبل باسمه، يا فلان هل مرّ بك اليوم أحد ذكر اللّه؟ فإذا قال نعم استبشر.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴١٧

قال عون: أ فيسمعن الزور إذا قيل و لا يسمعن الخير؟ هنّ للخير أسمع، و قرأ: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً الآيات.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٩٦ الى ٩٨]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (٩٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (٩٨)

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصّهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين، فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا أي: حبّا في قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب، و السين في سيجعل للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل و أنه مجعول من بعد نزول الآية. و قرئ ودا بكسر الواو، و الجمهور من السبعة و غيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصا هذه السورة لاشتمالها على التوحيد و النبوة، و بيان حال المعاندين فقال: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ أي: يسرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك، و فصّلناه و سهّلناه، و الباء بمعنى على، و الفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل: بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر فَإِنَّما يَسَّرْناهُ الآية. ثم علّل ما ذكره من التيسير فقال: لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ أي: المتلبّسين بالتقوى، المتّصفين بها وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا اللدّ: جمع الألد، و هو الشديد الخصومة، و منه قوله تعالى: أَلَدُّ الْخِصامِ «١» قال الشاعر:

أبيت نجيا للهموم كأنّني أخاصم أقواما ذوى جدل لدّا

و قال أبو عبيدة: الألد الذى لا يقبل الحق و يدّعى الباطل، و قيل: اللدّ الصّم، و قيل: الظلمة وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أي: من أمة و جماعة من الناس، و في هذا وعد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بهلاك الكافرين و وعيد لهم هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، أي: هل تشعر بأحد منهم أو تراه أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً الركز: الصوت الخفي، و منه ركز الرمح إذا غيّب طرفه في الأرض. قال طرفة:

و صادقنا «٢» سمع التّوجّس للسّرى لركز خفي أو لصوت مفند «٣»

و قال ذو الرّمّة:

إذا توجس ركزا مقفر ندس بنبأة الصّوت ما في سمعه كذب

---

(١). البقرة: ٢٠٤.

(٢). في المطبوع: و صادفتها. و المثبت من شرح المعلقات السبع ص (٩٩) تحقيق يوسف بديوى، طبع دار ابن كثير.

(٣). في شرح المعلقات السبع: مندّد.

أي: ما في استماعه كذب بل هو صادق الاستماع، و النّدس: الحاذق، و النّبأة: الصوت الخفي. و قال اليزيدي و أبو عبيدة: الركز: ما لا يفهم من صوت أو حركة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف؛ أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة بن ربيعة و عتبة بن ربيعة و أمية بن خلف، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ الآية، قال ابن كثير: و هو خطأ، فإن السورة مكية بكمالها لم ينزل شيء منها بعد الهجرة، و لم يصح سند ذلك. و أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا قال: محبة في قلوب

المؤمنين. و أخرج ابن مردويه و الديلمی عن البراء قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لعلیّ: «قل اللهم اجعل لی عندک عهدا، و اجعل لی عندک ودّا، و اجعل لی فی صدور المؤمنین مودة، فأنزل اللّه الآیة فی علیّ». و أخرج عبد الرزاق و الفریابی و عبد بن حمید و ابن جریر عن ابن عباس وُدًّا قال: محبة فی الناس فی الدنیا. و أخرج الحکیم الترمذی و ابن مردویه عن علیّ قال: «سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عن قوله: سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ما هو؟

قال: المحبة الصادقة فی صدور المؤمنین». و ثبت فی الصحیحین و غیرهما من حدیث أبی هریرة أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «إذا أحب اللّه عبدا نادی جبریل: إنی قد أحببت فلانا فأحبه، فینادی فی السماء، ثم ینزل له المحبة فی أهل الأرض فذلک قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا و إذا أبغض اللّه عبدا نادی جبریل: إنی قد أبغضت فلانا، فینادی فی أهل السماء، ثم ینزل له البغضاء فی الأرض» و الأحادیث و الآثار فی هذا الباب کثیرة. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس فی قوله: وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا قال: فجّارا. و أخرج سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن الحسن قال: صمّا. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر فی قوله: هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ قال: هل تری منهم من أحد. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: رِكْزاً قال: صوتا.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۴۱۹

سورة طه

اشارة

قال القرطبی: مکیة فی قول الجمیع. و أخرج النحّاس و ابن مردویه عن ابن عباس قال: نزلت سورة طه بمکة. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله. و أخرج الدارمی، و ابن خزیمة فی التوحید، و العقیلی فی الضعفاء، و الطبرانی فی الأوسط، و ابن عدیّ و ابن مردویه، و البیهقی فی الشعب، عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «إن اللّه تبارک و تعالی قرأ طه و یس قبل أن یخلق السّموات و الأرض بألفی عام، فلما سمعت الملائکة القرآن قالت: طوبی لأمة ینزل علیها هذا، و طوبی لأجواف تحمل هذا، و طوبی لألسنة تکلمت بهذا». قال ابن خزیمة بعد إخراجه: حدیث غریب، و فیه نکارة، و إبراهیم بن مهاجر و شیخه تکلّم فیهما، یعنی إبراهیم بن مهاجر بن مسمار و شیخه عمر بن حفص بن ذکوان، و هما من رجال إسناده. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «أعطیت السورة التی ذکرت فیها الأنعام من الذکر الأوّل، و أعطیت سورة طه و الطواسین من ألواح موسی، و أعطیت فواتح القرآن و خواتیم البقرة من تحت العرش، و أعطیت المفصّل نافلة». و أخرج ابن مردویه عن أبی أمامة عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «کل قرآن یوضع عن أهل الجنة فلا یقرءون منه شیئا إلا سورة طه و یس، فإنهم یقرءون بهما فی الجنة». و أخرج الدارقطنی فی سننه عن أنس بن مالک؛ فذکر قصة عمر بن الخطاب مع أخته و خبّاب و قراءتهما طه، و کان ذلک بسبب إسلام عمر، و القصّة مشهورة فی کتب السیر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة طه (۲۰): الآیات ۱ الی ۱۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
طه (۱) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (۲) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (۳) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى (۴)

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (۵) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى (۶) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى (۷) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (۸) وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (۹)
إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (۱۰) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (۱۱) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۱۲) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (۱۳) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (۱۴)
إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (۱۵) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (۱۶)
قوله: طه قرأ بإمالة الهاء و فتح الطاء أبو عمرو و ابن أبى إسحاق، و أمالهما جميعا أبو بكر و حمزة و الكسائى و الأعمش. و قرأهما أبو جعفر و شيبة و نافع بين اللفظين، و اختار هذه القراءة أبو عبيد. و قرأ الباقون بالتفخيم. قال الثعلبى: و هى كلّها لغات صحيحة فصيحة. و قال النّحاس: لا وجه للإمالة عند أكثر أهل

العربية لعلّتين: الأولى: أنه ليس هاهنا ياء و لا كسرة حتى تكون الإمالة، و العلّة الثانية: أن الطاء من موانع الإمالة.
و قد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الكلمة على أقوال: الأوّل: أنها من المتشابه الذى لا يفهم المراد به، و الثانى: أنها بمعنى يا رجل فى لغة عكل، و فى لغة عكّ. قال الكلبى: لو قلت لرجل من عكّ يا رجل لم يجب حتى تقول طه، و أنشد ابن جرير فى ذلك:
دعوت بطه فى القتال فلم يجبفخفت عليه أن يكون موائلا «۱»
و يروى: مزايلا، و قيل: إنها فى لغة عكّ بمعنى يا حبيبى. و قال قطرب: هى كذلك فى لغة طيّ؛ أى:
بمعنى يا رجل، و كذلك قال الحسن و عكرمة. و قيل: هى كذلك فى اللغة السريانية، حكاه المهدوى. و حكى ابن جرير أنها كذلك فى اللغة النّبطية، و به قال السدّى و سعيد بن جبير. و حكى الثعلبى عن عكرمة أنها كذلك فى لغة الحبشة، و رواه عن عكرمة، و لا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى فى تلك اللغات كلها إذا صحّ النقل. القول الثالث: أنها اسم من أسماء اللّه سبحانه. و القول الرابع: أنها اسم للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم.
القول الخامس: أنها اسم للسورة. القول السادس: أنها حروف مقطّعة يدلّ كلّ واحد منها على معنى. ثم اختلفوا فى هذه المعانى التى تدلّ عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلّفة متعسّفة. القول السابع: أن معناها طوبى لمن اهتدى. القول الثامن: أن معناها: طإ الأرض يا محمد. قال ابن الأنبارى: و ذلك أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يتحمّل مشقّة الصّلاة حتى كادت قدماه تتورّم و يحتاج إلى التروّح، فقيل له طإ الأرض، أى: لا تتعب حتى تحتاج إلى التروّح. و حكى القاضى عياض فى «الشفاء» عن الربيع بن أنس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذا صلى قام على رجل و رفع الأخرى، فأنزل اللّه طه يعنى: طإ الأرض يا محمد. و حكى عن الحسن البصرى أنه قرأ طه على وزن دع، أمر بالوطء، و الأصل طأ فقلبت الهمزة هاء. و قد حكى الواحدى عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها: يا رجل، يريد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: و هو قول الحسن و عكرمة و سعيد بن جبير و الضحّاك و قتادة و مجاهد و ابن عباس فى رواية عطاء و الكلبى، غير أن بعضهم يقول: هى بلسان الحبشة و النبطية و السريانية، و يقول الكلبى: هى بلغة عكّ. قال ابن الأنبارى: و لغة قريش وافقت تلك اللغة فى هذا المعنى؛ لأن اللّه سبحانه لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش، انتهى. و إذا تقرّر أنها لهذا المعنى فى لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى، واضحة الدلالة، خارجة عن فواتح السور التى قدّمنا بيان كونها من المتشابه فى فاتحة سورة البقرة، و هكذا إذا كانت لهذا المعنى فى لغة من لغات العجم، و استعملتها العرب فى كلامها فى ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التى استعملتها العرب الموجودة فى

الكتاب العزيز، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب، و جملة ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى مستأنفة مسوقة لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(۱). البيت لمتمّم بن نويرة.

«موائل»: واءل: طلب النجاة.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۲۱

عمّا كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، و الشقاء يجيء فى معنى التعب. قال ابن كيسان: و أصل الشقاء فى اللغة العناء و التعب، و منه قول الشاعر:

ذو العقل يشقى فى النّعيم بعقله‌و أخو الجهالة فى الشّقاوة ينعم

و المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسّفك عليهم و على كفرهم، و تحسّرك على أن يؤمنوا، فهو كقوله سبحانه: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ «۱» قال النحّاس: بعض النحويين يقول: هذه اللام فى لِتَشْقى لام النفى، و بعضهم يقول لام الجحود. و قال ابن كيسان: هى لام الخفض، و هذا التفسير للآية هو على قول من قال إن طه كسائر فواتح السور التى ذكرت تعديدا لأسماء الحروف، و إن جعلت اسما للسورة كان قوله: ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى خبرا عنها، و هى فى موضع المبتدأ، و أما على قول من قال: إن معناها يا رجل، أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة مستأنفة لصرفه صلّى اللّه عليه و سلّم عمّا كان عليه من المبالغة فى العبادة، و انتصاب إِلَّا تَذْكِرَةً على أنه مفعول له لأنزلنا، كقولك: ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقا عليك. و قال الزّجّاج: هو بدل من لتشقى، أى: ما أنزلناه إلا تذكرة. و أنكره أبو على الفارسى من جهة أن التذكرة ليست بشقاء، قال: و إنما هو منصوب على المصدرية، أى: أنزلناه لتذكر به تذكرة، أو على المفعول من أجله، أى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة، و انتصاب تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى على المصدرية، أى: أنزلناه تنزيلا، و قيل: بدل من قوله تذكرة، و قيل:

هو منصوب على المدح، و قيل: منصوب بيخشى، أى: يخشى تنزيلا من اللّه على أنه مفعول به، و قيل:

منصوب على الحال بتأوله باسم الفاعل. و قرأ أبو حيوة الشامى تنزيل بالرفع على معنى هذا تنزيل؛ و ممن خلق متعلّق بتنزيلا؛ أو بمحذوف هو صفة له؛ و تخصيص خلق الأرض و السموات لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عزّ و جلّ، و العلا: جمع العليا، أى: المرتفعة، كجمع كبرى و صغرى على كبر و صغر. و معنى الآية إخبار العباد عن كمال عظمته سبحانه و عظيم جلاله، و ارتفاع الرَّحْمنُ على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قال الأخفش، و يجوز أن يكون مرتفعا على المدح أو على الابتداء. و قرئ بالجر، قال الزجاج: على البدل من «ممن»، و جوّز النحاس أن يكون مرتفعا على البدل من المضمر فى خلق، و جملة عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أو على أنها خبر الرحمن عند من جعله مبتدأ.

قال أحمد بن يحيى: قال ثعلب: الاستواء: الإقبال على الشى‌ء، و كذا قال الزجّاج و الفرّاء. و قيل: هو كناية عن الملك و السلطان، و البحث فى تحقيق هذا يطول، و قد تقدّم البحث عنه فى الأعراف. و الذى ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حدّ و لا كيف، و إلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذى يقرّون الصفات كما وردت من دون تحريف و لا تأويل لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى: أنه مالك كل شى‌ء و مدبّره وَ ما بَيْنَهُما من الموجودات وَ ما تَحْتَ الثَّرى الثرى فى اللغة: التراب

---

(۱). الكهف: ۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۲۲

الندیّ، أی: ما تحت التراب من شیء. قال الواحدی: و المفسرون یقولون إنه سبحانه أراد الثری الذی تحت الصخرة التی علیها الثور الذی تحت الأرض «۱» و لا یعلم ما تحت الثری إلا اللّه سبحانه وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ یَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفی الجهر بالقول: هو رفع الصوت به و السرّ ما حدّث به الإنسان غیره و أسرّه إلیه، و الأخفی من السرّ هو ما حدّث به الإنسان نفسه و أخطره بباله. و المعنی: إن تجهر بذکر اللّه و دعائه فاعلم أنه غنیّ عن ذلک، فإنه یعلم السر و ما هو أخفی من السر، فلا حاجة لک إلی الجهر بالقول، و فی هذا معنی النّهی عن الجهر کقوله سبحانه: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ فِی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِیفَةً «۲» و قیل: السرّ ما أسرّ الإنسان فی نفسه، و الأخفی منه هو ما خفی علی ابن آدم مما هو فاعله و هو لا یعلمه، و قیل: السرّ ما أضمره الإنسان فی نفسه، و الأخفی منه ما لم یکن و لا أضمره أحد؛ و قیل: السرّ سر الخلائق، و الأخفی منه سرّ اللّه عزّ و جلّ، و أنکر ذلک ابن جریر و قال: إن الأخفی ما لیس فی سرّ الإنسان و سیکون فی نفسه. ثم ذکر أن الموصوف بالعبادة علی الوجه المذکور هو اللّه سبحانه المنزّه عن الشریک، المستحق لتسمیته بالأسماء الحسنی، فقال: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی فاللّه خبر مبتدأ محذوف، أی: الموصوف بهذه الصفات الکمالیة اللّه، و جملة «لا إله إلا هو» مستأنفة لبیان اختصاص الإلهیة به سبحانه، أی: لا إله فی الوجود إلا هو، و هکذا جملة له الأسماء الحسنی مبینة لاستحقاقه تعالی للأسماء الحسنی، و هی التسعة و التسعون التی ورد بها الحدیث الصحیح.

و قد تقدم بیانها فی قوله سبحانه: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنی من سورة الأعراف «۳»، و الحسنی: تأنیث الأحسن، و الأسماء مبتدأ و خبرها الحسنی، و یجوز أن یکون اللّه مبتدأ و خبره الجملة التی بعده، و یجوز أن یکون بدلا من الضمیر فی «یعلم». ثم قرّر سبحانه أمر التوحید بذکر قصة موسی المشتملة علی القدرة الباهرة، و الخبر الغریب، فقال: وَ هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ مُوسی الاستفهام للتقریر، و معناه: ألیس قد أتاک حدیث موسی، و قیل: معناه: قد أتاک حدیث موسی، و قال الکلبی: لم یکن قد أتاه حدیث موسی إذ ذاک. و فی سیاق هذه القصة تسلیة للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم لما یلاقیه من مشاق أحکام النبوّة، و تحمّل أثقالها و مقاساة خطوبها، و أن ذلک شأن الأنبیاء قبله. و المراد بالحدیث القصة الواقعة لموسی، و إِذْ رَأی ناراً ظرف للحدیث، و قیل: العامل فیه مقدر، أی: اذکر، و قیل: یقدر مؤخرا، أی: حین رأی نارا کان کیت و کیت؛ و کانت رؤیته للنار فی لیلة مظلمة لما خرج مسافرا إلی أمه بعد استئذانه لشعیب فلما رآها قال لأهله امکثوا و المراد بالأهل هنا امرأته، و الجمع لظاهر لفظ الأهل أو للتفخیم، و قیل: المراد بهم المرأة و الولد و الخادم، و معنی امکثوا: أقیموا مکانکم، و عبّر بالمکث دون الإقامة؛ لأن الإقامة تقتضی الدوام، و المکث لیس کذلک.

و قرأ حمزة لأهله بضم الهاء، و کذا فی القصص. قال النحّاس: و هذا علی لغة من قال: مررت بهو

---

(۱). هذا القول لا یستند إلی أی دلیل شرعی و یتنافی مع الحقائق العلمیة فلا یعتد به.

(۲). الأعراف: ۲۰۵.

(۳). الأعراف: ۱۸۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۲۳

یا رجل، فجاء به علی الأصل، و هو جائز، إلا أن حمزة خالف أصله فی هذین الموضعین خاصة إِنِّی آنَسْتُ ناراً أی: أبصرت، یقال: آنست الصوت سمعته، و آنست الرجل: أبصرته. و قیل: الإیناس الإبصار البین، و قیل: الإیناس مختصّ بإبصار ما یؤنس، و

الجملة تعليل للأمر بالمكث، و لما كان الإتيان بالقبس، و وجود الهدى، متوقعين؛ بنى الأمر على الرجاء فقال: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أى: أجيئكم من النار بقبس، و القبس: شعلة من النار، و كذا المقباس، يقال: قبست منه نارا أقبس قبسا فأقبسنى؛ أى: أعطانى، و كذا اقتبست. قال اليزيدى: أقبست الرجل علما و قبسته نارا؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته. و قال الكسائى: أقبسته نارا أو علما سواء، قال: و قبسته أيضا فيهما. أَوْ أَجِدُ عَلَى النّارِ هُدىً أى: هاديا يهدينى إلى الطريق و يدلنى عليها. قال الفرّاء: أراد هاديا، فذكره بلفظ المصدر، أو عبّر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف، أى: ذا هدى، و كلمة «أو» فى الموضعين لمنع الخلوّ دون الجمع، و حرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان إليها فَلَمّا أَتاها نُودِيَ أى: فلما أتى النار التى آنسها نُودِيَ من الشجرة، كما هو مصرّح بذلك فى سورة القصص، أى: من جهتها، و من ناحيتها يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ أى: نودى، فقيل: يا موسى. و قرأ أبو عمرو و ابن كثير و أبو جعفر و ابن محيصن و حميد و اليزيدى أنى بفتح الهمزة. و قرأ الباقون بكسرها، أى: إنى فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ أمره اللّه سبحانه بخلع نعليه؛ لأن ذلك أبلغ فى التواضع، و أقرب إلى التشريف و التكريم و حسن التأدب. و قيل: إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ، و قيل: معنى الخلع للنعلين: تفريغ القلب من الأهل و المال، و هو من بدع التفاسير.

ثم علّل سبحانه الأمر بالخلع فقال: إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً المقدّس: المطهر، و القدس: الطهارة، و الأرض المقدّسة: المطهرة، سمّيت بذلك لأن اللّه أخرج منها الكافرين و عمّرها بالمؤمنين، و طوى: اسم للوادى. قال الجوهرى: و طوى اسم موضع بالشام يكسر طاؤه و يضم، يصرف و لا يصرف، فمن صرفه جعله اسم واد و مكان و جعله نكرة، و من لم يصرفه جعله بلدة و بقعة و جعله معرفة، و قرأ عكرمة «طوى» بكسر الطاء، و قرأ الباقون بضمها. و قيل: إن طوى كثنى من الطى مصدر لنودى، أو للمقدس، أى:

نودى نداءين، أو قدّس مرة بعد أخرى وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ قرأ أهل المدينة و أهل مكة و أبو عمرو و ابن عامر و عاصم و الكسائى وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ بالإفراد. و قرأ حمزة و أنّا اخترناك بالجمع. قال النحاس:

و القراءة الأولى أولى من جهتين: إحداهما أنها أشبه بالخط، و الثانية أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله: يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ و معنى اخترتك: اصطفيتك للنبوّة و الرسالة، و الفاء فى قوله: فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و ما موصولة أو مصدرية، أى: فاستمع للذى يوحى إليك، أو للوحى، و جملة إِنَّنِي أَنَا اللّهُ بدل من «ما» فى «لما يوحى». ثم أمره سبحانه بالعبادة فقال: فَاعْبُدْنِي و الفاء هنا كالفاء التى قبلها؛ لأن اختصاص الإلهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي خصّ الصلاة بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة، لكونها أشرف طاعة و أفضل عبادة، و علّل الأمر بإقامة الصلاة بقوله لذكرى، أى: لتذكرنى فإن الذكر الكامل لا يتحقّق إلا فى ضمن العبادة

فتح القدير، ج‏3، ص: 424

و الصلاة، أو المعنى: لتذكرنى فيهما لاشتمالهما على الأذكار، أو المعنى: أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة. و قيل: المعنى: لأذكرك بالمدح فى عليين، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول، و جملة إِنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ تعليل لما قبلها من الأمر، أى: إن الساعة التى هى وقت الحساب و العقاب آتية، فاعمل الخير من عبادة اللّه و الصلاة.

و معنى أَكادُ أُخْفِيها مختلف فيه. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين: أخفيها من نفسى، و هو قول سعيد بن جبير و مجاهد و قتادة. و قال المبرّد و قطرب: هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشى‏ء: كتمته حتى من نفسى، أى: لم أطلع عليه أحدا؛ و معنى الآية أن اللّه بالغ فى إخفاء الساعة، فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب. و قد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ: أُخْفِيها بفتح الهمزة و معناه أظهرها، و كذا روى أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد بن جبير.

قال النحاس:

و ليس لهـذه الروايـة طريق غير هـذا. قال القرطبى: و كـذا رواه ابن الأنبارى فى كتاب «الردّ» قال: حـدّثنى أبى، حـدثنا محمد بن الجهم، حدّثنا الفراء، حدّثنا الكسائى فذكره. قال النحاس: و أجود من هذا الإسـناد ما رواه يحيى القطّان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ: أُخْفِيها بضم الهمزة.

قال ابن الأنبارى: قال الفراء: و معنى قراءة الفتـح أكاد أظهرها، من خفيت الشـىء إذا أظهرته أخفيه. قال القرطبى: و قد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها، لأنه يقال خفيت الشـىء و أخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر و الإظهار. قال أبو عبيـدة: خفيت و أخفيت بمعنى واحـد. قال النحاس: و هـذا حسن، و قـد أنشد الفرّاء و سـيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهره، و ذلك قول امرئ القيس:

فإن تكتموا «۱» الدّاء لا نخفهو إن تبعثوا الحرب لا نقعد

أى: و إن تكتموا الداء لا نظهره. و قد حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنه بضم النون من تخفه، و قال امرؤ القيس:

خفاهنّ من إنفاقهنّ كأنّماخفاهنّ ودق من عشىّ مجلّب «۲»

أى: أظهرهن. و قد زيف النحاس هذا القول و قال: ليس المعنى على أظهرها، و لا سـيما و أخفيها قراءة شاذة، فكيف تردّ القراءة الصـحيحة الشائعة! و قال ابن الأنبارى: فى الآية تفسير آخر، و هو أن الكلام ينقطع على أكاد، و بعده مضمر، أى: أكاد آتى بها، و وقع الابتداء ب أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى و مثله قول عمير بن ضابئ البرجمى:

---

(۱). فى الديوان ص (۱۸۶): تدفنوا.

(۲). «الودق»: المطر. «المجلب»: الذى له جلبة.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۴۲۵ هممت و لم أفعل و كدت و ليتنى‏تركت على عثمان تبكى حلائله

أى: و كدت أفعل، و اختار هذا النحاس. و قال أبو علىّ الفارسـى: هو من باب السـلب و ليس من الأضداد، و معنى أخفيها: أزيل عنها خفاءها، و هو سترها، و من هذا قولهم أشكيته، أى: أزلت شكواه.

و حكى أبو حاتم عن الأخفش أن «أكاد» زائدة للتأكيد، قال: و مثله: إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها «۱»، و مثله قول الشاعر «۲»:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحهفما إن يكاد قرنه يتنفّس

قـال: و المعنى أكاد أخفيها، أى: أقارب ذلك، لأنك إذا قلت: كاد زيـد يقوم؛ جاز أن يكون قام و أن يكون لم يقم، و دلّ على أنه قـد أخفاها بدلالـة غير هـذه الآيـة على هـذا، و قوله: لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْـعى متعلّق بآتية، أو بأخفيها، و ما مصدرية، أى: لتجزى كـل نفس بسـعيها، و السعى و إن كـان ظاهرا فى الأفعال، فهو هنا يعمّ الأفعال و التروك؛ للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به فَلا يَصُـدَّنَّكَ عَنْها أى: لا يصـرفنك عن الإيمان بالساعـة، و التصـديق بها، أو عن ذكرها و مراقبتها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها من الكفرة، و هـذا النهى و إن كان للكافر بحسب الظاهر، فهو فى الحقيقة نهى له صـلّى اللّه عليه و سـلّم عن الانصداد، أو عن إظهـار اللين للكـافرين، فهو من بـاب: لاـ أرينك هاهنا، كما هو معروف. و قيل: الضـمير فى «عنها» للصـلاة و هو بعيـد، و قوله: وَ اتَّبَعَ هَواهُ معطوف على مـا قبله، أى: من لاـ يؤمن، و من اتبع هواه، أى: هوى نفسه بالانهمـاک فى اللـذات الحسـية الفانية فَتَرْدى أى: فتهلک؛ لأن انصدادک عنها بصدّ الكافرين لک مستلزم للهلاک و مستتبع له.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ابن عساكر عن ابن عباس أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم:

«أوّل ما نزل عليه الوحى كان يقوم على صدر قدميه إذا صـلى، فأنزل اللّه طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى . و أخرج ابن جرير و

ابن مردويه عنه قال: قالوا: لقد شقى هذا الرجل بربه، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج ابن عساكر عنه أيضا قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج البزار عن عليّ قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يراوح بين قدميه، يقوم على كلّ رجل حتى نزلت ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى و حسّن السّيوطى إسناده. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا بأطول منه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فأنزل اللّه طه برجليك ف ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه فى قوله: طه قال: يا رجل. و أخرج الحارث بن أبى أسامة و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: طه بالنبطية. أى: طأ يا رجل. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هو كقولك اقعد. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه قال: طه بالنبطية يا رجل. و أخرج ابن

---

(۱). النور: ۴۰.

(۲). هو زيد الخيل.

جرير عنه قال: طه يا رجل بالسريانية. و أخرج الحاكم عنه أيضا قال: طه هو كقولك يا محمد بلسان الحبش. و فى هذه الروايات عن ابن عباس اختلاف و تدافع. و أخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن لى عند ربى عشرة أسماء، قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد، و أحمد، و أبو القاسم، و الفاتح، و الخاتم، و الماحى، و العاقب، و الحاشر» و زعم سيف أن أبا جعفر قال له الاسمان الباقيان طه و يس. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى قال: يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، و كان يقوم الليل على رجليه فهى لغة لعكّ إن قلت لعكّى يا رجل لم يلتفت، و إذا قلت طه التفت إليك. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: طه قسم أقسم اللّه به، و هو من أسمائه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما تَحْتَ الثَّرى قال:

الثرى كل شىء مبتل. و أخرج أبو يعلى عن جابر «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سئل ما تحت هذه الأرض؟ قال: الماء، قيل: فما تحت الماء؟ قال: ظلمة، قيل: فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء، قيل: فما تحت الهواء؟

قال: الثرى، قيل: فما تحت الثرى؟ قال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق». و أخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: و يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى قال: السرّ ما أسرّه ابن آدم فى نفسه، و أخفى ما خفى عن ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله، فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك و ما بقى علم واحد، و جميع الخلائق عنده فى ذلك كنفس واحدة، و هو كقوله: ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ «۱». و أخرج الحاكم و صحّحه عنه فى الآية قال: السرّ ما علمته أنت، و أخفى ما قذف اللّه فى قلبك ممّا لم تعلمه. و أخرجه عبد اللّه ابن أحمد فى زوائد الزهد، و أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى بلفظ: يعلم ما تسرّ فى نفسك و يعلم ما تعمل غدا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً يقول: من يدلّ على الطريق.

و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عليّ فى قوله: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ قال: كانتا من جلد حمار ميت فقيل له اخلعهما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً قال: المبارك طُوىً قال: اسم الوادى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً يعنى الأرض المقدسة، و ذلك أنه مرّ بواديها ليلا فطوى، يقال: طويت

وادى كذا و كذا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: طُوىً قال: طأ الوادى. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا رقد أحدكم عن الصّلاة أو غفل عنها فليصلّها إذا ذكرها، فإن اللّه قال: أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي . و أخرج الترمذى و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و ابن مردويه من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن اللّه قال: أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي و كان ابن شهاب يقرؤها للذكرى. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

---

(۱). لقمان: ۲۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۲۷

أَكادُ أُخْفِيها قال: لا أظهر عليها أحدا غيرى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أَكادُ أُخْفِيها من نفسى.

[سورة طه (۲۰): الآيات ۱۷ الى ۳۵]

وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (۱۷) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (۱۸) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (۱۹) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (۲۰) قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (۲۱)

وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (۲۲) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (۲۳) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۲۴) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (۲۵) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (۲۶)

وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (۲۷) يَفْقَهُوا قَوْلِي (۲۸) وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (۲۹) هارُونَ أَخِي (۳۰) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (۳۱)

وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (۳۲) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (۳۳) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (۳۴) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (۳۵)

قوله: وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى قال الزجّاج و الفرّاء: إن تلك اسم ناقص وصلت بيمينك، أى: ما التى بيمينك؟ و روى عن الفرّاء أنه قال: تلك بمعنى هذه، و لو قال ما ذلك لجاز، أى: ما ذلك الشيء؟ و بالأوّل قال الكوفيون. قال الزّجّاج: و معنى سؤال موسى عمّا فى يده من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها و التأمل لها. قال الفراء: و مقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى هى عصاى لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف، و إلا فقد علم اللّه ما هى فى الأزل، و محل ما الرفع على الابتداء، و تلك خبره، و بيمينك فى محل نصب على الحال إن كانت تلك اسم إشارة على ما هو ظاهر اللفظ، و إن كانت اسما موصولا كان بيمينك صلة للموصول قالَ هِيَ عَصايَ قرأ ابن أبى إسحاق عصيّ على لغة هذيل.

و قرأ الحسن عصاى بكسر الياء لالتقاء الساكنين، أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها أى: أتحامل عليها فى المشى، و أعتمدها عند الإعياء و الوقوف، و منه الاتكاء وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي هشّ بالعصا يهشّ هشا؛ إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق. قال الشاعر:

أهشّ بالعصا على أغنامى من ناعم الأراك و البشام

و قرأ النخعى: أهسّ بالسين المهملة، و هو زجر الغنم، و كذا قرأ عكرمة، و قيل: هما لغتان لمعنى واحد وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى أى: حوائج واحدها مأربة و مأربة و مأربة، مثلّث الراء، كذا قال ابن الأعرابى و قطرب، ذكر تفصيل منافع العصا، ثم عقبه بالإجمال.

و قد تعرّض قوم لتعداد منافع العصا فذكروا من ذلك أشياء: منها قول بعض العرب: عصاى أركزها لصلاتى، و أعدّها لعداتى، و

أسوق بها دابتى، و أقوى بها على سفرى، و أعتمد بها فى مشيتى، لتتسع خطوتى، و أثب بها النهر، و تؤمننى العثر، و ألقى عليها كسائى؛ فتقينى الحرّ، و تدفئنى من القرّ، و تدنى إلىّ ما بعد منى، و هى محمل سفرتى، و علاقة إداوتى، أعصى بها عند الضّراب، و أقرع به الأبواب، و أقى بها عقور

الكلاب، و تنوب عن الرمح فى الطعان، و عن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبى، و أورّثها بعدى بنىّ، انتهى.

و قد وقفت على مصنّف فى مجلد لطيف فى منافع العصا لبعض المتأخرين، و ذكر فيه أخبارا و أشعارا و فوائد لطيفة و نكتا رشيقة. و قد جمع اللّه سبحانه لموسى فى عصاه من البراهين العظام و الآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة و معرّة المعاندين، و اتخذها سليمان لخطبته و موعظته و طول صلاته، و كان ابن مسعود صاحب عصا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عنزته «۱»، و كان يخطب بالقضيب و كذلك الخلفاء من بعده، و كان عادة العرب العرباء أخذ العصا و الاعتماد عليها عند الكلام، و فى المحافل و الخطب، قالَ أَلْقِها يا مُوسى هذه جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة فَأَلْقاها موسى على الأرض فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى و ذلك بقلب اللّه سبحانه لأوصافها و أعراضها حتى صارت حية تسعى، أى: تمشى بسرعة و خفة، قيل: كانت عصا ذات شعبتين، فصار الشعبتان فما و باقيها جسم حية، تنتقل من مكان إلى مكان، و تلتقم الحجارة مع عظم جرمها و فظاعة منظرها، فلما رآها كذلك خاف و فزع و ولى مدبرا و لم يعقب، فعند ذلك قالَ سبحانه خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى قال الأخفش و الزجاج: التقدير إلى سيرتها، مثل: وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ «۲» قال: و يجوز أن يكون مصدرا؛ لأن معنى سنعيدها: سنسيرها، و يجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل، أى: سائرة، أو بمعنى اسم المفعول، أى: مسيرة. و المعنى: سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التى هى العصوية. قيل: إنه لما قيل له لا تخف بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده فى فمها و يأخذ بلحيها وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ قال الفرّاء و الزّجّاج: جناح الإنسان عضده، و قال قطرب: جناح الإنسان جنبه، و عبّر عن الجنب بالجناح لأنه فى محل الجناح، و قيل: إلى بمعنى مع، أى: مع جناحك، و جواب الأمر تَخْرُجْ بَيْضاءَ أى: تخرج يدك حال كونها بيضاء، و محل مِنْ غَيْرِ سُوءٍ النصب على الحال، أى: كائنة من غير سوء، و السوء العيب، كنى به عن البرص، أى: تخرج بيضاء ساطعا نورها تضىء بالليل و النهار كضوء الشمس من غير برص، و انتصاب آيَةً أُخْرى على الحال أيضا؛ أى: معجزة أخرى غير العصا. و قال الأخفش: إن آية منتصبة على أنها بدل من بيضاء. قال النحّاس: و هو قول حسن. و قال الزجّاج: المعنى آتيناك أو نؤتيك آية أخرى، لأنه لما قال: تَخْرُجْ بَيْضاءَ دلّ على أنه قد آتاه آية أخرى، ثم علّل سبحانه ذلك بقوله:

لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى قيل: و التقدير: فعلنا ذلك لنريك، و «من آياتنا» متعلّق بمحذوف وقع حالا، و الكبرى: معناها العظمى، و هو صفة لموصوف محذوف، و التقدير: لنريك من آياتنا الآية الكبرى، أى: لنريك بهاتين الآيتين يعنى اليد و العصا بعض آياتنا الكبرى، فلا يلزم أن تكون اليد هى الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا، فيرد على ذلك أنه لم يكن فى اليد إلاـ تغير اللون فقط، بخلاف العصا؛ فإن فيها مع تغير اللون الزيادة فى الحجم، و خلق الحياة، و القدرة على الأمور الخارقة. ثم صرّح سبحانه بالغرض

---

(۱). «العنزة»: مثل نصف الرمح أو أكبر قليلا، و فيها سنان مثل سنان الرمح.

(۲). الأعراف: ۱۵۵.

المقصود من هذه المعجزات فقال: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ و خصّه بالذكر لأن قومه تبع له، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّهُ طَغى أى: عصى و تكبّر و كفر و تجبر و تجاوز الحدّ، و جملة قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال؟ و معنى شرح الصدر توسيعه، تضرّع عليه السلام إلى ربه و أظهر عجزه بقوله: وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي «۱»، و معنى تيسير الأمر تسهيله وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يعنى العجمة التى كانت فيه من الجمرة التى ألقاها فى فيه و هو طفل، أى: أطلق عن لسانى العقدة التى فيه، قيل: أذهب اللّه سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى و قيل: لم تذهب كلها لأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية، بل سأل حلّ عقدة تمنع الإفهام، بدليل قوله: مِنْ لِسانِي أى: كائنة من عقد لسانى، و يؤيد ذلك قوله: هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً «۲»، و قوله حكاية عن فرعون: وَ لا يَكادُ يُبِينُ «۳»، و جواب الأمر قوله: يَفْقَهُوا قَوْلِي أى: يفهموا كلامى، و الفقه فى كلام العرب الفهم، ثم خصّ به علم الشريعة، و العالم به فقيه، قاله الجوهرى: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي- هارُونَ أَخِي الوزير: المؤازر كالأكيل المؤاكل؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره، أى:

ثقله. قال الزجاج: و اشتقاقه فى اللغة من الوزر، و هو الجبل الذى يعتصم به لينجى من الهلكة، و الوزير:

الذى يعتمد الملك على رأيه فى الأمور و يلتجئ إليه. و قال الأصمعى: هو مشتق من المؤازرة، و هى المعاونة، و انتصاب وزيرا و هارون على أنهما مفعولا اجعل، و قيل: مفعولاه: لى وزيرا، و يكون هارون عطف بيان للوزير، و الأوّل أظهر، و يكون لى متعلقا بمحذوف، أى: كائنا لى، و من أهلى صفة لوزيرا، و أخى بدل من هارون. قرأ الجمهور اشْدُدْ بهمزة وصل، و أَشْرِكْهُ بهمزة قطع كلاهما على صيغة الدعاء، أى: يا رب أحكم به قوّتى و اجعله شريكى فى أمر الرسالة، و الأزر: القوة، يقال: آزره؛ أى: قوّاه؛ و قيل: الظهر، أى: اشدد به ظهرى. و قرأ ابن عامر و يحيى بن الحارث و أبو حيوة و الحسن و عبد اللّه بن أبى إسحاق اشْدُدْ بهمزة قطع وَ أَشْرِكْهُ بضم الهمزة، أى أشدد أنا به أزرى، و أشركه أنا فى أمرى. قال النحّاس: جعلوا الفعلين فى موضع جزم جوابا لقوله «اجْعَلْ لِي وَزِيراً»، و قرأ بفتح الياء من أخى ابن كثير و أبو عمرو كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً هذا التسبيح و الذكر هما الغاية من الدعاء المتقدّم، و المراد: التسبيح هنا باللسان؛ و قيل: المراد به الصلاة، و انتصاب كثيرا فى الموضعين على أنه نعت مصدر محذوف، أو لزمان محذوف إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً البصير: المبصر، و البصير: العالم بخفيات الأمور، و هو المراد هنا، أى: إنك كنت بنا عالما فى صغرنا فأحسنت إلينا، فأحسن إلينا أيضا كذلك الآن.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى عصا موسى قال: أعطاه إياها ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدين فكانت تضىء له بالليل، و يضرب بها الأرض فتخرج له النبات، و يهشّ بها على غنمه ورق الشجر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي قال: أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمى، و قد روى نحو هذا عن جماعة من السلف. و أخرج ابن المنذر و ابن

---

(۱). الشعراء: ۱۳.

(۲). القصص: ۳۴.

(۳). الزخرف: ۵۲.

أبى حاتم فى قوله: وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ قال: حوائج. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه، و أخرج أيضا عن قتادة قال: كانت تضىء له بالليل، و كانت عصا آدم عليه السلام. و أخرج أيضا عن ابن عباس فى قوله: فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى قال: و لم تكن قبل ذلك حية فمرّت بشجرة فأكلتها، و

مرّت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولى مدبرا فنودى أن يا موسى خذها، فلم يأخذها، ثم نودى الثانية أن خذها و لا تخف، فقيل له فى الثالثة: إنك من الآمنين فأخذها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى قال: حالتها الأولى. و أخرجا عنه أيضا: مِنْ غَيْرِ سُوءٍ قال: من غير برص. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي- هارُونَ أَخِي قال: كان أكبر من موسى.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي قال: نبىء هارون ساعتئذ حين نبىء موسى.

[سورة طه (٢٠): الآيات ٣٦ الى ٤٤]

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (٣٦) وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (٤٠)

وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (٤٤)

لما سأل موسى ربه سبحانه أن يشرح صدره، و ييسر له أمره، و يحلل عقدة من لسانه، و يجعل له وزيرا من أهله، أخبره اللّه سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء، فقال: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى أى:

أعطيت ما سألته، و السؤل: المسؤول، أى: المطلوب كقولك: خبر بمعنى مخبور، و زيادة قوله يا موسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل، و جملة وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم اللّه عليه، و المنّ: الإحسان و الإفضال. و المعنى: و لقد أحسنا إليك مرّة أخرى قبل هذه المرّة، و هى حفظ اللّه سبحانه له من شرّ الأعداء كما بينه سبحانه ها هنا، و أخرى تأنيث آخر بمعنى غير إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى أى: مننا ذلك الوقت، و هو وقت الإيحاء فإذ ظرف للإيحاء، و المراد بالإيحاء إليها إما مجرّد الإلهام لها أو فى النوم بأن أراها ذلك أو على لسان نبىّ أو على لسان ملك، لا على طريق النبوّة كالوحى إلى مريم أو بإخبار الأنبياء المتقدّمين بذلك و انتهى الخبر إليها، و المراد بما يوحى ما سيأتى من الأمر لها، أبهمه أوّلا و فسّره ثانيا تفخيما لشأنه، و جملة أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ مفسّرة لأن الوحى فيه معنى القول، أو مصدرية على تقدير بأن اقذفيه، و القذف هاهنا الطرح، أى: اطرحيه فى التابوت، و قد مرّ تفسير التابوت فى البقرة فى قصة طالوت فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِ أى: اطرحيه فى البحر، و اليم: البحر أو النهر الكبير.

قال الفرّاء: هذا أمر و فيه المجازاة، أى: اقذفيه يلقه اليم بالساحل، و الأمر للبحر مبنى على تنزيله منزلة من

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٣١

يفهم و يميز، لما كان إلقاؤه إياه بالساحل أمرا واجب الوقوع، و الساحل: هو شط البحر، سمّى ساحلا لأن الماء سحله قاله ابن دريد، و المراد هنا ما يلى الساحل من البحر لا نفس الساحل، و الضمائر هذه كلها لموسى لا للتابوت، و إن كان قد ألقى معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا و بعده له، و جملة يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ جواب الأمر بالإلقاء، و المراد بالعدوّ فرعون، فإن أمّ موسى لما ألقته فى البحر و هو النيل المعروف، و كان يخرج منه نهر إلى دار فرعون فساقه اللّه فى ذلك النهر إلى داره، فأخذ التابوت فوجد موسى فيه، و قيل: إن البحر ألقاه بالساحل، فنظره فرعون فأمر من يأخذه؛ و قيل: وجدته ابنة فرعون، و الأوّل أولى وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي أى: ألقى اللّه على موسى محبة كائنة منه تعالى فى قلوب عباده لا يراه أحد إلا

أحبه؛ و قيل: جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه. و قال ابن جرير: المعنى و ألقيت عليك رحمتى، و قيل: كلمة من متعلقة بألقيت، فيكون المعنى: ألقيت منى عليك محبة، أى: أحببتك، و من أحبه اللّه أحبه الناس وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِی أى: و لتربى و تغذى بمرأى منى، يقال: صنع الرجل جاريته؛ إذا رباها، و صنع فرسه؛ إذا داوم على علفه و القيام عليه، و تفسير عَلى عَيْنِی بمرأى منى صحيح. قال النحاس: و ذلك معروف فى اللغة، و لكن لا يكون فى هذا تخصيص لموسى، فإن جميع الأشياء بمرأى من اللّه. و قال أبو عبيدة و ابن الأنبارى: إن المعنى لتغذى على محبتى و إرادتى، تقول:

أتخذ الأشياء على عينى، أى: على محبتى. قال ابن الأنبارى: العين فى هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة و الاختيار، من قول العرب: غدا فلان على عينى، أى: على المحبة منى. قيل: و اللام متعلقة بمحذوف، أى: فعلت ذلك لتصنع، و قيل: متعلّقة بألقيت، و قيل: متعلقة بما بعده، أى: و لتصنع على عينى قدّرنا مشى أختك. و قرأ ابن القعقاع وَ لِتُصْنَعَ بإسكان اللام على الأمر، و قرأ أبو نهيك بفتح التاء. و المعنى:

و لتكون حركتك و تصرّفك بمشيئتى، و على عين منى إِذْ تَمْشِی أُخْتُکَ ظرف لألقيت، أو لتصنع، و يجوز أن يكون بدلا من «إذ أوحينا» و أخته اسمها مريم فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ و ذلك أنها خرجت متعرّفة لخبره فوجدت فرعون و امرأته آسية يطلبان له مرضعة، فقالت لهما هذا القول، أى: هل أدلكم على من يضمّه إلى نفسه و يربّيه، فقالا لها: و من هو؟ قالت: أمى، فقالا: هل لها لبن؟ قالت:

نعم، لبن أخى هارون، و كان هارون أكبر من موسى بسنة، و قيل: بأكثر، فجاءت الأم فقبل ثديها، و كان لا يقبل ثدى مرضعة غيرها، و هذا هو معنى فَرَجَعْناکَ إِلى أُمِّکَ و فى مصحف أبىّ «فرددناك»، و الفاء فصيحة كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها قرأ ابن عامر فى رواية عبد الحميد عنه كى تقرّ بكسر القاف، و قرأ الباقون بفتحها. قال الجوهرى: قررت به عينا قرّة و قرورا، و رجل قرير العين، و قد قرّت عينه تقرّ و تقرّ، نقيض سخنت، و المراد بقرّة العين: السرور برجوع ولدها إليها بعد أن طرحته فى البحر و عظم عليها فراقه وَ لا تَحْزَنَ أى: لا يحصل لها ما يكدّر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب، و لو أراد الحزن بالسبب الذى قرّت عينها بزواله لقدّم نفى الحزن على قرّة العين، فيحمل هذا النفى للحزن على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك، و يمكن أن يقال: إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعيّن؛ و قيل: المعنى: و لا

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۳۲

تحزن أنت يا موسى بفقد إشفاقها، و هو تعسّف وَ قَتَلْتَ نَفْساً المراد بالنفس هنا: نفس القبطى الذى وكزه موسى فقضى عليه، و كان قتله له خطأ فَنَجَّيْناکَ مِنَ الْغَم أى: الغمّ الحاصل معك من قتله خوفا من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعا؛ و قيل: الغمّ هو القتل بلغة قريش، و ما أبعد هذا! وَ فَتَنَّاکَ فُتُوناً الفتنة تكون بمعنى المحنة، و بمعنى الأمر الشاقّ، و كلّ ما يبتلى به الإنسان، و الفتون يجوز أن يكون مصدرا كالثبور و الشكور و الكفور، أى: ابتليناك ابتلاء، و اختبرناك اختبارا، و يجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجور فى حجرة، و بدور فى بدرة، أى: خلصناك مرّة بعد مرّة مما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن يصطفيه اللّه لرسالته، و لعلّ المقصود بذكر تنجيته من الغمّ الحاصل له بذلك السبب، و تنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع اللّه سبحانه له، و تقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون و بنى إسرائيل فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِی أَهْلِ مَدْيَنَ قال الفرّاء: تقدير الكلام و فتناك فتونا، فخرجت إلى أهل مدين فلبثت سنين، و مثل هذا الحذف كثير فى التنزيل، و كذا فى كلام العرب فإنهم يحذفون كثيرا من الكلام إذا كان المعنى معروفا، و مدين: هى بلد شعيب، و كانت على ثمانى مراحل من مصر؛ هرب إليها موسى فأقام بها عشر سنين، و هى أتمّ الأجلين؛ و قيل: أقام عند شعيب ثمان و عشرين سنة؛ منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب، و منها ثمانى عشرة سنة بقى فيها عنده حتى ولد له، و الفاء فى «فلبثت» تدل على

أن المراد بالمحن المذكورة هى ما كان قبل لبثه فى أهل مدين ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى أى: فى وقت سبق فى قضائى و قدرى أن أكلمك و أجعلك نبيا، أو على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، و هو رأس أربعين سنة، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به. قال الشاعر:

نال الخلافة إذ كانت له قدراكما أتى ربّه موسى على قدر

و كلمة ثُمَ المفيدة للتراخى للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدّة، و ذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق و تفرّق غنمه و نحو ذلك وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي الاصطناع: اتخاذ الصنعة، و هى الخير تسديه إلى إنسان، و المعنى: اصطنعتك لوحيى و رسالتى لتتصرّف على إرادتى. قال الزجاج: تأويله اخترتك لإقامة حجتى، و جعلتك بينى و بين خلقى، و صرت بالتبليغ عنى بالمنزلة التى أكون أنا بها لو خاطبتهم و احتججت عليهم. قيل: و هو تمثيل لما خوّله اللّه سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصّه اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ أى: و ليذهب أخوك، و هو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع. و معنى بِآياتِي بمعجزاتى التى جعلتها لك آية، و هى التسع الآيات وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي أى: لا تضعفا و لا تفترا، يقال: ونى ينى ونيا؛ إذا ضعف. قال الشاعر «١»:

فما ونى محمّد مذ أن غفرله الإله ما مضى و ما غبر

---

(١). هو العجاج.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٣٣

و قال امرؤ القيس:

مسحّ إذا ما السّابحات على الونى‏أثرن غبارا بالكديد المركّل «١»

قال الفراء: فى ذكرى و عن ذكرى سواء، و المعنى: لا تقصرا عن ذكرى بالإحسان إليكما، و الإنعام عليكما و ذكر النعمة شكرها. و قيل: معنى «لا تنيا» لا تبطئا فى تبليغ الرسالة، و فى قراءة ابن مسعود «لا تهنا فى ذكرى» اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى هذا أمر لهما جميعا بالذهاب، و موسى حاضر و هارون غائب تغليبا لموسى؛ لأنه الأصل فى أداء الرسالة، و علّل الأمر بالذهاب بقوله: إِنَّهُ طَغى أى: جاوز الحدّ فى الكفر و التمرّد، و خصّ موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم، و جمعهما هنا تشريفا لموسى بإفراده، و تأكيدا للأمر بالذهاب بالتكرير. و قيل: إن فى هذا دليلا على أنه لا يكفى ذهاب أحدهما. و قيل: الأوّل:

أمر لموسى بالذهاب إلى كل الناس، و الثانى: أمر لهما بالذهاب إلى فرعون. ثم أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما فى ذلك من التأثير فى الإجابة، فإن التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور و التصلّب فى الكفر، و القول اللين: هو الذى لا خشونة فيه، يقال: لان الشى‏ء يلين لينا، و المراد تركهما للتعنيف، كقولهما: هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى «٢»، و قيل: القول اللين هو الكنية له، و قيل: أن يعداه بنعيم الدنيا إن أجاب، ثم علّل الأمر بإلانة القول له بقوله: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى أى: باشرا ذلك مباشرة من يرجو و يطمع، فالرجاء راجع إليهما كما قاله جماعة من النحويين: سيبويه و غيره. و قد تقدّم تحقيقه فى غير موضع.

قال الزجاج: «لعلّ» لفظة طمع و ترجّ، فخاطبهم بما يعقلون. و قيل: لعلّ ها هنا بمعنى الاستفهام. و المعنى:

فانظرا هل يتذكر أو يخشى، و قيل: بمعنى كى. و التذكير: النظر فيما بلغاه من الذكر و إمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سببا فى الإجابة، و الخشية هى خشية عقاب اللّه الموعود به على لسانهما، و كلمة «أو» لمنع الخلوّ دون الجمع.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِ قال: هو النيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي قال: كان كل من رآه ألقيت عليه منه محبته. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن

سلمة بن كهيل قال: حبّبتک إلی عبادی. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أبی عمران الجونی فی قوله: وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي قال: تربّی بعين اللّه. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی الآية قال: لتغذى على عينی. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فی الآية قال: يقول: أنت بعينی إذ جعلتک أمّک فی التابوت، ثم فی البحر، و إذ تمشی أختک. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردويه و الخطيب عن ابن عمر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إنما قتل موسى الذی

---

(١). «مسح»: سحّ: انصبّ. «السابحات»: التی تبسط يديها إذا عدت. «الونی»: الفتور. «الكديد»: ما غلظ من الأرض. «المركل»: الذی ركلته الخيل بحوافرها.

(٢). النازعات: ١٨.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٣٤

قتل من آل فرعون خطأ، يقول اللّه سبحانه: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِ قال: من قتل النفس وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً قال: أخلصناک إخلاصا». و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً قال: ابتليناک ابتلاء. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه قال: اختبرناک اختبارا. و قد أخرج عبد بن حميد و النسائی و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أثرا طويلا فی تفسير الآية، فمن أحبّ استيفاء ذلک فلينظره فی كتاب التفسير من سنن النسائی. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی قوله: ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ قال: لميقات. و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد و قتادة عَلى قَدَرٍ قال: موعد. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس وَ لا تَنِيا قال: لا تبطئا. و أخرج ابن أبی حاتم عن علیّ فی قوله: قَوْلًا لَيِّناً قال: كنّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: كنّياه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى قال: هل يتذكر.

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٥ الى ٥٩]

قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (٤٥) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى (٤٦) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٤٨) قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (٤٩)

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْ‌ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (٥٠) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (٥١) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (٥٤)

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (٥٥) وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى (٥٦) قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (٥٨) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)

قرأ الجمهور أَنْ يَفْرُطَ بفتح الياء و ضم الراء، و معنى ذلک: إننا نخاف أن يعجل و يبادر بعقوبتنا، يقال: فرط منه أمر، أی: بدر، و منه الفارط، و هو الذی يتقدّم القوم إلى الماء، أی: يعذّبنا عذاب الفارط فی الذنب، و هو المتقدّم فيه، كذا قال المبرد. و قال أيضا: فرط منه أمر و أفرط: أسرف، و فرط: ترک.

و قرأ ابن محيصن يَفْرُطَ بضم الياء و فتح الراء، أی: يحمله حامل على التسرّع إلينا، و قرأت طائفة بضم الياء و كسر الراء، و منهم

ابن عباس و مجاهد و عكرمة من الإفراط، أى: يشتطّ فى أذيتنا. قال الراجز:
قد أفرط العلج علينا و عجل و معنى أَوْ أَنْ يَطْغى قد تقدّم قريبا، و جملة قالَ لا تَخافا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، نهى لهما عن الخوف الذى حصل معهما من فرعون، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّنِي مَعَكُما أى: بالنصر

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۳۵

لهما، و المعونة على فرعون، و معنى أَسْمَعُ وَ أَرى إدراك ما يجرى بينهما و بينه بحيث لا يخفى عليه سبحانه منه خافية، و ليس بغافل عنهما، ثم أمرهما بإتيانه الذى هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه، فلا تكرار فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ أرسلنا إليك فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ أى: خلّ عنهم و أطلقهم من الأسر وَ لا تُعَذِّبْهُمْ بالبقاء على ما كانوا عليه، و قد كانوا عند فرعون فى عذاب شديد: يذبح أبناءهم، و يستحيى نساءهم، و يكلفهم من العمل ما لا يطيقونه. ثم أمرهما سبحانه أن يقولا لفرعون قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ قيل: هى العصا و اليد، و قيل: إن فرعون قال لهما: و ما هى؟ فأدخل موسى يده فى جيب قميصه، ثم أخرجها لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب فرعون من ذلك، و لم يره موسى العصا إلا يوم الزّينة وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى أى: السلامة. قال الزّجّاج: أى: من اتبع الهدى سلم من سخط اللّه عزّ و جلّ و من عذابه، و ليس بتحية. قال: و الدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء و لا خطاب. قال الفراء:
السلام على من اتبع الهدى، و لمن اتبع الهدى سواء إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا من جهة اللّه سبحانه أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى المراد بالعذاب: الهلاك و الدمار فى الدنيا و الخلود فى النار، و المراد بالتكذيب:
التكذيب بآيات اللّه و برسله، و التولى: الإعراض عن قبولها و الإيمان بها قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى أى:
قال فرعون لهما: فمن ربكما؟ فأضاف الربّ إليهما و لم يضفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما و لجحده للربوبية، و خصّ موسى بالنداء لكونه الأصل فى الرسالة، و قيل: لمطابقة رؤوس الآى قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ أى: قال موسى مجيبا له، و «ربنا» مبتدأ، و خبره الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ و يجوز أن يكون «ربنا» خبر مبتدأ محذوف، و ما بعده صفته، قرأ الجمهور خَلْقَهُ بسكون اللام، و روى زائدة عن الأعمش أنه قرأ «خلقه» بفتح اللام على أنه فعل، و هى قراءة ابن أبى إسحاق، و رواها نصير عن الكسائى. فعلى القراءة الأولى يكون خلقه ثانى مفعولى أعطى. و المعنى: أعطى كل شىء صورته و شكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له؛ كاليد للبطش، و الرجل للمشى، و اللسان للنطق، و العين للنظر، و الأذن للسمع، كذا قال الضحّاك و غيره.
و قال الحسن و قتادة: أعطى كل شىء صلاحه و هداه لما يصلحه. و قال مجاهد: المعنى لم يخلق خلق الإنسان فى خلق البهائم، و لا خلق البهائم فى خلق الإنسان، و لكن خلق كلّ شىء فقدّره تقديرا، و منه قول الشاعر:
و له فى كلّ شىء خلقةو كذاك اللّه ما شاء فعل
و قال الفرّاء: المعنى: خلق للرجل المرأة، و لكل ذكر ما يوافقه من الإناث، و يجوز أن يكون خلقه على القراءة الأولى هو المفعول الأوّل لأعطى، أى: أعطى خلقه كلّ شىء يحتاجون إليه، و يرتفقون به، و معنى ثُمَّ هَدى أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شىء فيما خلق له، و أما على القراءة الآخرة، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أى: أعطى كل شىء خلقه اللّه سبحانه و لم يخله من عطائه، و على هذه القراءة يكون المفعول الثانى محذوفا: أى أعطى كل شىء خلقه ما يحتاج إليه، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۳۶

قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى لما سمع فرعون ما احتجّ به موسى فى ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق و الهداية ثابتان بلا خلاف، و لا بدّ لهما من خالق و هاد، و ذلك الخالق و الهادى هو اللّه سبحانه لا ربّ غيره. قال فرعون:

فما بال القرون الأولى؟ فإنها لم تقرّ بالربّ الذى تدعو إليه يا موسى، بل عبدت الأوثان و نحوها من المخلوقات، و معنى البال: الحال و الشأن، أى: ما حالهم؟ و ما شأنهم؟ و قيل:

إن سؤال فرعون عن القرون الأولى مغالطة لموسى لما خاف أن يظهر لقومه أنه قد قهره بالحجة، أى: ما حال القرون الماضية؟ و ماذا جرى عليهم من الحوادث؟ فأجابه موسى، ف قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى أى: إن هذا الذى سألت عنه ليس ممّا نحن بصدده، بل هو من علم الغيب الذى استأثر اللّه به لا تعلمه أنت و لا أنا. و على التفسير الأوّل يكون معنى عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى أنّ علم هؤلاء الذين عبدوا الأوثان و نحوها محفوظ عند اللّه فى كتابه سيجازيهم عليها، و معنى كونها فى كتاب أنها مثبتة فى اللوح المحفوظ. قال الزجاج: المعنى أن أعمالهم محفوظة عند اللّه يجازى بها، و التقدير: علم أعمالها عند ربّى فى كتاب.

و قد اختلف فى معنى لا يَضِلُّ رَبِّى وَ لا يَنْسى على أقوال: الأوّل: أنه ابتداء كلام تنزيه للّه تعالى عن هاتين الصفتين. و قد تمّ الكلام عند قوله «فِى كِتابٍ»، كذا قال الزجاج. قال: و معنى لا يَضِلُ لا يهلك، من قوله: أَ إِذا ضَلَلْنا فِى الْأَرْضِ «١»، وَ لا يَنْسى شيئا من الأشياء، فقد نزّهه عن الهلاك و النسيان. القول الثانى: أن معنى لا يَضِلُ لا يخطئ. القول الثالث: أن معناه لا يغيب. قال ابن الأعرابى: أصل الضلال الغيبوبة. القول الرابع: أن المعنى لا يحتاج إلى كتاب، و لا يضلّ عنه علم شيء من الأشياء، و لا ينسى ما علمه منها، حكى هذا عن الزجاج أيضا. قال النحاس: و هو أشبهها بالمعنى. و لا يخفى أنه كقول ابن الأعرابى. القول الخامس: أن هاتين الجملتين صفة لكتاب، و المعنى: أن الكتاب غير ذاهب عن اللّه و لا هو ناس له الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً الموصول فى محل رفع على أنه صفة لربى متضمّنة لزيادة البيان، و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أو فى محل نصب على المدح. قرأ الكوفيون مَهْداً على أنه مصدر لفعل مقدّر، أى: مهدها مهدا، أو على تقدير مضاف محذوف، أى: ذات مهد، و هو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش. و قرأ الباقون مهادا و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم قالا: لاتفاقهم على قراءة: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً. قال النحاس: و الجمع أولى من المصدر؛ لأن هذا الموضع ليس موضع المصدر إلا على حذف المضاف. قيل: يجوز أن يكون مهادا مفردا كالفراش، و يجوز أن يكون جمعا، و معنى المهاد: الفراش، فالمهاد: جمع المهد، أى: جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا السلك: إدخال الشيء فى الشيء. و المعنى: أدخل فى الأرض لأجلكم طرقا تسلكونها و سهّلها لكم. و فى الآية الأخرى: الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ثم قال سبحانه ممتنّا على عباده وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو ماء المطر، قيل: إلى هنا انتهى كلام موسى، و ما بعده هو فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى من كلام اللّه سبحانه، و قيل:

هو من الكلام المحكيّ عن موسى، معطوف على أنزل، و إنما التفت إلى التكلّم للتنبيه على ظهور ما فيه من

---

(١). السجدة: ١٠.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٣٧

الدلالة على كمال القدرة. و نوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلّم، و يجاب عنه بأن الكلام كله محكيّ عن واحد هو موسى، و الحاكى للجميع هو اللّه سبحانه. و المعنى: فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث و المعالجة أزواجا، أى: ضروبا و أشباها من أصناف النبات المختلفة. و قوله: «من نبات» صفة لأزواجا، أو بيان له، و كذا «شتى» صفة أخرى له، أى: متفرّقة، جمع شتيت. و قال الأخفش: التقدير أزواجا شتى من نبات. قال: و قد يكون النبات شتى، فيجوز أن يكون «شتى» نعتا لأزواجا، و يجوز أن يكون نعتا للنبات، يقال: أمر شتّ، أى: متفرّق، و شتّ الأمر شتّا و شتاتا تفرّق، و اشتتّ مثله، و الشّتيت: المتفرّق. قال رؤبة:

جاءت معا و اطّرقت شتيتا «۱» ....

و جملة كُلُوا وَ ارْعَوْا فى محل نصب على الحال بتقدير القول، أى: قائلين لهم ذلك، و الأمر للإباحة، يقال: رعت الماشية الكلأ و رعاها صاحبها رعاية، أى: أسامها و سرّحها، يجىء لازما و متعدّيا، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى إلى ما تقدّم ذكره فى هذه الآيات، و النهى: العقول، جمع نهية، و خصّ ذوى النّهى لأنهم الذين ينتهى إلى رأيهم، و قيل: لأنهم ينهون النفس عن القبائح، و هذا كلّه من موسى احتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جوابا لقوله: فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى و الضمير فى مِنْها خَلَقْناكُمْ و ما بعده راجع إلى الأرض المذكورة سابقا. قال الزّجّاج و غيره: يعنى أن آدم خلق من الأرض و أولاده منه. و قيل: المعنى: أن كل نطفة مخلوقة من التراب فى ضمن خلق آدم؛ لأنّ كلّ فرد من أفراد البشر له حظّ من خلقه وَ فِيها أى: فى الأرض نُعِيدُكُمْ بعد الموت فتدفنون فيها و تتفرّق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض، و جاء بفى دون إلى للدلالة على الاستقرار وَ مِنْها أى: من الأرض نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى أى: بالبعث و النشور و تأليف الأجسام و ردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت، و التارة كالمرّة وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها أى: أرينا فرعون و عرّفناه آياتنا كلها، و المراد بالآيات هى الآيات التسع المذكورة فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ على أن الإضافة للعهد. و قيل:

المراد جميع الآيات التى جاء بها موسى، و التى جاء بها غيره من الأنبياء، و أن موسى قد كان عرّفه جميع معجزاته و معجزات سائر الأنبياء، و الأوّل أولى. و قيل: المراد بالآيات حجج اللّه سبحانه الدالة على توحيده فَكَذَّبَ وَ أَبى أى: كذب فرعون موسى، و أبى عليه أن يجيبه إلى الإيمان، و هذا يدلّ على أن كفر فرعون كفر عناد؛ لأنه رأى الآيات و كذب بها، كما فى قوله: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا. و جملة قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال فرعون بعد هذا؟ و الهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات، أى: جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبىّ يجب

---

(۱). و تمامه: و هى تثير السّاطع السّخّيتا.

«السخيت»: دقاق التراب.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۴۳۸

عليهم اتباعك، و الإيمان بما جئت به، حتى تتوصل بذلك الإيهام الذى هو شعبة من السحر إلى أن تغلب على أرضنا و تخرجنا منها. و إنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى، فإنه إذا وقع فى أذهانهم و تقرّر فى أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم و أوطانهم؛ كانوا غير قابلين لكلامه، و لا ناظرين فى معجزاته، و لا ملتفتين إلى ما يدعو إليه من الخير فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها و اللام هى الموطئة للقسم، أى: و اللّه لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، حتّى يتبيّن للناس أن الذى جئت به سحر يقدر على مثله الساحر فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً هو مصدر، أى:

وعدا، و قيل: اسم مكان، أى: اجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معلوما لا نخلفه. قال القشيرى: و الأظهر أنه مصدر، و لهذا قال: لا نُخْلِفُهُ أى: لا نخلف ذلك الوعد، و الإخلاف: أن تعد شيئا و لا تنجزه.

قال الجوهرى: الميعاد: المواعدة و الوقت و الموضع، و كذلك الوعد. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و شيبة و الأعرج لا نُخْلِفُهُ بالجزم على أنه جواب لقوله اجعل. و قرأ الباقون بالرفع على أنه صفة لموعدا، أى:

لا نخلف ذلك الوعد نَحْنُ وَ لا أَنْتَ و فوّض تعيين الموعد إلى موسى إظهارا لكمال اقتداره على الإتيان بمثل ما أتى به موسى، و انتصاب مَكاناً سُوىً بفعل مقدّر يدل عليه المصدر، أو على أنه بدل من موعد.

قرأ ابن عامر و عاصم و حمزة سُوىً بضم السين، و قرأ الباقون بكسرها، و هما لغتان. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة؛ و المراد مكانا مستويا، و قيل: مكانا منصفا عدلا بيننا و بينك. قال سيبويه: يقال سوى و سوى، أي: عدل، يعنى عدلا بين المكانين. قال زهير:

أرونا خطّة لا ضيم فيهايسوّى بيننا فيها السّواء

قال أبو عبيدة و القتبى: معناه مكانا وسطا بين الفريقين، و أنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى:

و إنّ أبانا كان حلّ ببلدةسوى بين قيس عيلان و الفزر

و الفزر: سعد بن زيد مناة. ثم واعده موسى بوقت معلوم ف قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ قال مجاهد و قتادة و مقاتل و السدّى: كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه، و قال سعيد بن جبير: كان ذلك يوم عاشوراء، و قال الضحّاك: يوم السبت، و قيل: يوم النيروز، و قيل: يوم كسر الخليج. و قرأ الحسن و الأعمش و عيسى الثقفى و السّلمى و هبيرة عن حفص يَوْمُ الزِّينَةِ بالنصب، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، أي:

فى يوم الزينة إنجاز موعدنا. و قرأ الباقون بالرفع على أنه خبر موعدكم، و إنما جعل الميعاد زمانا بعد أن طلب منه فرعون أن يكون سوى، لأن يوم الزينة يدلّ على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم، أو على تقدير مضاف محذوف، أي: موعدكم مكان يوم الزينة وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى معطوف على يوم الزينة فيكون فى محل رفع، أو على الزينة فيكون فى محل جر، يعنى ضحى ذلك اليوم، و المراد بالناس أهل مصر. و المعنى:

يحشرون إلى العيد وقت الضحى، و ينظرون فى أمر موسى و فرعون. قال الفرّاء: المعنى إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد. قال: و جرت عادتهم بحشر الناس فى ذلك اليوم. و الضحى قال الجوهرى:

ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضحى، و هو حين تشرق الشمس، و خصّ الضحى لأنه أوّل

فتح القدير، ج‏3، ص: 439

النهار، فإذا امتدّ الأمر بينهما كان فى النهار متسع. و قرأ ابن مسعود و الجحدرى و أن يحشر على البناء للفاعل: أي: و أن يحشر اللّه الناس ضحى. و روى عن الجحدرى أنه قرأ و أن نحشر بالنون. و قرأ بعض القرّاء بالتاء الفوقية، أي: و أن تحشر أنت يا فرعون، و قرأ الباقون بالتحتية على البناء للمفعول.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا قال: يعجل أَوْ أَنْ يَطْغى قال: يعتدى. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: أَسْمَعُ وَ أَرى قال: أسمع ما يقول و أرى ما يجاوبكما به، فأوحى إليكما فتجاوبانه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال:

لما بعث اللّه موسى إلى فرعون قال: ربّ أىّ شىء أقول؟ قال: قل أهيا شراهيا. قال الأعمش: تفسير ذلك:

الحىّ قبل كل شىء، و الحىّ بعد كل شىء. و جوّد السيوطى إسناده، و سبقه إلى تجويد إسناده ابن كثير فى تفسيره. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى قال: كذب بكتاب اللّه و تولى عن طاعة اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله:

أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ قال: خلق لكل شىء زوجة ثُمَّ هَدى قال: هداه لمنكحه و مطعمه و مشربه و مسكنه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يَضِلُّ رَبِّي قال:

لا يخطئ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مِنْ نَباتٍ شَتَّى قال:

مختلف. و فى قوله: لِأُولِي النُّهى قال: لأولى التقى. و أخرج ابن المنذر عنه لِأُولِي النُّهى قال:

لأولى الحجا و العقل. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عطاء الخراسانى قال: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه، فيذرّه على النطفة، فيخلق من التراب و من النطفة، و ذلك قوله: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ و أخرج أحمد و الحاكم عن أبى أمامة قال: لما وضعت أمّ كلثوم بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى القبر قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى، بسم اللّه و فى سبيل اللّه و على ملّة رسول اللّه». و فى حديث فى السنن: «أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر و قال:

منها خلقناكم، ثم أخرى و قال: و فيها نعيدكم، ثم أخرى و قال: و منها نخرجكم تارة أخرى». و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ قال: يوم عاشوراء. و أخرج ابن المنذر عن ابن عمرو نحوه.

[سورة طه (۲۰): الآيات ۶۰ الى ۷۰]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (۶۰) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (۶۱) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى (۶۲) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (۶۴)

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (۶۵) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (۶۸) وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (۶۹)

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى (۷۰)

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۴۰

قوله: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ أى: انصرف من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه ممّا تواعدا عليه، و قيل:

معنى تولى أعرض عن الحق، و الأوّل أولى فَجَمَعَ كَيْدَهُ أى: جمع ما يكيد به من سحره و حيلته، و المراد أنه جمع السحرة، قيل: كانوا اثنين و سبعين، و قيل أربعمائة، و قيل: اثنا عشر ألفا، و قيل: أربعة عشر ألفا، و قال ابن المنذر: كانوا ثمانين ألفا ثُمَّ أَتى أى: أتى الموعد الذى تواعدا إليه مع جمعه الذى جمعه، و جملة قالَ لَهُمْ مُوسى مستأنفة جواب سؤال مقدّر وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً دعا عليهم بالويل، و نهاهم عن افتراء الكذب. قال الزّجّاج: هو منصوب بمحذوف، و التقدير: ألزمهم اللّه ويلا. قال: و يجوز أن يكون نداء كقوله: يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا «۱». فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ السحت: الاستئصال، يقال: سحت و أسحت بمعنى، و أصله استقصاء الشعر. و قرأ الكوفيون إلا شعبة فَيُسْحِتَكُمْ بضم حرف المضارعة من أسحت، و هى لغة بنى تميم، و قرأ الباقون بفتحه من سحت، و هى لغة الحجاز، و انتصابه على أنه جواب للنهى وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى أى: خسر و هلك؛ و المعنى: قد خسر من افترى على اللّه أىّ كذب كان فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أى: السحرة لما سمعوا كلام موسى تناظروا و تشاوروا و تجاذبوا أطراف الكلام فى ذلك وَ أَسَرُّوا النَّجْوى أى: من موسى، و كان نجواهم هى قولهم إِنْ هذانِ لَساحِرانِ و قيل: إنهم تناجوا فيما بينهم فقالوا: إن كان ما جاء به موسى سحرا فسنغلبه، و إن كان من عند اللّه فسيكون له أمر؛ و قيل: الذى أسروه أنه إذا غلبهم اتبعوه، قاله الفرّاء و الزّجّاج؛ و قيل: الذى أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى: «وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ»، قالوا: «ما هذا بقول ساحر». و النجوى: المناجاة، يكون اسما و مصدرا.

قرأ أبو عمرو إنّ هذين لساحران بتشديد الحرف الداخل على الجملة، و بالياء فى اسم الإشارة على إعمال إن عملها المعروف، و هو نصب الاسم و رفع الخبر؛ و رويت هذه القراءة عن عثمان و عائشة و غيرهما من الصحابة، و بها قرأ الحسن و سعيد بن جبير و

النّخعى و غيرهم من التابعين، و بها قرأ عاصم الجحدرى و عيسى ابن عمر كما حكاه النّحّاس، و هذه القراءة موافقة للإعراب الظاهر، مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف. و قرأ الزهرى و الخليل بن أحمد و المفضل و أبان و ابن محيصن و ابن كثير و عاصم فى رواية حفص عنه إِنْ هذانِ بتخفيف إن على أنها نافية، و هذه القراءة موافقة لرسم المصحف و للإعراب، و قرأ ابن كثير مثل قراءتهم إلا أنه يشدّد النون من «هذانّ». و قرأ المدنيون و الكوفيون و ابن عامر إِنْ هذانِ بتشديد إن و بالألف، فوافقوا الرسم و خالفوا الإعراب الظاهر. و قد تكلّم جماعة من أهل العلم فى توجيه قراءة المدنيين

---

(١). يس: ٥٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۴۱

و الكوفيين و ابن عامر، و قد استوفى ذكر ذلك ابن الأنبارى و النحّاس، فقيل: إنها لغة بنى الحارث بن كعب، و خثعم، و كنانة يجعلون رفع المثنى و نصبه و جره بالألف، و منه قول الشاعر «١»:

فأطرق إطراق الشّجاع و لو يرىمساغا لناباه الشّجاع لصمّما

و قول الآخر:

تزوّد منّا بين أذناه ضربة «٢» ....

و قول الآخر «٣»:

إنّ أباها و أبا أباهاقد بلغا فى المجد غايتاها

و ممّا يؤيّد هذا تصريح شيبويه و الأخفش و أبى زيد و الكسائى و الفراء: إنّ هذه القراءة على لغة بنى الحارث ابن كعب، و حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنها لغة بنى كنانة، و حكى غيره أنها لغة خثعم، و قيل: إن «إنّ» بمعنى نعم هاهنا كما حكاه الكسائى عن عاصم، و كذا حكاه سيبويه. قال النحاس: رأيت الزجاج و الأخفش يذهبان إليه، فيكون التقدير: نعم هذان لساحران، و منه قول الشاعر:

ليت شعرى هل للمحبّ شفاءمن جوى حبّهنّ إنّ اللّقاء

أى: نعم اللقاء. قال الزجّاج: و المعنى فى الآية: إن هذان لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ و هو هما.

و أنكره أبو على الفارسى و أبو الفتح بن جنى، و قيل: إن الألف فى هذا مشبهة بالألف فى يفعلان؛ فلم تغير، و قيل: إن الهاء مقدّرة، أى: إنه هذان لساحران، حكاه الزجّاج عن قدماء النحويين، و كذا حكاه ابن الأنبارى. و قال ابن كيسان: إنه لما كان يقال هذا بالألف فى الرفع و النصب و الجرّ على حال واحدة، و كانت التثنية لا تغير الواحد أجريت التثنية مجرى الواحد، فثبت الألف فى الرفع و النصب و الجر، فهذه أقوال تتضمّن توجيه هذه القراءة توجيها تصح به و تخرج به عن الخطأ، و بذلك يندفع ما روى عن عثمان و عائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف. يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ و هى أرض مصر بِسِحْرِهِما الذى أظهراه وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى قال الكسائى: بطريقتكم: بسنّتكم، و المثلى نعت، كقولك: امرأة كبرى، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى؛ يعنون على الهدى المستقيم. قال الفراء: العرب تقول: هؤلاء طريقة قومهم و طرائق قومهم لأشرافهم، و المثلى تأنيث الأمثل، و هو الأفضل، يقال: فلان أمثل قومه، أى:

أفضلهم، و هم الأماثل. و المعنى: أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة و الأشراف منكم، أو يذهبا بمذهبكم الذى هو أمثل المذاهب فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ الإجماع: الإحكام و العزم على الشىء، قاله الفراء.

---

(١). رجل من بنى أسد، قال الفراء: ما رأيت أفصح منه. و فى اللسان: هو المتلمس.
(٢). و عجزه: دعته إلى هابى التّراب عقيم. و البيت لهوبر الحارثى. و الهابى من التراب: ما ارتفع و دقّ.
(٣). هو أبو النجم، و قال بعضهم: هو رؤبة.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٤٢

تقول: أجمعت على الخروج، مثل أزمعت. و قال الزجّاج: معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعا عليه، و قد اتفق القراء على قطع الهمزة فى أجمعوا إلا أبا عمرو، فإنه قرأ بوصلها و فتح الميم من الجمع. قال النحّاس:
و فيما حكى لى عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف هذه القراءة، و هى القراءة التى عليها أكثر الناس ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا أى: مصطفين مجتمعين؛ ليكون أنظم لأمورهم و أشد لهيبتهم، و هذا قول جمهور المفسرين. و قال أبو عبيدة: الصف: موضع المجمع، و يسمّى المصلّى الصف. قال الزّجّاج:
و على هذا معناه: ثم ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم و صلاتكم، يقال: أتيت الصف بمعنى أتيت المصلّى، فعلى التفسير الأول يكون انتصاب صفا على الحال، و على تفسير أبى عبيدة يكون انتصابه على المفعولية. قال الزّجّاج: يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا و الناس مصطفون، فيكون على هذا مصدرا فى موضع الحال، و لذلك لم يجمع. و قرئ بكسر الهمزة بعدها ياء، و من ترك الهمزة أبدل منها ألفا. وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى أى: من غلب، يقال: استعلى عليه إذا غلبه، و هذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض، و قيل: من قول فرعون لهم. و جملة قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ مستأنفة جوابا لسؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا يا موسى إما أن تلقى، و «أن» مع ما فى حيزها فى محل نصب بفعل مضمر، أى: اختر إلقاءك أوّلا أو إلقاءنا، و يجوز أن تكون فى محل رفع على أنها و ما بعدها خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، و مفعول تلقى محذوف، و التقدير: إما أن تلقى ما تلقيه أوّلا وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نحن أَوَّلَ مَنْ أَلْقى ما يلقيه، أو أوّل من يفعل الإلقاء، و المراد: إلقاء العصىّ على الأرض، و كانت السحرة معهم عصىّ، و كان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول، ف قالَ لهم موسى: بَلْ أَلْقُوا أمرهم بالإلقاء أوّلا لتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم، ثم يلقى هو عصاه فتبتلع ذلك، و إظهارا لعدم المبالاة بسحرهم فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ فى الكلام حذف، و التقدير: ألقوا فإذا حبالهم، و الفاء فصيحة، و إذا للمفاجأة أو ظرفية. و المعنى: فألقوا، ففاجأ موسى وقت أن يُخَيَّلُ إِلَيْهِ سعى حبالهم و عصيهم، و قرأ الحسن عِصِيُّهُمْ بضم العين، و هى لغة بنى تميم، و قرأ الباقون بكسرها اتباعا لكسرة الصاد، و قرأ ابن عباس و ابن ذكوان و روح عن يعقوب تخيّل بالمثناة؛ لأن العصىّ و الحبال مؤنثة، و ذلك أنهم لطخوها بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتعشت و اهتزّت، و قرئ نخيّل بالنون على أن اللّه سبحانه هو المخيّل لذلك، و قرئ يخيّل بالياء التحتية مبنيا للفاعل على أن المخيّل هو الكيد، و قيل: المخيّل هو «أنها تسعى»، ف «أنّ» فى موضع رفع، أى: يخيّل إليه سعيها. ذكر معناه الزجاج. و قال الفراء: إنها فى موضع نصب، أى: بأنها، ثم حذف الباء. قال الزجاج: و من قرأ بالتاء، يعنى الفوقية، جعل أنّ فى موضع نصب، أى:
تخيل إليه ذات سعى. قال: و يجوز أن يكون فى موضع رفع بدلا من الضمير فى تخيل، و هو عائد على الحبال و العصىّ، و البدل فيه بدل اشتمال، يقال: خيل إليه إذا شبه له و أدخل عليه البهمة و الشبهة. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى أى: أحسّ، و قيل: وجد، و قيل: أضمر، و قيل: خاف، و ذلك لما يعرض من الطباع

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٤٣

البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه، و قيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقى عصاه، و قيل: إنّ سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا، فأذهب اللّه سبحانه ما حصل معه من الخوف بما

بشّره به بقوله: قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى أى: المستعلى عليهم بالظفر و الغلبة، و الجملة تعليل للنّهى عن الخوف وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ يعنى العصا، و إنما أبهمها تعظيما و تفخيما، و جزم تَلْقَفْ ما صَنَعُوا على أنه جواب الأمر. قرئ بتشديد القاف، و الأصل: تتلقف، فحذف إحدى التاءين، و قرئ «تلقف» بكسر اللام من لقفه إذا ابتلعه بسرعة، و قرئ «تلقف» بالرفع على تقدير فإنها تتلقف، و معنى ما صَنَعُوا الذى صنعوه من الحبال و العصىّ. قال الزّجّاج: القراءة بالجزم جواب الأمر، و يجوز الرفع على معنى الحال، كأنه قال: ألقها متلقفة، و جملة إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ تعليل لقوله تلقف، و ارتفاع كيد على أنه خبر لأن، و هى قراءة الكوفيين إلا عاصما. و قرأ هؤلاء «سحر» بكسر السين و سكون الحاء، و إضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير، أو بتقدير ذى سحر. و قرأ الباقون كَيْدُ ساحِرٍ. وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى أى: لا يفلح جنس الساحر حيث أتى و أين توجه، و هذا من تمام التعليل فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً أى: فألقى ذلك الأمر الذى شاهدوه من موسى و العصا السّحرة سجدا للّه تعالى، و قد مرّ تحقيق هذا فى سورة الأعراف قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى إنما قدّم هارون على موسى فى حكاية كلامهم رعاية لفواصل الآى، و عناية بتوافق رؤوسها.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ قال: يهلككم.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة فَيُسْحِتَكُمْ قال: يستأصلكم. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى صالح قال: فيذبحكم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى قال: يصرفا وجوه الناس إليهما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: يقول أمثلكم، و هم بنو إسرائيل. و أخرج عبد بن حميد و عبد الرزاق فى قوله: تَلْقَفْ ما صَنَعُوا:

ما يأفكون، عن قتادة قال: ألقاها موسى فتحوّلت حية تأكل حبالهم و ما صنعوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة: أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة، فقالوا لفرعون: إن يكن هذان ساحران فإنا نغلبهما فإنه لا أسحر منا، و إن كانا من ربّ العالمين فإنه لا طاقة لنا بربّ العالمين، فلما كان من أمرهم أن خرّوا سجدا. أراهم اللّه فى سجودهم منازلهم التى إليها يصيرون، فعندها قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ إلى قوله: وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧١ الى ٧٦]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى (٧١) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (٧٤) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (٧٥)
جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٤٤

قوله: قالَ آمَنْتُمْ لَهُ يقال: آمن له و آمن به، فمن الأوّل قوله: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ «١»، و من الثانى: قوله فى الأعراف: آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ «٢». و قيل: إن الفعل هنا متضمّن معنى الاتباع.

و قرئ على الاستفهام التوبيخى، أى: كيف آمنتم به من غير إذن منى لكم بذلك إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ أى: إن موسى لكبيركم، أى: أسحركم و أعلاكم درجة فى صناعة السحر، أو معلّمكم و أستاذكم، كما يدلّ عليه قوله: الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ قال الكسائى: الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال:

جئت من عند كبيرى. و قال محمد بن إسحاق: إنه لعظيم السحر. قال الواحدى: و الكبير فى اللغة: الرئيس، و لهذا يقال للمعلم: الكبير. أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا، و إلا فقد علم أنهم لم يتعلّموا من موسى، و لا كان رئيسا لهم، و لا بينه و بينهم مواصلة فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ أى: و اللّه لأفعلنّ بكم ذلك «٣»، و التقطيع للأيدى و الأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى، و من للابتداء وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ أى: على جذوعها، كقوله: أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ «۴» أى: عليه، و منه قول سويد بن أبى كاهل:

هم صلبوا العبدىّ فى جذع نخلةفلا عطست شيبان إلا بأجدعا

و إنما آثر كلمة فِي للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف فى الظرف وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى أراد: لتعلمنّ هل أنا أشدّ عذابا لكم أم موسى؟ و معنى أبقى: أدوم، و هو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى؛ لأن موسى لم يكن من التعذيب فى شىء، و يمكن أن يريد العذاب الذى توعّدهم به موسى إن لم يؤمنوا؛ و قيل: أراد بموسى ربّ موسى على حذف المضاف قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ أى: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند اللّه سبحانه؛ كاليد و العصا. و قيل:

إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه فى سجودهم من المنازل المعدّة لهم فى الجنة وَ الَّذِي فَطَرَنا معطوف على «ما جاءنا»، لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات، و على الذى فطرنا، أى: خلقنا، و قيل: هو قسم، أى: و اللّه الذى فطرنا لن نؤثرك، أو لا نؤثرك، و هذان الوجهان فى تفسير الآية ذكرهما الفرّاء و الزجّاج.

فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم «لأقطعنّ» إلخ، و المعنى: فاصنع ما أنت صانع، و احكم ما أنت حاكم، و التقدير: ما أنت صانعه إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا أى: إنما سلطانك علينا و نفوذ أمرك فينا فى هذه الدنيا، و لا سبيل لك علينا فيما بعدها، فاسم الإشارة فى محل نصب على الظرفية أو على المفعولية، و ما كافّة، و أجاز الفراء الرفع على أن تجعل ما بمعنى الذى، أى: أن الذى تقضيه هذه الحياة

---

(١). العنكبوت: ٢۶.

(٢). الأعراف: ١٢٣.

(٣). فرعون كان ينكر وجود اللّه تعالى. و لعله أقسم بنفسه.

(۴). الطور: ٣٨.

الدنيا فقضاؤك و حكمك منحصر فى ذلك إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا التى سلفت منا من الكفر و غيره وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ معطوف على «خطايانا»، أى: و يغفر لنا الذى أكرهتنا عليه من عمل السحر فى معارضة موسى، فما فى محل نصب على المفعولية، و قيل: هى نافية، قال النحّاس: و الأوّل أولى.

قيل: و يجوز أن يكون فى محل رفع بالابتداء و الخبر مقدّر، أى: و ما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنّا وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى أى: خير منك ثوابا و أبقى منك عقابا، و هذا جواب قوله: «و لتعلمنّ أيّنا أشدّ عذابا و أبقى». إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى المجرم: هو المتلبّس بالكفر و المعاصى، و معنى «لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى : أنه لا يموت فيستريح و لا يحيا حياة تنفعه. قال المبرّد: لا يموت ميتة مريحة، و لا يحيا حياة ممتعة، فهو يألم كما يألم الحى، و يبلغ به حال الموت فى المكروه، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، و العرب تقول: فلان لا حىّ و لا ميت إذا كان غير منتفع بحياته. و أنشد ابن

الأنبارى فى مثل هذا:

ألا من لنفس لا تموت فينقضى‌شقاها و لا تحيا حياة لها طعم

و هذه الآية من جملة ما حكاه اللّه سبحانه من قول السحرة، و قيل: هو ابتداء كلام، و الضمير فى «إنه» على هذا الوجه للشأن. وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ أى: و من يأت ربّه مصدّقا به قد عمل الصالحات، أى: الطاعات، و الموصوف محذوف، و التقدير: الأعمال الصالحات، و جملة «قد عمل» فى محل نصب على الحال، و هكذا مؤمنا منتصب على الحال، و الإشارة ب فَأُولئِكَ إلى من باعتبار معناه لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى أى: المنازل الرفيعة التى قصرت دونها الصفات جَنَّاتُ عَدْنٍ بيان للدرجات أو بدل منها، و العدن: الإقامة، و قد تقدّم بيانه، و جملة تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ حال من الجنات؛ لأنها مضافة إلى عدن، و عدن علم للإقامة كما سبق، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال من ضمير الجماعة فى «لهم»، أى: ماكثين دائمين، وَ الإشارة ذلِكَ إلى ما تقدّم لهم من الأجر، و هو مبتدأ، و جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى خبره، أى: جزاء من تطهّر من الكفر و المعاصى الموجبة للنار.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ قال: أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى إسرائيل، فأمر أن يعلّموا السحر بالفرما «۱»؛ قال: علّموهم تعليما لا يغلبهم أحد فى الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، و هم الذين قالوا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله: وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى قال: خير منك إن أطيع، و أبقى منك عذابا إن عصى. و أخرج أحمد و مسلم و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خطب فأتى على هذه الآية إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون

---

(۱). «الفرما»: مدينة بمصر.

فيها و لا يحيون، و أما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فيؤتى بهم ضبائر «۱» على نهر يقال له الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت الغثاء فى حميل السيل». و أخرج أبو داود و ابن مردويه عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرىّ فى أفق السماء، و إن أبا بكر و عمر منهم، و أنعما». و فى الصحيحين بلفظ: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء».

[سورة طه (۲۰): الآيات ۷۷ الى ۹۱]

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى (۷۷) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (۷۸) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى (۷۹) يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى (۸۰) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (۸۱)

وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (۸۲) وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (۸۳) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (۸۴) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (۸۵) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (۸۶) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (۸۷) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً

لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً (٨٩) وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (٩١)

هذا شروع فى إنجاء بنى إسرائيل و إهلاك عدوّهم، و قد تقدّم فى البقرة، و فى الأعراف، و فى يونس، و اللام فى «لَقَدْ» هى الموطئة للقسم، و فى ذلك من التأكيد ما لا يخفى، و أَنْ فى «أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي»، إما المفسرة لأن فى الوحى معنى القول، أو مصدرية، أى: بأن أسر، أى: أسر بهم من مصر. و قد تقدّم هذا مستوفى. فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً أى: اجعل لهم طريقا، و معنى يبسا: يابسا، وصف به الفاعل مبالغة، و ذلك أن اللّه تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء و لا طين. و قرئ يَبَساً بسكون الباء على أنه مخفف من يبسا المحرك، أو جمع يابس كصحب فى صاحب. و جملة لا تَخافُ دَرَكاً فى محل نصب على الحال، أى: آمنا من أن يدرككم العدوّ، أو صفة أخرى لطريق، و الدرك: اللحاق بهم من فرعون و جنوده. و قرأ حمزة لا تخف على أنه جواب الأمر، و التقدير: إن تضرب لا تخف، و لا تخشى على هذه القراءة مستأنف، أى: و لا أنت تخشى من فرعون أو من البحر. و قرأ الجمهور لا تَخافُ و هى أرجح لعدم الجزم فى تخشى، و يجوز أن تكون هذه الجملة على قراءة الجمهور صفة أخرى لطريق، أى:

---

(١). أى جماعات.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٤٧

لا تخاف منه و لا تخشى منه فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ أتبع هنا مطاوع تبع، يقال: أتبعتهم إذا تبعتهم، و ذلك إذا سبقوك فلحقتهم، فالمعنى: تبعهم فرعون و معه جنوده. و قيل: الباء زائدة، و الأصل: اتبعهم جنوده، أى: أمرهم أن يتبعوا موسى و قومه، و قرئ فاتبعهم بالتشديد؛ أى: لحقهم بجنوده و هو معهم، كما يقال: ركب الأمير بسيفه، أى: معه سيفه، و محل بجنوده النصب على الحال، أى: سابقا جنوده معه فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ أى: علاهم و أصابهم ما علاهم و أصابهم، و التكرير للتعظيم و التهويل، كما فى قوله: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ. و قيل: غشيهم ما سمعت قصته. و قال ابن الأنبارى: غشيهم البعض الذى غشيهم؛ لأنه لم يغشهم كلّ ماء البحر، بل الذى غشيهم بعضه. فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرّقهم بعض الماء، و الأوّل أولى لما يدلّ عليه من التهويل و التعظيم. و قرئ: فغشاهم من اليمّ ما غشاهم؛ أى: غطّاهم ما غطّاهم وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى أى: أضلهم عن الرشد، و ما هداهم إلى طريق النجاة؛ لأنه قدّر أن موسى و من معه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون فى طريق يابسة، و بين أيديهم البحر، و فى قوله: وَ ما هَدى تأكيد لإضلاله؛ لأن المضل قد يرشد من يضلّه فى بعض الأمور يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ذكر سبحانه ما أنعم به على بنى إسرائيل بعد إنجائهم، و التقدير: قلنا لهم بعد إنجائهم: يا بَنِي إِسْرائِيلَ و يجوز أن يكون خطابا لليهود المعاصرين لنبينا صلّى اللّه عليه و سلّم، لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء، و المراد بعدوّهم هنا فرعون و جنوده، و ذلك بإغراقه و إغراق قومه فى البحر بمرأى من بنى إسرائيل وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ انتصاب جانب على أنه مفعول به، لا على الظرفية لأنه مكان معين غير مبهم، و إنما تنتصب الأمكنة على الظرفية إذا كانت مبهمة. قال مكى:

و هذا أصل لا خلاف فيه. قال النحّاس: و المعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلّمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام، و قيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور، فالوعد كان لموسى، و إنما خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم. و قرأ أبو عمرو و أبو جعفر و يعقوب «و وعدناكم» بغير ألف، و اختاره أبو عبيدة؛ لأن الوعد إنما هو من اللّه لموسى خاصة، و المواعدة لا

تكون إلا من اثنين، و قد قدّمنا فى البقرة هذا المعنى، و «الأيمن» منصوب على أنه صفة للجانب، و المراد يمين الشخص؛ لأن الجبل ليس له يمين و لا شمال، فإذا قيل: خذ عن يمين الجبل فمعناه عن يمينك من الجبل. و قرئ بجرّ «الأيمن» على أنه صفة للمضاف إليه وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى قد تقدّم تفسير المنّ بالترنجبين و السلوى بالسّمانى، و أوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه، و إنزال ذلك عليهم كان فى التّيه. كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ أى: و قلنا لهم كلوا، و المراد بالطيبات:

المستلذات، و قيل: الحلال، على الخلاف المشهور فى ذلك. و قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش: قد أنجيتكم من عدوّكم و وعدتكم جانب الطور كلوا من طيبات ما رزقتكم بتاء المتكلم فى الثلاثة. و قرأ الباقون بنون العظمة فيها. وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ الطغيان: التجاوز؛ أى: لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز؛ و قيل:

المعنى: لا تجحدوا نعمة اللّه فتكونوا طاغين؛ و قيل: لا تكفروا النعمة و لا تنسوا شكرها؛ و قيل: لا تعصوا المنعم، أى: لا تحملنكم السعة و العافية على المعصية. و لا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعانى، فإن

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٤٨

كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي هذا جواب النهى؛ أى: يلزمكم غضبى و ينزل بكم، و هو مأخوذ من حلول الدّين، أى: حضور وقت أدائه وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى قرأ الأعمش و يحيى بن وثّاب و الكسائى فَيَحِلَ بضم الحاء و كذلك قرءوا «يحلل» بضم اللام الأولى، و قرأ الباقون بالكسر فيهما، و هما لغتان. قال الفراء: و الكسر أحبّ إلىّ من الضم؛ لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع، و يحل بالكسر يجب، و جاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع، و ذكر نحو هذا أبو عبيدة و غيره.

و معنى فَقَدْ هَوى فقد هلك. قال الزجّاج فَقَدْ هَوى أى: صار إلى الهاوية، و هى قعر النار، من هوى يهوى هويا، أى: سقط من علو إلى سفل، و هوى فلان، أى: مات وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً أى: لمن تاب من الذنوب التى أعظمها الشرك باللّه، و آمن باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و عمل عملا صالحا ممّا ندب إليه الشرع و حسّنه ثُمَّ اهْتَدى أى: استقام على ذلك حتى يموت، كذا قال الزجاج و غيره. و قيل: لم يشكّ فى إيمانه، و قيل: أقام على السّنّة و الجماعة، و قيل: تعلّم العلم ليهتدى به، و قيل: علم أن لذلك ثوابا و على تركه عقابا، و الأوّل أرجح ممّا بعده. وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى هذا حكاية لما جرى بين اللّه سبحانه و بين موسى عند موافاته الميقات. قال المفسرون:

و كانت المواعدة أن يوافى موسى و جماعة من وجوه قومه، فسار موسى بهم، ثم عجل من بينهم شوقا إلى ربه، فقال اللّه له: ما أعجلك؟ أى: ما الذى حملك على العجلة؛ حتى تركت قومك و خرجت من بينهم؟ فأجاب موسى عن ذلك قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي أى: هم بالقرب منى، تابعون لأثرى، واصلون بعدى.

و قيل: لم يرد أنهم يسيرون خلفه، بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم، ثم قال مصرحا بسبب ما سأله اللّه عنه فقال: وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى أى: لترضى عنى بمسارعتى إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عنى بذلك. قال أبو حاتم: قال عيسى بن عمر: بنو تيم يقولون أولى مقصورة، و أهل الحجاز يقولون أُولاءِ ممدودة. و قرأ ابن أبى إسحاق و نصر و رويس عن يعقوب عَلى أَثَرِي بكسر الهمزة و إسكان الثاء، و قرأ الباقون بفتحها، و هما لغتان. و معنى «عجلت إليك»: عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنى، يقال: رجل عجل و عجول و عجلان: بيّن العجلة، و العجلة: خلاف البطء.

و جملة قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال اللّه له؟

فقيل: قال إنا قد فتنا قومك من بعدك، أى: ابتليناهم و اختبرناهم و ألقيناهم فى فتنة و محنة. قال ابن الأنبارى:

صيّرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم، و هم الذين خلفهم مع هارون وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ أى: دعاهم

إلى الضلالة، و كان من قوم يعبدون البقر، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر و فى قلبه ما فيه من عبادة البقر، و كان من قبيلة تعرف بالسّامرة، و قال لمن معه من بنى إسرائيل: إنما تخلّف موسى عن الميعاد الذى بينكم و بينه لما صار معكم من الحلّى، و هى حرام عليكم، و أمرهم بإلقائها فى النار، فكان من أمر العجل ما كان فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قيل: و كان الرجوع إلى قومه بعد ما استوفى أربعين يوما: ذا القعدة، و عشر ذى الحجة، و الأسف: الشديد الغضب، و قيل: الحزين، و قد

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۴۹

مضى فى الأعراف بيان هذا مستوفى. قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً الاستفهام للإنكار التوبيخى، و الوعد الحسن: وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته، و وعدهم أن يسمعهم كلامه فى التوراة فى لسان موسى ليعملوا بما فيها، فيستحقّوا ثواب عملهم، و قيل: وعدهم النصر و الظفر، و قيل: هو قوله:

وَ إِنِّی لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ الآية أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ الفاء للعطف على مقدّر، أى: أوعدكم ذلك، فطال عليكم الزمان فنسيتم أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ أى: يلزمكم و ينزل بكم، و الغضب: العقوبة و النقمة، و المعنى: أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب اللّه عليكم فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِی أى: موعدكم إياى، فالمصدر مضاف إلى المفعول؛ لأنهم و عدوه أن يقيموا على طاعة اللّه عزّ و جلّ إلى أن يرجع إليهم من الطور، و قيل: و عدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات، فتوقّفوا فأجابوه، و قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ الذى وعدناك بِمَلْكِنا بفتح الميم، و هى قراءة نافع و أبى جعفر و عاصم و عيسى بن عمر، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر بكسر الميم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لأنها على اللغة العالية الفصيحة، و هو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكا، و المصدر مضاف إلى الفاعل و المفعول محذوف، أى: بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب، بل أخطأنا و لم نملك أنفسنا و كنا مضطرين إلى الخطأ، و قرأ حمزة و الكسائى بِمُلْكِنا بضمّ الميم، و المعنى بسلطاننا، أى: لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك، و قيل: إنّ الفتح و الكسر و الضم فى بملكنا كلها لغات فى مصدر ملكت الشيء وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر و حفص و أبو جعفر و رويس حُمِّلْنا بضم الحاء و تشديد الميم، و قرأ الباقون بفتح الحاء و الميم مخففة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم، و ما حملوها كرها، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى، و أوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة؛ و قيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل، و سمّيت أوزارا، أى: آثاما؛ لأنه لا يحلّ لهم أخذها، و لا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم. و الأوزار فى الأصل الأثقال كما صرح به أهل اللغة، و المراد بالزينة هنا الحلّى فَقَذَفْناها أى: طرحناها فى النار طلبا للخلاص من إثمها؛ و قيل: المعنى: طرحناها إلى السامرىّ لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُ أى: فمثل ذلك القذف ألقاها السامرىّ، قيل: إن السامرىّ قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى. إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلّى، فجمعوه و دفعوه إليه، فرمى به فى النار و صاغ لهم منه عجلا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول و هو جبريل، فصار عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أى: يخور كما يخور الحىّ من العجول، و الخوار: صوت البقر، و قيل: خواره كان بالريح؛ لأنه كان عمل فيه خروقا، فإذا دخلت الريح فى جوفه خار و لم يكن فيه حياة، فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى أى قال السامرىّ و من وافقه هذه المقالة فَنَسِيَ أى: فضلّ موسى و لم يعلم مكان إلهه هذا، و ذهب يطلبه فى الطور؛ و قيل:

المعنى: فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه و إلهكم؛ و قيل: الناسى هو السامرىّ، أى: ترك السامرىّ ما أمر به موسى من الإيمان و ضلّ، كذا قال ابن الأعرابى أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا أى: أفلا

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۵۰

يعتبرون و يتفكّرون فى أن هـذا العجل لا يرجع إليهم قولا، أى: لا يردّ عليهم جوابا، و لا يكلّمهم إذا كلّموه، فكيف يتوهّمون أنه إله و هو عاجز عن المكالمـة، فأن فى أَلَّا يَرْجِعُ هى المخففة من الثقيلة، و فيها ضـمير مقدّر يرجع إلى العجل، و لهذا ارتفع الفعل بعدها، و منه قول الشاعر:

فى فتية من سيوف الهند قد علمواأن هالك كلّ من يحفى و ينتعل

أى: أنه هالك. و قرئ بنصب الفعل على أنها الناصبة، و جملة وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَـرًّا وَ لا نَفْعاً معطوفـة على جملـة لا يرجع، أى: أفلا يرون أنه لا يقـدر على أن يـدفع عنهم ضـرّا و لا يجلب إليهم نفعا وَ لَقَـدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ اللام هى الموطئة للقسم، و الجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التى قبلها من الإنكار عليهم و التوبيخ لهم، أى: و لقد قال لهم هارون من قبل أن يأتى موسى و يرجع إليهم يـا قَوْمِ إِنَّمـا فُتِنْتُمْ بِهِ أى: وقعتم فى الفتنـة بسبب العجـل، و ابتليتم به، و ضـललتم عن طريق الحقّ لأـجله، قيـل: و معنى القصـر المسـتفاد من «إنمـا» هو أن العجـل صـار سـببا لفتنتهم لا ـ لرشـادهم، و ليس معنـاه أنهم فتنوا بالعجـل لا بغيره. وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَـاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي أى: ربكم الرحمن لا ـ العجـل، فـاتبعونى فى أمرى لكم بعبادة اللّه، و لا تتبعوا السامرىّ فى أمره لكم بعبادة العجل، و أطيعوا أمرى لا أمره قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسـى أجابوا هارون عن قوله المتقدّم بهذا الجواب المتضـمّن لعصـيانه، و عـدم قبول ما دعاهم إليه من الخير و حـذّرهم عنه من الشـرّ؛ أى: لن نزال مقيمين على عبادة هـذا العجـل؛ حتى يرجع إلينـا موسـى، فينظر هـل يقرّرنـا على عبادته أو ينهانا عنها، فعنـد ذلک اعتزلهم هارون فى اثنى عشـر ألفا من المنكرين لما فعله السامرىّ.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى قوله: يَبَساً قال:

يابسا ليس فيه ماء و لا طين. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لا تَخافُ دَرَكاً من آل فرعون وَ لا تَخْشى من البحر غرقا.

و أخرجا عنه أيضا فى قوله: فَقَدْ هَوى شقى. و أخرجا عنه أيضا وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ قال:

من الشـرک وَ آمَنَ قـال: وحّـد اللّه وَ عَمِـلَ صالِحاً قال: أدّى الفرائض ثُمَّ اهْتَـدى قال: لم يشـكّک. و أخرج سـعيد بن منصور و الفريـابى عنه أيضـا وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تـابَ قـال: من تـاب من الـذنب، و آمن من الشـرک، و عمـل صالحـا فيما بينه و بين ربه ثُمَّ اهْتَدى علم أن لعمله ثوابا يجزى عليه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ثُمَّ اهْتَدى قال: ثم استقام و لزم السنة و الجماعة.

و أخرج سـعيد بن منصور و ابن أبى شيبة، و البيهقى فى البعث، من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: تعجل موسى إلى ربه، فقال اللّه: وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى الآية، قال: فرأى فى ظلّ العرش رجلا فعجب له، فقال: من هذا يا ربّ؟ قال: لا أحدثک من هو، لكن سأخبرک بثلاث فيه:

كان لا يحسد الناس على ما آتاهم اللّه من فضـله، و لا يعقّ والديه، و لا يمشـى بالتميمة. و أخرج الفريابى و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن علىّ قال: لما تعجّل موسى إلى ربّه عمد السامرىّ

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۵۱

فجمع ما قدر عليه من حلىّ بنى إسرائيل فضربه عجلا، ثم ألقى القبضة فى جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار، فقال لهم السامرىّ: هـذا إلهكم و إله موسـى، فقال لهم هارون: يا قوم ألم يعـدكم ربكم وعدا حسـنا، فلما أن رجع موسـى أخذ برأس أخيه، فقال له هارون ما قال، فقال موسى للسامرىّ: ما خطبک قال:

فَقَبَضْتُ قَبْضَـةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِـي «۱» فعمد موسـى إلى العجل، فوضع موسـى عليه المبارد فبرده بها و هو على شط نهر، فما شرب أحد من ذلک الماء ممن كان يعبد ذلک العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما

توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضا، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه و أباه و ابنه، و لا يبالى بمن قتل، حتى قتل منهم سبعون ألفا، فأوحى اللّه إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم، فقد غفرت لمن قتل و تبت على من بقى. و الحكايات لهذه القصة كثيرة جدّا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِمَلْكِنا قال: بأمرنا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة بِمَلْكِنا قال: بطاقتنا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله. و أخرج أيضا عن الحسن قال: بسلطاننا.

و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ قال: فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه.

[سورة طه (٢٠): الآيات ٩٢ الى ١٠١]

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (٩٥) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨) كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (١٠٠) خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (١٠١)

جملة قالَ يا هارُونُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و المعنى: أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون و بلحيته، و قال: ما مَنَعَكَ من اتباعى و اللحوق بى عند ما وقعوا فى هذه الضلالة و دخلوا فى الفتنة، و قيل معنى ما مَنَعَكَ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ما منعك من اتباعى فى الإنكار عليهم، و قيل:

معناه: هلّا قاتلتهم إذ قد علمت أنّى لو كنت بينهم لقاتلتهم؛ و قيل: معناه: هلّا فارقتهم، و «لا» فى «أن لا تتبعنى» زائدة، و هو فى محل نصب على أنه مفعول ثان لمنع، أى: أىّ شىء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعى. و الاستفهام فى أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي للإنكار و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره، و المعنى: كيف خالفت أمرى لك بالقيام للّه و منابذة من خالف دينه و أقمت بين هؤلاء الذين اتّخذوا العجل

---

(١). طه: ٩٦.

إلها؟ و قيل: المراد بقوله «أمرى»: هو قوله الذى حكى اللّه عنه: وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ «١»، فلما أقام معهم و لم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي قرئ بالفتح و الكسر للميم، و قد تقدّم الكلام على هذا فى سورة الأعراف، و نسبه إلى الأمّ مع كونه أخاه لأبيه و أمه عند الجمهور استعطافا له و ترقيقا لقلبه، و معنى وَ لا بِرَأْسِي و لا بشعر رأسى، أى: لا تفعل هذا بى عقوبة منك لى، فإن لى عذرا هو إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ أى: خشيت إن خرجت عنهم و تركتهم أن يتفرقوا فتقول إنى فرقت جماعتهم، و ذلك لأنّ هارون لو خرج لتبعه جماعة منهم و تخلّف مع السامرىّ عند العجل آخرون، و ربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، و معنى وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي و لم تعمل بوصيتى لك فيهم، إنى خشيت أن تقول فرّقت بينهم و تقول لم تعمل بوصيتى لك فيهم و تحفظها، و

مراده بوصية موسى له هو قوله: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ قال أبو عبيد: معنى وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي و لم تنتظر عهدى و قدومى؛ لأنك أمرتنى أن أكون معهم، فاعتذر هارون إلى موسى هاهنا بهذا، و اعتذر إليه فى الأعراف بما حكاه اللّه عنه هنالك حيث قال:

إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي «٢» ثم ترك موسى الكلام مع أخيه و خاطب السامرىّ ف قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ أى: ما شأنك؟ و ما الذى حملك على ما صنعت؟ قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ أى: قال السامرىّ مجيبا على موسى: رأيت ما لم يروا، أو علمت بما لم يعلموا، و فطنت لما لم يفطنوا له، و أراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة، فألقى فى ذهنه أن يقبض قبضة من أثر الرسول، و أن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حيا. و قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش و خلف ما لم تبصروا به بالمثناة من فوق على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية، و هى أولى، لأنه يبعد كلّ البعد أن يخاطب موسى بذلك، و يدّعى لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى، و قرئ بضم الصاد فيهما و بكسرها فى الأوّل و فتحها فى الثانى، و قرأ أبىّ بن كعب و ابن مسعود و الحسن و قتادة فقبصت قبصة بالصاد المهملة فيهما، و قرأ الباقون بالضاد المعجمة فيهما، و الفرق بينهما أن القبض بالمعجمة: هو الأخذ بجميع الكف، و بالمهملة: بأطراف الأصابع، و القبضة بضم القاف: القدر المقبوض. قال الجوهرى: هى ما قبضت عليه من شىء، قال: و ربما جاء بالفتح، و قد قرئ قَبْضَةً بضم القاف و فتحها، و معنى الفتح المرّة من القبض، ثم أطلقت على المقبوض و هو معنى القبضة بضم القاف، و معنى مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ من المحل الذى وقع عليه حافر فرس جبريل، و معنى فَنَبَذْتُها فطرحتها فى الحلّى المذابة المسبوكة على صورة العجل وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قال الأخفش: أى: زيّنت؛ أى: و مثل ذلك التّسويل سوّلت لى نفسى؛ و قيل: معنى سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي حدّثنى نفسى، فلما سمع موسى منه ذلك قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ أى: فاذهب من بيننا، و اخرج عنّا، فإنّ لك فى الحياة؛ أى: ما دمت حيا، و طول حياتك، أن تقول لا مساس. المساس: مأخوذ من المماسّة؛ أى: لا يمسك أحد و لا تمسّ أحدا، لكن لا بحسب الاختيار منك،

---

(١). الأعراف: ١٤٢.

(٢). الأعراف: ١٥٠.

بل بموجب الاضطرار الملجئ إلى ذلك؛ لأنّ اللّه سبحانه أمر موسى أن ينفى السامرىّ عن قومه، و أمر بنى إسرائيل أن لا يخالطوه و لا يقربوه و لا يكلّموه عقوبة له. قيل: إنه لما قال له موسى ذلك هرب، فجعل يهيم فى البريّة مع السّباع و الوحش لا يجد أحدا من الناس يمسّه، حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس و بعد الناس عنه، كما قال الشاعر:

حمّال رايات بها قناعساحتى تقول الأزد لا مسايسا

قال سيبويه: و هو مبنى على الكسر. قال الزجاج: كسرت السين لأنّ الكسرة من علامة التأنيث.

قال الجوهرى فى الصحاح: و أما قول العرب لا مساس مثل قطام فإنما بنى على الكسر لأنه معدول عن المصدر، و هو المسّ. قال النحاس: و سمعت علىّ بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول: إذا اعتلّ الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى، و إذا اعتل من جهتين وجب أن لا ينصرف، لأنه ليس بعد الصرف إلا البناء، فمساس و دراك اعتل من ثلاث جهات: منها أنه معدول، و منها أنه مؤنث، و منها أنه معرفة، فلما وجب البناء فيه و كانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين. و قد رأيت أبا إسحاق يعنى الزجاج ذهب إلى أن هذا القول خطأ، و ألزم أبا العباس: إذا سميت امرأة بفرعون: أن يبنيه، و هذا لا يقوله أحد. و قد قرأ بفتح الميم أبو حيوة، و الباقون بكسرها. و حاصل ما قيل فى معنى لا مساس ثلاثة أوجه: الأوّل:

أنه حرم عليه مماسة الناس، و كان إذا ماسّه أحد حمّ الماسّ و الممسوس، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحدا:

لاـ مساس. و الثانى: أنّ المراد منع الناس من مخالطته؛ و اعترض بأنّ الرجل إذا صار مهجورا فلا يقول هو لا مساس و إنما يقال له، و أجيب بأن المراد الحكاية، أى: أجعلك يا سامرىّ بحيث إذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس. و القول الثالث: أن المراد انقطاع نسله، و أن يخبر بأنه لا يتمكّن من مماسّـة المرأة، قاله أبو مسلم و هو ضعيف جدا. ثم ذكر حاله فى الآخرة فقال: وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ أى: لن يخلفك اللّه ذلك الموعد، و هو يوم القيامة، و الموعد مصدر، أى: إنّ لك وعدا لعذابك، و هو كائن لاـ محالة. قال الزجاج: أى: يكافئك اللّه على ما فعلت فى القيامة، و اللّه لا يخلف الميعاد. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و يعقوب و ابن محيصن و اليزيدى و الحسن «لن تخلفه» بكسر اللام، و له على هذا القراءة معنيان: أحدهما: ستأتيه و لن تجده مخلفا، كما تقول: أحمدته، أى: وجدته محمودا. و الثانى: على التهديد، أى: لا بدّ لك من أن تصير إليه. و قرأ ابن مسعود لن نخلفه بالنون؛ أى: لن يخلفه اللّه. و قرأ الباقون بفتح اللام، و بالفوقية مبنيا للمفعول، معناه ما قدّمناه وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً ظلت أصله ظللت، فحذفت اللام الأولى تخفيفا، و العرب تفعل ذلك كثيرا. و قرأ الأعمش باللامين على الأصل. و فى قراءة ابن مسعود ظَلْتَ بكسر الظاء. و المعنى: انظر إلى إلهك الذى دمت و أقمت على عبادته، و العاكف: الملازم لَنُحَرِّقَنَّهُ قرأ الجمهور بضم النون و تشديد الراء من حرّقه يحرّقه. و قرأ الحسن بضم النون و سكون الحاء و تخفيف الراء من أحرقه يحرقه. و قرأ علىّ و ابن عباس و أبو جعفر و ابن محيصن و أشهب و العقيلى لَنُحَرِّقَنَّهُ بفتح النون و ضم الراء مخففة، من حرقت الشىء أحرقه حرقا إذا بردته و حككت بعضه ببعض، أى: لنبردنّه

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۵۴

بالمبارد، و يقال للمبرد المحرق. و القراءة الأولى أولى، و معناها الإحراق بالنار، و كذا معنى القراءة الثانية، و قد جمع بين هذه القراءات الثلاث بأنه أحرق، ثم برد بالمبرد، و فى قراءة ابن مسعود «لنذبحنه ثم لنحرقنه»، و اللام هى الموطئة للقسم ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً النسف: نفض الشىء ليذهب به الريح. قرأ أبو رجاء لَنَنْسِفَنَّهُ بضم السين، و قرأ الباقون بكسرها، و هما لغتان. و المنسف: ما ينسف به الطعام، و هو شىء متصوب الصدر أعلاه مرتفع، و النّسافة: ما يسقط منه إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لا هذا العجل الذى فتنكم به السامرىّ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً قرأ الجمهور «وسع» بكسر السين مخفّفة.

و هو متعدّ إلى مفعول واحد، و هو كل شىء، و انتصاب علما على التمييز المحوّل عن الفاعل، أى: وسع علمه كل شىء. و قرأ مجاهد و قتادة «وسّع» بتشديد السين و فتحها فيتعدى إلى مفعولين، و يكون انتصاب علما على أنه المفعول الأوّل و إن كان متأخرا، لأنه فى الأصل فاعل، و التقدير: وسع علمه كل شىء، و قد مرّ نحو هذا فى الأعراف كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الكاف فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف، أى:

كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقصّ عليك مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ أى: من أخبار الحوادث الماضية فى الأمم الخالية لتكون تسلية لك و دلالة على صدقك، و من للتبعيض، أى: بعض أخبار ذلك وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً المراد بالذكر القرآن، و سمّى ذكرا لما فيه من الموجبات للتذكر و الاعتبار، و قيل: المراد بالذكر الشرف؛ كقوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ ثم توعّد سبحانه المعرضين على هذا الذكر فقال:

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً أى: أعرض عنه فلم يؤمن به و لا عمل بما فيه، و قيل:

أعرض عن اللّه سبحانه، فإن المعرض عنه يحمل يوم القيامة وزرا؛ أى: إثما عظيما و عقوبة ثقيلة بسبب إعراضه خالِدِينَ فِيهِ فى الوزر، و المعنى: أنهم يقيمون فى جزائه، و انتصاب خالدين على الحال وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا أى: بئس الحمل يوم القيامة، و المخصوص بالذمّ محذوف؛ أى: ساء لهم حملا وزرهم، و اللام للبيان كما فى هَيْتَ لَكَ

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي قال: أمره موسى أن يصلح و لا يتبع سبيل المفسدين. فكان من إصلاحه أن ينكر العجل. و أخرج عنه أيضا فى قوله: وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي قال:

لم تنتظر قولى ما أنا صانع، و قال ابن عباس: لم ترقب و لم تحفظ قولى. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ قال: عقوبة له وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ قال: لن تغيب عنه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً قال: أقمت لَنُحَرِّقَنَّهُ قال بالنار ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ قال:

لنذرينه فى البحر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ لَنُحَرِّقَنَّهُ خفيفة و يقول: إن الذهب و الفضة لا تحرق بالنار، بل تسحل بالمبرد، ثم تلقى على النار فتصير رمادا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال:

الْيَمِّ البحر. و أخرج أيضا عن عليّ قال: الْيَمِّ النهر. و أخرج أيضا عن قتادة فى قوله:

وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً قال: ملأ. و أخرج أيضا عن ابن زيد فى قوله: مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً قال:

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۵۵

القرآن. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وِزْراً قال: إثما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا يقول: بئس ما حملوا.

[سورة طه (۲۰): الآيات ۱۰۲ الى ۱۱۲]

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (۱۰۲) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (۱۰۳) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (۱۰۴) وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (۱۰۵) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (۱۰۶)

لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (۱۰۷) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (۱۰۸) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً (۱۰۹) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (۱۱۰) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (۱۱۱)

وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً (۱۱۲)

الظرف هو يَوْمَ يُنْفَخُ متعلّق بمقدّر هو اذكر، و قيل: هو بدل من يوم القيامة، و الأوّل أولى.

قرأ الجمهور يُنْفَخُ بضم الياء التحتية مبنيا للمفعول، و قرأ أبو عمرو و ابن أبى إسحاق بالنون مبنيا للفاعل، و استدلّ أبو عمرو على قراءته هذه بقوله: وَ نَحْشُرُ فإنه بالنون. و قرأ ابن هرمز يُنْفَخُ بالتحتية مبنيا للفاعل؛ على أن الفاعل هو اللّه سبحانه أو إسرافيل، و قرأ أبو عياض فِي الصُّورِ بفتح الواو، جمع صورة، و قرأ الباقون بسكون الواو، و قرأ طلحة بن مصرّف و الحسن يحشر بالياء التحتية مبنيا للمفعول، و رفع «المجرمون» و هو خلاف رسم المصحف. و قرأ الباقون بالنون، و قد سبق تفسير هذا فى الأنعام. و المراد بالمجرمين المشركون و العصاة المأخوذون بذنوبهم التى لم يغفرها اللّه لهم، و المراد ب يَوْمَئِذٍ يوم النفخ فى الصور، و انتصاب زرقا على الحال من المجرمين، أى: زرق العيون، و الزرقة: الخضرة فى العين كعين السنور، و العرب تتشاءم بزرقة العين، و قال الفرّاء زُرْقاً: أى عميا. و قال الأزهرى: عطاشا، و هو قول الزجاج؛ لأن سواد العين يتغيّر بالعطش إلى الزّرقة. و قيل: إنه كنى بقوله زرقا عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة، و قيل: هو كناية عن شخوص البصر من شدّة الخوف، و منه قول الشاعر:

لقد زرقت عيناك يا ابن معكبر كما كلّ ضبّيّ من اللّؤم أزرق

و القول الأوّل أولى، و الجمع بين هذه الآية و بين قوله: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا «۱» ما قيل من

أن ليوم القيامة حالات و مواطن تختلف فيها صفاتهم، و يتنوع عندها عذابهم، و جملة يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة لبيان ما هم فيه فى ذلك اليوم، و الخفت فى اللغة: السكون، ثم قيل لمن خفض صوته: خفته. و المعنى يتساررون، أى: يقول بعضهم لبعض سرّا إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً أى: ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال، و قيل: فى القبور، و قيل: بين النفختين.

و المعنى: أنهم يستقصرون مدة مقامهم فى الدنيا، أو فى القبور، أو بين النفختين لشدّة ما يرون من أهوال

---

(١). الإسراء: ٩٧.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۵۶

القيامة. و قيل: المراد بالعشر عشر ساعات. ثم لما قالوا هذا القول قال اللّه سبحانه: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أى: أعدلهم قولا و أكملهم رأيا، و أعلمهم عند نفسه إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً أى: ما لبثتم إلا يوما واحدا، و نسبة هذا القول إلى أمثلهم؛ لكونه أدلّ على شدّة الهول، لا لكونه أقرب إلى الصدق وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ أى: عن حال الجبال يوم القيامة، و قد كانوا سألوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن ذلك، فأمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً قال ابن الأعرابى و غيره:

يقلعها قلعا من أصولها، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا، ثم يسيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا و هكذا، ثم كالهباء المنثور. و الفاء فى قوله: فَقُلْ لجواب شرط مقدّر، و التقدير: إن سألوك فقل، أو للمسارعة إلى إلزام السائلين، و الضمير فى قوله: فَيَذَرُها راجع إلى الجبال باعتبار مواضعها، أى:

فيذر مواضعها بعد نسف ما كان عليها من الجبال قاعاً صَفْصَفاً قال ابن الأعرابى: القاع الصفصف:

الأرض الملساء بلا نبات و لا بناء، و قال الفراء: القاع: مستنقع الماء، و الصفصف: القرعاء الملساء التى لا نبات فيها. و قال الجوهرى: القاع: المستوى من الأرض، و الجمع: أقوع و أقواع وقيعان. و الظاهر من لغة العرب أن القاع: الموضع المنكشف، و الصفصف: المستوى الأملس، و أنشد سيبويه:

و كم دون بيتك من صفصفو دكداك رمل و أعقادها «١»

و انتصاب قاعا على أنه مفعول ثان ليذر على تضمينه معنى التصيير، أو على الحال، و الصفصف صفة له، و محل لا تَرى فِيها عِوَجاً النصب على أنه صفة ثانية لقاعا، و الضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار، و العوج بكسر العين التعوّج، قاله ابن الأعرابى. و الأمت: التلال الصغار، و الأمت فى اللغة: المكان المرتفع، و قيل: العوج: الميل، و الأمت: الأثر، مثل الشراك، و قيل: العوج: الوادى، و الأمت: الرابية، و قيل:

هما الارتفاع، و قيل: العوج: الصدوع، و الأمت: الأكمة، و قيل: الأمت: الشقوق فى الأرض، و قيل:

الأمت: أن يغلظ فى مكان و يدق فى مكان، و وصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين هاهنا يدفع ما يقال:

إن العوج بكسر العين فى المعانى و بفتحها فى الأعيان، و قد تكلّف لذلك صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما عنه غنى، و فى غيره سعة يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ أى: يوم نسف الجبال يتبع الناس داعى اللّه إلى المحشر. و قال الفرّاء: يعنى صوت الحشر، و قيل: الداعى هو إسرافيل إذا نفخ فى الصور لا عوج له، أى: لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه، أو ينحرفوا منه، بل يسرعون إليه، كذا قال أكثر المفسرين، و قيل: لا عوج لدعائه وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ أى: خضعت لهيبته، و قيل:

ذلت، و قيل: سكتت، و منه قول الشاعر:

لما أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة و الجبال الخشّع

---

(١). البيت للأعشى.

«الدكداك»: الرمل المستوى. «الأعقاد»: المنعقد من الرمل المتراكب.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴۵۷

فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً الهمس: الصوت الخفى. قال أكثر المفسرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر، و منه قول الشاعر:

و هنّ يمشين بنا هميسا يعنى صوت أخفاف الإبل.

و قال رؤبة يصف نفسه:

ليث يدقّ الأسد الهموسا و الأقهبين «١» الفيل و الجاموسا

يقال للأسد: الهموس، لأنه يهمس فى الظلمة، أى: يطأ وطأ خفيا. و الظاهر أن المراد هنا كل صوت خفىّ سواء كان بالقدم، أو من الفم، أو غير ذلك، و يؤيده قراءة أبىّ بن كعب «فلا ينطقون إلا همسا» يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أى: يوم يقع ما ذكر لا تنفع الشفاعة من شافع كائنا من كان إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ أى: إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع له وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا أى: رضى قوله فى الشفاعة، أو رضى لأجله قول الشافع. و المعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له، و كان له قول يرضى، و مثل هذه الآية قوله: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى «٢»، و قوله: لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً «٣»، و قوله: فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ «۴». يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ أى: ما بين أيديهم من أمر الساعة، و ما خلفهم من أمر الدنيا، و المراد هنا جميع الخلق، و قيل:

المراد بهم الذين يتبعون الداعى، و قال ابن جرير: الضمير يرجع إلى الملائكة، أعلم اللّه من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها و ما خلفها وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً أى: باللّه سبحانه، لا تحيط علومهم بذاته، و لا بصفاته، و لا بمعلوماته، و قيل: الضمير راجع إلى ما فى الموضعين؛ فإنهم لا يعلمون جميع ذلك وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ أى: ذلت و خضعت، قاله ابن الأعرابى. قال الزجّاج: معنى عنت فى اللغة خضعت، يقال:

عنا يعنو عنوا إذا خضع، و منه قيل للأسير: عان، و منه قول أمية بن أبى الصّلت:

مليك على عرش السّماء مهيمن لعزّته تعنو الوجوه و تسجد

و قيل هو من العناء، بمعنى التعب. وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً أى: خسر من حمل شيئا من الظلم، و قيل: هو الشرك وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ أى: الأعمال الصالحة وَ هُوَ مُؤْمِنٌ باللّه؛ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان، بل هو شرط فى القبول فَلا يَخافُ ظُلْماً يصاب به من نقص ثواب فى الآخرة وَ لا هَضْماً الهضم: النقص و الكسر، يقال هضمت لك من حقّى، أى: حططته و تركته، و هذا يهضم الطعام، أى: ينقص ثقله، و امرأة هضيم الكشح، أى: ضامرة البطن، و قرأ ابن كثير و مجاهد «لا يخف» بالجزم جوابا لقوله: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ و قرأ الباقون يَخافُ على الخبر.

---

(١). سمّى الفيل و الجاموس أقهبين للونهما؛ و هو الغبرة.

(٢). الأنبياء: ٢٨.

(٣). مريم: ٨٧.

(۴). المدثر: ۴۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۵۸

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلا أتاه، فقال: رأيت قوله: وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً و أخرى عُمْياً «۱» قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون فى حال زرقا، و فى حال عميا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ قال: يتساررون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً قال: أوفاهم عقلا، و فى لفظ قال: أعلمهم فى نفسه. و أخرج ابن المنذر و ابن جريج قال: قالت قريش: كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً قال: لا نبات فيه لا تَرى فِيها عِوَجاً قال: واديا وَ لا أَمْتاً قال: رابية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة أنه سئل عن قوله: قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً قال: كان ابن عباس يقول: هى الأرض الملساء التى ليس فيها رابية مرتفعة و لا انخفاض. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس عِوَجاً قال: ميلا؛ وَ لا أَمْتاً قال: الأمت:

الأثر، مثل الشراك. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال: يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة تطوى السماء، و تتناثر النجوم، و تذهب الشمس و القمر، و ينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمّونه، فذلك قول اللّه: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى الآية: قال: لا عوج عنه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ قال: سكتت فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً قال: الصوت الخفىّ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِلَّا هَمْساً قال: صوت وطء الأقدام. و أخرج عبد بن حميد عن الضحّاك و عكرمة و سعيد بن جبير و الحسن مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد قال: الصوت الخفىّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير قال: سرّ الحديث و صوت الأقدام. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ قال: ذلّت. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: خشعت. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: خضعت. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ الركوع و السجود. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً قال: شركا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً قال: شركا فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً قال: ظُلْماً أن يزاد فى سيئاته وَ لا هَضْماً قال: ينقص من حسناته. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: لا يخاف أن يظلم فى سيئاته، و لا يهضم فى حسناته. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه وَ لا هَضْماً قال:

غصبا.

---

(۱). هى فى قوله تعالى: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً [الإسراء: ۹۷].

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۵۹

[سورة طه (۲۰): الآيات ۱۱۳ الى ۱۲۲]

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (۱۱۳) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (۱۱۴) وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (۱۱۵) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (۱۱۶) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ

فَتَشْقى (١١٧)
إِنَّ لَکَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى (١١٨) وَ أَنَّکَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّکَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْکٍ لا يَبْلى (١٢٠) فَأَکَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (١٢١) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى (١٢٢)

قوله: وَ کَذلِکَ أَنْزَلْناهُ معطوف على قوله: کَذلِکَ نَقُصُّ عَلَيْکَ أى: مثل ذلک الإنزال أنزلناه، أى: القرآن حال کونه قُرْآناً عَرَبِيًّا أى: بلغة العرب ليفهموه وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ بينا فيه ضروبا من الوعيد تخويفا و تهديدا، أو کررنا فيه بعضا منه لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أى: کى يخافوا اللّه فيتجنبوا معاصيه، و يحذروا عقابه أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِکْراً أى: اعتبارا و اتّعاظا، و قيل: ورعا، و قيل: شرفا، و قيل: طاعة و عبادة؛ لأن الذکر يطلق عليها. و قرأ الحسن «أو نحدث» بالنون فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِکُ الْحَقُّ لما بين للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزّه نفسه عن مماثلة مخلوقاته فى شىء من الأشياء، أى:

جلّ اللّه عن إلحاد الملحدين و عمّا يقول المشرکون فى صفاته، فإنه الملک الذى بيده الثواب و العقاب، و إنه الْحَقُّ أى ذو الحق. وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْکَ وَحْيُهُ أى: يتمّ إليک وحيه.

قال المفسرون: کان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى؛ حرصا منه على ما کان ينزل عليه منه، فنهاه اللّه عن ذلک، و مثله قوله: لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ «١» على ما يأتى إن شاء اللّه، و قيل: المعنى: و لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيک بيان تأويله، و قرأ ابن مسعود و يعقوب و الحسن و الأعمش «من قبل أن نقضى» بالنون و نصب وحيه وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً أى: سل ربّک زيادة العلم بکتابه وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ اللام هى الموطئة للقسم، و الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تصريف الوعيد، أى: لقد أمرناه و وصّيناه، و المعهود محذوف، و هو ما سيأتى من نهيه عن الأکل من الشجرة، و معنى مِنْ قَبْلِ أى: من قبل هذا الزمان فَنَسِيَ قرأ الأعمش بإسکان الياء، و المراد بالنسيان هنا: ترک العمل بما وقع به العهد إليه فيه، و به قال أکثر المفسرين، و قيل: النسيان على حقيقته، و أنه نسى ما عهد اللّه به إليه و ينتهى عنه، و کان آدم مأخوذا بالنسيان فى ذلک الوقت، و إن کان النسيان مرفوعا عن هذه الأمة، و المراد من الآية تسلية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على القول الأوّل. أى: إن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم، و إن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم، کذا قال ابن جرير و القشيرى، و اعترضه ابن عطية قائلا بأن کون

---

(١). القيامة: ١۶.

آدم مماثلا للکفار الجاحدين باللّه ليس بشىء، و قرئ فنسى بضم النون و تشديد السين مکسورة مبنيا للمفعول، أى: فنسّاه إبليس وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً العزم فى اللغة: توطين النفس على الفعل و التصميم عليه، و المضىّ على المعتقد فى أىّ شىء کان، و قد کان آدم عليه السلام قد وطّن نفسه على أن لا يأکل من الشجرة و صمّم على ذلک، فلما وسوس إليه إبليس لانت عريکته، و فتر عزمه، و أدرکه ضعف البشر؛ و قيل: العزم الصبر، أى: لم نجد له صبرا عن أکل الشجرة. قال النحاس: و هو کذلک فى اللغة، يقال: لفلان عزم، أى: صبر و ثبات على التحفظ عن المعاصى حتى يسلم منها، و منه: کَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و قيل: المعنى: و لم نجد له عزما على الذنب، و به قال ابن کيسان، و قيل: و لم نجد له رأيا معزوما عليه، و به قال ابن قتيبة. ثم شرع سبحانه فى کيفية ظهور نسيانه و فقدان عزمه، و العامل فى إذ مقدّر، أى: وَ اذکر إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ و تعليق الذکر بالوقت مع أن المقصود ذکر ما فيه من الحوادث للمبالغة؛ لأنه إذا وقع الأمر بذکر الوقت کان ذکر ما فيه من الحوادث لازما

بطريق الأولى، و قد تقدّم تفسير هذه القصّة فى البقرة مستوفى، و معنى فَتَشْقى فتتعب فى تحصيل ما لا بدّ منه فى المعاش كالحرث و الزرع، و لم يقل فتشقيا؛ لأن الكلام من أوّل القصة مع آدم وحده، ثم علّل ما يوجبه ذلك النهى بما فيه الراحة الكاملة عن التعب و الاهتمام فقال: إِنَّ لَکَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى أى: فى الجنة. و المعنى: إن لك فيها تمتّعا بأنواع المعايش و تنعّما بأصناف النعم من المآكل الشهية و الملابس البهية، فإنه لما نفى عنه الجوع و العرى أفاد ثبوت الشبع و الاكتساء له، و هكذا قوله: وَ أَنَّکَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى فإن نفى الظمأ يستلزم حصول الرّىّ و وجود المسكن؛ الذى يدفع عنه مشقة الضحو. يقال ضحا الرجل يضحو ضحوا؛ إذا برز للشمس فأصابه حرّها، فذكر سبحانه هاهنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش و تعب الكدّ فى تحصيله، و لا ريب أن أصول المتاعب فى الدنيا هى تحصيل الشبع و الرىّ و الكسوة و الكنّ، و ما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها، و هو إعلام من اللّه سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله فى الجنة هذا كله، و إن ضيّع وصيته و لم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا، فيحلّ به التعب و النصب بما يدفع الجوع و العرى و الظمأ و الضحو، فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لا شقاء الأخرى. قال الفراء: هو أن يأكل من كدّ يديه، و قرأ أبو عمرو و الكوفيون إلا عاصما «و أنك لا تظمأ» بفتح أن، و قرأ الباقون بكسرها على العطف على «إنّ لك».

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قد تقدّم تفسيره فى الأعراف فى قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ أى: أنهى إليه وسوسته، و جملة قالَ يا آدَمُ إلى آخره إما بدل من وسوس أو مستأنفة بتقدير سؤال، كأنه قيل:

فماذا قال له فى وسوسته؟ و شَجَرَةِ الْخُلْدِ هى الشجرة التى من أكل منها لم يمت أصلا وَ مُلْكٍ لا يَبْلى أى: لا يزول و لا ينقضى فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما قد تقدّم تفسير هذا و ما بعده فى الأعراف. قال الفراء: و معنى «طفقا» فى العربية: أقبلا، و قيل: جعلا يلصقان عليهما من ورق التين وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى أى: عصاه بالأكل من الشجرة، فغوى، فضلّ عن الصواب أو عن مطلوبه، و هو الخلود بأكل تلك الشجرة، و قيل: فسد عليه عيشته بنزوله إلى الدنيا، و قيل: جهل موضع رشده،

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۶۱

و قيل: بشم من كثرة الأكل. قال ابن قتيبة: أكل آدم من الشجرة التى نهى عنها باستزلال إبليس و خدائعه إياه، و القسم له باللّه إنه لمن الناصحين، حتى دلّاه بغرور، و لم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدّم و نية صحيحة، فنحن نقول: عصى آدم ربه فغوى، انتهى. قال القاضى أبو بكر بن العربى: لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم. قلت: لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا اللّه فى كتابه بأنه عصاه، و كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، و ممّا قلته فى هذا المعنى:

عصى أبو العالم و هو الذى من طينة صوّره اللّه

و أسجد الأملاک من أجله و صيّر الجنة مأواه

أغواه إبليس فمن ذا أنا المسكين إن إبليس أغواه

ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ أى: اصطفاه و قرّبه. قال ابن فورک: كانت المعصية من آدم قبل النبوّة بدليل ما فى هذه الآية، فإنه ذكر الاجتباء و الهداية بعد ذكر المعصية، و إذا كانت المعصية قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى أى: تاب عليه من معصيته، و هداه إلى الثبات على التوبة. قيل: و كانت توبة اللّه عليه قبل أن يتوب هو و حواء بقولهما: رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ «۱» و قد مرّ وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ أى: القرآن ذِكْراً قال: جدّا و ورعا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ يقول: لا تعجل حتى نبينه لک. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن الحسن قال: لطم رجل امرأته، فجاءت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم

تطلب قصاصا، فجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بينهما القصاص، فأنزل اللّه وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ الآية، فوقف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزلت: الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ «٢» الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَعْجَلْ الآية قال: لا تتله على أحد حتى نتمه لك. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن مندة فى التوحيد، و الطبرانى فى الصغير و صحّحه، عن ابن عباس قال: إنما سمّى الإنسان لأنه عهد إليه فنسى.

و أخرج عبد الغنى بن سعيد عن ابن عباس وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ أن لا تقرب الشجرة فَنَسِيَ

فترك عهدى وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً قال: حفظا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَنَسِيَ فترك وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً يقول: لم نجعل له عزما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى قال: لا يصيبك فيها عطش و لا حرّ. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، و هى شجرة الخلد». و فى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «حاجّ

---

(١). الأعراف: ٢٣.

(٢). النساء: ٣٤.

آدم موسى قال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك و أشقيتهم بمعصيتك، قال آدم: يا موسى أنت الذى اصطفاك اللّه برسالته و بكلامه، أ تلومنى على أمر كتبه اللّه علىّ قبل أن يخلقنى، أو قدّره علىّ قبل أن يخلقنى؟ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فحجّ آدم موسى».

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٣ الى ١٢٧]

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى (١٢٣) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (١٢٤) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (١٢٦) وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى (١٢٧)

قوله: قالَ اهْبِطا قد مرّ تفسيره فى البقرة، أى: انزلا من الجنة إلى الأرض، خصّهما اللّه سبحانه بالهبوط لأنهما أصل البشر، ثم عمّم الخطاب لهما و لذرّيتهما فقال: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ و الجملة فى محل نصب على الحال، و يجوز أن يقال خاطبهما فى هذا و ما بعده خطاب الجمع؛ لأنهما منشأ الأولاد. و معنى بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ تعاديهم فى أمر المعاش و نحوه، فيحدث بسبب ذلك القتال و الخصام فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً بإرسال الرسل و إنزال الكتب فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى أى: لا يضل فى الدنيا، و لا يشقى فى الآخرة وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي أى: عن دينى، و تلاوة كتابى، و العمل بما فيه، و لم يتبع هداى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً أى: فإن له فى هذه الدنيا معيشة ضنكا، أى: عيشا ضيقا.

يقال: منزل ضنك و عيش ضنك، مصدر يستوى فيه الواحد و ما فوقه و المذكر و المؤنث، قال عنترة:

إنّ المنيّة لو تمثّل مثّلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

و قرئ ضنكى بضم الضاد على فعلى. و معنى الآية: إن اللّه عزّ و جلّ جعل لمن اتبع هداه و تمسّك بدينه أن يعيش فى الدنيا

عيشا هنيا غير مهموم و لا مغموم و لا متعب نفسه، كما قال سبحانه: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً «۱»، و جعل لمن لم يتبع هداه و أعرض عن دينه أن يعيش عيشا ضيقا و فى تعب و نصب، و مع ما يصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب، فهو فى الأخرى أشدّ تعبا و أعظم ضيقا و أكثر نصبا، و ذلک معنى وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى أى: مسلوب البصر، و قيل: المراد العمى عن الحجة، و قيل: أعمى عن جهات الخير لا يهتدى إلى شیء منها، و قد قيل: إن المراد بالمعيشة الضنكى عذاب القبر، و سيأتى ما يرجّح هذا و يقوّيه قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً فى الدنيا قالَ كَذلِكَ أى: مثل ذلک فعلت أنت، ثم فسّره بقوله: أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها أى: أعرضت عنها، و تركتها، و لم تنظر فيها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى أى: مثل ذلک النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا تنسى، أى: تترک فى العمى و العذاب فى النار، قال الفراء: يقال: إنه يخرج بصيرا من قبره فيعمى فى حشره وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ أى: مثل

(۱). النحل: ۹۷.

ذلک الجزاء نجزيه، و الإسراف: الانهماک فى الشهوات، و قيل: الشرک وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ بل كذّب بها وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ أى: أفظع من المعيشة الضنكى وَ أَبْقى أى: أدوم و أثبت؛ لأنه لا ينقطع.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من اتّبع كتاب اللّه هداه اللّه من الضّلالة فى الدنيا، و وقاه سوء الحساب يوم القيامة» و ذلک أن اللّه يقول: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم؛ و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن عباس قال: أجار اللّه تابع القرآن من أن يضلّ فى الدنيا أو يشقى فى الآخرة، ثم قرأ: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى قال: لا يضلّ فى الدنيا، و لا يشقى فى الآخرة. و أخرج عبد الرزاق و سعيد ابن منصور، و مسدّد فى مسنده، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا فى قوله: مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: «عذاب القبر».

و لفظ عبد الرزاق قال: «يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه». و لفظ ابن أبى حاتم قال: «ضمة القبر».

و فى إسناده ابن لهيعة، و فيه مقال معروف. و قد روى موقوفا. قال ابن كثير: الموقوف أصح. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: «المعيشة الضّنكى:

أن يسلّط عليه تسعة و تسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». و أخرج ابن أبى الدنيا و الحكيم الترمذى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه بأطول منه. قال ابن كثير: رفعه منكر جدا. و أخرج ابن أبى شيبة و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: «عذاب القبر». قال ابن كثير بعد إخراجه: إسناد جيد. و أخرج هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبرانى و البيهقى عن ابن مسعود فى قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً قال: عذاب القبر، و مجموع ما ذكرنا هنا يرجّح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و البيهقى فى كتاب «عذاب القبر» عن ابن مسعود أنه فسر المعيشة الضنكى بالشقاء. و أخرج هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله:

وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قال: عمى عليه كل شیء إلا جهنم، و فى لفظ: لا يبصر إلا النار. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله: وَ كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ قال: من أشرک باللّه.

أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (١٢٨) وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (١٣٠) وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى (١٣١) وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (١٣٢)

وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (١٣٣) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى (١٣٥)

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٦٤

قوله: أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر، كما مرّ غير مرّة، و الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، و فاعل يهد هو الجملة المذكورة بعدها، و المفعول محذوف، و أنكر البصريون مثل هذا لأن الجمل لا تقع فاعلا، و جوّزه غيرهم.

قال القفال: جعل كثرة ما أهلكك من القرون مبينا لهم.

قال النحاس: و هذا خطأ لأن كم استفهام، فلا يعمل فيها ما قبلها. و قال الزجاج: المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه، و حقيقته تدلّ على الهدى، فالفاعل هو الهدى، و قال: كَمْ في موضع نصب بأهلكنا، و قيل: إن فاعل يهد ضمير للّه أو للرسول، و الجملة بعده تفسّره، و معنى الآية على ما هو الظاهر:

أ فلم يتبين لأهل مكة خبر من أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ حال كون القرون يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ و يتقلّبون في ديارهم، أو حال كون هؤلاء يمشون في مساكن القرون الذي أهلكناهم عند خروجهم للتجارة و طلب المعيشة؛ فيرون بلاد الأمم الماضية؛ و القرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر و ثمود و قرى قوم لوط؛ فإنّ ذلك ممّا يوجب اعتبارهم لئلا يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك. و قرأ ابن عباس و السّلمي نهد بالنون، و المعنى على هذه القراءة واضح، و جملة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى تعليل للإنكار و تقرير للهداية، و الإشارة بقوله ذلك إلى مضمون كم أهلكنا إلى آخره. و النهى: جمع نهية، و هي العقل: أي لذوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ أي: و لو لا الكلمة السابقة، و هي وعد اللّه سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الدار الآخرة لَكانَ عقاب ذنوبهم لِزاماً أي: لازما لهم، لا ينفكّ عنهم بحال و لا يتأخّر. و قوله: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى معطوف على كلمة، قاله الزجّاج و غيره؛ و الأجل المسمى: هو يوم القيامة، أو يوم بدر؛ و اللزام مصدر لازم، قيل: و يجوز عطف «و أجل مسمى» على الضمير المستتر في كان العائد؛ إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق، تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد، أي: لكان الأخذ العاجل وَ أَجَلٌ مُسَمًّى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد و ثمود، و فيه تعسّف ظاهر.

ثم لمّا بيّن اللّه سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ من أنك ساحر كذّاب، و نحو ذلك من مطاعنهم الباطلة، و المعنى: لا تحتفل بهم؛ فإن لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدّم و لا يتأخّر. و قيل: هذا منسوخ بآية القتال وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي: متلبّسا بحمده، قال أكثر المفسرين: و المراد الصلوات الخمس كما يفيد قوله: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فإنه إشارة إلى صلاة الفجر وَ قَبْلَ غُرُوبِها فإنه إشارة إلى صلاة العصر وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ العتمة، و المراد بالآناء: الساعات، و هي جمع إنّي بالكسر و القصر، و هو الساعة، و معنى فَسَبِّحْ أي: فصلّ وَ أَطْرافَ النَّهارِ أي:

المغرب و الظهر؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأوّل، و أوّل طرف النهار الآخر. و قيل: إن الإشارة إلى

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴۶۵

صلاة الظهر هی بقوله: وَ قَبْلَ غُرُوبِها لأنها هی و صلاة العصر قبل غروب الشمس، و قیل: المراد بالآیة صلاة التطوّع، و لو قیل: لیس فی الآیة إشارة إلی الصلاة، بل المراد التسبیح فی هذه الأوقات، أی: قول القائل سبحان اللّه، لم یکن ذلک بعیدا من الصواب، و التسبیح و إن کان یطلق علی الصلاة و لکنه مجاز، و الحقیقة أولی إلا لقرینة تصرف ذلک إلی المعنی المجازی، و جملة لَعَلَّکَ تَرْضی متعلقة بقوله فسبح، أی: سبّح فی هذه الأوقات رجاء أن تنال عند اللّه سبحانه ما ترضی به نفسک، هذا علی قراءة الجمهور. و قرأ الکسائی و أبو بکر عن عاصم ترضی بضم التاء مبنیا للمفعول؛ أی: یرتضیک ربک وَ لا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلی ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ قد تقدّم تفسیر هذه الآیة فی الحجر «۱». و المعنی: لا تطل نظر عینیک، و «أَزْواجاً» مفعول «متعنا»، و «زهرة» منصوبة علی الحال، أو بفعل محذوف، أی: جعلنا أو أعطینا، ذکر معنی هذا الزّجّاج. و قیل: هی بدل من الهاء فی «به» باعتبار محلّه، و هو النصب لا باعتبار لفظه، فإنه مجرور کما تقول: مررت به أخاک. و رجّح الفرّاء النصب علی الحال، و یجوز أن تکون بدلا، و یجوز أن تکون منتصبة علی المصدر، مثل «صبغة اللّه» و «وعد اللّه» و زَهْرَةَ الْحَیاةِ الدُّنْیا: زینتها و بهجتها بالنبات و غیره.

و قرأ عیسی بن عمر زَهْرَةَ بفتح الهاء، و هی نور النبات، و اللام فی لِنَفْتِنَهُمْ فیه متعلق بمتعنا، أی: لنجعل ذلک فتنة لهم و ضلالة، ابتلاء منّا لهم، کقوله: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَی الْأَرْضِ زِینَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ «۲»، و قیل: لنعذبنهم، و قیل: لنشدّد علیهم فی التکلیف وَ رِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ أَبْقی أی: ثواب اللّه، و ما ادّخر لصالحی عباده فی الآخرة خیر ممّا رزقهم فی الدّنیا علی کل حال، و أیضا فإن ذلک لا ینقطع، و هذا ینقطع، و هو معنی: وَ أَبْقی و قیل: المراد بهذا الرزق ما یفتح اللّه علی المؤمنین من الغنائم و نحوها. و الأوّل أولی؛ لأنّ الخیریة المحقّقة و الدوام الذی لا ینقطع إنّما یتحقّقان فی الرّزق الأخروی لا الدنیوی، و إن کان حلالا طیبا: ما عِنْدَکُمْ یَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ «۳». وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلاةِ أمره اللّه سبحانه بأن یأمر أهله بالصلاة، و المراد بهم أهل بیته، و قیل: جمیع أمته، و لم یذکر هاهنا الأمر من اللّه له بالصلاة، بل قصر الأمر علی أهله، إما لکون إقامته لها أمرا معلوما، أو لکون أمره بها قد تقدّم فی قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ إلی آخر الآیة، أو لکون أمره بالأمر لأهله أمرا له، و لهذا قال: وَ اصْطَبِرْ عَلَیْها أی: اصبر علی الصلاة، و لا تشتغل عنها بشیء من أمور الدنیا لا نَسْئَلُکَ رِزْقاً أی: لا نسألک أن ترزق نفسک و لا أهلک، و تشتغل بذلک عن الصلاة نَحْنُ نَرْزُقُکَ و نرزقهم و لا نکلّفک ذلک وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوی أی: العاقبة المحمودة، و هی الجنة لأهل التقوی علی حذف المضاف کما قال الأخفش، و فیه دلیل علی أنّ التّقوی هی ملاک الأمر، و علیها تدور دوائر الخیر وَ قالُوا لَوْ لا یَأْتِینا بِآیَةٍ مِنْ رَبِّهِ أی: قال کفار مکة: هلّا یأتینا محمد بآیة من آیات ربه، کما کان یأتی بها من قبله من الأنبیاء؟ و ذلک کالناقة و العصا، أو هلّا یأتینا بآیة من الآیات التی قد اقترحناها علیه؟ فأجاب اللّه سبحانه و تعالی علیهم بقوله: أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَیِّنَةُ ما فِی الصُّحُفِ الْأُولی یرید بالصحف

---

(۱). الحجر: ۸۸.

(۲). الکهف: ۷.

(۳). النحل: ۹۶.

فتح القدیر، ج‌٣، ص: ۴۶۶

الأولی التوراة و الإنجیل و الزبور و سائر الکتب المنزلة، و فیها التصریح بنبوّته و التبشیر به، و ذلک یکفی، فإن هذه الکتب المنزلة هم معترفون بصدقها و صحتها، و فیها ما یدفع إنکارهم لنبوّته، و یبطل تعنّتاتهم و تعسّفاتهم.

و قيل: المعنى: أو لم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا و اقترحوا الآيات، فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التى اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم. و قيل: المراد أو لم تأتهم آية هى أمّ الآيات و أعظمها فى باب الإعجاز يعنى القرآن، فإنه برهان لما فى سائر الكتب المنزلة. و قرأ أبو جعفر و شيبة و نافع و أبو عمرو و يعقوب و ابن أبى إسحاق و حفص أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بالتاء الفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية؛ لأن معنى البينة البيان و البرهان، فذكروا الفعل اعتبارا بمعنى البينة، و اختار هذه القراءة ابن عبيد و أبو حاتم. قال الكسائى: و يجوز «بينة» بالتنوين. قال النحاس: إذا نوّنت بينة و رفعت جعلت «ما» بدلا منها، و إذا نصبت فعلى الحال. و المعنى: أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيّنا، و هذا على ما يقتضيه الجواز النحوى و إن لم تقع القراءة به وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ أى: من قبل بعثة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو من قبل إتيان البينة لنزول القرآن لَقالُوا يوم القيامة رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا أى: هلّا أرسلت إلينا رسولا فى الدنيا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ التى يأتى بها الرسول مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَ بالعذاب فى الدنيا وَ نَخْزى بدخول النار، و قرئ نَذِلَّ، وَ نَخْزى على البناء للمفعول، و قد قطع اللّه معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم، و لهذا حكى اللّه عنهم أنهم: قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ «1». قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا أى: قل لهم يا محمد كل واحد منا و منكم متربّص، أى: منتظر لما يؤول إليه الأمر، فتربصوا أنتم فَسَتَعْلَمُونَ عن قريب مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِ أى: فستعلمون بالنصر و العاقبة من هو من أصحاب الصراط المستقيم وَ مَنِ اهْتَدى من الضلالة و نزع عن الغواية، و «من» فى الموضعين فى محل رفع بالابتداء. قال النحاس: و الفراء يذهب إلى أن معنى مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِ من لم يضلّ، و إلى أن معنى مَنِ اهْتَدى من ضلّ ثم اهتدى، و قيل: «من» فى الموضعين فى محل نصب، و كذا قال الفراء. و حكى عن الزجّاج أنه قال: هذا خطأ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. و قرأ أبو رافع «فسوف تعلمون»، و قرأ يحيى بن يعمر و عاصم الجحدرى السَّوِيِ على فعلى، و ردّت هذه القراءة بأن تأنيث الصراط شاذ، و قيل: هى بمعنى الوسط و العدل، اه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ألم نبين لهم كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ نحو عاد و ثمود و من أهلك من الأمم، و فى قوله: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى يقول: هذا من مقاديم الكلام، يقول: لو لا كلمة و أجل مسمى لكان لزاما. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى نحوه. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: الأجل المسمّى:

الكلمة التى سبقت من ربك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لَكانَ لِزاماً قال: موتا. و أخرج الفريابى و عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

---

(1). الملك: 9.

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الآية قال: هى الصلاة المكتوبة. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن جرير عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ قال: «قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، و قبل غروبها صلاة العصر». و فى الصحيحين و غيرهما من حديث جرير قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس و قبل غروبها فافعلوا، و قرأ: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها». و فى صحيح مسلم و سنن أبى داود و النسائى عن عمارة بن رؤبة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لن يلج النار أحد صلّى قبل طلوع الشمس و قبل غروبها». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن راهويه و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الخرائطى و أبو نعيم عن أبى رافع قال: «أضاف النبى صلّى اللّه عليه و

سلّم ضيفا، و لم يكن عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ما يصلحه، فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن بعنا أو سلفنا دقيقا إلى هلال رجب، فقال: لا؛ إلا برهن، فأتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته، فقال: أما و اللّه إنى لأمين فى السماء، أمين فى الأرض، و لئن أسلفنى أو باعنى لأدّيت إليه، اذهب بدرعى الجديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية:

وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ كأنه يعزّيه عن الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«إنّ أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح اللّه لكم من زهرة الدنيا، قالوا: و ما زهرة الدنيا يا رسول اللّه؟

قال: بركات الأرض». و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر و ابن النجار عن أبى سعيد الخدرىّ قال: لما نزلت:

وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يجىء إلى باب علىّ صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: «الصلاة رحمكم اللّه»: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «١». و أخرج ابن مردويه عن أبى الحمراء نحوه. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ثابت، قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله: يا أهلاه صلّوا صلّوا» قال ثابت: و كانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن المنذر و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الشعب، بإسناد قال السيوطى: صحيح، عن عبد اللّه بن سلام قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا نزلت بأهله شدّة أو ضيق أمرهم بالصّلاة، و قرأ: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ الآية.

---

(١). الأحزاب: ٣٣.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴۶۸

سورة الأنبياء

اشارة

و هى مكية، قال القرطبى: فى قول الجميع. و هى مائة و اثنتا عشرة آية.

و أخرج البخارى و غيره عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل و الكهف و مريم و الأنبياء هنّ من العتاق الأول، و هنّ من تلادى «١».

و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، و كلّم فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فجاءه الرجل فقال: إنى استقطعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم واديا ما فى العرب واد أفضل منه، و قد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك و لعقبك من بعدك، فقال عامر:

لا حاجة لى فى قطعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا. اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۴)

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (۵) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (۶) وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۷) وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ (۸) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (۹)

يقال: قرب الشيء و اقترب، و قد اقترب الحساب: أى قرب الوقت الذى يحاسبون فيه. قال الزجاج:

المعنى اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ وقت حِسابُهُمْ أى: القيامة، كما فى قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ «۲». و اللام فى للناس متعلقة بالفعل، و تقديمها هى و مجرورها على الفاعل لإدخال الروعة، و معنى اقتراب وقت الحساب:

دنوّه منهم؛ لأنه فى كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التى قبلها. و قيل: لأنّ كلّ ما هو آت قريب، و موت كلّ إنسان قيام ساعته، و القيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقى من الدنيا أقلّ مما مضى، و المراد بالناس: العموم. و قيل: المشركون مطلقا، و قيل: كفّار مكة، و على هذا الوجه قيل: المراد بالحساب: عذابهم يوم بدر، و جملة وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ فى محل نصب على الحال، أى: هم فى

---

(۱). قال القرطبى: يريد من قديم ما كسب و حفظ من القرآن، كالمال التّلاد.

(۲). القمر: ۱.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۶۹

غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان باللّه، و القيام بفرائضه، و الانزجار عن مناهيه ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ من لابتداء الغاية، و قد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثا على أن القرآن محدث؛ لأن الذكر هنا هو القرآن. و أجيب بأنه لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات و الحروف؛ لأنه متجدد فى النزول. فالمعنى محدث تنزيله، و إنما النزاع فى الكلام النفسى، و هذه المسألة:

أعنى قدم القرآن و حدوثه قد ابتلى بها كثير من أهل العلم و الفضل فى الدولة المأمونية و المعتصمية و الواثقية، و جرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد و الحبس الطويل، و ضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعى، و صارت فتنة عظيمة فى ذلك الوقت و ما بعده، و القصة أشهر من أن تذكر، و من أحبّ الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب «النبلاء» لمؤرخ الإسلام الذهبى. و لقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن و حدوثه، و حفظ اللّه بهم أمة نبيه عن الابتداع، و لكنهم رحمهم اللّه جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه و لم يقتصروا على ذلك حتى كفّروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال لفظى: القرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف و إرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة و التابعين و من بعدهم إلى وقت قيام المحنة و ظهور القول فى هذه المسألة شيء من الكلام، و لا نقل عنهم كلمة فى ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، و التمسّك بأذيال الوقف، و إرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، و فيه السلامة و الخلوص من تكفير طوائف من عباد اللّه، و الأمر للّه سبحانه. و قوله: إِلَّا اسْتَمَعُوهُ استثناء مفرغ فى محل نصب على الحال، و جملة وَ هُمْ يَلْعَبُونَ فى محل نصب على الحال أيضا من فاعل استمعوه، و لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ حال أيضا، و المعنى: ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال إلا فى الاستماع مع اللعب و الاستهزاء و لهوة القلوب، و قرئ «لاهية» بالرفع، كما قرئ «محدث» بالرفع وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا النجوى: اسم من التناجى، و التناجى لا يكون إلا سرّا، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة فى الإخفاء. و قد

اختلف فی محل الموصول علی أقوال، فقیل: إنه فی محل رفع بدل من الواو فی «أَسَرُّوا»، قاله المبرد و غیره؛ و قیل: هو فی محل رفع علی الذمّ؛ و قیل: هو فاعل لفعل محذوف، و التقدیر:

یقول الـذین ظلموا، و اختـار هـذا النحـاس؛ و قیل: فی محل نصب بتقـدیر أعنی، و قیل: فی محل خفض علی أنه بـدل من الناس ذکر ذلـک المبرد؛ و قیـل: هـو فی محـل رفع علی أنه فاعـل «أسرّوا» علی لغـة من یجـوّز الجمع بین فـاعلین، کقولهم: أکلونی البراغیث، ذکر ذلک الأخفش، و مثله ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا کَثِیرٌ مِنْهُمْ و منه قول الشاعر:

....

فاهتدین النّبال للأغراض «۱»

(۱). و صدره: بک نال النّضال دون المساعی.

فتح القدیر، ج۳، ص: ۴۷۰

و قول الآخر «۱»:

و لکن دیافیّ أبوه و أمّهبحوران یعصرن السّلیط أقاربه «۲»

و قال الکسائی: فیه تقـدیم و تأخیر؛ أی: و الـذین ظلموا أسرّوا النجوی. قال أبو عبیدة: أسرّوا هنا من الأضداد، یحتمل أن یکون بمعنی أخفوا کلامهم، و یحتمل أن یکون بمعنی أظهروه و أعلنوه هَلْ هـذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ هـذه الجملـة بتقـدیر القول قبلها، أی: قالوا هل هـذا الرسول إلا بشر مثلکم لا یتمیز عنکم بشـیء؟ و یجوز أن تکون هـذه الجملة بدلا من النجوی، و هل بمعنی النفی، أی: و أسرّوا هذا الحدیث، و الهمزة فی أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ للإنکار، و الفاء للعطف علی مقدّر کنظائره، و جملة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ فی محل نصب علی الحال. و المعنی: إذا کان بشـرا مثلکم، و کان الـذی جاء به سـحرا، فکیف تجیبونه إلیه و تتبعونه، فأطلع اللّه نبیه صلّی اللّه علیه و سـلّم علی ما تناجوا به، و أمره اللّه سبحانه أن یجیب علیهم فقال: قل رَبِّی یَعْلَمُ الْقَوْلَ فِی السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أی: لا یخفی علیه شیء ممّا یقال فیهما، و فی مصاحف أهل الکوفة «قال ربّی» أی:

قال محمـد: ربی یعلم القول، فهو عالم بما تناجیتم به. قیل: القراءة الأولی أولی؛ لأنهم أسـرّوا هـذا القول، فأطلع اللّه رسوله صـلّی اللّه علیه و سـلّم علی ذلک، و أمره أن یقول لهم هذا. قال النحاس: و القراءتان صـحیحتان، و هما بمنزلة آیتین وَ هُوَ السَّمِیعُ لکل ما یسـمع الْعَلِیمُ بکل معلوم، فیـدخل فی ذلک ما أسـرّوا دخولا أولیا بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ قال الزجّاج: أی: قالوا الذی تأتی به أضغاث أحلام. قال القتبی: أضغاث الأحلام:

الرؤیا الکاذبة. و قال الیزیدی: الأضـغاث: ما لم یکن له تأویل، و هذا إضـراب من جهة اللّه سبحانه حکایة لما وقع منهم، و انتقال من حکایة قولهم السابق إلی حکایة هذا القول. ثم حکی سبحانه إضرابهم عن قولهم:

أضـغاث أحلام، قال: بَلِ افْتَراهُ أی: بل قالوا افتراه من تلقاء نفسه من غیر أن یکون له أصل. ثم حکی سـبحانه عنهم أنهم أضـربوا عن هـذا، و قالوا: بَلْ هُوَ شاعِرٌ و ما أتی به من جنس الشعر، و فی هـذا الاضـطراب منهم، و التلوّن و التردّد أعظم دلیل علی أنهم جـاهلون بحقیقـة ما جاء به، لا یـدرون ما هو و لا یعرفون کنهه؟ أو کانوا قـد علموا أنه حقّ، و أنه من عنـد اللّه، و لکن أرادوا أن یـدفعوه بالصـدر، و یرموه بکل حجر و مـدر، و هذا شأن من غلبته الحجة و قهره البرهان. ثم بعد هذا کله، قالوا: فَلْیَأْتِنا بِآیَةٍ و هذا جواب شـرط محـذوف، أی: إن لم یکن کما قلنا فلیأتنا بآیـة کَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ أی: کما أرسل موسـی بالعصا و غیرها، و صالح بالناقة، و محل الکاف الجرّ صـفة لآیة، و یجوز أن یکون نعت مصدر محذوف، و کان سؤالهم هذا سؤال تعنّت؛ لأن اللّه سبحانه قـد أعطـاهم من الآیـات ما یکفی، و لو علم اللّه سـبحانه أنهم یؤمنون إذا أعطاهم ما یقترحوه لأعطاهم ذلک، کما قال: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِیهِمْ خَیْراً لَأَسْمَعَهُمْ، وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ «۳». قـال الزّجّـاج: اقترحوا الآیات التی لا یقع معها إمهال، فقال اللّه

مجيبا لهم:

(۱). هو الفرزدق.

(۲). «دياف»: موضع بالجزيرة، و هم نبط الشام. «السليط»: الزيت.

(۳). الأنفال: ۲۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۷۱

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أى: قبل مشركى مكة. و معنى «مِنْ قَرْيَةٍ» من أهل قرية، و وصف القرية بقوله: أَهْلَكْناها أى: أهلكنا أهلها، أو أهلكناها بإهلاك أهلها، و فيه بيان سنّة اللّه فى الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، و «من» فى «مِنْ قَرْيَةٍ» مزيدة للتأكيد. و المعنى: ما آمنت قرية من القرى التى أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء، فكيف نعطيهم ما يقترحون، و هم أسوة من قبلهم. و الهمزة فى أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ للتقريع و التوبيخ، و المعنى: إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا، ثم أجاب سبحانه عن قولهم: «هل هذا إلا بشر مثلكم» بقوله: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ أى: لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالا من البشر، و لم نرسل إليهم ملائكة، كما قال سبحانه: قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا «۱» و جملة «نُوحِي إِلَيْهِمْ» مستأنفة لبيان كيفية الإرسال، و يجوز أن تكون صفة ل «رجالا»، أى: متّصفين بصفة الإيحاء إليهم. قرأ حفص و حمزة و الكسائى نُوحِي بالنون، و قرأ الباقون بالياء «يوحى». ثم أمرهم اللّه بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا، فقال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ و أهل الذكر هم أهل الكتابين: اليهود و النصارى، و معنى «إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»: إن كنتم لا تعلمون أنّ رسل اللّه من البشر، كذا قال أكثر المفسرين. و قد كان اليهود و النصارى لا يجهلون ذلك و لا ينكرونه، و تقدير الكلام: إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر. و قد استدل بالآية على أن التقليد جائز، و هو خطأ، و لو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب و السنة، لا عن الرأى البحت، و ليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته. و قد أوضحنا هذا فى رسالة بسيطة سمّيناها «القول المفيد فى حكم التقليد». ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكّد كون الرسل من جنس البشر فقال: وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ أى: أن الرسل أسوة لسائر أفراد بنى آدم فى حكم الطبيعة، يأكلون كما يأكلون، و يشربون كما يشربون، و الجسد جسم الإنسان. قال الزجاج: هو واحد، يعنى الجسد ينبئ عن جماعة، أى: و ما جعلناهم ذوى أجساد لا يأكلون الطعام، فجملة «لا يأكلون الطعام» صفة ل «جسدا»، أى: و ما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الأكل، بل هو محتاج إلى ذلك وَ ما كانُوا خالِدِينَ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر، و قد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون، فأجاب اللّه عليهم بهذا، و جملة ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ معطوفة على جملة يدلّ عليها السياق، و التقدير: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم الوعد، أى: أنجزنا وعدهم الذى وعدناهم بإنجائهم و إهلاك من كذبهم، و لهذا قال سبحانه: فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ من عبادنا المؤمنين، و المراد إنجاؤهم من العذاب و إهلاك من كفر بالعذاب الدنيوى، و المراد ب الْمُسْرِفِينَ المجاوزون للحدّ فى الكفر و المعاصى، و هم المشركون.

(۱). الإسراء: ۹۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۷۲

و قد أخرج النّسائى عن أبى سعيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ قال: «فى الدنيا». و أخرج ابن

مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «من أمر الدنيا». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ أى: فعل الأحلام إنما هى رؤيا رآها بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ كل هذا قد كان منه فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ كما جاء عيسى و موسى بالبينات و الرسل ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أى: أن الرسل كانوا إذا جاءوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا. و أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: إذا كان ما تقوله حقا، و يسرّك أن نؤمن، فحوّل لنا الصفا ذهبا، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان الذى سألك قومك، و لكنه إن كان، ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، و إن شئت استأنيت بقومك، قال: «بل أستأنى بقومى»، فأنزل اللّه ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ يقول: لم نجعلهم جسدا ليس يأكلون الطعام، إنما جعلناهم جسدا يأكلون الطعام.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠ الى ٢٥]

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (١٤)

فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (١٥) وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤)

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

نبّه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً يعنى القرآن فِيهِ ذِكْرُكُمْ صفة ل «كتابا»، و المراد بالذكر هنا الشرف، أى: فيه شرفكم، كقوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «١» و قيل:

فيه ذكركم، أى: ذكر أمر دينكم، و أحكام شرعكم و ما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب، و قيل: فيه حديثكم. قاله مجاهد. و قيل: مكارم أخلاقكم و محاسن أعمالكم. و قيل: فيه العمل بما فيه حياتكم. قاله سهل بن عبد اللّه. و قيل: فيه موعظتكم، و الاستفهام فى أَ فَلا تَعْقِلُونَ للتوبيخ و التقريع، أى: أفلا تعقلون أن الأمر كذلك، أو لا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ما ذكر، ثم أوعدهم و حذّرهم ما

---

(١). الزخرف: ٤٤.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٧٣

جرى على الأمم المكذّبة، فقال: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً كَمْ فى محل نصب على أنها مفعول قصمنا، و هى الخبرية المفيدة للتكثير، و القصم: كسر الشى‏ء و دقّه، يقال: قصمت ظهر فلان إذا كسرته، و انقصمت سنّه إذا انكسرت. و المعنى هنا: الإهلاك و العذاب، و أما الفصم بالفاء فهو الصدع فى الشى‏ء من غير بينونة، و جملة كانَتْ ظالِمَةً فى محل جرّ صفة لقرية، و فى

الكلام مضاف محذوف، أى: و كم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين، أى: كافرين باللّه مكذّبين بآياته، و الظلم فى الأصل: وضع الشىء فى غير موضعه، و هم وضعوا الكفر فى موضع الإيمان وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ أى: أوجدنا و أحدثنا بعد إهلاك أهلها قوما ليسوا منهم فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا أى: أدركوا، أو رأوا عذابنا، و قال الأخفش:
خافوا و توقّعوا، و البأس: العذاب الشديد. إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ الركض: الفرار و الهرب و الانهزام، و أصله من ركض الرجل الدابة برجليه، يقال: ركض الفرس إذا كدّه بساقيه، ثم كثر حتى قيل: ركض الفرس إذا عدا، و منه: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ «١». و المعنى: أنهم يهربون منها راكضين دوابهم، فقيل لهم:
لا تَرْكُضُوا أى: لا تهربوا. قيل: إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم. و قيل: إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم و سخرية منهم وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ أى: إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم و كفركم، و المترف: المنعم، يقال: أترف على فلان، أى: وسّع عليه فى معاشه.
وَ مَساكِنِكُمْ أى: و ارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها و تفتخرون بها لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ أى:
تقصدون للسؤال و التشاور و التدبير فى المهمات، و هذا على طريقة التهكّم بهم و التوبيخ لهم. و قيل: المعنى:
لعلكم تسألون عمّا نزل بكم من العقوبة فتخبرون به. و قيل: لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم. قال المفسرون و أهل الأخبار: إنّ المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن، و كان اللّه سبحانه قد بعث إليهم نبيا اسمه شعيب بن مهدم، و قبره بجبل من جبال اليمن يقال له ضين، و بينه و بين حضور نحو بريد، قالوا: و ليس هو شعيبا صاحب مدين. قلت:
و آثار القبر بجبل ضين موجودة، و العامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أى:
قالوا لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا: يا ويلنا، أى: بإهلاكنا إنّا كنّا ظالمين لأنفسنا، مستوجبين العذاب بما قدّمنا، فاعترفوا على أنفسهم بالظّلم الموجب للعذاب فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ أى: ما زالت هذه الكلمة دعواهم، أى:
دعوتهم، و الكلمة: هى قولهم يا ويلنا، أى: يدعون بها و يردّدونها حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً أى:
بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل، و الحصيد هنا بمعنى المحصود، و معنى خامِدِينَ أنهم ميتون، من خمدت إذا طفئت، فشبّه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ أى: لم نخلقهما عبثا و لا باطلا بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرا يجب امتثال أمره، و فيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم، و المراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء و الأرض على اختلاف أنواعها و تباين أجناسها لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً اللهو: ما يتلهّى به، قيل: اللهو، الزوجة و الولد،

---

(١). ص: ٤٢.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٧٤

و قيل: الزوجة فقط، و قيل: الولد فقط. قال الجوهرى: قد يكنّى باللهو عن الجماع، و يدلّ على ما قاله قول امرئ القيس:
ألا زعمت بسباسة اليوم أنّنى كبرت و ألّا يحسن اللّهو أمثالى
و منه قول الآخر «١»:
و فيهنّ ملهى للصديق و منظر «٢» ....
و الجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها، و جواب لقوله: لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا أى: من عندنا و من جهة قدرتنا لا من عندكم. قال المفسرون: أى: من الحور العين، و فى هذا ردّ على من قال بإضافة الصاحبة و الولد إلى اللّه، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا. و قيل:

أراد الردّ على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات اللّه.

و قال ابن قتيبة: الآية ردّ على النصارى إِنْ كُنّٰا فٰاعِلِينَ قال الواحدى: قال المفسرون: ما كنّا فاعلين.

قال الفرّاء و المبرّد و الزجّاج: يجوز أن تكون «إن» للنفى كما ذكره المفسرون، أى: ما فعلنا ذلك و لم نتّخذ صاحبة و لا ولدا؛ و يجوز أن تكون للشرط، أى: إن كنا ممّن يفعل ذلك لاتّخذناه من لدنا. قال الفراء:

و هذا أشبه الوجهين بمذهب العربية بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبٰاطِلِ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو، أى:

دع ذلك الذى قالوا فإنه كذب و باطل، بل شأننا أن نرمى بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ أى: يقهره، و أصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، و منه الدامغة. قال الزجاج: المعنى نذهبه ذهاب الصغار و الإذلال، و ذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب. قيل: أراد بالحق الحجة و بالباطل شبههم اه. و قيل: الحق المواعظ، و الباطل المعاصى، و قيل: الباطل الشيطان. و قيل: كذبهم. و وصفهم اللّه سبحانه بغير صفاته فَإِذٰا هُوَ زٰاهِقٌ أى: زائل ذاهب، و قيل: هالك تالف، و المعنى متقارب، و إذا هى الفجائية وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمّٰا تَصِفُونَ أى: العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم للّه بما لا يجوز عليه. و قيل: الويل واد فى جهنم، و هو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذى لأولئك؛ و من هى التعليلية وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ عبيدا و ملكا، و هو خالقهم و رازقهم و مالكهم، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكا يعبد كما يعبد، و هذه الجملة مقررة لما قبلها وَ مَنْ عِنْدَهُ يعنى الملائكة، و فيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات اللّه، و فى التعبير عنهم بكونهم عنده إشارة إلى تشريفهم و كرامتهم، و أنهم بمنزلة المقرّبين عند الملوك، ثم وصفهم بقوله: لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ أى: لا يتعاظمون و لا يأنفون عن عبادة اللّه سبحانه و التذلّل له وَ لاٰ يَسْتَحْسِرُونَ أى: لا يعيون، مأخوذ من الحسير، و هو البعير المنقطع بالإعياء و التعب، يقال: حسر البعير يحسر حسورا أعيا و كلّ، و استحسر و تحسر مثله، و حسرته أنا حسرا، يتعدى و لا يتعدى. قال أبو زيد:

لا يكلّون «٣»، و قال ابن الأعرابى: لا يفشلون. قال الزجاج: معنى الآية أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد

---

(١). هو زهير بن أبى سلمى.

(٢). و عجزه: أنيق لعين النّاظر المتوسّم.

(٣). فى تفسير القرطبى (١١/ ٢٧٨): لا يملون.

اللّه عباد اللّه لا يأنفون عن عبادته و لا يتعظمون عنها، كقوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ «١» و قيل: المعنى: لا ينقطعون عن عبادته. و هذه المعانى متقاربة يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لاٰ يَفْتُرُونَ أى: ينزّهون اللّه سبحانه دائما لا يضعفون عن ذلك و لا يسأمون، و قيل: يصلون الليل و النهار.

قال الزجّاج: مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شى‌ء، فكذلك تسبيحهم دائم، و هذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أو فى محل نصب على الحال أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد، أى: لم يتّخذوا آلهة تقدر على الإحياء، و «أم» هى المنقطعة، و الهمزة لإنكار الوقوع. قال المبرد: إن «أم» هنا بمعنى هل، أى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، و لا تكون «أم» هنا بمعنى بل؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر أم مع الاستفهام، فتكون «أم» المنقطعة، فيصحّ المعنى، و «من الأرض» متعلّق باتخذوا، أو بمحذوف هو صفة لآلهة، و معنى هُمْ يُنْشِرُونَ هم يبعثون الموتى، و الجملة صفة لآلهة، و هذه الجملة هى التى يدور عليها الإنكار و التجهيل، لا نفس الاتخاذ، فإنه واقع منهم لا محالة. و المعنى: بل اتخذوا آلهة من الأرض هن خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى، و ليس

الأمر كذلك، فإن ما اتّخذوها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور يُنْشِرُونَ بضم الياء و كسر الشين من أنشره، أى: أحياه، و قرأ الحسن بفتح الياء، أى: يحيون و لا يموتون، ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدّد الآلهة، فقال: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا أى: لو كان فى السماوات و الأرض آلهة معبودون غير اللّه لفسدتا، أى: لبطلتا، يعنى السماوات و الأرض بما فيهما من المخلوقات. قال الكسائى و سيبويه و الأخفش و الزجاج و جمهور النحاة: إن «إلا» هنا ليست للاستثناء، بل بمعنى غير صفة لآلهة، و لذلك ارتفع الاسم الذى بعدها، و ظهر فيه إعراب غير التى جاءت إلا بمعناها، و منه قول الشاعر:

و كلّ أخ مفارقه أخوه‌لعمر أبيك إلّا الفرقدان

و قال الفرّاء: إنّ «إلا» هنا بمعنى سوى، و المعنى: لو كان فيهما آلهة سوى اللّه لفسدتا، و وجه الفساد أن كون مع اللّه إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادرا على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع و الاختلاف، و يحدث بسببه الفساد، اه. فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أى: تنزّه عزّ و جلّ عمّا لا يليق به من ثبوت الشريك له، و فيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربّ سبحانه عمّا لا يليق به لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوّة سلطانه و عظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شى‌ء من قضائه و قدره وَ هُمْ أى: العباد يُسْئَلُونَ عمّا يفعلون، أى: يسألهم اللّه عن ذلك لأنهم عبيده. و قيل: إن المعنى أنه سبحانه لا يؤاخذ عل أفعاله و هم يؤاخذون. قيل: و المراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح و الملائكة لا يصلح لأن يكون إلها أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً أى: بل اتخذوا، و فيه إضراب و انتقال من

---

(١). الأعراف: ٢٠۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ۴٧۶

إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، و لهذا قال: قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ على دعوى أنها آلهة، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى اللّه، و لا سبيل لهم إلى شى‌ء من ذلك، لا من عقل و لا نقل؛ لأنّ دليل العقل قد مرّ بيانه، و أما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله:

هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي أى: هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتى و ذكر الأمم السالفة، و قد أقمته عليكم و أوضحته لكم، فأقيموا أنتم برهانكم. و قيل المعنى: هذا القرآن و هذه الكتب التى أنزلت قبلى، فانظروا هل فى واحد منها أن اللّه أمر باتّخاذ إله سواه. قال الزجّاج:

قيل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير اللّه، فهل فى ذكر من معى و ذكر من قبلى إلا توحيد اللّه؟ و قيل: معنى الكلام و الوعيد و التهديد، أى: افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء.

و حكى أبو حاتم أن يحيى بن يعمر و طلحة بن مصرّف قرأ: «هذا ذكر من معى و ذكر من قبلى» بالتنوين و كسر الميم، و زعم أنه لا وجه لهذه القراءة. و قال الزجّاج فى توجيه هذه القراءة: إن المعنى هذا ذكر مما أنزل إلىّ و مما هو معى و ذكر من قبلى. و قيل: ذكر كائن من قبلى، أى: جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى.

ثم لمّا توجهت الحجة عليهم ذمّهم بالجهل بمواضع الحق فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَ و هذا إضراب من جهته سبحانه و انتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه و بين الباطل. و قرأ ابن محيصن و الحسن الحق بالرفع على معنى هذا الحق، أو هو الحق، و جملة فَهُمْ مُعْرِضُونَ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون، أى: فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الإعراض عن التوحيد و

اتباع الرسول، فلا يتأمّلون حجّة، و لا يتدبّرون فى برهان، و لا يتفكّرون فى دليل وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ قرأ حفص و حمزة و الكسائى نُوحِي بالنون، و قرأ الباقون بالياء، أى: نوحى إليه أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا و فى هذا تقرير لأمر التوحيد و تأكيد لما تقدّم من قوله: هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ و ختم الآية بالأمر لعباده بعبادته، فقال فَاعْبُدُونِ فقد اتّضح لكم دليل العقل، و دليل النقل، و قامت عليكم حجة اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ قال: شرفكم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: فيه حديثكم. و فى رواية عنه قال: فيه دينكم. و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: بعث اللّه نبيا من حمير يقال له شعيب، فوثب إليه عبد فضربه بعصا، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شىء، و فيهم أنزل اللّه: وَ كَمْ قَصَمْنا إلى قوله: خامِدِينَ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن الكلبى فى قوله:

وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ قال: هى حضور بنى أزد، و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله:

وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ قال: ارجعوا إلى دوركم و أموالكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:

فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ قال: هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم، فأرسل اللّه عليهم بختنصر فقتلهم،

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۴۷۷

و فى قوله: جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ قال: بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن وهب قال حدّثنى رجل من الجزريين قال: كان اليمن قريتان، يقال لإحداهما حضور و للأخرى قلابة، فبطروا و أترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم، فلما أترفوا بعث اللّه إليهم نبيا فدعاهم فقتلوه، فألقى اللّه فى قلب بختنصر أن يغزوهم، فجهز لهم جيشا، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه، فجهز إليهم جيشا آخر أكثف من الأوّل، فهزموهم أيضا؛ فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون، فسمعوا مناديا يقول: لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ فرجعوا، فسمعوا صوتا مناديا يقول: يا لثارات النبىّ فقتلوا بالسيف، فهى التى قال اللّه: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ إلى قوله: خامِدِينَ قلت: و قرى حضور معروفة الآن بينها و بين مدينة صنعاء نحو بريد «١» فى جهة الغرب منها. و أخرج ابن بالمنذر عن ابن عباس فى قوله: حَصِيداً خامِدِينَ قال: كخمود النار إذا طفئت. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً قال: اللهو: الولد. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن الحسن فى قوله: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً قال: النساء. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ يقول: لا يرجعون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ قال:

بعباده وَ هُمْ يُسْئَلُونَ قال: عن أعمالهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك نحوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن عباس قال: ما فى الأرض قوم أبغض إلىّ من القدرية، و ما ذلك إلا لأنهم لا يعلمون قدرة اللّه، قال اللّه: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢۶ الى ٣۵]

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (٢۶) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ

أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠)
وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (٣٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٣٥)
قوله: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً هؤلاء القائلون هم خزاعة، فإنهم قالوا: الملائكة بنات اللّه، و قيل: هم اليهود، و يصحّ حمل الآية على كلّ من جعل للّه ولدا. و قد قالت اليهود: عزير ابن اللّه، و قالت

---

(١). البريد: يساوى نحو (٢٠) كم تقريبا على بعض التقديرات.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٧٨

النصارى: المسيح ابن اللّه، و قالت طائفة من العرب: الملائكة بنات اللّه. ثم نزّه عزّ و جلّ نفسه. فقال:
سُبْحانَهُ أى: تنزيها له عن ذلك، و هو مقول على ألسنة العباد. ثم أضرب عن قولهم و أبطله فقال:
بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ أى: ليسوا كما قالوا، بل هم عباد اللّه سبحانه مكرمون بكرامته لهم، مقرّبون عنده.
و قرئ مُكْرَمُونَ بالتشديد، و أجاز الزجاج و الفراء نصب عباد على معنى: بل اتخذ عبادا، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ أى: لا يقولون شيئا حتى يقوله أو يأمرهم به. كذا قال ابن قتيبة و غيره، و فى هذا دليل على كمال طاعتهم و انقيادهم. و قرئ «لا يسبقونه» بضم الباء من سبقته أسبقه وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ أى: هم العاملون بما يأمرهم اللّه به، التابعون له المطيعون لربهم يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: يعلم ما عملوا و ما هم عاملون، أو يعلم ما بين أيديهم و هو الآخرة، و ما خلفهم و هو الدنيا، و وجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدّموا و أخروا، لم يعملوا عملا و لم يقولوا قولا إلا بأمره وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى أى: يشفع الشافعون له، و هو من رضى عنه، و قيل: هم أهل لا إله إلا اللّه، و قد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون فى الدار الآخرة. وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ أى: من خشيتهم منه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، و الخشية: الخوف مع التعظيم، و الإشفاق: الخوف مع التوقع و الحذر، أى: لا يأمنون مكر اللّه وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ أى:
من يقل من الملائكة إنى إله من دون اللّه. قال المفسرون: عنى بهذا إبليس؛ لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنى إله إلا إبليس، و قيل: الإشارة إلى جميع الأنبياء فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ أى: فذلك القائل، على سبيل الفرض و التقدير، نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذى قاله، كما نجزى غيره من المجرمين كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أى: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم، فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الإلهية و العبادة فى غير موضعها، و المراد بالظالمين المشركون أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا الهمزة للإنكار، و الواو للعطف على مقدّر، و الرؤية هى القلبية، أى: لم يتفكروا و لم يعلموا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً قال الأخفش: إنما قال كانتا، لأنهما صنفان، أى: جماعتا السماوات و الأرضين، كما قال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا «١» و قال الزجاج: إنما قال كانتا لأنه يعبر عن السماوات بلفظ الواحد، لأن السماوات كانت سماء واحدة، و كذلك الأرضون، و الرتق: السدّ، ضدّ الفتق، يقال: رتقت الفتق أرتقه فارتتق، أى: التأم، و منه الرتقاء للمنضمة الفرج، يعنى: أنهما كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل اللّه بينهما، و قال رتقا و لم يقل رتقين لأنه مصدر، و التقدير: كانتا ذواتى رتق، و معنى فَفَتَقْناهُما ففصلناهما؛ أى: فصلنا بعضهما من بعض، فرفعنا السماء، و أبقينا الأرض مكانها وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ أى: أحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كل شيء، فيشمل الحيوان و النبات، و المعنى أن الماء سبب حياة كل شيء. و

قيل: المراد بالماء هنا النطفة، و به قال أكثر المفسرين، و هذا احتجاج على المشركين بقدرة اللّه سبحانه و بديع صنعه، و قد تقدّم تفسير هذه الآية، و الهمزة فى أَ فَلا يُؤْمِنُونَ للإنكار

---

(۱). فاطر: ۴۱.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۷۹

عليهم، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية. وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أى:
جبالا ثوابت أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ الميد: التحرّك و الدوران، أى: لئلا تتحرك و تدور بهم، أو كراهة ذلك، و قد تقدّم تفسير ذلك فى النحل مستوفى. وَ جَعَلْنا فِيها أى: فى الرواسى، أو فى الأرض فِجاجاً، قال أبو عبيدة: هى المسالك. و قال الزجّاج: كلّ مخترق بين جبلين فهو فج و سُبُلًا تفسير للفجاج؛ لأنّ الفجّ قد لا يكون طريقا نافذا مسلوكا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إلى مصالح معاشهم، و ما تدعو إليه حاجاتهم وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً عن أن يقع و يسقط على الأرض، كقوله: وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ «۱» و قال الفراء: محفوظا بالنجوم من الشيطان، كقوله: وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ «۲» و قيل: محفوظا لا يحتاج إلى عماد، و قيل: المراد بالمحفوظ هنا المرفوع، و قيل: محفوظا عن الشرك و المعاصى، و قيل: محفوظا عن الهدم و النقض وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ أضاف الآيات إلى السماء؛ لأنها مجعولة فيها، و ذلك كالشمس و القمر و نحوهما، و معنى الإعراض أنهم لا يتدبرون فيها، و لا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم، و ذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه، و النهار ليتصرفوا فيه فى معايشهم، و خلق الشمس و القمر، أى:
جعل الشمس آية النهار، و القمر آية الليل، ليعلموا عدد الشهور و الحساب كما تقدّم بيانه فى سبحان «۳».
كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أى: كل واحد من الشمس و القمر و النجوم فى فلك يسبحون، أى: يجرون فى وسط الفلك، و يسيرون بسرعة كالسابح فى الماء، و الجمع فى الفعل باعتبار المطالع، قال سيبويه: إنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل، و جعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل، جعل الضمير عنهنّ ضمير العقلاء، و لم يقل يسبحن أو تسبح، و كذا قال الفراء. و قال الكسائى: إنما قال يسبحون لأنه رأس آية، و الفلك واحد أفلاك النجوم، و أصل الكلمة من الدوران، و منه فلكة المغزل لاستدارتها وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أى: دوام البقاء فى الدنيا أَ فَإِنْ مِتَ بأجلك المحتوم فَهُمُ الْخالِدُونَ أى: أفهم الخالدون. قال الفراء: جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت. قال: و يجوز حذف الفاء و إضمارها، و المعنى: إن متّ فهم يموتون أيضا، فلا شماتة فى الموت. و قرئ مِتَ بكسر الميم و ضمها لغتان، و كان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه اللّه عنهم: أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ «۴». كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أى: ذائقة مفارقة جسدها، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائنا ما كان وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً أى: نختبركم بالشدّة و الرخاء، لننظر كيف شكركم و صبركم. و المراد أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، و فتنة مصدر لنبلوكم من غير لفظه وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ لا إلى غيرنا فنجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرا فشرّ.
و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: قالت اليهود إن اللّه عزّ و جلّ صاهر الجنّ فكانت بنيهم الملائكة، فقال اللّه تكذيبا لهم بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ أى: الملائكة ليس كما قالوا، بل عباد أكرمهم بعبادته

---

(۱). الحج: ۶۵.

(۲). الحجر: ۱۷.

(۳). أی سورة الإسراء.

(۴). الطور: ۳۰.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸۰

لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ يثنى عليهم وَ لا يَشْفَعُونَ قال: لا تشفع الملائكة يوم القيامة إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى قال: لأهل التوحيد لمن رضى عنه. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن فی الآية قال: قول لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و البيهقی فی البعث، عن ابن عباس فی الآية قال: الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقی فی البعث، عن جابر «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا قوله تعالى: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى قال: إنّ شفاعتی لأهل الكبائر من أمتی».

و أخرج الفريابی و عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، و البيهقی فی الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فی قوله:

كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما قال: فتقت السماء بالغيث، و فتقت الأرض بالنبات. و أخرج ابن أبی حاتم عنه كانَتا رَتْقاً قال: لا يخرج منهما شیء، و ذكر مثل ما تقدم. و أخرجه ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و أبو نعيم فی الحلية، عنه أيضا من طريق أخرى. و أخرج ابن جرير عنه كانَتا رَتْقاً قال: ملتصقتين. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و البيهقی فی الأسماء و الصفات، عن أبی العالية فی قوله: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ قال: نطفة الرجل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا قال: بين الجبال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: كُلٌّ فِي فَلَكٍ قال: دوران يَسْبَحُونَ قال: يجرون. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم، و أبو الشيخ فی العظمة، عنه كُلٌّ فِي فَلَكٍ قال: فلك كفلكة المغزل يَسْبَحُونَ قال: يدورون فی أبواب السماء.

كما تدور الفلكة فی المغزل. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: هو فلك السماء. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردويه و البيهقی عن عائشة قالت: دخل أبو بكر على النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم و قد مات فقبله و قال: وا نبياه وا خليلاه وا صفياه، ثم تلا وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ الآية، و قوله:

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ «۱». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله:

وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً قال: نبتليكم بالشدة و الرخاء، و الصّحة و السّقم، و الغنى و الفقر، و الحلال و الحرام، و الطاعة و المعصية، و الهدى و الضلالة.

[سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۶ الى ۴۳]

وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (۳۶) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (۳۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۳۹) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۴۰)

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۴۱) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (۴۳)

---

(۱). الزمر: ۳۰.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٨١

قوله: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يعنى المستهزئين من المشركين إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أى: ما يتخذونك إلا مهزوءا بك، و الهزء: السخرية، و هؤلاء هم الذين قال اللّه فيهم: إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ «١» و المعنى: ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزؤا أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ هو على تقدير القول، أى: يقولون أ هذا الذى، فعلى هذا هو جواب إذا، و يكون قوله: إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً اعتراضا بين الشرط و جوابه، و معنى يذكرها يعيبها. قال الزجاج: يقال فلان يذكر الناس، أى: يغتابهم، و يذكرهم بالعيوب، و فلان يذكر اللّه، أى: يصفه بالتعظيم و يثنى عليه، و إنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه، و على ما قالوا لا يكون الذكر فى كلام العرب العيب، و حيث يراد به العيب يحذف منه السوء، قيل: و من هذا قول عنترة:

لا تذكرى مهرى و ما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أى: لا تعيبى مهرى، و جملة وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و هم بالقرآن كافرون، أو هم بذكر الرحمن الذى خلقهم كافرون، و المعنى: أنهم يعيبون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يذكر آلهتهم التى لا تضرّ و لا تنفع بالسوء، و الحال أنهم بذكر اللّه سبحانه بما يليق به من التوحيد، أو القرآن كافرون، فهم أحق بالعيب لهم و الإنكار عليهم، فالضمير الأوّل مبتدأ خبره كافرون، و «بذكر» متعلق بالخبر، و الضمير الثانى تأكيد خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ أى: جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل. قال الفراء: كأنه يقول بنيته و خلقته من العجلة و على العجلة. و قال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، و العرب تقول للذى يكثر منه الشي‏ء خلقت منه، كما تقول: أنت من لعب، و خلقت من لعب، تريد المبالغة فى وصفه بذلك. و يدلّ على هذا المعنى قوله: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا «٢» و المراد بالإنسان الجنس. و قيل: المراد بالإنسان آدم، فإنه لما خلقه اللّه و نفخ فيه الروح صار الروح فى رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقع، فقيل: خلق الإنسان من عجل، كذا قال عكرمة و سعيد بن جبير و السدّى و الكلبى و مجاهد. و قال أبو عبيدة و كثير من أهل المعانى: العجل الطين بلغة حمير. و أنشدوا:

....

و النخل ينبت بين الماء و العجل «٣» و قيل: إن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث، و هو القائل: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ «٤» و قيل: نزلت فى قريش لأنهم استعجلوا العذاب. و قال الأخفش: معنى «خلق الإنسان من عجل» أنه قيل له كن فكان. و قيل: إن هذه الآية من المقلوب، أى: خلق العجل من الإنسان، و قد حكى هذا عن أبى عبيدة و النحاس، و القول الأوّل أولى. سَأُرِيكُمْ آياتِي أى: سأريكم نقماتى منكم بعذاب النار فَلا تَسْتَعْجِلُونِ أى: لا تستعجلونى بالإتيان به، فإنه نازل بكم لا محالة. و قيل: المراد بالآيات ما

---

(١). الحجر: ٩٥.

(٢). الإسراء: ١١.

(٣). و صدره: و النبع فى الصخرة الصمّاء منبته.

(٤). الأنفال: ٣٢.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٨٢

دلّ على صدق محمد صلّى اللّه عليه و سلّم من المعجزات، و ما جعله اللّه له من العاقبة المحمودة، و الأول أولى، و يدلّ عليه قولهم مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: متى حصول هذا الوعد؛ الذى تعدنا به من العذاب، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء و

السخرية. و قيل: المراد بالوعد هنا القيامة، و معنى إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين فى وعدكم، و الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجىء الساعة و قرب حضور العذاب، و جملة لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا و ما بعدها مقرّرة لما قبلها، أى: لو عرفوا ذلك الوقت، و جواب لو محذوف، و التقدير: لو علموا الوقت الذى لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ لما استعجلوا الوعيد. و قال الزجاج فى تقدير الجواب:

لعلموا صدق الوعد، و قيل: لو علموه ما أقاموا على الكفر. و قال الكسائى: هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة، أى: لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية، و يدلّ عليه قوله: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً و تخصيص الوجوه و الظهور بالذكر بمعنى الأمام و الخلف؛ لكونهما أشهر الجوانب فى استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكلّ؛ بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم، و محل حين لا يكفون النصب على أنه مفعول العلم، و هو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه، و معنى و لا هم ينصرون: و لا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم، و جملة «بل تأتيهم بغتة» معطوفة على «يكفون»، أى: لا يكفونها، بل تأتيهم العدة أو النار أو الساعة بغتة، أى: فجأة فَتَبْهَتُهُمْ قال الجوهرى: بهته بهتا: أخذه بغتا، و قال الفراء:

«فتبهتهم» أى: تحيرهم، و قيل: فتفجؤهم فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها أى: صرفها عن وجوههم و لا عن ظهورهم، فالضمير راجع إلى النار، و قيل: راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة، و قيل: راجع إلى الحين بتأويله بالساعة وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ أى: يمهلون و يؤخرون لتوبة و اعتذار، و جملة وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ مسوقة لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تعزيته، كأنه قال: إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم و خطر شأنهم فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ أى: أحاط و دار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل و هزءوا بهم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ «ما» موصولة، أو مصدرية، أى: فأحاط بهم الأمر الذى كانوا يستهزءون به، أو فأحاط بهم استهزاؤهم. أى: جزاؤه، على وضع السبب موضع المسبب، أو نفس الاستهزاء، إن أريد به العذاب الأخروى قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ أى: يحرسكم و يحفظكم، و الكلاءة: الحراسة و الحفظ، يقال: كلأه اللّه كلاء بالكسر: أى حفظه و حرسه. قال ابن هرمة:

إنّ سليمى و اللّه يكلؤهاضنّت بشىء ما كان يرزؤها

أى: قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع و التوبيخ: من يحرسكم و يحفظكم بالليل و النهار من بأس الرحمن و عذابه؛ الذى تستحقون حلوله بكم و نزوله عليكم؟ و قال الزجّاج: معناه من يحفظكم من بأس الرحمن. و قال الفرّاء: المعنى من يحفظكم ممّا يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا و الآخرة.

و حكى الكسائى و الفراء: «من يكلوكم» بفتح اللام و إسكان الواو بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸۳

أى: عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه و لا يخطر ببالهم، بل يعرضون عنه، أو عن القرآن، أو عن مواعظ اللّه، أو عن معرفته أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا «أم» هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، للإضراب و الانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم و تقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه، و الدفع عنها. و المعنى: بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا. و قيل: فيه تقديم و تأخير، و التقدير: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم. ثم وصف آلهتهم هذه التى زعموا أنها تنصرهم بما يدلّ على الضعف و العجز، فقال: لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أى: هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم «و لا هم منا يصحبون»، أى: و لا هم يجارون من عذابنا. قال ابن قتيبة: أى: لا يجيرهم منا أحد؛ لأن المجير صاحب الجار، و العرب تقول: صحبك اللّه، أى: حفظك و أجارك، و منه قول الشاعر:

ينادى بأعلى صوته متعوّذاليصحب منّا و الرّماح دوانى

تقول العرب: أنا لك جار و صاحب من فلان، أى: مجير منه. قال المازنى: هو من أصحبت الرجل إذا منعته.
و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: «مرّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم على أبى سفيان و أبى جهل و هما يتحدّثان، فلما رآه أبو جهل ضحك و قال لأبى سفيان: هذا نبىّ عبد مناف، فغضب أبو سفيان فقال: ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبىّ؟! فسمعها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فرجع إلى أبى جهل فوقع به و خوّفه و قال: ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمّك، و قال لأبى سفيان: أما إنك لم تقل ما قلت إلا حميـة» فنزلت هذه الآية: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا. قلت: ينظر من الذى روى عنه السدّى؟. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نفخ فى آدم الروح صار فى رأسه فعطس فقال: الحمد للّه، فقالت: الملائكة، يرحمك اللّه، فذهب لينهض قبل أن تمور فى رجليه فوقع، فقال اللّه: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ و قد أخرج نحو هذا ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير. و أخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد، و كذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ قال:
يحرسكم، و فى قوله: وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ قال: لا ينصرون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ قال: لا يجارون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى الآية:
قال: لا يمنعون.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ۴۴ الى ۵۶]

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ (۴۴) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (۴۵) وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۴۶) وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ (۴۷) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (۴۸)
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (۴۹) وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۰) وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ (۵۱) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (۵۲) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (۵۳)
قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۵۴) قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (۵۵) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۵۶)
فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸۴
لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك؛ منتقلا إلى بيان أنّ ما هم فيه من الخير و التمتع بالحياة العاجلة هو من اللّه، لا من مانع يمنعهم من الهلاك، و لا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع، فقال: بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ يعنى أهل مكة، متّعهم اللّه بما أنعم عليهم حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فاغترّوا بذلك، و ظنّوا أنهم لا يزالون كذلك، فردّ سبحانه عليهم قائلا أَ فَلا يَرَوْنَ أى: أفلا ينظرون فيرون أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أى: أرض الكفر، ننقصها بالظهور عليها من أطرافها، فنفتحها بلدا بعد بلد، و أرضا بعد أرض، و قيل: ننقصها بالقتل و السبى، و قد مضى فى الرعد الكلام على هذا مستوفى، و الاستفهام فى قوله: أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره، أى: كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها؟ و فى هذا إشارة إلى أنّ الغالبين هم المسلمون قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ أى: أخوّفكم و أحذركم بالقرآن، و ذلك شأنى و ما أمرنى اللّه به، و

قوله: وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إما من تتمة الكلام الذى أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، أو من جهة اللّه تعالى. و المعنى: أن من أصمّ اللّه سمعه، و ختم على قلبه، و جعل على بصره غشاوة، لا يسمع الدعاء. قرأ أبو عبد الرحمن السلمى و محمد بن السميقع «و لا يسمع» بضم الياء و فتح الميم على ما لم يسمّ فاعله. و قرأ ابن عامر و أبو حيوة و يحيى ابن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة و كسر الميم، أى: إنك يا محمد لا تسمع هؤلاء. قال أبو على الفارسى:

و لو كان كما قال ابن عامر لكان: إذا ما تنذرهم، فيحسن نظم الكلام، فأما إذا ما يُنْذَرُونَ فحسن أن يتبع قراءة العامة، و قرأ الباقون بفتح الياء و فتح الميم و رفع الصم على أنه الفاعل وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ المراد بالنفحة القليل، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان، و منه قول الشاعر «١»:

و عمرة من سروات النّساءتنفّح بالمسك أردانها

و قال المبرد: النفحة: الدفعة من الشىء التى دون معظمه، يقال: نفحه نفحة بالسيف؛ إذا ضربه ضربة خفيفة، و قيل: هى النصيب، و قيل: هى الطرف. و المعنى متقارب، أى: و لئن مسّهم أقلّ شىء من العذاب لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أى: ليدعون على أنفسهم بالويل و الهلاك، و يعترفون عليها بالظلم

---

(١). هو قيس بن الخطيم.

فتح القدير، ج٣، ص: ٤٨٥

وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ الموازين: جمع ميزان، و هو يدلّ على أن هناك موازين، و يمكن أن يراد ميزان واحد، عبّر عنه بلفظ الجمع، و قد ورد فى السنة فى صفة الميزان ما فيه كفاية، و قد مضى فى الأعراف، و فى الكهف فى هذا ما يغنى عن الإعادة، و القسط صفة للموازين. قال الزجّاج: قسط مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط و موازين قسط. و المعنى: ذوات قسط، و القسط: العدل. و قرئ «القصط» بالصاد و الطاء. و معنى لِيَوْمِ الْقِيامَةِ لأهل يوم القيامة، و قيل: اللام بمعنى فى، أى: فى يوم القيامة فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً أى: لا ينقص من إحسان محسن، و لا يزاد فى إساءة مسىء وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ قرأ نافع و شيبة و أبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة، أى: إن وقع أو وجد مثقال حبة. و قرأ الباقون بنصب المثقال، على تقدير: و إن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة، كذا قال الزجاج.

و قال أبو علىّ الفارسى: و إن كان الظلامة مثقال حبة. قال الواحدى: و هذا أحسن لتقدّم قوله: «فلا تظلم نفس شيئا»، و مثقال الشىء: ميزانه، أى: و إن كان فى غاية الخفّة و الحقارة، فإنّ حبة الخردل مثل فى الصغر أَتَيْنا بِها قرأ الجمهور بالقصر، أى: أحضرناها و جئنا بها للمجازاة عليها، و «بها» أى: بحبة الخردل.

و قرأ مجاهد و عكرمة «آتينا» بالمدّ على معنى جازينا بها، يقال: آتى يؤاتى مؤاتاة؛ جازى وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ أى: كفى بنا محصين، و الحسب فى الأصل معناه العدّ، و قيل: كفى بنا عالمين؛ لأن من حسب شيئا علمه و حفظه، و قيل: كفى بنا مجازين على ما قدّموه من خير و شرّ. ثم شرع سبحانه فى تفصيل ما أجمله سابقا بقوله: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ «١» فقال: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ المراد بالفرقان هنا التوراة؛ لأن فيها الفرق بين الحلال و الحرام، و قيل: الفرقان هنا هو النصر على الأعداء، كما فى قوله: وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ «٢». قال الثعلبى: و هذا القول أشبه بظاهر الآية، و معنى «و ضياء» أنهم استضاءوا بها فى ظلمات الجهل و الغواية، و معنى «و ذكرا» الموعظة، أى: أنهم يتّعظون بما فيها، و خصّ المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك، و وصفهم بقوله: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لأن هذه الخشية تلازم التقوى. و يجوز أن يكون الموصول بدلا من المتقين، أو بيانا له، و محل «بِالْغَيْبِ» النصب على الحال، أى: يخشون عذابه و هو غائب عنهم، أو

هم غائبون عنه؛ لأنهم فى الدنيا، و العذاب فى الآخرة. و قرأ ابن عباس و عكرمة ضِياءً بغير واو. قال الفراء: حذف الواو و المجىء بها واحد، و اعترضه الزجاج بأن الواو تجىء لمعنى، فلا تزاد. وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ أى:
و هم من القيامة خائفون وجلون، و الإشارة بقوله: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ إلى القرآن. قال الزجاج:
المعنى: و هذا القرآن ذكر لمن تذكر به و موعظة لمن اتّعظ به، و المبارك: كثير البركة و الخير. و قوله:
أَنْزَلْناهُ صفة ثانية للذكر، أو خبر بعد خبر، و الاستفهام فى قوله: أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ للإنكار لما وقع منهم من الإنكار، أى: كيف تنكرون كونه منزلا من عند اللّه مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده؟
وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ أى: الرشد اللائق به و بأمثاله من الرسل، و معنى مِنْ قَبْلُ أنه أعطى

---

(۱). الأنبياء: ۷.

(۲). الأنفال: ۴۱.

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۸۶

رشده قبل إيتاء موسى و هارون التوراة. و قال الفراء: المعنى أعطيناه هداه من قبل النبوّة: أى وفقناه للنظر و الاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس و القمر و النجم، و على هذا أكثر المفسرين، و بالأوّل قال أقلهم:
وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ أنه موضع لإيتاء الرشد، و أنه يصلح لذلك، و الظرف فى قوله: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ متعلّق بآتينا أو بمحذوف، أى: اذكر حين قال، و أبوه هو آزر وَ قَوْمِهِ نمروذ و من اتبعه، و التماثيل:
الأصنام، و أصل التمثال الشيء المصنوع مشابها لشيء من مخلوقات اللّه سبحانه، يقال: مثلت الشيء بالشيء؛ إذا جعلته مشابها له، و اسم ذلك الممثّل تمثال، أنكر عليهم عبادتها بقوله: ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ و العكوف: عبارة عن اللزوم و الاستمرار على الشيء، و اللام فى «لها» للاختصاص، و لو كانت للتعدية لجيء بكلمة على، أى: ما هذه الأصنام التى أنتم مقيمون على عبادتها؟ و قيل: إن العكوف مضمّن معنى العبادة قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ أجابوه بهذا الجواب الذى هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز، و الحبل الذى يتشبث به كل غريق، و هو التمسك بمجرّد تقليد الآباء، أى: وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم و مشيا على طريقتهم، و هكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملّة الإسلامية، و إن العالم بالكتاب و السنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل قالوا هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين و برأيه آخذين، و جوابهم هو ما أجاب به الخليل هاهنا قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: فى خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد و لا يلتبس على ذى عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضرّ و لا تنفع، و لا تسمع و لا تبصر، و ليس بعد هذا الضلال ضلال، و لا يساوى هذا الخسران خسران، و هؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب اللّه و بسنّة رسوله كتابا قد دوّنت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير فى البحث فوجد ذلك الدليل من وجده، و أبرزه واضح المنار:

....

كأنه علم فى رأسه نار «۱» و قال: هذا كتاب اللّه أو هذه سنة رسوله، و أنشدهم:
دعوا كلّ قول عند قول محمدفما آمن فى دينه كمخاطر
فقالوا كما قال الأوّل «۲»:
ما أنا إلّا من غزيّة إن غوتغويت و إن ترشد غزية أرشد

و قد أحسن من قال:

يأبى الفتى إلا اتّباع الهوى و منهج الحقّ له واضح

---

(١). و صدره: و إنّ صخرا لتأتمّ الهداة به. «العلم»: الجبل. و البيت للخنساء.

(٢). هو دريد بن الصّمّة.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٨٧

ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ أى: أ جادّ أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟ قال مضربا عمّا بنوا عليه مقالتهم من التقليد: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ أى: خلقهن و أبدعهنّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ الذي ذكرته لكم من كون ربكم هو ربّ السموات و الأرض دون ما عداه مِنَ الشَّاهِدِينَ أى: العالمين به المبرهنين عليه، فإن الشاهد على الشي‌ء هو من كان عالما به، مبرهنا عليه، مبينا له.

و قد أخرج أحمد و الترمذي، و ابن جرير في تهذيبه، و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، عن عائشة: «أن رجلا قال: يا رسول اللّه إن لي مملوكين يكذبونني و يخونونني و يعصونني، و أضربهم و أشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يحسب ما خانوك و عصوك و كذبوك و عقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك، و إن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا عليك و لا لك، و إن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل، فجعل الرجل يبكي و يهتف، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أما تقرأ كتاب اللّه وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ فقال له الرجل: يا رسول اللّه؛ ما أجد لي و لهم خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار»، رواه أحمد هكذا: حدّثنا أبو نوح قراد، أخبرنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة فذكره، و في معناه أحاديث. و أخرج عبد بن حميد عن أبي صالح وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ قال: التوراة. و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن زيد قال: الْفُرْقانَ الحقّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أى: القرآن. و أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ قال: هديناه صغيرا، و في قوله: ما هذِهِ التَّماثِيلُ قال: الأصنام.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥٧ الى ٧٠]

وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ (٦٦)

أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٤٨٨

قوله: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكَمْ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة باللّه و محاماة على دينه، و الكيد: المكر، يقال: كاده يكيده كيدا و مكيدة، و المراد هنا الاجتهاد فى كسر الأصنام. قيل إنه عليه الصلاة و السلام قال ذلك سرّا، و قيل: سمعه رجل منهم بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ أى: بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين. قال المفسرون: كان لهم عيد فى كل سنة يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم:

لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فقال إبراهيم هذه المقالة. و الفاء فى قوله: فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً فصيحة، أى: فولوا، فجعلهم جذاذا، الجذّ: القطع و الكسر، يقال: جذذت الشىء قطعته و كسرته، الواحد: جذاذة، و الجذاذ: ما كسر منه. قال الجوهرى: قال الكسائى: و يقال لحجارة الذهب الجذاذ لأنها تكسر. قرأ الكسائى و الأعمش و ابن محيصن «جذاذا» بكسر الجيم، أى: كسرا و قطعا، جمع جذيذ، و هو الهشيم، مثل خفيف و خفاف، و ظريف و ظراف. قال الشاعر:

جذّذ الأصام فى محرابهاذاك فى اللّه العلىّ المقتدر

و قرأ الباقون بالضم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، أى: الحطام و الرقاق، فعال بمعنى مفعول، و هذا هو الكيد الذى وعدهم به. و قرأ ابن عباس و أبو السمال «جذاذا» بفتح الجيم. إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ أى: للأصنام لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ أى: إلى إبراهيم يَرْجِعُونَ فيحاجّهم بما سيأتى فيحجّهم، و قيل: لعلّهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر؛ لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه فى المهمات، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبرا، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعا و لا تدفع ضررا، و لا تعلم بخير و لا شرّ، و لا تخبر عن الذى ينوبها من الأمر؛ و قيل: لعلهم إلى اللّه يرجعون، و هو بعيد جدّا قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ فى الكلام حذف، و التقدير: فلما رجعوا من عيدهم، و رأوا ما حدث بآلهتهم، قالوا هذه المقالة، و الاستفهام للتوبيخ؛ و قيل: إن «من» ليست استفهامية، بل هى مبتدأ، و خبرها «إنه لمن الظالمين»، أى: فاعل هذا ظالم، و الأوّل أولى لقولهم: سَمِعْنا فَتًى إلخ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيبا للمستفهمين لهم، و هذا القائل هو الذى سمع إبراهيم يقول: تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ و معنى يَذْكُرُهُمْ يعيبهم، و قد سبق تحقيق مثل هذه العبارة، و جملة يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ صفة ثانية لفتى.

قال الزجاج: و ارتفع إبراهيم على معنى: يقال له هو إبراهيم، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف؛ و قيل: ارتفاعه على أنه مفعول ما لم يسمّ فاعله؛ و قيل: مرتفع على النداء.

و من غرائب التدقيقات النحوية، و عجائب التوجيهات الإعرابية، أن الأعلم الشنتمرى الإشبيلى قال:

إنه مرتفع على الإهمال. قال ابن عطية: ذهب إلى رفعه بغير شىء. و الفتى: هو الشاب، و الفتاة الشابة قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ القائلون هم السّائلون، أمروا بعضهم أن يأتوا به ظاهرا بمرأى من الناس. قيل:

إنه لما بلغ الخبر نمروذ و أشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجّة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به، و معنى لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به فى مثل هذا، و قيل: لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو لعلهم

فتح القدير، ج‏3، ص: 489

يشهدون طعنه على أصنامهم، و جملة قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و فى الكلام حذف تقديره: فجاء إبراهيم حين أتوا به؛ فاستفهموه هل فعل ذلك لإقامة الحجّة عليه فى زعمهم قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا أى: قال إبراهيم مقيما للحجّة عليهم، مبكّتا لهم، بل فعله كبيرهم هذا، مشيرا إلى الصنم الذى تركه و لم يكسره فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ أى: إن كانوا ممّن يمكنه النطق و يقدر على الكلام و يفهم ما يقال له؛ فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة و السلام أن يبيّن لهم أن من لا يتكلم و لا يعلم ليس بمستحق للعبادة، و لا يصحّ فى العقل أن يطلق عليه أنه إله. فأخرج الكلام مخرج التعريض

لهم بما يوقعهم فى الاعتراف بأن الجمادات التى عبدوها ليست بآلهة، لأنهم إذا قالوا إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، و يقصر عن أن يعلم بما يقع عنده فى المكان الذى هو فيه؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجّة و يعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته و أدفع لمكابرته، و قيل أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار و غضب من أن يعبد و تعبد الصغار معه إرشادا لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التى لا تسمع و لا تبصر، و لا تنفع و لا تدفع، لا تستحسن فى العقل مع وجود خالقها و خالقهم، و الأوّل أولى. و قرأ ابن السّميقع بَلْ فَعَلَهُ بتشديد اللام، على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ أى: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجّته، المتفطّن لصحة حجّة خصمه المراجع لعقله، و ذلك أنهم تنبهوا و فهموا عند هذه المقاولة بينهم و بين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه، و لا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام، يستحيل أن يكون مستحقّا للعبادة، و لهذا فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أى:

قال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات، و ليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم:

إنه لمن الظالمين ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ أى: رجعوا إلى جهلهم و عنادهم، شبّه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه، و قيل: المعنى: أنهم طأطئوا رؤوسهم خجلا من إبراهيم، و هو ضعيف، لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف، و إسناد الفعل إليهم، حتى يصحّ هذا التفسير، بل قال: «نكسوا على رؤوسهم» و قرئ «نكّسوا» بالتشديد، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم: لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ أى: قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام، ف قالَ إبراهيم مبكّتا لهم، و مزريا عليهم: أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً من النفع وَ لا يَضُرُّكُمْ بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجّر عليه السلام منهم، فقال: أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و فى هذا تحقير لهم و لمعبوداتهم، و اللام فى «لكم» لبيان المتأفّف به؛ أى: لكم و لآلهتكم، و التأفف: صوت يدلّ على التضجّر أَ فَلا تَعْقِلُونَ أى: ليس لكم عقول تتفكّرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه قالُوا حَرِّقُوهُ أى: قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع إبراهيم، و عجزوا عن مجادلته، و ضاقت عليهم مسالك المناظرة: حرّقوا إبراهيم، انصرافا منهم إلى طريق الظلم و الغشم، و ميلا منهم إلى إظهار الغلبة بأى وجه كان، و على أىّ أمر اتفق، و لهذا قالوا: وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ أى: انصروها

فتح القدير، ج۳، ص: ۴۹۰

بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل؛ إن كنتم فاعلين للنصر و قيل: هذا القائل هو نمروذ؛ و قيل: رجل من الأكراد قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ فى الكلام حذف تقديره: فأضرموا النار، و ذهبوا بإبراهيم إليها، فعند ذلك قلنا: يا نار كونى ذات برد و سلام؛ و قيل: إن انتصاب سلاما على أنه مصدر لفعل محذوف، أى: و سلّمنا سلاما عليه وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً أى: مكرا فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ أى:

أخسر من كلّ خاسر؛ و رددنا مكرهم عليهم؛ فجعلنا لهم عاقبة السّوء؛ كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مرّوا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إنى سقيم، و قد كان بالأمس قال: تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فسمعه ناس منهم، فلما خرجوا انطلق إلى أهله، فأخذ طعاما، ثم انطلق إلى آلهتهم فقرّبه إليهم، فقال: ألا تأكلون؟ فكسرها إلا كبيرهم، ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت، و إذا كبيرهم فى يده الذى كسر الأصنام، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟

فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول: تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ فجادلهم عند ذلك إبراهيم. و أخرج ابن جرير و

ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جُذاذاً قال: حطاما.
و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: فتاتا. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر عنه أيضا بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذا قال: عظيم آلهتهم. و أخرج أبو داود و الترمذى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال:
قـال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لم يكـذب إبراهيم فى شـىء قط إلا فى ثلاث كلهنّ فى اللّه: قوله: إِنِّي سَقِيمٌ و لم يكن سقيما، و قوله لسارة: أختى «١»، و قوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا» و هذا الحديث هو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بأطول من هذا. و قد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبى سعيد. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما جمع لإبراهيم ما جمع، و ألقى فى النار، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ فكان أمر اللّه أسرع، قال اللّه: كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً فلم يبق فى الأرض نـار إلاـ طفئت. و أخرج أحمـد و ابن ماجـة و ابن حبان و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن عائشـة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقتله». و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن المنذر عن ابن عمر، قال: أوّل كلمة قالها إبراهيم حين ألقى فى النار حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ «٢». و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله:
يا نارُ كُونِي قال: كان جبريل هو الـذى ناداها. و أخرج الفريابى و عبـد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علىّ نحوه. و أخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال: جاء جبريل إلى إبراهيم و هو يوثق ليلقى فى النار، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟
قال: أمّا إليك فلا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن كعب قال: ما أحرقت النار من إبراهيم

---

(١). يراجع فتح البارى حديث رقم (٦/ ٣٣٥٨)

(٢). آل عمران: ١٧٣.

إلاـ وثاقه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، فكان فيها إما خمسـين و إما أربعين، قال: ما كنت أياما و ليالى قط أطيب عيشا إذ كنت فيها، وددت أنّ عيشى و حياتى كلّها مثل عيشى إذ كنت فيها.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧١ الى ٧٧]

وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (٧١) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (٧٣) وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (٧٤) وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)
وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)
قـد تقـدّم أنّ لوطـا هو ابن أخى إبراهيم، فحكى اللّه سـبحانه هاهنا أنه نجّى إبراهيم و لوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين. قـال المفسـرون: و هى أرض الشـام، و كانـا بالعراق، و سـمّاها سـبحانه مباركـة لكثرة خصـبها و ثمارها و أنهارها، و لأنها معادن

الأنبياء؛ و أصل البركة ثبوت الخير، و منه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح، و قيل: الأرض المباركة مكة؛ و قيل: بيت المقدس؛ لأن منها بعث اللّه أكثر الأنبياء، و هى أيضا كثيرة الخصب، و قد تقدّم تفسير العالمين. ثم قال سبحانه ممتنا على إبراهيم وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً النافلة: الزيادة، و كان إبراهيم قد سأل اللّه سبحانه أن يهب له ولدا، فوهب له إسحاق، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة، أى: زيادة؛ و قيل: المراد بالنافلة هنا العطية، قاله الزجاج؛ و قيل:

النافلة هنا ولد الولد؛ لأنه زيادة على الولد، و انتصاب نافلة على الحال. قال الفراء: النافلة: يعقوب خاصة؛ لأنه ولد الولد وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ أى: و كلّ واحد من هؤلاء الأربعة: إبراهيم و لوط و إسحاق و يعقوب، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحا عاملا بطاعة اللّه تاركا لمعاصيه. و قيل: المراد بالصلاح هنا النبوّة وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا أى: رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات و أعمال الطاعات، و معنى بأمرنا: بأمرنا لهم بذلك، أى: بما أنزلنا عليهم من الوحى وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ أى: أن يفعلوا الطاعات، و قيل: المراد بالخيرات شرائع النبوّات وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ أى: كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين، فاعلين لما نأمرهم به، تاركين ما ننهاهم عنه وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً انتصاب لوطا بفعل مضمر دلّ عليه قوله «آتيناه»، أى: و آتينا لوطا آتيناه؛ و قيل: بنفس الفعل المذكور بعده؛ و قيل: بمحذوف هو اذكر، و الحكم: النبوّة، و العلم: المعرفة بأمر الدين؛ و قيل: الحكم: هو فصل الخصومات بالحق؛ و قيل: هو الفهم وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ القرية هى سدوم كما تقدّم، و معنى «تعمل الخبائث»: يعمل أهلها الخبائث، فوصفت القرية بوصف أهلها، و الخبائث التى كانوا يعملونها هى

اللواطة و الضراط و خذف الحصى «1» كما سيأتى، ثم علّل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ أى: خارجين عن طاعة اللّه، و الفسوق: الخروج كما تقدّم وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا بإنجائنا إياه من القوم المذكورين، و معنى «فى رحمتنا»: فى أهل رحمتنا، و قيل: فى النبوّة، و قيل: فى الإسلام، و قيل: فى الجنة إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين سبقت لهم منا الحسنى وَ نُوحاً إِذْ نادى أى: و اذكر نوحا إذ نادى ربه مِنْ قَبْلُ أى: من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أى: من الغرق بالطوفان، و الكرب: الغمّ الشديد، و المراد بأهله المؤمنون منهم وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: نصرناه نصرا مستتبعا للانتقام من القوم المذكورين، و قيل: المعنى: منعناه من القوم. و قال أبو عبيدة: من بمعنى على. ثم علّل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ أى: لم نترك منهم أحدا، بل أغرقنا كبيرهم و صغيرهم؛ بسبب إصرارهم على الذنب.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبيّ بن كعب فى قوله: إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها قال: الشام.

و أخرج ابن أبى شيبة عن أبى مالك نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: لوط كان ابن أخى إبراهيم. و أخرج ابن جرير عنه وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ قال: ولدا وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً قال: ابن الابن.

و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحكم نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ قال: أعطيناه وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً قال: عطية.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 78 الى 88]

وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ (79) وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80) وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (81) وَ مِنَ

الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (٨٢)
وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ (٨٤) وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)
فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

---

(١). أى: رميها.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٤٩٣

قوله: وَ داوُدَ معطوف على «نُوحاً» و معمول لعامله المذكور، أو المقدّر كما مرّ وَ سُلَيْمانَ معطوف على داود، و الظرف فى إِذْ يَحْكُمانِ متعلّق بما عمل فى داود، أى: و اذكرهما وقت حكمهما، و المراد من ذكرهما ذكر خبرهما. و معنى فِي الْحَرْثِ فى شأن الحرث، قيل: كان زرعا، و قيل: كرما، و اسم الحرث يطلق عليهما إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ أى: تفرّقت و انتشرت فيه غَنَمُ الْقَوْمِ قال ابن السّكّيت:

النّفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راع وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ أى: لحكم الحاكمين، و فيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين، و هو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشرى و الرضيّ، و تقدّمهما إلى القول به الفراء. و قيل: المراد الحاكمان و المحكوم عليه، و معنى «شاهدين»: حاضرين، و الجملة اعتراضية، و جملة فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ معطوفة على «إذ يحكمان»؛ لأنه فى حكم الماضى، و الضمير فى «ففهمناها» يعود إلى القضية المفهومة من الكلام، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم. قال المفسرون:

دخل رجلان على داود، و عنده ابنه سليمان؛ أحدهما صاحب حرث، و الآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئا، فقال: لك رقاب الغنم، فقال سليمان:

أو غير ذلك، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها و منافعها، و يقوم أصحاب الغنم على الكرم، حتى إذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، و دفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم، فقال داود:

القضاء ما قضيت، و حكم بذلك. قال النّحاس: إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كان قريبا منه، و أما فى حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم، و قيمة ما أفسدت الغنم، سواء. قال جماعة من العلماء: إن داود حكم بوحى، و حكم سليمان بوحى نسخ اللّه به حكم داود، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحى. و قال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد، و كلام أهل العلم فى حكم اجتهاد الأنبياء معروف؛ و هكذا ما ذكره أهل العلم فى اختلاف المجتهدين، و هل كل مجتهد مصيب؛ أو الحق مع واحد؟

و قد استدلّ المستدلون بهذه الآية على أنّ كلّ مجتهد مصيب، و لا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، و أما كون كل واحد منهما مصيبا، فلا تدلّ عليه هذه الآية و لا غيرها، بل صرّح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين و غيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، و إن اجتهد فأخطأ فله أجر، فسمّاه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مخطئا، فكيف يقال إنه مصيب لحكم اللّه موافق له، فإن حكم اللّه سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين، و إلا لزم توقف حكمه عزّ و جلّ على اجتهادات المجتهدين، و اللازم باطل فالملزوم مثله. و أيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحلّ و الحرمة

حلالا و حراما فى حكم اللّه سبحانه. و هذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. و أيضا يلزم أن حكم اللّه سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة، و لا ينقطع ما يريده اللّه سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين و اللازم باطل فالملزوم مثله. و قد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه فى المؤلّف الذى سميناه «القول المفيد فى حكم التقليد» و فى «أدب الطلب و منتهى الأرب» فمن أحبّ الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما.

فإن قلت: فما حكم هذه الحادثة التى حكم فيها داود و سليمان فى هذه الشريعة المحمدية، و الملة

الإسلامية؟ قلت: قد ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل، و على أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، و أن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها، و هذا الضمان هو مقدار الذاهب عينا أو قيمة. و قد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمّنه هذا الحديث، و ذهب أبو حنيفة و أصحابه و جماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، و أن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء، و أدخلوا فسادها فى عموم قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «جرح العجماء جبار» «۱» قياسا لجميع أفعالها على جرحها. و يجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار، لأنه فى مقابلة النص، و من أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل و النهار. و يجاب عنه بحديث البراء، و ممّا يدلّ على أن هذين الحكمين من داود و سليمان كانا بوحى من اللّه سبحانه لا باجتهاد. قوله: وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً فإن اللّه سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين، و هما إن كانا خاصّين فصدقهما على هذه القضية التى حكاها اللّه سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها، و إن كانا عامّين فهذا الفرد من الحكم و العلم، و هو ما وقع من كل واحد منهما فى هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته و دلالته عليه، و مما يستفاد من دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم، من عدم كون حكم داود حكما شرعيا، أى: و كلّ واحد منهما أعطيناه حكما و علما كثيرا، لا سليمان وحده. و لما مدح داود و سليمان على سبيل الاشتراك، ذكر ما يختصّ بكل واحد منهما، فبدأ بداود فقال: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ التسبيح إما حقيقة أو مجاز، و قد قال بالأوّل جماعة و هو الظاهر. و ذلك أن داود كان إذا سبّح سبّحت الجبال معه؛ و قيل: إنها كانت تصلّى معه إذا صلّى، و هو معنى التسبيح. و قال بالمجاز جماعة آخرون، و حملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبا من عظيم خلقها و قدرة خالقها؛ و قيل: كانت الجبال تسير مع داود، فكان من رآها سائرة معه سبّح. وَ الطَّيْرَ معطوف على الجبال، و قرئ بالرفع على أنه مبتدأ و خبره محذوف، أى: و الطير مسخرات، و لا يصحّ العطف على الضمير فى «يسبحن» لعدم التأكيد و الفصل.

وَ كُنَّا فاعِلِينَ يعنى ما ذكر من التفهيم، و إيتاء الحكم و التسخير وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ اللبوس عند العرب السلاح كله درعا كان أو جوشنا «۲»، أو سيفا، أو رمحا. قال الهذلى:

و عندى لبوس فى اللباس كأنه، إلخ «۳» ......

---

(۱). «العجماء»: الدابة. و «الجبار»: الهدر.

(۲). «الجوشن»: الدرع.

(۳). فى تفسير القرطبى (۱۱/ ۳۲۱): و معى لبوس للبئيس كأنه.

و عجزه: روق بجبهة ذى نعاج مجفل.

«البئيس»: الشجاع. «الروق»: القرن. «ذو نعاج»: الثور الوحشى.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۴۹۵
و المراد فى الآيـة الدروع خاصة، و هو بمعنى الملبوس، كالركوب و الحلوب، و الجار و المجرور أعنى «لكم» متعلّق ب «علّمناه» ليحصنكم من بأسكم قرأ الحسن و أبو جعفر و ابن عامر و حفص و روح «لِتُحْصِنَكُمْ» بالتاء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع. و قرأ شيبة و أبو بكر و المفضل و ابن أبى إسحاق «لنحصنكم» بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه. و قرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس، أو إلى داود، أو إلى اللّه سبحانه. و معنى مِنْ بَأْسِكُمْ من حربكم، أو من وقع السلاح فيكم فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم، و الاستفهام فى معنى الأمر. ثم ذكر سبحانه ما خصّ به سليمان، فقال وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ أى: و سخرنا الريح عاصِفَةً أى: شديدة الهبوب. يقال: عصفت الريح، أى: اشتدت، فهى ريح عاصف و عصوف، و انتصاب الريح على الحال.

و قرأ عبد الرحمن الأعرج و السلمى و أبو بكر «و لسليمان الرّيح» برفع الريح على القطع مما قبله، و يكون مبتدأ و خبره «تجرى».
و أما على قراءة النصب فيكون محل تَجْرِي بِأَمْرِهِ النصب أيضا على الحالية، أو على البدلية إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها و هى أرض الشام كما تقدّم. وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عالِمِينَ أى:

بتدبير كلّ شى‏ء وَ مِنَ الشَّياطِينِ أى: و سخّرنا من الشياطين مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ فى البحار و يستخرجون منها ما يطلبه منهم، و قيل: إن «من» مبتدأ و خبره ما قبله، و الغوص: النزول تحت الماء، يقال: غاص فى الماء، و الغوّاص: الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ. وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ قال الفراء: أى سوى ذلك، و قيل: يراد بذلك المحاريب و التماثيل و غير ذلك ممّا يسخرهم فيه وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ أى: لأعمالهم. و قال الفرّاء: حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنّعوا، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. قال الزجاج: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا، و كان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ معطوف على ما قبله، و العامل فيه: إما المذكور أو المقدّر كما مرّ، و العامل فى الظرف و هو «إذ نادى ربه» هو العامل فى أيوب أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ أى: بأنى مسنى الضرّ. و قرئ بكسر «إنى».

و اختلف فى الضرّ الذى نزل به ماذا هو، فقيل: إنه قام ليصلى فلم يقدر على النهوض؛ و قيل: إنه أقرّ بالعجز، فلا يكون ذلك منافيا للصبر؛ و قيل: انقطع الوحى عنه أربعين عاما؛ و قيل: إن دودة سقطت من لحمه؛ فأخذها و ردّها فى موضعها فأكلت منه، فصاح: مسنى الضرّ؛ و قيل: كان الدود تناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه؛ و قيل: إن ضرّه قول إبليس لزوجته اسجدى لى، فخاف ذهاب إيمانها؛ و قيل:

إنه تقذّره قومه؛ و قيل: أراد بالضرّ الشماتة، و قيل غير ذلك. و لما نادى ربه متضرّعا إليه وصفه بغاية الرحمة فقال: وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأخبر اللّه سبحانه باستجابته لدعائه، فقال: فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ أى: شفاه اللّه ممّا كان به، و أعاضه بما ذهب عليه، و لهذا قال سبحانه: وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ قيل: تركهم اللّه عزّ و جلّ له، و أعطاه مثلهم فى الدنيا. قال النحّاس: و الإسناد بذلك صحيح، و قد كان مات أهله جميعا إلا امرأته، فأحياهم اللّه فى أقلّ من طرف البصر، و آتاه مثلهم معهم، و قيل: كان

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۴۹۶
ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم اللّه، فيكون معنى الآية على هذا: آتيناه مثل أهله و مثلهم معهم، و انتصاب رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا على العلّة، أى: آتيناه ذلك لرحمتنا له وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ أى: و تذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر.
و اختلف فى مدّة إقامته على البلاء، فقيل: سبع سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام و سبع ليال، و قيل: ثلاثين سنة، و قيل: ثمانى عشرة سنة وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ أى: و اذكر هؤلاء، و إدريس هو أخنوخ، و ذا الكفل إلياس، و قيل: يوشع بن نون، و

قيل: زكريا. و الصّحيح أنه رجل من بنى إسرائيل كان لا يتورّع عن شىء من المعاصى، فتاب فغفر اللّه له؛ و قيل: إن اليسع لما كبر قال: من يتكفّل لى بكذا و كذا من خصال الخير حتى أستخلفه؟ فقال رجل: أنا، فاستخلفه و سمّى ذا الكفل. و قيل: كان رجلا يتكفّل بشأن كل إنسان إذا وقع فى شىء من المهمات، و قيل غير ذلك. و قد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبىّ.

و قال جماعة: هو نبىّ. ثم وصف اللّه سبحانه هؤلاء بالصبر فقال: كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ أى: كلّ واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلّفهم اللّه به وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا أى: فى الجنة، أو فى النبوّة، أو فى الخير على عمومه، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ أى: الكاملين فى الصلاح وَ ذَا النُّونِ أى: و اذكر ذا النون، و هو يونس بن متى، و لقّب «ذا النون» لابتلاع الحوت له، فإن النون من أسماء الحوت؛ و قيل: سمّى «ذا النون» لأنه رأى صبيا مليحا فقال دسّموا نونته؛ لئلا تصيبه العين.

و حكى ثعلب عن ابن الأعرابى أن نونة الصبى هى الثقبة التى تكون فى ذقن الصبىّ الصغير، و معنى دسّموا:

سوّدوا إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً أى: اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضبا، أى: مراغما. قال الحسن و الشعبى و سعيد بن جبير: ذهب مغاضبا لربه، و اختاره ابن جرير و القتبى و المهدوى. و حكى عن ابن مسعود. قال النحاس: و ربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، و هو قول صحيح. و المعنى: مغاضبا من أجل ربه، كما تقول غضبت لك، أى: من أجلك. و قال الضحّاك: ذهب مغاضبا لقومه. و حكى عن ابن عباس. و قالت فرقة منهم الأخفش: إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان فى وقته و اسمه حزقيا؛ و قيل: لم يغاضب ربه و لا قومه و لا الملك، و لكنه مأخوذ من غضب إذا أنف، و ذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب و خرج عنهم تابوا و كشف اللّه عنهم العذاب، فلما رجع و علم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك، فخرج عنهم؛ و من استعمال الغضب فى هذا المعنى قول الشاعر:

و أغضب أن تهجى تميم بعامر «١» أى: آنف. فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ قرأ الجمهور «نقدر» بفتح النون و كسر الدال.

و اختلف فى معنى الآية على هذه القراءة؛ فقيل: معناها: أنه وقع فى ظنه أن اللّه تعالى لا يقدر على معاقبته.

و قد حكى هذا القول عن الحسن و سعيد بن جبير، و هو قول مردود، فإن هذا الظنّ باللّه كفر، و مثل ذلك

---

(١). فى تفسير القرطبى (١١/ ٣٣١): بدارم.

لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام. و ذهب جمهور العلماء أن معناها: فظنّ أن لن نضيق عليه، كقوله:

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ* «١» أى: يضيق، و منه قوله: وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ يقال: قدر و قدر، و قتر و قتر؛ أى: ضيّق؛ و قيل: هو من القدر الذى هو القضاء و الحكم؛ أى: فظنّ أن لن نقضى عليه العقوبة، قاله قتادة و مجاهد، و اختاره الفرّاء و الزّجاج، مأخوذ من القدر و هو الحكم دون القدرة و الاستطاعة.

قال أحمد بن يحيى ثعلب: هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه: قدّر اللّه لك الخير يقدره قدرا، و أنشد ثعلب:

فليست عشيات اللّوى برواجعلنا أبدا ما أبرم «٢» السّلم النّضر

و لا عائد ذاك الزمان الذى مضىتباركت ما تقدر يقع و ذلك «٣» الشكر

أى: ما تقدره و تقضى به، و ممّا يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز و الزهرى «فظنّ أن نقدّر» بضم النون و تشديد الدال، من التقدير. و حكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس، و يؤيد ذلك أيضا قراءة عبيد بن عمير و قتادة و الأعرج «أن لن يقدّر» بضم الياء و التشديد مبنيا للمفعول، و قرأ يعقوب و عبد اللّه ابن إسحاق و الحسن «يقدر» بضم الياء و فتح الدال مخففا مبنيا للمفعول.

و قد اختلف العلماء فى تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله أن يحرقوه إذا مات، ثم قال: فو

اللّه لئن قدر اللّه عليّ ... الحديث. كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية، و الكلام فى هذا يطول، و قد ذكرنا هاهنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره، و الفاء فى قوله: فَنادى فِي الظُّلُماتِ فصيحة أى: كان ما كان من التقام الحوت له، فنادى فى الظلمات، و المراد بالظلمات: ظلمة الليل، و ظلمة البحر، و ظلمة بطن الحوت، و كان نداؤه: هو قوله: أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ أى:

بأن لا إله إلّا أنت ... إلخ، و معنى سبحانك: تنزيها لك من أن يعجزك شىء، إنى كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم؛ قال الحسن و قتادة: هذا القول من يونس اعتراف بذنبه و توبة من خطيئته، قال ذلك و هو فى بطن الحوت، ثم أخبر اللّه سبحانه بأنه استجاب له فقال: فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه الذى دعانا به فى ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أى: نخلّصهم من همّهم بما سبق من علمهم، و ما أعددناه لهم من الرحمة، و هذا هو معنى الآية الأخرى، و هى قوله: فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ- لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ «۴». قرأ الجمهور نُنَجِّي بنونين، و قرأ ابن عامر «نجّى» بنون واحدة و جيم مشدّدة و تسكين الياء على الفعل الماضى و إضمار المصدر، و كذلك نجى النجاء المؤمنين، كما تقول ضرّب زيدا، أى: ضرب

---

(۱). الرعد: ۲۶ و فى غيرها.

(۲). فى تفسير القرطبى (۱۱/ ۳۳۲): أورق.

(۳). فى تفسير القرطبى (۱۱/ ۳۳۲): و لك.

(۴). الصافات: ۱۴۳- ۱۴۴.

الضرب زيدا، و منه قول الشاعر «۱»:

و لو ولدت قفيرة «۲» جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال فى توجيه هذه القراءة الفرّاء و أبو عبيد و ثعلب، و خطأها أبو حاتم و الزّجّاج و قالا: هى لحن لأنه نصب اسم ما لم يسمّ فاعله، و إنما يقال نجّى المؤمنون. و لأبى عبيدة قول آخر، و هو أنه أدغم النون فى الجيم، و به قال القتبى. و اعترضه النحاس فقال: هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا يدغم فيها، ثم قال النحاس: لم أسمع فى هذا أحسن من شىء سمعته من عليّ بن سليمان الأخفش قال: الأصل ننجى، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما، كما تحذف إحدى التاءين لاجتماعهما، نحو قوله تعالى: وَ لا تَفَرَّقُوا «۳» و الأصل: و لا تتفرّقوا. قلت: و كذا الواحدى عن أبى عليّ الفارسى أنه قال: إن النون الثانية تخفى مع الجيم، و لا يجوز تبيينها، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام، فظنّ أنه إدغام، و يدلّ على هذا إسكانه الياء من نجى و نصب المؤمنين، و لو كان على ما لم يسمّ فاعله ما سكن الياء و لوجب أن يرفع المؤمنين. قلت: و لا نسلم قوله إنه لا يجوز تبيينها فقد بينت فى قراءة الجمهور، و قرأ محمد بن السّميقع و أبو العالية وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ على البناء للفاعل؛ أى: نجّى اللّه المؤمنين.

و قد أخرج ابن جرير عن مرّة فى قوله: إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ قال: كان الحرث نبتا فنفشت فيه ليلا، فاختصموا فيه إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث، فمرّوا على سليمان فذكروا ذلك له، فقال: لا، تدفع الغنم فيصيبون منها، و يقوم هؤلاء على حرثهم، فإذا كان كما كان ردّوا عليهم، فنزلت فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ و قد روى هذا عن مرّة عن ابن مسعود. و أخرج ابن جرير و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن مسعود فى قوله: وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ قال: كرم قد أنبتت

عناقيده فأفسدته الغنم، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبيّ اللّه، قال: و ما ذاک؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، و تدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه و الغنم إلى صاحبها، فذلک قوله: فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مسروق نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، و لكنه لم يذكر الكرم. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا نَفَشَتْ قال: رعت.

و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن حرام بن محيّصة: أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدت فيه، فقضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، و أن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها. و قد علّل هذا الحديث، و قد بسطنا الكلام عليه فى «شرح المنتقى». و أخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه،

---

(۱). هو جرير.

(۲). أم الفرزدق.

(۳). آل عمران ۱۰۳.

و زاد فى آخره، ثم تلا هذه الآية وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ الآية. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «بينما امرأتان معهما ابنان، جاء الذئب فأخذ أحد الاثنين، فتحا كما إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقّه بينهما، فقالت الصغرى: رحمک اللّه، هو ابنها لا تشقّه، فقضى به للصّغرى»، و هذا الحديث و إن لم يكن داخلا فيما حكته الآية من حكمهما، لكنه من جملة ما وقع لهما.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن قتادة فى قوله: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ قال: يصلّين مع داود إذا صلّى، وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ قال: كانت صفائح، فأوّل من سردها و حلّقها داود عليه السلام. و أخرج ابن أبى شيبة، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستّمائة ألف كرسى، ثم يجىء أشراف الإنس فيجلسون ممّا يليه، ثم يجىء أشراف الجنّ فيجلسون ممّا يلى أشراف الإنس، ثم يدعو الطير فتظلّهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، تسير مسيرة شهر فى الغداة الواحدة. و أخرج ابن عساكر و الديلمى و ابن النجار عن عقبة ابن عامر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال اللّه لأيوب: تدرى ما جرمک علىّ حتى ابتليتک؟ قال: لا، يا رب، قال: لأنک دخلت على فرعون فداهنت عنده فى كلمتين». و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه، و لم يأمر بالمعروف، و لم ينه الظالم عن ظلم المسكين، فابتلاه اللّه. و فى إسناده جويبر. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب أخوان، جاءا يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان علم اللّه من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شىء قطّ مثله، فقال: اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان، و أنا أعلم مكان جائع فصدّقنى فصدّق من السماء و هما يسمعان، ثم قال: اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم ألبس قميصا قط و أنا أعلم مكان عار فصدّقنى، فصدّق من السماء و هما يسمعان، ثم خرّ ساجدا و قال: اللهمّ بعزّتک لا

أرفع رأسي حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف اللّه عنه. و قد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ قال: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك فى الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، و إن شئت تركناهم لك فى الجنة و عوّضناك مثلهم، قال: لا، بل اتركهم لى فى الجنة، قال: فتركوا له فى الجنة، و عوّض مثله فى الدنيا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى عن الضحّاك قال: بلغ ابن مسعود أن مروان قال فى هذه الآية وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ قال: أوتى أهلا غير أهله، فقال ابن مسعود: بل أوتى أهله بأعيانهم و مثلهم معهم.

و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الرويانى و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٠٠

فتح القدير ج٣ ٥٤٩

و البعيد؛ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه، كانا يغدوان إليه و يروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم و اللّه لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد، قال: و ما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه اللّه فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، فقال أيوب:

لا أدرى ما تقول؛ غير أن اللّه يعلم أنى أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران اللّه فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهة أن يذكر اللّه إلا فى حق، و كان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى اللّه إلى أيوب فى مكانه أن ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ فاستبطأته فتلقّته، و أقبل عليها قد أذهب اللّه ما به من البلاء و هو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى، بارك اللّه فيك، هل رأيت نبيّ اللّه المبتلى، و اللّه على ذاك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال: فإنى أنا هو، قال: و كان له أندران «١»: أندر للقمح، و أندر للشعير، فبعث اللّه سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، و أفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق «٢» حتى فاض».

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ ذَا الْكِفْلِ قال: رجل صالح غير نبيّ تكفل لنبيّ قومه أن يكفيه أمر قومه و يقيمهم له، و يقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمّى ذا الكفل. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان فى بنى إسرائيل قاض فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على أن لا يغضب، فقال رجل: أنا، فسمّى ذا الكفل، فكان ليله جميعا يصلى، ثم يصبح صائما فيقضى بين الناس، و ذكر قصة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال: ما كان ذو الكفل نبيا، و لكن كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يصلى كلّ يوم مائة صلاة فتوفى، فتكفّل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة، فسمى ذا الكفل. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر و ابن حبان و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان الكفل «٣» من بنى إسرائيل لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت و بكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، و لكنه عمل ما عملته قط، و ما حملنى عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا و ما فعلته؟! اذهبى فهى لك، و قال: و اللّه لا أعصى اللّه بعدها أبدا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه: إنّ اللّه قد غفر للكفل».

و أخرجه الترمذى و حسّنه، و الحاكم و ابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة. و أخرجه ابن مردويه من

(١). «الأندر»: البيدر.

(٢). أى الفضّة.

(٣). رواه ابن حبان بلفظ (ذو الكفل) برقم (٣٨٧) و رواه الترمذى برقم: (٢۴٩۶) و أحمد برقم (٢/ ٢٣) بلفظ: (الكفل)

فتح القدير، ج٣، ص: ۵٠١

طريق نافع عن ابن عمرو قال: فيه ذو الكفل. و أخرج ابن جرير و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً يقول: غضب على قومه فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ يقول: أن لن نقضى عليه عقوبة و لا بلاء فيما صنع بقومه فى غضبه عليهم و فراره، قال: و عقوبته أخذ النون «١» إياه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ قال: ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذى أصابه. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن أبى الدنيا و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فَنادى فِي الظُّلُماتِ قال: ظلمة الليل، و ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر. و أخرج أحمد و الترمذى و النسائى، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن سعد بن أبى وقاص سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربّه فى شىء قط إلا استجاب له». و أخرج ابن جرير عنه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«اسم اللّه الذى إذا دعى به أجاب، و إذا سئل به أعطى: دعوة يونس بن متّى، قلت: يا رسول اللّه، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس خاصة و للمؤمنين عامة إذا دعوا به، ألم تسمع قول اللّه وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ فهو شرط من اللّه لمن دعاه». و أخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه.

و قد ثبت فى الصّحيحين و غيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». و روى أيضا فى الصحيح و غيره من حديث ابن مسعود، و روى أيضا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٩ الى ٩٧]

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ (٩٠) وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (٩١) إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣)

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (٩۴) وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩۵) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩۶) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (٩٧)

قوله: وَ زَكَرِيَّا أى: و اذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال: رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً أى: منفردا وحيدا لا ولد لى. و قد تقدّم الكلام على هذه الآية فى آل عمران. وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ أى:

(١). أى الحوت.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٠٢

خير من يبقى بعد كلّ من يموت، فأنت حسبى إن لم ترزقنى ولدا، فإنى أعلم أنك لا تضيع دينك، و أنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له و ترتضيه للتبليغ فَاسْتَجَبْنا لَهُ دعاءه وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى و قد تقدّم مستوفى فى سورة مريم. وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ قال أكثر المفسرين: إنها كانت عاقرا فجعلها اللّه ولودا، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه؛ و قيل: كانت سيّئة الخلق، فجعلها اللّه سبحانه حسنة الخلق، و لا مانع من إرادة الأمرين جميعا، و ذلك بأن يصلح اللّه سبحانه ذاتها، فتكون ولودا بعد أن كانت عاقرا، و يصلح أخلاقها، فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية. و جملة إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة و السلام، فالضمير المذكور راجع إليهم، و قيل:

هو راجع إلى زكريا و امرأته و يحيى. ثم وصفهم اللّه سبحانه بأنهم كانوا يدعونه رَغَباً وَ رَهَباً أى:

يتضرّعون إليه فى حال الرّخاء و حال الشدّة، و قيل: الرغبة: رفع بطون الأكفّ إلى السماء، و الرهبة رفع ظهورها. و انتصاب رغبا و رهبا على المصدرية، أى: يرغبون رغبا و يرهبون رهبا، أو على العلة، أى: للرّغب و الرّهب، أو على الحال، أى: راغبين و راهبين. و قرأ طلحة بن مصرّف و يدعونا بنون واحدة، و قرأ الأعمش بضم الراء فيهما و إسكان ما بعده، و قرأ ابن وثّاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و قرأ الباقون بفتح الراء و فتح ما بعده فيهما. وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ أى: متواضعين متضرّعين وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها أى: و اذكر خبرها، و هى مريم، فإنها أحصنت فرجها من الحلال و الحرام، و لم يمسسها بشر، و إنما ذكرها مع الأنبياء، و إن لم تكن منهم، لأجل ذكر عيسى، و ما فى ذكر قصّتها من الآية الباهرة فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا أضاف سبحانه الروح إليه، و هو للملك تشريفا و تعظيما، و هو يريد روح عيسى وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ قال الزجّاج: الآية فيهما واحدة؛ لأنها ولدته من غير فحل؛ و قيل: إن التقدير على مذهب سيبويه: و جعلناها آية و جعلنا ابنها آية، كقوله سبحانه: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «١»، و المعنى: إنّ اللّه سبحانه جعل قصّتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما. و قيل: أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكلّ واحد منهما من الآيات، و معنى أحصنت: عفّت فامتنعت من الفاحشة و غيرها؛ و قيل: المراد بالفرج جيب القميص؛ أى: أنها طاهرة الأثواب، و قد مضى بيان مثل هذا فى سورة النساء و مريم. ثم لمّا ذكر سبحانه الأنبياء بيّن أنهم كلّهم مجتمعون على التوحيد فقال: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً و الأمة: الدّين كما قال ابن قتيبة، و منه: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ «٢» أى: على دين، كأنه قال: إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد، و لا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون باللّه؛ و قيل: المعنى: إنّ هذه الشريعة التى بيّنتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة؛ و قيل: المعنى:

إن هذه ملّتكم ملّة واحدة، و هى ملّة الإسلام. و انتصاب أمة واحدة على الحال، أى: متفقة غير مختلفة، و قرئ: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ بنصب أمتكم على البدل من اسم إنّ و الخبر «أمة واحدة». و قرئ برفع أُمَّتُكُمْ و رفع أمة على أنهما خبران؛ و قيل: على إضمار مبتدأ، أى: هى أمة واحدة. و قرأ

---

(١). التوبة: ٦٢.

(٢). الزخرف: ٢٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٠٣

الجمهور برفع أُمَّتُكُمْ على أنه الخبر و نصب أُمَّةً على الحال كما قدّمنا. و قال الفراء و الزجاج على القطع بسبب مجىء النكرة بعد

تمام الكلام. وَ أَنَا رَبُّكَمْ فَاعْبُدُونِ خاصة لا تعبدوا غيرى كائنا ما كان وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أى: تفرقوا فرقا فى الدّين حتى صار كالقطع المتفرّقة. و قال الأخفش: اختلفوا فيه، و هو كالقول الأوّل. قال الأزهرى: أى: تفرقوا فى أمرهم، فنصب أمرهم بحذف فى، و المقصود بالآية المشركون، ذمّهم اللّه بمخالفة الحق و اتخاذهم آلهة من دون اللّه؛ و قيل: المراد جميع الخلق، و أنهم جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا و تقسّموه بينهم، فهذا موحّد، و هذا يهودىّ، و هذا نصرانىّ، و هذا مجوسىّ، و هذا عابد وثن. ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال: كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ أى: كلّ واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث، لا إلى غيرنا. فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ أى: من يعمل بعض الأعمال الصالحة، لا كلّها، إذ لا يطيق ذلك أحد وَ هُوَ مُؤْمِنٌ باللّه و رسله و اليوم الآخر فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ أى:

لا جحود لعمله، و لا تضييع لجزائه، و الكفر ضدّ الإيمان، و الكفر أيضا: جحود النعمة، و هو ضدّ الشكر، يقال: كفر كفورا و كفرانا، و فى قراءة ابن مسعود «فلا كفر لسعيه». وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ أى: لسعيه حافظون، و مثله قوله سبحانه: أَنِّی لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى «١». وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها قرأ زيد بن ثابت و أهل المدينة وَ حَرامٌ و قرأ أهل الكوفة «و حرم» و قد اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم، و رويت القراءة الثانية عن علىّ و ابن مسعود و ابن عباس، و هما لغتان مثل حلّ و حلال. و قرأ سعيد بن جبير «و حرم» بفتح الحاء و كسر الراء و فتح الميم. و قرأ عكرمة و أبو العالية «حرم» بضم الراء و فتح الحاء و الميم. و معنى أَهْلَكْناها: قدّرنا إهلاكها، و جملة أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ فى محلّ رفع على أنه مبتدأ، و خبره حرام، أو على أنه فاعل له سادّ مسدّ خبره. و المعنى: و ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء؛ و قيل: إن لا فى «لا يَرْجِعُونَ» زائدة، أى: حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا. و اختار هذا أبو عبيدة؛ و قيل: إنّ لفظ حرام هنا بمعنى الواجب: أى واجب على قرية، و منه قول الخنساء:

و إنّ حراما لا أرى الدّهر باكيا* على شجوه إلا بكيت على صخر و قيل: حرام، أى: ممتنع رجوعهم إلى التوبة، على أن «لا» زائدة. قال النحّاس: و الآية مشكلة، و من أحسن ما قيل فيها و أجلّه ما رواه ابن عيينة و ابن عليّة و هشيم و ابن إدريس و محمد بن فضيل و سليمان بن حيان و معلّى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية قال: واجب أنهم لا يرجعون، أى: لا يتوبون. قال الزجّاج و أبو على الفارسى: إنّ فى الكلام إضمارا، أى: و حرام على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالختم على قلوب أهلها، أن يتقبّل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أى: لا يتوبون. حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ «حتى» هذه هى التى يحكى بعدها الكلام، و يأجوج و مأجوج قبيلتان من الإنس، و المراد بفتح يأجوج و مأجوج فتح السدّ الذى عليهم، على حذف المضاف؛ و قيل: إنّ «حتى»

---

(١). آل عمران: ١٩٥.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٠٤

هذه هى التى للغاية. و المعنى: إنّ هؤلاء المذكورين سابقا مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة، و هى يوم فتح سدّ يأجوج و مأجوج وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ الضمير ليأجوج و مأجوج. و الحدب:

كلّ أكمة من الأرض مرتفعة و الجمع أحداب، مأخوذ من حدبة الأرض، و معنى يَنْسِلُونَ يسرعون، و قيل: يخرجون. قال الزجّاج: و النسلان: مشية الذئب إذا أسرع. يقال: نسل فلان فى العدو ينسل بالكسر و الضم نسلا و نسولا و نسلانا؛ أى: إن يأجوج و مأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشى، و يتفرقون فى الأرض؛ و قيل: الضمير فى قوله: «و هم» لجميع الخلق؛ و المعنى أنهم يحشرون إلى أرض الموقف و هم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض. و قرئ بضم السين، حكى ذلك المهدوى

عن ابن مسعود. و حكى هذه القراءة أيضا الثعلبى عن مجاهد و أبى الصهباء. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ عطف على «فتحت»، و المراد ما بعد الفتح من الحساب. و قال الفراء و الكسائى و غيرهما: المراد بالوعد الحق القيامة، و الواو زائدة؛ و المعنى:

حتى إذا فتحت يأجوج و مأجوج اقترب الوعد الحق و هو القيامة، فاقترب جواب إذا، و أنشد الفراء:

فلمّا أجزنا ساحة الحىّ و انتحى «۱» ....

أى: انتحى. و منه قوله تعالى: وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ- وَ نادَيْناهُ «۲»، و أجاز الفراء أن يكون جواب إذا فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا و قال البصريون: الجواب محذوف، و التقدير: قالوا يا ويلنا. و به قال الزّجّاج، و الضمير فى فَإِذا هِيَ للقصّة، أو مبهم يفسّره ما بعده، و إذا للمفاجأة؛ و قيل إن الكلام تمّ عند قوله هى، و التقدير: فإذا هى، يعنى القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة، ثم ابتدأ فقال: شاخصة أبصار الذين كفروا، على تقديم الخبر على المبتدأ، أى: أبصار الذين كفروا شاخصة، و يا وَيْلَنا على تقدير القول قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا أى: من هذا الذى دهمنا من البعث و الحساب بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة، أى: لم نكن غافلين، بل كنّا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب و عدم الانقياد للرسل.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ قال: كان فى لسان امرأة زكريا طول فأصلحه اللّه. و روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: وهبنا له ولدها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: كانت عاقرا فجعلها اللّه ولودا، و وهب له منها يحيى، و فى قوله: وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ قال: أذلّاء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله: يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً قال: رغبا فى رحمة اللّه و رهبا من

---

(۱). البيت لامرئ القيس، و تمامه: بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل.

«البطن»: مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة. «الخبت» أرض مطمئنة. «الحقف»: رمل مشرف معوج.

«العقنقل»: الرمل المنعقد المتلبّد.

(۲). الصافات: ۱۰۳، ۱۰۴.

عذاب اللّه. و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه سبحانه:

وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً قال: «رغبا هكذا و رهبا هكذا، و بسط كفيه، يعنى جعل ظهرهما للأرض فى الرغبة و عكسه فى الرهبة». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر الصديق فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى اللّه، و أن تثنوا عليه بما هو له أهل، و أن تخلطوا الرغبة بالرهبة، فإن اللّه أثنى على زكريا و أهل بيته فقال: إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً قال:

إنّ هذا دينكم دينا واحدا. و أخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قال: تقطعوا:

اختلفوا فى الدين. و أخرج الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله:

وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها قال: وجب إهلاكها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ قال: لا يتوبون. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: و حرم على قرية قال: وجب على قرية أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ

كما قال: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ «١». و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة و سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مِنْ كُلِّ حَدَبٍ قال: شرف يَنْسِلُونَ قال: يقبلون، و قد ورد فى صفة يأجوج و مأجوج و فى وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلّق بذكرها هنا كثير فائدة.

---

(١). يس: ٣١.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٠٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٨ الى ١١٢]

إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (٩٨) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (١٠٢)

لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠٤) وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (١٠٦) وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (١٠٧)

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (١١٠) وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (١١١) قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١١٢)

بيّن سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ و هذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة، و المراد بقوله «و ما تعبدون»: الأصنام التى كانوا يعبدون. قرأ الجمهور حَصَبُ بالصاد المهملة، أى: وقود جهنم و حطبها، و كل ما أوقدت به النار أو هيّجتها به فهو حصب، كذا قال الجوهرى. قال أبو عبيدة: كل ما قذفته فى النار فقد حصبتها به، و مثل ذلك قوله تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ «١» و قرأ علىّ بن أبى طالب و عائشة حطب جهنّم بالطاء، و قرأ ابن عباس «حضب» بالضاد المعجمة. قال القراء: ذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل اليمن الحطب، و وجه إلقاء الأصنام فى النار، مع كونها جمادات لا تعقل ذلك و لا تحسّ به: التبكيت لمن عبدها، و زيادة التوبيخ لهم، و تضاعف الحسرة عليهم؛ و قيل: إنها تحمى فتلصق بهم زيادة فى تعذيبهم، و جملة أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ إما مستأنفة أو بدل من «حَصَبُ جَهَنَّمَ»، و الخطاب لهم و لما يعبدون تغليبا، و اللام فى «لَها» للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل؛ و قيل: هى بمعنى على، و المراد بالورود هنا الدخول. قال كثير من أهل العلم: و لا يدخل فى هذه الآية عيسى و عزير و الملائكة؛ لأن ما لمن لا يعقل، و لو أراد العموم لقال: «و من يعبدون».

قال الزّجّاج: و لأنّ المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها أى:

لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ما وردوها، أى: ما ورد العابدون هم و المعبودون النار؛ و قيل: ما ورد العابدون فقط، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة، و فى هذا تبكيت لعباد الأصنام و توبيخ شديد، وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ أى: كلّ العابدين و المعبودين فى النار خالدون لا يخرجون منها. لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ أى:

لهؤلاء الذين وردوا النار، و الزفير: صوت نفس المغموم، و المراد هنا الأنين و التنفّس الشديد، و قد تقدّم بيان هذا فى هود. وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ أى: لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدّة الهول؛ و قيل: لا يسمعون شيئا؛ لأنهم يحشرون صمّا، كما قال سبحانه:

وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا «٢» و إنّما سلبوا السماع؛ لأن فيه بعض تروّح و تأنس؛ و قيل: لا يسمعون ما يسرّهم، بل يسمعون ما يسوءهم. ثم لمّا بيّن سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع فى بيان حال السعداء، فقال: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أى: الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال و هى السعادة، و قيل: التوفيق، أو التبشير بالجنة، أو نفس الجنة أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة عَنْها أى: عن جهنم مُبْعَدُونَ لأنهم قد صاروا فى الجنة لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها الحسّ و الحسيس: الصوت تسمعه من الشىء يمرّ قريبا منك. و المعنى: لا يسمعون حركة النار و حركة أهلها، و هذه الجملة بدل من مبعدون، أو حال من ضميره وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ أى: دائمون، و فى الجنة ما تشتهيه الأنفس و تلذّ

---

(١). البقرة: ٢٤.

(٢). الإسراء: ٩٧.

به الأعين، كما قال سبحانه: وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ «١». لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ قرأ أبو جعفر و ابن محيصن «لا يحزنهم» بضم الياء و كسر الزاى، و قرأ الباقون لا يَحْزُنُهُمُ بفتح الياء و ضم الزاى. قال اليزيدى: حزنه لغة قريش، و أحزنه لغة تميم، و الفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة من البعث و الحساب و العقاب وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ أى: تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم، و يقولون لهم: هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أى: توعدون به فى الدنيا و تبشّرون بما فيه، هكذا قال جماعة من المفسرين: إن المراد بقوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان و العمل الصالح، لا المسيح و عزير و الملائكة. و قال أكثر المفسرين: إنه لما نزل إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ الآية أتى ابن الزّبعرى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد أ لست تزعم أن عزيرا رجل صالح، و أن عيسى رجل صالح، و أن مريم امرأة صالحة؟ قال: بلى، فقال: فإن الملائكة و عيسى و عزيرا و مريم يعبدون من دون اللّه، فهؤلاء فى النار، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى و سيأتى بيان من أخرج هذا قريبا إن شاء اللّه. يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ قرأ أبو جعفر ابن القعقاع و شيبة و الأعرج و الزهرى «تطوى» بمثناة فوقية مضمومة و رفع السماء، و قرأ مجاهد «يطوى» بالتحتية المفتوحة مبنيا للفاعل على معنى يطوى اللّه السماء، و قرأ الباقون نَطْوِي بنون العظمة. و انتصاب يوم بقوله: نُعِيدُهُ أى: نعيده يوم نطوى السماء، و قيل: هو بدل من الضمير المحذوف فى «تُوعَدُونَ»، و التقدير: الذى كنتم توعدونه يوم نطوى؛ و قيل بقوله «لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ»؛ و قيل: بقوله «تَتَلَقَّاهُمُ»؛ و قيل: متعلّق بمحذوف، و هو اذكر، و هذا أظهر و أوضح، و الطىّ: ضد النشر، و قيل: المحو، و المراد بالسماء الجنس، و السجل: الصحيفة، أى: طيا كطىّ الطومار «٢»؛ و قيل: السجل: الصك، و هو مشتق من المساجلة و هى المكاتبة، و أصلها من السجل، و هو الدلو، يقال: ساجلت الرجل إذا نزعت دلوا و نزع دلوا، ثم استعيرت للمكاتبة و المراجعة فى الكلام، و منه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب:

من يساجلنى يساجل ماجدايملأ الدّلو إلى عقد الكرب «٣»

و قرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير: «السّجلّ» بضم السين و الجيم و تشديد اللام، و قرأ الأعمش و طلحة بفتح السين و إسكان الجيم و تخفيف اللام، و الطىّ فى هذه الآية يحتمل معنيين: أحدهما الطىّ الذى هو ضدّ النشر، و منه قوله: وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ و الثانى الإخفاء و التعمية و المحو؛ لأن اللّه سبحانه يمحو و يطمس رسومها و يكدّر نجومها. و قيل: السجل اسم ملك، و هو الذى يطوى كتب بنى آدم؛ و قيل:

هو اسم كاتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأول أولى. قرأ الأعمش و حفص و حمزة و الكسائى و يحيى و خلف «للكتب» جمعا، و قرأ الباقون «للكتاب»، و هو متعلّق بمحذوف حال من السجل، أى: كطىّ السجل كائنا للكتب، أو صفة له، أى: الكائن للكتب، فإن الكتب عبارة عن الصحائف و ما كتب فيها، فسجلها

(۱). فصلت: ۳۱.

(۲). الطومار: الصحيفة.

(۳). «الكرب»: حبل يشدّ على عراقى الدلو، ثم يثنى ثم يثلث؛ ليكون هو الذى يلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير.

بعض أجزائها، و به يتعلّق الطىّ حقيقة. و أما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر، و اللام للتعليل، أى: كما يطوى الطومار للكتابة، أى: ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة، و هذا على تقدير أن المراد بالطىّ المعنى الأوّل، و هو ضدّ النشر. كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ أى: كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم، و أخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلا، كذلك نعيدهم يوم القيامة، ف «أول خلق» مفعول «نعيد» مقدّرا يفسره نعيده المذكور، أو مفعول ل «بدأنا»، و «ما» كافة أو موصولة، و الكاف متعلقة بمحذوف، أى:

نعيد مثل الذى بدأناه نعيده، و على هذا الوجه يكون أوّل ظرف لبدأنا، أو حال، و إنما خصّ أوّل الخلق بالذكر تصويرا للإيجاد عن العدم، و المقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتى لهما؛ و قيل:

معنى الآية: نهلك كلّ نفس كما كان أوّل مرة، و على هذا فالكلام متّصل بقوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ و قيل: المعنى نغيّر السماء، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها و زوالها، و الأوّل أولى، و هو مثل قوله: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ «۱»، ثم قال سبحانه: وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ انتصاب «وعدا» على أنه مصدر، أى: وعدنا وعدا علينا إنجازه و الوفاء به. و هو البعث و الإعادة، ثم أكّد سبحانه ذلك بقوله: إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ قال الزّجّاج: معنى إنا كنا فاعلين: إنا كنا قادرين على ما نشاء؛ و قيل إنا كنا فاعلين ما وعدناكم، و مثله قوله: كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا «۲»- وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ الزبر فى الأصل الكتب، يقال زبرت: أى كتبت، و على هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة و الإنجيل، و على كتاب داود المسمى بالزبور، و قيل المراد به هنا كتاب داود، و معنى مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أى اللوح المحفوظ، و قيل هو التوراة: أى و اللّه لقد كتبنا فى كتاب داود من بعد ما كتبنا فى التوراة أو من بعد ما كتبنا فى اللوح المحفوظ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ قال الزجاج: الزبور جميع الكتب: التوراة و الإنجيل و القرآن، لأن الزبور و الكتاب فى معنى واحد، يقال زبرت و كتبت، و يؤيد ما قاله قراءة حمزة فى الزبور بضم الزاى، فإنه جمع زبر.

و قد اختلف فى معنى يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ فقيل: المراد أرض الجنة، و استدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ «۳» و قيل: هى الأرض المقدّسة، و قيل:

هى أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و أمته بفتحها، و قيل: المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله سبحانه: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها «۴» و الظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بوراثة أرض الكافرين، و عليه أكثر المفسرين. و قرأ حمزة عبادى بتسكين الياء، و قرأ الباقون بتحريكها. إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً أى: فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ و التنبيه لبلاغا لكفاية، يقال: فى هذا الشىء بلاغ و بلغة و تبلغ، أى: كفاية، و قيل الإشارة بقوله: إِنَّ فِي هذا إلى القرآن لِقَوْمٍ عابِدِينَ أى: مشغولين بعبادة اللّه مهتمين بها، و العبادة: هى الخضوع و التّذلّل، و هم أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و رأس العبادة الصلاة. وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ أى: و ما أرسلناك يا محمد

(۱). الأنعام: ۹۴.

(۲). المزمل: ۱۸.

(۳). الزمر: ۷۴.

(۴). الأعراف: ۱۳۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۰۹

بالشرائع و الأحكام إلا رحمة لجميع الناس، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال و العلل، أى: ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. قيل: و معنى كونه رحمة للكفار:

أنهم أمنوا به من الخسف و المسخ و الاستئصال. و قيل: المراد بالعالمين المؤمنون خاصة، و الأوّل أولى بدليل قوله سبحانه: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ «۱» ثم بيّن سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد و البراءة من الشرك، فقال: قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ إن كانت ما موصولة، فالمعنى: إن الذى يوحى إلىّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادّها، و إن كانت «ما» كافة فالمعنى: إن الوحى إلىّ مقصور على استئثار اللّه بالوحدة، و وجه ذلك أن القصر أبدا يكون لما يلى إنما، فإنما الأولى: لقصر الوصف على الشيء، كقولك: إنما يقوم زيد، أى: ما يقوم إلا زيد. و الثانية:

لقصر الشيء على الحكم، كقولك: إنما زيد قائم، أى: ليس به إلا صفة القيام. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ منقادون مخلصون للعبادة و لتوحيد اللّه سبحانه فَإِنْ تَوَلَّوْا أى: أعرضوا عن الإسلام فَقُلْ لهم آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ أى: أعلمتكم أنا و إياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء فى الإعلام لم أخصّ به بعضكم دون بعض، كقوله سبحانه: وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ «۲» أى:

أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا سوّيت بينهم فيه. و قال الزّجّاج: المعنى أعلمتكم ما يوحى إلىّ على استواء فى العلم به، و لا أظهر لأحد شيئا كتمته على غيره. وَ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ أى: ما أدرى ما توعدون به قريب حصوله أم بعيد، و هو غلبة الإسلام و أهله على الكفر و أهله. و قيل: المراد بما توعدون القيامة، و قيل: آذنتكم بالحرب، و لكن لا أدرى ما يؤذن لى فى محاربتكم. إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ أى: يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر و الطعن على الإسلام و أهله و ما تكتمونه من ذلك و تخفونه وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ أى: ما أدرى لعلّ الإمهال فتنة لكم و اختبار ليرى كيف صنيعكم وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ أى: و تمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته. ثم حكى سبحانه و تعالى دعاء نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ أى: احكم بينى و بين هؤلاء المكذّبين بما هو الحق عندك، ففوّض الأمر إليه سبحانه. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و ابن محيصن «ربّ» بضم الباء. قال النحاس: و هذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم: رجل أقبل، حتى تقول: يا رجل. و قرأ الضحاك و طلحة و يعقوب «أحكم» بقطع الهمزة و فتح الكاف و ضم الميم، أى: قال محمد: ربى أحكم بالحقّ من كل حاكم. و قرأ الجحدرى «أحكم» بصيغة الماضى؛ أى: أحكم الأمور بالحق. و قرئ «قل» بصيغة الأمر، أى: قل يا محمد. قال أبو عبيدة: الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف، و التقدير: ربّ احكم بحكمك الحق، و ربّ فى موضع نصب؛ لأنه منادى مضاف إلى الضمير، و قد استجاب سبحانه دعاء نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فعذّبهم ببدر، ثم جعل العاقبة و الغلبة و النصر لعباده المؤمنين و الحمد للّه ربّ العالمين. ثم قال سبحانه متمّما لتلك الحكاية وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ من الكفر و التكذيب، فربنا مبتدأ و خبره الرحمن، أى: هو كثير الرحمة

(۱). الأنفال: ۳۳.

(۲). الأنفال: ۵۸.

لعباده، و المستعان خبر آخر، أى: المستعان به فى الأمور التى من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم، و من قولكم: هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ «۱» و قولكم: اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً «۲» و كثيرا ما يستعمل الوصف فى كتاب اللّه بمعنى الكذب، كقوله: وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ «۳»، و قوله:

سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ «۴» و قرأ المفضل و السلمى «على ما يصفون» بالياء التحتية. و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: لما نزلت إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ قال المشركون: فالملائكة و عيسى و عزير يعبدون من دون اللّه، فنزلت إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ عيسى و عزير و الملائكة. و أخرج ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه قال: جاء عبد اللّه بن الزّبعرى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: تزعم أن اللّه أنزل عليك هذه الآية: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ قال ابن الزّبعرى: قد عبدت الشمس و القمر و الملائكة و عزير و عيسى ابن مريم كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا، فنزلت: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ- وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ «۵»، ثم نزلت:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر و الطبرانى من وجه آخر عنه أيضا نحوه بأطول منه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى قال: «عيسى و عزير و الملائكة». و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: حَصَبُ جَهَنَّمَ قال: شجر جهنم، و فى إسناده العوفى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر أن حَصَبُ جَهَنَّمَ وقودها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هو حطب جهنم بالزنجية. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها قال: «حيات على الصراط تقول: حسّ حسّ». و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عثمان النّهدى فى قوله: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قالوا:

حسّ حسّ. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير عن محمد بن حاطب قال: سئل علىّ عن هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى قال: هو عثمان و أصحابه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة.

(۱). الأنبياء: ۳.

(۲). الأنبياء: ۲۶.

(۳). الأنبياء: ۱۸.

(۴). الأنعام: ۱۳۹.

(۵). الزخرف: ۵۷- ۵۸.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ قال:
النفخة الآخرة، و فى إسناده العوفى. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة: رجل أمّ قوما و هم له راضون، و رجل كان يؤذّن فى كل يوم و ليلة، و عبد أدّى حقّ اللّه و حقّ مواليه». و أخرج عبد بن حميد عن عليّ فى قوله: كَطَيِّ السِّجِلِ قال: ملك. و أخرج عبد بن حميد عن عطية مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبوها نورا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن أبى جعفر الباقر قال: السجل: ملك. و أخرج أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و ابن مندة فى المعرفة، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، و صحّحه، عن ابن عباس قال: السجل: كاتب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن المنذر و ابن عديّ و ابن عساكر عن ابن عباس قال:
كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كاتب يسمى السجل، و هو قوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ قال: كما يطوى السجل الكتاب كذلك نطوى السماء. و أخرج ابن مندة، و أبو نعيم فى المعرفة، و ابن مردويه و الخطيب و ابن عساكر عن ابن عمر قال: كان للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم كاتب يقال له السجل، فأنزل اللّه يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ قال ابن كثير فى تفسيره بعد إخراج هذا الحديث: و هذا منكر جدا من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصحّ أصلا. قال: و كذلك ما تقدّم عن ابن عباس من رواية أبى داود و غيره لا يصح أيضا. و قد صرّح جماعة من الحفاظ بوضعه، و إن كان فى سنن أبى داود، منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجّاج المزى، و قد أفردت لهذا الحديث جزءا له على حدة، و للّه الحمد. قال: و قد تصدّى الإمام أبو جعفر ابن جرير للإنكار على هذا الحديث، و ردّه أتمّ ردّ، و قال: و لا نعرف فى الصّحابة أحدا اسمه سجلّ، و كتّاب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم كانوا معروفين، و ليس فيهم أحد اسمه السجلّ، و صدق رحمه اللّه فى ذلك، و هو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. و أما من ذكر فى أسماء الصحابة هذا؛ فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره، و اللّه أعلم. قال: و الصحيح عن ابن عباس أن السجلّ هو الصحيفة، قاله عليّ بن أبى طلحة و العوفى عنه. و نصّ على ذلك مجاهد و قتادة و غير واحد، و اختاره ابن جرير لأنه المعروف فى اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم نطوى السماء كطيّ السجلّ للكتاب، أى: على الكتاب، يعنى المكتوب، كقوله:
فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ «١» أى: على الجبين، و له نظائر فى اللغة و اللّه أعلم. قلت: أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا، فإن عليّ بن أبى طلحة و العوفيّ ضعيفان، فالأولى التعويل على المعنى اللغوى و المصير إليه. و قد أخرج النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عباس قال:
السِّجِلِ هو الرجل، زاد ابن مردويه: بلغة الحبشة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى تفسير الآية قال: كطيّ الصحيفة على الكتاب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ يقول: نهلك كل شيء كما كان أوّل مرّة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

---

(١). الصافات: ١٠٣.

وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ قال: القرآن أَنَّ الْأَرْضَ قال: أرض الجنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ قال: الكتب مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ قال: التوراة. و فى إسناده العوفى.

و أخرج سعيد بن منصور عنه أيضا، قال: الزبور و التوراة و الإنجيل و القرآن. و الذكر: الأصل الذى نسخت منه هذه الكتب الذى

فى السماء. و الأرض: أرض الجنة. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ قال: أرض الجنة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: أخبر اللّه سبحانه فى التوراة و الزبور و سابق علمه قبل أن تكون السماوات و الأرض أن يورث أمة محمد الأرض، و يدخلهم الجنة، و هم الصالحون، و فى قوله: لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: عالمين، و فى إسناده عليّ بن أبى طلحة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن أبى هريرة إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: الصلوات الخمس. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم و الديلمى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قول اللّه إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: «فى الصلوات الخمس شغلا للعبادة». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس «أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ قال: هى الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ قال: من آمن تمّت له الرحمة فى الدنيا و الآخرة، و من لم يؤمن عوفى ممّا كان يصيب الأمم فى عاجل الدنيا من العذاب من الخسف و المسخ و القذف. و أخرج مسلم عن أبى هريرة قال: «قيل: يا رسول اللّه ادع اللّه على المشركين، قال: إنى لم أبعث لعانا، و إنما بعثت رحمة».

و أخرج الطيالسى و أحمد و الطبرانى، و أبو نعيم فى الدلائل، عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ اللّه بعثنى رحمة للعالمين و هدى للمتقين». و أخرج أحمد و الطبرانى عن سلمان أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أيما رجل من أمتى سببته سبّة فى غضبى، أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، و إنما بعثنى رحمة للعالمين، فأجعلها عليه صلاة يوم القيامة». و أخرج البيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّما أنا رحمة مهداة» و قد روى معنى هذا من طرق. و أخرج ابن أبى خيثمة و ابن عساكر عن الربيع بن أنس قال: لما أسرى بالنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم رأى فلانا، و هو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه: وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ يقول:

هذا الملك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ يقول: ما أخبركم به من العذاب و الساعة، لعلّ تأخير ذلك عنكم فتنة لكم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ قال: لا يحكم اللّه إلا بالحق، و إنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربّه [على قومه «۱».

---

(۱). من تفسير ابن جرير (۱۷/ ۱۰۸)

سورة الحجّ

اشارة

اختلف أهل العلم: هل هى مكية أو مدنية؟ فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحجّ بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله. و أخرج ابن المنذر عن قتادة قال: نزل بالمدينة من القرآن الحجّ غير أربع آيات مكيات: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍ إلى: عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ و حكى القرطبى عن ابن عباس أنها مكية سوى ثلاث آيات، و قيل: أربع آيات إلى قوله: عَذابَ الْحَرِيقِ و حكى عن النقاش أنه نزل بالمدينة منها عشر آيات. قال القرطبى و قال الجمهور: إن

السورة مختلطة، منها مكى، و منها مدنى. قال: و هذا هو الصحيح. قال الغزنوى: و هى من أعاجيب السور، نزلت ليلا و نهارا، سفرا و حضرا، مكيا و مدنيا، سلميا و حربيّا، ناسخا و منسوخا، محكما و متشابها. و قد ورد فى فضلها ما أخرجه أحمد و أبو داود و الترمذى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عقبة بن عامر قال: «قلت: يا رسول اللّه أ فضّلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما». قال الترمذى: هذا حديث ليس إسناده بالقوىّ. و أخرج أبو داود فى المراسيل، و البيهقى عن خالد بن معدان أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «فضّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين». و أخرج سعيد ابن منصور و ابن أبى شيبة و الإسماعيلى و ابن مردويه و البيهقى عن عمر أنه كان يسجد سجدتين فى الحجّ و قال: إن هذه السورة فضّلت على سائر القرآن بسجدتين. و قد روى عن كثير من الصحابة أن فيها سجدتين، و به يقول ابن المبارك و الشافعي و أحمد و إسحاق. و قال بعضهم: إن فيها سجدة واحدة، و هو قول سفيان الثورى، و أخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عباس و إبراهيم النخعى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (۴)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۵) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۱۴

لمّا انجرّ الكلام فى خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة و ما قبلها و ما بعدها، بدأ سبحانه فى هذه السورة بذكر القيامة و أهوالها، حثّا على التقوى التى هى أنفع زاد، فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ أى:

احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات و ترك ما نهاكم عنه من المحرمات، و لفظ «الناس» يشمل جميع المكلّفين من الموجودين و من سيوجد، على ما تقرّر فى موضعه، و قد قدّمنا طرفا من تحقيق ذلك فى سورة البقرة، و جملة إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى، و الزلزلة: شدّة الحركة، و أصلها من زلّ عن الموضع، أى: زال عنه و تحرّك، و زلزل اللّه قدمه، أى: حرّكها، و تكرير الحرف يدلّ على تأكيد المعنى، و هو من إضافة المصدر إلى فاعله، و هى على هذه الزلزلة التى هى أحد أشراط الساعة التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور، و قيل: إنها تكون فى النصف من شهر رمضان، و من بعدها طلوع الشمس من مغربها؛ و قيل: إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف، و هو الساعة، إجراء له مجرى المفعول، أو بتقدير فى؛ كما فى قوله: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ «١» و هى المذكورة فى قوله: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها «٢» قيل: و فى التعبير عنها بالشيء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ انتصاب الظرف

بما بعده، و الضمير يرجع إلى الزلزلة، أى: وقت رؤيتكم لها تذهل كل ذات رضاع عن رضيعها و تغفل عنه. قال قطرب: تذهل: تشتغل، و أنشد قول الشاعر «٣»:

ضربا يزيل الهام عن مقيله و يذهل الخليل عن خليله

و قيل: تنسى، و قيل: تلهو، و قيل: تسلو، و هذه معانيها متقاربة. قال المبرّد: إن «ما» فيما أرضعت بمعنى المصدر، أى: تذهل عن الإرضاع، قال: و هذا يدلّ على أن هذه الزلزلة فى الدنيا؛ إذ ليس بعد القيامة حمل و إرضاع، إلا أن يقال: من ماتت حاملا فتضع حملها للهول، و من ماتت مرضعة بعثت كذلك، و يقال هذا مثل كما يقال: يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً «۴». و قيل: يكون مع النفخة الأولى، قال: و يحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة، كما فى قوله: مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا «۵». و معنى وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها أنها تلقى جنينها لغير تمام من شدّة الهول، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك. وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى قرأ الجمهور بفتح التاء و الراء خطاب لكل واحد؛ أى: يراهم الرائى كأنهم سكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى حقيقة، قرأ حمزة و الكسائى سكرى بغير ألف، و قرأ الباقون بإثباتها، و هما لغتان يجمع بهما سكران، مثل كسلى و كسالى. و لما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب

---

(١). سبأ: ٣٣.

(٢). الزلزلة: ١.

(٣). هو عبد اللّه بن رواحة.

(۴). المزمل: ١٧.

(۵). البقرة: ٢١۴.

الذى لأجله شابهوا السكارى فقال: وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ فبسبب هذه الشدّة و الهول العظيم طاشت عقولهم، و اضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى، بجامع سلب كمال التميز و صحة الإدراك. و قرئ «و ترى» بضم التاء و فتح الراء مسندا إلى المخاطب من أ رأيتك، أى: تظنهم سكارى. قال الفرّاء: و لهذه القراءة وجه جيد فى العربية. ثم لما أراد سبحانه أن يحتجّ على منكرى البعث قدّم قبل ذلك مقدّمة تشمل أهل الجدال كلهم، فقال: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ و قد تقدّم إعراب مثل هذا التركيب فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ* «١». و معنى فِي اللَّهِ فى شأن اللّه و قدرته، و محل بِغَيْرِ عِلْمٍ النصب على الحال. و المعنى: أنه يخاصم فى قدرة اللّه فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه، و لا حجة يدلى بها وَ يَتَّبِعُ فيما يقوله و يتعاطاه و يحتجّ به و يجادل عنه كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ أى: متمرّد على اللّه، و هو العاتى، سمّى بذلك لخلوّه عن كل خير، و المراد إبليس و جنوده، أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر. و قال الواحدى: قال المفسرون: نزلت فى النضر بن الحارث، و كان كثير الجدال، و كان ينكر أن اللّه يقدر على إحياء الأموات؛ و قيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة و عتبة بن ربيعة. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ أى: كتب على الشيطان؛ و فاعل «كُتِبَ» «أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ»، و الضمير للشأن، أى: من اتخذه وليا فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ أى: فشأن الشيطان أن يضلّه عن طريق الحقّ، فقوله: «أنه يضله» جواب الشرط إن جعلت من شرطية، أو خبر الموصول إن جعلت موصولة، فقد وصف الشيطان بوصفين: الأوّل أنه مريد، و الثانى ما أفاده جملة كتب عليه إلخ. و جملة وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ معطوفة على جملة يضله؛ أى:

يحمله على مباشرة ما يصير به فى عذاب السعير.

ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدّمة، فقال يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ قرأ الحسن «البعث» بفتح العين و هى لغة، و قرأ الجمهور بالسكون، و شكّهم يحتمل أن يكون فى وقوعه أو فى إمكانه .. و المعنى: إن كنتم فى شكّ من الإعادة فانظروا فى مبدأ خلقكم، أى: خلق أبيكم آدم، ليزول عنكم الريب و يرتفع الشكّ و تدحض الشبهة الباطلة فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ فى ضمن خلق أبيكم آدم ثُمَ خلقناكم مِنْ نُطْفَةٍ أى: من منّى، سمّى نطفة لقلّته، و النطفة: القليل من الماء. و قد يقع على الكثير منه، و النطفة: القطرة، يقال: نطف ينطف، أى: قطر، و ليلة نطوفة، أى: دائمة القطر ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ و العلقة: الدم الجامد، و العلق: الدم العبيط، أى: الطرىّ أو المتجمد، و قيل: الشديد الحمرة، و المراد: الدم الجامد المتكوّن من المنىّ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ و هى القطعة من اللحم، قدر ما يمضغ الماضغ تتكوّن من العلقة مُخَلَّقَةٍ بالجرّ صفة لمضغة، أى: مستبينة الخلق، ظاهرة التصوير وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ أى: لم يستبن خلقها و لا ظهر تصويرها. قال ابن الأعرابى: «مُخَلَّقَةٍ» يريد قد بدا خلقه، و «غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» لم تصوّر. قال الأكثر: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة و هو الذى

---

(١). البقرة: ٨.

ولد لتمام، و ما سقط كان غير مخلقة، أى: غير حىّ بإكمال خلقته بالروح. قال الفراء: مخلقة تامّ الخلق، و غير مخلقة: السقط، و منه قول الشاعر:

أفى غير المخلقة البكاءفأين الحزم ويحك و الحياء؟

و اللام فى لِنُبَيِّنَ لَكُمْ متعلّق بخلقنا، أى: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبيّن لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ روى أبو حاتم عن أبى يزيد عن المفضّل عن عاصم أنه قرأ بنصب «نقرّ» عطفا على نبين، و قرأ الجمهور نُقِرُّ بالرفع على الاستئناف، أى: و نحن نقرّ. قال الزجاج:

نقر بالرفع لا غير، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام ما نشاء، و معنى الآية: و نثبت فى الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطا إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو وقت الولادة، و قال ما نشاء و لم يقل من نشاء، لأنه يرجع إلى الحمل و هو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح، و قرئ ليبين و يقرّ و: يخرجكم بالتحتية فى الأفعال الثلاثة، و قرأ ابن أبى وثّاب «ما نشاء» بكسر النون. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أى:

نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلا، أى: أطفالا، و إنما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد و المتعدد. قال الزجّاج: طفلا فى معنى أطفالا، و دلّ عليه ذكر الجماعة؛ يعنى فى نخرجكم، و العرب كثيرا ما تطلق اسم الواحد على الجماعة، و منه قول الشاعر:

يلحينني من حبّها و يلمنني‌إنّ العواذل لسن لى بأمير

و قال المبرد: هو اسم يستعمل مصدرا كالرضا و العدل، فيقع على الواحد و الجمع، قال اللّه سبحانه:

أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا «١». قال ابن جرير: هو منصوب على التمييز كقوله: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْ‌ءٍ مِنْهُ نَفْساً «٢» و فيه بعد، و الظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المذكور، و الطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ. ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ قيل: هو علّة لنخرجكم، معطوف على علة أخرى مناسبة له، كأنه قيل: نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا إلى الأشد؛ و قيل: إن ثم زائدة؛ و التقدير لتبلغوا؛ و قيل: إنه معطوف على نبين، و الأشدّ هو كمال العقل و كمال القوّة و التميز، قيل: و هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين. و قد تقدّم الكلام فى هذا مستوفى فى الأنعام. وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى يعنى قبل بلوغ الأشدّ، و قرئ «يتوفى» مبنيا للفاعل. و قرأ الجمهور يُتَوَفَّى مبنيا المفعول وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أى: أخسه و أدونه، و هو الهرم و الخرف حتى لا يعقل، و لهذا قال سبحانه: لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً أى: شيئا من الأشياء، أو شيئا من العلم، و المعنى: أنه يصير من بعد أن

كان ذا علم بالأشياء و فهم لها، لا علم له و لا فهم، و مثله قوله: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ- ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ «٣» و قوله: وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ «۴». وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً هذه حجّة أخرى على البعث، فإنه سبحانه احتجّ بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات، و الهامدة: اليابسة التى لا تنبت

---

(۱). النور: ۳۱.

(۲). النساء: ۴.

(۳). التين: ۴ و ۵.

(۴). يس: ۶۸.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۱۷

شيئا. قال ابن قتيبة: أى: ميتة يابسة كالنار إذا طفئت، و قيل: دارسة، و الهمود: الدروس، و منه قول الأعشى:

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباو أرى ثيابك باليات همّدا

و قيل: هى التى ذهب عنها النّدى، و قيل: هالكة، و معانى هذه الأقوال متقاربة. فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ المراد بالماء هنا المطر، و معنى اهتزّت تحركت، و الاهتزاز: شدّة الحركة، يقال:

هززت الشىء فاهتزّ، أى: حركته فتحرك. و المعنى: تحرّكت بالنبات؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقة، فسمّاه اهتزازا مجازا. و قال المبرد: المعنى اهتزّ نباتها، فحذف المضاف، و اهتزازه: شدّة حركته، و الاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض، و معنى ربت: ارتفعت، و قيل:

انتفخت. و المعنى واحد، و أصله الزيادة، يقال: ربا الشىء يربو ربوّا إذا زاد، و منه الربا و الرّبوة. و قرأ يزيد بن القعقاع و خالد بن إلياس «و ربأت» أى: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة، و هو الذى يحفظ القوم على مكان مشرف، يقال له رابئ و رابئة و ربيئة. وَ أَنْبَتَتْ أى: أخرجت مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أى: من كلّ صنف حسن و لون مستحسن، و البهجة: الحسن، و جملة ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ مستأنفة. لما ذكر افتقار الموجودات إليه سبحانه و تسخيرها على وفق إرادته و اقتداره، قال بعد ذلك هذه المقالات، و هى إثبات أنه سبحانه الحق، و أنه المتفرد بإحياء الموتى، و أنه قادر على كل شىء من الأشياء.

و المعنى: أنه المتفرد بهذه الأمور، و أنها من شأنه، لا يدّعى غيره أنه يقدر على شىء منها، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحقّ الحقيقى الغنىّ المطلق؛ و أن وجود كل موجود مستفاد منه، و الحق: هو الموجود الذى لا يتغير و لا يزول؛ و قيل: ذو الحقّ على عباده، و قيل: الحقّ فى أفعاله. قال الزّجّاج: ذلك فى موضع رفع، أى:

الأمر ما وصفه لكم و بيّن بأن اللّه هو الحق. قال: و يجوز أن يكون ذلك نصبا، ثم أخبر سبحانه بأن السَّاعَةَ آتِيَةٌ أى: فى مستقبل الزمان، قيل: لا بدّ من إضمار فعل، أى: و لتعلموا أن الساعة آتية لا رَيْبَ فِيها أى: لا شك فيها و لا تردّد، و جملة لا رَيْبَ فِيها خبر ثان للساعة، أو فى محل نصب على الحال.

ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال: وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ فيجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير و إن شرّا فشرّ، و أن ذلك كائن لا محالة.

و قد أخرج سعيد بن منصور و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن الحسن و غيره عن عمران بن حصين قال:

«لما نزلت يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ إلى قوله وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ أنزلت عليه هذه و هو فى سفر،

فقال: أ تدرون أىّ يوم ذلك؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول اللّه لآدم ابعث بعث النار، قال: يا ربّ و ما بعث النار؟ قال: من كلّ ألف تسعمائة و تسعة و تسعون إلى النار، و واحد إلى الجنة. فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: قاربوا و سدّدوا و أبشروا، فإنها لم تكن نبوّة قط إلا كان بين يديها جاهلية، فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت و إلا كملت

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۱۸

من المنافقين، و ما مثلكم و الأمم إلا كمثل الرّقمة «۱» فى ذراع الدابة، أو كالشّامة «۲» فى جنب البعير، ثم قال: إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبّروا، ثم قال: إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبّروا، ثم قال: إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبّروا، قال: و لا أدرى قال الثلثين أم لا».

و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر عن عمران بن حصين مرفوعا نحوه، و قال فى آخره:

«اعملوا و أبشروا، فو الذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثّرتاه يأجوج و مأجوج، و من مات من بنى آدم و من بنى إبليس، فسرّى عن القوم بعض الذى يجدون، قال: اعملوا و أبشروا، فو الذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير، أو كالرّقمة فى ذراع الدابة». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبّان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه أيضا، و فى الصحيحين و غيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر نحوه، و فى آخره فقال: «من يأجوج و مأجوج ألف و منكم واحد، و هل أنتم فى الأمم إلا كالشّعرة السوداء فى الثور الأبيض، أو كالشّعرة البيضاء فى الثور الأسود».

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: كُتِبَ عَلَيْهِ قال: كتب على الشيطان. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله: أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ قال: اتبعه. و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن ابن مسعود قال: حدّثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل اللّه إليه الملك فينفخ فيه الروح، و يؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه و أجله و عمله و شقى أو سعيد، فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا. و أخرج ابن أبى حاتم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ قال: المخلقة ما كان حيا، و غير المخلقة ما كان سقطا. و روى نحو هذا عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ قال: حسن. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، عن معاذ بن جبل قال: من علم أنّ اللّه عزّ و جلّ حق، و أن الساعة آتية لا ريب فيها، و أن اللّه يبعث من فى القبور، دخل الجنة.

---

(۱). «الرقمة»: الرقمتان: هما الأثران فى باطن عضد الحمار، و قيل: هى الدائرة فى ذراعيه، و قيل: هى الرمّة الناتئة فى ذراع الدابة من داخل.

(۲). «الشامة»: الخال و العلامة فى الجسد.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۱۹

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٨ الى ١٦]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢)

يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (١٤) مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (١٥) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ أی: فی شأن اللّه، كقول من قال: إن الملائكة بنات اللّه، و المسيح ابن اللّه، و عزير ابن اللّه. قيل: نزلت فی النّضر بن الحارث، و قيل: فی أبی جهل، و قيل: هی عامة لكل من يتصدّی لإضلال الناس و إغوائهم، و علی كل حال فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ و إن كان السبب خاصا. و معنی اللفظ: و من الناس فريق يجادل فی اللّه، فيدخل فی ذلك كلّ مجادل فی ذات اللّه، أو صفاته أو شرائعه الواضحة، و بِغَيْرِ عِلْمٍ فی محل نصب علی الحال، أی: كائنا بغير علم. قيل: و المراد بالعلم هو العلم الضروری، و بالهدی هو العلم النظری الاستدلالی. و الأولی حمل العلم علی العموم، و حمل الهدی علی معناه اللغوی، و هو الإرشاد. و المراد بالكتاب المنير هو القرآن، و المنير: النّير البيّن الحجة الواضح البرهان، و هو و إن دخل تحت قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر عند ذكر الملائكة، و ذلك لكونه الفرد الكامل الفائق علی غيره من أفراد العلم. و أما من حمل العلم علی الضروری و الهدی علی الاستدلالی، فقد حمل الكتاب هنا علی الدليل السمعی، فتكون الآية متضمّنة لنفی الدليل العقلی ضروريا كان أو استدلاليا، و متضمّنة لنفی الدليل النقلی بأقسامه، و ما ذكرناه أولی. قيل: و المراد بهذا المجادل فی هذه الآية هو المجادل فی الآية الأولی، أعنی قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ، و بذلك قال كثير من المفسرين، و التكرير للمبالغة فی الذمّ، كما تقول للرجل تذمّه و توبّخه: أنت فعلت هذا، أنت فعلت هذا. و يجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه فی كل آية بزيادة علی ما وصفه به فی الآية الأخری، فكأنه قال: و من الناس من يجادل فی اللّه و يتبع كلّ شيطان مريد بغير علم وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ ليضل عن سبيل اللّه اه. و قيل: الآية الأولی فی المقلدين اسم فاعل. و الثانية فی المقلدين اسم مفعول. و لا وجه لهذا، كما أنه لا وجه لقول من قال: إن الآية الأولی خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم، و الثانية عامة فی كلّ إضلال و جدال. و انتصاب ثانِيَ عِطْفِهِ علی الحال من فاعل يجادل، و العطف: الجانب، و عطفا الرجل:

جانباه من يمين و شمال، و فی تفسيره وجهان: الأوّل أن المراد به من يلوی عنقه مرحا و تكبرا، ذكر معناه الزجّاج، و قال: و هذا يوصف به المتكبر. و المعنی: و من الناس من يجادل فی اللّه متكبرا. قال المبرد: العطف ما

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٢٠

انثنی من العنق. و الوجه الثانی أن المراد بقوله: ثانِيَ عِطْفِهِ الإعراض، أی: معرضا عن الذّكر، كذا قال الفراء و المفضّل و غيرهما، كقوله تعالی: وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها «١» و قوله: لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ «٢»، و قوله: أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ‏ «٣»، و اللام فی لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ متعلّق بيجادل، أی: إن غرضه هو الإضلال عن السبيل و إن لم يعترف بذلك. و قرئ «ليضلّ» بفتح الياء علی أن تكون اللام هی لام العاقبة، كأنه جعل ضلاله غاية لجداله، و جملة لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ مستأنفة مبيّنة لما يحصل له بسبب جداله من

العقوبة. و الخزى: الذل، و ذلک بما يناله من العقوبة فى الدنيا من العذاب المعجل و سوء الذكر على ألسن الناس. و قيل: الخزى الدنيوى هو القتل كما وقع فى يوم بدر وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ أى: عذاب النار المحرقة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من العذاب الدنيوى و الأخروى، و هو مبتدأ خبره بِما قَدَّمَتْ يَداكَ و الباء للسببية، أى: ذلک العذاب النازل بک بسبب ما قدّمته يداک من الكفر و المعاصى، و عبّر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصى تكون بها فى الغالب، و محل أن و ما بعدها فى قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أى: و الأمر أنه سبحانه لا يعذّب عباده بغير ذنب. و قد مرّ الكلام على هذه الآية فى آخر آل عمران فلا نعيده. وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين: الحرف:

الشک، و أصله من حرف الشی‌ء و هو طرفه، مثل حرف الجبل و الحائط، فإن القائم عليه غير مستقرّ، و الذى يعبد اللّه على حرف قلق فى دينه، على غير ثبات و طمأنينة، كالذى هو على حرف الجبل و نحوه يضطرب اضطرابا و يضعف قيامه، فقيل للشاکّ فى دينه إنه يعبد اللّه على حرف؛ لأنه على غير يقين من وعده و وعيده، بخلاف المؤمن لأنه يعبده على يقين و بصيرة فلم يكن على حرف. و قيل: الحرف: الشرط، أى: و من الناس من يعبد اللّه على شرط، و الشرط هو قوله: فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ أى: خير دنيوى من رخاء و عافية و خصب و كثرة مال، و معنى اطمأنّ به ثبت على دينه و استمرّ على عبادته، أو اطمأن قلبه بذلک الخير الذى أصابه وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ أى: شی‌ء يفتتن به من مكروه يصيبه فى أهله أو ماله أو نفسه انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ أى: ارتدّ و رجع إلى الوجه الذى كان عليه من الكفر، ثم بيّن حاله بعد انقلابه على وجهه فقال:

خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ أى: ذهبا منه و فقد هما، فلا حظّ له فى الدنيا من الغنيمة و الثناء الحسن، و لا فى الآخرة من الأجر و ما أعدّه اللّه للصالحين من عباده. و قرأ مجاهد و حميد بن قيس و الأعرج و الزهرى و ابن أبى إسحاق خاسرا الدنيا و الآخرة على صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. و قرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى خسران الدنيا و الآخرة و هو مبتدأ و خبره هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ أى: الواضح الظاهر الذى لا خسران مثله. يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ أى: هذا الذى انقلب على وجهه و رجع إلى الكفر يدعو من دون اللّه، أى: يعبد متجاوزا عبادة اللّه إلى عبادة الأصنام ما لا يضرّه إن ترک عبادته، و لا ينفعه إن عبده؛ لكون ذلک المعبود جمادا لا يقدر على ضرّ و لا نفع،

---

(١). الإسراء: ٨٣.

(٢). سبأ: ٢۴.

(٣). لقمان: ٧.

و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الدعاء المفهوم من الفعل و هو يدعو، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ أى: عن الحق و الرشد، مستعار من ضلال من سلک غير الطريق، فصار بضلاله بعيدا عنها. قال الفرّاء: البعيد: الطويل. يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ يدعو بمعنى يقول، و الجملة مقرّرة لما قبلها من كون ذلک الدعاء ضلالا بعيدا. و الأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال، بل هى ضرر بحت لمن يعبدها، لأنه دخل النار بسبب عبادتها، و إيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرّة للمبالغة فى تقبيح حال ذلک الداعى، أو ذلک من باب وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ «١» اللام هى الموطئة للقسم، و من: موصولة أو موصوفة، و ضرّه مبتدأ خبره أقرب، و الجملة صلة الموصول. و جملة لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ جواب القسم، و المعنى: أنه يقول ذلک الكافر يوم القيامة لمعبوده الذى ضرّه أقرب من نفعه:

لبئس المولى أنت و لبئس العشير. و المولى: الناصر، و العشير: الصاحب، و مثل ما فى هذه الآية قول عنترة:

يدعون عنتر و الرّماح كأنّهاأشطان بئر فى لبان الأدهم «٢»

و قال الزجّاج: يجوز أن يكون «يدعو» فى موضع الحال، و فيه هاء محذوفة؛ أى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه، و على هذا يوقف على يدعو، و يكون قوله: لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ كلاما مستأنفا مرفوعا بالابتداء، و خبره «لَبِئْسَ الْمَوْلى . قال: و هذا لأن اللام لليمين و التوكيد فجعلها أوّل الكلام. و قال الزجّاج و الفراء: يجوز أن يكون «يدعو» مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء؛ أى: يدعو ما لا يضرّه و لا ينفعه يدعو، مثل: ضربت زيدا ضربت. و قال الفرّاء و الكسائى و الزجّاج: معنى الكلام القسم، و اللام مقدّمة على موضعها، و التقدير: يدعو من لضرّه أقرب من نفعه، فمن فى موضع نصب بيدعو، و اللام جواب القسم و ضرّه مبتدأ، و «أقرب» خبره، و من التصرّف فى اللام بالتقديم و التأخير قول الشاعر:

خالى لأنت و من جرير خالهينل العلاء و يكرم الأخوالا

أى لخالى أنت. قال النحّاس: و حكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: فى الكلام حذف، و المعنى: يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه إلها. قال النحاس: و أحسب هذا القول غلطا على محمد بن يزيد، و لعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيهما بعدها. و قال الفراء أيضا و القفال: اللام صلة، أى: زائدة، و المعنى: يدعو من ضرّه أقرب من نفعه، أى: يعبده، و هكذا فى قراءة عبد اللّه بن مسعود بحذف اللام، و تكون اللام فى لَبِئْسَ الْمَوْلى و فى لَبِئْسَ الْعَشِيرُ على هذا موطئة للقسم. إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لما فرغ من ذكر حال المشركين، و من يعبد اللّه على حرف ذكر حال المؤمنين فى الآخرة، و أخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة، و قد تقدم

---

(١). المنافقون: ٥.

(٢). «أشطان»: جمع شطن و هو الحبل الذى يستقى به. «اللبان»: الصدر. «الأدهم»: الفرس.

الكلام فى جرى الأنهار من تحت الجنات، و بيّنا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر؛ و إن أريد بها الأرض فلا بدّ من تقدير مضاف، أى: من تحت أشجارها إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: يفعل ما يريده من الأفعال لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ فيثيب من يشاء و يعذب من يشاء مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ قال النحاس: من أحسن ما قيل فى هذه الآية أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أى: فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ثُمَّ لْيَقْطَعْ أى: ثم ليقطع النصر إن تهيأ له فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ و حيلته ما يَغِيظُ من نصر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: المعنى:

من كان يظن أن لن ينصر اللّه محمدا حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظا، ثم فسّره بقوله: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أى: فليشدد حبلا فى سقف بيته ثُمَّ لْيَقْطَعْ أى: ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا، و المعنى: فليختنق غيظا حتى يموت، فإن اللّه ناصره و مظهره، و لا ينفعه غيظه؛ و معنى «فلينظر هل يذهبن كيده»: أى صنيعه و حيله، «ما يغيظ»: أى غيظه، و «ما» مصدرية.

و قيل: إن الضمير فى «ينصره» يعود إلى «من»، و المعنى: من كان يظنّ أن اللّه لا يرزقه فليقتل نفسه، و به قال أبو عبيدة.

و قيل: إن الضمير يعود إلى الدين، أى: من كان يظنّ أن لن ينصر اللّه دينه. و قرأ الكوفيون بإسكان اللام فى: «ثم ليقطع» قال النحاس: و هذه القراءة بعيدة من العربية «١». وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ أى: مثل ذلك الإنزال البديع أنزلناه آيات واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهديا من قبل.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ثانِيَ عِطْفِهِ قال: لاوى عنقه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس و السدّى و ابن يزيد و ابن جريج: أنه المعرض. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى قوله: ثانِيَ عِطْفِهِ قال: أنزلت فى النضر بن الحارث.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: هو رجل من بنى عبد الدار. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه ثانِيَ عِطْفِهِ قال: مستكبرا فى نفسه. و أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما و أنتجت خيله قال: هذا دين صالح، و إن لم تلد امرأته و لم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه بسند صحيح قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث و عام خصب و عام ولاد حسن قالوا: إنّ ديننا هذا لصالح فتمسّكوا به، و إن وجدوا عام جدب و عام ولاد سوء و عام قحط قالوا: ما فى ديننا هذا خير، فأنزل اللّه وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ

---

(١). و ذلک لأن «لمّ» ليست مثل الواو و الفاء؛ لأنها يوقف عليها و تنفرد.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٢٣

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا نحوه. و فى إسناده العوفى. و أخرج ابن مردويه أيضا من طريقه أيضا عن أبى سعيد قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره و ماله و ولده فتشاءم بالإسلام، فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أقلنى أقلنى، قال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب من دينى هذا خيرا؛ ذهب بصرى و مالى و مات ولدى، فقال: يا يهودىّ الإسلام يسبک الرجال كما تسبک النار خبث الحديد و الذهب و الفضة، فنزلت وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ قال: من كان يظنّ أن لن ينصر اللّه محمدا فى الدنيا و الآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ قال: فليربط بحبل إِلَى السَّماءِ قال: إلى سماء بيته؛ السقف ثُمَّ لْيَقْطَعْ قال: ثم يختنق به حتى يموت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه قال: مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ يقول: أن لن يرزقه اللّه فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ فليأخذ حبلا فليربطه فى سماء بيته فليختنق به فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ قال: فلينظر هل ينفعه ذلک أو يأتيه برزق.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٧ الى ٢٤]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (١٨) هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (٢٠) وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٢٣) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (٢٤)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أى: باللّه و برسوله، أو بما ذكر من الآيات البينات وَ الَّذِينَ هادُوا هم اليهود المنتسبون إلى ملّة موسى وَ الصَّابِئِينَ قوم يعبدون النجوم، و قيل: هم من جنس النصارى و ليس ذلك بصحيح، بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملّة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء وَ النَّصارى هم المنتسبون إلى ملّة عيسى وَ الْمَجُوسَ هم الذين يعبدون النار، و يقولون: إن للعالم أصلين؛ النور و الظلمة. و قيل:

هم قوم يعبدون الشمس و القمر، و قيل: هم قوم يستعملون النجاسات، و قيل: هم قوم من النصارى اعتزلوهم و لبسوا المسوح، و قيل: إنهم أخذوا بعض دين اليهود و بعض دين النصارى وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الذين يعبدون الأصنام، و قد مضى تحقيق هذا فى البقرة، و لكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى على الصابئين، و أخّرهم عنهم هنا. فقيل: وجه تقديم النصارى هنالك أنهم أهل كتاب دون الصابئين، و وجه تقديم الصابئين

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۲۴

هنا أن زمنهم متقدّم على زمن النصارى. و جملة إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فى محل رفع على أنها خبر لإنّ المتقدّمة، و معنى الفصل أنه سبحانه يقضى بينهم فيدخل المؤمنين منهم الجنة و الكافرين منهم النار. و قيل:

الفصل هو أن يميز المحقّ من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما، و جملة إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ تعليل لما قبلها، أى: إنه سبحانه على كل شيء من أفعال خلقه و أقوالهم شهيد، لا يعزب عنه شيء منها. و أنكر الفراء أن تكون جملة إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ خبرا لإن المتقدّمة، و قال: لا يجوز فى الكلام: إن زيدا إن أخاه منطلق، و ردّ الزجاج ما قاله الفراء، و أنكره و أنكر ما جعله مماثلا للآية، و لا شك فى جواز قولك:

إن زيدا إن الخير عنده، و إن زيدا إنه منطلق، و نحو ذلك. أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ الرؤية هنا هى القلبية لا البصرية، أى: ألم تعلم، و الخطاب لكل من يصلح له، و هو من تتأتّى منه الرؤية، و المراد بالسجود هنا هو الانقياد الكامل، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء، أو عامة لهم و لغيرهم، و لهذا عطف الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُ على من، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء، و إنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعدا فى العادة، و ارتفاع كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بفعل مضمر يدلّ عليه المذكور، أى: و يسجد له كثير من الناس. و قيل: مرتفع على الابتداء و خبره محذوف، و تقديره: و كثير من الناس يستحق الثواب، و الأوّل أظهر. و إنما لم يرتفع بالعطف على «من»؛ لأن سجود هؤلاء الكثير من الناس هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، و المراد بالسجود المتقدّم هو الانقياد، فلو ارتفع بالعطف على «من» لكان فى ذلك جمع بين معنيين مختلفين فى لفظ واحد. و أنت خبير بأنه لا ملجئ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد، و لا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا- نفس السجود الخاص، فارتفاعه على العطف لا- بأس به، و إن أبى ذلك صاحب الكشاف و متابعوه. و أما قوله: وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ فقال الكسائى و الفراء: إنه مرتفع بالابتداء و خبره ما بعده. و قيل: هو معطوف على «كثير» الأوّل، و يكون المعنى: و كثير من الناس يسجد و كثير منهم يأبى ذلك. و قيل: المعنى: و كثير من الناس فى الجنة، و كثير حق عليه العذاب، هكذا حكاه ابن الأنبارى.

وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ أى: من أهانه اللّه بأن جعله كافرا شقيا، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيدا عزيزا. و حكى الأخفش و الكسائى و الفراء أن المعنى: وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ أىّ إكرام، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ من الأشياء التى من جملتها ما تقدّم ذكره من الشقاوة و السعادة و الإكرام و الإهانة هذانِ خَصْمانِ الخصمان: أحدهما أنجس الفرق اليهود و النصارى و الصابئون و المجوس و الذين أشركوا، و الخصم الآخر المسلمون، فهما فريقان مختصمان. قاله الفراء و غيره. و قيل:

المراد بالخصمين الجنة و النار.

قالت الجنة: خلقنی لرحمته، و قالت النار: خلقنی لعقوبته. و قیل: المراد بالخصمین هم الذین برزوا یوم بدر، فمن المؤمنین حمزة و علیّ و عبیدة، و من الکافرین عتبة و شیبة ابنا ربیعة و الولید بن عتبة. و قد کان أبو ذرّ رضی اللّه عنه یقسم أن هذه الآیة نزلت فی هؤلاء المتبارزین کما ثبت عنه فی الصحیح، و قال بمثل هذا جماعة

فتح القدیر، ج۳، ص: ۵۲۵

من الصحابة، و هم أعرف من غیرهم بأسباب النزول. و قد ثبت فی الصحیح أیضا عن علیّ أنه قال: فینا نزلت هذه الآیة. و قرأ ابن کثیر «هذانّ» بتشدید النون، و قال سبحانه: اخْتَصَمُوا و لم یقل اختصما.

قال الفراء: لأنهم جمع، و لو قال اختصما لجاز، و معنی فِی رَبِّهِمْ فی شأن ربهم، أی: فی دینه، أو فی ذاته، أو فی صفاته، أو فی شریعته لعباده، أو فی جمیع ذلک. ثم فصّل سبحانه ما أجمله فی قوله: یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ فقال: فَالَّذِینَ کَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِیابٌ مِنْ نارٍ قال الأزهری: أی سوّیت و جعلت لبوسا لهم، شبّهت النار بالثیاب لأنها مشتملة علیهم کاشتمال الثیاب، و عبّر بالماضی عن المستقبل تنبیها علی تحقّق وقوعه.

و قیل: إن هذه الثیاب من نحاس قد أذیب فصار کالنار، و هی السرابیل المذکورة فی آیة أخری. و قیل: المعنی فی الآیة: أحاطت النّار بهم. و قرئ «قطعت» بالتخفیف. ثم قال سبحانه: یُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِیمُ و الحمیم: هو الماء الحار المغلی بنار جهنم، و الجملة مستأنفة أو هی خبر ثان للموصول یُصْهَرُ بِهِ ما فِی بُطُونِهِمْ الصّهر: الإذابة، و الصّهارة: ما ذاب منه، یقال: صهرت الشیء فانصهر، أی: أذابته فذاب، فهو صهیر، و المعنی: أنه یذاب بذلک الحمیم ما فی بطونهم من الأمعاء و الأحشاء وَ الْجُلُودُ معطوفة علی ما، أی: و یصهر به الجلود، و الجملة فی محل نصب علی الحال، و قیل: إن الجلود لا تذاب، بل تحرق، فیقدّر فعل یناسب ذلک، و یقال: و تحرق به الجلود، کما فی قول الشاعر:

علفتها تبنا و ماء باردا «۱» أی: و سقیتها ماء. و لا یخفی أنه لا ملجئ لهذا، فإن الحمیم إذا کان یذیب ما فی البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولی وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِیدٍ المقامع: جمع مقمعة و مقمع، قمعته: ضربته بالمقمعة، و هی قطعة من حدید. و المعنی: لهم مقامع من حدید یضربون بها، أی: للکفرة، و سمیت المقامع مقامع لأنها تقمع المضروب، أی: تذلله. قال ابن السّکّیت: أقمعت الرجل عنی إقماعا؛ إذا اطلع علیک فرددته عنک.

کُلَّما أَرادُوا أَنْ یَخْرُجُوا مِنْها أی: من النار أُعِیدُوا فِیها أی: فی النار بالضرب بالمقامع، و مِنْ غَمٍّ بدل من الضمیر فی «منها» بإعادة الجارّ أو مفعول له، أی: لأجل غمّ شدید من غموم النار.

وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِیقِ هو بتقدیر القول، أی: أعیدوا فیها، و قیل لهم: ذوقوا عذاب الحریق، أی:

العذاب المحرق، و أصل الحریق الاسم من الاحتراق، تحرّق الشیء بالنار و احترق حرقة و احتراقا، و الذّوق مماسّة یحصل معها إدراک الطعم، و هو هنا توسع، و المراد به إدراک الألم. قال الزجاج: و هذا لأحد الخصمین.

و قال فی الخصم الآخر و هم المؤمنون إِنَّ اللَّهَ یُدْخِلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فبیّن سبحانه حال المؤمنین بعد بیانه لحال الکافرین. ثم بیّن اللّه سبحانه بعض ما أعدّه لهم من النعیم بعد دخولهم الجنة فقال: یُحَلَّوْنَ فِیها قرأ الجمهور یحلون بالتشدید و البناء للمفعول، و قرئ مخففا، أی: یحلیهم اللّه أو الملائکة بأمره. و «من» فی قوله: مِنْ أَساوِرَ للتبعیض، أی: یحلون بعض أساور،

---

(۱). و عجزه: حتی شتت همّالة عیناها.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٢٦

أو للبيان، أو زائدة، و «من» فی مِنْ ذَهَبٍ للبيان، و الأساور: جمع أسورة، و الأسورة: جمع سوار، و فی السوار لغتان؛ كسر السين و ضمّها، و فيه لغة ثالثة، و هی أسوار. قرأ نافع و ابن كثير و عاصم و شيبة وَ لُؤْلُؤاً بالنصب عطف على محل أساور، أی: و يحلّون لؤلؤا، أو بفعل مقدّر ينصبه، و هكذا قرأ بالنصب يعقوب و الجحدری و عيسى بن عمر، و هذه القراءة هی الموافقة لرسم المصحف فإن هذا الحرف مكتوب فيه بالألف، و قرأ الباقون بالجرّ عطفا على أساور، أی: يحلون من أساور و من لؤلؤ، و اللؤلؤ: ما يستخرج من البحر من جوف الصدف. قال القشيری: و المراد ترصيع السوار باللؤلؤ، و لا يبعد أن يكون فی الجنة سوار من لؤلؤ مصمت «١» كما أن فيها أساور من ذهب. وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ أی: جميع ما يلبسونه حرير كما تفيده هذه الإضافة، و يجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذی كان محرّما عليهم فی الدنيا حلال لهم فی الآخرة، و أنه من جملة ما يلبسونه فيها، ففيها ما تشتهيه الأنفس، و كل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه، و ينال ما يريده وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ أی: أرشدوا إليه، قيل: هو لا إله إلا اللّه، و قيل: الحمد للّه، و قيل: القرآن، و قيل: هو ما يأتيهم من اللّه سبحانه من البشارات. و قد ورد فی القرآن ما يدلّ على هذا القول المجمل هنا، و هو قوله سبحانه: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی صَدَقَنا وَعْدَهُ «٢».

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدانا لِهذا «٣». الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ «٤». و معنى: وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود و هو طريق الجنة، أو صراط اللّه الذی هو دينه القويم، و هو الإسلام.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: وَ الصَّابِئِينَ قال: هم قوم يعبدون الملائكة، و يصلّون القبلة، و يقرءون الزبور وَ الْمَجُوسَ عبدة الشمس و القمر و النيران، وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا عبدة الأوثان إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ قال: الأديان ستة؛ فخمسة للشيطان، و دين للّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن أبی حاتم عن عكرمة فی الآية قال: فصل قضاءه بينهم فجعل الخمسة مشتركة و جعل هذه الأمة واحدة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الذين هادوا: اليهود، و الصابئون: ليس لهم كتاب، و المجوس: أصحاب الأصنام، و المشركون: نصارى العرب. و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما عن أبی ذرّ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية هذانِ خَصْمانِ الآية نزلت فی الثلاثة و الثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر، و هم حمزة بن عبد المطلب، و عبيدة بن الحارث، و علیّ بن أبی طالب، و عتبة و شيبة ابنا ربيعة، و الوليد بن عتبة، قال علیّ: و أنا أوّل من يجثو فی الخصومة على ركبتيه بين يدی اللّه يوم القيامة.

و أخرجه البخاری و غيره من حديث علیّ. و أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه، و هكذا روی عن جماعة من التابعين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن سعيد بن جبير فی قوله:

قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ قال: من نحاس، و ليس من الآنية شی‏ء إذا حمی أشدّ حرّا منه، و فی قوله:

---

(١). «المصمت»: الذی لا يخالط غيره.

(٢). الزمر: ٧٤.

(٣). الأعراف: ٤٣.

(٤). فاطر: ٣٤.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٢٧

يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ قال: النحاس يذاب على رؤوسهم، و قوله: يُصْهَرُ بِهِ ما فِی بُطُونِهِمْ قال: تسيل أمعاؤهم وَ الْجُلُودُ قال: تتناثر جلودهم.

و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إنّ الحميم ليصبّ على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت «١» ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه و هو الصّهر، ثم يعاد كما كان». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ قال: يمشون و أمعاءهم تتساقط و جلودهم. و فى قوله: وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل و الثبور. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: يسقون ماء إذا دخل فى بطونهم أذابها و الجلود مع البطون. و أخرج أحمد و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو أنّ مقمعا من حديد وضع فى الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلّوه «٢» من الأرض، و لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان». و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها و لا جمرها، ثم قرأ: كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها. و فى الصحيحين و غيرهما عن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» و فى الباب أحاديث.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ قال: ألهموا. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: هدوا إلى الطيب من القول فى الخصومة إذ قالوا:

اللّه مولانا و لا مولى لكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن إسماعيل بن أبى خالد فى الآية قال: القرآن وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ قال: الإسلام. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى الآية قال: الإسلام. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر، و الحمد للّه الذى قال: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

---

(١). «يسلت»: يقطع و يستأصل.

(٢). أى: ما استطاعوا حمله.

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٥٢٨

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٥ الى ٢٩]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عطف المضارع على الماضى؛ لأنّ المراد بالمضارع ما مضى من الصدّ، و مثل هذا قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ* «١»، أو المراد بالصدّ هاهنا الاستمرار لا مجرّد الاستقبال، فصحّ بذلك عطفه على الماضى، و يجوز أن تكون الواو فى و يصدون واو الحال، أى: كفروا و الحال أنهم يصدون. و قيل: الواو زائدة، و المضارع خبر إن، و الأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله: وَ الْبادِ و ذلك نحو خسروا أو هلكوا. و قال الزجاج: إن الخبر: نذقه من عذاب أليم. و ردّ

بأنه لو كان خبرا لأن لم يجزم، و أيضا لو كان خبرا لإن لبقى الشرط و هو وَ مَنْ يُرِدْ بغير جواب فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا. و المراد بالصدّ المنع، و بسبيل اللّه: دينه، أى: يمنعون من أراد الدخول فى دين اللّه و المسجد الحرام، معطوف على سبيل اللّه. قيل: المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآنى، و قيل: الحرم كله؛ لأن المشركين صدّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه عنه يوم الحديبية؛ و قيل: المراد به مكة بدليل قوله: الَّذِى جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ أى: جعلناه للناس على العموم يصلّون فيه و يطوفون به مستويا فيه العاكف، و هو المقيم فيه الملازم له، و الباد: أى الواصل من البادية، و المراد به الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم. و انتصاب سواء على أنه المفعول الثانى لجعلناه، و هو بمعنى مستويا، و العاكف مرتفع به، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع و التوبيخ للصادّين عنه، و يحتمل أن يكون انتصاب سَواءً على الحال. و هذا على قراءة النصب، و بها قرأ حفص عن عاصم، و هى قراءة الأعمش، و قرأ الجمهور برفع سواء على أنه مبتدأ و خبره الْعاكِفُ أو على أنه خبر مقدّم، و المبتدأ الْعاكِفُ أى: العاكف فيه و البادى سواء، و قرئ بنصب سَواءً و جرّ العاكف على أنه صفة للناس، أى: جعلناه للناس العاكف و البادى سواء، و أثبت الياء فى «البادى» ابن كثير وصلا و وقفا، و حذفها أبو عمرو فى الوقف، و حذفها نافع فى الوصل و الوقف. قال القرطبى:

و أجمع الناس على الاستواء فى المسجد الحرام نفسه.

و اختلفوا فى مكة فذهب مجاهد و مالك إلى أن دور مكة و منازلها يستوى فيها المقيم و الطارئ. و ذهب عمر بن الخطاب و ابن عباس و جماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد، و على ربّ المنزل أن يؤويه شاء أم أبى. و ذهب الجمهور إلى أنّ دور مكة و منازلها ليست كالمسجد الحرام، و لأهلها منع الطارئ من النزول فيها. و الحاصل أن الكلام فى هذا راجع إلى أصلين: الأصل الأول: ما فى هذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه، أو جميع الحرم، أو مكة على الخصوص؟ و الثانى: هل كان فتح مكة صلحا أو عنوة؟ و على فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرّها النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى يد أهلها على الخصوص؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم؟

و قد أوضحنا هذا فى شرحنا على «المنتقى» بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة. وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ

---

(١). النحل: ٨٨.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٢٩

مفعول يرد محذوف لقصد التعميم، و التقدير: و من يرد فيه مرادا؛ أىّ مراد بإلحاد، أى: بعدول عن القصد، و الإلحاد فى اللغة الميل، إلا أنه سبحانه بيّن هنا أنه الميل بظلم.

و قد اختلف فى هذا الظلم ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك، و قيل: الشرك و القتل، و قيل: صيد حيواناته و قطع أشجاره، و قيل: هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة، و قيل: المراد المعاصى فيه على العموم، و قيل: المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية فى ذلك المكان. و قد ذهب إلى هذا ابن مسعود و ابن عمر و الضحّاك و ابن زيد و غيرهم، حتى قالوا: لو همّ الرجل فى الحرم بقتل رجل بعدن لعذّبه اللّه. و الحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان فى البيت الحرام مأخوذا بمجرّد الإرادة للظلم، فهى مخصّصة لما ورد من أن اللّه غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها إلا أن يقال إن الإرادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس، و بالجملة فالبحث عن هذا و تقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة و يرفع الإشكال يطول جدّا، و مثل هذه الآية حديث:

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل و المقتول فى النار، قيل: يا رسول اللّه هذا القاتل فما بال المقتول؟

قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه» فدخل النار هنا بسبب مجرّد حرصه على قتل صاحبه. و قد أفردنا هذا البحث برسالة

مستقلة. و الباء فی قوله: «بإلحاد» إن كان مفعول يرد محذوفا كما ذكرنا فليست بزائدة، و قيل إنها زائدة هنا كقول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلجنضرب بالسيف و نرجو بالفرج

أی: نرجو الفرج.

و مثله:

ألم يأتيك و الأنباء تنمىبما لاقت لبون بنی زياد «۱»

أی ما لاقت.

و من القائلين بأنها زائدة الأخفش؛ و المعنی عنده: و من يرد فيه إلحادا بظلم. و قال الكوفيون: دخلت الباء لأن المعنی بأن يلحد، و الباء مع أن تدخل و تحذف، و يجوز أن يكون التقدير: و من يرد الناس بإلحاد.

و قيل إن يرد مضمن معنی يهمّ، و المعنی: و من يهمّ فيه بإلحاد. و أما الباء فی قوله «بظلم» فهی للسببية؛ و المعنی: و من يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم، و يجوز أن يكون بظلم بدلا من بإلحاد بإعادة الجارّ و يجوز أن يكونا حالين مترادفين. وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أی: و اذكر وقت ذلك؛ يقال: بوّأته منزلا- و بوّأت له، كما يقال: مكّنتك و مكّنت لك. قال الزجّاج: معناه جعلنا مكان البيت مبوّأ لإبراهيم، و معنی بوّأنا:

بيّنا له مكان البيت، و مثله قول الشاعر «۲»:

كم من أخ لی ماجدبوّأته بيدیّ لحدا

---

(۱). البيت القيس بن زهير العبسی.

(۲). هو عمرو بن معديكرب الزبيدی.

فتح القدير، ج‌۳، ص: ۵۳۰

و قال الفراء: إن اللام زائدة، و مكان ظرف، أی: أنزلناه فيه أَنْ لا تُشْرِكْ بِی شَيْئاً قيل: إن هذه هی مفسرة لبوّأنا لتضمّنه معنی تعبدنا؛ لأن التبوئة هی للعبادة. و قال أبو حاتم: هی مصدرية، أی: لأن لا تشرك بی. و قيل: هی المخفّفة من الثقيلة، و قيل: هی زائدة، و قيل: معنی الآية: و أوحينا إليه أن لا تعبد غيری. قال المبرّد: كأنه قيل له وحّدنی فی هذا البيت؛ لأنّ معنی لا تشرك بی: وحدنی وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ من الشرك و عبادة الأوثان. و فی الآية طعن علی من أشرك من قطّان البيت، أی: هذا كان الشرط علی أبيكم فمن بعده و أنتم فلم تفوا، بل أشركتم. و قالت فرقة: الخطاب بقوله: أَنْ لا تُشْرِكْ لمحمد صلّی اللّه عليه و سلّم، و هذا ضعيف جدّا. و معنی وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ تطهيره من الكفر و الأوثان و الدماء و سائر النجاسات، و قيل: عنی به التطهير عن الأوثان فقط، و ذلك أن جرهما و العمالقة كانت لهم أصنام فی محل البيت، و قد مرّ فی سورة براءة ما فيه كفاية فی هذا المعنی، و المراد بالقائمين هنا هم المصلون وَ ذكر الرُّكَّعِ السُّجُودِ بعده لبيان أركان الصلاة؛ دلالة علی عظم شأن هذه العبادة، و قرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا فی البيت، فالطواف عنده و الصلاة إليه وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِ قرأ الحسن و ابن محيصن «و آذن» بتخفيف الذال و المدّ. و قرأ الباقون بتشديد الذال، و الأذان: الإعلام، و قد تقدّم فی براءة.

قال الواحدی: قال جماعة المفسرين: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاء جبريل فأمره أن يؤذّن فی الناس بالحج، فقال: يا ربّ و ما يبلغ صوتی؟ فقال اللّه سبحانه: أذّن و علیّ البلاغ، فعلا المقام فأشرف به حتی صار كأعلی الجبال، فأدخل إصبعيه فی أذنيه، و أقبل بوجهه يمينا و شمالا، و شرقا و غربا، و قال: يا أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلی البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه من كان فی أصلاب الرجال و أرحام النساء: لبيك اللهم لبيك. و قيل: إن الخطاب لنبينا محمد صلّی اللّه عليه و سلّم. و المعنی: أعلمهم يا

محمد بوجوب الحجّ عليهم، و على هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله: وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ و قيل: إن خطابه انقضى عند قوله: وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ و أن قوله: أَنْ لا تُشْرِكْ بِي و ما بعده خطاب لنبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قرأ الجمهور بِالْحَجِ بفتح الحاء، و قرأ ابن أبى إسحاق فى كلّ القرآن بكسرها. يَأْتُوكَ رِجالًا هذا جواب الأمر، وعده اللّه إجابة الناس له إلى حجّ البيت ما بين راجل و راكب، فمعنى رجالا مشاة جمع راجل، و قيل جمع رجل. و قرأ ابن أبى إسحاق «رجالا» بضم الراء و تخفيف الجيم، و قرأ مجاهد «رجالى» على وزن فعالى مثل كسالى، و قدّم الرجال على الركبان فى الذكر لزيادة تعبهم فى المشى، و قال: يأتوك و إن كانوا يأتون البيت؛ لأن من أتى الكعبة حاجّا فقد أتى إبراهيم، لأنه أجاب نداءه. وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ عطف على رجالا، أى: و ركبانا على كل بعير، و الضامر: البعير المهزول الذى أتعبه السفر، يقال: ضمر يضمر ضمورا، و وصف الضامر بقوله: يَأْتِينَ باعتبار المعنى، لأن ضامر فى معنى ضوامر، و قرأ أصحاب ابن مسعود و ابن أبى عبلة و الضحّاك «يأتون» على أنه صفة لرجالا. و الفجّ: الطريق الواسع، الجمع: فجاج، و العميق:

البعيد، و اللام فى لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ متعلقة بقوله يأتوك، و قيل: بقوله و أذن. و الشهود: الحضور، و المنافع: هى التى تعمّ منافع الدنيا و الآخرة. و قيل: المراد بها المناسك، و قيل: المغفرة، و قيل: التجارة، كما

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۳۱

فى قوله: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ «۱». وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ أى: يذكروا عند ذبح الهدايا و الضحايا اسم اللّه، و قيل: إن هذا الذكر كناية عن الذّبح لأنه لا ينفك عنه.

و الأيام المعلومات هى أيام النحر كما يفيد ذلك قوله: عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ و قيل: عشر ذى الحجّة. و قد تقدّم الكلام فى الأيام المعلومات و المعدودات فى البقرة فلا نعيده، و الكلام فى وقت ذبح الأضحية معروف فى كتب الفقه و شروح الحديث، و معنى: «عَلى ما رَزَقَهُمْ»: على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام، و هى الإبل و البقر و الغنم، و بهيمة الأنعام: هى الأنعام، فالإضافة فى هذا كالإضافة فى قولهم: مسجد الجامع و صلاة الأولى. فَكُلُوا مِنْها الأمر هنا للندب عند الجمهور، و ذهبت طائفة إلى أن الأمر للوجوب، و هذا التفات من الغيبة إلى الخطاب وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ البائس: ذو البؤس، و هو شدة الفقر، فذكر الفقير بعده لمزيد الإيضاح، و الأمر هنا للوجوب، و قيل: للندب. ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ المراد بالقضاء هنا هو التأدية، أى: ليؤدوا إزالة وسخهم، لأن التفث هو الوسخ و القذارة من طول الشعر و الأظفار، و قد أجمع المفسرون كما حكاه النيسابورى على هذا. قال الزجّاج: إن أهل اللغة لا يعرفون التفث. و قال أبو عبيدة:

لم يأت فى الشرع ما يحتجّ به فى معنى التفث. و قال المبرّد: أصل التفث فى اللغة كل قاذورة تلحق الإنسان.

و قيل: قضاؤه ادّهانه؛ لأن الحاجّ مغبّر شعث لم يدهن و لم يستحد، فإذا قضى نسكه و خرج من إحرامه حلق شعره و لبس ثيابه، فهذا هو قضاء التفث. قال الزجاج: كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ أى: ما ينذرون به من البرّ فى حجّهم، و الأمر للوجوب، و قيل: المراد بالنذور هنا أعمال الحج وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ هذا الطواف هو طواف الإفاضة. قال ابن جرير: لا خلاف فى ذلك بين المتأوّلين، و العتيق: القديم كما يفيده قوله سبحانه: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ «۲» الآية، و قد سمّى العتيق لأن اللّه أعتقه من أن يتسلّط عليه جبار، و قيل: لأن اللّه يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب، و قيل: لأنه أعتق من غرق الطوفان، و قيل: العتيق: الكريم.

و قد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله: وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: الحرم كله، و هو المسجد الحرام سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ قال: خلق اللّه فيه سواء. و أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: هم فى منازل مكة سواء، فينبغى لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم. و قال: البادى و أهل مكة سواء، يعنى فى

المنزل و الحرم. و أخرج ابن أبى شيبة عن عبد اللّه بن عمرو قال: من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل فى بطونه «۳» نارا. و أخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب أن رجلا قال له عند المروة: يا أمير المؤمنين أقطعنى مكانا لى و لعقبى، فأعرض عنه عمر و قال: هو حرم اللّه سواء العاكف فيه الباد. و أخرج ابن أبى شيبة عن عطاء قال: كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبوابا حتى ينزل الحاجّ فى عرصات الدّور. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، قال

---

(۱). البقرة: ۱۹۸.

(۲). آل عمران: ۹۶.

(۳). لعلّ الصواب: بطنه.

السيوطى: بإسناد صحيح، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قول اللّه: «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ قال: «سواء المقيم و الذى يدخل». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال:
«مكة مباحة لا تؤجر بيوتها و لا تباع رباعها». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال:
توفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر و عمر و ما تدعى رباع مكة «۱» إلا السّوائب «۲»، من احتاج سكن، و من استغنى أسكن «۳». رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عيسى بن يونس، عن عمر بن سعيد بن أبى حسين، عن عثمان بن أبى سليمان، عن علقمة فذكره. و أخرج الدارقطنى عن ابن عمر مرفوعا: «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا» و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن راهويه و أحمد و عبد بن حميد و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود رفعه فى قوله: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ قال: «لو أن رجلا همّ فيه بإلحاد و هو بعدن أبين لأذاقه اللّه عذابا أليما». قال ابن كثير: هذا الإسناد صحيح على شرط البخارى، و وقفه أشبه من رفعه، و لهذا صمّم شعبة على وقفه. و أخرج سعيد بن منصور و الطبرانى عن ابن مسعود فى الآية قال: من همّ بخطيئة فلم يعملها فى سوى البيت لم تكتب عليه حتى يعملها، و من همّ بخطيئة فى البيت لم يمته اللّه من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى عبد اللّه بن أنيس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر و الآخر من الأنصار، فافتخروا فى الأنساب، فغضب عبد اللّه بن أنيس، فقتل الأنصارى، ثم ارتدّ عن الإسلام و هرب إلى مكة، فنزلت فيه وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ يعنى من لجأ إلى الحرم بإلحاد، يعنى بميل عن الإسلام. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ قال: بشرك. و أخرج عبد بن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «احتكار الطعام فى الحرم إلحاد فيه». و أخرج سعيد بن منصور، و البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: بيع الطعام بمكة إلحاد. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «احتكار الطعام بمكة إلحاد».

و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عن علىّ قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل و هاجر، فلما قدم مكة رأى على رابية فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه فقال: يا إبراهيم! ابن على ظلّى أو على قدرى، و لا تزد و لا تنقص، فلما بنى خرج و خلّف إسماعيل و هاجر، و ذلك حين يقول اللّه:
وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطاء وَ الْقائِمِينَ قال:

المصلين عنده. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة معناه. و أخرج ابن

---

(١). أى: بيوتها.

(٢). «السوائب»: أى غير المملوكة لأهلها، بل المتروكة للّه تعالى لينتفع بها المحتاج إليها.

(٣). أى: أسكن غيره بلا إجارة.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۳۳

أبى شيبة فى المصنف، و ابن منيع و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى السّنن، عن ابن عباس قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: ربّ قد فرغت، فقال وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ قال: ربّ و ما يبلغ صوتى؟ قال: أذّن و علىّ البلاغ، قال: ربّ كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق، فسمعه من فى السماء و الأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبّون. و فى الباب آثار عن جماعة من الصحابة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ قال: أسواقا كانت لهم، ما ذكر اللّه منافع إلا الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: منافع فى الدنيا و منافع فى الآخرة، فأما منافع الآخرة فرضوان اللّه، و أما منافع الدنيا فممّا يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم و الذبائح و التجارات. و أخرج أبو بكر المروزى فى «كتاب العيدين» عنه أيضا قال:

الأيام المعلومات: أيام العشر. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الأيام المعلومات:

يوم النحر و ثلاثة أيام بعده. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: أيام التشريق. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا فى الأيام المعلومات قال: قبل يوم التروية بيوم، و يوم التروية و يوم عرفة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: البائس: الزّمن «۱». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عمر قال:

التفث المناسك كلها. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: التفث: حلق الرأس، و الأخذ من العارضين، و نتف الإبط، و حلق العانة، و الوقوف بعرفة، و السّعى بين الصفا و المروة، و رمى الجمار، و قصّ الأظفار، و قصّ الشارب، و الذّبح. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ هو طواف الزيارة يوم النحر.

و ورد فى وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة، و قد أشرنا إلى ذلك سابقا، و ورد فى فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها.

[سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۰ الى ۳۵]

ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (۳۰) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (۳۱) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (۳۲) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳۳) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (۳۴) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۵)

---

(١). أى: المريض مرضا يطول شفاؤه.

فتح القدير، ج‏3، ص: 534
محل ذلِكَ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلك، أو مبتدأ خبره محذوف، أو فى محل نصب بفعل محذوف، أى: افعلوا ذلك، و المشار إليه هو ما سبق من أعمال الحجّ، و هذا و أمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفى كلام واحد، و الحرمات: جمع حرمة. قال الزجّاج: الحرمة ما وجب القيام به و حرم التفريط فيه، و هى فى هذه الآية ما نهى عنها و منع من الوقوع فيها. و الظاهر من الآية عموم كل حرمة فى الحجّ و غيره كما يفيده اللفظ و إن كانا السبب خاصا، و تعظيمها ترك ملابستها فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ أى: فالتعظيم خير له عِنْدَ رَبِّهِ يعنى فى الآخرة من التهاون بشى‏ء منها. و قيل: إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناه الحقيقى، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به، فهى عدة بخير وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ و هى الإبل و البقر و الغنم إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ أى: فى الكتاب العزيز من المحرّمات، و هى الميتة و ما ذكر معها فى سورة المائدة. و قيل: فى قوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ «1». فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ الرجس: القذر، و الوثن: التمثال، و أصله من وثن الشى‏ء، أى: أقام فى مقامه، و سمّى الصليب وثنا لأنه ينصب و يركز فى مقامه، فلا يبرح عنه و المراد اجتناب عبادة الأوثان، و سمّاها رجسا لأنها سبب الرّجس، و هو العذاب. و قيل: جعلها سبحانه رجسا حكما، و الرجس: النجس، و ليست النجاسة وصفا ذاتيا لها و لكنها وصف شرعى، فلا تزول إلا بالإيمان، كما أنها لا تزول النجاسة الحسية إلا بالماء.

قال الزّجّاج: «من» هنا لتخليص جنس من أجناس، أى: فاجتنبوا الرجس الذى هو وثن وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ الذى هو الباطل، و سمّى زورا لأنه مائل عن الحق، و منه قوله تعالى: تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ «2»، و قولهم مدينة زوراء، أى: مائلة، و المراد هنا قول الزور على العموم، و أعظمه الشرك باللّه بأىّ لفظ كان.

و قال الزجاج: المراد بقول الزور هاهنا تحليلهم بعض الأنعام و تحريمهم بعضها، و قولهم: هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ «3»، و قيل: المراد به شهادة الزور، و انتصاب حُنَفاءَ على الحال، أى: مستقيمين على الحق، أو مائلين إلى الحق. و لفظ حنفاء من الأضداد، يقع على الاستقامة، و يقع على الميل؛ و قيل: معناه حجّاجا، و لا وجه لهذا غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ هو حال كالأوّل، أى: غير مشركين به شيئا من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم، و جملة وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب، و معنى خرّ من السماء: سقط إلى الأرض، أى: انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، يقال: خطفه يخطفه إذا سلبه، و منه قوله: يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ أى: تخطف لحمه و تقطعه بمخالبها. قرأ أبو جعفر و نافع بتشديد الطاء و فتح الخاء، و قرئ بكسر الخاء و الطاء و بكسر التاء مع كسرهما أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ أى: تقذفه و ترمى به فِي مَكانٍ سَحِيقٍ أى: بعيد، يقال: سحق يسحق سحقا فهو سحيق؛ إذا بعد. قال الزّجّاج: أعلم اللّه أنّ بعد من أشرك به من الحقّ كبعد ما خرّ من السماء، فتذهب به الطير، أو هوت به الريح فى مكان بعيد ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ الكلام فى هذه الإشارة قد تقدّم قريبا، و الشعائر: جمع الشعيرة، و هى كل شى‏ء فيه للّه تعالى شعار، و منه شعار القوم فى الحرب،

---

(1). المائدة: 3.

(2). الكهف: 17.

(3). النحل 114.

فتح القدير، ج‏3، ص: 535
و هو علامتهم التى يتعارفون بها، و منه إشعار البدنة، و هو الطعن فى جانبها الأيمن، فشعائر اللّه أعلام دينه، و تدخل الهدايا فى الحجّ دخولا أوليا، و الضمير فى قوله: فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف، أى: فإن تعظيمها من

تقوى القلوب، أى: من أفعال القلوب التى هى من التقوى، فإن هذا التعظيم ناشئ من التقوى لَكُمْ فِيها مَنافِعُ أى: فى الشعائر على العموم، أو على الخصوص، و هى البدن كما يدلّ عليه السياق. و من منافعها: الركوب و الدّرّ و النّسل و الصوف و غير ذلك. إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو وقت نحرها ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أى: حيث يحلّ نحرها، و المعنى: أنها تنتهى إلى البيت و ما يليه من الحرم، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرّة إلى وقت نحرها، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية. و قيل: إن محلها هاهنا مأخوذ من إحلال الحرام، و المعنى: أن شعائر الحجّ كلها من الوقوف بعرفة و رمى الجمار و السعى تنتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت، فالبيت على هذا مراد بنفسه وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً المنسك هاهنا المصدر من نسك ينسك إذا ذبح القربان، و الذبيحة نسيكة، و جمعها نسك. و قال الأزهرى: إن المراد بالمنسك فى الآية موضع النحر، و يقال: منسك بكسر السين و فتحها لغتان، قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصما، و قرأ الباقون بالفتح. و قال الفرّاء: المنسك فى كلام العرب: الموضع المعتاد فى خير أو شرّ، و قال ابن عرفة وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً: أى مذهبا من طاعة اللّه. و روى عن الفراء أن المنسك العيد، و قيل: الحجّ، و الأوّل أولى لقوله: لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ إلى آخره، و الأمة: الجماعة المجتمعة على مذهب واحد، و المعنى: و جعلنا لكلّ أهل دين من الأديان ذبحا يذبحونه و دما يريقونه، أو متعبدا أو طاعة أو عيدا أو حجا يحجّونه، ليذكروا اسم اللّه وحده، و يجعلوا نسكهم خاصا به عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ أى: على ذبح ما رزقهم منها، و فيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون غيرها، و فى الآية دليل على أن المقصود من الذّبح المذكور هو ذكر اسم اللّه عليه. ثم أخبرهم سبحانه بتفرّده بالإلهية و أنه لا شريك له، و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ثم أمرهم بالإسلام له، و الانقياد لطاعته و عبادته، و تقديم الجار و المجرور على الفعل للقصر، و الفاء هنا كالفاء التى قبلها، ثم أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يبشّر الْمُخْبِتِينَ من عباده؛ أى: المتواضعين الخاشعين المخلصين، و هو مأخوذ من الخبت، و هو المنخفض من الأرض، و المعنى: بشّرهم يا محمد بما أعدّ اللّه لهم من جزيل ثوابه و جليل عطائه. و قيل: إن المخبتين هم الذى لا يظلمون غيرهم و إذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا، ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله: الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ أى: خافت و حذرت مخالفته، و حصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم و قوّة إيمانهم، و وصفهم بالصبر عَلى ما أَصابَهُمْ من البلايا و المحن فى طاعة اللّه ثم وصفهم بإقامة الصَّلاةِ أى: الإتيان بها فى أوقاتها على وجه الكمال. قرأ الجمهور: «وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ» بالجرّ على ما هو الظاهر، و قرأ أبو عمرو بالنصب على توهّم بقاء النون، و أنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر:

الحافظو عورة العشيرة «١» ....

---

(١). البيت بتمامه:

الحافظو عورة العشيرة لايأتيهم من ورائنا نطف فتح القدير، ج٣، ص: ٥٣٦

البيت بنصب عورة. و قيل: لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو، و قرأ ابن محيصن «و المقيمين»: بإثبات النون فى الأصل، و رويت هذه القراءة عن ابن مسعود، ثم وصفهم سبحانه بقوله: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: يتصدّقون به و ينفقونه فى وجوه البرّ، و يضعونه فى مواضع الخير، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «١».

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: حُرُماتِ اللَّهِ قال: الحرمة مكة و الحجّ و العمرة و ما نهى اللّه عنه من معاصيه كلها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ يقول: اجتنبوا طاعة الشيطان فى عبادة الأوثان وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ يعنى الافتراء على اللّه و التكذيب به. و أخرج أحمد و الترمذى

و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن أيمن بن خريم قال: قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خطيبا فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزّور شركا باللّه- ثلاثا- ثم قرأ: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» قال أحمد: غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. و قد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، و لا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبي صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد أخرجه أحمد و عبد بن حميد و أبو داود و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه، و البيهقي في الشعب، من حديث خريم. و قد ثبت في الصحيحين و غيرهما من حديث أبي بكرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا؟ قلنا: بلى يا رسول اللّه، قال: الإشراك باللّه، و عقوق الوالدين، و كان متكئا فجلس فقال: ألا و قول الزور، ألا و شهادة الزور، فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت». و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ قال: حجّاجا للّه. غير مشركين به، و ذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر اللّه الإسلام، قال اللّه للمسلمين: حجّوا الآن غير مشركين باللّه. و أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصدّيق نحوه. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ قال: البدن. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ قال: الاستسمان و الاستحسان و الاستعظام، و في قوله: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قال: إلى أن تسمّى بدنا. و أخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه، و فيه قال: و لكم فيها منافع إلى أجل مسمى، في ظهورها و ألبانها و أوبارها و أشعارها و أصوافها إلى أن تسمّى هديا، فإذا سميت هديا ذهبت المنافع ثُمَّ مَحِلُّها يقول: حين تسمى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة قال: إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها. و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً قال: عيدا. و أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال: إهراق الدماء. و أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة

---

(۱). الأنفال: ۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۳۷

قال: ذبحا. و أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال: مكة لم يجعل اللّه لأمة قط منسكا غيرها.

و قد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ قال: المطمئنين. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد، و ابن أبي الدنيا في ذمّ الغضب، و ابن المنذر و ابن أبي حاتم، و البيهقي في شعب الإيمان، عن عمرو بن أوس قال: المخبتون في الآية الذين لا يظلمون الناس، و إذا ظلموا لم ينتصروا.

[سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۳۶) لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (۳۷)

قرأ ابن أبي إسحاق «و البدن» بضم الباء و الدال، و قرأ الباقون بإسكان الدال، و هما لغتان، و هذا الاسم خاص بالإبل، و سمّيت بدنة لأنها تبدن، و البدانة: السّمن. و قال أبو حنيفة و مالك: إنه يطلق على غير الإبل، و الأوّل أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل، و لما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل. و قال ابن كثير في تفسيره: و اختلفوا في صحة

إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صحّ فى الحديث. جَعَلْناها لَكَمْ و هى ما تقدّم بيانه قريبا لَكُمْ فِيها خَيْرٌ أى: منافع دينية و دنيوية كما تقدّم فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها أى: على نحرها، و معنى صَوافَ أنها قائمة قد صفّت قوائمها، لأنها تنحر قائمة معقولة، و أصل هذا الوصف فى الخيل، يقال: صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم و ثنى الرابعة. و قرأ الحسن و الأعرج و مجاهد و زيد بن أسلم و أبو موسى الأشعرى «صوافى» أى: خوالص للّه لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحدا، و واحد صوافّ صافة، و هى قراءة الجمهور. و واحد صوافى صافية. و قرأ ابن مسعود و ابن عمر و ابن عباس و أبو جعفر محمد بن على «صوافن» بالنون جمع صافنة، و الصافنة: هى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، و منه قوله تعالى:

الصَّافِناتُ الْجِيادُ «١»، و منه قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليهمقلّدة أعنّتها صفونا

و قال الآخر:

ألف الصّفون فما يزال كأنّهممّا يقوم على الثّلاث كسيرا

فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها الوجوب: السقوط، أى: فإذا سقطت بعد نحرها، و ذلك عند خروج روحها فَكُلُوا مِنْها ذهب الجمهور أن هذا الأمر للندب وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ هذا الأمر قبل هو للندب كالأوّل، و به قال مجاهد و النّخعى و ابن جرير و ابن سريج. و قال الشافعى و جماعة: هو للوجوب.

---

(١). ص: ٣١.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٣٨

و اختلف فى القانع من هو؟ فقيل: هو السائل، يقال: قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها «١» إذا سأل، و منه قول الشّمّاخ:

لمال المرء يصلحه فيغنىمفاقره أعفّ من القنوع

أى: السؤال، و قيل: هو المتعفّف عن السؤال المستغنى ببلغة، ذكر معناه الخليل. قال ابن السّكّيت:

من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة، و هى الرّضا و التّعفف و ترك المسألة. و بالأوّل قال زيد بن أسلم و ابنه و سعيد بن جبير و الحسن، و روى عن ابن عباس. و بالثانى قال عكرمة و قتادة. و أما المعترّ، فقال محمد ابن كعب القرظى و مجاهد و إبراهيم و الكلبىّ و الحسن أنه الذى يتعرّض من غير سؤال. و قيل: هو الذى يعتريك و يسألك. و قال مالك: أحسن ما سمعت أن القانع: الفقير، و المعترّ: الزائر. و روى عن ابن عباس: أن كلاهما الذى لا يسأل، و لكن القانع الذى يرضى بما عنده و لا يسأل، و المعترّ الذى يتعرّض لك و لا يسألك.

و قرأ الحسن

«و المعترى» و معناه كمعنى المعترّ. و منه قول زهير:

على مكثريهم رزق من يعتريهمو عند المقلّين السّماحة و البذل

يقال: اعترّه و اعتراه و عرّه و عرّاه؛ إذا تعرّض لما عنده أو طلبه، ذكر النحاس كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ أى: مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتنحرونها و تنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها و الركوب على ظهرها و الحلب لها و نحو ذلك. لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعمة التى أنعم اللّه بها عليكم لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها أى: لن يصعد إليه، و لا يبلغ رضاه، و لا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التى تتصدّقون بها، و لا دماؤها التى تنصب

عند نحرها؛ من حيث إنها لحوم و دماء وَ لكِنْ يَنالُهُ أى: يبلغ إليه تقوى قلوبكم، و يصل إليه إخلاصكم له و إرادتكم بذلك وجهه، فإن ذلك هو الذى يقبله اللّه و يجازى عليه. و قيل: المراد أصحاب اللحوم و الدماء، أى: لن يرضى المضحّون و المتقرّبون إلى ربهم باللحوم و الدماء و لكن بالتقوى. قال الزجاج: أعلم اللّه أن الذى يصل إليه تقواه و طاعته فيما يأمر به، و حقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول، و ذلك أن ما يقبله الإنسان يقال قد ناله و وصل إليه، فخاطب اللّه الخلق كعادتهم فى مخاطبتهم كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ كرّر هذا للتذكير، و معنى لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ هو قول الناحر: اللّه أكبر؛ عند النحر، فذكر فى الآية الأولى الأمر بذكر اسم اللّه عليها، و ذكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية و التكبير. و قيل: المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدلّ على الكبرياء. و معنى عَلى ما هَداكُمْ على ما أرشدكم إليه من علمكم بكيفية التقرّب بها، و «ما» مصدرية، أو موصولة وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ قيل: المراد بهم المخلصون، و قيل: الموحّدون.

و الظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصحّ به إطلاق اسم المحسن عليه.

---

(١). لعلّ الصواب: قنع يقنع- بفتح النون-: إذا سأل. و قنع يقنع؛ إذا رضى.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٣٩

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عبد اللّه بن عمر قال: لا نعلم البدن إلا من الإبل و البقر. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: البدن ذات الجوف. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: ليس البدن إلا من الإبل، و أخرجوا عن الحكم نحوه، و أخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر. و أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن يعقوب الرّياحى عن أبيه قال: أوصى إلىّ رجل، و أوصى ببدنة، فأتيت ابن عباس فقلت له: إن رجلا أوصى إلىّ و أوصى ببدنة، فهل تجزئ عنى بقرة؟ قال: نعم، ثم قال: ممن صاحبكم؟ فقلت:

من بنى رياح، فقال: و متى اقتنى بنو رياح البقر إلى الإبل؟ و هم صاحبكم، إنما البقر لأسد و عبد القيس.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى الأضاحى، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن أبى ظبيان قال: سألت ابن عباس عن قوله: فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ قال: إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة، ثم قل: بسم اللّه و اللّه أكبر. و أخرج الفريابى و أبو عبيد و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله:

صَوافَّ قال: قياما معقولة. و فى الصحيحين و غيرهما عنه أنه رأى رجلا قد أناخ بدنته و هو ينحرها، فقال: ابعثها قياما مقيّدة سنة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو عبيدة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ميمون بن مهران قال: فى قراءة ابن مسعود «صوافن» يعنى قياما. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَإِذا وَجَبَتْ قال: سقطت على جنبها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: نحرت. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الْقانِعَ المتعفف وَ الْمُعْتَرَّ السائل. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال: القانع الذى يقنع بما آتيته. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: القانع الذى يقنع بما أوتى، و المعترّ الذى يعترض. و أخرج عنه أيضا قال: القانع الذى يجلس فى بيته. و أخرج عبد بن حميد، و البيهقى فى سننه، عنه أنه سئل عن هذه الآية، فقال: أما القانع فالقانع بما أرسلت إليه فى بيته، و المعترّ الذى يعتريك. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: القانع الذى يسأل، و المعترّ الذى يتعرض و لا يسأل. و قد روى عن التابعين فى تفسير هذه الآية أقوال مختلفة، و المرجع المعنى اللغوى؛ لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة و من بعدهم فى تفسير ذلك. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان المشركون إذا

ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فأنزل اللّه لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج نحوه.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٨ الى ٤١]

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٤٠

قرأ أبو عمرو و ابن كثير «يدفع» و قرأ الباقون يدافع، و صيغة المفاعلة هنا مجرّدة عن معناها الأصلى، و هو وقوع الفعل من الجانبين كما تدلّ عليه القراءة الأخرى. و قد ترد هذه الصيغة و لا يراد بها معناها الأصلى كثيرا، مثل عاقبت اللصّ و نحو ذلك، و قد قدّمنا تحقيقه. و قيل: إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة، و قيل:

للدلالة على تكرّر الواقع. و المعنى: يدفع عن المؤمنين غوائل المشركين، و قيل: يعلى حجتهم، و قيل:

يوفّقهم، و الجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من ربّ العالمين، و أنه المتولى للمدافعة عنهم، و جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ مقرّرة لمضمون الجملة الأولى، فإن المدافعة من اللّه لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتمّ إشعار بأنهم مبغضون إلى اللّه غير محبوبين له. قال الزجاج: من ذكر غير اسم اللّه و تقرّب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور، و إيراد صيغتى المبالغة للدلالة على أنهم كذلك فى الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم، أو كفر دون كفرهم أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا قرئ «أذن» مبنيا للفاعل و مبنيا للمفعول، و كذلك «يقاتلون»، قرئ مبنيا للفاعل و مبنيا للمفعول، و على كلا القراءتين فالإذن من اللّه سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم. قال المفسرون:

كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بألسنتهم و أيديهم، فيشكون ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فيقول لهم: «اصبروا فإنى لم أومر بالقتال» حتى هاجر، فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية بالمدينة، و هى أول آية نزلت فى القتال. و هذه الآية مقرّرة أيضا لمضمون قوله: إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ فإن إباحة القتال لهم هى من جملة دفع اللّه عنهم، و الباء فى بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا للسببية، أى: بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب و ضرب و طرد، ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين، فقال: وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ و فيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضا. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ و يجوز أن يكون بدلا من الذين يقاتلون، أو فى محل نصب على المدح، أو محل رفع بإضمار مبتدأ، و المراد بالديار مكة إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ قال سيبويه: هو استثناء منقطع، أى: لكن لقولهم ربنا اللّه، أى أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم ربنا اللّه. و قال الفراء و الزجاج: هو استثناء متصل، و التقدير الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا ربنا اللّه، فيكون مثل قوله سبحانه:

وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا «١» و قول النّابغة:

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ قرأ نافع «و لو لا دفاع» و قرأ الباقون وَ لَوْ لا دَفْعُ و المعنى: لو لا ما شرعه اللّه للأنبياء و المؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك، و ذهبت مواضع العبادة من الأرض، و معنى لَهُدِّمَتْ لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل

الملل؛ فالصوامع: هی صوامع الرهبان، و قيل: صوامع الصابئين، و البيع: جمع بيعة، و هی كنيسة النصاری، و الصلوات هی كنائس اليهود، و اسمها بالعبرانية صلوثا

---

(۱). الأعراف: ۱۲۶.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۴۱

بالمثلثة فعربت، و المساجد هی مساجد المسلمين. و قيل: المعنی: لو لا هذا الدفع لهدّمت فی زمن موسی الكنائس، و فی زمن عيسی الصوامع و البيع، و فی زمن محمد المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل فی تأويل الآية. و قيل: المعنی: و لو لا دفع اللّه ظلم الظلمة بعدل الولاة؛ و قيل: لو لا دفع اللّه العذاب بدعاء الأخيار، و قيل غير ذلک. و الصوامع: جمع صومعة، و هی بناء مرتفع، يقال: صمّع الثريدة؛ إذا رفّع رأسها، و رجل أصمع القلب: أی حاد الفطنة، و الأصمع من الرجال: الحديد القول، و قيل: الصغير الأذن. ثم استعمل فی المواضع التی يؤذن عليها فی الإسلام، و قد ذكر ابن عطية فی صلوات تسع قراءات، و وجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل علی موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء و أسبق وجودا. و الظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقی كما ذكره الزجاج و غيره، و قيل: المراد به المعنی المجازی، و هو تعطّلها من العبادة، و قرئ «لهدّمت» بالتشديد، و انتصاب كثيرا فی قوله: يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً علی أنه صفة لمصدر محذوف، أی: ذكرا كثيرا، أو وقتا كثيرا، و الجملة صفة للمساجد، و قيل: لجميع المذكورات وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ اللام هی جواب لقسم محذوف، أی: و اللّه لينصر اللّه من ينصره، و المراد بمن ينصر اللّه من ينصر دينه و أولياءه، و القویّ: القادر علی الشیء، و العزيز: الجليل الشريف، قاله الزجاج، و قيل: الممتنع الذی لا يرام و لا يدافع و لا يمانع، و الموصول فی قوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ فی موضع نصب صفة لمن فی قوله من ينصره، قاله الزجاج. و قال غيره: هو فی موضع جرّ صفة لقوله «للذين يقاتلون». و قيل: المراد بهم المهاجرون و الأنصار و التابعون لهم بإحسان، و قيل: أهل الصلوات الخمس، و قيل: ولاة العدل، و قيل غير ذلک. و فيه إيجاب الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر علی من مكّنه اللّه فی الأرض و أقدره علی القيام بذلک، و قد تقدّم تفسير الآية، و معنی وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أن مرجعها إلی حكمه و تدبيره دون غيره.

و قد أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذی و حسّنه، و النسائی و ابن ماجة و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن حبان و الطبرانی، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقی فی الدّلائل، عن ابن عباس قال: لما أخرج النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم: إنّا للّه و إنا إليه راجعون، ليهلكنّ القوم، فنزلت أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا الآية. قال ابن عباس: و هی أوّل آية نزلت فی القتال.

قال الترمذی: حسن، و قد رواه غير واحد عن الثوری، و ليس فيه ابن عباس، انتهی. و قد روی نحو هذا عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ أی: من مكة إلی المدينة بغير حق، يعنی محمدا صلّی اللّه عليه و سلّم و أصحابه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن عثمان بن عفان قال: فينا نزلت هذه الآية الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ و الآية بعدها، أخرجنا من ديارنا بغير حق، ثم مكّنّا فی الأرض، فأقمنا الصلاة، و آتينا الزكاة، و أمرنا بالمعروف، و نهينا عن المنكر، فهی لی و لأصحابی. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن علیّ ابن أبی طالب قال: إنما أنزلت هذه الآية فی أصحاب محمد وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ الآية: قال لو لا دفع

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۴۲

اللّه بأصحاب محمد عن التابعين لهدّمت صوامع. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله:

لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ الآية قال: الصوامع التى تكون فيها الرهبان، و البيع مساجد اليهود و صلوات كنائس النصارى، و المساجد مساجد المسلمين. و أخرجا عنه قال: البيع بيع النصارى، و صلوات كنائس اليهود.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ قال: أرض المدينة أَقامُوا الصَّلاةَ قال: المكتوبة وَ آتَوُا الزَّكاةَ قال: المفروضة وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ قال: بلا إله إلا الله وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قال: عن الشرك بالله وَ لِلّٰهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ قال: و عند الله ثواب ما صنعوا.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٤٢ الى ٥١]

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ (٤٢) وَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَ أَصْحابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٥١)

قوله: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ إلخ هذه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه و سلّم، و تعزية له متضمّنة للوعد له بإهلاك المكذبين له، كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله. و فيه إرشاد له صلّى الله عليه و سلّم إلى الصبر على قومه و الاقتداء بمن قبله من الأنبياء فى ذلك، و قد تقدّم ذكر هذه الأمم و ما كان منهم و من أنبيائهم و كيف كانت عاقبتهم، و إنما غير النظم فى قوله: وَ كُذِّبَ مُوسى فجاء بالفعل مبنيا للمفعول؛ لأن قوم موسى لم يكذبوه و إنما كذبه غيرهم من القبط فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ أى: أخّرت عنهم العقوبة و أمهلتهم، و الفاء لترتيب الإمهال على التكذيب ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أى: أخذت كلّ فريق من المكذّبين بالعذاب بعد انقضاء مدّة الإمهال فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ هذا الاستفهام للتقرير، أى: فانظر كيف كان إنكارى عليهم و تغيير ما كانوا فيه من النعم و إهلاكهم، و النكير اسم من المنكر. قال الزجاج: أى: ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار. قال الجوهرى: النكير و الإنكار: تغيير المنكر. ثم ذكر سبحانه كيف عذّب أهل القرى المكذبة فقال: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أى: أهلكنا أهلها، و قد تقدّم الكلام على هذا التركيب فى آل عمران، و قرئ: «أهلكتها»، و جملة وَ هِيَ ظالِمَةٌ حالية، و جملة فَهِيَ خاوِيَةٌ عطف على «أَهْلَكْناها»، لا على ظالمة لأنها حالية، و العذاب ليس فى حال الظلم، و المراد بنسبة الظلم إليها نسبته إلى أهلها: و الخواء: بمعنى السقوط، أى: فهى ساقطة عَلى

فتح القدير، ج‌٣، ص: ٥٤٣

عُرُوشِها أى على سقوفها، و ذلك بسب تعطل سكانها حتى تهدّمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى البقرة وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ معطوف على قرية، و المعنى: و كم من أهل قرية، و من أهل بئر معطلة هكذا قال الزجاج. و قال الفراء: إنه معطوف على عروشها، و المراد بالمعطلة المتروكة. و قيل:

الخالية عن أهلها لهلاكهم، و قيل: الغائرة، و قيل: معطّلة من الدّلاء و الأرشية، و القصر المشيد: هو المرفوع البنيان كذا قال قتادة و الضحّاك، و يدلّ عليه قول عديّ بن زيد:

شاده مرمرا و جلّله كلسا فللطّير فى ذراه و كور

شاده: أى رفعه. و قال سعيد بن جبير و عطاء و عكرمة و مجاهد: المراد بالمشيد المجصّص، مأخوذ من الشّيد، و هو الجص، و منه قول الراجز «۱»:

لا تحسبنّى و إن كنت امرأ غمرا «۲»كحيّة الماء بين الطين و الشّيد

و قيل: المشيد الحصين، قاله الكلبيّ. قال الجوهرى: المشيد المعمول بالشيد، و الشّيد بالكسر: كلّ شيء طليت به الحائط من جصّ أو بلاط، و بالفتح المصدر، تقول: شاده يشيده: جصّصه، و المشيّد بالتشديد المطوّل، قال الكسائى: للواحد من قوله تعالى: فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ. و المعنى المعنىّ: و كم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة. و معنى التعطيل فى القصر هو أنه معطل من أهله، أو من آلاته، أو نحو ذلك.

قال القرطبى فى تفسيره: و يقال: إن هذه البئر و القصر بحضر موت معروفان، فالقصر مشرف على قلّة جبل «۳» لا يرتقى إليه بحال، و البئر فى سفحه لا تقرّ الريح شيئا سقط فيها إلا أخرجته، و أصحاب القصر ملوك الحضر، و أصحاب البئر ملوك البوادى. حكى الثعلبيّ و غيره: أن البئر كان بعدن من اليمن فى بلد يقال لها حضوراء، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح، و نجوا من العذاب، و معهم صالح، فمات صالح، فسمّى المكان حضر موت؛ لأن صالحا لما حضره مات فبنوا حضوراء و قعدوا على هذه البئر، و أمّروا عليهم رجلا، ثم ذكر قصة طويلة، و قال بعد ذلك: و أما القصر المشيد فقصر بناه شدّاد بن عاد بن إرم، لم يبن فى الأرض مثله فيما ذكروا و زعموا، و حاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنس، و إقفاره بعد العمران، و إن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال، لما يسمع فيه من عزيف الجنّ و الأصوات المنكرة بعد النعيم و العيش الرّغد و بهاء الملك، و انتظام الأهل كالسلك فبادوا و ما عادوا، فذكرهم اللّه سبحانه فى هذه الآية موعظة و عبرة.

قال: و قيل إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدّم فى سورة الأنبياء فى قوله: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ «۴» فتعطّلت بئرهم و خربت قصورهم، انتهى.

ثم أنكر سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلا: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ حثا لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا، و يحتمل أن يكونوا قد سافروا و لم يعتبروا، فلهذا أنكر عليهم، كما فى

---

(۱). هو الشمّاخ.

(۲). «الغمر»: الغرّ الذى لم يجرّب الأمور.

(۳). قلة جبل: أعلاه.

(۴). الأنبياء: ۱۱.

قوله: وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ- وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ «۱» و معنى: فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه، و أسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل، كما أن الآذان محل السمع، و قيل: إن العقل محله الدماغ و لا مانع من ذلك، فإن القلب هو الذى يبعث على إدراك العقل و إن كان محله خارجا عنه.

و قد اختلف علماء المعقول فى محل العقل و ماهيته اختلافا كثيرا لا حاجة إلى التطويل بذكره أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها أى: ما يجب أن يسمعوه مما تلاه عليهم أنبياؤهم من كلام اللّه، و ما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ قال الفراء: الهاء عماد يجوز أن يقال: فإنه، و هى قراءة عبد اللّه بن مسعود، و المعنى واحد، التذكير على الخبر، و التأنيث على الأبصار أو القصة، أى: فإن الأبصار لا تعمى، أو فإن القصة لا تعمى الأبصار: أى أبصار العيون وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الصُّدُورِ أی: لیس الخلل فی مشاعرهم، و إنما هو فی عقولهم، أی: لا تدرک عقولهم مواطن الحق و مواضع الاعتبار.
قال الفراء و الزجاج: إن قوله التی فی الصدور من التوكيد الذی تزيده العرب فی الكلام كقوله: عَشَرَةٌ كامِلَةٌ «٢» و يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ «٣» و يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «۴». ثمّ حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب و الاستهزاء فقال: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشدّ إنكار، فاستعجالهم له هو على طريقة الاستهزاء و السخرية، و كأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن اللّه سبحانه من الوعد منه عزّ و جلّ بوقوعه عليهم و حلوله بهم، و لهذا قال: وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ قال الفراء: فی هذه الآية وعيد لهم بالعذاب فی الدنيا و الآخرة. و ذكر الزجاج وجها آخر فقال: اعلم أن اللّه لا يفوته شیء، و إن يوما عنده و ألف سنة فی قدرته واحد، و لا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب و تأخّره فی القدرة، إلا أن اللّه تفضّل بالإمهال، انتهى، و محل جملة: «و لن يخلف اللّه وعده» النصب على الحال، أی: و الحال أنه لا يخلف وعده أبدا، و قد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما، أو هی اعتراضية مبينة لما قبلها، و على الأوّل تكون جملة وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مستأنفة، و على الثانی تكون معطوفة على الجملة التی قبلها مسوقة لبيان حالهم فی الاستعجال، و خطابهم فی ذلک ببيان كمال حلمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم، كما فی قوله: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً- وَ نَراهُ قَرِيباً «۵» قال الفرّاء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فی الآخرة، أی: يوم من أيام عذابهم فی الآخرة كألف سنة. و قيل: المعنى: و إن يوما من الخوف و الشدّة فی الآخرة كألف سنة من سنّی الدنيا فيها خوف و شدة، و كذلک يوم النعيم قياسا. و قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائی «ممّا يعدّون» بالتحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، و اختارها أبو حاتم. وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوما بعد الإملاء و التأخير. قيل: و تكرير هذا مع ذكره قبله

---

(۱). الصافات: ۱۳۷- ۱۳۸.

(۲). البقرة: ۱۹۶.

(۳). آل عمران: ۱۶۷.

(۴). الأنعام: ۳۸.

(۵). المعارج: ۶- ۷.

للتأكيد، و ليس بتكرار فی الحقيقة؛ لأن الأوّل سيق لبيان الإهلاک مناسبا لقوله: «فيكف كان نكير»، و لهذا عطف بالفاء بدلا عن ذلک؛ و الثانی سيق لبيان الإملاء مناسبا لقوله: وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ فكأنه قيل: و كم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حينا، ثم أخذتهم بالعذاب، و مرجع الكل إلى حكمی. فجملة: «و إلیّ المصير» تذييل لتقرير ما قبلها. ثم أمره اللّه سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدی الساعة مبين لهم ما نزل إليهم، فمن آمن و عمل صالحا فاز بالمغفرة و الرزق الكريم و هو الجنة، و من كان على خلاف ذلک فهو فی النار، و هم الذين سعوا فی آيات اللّه معاجزين؛ يقال: عاجزه:

سابقه، لأن كل واحد منهما فی طلب إعجاز الآخر، فإذا سبقه قيل أعجزه و عجزه، قاله الأخفش. و قيل:

معنى معاجزين: ظانين و مقدّرين أن يعجزوا اللّه سبحانه و يفوتوه فلا يعذبهم، قاله الزجاج. و قيل: معاندين، قاله الفرّاء.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فی قوله: فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قال: خربة ليس فيها أحد وَ بِئْرٍ

مُعَطَّلَةٍ عطّلها أهلها و تركوها وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ قال: شيّدوه و حصّنوه فهلكوا و تركوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ قال: التى تركت لا أهل لها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ قال: هو المجصّص. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن عطاء نحوه أيضا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ قال: من الأيام الستة التى خلق اللّه فيها السموات و الأرض. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة، قال فى الآية:

هو يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، فقد مضى منها ستة آلاف. و أخرج ابن عدىّ و الديلمى عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مُعاجِزِينَ قال: مراغمين. و أخرج ابن جرير عنه أنه قال: مشاقين.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٢ الى ٥٧]

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦)

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٥٧)

قوله: مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍ قيل: الرسول الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانا و محاورته

شفاها، و النبىّ: الذى يكون إلهاما أو مناما. و قيل: الرسول: من بعث بشرع و أمر بتبليغه، و النبىّ: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، و لم ينزل عليه كتاب، و لا بدّ لهما جميعا من المعجزة الظاهرة. إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ معنى تمنّى: تشهّى و هيّأ فى نفسه ما يهواه. قال الواحدى: و قال المفسرون:

معنى تمنّى: تلا. قال جماعة المفسرين فى سبب نزول هذه الآية: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنّى فى نفسه أن لا ينزل عليه شىء ينفّرهم عنه لحرصه على إيمانهم، فكان ذات يوم جالسا فى ناد من أنديتهم و قد نزل عليه سورة وَ النَّجْمِ إِذا هَوى «١» فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى- وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى «٢» و كان ذلك التّمنّى فى نفسه، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه: تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتها لترتجى، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا و مضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قراءته حتى ختم السورة، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى من المسلمين و المشركين، فتفرّقت قريش مسرورين بذلك و قالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، فأتاه جبريل فقال: ما صنعت؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن اللّه، فحزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و خاف خوفا شديدا، فأنزل اللّه هذه الآية. هكذا قالوا.

و لم يصحّ شىء من هذا، و لا ثبت بوجه من الوجوه، و مع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحقّقون بكتاب اللّه سبحانه، قال اللّه: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ- لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ- ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ «٣» و قوله: وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى «۴» و قوله: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ «۵» فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون. قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبى

صلّى اللّه عليه و سلّم بإسناد متصل.

و قال البيهقى: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. و قال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. قال القاضى عياض فى «الشفا»: إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه، لا قصدا و لا عمدا و لا سهوا و لا غلطا. قال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، و ما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا، و لكنها من طرق كلها مرسلة، و لم أرها مسندة من وجه صحيح. و إذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى تَمَنَّى قرأ و تلا، كما قدّمنا من حكاية الواحدى لذلك عن المفسرين. و كذا قال البغوى: إن أكثر المفسرين قالوا معنى تَمَنَّى تلا و قرأ كتاب اللّه، و معنى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ أى: فى تلاوته و قراءته. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، و يؤيد هذا ما تقدّم فى تفسير قوله: لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَ و قيل: معنى تَمَنَّى حدّث، و معنى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فى حديثه، روى هذا عن ابن عباس. و قيل: معنى تَمَنَّى

قال. فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلّم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،

---

(۱). النجم: ۱.

(۲). النجم: ۱۹- ۲۰.

(۳). الحاقة: ۴۴- ۴۶.

(۴). النجم: ۳.

(۵). الإسراء: ۷۴.

و لا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: لا يهولنك ذلك و لا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين و الأنبياء، و على تقدير أن معنى تمنى حدّث نفسه، كما حكاه الفرّاء و الكسائى، فإنهما قالا: تمنّى إذا حدّث نفسه، فالمعنى: أنه إذا حدّث نفسه بشىء تكلم به الشيطان و ألقاه فى مسامع الناس من دون أن يتكلّم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا جرى على لسانه. قال ابن عطية: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة. و قد قيل فى تأويل الآية: إن المراد بالغرانيق: الملائكة، و يردّ بقوله: فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ أى: يبطله، و شفاعة الملائكة غير باطلة. و قيل: إن ذلك جرى على لسانه صلّى اللّه عليه و سلّم سهوا و نسيانا، و هما مجوّزان على الأنبياء، و يردّ بأن السهو و النسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر فى مواطنه، ثم لما سلاه اللّه سبحانه بهذه التسلية، و أنها قد وقعت لمن قبله من الرسل و الأنبياء، بيّن سبحانه أن يبطل ذلك، و لا يثبته، و لا يستمر تغرير الشيطان به، فقال: فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ أى: يبطله و يجعله ذاهبا غير ثابت ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ أى: يثبتها وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أى: كثير العلم و الحكمة فى كلّ أقواله و أفعاله، و جملة لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً للتعليل، أى:

ذلك الإلقاء الذى يلقيه الشيطان فتنة، أى: ضلالة لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أى: شكّ و نفاق وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ هم المشركون، فإن قلوبهم لا تلين للحق أبدا، و لا ترجع إلى الصواب بحال، ثم سجّل سبحانه على هاتين الطائفتين، و هما: من فى قلبه مرض، و من فى قلبه قسوة؛ بأنهم ظالمون، فقال:

وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ أى: عداوة شديدة، و وصف الشقاق بالبعد مبالغة، و الموصوف به فى الحقيقة من قام به. و لمّا

بيّن سبحانه أن ذلك الإلقاء كان فتنة فى حقّ أهل النفاق و الشكّ و الشرك؛ بيّن أنه فى حقّ المؤمنين العالمين باللّه العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حقّ و صدق، فقال: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أى: الحقّ النازل من عنده، و قيل: إن الضمير فى «أنه» راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء؛ لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه، و لكنه يردّ هذا قوله: فَيُؤْمِنُوا بِهِ فإن المراد الإيمان بالقرآن، أى: يثبتوا على الإيمان به فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ أى: تخشع و تسكن و تنقاد، فإن الإيمان به و إخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكين من الشيطان بل للقرآن وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا فى أمور دينهم إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى: طريق صحيح لا عوج به. و قرأ أبو حيوة وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا بالتنوين وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ أى: فى شكّ من القرآن، و قيل: فى الدين الذى يدل عليه ذكر الصراط المستقيم، و قيل: فى إلقاء الشيطان، فيقولون: ما باله ذكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك؟ و قرأ أبو عبد الرحمن السّلمى «فِي مُرْيَةٍ» بضم الميم حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ أى: القيامة بَغْتَةً أى: فجأة أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ و هو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده، فكان بهذا الاعتبار عقيما، و العقيم فى اللغة: من لا يكون له ولد، و لما كانت الأيام نتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة، و لما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم؛ و قيل: يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر؛ و قيل إن اليوم وصف بالعقم؛ لأنه لا رأفة فيه و لا رحمة، فكأنه عقيم من الخير، و منه قوله تعالى: إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ «١» أى:

---

(١). الذاريات: ٤١.

التى لا خير فيها و لا تأتى بمطر الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ أى: السلطان القاهر و الاستيلاء التامّ يوم القيامة للّه سبحانه وحده، لا منازع له فيه، و لا مدافع له عنه، و جملة يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، ثم فسّر هذا الحكم بقوله سبحانه: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ أى: كائنون فيها، مستقرّون فى أرضها، منغمسون فى نعيمها وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: جمعوا بين الكفر باللّه و التكذيب بآياته فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أى: عذاب متّصف بأنه مهين للمعذبين، بالغ منهم المبلغ العظيم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى فى «المصاحف» عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ:

«و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبيّ و لا محدّث». و أخرج ابن أبى حاتم عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله، و زاد: فنسخت محدّث، قال: و المحدّثون: صاحب يس، و لقمان، و مؤمن آل فرعون، و صاحب موسى. و أخرج البزار و الطبرانى و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، قال السيوطى: بسند رجاله ثقات، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: أ فرأيتم اللات و العزّى و منات الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتهنّ لترتجى. ففرح المشركون بذلك و قالوا: قد ذكر آلهتنا، فجاءه جبريل فقال: اقرأ علىّ ما جئت به، فقرأ: أ فرأيتم اللات و العزّى و منات الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتهنّ لترتجى، فقال: ما أتيتك بهذا، هذا من الشيطان، فأنزل اللّه وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى الآية». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، قال السيوطى: بسند صحيح، عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة النجم، فذكر نحوه، و لم يذكر ابن عباس. و كذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية و السدّى عن سعيد مرسلا. و رواه عبد ابن حميد عن السدّى عن أبى صالح مرسلا. و رواه ابن أبى حاتم عن ابن شهاب مرسلا. و أخرج ابن جرير عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلا أيضا. و الحاصل أن جميع الروايات فى هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشىء منها. و قد أسلفنا عن الحفاظ فى أوّل هذا البحث ما فيه

كفايـة، و فى الباب روايات من أجبّ الوقوف على جميعها فلينظرها فى «الـدرّ المنثور» للسيوطى، و لا يأتى التطويل بـذكرها هنا بفائدة، فقد عرّفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة.

و أخرج ابـن جرير و ابـن المنـذر و ابـن أبى حـاتم عـن ابن عبـاس إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ يقـول: إذا حـدّث ألقى الشـيطان فى حـديثه. و أخرج ابن أبى حـاتم عن الضـحّاك، قـال: يعنى بـالتمنّى التّلاوة و القراءة، «أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ»: فى تلاوته فَيَنْسَخُ اللَّهُ ينسخ جبريل بأمر اللّه ما ألقى الشـيطان على لسان النبىّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد إِذا تَمَنَّى قال: تكلم فِي أُمْنِيَّتِهِ قال: كلامه. و أخرج ابن مردويه، و الضـياء فى المختارة، عن ابن عباس فى قوله: عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ قال: يوم بـدر. و أخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب نحوه. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير: عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ قال: يوم بدر. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير و عكرمة

فتح القدير، ج‌٣، ص: ۵۴۹

مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهـد فى الآيـة قال: يوم القيامـة لا ليلة له. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن الضحّاك مثله.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ۵٨ الى ۶۶]

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۵٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (۵٩) ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۶٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۶١) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۶٢)

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۶٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۶۵) وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (۶۶)

أفرد سـبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصا لهم بمزيد الشّرف، فقال: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قال بعض المفسرين: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. و قال بعضهم: الذين هاجروا من الأوطان فى سرية أو عسكر، و لا يبعد حمل ذلك على الأمرين، و الكـلّ فى سبيل اللّه ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا أى: فى حال المهاجرة، و اللام فى لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً جواب قسم محـذوف، و الجملة خبر الموصول بتقدير القول، و انتصاب رزقا على أنه مفعول ثان، أى: مرزوقا حسنا، أو على أنه مصدر مؤكدة، و الرزق الحسن: هو نعيم الجنة الذى لا ينقطع، و قيل: هو الغنيمة لأنه حلال، و قيل: هو العلم و الفهم؛ كقول شعيب:

وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً قرأ ابن عـامر و أهـل الشـام «ثم قتّلوا» بالتشديـد على التكثير، و قرأ الباقون بالتخفيف. وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فـإنه سـبحانه يرزق بغير حسـاب، و كل رزق يجرى على يـد العباد لبعضـهم البعض، فهو منه سـبحانه، لا رازق سواه و لا معطى غيره، و الجملـة تذييل مقرّرة لما قبلها، و جملة لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ مسـتأنفة، أو بدل من جملة ليرزقنهم اللّه. قرأ أهل المدينـة «مدخلا» بفتح الميم، و قرأ الباقون بضـمّها، و هو اسم مكان أريد به الجنة، و انتصابه على أنه مفعول ثان أو مصدر ميمى مؤكد للفعل المذكور، و قد مضـى الكلام على مثل هذا فى سورة سـبحان. و فى هذا من الامتنان عليهم و التبشير لهم ما لا يقادر قـدره، فإن المـدخل الذى يرضونه هو الأوفق لنفوسـهم و الأقرب إلى مطلبهم، على أنهم يرون فى الجنة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشـر، و ذلك هو الـذى يرضونه و فوق الرضا. وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بدرجات العاملين و مراتب اسـتحقاقهم

حَلِيمٌ عن تفريط المفرطين منهم لا يعاجلهم بالعقوبة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم. قال الزّجّاج: أى الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۵۰

فتح القدير ج۳ ۵۹۴

خاصة إذا قتلوا أو ماتوا، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف، و معنى وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، و سمّى الابتداء باسم الجزاء مشاكلة كقوله تعالى: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «۱» و قوله تعالى: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ «۲» و العقوبة فى الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه، و المراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذى ظلم به و لم يزد عليه، و معنى ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ أن الظالم له فى الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى، قيل: المراد بهذا البغى: هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم و آذوا من آمن به، و اللام فى لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ جواب قسم محذوف، أى: لينصرن اللّه المبغىّ عليه على الباغى إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ أى: كثير العفو و الغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب. و قيل: العفو و الغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو، و قيل: إن معنى ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ أى: ثم كان المجازى مبغيا عليه، أى: مظلوما، و معنى «ثم» تفاوت الرتبة؛ لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم، كما قيل فى أمثال العرب: البادى أظلم.

و قيل: إن هذه الآية مدنية، و هى فى القصاص و الجراحات، و الإشارة بقوله: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ إلى ما تقدّم من نصر اللّه سبحانه للمبغىّ عليه، و هو مبتدأ و خبره جملة بأن اللّه يولج، و الباء للسببية، أى: ذلك بسبب أنه سبحانه قادر، و من كمال قدرته إيلاج الليل فى النهار و النهار فى الليل، و عبّر عن الزيادة بالإيلاج؛ لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر، و المراد تحصيل أحد العرضين فى محل الآخر. و قد مضى فى آل عمران معنى هذا الإيلاج وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يسمع كلّ مسموع بَصِيرٌ يبصر كلّ مبصر، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُ إلى ما تقدم من اتّصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة و العلم التام، أى: هو سبحانه ذو الحق، دينه حقّ، و عبادته حقّ، و نصره لأوليائه على أعدائه حقّ، و وعده حقّ، فهو عزّ و جلّ فى نفسه و أفعاله و صفاته حقّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر و شعبة «تدعون» بالفوقية على الخطاب للمشركين، و اختار هذه القراءة أبو حاتم. و قرأ الباقون بالتحتية على الخبر، و اختار هذه القراءة أبو عبيدة.

و المعنى: إن الذين تدعونه آلهة، و هى الأصنام، هو الباطل الذى لا ثبوت له و لا لكونه إلها. وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُ أى: العالى على كلّ شىء بقدرته المتقدّس على الأشباه و الأنداد المتنزّه عمّا يقول الظالمون من الصفات الْكَبِيرُ أى: ذو الكبرياء، و هو عبارة عن كمال ذاته و تفرّده بالإلهية، ثم ذكر سبحانه دليلا بيّنا على كمال قدرته، فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً الاستفهام للتقرير، و الفاء للعطف على «أنزل»، و ارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل و سيبويه.

قال الخليل: المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا و كذا، كما قال الشاعر «۳»:

ألم تسأل الرّبع القواء فينطقو هل تخبرنّك اليوم بيداء سملق «۴»

---

(۱). الشورى: ۴۰.

(۲). البقرة: ۱۹۴.

(٣). هو جميل بثينة.

(۴). «القواء»: القفر. «البيداء»: القفر أيضا. «السملق»: الأرض التى لا تنبت، و هى السهلة المستوية.

معناه: قد سألته فنطق. قال الفراء: «ألم تر» خبر؛ كما تقول فى الكلام: إن اللّه ينزل من السماء ماء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً أى: ذات خضرة، كما تقول مبقلة و مسبعة؛ أى: ذوات بقل و سباع، و هو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات و استمرارها كذلك عادة، و صيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدّد الإنزال و استمراره، و هذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل، و الرفع هنا متعيّن لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفى الاخضرار، و المقصود إثباته. قال ابن عطية:

هذا لا يكون، يعنى الاخضرار فى صباح ليلة المطر، إلا بمكة و تهامة. و الظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض فى نفسها لا باعتبار النبات فيها، كما فى قوله: فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ «١» و المراد بقوله:

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ أنه يصل علمه إلى كلّ دقيق و جليل، و قيل: «لطيف» بأرزاق عباده، و قيل: «لَطِيفٌ» باستخراج النبات، و معنى خَبِيرٌ أنه ذو خبرة بتدبير عباده و ما يصلح لهم، و قيل: «خَبِيرٌ» بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر، و قيل: «خبير» بحاجتهم وفاقتهم. لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ خلقا و ملكا و تصرّفا، و كلهم محتاجون إلى رزقه وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ فلا يحتاج إلى شيء الْحَمِيدُ المستوجب للحمد فى كلّ حال أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ هذه نعمة أخرى ذكرها اللّه سبحانه، فأخبر عباده بأنه سخّر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب و الشجر و الأنهار، و جعله لمنافعهم وَ الْفُلْكَ عطف على «ما»، أو على اسم «أن»، أى: و سخر لكم الفلك فى حال جريها فى البحر، و قرأ عبد الرحمن الأعرج «و الفلك» بالرفع على الابتداء، و ما بعده خبره، و قرأ الباقون بالنصب. و معنى تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ أى: بتقديره، و الجملة فى محل نصب على الحال على قراءة الجمهور وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ أى: كراهة أن تقع، و ذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك، و الجملة معطوفة على تجرى إِلَّا بِإِذْنِهِ أى: بإرادته و مشيئته، و ذلك يوم القيامة إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: كثير الرأفة و الرحمة حيث سخّر هذه الأمور لعباده، و هيّأ لهم أسباب المعاش، و أمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضّلا منه على عباده و إنعاما عليهم. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ بعد أن كنتم جمادا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء أعماركم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ عند البعث للحساب و العقاب و إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ أى: كثير الجحود لنعم اللّه عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة، و لا ينافى هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد؛ لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سلمان الفارسى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من مات مرابطا أجرى اللّه عليه مثل ذلك الأجر، و أجرى عليه الرزق و أمن من الفتانين، و اقرءوا إن شئتم وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا إلى قوله: حَلِيمٌ ، و إسناد ابن أبى حاتم هكذا: حدّثنا المسيب ابن واضح، حدّثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شريح، عن عبد الكريم بن الحارث، عن أبى عقبة، يعنى

---

(١). فصلت: ٣٩.

أبا عبيدة بن عقبة قال: قال شرحبيل بن السّمط: طال رباطنا و إقامتنا على حصن بأرض الروم، فمرّ بى سلمان؛ يعنى الفارسى، قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصارى

الصحابى أنه كان برودس، فمرّوا بجنازتين أحدهما قتيل و الآخر متوفّى، فمال الناس عن القتيل، فقال فضالة: مالى أرى الناس مالوا مع هذا و تركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل فى سبيل اللّه، فقال: و اللّه ما أبالى من أىّ حفرتيهما بعثت، اسمعوا كتاب اللّه وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا الآية. و إسناده عند ابن أبى حاتم هكذا: حدّثنا أبو زرعة، عن زيد بن بشر، أخبرنى ضمام أنه سمع أبا قبيل و ربيعة بن سيف المغافرى يقولان: كنا برودس و معنا فضالة بن عبيد الأنصارى صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. قلت: و يؤيد هذا قول اللّه سبحانه: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ «١». و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله: وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ قال: إن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعث سرية فى ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام، و إن أصحاب محمد ناشدوهم و ذكروهم باللّه أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال فى الشهر الحرام إلا من بادأهم، و إن المشركين بدءوا فقاتلوهم، فاستحلّ الصحابة قتالهم عند ذلك فقاتلوهم و نصرهم اللّه عليهم. و هو مرسل. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ مَنْ عاقَبَ الآية قال: تعاون المشركون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه فأخرجوه، فوعده اللّه أن ينصره، و هو فى القصاص أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ قال: الشيطان. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ قال: يعدّ المصيبات و ينسى النعم.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٢]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١)

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكاليف مع الزّجر لمعاصرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الأديان عن منازعته فقال:

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً أى: لكلّ قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة، بحيث لا تتخطّى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، و جملة هُمْ ناسِكُوهُ صفة لمنسكا، و الضمير لكل أمة، أى:

---

(١). النساء: ١٠٠.

تلك الأمة هى العاملة به لا غيرها، فكانت التوراة منسك الأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى، و الإنجيل منسك الأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و القرآن منسك المسلمين، و المنسك مصدر لا اسم مكان كما يدلّ عليه هم ناسكوه، و لم يقل ناسكون فيه. و قيل: المنسك موضع أداء الطاعة، و قيل:

هو الذبائح، و لا وجه للتخصيص، و لا اعتبار بخصوص السبب، و الفاء فى قوله: فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ لترتيب النهى على ما قبله، و الضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم، أى: قد عيّنّا لكل أمة شريعة، و من جملة الأمم هذه الأمة المحمدية، و ذلك موجب لعدم منازعة من بقى منهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و مستلزم لطاعتهم إياه فى أمر الدين، و النهى إما على حقيقته، أو

كناية عن نهيه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الالتفات إلى نزاعهم له. قال الزّجّاج:
إنه نهى له صلّى اللّه عليه و سلّم عن منازعتهم، أى: لا تنازعهم أنت، كما تقول: لا يخاصمك فلان، أى: لا تخاصمه، و كما تقول لا يضاربنك فلان، أى: لا تضاربه، و ذلك أن المفاعلة تقتضى العكس ضمنا، و لا يجوز: لا يضربنك فلان و أنت تريد لا تضربه. و حكى عن الزّجّاج أنه قال فى معنى الآية: «فلا ينزعنك» أى: فلا يجادلنك. قال: و دلّ على هذا وَ إِنْ جادَلُوكَ و قرأ أبو مجلز «فلا ينزعنّك فى الأمر» أى: لا يستخفنك و لا يغلبنك على دينك. و قرأ الباقون يُنازِعُنَّكَ من المنازعة وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ أى: و ادع هؤلاء المنازعين، أو ادع الناس على العموم إلى دين اللّه و توحيده و الإيمان به إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ أى: طريق مستقيم لا اعوجاج فيه وَ إِنْ جادَلُوكَ أى: و إن أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم و ظهور الحجّة عليهم فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ أى: فكل أمرهم إلى اللّه، و قل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ أى: بين المسلمين و الكافرين يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل، و فى هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغى لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل، و قيل: إنها منسوخة بآية السيف، و جملة أَ لَمْ تَعْلَمْ مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و الاستفهام للتقرير، أى: قد علمت يا محمد و تيقنت أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و من جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون إِنَّ ذلِكَ الذى فى السماء و الأرض من معلوماته فِي كِتابٍ أى: مكتوب عنده فى أمّ الكتاب إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أى: إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير، أو إن إحاطة علمه بما فى السماء و الأرض يسير عليه وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً هذا حكاية لبعض فضائحهم، أى: إنهم يعبدون أصناما لم يتمسكوا فى عبادتها بحجّة نيّرة من اللّه سبحانه وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ من دليل عقل يدلّ على جواز ذلك بوجه من الوجوه وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ينصرهم و يدفع عنهم عذاب اللّه، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية فى آل عمران. و جملة وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ معطوفة على «يعبدون»، و انتصاب «بينات» على الحال، أى: حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ أى: الأمر الذى ينكر، و هو غضبهم و عبوسهم عند سماعها، أو المراد بالمنكر الإنكار، أى: تعرف فى وجوههم إنكارها، و قيل: هو التجبّر و الترفّع، و جملة يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما ذلك المنكر

الذى يعرف فى وجوههم؟ فقيل: يكادون يسطون، أى: يبطشون، و السطوة: شدّة البطش، يقال:
سطا به يسطو إذا بطش به بضرب، أو شتم، أو أخذ باليد، و أصل السطو: القهر.
و هكذا ترى أهل البدع المضلّة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السّنّة الصّحيحة، مخالفا لما اعتقده من الباطل و الضّلالة؛ رأيت فى وجهه من المنكر ما لو تمكّن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، و قد رأينا و سمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف، و اللّه ناصر الحقّ، و مظهر الدين، و داحض الباطل، و دامغ البدع، و حافظ المتكلمين بما أخذه عليهم؛ المبيّنين للناس ما نزل إليهم، و هو حسبنا و نعم الوكيل.
ثم أمر رسوله أن يردّ عليهم، فقال: قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ أى: أخبركم بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ الذى فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات اللّه و مقاربتكم للوثوب عليهم، و هو النار التى أعدّها اللّه لكم، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، و الجملة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما هذا الأمر الذى هو شرّ ممّا نكابده و نناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا؟ فقال هو: النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا و قيل: إن النار مبتدأ و خبره جملة وعدها اللّه الذين كفروا، و قيل: المعنى: أ فأخبركم بشرّ ممّا يلحق تالى القرآن منكم من الأذى و التوعّد لهم و التوثّب عليهم، و قرئ «النار» بالنصب على تقدير أعنى، و قرئ بالجرّ بدلا من شرّ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ أى: الموضع الذى تصيرون إليه، و هو النار.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هُمْ ناسِكُوهُ قال: يعنى هم ذابحوه فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ يعنى فى أمر الذبح. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه أيضا. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ قول أهل الشرك: أما ما ذبح اللّه بيمينه فلا تأكلوه، و أما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: خلق اللّه اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام، و قال للقلم قبل أن يخلق الخلق و هو على العرش: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن فى علم اللّه إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ يعنى ما فى السماوات السبع و الأرضين السبع إِنَّ ذلِكَ العلم فِي كِتابٍ يعنى فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السماوات و الأرضين إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ يعنى: هين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس يَكادُونَ يَسْطُونَ يبطشون.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٧٣ الى ٧٨]

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (٧٣) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٥٥

قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ هذا متّصل بقوله: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً قال الأخفش: ليس ثمّ مثل، و إنما المعنى ضربوا لى مثلا- فَاسْتَمِعُوا قولهم، يعنى أن الكفار جعلوا للّه مثلا- بعبادتهم غيره، فكأنه قال: جعلوا لى شبها فى عبادتى فاستمعوا خبر هذا الشبه. و قال القتبى: إن المعنى:

يا أيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا، و إن سلبها شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه. قال النّحاس:

المعنى ضرب اللّه عزّ و جلّ لما يعبدونه من دونه مثلا. قال: و هذا من أحسن ما قيل فيه، أى: بيّن اللّه لكم شبها و لمعبودكم. و أصل المثل: جملة من الكلام متلقّاة بالرضا و القبول، مسيرة فى الناس، مستغربة عندهم، و جعلوا مضربها مثلا لموردها، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها فى الغرابة كهذه القصة المذكورة، فى هذه الآية. و المراد بما يدعونه من دون اللّه: الأصنام التى كانت حول الكعبة و غيرها. و قيل: المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة اللّه لكونهم أهل الحلّ و العقد فيهم. و قيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية اللّه، و الأوّل أوفق بالمقام و أظهر فى التمثيل، و الذباب: اسم للواحد يطلق على الذكر و الأنثى، و جمع القلة أذبّة، و الكثرة ذبّان، مثل غراب و أغربة و غربان، و قال الجوهرى: الذباب معروف الواحد ذبابة. و المعنى: لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات. و جملة وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة، أى: لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه و لو اجتمعوا له، و الجواب محذوف، و التقدير: لن يخلقوه و هما فى محل نصب على الحال، أى: لن يخلقوه على كلّ حال. ثم بيّن سبحانه كمال عجزهم و ضعف قدرتهم، فقال: وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ

الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ أى. إذا أخذ منهم الذباب شيئا من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم و فرط ضعفهم، و الاستنقاذ و الإنقاذ:

التخليص، و إذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف، و عن استنقاذ ما أخذه عليهم، فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرما و أشدّ منه قوّة أعجز و أضعف. ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام و الذباب، فقال:

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، و المطلوب الذباب. و قيل: الطالب عابد الصنم، و المطلوب الصنم. و قيل: الطالب الذباب و المطلوب الآلهة. ثم بيّن سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون اللّه آلهة عاجزة إلى هذه الغاية فى العجز ما عرفوا اللّه حقّ معرفته، فقال: ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أى: ما عظّموه حقّ تعظيمه، و لا عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال، و قد تقدّم فى الأنعام إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ على خلق كلّ شىء عَزِيزٌ غالب لا يغالبه أحد، بخلاف آلهة المشركين، فإنها جماد لا تعقل و لا تنفع و لا

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۵۶

تضرّ و لا تقدر على شىء. ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم ما يعتقدونه فى النبوّات و الإلهيات فقال: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا كجبريل و إسرافيل و ميكائيل و عزرائيل وَ يصطفى أيضا رسلا مِنَ النَّاسِ و هم الأنبياء، فيرسل الملك إلى النبى، و النبىّ إلى الناس، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته، أو لتحصيل ما ينفعكم، أو لإنزال العذاب عليهم إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لأقوال عباده بَصِيرٌ بمن يختاره من خلقه يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ أى: ما قدّموا من الأعمال و ما يتركونه من الخير و الشرّ، كقوله تعالى: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ «۱». وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ لا إلى غيره، و لما تضمن ما ذكره- من أن الأمور ترجع إليه- الزجر لعباده عن معاصيه، و الحضّ لهم على طاعاته صرح بالمقصود، فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا أى: صلّوا الصلاة التى شرعها اللّه لكم، و خصّ الصلاة لكونها أشرف العبادات.

ثم عمّم فقال: وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ أى: افعلوا جميع أنواع العبادة التى أمركم اللّه بها وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ أى: ما هو خير، و هو أعمّ من الطّاعة الواجبة و المندوبة، و قيل: المراد بالخير هنا المندوبات. ثم علّل ذلك بقوله: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى: إذا فعلتم هذه كلّها رجوتم الفلاح. و هذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعى و من وافقه، لا عند أبى حنيفة و من قال بقوله، و قد تقدّم أن هذه السورة فضّلت بسجدتين، و هذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية. ثم أمرهم بما هو سنام الدين و أعظم أعماله، فقال:

وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ أى: فى ذاته و من أجله، و المراد به الجهاد الأكبر، و هو الغزو للكفار و مدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين. و قيل: المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم اللّه به فى الآية المتقدّمة، أو امتثال جميع ما أمر به و نهى عنه على العموم، و معنى حَقَّ جِهادِهِ المبالغة فى الأمر بهذا الجهاد؛ لأنه أضاف الحقّ إلى الجهاد، و الأصل إضافة الجهاد إلى الحق، أى: جهادا خالصا للّه، فعكس ذلك لقصد المبالغة، و أضاف الجهاد إلى الضمير اتساعا، أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولا له و من أجله. و قيل: المراد بحقّ جهاده هو أن لا تخافوا فى اللّه لومة لائم، و قيل: المراد به استفراغ ما فى وسعهم فى إحياء دين اللّه. و قال مقاتل و الكلبى:

إن الآية منسوخة بقوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «۲» كما أن قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «۳» منسوخ بذلك، و ردّ ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ. ثم عظّم سبحانه شأن المكلفين بقوله: هُوَ اجْتَباكُمْ أى: اختاركم لدينه، و فيه تشريف لهم عظيم. ثم لما كان فى التكليف مشقة على النفس فى بعض الحالات قال: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ أى: من ضيق و شدّة.

و قد اختلف العلماء فى هذا الحرج الذى رفعه اللّه، فقيل: هو ما أحلّه اللّه من النساء مثنى و ثلاث و رباع و ملك اليمين. و قيل: المراد قصر الصلاة، و الإفطار للمسافر، و الصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره، و إسقاط الجهاد عن الأعرج و الأعمى و المريض، و اغتفار الخطأ فى تقديم الصيام و تأخيره لاختلاف الأهلّة، و كذا فى الفطر و الأضحى. و قيل: المعنى: أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجا بتكليف ما يشقّ عليهم، و لكن

---

(۱). يس: ۱۲.

(۲). التغابن: ۱۶.

(۳). آل عمران: ۱۰۲.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۵۷

كلّفهم بما يقدرون عليه، و رفع عنهم التكاليف التى فيها حرج، فلم يتعبّدهم بها كما تعبّد بها بنى إسرائيل.

و قيل: المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجا بفتح باب التوبة و قبول الاستغفار و التكفير فيما شرع فيه الكفارة و الأرش «۱»، أو القصاص فى الجنايات، و ردّ المال أو مثله أو قيمته فى الغصب و نحوه. و الظاهر أن الآية أعمّ من هذا كله، فقد حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده، إما بإسقاطها من الأصل و عدم التكليف بها كما كلّف بها غيرهم، أو بالتخفيف و تجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه، أو بمشروعية التخلّص عن الذنب بالوجه الذى شرعه اللّه، و ما أنفع هذه الآية و أجلّ موقعها و أعظم فائدتها، و مثلها قوله سبحانه:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ «۲» و قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ «۳» و قوله: رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ «۴» و فى الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: «قد فعلت» كما سبق بيانه فى تفسير هذه الآية، و الأحاديث فى هذا كثيرة، و انتصاب ملّة فى مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ على المصدرية بفعل دلّ عليه ما قبله، أى: وسع عليكم دينكم توسعة ملّة أبيكم إبراهيم. و قال الزجاج: المعنى اتبعوا ملّة أبيكم إبراهيم. و قال الفراء: انتصب على تقدير حذف الكاف، أى: كملّة. و قيل: التقدير: و افعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم، فأقام الملّة مقام الفعل، و قيل: على الإغراء، و قيل: على الاختصاص، و إنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة، و لأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن؛ لكونه أبا لنبيهم صلّى اللّه عليه و سلّم: هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ أى: فى الكتب المتقدّمة وَ فِي هذا أى: القرآن، و الضمير للّه سبحانه، و قيل: راجع إلى إبراهيم. و المعنى هو: أى إبراهيم سمّاكم المسلمين من قبل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، «و فى هذا» أى: فى حكمه أن من اتبع محمدا فهو مسلم. قال النحّاس: و هذا القول مخالف لقول علماء الأمة. ثم علّل سبحانه ذلك بقوله:

لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ أى: بتبليغه إليكم وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ أن رسلهم قد بلغتهم، و قد تقدّم بيان معنى هذه الآية فى البقرة. ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال: فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ و تخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ أى: اجعلوه عصمة لكم ممّا تحذرون، و التجئوا إليه فى جميع أموركم، و لا تطلبوا ذلك إلّا منه هُوَ مَوْلاكُمْ أى: ناصركم و متولّى أموركم دقيقها و جليلها فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ أى: لا مماثل له فى الولاية لأموركم و النصرة على أعدائكم، و قيل: المراد بقوله «اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ»: تمسّكوا بدين اللّه، و قيل: ثقوا به تعالى.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ قال: نزلت فى صنم.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ قال: الطالب آلهتهم، و المطلوب الذباب.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة فى قوله: لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ قال: لا تستنقذ الأصنام ذلك الشىء من الذباب. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ اللّه اصطفى موسى

---

(١). «الأرش»: دية الجراحة.

(٢). التغابن: ١۶.

(٣). البقرة: ١٨۵.

(۴). البقرة: ٢٨۶.

بالكلام، و إبراهيم بالخلّة». و أخرج أيضا عن أنس و صحّحه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «موسى بن عمران صفىّ اللّه». و أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لى عمر: ألسنا كنّا نقرأ فيما نقرأ: «و جاهدوا فى اللّه جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتم فى أوّله»؟ قلت: بلى، فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء، و بنو المغيرة الوزراء. و أخرجه البيهقى فى الدلائل عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره. و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن حبان و ابن مردويه، و العسكرى فى الأمثال، عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة اللّه». و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عائشة أنها سألت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قال: الضيق. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد قال: قال أبو هريرة لابن عباس: أما علينا فى الدين من حرج فى أن نسرق أو نزنى؟ قال: بلى، قال: فما وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ
قال: الإصر الذى كان على بنى إسرائيل وضع عنكم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن شهاب أن ابن عباس كان يقول: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ توسعة الإسلام ما جعل اللّه من التوبة و الكفّارات.
و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قال: هذا فى هلال رمضان إذا شكّ فيه الناس، و فى الحج إذا شكّوا فى الأضحى، و فى الفطر و أشباهه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ادع لى رجلا من هذيل، فجاءه فقال: ما الحرج فيكم؟ قال: الحرجة من الشجر التى ليس فيها مخرج، فقال ابن عباس: [هذا الحرج «١» الذى ليس له مخرج. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن المنذر، و البيهقى فى سننه، من طريق عبيد اللّه بن أبى يزيد أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال: هاهنا أحد من هذيل؟ قال رجل: أنا، فقال: ما تعدّون الحرجة فيكم؟ قال: الشىء الضيق، قال: هو ذاك. و أخرج البيهقى فى سننه عن محمد بن زيد بن عبد اللّه بن عمر قال: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ثم قال لى: ادع لى رجلا من بنى مدلج، قال عمر:
ما الحرج فيكم؟ قال: الضيق. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: مِلَّةَ أَبِيكُمْ [قال: دين أبيكم «٢». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ قال اللّه عزّ و جلّ: سماكم. و روى نحوه عن جماعة من التابعين. و أخرج الطيالسى و أحمد، و البخارى فى تاريخه، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و أبو يعلى و ابن خزيمة و ابن حبان و البغوى و البارودى و ابن قانع و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن الحارث الأشعرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(۱). من (الدر المنثور ۶/ ۷۹)

(۲). المصدر السابق.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۵۹

قال: «من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثا جهنم «۱»، قال رجل: يا رسول اللّه! و إن صام و صلى؟

قال: نعم، فادعوا بدعوة اللّه التى سمّاكم بها المسلمين و المؤمنين عباد اللّه».

---

(۱). «من جثا جهنم»: أى من جماعاتها. و الجثا: جمع جثوة، و هو الشىء المجموع. و فى بعض الروايات: جثّى، جمع جاث، من جثا على ركبتيه يجثو و يجثى.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۶۰

سورة المؤمنون

اشارة

هى مكية بلا خلاف. قال القرطبى: كلّها مكيّة فى قول الجميع، و آياتها مائة و تسع عشرة آية و قد أخرج أحمد و مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و غيرهم عن عبد اللّه بن السّائب قال: صلّى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذكر موسى و هارون، أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع. و أخرج البيهقى من حديث أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «لمّا خلق اللّه الجنّة قال لها تكلّمى، فقالت: قد أفلح المؤمنون». و أخرجه أيضا ابن عدى و الحاكم. و أخرج الطبرانى فى السّنّة، و ابن مردويه من حديث ابن عباس مثله. و قد ورد فى فضائل العشر الآيات من أوّل هذه السورة ما سيأتى قريبا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (۲) وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (۳) وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (۴)

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۵) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ

هُمُ العادُونَ (۷) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۸) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (۹)

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (۱۰) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۱)

قوله: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ قال الفرّاء: قد ها هنا يجوز أن تكون تأكيدا لفلاح المؤمنين، و يجوز أن تكون تقريبا للماضى من الحال، لأن قد تقرّب الماضى من الحال حتى تلحقه بحكمه، ألا تراهم يقولون:

قد قامت الصلاة قبل حال قيامها، و يكون المعنى فى الآية و أن الفلاح قد حصل لهم، و أنهم عليه فى الحال، و الفلاح: الظفر بالمراد و النجاة من المكروه، و قيل: البقاء فى الخير، و أفلح إذا دخل فى الفلاح، و يقال:

أفلحه: إذا أصاره إلى الفلاح، و قد تقدّم بيان معنى الفلاح فى أوّل البقرة. و قرأ طلحة بن مصرّف قَدْ أَفْلَحَ بضم الهمزة و بناء

الفعل للمفعول. و روى عنه أنه قرأ «أفلحوا المؤمنون» على الإبهام و التفسير، أو على لغة: أكلونى البراغيث. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ و ما عطف عليه، و الخشوع: منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف و الرهبة، و منهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون و ترك الالتفات و العبث، و هو فى اللغة: السكون و التواضع و الخوف و التذلل.

و قد اختلف الناس فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها؟ على قولين: قيل: الصحيح الأول، و قيل: الثانى. و ادّعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته، حكاه

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۶۱

النيسابورى فى تفسيره. قال: و ممّا يدل على صحّة هذا القول قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ* «۱» و التدبر لا يتصوّر بدون الوقوف على المعنى، و كذا قوله: أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي «۲» و الغفلة تضادّ الذكر، و لهذا قال: وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ «۳» و قوله: حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ «۴» نهى للسكران، و المستغرق فى هموم الدنيا بمنزلته. و اللغو، قال الزجّاج: هو كل باطل و لهو و هزل و معصية و ما لا يجمل من القول و الفعل، و قد تقدّم تفسيره فى البقرة. و قال الضحّاك: إن اللغو هنا الشرك. و قال الحسن: إنه المعاصى كلها. و معنى إعراضهم عنه: تجنّبهم له و عدم التفاتهم إليه، و ظاهره اتّصافهم بصفة الإعراض عن اللغو فى كلّ الأوقات، فيدخل وقت الصلاة فى ذلك دخولا أوّليا كما تفيده الجملة الاسمية، و بناء الحكم على الضمير، و معنى فعلهم للزكاة تأديتهم لها، فعبّر عن التأدية بالفعل لأنّها ممّا يصدق عليه الفعل، و المراد بالزكاة هنا المصدر لأنه الصادر عن الفاعل. و قيل: يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف، أى: وَ الَّذِينَ هُمْ لتأدية لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ- وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ الفرج: يطلق على فرج الرجل و المرأة، و معنى حفظهم لها أنهم ممسكون لها بالعفاف عمّا لا يحلّ لهم. قيل: و المراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدليل قوله: إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ للإجماع على أنه لا يحلّ للمرأة أن يطأها من تملكه. قال الفرّاء: إن على فى قوله: إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ بمعنى من. و قال الزّجّاج: المعنى أنهم يلامون فى إطلاق ما حظر عليهم فأمروا بحفظه إلا على أزواجهم، و دلّ على المحذوف ذكر اللوم فى آخر الآية، و الجملة فى محل نصب على الحال، و قيل: إن الاستثناء من نفى الإرسال المفهوم من الحفظ، أى: لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم. و قيل:

المعنى: إلا والين على أزواجهم و قوّامين عليهم، من قولهم: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان.

و المعنى: أنهم لفروجهم حافظون فى جميع الأحوال إلا فى حال تزوّجهم أو تسرّيهم، و جملة أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فى محل جرّ عطفا على أزواجهم، و ما مصدرية، و المراد بذلك الإماء؛ و عبّر عنهنّ بما التى لغير العقلاء، لأنه اجتمع فيهنّ الأنوثة المنبئة عن قصور العقل و جواز البيع و الشراء فيهنّ كسائر السلع، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء، و جملة فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ تعليل لما تقدّم ممّا لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ الإشارة إلى الزوجات و ملك اليمين؛ و معنى «العادون»: المجاوزون إلى ما لا يحلّ لهم، فسمّى سبحانه من نكح ما لا يحلّ عاديا، و وراء هنا بمعنى سوى و هو مفعول ابتغى. قال الزجّاج: أى فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف، و وراء ظرف.

و قد دلّت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، و استدلّ بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء «۵» لما ذكر، و قد جمعنا فى ذلك رسالة سمّيناها «بلوغ المنى فى حكم الاستمناء»، و ذكرنا فيها أدلة المنع و الجواز و ترجيح الراجح منهما وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ قرأ الجمهور لِأَماناتِهِمْ بالجمع. و قرأ ابن كثير بالإفراد. و الأمانة ما يؤتمنون عليه، و العهد ما يعاهدون عليه من جهة اللّه سبحانه أو جهة

---

(۱). النساء: ۸۲.

(۲). طه: ۱۴.

(۳). الأعراف: ۲۰۵.

(۴). النساء: ۴۳.

(۵). المقصود: الإشارة إلى قوله تعالى: فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِکَ

عباده، و قد جمع العهد و الأمانة كلّ ما يتحمّله الإنسان من أمر الدين و الدنيا، و الأمانة أعمّ من العهد، فكل عهد أمانة، و معنى «راعون»: حافظون وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ قرأ الجمهور صَلَواتِهِمْ بالجمع. و قرأ حمزة و الكسائى «صلاتهم» بالإفراد، و من قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس، و هو فى معنى الجمع، و المحافظة على الصلاة: إقامتها و المحافظة عليها فى أوقاتها و إتمام ركوعها و سجودها و قراءتها و المشروع من أذكارها. ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال: أُولئِکَ هُمُ الْوارِثُونَ أى: الأحقاء بأن يسمّوا بهذا الاسم دون غيرهم. ثم بيّن الموروث بقوله: الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ و هو أوسط الجنة، كما صحّ تفسيره بذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و المعنى: أن من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهو الوارث الذى يرث من الجنة ذلك المكان، و فيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم. و قيل: المعنى: أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم؛ لأنه سبحانه خلق لكلّ إنسان منزلا فى الجنة و منزلا فى النار. و لفظ الفردوس لغة رومية معرّبة، و قيل: فارسية، و قيل: حبشية، و قيل: هى عربية، و جملة هُمْ فِيها خالِدُونَ فى محل نصب على الحال المقدّرة، أو مستأنفة لا محل لها، و معنى الخلود أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها و لا يموتون فيها، و تأنيث الضمير مع أنه راجع إلى الفردوس لأنه بمعنى الجنة.

و قد أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و النسائى و ابن المنذر، و العقيلى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارة، عن عمر بن الخطاب قال: «كان إذا أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الوحى يسمع عند وجهه كدويّ النحل، فأنزل اللّه عليه يوما فمكثنا ساعة، فسرّى عنه، فاستقبل القبلة فقال: اللهم زدنا و لا تنقصنا، و أكرمنا و لا تهنّا، و أعطنا و لا تحرمنا، و آثرنا و لا تؤثر علينا، و أرضنا و ارض عنا، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة، ثم قرأ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ حتى ختم العشر» و فى إسناده يونس بن سليم الإيلى. قال النسائى: لا نعرف أحدا رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم، و يونس لا نعرفه. و أخرج البخارى فى الأدب المفرد، و النسائى و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قالت: كان خلقه القرآن، ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنون؟ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ فقرأ حتى بلغ العشر، فقالت: هكذا كان خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير، و البيهقى فى سننه، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت:

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ و أخرجه عبد الرزاق عنه، و زاد: فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده. و أخرجه عنه أيضا عبد بن حميد، و أبو داود فى المراسيل، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى السّنن، بلفظ: كان إذا قام فى الصلاة نظر هكذا و هكذا، يمينا و شمالا، فنزلت الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ فحنى رأسه. و روى عنه من طرق مرسلا هكذا. و أخرجه الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه عن أبى هريرة: أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ فطأطأ رأسه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن

ابن سيرين بلفظ: كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يرفعون رؤوسهم و أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، و يلتفتون يمينا و شمالا، فأنزل اللّه قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ- الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ فمالوا برءوسهم، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة، و لم يلتفتوا يمينا و شمالا. و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن عليّ أنه سئل عن قوله: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ قال: الخشوع فى القلب، و أن تلين كتفك للمرء المسلم، و أن لا تلتفت فى صلاتك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ قال: خائفون ساكنون. و قد ورد فى مشروعية الخشوع فى الصلاة و النهى عن الالتفات و عن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة فى كتب الحديث. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ قال: الباطل. و أخرج عبد الرزاق، و أبو داود فى ناسخه عن القاسم بن محمد: أنه سئل عن المتعة فقال: إنى لأرى تحريمها فى القرآن، ثم تلا- وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ- إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الطبرانى عن ابن مسعود أنه قيل له: إن اللّه يكثر ذكر الصلاة فى القرآن الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ «١» وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ قال: ذلك على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على تركها، قال: تركها كفر. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عن أبى هريرة فى قوله: أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ قال: يرثون مساكنهم و مساكن إخوانهم التى أعدّت لهم لو أطاعوا اللّه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما منكم من أحد إلا و له منزلان:

منزل فى الجنة، و منزل فى النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ . و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و قال: حسن صحيح غريب عن أنس، فذكر قصّة، و فيها أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الفردوس ربوة الجنة و أوسطها و أفضلها»، و يدلّ على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا «٢»، و قوله: تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٣». و يشهد لحديث أبى هريرة هذا ما فى صحيح مسلم عن أبى موسى عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها اللّه لهم و يضعها على اليهود و النصارى» و فى لفظ له: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كان يوم القيامة دفع اللّه إلى كلّ مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقول: هذا فكاكك من النار».

---

(١). المعارج: ٢٣.

(٢). مريم: ٦٣.

(٣). الأعراف: ٤٣.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٦٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ الى ٢٢]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (١۴) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (١۵) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (١۶)

وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (١٧) وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (١٩) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (٢١)

وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

لما حثّ سبحانه عباده على العبادة و وعدهم الفردوس على فعلها، عاد إلى تقرير المبدأ و المعاد ليتمكّن ذلك فى نفوس المكلّفين فقال: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ إلى آخره، و اللام جواب قسم محذوف، و الجملة مبتدأة، و قيل: معطوفة على ما قبلها، و المراد بالإنسان الجنس لأنهم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم، و قيل: المراد به آدم. و السلالة فعالة من السّلّ، و هو استخراج الشىء من الشىء، يقال: سللت الشعرة من العجين، و السيف من الغمد فانسلّ، فالنطفة سلالة، و الولد سليل، و سلالة أيضا، و منه قول الشاعر «١»:

فجاءت به عضب الأديم غضنفراسلالة فرج كان غير حصين

و قول الآخر «٢»:

و هل هند إلا مهرة عربيّةسليلة أفراس تجلّلها «٣» بغل

و مِنْ فى مِنْ سُلالَةٍ ابتدائية متعلّقة بخلقنا، و فى مِنْ طِينٍ بيانية متعلقة بمحذوف، وقع صفة لسلالة، أى: كائنة من طين، و المعنى: أنه سبحانه خلق جوهر الإنسان أوّلا من طين، لأن الأصل آدم، و هو من طين خالص و أولاده من طين و منىّ. و قيل: السلالة: الطين إذا عصرته انسلّ من بين أصابعك، فالذى يخرج هو السلالة، قاله الكلبى ثُمَّ جَعَلْناهُ أى الجنس باعتبار أفراده الذين هم بنو آدم، أو جعلنا نسله على حذف مضاف إن أريد بالإنسان آدم نُطْفَةً و قد تقدم تفسير النطفة فى سورة الحج، و كذلك تفسير العلقة و المضغة. و المراد بالقرار المكين: الرّحم، و عبّر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة، و معنى ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً أى: أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً أى: قطعة لحم غير مخلّقة فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً أى: جعلها اللّه سبحانه متصلّبة لتكون عمودا للبدن على أشكال

---

(١). هو حسان بن ثابت.

(٢). القائل: هند بنت النعمان.

(٣). «تجلّلها»: علاها. و يروى: تحلّلها.

مخصوصة فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً أى: أنبت اللّه سبحانه على كلّ عظم لحما على المقدار الذى يليق به و يناسبه ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ أى: نفخنا فيه الروح بعد أن كان جمادا، و قيل: أخرجناه إلى الدنيا، و قيل: هو نبات الشعر، و قيل: خروج الأسنان، و قيل: تكميل القوى المخلوقة فيه، و لا مانع من إرادة الجميع، و المجىء بثم لكمال التفاوت بين الخلقين فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ أى: استحقّ التعظيم و الثناء.

و قيل: مأخوذ من البركة، أى: كثر خيره و بركته. و الخلق فى اللغة: التقدير، يقال: خلقت الأديم؛ إذا قسته لتقطع منه شيئا، فمعنى

أحسن الخالقين: أتقن الصانعين المقدّرين، و منه قول الشاعر «۱»:

و لأنت تفرى ما خلقت و بعض القوم يخلق ثم لا يفرى

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الأمور المتقدّمة، أى: ثم إنكم بعد تلك الأمور لميتون صائرون إلى الموت لا محالة ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ من قبوركم إلى المحشر للحساب و العقاب. و اللام فى وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ جواب لقسم محذوف، و الجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون إليه بعد بيان خلقهم، و الطرائق: هى السماوات. قال الخليلى و الفرّاء و الزّجاج:

سمّيت طرائق لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل. قال أبو عبيدة: طارقت الشىء جعلت بعضه فوق بعض، و العرب تسمّى كل شىء فوق شىء طريقة. و قيل: لأنها طرائق الملائكة، و قيل: لأنها طرائق الكواكب. وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ المراد بالخلق هنا المخلوق، أى: و ما كنّا عن هذه السبع الطرائق و حفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين. و قال أكثر المفسرين: المراد الخلق كلهم بغافلين، بل حفظنا السماوات عن أن تسقط، و حفظنا من فى الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض، أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم، و يجوز أن يراد نفى الغفلة عن القيام بمصالحهم و ما يعيشون به، و نفى الغفلة عن حفظهم وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً هذا من جملة ما امتنّ اللّه سبحانه به على خلقه، و المراد بالماء ماء المطر، فإن به حياة الأرض و ما فيها من الحيوان، و من جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء و العيون، و الآبار المستخرجة من الأرض، فإنّ أصلها من ماء السماء. و قيل: أراد سبحانه فى هذه الآية الأنهار الأربعة:

سيحان، و جيحان، و الفرات، و النيل، و لا وجه لهذا التخصيص. و قيل: المراد به الماء العذب، و لا وجه لذلك أيضا فليس فى الأرض ماء إلا و هو من السماء. و معنى بِقَدَرٍ بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزرع و الثمار، فإنه لو كثر لكان به هلاك ذلك، و مثله قوله سبحانه وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ و معنى فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ جعلناه مستقرّا فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه، كالماء الذى يبقى فى المستنقعات و الغدران و نحوها وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ أى: كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه، و لهذا التنكير حسن موقع لا يخفى، و فى هذا تهديد شديد لما يدلّ عليه من قدرته سبحانه على إذهابه و تغويره حتى يهلك الناس بالعطش و تهلك مواشيهم، و مثله قوله:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ «۲». ثم بيّن سبحانه ما يتسبّب عن إنزال الماء

---

(۱). هو زهير بن أبى سلمى.

(۲). الملك: ۳۰.

فقال: فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ أى: أوجدنا بذلك الماء جنات من النوعين المذكورين لَكُمْ فِيها أى: فى هذه الجنّات فَواكِهُ كَثِيرَةٌ تتفكّهون بها و تتطعمون منها. و قيل: المعنى: و من هذه الجنات وجوه أرزاقكم و معاشكم، كقوله: فلان يأكل من حرفة كذا، و هو بعيد. و اقتصر سبحانه على النخيل و الأعناب؛ لأنها الموجودة بالطائف و المدينة و ما يتّصل بذلك. كذا قال ابن جرير. و قيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرة، و أطيبها منفعة و طعما و لذّة. قيل: المعنىّ بقوله: لَكُمْ فِيها فَواكِهُ أنّ لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب و النخيل. و قيل: المعنى: لكم فى هذين النوعين خاصة فواكه؛ لأن فيهما أنواعا مختلفة متفاوتة فى الطعم و اللون.

و قد اختلف أهل الفقه فى لفظ الفاكهة على ماذا يطلق؟ اختلافا كثيرا، و أحسن ما قيل إنها تطلق على الثمرات التى يأكلها

الناس، و ليست بقوت لهم و لا طعام و لا إدام. و اختلف فى البقول هل تدخل فى البقول هل تدخل فى الفاكهة أم لا؟ و انتصاب شجرة على العطف على جنات، و أجاز الفراء الرفع على تقدير: و ثم شجرة فتكون مرتفعة على الابتداء، و خبرها محذوف مقدّر قبلها، و هو الظرف المذكور. قال الواحدى: و المفسرون كلّهم يقولون: إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون، و خصّت بالذكر لأنه لا يتعاهدها أحد بالسّقى، و هى التى يخرج الدهن منها، فذكرها اللّه سبحانه امتنانا منه على عباده بها، و لأنها أكرم الشجر، و أعمّها نفعا، و أكثرها بركة، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ و هو جبل ببيت المقدس، و الطور:

الجبل فى كلام العرب، و قيل: هو ممّا عرّب من كلام العجم. و اختلف فى معنى سيناء؛ فقيل: هو الحسن، و قيل: هو المبارك، و ذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول: جبل أحد. و قيل: سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده، و قيل: هو كلّ جبل يحمل الثمار. و قرأ الكوفيون سَيْناءَ بفتح السين، و قرأ الباقون بكسر السين، و لم يصرف لأنه جعل اسما للبقعة، و زعم الأخفش أنه أعجمى. و قرأ الجمهور تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ بفتح المثناة و ضمّ الباء الموحدة، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بضمّ المثناة و كسر الباء الموحدة. و المعنى على القراءة الأولى: أنها تنبت فى نفسها متلبسة بالدهن، و على القراءة الثانية: الباء بمعنى مع، فهى للمصاحبة.

قال أبو علىّ الفارسى: التقدير: تنبت جناها و معه الدهن. و قيل: الباء زائدة. قال أبو عبيدة، و مثله قول الشاعر «١»:

هنّ الحرائر لا ربّات أحمرة «٢»سود المحاجر لا يقرأن بالسّور

و قال آخر:

....

نضرب بالسيف و نرجو بالفرج «٣»

(١). هو الراعى.

(٢). «أحمرة»: جمع حمار. و خصّ الحمير لأنها رذال المال و شرّه. و قال البغدادى فى خزانة الأدب: و قد صحّف الدمامينى هذه الكلمة بالخاء المعجمة.

(٣). و صدره: نحن بنو جعدة أصحاب الفلج.

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٦٧

و قال الفراء و الزجاج: إنّ نبت و أنبت بمعنى، و الأصمعى ينكر أنبت، و يرد عليه قول زهير:

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهمقطينا بها حتى إذا أنبت البقل

أى: نبت. و قرأ الزهرى و الحسن و الأعرج «تنبت» بضم المثناة و فتح الموحدة. قال الزجاج و ابن جنى:

أى تنبت و معها الدهن، و قرأ ابن مسعود «تخرج» بالدهن، و قرأ زرّ بن حبيش «تنبت الدهن» بحذف حرف الجرّ. و قرأ سليمان بن عبد الملك و الأشهب «بالدهان». وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ معطوف على الدهن، أى:

تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهنا يدهن به. و كونه صبغا يؤتدم به. قرأ الجمهور صِبْغٍ و قرأ قوم «صباغ» مثل لبس و لباس، و كل إدام يؤتدم به فهو صبغ و صباغ، و أصل الصبغ ما يلوّن به الثوب، و شبّه الإدام به لأنّ الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ به وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً هذه من جملة النعم التى امتنّ اللّه بها عليهم، و قد تقدّم تفسير الأنعام فى سورة النحل. قال النيسابورى فى تفسيره: و لعلّ القصد بالأنعام هنا إلى الإبل خاصة؛ لأنها هى المحمول عليها فى العادة، و لأنه قرنها بالفلك و هى سفائن البرّ، كما أن الفلك سفائن البحر. و بيّن سبحانه أنها عبرة؛ لأنّها ممّا يستدلّ بخلقها و أفعالها على عظيم القدرة الإلهية، ثم فصّل

سبحانه ما فی هذه الأنعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد، فقال: نُسْقِيكَمْ مِمَّا فِي بُطُونِها يعنی سبحانه: اللبن المتكوّن فی بطونها المنصبّ إلى ضروعها، فإنّ فی انعقاد ما تأكله من العلف و استحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ، و المشروب النفيس؛ أعظم عبرة للمعتبرين، و أكبر موعظة للمتّعظين. قرئ نُسْقِيكُمْ بالنون على أن الفاعل هو اللّه سبحانه، و قرئ بالتاء الفوقية على أن الفاعل هو الأنعام. ثم ذكر ما فيها من المنافع إجمالا فقال: وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ يعنی فی ظهورها و ألبانها و أولادها و أصوافها و أشعارها، ثم ذكر منفعة خاصة فقال: وَ مِنْها تَأْكُلُونَ لما فی الأكل من عظيم الانتفاع لهم، و كذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال: وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ أی: و على الأنعام، فإن أريد بالأنعام الإبل و البقر و الغنم، فالمراد: و على بعض الأنعام، و هی الإبل خاصّة، فالمعنى واضح.

ثم لما كانت الأنعام هی غالب ما يكون الركوب عليه فی البرّ ضمّ إليها ما يكون الركوب عليه فی البحر، فقال:

وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ تتميما للنعمة و تكميلا للمنّة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: السلالة: صفو الماء الرقيق الذی يكون منه الولد. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن مسعود قال: إن النطفة إذا وقعت فی الرحم طارت فی شعر و ظفر فتمكث أربعين يوما، ثم تنحدر فی الرحم فتكون علقة. و للتابعين فی تفسير السلالة أقوال قد قدّمنا الإشارة إليها. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال: الشعر و الأسنان. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال: نفخ فيه الروح، و كذا قال: مجاهد و عكرمة و الشعبی و الحسن و أبو العالية و الربيع بن أنس و السدّی و الضحّاك و ابن زيد، و اختاره ابن جرير.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال: حين استوى به الشباب. و أخرج ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن صالح أبی الخليل قال: لما نزلت هذه

الآية على النبی صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قوله: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ قال عمر: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ قال:

«و الذی نفسی بيده إنها ختمت بالذی تكلمت به يا عمر». و أخرج الطيالسی و ابن أبی حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربی فی أربع، قلت: يا رسول اللّه لو صلينا خلف المقام؟

فأنزل اللّه: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى «۱» و قلت: يا رسول اللّه لو اتخذت على نسائک حجابا فإنه يدخل عليک البرّ و الفاجر، فأنزل اللّه: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ «۲» و قلت لأزواج النبی صلّى اللّه عليه و سلّم: لتنتهنّ أو ليبدلنه اللّه أزواجا خيرا منكنّ، فنزلت: عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ «۳» الآية، و نزلت:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ إلى قوله: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فقلت أنا: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ و أخرج ابن راهويه و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الطبرانی فی الأوسط، و ابن مردويه عن زيد ابن ثابت قال: أملى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ إلى قوله: خَلْقاً آخَرَ فقال معاذ بن جبل: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ فضحک رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال له معاذ: ممّ ضحكت يا رسول اللّه؟ قال: بها ختمت فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ و فی إسناده: جابر الجعفی، و هو ضعيف جدا. قال ابن كثير: و فی خبره هذا نكارة شديدة، ذلک أن هذه السورة مكية، و زيد بن ثابت إنّما كتب الوحی بالمدينة، و كذلک إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة، و اللّه أعلم. و أخرج ابن مردويه و الخطيب، قال السيوطی: بسند ضعيف، عن ابن عباس عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أنزل اللّه من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار: سيحون و هو نهر الهند، و جيحون و هو نهر بلخ، و دجلة و الفرات و هما نهرا العراق، و النيل و هو نهر مصر، أنزلها من عين واحدة من عيون الجنة، من أسفل درجة من درجاتها على جناحی جبريل، فاستودعها الجبال، و أجراها فی الأرض، و جعلها منافع للناس فی أصناف

معايشهم، فذلك قوله:

وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ فإذا كان عند خروج يأجوج و مأجوج أرسل اللّه جبريل، فرفع من الأرض القرآن و العلم، و الحجر من ركن البيت، و مقام إبراهيم، و تابوت موسى بما فيه، و هذه الأنهار الخمسة، فيرفع كل ذلك إلى السماء، فذلك قوله: وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا و الآخرة». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس، قال: طور سيناء هو الجبل الذى نودى منه موسى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ قال: هو الزيت يؤكل و يدهن به.

---

(۱). البقرة: ۱۲۵.

(۲). الأحزاب: ۵۳.

(۳). التحريم: ۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۶۹

[سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۲۳ الى ۴۱]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۲۳) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (۲۴) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (۲۵) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (۲۶) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۲۷) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۸) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۲۹) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (۳۰) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۳۱) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۲)

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (۳۳) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (۳۴) أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (۳۵) هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (۳۶) إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۳۷)

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (۳۸) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (۳۹) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (۴۰) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۱)

لما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح، لأنه أوّل من صنعه، و ذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب إهمالهم للتفكر فى مخلوقات اللّه سبحانه و التذكر لنعمه عليهم، فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ و فى ذلك تعزية لرسول اللّه، و تسلية له ببيان أنّ قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه، و اللام جواب قسم محذوف فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ أى: اعبدوه وحده و لا تشركوا به شيئا كما يستفاد من الآيات الآخرة، و جملة ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ واقعة موقع التعليل لما قبلها، و ارتفاع «غيره» لكونه وصفا لإله على المحل، لأنه مبتدأ خبره «لكم»، أى: ما لكم فى الوجود إله غيره سبحانه، و قرئ بالجرّ اعتبارا بلفظ إله أَ فَلا تَتَّقُونَ أى أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذى لا يستحقّ العبادة غيره، و ليس لكم إله سواه. و قيل: المعنى: أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خوّلكم من النعم و يسلبها عنكم. و قيل: المعنى:

أفلا تقون أنفسكم عذابه الذى تقتضيه ذنوبكم؟ فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أى: قال أشراف قومه الذين كفروا به: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أى: من جنسكم فى البشرية، لا فرق بينكم و بينه يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ أى: يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره، ثم صرّحوا بأن البشر لا يكون رسولا، فقالوا: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أى: لو شاء اللّه إرسال رسول لأرسل ملائكة، و إنّما عبّر بالإنزال عن الإرسال؛ لأن إرسالهم إلى العباد يستلزم نزولهم إليهم ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ أى: بمثل دعوى هذا المدّعى للنبوّة من البشر، أو بمثل كلامه، و هو الأمر بعبادة اللّه وحده، أو ما سمعنا ببشر يدّعى هذه الدعوى فى آبائنا الأوّلين، أى: فى الأمم الماضية قبل هذا. و قيل: الباء فى «بهذا» زائدة، أى: ما سمعنا هذا كائنا فى الماضين، قالوا هذا اعتمادا منهم على التقليد و اعتصاما بحبله، و لم يقنعوا بذلك حتى ضمّوا إليه الكذب البحت، و البهت الصراح، فقالوا: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ أى: جنون لا يدرى ما يقول فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ أى: انتظروا به حتى يستبين أمره، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى، أو حتى يموت فتستريحوا منه. قال الفرّاء: ليس يريد بالحين هنا وقتا بعينه، إنما هو كقولهم:

فتح القدير، ج٣، ص: ٥٧٠

دعه إلى يوم ما، فلما سمع عليه الصلاة و السلام كلامهم و عرف تماديهم على الكفر و إصرارهم عليه قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عليهم فانتقم منهم بما تشاء و كيف تريد، و الباء فى بِما كَذَّبُونِ للسببية، أى: بسبب تكذيبهم إياى فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ عند ذلك، أى: أرسلنا إليه رسولا من السماء أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ و «أن» هى مفسرة لما فى الوحى من معنى القول بِأَعْيُنِنا أى: متلبسا بحفظنا و كلاءتنا، و قد تقدّم بيان هذا فى هود. و معنى وَ وَحْيِنا أمرنا لك و تعليمنا إياك لكيفية صنعها، و الفاء فى قوله: فَإِذا جاءَ أَمْرُنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك، و المراد بالأمر العذاب وَ فارَ التَّنُّورُ معطوف على الجملة التى قبله عطف النسق، و قيل: عطف البيان، أى: إنّ مجيء الأمر هو فور التنور، أى: تنور آدم الصائر إلى نوح، أى: إذا وقع ذلك فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أى: أدخل فيها، يقال:

سلكه فى كذا أدخله، و أسلكته: أدخلته. و قرأ حفص مِنْ كُلٍ بالتنوين، و قرأ الباقون بالإضافة، و معنى القراءة الأولى من كلّ أمة زوجين، و معنى الثانية من كل زوجين، و هما أمة الذكر و الأنثى اثنين، و انتصاب أَهْلَكَ بفعل معطوف على «فاسلك»، لا بالعطف على زوجين، أو على اثنين على القراءتين لأدائه إلى اختلاف المعنى، أى: و اسلك أهلك إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ أى: القول بإهلاكهم منهم وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا بالدعاء لهم بإنجائهم، و جملة إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ تعليل للنهى عن المخاطبة، أى:

إنهم مقضى عليهم بالإغراق لظلمهم، و من كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أى:

علوت أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ من أهلك و أتباعك عَلَى الْفُلْكِ راكبين عليه فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى: حال بيننا و بينهم، و خلصنا منهم، كقوله: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «١». و قد تقدم تفسير هذه القصة فى سورة هود على التمام و الكمال، و إنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزما، لأنه قد سبق فى علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة، و سلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب. ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له و أتمّ فائدة فقال: وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً أى: أنزلنى فى السفينة. قرأ الجمهور «منزلا» بضم الميم و فتح الزاى على أنه مصدر.

و قرأ زرّ بن حبيش و أبو بكر عن عاصم و المفضّل بفتح الميم و كسر الزاى على أنه اسم مكان. فعلى القراءة الأولى:

أنزلنى إنزالا مباركا، و على القراءة الثانية: أنزلنى مكانا مباركا. قال الجوهرى: و المنزل بفتح الميم و الزاى:

النزول، و هو الحلول، تقول: نزلت نزولا و منزلا، قال الشاعر:

أ إن ذكّرتك الدار منزلها جمل بكيت فدمع العين منحدر سجل

بنصب منزلها؛ لأنه مصدر. قيل: أمره اللّه سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخوله السفينة، و قيل: عنـد خروجه منها، و الآيـة تعليم من اللّه لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هـذا القول. وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ هذا ثناء منه على اللّه عزّ و جلّ إثر دعائه له. قال الواحدى: قال المفسرون: إنّه أمر أن يقول عند استوائه

---

(١). الأنعام: ۴۵.

فتح القدير، ج٣، ص: ۵٧١

على الفلك: الحمـد للّه، و عند نزوله منها: ربّ أنزلنى منزلا مباركا، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ إلى ما تقدّم ممّا قصّه اللّه علينا من أمر نوح عليه السـلام. و الآيات: الدلالات على كمال قدرته، سـبحانه، و العلامات التى يسـتدلّ بها على عظيم شأنه. وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ أى: لمختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم، ليظهر المطيع و العاصـى للناس أو للملائكـة. و قيل: المعنى: إنه يعاملهم سـبحانه معاملـة المختبر لأحوالهم، تـارة بالإرسـال، و تـارة بالعـذاب. ثُمَّ أَنْشَأْنـا مِنْ بَعْـدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ أى: من بعـد إهلاكهم. قال أكثر المفسـرين: إن هؤلاء الذين أنشأهم اللّه بعدهم هم عاد قوم هود، لمجىء قصتهم على إثر قصة نوح فى غير هذا الموضع، و لقوله فى الأعراف وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْـدِ قَوْمِ نُوحٍ «١» و قيل: هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة. و قد قال سبحانه فى هـذه القصـة فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ و قيل: هم أصـحاب مدين قوم شـعيب لأنهم ممّن أهلك بالصـيحة فَأَرْسَـلْنا فِيهِمْ رَسُولًا عدّى فعل الإرسـال بفى مع أنه يتعـدّى بـإلى؛ للدلالـة على أن هـذا الرسول المرسـل إليهم نشـأ فيهم بين أظهرهم، يعرفون مكـانه و مولـده، ليكون سـكونهم إلى قوله أكثر من سـكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم. و قيل: وجه التعديـة للفعل المذكور بفى أنه ضـمن معنى القول، أى: قلنا لهم على لسان الرسول اعْبُدُوا اللَّهَ و لهذا جىء بأن المفسـرة. و الأوّل أولى لأن تضـمين أرسـلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفى، و جملة ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ تعليل للأمر بالعبادة أَ فَلا تَتَّقُونَ عذابه الذى يقتضيه شرككم وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أى: أشرافهم و قادتهم. ثم وصف الملأ بالكفر و التكذيب فقال: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ أى: كذّبوا بما فى الآخرة من الحساب و العقاب، أو كـذّبوا بالبعث وَ أَتْرَفْناهُمْ أى: وسّـعنا لهم نعم الـدنيا فبطروا بسـبب ما صاروا فيه فِي الْحَياةِ الـدُّنْيا من كثرة الأموال و رفاهة العيش ما هذا إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ أى: قال الملأ لقومهم هذا القول، و صـفوه بمساواتهم فى البشـرية، و فى الأكل مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ و الشـرب مِمَّا تَشْـرَبُونَ منه، و ذلك يسـتلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم. قال الفرّاء: إن معنى وَ يَشْـرَبُ مِمَّا تَشْـرَبُونَ على حـذف منه، أى: ممـا تشـربون منه. و قيـل: إن «مـا» مصدريـة، فلا تحتاج إلى عائـد. وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَـراً مِثْلَكُمْ فيما ذكر من الأوصـاف إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِـرُونَ أى: مغبونـون بـترككم آلهتكم و اتبـاعكم إيـاه من غير فضـيلة له عليكم، و الاسـتفهام فى قوله: أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ للإنكار، و الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له. قرئ بكسر الميم من «متّم»، من مات يمات، كخـاف يخاف. و قرئ بضـمّها من مات يموت، كقال يقول. وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أى: كان بعض أجزائكم ترابا، و بعضـها عظاما نخرة لا لحم فيها و لا أعصاب عليها، و قيل: و تقـديم التراب لكونه أبعـد فى عقولهم. و قيل: المعنى: كان متقـدّموكم ترابا، و متأخّروكم عظامـا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ أى: من قبوركم أحياء كما كنتم، قال سـيبويه: «أنّ» الأولى فى موضع نصب بوقوع «أ يعـدكم» عليها، و «أن» الثانيـة بـدل منها. و قال الفرّاء و الجرميّ و المبرّد: إن «أن» الثانيـة مكرّرة للتوكيد، و حسن تكريرها لطول الكلام، و بمثله قال الزجّاج. و قال الأخفش: «أن» الثانية

---

(١). الأعراف: ۶٩.

فتح القدير، ج٣، ص: ۵٧٢

فى محل رفع بفعل مضمر، أى: يحدث إخراجكم كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يحدث القتال هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ أى: بعد ما توعدون، أو بعيد ما توعدون، و التكرير للتأكيد. قال ابن الأنبارى: و فى هيهات عشر لغات ثم سردها، و هى مبينة فى علم النحو. و قد قرئ ببعضها، و اللام فى «لما توعدون» لبيان المستبعد، كما فى قوله: هَيْتَ لَكَ «١»، كأنه قيل: لما ذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لما توعدون. و المعنى: بعد إخراجكم للوعد الذى توعدون، هذا على أن هيهات اسم فعل. و قال الزجّاج: هو فى تقدير المصدر، أى: البعد لما توعدون، أو بعد لما توعدون على قراءة من نوّن؛ فتكون على هذا مبتدأ خبره لما توعدون. ثم بيّن سبحانه إترافهم بأنهم قالوا: إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا أى: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، لا الحياة الآخرة التى تعدنا بها، و جملة نَمُوتُ وَ نَحْيا مفسّرة لما ادّعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا. ثم صرّحوا بنفى البعث، و أن الوعد به منه افتراء على اللّه فقالوا: وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى: ما هو فيما يدّعيه إلا مفتر للكذب على اللّه وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ أى: بمصدّقين له فيما يقوله: قالَ رَبِّ انْصُرْنِي أى: قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدّقونه ألبتة: ربّ انصرنى عليهم و انتقم لى منهم بسبب تكذيبهم إياى قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ أى: قال اللّه سبحانه مجيبا لدعائه واعدا له بالقبول لما دعا به: عما قليل من الزمان ليصبحنّ نادمين على ما وقع منهم من التكذيب و العناد و الإصرار على الكفر، و ما فى «عَمَّا قَلِيلٍ» مزيدة بين الجارّ و المجرور للتوكيد لقلة الزمان، كما فى قوله: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ «٢»، ثم أخبر سبحانه بأنها أخذتهم الصيحة و حاق بهم عذابه و نزل عليهم سخطه. قال المفسرون: صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم اللّه بها فماتوا جميعا.

و قيل: الصيحة هى نفس العذاب الذى نزل بهم، و منه قول الشاعر:

صاح الزمان بآل برمك صيحةخرّوا لشدّتها على الأذقان

و الباء فى بِالْحَقِ متعلق بالأخذ، ثم أخبر سبحانه عمّا صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم، فقال:

فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً أى: كغثاء السيل الذى يحمله. و الغثاء: ما يحمل السيل من بالى الشجر و الحشيش و القصب و نحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء. و المعنى: صيّرهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ انتصاب «بعدا» على المصدرية، و هو من المصادر التى لا يذكر فعلها معها، أى: بعدوا بعدا، و اللام لبيان من قيل له ذلك.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَاسْلُكْ فِيها يقول: اجعل معك فى السفينة مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً قال لنوح حين أنزل من السفينة. و أخرج هؤلاء عن قتادة فى الآية قال: يعلمكم سبحانه كيف تقولون إذا ركبتم، و كيف تقولون إذا نزلتم. أما عند الركوب:

---

(١). يوسف: ٢٣.

(٢). آل عمران: ١٥٩.

سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ- وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ «١» و: بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٢»، و عند النزول: رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: قَرْناً قال: أمة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: هَيْهاتَ هَيْهاتَ قال: بعيد بعيد. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً قال: جعلوا كالشيء الميت البالى من الشجر.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ۴۲ الى ۵۶]

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (۴۲) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (۴۳) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (۴۴) ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ (۴۶)

فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (۴۷) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (۴۸) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴۹) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ (۵۰) يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۵۱)

وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (۵۲) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۵۳) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (۵۴) أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ (۵۵) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (۵۶)

قوله: ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ أى: من بعد إهلاكهم قُرُوناً آخَرِينَ قيل: هم قوم صالح و لوط و شعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى الأعراف و هود، و قيل: هم بنو إسرائيل. و القرون: الأمم، و لعل وجه الجمع هنا للقرون و الإفراد فيما سبق قريبا أنه أراد هاهنا أمما متعدّدة و هناك أمة واحدة. ثم بيّن سبحانه كمال علمه و قدرته فى شأن عباده، فقال: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ أى: ما تتقدّم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك و لا تتأخّر عنها، و مثل ذلك قوله تعالى: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ* «٣» ثم بيّن سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين، و أن شأن أممهم كان واحدا فى التكذيب لهم فقال: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا و الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها بمعنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن الذى أرسل إليه، لا على معنى أن إرسال الرسل جميعا متأخر عن إنشاء تلك القرون جميعا، و معنى تَتْرا تتواتر واحدا بعد واحد، و يتبع بعضهم بعضا، من الوتر و هو الفرد. قال الأصمعى: واترت كتبى عليه: أتبعت بعضها بعضا؛ إلا أن بين كل واحد منها و بين الآخر مهلة. و قال غيره: المتواترة: المتتابعة بغير مهلة. قرأ ابن كثير و ابن عمرو «تترى» بالتنوين على أنه مصدر. قال النحاس: و على هذا يجوز «تترى» بكسر التاء الأولى. لأن معنى ثم أرسلنا: و واترنا،

---

(١). الزخرف: ١٣ و ١۴.

(٢). هود: ۴١.

(٣). الأعراف: ٣۴.

و يجوز أن يكون فى موضع الحال، أى: متواترين كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ هذه الجملة مستأنفة مبينة لمجىء كل رسول لأمته، على أن المراد بالمجىء التبليغ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً أى: فى الهلاك بما نزل بهم من العذاب وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ الأحاديث: جمع أحدوثة، و هى ما يتحدّث به الناس، كالأعاجيب جمع أعجوبة، و هى ما يتعجب الناس منه. قال الأخفش: إنما يقال «جعلناهم أحاديث» فى الشرّ و لا يقال فى الخير، كما يقال: صار فلان حديثا، أى: عبرة، و كما قال سبحانه فى آية أخرى: فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ «١». قلت: و هذه الكلية غير مسلمة؛ فقد يقال: صار فلان حديثا حسنا، و منه قول ابن دريد فى مقصورته:

و إنّما المرء حديث بعده	فكن حديثا حسنا لمن وعى

فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ وصفهم هنا بعدم الإيمان، و فيما سبق قريبا بالظلم؛ لكون كلّ من الوصفين صادرا عن كل طائفة من الطائفتين، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم إلا مجرّد عدم التصديق، و أولئك ضمّوا إليه تلك الأقوال الشنيعة التى هى من أشدّ الظلم و أفظعه. ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون و قومه عند إرسال موسى و هارون إليهم فقال: ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا هى التسع المتقدّم ذكرها غير مرّة، و لا يصح عدّ فلق البحر منها هنا؛ لأن المراد الآيات التى كذّبوا بها و استكبروا عنها. و المراد بالسلطان المبين:

الحجّة الواضحة البينة. قيل: هى الآيات التسع نفسها، و العطف من باب:

إلى الملك القرم و ابن الهمام ....

و قيل: أراد العصا لأنها أمّ الآيات، فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة. و قيل: المراد بالآيات؛ التى كانت لهما، و بالسلطان: الدلائل، و المبين: التسع الآيات، و المراد بالملإ فى قوله: إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ هم الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرّة فَاسْتَكْبَرُوا أى: طلبوا الكبر و تكلّفوه فلم ينقادوا للحق وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ قاهرين للناس بالبغى و الظلم، مستعلين عليهم، متطاولين كبرا و عنادا و تمرّدا.

و جملة فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا معطوفة على جملة فَاسْتَكْبَرُوا و ما بينهما اعتراض، و الاستفهام للإنكار، أى: كيف نصدّق من كان مثلنا فى البشرية، و البشر يطلق على الواحد كقوله: بَشَراً سَوِيًّا «٢» كما يطلق على الجمع كما فى قوله: فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً «٣» فتثنيته هنا هى باعتبار المعنى الأول، و أفرد المثل لأنه فى حكم المصدر، و معنى وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ أنهم مطيعون لهم، منقادون لما يأمرونهم به كانقياد العبيد. قال المبرّد: العابد: المطيع الخاضع. قال أبو عبيدة: العرب تسمّى كلّ من دان لملك عابدا له، و قيل: يحتمل أنه كان يدّعى الإلهية فدعا الناس إلى عبادته فأطاعوه، و اللام فى لَنا متعلقة بعابدون، قدّمت عليه لرعاية الفواصل، و الجملة حالية. فَكَذَّبُوهُما أى: فأصرّوا على تكذيبهما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ بالغرق فى البحر. ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوّهم فقال:

---

(١). سبأ: ١٩.

(٢). مريم: ١٧.

(٣). مريم: ٢٦.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ يعنى التوراة، و خصّ موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه فى الطور، و كان هارون خليفته فى قومه: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أى: لعلّ قوم موسى يهتدون بها إلى الحق، و يعملون بما فيها من الشرائع، فجعل سبحانه إيتاء موسى إياها إيتاء لقومه، لأنها و إن كانت منزلة على موسى فهى لإرشاد قومه. و قيل: إن ثمّ مضافا محذوفا أقيم المضاف إليه مقامه، أى: آتينا قوم موسى الكتاب. و قيل: إن الضمير فى «لَعَلَّهُمْ» يرجع «إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ»، و هو وهم لأن موسى لم يؤت التوراة إلا بعد إهلاك فرعون و قومه، كما قال سبحانه: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى «١» ثم أشار سبحانه إلى قصة عيسى إجمالا فقال: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً أى: علامة تدلّ على عظيم قدرتنا، و بديع صنعنا، و قد تقدّم الكلام على هذا فى آخر سورة الأنبياء فى تفسير قوله سبحانه: وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ «٢». و معنى قوله: وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ إلى مكان مرتفع، أى: جعلناهما يأويان إليها. قيل: هى أرض دمشق، و به قال عبد اللّه بن سلام و سعيد بن المسيب و مقاتل؛ و قيل: بيت المقدس، قاله قتادة و كعب؛ و قيل: أرض فلسطين، قاله السدّى ذاتِ قَرارٍ أى: ذات مستقرّ يستقرّ عليه ساكنوه وَ مَعِينٍ أى: و ماء معين.

قال الزّجّاج: هو الماء الجارى فى العيون، فالميم على هذا زائدة كزيادتها فى مبيع، و قيل: هو فعيل بمعنى مفعول.
قال علىّ بن سليمان الأخفش: معن الماء؛ إذا جرى فهو معين و معيون. و كذا قال ابن الأعرابى. و قيل:
هو مأخوذ من الماعون، و هو النفع، و بمثل ما قاله الزجاج قال الفراء. يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ قال الزّجّاج: هذه مخاطبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و دلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا. و قيل: إن هذه المقالة خوطب بها كل نبىّ، لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها، فيكون المعنى: و قلنا يا أيها الرسل خطابا بكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم.
و قال ابن جرير: إن الخطاب لعيسى. و قال الفراء: هو كما تقول للرجل الواحد كفّوا عنا. و الطيبات: ما يستطاب و يستلذّ، و قيل: هى الحلال، و قيل: هى ما جمع الوصفين المذكورين. ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال: وَ اعْمَلُوا صالِحاً أى:
عملا صالحا و هو ما كان موافقا للشرع، ثم علّل هذا الأمر بقوله: إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لا يخفى علىّ شىء منه، و إنى مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء، و المعنى: إن هذه ملتكم و شريعتكم أيها الرسل ملة واحدة، و شريعة متّحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث اللّه به أنبياءه و أنزل فيه كتبه، و هو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له. و قيل: المعنى: إن هذا الذى تقدّم ذكره هو دينكم و ملّتكم فالزموه، على أن المراد بالأمة هنا الدين، كما فى قوله: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ* «٣»، و منه قول النابغة:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو هل يأثمن ذو أمّة و هو طائع

---

(١). القصص: ٤٣.

(٢). الأنبياء: ٩١.

(٣). الزخرف: ٢٢.

فتح القدير، ج‏٣، ص: ٥٧٦
قرئ بكسر إِنَ على الاستئناف المقرّر لما تقدّمه، و قرئ بفتحها و تشديدها. قال الخليل: هى فى موضع نصب لمّا زال الخافض، أى: أنا عالم بأن هذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به. و قال الفرّاء:
«أن» متعلقة بفعل مضمر، و تقديره: و اعلموا أن هذه أمتكم. و قال سيبويه: هى متعلقة ب «فاتقون»؛ و التقدير: فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة. و الفاء فى فَاتَّقُونِ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه ربكم المختصّ بالربوبية، أى: لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم منى بأن تشركوا بى غيرى، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه. ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل، فقال: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً و الفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى، و الضمير يرجع إلى ما يدلّ عليه لفظ الأمة، و المعنى: أنهم جعلوا دينهم مع اتّحاده قطعا متفرّقة مختلفة. قال المبرّد: زبرا: فرقا و قطعا مختلفة، واحدها زبور، و هى الفرقة و الطائفة، و مثله الزبرة و جمعها زبر، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا، فاتبعت فرقة التوراة، و فرقة الزبور، و فرقة الإنجيل، ثم حرّفوا و بدّلوا، و فرقة مشركة تبعوا ما رسمه لهم آباؤهم من الضلال. قرئ زُبُراً بضم الباء جمع زبور، و قرئ بفتحها، أى: قطعا كقطع الحديد كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ أى: كلّ فريق من هؤلاء المختلفين بما لديهم، أى: بما عندهم من الدين فرحون، أى:
معجبون به فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ أى: اتركهم فى جهلهم، فليسوا بأهل للهداية، و لا يضق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكلّ شىء وقت. شبّه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذى يغمر من دخل فيه، و الغمرة فى الأصل ما يغمرك و يعلوك، و

أصـله الستر، و الغمر: الماء الكثير لأنه يغطى الأرض، و غمر الرداء هو الـذى يشـمل الناس بالعطاء، و يقال للحقـد الغمر، و المراد هنا: الحيرة و الغفلة و الضـلالة، و الآية خارجة مخرج التهديد لهم، لا مخرج الأمر له صـلّى اللّه عليه و سلّم بالكفّ عنهم، و معنى حَتَّى حِينٍ حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذّبون فى النار أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ أى:

أ يحسـبون إنما نعطيهم فى هـذه الدنيا من الأموال و البنين نُسارِعُ به لَهُمْ فيما فيه خيرهم و إكرامهم، و الهمزة للإنكار، و الجواب عن هـذا مقـدّر يـدلّ عليه قوله: بَلْ لا يَشْعُرُونَ لأنه عطف على مقـدّر ينسـحب إليه الكلام، أى: كلّا لا نفعل ذلك، بل هم لا يشعرون بشـىء أصـلا كالبهائم التى لا تفهم و لا تعقل، فإن ما خوّلناهم من النعم و أمـددناهم به من الخيرات إنما هو اسـتدراج لهم ليزدادوا إثما، كما قال سبحانه: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً «١». قال الزجّاج: المعنى نسارع لهم به فى الخيرات، فحذفت به، و ما فى «إنما» موصولة، و الرابط هو هذا المحذوف. و قال الكسائى: إن إنما هنا حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير رابط.

قيـل: يجوز الوقف على «بنين»، و قيـل: لا يحسن لأن «يحسـبون» يحتـاج إلى مفعولين، فتمـام المفعولين «فى الخيرات». قـال ابن الأنبـارى: و هـذا خطأ لأن «ما» كافـة. و قرأ أبو عبـد الرحمن السّـلمىّ و عبـد الرحمن بن أبى بكرة «يسارع» بالياء التحتيـة على أن فاعله ما يدلّ عليه «نمدّ»، و هو الإمداد، و يجوز أن يكون

---

(١). آل عمران: ١٧٨.

المعنى: يسارع اللّه لهم. و قرأ الباقون نُسارِعُ بالنون. قال الثعلبى: و هذه القراءة هى الصواب لقوله «نمدّهم».

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا قال:

يتبع بعضـهم بعضا. و فى لفظ قال: بعضـهم على إثر بعض. و أخرج عبـد الرزاق و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً قال: ولدته من غير أب. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس آية قال: عبرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتم عن ابن عباس وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ قال: الربوة: المسـتوية، و المعنى: الماء الجارى، و هو النهر الذى قال اللّه: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا «١». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ قال: هى المكان المرتفع من الأرض، و هو أحسن ما يكون فيه النبات ذاتِ قَرارٍ ذات خصب، و المعين: الماء الظاهر. و أخرج وكيع و الفريابى و ابن أبى شـيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و تمام الرازى و ابن عساكر- قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عبـاس فى قوله: إِلى رَبْوَةٍ قـال: أنبئنا أنها دمشق. و أخرج ابن عساكر عن عبـد اللّه بن سـلام مثله. و كـذا أخرجه ابن أبى حاتم عنه. و أخرج ابن عساكر عن أبى أمامة مرفوعا نحوه، و إسـناده ضـعيف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه و ابن عساكر عن مرة البهزى، سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «الرّبوة: الرملة». و أخرج عبد الرزاق و عبـد بـن حميـد و ابـن جرير و ابـن أبى حـاتم، و الحـاكم فى الكنى، و ابن عسـاكر عن أبى هريرة قـال: هى الرملـة من فلسـطين. و أخرجه ابن مردويه من حـديثه مرفوعا. و أخرج الطبرانى و ابن السـكن و ابن مندة و أبو نعيم و ابن عساكر عن الأقرع ابن شـفى العكى مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا أيها النـاس إن اللّه طيب لا يقبـل إلا طيبـا، و إن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسـلين فقال: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ و قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ «٢» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، و مطعمه حرام، و مشـربه حرام، و ملبسه حرام، و غـذى بـالحرام يمـدّ يـديه إلى السـماء: يـا ربّ يا ربّ، فإنّى يستجاب لـذلك». و

أخرج سعيد بن منصور عن حفص الفزارى فى قوله: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ قال: ذلك عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه. و أخرجه عبدان فى «الصحابة» عن حفص مرفوعا، و هو مرسل لأن حفصا تابعى.

---

(١). مريم: ٢۴.

(٢). البقرة: ١٧٢.

فتح القدير، ج٣، ص: ۵٧٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ۵٧ الى ۶٧]

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۵٧) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۵٨) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (۵٩) وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (۶٠) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ (۶١)

وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (۶٣) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (۶۶)

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (۶٧)

لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلا و آجلا فوصفهم بصفات أربع: الأولى قوله: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ الإشفاق: الخوف، تقول أنا مشفق من هذا الأمر، أى: خائف. قيل: الإشفاق هو الخشية، فظاهر ما فى الآية التكرار. و أجيب بحمل الخشية على العذاب، أى: من عذاب ربهم خائفون، و به قال الكلبى و مقاتل. و أجيب أيضا بحمل الإشفاق على ما هو أثر له، و هو الدوام على الطاعة، أى: الذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته.

و أجيب أيضا بأن الإشفاق كمال الخوف فلا تكرار، و قيل: هو تكرار للتأكيد. و الصفة الثانية قوله:

وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ قيل: المراد بالآيات هى التنزيلية، و قيل: هى التكوينية، و قيل:

مجموعهما، قيل: و ليس المراد بالإيمان بها هو التصديق بوجودها فقط، فإن ذلك معلوم بالضرورة و لا يوجب المدح، بل المراد التصديق بكونها دلائل و أن مدلولها حق. و الصفة الثالثة قوله: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ أى: يتركون الشرك تركا كليا ظاهرا و باطنا. و الصفة الرابعة قوله: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ أى: يعطون ما أعطوا و قلوبهم خائفة من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب اللّه، و جملة وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قلوبهم خائفة أشدّ الخوف. قال الزّجّاج: قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون، و سبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب، لا مجرّد رجوعهم إليه سبحانه. و قيل: المعنى: أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء و الحساب و علم أن المجازى و المحاسب هو الربّ الذى لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل.

قرأت عائشة و ابن عباس و النخعى «يأتون ما أتوا» مقصورا من الإتيان. قال الفراء: و لو صحّت هذه القراءة لم تخالف قراءة الجماعة، لأن من العرب من يلزم فى الهمز الألف فى كل الحالات. قال النحاس: معنى هذه القراءة يعملون ما عملوا و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتّصفين بهذه الصفات، و معنى يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ يبادرون بها. قال الفرّاء و الزجّاج: ينافسون فيها، و قرئ «يسرعون». وَ هُمْ لَها سابِقُونَ اللام للتقوية، و المعنى: هم سابقون إياها، و قيل: اللام بمعنى إلى، كما فى قوله: بِأَنَّ رَبَّكَ

أَوْحى لَها «۱» أى: أوحى إليها، و أنشد سيبويه قول الشاعر «۲»:

تجانف عن جوّ اليمامة ناقتى‌و ما قصدت من أهلها لسوائكا «۳»

أى: إلى سوائكا، و قيل: المفعول محذوف، و التقدير: و هم سابقون الناس لأجلها. ثم لما انجرّ الكلام إلى ذكر أعمال المكلفين ذكر لهما حكمين، الأوّل قوله: وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها الوسع: هو

---

(۱). الزلزلة: ۵.

(۲). هو الأعشى.

(۳). «تجانف»: تنحرف. «جو»: هو ما اتسع من الأودية.

الطاقة، و قد تقدّم بيان هذا فى آخر سورة البقرة. و فى تفسير الوسع قولان: الأوّل: أنه الطاقة كما فسّره بذلك أهل اللغة. الثانى: أنه دون الطاقة، و به قال مقاتل و الضحّاك و الكلبى. و المعتزلة قالوا: لأن الوسع إنما سمّى وسعا لأنه يتسع على فاعله فعله و لا يضيق عليه، فمن لم يستطع الجلوس فليوم إيماء، و من لم يستطع الصوم فليفطر. و هذه الجملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدّى إلى نيل الكرامات ببيان سهولته و كونه غير خارج عن حدّ الوسع و الطاقة، و أن ذلك عادة اللّه سبحانه فى تكليف عباده، و جملة وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِ من تمام ما قبلها من نفى التكليف بما فوق الوسع و المراد بالكتاب صحائف الأعمال، أى: عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هى عليه، و معنى يَنْطِقُ بِالْحَقِ يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة و لا نقص، و مثله قوله سبحانه: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «۱»، و فى هذا تهديد للعصاة و تأنيس للمطيعين من الحيف و الظلم. و قيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شى‌ء. و قيل: المراد بالكتاب: القرآن، و الأوّل أولى. و فى هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه، فإن الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق. و قوله: بِالْحَقِ يتعلّق بينطق، أو بمحذوف هو حال من فاعله، أى: ينطق ملتبسا بالحق، و جملة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ مبينة لما قبلها من تفضّله و عدله فى جزاء عباده، أى: لا يظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب، و مثله قوله سبحانه: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً «۲»، ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا و الضمير للكفار، أى: بل قلوب الكفار فى غمرة لها عن هذا الكتاب الذى ينطق بالحق، أو عن الأمر الذى عليه المؤمنون، يقال: غمره الماء: إذا غطاه، و نهر غمر: يغطى من دخله؛ و المراد بها هنا الغطاء و الغفلة أو الحيرة و العمى، و قد تقدّم الكلام على الغمرة قريبا. وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ قال قتادة و مجاهد: أى لهم خطايا لا بدّ أن يعملوها من دون الحق. و قال الحسن و ابن زيد: المعنى و لهم أعمال رديئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لا بدّ أن يعملوها فيدخلون بها النار، فالإشارة بقوله: ذلِكَ إما إلى أعمال المؤمنين، أو إلى أعمال الكفار، أى: لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها اللّه، أو من دون أعمال الكفار التى تقدّم ذكرها من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة ممّا ذكر، و هى فنون كفرهم و معاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن، قال الواحدى: إجماع المفسرين و أصحاب المعانى على أن هذا إخبار عمّا سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التى كتبت عليهم لا بدّ لهم أن يعملوها، و جملة هُمْ لَها عامِلُونَ مقرّرة لما قبلها، أى: واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة لا محيص لهم عن ذلك. ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال:

حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ حتى هذه هى التى يبتدأ بعدها الكلام، و الكلام هو الجملة الشرطية المذكورة، و هذه الجملة مبينة لما قبلها، و الضمير فى مترفيهم راجع إلى من تقدّم ذكره من الكفار، و المراد بالمترفين المتنعمين منهم، و هم الذين أمدّهم

اللّه بما تقدّم ذكره من المال و البنين، أو المراد بهم الرؤساء منهم.

---

(۱). الجاثية: ۲۹.

(۲). الكهف: ۴۹.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۰

و المراد بالعذاب هو عذابهم بالسيف يوم بدر، أو بالجوع بدعاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف». و قيل: المراد بالعذاب عذاب الآخرة، و رجّح هذا بأن ما يقع منهم من الجؤار إنما يكون عند عذاب الآخرة، لأنه الاستغاثة باللّه و لم يقع منهم ذلك يوم بدر و لا فى سنّى الجوع. و يجاب عنه بأن الجؤار فى اللغة الصراخ و الصياح. قال الجوهرى: الجؤار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يجأر؛ أى صاح، و قد وقع منهم و من أهلهم و أولادهم عند ما عذبوا بالسيف يوم بدر، و بالجوع فى سنّى الجوع، و ليس الجؤار هاهنا مقيد بالجؤار الذى هو التضرّع بالدعاء حتى يتم ما ذكره ذلك القائل، و جملة إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ جواب الشرط، و إذا هى الفجائية، و المعنى: حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجؤوا بالصراخ، ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ فالقول مضمر، و الجملة مسوقة لتبكيتهم و إقناطهم و قطع أطماعهم؛ و خصّص سبحانه المترفين مع أنّ العذاب لا حق بهم جميعا، واقع على مترفيهم و غير مترفيهم؛ لبيان أنهم بعد النعمة التى كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها و تباينها، فانتقلوا من النعيم التامّ إلى الشقاء الخالص، و خصّ اليوم بالذكر للتهويل، و جملة إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ تعليل للنهى على الجوار، و المعنى: إنكم من عذابنا لا تمنعون و لا ينفعكم جزعكم. و قيل: المعنى:

إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم ممّا دهمكم من العذاب. ثم عدّد سبحانه عليهم قبائحهم توبيخا لهم فقال: قَدْ كانَتْ آياتِى تُتْلى عَلَيْكُمْ أى: فى الدنيا، و هى آيات القرآن فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ أى: ترجعون وراءكم، و أصل النكوص أن يرجع القهقرى، و منه قول الشاعر:

زعموا بأنّهم على سبل النّجاة و إنّما نكص على الأعقاب

و هو هنا استعار للإعراض عن الحق، و قرأ علىّ بن أبى طالب «على أدباركم» بدل عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ بضم الكاف، و على أعقابكم متعلّق بتنكصون، أو متعلّق بمحذوف وقع حالا من فاعل تنكصون مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ الضمير فى به راجع إلى البيت العتيق، و قيل: للحرم، و الذى سوّغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به و افتخارهم بولايته و القيام به، و كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم و خدّامه. و إلى هذا ذهب جمهور المفسرين. و قيل: الضمير عائد إلى القرآن. و المعنى: إن سماعه يحدث لهم كبرا و طغيانا فلا يؤمنون به. قال ابن عطية: و هذا قول جيد. و قال النحّاس: القول الأوّل أولى و بينه بما ذكرنا. فعلى القول الأوّل يكون به متعلقا بمستكبرين، و على الثانى يكون متعلّقا ب سامِراً لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، و كان عامة سمرهم ذكر القرآن و الطعن فيه، و السامر كالحاضر فى الإطلاق على الجمع. قال الواحدى: السامر: الجماعة يسمرون بالليل، أى: يتحدّثون، و يجوز أن يتعلق بِهِ بقوله: تَهْجُرُونَ و الهجر بالفتح الهذيان، أى: تهذون فى شأن القرآن، و يجوز أن يكون من الهجر بالضم، و هو الفحش. و قرأ ابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر و أبو حيوة «سمرا» بضم السين و فتح الميم مشدّدة، و قرأ زيد بن علىّ و أبو رجاء «سمارا» و رويت هذه القراءة عن ابن عباس، و انتصاب سامرا على الحال إما من فاعل تنكصون، أو من الضمير فى مستكبرين، و قيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل،

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۱

يقال قوم سامر، و منه قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفاأنيس و لم يسمر بمكّة سامر

قال الراغب: و يقال سامر و سمار و سمر و سامرون. قرأ الجمهور تَهْجُرُونَ بفتح التاء المثناة من فوق و ضم الجيم. و قرأ نافع و ابن محيصن بضم التاء و كسر الجيم، من أهجر، أى: أفحش فى منطقه. و قرأ زيد ابن على و ابن محيصن و أبو نهيك بضم التاء و فتح الهاء و كسر الجيم مشدّدة، مضارع هجر بالتشديد. و قرأ ابن أبى عاصم كالجمهور إلا أنه بالياء التحتية، و فيه التفات.

و قد أخرج الفريابى و أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن ماجة، و ابن أبى الدنيا فى نعت الخائفين، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن عائشة قالت:

قلت: يا رسول اللّه، قول اللّه: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أهو الرجل يسرق و يزنى و يشرب الخمر و هو مع ذلك يخاف اللّه؟ قال: «لا، و لكنه الرجل يصوم و يتصدّق و يصلى، و هو مع ذلك يخاف اللّه أن لا يتقبل منه». و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن جرير و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قالت عائشة: يا رسول اللّه، فذكر نحوه. و أخرج عبد الرزاق عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا قال: يعطون ما أعطوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ قال: يعملون خائفين. و أخرج الفريابى و ابن جرير عن ابن عمر وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا قال: الزكاة. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عائشة وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا قالت: هم الذين يخشون اللّه و يطيعونه. و أخرج عبد بن حميد عن ابن أبى مليكة قال: قالت عائشة: لأن تكون هذه الآية كما أقرأ أحبّ إلىّ من حمر النعم، فقال لها ابن عباس: ما هى قالت:

الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا و قد قدّمنا ذكر قراءتها و معناها. و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عنها عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قرأ: و الذين يأتون ما أتوا مقصورا من المجىء. و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و عبد ابن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر و ابن أبى شيبة، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الدارقطنى فى الأفراد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة كيف كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ هذه الآية وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا؟ قالت: أيتهما أحبّ إليك. قلت: و الذى نفسى بيده لأحدهما أحبّ إلىّ من الدنيا و ما فيها جميعا، قالت: أيهما؟ قلت: الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا فقالت: أشهد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرؤها كذلك، و كذلك أنزلت، و لكن الهجاء حرّف. و فى إسناده إسماعيل بن علىّ، و هو ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ قال: سبقت لهم السعادة من اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا يعنى بالغمرة الكفر و الشك وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ يقول: أعمال سيئة دون الشرك هُمْ لَها عامِلُونَ قال: لا بدّ لهم أن يعملوها. و أخرج النسائى عنه حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ قال: هم أهل بدر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن

أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ قال: يستغيثون، و فى قوله: فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ قال: تدبرون، و فى قوله: سامِراً تَهْجُرُونَ قال: تسمرون حول البيت و تقولون هجرا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ قال: بحرم اللّه أنه لا يظهر عليهم فيه أحد. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا سامِراً تَهْجُرُونَ قال: كانت قريش يتحلّقون حلقا يتحدّثون حول البيت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً

تَهْجُرُونَ قال: كان المشركون يهجرون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى القول فى سمرهم. و أخرج النسائى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

إنّما كره السمر حين نزلت هذه الآية مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ۶٨ الى ٨٣]

أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (۶٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۶٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٠) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)

وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (٧۴) وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧۵) وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ (٧۶) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)

لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

قوله: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ بيّن سبحانه أنّ سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة:

الأوّل عدم التدبر فى القرآن، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه و آمنوا به و بما فيه، و الهمزة للإنكار و الفاء للعطف على مقدّر؛ أى: فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا، و المراد بالقول القرآن، و مثله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ* «١». و الثانى: قوله: أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ «أم» هى المنقطعة، أى:

بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأوّلين؟ فكان ذلك سببا لاستنكارهم للقرآن، و المقصود تقرير أنه لم يأت آباءهم الأوّلين رسول، فلذلك أنكروه، و مثله قوله: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ «٢» و قيل: إنه أتى آباءهم الأقدمين رسل أرسلهم اللّه إليهم. كما هى سنة اللّه سبحانه فى إرسال الرسل إلى عباده، فقد عرف هؤلاء ذلك، فكيف كذّبوا هذا القرآن. و قيل: المعنى: أم جاءهم من الأمن من عذاب

---

(١). النساء: ٨٢.

(٢). يس: ۶.

اللّه ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل و من بعده. و الثالث: قوله: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ و فى هذا إضراب و انتقال من التوبيخ بما تقدّم إلى التوبيخ بوجه آخر، أى: بل ألم يعرفوه بالأمانة و الصدق فأنكروه، و معلوم أنهم قد عرفوه بذلك. و الرابع: قوله: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ و هذا أيضا انتقال من توبيخ إلى توبيخ، أى: بل أ تقولون به جنة، أى: جنون، مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلا، و لكنه جاء بما يخالف هواهم، فدفعوه و جحدوه تعصّبا و حميّة. ثم أضرب سبحانه عن ذلك كلّه فقال: بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِ أى: ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن و الرسول، بل جاءهم ملتبسا بالحق، و الحق:

هو الدين القويم. وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ لما جبلوا عليه من التعصب، و الانحراف عن الصواب، و البعد عن الحق، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر. و ظاهر النظم أن أقلّهم كانوا لا يكرهون الحق، و لكنهم لم يظهروا الإيمان خوفا من الكارهين له. و جملة وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ مستأنفة مسوقة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يهوونه و يريدونه لكان ذلك مستلزما للفساد العظيم، و خروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية، و هو معنى قوله: لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ قال أبو صالح و ابن جريج و مقاتل و السدّى: الحق هو اللّه، و المعنى: لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكا لفسدت السماوات و الأرض. و قال الفرّاء و الزّجّاج: يجوز أن يكون المراد بالحق القرآن، أى: لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم. و قيل: المعنى: و لو كان الحق ما يقولون من اتحاد الآلهة مع اللّه لاختلفت الآلهة، و مثل ذلك قوله:

لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «1» و قد ذهب إلى القول الأوّل الأكثرون، و لكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو الحق المذكور قبله فى قوله: بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِ و لا يصح أن يكون المراد به هنالك اللّه سبحانه، فالأولى تفسير الحق هنا و هناك بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع اللّه، و المعنى: و لو ورد الحق متابعا لأهوائهم موافقا لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد. و المراد بقوله: وَ مَنْ فِيهِنَ من فى السماوات و الأرض من المخلوقات. و قرأ ابن مسعود «و ما بينهما» و سبب فساد المكلّفين من بنى آدم ظاهر، و هو ذنوبهم التى من جملتها الهوى المخالف للحق، و أما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع؛ لأنهم مدبّرون فى الغالب بذوى العقول فلما فسدوا فسدوا. ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ و المراد بالذكر هنا القرآن، أى: بالكتاب الذى هو فخرهم و شرفهم، و مثله قوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «2» و المعنى: بل أتيناهم بفخرهم و شرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوه، و يقبلوا عليه. و قال قتادة: المعنى بذكرهم الذى ذكر فيه ثوابهم و عقابهم. و قيل: المعنى: بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين.

و قرأ ابن أبى إسحاق و عيسى بن عمر «أتيتهم» بتاء المتكلم. و قرأ أبو حيوة و الجحدرى «أتيتهم» بتاء الخطاب، أى: أتيتهم يا محمد. و قرأ عيسى بن عمر «بذكراهم» و قرأ قتادة «نذكرهم» بالنون و التشديد من التذكير، و تكون الجملة على هذه القراءة فى محل نصب على الحال، و قيل: الذكر: هو الوعظ و التحذير فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ أى: هم بما فعلوا من الاستكبار و النكوص عن هذا الذكر المختص بهم

---

(1). الأنبياء: 22.

(2). الزخرف: 44.

فتح القدير، ج3، ص: 584

معرضون، لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال، و فى هذا التركيب ما يدلّ على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزه إلى غيره. ثم بيّن سبحانه أن دعوة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم ليست مشوبة بأطماع الدنيا، فقال: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً و «أم» هى المنقطعة، و المعنى: أم يزعمون أنك تسألهم خرجا تأخذه على الرسالة، و الخرج:

الأجر و الجعل، فتركوا الإيمان بك و بما جئت به لأجل ذلك، مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك و لا طلبته منهم فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ أى: فرزق ربك الذى يرزقك فى الدنيا، و أجره الذى يعطيكه فى الآخرة خير لك مما ذكر. قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش و يحيى بن وثّاب «أم تسألهم خراجا» و قرأ الباقون «خرجا»، و كلّهم قرءوا فَخَراجُ إلا ابن عامر و أبا حيوة فإنهما قرأ: «فخرج» بغير ألف، و الخرج: هو الذى يكون مقابلا للدخل، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك خرجا، و الخراج غالب فى الضريبة على الأرض. قال المبرد: الخرج المصدر، و الخراج الاسم. قال النضر بن شميل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج و

الخراج، فقال: الخراج: ما لزمك، و الخرج: ما تبرعت به. و روى عنه أنه قال: الخرج من الرّقاب، و الخراج من الأرض. وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ هـذه الجملـة مقرّرة لمـا قبلها من كون خراجه سبحانه خير. ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلـة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به، و نفى عنه أضداد ذلک، قال: وَ إِنَّکَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى: إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة، و الصراط فى اللغة: الطريق، فسمّى الدين طريقا لأنها تؤدّى إليه. ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلک، فقال: وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ يقال: نكب عن الطريق ينكب نكوبا؛ إذا عدل عنه و مال إلى غيره، و النكوب و النكب: العدول و الميل، و منه النّكباء للريح بين ريحين، سمّيت بذلک لعدولها عن المهابّ، و «عن الصراط» متعلّق بناكبون؛ و المعنى: إن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلک الصراط أو جنس الصراط لعادلون عنه. ثم بيّن سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال، فقال: وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ أى: من قحط و جدب لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ أى: لتمادوا فى طغيانهم و ضلالهم يَعْمَهُونَ يتردّدون و يتذبذبون و يخبطون، و أصل اللجاج: التمادى فى العناد، و منه اللجة بالفتح لتردّد الصوت، و لجة البحر: تردّد أمواجه، و لجة الليل: تردّد ظلامه. و قيل: المعنى: رددناهم إلى الدنيا و لم ندخلهم النار و امتحناهم للجّوا فى طغيانهم وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. و العذاب: قيل هو الجوع الذى أصابهم فى سنّى القحط، و قيل: المرض، و قيل: القتل يوم بدر، و اختاره الزجّاج، و قيل: الموت، و قيل: المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ أى: ما خضعوا و لا تذلّلوا، بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرّد على اللّه و الانهماک فى معاصيه وَ ما يَتَضَرَّعُونَ أى: و ما يخشعون للّه فى الشدائد عند إصابتها لهم، و لا يدعونه لرفع ذلک حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ قيل: هو عذاب الآخرة، و قيل: قتلهم يوم بدر بالسيف، و قيل: القحط الذى أصابهم، و قيل: فتح مكة إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أى: متحيرون، لا يدرون ما يصنعون، و الإبلاس: التحير و الإياس من كل خير. و قرأ السّلمى مبلسون بفتح اللام

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۵

من أبلسه، أى: أدخله فى الإبلاس. و قد تقدّم فى الأنعام. وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ امتنّ عليهم ببعض النعم التى أعطاهم، و هى نعمة السمع و البصر وَ الْأَفْئِدَةَ فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ، و ينظروا العبر، و يتفكروا بالأفئدة، فلم ينتفعوا بشىء من ذلک لإصرارهم على الكفر و بعدهم عن الحق، و لم يشكروه على ذلک، و لهذا قال: قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أى: شكرا قليلا حقيرا غير معتدّ به باعتبار تلک النعم الجليلة. و قيل: المعنى: أنهم لا يشكرونه ألبتة، لا أن لهم شكرا قليلا. كما يقال لجاحد النعمة: ما أقلّ شكره! أى: لا يشكره، و مثل هذه الآية قوله: فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ «۱». وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أى: بثّكم فيها كما تبثّ الحبوب لتنبت، و قد تقدّم تحقيقه وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أى: تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ على جهة الانفراد و الاستقلال، و فى هذا تذكير بنعمة الحياة، و بيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ قال الفراء: هو الذى جعلهما مختلفين يتعاقبان و يختلفان فى السواد و البياض، و قيل:

اختلافهما: نقصان أحدهما و زيادة الآخر، و قيل: تكرّرهما يوما بعد يوم و ليلة بعد ليلة أَ فَلا تَعْقِلُونَ كنه قدرته و تتفكرون فى ذلک. ثم بيّن سبحانه أنه لا شبهة لهم فى إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبنىّ على مجرد الاستبعاد، فقال: بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ أى: آباؤهم و الموافقون لهم فى دينهم. ثم بيّن ما قاله الأوّلون فقال: قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ فهذا مجرّد استبعاد لم يتعلّقوا فيه بشىء من الشبه، ثم كملوا ذلک القول بقولهم: لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ أى: وعدنا هذا البعث و وعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدّقه كما لم يصدقه من قبلنا، ثم صرّحوا بالتكذيب و فرّوا إلى مجرد الزعم الباطل، فقالوا: إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: ما هذا إلا أكاذيب الأوّلين التى سطروها فى الكتب، جمع أسطورة كأحدوثة، و

الأساطير: الأباطيل و الترّهات و الكذب.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى صالح فى قوله: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ قال: عرفوه و لكنهم حسدوه. و فى قوله: وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ قال: الحق اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ قال: بيّنّا لهم. و أخرجوا عنه فى قوله: عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ قال: عن الحقّ لحائدون. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد أنشدك اللّه و الرحم، فقد أكلنا العلهز، يعنى: الوبر بالدم، فأنزل اللّه وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ و أصل الحديث فى الصحيحين «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دعا على قريش حين استعصوا فقال: اللهم أعنّى عليهم بسبع كسبع يوسف» الحديث. و أخرج ابن جرير، و أبو نعيم فى المعرفة، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفى لما أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأسلم و هو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة، فحال بين أهل مكة و بين الميرة

---

(١). الأحقاف: ٢۶.

فتح القدير، ج٣، ص: ۵٨۶

من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز، فجاء أبو سفيان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى. قال: فقد قتلت الآباء بالسيف و الأبناء بالجوع، فأنزل اللّه وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ الآية. و أخرج العسكرى فى المواعظ، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ قال: أى: لم يتواضعوا فى الدعاء و لو يخضعوا، و لو خضعوا للّه لاستجاب لهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ قال: قد مضى، كان يوم بدر.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨۴ الى ٩٨]

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨۴) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (٨۵) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨۶) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (٩٣)

رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩۴) وَ إِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (٩۵) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (٩۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (٩٧) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)

أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسأل الكفار عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها، ثم أمره أن ينكر عليهم بعد الاعتراف منهم و يوبّخهم، فقال: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها أى: قل يا محمد لأهل مكة هذه المقالة، و المراد بمن فى الأرض الخلق جميعا، و عبّر عنهم بمن تغليبا للعقلاء إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا من العلم، و جواب الشرط محذوف، أى: إن كنتم تعلمون فأخبرونى. و فى هذا تلويح بجهلهم و فرط غباوتهم سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أى: لا بدّ لهم أن يقولوا ذلك، لأنه معلوم ببديهة العقل، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ترغيبا لهم فى التدبّر و إمعان النظر و الفكر، فإن ذلك مما يقودهم إلى

اتباع الحق و ترك الباطل، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ- سَيَقُولُونَ لِلَّهِ جاء سبحانه باللام نظرا إلى معنى السؤال، فإن قولك: من ربه، و لمن هو فى معنى واحد، كقولك: من ربّ هذه الدار؟ فيقال: زيد، و يقال: لزيد. و قرأ أبو عمرو و أهل العراق: «سيقولون اللّه» بغير لام نظرا إلى لفظ السؤال، و هذه القراءة أوضح من قراءة الباقين باللام، و لكنه يؤيد قراءة الجمهور أنها مكتوبة فى جميع المصاحف باللام بدون ألف، و هكذا قرأ الجمهور فى قوله: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ- سَيَقُولُونَ لِلَّهِ باللام نظرا إلى معنى السؤال كما سلف. و قرأ أبو عمرو و أهل العراق بغير لام نظرا إلى لفظ السؤال، و مثل هذا قول الشاعر:

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۷ إذ قيل من ربّ المزالف و القرىو ربّ الجياد الجرد قلت لخالد

أى: لمن المزالف. و الملكوت: الملك، و زيادة التاء للمبالغة، و نحو جبروت و رهبوت، و معنى وَ هُوَ يُجِيرُ أنه يغيث غيره إذا شاء و يمنعه وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ أى: لا يمنع أحدا أحدا من عذاب اللّه و لا يقدر على نصره و إغاثته، يقال: أجرت فلانا؛ إذا استغاث بك فحميته، و أجرت عليه: إذا حميت عنه قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ قال الفرّاء و الزجّاج: أى: تصرفون عن الحق و تخدعون، و المعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلا و الصحيح فاسدا، و الخادع لهم هو الشّيطان أو الهوى أو كلاهما. ثم بيّن سبحانه أنه قد بالغ فى الاحتجاج عليهم فقال: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِ أى: الأمر الواضح الذى يحقّ اتباعه وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما ينسبونه إلى اللّه سبحانه من الولد و الشريك، ثم نفاهما عن نفسه فقال: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ «من» فى الموضعين زائدة لتأكيد النفى. ثم بيّن سبحانه ما يستلزمه ما يدّعيه الكفار من إثبات الشريك، فقال: إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ و فى الكلام حذف تقديره: لو كان مع اللّه آلهة لانفرد كل إله بخلقه، و استبدّ به، و امتاز ملكه عن ملك الآخر، و وقع بينهم التطالب و التحارب و التغالب وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أى: غلب القوىّ على الضعيف، و قهره، و أخذ ملكه، كعادة الملوك من بنى آدم، و حينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلها، و إذا تقرّر عدم إمكان المشاركة فى ذلك، و أنه لا يقوم به إلا واحد، تعين أن يكون هذا الواحد هو اللّه سبحانه، و هذا الدليل كما دلّ على نفى الشريك فإنه يدلّ على نفى الولد، لأن للّه عزّ و جلّ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: هو مختصّ بعلم الغيب و الشهادة، و أما غيره فهو و إن علم الشهادة لا يعلم الغيب. قرأ نافع و أبو بكر و حمزة و الكسائى عالم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو عالم. و قرأ الباقون بالجرّ على أنه صفة للّه أو بدل منه. و روى عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل و يرفع إذا ابتدأ فَتَعالَى اللّه عَمَّا يُشْرِكُونَ معطوف على معنى ما تقدّم كأنه قال: علم الغيب فتعالى، كقولك: زيد شجاع فعظمت منزلته، أى: شجع فعظمت، أو يكون على إضمار القول، أى: أقول فتعالى اللّه، و المعنى: أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك فى الملك قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ أى:

إن كان و لا بدّ أن ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى:

قل يا ربّ فلا تجعلنى. قال الزجاج: أى إن أنزلت بهم النقمة يا ربّ فاجعلنى خارجا عنهم، و معنى كلامه هذا أن النداء معترض، و «ما» فى «إما» زائدة، أى: قل ربّ إن ترينى، و الجواب: «فلا تجعلنى»، و ذكر الربّ مرّتين مرّة قبل الشرط، و مرّة بعده مبالغة فى التضرّع. و أمره اللّه أن يسأله أن لا يجعله فى القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون مع القوم الظالمين أبدا، تعليما له صلّى اللّه عليه و سلّم من ربه كيف يتواضع. و قيل: يهضم نفسه، أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً «۱» ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب و يسخرون من النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا ذكر لهم ذلك؛ أكد سبحانه وقوعه بقوله: وَ إِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ أى: أن اللّه سبحانه قادر على أن يرى رسوله

(۱). الأنفال: ۲۵.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۸

عذابهم، و لكنه يؤخّره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن، أو لكون اللّه سبحانه لا يعذّبهم و الرسول فيهم، و قيل: قد أراه اللّه سبحانه ذلك يوم بدر و يوم فتح مكة، ثم أمره سبحانه بالصبر إلى أن ينقضى الأجل المضروب للعذاب، فقال: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ أى: ادفع بالخصلة التى هى أحسن من غيرها، و هى الصفح و الإعراض عما يفعله الكافر من الخصلة السيئة، و هى الشرك. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية السيف، و قيل: هى محكمة فى حقّ هذه الأمة فيما بينهم، منسوخة فى حق الكفار نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ أى: ما يصفونك به مما أنت على خلافه، أو بما يصفون من الشرك و التكذيب، و فى هذا وعيد لهم بالعقوبة.

ثم علّمه سبحانه ما يقوّيه على ما أرشده إليه من العفو و الصفح و مقابلة السيئة بالحسنة، فقال: وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ الهمزات جمع همزة، و هى فى اللغة الدفعة باليد أو بغيرها، و همزات الشياطين: نزغاتهم و وساوسهم كما قاله المفسرون، يقال: همزه و لمزه و نخسه، أى: دفعه؛ و قيل: الهمز: كلام من وراء القفا، و اللمز: المواجهة، و فيه إرشاد لهذه الأمة إلى التعوّذ من الشيطان، و من همزات الشياطين سورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفسه وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ أمره سبحانه أن يتعوّذ باللّه من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوّذ من همزاتهم، و المعنى: و أعوذ بك أن يكونوا معى فى حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة و الإغراء على الشرّ و الصرف عن الخير.

و فى قراءة أبيّ «و قل ربّ عائذا بك من همزات الشياطين- و عائذا بك ربّ أن يحضرون».

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ قال: خزائن كل شىء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ يقول: أعرض عن أذاهم إياك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطاء ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: بالسلام. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، عن أنس فى قوله: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ قال: قول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول: إن كنت كاذبا فأنا أسأل اللّه أن يغفر لك، و إن كنت صادقا فأنا أسأل اللّه أن يغفر لى. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و النسائى، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعلّمنا كلمات نقولهنّ عند النوم من الفزع: بسم اللّه، أعوذ بكلمات اللّه التامة من غضبه و عقابه و شرّ عباده، و من همزات الشياطين و أن يحضرون» قال: فكان عبد اللّه بن عمرو يعلّمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، و من كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلّقها فى عنقه. و فى إسناده محمد بن إسحاق، و فيه مقال معروف. و أخرج أحمد عن خالد بن الوليد أنه قال: «يا رسول اللّه إنى أجد وحشة، قال: إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات اللّه التامة من غضبه و عقابه و شرّ عباده، و من همزات الشياطين و أن يحضرون، فإنه لا يحضرك، و بالحرىّ أن لا يضرّك».

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۸۹

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١١٨]

حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (١٠٣)

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ (۱۰۴) أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۱۰۵) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (۱۰۶) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (۱۰۷) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ (۱۰۸)

إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۰۹) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (۱۱۰) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (۱۱۱) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (۱۱۲) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (۱۱۳)

قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱۴) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (۱۱۵) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (۱۱۶) وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (۱۱۷) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۱۸)

حَتَّى هى الابتدائية، دخلت على الجملة الشرطية، و هى مع ذلك غاية لما قبلها، متعلقة بقوله لكاذبون و قيل بيصفون، و المراد بمجيء الموت مجيء علاماته قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ أى: قال ذلك الواحد الذى حضره الموت تحسرا و تحزنا على ما فرط منه ربّ ارجعون، أى: ردّونى إلى الدنيا، و إنما قال ارجعون بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب. و قيل: هو على معنى تكرير الفعل، أى: ارجعنى ارجعنى ارجعنى، و مثله قوله: أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ «۱» قال المازنى: معناه ألق ألق، و هكذا قيل فى قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل «۲» ....

و منه قول الحجّاج: يا حرسى اضربا عنقه.

و منه قول الشاعر: و لو شئت حرمت النساء سواكم و قول الآخر: ألا فارحمونى يا إله محمد و قيل: إنهم لما استغاثوا باللّه قال قائلهم: ربّ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً أى: أعمل عملا صالحا فى الدنيا إذا رجعت إليها من الإيمان و ما يتبعه من أعمال الخير، و لما تمنى أن يرجع ليعمل ردّ اللّه عليه ذلك بقوله: كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها فجاء بكلمة الردع و الزجر، و الضمير فى «إنها» يرجع إلى قوله: رَبِّ ارْجِعُونِ أى: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، و ليس

---

(۱). ق: ۲۴.

(۲). و عجزه: بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۵۹۰

الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء، كما فى قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۱» و قيل: إن الضمير فى «قائلها» يرجع إلى اللّه، أى: لا خلف فى خبره، و قد أخبرنا بأنه لا يؤخّر نفسا إذا جاء أجلها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ أى: من أمامهم و بين أيديهم، و البرزخ: هو الحاجز بين الشيئين. قاله الجوهرى.

و اختلف فى معنى الآية، فقال الضحّاك و مجاهد و ابن زيد: حاجز بين الموت و البعث. و قال الكلبى:

هو الأجل ما بين النفختين، و بينهما أربعون سنة. و قال السدّى: هو الأجل، و إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ هو يوم القيامة فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ قيل: هذه هى النفخة الأولى، و قيل: الثانية، و هذا أولى، و هى النفخة التى تقع بين البعث و النشور؛ و قيل: المعنى: فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها، على أن الصور جمع صورة، لا القرن، و يدلّ على هذا قراءة ابن عباس و الحسن «الصّور» بفتح الواو مع ضم الصاد؛ جمع صورة. و قرأ أبو رزين بفتح الصاد و الواو. و قرأ الباقون بضم الصاد و سكون الواو، و هو القرن الذى ينفخ فيه فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أى: لا يتفاخرون بالأنساب و يذكرونها لما هم فيه فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أى:

لا- يتفاخرون بالأنساب و يذكرونها لما هم فيه من الحيرة و الدهشة وَ لا يَتَساءَلُونَ أى: لا يسأل بعضهم بعضا، فإن لهم إذ ذاك

شغلا شاغلا، و منه قوله تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ- وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ- وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ «۲»، و قوله: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً «۳»، و لا ينافى هذا ما فى الآية الأخرى من قوله: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ «۴» فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها، و النفى باعتبار بعض آخر كما قررناه فى نظائر هذا، مما أثبت تارة و نفى أخرى فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أى:

موزوناته من أعماله الصالحة فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بمطالبهم المحبوبة، النّاجون من الأمور التى يخافونها وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ و هى أعماله الصالحة فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ أى:

ضيعوها و تركوا ما ينفعها فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ هذا بدل من صلة الموصول، أو خبر ثان لاسم الإشارة، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده. و جملة تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ مستأنفة، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال، أو تكون خبرا آخر لأولئك، و اللفح: الإحراق، يقال: لفحته النار؛ إذا أحرقته، و لفحته بالسيف؛ إذا ضربته «۵»، و خصّ الوجوه لأنها أشرف الأعضاء. وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ هذه الجملة فى محل نصب على الحال، و الكالح: الذى قد تشمّرت شفتاه و بدت أسنانه، قاله الزجّاج. و دهر كالح: أى شديد. قال أهل اللغة: الكلوح: تكنيز فى عبوس. و جملة أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ هى على إضمار القول، أى: يقال لهم ذلك توبيخا و تقريعا، أى: ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ و جملة قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أى: غلبت علينا لذّاتنا و شهواتنا، فسمّى ذلك شقوة؛ لأنه يؤول إلى الشقاء. قرأ أهل المدينة و أبو عمرو و عاصم شِقْوَتُنا

---

(۱). الأنعام: ۲۸.

(۲). عبس: ۳۴- ۳۶.

(۳). المعارج: ۱۰.

(۴). الصافات: ۲۷.

(۵). أى: ضربة خفيفة.

فتح القدير، ج‏۳، ص: ۵۹۱

و قرأ الباقون «شقاوتنا» و هذه القراءة مروية عن ابن مسعود و الحسن. وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ أى: بسبب ذلك، فإنهم ضلّوا عن الحق بتلك الشقوة. ثم طلبوا ما لا يجابون إليه، فقالوا: رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ أى: فإن عدنا إلى ما كنّا عليه من الكفر و عدم الإيمان فإنا ظالمون لأنفسنا بالعود إلى ذلك، فأجاب اللّه عليهم بقوله: قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ أى: اسكنوا فى جهنم. قال المبرّد:

الخسء: إبعاد بمكروه، و قال الزجاج: تباعدوا تباعد سخط و أبعدوا بعد الكلب. فالمعنى على هذا: أبعدوا فى جهنم، كما يقال للكلب اخسأ: أى ابعد، خسأت الكلب خسأ؛ طردته، و لا تكلمون فى إخراجكم من النار و رجوعكم إلى الدنيا، أو فى رفع العذاب عنكم؛ و قيل المعنى: لا تكلمون رأسا. ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ و هم المؤمنون، و قيل: الصحابة، يقولون: رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ قرأ الجمهور إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ بكسر إن استئنافا تعليليا، و قرأ أبيّ بفتحها فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا قرأ نافع و حمزة و الكسائى بضمّ السين. و قرأ الباقون بكسرها. و فرّق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة التهزؤ، و الضم من جهة السّخرة. قال النحاس: و لا يعرف هذا الفرق الخليل و لا سيبويه و لا الكسائى و لا الفرّاء، و حكى الثعلبى عن الكسائى: أن الكسر بمعنى الاستهزاء و السخرية بالقول، و الضم بمعنى التسخير و الاستبعاد بالفعل حتّى

أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي أى: اتخذتموهم سخريا إلى هذه الغاية، فإنهم نسوا ذكر اللّه لشدّة اشتغالهم بالاستهزاء وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ فى الدنيا، و المعنى:

حتى نسيتم ذكرى باشتغالكم بالسخرية و الضحك، فنسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب، و جملة إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا مستأنفة لتقرير ما سبق، و الباء فى «بما صبروا» للسببية أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ قرأ حمزة و الكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف، و قرأ الباقون بالفتح، أى: لأنهم الفائزون، و يجوز أن يكون منصوبا على أنه المفعول الثانى للفعل قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ القائل هو اللّه عزّ و جلّ و تذكيرا لهم كم لبثوا؟ لما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبرهم بأن ذلك غير كائن كما فى قوله:

اخسئوا فيها، و المراد بالأرض هى الأرض التى طلبوا الرجوع إليها، و يحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوه فى الحياة و فى القبور، و قيل: هو سؤال عن مدة لبثهم فى القبور لقوله: «فى الأرض»، و لم يقل على الأرض، و ردّ بمثل قوله تعالى: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ* «1» و انتصاب عدد سنين على التمييز، لما فى كم من الإبهام، و سنين بفتح النون على أنها نون الجمع، و من العرب من يخفضها و ينوّنها قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ استقصروا مدّة لبثهم لما هم فيه من العذاب الشديد. و قيل: إن العذاب رفع عنهم بين النفختين، فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم؛ و قيل: أنساهم اللّه ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية. ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدّة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا:

فَسْئَلِ الْعادِّينَ أى: المتمكّنين من معرفة العدد، و هم الملائكة؛ لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد و أعمارهم، و قيل: المعنى: فاسأل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس. و قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائى

---

(1). الأعراف 56 و 85.

«قل كم لبثتم فى الأرض» على الأمر، و المعنى: قل يا محمد للكفار، أو يكون أمرا للملك بسؤالهم، أو التقدير: قولوا كم لبثتم، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد، و المراد الجماعة. و قرأ الباقون قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ على أن القائل هو اللّه عزّ و جلّ أو الملك قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا قرأ حمزة و الكسائى «قل إن لبثتم» كما فى الآية الأولى، و قرأ الباقون (قال) على الخبر، و قد تقدّم توجيه القراءتين، أى: ما لبثتم فى الأرض إلا لبثا قليلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا من العلم، و الجواب محذوف، أى: لو كنتم تعلمون لعلمتم اليوم قلّة لبثكم فى الأرض أو فى القبور أو فيهما، فكل ذلك قليل بالنسبة إلى لبثهم. ثم زاد سبحانه فى توبيخهم فقال:

أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً الهمزة للتوبيخ و التقرير، و الفاء للعطف على مقدّر كما تقدّم بيانه فى مواضع، أى: ألم تعلموا شيئا فحسبتم، و انتصاب عبثا على الحال، أى: عابثين، أو على العلة، أى: للعبث. قال بالأوّل سيبويه و قطرب، و بالثانى أبو عبيدة. و قال أيضا: يجوز أن يكون منتصبا على المصدرية، و جملة وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ معطوفة على «أنما خلقناكم عبثا»، و العبث فى اللغة: اللعب، يقال: عبث يعبث عبثا فهو عابث، أى: لاعب، و أصله من قولهم عبثت الأقط: أى خلطته، و المعنى: أ فحسبتم أن خلقنا لكم للإهمال كما خلقت البهائم و لا ثواب و لا عقاب، و أنكم إلينا لا ترجعون بالبعث و النشور فنجازيكم بأعمالكم. قرأ حمزة و الكسائى «ترجعون» بفتح الفوقية و كسر الجيم مبنيا للفاعل، و قرأ الباقون على البناء للمفعول. و قيل: إنه يجوز عطف و أنكم إلينا لا ترجعون على عبثا، على معنى: إنما خلقناكم للعبث و لعدم الرجوع. ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: فَتَعالَى اللَّهُ أى: تنزّه عن الأولاد و الشركاء أو عن أن يخلق شيئا عبثا، أو عن جميع ذلك، و هو الْمَلِكُ الذى يحقّ له الملك على الإطلاق الْحَقُّ فى جميع أفعاله و أقواله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فكيف لا يكون إلها و ربا، لما هو دون العرش الكريم من المخلوقات، و

وصف العرش بالكريم لنزول الرحمة و الخير منه، أو باعتبار من استوى عليه، كما يقال بيت كريم؛ إذا كان ساكنوه كراما قرأ أبو جعفر و ابن محيصن و إسماعيل و أبان بن ثعلب الكريم بالرفع على أنه نعت لربّ، و قرأ الباقون بالجرّ على أنه نعت للعرش. ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخا لهم و تقريعا فقال: وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ يعبده مع اللّه أو يعبده وحده، و جملة لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فى محل نصب صفة لقوله إلها، و هى صفة لازمة جىء بها للتأكيد، كقوله: يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «١» و البرهان: الحجة الواضحة و الدليل الواضح، و جواب الشرط قوله: فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ و جملة لا برهان له به معترضة بين الشرط و الجزاء، كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان، فاللّه مثيبه، و قيل: إن جواب الشرط قوله:

لا برهان له به على حذف فاء الجزاء، كقول الشاعر:

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ قرأ الحسن و قتادة بفتح «أن» على التعليل، و قرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، و قرأ الحسن «لا يفلح» بفتح الياء و اللام مضارع فلح بمعنى أفلح. ثم ختم هذه السورة بتعليم

---

(١). الأنعام: ٣٨.

رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يدعوه بالمغفرة و الرحمة فقال: وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدى به أمته، و قيل: أمره بالاستغفار لأمته. و قد تقدّم بيان كونه أرحم الرّاحمين، و وجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع إليه و الالتجاء إلى غفرانه و رحمته.

و قد أخرج ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت، و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: إذا أدخل الكافر فى قبره فيرى مقعده من النار قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ أتوب أعمل صالحا، فيقال له: قد عمّرت ما كنت معمّرا، فيضيق عليه قبره، فهو كالمنهوش ينازع «١» و يفزع، تهوى إليه حيات الأرض و عقاربها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال لعائشة: إن المؤمن إذا عاين الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم و الأحزان، بل قدما إلى اللّه؛ و أما الكافر فيقولون له: نرجعك، فيقول: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ هو مرسل. و أخرج الديلمى عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شىء يمنعه عن الحقّ فيجعل بين عينيه، فعند ذلك يقول: ربّ ارجعون لعلّى أعمل صالحا فيما تركت». و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات، من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: أَعْمَلُ صالِحاً قال: أقول لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبور، يدخل عليهم فى قبورهم حيات سود، حية عند رأسه، و حية عند رجليه، يقرصانه حتى تلتقيا فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال اللّه: وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ قال: حين ينفخ فى الصور، فلا يبقى حيّ إلا اللّه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أنه سئل عن قوله: فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ و قوله: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ* «٢» فقال: إنها مواقف، فأما الموقف الذى لا أنساب بينهم و لا يتساءلون عند الصعقة الأولى لا أنساب بينهم فيها إذا صعقوا، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا أنه سئل عن الآيتين فقال: أما قوله: وَ لا يَتَساءَلُونَ فهذا فى النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شىء، و أما قوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. و أخرج ابن المبارك فى الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن عساكر عن ابن مسعود قال: إذا كان يوم القيامة جمع اللّه الأوّلين و الآخرين. و فى لفظ: يؤخذ بيد العبد أو

الأمـة يوم القيامـة على رؤوس الأوّلين و الآخرين، ثم ينادى مناد: ألا إن هذا فلان بن فلان، فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه. و فى لفظ: من كان له مظلمـة فليجئ فليأخـذ حقه، فيفرح و اللّه المرء أن يكون له الحق على والـده أو ولـده أو زوجته و إن كان صغيرا، و مصداق ذلك فى كتاب اللّه فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ

---

(۱). فى الدر المنثور «ينام» (۶/ ۱۱۴)

(۲). الصافات: ۲۷.

فتح القدير، ج۳، ص: ۵۹۴

و أخرج أحمد و الطبرانى و الحاكم، و البيهقى فى سننه، عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن الأنسـاب تنقطـع يـوم القيامـة غير نسـبى و سـببى و صـهرى». و أخرج الـبزار و الـطبرانى و أبـو نعيم و الحـاكم، و الضـياء فى المختارة، عن عمر بن الخطاب: سـمعت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «كلّ سبب و نسب منقطع يوم القيامة إلا سببى و نسبى». و أخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «كل نسب و صهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى و صـهرى». و أخرج أحمد عن أبى سـعيد الخدرى قال: سـمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول على المنبر: «ما بال رجال يقولـون: إن رحم رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم لاـ ينفع قومه؟ بلى و اللّه إن رحمى موصولـة فى الـدنيا و الآـخرة، و إنى أيها الناس فرط لكم». و أخرج ابن جرير عن ابن عباس تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ قال: تنفخ. و أخرج ابن مردويه، و الضـياء فى صـفة النار، عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى قوله: تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ قال: «تلفحهم لفحة فتسـيل لحومهم على أعقـابهم». و أخرج أبـو نعيـم فى الحليـة، عن ابن مسـعود فى الآيـة قـال: لفحتهم لفحـة فمـا أبقت لحمـا على عظم إلاـ ألقته على أعقابهم.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن أبى الدنيا فى صفة النار، و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه فى قوله: وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ قال:

تشويه النار فتقلص شـفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، و تسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرّته. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شـيبة و هناد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صـحّحه، عن ابن مسـعود فى الآيـة قال: كلوح الرأس النضـيج بدت أسـنانهم و تقلّصت شـفاههم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس كالِحُونَ قـال: عـابسون. و قـد ورد فى صـفة أهل النار و ما يقولون و ما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفـة. و أخرج الحكيم الترمـذى و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن السـنى فى عمل اليوم و الليلة، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، عن ابن مسـعود: أنه قرأ فى أذن مصاب أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً حتى ختم السورة فبرئ، فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «بما ذا قرأت فى أذنه؟ فأخبره، فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: و الـذى نفسـى بيده لو أن رجلا موقنا قرأ بها على جبل لزال». و أخرج ابن السنى و ابن مندة، و أبو نعيم فى المعرفة، قال السيوطى: بسند حسن، من طريق محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه قال: بعثنا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى سـرية و أمرنـا أن نقول إذا أمسـينا و أصـبحنا أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ فقرأناها فغنمنا و سلمنا، اه.

الجزء الرابع

سورة النّور

اشارة

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير قالا: أنزلت سورة النور بالمدينة. و أخرج الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عائشة مرفوعا: «لا تنزلوهنّ الغرف و لا تعلموهنّ الكتابة»: يعنى النساء، «و علّموهنّ الغزل و سورة النور». و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقى عن مجاهد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «علّموا رجالكم سورة المائدة، و علّموا نساءكم سورة النور» و هو مرسل. و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلّموا سورة النساء، و الأحزاب، و النور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النور (٢٤): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلاَّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

السورة فى اللغة: اسم للمنزلة الشريفة، و لذلك سميت السورة من القرآن: سورة، و منه قول زهير «١»:

ألم تر أنّ اللّه أعطاك سورةترى كلّ ملك دونها يتذبذب

أى: منزلة، قرأ الجمهور سُورَةٌ بالرفع و فيه وجهان: أحدهما: أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف، أى: هذه سورة، و رجحه الزجاج و الفراء و المبرد، قالوا: لأنها نكرة، و لا يبتدأ بالنكرة فى كل موضع.

و الوجه الثانى: أن يكون مبتدأ و جاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله: أَنْزَلْناها و الخبر الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي و يكون المعنى: السورة المنزلة المفروضة: كذا و كذا، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ و مختم، و هذا معنى صحيح، و لا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة، فهى نكرة مخصصة بالصفة، و هو مجمع على جواز الابتداء بها. و قيل: هى مبتدأ محذوف الخبر على تقدير: فيما أوحينا إليك سورة، و ردّ بأن مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة، لا بيان أن فى جملة ما أوحى إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم سورة شأنها: كذا و كذا. و قرأ الحسن بن عبد العزيز، و عيسى الثقفى، و عيس الكوفى، و مجاهد، و أبو حيوة، و طلحة بن مصرف بالنصب، و فيه أوجه: الأوّل: أنها منصوبة بفعل مقدّر غير مفسر بما بعده، تقديره: اتل سورة، و الثانى: أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره ما بعده على ما قيل فى باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره، أى: أنزلنا سورة أنزلناها، فلا محل لأنزلناها هاهنا لأنها جملة مفسرة، بخلاف الوجه الذى قبله فإنها فى محل نصب على أنها صفة لسورة. الوجه الثالث: أنها منصوبة على الإغراء، أى: دونك سورة،

---

(١). البيت للنابغة الذّبيانى، على خلاف ما جاء فى الأصل.

قاله صاحب الكشاف. ورده أبو حيان بأنه لا يجوز حذف أداة الإغراء. الرابع: أنها منصوبة على الحال من ضمير أنزلناها، قال الفراء: هى حال من الهاء و الألف و الحال من المكنى يجوز أن تتقدّم عليه، و على هذا فالضمير فى أنزلناها ليس عائدا على

سورة، بل على الأحكام، كأنه قيل: أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن. قرأ ابن كثير و أبو عمرو وَ فَرَّضْناها بالتشديد، و قرأ الباقون بالتخفيف. قال أبو عمرو: فرّضناها بالتشديد، أى: قطعناها فى الإنزال نجما نجما، و الفرض القطع، و يجوز أن يكون التشديد للتكثير أو للمبالغة، و معنى التخفيف أوجبناها و جعلناها مقطوعا بها، و قيل: ألزمناكم العمل بها، و قيل:

قدّرنا ما فيها من الحدود، و الفرض: التقدير، و منه إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ «١» وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ أى: أنزلنا فى غضونها و تضاعيفها، و معنى كونها بينات: أنها واضحة الدلالة على مدلولها، و تكرير أنزلنا لكمال العناية بإنزال هذه السورة، لما اشتملت عليه من الأحكام الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِى هذا شروع فى تفصيل ما أجمل من الآيات البينات، و الارتفاع على الابتداء، و الخبر فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما أو على الخبرية لسورة كما تقدّم، و الزنا: هو وطء الرجل للمرأة فى فرجها من غير نكاح و لا شبهة نكاح. و قيل:

هو إيلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرّم شرعا، و الزانية: هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكرهة، و كذلك الزانى، و دخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش، و أما على مذهب سيبويه فالخبر محذوف، و التقدير: فيما يتلى عليكم حكم الزانية، ثم بين ذلك بقوله:

فَاجْلِدُوا و الجلد: الضرب، يقال: جلده إذا ضرب جلده، مثل بطنه إذا ضرب بطنه، و رأسه إذا ضرب رأسه، و قوله: مِائَةَ جَلْدَةٍ هو حدّ الزانى الحر البالغ البكر، و كذلك الزانية، و ثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد، و هى تغريب عام، و أما المملوك و المملوكة فجلد كلّ واحد منها خمسون جلدة لقوله سبحانه:

فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ «٢» و هذا نص فى الإماء، و ألحق بهنّ العبيد لعدم الفارق، و أما من كان محصنا من الأحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة، بإجماع أهل العلم و بالقرآن المنسوخ لفظه الباقى حكمه و هو «الشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة» و زاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة، و قد أوضحنا ما هو الحق فى ذلك فى شرحنا للمنتقى، و قد مضى الكلام فى حدّ الزنا مستوفى، و هذه الآية ناسخة لآية الحبس و آية الأذى اللتين فى سورة النساء. و قرأ عيسى بن عمر الثقفى و يحيى ابن يعمر و أبو جعفر و أبو شيبة «الزّانية و الزّانى» بالنصب، قيل: و هو القياس عند سيبويه لأنه عنده كقولك زيدا اضرب. و أما الفرّاء و المبرّد و الزجاج فالرفع عندهم أوجه، و به قرأ الجمهور. و وجه تقديم الزانية على الزانى هاهنا أن الزنا فى ذلك الزمان كان فى النساء أكثر حتى كان لهنّ رايات تنصب على أبوابهنّ ليعرفهنّ من أراد الفاحشة منهنّ. و قيل: وجه التقديم أن المرأة هى الأصل فى الفعل، و قيل: لأن الشهوة فيها أكثر و عليها أغلب، و قيل: لأن العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجبة و الصيانة، فقدّم ذكر الزانية تغليظا و اهتماما.

و الخطاب فى هذه الآية للأئمة و من قام مقامهم، و قيل: للمسلمين أجمعين، لأن إقامة الحدود واجبة عليهم

---

(١). القصص: ٨٥.

(٢). النساء: ٢٥.

جميعا، و الإمام ينوب عنهم، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ يقال: رأف يرأف رأفة على وزن فعلة، و رآفة: على وزن فعالة، مثل النشأة و النشاءة، و كلاهما بمعنى:

الرقة و الرحمة، و قيل: هى أرق الرحمة. و قرأ الجمهور «رأفة» بسكون الهمزة، و قرأ ابن كثير بفتحها، و قرأ ابن جريج «رآفة» بالمد كفعالة، و معنى «فى دين اللّه» فى طاعته و حكمه، كما فى قوله: ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ «١» ثم قال مثبتا

للمأمورين و مهيجا لهم: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ* كما تقول للرجل تحضه على أمر: إن كنت رجلا فافعل كذا، أى: إن كنتم تصدّقون بالتوحيد و البعث الذى فيه جزاء الأعمال، فلا تعطلوا الحدود وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أى: ليحضره زيادة فى التنكيل بهما، و شيوع العار عليهما و إشهار فضيحتهما، و الطائفة: الفرقة التى تكون حافة حول الشىء، من الطوف، و أقلّ الطائفة: ثلاثة، و قيل: اثنان، و قيل: واحد، و قيل: أربعة، و قيل: عشرة.

ثم ذكر سبحانه شيئا يختص بالزانى و الزانية، فقال: الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً.

قد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الآية على أقوال: الأوّل: أن المقصود منها تشنيع الزنا و تشنيع أهله و أنه محرّم على المؤمنين، و يكون معنى الزانى لا ينكح: الوطء لا العقد، أى: الزانى لا يزنى إلا بزانية، و الزانية إلا بزان، و زاد ذكر المشركة و المشرك لكون الشرك أعمّ فى المعاصى من الزنا. و ردّ هذا الزجاج و قال: لا يعرف النكاح فى كتاب اللّه إلا بمعنى التزويج، و يردّ هذا الردّ بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت فى كتاب اللّه سبحانه، و منه قوله: حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ «٢» فقد بينه النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، بأن المراد به: الوطء، و من جملة القائلين بأن معنى الزانى لا ينكح إلا زانية الزانى لا يزنى إلا بزانية سعيد بن جبير، و ابن عباس و عكرمة، كما حكاه ابن جرير عنهم، و حكاه الخطابى عن ابن عباس. القول الثانى: أن الآية هذه نزلت فى امرأة خاصة كما سيأتى بيانه فتكون خاصة بها كما قاله الخطابى. القول الثالث: أنها نزلت فى رجل من المسلمين، فتكون خاصة به قال مجاهد. الرابع: أنها نزلت فى أهل الصفة، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح. الخامس: أن المراد بالزانى و الزانية المحدودان، حكاه الزجاج و غيره عن الحسن قال: و هذا حكم من اللّه، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوّج إلا محدودة. و روى نحوه عن إبراهيم النخعى، و به قال بعض أصحاب الشافعى. قال ابن العربى: و هذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا. السادس: أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ «٣» قال النحاس: و هذا القول عليه أكثر العلماء. القول السابع: أن هذا الحكم مؤسس على الغالب، و المعنى: أن غالب الزناة لا يرغب إلا فى الزواج بزانية مثله، و غالب الزوانى لا يرغبن إلا فى الزواج بزان مثلهن، و المقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزوانى بعد زجرهم عن الزنا، و هذا أرجح الأقوال، و سبب النزول يشهد له كما سيأتى.

و قد اختلف فى جواز تزوّج الرجل بامرأة قد زنى هو بها، فقال الشافعى و أبو حنيفة بجواز ذلك. و روى

---

(١). يوسف: ٧٦.

(٢). البقرة: ٢٣٠.

(٣). النور: ٣٢.

عن ابن عباس، و روى عن عمر و ابن مسعود و جابر أنه لا يجوز. قال ابن مسعود: إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا، و به قال مالك، و معنى وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أى: نكاح الزوانى، لما فيه من التشبه بالفسقة و التعرّض للتهمة و الطعن فى النسب. و قيل: هو مكروه فقط، و عبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة فى الزجر.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها قال: بيناها. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عبيد اللّه ابن عبد اللّه بن عمر: أنّ جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها و ظهرها، فقلت: وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ قال: يا بنىّ و رأيتنى أخذتنى بها رأفة؟ إن اللّه لم يأمرنى أن أقتلها و لا أن أجلد رأسها، و قد أوجعت حيث ضربت. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن

عباس وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قال: الطّائفة الرّجل فما فوقه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه و الضياء المقدسى فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: الزَّانِي لا يَنْكِحُ قال: ليس هذا بالنكاح، و لكن: الجماع، لا يزنى بها حين يزنى إلا زان أو مشرك وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يعنى الزنا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله: الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً قال: كنّ نساء فى الجاهلية بغيّات، فكانت منهنّ امرأة جميلة تدعى أمّ جميل فكان الرجل من المسلمين يتزوّج إحداهنّ لتنفق عليه من كسبها، فنهى اللّه سبحانه أن يتزوّجهنّ أحد من المسلمين، و هو مرسل. و أخرج عبد بن حميد عن سليمان ابن يسار نحوه مختصرا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال: كانت بغايا فى الجاهلية بغايا آل فلان، و بغايا آل فلان، فقال اللّه الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً الآية، فأحكم اللّه ذلك فى أمر الجاهلية، و روى نحو هذا عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن الضحاك فى الآية قال: إنما عنى بذلك الزنا و لم يعن به التزويج. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير نحوه.

و أخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى هذه الآية قال: الزانى من أهل القبلة لا يزنى إلا بزانية مثله من أهل القبلة أو مشركة من غير أهل القبلة، و الزانية من أهل القبلة لا تزنى إلا بزان مثلها من أهل القبلة أو مشرك من غير أهل القبلة، و حرّم الزنا على المؤمنين.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن عبد اللّه بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أمّ مهزول، و كانت تسافح و تشترط أن تنفق عليه، فأراد رجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يتزوّجها، فأنزل اللّه الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ و أخرج عبد بن حميد و أبو داود و الترمذى و حسنه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: «كان رجل يقال له مرثد، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة، و كانت امرأة بغىّ بمكة يقال لها عناق،

و كانت صديقة له، و ذكر قصة و فيها: فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقلت: يا رسول اللّه أنكح عناقا؟ فلم يردّ علىّ شيئا، حتى نزلت الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: يا مرثد الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فلا تنكحها» و أخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن عمرو فى الآية قال: كنّ نساء معلومات، فكان الرجل من فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهنّ لتنفق عليه، فنهاهم اللّه عن ذلك، و أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن ابن عباس: أنها نزلت فى بغايا معلنات كنّ فى الجاهلية و كنّ زوانى مشركات، فحرّم اللّه نكاحهنّ على المؤمنين. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال: كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال: إنى كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرّم اللّه علىّ، و قد رزقنى اللّه منها توبة فأردت أن أتزوّجها، فقال الناس: الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنّ نساء بغايا متعالنات يجعلن على أبوابهنّ رايات يأتيهنّ الناس يعرفن بذلك، فأنزل اللّه هذه الآية، تزوّجها فما كان فيها من إثم فعلىّ. و أخرج أبو داود و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عدىّ و ابن مردويه و الحاكم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا ينكح الزّانى المجلود إلا مثله». و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب أن رجلا تزوّج امرأة، ثم إنه زنى فأقيم عليه الحدّ، فجاؤوا به إلى علىّ ففرّق بينه و بين امرأته، و قال: لا تتزوّج إلا مجلودة

مثلک.

[سورة النور (٢٤): الآيات ۴ الی ١٠]

وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۶) وَ الْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٧) وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (٨)

وَ الْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

قوله: وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ استعار الرمی للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول كما قال النابغة:

و جرح اللسان كجرح اليد و قال آخر:

رمانی بأسر كنت منه و والدی بريئا و من أجل الطّوىّ رمانی

و يسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة: قذفا، و المراد بالمحصنات: النساء، و خصهنّ بالذكر لأن قذفهنّ أشنع و العار فيهنّ أعظم، و يلحق الرجال بالنساء فی هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة، و قد جمعنا فی ذلک رسالة رددنا بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادی عشر لما نازع فی ذلک. و قيل: إن الآية تعمّ الرجال و النساء، و التقدير: و الأنفس المحصنات، و يؤيد هذا قوله تعالى فی آية أخرى

فتح القدير، ج۴، ص: ١٠

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ «١» فإن البيان بكونهنّ من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء و إلا لم يكن للبيان كثير معنى، و قيل: أراد بالمحصنات الفروج كما قال: وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها «٢» فتتناول الآية الرجال و النساء.

و قيل: إن لفظ المحصنات و إن كان للنساء لكنها هاهنا يشمل النساء و الرجال تغليبا، و فيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف فی لغة العرب، و المراد بالمحصنات هنا: العفائف، و قد مضى فی سورة النساء ذكر الإحصان و ما يحتمله من المعانی. و للعلماء فی الشروط المعتبرة فی المقذوف و القاذف أبحاث مطوّلة مستوفاة فی كتب الفقه، منها ما هو مأخوذ من دليل، و منها ما هو مجرّد رأی بحت. قرأ الجمهور «و المحصنات» بفتح الصاد، و قرأ يحيى بن وثاب بكسرها. و ذهب الجمهور من العلماء أنه لا حدّ على من قذف كافرا أو كافرة.

و قال الزهری و سعيد بن المسيب و ابن أبی ليلى: إنه يجب عليه الحدّ. و ذهب الجمهور أيضا أن العبد يجلد أربعين جلدة. و قال ابن مسعود و عمر بن عبد العزيز و قبيصة: يجلد ثمانين. قال القرطبی: و أجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما، و قد ثبت فی الصحيح عنه صلّى اللّه عليه و سلم أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال. ثم ذكر سبحانه شرطا لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال: ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ أی: يشهدون عليهن بوقوع الزنا منهنّ، و لفظ ثم: يدلّ على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود فی غير مجلس القذف، و به قال الجمهور، و خالف فی ذلک مالک. و ظاهر الآية أنه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين و مفترقين، و خالف فی ذلک الحسن و مالک. و إذا لم تكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحدّون حدّ القذف. و قال الحسن و الشعبی: إنه لا حدّ على الشهود و لا على المشهود عليه، و به قال أحمد و أبو حنيفة و محمد بن الحسن. و يردّ ذلک ما وقع فی خلافة عمر رضی اللّه عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا، و لم يخالف فی ذلک أحد من الصحابة رضی اللّه عنهم. قرأ الجمهور «بأربعة شهداء» بإضافة أربعة إلى شهداء، و

قرأ عبد اللّه بن مسلم بن يسار و أبو زرعة بن عمرو بتنوين أربعة.

و قد اختلف فى إعراب شهداء على هذه القراءة، فقيل: هو تمييز. و ردّ بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرّر فى علم النحو. و قيل: إنه فى محل نصب على الحال. و ردّ بأن الحال لا يجىء من النكرة التى لم تخصّص. و قيل: إن شهداء فى محل جرّ نعتا لأربعة، و لما كان فيه ألف التأنيث لم ينصرف.

و قال النحاس: يجوز أن يكون شهداء فى موضع نصب على المفعولية، أى: لم يحضروا أربعة شهداء، و قد قوّى ابن جنى هذه القراءة، و يدفع ذلك قول سيبويه إن تنوين العدد و ترك إضافته إنما يجوز فى الشعر. ثم بين سبحانه ما يجب على القاذف فقال: فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً الجلد: الضرب كما تقدّم، و المجالدة:

المضاربة فى الجلود أو بالجلود، ثم استعير للضرب بالعصى و السيف و غيرهما، و منه قول قيس بن الخطيم:

أجالدهم يوم الحديقة حاسراكأنّ يدى بالسيف مخراق لاعب

و قد تقدم بيان الجلد قريبا، و انتصاب ثمانين كانتصاب المصادر، و جلدة: منتصبة على التمييز، و جملة

---

(١). النساء: ٢۴.

(٢). الأنبياء: ٩١.

وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً معطوفة على اجلدوا، أى: فاجمعوا لهم بين الأمرين: الجلد، و ترك قبول الشهادة، لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم اللّه به عليهم فى آخر هذه الآية. و اللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة و لو تأخرت عليها لكانت صفة لها، و معنى «أبدا»: ماداموا فى الحياة. ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم، و إصرارهم عليه، و عدم رجوعهم إلى التوبة فقال:

وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ و هذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و الفسق: هو الخروج عن الطاعة و مجاوزة الحدّ بالمعصية، و جوّز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال. ثم بين سبحانه أن هذا التأييد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا و هذه الجملة فى محل نصب على الاستثناء، لأنه من موجب، و قيل: يجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل، و معنى التوبة قد تقدّم تحقيقه، و معنى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ من بعد اقترافهم لذنب القذف، و معنى وَ أَصْلَحُوا إصلاح أعمالهم التى من جملتها ذنب القذف و مداركة ذلك بالتوبة و الانقياد للحدّ.

و قد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله؟ و هى جملة عدم قبول الشهادة، و جملة الحكم عليهم بالفسق، أم إلى الجملة الأخيرة؟ و هذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد، يجلد التائب كالمصرّ، و بعد إجماعهم أيضا على أن هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق، فمحلّ الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول الشهادة أم لا؟ فقال الجمهور: إن هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته و زال عنه الفسق، لأن سبب ردّه هو ما كان متصفا به من الفسق بسبب القذف، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة. و قال القاضى شريح و إبراهيم النخعى و الحسن البصرى و سعيد بن جبير و مكحول و عبد الرحمن بن زيد و سفيان الثورى و أبو حنيفة: إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة، فيرتفع بالتوبة عن القاذف وصف الفسق و لا تقبل شهادته أبدا. و ذهب الشعبى و الضحاك إلى التفصيل فقالا: لا تقبل شهادته و إن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته. و قول الجمهور هو الحق، لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحدا فى واقعة شرعية من متكلم

واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، و أولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيدا لها لا تنفى كونه قيدا لما قبلها، غاية الأمر أن تقييد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به، و لهذا كان مجمعا عليه، و كونه أظهر لا ينافى قوله فيما قبلها ظاهرا.

و قد أطال أهل الأصول الكلام فى القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفنّ، و الحق:

هو هذا، و الاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائدا إلى جميع الجمل التى قبله، و تارة إلى بعضها لا تقوم به حجة و لا يصلح للاستدلال، فإنه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد. و مما يؤيد ما قررناه و يقوّيه أن المانع من قبول الشهادة، و هو الفسق المتسبب عن القذف قد زال، فلم يبق ما يوجب الردّ للشهادة.

و اختلف العلماء فى صورة توبة القاذف، فقال عمر بن الخطاب و الشعبى و الضحاك و أهل المدينة: إن

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲

توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى وقع منه، و أقيم عليه الحدّ بسببه. و قالت فرقة منهم مالك و غيره: إن توبته تكون بأن يحسن حاله، و يصلح عمله، و يندم على ما فرط منه، و يستغفر اللّه من ذلك، و يعزم على ترك العود إلى مثله، و إن لم يكذب نفسه و لا رجع عن قوله. و يؤيد هذه الآيات و الأحاديث الواردة فى التوبة فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد. و قد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب، و لو كان كفرا فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى، هكذا حكى الإجماع القرطبى. قال أبو عبيد: الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة، و ليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرما من مرتكب الزنا، و الزانى إذا تاب قبلت شهادته، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و إذا قبل اللّه التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود فى مواضع من القرآن منها قوله:

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ إلى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا «۱» و لا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع. قال الزجاج: و ليس القاذف بأشدّ جرما من الكافر، فحقه إذا تاب و أصلح أن تقبل شهادته، قال:

و قوله: أَبَداً أى: مادام قاذفا، كما يقال: لا تقبل شهادة الكافر أبدا فإن معناه: مادام كافرا، انتهى.

و جملة فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذة للقاذف بعد التوبة و صيرورته مغفورا له، مرحوما من الرحمن الرحيم، غير فاسق و لا مردود الشهادة، و لا مرفوع العدالة. ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من أنواع القذف، و هو قذف الزوج للمرأة التى تحته بعقد النكاح فقال: وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ أى: لم يكن لهم شهداء يشهدون بما رموهنّ به من الزنا إلا أنفسهم بالرفع على البدل من شهداء. قيل: و يجوز النصب على خبر يكن.

قال الزجاج: أو على الاستثناء على الوجه المرجوح فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ قرأ الكوفيون برفع أربع على أنها خبر لقوله: فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أى: فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حدّ القذف أربع شهادات. و قرأ أهل المدينة و أبو عمرو أربع بالنصب على المصدر، و يكون فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ خبر مبتدأ محذوف، أى: فالواجب شهادة أحدهم، أو مبتدأ محذوف الخبر، أى: فشهادة أحدهم واجبة. و قيل:

إن أربع منصوب بتقدير: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات و قوله: بِاللَّهِ متعلق بشهادة أو بشهادات، و جملة إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ هى المشهود به، و أصله على أنه، فحذف الجار و كسرت إن، و علق العامل عنها وَ الْخامِسَةُ قرأ السبعة و غيرهم الخامسة بالرفع على الابتداء، و خبرها أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ و قرأ أبو عبد الرحمن و طلحة و عاصم فى رواية حفص و «الخامسة» بالنصب على معنى و تشهد الشهادة الخامسة، و معنى إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ أى فيما رماها به من الزنا. قرأ

الجمهور بتشديد «أن» من قوله: أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ و قرأ نافع بتخفيفها، فعلى قراءة نافع يكون اسم أن ضمير الشأن، و لعنة اللّه: مبتدأ، و عليه: خبره، و الجملة خبر أن، و على قراءة الجمهور تكون لعنة اللّه اسم أن، قال سيبويه:
لا تخفف أنّ فى الكلام و بعدها الأسماء إلا و أنت تريد الثقيلة. و قال الأخفش: لا أعلم الثقيلة إلا أجود فى

---

(١). المائدة: ٣٣- ٣۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٣
العربية وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أى: عن المرأة، و المراد بالعذاب الدنيوى: و هو الحدّ، و فاعل يدرأ قوله:
أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللّهِ و المعنى: أنه يدفع عن المرأة الحدّ شهادتها أربع شهادات باللّه: أن الزوج لَمِنَ الْكاذِبِينَ وَ الْخامِسَةَ بالنصب عطفا على أربع، أى: و تشهد الخامسة كذلك قرأ حفص و الحسن و السلمى و طلحة و الأعمش، و قرأ الباقون بالرفع على الابتداء، و خبره أَنَّ غَضَبَ اللّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ الزوج مِنَ الصّادِقِينَ فيما رماها به من الزنا، و تخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور و مادّته، و لأن النساء يكثرن اللعن فى العادة، و مع استكثار هنّ منه لا يكون له فى قلوبهنّ كبير موقع بخلاف الغضب وَ لَوْ لا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ جواب لولا محذوف. قال الزجاج: المعنى و لولا فضل اللّه لنال الكاذب منهما عذاب عظيم. ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب و عظيم حكمته البالغة فقال: وَ أَنَّ اللّهَ تَوّابٌ حَكِيمٌ أى: يعود على من تاب إليه، و رجع عن معاصيه بالتوبة عليه و المغفرة له: حكيم فيما شرع لعباده من اللعان و فرض عليهم من الحدود.
و قد أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا قال: تاب اللّه عليهم من الفسوق، و أما الشهادة فلا تجوز، و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبى بكرة: إن تبت قبلت شهادتك. و أخرج ابن مردويه عنه قال: توبتهم إكذابهم أنفسهم، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: من تاب و أصلح فشهادته فى كتاب اللّه تقبل. و فى الباب روايات عن التابعين. و قصة قذف المغيرة فى خلافة عمر مروية من طرق معروفة. و أخرج البخارى و الترمذى و ابن ماجة عن ابن عباس «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بشريك بن سحماء، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: البيّنة، و إلا حدّ فى ظهرك، فقال: يا رسول اللّه إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البيّنة؟ فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: البيّنة و إلا حدّ فى ظهرك فقال هلال: و الذى بعثك بالحقّ إنى لصادق، و لينزلنّ اللّه ما يبرّئ ظهرى من الحدّ، و نزل جبريل فأنزل عليه وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ و النبى صلّى اللّه عليه و سلم يقول: اللّه يعلم أن أحد كما كاذب فهل منكما تائب؟
ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها و قالوا إنها موجبة، فتلكأت و نكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلّج السّاقين فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: لولا ما مضى من كتاب اللّه لكان لى و لها شأن» و أخرج هذه القصة أبو داود الطيالسى و عبد الرزاق و أحمد و عبد ابن حميد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس مطوّلة. و أخرجها البخارى و مسلم و غيرهما، و لم يسمّوا الرجل و لا المرأة. و فى آخر القصة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال له: «اذهب فلا سبيل لك عليها، فقال: يا رسول اللّه! مالى، قال: لا مال لك، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها، و إن كنت كذبت عليها فذاك أبعد لك منها». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سهل ابن سعد قال: «جاء عويمر إلى عاصم بن عدىّ، فقال: سل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أ رأيت رجلا وجد مع امرأته

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۱۴

رجلا- فقتله، أ يقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: فعاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المسائل، فقال عويمر: و اللّه لآتينّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأسألنه، فأتاه فوجده قد أنزل عليه، فدعا بهما فلاعن بينهما. قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول اللّه لقد كذبت عليها، ففارقها قبل أن يأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فصارت سنة للمتلاعنين، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أبصروها، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين فلا أراه إلّا قد صدق، و إن جاءت به أحيمر كأنه و حرة فلا- أراه إلّا كاذبا، فجاءت به مثل النعت المكروه» و في الباب أحاديث كثيرة و فيما ذكرناه كفاية. و أخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب و عليّ و ابن مسعود، قالوا: لا يجتمع المتلاعنان أبدا.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۱۱ الى ۲۱]

إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۱) لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (۱۲) لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (۱۳) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۴) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (۱۵)

وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (۱۶) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۸) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۲۰)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۱)

خبر إن من قوله: إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ هو عُصْبَةٌ و مِنْكُمْ صفة لعصبة، و قيل:

هو لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ و يكون عصبة بدلا من فاعل جاءوا. قال ابن عطية: و هذا أنسق في المعنى و أكثر فائدة من أن يكون الخبر عصبة، و جملة: لا تحسبوه، و إن كانت طلبية، فجعلها خبرا يصح بتقدير كما في نظائر ذلك، و الإفك: أسوأ الكذب و أقبحه، و هو مأخوذ من أفك الشي‏ء إذا قلبه عن وجهه. فالإفك:

هو الحديث المقلوب، و قيل: هو البهتان و أجمع المسلمون على أن المراد بما في الآية ما وقع من الإفك على عائشة أمّ المؤمنين، و إنما وصفه اللّه بأنه إفك، لأن المعروف من حالها رضي اللّه عنها خلاف ذلك، قال الواحدي:

و معنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر أن عائشة رضي اللّه عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة و شرف النسب و السبب لا- القذف، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه، فهو إفك قبيح، و كذب ظاهر، و العصبة: هم الجماعة من العشرة إلى الأربعين، و المراد بهم هنا عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين، و زيد بن رفاعة و حسان بن ثابت و مسطح بن أثاثة و حمنة بنت جحش و من ساعدهم. و قيل: العصبة

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۱۵

من الثلاثة إلى العشرة، و قيل: من عشرة إلى خمسة عشر، و أصلها في اللغة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض، و جملة لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ إن كانت خبرا لإنّ فظاهر، و إن كان الخبر عصبة كما تقدّم فهي مستأنفة، خوطب بها النبي صلّى اللّه عليه و

سلم و عائشة و صفوان بن المعطل الذى قذف مع أمّ المؤمنين و تسلية لهم، و الشرّ:
ما زاد ضرّه على نفعه، و الخير: ما زاد نفعه على ضرّه، و أما الخير الذى لا شرّ فيه فهو الجنة، و الشرّ الذى لا خير فيه فهو النار، و وجه كونه خيرا لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم، مع بيان براءة أمّ المؤمنين، و صيرورة قصتها هذه شرعا عاما لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ أى: بسبب تكلمه بالإفك وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ قرأ الحسن و الزهرى و أبو رجاء و حميد الأعرج و يعقوب و ابن أبى علية و مجاهد و عمرة بنت عبد الرحمن بضمّ الكاف. قال الفرّاء: و هو وجه جيد، لأن العرب تقول: فلان تولى عظيم كذا و كذا: أى أكبره، و قرأ الباقون بكسرها. قيل: هما لغتان، و قيل: هو بالضم معظم الإفك، و بالكسر البداءة به، و قيل: هو بالكسر الإثم. فالمعنى: إن الذى تولى معظم الإفك من العصبة له عذاب عظيم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما.
و اختلف فى هذا الذى تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم؟ فقيل: هو عبد اللّه بن أبىّ، و قيل:
هو حسان، و الأوّل: هو الصحيح. و قد روى محمد بن إسحاق و غيره أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم جلد فى الإفك رجلين و امرأة، و هم: مسطح بن أثاثة و حسان بن ثابت و حمنة بنت جحش. و قيل: جلد عبد اللّه بن أبىّ و حسان ابن ثابت و حمنة بنت جحش، و لم يجلد مسطحا، لأنه لم يصرح بالقذف، و لكن كان يسمع و يشيع من غير تصريح. و قيل: لم يجلد أحدا منهم. قال القرطبى: المشهور من الأخبار و المعروف عند العلماء أن الذين حدّوا: حسان و مسطح و حمنة، و لم يسمع بحدّ لعبد اللّه بن أبىّ، و يؤيد هذا ما فى سنن أبى داود عن عائشة، قالت: لما نزل عذرى، قام النبى صلّى اللّه عليه و سلم فذكر ذلك و تلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين و المرأة فضربوا حدّهم، و سماهم: حسان، و مسطح بن أثاثة، و حمنة بنت جحش.
و اختلفوا فى وجه تركه صلّى اللّه عليه و سلم لجلد عبد اللّه بن أبىّ، فقيل: لتوفير العذاب العظيم له فى الآخرة، و حدّ من عداه ليكون ذلك تكفيرا لذنبهم كما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى الحدود أنه قال: «إنّها كفّارة لمن أقيمت عليه» و قيل: ترك حدّه تألفا لقومه و احتراما لابنه، فإنه كان من صالحى المؤمنين و إطفاء لثائرة الفتنة، فقد كانت ظهرت مباديها من سعد بن عبادة و من معه كما فى صحيح مسلم. ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و من معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال: لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً لولا: هذه هى التحضيضية تأكيدا للتوبيخ و التقريع و مبالغة فى معاتبتهم، أى: كان ينبغى للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو فى أمّ المؤمنين أبعد. قال الحسن: معنى بأنفسهم: بأهل دينهم، لأن المؤمنين كنفس واحدة ألا ترى إلى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «١» قال الزجاج: و لذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضا إنهم يقتلون

---

(١). النساء: ٢٩.

أنفسهم. قال المبّرد و مثله قوله سبحانه فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «١» قال النحاس: بأنفسهم: بإخوانهم، فأوجب اللّه سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا و يذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه و يكذبوه.
قال العلماء: إن فى الآية دليلا على أن درجة الإيمان و العفاف لا يزيلها الخبر المحتمل و إن شاع وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ أى: قال المؤمنون عند سماع الإفك: هذا إفك ظاهر مكشوف، و جملة لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ من تمام ما يقوله المؤمنون، أى: و قالوا هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا: فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ أى: الخائضون فى الإفك عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ أى:

فی حکم اللّه تعالی هم الکاذبون الکاملون فی الکذب وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ هذا خطاب للسامعین، و فیه زجر عظیم وَ لَوْ لا هذه: هی لامتناع الشیء لوجود غیره لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ أی: بسبب ما خضتم فیه من حدیث الإفک، یقال: أفاض فی الحدیث، و اندفع و خاض.

و المعنی: لولا أنی قضیت علیکم بالفضل فی الدنیا بالنعم التی من جملتها الإمهال، و الرحمة فی الآخرة بالعفو، لعاجلتکم بالعقاب علی ما خضتم به من حدیث الإفک. و قیل: المعنی: لولا فضل اللّه علیکم لمسکم العذاب فی الدنیا و الآخرة معا، و لکن برحمته ستر علیکم فی الدنیا و یرحم فی الآخرة من أتاه تائبا. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ الظرف منصوب بمسکم أو بأفضتم، قرأ الجمهور «إذ تلقونه» من التلقی، و الأصل: تتلقونه فحذف إحدی التاءین. قال مقاتل و مجاهد: المعنی یرویه بعضکم عن بعض. قال الکلبی: و ذلک أن الرجل منهم یلقی الرجل فیقول: بلغنی کذا و کذا و یتلقونه تلقیا. قال الزجاج: معناه: یلقیه بعضکم إلی بعض.

و قرأ محمد بن السمیقع بضم التاء و سکون اللام و ضم القاف، من الإلقاء، و معنی هذه القراءة واضح. و قرأ أبیّ و ابن مسعود «تتلقونه» من التلقی، و هی کقراءة الجمهور: و قرأ ابن عباس و عائشة و عیسی بن عمر و یحیی بن یعمر و زید بن علیّ بفتح التاء و کسر اللام و ضم القاف و هذه القراءة مأخوذة من قول العرب ولق یلق و لقا: إذا کذب. قال ابن سیده: جاءوا بالمتعدّی شاهدا علی غیر المتعدّی. قال ابن عطیة: و عندی أنه أراد یلقون فیه فحذف حرف الجرّ فاتصل الضمیر. قال الخلیل و أبو عمرو: أصل الولق الإسراع، یقال جاءت الإبل تلق، أی: تسرع، و منه قول الشاعر:

لمّا رأوا جیشا علیهم قد طرقجاءوا بأسراب من الشّأم ولق

إنّ الحصین زلق و زمّلقجاءت به عنس «۲» من الشّأم تلق

قال أبو البقاء: أی یسرعون فیه قال ابن جریر: و هذه اللفظة أی تلقونه علی القراءة الأخیرة مأخوذة من الولق، و هو الإسراع بالشیء بعد الشیء کعدد فی إثر عدد، و کلام فی إثر کلام، و قرأ زید بن أسلم و أبو جعفر «تألقونه» بفتح التاء و همزة ساکنة و لام مکسورة و قاف مضمومة من الألق و هو الکذب، و قرأ یعقوب «تیلقونه» بکسر التاء من فوق بعدها یاء تحتیة ساکنة و لام مفتوحة و قاف مضمومة، و هو مضارع

---

(۱). البقرة: ۵۴.

(۲). العنس: الناقة القویة.

ولق بکسر اللام، و معنی وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ أن قولهم هذا مختصّ بالأفواه، من غیر أن یکون واقعا فی الخارج معتقدا فی القلوب، و قیل: إن ذکر الأفواه للتأکید کما فی قوله: «یطیر بجناحیه» «۱» و نحوه، و الضمیر فی تحسبونه راجع إلی الحدیث الذی وقع الخوض فیه، و الإذاعة له وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً أی: شیئا یسیرا لا یلحقکم فیه إثم، و جملة وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ فی محل نصب علی الحال، أی:

عظیم ذنبه و عقابه وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا هذا عتاب لجمیع المؤمنین، أی:

هلا إذ سمعتم حدیث الإفک قلتم تکذیبا للخائضین فیه المفترین له ما ینبغی لنا و لا یمکننا أن نتکلم بهذا الحدیث و لا یصدر ذلک منا بوجه من الوجوه، و معنی قوله: سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ التعجب من أولئک الذین جاءوا بالإفک، و أصله التنزیه للّه سبحانه، ثم کثر حتی استعمل فی کلّ متعجب منه، و البهتان: هو أن یقال فی الإنسان ما لیس فیه، أی: هذا کذب عظیم لکونه

قيل فی أمّ المؤمنين رضی اللّه عنها، و صدوره مستحيل شرعا من مثلها. ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا فی الإفک فقال: يَعِظُكَمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً أی:

ينصحكم اللّه، أو يحرّم عليكم، أو ينهاكم كراهة أن تعودوا، أو من أن تعودوا، أو فی أن تعودوا لمثل هذا القذف مدّة حياتكم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضی عدم الوقوع فی مثله ما دمتم، و فيه تهييج عظيم و تقريع بالغ وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ فی الأمر و النهی لتعملوا بذلک و تتأدبوا بآداب اللّه و تنزجروا عن الوقوع فی محارمه وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بما تبدونه و تخفونه حَكِيمٌ فی تدبيراته لخلقه. ثم هدّد سبحانه القاذفين و من أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين و ذنوبهم فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا أی: يحبون أن تفشوا الفاحشة و تنتشر، من قولهم شاع الشیء يشيع شيوعا و شيعا و شيعانا: إذا ظهر و انتشر، و المراد بالذين آمنوا: المحصنون العفيفون، أو: كلّ من اتصف بصفة الإيمان، و الفاحشة: هی فاحشة الزنا أو القول السّيّئ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا بإقامة الحدّ عليهم وَ الْآخِرَةِ بعذاب النار وَ اللَّهُ يَعْلَمُ جميع المعلومات وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ إلا ما علمكم به و كشفه لكم و من جملة ما يعلمه اللّه عظم ذنب القذف، و عقوبة فاعله وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ هو تكرير لما تقدّم تذكيرا للمنة منه سبحانه على عباده بترک المعاجلة لهم وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ و من رأفته بعباده أن لا يعاجلهم بذنوبهم، و من رحمته لهم أن يتقدّم إليهم بمثل هذا الإعذار و الإنذار و جملة: و أن اللّه رؤوف رحيم معطوفة على فضل اللّه، و جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، أی: لعاجلكم بالعقوبة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ الخطوات: جمع خطوة، و هی ما بين القدمين، و الخطوة بالفتح: المصدر، أی: لا تتبعوا مسالک الشيطان و مذاهبه و لا تسلكوا طرائقه التی يدعوكم إليها. قرأ الجمهور «خطوات» بضم الخاء و الطاء، و قرأ عاصم و الأعمش بضم الخاء و إسكان الطاء وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ قيل: جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له، كأنه قيل: فقد ارتكب الفحشاء و المنكر لأن دأبه أن يستمرّ آمرا لغيره بهما، و الفحشاء: ما أفرط قبحه، و المنكر: ما ينكره الشرع، و ضمير إنه: للشيطان، و قيل: للشأن، و الأولى

---

(١). الأنعام: ٣٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٨

أن يكون عائدا إلى من يتبع خطوات الشيطان، لأن من اتبع الشيطان صار مقتديا به فی الأمر بالفحشاء و المنكر وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ قد تقدّم بيانه و جواب لولا هو قوله: ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً أی: لولا التفضل و الرحمة من اللّه ما طهر أحد منكم نفسه من دنسها مادام حيا. قرأ الجمهور «زكی» بالتخفيف، و قرأ الأعمش و ابن محيصن و أبو جعفر بالتشديد أی: ما طهّره اللّه. و قال مقاتل، أی: ما صلح.

و الأولى: تفسير زكی بالتطهر و التطهير، و هو الذی ذكره ابن قتيبة. قال الكسائی: إن قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ معترض، و قوله: ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً جواب لقوله أوّلا و ثانيا: و لولا فضل اللّه. و قراءة التخفيف أرجح لقوله: وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ أی: من عباده بالتفضل عليهم و الرحمة لهم وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولونه عَلِيمٌ بجميع المعلومات و فيه حثّ بالغ على الإخلاص، و تهييج عظيم لعباده التائبين، و وعيد شديد لمن يتبع الشيطان و يحبّ أن تشيع الفاحشة فی عباد اللّه المؤمنين، و لا يزجر نفسه بزواجر اللّه سبحانه.

و قد أخرج البخاری و مسلم و أهل السنن و غيرهم حديث عائشة الطويل فی سبب نزول هذه الآيات بألفاظ متعدّدة و طرق مختلفة. حاصله أن سبب النزول هو ما وقع من أهل الإفک الذين تقدّم ذكرهم فی شأن عائشة رضی اللّه عنها، و ذلک أنها خرجت من هودجها تلتمس عقدا لها انقطع من جزع، فرحلوا و هم يظنون أنها فی هودجها، فرجعت و قد ارتحل الجيش و

الهودج معهم، فأقامت فى ذلك المكان و مرّ بها صفوان بن المعطل، و كان متأخرا عن الجيش، فأناخ راحلته و حملها عليها؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا، فبرأها اللّه مما قالوه. هذا حاصل القصة مع طولها و تشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك. و أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و أهل السنن الأربع و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن عائشة قالت: لما نزل عذرى قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على المنبر فذكر ذلك و تلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين و امرأة فضربوا حدّهم. قال الترمذى: هذا حديث حسن. و وقع عند أبى داود تسميتهم: حسان بن ثابت، و مسطح بن أثاثة، و حمنة بنت جحش. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الذين افتروا على عائشة عبد اللّه بن أبىّ بن سلول و مسطح و حسان و حمنة بنت جحش. و أخرج البخارى و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن الزهرى قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال الذى تولى كبره منهم علىّ، فقلت:

لا، حدثنى سعيد بن المسيب و عروة ابن الزبير و علقمة بن وقاص و عبد اللّه بن عتبة بن مسعود كلهم سمع عائشة تقول: الذى تولى كبره منهم عبد اللّه بن أبىّ، قال فقال لى: فما كان جرمه؟ قلت: حدثنى شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف و أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسيئا فى أمرى. و قال يعقوب بن شيبة فى مسنده: حدّثنا الحسن بن علىّ الحلوانى. حدّثنا الشافعى، حدّثنا عمى قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان الذى تولى كبره من هو؟ قال: عبد اللّه بن أبىّ. قال: كذبت هو علىّ. قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهرى فقال: يا ابن شهاب من الذى تولى كبره؟ فقال: ابن أبىّ. قال: كذبت هو علىّ. قال: أنا أكذب؟

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹

لا أبالك، و اللّه لو نادى مناد من السماء أن اللّه قد أحلّ الكذب ما كذبت، حدّثنى عروة و سعيد و عبد اللّه و علقمة عن عائشة أن الذى تولى كبره عبد اللّه بن أبىّ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن مسروق قال:

دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبّب «۱» و قال:

حصان رزان ما تزنّ بريبةو تصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت: لكنك لست كذلك، قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك، و قد أنزل اللّه وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ فقالت: و أىّ عذاب أشدّ من العمى؟. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن بعض الأنصار أن امرأة أبى أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى و ذلك الكذب، أ كنت أنت فاعلة يا أمّ أيوب؟

قالت: لا و اللّه، قال: فعائشة و اللّه خير منك و أطيب، إنما هذا كذب و إفك باطل؛ فلما نزل القرآن ذكر اللّه من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك. ثم قال: لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ أى: كما قال أبو أيوب و صاحبته. و أخرج الواقدى و الحاكم و ابن عساكر عن أفلح مولى أبى أيوب أن أمّ أيوب، فذكر نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً قال: يحرّج اللّه عليكم. و أخرج البخارى فى الأدب و البيهقى فى شعب الإيمان عن علىّ بن أبى طالب قال: القائل الفاحشة، و الذى شيع بها فى الإثم سواء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً قال: ما اهتدى أحد من الخلائق لشىء من الخير.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۲۲ الى ۲۶]

وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۲۳) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (۲۵) الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَ الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۲۶)

قوله: وَ لا يَأْتَلِ أى: يحلف وزنه يفتعل من الألية، و هى اليمين، و منه قول الشاعر:

تألّى ابن أوس حلفة ليردّنىإلى نسوة كأنهنّ مفايد

---

(۱). جاء فى سيرة ابن هشام [۳/ ۳۰۶]: قال حسان بن ثابت يعتذر من الذى كان قال فى شأن عائشة رضى اللّه عنها.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰

و قول الآخر:

قليل الألايا حافظ ليمينهو إن بدرت منه الأليّة برّت

يقال: ائتلى يأتلى إذا حلف. و منه قوله سبحانه: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ «۱» و قالت فرقة: هو من ألوت فى كذا إذا قصرت، و منه: لم آل جهدا، أى: لم أقصر، و كذا منه قوله: لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا «۲» و منه قول الشاعر:

و ما المرء مادامت حشاشة نفسهبمدرک أطراف الخطوب و لا آل

و الأوّل: أولى بدليل سبب النزول، و هو ما سيأتى، و المراد بالفضل: الغنى و السعة فى المال أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى: على أن لا يؤتوا. قال الزجاج: أن لا يؤتوا فحذف لا، و منه قول الشاعر:

فقلت يمين اللّه أبرح قاعداو لو قطعوا رأسى لديک و أوصالى

و قال أبو عبيدة: لا حاجة إلى إضمار لا، و المعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان الجامعين لتلك الأوصاف، و على الوجه الآخر يكون المعنى: لا يقصروا فى أن يحسنوا إليهم و إن كانت بينهم شحناء لذنب اقترفوه، و قرأ أبو حيوة «إن تؤتوا» بتاء الخطاب على الالتفات. ثم علمهم سبحانه أدبا آخر فقال: وَ لْيَعْفُوا عن ذنبهم الذى أذنبوه عليهم و جنايتهم التى اقترفوها، من عفا الربع أى: درس، و المراد: محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع وَ لْيَصْفَحُوا بالإغضاء عن الجانى و الإغماض عن جنايته، و قرئ بالفوقية فى الفعلين جميعا. ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا و صفح فقال: أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ بسبب عفوكم و صفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة و الرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدى العباد بربهم فى العفو و الصفح عن المسيئين إليهم إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ قد مرّ تفسير المحصنات و ذكرنا الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء فى حدّ القذف.

و قد اختلف فى هذه الآية هل هى خاصة أو عامة؟ فقال سعيد بن جبير: هى خاصة فيمن رمى عائشة رضى اللّه عنها. و قال مقاتل: هى خاصة بعبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين. و قال الضحاک و الكلبى: هذه الآية هى فى عائشة و سائر أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم دون سائر المؤمنين و المؤمنات، فمن قذف إحدى أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فهو من أهل هذه الآية. قال الضحاک: و من أحكام هذه الآية أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه صلّى اللّه عليه و سلم، و من قذف غيرهنّ فقد جعل اللّه له التوبة كما تقدّم فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا «۳» و قيل: إن هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف و لم يتب، و قيل: إنها تعمّ كلّ قاذف و مقذوف من المحصنات و المحصنين، و اختاره النحاس، و هو الموافق لما قرّره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ

لا بخصوص السبب. و قيل: إنها

---

(١). البقرة: ٢٢۶.

(٢). آل عمران: ١٨.

(٣). النور: ۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢١

خاصة بمشركى مكة، لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر. قال أهل العلم:

إن كان المراد بهذه الآية المؤمنون من القذفة، فالمراد باللعنة الإبعاد، و ضرب الحدّ و هجر سائر المؤمنين لهم، و زوالهم عن رتبة العدالة، و البعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين، و إن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور فى جانب عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين، و إن كانت فى مشركى مكة فإنهم ملعونون فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ و المراد بالغافلات: اللاتى غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهنّ و لا يفطن لها، و فى ذلك من الدلالة على كمال النزاهة و طهارة الجيب ما لم يكن فى المحصنات، و يقل: هنّ السليمات الصدور النقيات القلوب يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم و تعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذى لا يحيط به وصف. و قرأ الجمهور «يوم تشهد» بالفوقية، و اختار هذه القراءة: أبو حاتم، و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائى و خلف بالتحتية، و اختار هذه القراءة: أبو عبيد لأن الجارّ و المجرور قد حال بين الاسم و الفعل. و المعنى:

تشهد ألسنة بعضهم على بعض فى ذلك اليوم، و قيل: تشهد عليهم ألسنتهم فى ذلك اليوم بما تكلموا به وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بما عملوا بها فى الدنيا، و إن اللّه سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم، و المشهود محذوف و هو ذنوبهم التى اقترفوها، أى: تشهد هذه عليهم بذنوبهم التى اقترفوها و معاصيهم التى عملوها يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَ أى: يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة و يعطيهم اللّه جزاءهم عليها موفرا، فالمراد بالدّين هاهنا: الجزاء، و بالحق الثابت الذى لا شك فى ثبوته. قرأ زيد بن علىّ «يوفيهم» مخففا من أوفى، و قرأ من عداه بالتشديد من وفّى. و قرأ أبو حيوة و مجاهد «الحق» بالرفع على أنه نعت للّه، و روى ذلك عن ابن مسعود. و قرأ الباقون بالنصب على أنه نعت لدينهم. قال أبو عبيدة: و لولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع، ليكون نعتا للّه عزّ و جلّ و لتكون موافقة لقراءة أبىّ، و ذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت فى مصحف أبى «يوفّيهم اللّه الحقّ دينهم». و هذا الكلام من أبى عبيدة غير مرضىّ، لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم، و لا حجة أيضا فيه، لأنه لو صحّ أنه فى مصحف أبىّ كذلك جاز أن يكون دينهم بدلا من الحقّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ أى: و يعلمون عند معاينتهم لذلك و وقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز أن اللّه هو الحقّ الثابت فى ذاته و صفاته و أفعاله، المبين المظهر للأشياء كما هى فى أنفسها، و إنما سمى سبحانه الحقّ لأن عبادته هى الحقّ دون عبادة غيره. و قيل: سمى بالحقّ، أى: الموجود لأن نقيضه الباطل و هو المعدوم.

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة فى أهل الإفك بكلمة جامعة فقال: الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ أى: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، أى: مختصة بهم لا تتجاوزهم، و كذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزونهن، و هكذا قوله: وَ الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ قال مجاهد و سعيد بن جبير و عطاء و أكثر المفسرين: المعنى: الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، و الخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، و الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، و الطيبون من الناس للطيبات من الكلمات.

قال النحاس: و هذا أحسن ما قيل. قال الزجاج: و معناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال و النساء،

و لا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال و النساء، و هذا ذمّ للذين قذفوا عائشة بالخبث و مدح للذين برّؤوها.

و قيل: إن هـذه الآيـة مبنية على قوله: الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً فالخبيثات: الزوانی، و الطيبات: العفائف، و كذا الخبيثون و الطيبون، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ إلى الطيبين و الطيبات، أى:

هم مبرّؤون ممـا يقوله الخبيثون و الخبيثات، و قيل: الإشارة إلى أزواج النبيّ صـلّى اللّه عليه و سـلم، و قيل: إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم و عائشة و صـفوان بن المعطل، و قيل: عائشة و صفوان فقط. قال الفراء: و جمع كما قال: فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ «۱» و المراد أخوان لَهُمْ مَغْفِرَةٌ أى: هؤلاء المبرّؤون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ و هو رزق الجنة. و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا يَأْتَلِ الآية، يقول:

لا يقسـموا أن لا ينفعوا أحدا. و أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: كان مسـطح بن أثاثة ممن تولى كبره من أهل الإفک، و كان قريبا لأبى بكر و كان فى عياله، فحلف أبو بكر أن لا ينيله خيرا أبـدا، فأنزل اللّه وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ الآية، قالت: فأعاده أبو بكر إلى عياله و قال: لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا تحللتها و أتيت الـذى هو خير. و قـد روى هـذا من طرق عن جماعـة من التـابعين. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عبـاس فى الآيـة قـال: كـان ناس من أصـحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلم قـد رموا عائشة بالقبيح و أفشوا ذلک و تكلموا فيها، فأقسم ناس من أصـحاب النبيّ صـلّى اللّه عليه و سـلم منهم أبو بكر أن لاـ يتصـدّقوا على رجل تكلم بشـىء من هـذا و لا يصـلوه، فقال: لا يقسم أولو الفضل منكم و السعة أن يصـلوا أرحـامهم، و أن يعطوهم من أموالهم كالـذى كـانوا يفعلون قبـل ذلک، فأمر اللّه أن يغفر لهم و أن يعفى عنهم. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صـححه و ابن مردويه عنه فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَـناتِ الآيـة، قال: نزلت فی عائشـة خاصـة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و الطبرانی و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هذه هى عائشة و أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و لم يجعل لمن فعل ذلک توبة، و جعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى صـلّى اللّه عليه و سلم التوبة، ثم قرأ وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ إلى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا «۲». و أخرج أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا كان يوم القيامة عرّف الكافر بعمله فجحد و خاصم، فيقال: هؤلاء جيرانک يشهدون عليک فيقول: كذبوا، فيقال:

أهلک و عشيرتک، فيقول: كذبوا، فيقال: احلفوا فيحلفون، ثم يصمّتهم اللّه و تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم، ثم يدخلهم النّار». و قـد روى عن النبيّ صـلّى اللّه عليه و سـلم من طريق جماعة من الصـحابة ما يتضـمن شـهادة الجوارح على العصاة. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله سـبحانه يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَ قال: حسابهم، و كلّ شـىء فى القرآن: الـدين: فهو الحساب. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صـلّى اللّه عليه و سـلم قرأ يومئـذ يوفيهم اللّه الحقّ دينهم. و أخرج ابن جرير و الطبرانی و ابن مردويه عن ابن عبـاس فی قوله: الْخَبِيثـاتُ قال: من الكلام لِلْخَبِيثِينَ قال:

---

(۱). النساء: ۱۱.

(۲). النور: ۴- ۵.

من الرجـال و الخبيثون من الرجـال لِلْخَبِيثاتِ من الكلام وَ الطَّيِّباتُ من الكلام لِلطَّيِّبِينَ من الناس وَ الطَّيِّبُونَ من الناس لِلطَّيِّباتِ من الكلام، نزلت فى الـذين قالوا فى زوجة النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم ما قالوا من البهتان. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير و الطبرانى عن قتادة نحوه أيضا، و كـذا روى عن جماعـة من التـابعين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن زيـد فى الآيـة قال: نزلت فى عائشـة حين رماهـا المنـافقون بالبهتـان و الفريـة فبرّأهـا اللّه من ذلـك، و كان عبـد اللّه بن أبىّ هو الخبيث، فكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة و يكون لها، و كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم طيبا، فكان أولى أن تكون له الطيبة، و كانت عائشة الطيبة، و كانت أولى بـأن يكون لها الطيب، و فى قوله: أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ قال: هاهنا برئت عائشـة. و أخرج ابن مردويه عن عائشـة قالت: لقد نزل عذرى من السماء، و لقد خلقت طيبة و عند طيب، و لقد وعدت مغفرة و أجرا عظيما.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَـلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَـدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (٢٩)

لما فرغ سـبحانه من ذكر الزجر عن الزنا و القذف، شـرع فى ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما فى ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدّى إلى أحد الأمرين المذكورين، و أيضا إن الإنسان يكون فى بيته و مكان خلوته على حالة لا يحبّ أن يراه عليها غيره، فنهى اللّه سـبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية، هى قوله: حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا و الاستئناس: الاسـتعلام و الاستخبار، أى: حتى تسـتعلموا ما فى البيت، و المعنى: حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم و تعلموا أنه قد أذن بدخولكم، فإذا علمتم ذلك دخلتم، و منه قوله: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً أى: علمتم. قال الخليل: الاستئناس: الاسـتكشاف، من أنس الشـىء: إذا أبصـره، كقوله: إِنِّي آنَسْتُ نـاراً* أى: أبصـرت. و قـال ابن جرير: إنه بمعنى و تؤنسوا أنفسـكم. قال ابن عطيـة: و تصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس. و معنى كلام ابن جرير هـذا أنه من الاستئناس الـذى هو خلاف الاستيحاش، لأن الذى يطرق باب غيره لا يدرى أ يـؤذن له أم لا؟ فهـو كالمسـتوحش حـتى يؤذن له، فـإذا أذن له اسـتأنس، فنهى سـبحانه عن دخول تلـك الـبيوت حـتى يؤذن للداخل. و قيل:

هو من الإنـس، و هو أن يتعرّف هـل ثم إنسـان أم لا؟ و قيـل: معنى الاستئناس: الاستئـذان، أى: لا تـدخلوها حتى تسـتأذنوا. قال الواحـدى: قـال جماعـة المفسـرين: حتى تسـتأذنوا، و يؤيـده مـا حكاه القرطبى عن ابن عباس و أبىّ و سـعيد بن جبير أنهم قرءوا «تسـتأذنوا» قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب: الاستئناس فيما يرى و اللّه أعلم: الاستئـذان، و قوله: وَ تُسَـلِّمُوا عَلى أَهْلِها قـد بينه النبى صلّى اللّه عليه و سلم كما سيأتى بأن يقول:

فتح القدير، ج۴، ص: ٢۴

السلام عليكم، أ أدخل؟ مرّة أو ثلاثا كما سيأتى.

و اختلفوا هل يقدّم الاستئذان على السـلام أو العكس، فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أ أدخل سلام عليكم، لتقديم الاستئناس فى الآية على السلام. و قال الأكثرون: إنه يقدّم السلام على الاستئذان فيقول:

السـلام عليكم أ أدخل، و هو الحقّ، لأن البيان منه صـلّى اللّه عليه و سـلم للآيـة كان هكذا. و قيل: إن وقع بصـره على إنسان قدّم السـلام، و إلا قدّم الاستئذان ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ الإشارة إلى الاستئناس و التسـليم، أى: دخولكم مع الاستئذان و السلام خير لكم من

الـدخول بغتـة لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ أن الاستئـذان خير لكم، و هـذه الجملـة متعلقـة بمقـدّر، أى: أمرتم بالاستئـذان، و المراد بالتذكر: الاتعاظ، و العمل بما أمروا به فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَـدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ أى: فإن لم تجـدوا فى البيوت التى لغيركم أحـدا ممن يستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن. و حكى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: معنى الآية فإن لم تجدوا فيها أحدا، أى: لم يكن لكم فيها متاع، و ضعفه و هو حقيق بالضعف، فإن المراد بالأحد المذكور أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها، لا متاع الداخلين إليها وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا أى:

قال لكم أهل البيت ارجعوا فارجعوا، و لا تعاودوهم بالاستئذان مرّة أخرى، و لا تنتظروا بعد ذلك أن يأذنوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع. ثم بين سبحانه أن الرجوع أفضل من الإلحاح، و تكرار الاستئذان، و القعود على الباب فقال: هُوَ أَزْكى لَكُمْ أى: أفضل «و أطهر» من التـدنس بالمشاحـة على الـدخول لما فى ذلك من سـلامة الصـدر، و البعـد من الريبة، و الفرار من الدناءة وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ أى لا جناح عليكم فى الدخول بغير استئذان إلى البيوت التى ليست بمسكونة.

و قـد اختلـف النـاس فى المراد بهـذه البيوت، فقـال محمـد بن الحنفيـة و قتـادة و مجاهـد: هى الفنـادق الـتى فى الطرق السـابلة الموضوعة لابن السبيل يأوى إليها. و قال ابن زيد و الشعبى: هى حوانيت القيساريات، قال الشعبى:

لأنهم جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها، و قالوا للناس: هلمّ. و قال عطاء: المراد بها الخرب التى يـدخلها الناس للبول و الغائط، ففى هـذا أيضا متاع. و قيل: هى بيوت مكة. روى ذلك عن محمد بن الحنفية أيضا، و هو موافق لقول من قال: إن الناس شركاء فيها، و لكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة.

و المتاع: المنفعة عند أهل اللغة، فيكون معنى الآية: فيها منفعة لكم، و منه قوله: «و متّعوهنّ» و قولهم:

أمتع اللّه بك، و قـد فسر الشعبى المتاع فى كلامه المتقـدّم بالأعيان التى تباع. قال جابر بن زيد: و ليس المراد بالمتاع الجهاز، و لكن ما سواه من الحاجـة. قال النحاس: و هو حسن موافق للّغة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ أى: ما تظهرون و ما تخفون، و فيه وعيد لمن لم يتأدّب بآداب اللّه فى دخول بيوت الغير.

و قد أخرج الفريابى و ابن جرير من طريق عدّى بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: قالت امرأة: يا رسول اللّه إنى أكون فى بيتى على الحالـة التى لا أحبّ أن يرانى عليها أحـد ولـد و لا والد، فيأتينى الأب فيدخل علىّ فكيف أصنع؟ و لفظ ابن جرير: و إنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى و أنا على تلك الحالة، فنزلت:

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۵

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ الآيـة. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى فى المصاحف و ابن منـدة فى غرائب شـعبة و الحاكم و صـححه، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعـب و الضياء فى المختارة من طرق عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا قال: أخطأ الكاتب حتى تستأذنوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِهـا. و أخرج سعيد بن منصور و عبـد ابن حميـد و ابن جرير و الـبيهقى عن إبراهيم النخعى قـال فى مصـحف عبـد اللّه «حتى تسلموا على أهلها و تستأذنوا». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عبـاس قـال: الاستئنـاس: الاستئـذان. و أخرج ابن أبى شيبة و الحكيم الترمـذى و الطبرانى و ابن مردويه و ابن أبى حاتم عن أبى أيوب قال: «قلت: يا رسول اللّه! أ رأيت قول اللّه تعالى:

حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها هذا التسليم قد عرفنا فما الاستئناس؟ قال: يتكلم الرجل بتسبيحة و تكبيرة و تحميدة و يتنحنح فيؤذن أهـل الـبيت». قـال ابن كـثير: هـذا حـديث غريب. و أخرج الطبرانى عن أبى أيوب أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قـال:

«الاستئناس: أن يدعو الخادم حتّى يستأنس أهل البيت الذين يسلّم عليهم».
و أخرج ابن سعد و أحمد و البخاری فی الأدب و أبو داود و الترمذی و النسائیّ و البیهقی فی الشعب من طریق کلدة «أن صفوان بن أمیة بعثه فی الفتح بلبأ و ضغابیس «۱»، و النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم بأعلی الوادی، قال: فدخلت علیه و لم أسلّم و لم أستأذن، فقال النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم: ارجع فقل: السّلام علیکم أ أدخل؟» قال الترمذی: حسن غریب لا نعرفه إلا من حدیثه. و أخرج ابن أبی شیبة و أحمد و البخاری فی الأدب و أبو داود و البیهقی فی السنن من طریق ربعیّ، قال: «حدثنا رجل من بنی عامر استأذن علی النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم و هو فی بیت، فقال: أ ألج؟
فقال النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم لخادمه: اخرج إلی هذا فعلّمه الاستئذان، فقل له: قل السّلام علیکم أ أدخل؟». و أخرج ابن جریر عن عمرو بن سعید الثقفی نحوه مرفوعا، و لکنه قال: «إنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم قال لأمة له یقال لها روضة:
قومی إلی هذا فعلّمیه». و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن أبی سعید الخدری قال: کنت جالسا فی مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسی فزعا، فقلنا له: ما أفزعک؟ قال: أمرنی عمر أن آتیه فأتیته، فاستأذنت ثلاثا فلم یؤذن لی، فقال: ما منعک أن تأتینی؟ فقلت: قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم یؤذن لی، و قد قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «إذا استأذن أحدکم ثلاثا فلم یؤذن له فلیرجع» قال: لتأتینی علی هذا بالبینة، فقالوا:
لا یقوم إلا أصغر القوم، فقام أبو سعید معه لیشهد له، فقال عمر لأبی موسی: إنی لم أتهمک، و لکن الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم شدید. و فی الصحیحین و غیرهما من حدیث سهل بن سعد قال: اطّلع رجل من جحر فی حجرة النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم و معه مدری «۲» یحکّ بها رأسه، قال: لو أعلم أنّک تنظر لطعنت بها فی عینک، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر. و فی لفظ: إنما جعل الإذن من أجل البصر. و أخرج أبو یعلی و ابن جریر

---

(۱). بلبأ و ضغابیس: اللّبأ: أول اللّبن، و الضّغابیس: صغار القثّاء.

(۲). مدری: المدری و المدراة: شیء یعمل من حدید أو خشب علی شکل سن من أسنان المشط و أطول منه یسرّح به الشعر المتلبد.

و ابن مردویه عن أنس قال: قال رجل من المهاجرین: لقد طلبت عمری کله فی هذه الآیة، فما أدرکتها، إن أستأذن علی بعض إخوانی، فیقول لی ارجع، فأرجع و أنا مغتبط لقوله: وَ إِنْ قِیلَ لَکُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْکی لَکُمْ و أخرج البخاری فی الأدب و أبو داود فی الناسخ و المنسوخ و ابن جریر عن ابن عباس قال:
یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتَّی تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلی أَهْلِها فنسخ، و استثنی من ذلک فقال: لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ مَسْکُونَةٍ فِیها مَتاعٌ لَکُمْ

[سورة النور (۲۴): الآیات ۳۰ الی ۳۱]

قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما یَصْنَعُونَ (۳۰) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ یَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها وَ لْیَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلی جُیُوبِهِنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِینَ غَیْرِ أُولِی الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِینَ لَمْ یَظْهَرُوا عَلی عَوْراتِ النِّساءِ وَ لا یَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِیُعْلَمَ

ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج تحته غضّ البصر من المستأذن، كما قال صلّى اللّه عليه و سلم: «إنما جعل الإذن من أجل البصر» و خص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا التى منها النظر، هم أحق من غيرهم بها، و أولى بذلك ممن سواهم. و قيل: إن فى الآية دليلا على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم، و فى الكلام حذف، و التقدير قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ غضوا يَغُضُّوا و معنى غضّ البصر: إطباق الجفن على العين بحيث تمتنع الرؤية، و منه قول جرير:

فغضّ الطّرف إنّك من نميرفلا كعبا بلغت و لا كلابا

و قول عنترة:

و أغضّ طرفى ما بدت لى جارتىحتّى يوارى جارتى مأواها

و «من» فى قوله: مِنْ أَبْصارِهِمْ هى: التبعيضية، و إليه ذهب الأكثرون، و بينوه بأن المعنى غضّ البصر عما يحرم و الاقتصار به على ما يحل. و قيل: وجه التبعيض أنه يعفى للناظر أوّل نظرة تقع من غير قصد.

و قال الأخفش: إنها زائدة و أنكر ذلك سيبويه. و قيل: إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء. و اعترض عليه بأنه لم يتقدّم مبهم يكون مفسرا بمن، و قيل: إنها لابتداء الغاية. قال ابن عطية: و قيل: الغضّ النقصان، يقال:

غضّ فلان من فلان: أى: وضع منه، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض منه و منقوص فتكون «من» صلة للغضّ، و ليست لمعنى من تلك المعانى الأربعة. و فى هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحلّ النظر إليه، و معنى وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم. و قيل: المراد ستر

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷

فروجهم عن أن يراها من لا تحلّ له رؤيتها، و لا مانع من إرادة المعنيين، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج.

قيل: و وجه المجيء بمن فى الأبصار دون الفروج أنه موسع فى النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى، بخلاف حفظ الفرج فإنه مضيّق فيه، فإنه لا يحلّ منه إلا ما استثنى. و قيل: الوجه أن غضّ البصر كله كالمتعذر، بخلاف حفظ الفرج فإنه ممكن على الإطلاق، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من الغضّ و الحفظ، و هو مبتدأ، و خبره أَزْكى لَهُمْ أى: أظهر لهم من دنس الريبة و أطيب من التلبس بهذه الدنيئة إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ لا يخفى عليه شىء من صنعهم، و فى ذلك وعيد لمن لم يغضّ بصره و يحفظ فرجه وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَ خصّ سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهنّ تحت خطاب المؤمنين تغليبا كما فى سائر الخطابات القرآنية، و ظهر التضعيف فى يغضضن و لم يظهر فى يغضوا، لأن لام الفعل من الأوّل متحرّكة و من الثانى ساكنة و هما فى موضع جزم جوابا للأمر، و بدأ سبحانه بالغضّ فى الموضعين قبل حفظ الفرج، لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج، و الوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه، و معنى: يغضضن من أبصارهنّ كمعنى يغضوا من أبصارهم، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يحرم عليهنّ، و كذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهنّ على الوجه الذى تقدّم فى حفظ الرجال لفروجهم وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَ أى: ما يتزيّن به من الحلية و غيرها، و فى النهى عن إبداء الزينة، نهى عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهى، فقال: إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها.

و اختلف الناس فى ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابن مسعود و سعيد بن جبير: ظاهر الزينة هو الثياب و زاد سعيد بن جبير الوجه. و قال عطاء و الأوزاعى: الوجه و الكفان. و قال ابن عباس و قتادة و المسور بن مخرمة:

ظاهر الزينة هو الكحل و السواك و الخضاب إلى نصف الساق و نحو ذلك، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه. و قال ابن عطية: إن

المرأة لا تبدى شيئا من الزينة و تخفى كل شيء من زينتها، و وقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة. و لا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآنى النهى عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب و الخمار و نحوهما مما على الكف و القدمين من الحلية و نحوها، و إن كان المراد بالزينة مواضعها كان الاستثناء راجعا إلى ما يشق على المرأة ستره كالكفين و القدمين و نحو ذلك. و هكذا إذا كان النهى عن إظهار الزينة يستلزم النهى عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب، فإنه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه فى الموضعين؛ و أما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة و ما تتزين به النساء فالأمر واضح، و الاستثناء يكون من الجميع. قال القرطبى فى تفسيره:

الزينة على قسمين: خلقية، و مكتسبة؛ فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة، و الزينة المكتسبة ما تحاوله المرأة فى تحسين خلقها كالثياب و الحلى و الكحل و الخضاب، و منه قوله تعالى: خُذُوا زِينَتَكُمْ «۱» و قول الشاعر:

يأخذن زينتهنّ أحسن ما ترىو إذا عطلن فهنّ خير عواطل

وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَ قرأ الجمهور بإسكان اللام التى للأمر. و قرأ أبو عمرو بكسرها

---

(۱). الأعراف: ۳۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸

على الأصل لأن أصل لام الأمر الكسر، و رويت هذه القراءة عن ابن عباس: و الخمر جمع خمار، و منه:

اختمرت المرأة و تخمرت. و الجيوب: جمع جيب، و هو موضع القطع من الدرع و القميص، مأخوذ من الجوب و هو القطع. قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كنّ يسدلن خمرهنّ من خلفهنّ، و كانت جيوبهنّ من الأمام واسعة، فكان تنكشف نحورهنّ و قلائدهنّ، فأمرن أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو، و فى لفظ الضرب مبالغة فى الإلقاء الذى هو الإلصاق. قرأ الجمهور «بخمرهنّ» بتحريك الميم، و قرأ طلحة بن مصرف بسكونها. و قرأ الجمهور «جيوبهنّ» بضم الجيم، و قرأ ابن كثير و بعض الكوفيين بكسرها، و كثير من متقدمى النحويين لا يجوّزون هذه القراءة. و قال الزجاج: يجوز أن يبدل من الضمة كسرة، فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم و الكسر، فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء، و قد فسر الجمهور الجيوب بما قدّمنا، و هو المعنى الحقيقى. و قال مقاتل: إن معنى على جيوبهنّ: على صدورهنّ، فيكون فى الآية مضاف محذوف، أى: على مواضع جيوبهنّ. ثم كرر سبحانه النهى عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء فقال: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَ البعل: هو الزوج و السيد فى كلام العرب، و قدّم البعولة لأنهم المقصودون بالزينة، و لأن كل بدن الزوجة و السرية حلال لهم، و مثله قوله سبحانه: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* «۱» ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوى المحارم فقال: أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَ إلى قوله: أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَ فجوّز للنساء أن يبدين الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة و عدم خشية الفتنة لما فى الطباع من النفرة عن القرائب. و قد روى عن الحسن و الحسين رضى اللّه عنهما أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين، ذهابا منهما إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم و هى قوله: لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَ و المراد بأبناء بعولتهنّ: ذكور أولاد الأزواج، و يدخل فى قوله: أَوْ أَبْنائِهِنَ أولاد الأولاد و إن سفلوا، و أولاد بناتهنّ و إن سفلوا، و كذا آباء البعولة، و آباء الآباء، و آباء الأمهات و إن علوا، و كذلك أبناء البعولة و إن سفلوا، و كذلك أبناء الإخوة و الأخوات. و ذهب الجمهور إلى أن العمّ و الخال كسائر المحارم فى جواز النظر إلى ما يجوز لهم، و ليس فى الآية ذكر الرضاع، و هو كالنسب. و قال الشعبى و عكرمة: ليس العمّ و الخال من المحارم، و معنى أَوْ نِسائِهِنَ هنّ المختصات بهنّ الملابسات لهنّ بالخدمة أو الصحبة، و يدخل فى ذلك الإماء، و

يخرج من ذلک نساء الكفار من أهل الذمة و غيرهم، فلا يحل لهنّ أن يبدين زينتهنّ لهنّ لأنهن لا يتحرجنّ عن وصفهنّ للرجال. و فى هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، و إضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلک بالمؤمنات أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ ظاهر الآية يشمل العبيد و الإماء، من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين، و به قال جماعة من أهل العلم، و إليه ذهبت عائشة و أمّ سلمة و ابن عباس و مالک. و قال سعيد ابن المسيب: لا تغرّنكم هذه الآية أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ إنما عنى بها الإماء و لم يعن بها العبيد. و كان الشعبى يكره أن ينظر المملوک إلى شعر مولاته، و هو قول عطاء و مجاهد و الحسن و ابن سيرين، و روى عن

---

(۱). المؤمنون: ۵ و ۶ و المعارج: ۲۹ و ۳۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹

ابن مسعود، و به قال أبو حنيفة و ابن جريج أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِی الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ قرأ الجمهور غير: بالجر. و قرأ أبو بكر و ابن عامر بالنصب على الاستثناء، و قيل: على القطع، و المراد بالتابعين: هم الذين يتبعون القوم فيصيبون من طعامهم لا همة لهم إلا ذلک، و لا حاجة لهم فى النساء قال مجاهد و عكرمة و الشعبى، و من الرجال فى محل نصب على الحال. و أصل الإربة و الأرب و المأربة الحاجة و الجمع مآرب، أى: حوائج، و منه قوله سبحانه: وَ لِیَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى «۱» و مه قول طرفة:

إذا المرء قال الجهل و الحوب «۲» و الخناتقدّم يوما ثم ضاعت مآربه

و قيل: المراد بغير أولى الإربة من الرجال الحمقى الذين لا حاجة لهم فى النساء، و قيل: البله، و قيل: العنّين، و قيل: الخصىّ، و قيل: المخنّث، و قيل: الشيخ الكبير، و لا وجه لهذا التخصيص، بل المراد بالآية ظاهرها و هم من يتبع أهل البيت، و لا حاجة له فى النساء، و لا يحصل منه ذلک فى حال من الأحوال، فيدخل من هؤلاء من هو بهذه الصفة و يخرج من عداه أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ الطفل: يطلق على المفرد و المثنى و المجموع، أو المراد به هنا الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع، و فى مصحف أبىّ «أو الأطفال» على الجمع، يقال للإنسان طفل: ما لم يراهق الحلم، و معنى لم يظهروا: لم يطلعوا، من الظهور بمعنى الاطلاع، قال ابن قتيبة. و قيل معناه: لم يبلغوا حدّ الشهوة، قاله الفراء و الزجاج، يقال ظهرت على كذا: إذا غلبته و قهرته. و المعنى: لم يطلعوا على عورات النساء و يكشفوا عنها للجماع، أو لم يبلغوا حدّ الشهوة للجماع. قراءة الجمهور «عورات» بسكون الواو تخفيفا، و هى لغة جمهور العرب. و قرأ ابن عامر فى رواية بفتحها. و قرأ بذلک ابن أبى إسحاق و الأعمش. و رويت هذه القراءة عن ابن عباس، و هى لغة هذيل بن مدركة، و منه قول الشاعر الذى أنشده الفراء:

أخو بيضات رائح متأوبرفيق بمسح المنكبين سبوح

و اختلف العلماء فى وجوب ستر ما عدا الوجه، و الكفين من الأطفال، فقيل: لا يلزم لأنه لا تكليف عليه و هو الصحيح؛ و قيل: يلزم لأنه قد يشتهى المرأة. و هكذا اختلف فى عورة الشيخ الكبير الذى قد سقطت شهوته، و الأولى: بقاء الحرمة كما كانت، فلا يحلّ النظر إلى عورته و لا يحلّ له أن يكشفها.

و قد اختلف العلماء فى حدّ العورة. قال القرطبى: أجمع المسلمون على أن السوأتين عورة من الرجل و المرأة، و أن المرأة كلها عورة إلا وجهها و يديها على خلاف فى ذلک. و قال الأكثر: إن عورة الرجل من سرّته إلى ركبته وَ لا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَ أى: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال.

قال الزجاج: و سماع هذه الزينة أشدّ تحريكا للشهوة من إبدائها. ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصى فقال سبحانه:

---

(۱). طه: ۱۸.

(۲). الحوب: بضم الحاء و فتحها؛ الإثم. و الخنا: الفحش.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰

وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فيه الأمر بالتوبة، و لا خلاف بين المسلمين فى وجوبها و أنها فرض من فرائض الدين. و قد تقدّم الكلام على التوبة فى سورة النساء. ثم ذكر ما يرغبهم فى التوبة، فقال: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى:

تفوزون بسعادة الدنيا و الآخرة، و قيل: إن المراد بالتوبة هنا هى عما كانوا يعملونه فى الجاهلية، و الأوّل أولى لما تقرر فى السنة أن الإسلام يجبّ ما قبله.

و قد أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: مرّ رجل على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة و نظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط و هو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط فشقّ أنفه، فقال:

و اللّه لا أغسل الدّم حتى آتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأعلمه أمرى، فأتاه فقصّ عليه قصّته، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم:

هذا عقوبة ذنبك، و أنزل اللّه قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ قال: يعنى من شهواتهم مما يكره اللّه.

و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و الترمذى و البيهقى فى سننه عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تتبع النّظرة النّظرة؛ فإنّ الأولى لك و ليست لك الأخرى» و فى مسلم و أبى داود و الترمذى و النسائى عن جرير البجلى قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن نظرة الفجأة، فأمرنى أن أصرف بصرى» و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إيّاكم و الجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول اللّه ما لنا بدّ من مجالسنا نتحدّث فيها، فقال: إن أبيتم فأعطوا الطريق حقّه، قالوا: و ما حقّه يا رسول اللّه؟

قال: غضّ البصر، و كفّ الأذى، و ردّ السّلام، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر». و أخرج البخارى و أهل السنن و غيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال: «قلت: يا رسول اللّه عوراتنا ما نأتى منها و ما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قلت: يا نبىّ اللّه إذا كان القوم بعضهم فى بعض، قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينّها، قلت: إذا كان أحدنا خاليا، قال: فاللّه أحقّ أن يستحيى منه من الناس» و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كتب اللّه على ابن آدم حظّه من الزّنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، و زنا اللسان النّطق، و زنا الأذنين السّماع، و زنا اليدين البطش، و زنا الرجلين الخطو، و النّفس تتمنى، و الفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه». و أخرج الحاكم و صححه عن حذيفة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف اللّه أثابه اللّه إيمانا يجد حلاوته فى قلبه» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل قال: بلغنا و اللّه أعلم أن جابر بن عبد اللّه الأنصارى حدّث أن أسماء بنت يزيد كانت فى نخل لها لبنى حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما فى أرجلهن، يعنى الخلاخل، و تبدو صدورهنّ و ذوائبهنّ، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل اللّه ذلك وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَ الآية؛ و فيه مع كونه مرسلا مقاتل. و أخرج

عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱

مسعود فى قوله: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَ قال: الزينة السوار و الدملج «۱» و الخلخال و القرط و القلادة إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها قال: الثياب و الجلباب. و أخرج ابن شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: الزينة زينتان:

زينة ظاهرة و زينة باطنة لا يراها إلا الزوج، فأما الزينة الظاهرة فالثياب، و أما الزينة الباطنة فالكحل و السوار و الخاتم. و لفظ ابن جرير: فالظاهرة منها: الثياب، و ما خفى: الخلخالان، و القرطان، و السواران. و أخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله: إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها قال: الكحل و الخاتم. و أخرج سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن ابن عباس وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها قال:

الكحل و الخاتم و القرط و القلادة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عنه قال: هو خضاب الكفّ و الخاتم.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن ابن عمر قال: الزينة الظاهرة الوجه و الكفان. و أخرجا عن ابن عباس قال: إلا ما ظهر منها وجهها و كفاها و الخاتم، و أخرجا أيضا عنه قال: رقعة الوجه، و باطن الكفّ. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن عائشة أنها سئلت عن الزينة الظاهرة قال:

القلب «۲» و الفتخ «۳»، و ضمّت طرف كمها. و أخرج أبو داود و ابن مردويه و البيهقى عن عائشة: أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى صلّى اللّه عليه و سلم و عليها ثياب رقاق، فأعرض عنها و قال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا، و أشار إلى وجهه و كفه. قال أبو داود و أبو حاتم الرازى: هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة و لم يسمع منها. و أخرج البخارى و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن عائشة: قالت: «رحم اللّه نساء المهاجرات الأولات لما أنزل اللّه وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَ شققن أكثف مروطهنّ فاختمرن به». و أخرج ابن جرير و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنها بلفظ: أخذ النساء أزرهنّ فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها و الزينة الظاهرة الوجه و كحل العينين و خضاب الكفّ و الخاتم، فهذا تظهره فى بيتها لمن دخل عليها.

ثم قال: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَ الآية، و الزينة التى تبديها لهؤلاء قرطها و قلادتها و سوارها، فأما خلخالها و معضدها و نحرها و شعرها فإنها لا تبديه إلا لزوجها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أَوْ نِسائِهِنَ قال: هنّ المسلمات، لا تبديه ليهودية، و لا لنصرانية، و هو النحر و القرط و الوشاح، و ما يحرم أن يراه إلا محرم. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبى عبيدة: أما بعد، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانه من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحلّ لامرأة تؤمن باللّه و اليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلى أهل ملتها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس قال: لا بأس أن يرى العبد

---

(۱). الدّملج: الحلّى يوضع فى العضد.

(۲). القلب: الأساور.

(۳). قال فى النهاية: الفتخ: خواتيم كبار توضع فى الأيدى و ربما فى الأرجل.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۲

شعر سيدته. و أخرج أبو داود و ابن مردويه و البيهقى عن أنس «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أتى فاطمة بعبد قد وهب لها و على فاطمة ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، و إذا غطّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك و غلامك» و إسناده فى سنن أبى داود هكذا: حدّثنا محمد ابن عيسى حدّثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس فذكره. و أخرج عبد الرزاق و أحمد عن أم سلمة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا كان لإحداكنّ مكاتب، و كان له ما يؤدى فلتحتجب منه»، و إسناد أحمد هكذا: حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن نبهان عن أم سلمة فذكره. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ قال: هذا الذى لا تستحى منه النساء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال: هذا الرجل يتبع القوم و هو مغفل فى عقله، لا يكترث للنساء و لا يشتهى النساء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى الآية قال: كان الرجل يتبع الرجل فى الزمان الأوّل لا يغار عليه و لا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده، و هو الأحمق الذى لا حاجة له فى النساء. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: هو المخنّث الذى لا يقوم قضيبه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن عائشة قالت: «كان رجل يدخل على أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم مخنّث، فكانوا يدعونه من غير أولى الإربة، فدخل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يوما و هو عند بعض نسائه و هو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، و إذا أدبرت أدبرت بثمان، قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: ألا أرى هذا يعرف ما هاهنا لا يدخلنّ عليكم» فحجبوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَ و هو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون فى رجلها خلاخل فتحركهن عند الرجال، فنهى اللّه عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۳۲) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۳) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ مَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۳۴)

لما أمر سبحانه بغضّ الأبصار، و حفظ الفروج، أرشد بعد ذلك إلى ما يحلّ للعباد من النكاح الذى يكون به قضاء الشهوة، و سكون دواعى الزنا، و يسهل بعده غضّ البصر عن المحرّمات، و حفظ الفرج عما لا يحل، فقال: وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ الأيم: التى لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا، و الجمع أيامى، و الأصل أيايم، و الأيم بتشديد الياء، و يشمل الرجل و المرأة. قال أبو عمرو و الكسائى: اتفق أهل اللغة على أن الأيم

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۳

فى الأصل هى المرأة التى لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا. قال أبو عبيد: يقال رجل أيم و امرأة أيم، و أكثر ما يكون فى النساء، و هو كالمستعار فى الرجال، و مه قول أميّة بن أبى الصّلت:

للّه درّ بنى علىأيّم منهم و ناكح

و منه أيضا قول الآخر:

لقد إمت حتى لامنى كلّ صاحب‌رجاء بسلمى أن تئيم كما إمت

و الخطاب فى الآية: للأولياء، و قيل: للأزواج، و الأوّل أرجح، و فيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها، و قد خالف فى ذلك أبو حنيفة.

و اختلف أهل العلم فى النكاح هل هو مباح، أو مستحب، أو واجب؟ فذهب إلى الأوّل: الشافعى و غيره، و إلى الثانى: مالك و أبو حنيفة، و إلى الثالث: بعض أهل العلم على تفصيل لهم فى ذلك، فقالوا:

إن خشى على نفسه الوقوع فى المعصية وجب عليه، و إلا فلا. و الظاهر أن القائلين بالإباحة و الاستحباب لا يخالفون فى الوجوب مع تلك الخشية، و بالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله صلّى اللّه عليه و سلم فى الحديث الصحيح بعد ترغيبه فى النكاح: «و من رغب عن سنتى فليس منى» و لكن مع القدرة عليه، و على مؤنه كما سيأتى قريبا، و المراد بالأيامى هنا: الأحرار و الحرائر، و أما المماليك فقد بين ذلك بقوله: وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ قرأ الجمهور «عبادكم» و قرأ الحسن «عبيدكم» قال الفراء: و يجوز و إماءكم بالنصب بردّه على الصالحين، و الصلاح: هو الإيمان. و ذكر سبحانه الصلاح فى المماليك دون الأحرار لأن الغالب فى الأحرار الصلاح بخلاف المماليك، و فيه دليل على أن المملوك لا يزوّج نفسه، و إنما يزوّجه مالكه. و قد ذهب الجمهور إلى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده و أمته على النكاح. و قال مالك: لا يجوز. ثم رجع سبحانه إلى الكلام فى الأحرار فقال: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أى لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل و المرأة أو أحدهما، فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه سبحانه، و يتفضل عليهم بذلك. قال الزجاج: حثّ اللّه على النكاح و أعلم أنه سبب لنفى الفقر، و لا يلزم أن يكون هذا حاصلا لكل فقير إذا تزوّج، فإن ذلك مقيد بالمشيئة. و قد يوجد فى الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوّجوا. و قيل المعنى:

إنه يغنيه بغنى النفس، و قيل المعنى: إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم اللّه من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا.

و الوجه الأوّل أولى، و يدلّ عليه قوله سبحانه: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ «۱» فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك، و جملة وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ مؤكدة لما قبلها و مقرّرة لها، و المراد أن سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده عليم بمصالح خلقه، يغنى من يشاء و يفقر من يشاء. ثم ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح، بعد بيان جواز مناكحتهم، إرشادا لهم إلى ما هو الأولى فقال: وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً استعفّ طلب أن يكون عفيفا، أى: ليطلب العفة عن الزنا

---

(۱). التوبة: ۲۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴

و الحرام من لا يجد نكاحا، أى: سبب نكاح، و هو المال. و قيل: النكاح هنا ما تنكح به المرأة من المهر و النفقة، كاللحاف: اسم لما يلتحف به، و اللباس: اسم لما يلبس، و قيد سبحانه هذا النهى بتلك الغاية، و هى حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أى: يرزقهم رزقا يستغنون به و يتمكنون بسببه من النكاح، و فى هذه الآية ما يدل على تقييد، الجملة الأولى: و هى إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه بالمشيئة كما ذكرنا، فإنه لو كان وعدا حتما، لا محالة فى حصوله، لكان الغنى و الزواج متلازمين، و حينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة، فإنه سيغنى عند تزوّجه لا محالة، فيكون فى تزوّجه مع فقره تحصيل للغنى، إلا أن يقال: إن هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادئ النكاح، و لا ينافى ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح، فإنه قد صدق عليه أنه لم

يجد نكاحا إذا كان غير واجد لأسبابه التى يتحصل بها، و أعظمها: المال. ثم لما رغب سبحانه فى تزويج الصالحين من العبيد و الإماء، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار فقال: وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ الموصول فى محل رفع، و يجوز أن يكون فى محل نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده، أى: و كاتبوا الذين يبتغون الكتاب: كالمكاتبة، يقال: كاتب يكاتب كتابا و مكاتبة، كما يقال قاتل يقاتل قتالا و مقاتلة. و قيل: الكتاب هاهنا اسم عين للكتاب الذى يكتب فيه الشىء، و ذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه، و على أنفسهم بذلك كتابا، فيكون المعنى الذين يطلبون كتاب المكاتبة. و معنى المكاتبة فى الشرع: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما، فإذا أدّاه فهو حرّ، و ظاهر قوله: فَكاتِبُوهُمْ أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده، و هو إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً و الخير هو القدرة على أداء ما كوتب عليه، و إن لم يكن له مال، و قيل: هو المال فقط، كما ذهب إليه مجاهد و الحسن و عطاء و الضحاک و طاوس و مقاتل. و ذهب إلى الأوّل ابن عمر و ابن زيد، و اختاره مالک، و الشافعى و الفراء و الزجاج. قال الفراء: يقول إن رجوتم عندهم وفاء، و تأدية للمال. و قال الزجاج: لما قال: «فيهم» كان الأظهر الاكتساب، و الوفاء و أداء الأمانة. و قال النخعى: إن الخير: الدين و الأمانة. و روى مثل هذا عن الحسن. و قال عبيدة السلمانى: إقامة الصلاة.

قال الطحاوى: و قول من قال إنه المال لا يصح عندنا، لأن العبد مال لمولاه فكيف يكون له مال؟ قال:

و المعنى عندنا إن علمتم فيهم الدين و الصدق. قال أبو عمر بن عبد البرّ: من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال: إن علمتم فيهم مالا، و إنما يقال علمت فيه الخير و الصلاح و الأمانة، و لا يقال علمت فيه المال.

هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم فى الخبر المذكور فى هذه الآية. و إذا تقرّر لک هذا، فاعلم أنه قد ذهب ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور فى الآية من الوجوب، أما عكرمة و عطاء و مسروق و عمرو بن دينار و الضحاک: و أهل الظاهر، فقالوا: يجب على السيد أن يكاتب مملوكه، إذا طلب منه ذلک و علم فيه خيرا.

و قال الجمهور من أهل العلم: لا يجب ذلک، و تمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلک و لم يجبر عليه، فكذا الكتابة لأنها معاوضة.

و لا يخفاک أن هذه حجة واهية و شبهة داحضة، و الحق ما قاله الأوّلون، و به قال عمر بن الخطاب و ابن

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵

عباس و اختاره ابن جرير. ثم أمر سبحانه الموالى بالإحسان إلى المكاتبين، فقال: وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِی آتاكُمْ ففى هذه الآية الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة، إما بأن يعطوهم شيئا من المال، أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه، و ظاهر الآية عدم تقدير ذلک بمقدار، و قيل: الثلث، و قيل: الربع، و قيل:

العشر، و لعل وجه تخصيص الموالى بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم، و سياق الكلام معهم فإنهم المأمورون بالكتابة. و قال الحسن و النخعى و بريدة: إن الخطاب بقول: و آتوهم لجميع الناس. و قال زيد بن أسلم:

إن الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما فى قوله سبحانه: وَ فِی الرِّقابِ* «۱»، و للمكاتب أحكام معروفة إذا و فى ببعض مال الكتابة. ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالى إلى نكاح الصالحين من المماليک، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا فقال: وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ و المراد بالفتيات هنا: الإماء، و إن كان الفتى و الفتاة قد يطلقان على الأحرار فى مواضع أخر.

و البغاء: الزنا، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء إذا زنت، و هذا مختصّ بزنا النساء، فلا يقال للرجل إذا زنا إنه بغىّ، و شرط اللّه سبحانه هذا النهى بقوله: إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادتهم للتحصن، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن

يقال لها مكرهة على الزنا، و المراد بالتحصن هنا: التعفف و التزوج. و قيل: إن هذا القيد راجع إلى الأيامى. قال الزجاج و الحسن بن الفضل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: و أنكحوا الأيامى، و الصالحين من عبادكم، و إمائكم إن أردن تحصنا. و قيل: هذا الشرط ملغى. و قيل:

إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه، فإنهم كانوا يكرهونهنّ و هنّ يردن التعفف، و ليس لتخصص النهى بصورة إرادتهنّ التعفف. و قيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب، لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن، و هذا الوجه أقوى هذه الوجوه، فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال و لا للحرام، كما فيمن لا رغبة لها فى النكاح كالصغيرة، فتوصف بأنها مكرهة على الزنا، مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن، إلا أن يقال إن المراد بالتحصن هنا مجرّد التعفف، و أنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن و هو بعيد، فقد قال الحبر ابن عباس: إن المراد بالتحصن: التعفف و التزوّج، و تابعه على ذلك غيره، ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله: لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا و هو ما تكسبه الأمة بفرجها، و هذا التعليل أيضا خارج مخرج الغالب، و المعنى: أن هذا العرض هو الذى كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء فى الغالب، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلا، لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدلّ هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها، إذا لم يكن مبتغيا بإكراهها عرض الحياة الدنيا. و قيل: إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عادتهم كانت كذلك، لا أنه مدار للنهى عن الإكراه لهنّ، و هذا يلاقى المعنى الأوّل و لا يخالفه وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ هذا مقرّر لما قبله و مؤكد له، و المعنى: أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود و جابر بن عبد اللّه و سعيد بن جبير:

---

(١). البقرة: ١٧٧.

فإن اللّه غفور رحيم لهنّ. قيل: و فى هذا التفسير بعد، لأن المكرهة على الزنا غير آثمة. و أجيب بأنها، و إن كانت مكرهة، فربما لا تخلو فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إما بحكم الجبلة البشرية، أو يكون الإكراه قاصرا عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار. و قيل: إن المعنى: فإن اللّه من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهم: إما مطلقا، أو بشرط التوبة. و لما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع فى وصف القرآن بصفات ثلاث:

الأولى: أنه آيات مبينات، أى: واضحات فى أنفسهن أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة فى هذه الصورة دخولا أوّليا. و الصفة الثانية: كونه مثلا من الذين خلوا من قبل هؤلاء، أى: مثلا كائنا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة، و الأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة، فإن العجب من قصة عائشة رضى اللّه عنها، هو كالعجب من قصة يوسف و مريم و ما اتهما به، ثم تبين بطلانه و براءتهما سلام اللّه عليهما. و الصفة الثالثة: كونه مَوْعِظَةً ينتفع بها المتقون خاصة، فيقتدون بما فيه من الأوامر، و ينزجرون عما فيه من النواهى. و أما غير المتقين، فإن اللّه قد ختم على قلوبهم، و جعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ، و الاعتبار بقصص الذين خلوا، و فهم ما تشمل عليه الآيات البينات.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى الآية قال: أمر اللّه سبحانه بالنكاح و رغبهم فيه، و أمرهم أن يزوّجوا أحرارهم و عبيدهم، و وعدهم فى ذلك الغنى فقال: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصّدّيق قال: أطيعوا اللّه فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ و أخرج عبد الرزاق فى المصنف و عبد بن حميد عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب

قال:
ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى فى الباءة، و قد وعد اللّه فيها ما وعد، فقال: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة عنه نحوه من طريق أخرى. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. و أخرج البزار و الدارقطنى فى العلل و الحاكم و ابن مردويه و الديلمى من طريق عروة عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «انكحوا النساء، فإنهنّ يأتينكم بالمال». و أخرجه ابن أبى شيبة و أبو داود فى مراسيله عن عروة مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم و لم يذكر عائشة و هو مرسل. و أخرج عبد الرزاق و أحمد و الترمذى و صححه و النسائى و ابن ماجة و ابن حبان و الحاكم و صححه و البيهقى فى السنن عن أبى هريرة قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ثلاثة حقّ على اللّه عونهم: النّاكح يريد العفاف، و المكاتب يريد الأداء، و الغازى فى سبيل اللّه» و قد ورد فى الترغيب فى مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج الخطيب فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله: وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً قال: ليتزوّج من لا يجد فإن اللّه سيغنيه. و أخرج ابن السكن فى معرفة الصحابة عن عبد اللّه بن صبيح عن أبيه قال: كنت مملوكا لحويطب ابن عبد العزى، فسألته الكتابة فأبى، فنزلت وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ الآية. و أخرج عبد الرزاق و عبد ابن حميد و ابن جرير عن أنس بن مالك قال: سألنى سيرين المكاتبة فأبيت عليه، فأتى عمر بن الخطاب فأقبل علىّ بالدرّة و قال: كاتبه و تلا فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً فكاتبته. قال ابن كثير: إن إسناده
فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷
صحيح. و أخرج أبو داود فى المراسيل و البيهقى فى سننه عن يحيى بن أبى كثير قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:
فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً قال: إن علمتم فيهم حرفة، و لا ترسلوهم كلّا على الناس». و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً قال: المال. و أخرج ابن مردويه عن علىّ مثله. و أخرج البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: أمانة و وفاء.
و أخرج عنه أيضا قال: إن علمت مكاتبك يقضيك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عنه فى الآية قال: إن علمتم لهم حيلة، و لا تلقوا مؤنتهم على المسلمين وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ يعنى: ضعوا عنهم من مكاتبتهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن نافع قال: كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة و يقول: يطعمنى من أوساخ الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس فى قوله: وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الآية: أمر المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب. و قال علىّ بن أبى طالب: أمر اللّه السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه. و هذا تعليم من اللّه ليس بفريضة، و لكن فيه أجر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الرويانى فى مسنده و الضياء المقدسى فى المختارة عن بريدة فى الآية قال: حثّ الناس عليه أن يعطوه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و مسلم، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى من طريق أبى سفيان عن جابر بن عبد اللّه قال: كان عبد اللّه بن أبىّ يقول الجارية له: اذهبى فابغينا شيئا، و كانت كارهة، فأنزل اللّه وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَ لهنّ غَفُورٌ رَحِيمٌ هكذا كان يقرؤها، و ذكر مسلم فى صحيحه عن جابر أن جارية لعبد اللّه بن أبىّ: يقال لها مسيكة، و أخرى يقال لها أميمة، فكان يريدهما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ الآية. و أخرج البزار و ابن مردويه عن أنس نحو حديث جابر الأول.
و أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى الآية قال: كان أهل الجاهلية يبغين إماءهم، فنهوا عن ذلك فى الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهنّ فنزلت الآية. و قد

ورد النهى منه صلّى اللّه عليه و سلم عن مهر البغىّ و كسب الحجام و حلوان الكاهن.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٣٥ الى ٣٨]

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِي‌ءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (٣٦) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٨)

فتح القدير، ج‌۴، ص: ٣٨

لما بيّن سبحانه من الأحكام ما بين، أردف ذلك بكونه سبحانه فى غاية الكمال فقال اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، و الاسم الشريف: مبتدأ، و نور السموات و الأرض:

خبره، إما على حذف مضاف، أى: ذو نور السموات و الأرض، أو لكون المراد المبالغة فى وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله و ظهور عدله و بسط أحكامه، كما يقال فلان نور البلد و قمر الزمن و شمس العصر، و منه قول النابغة:

فإنك شمس و الملوك كواكبإذا ظهرت لم يبق فيهنّ كوكب «١»

و قول الآخر:

هلّا خصصت من البلاد بمقصدقمر القبائل خالد بن يزيد

و من ذلك قول الشاعر:

إذا سار عبد اللّه من مرو ليلةفقد سار منها نورها و جمالها

و قول الآخر:

نسب كأنّ عليه من شمس الضّحىنورا و من فلق الصّباح عمودا

و معنى النور فى اللغة: الضياء، و هو الذى يبين الأشياء و يرى الأبصار حقيقة ما تراه، فيجوز إطلاق النور على اللّه سبحانه على طريقة المدح، و لكونه أوجد الأشياء المنوّرة و أوجد أنوارها و نوّرها، و يدلّ على هذا المعنى قراءة زيد بن علىّ، و أبى جعفر و عبد العزيز المكى «اللّه نور السموات و الأرض» على صيغة الفعل الماضى، و فاعله ضمير يرجع إلى اللّه، و السموات مفعوله؛ فمعنى اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما و كمال تدبيره عزّ و جلّ لمن فيهما، كما يقال: الملك نوّر البلد، هكذا قال الحسن و مجاهد و الأزهرى و الضحاك و القرظى و ابن عرفة و ابن جرير و غيرهم، و مثله قول الشاعر:

و أنت لنا نور و غيث و عصمةو نبت لمن يرجو نداك و ريق

و قال هشام الجواليقى و طائفة من المجسمة: إنه سبحانه نور لا كالأنوار، و جسم لا كالأجسام، و قوله:

مَثَلُ نُورِهِ مبتدأ. و خبره كَمِشْكاةٍ أى: صفة نوره الفائض عنه، الظاهر على الأشياء كمشكاة، و المشكاة: الكوّة فى الحائط غير النافذة، كذا حكاه الواحدى عن جميع المفسرين، و حكاه القرطبى عن جمهورهم. و وجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذى يكون فيه، من مصباح أو غيره، و أصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشي‌ء. و قيل: المشكاة عمود القنديل الذى فيه الفتيلة. و قال مجاهد: هى القنديل. و الأوّل أولى، و منه قول الشاعر:

كأنّ عينيه مشكاتان فى حجر

---

(۱). و فى رواية: إذا طلعت لم يبد منهن كوكب.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۹

ثم قال: فِيها مِصْباحٌ و هو السراج الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ قال الزجاج: النور فى الزجاج، وضوء النار أبين منه فى كل شىء، و ضوؤه يزيد فى الزجاج، و وجه ذلك: أن الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور. ثم وصف الزجاجة فقال: الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ أى: منسوب إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء و الحسن ما يشابه الدرّ. و قال الضحاك: الكوكب الدّرى: الزهرة. قرأ أبو عمرو «درّئ» بكسر الدال. قال أبو عمرو: لم أسمع أعرابيا يقول: إلا كأنه كوكب درّئ بكسر الدال، أخذوه من درأت النجوم تدرأ إذا اندفعت. و قرأ حمزة بضم الدال مهموزا، و أنكره الفراء و الزجاج و المبرد.

و قال أبو عبيد: إن ضممت الدال وجب أن لا تهمز، لأنه ليس فى كلام العرب. و الدّرارى: هى المشهورة من الكواكب كالمشترى و الزهرة و المريخ و ما يضاهيها من الثوابت. ثم وصف المصباح بقوله: يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ و من هذه: هى الابتدائية، أى: ابتداء إيقاد المصباح منها، و قيل: هو على تقدير مضاف، أى: يوقد من زيت شجرة مباركة، و المباركة: الكثيرة المنافع. و قيل: المنماة، و الزيتون من أعظم الثمار نماء، و منه قول أبى طالب يرثى مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس:

ليت شعرى مسافر بن أبى عمروو ليت يقولها المحزون

بورك الميت الغريب كما بورك نبع الرّمان و الزيتون

قيل: و من بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها، و هى إدام و دهان و دباغ و وقود، و ليس فيها شىء إلا و فيه منفعة، ثم وصفها بأنها لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ.

و قد اختلف المفسرون فى معنى هذا الوصف، فقال عكرمة و قتادة و غيرهم: إن الشرقية هى التى تصيبها الشمس إذا شرقت، و لا تصيبها إذا غربت. و الغربية هى التى تصيبها إذا غربت، و لا تصيبها إذا شرقت.

و هذه الزيتونة هى فى صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شىء لا فى حال شروقها و لا فى حال غروبها، و ما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود. و قيل: إن المعنى: إنها شجرة فى دوحة قد أحاطت بها، فهى غير منكشفة من جهة الشرق، و لا من جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس. قال ابن عطية:

و هذا لا يصح عن ابن عباس، لأن الثمرة التى بهذه الصفة يفسد جناها، و ذلك مشاهد فى الوجود. و رجح القول الأوّل: الفراء و الزجاج. و قال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، و إنما هو مثل ضربه اللّه لنوره و لو كانت فى الدنيا لكانت إما شرقية و إما غربية. قال الثعلبى: قد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا، لأن قوله: زيتونة بدل من قوله شجرة. قال ابن زيد: إنها من شجر الشام، فإن الشام لا شرقىّ و لا غربىّ، و الشام: هى الأرض المباركة. و قد قرئ «توقد» بالتاء الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح، و بها قرأ الكوفيون. و قرأ شيبة و نافع و أيوب و سلام و ابن عامر و أهل الشام و حفص يُوقَدُ بالتحتية مضمومة و تخفيف القاف و ضم الدال، و قرأ الحسن و السلمى و أبو عمرو بن العلاء و أبو جعفر «توقد» بالفوقية مفتوحة، و فتح الواو و تشديد القاف و فتح الدال على أنه فعل ماض من توقد يتوقد، و الضمير فى هاتين القراءتين راجع إلى المصباح. قال النحاس: و هاتان القراءتان متقاربتان لأنهما جميعا للمصباح، و هو

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰

أشبه بهذا الوصف لأنه الذى ينير و يضىء، و إنما الزجاجة وعاء له. و قرأ نصر بن عاصم كقراءة أبى عمرو و من معه إلا أنه ضم

الدال على أنه فعل مضارع، و أصله تتوقد. ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال: يَكادُ زَيْتُها يُضِي‏ءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ قرأ الجمهور «تمسسه» بالفوقية، لأن النار مؤنثة. قال أبو عبيد: إنه لا يعرف إلا هذه القراءة. و حكى أبو حاتم أن السدّى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ «يمسسه» بالتحتية لكونه تأنيث النار غير حقيقى. و المعنى: أن هذا الزيت فى صفائه و إنارته يكاد يضى‏ء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلا، و ارتفاع نُورٌ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو نور، و عَلى‏ نُورٍ متعلق بمحذوف هو صفة لنور مؤكدة له، و المعنى: هو نور كائن على نور. قال مجاهد: و المراد النار على الزيت.

و قال الكلبى: المصباح: نور، و الزجاجة: نور. و قال السدّى: نور الإيمان و نور القرآن يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ من عباده: أى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب، و ليس المراد بالهداية هنا مجرّد الدلالة وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ أى يبين الأشياء بأشباهها و نظائرها تقريبا لها إلى الأفهام و تسهيلا لإدراكها، لأن إبراز المعقول فى هيئة المحسوس و تصويره بصورته يزيده وضوحا و بيانا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ لا يغيب عنه شى‏ء من الأشياء معقولا كان أو محسوسا، ظاهرا أو باطنا. و اختلف فى قوله: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ بم هو متعلق؟ فقيل متعلق بما قبله، أى: كمشكاة فى بعض بيوت اللّه و هى المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما ترى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت و كيت، و قيل: متعلق بمصباح. و قال ابن الأنبارى:

سمعت أبا العباس يقول: هو حال للمصباح و الزجاجة و الكوكب، كأنه قيل: و هى فى بيوت، و قيل: متعلق بتوقد، أى: توقد فى بيوت، و قد قيل: متعلق بما بعده، و هو يسبح، أى: يسبح له رجال فى بيوت، و على هذا يكون قوله: «فيها» تكريرا كقولك: زيد فى الدار جالس فيها. و قيل: إنه منفصل عما قبله، كأنه قال اللّه: فى بيوت أذن اللّه أن ترفع. قال الحكيم الترمذى: و بذلك جاءت الأخبار أنه من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه. و قد قيل: على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح أو بتوقد ما الوجه فى توحيد المصباح و المشكاة و جمع البيوت؟ و لا تكون المشكاة الواحدة و لا المصباح الواحد إلا فى بيت واحد. و أجيب بأن هذا من الخطاب الذى يفتح أوّله بالتوحيد، و يختم بالجمع كقوله سبحانه يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ «۱» و نحوه.

و قيل: معنى فى بيوت: فى كلّ واحد من البيوت، فكأنه قال: فى كلّ بيت، أو فى كلّ واحد من البيوت.

و اختلف الناس فى البيوت، على أقوال الأوّل: أنها المساجد، و هو قول مجاهد و الحسن و غيرهما. الثانى: أن المراد بها بيوت بيت المقدس، روى ذلك عن الحسن. الثالث أنها بيوت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، روى عن مجاهد: الرابع:

هى البيوت كلها، قال عكرمة. الخامس: أنها المساجد الأربعة الكعبة، و مسجد قباء، و مسجد المدينة، و مسجد بيت المقدس، قال ابن زيد. و القول الأوّل أظهر لقوله: يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ و الباء من بيوت تضم و تكسر كلّ ذلك ثابت فى اللغة، و معنى أذن اللّه أن ترفع: أمر و قضى، و معنى ترفع تبنى، قاله مجاهد و عكرمة و غيرهما، و منه قوله سبحانه وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ «۲» و قال الحسن

---

(۱). الطلاق: ۱.

(۲). البقرة: ۱۲۷.

البصرى و غيره: معنى ترفع تعظم، و يرفع شأنها و تطهر من الأنجاس و الأقذار، و رجحه الزجاج و قيل: المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين، و معنى يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ كلّ ذكر للّه عزّ و جلّ، و قيل: هو التوحيد، و قيل:

المراد تلاوة القرآن، و الأوّل أولى يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ رِجالٌ قرأ ابن عامر و أبو بكر «يسبح» بفتح الباء الموحدة مبنيا للمفعول، و قرأ الباقون بكسرها مبنيا للفاعل إلا ابن وثاب و أبا حيوة فإنهما قرءا بالتاء الفوقية و كسر الموحدة، فعلى القراءة

الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة، و يكون رجال مرفوع على أحد وجهين: إما بفعل مقدّر، و كأنه جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: من يسبحه؟ فقيل:

يسبحه رجال. الثاني: أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. و على القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح، و على القراءة الثالثة يكون الفاعل أيضا رجال، و إنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال.

و اختلف في هذا التسبيح ما هو؟ فالأكثرون حملوه على الصلاة المفروضة، قالوا: الغدوّ: صلاة الصبح، و الآصال: صلاة الظهر و العصر و العشاءين، لأن اسم الآصال يشملها، و معنى بالغدوّ و الآصال: بالغداة و العشي، و قيل: صلاة الصبح و العصر، و قيل: المراد صلاة الضحى، و قيل: المراد بالتسبيح هنا: معناه الحقيقي، و هو تنزيه اللّه سبحانه عما لا يليق به في ذاته و صفاته و أفعاله، و يؤيد هذا ذكر الصلاة و الزكاة بعده، و هذا أرجح مما قبله، لكونه المعنى الحقيقي، مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأوّلون، و هو ما ذكرناه لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ هذه الجملة صفة لرجال، أي: لا تشغلهم التجارة و البيع عن الذكر؛ و خصّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الذكر. و قال الفراء: التجارة لأهل الجلب، و البيع ما باعه الرجل على بدنه، و خصّ قوم التجارة هاهنا بالشراء لذكر البيع بعدها. و بمثل قول الفراء، قال الواقدي: فقال التجار: هم الجلاب المسافرون و الباعة المقيمون، و معنى عن ذكر اللّه:

هو ما تقدّم في قوله: وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ و قيل: المراد الأذان، و قيل: عن ذكره بأسمائه الحسنى. أي:

يوحدونه و يمجدونه. و قيل: المراد: عن الصلاة، و يردّه ذكر الصلاة بعد الذكر هنا. و المراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها من غير تأخير و حذفت التاء لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله:

ثلاثة تحذف تاءاتهامضافة عند جمع النّحاة

و هي إذا شئت أبو عذرهاو ليت شعري و إقام الصلاة

و أنشد الفراء في الاستشهاد للحذف المذكور في هذه الآية قول الشاعر:

إنّ الخليط أجدّوا البين فانجردواو أخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

أي: عدة الأمر، و في هذا البيت دليل على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع. قال الزجاج: و إنما حذفت الهاء لأنه يقال: أقمت الصلاة إقامة، و كان الأصل إقواما، و لكن قلبت الواو ألفا فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي أقمت الصلاة إقاما، فأدخلت الهاء عوضا من المحذوف و قامت الإضافة هاهنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة، و هذا إجماع من النحويين. انتهى. و قد احتاج

من حمل ذكر اللّه على الصلاة المفروضة أن يحمل إقام الصلاة على تأديتها في أوقاتها فرارا من التكرار و لا ملجئ إلى ذلك، بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدّمنا. و المراد بالزكاة المذكورة: هي المفروضة، و قيل:

المراد بالزكاة طاعة اللّه و الإخلاص، إذ ليس لكل مؤمن مال يَخافُونَ يَوْماً أي: يوم القيامة، و انتصابه على أنه مفعول للفعل لا ظرف له، ثم وصف هذا اليوم بقوله: تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ أي:

تضطرب و تتحوّل، قيل: المراد بتقلب القلوب: انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها و لا تخرج، و المراد بتقلب الأبصار: هو أن تصير عمياء بعد أن كانت مبصرة. و قيل: المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع في النجاة و الخوف من الهلاك، و أما تقلب الأبصار فهو النظر من أيّ ناحية يؤخذون، و إلى أيّ ناحية يصيرون. و قيل: المراد تحوّل قلوبهم و أبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين، و مثله قوله: فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ «۱» فما كان يراه في

الدنيا غيا يراه فى الآخرة رشدا.
و قيل: المراد التقلب على جمر جهنم، و قيل غير ذلك لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا متعلق بمحذوف، أى: يفعلون ما يفعلون من التسبيح و الذكر و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا، أى:
أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله و إلى سبعمائة ضعف، و قيل: المراد بما فى هذه الآية ما يتفضل سبحانه به عليه زيادة على ما يستحقونه، و الأوّل أولى لقوله: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أى:
من غير أن يحاسبه على ما أعطاه، أو أن عطاءه سبحانه لا نهاية له، و الجملة مقرّرة لما سبقها من الوعد بالزيادة.
و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: يدبر الأمر فيهما، نجومهما، و شمسهما، و قمرهما.
و أخرج الفريابى عنه فى قوله: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مثل نوره الذى أعطاه المؤمن كَمِشْكاةٍ و قال فى تفسير زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ إنها التى فى سفح جبل، لا تصيبها الشمس إذا طلعت، و لا إذا غربت يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى فى المصاحف عن الشّعبىّ قال: فى قراءة أبىّ بن كعب مثل نور المؤمن كمشكاة. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى الآية قال:
يقول مثل نور من آمن باللّه كمشكاة، و هى: الكوّة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه مَثَلُ نُورِهِ قال: هى خطأ من الكاتب هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة، قال: مثل نور المؤمن كمشكاة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه أيضا اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: هادى أهل السموات و الأرض مَثَلُ نُورِهِ مثل هداه فى قلب المؤمن كَمِشْكاةٍ يقول موضع الفتيلة، كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه، كذلك يكون قلب المؤمن، يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، و نورا على نور، و فى إسناده علىّ بن أبى طلحة، و فيه مقال. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم

(١). ق: ٢٢.

و صححه و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ قال: هو المؤمن الذى قد جعل الإيمان و القرآن فى صدره فضرب اللّه مثله فقال: نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال نور من آمن به، فكان أبىّ بن كعب يقرؤها «مثل نور من آمن به» فهو المؤمن، جعل الإيمان و القرآن فى صدره كَمِشْكاةٍ قال: فصدر المؤمن: المشكاة فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ النور، و هو القرآن و الإيمان الذى جعل فى صدره فِي زُجاجَةٍ و الزُّجاجَةُ قلبه كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يقول كوكب مضىء يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ و الشجرة المباركة:
أصل المبارك الإخلاص للّه وحده و عبادته لا شريك له زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ قال: فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر، فهى خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أى حال كانت، لا إذا طلعت، و لا إذا غربت، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يضله شىء من الفتن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أن اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور اللّه من دون السماء؟ فضرب اللّه مثل ذلك لنوره فقال: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ المشكاة: كوّة البيت فِيها مِصْباحٌ و هو السراج يكون فى الزجاجة، و هو مثل ضربه اللّه لطاعته، فسمى طاعته نورا، ثم سماها أنواعا شتى لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ قال: و هى وسط الشجر، لا تنالها الشمس إذا طلعت، و لا إذا غربت، و ذلك أجود الزيت يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ بغير نار نُورٌ عَلى نُورٍ

يعنى بـذلك: إيمان العبـد و عمله يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ و هو مثل المؤمن. و أخرج الطبرانى و ابن عدى و ابن مردويه و ابن عسـاكر عن ابن عمر فى قـوله: كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ قـال: المشكاة: جـوف محمـد صلّى اللّه عليه و سلم، و الزجاجـة: قلبه، و المصباح: النور الذى فى قلبه يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ الشجرة: إبراهيم زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ لا يهودية و لا نصرانية، ثم قرأ ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١». و أخرج عبـد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار، فقال: حدّثنى عن قول اللّه اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ قال: مثل نور محمد صلّى اللّه عليه و سـلم كمشـكاة قال: المشكاة: الكوّة ضربها اللّه مثلا لفمه فيها مصباح، و المصباح قلبه الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ و الزجاجـة: صـدره كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ شبه صدر محمد صلّى اللّه عليه و سلم بالكوكب الدّرىّ، ثم رجع المصباح إلى قلبه فقال: يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِي‏ءُ قال: يكاد محمد صلّى اللّه عليه و سلم يبين للناس، و لو لم يتكلم أنه نبىّ، كما يكاد الزيت أن يضىء و لو لم تمسسه نار.

و أقول: إن تفسير النظم القرآنى بهـذا و نحوه مما تقـدّم عن أبىّ بن كعب و ابن عباس و ابن عمر رضى اللّه عنهم ليس على ما تقتضيه لغة العرب، و لا ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ما يجوّز العدول عن المعنى العربى إلى هذه المعانى التى هى شبيهة بالألغاز و التعمية، و لكن هؤلاء الصحابة و من وافقهم ممن جاء بعدهم اسـتبعدوا تمثيل نور اللّه سبحانه بنور المصباح فى المشكاة، و لهذا قال ابن عباس: هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة

---

(١). آل عمران: ۶۷.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۴۴

كما قدّمنا عنه، و لا وجه لهذا الاستبعاد. فإنا قد قدّمنا فى أوّل البحث ما يرفع الإشكال، و يوضح ما هو المراد على أحسن وجه و أبلغ أسلوب، و على ما تقتضيه لغة العرب، و يفيده كلام الفصحاء، فلا وجه للعدول عن الظاهر، لا من كتاب و لا من سنة و لا من لغة. و أما ما حكى عن كعب الأحبار فى هـذا كما قدّمنا، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر فى تفسير الآيـة، فليس مثـل كعب- رحمه اللّه- ممن يقتـدى به فى مثل هـذا. و قـد نبهناك فيما سبق أن تفسير الصحابى إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا، فلا تقوم به الحجة و لا يسوغ لأجله العـدول عن التفسـير العربى، نعم! إن صحت قراءة أبىّ بن كعب، كانت هى المستند لهـذه التفاسير المخالفـة للظاهر، و تكون كالزيادة المبينـة للمراد، و إن لم تصـح فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة، و غيرهم ممن قبلهم، و ممن بعدهم هو المتعين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ قال: هى المساجد تكرم و ينهى عن اللغو فيها وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يتلى فيها كتابة يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ صلاة الغداة، و صلاة العصر، و هما أوّل ما فرض اللّه من الصلاة فأحبّ أن يذكرهما و يذكر بهما عباده. و قد ورد فى تعظيم المساجد و تنزيهها عن القـذر و اللغو و تنظيفها و تطييبها أحاديث ليس هـذا موضع ذكرها. و أخرج ابن أبى شيبة و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحى لفى القرآن و ما يغوص عليها إلا غوّاص فى قوله: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قال:

هم الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل اللّه. و أخرج ابن مردويه و الديلمى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قال: هم الذين يبتغون من فضل اللّه.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآيـة، قال: كانوا رجالا يبتغون من فضل اللّه يشترون و يبيعون، فإذا سمعوا النداء بالصلاة

ألقوا ما فى أيديهم و قاموا إلى المسجد فصلوا. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و البيهقى فى الشعب عنه فى الآية، قال: ضرب اللّه هذا المثل قوله: «كمشكاة» لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه، و كانوا أتجر الناس و أبيعهم، و لكن لم تكن تلهيهم تجارتهم و لا بيعهم عن ذكر اللّه.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا عن ذكر اللّه قال: عن شهود الصلاة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر. أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم، ثم دخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم نزلت: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و الطبرانى و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أنه رأى ناسا من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم، فقال: هؤلاء الذين قال اللّه فيهم لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ و أخرج هنّاد بن السّرى فى الزهد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب و محمد بن نصر فى الصلاة عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يجمع اللّه يوم القيامة الناس فى صعيد واحد يسمعهم الدّاعى و ينفذهم البصر، فيقوم مناد فينادى: أين الذين كانوا يحمدون اللّه فى السّرّاء و الضّرّاء؟

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۴۵

فيقومون و هم قليل فيدخلون الجنّة بغير حساب؛ ثم يعود فينادى: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون و هم قليل، فيدخلون الجنّة بغير حساب؛ ثم يعود فينادى: ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه، فيقومون و هم قليل، فيدخلون الجنّة بغير حساب، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون». و أخرج الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر مرفوعا نحوه.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۳۹ الى ۴۶]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (۳۹) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (۴۰) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۴۱) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۴۲) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (۴۳)

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (۴۴) وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيرٌ (۴۵) لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۶)

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين، و ما يؤول إليه أمرهم، ذكر مثلا للكافرين فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ المراد بالأعمال هنا: هى الأعمال التى من أعمال الخير كالصدقة و الصلة و فكّ العانى و عمارة البيت و سقاية الحاجّ، و السراب: ما يرى فى المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء فى ظنّ من يراه، و سمى سرابا لأنه يسرب، أى: يجرى كالماء؛ يقال: سرب الفحل، أى:

مضى و سار فى الأرض، و يسمى: الآل أيضا. و قيل: الآل هو الذى يكون ضحى كالماء، إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير

كأنه بين السماء و الأرض، قال امرؤ القيس:

ألم أنض المطىّ بكلّ خرقطويل «١» الطّول لمّاع السّراب

و قال آخر:

فلمّا كففنا الحرب كانت عهودهمكلمع سراب بالفلا متألّق

و القيعة جمع قاع: و هو الموضع المنخفض الذى يستقرّ فيه الماء، مثل جيرة و جار، قاله الهروى. و قال أبو عبيد: قيعة وقاع واحد. قال الجوهرى: القاع المستوى من الأرض، و الجمع: أقوع و أقواع و قيعان، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها، و القيعة: مثل القاع. قال: و بعضهم يقول هو جمع يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً

---

(١). كذا فى الأصل، و فى ديوان امرئ القيس «أمقّ الطّول» و الأمقّ: الطويل.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۴۶

هذه صفة ثانية لسراب، و الظمآن: العطشان، و تخصيص الحسبان بالظمآن مع كون الرّيان يراه كذلك، لتحقيق التشبيه المبنىّ على الطمع حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً أى: إذا جاء العطشان ذلك الذى حسبه ماء لم يجده شيئا مما قدّره و حسبه و لا من غيره، و المعنى: أن الكفار يعولون على أعمالهم التى يظنونها من الخير، و يطمعون فى ثوابها، فإذا قدموا على اللّه سبحانه لم يجدوا منها شيئا، لأن الكفر أحبطها و محا أثرها، و المراد بقوله: حَتَّى إِذا جاءَهُ مع أنه ليس بشى‌ء، أنه جاء الموضع الذى كان يحسبه فيه. ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة حسرة الكفرة، و أنه لم يكن قصارى أمرهم مجرّد الخيبة كصاحب السراب فقال: وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ أى: وجد اللّه بالمرصاد فوفاه حسابه، أى: جزاء عمله، كما قال امرؤ القيس:

فولّى مدبرا يهوى حثيثاو أيقن أنّه لاقى الحسابا

و قيل: وجد وعد اللّه بالجزاء على عمله، و قيل: وجد أمر اللّه عند حشره، و قيل: وجد حكمه و قضاءه عند المجى‌ء، و قيل: عند العمل، و المعنى متقارب. و قرأ مسلمة بن محارب «بقيعاه» بهاء مدورة كما يقال رجل عزهاه. و روى عنه أنه قرأ «بقيعات» بتاء مبسوطة. قيل: يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأوّل، و جمع قيعة على الثانى. و روى عن نافع و أبى جعفر و شيبة أنهم قرءوا الظَّمَانُ بغير همز، و المشهور عنهم الهمز. أَوْ كَظُلُماتٍ معطوف على كسراب، ضرب اللّه مثلا آخر لأعمال الكفار كما أنه تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات، فهى أيضا تشبه الظلمات. قال الزجاج: أعلم اللّه سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد، فمثلها كمثل السراب، و إن مثلت بما يرى، فهى كهذه الظلمات التى وصف. قال أيضا: إن شئت مثل بالسراب، و إن شئت مثل بهذه الظلمات، فأو للإباحة حسبما تقدّم من القول فى أَوْ كَصَيِّبٍ «١» قال الجرجانى: الآية الأولى: فى ذكر أعمال الكفار، و الثانية: فى ذكر كفرهم، و نسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضا من أعمالهم. قال القشيرى: فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، و عند الجرجانى لكفر الكفار فِي بَحْرٍ لُجِّيٍ اللجة: معظم الماء، و الجمع: لجج، و هو الذى لا يدرك لعمقه. ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال: يَغْشاهُ مَوْجٌ أى: يعلو هذا البحر موج فيستره و يغطيه بالكلية، ثم وصف هذا الموج بقوله: مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ أى: من فوق هذا الموج ثم وصف الموج الثانى فقال: مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ أى: من فوق ذلك الموج الثانى سحاب، فيجتمع حينئذ عليهم خوف البحر و أمواجه، و السحاب المرتفع فوقه. و قيل إن المعنى: يغشاه موج من بعد موج، فيكون الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأنه بعضه فوق بعض، و البحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه، زاد الخوف شدّة، لأنها تستر النجوم التى يهتدى بها من فى البحر، ثم إذا أمطرت تلك السحب و هبت الريح المعتادة فى الغالب عند نزول المطر، تكاثفت الهموم، و ترادفت الغموم، و بلغ الأمر إلى الغاية التى ليس وراءها غاية، و

لهذا قال سبحانه ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ أى: هى ظلمات،

(۱). البقرة: ۱۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷

أو هـذه ظلمات متكاثفة مترادفة، ففى هذه الجملة بيان لشدّة الأمر و تعاظمه، و قرأ ابن محيصن و البزى «سحاب ظلمات» بإضافة سحاب إلى ظلمات، و وجه الإضافة أن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فأضيف إليها لهذه الملابسة. و قرأ الباقون بالقطع و التنوين.

و من غرائب التفاسير أنه سبحانه أراد بالظلمات: أعمال الكافر، و بالبحر اللجّى: قلبه، و بالموج فوق الموج: ما يغشى قلبه من الجهل و الشكّ و الحيرة. و السحاب: الرين و الختم و الطبع على قلبه، و هذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد. ثم بالغ سبحانه فى هذه الظلمات المذكورة بقوله إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها و فاعل أخرج: ضمير يعود على مقدّر دلّ عليه المقام، أى: إذا أخرج الحاضر فى هذه الظلمات أو من ابتلى بها. قال الزجاج و أبو عبيدة: المعنى، لم يرها و لم يكد. و قال الفرّاء: إن كاد زائدة. و المعنى:

إذا أخرج يده لم يرها، كما تقول: ما كدت أعرفه. و قال المبرد: يعنى لم يرها إلا من بعد الجهد. قال النحاس:

أصح الأقوال فى هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها، فإذن لم يرها رؤية بعيدة و لا قريبة، و جملة وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة، و المعنى: و من لم يجعل اللّه له هداية فما له من هداية. قال الزجاج: ذلك فى الدنيا، و المعنى: من لم يهده اللّه لم يهتد، و قيل: المعنى من لم يجعل له نورا يمشى به يوم القيامة فما له من نور يهتدى به إلى الجنة أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان «۱»، و الخطاب لكلّ من له أهلية النظر، أو للرسول صلّى اللّه عليه و سلم، و قد علمه من جهة الاستدلال؛ و معنى أَ لَمْ تَرَ ألم تعلم، و الهمزة للتقرير، أى:

قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة، و التسبيح التنزيه فى ذاته و أفعاله و صفاته عن كل ما لا يليق به، و معنى مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من هو مستقرّ فيهما من العقلاء و غيرهم، و تسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها، و يشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها. و قيل: إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، و التنزيه من غيرهم. و قد قيل: إن هذه الآية تشمل الحيوانات و الجمادات، و أن آثار الصنعة الإلهية فى الجمادات ناطق و مخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال و الكمال و تنزّهه عن صفات النقص، و فى ذلك تقريع للكفار و توبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التى من شأنها التسبيح للّه سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عزّ و جلّ. و بالجملة فإنه ينبغى حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز. قرأ الجمهور وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ بالرفع للطير و النصب لصافات على أن الطير معطوفة على من، و صافات منتصب على الحال. و قرأ الأعرج «و الطير» بالنصب على المفعول معه، و صافات حال أيضا. قال الزجاج: و هى أجود من الرفع. و قرأ الحسن و خارجة عن نافع وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ برفعهما على الابتداء و الخبر، و مفعول صافات: محذوف، أى: أجنحتها، و خصّ الطير بالذكر مع دخولها تحت من فى السموات و الأرض لعدم استمرار استقرارها فى الأرض و كثرة لبثها فى الهواء و هو ليس من السماء و لا من الأرض، و لما فيها من الصنعة البديعة التى تقدر بها تارة على الطيران، و تارة على المشى بخلاف غيرها من الحيوانات، و ذكر حالة من حالات

(۱). أى فى سورة الإسراء الآية: ۴۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸

الطير، و هى كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها، أن هذه الحالة هى أغرب أحوالها، فإن استقرارها فى الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها، و لا استقرار على الأرض من أعظم صنع اللّه الذى أتقن كلّ شىء. ثم زاد فى البيان فقال: كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ أى: كلّ واحد مما ذكر، و الضمير فى علم: يرجع إلى كلّ، و المعنى: أن كل واحد من هذه المسبحات للّه قد علم صلاة المصلى، و تسبيح المسبح، و قيل المعنى: أن كلّ مصلّ و مسبح قد علم صلاة نفسه و تسبيح نفسه. قيل: و الصلاة هنا بمعنى التسبيح، و كرّر للتأكيد، و الصلاة قد تسمى تسبيحا. و قيل: المراد بالصلاة هنا الدعاء، أى: كل واحد قد علم دعاءه و تسبيحه. و فائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم علمها اللّه ذلك و ألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية، و فى ذلك زيادة دلالة على بديع صنع اللّه سبحانه و عظيم شأنه، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها، أى: لا تخفى عليه طاعتهم و لا تسبيحهم، و يجوز أن يكون الضمير فى عَلِمَ للّه سبحانه، أى: كلّ واحد من هذه المسبحة قد علم اللّه صلاته له و تسبيحه إياه، و الأول: أرجح لاتفاق القرّاء على رفع كل، و لو كان الضمير فى علم للّه لكان نصب كل أولى. و ذكر بعض المفسرين أنها قراءة طائفة من القراء علم: على البناء للمفعول. ثم بين سبحانه أن المبدأ منه و المعاد إليه فقال: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: له لا لغيره وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ لا إلى غيره، و المصير: الرجوع بعد الموت. و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى غير موضع. ثم ذكر سبحانه دليلا آخر من الآثار العلوية، فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً الإزجاء: السوق قليلا قليلا، و منه قول النابغة:

إنى أتيتك من أهلى و من وطنىأزجى حشاشة نفس ما بها رمق

و قوله أيضا:

أسرت عليه من الجوزاء سارية‌تزجى الشّمال عليه جامد البرد

و المعنى: أنه سبحانه يسوق السحاب سوقا رقيقا إلى حيث يشاء ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ أى: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، و يجمعه بعد تفرّقه ليقوى و يتصل و يكثف، و الأصل فى التأليف: الهمز. و قرأ ورش و قالون عن نافع يُوَلِّفُ بالواو تخفيفا، و السحاب: واحد فى اللفظ، و لكن معناه جمع، و لهذا دخلت بين عليه لأن أجزاءه فى حكم المفردات له. قال الفراء: إن الضمير فى بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول:

الشجر قد جلست بينه، لأنه جمع و أفرد الضمير باعتبار اللفظ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً أى: متراكما يركب بعضه بعضا. و الركم: جمع الشيء، يقال: ركم الشيء يركمه ركما، أى: جمعه و ألقى بعضه على بعض و ارتكم الشيء و تراكم إذا اجتمع، و الركمة: الطين المجموع، و الركام: الرمل المتراكب فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ الودق: المطر عند جمهور المفسرين، و منه قول الشاعر:

فلا مزنة و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹

و قال امرؤ القيس:

فدمعهما و دق و سحّ و ديمةو سكب و توكاف و تنهملان

يقال: و دقت السحاب فهى وادقة المطر يدق، أى: قطر يقطر، و قيل: إنّ الودق البرق، و منه قول الشاعر:

أثرن عجاجة و خرجن منهاخروج الودق من خلل السّحاب

و الأوّل: أولى، و معنى مِنْ خِلالِهِ من فتوقه التى هى مخارج القطر، و جملة يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فى محل نصب على الحال، لأن الرؤية هنا هى البصرية. و قرأ ابن عباس و ابن مسعود و الضحاك و أبو العالية «من خلله» على الإفراد. و قد وقع الخلاف فى

خلال، هل هو مفرد كحجاب؟ أو جمع كجبال؟ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ المراد بقوله من سماء: من عال، لأن السماء قد تطلق على جهة العلوّ، و معنى من جبال: من قطع عظام تشبه الجبال، و لفظ فيها فى محل نصب على الحال، و مِنْ فى من برد للتبعيض، و هو مفعول ينزل. و قيل: إن المفعول محذوف، و التقدير: ينزل من جبال فيها من برد بردا. و قيل: إن من فى من برد زائدة، و التقدير: ينزل من السماء من جبال فيها برد. و قيل:

إن فى الكلام مضافا محذوفا، أى: ينزل من السماء قدر جبال، أو مثل جبال من برد إلى الأرض. قال الأخفش: إن من فى من جبال و فى برد زائدة فى الموضعين، و الجبال و البرد فى موضع نصب، أى: ينزل من السماء بردا يكون كالجبال. و الحاصل أن مِنْ فى من السماء لابتداء الغاية بلا خلاف و مِنْ فى من جبال فيها ثلاثة أوجه: الأوّل: لابتداء الغاية فتكون هى و مجرورها بدلا من الأولى بإعادة الخافض بدل اشتمال.

الثانى: أنها للتبعيض فتكون على هذا هى و مجرورها فى محل نصب على أنها مفعول الإنزال، كأنه قال: و ينزل بعض جبال: الثالث: أنها زائدة، أى: ينزل من السماء جبالا. و أما مِنْ فى من برد ففيها أربعة أوجه:

الثلاثة المتقدّمة. و الرابع: أنها لبيان الجنس، فيكون التقدير على هذا الوجه: و ينزل من السماء بعض جبال التى هى البرد. قال الزجاج: معنى الآية: و ينزل من السماء من جبال برد فيها كما تقول: هذا خاتم فى يدى من حديد، أى: خاتم حديد فى يدى، لأنك إذا قلت هذا خاتم من حديد و خاتم حديد كان المعنى واحدا انتهى. و على هذا يكون من برد فى موضع جرّ صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم و يكون مفعول ينزل من جبال، و يلزم من كون الجبال بردا أن يكون المنزل بردا. و ذكر أبو البقاء أن التقدير: شيئا من جبال، فحذف الموصوف و اكتفى بالصفة فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ أى: يصيب بما ينزل من البرد من يشاء أن يصيبه من عباده وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ منهم، أو يصيب به مال من يشاء و يصرفه عن مال من يشاء، و قد تقدّم الكلام عن مثل هذا فى البقرة يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ السنا: الضوء، أى: يكاد ضوء البرق الذى فى السحاب يذهب بالأبصار من شدّة بريقه، و زيادة لمعانه، و هو كقوله: يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ قال الشماخ:

و ما كادت إذا رفعت سناهاليبصر ضوءها إلّا البصير

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰

و قال امرؤ القيس:

يضىء سناه أو مصابيح راهبأهان السّليط فى الذّبال المفتّل

فالسنا بالقصر: ضوء البرق، و بالمدّ: الرفعة، كذا قال المبرّد و غيره. و قرأ طلحة بن مصرف و يحيى ابن وثاب سَنا بَرْقِهِ بالمدّ على المبالغة فى شدّة الضوء و الصفاء، فأطلق عليه اسم الرفعة و الشرف. و قرأ طلحة و يحيى أيضا بضم الباء من برقه و فتح الراء. قال أحمد بن يحيى ثعلب: و هى على هذه القراءة جمع برق.

و قال النحاس: البرقة المقدار من البرق و البرقة الواحدة. و قرأ الجحدرى و ابن القعقاع «يذهب» بضم الياء و كسر الهاء من الإذهاب. و قرأ الباقون سَنا بالقصر، و بَرْقِهِ بفتح الباء، و سكون الراء، و يَذْهَبُ بفتح الياء و الهاء من الذهاب، و خطأ قراءة الجحدرى و ابن القعقاع الأخفش و أبو حاتم.

و معنى ذهاب البرق بالأبصار: خطفه إياها من شدة الإضاءة و زيادة البريق، و الباء فى الأبصار على قراءة الجمهور: للإلصاق، و على قراءة غيرهم: زائدة يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ أى: يعاقب بينهما، و قيل:

يزيد فى أحدهما و ينقص الآخر، و قيل: يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير و شرّ و نفع و ضرّ، و قيل:

بالحرّ و البرد، و قيل: المراد بذلك تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة و بضوء الشمس أخرى، و تغيير الليل بظلمة السحاب تارة، و

بضوء القمر أخرى، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ إلى ما تقدّم، و معنى العبرة: الدلالة الواضحة التى يكون بها الاعتبار، و المراد بأولى الأبصار: كل من له بصر و يبصر به.

ثم ذكر سبحانه دليلا ثالثا من عجائب خلق الحيوان، و بديع صنعته فقال: وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش و حمزة و الكسائى «و اللّه خالق كلّ دابّة» و قرأ الباقون خَلَقَ و المعنيان صحيحان، و الدابة: كل ما دبّ على الأرض من الحيوان، يقال: دبّ يدبّ فهو دابّ، و الهاء: للمبالغة، و معنى مِنْ ماءٍ من نطفة، و هى: المنىّ، كذا قال الجمهور. و قال جماعة: إن المراد الماء المعروف، لأن آدم خلق من الماء و الطين. و قيل: فى الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على القول الأوّل، لأن فى الحيوانات من لا يتولد عن نطفة، و يخرج من هذا العموم الملائكة فإنهم خلقوا من نور، و الجانّ فإنهم خلقوا من نار.

ثم فصل سبحانه أحوال كلّ دابة فقال: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ و هى: الحيات، و الحوت، و الدود، و نحو ذلك وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ الإنسان و الطير وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ سائر الحيوانات، و لم يتعرّض لما يمشى على أكثر من أربع لقلته، و قيل: لأن المشى على أربع فقط و إن كانت القوائم كثيرة، و قيل: لعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع، و لا وجه لهذا فإن المراد التنبيه على بديع الصنع و كمال القدرة، فكيف يقال بعدم الاعتداد بما يمشى على أكثر من أربع؟ و قيل: ليس فى القرآن ما يدلّ على عدم المشى على أكثر من أربع، لأنه لم ينف ذلك و لا جاء بما يقتضى الحصر، و فى مصحف أبىّ «و منهم من يمشى على أكثر» فعمّ بهذه الزيادة جميع ما يمشى على أكثر من أربع: كالسرطان و العناكب و كثير من خشاش الأرض يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ مما ذكره هاهنا، و مما لم يذكره، كالجمادات مركبها و بسيطها، ناميها و غير ناميها إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء، بل الكلّ من مخلوقاته داخل تحت قدرته

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱

فتح القدير ج۴ ۹۹

سبحانه لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ أى: القرآن، فإنه قد اشتمل على بيان كلّ شىء، و ما فرّطنا فى الكتاب من شىء، و قد تقدّم بيان مثل هذا فى غير موضع وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ بتوفيقه للنظر الصحيح، و إرشاده إلى التأمل الصادق إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى طريق مستوى لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام و هو نعيم الجنة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ قال: هو مثل ضربه اللّه لرجل عطش، فاشتدّ عطشه، فرأى سرابا فحسبه ماء، فطلبه فظن أنه قدر عليه حتى أتى، فلما أتاه لم يجده شيئا، و قبض عند ذلك، يقول: الكافر كذلك السراب إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغنى عنه شيئا، و لا ينفعه إلا كما نفع السراب العطشان يَغْشاهُ مَوْجٌ يعنى بذلك: الغشاوة التى على القلب و السمع و البصر. و أخرج ابن جرير عنه بقيعة: بأرض مستوية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق السدّى عن أبيه عن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلم «إنّ الكفّار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا، فيقولون: أين الماء؟ فيتمثّل لهم السّراب، فيحسبونه ماء، فينطلقون إليه فيجدون اللّه عنده فيوفّيهم حسابه، و اللّه سريع الحساب» و فى إسناده السدّى عن أبيه، و فيه مقال معروف. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى العظمة فى قوله: كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ قال: الصلاة للإنسان و التسبيح لما سوى ذلك من خلقه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ قال: بسط أجنحتهن. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يقول: ضوء برقه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس قال: كل شىء يمشى على أربع إلا الإنسان. و أقول: هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشى على رجلين، و هكذا غيرها، كالنعامة فإنها تمشى على رجلين،

و ليست من الطير، فهذه الكلية المروية عنه رضى اللّه عنه لا تصحّ.

[سورة النور (٢۴): الآيات ۴٧ الى ۵٧]

وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴٧) وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴٨) وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (۴٩) أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۵٠) إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵١)

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (۵٢) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۵٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۵۴) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۵۵) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۵۶)

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (۵٧)

فتح القدير، ج۴، ص: ۵٢

شرع سبحانه فى بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال: وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا و هؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، و يبطنون الكفر، و يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، فإنهم كما حكى اللّه عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان باللّه و بالرسول و الطاعة للّه و لرسوله نسبة بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح، و لهذا قال: ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ أى: من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى: من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان و الطاعة، ثم حكم عليهم سبحانه و تعالى بعدم الإيمان فقال: وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ أى: ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة، فيشمل الحكم بنفى الإيمان جميع القائلين، و يندرج تحتهم من تولى اندراجا أوّليا. و قيل: إن الإشارة بقوله: أُولئِكَ راجع إلى من تولى، و الأوّل: أولى. و الكلام مشتمل على حكمين: الحكم الأوّل على بعضهم بالتولى، و الحكم الثانى على جميعهم: بعدم الإيمان. و قيل: أراد بمن تولى:

من تولى عن قبول حكمه صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل: أراد بذلك رؤساء المنافقين، و قيل: أراد بتولى هذا الفريق رجوعهم إلى الباقين، و لا ينافى ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص كما سيأتى بيانه. ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقا منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى اللّه و إلى رسوله فى خصوماتهم، فقال: وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أى: ليحكم الرسول بينهم، فالضمير راجع إليه لأنه المباشر للحكم و إن كان الحكم فى الحقيقة للّه سبحانه، و مثل ذلك قوله تعالى: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ و إذا فى قوله: إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ هى الفجائية، أى: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى اللّه و الرسول، ثم ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحقّ عليهم، و أما إذا كان لهم، فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لا يحكم إلا بالحق، فقال: وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ قال الزجاج: الإذعان: الإسراع مع الطاعة، يقال: أذعن لى بحقى، أى: طاوعنى لما كنت ألتمس منه و صار يسرع إليه، و به قال مجاهد. و قال الأخفش و ابن الأعرابى: مذعنين مقرّين. و قال النقاش: مذعنين:

خاضعين. ثم قسم الأمر فى إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم فقال: أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و هذه الهمزة للتوبيخ و التقريع لهم، و المرض: النفاق، أى: أ كان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن فى قلوبهم أَمِ ارْتابُوا و شكوا فى أمر نبوّته صلّى اللّه عليه و سلم و عدله فى الحكم أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ و الحيف: الميل فى الحكم؛ يقال: حاف فى قضيته، أى: جار فيما حكم به، ثم أضرب عن هذه الأمور التى صدّرها بالاستفهام الإنكارى فقال: بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى: ليس ذلك لشىء مما ذكر، بل لظلمهم و عنادهم؛ فإنه لو كان الإعراض لشىء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم، و فيه هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضى العالم بحكم اللّه، العادل فى حكمه، لأن العلماء ورثة الأنبياء، و الحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم اللّه العارفين بالكتاب و السنة العادلين فى القضاء هو حكم بحكم اللّه،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳

و حكم رسوله، فالداعى إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى اللّه و إلى رسوله، أى: إلى حكمهما. قال ابن خويز منداد: واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق. قال القرطبى: فى هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم، لأن اللّه سبحانه ذمّ من دعى إلى رسوله ليحكم بينه و بين خصمه فلم يجب بأقبح الذمّ، فقال: أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الآية. انتهى، فإن كان القاضى مقصرا، لا يعلم بأحكام الكتاب و السنة، و لا يعقل حجج اللّه، و معانى كلامه، و كلام رسوله، بل كان جاهلا- جهلا- بسيطا، و هو من لا- علم له بشىء من ذلك، أو جهلا مركبا، و هو من لا علم عنده بما ذكرنا، و لكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين، و اطلع على شىء من علم الرأى، فهذا فى الحقيقة جاهل، و إن اعتقد أنه يعلم بشىء من العلم، فاعتقاده باطل؛ فمن كان من القضاة هكذا، فلا تجب الإجابة إليه، لأنه ليس ممن يعلم بحكم اللّه و رسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه، بل هو من قضاة الطاغوت، و حكام الباطل، فإنّ ما عرفه من علم الرأى إنما رخص فى العمل به للمجتهد الذى هو منسوب إليه، عند عدم الدليل من الكتاب و السنة، و لم يرخص فيه لغيره ممن يأتى بعده. و إذا تقرّر لديك هذا و فهمته حق فهمه علمت أن التقليد و الانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره و التقيد بجميع ما جاء به من رواية و رأى و إهمال ما عداه من أعظم ما حدث فى هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة، و الفواقر الموحشة، فإنا للّه و إنا إليه راجعون. و قد أوضحنا هذا فى مؤلفنا الذى سميناه [القول المفيد فى حكم التقليد] و فى مؤلفنا الذى سميناه [أدب الطلب و منتهى الأرب فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التى طبقت الأقطار الإسلامية فليرجع إليهما. ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق، أتبع بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم اللّه و رسوله، فقال: إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا قرأ الجمهور: بنصب (قول) على أنه خبر كان و اسمها أن يقولوا. و قرأ علىّ و الحسن و ابن أبى إسحاق برفع «قول» على أنه الاسم، و أن المصدرية و ما فى حيزها الخبر، و قد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من أنه إذا اجتمع معرفتان، و كانت إحداهما أعرف، جعلت التى هى أعرف اسما. و أما سيبويه فقد خير بين كلّ معرفتين و لم يفرق هذه التفرقة، و قد قدّمنا الكلام على الدعوة إلى اللّه و رسوله للحكم بين المتخاصمين، و ذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة، و من لا- تجب أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا أى: أن يقولوا هذا القول لا- قولا آخر، و هذا و إن كان على طريقة الخبر فليس المراد به ذلك، بل المراد به تعليم الأدب الشرعى عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر. و المعنى: أنه ينبغى للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة و الإذعان. قال مقاتل و غيره: يقولون سمعنا قول النبى صلّى اللّه عليه و سلم و أطعنا أمره، و إن كان ذلك فيما يكرهونه و يضرّهم، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله: وَ أُولئِكَ أى: المؤمنون الذين قالوا هذا القول هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بخير الدنيا و الآخرة، ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر، فقال: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ و هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من حسن حال المؤمنين و ترغيب

من عداهم إلى الدخول فى عدادهم و المتابعة لهم فى طاعة اللّه و رسوله و الخشية من اللّه عزّ و جلّ و التقوى

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۵۴

له. قرأ حفص وَ يَتَّقْهِ بإسكان القاف على نية الجزم. و قرأ الباقون بكسرها، لأن جزم هذا الفعل بحذف آخره، و أسكن الهاء أبو عمرو و أبو بكر و اختلس الكسرة يعقوب و قالون عن نافع و المثنى عن أبى عمرو و حفص و أشبع كسرة الهاء الباقون. قال ابن الأنبارى: و قراءة حفص هى على لغة من قال: لم أر زيدا، و لم أشتر طعاما يسقطون الياء للجزم ثم يسكنون الحرف الذى قبلها و منه قول الشاعر:

قالت سليمى اشتر لنا دقيقا و قول الآخر:

عجبت لمولود و ليس له أبو ذى ولد لم يلده أبوان

و أصله يلد بكسر اللام، و سكون الدال للجزم، فلما سكن اللام التقى ساكنان، فلو حرك الأوّل لرجع إلى ما وقع الفرار منه، فحرك ثانيهما و هو الدال. و يمكن أن يقال إنه حرك الأوّل على أصل التقاء الساكنين، و بقى السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة و لا يضرّ الرجوع إلى ما وقع الفرار منه، فهذه الحركة غير تلك الحركة و الإشارة بقوله: فأولئك هم الفائزون إلى الموصوفين بما ذكر من الطاعة و الخشية و التقوى، أى: هم الفائزون بالنعيم الدنيوى، و الأخروى، لا من عداهم. ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه، أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا فقال: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَ أى: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن، و جهد أيمانهم منتصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له، أى: أقسموا باللّه يجهدون أيمانهم جهدا. و معنى جهد أيمانهم: طاقة ما قدروا أن يحلفوا، مأخوذ من قولهم جهد نفسه: إذا بلغ طاقتها و أقصى وسعها. و قيل: هو منتصب على الحال و التقدير: مجتهدين فى أيمانهم، كقولهم: افعل ذلك جهدك، و طاقتك، و قد خلط الزمخشرى الوجهين فجعلهما واحدا. و جواب القسم قوله: لَيَخْرُجُنَ و لما كانت مقالتهم هذه كاذبة، و أيمانهم فاجرة ردّ اللّه عليهم، فقال: قُلْ لا تُقْسِمُوا أى: ردّ عليهم زاجرا لهم، و قل لهم لا تقسموا، أى: لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة و الخروج إلى الجهاد إن أمرتم به، و هاهنا تمّ الكلام. ثم ابتدأ فقال: طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ و ارتفاع طاعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد، و يجوز أن تكون طاعة مبتدأ، لأنها قد خصصت بالصفة، و يكون الخبر مقدرا، أى: طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم، و يجوز أن ترتفع بفعل محذوف، أى: لتكن منكم طاعة أو لتوجد، و فى هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدّم ما يشعر له. و قرأ زيد بن علىّ، و الترمذى، طاعة بالنصب على المصدر لفعل محذوف، أى: أطيعوا طاعة إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ من الأعمال و ما تضمرونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم، و هذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم أن يأمرهم بطاعة اللّه و رسوله فقال:

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ طاعة ظاهرة و باطنة، بخلوص اعتقاد، و صحة نية، و هذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإن قوله: قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ فى حكم الأمر بالطاعة، و قيل:

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۵۵

إنهما مختلفان، فالأوّل: نهى بطريق الردّ و التوبيخ، و الثانى: أمر بطريق التكليف لهم، و الإيجاب عليهم فَإِنْ تَوَلَّوْا خطاب للمأمورين، و أصله فإن تتولوا فحذف إحدى التاءين تخفيفا، و فيه رجوع من الخطاب مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم، و المبالغة فى العناية بهدايتهم إلى الطاعة و الانقياد، و جواب الشرط قوله: فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ أى: فاعلموا أنما على النبى صلّى اللّه عليه و سلم ما حمل مما أمر به من التبليغ و قد فعل، و عليكم ما حملتم،

أی: ما أمرتم به من الطاعة، و هو وعيد لهم، كأنه قال لهم: فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل وَ إِنْ تُطِيعُوهُ فيما أمركم به و نهاكم عنه تَهْتَدُوا إلى الحق و ترشدوا إلى الخير و تفوزوا بالأجر، و جملة وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ مقرّرة لما قبلها، و اللام: إما للعهد، فيراد بالرسول نبينا صلّى اللّه عليه و سلم، و إما للجنس، فيراد كل رسول، و البلاغ المبين: التبليغ الواضح، أو الموضح قيل: يجوز أن يكون قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا ماضيا و تكون الواو لضمير الغائبين، و تكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول لهم، و يكون فی الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، و الأوّل أرجح. و يؤيده الخطاب فی قوله: وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ و فی قوله: وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا و يؤيده أيضا قراءة البزی فَإِنْ تَوَلَّوْا بتشديد التاء، و إن كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سبب لهدايتهم، و هذا وعد من اللّه سبحانه لمن آمن باللّه، و عمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم فی الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، و هو وعد يعم جميع الأمة. و قيل: هو خاص بالصحابة، و لا وجه لذلك، فإن الإيمان و عمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، و من عمل بكتاب اللّه و سنة رسوله فقد أطاع اللّه و رسوله، و اللام فی لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ جواب لقسم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم، لأنه ناجز لا محالة، و معنى ليستخلفنهم فی الأرض: ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فی مملوكاتهم، و قد أبعد من قال إنها مختصة بالخلفاء الأربعة، أو بالمهاجرين، أو بأن المراد بالأرض أرض مكة، و قد عرفت أن الإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و ظاهر قوله: كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كل من استخلفه اللّه فی أرضه فلا يخصّ ذلك ببنی إسرائيل و لا أمة من الأمم دون غيرها. قرأ الجمهور كَمَا اسْتَخْلَفَ بفتح الفوقية على البناء للفاعل.

و قرأ عيسى بن عمر و أبو بكر و المفضل عن عاصم بضمها على البناء للمفعول، و محل الكاف النصب على المصدرية، أی: استخلافا كما استخلف، و جملة وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِی ارْتَضى لَهُمْ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب، و المراد بالتمكين هنا: التثبيت و التقرير، أی: يجعله اللّه ثابتا مقرّرا يوسع لهم فی البلاد، و يظهر دينهم على جميع الأديان، و المراد بالدين هنا: الإسلام، كما فی قوله: وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً «۱» ذكر سبحانه و تعالى الاستخلاف لهم أوّلا، و هو جعلهم ملوكا و ذكر التمكين ثانيا، فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض و الطروّ، بل على وجه الاستقرار و الثبات،

---

(۱). المائدة: ۳.

بحيث يكون الملك لهم و لعقبهم من بعدهم، و جملة وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً معطوفة على التی قبلها. قرأ ابن كثير و ابن محيصن و يعقوب و أبو بكر لَيُبَدِّلَنَّهُمْ بالتخفيف من أبدل، و هی قراءة الحسن، و اختارها أبو حاتم. و قرأ الباقون بالتشديد من بدّل، و اختارها أبو عبيد، و هما لغتان، و زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى، فقراءة التشديد أرجح من قراءة التخفيف. قال النحاس: و زعم أحمد بن يحيى ثعلب أن بين التخفيف و التثقيل فرقا، و أنه يقال بدّلته، أی: غيرته، و أبدلته: أزلته و جعلت غيره. قال النحاس، و هذا القول صحيح. و المعنى: أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنا، و يذهب عنهم أسباب الخوف الذی كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا اللّه سبحانه و لا يرجون غيره. و قد كان المسلمون قبل الهجرة و بعدها بقليل فی خوف شديد من المشركين، و لا يخرجون إلا فی السلاح، و لا يمسون و يصبحون إلى على ترقب لنزول المضرّة بهم من الكفار، ثم صاروا فی غاية الأمن و الدعة، و أذلّ اللّه لهم شياطين المشركين و فتح عليهم البلاد، و مهّد لهم فی الأرض، و

مكّنهم منها، فلله الحمـد، و جملـهٔ يَعْبُدُونَنِي في محل نصب على الحال و يجوز أن تكون مسـتأنفهٔ مسوقهٔ للثناء عليهم، و جملهٔ لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً في محل نصب على الحال من فاعل يعبدوننى، أى: يعبدوننى، غير مشـركين بى فى العبادهٔ شيئا من الأشياء، و قيل معناه: لا يراءون بعبادتى أحـدا، و قيل معناه: لا يخافون غيرى، و قيل معناه: لا يحبون غيرى وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى: من كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من اسـتمرّ على الكفر، أو من كفر بعد إيمان، فأولئك الكافرون همّ الفاسـقون؛ أى: الكاملون فى الفسق. و هو الخروج عن الطاعهٔ و الطغيان فى الكفر و جملهٔ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ معطوفهٔ على مقدّر يـدلّ عليه مـا تقـدّم، كـأنه قيـل لهم: فـآمنوا و اعملوا صالحا و أقيموا الصـلاهٔ، و قيل: معطوف على أَطِيعُوا اللَّهَ و قيل التقـدير: فلا تكفروا و أقيموا الصـلاهٔ. و قـد تقدّم الكلام على إقامهٔ الصـلاهٔ و إيتاء الزكاهٔ، و كرّر الأمر بطاعهٔ الرسول للتأكيد و خصه بالطاعهٔ، لأن طاعته طاعهٔ للّه، و لم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشـعر به الحذف على ما تقرّر فى علم المعانى، من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى: افعلوا ما ذكر من إقامهٔ الصلاهٔ و إيتاء الزكاهٔ و طاعهٔ الرسول، راجين أن يرحمكم اللّه سبحانه لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ قرأ ابن عامر و حمزهٔ و أبو حيوهٔ «لا يحسبنّ» بالتحتيهٔ بمعنى: لا يحسبنّ الذين كفروا، و قرأ الباقون بالفوقيهٔ، أى:

لا تحسبنّ يا محمد، و الموصول: المفعول الأوّل، و معجزين: الثانى، لأن الحسبان يتعدّى إلى مفعولين، قاله الزجاج و الفرّاء و أبو على. و أمـا على القراءهٔ الأولى، فيكون المفعول الأول محـذوفا، أى: لا يحسـبنّ الـذين كفروا أنفسـهم. قال النحاس: و ما علمت أحدا بصريا و لا كوفيا إلا و هو يخطئ قراءهٔ حمزهٔ، و معجزين معناه:

فائتين. و قد تقدّم تفسيره و تفسير ما بعده.

و قـد أخرج عبـد بن حميـد و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن قتادهٔ فى قوله: وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ الآيـهٔ قال: أناس من المنـافقين أظهروا الإيمان و الطاعـهٔ، و هم فى ذلك يصـدّون عن سبيل اللّه و طاعته، و جهاد مع رسوله صـلّى اللّه عليه و سـلم. و أخرجوا أيضا عن الحسن قال: إن الرجل كان يكون بينه و بين الرجل خصومهٔ، أو منازعهٔ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷

على عهد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم، فإذا دعى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم و هو محقّ أذعن و علم أن النبى صلّى اللّه عليه و سـلم سيقضـى له بالحقّ، و إذا أراد أن يظلم فـدعى إلى النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم أعرض و قال: أنطلق إلى فلان، فأنزل اللّه سـبحانه وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إلى قوله: هُمُ الظَّالِمُونَ فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «من كان بينه و بين أخيه شىء فـدعاه إلى حكم من حكّام المسـلمين فلم يجب، فهو ظالم لا حقّ له». قال ابن كثير بعـد أن ساق هذا المتن ما لفظه: و هذا حـديث غريب و هو مرسل. و قال ابن العربى: هـذا حـديث باطل، فأما قوله: فهو ظالم، فكلام صـحيح. و أما قوله: فلا حق له، فلا يصح. و يحتمل أن يريد أنه على غير الحق انتهى. و أقول: أما كون الحديث مرسلا فظاهر. و أما دعوى كونه باطلا فمحتاجهٔ إلى برهان، فقـد أخرجه ثلاثـهٔ من أئمـهٔ الحـديث عبـد بن حميـد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم كما ذكرنا، و يبعد كل البعد أن ينفق عليهم ما هو باطل، و إسـناده عند ابن أبى حاتم هكذا: قال ابن أبى حاتم: حدّثنا أبىّ، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا مبارك، حـدّثنا الحسن فذكره. و ليس فى هؤلاء كذاب و لا وضاع. و يشـهد له ما أخرجه الطبرانى عن الحسن عن سـمرهٔ قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم: «من دعى إلى سلطان فلم يجب، فهو ظـالم لاـ حقّ له». انتهى. و لاـ يخفاك أن قضاهٔ العـدل و حكام الشـرع الـذين هم على الصـفهٔ التى قـدّمنا لـك قريبا هم سـلاطين الـدين المترجمون عن الكتاب و السنهٔ، المبينون للناس ما نزل إليهم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عبـاس قـال: أتى قوم النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم فقالوا: يا رسول اللّه! لو أمرتنا أن نخرج من أموالنـا لخرجنـا، فـأنزل اللّه وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ الآيـهٔ. و أخرج ابن أبى حـاتم عن مقاتل فى الآيـهٔ قال: ذلك فى شأن

الجهاد، قال يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ قال أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبى صلّى اللّه عليه و سلم من غير أن يقسموا. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ يقول: قد عرفت طاعتكم، أى: إنكم تكذبون به. و أخرج مسلم و الترمذى و غيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمى عن أبيه قال: «قدم زيد بن أسلم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: أ رأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منّا الحقّ و لا يعطونا؟ قال: فإنّما عليهم ما حمّلوا و عليكم ما حمّلتم» و أخرج ابن جرير و ابن قانع و الطبرانى عن علقمة بن وائل الحضرمى عن سلمة بن يزيد الجعفى قال: قلت يا رسول اللّه، فذكر نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن الزبير عن جابر أنه سأل: إن كان علىّ إمام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال: قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم، و على الإمام ما حمل و عليكم ما حملتم. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن البراء فى قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ الآية. قال: فينا نزلت و نحن فى خوف شديد، و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و أصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى اللّه وحده و عبادته وحده لا شريك له سرّا، و هم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة، فأمرهم اللّه بالقتال، و كانوا بها خائفين يمسون فى السلاح و يصبحون فى السلاح، فغبروا «١» بذلك ما شاء اللّه، ثم إن رجلا من أصحابه قال: يا رسول اللّه! أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتى علينا يوم نأمن فيه و نضع فيه السلاح؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: لن تغبروا إلا

---

(١). غبر، يغبر غبورا: بقى. و الغابرين: الماكثين الباقين.

يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة، فأنزل اللّه وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ إلى آخر الآية، فأظهر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم على جزيرة العرب، فأمنوا و وضعوا السلاح. ثم إن اللّه قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر و عمر و عثمان حتى وقعوا فيما وقعوا و كفروا النعمة، فأدخل اللّه عليهم الخوف الذى كان رفع عنهم، و اتخذوا الحجر و الشرط، و غيروا فغير ما بهم. و أخرج ابن المنذر و الطبرانى فى الأوسط و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل و الضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب، قال: لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المدينة، و آوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا فى السلاح و لا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أ ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا اللّه، فنزلت وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ الآية. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً قال: لا يخافون أحدا غيرى. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد مثله، قال: وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ العاصون. و أخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال: كفر بهذه النعمة، ليس الكفر باللّه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ قال: سابقين فى الأرض.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥٨ الى ٦١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ

جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۶۰) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۱)

لما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان فذكره هاهنا على وجه أخصّ فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ و الخطاب للمؤمنين و تدخل المؤمنات فيه تغليبا كما فى غيره من الخطابات. قال العلماء: هذه الآية خاصة ببعض الأوقات. و اختلفوا فى

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹

المراد بقوله: لِيَسْتَأْذِنْكُمُ على أقوال: الأوّل أنها منسوخة، قاله سعيد بن المسيب. و قال سعيد بن جبير: إن الأمر فيها للندب لا للوجوب. و قيل: كان ذلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم و لو عاد الحال لعاد الوجوب، حكاه المهدوى عن ابن عباس. و قيل: إن الأمر هاهنا للوجوب، و إن الآية محكمة غير منسوخة، و أن حكمها ثابت على الرجال و النساء؛ قال القرطبى: و هو قول أكثر أهل العلم. و قال أبو عبد الرحمن السلمى: إنها خاصة بالنساء. و قال ابن عمر: هى خاصة بالرجال دون النساء. و المراد بقوله: مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ العبيد و الإماء، و المراد بالذين لم يبلغوا الحلم الصبيان منكم، أى: من الأحرار، و معنى ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثلاثة أوقات فى اليوم و الليلة، و عبر بالمرات عن الأوقات، و انتصاب ثلاث مرات على الظرفية الزمانية، أى: ثلاثة أوقات، ثم فسر تلك الأوقات بقوله: مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ إلخ، أو منصوب على المصدرية، أى: ثلاث استئذانات؛ و رجح هذا أبو حيان فقال: و الظاهر من قوله: ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثلاث استئذانات، لأنك إذا قلت ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات. و يردّ بأن الظاهر هنا متروك للقرينة المذكورة، و هو التفسير بالثلاثة الأوقات. و قرأ الحسن و أبو عمرو فى رواية الحلم بسكون اللام، و قرأ الباقون بضمها. قال الأخفش: الحلم من حلم الرجل بفتح اللام، و من الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسر اللام، ثم فسر سبحانه الثلاث المرات فقال: مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ و ذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع، و طرح ثياب النوم، و لبس ثياب اليقظة، و ربما يبيت عريانا، أو على حال لا يحبّ أن يراه غيره فيها، و محله النصب على أنه بدل من ثلاث، و يجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هى من قبل، و قوله: وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ معطوف على محل مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ و مِنْ فى مِنَ الظَّهِيرَةِ للبيان، أو بمعنى فى، أو بمعنى اللام. و المعنى: حين تضعون ثيابكم التى تلبسونها فى النهار من شدة حرّ الظهيرة، و ذلك عند انتصاف النهار، فإنهم قد يتجرّدون من الثياب لأجل القيلولة. ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال: وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ و ذلك لأنه وقت التجرد عن الثياب و الخلوة بالأهل، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل فقال: ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ قرأ الجمهور ثَلاثُ عَوْراتٍ برفع ثلاث، و قرأ حمزة و أبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من ثلاث مرات. قال ابن عطية: إنما يصح البدل بتقدير أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه، و يحتمل أنه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة؛ و يجوز أن يكون ثلاث عورات بدلا من الأوقات المذكورة، أى: من قبل صلاة الفجر إلخ؛ و يجوز أن تكون منصوبة بإضمار فعل، أى: أعنى و نحوه، و أما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هنّ ثلاث. قال أبو حاتم: النصب ضعيف مردود.

و قال الفراء: الرفع أحبّ إلىّ، قال: و إنما اخترت الرفع لأن المعنى هذه الخصال ثلاث عورات. و قال الكسائى: إن ثلاث عورات مرتفعة بالابتداء و الخبر ما بعدها. قال: و العورات الساعات التى تكون فيها العورة. قال الزجاج: المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث

عورات، فحذف المضاف، و أقيم المضاف إليه مقامه، و عورات جمع عورة، و العورة: فى الأصل الخلل، ثم غلب فى الخلل الواقع فيما يهمّ حفظه و يتعين ستره،

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰

أى: هى ثلاث أوقات يختلّ فيها الستر. و قرأ الأعمش «عورات» بفتح الواو، و هى لغة هذيل و تميم فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واوا أو ياء، و منه:

أخو بيضات رائح متأوّب‌رفيق بمسح المنكبين سبوح

و قوله:

أبو بيضات رائح أو مبعدعجلان ذا زاد و غير مزوّد

و «لكم» متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات؛ أى: كائنة لكم، و الجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَ أى: ليس على المماليك و لا على الصبيان جناح، أى: إثم فى الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، و الاطلاع على العورات. و معنى بعدهنّ: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث، و هى: الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها، و هذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان فى تلك الأحوال خاصة، و يجوز أن تكون فى محل رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها. قال أبو البقاء بَعْدَهُنَ أى: بعد استئذانهم فيهنّ، ثم حذف حرف الجرّ و المجرور فبقى بعد استئذانهم، ثم حذف المصدر و هو الاستئذان، و الضمير المتصل به. و ردّ بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير الذى ذكره، بل المعنى: ليس عليكم جناح و لا عليهم، أى: العبيد و الإماء و الصبيان جناح فى عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة، و ارتفاع طَوَّافُونَ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم طوّافون عليكم، و الجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص فى ترك الاستئذان. قال الفراء: هذا كقولك فى الكلام هم خدمكم و طوّافون عليكم، و أجاز أيضا نصب طوّافين لأنه نكرة، و المضمر فى عَلَيْكُمْ معرفة و لا يجيز البصريون أن تكون حالا من المضمرين اللذين فى عليكم و فى بعضكم لاختلاف العاملين. و معنى طوّافون عليكم، أى: يطوفون عليكم، و منه الحديث فى الهرّة «إنّما هى من الطّوّافين عليكم أو الطّوّافات» أى: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم فى غير هذه الأوقات بغير إذن، و معنى بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ بعضكم يطوف أو طائف على بعض، و هذه الجملة بدل مما قبلها أو مؤكدة لها. و المعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه، العبيد على الموالى، و الموالى على العبيد، و منه قول الشاعر:

و لما قرعنا النبع بالنبع بعضه‌ببعض أبت عيدانه أن تكسّرا

و قرأ ابن أبى عبلة «طوّافين» بالنصب على الحال كما تقدم عن الفراء، و إنما أباح سبحانه الدخول فى غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان؛ لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم فى غيرها، و الإشارة بقوله:

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ إلى مصدر الفعل الذى بعده، كما فى سائر المواضع فى الكتاب العزيز، أى: مثل ذلك التبيين يبين اللّه لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ كثير العلم بالمعلومات، و كثير الحكمة فى أفعاله وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ بين سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فى أنه لا جناح عليهم

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱

فى ترك الاستئذان، فيما عدا الأوقات الثلاثة فقال: فَلْيَسْتَأْذِنُوا يعنى: الذين بلغوا الحلم إذا دخلوا عليكم كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و الكاف: نعت مصدر محذوف، أى: استئذانا كما استأذن الذين من قبلهم، و الموصول عبارة عن الذين قيل لهم لا تَدْخُلُوا

بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكَمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا الآيةَ.

و المعنى: أن هؤلاء الذين بلغوا الحلم يستأذنون فى جميع الأوقات كما استأذن الذين من قبلهم من الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء، ثم كرّر ما تقدم للتأكيد فقال: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ و قرأ الحسن الْحُلُمَ فحذف الضمة لثقلها. قال عطاء: واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحرارا كانوا أو عبيدا. و قال الزهرى: يستأذن الرجل على أمه، و فى هذا المعنى نزلت هذه الآيةُ، و المراد بالقواعد من النساء: العجائز اللاتى قعدن عن الحيض، و الولد من الكبر، واحدتها قاعد بلا هاء ليدلّ حذفها على أنه قعود الكبر، كما قالوا: امرأة حامل ليدلّ بحذف الهاء على أنه حمل حبل، و يقال: قاعدة فى بيتها و حاملة على ظهرها. قال الزجاج: هن اللاتى قعدن عن التزويج، و هو معنى قوله: اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً أى: لا يطمعن فيه لكبرهنّ. قال أبو عبيدة: اللاتى قعدن عن الولد، و ليس هذا بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد و فيها مستمتع. ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال: فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَ أى: الثياب التى تكون على ظاهر البدن كالجلباب و نحوه، لا الثياب التى على العورة الخاصة، و إنما جاز لهنّ ذلك لانصراف الأنفس عنهنّ، إذ لا رغبة للرجال فيهنّ، فأباح اللّه سبحانه لهنّ ما لم يبحه لغيرهنّ، ثم استثنى حالة من حالاتهنّ فقال: غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ أى: غير مظهرات للزينة التى أمرن بإخفائها فى قوله: وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَ و المعنى: من غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهنّ، و لا متعرّضات بالتزين، لينظر إليهنّ الرجال. و التبرّج التكشف و الظهور للعيون، و منه: بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ «١» و بروج السماء، و منه قولهم: سفينة بارجة، أى: لا غطاء عليها وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَ أى: و أن يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها. و قرأ عبد اللّه بن مسعود و أبيّ بن كعب و ابن عباس «أن يضعن من ثيابهن» بزيادة من، و قرأ ابن مسعود «و أن يعففن» بغير سين وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ كثير السماع و العلم أو بليغهما لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ قال بالأوّل: جماعة من العماء، و بالثاني: جماعة. قيل: إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم، و كانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم و يقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا، فكانوا يتحرّجون من ذلك و قالوا: لا ندخلها و هم غيب، فنزلت هذه الآية رخصة لهم؛ فمعنى الآية نفى الحرج عن الزمنى فى أكلهم من بيوت أقاربهم، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو.

قال النحاس: و هذا القول من أجلّ ما روى فى الآية لما فيه من الصحابة و التابعين من التوقيف. و قيل: إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحاء حذرا من استقذارهم إياهم و خوفا من تأذيهم بأفعالهم فنزلت. و قيل: إن اللّه رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر، و عن الأعرج

---

(١). النساء: ٧٨.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٦٢

فيما يشترط فى التكليف به القدرة الكاملة على المشى، على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج، و عن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه. و قيل: المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو الحرج فى الغزو، أى: لا حرج على هؤلاء فى تأخرهم عن الغزو. و قيل: كان الرجل إذا أدخل أحدا من هؤلاء الزمنى إلى بيته فلم يجد فيه شيئا يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته، فيتحرج الزمنى من ذلك فنزلت. و معنى قوله: وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ عليكم و على من يماثلكم من المؤمنين أَنْ تَأْكُلُوا أنتم و من معكم، و هذا ابتداء كلام، أى:

و لا عليكم أيها الناس. و الحاصل أن رفع الحرج عن الأعمى و الأعرج و المريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول

بيوتهم فيكون وَ لا عَلى أَنْفُسِكَمْ متصلا بما قبله، و إن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التى يشترط فيها وجود البصر و عدم العرج و عدم المرض، فقوله: وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ ابتداء كلام غير متصل بما قبله. و معنى مِنْ بُيُوتِكُمْ البيوت التى فيها متاعهم و أهلهم فيدخل بيوت الأولاد كذا قال المفسّرون، لأنها داخلة فى بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد، و ذكر بيوت الآباء، و بيوت الأمهات، و من بعدهم. قال النحاس: و عارض بعضهم هذا فقال: هذا تحكم على كتاب اللّه سبحانه بل الأولى فى الظاهر أن يكون الابن مخالفا لهؤلاء. و يجاب عن هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد، بل للآباء مزيد خصوصية فى أموال الأولاد لحديث «أنت و مالك لأبيك» و حديث «ولد الرجل من كسبه» ثم قد ذكر اللّه سبحانه هاهنا بيوت الإخوة و الأخوات، بل بيوت الأعمام و العمات، بل بيوت الأخوال و الخالات، فكيف ينفى سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء، و لا ينفيه عن بيوت الأولاد؟ و قد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم. و قال آخرون: لا يشترط الإذن. قيل: و هذا إذا كان الطعام مبذولا، فإن كان محرزا دونهم لم يجز لهم أكله. ثم قال سبحانه: أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أى: البيوت التى تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها، و ذلك كالوكلاء و العبيد و الخزّان، فإنهم يملكون التصرّف فى بيوت من أذن لهم بدخول بيته و إعطائهم مفاتحه. و قيل: المراد بها بيوت المماليك. قرأ الجمهور مَلَكْتُمْ بفتح الميم و تخفيف اللام. و قرأ سعيد ابن جبير بضم الميم و كسر اللام مع تشديدها. و قرأ أيضا «مفاتيحه» بياء بين التاء و الحاء. و قرأ قتادة مَفاتِحَهُ على الإفراد، و المفاتح: جمع مفتح، و المفاتيح: جمع مفتاح أَوْ صَدِيقِكُمْ أى: لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم و إن لم يكن بينكم و بينه قرابة، فإن الصديق فى الغالب يسمح لصديقه بذلك و تطيب به نفسه، و الصديق يطلق على الواحد و الجمع، و منه قول جرير:

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنابأسهم أعداء و هنّ صديق

و مثله العدوّ و الخليط و القطين و العشير، ثم قال سبحانه: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا من بيوتكم جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً انتصاب جميعا و أشتاتا على الحال. و الأشتات: جمع شتّ، و الشتّ المصدر: بمعنى التفرّق، يقال شتّ القوم، أى: تفرقوا، و هذه الجملة كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله، أى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم مجتمعين أو متفرقين، و قد كان بعض العرب يتحرّج

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳

أن يأكل وحده حتى يجد له أكيلا يؤاكله فيأكل معه، و بعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف، و منه قول حاتم:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى لهأكيلا فإنّى لست آكله وحدى

فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً هذا شروع فى بيان أدب آخر أدّب به عباده، أى: إذا دخلتم بيوتا غير البيوت التى تقدّم ذكرها فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ أى: على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. و قيل: المراد البيوت المذكورة سابقا. و على القول الأوّل، فقال الحسن و النخعى: هى المساجد، و المراد سلموا على من فيها من صنفكم، فإن لم يكن فى المساجد أحد، فقيل يقول: السلام على رسول اللّه، و قيل يقول: السلام عليكم مريدا للملائكة، و قيل يقول: السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين. و قال بالقول الثانى: أعنى أنها البيوت المذكورة سابقا جماعة من الصحابة و التابعين، و قيل: المراد بالبيوت هنا هى كلّ البيوت المسكونة و غيرها، فيسلم على أهل المسكونة، و أما على غير المسكونة فيسلم على نفسه. قال ابن العربى: القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح، و انتصاب تَحِيَّةً على المصدرية، لأن قوله فسلموا معناه فحيوا، أى: تحية ثابتة مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أى: إن اللّه حياكم بها. و قال الفرّاء: أى: إن اللّه أمركم أن تفعلوها طاعة له، ثم وصف هذه التحية فقال: مُبارَكَةً أى: كثيرة البركة و الخير، دائمتهما طَيِّبَةً أى: تطيب بها نفس المستمع، و قيل: حسنة جميلة. و قال الزجاج: أعلم اللّه سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر و الثواب، ثم كرّر

سبحانه فقال: كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ تأكيدا لما سبق. و قد قدّمنا أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات اللّه سبحانه و فهم معانيها.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أن رجلا من الأنصار و امرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم طعاما، فقالت أسماء: يا رسول اللّه! ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة و زوجها، و هما فى ثوب واحد، غلامهما بغير إذن، فأنزل اللّه فى ذلك يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ يعنى: العبيد و الإماء وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ قال: من أحراركم من الرجال و النساء. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى هذه الآية قال: كان أناس من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يعجبهم أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا، ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم اللّه أن يأمروا المملوكين و الغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن. و أخرج ابن مردويه عن ثعلبة القرظى عن عبد اللّه بن سويد قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن العورات الثلاث، فقال: إذا أنا وضعت ثيابى بعد الظهيرة لم يلج علىّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم، و لا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن، و إذا وضعت ثيابى بعد صلاة العشاء، و من قبل صلاة الصّبح». و أخرجه عبد بن حميد و البخارى فى الأدب عن عبد اللّه بن سويد من قوله. و أخرج نحوه أيضا ابن سعد عن سويد بن النعمان. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أبو داود و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: إنه لم يؤمن بها أكثر الناس: يعنى آية الإذن، و إنى لآمر جاريتى هذه- لجارية قصيرة قائمة على رأسه- أن تستأذن علىّ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس،

فتح القدير، ج‌4، ص: 64

قال: ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهنّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ و الآية التى فى سورة النساء وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ الآية، و الآية التى فى الحجرات إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ «1». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبىّ و لا خادم إلا بإذنه حتى يصلى الغداة، و إذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك. و رخص لهم فى الدخول فيما بين ذلك بغير إذن، و هو قوله: لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ فأما من بلغ الحلم، فإنه لا يدخل على الرجل و أهله إلا بإذن على كل حال، و هو قوله وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و أخرج أبو داود، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى السنن بسند صحيح من طريق عكرمة عنه أيضا: أن رجلا سأله عن الاستئذان فى الثلاث العورات التى أمر اللّه بها فى القرآن، فقال ابن عباس: «إنّ اللّه ستير يحب الستر» و كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم و لا حجاب فى بيوتهم، فربما فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيم فى حجره و هو على أهله، فأمرهم اللّه أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى اللّه، ثم جاء اللّه بعد بالستور، فبسط عليهم فى الرزق، فاتخذوا الستور و اتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عمر فى قوله: لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ قال: هى على الذكور دون الإناث، و لا وجه لهذا التخصيص، فالاطلاع على العورات فى هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث. و أخرج ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن بعض أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى الآية قالت: نزلت فى النساء أن يستأذن علينا. و أخرج الحاكم و صححه عن علىّ فى الآية قال: النساء فإن الرجال يستأذنون. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عبد الرحمن السلمى فى هذه الآية قال: هى فى النساء خاصة، الرجال يستأذنون على كل حال بالليل و النهار. و أخرج الفريابى عن موسى بن أبى عائشة قال: سألت الشعبى عن هذه الآية أ منسوخة هى؟ قال: لا. و أخرج سعيد بن منصور و البخارى فى الأدب و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عطاء أنه

سأل ابن عباس أ أستأذن على أختى؟ قال: نعم، قلت: إنها فى حجرى و إنى أنفق عليها، و إنها معى فى البيت أ أستأذن عليها؟ قال: نعم. إن اللّه يقول: لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ الآية، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا فى هؤلاء العورات الثلاث، قال: وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فالإذن واجب على كل خلق اللّه أجمعين. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و البيهقى فى سننه عن ابن مسعود قال: عليكم إذن على أمهاتكم. و أخرج سعيد بن منصور و البخارى فى الأدب عنه قال: يستأذن الرجل على أبيه و أمه و أخيه و أخته. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب عن جابر نحوه. و أخرج ابن جرير و البيهقى فى السنن عن عطاء بن يسار أن رجلا قال: «يا رسول اللّه! أ أستأذن على أمّى؟ قال: نعم، قال: إنى معها فى البيت، قال: أستأذن عليها، قال: إنى خادمها

---

(۱). الحجرات: ۱۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵

أ فأستأذن عليها كلّما دخلت؟ قال: أ تحبّ أن تراها عريانة؟ قال لا، قال: فاستأذن عليها» و هو مرسل.

و أخرج ابن أبى شيبة نحوه عن زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبى صلّى اللّه عليه و سلم و هو أيضا مرسل. و أخرج أبو داود و البيهقى فى السنن عن ابن عباس وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَ الآية، فنسخ و استثنى من ذلك وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى السنن عنه قال: هى المرأة لا جناح عليها أن تجلس فى بيتها بدرع و خمار، و تضع عنها الجلباب ما لم تتبرّج بما يكرهه اللّه، و هو قوله: فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و ابن المنذر و ابن الأنبارى فى المصاحف و البيهقى عن ابن عباس أنه كان يقرأ «أن يضعن من ثيابهنّ» و يقول:

هو الجلباب. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن عمر فى الآية قال: تضع الجلباب و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و البيهقى فى السنن عن ابن مسعود أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَ قال: الجلباب و الرداء. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ «۱» قالت الأنصار: ما بالمدينة مال أعزّ من الطعام كانوا يتحرّجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون إنه لا يبصر موضع الطعام، و كانوا يتحرّجون الأكل مع الأعرج يقولون الصحيح يسبقه إلى المكان و لا يستطيع أن يزاحم، و يتحرّجون الأكل مع المريض يقولون لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح، و كانوا يتحرّجون أن يأكلوا فى بيوت أقاربهم، فنزلت: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى يعنى: فى الأكل مع الأعمى. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مقسم نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن مجاهد قال: كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله أو بيت خالته، فكان الزمنى يتحرّجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن النجار عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فيدفعون مفاتيحهم إلى أمنائهم و يقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه، فكانوا يقولون إنه لا يحلّ لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس، و إنما نحن زمنى، فأنزل اللّه وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا إلى قوله: أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ قال المسلمون:

إن اللّه قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، و الطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكفّ الناس عن

ذلک، فأنزل اللّه لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ إلى قوله: أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ و هو الرجل يوكل الرجل بضيعته، و الذى رخص اللّه: أن يأكل من ذلك الطعام و التمر و يشرب اللبن، و كانوا أيضا يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص اللّه لهم فقال: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الضحاك قال: كان أهل المدينة

---

(۱). النساء: ۲۹.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۶۶

قبل أن يبعث النبى صلّى اللّه عليه و سلم لا يخالطهم فى طعامهم أعمى و لا مريض و لا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام، فنزلت رخصة فى مؤاكلتهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو داود فى مراسيله و ابن جرير و البيهقى عن الزهرى أنه سئل عن قوله: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ما بال الأعمى و الأعرج و المريض ذكروا هنا؟

أخبرنى عبيد اللّه بن عبد اللّه أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم، و كانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، يقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا، و كانوا يتحرّجون من ذلك يقولون لا ندخلها و هم غيب.

فأنزل اللّه هذه الآية رخصة لهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: كان هذا الحىّ من بنى كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده فى الجاهلية، حتى إن كان الرجل يسوق الزود الحفّل و هو جائع حتى يجد من يؤاكله و يشاربه، فأنزل اللّه لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة و أبى صالح قالا: كان الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم، فنزلت رخصة لهم. و أخرج الثعلبى عن ابن عباس فى الآية، قال خرج الحارث غازيا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و خلف على أهله خالد بن يزيد، فحرج أن يأكل من طعامه، و كان مجهودا فنزلت. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَوْ صَدِيقِكُمْ قال: إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: أَوْ صَدِيقِكُمْ قال: هذا شى‏ء قد انقطع، إنما كان هذا فى أوّله و لم يكن لهم أبواب، و كانت الستور مرخاة، فربما دخل الرجل البيت و ليس فيه أحد، فربما وجد الطعام و هو جائع فسوّغه اللّه أن يأكله. و قال: ذهب ذلک، اليوم البيوت فيها أهلها، فإذا خرجوا أغلقوا، فقد ذهب ذلك. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ يقول: إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أنفسكم تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و هو السلام، لأنه اسم اللّه، و هو تحية أهل الجنة. و أخرج البخارى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق أبى الزبير عن جابر بن عبد اللّه قال: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند اللّه مُبارَكَةً طَيِّبَةً.

و أخرج عبد الرزّاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ قال: هو المسجد إذا دخلته فقل: السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين.

و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب عن ابن عمر قال: إذا دخل البيت غير المسكون، أو المسجد فليقل: السلام علينا و على عباد اللّه الصالحين.

[سورة النور (۲۴): الآيات ۶۲ الى ۶۴]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۲) لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۳) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۴)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۷

جملة إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ مستأنفة مسوقة لتقدير ما تقدّمها من الأحكام، و «إنما» من صيغ الحصر، و المعنى: لا يتمّ إيمان و لا يكمل حتى يكون بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و جملة وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ معطوفة على آمنوا داخلة فى حيز الصلة، أى: إذا كانوا مع رسول اللّه على أمر جامع، أى: على أمر طاعة يجتمعون عليها، نحو الجمعة و النحر و الفطر و الجهاد، و أشباه ذلك، و سمى الأمر جامعا: مبالغة لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ قال المفسرون: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة و أراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم. قال مجاهد: و إذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. قال الزجاج: أعلم اللّه أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه، و كذلك ينبغى أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه و لا يرجعون عنه فى جمع من جموعهم إلا بإذنه، و للإمام أن يأذن و له أن لا يأذن على ما يرى لقوله تعالى: فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ و قرأ اليمانى: على أمر جميع. و الحاصل أن الأمر الجامع، أو الجميع، هو الذى يعمّ نفعه أو ضرره، و هو الأمر الجليل الذى يحتاج إلى اجتماع أهل الرأى و التجارب. قال العلماء: كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه و لا يرجعون عنه إلا بإذن، ثم قال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فبين سبحانه أن المستأذنين: هم المؤمنون باللّه و رسوله، كما حكم أوّلا بأن المؤمنين الكاملى الإيمان: هم الجامعون بين الإيمان بهما و بين الاستئذان فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ أى: إذا استأذن المؤمنون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لبعض الأمور التى تهمّهم، فإنه يأذن لمن شاء منهم، و يمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التى يراها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، ثم أرشده اللّه سبحانه إلى الاستغفار لهم، و فيه إشارة إلى أن الاستئذان إن كان لعذر مسوّغ، فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة و الرحمة بالغ فيهما إلى الغاية التى ليس وراءها غاية لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً و هذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، أى: لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض، فى التساهل فى بعض الأحوال عن الإجابة أو الرجوع بغير استئذان، أو رفع الصوت. و قال سعيد بن جبير و مجاهد: المعنى قولوا: يا رسول اللّه! فى رفق ولين، و لا تقولوا:
يا محمد بتجهّم. و قال قتادة: أمرهم أن يشرّفوه و يفخموه. و قيل المعنى: لا تتعرّضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه، فإن دعوته موجبة قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً التسلل: الخروج فى خفية، يقال تسلل فلان من بين أصحابه: إذا خرج من بينهم، و اللواذ من الملاوذة، و هو أن تستتر بشىء، مخافة من يراك، و أصله أن يلوذ هذا بذاك و ذاك بهذا، و اللوذ ما يطيف بالجبل، و قيل: اللواذ الزوغان من شىء إلى شىء فى خفية. و انتصاب لواذا على الحال، أى: متلاوذين، يلوذ بعضهم ببعض، و ينضمّ إليه، و قيل:

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۸

هو منتصب على المصدرية لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة، أى: يلوذون لواذا. و قرأ زيد بن قطيب لِواذاً بفتح اللام. و فى الآية بيان ما كان يقع من المنافقين، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين، ينضم بعضهم إلى بعض استتارا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و قد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين، لما يرون من الاجتماع للصلاة و الخطبة، فكانوا يفرون عن

الحضور و يتسللون فى خفية، و يستتر بعضهم ببعض، و ينضم إليه. و قيل اللواذ: الفرار من الجهاد و به قال الحسن، و منه قول حسان:

و قريش تجول منّا لواذالم تحافظ و خفّ منها الحلوم

فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ الفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: يخالفون أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلم بترك العمل بمقتضاه، و عدّى فعل المخالفة بعن مع كونه متعدّيا بنفسه، لتضمينه معنى الإعراض أو الصدّ، و قيل: الضمير للّه سبحانه لأنه الآمر بالحقيقة، و أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ مفعول يحذر، و فاعله: الموصول.

و المعنى: فليحذر المخالفون عن أمر اللّه، أو أمر رسوله، أو أمرهما جميعا، إصابة فتنة لهم أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: فى الآخرة، كما أن الفتنة التى حذرهم من إصابتها لهم، هى فى الدنيا، و كلمة أو لمنع الخلوّ.

قال القرطبى: احتجّ الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية. و وجه ذلك أن اللّه سبحانه قد حذر من مخالفة أمره، و توعد بالعقاب عليها بقوله: أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ الآية، فيجب امتثال أمره و تحرم مخالفته، و الفتنة هنا: غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن، و قيل: هى القتل، و قيل: الزلازل، و قيل: تسلط سلطان جائر عليهم، و قيل: الطبع على قلوبهم. قال أبو عبيدة و الأخفش: عن فى هذا الموضع زائدة. و قال الخليل و سيبويه:

ليست بزائدة، بل هى بمعنى بعد، كقوله: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ «1» أى: بعد أمر ربه، و الأولى: ما ذكرناه من التضمين أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من المخلوقات بأسرها، فهى ملكه: قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ أيها العباد من الأحوال التى أنتم عليها، فيجازيكم بحسب ذلك، و يعلم هاهنا: بمعنى علم وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ معطوف على ما أنتم عليه، أى: يعلم ما أنتم عليه و يعلم يوم ترجعون إليه فيجازيكم فيه بما عملتم، و تعليق علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجعهم لزيادة تحقيق علمه، لأن العلم بوقت وقوع الشىء، يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أى: يخبرهم بما عملوا من الأعمال التى من جملتها مخالفة الأمر، و الظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شىء من أعمالهم.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و البيهقى فى الدلائل عن عروة و محمد بن كعب القرظى قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة: بئر بالمدينة، قائدها أبو سفيان، و أقبلت غطفان حتى نزلوا بنقمى إلى جانب أحد، و جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الخبر، فضرب الخندق على المدينة و عمل فيه المسلمون، و أبطأ رجال من المنافقين، و جعلوا يورّون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم

---

(1). الكهف: 50.

و لا إذن، و جعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و يستأذنه فى اللحوق لحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل اللّه فى أولئك إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية قال: هى فى الجهاد و الجمعة و العيدين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى قوله: عَلى أَمْرٍ جامِعٍ قال: من طاعة اللّه عام. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عنه فى قوله: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ الآية قال: يعنى كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه، و لكن وقروه و قولوا له: يا رسول اللّه! يا نبىّ اللّه!. و أخرج عبد الغنى بن سعيد فى تفسيره و أبو نعيم فى الدلائل عنه أيضا فى الآية قال: لا تصيحوا به من بعيد يا أبا القاسم، و لكن كما قال اللّه فى الحجرات إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ «1».

و أخرج أبو داود فى مراسيله عن مقاتل، قال: كان لا يخرج أحد لرعاف أو أحداث حتى يستأذن النبى صلّى اللّه عليه و سلم يشير إليه بإصبعه التى تلى الإبهام، فيأذن له النبى صلّى اللّه عليه و سلم يشير إليه بيده، و كان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة و الجلوس فى المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج. فأنزل اللّه الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً الآية. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و الطبرانى- قال السيوطى بسند حسن- عن عقبة بن عامر قال: رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو يقرأ هذه الآية فى خاتمة سورة النور- و هو جاعل إصبعيه تحت عينيه- يقول: بكل شيء بصير.

---

(۱). الحجرات: ۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۰

سورة الفرقان

اشارة

و هى مكية كلها فى قول الجمهور، و كذا أخرجه ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس. و أخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير. قال القرطبى: و قال ابن عباس و قتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة. و هى: وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ الآيات. و أخرج مالك و الشافعى و البخارى و مسلم و ابن حيان و البيهقى فى سننه عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟

قال: أقرأنيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقلت: كذبت فإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقلت: إنّى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أرسله، أقرئنا هشام» فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كذلك أنزلت»: ثم قال: «أقرئنا عمر»، فقرأت القراءة التى أقرأنى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كذلك أنزلت. إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسّر منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (۱) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (۲) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً (۳) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (۴)

وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (۵) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً

رَحِيماً (۶)

تكلم سبحانه فى هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم و أهمّ، ثم فى النبوّة لأنها الواسطة، ثم فى المعاد، لأنه الخاتمة. و أصل تبارك: مأخوذ من البركة، و هى النماء و الزيادة، حسية كانت أو عقلية. قال الزجاج:

تبارك تفاعل، من البركة. قال: و معنى البركة: الكثرة من كل ذى خير، و قال الفراء: إن تبارك و تقدّس فى العربية واحد، و معناهما: العظمة. و قيل المعنى: تبارك عطاؤه، أى: زاد و كثر، و قيل المعنى: دام و ثبت. قال النحاس: و هذا أولاها فى اللغة، و الاشتقاق من برك الشيء: إذا ثبت، و منه: برك الجمل، أى: دام و ثبت. و اعترض ما قاله الفراء بأن التقديس إنما هو من الطهارة، و ليس من ذا فى شيء. قال العلماء:

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۱

هذه اللفظة لا تستعمل إلا للّه سبحانه، و لا تستعمل إلا بلفظ الماضى، و الفرقان: القرآن، و سمى فرقانا، لأنه يفرق بنى الحقّ و الباطل بأحكامه، أو بين المحق و المبطل، و المراد بعبده نبينا صلّى اللّه عليه و سلم. ثم علل التنزيل لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً فإن النذارة هى الغرض المقصود من الإنزال، و المراد: محمد صلّى اللّه عليه و سلم أو الفرقان، و المراد بالعالمين هنا: الإنس و الجنّ، لأن النبى صلّى اللّه عليه و سلم مرسل إليهما، و لم يكن غيره من الأنبياء مرسلا إلى الثقلين، و النذير:

المنذر، أى: ليكون محمد منذرا، أو ليكون إنزال القرآن منذرا، و يجوز أن يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة، أى: ليكون إنزاله إنذارا، و جعل الضمير للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أولى، لأن صدور الإنذار منه حقيقة، و من القرآن مجاز، و الحمل على الحقيقة أولى و لكونه أقرب مذكور. و قيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ «۱» ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات أربع: الأولى:

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ دون غيره فهو المتصرّف فيهما، و يحتمل أن يكون الموصول الآخر بدلا، أو بيانا للموصول الأوّل، و الوصف أولى، و فيه تنبيه على افتقار الكلّ إليه فى الوجود و توابعه من البقاء و غيره.

و الصفة الثانية: وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً و فيه ردّ على النصارى و اليهود. و الصفة الثالثة: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ و فيه ردّ على طوائف المشركين من الوثنية، و الثنوية، و أهل الشرك الخفى. و الصفة الرابعة:

وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ من الموجودات فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً أى: قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، و هيأه لما يصلح له. قال الواحدى: قال المفسرون: قدر له تقديرا من الأجل و الرزق، فجرت المقادير على ما خلق. و قيل: أريد بالخلق هنا مجرّد الإحداث، و الإيجاد مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير و إن لم يخل عنه فى نفس الأمر، فيكون المعنى: أوجد كل شيء فقدّره لئلا يلزم التكرار، ثم صرّح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان فقال: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً و الضمير فى اتخذوا للمشركين و إن لم يتقدّم لهم ذكر، لدلالة نفى الشريك عليهم، أى: اتخذ المشركون لأنفسهم- متجاوزين اللّه- آلهة لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً و الجملة فى محل نصب: صفة لآلهة، أى: لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء، و غلب العقلاء على غيرهم، لأن فى معبودات الكفار: الملائكة، و عزير، و المسيح وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أى: يخلقهم اللّه سبحانه. و قيل:

عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جريا على اعتقاد الكفار أنها تضرّ و تنفع. و قيل: معنى وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أن عبدتهم يصوّرونهم. ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة، وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ فقال:

وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً أى: لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعا و لا يدفعوا عنها ضررا، و قدّم ذكر الضرّ لأن دفعه أهمّ من جلب النفع و إذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع و النفع، فيما يتعلق بأنفسهم، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم. ثم زاد فى بيان عجزهم فنصص على هذه الأمور فقال: وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً أى: لا يقدرون على إماتة

الأحياء، و لا- إحياء الموتى، و لا- بعثهم من القبور، لأن النشور: الإحياء بعد الموت، يقال أنشر اللّه الموتى فنشروا، و منه قول الأعشى:

حتّى يقول الناس ممّا رأوايا عجبا للميّت الناشر

---

(۱). الإسراء: ۹.

و لما فرغ من بيان التوحيد، و تزييف مذاهب المشركين، شرع فى ذكر شبه منكرى النبوّة. فالشبهة الأولى: ما حكاه عنهم بقوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ أى: كذب افْتَراهُ أى:

اختلقه محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الإشارة بقوله هذا: إلى القرآن وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ أى: على الاختلاق قَوْمٌ آخَرُونَ يعنون من اليهود. قيل و هم: أبو فكيهة يسار مولى الحضرمى، و عداس مولى حويطب بن عبد العزى، و جبر مولى ابن عامر، و كان هؤلاء الثلاثة من اليهود، و قد مرّ الكلام على مثل هذا فى النحل. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم فقال: فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً أى: فقد قالوا ظلما هائلا عظيما و كذبا ظاهرا، و انتصاب ظلما بجاؤوا، فإن جاء: قد يستعمل استعمال أتى، و يعدّى تعديته. و قال الزجاج: إنه منصوب بنزع الخافض، و الأصل، جاءوا بظلم. و قيل: هو منتصب على الحال، و إنما كان ذلك منهم ظلما لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشى‌ء فى غير موضعه، و هذا هو الظلم، و أما كون ذلك منهم زورا فظاهر، لأنهم قد كذبوا فى هذه المقالة. ثم ذكر الشبهة الثانية فقال: وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى:

أحاديث الأوّلين، و ما سطروه من الأخبار. قال الزجاج: واحد الأساطير: أسطورة، مثل: أحاديث، و أحدوثة، و قال غيره: أساطير جمع أسطار مثل أقاويل و أقوال اكْتَتَبَها أى: استكتبها أو كتبها لنفسه، و محل اكتتبها: النصب على أنه حال من أساطير، أو محله الرفع على أنه خبر ثان، لأن أساطير مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هذه أساطير الأوّلين اكتتبها، و يجوز أن يكون أساطير مبتدأ، و اكتتبها خبره، و يجوز أن يكون معنى اكتتبها جمعها من الكتب، و هو الجمع، لا- من الكتابة بالقلم. و الأوّل: أولى. و قرأ طلحة اكْتَتَبَها مبنيا للمفعول، و المعنى: اكتتبها له كاتب، لأنه كان أميا لا يكتب، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى ضمير فصار اكتتبها إياه، ثم بنى الفعل للضمير الذى هو إياه، فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان منصوبا بارزا، كذا قال فى الكشاف، و اعترضه أبو حيان فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ أى: تلقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها ليحفظها من أفواه من يمليها من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، و يجوز أن يكون المعنى اكتتبها أراد اكتتابها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ لأنه يقال: أمليت عليه فهو يكتب بُكْرَةً وَ أَصِيلًا غدوة و عشيا كأنهم قالوا: إن هؤلاء يعلمون محمدا طرفى النهار، و قيل: معنى بكرة و أصيلا: دائما فى جميع الأوقات، فأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: ليس ذلك مما يفترى و يفتعل بإعانة قوم، و كتابة آخرين من الأحاديث الملفقة و أخبار الأوّلين، بل هو أمر سماوىّ أنزله الذى يعلم كلّ شى‌ء لا يغيب عنه شى‌ء من الأشياء، فلهذا عجزتم عن معارضته و لم تأتوا بسورة منه، و خصّ السرّ للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر، و السرّ: الغيب، أى: يعلم الغيب الكائن فيهما، و جملة إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً تعليل لتأخير العقوبة، أى: إنكم و إن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله و الظلم له، فإنه لا يعجل عليكم بذلك، لأنه كثير المغفرة و الرحمة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس تَبارَكَ تفاعل من البركة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد

و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ قال يهود فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً قال: كذبا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ هو القرآن، فيه حلاله و حرامه، و شرائعه و دينه، و فرق اللّه بين الحق و الباطل لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً قال: بعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلم نذيرا من اللّه لينذر الناس بأس اللّه، و وقائعه بمن خلا قبلكم وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً قال: بين لكل شىء من خلقه صلاحه، و جعل ذلك بقدر معلوم وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قال: هى الأوثان التى تعبد من دون اللّه لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ و هو اللّه الخالق الرزاق، و هذه الأوثان تخلق و لا تخلق شيئا و لا تضرّ و لا تنفع، و لا تملك موتا و لا حياة و لا نشورا: يعنى بعثا وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هذا قول مشركى العرب إِنْ هذا إِلَّا إِفْكٌ هو الكذب افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ أى: على حديثه هذا، و أمره قَوْمٌ آخَرُونَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ كذب الأوّلين و أحاديثهم.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٧ الى ١٦]

وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبارَكَ الَّذِى إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١)

إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً (١٢) وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَ ذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (١٦)

لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن، ذكر ما طعنوا به على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ و فى الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه و هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و سموه رسولا استهزاء و سخرية يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ أى: ما باله يأكل الطعام كما نأكل و يتردّد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردّد، و زعموا أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الطعام و الكسب، و ما الاستفهامية فى محل رفع على الابتداء، و الاستفهام للاستنكار، و خبر المبتدأ لهذا الرسول، و جملة يأكل فى محل نصب على الحال، و بها تتمّ فائدة الإخبار كقوله: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ «١» و الإنكار متوجه إلى السبب مع تحقيق المسبب، و هو الأكل و المشى، و لكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم تهكما و استهزاء.

و المعنى: أنه إن صحّ ما يدّعيه من النبوّة فما باله لم يخالف حاله حالنا لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً

---

(١). المدثر: ٤٩.

طلبوا أن يكون النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم مصحوبا بملك يعضده و يساعده، تنزلوا عن اقتراح أن يكون الرسول صلّى اللّه عليه و سلم ملكا مستغنيا عن الأكل و الكسب، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدّقه و يشهد له بالرسالة. قرأ الجمهور فَيَكُونَ بالنصب على كونه جواب التحضيض. و قرئ «فيكون» بالرفع على أنه معطوف على أنزل، و جاز عطفه على الماضى لأنه المراد به المستقبل أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ معطوف على أنزل، و لا يجوز عطفه على فيكون، و المعنى: أو هلا يلقى إليه كنز، تنزلوا من مرتبة

نزول الملك معه إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقى إليه من السماء ليستغنى به عن طلب الرزق أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها قرأ الجمهور تَكُونُ بالمثناة الفوقية، و قرأ الأعمش و قتادة «يكون» بالتحتية، لأن تأنيث الجنة غير حقيقى. و قرأ «نأكل» بالنون حمزة و علىّ و خلف، و قرأ الباقون يَأْكُلُ بالمثناة التحتية، أى: بستان نأكل نحن من ثماره، أو يأكل هو وحده منه ليكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته. قال النحاس:

و القراءتان حسنتان و إن كانت القراءة بالياء أبين، لأنه قد تقدّم ذكر النبى صلّى اللّه عليه و سلم وحده، فعود الضمير إليه بين وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً المراد بالظالمون هنا: هم القائلون بالمقالات الأولى، و إنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به، أى: ما تتبعون إلا رجلا مغلوبا على عقله بالسحر، و قيل: ذا سحر، و هى الرئة، أى: بشرا له رئة لا ملكا، و قد تقدّم بيان مثل هذا فى سبحان انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ ليتوصلوا بها إلى تكذيبك، و الأمثال: هى الأقوال النادرة و الاقتراحات الغريبة، و هى ما ذكروه هاهنا فَضَلُّوا عن الصواب فلا يجدون طريقا إليه، و لا وصلوا إلى شىء منه، بل جاءوا بهذه المقالات التى لا تصدر عن أدنى العقلاء و أقلهم تمييزا، و لهذا قال: فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا أى: لا يجدون إلى القدح فى نبوّة هذا النبىّ طريقا من الطرق تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ أى: تكاثر خير الذى إن شاء جعل لك فى الدنيا معجلا خيرا من ذلك الذى اقترحوه. ثم فسر الخير فقال: جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فجنات بدل من خيرا وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً معطوف على موضع جعل، و هو الجزم، و بالجزم قرأ الجمهور. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو بكر برفع يَجْعَلْ على أنه مستأنف، و قد تقرّر فى علم الإعراب أن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى جوابه الجزم و الرفع فجاز أن يكون جعل هاهنا فى محل جزم و رفع فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم و يرفع. و قرئ بالنصب. و قرئ بإدغام لام لك فى لام يجعل لاجتماع المثلين. و قرئ بترك الإدغام لأن الكلمتين منفصلتان، و القصر: البيت من الحجارة، لأن الساكن به مقصور على أن يوصل إليه، و قيل: هو بيت الطين و بيوت الصوف و الشعر. ثم أضرب سبحانه على توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذى لا يصدر عن العقلاء فقال:

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ أى: بل أتوا بأعجب من ذلك كله. و هو تكذيبهم بالساعة، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل و لا يتأملون فيها. ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لمن كذب بالساعة فقال: وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً أى: نارا مشتعلة متسعرة، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: بل كذبوا بالساعة، و الحال أنا أعتدنا. قال أبو مسلم: أعتدنا، أى: جعلناه عتيدا و معدّا لهم إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۵

هذه الجملة الشرطية فى محل نصب صفة لسعيرا لأنه مؤنث بمعنى النار، قيل: معنى إذا رأتهم:

إذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر فى البعد، و قيل المعنى: إذا رأتهم خزنتها، و قيل: إن الرؤية منها حقيقية و كذلك التغيظ و الزفير، و لا مانع من أن يجعلها اللّه سبحانه مدركة هذا الإدراك. و معنى مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ أنها رأتهم و هى بعيدة عنهم، قيل: بينها و بينهم مسيرة خمسمائة عام. و معنى التغيظ: أن لها صوتا يدل على التغيظ على الكفار، أو لغليانها صوتا يشبه صوت المغتاظ. و الزفير: هو الصوت الذى يسمع من الجوف.

قال الزجاج: المراد سماع ما يدل على الغيظ و هو الصوت، أى: سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ. و قال قطرب: أراد علموا لها تغيظا و سمعوا لها زفيرا، كما قال الشاعر: متقلدا سيفا و رمحا، أى: و حاملا رمحا، و قيل المعنى: سمعوا فيها تغيظا و زفيرا للمعذبين كما قال: لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ «۱» و فى و اللام متقاربان، تقول: افعل هذا فى اللّه وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدّة و تناهى البلاء عليهم، و انتصاب مُقَرَّنِينَ على الحال، أى: إذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال

كونهم مقرنين، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع، مصفّدين بالحديد، و قيل: مكتفين، و قيل: قرنوا مع الشياطين، أى: قرن كل واحد منهم إلى شيطانه، و قد تقدّم الكلام على مثل هذا فى سورة إبراهيم دَعَوْا هُنالِكَ أى: فى ذلك المكان الضيق ثُبُوراً أى: هلاكا. قال الزجاج: و انتصابه على المصدرية، أى: ثبرنا ثبورا، و قيل: منتصب على أنه مفعول له، و المعنى: أنهم يتمنون هنالك الهلاك و ينادونه لما حلّ بهم من البلاء، فأجيب عليهم بقوله: لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً أى: فيقال لهم هذه المقالة، و القائل لهم هم الملائكة، أى: اتركوا دعاء ثبور واحد، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك و أعظم، كذا قال الزجاج: وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً و الثبور: مصدر يقع على القليل و الكثير فلهذا لم يجمع، و مثله: ضربته ضربا كثيرا، و قعد قعودا طويلا، فالكثرة هاهنا هى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرته فى نفسه، فإنه شيء واحد.

و المعنى: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور واحدا و ادعوه أدعية كثيرة، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشدّ من ذلك لطول مدته و عدم تناهيه، و قيل: هذا تمثيل و تصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك، من غير أن يكون هناك فول، و قيل: إن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا بل هو ثبور كثير لأن العذاب أنواع، و الأولى:

أن المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم و إقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجى لهم مما هم فيه.

ثم وبّخهم اللّه سبحانه توبيخا بالغا على لسان رسوله فقال: قُلْ أَ ذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ و الإشارة بقوله ذلك إلى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة، أى: أ تلك السعير خير أم جنة الخلد، و فى إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها و عدم انقطاعه، و معنى الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ التى وعدها المتقون، و المجيء بلفظ خير هنا مع أنه لا خير فى النار أصلا، لأن العرب قد تقول ذلك، و منه ما حكاه سيبويه عنهم أنهم يقولون: السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة؟ و قيل: ليس هذا من باب التفضيل، و إنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: و هذا قول حسن كما قال:

---

(١). هود: ١٠٦.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٧٦ أ تهجوه و لست له بكفءفشرّكما لخيركما الفداء

ثم قال سبحانه: كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِيراً أى: كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم و مصيرا يصيرون إليه لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ أى: ما يشاءونه من النعيم، و ضروب الملاذ، كما فى قوله: وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ «١» و انتصاب خالدين على الحال، و قد تقدم تحقيق معنى الخلود كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا أى: كان ما يشاءونه، و قيل: كان الخلود، و قيل: كان الوعد المدلول عليه بقوله: وعد المتقون، و معنى الوعد المسؤول: الوعد المحقق بأن يسأل و يطلب كما فى قوله: رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ «٢» و قيل: إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله: وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ «٣» و قيل: المراد به الوعد الواجب و إن لم يسأل.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أن عتبة بن ربيعة و أبا سفيان بن حرب و النضر ابن الحارث و أبا البخترى و الأسود عبد المطلب و زمعة بن الأسود و الوليد بن المغيرة و أبا جهل بن هشام و عبد اللّه ابن أمية و أمية بن خلف و العاص بن وائل و نبيه بن الحجاج و منبه بن الحجاج اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض:

ابعثوا إلى محمد و كلموه و خاصموه حتى تعذروا منه، فبعثوا إليه إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، قال: فجاءهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا، و إن كنت تطلب به الشرف فنحن نسوّدك، و إن كنت تريد به ملكا ملكناك؛ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما بى ممّا تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم و لا الشّرف فيكم و لا الملك عليكم، و لكنّ اللّه بعثنى

إليكم رسولا، و أنزل علىّ كتابا، و أمرنى أن أكون لكم بشيرا و نذيرا، فبلّغتكم رسالة ربّى و نصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظّكم فى الدنيا و الآخرة، و إن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه حتّى يحكم اللّه بينى و بينكم؛ قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك، أو قالوا: فإذا لم تفعل هذا فسل لنفسك و سل ربّك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول و يراجعنا عنك، و سله أن يجعل لك جنانا و قصورا من ذهب و فضّة تغنيك عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق و تلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك و منزلتك من ربّك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربّه هذا، و ما بعثت إليكم بهذا، و لكنّ اللّه بعثنى بشيرا و نذيرا، فأنزل اللّه فى ذلك وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً أى: جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا، و لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة فى المصنف و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن خيثمة قال: قيل للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: إن شئت أعطيناك من خزائن الأرض و مفاتيحها ما لم يعط نبىّ قبلك، و لا نعطها أحدا بعدك، و لا ينقصك ذلك مما لك عند اللّه شيئا، و إن شئت

---

(۱). فصلت: ۳۱.

(۲). آل عمران: ۱۹۴.

(۳). غافر: ۸.

جمعتها لك فى الآخرة، فقال: اجمعها لى فى الآخرة، فأنزل اللّه سبحانه تَبارَكَ الَّذِی إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً. و أخرج نحوه عن ابن مردويه من طريق أخرى.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «من يقل علىّ ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا، قيل: يا رسول اللّه! و هل لها من عينين؟ قال: نعم، أما سمعتم يقول:

إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ». و أخرج آدم بن أبى إياس فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ قال: من مسيرة مائة عام، و ذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، يشدّ بكل زمام سبعون ألف ملك، لو تركت لأتت على كل برّ و فاجر سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت، ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها و تبلغ القلوب الحناجر. و أخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل عن قول اللّه وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ قال: «و الذى نفسى بيده إنّهم ليستكرهون فى النّار كما يستكره الوتد فى الحائط». و أخرج ابن جرير و ابن أبى المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً قال: ويلا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً يقول: لا تدعوا اليوم ويلا واحدا. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى البعث. قال السيوطى بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إنّ أوّل من يكسى حلته من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه و يسحبها من خلفه و ذرّيته من بعده، و هو ينادى: يا ثبوراه! و يقولون: يا ثبورهم! حتى يقف على الناس فيقول: يا ثبوراه! و يقولون: يا ثبورهم! فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا و ادعوا ثبورا كثيرا». و إسناد أحمد هكذا. حدّثنا عفان عن حميد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و فى علىّ بن زيد بن جدعان مقال معروف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً

مَسْؤُلًا يقول: سلوا الذى وعدتكم تنجزوه.

[سورة الفرقان (25): الآيات 17 الى 24]

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لا نَصْراً وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (١٩) وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠) وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١)

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (٢٢) وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (٢٣) أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤)

فتح القدير، ج‌4، ص: 78

قوله: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ الظرف منصوب بفعل مضمر، أى: و اذكر، و تعليق التذكير باليوم مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة و التأكيد كما مرّ مرارا. قرأ ابن محيصن و حميد و ابن كثير و حفص و يعقوب و أبو عمرو فى رواية الدوريّ «يحشرهم» بالياء التحتية، و اختارها أبو عبيد و أبو حاتم لقوله فى أوّل الكلام كانَ عَلى رَبِّكَ و الباقون بالنون على التعظيم ما عدا الأعرج فإنه قرأ «نحشرهم» بكسر الشين فى جميع القرآن. قال ابن عطية: هى قليلة فى الاستعمال قوية فى القياس، لأن يفعل بكسر العين فى المتعدى أقيس من يفعل بضمها، و ردّه أبو حيان باستواء المضموم و المكسور إلا أن يشتهر أحدهما؛ اتّبع وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ معطوف على مفعول نحشر، و غلب غير العقلاء من الأصنام و الأوثان و نحوها على العقلاء من الملائكة و الجن و المسيح تنبيها على أنها جميعا مشتركة فى كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن من يعبد من لا يعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها، فغلبت اعتبارا بكثرة من يعبدها، و قال مجاهد و ابن جريج: المراد الملائكة و الإنس و الجن و المسيح و عزير، بدليل خطابهم، و جوابهم فيما بعد. و قال الضحاك و عكرمة و الكلبى: المراد الأصنام خاصة، و إنها و إن كانت لا تسمع و لا تتكلم فإن اللّه سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة، فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قرأ ابن عامر و أبو حيوة و ابن كثير و حفص «فنقول» بالنون، و قرأ الباقون بالياء التحتية، و اختارها أبو عبيد كما اختار القراءة بها فى نحشرهم، و كذا أبو حاتم. و الاستفهام فى قوله: أ أنتم أضللتم للتوبيخ و التقريع. و المعنى: أ كان ضلالهم بسببكم، و بدعوتكم لهم إلى عبادتكم، أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق و التدبر فيما يتوصل به إلى الصواب و جملة قالُوا سُبْحانَكَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و معنى سبحانك: التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة أو أنبياء معصومين، أو جمادات لا تعقل، أى: تنزيها لك ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ أى: ما صح و لا استقام لنا أن نتخذ من دونك أولياء فنعبدهم، فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك، و الولىّ يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور نتخذ مبنيا للفاعل. و قرأ الحسن و أبو جعفر «نتخذ» مبنيا للمفعول، أى: ما كان ينبغى لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك. قال أبو عمرو بن العلاء و عيسى بن عمر: لا تجوز هذه القراءة و لو كانت صحيحة لحذفت من الثانية. قال أبو عبيدة: لا تجوز هذه القراءة لأن اللّه سبحانه ذكر «من» مرتين، و لو كان كما قرأ لقال: أن نتخذ من دونك أولياء. و قيل: إن «من» الثانية زائدة.

ثم حكى عنهم سبحانه بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان فقال: وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا

الذِّكْرَ و فى هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل، و لم يضلهم غيرهم، و المعنى:

ما أضللناهم، و لكنك يا رب متعتهم و متعت آباءهم بالنعم، و وسعت عليهم الرزق، و أطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك، و نسوا موعظتك، و التدبر لكتابك و النظر فى عجائب صنعك، و غرائب مخلوقاتك. و قرأ أبو عيسى الأسود القارئ «ينبغى» مبنيا للمفعول. قال ابن خالويه: زعم سيبويه أنها لغة. و قيل: المراد بنسيان الذكر هنا هو ترك الشكر وَ كانُوا قَوْماً بُوراً أي: و كان هؤلاء الذين أشركوا بك و عبدوا غيرك

فتح القدير، ج۴، ص: ۷۹

فى قضائك الأزلىّ قوما بورا، أي: هلكى، مأخوذ من البوار و هو الهلاك؛ يقال: رجل بائر و قوم بور، يستوى فيه الواحد و الجماعة لأنه مصدر يطلق على القليل و الكثير و يجوز أن يكون جمع بائر. و قيل: البوار:

الفساد. يقال: بارت بضاعته، أي: فسدت، و أمر بائر، أي: فاسد و هى لغة الأزد. و قيل: المعنى:

لا خير فيهم، مأخوذ من بور الأرض و هو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير، و قيل: إن البوار الكساد، و منه بارت السلعة إذا كسدت فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فى الكلام حذف، و التقدير: فقال اللّه عند تبرى المعبودين مخاطبا للمشركين العابدين لغير اللّه فقد كذبوكم، أي: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون، أي: فى قولكم إنهم آلهة فَما تَسْتَطِيعُونَ أي: الآلهة صَرْفاً أي: دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه، و قيل: حيلة وَ لا نَصْراً أي: و لا يستطيعون نصركم، و قيل: المعنى فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفا للعذاب الذى عذبهم اللّه به و لا نصرا من اللّه، و هذا الوجه مستقيم على قراءة من قرأ «تستطيعون» بالفوقية و هى قراءة حفص، و قرأ الباقون بالتحتية. و قال ابن زيد: المعنى: فقد كذبوكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و على هذا فمعنى بما تقولون: ما تقولونه من الحق. و قال أبو عبيد: المعنى فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم إليه، و لا نصرا لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. و قرأ الجمهور «بما تقولون» بالتاء الفوقية على الخطاب. و حكى الفراء أنه يجوز أن يقرأ «فقد كذبوكم» مخففا بما يقولون، أي: كذبوكم فى قولهم و كذا قرأ بالياء التحتية مجاهد و البزى وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً هذا وعيد لكل ظالم و يدخل تحته الذى فيهم السياق دخولا أوليا، و العذاب الكبير عذاب النار، و قرئ «يذقه» بالتحتية، و هذه الآية و أمثالها مقيدة بعدم التوبة. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحا لبطلان ما تقدّم من قوله: يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق فقال: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ قال الزجاج: الجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف محذوف، و المعنى: و ما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين و ماشين، و إنما حذف الموصوف لأن فى قوله من المرسلين دليلا عليه، نظيره- و ما منا إلا له مقام معلوم- أي: و ما منا أحد.

و قال الفراء: لا محل لها من الإعراب، و إنما هى صلة لموصول محذوف هو المفعول، و التقدير: إلا من أنهم فالضمير فى أنهم و ما بعده راجع إلى من المقدّرة، و مثله قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها «۱» أي: إلا من يردها، و به قرأ الكسائى. قال الزجاج: هذا خطأ لأنّ من الموصولة لا يجوز حذفها. و قال ابن الأنبارى:

إنها فى محل نصب على الحال، و التقدير: إلا و أنهم، فالمحذوف عنده الواو. قرأ الجمهور «إلا إنهم» بكسر إنّ لوجود اللام فى خبرها كما تقرّر فى علم النحو، و هو مجمع عليه عندهم. قال النحاس: إلا أن علىّ بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: يجوز فى إنّ هذه الفتح و إن كن بعدها اللام و أحسبه و هما. و قرأ الجمهور. «يمشون» بفتح الياء و سكون الميم، و تخفيف الشين. و قرأ علىّ و ابن عوف و ابن مسعود بضم الياء و فتح الميم و ضم الشين المشدّدة، و هى بمعنى القراءة الأولى، قال الشاعر:

(١). مريم: ٧١.

فتح القدير، ج۴، ص: ٨٠ و مشّى بأعطان المباءة و ابتغىقلائص منها صعبة و ركوب

و قال كعب بن زهير:

منه تظلّ سباع الجوّ ضامزةو لا تمشّى بواديه الأراجيل «١»

وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً هذا الخطاب عامّ للناس، و قد جعل سبحانه بعض عبيدة فتنة لبعض فالصحيح فتنة للمريض و الغنىّ فتنة للفقير و قيل: المراد بالبعض الأوّل: كفار الأمم، و بالبعض الثانى: الرسل، و معنى الفتنة: الابتلاء و المحنة. و الأوّل أولى، فإن البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به؛ فالمريض يقول لم لم أجعل كالصحيح؟ و كذا كل صاحب آفة، و الصحيح مبتلى بالمريض فلا يضجر منه و لا يحقره، و الغنىّ مبتلى بالفقير يواسيه، و الفقير مبتلى بالغنىّ يحسده، و نحو هذا مثله. و قيل: المراد بالآية أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم، و رأى الوضيع قد أسلم قبله أنف و قال لا أسلم بعده. فيكون له علىّ السابقة و الفضل، فيقيم على كفره، ذلك افتتان بعضهم لبعض، و اختار هذا الفراء و الزجاج. و لا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة أَ تَصْبِرُونَ هذا الاستفهام للتقرير، و فى الكلام حذف تقديره أم لا- تصبرون، أى: أ تصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة و الابتلاء العظيم. قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية هاهنا موقع قوله:

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا* فى قوله: لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «٢» ثم وعد الصابرين بقوله: وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً أى: بكل من يصير و من لا يصبر، فيجازى كلا منهما بما يستحقه. و قيل معنى أ تصبرون: اصبروا مثل قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ «٣» أى: انتهوا وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا هذه المقالة من جملة شبههم التى قدحوا بها فى النبوة، و الجملة معطوفة على وَ قالُوا ما لِهذَا أى: و قال المشركون الذين لا يبالون بلقاء اللّه كما فى قول الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلماعلى أىّ جنب كان فى اللّه مصرعى

أى لا أبالى، و قيل: المعنى لا يخافون لقاء ربهم كقول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعهاو خالفها فى بيت نوب عوامل

أى: لم يخف، و هى لغة تهامة. قال الفراء وضع الرجاء موضع الخوف، و قيل: لا يأملون، و منه قول الشاعر:

أ ترجو أمة قتلت حسيناشفاعة جدّه يوم الحساب

و الحمل على المعنى الحقيقى أولى، فالمعنى: لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب، و معلوم

(١). الجوّ: البر الواسع. و ضامزة: ساكتة، و كل ساكت فهو ضامز. و الأراجيل: جمع أرجال، و أرجال جمع رجل. يصف الشاعر أسدا؛ بأن الأسود و الرّجال تخافه.

(٢). هود: ٧.

(٣). المائدة: ٩١.

فتح القدير، ج۴، ص: ٨١

أن من لا- يرجو الثواب لا- يخاف العقاب لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أى: هلا أنزلوا علينا فيخبرونا أن محمدا صادق، أو هلا أنزلوا علينا رسلا يرسلهم اللّه أَوْ نَرى رَبَّنا عيانا فيخبرنا بأن محمدا رسول.

ثم أجاب سبحانه عن شبههم هذه فقال: لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً أى: أضمروا الاستكبار عن الحق و العناد فى قلوبهم كما فى قوله: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ «١» و العتوّ: مجاوزة الحد فى الطغيان و البلوغ إلى أقصى غاياته، و وصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة فى غاية الكبر و العظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم، بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه و بين مخاطبة اللّه سبحانه و رؤيته فى الدنيا من دون أن يكون بينهم و بينه ترجمان، و لقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغا هى أحقر و أقل و أرذل من أن تكون من أهله، أو تعدّ من المستعدّين له، و هكذا من جهل قدر نفسه، و لم يقف عند حدّه، و من جهلت نفسه قدره رأى غيره منه لا يرى، و انتصاب يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ بفعل محذوف، أى: و اذكر يوم يرون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذى طلبوه و الصورة التى اقترحوها، بل على وجه آخر، و هو يوم ظهورهم لهم عند الموت أو عند الحشر، و يجوز أن يكون انتصاب هذا الظرف بما يدلّ عليه قوله: لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ أى: يمنعون البشرى يوم يرون، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فأعلم سبحانه بأن الوقت الذى يرون فيه الملائكة، و هو وقت الموت، أو يوم القيامة قد حرمهم اللّه البشرى. قال الزجاج: المجرمون فى هذا الموضع الذى اجترموا الكفر باللّه وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً أى: و يقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة حجرا محجورا، و هذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ و هجوم نازلة يضعونها موضع الاستعاذة، يقال للرجل: أ تفعل كذا، فيقول: حجرا محجورا، أى: حراما عليك التعرّض لى. و قيل: إن هذا من قول الملائكة، أى: يقولون للكفار: حراما محرّما أن يدخل أحدكم الجنة، و من ذلك قول الشاعر:

ألا أصبحت أسماء حجرا محرّماو أصبحت من أدنى حموّتها حما «٢»

أى: أصبحت أسماء حراما محرّما، و قال آخر:

حنّت إلى النخلة القصوى فقلت لهاحجر حرام ألّا تلك الدهاريس

و قد ذكر سيبويه فى باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة، و جعلها من جملتها وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً هذا وعيد آخر، و ذلك أنهم كانوا يعملون أعمالا لها صورة الخير: من صلة الرحم، و إغاثة الملهوف و إطعام الطعام و أمثالها، و لم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذى هم عليه، فمثلت حالهم و أعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم و استعصوا عليه فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده و لم يترك منها شيئا، و إلا فلا قدوم هاهنا. قال الواحدى: معنى قدمنا عمدنا و قصدنا، يقال: قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصده أو عمده، و منه قول الشاعر:

---

(١). فاطر: ٥٦.

(٢). قاله رجل كانت له امرأة فطلقها و تزوجها أخوه، أى: أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٨٢

و قدم الخوارج الضّلال إلى عباد ربّهم فقالوا إنّ دماءكم لنا حلال

و قيل: هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى، و الهباء واحدة هباءة، و الجمع أهباء. قال النضر ابن شميل: الهباء التراب الذى تطيره الريح كأنه دخان. و قال الزجاج: هو ما يدخل من الكوّة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، و كذا قال الأزهرى، و المنثور: المفرق، و المعنى: أن اللّه سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرّق متبدّد؛ و قيل: إن الهباء ما أذرته الرياح من يابس أوراق الشجر، و قيل: هو الماء المهراق، و قيل الرماد. و الأوّل: هو الذى ثبت فى لغة العرب، و نقله العارفون بها. ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار فقال: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا أى: أفضل منزلا فى الجنة وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا أى: موضع قائلة، و انتصاب مستقرّا على التمييز. قال الأزهرى: القيلولة عند العرب: الاستراحة نصف النهار، إذا اشتدّ الحرّ، و إن لم يكن مع ذلك نوم. قال النحاس: و الكوفيون يجيزون: العسل أحلى من

الخلّ.

و قد أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله:
وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ الآية قال: عيسى و عزير و الملائكة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قَوْماً بُوراً قال: هلكى. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن الحسن فى قوله: وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ قال: هو الشرك. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: يشرك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ يقول:

إن الرسل قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلم كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً قال: بلاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الشعب عن الحسن وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً قال: يقول الفقير لو شاء اللّه لجعلنى غنيا مثل فلان، و يقول السقيم لو شاء اللّه لجعلنى صحيحا مثل فلان، و يقول الأعمى لو شاء اللّه لجعلنى بصيرا مثل فلان. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً قال: شدّة الكفر. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ قال: يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفىّ نحوه. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً قال: عوذا معاذا، الملائكة تقوله. و فى لفظ قال: حراما محرّما أن تكون البشرى فى اليوم إلا للمؤمنين.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عطيّة العوفىّ عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً قال: حراما محرّما أن نبشركم بما نبشر به المتقين. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن و قتادة وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً قالا: هى كلمة كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا نزلت به شدّة قال: حجرا محجورا حراما محرّما. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۳

قال: عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه فى الدنيا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: هَباءً مَنْثُوراً قال: الهباء شعاع الشمس الذى يدخل من الكوّة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب قال: الهباء و هيج الغبار يسطع، ثم يذهب فلا يبقى منه شىء، فجعل اللّه أعمالهم كذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الهباء الذى يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر. فإذا وقع لم يكن شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: هو ما تسفى الريح و تبثه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هو الماء المهراق.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا قال: فى الغرف من الجنة و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء و هؤلاء، ثم قرأ أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا.

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۵ الى ۳۴]

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا (۲۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (۲۶) وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (۲۷) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِی وَ کانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (٢٩)
وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً (٣١) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلاً (٣۴)

قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وصف سبحانه هاهنا بعض حوادث يوم القيامة، و التشقق:
التفتح، قرأ عاصم و الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائی و أبو عمرو، تشقق بتخفيف الشين، و أصله تتشقق، و قرأ الباقون، بتشديد الشين على الإدغام. و اختار القراءة الأولى أبو عبيد، و اختار الثانية أبو حاتم، و معنى تشققها بالغمام: أنها تتشقق عن الغمام. قال أبو على الفارسی: تتشقق السماء و عليها غمام كما تقول:
ركب الأمير بسلاحه، أی: و عليه سلاحه و خرج بثيابه، أی: و عليه ثيابه. و وجه ما قال أن الباء و عن يتعاقبان كما تقول: رميت بالقوس. و عن القوس. و روی أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق أبيض. و قيل:
إن السماء تتشقق بالغمام الذی بينها و بين الناس. و المعنى أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء، و قيل: إنها تتشقق لنزول الملائكة كما قال سبحانه بعد هذا: وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا و قيل: إن الباء فی بالغمام سببية، أی: بسبب الغمام، يعنی بسبب طلوعه منها كأنه الذی تتشقق به السماء، و قيل: إن الباء متعلقة بمحذوف، أی: ملتبسة بالغمام. قرأ ابن كثير «و ننزل الملائكة» مخففا، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة و زای مخففة بكسرة مضارع أنزل، و الملائكة منصوبة على المفعولية. و قرأ الباقون من السبعة وَ نُزِّلَ بضم النون

فتح القدير، ج۴، ص: ٨۴

و كسر الزای المشدّدة ماضيا مبنيا للمفعول، و قرأ ابن مسعود و أبو رجاء «نزل» بالتشديد ماضيا مبنيا للفاعل و فاعله اللّه سبحانه، و قرأ أبی بن كعب «و أنزل الملائكة» و قد قرئ فی الشواذ بغير هذه، و تأكيد هذا الفعل بقوله تنزيلا يدلّ على أن هذا التنزيل على نوع غريب و نمط عجيب. قال أهل العلم: إن هذا تنزيل رضا و رحمة لا تنزيل سخط و عذاب. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ الملك: مبتدأ، و الحق: صفة له، و للرحمن: الخبر كذا قال الزجاج، أی: الملك الثابت الذی لا يزول للرحمن يومئذ، لأن الملك الذی يزول و ينقطع ليس بملك فی الحقيقة، و فائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة فی هذا اليوم، و أما فيما عداه من أيام الدنيا فلغيره ملك فی الصورة و إن لم يكن حقيقيا. و قيل: إن خبر المبتدأ هو الظرف، و الحق نعت للملك. و المعنى: الملك الثابت للرحمن خاص فی هذا اليوم وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً أی: و كان هذا اليوم مع كون الملك فيه للّه وحده شديدا على الكفار لما يصابون به فيه، و ينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب، و أما على المؤمنين فهو يسير غير عسير، لما ينالهم فيه من الكرامة و البشرى العظيمة وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ الظرف منصوب بمحذوف، أی: و اذكر كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول، أعنی يوم تشقق، و يوم يعضّ الظالم على يديه الظاهر أن العضّ هنا حقيقة، و لا مانع من ذلك و لا موجب لتأويله. و قيل: هو كناية عن الغيظ و الحسرة، و المراد بالظالم كلّ ظالم يرد ذلك المكان و ينزل المنزل، و لا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب يَقُولُ يا لَيْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يقول: فی محل نصب على الحال، و مقول القول هو: يا ليتنی إلخ، و المنادى محذوف، أی: يا قوم! ليتنی اتخذت مع الرسول سبيلا: طريقا و هو طريق الحق، و مشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة، و المراد اتباع النبی صلّى اللّه عليه و سلم فيما جاء به يا وَيْلَتى لَيْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا دعاء على نفسه بالويل و الثبور على مخاللة الكافر الذی أضله فی الدنيا و فلان كناية

عن الأعلام. قال النيسابورى: زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان فى الفصيح إلا حكاية، لا يقال: جاءنى فلان، و لكن يقال: قال زيد جاءنى فلان، لأنه اسم اللفظ الذى هو علم الاسم، و كذلك جاء فى كلام اللّه. و قيل: فلان كناية عن علم ذكور من يعقل، و فلانة عن علم إناثهم. و قيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، و فلانة عمن يعقل من الإناث، و أما الفلان و الفلانة، فكناية عن غير العقلاء، و فل يختص بالنداء إلا فى ضرورة كقول الشاعر:

فى لجّة أمسك فلانا عن فل و قوله:

حدّثانى عن فلان و فل و ليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء. و زعم أبو حيان أن ابن عصفور و ابن مالك و هما فى جعل فلان كناية علم من يعقل. و قرأ الحسن «يا ويلتى» بالياء الصريحة، و قرأ الدورىّ بالإمالة. قال أبو على: و ترك الإمالة أحسن، لأن أصل هذه اللفظة: الياء فأبدلت الكسرة فتحة، و الياء فرارا من الياء، فمن أمال رجع

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۵

إلى الذى فرّ منه لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي أى: و اللّه لقد أضلنى هذا الذى اتخذته خليلا عن القرآن، و عن الموعظة، أو كلمة الشهادة أو مجموع ذلك، بعد إذ جاءنى، و تمكنت منه، و قدرت عليه وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا الخذل: ترك الإغاثة، و منه خذلان إبليس للمشركين حيث يوالونه، ثم يتركهم عند استغاثتهم به، و هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و يحتمل أن تكون من كلام اللّه تعالى، أو من تمام كلام الظالم، و أنه سمى خليله شيطانا بعد أن جعله مضلا، أو أراد بالشيطان إبليس، لكونه الذى حمله على مخاللة المضلين وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً معطوف على وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا و المعنى: إنّ قومى اتخذوا هذا القرآن الذى جئت به إليهم، و أمرتنى بإبلاغه و أرسلتنى به مهجورا، متروكا لم يؤمنوا به، و لا قبلوه بوجه من الوجوه، و قيل: هو من هجر إذا هذى.

و المعنى: أنهم اتخذوه هجرا و هذيانا. و قيل: معنى مهجورا: مهجورا فيه، ثم حذف الجار، و هجرهم فيه قولهم: إنه سحر، و شعر، و أساطير الأوّلين، و هذا القول يقوله الرسول صلّى اللّه عليه و سلم يوم القيامة؛ و قيل: إنه حكاية لقوله صلّى اللّه عليه و سلم فى الدنيا وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ هذا تسلية من اللّه سبحانه لرسوله صلّى اللّه عليه و سلم، و المعنى: أن اللّه سبحانه جعل لكلّ نبىّ من الأنبياء الداعين إلى اللّه عدوّا يعاديه من مجرمى قومه، فلا تجزع يا محمد، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك و اصبر كما صبروا وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً قال المفسرون:

الباء زائدة، أى: كفى ربك، و انتصاب نصيرا و هاديا على الحال، أو التمييز: أى يهدى عباده إلى مصالح الدين و الدنيا و ينصرهم على الأعداء وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً هذا من جملة اقتراحاتهم و تعنتاتهم، أى: هلا نزّل اللّه علينا هذا القرآن دفعة واحدة غير منجم. و اختلف فى قائل هذه المقالة؛ فقيل: كفار قريش، و قيل: اليهود، قالوا: هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة و الإنجيل و الزبور؟ و هذا زعم باطل و دعوى داحضة فإن هذه الكتب نزلت مفرّقة كما نزل القرآن و لكنهم معاندون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب اللّه سبحانه على أنبيائه، ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم فقال: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ أى: نزلنا القرآن كذلك مفرّقا، و الكاف: فى محل نصب، على أنها نعت مصدر محذوف، و ذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم، أى: مثل ذلك التنزيل المفرّق الذى قدحوا فيه، و اقترحوا خلافه نزلناه لنقوّى بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك، فإن إنزاله مفرّقا منجما على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له، و فهمك لمعانيه، و ذلك من أعظم أسباب التثبيت، و اللام متعلقة بالفعل المحذوف الذى قدّرناه. و قال أبو حاتم: إن الأخفش قال: إنها جواب قسم محذوف. قال: و هذا قول مرجوح. و قرأ عبد اللّه لِيُثَبِّتَ بالتحتية، أى: اللّه سبحانه، و قيل: إن هذه الكلمة، أعنى كذلك، هى من تمام كلام المشركين، و المعنى كذلك، أى: كالتوراة و الإنجيل و الزبور، فيوقف على قوله كذلك، ثم يبتدأ بقوله: لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ على

معنى أنزلناه عليك متفرّقا لهذا الغرض. قال ابن الأنبارى: و هذا أجود و أحسن. قال النحاس: و كان ذلك، أى: إنزال القرآن منجما من أعلام النبوّة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، و هذا لا يكون إلا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده و أفئدتهم وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا هذا معطوف على الفعل المقدّر، أى:

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۶

كذلك نزلناه، و رتلناه ترتيلا، و معنى الترتيل: أن يكون آية بعد آية، قاله النخعى و الحسن و قتادة. و قيل:

إن المعنى بيناه تبيينا، حكى هذا عن ابن عباس. و قال مجاهد: بعضه فى إثر بعض. و قال السدّيّ: فصلناه تفصيلا. قال ابن الأعرابى: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق و التبيين. ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون فى كلّ أوان مدفوع قولهم بكل وجه و على كل حالة فقال: وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً أى: لا يأتيك.- يا محمد- المشركون بمثل من أمثالهم التى من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك فى مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت الذى يبطل ما جاءوا به من المثل و يدمغه و يدفعه. فالمراد بالمثل هنا: السؤال و الاقتراح، و بالحق جوابه الذى يقطع ذريعته، و يبطل شبهته، و يحسم مادته. و معنى أَحْسَنَ تَفْسِيراً جئناك بأحسن تفسير، فأحسن تفسيرا معطوف على الحق، و الاستثناء بقوله: إِلَّا جِئْناكَ مفرّغ، و الجملة فى محل نصب على الحال، أى: لا يأتونك بمثل إلا فى حال إيتائنا إياك ذلك. ثم أوعد هؤلاء الجهلة و ذمهم فقال: الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أى: يحشرون كائنين على وجوههم، و الموصول: مبتدأ، و خبره: أولئك، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين، و يجوز نصبه على الذمّ.

و معنى يحشرون على وجوههم: يسحبون عليها إلى جهنم أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً أى: منزلا و مصيرا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا و أخطأ طريقا، و ذلك لأنهم قد صاروا فى النار. و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان، و قد قيل إن هذا متصل بقوله: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عن ابن عباس فى قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا قال: يجمع اللّه الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد: الجنّ و الإنس و البهائم و السباع و الطير و جميع الخلق، فتنشقّ السماء الدنيا فينزل أهلها و هم أكثر ممن فى الأرض من الجنّ و الإنس و جميع الخلق، فيحيطون بالجنّ و الإنس و جميع الخلق فيقول أهل الأرض: أ فيكم ربنا؟ فيقولون لا ثم تنشقّ السماء الثانية مثل ذلك، ثم كذلك فى كلّ سماء إلى السماء السابعة، و فى كل سماء أكثر من السماء التى قبلها، ثم ينزل ربنا فى ظلل من الغمام و حوله الكروبيون، و هم أكثر من أهل السموات السبع و الإنس و الجنّ و جميع الخلق، لهم قرون ككعوب القثاء، و هم تحت العرش، لهم زجل بالتسبيح و التهليل و التقديس للّه تعالى، ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، و من ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام، و من فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، و ما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام. و إسناده عند ابن جرير هكذا: قال حدّثنا القاسم، حدّثنا الحسين، حدّثنى الحجاج ابن مبارك بن فضالة عن عليّ بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس فذكره. و أخرجه ابن أبى حاتم بإسناد هكذا: قال حدّثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا مؤمل، حدّثنا حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد به. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل بسند، قال السيوطى: صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن أبا معيط كان يجلس مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم بمكة لا يؤذيه، و كان رجلا حليما، و كان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، و كان لأبى معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبأ أبو

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۷

معيط، و قدم خليله من الشام ليلا فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشدّ ما كان أمرا، فقال: ما فعل خليلى أبو

معيط؟ فقالت: صبأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه، فلم يردّ عليه التحية، فقال: مالك لا تردّ على تحيتى؟ فقال: كيف أردّ عليك تحيتك و قد صبوت؟ قال: أو قد فعلتها قريش؟ قال: نعم، فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلته؟ قال: تأتيه فى مجلسه فتبزق فى وجهه و تشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم، ففعل فلم يردّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال:

إن وجدتك خارجا من جبال مكة أضرب عنقك صبرا، فلما كان يوم بدر و خرج أصحابه أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: أخرج معنا، قال: وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقى صبرا، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه فخرج معهم، فلما هزم اللّه المشركين و حمل به جمله فى جدود من الأرض، فأخذه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أسيرا فى سبعين من قريش، و قدم إليه أبو معيط فقال: أ تقتلنى من بين هؤلاء؟ قال: نعم بما بزقت فى وجهى، فأنزل اللّه فى أبى معيط وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ إلى قوله وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا. و أخرج أبو نعيم هذه القصة من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، و ذكر أن خليل أبى معيط: هو أبيّ بن خلف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضا فى قوله: يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ قال: أبيّ بن خلف و عقبة بن أبى معيط، و هما الخليلان فى جهنم، و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ قال: كان عدوّ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم أبو جهل و عدوّ موسى قارون، و كان قارون ابن عمّ موسى. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس قال: قال المشركون: لو كان محمد كما يزعم نبيا فلم يعذبه ربه؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، ينزل عليه الآية و الآيتين و السورة و السورتين، فأنزل اللّه على نبيه جواب ما قالوا: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً إلى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ قال:

لنشدد به فؤادك و نربط على قلبك وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا قال: رسلناه ترسيلا، يقول شيئا بعد شيء وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة، ثم سألوك لم يكن عنده ما يجيب، و لكنا نمسك عليك، فإذا سألوك أجبت.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٥ الى ٤٤]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (٣٧) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَ كُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَ كُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً (٣٩)

وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)

فتح القدير، ج۴، ص: ۸۸

اللام فى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ جواب قسم محذوف، أى: و اللّه لقد آتينا موسى التوراة، ذكر سبحانه طرفا من قصص الأولين تسلية له صلّى اللّه عليه و سلم بأن تكذيب قوم أنبياء اللّه لهم عادة للمشركين باللّه، و ليس ذلك بخاص بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم و هارُونَ عطف بيان، و يجوز أن ينصب على القطع و وَزِيراً المفعول الثانى، و قيل: حال، و المفعول الثانى: معه، و الأوّل: أولى. قال الزجاج: الوزير فى اللغة الذى يرجع إليه و يعمل برأيه، و الوزر ما يعتصم به، و منه كَلَّا لا وَزَرَ «۱». و قد تقدّم

تفسير الوزير فى طه، و الوزارة لا- تنافى النبوّة، فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء، و يؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا. و قد كان هارون فى أوّل الأمر وزيرا لموسى، و لاشتراكهما فى النبوّة قيل لهما اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا و هم فرعون و قومه، و الآيات هى التسع التى تقدم ذكرها، و إن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر اللّه لموسى و هارون بالذهاب بل كان التكذيب بعد ذلك، لكن هذا الماضى بمعنى المستقبل على عادة إخبار اللّه، أى: اذهبا إلى القوم الذين يكذبون بآياتنا. و قيل: إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بيانا لعلة استحقاقهم للعذاب. و قيل: يجوز أن يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا. و قيل: إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال، أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية، و ليس المراد آيات الرسالة. قال القشيرى: و قوله تعالى فى موضع آخر: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى «٢» لا- ينافى هذا لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. و يمكن أن يقال: إن تخصيص موسى بالخطاب فى بعض المواطن لكونه الأصل فى الرسالة، و الجمع بينهما فى الخطاب لكونهما مرسلين جميعا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً فى الكلام حذف، أى: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم، أى: أهلكناهم إثر ذلك التكذيب إهلاكا عظيما. و قيل: إن المراد بالتدمير هنا: الحكم به، لأنه لم يحصل عقب بعث موسى و هارون إليهم، بل بعده بمدّة وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ فى نصب قوم أقوال: العطف على الهاء، و الميم فى دمرناهم، أو النصب بفعل محذوف: أى اذكر، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده، و هو أغرقناهم، أى: أغرقنا قوم نوح أغرقناهم، و قال الفراء: هو منصوب بأغرقناهم المذكور بعده من دون تقدير مضمر يفسره ما بعده. و ردّه النحاس بأن أغرقنا لا يتعدّى إلى مفعولين حتى يعمل فى الضمير المتصل به، و فى قوم نوح. و معنى لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أنهم كذبوا نوحا و كذبوا من قبله من رسل اللّه. و قال الزجاج: من كذّب نبيا فقد كذّب جميع الأنبياء، و كان إغراقهم بالطوفان كما تقدّم فى هود وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً أى: جعلنا إغراقهم، أو قصتهم آية، أى: عبرة لكل الناس على العموم، يتعظ بها كل مشاهد لها، و سامع لخبرها وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ المراد بالظالمين: قوم نوح على الخصوص.

و يجوز أن يكون المراد ككل من سلك مسلكهم فى التكذيب، و العذاب الأليم: هو عذاب الآخرة، و انتصاب

---

(١). القيامة: ١١.

(٢). طه: ٢٤.

عاداً بالعطف على قوم نوح، و قيل: على محل الظالمين، و قيل: على مفعول جعلناهم وَ ثَمُودَ معطوف على عادا، و قصة عاد و ثمود قد ذكرت فيما سبق وَ أَصْحابَ الرَّسِ فى كلام العرب: البئر التى تكون غير مطوية، و الجمع رساس كذا قال أبو عبيدة، و منه قول الشاعر:

و هم سائرون إلى أرضهم‏تنابلة يحفرون الرّساسا

قال السدّى: هى بئر بانطاكية، قتلوا فيها حبيبا النجار، فنسبوا إليها؛ و هو صاحب يس الذى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ و كذا قال مقاتل و عكرمة و غيرهما. و قيل: هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم فجفت أشجارهم و زروعهم، فماتوا جوعا و عطشا. و قيل: كانوا يعبدون الشجر، و قيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل اللّه إليهم شعيبا فكذبوه و آذوه. و قيل: هم قوم أرسل اللّه إليهم نبيا فأكلوه، و قيل: هم أصحاب الأخدود. و قيل: إن الرسّ: هى البئر المعطلة التى تقدم ذكرها، و أصحابها أهلها. و قال فى الصحاح: و الرسّ اسم بئر كانت لبقية ثمود، و قيل الرسّ: ماء و نخل لبنى أسد، و قيل: الثلج المتراكم فى الجبال. و الرسّ: اسم واد، و منه قول زهير:

بكرن بكورا و استحرن بسحرةفهنّ لوادى الرّسّ كاليد للفم

و الرسّ أيضا: الإصلاح بين الناس، و الإفساد بينهم، فهو من الأضداد. و قيل: هم أصحاب حنظلة ابن صفوان، و هم الذين ابتلاهم اللّه بالطائر المعروف بالعنقاء وَ قُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً معطوف على ما قبله، و القرون جمع قرن، أى: أهل قرون، و القرن: مائة سنة، و قيل: مائة و عشرون، و قيل: القرن أربعون سنة، و الإشارة بقوله: بَيْنَ ذٰلِكَ إلى ما تقدّم ذكره من الأمم. و قد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ قال الزجاج: أى و أنذرنا كلّا ضربنا لهم الأمثال و بينا لهم الحجة، و لم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة، فجعله منصوبا بفعل مضمر يفسره ما بعده، لأن حذرنا و ذكرنا و أنذرنا فى معنى ضربنا، و يجوز أن يكون معطوفا على ما قبله، و التنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف، و هو الأمم، أى: كل الأمم ضربنا لهم الأمثال وَ أما كُلًّا الأخرى: فهى منصوبة بالفعل الذى بعدها، و التتبير: الإهلاك بالعذاب. قال الزجاج: كل شىء كسرته و فتتته فقد تبرته. و قال المؤرج و الأخفش: معنى تَبَّرْنا تَتْبِيراً دمّرنا تدميرا أبدلت التاء و الباء من الدال و الميم وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ هذه جملة مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم. و المعنى: و لقد أتوا، أى: مشركو مكة على قرية قوم لوط التى أمطرت مطر السوء، و هو الحجارة، أى: هلكت بالحجارة التى أمطروا بها، و انتصاب مطر على المصدرية، أو على أنه مفعول ثان: إذ المعنى أعطيتها و أوليتها مطر السوء، أو على أنه نعت مصدر محذوف، أى: إمطارا مثل مطر السوء، و قرأ أبو السموأل السَّوْءِ بضم السين، و قد تقدّم تفسير السوء فى براءة أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها الاستفهام للتقريع و التوبيخ؛ أى: يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، فإنهم يمرّون بها، و الفاء للعطف على مقدّر، أى: لم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار

فتح القدير، ج۴، ص: ۹۰

إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجاءهم للجزاء، و يجوز أن يكون معنى يرجون يخافون وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أى: ما يتخذونك إلا هزؤا، أى: مهزوءا بك، قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزوا، فجواب إذا هو إِنْ يَتَّخِذُونَكَ و قيل: الجواب محذوف، و هو قوله: أَ هٰذَا الَّذِي و على هذا فتكون جملة إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً معترضة، و الأوّل أولى. و تكون جملة أَ هٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا فى محل نصب على الحال بتقدير القول: أى قائلين أ هذا إلخ، و فى اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له و تهكمهم به، و العائد محذوف؛ أى: بعثه اللّه و انتصاب رسولا على الحال، أى: مرسلا، و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره: الموصول و صلته إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا أى قالوا: إن كاد هذا الرسول ليضلنا: ليصرفنا عن آلهتنا فنترك عبادتها، و إن هنا هى المخففة، و ضمير الشأن محذوف، أى: إنه كاد أن يصرفنا عنها لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها أى: حبسنا أنفسنا على عبادتها، ثم إنه سبحانه أجاب عليهم فقال: وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا أى: حين يرون عذاب يوم القيامة الذى يستحقونه و يستوجبونه بسبب كفرهم من هو أضلّ سبيلا، أى: أبعد طريقا عن الحق و الهدى، أ هم أم المؤمنون؟ ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد و اتباع الهوى، فقال معجبا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ قدّم المفعول الثانى للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا، أى:

أطاع هواه طاعة كطاعة الإله، أى: انظر إليه يا محمد و تعجب منه. قال الحسن: معنى الآية لا يهوى شيئا إلا اتبعه أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا الاستفهام للإنكار و الاستبعاد، أى: أ فأنت تكون عليه حفيظا و كفيلا حتى تردّه إلى الإيمان و تخرجه من الكفر، و لست تقدر على ذلك و لا تطيقه، فليست الهداية و الضلالة موكولتين إلى مشيئتك، و إنما عليك البلاغ. و قد قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر فقال: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ أى: أ تحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن و من المواعظ، أو يعقلون معانى ذلك و يفهمونه حتى تعتنى بشأنهم

و تطمع فی إیمانهم، لیسوا کذلک، بل هم بمنزلة من لا یسمع و لا یعقل. ثم بین سبحانه حالهم و قطع مادّة الطمع فیهم فقال: إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ أی: ما هم فی الانتفاع بما یسمعونه إلا کالبهائم التی هی مسلوبة الفهم و العقل فلا تطمع فیهم، فإن فائدة السمع و العقل مفقودة، و إن کانوا یسمعون ما یقال لهم و یعقلون ما یتلی علیهم، و لکنهم لما لم ینتفعوا بذلک کانوا کالفاقد له. ثم أضرب سبحانه عن الحکم علیهم بأنهم کالأنعام إلی ما هو فوق ذلک فقال: بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا أی: أضل من الأنعام طریقا. قال مقاتل:

البهائم تعرف ربها و تهتدی إلی مراعیها و تنقاد لأربابها، و هؤلاء لا ینقادون و لا یعرفون ربهم الذی خلقهم و رزقهم. و قیل: إنما کانوا أضلّ من الأنعام، لأنه لا حساب علیها و لا عقاب لها، و قیل: إنما کانوا أضلّ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحید و النبوة لم تعتقد بطلان ذلک، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا و مکابرة غمطا للحق.

و قد أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً

فتح القدیر، ج۴، ص: ۹۱

قال: عونا و عضدا. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً قال: أهلکناهم بالعذاب. و أخرج ابن جریر عنه قال: الرسّ قریة من ثمود. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أیضا قال: الرسّ بئر بأذربیجان، و أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر عن ابن عباس أنه سأل کعبا عن أصحاب الرسّ قال: صاحب یس الذی قال: يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ «۱» فرسّه قومه فی بئر بالأحجار.

و أخرج ابن إسحاق و ابن جریر عن محمد بن کعب القرظی قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «إنّ أوّل النّاس یدخل الجنّة یوم القیامة العبد الأسود، و ذلک أن اللّه بعث نبیا إلی أهل قریة فلم یؤمن به من أهلها أحد إلا ذلک الأسود، ثم إن أهل القریة غدوا علی النبیّ فحفروا له بئرا فألقوه فیها، ثم أطبقوا علیه بحجر ضخم، فکان ذلک العبد یذهب فیحتطب علی ظهره، ثم یأتی بحطبه فیبیعه فیشتری به طعاما و شرابا، ثم یأتی به إلی تلک البئر، فیرفع تلک الصخرة فیعینه اللّه علیها، فیدلّی طعامه و شرابه ثم یردّها کما کانت، فکان کذلک ما شاء اللّه أن یکون، ثم إنه ذهب یوما یحتطب کما کان یصنع فجمع حطبه و حزم حزمته و فرغ منها، فلمّا أراد أن یحملها وجد سنة، فاضطجع فنام، فضرب اللّه علی أذنه سبع سنین نائما، ثم إنه ذهب فتمطّی فتحوّل لشقه الآخر فاضطجع، فضرب اللّه علی أذنه سبع سنین أخری، ثم إنه ذهب فاحتمل حزمته و لا یحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلی القریة فباع حزمته، ثم اشتری طعاما و شرابا کما کان یصنع، ثم ذهب إلی الحفرة فی موضعها الذی کانت فیه فالتمسه فلم یجده، و قد کان بدّ لقومه فیه بدّ فاستخرجوه فآمنوا به و صدّقوه، و کان النبیّ یسألهم عن ذلک الأسود ما فعل؟ فیقولون ما ندری حتّی قبض ذلک النبیّ، فأهبّ اللّه الأسود من نومته بعد ذلک، إن ذلک الأسود لأوّل من یدخل الجنة» قال ابن کثیر فی تفسیره بعد إخراجه: و فیه غرابة و نکارة، و لعلّ فیه إدراجا انتهی. الحدیث أیضا مرسل. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن زرارة بن أوفی قال: القرن مائة و عشرون عاما. و أخرج هؤلاء عن قتادة قال: القرن: سبعون سنة، و أخرج ابن مردویه عن أبی سلمة قال: القرن مائة سنة. و قد روی مرفوعا إلی النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم أنه قال: القرن مائة سنة، و قال: القرن خمسون سنة، و قال القرن أربعون سنة. و ما أظنّه یصحّ شیء من ذلک و قد سمّی الجماعة من الناس قرنا، کما فی الحدیث الصحیح «خیر القرون قرنی».

و أخرج الحاکم فی الکنی عن ابن عباس قال: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم إذا انتهی إلی معدّ بن عدنان أمسک، ثم یقول: کذب النسابون. قال اللّه: وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ قال: هی سدوم قریة لوط الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ قال: الحجارة. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ قال: کان الرجل یعبد الحجر الأبیض زمانا من الدهر فی الجاهلیة، فإذا وجد حجرا أحسن منه رمی به و عبد الآخر،

فأنزل اللّه الآية.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى الآية قال: ذلك الكافر لا يهوى شيئا إلا اتبعه.

---

(۱). يس: ۲۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۹۲

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۵ الى ۵۴]

أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (۴۵) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً (۴۹)

وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (۵۰) وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (۵۱) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (۵۲) وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (۵۳) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ كانَ رَبُّكَ قَدِيراً (۵۴)

لما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين و ضلالتهم، أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظم الإنعام، فأوّلها الاستدلال بأحوال الظل فقال: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ هذه الرؤية إما بصرية، و المراد بها: ألم تبصر إلى صنع ربك؟ أو ألم تبصر إلى الظل كيف مدّه ربك؟ و إما قلبية، بمعنى العلم، فإن الظل متغير، و كل متغير حادث، و لكل حادث موجد. قال الزجاج: أَ لَمْ تَرَ ألم تعلم؟

و هذا من رؤية القلب، قال: و هذا الكلام على القلب، و التقدير: ألم تر إلى الظلّ كيف مده ربك؟ يعنى:

الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس، و هو ظل لا شمس معه، و به قال الحسن و قتادة. و قيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها. قال أبو عبيدة: الظل بالغداة و الفيء بالعشى، لأنه يرجع بعد زوال الشمس، سمى فيئا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب. قال حميد بن ثور يصف سرحة و كنى بها عن امرأة:

فلا الظلّ من برد الضحى تستطيعهو لا الفيء من برد العشيّ تذوق

و قال ابن السكيت: الظل: ما نسخته الشمس، و الفيء: ما نسخ الشمس. و حكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فى فيء و ظلّ، و ما لم تكن عليه الشمس، فهو ظلّ، انتهى.

و حقيقة الظلّ أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص و الظلمة الخالصة، و هذا التوسط هو أعدل من الطرفين، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع و ينفر عنها الحسّ، و الضوء الكامل لقوّته يبهر الحسّ البصرى و يؤذى بالتسخين، و لذلك و صفت الجنة به بقوله: وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ «۱» و جملة وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً معترضة بين المعطوف و المعطوف عليه، أى: لو شاء سبحانه سكونه لجعله ساكنا ثابتا دائما مستقرا لا تنسخه الشمس.

و قيل المعنى: لو شاء لمنع الشمس الطلوع، و الأول أولى. و التعبير بالسكون عن الإقامة و الاستقرار سائغ، و منه قولهم: سكن فلان بلد كذا: إذا أقام به و استقرّ فيه: و قوله: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا معطوف على قوله: مدّ الظل داخل فى حكمه، أى: جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله، و ذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل فى الطريق من جهة أنه يزيد بها و ينقص و يمتد و يتقلص، و قوله: ثُمَّ قَبَضْناهُ معطوف

(١). الواقعة: ٣٠.

فتح القدير، ج۴، ص: ٩٣

أيضا على مدّ داخل فى حكمه. و المعنى: ثم قبضنا ذلك الظلّ الممدود، و محوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج، حتى انتهى ذلك الإظلال إلى العدم و الاضمحلال. و قيل: المراد فى الآية قبضه عن قيام الساعة بقبض أسبابه، و هى الأجرام النيرة، و الأوّل أولى. و المعنى: أن الظلّ يبقى فى هذا الجوّ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا، و خلفه فى هذا الجوّ شعاع الشمس، فأشرقت على الأرض و على الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظلّ، إنما فيه بقية نور النهار، و قال قوم:

قبضه بغروب الشمس، لأنها إذا لم تغرب فالظلّ فيه بقية، و إنما يتمّ زواله بمجىء الليل و دخول الظلمة عليه.

و قيل: المعنى: ثم قبضنا ضياء الشمس بالفىء قَبْضاً يَسِيراً و معنى إلينا: أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حدوثه منه. قبضا يسيرا، أى على تدريج قليلا قليلا بقدر ارتفاع الشمس، و قيل: يسيرا سريعا، و قيل:

المعنى يسيرا علينا، أى: يسيرا قبضه علينا ليس بعسير وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. قال ابن جرير: وصف الليل باللباس تشبيها من حيث أنه يستر الأشياء و يغشاها، و اللام متعلقة بجعل وَ النَّوْمَ سُباتاً أى: و جعل النوم سباتا، أى: راحة لكم لأنكم تنقطعون عن الاشتغال، و أصل السبات: التمدد، يقال: سبتت المرأة شعرها، أى نقضته و أرسلته. و رجل مسبوت:

أى ممدود الخلقة. و قيل للنوم: ثبات، لأنه بالتمدد يكون، و فى التمدد معنى الراحة. و قيل: السبت: القطع، فالنوم انقطاع عن الاشتغال، و منه سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال. قال الزجاج: السبات النوم، و هو أن ينقطع عن الحركة و الروح فى بدنه، أى: جعلنا نومكم راحة لكم. و قال الخليل: السبات نوم ثقيل، أى: جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام و الراحة وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً أى: زمان بعث من ذلك السبات، شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات. و قال فى الكشاف: إن السبات الموت، و استدل على ذلك بكون النشور فى مقابلته وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ قرئ «الرّيح» و قرئ «بشرا» بالباء الموحدة و بالنون، و قد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى فى الأعراف وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً أى: يتطهر به كما يقال وضوء للماء الذى يتوضأ به. قال الأزهرى: الطهور فى اللغة الطاهر المطهر، و الطهور ما يتطهر به. قال ابن الأنبارى: الطهور بفتح الطاء الاسم، و كذلك الوضوء و الوقود، و بالضم المصدر، هذا هو المعروف فى اللغة، و قد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر، و يؤيد ذلك كونه بناء مبالغة. و روى عن أبى حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، و استدل لذلك بقوله تعالى: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً «١» يعنى: طاهرا، و منه قول الشاعر:

خليلىّ هل فى نظرة بعد توبة أداوى بها قلبى علىّ فجور

إلى رجّح الأكفال غيد من الظّباعذاب الثّنايا ريقهنّ طهور

فوصف الريق بأنه طهور و ليس بمطهر، و رجح القول الأوّل ثعلب، و هو راجع لما تقدّم من حكاية الأزهرى لذلك عن أهل اللغة. و أما وصف الشاعر للريق بأنه طهور، فهو على طريق المبالغة، و على كل حال

---

(١). الإنسان: ٢١.

فتح القدير، ج۴، ص: ٩۴

فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره، قال اللّه تعالى: وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكَمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ «۱» و قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «خلق الماء طهورا» ثم ذكر سبحانه علة الإنزال فقال: لِنُحْيِيَ بِهِ أى:
بالماء المنزل من السماء بَلْدَةً مَيْتاً وصف البلدة بميتا، و هى صفة للمذكر لأنها بمعنى البلد. و قال الزجاج:
أراد بالبلد المكان، و المراد بالإحياء هنا: إخراج النبات من المكان الذى لا نبات فيه وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً أى: نسقى ذلك الماء، قرأ أبو عمرو و عاصم فى رواية عنهما و أبو حيان و ابن أبى عبلة بفتح النون من «نسقيه» و قرأ الباقون بضمها، و «من» فى مما خلقنا للابتداء، و هى متعلقة بنسقيه، و يجوز أن تتعلق بمحذوف على أنه حال، و الأنعام: قد تقدّم الكلام عليها، و الأناسىّ: جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه. و قال الفراء و المبرد و الزجاج: إنه جمع إنسىّ، و للفراء قول آخر: إنه جمع إنسان، و الأصل أناسين، مثل سرحان و سراحين، و بستان و بساتين، فجعلوا الباء عوضا من النون وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ضمير صرفناه: ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذكر من الدلائل، أى: كرّرنا أحوال الإظلال، و ذكر إنشاء السحاب و إنزال المطر فى القرآن و فى سائر الكتب السماوية ليتفكروا و يعتبروا فَأَبى أَكْثَرُ هم إلا كفران النعمة و جحدها. و قال آخرون: إنه يرجع إلى أقرب المذكورات، و هو المطر، أى:
صرفنا المطر بينهم فى البلدان المختلفة، فنزيد منه فى بعض البلدان، و ننقص فى بعض آخر منها، و قيل: الضمير راجع إلى القرآن، و قد جرى ذكره فى أوّل السورة حيث قال: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ و قوله: لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي و قوله: اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً و المعنى:
و لقد كرّرنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ليذكروا به و يعتبروا بما فيه، فأبى أكثرهم إِلَّا كُفُوراً به، و قيل: هو راجع إلى الريح، و على رجوع الضمير إلى المطر، فقد اختلف فى معناه، فقيل: ما ذكرناه. و قيل:
صرفناه بينهم وابلا، و طشا، و طلا، و رذاذا، و قيل: تصريفه تنويع الانتفاع به فى الشرب و السقى و الزراعات به و الطهارات. قال عكرمة: إن المراد بقوله: فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً هو قولهم: فى الأنواء مطرنا بنوء كذا. قال النحاس: و لا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر هنا قولهم: مطرنا بنوء كذا. و قرأ عكرمة «صرفناه» مخففا، و قرأ الباقون بالتثقيل. و قرأ حمزة و الكسائى «ليذكروا» مخففة الذال من الذكر، و قرأ الباقون بالتثقيل من التذكر وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً أى: رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم، و لكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيرا واحدا، و هو أنت يا محمد، فقابل ذلك بشكر النعمة فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم، بل اجتهد فى الدعوة و اثبت فيها و الضمير فى قوله:
وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً راجع إلى القرآن، أى: جاهدهم بالقرآن، و اتل عليهم ما فيه من القوارع، و الزواجر و الأوامر، و النواهى. و قيل: الضمير يرجع إلى الإسلام، و قيل: بالسيف، و الأوّل أولى. و هذه السورة مكية، و الأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة. و قيل: الضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله:
فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ و قيل: الضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله: وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً

---

(۱). الأنفال: ۱۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۹۵

لأنه سبحانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التى أرسل إليها، و حين اقتصر على نذير واحد لكل القرى و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات، فكبر جهاده، و عظم و صار جامعا لكل مجاهدة، و لا يخفى ما فى هذين الوجهين من البعد. ثم ذكر سبحانه دليلا رابعا على التوحيد فقال:

وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ مرج: خلّى و خلط و أرسل، يقال مرجت الدابة و أمرجتها: إذا أرسلتها فى المرعى و خليتها تذهب حيث تشاء قال مجاهد: أرسلهما و أفاض أحدهما إلى الآخر. و قال ابن عرفة: خلطهما فهما يلتقيان، يقال مرجته: إذا خلطته، و مرج الدين و الأمر: اختلط و اضطرب، و منه قوله: فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ «۱» و قال الأزهرى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ خلى بينهما، يقال مرجت الدابة: إذا خليتها ترعى. و قال ثعلب: المرج الإجراء، فقوله: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ أى أجراهما. قال الأخفش: و يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج، فعل و أفعل بمعنى هذا عَذْبٌ فُراتٌ الفرات البليغ العذوبة، و هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: كيف مرجهما؟ فقيل: هذا عذب، و هذا ملح، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال. قيل: سمى الماء الحلو فراتا: لأنه يفرت العطش، أى: يقطعه و يكسره وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ أى: بليغ الملوحة هذا معنى الأجاج، و قيل: الأجاج البليغ فى الحرارة، و قيل: البليغ فى المرارة، و قرأ طلحة مِلْحٌ بفتح الميم و كسر اللام وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً البرزخ: الحاجز، و الحائل الذى جعله اللّه بينهما من قدرته، يفصل بينهما، و بمنعهما التمارج، و معنى حِجْراً مَحْجُوراً سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، فالبرزخ: الحاجز، و الحجز: المانع. و قيل: معنى حِجْراً مَحْجُوراً هو ما تقدّم من أنها كلمة يقولها المتعوّذ كأن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه، و يقول له هذا القول، و قيل: حدّا محدودا. و قيل: المراد من البحر العذب: الأنهار العظام كالنيل و الفرات و جيحون، و من البحر الأجاج: البحار المشهورة، و البرزخ بينهما: الحائل من الأرض. و قيل: معنى حِجْراً مَحْجُوراً حراما محرما أن يعذب هذا المالح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالمالح، و مثل هذه الآية قوله سبحانه فى سورة الرحمن مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ «۲» ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان و الماء فقال: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً و المراد بالماء هنا: ماء النطفة، أى: خلق من ماء النطفة إنسانا فجعله نسبا و صهرا، و قيل: المراد بالماء الماء المطلق الذى يراد فى قوله: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ «۳» و المراد بالنسب: هو الذى لا يحلّ نكاحه. قال الفراء و الزجاج: و اشتقاق الصهر من صهرت الشيء: إذا خلطته، و سميت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها. و قيل: الصهر: قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة: هم الأختان، و قرابة الزوج: هم الأحماء، و الأصهار: تعمهما، قاله الأصمعى. قال الواحدى:

قال المفسرون: النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ إلى قوله:

وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ و من هنا إلى قوله: وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ «۴» تحريم بالصهر، و هو الخلطة التى تشبه القرابة، حرم اللّه سبعة أصناف من النسب و سبعة من جهة الصهر، قد اشتملت الآية المذكورة على

---

(۱). ق: ۵.

(۲). الرحمن: ۱۹ و ۲۰.

(۳). الأنبياء: ۳۰.

(۴). النساء: ۲۳.

ستة منها، و السابعة: قوله: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ «۱» و قد جعل ابن عطية و الزجاج و غيرهما الرضاع من جملة النسب، و يؤيده قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». وَ كانَ رَبُّكَ قَدِيراً أى: بليغ القدرة عظيمها، و من جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان و تقسيمه إلى القسمين المذكورين.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ قال: بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس. و أخرج ابن أبى حاتم عنه بلفظ: ألم تر أنك إذا صليت الفجر كان بين مطلع الشمس إلى مغربها

ظلا، ثم بعث اللّه عليه الشمس دليلا. فقبض الظلّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: مدّ الظلّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً قال: دائما ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا يقول: طلوع الشمس ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً قال: سريعا. و أخرج أهل السنن و أحمد و غيرهم من حديث أبى سعيد قال: «قيل يا رسول اللّه أ نتوضأ من بئر بضاعة؟ و هى بئر يلقى فيها الحيض و لحوم الكلاب و النّتن، فقال: إن الماء طهور لا ينجّسه شىء». و فى إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه فى شرحنا على المنتقى. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: ما من عام بأقلّ مطرا من عام، و لكن اللّه يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ هذه الآية وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ جاهِدْهُمْ بِهِ قال: بالقرآن. و أخرج ابن جرير عنه هُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يعنى: خلط أحدهما على الآخر فليس يفسد العذب المالح و ليس يفسد المالح العذب. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ حِجْراً مَحْجُوراً يقول: حجر أحدهما على الآخر بأمره و قضائه. و أخرج عبد بن حميد عن عبد اللّه بن المغيرة قال: سئل عمر بن الخطاب عن «نسبا و صهرا» فقال: ما أراكم إلا و قد عرفتم النسب، و أما الصهر: فالأختان و الصحابة.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ۵۵ الى ۶۷]

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَ لا يَضُرُّهُمْ وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (۵۵) وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (۵۸) الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹)

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَ زادَهُمْ نُفُوراً (۶۰) تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (۶۱) وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (۶۲) وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (۶۳) وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً (۶۴)

وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (۶۵) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۶۶) وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (۶۷)

---

(۱). النساء: ٢٢.

فتح القدير، ج۴، ص: ۹۷

لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد، عاد إلى ذكر قبائح الكفار، و فضائح سيرتهم فقال: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ إن عبدوه وَ لا يَضُرُّهُمْ إن تركوه وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً الظهير:

المظاهر، أى: المعاون على ربه بالشرك و العداوة، و المظاهرة على الربّ هى المظاهرة على رسوله أو على دينه:

قال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان و يعاونه على معصية اللّه، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان. و قال أبو عبيدة: المعنى و كان الكافر على ربه هينا ذليلا، من قول العرب ظهرت به: أى جعلته خلف ظهرك لم تلتفت إليه، و منه قوله: وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا «۱» أى: هينا، و منه أيضا قول الفرزدق:

تميم بن قيس لا تكوننّ حاجتى بظهر فلا يعيا علىّ جوابها

و قيـل إن المعنى: و كان الكافر على ربه الـذى يعبـده و هو الصـنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء، لأن الجماد لا قـدرة له على دفع و نفع، و يجوز أن يكون الظهير جمعا كقوله: وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ «٢» و المعنى:

أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول اللّه أو على الـدين، و المراد بالكافر هنا الجنس، و لا ينافيه كون سـبب النزول هو كافر معين كما قيل إنه أبو جهل وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً أى: مبشـرا للمؤمنين بالجنـة، و منذرا للكافرين بالنار قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أى: قل لهم يا محمـد: ما أسألكم على القرآن من أجر، أو على تبليغ الرسالة المدلول عليه بالإرسال، و الاسـتثناء فى قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا منقطع، أى: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل، و قيل: هو متصل. و المعنى: إلا من شـاء أن يتقرّب إليه سـبحانه بالطاعـة و صور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الحصول. و لما بين سـبحانه أن الكفار متظـاهرون على رسول اللّه، و أمره أن لا يطلب منهم أجرا البتـة، أمره أن يتوكـل عليه فى دفع المضـار، و جلب المنـافع فقـال: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ و خصّ صفة الحياة إشارة إلى أن الحىّ هو الذى يوثق به فى المصالح، و لا حياة على الدوام إلّا للّه سبحانه، دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم، و التوكل اعتماد العبد على اللّه فى كل الأمور وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ أى: نزهه عن صـفات النقصان، و قيل: معنى سـبح: صلّ، و الصـلاة: تسـمى تسبيحا وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً أى:

حسبك، و هـذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك: كفى باللّه ربا، و الخبير: المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شـىء، ثم زاد فى المبالغـة، فقـال: الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ قـد تقـدّم تفسـير هـذا فى الأعراف، و الموصول فى محل جرّ على أنه صفة للحىّ، و قال بينهما و لم يقل بينهنّ لأنه أراد النوعين، كما قال القطامى:

ألم يحزنك أنّ حبال قيسو تغلب قد تباينتا انقطاعا

فإن قيل: يلزم أن يكون خلق العرش بعـد خلق السـموات و الأرض كما تفيـده ثم؛ فيقال إن كلمـة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات و الأرض، و الرحمن مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف،

---

(١). هود: ٩٢.

(٢). التحريم: ۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ٩٨

و هو صـفة أخرى للحىّ، و قـد قرأه الجمهور بالرفع، و قيل: يجوز أن يكون بـدلا من الضـمير فى اسـتوى، أو يكون مبتدأ و خبره الجملة، أى: فاسأل على رأى الأخفش، كما فى قول الشاعر:

و قائلة خولاـن فانكـح فتاتهم و قرأ زيـد بن على «الرّحمن» بالجرّ على أنه نعت للحىّ أو للموصول فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً الضـمير فى به يعود إلى ما ذكر من خلق السموات و الأرض و الاستواء على العرش. و المعنى: فاسأل بتفاصيل ما ذكر إجمالا من هذه الأمور. و قال الزجاج و الأخفش: الباء بمعنى عن، أى: فاسأل عنه، كقوله: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ «١»، و قول امرئ القيس:

هلّا سألت الخيل يا ابنة مالكإن كنت جاهلة بما لم تعلمى

و قال امرؤ القيس:

فإن تسألونى بالنساء فإننىخبير بأدواء النّساء طبيب

و المراد بالخبير: اللّه سبحانه، لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو، و من هذا قول العرب: لو لقيت فلانا للقيك به الأسد، أى: للقيـك بلقائـك إيـاه الأسـد، فخبيرا منتصب على المفعوليـة، أو على الحـال المؤكـدة، و استضـعف الحاليـة أبو البقاء فقال:

يضعف أن يكون خبيرا حالا من فاعل اسأل، لأن الخبير لا يسأل إلا على جهة التوكيد كقوله: وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً «٢» قال: و يجوز أن يكون حالاـ من الرحمن إذا رفعته باستوى. و قال ابن جرير: يجوز أن تكون الباء فى به زائدة. و المعنى: فاسأله حال كونه خبيرا. و قيل:

قوله به يجرى مجرى القسم كقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسائَلُونَ بِهِ «٣» و الوجه الأوّل: أقرب هذه الوجوه، ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ قال المفسرون: إنهم قالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة. قال الزجاج: الرحمن اسم من أسماء اللّه، فلما سمعوه أنكروا فقالوا و ما الرحمن أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا و الاستفهام للإنكار، أى: لا نسجد للرحمن الذى تأمرنا بالسجود له، و من قرأ بالتحتية فالمعنى: أ نسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له.

و قد قرأ المدنيون و البصريون لِما تَأْمُرُنا بالفوقية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى بالتحتية. قال أبو عبيد: يعنون الرحمن. قال النحاس: و ليس يجب أن يتأوّل على الكوفيين فى قراءتهم هذا التأويل البعيد، و لكن الأولى أن يكون التأويل لهم: اسجدوا لما يأمرنا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فتصح القراءة على هذا، و إن كانت الأولى أبين وَ زادَهُمْ نُفُوراً أى: زادهم الأمر بالسجود نفورا عن الدين و بعدا عنه، و قيل: زادهم ذكر الرحمن تباعدا من الإيمان، كذا قال مقاتل، و الأوّل أولى. ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن فقال: تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجاً المراد بالبروج:

بروج النجوم، أى: منازلها الاثنا عشر، و قيل: هى النجوم الكبار، و الأوّل أولى. و سميت بروجا، و هى

---

(١). المعارج: ١.

(٢). البقرة: ٩١.

(٣). النساء: ١.

القصور العالية، لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها، و اشتقاق البرج: من التبرج، و هو الظهور وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً أى: شمسا، و مثله قوله تعالى: وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً قرأ الجمهور سِراجاً بالإفراد. و قرأ حمزة و الكسائى «سرجا» بالجمع، أى: النجوم العظام الوقادة، و رجح القراءة الأولى أبو عبيد. قال الزجاج: فى تأويل قراءة حمزة و الكسائى أراد الشمس و الكواكب وَ قَمَراً مُنِيراً أى: ينير الأرض إذا طلع، و قرأ الأعمش قَمَراً بضم القاف و إسكان الميم، و هى قراءة ضعيفة شاذة وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً قال أبو عبيدة: الخلفة كلّ شىء بعد شىء، الليل: خلفة للنهار، و النهار: خلفة لليل، لأن أحدهما يخلف الآخر و يأتى بعده؛ و منه خلفة النبات، و هو ورق يخرج بعد الورق الأول فى الصيف، و منه قول زهير بن أبى سلمى:

بها العين و الآرام يمشين خلفةو أطلاؤها ينهضن من كلّ مجثم «١»

قال الفراء فى تفسير الآية: يقول: يذهب هذا و يجىء هذا، و قال مجاهد: خلفة من الخلاف، هذا أبيض، و هذا أسود. و قيل: يتعاقبان فى الضياء و الظلام، و الزيادة و النقصان. و قيل: هو من باب حذف المضاف، أى: جعل الليل و النهار ذوى خلفة، أى: اختلاف لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ قرأ حمزة مخففا، و قرأ الجمهور بالتشديد، فالقراءة الأولى: من الذكر للّه، و القراءة الثانية: من التذكر له. و قرأ أبىّ بن كعب «يتذكر» و معنى الآية: أن المتذكر المعتبر إذا نظر فى اختلاف الليل و النهار، علم أنه لا بدّ فى انتقالهما من حال إلى حال من ناقل أَوْ أَرادَ شُكُوراً أى: أراد أن يشكر اللّه على ما أودعه فى الليل و النهار من النعم العظيمة، و الألطاف

الكثيرة. قال الفراء: و يـذكر و يتذكر يأتيان بمعنى واحد. قال اللّه تعالى: وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ* و فى حرف عبد اللّه و يذكروا ما فيه وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحى عباد اللّه سبحانه، و عباد الرحمن: مبتدأ، و خبره: الموصول مع صلته، و الهون: مصدر، و هو السكينة و الوقار. و قد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بيمشون، أى: يمشون على الأرض مشيا هونا. قال ابن عطية: و يشبه أن يتأوّل هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشى هونا مناسبة لمشيه، و إما أن يكون المراد صفة المشى وحده فباطل، لأنه ربّ ماش هونا رويدا و هو ذئب أطلس، و قد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتكفأ فى مشيه كأنما فى صبب وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل و السفه فلا يجهلون مع من يجهل و لا يسافهون أهل السفه. قال النحاس:

ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التسلم تقول العرب سلاما: أى: تسلما منك، أى: براءة منك، منصوب على أحد أمرين: إما على أنه مصدر لفعل محذوف، أى: قالوا سلمنا سلاما، و هذا على قول سيبويه، أو على أنه مفعول به، أى: قالوا هذا اللفظ، و رجحه ابن عطية. و قال مجاهد: معنى سلاما سدادا، أى:

---

(١). العين: بكسر العين، جمع أعين و عيناء، و هى بقر الوحش، سميت بذلك لسعة أعينها، و الأطلاء: جمع طلا، و هو البقرة و ولد الظّبية الصغير، و المجثم: الموضع الذى يجثم فيه، أى يقام فيه.

فتح القدير، ج‏4، ص: 100

فتح القدير ج‏4 149

يقول للجاهل كلاما يدفعه به برفق ولين. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، لكنه على قوله تسليما منكم، و لا خير و لا شرّ بيننا و بينكم. قال المبرد: كان ينبغى أن يقال لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم، ثم أمروا بحربهم، و قال محمد بن يزيد: أخطأ سيبويه فى هذا و أساء العبارة. قال النحاس:

و لا نعلم لسيبويه كلاما فى معنى الناسخ و المنسوخ إلا فى هذه الآية، لأنه قال فى آخر كلامه: فنسختها آية السيف. و أقول: هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم فى غير علمه و مشى فى غير طريقته، و لم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين، و لا نهوا عنه، بل أمروا بالصفح و الهجر الجميل، فلا حاجة إلى دعوى النسخ. قال النضر بن شميل: حدّثنى الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابى، و كان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا فردّ علينا السلام و قال لنا: استووا، فبقينا متحيرين، و لم ندر ما قال، فقال لنا أعرابىّ إلى جنبه:

أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول اللّه ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ* «١» قال: فصعدنا إليه فقال: هل لكم فى خبز و فطير و لبن هجير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاما، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابىّ:

إنه سالمكم متاركة لا خير فيها و لا شرّ. قال الخليل: هو من قول اللّه: وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً. وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً البيتوتة: هى أن يدركك الليل نمت أو لم تنم. قال الزجاج: من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينم، كما يقال: بات فلان قلقا، و المعنى: يبيتون لربهم سجدا على وجوههم، و قياما على أقدامهم، و منه قول امرئ القيس:

فبتنا قياما عند رأس جوادنايزاولنا عن نفسه و نزاوله

وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً أى: هم مع طاعتهم مشفقون وجلون خائفون من عذابه، و الغرام: اللازم الدائم، و منه سمّى الغريم لملازمته، و يقال: فلان مغرم بكذا، أى: ملازم له مولع به، هذا معناه فى كلام العرب، كما ذكره ابن الأعرابى و ابن عرفة و غيرهما، و منه قول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراما و إن يعط جزيلا فإنّه لا يبالى

و قال الزجاج: الغرام: أشدّ العذاب. و قال أبو عبيدة: هو الهلاك. و قال ابن زيد: الشرّ، و جملة إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً تعليل لما قبلها، و المخصوص محذوف، أى: هى، و انتصاب مستقرّا على الحال أو التمييز، و كذا مقاما، قيل: هما مترادفان، و إنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما، و قيل: بل هما مختلفان معنى: فالمستقرّ للعصاة فإنهم يخرجون، و المقام للكفار يخلدون، و ساءت: من أفعال الذم كبئست، و يجوز أن يكون هذا من كلام اللّه سبحانه، و يجوز أن يكون حكاية لكلامهم. ثم وصفهم سبحانه بالتوسط فى الإنفاق فقال: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا قرأ حمزة و الكسائى و الأعمش و عاصم و يحيى بن وثاب «يقتروا» بفتح التحتية و ضم الفوقية، من قتر يقتر كقعد يقعد، و قرأ أبو عمرو

---

(١). البقرة: ٢٩.

و ابن كثير بفتح التحتية و كسر التاء الفوقية، و هى لغة معروفة حسنة، و قرأ أهل المدينة و ابن عامر و أبو بكر عن عاصم بضم التحتية و كسر الفوقية. قال أبو عبيدة: يقال قتر الرجل على عياله يقتر و يقتر قترا، و أقتر يقتر إقتارا، و معنى الجميع: التضييق فى الإنفاق. قال النحاس: و من أحسن ما قيل فى معنى الآية: أن من أنفق فى غير طاعة اللّه فهو الإسراف، و من أمسك عن طاعة اللّه فهو الإقتار، و من أنفق فى طاعة اللّه فهو القوام.

و قال إبراهيم النخعي: هو الذى لا يجيع و لا يعرى، و لا ينفق نفقة يقول الناس: قد أسرف. و قال يزيد بن أبى حبيب: أولئك أصحاب محمد، كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم و اللذة، و لا يلبسون ثوبا للجمال، و لكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع، و يقوّيهم على عبادة اللّه، و من اللباس ما يستر عوراتهم، و يقيهم الحرّ و البرد. و قال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف، و لم يبخلوا كقوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ «١» قرأ حسان بن عبد الرحمن وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً بكسر القاف، و قرأ الباقون بفتحها، فقيل: هما بمعنى، و قيل: القوام بالكسر: ما يدوم عليه الشي‏ء و يستقرّ، و بالفتح:

العدل و الاستقامة، قاله ثعلب. و قيل بالفتح: العدل بين الشيئين، و بالكسر: ما يقام به الشي‏ء، لا يفضل عنه و لا ينقص. و قيل بالكسر: السداد و المبلغ، و اسم كان مقدّر فيها، أى: كان إنفاقهم بين ذلك قواما، و خبرها قواما، قاله الفراء. و روى عن الفراء قول آخر، و هو أن اسم كان بين ذلك، و تبنى بين على الفتح لأنها من الظروف المفتوحة. و قال النحاس: ما أدرى ما وجه هذا، لأن بين إذا كانت فى موضع رفع رفعت.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً يعنى أبا الحكم الذى سماه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أبا جهل بن هشام. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ قال: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر، يقول عرض من عرض الدنيا. و أخرج الخطيب فى كتاب النجوم عنه أيضا فى قوله: تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً قال:

هى هذه الاثنا عشر برجا: أولها: الحمل، ثم الثور، ثم الجوزاء، ثم السرطان، ثم الأسد، ثم السنبلة، ثم الميزان، ثم العقرب، ثم القوس، ثم الجدى، ثم الدلو، ثم الحوت. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً قال: أبيض و أسود. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا يقول: من فاته شي‏ء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار: و من النهار أدركه بالليل. و أخرج الطيالسى و ابن أبى حاتم عن الحسن أن عمر أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه، فقال: إنه بقى علىّ من وردى شي‏ء فأحببت أن أتمه، أو قال أقضيه، و تلا هذه الآية وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ

خِلْفَةً الآيـة. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قوله: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ قال: هم المؤمنون الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً قال: بالطاعـة و العفاف و التواضع. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هَوْناً علما و حلما. و أخرج عبد بن حميد عن أبى سعيد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً قال: الدائم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم

---

(۱). الإسراء: ۲۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۲

عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا قال: هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا فى معصية اللّه، و لا يقترون فيمنعوا حقوق اللّه.

[سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۸ الى ۷۷]

وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (۶۸) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (۶۹) إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۰) وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (۷۱) وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (۷۲)

وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً (۷۳) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (۷۴) أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً (۷۵) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۷۶) قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (۷۷)

قوله: وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع فى بيان اجتنابهم للمعاصى فقال: و الـذين لا يـدعون مع اللّه سبحانه ربا من الأرباب. و المعنى: لا يشركون به شيئا، بل يوحدونه و يخلصون له العبادة و الدعوة وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ أى: حرّم قتلها إِلَّا بِالْحَقِ أى: بما يحقّ أن تقتل به النفوس، من كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس وَ لا يَزْنُونَ أى: يستحلون الفروج المحرّمة بغير نكاح، و لا ملك يمين وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أى: شيئا مما ذكر يَلْقَ فى الآخرة أَثاماً و الأثام فى كلام العرب: العقاب. قال الفراء: آثمه اللّه يؤثمه أثاما و آثاما، أى: جازاه جزاء الإثم. و قال عكرمة و مجاهد: إن أثاما واد فى جهنم جعله اللّه عقابا للكفرة. و قال السدّى: جبل فيها. و قرئ «يلقّ» بضم الياء و تشديد القاف. قال أبو مسلم: و الأثام و الإثم واحد، و المراد هنا جزاء الآثام فأطلق اسم الشيء على جزائه. و قرأ الحسن يلق أياما جمع يوم: يعنى شدائد، و العرب تعبر عن ذلك بالأيام، و ما أظن هذه القراءة تصح عنه يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ قرأ نافع و ابن عامر و حمزة و الكسائى يُضاعَفْ و يَخْلُدْ بالجزم، و قرأ ابن كثير «يضعف» بتشديد العين و طرح الألف و الجزم، و قرأ طلحة ابن سليمان «نضعّف» بضم النون و كسر العين المشدّدة و الجزم، و هى قراءة أبى جعفر و شيبة. و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر بالرفع فى الفعلين على الاستئناف. و قرأ طلحة بن سليمان «و تخلد» بالفوقية خطابا للكافر. و روى عن أبى عمرو أنه قرأ وَ يَخْلُدْ بضم الياء التحتية و فتح اللام. قال أبو علىّ الفارسى:

و هى غلط من جهة الرواية، و وجه الجزم فى يضاعف: أنه بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى، و مثله قول الشاعر:

إنّ علىّ اللّه أن تبايعاتؤخذ كرها أو تجيء طائعا

و الضمير فى قوله: وَ يَخْلُدْ فِيهِ راجع إلى العذاب المضاعف، أى: يخلد فى العذاب المضاعف
فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۳
مُهاناً ذليلا حقيرا إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً قيل: هو استثناء متصل، و قيل:
منقطع. قال أبو حيان: لا يظهر الاتصال لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب، فيصير التقدير: إلا من تاب و آمن و عمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب، و لا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف. قال: و الأولى عندى أن يكون منقطعا، أى: لكن من تاب. قال القرطبى: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام فى الكافر و الزانى. و اختلفوا فى القاتل من المسلمين. و قد تقدّم بيانه فى النساء و المائدة، و الإشارة بقوله: فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ إلى المذكورين سابقا، و معنى تبديل السيئات حسنات، أنه يمحو عنهم المعاصى، و يثبت لهم مكانها طاعات. قال النحاس: من أحسن ما قيل فى ذلك: أنه يكتب موضع كافر مؤمن، و موضع عاص مطيع. قال الحسن: قوم يقولون التبديل فى الآخرة، و ليس كذلك إنما التبديل فى الدنيا، يبدل اللّه لهم إيمانا مكان الشرك، و إخلاصا من الشك، و إحصانا من الفجور، قال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، و لكن يجعل مكان السيئة التوبة، و الحسنة مع التوبة.
و قيل: إن السيئات تبدّل بحسنات، و به قال جماعة من الصحابة و من بعدهم. و قيل: التبديل عبارة عن الغفران، أى: يغفر اللّه لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات. و قيل: المراد بالتبديل: أن يوفقه لأضداد ما سلف منه وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً هذه الجملة مقرّرة لما قبله من التبديل وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً أى: من تاب عما اقترف و عمل عملا صالحا بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى اللّه متابا، أى: يرجع إليه رجوعا صحيحا قويا. قال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، و لهذا قال: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين، و أتبع توبته عملا صالحا، فله حكم التائبين أيضا. و قيل: أى من تاب بلسانه و لم يحقق التوبة بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب و عمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة، فهو الذى تاب إلى اللّه متابا، أى: تاب حقّ التوبة، و هى النصوح، و لذلك أكد بالمصدر، و معنى الآية: من أراد التوبة و عزم عليها فليتب إلى اللّه، فالخبر فى معنى الأمر، كذا قيل لئلا يتحد الشرط و الجزاء، فإنه لا يقال من تاب فإنه يتوب، ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات فقال: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أى: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور، و الزور: هو الكذب و الباطل، و لا يشاهدونه و إلى الثانى ذهب جمهور المفسرين. قال الزجاج: الزور فى اللغة الكذب و لا كذب فوق الشرك باللّه. قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا: بمعنى الشرك. و الحاصل أن يشهدون إن كان من الشهادة، ففى الكلام مضاف محذوف، أى: لا يشهدون شهادة الزور و إن كان من الشهود و الحضور، كما ذهب إليه الجمهور فقد اختلفوا فى معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، و قال محمد بن الحنفية: لا يحضرون اللهو و الغناء، و قال ابن جريج: الكذب. و روى عن مجاهد أيضا، و الأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنا ما كان وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً أى: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، و اللغو: كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو: المعاصى كلها، و قيل: المراد
فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۴
مرّوا بذوى اللغو، يقال: فلان يكرم عما يشينه، أى: يتنزّه و يكرم نفسه عن الدخول فى اللغو و الاختلاط بأهله وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ أى: بالقرآن، أو بما فيه موعظة و عبرة لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً أى: لم يقعوا عليها حال كونهم صما و عميانا، و لكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين، و انتفعوا بها. قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صمّ لم يسمعوها، و عمى لم يبصروها. قال ابن جرير:

ليس ثم خرور، بـل كمـا يقـال قعـد يبكى، و إن كان غير قاعـد. قال ابن عطيـة: كأن المستمع للـذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلـك خرورا، و هو السـقوط على غير نظـام. قيـل المعنى: إذا تليت عليهم آيـات اللّه و جلت قلوبهم، فخروا سـجدا و بكيـا، و لم يخرّوا عليها صـما و عميانا. قال الفراء: أى لم يقعدوا على حالهم الأول، كأن لم يسـمعوا. قال فى الكشاف: ليس بنفى للخرور، و إنمـا هـو إثبـات له، و نفى للصـمم و العمى، و أراد أن النفى متـوجه إلى القيـد لاـ إلى المقيـد وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنـا هَبْ لَنـا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ من:

ابتدائية، أو بيانية. قرأ نافع و ابن كثير و ابن عباس و الحسن وَ ذُرِّيّاتِنا بالجمع و قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائى و طلحة و عيسى «و ذرّيتنا» بالإفراد، و الذرّية: تقع على الجمع، كما فى قوله: ذُرِّيَّةً ضِعافاً «١» و تقع على الفرد كما فى قوله: ذرّية طيبة، و انتصاب قرّة أعين على المفعوليـة، يقال: قرّت عينه قرة. قال الزجاج: يقال أقرّ اللّه عينك، أى: صادف فؤادك ما يحبه. و قال المفضل: فى قرّة العين ثلاثة أقوال: أحدها:

برد دمعهـا، لأنه دليل السـرور و الضـحك، كما أن حرّه دليل الحزن و الغمّ. و الثانى: نومها، لأنه يكون مع فراغ الخاطر، و ذهاب الحزن. و الثالث: حصول الرضا. وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً أى: قـدوة يقتدى بنا فى الخير، و إنما قال: إماما، و لم يقل أئمة، لأنه أريد به الجنس. كقوله: ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا «٢» قال الفراء: قال إماما، و لم يقل أئمـة؛ كما قال للاثنين إِنّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ «٣» يعنى: أنه من الواحـد الذى أريد به الجمع. و قال الأخفش: الإمام جمع أمّ من أمّ يؤم جمع على فعال، نحو صاحب و صـحاب، و قائم و قيام.

و قيـل: إن إمامـا مصـدر، يقـال: أمّ فلاـن فلانا إماما، مثل الصـيام و القيام. و قيل أرادوا: اجعل كل واحـد منا إماما، و قيل أرادوا: اجعلنا إماما واحدا لاتحاد كلمتنا، و قيل: إنه من الكلام المقلوب، و أن المعنى:

و اجعـل المتقين لنـا إماما، و به قال مجاهـد. و قيل: إن هـذا الـدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد، و أن عبارة كل واحـد منهم عند الـدعاء: و اجعلنى للمتقين إماما، و لكنها حكيت عبارات الكل بصـيغة المتكلم مع الغير لقصـد الإيجاز كقوله: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً «۴» و فى هذا إبقاء إماما على حاله، و مثل ما فى الآية قول الشاعر:

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتىإنّ العواذل ليس لى بأمين

أى: أمنـاء. قـال القفال: و عنـدى أن الإمام إذا ذهب به مـذهب الاسم وحـد، كأنه قيل: اجعلنا حجـة للمتقين، و مثله البينـة، يقال: هؤلاء بينة فلان. قال النيسابورى: قيل فى الآية دلالة على أن الرياسة الدينية

---

(١). النساء: ٩.

(٢). الحج: ۵.

(٣). الشعراء: ١۶.

(۴). المؤمنون: ۵١.

مما يجب أن تطلب و يرغب فيهـا، و الأـقرب أنهم سـألوا اللّه أن يبلغهم فى الطاعـة المبلغ الـذى يشـار إليهم، و يقتـدى بهم، و الإشارة بقوله: أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا إلى المتصـفين بتلك الصـفات، و هو مبتدأ و خبره ما بعده، و الجملة مسـتأنفة. و قيـل: إن أُوْلئِكَ و مـا بعـده خبر لقوله: وَ عِبـادُ الرَّحْمنِ كـذا قال الزجاج، و الغرفـة: الدرجـة الرفيعـة، و هى أعلى منازل الجنـة و أفضـلها، و هى فى الأصـل لكـلّ بنـاء مرتفع، و الجمع غرف. و قال الضـحاك: الغرفـة الجنـة، و الباء فى «بما صبروا» سـببية، و ما

مصدريـة، أى: يجزون الغرفة بسـبب صبرهم على مشاق التكليف وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَـلاماً قرأ أبو بكر و المفضل و الأعمش و يحيى ابن وثـاب و حمزة و الكسائى و خلف يُلَقَّوْنَ بفتـح الياء و سـكون اللام و تخفيف القاف، و اختار هـذه القراءة الفراء، قال: لأن العرب تقول: فلان يلقى بالسلام و التحية و الخير، و قلّ ما يقولون يلقى. و قرأ الباقون بضم الياء و فتح اللام و تشديد القاف، و اختـار هـذه القراءة أبو عبيـد و أبو حاتم لقوله: وَ لَقَّاهُمْ نَضْـرَةً وَ سُـرُوراً و المعنى: أنه يحيّى بعضـهم بعضا و يرسل إليهم الرب سبحانه بالسـلام، قيل: التحية البقاء الدائم و الملك العظيم، و قيل: هى بمعنى السـلام، و قيل: إن الملائكة تحييهم و تسلم عليهم، و الظاهر أن هـذه التحيـة و السـلام هى من اللّه سـبحانه لهم، و من ذلك قوله سـبحانه: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَـلامٌ «۱» و قيل معنى التحية:

الدعاء لهم بطول الحياة، و معنى السلام: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال، أى: مقيمين فيها من غير موت حَسُـنَتْ مُسْـتَقَرًّا وَ مُقاماً أى: حسـنت الغرفة مسـتقرّا يستقرّون فيه، و مقاما يقيمون به، و هذا فى مقابل ما تقدّم من قوله: ساءت مسـتقرّا و مقاما قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ بيّن سـبحانه أنه غنّى عن طاعـة الكلّ، و إنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف، يقال: ما عبأت بفلان، أى: ما باليت به، و لا له عنـدى قدر، و أصل يعبأ من العبء، و هو الثقل. قال الخليل: ما أعبأ بفلان: أى: ما أصنع به كأنه يستقله و يستحقره، و يدّعى أن وجوده و عدمه سواء، و كذا قال أبو عبيدة.

قـال الزجـاج: مـا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى يريـد: أىّ وزن يكون لكم عنـده. و العبء: الثقـل، و ما اسـتفهامية أو نافيـة، و صـرح الفراء بأنها اسـتفهامية. قال ابن الشجرى: و حقيقة القول عندى أن موضع ما نصب و التقدير: أىّ عبء يعبأ بكم، أى: أىّ مبالاة يبالى بكم لَوْ لا دُعاؤُكُمْ أى: لو لا دعاؤكم إياه لتعبـدوه، و على هذا فالمصدر الذى هو الدعاء مضاف إلى مفعوله، و هو اختيار الفراء، و فاعله محذوف، و جواب لولا محذوف، تقديره: لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم، و يؤيد هذا قوله: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «۲» و الخطاب لجميع الناس، ثم خصّ الكفار منهم فقال: فَقَـدْ كَـذَّبْتُمْ و قرأ ابن الزبير «فقـد كـذّب الكافرون» و فى هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب لجميع الناس. و قيل: إن المصدر مضاف إلى الفاعل، أى: لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد. و قيل المعنى: ما يعبأ بكم، أى: بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه. و حكى ابن جنى أن ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير. و حكى الزهراوى و النحـاس أن ابن مسـعود قرأ كقراءتهما، و ممن قال بأن الـدعاء مضاف إلى الفاعل القتبى و الفارسـى قالا: و الأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه،

---

(۱). الأحزاب: ۴۴.

(۲). الذاريات: ۵۶.

و جواب لولا محذوف تقديره على هذا الوجه: لولا دعاؤكم لم يعذبكم، و يكون معنى فَقَدْ كَذَّبْتُمْ على الوجه الأوّل: فقد كذبتم بما دعيتم إليه، و على الوجه الثانى: فقـد كـذبتم بالتوحيـد. ثم قال سـبحانه: فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً أى: فسوف يكون جزاء التكذيب لازما لكم، و جمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا:

ما لزم المشـركين يوم بـدر، و قالت طائفـة: هو عذاب الآخرة. قال أبو عبيدة: لزاما فيصـلا، أى: فسوف يكون فيصـلا بينكم و بين المؤمنين. قال الزجاج: فسوف يكون تكذيبكم لزاما يلزمكم فلا تعطون التوبة، و جمهور القراء على كسـر اللام من لزاما، و أنشد أبو عبيدة لصخر:

فإمّا ينجو من خسف أرضفقد لقيا حتوفهما لزاما

قال ابن جرير لزاما: عذابا دائما، و هلاكا مفنيا، يلحق بعضكم ببعض، كقول أبى ذؤيب:

ففاجأه بعادية لزام كما يتفجّر الحوض اللّفيف

يعنى باللزام: يتبع بعضه بعضا، و باللفيف: المتساقط من الحجارة المنهدمة. و حكى أبو حاتم عن أبى زيد قال: سمعت أبا السماك يقرأ «لزاما» بفتح اللام. قال أبو جعفر يكون مصدر لزم، و الكسر أولى.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أىّ الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل للّه ندّا و هو خلقك. قلت: ثم أىّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أىّ؟ قال: أن تزانى حليلة جارك، فأنزل اللّه تصديق ذلك وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ، وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ . و أخرجا و غيرهما أيضا عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا، و زنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدا صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: إن الذى تقول و تدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ الآية، و نزلت قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ «١» الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن عمرو فى قوله: يَلْقَ أَثاماً قال: واد فى جهنم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ الآية. اشتدّ ذلك على المسلمين، فقالوا: ما منا أحد إلا أشرك و قتل و زنا، فأنزل اللّه:

يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ الآية، يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا فى الشرك، ثم نزلت هذه الآية إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ فأبدلهم اللّه بالكفر الإسلام، و بالمعصية الطاعة، و بالإنكار المعرفة، و بالجهالة العلم. و أخرج ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قرأناها على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سنين وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً ثم نزلت إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ فما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فرح بشىء قط فرحه بها، و فرحه ب إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً «٢» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ قال: هم المؤمنون

---

(١). الزمر: ٥٣.

(٢). الفتح: ١.

كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب اللّه بهم عن ذلك فحوّلهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. و أخرج أحمد و هناد و الترمذى و ابن جرير و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيعرض عليه صغارها و ينحى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا، و هو يقرّ، ليس ينكر، و هو مشفق من الكبائر أن تجىء، فيقال: أعطوه بكلّ سيئة عملها حسنة» و الأحاديث فى تكفير السيئات و تبديلها بالحسنات كثيرة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ قال: إن الزور كان صنما بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام، و كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا مرّوا به مرّوا كراما لا ينظرون إليه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ قال: يعنون من يعمل بالطاعة فتقرّ به أعيننا فى الدنيا و الآخرة وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً قال: أئمة هدى يهتدى بنا و لا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنه قال لأهل السعادة: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا «١» و لأهل الشقاوة: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ «٢». و أخرج الحكيم الترمذى عن سهل بن سعد عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ قال: الغرفة من ياقوتة حمراء،

أو زبرجدة خضراء، أو درّة بيضاء.
ليس فيها فصم و لا وصم .. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ يقول: لولا إيمانكم، فأخبر اللّه أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين.
و لو كانت له بهم حاجة لحبّب إليهم الإيمان، كما حبّبه إلى المؤمنين فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً قال: موتا.
و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن الأنبارى عنه أنه كان يقرأ: فقد كذّب الكافرون فسوف يكون لزاما. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن الزبير أنه قرأها كذلك. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن مردويه فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً قال: القتل يوم بدر، و فى الصحيحين عنه قال:
خمس قد مضين: الدخان، و القمر، و الروم، و البطشة، و اللّزام.

---

(١). الأنبياء: ٧٣.

(٢). القصص: ٤١.

فتح القدير، ج۴، ص: ١٠٨

سورة الشّعراء

اشارة

و هى: مكية عند الجمهور، و كذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير. و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: سورة الشعراء أنزلت بمكة، سوى خمس آيات آخرها نزلت بالمدينة، و هى [الآية: ١٩٧ و] «١» وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ إلى آخرها. و أخرج القرطبى فى تفسيره عن البراء أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إنّ اللّه أعطانى السّبع الطّوال مكان التوراة، و أعطانى المئين مكان الإنجيل، و أعطانى الطّواسين مكان الزّبور، و فضّلنى بالحواميم و المفصّل، ما قرأهنّ نبىّ قبلى». و أخرج أيضا عن ابن عباس قال:
قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «أعطيت السّورة التى تذكر فيها البقرة من الذكر الأوّل، و أعطيت فواتح القرآن و خواتيم سورة البقرة من تحت العرش، و أعطيت المفصّل نافلة». قال ابن كثير فى تفسيره: و وقع فى تفسير مالك المروىّ عنه تسميتها بسورة الجمعة.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١ الى ٢٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (۴)
وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (۵) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

وَ إِذْ نادى رَبُّکَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ (۱۱) قالَ رَبِّ إِنِّی أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۱۲) وَ يَضِيقُ صَدْرِی وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِی فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۱۴)

قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِيلَ (۱۷)

قالَ أَ لَمْ نُرَبِّکَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِکَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (۱۹)

قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (۲۰) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُكْماً وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۱) وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِيلَ (۲۲)

قوله: طسم قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و أبو بكر و المفضل و حمزة و الكسائى و خلف بإمالة الطاء، و قرأ نافع و أبو جعفر و شيبة و الزهرى بين اللفظين، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، و قرأ الباقون بالفتح مشبعا. و قرأ المدنيون و أبو عمرو و عاصم و الكسائى بإدغام النون من «طسم» فى الميم، و قرأ الأعمش و حمزة بإظهارها. قال الثعلبى: الإدغام اختيار أبى عبيد و أبى حاتم. قال النحاس: و حكى الزجاج فى كتابه

---

(۱). ما بين حاصرتين مستدرک من تفسير الجلالين، و به يصح الكلام.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۰۹

فيما يجرى و ما لا يجرى أنه يجوز أن يقال: «طا سين ميم» بفتح النون و ضم الميم كما يقال: هذا معدى كرب.

و قرأ عيسى و يروى عن نافع بكسر الميم على البناء. و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود «ط س م» هكذا حروفا مقطعة فيوقف على كل حرف وقفة يتميز بها عن غيره، و كذلک قرأ أبو جعفر، و محله الرفع على الابتداء إن كان اسما للسورة، كما ذهب إليه الأكثر أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، و يجوز أن يكون فى محل نصب بتقدير:

اذكر أو اقرأ. و أما إذا كان مسرودا على نمط التعديد كما تقدّم فى غير موضع من هذا التفسير فلا محل له من الإعراب. و قد قيل: إنه اسم من أسماء اللّه سبحانه، و قيل: اسم من أسماء القرآن، و الإشارة بقوله: تِلْکَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ إلى السورة، و محلها الرفع على أنها و ما بعدها خبر للمبتدأ إن جعلنا طسم مبتدأ، و إن جعلناه خبرا لمبتدأ محذوف فمحلها الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من طسم، و المراد بالكتاب هنا: القرآن، و المبين: المبيّن المظهر، أو البين الظاهر إن كان من أبان بمعنى بان لَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ أى: قاتل نفسک و مهلكها أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أى: لعدم إيمانهم بما جئت به، و البخع فى الأصل: أن يبلغ بالذبح النخاع، بالنون، قاموس، و هو عرق فى القفا، و قد مضى تحقيق هذا فى سورة الكهف، و قرأ قتادة «باخع نفسک» بالإضافة، و قرأ الباقون بالقطع. قال الفراء: أن فى قوله: أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فى موضع نصب لأنها جزاء، قال النحاس: و إنما يقال: إن مكسورة لأنها جزاء، هكذا المتعارف؛ و القول فى هذا ما قاله الزجاج فى كتابه فى القرآن: إنها فى موضع نصب، مفعول لأجله، و المعنى:

لعلک قاتل نفسک لتركهم الإيمان، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأنه كان حريصا على إيمان قومه، شديد الأسف لما يراه من إعراضهم: و جملة إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً مستأنفة، مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية، و المعنى: إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان، و لكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلک، و معنى فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ أنهم صاروا منقادين لها، أى: فتظل أعناقهم إلخ، قيل: و أصله فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير و التصوير، لأن الأعناق موضع الخضوع، و قيل: إنها لما وصعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم، و وصفت بما يوصفون به. قال عيسى

بن عمر: خاضعين و خاضعة هنا سواء، و اختاره المبرد، و المعنى: إنها إذا ذلت رقابهم ذلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، و يسوغ فى كلام العرب أن يترك الخبر عن الأوّل، و يخبر عن الثانى، و منه قول الراجز:

طول الليالى أسرعت فى نقضى طوين طولى و طوين عرضى

فأخبر عن الليالى و ترك الطول، و منه قول جرير:

أرى مرّ السنين أخذن منّى كما أخذ السّرار من الهلال

و قال أبو عبيد و الكسائى: إن المعنى خاضعيها هم، و ضعفه النحاس. و قال مجاهد: أعناقهم: كبراؤهم.

قال النحاس: و هذا معروف فى اللغة، يقال جاءنى عنق من الناس: أى رؤساء منهم. و قال أبو زيد و الأخفش:

أعناقهم: جماعاتهم، يقال جاءنى عنق من الناس: أى جماعة وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱۰

بين سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان يأتيهم بالقرآن حالا بعد حال، و أن لا يجدد لهم موعظة و تذكيرا إلا جددوا ما هو نقيض المقصود، و هو الإعراض و التكذيب و الاستهزاء، و من فى مِنْ ذِكْرٍ مزيدة لتأكيد العموم، و «من» فى «من ربهم» لابتداء الغاية، و الاستثناء مفرغ من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم، و قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية فى سورة الأنبياء فَقَدْ كَذَّبُوا أى بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا و لم يكتفوا بمجرّد الإعراض. و قيل: إن الإعراض بمعنى التكذيب، لأن من أعرض عن شىء و لم يقبله فقد كذّبه، و على هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم، على وجه التصريح، و الأوّل أولى، فالإعراض عن الشىء عدم الالتفات إليه. ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدّ منه، و هو التصريح بالتكذيب ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشدّ منه، و هو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله: فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ و الأنباء هى ما يستحقونه من العقوبة آجلا و عاجلا، و سميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن و قال: «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و لم يقل ما كانوا عنه معرضين، أو ما كانوا به يكذّبون، لأن الاستهزاء أشدّ منهما و مستلزم لهما، و فى هذا وعيد شديد، و قد مرّ تفسير مثل هذا فى سورة الأنعام. ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية، التى يحصل بها للمتأمل فيها، و الناظر إليها، و المستدلّ بها أعظم دليل، و أوضح برهان، فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ الهمزة للتوبيخ، و الواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره، فنبه سبحانه على عظمته و قدرته، و أن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذى يستحق أن يعبد، و المراد بالزوج هنا الصنف. و قال الفراء: هو اللون. و قال الزجاج: معنى زوج: نوع، و كريم:

محمود، و المعنى: من كل زوج نافع، لا يقدر على إنباته إلا ربّ العالمين، و الكريم فى الأصل: الحسن الشريف، يقال: نخلة كريمة: أى كثيرة الثمرة، و رجل كريم: شريف فاضل، و كتاب كريم: إذا كان مرضيا فى معانيه، و النبات الكريم: هو المرضى فى منافعه. قال الشعبى: الناس مثل نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة، فهو كريم، و من صار منهم إلى النار، فهو لئيم، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إلى المذكور قبله، أى: إن فيما ذكر من الإنبات فى الأرض لدلالة بينة، و علامة واضحة على كمال قدرة اللّه سبحانه، و بديع صنعته. ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته مصمم على جحوده و تكذيبه و استهزائه فقال: وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى: سبق علمى فيهم أنهم سيكونون هكذا. و قال سيبويه:

إن كانَ هنا صلة وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم، مع كونه كثير الرحمة، و لذلك أمهلهم و لم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى: أنه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه، و جملة وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى إلخ مستأنفة، مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض و التكذيب و الاستهزاء، و العامل فى الظرف محذوف تقديره: و اتل إذ نادى أو اذكر، و النداء: الدعاء، و

أَنِ فى قوله: أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يجوز أن تكون مفسرة، و أن تكون مصدرية، و وصفهم بالظلم لأنهم جمعوا بين الكفر الذى ظلموا به أنفسهم، و بين المعاصى التى ظلموا بها غيرهم، كاستبعاد بنى إسرائيل، و ذبح أبنائهم،

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱۱

و انتصاب قَوْمَ فِرْعَوْنَ على أنه بدل، أو عطف بيان من القوم الظالمين، و معنى أَ لا يَتَّقُونَ ألا يخافون عقاب اللّه سبحانه، فيصرفون عن أنفسهم عقوبة اللّه بطاعته. و قيل المعنى: قل لهم ألا تتقون، و جاء بالياء التحتية لأنهم غيب وقت الخطاب، و قرأ عبيد بن عمير و أبو حازم «ألا تتّقون» بالفوقية، أي: قال لهم ذلك، و مثله قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ «۱» بالتحتية، و الفوقية قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أى: قال موسى هذه المقالة، و المعنى: أخاف أن يكذبونى فى الرسالة وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي معطوفا على أخاف، أى: يضيق صدرى لتكذيبهم إياى، و لا ينطلق لسانى بتأدية الرسالة، قرأ الجمهور برفع يَضِيقُ وَ لا يَنْطَلِقُ بالعطف على أخاف كما ذكرنا، أو على الاستئناف، و قرأ يعقوب و عيسى بن عمرو و أبو حيوة بنصبهما عطفا على يكذبون. قال الفراء: كلا القراءتين له وجه. قال النحاس: الوجه الرفع، لأن النصب عطف على يكذبون و هذا بعيد فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ أى: أرسل إليه جبريل بالوحى ليكون معى رسولا مؤازرا مظاهرا معاونا، و لم يذكر المؤازرة هنا لأنها معلومة من غير هذا الموضع، كقوله فى طه:

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً «۲» و فى القصص فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي «۳»، و هذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه، لا من باب الاستعفاء من الرسالة، و لا من التوقف عن المسارعة بالامتثال وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ الذنب: هو قتله للقبطى، و سماه ذنبا بحسب زعمهم: فخاف موسى أن يقتلوه به، و فيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلا عن الفضلاء، ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع، و طرف من الزجر قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا و فى ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه من ضم أخيه إليه، كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما كأنه قال: ارتدع يا موسى عن ذلك و اذهب أنت و من استدعيته و لا تخف من القبط إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ و فى هذا تعليل للردع عن الخوف، و هو كقوله سبحانه: إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى «۴» و أراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما و أنه متولّ لحفظهما و كلاءتهما و أجراهما مجرى الجمع، فقال: «معكم» لكون الاثنين أقلّ الجمع، على ما ذهب إليه بعض الأئمة، أو لكونه أراد موسى، و هارون، و من أرسلا إليه، و يجوز أن يكون المراد هنا: مع بنى إسرائيل، و معكم، و مستمعون: خبران لأنّ، أو الخبر مستمعون، و معكم متعلق به، و لا يخفى ما فى المعية من المجاز: لأن المصاحبة من صفات الأجسام، فالمراد معية النصرة و المعونة فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و وحد الرسول هنا و لم يثنه كما فى قوله: إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ «۵» لأنه مصدر بمعنى رسالة، و المصدر يوحد، و أما إذا كان بمعنى المرسل، فإنه يثنى مع المثنى، و يجمع مع الجمع. قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة، و التقدير على هذا: إنا ذوا رسالة ربّ العالمين، و منه قول الشاعر:

ألا أبلغ بنى عمرو رسولافإنّى عن فتاحتكم غنى

---

(۱). آل عمران: ۱۲.

(۲). طه: ۲۹.

(۳). القصص: ۳۴.

(۴). طه: ۴۶.

(۵). طه: ۴۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱۲

أی: رسالة. و قال العباس بن مرداس:

ألا من مبلغ عنّی خفافارسولا بیت أهلک منتهاها

أی: رسالة. قال أبو عبیدة أیضا: و یجوز أن یکون الرسول بمعنی: الاثنین و الجمع، تقول العرب:

هذا رسولی و وکیلی، و هذان رسولی و وکیلی، و هؤلاء رسولی و وکیلی، و منه: قوله تعالی: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِی و قیل معناه: إن کل واحد منا رسول ربّ العالمین، و قیل: إنهما لما کان متعاضدین متساندین فی الرسالة، کانا بمنزلة رسول واحد. و أَنْ فی قوله: أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِیلَ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنی القول قالَ أَ لَمْ نُرَبِّکَ فِینا وَلِیداً أی: قال فرعون لموسی بعد أن أتیاه و قالا له ما أمرهما اللّه به، و معنی «فینا» أی: فی حجرنا و منازلنا، أراد بذلک المنّ علیه، و الاحتقار له، أی: ربیناک لدینا صغیرا، و لم نقتلک فیمن قتلنا من الأطفال وَ لَبِثْتَ فِینا مِنْ عُمُرِکَ سِنِینَ فمتی کان هذا الذی تدّعیه؟ قیل: لبث فیهم ثمانی عشرة سنة، و قیل: ثلاثین سنة، و قیل: أربعین سنة، ثم قرّره بقتل القبطی فقال: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ الفعلة بفتح الفاء: المرّة من الفعل، و قرأ الشعبی فَعْلَتَکَ بکسر الفاء، و الفتح: أولی، لأنها للمرّة الواحدة لا للنوع، و المعنی: أنه لما عدّد علیه النعم ذکر له ذنوبه، و أراد بالفعل قتل القبطی، ثم قال: وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ أی: من الکافرین للنعمة حیث قتلت رجلا من أصحابی، و قیل المعنی: من الکافرین بأن فرعون إله، و قیل: من الکافرین باللّه فی زعمه لأنه کان معهم علی دینهم، و الجملة فی محل نصب علی الحال قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّینَ أی: قال موسی مجیبا لفرعون: فعلت هذه الفعلة التی ذکرت، و هی قتل القبطی و أنا إذ ذاک من الضالین: أی: الجاهلین، فنفی علیه السلام عن نفسه الکفر، و أخبر أنه فعل ذلک علی الجهل؛ قبل أن یأتیه العلم الذی علمه اللّه. و قیل المعنی:

من الجاهلین أن تلک الوکزة تبلغ القتل. و قال أبو عبیدة: من الناسین فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمَّا خِفْتُکُمْ أی:

خرجت من بینکم إلی مدین کما فی سورة القصص. فَوَهَبَ لِی رَبِّی حُکْماً أی: نبوّة، أو علما و فهما.

و قال الزّجاج: المراد بالحکم تعلیمه التوراة التی فیها حکم اللّه وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُرْسَلِینَ وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَیَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ قیل: هذا الکلام من موسی علی جهة الإقرار بالنعمة، کأنه قال: نعم تلک التربیة نعمة تمنّ بها علیّ، و لکن لا یدفع ذلک رسالتی، و بهذا قال الفراء و ابن جریر، و قیل: هو من موسی علی جهة الإنکار، أی: أ تمنّ علیّ بأن ربیتنی ولیدا، و أنت قد استعبدت بنی إسرائیل و قتلتهم و هم قومی؟.

قال الزجاج: المفسرون أخرجوا هذا علی جهة الإنکار بأن یکون ما ذکر فرعون نعمة علی موسی، و اللفظ لفظ خبر، و فیه تبکیت للمخاطب علی معنی: أنک لو کنت لا تقتل أبناء بنی إسرائیل، لکانت أمی مستغنیة عن قذفی فی الیمّ، فکأنک تمنّ علیّ ما کان بلاؤک سببا له، و ذکر نحوه الأزهری بأبسط منه. و قال المبرد:

یقول التربیة کانت بالسبب الذی ذکرت من التعبید، أی: تربیتک إیای کانت لأجل التملک و القهر لقومی.

و قیل: إن فی الکلام تقدیر الاستفهام، أی: أو تلک نعمة؟ قاله الأخفش، و أنکره النحاس. قال الفراء:

و من قال إن الکلام إنکار قال معناه: أو تلک نعمة؟ و معنی أَنْ عَبَّدْتَ بَنِی إِسْرائِیلَ أی: اتخذتهم عبیدا،

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۱۳

یقال: عبدته و أعبدته بمعنی. کذا قال الفراء، و محله الرفع علی أنه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة، و الجر بإضمار الباء، و النصب بحذفها.

و قد أخرج ابن جریر عن ابن عباس فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِینَ قال: ذلیلین. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن المنذر و

ابن أبى حاتم عن قتادة وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ قال: قتل النفس. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ قال: للنعمة، إن فرعون لم يكن ليعلم ما الكفر؟ و فى قوله: فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ قال: من الجاهلين. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ قال: قهرتهم، و استعملتهم.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٣ الى ٥١]

قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (٢٣) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (٣٢)

وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (٣٥) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (٤١) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (٤٦) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٤٧)

رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (٤٨) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

لما سمع فرعون قول موسى و هارون: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ قال مستفسرا لهما عن ذلك، عازما على الاعتراض لما قالاه، فقال: وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ أى: أىّ شىء هو؟ جاء فى الاستفهام بما التى يستفهم بها عن المجهول، و يطلب بها تعيين الجنس، فلما قال فرعون ذلك قالَ موسى رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا فعين له ما أراد بالعالمين، و ترك جواب ما سأل عنه فرعون، لأنه سأله عن جنس ربّ العالمين، و لا جنس له، فأجابه موسى بما يدلّ على عظيم القدرة الإلهية التى تتضح لكل سامع أنه سبحانه الربّ و لا ربّ غيره إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أى: إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان قالَ فرعون

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱۴

لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ أى: لمن حوله من الأشراف، ألا تستمعون ما قاله، يعنى: موسى معجبا لهم من ضعف المقالة كأنه قال: أ تسمعون و تعجبون، و هذا من اللعين مغالطة، لما لم يجد جوابا عن الحجة التى أوردها عليه موسى، فلما سمع موسى ما قال فرعون، أو رد عليه حجة أخرى، هى مندرجة تحت الحجة الأولى، و لكنها أقرب إلى فهم السامعين له قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا ربّ كما يدّعيه، و المعنى: أن هذا الربّ الذى أدعوكم إليه، هو الذى خلق آباءكم الأوّلين و خلقكم، فكيف تعبدون من هو واحد منكم، مخلوق كخلقكم، و له آباء قد فنوا كآبائكم، فلم يجبه فرعون عند ذلك بشىء يعتدّ به، بل جاء بما يشكك قومه و يخيل إليهم أن هذا الذى قاله موسى مما لا يقوله العقلاء، ف قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قاصدا بذلك المغالطة، و إيقاعهم فى الحيرة، مظهرا أنه مستخفّ بما قاله موسى، مستهزىء به، فأجابه

موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأوّل، ف قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما و لم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه من الجنون، بل بين لفرعون شمول ربوبية اللّه سبحانه للمشرق و المغرب، و ما بينهما، و إن كان ذلك داخلا تحت ربوبيته سبحانه للسموات و الأرض، و ما بينهما، لكن فيه تصريح بإسناد حركات السموات و ما فيها، و تغيير أحوالها و أوضاعها، تارة بالنور، و تارة بالظلمة إلى اللّه سبحانه، و تثنية الضمير فى وَ ما بَيْنَهُما الأوّل لجنسى السموات و الأرض كما فى قول الشاعر:

تنقّلت فى أشرف التّنقّل بين رماحى نهشل و مالك

إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أى: شيئا من الأشياء، أو إن كنتم من أهل العقل، أى: إن كنت يا فرعون، و من معك من العقلاء عرفت و عرفوا أنه لا- جواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك. ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع إلى الاستعلاء و التغلب، ف قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ أى: لأجعلنك من أهل السجن، و كان سجن فرعون أشدّ من القتل لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت، فلما سمع موسى عليه السلام ذلك لاطفه طمعا فى إجابته؛ و إرخاء لعنان المناظرة معه، مريدا لقهره بالحجة المعتبرة فى باب النبوّة، و هى إظهار المعجزة، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة ف قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ أى: أ تجعلنى من المسجونين، و لو جئتك بشىء يتبين به صدقى، و يظهر عنده صحة دعواى، و الهمزة: هنا للاستفهام، و الواو: للعطف على مقدّر كما مرّ مرارا، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه موسى ف قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك، و هذا الشرط: جوابه محذوف، لأنه قد تقدّم ما يدلّ عليه فعند ذلك أبرز موسى المعجزة فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ و قد تقدّم تفسير هذا و ما بعده فى سورة الأعراف، و اشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فى الأرض فانثعب: أى فجرته فانفجر، و قد عبر سبحانه فى موضع آخر مكان الثعبان: بالحية بقوله فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى «١» و فى موضع: بالجانّ، فقال: كَأَنَّها جَانٌّ* «٢» و الجانّ: هو المائل إلى الصغر، و الثعبان: هو المائل إلى الكبر، و الحية: جنس يشمل

---

(١). طه: ٢٠.

(٢). النمل: ١٠.

الكبير و الصغير، و معنى فَما ذا تَأْمُرُونَ ما رأيكم فيه، و ما مشورتكم فى مثله؟ فأظهر لهم الميل إلى ما يقولونه تألفا لهم، و استجلابا لمودتهم، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال، و قارب ما كان يغرّر به عليهم الاضمحلال، و إلا فهو أكبر تيها، و أعظم كبرا من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم، و واحد منهم، مع كونه قبل هذا الوقت يدّعى أنه إلههم، و يذعنون له بذلك و يصدّقونه فى دعواه، و معنى أَرْجِهْ وَ أَخاهُ أخر أمرهما، من أرجأته إذا أخرته، و قيل: المعنى احبسهما وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ و هم الشرط الذين يحشرون الناس، أى: يجمعونهم يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ هذا ما أشاروا به عليه، و المراد بالسحار العليم: الفائق فى معرفة السحر و صنعته فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ هو يوم الزينة كما فى قوله: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ «١» وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ حثا لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى و السحرة و لمن تكون الغلبة، و كان ذلك ثقة من فرعون بالظهور و طلبا أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده، لأنه يعلم أن حجة اللّه: هى الغالبة، و حجة الكافرين: هى الداحضة، و فى ظهور حجة اللّه بمجمع من الناس، زيادة فى الاستظهار للمحقين، و الانقهار للمبطلين، و معنى لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ نتبعهم فى دينهم إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ و المراد باتباع السحرة فى دينهم: هو البقاء على ما كانوا عليه، لأنه دين السحرة إذ ذاك، و المقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى، فعند ذلك طلب السحرة من موسى الجزاء على ما سيفعلونه ف قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى: لجزاء

تجزينا به؛ من مال أو جاه، و قيل: أرادوا إن لنا ثوابا عظيما، ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى، فقالوا: إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ فوافقهم فرعون على ذلك و قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ أى: نعم لكم ذلك عندى مع زيادة عليه، و هى كونكم من المقرّبين لدىّ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ و فى آية أخرى قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ «٢» فيحمل ماهنا على أنه قال لهم: ألقوا بعد أن قالوا هذا القول، و لم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمرا لهم بفعل السحر، بل أراد أن يقهرهم بالحجة و يظهر لهم أن الذى جاء به ليس هو من الجنس الذى أرادوا معارضته به فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا عند الإلقاء بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ يحتمل قولهم بعزّة فرعون وجهين: الأوّل أنه قسم، و جوابه: إنا لنحن الغالبون، و الثانى: متعلق بمحذوف، و الباء: للسببية، أى: نغلب بسبب عزّته، و المراد بالعزّة العظمة فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قد تقدّم تفسير هذا مستوفى. و المعنى: أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك، بإخراج الشيء عن صورته الحقيقة فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ أى: لما شاهدوا ذلك، و علموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر، و لا- من تمويه السحرة، آمنوا بالله، و سجدوا له و أجابوا دعوة موسى، و قبلوا نبوّته، و قد تقدّم بيان معنى ألقى، و من فاعله لوقوع التصريح به، و عند سجودهم قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ ربّ موسى عطف بيان لربّ العالمين، و أضافوه سبحانه إليهما لأنهما

---

(١). طه: ٥٩.

(٢). الأعراف: ١١٥.

القائمان بالدعوة فى تلك الحال. و فيه تبكيت لفرعون بأنه ليس بربّ، و أن الربّ فى الحقيقة هو هذا، فلما سمع فرعون ذلك منهم و رأى سجودهم لله قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أى: بغير إذن منى، ثم قال مغالطا للسحرة الذين آمنوا، و موهما للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ و إنما اعترف له بكونه كبيرهم، مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى، لأنه قد علم كل من حضر، أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذى شاهدتم، و إن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، و من هو أستاذهم الذى أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، و أنه من فعل الربّ الذى يدعو إليه موسى، ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله، فقال: فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أجمل التهديد أوّلا- للتهويل، ثم فصله فقال: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ فلما سمعوا ذلك من قوله: قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ أى: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا، فإن ذلك يزول، و ننقلب بعده إلى ربنا، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحدّ، و لا يوصف. قال الهروى:

لا ضير و لا ضرر و لا ضرّ بمعنى واحد، و أنشد أبو عبيدة:

فإنّك لا يضورك بعد حول أ ظبى كان أمّك أم حمار «١»

قال الجوهرى: ضاره يضوره ضيرا و ضورا: أى ضرّه. قال الكسائى: سمعت بعضهم يقول: لا ينفعنى ذلك و لا يضورنى إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا ثم عللوا هذا بقولهم: أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بنصب أن، أى: لأن كنا أوّل المؤمنين. و أجاز الفراء و الكسائى كسرها على أن يكون مجازاة، و معنى أوّل المؤمنين: أنهم أوّل من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية. و قال الفراء: أول مؤمنى زمانهم، و أنكره الزجاج، و قال: قد روى أنه آمن معهم ستّمائة ألف و سبعون ألفا، و هم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ يقول: مبين:

له خلق حيـة وَ نَزَعَ يَدَهُ يقول: و أخرج موسى يـده من جيبه فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ تلمع لِلنَّاظِرِينَ لمن ينظر إليها و يراها. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ قال:

كانوا بالإسكندرية. قال: و يقال بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة يومئذ. قال: و هربوا و أسلموا فرعون، و همت به، فقال: خذها يا موسى، و كان مما بلى الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئا، أى: يوهمهم أنه لا يحدث فأحدث يومئذ تحته. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: لا ضَيْرَ قال: يقولون لا يضيرنا الذى تقول، و إن صنعت بنا و صلبتنا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ يقولون: إنا إلى ربنا راجعون، و هو

---

(١). البيت لخداش بن زهير، و معناه: لا تبالى بعد قيامك بنفسك و استغنائك عن أبويك من انتسبت إليه من شريف أو وضيع، و ضرب المثل بالظبى أو الحمار.

مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، و ثباتنا على توحيده، و البراءة من الكفر، و فى قوله: أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ قالوا كانوا كذلك يومئذ، من آمن بآياته حين رأوها.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٥٢ الى ٦٨]

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (٥٥) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (٥٦)

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٥٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)

قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

قوله: أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي أمر اللّه سبحانه موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا، و سماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى، و بما جاء به، و قد تقدّم تفسير مثل هـذا فى سورة الأعراف، و جملة إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ تعليـل للأمر المتقـدّم، أى: يتبعكم فرعون و قومه ليردّوكم، و فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ و ذلك حين بلغه مسيرهم، و المراد بالحاشرين: الجامعون للجيش من الأمكنة التى فيها أتباع فرعون، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ يريد بنى إسرائيل، و الشرذمة: الجمع الحقير القليل، و الجمع: شراذم، قال الجوهرى: الشرذمة: الطائفة من الناس، و القطعة من الشي‏ء، و ثوب شراذم: أى قطع، و منه قول الشاعر:

جاء الشّتاء و قميصى أخلاق شراذم يضحك منها النّوّاق «١»

قال الفراء: يقال عصبة قليلة و قليلون، و كثيرة و كثيرون. قال المبرّد: الشـرذمة: القطعـة من الناس غير الكثير، و جمعها: الشـراذم. قال المفسرون: و كان الشرذمة الذين قللهم ستّمائة ألف و لا يحصى عدد أصحاب فرعون وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ يقال: غاظنى كذا و أغاظنى، و الغيظ: الغضب، و منه: التغيظ و الاغتياظ، أى:

غاظونا بخروجهم من غير إذن منى وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ قرئ حـذرون و حاذرون و حـذرون بضم الـذال، حكى ذلك الأخفش.

قال الفراء: الحاذر: الذى يحذرک الآن، و الحذر: المخلوق کذلک لا تلقاه إلا حذرا.

و قال الزجاج: الحاذر: المستعد، و الحذر: المتيقظ، و به قال الکسائى، و محمد بن يزيد. قال النحاس:

حذرون قراءة المدنيين، و أبى عمرو، و حاذرون: قراءة أهل الکوفة، قال: أبو عبيدة يذهب إلى معنى:

حذرون و حاذرون واحد، و هو قول سيبويه، و أنشد سيبويه:

حذر أمورا لا تضير و حاذرما ليس ينجيه من الأقدار

---

(١). النّوّاق: من الرجال الذى يروّض الأمور و يصلحها؛ قاله فى الصّحاح. و جاء فى اللسان: «التّواق» و هو: ابنه.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ١١٨

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ يعنى: فرعون، و قومه، أخرجهم اللّه من أرض مصر، و فيها الجنات، و العيون، و الکنوز، و هى: جمع جنة، و عين، و کنز، و المراد بالکنوز:

الخزائن، و قيل: الدفائن، و قيل: الأنهار، و فيه نظر لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين: عيون الماء، فيدخل تحتها الأنهار.

و اختلف فى المقام الکريم؛ فقيل: المنازل الحسان، و قيل: المنابر، و قيل: مجالس الرؤساء و الأمراء، و قيل: مرابط الخيل، و الأوّل أظهر، و من ذلک قول الشاعر:

و فيهم مقامات حسان وجوههمو أندية ينتابها القول و الفعل

كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ يحتمل أن يکون کذلک فى محل نصب، أى: أخرجناهم مثل ذلک الإخراج الذى وصفنا، و يحتمل أن يکون فى محل جرّ على الوصفية، أى: مقام کريم مثل ذلک المقام الذى کان لهم، و يحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر کذلک، و معنى و أورثناها بنى إسرائيل:

جعلناها ملکا لهم، و هو معطوف على فأخرجناهم فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ قراءة الجمهور: بقطع الهمزة، و قرأ الحسن، و الحارث الدينارى بوصلها، و تشديد التاء، أى: فلحقوهم حال کونهم مشرقين، أى:

داخلين فى وقت الشروق. يقال شرقت الشمس شروقا. إذا طلعت کأصبح و أمسى؛ أى: دخل فى هذين الوقتين، و قيل: داخلين نحو المشرق، کأنجد، و أتهم، و قيل: معنى مشرقين: مضيئين. قال الزجاج:

يقال شرقت الشمس: إذا طلعت، و أشرقت: إذا أضاءت فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قرأ الجمهور تَراءَا بتخفيف الهمزة، و قرأ ابن وثاب و الأعمش من غير همز، و المعنى: تقابلا، بحيث يرى کلّ فريق صاحبه، و هو تفاعل من الرؤية، و قرئ تَراءَتِ الْفِئَتانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ أى: سيدرکنا جمع فرعون، و لا طاقة لنا بهم. قرأ الجمهور إِنَّا لَمُدْرَكُونَ اسم مفعول من أدرک، و منه حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ «١» و قرأ الأعرج و عبيد بن عمير بفتح الدال مشددة و کسر الراء. قال الفراء:

هما بمعنى واحد. قال النحاس: ليس کذلک يقول النحويون الحذاق، إنما يقولون مدرکون بالتخفيف:

ملحقون و بالتشديد مجتهدون فى لحاقهم. قال: و هذا معنى قول سيبويه. و قال الزمخشرى: إن معنى هذه القراءة إنا لمتتابعون فى الهلاک على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ قال موسى هذه المقالة زجرا لهم و ردعا، و المعنى:

أنهم لا يدرکونکم، و ذکرهم وعد اللّه بالهداية و الظفر، و المعنى: إن معى ربى بالنصر و الهداية سيهدين، أى: يدلنى على طريق النجاة، فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل، و رأوا من الجيوش مالا طاقة لهم به، و أمر اللّه سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه، و ذلک قوله: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ لما قال موسى: إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ بين اللّه سبحانه له طريق الهداية، فأمره بضرب البحر، و به نجا بنو إسرائيل، و هلک عدوّهم، و الفاء فى فَانْفَلَقَ فصيحة، أى:

(۱). یونس: ۹۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۱۹

فضرب، فانفلق، فصار اثنى عشر فلقا، بعدد الأسباط، و قام الماء عن يمين الطريق، و عن يساره كالجبل العظيم، و هو معنى قوله: فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ و الفرق: القطعة من البحر، و قرىء فلق بلام بدل الراء، و الطود: الجبل، قال امرؤ القيس:

فبينا المرء فى الأحياء طودرماه النّاس عن كثب فمالا

و قال الأسود بن يعفر:

حلّوا بأنقرة يسيل عليهمماء الفرات يجىء من أطواد

وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ أى: قرّبناهم إلى البحر، يعنى: فرعون و قومه. قال الشاعر:

و كلّ يوم مضى أو ليلة سلفتفيها النفوس إلى الآجال تزدلف

قال أبو عبيدة: أزلفنا: جمعنا، و منه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جمع، و ثم: ظرف مكان للبعيد. و قيل إن المعنى: و أزلفنا: قربنا من النجاة، و المراد بالآخرين: موسى و أصحابه، و الأوّل أولى، و قرأ الحسن و أبو حيوة و زلفنا ثلاثيا، و قرأ أبىّ و ابن عباس و عبد اللّه بن الحارث «و أزلقنا» بالقاف: أى أزللنا و أهلكنا من قولهم: أزلقت الفرس إذا ألقت ولدها وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ بمرورهم فى البحر، بعد أن جعله اللّه طرقا يمشون فيها ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ يعنى: فرعون و قومه، أغرقهم اللّه باطباق البحر عليهم، بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى و قومه، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إلى ما تقدّم ذكره مما صدر بين موسى و فرعون إلى هذه الغاية، ففى ذلك آية عظيمة، و قدرة باهرة من أدلّ العلامات على قدرة اللّه سبحانه، و عظيم سلطانه وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى: ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين، فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل، كحزقيل و ابنته، و آسية امرأة فرعون، و العجوز التى دلت على قبر يوسف، و ليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنهم هلكوا فى البحر جميعا؛ بل المراد من كان معه من الأصل و من كان متابعا له و منتسبا إليه، هذا غاية ما يمكن أن يقال. و قال سيبويه و غيره: إنّ كانَ زائدة، و أن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ قال: ستّمائة ألف و سبعون ألفا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كانوا ستّمائة ألف. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثنى عشر سبطا، فكان فى كلّ طريق إثنا عشر ألفا كلّهم ولد يعقوب» و أخرج ابن مردويه عنه أيضا بسند. قال السيوطى: واه، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «كان فرعون عدوّ اللّه، حيث أغرقه اللّه هو و أصحابه فى سبعين قائدا، مع كلّ قائد سبعون ألفا، و كان موسى مع سبعين ألفا، حيث عبروا

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۰

البحر». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: كان طلائع فرعون الذين بعثهم فى أثرهم ستّمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم. و أقول: هذه الروايات المضطربة، قد روى عن كثير من السلف ما يماثلها فى الاضطراب و الاختلاف، و لا يصحّ منها شىء عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ مَقامٍ كَرِيمٍ قال: المنابر.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: كَالطَّوْدِ قال: كالجبل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن مسعود مثله. و

أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ أَزْلَفْنا قال: قربنا. و أخرج الفريابى و عبد ابن حميد و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن أبى موسى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إنّ موسى لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضلّ الطريق، فقال لبنى إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بنى إسرائيل: إنّ يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: أيكم يدرى أين قبره؟ فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبنى إسرائيل، فأرسل إليها موسى فقال: دلّينا على قبر يوسف؟ فقالت: لا و اللّه حتّى تعطينى حكمى، قال: و ما حكمك؟ قالت: أن أكون معك فى الجنة، فكأنّه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها، فأعطاها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: انضبوا عنها الماء. ففعلوا، قالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار».

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٦٩ الى ١٠٤]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (٦٩) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (٧٠) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (٧١) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)

وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (٧٩) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)

وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ (٨٨)

إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (٩١) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣)

فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ (٩٤) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٩٨)

وَ ما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (١٠٠) وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

قوله: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ معطوف على العامل فى قوله: وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى و قد تقدّم، و المراد بنبإ إبراهيم: خبره، أى: اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم و حديثه، و إِذْ قالَ منصوب بنبإ إبراهيم،

أى: وقت قوله: لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ و قيل: إذ بدل من نبأ، بدل اشتمال، فيكون العامل فيه:

اتل، و الأوّل أولى. و معنى ما تعبدون: أىّ شىء تعبدون؟ و هو يعلم أنهم يعبدون الأصنام، و لكنه أراد إلزامهم الحجة قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ أى: فنقيم على عبادتها مستمرين لا فى وقت معين، يقال ظلّ يفعل كذا: إذا فعله نهارا، و بات يفعل كذا إذا فعله ليلا، فظاهره أنهم يستمرّون على عبادتها نهارا، لا ليلا، و المراد من العكوف لها: الإقامة على عبادتها، و إنما قال لها لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها، فلما قالوا هذه المقالة، قال إبراهيم منبها على فساد مذهبهم: هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ قال

الأخفش: فيه حذف، و المعنى: هل يسمعون منكم، أو هل يسمعون دعاءكم. و قرأ قتادة هَلْ يَسْمَعُونَكَمْ بضم الياء، أى: هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ بوجه من وجوه النفع أَوْ يَضُرُّونَ أى: يضرّونكم إذا تركتم عبادتهم، و هذا الاستفهام للتقرير، فإنها إذا كانت لا تسمع، و لا تنفع، و لا تضرّ، فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هى كذلك؛ أقرّوا بأن عبادتهم لها من باب اللعب و العبث، و عند ذلك تقوم الحجة عليهم، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة، لم يجدوا لها جوابا إلا رجوعهم إلى التقليد البحت، و هو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، أى: يفعلون لهذه العبادة لهذه الأصنام، مع كونها بهذه الصفة التى هى: سلب السمع، و النفع، و الضر عنها، و هذا الجواب هو العصى التى يتوكأ عليها كلّ عاجز، و يمشى بها كلّ أعرج، و يغترّ بها كل مغرور، و ينخدع لها كل مخدوع؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التى طبقت الأرض بطولها و العرض، و قلت لهم: ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء، و الأخذ بكل ما يقوله فى الدين، و يبتدعه من الرأى المخالف للدليل، لم يجدوا غير هذا الجواب و لا فاهوا بسواه، و أخذوا يعدّدون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم، و اقتداء بأقواله و أفعاله و هم قد ملؤوا صدورهم هيبة، و ضاقت أذهانهم عن تصوّرهم، و ظنوا أنهم خير أهل الأرض و أعلمهم و أورعهم، فلم يسمعوا لناصح نصحا و لا لداع إلى الحق دعاء، و لو فطنوا لوجدوا أنفسهم فى غرور عظيم، و جهل شنيع، و إنهم كالبهيمة العمياء، و أولئك الأسلاف كالعمى الذين يقودون البهائم العمى، كما قال الشاعر:

كبهيمة عمياء قاد زمامهاأعمى على عوج الطّريق الجائر

فعليك أيها العامل بالكتاب و السنة، المبرأ من التعصب، و التعسف، أن تورد عليهم حجج اللّه، و تقيم عليهم براهينه، فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد فى قلبه، و أما من قد استحكم فى قلبه هذا الداء، فلو أوردت عليه كلّ حجة، و أقمت عليه كلّ برهان، لما أعارك إلا أذنا صماء، و عينا عمياء، و لكنك قد قمت بواجب البيان الذى أوجبه عليك القرآن، و الهداية بيد الخلاق العليم إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «۱» و لما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة قالَ الخليل أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ أى: فهل أبصرتم و تفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التى لا تسمع، و لا تنفع، و لا تضرّ، حتى تعلموا أنكم على ضلالة و جهالة، ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التى يعبدونها.

---

(۱). القصص: ۵۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۲

فقال: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي و معنى كونهم عدوّا له مع كونهم جمادا أنه إن عبدهم كانوا له عدوّا يوم القيامة.

قال الفراء: هذا من المقلوب، أى: فإنى عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك، و العدوّ كالصديق، يطلق على الواحد، و المثنى، و الجماعة المذكر و المؤنث، كذا قال الفراء. قال علىّ بن سليمان: من قال عدوة اللّه فأثبت الهاء، قال: هى بمعنى المعادية، و من قال عدوّ للمؤنث و الجمع بمعنى النسب. و قيل المراد بقوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي آباؤهم الأقدمون، لأجل عبادتهم الأصنام، و ردّ بأن الكلام مسوق فيما عبدوه لا فى العابدين، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ منقطع، أى: لكن ربّ العالمين ليس كذلك، بل هو وليى فى الدنيا و الآخرة. قال الزجاج: قال النحويون: هو استثناء ليس من الأوّل، و أجاز الزجاج أيضا أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون اللّه عزّ و جلّ، و يعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا اللّه.

قال الجرجانى: تقديره أ فرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم و آباؤكم الأقدمون، إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى، فجعله من باب التقديم و التأخير، و جعل إلا بمعنى: دون، و سوى كقوله: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى «۱» أى: دون الموتة الأولى. و قال الحسن بن الفضل: إن المعنى: إلا من عبد ربّ العالمين، ثم وصف ربّ العالمين بقوله: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ أى: فهو

يرشدنى إلى مصالح الدين و الدنيا. و قيل: إن الموصول مبتدأ، و ما بعده خبره، و الأوّل أولى. و يجوز أن يكون الموصول بدلا من ربّ، و أن يكون عطف بيان له، و أن يكون منصوبا على المدح بتقدير: أعنى، أو أمدح، و قد وصف الخليل ربّه بما يستحق العبادة لأجله، فإن الخلق، و الهداية، و الرزق يدلّ عليه قوله: وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ و دفع ضرّ المرض، و جلب نفع الشفاء، و الإماتة و الإحياء، و المغفرة للذنب، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها، فضلا عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التى أعلاها و أولاها العبادة، و دخول هذه الضمائر فى صدور هذه الجمل، للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره، و أسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للأدب مع الربّ، و إلا فالمرض و غيره من اللّه سبحانه، و مراده بقوله: ثُمَّ يُحْيِينِ البعث، و حذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآى. و قرأ ابن أبى إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الياء، و إنما قال عليه الصلاة و السلام: وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ هضما لنفسه، و قيل:

إن الطمع هنا بمعنى اليقين فى حقه، و بمعنى الرجاء فى حق سواه. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق «خطاياى» قالا: ليست خطيئته واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا فى كلام العرب. قال مجاهد: يعنى بخطيئة قوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا «٢»، و قوله: إِنِّي سَقِيمٌ «٣»، و قوله إن سارة أخته، زاد الحسن: و قوله للكوكب هذا رَبِّي* «۴» و حكى الواحدى عن المفسرين أنهم فسروا الخطايا بما فسرها به مجاهد. قال الزجاج: الأنبياء بشر، و يجوز أن تقع عليهم الخطيئة، إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون، و المراد بيوم الدين: يوم الجزاء للعباد بأعمالهم، و لا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد و من معه ضعيف، فإن تلك معاريض، و هى أيضا إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه و بين قومه. ثم لمّا فرغ الخليل من الثناء

---

(١). الدخان: ۵۶.

(٢). الأنبياء: ۶۳.

(٣). الصافات: ٨٩.

(۴). الأنعام: ٧۶.

على ربه و الاعتراف بنعمه عقبه بالدعاء ليقتدى به غيره فى ذلك، فقال: رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً و المراد بالحكم: العلم و الفهم، و قيل: النبوّة و الرسالة، و قيل: المعرفة بحدود اللّه و أحكامه إلى آخره وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ يعنى: بالنبيين من قبلى، و قيل: بأهل الجنة وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ أى:

اجعل لى ثناء حسنا فى الآخرين، الذين يأتون بعدى إلى يوم القيامة. قال القتبى: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة. لأن القول يكون به، و قد تكنى العرب بها عن الكلمة، و منه قول الأعشى:

إنّى أتتنى لسان لا أسرّ بها «١» و قد أعطى اللّه سبحانه إبراهيم ذلك بقوله: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* «٢» فإن كل أمة تتمسك به و تعظمه. و قال مكى: قيل معنى سؤاله أن يكون من ذريته فى آخر الزمان من يقوم بالحق، فأجيبت دعوته فى محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و لا وجه لهذا التخصيص. و قال القشيرى: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة، و لا وجه لهذا أيضا، فإن لسان الصدق أعم من ذلك وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ من ورثة: يحتمل أن يكون مفعولا ثانيا، و أن يكون صفة لمحذوف، هو المفعول الثانى، أى: وارثا من ورثة جنة النعيم، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا، طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة، و هى جنة النعيم، و جعلها مما يورث، تشبيها لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا، و قد تقدّم تفسير معنى الوراثة فى سورة مريم وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ كان أبوه قد وعد أنه يؤمن به، فاستغفر له فلما تبين له أنه عدوّ للّه تبرأ منه، و قد تقدّم تفسير هذا

مستوفى فى سورة التوبة، و سورة مريم، و معنى «من الضالين» من المشركين الضالين عن طريق الهداية، و كان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدّم فى غير موضع وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ أى: لا تفضحنى على رؤوس الأشهاد بمعاتبتى، أو لا تعذبنى يوم القيامة، أو لا تخزنى بتعذيب أبى، أو ببعثه فى جملة الضالين.

و الإخزاء يطلق على الخزى: و هو الهوان، و على الخزاية، و هى الحياء، و يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ بدل من يوم يبعثون، أى: يوم لا ينفع فيه المال و البنون أحدا من الناس، و الابن: هو أخصّ القرابة، و أولاهم بالحماية، و الدفع، و النفع، فإذا لم ينفع، فغيره من القرابة و الأعوان بالأولى. و قال ابن عطية: إن هذا و ما بعده من كلام اللّه، و هو ضعيف، و الاستثناء بقوله: إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ قيل: هو منقطع، أى: لكن من أتى اللّه بقلب سليم. قال فى الكشاف: إلا حال من أتى اللّه بقلب سليم، فقدّر مضافا محذوفا. قال أبو حيان: و لا ضرورة تدعو إلى ذلك. و قيل: إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف، أو مستثنى منه، إذ التقدير لا ينفع مال و لا بنون أحدا من الناس إلّا من كانت هذه صفته، و يحتمل أن يكون بدلا من فاعل ينفع، فيكون مرفوعا. قال أبو البقاء: فيكون التقدير: إلّا مال من أو بنو من فإنه ينفع.

و اختلف فى معنى القلب السليم، فقيل: السليم من الشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، قاله

---

(١). و عجز البيت: من علو لا عجب منها و لا سخر.

(٢). الصافات: ٧٨.

أكثر المفسرين. و قال سعيد بن المسيب: القلب السليم: الصحيح، و هو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر و المنافق مريض، و قيل: هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة، و قيل: السالم من آفة المال، و البنين. و قال الضحاك: السليم: الخالص. و قال الجنيد: السليم فى اللغة: اللديغ، فمعناه: أنه قلب كاللديغ من خوف اللّه تعالى، و هذا تحريف و تعكيس لمعنى القرآن. قال الرازى: أصح الأقوال أن المراد منه: سلامة النفس عن الجهل، و الأخلاق الرذيلة وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ أى: قربت، و أدنيت لهم ليدخلوها. و قال الزجاج: قرب دخولهم إياها و نظرهم إليها وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ أى: جعلت بارزة لهم، و المراد بالغاوين: الكافرين، و المعنى: أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون ليشتدّ حزن الكافرين و يكثر سرور المؤمنين وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام، و الأنداد هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ فيدفعون عنكم العذاب أَوْ يَنْتَصِرُونَ بدفعه عن أنفسهم. و هذا كله توبيخ و تقريع لهم، و قرأ مالك بن دينار «و برّزت» بفتح الباء و الراء مبنيا للفاعل فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ أى: ألقوا فى جهنم هم: يعنى المعبودين و الغاوون. يعنى العابدين لهم. و قيل معنى كبكبوا: قلبوا على رؤوسهم، و قيل: ألقى بعضهم على بعض، و قيل: جمعوا، مأخوذ من الكبكبة و هى الجماعة قاله الهروى. و قال النحاس: هو مشتق من كوكب الشي‏ء:

أى معظمه، و الجماعة من الخيل كوكب و كبكبة، و قيل: دهدهوا، و هذه المعانى متقاربة، و أصله كببوا بباءين، الأولى مشدّدة من حرفين، فأبدل من الباء الوسطى الكاف. و قد رجح الزجاج أن المعنى: طرح بعضهم على بعض. و رجح ابن قتيبة أن المعنى: ألقوا على رؤوسهم. و قيل: الضمير فى كبكبوا لقريش، و الغاوون: الآلهة، و المراد بجنود إبليس: شياطينه الذين يغوون العباد، و قيل: ذريته و قيل: كل من يدعو إلى عبادة الأصنام، و أَجْمَعُونَ تأكيد للضمير فى كبكبوا و ما عطف عليه، و جملة قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل، و مقول القول تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ و جملة: و هم فيها يختصمون فى محل نصب على الحال، أى: قالوا هذه المقالة حال كونهم فى جهنم مختصمين، و «إن» فى إن كنا: هى المخففة من الثقيلة، و اللام فارقة بينها و بين النافية، أى: قالوا تاللّه إن الشأن كوننا فى ضلال واضح ظاهر، و المراد

بالضـلال هنـا: الخسـار، و التبار، و الحيرة عن الحق، و العامل فى الظرف، أعنى إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ هو كونهم فى الضـلال المبين. و قيل:

العامل هو الضـلال، و قيل: ما يدل عليه الكلام، كأنه قيل: ضللنا وقت تسويتنا لكم بربّ العالمين. و قال الكوفيون: إنّ «إن» فى إن كنا: نافية و اللام بمعنى إلا، أى: ما كنا إلا فى ضـلال مبين. و الأوّل أولى، و هو مذهب البصـريين فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ يشـفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ أى: ذى قرابة، و الحميم: القريب الذى توده و يودّك، و وحد الصديق لما تقدّم غير مرة أنه يطلق على الواحـد و الاـثنين، و الجماعـة، و المـذكر، و المؤنث، و الحميم: مأخوذ من حامـة الرجل، أى: أقربائه، و يقال: حمّ الشـىء و أحمّ: إذا قرب منه، و منه الحمى لأنه يقرّب من الأجل. و قال على بن عيسـى: إنما سـمى القريب حميما لأنه يحمى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذا من الحمية، فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۵

هـذا منهم على طريق التمنى، الـدالّ على كمال التحسر كأنهم قالوا: فليت لنا كرّة، أى: رجعة إلى الدنيا، و جواب التمنى: فنكون من المـؤمنين، أى: نصـير من جملتهم، و الإشـارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إلى مـا تقـدّم ذكره من نبأ إبراهيم، و الآيـة: العـبرة و العلامـة، و التنوين يـدل على التعظيم، و التفخيم وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى: أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلم نبأ إبراهيم، و هم: قريش و من دان بدينهم.

و قيـل: و مـا كـان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين، و هو ضـعيف لأـنهم كلهم غير مؤمنين وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه، أو الرحيم للأعداء، بتأخير عقوبتهم، و ترك معاجلتهم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ يعنى: بأهل الجنة.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ قال: اجتماع أهل الملل على إبراهيم. و أخرج عنه أيضا وَ اغْفِرْ لِأَبِي قال: امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك. و أخرج البخارى و غيره من حديث أبى هريرة عن النبى صـلّى اللّه عليه و سلم قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامـة، و على وجه آزر قترة و غبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصـنى. فيقول أبوه: فـاليوم لا أعصـينّك، فيقول إبراهيم: ربّ إنّك وعـدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون، فأىّ خزى أخزى من أبى الأبعـد؟ فيقول اللّه: إنّى حرّمت الجنّة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فإذا هو بذيـخ متلطّـخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النّار» و الذّيخ: هو الذكر من الضـباع، فكأنه حوّل آزر إلى صورة ذيخ. و قد أخرجه النسائى بأطول من هذا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ قال:

شهـادة أن لاـ إله إلاـ اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عنه فَكُبْكِبُوا فِيهـا قال: جمعوا فيها هُمْ وَ الْغاوُونَ قال: مشـركو العرب و الآلهـة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً قال: رجعـة إلى الدنيا فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حتى تحلّ لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء.

[سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰۵ الى ۱۳۵]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۰۵) إِذْ قـالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لاـ تَتَّقُونَ (۱۰۶) إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ (۱۰۷) فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۰۸) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰۹)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۱۰) قـالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (۱۱۱) قـالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۲) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (۱۱۳) وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۴)

إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)

ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (١٢٤)

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٢٦) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٢٧) أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)

وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٣١) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ (١٣٣) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٣٤)

إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۶

قوله: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ أنث الفعل لكونه مسندا إلى قوم، و هو فى معنى الجماعة، أو الأمة أو القبيلة، و أوقع التكذيب على المرسلين، و هم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم، لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل، لأن كلّ رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل. و قيل: كذبوا نوحا فى الرسالة، و كذبوه فيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أى: أخوهم من أبيهم، لا أخوهم فى الدين. و قيل: هى أخوة المجانسة، و قيل: هو من قول العرب: يا أخا بنى تميم، يريدون واحدا منهم أَ لا تَتَّقُونَ أى: ألا تتقون اللّه بترك عبادة الأصنام، و تجيبون رسوله الذى أرسله إليكم إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ أى: إنى لكم رسول من اللّه أمين فيما أبلغكم عنه، و قيل: أمين فيما بينكم، فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته و صدقه فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ أى: اجعلوا طاعة اللّه وقاية لكم من عذابه، و أطيعون فيما آمركم به عن اللّه من الإيمان به، و ترك الشرك، و القيام بفرائض الدين وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أى: ما أطلب منكم أجرا على تبليغ الرسالة و لا أطمع فى ذلك منكم إِنْ أَجْرِيَ الذى أطلبه و أريده إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ أى: على اللّه، ما أجرى إلا عليه، و كرّر قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ للتأكيد و التقرير فى النفوس، مع كونه علق كل واحد منهم بسبب، و هو الأمانة فى الأوّل، و قطع الطمع فى الثانى، و نظيره قولك: ألا تتقى اللّه فى عقوقى و قد ربيتك صغيرا، ألا تتقى اللّه فى عقوقى، و قد علمتك كبيرا، و قدّم الأمر بتقوى اللّه على الأمر بطاعته، لأن تقوى اللّه علة لطاعته قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ الاستفهام: للإنكار، أى: كيف نتبعك و نؤمن لك، و الحال أن قد اتبعك الأرذلون، و هم جمع أرذل، و جمع التكسير: أرذال، و الأنثى: رذلى، و هم الأقلون جاها، و مالا، و الرذالة: الخسة و الذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم و جاههم، أو لاتّضاع أنسابهم. و قيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، و قد تقدم تفسير هذه الآيات فى هود. و قرأ ابن مسعود و الضحاك و يعقوب الحضرمى «و أتباعك الأرذلون» قال النحاس:

و هى قراءة حسنة، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيرا. و أتباع: جمع تابع، فأجابهم نوح بقوله: وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ كان زائدة، و المعنى: و ما علمى بعملهم، أى: لم أكلف العلم بأعمالهم، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان و الاعتبار به، لا بالحرف و الصنائع، و الفقر و الغنى، و كأنهم أشاروا بقولهم:

وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح فأجابهم بهذا. و قيل المعنى: إنى لم أعلم أن اللّه سيهديهم و يضلكم إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ أى: ما حسابهم، و التفتيش عن ضمائرهم و أعمالهم إلا على اللّه لو كنتم من أهل الشعور و الفهم، قرأ الجمهور تَشْعُرُونَ بالفوقية، و قرأ ابن أبى عبلة و ابن السميقع و الأعرج و أبو زرعة بالتحتية، كأنه ترك الخطاب للكفار و التفت إلى الإخبار عنهم. قال الزجاج: و الصناعات لا تضرّ فى باب الديانات و ما أحسن ما قال: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ هذا

جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أى: ما أنا إلا نذير موضح لما أمرنى اللّه سبحانه بإبلاغه إليكم، و هـذه الجملة كالعلة لما قبلها قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ أى: إن لم تترك عيب ديننا و سبّ آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة، و قيل: من

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۷

المشتومين، و قيل: من المقتولين، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم و بين نوح إلى التجبر، و التوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا: قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ أى: أصرّوا على تكذيبى، و لم يسمعوا قولى و لا أجابوا دعائى فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً الفتح: الحكم، أى: أحكم بينى و بينهم حكما، و قد تقدّم تحقيق معنى الفتح وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له فقال: فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أى: السفينة المملوءة، و الشحن: ملء السفينة بالناس، و الدوابّ، و المتاع ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ أى: ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أى: علامة، و عبرة عظيمة وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ كان زائدة عند سيبويه و غيره على ما تقدّم تحقيقه وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: القاهر لأعدائه، الرحيم بأوليائه كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ أنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة، لأن عادا اسم أبيهم الأعلى. و معنى تكذيبهم المرسلين، مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا، قد تقدّم وجهه فى قصة نوح قريبا إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ الكلام فيه كالكلام فى قول نوح المتقدم قريبا، و كذا قوله: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ الكلام فيه كالذى قبله سواء. أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ الريع:

المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة، يقال كم ريع أرضك؟ أى: كم ارتفاعها. قال أبو عبيدة: الريع: الارتفاع جمع ريعة. و قال قتادة و الضحاك و الكلبى: الريع الطريق، و به قال مقاتل و السدّى. و إطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة، و منه قول ذى الرمة:

طراق الخوافى مشرق فوق ريعةندى ليله فى ريشه يترقرق

و قيل: الريع الجبل، واحده: ريعة، و الجمع: أرياع. و قال مجاهد: هو الفجّ بين الجبلين، و روى عنه أنه الثنية الصغيرة، و روى عنه أيضا أنه المنظرة. و معنى الآية: أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علما تعبثون ببنيانه، و تلعبون بالمارة، و تسخرون منهم، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون المارة، و تسخرون منهم. و قال الكلبى: إنه عبث العشارين بأموال من يمرّ بهم حكاه الماوردى. قال ابن الأعرابى:

الريع: الصومعة، و الريع: البرج يكون فى الصحراء، و الريع: التلّ العالى، و فى الريع لغتان كسر الراء و فتحها وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ المصانع: هى الأبنية التى يتخذها الناس منازل. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعة منه و به قال الكلبى و غيره، و منه قول الشاعر:

تركنا ديارهم منهم قفاراو هدّمنا المصانع و البروجا

و قيل: هى الحصون المشيدة، قاله مجاهد و غيره، و قال الزجاج: إنها مصانع الماء التى تجعل تحت الأرض واحدتها مصنعة و مصنع، و منه قول لبيد:

بلينا و ما تبلى النجوم الطّوالعو تبقى الجبال بعدنا و المصانع

و ليس فى هذا البيت ما يدلّ صريحا على ما قاله الزجاج، و لكنه قال الجوهرى: المصنعة بضمّ النون الحوض

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۲۸

يجمع فيه ماء المطر، و المصانع: الحصون. و قال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن: القصور العالية.

و معنى لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ راجين أن تخلدوا، و قيل: إن لعل هنا للاستفهام التوبيخى، أى: هل تخلدون، كقولهم لعلك تشتمنى،

أی: هل تشتمنی. و قال الفراء: کیما تخلدوا: لا تتفکرون فی الموت، و قیل المعنی:
کأنکم باقون مخلدون. قرأ الجمهور تَخْلُدُونَ مخففا. و قرأ قتادة بالتشدید. و حکی النحاس أن فی بعض القراءات «کأنّکم مخلدون» و قرأ ابن مسعود «کی تخلدوا» وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِینَ البطش السطوة و الأخذ بالعنف. قال مجاهد و غیره: البطش العسف قتلا بالسیف و ضربا بالسوط. و المعنی:
فعلتم ذلک ظلما، و قیل: هو القتل علی الغضب، قال الحسن و الکلبی: قیل و التقدیر: و إذا أردتم البطش، لئلا یتحد الشرط و الجزاء، و انتصاب جبارین: علی الحال. قال الزجاج: إنما أنکر علیهم ذلک لأنه ظلم، و أما فی الحق، فالبطش بالسوط و السیف جائز. ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبیحة الدالة علی الظلم، و العتوّ، و التمرّد، و التجبر، أمرهم بالتقوی فقال: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ أجمل التقوی ثم فصلها بقوله:
وَ اتَّقُوا الَّذِی أَمَدَّکُمْ بِما تَعْلَمُونَ أَمَدَّکُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِینَ و أعاد الفعل للتقریر و التأکید وَ جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ أی: بساتین، و أنهار، و أبیار. ثم و عظهم و حذرهم فقال: إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ إن کفرتم و أصررتم علی ما أنتم فیه و لم تشکروا هذه النعم، و المراد بالعذاب العظیم الدنیوی و الأخروی.
و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَکَ أی: أ نصدّقک؟. و أخرج ابن أبی حاتم عن مجاهد وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ قال: الحوّاکون «١». و أخرج أیضا عن قتادة قال: سفلة الناس و أراذلهم.
و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس الْفُلْکِ الْمَشْحُونِ قال: الممتلئ. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أنه قال: أ تدرون ما المشحون؟ قلنا: لا، قال: هو الموقر.
و أخرج ابن جریر عنه أیضا قال: هو المثقل. و أخرج ابن جریر عنه أیضا: بِکُلِّ رِیعٍ قال: علما تَعْبَثُونَ قال: تلعبون. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا بِکُلِّ رِیعٍ قال:
شرف. و أخرجوا أیضا عنه لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ قال: کأنکم تخلدون. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أیضا جَبَّارِینَ قال: أقویاء.

[سورة الشعراء (٢۶): الآیات ١٣۶ الی ١۵٩]

قالُوا سَواءٌ عَلَیْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَکُنْ مِنَ الْواعِظِینَ (١٣۶) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِینَ (١٣٧) وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ (١٣٨) فَکَذَّبُوهُ فَأَهْلَکْناهُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (١٣٩) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (١۴٠)
کَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِینَ (١۴١) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (١۴٢) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (١۴٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (١۴۴) وَ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاَّ عَلی رَبِّ الْعالَمِینَ (١۴۵)
أَ تُتْرَکُونَ فِی ما هاهُنا آمِنِینَ (١۴۶) فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ (١۴٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِیمٌ (١۴٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً فارِهِینَ (١۴٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (١۵٠)
وَ لا تُطِیعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِینَ (١۵١) الَّذِینَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ وَ لا یُصْلِحُونَ (١۵٢) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِینَ (١۵٣) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآیَةٍ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (١۵۴) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَکُمْ شِرْبُ یَوْمٍ مَعْلُومٍ (١۵۵)
وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذابُ یَوْمٍ عَظِیمٍ (١۵۶) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِینَ (١۵٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (١۵٨) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (١۵٩)

---

(١). جمع حائک و هو الخیاط. و کان أتباع النبی نوح علیه السلام حاکة و حجّامین.

أى: وعظك و عـدمه سَواءٌ عندنا لا نبالى بشـىء منه، و لا نلتفت إلى ما تقوله. و قد روى العباس عن أبى عمرو، و روى بشـر عن الكسائى «أ وعظت» بإدغام الظاء فى التاء و هو بعيـد، لأن حرف الظاء حرف إطباق، إنما يـدغم فيما قرب منه جدّا. و روى ذلك عن عاصم و الأعمش و ابن محيصن. و قرأ الباقون بإظهار الظاء إِنْ هـذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ أى: ما هـذا الـذى جئتنا به، و دعوتنا إليه من الدين إلا خلق الأوّلين، أى: عادتهم التى كانوا عليها. و قيل المعنى: ما هذا الذى نحن عليه إلا خلق الأوّلين، و عادتهم، و هذا بناء على ما قاله الفراء و غيره: إن معنى خلق الأوّلين. قال النحاس: خلق الأوّلين عند الفراء بمعنى: عادة الأوّلين. و حكى لنا محمد بن الوليـد عن محمـد بن يزيـد قال: خُلُقُ الْأَوَّلِينَ مـذهبهم و ما جرى عليه أمرهم. و القولان متقاربان. قال: و حكى لنا محمـد بن يزيـد أن معنى: خُلُقُ الْأَوَّلِينَ تكـذيبهم. قال مقاتل: قالوا ما هـذا الـذى تدعونا إليه إلا كذب الأوّلين. قال الواحدى: و هو قول ابن مسعود و مجاهد. قال: و الخلق و الاختلاق الكذب، و منه قوله: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً «١» قرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائى و يعقوب «خلق الأوّلين» بفتح الخاء و سكون اللام. و قرأ الباقون بضم الخاء و اللام. قال الهروى:

معناه على القراءة الأولى: اختلاقهم و كـذبهم، و على القراءة الثانيـة: عادتهم، و هـذا التفصـيل لا بدّ منه. قال ابن الأعرابى: الخلق: الدين، و الخلق: الطبع، و الخلق: المروءة. و قرأ أبو قلابة بضم الخاء و سكون اللام و هى تخفيف لقراءة الضم لهما، و الظاهر أن المراد بالآيـة: هو قول من قال: ما هـذا الـذى نحن عليه إلا عادة الأوّلين و فعلهم، و يؤيـده قولهم: وَ ما نَحْنُ بِمُعَـذَّبِينَ أى: على ما نفعل من البطش و نحوه مما نحن عليه الآن فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ أى: بالريح كما صرح القرآن فى غير هذا الموضع بذلك إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدّم تفسير هذا قريبا فى هذه السورة. ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصـة هود و قومه، ذكر قصـة صالـح و قومه، و كانوا يسـكنون الحجر فقال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ إلى قوله: إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ قد تقدّم تفسيره فى قصة هود المذكورة قبل هذه القصة أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ الاستفهام للإنكار، أى: أ تتركون فى هذه النعم التى أعطاكم اللّه، آمنين من الموت و العـذاب، باقين فى الدنيا. و لما أبهم النعم فى هذا فسـرها بقوله: فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ و الهضيم: النضيج الرخص اللين اللطيف، و الطلع: ما يطلع من الثمر، و ذكر النخل مع دخوله تحت الجنات، لفضـله على سائر الأشـجار، و كثيرا ما يـذكرون الشـىء الواحد بلفظ يعمه و غيره، كما يذكرون النعم، و لا يقصدون إلا الإبل، و هكذا يذكرون الجنة، و لا يريدون إلا النخل. قال زهير:

---

(١). العنكبوت: ١٧.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۰ كأنّ عينىّ فى غربى مقتّلةمن النّواضح تسقى جنّة سحقا

و سـحقا: جمع سحوق، و لا يوصف به إلا النخل، و قيل: المراد بالجنات غير النخل من الشجر، و الأوّل: أولى. و حكى الماوردى فى معنى هضـيم اثنى عشر قولا: أحسـنها و أوفقها للغـة ما ذكرناه وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ النحت: النّجر و البرى، نحته ينحته بالكسـر براه، و النحاتـة: البرايـة، و كانوا ينحتون بيوتهم من الجبال، لما طالت أعمارهم، و تهـدّم بناؤهم من المدر. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن ذكوان «فرهين» بغير ألف. و قرأ البـاقون «فـارهين» بالألـف. قـال أبو عبيـدة و غيره: و هما بمعنى واحـد. و الفره:

النشـاط، و فرّق بينهمـا أبو عبيـد و غيره فقـالوا: «فـارهين»: حـاذقين بنحتهـا، و قيل: متجبرين، و «فرهين»: بطرين أشـرين، و به قال مجاهد و غيره. و قيل: شرهين. و قال الضحاك: كيسين. و قال قتادة: معجبين ناعمين آمنين، و به قال الحسن. و قيل: فرحين، قاله الأخفش. و قـال ابن زيـد: أقوياء فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ أى: المشـركين، و قيل: الـذين عقروا الناقـة، ثم وصف هؤلاء المسـرفين بقوله: الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ أى: ذلك دأبهم يفعلون الفساد فى الأرض و لا يصدر

منهم الصلاح ألبتة قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ أى: الذين أصيبوا بالسحر قاله مجاهد و قتادة. و قيل: المسحر هو المعلل بالطعام و الشراب قاله الكلبى و غيره، فيكون المسحر الذى له سحر، و هو الرئة، فكأنهم قالوا: إنما أنت بشر مثلنا، تأكل، و تشرب. قال الفراء: أى إنك تأكل الطعام و الشراب، و تسحر به، و منه قول امرئ القيس أو لبيد «١»:

فإن تسألينا فيم نحن فإنّناعصافير من هذا الأنام المسحّر

و قال امرؤ القيس أيضا:

أرانا موضعين لحتم غيبو نسحر بالطّعام و بالشّراب

قال المؤرج: المسحر: المخلوق بلغة ربيعة ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى قولك و دعواك قالَ هذِهِ ناقَةٌ اللّه لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ أى: لها نصيب من الماء، و لكم نصيب منه معلوم، ليس لكم أن تشربوا فى اليوم الذى هو نصيبها، و لا هى تشرب فى اليوم الذى هو نصيبكم. قال الفراء: الشرب الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر، فيقال فيه شرب شربا، و أكثرها المضموم، و الشرب: بفتح الشين جمع شارب، و المراد هنا الشرب بالكسر، و به قرأ الجمهور فيهما، و قرأ ابن أبى عبلة بالضم فيهما وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى: لا تمسوها بعقر، أو ضرب، أو شىء مما يسوؤها، و جواب النهى: فيأخذكم فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ على عقرها، لما عرفوا أن العذاب نازل بهم، و ذلك أنه أنظرهم ثلاثا، فظهرت عليهم العلامة فى كلّ يوم، و ندموا حيث لا ينفع الندم، لأن ذلك لا يجدى عند معاينة العذاب، و ظهور آثاره فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ الذى وعدهم به. و قد تقدّم تفسير قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فى

---

(١). البيت فى ديوان لبيد ص (٥٦)

هذه السورة، و تقدّم أيضا تفسير قصة صالح و قومه فى غير هذه السورة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ قال: معشب.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: أينع و بلغ. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: أرطب و استرخى.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فارِهِينَ قال: حاذقين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: فارِهِينَ أشرين. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: شرهين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الخطيب و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ قال: من المخلوقين، و أنشد قول لبيد بن ربيعة:

فإن تسألينا فيم نحن .. البيت.

و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا فى قوله: لَها شِرْبٌ قال: إذا كان يومها أصدرتهم لبنا ما شاؤوا.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٠ الى ١٩١]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٦٣) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٤)

أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (١٦٥) وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (١٦٦) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)

فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٧٩)

وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَ ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم، و هى: قصة لوط. و قد تقدّم تفسير قوله:

إِذْ قالَ لَهُمْ إلى قوله: إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ فى هذه السورة، و تقدّم أيضا تفسير قصة لوط مستوفى فى الأعراف، قوله: أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ الذكران: جمع الذكر، ضدّ الأنثى، و معنى تأتون:

تنكحون الذكران من العالمين، و هم بنو آدم، أو كل حيوان، و قد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم

فى الأعراف وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ أى: و تتركون ما خلقه اللّه لأجل استمتاعكم به من النساء، و أراد بالأزواج: جنس الإناث بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ أى: مجاوزون للحدّ فى جميع المعاصى، و من جملتها هذه المعصية التى ترتكبونها من الذكران قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ عن الإنكار علينا، و تقبيح أمرنا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ من بلدنا المنفيين عنها قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ و هو ما أنتم فيه من إتيان الذكران مِنَ الْقالِينَ المبغضين له، و القلى: البغض، قليته أقليه قلا و قلاء، و منه قول الشاعر:

فلست بمقليّ الخلال و لا قالى «۱» و قال الآخر:

و مالك عندى إن نأيت قلاء «۲» ثم رغب عليه الصلاة و السلام عن محاورتهم، و طلب من اللّه عزّ و جلّ أن ينجيه فقال: رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ أى من عملهم الخبيث، أو من عقوبته التى ستصيبهم، فأجاب اللّه سبحانه دعاءه، و قال: فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ أى أهل بيته، و من تابعه على دينه، و أجاب دعوته إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ هى امرأة لوط، و معنى من الغابرين: من الباقين فى العذاب. و قال أبو عبيدة: من الباقين فى الهرم، أى: بقيت حتى هرمت. قال النحاس: يقال للذّاهب غابر، و للباقى غابر. قال الشاعر:

لا تكسع الشّول بأغبارهاإنّك لا تدرى من النّاتج

و الأغبار: بقية الألبان، و تقول العرب: ما مضى و ما غبر، أى: ما مضى و ما بقى ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ أى: أهلكناهم بالخسف و الحصب وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً يعنى: الحجارة فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ المخصوص بالذمّ محذوف، و التقدير: مطرهم، و قد تقدّم تفسير إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فى هذه السورة كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر «ليكة» بلام واحدة و فتح التاء جعلوه اسما غير معرّف بأل مضافا إليه أصحاب، و قرأ الباقون «الأيكة» معرفا، و الأيكة: الشجر الملتف، و هى الغيضة، و ليكة: اسم للقرية، و قيل: هما بمعنى واحد اسم للغيضة. قال القرطبى: فأما ما حكاه أبو عبيد من أن ليكة اسم القرية التى كانوا فيها، و أن الأيكة اسم البلد كله، فشىء لا يثبت، و لا يعرف من قاله، و

لو عرف لكان فيه نظر، لأن أهل العلم جميعا على خلافه. قال أبو عليّ الفارسى: الأيكة تعريف أيكة، فإذا حذفت الهمزة تخفيفا ألقيت حركتها على اللام.

قال الخليل: الأيكة غيضة تنبت السدر و الأراك و نحوهما من ناعم الشجر إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ

---

(١). البيت لامرئ القيس، و صدره:

صرفت الهوى عنهنّ من خشية الرّدى

(٢). البيت للحارث بن حلّزة، و صدره:

عليك السّلام لا مللت قريبة

فتح القدير، ج‌۴، ص: ١٣٣

لم يقل أخوهم كما قال فى الأنبياء قبله، لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة فى النسب، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا، لأنه كان منهم، و قد مضى تحقيق نسبه فى الأعراف، و قد تقدم تفسير قوله: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ إلى قوله تعالى: إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ فى هذه السورة. قوله: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ أى أتمّوا الكيل لمن أراده و عامل به، و لا تكونوا من المخسرين: الناقصين للكيل و الوزن، يقال أخسرت الكيل و الوزن: أى نقصته، و منه قوله تعالى: وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ «١» ثم زاد سبحانه فى البيان فقال: وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ أى: أعطوا الحقّ بالميزان السويّ، و قد مرّ بيان تفسير هذا فى سورة سبحان، و قد قرئ «بالقسطاس» مضموما و مكسورا وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ البخس: النقص، يقال بخسه حقه: إذا نقصه، أى: لا تنقصوا الناس حقوقهم التى لهم، و هذا تعميم بعد التخصيص، و قد تقدّم تفسيره فى سورة هود، و تقدّم أيضا تفسير وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فيها، و فى غيرها. وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ قرأ الجمهور بكسر الجيم و الباء و تشديد اللام، و قرأ أبو حصين و الأعمش و الحسن و الأعرج و شيبة بضمهما و تشديد اللام، و قرأ السلمى بفتح الجيم مع سكون الباء، و الجبلة: الخليقة، قاله مجاهد و غيره، يعنى: الأمم المتقدّمة، يقال: جبل فلان على كذا، أى: خلق.

قال النحاس: الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الأوّلين، و بضمهما مع تشديد اللام فيهما، و بضم الجيم و سكون الباء، و ضمه و فتحها، قال الهروى: الجبلة و الجبلة و الجبل و الجبل و الجبل لغات، و هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس، و منه قوله تعالى: جِبِلًّا كَثِيراً أى: خلقا كثيرا، و من ذلك قول الشاعر:

و الموت أعظم حادث‌فيما يمرّ على الجبلّة

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا قد تقدّم تفسيره مستوفى فى هذه السورة وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ إن: هى المخففة من الثقيلة، عملت فى ضمير شأن مقدّر، و اللام: هى الفارقة، أى: فيما تدّعيه علينا من الرسالة، و قيل: هى النافية، و اللام: بمعنى إلا- أى: ما نظنك إلا من الكاذبين، و الأوّل: أولى فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فقالوا له هذا القول عنتا و استبعادا و تعجيزا. و الكسف: القطعة. قال أبو عبيدة: الكسف: جمع كسفة، مثل سدر و سدرة. قال الجوهرى: الكسفة القطعة من الشى‌ء، يقال: أعطنى كسفة من ثوبك، و الجمع كسف، و قد مضى تحقيق هذا فى سورة سبحان إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ من الشرك و المعاصى، فهو مجازيكم على ذلك إن شاء، و فى هذا تهديد شديد فَكَذَّبُوهُ فاستمروا على تكذيبه و أصرّوا على ذلك فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ و الظلة: السحاب، أقامها اللّه فوق رؤسهم، فأمطرت عليهم نارا فهلكوا، و قد أصابهم اللّه بما اقترحوا، لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر، و إن أرادوا بها القطعة من السماء، فقد نزل عليهم العذاب من جهتها، و أضاف العذاب إلى يوم الظلة، لا إلى الظلة تنبيها على أن

لهم فى ذلک اليوم عذابا غير عذاب الظلة، كذا قيل. ثم وصف سبحانه

---

(١). المطففين: ٣.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۴

هـذا العـذاب الذى أصابهم بقوله: إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ لما فيه من الشدّة عليهم التى لا يقادر قدرها، و قد تقدّم تفسير قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فى هـذه السورة مستوفى فلا نعيـده، و فى هذا التكرير لهذه الكلمات فى آخر هذه القصص من التهديد، و الزجر، و التقرير، و التأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام، و يعرف أساليبه.

و قد أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ قال: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال، و أدبار النساء. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة نحوه. و أخرجا أيضا عن قتادة إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ قال: هى امرأة لوط غبرت فى عذاب اللّه. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد «ليكة» قال: هى الأيكة. و أخرج إسحاق بن بشر و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ قال: كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ و لم يقل أخوهم شعيب.

لأنه لم يكن من جنسهم أَ لا تَتَّقُونَ كيف لا تتقون و قد علمتم أنى رسول أمين، لا تعتبرون من هلاک مدين، و قد أهلكوا فيما يأتون، و كان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرک استنوا بسنة أصحاب مدين، فقال لهم شعيب إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ ما أَسْئَلُكُمْ على ما أدعوكم إليه مِنْ أَجْرٍ فى العاجل من أموالكم إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ يعنى القرون الأولين الذى أهلكوا بالمعاصى و لا تهلكوا مثلهم قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ يعنى من المخلوقين وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ يعنى: قطعا من السماء فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ أرسل اللّه إليهم سموما من جهنم، فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر، فحميت بيوتهم، و غلت مياههم فى الآبار، و العيون، فخرجوا من منازلهم و محلتهم هاربين، و السموم معهم، فسلط اللّه عليهم الشمس من فوق رؤوسهم، فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم، و سلط اللّه عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم، حتى تساقطت لحوم أرجلهم، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها، حتى إذا كانوا جميعا أطبقت عليهم، فهلكوا، و نجى اللّه شعيبا و الذين آمنوا معه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ الخلق الأوّلين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عنه أيضا أنه سئل عن قوله: فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ قال: بعث اللّه عليهم حرّا شديدا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم أجوافها، فأخذ بأنفسهم، فخرجوا من البيوت هربا إلى البرية، فبعث اللّه عليهم سحابة، فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردا و لذة، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها، أسقط اللّه عليهم نارا، فذلک عذاب يوم الظلة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم عنه أيضا قال: من حدّثک من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه. أقول: فما نقول له رضى اللّه عنه فيما حدّثنا به من ذلک مما نقلناه عنه هاهنا؟ و يمكن أن يقال إنه لما كان هو البحر الذى علمه اللّه تأويل كتابه بدعوة نبيه صلّى اللّه عليه و سلم كان مختصا بمعرفة هذا الحديث دون غيره

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۵

من أهل العلم، فمن حدث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذى حدّثنا به فقد وصانا بتكذيبه، لأنه قد علمه و لم يعلمه غيره.

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)

أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٩٧) وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٢٠١)

فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦)

ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرى وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ (٢٠٩) وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (٢١٠) وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)

وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢١)

تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (٢٢٣) وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (٢٢٤) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

قوله: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ الضمير يرجع إلى ما نزله عليه من الأخبار، أي: و إن هذه الأخبار، أو و إن القرآن و إن لم يجر له ذكر للعلم به، قيل: و هو على تقدير مضاف محذوف، أي: ذو تنزيل، و أما إذا كان تنزيل: بمعنى منزل، فلا حاجة إلى تقدير مضاف. قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو و حفص عن عاصم نَزَلَ مخففا، و قرأه الباقون مشدّدا، و الرُّوحُ الْأَمِينُ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به، و قد اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد، و الروح الأمين جبريل، كما في قوله: قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ «١» أنه تلاه على قلبه، و وجه تخصيص القلب، لأنه أوّل مدرك من الحواس الباطنة. قال أبو حيان: إن على قلبك و لتكون متعلقان بنزل، و قيل: يجوز أن يتعلقا بتنزيل، و الأوّل: أولى، قرئ نزّل مشدّدا مبنيا للمفعول و الفاعل هو اللّه تعالى، و يكون الروح على هذه القراءة مرفوعا على النيابة لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ علة للإنزال، أي: أنزله لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات و الإنذار و العقوبات بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ متعلق بالمنذرين، أي: لتكون من المنذرين بهذا اللسان، و جوّز أبو البقاء أن يكون بدلا من «ربه»، و قيل: متعلق بنزل، و إنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار، و إنما جعل اللّه سبحانه القرآن عربيا،

---

(١). البقرة: ٩٧.

بلسان الرسول العربي، لئلا يقول مشركو العرب لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا، فقطع بذلك حجتهم و أزاح علتهم و دفع معذرتهم وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أي: هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع في كتب الأوّلين من الأنبياء، و الزبر: الكتب، الواحد: زبور، و قد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا.

و قيل: الضمير لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل: المراد بكون القرآن فى زبر الأوّلين أنه مذكور فيها هو نفسه، لا ما اشتمل عليه من الأحكام، و الأوّل: أولى أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ الهمزة:

للإنكار، و الواو: للعطف على مقدّر، كما تقدّم مرارا، و الآية: العلامة و الدلالة، أى: ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق، و أنه تنزيل ربّ العالمين. و أنه فى زبر الأوّلين. أن يعلمه علماء بنى إسرائيل على العموم، أو من آمن منهم عبد اللّه بن سلام، و إنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون إليهم و يصدّقونهم. قرأ ابن عامر «تكن» بالفوقية، و آية بالرفع على أنها اسم كان، و خبرها: أن يعلمه إلخ، و يجوز أن تكون تامة، و قرأ الباقون «يكن» بالتحتية، و آية بالنصب على أنها خبر يكن، و اسمها أن يعلمه لهم قال الزجاج: أن يعلمه: اسم يكن، و آية: خبره. أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل، أن محمدا نبىّ حقّ علامة و دلالة على نبوّته، لأن العلماء الذين آمنوا من بنى إسرائيل، كانوا يخبرون بوجود ذكره فى كتبهم، و كذا قال الفراء، و وجهها قراءة الرفع بما ذكرنا. و فى قراءة ابن عامر نظر، لأن جعل النكرة اسما و المعرفة خبرا غير سائغ، و إن ورد شاذا فى مثل قول الشاعر:

فلا يك موقف منك الوداعا و قول الآخر:

و كان مزاجها عسل و ماء و لا وجه لما قيل: إن النكرة قد تخصصت بقولهم: «لهم» لأنه فى محل نصب على الحال، و الحال صفة فى المعنى؛ فأحسن ما يقال فى التوجيه: ما قدّمنا ذكره من أن يكن تامة وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ أى: لو نزلنا القرآن على الصفة التى هو عليها، على رجل من الأعجمين، الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ قراءة صحيحة ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجمى للكلام العربىّ إلى إعجاز القرآن. و قيل المعنى: و لو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به، و قالوا: ما نفقه هذا و لا نفهمه، و مثل هذا قوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ «١» يقال: رجل أعجم و أعجمىّ: إذا كان غير فصيح اللسان، و إن كان عربيا، و رجل عجمى:

إذا كان أصله من العجم، و إن كان فصيحا، إلا أن الفراء أجاز أن يقال: رجل عجمىّ: بمعنى أعجمىّ و قرأ الحسن «على بعض الأعجميين» و كذلك قرأ الجحدرى. قال أبو الفتح بن جنى: أصل الأعجمين:

الأعجميين، ثم حذفت ياء النسب، و جعل جمعه بالياء و النون دليلا عليها كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ

---

(١). فصلت: ۴۴.

أى: مثل ذلك السلك سلكناه، أى: أدخلناه فى قلوبهم، يعنى: القرآن حتى فهموا معانيه، و عرفوا فصاحته، و أنه معجز. و قال الحسن و غيره: سلكنا الشرك، و التكذيب، فى قلوب المجرمين. و قال عكرمة: سلكناه القسوة. و الأوّل: أولى، لأن السياق فى القرآن و جملة لا يُؤْمِنُونَ تحتمل على وجهين:

الأوّل: الاستئناف على جهة البيان، و الإيضاح لما قبلها، و الثانى: أنها فى محل نصب على الحال من الضمير فى سلكناه، و يجوز أن يكون حالا من المجرمين. و أجاز الفراء الجزم فى لا يؤمنون، لأنه فيه معنى الشرط و المجازاة، و زعم أن من شأن العرب، إذا وضعت لا موضع كيلا مثل هذا ربما جزمت ما بعدها، و ربما رفعت، فتقول ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع، و الجزم، لأن معناه: إن لم أربطه ينفلت، و أنشد لبعض بنى عقيل:

و حتّى رأينا أحسن الفعل بيننامساكنة لا يقرف الشّرّ قارف

بالرفع، و من الجزم قول الآخر:

لطالما حلّأتماها لا تردفخلّياها و السّجال تبترد «۱»

قال النحاس: و هذا كله فى لا يؤمنون، خطأ عند البصريين، و لا يجوز الجزم بلا جازم حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ أى: لا يؤمنون إلى هـذه الغايـة، و هى مشاهـدتهم للعـذاب الأـليم فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أى: فجـأة «و» الحـال أنّهم لا ـ يَشْـعُرُونَ بإتيـانه، و قرأ الحسن فتأتيهم بالفوقيـة، أى: الساعـة، و إن لم يتقدّم لها ذكر، لكنه قد دلّ العذاب عليها فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أى: مؤخرون و ممهلون. قالوا هذا تحسرا على ما فات من الإيمان، و تمنيا للرجعة إلى الدنيا، لاستدراك ما فرط منهم. و قيل: إن المراد بقولهم:

هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله: أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ و لا يخفى ما فى هذا من البعد و المخالفة للمعنى الظـاهر، فـإن معنى هَـلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ طلب النظرة و الإمهـال، و أمـا قـوله: أَ فَبِعَـذابِنا يَسْـتَعْجِلُونَ فـالمراد به الردّ عليهم، و الإنكـار لما وقع منهم من قولهم: فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَـذابٍ أَلِيمٍ «۲» و قولهم: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا* «۳» أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنـاهُمْ سِـنِينَ الاسـتفهام للإنكـار، و الفاء للعطف على مقـدّر يناسب المقام، كما مرّ فى غير موضع، و معنى أ رأيت: أخبرنى، و الخطاب لكل من يصـلح له، أى: أخبرنى إن متعناهم سـنين فى الـدنيا متطاولـة، و طوّلنا لهم الأعمار ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَـدُونَ من العذاب و الهلاك ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ ما: هى الاسـتفهامية، و المعنى: أى: شىء أغنى عنهم، كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل، و «ما» فى ما كانوا يمتعون يجوز أن تكون المصدرية، و يجوز أن تكون الموصولة، و الاستفهام للإنكار التقريرى، و يجوز أن تكون ما الأولى نافية، و المفعول محذوف، أى: لم يغن عنهم تمتيعهم شيئا، و قرئ يمتعون بإسكان الميم، و تخفيف التاء من أمتع اللّه

---

(۱). حلّأها: منعها من ورود الماء. و السّجال: جمع سجل، و هو الدلو الضخمة المملوءة ماء. و تبترد: تشرب الماء لتبرد به كبدها.

(۲). الأنفال: ۳۲.

(۳). الأعراف: ۷۰.

زيـدا بكذا وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ من: مزيدة للتأكيد، أى: و ما أهلكنا قرية من القرى إلا لها منذرون. و جملة إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ يجوز أن تكون صـفة لقريـة، و يجوز أن تكون حالا منها، و سوّغ ذلك سـبق النفى، و المعنى: ما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار إليهم، و الإعذار بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، و قوله: ذِكْرى بمعنى تذكرة، و هى فى محل نصب على العلة، أو المصدرية. و قال الكسائى:

ذكرى فى موضـع نصب على الحـال. و قـال الفراء و الزجـاج: إنهـا فى موضع نصب على المصدريـة، أى: يـذكرون ذكرى. قـال النحاس: و هذا قول صحيح، لأن معنى إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ إلا لها مذكرون. قال الزجاج:

و يجوز أن يكون ذكرى فى موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: إنذارنا ذكرى، أو ذلك ذكرى.

قـال ابن الأنبـارى: المعنى هى ذكرى، أو يـذكرهم ذكرى، و قـد رجـح الأـخفش أنهـا خبر مبتـدأ محـذوف وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ فى تعـذيبهم، فقـد قـدّمنا الحجـة إليهم و أنـذرناهم، و أعذرناهم، و أعذرنا إليهم وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ أى: بالقرآن، و هذا ردّ لما زعمه الكفرة فى القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشـياطين على الكهنة وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ ذلك، و لا يصح منهم وَ ما يَسْتَطِيعُونَ ما نسبه الكفـار إليهم أصـلا إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ للقرآن، أو لكلاـم الملائكـة لَمَعْزُولُـونَ محجوبون، مرجومون بالشـهب. و قرأ الحسن و ابن السميقع و الأعمش «و ما تنزلت به الشياطين» بالواو و النون إجراء له مجرى جمع السلامة. قال النحاس:

و هذا غلط عند جميع النحويين. قال: و سـمعت على بن سـليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا من غلط العلماء، و إنما

يكون بشبهة لما رأى الحسن فى آخره ياء و نونا، و هو فى موضع رفع اشتبه عليه بالجمع السالم فغلط. قال الفراء: غلط الشيخ: يعنى الحسن، فقيل: ذلك للنضر بن شميل فقال: إن جاز أن يحتجّ بقول رؤبة و العجاج و ذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن و صاحبه: يعنى محمد بن السميقع مع أنا نعلم أنهما لم يقرءا بذلك إلا و قد سمعا فيه شيئا. و قال المؤرج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه.

قال يونس بن حبيب: سمعت أعرابيا يقول: دخلنا بساتين من ورائها بساتون. ثم لما قرّر سبحانه حقيقة القرآن و أنه منزّل من عنده، أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلم بدعاء اللّه وحده فقال: فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ و خطاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بهذا مع كونه منزّها عنه، معصوما منه، لحث العباد على التوحيد، و نهيهم عن شوائب الشرك، و كأنه قال: أنت أكرم الخلق علىّ، و أعزّهم عندى، و لو اتخذت معى إلها لعذبتك، فكيف بغيرك من العباد وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ خص الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أولى، و هدايتهم إلى الحق أقوم.

قيل: هم قريش، و قيل بنو هاشم. و قد ثبت فى الصحيح أن هذه الآية لما نزلت دعا النبى صلّى اللّه عليه و سلم قريشا، فاجتمعوا فعمّ و خص، فذلك منه صلّى اللّه عليه و سلم بيان للعشيرة الأقربين، و سيأتى بيان ذلك وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يقال: خفض جناحه إذا ألانه، و فيه استعارة حسنة. و المعنى: ألن جناحك، و تواضع لمن اتبعك من المؤمنين، و أظهر لهم المحبة و الكرامة، و تجاوز عنهم فَإِنْ عَصَوْكَ أى: خالفوا أمرك و لم يتبعوك فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ أى: من عملكم، أو من الذى تعملونه، و هذا يدلّ على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان، المصدّقون باللسان، لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه و لا يخالفونه. ثم بين له ما

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۳۹

يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أى: فوّض أمورك إليه، فإنه القادر على قهر الأعداء، و هو الرحيم للأولياء. قرأ نافع و ابن عامر «فتوكل» بالفاء. و قرأ الباقون «و توكل» بالواو، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجزء مما قبلها مترتبا عليه، و على القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفا على ما قبلها، عطف جملة من غير ترتيب الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ أى: حين تقوم إلى الصلاة وحدك فى قول أكثر المفسرين. و قال مجاهد: حين تقوم: حيثما كنت وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ أى: و يراك إن صليت فى الجماعة راكعا و ساجدا و قائما، كذا قال أكثر المفسرين. و قيل: يراك فى الموحدين من نبىّ إلى نبىّ حتى أخرجك فى هذه الأمة. و قيل: المراد بقوله: «يراك» حين تقوم قيامه إلى التهجد، و قوله:

وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ يريد تردّدك فى تصفح أحوال المجتهدين فى العبادة و تقلب بصرك فيهم، كذا قال مجاهد إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقوله: الْعَلِيمُ به. ثم أكد سبحانه معنى قوله: وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ و بيّنه فقال: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ أى: على من تتنزّل، فحذف إحدى التاءين، و فيه بيان استحالة تنزّل الشياطين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ و الأفاك:

الكثير الإفك، و الأثيم: كثير الإثم، و المراد بهم كل من كان كاهنا، فإن الشياطين كانت تسترق السمع ثم يأتون إليهم فيلقونه إليهم، و هو معنى قوله: يُلْقُونَ السَّمْعَ أى: ما يسمعونه مما يسترقونه، فتكون جملة «يلقون السمع» على هذا راجعة إلى الشياطين فى محل نصب على الحال، أى: حال كون الشياطين ملقين السمع، أى: ما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى الكهان. و يجوز أن يكون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع:

أى ينصتون إلى الملأ الأعلى ليسترقوا منهم شيئا، و يكون المراد بالسمع على الوجه الأوّل المسموع، و على الوجه الثانى: نفس حاسة السمع. و يجوز أن تكون جملة «يلقون السمع» راجعة إلى كل أفاك أثيم على أنها صفة أو مستأنفة، و معنى الإلقاء أنهم

يسمعون ما تلقيه إليهم الشياطين من الكلمات التى تصدق الواحدة منها، و تكذب المائة الكلمة كما ورد فى الحديث، و جملة وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ راجعة إلى كل أفاك أثيم، أى:

و أكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين، لأنهم يضمون إلى ما يسمعونه كثيرا من أكاذيبهم المختلفة، أو أكثرهم كاذبون فيما يلقونه من السمع، أى: المسموع من الشياطين إلى الناس، و يجوز أن تكون جملة وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ راجعة إلى الشياطين، أى: و أكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعونه، فإنهم يضمون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيرا من الكذب. و قد قيل: كيف يصح على الوجه الأوّل وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون بعد ما وصفوا جميعا بالإفك؟ و أجيب بأن المراد بالأفاك الذى يكثر الكذب لا الذى لا ينطق إلا بالكذب، فالمراد بقوله: و أكثرهم كاذبون أنه قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الشياطين، و الغرض الذى سيق لأجله هذا الكلام، ردّ ما كان يزعمه المشركون، من كون النبى صلّى اللّه عليه و سلم من جملة من يلقى إليه الشيطان السمع من الكهنة، ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب، و لم يظهر من أحوال محمد صلّى اللّه عليه و سلم إلا الصدق، فكيف يكون كما زعموا، ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين. و هذا النبىّ المرسل من عند اللّه برسالته إلى الناس يذمهم و يلعنهم و يأمر بالتعوّذ منهم. ثم لما كان قد قال قائل من

فتح القدير، ج‏4، ص: 140

المشركين: إن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم شاعر، بين سبحانه حال الشعراء و منافاة ما هم عليه لما عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال:

وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ و المعنى: أن الشعراء يتبعهم، أى: يجاريهم و يسلك مسلكهم و يكون من جملتهم الغاوون، أى: الضالون عن الحق، و الشعراء: جمع شاعر، و الغاوون: جمع غاو، و هم ضلال الجن و الإنس. و قيل: الزائلون عن الحق، و قيل: الذى يروون الشعر المشتمل على الهجاء و ما لا يجوز، و قيل:

المراد شعر الكفار خاصة. قرأ الجمهور «و الشعراء» بالرفع على أنه مبتدأ، و خبره ما بعده، و قرأ عيسى بن عمر «الشعراء» بالنصب على الاشتغال، و قرأ نافع و شيبة و الحسن و السلمى يتبعهم بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد. ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ و الجملة مقرّرة لما قبلها، و الخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، يقال: هام يهيم هيما و هيمانا إذا ذهب على وجهه، أى:

ألم تر أنهم فى كل فنّ من فنون الكذب يخوضون، و فى كل شعب من شعاب الزور يتكلمون، فتارة يمزّقون الأعراض بالهجاء، و تارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع، و يستقبحه العقل، و تارة يخوضون فى بحر السفاهة، و الوقاحة، و يذمون الحق، و يمدحون الباطل، و يرغبون فى فعل المحرّمات، و يدعون الناس إلى فعل المنكرات، كما تسمعه فى أشعارهم من مدح الخمر، و الزنا، و اللواط، و نحو هذه الرذائل الملعونة، ثم قال سبحانه: وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ أى: يقولون فعلنا و فعلنا، و هم كذبة فى ذلك، فقد يدلون بكلامهم على الكرم، و الخير، و لا يفعلونه، و قد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشرّ ما لا يقدرون على فعله، كما تجده فى كثير من أشعارهم، من الدعاوى الكاذبة، و الزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات، و أنهم فعلوا بهنّ كذا و كذا، و ذلك كذب محض، و افتراء بحت. ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين، الذين أغلب أحوالهم تحرى الحق، و الصدق فقال: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: دخلوا فى حزب المؤمنين، و عملوا بأعمالهم الصالحة، وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً فى أشعارهم وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا كمن يهجو منهم من هجاه، أو ينتصر لعالم، أو فاضل، كما كان يقع من شعراء النبى صلّى اللّه عليه و سلم فإنهم كانوا يهجون من يهجوه، و يحمون عنه، و يذبون عن عرضه، و يكافحون شعراء المشركين، و ينافحونهم، و يدخل فى هذا من انتصر بشعره لأهل السنة، و كافح أهل البدعة، و زيف ما يقوله شعراؤهم، من مدح بدعتهم، و

هجو السنة المطهرة، كما يقع ذلک كثيرا من شعراء الرافضة، و نحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر، و تزييف الباطل به، من أعظم المجاهدة، و فاعله من المجاهدين فی سبيل اللّه، المنتصرين لدينه، القائمين بما أمر اللّه بالقيام به.

و اعلم أن الشعر فی نفسه ينقسم إلی أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلی قسم الحرام. و قد يبلغ ما فيه خير منه إلی قسم الواجب، و قد وردت أحاديث فی ذمه و ذمّ الاستكثار منه، و وردت أحاديث أخر فی إباحته و تجويزه، و الكلام فی تحقيق ذلک يطول، و سنذكر فی آخر البحث ما ورد فی ذلک من الأحاديث.

ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ فإن فی قوله: سَيَعْلَمُ تهويلا عظيما، و تهديدا شديدا، و كذا فی إطلاق الذين ظلموا، و إبهام أیّ منقلب ينقلبون، و خصص هذه الآية بعضهم بالشعراء، و لا وجه لذلک فإن الاعتبار بعموم اللفظ. و قوله: أَيَّ

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۱

مُنْقَلَبٍ صفة لمصدر محذوف، أی: ينقلبون منقلبا أی منقلب، و قدّم لتضمنه معنی الاستفهام، و لا يعمل فيه سيعلم، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، بل هو معلق عن العمل فيه. و قرأ ابن عباس و الحسن «أی منفلت ينفلتون» بالفاء مكان القاف، و التاء مكان الباء من الانفلات بالنون و الفاء الفوقية. و قرأ الباقون و الباء، من الانقلاب بالنون، و القاف و الموحدة، و المعنی علی قراءة ابن عباس و الحسن: أن الظالمين يطمعون فی الانفلات من عذاب اللّه و الانفكاک منه و لا يقدرون علی ذلک.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبی حاتم عن قتادة وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ قال: هذا القرآن نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ قال: جبريل. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ قال: جبريل. و أخرج أبو الشيخ فی العظمة و ابن مردويه عنه عن النبی صلّی اللّه عليه و سلم فی قوله:

الرُّوحُ الْأَمِينُ قال: الروح الأمين: جبريل، رأيت له ستّمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها، فيها مثل ريش الطواويس. و أخرج ابن النجار فی تاريخه عن ابن عباس فی قوله: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ قال: بلسان قريش، و لو كان غير عربی ما فهموه. و أخرج الحاكم و صححه و البيهقی فی الشعب عن بريدة فی قوله: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ قال: بلسان جرهم. و أخرج مثله أيضا عنه ابن المنذر و ابن أبی حاتم. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان عبد اللّه بن سلام من علماء بنی إسرائيل، و كان من خيارهم فآمن بكتاب محمد، فقال لهم اللّه أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما عن أبی هريرة قال: «لما نزلت هذه الآية وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دعا رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم قريشا و عمّ و خصّ فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإنی لا أملک لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنی كعب بن لؤیّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنی لا أملک لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنی قصیّ أنقذوا أنفسكم من النار فإنی لا أملک لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنی عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنی لا أملک لكم ضرّا و لا نفعا، يا معشر بنی عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنی لا أملک لكم ضرّا و لا نفعا، يا فاطمة بنت محمّد أنقذی نفسک من النّار فإنی لا أملک لک ضرّا و لا نفعا، إلّا أنّ لكم رحما و سأبلّها ببلالها». و فی الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ قال: للصلاة. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ يقول: قيامک و ركوعک و سجودک. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ قال: يراک و أنت مع الساجدين تقوم و تقعد معهم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فی قوله: وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ قال: كان النبیّ صلّی اللّه عليه و سلم إذا قام إلی الصلاة يری من خلفه كما يری من بين يديه. و منه الحديث فی الصحيحين و غيرهما عن أبی هريرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «هل ترون قبلتی هاهنا؟ فو اللّه ما يخفی علیّ خشوعكم و لا ركوعكم، و إنّی لأراكم من وراء ظهری». و أخرج

ابن أبی عمر العدنی فی مسنده و البزار و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه و أبو نعیم فی الدلائل عن ابن عباس فی قوله: وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ قال: من نبیّ إلی نبیّ حتی أخرجت نبیا. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۴۲

مردویه و أبو نعیم عنه فی الآیة نحوه. و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن عائشة قالت: «سأل أناس النبی صلّی اللّه علیه و سلم عن الکهان قال: إنهم لیسوا بشیء، قالوا: یا رسول اللّه إنهم یحدّثون أحیانا بالشیء یکون حقا! قال:

تلک الکلمة من الحق یخطفها الجنی فیقذفها فی أذن ولیه فیخلطون فیها أکثر من مائة کذبة و فی لفظ للبخاری «فیزیدون معها مائة کذبة». و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس قال: تهاجی رجلان علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم أحدهما من الأنصار و الآخر من قوم آخرین، و کان مع کلّ واحد مهما غواة من قومه و هم السفهاء، فأنزل اللّه وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ الآیات. و أخرج ابن سعد و عبد بن حمید و ابن أبی حاتم و ابن عساکر عن عروة قال: لما نزلت وَ الشُّعَراءُ إلی قوله: ما لا يَفْعَلُونَ قال عبد اللّه بن رواحة: یا رسول اللّه! قد علم اللّه أنی منهم، فأنزل اللّه إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا إلی قوله: يَنْقَلِبُونَ و روی نحو هذا من طرق. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ قال: هم الکفار یتبعون ضلال الجنّ و الإنس فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ قال: فی کلّ لغو یخوضون وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ أکثر قولهم یکذبون، ثم استثنی منهم فقال: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا قال: ردّوا علی الکفار الذین کانوا یهجون المؤمنین. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أیضا نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه عنه أیضا وَ الشُّعَراءُ قال: المشرکون منهم الذین کانوا یهجون النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ قال: قال غواة الجنّ فی کلّ واد یهیمون فی کلّ فنّ من الکلام یأخذون. ثم استثنی فقال: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا الآیة.

یعنی حسان بن ثابت و عبد اللّه بن رواحة و کعب بن مالک کانوا یذبون عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم و أصحابه بهجاء المشرکین. و أخرج الفریابی و ابن جریر و ابن أبی حاتم عنه الْغاوُونَ قال: هم الرواة. و أخرج ابن مردویه و ابن عساکر عنه أیضا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا الآیة قال: أبو بکر و عمر و علیّ و عبد اللّه بن رواحة. و أخرج أحمد و البخاری فی تاریخه و أبو یعلی و ابن مردویه عن کعب بن مالک «أنه قال للنبی صلّی اللّه علیه و سلم: إنّ اللّه قد أنزل فی الشّعراء ما أنزل فکیف تری فیه؟ فقال: إنّ المؤمن یجاهد بسیفه و لسانه، و الذی نفسی بیده لکأنّ ما ترمونهم به نفح النّبل». و أخرج ابن أبی شیبة و أحمد عن أبی سعید قال: بینما نحن نسیر مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم إذ عرض شاعر ینشد، فقال النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم: لأن یمتلئ جوف أحدکم قیحا خیر له من أن یمتلئ شعرا».

و أخرج الدیلمی عن ابن مسعود مرفوعا الشعراء الذین یموتون فی الإسلام یأمرهم اللّه أن یقولوا شعرا یتغنی به الحور العین لأزواجهنّ فی الجنة، و الذین ماتوا فی الشرک یدعون بالویل، و الثبور فی النار. و أخرج ابن مردویه عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «إنّ من الشعر لحکمة» قال: و أتاه قریظة بن کعب و عبد اللّه بن رواحة و حسان بن ثابت فقالوا: إنا نقول الشعر و قد نزلت هذه الآیة، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم:

اقرءوا فقرؤوا وَ الشُّعَراءُ إلی قوله: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فقال: أنتم هم وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً قال: أنتم هم وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا فقال: أنتم هم. و أخرج ابن سعد و ابن أبی شیبة عن البراء بن عازب قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم لحسان بن ثابت: اهج المشرکین فإنّ جبریل معک.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۴۳

و أخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال: قیل: یا رسول اللّه! إنّ أبا سفیان بن الحارث بن عبد المطلب یهجوک، فقام ابن

رواحة فقال: يا رسول اللّه! ائذن لى فيه، فقال: «أنت الذى تقول ثبّت اللّه؟» فقال: نعم يا رسول، قلت:

ثبّت اللّه ما أعطاك من حسن‌تثبيت موسى و نصرا مثل ما نصرا

قال: «و أنت، ففعل اللّه بك مثل ذلك» ثم وثب كعب فقال: يا رسول اللّه ائذن لى فيه؟ فقال:

«أنت الذى تقول همّت؟» قال: نعم يا رسول اللّه، قلت:

همّت سخينة «١» أن تغالب ربّهافلتغلبنّ مغالب الغلاب

فقال: «أما إنّ اللّه لم ينس ذلك لك» ثم قام حسان فقال: يا رسول اللّه! ائذن لى فيه، و أخرج لسانا له أسود، فقال: يا رسول اللّه لو شئت لفريت به المراد، ائذن لى فيه، فقال: «اذهب إلى أبى بكر فليحدّثك حديث القوم و أيّامهم و أحسابهم، و اهجهم و جبريل معك». و أخرج أحمد و ابن سعد عن أبى هريرة قال: مرّ عمر بحسان و هو ينشد فى المسجد فلحظ إليه فنظر إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه و فيه من هو خير منك، فسكت ثم التفت حسان إلى أبى هريرة فقال: أنشدك باللّه هل سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «أجب عنى، اللّهمّ أيّده بروح القدس؟» قال: نعم. و أخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ من الشعر حكما و من البيان سحرا». و أخرج مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه، خير من أن يمتلئ شعرا». و فى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا». قال فى الصحاح: ورى القيح جوفه يريه وريا:

إذا أكله. قال القرطبى: روى إسماعيل بن عباس عن عبد اللّه بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «حسن الشّعر كحسن الكلام و قبيح الشّعر كقبيح الكلام». قال القرطبى:

رواه إسماعيل عن عبد اللّه بن عون الشامى و حديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين و غيره. قال:

و روى عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الشّعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، و قبيحه كقبيح الكلام». و أخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: هل معك من شعر أميّة بن أبى الصّلت؟ قلت: نعم. قال: هيه فأنشدته بيتا، فقال:

هيه، حتى أنشدته مائة بيت». و أخرج ابن أبى حاتم عن فضالة بن عبيد فى قوله: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ قال: هؤلاء الذين يخربون البيت.

---

(١). فى القرطبى: جاءت سخينة: و السخينة: طعام حار يتّخذ من دقيق و سمن- و قيل: من دقيق و تمر- أغلظ من الحساء و أرقّ من العصيدة، و كانت قريش تكثر من أكلها، فعيّرت بها حتى سمّوا سخينة.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۱۴۴

سورة النّمل

اشارة

هى ثلاث و تسعون آية، و قيل أربع و تسعون قال القرطبى: و هى مكية كلها فى قول الجميع. و أخرج ابن الضّريس و النحّاس و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة النمل بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۱ الى ۱۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ (۱) هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۳) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (۴)
أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (۶) إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۸) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)
وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۱۲) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۱۴)

قوله: طس قد مرّ الكلام مفصلا فى فواتح السور، و هذه الحروف إن كانت اسما للسورة، فمحلها الرفع على الابتداء، و ما بعده خبره، و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أى: هذا اسم هذه السورة، و إن لم تكن هذه الحروف اسما للسورة، بل مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى نفس السورة، لأنها قد ذكرت إجمالا بذكر اسمها، و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره: آياتُ الْقُرْآنِ و الجملة: خبر المبتدأ الأوّل، على تقدير أنه مرتفع بالابتداء وَ كِتابٍ مُبِينٍ قرأ الجمهور بجر كتاب عطفا على القرآن، أى: تلك آيات القرآن، و آيات كتاب مبين، و يحتمل أن يكون المراد بقوله:
وَ كِتابٍ القرآن نفسه، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض، مع اتحاد المدلول، و أن يكون المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، أو نفس السورة، و قرأ ابن أبى عبلة «و كتاب مبين» برفعهما عطفا على آيات. و قيل: هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف، و إقامة المضاف إليه مقامه، أى: و آيات كتاب مبين، فقد وصف الآيات بالوصفين: القرآنية الدالة على كونه مقروءا، مع الإشارة إلى كونه قرآنا عربيا معجزا، و الكتابية الدالة على كونه مكتوبا، مع الإشارة إلى كونه متصفا بصفة الكتب المنزلة، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة على صفة، مع اتحاد المدلول، ثم ضم إلى الوصفين وصفا ثالثا، و هى: الإبانة

لمعانيه لمن يقرؤه، أو هو من أبان بمعنى: بان معناه، و اتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة. و قدّم وصف القرآنية هنا، نظرا إلى تقدّم حال القرآنية على حال الكتابية و أخّره فى سورة فقال: الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ «۱» نظرا إلى حالته التى قد صار عليها، فإنه مكتوب، و الكتابة سبب القراءة، و اللّه أعلم. و أما تعريف القرآن هنا، و تنكير الكتاب، و تعريف الكتاب فى سورة الحجر، و تنكير القرآن فلصلاحية كلّ واحد منهما للتعريف و التنكير هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ فى موضع نصب على الحال من الآيات أو من الكتاب، أى: تلك آيات هادية و مبشرة، و يجوز أن يكون فى محل رفع على الابتداء، أى: هو هدى، أو هما خبران آخران لتلك، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدّر، أى: يهدى هدى و يبشر بشرى. ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى و البشرى فقال: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ و الموصول فى محل جرّ، أو يكون بدلا أو بيانا، أو منصوبا على المدح، أو مرفوعا على تقدير مبتدأ. و المراد بالصلاة: الصلوات الخمس، و المراد بالزكاة: الزكاة المفروضة، و جملة وَ هُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ فى محل نصب على الحال، و كرّر الضمير للدلالة على الحصر، أى: لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان، و العمل الصالح، و جعل الخبر مضارعا للدلالة على التجدد فى كلّ وقت و عدم الانقطاع. ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ و هم الكفار، أى: لا يصدّقون بالبعث زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ قيل: المراد زين اللّه لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة. و قيل: المراد أن اللّه زين لهم الأعمال الحسنة، و ذكر لهم ما فيها من خيرى الدنيا و الآخرة، فلم يقبلوا ذلك. قال الزجاج: معنى الآية أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه فَهُمْ يَعْمَهُونَ أى: يتردّدون فيها، متحيرين على الاستمرار، لا يهتدون إلى طريقة، و لا يقفون على حقيقة. و قيل: معنى يعمهون: يتمادون. و قال قتادة:

يلعبون، و فى معنى التحير. قال الشاعر:

و مهمه أطرافه فى مهمهأعمى الهدى بالحائرين العمّه

و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المذكورين قبله، و هو مبتدأ خبره لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ قيل: فى الدنيا، كالقتل، و الأسر، و وجه تخصيصه بعذاب الدنيا، قوله بعده: وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ أى: هم أشدّ الناس خسرانا، و أعظمهم خيبة، ثم مهد سبحانه مقدّمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ أى: يلقى عليك فتلقاه، و تأخذه من لدن كثير الحكمة، و العلم، قيل: إن لدن هاهنا: بمعنى عند. و فيها لغات كما تقدّم فى سورة الكهف إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ الظرف منصوب بمضمر و هو ذاكر. قال الزجاج: موضع إذ نصب، المعنى: اذكر إذ قال موسى، أى: اذكر قصته إذ قال لأهله، و المراد بأهله: امرأته فى مسيره من مدين إلى مصر، و لم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب، فكنى عنها بلفظ الأهل، الدالّ على الكثرة، و مثله قوله: امْكُثُوا* و معنى

---

(۱). الحجر: ۱.

إِنِّي آنَسْتُ ناراً أبصرتها سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ السين تدلّ على بعد مسافة النار أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ قرأ عاصم و حمزة و الكسائى بتنوين شهاب، و قرأ الباقون بإضافته إلى قبس، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلا من شهاب، أو صفة له، لأنه بمعنى مقبوس، و على القراءة الثانية: الإضافة للبيان، و المعنى على القراءتين: آتيكم بشعلة نار مقبوسة، أى: مأخوذة من أصلها. قال الزجاج: من نوّن جعل قبس من صفة شهاب، و قال الفراء: هذه الإضافة كالإضافة فى قولهم: مسجد الجامع، و صلاة الأولى، و أضاف الشىء إلى نفسه لاختلاف أسمائه. و قال النحاس: هى إضافة النوع إلى الجنس كما تقول: ثوب خز، و خاتم حديد.

قال: و يجوز فى غير القرآن بشهاب قبسا، على أنه مصدر، أو بيان، أو حال لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أى:

رجاء أن تستدفئوا بها، أو لكى تستدفئوا بها من البرد، يقال: صلى بالنار و اصطلى بها: إذا استدفأ بها. قال الزجاج: كلّ أبيض ذى نور فهو شهاب. و قال أبو عبيدة: الشهاب: النار، و منه قول أبى النجم:

كأنّما كان شهابا واقداأضاء ضوءا ثمّ صار خامدا

و قال ثعلب: أصل الشهاب عود فى أحد طرفيه جمرة، و الآخر لا نار فيه، و الشهاب: الشعاع المضىء، و قيل: للكوكب شهاب، و مه قول الشاعر:

فى كفّه صعدة «۱» مثقّفةفيها سنان كشعلة القبس

فَلَمَّا جاءَها أى: جاء النار موسى نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها أن هى المفسرة لما فى النداء من معنى القول، أو هى

المصدرية، أى: بأن بورك، و قيل: هى المخففة من الثقيلة. قال الزجاج:
أن فى موضع نصب، أى: بأن قال، و يجوز أن يكون فى موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله. و الأولى:
أن النائب ضمير يعود إلى موسى. و قرأ أبىّ و ابن عباس و مجاهد «أن بوركت النّار و من حولها» حكى ذلك أبو حاتم. و حكى الكسائى عن العرب: باركك اللّه، و بارك فيك، و بارك عليك، و بارك لك، و كذلك حكى هذا الفراء. قال ابن جرير: قال بورك من فى النار، و لم يقل بورك على النار على لغة من يقول باركك اللّه، أى: بورك على من فى النار، و هو موسى، أو على من فى قرب النار، لا أنه كان فى وسطها. و قال السدّى: كان فى النار ملائكة، و النار هنا هى مجرّد نور، و لكن ظن موسى أنها نار، فلما وصل إليها وجدها نورا. و حكى عن الحسن و سعيد بن جبير أن المراد بمن فى النار هو اللّه سبحانه، أى: نوره. و قيل: بورك ما فى النار من أمر اللّه سبحانه الذى جعلها على تلك الصفة. قال الواحدى: و مذهب المفسرين أن المراد بالنار النور، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ و فيه تعجيب لموسى من ذلك يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الضمير للشأن، أنا اللّه العزيز الغالب القاهر الحكيم فى أمره و فعله. و قيل: إن موسى قال: يا ربّ! من الذى نادانى؟ فأجابه اللّه سبحانه بقوله: إنه أنا اللّه، ثم أمره سبحانه بأن يلقى عصاه، ليعرف ما أجراه اللّه سبحانه على يده من المعجزة الخارقة، و جملة وَ أَلْقِ عَصاكَ معطوفة على

---

(١). الصّعدة: القناة التى تنبت مستقيمة.

بورك، و فى الكلام حذف، و التقدير: فألقاها من يده فصارت حية فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ قال الزجاج: صارت العصا تتحرك كما يتحرّك الجانّ، و هى الحية البيضاء، و إنما شبهها بالجانّ فى خفة حركتها، و شبهها فى موضع آخر بالثعبان لعظمها، و جمع الجانّ: جنان، و هى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. و قال الكلبى: لا صغيرة، و لا كبيرة وَلَّى مُدْبِراً من الخوف وَ لَمْ يُعَقِّبْ أى: لم يرجع، يقال: عقب فلان إذا رجع، و كل راجع معقب، و قيل: لم يقف و لم يلتفت. و الأوّل: أولى، لأن التعقيب هو الكرّ بعد الفرّ، فلما وقع منه ذلك قال اللّه سبحانه: يا مُوسى لا تَخَفْ أى: من الحية و ضررها إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ أى: لا يخاف عندى من أرسلته برسالتى، فلا تخف أنت. قيل: و نفى الخوف عن المرسلين ليس فى جميع الأوقات، بل فى وقت الخطاب لهم، لأنهم إذ ذاك مستغرقون. ثم استثنى استثناء منقطعا فقال: إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: لكن من أذنب فى ظلم نفسه بالمعصية ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً أى: توبة و ندما بَعْدَ سُوءٍ أى: بعد عمل سوء فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ و قيل: الاستثناء من مقدّر محذوف، أى: لا يخاف لدىّ المرسلون، و إنما يخاف غيرهم ممن ظلم. إلا من ظلم ثم بدل إلخ. كذا قال الفراء. قال النحاس: الاستثناء من محذوف محال، لأنه استثناء من شىء لم يذكر.
و روى عن الفراء أنه قال: إلا بمعنى الواو. و قيل: إن الاستثناء متصل من المذكور، لا من المحذوف. و المعنى:
إلا من ظلم من المرسلين، بإتيان الصغائر التى لا يسلم منها أحد، و اختار هذا النحاس، و قال: علم من عصى منهم، فاستثناه فقال:
إلا من ظلم، و إن كنت قد غفرت له كآدم و داود و إخوة يوسف و موسى بقتله القبطىّ.
و لا مانع من الخوف بعد المغفرة، فإن نبينا صلّى اللّه عليه و سلم الذى غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه، و ما تأخر كان يقول:
وددت أنى شجرة تعضد وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ المراد بالجيب هو المعروف، و فى القصص اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ «١» و فى أدخل من المبالغة ما لم يكن فى اسلك تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أى: من غير برص، أو نحوه من الآفات، فهو احتراس. و قوله: «تخرج» جواب أدخل يدك. و قيل: فى الكلام حذف تقديره: أدخل يدك تدخل، و أخرجها تخرج، و لا حاجة لهذا

الحذف، و لا ملجئ إليه. قال المفسرون:

كانت على موسى مدرعة من صوف لا كمّ لها و لا إزار، فأدخل يده فى جيبه و أخرجها فإذا هى تبرق كالبرق، و قوله: فِي تِسْعِ آياتٍ قال أبو البقاء: هو فى محل نصب على الحال من فاعل تخرج، و فيه بعد. و قيل:

متعلق بمحذوف، أى: اذهب فى تسع آيات. و قيل: متعلق بقوله: ألق عصاك، و أدخل يدك فى جملة تسع آيات، أو مع تسع آيات. و قيل المعنى: فهما آيتان من تسع، يعنى: العصا و اليد، فتكون الآيات إحدى عشرة: هاتان، و الفلق، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و الطمسة، و الجدب فى بواديهم، و النقصان فى مزارعهم. قال النحاس: أحسن ما قيل فيه: أن هذه الآية، يعنى اليد داخلة فى تسع آيات، و كذا قال المهدوى، و القشيرى. قال القشيرى: تقول خرجت فى عشرة نفر، و أنت أحدهم، أى:

---

(١). القصص: ٣٢.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۸

خرجت عاشر عشرة، ففى بمعنى من لقربها منها كما تقول خذ لى عشرا من الإبل فيها فحلان، أى: منها.

قال الأصمعى فى قول امرئ القيس:

و هل ينعمن من كان آخر عهده‌ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

فى: بمعنى من، و قيل: فى بمعنى مع إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ قال الفراء: فى الكلام إضمار، أى:

إنك مبعوث، أو مرسل إلى فرعون و قومه، و كذا قال الزجاج: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ الجملة تعليل لما قبلها فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً أى: جاءتهم آياتنا التى على يد موسى حال كونها مبصرة، أى:

واضحة بينة، كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله: وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً قال الأخفش:

و يجوز أن تكون بمعنى مبصرة، على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، و قد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا.

و قرأ على بن الحسين و قتادة مبصرة بفتح الميم و الصاد، أى: مكانا يكثر فيه التبصر، كما يقال: الولد مجبنة و مبخلة قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: لما جاءتهم قالوا هذا القول، أى: سحر واضح وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ أى: كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها، فالواو للحال، و انتصاب ظُلْماً وَ عُلُوًّا على الحال، أى: ظالمين عالين، و يجوز أن ينتصبا على العلة، أى:

الحامل لهم على ذلك الظلم و العلوّ، و يجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف، أى: جحدوا بها جحودا، ظلما و علوا. قال أبو عبيدة: و الباء فى «و جحدوا بها» زائدة، أى: و جحدوها. قال الزجاج: التقدير:

و جحدوا بها ظلما و علوّا، أى: شركا و تكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، و هم يعلمون أنها من عند اللّه فَانْظُرْ يا محمد كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أى: تفكر فى ذلك فإن فيه معتبرا للمعتبرين، و قد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم فى البحر على تلك الصفة الهائلة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ يعنى تبارك و تعالى نفسه، كان نور ربّ العالمين فى الشجرة وَ مَنْ حَوْلَها يعنى الملائكة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: كان اللّه فى النور، نودى من النور وَ مَنْ حَوْلَها قال: الملائكة.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا قال: ناداه اللّه و هو فى النور. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ قال: بوركت النار. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و

ابن أبى حاتم عن قتادة قال: فى مصحف أبى بن كعب «بوركت النار و من حولها» أما النار فيزعمون أنها رب العالمين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْ بُورِكَ قال: قدّس. و أخرج عبد بن حميد و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى العظمة و البيهقى فى الأسماء و الصفات من طريق أبى عبيدة عن أبى موسى الأشعرى قال: قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: «إنّ اللّه لا- ينام و لا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط و يرفعه، يرفع إليه عمل اللّيل قبل النّهار و عمل النّهار قبل الليل، حجابه النّور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كلّ شىء أدركه بصره.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۴۹

ثم قرأ أبو عبيدة أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. و الحديث أصله مخرّج فى صحيح مسلم من حديث عمرة بن مرّة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه، فقال له: أدخل يدك فى جيبك فأدخلها. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله:

وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا قال: تكبرا و قد استيقنتها أنفسهم، و هذا من التقديم و التأخير.

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۵ الى ۲۶]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (۱۶) وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (۱۹)

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۱) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (۲۲) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (۲۳) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (۲۴)

أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۲۵) اللَّهُ لا- إِلهَ إِلاَّ- هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۲۶)

لما فرغ سبحانه من قصة موسى، شرع فى قصة داود، و ابنه سليمان، و هذه القصص و ما قبلها و ما بعدها هى كالبيان و التقرير لقوله: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ و التنوين فى عِلْماً إما للنوع، أى: طائفة من العلم، أو للتعظيم، أى: علما كثيرا، و الواو فى قوله: وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ للعطف على محذوف، لأن هذا المقام مقام الفاء؛ فالتقدير: و لقد آتيناهما علما فعملا به و قالا الحمد للّه، و يؤيده أن الشكر باللسان، إنا يحسن إذا كان مسبوقا بعمل القلب، و هو العزم على فعل الطاعة، و ترك المعصية الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أى: فضلنا بالعلم و النبوّة و تسخير الطير و الجنّ و الإنس و لم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعا منهم. و فى الآية دليل على شرف العلم و ارتفاع محله، و أن نعمة العلم من أجل النعم التى ينعم اللّه بها على عباده، و أن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من العباد، و منح شرفا جليلا وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ أى: ورثه العلم و النبوّة. قال قتادة و الكلبى: كان لداود تسعة عشر ولدا ذكرا فورث سليمان من بينهم نبوّته، و لو كان المراد وراثة المال، لم يخصّ سليمان بالذكر لأن جميع أولاده فى ذلك سواء، و كذا قال جمهور المفسرين، فهذه الوراثة هى وراثة مجازية، كما فى قوله صلّى اللّه عليه و

سلم: «العلماء ورثة الأنبياء» وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ قال سليمان هذه المقالة مخاطبا للناس، تحدثا بما أنعم

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۵۰

فتح القدير ج۴ ۱۹۹

اللّه به عليه، و شكر النعمة التى خصه بها، و قدّم منطق الطير لأنها نعمة خاصة به، لا يشاركه فيها غيره.

قال الفراء: منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل، و أنشد قول حميد بن ثور:

عجيب لها أن يكون غناؤهافصيحا و لم يغفر بمنطقها فما «۱»

و معنى الآية فهمنا ما يقول الطير. قال جماعة من المفسرين: إنه علم منطق جميع الحيوانات، و إنما ذكر الطير لأنه كان جندا من جنده يسير معه لتظليله من الشمس. و قال قتادة و الشعبى: إنما علم منطق الطير خاصة، و لا يعترض ذلك بالنملة، فإنها من جملة الطير، و كثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير، و كذلك كانت هذه النملة التى سمع كلامها و فهمه، و معنى وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كلّ شىء تدعو إليه الحاجة: كالعلم و النبوّة و الحكمة و المال و تسخير الجن و الإنس و الطير و الرياح و الوحش و الدواب، و كل ما بين السماء و الأرض.

و جاء سليمان بنون العظمة، و المراد نفسه، بيانا لحاله من كونه مطاعا لا يخالف، لا تكبرا، و تعظيما لنفسه، و الإشارة بقوله: إِنَّ هذا إلى ما تقدّم ذكره من التعليم و الإيتاء لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ أى: الظاهر الواضح الذى لا يخفى على أحد، أو المظهر لفضيلتنا وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ الحشر: الجمع، أى: جمع له جنوده من هذه الأجناس. و قد أطال المفسرون فى ذكر مقدار جنده و بالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول و لا تصحّ من جهة النقل، و لو صحت لكان فى القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك و أكثر فَهُمْ يُوزَعُونَ أى: لكلّ طائفة منهم وزعة تردّ أوّلهم على آخرهم، فيقفون على مراتبهم، يقال وزعه يزعه وزعا: كفه، و الوازع فى الحرب: الموكل بالصفوف يزع من تقدّم منهم، أى: يردّه، و منه قول النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصّباو قلت ألمّا أصح و الشّيب وازع

و قول الآخر:

و من لم يزعه لبّه و حياؤهفليس له من شيب فوديه وازع

و قول الآخر:

و لا يزع النفس اللّجوج عن الهوىمن الناس إلا وافر العقل كامله

و قيل: من التوزيع بمعنى التفريق، يقال: القوم أوزاع: أى طوائف حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام، و يكون غاية لما قبلها، و المعنى فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية، و هو إتيانهم على واد النمل، أى: فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ، و على واد النمل متعلق باتوا، و عدّى بعلى لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون. و المعنى: أنهم قطعوا الوادى و بلغوا

---

(۱). جاء فى اللسان مادة فغر: قال حميد يصف حمامة: عجبت لها أنّى يكون غناؤهافصيحا و لم تفغر بمنطقها فما فتح القدير، ج۴، ص: ۱۵۱

آخره، و وقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعا للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله: الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ «۱» إلا الكسائى فإنه وقف بالياء، قال: لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل. قال كعب: واد النمل بالطائف. و قال قتادة و مقاتل: هو بالشام قالَتْ نَمْلَةٌ هذا جواب إذا، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادى، فرت و نبهت سائر النمل منادية

لها قائلة: يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب، و المساكن: هى الأمكنة التى يسكن النمل فيها.

قيل: و هذه النملة التى سمعها سليمان هى أنثى، بدليل تأنيث الفعل المسند إليها. و ردّ هذا أبو حيان فقال:

إلحاق التاء فى قالت، لا يدلّ على أن النملة مؤنثة، بل يصحّ أن يقال فى المذكر قالت، لأن نملة، و إن كانت بالتاء فهى مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل، و لا بتأنيثه، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى، و لا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة «۲»، و لا بالتعرض لاسم النملة، و لما ذكر من القصص الموضوعة، و الأحاديث المكذوبة. و قرأ الحسن و طلحة و معمر بن سليمان «نملة» و النمل بضم الميم و فتح النون، بزنة رجل و سمرة.

و قرأ سليمان التيمى بضمتين فيهما. لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ الحطم: الكسر، يقال حطمته حطما: أى كسرته كسرا، و تحطم تكسر، و هذا النهى هو فى الظاهر للنمل، و فى الحقيقة لسليمان، فهو من باب: لا أرينك هاهنا، و يجوز أن يكون بدلا من الأمر، و يحتمل أن يكون جوابا للأمر. قال أبو حيان:

أما تخريجه على جواب الأمر، فلا يكون إلا على قراءة الأعمش، «لا يحطمكم» بالجزم بدون نون التوكيد، و أما مع وجود نون التوكيد فلا يجوز ذلك إلا فى الشعر. قال سيبويه: و هو قليل فى الشعر، شبهوه بالنهى حيث كان مجزوما. و قرأ أبىّ «ادخلوا مساكنكنّ» و قرأ شهر بن حوشب «مسكنكم» و قرأ الحسن و أبو رجاء و قتادة و عيسى الهمدانى «لا يحطّمنّكم» بضمّ الياء و فتح الحاء و تشديد الطاء، و قرأ ابن أبى إسحاق و يعقوب و أبو عمرو فى رواية بسكون نون التوكيد، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل يحطمنكم، أى: لا يشعرون بحطمكم و لا يعلمون بمكانكم، و قيل: إن المعنى: و النمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها، و هو بعيد فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها قرأ ابن السميقع «ضحكا» و على قراءة الجمهور يكون ضاحكا: حالا مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم، و قيل: هى حال مقدّرة لأن التبسم أوّل الضحك، و قيل: لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينا له، و قيل: إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير، و على قراءة ابن السميقع يكون ضحكا: مصدرا منصوبا بفعل محذوف، أو فى موضع الحال، و كان ضحك سليمان تعجبا من قولها، و فهمها، و اهتدائها إلى تحذير النمل وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَ و قد تقدم بيان معنى أوزعنى قريبا فى قوله: «فهم يوزعون» قال فى الكشاف: و حقيقة أوزعنى: اجعلنى أزع شكر نعمك عندى و أكفه، و أرتبطه لا ينفلت

---

(۱). الفجر: ۹.

(۲). كان يغنى عن ذلك كله الرجوع إلى كتب اللغة و فيها: النملة: واحدة النمل للذكر و الأنثى.

عنى، حتى لا أنفك شاكرا لك، انتهى. قال الواحدى: أوزعنى أى: ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ، يقال: فلان موزع بكذا، أى: مولع به، انتهى. قال القرطبى: و أصله من وزع، فكأنه قال:

كفنى عما يسخطك انتهى. و المفعول الثانى لأوزعنى هو: أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ. و قال الزجاج:

إن معنى أوزعنى: امنعنى أن أكفر نعمتك، و هو تفسير باللازم، و معنى و على والدىّ: الدعاء منه بأن يوزعه اللّه شكر نعمته على والديه، كما أوزعه شكر نعمته عليه، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه، و ذلك يستوجب الشكر منه للّه سبحانه، ثم طلب أن يضيف اللّه له لواحق نعمه إلى سوابقها، و لا سيما النعم الدينية، فقال:

وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ أى: عملا صالحا ترضاه منى، ثم دعا أن يجعله اللّه سبحانه فى الآخرة داخلا فى زمرة الصالحين، فإن

ذلك هو الغاية التى يتعلق الطلب بها، فقال: وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ و المعنى: أدخلنى فى جملتهم، و أثبت اسمى فى أسمائهم، و احشرنى فى زمرتهم إلى دار الصالحين، و هى الجنة، اللهم و إنى أدعوك بما دعاك به هذا النبيّ الكريم فتقبل ذلك منى و تفضل عليّ به، فإني و إن كنت مقصرا فى العمل ففضلك هو سبب الفوز بالخير، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، و أوضح بيان بأن دخول الجنة التى هى دار المؤمنين بالتفضل منك، لا- بالعمل منهم كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه فى الصحيح «سدّدوا و قاربوا و اعلموا أنه لن يدخل أحد الجنّة بعمله، قالوا: و لا أنت يا رسول اللّه؟ قال و لا- أنا إلا- أن يتغمدنى اللّه برحمته» إذا لم يكن إلا- تفضلك الواسع فترك طلبه منك عجز، و التفريط فى التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع، ثم شرع سبحانه فى ذكر قصة بلقيس، و ما جرى بينها و بين سليمان، و ذلك بدلالة الهدهد فقال: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ التفقد: تطلب ما غاب عنك و تعرّف أحواله، و الطير: اسم جنس لكل ما يطير، و المعنى: أنه تطلب ما فقد من الطير، و تعرف حال ما غاب منها، و كانت الطير تصحبه فى سفره، و تظله بأجنحتها فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ أى: ما للهدهد لا أراه؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذى تستعمله العرب كثيرا، و قيل: لا حاجة إلى ادّعاء القلب، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد، كأنه قال: مالى لا أراه هل ذلك لساتر يستره عنى، أو لشيء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب فقال: أم كان من الغائبين، و أم هى المنقطعة التى بمعنى الإضراب، قرأ ابن كثير و ابن محيصن و هشام و أيوب «مالى» بفتح الياء، و كذلك قرءوا فى يس وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي «١» بفتح الياء و قرأ بإسكانها فى الموضعين حمزة و الكسائى و يعقوب، و قرأ الباقون بفتح التى فى يس، و إسكان التى هنا.

قال أبو عمرو: لأن هذه التى هنا استفهام، و التى فى يس نفى، و اختار أبو حاتم و أبو عبيد الإسكان لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ

اختلفوا فى هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال مجاهد و ابن جريج: هو أن ينتف ريشه جميعا. و قال يزيد ابن رومان: هو أن ينتف ريش جناحيه، و قيل: هو أن يحبسه مع أضداده، و قيل: أن يمنعه من خدمته، و فى هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب، لا على قدر الجسد. و قوله عذابا اسم مصدر أو مصدر على

---

(١). يس: ٢٢.

حذف الزوائد كقوله: أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً «١» أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشدّدة بعدها نون الوقاية، و قرأ الباقون بنون مشدّدة فقط، و هى نون التوكيد، و قرأ عيسى ابن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء، و السلطان المبين: هو الحجة البينة فى غيبته «فمكث» ابن عمر بنون مشددة مفتوحة غير موصولة بالياء، و السلطان المبين: هو الحجة البينة فى غيبته فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ أى: الهدهد مكث زمانا غير بعيد. قرأ الجمهور «مكث» بضم الكاف، و قرأ عاصم وحده بفتحها، و معناه فى القراءتين: أقام زمانا غير بعيد. قال سيبويه: مكث يمكث مكوثا كقعد يقعد قعودا.

و قيل: إن الضمير فى مكث لسليمان. و المعنى: بقى سليمان بعد التفقد و التوعد زمانا غير طويل، و الأوّل أولى فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ أى: علمت ما لم تعلمه من الأمر، و الإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته، و لعلّ فى الكلام حذفا، و التقدير: فمكث الهدهد غير بعيد، فجاء فعوتب على مغيبه، فقال معتذرا عن ذلك أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ قال الفراء: و يجوز إدغام التاء فى الطاء، فيقال: حطّ، و إدغام الطاء فى التاء فيقال: أحتّ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ قرأ الجمهور من سبأ بالصرف على أنه اسم رجل، نسب إليه قوم، و منه قول الشاعر:

الواردون و تيم فى ذرى سبأقد عضّ أعناقهم جلد الجواميس

و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بفتح الهمزة، و ترك الصرف على أنه اسم مدينة، و أنكر الزجاج أن يكون اسم رجل و قال: سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن، بينها و بين صنعاء ثلاثة أيام. و قيل: هو اسم امرأة سميت بها المدينة. قال القرطبى: و الصحيح أنه اسم رجل، كما فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مسيك المرادى.

قال ابن عطية: و خفى هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء. و زعم الفراء أن الرؤاسى سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال: ما أدرى ما هو؟ قال النحاس: و أبو عمرو أجلّ من أن يقول هذا، قال: و القول فى سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل اسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار اسما للحىّ، و إن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة، مثل ثمود، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف، انتهى.

و أقول: لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس، و هو أيضا اسم رجل من قحطان! و هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، و لكن المراد هنا أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه فى مدينة سبأ مما وصفه، و سيأتى فى آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا و يؤيده، و معنى الآية: أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين، و النبأ: هو الخبر الخطير الشأن، فلما قال الهدهد لسليمان ما قال، قال له سليمان: و ما ذاك؟ فقال: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ و هى: بلقيس بنت شرحبيل، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ، و الجملة هذه كالبيان و التفسير للجملة التى قبلها، أى: ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فيه مبالغة، و المراد أنها أوتيت من كلّ شىء من الأشياء التى تحتاجها، و قيل المعنى: أوتيت من كلّ شىء فى زمانها شيئا، فحذف شيئا لأن الكلام قد دلّ عليه وَ لَها

---

(١). نوح: ١٧.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ١٥٤

عَرْشٌ عَظِيمٌ أى: سرير عظيم، و وصفه بالعظم لأنه كما قيل كان من ذهب، طوله ثمانون ذراعا، و عرضه أربعون ذراعا، و ارتفاعه فى السماء ثلاثون ذراعا، مكلل بالدر و الياقوت الأحمر، و الزبرجد الأخضر. و قيل:

المراد بالعرش هنا الملك، و الأوّل: أولى لقوله: أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قال ابن عطية: و اللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم و سرير عظيم، و كانت كافرة من قوم كفار وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: يعبدونها متجاوزين عبادة اللّه سبحانه، قيل: كانوا مجوسا، و قيل:

زنادقة وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التى يعملونها، و هى عبادة الشمس و سائر أعمال الكفر فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أى: صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح، و هو الإيمان باللّه و توحيده فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ إلى ذلك أَلَّا يَسْجُدُوا قرأ الجمهور بتشديد «ألا». قال ابن الأنبارى:

الوقف على فهم لا يهتدون غير تامّ عند من شدّد ألا، لأنّ المعنى: و زين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هى أن دخلت عليها لا، و هى فى موضع نصب. قال الأخفش: أى زين لهم أن لا يسجدوا للّه بمعنى لئلا يسجدوا للّه. و قال الكسائى: هى فى موضع نصب يصدّهم، أى: فصدّهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا، فهو على الوجهين مفعول له. و قال اليزيدى: إنه بدل من أعمالهم فى موضع نصب. و قال أبو عمرو: فى موضع خفض على البدل من السبيل. و قيل: العامل فيها: لا يهتدون، أى: فهم لا يهتدون أن يسجدوا للّه، و تكون (لا) على هذا زائدة كقوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ و على قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة، لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إما بالتزيين أو بالصدّ أو بمنع الاهتداء، و قد رجح كونه علة للصدّ الزجاج، و رجح الفراء كونه علّة لزيّن، قال: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، ثم حذفت اللام. و قرأ الزهرى و الكسائى بتخفيف «ألا». قال

الكسائى: ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر، فتكون «ألا» على هذه القراءة حرف تنبيه و استفتاح و ما بعدها حرف نداء، و اسجدوا فعل أمر، و كان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا «ألا يا اسجدوا»، و لكن الصحابة رضى اللّه عنهم أسقطوا الألف من يا و همزة الوصل من اسجدوا و وصلوا الياء بسين اسجدوا، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا، و المنادى محذوف، و تقديره: ألا يا هؤلاء اسجدوا، و قد حذفت العرب المنادى كثيرا فى كلامها، و منه قول الشاعر:

ألا يا اسلمى يا دارمىّ على البلى و لا زال منهلّا بجرعائك القطر

و قول الآخر:

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمّت اسلمى ثلاث تحيّات و إن لم تكلّم

و قول الآخر أيضا:

أر يا اسلمى يا هند هند بنى بكر و هو كثير فى أشعارهم. قال الزجاج: و قراءة التخفيف تقتضى وجوب السجود دون قراءة التشديد،

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۵۵

و اختار أبو حاتم و أبو عبيد قراءة التشديد. قال الزجاج: و لقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم، و القراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع فى وسطه، و كذا قال النحاس، و على هذه القراءة تكون جملة ألا يسجدوا معترضة من كلام الهدهد، أو من كلام سليمان، أو من كلام اللّه سبحانه. و فى قراءة عبد اللّه بن مسعود «هل لا تسجدوا» بالفوقية، و فى قراءة أبىّ «ألّا تسجدوا» بالفوقية أيضا الَّذِی يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يظهر ما هو مخبوء و مخفىّ فيهما، يقال: خبأت الشىء أخبؤه خبأ، و الخبء ما خبأته. قال الزجاج: جاء فى التفسير أن الخبء هاهنا بمعنى القطر من السماء و النبات من الأرض. و قيل: خبء الأرض كنوزها و نباتها.

و قال قتادة: الخبء السرّ. قال النحاس، أى: ما غاب فى السموات و الأرض. و قرأ أبىّ و عيسى بن عمر «الخب» بفتح الباء من غير همز تخفيفا، و قرأ عبد اللّه و عكرمة و مالك بن دينار «الخبا» بالألف قال أبو حاتم: و هذا لا يجوز فى العربية. و ردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن. و فى قراءة عبد اللّه «يخرج الخبء من السموات و الأرض». قال الفراء: و من و فى يتعاقبان، و الموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للّه سبحانه، أو بدلا منه، أو بيانا له، و يجوز أن يكون فى محل نصب على المدح، و يجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و جملة وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ معطوفة على يخرج، قرأ الجمهور بالتحتية فى الفعلين، و قرأ الجحدرى و عيسى بن عمر و حفص و الكسائى بالفوقية للخطاب، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدّمة ضمائر غيبة، و أما القراءة الثانية فلكون قراءة الزهرى و الكسائى فيها الأمر بالسجود و الخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب. و المعنى:

أن اللّه سبحانه يخرج ما فى هذا العالم الإنسانى من الخفاء بعلمه له كما يخرج ما خفى فى السموات و الأرض، ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته و جليل سلطانه و وجوب توحيده و تخصيصه بالعبادة قال: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قرأ الجمهور العظيم بالجرّ نعتا للعرش، و قرأ ابن محيصن بالرفع نعتا للربّ، و خصّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك فى المرفوع إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إن اللّه لم ينعم على عبد نعمة فحمد اللّه عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل. قال اللّه عزّ و جلّ: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ و أى نعمة أفضل مما أعطى داود و سليمان.

أقول: ليس فى الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه اللّه، و الذى تدلّ عليه أنهما حمدا اللّه سبحانه على ما فضلهما به من النعم، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته؟ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ قال: ورثه نبوّته و ملكه و علمه. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد فى الزهد و ابن أبى حاتم عن أبى الصديق الناجى قال: «خرج سليمان بن داود يستسقى بالناس، فمرّ على

نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء، و هى تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك، فإمّا أن تسقينا و إما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم». و أخرج الحاكم فى المستدرک عن جعفر بن محمد قال: أعطى سليمان ملك مشارق الأرض و مغاربها، فملك سليمان سبعمائة سنة و ستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم، من الجن و الإنس، و الدواب، و الطير، و السباع، و أعطى كل شىء، و منطق كل شىء، و فى زمانه صنعت الصنائع المعجبة، حتى إذا أراد اللّه أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يستودع علم اللّه و حكمته أخاه، و ولد داود كانوا أربعمائة و ثمانين رجلا أنبياء بلا رسالة. قال الذهبى:

و قد رويت قصص فى عظم ملك سليمان لا تطيب النفس بذكر شىء منها، فالإمساک عن ذكرها أولى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَهُمْ يُوزَعُونَ قال يدفعون. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: فَهُمْ يُوزَعُونَ قال: جعل لكل صنف وزعة، تردّ أولاها على أخراها، لئلا تتقدّمه فى السير كما تصنع الملوک. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَوْزِعْنِي قال: ألهمنى. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه من طرق عن ابن عباس أنه سئل كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: إن سليمان نزل منزلا فلم يدر ما بعد الماء، و كان الهدهد يدلّ سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه ففقده، قيل: كيف ذاک و الهدهد ينصب له الفخ، يلقى عليه التراب، و يضع له الصبى الحبالة فيغيبها فيصيده؟ فقال:

إذا جاء القضاء ذهب البصر. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً قال: أنتف ريشه كله، و روى نحو هذا عن جماعة من التابعين، و روى ابن أبى حاتم عن الحسن قال: كان اسم هدهد سليمان غبر.

و أقول: من أين جاء علم هذا للحسن رحمه اللّه؟ و هكذا ما رواه عنه ابن عساكر أن اسم النملة حرس، و أنها من قبيلة يقال لها بنو الشيصان، و أنها كانت عرجاء، و كانت بقدر الذئب، و هو رحمه اللّه أورع الناس عن نقل الكذب، و نحن نعلم أنه لم يصحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى ذلک شىء، و نعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان، أو بأحد من أصحابه، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب، و قد أمرنا أن لا نصدّقهم و لا نكذبهم، فإن ترخص بالرواية عنهم لمثل ما روى «حدّثوا عن بنى إسرائيل و لا حرج» فليس ذلک فيما يتعلق بتفسير كتاب اللّه سبحانه بلا شک، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم، و قد كرّرنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ قال: خبر الحقّ الصدق البين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس: كل سلطان فى القرآن حجة و ذكر هذه الآية، ثم قال: و أىّ سلطان كان للهدهد؟ يعنى أن المراد بالسلطان الحجة لا السلطان الذى هو الملک. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ قال: اطلعت على ما لم تطلع عليه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا

وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ قال: سبأ بأرض اليمن، يقال لها مأرب بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاث ليال بِنَبَإٍ يَقِينٍ قال: بخبر حقّ. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عنه أيضا: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ قال:

كان اسمها بلقيس بنت ذى شيرة، و كانت صلباء شعراء. و روى عن الحسن و قتادة و زهير بن محمد أنها بلقيس بنت شراحيل، و عن ابن جريج بنت ذى شرح. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ فى العظمة و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «أحد أبوى بلقيس كان جنّيا» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ قال: سرير كريم من ذهب و قوائمه من جوهر و لؤلؤ حسن الصنعة غالى الثمن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُخْرِجُ الْخَبْءَ قال: يعلم كل خبيئة فى السماء و الأرض.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢٧ الى ٤٠]

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (٢٨) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (٣٣) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (٣٧) قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

جملة قالَ سَنَنْظُرُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أى: قال سليمان للهدهد: سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة أَ صَدَقْتَ فيما قلت أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ هذه الجملة الاستفهامية فى محل نصب على أنها مفعول سننظر، و أم هى المتصلة، و قوله: أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ أبلغ من قوله أم كذبت، لأن المعنى:

من الذين اتصفوا بالكذب و صار خلقا لهم. و النظر هو التأمل و التصفح، و فيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار، و الكشف عن الحقائق، و عدم قبول خبر المخبرين تقليدا لهم، و اعتمادا عليهم، إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه. ثم بين سليمان هذا النظر الذى وعد به فقال: اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ أى: إلى أهل سبأ. قال الزجاج: فى ألقه خمسة أوجه: إثبات الياء فى اللفظ و حذفها، و إثبات الكسرة للدلالة عليها، و بضم الهاء و إثبات الواو، و بحذف الواو و إثبات الضمة للدلالة عليها، و بإسكان الهاء. و قرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو و حمزة و أبو بكر. و قرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء. و روى عن هشام وجهان: إثبات الياء

فتح القدير، ج‌٤، ص: ١٥٨

لفظا و حذفها مع كسر الهاء. و قرأ الباقون بإثبات الياء فى اللفظ، و قوله: بِكِتابِي هذا يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب، و أن يكون بدلا منه، و أن يكون بيانا له، و خصّ الهدهد بإرساله بالكتاب لأنه المخبر بالقصة، و لكونه رأى منه من مخايل

الفهم، و العلم، و ما يقتضى كونه أهلا للرسالة ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ أى تنحّ عنهم، أمره بذلك لكون التنحى بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التى يتأدب بها رسل الملوك، و المراد: التنحى إلى مكان يسمع فيه حديثهم، حتى يخبر سليمان بما سمع، و قيل: معنى التولى: الرجوع إليه، و الأوّل أولى لقوله: فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ أى: تأمل و تفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول، و ما يتراجعونه بينهم من الكلام قالَتْ أى: بلقيس يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ فى الكلام حذف، و التقدير: فذهب الهدهد فألقاه إليهم، فسمعها تقول: يا أيها الملأ إلخ، و وصفت الكتاب بالكريم، لكونه من عند عظيم فى نفسها، فعظمته إجلالا لسليمان، و قيل: وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن، و قيل: وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوما بخاتم سليمان، و كرامة الكتاب ختمه كما روى ذلك مرفوعا، ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أى:

و إن ما اشتمل عليه من الكلام و تضمنه من القول مفتتح بالتسمية و بعد التسمية أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى أى:

لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك، و أن هى المفسرة، و قيل: مصدرية، و لا: ناهية، و قيل: نافية، و محل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هو أن لا تعلوا. قرأ الجمهور «إنه من سليمان و إنه» بكسرهما على الاستئناف، و قرأ عكرمة و ابن أبى عبلة بفتحهما على إسقاط حرف الجرّ، و قرأ أبىّ «إن من سليمان و إن بسم اللّه» بحذف الضميرين و إسكان النونين على أنهما مفسرتان، و قرأ عبد اللّه بن مسعود «و إنه من سليمان» بزيادة الواو، و روى ذلك أيضا عن أبىّ. و قرأ أشهب العقيلى و ابن السميقع «أن لا تغلو» بالغين المعجمة من الغلوّ، و هو تجاوز الحدّ فى الكبر وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ أى: منقادين للدين، مؤمنين بما جئت به قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي الملأ: أشراف القوم، و المعنى يا أيها الأشراف أشيروا علىّ و بينوا لى الصواب فى هذا الأمر، و أجيبونى بما يقتضيه الحزم، و عبرت عن المشورة بالفتوى، لكون فى ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها، و فى الكلام حذف، و التقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب، جمعت أشراف قومها و قالت لهم: يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ، يا أيها الملأ أفتونى، و كرّر قالت لمزيد العناية بما قالته لهم، ثم زادت فى التأدب و استجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح، و يشيروا عليها بالصواب فقالت:

ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ أى: ما كنت مبرمة أمرا من الأمور حتى تحضروا عندى، و تشيروا علىّ، ف قالُوا مجيبين لها نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ فى العدد و العدّة وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ عند الحرب و اللقاء، لنا من الشجاعة و النجدة ما نمنع به أنفسنا، و بلدنا، و مملكتنا. ثم فوّضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها، و قوة عقلها فقالوا: وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ أى: موكول إلى رأيك و نظرك فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ أى: تأملى ماذا تأمرينا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون له، فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها أى: إذا دخلوا قرية من القرى خرّبوا مبانيها، و غيروا مغانيها، و أتلفوا

فتح القدير، ج‌4، ص: 159

أموالها، و فرّقوا شمل أهلها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً أى: أهانوا أشرافها، و حطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة و إنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك، و تستحكم لهم الوطأة و تتقرّر لهم فى قلوبهم المهابة.

قال الزجاج: أى: إذا دخلوها عنوة عن قتال و غلبة، و المقصود من قولها هذا، تحذير قومها من مسير سليمان إليهم و دخوله بلادهم، و قد صدقها اللّه سبحانه فيما قالت فقال سبحانه: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ أى: مثل ذلك الفعل يفعلون. قال ابن الأنبارى: الوقف على قوله: وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وقف تام، فقال اللّه عزّ و جلّ تحقيقا لقولها: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ و قيل: هذه الجملة من تمام كلامها، فتكون من جملة مقول قولها، و على القول الأوّل تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ثم لما قدّمت لهم هذه المقدّمة، و بينت لهم ما فى دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأى عندها، و صرحت لهم بصوابه فقالت: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ أى: إنى أجرّب هذا الرجل بإرسال رسلى إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال، فإن

كان ملكا أرضيناه بذلك، و كفينا أمره، و إن كان نبيا لم يرضه ذلك، لأن غاية مطلبه و منتهى أربه هو الدعاء إلى الدين، فلا ينجينا منه إلّا إجابته و متابعته و التدين بدينه و سلوك طريقته، و لهذا قالت:

فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ الفاء للعطف على مرسلة، و بم: متعلق بيرجع، و المعنى: إنى ناظرة فيما يرجع به رسلى المرسلون بالهدية، من قبول أو ردّ فعامله بما يقتضيه ذلك، و قد طوّل المفسّرون فى ذكر هذه الهدية، و سيأتى فى آخر البحث بين ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب و الصحة فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ أى:

فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان، و المراد بهذا المضمر الجنس، فلا ينافى كونهم جماعة كما يدل عليه قولها: «بم يرجع المرسلون» و قرأ عبد اللّه «فلما جاءوا سليمان» أى: الرسل، و جملة قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، و الاستفهام للإنكار، أى: قال منكرا لإمدادهم له بالمال، مع علوّ سلطانه، و كثرة ماله. و قرأ حمزة بإدغام نون الإعراب فى نون الوقاية، و الباقون بنونين من غير إدغام، و أما الياء فإن نافعا و أبا عمرو و حمزة يثبتونها وصلا، و يحذفونها وقفا، و ابن كثير يثبتها فى الحالين، و الباقون يحذفونها فى الحالين. و روى عن نافع أنه يقرأ بنون واحدة فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ أى: ما آتانى من النبوّة، و الملك العظيم، و الأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذى هذه الهدية من جملته. قرأ أبو عمرو و نافع و حفص «آتانى اللّه» بياء مفتوحة، و قرأ يعقوب بإثباتها فى الوقف، و حذفها فى الوصل، و قرأ الباقون بغير ياء فى الوصل و الوقف. ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدّم فقال: بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ توبيخا لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر و خيلاء، و أما أنا فلا أفرح بها، و ليست الدنيا من حاجتى، لأن اللّه سبحانه قد أعطانى منها، ما لم يعطه أحدا من العالمين، و مع ذلك أكرمنى بالنبوّة. و المراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم، و الحط عليهم ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها أى:

قال سليمان للرسول: ارجع إليهم: أى: إلى بلقيس و قومها، و خاطب المفرد هاهنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل، إما لأن الذى سيرجع هو الرسول فقط، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا، و خاطبهم معه فيما سبق افتنانا فى الكلام. و قرأ عبد اللّه بن عباس «ارجعوا» و قيل: إن الضمير يرجع إلى الهدهد، و اللام فى

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۰

لنأتيهم جواب قسم محذوف. قال النحاس: و سمعت ابن كيسان يقول: هى لام توكيد و لام أمر و لام خفض، و هذا قول الحذاق من النحويين لأنهم يردون الشىء إلى أصله، و هذا لا يتهيأ إلا لمن درب فى العربية، و معنى «لا قبل لهم»: لا طاقة لهم بها، و الجملة فى محل جرّ صفة لجنود وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ معطوف على جواب القسم، أى: لنخرجنهم من أرضهم التى هم فيها أَذِلَّةً أى: حال كونهم أذلة بعد ما كانوا أعزّة، و جملة وَ هُمْ صاغِرُونَ فى محل نصب على الحال، قيل: و هى حال مؤكدة لأن الصغار هو الذلة، و قيل: إن المراد بالصغار هنا الأسر و الاستعباد، و قيل: إن الصغار الإهانة التى تسبب عنها الذلة. و لما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان، و أخبر جبريل سليمان بذلك ف قالَ سليمان: يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها أى: عرش بلقيس الذى تقدّم وصفه بالعظم قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ أى: قبل أن تأتينى هى و قومها مسلمين. قيل: إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه و يسلموا، لأنها إذا أسلمت و أسلم قومها لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم. قال ابن عطية: و ظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هى بعد مجىء هديتها و ردّه إياها و بعثه الهدهد بالكتاب، و على هذا جمهور المتأوّلين، و قيل: استدعاء العرش قبل وصولها ليريها القدرة التى هى من عند اللّه، و يجعله دليلا على نبوّته، و قيل: أراد أن يختبر عقلها، و لهذا قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها إلخ، و قيل: أراد أن يختبر صدق الهدهد فى وصفه للعرش بالعظم، و القول الأوّل هو الذى عليه الأكثر قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ قرأ الجمهور بكسر العين و سكون الفاء و كسر الراء و سكون المثناة التحتية و بالتاء،

و قرأ أبو رجاء و عيسى الثقفى و ابن السميقع و أبو السمال «عفريـة» بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء رويت هذه القراءة عن أبى بكر الصديق. و قرأ أبو حيان بفتح العين. و العفريت: المارد الغليظ الشديد. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث و دهاء عفر و عفرية و عفريت، و قال قتادة: هو الداهية، و قيل: هو رئيس الجنّ. قال ابن عطية:

و قرأت فرقة «عفر» بكسر العين جمعه على عفار، و مما ورد من أشعار العرب مطابقا لقراءة الجمهور و ما أنشده الكسائى:

فقال شيطان لهم عفريتما لكم مكث و لا تبييت «١»

و مما ورد على القراءة الثانية قول ذى الرمة:

كأنّه كوكب فى إثر عفريةمصوّب فى سواد اللّيل منقضب

و معنى قول العفريت أنه سيأتى بالعرش إلى سليمان، قبل أن يقوم من مجلسه الذى يجلس فيه للحكومة بين الناس وَ إِنِّی عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ إنى لقوى على حمله أمين على ما فيه. قيل: اسم هذا العفريت كودن، ذكره النحاس عن وهب بن منبه، و قال السهيلى: ذكوان، و قيل: اسمه دعوان، و قيل: صخر. و قوله:

---

(١). فى القرطبى ١٣/ ٢٠٣: إذ قال شيطانهم العفريتليس لكم ملك و لا تثبيت فتح القدير، ج‏۴، ص: ۱۶۱

آتِيكَ فعل مضارع، و أصله أأتيك بهمزتين، فأبدلت الثانية ألفا، و قيل: هو اسم فاعل قالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ قال أكثر المفسرين: اسم هذا الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا، و هو من بنى إسرائيل، و كان وزيرا لسليمان، و كان يعلم اسم اللّه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، و إذا سئل به أعطى. قال ابن عطية: و قالت فرقة هو سليمان نفسه، و يكون الخطاب على هذا للعفريت: كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت، فقال له تحقيرا له أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ و قيل: هو جبريل، و قيل: الخضر، و الأوّل أولى. و قد قيل غير ذلك بما لا أصل له. و المراد بالطرف: تحريك الأجفان و فتحها للنظر و ارتداده انضمامها. و قيل: هو بمعنى المطروف، أى: الشى‏ء الذى ينظره، و قيل: هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبه: أفعل ذلك فى لحظة، قاله مجاهد، و قال سعيد بن جبير: إنه قال لسليمان: انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به، فوضعه بين يديه. و المعنى:

حتى يعود إليك طرفك بعد مدّة إلى السماء، و الأول: أولى هذه الأقوال: ثم الثالث: فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قيل: فى الآية حذف، و التقدير: فأذن له سليمان فدعا اللّه فأتى به، فلما رآه سليمان مستقرّا عنده، أى: رأى العرش حاضرا لديه قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِيَبْلُوَنِی أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ الإشارة بقوله هذا إلى حضور العرش، ليبلونى: أى ليختبرنى أشكره بذلك و أعترف أنه من فضله من غير حول منى و لا قوّة، أم أكفر بترك الشكر، و عدم القيام به. قال الأخفش: المعنى لينظر: أ أشكر أم أكفر، و قال غيره: معنى ليبلونى ليتعبدنى، و هو مجاز، و الأصل فى الابتلاء: الاختبار وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة و دوامها، و المعنى: أنه لا يرجع نفع ذلك إلا إلى الشاكر وَ مَنْ كَفَرَ بترك الشكر فَإِنَّ رَبِّی غَنِيٌّ عن شكره كَرِيمٌ فى ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه و سلبه ما أعطاه منها، و أم فى «أم أكفر» هى المتصلة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: اذْهَبْ بِكِتابِی هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ كن قريبا منهم فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها فقرى‏ء عليها فإذا فيه إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ و أخرج ابن مردويه عنه كِتابٌ كَرِيمٌ قال: مختوم و أخرج ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يكتب «باسمك اللّهم» حتى نزلت إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ و أخرج أبو داود فى مراسيله عن أبى مالك مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَفْتُونِی فِی أَمْرِی قال: جمعت رؤوس مملكتها، فشاورتهم فى

رأيها، فأجمع رأيهم و رأيها على أن يغزوه، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت: أرسل إليه بهدية، فإن قبلها فهو ملك أقاتله، و إن ردّها تابعته فهو نبيّ. فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم، فأمر الشياطين فموّهوا ألف قصر من ذهب و فضة، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا، و قصوره ذهب و فضة، فلما دخلوا عليه بهديتها قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ ثم قال سليمان أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ فقال كاتب سليمان: ارفع بصرك فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۲

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها فنزع منه فصوصه و مرافقه و ما كان عليه من شيء ف قِيلَ لها أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ و أمر الشياطين فجعلوا لها صرحا ممرّدا من قوارير فيها تماثيل السمك، ف قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فكشفت عن ساقيها فإذا فيها شعر، فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت، فقيل لها:

إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ و أخرج ابن أبی شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها قال: إذا أخذوها عنوة أخربوها. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: يقول الربّ تبارك و تعالى: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ و أخرج ابن أبی شيبة فی المصنف و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا فی قوله: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ قال: أرسلت لبنة من ذهب، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله: أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ الآية. و قال ثابت البنانی أهدت له صفائح الذهب فی أوعية الديباج. و قال مجاهد: جواری لباسهن لباس الغلمان، و غلمان لباسهم لباس الجواری. و قال عكرمة: أهدت مائتی فرس على كل فرس غلام و جارية، و على كلّ فرس لون ليس على الآخر. و قال سعيد بن جبير: كانت الهدية جواهر، و قيل: غير ذلك مما لا فائدة فی التطويل بذكره. و أخرج ابن المنذر من طريق علیّ بن أبی طلحة عن ابن عباس فی قوله: قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قال: طائعين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه قال: اسم العفريت:

صخر. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ قال: من مجلسك. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أيضا قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ قال: هو آصف بن برخيا، و كان صدّيقا يعلم الاسم الأعظم. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد قال فی قراءة ابن مسعود «قال الذی عنده علم من الكتاب أنا أنظر فی كتاب ربی، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» قال: فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش فی نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فی قوله: قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ قال: قال لسليمان انظر إلى السماء، قال: فما أطرف حتى جاءه به فوضعه بين يديه. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن المنذر و ابن عساكر عن ابن عباس قال: لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض و السماء، و لكن انشقت به الأرض، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدی سليمان.

[سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (۴۱) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ (۴۲) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (۴۳) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۴)

قوله: نَكِّرُوا لَها عَرْشَها التنكير: التغيير، يقول: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته. قيل:

جعل أعلاه أسفله، و أسفله أعلاه، و قيل: غيّر بزيادة و نقصان. قال الفراء و غيره: إنما أمر بتنكيره لأن

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۳

الشياطين قالوا له إن فى عقلها شيئا، فأراد أن يمتحنها، و قيل: خافت الجنّ أن يتزوج بها سليمان، فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدا، فقالوا لسليمان إنها ضعيفة العقل و رجلها كرجل الحمار، و قوله: نَنْظُرْ بالجزم على أنه جواب الأمر، و بالجزم قرأ الجمهور، و قرأ أبو حيان بالرفع على الاستئناف أَ تَهْتَدِي إلى معرفته، أو إلى الإيمان بالله أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ إلى ذلك فَلَمَّا جاءَتْ أى: بلقيس إلى سليمان قِيلَ لها، و القائل هو سليمان، أو غيره بأمره أَ هكَذا عَرْشُكِ لم يقل هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينا لها فلا يتمّ الاختبار لعقلها قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ قال مجاهد: جعلت تعرف و تنكر و تعجب من حضوره عند سليمان، فقالت: كأنه هو. و قال مقاتل: عرفته و لكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، و لو قيل لها: أ هذا عرشك؟ لقالت: نعم. و قال عكرمة: كانت حكيمة، قالت: إن قلت هو خشيت أن أكذب، و إن قلت لا خشيت أن أكذب، فقالت: كأنه هو، و قيل: أراد سليمان أن يظهر لها أن الجنّ مسخرون له وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ قيل: هو من كلام بلقيس، أى: أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش «و كنا مسلمين» منقادين لأمره. و قيل: هو من قول سليمان، أى: أتينا العلم بقدرة اللّه من قبل بلقيس، و قيل: أوتينا العلم بإسلامها و مجيئها طائعة من قبلها، أى: من قبل مجيئها، و قيل: هو من كلام قوم سليمان. و القول الثانى: أرجح من سائر الأقوال وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ هذا من كلام اللّه سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام، ففاعل صد هو ما كانت تعبد، أى: منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده، و هى الشمس. قال النحاس: أى صدّها عبادتها من دون اللّه، و قيل: فاعل صدّ هو اللّه، أى: منعها اللّه ما كانت تعبد من دونه فتكون «ما» فى محل نصب، و قيل: الفاعل سليمان، أى: و منعها سليمان ما كانت تعبد، و الأول: أولى، و الجملة مستأنفة للبيان كما ذكرنا، و جملة إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ تعليل للجملة الأولى، أى: سبب تأخرها عن عبادة اللّه، و منع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر. قرأ الجمهور «إنها» بالكسر.

و قرأ أبو حيان بالفتح. و فى هذه القراءة وجهان: أحدهما أن الجملة بدل مما كانت تعبد. و الثانى أن التقدير:

لأنها كانت تعبد، فسقط حرف التعليل قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ قال أبو عبيدة: الصرح: القصر.

و قال الزجاج: الصرح الصحن. يقال هذه صرحة الدار و قاعتها. قال ابن قتيبة: الصرح بلاط اتخذ لها من قوارير و جعل تحته ماء و سمك. و حكى أبو عبيد فى الغريب أن الصرح كل بناء عال مرتفع، و أن الممرّد الطويل فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها أى: فلما رأت الصرح بين يديها حسبت أنه لجة، و اللجة معظم الماء، فلذلك كشفت عن ساقيها لتخوض الماء، فلما فعلت ذلك قالَ سليمان إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ الممرّد المحكوك المملس، و منه الأمر، و تمرّد الرجل إذا لم تخرج لحيته، قال الفراء. و منه الشجرة المرداء التى لا ورق لها. و الممرّد أيضا المطوّل، و منه قيل للحصن: مارد، و منه قول الشاعر:

غدوت صباحا باكرا فوجدتهمقبيل الضّحى فى السّابرىّ الممرّد

أى: الدروع الواسعة الطويلة، فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت و استسلمت، و قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۴

أى: بما كنت عليه من عبادة غيرك، و قيل: بالظنّ الذى توهمته فى سليمان، لأنها توهمت أنه أراد تغريقها فى اللجة، و الأوّل أولى وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ متابعة له داخلة فى دينه لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ التفتت من الخطاب إلى الغيبة، قيل: لإظهار معرفتها باللّه، و الأولى أنها التفتت لما فى هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء، و لكونه علما للذات.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: نَكِّرُوا لَها عَرْشَها قال: زيد فيه و نقص ل نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي قال: لننظر

إلى عقلها فوجدت ثابتة العقل. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها قال: من قول سليمان. و أخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد نحوه. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً قال: بحرا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه فى أثر طويل أن سليمان تزوّجها بعد ذلك. قال أبو بكر ابن أبى شيبة: ما أحسنه من حديث. قال ابن كثير فى تفسيره بعد حكايته لقول أبى بكر بن أبى شيبة: بل هو منكر جدا، و لعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، و اللّه أعلم.

و الأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب بما يوجد فى صحفهم، كروايات كعب و وهب سامحهما اللّه، فيما نقلا- إلى هذه الأمة من بنى إسرائيل من الأوابد و الغرائب و العجائب، مما كان، و مما لم يكن، و مما حرّف و بدّل و نسخ، انتهى، و كلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه فى هذا التفسير و نبهنا عليه فى عدّة مواضع، و كنت أظنّ أنه لم ينبه على ذلك غيرى. فالحمد للّه على الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف. و أخرج البخارى فى تاريخه و العقيلى عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أوّل من صنعت له الحمّامات سليمان» و روى عنه مرفوعا من طرق أخرى رواها الطبرانى و ابن عدىّ فى الكامل و البيهقى فى الشعب بلفظ «أوّل من دخل الحمّام سليمان فلمّا وجد حرّه قال أوّه من عذاب اللّه».

[سورة النمل (٢٧): الآيات ۴۵ الى ۵۳]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (۴۵) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷) وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (۴۸) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۴۹)

وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۱) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵۲) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵۳)

قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا معطوف على قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ و اللام: هى الموطئة للقسم، و هذه القصة من جملة بيان قوله: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ و صالِحاً عطف بيان،

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۵

و أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ تفسير للرسالة، و أن: هى المفسرة، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: بأن اعبدوا اللّه، و إذا، فى فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ هى: الفجائية، أى: ففاجؤوا التفرق و الاختصام، و المراد بال فَرِيقانِ المؤمنون منهم و الكافرون، و معنى الاختصام: أن كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه، و يزعم أن الحقّ معه، و قيل: إن الخصومة بينهم فى صالح، هل هو مرسل أو لا؟ و قيل: أحد الفريقين: صالح، و الفريق الآخر:

جميع قومه، و هو ضعيف قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ أى: قال صالح للفريق الكافر منهم، منكرا عليهم: لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة. و المعنى: لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب، و تقدّمون الكفر الذى يجلب إليكم العقوبة؟ و قد كانوا لفرط كفرهم يقولون: ائتنا يا صالح بالعذاب لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ هلا تستغفرون اللّه، و تتوبون إليه من الشرك لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ رجاء أن ترحموا أو كى ترحموا فلا تعذبوا، فإن استعجال الخير، أولى من استعجال الشرّ، و وصف العذاب بأنه سيئة مجازا، إما لأن العقاب من لوازمه، أو لأنه يشبهه فى كونه مكروها، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح و الكلام اللين أنهم قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ أصله: تطيرنا، و قد قرئ بذلك، و التطير:

التشاؤم، أی: تشاءمنا بک، و بمن معک ممن أجابک، و دخل فی دینک، و ذلک لأنه أصابهم قحط، فتشاءموا بصالح، و قد کانت العرب أکثر الناس طیرة، و أشقاهم بها، و کانوا إذا أرادوا سفرا، أو أمرا من الأمور، نفروا طائرا من وکره، فإن طار یمنة ساروا، و فعلوا ما عزموا علیه، و إن طار یسرة ترکوا ذلک، فلما قالوا ذلک قالَ لهم صالح طائِرُکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أی: لیس ذلک بسبب الطیر الذی تتشاءمون به، بل سبب ذلک عند اللّه، و هو ما یقدّره علیکم، و المعنی: أن الشؤم الذی أصابکم هو من عند اللّه بسبب کفرکم، و هذا کقوله تعالی: یَطَّیَّرُوا بِمُوسی وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ثم أوضح لهم سبب ما هم فیه بأوضح بیان، فقال: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ أی: تمتحنون، و تختبرون، و قیل: تعذبون بذنوبکم، و قیل: یفتنکم غیرکم، و قیل: یفتنکم الشیطان بما تقعون فیه من الطیرة، أو بما لأجله تطیرون، فأضرب عن ذکر الطائر إلی ما هو السبب الداعی إلیه وَ کانَ فِی الْمَدِینَةِ التی فیها صالح، و هو الحجر تِسْعَةُ رَهْطٍ أی: تسعة رجال من أبناء الأشراف، و الرهط: اسم للجماعة، فکأنهم کانوا رؤساء یتبع کل واحد منهم جماعة، و الجمع: أرهط و أراهط، و هؤلاء التسعة هم أصحاب قدار؛ عاقر الناقة، ثم وصف هؤلاء بقوله: یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ وَ لا یُصْلِحُونَ أی: شأنهم و عملهم الفساد فی الأرض الذی لا یخالطه صلاح، و قد اختلف فی أسماء هؤلاء التسعة اختلافا کثیرا، لا حاجة إلی التطویل بذکره قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ أی: قال بعضهم لبعض: احلفوا باللّه، هذا علی أن تقاسموا: فعل أمر، و یجوز أن یکون فعلا ماضیا مفسرا لقالوا، کأنه قیل ما قالوا، فقال: تقاسموا. أو یکون حالا علی إضمار قد، أی: قالوا ذلک متقاسمین؛ و قرأ ابن مسعود «یفسدون فی الأرض و لا یصلحون تقاسموا باللّه» و لیس فیها قالوا، و اللام فی لَنُبَیِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ جواب القسم، أی: لنأتینه بغتة فی وقت البیات، فنقتله و أهله ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِیِّهِ قرأ الجمهور بالنون للمتکلم، فی لنبیتنه، و فی لنقولن، و اختار هذه القراءة أبو حاتم. و قرأ حمزة

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۶۶

و الکسائی بالفوقیة علی خطاب بعضهم لبعضهم، و اختار هذه القراءة أبو عبید، و قرأ مجاهد و حمید بالتحتیة فیهما، و المراد بولیّ صالح: رهطه ما شَهِدْنا مَهْلِکَ أَهْلِهِ أی: ما حضرنا قتلهم و لا ندری من قتله، و قتل أهله، و نفیهم لشهودهم لمکان الهلاک، یدلّ علی نفی شهودهم لنفس القتل بالأولی، و قیل: إن المهلک بمعنی الإهلاک و قرأ حفص و السلمی مهلک بفتح المیم و اللام، و قرأ أبو بکر و المفضل بفتح المیم و کسر اللام وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فیما قلناه. قال الزجاج: و کان هؤلاء النفر تحالفوا أن یبیتوا صالحا و أهله، ثم ینکروا عن أولیائه أنهم ما فعلوا ذلک و لا رأوه و کان هذا مکرا منهم، و لهذا قال اللّه سبحانه: وَ مَکَرُوا مَکْراً أی: بهذه المحالفة وَ مَکَرْنا مَکْراً جازیناهم بفعلهم فأهلکناهم وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ بمکر اللّه بهم فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ مَکْرِهِمْ أی: انظر ما انتهی إلیه أمرهم الذی بنوه علی المکر، و ما أصابهم بسببه أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِینَ قرأ الجمهور بکسر همزة أنا، و قرأ حمزة و الکسائی و الأعمش و الحسن و ابن أبی إسحاق و عاصم بفتحها، فمن کسر جعله استئنافا. قال الفراء و الزجاج: من کسر استأنف، و هو یفسر به ما کان قبله، کأنه جعله تابعا للعاقبة، کأنه قال: العاقبة إنا دمرناهم، و علی قراءة الفتح، یکون التقدیر بأنا دمرناهم، أو لأنا دمرناهم، و کان تامة، و عاقبة فاعل لها، أو یکون بدلا من عاقبة، أو یکون خبر مبتدأ محذوف، أی: هی أنا دمرناهم و یجوز أن تکون کان ناقصة و کیف خبرها، و یجوز أن یکون خبرها أنا دمرنا.

قال أبو حاتم: و فی حرف أبیّ أن دمرناهم. و المعنی فی الآیة: أن اللّه دمر التسعة الرهط المذکورین، و دمّر قومهم الذین لم یکونوا معهم عند مباشرتهم لذلک، و معنی التأکید بأجمعین، أنه لم یشذ منهم أحد، و لا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم، و جملة فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خاوِیَةً مقرّرة لما قبلها. قرأ الجمهور خاویة بالنصب علی الحال. قال الزجاج: المعنی فانظر إلی بیوتهم حال کونها خاویة، و کذا قال الفراء و النحاس، أی: خالیة عن أهلها خرابا، لیس بها ساکن. و قال الکسائی و أبو عبیدة: نصب خاویة علی القطع، و الأصل فتلک بیوتهم الخاویة، فلما قطع منها الألف و اللام نصبت، کقوله: وَ لَهُ الدِّینُ واصِباً و قرأ عاصم بن عمر و

نصر بن عاصم و الجحدری و عیسی بن عمر برفع «خاویة» علی أنه خبر اسم الإشارة، و بیوتهم بدل، أو عطف بیان، أو خبر لاسم الإشارة، و خاویة خبر آخر، و الباء فی بِما ظَلَمُوا للسببیة، أی: بسبب ظلمهم إِنَّ فِی ذلِکَ التدمیر و الإهلاک لَآیَةً عظیمة لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ أی: یتصفون بالعلم بالأشیاء وَ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ آمَنُوا و هم صالح، و من آمن به وَ کانُوا یَتَّقُونَ اللّه و یخافون عذابه.

و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس طائِرُکُمْ قال: مصائبکم. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: وَ کانَ فِی الْمَدِینَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ قال: هم الذین عقروا الناقة، و قالوا حین عقروها: نبیت صالحا و أهله فنقتلهم، ثم نقول لأولیاء صالح: ما شهدنا من هذا شیئا، و ما لنا به علم، فدمرهم اللّه أجمعین.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۶۷

[سورة النمل (۲۷): الآیات ۵۴ الی ۶۶]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵) فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ یَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَیْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِینَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِینَ (۵۸)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلی عِبادِهِ الَّذِینَ اصْطَفی آللَّهُ خَیْرٌ أَمَّا یُشْرِکُونَ (۵۹) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما کانَ لَکُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ یَعْدِلُونَ (۶۰) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِیَ وَ جَعَلَ بَیْنَ الْبَحْرَیْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۶۱) أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ یَکْشِفُ السُّوءَ وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِیلاً ما تَذَکَّرُونَ (۶۲) أَمَّنْ یَهْدِیکُمْ فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ یُرْسِلُ الرِّیاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَی اللَّهُ عَمَّا یُشْرِکُونَ (۶۳)

أَمَّنْ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۶۴) قُلْ لا یَعْلَمُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَیْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَ ما یَشْعُرُونَ أَیَّانَ یُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ ادَّارَکَ عِلْمُهُمْ فِی الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (۶۶)

انتصاب لوطا: بفعل مضمر معطوف علی أرسلنا، أی: و أرسلنا لوطا، و إِذْ قالَ ظرف للفعل المقدر، و یجوز أن یقدر اذکر؛ و المعنی: و أرسلنا لوطا وقت قوله: لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أی: الفعلة المتناهیة فی القبح و الشناعة، و هم أهل سدوم، و جملة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ فی محل نصب علی الحال متضمنة لتأکید الإنکار، أی: و أنتم تعلمون أنها فاحشة. و ذلک أعظم لذنوبکم، علی أن تبصرون من بصر القلب، و هو العلم، أو بمعنی النظر، لأنهم کانوا لا یستترون حال فعل الفاحشة عتوّا و تمرّدا، و قد تقدّم تفسیر هذه القصة فی الأعراف مستوفی أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً فیه تکریر للتوبیخ مع التصریح، بأن تلک الفاحشة: هی اللواطة، و انتصاب شهوة علی العلة، أی: للشهوة، أو علی أنه صفة لمصدر محذوف، أی: إتیانا شهوة، أو أنه بمعنی الحال، أی: مشتهین لهم مِنْ دُونِ النِّساءِ أی: متجاوزین النساء اللاتی هنّ محل لذلک بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ التحریم، أو العقوبة علی هذه المعصیة، و اختار الخلیل، و سیبویه تخفیف الهمزة من أ إنکم فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ یَتَطَهَّرُونَ قرأ الجمهور بنصب جواب علی أنه خبر کان، و اسمها إلا أن قالوا، أی: إلا قولهم. و قرأ ابن أبی إسحاق برفع جواب علی أنه اسم کان، و خبرها ما بعده، ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضا من الإخراج بقولهم: إنهم أناس یتطهرون: أی یتنزهون عن أدبار الرجال، قالوا ذلک استهزاء منهم بهم فَأَنْجَیْناهُ وَ أَهْلَهُ من العذاب إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِینَ أی: قدّرنا أنها من الباقین فی العذاب، و معنی قدرنا قضینا.

قرأ الجمهور قدّرنا بالتشديد، و قرأ عاصم بالتخفيف. و المعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۸

وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً هـذا التأكيـد يـدل على شـدّة المطر، و أنه غير معهود فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ المخصوص بالذم محذوف، أى: ساء مطر المنـذرين مطرهم، و المراد بالمنـذرين الـذين أنـذروا فلم يقبلوا، و قـد مضـى بيان هـذا كله فى الأعراف و الشعراء قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ قال الفراء: قال أهل المعانى:

قيل للوط قل الحمد للّه على هلاكهم، و خالفه جماعة فقالوا: إن هذا خطاب لنبينا صلّى اللّه عليه و سلم، أى: قل الحمد للّه على هلاك كفار الأمم الخالية، و سلام على عباده الَّذِينَ اصْطَفى قال النحاس: و هذا أولى لأن القرآن منزل على النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و كلّ ما فيه فهو مخاطب به، إلا ما لم يصحّ معناه إلا لغيره. قيل: و المراد بعباده الذين اصطفى: أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الأولى حمله على العموم، فيدخل فى ذلك الأنبياء و أتباعهم آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أى: آللّه الـذى ذكرت أفعاله و صفاته الدالة على عظيم قدرته خير، أما يشركون به من الأصنام، و هذه الخيرية ليست بمعناها الأصلى، بل هى كقول الشاعر:

أ تهجوه و لست له بكفءفشرّكما لخيركما الفداء

فيكون ما فى الآية من باب التهكم بهم، إذ لا خير فيهم أصلا. و قد حكى سيبويه أن العرب تقول:

السعادة أحبّ إليك، أم الشقاوة، و لا خير فى الشقاوة أصلا. و قيل المعنى: أثواب اللّه خير، أم عقاب ما تشركون به؟ و قيل: قال لهم ذلك جريا على اعتقادهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا.

و قيل: المراد من هـذا الاستفهام الخبر. قرأ الجمهور «تشركون» بالفوقية على الخطاب، و هى اختيار أبى عبيد و أبى حاتم. و قرأ أبو عمرو و عاصم و يعقوب «يشركون» بالتحتية، و «أم» فى «يشركون» هى المتصلة، و أما فى قوله: أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فهى المنقطعة. و قال أبو حاتم: تقديره آلهتكم خير أم من خلق السموات و الأرض و قدر على خلقهنّ؟ و قيل المعنى: أ عبادة ما تعبدون من أوثانكم خير، أم عبادة من خلق السموات و الأرض؟ فتكون أم على هذا متصلة، و فيها معنى التوبيخ، و التهكم، كما فى الجملة الأولى.

و قرأ الأعمش «أمن» بتخفيف الميم وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً أى: نوعا من الماء، و هو المطر فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ جمع حديقة. قال الفراء: الحديقة البستان الـذى عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان، و ليس بحديقة. و قال قتادة و عكرمة: الحدائق النخل ذاتَ بَهْجَةٍ أى ذات حسن و رونق.

و البهجة: هى الحسن الـذى يبتهج به من رآه و لم يقل ذوات بهجة على الجمع لأن المعنى جماعة حدائق ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أى ما صح لكم أن تفعلوا ذلك، و معنى هذا النفى الحظر و المنع من فعل هذا، أى: ما كان للبشر و لا يتهيأ لهم ذلك و لا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود.

ثم قال سبحانه موبخا لهم و مقرّعا أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ أى: هل معبود مع اللّه الـذى تقدّم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به، و يجعل له شريكا له فى العبادة، و قرئ «أ إلها مع اللّه» بالنصب على تقدير: أ تـدعون إلها. ثم أضرب عن تقريعهم و توبيخهم بما تقدّم، و انتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فقال:

بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أى: يعدلون باللّه غيره، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل، ثم شرع فى الاستدلال بأحوال الأرض و ما عليها فقال: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً القرار: المستقرّ، أى: دحاها و سوّاها بحيث

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۶۹

يمكن الاستقرار عليها. و قيل: هذه الجملة و ما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله: «أمن خلق السموات و الأرض» و لا ملجئ

لذلك، بل هی و ما بعدها إضراب، و انتقال من التوبيخ و التقريع بما قبلها، إلى التوبيخ و التقريع بشیء آخر وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً الخلال: الوسط. و قد تقدّم تحقيقه فی قوله: وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً «۱» وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ أی: جبالا ثوابت تمسكها، و تمنعها من الحركة وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً الحاجز: المانع، أی: جعل بين البحرين من قدرته حاجزا، و البحران هما: العذب و المالح، فلا يختلط أحدهما بالآخر، فلا هذا يغير ذاك، و لا ذاك يدخل فی هذا، و قد مرّ بيانه فی سورة الفرقان أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ أی: إذا أثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه فهل إله فی الوجود يصنع صنعه و يخلق خلقه؟

فكيف يشركون به ما لا يضرّ و لا ينفع بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ توحيد ربهم، و سلطان قدرته أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ هذا الاستدلال منه سبحانه، بحاجة الإنسان إليه على العموم، و المضطر: اسم مفعول من الاضطرار: و هو المكروب المجهود الذی لا حول له و لا قوة. و قيل: هو المذنب. و قيل: هو الذی عراه ضرّ من فقر أو مرض، فألجأه إلى التضرّع إلى اللّه. و اللام فی المضطر للجنس لا للاستغراق، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين، لمانع يمنع من ذلك، بسبب يحدثه العبد، يحول بينه و بين إجابة دعائه، و إلا فقد ضمن اللّه سبحانه إجابة دعاء المضطرّ إذا دعاه، و أخبر بذلك عن نفسه، و الوجه فی إجابة المضطرّ أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، و قطع النظر عما سوى اللّه، و قد أخبر اللّه سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين، و إن كانوا كافرين فقال: حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ «۲» و قال: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ «۳» فأجابهم عند ضرورتهم، و إخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم وَ يَكْشِفُ السُّوءَ أی: الذی يسوء العبد من غير تعيين، و قيل: هو الضرّ، و قيل: هو الجور وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أی: يخلف كل قرن منكم القرن الذی قبله بعد انقراضهم، و المعنى: يهلك قرنا، و ينشئ آخرين، و قيل: يجعل أولادكم خلفا منكم، و قيل: يجعل المسلمين خلفا من الكفار، ينزلون أرضهم و ديارهم أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ الذی يوليكم هذه النعم الجسام قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ أی: تذكرا قليلا ما تذكرون. قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب، و قرأ أبو عمرو و هشام و يعقوب بالتحتية على الخبر ردّا على قوله: «بل أكثرهم لا يعلمون» و اختار هذه القراءة أبو حاتم أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ أی: يرشدكم فی الليالی المظلمات إذا سافرتم فی البرّ أو البحر. و قيل المراد: مفاوز البرّ التی لا أعلام لها، و لجج البحار، و شبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ و المراد بالرحمة هنا: المطر، أی: يرسل الرياح بين يدی المطر، و قبل نزوله أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ يفعل ذلك، و يوجده تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أی: تنزه و تقدّس عن وجود ما يجعلونه شريكا له أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ كانوا يقرّون بأن اللّه سبحانه هو الخالق فألزمهم

---

(۱). الكهف: ۳۳.

(۲). يونس: ۲۲.

(۳). العنكبوت: ۶۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۰

الإعادة، أی: إذا قدر على الابتداء قدر على الإعادة وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ بالمطر و النبات، أی: هو خير أم ما تجعلونه شريكا له، مما لا يقدر على شیء من ذلك أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ حتى تجعلوه شريكا له قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أی: حجتكم على أن اللّه سبحانه شريكا، أو هاتوا حجتكم أن ثمّ صانعا يصنع كصنعه، و فی هذا تبكيت لهم، و تهكم بهم قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ أی: لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فی السموات و الأرض الغيب الذی استأثر اللّه

بعلمه، و الاستثناء فى قوله: إلا اللّه منقطع، أى: اللّه يعلم ذلک، و رفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعا هو على اللغة التميمية كما فى قولهم:

إلّا اليعافير و إلّا العيس «۱» و قيل: إن فاعل يعلم: هو ما بعد إلا، و من فى السموات: مفعوله، و الغيب بدل من من: أى لا يعلم غيب من فى السموات و الأرض إلا اللّه، و قيل: هو استثناء متصل من من. و قال الزجاج: إلا اللّه بدل من من. قال الفراء: و إنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبر، كقولهم: ما ذهب أحد إلا أبوک، و هو كقول الزجاج. قال الزجاج: و من نصب على الاستثناء وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أى: لا يشعرون متى ينشرون من القبور، و أيان مركبة من أى و إن. و قد تقدّم تحقيقه، و الضمير للكفرة. و قرأ السلمى: إيان بكسر الهمزة، و هى لغة بنى سليم، و هى منصوبة بيبعثون، و معلقة بيشعرون، فتكون هى، و ما بعدها، فى محل نصب بنزع الخافض، أى: و ما يشعرون بوقت بعثهم، و معنى أيان: معنى متى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ. قرأ الجمهور «ادّارک» و أصل ادّارک تدارک، أدغمت التاء فى الدال، و جىء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن. و قرأ أبو جعفر و ابن كثير و أبو عمرو و حميد «بل أدرک» من الإدراک. و قرأ عطاء ابن يسار و سليمان بن يسار و الأعمش «بل ادّرک» بفتح لام بل، و تشديد الدال. و قرأ ابن محيصن «بل أدرک» على الاستفهام. و قرأ ابن عباس و أبو رجاء و شيبة و الأعمش و الأعرج «بلى ادّراک» بإثبات الياء فى بل، و بهمزة قطع، و تشديد الدال. و قرأ أبىّ «بل تدارک» و معنى الآية: بل تكامل علمهم فى الآخرة لأنهم رأوا كل ما وعدوا به و عاينوه. و قيل معناه: تتابع علمهم فى الآخرة، و القراءة الثانية معناها كمل علمهم فى الآخرة مع المعاينة، و ذلک حين لا ينفعهم العلم لأنهم كانوا فى الدنيا مكذبين. و قال الزجاج: إنه على معنى الإنكار، و استدلّ على ذلک بقوله فيما بعد: بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ أى: لم يدرک علمهم علم الآخرة، و قيل المعنى: بل ضلّ و غاب علمهم فى الآخرة، فليس لهم فيها علم، و معنى القراءة الثالثة: كمعنى القراءة الأولى، فافتعل، و تفاعل، قد يجيئان لمعنى، و القراءة الرابعة: هى بمعنى الإنكار. قال الفراء: و هو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم، و فى الآية قراءات أخر، لا ينبغى الاشتغال بذكرها و توجيهها بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها أى: بل هم اليوم فى الدنيا فى شک من الآخرة، ثم أضرب عن ذلک إلى ما هو أشدّ منه فقال: بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ فلا يدركون شيئا من دلائلها لاختلال بصائرهم

---

(۱). البيت لعامر بن الحارث و عجزه: و بقر ملمّع كنوس.

التى يكون بها الإدراک، و عمون جمع عم: و هو من كان أعمى القلب، و المراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شىء، مما يوصل إلى العلم بها، فمن قال: إن معنى الآية الأولى أعنى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أنه كمل علمهم و تمّ مع المعاينة، فلا بدّ من حمل قوله: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ إلخ على ما كانوا عليه فى الدنيا، و من قال: إن معنى الآية الأولى الاستهزاء بهم، و التبكيت لهم لم يحتج إلى تقييد قوله: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ إلخ بما كانوا عليه فى الدنيا. و بهذا يتضح معنى هذه الآيات و يظهر ظهورا بينا.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى قال: هم أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم اصطفاهم اللّه لنبيه، و روى مثله عن سفيان الثورى. و الأولى: ما قدمناه من التعميم، فيدخل فى ذلک أصحاب نبينا صلّى اللّه عليه و سلم دخولا أوليا.

و أخرج أحمد و أبو داود و النسائى و الطبرانى عن رجل من بلجهم قال: قلت: يا رسول اللّه إلى ما تدعو؟

قال: «أدعو اللّه وحده الذى إن مسّک ضرّ فدعوته كشفه عنک» هذا طرف من حديث طويل. و قد رواه أحمد من وجه آخر،

فبين اسم الصحابى فقال: حدّثنا عفان، حدّثنا حماد بن سلمة، حدّثنا يونس، حدّثنا عبيد بن عبيدة الهجيمى عن أبيه عن أبى تميمة الهجيمى عن جابر بن سليم الهجيمى. و لهذا الحديث طرق عند أبى داود و النسائى. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث عائشة قالت: «ثلاث من تكلّم بواحدة منهم، فقد أعظم على اللّه الفرية» و قالت فى آخره: «و من زعم أنّه يخبر النّاس بما يكون فى غد، فقد أعظم على اللّه الفرية، و اللّه تعالى يقول: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ قال: حين لا ينفع العلم. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أنه قرأ «بل أدرك علمهم فى الآخرة» قال: لم يدرك علمهم. قال أبو عبيد: يعنى أنه قرأها بالاستفهام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا «بل أدرك علمهم فى الآخرة» يقول: غاب علمهم.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٦٧ الى ٨٢]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٧١)

قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧٤) وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦)

وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (٨٢)

فتح القدير، ج‏٤، ص: ١٧٢

لما ذكر سبحانه أن المشركين فى شك من البعث، و أنهم عمون عن النظر فى دلائله أراد أن يبين غاية شبههم، و هى مجرّد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم ترابا فقال: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ و العامل فى إذا محذوف، دلّ عليه مخرجون، تقديره: أ نبعث، أو نخرج إذا كنا؟ و إنما لم يعمل فيه مخرجون، لتوسط همزة الاستفهام، و إنّ و لام الابتداء بينهما. قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة. و قرأ عاصم و حمزة باستفهامين، إلا أنهما حققا الهمزتين، و قرأ نافع بهمزة، و قرأ ابن عامر و ورش و يعقوب «أ إذا» بهمزتين «و إننا» بنونين على الخبر، و رجح أبو عبيدة قراءة نافع، و ردّ على من جمع بين استفهامين؛ و معنى الآية: أنهم استنكروا و استبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء، بعد أن قد صاروا ترابا، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا: لَقَدْ وُعِدْنا هذا يعنون البعث نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ أى: من قبل وعد محمد لنا، و الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار، مصدّرة بالقسم لزيادة التقرير إِنْ هذا الوعد بالبعث إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أحاديثهم و أكاذيبهم الملفقة، و قد تقدّم تحقيق معنى الأساطير فى سورة المؤمنون، ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، فأمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السابقة، المكذبة للأنبياء، و ما عوقبوا به، و كيف كانت عاقبتهم فقال:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، و معنى النظر: هو مشاهدة

آثارهم بالبصر، فإن فی المشاهدهٔ زیادهٔ اعتبار. و قیل المعنی: فانظروا بقلوبکم و بصائرکم کیف کان عاقبهٔ المکذبین لرسلهم «۱»، و الأوّل أولی لأمرهم بالسیر فی الأرض وَ لا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ لما وقع منهم من الإصرار علی الکفر وَ لا تَکُنْ فِی ضَیْقٍ الضیق: الحرج، یقال: ضاق الشیء ضیقا بالفتح، و ضیقا بالکسر قرئ بهما، و هما لغتان. قال ابن السکیت: یقال فی صدر فلان ضیق و ضیق و هو ما تضیق عنه الصدور. و قد تقدّم تفسیر هذه الآیهٔ فی آخرهٔ سورهٔ النحل وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ أی: بالعذاب الذی تعدنا به إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ فی ذلک قُلْ عَسی أَنْ یَکُونَ رَدِفَ لَکُمْ یقال ردفت الرجل و أردفته إذا رکبت خلفه، و ردفه إذا أتبعه و جاء فی أثره، و المعنی: قل یا محمد لهؤلاء الکفار عسی أن یکون هذا العذاب الذی به توعدون تبعکم و لحقکم، فتکون اللام زائدهٔ للتأکید، أو بمعنی: اقترب لکم، و دنا لکم، فتکون غیر زائدهٔ. قال ابن شجرهٔ: معنی ردف لکم تبعکم، قال و منه ردف المرأهٔ لأنه تبع لها من خلفها، و منه قول أبی ذؤیب:

عاد السّواد بیاضا فی مفارقهلا مرحبا ببیاض الشّیب إذ ردفا

قال الجوهری: و أردفه لغهٔ فی ردفه، مثل تبعه و أتبعه بمعنی. قال خزیمهٔ بن مالک بن نهد:

إذا الجوزاء أردفت الثّریاظننت بآل فاطمهٔ الظنونا

---

(۱). هذه العبارهٔ و ما قبلها تفسیر لقوله تعالی: «المکذبین» التی وردت فی الأصل بدلا من قوله تعالی: الْمُجْرِمِینَ و هو خطأ و الصحیح ما أثبت.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۷۳

قال الفراء: ردف لکم: دنا لکم و لهذا قیل لکم. و قرأ الأعرج «ردف لکم» بفتح الدال و هی لغهٔ، و الکسر أشهر. و قرأ ابن عباس «أزف لکم» و ارتفاع بَعْضُ الَّذِی تَسْتَعْجِلُونَ أی: علی أنه فاعل ردف، و المراد: بعض الذی تستعجلونه من العذاب، أی: عسی أن یکون قد قرب، و دنا، و أزف بعض ذلک، قیل: هو عذابهم بالقتل یوم بدر، و قیل: هو عذاب القبر. ثم ذکر سبحانه فضله فی تأخیر العذاب فقال: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ فی تأخیر العقوبهٔ، و الأولی أن تحمل الآیهٔ علی العموم و یکون تأخیر العقوبهٔ من جملهٔ أفضاله سبحانه و إنعامه وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَشْکُرُونَ فضله و إنعامه و لا یعرفون حق إحسانه، ثم بین أنه مطلع علی ما فی صدورهم، فقال: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَیَعْلَمُ ما تُکِنُّ صُدُورُهُمْ أی:

ما تخفیه. قرأ الجمهور «تکن» بضم التاء من أکنّ. و قرأ ابن محیصن و ابن السمیقع و حمید بفتح التاء و ضم الکاف، یقال کننته: بمعنی سترته، و خفیت أثره وَ ما یُعْلِنُونَ و ما یظهرون من أقوالهم و أفعالهم وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِی السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِی کِتابٍ مُبِینٍ قال المفسرون: ما من شیء غائب، و أمر یغیب عن الخلق فی السماء و الأرض؛ إلا فی کتاب مبین، إلا هو مبین فی اللوح المحفوظ، و غائبهٔ: هی من الصفات الغالبهٔ، و التاء للمبالغهٔ. قال الحسن: الغائبهٔ هنا: هی القیامهٔ. و قال مقاتل: علم ما یستعجلون من العذاب هو مبین عند اللّه، و إن غاب عن الخلق. و قال ابن شجرهٔ: الغائبهٔ هنا جمیع ما أخفی اللّه عن خلقه، و غیبه عنهم مبین فی أمّ الکتاب، فکیف یخفی علیه شیء من ذلک، و من جملهٔ ذلک ما یستعجلونه من العذاب، فإنه موقت بوقت، و مؤجل بأجل علمه عند اللّه، فکیف یستعجلونه قبل أجله المضروب له؟ إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ یَقُصُّ عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَکْثَرَ الَّذِی هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ و ذلک لأن أهل الکتاب تفرّقوا فرقا، و تحزّبوا أحزابا، یطعن بعضهم علی بعض، و یتبرأ بعضهم من بعض، فنزل القرآن مبینا لما اختلفوا فیه من الحق، فلو أخذوا به لوجدوا فیه ما یرفع اختلافهم، و یدفع تفرّقهم وَ إِنَّهُ لَهُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ أی: و إنّ القرآن لهدی و رحمهٔ لمن آمن باللّه، و تابع رسوله، و خصّ المؤمنین لأنهم المنتفعون به، و من جملتهم من آمن من بنی إسرائیل إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ بِحُکْمِهِ أی: یقضی بین المختلفین من بنی إسرائیل بما یحکم به من الحق، فیجازی المحق، و یعاقب المبطل،

و قيـل: يقضـى بينهم فى الـدنيا، فيظهر مـا حرّفوه. قرأ الجمهور بحكمه بضم الحاء و سـكون الكاف. و قرأ جناح بكسـرها؛ و فتح الكاف، جمع حكمـة وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ العزيز الـذى لا يغالب، و العليم بما يحكم به، أو الكثير العلم، ثم أمره سـبحانه بالتوكل و قلـة المبالاـة، فقـال: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ و الفـاء لـترتيب الأـمر على مـا تقـدّم ذكره، و المعنى: فوّض إليه أمرك، و اعتمـد عليه فـإنه ناصرك. ثم علل ذلك بعلتين: الأولى قوله: إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ أى: الظاهر، و قيل: المظهر. و العلة الثانية قوله: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى فى انتفاء الجـدوى بالسـماع، أو كحال الصم الـذين لا يسـمعون، و لا يفهمون، و لا يهتدون صار ذلك سببا قويا فى عدم الاعتداد بهم، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم و لا عقل، و بالصمّ الذين لا يسمعون المواعظ، و لا يجيبون الـدعاء إلى اللّه. ثم ذكر جملـة لتكميل التشبيه، و تأكيـده فقال: إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ أى: إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما، فإن الأصمّ لا

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۴

يسمع الدعاء إذا كان مقبلا، فكيف إذا كان معرضا عنه موليا مدبرا. و ظاهر نفى إسماع الموتى العموم، فلا يخصّ منه إلا ما ورد بـدليل، كما ثبت فى الصـحيح أنه صـلّى اللّه عليه و سـلم خاطب القتلى فى قليب بدر، فقيل له: يا رسول اللّه! إنما تكلم أجساد لا أرواح لها، و كذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا.

و قرأ ابن محيصن و حميد و ابن كثير و ابن أبى إسحاق «لا يسمع» بالتحتية مفتوحة و فتح الميم، و فاعله الصمّ.

و قرأ الباقون «تسـمع» بضم الفوقية، و كسـر الميم من أسـمع. قال قتادة الأصمّ إذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسـمع مـا يـدعى إليه من الإيمان. ثم ضـرب العمى مثلا لهم فقال: وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَـلالَتِهِمْ أى: ما أنت بمرشـد من أعمـاه اللّه عن الحق إرشـادا يوصـله إلى المطلوب منه و هو الإيمـان، و ليس فى وسـعك ذلك، و مثله قوله: إِنَّكَ لا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ «۱» قرأ الجمهور بإضافة هادى إلى العمى.

و قرأ يحيى بن الحـارث و أبو حيـان «بهـاد العمى» بتنوين هاد. و قرأ حمزة «تهـدى» فعلا مضارعا، و فى حرف عبـد اللّه «و ما أن تهـدى العمى» إِنْ تُسْـِمعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنـا أى: مـا تسـمع إلاـ من يؤمن لاـ من يكفر، و المراد بمن يؤمن بالآيـات من يصـدّق القرآن، و جملـة فَهُمْ مُسْـلِمُونَ تعليـل للإيمـان، أى: فهم منقـادون مخلصـون. ثم هـدّد العباد بـذكر طرف من أشـراط الساعـة و أهوالها: فقال: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ

و اختلف فى معنى وقوع القول عليهم، فقال قتادة: وجب الغضب عليهم. و قال مجاهـد: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، و قيل: حق العـذاب عليهم، و قيل: وجب السـخط، و المعانى متقاربـة. و قيل: المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجىء الساعة، و ما فيها من فنون الأـهوال التى كـانوا يستعجلونها، و قيل: وقع القول بموت العلماء و ذهاب العلم، و قيل: إذا لم يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر. و الحاصل أن المراد بوقع:

وجب، و المراد بـالقول: مضـمونه، أو أطلق المصـدر على المفعـول، أى: القـول، و جواب الشـرط أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ

و اختلف فى هذه الدابة على أقوال، فقيل: إنها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة و يكون من أشراط الساعة. و قيل: هى دابة ذات شعـر، و قوائم طوال، يقال لها الجساسة. و قيل: هى دابة على خلقة بنى آدم، و هى فى السحاب و قوائمها فى الأرض. و قيل: رأسـها رأس ثور، و عينها عين خنزير، و أذنها أذن فيل، و قرنها قرن إيّل، و عنقها عنق نعامـة، و صـدرها صدر أسد، و لونها لون نمر و خاصـرتها خاصـرة هر، و ذنبهـا ذنب كبش، و قوائمها قوائم بعير، بين كل مفصل و مفصل اثنا عشـر ذراعا. و قيل: هى الثعبـان المشـرف على جـدار الكعبـة التى اقتلعهـا العقـاب، حين أرادت قريش بناء الكعبـة، و المراد أنها هى التى تخرج فى آخر

الزمان، و قيل: هى دابـة ما لها ذنب و لها لحية، و قيل: هى إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع و يراجع الكفار، و قيل: غير ذلك ممالا فائدة فى التطويل بذكره، و قد رجح القول الأوّل القرطبى فى تفسيره.

و اختلف من أىّ موضع تخرج؟ فقيل: من جبل الصفا بمكة، و قيل: تخرج من جبل أبى قبيس. و قيل:

---

(١). القصص: ۵۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۵

لها ثلاث خرجات: خرجة فى بعض البوادى حتى يتقاتل عليها الناس، و تكثر الدماء ثم تكمن، و تخرج فى القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد، و أكرمها و أشرفها، و قيل: تخرج من بين الركن و المقام، و قيل: تخرج فى تهامة، و قيل: من مسجد الكوفة من حيث فار التنور، و قيل: من أرض الطائف، و قيل: من صخرة من شعب أجياد، و قيل من صدع فى الكعبة.

و اختلف فى معنى قوله: «تكلمهم» فقيل: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام، و قيل:

تكلمهم بمـا يسوءهم، و قيـل: تكلمهم بقوله تعـالى: أَنَّ النَّاسَ كـانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ أى: بخروجها لأن خروجها من الآيات. قرأ الجمهور «تكلمهم» من التكليم، و يـدلّ عليه قراءة أبىّ «تنبئهم» و قرأ ابن عبـاس و أبو زرعـة و أبو رجـاء و الحسن: تكلمهم بفتح الفوقيـة و سـكون الكـاف من الكلم، و هو الجرح. قـال عكرمـة: أى تسـمهم و سـما، و قيـل: تجرحهم، و قيل: إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف و سكون اللام و هو الجرح، و التشديد للتكثير، قاله أبو حاتم. قرأ الجمهور: أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ بكسر إن على الاستئناف، و قرأ الكوفيون و ابن أبى إسحاق بفتح «أن» قـال الأخفش: المعنى على قراءة الفتـح «بأن الناس» و كذا قرأ ابن مسعود «بأن الناس» بالباء. و قال أبو عبيد: موضعها نصب بوقوع الفعل عليها، أى: تخبرهم أن الناس، و على هـذه القراءة فالذى تكلم الناس به هو قوله: أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ كما قدّمنا الإشارة إلى ذلك. و أما على قراءة الكسر فالجملة مسـتأنفة كما قدّمنا، و لا تكون من كلام الدابة. و قد صـرّح بذلك جماعة من المفسـرين، و جزم به الكسائى و الفراء. و قال الأخفش: إن كسـر «إن» هو على تقـدير القول أى تقول لهم: «إن الناس» إلخ، فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا إلى معنى القراءة الثانية، و المراد بالناس فى الآية: هم الناس على العموم، فيدخل فى ذلك كل مكلف، و قيل: المراد الكفار خاصّة، و قيل: كفار مكة، و الأوّل أولى.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ قال: اقترب لكم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ قال: يعلم ما عملوا بالليل و النهار. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ ما مِنْ غائِبَةٍ الآية. يقول: ما من شىء فى السماء و الأرض سرّا و لا علانية إلا يعلمه. و أخرج ابن المبارك فى الزهـد و عبـد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شـيبة و نعيم بن حماد و عبـد بن حميـد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحـاكم و ابـن مردويه عن ابن عمر فى قـوله: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ الآيـة قـال: إذا لم يـأمروا بمعروف و لم ينهـوا عن منكر. و أخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير عن أبى العالية أنه فسـر وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بما أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قـد آمن. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ قال: تحـدّثهم. و أخرج ابن جرير عنه قال كلامها تنبئهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن أبى داود نفيع الأعمى قال: سألت ابن عباس عن قوله: تُكَلِّمُهُمْ يعنى هل هو من التكليم باللسان أو من الكلم و هو الجرح، فقال: كل

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۶

ذلك و اللّه تفعل تكلم المؤمن و تكلم الكافر، أى: تجرحه. و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ليس ذلك حديث و لا كلام و لكنّها سمة تسم من أمرها اللّه به، فيكون خروجها من الصفا ليلة منى، فيصبحون بين رأسها و ذنبها لا يدحض داحض و لا يجرح جارح، حتى إذا فرغت مما أمرها اللّه به، فهلك من هلك و نجا من نجا، كان أوّل خطوة تضعها بأنطاكية». و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: الدابة ذات وبر و ريش مؤلفة فيها من كل لون، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج. و أخرج أحمد و ابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «تخرج الدّابة فتسم على خراطيمهم، ثم يعمّرون فيكم حتّى يشترى الرجل الدّابّة، فيقال له ممن اشتريتها؟ فيقول: من الرجل المخطم».

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس «إنّ للدّابّة ثلاث خرجات»، و ذكر نحو ما قدّمنا. و أخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد رفعه قال: «تخرج الدّابّة من أعظم المساجد حرمة». و أخرج سعيد بن منصور و نعيم ابن حماد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: تخرج من بعض أودية تهامة. و أخرج الطيالسى و أحمد و نعيم بن حماد و الترمذى و حسنه و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تخرج دابّة الأرض و معها عصا موسى و خاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم، و تخطم أنف الكافر بالعصا، حتّى يجتمع الناس على الخوان، يعرف المؤمن من الكافر». و أخرج الطيالسى و نعيم بن حماد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و البيهقى فى البعث عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: «ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الدّابّة فقال: لها ثلاث خرجات من الدهر» و ذكر نحو ما قدّمنا فى حديث طويل. و فى صفتها، و مكان خروجها، و ما تصنعه، و متى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح، و بعضها حسن، و بعضها ضعيف. و أما كونها تخرج. و كونها من علامات الساعة، فالأحاديث الواردة فى ذلك صحيحة. و منها ما هو ثابت فى الصحيح كحديث حذيفة مرفوعا «لا تقوم السّاعة حتّى تروا عشر آيات» و ذكر منها الدابة فإنه فى صحيح مسلم و فى السنن الأربعة و كحديث «بادروا بالأعمال قبل طلوع الشّمس من مغربها، و الدّجّال، و الدّابّة» فإنه فى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا، و كحديث ابن عمر مرفوعا «إنّ أوّل الآيات خروجا طلوع الشّمس من مغربها، و خروج الدّابّة على النّاس ضحى» فإنه فى صحيح مسلم أيضا.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨٣ الى ٩٣]

وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (٨٧)

وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢)

وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۷

ثم ذكر سبحانه طرفا مجملا من أهوال يوم القيامة، فقال: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً العامل فى الظرف، فعل محذوف خوطب به النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم، و الحشر: الجمع. قيل: و المراد بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلى الشامل لجميع الخلق، و من: لابتداء الغاية، و الفوج: الجماعة كالزمرة، و من فى مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا بيانية فَهُمْ يُوزَعُونَ أى: يحبس أوّلهم على آخرهم، و قد تقدّم تحقيقه فى هذه السورة مستوفى، و قيل معناه: يدفعون، و منه قول الشماخ:

و كم وزعنا من خميس جحفل «۱» و معنى الآية: و اذكر يا محمد، يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة؛ مكذّبين بآياتنا، فهم عند ذلك الحشر، يرد أوّلهم على آخرهم، أو يدفعون، أى: اذكر لهم هذا أو بينه تحذيرا لهم و ترهيبا حَتَّى إِذا جاؤُ إلى موقف الحساب قال اللّه لهم توبيخا و تقريعا أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي التى أنزلتها على رسلى، و أمرتهم بإبلاغها إليكم «و» الحال أنكم لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً بل كذبتم بها بادئ بدء، جاهلين لها غير ناظرين فيها، و لا مستدلين على صحتها، أو بطلانها تمرّدا، و عنادا و جرأة على اللّه و على رسله، و فى هذا مزيد تقريع و توبيخ، لأن من كذب بشىء و لم يحط به علما فقد كذب فى تكذيبه، و نادى على نفسه بالجهل، و عدم الإنصاف، و سوء الفهم، و قصور الإدراك، و من هذا القبيل من تصدّى لذمّ علم من العلوم الشرعية، أو لذمّ علم هو مقدّمة من مقدّماتها، و وسيلة يتوسل بها إليها، و يفيد زيادة بصيرة فى معرفتها، و تعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها، و هى اثنا عشر علما، و علم أصول الفقه، فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية، مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية، و هكذا كل علم من العلوم التى لها مزيد نفع فى فهم كتاب اللّه و سنة رسوله، فإنه قد نادى على نفسه، بأرفع صوت، بأنه جاهل مجادل بالباطل، طاعن على العلوم الشرعية، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التى تزجره عن جهله، و ضلاله، و طعنه على ما لا يعرفه، و لا يعلم به، و لا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره، و موعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول و ركاك الأديان، و رعاع المتلبسين بالعلم زورا و كذبا، و أما فى قوله: أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هى المنقطعة، و المعنى: أم أىّ شىء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها، و التفكر فى معانيها، و هذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ قد تقدّم تفسيره قريبا، و الباء فى بِما ظَلَمُوا للسببية، أى: وجب القول عليهم بسبب الظلم، الذى أعظم أنواعه الشرك باللّه فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ عند وقوع القول عليهم، أى: ليس لهم عذر ينطقون به، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم.

---

(۱). و عجزه: و كم حبونا من رئيس مسحل.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۷۸

و قال أكثر المفسرين: يختم على أفواههم فلا ينطقون، ثم بعد أن خوّفهم بأهوال القيامة؛ ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد، و على الحشر، و على النبوّة مبالغة فى الإرشاد و إبلاء للمعذرة، فقال: أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً أى: جعلنا الليل للسكون، و الاستقرار، و النوم، و ذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش، و النهار مبصرا ليبصروا فيها ما يسعون له من المعاش الذى لا بدّ له منهم، و وصف النهار: بالإبصار، و هو وصف للناس، مبالغة فى إضاءته كأنه يبصر ما فيه.

قيل: فى الكلام حذف. و التقدير، و جعلنا الليل مظلما ليسكنوا، و حذف مظلما لدلالة مبصرا عليه، و قد تقدّم تحقيقه فى الإسراء و فى يونس إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور لَآياتٍ أى: علامات و دلالات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه سبحانه. ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ هو معطوف على «و يوم نحشر» منصوب بناصبه المتقدّم. قال الفراء: إن المعنى: و ذلكم يوم ينفخ فى الصور، و الأوّل أولى. و الصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل، و قد تقدّم فى الأنعام استيفاء الكلام عليه. و النفخات فى الصور

ثلاث:

نفخة الفزع، و الثانية: نفخة الصعق، و الثالثة: نفخة البعث. و قيل: إنها نفختان، و إن نفخة الفزع، إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث، و اختار هذا القشيرى و القرطبى و غيرهما. و قال الماوردى: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أى: خافوا و انزعجوا لشدّة ما سمعوا، و قيل: المراد بالفزع هنا: الإسراع و الإجابة إلى النداء، من قولهم فزعت إليك فى كذا: إذا أسرعت إلى إجابتك، و الأوّل أولى بمعنى الآية. و إنما عبر بالماضى مع كونه معطوفا على مضارع للدلالة على تحقيق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان. و قال الفراء: هو محمول على المعنى لأن المعنى إذا نفخ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ أى: إلا من شاء اللّه أن لا يفزع عند تلك النفخة.

و اختلف فى تعيين من وقع الاستثناء له، فقيل: هم الشهداء و الأنبياء، و قيل: الملائكة، و قيل: جبريل، و ميكائيل، و إسرافيل، و ملك الموت، و قيل: الحور العين، و قيل: هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد:

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ و يمكن أن يكون الاستثناء شاملا لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ قرأ الجمهور «آتوه» على صيغة اسم الفاعل مضافا إلى الضمير الراجع إلى اللّه سبحانه. و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و حفص عن عاصم «أتوه» فعلا ماضيا، و كذا قرأ ابن مسعود. و قرأ قتادة «و كل أتاه». قال الزجاج: إن من قرأ على الفعل الماضى فقد وحد على لفظ كل، و من قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه، و هو غلط ظاهر، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيهما، بل التوحيد فى قراءة قتادة فقط، و معنى «داخرين» صاغرين ذليلين، و هو منصوب على الحال، قرأ الجمهور «داخرين» و قرأ الأعرج «دخرين» بغير ألف، و قد مضى تفسير هذا فى سورة النحل وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً معطوف على «ينفخ». و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أو لكلّ من يصلح للرؤية، و «تحسبها جامدة» فى محل نصب على الحال من ضمير ترى، أو من مفعوله. لأن الرؤية بصرية، و قيل:

هى بدل من الجملة الأولى، و فيه ضعف، و هذه هى العلامة الثالثة لقيام الساعة، و معنى «تحسبها جامدة»:

فتح القدير، ج‏4، ص: 179

أى قائمة ساكنة، و جملة وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ فى محل نصب على الحال، أى: و هى تسير سيرا حثيثا كسير السحاب التى تسيرها الرياح. قال القتبى: و ذلك أن الجبال تجمع، و تسير و هى فى رؤية العين كالقائمة و هى تسير. قال القشيرى و هذا يوم القيامة، و مثله قوله تعالى: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً «1» قرأ أهل الكوفة تحسبها بفتح السين، و قرأ الباقون بكسرها صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ انتصاب صنع على المصدرية، عند الخليل و سيبويه، و غيرهما، أى: صنع اللّه ذلك صنعا، و قيل: هو مصدر مؤكد لقوله:

«يوم ينفخ فى الصور» و قيل: منصوب على الإغراء، أى: انظروا صنع اللّه، و معنى «الذى أتقن كل شى‏ء» الذى أحكمه، يقال رجل تقن: أى حاذق بالأشياء، و جملة إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع، و أتقن كل شى‏ء. و الخبير: المطلع على الظواهر و الضمائر. قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و هشام بالتحتية على الخبر مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها الألف و اللام للجنس، أى: من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء و الثواب عند اللّه خير منها، أى: أفضل منها و أكثر، و قيل: خير حاصل من جهتها، و الأول أولى. و قيل: المراد بالحسنة هنا: لا إله إلا اللّه، و قيل:

هى الإخلاص، و قيل: أداء الفرائض، و التعميم أولى، و لا وجه للتخصيص، و إن قال به بعض السلف.

قيل: و هذه الجملة بيان لقوله: «إنه خبير بما تفعلون» و قيل: بيان لقوله: «و كل أتوه داخرين». قرأ عاصم و حمزة و الكسائى وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ بالتنوين و فتح ميم يَوْمَئِذٍ. و قرأ نافع بفتحها من غير تنوين.

و قرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ. قال أبو عبيد: و هذا أعجب إلىّ لأنه أعم التأويلين لأن معناه: الأمن من فزع جميع ذلك اليوم، و مع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع. و قيل: إنه مصدر يتناول الكثير، فلا يتم الترجيح بما ذكر، فتكون القراءتان بمعنى واحد. و قيل: المراد بالفزع هاهنا هو الفزع الأكبر المذكور فى قوله: لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ «٢»، و وجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية، لكونه الإعراب فيه غير متمكن، و لما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بنى، و قد تقدّم فى سورة هود كلام فى هذا مستوفى وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ. قال جماعة من الصحابة و من بعدهم، حتى قيل: إنه مجمع عليه بين أهل التأويل: إن المراد بالسيئة هنا الشرك، و وجه التخصيص قوله: «فكبت وجوههم فى النّار» فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك، و معنى «فكبت وجوههم فى النّار» أنهم كبوا فيها على وجوههم و ألقوا فيها و طرحوا عليها، يقال كببت الرجل: إذا ألقيته لوجهه فانكبّ و أكبّ، و جملة هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بتقدير القول: أى يقال ذلك، و القائل: خزنة جهنم، أى: ما تجزون إلا جزاء عملكم إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ و المعاد أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول لهم هذه المقالة، أى: قل يا محمد إنما أمرت أن أخص اللّه بالعبادة وحده لا شريك له، و المراد بالبلدة: مكة، و إنما خصّها من سائر البلاد لكون فيها بيت اللّه الحرام، و لكونها أحبّ البلاد إلى رسوله، و الموصول: صفة للربّ، و هكذا قرأ الجمهور. قرأ ابن عباس و ابن مسعود التى حرّمها

---

(١). النبأ: ٢٠.

(٢). الأنبياء: ١٠٣.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ١٨٠

على أن الموصول صفة للبلدة، و معنى «حرّمها» جعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم، و لا يظلم فيها أحد، و لا يصطاد صيدها، و لا يختلى خلاها وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‏ءٍ من الأشياء خلقا و ملكا و تصرّفا، أى: و للّه كل شى‏ء وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: المنقادين لأمر اللّه المستسلمين له بالطاعة، و امتثال أمره، و اجتناب نهيه، و المراد بقوله: «أن أكون» أن أثبت على ما أنا عليه وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ أى: أداوم تلاوته و أواظب على ذلك. قيل: و ليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان، و الأول أولى فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ لأن نفع ذلك راجع إليه، أى: فمن اهتدى على العموم، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه، فعمل بما فيه من الإيمان باللّه، و العمل بشرائعه. قرأ الجمهور وَ أَنْ أَتْلُوَا بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة و هى القراءة، أو من التلوّ، و هو الاتباع. و قرأ عبد اللّه «و أن اتل» بحذف الواو أمرا له صلّى اللّه عليه و سلم كذا وجهه الفراء. قال النحاس: و لا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة، و هى مخالفة لجميع المصاحف وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ أى: و من ضلّ بالكفر، و أعرض عن الهداية، فقل له: إنما أنا من المنذرين، و قد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم، و ليس علىّ غير ذلك. و قيل: الجواب محذوف، أى: فوبال ضلاله عليه، و أقيم إنما أنا من المنذرين مقامه لكونه كالعلة له وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ على نعمه التى أنعم بها علىّ من النبوّة و العلم و غير ذلك، و قوله: سَيُرِيكُمْ آياتِهِ هو من جملة ما أمر به النبى صلّى اللّه عليه و سلم أن يقوله، أى: سيريكم اللّه آياته فى أنفسكم، و فى غيركم فَتَعْرِفُونَها أى: تعرفون آياته، و دلائل قدرته و وحدانيته، و هذه المعرفة لا تنفع الكفار، لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان، و ذلك عند حضور الموت. ثم ختم السورة بقوله: وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ و هو كلام من جهته سبحانه، غير داخل تحت الكلام الذى أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلم أن يقوله، و فيه ترهيب شديد، و تهديد عظيم. قرأ أهل المدينة و الشام و حفص عن عاصم «تعملون» بالفوقية على الخطاب، و قرأ الباقون بالتحتية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: داخِرِينَ قال: صاغرين.

و أخرج هؤلاء عنه فى قوله: وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً قال: قائمة صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ قال: أحكم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ قال: أحسن كل شىء خلقه، و أوثقه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها قال: هى لا إله إلا اللّه، وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ قال: هى الشرك، و إذا صحّ هذا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فالمصير إليه فى تفسير كلام اللّه سبحانه متعين، و يحمل على أن المراد قال: لا إله إلا اللّه بحقها، و ما يجب لها، فيدخل تحت ذلک كل طاعة، و يشهد له ما أخرجه الحاكم فى الكنى عن صفوان بن عسال قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا كان يوم القيامة:

جاء الإيمان و الشّرک يجثوان بين يدى اللّه سبحانه، فيقول اللّه للإيمان: انطلق أنت و أهلک إلى الجنة، و يقول للشرک: انطلق أنت و أهلک إلى النار، ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها يعنى قول:

لا إله إلا اللّه، وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ يعنى الشرک فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ». و أخرج ابن مردويه

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۱

من حديث أبى هريرة و أنس نحوه مرفوعا. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن كعب بن عجرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ يعنى شهادة أن لا إله إلا اللّه فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها يعنى بالخير الجنة وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ يعنى الشرک فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ و قال هذه تنجى، و هذه تردى».

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الخرائطى فى مكارم الأخلاق: عن ابن مسعود مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ قال: لا إله إلا اللّه، وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ قال:

بالشرک. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها قال: له منها خير، يعنى من جهتها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها قال: ثواب. و أخرج عنه أيضا قال: البلدة مكة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۲

سورة القصص

اشارة

و هى مكية كلها فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و أخرج ابن الضريس و ابن النجار و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة القصص بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثل ذلک:

قال القرطبى؛ قال ابن عباس و قتادة: إنها نزلت بين مكة و المدينة. و قال ابن سلام: بالجحفة وقت هجرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هى قوله عزّ و جلّ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ و قال مقاتل: فيها من المدنى الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ إلى قوله: لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ و أخرج أحمد و الطبرانى و ابن مردويه: قال السيوطى: سنده جيد عن معد يكرب قال: أتينا عبد اللّه بن مسعود، فسألناه أن يقرأ علينا طسم المئين، فقال: ما هى معى، و لكن عليكم بمن أخذها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خباب بن الأرت، فأتيت خبابا فقلت: كيف كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ طسم أو طس؟ فقال: كلّ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١ الى ١٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (٥) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (٨) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)

الكلام فى فاتحة هذه السورة قد مرّ فى فاتحة الشعراء و غيرها، فلا نعيده، و كذلك مرّ الكلام على قوله:

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ فاسم الإشارة: مبتدأ، خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، و آيات:

بدل من اسم الإشارة، و يجوز أن يكون تلك فى موضع نصب بنتلو، و المبين المشتمل على بيان الحق من الباطل.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۱۸۳

قال الزجاج: مبين الحق من الباطل، و الحلال من الحرام، و هو من أبان بمعنى أظهر نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى نوحى إليك من خبرهما ملتبسا بالحق، و خص المؤمنين، لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن. و قيل: إن مفعول نتلو محذوف، و التقدير: نتلو عليك شيئا من نبئهما، و يجوز أن تكون من: مزيدة على رأى الأخفش، أى: نتلو عليك نبأ موسى، و فرعون، و الأولى: أن تكون للبيان على تقدير المفعول، كما ذكر، أو للتبعيض، و لا ملجئ للحكم بزيادتها، و الحق: الصدق، و جملة إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ و ما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ. قال المفسرون: معنى علا تكبر، و تجبر بسلطانه، و المراد بالأرض: أرض مصر. و قيل معنى علا: ادعى الربوبية، و قيل: علا عن عبادة ربه وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً أى: فرقا و أصنافا فى خدمته، يشايعونه على ما يريد، و يطيعونه، و جملة يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقا، و أصنافا، و يجوز أن تكون صفة لطائفة، و الطائفة: هم بنو إسرائيل، و جملة يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ بدل من الجملة الأولى، و يجوز أن تكون مستأنفة للبيان، أو حالا، أو صفة كالتى قبلها على تقدير عدم كونها بدلا منها، و إنما كان فرعون يذبح أبناءهم، و يترك النساء، لأن المنجمين فى ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل. قال الزجاج: و العجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك، إن كان صادقا عنده، فما ينفع القتل، و إن كان كاذبا، فلا معنى للقتل إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فى الأرض بالمعاصى، و التجبر، و فيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية. و استحضار صورتها، أى: نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم، و المراد بهؤلاء بنو إسرائيل، و الواو فى «و نريد» للعطف على جملة «إن فرعون علا» و إن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية، لأن بينهما تناسبا من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير و البيان. و يجوز أن تكون حالا من فاعل يستضعف، بتقدير مبتدأ، أى: و نحن نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض، كما فى قول الشاعر:

نجوت و أرهنهم مالكا «١» و الأوّل أولى وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أى: قتادة فى الخير و دعاة إليه، و ولاة على الناس و ملوكا فيهم وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ لملك فرعون، و مساكن القبط، و أملاكهم، فيكون ملك فرعون فيهم، و يسكنون فى مساكنه، و مساكن قومه، و ينتفعون بأملاكه، و أملاكهم وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أى: نجعلهم مقتدرين عليها، و على أهلها، مسلطين على ذلك يتصرّفون به كيف شاؤوا. قرأ الجمهور «نمكن» بدون لام. و قرأ الأعمش «لنمكن» بلام العلة وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما قرأ الجمهور نرى بنون مضمومة و كسر الراء على أن الفاعل هو اللّه سبحانه. و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائى و خلف «و يرى» بفتح الياء

---

(١). البيت لعبد اللّه بن همام السلولى، و صدره: فلما خشيت أظافيرهم. [شرح ابن عقيل: الشاهد رقم ١٩٢].

التحتية و الراء، و الفاعل فرعون. و القراءة الأولى ألصق بالسياق، لأن قبلها نريد، و نجعل، و نمكن بالنون.

و أجاز الفراء «و يرى فرعون» بضم الياء التحتية و كسر الراء: أى و يرى اللّه فرعون، و معنى مِنْهُمْ من أولئك المستضعفين ما كانُوا يَحْذَرُونَ الموصول: هو المفعول الثانى، على القراءة الأولى، و المفعول الأوّل، على القراءة الثانية، و المعنى: أن اللّه يريهم، أو يرون هم الذين كانوا يحذرون منه و يجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم و هلاكهم على يد المولود من بنى إسرائيل المستضعفين وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ أى: ألهمناها، و قذفنا فى قلبها، و ليس ذلك هو الوحى الذى يوحى إلى الرسل، و قيل: كان ذلك رؤيا فى منامها، و قيل: كان ذلك بملك أرسله اللّه يعلمها بذلك.

و قد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية، و إنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع، و الأبرص، و الأعمى، كما فى الحديث الثابت فى الصحيحين و غيرهما، و قد سلمت على عمران بن حصين الملائكة، كما فى الحديث الثابت فى الصحيح فلم يكن بذلك نبيا، و أن فى «أن أرضعيه» هى المفسرة، لأن فى الوحى معنى القول، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: بأن أرضعيه، و قرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن و وصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين، و حذف همزة الوصل على غير القياس فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ و هو بحر النيل. و قد تقدّم بيان الكيفية التى ألقته فى اليمّ عليها فى سورة طه وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي أى: لا تخافى عليه الغرق، أو الضيعة، و لا تحزنى لفراقه إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ عن قريب على وجه تكون به نجاته وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الذين نرسلهم إلى العباد، و الفاء فى قوله: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ هى الفصيحة، و الالتقاط: إصابة الشى‏ء من غير طلب، و المراد بآل فرعون: هم الذين أخذوا التابوت الذى فيه موسى من البحر، و فى الكلام حذف، و التقدير فألقته فى اليمّ بعد ما جعلته فى التابوت، فالتقطه من وجده من آل فرعون، و اللام فى لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً لام العاقبة، و وجه ذلك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولدا، و قرّة عين لا ليكون عدوّا، فكان عاقبة ذلك إنه كان لهم عدوّا و حزنا، و لما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم، و ثمرة له شبهت بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله، و من هذا قول الشاعر:

لدوا للموت و ابنوا للخراب «١» و قول الآخر:

و للمنايا تربّى كلّ مرضعةو دورنا لخراب الدّهر نبنيها

قرأ الجمهور و حزنا بفتح الحاء و الزاى، و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائى و خلف، و حزنا: بضم الحاء، و سكون الزاى، و اختار القراءة الأولى: أبو عبيدة، و أبو حاتم، و هما لغتان كالعدم و العدم،

---

(۱). هذا صدر البيت، و عجزه: فكلكم يضير إلى يباب.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۵

و الرشد و الرشد، و السقم و السقم، و جملة إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ و معنى خاطئين: عاصين آثمين فى كل أفعالهم، و أقوالهم، و هو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب، و قرئ خاطين بياء من دون همزة فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، و لكنها خففت بحذف الهمزة، و يحتمل أن تكون من خطا يخطو، أى: تجاوز الصواب وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ أى: قالت امرأة فرعون لفرعون، و ارتفاع قرّة: على أنه خبر مبتدأ محذوف، قاله الكسائى و غيره. و قيل: على أنه مبتدأ و خبره لا تَقْتُلُوهُ قاله الزجاج، و الأوّل أولى. و كان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها و أخرجته من التابوت، و خاطبت بقولها «لا تقتلوه» فرعون و من عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «و قالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لى و لك» و يجوز نصب قرّة بقوله لا تقتلوه على الاشتغال. و قيل: إنها قالت: لا تقتلوه فإن اللّه أتى به من أرض بعيدة و ليس من بنى إسرائيل. ثم عللت ما قالته بالترجى منها لحصول النفع منه لهم، أو التبنى له فقالت:

عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فنصيب منه خيرا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً و كانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و هم لا يشعرون أنهم على خطأ فى التقاطه، و لا يشعرون أن هلاكهم على يده، فتكون حالا من آل فرعون، و هى من كلام اللّه سبحانه، و قيل: هى من كلام المرأة، أى: و بنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، و هم لا يشعرون، قاله الكلبى، و هو بعيد جدا.

و قد حكى الفراء عن السدّى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن قوله: «لا تقتلوه» من كلام فرعون و اعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، و يكفى فى ردّه ضعف إسناده وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً قال المفسرون: معنى ذلك أنه فارغ من كل شىء إلا من أمر موسى، كأنها لم تهتم بشىء سواه. قال أبو عبيدة:

خاليا من ذكر كل شىء فى الدنيا إلا من ذكر موسى. و قال الحسن و ابن إسحاق و ابن زيد: فارغا مما أوحى إليها من قوله: «و لا تخافى و لا تحزنى»، و ذلك لما سوّل الشيطان لها من غرقه و هلاكه. و قال الأخفش:

فارغا من الخوف و الغمّ لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدّم من الوحى إليها، و روى مثله عن أبى عبيدة أيضا.

و قال الكسائىّ: ناسيا ذاهلا. و قال العلاء بن زياد: نافرا. و قال سعيد بن جبير: والها، كادت تقول و ابناه من شدّة الجزع. و قال مقاتل: كادت تصيح شفقة عليه من الغرق. و قيل المعنى: أنها لما سمعت بوقوعه فى يد فرعون، طار عقلها من فرط الجزع، و الدهش. قال النحاس: و أصحّ هذه الأقوال: الأوّل، و الذين قالوه أعلم بكتاب اللّه، فإذا كان فارغا من كل شىء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى، و قول من قال فارغا من الغمّ غلط قبيح لأن بعده «إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها» و قرأ فضالة بن عبيد الأنصارى و محمد بن السميقع و أبو العالية و ابن محيصن «فزعا» بالفاء و الزاى و العين المهملة من الفزع، أى خائفا و جلا. و قرأ ابن عباس «قرعا» بالقاف المفتوحة و الراء المهملة المكسورة و العين المهملة من قرع رأسه:

إذا انحسر شعره، و معنى و أصبح: و صار كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء فى أمر رشيدو أصبحت المدينة للوليد

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۸۶

إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها إن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، أى: إنها كادت لتظهر أمر موسى، و أنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش، و الخوف و الحزن، من بدا يبدو:

إذا ظهر، و أبدى يبدى: إذا أظهر، و قيل: الضمير فى به عائد إلى الوحى الذى أوحى إليها، و الأوّل أولى.

و قال الفراء: إن كانت لتبدى باسمه لضيق صدرها، لو لا أن ربطنا على قلبها. قال الزجاج: و معنى الربط على القلب: إلهام الصبر و تقويته، و جواب لو لا محذوف، أى: لو لا أن ربطنا على قلبها لأبدت، و اللام فى لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ متعلق بربطنا، و المعنى: ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد اللّه و هو قوله:

«إنا رادوه إليك». و قيل: و الباء فى: «لتبدى به» زائدة للتأكيد. و المعنى: لتبديه كما تقول أخذت الحبل و بالحبل. و قيل المعنى: لتبدى القول به وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أى: قالت أمّ موسى لأخت موسى و هى مريم «۱» قصيه، أى: تتبعى أثره و اعرفى خبره، و انظرى أين وقع و إلى من صار؟ يقال قصصت الشىء: إذا اتبعت أثره متعرّفا لحاله فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ أى: أبصرته عن بعد، و أصله عن مكان جنب، و منه الأجنبى. قال الشاعر:

فلا تحرمنّى نائلا عن جنابةفإنّى امرؤ وسط الدّيار غريب «۲»

و قيل: المراد بقوله «عن جنب»: عن جانب، و المعنى أنها أبصرت إليه متجانفة مخاتلة، و يؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم عن جانب، و محلّ عن جنب: النصب على الحال إما من الفاعل، أى: بصرت به مستخفية كائنة عن جنب، و إما من المجرور، أى: بعيدا منها. قرأ الجمهور «بصرت» به بفتح الباء و ضم الصاد، و قرأ قتادة بفتح الصاد و قرأ عيسى بن عمر بكسرها، قال المبرّد: أبصرته و بصرت به بمعنى، و قرأ الجمهور «عن جنب» بضمتين، و قرأ قتادة و الحسن و الأعرج و زيد بن علىّ بفتح الجيم و سكون النون، و روى عن قتادة أيضا أنه قرأ بفتحهما. و روى عن الحسن أيضا أنه قرأ بضم الجيم، و سكون النون. و قال أبو عمرو ابن العلاء: إن معنى «عن جنب» عن شوق. قال: و هى لغة جذام يقولون: جنبت إليك، أى: اشتقت إليك وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أنها تقصه، و تتبع خبره، و أنها أخته وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ المراضع جمع مرضع، أى: منعناه أن يرضع من المرضعات. و قيل: المراضع جمع مرضع بفتح الضاد، و هو الرضاع أو موضعه، و هو الثدى، و معنى مِنْ قَبْلُ من قبل أن نردّه إلى أمه، أو من قبل أن تأتيه أمه، أو من قبل قصها لأثره، و قد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه، فلم يرضع من واحدة منهنّ فعند ذلك فَقالَتْ أى: أخته لما رأت امتناعه من الرضاع هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ أى: يضمنون لكم القيام به، و إرضاعه وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ أى: مشفقون عليه لا يقصرون فى إرضاعه و تربيته. و فى الكلام حذف، و التقدير: فقالوا لها من هم؟ فقالت أمى، فقيل لها: و هل لأمك لبن؟ قالت نعم لبن أخى هارون: فدلتهم على أمّ موسى فدفعوه إليها، فقبل ثديها، و رضع منه، و ذلك معنى

---

(۱). هى مريم بنت عمران وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام.

(۲). البيت لعلقمة بن عبدة، قاله يخاطب به الحارث بن جبلة يمدحه، و كان أسر أخاه شأسا ...

قوله سبحانه: فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها بولدها وَ لا تَحْزَنَ على فراقه وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ أى: جميع وعده، و من جملة ذلك ما وعدها بقوله: إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ حق لا خلف فيه واقع لا محالة وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أى: أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك، بل كانوا فى غفلة عن القدر و سرّ القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون أن اللّه وعدها بأن يردّه إليها.

و قد أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً قال: فرّق بينهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً قال: يستعبد طائفة منهم و يدع طائفة، و يقتل طائفة، و يستحيى طائفة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ

نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً قال: يوسف و ولده. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ قال: هم بنو إسرائيل وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً أى: ولاة الأمر وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أى: الذين يرثون الأرض بعد فرعون و قومه وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ قال ما كان القوم حذروه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أى: ألهمناها الذى صنعت بموسى. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش قال:

قال ابن عباس فى قوله: فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ قال: أن يسمع جيرانك صوته. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً قال: فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً قال: خاليا من كل شيء غير ذكر موسى.

و فى قوله: إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ قال: تقول: يا ابناه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عنه فى قوله: وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أى: اتبعى أثره فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ قال: عن جانب. و أخرج الطبرانى و ابن عساكر عن أبى أمامة، أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال لخديجة: «أما شعرت أن اللّه زوّجنى مريم بنت عمران، و كلثوم أخت موسى، و امرأة فرعون؟ قالت: هنيئا لك يا رسول اللّه» و أخرج ابن عساكر عن ابن أبى روّاد مرفوعا بأطول من هذا، و فى آخره أنها قالت: بالرفاء و البنين. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس فى قوله: وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ قال: لا يؤتى بمرضع فيقبلها.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١۴ الى ٢۴]

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١۴) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١۵) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١۶) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨)

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)

فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢۴)

فتح القدير، ج۴، ص: ١٨٨

قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ قد تقدّم الكلام فى بلوغ الأشدّ فى الأنعام، و قد قال ربيعة و مالك: هو الحلم لقوله تعالى: حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً «١» الآية، و أقصاه أربع و ثلاثون سنة، كما قال مجاهد و سفيان الثورى و غيرهما. و قيل: الأشدّ ما

بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، و الاستواء من الثلاثين إلى الأربعين، و قيل: الاستواء هو بلوغ الأربعين، و قيل: الاستواء إشارة إلى كمال الخلقة، و قيل: هو بمعنى واحد، و هو ضعيف لأن العطف يشعر بالمغايرة آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً الحكم الحكمة على العموم، و قيل:

النبوة، و قيل: الفقه فى الدين. و العلم: الفهم، قاله السدىّ. و قال مجاهد: الفقه. و قال ابن إسحاق:

العلم بدينه، و دين آبائه، و قيل: كان هذا قبل النبوّة، و قد تقدّم بيان معنى ذلك فى البقرة وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: مثل ذلك الجزاء الذى جزينا أمّ موسى لما استسلمت لأمر اللّه و ألقت ولدها فى البحر و صدّقت بوعد اللّه نجزى المحسنين على إحسانهم، و المراد العموم وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ أى: و دخل موسى مدينة مصر الكبرى، و قيل: مدينة غيرها من مدائن مصر، و محل قوله: عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها: النصب على الحال، إما من الفاعل، أى: مستخفيا، و إما من المفعول. قيل: لما عرف موسى ما هو عليه من الحق فى دينه عاب ما عليه فرعون، و فشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفيا قيل: كان دخوله بين العشاء، و العتمة، و قيل: وقت القائلة. قال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخل على حين علم منهم، فكان منه ما حكى اللّه سبحانه بقوله: فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ أى: ممن شايعه على دينه، و هم بنو إسرائيل وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ أى: من المعادين له على دينه و هم قوم فرعون فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ أى: طلب أن ينصره و يعينه على خصمه عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فأغاثه لأن نصر المظلوم واجب فى جميع الملل. قيل: أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون، فأبى عليه، و استغاث بموسى فَوَكَزَهُ مُوسى الوكز: الضرب بجمع الكف، و هكذا اللكز، و اللهز. و قيل: اللكز على اللحى، و الوكز: على القلب. و قيل: ضربه بعصاه. و قرأ ابن مسعود «فلكزه» و حكى الثعلبى أن فى مصحف عثمان «فنكزه» بالنون. قال الأصمعى: نكزه بالنون: ضربه و دفعه. قال

---

(۱). النساء: ۶.

الجوهرى: اللكز الضرب على الصدر. و قال أبو زيد: فى جميع الجسد: يعنى أنه يقال له لكز. و اللهز:

الضرب بجميع اليدين فى الصدر، و مثله عن أبى عبيدة. فَقَضى عَلَيْهِ أى: قتله، و كل شى‏ء أتيت عليه و فرغت منه: فقد قضيت عليه، و منه قول الشاعر:

قد عضّه فقضى عليه الأشجع «۱» قيل: لم يقصد موسى قتل القبطى، و إنما قصد دفعه، فأتى ذلك على نفسه، و لهذا قال: هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ و إنما قال بهذا القول؛ مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل، لأنه لم يكن إذ ذاك مأمورا بقتل الكفار. و قيل: إن تلك الحالة حالة كفّ عن القتال لكونه مأمونا عندهم، فلم يكن له أن يغتالهم.

ثم وصف الشيطان بقوله: إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ أى: عدوّ للإنسان يسعى فى إضلاله، ظاهر العداوة و الإضلال. و قيل: إن الإشارة بقوله «هذا» إلى عمل المقتول لكونه كافرا مخالفا لما يريده اللّه. و قيل: إنه الإشارة إلى المقتول نفسه: يعنى أنه من جند الشيطان و حزبه. ثم طلب من اللّه سبحانه أن يغفر له ما وقع منه قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ اللّه لَهُ ذلك إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ و وجه استغفاره أنه لم يكن لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر، و قيل: إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين، أو أراد إنى ظلمت نفسى بقتل هذا الكافر، لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلنى به، و معنى فاغفر لى: فاستر ذلك علىّ، لا تطلع عليه فرعون، و هذا خلاف الظاهر، فإن موسى عليه السلام ما زال نادما على ذلك، خائفا من العقوبة بسببه، حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول: إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها، كما ثبت ذلك فى حديث الشفاعة الصحيح. و قد قيل: إن هذا

كـان من قبـل النبوّة، و قيـل: كـان ذلك قبل بلوغه سنّ التكليف و إنه كان إذ ذاك فى اثنتى عشرة سنة، و كل هـذه التأويلات البعيدة، محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، و لا شك أنهم معصومون من الكبائر، و القتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة، لأن الوكزة فى الغالب لا تقتل. ثم لما أجاب اللّه سؤاله و غفر له ما طلب منه مغفرته قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ هـذه الباء يجوز أن تكـون بـاء القسم، و الجـواب مقـدر، أى: أقسم بإنعامـك علىّ لأتوبنّ و تكـون جملـة فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ كالتفسير للجواب، و كأنه أقسم بما أنعم اللّه عليه أن لا يظاهر مجرما.

و يجوز أن تكون هذه الباء هى باء السببية بمحذوف، أى: اعصمنى بسبب ما أنعمت به علىّ، و يكون قوله:

«فلن أكون ظهيرا» مترتبا عليه، و يكون فى ذلك استعطاف للّه تعالى، و توصل إلى إنعامه بإنعامه و «ما» فى قوله: «بما أنعمت» إما موصولة، أو مصدرية، و المراد بما أنعم به عليه: هو ما آتاه من الحكم و العلم أو بالمغفرة، أو الجميع، و أراد بمظاهرة المجرمين: إمـا صـحبة فرعون و الانتظـام فى جملته فى ظـاهر الأمر أو مظـاهرته على ما فيه إثم. قال الكسائى و الفراء: ليس قوله: فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ خبرا بل هو دعاء،

(۱). البيت لجرير، و صدره:

أ يفايشون و قد رأوا حفّاثهم و معنى «يفايشون»: يفاخرون. و الحفّاث و الأشجع: من الحيّات.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۰

أى: فلا تجعلنى يـا ربّ ظهيرا لهم. قـال الكسائى، و فى قراءة عبـد اللّه «فلا تجعلنى يا ربّ ظهيرا للمجرمين» و قال الفراء: المعنى اللهمّ! فلن أكون ظهيرا للمجرمين. و قـال النحـاس: إن جعله من باب الخبر أوفى، و أشبه بنسق الكلام فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ أى: دخـل فى وقت الصباح فى المدينـة التى قتـل فيها القبطى، و خائفا: خبر أصبح، و يجوز أن يكون حالا، و الخبر: فى المدينـة، و يترقب: يجوز أن يكون خبرا ثانيـا، و أن يكون حالا ثانيـة، و أن يكون بـدلا من خائفا، و مفعول يترقب: محـذوف، و المعنى: يـترقب المكروه أو يـترقب الفرح فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ إذا هى الفجائيـة، و الموصـول: مبتـدأ و خـبره يستصرخه، أى: فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره، و يظلمه كما أراد القبطى الذى قد قتله موسى بالأمس، و الاستصراخ الاستغاثة، و هو من الصراخ، و ذلك أن المستغيث يصوّت فى طلب الغوث، و منه قول الشاعر:

كنّا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الجواب له قرع الظّنابيب «۱»

قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ أى: بين الغوايـة، و ذلك أنك تقاتل من لا تقـدر على مقاتلته و لا تطيقه، و قيل: إنما قال له هذه المقالـة لأنـه تسـبب بالأمس لقتل رجل يريـد اليوم أن يتسـبب لقتل آخر فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما أى: يبطش بـالقبطى الـذى هو عـدوّ لموسـى، و للإسـرائيلى حيث لم يكن على دينهما، و قـد تقـدّم معنى يبطش و اختلاف القراء فيه قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ القائل: هو الإسـرائيلى لما سـمع موسـى يقول له إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ و رآه يريد أن يبطش بالقبطى ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسـى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ فلما سـمع القبطى ذلك أفشاه، و لم يكن قـد علم أحـد من أصـحاب فرعون أن موسـى هو الـذى قتـل القبطى بالأمس حتى أفشـى عليه الإسـرائيلى، هكـذا قال جمهـور المفسـرين. و قيـل: إن القائـل أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ هـو القبطى، و كـان قـد بلغـه الخـبر مـن جهة الإسـرائيلى، و هـذا هو الظـاهر، و قـد سـبق ذكر القبطى قبـل هـذا بلا فصل لأنه هو المراد بقوله عـدوّ لهما، و لا موجب لمخالفة الظاهر، حتى يلزم عنه أنه المؤمن بموسـى المستغيث به المرّة الأولى، و المرّة الأخرى هو الـذى أفشـى عليه، و أيضا إن قوله: إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ لا يليق صدور مثله إلا من كافر، و إن: فى قوله: إِنْ تُرِيدُ هى النافية، أى: ما تريد إلا أن تكون

جبارا فی الأرض. قال الزجاج: الجبار فی اللغة: الذی لا یتواضع لأمر اللّه، و القاتل بغیر حق: جبار. و قیل: الجبار الذی یفعل ما یرید من الضرب، و القتل، و لا ینظر فی العواقب، و لا یدفع بالتی هی أحسن وَ ما تُرِیدُ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْمُصْلِحِینَ أی: الذین یصلحون بین الناس وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ یَسْعی قیل: المراد بهذا الرجل حزقیل، و هو مؤمن آل فرعون، و کان ابن عم موسی، و قیل: اسمه شمعون، و قیل: طالوت، و قیل: شمعان. و المراد بأقصی المدینة: آخرها و أبعدها، و یسعی یجوز أن یکون

---

(۱). الظّنابیب: جمع ظنبوب، و هو حرف العظم الیابس من الساق، و المراد: سرعة الإجابة.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۱۹۱

فی محل رفع صفة لرجل، و یجوز أن یکون فی محل نصب علی الحال، لأن لفظ رجل و إن کان نکرة فقد تخصص بقوله: من أقصی المدینة قالَ یا مُوسی إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ أی: یتشاورون فی قتلک و یتآمرون بسببک. قال الزجاج: یأمر بعضهم بعضا بقتلک. و قال أبو عبید: یتشاورون فیک لیقتلوک: یعنی أشراف قوم فرعون. قال الأزهری: ائتمر القوم و تآمروا: أی أمر بعضهم بعضا، نظیره قوله: وَ أْتَمِرُوا بَیْنَکُمْ بِمَعْرُوفٍ «۱» قال النمر بن تولب:

أری الناس قد أحدثوا شیمةو فی کلّ حادثة یؤتمر

فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِینَ فی الأمر بالخروج، و اللام للبیان لأن معمول المجرور لا یتقدم علیه فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً یَتَرَقَّبُ فخرج موسی من المدینة حال کونه خائفا من الظالمین مترقبا لحوقهم به، و إدراکهم له، ثم دعا ربه بأن ینجیه مما خافه قائلا: رَبِّ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ أی: خلصنی من القوم الکافرین، و ادفعهم عنی، و حل بین و بینهم وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْیَنَ أی: نحو مدین قاصدا لها.

قال الزجاج: أی سلک فی الطریق الذی تلقاء مدین فیها، انتهی. یقال: دار تلقاء دار فلان، و أصله من اللقاء، و لم تکن هذه القریة داخلة تحت سلطان فرعون، و لهذا خرج إلیها قالَ عَسی رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَواءَ السَّبِیلِ أی: یرشدنی نحو الطریق المستویة إلی مدین وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ أی: وصل إلیه، و هو الماء الذی یستقون منه وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ یَسْقُونَ أی: وجد علی الماء جماعة کثیرة من الناس یسقون مواشیهم، و لفظ الورود قد یطلق علی الدخول فی المورد، و قد یطلق علی البلوغ إلیه، و إن لم یدخل فیه، و هو المراد هنا، و منه قول زهیر:

فلمّا وردنا الماء زرقا حمامه «۲» و قد تقدم تحقیق معنی الورود فی قوله: وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلَّا وارِدُها «۳» و قیل: مدین اسم للقبیلة لا للقریة، و هی غیر منصرفة علی کلا التقدیرین وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ أی: من دون الناس الذین یسقون ما بینهم و بین الجهة التی جاء منها، و قیل: معناه: فی موضع أسفل منهم امْرَأَتَیْنِ تَذُودانِ أی: تحبسان أغنامهما من الماء حتی یفرغ الناس و یخلو بینهما و بین الماء، و معنی الذود: الدفع و الحبس، و منه قول الشاعر:

أبیت علی باب القوافی کأنّماأذود سربا من الوحش نزّعا

أی: أحبس و أمنع، و ورد الذود: بمعنی الطرد، و منه قول الشاعر:

لقد سلبت عصاک بنو تمیمفما تدری بأیّ عصی تذود

---

(۱). الطلاق: ۶.

(۲). هو من المعلقة، و عجزه:

و ضعن عصىّ الحاضر المتخيّم

(٣). مريم: ٧١.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۱۹۲

أى: تطرد قالَ ما خَطْبُكُما أى: قال موسى للمرأتين: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟

و الخطب: الشأن، قيل: و إنما يقال ما خطبك لمصاب، أو مضطهد، أو لمن يأتى بمنكر قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ أى: إن عادتنا التأنى حتى يصدر الناس عن الماء، و ينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم، أو عجزا عن السقى معهم. قرأ الجمهور «يصدر» بضم الياء و كسر الدال مضارع أصدر المتعدّى بالهمزة.

و قرأ ابن عامر و أبو عمرو و أبو جعفر بفتح الياء و ضم الدال من صدر يصدر لازما، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف، أى: يرجعون مواشيهم، و الرعاء: جمع راع. قرأ الجمهور «الرعاء» بكسر الراء. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها. قال أبو الفضل: هو مصدر أقيم مقام الصفة، فلذلك استوى فيه الواحد و الجمع.

و قرئ «الرعاء» بالضم اسم جمع. و قرأ طلحة بن مصرف «نسقى» بضم النون من أسقى وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ عالى السن، و هذا من تمام كلامهما، أى: لا يقدر أن يسقى ماشيته من الكبر، فلذلك احتجنا و نحن امرأتان ضعيفتان أن نسقى الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك، فلما سمع موسى كلامهما سقى لهما رحمة لهما، أى: سقى أغنامهما لأجلهما ثم لما فرغ من السقى لهما تولى إلى الظل. أى انصرف إليه، فجلس فيه، قيل: كان هذا الظل ظل سمرة هنالك. ثم قال لما أصابه من الجهد و التعب مناديا لربه: إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ أى خير كان فَقِيرٌ أى: محتاج إلى ذلك، قيل: أراد بذلك الطعام، و اللام فى لما أنزلت معناها إلى: قال الأخفش: يقال هو فقير له، و إليه.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و المحاملى فى أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ قال: ثلاثا و ثلاثين سنة وَ اسْتَوى قال: أربعين سنة. و أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب المعمرين من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال: الأشد ما بين الثمانى عشرة إلى الثلاثين، و الاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ فى النقصان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها قال: نصف النهار. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراسانى، عنه أيضا فى الآية قال: ما بين المغرب و العشاء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا هذا مِنْ شِيعَتِهِ قال: إسرائيلى وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ قال: قبطى فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ الإسرائيلى عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ القبطى فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قال: فمات، قال فكبر ذلك على موسى. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قال: هو صاحب موسى الذى استنصره بالأمس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: الذى استنصره هو الذى استصرخه.

و أخرج ابن المنذر عن الشعبى قال: من قتل رجلين فهو جبار، ثم تلا هذه الآية؟

إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: لا يكون الرجل جبارا حتى يقتل نفسين. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: خرج موسى خائفا يترقب، جائعا ليس معه زاد حتى انتهى إلى مدين، و عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ و امرأتان جالستان

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۱۹۳

بشياههما فسألهما ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ قال: فهل قربكما ماء؟ قالتا: لا، إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر، قال فانطلقا فأريانيها، فانطلقتا معه، فقال بالصخرة بيده فنحاها، ثم استقى لهم سجلا واحدا

فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فسمعتا، قال: فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما، فسألهما فأخبرتاه، فقال لإحداهما: انطلقى فادعيه فأتت، ف قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فمشت بين يديه، فقال لها امشى خلفى، فإنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى أن أرى منك ما حرّم اللّه علىّ، و أرشدينى الطريق فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ: لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قال لها أبوها:

ما رأيت من قوّته و أمانته؟ فأخبرته بالأمر الذى كان، قالت: أما قوّته فإنه قلب الحجر وحده، و كان لا يقلبه إلا النفر. و أما أمانته فقال امشى خلفى و أرشدينى الطريق لأنى امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لى منك ما حرّمه اللّه. قيل لابن عباس: أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما و أوفاهما. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة فى المصنف و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن عمر بن الخطاب قال: إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر و لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما؟ فحدّثتاه، فأتى الحجر، فرفعه وحده، ثم استقى، فلم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم، فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدّثتاه، و تولى موسى إلى الظلّ فقال:

رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فقال: فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء خرّاجة ولاجة «١» قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فقام معها موسى، فقال لها: امشى خلفى و انعتى لى الطريق، فإنى أكره أن يصيب الريح ثيابك، فتصف لى جسدك، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه، فقالت إحداهما: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوىّ الأمين، قال: يا بنية ما علمك بأمانته و قوّته؟ قالت: أما قوّته فرفعه الحجر و لا يطيقه إلا عشرة رجال، و أما أمانته فقال امشى خلفى و انعتى لى الطريق فإنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك، فزاده ذلك رغبة فيه، ف قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ إلى قوله: سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أى: فى حسن الصحبة و الوفاء بما قلت قالَ موسى ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ قال نعم قال وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ فزوّجه و أقام معه يكفيه و يعمل فى رعاية غنمه و ما يحتاج إليه و زوجه صفورا و أختها شرفا، و هما اللتان كانتا تذودان. قال ابن كثير بعد إخراجه لطرق من هذا الحديث: إن إسناده صحيح. السلفع من النساء الجريئة السليطة. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ قال: ورد الماء حيث ورد و إنه لتتراءى خضرة البقل فى بطنه من الهزال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: خرج موسى من مصر إلى مدين

---

(١). المقصود: أنها ليست جريئة على الرجال، و أنها من اللواتى يقرن فى بيوتهن.

و بينه و بينها ثمان ليال، و لم يكن له طعام إلّا ورق الشجر، و خرج حافيا، فلما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه «١». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: تَذُودانِ تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس و يخلو لهما البئر. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عنه أيضا قال: لقد قال موسى: ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير و هو أكرم خلقه عليه، و لقد افتقر إلى شقّ تمرة، و لقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ما سأل إلا الطعام. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: سأل فلقا من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع.

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٣٠) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٣٢)

قوله: فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ فى الكلام حذف يدل عليه السياق. قال الزجاج:

تقديره فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، و كانت عادتهما الإبطاء فى السقى، فحدّثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما. فأمر الكبرى من بنتيه، و قيل: الصغرى أن تدعوه له فجاءته و ذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب.

و قيل: هما ابنتا أخى شعيب، و أن شعيبا كان قد مات. و الأوّل أرجح. و هو ظاهر القرآن. و محلّ «تمشى» النصب على الحال من فاعل جاءت، و عَلَى اسْتِحْياءٍ حال أخرى، أى: كائنة على استحياء حالتى المشى و المجيء فقط، و جملة قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ماذا قالت له لما جاءته؟ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا أى: جزاء سقيك لنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ القصص مصدر سمى به المفعول: أى المقصوص يعنى أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطىّ إلى عند

---

(١). قال فى القاموس: الخف بالضم: ما أصاب الأرض من باطن القدم.

وصوله إلى ماء مدين قالَ شعيب لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى: فرعون و أصحابه، لأن فرعون لا سلطان له على مدين، و للرازى فى هذا الموضع إشكالات باردة جدا لا تستحق أن تذكر فى تفسير كلام اللّه عزّ و جلّ، و الجواب عليها يظهر للمقصر فضلا عن الكامل، و أشفّ ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقى. و يجاب عنه بأنه اتبع سنة اللّه فى إجابة دعوة نبىّ من أنبياء اللّه، و لم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل، و لهذا ورد أنه لما قدّم إليه الطعام قال:

إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ القائلة هى التى جاءته، أى: استأجره ليرعى لنا الغنم، و فيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة. و قد اتفق على جوازها و مشروعيتها جميع علماء الإسلام إلّا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصمّ، و جملة إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى، أى: إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعا بين خصلتى: القوّة، و الأمانة. و قد تقدّم فى المروىّ عن ابن عباس و عمر أن أباها سألها عن وصفها له بالقوّة و الأمانة، فأجابته بما تقدّم قريبا قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ فيه مشروعية عرض ولىّ المرأة

لها على الرجل، و هذه سنة ثابتة فى الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر و عثمان، و القصة معروفة، و غير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوّة، و كذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عَلى أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ أی: علی أن تكون أجيرا لی ثمانی سنين. قال الفراء:

يقول على أن تجعل ثوابی أن ترعى غنمى ثمانی سنين، و محل عَلى أَنْ تَأْجُرَنِی النصب على الحال، و هو مضارع أجرته، و مفعوله الثانی: محذوف، أی: نفسک و ثَمانِیَ حِجَجٍ ظرف. قال المبرد: يقال:

أجرت داری و مملوکی غیر ممدود و ممدودا و الأول أکثر فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ أی: إن أتممت ما استأجرتک علیه من الرعی عشر سنین فمن عندک، أی: تفضلا منک لا إلزاما منی لک، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكولا إلى المروءة، و محل فَمِنْ عِنْدِکَ الرفع على تقدير مبتدأ، أی: فهی من عندک وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْکَ بإلزامک إتمام العشرة الأعوام، و اشتقاق المشقة من الشق، أی: شق ظنه نصفين، فتارة يقول: أطيق، و تارة يقول: لا أطيق. ثم رغبه فى قبول الإجارة فقال:

سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ فی حسن الصحبة و الوفاء، و قيل: أراد الصلاح على العموم، فيدخل صلاح المعاملة فی تلک الإجارة تحت الآية دخولا أوليا، و قيد ذلک بالمشيئة تفويضا للأمر إلى توفيق اللّه و معونته.

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى ف قالَ ذلِکَ بَيْنِی وَ بَيْنَکَ و اسم الإشارة مبتدأ و خبره ما بعده، و الإشارة إلى ما تعاقدا عليه، و جملة أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ شرطية و جوابها فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ و المراد بالأجلين: الثمانية الأعوام، و العشرة الأعوام، و معنى قضيت: وفيت به، و أتممته، و الأجلين مخفوض بإضافة أیّ إليه، و ما زائدة. و قال ابن كيسان: «ما» فی موضع خفض بإضافة أیّ إليها، و «الأجلين» بدل منها، و قرأ الحسن (أيما) بسكون الياء، و قرأ ابن مسعود (أیّ الأجلين ما قضيت) و معنى فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ فلا ظلم علیّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين، أی: كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطالب

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۶

بالنقصان على العشرة. و قيل المعنى: كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام، لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام، و هذا أظهر. و أصل العدوان: تجاوز الحد فی غير ما يجب. قال المبرد: و قد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما، و لكنه جمعهما ليجعل الأوّل كالأتمّ فی الوفاء. قرأ الجمهور (عدوان) بضم العين. و قرأ أبو حيوة بكسرها وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أی: على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد و حفيظ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شیء من ذلک. قيل: هو من قول موسى، و قيل: من قول شعيب، و الأوّل أولى، لوقوعه فی جملة كلام موسى فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ هو أكملهما و أوفاهما، و هو العشرة الأعوام كما سيأتی آخر البحث، و الفاء فصيحة وَ سارَ بِأَهْلِهِ إلى مصر، و فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً أی: أبصر من الجهة التی تلی الطور نارا، و قد تقدّم تفسير هذا فی سورة طه مستوفى قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ و هذا تقدّم تفسيره أيضا فی سورة طه و فی سورة النمل أَوْ جَذْوَةٍ قرأ الجمهور بكسر الجيم، و قرأ حمزة و يحيى بن وثاب بضمها، و قرأ عاصم و السلمی و زرّ بن حبيش بفتحها. قال الجوهری: الجذوة و الجذوة و الجذوة: الجمرة، و الجمع جذا و جذا و جذا. قال مجاهد فی الآية: أن الجذوة قطعة من الجمر فی لغة جميع العرب. و قال أبو عبيدة: هی القطعة الغليظة من الخشب كان فی طرفها نار أو لم يكن، و مما يؤيد أن الجذوة: الجمرة قول السلمی:

و بدّلت بعد المسک و البان شقوةدخان الجذا فی رأس أشمط شاحب

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أی: تستدفئون بالنار فَلَمَّا أَتاها أی: أتى النار التی أبصرها، و قيل: أتى الشجرة، و الأوّل أولى لعدم تقدّم الذكر للشجرة نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ من لابتداء الغاية، و الأيمن: صفة للشاطئ، و هو من اليمن: و هو البركة، أو من جهة اليمين

المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى، أى: الذى يلى يمينه دون يساره، و شاطئ الوادى: طرفه، و كذا شطه. قال الراغب: و جمع الشاطئ أشطاء، و قوله: فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ متعلق بنودى، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ، و مِنَ الشَّجَرَةِ بدل اشتمال من شاطئ الواد، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ. و قال الجوهرى: يقول شاطئ الأودية و لا يجمع. قرأ الجمهور فِي الْبُقْعَةِ بضم الباء، و قرأ أبو سلمة و الأشهب العقيلى بفتحها، و هى لغة حكاها أبو زيد أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ أن: هى المفسرة و يجوز أن تكون هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن، و جملة النداء مفسرة له، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور بكسر همزة «إنى» على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه. و قرئ بالفتح و هى قراءة ضعيفة، و قوله: وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ معطوف على أَنْ يا مُوسى و قد تقدّم تفسير هذا و ما بعده فى طه و النمل، و فى الكلام حذف، و التقدير: فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ فى سرعة حركتها مع عظم جسمها وَلَّى مُدْبِراً أى: منهزما، و انتصاب مدبرا على الحال، و قوله: وَ لَمْ يُعَقِّبْ فى محل نصب أيضا على الحال، أى:

لم يرجع يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ قد تقدّم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده،

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۷

و كذلك قوله: اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ جناح الإنسان:

عضده، و يقال لليد كلها: جناح، أى: اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع، و قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات: الأولى: اسلك يدك فى جيبك، و الثانية: و اضمم إليك جناحك، و الثالثة: و أدخل يدك فى جيبك. و يجوز أن يراد بالضم: التجلد و الثبات عند انقلاب العصا ثعبانا، و معنى مِنَ الرَّهْبِ من أجل الرهب، و هو الخوف. قرأ الجمهور (الرّهب) بفتح الراء و الهاء، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، و قرأ حفص و السلمى و عيسى بن عمر و ابن أبى إسحاق بفتح الراء و إسكان الهاء و قرأ ابن عامر و الكوفيون إلا حفصا بضم الراء و إسكان الهاء. و قال الفراء: أراد بالجناح: عصاه، و قال بعض أهل المعانى: الرهب: الكمّ بلغة حمير و بنى حنيفة. و قال الأصمعى: سمعت أعرابيا يقول لآخر: أعطنى ما فى رهبك، فسألته عن الرهب، فقال الكمّ. فعلى هذا يكون معناه: اضمم إليك يدك و أخرجها من الكمّ فَذانِكَ إشارة إلى العصا و اليد بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أى: حجتان نيرتان، و دليلان واضحان، قرأ الجمهور «فذانك» بتخفيف النون، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بتشديدها، قيل: و التشديد لغة قريش. و قرأ ابن مسعود و عيسى بن عمر و شبل و أبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة، و الياء بدل من إحدى النونين، و هى لغة هذيل، و قيل: لغة تميم، و قوله: مِنْ رَبِّكَ متعلق بمحذوف، أى: كائنان منه، و كذلك قوله إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ متعلق بمحذوف، أى: مرسلان، أو واصلان إليهم إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ متجاوزين الحد فى الظلم خارجين عن الطاعة أبلغ خروج، و الجملة تعليل لما قبلها.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن أبى الهذيل عن عمر بن الخطاب فى قوله: تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قال: جاءت مستترة بكمّ درعها على وجهها. و أخرجه ابن المنذر عن أبى الهذيل موقوفا عليه. و أخرج ابن عساكر عن أبى حازم قال: لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء، فقال له شعيب: كل، قال موسى: أعوذ باللّه، قال: و لم؟ أ لست بجائع؟ قال: بلى و لكن أخاف أن يكون هذا عوضا عما سقيت لهما، و أنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا، قال: لا و اللّه و لكنها عادتى، و عادة آبائى، نقرى الضيف و نطعم الطعام، فجلس موسى فأكل. و أخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قصّ عليه القصص. و أخرج سعيد بن منصور و ابن شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود قال: كان صاحب موسى يثرون بن أخى شعيب النبى. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال: كان اسم ختن «۱» موسى يثرون.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن قال: يقول أناس إنه شعيب، و ليس بشعيب، و لكنه سيد الماء يومئذ. و أخرج ابن ماجة و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن عتبة بن المنذر السلمى قال: كنّا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقرأ سورة طسم حتّى إذا بلغ قصّة موسى قال: «إنّ موسى أجّر نفسه ثمانى سنين أو عشرا على عفّة فرجه و طعام بطنه، فلمّا وفّى

---

(۱). الختن: زوج البنت أو الأخت و كل ما يكون من قبل المرأة كالأب و الأخ.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۸

الأجل- قيل: يا رسول اللّه أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما و أوفاهما- فلمّا أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه» الحديث بطوله.

و فى إسناده مسلمة بن على الحسنى الدمشقى البلاطى ضعفه الأئمة. و قد روى من وجه آخر و فيه نظر. و إسناده عند ابن أبى حاتم هكذا: حدثنا أبو زرعة، عن يحيى بن عبد اللّه بن بكير، حدّثنى ابن لهيعة، عن الحارث ابن يزيد الحضرمى، عن على بن رباح اللخمى، قال: سمعت عتبة بن النّدّر السلمى صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و ابن لهيعة ضعيف، و ينظر فى بقية رجال السند. و أخرج ابن جرير عن أنس طرفا منه موقوفا عليه.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة فى المصنف و عبد بن حميد و البخارى و ابن المنذر و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل: أىّ الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما و أطيبهما، إن رسول اللّه إذا قال فعل. و أخرج البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنه نحوه، قوله: إن رسول اللّه إذا قال فعل فيه نظر، فإن موسى لم يقل إنه سيقضى أكثر الأجلين بل قال: أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ. و قد روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن موسى قضى أتمّ الأجلين من طرق. و أخرج الخطيب فى تاريخه عن أبى ذرّ قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا سئلت أىّ الأجلين قضى موسى؟ فقل خيرهما و أبرّهما، و إن سئلت: أىّ المرأتين تزوّج؟ فقل الصغرى منهما، و هى التى جاءت فقالت: يا أبت استأجره».

و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال لى جبريل: يا محمد إن سألك اليهود أىّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، و إن سألوك أيّهما تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما». و أخرج البزار و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه. قال السيوطى بسند ضعيف عن أبى ذرّ «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم سئل أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما و أوفاهما، قال: و إن سئلت أىّ المرأتين تزوّج؟ فقل:

الصغرى منهما» قال البزار: لا نعلم يروى عن أبى ذرّ إلا بهذا الإسناد، و قد رواه ابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران، و هو ضعيف. و أما روايات أنه قضى أتمّ الأجلين فلها طرق يقوى بعضها بعضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن طريق السدىّ قال: قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله، فضلّ الطريق، و كان فى الشتاء فرفعت له نار، فلما رآها ظنّ أنها نار، و كانت من نور اللّه قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ فإن لم أجد خبرا آتيكم بشهاب قبس لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ من البرد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ لعلى أجد من يدلنى على الطريق، و كانوا قد ضلوا الطريق. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَوْ جَذْوَةٍ قال: شهاب. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ قال: كان النداء من السماء الدنيا، و ظاهر القرآن يخالف ما قاله رضى اللّه عنه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن عبد اللّه بن مسعود قال: ذكرت لى الشجرة التى أوى إليها موسى، فسرت إليها يومى و ليلتى حتى صبحتها، فإذا هى

سمرة خضراء ترف، فصليت على النبى صلّى اللّه عليه و سلم و سلمت، فأهوى إليها بعيرى و هو جائع، فأخذ منها ملآن فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه، فصليت على النبىّ و سلمت، ثم انصرفت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ قال: يدك.

فتح القدير، ج۴، ص: ۱۹۹

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۳۳ الى ۴۳]

قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ (۳۳) وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ (۳۴) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما بِآیاتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَکُمَا الْغالِبُونَ (۳۵) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِی آبائِنَا الْأَوَّلِینَ (۳۶) وَ قالَ مُوسی رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدی مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۳۷)

وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا أَیُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَی الطِّینِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلی إِلهِ مُوسی وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْکاذِبِینَ (۳۸) وَ اسْتَکْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَیْنا لا یُرْجَعُونَ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِی الْیَمِّ فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِینَ (۴۰) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَدْعُونَ إِلَی النَّارِ وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ لا یُنْصَرُونَ (۴۱) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِی هذِهِ الدُّنْیا لَعْنَةً وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِینَ (۴۲)

وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ الْأُولی بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۴۳)

لما سمع موسى قول اللّه سبحانه: فذانك برهانان إلى فرعون طلب منه سبحانه أن يقوى قلبه، ف قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً يعنى: القبطى الذى وكزه فقضى عليه فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ بها وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً لأنه كان فى لسان موسى حبسة كما تقدّم بيانه، و الفصاحة لغة الخلوص، يقال: فصح اللبن و أفصح فهو فصيح، أى: خلص من الرغوة، و منه فصح الرجل: جادت لغته، و أفصح:

تكلم بالعربية. و قيل: الفصيح الذى ينطق، و الأعجم الذى لا ينطق. و أما فى اصطلاح أهل البيان فالفصاحة:

خلوص الكلمة عن تنافر الحروف و الغرابة و مخالفة القياس، و فصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف و التعقيد، و انتصاب رِدْءاً على الحال، و الردء: المعين، من أردأته: أى أعنته، يقال فلان ردء فلان:

إذا كان ينصره و يشدّ ظهره، و منه قول الشاعر:

ألم تر أنّ أصرم كان ردئى و خير النّاس فى قلّ و مال

و حذفت الهمزة تخفيفا فى قراءة نافع و أبى جعفر، و يجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أردى على المائة:

إذا زاد عليها، فكان المعنى أرسله معى زيادة فى تصديقى، و منه قول الشاعر:

و أسمر خطّيا كأنّ كعوبه نوى القسب قد أردى ذراعا على العشر

و روى البيت فى الصحاح بلفظ قد أربى، و القسب الصلب، و هو الثمر اليابس الذى يتفتت فى الفم، و هو صلب النواة یُصَدِّقُنِی قرأ عاصم و حمزة يصدقنى بالرفع على الاستئناف، أو الصفة لردءا، أو لحال من مفعول أرسله، و قرأ الباقون بالجزم على جواب الأمر، و قرأ أبى و زيد بن علىّ یُصَدِّقُونَ أى: فرعون

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۰

و ملؤه إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ إذا لم یکن معی هارون لعدم انطلاق لسانی بالمحاجة قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ أی: نقویک به، فشدّ العضد کنایة عن التقویة، و یقال فی دعاء الخیر: شدّ اللّه عضدک، و فی ضدّه: فتّ اللّه فی عضدک. قرأ الجمهور عَضُدَکَ بفتح العین. و قرأ الحسین و زید بن علیّ بضمها.

و روی عن الحسن أیضا أنه بضمة و سکون. و قرأ عیسی بن عمر بفتحهما وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً أی:

حجة و برهانا. أو تسلطا علیه، و علی قومه فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما بالأذی و لا یقدرون علی غلبتکما بالحجة، و بِآیاتِنا متعلق بمحذوف: أی تمتنعان منهم بآیاتنا، أو اذهبا بآیاتنا. و قیل: الباء للقسم، و جوابه یصلون، و ما أضعف هذا القول. و قال الأخفش و ابن جریر: فی الکلام تقدیم و تأخیر، و التقدیر أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَکُمَا الْغالِبُونَ بآیاتنا، و أوّل هذه الوجوه: أولاها، و فی «أنتما و من اتبعکما الغالبون»:

تبشیر لهما و تقویة لقلوبهما فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ البینات: الواضحات الدلالة، و قد تقدّم وجه إطلاق الآیات، و هی جمع علی العصا و الید فی سورة طه قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَریً أی: مختلق مکذوب، اختلقته من قبل نفسک وَ ما سَمِعْنا بِهذا الذی جئت به من دعوی النبوّة، أو ما سمعنا بهذا السحر فِی آبائِنَا الْأَوَّلِینَ أی: کائنا، أو واقعا فی آبائنا الأوّلین وَ قالَ مُوسی رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدی مِنْ عِنْدِهِ یرید نفسه، و إنما جاء بهذه العبارة لئلا یصرّح لهم بما یریده قبل أن یوضح لهم الحجة، و اللّه أعلم.

قرأ الجمهور وَ قالَ مُوسی بالواو، و قرأ مجاهد و ابن کثیر و ابن محیصن «قال موسی» بلا واو، و کذلک هو فی مصاحف أهل مکة. و قرأ الکوفیون إلا عاصما «و من یکون له عاقبة الدّار» بالتحتیة علی أن اسم یکون عاقبة الدار. و التذکیر لوقوع الفصل، و لأنه تأنیث مجازی، و قرأ الباقون (تکون) بالفوقیة، و هی أوضح من القراءة الأولی، و المراد بالدار هنا الدنیا و عاقبتها هی الدار الآخرة، و المعنی: لمن تکون له العاقبة المحمودة؟ و الضمیر فی إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ للشأن، أی: إن الشأن أنه لا یفلح الظالمون، أی:

لا یفوزون بمطلب خیر، و یجوز أن یکون المراد بعاقبة الدار: خاتمة الخیر، و قال فرعون یا أَیُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی تمسک اللعین بمجرّد الدعوی الباطلة مغالطة لقومه منه، و قد کان یعلم أنه ربه اللّه عزّ و جلّ، ثم رجع إلی تکبره و تجبره، و إیهام قومه بکمال اقتداره، فقال: فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَی الطِّینِ أی: اطبخ لی الطین حتی یصیر آجرا فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً أی: اجعل لی من هذا الطین الذی توقد علیه حتی یصیر آجرا صرحا: أی قصرا عالیا لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلی إِلهِ مُوسی أی: أصعد إلیه وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْکاذِبِینَ و الطلوع، و الاطلاع: واحد، یقال طلع الجبل و اطلع وَ اسْتَکْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ المراد بالأرض: أرض مصر، و الاستکبار: التعظیم بغیر استحقاق، بل بالعدوان لأنه لم یکن له حجة یدفع بها ما جاء به موسی، و لا شبهة ینصبها فی مقابلة ما أظهره من المعجزات وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَیْنا لا یُرْجَعُونَ أی: فرعون و جنوده، و المراد بالرجوع: البعث و المعاد، قرأ نافع و شیبة و ابن محیصن و حمید و یعقوب و حمزة و الکسائی «لا یرجعون» بفتح الیاء و کسر الجیم مبنیا للفاعل. و قرأ الباقون بضم الیاء و فتح الجیم مبنیا للمفعول، و اختار القراءة الأولی: أبو حاتم، و اختار القراءة الثانیة: أبو عبید

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۰۱

فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ بعد أن عتوا فی الکفر و جاوزوا الحدّ فیه فَنَبَذْناهُمْ فِی الْیَمِ أی: طرحناهم فی البحر، و قد تقدّم بیان الکلام فی هذا فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِینَ الخطاب لنبینا محمد صلّی اللّه علیه و سلم أی: انظر یا محمد کیف کان آخر أمر الکافرین، حین صاروا إلی الهلاک وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَدْعُونَ إِلَی النَّارِ أی: صیرناهم رؤساء متبوعین مطاعین فی الکافرین، فکأنهم بإصرارهم علی الکفر و التمادی فیه، یدعون أتباعهم إلی النار لأنهم اقتدوا، و سلکوا طریقتهم تقلیدا لهم. و قیل المعنی: إنه یأتمّ بهم، أی:

يعتبر بهم من جاء بعدهم، و يتعظ بما أصيبوا به، و الأول أولى وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ أى: لا ينصرهم أحد و لا يمنعهم مانع من عذاب اللّه وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً أى: طردا و إبعادا، أو أمرنا العباد بلعنهم، فكل من ذكرهم لعنهم، و الأوّل أولى وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ المقبوح: المطرود المبعد. و قال أبو عبيدة و ابن كيسان: معناه من المهلكين الممقوتين. و قال أبو زيد: قبح اللّه فلانا قبحا و قبوحا: أبعده من كل خير.

قال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف: بمعنى قبحت بالتشديد، و مثله قول الشاعر:

ألا قبّح اللّه البراجم كلّهاو قبّح يربوعا و قبّح دارما

و قيل: المقبوح المشوّه الخلقة، و العامل فى (يوم) محذوف يفسره من المقبوحين، و التقدير: و قبحوا يوم القيامة، أو هو معطوف على موضع فى هذه الدنيا، أى: و أتبعناهم لعنة يوم القيامة، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف، أى: و لعنة يوم القيامة وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ يعنى التوراة و مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى أى: قوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم، و قيل من بعد ما أهلكنا فرعون و قومه و خسفنا بقارون، و انتصاب بَصائِرَ لِلنَّاسِ على أنه مفعول له أو حال، أى: آتيناه الكتاب لأجل يتبصر به الناس، أو حال كونه بصائر الناس يبصرون به الحق، و يهتدون إليه و ينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به وَ رَحْمَةً لهم من اللّه رحمهم بها لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ هذه النعم فيشكرون اللّه و يؤمنون به و يجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى أبى طلحة عن ابن عباس رِدْءاً يُصَدِّقُنِي كى يصدقنى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: لما قال فرعون يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي قال جبريل: يا ربّ طغى عبدك فأذن لى فى هلكه، فقال: يا جبريل هو عبدى و لن يسبقنى، له أجل يجيء ذلك الأجل، فلما قال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «۱» قال اللّه: يا جبريل سبقت دعوتك فى عبدى و قد جاء أوان هلاكه. و أخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «كلمتان قالهما فرعون: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي و قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى قال: كان بينهما أربعون عاما فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى «۲». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: بلغنى أن فرعون أوّل من طبخ الآجرّ. و أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. و أخرج البزار و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن

---

(۱). النازعات: ۲۴.

(۲). النازعات: ۲۵.

مردويه عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «ما أهلك اللّه قوما و لا قرنا و لا أمّة و لا أهل قرية بعذاب من السّماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التى مسخت قردة، ألم تر إلى قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى و أخرجه البزار و ابن جرير و ابن أبى حاتم من وجه آخر عن أبى سعيد موقوفا.

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۴ الى ۵۷]

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۴۴) وَ لٰكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶) وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ

لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (۴۸)
قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۰) وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۱) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (۵۳)
أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (۵۵) إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۵۶) وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۵۷)

قوله: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِ هذا شروع فى بيان إنزال القرآن، أى: و ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربى، فيكون من حذف الموصوف و إقامة الصفة مقامه، و اختاره الزجاج. و قال الكلبى: بجانب الوادى الغربى: أى حيث ناجى موسى ربه إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ أى: عهدنا إليه، و أحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون و قومه وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ لذلك حتى تقف على حقيقته و تحكيه من جهة نفسك. و إذا تقرّر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و المشاهدة لها منه، و انتفى بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلقّ ذلك من غيره من البشر، و لا علمه معلم منهم، كما قدّمنا تقريره تبين أنه من عند اللّه سبحانه بوحى منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك، فهذا الكلام هو على طريقه وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ «۱» و قيل: معنى

---

(۱). آل عمران: ۴۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۳

إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ إذ كلفناه و ألزمناه، و قيل: أخبرناه أن أمة محمد خير الأمم، و لا يستلزم نفى كونه بجانب الغربى؛ نفى كونه من الشاهدين، لأنه يجوز أن يحضر و لا يشهد. قيل: المراد بالشاهدين: السبعون الذين اختارهم موسى للميقات وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً أى: خلقنا أمما بين زمانك يا محمد، و زمان موسى فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ طالت عليهم المهلة و تمادى عليهم الأمد، فتغيرت الشرائع، و الأحكام و تنوسيت الأديان، فتركوا أمر اللّه و نسوا عهده، و مثله قوله سبحانه: فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ «۱»، و قد استدلّ بهذا الكلام على أن اللّه سبحانه قد عهد إلى موسى عهودا فى محمد صلّى اللّه عليه و سلم و فى الإيمان به فلما طال عليهم العمر و مضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود، و تركوا الوفاء بها وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ أى:
مقيما بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم و تقصّ عليهم من جهة نفسك يقال: ثوى يثوى ثواء و ثويا فهو ثاو.
قال ذو الرمة:

لقد كان فى حول ثواء ثويتهتقضى لبانات و يسأم سائم

و قال العجاج:

فبات حيث يدخل الثّوىّ يعنى الضيف المقيم.

و قال آخر:

طال الثّواء على رسول المنزل تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا أى: تقرأ على أهل مدين آياتنا، و تتعلم منهم، و قيل: تذكرهم بالوعد و الوعيد، و الجملة: فى محل نصب على الحال، أو خبر ثان، و يجوز أن تكون هذه الجملة هى الخبر، و ثاويا حال. و جعلها الفراء مستأنفة

كأنه قيل: و ها أنت تتلو على أمتك وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ أى: أرسلناك إلى أهل مكة، و أنزلنا عليك هذه الأخبار، و لو لا ذلك لما علمتها. قال الزجاج: المعنى أنك لم تشاهد قصص الأنبياء، و لا تليت عليك، و لكن أوحيناها إليك، و قصصناها عليك وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا أى: و ما كنت يا محمد بجانب الجبل، المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى إلى الميقات مع السبعين. و قيل: المنادى هو أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم. قال وهب: و ذلك أن موسى لما ذكر اللّه له فضل محمد و أمته قال: يا رب أرنيهم، فقال اللّه: إنك لن تدركهم و إن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا ربّ، فقال اللّه: يا أمة محمد! فأجابوا من أصلاب آبائهم. فيكون معنى الآية على هذا: ما كنت يا محمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك، و سيأتى ما يدلّ على هذا و يقوّيه و يرجحه فى آخر البحث إن شاء اللّه وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أى: و لكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم، و قيل: و لكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم، و قيل: علمناك، و قيل: عرفناك. قال الأخفش: هو منصوب: يعنى: رحمة على المصدر، أى: و لكن رحمناك رحمة. و قال الزجاج: هو مفعول

---

(١). الحديد: ١۶.

من أجله، أى: فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة. قال النحاس: أى لم تشهد قصص الأنبياء، و لا تليت عليك، و لكن بعثناك، و أوحيناها إليك للرحمة. و قال الكسائى: هو خبر لكان مقدّرة، أى: و لكن كان ذلك رحمة.

و قرأ عيسى بن عمر و أبو حيوة رحمة بالرفع على تقدير: و لكن أنت رحمة. و قال الكسائى: الرفع على أنها اسم كان المقدّرة، و هو بعيد إلا على تقدير أنها تامة، و اللام فى لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ متعلق بالفعل المقدر على الاختلاف فى تقديره، و القوم: هم أهل مكة، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله صلّى اللّه عليه و سلم، و جملة «ما أتاهم» إلخ صفة لقوما لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أى: يتعظون بإنذارك وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ لو لا هذه: هى الامتناعية، و أن و ما فى حيزها فى موضع رفع بالابتداء، و جوابها محذوف.

قال الزجاج: و تقديره ما أرسلنا إليهم رسلا، يعنى: أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عللهم، فهو كقوله سبحانه: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ «١» و قد رواه ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة، و وافقه على هذا التقدير الواحدى فقال: و المعنى لو لا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، و قوله: فَيَقُولُوا عطف على تصيبهم و من جملة ما هو فى حيز لولا، أى: فيقولوا: رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا و لو لا هذه الثانية: هى التحضيضية، أى: هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك، و جوابها هو فَنَتَّبِعَ آياتِكَ و هو منصوب بإضمار أن لكونه جوابا للتحضيض، و المراد بالآيات: الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة، و إنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال، و لكن العقوبة لما كانت هى السبب للقول، و كان وجوده بوجودهما جعلت العقوبة كأنها هى السبب لإرسال الرسل بواسطة القول وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بهذه الآيات، و معنى الآيات أنا لو عذبناهم لقالوا: طال العهد بالرسل و لم يرسل اللّه إلينا رسولا، و يظنون أن ذلك عذر لهم، و لا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل، و لكنا أكملنا الحجة، و أزحنا العلة، و أتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أى: فلما جاء أهل مكة الحقّ من عند اللّه و هو محمد و ما أنزل عليه من القرآن تعنتا منهم و جدالا بالباطل قالوا: هلا أوتى هذا الرسول مثل ما أوتى موسى من الآيات التى من جملتها، التوراة المنزلة عليه جملة واحدة، فأجاب اللّه عليهم بقوله: أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ أى: من قبل هذا القول، أو من قبل ظهور محمد؛ و المعنى: أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، و جملة قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم و عنادهم، و المراد بقولهم: سِحْرانِ موسى و

محمد، و التظاهر: التعاون، أى: تعاونا على السحر، و الضمير فى قوله: «أو لم يكفروا» لكفار قريش، و قيل: هو لليهود. و الأوّل أولى؛ فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر، إنما يصفه بذلك كفار قريش، و أمثالهم إلا أن يراد من أنكر نبوّة موسى كفرعون و قومه، فإنهم وصفوا موسى و هارون بالسحر، و لكنهم ليسوا من اليهود، و يمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى، و من كفر بمحمد، فإن الذين كفروا وصفوه بالسحر، و الذين كفروا بمحمد و صفوه أيضا بالسحر. و قيل: المعنى: أو لم يكفر اليهود فى عصر محمد بما أوتى موسى من قبله بالبشارة

---

(١). النساء: ١۶۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٠۵

بعيسى و محمد. قرأ الجمهور (ساحران) و قرأ الكوفيون (سحران) يعنون: التوراة، و القرآن، و قيل: الإنجيل، و القرآن. قال بالأوّل الفراء. و قال بالثانى أبو زيد. و قيل: إن الضمير فى «أو لم يكفروا» لليهود، و أنهم عنوا بقولهم (ساحران) عيسى و محمدا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ أى: بكلّ من موسى و محمد، أو من موسى و هارون، أو من موسى و عيسى على اختلاف الأقوال، و هذا على قراءة الجمهور، و أما على القراءة الثانية، فالمراد: التوراة و القرآن، أو الإنجيل و القرآن. و فى هذه الجملة تقرير لما تقدّمها من وصف النبيين بالسحر، أو و من وصف الكتابين به، و تأكيد لذلك. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه أن يقول لهم قولا يظهر به عجزهم، فقال: قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ أى: قل لهم يا محمد فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة و القرآن، و أتبعه جواب الأمر، و قد جزمه جمهور القراء لذلك. و قرأ زيد بن علىّ برفع أتبعه على الاستئناف، أى: فأنا أتبعه. قال الفراء: إنه على هذه القراءة صفة للكتاب، و فى هذا الكلام تهكم به. و فيه أيضا دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين، و معنى إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين، أو الكتابين صادقين فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ أى: لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، و جواب الشرط فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ أى: آراءهم الزائغة، و استحساناتهم الزائفة، بلا حجة و لا برهان. و قيل المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، و تعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ أى: لا أحد أضلّ منه، بل هو الفرد الكامل فى الضلال إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لأنفسهم بالكفر، و تكذيب الأنبياء، و الإعراض عن آيات اللّه وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ قرأ الجمهور «وصّلنا» بتشديد الصاد، و قرأ الحسن بتخفيفها، و معنى الآية: أتبعنا بعضه بعضا، و بعثنا رسولا بعد رسول. و قال أبو عبيدة و الأخفش: معناه أتممنا. و قال ابن عيينة و السدىّ: بينا.

و قال ابن زيد: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا، و الأولى: أولى.

و هو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض، و منه قول الشاعر:

فقل لبنى مروان ما بال ذمّتىو حبل ضعيف لا يزال يوصّل

و قال امرؤ القيس:

يقلّب كفّيه بخيط موصّل «١» الضمير فى «لهم» عائد إلى قريش، و قيل: إلى اليهود، و قيل: للجميع لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فيكون التذكير سببا لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ أى: من قبل القرآن، و الموصول: مبتدأ، و خبره. هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ أخبر سبحانه أن طائفة من بنى إسرائيل آمنوا

---

(١). و صدره: درير كخذروف الوليد أمرّه.

و دربر: سريع. و الخذروف: شيء يدوره الصبى فى يده، و يسمع له صوت، و يسمى الخرارة. و أمرّه: أحكم فتله.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۶

بالقرآن كعبد اللّه بن سلام، و سائر من أسلم من أهل الكتاب، و قيل: الضمير فى «من قبله» يرجع إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الأوّل أولى. و الضمير فى «به» راجع إلى القرآن على القول الأوّل، و إلى محمد على القول الثانى وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ أى: و إذا يتلى القرآن عليهم قالوا صدّقنا به إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا أى: الحق الذى نعرفه المنزل من ربنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أى: مخلصين للّه بالتوحيد، أو مؤمنين بمحمد و بما جاء به، لما نعلمه من ذكره فى التوراة و الإنجيل من التبشير به، و أنه سيبعث آخر الزمان، و ينزل عليه القرآن، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ أى: الموصوفين بتلك الصفات، و الباء فى بِما صَبَرُوا للسببية، أى: بسبب صبرهم، و ثباتهم على الإيمان بالكتاب الأوّل، و الكتاب الآخر، و بالنبىّ الأوّل، و النبىّ الآخر وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ الدرء: أى: يدفعون بالاحتمال، و الكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى.

و قيل: يدفعون بالطاعة المعصية، و قيل: بالتوبة و الاستغفار من الذنوب، و قيل: بالتوبة و الاستغفار من الذنوب، و قيل: بشهادة أن لا إله إلا اللّه الشرك وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: ينفقون أموالهم فى الطاعات، و فيما أمر به الشرع. ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو فقال: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ تكرّما، و تنزّها، و تأدّبا بآداب الشرع، و مثله قوله سبحانه: وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً «۱»، و اللغو هنا: هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم، و لدينهم، و الاستهزاء بهم وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء، و لا يلحقكم من نفع إيماننا شيء سَلامٌ عَلَيْكُمْ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية، و لكن المراد به سلام المتاركة، و معناه أمنة لكم، و سلامة لا نجاريكم، و لا نجاوبكم فيما أنتم فيه. قال الزجاج: و هذا قبل الأمر بالقتال لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ أى: لا نطلب صحبتهم. و قال مقاتل: لا نريد أن نكون من أهل الجهل و السفه. و قال الكلبى: لا نحبّ دينكم الذى أنتم عليه إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ من الناس، و ليس ذلك إليك وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ هدايته وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أى: القابلين للهداية، المستعدّين لها، و هذه الآية نزلت فى أبى طالب كما ثبت فى الصحيحين و غيرهما، و قد تقدّم ذلك فى براءة. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب، و قد تقرّر فى الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل فى ذلك أبو طالب دخولا أوليا وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أى: قال مشركو قريش و من تابعهم: إن ندخل فى دينك يا محمد؛ نتخطف من أرضنا، أى: يتخطفنا العرب من أرضنا: يعنون مكة، و لا طاقة لنا بهم، و هذا من جملة أعذارهم الباطلة، و تعللاتهم العاطلة، و التخطف فى الأصل: هو الانتزاع بسرعة. قرأ الجمهور «نتخطف» بالجزم جوابا للشرط، و قرأ المنقرى بالرفع على الاستئناف. ثم ردّ اللّه ذلك عليهم ردّا مصدّرا باستفهام التوبيخ، و التقريع فقال: أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً أى: ألم نجعل لهم حرما ذا أمن. قال أبو البقاء: عدّاه بنفسه لأنه بمعنى جعل كما صرّح بذلك فى قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً «۲»، ثم وصف هذا الحرم بقوله: يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ أى: تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضى

---

(۱). الفرقان: ۷۲.

(۲). العنكبوت: ۶۷.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۰۷

المختلفة، و تحمل إليه. قرأ الجمهور «يجبى» بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شيء، و وجود الحائل بين الفعل و بين ثمرات، و أيضا ليس بتأنيث ثمرات بحقيقى، و اختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا، و قرأ نافع بالفوقية اعتبارا بثمرات. و قرأ الجمهور أيضا

ثَمَراتُ بفتحتين، و قرأ أبان بضمتين، جمع ثمر بضمتين، و قرئ بفتح الثاء و سكون الميم رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا منتصب على المصدرية لأن معنى يجبى: نرزقهم و يجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف، أى: نسوقه إليهم رزقا من لدنا، و يجوز أن ينتصب على الحال، أى: رازقين وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ لفرط جهلهم و مزيد غفلتهم، و عدم تفكرهم فى أمر معادهم، و رشادهم، لكونهم ممن طبع اللّه على قلبه، و جعل على بصره غشاوة.

و قد أخرج الفريابى و النسائى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و صححه و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى معا فى الدلائل عن أبى هريرة فى قوله: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا قال: نودوا يا أمّة محمّد أعطيتكم قبل أن تسألونى، و استجبت لكم قبل أن تدعونى. و أخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا.

و أخرجه عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن عساكر عنه وجه آخر بنحوه. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل و أبو نصر السجزى فى الإبانة، و الديلمى عن عمرو بن عبسة قال: سألت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ما كان النداء و ما كانت الرحمة؟ قال: «كتبه اللّه قبل أن يخلق خلقه بألفى عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أمّة محمّد سبقت رحمتى غضبى، أعطيتكم قبل أن تسألونى، و غفرت لكم قبل أن تستغفرونى، فمن لقينى منكم يشهد أن لا إله إلا اللّه، و أن محمّدا عبدى، و رسولى صادقا أدخلته الجنّة». و أخرج الختلى فى الديباج عن سهل بن سعد الساعدى مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم عن حذيفة فى قوله: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا مرفوعا قال نودوا: يا أمة محمد ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم، و لا سألتمونا إذ أعطيناكم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا «إن اللّه نادى: يا أمة محمّد أجيبوا ربّكم، قال: فأجابوا و هم فى أصلاب آبائهم و أرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا: لبّيك أنت ربّنا حقا، و نحن عبيدك حقا، قال: صدقتم أنا ربّكم، و أنتم عبيدى حقا، قد عفوت عنكم قبل أن تدعونى، و أعطيتكم قبل أن تسألونى، فمن لقينى منكم بشهادة أن لا إله إلا اللّه دخل الجنّة. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الهالك فى الفترة يقول: ربّ لم يأتنى كتاب و لا رسول، ثم قرأ هذه الآية رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا الآية».

و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا إلخ: قال:

هم أهل الكتاب إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ يعنى بالكتابين: التوراة و الفرقان. و أخرج ابن شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو القاسم البغوى و الباوردى و ابن قانع الثلاثة فى معاجم الصحابة. و الطبرانى و ابن مردويه بسند جيد عن رفاعة القرظى قال: نزلت وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ إلى قوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ فى عشرة رهط أنا أحدهم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ قال: يعنى من آمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم من أهل

الكتاب. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأوّل و الآخر، و رجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها و تزوّجها. و عبد مملوك أحسن عبادة ربّه و نصح لسيده». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث المسيب و مسلم و غيره من حديث أبى هريرة أن قوله: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ نزلت فى أبى طالب لما امتنع من الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أن ناسا من قريش قالوا للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: إن نتبعك يتخطفنا الناس، فنزلت وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ قال:

ثمرات الأرض.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٨ الى ٧٠]

وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (٥٨) وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩) وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)

وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

قوله: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ أی: من أهل قرية كانوا فی خفض عيش، و دعة و رخاء، فوقع منهم البطر فأهلكوا. قال الزجاج: البطر: الطغيان عند النعمة. قال عطاء: عاشوا فی البطر فأكلوا رزق اللّه، و عبدوا الأصنام. قال الزجاج و المازنی: معنى بَطِرَتْ مَعِيشَتَها بطرت فی معيشتها، فلما حذفت «فی» تعدّی الفعل كقوله: وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ «١» و قال الفراء: هو منصوب على التفسير كما تقول: أبطرك مالك و بطرته، و نظيره عنده قوله تعالى: إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ «٢» و نصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين، لأن معنى التفسير أن تكون النكرة دالة على الجنس. و قيل: إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا أی: لم يسكنها أحد بعدهم إلّا زمنا قليلا،

---

(١). الأعراف: ١٥٥.

(٢). البقرة: ١٣٠.

كالذی يمرّ بها مسافرا، فإنه يلبث فيها يوما، أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها فيها إلا أياما قليلة، لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم. و قيل: إن الاستثناء يرجع إلى المساكن، أی: لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلا من المساكن و أكثرها، خراب، كذا قال الفراء و هو قول ضعيف وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ منهم لأنهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم، و أموالهم، و محلّ جملة «لم تسكن» الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، و يجوز أن تكون فی محل نصب على الحال وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا أی: و ما صحّ، و لا استقام أن يكون اللّه مهلك القرى الكافرة، أی: الكافر أهلها حتى يبعث فی أمها رسولا ينذرهم، و يتلو عليهم آيات اللّه الناطقة بما أوجبه اللّه عليهم، و ما أعدّه من الثواب للمطيع، و العقاب للعاصی، و معنى أمها: أكبرها و أعظمها، و خص الأعظم منها بالبعثة إليها، لأن فيها أشراف القوم، و أهل الفهم و الرأی، و فيها: الملوك و الأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأمّ لما حولها من القرى. و قال الحسن: أمّ القرى: أوّلها.

و قيل: المراد بأمّ القرى هنا مكة كما فی قوله: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ «١» الآية، و قد تقدّم بيان ما تضمنته هذه الآية فی آخر سورة يوسف، و جملة «يتلو آياتنا» فی محل نصب على الحال، أی: تاليا عليهم و مخبرا لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ هذه الجملة معطوفة على الجملة التی قبلها، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أی: و ما

كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولا- يدعوهم إلى الحق إلا- حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، و تأكيد الحجة عليهم كما فى قوله سبحانه: وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ «٢»، ثم قال سبحانه: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها الخطاب لكفار مكة، أى: و ما أعطيتم من شىء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدّة حياتكم، أو بعض حياتكم، ثم تزولون عنه، أو يزول عنكم، و على كل حال فذلك إلى فناء و انقضاء وَ ما عِنْدَ اللَّهِ من ثوابه و جزائه خَيْرٌ من ذلك الزائل الفانى لأنه لذّة خالصة عن شوب الكدر وَ أَبْقى لأنه يدوم أبدا، و هذا ينقضى بسرعة أَ فَلا تَعْقِلُونَ أن الباقى أفضل من الفانى، و ما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة، بالكدر المنغصة بعوارض البدن و القلب، و قرئ بنصب «متاع» على المصدرية، أى: متمتعون متاع الحياة، قرأ أبو عمرو «يعقلون» بالتحتية، و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، و قراءتهم أرجح لقوله: وَ ما أُوتِيتُمْ أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ أى: وعدناه بالجنة، و ما فيها من النعم التى لا تحصى، فهو لاقيه، أى: مدركه لا محالة فإن اللّه لا يخلف الميعاد كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا فأعطى منها بعض ما أراد مع سرعة زواله و تنغيصه ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ هذا معطوف على قوله: مَتَّعْناهُ داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه و مقرّر له، و المعنى: ثم هذا الذى متعناه هو يوم القيامة من المحضرين بالنار، و تخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاء المقام، و الاستفهام للإنكار، أى: ليس حالهما سواء، فإن الموعود بالجنة لا بدّ أن يظفر بما وعده به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، و هذا حال

---

(١). آل عمران: ٩٦.

(٢). هود: ١١٧.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٢١٠

المؤمن. و أما حال الكافر، فإنه لم يكن معه إلا مجرّد التمتيع بشىء من الدنيا يستوى فيه هو و المؤمن، و ينال كل واحد منهما حظه منه، و هو صائر إلى النار، فهل يستويان؟ قرأ الجمهور «ثم هو» بضم الهاء. و قرأ الكسائى و قالوا بسكون الهاء إجراء لثمّ مجرى الواو و الفاء، و انتصاب يوم فى قوله: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ بالعطف على يوم القيامة أو بإضمار اذكر، أى: يوم ينادى اللّه سبحانه هؤلاء المشركين فَيَقُولُ لهم أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم ينصرونكم و يشفعون لكم، و مفعولا يزعمون محذوفان، أى: تزعمونهم شركائى لدلالة الكلام عليهما قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أى: حقت عليهم كلمة العذاب، و هم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أربابا من دون اللّه، كذا قال الكلبى. و قال قتادة: هم الشيطان رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أى: دعوناهم إلى الغواية يعنون الأتباع أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا أى: أضللناهم كما ضللنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ منهم، و المعنى: أن رؤساء الضلال أو الشياطين تبرّؤوا ممن أطاعهم. قال الزجاج:

برىء بعضهم من بعض، و صاروا أعداء. كما قال اللّه تعالى: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ «١» و هؤلاء مبتدأ، و الذين أغوينا صفته، و العائد محذوف، أى: أغويناهم، و الخبر: أغويناهم، و كما أغوينا: نعت مصدر محذوف. و قيل: إن خبر هؤلاء هو الذين أغوينا، و أما أغويناهم كما غوينا؛ فكلام مستأنف لتقرير ما قبله، و رجح هذا أبو علىّ الفارسى، و اعترض الوجه الأوّل، و ردّ اعتراضه أبو البقاء ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ و إنما كانوا يعبدون أهواءهم، و قيل إن «ما» فى ما كانوا: مصدرية، أى: تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا، و الأوّل أولى وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ أى: قيل للكفار من بنى آدم هذا القول، و المعنى: استغيثوا بآلهتكم التى كنتم تعبدونهم من دون اللّه فى الدنيا لينصروكم و يدفعوا عنكم فَدَعَوْهُمْ عند ذلك فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ و لا نفعوهم بوجه من وجوه النفع وَ رَأَوُا الْعَذابَ أى: التابع و المتبوع قد غشيهم، لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ قال الزجاج: جواب لو محذوف، و المعنى: لو أنهم

كـانوا يهتـدون لأنجـاهم ذلـك و لم يروا العـذاب. و قيل المعنى: لو أنهم كانوا يهتـدون ما دعوهم، و قيل المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق. و قيل المعنى: لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. و قيل:

قـد آن لهم أن يهتـدوا لـو كـانوا يهتـدون، و قيـل: غير ذلـك. و الأـوّل أولى، و يـوم فى قوله: وَ يَوْمَ يُنـادِيهِمْ فَيَقُولُ مـا ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَـلِينَ معطوف على ما قبله، أى: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ أى: خفيت عليهم الحجج حتى صـاروا كالعمى الـذين لا يهتـدون، و الأصل فعموا عن الأنباء، و لكنه عكس الكلام للمبالغـة، و الأنباء: الأخبار، و إنما سـمى حججهم أخبارا، لم تكن من الحجة فى شىء، و إنما هى: أقاصيص، و حكايات فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا، و لا ينطقون بحجة و لا يدرون بما يجيبون، لأن اللّه قد أعذر إليهم فى الدنيا، فلا يكون لهم عذر، و لا حجة يوم القيامـة. قرأ الجمهور «عميت» بفتـح العين و تخفيف الميم. و قرأ الأعمش و جناح بن حبيش بضم العين و تشديـد الميم فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ إن تاب من الشرک

---

(۱). الزخرف: ۶۷.

و صـدّق بما جاء به الرسل و أدّى الفرائض و اجتنب المعاصـى فعسـى أن يكون من المفلحين، أى: الفائزين بمطالبهم من سـعادة الدارين، و عسى و إن كانت فى الأصل للرجاء فهو من اللّه واجب على ما هو عادة الكرام. و قيل:

إن الترجى هو من التائب المذكور، لا من جهة اللّه سبحانه وَ رَبُّکَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ أى: يخلقه.

وَ يَخْتـارُ ما يشاء أن يختاره لا يُسْـئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْـئَلُونَ «۱» و هـذا متصل بذكر الشـركاء الذين عبدوهم، و اختاروهم، أى: الاختيار إلى اللّه ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أى: التخير، و قيل: المراد من الآيـة أنه ليس لأحد من خلق اللّه أن يختار، بل الاختيار هو إلى اللّه عزّ و جلّ. و قيـل: إن هـذه الآيـة جواب عن قولهم لَوْ لا نُزِّلَ هـذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «۲» و قيل: هـذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به.

قـال الزجـاج: الوقف على «و يختـار» تام على أن ما نافيـة. قال: و يجوز أن تكون «ما» فى موضع نصب بيختار، و المعنى: و يختار الذى كان لهم فيه الخيرة. و الصحيح الأوّل لإجماعهم على الوقف. و قال ابن جرير:

إن تقـدير الآيـة: و يختار لولايته الخيرة من خلقه، و هذا فى غاية من الضـعف. و جوّز ابن عطية أن تكون كان تامة، و يكون لهم الخيرة جملة مسـتأنفة. و هذا أيضا بعيد جدا. و قيل إن «ما» مصدرية، أى: يختار اختيارهم، و المصدر واقع موقع المفعول به، أى: و يختار مختارهم، و هذا كالتفسـير لكلام ابن جرير. و الراجح أوّل هذه التفاسير، و مثله قوله سبحانه: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَـى اللَّهُ وَ رَسُـولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ «۳» و الخيرة: التخير، كالطيرة فإنها التطير، اسـمان يسـتعملان استعمال المصدر، ثم نزّه سـبحانه نفسه فقال: سُبْحانَ اللَّهِ أى: تنزّه تنزّها خاصا به من غير أن ينازعه منازع، و يشاركه مشارك وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: عن الذين يجعلونهم شركاء له، أو عن إشراكهم وَ رَبُّکَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ أى: تخفيه من الشرك، أو من عداوة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم، أو من جميع مـا يخفونه ممـا يخـالف الحق وَ مـا يُعْلِنُونَ أى: يظهرونه من ذلـك. قرأ الجمهور «تكن» بضم التاء الفوقية و كسر الكاف. و قرأ ابن محيصن و حميد بفتح الفوقية، و ضم الكاف. ثم تمدح سبحانه و تعالى بالوحدانية، و التفرّد باسـتحقاق الحمد فقال: وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى أى: الدنيا وَ الْآخِرَةِ أى: الدار الآخرة وَ لَهُ الْحُكْمُ يقضى بين عباده بما شاء من غير مشارك وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالبعث فيجازى المحسن بإحسانه، و المسىء بإساءته، لا ترجعون إلى غيره.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ قال: قال اللّه لم نهلك

قريـة بإيمان، و لكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها، و لو كانت مكـة آمنت لم يهلكوا مع من هلك، و لكنهم كـذبوا و ظلموا فبذلك هلكوا. و أخرج مسلم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «يقول اللّه عزّ و جلّ: يا بن آدم مرضت فلم تعـدنى» الحـديث بطوله. و أخرج عبـد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: «يحشر النّاس

---

(١). الأنبياء: ٢٣.

(٢). الزخرف: ٣١.

(٣). الأحزاب: ٣٦.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ٢١٢

يوم القيامـة أجوع ما كانوا و أعطش ما كانوا و أعرى ما كانوا، فمن أطعم للّه عزّ و جلّ أطعمه اللّه، و من كسا للّه عزّ و جلّ كساه اللّه، و من سقى للّه عزّ و جلّ سقاه اللّه، و من كان فى رضا اللّه كان اللّه على رضاه».

و أخرج الفريـابى و عبـد بن حميـد و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن مجاهـد فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ قال: الحجـج فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ قال: بالأنساب. و قد ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم الصحيح فى تعليم الاستخارة و كيفية صلاتها و دعائها فلا نطول بذكره.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧١ الى ٨٨]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)

فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨٥)

وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (٨٦) وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ

لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ أی: أخبرونی إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً السرمد: الدائم المستمرّ،

فتح القدير، ج۴، ص: ٢١٣

من السرد، و هو المتابعة، فالميم زائدة، و منه قول طرفة:

لعمرک ما أمری علیّ بغمّةنهاری و لا لیلی علیّ بسرمد

و قيل: إن ميمه أصلية، و وزنه فعلل لا فعمل، و هو الظاهر، بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة؛ ليقوموا بشكر النعمة. فإنه لو كان الدهر الذی يعيشون فيه ليلا دائما إلى يوم القيامة؛ لم يتمكنوا من الحركة فيه، و طلب ما لا بدّ لهم منه مما يقوم به العيش، من المطاعم، و المشارب، و الملابس، ثم امتنّ عليهم فقال:

مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أی: هل لكم إله من الآلهة التی تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء، أی: بنور تطلبون فيه المعيشة، و تبصرون فيه ما تحتاجون إليه، و تصلح به ثماركم، و تنمو عنده زرائعكم، و تعيش فيه دوابكم أَ فَلا تَسْمَعُونَ هذا الكلام سماع فهم، و قبول، و تدبر، و تفكر. ثم لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار، امتنّ عليهم بوجود الليل فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ أی: جعل جميع الدهر الذی تعيشون فيه نهارا إلى يوم القيامة مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أی: تستقرّون فيه من النصب، و التعب، و تستريحون مما تزاولون من طلب المعاش، و الكسب أَ فَلا تُبْصِرُونَ هذه المنفعة العظيمة؛ إبصار متعظ متيقظ، حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير اللّه، و إذا أقرّوا بأنه لا يقدر على ذلک إلا اللّه عزّ و جلّ، فقد لزمتهم الحجة، و بطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة، و إنما قرن سبحانه بالضياء قوله: أَ فَلا تَسْمَعُونَ لأن السمع يدرک ما لا يدركه البصر من درک منافعه و وصف فوائده، و قرن بالليل قوله: أَ فَلا تُبْصِرُونَ لأن البصر يدرک ما لا يدركه السمع من ذلک «١» وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ أی: فی الليل وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أی: فی النهار، بالسعی فی المكاسب وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أی: و لكی تشكروا نعمة اللّه عليكم، و هذه الآية من باب اللف و النشر، كما فی قول امرئ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطبا و يابسالدی و كرها العنّاب و الحشف البالی

و اعلم أنه و إن كان السكون فی النهار ممكنا، و طلب الرزق فی الليل ممكنا، و ذلک عند طلوع القمر على الأرض، أو عند الاستضاءة بشیء بما له نور كالسراج، لكن ذلک قليل نادر مخالف لما يألفه العباد، فلا اعتبار به وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ كرّر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين لأنهم ينادون مرة، فيدعون الأصنام، و ينادون أخرى، فيسكتون، و فی هذا التكرير أيضا تقريع بعد تقريع، و توبيخ بعد توبيخ، و قوله: وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عطف على ينادی، و جاء بصيغة الماضی للدلالة على التحقق، و المعنى: و أخرجنا من أكل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم. قال مجاهد: هم الأنبياء، و قيل:

عدول كلّ أمة، و الأوّل: أولى.

---

(١). الصواب: أنه قرن السمع بالليل لأن الليل يتطلب حاسة السمع أكثر من غيرها. و قرن البصر مع النهار لأنه يعتمد على الضياء.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢١۴

و مثله قوله سبحانه: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «١» ثم بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله: فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ أی:

حجتكم و دليلكم بأن معى شركاء، فعند ذلك اعترفوا، و خرسوا عن إقامة البرهان، و لذا قال: فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ فى الإلهية و أنه وحده لا شريك له وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: غاب عنهم و بطل، و ذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب فى الدنيا؛ بأنّ للّه شركاء يستحقون العبادة. ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة، و عجيب الصنع فقال: إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى قارون على وزن فاعول اسم أعجمى ممتنع للعجمة و العلمية، و ليس بعربىّ مشتق من قرنت.

قال الزجاج: لو كان قارون من قرنت الشىء لانصرف. قال النخعى و قتادة و غيرهما: كان ابن عمّ موسى، و هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، و موسى هو ابن عمران بن قاهث. و قال ابن إسحاق:

كان عم موسى لأب و أم، فجعله أخا لعمران، و هما ابنا قاهث. و قيل: هو ابن خالة موسى، و لم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه، فنافق كما نافق السامرى، و خرج عن طاعة موسى، و هو معنى قوله: فَبَغى عَلَيْهِمْ أى: جاوز الحدّ فى التجبر، و التكبر عليهم، و خرج عن طاعة موسى، و كفر باللّه. قال الضحاك:

بغيه على بنى إسرائيل: استخفافه بهم لكثرة ماله و ولده. و قال قتادة: بغيه بنسبته ما آتاه اللّه من المال إلى نفسه، لعلمه و حيلته. و قيل: كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل، فتعدّى عليهم و ظلمهم، و قيل: كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ جمع كنز: و هو المال المدّخر. قال عطاء: أصاب كنزا من كنوز يوسف، و قيل: كان يعمل الكيمياء، و «ما» فى قوله: ما إِنَّ مَفاتِحَهُ موصولة، صلتها إنّ و ما فى حيزها، و لهذا كسرت. و نقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع المكسورة، و ما فى حيزها صلة الذى، و استقبح ذلك منهم لوروده فى الكتاب العزيز فى هذا الموضع، و المفاتح جمع مفتح بالكسر، و هو ما يفتح به، و قيل: المراد بالمفاتح: الخزائن، فيكون واحدها مفتح بفتح الميم. قال الواحدى: إن المفاتح:

الخزائن فى قول أكثر المفسرين كقوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ «٢» قال: و هو اختيار الزجاج فإنه قال: الأشبه فى التفسير أن مفاتحه: خزائن ماله. و قال آخرون: هى جمع مفتاح، و هو ما يفتح به الباب، و هذا قول قتادة و مجاهد لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ هذه الجملة خبر إن و هى و اسمها و خبرها صلة ما الموصولة، يقال ناء بحمله: إذا نهض به مثقلا، و يقال ناء بى الحمل: إذا أثقلنى، و المعنى: يثقلهم حمل المفاتح. قال أبو عبيدة:

هذا من المقلوب، و المعنى: لتنوء بها العصبة: أى: تنهض بها. قال أبو زيد: نؤت بالحمل: إذا نهضت به. قال الشاعر:

إنّا وجدنا خلفا بئس الخلف عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

و قال الفراء، معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها كما يقال: يذهب بالبؤس، و يذهب البؤس، و ذهبت به، و أذهبته، و جئت به، و أجأته و نؤت به، و أنأته، و اختار هذا النحاس، و به قال كثير من السلف،

---

(١). النساء: ٤١.

(٢). الأنعام: ٥٩.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٢١٥

و قيل: هو مأخوذ من النأى، و هو البعد و هو بعيد. و قرأ بديل بن ميسرة «لينوء» بالياء، أى: لينوء الواحد منها أو المذكور، فحمل على المعنى، و المراد بالعصبة: الجماعة التى يتعصب بعضها لبعض. قيل: هى من الثلاثة إلى العشرة، و قيل: من العشرة إلى الخمسة عشرة، و قيل: ما بين العشرة إلى العشرين، و قيل: من الخمسة إلى العشرة، و قيل: أربعون، و قيل: سبعون، و قيل: غير ذلك إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ الظرف منصوب بتنوء، و قيل: بآتيناه، و قيل: ببغى. و ردّهما أبو حيان بأن الإيتاء و البغى لم يكونا

ذلك الوقت. و قال ابن جرير: هو متعلق بمحذوف و هو اذكر، و المراد بقومه هنا: هم المؤمنون من بنى إسرائيل.

و قال الفراء: هو موسى و هو جمع أريد به الواحد، و معنى لا تفرح: لا تبطر و لا تأشر إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم. قال الزجاج: المعنى لا تفرح بالمال، فإن الفرح بالمال لا يؤدى حقه، و قيل المعنى: لا تفسد كقول الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدّى أمانةو تحمل أخرى أفرحتك الودائع

أى: أفسدتك. قال الزجاج: الفرحين و الفارحين: سواء. و قال الفراء: معنى الفرحين: الذين هم فى حال الفرح، و الفارحين: الذين يفرحون فى المستقبل. و قال مجاهد: معنى لا تفرح لا تبغ إن اللّه لا يحبّ الفرحين الباغين. و قيل معناه: لا تبخل إن اللّه لا يحبّ الباخلين وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ أى: و اطلب فيما أعطاك اللّه من الأموال الدار الآخرة، فأنفقه فيما يرضاه اللّه لا فى التجبر و البغى. و قرئ «و اتبع» وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا. قال جمهور المفسرين: و هو أن يعمل فى دنياه لآخرته، و نصيب الإنسان: عمره الصالح. قال الزجاج: لا تنس أن تعمل لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا، الذى يعمل به لآخرته. و قال الحسن و قتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك، فى تمتعك بالحلال، و طلبك إياه، و هذا ألصق بمعنى النظم القرآنى وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أى: أحسن إلى عباد اللّه كما أحسن اللّه إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا، و قيل: أطع اللّه و اعبده كما أنعم عليك، و يؤيده ما ثبت فى الصحيحين و غيرهما «أنّ جبريل سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن الإحسان فقال: أن تعبد اللّه كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ أى: لا تعمل فيها بمعاصى اللّه إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ فى الأرض قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي قال قارون: هذه المقالة ردّا على من نصحه بما تقدّم، أى: إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمى، فقوله: «على علم» فى محل نصب على الحال، و عندى إما ظرف لأوتيته، و إما صلة للعلم، و هذا العلم الذى جعله سببا لما ناله من الدنيا.

قيل: هو علم التوراة، و قيل: علمه بوجوه المكاسب، و التجارات، و قيل: معرفة الكنوز و الدفائن، و قيل:

علم الكيمياء، و قيل المعنى: إن اللّه آتانى هذه الكنوز على علم منه باستحقاقى إياها لفضل علمه منى. و اختار هذا الزجاج، و أنكر ما عداه، ثم ردّ اللّه عليه قوله هذا فقال: أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً المراد بالقرون: الأمم الخالية، و معنى أكثر جمعا: أكثر منه جمعا للمال، و لو كان المال، أو القوّة يدلان على فضيلة؛ لما أهلكهم اللّه. و قيل: القوّة الآلات، و الجمع:

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱۶

الأعوان. و هذا الكلام خارج مخرج التقريع و التوبيخ لقارون، لأنه قد قرأ التوراة، و علم علم القرون الأولى، و إهلاك اللّه سبحانه لهم وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أى: لا يسألون سؤال استعتاب كما فى قوله:

وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ* «۱» فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ «۲» و إنما يسألون سؤال تقريع و توبيخ كما فى قوله:

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «۳» و قال مجاهد: لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون؛ سود الوجوه، زرق العيون. و قال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها و كثرتها، بل يدخلون النار. و قيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ الفاء للعطف على «قال» و ما بينهما اعتراض، و «فى زينته» متعلق بخرج، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج. و قد ذكر المفسرون فى هذه الزينة التى خرج فيها روايات مختلفة، و المراد أنه خرج فى زينة انبهر لها من رآها، و لهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها، كما حكى اللّه عنهم بقوله: قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا و زينتها يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ أى: نصيب وافر من الدنيا.

و اختلف فی هؤلاء القائلین بهـذه المقالهٔ، فقیل: هم من مؤمنی ذلک الوقت، و قیل: هم قوم من الکفار وَ قالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ و هم أحبار بنی إسرائیل، قالوا للذین تمنوا: وَیْلَکُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَیْرٌ أی: ثواب اللّه فی الآخرهٔ خیر مما تمنونه لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فلا تمنوا عرض الـدنیا الزائل الـذی لا یـدوم وَ لا یُلَقَّاها أی: هذه الکلمهٔ التی تکلم بها الأحبار، و قیل: الضـمیر یعود إلی الأعمال الصالحهٔ، و قیـل: إلی الجنهٔ إِلَّا الصَّابِرُونَ علی طاعهٔ اللّه، و المصبرون أنفسـهم عن الشـهوات فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ یقال: خسف المکان یخسف خسوفا: ذهب فی الأرض، و خسف به الأرض خسـفا: أی غاب به فیها، و المعنی: أن اللّه سـبحانه غیبه، و غیب داره فی الأرض فَما کانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أی: ما کان له جماعـهٔ یدفعون ذلک عنه وَ ما کانَ هو فی نفسـه مِنَ الْمُنْتَصِرِینَ من الممتنعین مما نزل به من الخسف وَ أَصْبَحَ الَّذِینَ تَمَنَّوْا مَکانَهُ بِالْأَمْسِ أی: منذ زمان قریب یَقُولُونَ وَیْکَأَنَّ اللَّهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ أی: یقول کلّ واحد منهم متندّما علی ما فرط منه من التمنی.

قال النحاس: أحسن ما قیل فی هذا؛ ما قاله الخلیل، و سیبویه، و یونس، و الکسائی أن القوم تنبهوا فقالوا:

وی! و المتنـدم من العرب یقول فی خلال ندمه: وی. قال الجوهری: وی: کلمهٔ تعجب، و یقال: ویک، و قد تدخل وی علی کأن المخففـهٔ، و المشـددهٔ، ویکـأن اللّه. قـال الخلیـل: هی مفصولـهٔ تقـول وی، ثم تبتـدئ فتقول کـأن. و قـال الفراء: هی کلمـهٔ تقریر کقولک: أما تری صـنع اللّه، و إحسانه، و قیل: هی کلمـهٔ تنبیه بمنزلهٔ ألا. و قال قطرب: إنما هو ویلک فأسـقطت لامه، و منه قول عنترهٔ:

و لقد شفا نفسی و أبرأ سقمهاقول الفوارس ویک عنتر أقدم

و قال ابن الأعرابی: معنی ویکأن اللّه: أعلم أن اللّه. و قال القتبی: معناها بلغـهٔ حمیر رحمـهٔ، و قیل: هی بمعنی ألـم تر؟ و روی عن الکسائی أنه قال: هی کلمهٔ تفجع لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَیْنا برحمته، و عصمنا

---

(۱). النحل: ۸۴.

(۲). فصلت: ۲۴.

(۳). الحجر: ۹۲.

من مثـل مـا کـان علیه قارون من البطر، و البغی، و لم یؤاخـذنا بما وقع منا من ذلک التمنی لَخَسَفَ بِنا کما خسف به. قرأ حفص «لخسف» مبنیـا للفاعـل، و قرأ البـاقون مبنیـا للمفعول وَیْکَأَنَّهُ لا یُفْلِحُ الْکافِرُونَ أی: لا یفوزون بمطلب من مطالبهم تِلْکَ الدَّارُ الْآخِرَةُ أی: الجنهٔ، و الإشارهٔ إلیها لقصد التعظیم لها، و التفخیم لشأنها، کأنه قال: تلک التی سمعت بخبرها، و بلغک شأنها نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لا یُرِیدُونَ عُلُوًّا فِی الْأَرْضِ أی: رفعهٔ و تکبرا علی المؤمنین وَ لا فَساداً أی: عملا بمعاصـی اللّه سبحانه فیها، و ذکر العلوّ و الفسـاد منکرین فی حیز النفی، یـدلّ علی شـمولهما لکـلّ مـا یطلق علیه أنه علوّ، و أنه فسـاد من غیر تخصـیص بنوع خـاص، أما الفسـاد: فظـاهر أنه لا یجوز شـیء منه، کائنا ما کان، و أما العلوّ: فالممنوع منه ما کان علی طریق التکبر علی الغیر، و التطاول علی الناس، و لیس منه طلب العلو فی الحقّ، و الرئاسـهٔ فی الـدین، و لا محبهٔ اللباس الحسن، و المرکوب الحسن، و المنزل الحسن مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْها و هو أن اللّه یجازیه بعشر أمثالها إلی سبعمائهٔ ضعف وَ مَنْ جاءَ بِالسَّیِّئَةِ فَلا یُجْزَی الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئاتِ إِلَّا ما کانُوا یَعْمَلُونَ أی: إلا مثل ما کانوا یعملون، فحـذف المضاف، و أقیم المضاف إلیه مقامه، و قـد تقـدّم بیان معنی هذه الآیهٔ فی سورهٔ النمل إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ قال المفسرون: أی أنزل علیک القرآن. و قال الزجاج:

فرض علیـک العمـل بمـا یوجبه القرآن، و تقـدیر الکلام: فرض علیـک أحکـام القرآن و فرائضه لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ قـال جمهور

المفسرين: أی إلى مكة. و قال مجاهد، و عكرمة، و الزهری، و الحسن: إن المعنی: لرادّك إلى يوم القيامة، و هو اختيار الزجاج، يقال بينی و بينك المعاد، أی: يوم القيامة، لأن الناس يعودون فيه أحياء. و قال أبو مالك و أبو صالح: لرادّك إلى معاد الجنة. و به قال أبو سعيد الخدری، و روی عن مجاهد. و قيل «إلى معاد»: إلى الموت قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدی وَ مَنْ هُوَ فِی ضَلالٍ مُبِينٍ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبیّ صلّى اللّه عليه و سلم و إنك فی ضلال، و المراد من جاء بالهدی هو النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم، و من هو فی ضلال مبين: المشركون، و الأولى: حمل الآية على العموم، و أن اللّه سبحانه يعلم حال كلّ طائفة من هاتين الطائفتين و يجازيها بما تستحقه من خير و شرّ وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ أی: ما كنت ترجو أنا نرسلك إلى العباد، و ننزل عليك القرآن. و قيل: ما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب بردّك إلى معادك، و الاستثناء فی قوله: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ منقطع، أی: لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك، و يجوز أن يكون متصلا حملا على المعنی، كأنه قيل: و ما ألقی إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك. و الأوّل: أولى، و به جزم الكسائی، و الفرّاء فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ أی: عونا لهم، و فيه تعريض بغيره من الأمة. و قيل: المراد لا تكوننّ ظهيرا لهم بمداراتهم وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ أی: لا يصدنك يا محمّد الكافرون و أقوالهم و كذبهم و أذاهم عن تلاوة آيات اللّه و العمل بها بعد إذ أنزلها اللّه إليك و فرضت عليك. قرأ الجمهور بفتح الياء و ضم الصاد من صدّه يصدّه. و قرأ عاصم بضم الياء و كسر الصاد، من أصدّه بمعنی صدّه وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ أی: ادع الناس إلى اللّه و إلى توحيده، و العمل بفرائضه، و اجتناب معاصيه وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ و فيه تعريض بغيره كما تقدّم، لأنه صلّى اللّه عليه و سلم

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱۸

لا يكون من المشركين بحال من الأحوال، و كذلك قوله: وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فإنه تعريض لغيره.

ثم وحد سبحانه نفسه و وصفها بالبقاء و الدوام فقال: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ من الأشياء كائنا ما كان هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أی: إلا ذاته. قال الزجاج: وجهه منصوب على الاستثناء، و لو كان فی غير القرآن كان مرفوعا بمعنی كلّ شیء غير وجهه هالك. كما قال الشاعر:

و كلّ أخ مفارقه أخوهلعمر أبيك إلّا الفرقدان

و المعنی كلّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه لَهُ الْحُكْمُ أی القضاء النافذ بما شاء، و يحكم بما أراد وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ عند البعث ليجزی المحسن بإحسانه، و المسیء بإساءته، لا إله غيره سبحانه و تعالى.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، عن ابن عباس فی قوله: سَرْمَداً قال: دائما: و أخرج ابن أبی حاتم عنه وَ ضَلَّ عَنْهُمْ يوم القيامة ما كانُوا يَفْتَرُونَ قال: يكذبون فی الدنيا. و أخرج ابن أبی شيبة فی المصنف، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عنه أيضا إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى قال: كان ابن عمه، و كان يتبع العلم حتی جمع علما، فلم يزل فی أمره ذلك حتی بغی على موسی و حسده، فقال له موسی: إن اللّه أمرنی أن آخذ الزكاة، فأبی فقال: إن موسی يريد أن يأكل أموالكم؛ و جاءكم بأشياء فاحتملتموها، فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا لا نحتمل فما ترى، فقال لهم:

أرى أن أرسل إلى بغی من بغايا بنی إسرائيل، فنرسلها إليه، فترميه بأنه أرادها على نفسها، فأرسلوا إليها، فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدی على موسی أنه فجر بك، قالت: نعم فجاء قارون إلى موسی فقال: اجمع بنی إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك، قال نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرك ربك؟ قال:

أمرنی أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا و أن تصلوا الرحم و كذا و كذا، و أمرنی إذا زنا و قد أحصن أن يرجم، قالوا: و إن كنت أنت؟ قال: نعم، قالوا: فإنك قد زنيت. قال أنا؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت، ما تشهدين على موسی؟ فقال لها موسی: أنشدك

باللّه إلا ما صدقت. قالت: أما إذ أنشدتنى باللّه، فإنهم دعونى، و جعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى، و أنا أشهد أنك برىء، و أنك رسول اللّه، فخرّ موسى ساجدا يبكى، فأوحى اللّه إليه ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض، فمرها فتعطيك، فرفع رأسه فقال خذيهم، فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى! يا موسى! فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، فجعلوا يقولون يا موسى! يا موسى! فقال: خذيهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى! يا موسى! فقال: خذيهم، فغشيتهم، فأوحى اللّه يا موسى: سألك عبادى، و تضرّعوا إليك، فلم تجبهم و عزّتى لو أنهم دعونى لأجبتهم. قال ابن عباس: و ذلك قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ خسف به إلى الأرض السفلى. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن خيثمة قال: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلا أغرّ محجلا.

و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر عنه قال: وجدت فى الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز. قلت: لم أجد فى الإنجيل هذا الذى ذكره خيثمة. و أخرج ابن المنذر، و ابن

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۱۹

أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ قال: تثقل. و أخرج ابن المنذر عنه قال: لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوّة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: العصبة أربعون رجلا. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ قال: المرحين، و فى قوله: وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا قال: أن تعمل فيها لآخرتك. و أخرج ابن مردويه، عن أوس بن أوس الثقفى، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ فى أربعة آلاف بغل. و قد روى عن جماعة من التابعين أقوال فى بيان ما خرج به على قومه من الزينة، و لا يصحّ منها شىء مرفوعا، بل هى من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرّة، و لا أدرى كيف إسناد هذا الحديث الذى رفعه ابن مردويه فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه.

و أخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ قال: خسف به إلى الأرض السفلى.

و أخرج المحاملى، و الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً قال: التجبر فى الأرض و الأخذ بغير الحق.

و روى نحوه عن مسلم البطين؛ و ابن جريج، و عكرمة. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ قال: بغيا فى الأرض. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: هو الشرف، و العلوّ عند ذوى سلطانهم. إن كان ذلك للتقوى به على الحق، فهو من خصال الخير، لا من خصال الشرّ. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، عن علىّ بن أبى طالب قال: إن الرجل ليحبّ أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه، فيدخل فى هذه الآية تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علىّ رضى اللّه عنه: و هذا محمول على من أحبّ ذلك لا لمجرّد التجمل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت «أنّ رجلا قال يا رسول اللّه إنى أحبّ أن يكون ثوبى حسنا و نعلى حسنة، أ فمن الكبر ذلك؟ قال لا، إنّ اللّه جميل يحبّ الجمال» و أخرج ابن مردويه، و ابن عساكر عن على بن أبى طالب أنه قال: نزلت هذه الآية، يعنى تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ إلخ فى أهل العدل و التواضع من الولاة و أهل القدرة من سائر الناس. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن مردويه عن عدى بن حاتم قال: لما دخل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ألقى إليه و سادة، فجلس على الأرض فقال: أشهد أنك لا تبغى علوّا فى الأرض و لا فسادا فأسلم «۱». و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك. و أخرج أيضا ابن مردويه، عن علىّ بن الحسين بن واقد أن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الآية أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بالجحفة حين خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم مهاجرا إلى المدينة. و أخرج

ابن أبی شیبهٔ، و عبد بن حمید، و البخاری، و النسائی، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه، و البیهقی، من طرق ابن عباس فی قوله: لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ قال: إلی مکهٔ، زاد ابن مردویه کما أخرجک منها. و أخرج الفریابی، و عبد بن حمید، و ابن مردویه، عن أبی سعید الخدری: لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ

---

(۱). الذی جلس علی الأرض هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، و الذی قال: أشهد أنک ... إلخ، هو عدی بن حاتم.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۲۰

قال: الآخرهٔ. و أخرج ابن أبی شیبهٔ و البخاری فی تاریخه و أبو یعلی و ابن المنذر عنه أیضا فی قوله: لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ قال: معاده الجنهٔ، و فی لفظ معاده آخرته. و أخرج الحاکم فی التاریخ، و الدیلمی، عن علیّ بن أبی طالب قال لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ الجنهٔ. و أخرج سعید بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن مردویه عنه قال: لما نزلت کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ «۱» قالت الملائکهٔ: هلک أهل الأرض، فلما نزلت کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَهُٔ الْمَوْتِ* «۲» قالت الملائکهٔ: هلک کلّ نفس، فلما نزلت کُلُّ شَیْ‌ءٍ هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ قالت الملائکهٔ: هلک أهل السماء و الأرض. و أخرج عبد بن حمید عن ابن عباس کُلُّ شَیْ‌ءٍ هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ قال: إلا ما أرید به وجهه.

---

(۱). الرحمن: ۲۶.

(۲). آل عمران: ۱۸۵.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۲۱

سورهٔ العنکبوت

اشارهٔ

و قد اختلف فی کونها مکیهٔ، أو مدنیهٔ، أو بعضها مکیا، و بعضها مدنیا علی ثلاثهٔ أقوال: الأوّل أنها مکیهٔ کلها، أخرجه ابن الضریس، و النحاس، و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل عن ابن عباس، و أخرجه ابن مردویه عن عبد اللّه بن الزبیر، و به قال الحسن، و عکرمهٔ، و عطاء، و جابر بن زید. و القول الثانی:

أنها مدنیهٔ کلها، قال القرطبی: و هو أحد قولی، ابن عباس، و قتادهٔ. و القول الثالث: أنها مکیهٔ إلا عشر آیات من أوّلها، و هو قول یحیی بن سلام. و حکی عن علیّ بن أبی طالب أنها نزلت بین مکهٔ و المدینهٔ، و هذا قول رابع. و أخرج الدارقطنی فی السنن عن عائشهٔ أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم کان یصلی فی کسوف الشمس، و القمر أربع رکعات، و أربع سجدات، یقرأ فی الرکعهٔ الأولی: بالعنکبوت، أو الروم، و فی الثانیهٔ: بیس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورهٔ العنکبوت (۲۹): الآیات ۱ الی ۱۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الم (۱) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ (۲) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَیَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ

لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۴)
مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِی كانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِی ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِی الصَّالِحِينَ (٩)
وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِیَ فِی اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِی صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَیْ‌ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى فی سورة البقرة، و الاستفهام فی قوله: أَ حَسِبَ النَّاسُ للتقريع و التوبيخ، و أَنْ يُتْرَكُوا فی موضع نصب بحسب، و هی و ما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه و الجمهور، و أَنْ يَقُولُوا فی موضع نصب على تقدير: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا، أو على أن يقولوا، و قيل: هو بدل من أن يتركوا، و معنى الآية: أن الناس لا يتركون بغير اختبار و لا ابتلاء أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ أی: و هم لا يبتلون فی أموالهم، و أنفسهم، و ليس الأمر كما حسبوا،

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٢٢

بل لا بد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق، و الصادق من الكاذب، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان و استبعاده، و بيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف و غيرها. قال الزجاج: المعنى: أ حسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا إنا مؤمنون فقط، و لا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم، و هو قوله: أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ قال السدّی و قتادة و مجاهد: أی لا يبتلون فی أموالهم، و أنفسهم بالقتل، و التعذيب، و سيأتی فی بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه، و ظاهرها شمول كلّ الناس من أهل الإيمان، و إن كان السبب خاصا، فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرّة. قال ابن عطية: و هذه الآية و إن كانت نازلة فی سبب خاص، فهی باقية فی أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم موجود حكمها بقية الدهر، و ذلك أن الفتنة من اللّه باقية فی ثغور المسلمين بالأسر و نكاية العدوّ و غير ذلك وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أی: هذه سنة اللّه فی عباده، و أنه يختبر مؤمنی هذه الأمة، كما اختبر من قبلهم من الأمم، كما جاء به القرآن فی غير موضع من قصص الأنبياء، و ما وقع مع قومهم من المحن، و ما اختبر اللّه به أتباعهم، و من آمن بهم من تلك الأمور التی نزلت بهم فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا فی قولهم: آمنا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ منهم فی ذلك، قرأ الجمهور «فليعلمنّ» بفتح الياء و اللام فی الموضعين، أی: ليظهرنّ اللّه الصادق، و الكاذب فی قولهم، و يميز بينهم، و قرأ علیّ بن أبی طالب فی الموضعين بضم الياء و كسر اللام. و المعنى: أی يعلم الطائفتين فی الآخرة بمنازلهم، أو يعلم الناس بصدق من صدق، و يفضح الكاذبين بكذبهم، أو يضع لكلّ طائفة علامة تشتهر بها، و تتميز عن غيرها أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا أی: يفوتونا و يعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون، و هو سادّ مسدّ مفعولی حسب، و أم هی المنقطعة ساءَ ما يَحْكُمُونَ أی: بئس الذی يحكمونه حكمهم ذلك. و قال الزجاج: «ما» فی موضع نصب بمعنى ساء شيئا أو حكما يحكمون. قال: و يجوز أن تكون «ما» فی موضع رفع بمعنى ساء الشی‌ء أو الحكم حكمهم، و جعلها ابن كيسان مصدرية، أی: ساء حكمهم مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ أی: من كان يطمع، و الرجاء: بمعنى الطمع. قاله سعيد بن جبير. و قيل: الرجاء هنا: بمعنى الخوف. قال القرطبی: و أجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت، و منه قول الهذلی:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها «١» قال الزجاج: معنى من كان يرجو لقاء اللّه: من كان يرجو ثواب لقاء اللّه، أی: ثواب المصير

إليه، فالرجاء على هذا: معناه الأمل فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ أى: الأجل المضروب للبعث آت لا محالة. قال مقاتل: يعنى يوم القيامة، و المعنى: فليعمل لذلك اليوم كما فى قوله: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً «٢» و من فى الآية التى هنا يجوز أن تكون شرطية، و الجزاء فإن أجل اللّه لآت، و يجوز أن تكون

---

(١). و عجز البيت:

و حالفها فى بيت نوب عوامل.

(٢). الكهف: ١١٠.

موصولة، و دخلت الفاء فى جوابها تشبيها لها بالشرطية. و فى الآية من الوعد و الوعيد، و الترهيب و الترغيب ما لا يخفى وَ هُوَ السَّمِيعُ لأقوال عباده الْعَلِيمُ بما يسرونه و ما يعلنونه وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ أى: من جاهد الكفار و جاهد نفسه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه، أى: ثواب ذلك له لا لغيره و لا يرجع إلى اللّه سبحانه من نفع ذلك شى‏ء إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ فلا يحتاج إلى طاعاتهم كما لا تضرّه معاصيهم. و قيل المعنى: و من جاهد عدوّه لنفسه لا يريد بذلك وجه اللّه، فليس للّه حاجة بجهاده، و الأوّل: أولى وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أى: لنغطينها عنهم بالمغفرة، بسبب ما عملوا من الصالحات وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أى: بأحسن جزاء أعمالهم، و قيل: بجزاء أحسن أعمالهم، و المراد بأحسن: مجرّد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتا عنه، و قيل: يعطيهم أكثر و أحسن منه كما فى قوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «١» وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً انتصاب حسنا على أنه نعت مصدر محذوف، أى: إيصاء حسنا على المبالغة، أو على حذف المضاف: أى: ذا حسن. هذا مذهب البصريين، و قال الكوفيون: تقديره و وصينا الإنسان أن يفعل حسنا، فهو مفعول لفعل مقدّر، و منه قول الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكوناو من أبى دهماء إذ يوصينا

خيرا بها كأنّما خافونا أى: يوصينا أن نفعل بها خيرا، و مثله قول الحطيئة:

وصّيت من برّة قلبا حرّابالكلب خيرا و الحمأة شرّا

قال الزجاج: معناه و وصينا الإنسان: أن يفعل بوالديه ما يحسن، و قيل: هو صفة لموصوف محذوف، أى: و وصيناه أمرا ذا حسن، و قيل: هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين، أى: ألزمناه حسنا، و قيل: منصوب بنزع الخافض، أى: و وصيناه بحسن، و قيل: هو مصدر لفعل محذوف، أى: يحسن حسنا، و معنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه بالبرّ بهما، و العطف عليهما. قرأ الجمهور «حسنا» بضم الحاء و إسكان السين، و قرأ أبو رجاء، و أبو العالية، و الضحاك بفتحهما، و قرأ الجحدرى «إحسانا» و كذا فى مصحف أبىّ وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما أى: طلبا منك، و ألزماك أن تشرك بى إلها ليس لك به علم بكونه إلها فلا تطعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، و عبر بنفى العلم عن نفى الإله لأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه، فكيف بما علم بطلانه؟ و إذا لم تجز طاعة الأبوين فى هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع تجرّد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى، و يلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصى اللّه سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية للّه كما صحّ ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: أخبركم بصالح أعمالكم، و طالحها، فأجازى كلا منكم بما يستحقه، و الموصول فى قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فى محل رفع على الابتداء و خبره

---

(١). الأنعام: ١۶٠.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٢۴

لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ أى: فى زمرة الراسخين فى الصلاح، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الاشتغال، و يجوز أن يكون المعنى: لندخلنهم فى مدخل الصالحين، و هو الجنة كذا قيل، و الأوّل أولى وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ أى: فى شأن اللّه و لأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، و كما يفعله أهل المعاصى مع أهل الطاعات، من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان باللّه، و العمل بما أمر به جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ التى هى ما يوقعونه عليه من الأذى كَعَذابِ اللَّهِ أى: جزع من أذاهم. فلم يصبر عليه و جعله فى الشدّة، و العظم كعذاب اللّه، فأطاع الناس كما يطيع اللّه، و قيل: هو المنافق إذا أوذى فى اللّه رجع عن الدين فكفر. قال الزجاج: ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذية فى اللّه وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ أى: نصر من اللّه للمؤمنين، و فتح و غلبة للأعداء و غنيمة يغنمونها منهم لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أى:

داخلون معكم فى دينكم، و معاونون لكم على عدوّكم، فكذبهم اللّه. و قال: أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ أى: هو سبحانه أعلم بما فى صدورهم منهم من خير و شرّ، فكيف يدّعون هذه الدعوى الكاذبة. و هؤلاء هم قوم ممن كان فى إيمانهم ضعف، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم. و إذا ظهرت قوّة الإسلام و نصر اللّه المؤمنين فى موطن من المواطن لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ و قيل: المراد بهذا، و ما قبله:

المنافقون. قال مجاهد: نزلت فى ناس كانوا يؤمنون باللّه بألسنتهم. فإذا أصابهم بلاء من اللّه أو مصيبة افتتنوا.

و قال الضحاك: نزلت فى ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك، و الظاهر أن هذا النظم من قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إلى قوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا نازل فى المنافقين لما يظهر من السياق، و لقوله: وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ فإنها لتقرير ما قبلها و تأكيده: أى: ليميزن اللّه بين الطائفتين، و يظهر إخلاص المخلصين، و نفاق المنافقين، فالمخلص الذى لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى، و يصبر فى اللّه حق الصبر، و لا يجعل فتنة الناس كعذاب اللّه. و المنافق الذى يميل هكذا و هكذا، فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم و تابعهم، و كفر باللّه عزّ و جلّ، و إن خفقت ريح الإسلام، و طلع نصره، و لاح فتحه رجع إلى الإسلام، و زعم أنه من المسلمين وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا اللام فى «للذين آمنوا» هى: لام التبليغ، أى: قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه فى غير موضع، أى: قالوا لهم اسلكوا طريقتنا، و ادخلوا فى ديننا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ أى: إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث و النشور، كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم، فنؤاخذ به دونكم، و اللام فى لنحمل:

لام الأمر، كأنهم أمروا أنفسهم بذلك. و قال الفراء و الزجاج: هو أمر فى تأويل الشرط و الجزاء، أى: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، ثم ردّ اللّه عليهم بقوله: وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ من الأولى:

بيانية. و الثانية: مزيدة للاستغراق، أى: و ما هم بحاملين شيئا من خطيئاتهم التى التزموا بها و ضمنوا لهم حملها، ثم وصفهم اللّه سبحانه بالكذب فى هذا التحمل فقال: إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم.

قال المهدوى: هذا التكذيب لهم من اللّه عزّ و جلّ حمل على المعنى، لأن المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر، أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ أى:

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٢۵

أوزارهم التى عملوها، و التعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ أى: أوزارا مع أوزارهم. و هى أوزار من أضلوهم، و أخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة، و مثله قوله سبحانه: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ

يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «١» و مثله قوله صلّى اللّه عليه و سلم «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها» كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى صحيح مسلم، و غيره وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ تقريعا و توبيخا عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ أى: يختلقونه من الأكاذيب التى كانوا يأتون بها فى الدنيا.

و قال مقاتل: يعنى قولهم و نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى قوله: الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا الآية قال: أنزلت فى ناس كانوا بمكة قد أقرّوا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من المدينة، لما أنزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار، و لا إسلام حتى تهاجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة، فاتبعهم المشركون، فردّوهم، فنزلت فيهم هذه الآية، فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا و كذا، فقالوا:

نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم، فمنهم من قتل و منهم من نجا، فأنزل اللّه فيهم ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٢» و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه بأخصر منه. و أخرج ابن سعد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عمير قال: نزلت فى عمار بن ياسر؛ إذ كان يعذب فى اللّه الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا الآية. و أخرج ابن ماجة، و ابن مردويه، عن ابن مسعود قال: أوّل من أظهر اللّه إسلامه سبعة:

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أبو بكر، و سمية أم عمار، و عمار، و صهيب، و بلال، و المقداد. فأما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فمنعه اللّه بعمه أبى طالب، و أما أبو بكر فمنعه اللّه بقومه، و أما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، و صهروهم فى الشمس، فما منهم من أحد إلا و قد أتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه فى اللّه، و هان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة، و هو يقول:

أحد أحد. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله:

أَنْ يَسْبِقُونا قال: أن يعجزونا. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، عن سعد بن أبى وقاص قال: قالت أمى لا آكل طعاما، و لا أشرب شرابا حتى تكفر بمحمّد فامتنعت من الطعام و الشراب، حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا «٣»، فنزلت هذه الآية وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما و أخرجه أيضا الترمذى من حديثه، و قال: نزلت فى أربع آيات و ذكر نحو هذه القصة، و قال: حسن صحيح. و قد أخرج هذا الحديث أحمد، و مسلم، و أبو داود، و النسائى أيضا. و أخرج أحمد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و الترمذى، و صححه، و ابن ماجة، و أبو يعلى، و ابن حبان، و أبو نعيم، و البيهقى، و الضياء عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لقد أوذيت فى اللّه و ما

---

(١). النحل: ٢٥.

(٢). النحل: ١١٠.

(٣). الشّجر: مفتح الفم، و المقصود: ادخلوا فى شجره عودا حتى يفتحوه.

يؤذى أحد، و لقد أخفت فى اللّه و ما يخاف أحد، و لقد أتت عليّ ثالثة و ما لى و لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما واراه إبط بلال». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ قال: يرتدّ عن دين اللّه إذا أوذى فى اللّه.

[سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۱۴ الى ۲۷]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۴) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (۱۵) وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۶) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۷) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۱۸)

أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۹) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (۲۱) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۲۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۳)

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۴) وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۲۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۶) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۲۷)

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقا لقوله فى أوّل السورة وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و فيه تثبيت للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، كأنه قيل له: إن نوحا لبث ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه و لم يؤمن منهم إلا قليل، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك، و كثرة عدد أمتك. قيل: و وقع فى النظم إلا خمسين عاما، و لم يقل: تسعمائة سنة و خمسين، لأن فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى، فقد يطلق على ما يقرب منه. و قد اختلف فى مقدار عمر نوح، و سيأتى آخر البحث. و ليس فى الآية إلا أنه لبث فيهم هذه المدة، و هى لا تدل على أنها جميع عمره. فقد تلبث فى غيرهم قبل اللبث فيهم، و قد تلبث فى الأرض بعد هلاكهم بالطوفان، و الفاء فى فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ للتعقيب، أى: أخذهم عقب تمام المدة المذكورة، و الطوفان: يقال لكل شىء كثير، مطيف بجمع، محيط بهم، من مطر، أو قتل، أو موت قاله النحاس: و قال سعيد بن جبير و قتادة و السدى:

هو المطر. و قال الضحاك: الغرق، و قيل: الموت، و منه قول الشاعر:

أفناهم طوفان موت جارف

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۲۷

و جملة وَ هُمْ ظالِمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: مستمرون على الظلم و لم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح، و ذكرهم هذه المدّة بطولها فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ أى: أنجينا نوحا و أنجينا من معه فى السفينة من أولاده و أتباعه. و اختلف فى عددهم على أقوال وَ جَعَلْناها أى: السفينة آيَةً لِلْعالَمِينَ أى:

عبرة عظيمة لهم، و فى كونها آية وجوه: أحدها أنها كانت باقية على الجودىّ مدّة مديدة. و ثانيها: أن اللّه سلم السفينة من الرياح المزعجة. و ثالثها: أن الماء غيض قبل نفاذ الزاد. و هذا غير مناسب لوصف السفينة بأن اللّه جعلها آية، و قيل: إن الضمير راجع فى جعلناها إلى الواقعة، أو إلى النجاة، أو إلى العقوبة بالغرق.

وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ انتصاب إبراهيم بالعطف على نوحا. و قال النسائى: هو معطوف على الهاء فى جعلناها و قيل: منصوب بمقدّر، أى: و اذكر إبراهيم. و إذ قال: منصوب على الظرفية، أى: و أرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه: اعبدوا اللّه، أو جعلنا إبراهيم

آیة وقت قوله هذا، أو و اذکر إبراهیم وقت قوله، على أن الظرف بدل اشتمال من إبراهیم اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ أی: أفردوه بالعبادة و خصوه بها و اتقوه أن تشرکوا به شیئا ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ أی: عبادة اللّه و تقواه خیر لکم من الشرک، و لا خیر فی الشرک أبدا، و لکنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شیئا من العلم، أو تعلمون علما تمیزون به بین ما هو خیر، و ما هو شرّ. قرأ الجمهور «و إبراهیم» بالنصب، و وجهه ما قدّمنا. و قرأ النخعی و أبو جعفر و أبو حنیفة بالرفع على الابتداء و الخبر مقدّر، أی: و من المرسلین إبراهیم إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً بین لهم إبراهیم أنهم یعبدون ما لا ینفع و لا یضرّ، و لا یسمع و لا یبصر، و الأوثان: هی الأصنام. و قال أبو عبیدة: الصنم ما یتخذ من ذهب، أو فضة، أو نحاس، و الوثن: ما یتخذ من جصّ أو حجارة. و قال الجوهری: الوثن:

الصنم، و الجمع: أوثان وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً أی: و تکذبون کذبا على أن معنى تخلقون تکذبون، و یجوز أن یکون معناه: تعملون و تنحتون، أی: تعملونها و تنحتونها للإفک. قال الحسن: معنى تخلقون تنحتون، أی: إنما تعبدون أوثانا، و أنتم تصنعونها. قرأ الجمهور «تخلقون» بفتح الفوقیة و سکون الخاء، و ضم اللام مضارع خلق، و إفکا بکسر الهمزة و سکون الفاء. و قرأ علیّ بن أبی طالب، و زید بن علیّ، و السلمی، و قتادة بفتح الخاء و اللام مشدّدة، و الأصل تتخلقون. و روی عن زید بن علیّ أنه قرأ بضم التاء و تشدید اللام مکسورة. و قرأ ابن الزبیر و فضیل بن ورقان «أفکا» بفتح الهمزة و کسر الفاء و هو مصدر کالکذب، أو صفة لمصدر محذوف، أی: خلقا أفکا إِنَّ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا یَمْلِکُونَ لَکُمْ رِزْقاً أی:

لا یقدرون على أن یرزقوکم شیئا من الرزق فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ أی: اصرفوا رغبتکم فی أرزاقکم إلى اللّه، فهو الذی عنده الرزق کله، فاسألوه من فضله، و وحدوه دون غیره وَ اشْکُرُوا لَهُ أی: على نعمائه، فإن الشکر موجب لبقائها و سبب للمزید علیها، یقال شکرته، و شکرت له إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ بالموت ثم بالبعث لا إلى غیره وَ إِنْ تُکَذِّبُوا فَقَدْ کَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِکُمْ قیل: هذا من قول إبراهیم، أی:

و إن تکذبونی فقد وقع ذلک لغیری ممن قبلکم، و قیل: هو من قول اللّه سبحانه: أی: و إن تکذبوا محمّدا فذلک عادة الکفار مع من سلف وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِینُ لقومه الذین أرسل إلیهم، و لیس

علیه هدایتهم، و لیس ذلک فی وسعه أَ وَ لَمْ یَرَوْا کَیْفَ یُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ قرأ الجمهور «أو لم یروا» بالتحتیة على الخبر، و اختار هذه القراءة أبو عبید، و أبو حاتم. قال أبو عبید: کأنه قال: أو لم یر الأمم. و قرأ أبو بکر، و الأعمش، و ابن وثاب، و حمزة، و الکسائی بالفوقیة على الخطاب من إبراهیم لقومه، و قیل: هو خطاب من اللّه لقریش. قرأ الجمهور «کیف یبدئ» بضم التحتیة من أبدأ یبدئ. و قرأ الزبیری، و عیسى بن عمر، و أبو عمرو بفتحها من بدأ یبدأ. و قرأ الزهری «کیف بدأ» و المعنى: ألم یروا کیف یخلقهم اللّه ابتداء؟ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ینفخ فیه الروح، ثم یخرجه إلى الدنیا، ثم یتوفاه بعد ذلک، و کذلک سائر الحیوانات، و سائر النباتات، فإذا رأیتم قدرة اللّه سبحانه على الابتداء، و الإیجاد، فهو القادر على الإعادة، و الهمزة لإنکار عدم رؤیتهم، و الواو: للعطف على مقدّر إِنَّ ذلِکَ عَلَى اللَّهِ یَسِیرٌ لأنه إذا أراد أمرا قال له: کن فیکون. ثم أمر سبحانه إبراهیم أن یأمر قومه بالمسیر فی الأرض؛ لیتفکروا و یعتبروا فقال: قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ على کثرتهم، و اختلاف ألوانهم، و طبائعهم، و ألسنتهم، و انظروا إلى مساکن القرون الماضیة، و الأمم الخالیة، و آثارهم لتعلموا بذلک کمال قدرة اللّه. و قیل: إن المعنى:

قل لهم یا محمّد: سیروا، و معنى قوله: ثُمَّ اللَّهُ یُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ أن اللّه الذی بدأ النشأة الأولى، و خلقها على تلک الکیفیة ینشئها نشأة ثانیة عند البعث، و الجملة عطف على جملة سیروا فی الأرض، داخلة معها فی حیز القول، و جملة إِنَّ اللَّهَ عَلى کُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لما قبلها. قرأ الجمهور ب «النشأة» بالقصر و سكون الشين. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بالمدّ و فتح الشين، و هما لغتان كالرأفة و الرآفة. و هى منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد، و الأصل: الإنشاءة يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ أى: هو سبحانه بعد النشأة الآخرة، يعذب من يشاء تعذيبة، و هم الكفار و العصاة، و يرحم من يشاء رحمته، و هم المؤمنون به، المصدّقون لرسله، العاملون بأوامره و نواهيه وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ أى: ترجعون، و تردّون لا إلى غيره وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ قال الفراء: و لا من فى السماء بمعجزين اللّه فيها. قال:

و هو كما فى قول حسان:

فمن يهجو رسول اللّه منكمو يمدحه و ينصره سواء

أى: و من يمدحه، و ينصره سواء. و مثله قوله تعالى: وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ «١» أى: إلا من له مقام معلوم، و المعنى: أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض، و لا أهل السماء فى السماء إن عصوه. و قال قطرب: إن معنى الآية: و لا فى السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتنى فلان هاهنا و لا بالبصرة، يعنى:

و لا بالبصرة لو صار إليها. و قال المبرد: المعنى و لا من فى السماء، على أن من ليست موصولة بل نكرة، و فى السماء صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، و ردّ ذلك علىّ بن سليمان و قال: لا يجوز و رجح ما قاله قطرب وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ من مزيدة للتأكيد، أى: ليس لكم ولىّ يواليكم، و لا نصير ينصركم، و يدفع عنكم عذاب اللّه وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ المراد بالآيات: الآيات

---

(١). الصافات: ١۶۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٢٩

التنزيلية، أو التكوينية، أو جميعهما، و كفروا بلقاء اللّه، أى: أنكروا البعث و ما بعده، و لم يعملوا بما أخبرتهم به رسل اللّه سبحانه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الكافرين بالآيات و اللقاء، و هو مبتدأ، و خبره يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي أى: إنهم فى الدنيا آيسون من رحمة اللّه لم ينجع فيهم ما نزل من كتب اللّه، و لا ما أخبرتهم به رسله. و قيل المعنى: أنهم ييأسون يوم القيامة من رحمة اللّه و هى الجنة. و المعنى أنهم أويسوا من الرحمة وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ كرّر سبحانه الإشارة للتأكيد، و وصف العذاب بكونه أليما للدلالة على أنه فى غاية الشدّة فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض بما تقدم من خطاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم على قول من قال: إن قوله قل سيروا فى الأرض خطاب لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم، و أما على قول من قال: إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام، فالكلام فى سياقه سابقا و لا حقا، أى:

قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين، ثم اتفقوا على تحريقه فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ و جعلها عليه بردا و سلاما إِنَّ فِي ذلِكَ أى: فى إنجاء اللّه لإبراهيم لَآياتٍ بينة، أى: دلالات واضحة، و علامات ظاهرة على عظيم قدرة اللّه، و بديع صنعه، حيث أضرموا تلك النار العظيمة، و ألقوه فيها، و لم تحرقه، و لا أثرت فيه أثرا، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة و الإحراق، و إنما خصّ المؤمنون، لأنهم الذين يعتبرون بآيات اللّه سبحانه، و أما من عداهم فهم عن ذلك غافلون. قرأ الجمهور بنصب «جواب قومه» على أنه خبر كان، و ما بعده اسمها. و قرأ سالم الأفطس و عمرو بن دينار و الحسن برفعه على أنه اسم كان، و ما بعده فى محل نصب على الخبر وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أى: قال إبراهيم لقومه: أى للتوادد بينكم، و التواصل لاجتماعكم على عبادتها، و للخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها. قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و الكسائى «مودّة بينكم» برفع مودّة غير منوّنة، و إضافتها إلى بينكم. و

قرأ الأعمش، و ابن وثاب «مودّة» برفعها منوّنـة. و قرأ نافع، و ابن عامر، و أبو بكر بنصب «مودة» منوّنة و نصب بينكم على الظرفية. و قرأ حمزة، و حفص بنصب «مودّة» مضافـة إلى بينكم. فأمـا قراءة الرفع، فـذكر الزجـاج لها وجهين: الأوّل أنها ارتفعت على خبر إنّ فى إنما اتخـذتم، و جعل ما موصولـة، و التقـدير: إن الـذى اتخـذتموه من دون اللّه أوثانا مودّة بينكم. الوجه الثانى: أن تكون على إضـمار مبتـدأ، أى: هى مودّة أو تلـك مودّة. و المعنى: أن المودّة هى التى جمعتكم على عبـادة الأوثـان و اتخاذهـا. قيل: و يجوز أن تكون مودّة مرتفعـة بالابتـداء، و خبرها فى الحياة الـدنيا. و من قرأ برفع مودّة منوّنـة: فتوجيهه كالقراءة الأولى، و نصب بينكم على الظرفية. و من قرأ بنصب مودّة و لم ينوّنها جعلها مفعول اتخذتم، و جعل إنما حرفا واحدا للحصـر، و هكذا من نصبها و نوّنهـا. و يجوز أن يكون النصب فى هـاتين القراءتين على أن المودّة علـة، فهى مفعول لأجله، و على قراءة الرفع يكون مفعول اتخـذتم الثانى محذوفا، أى: أوثانا آلهة، و على تقدير أن ما فى قوله «إنما اتخذتم» موصولة يكون المفعول الأوّل: ضـميرها، أى: اتخـذتموه، و المفعول الثانى: أوثانا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَـةِ يَكْفُرُ بَعْضُـكُمْ بِبَعْضٍ أى: يكفر بعض هؤلاء المتخـذين للأوثان؛ العابدين لها بالبعض الآخر منهم، فيتبرأ القادة من الأتباع، و الأتباع من القادة، و قيل:

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۰

المعنى يتبرأ العابـدون للأوثـان من الأوثان، و تتبرأ الأوثان من العابـدين لها وَ يَلْعَنُ بَعْضُـكُمْ بَعْضاً أى: يلعن كلّ فريق الآخر على التفسيرين المـذكورين وَ مَأْواكُمُ النَّارُ أى: الكفار، و قيل: يـدخل فى ذلك الأوثان، أى: هى منزلكم الـذى تأوون إليه وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِـرِينَ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ أى: آمن لإبراهيم لوط فصدّقه فى جميع ما جاء به، و قيل: إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه، و كان لوط ابن أخى إبراهيم وَ قالَ إِنِّی مُهاجِرٌ إِلى رَبِّی قال النخعى و قتادة: الذى قال إنى مهاجر إلى ربى هو إبراهيم. قال قتادة: هاجر من كوثى و هى قرية من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام و معه ابن أخيه لوط و امرأته سارّة، و المعنى: إنى مهاجر عن دار قومى إلى حيث أعبد ربى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: الغالب الذى أفعاله جارية على مقتضـى الحكمة، و قيل: إن القائل: إنى مهاجر إلى ربى هو لوط، و الأوّل أولى لرجوع الضـمير فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ إلى إبراهيم، و كذا فى قوله: وَ جَعَلْنا فِی ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ و كذا فى قوله: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِی الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ فإن هذه الضـمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف، أى: منّ اللّه عليه بالأولاد فوهب له إسـحاق ولدا له، و يعقوب ولدا لولده إسـحاق، و جعل فى ذرّيته النبوّة، و الكتاب فلم يبعث اللّه نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه، و وحد الكتاب لأن الألف و اللام فيه للجنس الشامل للكتب، و المراد: التوراة، و الإنجيل، و الزبور، و القرآن، و معنى: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِی الدُّنْيا أنه أعطى فى الدنيا الأولاد، و أخبره اللّه باسـتمرار النبوّة فيهم، و ذلـك مما تقرّ به عينه، و يزداد به سـروره، و قيل: أجره فى الـدنيا أن أهل الملل كلها تـدّعيه، و تقول هو منهم. و قيل:

أعطاه فى الدنيا عملا صالحا، و عاقبة حسنة، و إنه فى الآخرة لمن الصالحين، أى: الكاملين فى الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة، و كثرة العطاء من الربّ سبحانه.

و قد أخرج ابن أبى شـيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ، و الحاكم و صـححه، و ابن مردويه عن ابن عبـاس قال: بعث اللّه نوحا و هو ابن أربعين سـنة، و لبث فى قومه ألف سـنة إلا خمسـين عاما؛ يـدعوهم إلى اللّه، و عاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس و فشوا. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال:

كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه، و بعد ما بعث ألفا و سـبعمائة سـنة. و أخرج ابن جرير عن عوف بن أبى شدّاد قال: إن اللّه أرسل نوحا إلى قومه، و هو ابن خمسـين و ثلاثمائـة سـنة فلبث فيهم ألف سـنة إلا خمسـين عاما، ثم عاش بعـد ذلـك خمسـين و ثلاثمائـة سـنة. و أخرج ابن أبى الـدنيا فى كتـاب ذمّ الـدنيا عن أنس بن مالـك قـال: جـاء ملـك الموت إلى نوح فقال: يا أطول

النبيين عمرا كيف وجدت الدنيا و لذتها؟ قال: كرجل دخل بيتا له بابان، فقال في وسط البيت هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ قال: أبقاها اللّه آية، فهى على الجوديّ.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً قال: تقولون كذبا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ قال: هى الحياة بعد الموت، و هو النشور. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ قال: صدّق

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۱

لوط إبراهيم. و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عن أنس قال: «أوّل من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان ابن عفّان، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: صحبهما اللّه، إنّ عثمان لأوّل من هاجر إلى اللّه بأهله بعد لوط». و أخرج ابن مندة، و ابن عساكر عن أسماء بنت أبى بكر قالت: هاجر عثمان إلى الحبشة، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّه أوّل من هاجر بعد إبراهيم و لوط». و أخرج ابن عساكر، و الطبراني، و الحاكم فى الكنى عن زيد بن ثابت قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما كان بين عثمان و بين رقيّة و بين لوط مهاجر». و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: أوّل من هاجر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ قال: هما ولدا إبراهيم، و فى قوله: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا قال إن اللّه وصى أهل الأديان بدينه فليس من أهل الأديان دين إلا و هم يقولون: إبراهيم و يرضون به. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا قال: الذكر الحسن. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الولد الصالح و الثناء، و قول ابن عباس: هما ولدا إبراهيم لعله يريده ولده و ولد ولده، لأن ولد الولد بمنزلة الولد، و مثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس فهو حبر الأمة، و هذه الرواية عنه هى من رواية العوفى، و فى الصحيحين «إنّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم».

[سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۸ الى ۴۰]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۲۸) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۹) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (۳۰) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (۳۱) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۲)

وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۳) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵) وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۳۶) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۳۷)

وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (۳۸) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (۳۹) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ (۴۰)

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۲

قوله: وَ لُوطاً منصوب بالعطف على نوحا، أو على إبراهيم، أو بتقدير اذكر. قال الكسائى المعنى:

و أنجينا لوطا، أو: و أرسلنا لوطا إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ ظرف للعامل فى لوط إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى، و أبو بكر «أ إنكم» بالاستفهام. و قرأ الباقون بلا استفهام، و الفاحشة: الخصلة المتناهية فى القبح، و جملة ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ مقرّرة لكمال قبح هذه الخصلة، و أنهم منفردون بذلك، لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال: أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ أى: تلوطون بهم وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ قيل: إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم، فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء: كانوا يعترضون الناس فى الطرق بعملهم الخبيث، و قيل: كانوا يقطعون الطريق على المارّة، بقتلهم و نهبهم. و الظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سببا لقطع الطريق، من غير تقييد بسبب خاص، و قيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل، بالعدول عن النساء إلى الرجال وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ النادى، و الندىّ، و المنتدى: مجلس القوم، و متحدّثهم.

و اختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه؛ فقيل: كانوا يحذفون الناس بالحصباء، و يستخفون بالغريب، و قيل: كانوا يتضارطون فى مجالسهم، و قيل: كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم، و بعضهم يرى بعضا، و قيل:

كانوا يلعبون بالحمام، و قيل: كانوا يخضبون أصابعهم بالحناء، و قيل: كانوا يناقرون بين الديكة، و يناطحون بين الكباش، و قيل: يلعبون بالنرد، و الشطرنج، و يلبسون المصبغات؛ و لا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات. قال الزجاج: و فى هذا إعلام أنه لا ينبغى أن يتعاشر الناس على المنكر، و أن لا يجتمعوا على الهزء و المناهى. و لما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى اللّه عنهم بقوله: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أى: فما أجابوا بشىء إلا بهذا القول؛ رجوعا منهم إلى التكذيب، و اللجاج، و العناد، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية، و قد تقدّم فى سورة النمل فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ «۱» و تقدّم فى سورة الأعراف وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ «۲» و قد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطا كان ثابتا على الإرشاد، و مكرّرا للنهى لهم، و الوعيد عليهم، فقالوا له أوّلا: ائتنا بعذاب اللّه كما فى هذه الآية، فلما كثر منه ذلك، و لم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم كما فى الأعراف، و النمل، و قيل: إنهم قالوا أوّلا: أخرجوهم من قريتكم، ثم قالوا ثانيا: ائتنا بعذاب اللّه. ثم إن لوطا لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من اللّه سبحانه فقال: رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ بإنزال عذابك عليهم، و إفسادهم هو بما سبق من إتيان الرجال، و عمل المنكر فى ناديهم، فاستجاب اللّه سبحانه، و بعث لعذابهم ملائكته، و أمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم، و لهذا قال:

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى أى: بالبشارة بالولد، و هو إسحاق، و بولد الولد، و هو يعقوب قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ أى: قالوا لإبراهيم هذه المقالة، و القرية هى: قرية سدوم التى كان

---

(۱). النمل: ۵۶.

(۲). الأعراف: ۸۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۳

فيها قوم لوط، و جملة إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ تعليل للإهلاك، أى: إهلاكنا لهم بهذا السبب قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً أى: قال لهم

إبراهيم: إن فى هـذه القريـة التى أنتم مهلكوهـا لوطـا؛ فكيف تهلكونها؟ قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها من الأخيار، و الأشـرار، و نحن أعلم من غيرنـا بمكـان لوط لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ من العـذاب. قرأ الأـعمش، و حمزة، و يعقوب، و الكسـائى «لننجينه» بالتخفيف، و قرأ البـاقون بالتشديـد إِلَّا امْرَأَتَهُ كـانَتْ مِنَ الْغـابِرِينَ أى: البـاقين فى العـذاب، و هو لفـظ مشترك بين الماضـى و الباقى، و قـد تقـدّم تحقيقه، و قيـل المعنى: من الباقين فى القريـة التى سـينزل بها العـذاب، فتعـذب من جملتهم، و لا تنجو فيمن نجا وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ أى: لما جاءت الرسل لوطا بعد مفارقتهم إبراهيم سىء بهم، أى: جاءه ما ساءه و خاف منه، لأنه ظنهم من البشـر، فخاف عليهم من قومه لكونهم فى أحسن صورة من الصور البشـرية، و «أن» فى أن جاءت زائدة للتأكيد وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أى: عجز عن تـدبيرهم، و حزن، و ضاق صـدره، و ضـيق الذراع: كناية عن العجز، كما يقال فى الكناية عن الفقر: ضاقت يده، و قد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة هود. و لما شاهد الملائكة ما حلّ به من الحزن و التضجر قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ أى: لا تخف علينـا من قومـك، و لاـ تحزن، فـإنهم لا يقـدرون علينا إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ من العـذاب الـذى أمرنا اللّه بأن ننزله بهم إِلَّا امْرَأَتَـكَ كـانَتْ مِنَ الْغـابِرِينَ أخبروا لوطا بما جاءوا به من إهلاك قومه، و تنجيته، و أهله إلا امرأته كما أخبروا بـذلك إبراهيم، قرأ حمزة، و الكسائى، و شعبة، و يعقـوب، و الأـعمش «منجوك» بـالتخفيف. و قرأ البـاقون بالتشديـد. قـال المـبرد: الكـاف فى منجوك مخفوض، و لم يجز عطف الظاهر على المضـمر المخفوض، فحمل الثانى على المعنى، و صار التقـدير: و ننجى أهلك إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هـذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ هذه الجملة مسـتأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصـيص التنجية به، و بأهله، و الرجز:

العذاب، أى: عذابا من السماء، و هو الرمى بالحجارة، و قيل: إحراقهم بنار نازلة من السماء، و قيل:

هو الخسف، و الحصب كما فى غير هذا الموضع، و معنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء.

قرأ ابن عـامر «منزّلون» بالتشديـد. و بها قرأ ابن عباس. و قرأ الباقون بالتخفيف، و الباء فى بِما كانُوا يَفْسُـقُونَ للسـببية، أى: لسـبب فسـقهم وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً أى: أبقينا من القرية علامة، و دلالة بينة، و هى الآثار التى بها من الحجارة، رجموا بها، و خراب الـديار. و قال مجاهـد: هو الماء الأسود الباقى على وجه أرضـهم، و لا مانع من حمل الآيـة على جميع ما ذكر، و خص من يعقل، لأنه الـذى يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها وَ إِلى مَـدْيَنَ أَخاهُمْ شُـعَيْباً أى: و أرسـلنا إليهم، و قـد تقدم ذكره، و ذكر نسبه و ذكر قومه فى سورة الأـعراف و سورة هود: فَقـالَ يا قَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ أى: أفردوه بالعبادة، و خصوه بها وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ أى: توقعوه و افعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم. قال يونس النحوى:

معناه: اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِـدِينَ العثو و العثى: أشـدّ الفساد. و قـد تقـدّم تفسـيره فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أى: الزلزلة، و تقدّم فى سورة هود وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ أى: صـيحة جبريل، و هى سبب الرجفة فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ أى: أصبحوا فى بلدهم

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۴

أو منـازلهم جاثمين على الركب ميتين وَ عاداً وَ ثَمُودَ قال الكسائى: قال بعضـهم هو راجع إلى أوّل السورة، أى: وَ لَقَـدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و فتنـا عـادا و ثمود، قـال: و أحبّ إلىّ أن يكون على «فأخـذتهم الرجفـة» أى: و أخـذت عـادا و ثمود. و قـال الزجـاج: التقـدير و أهلكنـا عـادا و ثمود، و قيـل المعنى: و اذكر عادا و ثمود؛ إذ أرسـلنا إليهم هودا و صالحا وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ أى: و قد ظهر لكم يا معاشر الكفار.

مساكنهم بالحجر، و الأحقاف آيات بينات تتعظون بها، و تتفكرون فيها، ففاعل تبين: محـذوف وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التى يعملونها من الكفر و معاصى اللّه فَصَدَّهُمْ بهذا التزيين عَنِ السَّبِيلِ أى: الطريق الواضح الموصل إلى الحق وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ أى:

أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوى بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم، و قيل المعنى: كانوا مستبصرين فى كفرهم، و ضلالتهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى، و يرون أن أمرهم حقّ، فوصفهم بالاستبصار على هذا، باعتبار ما عند أنفسهم وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ قال الكسائى: إن شئت كان محمولا على «عادا» و كان فيه ما فيه، و إن شئت كان على «فصدّهم عن السبيل» أى: و صدّ قارون، و فرعون، و هامان. و قيل التقدير: و أهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ عن عبادة اللّه وَ ما كانُوا سابِقِينَ أى: فائتين، يقال سبق طالبه: إذا فاته: و قيل: و ما كانوا سابقين فى الكفر، بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة، فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ أى: عاقبناه بكفره، و تكذيبه. قال الكسائى: فَكُلًّا أَخَذْنا أى: فأخذنا كلا بذنبه فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً أى: ريحا تأتى بالحصباء، و هى الحصى الصغار فترجمهم بها، و هم قوم لوط وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ و هم: ثمود، و أهل مدين وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ و هو قارون و أصحابه وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا و هم قوم نوح و قوم فرعون وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ بما فعل بهم، لأنه قد أرسل إليهم رسله، و أنزل عليهم كتبه وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ باستمرارهم على الكفر و تكذيبهم للرسل و عملهم بمعاصى اللّه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ قال: مجلسكم. و أخرج الفريابى، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ابن عساكر عن أمّ هانئ بنت أبى طالب قالت: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قول اللّه سبحانه وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ قال: «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السّبيل، و يسخرون منهم».

قال الترمذى بعد إخراجه و تحسينه: و لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن سماك. و أخرج ابن مردويه، عن جابر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم نهى عن الحذف، و هو قول اللّه سبحانه وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال: هو الحذف. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عائشة فى الآية قالت:

الضّراط. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى

فتح القدير، ج‌4، ص: 235

قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال: الصيحة، و فى قوله: وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ قال: فى الضلالة.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً قال: قوم لوط وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ قال: ثمود وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ قال: قارون وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا قال: قوم نوح.

[سورة العنكبوت (29): الآيات 41 الى 46]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45)

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

قوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ يوالونهم، و يتكلون عليهم فى حاجاتهم من دون اللّه؛ سواء كانوا من الجماد، أو الحيوان، و من الأحياء؛ أو من الأموات كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً فإن بيتها لا يغنى عنها شيئا لا فى حرّ، و لا قرّ، و لا مطر، كذلك ما اتخذوه وليا من دون اللّه، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع و لا تضرّه، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّا، و لا بردا. قال: و لا يحسن الوقف على العنكبوت، لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شىء، شبهت الآلهة التى لا تنفع و لا تضرّ به، و قد جوّز الوقف على العنكبوت الأخفش، و غلطه ابن الأنبارى قال: لأن: اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال: كمثل العنكبوت التى اتخذت بيتا، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول، و العنكبوت تقع على الواحد، و الجمع، و المذكر، و المؤنث، و تجمع على عناكب و عنكبوتات، و هى الدّويبة الصغيرة التى تنسج نسجا رقيقا. و قد يقال لها: عكنباة، و منه قول الشاعر:

كأنّما يسقط من لغامهابيت عكنباة على زمامها

وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لا بيت أضعف منه، مما يتخذه الهوامّ بيتا، و لا يدانيه فى الوهى، و الوهى شىء من ذلك لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أن اتخاذهم الأولياء من دون اللّه كاتخاذ العنكبوت بيتا، أو لو كانوا يعلمون شيئا من العلم لعلموا بهذا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ما: استفهامية، أو نافية: أو موصولة، و من: للتبعيض؛ أو مزيدة للتوكيد. و قيل: إن هذه الجملة على إضمار القول، أى:

قل للكافرين إن اللّه يعلم أىّ شىء يدعون من دونه. و جزم أبو على الفارسى بأنها استفهامية، و على تقدير النفى كأنه قيل: إن اللّه يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شىء، يعنى: ما تدعونه ليس بشىء، و على تقدير

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۲۳۶

الموصولة: إن اللّه يعلم الذين تدعونهم من دونه، و يجوز أن تكون ما: مصدرية، و من شىء: عبارة عن المصدر. قرأ عاصم، و أبو عمرو، و يعقوب «يدعون» بالتحتية. و اختار هذه القراءة أبو عبيد لذكر الأمم قبل هذه الآية. و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام، و الإتقان وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ أى: هذا المثل و غيره من الأمثال التى فى القرآن، نضربها للناس تنبيها لهم، و تقريبا لما بعد من أفهامهم وَ ما يَعْقِلُها أى: يفهمها و يتعقل الأمر الذى ضربناها لأجله إِلَّا الْعالِمُونَ باللّه الراسخون فى العلم، المتدبرون، المتفكرون لما يتلى عليهم، و ما يشاهدونه خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: بالعدل، و القسط مراعيا فى خلقها مصالح عباده. و قيل:

المراد بالحق: كلامه و قدرته، و محل بالحق: النصب على الحال إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ أى: لدلالة عظيمة، و علامة ظاهرة على قدرته، و تفرّده بالإلهية، و خص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ أى: القرآن، و فيه الأمر بالتلاوة للقرآن، و المحافظة على قراءته مع التدبر لآياته، و التفكر فى معانيه وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ أى: دم على إقامتها، و استمرّ على أدائها كما أمرت بذلك، و جملة «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر» تعليل لما قبلها، و الفحشاء: ما قبح من العمل، و المنكر: ما لا يعرف فى الشريعة، أى: تمنعه عن معاصى اللّه و تبعده منها، و معنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سببا للانتهاء، و المراد هنا: الصلوات المفروضة وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ أى: أكبر من كل شىء، أى: أفضل من العبادات كلها بغير ذكر. قال ابن عطية: و عندى أن المعنى: و لذكر اللّه أكبر على الإطلاق، أى: هو الذى ينهى عن الفحشاء و المنكر، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك، و كذلك يفعل ما لم يكن منه فى الصلاة، لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر للّه، مراقب له. و قيل: ذكر اللّه أكبر من الصلاة، فى النهى عن الفحشاء، و المنكر، مع المداومة عليه. قال الفراء و ابن قتيبة: المراد بالذكر فى الآية:

التسبيح و التهليل، يقول: هو أكبر، و أحرى بأن ينهى عن الفحشاء و المنكر. و قيل: المراد بالذكر هنا الصلاة، أى: و للصلاة أكبر من سائر الطاعات، و عبر عنها بالذكر كما فى قوله: فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ «۱» للدلالة على أن ما فيها من الذكر: هو العمدة فى تفضيلها على سائر الطاعات، و قيل المعنى: و لذكر اللّه لكم بالثواب، و الثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له فى عبادتكم و صلواتكم، و اختار هذا ابن جرير، و يؤيده حديث «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، و من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم» وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ لا- تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بالخير: خيرا، و بالشرّ: شرّا وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: إلا- بالخصلة التى هى أحسن، و ذلك على سبيل الدعاء لهم إلى اللّه عزّ و جلّ، و التنبيه لهم على حججه و براهينه؛ رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا- على طريق الإغلاظ و المخاشنة إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بأن أفرطوا فى المجادلة، و لم يتأدّبوا مع المسلمين، فلا بأس بالإغلاظ عليهم، و التخشين فى مجادلتهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين؛ بأن المراد بأهل الكتاب: اليهود، و النصارى. و قيل معنى الآية: لا تجادلوا

---

(۱). الجمعة: ۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۷

من آمن بمحمّد من أهل الكتاب؛ كعبد اللّه بن سلام، و سائر من آمن منهم إلا بالتى هى أحسن، يعنى:

بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أهل الكتاب، و يكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول: هم الباقون على كفرهم. و قيل: هذه الآية منسوخة بآيات القتال، و بذلك قال قتادة، و مقاتل. قال النحاس: من قال منسوخة احتج بأن الآية مكية، و لم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض، و لا طلب جزية، و لا غير ذلك.

قال سعيد بن جبير و مجاهد: إن المراد بالذين ظلموا منهم: الذين نصبوا القتال للمسلمين، فجدالهم بالسيف حتى يسلموا؛ أو يعطوا الجزية وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا من القرآن وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ من التوراة، و الإنجيل، أى: آمنا بأنهما منزلان من عند اللّه، و أنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، و البعثة المحمّدية، و لا يدخل فى ذلك ما حرّفوه و بدّلوه وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ لا شريك له، و لا ضدّ، و لا ندّ، وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أى: و نحن معاشر أمة محمّد مطيعون له خاصة، لم نقل: عزير ابن اللّه، و لا اتخذنا أحبارنا و رهباننا أربابا من دون اللّه، و يحتمل أن يراد: و نحن جميعا منقادون له، و لا يقدح فى هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتمّ من انقياد أهل الكتاب، و طاعتهم أبلغ من طاعاتهم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ الآية قال:

ذاک مثل ضربه اللّه لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت. و أخرج أبو داود فى مراسيله عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «العنكبوت شيطان مسخها اللّه فمن وجدها فليقتلها». و أخرج ابن أبى حاتم عن مزيد بن ميسرة قال: العنكبوت شيطان. و أخرج الخطيب عن علىّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«دخلت أنا و أبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهنّ» و روى القرطبى فى تفسيره عن على أيضا أنه قال: طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإنّ تركه فى البيت يورث الفقر. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى قال: نسجت العنكبوت مرتين، مرة على داود، و الثانية على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ قال: فى الصلاة منتهى و مزدجر عن المعاصى. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عمران بن حصين قال: سئل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم عن قول اللّه إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ فقال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر فلا صلاة له». و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و البيهقى فى الشعب عن الحسن قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر فلا صلاة له» و فى لفظ «لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا». و أخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا نحوه. قال السيوطى: و سنده ضعيف. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى فى الشعب عنه نحوه موقوفا. قال ابن كثير فى تفسيره: و الأصح فى هذا كله: الموقوفات عن ابن مسعود، و ابن عباس، و الحسن، و قتادة، و الأعمش، و غيرهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۸

عن ابن عباس فى قوله: وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ يقول: و لذكر اللّه لعباده إذا ذكروه؛ أكبر من ذكرهم إيّاه.

و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن ربيعة قال: سألنى ابن عباس عن قول اللّه وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ فقلت: ذكر اللّه بالتسبيح، و التهليل، و التكبير قال: لذكر اللّه إياكم أكبر من ذكركم إياه، ثم قال: اذكرونى؛ أذكركم.

و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير عن ابن مسعود وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ قال: ذكر اللّه العبد أكبر من ذكر العبد للّه. و أخرج ابن السنى، و ابن مردويه، و الديلمى عن ابن عمر نحوه.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: لها وجهان: ذكر اللّه أكبر مما سواه، و فى لفظ: ذكر اللّه عند ما حرّمه، و ذكر اللّه إياكم أعظم من ذكركم إياه. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن المنذر عن معاذ بن جبل قال: ما عمل آدميّ عملا أنجى له من عذاب اللّه من ذكر اللّه، قالوا: و لا الجهاد فى سبيل اللّه؟ قال: و لا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع، لأن اللّه يقول فى كتابه العزيز وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.

و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى الشعب عن عنترة قال: قلت لابن عباس: أيّ العمل أفضل؟ قال: ذكر اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: بلا إله إلا اللّه. و أخرج البخارى، و النسائى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تصدّقوا أهل الكتاب و لا تكذّبوهم وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . و أخرج البيهقى فى الشعب، و الديلمى، و أبو نصر السجزى فى الإبانة، عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنّهم لن يهدوكم و قد ضلّوا، إما أن تصدّقوا بباطل، أو تكذّبوا بحقّ، و اللّه لو كان موسى حيّا بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتّبعنى». و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن ابن مسعود قال: «لا تسألوا أهل الكتاب» و ذكر نحو حديث جابر، ثم قال: «فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب اللّه فخذوه، و ما خالف كتاب اللّه فدعوه».

[سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۷ الى ۵۵]

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ (۴۷) وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ (۴۹) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ

يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۵۲) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۵۳) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (۵۴) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۳۹

قوله: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الإشارة إلى مصدر الفعل؛ كما بيناه فى مواضع كثيرة، أى: و مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب، و هو القرآن، و قيل المعنى: كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ يعنى: مؤمنى أهل الكتاب؛ كعبد اللّه بن سلام، و خصهم بإيتائهم الكتاب؛ لكونهم العاملين به، و كأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه، و جحدهم لصفات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المذكورة فيه وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ الإشارة إلى أهل مكة، و المراد أن منهم؛ و هو من قد أسلم. من يؤمن به، أى: بالقرآن، و قيل: الإشارة إلى جميع العرب وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا أى: آيات القرآن إِلَّا الْكافِرُونَ المصممون على كفرهم من المشركين؛ و أهل الكتاب وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ الضمير فى قبله راجع إلى القرآن؛ لأنه المراد بقوله: أنزلنا إليك الكتاب؛ أى: ما كنت يا محمّد تقرأ قبل القرآن كتابا، و لا تقدر على ذلك؛ لأنك أمّى؛ لا تقرأ، و لا تكتب وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ أى: و لا تكتبه لأنك لا تقدر على الكتابة. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمّد صلّى اللّه عليه و سلم لا يخط، و لا يقرأ، فنزلت هذه الآية. قال النحاس: و ذلك دليل على نبوّته لأنه لا يكتب، و لا يخالط أهل الكتاب، و لم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء و الأمم إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ أى: لو كنت ممن يقدر على التلاوة و الخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب اللّه السابقة، أو من الكتب المدوّنة فى أخبار الأمم، فلما كنت أميا لا تقرأ، و لا تكتب؛ لم يكن هناك موضع للريبة، و لا محل للشك أبدا، بل إنكار من أنكر، و كفر من كفر؛ مجرّد عناد، و جحود بلا شبهة، و سماهم مبطلين لأن ارتيابهم على تقدير أنه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ و يكتب ظلم منهم لظهور نزاهته، و وضوح معجزاته بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ يعنى: القرآن فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يعنى: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده صلّى اللّه عليه و سلم، و حفظوا بعده، و قال قتادة و مقاتل: إن الضمير يرجع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، أى: بل محمّد آيات بينات، أى: ذو آيات. و قرأ ابن مسعود «بل هى آيات بينات» قال الفراء: معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بينات ... و اختار ابن جرير ما قاله قتادة و مقاتل، و قد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميقع «بل هذا آيات بيّنات» و لا دليل فى هذه القراءة على ذلك، لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القراءة كما جاز أن تكون إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، و التقدير. وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ أى: المجاوزون للحدّ فى الظلم وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ أى: قال المشركون هذا القول، و المعنى: هلا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء، و ذلك كآيات موسى، و ناقة صالح، و إحياء المسيح للموتى، ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم فقال: قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ينزلها على من يشاء من عباده، و لا قدرة لأحد على ذلك وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أنذركم كما أمرت، و أبين لكم كما

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۰

ينبغى، ليس فى قدرتى غير ذلك. قرأ ابن كثير، و أبو بكر، و حمزة، و الكسائى «لو لا أنزل عليه آية» بالإفراد. و قرأ الباقون بالجمع، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله «قل إنما الآيات» أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ هذه الجملة مستأنفة للردّ على اقتراحهم، و بيان بطلانه، أى: أو لم يكف المشركين من الآيات التى اقترحوها؛ هذا الكتاب المعجز الذى قد

تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله؛ أو بسورة منه؛ فعجزوا، و لو أتيتهم بآيات موسى، و آيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذى يتلى عليهم فى كلّ زمان، و مكان إِنَّ فِي ذلِكَ الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما ذكر لَرَحْمَةً عظيمة فى الدنيا، و الآخرة وَ ذِكْرى فى الدنيا يتذكرون بها، و ترشدهم إلى الحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى: لقوم يصدّقون بما جئت به من عند اللّه فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً أى: قل للمكذبين: كفى اللّه شهيدا بما وقع بينى و بينكم يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تخفى عليه من ذلك خافية، و من جملته ما صدر بينكم و بين رسوله وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أى: آمنوا بما يعبدونه من دون اللّه، و كفروا بالحق، و هو اللّه سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا، و الآخرة وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ استهزاء و تكذيبا منهم بذلك كقولهم: فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «۱» وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى قد جعله اللّه لعذابهم، و عينه، و هو القيامة، و قال الضحاك: الأجل: مدّة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب لَجاءَهُمُ الْعَذابُ أى: لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذى يستحقونه بذنوبهم. و قيل: المراد بالأجل المسمى: النفخة الأولى، و قيل: الوقت الذى قدّره اللّه لعذابهم فى الدنيا، بالقتل، و الأسر يوم بدر. و الحاصل أن لكل عذاب أجلا، لا يتقدّم عليه، و لا يتأخر عنه كما فى قوله سبحانه: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ «۲» و جملة وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً مستأنفة مبينة لمجىء العذاب المذكور قبلها، و معنى بغتة: فجأة، و جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم لا يعلمون بإتيانه، ثم ذكر سبحانه أن موعد عذابهم النار، فقال:

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أى: يطلبون منك تعجيل عذابهم، و الحال أن مكان العذاب محيط بهم، أى: سيحيط بهم عن قرب، فإن ما هو آت قريب، و المراد بالكافرين: جنسهم، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولا أوّليا، فقوله:

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ إخبار عنهم، و قوله ثانيا:

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ تعجب منهم، و قيل: التكرير للتأكيد. ثم ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم، فقال: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ أى: من جميع جهاتهم، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة، فقد أحاطت بهم جهنم وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ القائل: هو اللّه سبحانه؛ أو بعض ملائكته بأمره، أى: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر و المعاصى. قرأ أهل المدينة و الكوفة

---

(۱). الأنفال: ۳۲.

(۲). الأنعام: ۶۷.

«نقول» بالنون. و قرأ الباقون بالتحتية «۱»، و اختار القراءة الأخيرة أبو عبيد لقوله: قُلْ كَفى بِاللَّهِ و قرأ ابن مسعود و ابن أبى عبلة «و يقال ذوقوا».

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الإسماعيلى فى معجمه عن ابن عباس فى قوله:

وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ قال: لم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ و لا يكتب، كان أميا، و فى قوله: بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قال: كان اللّه أنزل شأن محمّد فى التوراة و الإنجيل لأهل العلم، و علمه لهم، و جعله لهم آية فقال لهم: إن آية نبوّته أن يخرج حين يخرج؛ و لا يعلم كتابا، و لا يخطه بيمينه، و هى الآيات البينات التى قال اللّه تعالى. و أخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ الآية قال: لم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ، و لا يكتب.

و أخرج الفريابى، و الدارمى، و أبو داود فى مراسيله، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن يحيى ابن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم «كفى بقوم حمقا أو ضلالة، أن يرغبوا عمّا جاء به نبيّهم إليهم، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ الآية. و أخرج الإسماعيلى فى معجمه، و ابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبى هريرة فذكره بمعناه. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و البيهقى فى الشعب، عن الزهرى، أن حفصة جاءت إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بكتاب من قصص يوسف فى كتف، فجعلت تقرؤه و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يتلوّن وجهه فقال: «و الذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف و أنا نبيّكم فاتّبعتموه و تركتمونى لضللتم». و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن الضريس، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى الشعب عن عبد اللّه بن الحارث الأنصارى قال: دخل عمر ابن الخطاب على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب، أعرضها عليك، فتغيّر وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم تغيّرا شديدا لم أر مثله قط، فقال عبد اللّه بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم؟ فقال عمر: رضينا باللّه ربّا و بالإسلام دينا و بمحمّد نبيّا، فسرّى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و قال: «لو نزل موسى فاتّبعتموه و تركتمونى لضللتم، أنا حظّكم من النبيّين و أنتم حظى من الأمم». و أخرج نحوه عبد الرزاق و البيهقى من طريق أبى قلابة عن عمر. و أخرج البيهقى و صححه عن عمر ابن الخطاب قال سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن تعلّم التوراة فقال: «لا تتعلمها و آمن بها، و تعلّموا ما أنزل إليكم و آمنوا به». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ قال:

جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه، و تكون فيه الشمس و القمر، ثم يستوقد، فيكون هو جهنم، و فى هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التى ورد بها الكتاب و السنة.

---

(۱). جاء فى كتاب السبعة فى القراءات: قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر «و نقول» بالنون و قرأ نافع و عاصم و حمزة و الكسائى «و يقول».

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۲

[سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۵۶ الى ۶۹]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۵۸) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۵۹) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۰)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۶۱) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۶۳) وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (۶۵)

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۶۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۶۸) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (۶۹)

لما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب، و من المشركين، و جمعهم فى الإنذار، و جعلهم من أهل النار اشتدّ عنادهم، و زاد فسادهم، و سعوا فى إيذاء المسلمين بكل وجه، فقال اللّه سبحانه يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفا و تكريما، و الذين آمنوا صفة موضحة أو مميزة إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ إن كنتم فى ضيق بمكة من إظهار الإيمان، و فى مكايدة للكفار، فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتى وحدى، و تتسهل عليكم. قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذى لا يمكنهم فيه عبادة اللّه، و كذلك يجب على من كان فى بلد يعمل فيها بالمعاصى، و لا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد اللّه حق عبادته. و قال مطرف بن الشخير: المعنى إن رحمتى واسعة، و رزقى لكم واسع، فابتغوه فى الأرض.

و قيل المعنى: إن أرضى التى هى أرض الجنة واسعة، فاعبدون حتى أورثكموها. و انتصاب إياى بفعل مضمر، أى: فاعبدوا إياى. ثم خوّفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة فقال: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ أى: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، و مفارقة الإخوان، و الخلان، ثم إلى اللّه المرجع بالموت، و البعث، لا إلى غيره، فكل حىّ فى سفر إلى دار القرار، و إن طال لبثه فى هذه الدار وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً فى هذا الترغيب إلى الهجرة، و أن جزاء من هاجر، أن يكون فى غرف الجنة، و معنى «لنبوّئنهم» لننزلنهم غرف الجنة، و هى علاليها، فانتصاب غرفا على أنه المفعول الثانى؛ على تضمين نبوئنهم معنى: ننزلنهم، أو على الظرفية مع عدم التضمين، لأن نبوئنهم لا يتعدّى إلا إلى مفعول واحد، و إما منصوب بنزع الخافض اتساعا، أى:

فى غرف الجنة، و هو مأخوذ من المباءة: و هى الإنزال. قرأ أبو عمرو، و يعقوب، و الجحدرى، و ابن أبى

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۳

إسحاق، و ابن محيصن، و الأعمش، و حمزة، و الكسائى، و خلف «يا عبادى» بإسكان الياء و فتحها الباقون. و قرأ ابن عامر «إن أرضى» بفتح الياء، و سكنها الباقون. و قرأ السلمى و أبو بكر عن عاصم «يرجعون» بالتحتية و قرأ الباقون بالفوقية. و قرأ ابن مسعود، و الأعمش، و يحيى بن وثاب و حمزة، و الكسائى: «لنثوينهم» بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة، و قرأ الباقون بالباء الموحدة، و معنى لنثوينهم بالمثلثة: لنعطينهم غرفا يثوون فيها، من الثوى: و هو الإقامة. قال الزجاج: يقال ثوى الرجل: إذا أقام، و أثويته: إذا أنزلته منزلا يقيم فيه. قال الأخفش: لا تعجبنى هذه القراءات لأنك لا تقول أثويته الدار، بل تقول فى الدار، و ليس فى الآية حرف جرّ فى المفعول الثانى. قال أبو على الفارسى:

هو على إرادة حرف الجرّ، ثم حذف كما تقول أمرتك الخير، أى: بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى: من تحت الغرف خالِدِينَ فِيها أى: فى الغرف لا يموتون أبدا، أو فى الجنة، و الأوّل: أولى نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ المخصوص بالمدح محذوف، أى: فى الغرف لا يموتون أبدا، أو فى الجنة، و الأوّل: أولى نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ المخصوب المدح محذوف، أى: نعم أجر العاملين أجرهم، و المعنى: العاملين للأعمال الصالحة. ثم وصف هؤلاء العاملين فقال: الَّذِينَ صَبَرُوا على مشاق التكليف و على أذية المشركين لهم، و يجوز أن يكون منصوبا على المدح وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أى:

يفوّضون أمورهم إليه فى كلّ إقدام و إحجام. ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر و التوكل، و هو النظر فى حال الدوابّ فقال: وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ قد تقدّم الكلام فى كأين، و أن أصلها: أى دخلت عليها كاف التشبيه و صار فيها معنى كم كما صرح به الخليل و سيبويه، و تقديرها عندهما كشىء كثير من العدد من دابة. و قيل المعنى: و كم من دابة. و معنى «لا تحمل رزقها» لا تطيق حمل رزقها لضعفها و لا تدّخره، و إنما يرزقها اللّه من فضله، و يرزقكم، فكيف لا يتوكلون على اللّه مع قوّتهم و قدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على اللّه مع ضعفها و عجزها. قال الحسن: تأكل لوقتها، لا تدّخر شيئا. قال مجاهد: يعنى الطير و البهائم تأكل بأفواهها و لا تحمل شيئا وَ هُوَ السَّمِيعُ الذى يسمع كلّ مسموع الْعَلِيمُ بكل معلوم. ثم إنه

سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة و غيرهم و عجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم و رازقهم و لا يوحدونه و يتركون عبادة غيره فقال: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ أى: خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك، و لا يتمكنون من جحوده فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرّده بالإلهية، و أنه وحده لا شريك له، و الاستفهام: للإنكار و الاستبعاد. و لما قال المشركون لبعض المؤمنين: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ أى: التوسع فى الرزق، و التقدير له هو من اللّه الباسط القابض يبسطه لمن يشاء، و يضيقه على من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، و ما يليق بحال عباده من القبض و البسط، و لهذا قال: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما فيه صلاح عباده، و فسادهم وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَ أى: نزّله و أحيا به الأرض اللّه، يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلا. ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف فى هذه الآيات،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۴

و هو يقتضى بطلان ما هم عليه من الشرك، و عدم إفراد اللّه سبحانه بالعبادة، أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يحمد اللّه على إقرارهم، و عدم جحودهم مع تصلبهم فى العناد، و تشدّدهم فى ردّ كلّ ما جاء به رسول اللّه من التوحيد فقال: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ أى: احمد اللّه على أن جعل الحقّ معك، و أظهر حجتك عليهم، ثم ذمهم فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ الأشياء التى يتعقلها العقلاء. فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هى عليه عند كلّ عاقل. ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا و أنها من جنس اللعب و اللهو، و أن الدار على الحقيقة: هى دار الآخرة فقال: وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ من جنس ما يلهو به الصبيان و يلعبون به وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ قال ابن قتيبة، و أبو عبيدة:

إن الحيوان: الحياة. قال الواحدى: و هو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أن معنى الحيوان هاهنا: الحياة، و أنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان و الغليان و يكون التقدير: و إن الدار الآخرة لهى دار الحيوان، أو ذات الحيوان، أى: دار الحياة الباقية التى لا تزول، و لا ينغصها موت، و لا مرض، و لا همّ، و لا غمّ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ شيئا من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة. ثم بين سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرّد تأثير الحياة فقال: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى: إذا انقطع رجاؤهم من الحياة، و خافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا اللّه وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم، و تركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدّة العظيمة النازلة بهم غير اللّه سبحانه: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ أى: فاجؤوا المعاودة إلى الشرك، و دعوا غير اللّه سبحانه.

و الركوب: هو الاستعلاء، و هو متعدّ بنفسه، و إنما عدّى بكلمة: فى للإشعار بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة، و اللام فى لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ و فى قوله: وَ لِيَتَمَتَّعُوا للتعليل؛ أى: فاجؤوا الشرك باللّه ليكفروا بنعمة اللّه، و ليتمتعوا بهما فهما فى الفعلين لام كى، و قيل: هما لاما الأمر تهديدا و وعيدا، أى:

اكفروا بما أعطيناكم من النعمة و تمتعوا، و يدلّ على هذه القراءة قراءة أبىّ «و تمتعوا» و هذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة أبى عمرو، و ابن عامر و عاصم، و ورش بكسر اللام، و أما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، و فى قوله: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ تهديد عظيم لهم أى: فسيعلمون عاقبة ذلك، و ما فيه من الوبال عليهم أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً أى: ألم ينظروا، يعنى: كفار قريش أنا جعلنا حرمهم هذا حرما آمنا يأمن فيه ساكنه من الغارة، و القتل، و السبى، و النهب فصاروا فى سلامة، و عافية مما صار فيه غيرهم من العرب، فإنهم فى كلّ حين تطرقهم الغارات، و تجتاح أموالهم الغزاة، و تسفك دماءهم الجنود، و تستبيح حرمهم، و أموالهم شطار العرب، و شياطينها، و جملة وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ فى محل نصب على الحال، أى: يختلسون من حولهم بالقتل، و السبى، و النهب، و الخطف: الأخذ بسرعة، و قد مضى تحقيق معناه فى سورة القصص أَ

فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ و هو الشرک بعد ظهور حجة اللّه عليهم و إقرارهم بما يوجب التوحيد وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ يجعلون كفرها مكان شكرها، و فى هذا الاستفهام من التقريع، و التوبيخ ما لا يقادر قدره وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى: لا أحد أظلم منه،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۵

و هو من زعم أن للّه شريكا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أى: كذّب بالرسول الذى أرسل إليه، و الكتاب الذى أنزله على رسوله. و قال السدّى: كذّب بالتوحيد، و الظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق. ثم هدّد المكذبين و توعدهم فقال: أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ أى: مكان يستقرّون فيه، و الاستفهام للتقرير، و المعنى: أليس يستحقون الاستقرار فيها و قد فعلوا ما فعلوا؟ ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم اللّه أردفه بحال عباده الصالحين، فقال: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا أى: جاهدوا فى شأن اللّه لطلب مرضاته، و رجاء ما عنده من الخير لنهدينهم سبلنا، أى: الطريق الموصل إلينا. قال ابن عطية: هى مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفى «۱»، و إنما هو جهاد عامّ فى دين اللّه و طلب مرضاته، و قيل: الآية هذه نزلت فى العباد. و قال إبراهيم بن أدهم: هى فى الذين يعملون بما يعلمون وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ بالنصر و العون، و من كان معه لم يخذل، و دخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسما، أو على أنها حرف، و دخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول: إن زيدا لفى الدار، و البحث مقرّر فى علم النحو.

و قد أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لمّا نزلت هذه الآية إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ «۲»؛ قلت: يا ربّ أ يموت الخلائق كلّهم و يبقى الأنبياء؟ فنزلت كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ . و ينظر كيف صحة هذا، فإن النبى صلّى اللّه عليه و سلم بعد أن يسمع قول اللّه سبحانه إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ يعلم أنه ميت، و قد علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا، و أنه خاتم الأنبياء، فكيف ينشأ عن هذه الآية ما رواه عنه علىّ رضى اللّه عنه من قوله: «أ يموت الخلائق و يبقى الأنبياء» فلعلّ هذه الرواية لا تصح مرفوعة، و لا موقوفة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى، و ابن عساكر، قال السيوطى بسند ضعيف عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتّى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط التّمر و يأكل، فقال لى: مالك لا تأكل؟ قلت: لا أشتهيه يا رسول اللّه، قال: لكنّى أشتهيه و هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما و لم أجده، و لو شئت لدعوت ربّى فأعطانى مثل ملك كسرى و قيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم و يضعف اليقين.

قال: فو اللّه ما برحنا و لا رمنا حتى نزلت وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: إنّ اللّه لم يأمرنى بكنز الدّنيا و لا باتّباع الشّهوات، ألا و إنّى لا أكنز دينارا و لا درهما، و لا أخبأ رزقا لغد». و هذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلک فى كتب الحديث المعتبرة. و فى إسناده أبو العطوف الجوزى، و هو ضعيف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ قال: باقية. و أخرج ابن أبى الدنيا، و البيهقى فى الشعب عن أبى جعفر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يا عجبا كلّ العجب للمصدّق بدار الحيوان، و هو يسعى لدار الغرور» و هو مرسل.

---

(۱). قتال الأعداء.

(۲). الزمر: ۳۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۶

سورة الرّوم

اشارة

قال القرطبى كلها مكية بلا خلاف و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة الروم بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج عبد الرزاق و أحمد. قال السيوطى بسند حسن عن رجل من الصحابة: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صلّى بهم الصبح، فقرأ فيها سورة الروم. و أخرج البزار عن الأغرّ المدنى مثله. و أخرج عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قرأ فى الفجر يوم الجمعة بسورة الروم. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و أحمد، و ابن قانع من طريق عبد الملك بن عمير مثل حديث الرجل الذى من الصحابة، و زاد: يتردّد فيها، فلما انصرف قال: «إنما يلبس علينا فى صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة فليحسن الطهور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١ الى ١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (٧) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (٨) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠)

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة فى فاتحة سورة البقرة، و تقدّم الكلام على محلها من الإعراب، و محل أمثالها فى غير موضع من فواتح السور، قرأ الجمهور غُلِبَتِ الرُّومُ بضم الغين المعجمة و كسر اللام مبنيا للمفعول، و قرأ علىّ بن أبى طالب، و أبو سعيد الخدرى، و معاوية بن قرّة و ابن عمر، و أهل الشام بفتح الغين و اللام مبنيا للفاعل. قال النحاس: قراءة أكثر الناس غُلِبَتِ بضم الغين و كسر اللام. قال أهل التفسير:

غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة و قالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب، و افتخروا على المسلمين و قالوا: نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم، و كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب. و معنى فِي أَدْنَى الْأَرْضِ فى أقرب أرضهم من أرض العرب، أو فى أقرب

فتح القدير، ج۴، ص: ٢۴٧

أرض العرب منهم، قيل: هى أرض الجزيرة، و قيل: أذرعات، و قيل: كسكر، و قيل: الأردن، و قيل:

فلسطين، و هذه المواضع هى أقرب إلى بلاد العرب من غيرها، و إنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهود فى ألسنتهم

إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب، و قيل إن الألف و اللام عوض عن المضاف إليه، و التقدير: فى أدنى أرضهم، فيعود الضمير إلى الروم، و يكون المعنى: فى أقرب أرض الروم من العرب.

قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعات، فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، و إن كانت الوقعة بالجزيرة، فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، و إن كانت بالأردن، فهى أدنى إلى أرض الروم وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ أى: و الروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون أهل فارس، و التغلب و الغلبة لغتان، و المصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور، و إلى الفاعل على قراءة غيرهم. قرأ الجمهور «سيغلبون» مبنيا للفاعل و قرأ على، و أبو سعيد، و معاوية بن قرّة، و ابن عمر، و أهل الشام على البناء للمفعول، و سيأتى فى آخر البحث ما يقوّى قراءة الجمهور فى الموضعين. و قرأ أبو حيوة الشامى و ابن السميقع «من بعد غلبهم» بسكون اللام فِي بِضْعِ سِنِينَ متعلق بما قبله، و قد تقدّم تفسير البضع و اشتقاقه فى سورة يوسف، و المراد به هنا:

ما بين الثلاثة إلى العشرة لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ أى: هو المنفرد بالقدرة، و إنفاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم، و وقت غالبيتهم، فكلّ ذلك بأمر اللّه سبحانه و قضائه، قرأ الجمهور «من قبل و من بعد» بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة، و التقدير: من قبل الغلب و من بعده، أو من قبل كلّ أمر، و من بعده.

و حكى الكسائى من قبل و من بعد بكسر الأوّل منوّنا و ضم الثانى بلا تنوين. و حكى الفراء من قبل و من بعد بكسرهما من غير تنوين، و غلطه النحاس. قال شهاب الدين: قد قرئ بكسرهما منوّنين. قال الزجاج:

و معنى الآية: من متقدّم و من متأخر وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ أى: يوم أن تغلب الروم على فارس فى بضع سنين؛ يفرح المؤمنون بنصر اللّه للروم لكونهم: أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب، بخلاف فارس؛ فإنه لا كتاب لهم، و لهذا سرّ المشركون بنصرهم على الروم، و قيل: نصر اللّه هو إظهار صدق المؤمنين، فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس، و الأوّل أولى. قال الزجاج: و هذه الآية من الآيات التى تدل على أن القرآن من عند اللّه لأنه إنباء بما سيكون، و هذا لا يعلمه إلا اللّه سبحانه يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ أن ينصره وَ هُوَ الْعَزِيزُ الغالب القاهر الرَّحِيمُ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين، و قيل:

المراد بالرحمة هنا: الدنيوية، و هى شاملة للمسلم و الكافر وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ أى: وعد اللّه وعدا لا يخلفه، و هو ظهور الروم على فارس وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أنّ اللّه لا يخلف وعده، و هم الكفار، و قيل: كفار مكة على الخصوص يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا أى: يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا و ملاذها، و أمر معاشهم، و أسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية، و قيل: هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع، و قيل: الظاهر الباطل وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ التى هى النعمة الدائمة، و اللذة الخالصة هُمْ غافِلُونَ لا يلتفتون إليها، و لا يعدون لها ما يحتاج إليه، أو غافلون عن الإيمان بها، و التصديق بمجيئها أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۴۸

الهمزة للإنكار عليهم و الواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره، و فى أنفسهم ظرف للتفكر، و ليس مفعولا للتفكر و المعنى: أن أسباب التفكر حاصلة لهم، و هى أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغى، لعلموا وحدانية اللّه، و صدق أنبيائه، و قيل: إنها مفعول للتفكر. و المعنى: أو لم يتفكروا فى خلق اللّه إياهم و لم يكونوا شيئا، و «ما» فى «ما خلق اللّه» نافية، أى: لم يخلقها إلا بالحق الثابت الذى يحق ثبوته أو هى اسم فى محل نصب على إسقاط الخافض، أى: بما خلق اللّه، و العامل: إما العلم الذى يؤدى إليه التفكّر و قال الزجاج فى الكلام حذف: أى فيعلموا، فجعل ما معمولة للفعل المقدّر لا للعلم المدلول عليه، و الباء فى إِلَّا بِالْحَقِ إما للسببية، أو هى و مجرورها: فى محل نصب على الحال، أى: ملتبسة بالحق. قال الفراء: معناه إلا للحق، أى:

للثواب و العقاب، و قيل: بالحق بالعدل، و قيل: بالحكمة، و قيل: بالحق، أى: أنه هو الحق و للحق خلقها وَ أَجَلٍ مُسَمًّى معطوف

على الحق، أى: و بأجل مسمى للسموات و الأرض و ما بينهما تنتهى إليه، و هو يوم القيامة، و فى هذا تنبيه على الفناء، و أن لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه. و قيل معنى: وَ أَجَلٍ مُسَمًّى أنه خلق ما خلق فى وقت سماه لخلق ذلك الشيء وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ أى: لكافرون بالبعث بعد الموت، و اللام هى المؤكدة، و المراد بهؤلاء الكفار على الإطلاق، أو كفار مكة أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، لعدم تفكرهم فى الآثار، و تأملهم لمواقع الاعتبار، و الفاء فى فَيَنْظُرُوا للعطف على يسيروا داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع و التوبيخ، و المعنى: أنهم قد ساروا و شاهدوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من طوائف الكفار الذين أهلكهم اللّه بسبب كفرهم باللّه، و جحودهم للحق، و تكذيبهم للرسل، و جملة كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً مبينة للكيفية التى كانوا عليها، و أنهم أقدر من كفار مكة، و من تابعهم على الأمور الدنيوية، و معنى وَ أَثارُوا الْأَرْضَ حرثوها و قلبوها للزراعة، و زاولوا أسباب ذلك، و لم يكن أهل مكة أهل حرث وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها أى:

عمروها عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء، لأن أولئك كانوا أطول منهم أعمارا، و أقوى أجساما، و أكثر تحصيلا لأسباب المعاش. فعمروا الأرض بالأبنية، و الزراعة، و الغرس وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى:

المعجزات، و قيل: بالأحكام الشرعية فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ بتعذيبهم على غير ذنب وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بالكفر، و التكذيب ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا أى: عملوا السيئات من الشرك و المعاصى السُّواى هى فعلى من السوء تأنيث الأسوأ، و هو: الأقبح، أى: كان عاقبتهم العقوبة التى هى أسوأ العقوبات، و قيل: هى اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، و يجوز أن تكون مصدرا كالبشرى، و الذكرى. وصفت به العقوبة مبالغة. قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو «عاقبة» بالرفع، على أنها اسم كان، و تذكير الفعل لكون تأنيثها مجازيا، و الخبر: السوأى، أى: الفعلة؛ أو الخصلة؛ أو العقوبة السّوأى، أو الخبر أَنْ كَذَّبُوا أى: كان آخر أمرهم التكذيب، و قرأ الباقون: «عاقبة» بالنصب على خبر كان، و الاسم السّوأى، أو أن كذبوا، و يكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساؤوا، و السوأى مصدر أساؤوا، أو صفة لمحذوف. و قال الكسائى: إن قوله: أَنْ كَذَّبُوا فى محل نصب على العلة، أى: لأن

فتح القدير، ج‏4، ص: 249

كذبوا بآيات اللّه التى أنزلها على رسله، أو بأن كذبوا، و من القائلين بأن السوأى جهنم: الفراء، و الزجاج، و ابن قتيبة، و أكثر المفسرين، و سميت سوأى: لكونها تسوء صاحبها. قال الزجاج: المعنى: ثم كان عاقبة الذين أشركوا النار بتكذيبهم آيات اللّه و استهزائهم، و جملة وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ عطف على كذبوا داخلة معه فى حكم العلية على أحد القولين، أو فى حكم الاسمية لكان، أو الخبرية لها على القول الآخر.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى و حسنه، و النسائى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الكبير، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: الم غُلِبَتِ الرُّومُ قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم كانوا أصحاب أوثان، و كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبى بكر، فذكره أبو بكر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أما إنّهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا و بينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا و كذا، و إن ظهرتم كان لكم كذا و كذا، فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: ألا جعلته- أراه قال- دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك، فذلك قوله: الم غُلِبَتِ الرُّومُ فغلبت، ثم غلبت بعد بقول اللّه لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. و أخرج أبو يعلى، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن البراء بن عازب نحوه. و زاد أنه لما مضى الأجل، و لم تغلب الروم فارسا، ساء النبيّ ما جعله أبو بكر من المدّة، و

كرهه و قال: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقا للّه، و لرسوله فقال: «تعرّض لهم و أعظم الخطئة و اجعله إلى بضع سنين»، فأتاهم أبو بكر فقال: هل لكم في العود فإن العود أحمد؟ قالوا نعم، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارسا، و ربطوا خيولهم بالمدائن، و بنوا روميئة، فقمر أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «(۱)»، فقال: «هذا السحت، تصدّق به». و أخرج الترمذى و صححه، و الدارقطنى فى الأفراد، و الطبرانى، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و البيهقى فى الشعب، عن نيار بن مكرم الأسلمى قال: لما نزلت الم غُلِبَتِ الرُّومُ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، و كان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم و إياهم أهل الكتاب، و فى ذلك يقول اللّه وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ و كانت قريش تحبّ ظهور فارس لأنهم؛ و إياهم ليسوا أهل كتاب، و لا إيمان ببعث، فلما أنزل اللّه هذه الآية؛ خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ فقال ناس من قريش لأبى بكر: ذلك بيننا و بينكم يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال بلى، و ذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر، و المشركون، و تواضعوا الرهان، و قالوا لأبى بكر: لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين؟ فسم بيننا و بينك وسطا ننتهى إليه، قال: فسموا بينهم ستّ سنين، فمضت

---

(۱). أى: ربح أبو بكر الرهان و أخذ ما راهن عليه، و جاء به إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۵۰

فتح القدير ج۴ ۲۹۹

الستّ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم، فعاب المسلمون على أبى بكر تسميته ستّ سنين لأن اللّه قال: فِي بِضْعِ سِنِينَ فأسلم عند ذلك ناس كثير.

و أخرج الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: لأبى بكر: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإنّ البضع ما بين ثلاث إلى تسع». و أخرج البخارى عنه فى تاريخه نحوه. و أخرج الفريابى، و الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن أبى سعيد قال:

لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين، فنزلت الم غُلِبَتِ الرُّومُ قرأها بالنصب:

يعنى للغين على البناء للفاعل إلى قوله: يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس، و هذه الرواية مفسرة لقراءة أبى سعيد و من معه، و أخرج الحاكم و صححه عن أبى الدرداء قال:

سيجىء أقوام يقرءون الم غُلِبَتِ الرُّومُ يعنى بفتح الغين، و إنما هى غلبت: يعنى بضمها، و فى الباب روايات و ما ذكرناه يغنى عما سواه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا يعنى: معايشهم متى يغرسون، و متى يزرعون، و متى يحصدون. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً قال: كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل.

[سورة الروم (۳۰): الآيات ۱۱ الى ۲۷]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (۱۳) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (۱۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (۱۵)

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (١۶) فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (٢٢) وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢۴) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢۵)

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (٢۶) وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

فتح القدير، ج۴، ص: ٢۵١

قوله اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أى: يخلقهم أولا، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء، كما كانوا ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إلى موقف الحساب، فيجازى المحسن بإحسانه، و المسيء بإساءته، و أفرد الضمير فى يعيده:

باعتبار لفظ الخلق، و جمعه فى ترجعون: باعتبار معناه. قرأ أبو بكر، و أبو عمرو «يرجعون» بالتحتية.

و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب، و الالتفات المؤذن بالمبالغة وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ قرأ الجمهور «يبلس» على البناء للفاعل. و قرأ السلمى على البناء للمفعول، يقال أبلس الرجل: إذا سكت، و انقطعت حجته. قال الفراء و الزجاج: المبلس: الساكت المنقطع فى حجته؛ الذى أيس أن يهتدى إليها، و منه قول العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرساقال نعم أعرفه و أبلسا «١»

و قال الكلبى: أى يئس المشركون من كلّ خير؛ حين عاينوا العذاب، و قد قدّمنا تفسير الإبلاس عند قوله: فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ «٢» وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ أى: لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من دون اللّه شفعاء يجيرونهم من عذاب اللّه وَ كانُوا فى ذلك الوقت بِشُرَكائِهِمْ أى: بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء اللّه كافِرِينَ أى: جاحدين لكونهم آلهة؛ لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون و لا يضرون، و قيل إن معنى الآية: كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتهم، و الأوّل أولى وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ أى: يتفرّق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله: اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ المراد بالتفرّق: أن كلّ طائفة تنفرد، فالمؤمنون يصيرون إلى الجنة، و الكافرون إلى النار، و ليس المراد:

تفرّق كلّ فرد منهم عن الآخر، و مثله قوله تعالى: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ «٣» و ذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبدا. ثم بين سبحانه كيفية تفرّقهم فقال: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ قال النحاس: سمعت الزجاج يقول معنى «أما» دع ما كنا فيه و خذ فى غيره، و كذا قال سيبويه: إن معناها مهما يكن من شيء فخذ فى غير ما كنا فيه، و الروضة: كل أرض ذات نبات، قال المفسرون: و المراد بها هاهنا: الجنة، و معنى يحبرون: يسرون، و الحبور و الحبرة: السرور، أى: فهم فى رياض الجنة ينعمون. قال أبو عبيد: الروضة: ما كان فى سفل، فإذا كان مرتفعا: فهو ترعة.

و قال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى مكان مرتفع، و منه قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبةخضراء جاد عليها مسبل هطل

و قيل: معنى «يحبرون» يكرمون. قال النحاس: حكى الكسائى حبرته: أى أكرمته و نعمته، و الأولى تفسير يحبرون: بالسرور كما

هو المعنى العربىّ، و نفس دخول الجنـة يسـتلزم الإكرام و النعيم، و فى السـرور زيادة على ذلک. و قيل: التحبير التحسـين فمعنى يحبرون: يحسن إليهم، و قيل: هو السماع الذى يسمعونه

---

(١). المكرس: الذى قد بعّرت فيه الإبل و بوّلت، فركب بعضه بعضا.

(٢). الأنعام: ۴۴.

(٣). الشورى: ٧.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢۵٢

فى الجنـة، و قيل: غير ذلک، و الوجه ما ذكرناه وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا باللّه وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كذّبوا ب لِقاءِ الْآخِرَةِ أى: البعث، و الجنة، و النار، و الإشارة بقوله: فَأُولئِکَ إلى المتصـفين بهـذه الصـفات، و هو: مبتـدأ، و خبره: فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ أى: مقيمون فيه، و قيل: مجموعون، و قيل: نازلون، و قيل: معـذبون، و المعانى متقاربـة، و المراد: دوام عـذابهم. ثم لما بين عاقبـة طائفة المؤمنين، و طائفـة الكـافرين، أرشـد المؤمنين إلى مـا فيه الأجر الوافر، و الخير العام فقال: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: فإذا علمتم ذلک؛ فسبحوا اللّه، أى:

نزهوه عما لا يليق به فى وقت الصـباح، و المساء، و فى العشـى، و فى وقت الظهيرة. و قيل: المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس، فقوله «حين تمسون» صـلاة المغرب و العشاء، و قوله: «و حين تصـبحون» صـلاة الفجر، و قوله: «و عشـيا» صلاة العصر، و قوله: «و حين تظهرون» صلاة الظهر، كذا قال الضحاک، و سعيد بن جبير، و غيرهما، قال الواحدى قال المفسرون: إن معنى «فسبحان اللّه» فصلوا للّه. قال النحاس:

أهل التفسـير على أن هذه الآية فى الصـلوات قال: و سـمعت محمّد بن يزيد يقول: حقيقته عندى: فسـبحوا اللّه فى الصلوات، لأن التسبيـح يكون فى الصـلاة، و جملة وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، و الإيذان بمشـروعية الجمع بينه و بين التسبيح، كما فى قوله سبحانه:

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ* «١» و قوله: وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ «٢» و قيـل: معنى و له الحمـد: أى الاختصاص له بالصـلاة التى يقرأ فيها الحمد، و قرأ عكرمة «حينا تمسون و حينا تصـبحون» و المعنى: حينا تمسون فيه، و حينا تصبحون فيه، و العشىّ: من صلاة المغرب إلى العتمة. قال الجوهرى، و قال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، و منه قول الشاعر:

غدونا غدوة سحرا بليل‌عشيّا بعد ما انتصف النّهار

و قوله: عَشِيًّا معطوف على حين، و فى السـماوات متعلق بنفس الحمد؛ أى: الحمد به يكون فى السماوات و الأرض يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ كالإنسان من النطفـة، و الطير من البيضـة وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ كالنطفة، و البيضة من الحيوان. و قد سـبق بيان هذا فى سورة آل عمران. قيل: و وجه تعلق هذه الآية بالتى قبلها؛ أن الإنسان عند الصـباح يخرج من شـبه الموت، و هو النوم إلى شبه الوجود، و هو اليقظـة، و عنـد العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أى يحييها بالنبات بعد موتها باليباس، و هو شبيه بإخراج الحىّ من الميت وَ كَذلِکَ تُخْرَجُونَ أى: و مثل ذلک الإخراج تخرجون من قبوركم.

قرأ الجمهور «تخرجون» على البناء للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى على البناء للفاعل، فأسند الخروج إليهم كقوله: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ «٣» وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أى: من آيـاته البـاهرة الدالـة على البعث أن خلقكم، أى: خلق أباكم آدم من تراب، و خلقكم فى ضمن خلقه، لأن الفرع مستمد من

---

(١). الحجر: ٩٨.

(٢). البقرة: ٣٠.

(٣). المعارج: ٤٣.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٥٣

الأصل و مأخوذ منه، و قد مضـى تفسير هذا فى الأنعام، و إن: فى موضع رفع بالابتداء، و من آياته: خبره ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ إذا: هى الفجائيـة، أى: ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشـرا تنتشـرون فى الأرض، و إذا الفجائية: و إن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعـد ثم بالنسـبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، و هى أطوار الإنسان كما حكاه اللّه فى مواضع، من كونه نطفة، ثم علقة، ثم مضـغة، ثم عظما مكسوّا لحما، فاجأ بالبشـرية و الانتشار، و معنى تنتشـرون: تنصرفون فيما هو قوام معايشكم وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً أى: و من علاماته و دلالاته الدالة على البعث: أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، أى: من جنسـكم فى البشـرية، و الإنسانية، و قيل: المراد حوّاء، فإنه خلقها من ضـلع آدم لِتَسْكُنُوا إِلَيْها أى: تألفوها، و تميلوا إليها، فإن الجنسـين المختلفين لا يسـكن أحـدهما إلى الآـخر، و لا يميل قلبه إليه وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً أى: ودادا و تراحما بسـبب عصـمة النكاح يعطف به بعضـكم على بعض؛ من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة؛ فضـلا عن مودّة و رحمة. و قال مجاهد: المودّة: الجماع، و الرحمـة: الولـد، و به قال الحسن. و قال السـدّى: المودّة: المحبة، و الرحمة: الشـفقة. و قيل: المودّة حبّ الرجل امرأته، و الرحمة: رحمته إياها من أن يصـيبها بسوء. و قوله «أن خلق لكم»: فى موضع رفع على الابتداء، و من آياته: خبره إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور سابقا. لَآياتٍ عظيمة الشأن؛ بديعة البيان؛ واضـحة الدلالة على قدرته سـبحانه على البعث، و النشور لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ لأـنهم الـذين يقتـدرون على الاسـتدلال؛ لكون التفكر مـادّة له يتحصـل عنه، و أما الغافلون عن التفكر؛ فما هم إلا كالأنعام وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة التى هى أجرام السموات و الأرض، و جعلها باقية ما دامت هذه الدار، و خلق فيها من عجائب الصـنع، و غرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين؛ قادر على أن يخلقكم بعد موتكم، و ينشـركم من قبوركم وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ أى: لغـاتكم: من عرب، و عجم، و ترك، و روم، و غير ذلـك من اللغات وَ أَلْوانِكُمْ من البياض، و السواد، و الحمرة، و الصفرة، و الزرقة، و الخضرة، مع كونكم أولاد رجل واحد، و أم واحدة، و يجمعكم نوع واحد، و هو: الإنسانية، و فصل واحد، و هو: الناطقية، حتى صـرتم متميزين فى ذات بينكم، لا يلتبس هذا بهذا، بل فى كلّ فرد من أفرادكم؛ ما يميزه عن غيره من الأـفراد، و فى هـذا من بـديع القـدرة مـا لاـ يعقله إلاـ العالمون، و لا يفهمه إلا المتفكرون إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ الذين هم من جنس هذا العالم، من غير فرق بين برّ و فاجر، قرأ الجمهور بفتح لام العالمين. و قرأ حفص وحده بكسرها. قـال الفراء: و له وجه جيـد لأـنه قـد قـال: لَآيـاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ «١» وَ مـا يَعْقِلُهـا إِلَّا الْعالِمُونَ «٢». وَ مِنْ آيـاتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ قيل: فى الكلام تقـديم و تأخير، و التقدير: و من آياته منامكم بالليل، و ابتغاؤكم من فضـله بالنهـار. و قيل: المعنى صـحيح من دون تقـديم و تأخير، أى: و من آياته العظيمـة؛ أنكم تنامون بالليل، و تنامون فى بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة، و ابتغاؤكم من فضله فيهما، فإن

---

(١). آل عمران: ١٩٠.

(٢). العنكبوت: ٤٣.

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٥۴

كـل واحـد منهمـا يقع فيه ذلـك، و إن كـان ابتغـاء الفضـل فى النهـار: أكثر. و الأوّل: هو المناسب لسائر الآيات الواردة فى هـذا

المعنى، و الآخر: هو المناسب للنظم القرآنى هاهنا. و وجه ذكر النوم، و الابتغاء هاهنا، و جعلهما من جملة الأدلة على البعث أن النوم شبيه بالموت، و التصرّف فى الحاجات، و السعى فى المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أى: يسمعون الآيات و المواعظ، سماع متفكّر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً المعنى: أن يريكم، فحذف أن لدلالة الكلام عليه كما قال طرفة:

ألا أيهذا اللّائمى أحضر الوغىو أن أشهد اللّذات هل أنت مخلدى

و التقدير: أن أحضر، فلما حذف الحرف فى الآية، و البيت؛ بطل عمله، و منه المثل المشهور «تسمع بالمعيدى خير من أن تراه» و قيل هو على التقديم و التأخير، أى: و يريكم البرق من آياته، فيكون: من عطف جملة فعلية على جملة اسمية، و يجوز أن يكون: «يريكم» صفة لموصوف محذوف، أى: من آياته آية يريكم بها و فيها البرق، و قيل التقدير: و من آياته يريكم البرق خوفا و طمعا من آياته. قال الزجاج: فيكون من عطف جملة على جملة. قال قتادة: خوفا للمسافر، و طمعا للمقيم، و قال الضحاك: خوفا من الصواعق، و طمعا فى الغيث. و قال يحيى بن سلام: خوفا من البرد أن يهلك الزرع، و طمعا فى المطر أن يحيى الزرع. و قال ابن بحر: خوفا أن يكون البرق برقا خلبا لا يمطر، و طمعا أن يكون ممطرا، و أنشد:

لا يكن برقك برقا خلّباإنّ خير البرق ما الغيث معه

و انتصاب خوفا و طمعا على العلة وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أى: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدلّ بها على القدرة الباهرة وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ أى: قيامهما و استمساكهما بإرادته سبحانه، و قدرته بلا عمد يعمدهما، و لا مستقرّ يستقران عليه. قال الفراء: يقول أن تدوما قائمتين بأمره ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ أى: ثم بعد موتكم و مصيركم فى القبور؛ إذا دعاكم دعوة واحدة؛ فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث، و لا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع. و من الأرض: متعلق بدعاء، أى: دعاكم من الأرض التى أنتم فيها، كما يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع إلىّ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة، أو متعلق بمحذوف يدلّ عليه تخرجون، أى: خرجتم من الأرض، و لا يجوز أن يتعلق بتخرجون، لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها، و هذه الدعوة هى: نفخة إسرافيل الآخرة فى الصور على ما تقدّم بيانه، و قد أجمع القراء على فتح التاء فى «تخرجون» هنا، و غلط من قال إنه قرئ هنا بضمها على البناء للمفعول، و إنما قرئ بضمها فى الأعراف وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من جميع المخلوقات ملكا و تصرّفا و خلقا، ليس لغيره فى ذلك شىء كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ أى: مطيعون طاعة انقياد، و قيل: مقرّون بالعبودية، و قيل: مصلون، و قيل: قائمون يوم القيامة كقوله:

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «۱»: أى للحساب، و قيل: بالشهادة أنهم عباده، و قيل: مخلصون وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أى: هين عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم، و على ما يقوله بعضكم لبعض، و إلا فلا شىء فى قدرته بعضه أهون من بعض، بل كلّ الأشياء مستوية يوجدها بقوله: كن فتكون. قال أبو عبيد: من جعل أهون عبارة عن تفضيل شىء على شىء فقوله مردود بقوله: وَ كانَ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً* «۲» و بقوله: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما «۳» و العرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا كما فى قول الفرزدق:

إنّ الذى سمك السّماء بنى لنابيتا دعائمه أعزّ و أطول

أى: عزيزة طويلة؛ و أنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك:

تمنّى رجال أن أموت و إن أمتفتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى: لست بواحد، و مثله قول الآخر:

لعمرك إن الزّبرقان لباذل‌لمعروفه عند السنين و أفضل

أى: و فاضل، و قرأ عبد اللّه بن مسعود «و هو عليه هين» و قال مجاهد و عكرمة و الضحاك: إن الإعادة أهون عليه، أى: على اللّه من البداية، أى: أيسر و إن كان جميعه هينا. و قيل: المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية، و قيل: الضمير فى عليه للخلق، أى: و هو أهون على الخلق لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون، و يقال لهم: كونوا فيكونون، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى قال الخليل: المثل: الصفة، أى: و له الوصف الأعلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كما قال: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ* «۴» أى: صفتها. و قال مجاهد: المثل الأعلى: قول لا إله إلا اللّه، و به قال قتادة، و قال الزجاج وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: قوله «و هو أهون عليه» قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب و يسهل. و قيل المثل الأعلى: هو أنه ليس كمثله شى‌ء، و قيل:

هو أن ما أراده كان بقول كن، و فى السموات و الأرض: متعلق بمضمون الجملة المتقدّمة. و المعنى: أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى، و وصف به فى السموات و الأرض، و يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الأعلى، أو من المثل، أو من الضمير فى الأعلى وَ هُوَ الْعَزِيزُ فى ملكه القادر الذى لا يغالب الْحَكِيمُ فى أقواله، و أفعاله.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُبْلِسُ قال: يبتئس. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم يُبْلِسُ قال: يكتئب، و عنه الإبلاس: الفضيحة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يُحْبَرُونَ قال: يكرمون. و أخرج الديلمى عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «إذا كان يوم القيامة قال اللّه: أين الذين كانوا ينزّهون أسماعهم، و أبصارهم عن مزامير الشيطان

---

(۱). المطففين: ۶.

(۲). النساء: ۱۶۹.

(۳). البقرة: ۲۵۵.

(۴). الرعد: ۳۵.

ميزوهم، فيميزون فى كثب المسك و العنبر؛ ثم يقول للملائكة: أسمعوهم من تسبيحى و تحميدى و تهليلى، قال: فيسبّحون بأصوات لم يسمع السّامعون بمثلها قطّ». و أخرج الدينورى فى المجالسة عن مجاهد قال:

ينادى مناد يوم القيامة فذكر نحوه، و لم يسمّ من رواه له عن رسول اللّه. و أخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الملاهى، و الأصبهانى فى الترغيب عن محمّد بن المنكدر نحوه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و الضياء المقدسى، كلاهما فى صفة الجنة، قال السيوطى بسند صحيح عن ابن عباس قال: «فى الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجدّ فى ظلها مائة عام، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف و غيرهم، فيتحدّثون فى ظلها، فيشتهى بعضهم، و يذكر لهو الدنيا، فيرسل اللّه ريحا من الجنة فتحرّك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا». و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج الفريابى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة». و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن أبى رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن؟ قال: نعم، فقرأ فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ صلاة المغرب وَ حِينَ تُصْبِحُونَ صلاة الصبح وَ عَشِيًّا صلاة العصر وَ حِينَ

تُظْهِرُونَ صلاة الظهر، و قرأ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ «١». و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عنه قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة، فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ قال: المغرب و العشاء وَ حِينَ تُصْبِحُونَ الفجر وَ عَشِيًّا العصر وَ حِينَ تُظْهِرُونَ الظهر. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن السنى فى عمل يوم و ليلة، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «ألا أخبركم لم سمّى اللّه إبراهيم خليله الذى وفّى؟ لأنه كان يقول كلّما أصبح و أمسى: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ و فى إسناده ابن لهيعة.

و أخرج أبو داود، و الطبرانى، و ابن السنى، و ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من قال حين يصبح: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ أدرك ما فاته فى يومه، و من قالها حين يمسى: أدرك ما فاته فى ليلته» و إسناده ضعيف. و أخرج ابن جرير، عن ابن عباس فى قوله: كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ يقول مطيعون: يعنى الحياة و النشور و الموت و هم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ قال: أيسر. و أخرج ابن الأنبارى عنه أيضا فى قوله: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ قال: الإعادة أهون على المخلوق، لأنه يقول له يوم القيامة كن فيكون، و ابتدأ الخلقة من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى ليس كمثله شىء.

---

(١). النور: ٥٨.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٢٥٧

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٨ الى ٣٧]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

قوله: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا قد تقدّم تحقيق معنى المثل، و من فى مِنْ أَنْفُسِكُمْ لابتداء الغاية، و هى و مجرورها: فى محلّ نصب صفة لمثلا أى: مثلا منتزعا و مأخوذا من أنفسكم، فإنها أقرب شىء منكم، و أبين من غيرها عندكم، فإذا ضرب لكم المثل بها فى بطلان الشرك كان أظهر دلالة، و أعظم وضوحا. ثم بين المثل المذكور فقال: هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ «من» فى «مما ملكت»: للتبعيض، و فى «من شركاء»: زائدة للتأكيد، و المعنى هل لكم شركاء فيما رزقناكم؛ كائنون من

النوع الـذى ملكت أيمانكم، و هم: العبيـد، و الإماء، و الاسـتفهام للإنكار، و جملة: فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ جواب للاسـتفهام الذى بمعنى النفى، و محققـة لمعنى الشـركة بينهم، و بين العبيد، و الإماء المملوكين لهم فى أموالهم، أى: هل ترضون لأنفسـكم، و الحال أن عبيـدكم و إمـاءكم، و أمثـالكم فى البشـرية أن يسـاووكم فى التصـرّف بمـا رزقناكم من الأموال، و يشاركوكم فيها من غير فرق بينكم و بينهم تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الكـاف نعت مصـدر محـذوف، أى: تخافونهم خيفـة كخيفتكم أنفسـكم، أى: كما تخافون الأحرار المشابهين لكم فى الحريـة، و ملك الأموال، و جواز التصـرف، و المقصود نفى الأشـياء الثلاثـة: الشـركة بينهم و بين المملوكين، و الاستواء معهم، و خوفهم إيّاهم. و ليس المراد: ثبوت الشركة، و نفى الاستواء، و الخوف كما قيل فى قولهم:
ما تأتينا فتحدّثنا. و المراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنهم لا بدّ أن يقولوا لا نرضى بذلك، فيقال لهم:
فكيف تنزّهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم و هم أمثالكم فى البشرية، و تجعلون عبيد اللّه شركاء له؟
فإذا بطلت الشـركة بين العبيد، و ساداتهم، فيما يملكه السادة بطلت الشـركة بين اللّه و بين أحد من خلقه، و الخلق كلهم عبيد اللّه تعالى، و لم يبق إلا أنه الربّ وحده لا شريك له. و قرأ الجمهور «أنفسكم» بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، و قرأ ابن أبى عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله
فتح القدير، ج۴، ص: ۲۵۸
كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ تفصـيلا واضـحا، و بيانا جليا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لأنهم الـذين ينتفعون بالآيات التنزيليـة، و التكوينيـة باسـتعمال عقولهم، فى تـدبرها و التفكر فيهـا. ثم أضـرب سـبحانه على مخاطبـة المشـركين، و إرشادهم إلى الحق بما ضـربه لهم من المثل فقال: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أى: لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغـة، و آراءهم الفاسـدة الزائفـة، و محل «بغير علم»: النصب على الحـال، أى: جـاهلين بـأنهم على ضـلالة فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ أى: لا أحـد يقـدر على هـدايته، لأن الرشاد و الهدايـة بتقدير اللّه، و إرادته وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ أى: ما لهؤلاء الذين أضـلهم اللّه من ناصـرين ينصـرونهم، و يحولون بينهم و بين عذاب اللّه سـبحانه. ثم أمر رسوله صـلّى اللّه عليه و سـلم بتوحيده و عبادته كما أمره فقال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً شبه الإقبـال على الـدين بتقويم وجهه إليه و إقباله عليه، و انتصاب حنيفا: على الحال من فاعل أقم؛ أو من مفعوله: أى: مائلا إليه؛ مستقيما عليه، غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها الفطرة فى الأصل: الخلقة، و المراد بها هنا: الملـة، و هى: الإسـلام و التوحيـد. قـال الواحـدى: هـذا قول المفسـرين فى فطرة اللّه، و المراد بالناس هنا: الـذين فطرهم اللّه على الإسـلام، لأن المشـرك لم يفطر على الإسـلام، و هـذا الخطـاب؛ و إن كان خاصا برسول اللّه، فأمته داخلـة معه فيه. قال القرطبى باتفـاق من أهـل التأويـل: و الأولى: حمل أناس على العموم من غير فرق بين مسـلمهم، و كافرهم، و أنهم جميعا مفطورون على ذلـك لو لا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسـببها على الكفر كمـا فى حـديث أبى هريرة الثابت فى الصـحيح قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة». و فى رواية: «على هذه الملّة، و لكنّ أبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه كمـا تنتـج البهيمـة بهيمـة جمعاء هل تحسّون فيها من جـدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: و اقرءوا إن شـئتم فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ و فى روايـة «حتّى تكونوا أنتم تجدعونها». و سيأتى فى آخر البحث ما ورد معاضدا لحديث أبى هريرة هـذا، فكـل فرد من أفراد الناس مفطور: أى مخلوق على ملـة الإسـلام، و لكن لا اعتبار بالإيمان و الإسـلام الفطريين، و إنما يعتبر الإيمان و الإسـلام الشرعيان، و هذا قول جماعة من الصحابة، و من بعدهم، و قول جماعة من المفسرين؛ و هو الحق. و القول بأن المراد بالفطرة هنا: الإسلام هو مذهب جمهور السلف. و قال آخرون:
هى البـداءة التى ابتـدأهم اللّه عليها، فإن ابتدأهم للحياة و الموت، و السـعادة و الشـقاوة. و الفاطر فى كلام العرب هو المبتدئ، و هذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة، و إهمال معناها شـرعا. و المعنى الشـرعىّ؛ مقدّم على المعنى اللغوى؛ باتفاق أهل

الشرع، و لاـ ينافى ذلک ورود الفطرة فى الکتاب، أو السنة فى بعض المواضع مرادا بها المعنى اللغوى کقوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ «۱» أى: خالقهما و مبتديهما، و کقوله: وَ ما لِيَ لاـ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي «۲» إذ لاـ نزاع فى أن المعنى اللغوى هو هذا، و لکن النزاع فى المعنى الشرعى للفطرة، و هو ما ذکره الأوّلون کما بيناه، و انتصاب فطرة على أنها مصدر مؤکد للجملة التى قبلها.

و قال الزجاج: فطرة منصوب بمعنى: اتبع فطرة اللّه، قال: لأن معنى فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّينِ اتبع

---

(۱). فاطر: ۱.

(۲). يس: ۲۲.

الدين، و اتبع فطرة اللّه. و قال ابن جرير: هى مصدر من معنى «فأقم وجهک» لأن معنى ذلک: فطرة اللّه الناس على الدين، و قيل: هى منصوبة على الإغراء، أى: الزموا فطرة اللّه، أو عليکم فطرة اللّه، و ردّ هذا الوجه أبو حيان و قال: إن کلمة الإغراء لا تضمر؛ إذ هى عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض، و المعوّض عنه، و هو إجحاف. و أجيب بأن هذا رأى البصريين، و أما الکسائى و أتباعه، فيجيزون ذلک. و جملة لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة، أى: هذه الفطرة التى فطر اللّه الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. و قيل: هو نفى معناه النهى، أى: لا تبدّلوا خلق اللّه.

قال مجاهد و إبراهيم النخعى: معناه لا تبديل لدين اللّه. قال قتادة، و ابن جبير، و الضحاک، و ابن زيد: هذا فى المعتقدات. و قال عکرمة: إن المعنى لا تغيير لخلق اللّه فى البهائم؛ بأن تخصى فحولها ذلِکَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أى: ذلک الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة: هو الدين القيم وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لاـ يَعْلَمُونَ ذلک حتى يفعلوه و يعملوا به مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أى: راجعين إليه بالتوبة، و الإخلاص، و مطيعين له فى أوامره، و نواهيه. و منه قول أبى قيس بن الأسلت:

فإن تابوا فإنّ بنى سليمو قومهم هوازن قد أنابوا

قال الجوهرى: أناب إلى اللّه: أقبل و تاب، و انتصابه على الحال من فاعل أقم. قال المبرد: لأن معنى أقم وجهک: أقيموا وجوهکم. قال الفراء: المعنى فأقم وجهک، و من معک منيبين، و کذا قال الزجاج و قال تقديره: فأقم وجهک، و أمتک، فالحال من الجميع. و جاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه. و قيل:

هو منصوب على القطع، و قيل: على أنه خبر لکان محذوفة، أى: و کونوا منيبين إليه لدلالة وَ لا تَکُونُوا مِنَ الْمُشْرِکِينَ على ذلک. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة، فقال: وَ اتَّقُوهُ أى: باجتناب معاصيه، و هو معطوف على الفعل المقدر ناصبا لمنيبين وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ التى أمرتم بها وَ لاـ تَکُونُوا مِنَ الْمُشْرِکِينَ باللّه. و قوله: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ کانُوا شِيَعاً هو بدل مما قبله بإعادة الجار، و الشيع: الفرق، أى: لا تکونوا من الذين تفرقوا فرقا فى الدين، يشايع بعضهم بعضا من أهل البدع و الأهواء: و قيل المراد بالذين فرقوا دينهم شيعا: اليهود و النصارى. و قرأ حمزة و الکسائى «فارقوا دينهم» و رويت هذه القراءة عن على بن أبى طالب، أى: فارقوا دينهم الذى يجب اتباعه، و هو التوحيد. و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى آخر سورة الأنعام کُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ أى: کل فريق بما لديهم من الدين المبنى على غير الصواب، مسرورون مبتهجون، يظنون أنهم على الحق، و ليس بأيديهم منه شيء. و قال الفراء:

يجوز أن يکون قوله: «من الذين فرقوا دينهم و کانوا شيعا» مستأنفا، کما يجوز أن يکون متصلا بما قبله وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ أى: قحط و شدّة دَعَوْا رَبَّهُمْ أن يرفع ذلک عنهم و استغاثوا به مُنِيبِينَ إِلَيْهِ أى: راجعين إليه ملتجئين به لاـ يعولون على غيره، و قيل:

مقبلين عليه بكـل قلوبهم ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَـةً بإجابـة دعائهم، و رفع تلك الشدائـد عنهم إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْـرِكُونَ إذا: هى الفجائية، وقعت جواب الشرط لأنها كالفاء فى إفادة التعقيب، أى: فاجأ فريق منهم الإشراك، و هم الذين

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۰

دعوه فخلصهم مما كانوا فيه. و هذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم، و ما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية اللّه سبحانه عند نزول الشدائد، و الرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم، و اللام فى لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ هى لام كى، و قيل: لام لقصد الوعيد و التهديـد، و قيل: هى لام العاقبـة. ثم خاطب سبحانه هؤلاء الـذين وقع منهم ما وقع فقال: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ما يتعقب هـذا التمتع الزائل من العـذاب الأليم. قرأ الجمهور «فتمتعوا» على الخطاب. و قرأ أبو العالية بالتحتية على البناء للمفعول، و فى مصـحف ابن مسعود «فليتمتعوا» أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً أم: هى المنقطعة، و الاستفهام: للإنكار، و السلطان:

الحجة الظاهرة فَهُوَ يَتَكَلَّمُ أى: يدل كما فى قوله: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ «۱» قال الفراء:

إن العرب تؤنث السـلطان، يقولون: قضت به عليك السـلطان. فأما البصريون: فالتذكير عندهم أفصح، و به جاء القرآن، و التأنيث عندهم جائز؛ لأنه بمعنى الحجة، و قيل: المراد بالسـلطان: الملك بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ أى: ينطق بإشراكهم باللّه سبحانه، و يجوز أن تكون الباء سببية، أى: بالأمر الذى بسببه يشـركون وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً أى: خصـبا و نعمة، و سعة و عافية فَرِحُوا بِها فرح بطر، و أشـر، لا فرح شكر بها و ابتهاج بوصولها إليهم قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ثم قال سبحانه: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ شدة على أى صفة بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أى: بسبب ذنوبهم إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ القنوط:

الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. و قال الحسن: القنوط: ترك فرائض اللّه سـبحانه. قرأ الجمهور «يقنطون» بضم النون. و قرأ أبو عمرو و الكسـائى و يعقوب بكسـرها أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ من عباده، و يوسع له وَ يَقْـدِرُ أى: يضـيق على من يشـاء لمصـلحة فى التوسـيع لمن وسع له، و فى التضـييق على من ضـيق عليه إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فيسـتدلون على الحق لدلالتها على كمال القدرة و بديع الصنع و غريب الخلق.

و قد أخرج الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان يلبى أهل الشـرك: لبيك لا شـريك لك إلا شريك هو لك تملكه و ما ملك، فأنزل اللّه هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُـرَكاءَ الآيـة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآيـة قال هى فى الآلهـة، و فيه يقول تخـافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضـكم بعضا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ قال: دين اللّه ذلِكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ قـال: القضـاء القيم. و أخرج عبـد الرزاق، و ابن أبى شـيبة، و أحمـد، و النسـائى، و الحـاكم و صـححه، و ابن مردويه عن الأسود ابن سـريع، أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلم بعث سـريّة إلى خيبر فقـاتلوا المشـركين، فـانتهى القتـل إلى الذريّة، فلمّا جاءوا قال النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم: «ما حملكم على قتل الذريّة؟ قالوا: يا رسول اللّه! إنّما كانوا أولاد المشركين، قال:

و هل خياركم إلا أولاد المشركين؟ و الذى نفسى بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتّى يعرب عنها لسانها». و أخرج أحمد من حديث جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يعبّر عنه لسانه، فإذا عبّر عنه لسانه إمّا شاكرا و إما كفورا» رواه أحمد عن الربيع بن أنس

---

(۱). الجاثية: ۲۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۱

عن الحسن عن جابر. و قال الإمام أحمـد فى المسـند: حدثنا يحيى بن سـعيد، حدثنا هشام حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن

حماد؛ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خطب يوما فقال فى خطبته حاكيا عن اللّه سبحانه: «و إنّى خلقت عبادى حنفاء كلّهم، و إنّهم أتتهم الشّياطين فأضلّتهم عن دينهم و حرّمت عليهم ما أحللت لهم» الحديث.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٣٨ الى ٤٦]

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٤٥) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)

لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر اللّه أشار إلى ما ينبغى من مواساة القرابة، و أهل الحاجات ممن بسط اللّه له فى رزقه فقال: فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، و أمته أسوته، أو لكل مكلف له مال؛ وسع اللّه به عليه، و قدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، و المراد: الإحسان إليهم بالصدقة، و الصلة، و البر وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ أى: و آت المسكين، و ابن السبيل حقهما الذى يستحقانه. و وجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، و لكون ذلك واجبا على كلّ من له مال فاضل عن كفايته، و كفاية من يعول.

و قد اختلف فى هذه الآية؛ هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: هى منسوخة بآية المواريث. و قيل:

محكمة؛ و للقريب فى مال قريبه الغنىّ حقّ واجب، و به قال مجاهد و قتادة. قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد و رحمه محتاج.

قال مقاتل: حق المسكين: أن يتصدّق عليه، و حق ابن السبيل: الضيافة. و قيل:

المراد بالقربى: قرابة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. قال القرطبى: و الأوّل أصح، فإن حقهم مبين فى كتاب اللّه عزّ و جلّ فى قوله: فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى «١» و قال الحسن: إن الأمر فى إيتاء ذى القربى للندب ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أى: ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرّب إلى اللّه سبحانه وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه اللّه امتثالا لأمره وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً قرأ

---

(١). الأنفال: ٤١.

فتح القدير، ج٤، ص: ٢٦٢

الجمهور «آتيتم» بمعنى أعطيتم، و قرأ مجاهد، و حميد، و ابن كثير بالقصر بمعنى ما فعلتم، و أجمعوا على القراءة بالمدّ فى قوله: وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ و أصل الربا: الزيادة، و قراءة القصر تؤول إلى قراءة المدّ، لأن معناها ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: أتيت خطأ و أتيت صوابا؛ و المعنى فى الآية: ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ أى: ليزيد، و يزكو فى أموالهم فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ أى: لا يبارك اللّه فيه. قال السدىّ: الربا فى هذا الموضع: الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة،

لأن ذلک لا يربو عنـد اللّه، لا يؤجر عليه صاحبه، و لا إثم عليه، و هکذا قال قتادة و الضحاک. قال الواحدی: و هذا قول جماعة المفسرين. قال الزجاج: يعنی دفع الإنسان الشیء ليعوّض أکثر منه، و ذلک ليس بحرام، و لکنه لا ثواب فيه، لأن الذی يهبه يستدعی به ما هو أکثر منه. و قال الشعبی: معنی الآية أن ما خدم به الإنسان أحدا لينتفع به فی دنياه، فإن ذلک النفع الذی يجزی به الخدمة لا يربو عند اللّه. و قيل: هذا کان حراما علی النبی صلّی اللّه عليه و سلم علی الخصوص لقوله سبحانه: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ و معناها: أن تعطی فتأخذ أکثر منه عوضا عنه. و قيل: إن هذه الآية نزلت فی هبة الثواب. قال ابن عطية: و ما يجری مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازی عليه. قال عکرمة: الربا ربوان: فربا حلال، و ربا حرام، فأما الربا الحلال: فهو الذی يهدی يلتمس ما هو أفضل منه، يعنی: کما فی هذه الآية. و قيل: إن هذا الذی فی هذه الآية هو الربا المحرّم، فمعنی لا يربو عند اللّه علی هذا القول: لا يحکم به، بل هو للمأخوذ منه.

قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالک: ينظر فيه، فإن کان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له؛ فله ذلک، مثل هبة الفقير للغنیّ، و هبة الخادم للمخدوم، و هبة الرجل لأميره، و هو أحد قولی الشافعی. و قال أبو حنيفة: لا يکون له ثواب إذا لم يشترط، و هو قول الشافعی الآخر. قرأ الجمهور «ليربو» بالتحتية علی أن الفعل مسند إلی ضمير الربا. و قرأ نافع و يعقوب بالفوقية مضمومة خطابا للجماعة؛ بمعنی: لتکونوا ذوی زيادات. و قرأ أبو مالک «لتربوها» و معنی الآية: أنه لا يزکو عند اللّه، و لا يثيب عليه، لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه، خالصا له وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أی: و ما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المکافأة، و إنما تقصدون بها ما عند اللّه فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ المضعف دون الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلی سبعمائة ضعف.

قال الفراء: هو نحو قولهم: مسمن و معطش و مضعف إذا کانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة. و قرأ أبیّ «المضعفون» بفتح العين اسم مفعول اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ عاد سبحانه إلی الاحتجاج علی المشرکين، و أنه الخالق الرازق المميت المحيی، ثم قال علی جهة الاستفهام: هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ و معلوم أنهم يقولون:

ليس فيهم من يفعل شيئا من ذلک، فتقوم عليهم الحجة، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أی: نزّهوه تنزيها، و هو متعال عن أن يجوز عليه شیء من ذلک، و قوله: مِنْ شُرَكائِكُمْ

خبر مقدّم، و من: للتبعيض، و المبتدأ: هو الموصول، أعنی: من يفعل، و من ذلکم: متعلق بمحذوف؛

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۳

لأنه حال من شیء المذکور بعده، و من فی «من شیء» مزيدة للتوکيد، و أضاف الشرکاء إليهم لأنهم کانوا يسمونهم آلهة، و يجعلون لهم نصيبا من أموالهم ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ بين سبحانه أن الشرک و المعاصی؛ سبب لظهور الفساد فی العالم.

و اختلف فی معنی ظهور الفساد المذکور، فقيل: هو القحط، و عدم النبات، و نقصان الرزق، و کثرة الخوف، و نحو ذلک. و قال مجاهد و عکرمة: فساد البرّ: قتل ابن آدم أخاه، يعنی: قتل قابيل لهابيل، و فی البحر: الملک الذی کان يأخذ کل سفينة غصبا.

و ليت شعری أیّ دليل دلهما علی هذا التخصيص البعيد و التعيين الغريب؟ فإن الآية نزلت علی محمّد صلّی اللّه عليه و سلم، و التعريف فی الفساد: يدلّ علی الجنس، فيعم کلّ فساد واقع فی حيزیّ البرّ، و البحر، و قال السدّی: الفساد:

الشرک، و هو أعظم الفساد. و يمکن أن يقال: إن الشرک؛ و إن کان الفرد الکامل فی أنواع المعاصی، و لکن لا دليل علی أنه المراد بخصوصه. و قيل: الفساد کساد الأسعار، و قلة المعاش، و قيل: الفساد قطع السبل، و الظلم، و قيل: غير ذلک مما هو

تخصيص لا- دليل عليه. و الظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه؛ سواء كان راجعا إلى أفعال بنى آدم من معاصيهم، و اقترافهم السيئات و تقاطعهم، و تظالمهم، و تقاتلهم، أو راجعا إلى ما هو من جهة اللّه سبحانه بسبب ذنوبهم، كالقحط، و كثرة الخوف، و الموتان، و نقصان الزرائع، و نقصان الثمار. و البرّ و البحر: هما المعروفان المشهوران، و قيل البرّ: الفيافى، و البحر: القرى التى على ماء قاله عكرمة، و العرب تسمى الأمصار: البحار. قال مجاهد: البرّ: ما كان من المدن و القرى على غير نهر، و البحر: ما كان على شط نهر، و الأوّل: أولى. و يكون معنى البرّ: مدن البرّ، و معنى البحر:

مدن البحر، و ما يتصل بالمدن من مزارعها و مراعيها، و الباء فى بما كسبت: للسببية، و ما: إما موصولة؛ أو مصدرية لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا اللام متعلقة بظهر، و هى لام العلة، أى: ليذيقهم عقاب بعض عملهم، أو جزاء بعض عملهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عما هم فيه من المعاصى، و يتوبون إلى اللّه قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ لما بين سبحانه ظهور الفساد بما كسبت أيدى المشركين، و العصاة بين لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأوّل، و أمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم، و يشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية، و أراضيهم مقفرة موحشة، كعاد و ثمود، و نحوهم من طوائف الكفار، و جملة كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ مستأنفة لبيان الحالة التى كانوا عليها، و إيضاح السبب الذى صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ هذا خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أمته و أسوته فيه، كأن المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدّم؛ فأقم وجهك يا محمّد إلخ.

قال الزجاج: اجعل جهتك اتباع الدين القيم، و هو الإسلام المستقيم «من قبل أن يأتى يوم» يعنى: يوم القيامة «لا مردّ له» لا يقدر أحد على ردّه، و المردّ: مصدر ردّ، و قيل المعنى: أوضح الحق، و بالغ فى الأعذار، و «من اللّه» يتعلق بيأتى، أو بمحذوف يدل عليه المصدر، أى: لا- يردّه من اللّه أحد، و قيل: يجوز أن يكون المعنى: لا- يردّه اللّه لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، و فيه من الضعف و سوء الأدب مع اللّه ما لا يخفى يَوْمَئِذٍ

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۴

يَصَّدَّعُونَ أصله: يتصدعون، و التصدع: التفرق، يقال: تصدع القوم: إذا تفرقوا، و منه قول الشاعر:

و كنّا كندمانى جذيمة حقبةمن الدّهر حتّى قيل لن يتصدّعا

و المراد بتفرقهم هاهنا: إن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، و أهل النار يصيرون إلى النار مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أى: جزاء كفره، و هو النار وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أى: يوطئون لأنفسهم منازل فى الجنة بالعمل الصالح، و المهاد: الفراش، و قد مهدت الفراش مهدا: إذا بسطته و وطأته، فجعل الأعمال الصالحة التى هى سبب لدخول الجنة، كبناء المنازل فى الجنة، و فرشها. و قيل المعنى: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم فى المشفق: أمّ فرشت فأنامت، و تقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص.

و قال مجاهد «فلأنفسهم يمهدون» فى القبر، و اللام فى لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا متعلقة بيصدّعون، أو يمهدون: أى: يتفرّقون ليجزى اللّه المؤمنين بما يستحقونه مِنْ فَضْلِهِ أو يمهدون لأنفسهم، بالأعمال الصالحة ليجزيهم، و قيل: يتعلق بمحذوف. قال ابن عطية: تقديره ذلك ليجزى، و تكون الإشارة إلى ما تقدّم من قوله: من عمل و من كفر. و جعل أبو حيان قسيم قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ محذوفا لدلالة قوله: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ عليه، لأنه كناية عن بغضه لهم؛ الموجب لغضبه سبحانه، و غضبه يستتبع عقوبته وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ أى: و من دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدّمه كما فى قوله سبحانه: بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ* «۱» قرأ الجمهور «الرياح» و قرأ الأعمش «الريح» بالإفراد على قصد الجنس لأجل قوله «مبشرات» و اللام فى قوله: وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ متعلقة بيرسل، أى: يرسل الرياح مبشرات، و يرسلها ليذيقكم من رحمته، يعنى:

الغيث و الخصب، و قيل: هو متعلق بمحذوف، أى: و ليذيقكم أرسلها، و قيل: الواو مزيدة على رأى من يجوز ذلك، فتتعلق اللام بيرسل وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ معطوف على ليذيقكم من رحمته، أى: يرسل الرياح لتجرى الفلك فى البحر عند هبوبها، و لما أسند الجرى إلى الفلك عقبه بقوله بأمره وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أى: تبتغوا الرزق بالتجارة التى تحملها السفن وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعم، فتفردون اللّه بالعبادة، و تستكثرون من الطاعة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً الآية قال: الربا ربوان: ربا لا بأس به، و ربا لا يصلح. فأما الربا الذى لا بأس به، فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها و أضعافها.

و أخرج البيهقى عنه قال: هذا هو الربا الحلال أن يهدى يريد أكثر منه و ليس له أجر و لا وزر، و نهى النبى صلّى اللّه عليه و سلم خاصة فقال: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ «٢». و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ قال: هى الصدقة، و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قال: البر البرية التى ليس عندها نهر، و البحر: ما كان من المدائن، و القرى على شط نهر.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: نقصان البركة بأعمال العباد كى يتوبوا. و أخرج

---

(١). الأعراف: ٥٧.

(٢). المدثر: ۶.

ابن المنذر عنه أيضا: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: من الذنوب. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا يَصَّدَّعُونَ قال: يتفرقون.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ۴٧ الى ۶٠]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (۴٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴٨) وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵٠) وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (۵١)

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۵٢) وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (۵۴) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۵۶)

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵٧) وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (۵٨) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۵٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (۶٠)

قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ كما أرسلناك إلى قومك فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: المعجزات، و الحجج النيرات،

فانتقمنا منهم، أى: فكفروا فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا أى: فعلوا الإجرام، و هى الآثام وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ هذا إخبار من اللّه سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، و هو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، و فيه تشريف للمؤمنين، و مزيد تكرمة لعباده الصالحين، و وقف بعض القراء على حقا، و جعل اسم كان ضميرا فيها و خبرها: حقا، أى: و كان الانتقام حقا. قال ابن عطية:

و هذا ضعيف، و الصحيح أن نصر المؤمنين: اسمها، و حقا: خبرها، و علينا: متعلق بحقا، أو بمحذوف هو صفة له اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ قرأ حمزة، و الكسائى، و ابن كثير، و ابن محيصن يرسل «الريح» بالإفراد. و قرأ الباقون «الرياح» قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة: فهو جمع، و ما كان بمعنى العذاب:

فهو موحد، و هذه الجملة مستأنفة، مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة «و لقد أرسلنا» إلى قوله: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ معترضة فَتُثِيرُ سَحاباً أى: تزعجه من حيث هو فَيَبْسُطُهُ فِى السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ تارة سائرا، و تارة واقفا، و تارة مطبقا، و تارة غير مطبق، و تارة إلى مسافة بعيدة، و تارة إلى مسافة قريبة، و قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة، و فى سورة النور

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۶

وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه؛ قطعا متفرقة، و الكسف: جمع كسفة، و الكسفة:

القطعة من السحاب. و قد تقدم تفسيره و اختلاف القراءة فيه فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ الودق:

المطر، و من خلاله: من وسطه. و قرأ أبو العالية، و الضحاك «يخرج من خلل» فَإِذا أَصابَ بِهِ أى:

بالمطر مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أى: بلادهم، و أرضهم إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إذا: هى الفجائية، أى:

فاجؤوا الاستبشار؛ بمجيء المطر، و الاستبشار: الفرح وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ أى: من قبل أن ينزل عليهم المطر، و إن: هى المخففة، و فيها ضمير شأن مقدر هو اسمها، أى: و إن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، و قوله: مِنْ قَبْلِهِ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش، و أكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس. و قال قطرب: إن الضمير فى قبله راجع إلى المطر، أى: و إن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر.

و قيل المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم؛ من قبل الزرع، و المطر، و قيل: من قبل أن ينزل عليهم من قبل السحاب، أى: من قبل رؤيته، و اختار هذا النحاس. و قيل: الضمير عائد إلى الكسف، و قيل: إلى الإرسال، و قيل: إلى الاستبشار. و الراجح: الوجه الأول، و ما بعده من هذه الوجوه كلها؛ ففى غاية التكلف، و التعسف، و خبر كان: لَمُبْلِسِينَ أى: آيسين أو بائسين. و قد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ الناشئة عن إنزال المطر من النبات، و الثمار، و الزرائع التى بها يكون الخصب، و رخاء العيش، أى: انظر نظر اعتبار، و استبصار لتستدل بذلك على توحيد اللّه، و تفرده بهذا الصنع العجيب.

قرأ الجمهور «أثر» بالتوحيد. و قرأ ابن عامر، و حفص، و حمزة، و الكسائى آثار بالجمع كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها فاعل الإحياء ضمير يعود إلى اللّه سبحانه، و قيل: ضمير يعود إلى الأثر، و هذه الجملة فى محل نصب بانظر، أى: انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض. و قرأ الجحدرى و أبو حيوة «تحيى» بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكَ إلى اللّه سبحانه، أى: إن اللّه العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة لَمُحْيِ الْمَوْتى أى:

لقادر على إحيائهم فى الآخرة، و بعثهم، و مجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أى: عظيم القدرة كثيرها وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا الضمير فى: فرأوه يرجع إلى الزرع، و النبات الذى كان من أثر رحمة اللّه، أى: فرأوه

مصفرا من البرد الناشئ عن الريح التى أرسلها اللّه بعد اخضراره.
و قيل: راجع إلى الريح، و هو يجوز تذكيره، و تأنيثه. و قيل: راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. و قيل:
راجع إلى السحاب؛ لأنه إذا كان مصفرا لم يمطر، و الأول أولى. و اللام هى: الموطئة، و جواب القسم:
لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ و هو يسدّ مسد جواب الشرط، و المعنى: و لئن أرسلنا ريحا حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصّفار لظلوا من بعد ذلك يكفرون باللّه، و يجحدون نعمه، و فى هذا دليل على سرعة تقلبهم، و عدم صبرهم، و ضعف قلوبهم، و ليس كذا حال أهل الإيمان. ثم شبههم بالموتى و بالصم فقال: فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق، و معرفتهم للصواب وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا دعوتهم إلى الحق، و وعظتهم بمواعظ اللّه، و ذكرتهم الآخرة و ما فيها، و قوله:
إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ
فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۷
بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات، و كونهم صمّ الآذان، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النمل.
ثم وصفهم بالعمى فقال: وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغى، أو لفقدهم للبصائر إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا أى: ما تسمع إلا هؤلاء لكونهم أهل التفكر، و التدبر، و استدلال بالآثار على المؤثر فَهُمْ مُسْلِمُونَ أى: منقادون للحق؛ متبعون له اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ذكر سبحانه استدلالا آخر على كمال قدرته، و هو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، و معنى من ضعف: من نطفة. قال الواحدى: قال المفسرون: من نطفة، و المعنى: من ذى ضعف. و قيل: المراد حال الطفولية و الصغر ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً و هى: قوّة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوّة، و تشتدّ الخلقة إلى بلوغ النهاية ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً أى: عند الكبر و الهرم وَ شَيْبَةً الشيبة:
هى تمام الضعف، و نهاية الكبر. قرأ الجمهور «ضعف» بضم الضاد فى هذه المواضع. و قرأ عاصم، و حمزة بفتحها. و قرأ الجحدرى بالفتح فى الأوّلين، و الضم فى الثالث. قال الفراء: الضم: لغة قريش، و الفتح:
لغة تميم. قال الجوهرى: الضعف: و الضعف خلاف القوّة، و قيل: هو بالفتح فى الرأى، و بالضم: فى الجسم يَخْلُقُ ما يَشاءُ يعنى: من جميع الأشياء، و من جملتها: القوّة و الضعف فى بنى آدم وَ هُوَ الْعَلِيمُ بتدبيره الْقَدِيرُ على خلق ما يريده، و أجاز الكوفيون «من ضعف» بفتح الضاد، و العين وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أى: القيامة، و سميت ساعة: لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ أى: يحلفون ما لبثوا فى الدنيا، أو فى قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدّة لبثهم، و استقرّ ذلك فى أذهانهم، فحلفوا عليه، و هم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. و قال ابن قتيبة:
إنهم كذبوا فى هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل، و هذا هو الظاهر لأنهم إن أرادوا لبثهم فى الدنيا، فقد علم كلّ واحد منهم مقداره، و إن أرادوا لبثهم فى القبور، فقد حلفوا على جهالة إن كانوا لا يعرفون الأوقات فى البرزخ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ
يقال أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق، فالمعنى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون. و قيل: المراد يصرفون عن الحق، و قيل: عن الخير، و الأوّل أولى، و هو دليل على أن حلفهم كذب وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ اختلف فى تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، و قيل: الأنبياء، و قيل: علماء الأمم، و قيل: مؤمنو هذه الأمة، و لا مانع من الحمل على الجميع. و معنى فى كتاب اللّه، فى علمه و قضائه. قال الزجاج: فى علم اللّه المثبت فى اللوح المحفوظ.
قال الواحدى: و المفسرون حملوا هذا على التقديم، و التأخير على تقدير: و قال الذين أوتوا العلم فى كتاب اللّه، و كان ردّ الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبهوهم على طريقة التبكيت بأن فَهذا الوقت الذى صاروا فيه هو يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أنه حق، بل كنتم تستعجلونه تكذيبا و استهزاء فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ أى: لا

ينفعهم الاعتذار يومئذ، و لا يفيدهم علمهم بالقيامة، و قيل: لما ردّ عليهم المؤمنون؛ سألوا الرجوع إلى الدنيا، و اعتذروا فلم يعذروا. قرأ الجمهور «لا تنفع» بالفوقية، و قرأ عاصم، و حمزة، و الكسائى بالتحتية

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۸

وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ يقال: استعتبته فأعتبنى، أى: استرضيته فأرضانى، و ذلك إذا كنت جانيا عليه، و حقيقة أعتبته: أزلت عتبة، و المعنى: أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة، و الطاعة كما دعوا إلى ذلك فى الدنيا وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أى: من كلّ مثل من الأمثال التى تدلهم على توحيد اللّه، و صدق رسله، و احتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية؛ كالعصا، و اليد لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ أى: ما أنت يا محمّد و أصحابك إلا مبطلون أصحاب أباطيل؛ تتبعون السحر، و ما هو مشاكل له فى البطلان كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أى: مثل ذلك الطبع يطبع اللّه على قلوب الفاقدين للعلم النافع؛ الذى يهتدون به إلى الحق، و ينجون به من الباطل، ثم أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم بالصبر؛ معللا لذلك بحقية وعد اللّه، و عدم الخلف فيه، فقال: فَاصْبِرْ على ما تسمعه منهم من الأذى، و تنظره من الأفعال الكفرية، فإن اللّه قد وعدك بالنصر عليهم، و إعلاء حجتك، و إظهار دعوتك، و وعده حق لا خلف فيه وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ أى: لا يحملنك على الخفة، و يستفزنك عن دينك، و ما أنت عليه الذين لا يوقنون باللّه، و لا يصدقون أنبياءه، و لا يؤمنون بكتبه، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم، يقال استخف فلان فلانا: أى: استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغىّ. قرأ الجمهور «يستخفنك» بالخاء المعجمة و الفاء، و قرأ يعقوب، و ابن أبى إسحاق: بحاء مهملة و قاف من استحقاق، و النهى فى الآية من باب: لا أرينك هاهنا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول:

«ما من مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقّا على اللّه أن يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة، ثم تلا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ و هو من طريق شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء عن أبى الدرداء. و أخرج أبو يعلى و ابن المنذر عنه فى قوله: وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً قال: قطعا بعضها فوق بعض فَتَرَى الْوَدْقَ قال:

المطر يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ قال: من بينه. و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ فى دعاء النبى صلّى اللّه عليه و سلم لأهل بدر، و الإسناد ضعيف. و المشهور فى الصحيحين و غيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على ردّ رواية من روى من الصحابة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم نادى أهل قليب بدر، و هو من الاستدلال بالعام على ردّ الخاص فقد قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لما قيل له: إنك تنادى أجسادا بالية «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» و فى مسلم من حديث أنس؛ أنّ عمر ابن الخطاب لما سمع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يناديهم، فقال: يا رسول اللّه! تناديهم بعد ثلاث و هل يسمعون؟ يقول اللّه إنّك لا تسمع الموتى، فقال: و الذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم، و لكنّهم لا يطيقون أن يجيبوا».

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۶۹

سورة لقمان

اشارة

و هى مكية إلا ثلاث آيات، و هى قوله: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ إلى الآيات الثلاث. قاله ابن عباس فيما أخرجه

النحاس عنه. و أخرج ابن الضريس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عنه أنها مكية و لم يستثن، و حكى القرطبى عن قتادة أنها مكية إلا آيتين. و أخرج النسائى، و ابن ماجة عن البراء قال: كنا نصلى خلف النبى صلّى اللّه عليه و سلم الظهر نسمع منه الآية من سورة لقمان و الذاريات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)

قوله: الم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قد تقدّم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة، و محلها من الإعراب مستوفى فلا نعيده، و بيان مرجع الإشارة أيضا، و الْحَكِيمِ إما أن يكون بمعنى مفعل، أو بمعنى فاعل، أو بمعنى ذى الحكمة أو الحكيم قائله، و هُدىً وَ رَحْمَةً منصوبان على الحال على قراءة الجمهور. قال الزجاج: المعنى تلك آيات الكتاب فى حال الهداية و الرحمة، و قرأ حمزة «و رحمة» بالرفع على أنهما خبر مبتدأ محذوف، أى: هو هدى و رحمة، و يجوز أن يكونا خبر تلك، و المحسن: العامل للحسنات، أو من يعبد اللّه كأنه يراه كما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى الصحيح لما سأله جبريل عن الإحسان: فقال: «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ثم بين عمل المحسنين فقال: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ و الموصول: فى محل جر على الوصف للمحسنين، أو فى محل رفع، أو نصب على المدح، أو القطع، و خص هذه العبادات الثلاث لأنها عمدة العبادات أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قد تقدم تفسير هذا فى أوائل سورة البقرة، و المعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان، و فعل تلك الطاعات التى هى أمهات العبادات؛ هم على طريقة الهدى، و هم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيرى

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٧٠

الدارين وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ و من إما موصولة، أو موصوفة، و لهو الحديث كلّ ما يلهى عن الخير من الغناء، و الملاهى، و الأحاديث المكذوبة، و كلّ ما هو منكر، و الإضافة بيانية. و قيل:

المراد شراء القينات المغنيات، و المغنين، فيكون التقدير: و من يشترى أهل لهو الحديث. قال الحسن: لهو الحديث المعازف و الغناء، و روى عنه أنه قال: هو الكفر و الشرك. قال القرطبى: إن أولى ما قيل فى هذا الباب: هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: و هو قول الصحابة و التابعين، و اللام فى لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ للتعليل. قرأ الجمهور بضم الياء من: «ليضل» أى: ليضل غيره عن طريق الهدى، و منهج الحق، و إذا أضل غيره؛ فقد ضل فى نفسه. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن محيصن، و حميد، و ورش، و ابن أبى إسحاق بفتح الياء، أى: ليضل هو فى نفسه. قال الزجاج: من قرأ بضم الياء، فمعناه ليضل غيره، فإذا أضل غيره فقد ضل

هو، و من قرأ بفتح الياء فمعناه ليصير أمره إلى الضلال، و هو إن لم يكن يشترى الضلالة، فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، و يؤيد هذا سبب نزول الآية و سيأتى. قال الطبرى: قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء و المنع منه، و إنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد، و عبد اللّه العنبرى. قال القاضى أبو بكر بن العربى: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شىء منها عليه حرام؛ لا من ظاهرها، و لا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها؟

قلت: قد جمعت رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم فى الغناء، و ما استدل به المحللون له، و المحرمون له، و حققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها، و تدبر معانيها إلى النظر فى غيرها، و سميتها «إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مطلق السماع» فمن أحبّ تحقيق المقام كما ينبغى فليرجع إليها.

و محل قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ النصب على الحال، أى: حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه، أو بحال ما ينفع من التجارة، و ما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض وَ يَتَّخِذَها هُزُواً قرأ الجمهور برفع «يتخذها» عطفا على يشترى فهو من جملة الصلة، و قيل: الرفع على الاستئناف، و الضمير المنصوب فى يتخذها: يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، و الأول أولى. و قرأ حمزة، و الكسائى، و الأعمش «و يتخذها» بالنصب: عطفا على يضل، و الضمير المنصوب راجع إلى السبيل، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم، و المعنى: أنه يشترى لهو الحديث للإضلال عن سبيل اللّه، و اتخاذ السبيل هزوا، أى: مهزوءا به، و السبيل: يذكر و يؤنث، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ إلى من، و الجمع باعتبار معناها، كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها، و العذاب المهين: هو الشديد الذى يصير به من وقع عليه مهينا وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا أى: و إذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزئ وَلَّى مُسْتَكْبِراً أى: أعرض عنها حال كونه مبالغا فى التكبر، و جملة كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فى محل نصب على الحال، أى: كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها؛ مع أنه قد سمعها، و لكن أشبهت حاله حال من لم يسمع، و جملة كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً حال ثانية، أو بدل من التى قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، و يجوز أن تكون مستأنفة، و الوقر: الثقل،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷۱

و قد تقدم بيانه، و فيه مبالغة إعراض ذلك المعرض فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أى: أخبره بأن له العذاب البليغ فى الألم، ثم لما بيّن سبحانه حال من يعرض عن الآيات؛ بين حال من يقبل عليها فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: آمنوا باللّه و بآياته، و لم يعرضوا عنها بل قبلوها، و عملوا بها لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ أى: نعيم الجنات فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم، كما جعل للفريق الأول: العذاب المهين، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال، و قرأ زيد بن على «خالدون فيها» على أنه خبر ثان لأن وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا هما مصدران الأول مؤكد لنفسه، أى: وعد اللّه وعدا، و الثانى: مؤكد لغيره، و هو مضمون الجملة الأولى، و تقديره حق ذلك حقا. و المعنى أن وعده كائن لا محالة، و لا خلف فيه وَ هُوَ الْعَزِيزُ الذى لا يغلبه غالب الْحَكِيمُ فى كلّ أفعاله، و أقواله. ثم بين سبحانه عزّته، و حكمته بقوله: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها العمد: جمع عماد. و قد تقدم الكلام فيه فى سورة الرعد، و ترونها: فى محل جرّ صفة لعمد، فيمكن أن تكون ثمّ عمد، و لكن لا ترى. و يجوز أن تكون فى موضع نصب على الحال، أى: و لا عمد ألبتة. قال النحاس: و سمعت على بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفا، أى: و لا عمد ثم وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أى: جبالا ثوابت أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ فى محل نصب على العلة، أى: كراهة أن تميد بكم، و الكوفيون يقدّرونه لئلا تميد، و المعنى: أنه خلقها و جعلها مستقرّة ثابتة لا تتحرّك؛ بجبال جعلها عليها؛ و أرساها على ظهرها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ أى: من كلّ نوع من أنواع الدوابّ، و قد تقدّم بيان معنى البثّ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أى: أنزلنا من السماء مطرا فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كلّ زوج، أى: من كلّ صنف، و وصفه بكونه كريما لحسن لونه، و كثرة منافعه. و قيل: إن المراد بذلك

الناس، فالكريم منهم: من يصير إلى الجنة، و اللئيم: من يصير إلى النار. قاله:
الشعبى و غيره، و الأوّل أولى. و الإشارة بقوله: هذا إلى ما ذكر فى خلق السموات و الأرض، و هو:
مبتدأ، و خبره: خَلْقُ اللَّهِ أى: مخلوقه فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ من آلهتكم التى تعبدونها، و الاستفهام: للتقريع، و التوبيخ، و المعنى: فأرونى أىّ شىء خلقوا مما يحاكى خلق اللّه أو يقاربه؟
و هذا الأمر لهم لقصد التعجيز و التبكيت. ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر؛ إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر، فقال: بَلِ الظَّالِمُونَ فِی ضَلالٍ فقرّر ظلمهم أوّلا، و ضلالهم ثانيا، و وصف ضلالهم بالوضوح و الظهور، و من كان هكذا فلا يعقل الحجة، و لا يهتدى إلى الحق.
و قد أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ يعنى:
باطل الحديث. و هو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم و صنيعهم فى دهرهم. و كان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام، و يكذب بالقرآن. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن مردويه عنه فى الآية قال: باطل الحديث. و هو الغناء و نحوه لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: قراءة القرآن، و ذكر اللّه، نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية. و أخرج البخارى فى الأدب المفرد، و ابن أبى الدنيا، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى السنن عنه أيضا فى الآية قال: هو الغناء، و أشباهه. و أخرج ابن

جرير، و ابن المنذر، و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: الجوارى الضاربات. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى الدنيا، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبى الصهباء قال: سألت عبد اللّه بن مسعود عن قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ قال: هو و اللّه الغناء. و لفظ ابن جرير: هو الغناء و اللّه الذى لا إله إلا هو، يردّدها ثلاث مرات. و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد، و الترمذى، و ابن ماجة، و ابن أبى الدنيا، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى أمامة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا تبيعوا القينات و لا تشتروهنّ، و لا خير فى تجارة فيهنّ، و ثمنهنّ حرام» فى مثل هذا أنزلت هذه الآية وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ الآية، و فى إسناده عبيد اللّه بن زحر عن على بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن و فيهم ضعف. و أخرج ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى، و ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه حرّم القينة و بيعها و ثمنها و تعليمها و الاستماع إليها، ثم قرأ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ . و أخرج ابن أبى الدنيا، و البيهقى فى السنن عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» و روياه عنه موقوفا، و أخرج ابن أبى الدنيا، و ابن مردويه عن أبى أمامة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث اللّه إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتّى يمسك».
و فى الباب أحاديث فى كلّ حديث منها مقال. و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود فى قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ قال: الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا و نهارا. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمر «أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول فى قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ
إنّما ذلك شراء الرّجل اللعب و الباطل». و أخرج ابن أبى الدنيا و البيهقى عن نافع قال: كنت أسير مع عبد اللّه ابن عمر فى طريق، فسمع زمّارة فوضع إصبعيه فى أذنيه، ثمّ عدل عن الطريق، فلم يزل يقول يا نافع أ تسمع؟ قلت: لا. فأخرج إصبعيه من أذنيه و قال: هكذا رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صنع. و أخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول اللّه صلّى اللّه

عليه و سلم قال: «نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو، و مزامير شيطان، و صوت عند مصيبة، خمش وجوه، و شقّ جيوب، و رنّة شيطان».

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

فتح القدير، ج ٤، ص: ٢٧٣

اختلف فى لقمان: هل هو عجمى، أم عربى؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه عجمى؛ منعه للتعريف و العجمة، و من قال: إنه عربى؛ منعه للتعريف، و لزيادة الألف و النون. و اختلفوا أيضا: هو نبيّ، أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم: إلى أنه ليس بنبيّ. و حكى الواحدى عن عكرمة، و السدى و الشعبى أنه كان نبيا، و الأوّل أرجح لما سيأتى فى آخر البحث. و قيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط، مع أن الراوى لذلك عنه جابر الجعفى، و هو ضعيف جدا. و هو لقمان بن باعور ابن ناحور بن تارخ، و هو آزر أبو إبراهيم، و قيل: هو لقمان بن عنقا بن مرون، و كان نوبيا من أهل أيلة، ذكره السهيلى. قال وهب: هو ابن أخت أيوب. و قال مقاتل: هو ابن خالته، عاش ألف سنة، و أخذ عنه العلم، و كان يفتى قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفى إذ كفيت. قال الواقدى: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، و الحكمة التى آتاه اللّه: هى الفقه، و العقل، و الإصابة فى القول، و فسر الحكمة؛ من قال بنبوّته: بالنبوّة أَنِ اشْكُرْ لِي أن هى المفسرة، لأن فى إيتاء الحكمة: معنى القول. و قيل: التقدير قلنا له: أن اشكر لى. و قال الزجاج: المعنى و لقد آتينا لقمان الحكمة لأن اشكر لى. و قيل بأن اشكر لى، فشكر، فكان حكيما بشكره، و الشكر للّه الثناء عليه فى مقابلة النعمة، و طاعته فيما أمر به. ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال: وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأن نفع ذلك راجع إليه، و فائدته حاصلة له، إذ به تستبقى النعمة، و بسببه يستجلب المزيد لها من اللّه سبحانه: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أى:

من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن اللّه غنىّ عن شكره؛ غير محتاج إليه؛ حميد مستحق للحمد من خلقه لإنعامه عليهم بنعمه التى لا يحاط بقدرها، و لا يحصر عددها، و إن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كلّ موجود ناطق بحمده بلسان الحال. قال يحيى بن سلام: غنىّ عن خلقه؛ حميد فى فعله وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ قال السهيلى: اسم ابنه ثاران فى قول ابن جرير و القتبى و قال الكلبى: مشكم. و قال النقاش: أنعم. و قيل:

ماتان. قال القشيرى: كان ابنه و امرأته كافرين، فما زال يعظهما حتى أسلما، و هذه الجملة معطوفة على ما تقدّم، و التقدير: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا فى نفسه، و حين جعلناه واعظا لغيره. قال الزجاج: إذ فى موضع نصب بآتينا. و المعنى: و لقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. قال النحاس: و أحسبه غلطا لأن فى الكلام واوا، و هى تمنع من ذلك، و معنى: وَ هُوَ يَعِظُهُ يخاطبه

بالمواعظ التى ترغّبه فى التوحيد و تصدّه عن الشّرك يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ قرأ الجمهور بكسر الياء. و قرأ ابن كثير بإسكانها. و قرأ حفص بفتحها، و نهيه عن الشرك يدلّ على أنه كان كافرا كما تقدّم، و جملة: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ تعليل لما قبلها، و بدأ فى وعظه بنهيه عن الشرك؛ لأنه أهمّ من غيره.

و قد اختلف فى هذه الجملة، فقيل: هى من كلام لقمان، و قيل: هى من كلام اللّه، فتكون منقطعة عما قبلها. و يؤيد هذا ما ثبت فى الحديث الصحيح أنها لما نزلت: وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ «۱» شق ذلك

---

(۱). الأنعام: ۸۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷۴

على الصحابة، و قالوا: أينا لم يظلم نفسه. فأنزل اللّه: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ فطابت أنفسهم.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ هذه الوصية بالوالدين، و ما بعدها إلى قوله: بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ اعتراض بين كلام لقمان؛ لقصد التأكيد لما فيها من النهى عن الشرك باللّه، و تفسير التوصية هى قوله: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ و ما بينهما: اعتراض بين المفسر و المفسر، و فى جعل الشكر لهما مقترنا بالشكر للّه: دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، و أكبرها، و أشدّها وجوبا، و معنى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ أنها حملته فى بطنها، و هى تزداد كلّ يوم ضعفا على ضعف، و قيل المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، و انتصاب وهنا: على المصدر. و قال النحاس: على أنه مفعول ثان بإسقاط الحرف، أى:

حملته بضعف على ضعف، و قال الزجاج: المعنى لزمها بحملها إياه أن تضعف، مرّة بعد مرة، و قيل انتصابه على الحال من أمه و «على وهن»: صفة لوهنا، أى: وهنا كائنا على وهن. قرأ الجمهور بسكون الهاء فى الموضعين. و قرأ عيسى الثقفى و هى رواية عن أبى عمرو بفتحهما و هما: لغتان. قال قعنب:

هل للعواذل من ناه فيزجرهاإنّ العواذل فيها الأين و الوهن

وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ الفصال: الفطام، و هو: أن يفصل الولد عن الأم، و هو: مبتدأ، و خبره:

الظرف. و قرأ الجحدرى، و قتادة، و أبو رجاء، و الحسن، و يعقوب «و فصله» و هما لغتان، يقال انفصل عن كذا: أى: تميز، و به سمى الفصيل. و قد قدّمنا أن أمه فى قوله: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ هى المفسرة.

و قال الزجاج: هى مصدرية. و المعنى: بأن اشكر لى. قال النحاس: و أجود منه أن تكون أن مفسرة، و جملة:

إِلَيَّ الْمَصِيرُ تعليل لوجوب امتثال الأمر، أى: الرجوع إلىّ لا إلى غيرى وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أى: ما لا علم لك بشركته فَلا تُطِعْهُما فى ذلك. و قد قدّمنا تفسير الآية، و سبب نزولها فى سورة العنكبوت، و انتصاب مَعْرُوفاً: على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: و صاحبهما صحابا معروفا، و قيل: هو منصوب بنزع الخافض، و التقدير بمعروف وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَ أى:

اتبع سبيل من رجع إلىّ من عبادى الصالحين بالتوبة و الإخلاص ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ جميعا لا إلى غيرى فَأُنَبِّئُكُمْ أى: أخبركم عند رجوعكم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من خير و شرّ، فأجازى كلّ عامل بعمله.

و قد قيل: إن هذا السياق من قوله: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ إلى هنا: من كلام لقمان، فلا يكون اعتراضا، و فيه بعد. ثم شرع سبحانه فى حكاية بقية كلام لقمان؛ فى وعظه لابنه فقال: يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ الضمير فى إنها: عائد إلى الخطيئة؛ لما روى أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد هل يعلمها اللّه؟ فقال إنها: أى الخطيئة، و الجملة الشرطية: مفسرة للضمير، أى: إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل. قال الزجاج: التقدير إن التى سألتنى عنها إن تك مثقال

حبة من خردل، و عبر بالخردلة لأنها أصغر الحبوب، و لا يدرك بالحسّ ثقلها، و لا ترجح ميزانا. و قيل: إن الضمير فى «إنها» راجع إلى الخصلة من الإساءة، و الإحسان، أى: إن الخصلة من الإساءة و الإحسان؛ إن تك مثقال حبة إلخ، ثم زاد فى بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال: فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ فإن كونها فى الصخرة قد صارت

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷۵

فى أخفى مكان و أحرزه أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ أى: أو حيث كانت من بقاع السموات أو من بقاع الأرض يَأْتِ بِهَا اللَّهُ أى: يحضرها، و يحاسب فاعلها عليها إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ لا تخفى عليه خافية. بل يصل علمه إلى كلّ خفى خَبِيرٌ بكل شىء لا يغيب عنه شيء. قرأ الجمهور «إن تك» بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة؛ أو المسألة؛ أو الخصلة؛ أو القصة. و قرءوا «مثقال» بالنصب على أنه خبر كان.

و اسمها هو أحد تلك المقدرات. و قرأ نافع برفع مثقال على أنه اسم كان، و هى تامة. و أنث الفعل فى هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث. و قرأ الجمهور «فتكن» بضم الكاف. و قرأ الجحدرى بكسرها و تشديد النون، من الكنّ الذى هو الشىء المغطى. قال السدّى: هذه الصخرة هى صخرة ليست فى السموات و لا فى الأرض. ثم حكى سبحانه عن لقمان أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و الصبر على المصيبة. و وجه تخصيص هذه الطاعات: أنها أمهات العبادات، و عماد الخير كله. و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكَ إلى الطاعات المذكورة، و خبر إنّ: قوله: مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أى: مما جعله اللّه عزيمة، و أوجبه على عباده. و قيل المعنى: من حق الأمور التى أمر اللّه بها. و العزم: يجوز أن يكون بمعنى المعزوم، أى: من معزومات الأمور، أو بمعنى العازم كقوله: فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ «۱» قال المبرد: إن العين تبدل حاء. فيقال عزم و حزم. قال ابن جرير: و يحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق، و عزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، و صوّب هذا القرطبى وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ قرأ الجمهور «تصعر» و قرأ ابن كثير و ابن عامر و عاصم «تصاعر»، و المعنى متقارب، و الصعر: الميل، يقال صعر خدّه و صاعر خدّه: إذا أمال وجهه، و أعرض تكبرا، و المعنى: لا تعرض عن الناس تكبرا عليهم. و منه قول الشاعر:

و كنّا إذا الجبّار صعّر خدّهمشينا إليه بالسّيوف نعاتبه

و رواه ابن جرير هكذا:

و كنّا إذا الجبّار صعّر خدّهأقمنا له من ميله فتقوّما «۲»

قال الهروى وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أى: لا تعرض عنهم تكبرا، يقال أصاب البعير صعر: إذا أصابه داء يلوى عنقه، و قيل المعنى: و لا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك؛ كأنك تحتقره. و قال ابن خويز منداد: كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة، و لعله فهم من التصعير التذلل وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً أى: خيلاء و فرحا، و المعنى: النهى عن التكبر، و التجبر، و المختال يمرح فى مشية، و هو مصدر فى موضع الحال، و قد تقدّم تحقيقه، جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ: تعليل للنهى؛ لأن الاختيال: هو المرح، و الفخور: هو الذى يفتخر على الناس بماله من المال، أو الشرف، أو القوة، أو غير ذلك، و ليس منه: التحدّث بنعم اللّه، فإن اللّه يقول: وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ «۳» وَ اقْصِدْ فِي

---

(۱). محمّد: ۲۱.

(۲). قال ابن عطية: فتقوّم؛ لأن قافية الشعر مخفوضة، و المعنى: فتقوّم أنت. القرطبى (۱۴/ ۶۹)

(۳). الضحى: ۱۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۷۶

مَشْيِكَ أی: توسط فيه، و القصد: ما بين الإسراع و البطء. يقال قصد فلان فی مشيته إذا مشی مستويا لا يدبّ دبيب المتماوتين، و لا يثب و ثوب الشياطين. و قد ثبت أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم كان إذا مشی أسرع، فلا بدّ أن يحمل القصد هنا علی ما جاوز الحدّ فی السرعة. و قال مقاتل: معناه لا تختل فی مشيتک. و قال عطاء: امش بالوقار و السكينة. كقوله: يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً «١» وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ أی:

أنقص منه، و اخفضه، و لا تتكلف رفعه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذی السامع. و جملة: إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ تعليل للأمر بالغض من الصوت، أی: أوحشها، و أقبحها. قال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير؛ أوّله زفير، و آخره شهيق قال المبرد: تأويله إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، و إنه داخل فی باب الصوت المنكر، و اللام فی لصوت: للتأكيد، و وحد الصوت مع كونه مضافا إلی الجمع:

لأنه مصدر، و هو يدلّ علی الكثرة، و هو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت.

و قد أخرج ابن مردويه عن أبی هريرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «أ تدرون ما كان لقمان؟ قالوا:

اللّه و رسوله أعلم، قال: كان حبشيّا». و أخرج ابن أبی شيبة، و أحمد فی الزهد، و ابن أبی الدنيا فی كتاب المملوكين، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: كان لقمان عبدا حبشيّا نجّارا.

و أخرج الطبرانی، و ابن حبان فی الضعفاء، و ابن عساكر عنه قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «اتّخذوا السّودان، فإنّ ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، و النّجاشیّ، و بلال المؤذن». قال الطبرانی:

أراد الحبشة.

و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فی قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ يعنی: العقل، و الفهم، و الفطنة فی غير نبوّة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبی حاتم عن عكرمة أنه كان نبيا، و قد قدّمنا أن الراوی عنه جابر الجعفی، و هو ضعيف جدا. و أخرج أحمد، و الحكيم الترمذی، و الحاكم فی الكنی، و البيهقی فی الشعب عن ابن عمر عن النبیّ صلّی اللّه عليه و سلم قال: «إنّ لقمان الحكيم كان يقول: إنّ اللّه إذا استودع شيئا حفظه» و قد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة، و التابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان، و حكمه، و لم يصح عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم من ذلک شیء، و لا ثبت إسناد صحيح إلی لقمان بشیء منها حتی نقبله. و قد حكی سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه فی هذا الوضع، و فيه كفاية، و ما عدا ذلک مما لم يصح؛ فليس فی ذكره إلا شغلة للحيز، و قطيعة للوقت، و لم يكن نبيا حتی يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، و لا صحّ إسناد ما روی عنه من الكلمات؛ حتی يكون ذكر ذلک من تدوين كلمات الحكمة التی هی: ضالة المؤمن. و أخرج أبو يعلی، و الطبرانی، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن أبی عثمان النهدی أن سعد بن أبی وقاص قال: أنزلت فیّ هذه الآية وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي و قد تقدّم ذكر هذا. و أخرج ابن جرير عن أبی هريرة قال: نزلت هذه الآية فی سعد بن أبی وقاص. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی قوله: وَهْناً عَلى وَهْنٍ قال: شدّة بعد شدة، و خلقا بعد خلق: و أخرج الطبرانی، و ابن عدیّ و ابن مردويه عن أبی أيوب الأنصاری

---

(١). الفرقان: ٦٣.

أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم سئل عن قوله: وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ فقال: لیّ الشدق. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ قال: لا تتكبر فتحتقر عباد اللّه، و تعرض عنهم إذا كلموک. و

أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هو الذى إذا سلم عليه؛ لوى عنقه كالمستكبر.

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٢٨]

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤)
وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)
لما فرغ سبحانه من قصة لقمان، رجع إلى توبيخ المشركين، و تبكيتهم، و إقامة الحجج عليهم، فقال:
أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قال الزجاج: معنى تسخيرها للآدميين:
الانتفاع بها، انتهى، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبنى آدم: أى التى ينتفعون بها الشمس و القمر، و النجوم، و نحو ذلك. و من جملة ذلك الملائكة، فإنهم حفظة لبنى آدم بأمر اللّه سبحانه، و من مخلوقات الأرض المسخرة لبنى آدم: الأحجار، و التراب، و الزرع، و الشجر، و الثمر، و الحيوانات التى ينتفعون بها، و العشب الذى يرعون فيه دوابهم، و غير ذلك مما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منقادا له و داخلا تحت تصرّفه أم لا وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً أى:
أتمّ و أكمل عليكم نعمه، يقال: سبغت النعمة إذا تمت و كملت. قرأ الجمهور «أسبغ» بالسين، و قرأ ابن عباس و يحيى بن عمارة «أصبغ» بالصاد مكان السين. و النعم جمع نعمة على قراءة نافع و أبى عمرو و حفص، و قرأ الباقون «نعمة» بسكون العين على الإفراد، و التنوين: اسم جنس يراد به الجمع، و يدلّ به على الكثرة، كقوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها «١» و هى قراءة ابن عباس. و المراد بالنعم الظاهرة: ما يدرك بالعقل، أو الحسّ، و يعرفه من يتعرفه، و بالباطنة: ما لا يدرك للناس، و يخفى عليهم. و قيل: الظاهرة الصحة و كمال الخلق، و الباطنة: المعرفة، و العقل. و قيل: الظاهرة: ما يرى بالأبصار من المال، و الجاه، و الجمال،

---

(١). إبراهيم: ٣٤.

و فعل الطاعات، و الباطنة: ما يجده المرء فى نفسه من العلم باللّه، و حسن اليقين، و ما يدفعه اللّه عن العبد من الآفات. و قيل: الظاهرة: نعم الدنيا، و الباطنة: نعم الآخرة. و قيل: الظاهرة: الإسلام و الجمال، و الباطنة: ما ستره اللّه على العبد من الأعمال السيئة وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ أى: فى شأن اللّه سبحانه فى توحيده، و صفاته مكابرة، و عنادا بعد ظهور الحق له، و قيام الحجة عليه، و لهذا قال: بِغَيْرِ عِلْمٍ من عقل، و لا نقل وَ لا هُدىً يهتدى به إلى طريق الصواب وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ أنزله اللّه سبحانه، بل مجرّد تعنت، و محض عناد، و قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ أى: إذا قيل لهؤلاء المجادلين، و الجمع: باعتبار معنى من، اتبعوا ما أنزل اللّه على رسوله من الكتاب؛ تمسكوا بمجرد التقليد البحت، و قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا

عَلَيْهِ آباءَنا فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، و نمشى فى الطريق التى كانوا يمشون بها فى دينهم، ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد، و التبكيت أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ أى: يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم فى دينهم، أى: يتبعونهم فى الشرك، و لو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك، و يجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم أتباع آبائهم، و التدين بدينهم، و يجوز أن يراد أن يدعو جميع التابعين، و المتبوعين إلى العذاب، فدعاؤه للمتبوعين: بتزيينه لهم الشرك، و دعاؤه للتابعين: بتزيينه لهم دين آبائهم، و جواب لو: محذوف، أى: يدعوهم، فيتبعونهم، و محل الجملة: النصب على الحال. و ما أقبح التقليد، و أكثر ضرره على صاحبه، و أوخم عاقبته، و أشأک عائدته على من وقع فيه. فإن الداعى إلى ما أنزل اللّه على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق، فتأبى ذلک و تهافت فى نار الحريق و عذاب السعير وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ أى: يفوّض إليه أمره، و يخلص له عبادته، و يقبل عليه بكليته وَ هُوَ مُحْسِنٌ فى أعماله، لأن العبادة من غير إحسان لها، و لا معرفة بما يحتاج إليه فيها؛ لا تقع بالموقع الذى تقع به عبادة المحسنين: و قد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له: «أن تعبد اللّه كأنک تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراک» فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى أى: اعتصم بالعهد الأوثق و تعلق به، و هو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى اللّه؛ بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل، فتمسک بأوثق عرى حبل متدلّ منه وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أى: مصيرها إليه؛ لا إلى غيره. و قرأ علىّ بن أبى طالب، و السلمى، و عبد اللّه بن مسلم بن يسار «و من يسلّم» بالتشديد قال النحاس: و التخفيف فى هذا أعرف كما قال عزّ و جلّ: فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ «١» وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْکَ كُفْرُهُ أى: لا تحزن لذلک، فإن كفره لا يضرک، بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله: إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أى: نخبرهم بقبائح أعمالهم، و نجازيهم عليها إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أى: بما تسرّه صدورهم، لا تخفى عليه من ذلک خافية. فالسرّ عنده كالعلانية نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا أى:

نبقيهم فى الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. فإن النعيم الزائل: هو أقل قليل بالنسبة إلى النعيم الدائم. و انتصاب

---

(١). آل عمران: ٢٠.

قليلا: على أنه صفة لمصدر محذوف، أى: تمتيعا قليلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ أى: نلجئهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه، و أصيب به، فلهذا استعير له الغلظ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ أى: يعترفون باللّه خالق ذلک؛ لوضوح الأمر فيه عندهم. و هذا اعتراف منهم مما يدل على التوحيد، و بطلان الشرک، و لهذا قال: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ أى: قل يا محمّد:

الحمد للّه على اعترافكم، فكيف تعبدون غيره، و تجعلونه شريكا له؟ أو المعنى: فقل الحمد للّه على ما هدانا له من دينه و لا حمد لغيره ثم أضرب عن ذلک فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أى: لا ينظرون، و لا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء؛ هو الذى تجب له العبادة دون غيره لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ملكا، و خلقا فلا يستحق العبادة غيره إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُ عن غيره الْحَمِيدُ أى:

المستحق للحمد، أو المحمود من عباده بلسان المقال، أو بلسان الحال. ثم لما ذكر سبحانه أن له ما فى السموات و الأرض؛ أتبعه بما يدلّ على أنه له وراء ذلک ما لا يحيط به عدد، و لا يحصر بحدّ، فقال: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ أى: لو أن جميع ما فى الأرض من الشجر: أقلام، و وحد الشجرة لما تقرّر فى علم المعانى؛ أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرة أقلام حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا و قد بريت أقلاما، و جمع الأقلام لقصد التكثير، أى: لو أن يعدّ كلّ شجرة من

الشجر أقلاما، قال أبو حيان: و هو من وقوع المفرد موقع الجمع، و النكرة موقع المعرفة، كقوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ «١»، ثم قال سبحانه: وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ أى: يمدّه من بعد نفاذه سبعة أبحر. قرأ الجمهور «و البحر» بالرفع: على أنه مبتدأ، و يمدّه: خبره، و الجملة فى محل الحال، أى: و الحال أن البحر المحيط مع سعته يمدّه السبعة الأبحر مدّا لا ينقطع، كذا قال سيبويه. و قال المبرد: إن البحر مرتفع بفعل مقدّر، تقديره: و لو ثبت البحر حال كونه تمدّه من بعده سبعة أبحر، و قيل: هو مرتفع بالعطف على أن؛ و ما فى حيزها. و قرأ أبو عمرو و ابن أبى إسحاق، و البحر بالنصب عطفا على اسم أن، أو بفعل مضمر يفسره يمدّه. و قرأ ابن هرمز و الحسن «يمدّه» بضم حرف المضارعة، و كسر الميم، و من أمدّ. و قرأ جعفر بن محمّد و البحر «مداده» و جواب لو ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ أى: كلماته التى هى: عبارة عن معلوماته. قال أبو علىّ الفارسى: المراد بالكلمات؛ و اللّه أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود، و وافقه القفال فقال: المعنى أن الأشجار لو كانت أقلاما، و البحار مدادا، فكتب بها عجائب صنع اللّه الدالة على قدرته، و وحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القشيرى: ردّ القفال معنى الكلمات إلى المقدورات، و حمل الآية على الكلام القديم: أولى.

قال النحاس: قد تبين أن الكلمات هاهنا: يراد بها العلم، و حقائق الأشياء، لأنه جلّ و علا علم قبل أن يخلق الخلق؛ ما هو خالق فى السموات و الأرض من شىء، و علم ما فيه من مثاقيل الذرّ، و علم الأجناس كلها، و ما فيها من شعرة، و عضو و ما فى الشجرة من ورقة، و ما فيها من ضروب الخلق. و قيل: إن قريشا قالت:

ما أكثر كلام محمّد، فنزلت، قاله السدّى، و قيل: إنها لما نزلت: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «٢»

---

(١). البقرة: ١٠۶.

(٢). الإسراء: ٨۵.

فى اليهود، قالوا كيف و قد أوتينا التوراة فيها كلام اللّه و أحكامه، فنزلت. قال أبو عبيدة: المراد بالبحر هنا:

الماء العذب الذى ينبت الأقلام، و أما الماء المالح، فلا ينبت الأقلام. قلت: ما أسقط هذا الكلام، و أقلّ جدواه إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أى: غالب لا يعجزه شىء، و لا يخرج عن حكمته، و علمه فرد من أفراد مخلوقاته ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ أى: إلا كخلق نفس واحدة و بعثها. قال النحاس: كذا قدّره النحويون، كخلق نفس مثل قوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «١» قال الزجاج: أى: قدرة اللّه على بعث الخلق كلهم و على خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة، و بعث نفس واحدة إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لكل ما يسمع بَصِيرٌ بكل ما يبصر. و قد أخرج البيهقى فى الشعب عن عطاء قال: سألت ابن عباس عن قوله:

وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ الآية، قال: هذه من كنوز علمى، سألت عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: «أما الظاهرة:

فما سوّى من خلقك، و أمّا الباطنة: فما ستر من عورتك، و لو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم».

و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و الديلمى، و ابن النجار عنه قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً فقال: أما الظاهرة: فالإسلام و ما سوّى من خلقك و ما أسبغ عليك من رزقه، و أمّا الباطنة: فما ستر من مساوئ عملك». و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: النعمة الظاهرة: الإسلام، و النعمة الباطنة: كل ما يستر عليكم من الذنوب، و العيوب، و الحدود. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا أنه قال فى تفسير الآية هى:

لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن أبى إسحاق، و ابن جرير، عنه أيضا فى قوله وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ الآية «أن أحبار اليهود قالوا لرسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بالمدينة: يا محمّد! أ رأيت قولك وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا «٢» إيّانا تريد أم قومك؟ فقال كلّا، فقالوا: أ لست تتلو فيما جاءك أنّا قد أوتينا التوراة و فيها تبيان كلّ شيء؟ فقال: إنّها فى علم اللّه قليل، و أنزل اللّه وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ الآية. و أخرجه ابن مردويه عنه بأطول منه. و أخرج ابن مردويه أيضا عن ابن مسعود نحوه.

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٩ الى ٣٤]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

---

(١). يوسف: ٨٢.

(٢). الإسراء: ٨٥.

الخطاب بقوله: أَ لَمْ تَرَ لكلّ أحد يصلح لذلك، أو للرسول صلّى اللّه عليه و سلم أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أى: يدخل كلّ واحد منهما فى الآخر، و قد تقدّم تفسيره فى سورة: الحج، و الأنعام وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ أى: ذللهما، و جعلهما منقادين بالطلوع، و الأفول تقديرا للآجال، و تتميما للمنافع، و الجملة معطوفة على ما قبلهما مع اختلافهما كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى اختلف فى الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل: هو يوم القيامة، و قيل: وقت الطلوع: و وقت الأفول، و الأوّل: أولى، و جملة:

وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ معطوفة على أن اللّه يولج، أى: خبير بما تعملونه من الأعمال؛ لا تخفى عليه منها خافية، لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة، فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى، قرأ الجمهور:

«تعملون» بالفوقية، و قرأ السلمى و نصر بن عامر و الدورى عن أبى عمرو: بالتحتية على الخبر، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره، و الباء فى بِأَنَّ اللَّهَ للسببية، أى: ذلك بسبب أنه سبحانه هُوَ الْحَقُ و غيره الباطل، أو متعلقة بمحذوف، أى: فعل ذلك ليعلموا أنه الحق وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ قال مجاهد: الذى يدعون من دونه هو الشيطان، و قيل: ما أشركوا به من صنم، و هذا أولى وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ معطوفة على جملة «أن اللّه هو الحق» و المعنى: أن ذلك الصنع البديع الذى وصفه فى الآيات المتقدّمة للاستدلال به على حقية اللّه، و بطلان ما سواه، و علوّه و كبريائه: هو العليّ فى مكانته، ذو الكبرياء فى ربوبيته، و سلطانه. ثم ذكر من عجيب صنعه، و بديع قدرته نوعا آخر فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ أى: بلطفه بكم، و رحمته لكم، و ذلك من أعظم نعمه عليكم لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم فى البحر لطلب الرزق، و قرأ ابن هرمز «بنعمات اللّه» جمع نعمة لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ من للتبعيض، أى: ليريكم بعض آياته. قال يحيى بن سلام: و هو جرى السفن فى البحر

بالريح.

و قال ابن شجرة: المراد بقوله: «من آياته ما يشاهدونه من قدرة اللّه. و قال النقاش: ما يرزقهم اللّه فى البحر إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: إن فيما ذكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ، و شكر كثير يصبر عن معاصى اللّه و يشكر نعمه وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ شبه الموج لكبره: بما يظلّ الإنسان من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، و إنما شبه الموج و هو واحد بالظلل.

و هى جمع، لأن الموج يأتى شيئا بعد شىء، و يركب بعضه بعضا. و قيل: إن الموج فى معنى الجمع؛ لأنه مصدر، و أصل الموج: الحركة، و الازدحام، و منه يقال: ماج البحر، و ماج الناس. و قرأ محمّد ابن الحنفية «موج كالظلال» جمع ظلّ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى: دعوا اللّه وحده؛ لا يعوّلون على غيره فى خلاصهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضرّ، و لا ينفع سواه، و لكنه تغلب على طبائعهم العادات، و تقليد الأموات، فإذا وقعوا فى مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية اللّه، و أخلصوا دينهم له طلبا للخلاص، و السلامة مما وقعوا فيه فَلَمَّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ صاروا على قسمين: فقسم مُقْتَصِدٌ أى: موف بما عاهد اللّه فى البحر من إخلاص الدين له؛ باق على ذلك بعد أن نجاه اللّه من هول البحر، و أخرجه إلى البرّ سالما. قال الحسن: معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد، و الطاعة. و قال مجاهد: مقتصد فى القول؛ مضمر للكفر،

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۲

و الأولى ما ذكرناه، و يكون فى الكلام حذف، و التقدير: فمنهم مقتصد، و منهم كافر، و يدلّ على هذا المحذوف قوله: وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ الختر: أسوأ الغدر و أقبحه، و منه قول الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزلهحصن حصين و جار غير ختّار

قال الجوهرى: الختر: الغدر، يقال ختره؛ فهو ختار. قال الماوردى: و هذا قول الجمهور. و قال ابن عطية: إنه الجاحد، و جحد الآيات: إنكارها، و الكفور: عظيم الكفر بنعم اللّه سبحانه يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ أى: لا يغنى الوالد عن ولده شيئا، و لا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه. و قد تقدّم بيان معناه فى البقرة وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ذكر سبحانه فردين من القرابات، و هو الوالد، و الولد، و هما الغاية فى الحنوّ و الشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزى بالأولى، فكيف بالأجانب. اللهمّ اجعلنا ممن لا يرجو سواك، و لا يعوّل على غيرك إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ لا يتخلف؛ فما وعد به من الخير و أوعد به من الشرّ، فهو كائن لا محالة فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا و زخارفها، فإنها زائلة ذاهبة وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قرأ الجمهور «الغرور» بفتح الغين المعجمة، و الغرور: هو الشيطان، لأن من شأنه أن يغرّ الخلق، و يمنيهم بالأمانى الباطلة، و يلهيهم عن الآخرة، و يصدّهم عن طريق الحق. و قرأ سماك بن حرب و أبو حيوة و ابن السميقع بضم الغين مصدر غرّ يغرّ غرورا، و يجوز أن يكون مصدرا؛ واقعا وصفا للشيطان على المبالغة إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أى: علم وقتها الذى تقوم فيه. قال الفراء: إن معنى هذا الكلام النفى، أى: ما يعلمه أحد إلا اللّه عزّ و جلّ. قال النحاس: و إنما صار فيه معنى النفى لما ورد عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال فى قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ «۱» إنها هذه وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ فى الأوقات التى جعلها معينة لإنزاله و لا يعلم ذلك غيره وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ من الذكور و الإناث، و الصلاح و الفساد وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة، و الأنبياء، و الجنّ، و الإنس ما ذا تَكْسِبُ غَداً من كسب دين أو كسب دنيا وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ أى: بأىّ مكان يقضى اللّه عليها بالموت.

قرأ الجمهور «و ينزل الغيث» مشدّدا. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى مخففا. و قرأ الجمهور «بأىّ أرض» و قرأ أبىّ بن كعب و موسى الأهوازى «بأية» و جوّز ذلك الفراء و هى لغة ضعيفة. قال الأخفش: يجوز أن يقال مررت بجارية أىّ

جاريهٔ. قال الزجاج: من ادّعى أنه يعلم شيئا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (ختار) قال: جحاد. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قال: هو الشيطان. و كذا قال مجاهد و عكرمهٔ و قتادهٔ. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: «جاء رجل من أهل البادیهٔ إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال:

إن امرأتى حبلى فأخبرنى ما تلد؟ و بلادنا مجدبهٔ فأخبرنى متى ينزل الغيث؟ و قد علمت متى ولدت فأخبرنى

---

(۱). الأنعام: ۵۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۳

متى أموت؟ فأنزل اللّه إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ الآيهٔ». و أخرج ابن المنذر عن عكرمهٔ نحوه و زاد:

و قد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا؟ و زاد أيضا أنه سأله عن قيام الساعهٔ. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلا اللّه: لا يعلم ما فى غد إلا اللّه، و لا متى تقوم السّاعهٔ إلا اللّه، و لا ما فى الأرحام إلا اللّه، و لا متى ينزل الغيث إلا اللّه، و ما تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا اللّه»، و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى هريرهٔ فى حديث سؤاله عن الساعهٔ و جوابه بأشراطها، ثم قال: «خمس لا يعلمهنّ إلا اللّه» ثم تلا هذه الآيهٔ. و فى الباب أحاديث.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۴

سورهٔ السّجدهٔ

اشارهٔ

و هى مكيهٔ كما رواه ابن الضريس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس، و رواه ابن مردويه عن ابن الزبير. و أخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: هى مكيهٔ سوى ثلاث آيات أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً إلى تمام الآيات الثلاث، و كذا قال الكلبى، و مقاتل، و قيل: إلا خمس آيات من قوله: تَتَجافى جُنُوبُهُمْ إلى قوله: الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ و قد ثبت عند مسلم، و أهل السنن من حديث أبى هريرهٔ أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ فى صلاهٔ الفجر يوم الجمعهٔ ب «الم تنزيل» السجدهٔ، و «هل أتى على الإنسان» «۱».

و أخرجه البخارى و مسلم و غيرهما من حديثه أيضا. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و أحمد، و عبد بن حميد، و الدارمى، و الترمذى، و النسائى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن جابر قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لا ينام حتى يقرأ «الم تنزيل» السّجدهٔ، و «تبارك الذى بيده الملك» «۲»». و أخرج أبو نصر و الطبرانى و البيهقى فى سننه عن ابن عباس يرفعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من صلّى أربع ركعات خلف العشاء الأخيرهٔ قرأ فى الركعتين الأوليين «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد» و فى الركعتين الأخريين «تبارك الذى بيده الملك» و «الم تنزيل» السجدهٔ كتبن له كأربع ركعات من ليلهٔ القدر». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ «تبارك الذى بيده الملك» و «الم تنزيل» السجدهٔ، بين المغرب و العشاء الآخرهٔ فكأنّما قام ليلهٔ القدر». و أخرج ابن مردويه عن عائشهٔ قالت:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ فى ليلهٔ «الم تنزيل» السجدهٔ، و «يس» و «اقتربت الساعهٔ» و «تبارك الذى بيده

الملك» كنّ له نورا و حرزا من الشيطان، و رفع فى الدرجات إلى يوم القيامة».

و أخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «الم تنزيل» تجىء لها جناحان يوم القيامة تظل صاحبها و تقول: لا سبيل عليه، لا سبيل عليه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة السجده (۳۲): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (۴)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۵) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶) الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (۸) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (۹)

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِى الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (۱۰) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱)

---

(۱). الإنسان: ۱.

(۲). الملك: ۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۵

قوله: الم قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة، و على محلها من الإعراب فى سورة البقرة، و فى مواضع كثيرة من فواتح السور، و ارتفاع تَنْزِيلُ على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر؛ على تقدير أن: الم فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر لقوله: الم على تقدير أنه اسم للسورة، و لا رَيْبَ فِيهِ فى محل نصب على الحال، و يجوز أن يكون ارتفاع تنزيل على أنه مبتدأ؛ و خبره لا ريب فيه، و من ربّ العالمين فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون هذه كلها أخبارا للمبتدأ قبل تنزيل، أو لقوله: الم على تقدير أنه مبتدأ لا على تقدير أنه حروف مسروده على نمط التعديد. قال مكى: و أحسن الوجوه أن تكون «لا ريب فيه»: فى موضع الحال، و «من رب العالمين»: الخبر، و المعنى على هذه الوجوه:

أن تنزيل الكتاب المتلوّ لا ريب فيه، و لا شكّ، و أنه منزل من ربّ العالمين، و أنه ليس بكذب، و لا سحر، و لا كهانة، و لا أساطير الأوّلين، و «أم» فى أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ هى: المنقطعة التى بمعنى: بل و الهمزة، أى: بل أ يقولون هو مفترى، فأضرب عن الكلام الأوّل إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع و التوبيخ، و معنى «افتراه»: افتعله، و اختلقه. ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق فى شأن الكتاب فقال: بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فكذبهم سبحانه فى دعوى الافتراء، ثم بين العلة التى كان التنزيل لأجلها فقال: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ و هم العرب، و كانوا أمة أمية لم يأتهم رسول، و قيل:

قريش خاصة، و المفعول الثانى: لتنذر محذوف، أى: لتنذر قوما العقاب، و جملة ما أتاهم من نذير فى محل نصب على الحال، و من قبلك: صفة لنذير. و جوّز أبو حيان أن تكون ما موصولة، و التقدير: لتنذر قوما العقاب الذى أتاهم من نذير قبلك، و هو

ضعيف جدّا، فإن المراد تعليل الإنزال بالإنذار لقوم لم يأتهم نذير قبله، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذر بما أنذرهم به، و قيل: المراد بالقوم: أهل الفترة ما بين عيسى و محمّد صلّى اللّه عليه و سلم لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ رجاء أن يهتدوا، أو كى يهتدوا اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف، و المراد من ذكرها هنا: تعريفهم كمال قدرته، و عظيم صنعه ليسمعوا القرآن، و يتأملوه، و معنى خلق: أوجد و أبدع. قال الحسن: الأيام هنا هى من أيام الدنيا، و قيل: مقدار اليوم: ألف سنة فى سنى الدنيا، قاله الضحاك. فعلى هذا المراد بالأيام هنا هى من أيام الآخرة؛ لا من أيام الدنيا، و ليست ثم للترتيب فى قوله: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ و قد تقدّم تفسير هذا مستوفى ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أى: ليس لكم من دون اللّه، أو من دون عذابه من ولىّ يواليكم، و يردّ عنكم عذابه، و لا شفيع يشفع لكم عنده أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ تذكر تدبر

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۶

و تفكر، و تسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم و يعقل حتى تنتفعوا بها يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ لما بين سبحانه خلق السموات و الأرض، و ما بينهما بين تدبيره لأمرها، أى: يحكم الأمر بقضائه و قدره من السماء إلى الأرض، و المعنى: ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه:

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ «۱» و مسافة ما بين سماء الدنيا و الأرض التى تحتها نزولا و طلوعا ألف سنة من أيام الدنيا. و قيل المراد بالأمور: المأمور به من الأعمال، أى: ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض. و قيل: يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة، و غيرها نازلة أحكامها و آثارها إلى الأرض. و قيل: ينزل الوحى مع جبريل. و قيل: العرش موضع التدبير كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما فى قوله: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ... يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ «۲» و ما دون السموات موضع التصرّف.

قال اللّه: وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا «۳» ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال: ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ أى: ثم يرجع ذلك الأمر و يعود ذلك التدبير إليه سبحانه فى يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، و ذلك باعتبار مسافة النزول من السماء، و الطلوع من الأرض كما قدّمنا. و قيل:

إن المراد أنه يعرج إليه فى يوم القيامة الذى مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، و ذلك حين ينقطع أمر الدنيا، و يموت من فيها. و قيل: هى أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة، و المعنى: أنه يثبت ذلك عنده، و يكتب فى صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض فى كلّ وقت من الأوقات؛ إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها. و قيل: معنى يعرج إليه: يثبت فى علمه موجودا بالفعل فى برهة من الزمان؛ هى مقدار ألف سنة، و المراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث، و حدوثها من الزمان، و قيل: يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها فى اللوح المحفوظ؛ فتنزل بها الملائكة، ثم تعرج إليه فى زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا. و قيل: يقضى قضاء ألف سنة فتنزل به الملائكة، ثم تعرج بعد الألف لألف آخر. و قيل: المراد أن الأعمال التى هى طاعات يدبرها اللّه سبحانه، و ينزل بها ملائكته، ثم لا يعرج إليه منها إلا الخالص بعد مدّة متطاولة لقلّة المخلصين من عباده. و قيل: الضمير فى يعرج يعود إلى الملك و إن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق، و قد جاء صريحا فى قوله: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ «۴» و الضمير فى إليه يرجع إلى السماء على لغة من يذكرها، أو إلى مكان الملك الذى يرجع إليه، و هو الذى أقرّه اللّه فيه. و قيل المعنى: يدبر أمر الشمس فى طلوعها و غروبها، و رجوعها إلى موضعها من الطلوع فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة. و قيل المعنى: إن الملك يعرج إلى اللّه فى يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة، لأن ما بين السماء و الأرض مسافة خمسمائة عام، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض، و الرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام، و قد رجح هذا

جماعة من المفسرين منهم ابن جرير. و قيل: مسافة النزول ألف سنة، و مسافة الطلوع ألف سنة، روى ذلك عن الضحاك. و هذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، و ليس المراد به مسمى اليوم الذى هو مدّة النهار بين ليلتين، و العرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر:

(۱). الطلاق: ۱۲.

(۲). الرعد: ۲.

(۳). الفرقان: ۵۰.

(۴). المعارج: ۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۷ يومان يوم مقامات و أنديةو يوم سير إلى الأعداء تأويب «۱»

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، و إنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبر عن كلّ واحد من الشطرين بيوم. قرأ الجمهور «يعرج» على البناء للفاعل. و قرأ ابن أبى عبلة على البناء للمفعول، و الأصل يعرج به، ثم حذف حرف الجار فاستتر الضمير. و قد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية و بين قوله سبحانه: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «۲» فقيل فى الجواب إن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، و لكنه باعتبار صعوبته و شدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، و العرب تصف كثيرا يوم المكروه بالطول، كما تصف يوم السرور بالقصر كما قال الشاعر «۳»:

و يوم كظلّ الرمح قصّر طولهدم الزّقّ عنّا و اصطفاق المزاهر

و قول الآخر:

و يوم كإبهام القطاة قطعته و قيل: إن يوم القيامة فيه أيام؛ فمنها ما مقداره ألف سنة، و منها ما مقداره خمسون ألف سنة. و قيل: هى أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة، ثم ينقل إلى نوع آخر فيعذب به خمسين ألف سنة. و قيل: مواقف القيامة خمسون موقفا كلّ موقف ألف سنة، فيكون معنى يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ أنه يعرج إليه فى وقت من تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف. و حكى الثعلبى عن مجاهد و قتادة و الضحاك أنه أراد سبحانه فى قوله: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التى هى مقام جبريل، و المراد: أنه يسير جبريل و من معه من الملائكة فى ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، فى مقدار يوم واحد من أيام الدنيا، و أراد بقوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ المسافة التى بين الأرض و بين سماء الدنيا هبوطا و صعودا، فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا. و قيل: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، و ذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين و انقطع؛ لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة، فقوله:

فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ يعنى: يدبر الأمر فى زمان، يوم منه: ألف سنة. فكم يكون الشهر منه؟ و كم تكون السنة منه؟ و على هذا فلا فرق بين ألف سنة، و بين خمسين ألف سنة. و قيل: غير ذلك.

و قد وقف حبر الأمة ابن عباس لما سئل عن الآيتين، كما سيأتى فى آخر البحث إن شاء اللّه. قرأ الجمهور مِمَّا تَعُدُّونَ بالفوقية على الخطاب، و قرأ الحسن و السلمى و ابن وثاب و الأعمش بالتحتية على الغيبة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى اللّه سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، و هو مبتدأ و خبره عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: العالم بما غاب عن الخلق، و ما حضرهم. و فى هذا: معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم

(۱). التأويب: سير النهار كله إلى الليل، يقال: أوّب القوم تأويبا، أى ساروا إلى الليل، و البيت لسلامة بن جندل.

(۲). المعارج: ۴.

(۳). هو شرمة بن الطفيل.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۸۸

بما يغيب و ما يحضر، فهو مجاز لكل عامل بعمله، أو: فهو يدبر الأمر بما تقضيه حكمته الْعَزِيزُ القاهر الغالب الرَّحِيمُ بعباده، و هذه أخبار لذلك المبتدأ، و كذلك قوله: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ هو خبر آخر. قرأ الجمهور «خلقه» بفتح اللام. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن عامر بإسكانها، فعلى القراءة الأولى: هو فعل ماض نعتا لشيء، فهو فى محل جرّ، و قد اختار قراءة الجمهور أبو عبيد، و أبو حاتم، و يجوز أن تكون صفة للمضاف، فيكون فى محل نصب. و أما على القراءة الثانية: ففى نصبه أوجه: الأوّل أن يكون بدلا من كلّ شىء بدل اشتمال، و الضمير عائد إلى كلّ شىء، و هذا هو الوجه المشهور عند النحاة.

الثانى: أنه بدل كلّ من كلّ، و الضمير راجع إلى اللّه سبحانه؛ و معنى أحسن: حسن، لأنه ما من شىء إلا و هو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة. الثالث: أن يكون كلّ شىء هو المفعول الأوّل، و خلقه: هو المفعول الثانى على تضمين أحسن: معنى أعطى، و المعنى: أعطى كلّ شىء خلقه الذى خصه به. و قيل: على تضمينه معنى ألهم. قال الفراء: ألهم خلقه كلّ شىء مما يحتاجون إليه. الرابع: أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة، أى: خلقه خلقا كقوله: صُنْعَ اللَّهِ «۱» و هذا قول سيبويه، و الضمير:

يعود إلى اللّه سبحانه. و الخامس: أنه منصوب بنزع الخافض، و المعنى أحسن كلّ شىء فى خلقه، و معنى الآية: أنه أتقن و أحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات و إن لم تكن حسنة فى نفسها، فهى متقنة محكمة، فتكون هذه الآية معناها معنى: أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ «۲» أى: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، و لا خلق البهيمة على خلق الإنسان، و قيل: هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى، أى: أحسن خلق كلّ شىء حسن وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ يعنى: آدم خلقه من طين، فصار على صورة بديعة، و شكل حسن جَعَلَ نَسْلَهُ أى: ذريته مِنْ سُلالَةٍ سميت الذرية سلالة: لأنها تسلّ من الأصل، و تنفصل عنه، و قد تقدم تفسيرها فى سور المؤمنين؛ و معنى مِنْ ماءٍ مَهِينٍ من ماء ممتهن؛ لا خطر له عند الناس و هو المنىّ. و قال الزجاج: من ماء ضعيف ثُمَّ سَوَّاهُ أى: الإنسان الذى بدأ خلقه من طين، و هو آدم، أو جميع النوع، و المراد: أنه عدل خلقه، و سوّى شكله، و ناسب بين أعضائه وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ الإضافة للتشريف، و التكريم، و هذه الإضافة تقوّى أن الكلام فى آدم، لا فى ذريته، و إن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع. ثم خاطب جميع النوع فقال: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ أى: خلق لكم هذه الأشياء تكميلا لنعمته عليكم، و تتميما لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم، فتسمعون كلّ مسموع، و تبصرون كلّ مبصر، و تتعقلون كلّ متعقل، و تفهمون كلّ ما يفهم، و أفرد السمع لكونه مصدرا يشمل القليل و الكثير، و خص السمع بذكر المصدر دون البصر، و الفؤاد بذكرهما بالاسم و لهذا جمعا، لأن السمع قوّة واحدة و لها محل واحد، و هو الأذن و لا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها، و لا تقدر على رده، و لا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض؛ بخلاف الأبصار فمحلها العين و له فيه اختيار، فإنها تتحرّك إلى جانب المرئى دون غيره، و تطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشىء؛ و كذلك الفؤاد له نوع اختيار فى إدراكه،

---

(۱). النمل: ۸۸.

(۲). طه: ۵۰.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۸۹

فيتعقل هـذا دون هـذا، و يفهم هـذا دون هـذا. قرأ الجمهور «و بدأ» بالهمز، و الزهرى بألف خالصة بدون همز، و انتصاب قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ على أنه صفة مصدر محذوف، أى: شكرا قليلا، أو صفة زمان محذوف، أى: زمانا قليلا. و فى هذا بيان لكفرهم لنعم اللّه، و تركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ قد تقدم اختلاف القراء فى هـذه الهمزة، و فى الهمزة التى بعدها، و الضلال:

الغيبوبة، يقال: ضلّ الميت فى التراب إذا غاب و بطل، و العرب تقول للشى‌ء إذا غلب عليه غيره حتى خفى أثره قد ضلّ. و منه قول الأخطل:

كنت القذى فى موج أكدر مزبدقذف الأتىّ به فضلّ ضلالا

قال قطرب: معنى ضللنا فى الأرض: غبنا فى الأرض. قرأ الجمهور «ضللنا» بفتح ضاد معجمة، و لام مفتوحة بمعنى: ذهبنا وضعنا، و صرنا ترابا، و غبنا عن الأعين، و قرأ يحيى بن يعمر، و ابن محيصن، و أبو رجاء «ضللنا» بكسر اللام، و هى لغة العالية من نجد. قال الجوهرى: و أهل العالية يقولون: ضللت بالكسر. قال و أضله: أى أضاعه و أهلكه، يقال ضلّ الميت إذا دفن. و قرأ علىّ بن أبى طالب، و الحسن و الأعمش، و أبان بن سعيد «صللنا» بصاد مهملة و لام مفتوحة: أى أنتنا. قال النحاس: و لا يعرف فى اللغة صللنا، و لكن يقال: صلّ اللحم: إذا أنتن. قال الجوهرى: صلّ اللحم يصلّ بالكسر صلولا: إذا أنتن، مطبوخا كان أو نيئا، و منه قول الحطيئة:

ذاك فتى يبذل ذا قدرةلا يفسد اللّحم لديه الصّلول

أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أى: نبعث، و نصير أحياء، و الاستفهام: للاستنكار. و هذا قول منكرى البعث من الكفار، فأضرب اللّه سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه، و هو كفرهم بلقاء اللّه، فقال: بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ أى: جاحدون له مكابرة و عنادا، فإن اعترافهم بأنه المبتدئ للخلق؛ يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة. ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يبين لهم الحق و يردّ عليهم ما زعموه من الباطل، فقال: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ يقال: توفاه اللّه و استوفى روحه: إذا قبضه إليه، و ملك الموت: هو عزرائيل، و معنى و كلّ بكم: و كلّ بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أى: تصيرون إليه أحياء بالبعث و النشور لا إلى غيره؛ فيجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ الآية قال: هذا فى الدنيا تعرج الملائكة إليه فى يوم مقداره ألف سنة. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عنه فى قوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ قال: من الأيام الستة التى خلق اللّه فيها السموات و الأرض.

و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف و الحاكم و صححه عن عبد اللّه بن أبى مليكة قال: دخلت على عبد اللّه بن عباس أنا و عبد اللّه بن فيروز مولى عثمان

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۲۹۰

ابن عفان، فقال له ابن فيروز: يا أبا عباس. قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ فكأن ابن عباس اتهمه فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال:

إنما سألتك لتخبرنى، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما اللّه فى كتابه اللّه أعلم بهما، و أكره أن أقول فى كتاب اللّه ما لا أعلم، فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب، فسأله عنهما إنسان؛ فلم يخبره و لم يدر. فقلت: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها، و هو أعلم منى. و أخرج ابن أبى حاتم عن

ابن عباس فی قوله: كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ قال: لا ينتصف النهار فی مقدار يوم من أيام الدنيا فی ذلك اليوم حتى يقضی بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار، و لو كان إلی غيره لم يفرغ فی خمسين ألف سنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فی قوله: ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ من أيامكم هذه، و مسيرة ما بين السماء و الأرض خمسمائة عام. و أخرج ابن أبی شيبة، و الحكيم الترمذی فی نوادر الأصول و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ قال: أما رأيت القردة ليست بحسنة، و لكنه أحكم خلقها. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أيضا فی الآية أنه قال: أما إن است القردة ليست بحسنة و لكنه أحكم خلقها، و قال خَلَقَهُ صورته. و قال أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ القبيح و الحسن، و العقارب و الحيات، و كلّ شیء مما خلق، و غيره لا يحسن شيئا من ذلك. و أخرج الطبرانی عن أبی أمامة قال: بينما نحن مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذ لقينا عمرو ابن زرارة الأنصاریّ فی حلّة قد أسبل، فأخذ النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم بناحية ثوبه، فقال: يا رسول اللّه! إنی أحمش السّاقين، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يا عمرو بن زرارة إنّ اللّه عزّ و جلّ قد أحسن كلّ شیء خلقه، يا عمرو بن زرارة إنّ اللّه لا يحبّ المسبلين». و أخرج أحمد و الطبرانی عن الشريد بن سويد قال: أبصر النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم رجلا قد أسبل إزاره، فقال: ارفع إزارك، فقال: يا رسول اللّه إنی أحنف، تصطكّ ركبتای، فقال: ارفع إزارك كلّ خلق اللّه حسن».

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٢ الى ٢٢]

وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١۴) إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١۵) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١۶)

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

فتح القدير، ج۴، ص: ٢٩١

قوله: وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ المراد بالمجرمين: هم القائلون أ إذا ضللنا، و الخطاب هنا لكل من يصلح له، أو لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و يجوز أن يراد بالمجرمين: كل مجرم، و يدخل فيه أولئك القائلون دخولا أوليا، و معنى: ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ مطأطئوها حياء و ندما على ما فرط منهم فی الدنيا من الشرك باللّه، و العصيان له، و معنى عند ربهم: عند محاسبته لهم. قال الزجاج: و المخاطبة للنبی صلّى اللّه عليه و سلم مخاطبة لأمته، فالمعنى: و لو ترى يا محمّد منكری البعث يوم القيامة لرأيت العجب رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا أی: يقولون: ربنا أبصرنا الآن ما كنا نكذب به، و سمعنا ما كنا ننكره، و قيل: أبصرنا صدق وعيدك و سمعنا تصديق رسلك، فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر، و سمعوا حين لم ينفعهم السمع فَارْجِعْنا إلی الدنيا نَعْمَلْ عملا صالِحاً كما أمرتنا إِنَّا مُوقِنُونَ أی: مصدّقون، و قيل:

مصدقون بالذی جاء به محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن؛ طمعا فيما طلبوه من إرجاعهم إلی الدنيا، و أنی لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة اللّه فإنهم وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ «١» و قيل معنى: إِنَّا مُوقِنُونَ أنها قد

زالت عنهم الشكوك التى كانت تخالطهم فى الدنيا لما رأوا ما رأوا، و سمعوا ما سمعوا، و يجوز أن يكون معنى أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا صرنا ممن يسمع و يبصر، فلا يحتاج إلى تقدير مفعول، و يجوز أن يكون صالحا مفعولا لنعمل، كما يجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف، و جواب لو محذوف؛ أى: لرأيت أمرا فظيعا و هولا هائلا. وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها هذا ردّ عليهم لما طلبوا الرجعة، أى: لو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها، فهدينا الناس جميعا فلم يكفر منهم أحد. قال النحاس: فى معنى هذا قولان: أحدهما أنه فى الدنيا، و الآخر أنه فى الآخرة: أى و لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ و جملة لو شئنا: مقدّرة بقول معطوف على المقدّر قبل قوله:

«أبصرنا» أى: و نقول: لو شئنا، و معنى: وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي أى: نفذ قضائى و قدرى، و سبقت كلمتى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ هذا هو القول الذى وجب من اللّه، و حقّ على عباده، و نفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كلّ نفس هداها، و إنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، و أنهم ممن يختار الضلالة على الهدى، و الفاء فى قوله: فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله، و الباء فى «بما نسيتم» للسببية، و فيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدّم، بل بذاك و هذا.

و اختلف فى النسيان المذكور هنا، فقيل: هو النسيان الحقيقى، و هو الذى يزول عنده الذكر؛ و قيل:

هو الترك. و المعنى على الأوّل: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه. و على الثانى: لا بدّ من تقدير مضاف قبل لقاء، أى: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، و رجح الثانى: المبرد و أنشد:

---

(١). الأنعام: ٢٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۲ كأنه خارجا من جنب صفحتهسفّود شرب نسوه عند مفتأد «١»

أى تركوه، و كذا قال الضحاك، و يحيى بن سلام: إن النسيان هنا: بمعنى الترك. قال يحيى بن سلام:

و المعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث فى هذا اليوم تركناكم من الخير، و كذا قال السدّى، و قال مجاهد: تركناكم فى العذاب. و قال مقاتل: إذا دخلوا النار. قالت لهم الخزنة: ذوقوا العذاب بما نسيتم، و استعار الذوق للإحساس، و منه قول طفيل:

فذوقوا كما ذقنا غداة محجّرمن الغيظ فى أكبادنا و التّحوّب

و قوله: وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تكرير لقصد التأكيد، أى: ذوقوا العذاب الدائم الذى لا ينقطع أبدا بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الكفر و المعاصى. قال الرازى فى تفسيره: إن اسم الإشارة فى قوله: بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، و أن يكون إشارة إلى اليوم، و أن يكون إشارة إلى العذاب، و جملة: إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا مستأنفة لبيان ما يستحق الهداية إلى الإيمان، و من لا يستحقها؛ إنما يصدق بآياتنا و ينتفع بها الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً لا غيرهم ممن يذكر بها، أى: يوعظ بها و لا يتذكر و لا يؤمن بها، و معنى «خرّوا سجدا» سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيما لآيات اللّه، و خوفا من سطوته و عذابه: وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى: نزّهوه عن كلّ ما لا يليق به متلبسين بحمده على نعمه التى أجلّها و أكملها: الهداية إلى الإيمان، و المعنى: قالوا فى سجودهم: سبحان اللّه و بحمده، أو سبحان ربى الأعلى و بحمده. و قال سفيان: المعنى: صلوا حمدا لربهم، و جملة: وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم خاضعين للّه، متذللين له؛ غير مستكبرين عليه تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ أى: ترتفع و تنبو يقال: جفى الشىء عن الشىء، و تجافى عنه:

إذا لم يلزمه و نبا عنه، و المضاجع: جمع المضجع، و هو الموضع الذى يضطجع فيه. قال الزجاج و الرمانى:

التجافى و التجفى إلى جهة فوق، و كذلك هو فى الصفح عن المخطئ فى سبّ و نحوه، و الجنوب: جمع جنب، و الجملة فى

محل نصب على الحال، أى: متجافية جنوبهم عن مضاجعهم، و هم المتهجدون فى الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش، و به قال الحسن، و مجاهد، و عطاء، و الجمهور، و المراد بالصلاة صلاة التنفل، بالليل من غير تقييد. و قال قتادة و عكرمة: هو التنفل ما بين المغرب و العشاء، و قيل: صلاة العشاء فقط، و هو رواية عن الحسن و عطاء. و قال الضحاك: صلاة العشاء و الصبح فى جماعة، و قيل: هم الذين يقومون لذكر اللّه سواء كان فى صلاة أو غيرها يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً هذه الجملة فى محل نصب على الحال أيضا من الضمير الذى فى جنوبهم، فهى حال بعد حال، و يجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعاتهم، و المعنى: تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفا من عذابه، و طمعا فى رحمته

---

(۱). السّفود: حديدة يشوى عليها اللحم. و الشّرب: جماعة القوم يشربون.

و المفتأد: موضع النار الذى يشوى فيه. و البيت من معلقة النابغة الذبيانى.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۳

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: من الذى رزقناهم أو من رزقهم، و ذلك الصدقة الواجبة، و قيل: صدقة النفل، و الأولى: الحمل على العموم، و انتصاب خوفا و طمعا: على العلة، و يجوز أن يكونا مصدرين منتصبين بمقدّر فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم، أى: لا تعلم نفس من النفوس- أى نفس كانت- ما أخفاه اللّه سبحانه لأولئك الذين تقدّم ذكرهم بما تقرّ به أعينهم، قرأ الجمهور قرّة بالإفراد. و قرأ ابن مسعود، و أبو هريرة، و أبو الدرداء «من قرّات» بالجمع، و قرأ حمزة ما أخفى بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى اللّه سبحانه، و قرأ الباقون بفتحها فعلا ماضيا مبنيا للمفعول. و قرأ ابن مسعود «ما نخفى» بالنون مضمومة، و قرأ الأعمش «يخفى» بالتحتية مضمومة. قال الزجاج فى معنى قراءة حمزة، أى: منه ما أخفى اللّه لهم، و هى قراءة محمّد بن كعب، و «ما» فى موضع نصب. ثم بين سبحانه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة فقال: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا، أو جوزوا جزاء بذلك أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً الاستفهام: للإنكار؟ أى: ليس المؤمن كالفاسق فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، و لهذا قال: لا يَسْتَوُونَ ففيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذى أفاده الاستفهام. قال الزجاج: جعل الاثنين جماعة حيث قال: لا يَسْتَوُونَ لأجل معنى من، و قيل: لكون الاثنين أقل الجمع، و سيأتى بيان سبب نزولها آخر البحث. ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين، و بدأ بالمؤمنين فقال: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى قرأ الجمهور «جنات» بالجمع، و قرأ طلحة بن مصرف «جنة المأوى» بالإفراد، و المأوى هو الذى يأوون إليه، و أضاف الجنات إليه لكونه المأوى الحقيقى، و قيل: المأوى جنة من الجنات، و قد تقدّم الكلام على هذا، و معنى: نُزُلًا أنها معدّة لهم عند نزولهم، و هو فى الأصل ما يعدّ للنازل من الطعام و الشراب، كما بيناه فى آل عمران، و انتصابه على الحال. و قرأ أبو حيوة «نزلا» بسكون الزاى، و الباء فى بِما كانُوا يَعْمَلُونَ للسببية، أى: بسبب ما كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم. ثم ذكر الفريق الآخر فقال: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا أى: خرجوا عن طاعة اللّه، و تمرّدوا عليه و على رسله فَمَأْواهُمُ النَّارُ أى: منزلهم الذى يصيرون إليه، و يستقرّون فيه هو النار كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها أى: إذا أرادوا الخروج منها ردّوا إليها راغمين مكرهين، و قيل: إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها ردّوا إلى مواضعهم وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ و القائل لهم هذه المقالة: هو خزنة جهنم من الملائكة، أو القائل لهم: هو اللّه عزّ و جلّ، و فى هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا فى النار من الإغاظة لهم ما لا يخفى وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى و هو عذاب الدنيا. قال الحسن و أبو العالية و الضحاك و النخعى: هو مصائب الدنيا، و أسقامها، و قيل: الحدود، و قيل: القتل بالسيف يوم بدر، و قيل: سنين الجوع بمكة، و قيل: عذاب القبر، و لا مانع من الحمل على الجميع دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ و هو عذاب الآخرة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ مما هم فيه من الشرك و المعاصى بسبب ما

ينزل بهم من العـذاب إلى الإيمان و الطاعـة و يتوبون عما كانوا فيه. و فى هذا التعليل دليل على ضـعف قول من قال: إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۴

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها أى: لا أحـد أظلم منه لكونه سـمع من آيات اللّه ما يوجب الإقبال على الإيمان و الطاعـة، فجعـل الإعراض مكان ذلك، و المجىء بثمّ للدلالـة على استبعاد ذلك، و أنه مما ينبغى أن لا يكون إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ أى: من أهل الإجرام على العموم، فيدخل فيه من أعرض عن آيات اللّه دخولا أوّليا.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا نَسِيناكُمْ قال:

تركناكم. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه قال: نزلت هـذه الآية فى شأن الصلوات الخمس إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً أى: أتوهـا وَ سَبَّحُوا أى: صـلوا بأمر ربهم وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن إتيان الصـلاة فى الجماعات. و أخرج الترمـذى و صححه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و محمّد بن نصر فى كتاب الصلاة عن أنس بن مالك أن هذه الآية تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة. و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن مردويه عنه قال:

نزلت فى صلاة العشاء. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال:

كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء. و أخرج ابن أبى شيبة عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء.

و أخرج عبد الرزاق فى المصنف و ابن مردويه عنه أيضا قال: ما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم راقدا قط قبل العشاء، و لا متحدّثا بعدها، فإن هذه الآية نزلت فى ذلك تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قـال: تتجـافى جنوبهم عن المضـاجع قـال: هم الـذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم. فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافـة أن تغلبه عينه، فوقتهـا قبل أن ينام الصـغير، و يكسل الكبير. و أخرج ابن مردويه عن بلال قال: كنا نجلس فى المسجد و ناس من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصلون بعد المغرب العشاء، تتجافى جنوبهم عن المضاجع. و أخرج عبـد اللّه بن أحمـد فى زوائـد الزهـد، و ابن عدىّ، و ابن مردويه عن أنس نحوه. و أخرج ابن أبى شـيبة، و أبو داود، و محمّد بن نصـر، و ابـن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم، و ابن مردويه، و الـبيهقى فى سـننه عن أنس فى قـوله: تَتَجـافى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ قال: كانوا ينتظرون ما بين المغرب و العشاء يصلون. و أخرج أحمـد، و ابن جرير، و ابن مردويه عن معاذ ابن جبل عن النبى صـلّى اللّه عليه و سلم: «فى قوله تَتَجافى جُنُوبُهُمْ قال: قيام العبد من الليل». و أخرج أحمد، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابـن ماجـة، و ابن نصر فى كتـاب الصـلاة، و ابن جرير، و ابن أبى حـاتم، و الحـاكم، و صـححه، و ابن مردويه، و الـبيهقى فى الشـعب عن معاذ بن جبل عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم، و ذكر حـديثا و أرشد فيه إلى أنواع من الطاعات و قال فيه: «و صـلاة الرّجـل فى جوف اللّيل، ثم قرأ تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ . و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا فى حـديث قال فيه: «و صلاة المرء فى جوف اللّيل، ثمّ تلا هذه الآية». و أخرج ابن مردويه عن أنس فى الآية قال: كان لا تمرّ عليهم ليلة إلا أخذوا منها. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد من طريق أبى عبد اللّه الجدلى عن عبادة بن الصامت عن كعب قال: «إذا حشـر النّاس نادى مناد: هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع» الحديث.

فتح القدير، ج۴، ص: ۲۹۵

و أخرج ابن جرير عن ابن عبـاس فى الآيـة يقول: تتجافى لـذكر اللّه كلما استيقظوا ذكروا اللّه، إما فى الصـلاة، و إما فى القيام أو القعود. أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون اللّه. و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و محمّد بن نصـر، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى البعث عن ابن عباس قال: كان عرش اللّه على الماء فاتخذ جنة

لنفسه، ثم اتخذ دونها أخرى، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة، ثم قال: وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ «١» لم يعلم الخلق ما فيهما. و هى التى قال اللّه فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ تأتيهم منها كلّ يوم تحفة. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب فى التوراة: لقد أعدّ اللّه للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع: ما لم تر عين و لم تسمع أذن، و لم يخطر على قلب بشر، و لا يعلم ملك مقرّب، و لا نبىّ مرسل، و إنه لفى القرآن فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قال اللّه تعالى: «أعددت لعبادى الصّالحين ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة. و اقرءوا إن شئتم فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ . و فى الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة، و هى معروفة فلا نطول بذكرها. و أخرج أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى، و الواحدى، و ابن عدى، و ابن مردويه، و الخطيب، و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعلىّ بن أبى طالب: أنا أحدّ منك سنانا، و أنشط منك لسانا، و أملأ للكتيبة منك، فقال له علىّ: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ يعنى بالمؤمن: عليا، و بالفاسق: الوليد بن عقبة بن أبى معيط. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب، و ابن عساكر عنه فى الآية نحوه. و روى نحو هذا عن عطاء بن يسار و السدّى و عبد الرحمن بن أبى ليلى. و أخرج الفريابى، و ابن منيع، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود فى قوله: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى قال: يوم بدر دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ قال: يوم القيامة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: لعلّ من بقى منهم أن يتوب فيرجع. و أخرج ابن أبى شيبة، و النسائى، و ابن المنذر، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه عن ابن مسعود فى الآية قال: العذاب الأدنى سنون أصابتهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: يتوبون. و أخرج مسلم، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و أبو عوانة فى صحيحه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبىّ بن كعب فى قوله: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى قال:

مصائب الدنيا، و الروم، و البطشة، و الدخان. و أخرج ابن جرير عنه قال: يوم بدر. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى قال: الحدود لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ قال: يتوبون. و أخرج ابن منيع، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه. قال السيوطى بسند ضعيف عن معاذ بن جبل: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «ثلاث من فعلهنّ فقد أجرم:

---

(١). الرحمن: ٦٢.

من عقد لواء فى غير حقّ، أو عقّ والديه، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم، يقول اللّه: إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ . قال ابن كثير بعد إخراجه: هذا حديث غريب.

[سورة السجده (٣٢): الآيات ٢٣ الى ٣٠]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)

وَ يَقُولُونَ مَتى هـذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ أى: التوراة فَلا تَكُنْ يا محمّد فِي مِرْيَةٍ أى: شك و ريبة مِنْ لِقائِهِ قال الواحدى: قال المفسرون: وعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه سيلقى موسى قبل أن يموت، ثم لقيه فى السماء أو فى بيت المقدس حين أسرى به. و هذا قول مجاهد و الكلبى و السدّى. و قيل: فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة و ستلقاه فيها. و قيل: فلا تكن فى شك من لقاء موسى للكتاب قاله الزجاج.

و قال الحسن: إن معناه: و لقد آتينا موسى الكتاب فكذّب و أوذى، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب و الأذى، فيكون الضمير فى لقائه على هذا عائدا على محذوف، و المعنى: من لقاء ما لاقى موسى.

قال النحاس: و هذا قول غريب. و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكّل بكم، فلا تكن فى مرية من لقائه، فجاء معترضا بين وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ و بين وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ و قيل: الضمير راجع إلى الكتاب الذى هو الفرقان كقوله: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ «١» و المعنى: أنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، و لقيناه مثل ما لقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله و نظيره، و ما أبعد هذا، و لعلّ الحامل لقائله عليه قوله: وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ فإن الضمير راجع إلى الكتاب، و قيل: إن الضمير فى لقائه عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله: ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أى: لا تكن فى مرية من لقاء الرجوع، و هذا بعيد أيضا.

و اختلف فى قوله: وَ جَعَلْناهُ فقيل: هو راجع إلى الكتاب، أى: جعلنا التوراة هدى لبنى إسرائيل، قاله الحسن و غيره. و قال قتادة: إنه راجع إلى موسى، أى: و جعلنا موسى هدى لبنى إسرائيل وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً أى: قادة يقتدون به فى دينهم، و قرأ الكوفيون «أئمة» قال النحاس: و هو لحن عند جميع النحويين، لأنه جمع بين همزتين فى كلمة واحدة، و معنى يَهْدُونَ بِأَمْرِنا أى: يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليه من أحكام التوراة و مواعظها بأمرنا، أى: بأمرنا لهم بذلك، أو لأجل أمرنا. و قال قتادة: المراد

---

(١). النمل: ۶.

بالأئمة: الأنبياء منهم. و قيل: العلماء لَمَّا صَبَرُوا قرأ الجمهور «لما» بفتح اللام و تشديد الميم، أى:

حين صبروا، و الضمير: للأئمة، و فى: لما، معنى الجزاء، و التقدير: لما صبروا؛ جعلناهم أئمة. و قرأ حمزة، و الكسائى، و خلف، و ورش عن يعقوب و يحيى بن وثاب بكسر اللام و تخفيف الميم: أى جعلناهم أئمة لصبرهم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد مستدلا بقراءة ابن مسعود «بما صبروا» بالباء، و هذا الصبر هو صبرهم على مشاقّ التكليف، و الهداية للناس، و قيل: صبروا عن الدنيا وَ كانُوا بِآياتِنا التنزيلية يُوقِنُونَ أى: يصدّقونها، و يعلمون أنها حق، و أنها من عند اللّه لمزيد تفكرهم، و كثرة تدبرهم إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ أى: يقضى بينهم، و يحكم بين المؤمنين و الكفار يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و قيل:

يقضى بين الأنبياء و أممهم، حكاه النقاش أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ أى: أو لم يبين لهم، و الهمزة للإنكار، و الفاعل ما دلّ عليه كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ أى: أو لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم. قال الفراء:

كم فى موضع رفع بيهد. و قال المبرد: إن الفاعل الهدى المدلول عليه بيهد: أى: أو لم يهد لهم الهدى. و قال الزجاج: كم فى موضع نصب بأهلكنا، قرأ الجمهور «أو لم يهد» بالتحتية، و قرأ السلمى، و قتادة، و أبو زيد عن يعقوب بالنون، و هذه القراءة واضحة. قال النحاس: و القراءة بالياء التحتية فيها إشكال لأنه يقال:

الفعل لا يخلو من فاعل فأين الفاعل ليهـد؟ و يجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدّمنا ذكره، و المراد بالقرون: عاد و ثمود و نحوهم، و جملـة يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ فى محل نصب على الحال من ضمير لهـم، أى: و الحال أنهم يمشون فى مساكن المهلكين و يشاهدونها، و ينظرون ما فيها من العبر و آثار العذاب، و لا يعتبرون بذلك، و قيل: يعود إلى المهلكين، و المعنى: أهلكناهم حال كونهم ماشين فى مساكنهم، و الأوّل أولى إِنَّ فِي ذلِكَ المـذكور لَآياتٍ عظيمات أَ فَلا يَسْمَعُونَ ها و يتعظون بها أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ أى: أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التى لا تنبت إلا بسوق الماء إليها؟ و قيل:

هى اليابسـة، و أصله من الجرز: و هو القطع، أى: التى قطع نباتها لعدم الماء، و لا يقال للتى لا تنبت أصلا كالسباخ جرز لقوله: فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً قيل: هى أرض اليمن، و قيل: أرض عدن. و قال الضحاك:

هى الأرض العطشى، و قال الفراء: هى الأرض التى لا نبات فيها. و قال الأصمعى: هى الأرض التى لا تنبت شيئا. قال المبرد: يبعد أن تكن لأرض بعينها لدخول الألف و اللام، و قيل: هى مشتقة من قولهم رجل جروز: إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله، و منه قول الراجز:

خب جروز و إذا جاع بكىو يأكل التمر و لا يلقى النّوى

و كذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كلّ شىء تجده. و قال مجاهد: إنها أرض النيل، لأن الماء إنما يأتيها فى كلّ عام فَنُخْرِجُ بِهِ أى: بالماء زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ أى: من الزرع كالتبن، و الورق، و نحوهما مما لا يأكله الناس وَ أَنْفُسُهُمْ أى: يأكلون الحبوب الخارجة فى الزرع مما يقتاتونه، و جملة تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ فى محلّ نصب على الحال أَ فَلا يُبْصِرُونَ هذه النعم و يشكرون المنعم، و يوحدونه لكونه المنفرد بإيجاد ذلك وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ القائلون: هم الكفار على العموم،

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۲۹۸

أو كفار مكة على الخصوص، أى: متى الفتح الذى تعدونا به، يعنون بالفتح: القضاء، و الفصل بين العباد، و هو يوم البعث الذى يقضى اللّه فيه بين عباده، قاله مجاهد و غيره. و قال الفراء و القتبى: هو فتح مكة. قال قتادة: قال أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم للكفار: إن لنا يوما ننعم فيه، و نستريح، و يحكم اللّه بيننا و بينكم، يعنون:

يوم القيامة، فقال الكفار: متى هذا الفتح؟ و قال السدّى: هو يوم بدر، لأن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلم كانوا يقولون للكفار: إن اللّه ناصرنا و مظهرنا عليكم، و متى فى قوله: مَتى هذَا الْفَتْحُ فى موضع رفع، أو فى موضع نصب على الظرفية. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم أن يجيب عليهم فقال: قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ و فى هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة، لأن يوم فتح مكة و يوم بدرهما مما ينفع فيه الإيمان، و قد أسلم أهل مكة يوم الفتح، و قبل ذلك منهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و معنى: وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ لا يمهلون، و لا يؤخرون، و يوم فى يَوْمَ الْفَتْحِ منصوب على الظرفية، و أجاز الفراء الرفع فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أى: عن سفههم و تكذيبهم و لا تجبهم إلا بما أمرت به وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ أى:

و انتظر يوم الفتح، و هو يوم القيامة، أو يوم إهلاكهم بالقتل إنهم منتظرون بك حوادث الزمان من موت، أو قتل، أو غلبة كقوله: فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ «۱» و يجوز أن يراد: إنهم منتظرون لإهلاكهم، و الآية منسوخة بآية السيف، و قيل: غير منسوخة، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال. و قرأ ابن السميقع «إنهم منتظرون» بفتح الظاء مبنيا للمفعول، و رويت هذه القراءة عن مجاهد و ابن محيصن. قال الفراء: لا يصح هذا إلّا بإضمار، أى: إنهم منتظر بهم. قال أبو حاتم: الصحيح الكسر، أى: انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك.

و قد أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديث ابن عباس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلا طويلا جعدا كأنّه من رجال شنوءة، و رأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة و البياض، سبط الرأس، و

رأیت مالکا خازن جهنّم و الدّجال» فی آیات أراهنّ اللّه إیاه.
قال: فَلا تَکُنْ فِی مِرْیَةٍ مِنْ لِقائِهِ فکان قتادة یفسرها أن النبی صلّی اللّه علیه و سلم قد لقی موسی و جَعَلْناهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرائِیلَ قال: جعل اللّه موسی هدی لبنی إسرائیل. و أخرج الطبرانی و ابن مردویه و الضیاء فی المختارة بسند قال السیوطی: صحیح عن ابن عباس عن النبی صلّی اللّه علیه و سلم فَلا تَکُنْ فِی مِرْیَةٍ مِنْ لِقائِهِ قال: من لقاء موسی، قیل أو لقی موسی؟ قال: نعم، ألا تری إلی قوله: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا «۲» و أخرج الفریابی و ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَی الْأَرْضِ الْجُرُزِ قال: الجرز التی لا تمطر إلا مطرا لا یغنی عنها شیئا إلا ما یأتیها من السیول. و أخرج ابن أبی شیبة، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: إِلَی الْأَرْضِ الْجُرُزِ قال:
أرض بالیمن. قال القرطبی فی تفسیره: و الإسناد عن ابن عباس صحیح لا مطعن فیه. و أخرج الحاکم و صححه، و البیهقی فی الدلائل عن ابن عباس فی قوله: وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْفَتْحُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ قال: یوم بدر فتح للنبی صلّی اللّه علیه و سلم فلم ینفع الذین کفروا إیمانهم بعد الموت.

---

(۱). التوبة: ۵۲.

(۲). الزخرف: ۴۵.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۲۹۹

سورة الأحزاب

اشارة

أخرج ابن الضریس، و النحاس، و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأحزاب بالمدینة. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله. و أخرج عبد الرزاق فی المصنف، و الطیالسی، و سعید بن منصور، و عبد اللّه بن أحمد فی زوائد المسند، و ابن منیع و النسائی و ابن المنذر، و ابن الأنباری فی المصاحف، و الدارقطنی فی الأفراد، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه، و الضیاء فی المختارة، عن زرّ قال: قال لی أبیّ بن کعب کأین تقرأ سورة الأحزاب؟ أو کأین تعدّها؟ قلت: ثلاثا و سبعین آیة، فقال أقط؟ لقد رأیتها و إنّها لتعادل سورة البقرة، أو أکثر من سورة البقرة، و لقد قرأنا فیها «الشّیخ و الشّیخة إذا زنیا فارجموهما ألبتة نکالا من اللّه و اللّه عزیز حکیم» فرفع فیما رفع. قال ابن کثیر: و إسناده حسن. و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما، عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قام، فحمد اللّه و أثنی علیه، ثم قال: أما بعد أیّها الناس إنّ اللّه بعث محمّدا بالحق و أنزل علیه الکتاب، فکان فیما أنزل علیه آیة الرجم، فقرأناها و وعیناها «الشّیخ و الشّیخة إذا زنیا فارجموهما ألبتة» و رجم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم و رجمنا بعده، فأخشی أن یطول بالناس زمان أن یقول قائل: لا نجد آیة الرجم فی کتاب اللّه، فیضلّوا بترک فریضة أنزلها اللّه. و قد روی عنه نحو هذا من طرق. و أخرج ابن مردویه عن حذیفة قال: قال لی عمر بن الخطاب: کم تعدّون سورة الأحزاب؟
قلت: ثنتین أو ثلاثا و سبعین؛ قال: إن کانت لتقارب سورة البقرة، و إن کان فیها لآیة الرجم. و أخرج البخاری فی تاریخه عن حذیفة قال: قرأت سورة الأحزاب علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فنسیت منها سبعین آیة ما وجدتها. و أخرج أبو عبید فی الفضائل و ابن الأنباری، و ابن مردویه عن عائشة، قالت: کانت سورة الأحزاب تقرأ فی زمان النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم مائتی

آیهٔ، فلما کتب عثمان المصاحف لم یقدّر منها إلا علی ما هو الآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۱ الی ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْکافِرِینَ وَ الْمُنافِقِینَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۱) وَ اتَّبِعْ ما یُوحی إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ إِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۲) وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلاً (۳) ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَیْنِ فِی جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَکُمُ اللاَّئِی تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِکُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِیاءَکُمْ أَبْناءَکُمْ ذلِکُمْ قَوْلُکُمْ بِأَفْواهِکُمْ وَ اللَّهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ (۴)

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ وَ مَوالِیکُمْ وَ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ فِیما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لکِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُکُمْ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۵) النَّبِیُّ أَوْلی بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُهاجِرِینَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلی أَوْلِیائِکُمْ مَعْرُوفاً کانَ ذلِکَ فِی الْکِتابِ مَسْطُوراً (۶)

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۰۰

فتح القدیر ج۴ ۳۴۹

قوله: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ اتَّقِ اللَّهَ أی: دم علی ذلک، و ازدد منه: وَ لا تُطِعِ الْکافِرِینَ من أهل مکة، و من هو علی مثل کفرهم وَ الْمُنافِقِینَ أی: الذین یظهرون الإسلام و یبطنون الکفر قال الواحدی:

إنه أراد سبحانه بالکافرین: أبا سفیان، و عکرمة، و أبا الأعور السلمی، و ذلک أنهم قالوا للنبی صلّی اللّه علیه و سلم: ارفض ذکر آلهتنا، و قل: إن لها شفاعة لمن عبدها. قال: و المنافقین عبد اللّه بن أبیّ و عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح.

و سیأتی آخر البحث بیان سبب نزول الآیة: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً أی: کثیر العلم و الحکمة بلیغهم، قال النحاس: و دلّ بقوله: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً علی أنه کان یمیل إلیهم: یعنی النبی صلّی اللّه علیه و سلم استدعاء لهم إلی الإسلام، و المعنی: أن اللّه عزّ و جلّ لو علم أن میلک إلیهم فیه منفعة لما نهاک عنهم لأنه حکیم، و لا یخفی بعد هذه الدلالة التی زعمها، و لکن هذه الجملة تعلیل لجملة الأمر بالتقوی، و النهی عن طاعة الکافرین و المنافقین، و المعنی: أنه لا یأمرک أو ینهاک إلا بما علم فیه صلاحا، أو فسادا لکثرة علمه، وسعة حکمته وَ اتَّبِعْ ما یُوحی إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ من القرآن: أی: اتبع الوحی فی کلّ أمورک، و لا تتبع شیئا مما عداه من مشورات الکافرین و المنافقین، و لا من الرأی البحت، فإن فیما أوحی إلیک ما یغنیک عن ذلک، و جملة: إِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً تعلیل لأمره باتباع ما أوحی إلیک، و الأمر له صلّی اللّه علیه و سلم أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن، کما هو مأمور باتباعه، و لهذا جاء بخطابه، و خطابهم فی قوله: بِما تَعْمَلُونَ علی قراءة الجمهور بالفوقیة للخطاب، و اختار هذه القراءة أبو عبید و أبو حاتم، و قرأ أبو عمرو و السلمی، و ابن أبی إسحاق بالتحتیة وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا أی: اعتمد علیه و فوّض أمورک إلیه، و کفی به حافظا یحفظ من توکل علیه. ثم ذکر سبحانه مثلا توطئة و تمهیدا لما یتعقبه من الأحکام القرآنیة، التی هی من الوحی الذی أمره اللّه باتباعه فقال: ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَیْنِ فِی جَوْفِهِ

و قد اختلف فی سبب نزول هذه الآیة کما سیأتی، و قیل: هی مثل ضربه اللّه للمظاهر، أی: کما لا یکون للرجل قلبان کذلک لا تکون امرأة المظاهر أمه حتی یکون له أمّان، و کذلک لا یکون الدعیّ ابنا لرجلین.

و قیل: کان الواحد من المنافقین یقول: لی قلب یأمرنی بکذا و قلب بکذا، فنزلت الآیة لردّ النفاق، و بیان أنه لا یجتمع مع الإسلام، کما لا یجتمع قلبان، و القلب بضعة صغیرة علی هیئة الصنوبرة خلقها اللّه، و جعلها محلا للعلم وَ ما جَعَلَ أَزْواجَکُمُ اللَّائِی

تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكَمْ و قرأ الكوفيون، و ابن عامر «اللائى»:
بياء ساكنة بعد همزة، و قرأ أبو عمرو، و البزى بياء ساكنة بعد ألف محضة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنها لغة قريش التى أمر الناس أن يقرءوا بها، و قرأ قنبل و ورش بهمزة مكسورة بدون ياء. قرأ عاصم تظاهرون بضم الفوقية، و كسر الهاء بعد ألف؛ مضارع ظاهر، و قرأ ابن عامر بفتح الفوقية و الهاء، و تشديد الظاء مضارع تظاهر، و الأصل تتظاهرون و قرأ الباقون «تظّهرون» بفتح الفوقية و تشديد الظاء بدون ألف، و الأصل:
تتظهرون، و الظهار مشتق من الظهر، و أصله أن يقول الرجل لامرأته: أنت علىّ كظهر أمى، و المعنى:
و ما جعل اللّه نساءكم اللائى تقولون لهنّ هذا القول كأمهاتكم فى التحريم، و لكنه منكر من القول و زور وَ كذلك ما جَعَلَ الأدعياء الذين تدّعون أنهم أَبْناءَكُمْ أبناء لكم، و الأدعياء جمع دعىّ، و هو الذى
فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۱
يدعى ابنا لغير أبيه، و سيأتى الكلام فى الظهار فى سورة المجادلة، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم من ذكر الظهار و الادعاء، و هو: مبتدأ، و خبره: قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ أى: ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه، و لا تأثير له، فلا تصير المرأة به أما، و لا ابن الغير به؛ ابنا، و لا يترتب على ذلك شىء من أحكام الأمومة و البنوّة. و قيل: الإشارة راجعة إلى الادّعاء، أى: ادّعاؤكم أن أبناء الغير أبناؤكم: لا حقيقة له، بل هو مجرّد قول بالفم وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَ الذى يحقّ اتباعه لكونه حقا فى نفسه لا باطلا، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم وَ هُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ أى: يدلّ على الطريق الموصلة إلى الحق، و فى هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق، و ترك قول الباطل و الزور. ثم صرّح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للآباء فقال:
ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ للصلب، و انسبوهم إليهم، و لا تدعوهم إلى غيرهم، و جملة هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ تعليل للأمر بدعاء الأبناء للآباء، و الضمير راجع إلى مصدر ادعوهم، و معنى أقسط: أى: أعدل كلّ كلام يتعلق بذلك، فترك الإضافة للعموم كقوله اللّه أكبر، و قد يكون المضاف إليه مقدّرا خاصا، أى:
أعدل من قولكم: هو ابن فلان، و لم يكن ابنه لصلبه. ثم تمم سبحانه الإرشاد للعباد فقال: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِى الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ أى: فهم إخوانكم فى الدين، و هم مواليكم، فقولوا: أخى و مولاى، و لا تقولوا ابن فلان، حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة. قال الزجاج: و يجوز أن يكون مواليكم:
أولياءكم فى الدين. و قيل المعنى: فإن كانوا محررين و لم يكونوا أحرارا، فقولوا موالى فلان وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ أى: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد، وَ لكِنْ الإثم فى ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ و هو ما قلتموه على طريقة العمد من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك.
قال قتادة: لو دعوت رجلا لغير أبيه، و أنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً يغفر للمخطئ و يرحمه و يتجاوز عنه، أو غفورا للذنوب رحيما بالعباد، و من جملة من يغفر له و يرحمه من دعا رجلا لغير أبيه خطأ. أو قبل النهى عن ذلك. ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة، و خصوصية جليلة لا يشاركه فيها أحد من العباد فقال: النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى: هو أحقّ بهم فى كلّ أمور الدين و الدنيا، و أولى بهم من أنفسهم فضلا عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، و إن كانوا محتاجين إليها، و يجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم، و يجب عليهم أن يقدّموا حكمه عليهم؛ على حكمهم لأنفسهم. و بالجملة فإذا دعاهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لشىء، و دعتهم أنفسهم إلى غيره، وجب عليهم أن يقدّموا ما دعاهم إليه، و يؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، و يجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، و يقدّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، و تطلبه خواطرهم. و قيل: المراد بأنفسهم فى الآية: بعضهم، فيكون المعنى:

أن النبيّ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض. و قيل: هى خاصة بالقضاء، أى: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم. و قيل أولى بهم فى الجهاد بين يديه، و بذل النفس دونه، و الأول أولى وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ أى: مثل أمهاتهم فى الحكم بالتحريم، و منزلات منزلتهنّ فى استحقاق التعظيم، فلا يحلّ لأحد أن يتزوج بواحدة منهنّ، كما لا يحلّ له أن يتزوج بأمه، فهذه الأمومة مختصة بتحريم

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۲

النكاح لهنّ، و بالتعظيم لجنابهنّ، و تخصيص المؤمنين يدلّ على أنهنّ لسن أمهات نساء المؤمنين، و لا بناتهنّ أخوات المؤمنين، و لا إخوتهنّ أخوال المؤمنين. و قال القرطبى: الذى يظهر لى أنهنّ أمهات الرجال و النساء تعظيما لحقهنّ على الرجال و النساء كما يدلّ عليه قوله: «النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم» و هذا يشمل الرجال و النساء ضرورة. قال: ثم إن فى مصحف أبىّ بن كعب «و أزواجه أمهاتهم، و هو أب لهم» و قرأ ابن عباس «أولى بالمؤمنين من أنفسهم و هو أب و أزواجه أمهاتهم»، ثم بين سبحانه أن القرابة أولى ببعضهم البعض فقال:

وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ المراد بأولى الأرحام: القرابات، أى: هم أحقّ ببعضهم البعض فى الميراث، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى آخر سورة الأنفال، و هى ناسخة لما كان فى صدر الإسلام، من التوارث بالهجرة و الموالاة. قال قتادة: لما نزل قوله سبحانه فى سورة الأنفال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا «۱» فتوارث المسلمون بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، و كذا قال غيره. و قيل: إن هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف و المؤاخاة فى الدين، و فِي كِتابِ اللَّهِ يجوز أن يتعلق بأفعل التفضيل فى قوله: أَوْلى بِبَعْضٍ لأنه يعمل فى الظرف، و يجوز أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير، أى: كائنا فى كتاب اللّه، و المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو آية المواريث، و قوله: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يجوز أن يكون بيانا ل أُولُوا الْأَرْحامِ و المعنى: أن ذوى القرابات من لمؤمنين وَ الْمُهاجِرِينَ بعضهم أولى ببعض، و يجوز أن يتعلق بأولى: أى: و أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين و المهاجرين الذين هم أجانب، و قيل: إن معنى الآية: و أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض، إلا ما يجوز لأزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم من كونهم كالأمهات فى تحريم النكاح، و فى هذا من الضعف ما لا يخفى إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً هذا الاستثناء إما متصل من أعمّ العام، و التقدير: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كلّ شىء من الإرث و غيره؛ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا من صدقة، أو وصية؛ فإن ذلك جائز.

قاله قتادة و الحسن و عطاء و محمّد ابن الحنفية. قال محمّد ابن الحنفية: نزلت فى إجازة الوصية لليهودى و النصرانى، فالكافر ولىّ فى النسب لا فى الدين، فتجوز الوصية له، و يجوز أن يكون منقطعا، و المعنى: لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به، و معنى الآية: أن للّه سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف و الهجرة؛ أباح أن يوصى لهم. و قال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة و حفظ الحرمة بحق الإيمان و الهجرة، و الإشارة بقوله: كانَ ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره، أى: كان نسخ الميراث بالهجرة، و المحالفة، و المعاقدة، و ردّه إلى ذوى الأرحام من القرابات فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً أى: فى اللوح المحفوظ، أو: فى القرآن مكتوبا.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى، و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: قام النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم يوما يصلى، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلبا معكم و قلبا معهم؟ فنزل ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ

---

(۱). الأنفال: ۷۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۳

قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ و أخرج ابن مردويه عنه من طريق أخرى بلفظ صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صلاة فسها فيها، فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون، فقالوا: إن له قلبين، و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه أيضا قال:

كان رجل من قريش يسمى من دعائه ذا القلبين. فأنزل اللّه هذا في شأنه. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما، عن ابن عمر: أنّ زيد بن حارثة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ما كنّا ندعوه إلا زيد بن محمّد حتى نزل القرآن ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ الآية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل». و أخرج البخاريّ و غيره عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما من مؤمن إلا و أنا أولى النّاس به في الدّنيا و الآخرة، اقرءوا إن شئتم النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فأيّما مؤمن ترك مالا ـ فلترثه عصبته من كانوا، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه». و أخرج أحمد، و أبو داود، و ابن مردويه من حديث جابر نحوه. و أخرج ابن أبي شيبة، و أحمد، و النسائي عن بريدة قال: غزوت مع عليّ إلى اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ذكرت عليّا فتنقّصته، فرأيت وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم تغيّر و قال: «يا بريدة أ لست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول اللّه! قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه» و قد ثبت في الصحيح أنه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «و الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه و ماله و ولده و النّاس أجمعين». و أخرج ابن سعد و ابن المنذر، و البيهقي في سننه، عن عائشة أن امرأة قالت لها: يا أمّه، فقالت:

أنا أمّ رجالكم و لست أمّ نسائكم. و أخرج ابن سعد عن أم سلمة قالت: أنا أمّ الرّجال منكم و النّساء. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و إسحاق بن راهويه و ابن المنذر، و البيهقي في دلائله، عن بجالة: قال مرّ عمر ابن الخطاب بغلام و هو يقرأ في المصحف: «النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه أمّهاتهم و هو أب لهم» فقال: يا غلام حكها، فقال: هذا مصحف أبيّ، فذهب إليه فسأله، فقال: إنه كان يلهيني القرآن، و يلهيك الصّفق في الأسواق. و أخرج الفريابي، و الحاكم، و ابن مردويه، و البيهقي في سننه عن ابن عباس أنه كان يقرأ «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم و هو أب لهم و أزواجه أمّهاتهم».

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٧ الى ١٧]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١)

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦)

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (١٧)

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٣٠٤

قوله: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ العامل في الظرف محذوف، أي: و اذكر، كأنه قال: يا أيها النبي! اتق اللّه، و اذكر أن اللّه أخذ ميثاق النبيين. قال قتادة: أخذ اللّه الميثاق على النبيين خصوصا أن يصدق بعضهم بعضا، و يتبع بعضهم بعضا. و قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا اللّه، و يدعو إلى عبادة اللّه، و أن يصدق بعضهم بعضا، و أن ينصحوا لقومهم. و الميثاق: هو اليمين،

و قيل: هو الإقرار باللّه، و الأوّل أولى، و قد سبق تحقيقه. ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم و لغيرهم، فقال:

وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ و وجه تخصيصهم بالذكر: الإعلام بأن لهم مزيد شرف و فضل، لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، و من أولى العزم من الرسل، و تقديم ذكر نبينا صلّى اللّه عليه و سلم مع تأخر زمانه فيه من التشريف له، و التعظيم ما لا يخفى. قال الزجاج: و أخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالذر. ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره و وصفه بالغلظ فقال: وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً أى: عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا، و ما أخذه اللّه عليهم، و يجوز أن يكون قد أخذ اللّه عليهم الميثاق مرّتين، فأخذ عليهم فى المرّة الأولى مجرّد الميثاق بدون تغليظ، و لا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانيا:

مغلظا مشدّدا، و مثل هذه الآية قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ، ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ «۱» و اللام فى قوله: لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ يجوز أن تكون لام كى، أى: لكى يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم فى تبليغ الرسالة إلى قومهم، و فى هذا وعيد لغيرهم، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم. و قيل: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم، كما فى قوله: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ «۲» و يجوز أن تتعلق بمحذوف، أى: فعل ذلك ليسأل وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً معطوف على ما دل عليه لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ إذ التقدير: أثاب الصادقين و أعدّ للكافرين، و يجوز أن يكون معطوفا على أخذنا، لأن المعنى: أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ليثيب المؤمنين و أعدّ للكافرين. و قيل: إنه قد حذف من الثانى ما أثبت مقابله فى الأوّل، و من الأوّل ما أثبت مقابله فى الثانى، و التقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم، و يسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم، و أعدّ لهم عذابا أليما. و قيل: إنه معطوف على المقدّر عاملا فى ليسأل كما ذكرنا، و يجوز أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ و تكون جملة: وَ أَعَدَّ لهم مستأنفة؛ لبيان ما أعدّه للكفار يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى اللّه؛ بحيث لا يبقى معها خوف من أحد و قوله: عَلَيْكُمْ متعلق بالنعمة إن كانت مصدرا أو بمحذوف هو حال، أى: كائنة عليكم، و معنى إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ حين جاءتكم جنود، و هو ظرف للنعمة، أو للمقدّر عاملا فى عليكم، أو المحذوف هو اذكر، و المراد بالجنود: جنود الأحزاب الذين تحزبوا

---

(۱). آل عمران: ۸۱.

(۲). الأعراف: ۶.

على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و غزوه إلى المدينة، و هى الغزوة المسماة «غزوة الخندق» و هم: أبو سفيان بن حرب بقريش و من معهم من الألفاف، و عيينة بن حصن الفزارى و من معه من قومه غطفان و بنو قريظة و النضير، فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة، كما وصف اللّه سبحانه فى هذه الآيات، و كانت هذه الغزوة فى شوّال سنة خمس من الهجرة. قاله ابن إسحاق. و قال ابن وهب و ابن القاسم عن مالك: كانت فى سنة أربع. و قد بسط أهل السير فى هذه الوقعة ما هو معروف، فلا نطيل بذكرها فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً معطوف على جاءتكم.

قال مجاهد: هى الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم، و نزعت فساطيطهم، و يدلّ على هذا ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم من قوله: «نصرت بالصبا، و أهلكت عاد بالدبور»، و المراد بقوله: وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها الملائكة. قال

المفسرون: بعث اللّه عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، و قطعت أطناب الفساطيط، و أطفأت النيران، و أكفأت القدور، و جالت الخيل بعضها فى بعض، و أرسل اللّه عليهم الرعب، و كثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر حتى كان سيد كلّ قوم يقول لقومه: يا بنى فلان هلمّ إلىّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً قرأ الجمهور «تعملون» بالفوقية، أى: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب، و حفر الخندق، و استنصاركم به، و توكلكم عليه، و قرأ أبو عمرو بالتحتية، أى: بما يعمله الكفار من العناد للّه و لرسوله، و التحزب على المسلمين و اجتماعهم عليهم من كلّ جهة إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ إذ هذه و ما بعدها بدل من إذ الأولى، و العامل فى هذه هو العامل فى تلك، و قيل:

منصوبة بمحذوف، هو: اذكر، و معنى مِنْ فَوْقِكُمْ من أعلى الوادى، و هو من جهة المشرق، و الذين جاءوا من هذه الجهة هم غطفان، و سيدهم: عيينة بن حصن، و هوازن، و سيدهم: عوف بن مالك، و بنو النضير، و معنى وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ من أسفل الوادى من جهة المغرب من ناحية مكة، و هم قريش و من معهم من الأحابيش، و سيدهم: أبو سفيان بن حرب، و جاء أبو الأعور السلمى، و معه حيى بن أخطب اليهودى؛ فى يهود بنى قريظة من وجه الخندق، و معهم عامر بن الطفيل، و جملة وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ معطوفة على ما قبلها، أى: مالت عن كلّ شيء، فلم تنظر إلا إلى عدوّها مقبلا من كلّ جانب، و قيل:

شخصت دهشا من فرط الهول و الحيرة وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ جمع حنجرة، و هى جوف الحلقوم، أى: ارتفعت القلوب عن مكانها، و وصلت من الفزع و الخوف إلى الحناجر، فلو لا أنه ضاق الحلقوم عنها، و هو الذى نهايته الحنجرة لخرجت، كما قال قتادة. و قيل: هو على طريق المبالغة المعهود فى كلام العرب، و إن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان، و لا خرجت عن موضعها، و لكنه مثل فى اضطرابها و جبنها. قال الفراء:

و المعنى أنهم جبنوا، و جزع أكثرهم، و سبيل الجبان إذا اشتدّ خوفه أن تنتفخ رئته، فإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب إلى الحنجرة، و لهذا يقال للجبان: انتفخ سحره وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا أى: الظنون المختلفة، فبعضهم ظنّ النصر، و رجا الظفر، و بعضهم ظنّ خلاف ذلك. و قال الحسن: ظنّ المنافقون أن يستأصل محمّد و أصحابه، و ظنّ المؤمنون أنه ينصر. و قيل: الآية خطاب للمنافقين، و الأولى ما قاله الحسن. فيكون الخطاب لمن أظهر الإسلام على الإطلاق أعمّ من أن يكون مؤمنا فى الواقع أو منافقا.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۶

و اختلف القراء فى هذه الألف فى «الظنونا»: فأثبتها وصلا و وقفا نافع، و ابن عامر، و أبو بكر، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و الكسائى، و تمسكوا بخط المصحف العثمانى و جميع المصاحف فى جميع البلدان، فإن الألف فيها كلها ثابتة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد إلا أنه قال: لا ينبغى للقارئ أن يدرج القراءة بعدهنّ بل يقف عليهنّ، و تمسكوا أيضا بما فى أشعار العرب من مثل هذا. و قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الجحدرى، و يعقوب بحذفها فى الوصل و الوقف معا، و قالوا هى من زيادات الخطّ فكتبت كذلك، و لا ينبغى النطق بها، و أما فى الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز فى غيره. قرأ ابن كثير، و الكسائى، و ابن محيصن بإثباتها وقفا و حذفها وصلا، و هذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية، و هذه الألف هى التى تسميها النحاة ألف الإطلاق، و الكلام فيها معروف فى علم النحو، و هكذا اختلف القراءة فى الألف التى فى قوله «الرسولا، و السبيلا» كما سيأتى آخر هذه السورة هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ الظرف منتصب بالفعل الذى بعده، قيل: بتظنون، و استضعفه ابن عطية، و هو ظرف مكان يقال للمكان البعيد هنالك كما يقال للمكان القريب هنا، و للمتوسط هناك. و قد يكون ظرف زمان: أى: عند ذلك الوقت ابتلى المؤمنون و منه قول الشاعر:

و إذا الأمور تعاظمت و تشاكلت فهناك يعترفون أين المفزع

أى: فى ذلك الوقت، و المعنى: أن فى ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف، و القتال، و الجوع، و الحصر، و النزال

ليتبين المؤمن من المنافق وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً قرأ الجمهور «زلزلوا» بضم الزاى الأولى و كسر الثانية على ما هو الأصل فى المبنى للمفعول، و روى عن أبى عمرو أنه قرأ بكسر الأولى، و روى الزمخشرى عنه أنه قرأ بإشمامها كسرا، و قرأ الجمهور «زلزالا» بكسر الزاى الأولى، و قرأ عاصم، و الجحدرى، و عيسى بن عمر بفتحها. قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر و الفتح: نحو قلقلته قلقالا، و زلزلوا زلزالا، و الكسر أجود. قال ابن سلام: معنى زلزلوا: حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا. و قال الضحاك: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق، و قيل: المعنى أنهم اضطربوا اضطرابا مختلفا، فمنهم من اضطرب فى نفسه، و منهم من اضطرب فى دينه وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ معطوف على «إذ زاغت الأبصار»، و المرض فى القلوب هو الشكّ و الريبة، و المراد ب الْمُنافِقُونَ عبد اللّه بن أبيّ و أصحابه، و ب الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أهل الشك و الاضطراب ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ من النصر و الظفر إِلَّا غُرُوراً أى: باطلا من القول، و كان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلا من أهل النفاق و الشك، و هذا القول المحكى عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة، أى: كان ظنّ هؤلاء هذا الظنّ، كما كان ظنّ المؤمنين النصر، و إعلاء كلمة اللّه وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أى: من المنافقين. قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين. و قال السدّى: هم عبد اللّه بن أبى و أصحابه، و قيل: هم أوس بن قبطى و أصحابه، و الطائفة تقع على الواحد فما فوقه، و القول الذى قالته هذه الطائفة هو قوله: يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ أى: لا موضع إقامة لكم، أو لا إقامة لكم هاهنا فى العسكر.

قال أبو عبيد: يثرب اسم الأرض، و مدينة النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى ناحية منها. قال السهيلى: و سميت يثرب، لأن

الذى نزلها من العمالقة اسمه يثرب بن عميل، قرأ الجمهور «لا مقام لكم» بفتح الميم، و قرأ حفص و السلمى و الجحدرى و أبو حيوة بضمها، على أنه مصدر من أقام يقيم، و على القراءة الأولى هو اسم مكان فَارْجِعُوا أى: إلى منازلكم، أمروهم بالهرب من عسكر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و ذلك «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و المسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع و الخندق بينهم و بين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس هاهنا موضع إقامة، و أمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة» وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَ معطوف على «قالت طائفة منهم»، أى: يستأذنون فى الرجوع إلى منازلهم، و هم بنو حارثة، و بنو سلمة، و جملة يَقُولُونَ بدل من قوله: «يستأذن» أو حال استئناف جوابا لسؤال مقدّر، و القول الذى قالوه هو قولهم إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ أى: ضائعة سائبة ليست بحصينة، و لا ممتنعة عن العدوّ. قال الزجاج: يقال عور المكان يعور عورا و عورة، و بيوت عورة و عورة، و هى مصدر. قال مجاهد و مقاتل و الحسن: قالوا بيوتنا ضائعة نخشى عليها السرّاق. و قال قتادة: قالوا بيوتنا مما يلى العدوّ و لا نأمن على أهلنا. قال الهروى: كل مكان ليس بممنوع، و لا مستور فهو عورة، و العورة فى الأصل: الخلل فأطلقت على المختل، و المراد: ذات عورة، و قرأ ابن عباس، و عكرمة، و مجاهد، و أبو رجاء العطاردى عورة بكسر الواو أى: قصيرة الجدران. قال الجوهرى: العورة كل حال يتخوّف منه فى ثغر أو حرب. قال النحاس يقال أعور المكان: إذا تبينت فيه عورة، و أعور الفارس:

إذا تبين منه موضع الخلل، ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ فكذّبهم اللّه سبحانه فيما ذكروه، و الجملة فى محل نصب على الحال، ثم بين سبب استئذانهم و ما يريدونه به، فقال: إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً أى: ما يريدون إلا الهرب من القتال، و قيل المراد: ما يريدون إلا الفرار من الدين وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها يعنى: بيوتهم، أو المدينة، و الأقطار: النواحى؛ جمع قطر، و هو الجانب و الناحية، و المعنى: لو دخلت عليهم بيوتهم، أو المدينة من جوانبها جميعا لا من بعضها، و نزلت بهم هذه النازلة الشديدة، و استبيحت ديارهم، و هتكت حرمهم و منازلهم ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم

لَآتَوْها أی: لجاءوها أو أعطوها، و معنی الفتنة هنا: إما القتال فی العصبیة کما قال الضحاک، أو الشرک باللّه، و الرجعة إلی الکفر الـذی یبطنونه، و یظهرون خلافه کما قال الحسن، قرأ الجمهور لآتوها بالمدّ، أی: لأعطوها من أنفسهم، و قرأ نافع و ابن کثیر بالقصر، أی: لجاءوها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا یَسِیراً أی:

بالمدینة بعد أن أتوا الفتنة إلا تلبثا یسیرا حتی یهلکوا، کذا قال الحسن و السدّی و الفراء و القتبی، و قال أکثر المفسرین: إن المعنی: و ما احتبسوا عن فتنة الشرک إلا قلیلا، بل هم مسرعون إلیها راغبون فیها لا یقفون عنها إلا مجرّد وقوع السؤال لهم، و لا یتعللون عن الإجابة بأن بیوتهم فی هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة علی الحقیقة، کما تعللوا عن إجابة الرسول، و القتال معه بأنها عورة، و لم تکن إذ ذاک عورة. ثم حکی اللّه سبحانه عنهم ما قد کان وقع منهم من قبل من المعاهدة للّه، و لرسوله بالثبات فی الحرب، و عدم الفرار عنه فقال: وَ لَقَدْ کانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا یُوَلُّونَ الْأَدْبارَ أی: من قبل غزوة الخندق، و من بعد بدر، قال قتادة: و ذلک أنهم غابوا عن بدر، و رأوا ما أعطی اللّه أهل بدر من الکرامة و النصر فقالوا: لئن أشهدنا

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۰۸

اللّه قتالا لنقاتلنّ، و هم بنو حارثة، و بنو سلمة وَ کانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا أی: مسؤولا عنه، و مطلوبا صاحبه بالوفاء به، و مجازی علی ترک الوفاء به قُلْ لَنْ یَنْفَعَکُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ فإن من حضر أجله مات أو قتل فرّ أو لم یفرّ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِیلًا أی: تمتعا قلیلا- أو زمانا قلیلا بعد فرارهم إلی أن تنقضی آجالهم، و کلّ ما هو آت فهو قریب. قرأ الجمهور «تمتعون» بالفوقیة، و قرأ یعقوب الحضرمی فی روایة الساجی عنه بالتحتیة. و فی بعض الروایات «لا تمتعوا» بحذف النون إعمالا لإذن، و علی قراءة الجمهور هی ملغاة قُلْ مَنْ ذَا الَّذِی یَعْصِمُکُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِکُمْ سُوءاً أی: هلاکا أو نقصا فی الأموال و جدبا و مرضا أَوْ أَرادَ بِکُمْ رَحْمَةً یرحمکم بها من خصب و نصر و عافیة وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا یوالیهم، و یدفع عنهم وَ لا نَصِیراً ینصرهم من عذاب اللّه.

و قد أخرج الطبرانی، و ابن مردویه، و أبو نعیم فی الدلائل عن أبی مریم الغسانی أن أعرابیا قال: یا رسول اللّه أیّ شیء کان أوّل نبوّتک؟ قال: أخذ اللّه منّی المیثاق کما أخذ من النّبیّین میثاقهم، ثم تلا- وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِیمَ وَ مُوسی وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِیثاقاً غَلِیظاً و دعوة إبراهیم قال: وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ «۱»، و بشری عیسی ابن مریم، و رأت أمّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فی منامها أنه خرج من بین رجلیها سراج أضاءت له قصور الشام. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال: قیل:

یا رسول اللّه متی أخذ میثاقک؟ قال: «و آدم بین الرّوح و الجسد». و أخرج البزار و الطبرانی فی الأوسط و أبو نعیم فی الدلائل عنه قال: قیل یا رسول اللّه! متی کنت نبیا؟ قال: و آدم بین الرّوح و الجسد».

و فی الباب أحادیث قد صحّح بعضها. و أخرج الحسن بن سفیان، و ابن أبی حاتم و ابن مردویه، و أبو نعیم فی الدلائل و الدیلمی، و ابن عساکر من طریق قتادة عن الحسن عن أبی هریرة عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم فی قوله: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثاقَهُمْ الآیة قال: «کنت أوّل النبیین فی الخلق و آخرهم فی البعث»، فبدأ به قبلهم. و أخرج ابن أبی حاتم من طریق الضحاک عن ابن عباس قال: مِیثاقَهُمْ عهدهم. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی بسند صحیح عن ابن عباس وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثاقَهُمْ قال:

إنما أخذ اللّه میثاق النبیین علی قومهم. و أخرج الحاکم و صححه، و ابن مردویه، و أبو نعیم، و البیهقی، کلاهما فی الدلائل و ابن عساکر من طرق عن حذیفة قال: لقد رأیتنا لیلة الأحزاب و نحن صافون قعود و أبو سفیان و من معهم من الأحزاب فوقنا، و قریظة الیهود أسفل منا؛ نخافهم علی ذرارینا، و ما أتت علینا لیلة قط أشدّ ظلمة و لا أشدّ ریحا فی أصوات ریحها أمثال الصواعق،

و هى ظلمة ما يرى أحد منا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون و نحن ثلاثمائة، أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم رجلا حتى مرّ علىّ و ما علىّ جنة من العدوّ و لا من البرد إلا مرط لامرأتى ما يجاوز ركبتى، فأتانى و أنا جاث على ركبتى فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة، قال: حذيفة، فتقاصرت إلى الأرض، فقلت بلى يا رسول اللّه! كراهية أن أقوم، قال: قم فقمت، فقال:

---

(۱). البقرة: ۱۲۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۰۹

إنه كان فى القوم خبر، فأتنى بخبر القوم، قال: و أنا من أشدّ القوم فزعا و أشدّهم قرّا، فخرجت فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اللّهمّ احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته»؛ قال: فو اللّه ما خلق اللّه فزعا و لا قرّا فى جوفى إلا خرج من جوفى، فما أجد منه شيئا؛ فلما وليت قال: يا حذيفة لا تحدّثنّ فى القوم شيئا حتّى تأتينى، فخرجت حتّى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد، و إذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار و يمسح خاصرته و يقول: الرّحيل الرّحيل، ثم دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرّحيل الرّحيل لا مقام لكم، و إذا الرّيح فى عسكرهم ما تجاوز شبرا، فو اللّه إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم و فرشهم، الرّيح تضربهم، ثم خرجت نحو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فلما انتصف فىّ الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارسا معتمّين فقالوا:
أخبر صاحبك أنّ اللّه كفاه القوم، فرجعت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأخبرته و هو مشتمل فى شملة يصلّى، و كان إذا حزبه أمر صلّى، فأخبرته خبر القوم إنّى تركتهم يترحّلون، و أنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ قال: كان يوم أبى سفيان يوم الأحزاب.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى الجنوب، فقالت: انطلقى فانصرى اللّه و رسوله، فقالت الجنوب: إن الحرّة لا تسرى بالليل، فغضب اللّه عليها و جعلها عقيما، فأرسل عليهم الصبا، فأطفأت نيرانهم و قطعت أطنابهم فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «نصرت بالصّبا و أهلكت عاد بالدّبور»، فذلك قوله:
فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث ابن عباس قال:
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «نصرت بالصّبا و أهلكت عاد بالدّبور». و أخرج البخارى و غيره عن عائشة فى قوله: إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ الآية قالت: كان ذلك يوم الخندق، و فى الباب أحاديث فى وصف هذه الغزوة و ما وقع فيها، و قد اشتملت عليها كتب الغزوات و السير. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، و هى المدينة تنفى البأس كما ينفى الكير خبث الحديد». و أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من سمّى المدينة يثرب فليستغفر اللّه، هى طابة، هى طابة» و لفظ أحمد «إنّما هى طابة» و إسناده ضعيف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَ قال: هم بنو حارثة قالوا: بُيُوتَنا عَوْرَةٌ أى: مختلة نخشى عليها السرق. و أخرج ابن مردويه عن جابر نحوه. و أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها قال: لأعطوها: يعنى إدخال بنى

حارثة أهل الشام على المدينة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۰

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۸ الى ۲۵]

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (۱۸) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۹) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (۲۰) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَ تَسْلِيماً (۲۲)

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (۲۳) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (۲۵)

قوله: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ يقال: عاقه، و اعتاقه، و عوقه: إذا صرفه عن الوجه الذى يريده. قال الواحدى قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و ذلك أنهم قالوا لهم: ما محمّد و أصحابه إلا أكلة رأس، و لو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان و حزبه. فخلوهم و تعالوا إلينا، و قيل: إن القائل هذه المقالة اليهود قالوا: لِإِخْوانِهِمْ من المنافقين هَلُمَّ إِلَيْنا و معنى هلم:

أقبل و احضر، و أهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد و الجماعة، و المذكر و المؤنث، و غيرهم من العرب يقولون: هلم للواحد المذكر، و هلمى للمؤنث، و هلما للاثنين. و هلموا للجماعة، و قد مرّ الكلام على هذا فى سورة الأنعام وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ أى الحرب إِلَّا قَلِيلًا خوفا من الموت، و قيل المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياء و سمعة من غير احتساب أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ أى: بخلاء عليكم لا يعاونونكم بحفر الخندق، و لا بالنفقة فى سبيل اللّه، قال مجاهد و قتادة. و قيل: أشحة بالقتال معكم، و قيل: بالنفقة على فقرائكم، و مساكينكم. و قيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها. قاله السدّى. و انتصابه على الحال من فاعل يأتون. أو من المعوقين. و قال الفراء: يجوز فى نصبه أربعة أوجه: منها: النصب على الذم، و منها: بتقدير فعل محذوف، أى: يأتونه أشحة. قال النحاس: و لا يجوز أن يكون العامل فيه للمعوقين، و لا القائلين لئلا يفرق بين الصلة و الموصول فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ أى: تدور يمينا و شمالا، و ذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أى: كعين الذى يغشى عليه من الموت، و هو الذى نزل به الموت و غشيته أسبابه، فيذهل و يذهب عقله، و يشخص بصره فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، و يقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، و دارت حماليق عينيه، و الكاف: نعت مصدر محذوف فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ يقال: سلق فلان

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۱

فلانا بلسانه: إذا أغلظ له فى القول مجاهرا. قال الفراء: أى آذوكم بالكلام فى الأمن بألسنة سليطة ذربة، و يقال: خطيب مسلاق و مصلاق إذا كان بليغا، و منه قول الأعشى:

فيهم المجد و السّماحة و النّجدةفيهم و الخاطب السّلاق

قال القتبى: المعنى آذوكم بالكلام الشديد، و السلق: الأذى، و منه قول الشاعر:

و لقد سلقنا هوازنابنواهل حتّى انحنينا

قال قتادة: معنى الآية: بسطوا ألسنتهم فيكم فى وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشحّ قوم و أبسطهم لسانا، و وقت البأس أجبن قوم و أخوفهم. قال النحاس: و هذا قول حسن، و انتصاب: أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ على الحالية من فاعل سلقوكم، و يجوز أن يكون نصبه على الذمّ. و قرأ ابن أبى عبلة برفع أشحة، و المراد هنا: أنهم أشحة على الغنيمة، يشاحون المسلمين عند القسمة، قال يحيى بن سلام. و قيل: على المال أن ينفقوه فى سبيل اللّه. قاله السدّى. و يمكن أن يقال معناه: أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصوفين بتلك الصفات لَمْ يُؤْمِنُوا إيمانا خالصا بل هم منافقون، يظهرون الإيمان، و يبطنون الكفر فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ أى:

أبطلها، بمعنى: أظهر بطلانها، لأنها لم تكن لهم أعمال تقتضى الثواب حتى يبطلها اللّه. قال مقاتل: أبطل جهادهم لأنه لم يكن فى إيمان وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً أى: و كان ذلك الإحباط لأعمالهم، أو كان نفاقهم على اللّه هينا يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا أى: يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب باقون فى معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم، و ذلك لما نزل بهم من الفشل و الروع وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ مرة أخرى بعد هذه المرة يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ أى: يتمنون أنهم فى بادية الأعراب لما حلّ بهم من الرهبة، و البادى خلاف الحاضر، يقال: بدا يبدو بداوة: إذا خرج إلى البادية يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ أى: عن أخباركم، و ما جرى لكم، كل قادم عليهم من جهتكم، أو يسأل بعضهم بعضا عن الأخبار التى بلغته من أخبار الأحزاب، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و المعنى: أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم و ضعف نياتهم وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا أى: لو كانوا معكم فى هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا؛ خوفا من العار و حمية على الديار لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أى: قدوة صالحة، يقال لى فى فلان أسوة: أى لى به، و الأسوة من الائتساء، كالقدوة من الاقتداء: اسم يوضع موضع المصدر. قال الجوهرى: و الأسوة و الإسوة بالضم و الكسر، و الجمع: أسى و إسى. قرأ الجمهور «أسوة» بالضم للهمزة، و قرأ عاصم بكسرها، و هما لغتان كما قال الفراء و غيره.

و فى هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أى: لقد كان لكم فى رسول اللّه حيث بذل نفسه للقتال؛ و خرج إلى الخندق لنصرة دين اللّه، أسوة، و هذه الآية و إن كان سببها خاصا فهى عامة

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۱۲

فى كلّ شى‌ء، و مثلها: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۱»، و قوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «۲»، و اللام فى لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ: متعلق بحسنة، أو: بمحذوف هو صفة لحسنة، أى: كائنة لمن يرجو اللّه. و قيل: إن الجملة بدل من الكاف فى لكم، و ردّه أبو حيان و قال: إنه لا يبدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار. و يجاب عنه: بأنه قد أجاز ذلك الكوفيون و الأخفش و إن منعه البصريون، و المراد بمن كان يرجو اللّه: المؤمنون، فإنهم الذين يرجون اللّه و يخافون عذابه، و معنى يرجون اللّه: يرجون ثوابه أو لقاءه، و معنى يرجون اليوم الآخر: أنهم يرجون رحمة اللّه فيه، أو يصدقون بحصوله، و أنه كائن لا محالة، و هذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً معطوف على كان، أى: و لمن ذكر اللّه فى جميع أحواله ذكرا كثيرا، و جمع بين الرجاء للّه و الذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، و مشاهدتهم لتلك الجيوش التى أحاطت بهم كالبحر العباب فقال: وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ الإشارة بقوله «هذا» إلى ما رأوه من الجيوش، أو إلى الخطب الذى نزل، و البلاء الذى دهم، و هذا القول منهم قالوه استبشارا بحصول ما وعدهم اللّه و رسوله من

مجىء هـذه الجنود، و إنه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصـر، و الظفر من عنـد اللّه، و «مـا» فى «ما وعـدنا اللّه» هى الموصولـة، أو المصدرية، ثم أردفوا ما قالوه بقولهم: وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أى: ظهر صدق خبر اللّه و رسوله وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً أى: ما زادهم ما رأوه إلا إيمانا باللّه و تسليما لأمره. قال الفراء: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيمانا و تسليما. قال علىّ بن سليمان: «رأى» يـدل على الرؤيـة، و تـأنيث الرؤيـة غير حقيقى، و المعنى: مـا زادهم الرؤيـة إلا إيمانا للرب، و تسليما للقضاء، و لو قال ما زادتهم لجاز مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ أى: من المؤمنين المخلصين رجال صدقوا: أتوا بالصدق، من صدقنى إذا قال الصـدق، و محل «ما عاهـدوا اللّه عليه»: النصب بنزع الخافض، و المعنى: أنهم وفوا بما عاهـدوا عليه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم ليلة العقبة من الثبات معه، و المقاتلة لمن قاتله، بخلاف من كذب فى عهده، و خان اللّه و رسوله، و هم المنافقون، و قيل: هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلم ثبتوا له، و لم يفروا، و وجه إظهار الاسم الشريف، و الرسول فى قوله: صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ بعد قوله: ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ هو قصد التعظيم كما فى قول الشاعر:

أرى الموت لا يسبق الموت شـىء و أيضا لو أضـمرهما لجمع بين ضـمير اللّه، و ضـمير رسوله فى لفظ واحد. و قال صدقا، و قد ورد النهى عن جمعهمـا كمـا فى حـديث «بئس خطيب القـوم أنت» لمن قـال و من يعصـهما فقـد غوى. ثم فصـل سـبحانه حـال الصادقين بما وعدوا اللّه و رسوله، و قسمهم إلى قسمين فقال: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ

---

(١). الحشر: ٧.

(٢). آل عمران: ٣١.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٣١٣

النحب: ما التزمه الإنسان، و اعتقد الوفاء به، و منه قول الشاعر:

عشية فرّ الحارثيون بعد ماقضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

و قال الآخر:

بطخفة جالدنا الملوك و خيلناعشيّة بسطام جرين على نحب

أى: على أمر عظيم، و النحب: يطلق على النذر، و القتل، و الموت. قال ابن قتيبة: قضى نحبه: أى:

قتل، و أصل النحب: النـذر. كانوا يوم بـدر نـذروا إن لقوا العـدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا، أو يفتح اللّه لهم فقتلوا، فقيل فلان قضـى نحبه: أى قتل، و النحب أيضا: الحاجة و إدراك الأمنية، يقول قائلهم: مالى عندهم نحب، و النحب: العهد، و منه قول الشاعر:

لقد نحبت كلب على الناس إنّهمأحقّ بتاج الماجد المتكرّم

و قال الآخر:

قد نحب المجد علينا نحبا «١» و من ورود النحب فى الحاجة و إدراك الأمنية قول الشاعر:

أنحب فيقضـى أم ضـلال و باطل «٢» و معنى الآيـة: أن من المـؤمنين رجالاـ أدركـوا أمنيتهم، و قضوا حـاجتهم، و وفوا بنـذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، و ذلك يوم أحد كحمزة، و مصـعب بن عمير، و أنس بن النضر وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ قضاء نحبه حتى يحضر أجله كعثمان بن عفان، و طلحة و الزبير و أمثالهم، فإنهم مسـتمرّون على الوفاء بما عاهدوا اللّه عليه من الثبات مع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلم و القتال لعدوّه، و منتظرون لقضاء حاجتهم و حصول أمنيتهم بالقتل و إدراك فضل الشهادة، و جملة وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا معطوفة على صدقوا، أى: ما غيروا عهدهم الذى عاهدوا اللّه و رسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتا مستمرا، أما الذين قضوا نحبهم فظاهر، و أما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا، و لم يغيروا و لا بدّلوا،

و اللام فى قوله: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ يجوز أن يتعلق بصدقوا أو بزادهم، أو بما بدلوا، أو بمحذوف، كأنه قيل: وقع جميع ما وقع ليجزى اللّه الصادقين بصدقهم وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ بما صدر عنهم من التغيير و التبديل، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء، و أرادوها بسبب تبديلهم، و تغييرهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب و العقاب، فكأنهما استويا فى طلبها، و السعى لتحصيلها، و مفعول «إن شاء» و جوابها محذوفان، أى: إن شاء تعذيبهم عذبهم، و ذلك إذا أقاموا على

---

(١). و قبله: يا عمرو يا ابن الأكرمين نسبا.

(٢). هذا عجز بيت للبيد، و صدره: ألا تسألان المرء ماذا يحاول.

النفاق، و لم يتركوه و يتوبوا عنه إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً أى: لمن تاب منهم، و أقلع عما كان عليه من النفاق. ثم رجع سبحانه إلى حكاية بقية القصة و ما امتنّ به على رسوله و المؤمنين من النعمة فقال: وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا و هم الأحزاب، و الجملة معطوفة على فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً أو على المقدّر عاملا فى ليجزى اللّه الصادقين بصدقهم، كأن قيل: وقع ما وقع من الحوادث و ردّ اللّه الذين كفروا، و محل بِغَيْظِهِمْ النصب على الحال، و الباء للمصاحبة، أى: حال كونهم متلبسين بغيظهم و مصاحبين له، و يجوز أن تكون للسببية، و جملة: لَمْ يَنالُوا خَيْراً فى محل نصب على الحال أيضا من الموصول، أو من الحال الأولى على التعاقب، أو التدخل. و المعنى: أن اللّه ردّهم بغيظهم لم يشف صدورهم و لا نالوا خيرا فى اعتقادهم، و هو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيرا أىّ خير، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر، و غرم النفقة وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ بما أرسله من الريح، و الجنود من الملائكة وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً على كلّ ما يريده إذا قال له كن كان، عزيزا غالبا قاهرا لا يغالبه أحد من خلقه، و لا يعارضه معارض فى سلطانه و جبروته.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى قوله: سَلَقُوكُمْ قال: استقبلوكم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً قال: هينا. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب، و ابن عساكر، و ابن النجار عن عمر فى قوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قال: فى جوع رسول اللّه، و قد استدلّ بهذه الآية جماعة من الصحابة فى مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة، و هى خارجة عما نحن بصدده. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ إلى آخر الآية قال: إن اللّه قال لهم فى سورة البقرة أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ «١» فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب فى الخندق قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ فتأوّل المسلمون ذلك فلم يزدهم إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً.

و أخرج البخارى و غيره عن أنس قال: نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ و أخرج ابن سعد، و أحمد، و مسلم، و الترمذى، و النسائى، و البغوى فى معجمه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و البيهقى عن أنس قال: غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه: و قال أوّل مشهد شهده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم غبت عنه لئن أرانى اللّه مشهدا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فيما بعد ليرينّ اللّه ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال:

واها لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد فى جسده بضع و ثمانون ما بين ضربة و طعنة و رمية، و نزلت هذه الآية رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ و كانوا يرون أنها نزلت فيه و فى أصحابه، و قد روى عنه نحوه من طريق أخرى عند

الترمذى و صححه، و النسائى، و غيرهما. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة: «أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير و هو مقتول،

---

(١). البقرة: ٢١۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ٣١۵

فوقف عليه و دعا له، ثم قرأ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الآية، ثم قال: أشهد أنّ هؤلاء شهداء عند اللّه فأتوهم و زوروهم، و الذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه» و قد تعقب الحاكم فى تصحيحه الذهبى كما ذكر السيوطى و لكنه قد أخرج الحاكم حديثا آخر و صححه.

و أخرجه أيضا البيهقى فى الدلائل عن أبى ذرّ قال: لمّا فرغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوم أحد مرّ على مصعب بن عمير مقتولا على طريقه، فقرأ: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الآية. و أخرج ابن مردويه من حديث خباب مثله، و هما يشهدان لحديث أبى هريرة. و أخرج الترمذى و حسنه، و أبو يعلى، و ابن جرير، و الطبرانى، و ابن مردويه، عن طلحة: «أن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قالوا لأعرابىّ جاهل:

سله عمّن قضى نحبه، من هو؟ و كانوا لا يجترءون على مسألته، يوقّرونه و يهابونه، فسأله الأعرابىّ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إنّى اطلعت من باب المسجد فقال: «أين السائل عمّن قضى نحبه»؟ قال الأعرابى: أنا، قال: «هذا ممّن قضى نحبه». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى و ابن مردويه من حديثه نحوه. و أخرج الترمذى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن معاوية قال:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «طلحة ممّن قضى نحبه». و أخرج سعيد بن منصور، و أبو يعلى، و أبو نعيم، و ابن المنذر، و ابن مردويه عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة». و أخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. و أخرج ابن مندة و ابن عساكر من حديث أسماء بنت أبى بكر نحوه. و أخرج أبو الشيخ، و ابن عساكر عن علىّ أن هذه الآية نزلت فى طلحة.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ قال: الموت على ما عاهدوا اللّه عليه، و منهم من ينتظر الموت على ذلك. و أخرج أحمد، و البخارى، و ابن مردويه عن سليمان بن صرد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوم الأحزاب «الآن نغزوهم و لا يغزونا» و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ قال: مات على ما هو عليه من التصديق و الإيمان وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ذلك وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لم يغيروا كما غير المنافقون.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢۶ الى ٢٧]

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢۶) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

قوله: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أى: عاضدوهم و عاونوهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هم بنو قريظة، فإنهم عاونوا الأحزاب و نقضوا العهد الذى كان بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و صاروا يدا واحدة مع الأحزاب. و الصياصى جمع صيصية: و هى الحصون، و كلّ شىء يتحصن به: يقال له صيصية، و منه صيصية الديك: و هى الشوكة التى فى

رجله، و صياصى البقر: قرونها لأنها تمتنع بها، و يقال لشوكة

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۱۶

الحائك التى يسوّى بها السداة و اللحمة: صيصية، و منه قول دريد بن الصمة:

فجئت إليه و الرّماح تنوشه كوقع الصّياصى فى النّسيج الممدّد

و من إطلاقها على الحصون قول الشاعر:

فأصبحت الثيران صرعى و أصبحت نساء تميم يبتدرن الصّياصيا

وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ أى: الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل، و أولادهم و نساءهم للسبى، و هى معنى قوله: فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً فالفريق الأوّل هم الرجال، و الفريق الثانى:

هم النساء و الذرية، و هذه الجملة مبينة و مقرّرة لقذف الرعب فى قلوبهم. قرأ الجمهور «تقتلون» بالفوقية على الخطاب، و كذلك قرءوا «تأسرون» و قرأ ابن ذكوان فى رواية عنه بالتحتية فيهما، و قرأ اليمانى بالفوقية فى الأوّل، و التحتية فى الثانى، و قرأ أبو حيوة «تأسرون» بضم السين. و قد حكى الفراء كسر السين و ضمها فهما لغتان، و وجه تقديم مفعول الفعل الأوّل و تأخير مفعول الفعل الثانى أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، و كان الوارد عليهم أشدّ الأمرين و هو القتل، كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام.

و قد اختلف فى عدد المقتولين و المأسورين، فقيل: كان المقتولون من ستّمائة إلى سبعمائة، و قيل: ستّمائة، و قيل: سبعمائة، و قيل: ثمانمائة، و قيل: تسعمائة، و كان المأسورون سبعمائة، و قيل: سبعمائة و خمسين، و قيل: تسعمائة وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ المراد بالأرض: العقار و النخيل، و بالديار:

المنازل و الحصون، و بالأموال: الحلّى، و الأثاث، و المواشى، و السلاح، و الدراهم، و الدنانير وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها أى: و أورثكم أرضا لم تطئوها، و جملة لم تطئوها: صفة لأرضا. قرأ الجمهور «لم تطئوها» بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة، و قرأ زيد بن على «تطوها» بفتح الطاء و واو ساكنة.

و اختلف المفسرون فى تعيين هذه الأرض المذكورة، فقال يزيد بن رومان، و ابن زيد، و مقاتل: إنها خيبر و لم يكونوا إذ ذاك قد نالوها، فوعدهم اللّه بها. و قال قتادة: كنا نتحدّث أنها مكة. و قال الحسن:

فارس و الروم. و قال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً أى: هو سبحانه قدير على كلّ ما أراده من خير و شرّ و نعمة و نقمة، و على إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مِنْ صَياصِيهِمْ قال: حصونهم. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و ابن مردويه عن عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو النّاس، فإذا أنا بسعد بن معاذ و رماه رجل من قريش يقال له ابن الفرقدة بسهم فأصاب أكحله فقطعه، فدعا اللّه سعد فقال: اللهم لا تمتنى حتّى تقرّ عينى من قريظة، فبعث اللّه الريح على المشركين وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ و لحق أبو سفيان و من معه بتهامة، و لحق عيينة بن بدر و من معه بنجد، و رجعت بنو قريظة فتحصّنوا فى صياصيهم، و رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى المدينة و أمر بقبّة من أدم، فضربت على سعد فى المسجد، قالت: فجاء جبريل، و إن على ثناياه لوقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السّلاح؟ لا و اللّه ما وضعت الملائكة بعد السّلاح:

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۱۷

اخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم، فلبس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأمته، و أذّن فى النّاس بالرحيل أن يخرجوا فحاصرهم خمسا و عشرين ليلة، فلما اشتدّ حصرهم و اشتدّ البلاء عليهم، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول اللّه، قالوا:

ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا، و بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «احكم فيهم» قال: فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم و تسبى ذراريهم، و تقسم أموالهم، فقال: «لقد حكمت فيهم بحكم اللّه و حكم رسوله».

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٤]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٢٨) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢)

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ قيل: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّمها من المنع من إيذاء النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و كان قد تأذى ببعض الزوجات. قال الواحدى: قال المفسرون: إن أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم سألنه شيئا من عرض الدنيا و طلبن منه الزيادة فى النفقة و آذينه بغيرة بعضهنّ على بعض، فآلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم منهنّ شهرا، و أنزل اللّه آية هذه، و كنّ يومئذ تسعا: عائشة، و حفصة، و أمّ سلمة، و أمّ حبيبة، و سودة هؤلاء من نساء قريش، و صفية الخيبرية، و ميمونة الهلالية، و زينب بنت جحش الأسدية، و جويرية بنت الحارث المصطلقية. و معنى الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها سعتها و نضارتها و رفاهيتها و التنعم فيها فَتَعالَيْنَ أى: أقبلن إلىّ أُمَتِّعْكُنَ بالجزم جوابا للأمر، أى: أعطكن المتعة وَ كذا أُسَرِّحْكُنَ بالجزم، أى: أطلقكنّ و بالجزم فى الفعلين قرأ الجمهور، و قرأ حميد الخراز بالرفع فى الفعلين على الاستئناف، و المراد بالسراح الجميل: هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة. و قيل: إن جزم الفعلين على أنهما جواب الشرط، و على هذا يكون قوله: فَتَعالَيْنَ اعتراضا بين الشرط و الجزاء وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ أى: الجنة و نعيمها فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَ أى اللاتى عملن عملا صالحا أَجْراً عَظِيماً لا يمكن وصفه، و لا يقادر قدره و ذلك بسبب إحسانهن، و بمقابلة صالح عملهنّ.

و قد اختلف العلماء فى كيفية تخيير النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أزواجه على قولين: القول الأوّل أنه خيرهنّ بإذن اللّه فى البقاء على الزوجية، أو الطلاق؛ فاخترن البقاء، و بهذا قالت عائشة، و مجاهد، و عكرمة، و الشعبى،

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۱۸

و الزهرى، و ربيعة. و القول الثانى: أنه إنما خيرهنّ بين الدنيا، فيفارقهنّ، و بين الآخرة، فيمسكهن و لم يخيرهنّ فى الطلاق، و بهذا قال علىّ، و الحسن، و قتادة، و الراجح الأوّل. و اختلفوا أيضا فى المخيرة إذا اختارت زوجها هل يحسب مجرّد ذلك التخيير على الزوج طلقة أم لا؟ فذهب الجمهور من السلف و الخلف إلى أنه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقا لا واحدة و لا أكثر. و قال على و زيد بن ثابت: إن اختارت زوجها؛ فواحدة بائنة، و به قال الحسن و الليث: و حكاه الخطابى و النقاش عن مالك. و الراجح الأوّل لحديث عائشة الثابت فى الصحيحين قالت: «خيرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فاخترناه فلم يعدّه طلاقا» و لا وجه لجعل مجرّد التخيير طلاقا، و دعوى أنه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة لمجرّد

التخيير، بل أراد تفويض المرأة و جعل أمرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، و إن اختارت الفرقة صارت مطلقة.

اختلفوا فى اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية أو بائنة؟ فقال بالأوّل: عمر، و ابن مسعود، و ابن عباس، و ابن أبى ليلى، و الثورى، و الشافعى، و قال بالثانى: علىّ، و أبو حنيفة، و أصحابه، و روى عن مالك. و الراجح الأوّل، لأنه يبعد كلّ البعد أن يطلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم نساءه على خلاف ما أمره اللّه به، و قد أمره بقوله: إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ و روى عن زيد بن ثابت أنها إذا اختارت نفسها:

فثلاث طلقات، و ليس لهذا القول وجه. و قد روى عن على أنها إذا اختارت نفسها فليس بشىء، و إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية، ثم لما اختار نساء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم رسول اللّه أنزل فيهنّ هذه الآيات تكرمة لهنّ، و تعظيما لحقهنّ، فقال: يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ أى: ظاهرة القبح، واضحة الفحش، و قد عصمهنّ اللّه عن ذلك، و برأهنّ و طهرهنّ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ أى: يعذبهنّ مثلى عذاب غيرهنّ من النساء إذا أتين بمثل تلك الفاحشة، و ذلك لشرفهنّ و علوّ درجتهنّ، و ارتفاع منزلتهنّ. و قد ثبت فى هذه الشريعة فى غير موضع أن تضاعف الشرف، و ارتفاع الدرجات؛ يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات. و قرأ أبو عمرو «يضعف» على البناء للمفعول، و فرق هو و أبو عبيد بين يضاعف، و يضعف فقالا: يكون يضاعف ثلاثة عذابات و يضعف عذابين. قال النحاس: هذه التفرقة التى جاء بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة، و المعنى فى يضاعف و يضعف واحد: أى يجعل ضعفين؛ و هكذا ضعف ما قالاه ابن جرير وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً لا يتعاظمه و لا يصعب عليه وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً قرأ الجمهور «يقنت» بالتحتية، و كذا قرءوا: يأت منكنّ، حملا على لفظ من فى الموضعين، و قرأ الجحدرى و يعقوب، و ابن عامر فى رواية و أبو جعفر بالفوقية حملا على المعنى، و معنى «من يقنت»:

من يطع، و كذا اختلف القراء فى «مبينة»، فمنهم من قرأها بالكسر، و منهم من قرأها بفتح الياء، كما تقدّم فى النساء. و قرأ ابن كثير، و ابن عامر «نضعف» بالنون و نصب العذاب، و قرئ «نضاعف» بكسر العين على البناء للفاعل نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ قرأ حمزة و الكسائى بالتحتية، و كذا قرأ يعمل بالتحتية، و قرأ الباقون تعمل بالفوقية، و نؤت بالنون، و معنى إتيانهنّ الأجر مرّتين: أنه يكون لهنّ من الأجر على الطاعة مثلا ما يستحقه

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۱۹

غيرهنّ من النساء إذا فعلن تلك الطاعة. و فى هذا دليل قوىّ على أن معنى «يضاعف لها العذاب ضعفين»:

أنه يكون العذاب مرّتين لا ثلاثا، لأن المراد إظهار شرفهنّ، و مزيتهنّ فى الطاعة و المعصية، بكون حسنتهنّ كحسنتين، و سيئتهن كسيئتين، و لو كانت سيئتهنّ كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهنّ كحسنتين، فإن اللّه أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهنّ مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن وَ أَعْتَدْنا لَها زيادة على الأجر مرّتين رِزْقاً كَرِيماً. قال المفسرون: الرزق الكريم هو نعيم الجنة، حكى ذلك عنهم النحاس.

ثم أظهر سبحانه فضيلتهنّ على سائر النساء تصريحا، فقال: يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء، لأن أحد: نفى عام للمذكر و المؤنث، و الواحد و الجماعة. و قد يقال على ما ليس بآدمىّ كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة و لا بعير. و المعنى: لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل و الشرف. ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال: إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهنّ إنما تكون بملازمتهنّ للتقوى، لا لمجرّد اتصالهنّ بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و قد وقعت منهنّ و للّه الحمد التقوى البينة، و الإيمان الخالص، و المشى على طريقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى حياته و بعد

مماته. و جواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أى: إن اتقيتنّ فلستنّ كأحد من النساء. و قيل: إن جوابه فَلا تَخْضَعْنَ و الأوّل أولى. و معنى فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ لا تلنّ القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة، و هى قوله: فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ أى: فجور و شك و نفاق، و انتصاب يطمع لكونه جواب النهى. كذا قرأ الجمهور. و حكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ «فيطمع» بفتح الياء، و كسر الميم. قال النحاس: أحسب هذا غلطا، و رويت هذه القراءة عن أبى السمّال، و عيسى بن عمر و ابن محيصن، و روى عنهم أنهم قرءوا بالجزم عطفا على محل فعل النهى وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً عند الناس بعيدا من الريبة على سنن الشرع، لا ينكر سامعه شيئا، و لا يطمع فيهنّ أهل الفسق و الفجور بسببه وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ قرأ الجمهور «و قرن» بكسر القاف من وقر يقر وقارا: أى: سكن، و الأمر منه:

قر بكسر القاف، و للنساء: قرن، مثل: عدن و زنّ. و قال المبرد: هو من القرار، لا من الوقار، تقول:

قررت بالمكان بفتح الراء، و الأصل: اقررن بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفا، كما قالوا فى ظللت ظلت، و نقلوا حركتها إلى القاف، و استغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف. و قال أبو على الفارسى: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت فى قيراط و دينار، و صار للياء حركة الحرف الذى أبدلت منه، و التقدير اقيرن، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر؛ فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، و تسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها فيصير قرن. و قرأ نافع و عاصم بفتح القاف و أصله قررت بالمكان:

إذا أقمت فيه بكسر الراء، أقرّ بفتح القاف كحمد يحمد، و هى لغة أهل الحجاز، ذكر أبو عبيد عن الكسائى، و ذكرها الزجاج و غيره، قال الفراء: هو كما تقول: هل حست صاحبك؟ أى: هل أحسسته؟ قال أبو عبيد: كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف، و ذلك لأن قررت بالمكان أقرّ لا يجوّزه كثير من أهل العربية. و الصحيح قررت أقرّ بالكسر، و معناه: الأمر لهنّ بالتوقير و السكون فى بيوتهنّ، و أن

لا يخرجن، و هذا يخالف ما ذكرناه هنا عنه عن الكسائى و هو من أجلّ مشايخه. و قد وافقه على الإنكار لهذه القراءة أبو حاتم فقال: إن قرن بفتح القاف لا مذهب له فى كلام العرب. قال النحاس: قد خولف أبو حاتم فى قوله إنه لا مذهب له فى كلام العرب بل فيه مذهبان: أحدهما حكاه الكسائى، و الآخر علىّ بن سليمان، فأما المذهب الذى حكاه الكسائى فهو ما قدّمناه من رواية أبى عبيد عنه، و أما المذهب الذى حكاه علىّ بن سليمان، فقال: إنه من قررن به عينا أقرّ. و المعنى: و اقررن به عينا فى بيوتكنّ. قال النحاس: و هو وجه حسن.

و أقول: ليس بحسن و لا هو معنى الآية، فإن المراد بها أمرهنّ بالسكون و الاستقرار فى بيوتهنّ، و ليس من قرّة العين. و قرأ ابن أبى عبلة «و اقررن» بألف وصل و راءين، الأولى مكسورة على الأصل وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى التبرّج: أن تبدى المرأة من زينتها و محاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعى به شهوة الرجل. و قد تقدّم معنى التبرّج فى سورة النور. قال المبرد: هو مأخوذ من السعة، يقال فى أسنانه برج:

إذا كانت متفرّقة. و قيل: التبرج هو التبختر فى المشى، و هذا ضعيف جدّا.

و قد اختلف فى المراد: بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم، و نوح، و قيل: ما بين نوح و إدريس، و قيل: ما بين نوح، و إبراهيم، و قيل: ما بين موسى، و عيسى، و قيل: ما بين عيسى، و محمّد. و قال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء. قال: و كان نساء الجاهلية تظهر ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها و خليلها، فينفرد خليلها بما فوق الإزار إلى أعلى، و ينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، و ربما سأل أحدهما صاحبه البدل. قال ابن عطية: و الذى يظهر لى أنه أشار إلى الجاهلية

التى لحقنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهنّ فيها، و هى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، و ليس المعنى أنّ ثم جاهلية أخرى كذا قال، و هو قول حسن. و يمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى: ما يقع فى الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية؛ بقول، أو فعل، فيكون المعنى: و لا تبرّجن أيتها المسلمات بعد إسلامكنّ مثل تبرّج أهل الجاهلية التى كنتنّ عليها، و كان عليها من قبلكنّ، أى: لا تحدثن بأفعالكنّ و أقوالكنّ جاهلية تشابه الجاهلية التى كانت من قبل وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ خصّ الصلاة و الزكاة لأنهما أصل الطاعات البدنية و المالية. ثم عمم فأمرهنّ بالطاعة للّه، و لرسوله فى كلّ ما هو شرع إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ أى: إنما أوصاكنّ اللّه بما أوصاكنّ من التقوى، و أن لا تخضعن بالقول، و من قول المعروف، و السكون فى البيوت، و عدم التبرّج، و إقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة، و الطاعة ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، و المراد بالرجس: الإثم و الذنب المدنسان للأعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر اللّه به، و فعل ما نهى عنه، فيدخل تحت ذلك كلّ ما ليس فيه للّه رضا، و انتصاب أهل البيت على المدح كما قال الزجاج، قال: و إن شئت على البدل. قال: و يجوز الرفع و الخفض. قال النحاس: إن خفض فعلى أنه بدل من الكاف و الميم، و اعترضه المبرد بأنه لا يجوز البدل من المخاطب، و يجوز أن يكون نصبه على النداء وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً أى: يطهركم من الأرجاس، و الأدران تطهيرا كاملا و فى استعارة الرجس للمعصية و الترشيح

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۱

لها بالتطهير؛ تنفير عنها بليغ، و زجر لفاعلها شديد.

و قد اختلف أهل العلم فى أهل البيت المذكورين فى الآية، فقال ابن عباس، و عكرمة، و عطاء، و الكلبى، و مقاتل، و سعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين فى الآية هنّ زوجات النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم خاصة. قالوا: و المراد بالبيت بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلم و مساكن زوجاته لقوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَ و أيضا السياق فى الزوجات من قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إلى قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً. و قال أبو سعيد الخدرى، و مجاهد، و قتادة، و روى عن الكلبى أن أهل البيت المذكورين فى الآية هم علىّ، و فاطمة، و الحسن، و الحسين خاصة، و من حججهم الخطاب فى الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، و هو قوله: عَنْكُمُ و ل يُطَهِّرَكُمْ و لو كان للنساء خاصة لقال عنكنّ و يطهركنّ. و أجاب الأولون عن هذا أن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه: أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ «1» و كما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

و لنذكر هاهنا ما تمسك به كلّ فريق: أما الأوّلون فتمسكوا بالسياق، فإنه فى الزوجات كما ذكرنا، و بما أخرجه ابن أبى حاتم و ابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ قال: نزلت فى نساء النبى صلّى اللّه عليه و سلم خاصة. و قال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج نحوه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن عكرمة نحوه، و أخرج ابن سعد عن عروة نحوه.

و أما ما تمسك به الآخرون، فأخرج الترمذى و صححه و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه من طرق عن أمّ سلمة قالت: فى بيتى نزلت إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و فى البيت فاطمة و علىّ و الحسن و الحسين، فجللهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيرا». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أمّ سلمة أيضا أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم كان فى بيتها على منامة له عليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

سلم: «ادعى زوجك و ابنيك حسنا و حسينا، فدعتهم، فبينما هم يأكلون، إذ نزلت على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً فأخذ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بفضلة كسائه فغشّاهم إيّاها، ثم أخرج يده من الكساء و ألوى بها إلى السّماء، ثم قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتى و خاصّتى فأذهب عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيرا، قالها ثلاث مرات. قالت أمّ سلمة: فأدخلت رأسى فى السّتر فقلت: يا رسول اللّه و أنا معكم؟ فقال: «إنّك إلى خير» مرّتين. و أخرجه أيضا أحمد من حديثها قال: حدّثنا عبد اللّه بن نمير، حدّثنا عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، حدّثنى من سمع أمّ سلمة تذكر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و فى إسناده مجهول و هو شيخ

---

(۱). هود: ۷۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۲

عطاء، و بقية رجاله ثقات. و قد أخرجه الطبرانى عنها من طريقين بنحوه. و قد ذكر ابن كثير فى تفسيره لحديث أمّ سلمة طرقا كثيرة فى مسند أحمد و غيره. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه. و أخرج الترمذى، و ابن جرير، و الطبرانى، و ابن مردويه عن عمر بن أبى سلمة ربيب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال:

لما نزلت هذه الآية على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و ذكر نحو حديث أمّ سلمة.

و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و مسلم، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم عن عائشة، قالت:

خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم غداة و عليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن و الحسين فأدخلهما معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علىّ فأدخله معه، ثم قال: إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن واثلة بن الأسقع، قال: جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى فاطمة، و معه علىّ و حسن و حسين، حتى دخل، فأدنى عليا و فاطمة، و أجلسهما بين يديه، و أجلس حسنا و حسينا، كلّ واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه و أنا مستدبرهم، ثم تلا هذه الآية: إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و قال: اللهمّ هؤلاء أهل بيتى، اللهمّ أذهب عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيرا» قلت: يا رسول اللّه! و أنا من أهلك؟ قال: و أنت من أهلى». قال واثلة: إنه لأرجى ما أرجوه. و له طرق فى مسند أحمد. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و الترمذى، و حسنه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول:

الصّلاة يا أهل البيت! الصلاة! إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». و أخرج مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «أذكّركم اللّه فى أهل بيتى».

فقيل لزيد: و من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، و لكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده: آل علىّ، و آل عقيل، و آل جعفر، و آل العباس. و أخرج الحكيم الترمذى، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه قسم الخلق قسمين، فجعلنى فى خيرهما قسما، فذلك قوله: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ «۱» وَ أَصْحابُ الشِّمالِ «۲» فأنا من أصحاب اليمين، و أنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين أثلاثا، فجعلنى فى خيرها ثلاثا، فذلك قوله: أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ «۳» وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ «۴» وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ «۵» فأنا من السابقين، و أنا خير السّابقين.

ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلنى فى خيرها قبيلة، و ذلك قوله: وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ «۶» و أنا أتقى ولد آدم و أكرمهم على اللّه و لا فخر. ثم جعل القبائل بيوتا، فجعلنى فى خيرها بيتا، فذلك قوله: إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ

عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً فأنا و أهل بيتى مطهّرون من الذنوب» و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن أبى الحمراء قال: رابطت المدينة

---

(۱). الواقعة: ۲۷.

(۲). الواقعة: ۴۱.

(۳). الواقعة: ۸.

(۴). الواقعة: ۹.

(۵). الواقعة: ۱۰.

(۶). الحجرات: ۱۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۳

سبعة أشهر على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قال: رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا طلع الفجر جاء إلى باب علىّ و فاطمة فقال: «الصلاة الصلاة إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». و فى إسناده أبو داود الأعمى، و هو وضاع كذّاب. و فى الباب أحاديث و آثار، و قد ذكرنا هاهنا ما يصلح للتمسک به دون ما لا يصلح.

و قد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات و لعلى و فاطمة و الحسن و الحسين، أما الزوجات فلكونهنّ المرادات فى سياق هذه الآيات كما قدّمنا، و لكونهنّ الساكنات فى بيوته صلّى اللّه عليه و سلم النازلات فى منازله، و يعضد ذلک ما تقدّم عن ابن عباس و غيره. و أما دخول علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين فلكونهم قرابته و أهل بيته فى النسب، و يؤيد ذلک ما ذكرناه من الأحاديث المصرّحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين؛ فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، و أهمل ما لا يجوز إهماله. و قد رجّح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبى، و ابن كثير، و غيرهما. و قال جماعة: هم بنو هاشم، و استدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس، و يقول زيد بن أرقم المتقدّم، حيث قال: و لكنّ آله من حرم الصدقة بعده:

آل علىّ، و آل عقيل، و آل جعفر، و آل العباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب.

قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ أى: اذكرن موضع النعمة إذ صيركنّ اللّه فى بيوت يتلى فيها آيات اللّه و الحكمة، أو اذكرنها، و تفكرن فيها لتتعظن بمواعظ اللّه، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها، و يهتدوا بهداها، أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها، و لا تتركن الاستكثار من التلاوة. قال القرطبى:

قال أهل التأويل؛ آيات اللّه: هى القرآن، و الحكمة: السنة. و قال مقاتل: المراد بالآيات و الحكمة: أمره و نهيه فى القرآن. و قيل: إن القرآن جامع بين كونه بينات دالة على التوحيد و صدق النبوة، و بين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم و الشرائع إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً أى: لطيفا بأوليائه خبيرا بجميع خلقه و جميع ما يصدر منهم من خير و شرّ و طاعة و معصية، فهو يجازى المحسن بإحسانه و المسىء بإساءته.

و قد أخرج أحمد، و مسلم، و النسائى، و ابن مردويه من طريق أبى الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و النّاس ببابه جلوس، و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبى بكر و عمر فدخلا، و النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم جالس و حوله نساؤه و هو ساكت، فقال عمر:

لأكلمنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لعلّه يضحک، فقال عمر: يا رسول اللّه لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألت النفقة آنفا فوجأت

فى عنقها، فضحك النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم حتى بدت نواجذه و قال: «هنّ حولى يسألننى النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، و قام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ما ليس عنده، فنهاهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقلن نساؤه: و اللّه لا نسأل رسول اللّه بعد هذا المجلس ما ليس عنده، و أنزل اللّه الخيار، فنادى بعائشة فقال: «إنّى ذاكر لك أمرا ما أحبّ أن تعجلى فيه حتّى تستأمرى أبويك» قالت: ما هو؟ فتلا عليها: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ الآية، قالت عائشة: أ فيك أستأمر أبوىّ، بل أختار اللّه و رسوله، و أسألك أن لا تذكر لنسائك ما اخترت: فقال: «إنّ اللّه لم يبعثنى متعنّتا و لكن

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۴

بعثنى معلّما مبشّرا، لا تسألنى امراة منهن عمّا اخترت إلا أخبرتها». و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن عائشة: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم جاءها حين أمره اللّه أن يخيّر أزواجه قالت: فبدأ بى فقال: «إنّى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن تستعجلى حتّى تستأمرى أبويك» و قد علم أنّ أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه، فقال:

«إنّ اللّه قال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا إلى تمام الآية» فقلت له:

ففى أىّ هذا أستأمر أبوىّ، فإنّى أريد اللّه و رسوله و الدّار الآخرة، و فعل أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم مثل ما فعلت.

و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً قال يقول: من يطع اللّه منكنّ و تعمل منكنّ للّه و رسوله بطاعته. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله:

فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ قال: يقول لا ترخصن بالقول و لا تخضعن بالكلام. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ قال: مقارنة الرجال فى القول حتى يطمع الذى فى قلبه مرض. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن محمّد بن سيرين قال: نبئت أنه قيل لسودة زوج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: ما لك لا تحجين و لا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت و اعتمرت و أمرنى اللّه أن أقرّ فى بيتى، فو اللّه لا أخرج من بيتى حتى أموت؛ قال: فو اللّه ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن سعد و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن المنذر عن مسروق قال: كانت عائشة إذا قرأت وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ بكت حتى تبل خمارها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب قال: كانت الجاهلية الأولى: فيما بين نوح، و إدريس، و كانت ألف سنة.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب سأله فقال:

أ رأيت قول اللّه لأزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى هل كانت جاهلية غير واحدة، فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا و لها آخرة، فقال له عمر: فأتنى من كتاب اللّه ما يصدّق ذلك، فقال:

إن اللّه يقول: وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ كما جاهدتم أوّل مرّة فقال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟

قال: بنى مخزوم و عبد شمس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أيضا فى الآية قال: تكون جاهلية أخرى.

و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة أنها تلت هذه الآية فقالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد إبراهيم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: الجاهلية الأولى ما بين عيسى و محمّد. و قد قدّمنا ذكر الآثار الواردة فى سبب نزول قوله: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ قال: القرآن و السنة يمتنّ بذلك عليهنّ. و أخرج ابن سعد عن أبى أمامة عن سهل فى قوله:

وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَ الآية قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصلى فى بيوت أزواجه النوافل بالليل و النهار.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۲۵

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۵ الى ۳۶]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۳۵) وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (۳۶)

قوله: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ بدأ سبحانه بذكر الإسلام الذى هو مجرّد الدخول فى الدين، و الانقياد له مع العمل، كما ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لما سأله جبريل عن الإسلام قال: «هو أن تشهد أن لا إله إلا اللّه، و تقيم الصّلاة، و تؤتى الزّكاة، و تحجّ البيت، و تصوم رمضان» ثمّ عطف على المسلمين الْمُسْلِماتِ تشريفا لهنّ بالذكر. و هكذا فيما بعد، و إن كنّ داخلات فى لفظ المسلمين و المؤمنين و نحو ذلك، و التذكير إنما هو لتغليب الذكور على الإناث، كما فى جميع ما ورد فى الكتاب العزيز من ذلك، ثم ذكر:

الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ و هم من يؤمن باللّه، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و القدر خيره و شرّه، كما ثبت ذلك فى الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و القانت: العابد المطيع، و كذا القانتة، و قيل المداومين على العبادة و الطاعة، و الصادق، و الصادقة: هما من يتكلم بالصدق، و يتجنب الكذب، و يفى بما عوهد عليه، و الصابر، و الصابرة: هما من يصبر عن الشهوات، و على مشاق التكليف، و الخاشع، و الخاشعة: هما المتواضعان للّه؛ الخائفان منه؛ الخاضعان فى عباداتهم للّه، و المتصدّق، و المتصدّقة: هما من تصدّق من ماله بما أوجبه اللّه عليه. و قيل: ذلك أعمّ من صدقة الفرض و النفل، و كذلك: الصائم و الصائمة، قيل: ذلك مختصّ بالفرض، و قيل: هو أعمّ، و الحافظ، و الحافظة لفرجيهما عن الحرام بالتعفف، و التنزّه، و الاقتصار على الحلال، و الذاكر، و الذاكرة: هما من يذكر اللّه على أحواله، و فى ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر اللّه سبحانه بالقلب و اللسان، و اكتفى فى الحافظات بما تقدّم فى الحافظين من ذكر الفروج و التقدير:

و الحافظين فروجهم، و الحافظات فروجهن، و كذا فى الذاكرات، و التقدير: و الذاكرين اللّه كثيرا، و الذاكرات اللّه كثيرا، و الخبر لجميع ما تقدّم: هو قوله: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً أى: مغفرة لذنوبهم التى أذنبوها، و أجرا عظيما على طاعاتهم التى فعلوها من الإسلام، و الإيمان، و القنوت، و الصدق، و الصبر، و الخشوع، و التصدّق، و الصوم، و العفاف، و الذكر، و وصف الأجر بالعظم: للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ، و لا شى‏ء أعظم من أجر هو الجنة و نعيمها الدائم الذى لا ينقطع و لا ينفد، اللهم اغفر ذنوبنا و أعظم أجورنا وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ أى: ما صحّ، و لا استقام لرجل، و لا امرأة من المؤمنين. و لفظ ما كان، و ما ينبغى، و نحوهما معناهما المنع، و الحظر من الشى‏ء و الإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعا، و قد يكون لما يمتنع عقلا كقوله: ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها «۱» و معنى الآية: أنه لا يحلّ لمن يؤمن باللّه إذا قضى اللّه أمرا أن يختار من أمر نفسه ما شاء،

---

(۱). النمل: ۶.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۲۶

بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، و يوقف نفسه على ما قضاه اللّه عليه و اختاره له، و جمع الضميرين فى قوله:

لهم و من أمرهم لأن مؤمن و مؤمنة وقعا فى سياق النفى، فهما يعمان كلّ مؤمن و مؤمنة. قرأ الكوفيون «أن يكون» بالتحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لأنه قد فرّق بين الفعل و فاعله المؤنث بقوله لهم مع كون التأنيث غير حقيقى، و قرأ الباقون بالفوقية لكونه مسندا إلى الخيرة و هى مؤنثة لفظا، و الخيرة مصدر بمعنى الاختيار.

و قرأ ابن السميقع «الخيرة» بسكون التحتية، و الباقون بتحريكها، ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء اللّه و قدره فقال: وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فى أمر من الأمور، و من ذلك عدم الرضا بالقضاء فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً أى: ضلّ عن طريق الحق ضلالا واضحا ظاهرا لا يخفى.

و قد أخرج أحمد، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أمّ سلمة قالت:

قلت: يا رسول اللّه! ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال؟ فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر و هو يقول: إن اللّه يقول: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ إلى آخر الآية. و روى نحو هذا عنها من طريق أخرى أخرجها الفريابى، و ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أمّ عمارة الأنصارية أنها أتت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقالت: ما أرى كلّ شىء إلا للرجال، و ما أرى النساء يذكرن بشىء؟ فنزلت هذه الآية إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ و أخرج ابن جرير، و الطبرانى، و ابن مردويه بإسناد. قال السيوطى: حسن، عن ابن عباس قال: قالت النساء: يا رسول اللّه! ما باله يذكر المؤمنين و لا يذكر المؤمنات؟ فنزلت إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، قالت: لست بناكحته، قال: بلى فانكحيه، قالت:

يا رسول اللّه أؤامر نفسى، فبينما هما يتحدّثان أنزل اللّه هذه الآية على رسوله: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ الآية، قالت: قد رضيته لى يا رسول اللّه منكحا، قال: نعم، قالت: إذا لا أعصى رسول اللّه قد أنكحته نفسى. و أخرج نحوه عنه ابن جرير من طريق أخرى. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لزينب: «إنّى أريد أن أزوّجك زيد بن حارثة، فإنّى قد رضيته لك» قالت: يا رسول اللّه! لكنّى لا أرضاه لنفسى و أنا أيّم قومى، و بنت عمّتك فلم أكن لأفعل، فنزلت هذه الآية وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ يعنى زيدا وَ لا مُؤْمِنَةٍ يعنى زينب إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً يعنى النكاح فى هذا الموضع أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ يقول: ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر اللّه به وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً قالت: قد أطعتك فاصنع ما شئت، فزوّجها زيدا و دخل عليها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: نزلت فى أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، و كانت أوّل امرأة هاجرت، فوهبت نفسها للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، فزوّجها زيد بن حارثة، فسخطت هى و أخوها، و قالا: إنما أردنا رسول اللّه فزوّجنا عبده.

فتح القدير، ج ۴، ص: ۳۲۷

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِی فِی نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِی أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (۳۷) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (۳۸) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (۳۹) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ

مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۴۰)

لما زوّج رسول اللّه زيد بن حارثة بزينب بنت جحش كما مرّ فى تفسير الآية التى قبل هذه أنزل اللّه سبحانه:

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أى: و اذكر إذ تقول للذى أنعم اللّه عليه و هو زيد بن حارثة، أنعم اللّه عليه بالإسلام، و أنعم عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بأن أعتقه من الرق، و كان من سبى الجاهلية اشتراه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى الجاهلية و أعتقه و تبناه، و سيأتى فى بيان سبب نزول الآية فى آخر البحث ما يوضح المراد منها. قال القرطبى: و قد اختلف فى تأويل هذه الآية، فذهب قتادة، و ابن زيد، و جماعة من المفسرين، منهم: ابن جرير الطبرى، و غيره إلى أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش و هى فى عصمة زيد، و كان حريصا على أن يطلقها زيد فيتزوّجها هو، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها، و يشكو منها غلظة قول، و عصيان أمر، و أذى باللسان، و تعظما بالشرف قال له: اتق اللّه فيما تقول عنها و أمسك عليك زوجك، و هو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها، و هذا الذى كان يخفى فى نفسه، و لكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. انتهى. أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ يعنى: زينب وَ اتَّقِ اللَّهَ فى أمرها و لا تعجل بطلاقها وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ و هو نكاحها إن طلقها زيد، و قيل: حبها وَ تَخْشَى النَّاسَ أى:

تستحييهم، أو تخاف من تعييرهم بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوّجها وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فى كلّ حال، و تخاف منه، و تستحييه، و الواو: للحال، أى: تخفى فى نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً قضاء الوطر فى اللغة: بلوغ منتهى ما فى النفس من الشىء، يقال قضى و طرا منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، و منه قول عمر بن أبى ربيعة:

أيّها الرائح المجدّ ابتكاراقد قضى من تهامة الأوطارا

أى: فرغ من أعمال الحج و بلغ ما أراد منه، و المراد هنا: أنه قضى وطره منها بنكاحها، و الدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، و قيل المراد به: الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته؛ إذا لم يبق له فيها حاجة و قال المبرد: الوطر الشهوة و المحبة و أنشد:

و كيف ثوائى بالمدينة بعد ماقضى وطرا منها جميل بن معمر

و قال أبو عبيدة: الوطر: الأرب و الحاجة، و أنشد قول الفزارى:

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۲۸ ودّعنا قبل أن نودّعهلمّا قضى من شبابنا وطرا

قرأ الجمهور زَوَّجْناكَها و قرأ علىّ، و ابناه الحسن و الحسين: زوّجتكها، فلما أعلمه اللّه بذلك دخل عليها بغير إذن، و لا عقد، و لا تقدير صداق، و لا شىء مما هو معتبر فى النكاح فى حق أمته. و قيل: المراد به: الأمر له بأن يتزوّجها. و الأوّل أولى، و به جاءت الأخبار الصحيحة، ثم علل سبحانه ذلك بقوله:

لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ أى: ضيق و مشقة فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ أى: فى التزوّج بأزواج من يجعلونه ابنا، كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون، و كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال زيد بن محمّد حتى نزل قوله سبحانه: ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ و كانت العرب تعتقد أنه يحرم عليه نساء من تبنوه، كما تحرم عليه نساء أبنائهم حقيقة. و الأدعياء: جمع دعىّ، و هو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة، فأخبرهم اللّه أن نساء الأدعياء حلال لهم إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرّم على أبيه بنفس العقد عليها وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا أى: كان قضاء اللّه فى زينب أن يتزوّجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قضاء ماضيا مفعولا لا محالة. ثم بين سبحانه أنه لم يكن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حرج فى هذا النكاح، فقال: ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أى: فيما أحلّ اللّه له و قدّره و قضاه، يقال فرض له كذا، أى قدّر له سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أى: إن هذا هو السنن الأقدم فى الأنبياء، و الأمم الماضية أن ينالوا ما أحله اللّه لهم من أمر النكاح و غيره وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً أى: قضاء مقضيا. قال مقاتل: أخبر اللّه أن أمر زينب

كان من حكم اللّه و قدره، و انتصاب سنة على المصدر، أى: سنّ اللّه سنة اللّه، أو اسم وضع موضع المصدر، أو منصوب بجعل، أو بالإغراء.

و ردّه أبو حيان بأن عامل الإغراء لا يحذف. ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين، و أثنى عليهم فقال: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ و الموصول فى محلّ جر صفة ل «للذين خلوا» أو منصوب على المدح، مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده و خشيته فى كلّ فعل و قول، و لا يخشون سواه، و لا يبالون بقول الناس، و لا بتعبيرهم، بل خشيتهم مقصورة على اللّه سبحانه: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً حاضرا فى كلّ مكان يكفى عباده كلّ ما يخافونه، أو محاسبا لهم فى كلّ شىء. و لما تزوج صلّى اللّه عليه و سلم زينب قال الناس: تزوج امرأة ابنه، فأنزل اللّه: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ أى: ليس بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتّى تحرم عليه زوجته، و لا هو أب لأحد لم يلده. قال الواحدى: قال المفسرون: لم يكن أبا أحد لم يلده، و قد ولد له من الذكور إبراهيم و القاسم و الطيب و المطهر. قال القرطبى: و لكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا. قال: و أما الحسن و الحسين فكانا طفلين و لم يكونا رجلين معاصرين له وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ قال الأخفش و الفراء: و لكن كان رسول اللّه، و أجازا الرفع. و كذا قرأ ابن أبى عبلة بالرفع فى رسول، و فى خاتم على معنى: و لكن هو رسول اللّه، و خاتم النبيين، و قرأ الجمهور: بتخفيف لكن، و نصب رسول، و خاتم، و وجه النصب: على خبرية كان المقدرة كما تقدّم، و يجوز أن يكون بالعطف على أبا أحد. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بتشديد لكن، و نصب رسول على أنه اسمها، و خبرها محذوف، أى: و لكن رسول اللّه هو: و قرأ

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۲۹

الجمهور خاتم بكسر التاء. و قرأ عاصم بفتحها- و معنى القراءة الأولى: أنه ختمهم، أى: جاء آخرهم.

و معنى القراءة الثانية: أنه صار كالخاتم لهم الذى يتختمون به و يتزينون بكونه منهم. و قيل: كسر التاء و فتحها لغتان. قال أبو عبيد: الوجه الكسر لأن التأويل أنه ختمهم فهو خاتمهم، و أنه قال «أنا خاتم النبيين» و خاتم الشىء: آخره و منه قولهم: خاتمه المسك. و قال الحسن: الخاتم هو الذى ختم به وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيماً قد أحاط علمه بكل شىء، و من جملة معلوماته هذه الأحكام المذكورة هنا.

و قد أخرج أحمد، و البخارى، و الترمذى و غيرهم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: اتّق اللّه و أمسك عليك زوجك، فنزلت وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ. قال أنس: فلو كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كاتما شيئا لكتم هذه الآية، فتزوّجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فما أو لم على امرأة من نسائه ما أو لم عليها، ذبح شاة فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها فكانت تفخر على أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم تقول: زوّجكنّ أهاليكنّ و زوّجنى اللّه من فوق سبع سموات. و أخرج أحمد، و مسلم، و النسائى، و غيرهم عن أنس قال: لما انقضت عدّة زينب، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لزيد: «اذهب فاذكرها علىّ» فانطلق، قال: فلمّا رأيتها عظمت فى صدرى، فقلت: يا زينب أبشرى أرسلنى رسول اللّه يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربّى، فقامت إلى مسجدها و نزل القرآن، و جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و دخل عليها بغير إذن، و لقد رأيتنا حين دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أطعمنا عليها الخبز و اللّحم، فخرج النّاس و بقى رجال يتحدّثون فى البيت بعد الطّعام، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و اتّبعته، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلّم عليهن و يقولون: يا رسول اللّه كيف وجدت أهلك؟ فما أدرى أنا أخبرته أنّ القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتّى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى السّتر بينى و بينه، و نزل الحجاب، و وعظ القوم بما وعظوا به: لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ الآية». و أخرج سعيد بن حميد، و الترمذى، و صححه ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن عائشة قالت: لو كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كاتما شيئا من الوحى لكتم

هذه الآية: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ يعنی: بالإسلام وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ يعنی بالعتق أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ إلی قوله: وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا و إن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم لما تزوّجها قالوا تزوّج حليلة ابنه، فأنزل اللّه ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ و كان رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم تبناه و هو صغير، فلبث حتی صار رجلا، يقال له زيد بن محمّد، فأنزل اللّه ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ يعنی أعدل عند اللّه. و أخرج ابن سعد عن محمّد بن كعب القرظی فی قوله: سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ قال: يعنی يتزوّج من النساء ما شاء؛ هذا فريضة، و كان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة، و كان لداود مائة امرأة. و أخرج ابن المنذر، و الطبرانی عن ابن جريج فی قوله: سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ قال داود: و المرأة التی نكحها و اسمها اليسعية، فذلك سنة فی محمّد و زينب وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً كذلك من سنته فی داود و المرأة، و النبی و زينب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی قوله: ما

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۰

كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ قال: نزلت فی زيد بن حارثة. و أخرج أحمد، و مسلم عن أبی سعيد الخدری قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «مثلی و مثل النبيّين كمثل رجل بنی دارا، فانتهی، إلا لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللّبنة» و أخرج البخاری و مسلم و غيرهما عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم: «مثلی و مثل الأنبياء كمثل رجل ابتنی دارا فأكملها و أحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع اللّبنة، فأنا موضع اللّبنة حتّی ختم بی الأنبياء». و أخرج البخاری، و مسلم، و غيرهما من حديث أبی هريرة نحوه. و أخرج أحمد، و الترمذی و صحّحه من حديث أبیّ بن كعب نحوه أيضا.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۱ الی ۴۸]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۴۲) هُوَ الَّذِی يُصَلِّی عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (۴۳) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (۴۴) يا أَيُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵)

وَ داعِياً إِلَی اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً (۴۷) وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ كَفی بِاللَّهِ وَكِيلًا (۴۸)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل، و التحميد، و التسبيح، و التكبير، و كلّ ما هو ذكر اللّه تعالی. قال مجاهد: هو أن لا ينساه أبدا، و قال الكلبی: و يقال ذكرا كثيرا: بالصلوات الخمس، و قال مقاتل: هو التسبيح، و التحميد، و التهليل، و التكبير علی كلّ حال وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أی: نزّهوه عما لا يليق به فی وقت البكرة، و وقت الأصيل، و هما أوّل النهار و آخره، و تخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما، و خص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله: اذْكُرُوا اللَّهَ تنبيها علی مزيد شرفه، و إنافة ثوابه علی غيره من الأذكار.

و قيل: المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر، و بالتسبيح أصيلا: صلاة المغرب. و قال قتادة، و ابن جرير:

المراد: صلاة الغداة و صلاة العصر. و قال الكلبی: أما بكرة: فصلاة الفجر، و أما أصيلا: فصلاة الظهر، و العصر، و المغرب، و العشاء. قال المبرّد: و الأصيل: العشیّ، و جمعه أصائل هُوَ الَّذِی يُصَلِّی عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ و الصلاة من اللّه علی العباد رحمته لهم، و بركته عليهم، و من الملائكة الدعاء لهم، و الاستغفار كما قال: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا «۱» قال مقاتل بن سليمان، و مقاتل بن حيان: المعنی و يأمر ملائكته بالاستغفار لكم، و الجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر و التسبيح. و قيل: الصلاة من

اللّه على العبد: هى إشاعة الذكر الجميل له فى عباده، و قيل: الثناء عليه، و عطف ملائكته على الضمير هنا معنى مجازى يعمّ صلاة اللّه بمعنى الرحمة، و صلاة الملائكة، بمعنى الدعاء لئلا يجمع بين حقيقة و مجاز فى كلمة واحدة، و اللام فى لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ متعلق بيصلى، أى: يعتنى بأموركم هو و ملائكته ليخرجكم من ظلمات المعاصى إلى نور الطاعات، و من ظلمة الضلالة إلى نور الهدى، و معنى الآية: تثبيت

---

(١). غافر: ٧.

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٣١

المؤمنين على الهداية، و دوامهم عليها لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية. ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيسا لهم، و تثبيتا فقال: وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً و فى هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدّمها، ثم بين سبحانه أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب؛ بل هى عامة لهم، و لمن بعدهم، و فى الدار الآخرة فقال: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ أى: تحية المؤمنين من اللّه سبحانه يوم لقائهم له عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة هى التسليم عليهم منه عزّ و جلّ. و قيل: المراد تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم سلام، و ذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيما، فلما شملتهم رحمته، و أمنوا من عقابه حيا بعضهم بعضا سرورا و استبشارا. و المعنى: سلامة لنا من عذاب النار. قال الزجاج: المعنى: فيسلمهم اللّه من الآفات، و يبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه. و قيل: الضمير فى «يلقونه»: راجع إلى ملك الموت، و هو الذى يحييهم، كما ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه. و قال مقاتل: هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الربّ كما فى قوله: وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ «١» وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً أى: أعدّ لهم فى الجنة رزقا حسنا ما تشتهيه أنفسهم و تلذه أعينهم. ثم ذكر سبحانه صفات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم التى أرسله لها فقال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً أى: على أمته يشهد لمن صدقه، و آمن به، و على من كذبه و كفر به، قال مجاهد: شاهدا على أمته بالتبليغ إليهم، و على سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم وَ مُبَشِّراً للمؤمنين برحمة اللّه، و بما أعدّه لهم من جزيل الثواب، و عظيم الأجر وَ نَذِيراً للكافرين و العصاة بالنار، و بما أعدّه اللّه لهم من عظيم العقاب وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ يدعو عباد اللّه إلى التوحيد، و الإيمان بما جاء به، و العمل بما شرعه لهم، و معنى بِإِذْنِهِ بأمره له بذلك و تقديره، و قيل: بتبشيره وَ سِراجاً مُنِيراً أى: يستضاء به فى ظلم الضلالة، كما يستضاء بالمصباح فى الظلمة.

قال الزجاج: وَ سِراجاً أى: ذا سراج منير، أى: كتاب نير، و انتصاب شاهدا و ما بعده: على الحال وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ عطف على مقدّر يقتضيه المقام، كأنه قال فاشهد و بشر، أو فدبر أحوال الناس وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أو هو من عطف جملة على جملة، و هى المذكورة سابقا، و لا يمنع من ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار و الإنشاء. أمره سبحانه بأن يبشرهم بأن لهم من اللّه فضلا كبيرا على سائر الأمم، و قد بين ذلك سبحانه بقوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ «٢» ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ أى: لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة فى الدين، و فى الآية تعريض لغيره من أمته لأنه صلّى اللّه عليه و سلم معصوم عن طاعتهم فى شىء مما يريدونه، و يشيرون به عليه، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى أوّل السورة وَ دَعْ أَذاهُمْ أى:

لا تبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب يصيبك فى دين اللّه و شدّتك على أعدائه، أو دع أن تؤذيهم مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك، فالمصدر على الأوّل: مضاف إلى الفاعل. و على الثانى: مضاف إلى المفعول،

---

(١). الرعد: ٢٣ و ٢۴.

(۲). الشورى: ۲۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۲

و هى منسوخة بآية السيف: وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فى كلّ شؤونك وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا توكل إليه الأمور و تفوّض إليه الشؤون، فمن فوّض إليه أموره كفاه، و من و كلّ إليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً يقول: لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها أجلا معلوما، ثم عذر أهلها فى حال العذر؛ غير الذكر، فإن اللّه لم يجعل له حدا ينتهى إليه و لم يعذر أحدا فى تركه إلاـ مغلوبا على عقله، فقال: اذكروا اللّه قياما و قعودا، و على جنوبكم بالليل و النهار، فى البرّ و البحر، فى السفر و الحضر، فى الغنى و الفقر، فى الصحة و السقم، فى السرّ و العلانية و على كلّ حال، و قال: وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا إذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو و ملائكته قال اللّه: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ

و قد ورد فى فضل الذكر و الاستكثار منه أحاديث كثيرة، و قد صنف فى الأذكار المتعلقة بالليل و النهار جماعة من الأئمة: كالنسائى، و النووى، و الجزرى، و غيرهم، و قد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين و فضيلة الذكر وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ «۱» و قد ورد أنه أفضل من الجهاد كما فى حديث أبى سعيد الخدرى عند أحمد، و الترمذى، و البيهقى «أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل: أى: العباد أفضل درجة عند اللّه يوم القيامة؟ قال:

الذاكرون اللّه كثيرا، قلت: يا رسول اللّه و من الغازى فى سبيل اللّه؟ قال: لو ضرب بسيفه فى الكفار و المشركين حتى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكرون أفضل منه درجة» و أخرج أحمد عن أبى الدرداء قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ألاـ أنبئكم بخير أعمالكم و أزكاها عند مليككم و أرفعها فى درجاتكم و خير لكم من إعطاء الذهب و الورق، و خير لكم من أن تلقوا أعداءكم، فتضربوا أعناقهم، و يضربوا أعناقكم؟

قالوا: و ما هو يا رسول اللّه؟ قال: ذكر اللّه عزّ و جلّ». و أخرجه أيضا الترمذى، و ابن ماجة. و فى صحيح مسلم و غيره من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «سبق المفرّدون، قالوا: و ما المفرّدون يا رسول اللّه؟ قال: الذاكرون اللّه كثيرا» و أخرج أحمد، و أبو يعلى، و ابن حبان، و الحاكم، و صححه، و البيهقى عن أبى سعيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «أكثروا ذكر اللّه حتى يقولوا مجنون». و أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «اذكروا اللّه حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون».

و ورد فى فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة فى الصحيحين و غيرهما، فمن ذلك حديث أبى هريرة قال: «من قال فى يوم مائة مرّة سبحان اللّه و بحمده حطت خطاياه و لو كانت مثل زبد البحر». و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و غيرهم عن سعد بن أبى وقاص قال: «كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال لنا: أ يعجز أحدكم أن يكتسب فى اليوم ألف حسنة؟ فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: يسبح اللّه مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة و يحطّ عنه ألف خطيئة». و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و عبد ابن حميد، و ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه فى الشعب عن البراء بن عازب فى قوله: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ قال: يوم

---

(۱). العنكبوت: ۲۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۳

يلقون ملك الموت ليس من مؤمن يقبض روحه إلاـ سلم عليه. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و الخطيب، و

ابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً و قد كان أمر عليا و معاذا أن يسيرا إلى اليمن، فقال: انطلقا فبشرا و لا تنفرا، و يسرا و لا تعسرا، فإنها قد أنزلت عليّ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً قال: شاهدا على أمتك، و مبشرا بالجنة، و نذيرا من النار، و داعيا إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً بالقرآن. و أخرج أحمد، و البخاري، و غيرهما من عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم في التوراة فقال: أجل و اللّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن «يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهدا و مبشّرا و نذيرا، و حرزا للأميّين، أنت عبدي و رسولي، سمّيتك المتوكّل ليس بفظّ و لا غليظ و لا صخّاب في الأسواق، و لا تجزي بالسيّئة السيئة، و لكن تعفو و تصفح» زاد أحمد «و لن يقبضه اللّه حتّى يقيم الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا اللّه، فيفتح بها أعينا عميا، و آذانا صمّا، و قلوبا غلفا». و قد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث فقال: و قال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد اللّه بن سلام، و لم يقل عبد اللّه بن عمرو، و هذا أولى، فعبد اللّه بن سلام هو الذي كان يسأل عن التوراة فيخبر بما فيها.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٩ الى ٥٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٤٩) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢)

لما ذكر سبحانه قصة زيد، و طلاقه لزينب، و كان قد دخل بها، و خطبها النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم بعد انقضاء عدّتها، كما تقدّم، خاطب المؤمنين مبينا لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ أي: عقدتم بهنّ عقد النكاح، و لم يرد لفظ النكاح في كتاب اللّه إلا في معنى العقد كما قاله صاحب الكشاف و القرطبي و غيرهما.

و قد اختلف في لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء، أو في العقد، أو فيهما على طريقة الاشتراك، و كلام صاحب الكشاف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء، فإنه قال النكاح الوطء، و تسمية العقد نكاحا

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٣٣٤

لملابسته له من حيث أنه طريق إليه، و نظيره تسميته الخمر إثما لأنها سبب في اقتراف الإثم. و معنى: مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ من قبل أن تجامعوهنّ، فكنى عن ذلك بلفظ المسّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها و هذا مجمع عليه كما حكى ذلك القرطبي و ابن كثير، و معنى تعتدّونها: تستوفون عددها، من عددت الدراهم فأنا أعتدّها. و إسناد ذلك إلى الرجال للدلالة على أن العدّة حق لهم كما يفيده فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ قرأ الجمهور «تعتدّونها» بتشديد الدال، و قرأ ابن كثير في رواية عنه و أهل مكة بتخفيفها. و في هذه القراءة وجهان: أحدهما أن تكون بمعنى الأولى، مأخوذة من الاعتداد: أي تستوفون عددها، و لكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف. قال الرازي: و لو كان من الاعتداء الذي هو الظلم لضعف، الاعتداء يتعدّى بعلى. و قيل: يجوز أن يكون من الاعتداء بحذف حرف الجرّ، أي: تعتدّون عليها، أي: على العدّة مجازا و مثله قوله:

تحنّ فتبدى ما بها من صبابةو أخفى الذى لو لا الأسى لقضانى

أى: لقضى علىّ. و الوجه الثانى: أن يكون المعنى: تعتدون فيها، و المراد بالاعتداء هذا. هو ما فى قوله: وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا «۱» فيكون معنى الآية على القراءة الآخرة: فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدون عليهنّ فيها بالمضارة. و قد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير و قال: إن البزّى غلط عليه، و هذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ «۲» و بقوله: وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ «۳» و المتعة المذكورة هنا قد تقدّم الكلام فيها فى البقرة. و قال سعيد بن جبير، هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التى فى البقرة و هى قوله: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ «۴» و قيل: المتعة هنا هى أعمّ من أن تكون نصف الصداق، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمى لها، فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى عملا بقوله: فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ لهنّ، و مع عدم التسمية تستحق المتعة عملا بهذه الآية، و يؤيد ذلك قوله تعالى: لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ «۵» و هذا الجمع لا بدّ منه، و هو مقدّم على الترجيح و على دعوى النسخ، و تخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنه إذا مات بعد العقد عليها، و قبل الدخول بها كان الموت كالدخول فتعتد أربعة أشهر و عشرا. قال ابن كثير: بالإجماع، فيكون المخصص: هو الإجماع، و قد استدلّ بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح، و هم الجمهور، و ذهب مالك: و أبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح إذا قال: إن تزوّجت فلانة فهى طالق، فتطلق إذا تزوّجها. و وجه الاستدلال بالآية لما قاله الجمهور أنه قال:

إذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَ فعقب الطلاق بالنكاح بلفظ ثم المشعرة بالترتيب و المهلة وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا أى: أخرجوهنّ من منازلكم: إذ ليس لكم عليهنّ عدّة، و السراح الجميل:

الذى لا ضرار فيه، و قيل: السراح، و قيل: السراح الجميل: أن لا يطالبها بما كان قد أعطاها، و قيل:

---

(۱). البقرة: ۲۳۱.

(۲). البقرة: ۲۲۸.

(۳). الطلاق: ۴.

(۴). البقرة: ۲۳۷.

(۵). البقرة: ۲۳۶.

السراح الجميل هنا كناية عن الطلاق، و هو بعيد لأنه قد تقدم ذكر الطلاق، و رتب عليه التمتيع، و عطف عليه السراح الجميل، فلا بدّ أن يراد به معنى غير الطلاق يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ ذكر سبحانه فى هذه الآية أنواع الأنكحة التى أحلها لرسوله، و بدأ بأزواجه اللاتى قد أعطاهنّ أجورهنّ: أى مهورهنّ، فإن المهور: أجور الأبضاع، و إيتاؤها: إما تسليمها معجلة، أو تسميتها فى العقد.

و اختلف فى معنى قوله: أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ فقال ابن زيد و الضحاك: إن اللّه أحلّ له أن يتزوّج كل امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم. و قال الجمهور: المراد أحللنا لك أزواجك: الكائنات عندك، لأنهنّ قد اخترنك على الدنيا و زينتها، و هذا هو الظاهر، لأنه قوله أحللنا، و آتيت: ماضيان، و تقييد الإحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحلّ عليه، لأنه يصح العقد بلا تسمية، و يجب مهر المثل مع الوطء، و المتعة مع عدمه، فكأنه لقصد الإرشاد إلى ما هو أفضل وَ

ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ أى: السرارى اللاتى دخلن فى ملكه بالغنيمة، و معنى مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ مما ردّه اللّه عليك من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر و الغلبة، و ليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنها تحلّ له السرية المشتراة و الموهوبة و نحوهما، و لكنه إشارة إلى ما هو أفضل كالقيد الأوّل المصرّح بإيتاء الأجور، و هكذا قيد المهاجرة فى قوله: وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ فإنه للإشارة إلى ما هو أفضل، و للإيذان بشرف الهجرة، و شرف من هاجر، و المراد هنا الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها. و قيل إن هذا القيد: أعنى المهاجرة معتبر و أنها لا تحلّ له من لم تهاجر من هؤلاء كما فى قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا «١» و يؤيد هذا حديث أمّ هانئ، و سيأتى آخر البحث هذا إن شاء اللّه تعالى و وجه إفراد العم، و الخال و جمع العمة، و الخالة ما ذكره القرطبى أن العم و الخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر و الراجز، و ليس كذلك العمة و الخالة. قال: و هذا عرف لغوى، فجاء الكلام عليه بغاية البيان. و حكاه عن ابن العربى، و قال ابن كثير: إنه وحد لفظ الذكر لشرفه، و جمع الأنثى كقوله: عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ «٢» و قوله: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ* «٣» وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ «۴» و له نظائر كثيرة. انتهى. و قال النيسابورى. و إنما لم يجمع العم و الخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد، و لم يحسن هذا الاختصار فى العمة و الخالة لإمكان سبق الوهم إلى أن التاء فيهما للوحدة انتهى. و كلّ وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض و المعارضة، و أحسنها تعليل جمع العمة و الخالة بسبق الوهم إلى أن التاء للوحدة، و ليس فى العم و الخال ما يسبق الوهم إليه بأنه أريد به الوحدة؛ إلا مجرّد صيغة الإفراد و هى لا تقتضى ذلك بعد إضافتها لما تقرّر من عموم أسماء الأجناس المضافة، على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ هو معطوف على مفعول أحللنا، أى: و أحللنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد إن وهبت نفسها لك بغير صداق. و أما من لم تكن مؤمنة فلا تحل لك بمجرّد هبتها نفسها لك، و لكن ليس بواجب

---

(١). الأنفال: ٧٢.

(٢). النحل: ۴٨.

(٣). البقرة: ٢۵٧.

(۴). الأنعام: ١.

عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيدا بإرادتك، و لهذا قال: إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها أى:

يصيّرها منكوحة له، و يتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر. و قد قيل: إنه لم ينكح النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم من الواهبات أنفسهن أحدا و لم يكن عنده منهنّ شىء. و قيل: كان عنده منهنّ خولة بنت حكيم كما فى صحيح البخارى عن عائشة. و قال قتادة: هى ميمونة بنت الحارث. و قال الشعبى: هى زينب بنت خزيمة الأنصارية أمّ المساكين. و قال علىّ بن الحسين، و الضحاك، و مقاتل: هى أمّ شريك بنت جابر الأسدية. و قال عروة بن الزبير: هى أمّ حكيم بنت الأوقص السلمية. ثم بيّن سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لا يحلّ لغيره من أمته فقال: خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أى: هذا الإحلال الخالص هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين. و لفظ خالصة إما حال من امرأة، قاله الزجاج. أو مصدر مؤكد كوعد اللّه، أى:

خالص لك خلوصا. قرأ الجمهور «و امرأة» بالنصب. و قرأ أبو حيوة بالرفع على الابتداء. و قرأ الجمهور «إن وهبت» بكسر إن. و

قرأ أبىّ و الحسن و عيسى بن عمر بفتحها على أنه بدل من امرأة بدل اشتمال. أو على حذف لام العلة، أى: لأن وهبت، و قرأ الجمهور «خالصة» بالنصب، و قرئ بالرفع على أنها صفة لامرأة على قراءة من قرأ امرأة بالرفع، و قد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و أنه لا يجوز لغيره و لا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلا ما روى عن أبى حنيفة و صاحبيه أنه يصحّ النكاح إذا وهبت، و أشهد هو على نفسه بمهر. و أما بدون مهر فلا خلاف فى أن ذلك خاص بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و لهذا قال: قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ أى: ما فرضه اللّه سبحانه على المؤمنين فى حقّ أزواجهم من شرائط العقد و حقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحلّ لهم الإخلال به، و لا الاقتداء برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فيما خصه اللّه به توسعة عليه و تكريما له، فلا يتزوجوا إلا أربعا بمهر و بينة و ولىّ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ أى: و علمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهنّ ممن يجوز سبيه و حربه، لا من كان لا يجوز سبيه أو كان له عهد من المسلمين لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ قال المفسرون: هذا يرجع إلى أوّل الآية: أى أحللنا لك أزواجك و ما ملكت يمينك و الموهوبة لكيلا يكون عليك حرج، فتكون اللام متعلقة بأحللنا، و قيل: هى متعلقة بخالصة، و الأوّل أولى، و الحرج: الضيق، أى: وسعنا عليك فى التحليل لك لئلا يضيق صدرك، فتظن أنك قد أثمت فى بعض المنكوحات وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً يغفر الذنوب، و يرحم العباد، و لذلك وسع الأمر، و لم يضيقه تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ قرئ «ترجئ» مهموزا و غير مهموز، و هما لغتان، و الإرجاء التأخير، يقال: أرجأت الأمر و أرجيته: إذا أخرته وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ أى: تضم إليك، يقال آواه إليه بالمد: ضمه إليه، و أوى مقصورا: أى ضم إليه، و المعنى: أن اللّه وسع على رسوله و جعل الخيار إليه فى نسائه، فيؤخر من شاء منهنّ و يؤخر نوبتها و يتركها و لا يأتيها من غير طلاق، و يضم إليه من شاء منهنّ و يضاجعها و يبيت عندها، و قد كان القسم واجبا عليه حتى نزلت هذه الآية، فارتفع الوجوب و صار الخيار إليه، و كان ممن آوى إليه عائشة و حفصة و أمّ سلمة و زينب، و ممن أرجأه سودة و جويرية و أم حبيبة و ميمونة و صفية، فكان صلّى اللّه عليه و سلم يسوّى بين من آواه فى القسم، و كان يقسم لمن أرجأه ما شاء. هذا قول جمهور

المفسرين فى معنى الآية. و هو الذى دلت عليه الأدلة الثابتة فى الصحيح و غيره. و قيل: هذه الآية فى الواهبات أنفسهنّ، لا فى غيرهنّ من الزوجات. قاله الشعبى و غيره. و قيل: معنى الآية فى الطلاق: أى: تطلق من تشاء منهنّ و تمسك من تشاء. و قال الحسن: إن المعنى: تنكح من شئت من نساء أمتك، و تترك نكاح من شئت منهنّ. و قد قيل: إن هذه ناسخة لقوله: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ و سيأتى بيان ذلك وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ الابتغاء: الطلب، و العزل: الإزالة، و المعنى: أنه إن أراد أن يؤوى إليه امرأة ممن قد عزلهنّ من القسمة و يضمها إليه فلا حرج عليه فى ذلك. و الحاصل أن اللّه سبحانه فوّض الأمر إلى رسوله يصنع فى زوجاته ما شاء من تقديم و تأخير، و عزل و إمساك، و ضمّ من أرجأ، و إرجاء من ضمّ إليه، و ما شاء فى أمرهنّ فعل توسعة عليه و نفيا للحرج عنه. و أصل الجناح: الميل، يقال جنحت السفينة:

إذا مالت. و المعنى: لا ميل عليك بلوم و لا عتب فيما فعلت، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من التفويض إلى مشيئته، و هو: مبتدأ، و خبره: أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ أى: ذلك التفويض الذى فوّضناك أقرب إلى رضاهنّ لأنه حكم اللّه سبحانه. قال قتادة: أى ذلك التخيير الذى خيرناك فى صحبتهنّ أدنى إلى رضاهنّ إذ كان من عندنا، لأنهنّ إذا علمن أنه من اللّه قرّت أعينهنّ. قرأ الجمهور تَقَرَّ على البناء للفاعل مسندا إلى أعينهنّ، و قرأ ابن محيصن «تقر» بضم التاء من أقرر ضمير المخاطب و نصب أعينهنّ على المفعولية، و قرئ على البناء للمفعول. و قد تقدّم بيان معنى قرّة العين فى سورة مريم، وَ معنى لا يَحْزَنَ لا يحصل معهنّ حزن بتأثيرك بعضهنّ دون بعض وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ أى: يرضين جميعا بما أعطيتهنّ من تقريب و إرجاء، و عزل و إيواء. قرأ الجمهور «كلهنّ» بالرفع تأكيدا لفاعل يرضين. و قرأ أبو إياس بالنصب تأكيدا لضمير المفعول فى آتيتهنّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي

قُلُوبِكُمْ من كلّ ما تضـمرونه، و من ذلك ما تضمرونه من أمور النساء وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً بكل شىء لا تخفى عليه خافية (حليما) لا يعاجـل العصـاة بالعقوبـة لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ قرأ الجمهور «لا يحلّ» بالتحتيـة للفصل بين الفعل و فاعله المؤنث، و قرأ ابن كثير بالفوقية.

و قـد اختلف أهل العلم فى تفسير هذه الآية على أقوال: الأوّل أنها محكمة، و أنه حرّم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يتزوّج على نسائه، مكافأة لهنّ بما فعلن من اختيار اللّه و رسوله، و الـدار الآخرة لما خيرهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بأمر اللّه له بـذلك، و هـذا قول ابن عباس، و مجاهـد، و الضـحاك، و قتادة، و الحسن، و ابن سـيرين، و أبى بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، و ابن زيد و ابن جرير. و قال أبو أمامة بن سـهل بن حنيف: لما حرّم اللّه عليهنّ أن يتزوجن من بعده حرّم عليه أن يتزوّج غيرهن. و قال أبىّ بن كعب و عكرمـة و أبو رزين: إن المعنى: لا يحل لك النساء من بعـد الأصـناف التى سـماها اللّه. قال القرطبى: و هو اختيار ابن جرير. و قيل:

لا يحلّ لك اليهوديات و لا النصـرانيات لأنهنّ لا يصح أن يتصفن بأنهنّ أمهات المؤمنين. و هذا القول فيه بعد لأنه يكن التقدير: لا يحلّ لك النساء من بعـد المسـلمات. و لم يجر للمسـلمات ذكر. و قيل: هـذه الآية منسوخة بالسـنة و بقوله سـبحانه: تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ و بهذا قالت عائشة، و أم سلمة،

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۸

و علىّ بن أبى طالب، و على بن الحسين و غيرهم، و هـذا هو الراجـح، و سـيأتى فى آخر البحث ما يـدل عليه من الأدلـة وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ أى: تتبـدل فحـذفت إحـدى التاءين، أى: ليس لك أن تطلق واحدة منهنّ أو أكثر و تتزوّج بدل من طلقت منهنّ، و «من» فى قوله: مِنْ أَزْواجٍ مزيدة للتأكيد.

و قال ابن زيد: هذا شىء كانت العرب تفعله يقول: خذ زوجتى، و أعطنى زوجتك، و قد أنكر النحاس، و ابن جرير ما ذكره ابن زيـد. قال ابن جرير: ما فعلت العرب هـذا قط. و يـدفع هـذا الإنكار منهما ما أخرجه الدارقطنى عن أبى هريرة قال: كان البدل فى الجاهليـة أن يقول الرجل للرجل: تنزل لى عن امرأتك و أنزل لك عن امرأتى، فأنزل اللّه عزّ و جلّ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ و أخرجه أيضا عنه البزار و ابن مردويه، و جملة:

وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ فى محل نصب على الحال من فاعل تبـدّل، و المعنى: أنه لا يحل التبـدّل بأزواجك، و لو أعجبك حسـن غيرهنّ ممن أردت أن تجعلها بـدلا من إحداهنّ، و هذا التبدّل أيضا من جملة ما نسخه اللّه فى حق رسوله على القول الراجح، و قوله: إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ استثناء من النساء لأنه يتناول الحرائر و الإماء.

و قد اختلف العلماء فى تحليل الأمة الكافرة. القول الأوّل: أنه تحلّ للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لعموم هذه الآية، و به قال مجاهد، و سعيد بن جبير، و عطاء، و الحكم. القول الثانى: أنها لا تحلّ له تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة.

و يترجـح القول الأـوّل بعموم هـذه الآيـة، و تعليـل المنع بالتنزّه ضـعيف فلا تنزّه عما أحله اللّه سـبحانه، فإن ما أحله فهو طيب، لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح، لا باعتبار غير ذلك، فالمشركون نجس بنص القرآن.

و يمكن ترجيـح القول الثـانى بقوله سـبحانه: وَ لا تُمْسِـكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ «۱» فـإنه نهى عـام وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ رَقِيباً أى: مراقبا حافظا مهيمنا، لا يخفى عليه شىء، و لا يفوته شىء.

و قـد أخرج ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قوله: إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنـاتِ قال: هـذا فى الرجل يتزوّج المرأة، ثم يطلقها من قبل أن يمسـها، فإذا طلقها واحدة بانت منه، و لا عدّة عليها تتزوّج من شاءت، ثم قال: فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا يقول: إن كان سمى لها صداقا فليس لها إلا النصف، و إن لم يكن سمى لها صداقا متعها على قدر عسره و يسره، و

هو السراح الجميل.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَ منسوخة نسختها التى فى البقرة فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن سعيد بن المسيب نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن و أبى العالية قالا: ليست بمنسوخة، لها نصف الصداق و لها المتاع. و أخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول: إن طلق ما لم ينكح فهو جائز، فقال ابن عباس أخطأ فى هذا، إن اللّه يقول: إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ و لم يقل:

إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهنّ. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية و قال: لا يكون طلاق حتى يكون نكاح. و قد وردت أحاديث منها أنه «لا طلاق إلّا بعد نكاح» و هى

---

(۱). الممتحنة: ۱۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۳۹

معروفة. و أخرج ابن سعد، و ابن راهويه، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب. قالت: خطبنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فاعتذرت إليه فعذرنى، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ إلى قوله:

هاجَرْنَ مَعَکَ قالت: فلم أكن أحلّ له لأنى لم أهاجر معه. كنت من الطلقاء. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: نزلت فىّ هذه الآية وَ بَناتِ عَمِّکَ وَ بَناتِ عَمَّاتِکَ وَ بَناتِ خالِکَ وَ بَناتِ خالاتِکَ اللَّاتِی هاجَرْنَ مَعَکَ أراد النبىّ أن يتزوّجنى، فنهى عنى إذ لم أهاجر. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ إلى قوله: خالِصَةً لَکَ قال: فحرّم اللّه عليه سوى ذلک من النساء، و كان قبل ذلک ينكح فى أىّ النساء شاء لم يحرم ذلک عليه، و كان نساؤه يجدن من ذلک وجدا شديدا أن ينكح فى أىّ النساء أحبّ، فلما أنزل إنى حرّمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلک نساءه.

و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى السنن عن عائشة قالت: التى وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و سلم خولة بنت حكيم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و البخارى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى، و ابن مردويه، عن عروة أن خولة بنت حكيم كانت من اللاتى و هبن أنفسهنّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى حاتم عن محمّد بن كعب، و عمر بن الحكم، و عبد اللّه بن عبيدة قالوا: تزوّج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ثلاث عشرة امرأة: ست من قريش: خديجة، و عائشة، و حفصة، و أم حبيبة، و سودة، و أم سلمة، و ثلاث من بنى عامر بن صعصعة، و امرأتين من بنى هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، و هى التى و هبت نفسها للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و زينب أم المساكين، و العامرية و هى التى اختارت الدنيا، و امرأة من بنى الجون، و هى التى استعاذت منه، و زينب بنت جحش الأسدية، و السبيتين: صفية بنت حيى، و جويرية بنت الحارث الخزاعية. و أخرج البخارى، و ابن مردويه عن أنس قال: جاءت امرأة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقالت: يا نبىّ اللّه هل لک بى حاجة؟ فقالت ابن أنس: ما كان أقلّ حياءها، فقال: هى خير منک، رغبت فى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فعرضت نفسها عليه. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن سهل بن سعد الساعدى أن امرأة جاءت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فوهبت نفسها له فصمت، الحديث بطوله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ قال: فرض اللّه عليهم أنه لا نكاح إلا بولىّ و شاهدين. و أخرج ابن مردويه

عن ابن عباس مثله و زاد و مهر. و أخرج ابن أبى شيبة عن على قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن توطأ الحامل حتى تضع؛ و الحائل حتى تستبرأ بحيضة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ قال: تؤخر. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه فى قوله:

تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ يقول: من شئت خليت سبيله منهنّ، و من أحببت أمسكت منهنّ، و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتى و هبن أنفسهنّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أقول تهب المرأة نفسها، فلما أنزل اللّه تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ الآية قلت: ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك.

و أخرج ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى رزين

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۰

قال: همّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك أتينه فقلن: لا تخلّ سبيلنا و أنت فى حلّ فيما بيننا و بينك، افرض لنا من نفسك و مالك ما شئت، فأنزل اللّه تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ يقول: تعزل من تشاء، فأرجأ منهن نسوة، و آوى نسوة، و كان ممن أرجى: ميمونة، و جويرية، و أم حبيبة، و صفية، و سودة، و كان يقسم بينهن من نفسه و ماله ما شاء، و كان ممن آوى: عائشة، و حفصة، و أم سلمة، و زينب، فكانت قسمته من نفسه و ماله بينهنّ سواء. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول: إن كان ذلك إلىّ، فإنى لا أريد أن أوثر عليك أحدا. و أخرج الرويانى، و الدارمى و ابن سعد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة عن زياد- رجل من الأنصار- قال: قلت لأبى بن كعب: أ رأيت لو أن أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم متن أما كان يحلّ له أن يتزوّج؟ قال: و ما يمنعه من ذلك، قلت: قوله: لا يَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ قال: إنما أحلّ له ضربا من النساء و وصف له صفة فقال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ إلى قوله: وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً ثم قال: لا يحلّ لك النساء من بعد هذه الصفة. و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن أصناف النساء إلى ما كان من المؤمنات المهاجرات، قال: لا يَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ، وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَکَتْ يَمِينُکَ فأحلّ له الفتيات المؤمنات وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِ و حرم كلّ ذات دين غير الإسلام، و قال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ إلى قوله: خالِصَةً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ و حرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء».

و أخرج ابن مردويه عنه قال: «نهى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أن يتزوّج بعد نسائه الأول شيئا» و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: حبسه اللّه عليهن كما حبسهن عليه. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن أنس قال: لما خيرهنّ؛ فاخترن اللّه، و رسوله قصره عليهن فقال: لا يَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ. و أخرج ابن سعد، و ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتى أحلّ اللّه له أن يتزوّج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، و ذلك قول اللّه: تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَيْکَ مَنْ تَشاءُ. و أخرج عبد الرزاق، و سعيد بن منصور، و ابن سعد، و أحمد، و عبد بن حميد، و أبو داود فى ناسخه، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى من طريق عطاء عن عائشة قالت: لم يمت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتى أحلّ له أن يتزوّج من النساء ما شاء إلا ذات محرم لقوله: تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَيْکَ مَنْ تَشاءُ. و أخرج ابن سعد عن ابن عباس مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى رزين لا يَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ

قـال: من المشـركات إلاـ ما سبيت فملكت يمينك. و أخرج البزار، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: كان البـدل فى الجاهليـة أن يقول الرجل للرجل:

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۱

بـادلنى امرأتك و أبادلك امرأتى: أى تنزل لى عن امرأتك، و أنزل لك عن امرأتى، فأنزل اللّه: وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ قال: فدخل عيينة بن حصن الفزارى إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و عنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أين الاستئذان؟ قال: يا رسول اللّه! ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت، ثم قال: من هـذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال رسول اللّه: هـذه عائشـة أم المؤمنين، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن خلق اللّه؟ قال: يا عيينـة إن اللّه حرّم ذلك، فلما أن خرج قالت عائشة:

من هذا؟ قال: أحمق مطاع، و إنه على ما ترين لسيد قومه».

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۳ الى ۵۵]

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاـ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّـ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعـامٍ غَيْرَ نـاظِرِينَ إِنـاهُ وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَـادْخُلُوا فَـإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لاـ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كـانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لاـ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (۵۳) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۵۴) لاـ جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنـائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۵۵)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِي هذا نهى عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلا بإذن منه. و سبب النزول: ما وقع من بعض الصـحابة فى وليمة زينب، و سيأتى بيان ذلك آخر البحث إن شاء اللّه. و قوله: إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أى: لا تدخلوها فى حال من الأحوال إلا فى حال كونكم مأذونا لكم، و هو فى موضع نصب على الحال، أى: إلّا مصـحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض، أى: إلا بأن يؤذن لكم، أو منصوب على الظرفية، أى: إلا وقت أن يؤذن لكم، و قوله: إِلى طَعامٍ متعلق بيؤذن على تضـمينه معنى الدعاء، أى: إلا أن يؤذن لكم مدعوّين إلى طعام، و انتصاب: غَيْرَ ناظِرِينَ إِنـاهُ على الحـال، و العامـل فيه يؤذن أو مقـدّر، أى: ادخلوا غير ناظرين، و معنى ناظرين: منتظرين، و إناه: نضـجه و إدراكه، يقال: أنى يأنى أنى: إذا حان و أدرك. قرأ الجمهور «غير ناظرين» بالنصب. و قرأ ابن أبى عبلة غير بالجرّ: صـفة لطعام، و ضـعف النحاة هـذه القراءة لعـدم بروز الضـمير و لكنه جاريا على غير من هو له، فكان حقه أن يقال غير ناظرين إناه أنتم ثم بين لهم سـبحانه ما ينبغى فى ذلك فقال: وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا و فيه تأكيـد للمنع، و بيان الوقت الـذى يكون فيه الـدخول، و هو عند الإذن. قال ابن العربى: و تقـدير الكلاـم: و لكن إذا دعيتم، و أذن لكم فادخلوا، و إلا فنفس الـدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الـدخول، و قيل: إن فيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام: هو الدعوة إليه فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا أمرهم سـبحانه بالانتشار بعد الطعام، و هو التفرّق، و المراد الإلزام بالخروج من المنزل الذى

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۲

وقعت الـدعوة إليه عنـد انقضاء المقصود من الأكل وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ عطف على قوله غير ناظرين، أو على مقدّر، أى: و لا تـدخلوا و لا تمكثوا مستأنسـين. و المعنى: النهى لهم عن أن يجلسوا بعـد الطعام يتحـدّثون بالحـديث. قال الرازى فى قوله: إِلَّا أَنْ

يُؤْذَنَ لَكَمْ إِلى طَعامٍ إما أن يكون فيه تقديم و تأخير تقديره:

و لا تـدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعا من الدخول فى غير وقت الطعام بغير إذن. و إما أن لا يكون فيه تقديم و تأخير فيكون معناه: و لا تـدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشـروطا بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام؛ فلا يجوز الـدخول، فلو أذن لواحـد فى الـدخول لاسـتماع كلاـم لاـ لأكـل طعـام فلاـ يجوز، فنقول المراد: هو الثـانى ليعمّ النهى عن الدخول. و أما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام، فلما هو مذكور فى سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام، و يـدخلون من غير إذن فمنعوا من الـدخول فى وقتهم بغير إذن. و قال ابن عادل: الأولى أن يقال المراد: هو الثانى، لأن التقديم و التأخير خلاف الأصل، و قوله: إِلى طَعامٍ من باب التخصـيص بالـذكر، فلا يـدلّ على نفى ما عـداه، لا سـيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام، انتهى. و الأولى فى التعبير عن هذا المعنى الذى أراده أن يقال: قـد دلت الأدلـة على جواز دخول بيوته صلّى اللّه عليه و سـلم بإذنه لغير الطعام، و ذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصـحابة و غيرهم يسـتأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم، و ذلك يوجب قصـر هذه الآية على السبب الذين نزلت فيه، و هو القوم الذى كانوا يتحينون طعام النبى صـلّى اللّه عليه و سـلم فيـدخلون و يقعـدون منتظرين لإدراكه، و أمثالهم، فلا تدلّ على المنع من الدخول مع الإـذن لغير ذلـك، و إلاـ لمـا جاز لأحـد أن يـدخل بيوته بإذنه، لغير الطعام، و اللازم باطل فالملزوم مثله. قال ابن عطيـة: و كانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة، أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام و نضـجه، و كذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى اللّه المؤمنين عن ذلك فى بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و دخل فى النهى سائر المؤمنين، و التزم الناس أدب اللّه لهم فى ذلـك فمنعهم من الـدخول إلاـ بـإذن عنـد الأكـل لاـ قبله لانتظـار نضـج الطعام، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكُمْ إلى الانتظار، و الاستئناس للحـديث، و أشـير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما فى قوله: عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «۱» أى: إن ذلـك المـذكور من الأـمرين كـانَ يُؤْذِي النَّبِيَ لأنهم كانوا يضـيقون المنزل عليه، و على أهله، و يتحـدّثون بما لا يريـده. قال الزجـاج: كـان النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلم يحتمـل إطـالتهم كرما منه فيصبر على الأذى فى ذلك، فعلم اللّه من يحضـره الأدب؛ فصـار أدبـا لهم و لمن بعـدهم فَيَسْـتَحْيِي مِنْكُمْ أى يستحيى أن يقول لكم: قوموا، أو اخرجوا وَ اللَّهُ لاـ يَسْـتَحْيِي مِنَ الْحَقِ أى: لا يترك أن يبين لكم مـا هو الحق، و لاـ يمتنع من بيانه، و إظهاره و التعبير عنه بعـدم الاسـتحياء للمشاكلـة. قرأ الجمهور «يستحيى» بيائين، و روى عن ابن كثير أنه قرأ بياء واحدة، و هى لغة تميم يقولون: اسـتحى يسـتحى: مثل استقى يستقى، ثم ذكر سبحانه أدبا آخر متعلقا بنساء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقال: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً أى: شيئا يتمتع به، من الماعون و غيره فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أى: من وراء ستر بينكم و بينهنّ. و المتاع يطلق على

---

(۱). البقرة: ۶۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۳

كل ما يتمتع به، فلا وجه لما قيل من أن المراد به: العارية، أو الفتوى، أو المصحف، و الإشارة بقوله:

ذلِكُمْ إلى سؤال المتاع من وراء حجاب، و قيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن، و عدم الاستئناس للحديث عند الدخول و سؤال المتاع، و الأوّل أولى، و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره:

أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَ أى: أكـثر تطهيرا لهـا من الريبـة، و خـواطر السوء الـتى تعرض للرجـال فى أمر النسـاء، و للنسـاء فى أمر الرجال. و فى هذا أدب لكل مؤمن، و تحذيرا له من أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحلّ له، و المكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ أى: ما صح لكم و لا اسـتقام أن تؤذوه بشـىء من الأشياء كائنا ما كان، و من جملة

ذلك دخول بيوته بغير إذن منه، و اللبث فيها على غير الوجه الذى يريده، و تكليم نسائه من دون حجاب وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أى:
و لا كان لكم ذلك بعد وفاته لأنهنّ أمهات المؤمنين، و لا يحلّ للأولاد نكاح الأمهات، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكُمْ إلى نكاح أزواجه من بعده كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً أى: ذنبا عظيما، و خطبا هائلا شديدا.
و كان سبب نزول الآية أنه قال قائل: لو قد مات محمّد لتزوّجنا نساءه، و سيأتى بيان ذلك إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً يعلم كلّ شىء من الأشياء، و من جملة ذلك ما تظهرونه من شأن أزواج رسوله، و ما تكتمونه فى صدوركم. و فى هذا وعيد شديد، لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها و شرّها. ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه فقال: لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَ فهؤلاء لا يجب على نساء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و لا غيرهنّ من النساء الاحتجاب منهم، و لم يذكر العمّ و الخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. و قال الزجاج: العمّ و الخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحلّ لابن العم و ابن الخال فكره لهما الرؤية، و هذا ضعيف جدّا، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها، لا سيما أبناء الإخوة و أبناء الأخوات، و اللازم باطل فالملزوم مثله، و هكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها لأنهنّ يصفنها، و اللازم باطل فالملزوم مثله، و هكذا لا وجه لما قاله الشعبى و عكرمة من أنه للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها، و الأولى أن يقال أنه سبحانه اقتصر هاهنا على بعض ما ذكره من المحارم فى سورة النور اكتفاء بما تقدّم وَ لا نِسائِهِنَ هذه الإضافة تقتضى أن يكون المراد بالنساء المؤمنات، لأن الكافرات غير مأمونات على العورات، و النساء كلهنّ عورة وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ من العبيد و الإماء، و قيل: الإماء خاصة، و من لم يبلغ من العبيد، و الخلاف فى ذلك معروف. و قد تقدّم فى سورة النور ما فيه كفاية. ثم أمرهنّ سبحانه بالتقوى التى هى ملاك الأمر كله، وَ المعنى اتَّقِينَ اللّه فى كلّ الأمور التى من جملتها ما هو مذكور هنا إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً لم يغب عنه شىء من الأشياء كائنا ما كان، فهو مجاز للمحسن بإحسانه و للمسىء بإساءته.
و قد أخرج البخارى، و مسلم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول اللّه إن نساءك يدخل عليهنّ البرّ و الفاجر فلو حجبتهنّ، فأنزل اللّه آية الحجاب. و فى لفظ أنه قال عمر: يا رسول اللّه يدخل

عليك البرّ و الفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل اللّه آية الحجاب. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن أنس قال: «لما تزوّج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدّثون و إذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام و قعد ثلاثة نفر، فجاء النبى صلّى اللّه عليه و سلم ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى و بينه، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ الآية. و أخرج ابن جرير عن عائشة أن أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع، و هو صعيد أفيح، و كان عمر بن الخطاب يقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم احجب نساءك، فلم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالى عشاء، و كانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب، فأنزل اللّه الحجاب قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ الآية. و أخرج ابن سعد عن أنس قال: نزل الحجاب مبتنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بزينب بنت جحش، و ذلك سنة خمس من الهجرة، و حجب نساءه من يومئذ و أنا ابن خمس عشرة سنة. و كذا: و أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان، قال: نزل الحجاب على نسائه فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة، و به قال قتادة و الواقدى. و

زعم أبو عبيدة و خليفة بن خياط أن ذلك كان فى سنة ثلاث.

و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ قال: نزلت فى رجل همّ أن يتزوّج بعض نساء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بعده. قال سفيان. و ذكروا أنها عائشة. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد اللّه قال: أيحجبنا محمّد عن بنات عمنا. و يتزوّج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجنّ نساءه من بعده، فنزلت هذه الآية. و أخرج عبد الرزاق، و عبد ابن حميد، و ابن المنذر عن قتادة قال: قال طلحة بن عبيد اللّه: لو قبض النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لتزوّجت عائشة. فنزلت.

و أخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم قال: نزلت فى طلحة لأنه قال: إذا توفّى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم تزوّجت عائشة. قال ابن عطية: و هذا عندى لا يصح على طلحة بن عبيد اللّه. قال القرطبى: قال شيخنا الإمام أبو العباس: و قد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة و حاشاهم عن مثله، و إنما الكذب فى نقله، و إنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال. و أخرج البيهقى فى السنن عن ابن عباس قال: قال رجل من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: لو قد مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم تزوّجت عائشة أو أمّ سلمة، فأنزل اللّه: وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ الآية. و أخرج ابن جرير عنه «أنّ رجلا أتى بعض أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فكلّمها و هو ابن عمها، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: لا تقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا، فقال: يا رسول اللّه إنها ابنة عمى، و اللّه ما قلت لها منكرا، و لا قالت لى، قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: قد عرفت ذلك، إنه ليس أحد أغير من اللّه، و إنه ليس أحد أغير منى، فمضى ثم قال: يمنعنى من كلام ابنة عمّى! لأتزوّجنّها من بعده، فأنزل اللّه هذه الآية، فأعتق ذلك الرجل رقبة و حمل على عشرة أبعرة فى سبيل اللّه، و حجّ ماشيا توبة من كلمته.

و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: خطبنى علىّ فبلغ ذلك فاطمة، فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۵

فقالت: إن أسماء متزوّجة عليا، فقال لها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: ما كان لها أن تؤذى اللّه و رسوله. و أخرج ابن سعد عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف فى قوله: إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ قال: إن تكلموا به فتقولون نتزوّج فلانة لبعض أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، أو تخفوا ذلك فى أنفسكم فلا تنطقوا به؛ يعلمه اللّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا جُناحَ عَلَيْهِنَ إلى آخر الآية قال: أنزلت هذه فى نساء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم خاصة، و قوله: نِسائِهِنَ يعنى نساء المسلمات ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ من المماليك و الإماء و رخص لهنّ أن يروهنّ بعد ما ضرب الحجاب عليهنّ.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۶ الى ۵۸]

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (۵۷) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

قرأ الجمهور: وَ مَلائِكَتَهُ بنصب الملائكة عطفا على لفظ اسم إن. و قرأ ابن عباس: «و ملائكته» بالرفع عطفا على محل اسم إنّ، و الضمير فى قوله: يُصَلُّونَ راجع إلى اللّه، و إلى الملائكة، و فيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم و للّه سبحانه واحدا، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلم لما سمع قول الخطيب يقول: من يطع اللّه و رسوله فقد رشد، و من يعصهما فقد غوى، فقال: بئس خطيب القوم أنت، قل و من يعص اللّه و رسوله، و وجه ذلك أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر اللّه سبحانه مع غيره فى ضمير واحد، و هذا الحديث ثابت فى الصحيح. و ثبت أيضا فى الصحيح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم

أمر مناديا ينادى يوم خيبر:
إنّ اللّه و رسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهليّة. و لأهل العلم أبحاث فى الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها، و الآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها للّه و لملائكته واحدا، و التعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و يحمل الذمّ لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه صلّى اللّه عليه و سلم فهم منه إرادة التسوية بينهما بين اللّه سبحانه و بين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك، و هذا أحسن ما قيل فى الجمع. و قالت طائفة: فى هذه حذف، و التقدير: إن اللّه يصلى و ملائكته يصلون. و على هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر اللّه و ذكر غيره فى ضمير واحد، و لا يرد أيضا ما قيل: إن الصلاة من اللّه الرحمة و من ملائكته الدعاء فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين فى لفظ يصلون، و يقال على القول الأوّل أنه أريد بيصلون معنى مجازى يعمّ المعنيين، و ذلك بأن يراد بقوله يصلون يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره. و حكى البخارى عن أبى العالية أن صلاة اللّه سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته، و صلاة الملائكة الدعاء. و روى الترمذى فى سننه عن سفيان الثورى، و غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا: صلاة الربّ: الرحمة، و صلاة الملائكة:
الاستغفار. و حكى الواحدى عن مقاتل أنه قال: أما صلاة الربّ: فالمغفرة، و أما صلاة الملائكة:
فالاستغفار. و قال عطاء بن أبى رباح: صلاته تبارك و تعالى سبوح قدوس سبقت رحمتى غضبى. و المقصود من هذه الآية أن اللّه سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه فى الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه عند ملائكته، و أن الملائكة

تصلى عليه، و أمر عباده بأن يقتدوا بذلك و يصلوا عليه.
و قد اختلف أهل العلم فى الصلاة على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم هل هى واجبة أم مستحبة؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض فى العمر مرة. و قد حكى هذا الإجماع القرطبى فى تفسيره، فقال قوم من أهل العلم: إنها واجبة عند ذكره، و قال قوم: تجب فى كلّ مجلس مرة. و قد وردت أحاديث مصرّحة بذمّ من سمع ذكر النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فلم يصلّ عليه.
و اختلف العلماء فى الصلاة على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فى تشهد الصلاة المفترضة هل هى واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر: يستحب أن لا يصلى أحد صلاة إلّا صلى فيها على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فإن ترك ذلك تارك؛ فصلاته مجزئة فى مذهب مالك، و أهل المدينة، و سفيان الثورى، و أهل الكوفة من أصحاب الرأى و غيرهم، و هو قول جمهور أهل العلم. قال: و شذّ الشافعى فأوجب على تاركها الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان، و هذا القول عن الشافعى لم يروه عنه إلا حرملة بن يحيى و لا يوجد عن الشافعى إلا من روايته. قال الطحاوى: لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعى. و قال الخطابى، و هو من الشافعية: إنها ليست بواجبة فى الصلاة. قال: و هو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعى، و لا أعلم له فى ذلك قدوة. انتهى. و قد قال بقول الشافعى جماعة من أهل العلم منهم الشعبى و مقاتل بن حيان، و إليه ذهب أحمد بن حنبل أخيرا، كما حكاه أبو زرعة الدمشقى، و به قال ابن راهويه و ابن المواز من المالكية.
و قد جمعت فى هذه المسألة رسالة مستقلة ذكرت فيها ما احتج به الموجبون لها و ما أجاب به الجمهور، و أشفّ ما يستدلّ به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ «إنّ اللّه أمرنا أن نصلّى عليك، فكيف نصلّى عليك فى صلاتنا، فقال: قولوا ...» الحديث. فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب. و أما على بطلان الصلاة بالترك، و وجوب الإعادة لها فلا، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم؛ كما يستلزم ذلك الشروط و الأركان.
و اعلم أنه قد ورد فى فضل الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أحاديث كثيرة، لو جمعت لجاءت فى مصنف مستقل، و لو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «من صلّى علىّ صلاة صلّى اللّه عليه بها عشرا»

ناهيک بهذه الفضيلة الجليلة و المكرمة النبيلة. و أما صفة الصلاة عليه صلّى اللّه عليه و سلم فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة فى الصحيحين و غيرهما، منها ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه فى الصلاة، و منها ما هو مطلق، و هى معروفة فى كتب الحديث فلا نطيل بذكرها. و الذى يحصل به الامتثال لمطلق الأمر فى هذه الآية هو أن يقول القائل: اللهم صلّ و سلم على رسولک، أو على محمّد أو على النبى، أو اللهم صلّ على محمّد و سلم. و من أراد أن يصلى عليه، و يسلم عليه بصفة من الصفات التى ورد التعليم بها و الإرشاد إليها، فذلک أكمل، و هى صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة، و سيأتى بعضها آخر البحث، و سيأتى الكلام فى الصلاة على الآل. و كان ظاهر هذا الأمر بالصلاة و التسليم فى الآية أن يقول القائل: صليت عليه و سلمت عليه، أو الصلاة عليه و السلام عليه، أو عليه الصلاة و التسليم، لأن اللّه سبحانه أمر بإيقاع

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۷

الصلاة عليه و التسليم منا، فالامتثال هو أن يكون ذلک على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر اللّه لنا بذلک أن نقول: اللهم صلّ عليه و سلم بمقابلة أمر اللّه لنا بأمرنا له بأن يصلى عليه و يسلم عليه. و قد أجيب عن هذا بأن هذه الصلاة و التسليم لما كانتا شعارا عظيما للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و تشريفا كريما، و كلنا ذلک إلى اللّه عزّ و جلّ، و أرجعناه إليه، و هذا الجواب ضعيف جدّا. و أحسن ما يجاب به أن يقال: إن الصلاة و التسليم المأمور بهما فى الآية هما أن نقول: اللهم صلّ عليه و سلم، أو نحو ذلک مما يؤدّى معناه، كما بينه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لنا، فاقتضى ذلک البيان فى الأحاديث الكثيرة أن هذه هى الصلاة الشرعية.

و اعلم أن هذه الصلاة من اللّه على رسوله؛ و إن كان معناها الرحمة فقد صارت شعارا له يختصّ به دون غيره، فلا يجوز لنا أن نصلى على غيره من أمته، كما يجوز لنا أن نقول: اللهم ارحم فلانا أو رحم اللّه فلانا، و بهذا قال جمهور العلماء مع اختلافهم هل هو محرّم، أو مكروه كراهة شديدة، أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال. و قد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبى شيبة، و البيهقى فى الشعب لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و لكن يدعى للمسلمين و المسلمات بالاستغفار. و قال قوم: إن ذلک جائز لقوله تعالى:

وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ «۱» و لقوله: أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ «۲» و لقوله:

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ و لحديث عبد اللّه بن أبى أوفى الثابت فى الصحيحين و غيرهما قال:

«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللّهمّ صلّ عليهم، فأتاه أبى بصدقته فقال: اللّهمّ صلّ على آل أبى أوفى» و يجاب عن هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم له أن يخص به من شاء، و ليس لنا أن نطلقه على غيره. و أما قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ و قوله: أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ فهذا ليس فيه إلا أن اللّه سبحانه يصلى على طوائف من عباده كما يصلى على من صلى على رسوله مرّة واحدة عشر صلوات، و ليس فى ذلک أمر لنا و لا شرعة اللّه فى حقنا، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة و التسليم على رسوله. و كما أن لفظ الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم شعار له، فكذا لفظ السلام عليه. و قد جرت عادة جمهور هذه الأمة، و السواد الأعظم من سلفها و خلفها على الترضى عن الصحابة، و الترحم على من بعدهم، و الدعاء لهم بمغفرة اللّه و عفوه، كما أرشدنا إلى ذلک بقوله سبحانه: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا «۳» ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ قيل: المراد بالأذى: هنا هو فعل ما يكرهانه من المعاصى لاستحالة التأذى منه سبحانه. قال الواحدى: قال المفسرون هم المشركون، و اليهود، و النصارى وصفوا اللّه بالولد فقالوا: عزير ابن اللّه، و المسيح بن اللّه، و الملائكة بنات اللّه، و كذبوا رسول اللّه، و شجوا

وجهه و كسروا رباعيته و قالوا مجنون شاعر كذاب ساحر. قال القرطبى: و بهذا قال جمهور العلماء. و قال عكرمة: الأذية للّه سبحانه بالتصوير و التعرّض لفعل ما لا يفعله إلا اللّه بنحت الصور و غيرها. و قال جماعة: إن الآية على حذف مضاف،

---

(۱). التوبة: ۱۰۳.

(۲). البقرة: ۱۵۷.

(۳). الحشر: ۱۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۸

و التقدير: إن الذين يؤذون أولياء اللّه، و أما أذية رسوله فهى كلّ ما يؤذيه من الأقوال و الأفعال، و معنى اللعنة: الطرد و الإبعاد من رحمته، و جعل ذلك فى الدنيا و الآخرة لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم و مماتهم إلا و اللعنة واقعة عليهم و مصاحبة لهم وَ أَعَدَّ لَهُمْ مع ذلك اللعن عَذاباً مُهِيناً يصيرون به فى الإهانة فى الدار الآخرة، لما يفيده معنى الإعداد من كونه فى الدار الآخرة. ثم لما فرغ من الذمّ لمن آذى اللّه و رسوله ذكر الأذية لصالحى عباده فقال: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بوجه من وجوه الأذى من قول أو فعل، و معنى بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا أنه لم يكن ذلك لسبب فعلوه يوجب عليهم الأذية، و يستحقونها به، فأما الأذية للمؤمن و المؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حدّا أو تعزيرا أو نحوهما، فذلك حق أثبته الشرع و أمر أمرنا اللّه به و ندبنا إليه، و هكذا إذا وقع من المؤمنين و المؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب، فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرّمة على أى وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه اللّه. ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين و المؤمنات بغير ما اكتسبوا فقال: فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً أى: ظاهرا واضحا لا شك فى كونه من البهتان و الإثم، و قد تقدّم بيان حقيقة البهتان، و حقيقة الإثم.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ يبرّكون. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا لموسى: هل يصلى ربك؟ فناداه ربه: يا موسى سألوك هل يصلى ربك؟ فقل نعم أنا أصلى و ملائكتى على أنبيائى و رسلى، فأنزل اللّه على نبيه إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ الآية. و أخرج ابن مردويه عنه قال: إن صلاة اللّه على النبىّ: هى المغفرة، إن اللّه لا يصلى و لكن يغفر، و أما صلاة الناس على النبىّ فهى الاستغفار له. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قرأ صلّوا عليه كما صلّى اللّه عليه و سلّموا تسليما. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ الآية، قلنا: يا رسول اللّه! قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟

قال: قولوا اللهم صلّ على محمّد و على آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، و بارك على محمّد و على آل محمّد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. و أخرجه البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديثه بلفظ: قال رجل يا رسول اللّه: أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك قال: قل اللهم صلّ على محمّد و على آل محمّد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمّد و على آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أحمد، و النسائى من حديث طلحة بن عبيد اللّه قال: قلت: يا رسول اللّه كيف الصلاة عليك؟ قال: قل اللهم صلّ على محمّد و على آل محمّد، كما صليت على إبراهيم، و آل إبراهيم إنك حميد مجيد، و بارك على محمّد و على آل محمّد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد. و فى الأحاديث اختلاف، ففى بعضها على إبراهيم فقط، و فى بعضها على آل إبراهيم فقط، و فى بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة

هذا.

و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما من حديث أبى حميد الساعدى أنهم قالوا: يا رسول اللّه! كيف نصلى

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۴۹

عليك؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: قولوا اللهم صلّ على محمّد و أزواجه و ذرّيته كما صليت على آل إبراهيم، و بارك على محمّد، و أزواجه و ذرّيته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدّا، و فى بعضها التقييد بالصلاة كما فى حديث أبى مسعود عند ابن خزيمة، و الحاكم، و صححه، و البيهقى فى سننه: أن رجلا قال: يا رسول اللّه أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا عليك فى صلاتنا؟ الحديث و أخرج الشافعى فى مسنده من حديث أبى هريرة مثله. و جميع التعليمات الواردة عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغى للمصلى عليه أن يضم آله إليه فى صلاته عليه، و قد قال بذلك جماعة، و نقله إمام الحرمين، و الغزالى قولا عن الشافعى كما رواه عنهما ابن كثير فى تفسيره، و لا حاجة إلى التمسك بقول قائل فى مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به، و لا وجه لقول من قال: إن هذه التعليمات الواردة عنه صلّى اللّه عليه و سلم فى صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة فى الصلاة؛ حملا لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد، لما فى حديث كعب بن عجرة و غيره أن ذلك السؤال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «صلّوا على أنبياء اللّه و رسله، فإنّ اللّه بعثهم كما بعثنى» و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الآية قال: نزلت فى الذين طعنوا على النبى صلّى اللّه عليه و سلم حين اتخذ صفية بنت حيى، و روى عنه أنها نزلت فى الذين قذفوا عائشة.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۹ الى ۶۸]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلاً (۶۰) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (۶۲) يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (۶۳)

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (۶۴) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۶۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولا (۶۶) وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (۶۷) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶۸)

لما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذى رسوله، و المؤمنين، و المؤمنات من عباده أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بأن يأمر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه فقال: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ من: للتبعيض، و الجلابيب: جمع جلباب، و هو ثوب أكبر من الخمار. قال الجوهرى: الجلباب: الملحفة، و قيل: القناع، و قيل: هو ثوب يستر جميع بدن المرأة، كما ثبت فى الصحيح من حديث أم عطية أنها قالت: يا رسول اللّه إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال: «لتلبسها أختها من جلبابها» قال الواحدى: قال المفسرون: يغطين وجوههنّ و رؤوسهنّ؛ إلا عينا واحدة، فيعلم أنهنّ حرائر فلا يعرض لهن

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۰

فتح القدير ج۴ ۳۹۹

بـأذى. و قـال الحسن: تغطى نصف وجهها. و قال قتادة: تلويه فوق الجبين و تشـدّه ثم تعطفه على الأنف و إن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر و معظم الوجه، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى إدناء الجلابيب، و هو:

مبتـدأ، و خبره: أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ أى: أقرب أن يعرفن فيتميزن عن الإمـاء و يظهر للناس أنهنّ حرائر فَلا يُؤْذَيْنَ من جهـة أهل الريبة بـالتعرض لهنّ مراقبـة لهنّ و لأـهلهنّ، و ليس المراد بقوله: ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ أن تعرف الواحـدة منهن من هى، بل المراد أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء؛ لأنه قـد لبسن لبسـة تختص بالحرائر وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سـلف منهنّ من ترك إدناء الجلابيب رَحِيماً بهن أو غفورا لذنوب المذنبين، رحيما بهم، فيدخلن فى ذلك دخولا أوّليا. ثم توعد سبحانه أهل النفاق و الإرجاف فقال: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنـافِقُونَ عمـا هم عليه من النفاق وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أى: شك و ريبـة عما هم عليه من الاضـطراب وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضـمنة لتوهين جانب المسـلمين، و ظهور المشـركين عليهم. قال القرطبى: أهل التفسـير على أن الأوصاف الثلاثـة لشـىء واحـد، و المعنى: أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق، و مرض القلوب، و الإرجاف على المسلمين، فهو على هذا من باب قوله:

إلى الملك القرم و ابن الهمامو ليث الكتيبة فى المزدحم

أى: إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتيبة. و قال عكرمة و شهر بن حوشب: الذين فى قلوبهم مرض هم: الزناة. و الإرجاف فى اللغـة: إشاعـة الكـذب و الباطل، يقال أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة؛ لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت، من الرجفة و هى: الزلزلـة. يقـال رجفـت الأـرض: أى تحركـت، و تزلزلـت ترجـف رجفـا، و الرجفـان: الاضـطراب الشديـد، و سـمى البحر رجـافا لاضطرابه، و منه قول الشاعر:

المطعمون اللحم كلّ عشيّةحتى تغيب الشّمس فى الرّجّاف

و الإرجاف: واحد الأراجيف، و أرجفوا فى الشىء: خاضوا فيه، و منه قول شاعر:

فإنّا و إن عيّرتمونا بقلّةو أرجف بالإسلام باغ و حاسد

و قول الآخر «۱»:

أ بالأراجيف يا ابن اللؤم توعدنىو فى الأراجيف خلت اللؤم و الخور

و ذلـك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سـرايا المسـلمين بأنهم هزموا، و تارة بأنهم قتلوا، و تارة بأنهم غلبوا، و نحو ذلك مما تنكسـر له قلوب المسـلمين من الأخبار، فتوعدهم اللّه سبحانه بقوله: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ أى: لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل، و التشـريد بأمرنا لك بـذلك. قال المبرد: قـد أغراه اللّه بهم فى قوله بعد هذه الآية مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا فهذا فى معنى الأمر بقتلهم و أخذهم، أى:

---

(۱). هو العين المنقرى يهجو به العجاج بن رؤبة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۱

هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق و الإرجاف. قال النحاس: و هذا من أحسن ما قيل فى الآية. و أقول:

ليس هـذا بحسن و لاـ أحسن، فـإن قوله ملعونين إلـخ، إنما هو لمجرّد الـدعاء عليهم لا أنه أمر لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم بقتالهم و لا تسـليط له عليهم، و قـد قيل: إنهم انتهوا بعـد نزول هـذه الآيـة عن الإرجاف فلم يغره اللّه بهم، و جملـة لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ جواب القسم، و جملـة: ثُمَّ لاـ يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا معطوفـة على جملـة جواب القسم، أى: لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا، و انتصـاب مَلْعُونِينَ على الحـال، كمـا قـال المبرد و غيره، و المعنى مطرودين أَيْنَما وجـدوا و أدركوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا

دعاء عليهم بأن يؤخذوا و يقتلوا تَقْتِيلًا و قيل: إن هذا هو الحكم فيهم و ليس بدعاء عليهم، و الأوّل أولى. و قيل معنى الآية: أنهم إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا و هم مطرودون سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أى: سنّ اللّه ذلك فى الأمم الماضية، و هو لعن المنافقين، و أخذهم، و تقتيلهم، و كذا حكم المرجفين، و هو منتصب على المصدر. قال الزجاج: بين اللّه فى الذين ينافقون الأنبياء، و يرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أى: تحويلا، و تغييرا، بل هى ثابتة دائمة فى أمثال هؤلاء فى الخلف و السلف يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ أى: عن وقت قيامها و حصولها، قيل: السائلون عن الساعة هم أولئك المنافقون، و المرجفون لما توعدوا بالعذاب، سألوا عن الساعة استبعادا، و تكذيبا وَ ما يُدْرِيكَ يا محمّد! أى: ما يعلمك و يخبرك لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً أى: فى زمان قريب، و انتصاب قريبا على الظرفية، و التذكير لكون الساعة فى معنى: اليوم أو الوقت مع كون تأنيث الساعة ليس بحقيقى، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها، و هو رسول اللّه، فكيف بغيره من الناس؟ و فى هذا تهديد لهم عظيم إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ أى: طردهم، و أبعدهم من رحمته وَ أَعَدَّ لَهُمْ فى الآخرة مع ذلك اللعن منه لهم فى الدنيا سَعِيراً أى نارا شديدة التسعر خالِدِينَ فِيها أَبَداً بلا انقطاع لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يواليهم و يحفظهم من عذابها وَ لا نَصِيراً ينصرهم و يخلصهم منها، و يوم فى قوله: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ظرف لقوله لا يجدون، و قيل: لخالدين، و قيل: لنصيرا، و قيل: لفعل مقدر، و هو الذكر. قرأ الجمهور «تقلّب» بضم التاء و فتح اللام على البناء للمفعول. و قرأ عيسى الهمدانى، و ابن أبى إسحاق «نقلّب» بالنون و كسر اللام على البناء للفاعل، و هو اللّه سبحانه. و قرأ عيسى أيضا بضم التاء و كسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم. و قرأ أبو حيوة، و أبو جعفر، و شيبة بفتح التاء و اللام على معنى تتقلب، و معنى هذا التقلب المذكور فى الآية: هو تقلبها تارة على جهة منها، و تارة على جهة أخرى ظهرا لبطن، أو تغير ألوانهم بلفح النار، فتسودّ تارة و تخضرّ أخرى، أو تبديل جلودهم بجلود أخرى، فحينئذ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا و الجملة مستأنفة كأنه قيل فما حالهم؟ فقيل: يقولون، و يجوز أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوههم فى النار: يا ليتنا إلخ. تمنوا أنهم أطاعوا اللّه و الرسول، و آمنوا بما جاء به، لينجوا مما هم فيه من العذاب، كما نجا المؤمنون؛ و هذه الألف فى الرسولا، و الألف التى ستأتى فى «السبيلا» هى الألف التى تقع فى الفواصل و يسميها النحاة ألف الإطلاق، و قد سبق بيان هذا فى أوّل

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۵۲

هذه السورة وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا هذه الجملة معطوفة على الجملة الأوّلى، و المراد بالسادة و الكبراء: هم الرؤساء، و القادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم فى الدنيا و يقتدون بهم، و فى هذا زجر عن التقليد شديد. و كم فى الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، و التحذير منه، و التنفير عنه، و لكن لمن يفهم معنى كلام اللّه، و يقتدى به، و ينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام، فى سوء الفهم، و مزيدة البلادة، و شدّة التعصب. و قرأ الحسن و ابن عامر «ساداتنا» بكسر التاء جمع سادة، فهو جمع الجمع. و قال مقاتل: هم المطعمون فى غزوة بدر، و الأوّل أولى، و لا وجه للتخصيص بطائفة معينة فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا أى عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر باللّه و رسوله، و السبيل هو التوحيد، ثم دعوا عليهم فى ذلك الموقف فقالوا:

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ أى: مثل عذابنا مرتين. و قال قتادة: عذاب الدنيا و الآخرة، و قيل:

عذاب الكفر، و عذاب الإضلال وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً قرأ الجمهور «كثيرا» بالمثلثة، أى: لعنا كثير العدد، عظيم القدر، شديد الموقع، و اختار هذه القراءة أبو حاتم، و أبو عبيد، و النحاس، و قرأ ابن مسعود و أصحابه، و يحيى بن وثاب و عاصم بالباء الموحدة، أى: كبيرا فى نفسه شديدا عليهم ثقيل الموقع.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عائشة قال: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، و كانت امرأة جسيمة لا

تخفى على من يعرفها، فرآها عمر فقال: يا سودة أما و اللّه ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى بيتى و إنه ليتعشى و فى يده عرق، فدخلت و قالت: يا رسول اللّه إنى خرجت لبعض حاجتى فقال لى عمر كذا و كذا، فأوحى إليه ثم رفع عنه، و إن العرق فى يده ما وضعه فقال: إنه قد أذن لكنّ أن تخرجن لحاجتكنّ، و أخرج سعيد بن منصور، و ابن سعد، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: كان نساء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يخرجن بالليل لحاجتهن، و كان ناس من المنافقين يتعرّضون لهن فيؤذين، فقيل ذلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعله بالإماء، فنزلت هذه يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ الآية، و أخرج ابن سعد عن محمّد بن كعب القرظى قال: كان رجل من المنافقين يتعرّض لنساء المؤمنين يؤذيهن، فإذا قيل له: قال كنت أحسبها أمة، فأمرهن اللّه أن يخالفن زىّ الإماء و يدنين عليهم من جلابيبهنّ تخمر وجهها إلا إحدى عينيها ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ يقول: ذلك أحرى أن يعرفن. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: أمر اللّه نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب و يبدين عينا واحدة.

و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و أبو داود، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن أمّ سلمة قالت:

لما نزلت هذه الآية يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ خرج نساء الأنصار كأن رؤوسهن الغربان من السكينة، و عليهن أكسية سود يلبسنها، هكذا فى الزوائد بلفظ من السكينة، و ليس لها معنى، فإن المراد تشبيه الأكسية السود: بالغربان، لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال: كأن على رؤوسهم الطير. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: رحم اللّه نساء الأنصار لما نزلت يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ الآية شققن مروطهن، فاعتجرن بها و صلين خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كأنما على رؤوسهن الغربان. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۵۳

فى الآية قال: كانت الحرّة تلبس لباس الأمة فأمر اللّه نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن، و إدناء الجلباب أن تقنع و تشدّه على جبينها. و أخرج ابن سعد عن محمّد بن كعب فى قوله: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ يعنى:

المنافقين بأعيانهم وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ شك: يعنى المنافقين أيضا. و أخرج ابن سعد أيضا عن عبيد ابن جبر قال: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ هم: المنافقون جميعا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ قال: لنسلطنك عليهم.

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۶۹ الى ۷۳]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (۶۹) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۷۰) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۱) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (۷۲) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۳)

قوله: لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى هو قولهم: إن به أدرة أو برصا أو عيبا، و سيأتى بيان ذلك آخر البحث، و فيه تأديب للمؤمنين، و زجر لهم عن أن يدخلوا فى شى‏ء من الأمور التى تؤذى رسول اللّه قال مقاتل: وعظ اللّه المؤمنين أن لا يؤذوا محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم كما آذى بنو إسرائيل موسى. و قد وقع الخلاف فيما أوذى به نبينا محمّد صلّى اللّه عليه و سلم حتى نزلت هذه الآية، فحكى النقاش أن أذيتهم محمّدا قولهم زيد بن محمّد. و قال أبو وائل: إنه صلّى اللّه عليه و سلم قسم قسما، فقال

رجل من الأنصار: إن هـذه قسـمة ما أريد بها وجه اللّه، و قيل: نزلت فى قصة زيد بن ثابت، و زينب بنت جحش، و ما سـمع فيها من قالـة الناس، و معنى: وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً و كان عند اللّه عظيما ذا وجاهة، و الوجيه عند اللّه: العظيم القدر، الرفيع المنزلة، و قيل فى تفسير الوجاهة:

إنه كلمه تكليما. قرأ الجمهور «و كان عنـد اللّه» بالنون على الظرفيـة المجازية، و قرأ ابن مسـعود و الأعمش و أبو حيوة «عبد اللّه» بالباء الموحـدة من العبوديـة، و ما فى قوله: فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا هى: الموصولة أو المصدرية، أى: من الذى قالوه، أو من قولهم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أى: فى كـلّ أمر من الأمور وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيـداً أى: قولا صوابا و حقا. قال قتادة و مقاتل: يعنى قولوا قولا سديدا فى شأن زيد و زينب، و لا تنسبوا النبى صلّى اللّه عليه و سلم إلى ما لا يحلّ. و قال عكرمة: إن القول السديد: لا إله إلا اللّه. و قيل:

هو الذى يوافق ظاهره باطنه، و قيل: هو ما أريد به وجه اللّه دون غيره، و قيل: هو الإصلاح بين الناس.

و السديـد: مأخوذ من تسديـد السـهم ليصاب به الغرض، و الظاهر من الآية أنه أمرهم بأن يقولوا قولا سديدا فى جميع ما يأتونه و يذرونه، فلا يخص ذلك نوعا دون نوع، و إن لم يكن فى اللفظ ما يقتضـى العموم، فالمقام يفيد هذا المعنى، لأنه أرشد سـبحانه عبـاده إلى أن يقولوا قولاـ يخـالف أهـل الأـذى. ثم ذكر مـا لهؤلاء الـذين امتثلوا الأمر بالتقوى، و القول السديـد من الأجر فقال: يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ أى: يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديهم إليه و يوفقهم فيه وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أى: يجعلها مكفرة مغفورة وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۴

فى فعل ما هو طاعـة و اجتناب ما هو معصيـة فَقَـدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً أى: ظفر بالخير ظفرا عظيما. و نال خير الـدنيا و الآخرة، و هـذه الجملة مسـتأنفة مقرّرة لما سـبقها. ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكاليف الشـرعية و صعوبة أمرها فقال: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها.

و اختلف فى تفسير هذه الأمانة المذكورة هنا، فقال الواحدى: معنى الأمانة هاهنا فى قول جميع المفسرين الطاعة و الفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب، و بتضـييعها العقاب. قال القرطبى: و الأمانة: تعمّ جميع و صائف الدين على الصـحيح من الأقوال، و هو قول الجمهور.

و قـد اختلف فى تفاصـيل بعضـها، فقال ابن مسعود: هى فى أمانة الأموال كالودائع و غيرها، و روى عنه أنها فى كلّ الفرائض، و أشدّها أمانة: المال. و قال أبىّ بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها.

و قال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، و إن اللّه لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها. و قال ابن عمر:

أوّل ما خلق اللّه من الإنسان فرجه و قال: هذه أمانة أستودعكها فلا تلبسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتك.

فالفرج أمانـة، و الأذن أمانـة، و العين أمانة، و اللسان أمانة، و البطن أمانة، و اليد أمانة، و الرجل أمانة، و لا إيمان لمن لا أمانة له. و قال السـدّى: هى ائتمان آدم ابنه قابيل على ولـده هابيل، و خيانته إياه فى قتله. و ما أبعـد هذا القول، و ليت شـعرى ما هو الذى سوّغ للسـدّى تفسير هـذه الآيـة بهذا، فإن كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل، و ليست هذه الآية حكاية عن الماضـين من العباد حتى يكون له فى ذلك متمسك أبعـد من كل بعيد، و أوهن من بيوت العنكبوت، و إن كان تفسير هذا عملا بما تقتضـيه اللغـة العربيـة، فليس فى لغة العرب ما يقتضـى هذا؛ و يوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شـىء كان فى أوّل هذا العالم، و إن كان هذا تفسـيرا منه بمحض الرأى، فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به، و لهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن

برأيه، فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير، و اشدد يديك فى تفسير كتاب اللّه على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربىّ كما وصفه اللّه، فإن جاءك التفسير عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فلا تلتفت إلى غيره، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل، و كذلك ما جاء عن الصحابة رضى اللّه عنهم، فإنهم من جملة العرب، و من أهل اللغة، و ممن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية، و لكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به فى لغة العرب، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابى ما تقتضيه لغة العرب و أسرارها، فخذ هذه كلية تنتفع بها، و قد ذكرنا فى خطبة هذا التفسير ما يرشدك إلى هذا. قال الحسن: إن الأمانة عرضت على السموات و الأرض و الجبال فقالت: و ما فيها؟ فقال لها: إن أحسنت آجرتك و إن أسأت عذبتك، فقالت: لا- قال مجاهد: فلما خلق اللّه آدم عرضها عليه، و قيل له ذلك فقال: قد تحملتها. و روى نحو هذا عن غير الحسن و مجاهد. قال النحاس: و هذا القول هو الذى عليه أهل التفسير. و قيل: هذه الأمانة هى ما أودعه اللّه فى السموات، و الأرض، و الجبال، و سائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها، إلا الإنسان فإنه كتمها و جحدها. كذا قال بعض المتكلمين مفسرا للقرآن برأيه الزائف،

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۵۵

فيكون على هذا معنى عرضنا أظهرنا. قال جماعة من العلماء: و من المعلوم أن الجماد لا يفهم و لا يجيب، فلا بدّ من تقدير الحياة فيها، و هذا العرض فى الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام. و قال القفال و غيره: العرض فى هذه الآية ضرب مثل، أى: إن السموات و الأرض و الجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب و العقاب، أى: أن التكليف أمر عظيم؛ حقه أن تعجز عنه السموات و الأرض، و الجبال، و قد كلفه الإنسان و هو ظلوم جهول لو عقل، و هذا كقوله: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ «۱» إن عرضنا بمعنى عارضنا، أى: عارضنا الأمانة بالسموات و الأرض و الجبال، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، و رجحت الأمانة بثقلها عليها. و قيل: إن عرض الأمانة على السموات و الأرض و الجبال إنما كان من آدم عليه السلام، و أن اللّه أمره أن يعرض ذلك عليها. و هذا أيضا تحريف لا تفسير، و معنى وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ أى: التزم بحقها، و هو فى ذلك ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه، أو جهول لقدر ما دخل فيه، كما قال سعيد بن جبير، أو جهول بربه، كما قال الحسن: و قال الزجاج: معنى حملها: خان فيها، و جعل الآية فى الكفار، و الفساق، و العصاة، و قيل معنى حملها: كلفها و ألزمها، أو صار مستعدّا لها بالفطرة، أو حملها عند عرضها عليه فى عالم الذرّ عند خروج ذرية آدم من ظهره و أخذ الميثاق عليهم، و اللام فى لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ متعلق بحملها، أى: حملها الإنسان ليعذّب اللّه العاصى، و يثيب المطيع، و على هذا فجملة إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا معترضة بين الجملة و غايتها للإيذان بعدم وفائه بما تحمله. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان: ليعذبهم بما خانوا من الأمانة، و كذبوا من الرسل، و نقضوا من الميثاق الذى أقرّوا به حين أخرجوا من ظهر آدم. و قال الحسن و قتادة: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها، و هؤلاء الذين يتوب اللّه عليهم هم الذين أدّوها. و قال ابن قتيبة: أى عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق، و شرك المشرك؛ فيعذبهما اللّه، و يظهر إيمان المؤمن فيتوب اللّه عليه، أى: يعود عليه بالمغفرة و الرحمة إن حصل منه تقصير فى بعض الطاعات، و لذلك ذكر بلفظ التوبة، فدلّ على أن المؤمن العاصى خارج من العذاب وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أى: كثير المغفرة و الرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا فى شىء مما يجب عليهم. و قد قيل إن المراد بالأمانة العقل، و الراجح ما قدّمنا عن الجمهور، و ما عداه فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربى، و لا انطباقه على ما يقتضيه الشرع، و لا موافقته لما يقتضيه تعريف الأمانة.

و قد أخرج البخارى و غيره من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ موسى كان رجلا حييا ستّيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا ما تستّر هذا السّتر إلا من عيب بجلده، إمّا برص، و إمّا

أدرة، و إما آفة، و إنّ اللّه عزّ و جلّ أراد أن يبرئ موسى ممّا قالوا: فخلا يوما وحده، فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلمّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها و إن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر فجعل يقول: ثوبى حجر ثوبى حجر، حتى انتهى إلى ملأ من

---

(١). الحشر: ٢١.

بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق اللّه، و أبرأه ممّا يقولون، و قام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه و طفق بالحجر ضربا بعصاه، فو اللّه إنّ بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا» و أخرج نحوه البزار و ابن الأنبارى و ابن مردويه من حديث أنس. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن جرير، و ابن المنذر و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى قال: قال له قومه إنه آدر، فخرج ذات يوم ليغتسل فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، فخرج موسى يتبعها عريانا حتى انتهت به إلى مجالس بنى إسرائيل فرأوه و ليس بآدر فذلك قوله: فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً. و أخرج الحاكم و صححه من طريق السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس و عن مرّة عن ابن مسعود و ناس من الصحابة: أن اللّه أوحى إلى موسى إنى متوفّ هارون فأت به جبل كذا و كذا، فانطلقا نحو الجبل فإذا هم بشجرة و بيت فيه سرير عليه فرش، و ريح طيب، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل و البيت و ما فيه أعجبه قال: يا موسى إنى أحبّ أن أنام على هذا السرير، قال نم عليه، قال نم معى، فلما نام أخذ هارون الموت، فلما قبض رفع ذلك البيت، و ذهبت الشجرة، و رفع السرير إلى السماء؛ فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا قتل هارون، و حسده حبّ بنى إسرائيل له، و كان هارون أألف بهم و ألين، و كان فى موسى بعض الغلظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال: و يحكم إنه كان أخى أفترونى أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا اللّه، فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء و الأرض فصدّقوه. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن ابن مسعود قال: قسم رسول اللّه ذات يوم قسما، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه اللّه، فذكر ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فاحمرّ وجهه ثم قال: رحمة اللّه على موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر. و أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى قال: صلّى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صلاة الظهر ثم قال: على مكانكم اثبتوا، ثم أتى الرّجال فقال: إن اللّه أمرنى أن آمركم أن تتقوا اللّه و أن تقولوا قولا سديدا، ثم أتى النساء فقال: إنّ اللّه أمرنى أن آمركنّ أن تتقين اللّه و أن تقلن قولا سديدا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ الآية قال الأمانة الفرائض عرضها اللّه على السموات و الأرض، و الجبال إن أدّوها أثابهم، و إن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك و أشفقوا من غير معصية، و لكن تعظيما لدين اللّه أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، و هو قوله: وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا يعنى: غرّا بأمر اللّه. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد، و الحاكم و صححه عنه فى الآية قال: عرضت على آدم، فقيل خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك؛ و إن عصيت عذبتك، قال: قبلتها بما فيها، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عنه أيضا من طريق أخرى نحوه.

سورة سبإ

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى فى قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها، و هى قوله: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فقالت فرقة: هى مكية، و قالت فرقة: هى مدنية، و سيأتى الخلاف فى معنى هذه الآية إن شاء اللّه، و فيمن نزلت. و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة سبأ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة سبإ (٣۴): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِى السَّماواتِ وَ لا فِى الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴)

وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۵) وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۶) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ تعريف الحمد، مع لام الاختصاص: مشعران باختصاص جميع أفراد الحمد باللّه سبحانه على ما تقدّم تحقيقه فى فاتحة الكتاب، و الموصول فى محل جرّ على النعت، أو البدل، أو النصب على الاختصاص، أو الرفع على تقدير مبتدأ، و معنى: لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ أن جميع ما هو فيها فى ملكه، و تحت تصرفه يفعل به ما يشاء، و يحكم فيه بما يريد، و كلّ نعمة واصلة إلى العبد، فهى مما خلقه له، و منّ به عليه، فحمده على ما فى السموات و الأرض هو حمد له على النعم التى أنعم بها على خلقه لهم. و لما بين أن الحمد الدنيوى من عباده الحامدين له مختص به؛ بين أن الحمد الأخروى مختصّ به كذلك فقال: وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ و قوله: «له» متعلق بنفس الحمد، أو بما تعلق به خبر الحمد، أعنى:

فى الآخرة، فإنه متعلق بمتعلق عام هو الاستقرار، أو نحوه، و المعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد

فتح القدير، ج۴، ص: ٣۵٨

عباده الذين يحمدون فى الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة، كما فى قوله: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ «١» و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدانا لِهذا «٢» و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إلى قوله:

الَّذِى أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ «٣» و قوله: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «۴» فهو سبحانه المحمود فى الآخرة، كما أنه المحمود فى الدنيا و هو المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا وَ هُوَ الْحَكِيمُ الذى أحكم أمر الدارين الْخَبِيرُ بأمر خلقه فيهما، قيل: و الفرق بين الحمدين أن الحمد فى الدنيا عبادة، و فى الآخرة تلذذ و ابتهاج، لأنه قد انقطع التكليف فيها. ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به من علمه من أمور السموات و الأرض فقال: يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ أى: ما يدخل فيها من مطر، أو كنز، أو

دفين وَ ما يَخْرُجُ مِنْها من زرع، و نبات، و حيوان وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من الأمطار، و الثلوج، و البرد، و الصواعق، و البركات، و من ذلك ما ينزل منها من ملائكته و كتبه إلى أنبيائه وَ ما يَعْرُجُ فِيها من الملائكة، و أعمال العباد. قرأ الجمهور «ينزل» بفتح الياء و تخفيف الزاى مسندا إلى «ما» و قرأ علىّ بن أبى طالب، و السلمى بضم الياء و تشديد الزاى مسندا إلى اللّه سبحانه: وَ هُوَ الرَّحِيمُ بعباده الْغَفُورُ لذنوبهم وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ المراد بهؤلاء القائلين جنس الكفرة على الإطلاق، أو كفار مكة على الخصوص، و معنى لاـ تأتينا الساعة: أنها لا تأتى بحال من الأحوال، إنكارا منهم لوجودها لا لمجرد إتيانها فى حال تكلمهم أو فى حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد، فردّ اللّه عليهم و أمر رسوله أن يقول لهم: قُلْ بَلى وَ رَبِّی لَتَأْتِيَنَّكُمْ و هذا القسم لتأكيد الإتيان، قرأ الجمهور «لتأتينكم» بالفوقية: أى الساعة، و قرأ طلق المعلم بالتحتية على تأويل الساعة باليوم أو الوقت. قال طلق: سمعت أشياخنا يقرءون بالياء، يعنى: التحتية على المعنى، كأنه قال ليأتينكم البعث أو أمره كما قال: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ قرأ نافع و ابن عامر «عالم الغيب» بالرفع على أنه مبتدأ، و خبره لا يعزب، أو على تقدير مبتدأ، و قرأ عاصم، و ابن كثير، و أبو عمرو بالجرّ على أنه نعت لربّى، و قرأ حمزة، و الكسائى علام بالجرّ مع صيغة المبالغة، و معنى لا يَعْزُبُ لا يغيب عنه و لا يستتر عليه و لا يبعد عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ المثقال وَ لا أَكْبَرُ منه إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ و هو اللوح المحفوظ.

و المعنى: إلا و هو مثبت فى اللوح المحفوظ الذى اشتمل على معلومات اللّه سبحانه فهو مؤكد لنفى العزوب.

قرأ الجمهور: يَعْزُبُ بضم الزاى، و قرأ يحيى بن وثّاب بكسرها. قال الفراء: و الكسر أحبّ إلىّ، و هما لغتان، يقال عزب يعزب بالضم، و يعزب بالكسر إذا بعد و غاب. و قرأ الجمهور «و لا أصغر و لا أكبر» بالرفع على الابتداء، و الخبر إلا فى كتاب، أو على العطف على مثقال، و قرأ قتادة و الأعمش بنصبهما عطفا على ذرّة، أو على أن لا: هى: لا التبرئة التى يبنى اسمها على الفتح، و اللام فى لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ للتعليل لقوله: لَتَأْتِيَنَّكُمْ أى: إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب، و الكافرين بالعقاب، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول، أى: أولئك الذى عملوا الصالحات لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

---

(۱). الزمر: ۷۴.

(۲). الأعراف: ۴۳.

(۳). فاطر: ۳۴ و ۳۵.

(۴). يونس: ۱۰.

لذنوبهم وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ و هو الجنة بسبب إيمانهم، و عملهم الصالح مع التفضل عليهم من اللّه سبحانه.

ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة فقال: وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أى سعوا فى إبطال آياتنا المنزلة على الرسل، و قدحوا فيها و صدوا الناس عنها، و معنى «معاجزين» مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا و لا يدركون، و ذلك باعتقادهم أنهم لا يبعثون، يقال عاجزه أو عجزه: إذا غالبه و سبقه. قرأ الجمهور مُعاجِزِينَ و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و حميد و مجاهد و أبو عمرو «معجزين» أى: مثبطين للناس عن الأيمان بالآيات أُولئِكَ أى: الذين سعوا لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ الرجز: هو العذاب، فمن للبيان، و قيل: الرجز هو أسوأ العذاب و أشدّه، و الأوّل أولى، و من ذلك قوله: فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ قرأ الجمهور «أليم» بالجرّ صفة لرجز، و قرأ ابن كثير، و حفص عن عاصم بالرفع صفة لعذاب، و الأليم: الشديد الألم وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَ لما ذكر الذين سعوا فى إبطال آيات اللّه ذكر الذين يؤمنون بها، و

معنى وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أى: يعلمون و هم الصحابة. و قال مقاتل: هم مؤمنو أهل الكتاب، و قيل: جميع المسلمين، و الموصول: هو المفعول الأوّل ليرى، و المفعول الثانى: الحقّ، و الضمير: هو ضمير الفصل. و بالنصب قرأ الجمهور و قرأ ابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر الضمير، و الجملة: فى محل نصب على أنها المفعول الثانى، و هى لغة تميم، إنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، و الجملة: فى محل نصب على أنها المفعول الثانى، و هى لغة تميم، فإنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، و زعم الفرّاء أن الاختيار الرفع، و خالفه غيره و قالوا النصب أكثر. قيل و قوله: يَرَى معطوف على ليجزى، و به قال الزجاج و الفراء، و اعترض عليهما بأن قوله: «ليجزى» متعلق بقوله: «لتأتينكم» و لا يقال لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق، و الأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا فى الآيات، أى: إن ذلك السعى منهم يدلّ على جهلهم لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم فى شأن القرآن وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ معطوف على الحق عطف فعل على اسم، لأنه فى تأويله كما فى قوله: صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ أى: و قابضات كأنه قيل: و هاديا، و قيل إنه مستأنف و فاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل، و هو القرآن، و الصراط: الطريق، أى: و يهدى إلى طريق الْعَزِيزِ فى ملكه الْحَمِيدِ عند خلقه، و المراد: أنه يهدى إلى دين اللّه و هو التوحيد. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من كلام منكرى البعث فقال:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أى: قال بعض لبعض هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يعنون محمّد صلّى اللّه عليه و سلم أى: هل نرشدكم إلى رجل يُنَبِّئُكُمْ أى: يخبركم بأمر عجيب، و نبأ غريب هو أنكم إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أى: فرقتم كلّ تفريق و قطعتم كلّ تقطيع و صرتم بعد موتكم رفاتا و ترابا إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أى:

تخلقون خلقا جديدا، و تبعثون من قبوركم أحياء، و تعودون إلى الصور التى كنتم عليها، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم اللّه على لسان رسوله من البعث، و أخرجوا الكلام مخرج التلهى به و التضاحك مما يقوله من ذلك، «و إذا» فى موضع نصب بقوله: مُزِّقْتُمْ قال النحاس: و لا يجوز أن يكون العامل فيها ينبئكم لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت، و لا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد إنّ لأنه لا يعمل فيما قبلها.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶۰

و أجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا، و التقدير: إذا مزّقتم كلّ ممزّق بعثتم، أو نبئتم بأنكم تبعثون إذا مزقتم، و قال المهدوى: لا يجوز أن يعمل فيه مزقتم لأنه مضاف إليه و المضاف إليه لا يعمل فى المضاف. و أصل المزق: خرق الأشياء، يقال: ثوب مزيق، و ممزق، و متمزق، و ممزوق. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم ردّدوا ما وعدهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من البعث بين أمرين فقالوا: أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله، و الهمزة فى أفترى هى همزة الاستفهام و حذفت لأجلها همزة الوصل كما تقدّم فى قوله: أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ثم ردّ عليهم سبحانه ما قالوه فى رسوله فقال: بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل هم الذين ضلوا عن الفهم و إدراك الحقائق، فكفروا بالآخرة و لم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك فى العذاب الدائم فى الآخرة و هم اليوم فى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد. ثم وبخهم سبحانه بما اجترءوا عليه من التكذيب؛ مبينا لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكر و التدبر فى خلق السماء و الأرض، و أن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك، و يعيده إلى ما كان عليه من الذات و الصفات، و معنى إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ أنهم إذا نظروا رأوا السماء خلفهم و قدّامهم، و كذلك إذا نظروا فى الأرض؛ رأوها خلفهم و قدّامهم، فالسماء و الأرض محيطتان بهم فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم، و تكذيبهم لرسوله، و إنكارهم للبعث، فهذه الآية اشتملت على أمرين: أحدهما أن هذا الخلق الذى خلقه اللّه من السماء و الأرض يدلّ على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث كما فى قوله: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ

السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ «١». و الأمر الآخر: التهديد لهم بأن من خلق السماء و الأرض على هذه الهيئة التى قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسف بقارون أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً أى: قطعا مِنَ السَّماءِ كما أسقطها على أصحاب الأيكة؛ فكيف يأمنون ذلك. قرأ الجمهور إِنْ نَشَأْ بنون العظمة، و كذا نخسف و نسقط.

و قرأ حمزة و الكسائى بالياء التحتية فى الأفعال الثلاثة؛ أى: إن يشأ اللّه. و قرأ الكسائى وحده بإدغام الفاء فى الباء فى نَخْسِفْ بِهِمُ قال أبو على الفارسى: و ذلك غير جائز لأن الفاء من باطن الشفة السفلى و أطراف الثنايا العليا بخلاف الباء، و قرأ الجمهور «كسفا» بسكون السين. و قرأ حفص و السلمى بفتحها إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من خلق السماء و الأرض لَآيَةً واضحة و دلالة بينة لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ أى: راجع إلى ربه بالتوبة و الإخلاص و خصّ المنيب لأنه المنتفع بالتفكر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ قال: من المطر وَ ما يَخْرُجُ مِنْها قال: من النبات وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ قال: من الملائكة وَ ما يَعْرُجُ فِيها قال: الملائكة.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ قال: الرجز هو العذاب الأليم الموجع، و فى قوله: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قال: أصحاب محمّد. و أخرج

---

(١). يس: ٨١.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٣٦١

ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال: يعنى المؤمنين من أهل الكتاب. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ قال: قال ذلك مشركو قريش إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ يقول: إذا أكلتكم الأرض و صرتم رفاتا و عظاما و تقطعتكم السباع و الطير إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ إنكم ستحيون و تبعثون، قالوا ذلك تكذيبا به أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ قال: قالوا إما أن يكون يكذب على اللّه و إما أن يكون مجنونا أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ قالوا: إنك إن نظرت عن يمينك و عن شمالك و من بين يديك و من خلفك رأيت السماء و الأرض إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسفنا بمن كان قبلهم أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أى: قطعا من السماء إن يشأ أن يعذب بسمائه فعل و إن يشأ أن يعذب بأرضه فعل و كلّ خلقه له جند إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ قال: تائب مقبل إلى اللّه.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ١٠ الى ١٤]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (١٤)

ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود و سليمان، كما قال فى داود: فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ «١» و قال فى سليمان: وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ «٢» فقال: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا أى: آتيناه بسبب إنابته فضلا منا على سائر الأنبياء. و اختلف

فى هذا الفضل على أقوال: فقيل النبوّة، و قيل:

الزبور، و قيل: العلم، و قيل: القوّة كما فى قوله: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ «۳» و قيل: تسخير الجبال، كما فى قوله: يا جِبالُ أَوِّبِی مَعَهُ و قيل: التوبة، قيل: الحكم بالعدل، كما فى قوله: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِی الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ «۴» و قيل: هو إلانة الحديد كما فى قوله: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ و قيل: حسن الصوت، و الأولى أن يقال: إن هذا الفضل المذكور هو ما ذكره اللّه بعده من قوله:

يا جِبالُ إلى آخر الآية، و جملة يا جِبالُ أَوِّبِی مَعَهُ مقدّرة بالقول، أى: قلنا يا جبال. و التأويب:

التسبيح كما فى قوله: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ «۵» قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة. و كان إذا سبح داود سبحت معه، و معنى تسبيح الجبال: أن اللّه يجعلها قادرة على ذلك، أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود، و قيل: معنى أوّبى: سيرى معه، من التأويب الذى هو سير النهار أجمع، و منه قول ابن مقبل:

---

(۱). ص: ۲۴.

(۲). ص: ۳۴.

(۳). ص: ۱۷.

(۴). ص: ۲۶.

(۵). ص: ۱۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶۲ لحقنا بحىّ أوّبوا السير بعد مادفعنا شعاع الشمس و الطرف مجنح

قرأ الجمهور أَوِّبِی بفتح الهمزة و تشديد الواو على صيغة الأمر، من التأويب: و هو الترجيع، أو التسبيح، أو السير، أو النوح. و قرأ ابن عباس و الحسن، و قتادة، و ابن أبى إسحاق أَوِّبِی بضم الهمزة أمرا من آب يؤوب إذا رجع، أى: ارجعى معه. قرأ الجمهور: وَ الطَّيْرَ بالنصب عطفا على فَضْلًا على معنى: و سخرنا له الطير، لأن إيتاءه إياها تسخيرها له، أو عطفا على محل يا جِبالُ لأنه منصوب تقديرا، إذ المعنى: نادينا الجبال و الطير. و قال سيبويه و أبو عمرو بن العلاء: انتصابه بفعل مضمر على معنى و سخرنا له الطير. و قال الزجاج، و النحاس: يجوز أن يكون مفعولا معه كما تقول: استوى الماء و الخشبة.

و قال الكسائى إنه معطوف على فضلا لكن على تقدير مضاف محذوف، أى: آتيناه فضلا و تسبيح الطير.

و قرأ السلمى، و الأعرج، و يعقوب، و أبو نوفل، و ابن أبى إسحاق، و نصر بن عاصم، و ابن هرمز، و مسلمة ابن عبد الملك بالرفع عطفا على لفظ الجبال، أو على المضمر فى: أوّبى؛ لوقوع الفصل بين المعطوف و المعطوف عليه وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ معطوف على آتيناه: أى: جعلناه لينا ليعمل به ما شاء. قال الحسن: صار الحديد كالشمع يعمله من غير نار. و قال السدّىّ: كان الحديد فى يده كالطين المبلول و العجين و الشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار و لا ضرب بمطرقة، و كذا قال مقاتل، و كان يفرغ من عمل الدرع فى بعض يوم أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ فى: أن هذه وجهان: أحدهما أنها مصدرية على حذف الجرّ، أى: بأن اعمل، و الثانى: أنّها المفسرة لقوله: وَ أَلَنَّا و فيه نظر لأنها لا تكون إلا بعد القول أو ما هو فى معناه. و قدّر بعضهم فعلا فى معنى القول، فقال: التقدير و أمرناه أن اعمل. و قوله: سابِغاتٍ صفة لموصوف محذوف، أى دروعا سابغات، و السابغات: الكوامل الواسعات، يقال سبغ الدرع و الثوب و غيرهما: إذا غطى كلّ ما هو عليه و فضل منه فضلة وَ قَدِّرْ فِی السَّرْدِ السرد نسج الدروع، و يقال السرد و الزرد كما يقال السراد و المراد لصانع الدروع، و السرد أيضا الخرز، يقال سرد يسرد: إذا خرز، و منه سرد الكلام: إذا جاء به متواليا، و منه حديث عائشة لم يكن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يسرد الحديث كسردكم. قال سيبويه: و منه سرندى: أى جرىء، و معنى

سرد الدروع إحكامها، و أن يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف، و منه قول لبيد:

سرد الدروع مضاعفا أسرادهلينال طول العيش غير مروم

و قول أبى ذؤيب الهذلى:

و عليهما مسرودتان قضاهماداود أو صنع السّوابغ تبّع

قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقالا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة و الحصانة، أى:

قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه فلا تقصد الحصانة فيثقل و لا الخفة فيزيل المنعة، و قال ابن زيد: التقدير الذى أمر به فى قدر الحلقة، أى: لا تعملها صغيرة فتضعف و لا يقوى الدرع على الدفاع، و لا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها. و قيل: إن التقدير هو فى المسمار: أى لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقلق و لا غليظا

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶۳

فيفصم الحلق. ثم خاطب داود و أهله فقال: وَ اعْمَلُوا صالِحاً أى: عملا صالحا كما فى قوله: اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله: إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أى: لا يخفى علىّ شىء من ذلك وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ قرأ الجمهور الرِّيحَ بالنصب على تقدير: و سخرنا لسليمان الريح كما قال الزجاج، و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه بالرفع على الابتداء و الخبر، أى: و لسليمان الريح ثابتة أو مسخرة، و قرأ الجمهور الرِّيحَ و قرأ الحسن و أبو حيوة و خالد بن إلياس «الرياح» بالجمع غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ أى تسير بالغداة مسيرة شهر، و تسير بالعشى كذلك، و الجملة إما مستأنفة لبيان تسخير الريح، أو فى محل نصب على الحال، و المعنى: أنها كانت تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر، و بينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل، و بينهما مسيرة شهر وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ القطر: النحاس الذائب. قال الواحدى: قال المفسرون: أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجرى الماء، و إنما يعمل الناس اليوم بما أعطى سليمان، و المعنى: أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود، و قال قتادة: أسال اللّه له عينا يستعملها فيما يريد وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ من: مبتدأ، و يعمل: خبره، و من الجنّ: متعلق به، أو بمحذوف على أنه حال، أو: من يعمل معطوف على الريح، و من الجنّ حال، و المعنى: و سخرنا له من يعمل بين يديه حال كونه من الجنّ بإذن ربه، أى: بأمره. و الإذن مصدر مضاف إلى فاعله، و الجار و المجرور: فى محل نصب على الحال، أى: مسخرا أو ميسرا بأمر ربه وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا أى: و من يعدل من الجنّ عن أمرنا الذى أمرناه به: و هو طاعة سليمان نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ قال أكثر المفسرين: و ذلك فى الآخرة، و قيل: فى الدنيا. قال السدّى: و كلّ اللّه بالجنّ ملكا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه. ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجنّ لسليمان فقال: يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ و مِنْ فى قوله: مِنْ مَحارِيبَ للبيان، و المحاريب فى اللغة: كل موضع مرتفع، و هى الأبنية الرفيعة، و القصور العالية. قال المبرد: لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج، و منه قيل: للذى يصلى فيه: محراب لأنه يرفع و يعظم. و قال مجاهد: المحاريب دون القصور. و قال أبو عبيدة: المحراب: أشرف بيوت الدار، و منه قول الشاعر:

و ماذا عليه إن ذكرت أوانساكغزلان رمل فى محاريب أقيال

و قال الضحاك: المراد بالمحاريب: هنا المساجد، و التماثيل: جمع تمثال: و هو كلّ شىء مثلته بشىء، أى:

صورته بصورته من نحاس، أو زجاج، أو رخام، أو غير ذلك. قيل: كانت هذه التماثيل صور الأنبياء، و الملائكة، و العلماء، و الصلحاء، و كانوا يصوّرونها فى المساجد ليراها الناس، فيزدادوا عبادة و اجتهادا.

و قيل: هى تماثيل أشياء ليست من الحيوان. و قد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحا فى شرع سليمان، و نسخ ذلك بشرع

نبينا محمّد صلّى اللّه عليه و سلم. و الجفان جمع جفنة: و هى القصعة الكبيرة. و الجواب جمع جابية: و هى حفيرة كالحوض، و قيل: هى الحوض الكبير يجبى الماء: أى يجمعه. قال الواحدى: قال المفسرون: يعنى

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶۴

قصاعا فى العظم كحياض الإبل، يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها. قال النحاس: الأولى إثبات الياء فى الجوابى، و من حذف الياء قال سبيل الألف و اللام أن تدخل على النكرة فلا تغيرها عن حالها، فلما كان يقال جواب و دخلت الألف و اللام أقرّ على حاله فحذف الياء. قال الكسائى: يقال جبوت الماء و جبيته فى الحوض: أى جمعته، و الجابية الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل. و قال النحاس: و الجابية، القدر العظيمة، و الحوض العظيم الكبير الذى يجبى فيه الشىء، أى: يجمع، و منه جبيت الخراج، و جبيت الجراد:

جمعته فى الكساء وَ قُدُورٍ راسِياتٍ قال قتادة: هى قدور النحاس تكون بفارس، و قال الضّحاك: هى قدور تنحت من الجبال الصمّ عملتها له الشياطين، و معنى راسيات: ثابتات لا تحمل و لا تحرّك لعظمها. ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم، أى: سليمان و أهله، فقال: اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً أى:

و قلنا لهم اعملوا بطاعة اللّه يا آل داود! شكرا له على ما آتاكم، و اعملوا عملا شكرا على أنه صفة مصدر محذوف، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو حال، أى: شاكرين، أو مفعول به، و سميت الطاعة شكرا لأنها من جملة أنواعه، أو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر من جنسه، أى: اشكروا شكرا. ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده ليسوا بالكثير فقال: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ أى: العامل بطاعتى؛ الشاكر لنعمتى قليل. و ارتفاع قليل على أنه خبر مقدّم. و من عبادى: صفة له. و الشكور: مبتدأ فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ أى: حكمنا عليه به و ألزمناه إياه ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ يعنى الأرضة. و قرئ «الأرض» بفتح الراء: أى الأكل، يقال أرضت الخشبة أرضا: إذا أكلتها الأرضة.

و معنى تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ تأكل عصاه التى كان متكئا عليها، و المنسأة: العصا بلغة الحبشة، أو هى مأخوذة من نسأت الغنم: أى زجرتها. قال الزجاج: المنسأة التى ينسأ بها: أى يطرد. قرأ الجمهور مِنْسَأَتَهُ بهمزة مفتوحة. و قرأ ابن ذكوان بهمزة ساكنة. و قرأ نافع و أبو عمر بألف محضة. قال المبرد:

بعض العرب يبدل من همزتها ألفا و أنشد:

إذا دببت على المنساة من كبرفقد تباعد عنك اللّهو و الغزل

و مثل قراءة الجمهور قول الشاعر:

ضربنا بمنسأة وجههفصار بذاك مهينا ذليلا

و مثله:

أمن أجل حبل لا أباك ضربتهبمنسأة قد جرّ حبلك أحبلا

و مما يدلّ على قراءة ابن ذكوان قول طرفة:

أمون كألواح الإران نسأتهاعلى لاحب كأنّه ظهر برجد «۱»

---

(۱). الأمون: التى يؤمن عثارها. و الإران: تابوت الموتى. و اللّاحب: الطريق الواضح. و البرجد: كساء مخطط.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۶۵

فَلَمَّا خَرَّ أى: سقط تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أى: ظهر لهم، من تبينت الشىء إذا علمته: أى: علمت الجنّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِى

الْعَذابِ الْمُهِينِ أى: لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب لعلموا بموته، و لم يلبثوا بعد موته مدة طويلة فى العذاب المهين؛ فى العمل الذى أمرهم به، و الطاعة له، و هو إذ ذاك ميت. قال مقاتل: العذاب المهين: الشقاء و النصب فى العمل. قال الواحدى: قال المفسرون: كانت الناس فى زمان سليمان يقولون إن الجنّ تعلم الغيب، فلما مكث سليمان قائما على عصاه حولا ميتا، و الجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقة التى كانت تعمل فى حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخرّ ميتا فعلموا بموته، و علم الناس أن الجنّ لا تعلم الغيب، و يجوز أن يكون تبينت الجنّ من تبين الشىء، لا من تبينت الشىء، أى: ظهر و تجلى، و أن و ما فى حيزها بد اشتمال من الجنّ مع تقدير محذوف، أى: ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين، أو ظهر أن الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب إلخ. قرأ الجمهور تَبَيَّنَتِ على البناء للفاعل مسندا إلى الجنّ. و قرأ ابن عباس و يعقوب تُبَيِّنَتِ على البناء للمفعول، و معنى القراءتين يعرف مما قدّمنا.

و قد أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

أَوِّبِي مَعَهُ قال: سبحى معه، و روى مثله عن أبى ميسرة، و مجاهد، و عكرمة، و قتادة، و ابن زيد.

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ قال: كالعجين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله: وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ قال: خلق الحديد. و أخرج عبد الرّزّاق و الحاكم عنه أيضا وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ قال: لا تدقّ المسامير و توسع الحلق فتسلس، و لا تغلظ المسامير و تضيق الحلق فتقصم، و اجعله قدرا. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله: وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ قال النحاس. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: القطر: النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان، و إنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطى سليمان.

و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: القطر: الصفر. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس فى قوله: وَ تَماثِيلَ قال: اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال: يا ربّ انفخ فيها الروح، فإنها أقوى على الخدمة، فنفخ اللّه فيها الروح، فكانت تخدمه، و كان إسفنديار من بقاياهم، فقيل لداود و سليمان:

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله كَالْجَوابِ قال: كالجوبة من الأرض وَ قُدُورٍ راسِياتٍ قال: أثافيها منها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ يقول: قليل من عبادى الموحدين توحيدهم. و أخرج هؤلاء عنه أيضا قال: لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات ثم خرّ على رأس الحول، فأخذت الجنّ عصى مثل عصاه، و دابة مثل دابته، فأرسلوها عليها، فأكلتها فى سنة، و كان ابن عباس يقرأ: فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ الآية، قال سفيان: و فى قراءة ابن مسعود «و هم يدأبون له حولا». و أخرج البزار و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن السنى،

و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «كان سليمان إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها ما اسمك؟ فتقول كذا و كذا، فيقول لم أنت؟ فتقول لكذا و كذا، فإن كانت لغرس غرست، و إن كانت لدواء كتبت» و صلى ذات يوم فإذا شجرة نابتة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت الخرّوب. قال:

لأىّ شىء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللّهم عمّ عن الجنّ موتى حتى يعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب، فهيأ عصا فتوكأ عليها، و قبضه اللّه و هو متكئ عليها، فمكث حولا ميتا و الجنّ تعمل، فأكلتها الأرضة فسقطت، فعلموا عند ذلك بموته، فتبيّنت الإنس أَنْ الجنّ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ و كان ابن عباس يقرؤها كذلك، فشكرت الجنّ للأرضة، فأينما كانت يأتونها بالماء، و أخرجه الحاكم و صححه عن ابن عباس موقوفا. و أخرج الديلمى عن زيد بن أرقم

مرفوعا يقول اللّه عزّ و جلّ: «إنى تفضّلت على عبادى بثلاث: ألقيت الدّابة على الحبّة، و لو لا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب و الفضّة، و ألقيت النتن على الجسد و لو لا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه، و استلبت الحزن و لو لا ذلك لذهب النّسل».

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ١٥ الى ٢١]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)
وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال الجاحدين لها، فقال: لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ المراد بسبإ القبيلة التى هى من أولاد سبأ، و هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود. قرأ الجمهور لِسَبَإٍ بالجرّ و التنوين على أنه اسم حىّ، أى: الحى الذى هم أولاد سبأ، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو لِسَبَإٍ ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و يقوّى القراءة الأولى قوله: فِي مَسْكَنِهِمْ و لو كان على تأويل القبيلة لقال فى مساكنها، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

الواردون و تيم فى ذرى سبأقد عضّ أعناقها جلد الجواميس

و مما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

من سبأ الحاضرين مأرب إذيبنون من دون سيلها العرما

و قرأ قنبل و أبو حيوة و الجحدرى لِسَبَإٍ بإسكان الهمزة، و قرئ بقلبها ألفا. و قرأ الجمهور

فتح القدير، ج‌۴، ص: ٣۶٧

فِي مَسْكَنِهِمْ على الجمع، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم، و وجه الاختيار أنها كانت لهم منازل كثيرة، و مساكن متعددة. و قرأ حمزة و حفص بالإفراد مع فتح الكاف. و قرأ الكسائى بالإفراد مع كسرها، و بهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش، و وجه الإفراد أنه مصدر يشمل القليل و الكثير، أو اسم مكان و أريد به معنى الجمع، و هذه المساكن التى كانت لهم هى التى يقال لها الآن مأرب، و بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاث ليال، و معنى قوله: آيَةٌ أى: علامة دالة على كمال قدرة اللّه و بديع صنعه، ثم بين هذه الآية فقال: جَنَّتانِ و ارتفاعهما على البدل من آية، قاله الفراء، أو: على أنهما خبر مبتدأ محذوف قاله الزجاج، أو على أنهما: مبتدأ، و خبره: عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ و اختار هذا الوجه ابن عطية، و فيه: أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة من غير مسوّغ و قرأ ابن أبى عبلة «جنتين» بالنصب على أنهما خبر ثان و اسمها آية، و هاتان الجنتان:
كانتا عن يمين واديهم و شماله قد أحاطتا به من جهتيه، و كانت مساكنهم فى الوادى، و الآية هى الجنتان، كانت المرأة تمشى فيهما و على رأسها المكتل، فيمتلئ من أنواع الفواكه التى تتساقط من غير أن تمسها بيدها. و قال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنه لم يروا فيها بعوضة و لا ذبابا و لا برغوثا و لا قملة و لا عقربا و لا حية و لا غير ذلك من الهوام، و إذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم. قال القشيرى: و لم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة و يسرة فى كلّ جهة بساتين كثيرة كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ أى: قيل لهم ذلك و لم يكن ثم أمر، و لكن المراد

تمكينهم من تلك النعم، و قيل إنها قالت لهم الملائكة، و المراد بالرزق: هو ثمار الجنتين، و قيل: إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم وَ اشْكُرُوا لَهُ على ما رزقكم من هذه النعم و اعملوا بطاعته و اجتنبوا معاصيه، و جملة بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ مستأنفة لبيان موجب الشكر. و المعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها و طيب ثمارها. و قيل معنى كونها طيبة: أنها غير سبخة، و قيل ليس فيها هوامّ. و قال مجاهد: هى صنعاء. و معنى وَ رَبٌّ غَفُورٌ أن المنعم عليهم ربّ غفور لذنوبهم. قال مقاتل: المعنى و ربكم إن شكرتم فيما رزقكم ربّ غفور للذنوب.

و قيل إنما جمع لهم بين طيب البلدة و المغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. و قرأ ورش بنصب بلدة و ربّ على المدح، أو على تقدير اسكنوا بلدة و اشكروا ربا. ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التى أنعم بها عليهم فقال: فَأَعْرَضُوا عن الشكر و كفروا باللّه و كذبوا أنبياءهم قال السدّى: بعث اللّه إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم، و كذا قال وهب. ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل اللّه عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم فقال: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ و ذلك أن الماء كان يأتى أرض سبأ من أودية اليمن، فردموا ردما بين جبلين و حبسوا الماء، و جعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، و كانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الباب الثانى، ثم من الثالث فأخصبوا و كثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث اللّه جرذا، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض فدخل الماء جنتهم فغرقها و دفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، و هو جمع عرمة: و هى السكر «١» التى تحبس الماء، و كذا قال قتادة و غيره. و قال السدّى:

---

(١). السكر بالسكون: ما سد به النهر.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٣۶٨

العرم اسم للسدّ. و المعنى: أرسلنا عليهم سيل السدّ العرم. و قال عطاء: العرم اسم الوادى. و قال الزجاج:

العرم اسم الجرذ الذى نقب السدّ عليهم، و هو الذى يقال له الخلد: فنسب السيل إليه لكونه سبب جريانه.

قال ابن الأعرابى: العرم من أسماء الفأر. و قال مجاهد و ابن أبى نجيح: العرم ماء أحمر أرسله اللّه فى السدّ فشقه و هدمه. و قيل إن العرم اسم المطر الشديد، و قيل اسم للسيل الشديد، و العرامة فى الأصل: الشدّة و الشراسة و الصعوبة: يقال عرم فلان: إذا تشدّد و تصعب. و روى عن ابن الأعرابى أنه قال: العرم السيل الذى لا يطاق. و قال المبرّد: العرم كلّ شىء حاجز بين شيئين وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ أى: أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة، و الأنواع الحسنة، و أعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما، و لا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما؛ و لهذا قال: ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ قرأ الجمهور بتنوين أُكُلٍ و عدم إضافته إلى خَمْطٍ و قرأ أبو عمرو بالإضافة. قال الخليل: الخمط الأراك، و كذا قال كثير من المفسرين. و قال أبو عبيدة: الخمط كلّ شجرة مرّة ذات شوك. و قال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله. و قال المبرّد: كل شىء تغير إلى ما لا يشتهى، يقال له: خمط، و منه: اللبن إذا تغير، و قراءة الجمهور أولى من قراءة أبى عمرو. و الخمط: نعت لأكل أو بدل منه، لأن الأكل هو الخمط بعينه. و قال الأخفش:

الإضافة أحسن فى كلام العرب: مثل ثوب خزّ و دار آجر، و الأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل و من معه.

قال الجوهرى: الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل، و تسمية البدل جنتين للمشاكلة أو التهكم بهم، و الأثل هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء و غيره قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولا، الواحدة أثلة، و الجمع أثلاث. و قال الحسن: الأثل: الخشب. و قال أبو عبيدة: هو شجر النطار، و الأوّل أولى، و لا ثمر للأثل. و السدر: شجر معروف. قال الفراء: هو السمر. قال الأزهرى: السدر من الشجر سدران:

برىّ لا ينتفع به و لا يصلح للغسول، و له ثمر عفص لا يؤكل، و هو الذى يسمى الضال. و الثانى سدر ينبت على الماء و ثمره النبق، و ورقة غسول يشبه شجر العناب. قيل و وصف السدر بالقلة لأن منه نوعا يطيب أكله، و هو النوع الثانى ذكره الأزهرى. قال قتادة: بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره اللّه من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة و أنبت بدلها الأراك و الطرفاء و السدر. و يحتمل أن يرجع قوله: قَلِيلٍ إلى جميع ما ذكر من الخمط و الأثل و السدر. و الإشارة بقوله: ذٰلِكَ إلى ما تقدّم من التبديل، أو إلى مصدر جَزَيْناهُمْ و الباء فى بِما كَفَرُوا للسببية، أى: ذلك التبديل، أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ أى: و هل نجازى هذا الجزاء بسلب النعمة و نزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه. قرأ الجمهور «يجازى» بضم التحتية و فتح الزاى على البناء للمفعول.

و قرأ حمزة و الكسائى و يعقوب و حفص بالنون و كسر الزاى على البناء للفاعل و هو اللّه سبحانه، و الكفور على القراءة الأولى مرفوع، و على القراءة الثانية منصوب، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد و أبو حاتم قالا: لأن قبله جَزَيْناهُمْ و ظاهر الآية أنه لا يجازى إلا الكفور مع كون أهل المعاصى يجازون، و قد قال قوم: إن معنى الآية أنه لا يجازى هذا الجزاء، و هو الاصطلام «١» و الإهلاك إلا من كفر. و قال مجاهد: إن المؤمن يكفر عنه

---

(١). قال فى القاموس: اصطلمه: استأصله.

سيئاته، و الكافر يجازى بكل عمل عمله و قال طاوس: هو المناقشة فى الحساب، و أما المؤمن فلا يناقش.

و قال الحسن: إن المعنى إنه يجازى الكافر مثلا بمثل و رجح هذا الجواب النحاس وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها هذا معطوف على قوله: لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ أى: و كان من قصتهم: أنا جعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها بالماء و الشجر، و هى قرى الشام قُرىً ظاهِرَةً أى: متواصلة، و كان متجرهم من أرضهم التى هى مأرب إلى الشام، و كانوا يبيتون بقرية، و يقيلون بأخرى حتى يرجعوا، و كانوا لا يحتاجون إلى زاد يحملونه من أرضهم إلى الشام، فهذا من جملة الحكاية لما أنعم اللّه به عليهم. قال الحسن: إن هذه القرى هى بين اليمن و الشام، قيل إنها كانت أربعة آلاف و سبعمائة قرية، و قيل هى بين المدينة و الشام. و قال المبرّد: القرى الظاهرة هى المعروفة، و إنما قيل لها ظاهرة لظهورها، إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى فكانت قرى ظاهرة: أى معروفة، يقال هذا أمر ظاهر: أى معروف وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أى: جعلنا السير من القرية إلى القرية مقدارا معينا واحدا، و ذلك نصف يوم كما قال المفسرون. قال الفرّاء: أى جعلنا بين كلّ قريتين نصف يوم حتى يكون فى قرية، و المبيت فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام، و إنما يبالغ الإنسان فى السير لعدم الزاد و الماء و الخوف فى الطريق، فإذا وجد الزاد و الأمن لم يحمل نفسه المشقة، بل ينزل أينما أراد. و الحاصل أن اللّه سبحانه عدّد عليهم النعم، ثم ذكر ما نزل بهم من النقم، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم و بين ما يريدون السفر إليه، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز و البرارى كما سيأتى و قوله: سِيرُوا فِيها هو على تقدير القول: أى و قلنا لهم سيروا فى تلك القرى المتصلة، فهو أمر تمكين، أى: و مكناهم من السير فيها متى شاؤوا لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ مما يخافونه، و انتصاب ليالى و أياما على الظرفية، و انتصاب آمنين على الحال. قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين و لا جياع و لا ظمأى، كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرّك بعضهم بعضا و لو لقى الرجل قاتل أبيه لم يحرّكه. ثم ذكر سبحانه أنهم لم يشكروا النعمة، بل طلبوا التعب و الكد فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا و كان هذا القول منهم بطرا و طغيانا لما سئموا النعمة و لم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار و التباعد بين الديار، و سألوا اللّه تعالى أن يجعل بينهم و بين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء و الشجر و الأمن، المفاوز و القفار و

البرارى المتباعدة الأقطار، فأجابهم اللّه إلى ذلك و خرّب تلك القرى المتواصلة، و ذهب بما فيها من الخير و الماء و الشجر، فكانت دعوتهم هذه كدعوة بنى إسرائيل حيث قالوا فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها «١» الآية مكان المنّ و السلوى، و كقول النضر بن الحارث اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «٢» الآية. قرأ الجمهور رَبَّنا بالنصب على أنه منادى مضاف، و قرءوا أيضا باعِدْ و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن محيصن و هشام عن ابن عامر (بعّد) بتشديد العين، و قرأ ابن السميقع: بضم العين فعلا ماضيا، فيكون معنى هذه القراءة الشكوى من بعد الأسفار، و قرأ أبو صالح و محمّد بن الحنفية و أبو العالية و نصر بن عاصم و يعقوب «ربنا» بالرفع «باعد» بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء و الخبر. و المعنى: لقد باعد ربّنا بين أسفارنا، و رويت هذه القراءة عن

---

(١). البقرة: ٦١.

(٢). الأنفال: ٣٢.

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٧٠

ابن عباس، و اختار أبو حاتم، قال لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذى كان بينهم و بين الشام بالقرى المتواصلة، بطرا و أشرا و كفرا للنعمة. و قرأ يحيى بن يعمر و عيسى بن عمر «ربنا» بالرفع «بعد» بفتح العين مشدّدة، فيكون معنى هذه القراءة الشكوى بأن ربهم بعّد بين أسفارهم، مع كونها قريبة متصلة بالقرى و الشجر و الماء، فيكون هذا من جملة بطرهم، و قرأ أخو الحسن البصرى كقراءة ابن السميقع السابقة مع رفع (بين) على أنه الفاعل، كما قيل فى قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ و روى الفرّاء و الزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على أنه ظرف، و التقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا. قال النحاس: و هذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك فى أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، و لكن أخبر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم، فلما فعل ذلك بهم شكوا و تضرّروا، و لهذا قال سبحانه: وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حيث كفروا باللّه و بطروا نعمته و تعرّضوا لنقمته فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ يتحدّث الناس بأخبارهم. و المعنى: جعلناهم ذوى أحاديث يتحدّث بها من بعدهم تعجبا من فعلهم و اعتبارا لحالهم و عاقبتهم وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أى: فرّقناهم فى كلّ وجه من البلاد كلّ التفريق، و هذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث، و ذلك أن اللّه سبحانه لما أغرق مكانهم و أذهب جنتهم، تفرّقوا فى البلاد فصارت العرب تضرب بهم الأمثال، فتقول: تفرّقوا أيدى سبأ. قال الشعبى:

فلحقت الأنصار بيثرب، و غسان بالشام، و الأزد بعمان، و خزاعة بتهامة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أى:

فيما ذكر من قصتهم و ما فعل اللّه بهم لآيات بينات، و دلالات واضحات لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أى: لكلّ من هو كثير الصبر و الشكر، و خصّ الصبار الشكور لأنهما المنتفعان بالمواعظ و الآيات وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ قرأ الجمهور صدق بالتخفيف و رفع إبليس و نصب ظنه. قال الزجاج: و هو على المصدر:

أى صدق عليهم ظنا ظنه، أو صدق فى ظنه، أو على الظرف. و المعنى: أنه ظنّ بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك، و يجوز أن يكون منتصبا على المفعولية، أو بإسقاط الخافض. و قرأ حمزة و الكسائى و يحيى بن وثاب و الأعمش و عاصم صَدَّقَ بالتشديد، و ظنه بالنصب على أنه مفعول به. قال أبو على الفارسى: أى صدّق الظنّ الذى ظنه. قال مجاهد: ظنّ ظنا فصدّق ظنه، فكان كما ظنّ، و قرأ أبو جعفر و أبو الجهجاه و الزهرى و زيد بن علىّ «صدق» بالتخفيف و «إبليس» بالنصب و «ظنه» بالرفع؛ قال أبو حاتم: لا وجه لهذه القراءة عندى، و قد أجاز هذه القراءة الفرّاء و ذكرها الزجاج، و جعل الظنّ: فاعل صدق، و إبليس:

مفعوله. و المعنى: أن إبليس سوّل له ظنه شيئا فيهم فصدق ظنه، فكأنه قال: و لقد صدق عليهم ظنّ إبليس.

و روى عن أبى عمرو أنه قرأ برفعهما مع تخفيف صدق على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس، قيل: و هذه الآية خاصة بأهل سبأ. و المعنى: أنهم غيروا و بدّلوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلهم، و قيل هى عامة، أى: صدّق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع اللّه. قال مجاهد و الحسن. قال الكلبى: إنه ظنّ أنه إن أغواهم أجابوه، و إن أضلهم أطاعوه فصدّق ظنه فَاتَّبَعُوهُ قال الحسن: ما ضربهم بسوط و لا بعصا، و إنما ظنّ فكان كما ظنّ بوسوسته، و انتصاب إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ على الاستثناء، و فيه

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۷۱

وجهان: أحدهما أن يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيرا من المؤمنين يذنب و ينقاد لإبليس فى بعض المعاصى، و لم يسلم منه إلا فريق، و هم الذين قال فيهم إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ* و قيل المراد بفريقا من المؤمنين: المؤمنون كلهم على أن تكون من بيانية وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ أى: ما كان له تسلط عليهم: أى لم يقهرهم على الكفر، و إنما كان منه الدعاء و الوسوسة و التزيين، و قيل السلطان: القوّة، و قيل:

الحجة، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ منقطع، و المعنى: لا سلطان له عليهم، و لكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم. و قيل: هو متصل مفرّغ من أعم العام، أى: ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال و لا لعلة من العلل إلّا ليتميز من يؤمن، و من لا يؤمن، لأنه سبحانه قد علم ذلك علما أزليا. و قال الفرّاء: المعنى إلا لنعلم ذلك عندكم، و قيل إلا لتعلموا أنتم، و قيل: ليعلم أولياؤنا و الملائكة.

و قرأ الزهرى «إلا ليعلم» على البناء للمفعول، و الأولى حمل العلم هنا على التمييز و الإظهار كما ذكرنا وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ أى: محافظ عليه. قال مقاتل: علم كلّ شىء من الإيمان و الشكّ.

و قد أخرج أحمد، و البخارى، و الترمذى، و حسنه، و الحاكم و صححه، و غيرهم عن فروة بن مسيك المرادى قال: «أتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقلت: يا رسول اللّه ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم؟ فأذن لى فى قتالهم و أمرنى، فلما خرجت من عنده أرسل فى أثرى فردّنى فقال: ادع القوم، فمن أسلم منهم فاقبل منه، و من لم يسلم فلا تعجل حتّى أحدث إليك، و أنزل فى سبأ ما أنزل، فقال رجل، يا رسول اللّه و ما سبأ: أرض أم امرأة؟ قال: ليس بأرض و لا امرأة، و لكنّه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، و تشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تشاءموا: فلخم و جذام و غسّان و عاملة، و أما الذين تيامنوا، فالأزد و الأشعريون و حمير و كندة و مذحج و أنمار، فقال رجل: يا رسول اللّه و ما أنمار فأزد قال: الذى منهم خثعم و بجيلة». و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و الطبرانى، و ابن عدىّ، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: سَيْلَ الْعَرِمِ قال: الشديد. و أخرج ابن جرير عنه قال: سَيْلَ الْعَرِمِ واد كان باليمن كان يسيل إلى مكة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أُكُلٍ خَمْطٍ قال:

الأراك. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ قال: تلك المناقشة. و أخرج إسحاق بن بشر، و ابن عساكر عنه أيضا فى قوله: وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ يعنى: بين مساكنهم وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها يعنى الأرض المقدّسة قُرىً ظاهِرَةً يعنى عامرة مخصبة وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ يعنى فيما بين مساكنهم و بين أرض الشام سيروا فيها إذا ظعنوا من منازلهم إلى أرض الشام من الأرض المقدسة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ قال إبليس:

إن آدم خلق من تراب و من طين و من حمأ مسنون خلقا ضعيفا، و إنى خلقت من نار، و النار تحرق كلّ شىء لأحتنكنّ ذرّيته إلّا قليلا. قال فصدّق ظنه عليهم فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قال هم المؤمنون كلهم.

فتح القدير، ج‏4، ص: 372

[سورة سبإ (34): الآيات 22 الى 27]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)
قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

قوله: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ هذا أمر للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلم بأن يقول لكفار قريش أو للكفار على الإطلاق هذا القول، و مفعولا زعمتم محذوفان، أي: زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما. قال مقاتل:
يقول ادعوهم ليكشفوا عنكم الضرّ الذى نزل بكم فى سنّي الجوع. ثم أجاب سبحانه عنهم فقال: لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ أي: ليس لهم قدرة على خير و لا شرّ، و لا على جلب نفع و لا دفع ضرر فى أمر من الأمور، و ذكر السموات و الأرض لقصد التعميم لكونهما ظرفا للموجودات الخارجية وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ أي: ليس للآلهة فى السموات و الأرض مشاركة؛ لا بالخلق؛ و لا بالملك؛ و لا بالتصرّف وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ أي: و ما للّه سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمر السموات و الأرض و من فيهما وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ أي: شفاعة من يشفع عنده من الملائكة و غيرهم، و قوله: إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أي: لا تنفع الشفاعة فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة و النبيين و نحوهم من أهل العلم و العمل، و معلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، و يجوز أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفاء المتأهلين لها فى حال من الأحوال إلّا كائنة لمن أذن له؛ أى: لأجله و فى شأنه من المستحقّين للشفاعة لهم، لا من عداهم من غير المستحقين لها، و اللام فى لِمَنْ يجوز أن تتعلق بنفس الشفاعة. قال أبو البقاء:
كما تقول شفعت له، و يجوز أن تتعلق بتنفع، و الأولى أنها متعلقة بالمحذوف كما ذكرنا. قيل: و المراد بقوله:
لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ أنها لا توجد أصلا إلا لمن أذن له، و إنما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفى ما هو غرضهم من وقوعها. قرأ الجمهور أَذِنَ بفتح الهمزة: أى أذن له اللّه سبحانه، لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا، و قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى بضمها على البناء للمفعول، و الآذن هو اللّه سبحانه، و مثل هذه الآية قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ «1» و قوله: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى «2» ثم أخبر سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء و المشفوع لهم فقال: حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قرأ الجمهور: فُزِّعَ مبنيا للمفعول، و الفاعل: هو اللّه، و القائم مقام الفاعل: هو الجارّ و المجرور، و قرأ ابن عامر: فزّع مبنيا للفاعل، و فاعله ضمير يرجع إلى اللّه سبحانه، و كلا القراءتين بتشديد الزاى، و فعّل:

---

(1). البقرة: 255.

(2). الأنبياء: 28.

فتح القدير، ج‏4، ص: 373

معناه السلب، فالتقريع إزالة الفزع. و قرأ الحسن مثل قراءة الجمهور إلا أنه خفف الزاى. قال قطرب: معنى فزّع عن قلوبهم أخرج ما فيها من الفزع، و هو الخوف. و قال مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة.

و المعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون اللّه من الملائكة و الأنبياء و الأصنام، إلا أن اللّه سبحانه يأذن للملائكة، و الأنبياء، و نحوهم فى الشفاعة لمن يستحقها، و هم على غاية الفزع من اللّه كما قال تعالى: وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ فإذا أذن لهم فى الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، و الخوف الشديد من أن يحدث شىء من أقدار اللّه، فإذا سرّى عليهم قالُوا للملائكة فوقهم، و هم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن ما ذا قالَ رَبُّكُمْ أى: ماذا أمر به، فيقولون لهم قال: القول الْحَقَ و هو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فله أن يحكم فى عباده بما يشاء، و يفعل ما يريد، و قيل: هذا الفزع يكون للملائكة فى كلّ أمر يأمر به الربّ. و المعنى: لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون للّه، دون الجمادات و الشياطين، و قيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم المشفوع لهم، و الذين أجابوهم: هم الشفعاء من الملائكة و الأنبياء. و قال الحسن، و ابن زيد، و مجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين فى الآخرة. قالت لهم الملائكة:

ماذا قال ربكم فى الدنيا؟ قالوا الحقّ، فأقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار. و قرأ ابن عمر و قتادة: فرغ بالراء المهملة و الغين المعجمة من الفراغ. و المعنى: فرغ اللّه قلوبهم، أى: كشف عنها الخوف. و قرأ ابن مسعود (افرنقع) بعد الفاء راء مهملة ثم نون ثم قاف ثم عين مهملة من الافرنقاع: و هو التفرّق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يبكت المشركين و يوبخهم فقال: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التى تتمتعون بها، فإن آلهتكم لا يملكون مثقال ذرة، و الرزق من السماء: هو المطر و ما ينتفع به منها: من الشمس، و القمر، و النجوم، و الرزق من الأرض: هو النبات، و المعادن، و نحو ذلك، و لما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام، و لم تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق إلى آلهتهم، و ربما يتوقفون فى نسبته إلى اللّه مخافة أن تقوم عليهم الحجة، فأمر اللّه رسوله بأن يجيب عن ذلك فقال: قُلِ اللَّهُ أى:

هو الذى يرزقكم من السموات و الأرض، ثم أمره سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة، لكن على وجه الإنصاف فى الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى و من هو على الضلالة، فقال: وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ و المعنى: أن أحد الفريقين من الذين يوحدون اللّه الخالق الرّزاق و يخصونه بالعبادة، و الذين يعبدون الجمادات التى لا تقدر على خلق، و لا رزق، و لا نفع، و لا ضرّ لعلى أحد الأمرين من الهدى و الضلالة، و معلوم لكلّ عاقل أن من عبد الذى يخلق و يرزق و ينفع و يضرّ: هو الذى على الهدى، و من عبد الذى لا يقدر على خلق و لا رزق و لا نفع و لا ضرّ: هو الذى على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، و هم المسلمون، و فريق الضلالة و هم المشركون على وجه أبلغ من التصريح. قال المبرّد: و معنى هذا الكلام معنى قول المتبصر فى الحجة لصاحبه: أحدنا كاذب، و قد عرف أنه الصادق المصيب، و صاحبه الكاذب المخطئ. قال: و أو عند البصريين على بابها و ليست للشكّ، لكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۴

لم يرد المخبر أن يبين و هو عالم بالمعنى. و قال أبو عبيدة و الفرّاء: هى بمعنى الواو، و تقديره: و إنا على هدى و إياكم لفى ضلال مبين، و منه قول جرير:

أ ثعلبة الفوارس أو رياحاعدلت بهم طهيّة و الخشابا «۱»

أى ثعلبة و رياحا، و كذا قول الآخر:

فلما اشتدّ بأس الحرب فيناتأمّلنا رياحا أو رزاما

أى: و رزاما، و قوله: أو إياكم معطوف على اسم إن، و خبرها: هو المذكور، و حذف خبر الثانى للدلالة عليه، أى: إنا لعلى هدى، أو فى ضلال مبين، و إنكم لعلى هدى، أو فى ضلال مبين، و يجوز العكس:

و هو كون المـذكور خبر الثانى، و خبر الأوّل محـذوفا، كما تقدّم فى قوله: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «٢» ثم أردف سبحانه هـذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه فى الإنصاف، و أبعد من الجدل و المشاغبة فقال: قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ أى: إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم و نفع، و لا ينالنى من كفركم و ترككم لإجابتى ضرر، و هذا كقوله سبحانه: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ «٣» و فى إسناد الجرم إلى المسلمين؛ و نسبة مطلق العمل إلى المخاطبين، مع كون أعمال المسلمين من البرّ الخالص و الطاعة المحضة، و أعمال الكفار من المعصية البينة، و الإثم الواضح من الإنصاف ما لا يقادر قدره. و المقصود: المهادنة و المتاركة، و قد نسخت هذه الآية، و أمثالها بآية السيف. ثم أمره سبحانه بأن يهدّدهم بعذاب الآخرة، لكن على وجه لا تصريح فيه فقال: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا أى: يوم القيامة ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِ أى: يحكم و يقضى بيننا بالحقّ، فيثيب المطيع، و يعاقب العاصى وَ هُوَ الْفَتَّاحُ أى: الحاكم بالحقّ القاضى بالصواب الْعَلِيمُ بما يتعلق بحكمه و قضائه من المصالح. و هـذه أيضا منسوخة بآية السيف. ثم أمره سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ فقال: قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ أى: أرونى الذين ألحقتموهم باللّه شركاء له، و هـذه الرؤية: هى القلبية، فيكون شركاء: هو المفعول الثالث، لأن الفعل تعدّى بالهمزة إلى ثلاثة. الأوّل: الياء فى أرونى، و الثانى: الموصول، و الثالث: شركاء، و عائد الموصول:

محذوف، أى: ألحقتموهم، و يجوز أن تكون هى البصرية، و تعدّى الفعل بالهمزة إلى اثنين: الأوّل: الياء، و الثانى: الموصول، و يكون شركاء منتصبا على الحال. ثم ردّ عليهم ما يدعونه من الشركاء و أبطل ذلك فقال:

كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: ارتدعوا عن دعوى المشاركة، بل المنفرد بالإلهية، هو اللّه العزيز بالقهر و الغلبة، الحكيم بالحكمة الباهرة.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قال: جلى. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه قال: لما أوحى الجبار إلى محمّد صلّى اللّه عليه و سلم دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحى،

---

(١). ثعلبة و رياح: ممدوحا جرير، و طهية و الخشاب: مهجوا جرير. [ديوان جرير: ٥٨].

(٢). التوبة: ٦٢.

(٣). الكافرون: ٦.

فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحى، فلما كشف عن قلوبهم سئلوا عما قال اللّه، فقالوا الحقّ، و علموا أن اللّه لا يقول إلا حقا. قال ابن عباس: و صوت الوحى كصوت الحديد على الصفا، فلما سمعوا خرّوا سجدا، فلما رفعوا رؤوسهم قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ينزل الأمر إلى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة، فيفزع له جميع أهل السموات فيقولون: ماذا قال ربكم؟ ثم يرجعون إلى أنفسهم فيقولون: الحق و هو العلىّ الكبير. و أخرج البخارى و أبو داود، و الترمذى، و ابن ماجة و غيرهم من حديث أبى هريرة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا قضى اللّه الأمر فى السّماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله: كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم؟ قالوا للذى قال: الحقّ و هو العلىّ الكبير» الحديث و فى معناه أحاديث. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ قال: نحن على هدى، و إنكم لفى ضلال مبين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس قال (الفتاح) القاضى.

[سورة سبإ (٣۴): الآيات ٢٨ الى ٣٣]

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)

وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

فى انتصاب كَافَّةً وجوه، فقيل: إنه منتصب على الحال من الكاف فى أَرْسَلْناكَ قال الزجاج:

أى و ما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار و الإبلاغ، و الكافة بمعنى الجامع، و الهاء فيه للمبالغة كعلامة. قال أبو حيان: أما قول الزجاج إن كافة بمعنى جامعا، و الهاء فيه للمبالغة، فإن اللغة لا تساعد عليه لأن كفّ ليس معناه جمع، بل معناه منع. يقال كف يكف: منع يمنع. و المعنى: إلا مانعا لهم من الكفر، و منه الكفّ لأنها تمنع من خروج ما فيه. و قيل: إنه منتصب على المصدرية، و الهاء: للمبالغة، كالعاقبة، و العافية، و المراد: أنها صفة مصدر محذوف، أى: إلا رسالة كافة. و قيل: إنه حال من الناس و التقدير: و ما أرسلناك إلا للناس كافة، و ردّ بأنه لا يتقدّم الحال من المجرور عليه كما هو مقرّر فى علم الإعراب. و يجاب عنه بأنه قد جوّز ذلك أبو عليّ الفارسى، و ابن كيسان، و ابن برهان، و منه قول الشاعر:

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٧۶ إذا المرء أعيته السيادة ناشئافمطلبها كهلا عليه عسير

و قول الآخر:

تسليت طرّا عنكم بعد بينكمبذكراكم حتّى كأنّكم عندى

و قول الآخر:

غافلا تعرض المنيّة للمرء فيدعى و لات حين إباء

و ممن رجح كونها حالا من المجرور بعدها ابن عطية، و قال: قدمت للاهتمام و التقوّى، و قيل: المعنى إلا ذا كافة، أى: ذا منع، فحذف المضاف. قيل: و اللام فى لِلنَّاسِ بمعنى: إلى، أى: و ما أرسلناك إلى الناس إلا جامعا لهم بالإنذار و الإبلاغ، أو مانعا لهم من الكفر و المعاصى، و انتصاب بَشِيراً وَ نَذِيراً على الحال، أى: مبشرا لهم بالجنة، و منذرا لهم من النار وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ما عند اللّه و ما لهم من النفع فى إرسال الرسل وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: متى يكون هذا الوعد الذى تعدونا به و هو قيام الساعة أخبرونا به إن كنتم صادقين، قالوا هذا على طريقة الاستهزاء برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و من معه من المؤمنين فأمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يجيب عنهم فقال: قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ أى: ميقات يوم و هو يوم البعث. و قيل: وقت حضور الموت، و قيل: أراد يوم بدر لأنه كان يوم عذابهم فى الدنيا، و على كلّ تقدير فهذه الإضافة للبيان، و يجوز فى ميعاد: أن يكون مصدرا مرادا به الوعد، و أن يكون اسم زمان. قال أبو عبيدة: الوعد و الوعيد و الميعاد بمعنى. و قرأ ابن أبى عبلة بتنوين مِيعادُ و رفعه، و نصب «يوم» على أن يكون ميعاد مبتدأ، و يوما ظرف، و الخبر لكم. و قرأ عيسى بن عمر برفع «ميعاد» منوّنا، و نصب «يوم» مضافا إلى الجملة بعده. و أجاز النحويون مِيعادُ يَوْمٍ برفعهما منوّنين على أن ميعاد مبتدأ و يوم بدل منه، و جملة لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ صفة لميعاد، أى: هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه و لا تتقدّمون عليه، بل يكون لا محالة فى الوقت الذى قد قدّر اللّه وقوعه فيه. ثم ذكر سبحانه طرفا من قبائح الكفار، و نوعا من أنواع

كفرهم فقال: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ و هى: الكتب القديمة، كالتوراة و الإنجيل، و الرسل المتقدّمون. و قيل:

المراد بالذى بين يديه الدار الآخرة. ثم أخبر سبحانه عن حالهم فى الآخرة فقال: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ الخطاب لمحمّد صلّى اللّه عليه و سلم، أو لكل من يصلح له، و معنى موقوفون عند ربهم: محبوسون فى موقف الحساب يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ أى: يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم و العتاب بعد أن كانوا فى الدنيا متعاضدين متناصرين متحابين. ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا و هم الأتباع لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا و هم الرؤساء المتبوعون لَوْ لا أَنْتُمْ صددتمونا عن الإيمان باللّه، و الاتباع لرسوله لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ باللّه مصدّقين لرسوله و كتابه قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى أى: منعناكم عن الإيمان

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٧٧

بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ الهدى، قالوا هذا منكرين لما ادّعوه عليهم من الصدّ لهم، و جاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك، ثم بينوا أنهم الصادّون لأنفسهم، الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم فقالوا: بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ أى: مصرّين على الكفر، كثيرى الإجرام، عظيمى الآثام وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ردّا لما أجابوا به عليهم، و دفعا لما نسبوه إليهم من صدّهم لأنفسهم بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أصل المكر فى كلام العرب: الخديعة و الحيلة، يقال: مكر به إذا خدعه و احتال عليه. و المعنى: بل مكركم بنا الليل و النهار، فحذف المضاف إليه، و أقيم الظرف مقامه اتساعا. و قال الأخفش: هو على تقدير هذا مكر الليل و النهار. قال النحاس: المعنى و اللّه أعلم، بل مكركم فى الليل و النهار، و دعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذى حملنا على هذا. و قال سفيان الثورى: بل عملكم فى الليل و النهار، و يجوز أن يجعل الليل و النهار ماكرين على الإسناد المجازى كما تقرّر فى علم المعانى. قال المبرّد كما تقول العرب: نهاره صائم، و ليله قائم، و أنشد قول جرير:

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السّرىو نمت و ما ليل المطىّ بنائم

و أنشد سيبويه:

فنام ليلى و تجلّى همّى و قرأ قتادة و يحيى بن يعمر برفع «مكر» منوّنا، و نصب الليل و النهار، و التقدير: بل مكر كائن فى الليل و النهار. و قرأ سعيد بن جبير، و أبو رزين بفتح الكاف و تشديد الراء مضافا بمعنى الكرور، من كرّ يكرّ إذا جاء و ذهب، و ارتفاع مكر على هذه القراءات على أنه مبتدأ و خبره محذوف، أى: مكر الليل و النهار صدّنا، أو على أنه فاعل لفعل محذوف: أى صدّنا مكر الليل و النهار، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف كما تقدّم عن الأخفش. و قرأ طلحة بن راشد كما قرأ سعيد بن جبير، و لكنه نصب مكر على المصدرية، أى: بل تكرّرن الإغواء مكرّا دائما لا تفترون عنه، و انتصاب إِذْ تَأْمُرُونَنا على أنه ظرف للمكر، أى: بل مكركم بنا وقت أمركم لنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً أى: أشباها و أمثالا. قال المبرد يقال ندّ فلان فلان: أى مثله و أنشد:

أ تيما تجعلون إلىّ ندّاو ما تيم لذى حسب نديد

و الضمير فى قوله: وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ راجع إلى الفريقين، أى: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر و أخفوها عن غيرهم، أو أخفاها كلّ منهم عن الآخر مخافة الشماتة. و قيل:

المراد بأسرّوا هنا أظهروا لأنه من الأضداد يكون تارة بمعنى الإخفاء، و تارة بمعنى الإظهار، و منه قول امرئ القيس:

تجاوزت أحراسا و أهوال معشرعلىّ حراصا لو يسرّون مقتلى

و قيل معنى: أسروا الندامة: تبينت الندامة فى أسرة وجوههم وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا الأغلال جمع غلّ، يقال فى

رقبته غلّ من حديد، أى: جعلت الأغلال من الحديد فى أعناق هؤلاء

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۸

فى النار، و المراد بالـذين كفروا: هم المـذكورون سابقا، و الإظهار لمزيد الذمّ، أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوّليا هَـلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كـانُوا يَعْمَلُونَ أى: إلاـ جزاء مـا كـانوا يعملونه من الشـرك بـاللّه، أو إلاـ بمـا كانوا يعملون على حـذف الخافض.

و قـد أخرج ابن أبى شـيبة، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ ما أَرْسَـلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ قال: إلى الناس جميعا. و أخرج عبد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن أبى حـاتم عن قتـادة قـال: أرسل اللّه محمّـدا إلى العرب و العجم، فأكرمهم على اللّه أطوعهم له. و أخرج هؤلاـء عنه فى قوله: وَ قـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهـذَا الْقُرْآنِ قال: هـذا قول مشـركى العرب كفروا بالقرآن و بالـذى بين يديه من الكتب و الأنبياء.

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۴ الى ۴۲]

وَ ما أَرْسَـلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۳۴) وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَـذَّبِينَ (۳۵) قُـلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُـطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشـاءُ وَ يَقْـدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ مـا أَمْوالُكُمْ وَ لاـ أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْـدَنا زُلْفى إِلاَّـ مَنْ آمَنَ وَ عَمِـلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (۳۸)

قُـلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْـدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَـيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۳۹) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَـةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (۴۰) قالُوا سُـبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَـالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَـرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَـذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَـذِّبُونَ (۴۲)

لما قصّ سبحانه حال من تقدّم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله، و بيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمرّ فى الأعصر الأوّل فقال: وَ ما أَرْسَـلْنا فِي قَرْيَـةٍ من القرى مِنْ نَـذِيرٍ ينذرهم و يحذرهم عقاب اللّه إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها أى: رؤساؤهـا و أغنياؤها و جبابرتها و قادة الشرّ لرسلهم إِنَّا بِما أُرْسِـلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أى: بما أرسلتم به من التوحيـد و الإيمان، و جملة إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها فى محل نصب على الحال. ثم ذكر ما افتخروا به من الأموال و الأولاد و قاسوا حالهم فى الدار الآخرة على حالهم فى هـذه الـدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل فقال: وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ و المعنى: أنّ اللّه فضـلنا عليكم بالأموال و الأولاد فى الـدنيا، و ذلك يدل على أنه قد رضـى ما نحن عليه من الدين، و ما نحن بمعذبين فى الآخرة بعد إحسانه إلينا فى الدنيا، و رضاه عنا، فأمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم بأن يجيب عنهم و قال: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ أن يبسطه له وَ يَقْدِرُ أى: يضيق على من يشاء أن يضيقه عليه، فهو سبحانه قد يرزق الكافر و العاصى استدراجا له، و قد يمتحن المؤمن بالتقتير توفيرا لأجره، و ليس مجرّد بسط الرزق لمن له يـدل على أنه قـد رضـى عنه و رضـى عمله، و لا قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه، و لا رضى عمله، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى فى مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة لواضحة وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ هذا، و من جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى،

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۷۹

ثم زاد هـذا الجواب تأييـدا و تأكيدا وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى أى: ليسوا بالخصلة التى تقرّبكم عندنا

قربى. قال مجاهد: الزلفى: القربى، و الزلفة: القربة. قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا فتكون زلفى منصوبة المحلّ. قال الفرّاء: إن التى تكون للأموال و الأولاد جميعا. و قال الزجاج: إن المعنى و ما أموالكم بالتى تقرّبكم عندنا زلفى، و لا أولادكم بالشيء يقرّبكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثانى عليه و أنشد:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرّأى مختلف

و يجوز فى غير القرآن باللتين و باللاتى و باللواتى و بالذى للأولاد خاصة؛ أى: لا تزيدكم الأموال عندنا درجة و رفعة و لا تقربكم تقريبا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً هو استثناء منقطع فيكون محله النصب، أى: لكن من آمن و عمل صالحا، أو فى محل جرّ بدلا من الضمير فى تقرّبكم، كذا قال الزجاج. قال النحاس: و هذا القول غلط، لأن الكاف و الميم للمخاطب فلا يجوز البدل و لو جاز هذا لجاز رأيتك زيدا. و يجاب عنه بأن الأخفش و الكوفيين يجوّزون ذلك، و قد قال بمثل قول الزجاج الفراء و أجاز الفراء أن يكون فى موضع رفع بمعنى ما هو إلا من آمن، و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى من، و الجمع باعتبار معناها و هو مبتدأ و خبره لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ أى: جزاء الزيادة، و هى المرادة بقوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «١».

و هو من إضافة المصدر إلى المفعول، أى: جزاء التضعيف للحسنات، و قيل: لهم جزاء الإضعاف لأن الضعف فى معنى الجمع، و الباء فى بِما عَمِلُوا للسببية وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ من جميع ما يكرهون، و المراد غرفات الجنة، قرأ الجمهور جَزاءُ الضِّعْفِ بالإضافة، و قرأ الزهرى و يعقوب و نصر بن عاصم و قتادة برفعهما على أن الضعف بدل من جزاء. و روى عن يعقوب أنه قرأ «جزاء» بالنصب منوّنا، و «الضعف» بالرفع على تقدير: فأولئك لهم الضعف جزاء، أى: حال كونه جزاء. و قرأ الجمهور فِي الْغُرُفاتِ بالجمع، و اختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً «٢» و قرأ الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و خلف «فى الغرفة» بالإفراد لقوله: أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ «٣» و لما ذكر سبحانه حال المؤمنين ذكر حال الكافرين فقال: وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا بالرد لها و الطعن فيها حال كونهم مُعاجِزِينَ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم، أو معاندين لنا بكفرهم أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ أى: فى عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجدون عنها محيصا. ثم كرّر سبحانه ما تقدّم لقصد التأكيد للحجة، و الدفع لما قاله الكفرة فقال: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ أى: يوسعه لمن يشاء، و يضيقه على من يشاء، و ليس فى ذلك دلالة على سعادة و لا شقاوة وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ أى يخلفه عليكم، يقال أخلف له و أخلف عليه: إذا أعطاه عوضه و بدله، و ذلك البدل إما فى الدنيا و إما فى الآخرة وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير اللّه و تقديره، و ليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز، كما يقال فى الرجل إنه يرزق عياله،

---

(١). الأنعام: ١٦٠.

(٢). العنكبوت: ٥٨.

(٣). الفرقان: ٧٥.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٣٨٠

و فى الأمير إنه يرزق جنده، و الرزاق للأمير و المأمور و الكبير و الصغير هو الخالق لهم، و من أخرج من العباد إلى غيره شيئا مما رزقه اللّه فهو إنما تصرّف فى رزق اللّه فاستحق بما خرج من الثواب عليه المضاعف لامتثاله لأمر اللّه و إنفاقه فيما أمره اللّه وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الظرف منصوب بفعل مقدّر نحو اذكر، أو هو متصل بقول: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ أى: و لو تراهم أيضا يوم نحشرهم جميعا للحساب؛ العابد و المعبود، و المستكبر و المستضعف، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ تقريعا

للمشركين و توبيخا لمن عبد غير اللّه عزّ و جلّ كما فى قوله لعيسى: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَ أُمِّى إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ «۱» و إنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين و الأصنام لأنهم أشرف معبودات المشركين. قال النحاس: و المعنى أن الملائكة إذا أكذبتهم كان فى ذلك تبكيت للمشركين، و جملة: قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أى: تنزيها لك أنت الذى نتولاه و نطيعه و نعبده من دونهم، ما اتخذناهم عابدين و لا توليناهم و ليس لنا غيرك وليا، ثم صرّحوا بما كان المشركون يعبدونه فقالوا: بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ أى: الشياطين و هم إبليس و جنوده، و يزعمون أنهم يرونهم، و أنهم ملائكة، و أنهم بنات اللّه، و قيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام و يخاطبونهم منها أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ أى: أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصدّقون لهم، قيل: و الأكثر فى معنى الكلّ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا يعنى العابدين و المعبودين لا يملك بعضهم و هم المعبودون لبعض، و هم العابدون نَفْعاً أى: شفاعة و نجاة وَ لا ضَرًّا أى: عذابا و هلاكا، إنما قيل لهم هذا القول إظهارا لعجزهم و قصورهم و تبكيتا لعابديهم، و قوله: وَ لا ضَرًّا هو على حذف مضاف، أى: لا يملكون لهم دفع ضرّ، و قوله: وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عطف على قوله: يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أى: للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير اللّه ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ فى الدنيا.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى رزين قال: كان رجلان شريكين، خرج أحدهما إلى الساحل و بقى الآخر، فلما بعث اللّه النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس و مساكينهم، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلنى عليه، و كان يقرأ الكتب، فأتى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فقال: إلى ما تدعو؟ قال: إلى كذا و كذا، قال: أشهد أنك رسول اللّه، قال: و ما علمك بذلك؟

قال: إنه لم يبعث نبيّ إلا اتبعه رذالة الناس و مساكينهم، فنزلت هذه الآيات وَ ما أَرْسَلْنا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها الآيات، فأرسل إليه النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم إن اللّه قد أنزل تصديق ما قلت. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: جَزاءُ الضِّعْفِ قال: تضعيف الحسنة. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن محمّد بن كعب قال: إذا كان الرجل غنيا تقيا آتاه اللّه أجره مرتين، و تلا هذه الآية: وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ إلى قوله: فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ قال: تضعيف

---

(۱). المائدة:.

الحسنة. و أخرج سعيد بن منصور، و البخارى فى الأدب المفرد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ قال: فى غير إسراف و لا تقتير، و عن مجاهد مثله، و عن الحسن مثله، و أخرج الدارقطنى، و البيهقى فى الشعب عن جابر عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «كلّما أنفق العبد من نفقة فعلى اللّه خلفها ضامنا إلا نفقة فى بنيان أو معصية». و أخرج نحوه ابن عدى فى الكامل، و البيهقى من وجه آخر عنه مرفوعا بأطول منه. و قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «قال اللّه عزّ و جلّ أنفق يا ابن آدم أنفق عليك» و ثبت فى الصحيح من حديثه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا و ملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللّهمّ أعط منفقا خلفا، و يقول الآخر: اللّهمّ أعط ممسكا تلفا». و أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «إنّ لكلّ يوم نحسا، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصّدقة» ثم قال: اقرءوا مواضع الخلف، فانى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ إذا لم تنفقوا كيف يخلف.

و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إنّ المعونة تنزل من السّماء على قدر المؤونة».

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٤٣ الى ٥٠]

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أنواع كفرهم، فقال: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا أى: الآيات القرآنية حال كونها بَيِّناتٍ واضحات الدلالات ظاهرات المعانى قالُوا ما هذا يعنون التالى لها، و هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ أى: أسلافكم من الأصنام التى كانوا يعبدونها وَ قالُوا ثانيا ما هذا يعنون القرآن الكريم إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً أى: كذب مختلق وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ثالثا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ أى: لأمر الدين الذى جاءهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ و هذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد، و أما إنكار القرآن و المعجزة فكان متفقا عليه بين أهل الكتاب و المشركين، و قيل: أريد بالأوّل، و هو قولهم: إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً معناه، و بالثانى: و هو قولهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ نظمه المعجز. و قيل: إن طائفة منهم قالوا: إنه إفك، و طائفة قالوا: إنه سحر، و قيل:

فتح القدير، ج٤، ص: ٣٨٢

إنهم جميعا قالوا تارة إنه إفك، و تارة إنه سحر، و الأوّل أولى وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها أى: ما أنزلنا على العرب كتبا سماوية يدرسون فيها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ يدعوهم إلى الحقّ و ينذرهم بالعذاب، فليس لتكذيبهم بالقرآن و بالرسول وجه، و لا شبه يتشبثون بها. قال قتادة: ما أنزل اللّه على العرب كتابا قبل القرآن، و لا بعث إليهم نبيا قبل محمّد صلّى اللّه عليه و سلم. قال الفرّاء: أى من أين كذبوك، و لم يأتهم كتاب و لا نذير بهذا الذى فعلوه؟ ثم خوّفهم سبحانه و أخبر عن عاقبتهم، و عاقبة من كان قبلهم فقال: وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من القرون الخالية وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ أى: ما بلغ أهل مكة من مشركى قريش و غيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوّة، و كثرة المال، و طول العمر فأهلكهم اللّه، كعاد و ثمود و أمثالهم. و المعشار: هو العشر. قال الجوهرى: معشار الشىء عشره. و قيل المعشار: عشر العشر، و الأوّل أولى. و قيل إن المعنى: ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البيّنات و الهدى. و قيل ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم، و قيل: ما أعطى اللّه من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم و البيان و الحجة و البرهان، و الأوّل أولى. و قيل: المعشار عشر العشير، و العشير عشر العشر، فيكون جزءا من ألف جزء.

قال الماوردى: و هو الأظهر لأن المراد به المبالغة فى التقليل. قلت: مراعاة المبالغة فى القليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربى، و قوله: فَكَذَّبُوا رُسُلِي عطف على كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ على طريقة التفسير، كقوله: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا «١» الآية، و الأولى أن يكون من عطف الخاص على العام، لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم،

فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة، و الرسل المرسلة، و المعجزات الواضحة، و تكذيب الرسل أخص منه، و إن كان مستلزما فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أی: فكيف كان إنكاری لهم بالعذاب و العقوبة، فليحذر هؤلاء من مثل ذلک، قيل: و فی الكلام حذف، و التقدير: فأهلكناهم فكيف كان نكير، و النكير اسم بمعنی الإنكار. ثم أمر سبحانه رسوله أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها فقال: قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أی: أحذركم و أنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، و أوصيكم بخصلة واحدة، و هی: أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنی وَ فُرادی هذا تفسير للخصلة الواحدة، أو بدل منها، أی: هی قيامكم و تشميركم فی طلب الحقّ بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين، و واحدا واحدا، لأن الاجتماع يشوّش الفكر، و ليس المراد القيام على الرجلين، بل المراد القيام بطلب الحقّ و إصداق الفكر فيه، كما يقال قام فلان بأمر كذا ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا فی أمر النبی و ما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلک تعلمون أن ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ و ذلک لأنهم كانوا يقولون:

إن محمّدا مجنون، فقال اللّه سبحانه قل لهم اعتبروا أمری بواحدة، و هی أن تقوموا للّه، و فی ذاته مجتمعين، فيقول الرجل لصاحبه: هلمّ فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل من جنة، أی: جنون أو جرّبنا عليه كذبا، ثم ينفرد كلّ واحد عن صاحبه فيتفكر و ينظر، فإن فی ذلک ما يدل على أن محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم صادق و أنه رسول من عند اللّه، و أنه ليس بكاذب و لا ساحر و لا مجنون، و هو معنى قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَیْ عَذابٍ شَدِيدٍ

---

(١). القمر: ٩.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ٣٨٣

أی: ما هو إلا نذير لكم بين يدی الساعة، و قيل إن جملة: ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ مستأنفة من جهة اللّه سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقة النظر، و التأمل بأن هذا الأمر العظيم و الدعوى، لا يعرّض نفسه له إلا مجنون لا يبالی بما يقال فيه، و ما ينسب إليه من الكذب، و قد علموا أنه أرجح الناس عقلا، فوجب أن يصدّقوه فی دعواه، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة و إجماعهم على أنه لم يكن ممن يفتری الكذب، و لا قد جرّبوا عليه كذبا مدّة عمره و عمرهم. و قيل: يجوز أن تكون ما فی ما بِصاحِبِكُمْ استفهامية، أی: ثم تتفكروا أیّ شیء به من آثار الجنون، و قيل المراد بقوله: إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ هی: لا إله إلّا اللّه كذا قال مجاهد و السدّی. و قيل: القرآن؛ لأنه يجمع المواعظ كلها، و الأولى ما ذكرناه أوّلا. و قال الزجاج: إن أَنْ فی قوله: أَنْ تَقُومُوا فی موضع نصب بمعنى لأن تقوموا.

و قال السدّی: معنى مثنى و فرادى: منفردا برأيه، و مشاورا لغيره. و قال القتبی مناظرا مع عشيرته، و مفكرا فی نفسه. و قيل المثنى: عمل النهار، و الفرادى: عمل الليل، قاله الماوردی. و ما أبرد هذا القول و أقلّ جدواه. و اختار أبو حاتم و ابن الأنباری الوقف على قوله: ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا و على هذا تكون جملة: ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ مستأنفة كما قدّمنا، و قيل: ليس بوقف، لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذبا، أو رأيتم منه جنة، أو فی أحواله من فساد. ثم أمر سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض فی الدنيا، و لا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوک، و يرتفع الريب فقال: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ أی: ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لی مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه، و المراد نفی السؤال بالكلية، كما يقول القائل:

ما أملكه فی هذا فقد و هبته لک، يريد أنه لا ملک له فيه أصلا، و مثل هذه الآية قوله: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبى «١» و قوله: ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا «٢».

ثم بين لهم أن أجره عند اللّه سبحانه فقال: إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ أی: ما أجری إلا على اللّه لا على غيره وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَیْ‏ءٍ شَهِيدٌ أی: مطلع لا يغيب عنه منه شیء قُلْ إِنَّ رَبِّی يَقْذِفُ بِالْحَقِ القذف: الرمی بالسهم، و الحصى، و الكلام. قال الكلبی: يرمی

على معنى يأتى به، و قال مقاتل: يتكلم بالحق و هو القرآن و الوحى، أى: يلقيه إلى أنبيائه. و قال قتادة بِالْحَقِ أى: بالوحى، و المعنى: أنه يبين الحجة، و يظهرها للناس على ألسن رسله، و قيل: يرمى الباطل بالحق فيدمغه عَلَّامُ الْغُيُوبِ قرأ الجمهور برفع عَلَّامُ على أنه خبر ثان لأنّ، أو خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من الضمير فى يقذف، أو معطوف على محل اسم إن. قال الزجاج: الرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل. و قرأ زيد بن على و عيسى بن عمرو بن أبى إسحاق بالنصب نعتا لاسم إنّ؛ أو بدلا منه، أو على المدح. قال الفراء: و الرفع فى مثل هذا أكثر كقوله: إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ «٣»، و قرئ الغيوب بالحركات الثلاث فى الغين، و هو جمع غيب، و الغيب هو الأمر الذى غاب و خفى جدّا قُلْ جاءَ الْحَقُ

---

(١). الشورى: ٢٣.

(٢). الفرقان: ٥٧.

(٣). ص: ٦٤.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٣٨٤

أى: الإسلام و التوحيد. و قال قتادة: القرآن. و قال النحاس: التقدير صاحب الحقّ، أى: الكتاب الذى فيه البراهين و الحجج.

و أقول: لا وجه لتقدير المضاف، فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ أى: ذهب الباطل ذهابا لم يبق منه إقبال و لا إدبار و لا إبداء و لا إعادة. قال قتادة: الباطل هو الشيطان؛ أى: ما يخلق الشيطان ابتداء و لا يبعث، و به قال مقاتل و الكلبى. و قيل: يجوز أن تكون ما استفهامية، أى: أىّ شىء يبديه، و أىّ شىء يعيده؟ و الأوّل أولى قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ عن الطريق الحقة الواضحة فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى‏ نَفْسِي أى: إثم ضلالتى يكون على نفسى، و ذلك أن الكفار قالوا له تركت دين آبائك فضللت، فأمره اللّه أن يقول لهم هذا القول: وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي من الحكمة و الموعظة و البيان بالقرآن إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ منى و منكم يعلم الهدى و الضلالة، قرأ الجمهور «ضللت» بفتح اللام، و قرأ الحسن و يحيى بن وثاب بكسر اللام، و هى لغة أهل العالية.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ يقول:

من القوّة فى الدنيا. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن محمّد بن كعب القرظى فى الآية «١» قال: يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيفكر ما بصاحبه من جنة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ يقول: إنه ليس بمجنون. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله: ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أى: من جعل فهو لكم، يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلا، و فى قوله: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِ قال: بالوحى، و فى قوله: وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ قال: الشيطان لا يبدئ و لا يعيد إذا هلك. و أخرج هؤلاء أيضا عنه فى قوله: وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ قال: ما يخلق إبليس شيئا و لا يبعثه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن عمر بن سعد فى قوله: إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى‏ نَفْسِي قال: إنما أؤخذ بجنايتى.

[سورة سبإ (٣٤): الآيات ٥١ الى ٥٤]

وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

ثم ذكر سبحانه حالا من أحوال الكفار فقال: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، أو لكل من يصلح له، قيل المراد فزعهم عند نزول الموت بهم. و قال الحسن: هو فزعهم فى القبور من الصيحة، و قال قتادة: هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم. و قال السدّى: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا و لا رجوعا إلى التوبة. و قال ابن مغفل: هو فزعهم إذا عاينوا

---

(١). أى: قوله تعالى: قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ....

عقاب اللّه يوم القيامة. و قال سعيد بن جبير: هو الخسف الذى يخسف بهم فى البيداء، فيبقى رجل منهم، فيخبر الناس بما لقى أصحابه فيفزعون. و جواب لو محذوف، أى: لرأيت أمرا هائلا، و معنى فَلا فَوْتَ فلا يفوتنى أحد منهم و لا ينجو منهم ناج. قال مجاهد: فلا مهرب وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ من ظهر الأرض أو من القبور، أو من موقف الحساب. و قيل: من حيث كانوا، فهم من اللّه قريب لا يبعدون عنه و لا يفوتونه. قيل: و يجوز أن يكون هذا الفزع هو الفزع الذى بمعنى الإجابة، يقال فزع الرجل: إذا أجاب الصارخ الذى يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ أى: بمحمّد، قاله قتادة، أو بالقرآن.

و قال مجاهد: باللّه عزّ و جلّ. و قال الحسن: بالبعث وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ التناوش التناول، و هو تفاعل من التناوش الذى هو التناول، و المعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد، يعنى فى الآخرة و قد تركوه فى الدنيا، و هو معنى مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ و هو تمثيل لحالهم فى طلب الخلاص بعد ما فات عنهم. قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه أو بلحيته ناشه ينوشه نوشا، و أنشد:

فهى تنوش الحوض نوشا من علانوشا به تقطع أجواز الفلا «١»

أى: تناول ماء الحوض من فوق، و منه المناوشة فى القتال، و قيل التناوش: الرجعة، أى: و أنى لهم الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، و منه قول الشاعر:

تمنّى أن تؤوب إلىّ ميّو ليس إلى تناوشها سبيل

و جملة وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت، و ذلك حال كونهم فى الدنيا. قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى و الأعمش «التناؤش» بالهمز، و قرأ الباقون بالواو، و استبعد أبو عبيد و النحاس القراءة الأولى، و لا وجه للاستبعاد، فقد ثبت ذلك فى لغة العرب و أشعارها، و منه قول الشاعر:

قعدت زمانا عن طلابك للعلاو جئت نئيشا بعد ما فاتك الخيرا «٢»

أى: و جئت أخيرا. قال الفراء: الهمز و ترك الهمز متقارب وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ أى: يرمون بالظنّ فيقولون: لا بعث و لا نشور و لا جنة و لا نار مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ أى من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل. و قيل المعنى: يقولون فى القرآن أقوالا باطلة: إنه سحر و شعر و أساطير الأوّلين. و قيل يقولون فى محمّد إنه ساحر شاعر كاهن مجنون. و قرأ أبو حيوة، و مجاهد، و محبوب عن أبى عمرو «يقذفون» مبنيا للمفعول: أى يرجمون بما يسوؤهم من جراء أعمالهم من حيث لا يحتسبون، و فيه تمثيل لحالهم بحال من يرمى شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه، و الجملة إما معطوفة على: و قد كفروا به على أنها حكاية للحال الماضية و استحضار لصورتها، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ من

---

(١). البيت لغيلان بن حريث.

(۲). فى القرطبى (۱۴/ ۳۱۷): الخبر.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸۶

النجاة من العذاب و منعوا من ذلك، و قيل: حيل بينهم و بين ما يشتهون فى الدنيا من أموالهم و أهليهم، أو حيل بينهم و بين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ أى: بأمثالهم و نظرائهم من كفار الأمم الماضية، و الأشياع جمع شيع، و شيع جمع شيعة، و جملة: إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ تعليل لما قبلها، أى: فى شك موقع فى الريبة أو ذى ريبة من أمر الرسل و البعث و الجنة و النار، أو فى التوحيد و ما جاءتهم به الرسل من الدين، يقال أراب الرجل: إذا صار ذا ريبة فهو مريب، و قيل: هو من الريب الذى هو الشكّ، فهو كما يقال: عجب عجيب و شعر شاعر.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَلا فَوْتَ قال: فلا نجاة: و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ قال: هو جيش السفيانى، قيل من أين أخذوا؟ قال: من تحت أقدامهم. و قد ثبت فى الصحيح أنه يخسف بجيش فى البيداء من حديث حفصة و عائشة، و خارج الصحيح من حديث أمّ سلمة و صفية و أبى هريرة و ابن مسعود، و ليس فى شىء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية، و لكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة، و قال فى آخرها: فذلك قوله عزّ و جلّ فى سورة سبأ وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ الآية.

و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ قال: كيف لهم الرّد مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ قال: يسألون الردّ، و ليس بحين ردّ. و أخرج ابن المنذر عن التيمى قال: أتيت ابن عباس قلت: ما التناوش؟ قال: تناول الشىء و ليس بحين ذاك.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۸۷

سورة فاطر

اشارة

و هى مكية: قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج البخارى، و ابن الضريس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة فاطر بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۵) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (۶) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ

كَبِيرٌ (٧) أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (٨)

الفطر: الشقّ عن الشىء، يقال فطرته فانفطر، و منه فطر ناب البعير: إذا طلع، فهو بعير فاطر، و تفطر الشىء تشقق، و الفطر: الابتداء و الاختراع، و هو المراد هنا، و المعنى الْحَمْدُ لِلَّهِ مبدع السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و مخترعهما، و المقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة.

قرأ الجمهور «فاطر» على صيغة اسم الفاعل، و قرأ الزهرى و الضحاك «فطر» على صيغة الفعل الماضى، فعلى القراءة الأولى هو نعت للّه لأن إضافته محضة لكونه بمعنى الماضى، و إن كانت غير محضة كان بدلا، و مثله جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا يجوز فيه الوجهان، و انتصاب رسلا بفعل مضمر على الوجه الأوّل، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل، و جوّز الكسائى عمله. و أما على الوجه الثانى فهو منصوب بجاعل، و الرسل من الملائكة: هم جبريل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل. و قرأ الحسن «جاعل» بالرفع، و قرأ خليل ابن نشيط و يحيى بن يعمر «جعل» على صيغة الماضى. و قرأ الحسن و حميد «رسلا» بسكون السين، و هى لغة تميم أُولِي أَجْنِحَةٍ صفة لرسلا، و الأجنحة: جمع جناح مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ صفة لأجنحة، و قد تقدم الكلام فى مثنى و ثلاث و رباع فى النساء. قال قتادة: بعضهم له جناحان، و بعضهم ثلاثة، و بعضهم أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، و يعرجون بها من الأرض إلى السماء. قال يحيى بن سلام: يرسلهم اللّه إلى الأنبياء. و قال السدّى: إلى العباد بنعمه أو نقمه، و جملة: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ مستأنفة

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۳۸۸

مقرّرة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة، و المعنى: أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء، و هو قول أكثر المفسرين، و اختاره الفراء و الزجاج. و قيل: إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة، فقال الزهرى و ابن جريج: إنها حسن الصوت. و قال قتادة: الملاحة فى العينين، و الحسن فى الأنف، و الحلاوة فى الفم، و قيل: الوجه الحسن، و قيل: الخط الحسن، و قيل: الشعر الجعد، و قيل: العقل و التمييز، و قيل: العلوم و الصنائع، و لا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كلّ زيادة، و جملة إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لما قبلها من أنه يزيد فى الخلق ما يشاء ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها أى: ما يأتيهم اللّه به من مطر و رزق لا يقدر أحد أن يمسكه وَ ما يُمْسِكْ من ذلك لا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه، و قيل المعنى: إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير اللّه، و قيل: هو الدعاء، و قيل: التوبة، و قيل: التوفيق و الهداية. و لا وجه لهذا التخصيص، بل المعنى: كل ما يفتحه اللّه للناس من خزائن رحمته فيشمل كلّ نعمة ينعم اللّه بها على خلقه، و هكذا الإمساك يتناول كلّ شىء يمنعه اللّه من نعمه، فهو سبحانه المعطى المانع القابض الباسط لا معطى سواه و لا منعم غيره. ثم أمر اللّه سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التى لا تعدّ و لا تحصى وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها و معنى هذا الأمر لهم بالذكر هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها و طلب المزيد منها هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ من: زائدة و خالق: مبتدأ، و غير اللّه:

صفة له. قال الزجاج: و رفع غير على معنى هل خالق غير اللّه، لأن «من» زيادة مؤكدة، و من خفض غير جعلها صفة على اللفظ. قرأ الجمهور برفع «غير» و قرأ حمزة و الكسائى بخفضها، و قرأ الفضل بن إبراهيم بنصبها على الاستثناء، و جملة: يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ خبر المبتدأ، أو جملة مستأنفة، أو صفة أخرى لخالق، و خبره محذوف، و الرزق من السماء: بالمطر، و من الأرض: بالنبات و غير ذلك، و جملة:

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ مستأنفة لتقرير النفى المستفاد من الاستفهام فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ من الأفك بالفتح: و هو الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا؟ أى: ما صرفك، أى: فكيف تصرفون، و قيل: هو مأخوذ من الإفك بالكسر، و هو الكذب لأنه مصروف عن الصدق. قال

الزجاج: أی من أین یقع لکم الإفک و التکذیب بتوحید اللّه و البعث، و أنتم مقرّون بأن اللّه خلقکم و رزقکم. ثم عزّی اللّه سبحانه نبیه صلّی اللّه علیه و سلم فقال: وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ لیتأسی بمن قبله من الأنبیاء و یتسلی عن تکذیب کفار العرب له وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ لا- إلی غیره فیجازی کلا بما یستحقه. قرأ الحسن، و الأعرج، و یعقوب، و ابن عامر، و أبو حیوة، و ابن محیصن، و حمید، و الأعمش، و یحیی بن وثاب، و حمزة، و الکسائی، و خلف «ترجع» بفتح الفوقیة علی البناء للفاعل، و قرأ الباقون بضمها علی البناء للمفعول یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أی: وعده بالبعث، و النشور، و الحساب، و العقاب، و الجنة، و النار، کما أشیر إلیه بقوله: وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَلا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا بزخرفها و نعیمها. قال سعید بن جبیر: غرور الحیاة الدنیا ترجع الأمور فَلا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا بزخرفها و نعیمها. قال سعید بن جبیر: غرور الحیاة الدنیا أن یشتغل الإنسان بنعیمها و لذاتها عن عمل الآخرة حتی یقول: یا لَیْتَنِی قَدَّمْتُ لِحَیاتِی «۱» وَ لا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

---

(۱). الفجر: ۲۴.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۳۸۹

قرأ الجمهور بفتح الغین، أی: المبالغ فی الغرور، و هو الشیطان. قال ابن السکیت و أبو حاتم:

الغرور الشیطان و یجوز أن یکون مصدرا، و استبعده الزجاج، لأن غرر به متعد، و مصدر المتعدی إنما هو علی فعل نحو ضربته ضربا، إلا فی أشیاء یسیرة معروفة لا یقاس علیها، و معنی الآیة: لا یغرنکم الشیطان باللّه فیقول لکم: إن اللّه یتجاوز عنکم، و یغفر لکم لفضلکم، أو لسعة رحمته لکم. و قرأ أبو حیوة، و أبو سماک، و محمّد بن السمیقع بضم الغین، و هو الباطل. قال ابن السکیت: و الغرور بالضم: ما یغرّ من متاع الدنیا. و قال الزجاج: یجوز أن یکون الغرور جمع غار، مثل قاعد و قعود، قیل: و یجوز أن یکون مصدر غرّة کاللزوم و النهوک، و فیه ما تقدّم عن الزجاج من الاستبعاد. ثم حذر سبحانه عباده من الشیطان فقال:

إِنَّ الشَّیْطانَ لَکُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا أی: فعادوه بطاعة اللّه، و لا تطیعوه فی معاصی اللّه. ثم بین لعباده کیفیة عداوة الشیطان لهم فقال: إِنَّما یَدْعُوا حِزْبَهُ لِیَکُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِیرِ أی: إنما یدعو أشیاعه، و أتباعه، و المطیعین له إلی معاصی اللّه سبحانه لأجل أن یکونوا من أهل النار، و محل الموصول فی قوله: الَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ الرفع علی الابتداء، و لهم عذاب شدید: خبره، أو الرفع علی البدل من فاعل یکونوا، أو النصب علی البدل من حزبه، أو النعت له، أو إضمار فعل یدل علی الذمّ، و الجرّ علی البدل من أصحاب، أو النعت له. و الرفع علی الابتداء أقوی هذه الوجوه، لأنه سبحانه بعد ذکر عداوة الشیطان و دعائه لحزبه؛ ذکر حال الفریقین من المطیعین له، و العاصین علیه فالفریق الأوّل قال: «لهم عذاب شدید» و الفریق الآخر قال فیه: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ أی: یغفر اللّه لهم بسبب الإیمان، و العمل الصالح، و یعطیهم أجرا کبیرا و هو الجنة أَ فَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً هذه الجملة مستأنفة لتقریر ما سبق من ذکر التفاوت بین الفریقین، و «من»: فی موضع رفع بالابتداء، و خبره: محذوف. قال الکسائی: و التقدیر ذهبت نفسک علیهم حسرات. قال: و یدلّ علیه قوله:

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَراتٍ قال: و هذا کلام عربیّ ظریف لا یعرفه إلا القلیل. و قال الزجاج:

تقدیره کمن هداه، و قدّره غیرهما کمن لم یزین له، و هذا أولی لموافقته لفظا و معنی، و قد و هم صاحب الکشاف، فحکی عن الزجاج ما قاله الکسائی. قال النحاس: و الذی قاله الکسائی أحسن ما قیل فی الآیة، لما ذکره من الدلالة علی المحذوف، و المعنی: أن اللّه عزّ و جلّ نهی نبیه صلّی اللّه علیه و سلم عن شدّة الاغتمام بهم، و الحزن علیهم کما قال: فَلَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ «۱» و جملة: فَإِنَّ اللَّهَ یُضِلُّ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ مقرّرة لما قبلها، أی: یضلّ من یشاء أن یضله، و یهدی من یشاء أن یهدیه فَلا تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَراتٍ قرأ الجمهور بفتح الفوقیة و الهاء مسندا إلی النفس، فتکون من باب: لا أرینک هاهنا. و قرأ أبو

جعفر، و شيبة، و ابن محيصن، و الأشهب بضم التاء و كسر الهاء، و نصب «نفسك» و انتصاب «حسرات» على أنه علة: أى للحسرات، و يجوز أن ينتصب على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روى عن سيبويه.
و قال المبرد: إنها تمييز. و الحسرة شدّة الحزن على ما فات من الأمر إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ لا يخفى

(١). الكهف: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۹۰
عليه من أفعالهم و أقوالهم خافية، و الجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد.
و قد أخرج أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عن ابن عباس قال: كنت لا أدرى ما فاطر السموات و الأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: ابتدأتها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال: فاطِرِ السَّماواتِ بديع السموات. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ قال: الصوت الحسن.
و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ الآية قال: ما يفتح اللّه للناس من باب توبة فَلا مُمْسِكَ لَها هم يتوبون إن شاؤوا و إن أبوا، و ما أمسك من باب توبة فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ و هم لا يتوبون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى الآية قال: يقول ليس لك من الأمر شيء.
و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ قال: كل شيء فى القرآن لهم مغفرة و أجر كبير، و رزق كريم: فهو الجنة. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة و الحسن فى قوله: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ قال: الشيطان زين لهم؛ هى و اللّه الضلالات فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ أى: لا تحزن عليهم.

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٤]

وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)
إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)
ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه و عظيم قدرته، ليتفكروا فى ذلك و ليعتبروا به، فقال:
وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ قرأ الجمهور: الرياح، و قرأ ابن كثير، و ابن محيصن، و الأعمش، و يحيى ابن وثاب، و حمزة، و الكسائى «الرّيح» بالإفراد فَتُثِيرُ سَحاباً جاء بالمضارع بعد الماضى استحضارا للصورة، لأن ذلك أدخل فى اعتبار المعتبرين، و معنى كونها: تثير السحاب أنها تزعجه من حيث هو فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ قال أبو عبيدة: سبيله فنسوقه، لأنه قال: فتثير سحابا. قيل النكتة فى التعبير بالماضيين بعد المضارع: الدلالة على التحقق. قال المبرد: ميت و ميّت واحد، و قال هذا قول البصريين، و أنشد:
فتح القدير، ج۴، ص: ۳۹۱ ليس من مات فاستراح بميتإنّما الميت ميّت الأحياء «١»

فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ أى: أحيينا بالمطر الأرض بإنبات ما ينبت فيها، و إن لم يتقدّم ذكر المطر فالسحاب يدل عليه، أو أحيينا بالسحاب، لأنه سبب المطر بَعْدَ مَوْتِها أى: بعد يبسها، استعار الإحياء للنبات و الموت لليبس كَذلِكَ النُّشُورُ أى: كذلك يحيى اللّه العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها، و النشور: البعث، من نشر الإنسان نشورا، و الكاف فى محل رفع على الخبرية، أى: مثل إحياء موات الأرض؛ إحياء الأموات، فكيف تنكرونه و قد شاهدتم غير مرّة ما هو مثله و شبيه به مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ قال الفراء: معناه من كان يريد علم العزة لمن هى؟ فإنها للّه جميعا. و قال قتادة: من كان يريد العزّة فليتعزز بطاعة اللّه، فجعل معنى فلله العزّة: الدعاء إلى طاعة من له العزّة، كما يقال من أراد المال؛ فالمال لفلان، أى: فليطلبه من عنده. و قال الزجاج: تقديره من كان يريد بعباده العزّة، و العزّة له سبحانه، فإن اللّه عزّ و جلّ يعزّه فى الدنيا و الآخرة. و قيل المراد بقوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ المشركون، فإنهم كانوا يتعزّزون بعبادة الأصنام: كقوله: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا «٢» و قيل المراد: الذين كانوا يتعزّزون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ «٣» الآية فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً أى: فليطلبها منه لا- من غيره، و الظاهر فى معنى الآية: أن من كان يريد العزّة و يطلبها من اللّه عزّ و جلّ: فلله العزّة جميعا، ليس لغيره منها شىء، فتشمل الآية كلّ من طلب العزّة، و يكون المقصود بها التنبيه لذوى الأقدار و الهمم؛ من أين تنال العزّة، و من أىّ جهة تطلب؟ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أى: إلى اللّه يصعد لا إلى غيره، و معنى صعوده إليه: قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، و خصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، و هو يتناول كلّ كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر اللّه، و أمر بمعروف، و نهى عن منكر، و تلاوة و غير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد و التمجيد. و قيل المراد بصعوده: صعوده إلى سماء الدنيا. و قيل المراد بصعوده:

علم اللّه به، و معنى: وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما قال الحسن، و شهر بن حوشب، و سعيد بن جبير و مجاهد، و قتادة، و أبو العالية، و الضحاك، و وجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. و قيل إن فاعل يرفعه: هو الكلم الطيب، و مفعوله: العمل الصالح، و وجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد و الإيمان. و قيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى اللّه عزّ و جلّ. و المعنى:

أن اللّه يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب، لأن العمل يحقق الكلام. و قيل: و العمل الصالح يرفع صاحبه، و هو الذى أراد العزّة. و قال قتادة: المعنى أن اللّه يرفع العمل الصالح لصاحبه، أى: يقبله، فيكون قوله:

وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ على هذا: مبتدأ، خبره: يرفعه، و كذا على قول من قال: يرفع صاحبه. قرأ الجمهور «يصعد» من صعد الثلاثى. «و الكلم الطّيّب» بالرفع على الفاعلية. و قرأ على، و ابن مسعود «يصعد» بضم حرف المضارعة من أصعد، «و الكلم الطّيّب» بالنصب على المفعولية و قرأ الضحاك على البناء للمفعول،

---

(١). البيت لعدى بن الرعلاء.

(٢). مريم: ٨١.

(٣). النساء: ٣٩.

و قرأ الجمهور «الكلم» و قرأ أبو عبد الرحمن «الكلام» و قرأ الجمهور «و العمل الصّالح» بالرفع على العطف أو على الابتداء. و قرأ ابن أبى عبلة، و عيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ انتصاب السيئات على أنها صفة لمصدر محذوف، أى: يمكرون المكرات السيئات، و ذلك لأن «مكر» لازم، و يجوز أن يضمن يمكرون: معنى يكسبون،

فتكون السيئات مفعولا به، قال مجاهد و قتادة هم أهل الرياء. و قال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبيّ صلّى اللّه عليه و سلم لما اجتمعوا فى دار الندوة. و قال الكلبى:

هم الذين يعملون السيئات فى الدنيا. و قال مقاتل: هم المشركون، و معنى: لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ لهم عذاب بالغ الغاية فى الشدّة وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ أى: يبطل و يهلك، و منه وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً و المكر فى الأصل: الخديعة و الاحتيال، و الإشارة بقوله: إلى الذين مكروا السيئات على اختلاف الأقوال فى تفسير مكرهم، و جملة: هُوَ يَبُورُ خبر مكر أولئك. ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على البعث و النشور فقال: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أى: خلقكم ابتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم من تراب. و قال قتادة:

يعنى آدم، و التقدير على هذا: خلق أباكم الأوّل، و أصلكم الذى ترجعون إليه من تراب ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ أخرجها من ظهر آبائكم ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً أى: زوج بعضكم ببعض، أو جعلكم أصنافا ذكرانا و إناثا وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ أى: لا يكون حمل و لا وضع إلا و اللّه عالم به، فلا يخرج شىء عن علمه و تدبيره وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ أى: ما يطول عمر أحد، و لا ينقص من عمره إلا فى كتاب، أى: فى اللوح المحفوظ قال الفراء: يريد آخر غير الأوّل، فكنى عنه بالضمير كأنه الأوّل لأن لفظ الثانى لو ظهر كان كالأوّل كأنه قال: و لا ينقص من عمر معمر، فالكناية فى عمره ترجع إلى آخر غير الأوّل، و مثله قولك عندى درهم و نصفه: أى نصف آخر.

قيل: إنما سمى معمرا باعتبار مصيره إليه. و المعنى: و ما يمدّ فى عمر أحد و لا ينقص من عمر أحد، لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائدا، بل على معنى أنه لا يجعل من الابتداء ناقصا إلا و هو فى كتاب.

قال سعيد بن جبير: و ما يعمر من معمر إلا كتب عمره: كم هو سنة، كم هو شهرا، كم هو يوما، كم هو ساعة، ثم يكتب فى كتاب آخر نقص من عمره ساعة، نقص من عمره يوم، نقص من عمره شهر، نقص من عمره سنة حتى يستوفى أجله، فما مضى من أجله فهو النقصان، و ما يستقبل، هو الذى يعمره. و قال قتادة: المعمر من بلغ ستين سنة، و المنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة. و قيل المعنى: إن اللّه كتب عمر الإنسان كذا إن أطاع، و دونه إن عصى فأيهما بلغ فهو فى كتاب، و الضمير على هذا يرجع إلى معمر.

و قيل المعنى: و ما يعمر من معمر إلى الهرم، و لا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب، أى: بقضاء اللّه قاله الضحاك، و اختاره النحاس. قال: و هو أشبهها بظاهر التنزيل، و الأولى أن يقال ظاهر النظم القرآنى أن تطويل العمر و تقصيره: هما بقضاء اللّه و قدره لأسباب تقتضى التطويل، و أسباب تقتضى التقصير.

فمن أسباب التطويل: ما ورد فى صلة الرّحم عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم و نحو ذلك. و من أسباب التقصير الاستكثار من معاصى اللّه عزّ و جلّ، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين سنة، فقد يزيد اللّه له عليها إذا فعل

فتح القدير، ج۴، ص: ۳۹۳

أسباب الزيادة، و قد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، و الكلّ فى كتاب مبين فلا تخالف بين هذه الآية، و بين قوله سبحانه: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ* «۱» و يؤيد هذا قوله سبحانه: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ «۲» و قد قدّمنا فى تفسيرها ما يزيد ما ذكرنا هنا وضوحا و بيانا. قرأ الجمهور «ينقص» مبنيا للمفعول. و قرأ يعقوب و سلام و روى عن أبى عمرو «ينقص» مبنيا للفاعل. و قرأ الجمهور «من عمره» بضمّ الميم. و قرأ الحسن و الأعرج و الزهرى بسكونها، و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكَ إلى ما سبق من الخلق و ما بعده عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لا يصعب عليه منه شىء، و لا يعزب عنه كثير و لا قليل، و لا كبير و لا صغير. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من بديع صنعه، و عجيب قدرته فقال: وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ فالمراد بالبحران العذب و المالح، فالعذب الفرات الحلو، و الأجاج المرّ، و المراد ب سائِغٌ شَرابُهُ الذى يسهل

انحداره فى الحلق لعذوبته. و قرأ عيسى بن عمر «سيّغ» بتشديد الياء، و روى تسكينها عنه، و قرأ طلحة و أبو نهيك «ملح» بفتح الميم «و من كلّ» منهما تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا و هو ما يصاد منهما من حيواناتهما التى تؤكل وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها الظاهر أن المعنى: و تستخرجون منهما حلية تلبسونها. و قال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من المالح، و روى عن الزجاج أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا، لا من كلّ واحد منهما على انفراده، و رجح النحاس قول المبرّد. و معنى تَلْبَسُونَها تلبسون كلّ شىء منها بحسبه، كالخاتم فى الأصبع، و السوار فى الذراع، و القلادة فى العنق، و الخلخال فى الرجل، و مما يلبس حلية السلاح الذى يحمل كالسيف و الدرع و نحوهما وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ أى: فى كلّ واحد من البحرين. و قال النحاس: الضمير يعود إلى الماء المالح خاصة، و لو لا ذلك لقال: فيهما مَواخِرَ يقال مخرت السفينة تمخر: إذا شقت الماء. فالمعنى: و ترى السفن فى البحرين شواقّ للماء بعضها مقبلة، و بعضها مدبرة بريح واحدة، و قد تقدّم الكلام على هذا فى سورة النحل، و اللام فى لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ متعلقة بما يدل عليه الكلام السابق، أى: فعل ذلك لتبتغوا أو بمواخر. قال مجاهد: ابتغاء الفضل هو التجارة فى البحر إلى البلدان البعيدة فى مدّة قريبة كما تقدّم فى البقرة وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اللّه على ما أنعم عليكم به من ذلك. قال أكثر المفسرين: إن المراد من الآية ضرب المثل فى حقّ المؤمن و الكافر، و الكفر و الإيمان، فكما لا يستوى البحران كذلك لا يستوى المؤمن و الكافر، و لا الكفر و الإيمان يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أى: يضيف بعض أجزائهما إلى بعض، فيزيد فى أحدهما بالنقص فى الآخر، و قد تقدّم تفسيره فى آل عمران، و فى مواضع من الكتاب العزيز وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى قدّره اللّه لجريانهما، و هو يوم القيامة. و قيل: هو المدّة التى يقطعان فى مثلها الفلك، و هو سنة:

للشمس، و شهر: للقمر، و قيل: المراد به جرى الشمس فى اليوم، و القمر فى الليلة. و قد تقدّم تفسير هذا مستوفى فى سورة لقمان، و الإشارة بقوله: ذلِكُمُ إلى الفاعل لهذه الأفعال و هو اللّه سبحانه، و اسم

---

(١). الأعراف: ٣۴.

(٢). الرعد: ٣٩.

الإشارة: مبتدأ، و خبره: اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ أى: هذا الذى من صنعته ما تقدّم: هو الخالق المقدّر، و القادر المقتدر المالك للعالم، و المتصرّف فيه، و يجوز أن يكون قوله: له الملك جملة مستقلة فى مقابلة قوله:

وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ أى: لا يقدرون عليه و لا على خلقه، و القطمير:

القشرة الرقيقة التى تكون بين التمرة و النواة، و تصير على النواة كاللفافة لها. و قال المبرّد: هو شقّ النواة. و قال قتادة: هو القمع الذى على رأس النواة. قال الجوهرى: و يقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة تنبت منها النخلة. ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون اللّه بأنهم لا ينفعون و لا يضرّون فقال: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم، لكونها جمادات لا تدرك شيئا من المدركات وَ لَوْ سَمِعُوا على طريقة الفرض، و التقدير مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ لعجزهم عن ذلك. قال قتادة: المعنى و لو سمعوا لم ينفعوكم. و قيل المعنى: لو جعلنا لهم سماعا و حياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع للّه منكم و لم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتموهم إليه من الكفر وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ أى:

يتبرؤون من عبادتكم لهم، و يقولون: ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ و يجوز أن يرجع وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ و ما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار، و هم: الملائكة و الجنّ و الشياطين. و المعنى: أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا، و ينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أى: لا يخبرك مثل من هو خبير بالأشياء عالم بها، و هو اللّه سبحانه، فإنه لا أحد أخبر

بخلقه و أقوالهم، و أفعالهم منه سبحانه، و هو الخبير بكنه الأمور و حقائقها.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: يقوم ملك بالصور بين السماء و الأرض فينفخ فيه، فلا يبقى خلق للّه فى السموات و الأرض إلا من شاء اللّه إلا مات، ثم يرسل اللّه من تحت العرش منيا كمنى الرجال، فتنبت أجسامهم و لحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد اللّه اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ الآية. و أخرج أبو داود، و الطيالسى، و أحمد، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى رزين العقيلى قال: قلت: يا رسول اللّه كيف يحيى اللّه الموتى؟ قال: «أما مررت بأرض مجدبة، ثمّ مررت بها مخضبة تهتزّ خضراء؟

قلت: بلى، قال: كذلك يحيى اللّه الموتى، و كذلك النشور». و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن مسعود قال: إذا حدّثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللّه، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان اللّه و بحمده، و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر و تبارك اللّه، قبض عليهنّ ملك يضمهنّ تحت جناحه، ثم يصعد بهنّ إلى السماء، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلا استغفر لقائلهنّ حتى يجىء بهنّ وجه الرحمن، ثم قرأ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ قال: أداء الفرائض، فمن ذكر اللّه فى أداء فرائضه حمل عمله ذكر اللّه فصعد به إلى اللّه، و من ذكر اللّه و لم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله، و كان عمله أولى به. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ الآية قال: يقول ليس أحد قضيت له طول العمر و الحياة

إلا و هو بالغ ما قدّرت له من العمر، و قد قضيت له ذلك، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدّرت له لا يزاد عليه، و ليس أحد قضيت له أنه قصير العمر و الحياة ببالغ العمر، و لكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتب له، فذلك قوله: وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ يقول: كل ذلك فى كتاب عنده. و أخرج أحمد، و مسلم، و أبو عوانة، و ابن حبان، و الطبرانى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ فى الرّحم بأربعين أو بخمسة و أربعين ليلة، فيقول أىّ ربّ أ شقىّ أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول اللّه و يكتبان، ثم يكتب عمله و رزقه و أجله و أثره و مصيبته، ثمّ تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها و لا ينقص». و أخرج ابن أبى شيبة، و مسلم، و النسائى، و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن مسعود قال: قالت أمّ حبيبة: اللهم أمتعنى بزوجى النبىّ، و بأبى أبى سفيان، و بأخى معاوية، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّك سألت اللّه لآجال مضروبة، و أيّام معدودة، و أرزاق مقسومة، و لن يعجّل اللّه شيئا قبل حلّه أو يؤخّر شيئا، و لو كنت سألت اللّه أن يعيذك من عذاب فى النار، أو عذاب فى القبر كان خيرا و أفضل» و هذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء، و أنه يعتلج هو و القضاء، و بما ورد فى صلة الرحم أنها تزيد فى العمر، فلا معارضة بين الأدلة كما قدّمنا. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ قال: القطمير القشر، و فى لفظ: الجلد الذى يكون على ظهر النواة.

[سورة فاطر (35): الآيات 15 الى 26]

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ (١٩) وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ (٢٠) وَ لَا الظِّلُّ وَ لَا الْحَرُورُ (٢١) وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢۴) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢۵) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢۶)

ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه، و مزيد حاجتهم إلى فضله، فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ أى: المحتاجون إليه فى جميع أمور الدين و الدنيا، فهم الفقراء إليه على الإطلاق و هُوَ الْغَنِيُّ على الإطلاق الْحَمِيدُ أى: المستحقّ للحمد من عباده بإحسانه إليهم. ثم ذكر سبحانه نوعا من الأنواع التى يتحقق عندها افتقارهم إليه، و استغناؤه عنهم فقال: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أى:

إن يشأ يفنكم و يأت بدلكم بخلق جديد يطيعونه و لا يعصونه، أو يأت بنوع من أنواع الخلق، و عالم من العالم غير ما تعرفون وَ ما ذلِكَ الإذهاب لكم و الإتيان بآخرين عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أى: بممتنع و لا متعسر، و قد مضى تفسير هذا فى سورة إبراهيم وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أى: نفس وازرة فحذف

فتح القدير، ج۴، ص: ٣٩۶

الموصوف للعلم به، و معنى تزر: تحمل. و المعنى: لا تحمل نفس حمل نفس أخرى، أى: إثمها بل كلّ نفس تحمل وزرها، و لا تخالف هذه الآية قوله: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «١» لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، و الكلّ من أوزارهم، لا من أوزار غيرهم، و مثل هذا حديث «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فإن الذى سنّ السنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية مستوفى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها قال الفراء: أى نفس مثقلة، قال:

و هذا يقع للمذكر و المؤنث. قال الأخفش: و إن تدع مثقلة إنسانا إلى حملها، و هو ذنوبها لا يُحْمَلْ مِنْهُ أى: من حملها شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى أى: و لو كان الذى تدعوه ذا قرابة لها، لم يحمل من حملها شيئا: و معنى الآية: و إن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى إلى حمل شىء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوّة من تلك الذنوب شيئا، و لو كانت قريبة لها فى النسب، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها و بين الداعية لها؟ و قرئ «ذو قربى» على أن كان تامة، كقوله: وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ «٢» و جملة إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار، و معنى يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ أنه يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه و هو غائب عنهم، أو يخشونه فى الخلوات عن الناس.

قال الزجاج: تأويله أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار، كقوله: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها «٣» و قوله: إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ «۴» و معنى: وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أنهم احتفلوا بأمرها، و لم يشتغلوا عنها بشىء مما يلهيهم وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ التزكى: التطهر من أدناس الشرك و الفواحش، و المعنى: أن من تطهر بترك المعاصى و استكثر من العمل الصالح فإنما يتطهر لنفسه، لأنّ نفع ذلك مختصّ به، كما أن وزر من تدنس لا يكون إلا عليه لا على غيره. قرأ الجمهور «و من تزكّى فإنّما يتزكّى» و قرأ أبو عمرو «فإنّما يزكّى» بإدغام التاء فى الزاى و قرأ ابن مسعود و طلحة «و من أزكى فإنما يزكى» وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ لا إلى غيره، ذكر سبحانه أوّلا أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ثم ذكر ثانيا أن المذنب إن دعا غيره و لو كان من قرابته إلى حمل شىء من ذنوبه لا يحمله، ثم ذكر ثالثا أن ثواب الطاعة مختصّ بفاعلها ليس لغيره منه شىء. ثم ضرب مثلا للمؤمن و الكافر فقال: وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى أى: المسلوب حاسة البصر وَ

الْبَصِيرُ الذى له ملكة البصر، فشبه الكافر بالأعمى، و شبه المؤمن بالبصير وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ أى: و لا تستوى الظلمات و لا النور، فشبه الباطل بالظلمات، و شبه الحقّ بالنور. قال الأخفش: و لا فى قوله: «و لا النّور، و لا الحرور» زائدة، و التقدير: و ما يستوى الظلمات و النور، و لا الظلّ و الحرور، و الحرور: شدّة حرّ الشمس. قال الأخفش: و الحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، و السموم يكون بالليل، و قيل عكسه. و قال رؤبة بن العجاج: الحرور يكون بالليل خاصة، و السموم يكون بالنهار خاصة. و قال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار، و الحرور يكون فيهما. قال النحاس: و هذا أصح. و قال قطرب: الحرور الحرّ، و الظلّ البرد،

---

(١). العنكبوت: ١٣.

(٢). البقرة: ٢٨٠.

(٣). النازعات: ۴۵.

(۴). يس: ١١.

و المعنى: أنه لا يستوى الظلّ الذى لا حرّ فيه و لا أذى، و الحرّ الذى يؤذى. قيل: أراد الثواب و العقاب، و سمى الحرّ حرورا مبالغة فى شدّة الحرّ، لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى: و قال الكلبى: أراد بالظلّ:

الجنة، و بالحرور: النار. و قال عطاء: يعنى ظلّ الليل، و شمس النهار. قيل: و إنما جمع الظلمات، و أفرد النور، لتعدّد فنون الباطل، و اتحاد الحقّ. ثم ذكر سبحانه تمثيلا آخر للمؤمن و الكافر فقال: وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ فشبه المؤمنين بالأحياء، و شبه الكافرين بالأموات، و قيل: أراد تمثيل العلماء و الجهلة. و قال ابن قتيبة: الأحياء: العقلاء، و الأموات: الجهال. قال قتادة: هذه كلها أمثال: أى كما لا تستوى هذه الأشياء؛ كذلك لا يستوى الكافر و المؤمن إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته و وفقهم لطاعته وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ يعنى: الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم، أى: كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع من مات قلبه، قرأ الجمهور بتنوين «مسمع» و قطعه عن الإضافة. و قرأ الحسن، و عيسى الثقفى، و عمرو بن ميمون بإضافة إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أى: ما أنت إلا رسول منذر ليس عليه إلا الإنذار و التبليغ، و الهدى و الضلالة بيد اللّه عزّ و جلّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِ يجوز أن يكون بالحقّ فى محل نصب على الحال من الفاعل، أى: محقين، أو من المفعول، أى: محقا، أو: نعت لمصدر محذوف، أى: إرسالا ملتبسا بالحقّ، أو هو متعلق ببشيرا، أى: بشيرا بالوعد الحقّ، و نذيرا بالوعد الحقّ، و الأولى أن يكون نعتا للمصدر المحذوف، و يكون معنى بشيرا: بشيرا لأهل الطاعة، و نذيرا لأهل المعصية وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أى: ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها، و اقتصر على ذكر النذير دون البشير، لأنه ألصق بالمقام، ثم سلى نبيه صلّى اللّه عليه و سلم و عزّاه، فقال:

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: كذب من قبلهم من الأمم الماضية أنبياءهم جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بالمعجزات الواضحة، و الدلالات الظاهرة وَ بِالزُّبُرِ أى: الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ كالتوراة و الإنجيل، قيل: الكتاب المنير داخل تحت الزبر و تحت البينات، و العطف لتغاير المفهومات، و إن كنت متحدة فى الصدق، و الأولى تخصيص البينات بالمعجزات، و الزبر بالكتب التى فيها مواعظ، و الكتاب بما فيه شرائع و أحكام، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا وضع الظاهر موضع الضمير يفيد التصريح بذمهم بما فى حيز الصلة، و يشعر بعلة الأخذ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أى: فكيف كان نكيرى عليهم و عقوبتى لهم، و قرأ ورش عن نافع، و شيبة بإثبات الياء فى «نكير» وصلا لا وقفا، و قد مضى بيان معنى هذا قريبا.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابن ماجة عن عمرو بن الأحوص أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال

فى حجة الوداع «ألا لا يجنى جان إلا على نفسه، لا يجنى والد على ولده و لا مولود على والده» و أخرج سعيد بن منصور، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن أبى رمثة قال: انطلقت مع أبى نحو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فلما رأيته قال لأبى: ابنك هذا؟ قال: إى و ربّ الكعبة، قال: أما أنه لا يجنى عليك، و لا تجنى عليه، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۹۸

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْ‌ءٌ قال: يكون عليه وزر لا يجد أحدا يحمل عنه من وزره شيئا.

[سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۷ الى ۳۵]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ (۲۷) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (۲۸) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (۲۹) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (۳۰) وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (۳۱)

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (۳۲) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (۳۳) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (۳۴) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (۳۵)

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته الباهرة، و خلقا من مخلوقاته البديعة فقال: أَ لَمْ تَرَ و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أو لكلّ من يصلح له أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً و هذه الرؤية هى القلبية: أى ألم تعلم، و أن و اسمها و خبرها سدّت مسدّ المفعولين فَأَخْرَجْنا بِهِ أى: بالماء، و النكتة فى هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع، و انتصاب مُخْتَلِفاً أَلْوانُها على الوصف لثمرات، و المراد بالألوان: الأجناس و الأصناف، أى: بعضها أبيض، و بعضها أحمر، و بعضها أصفر، و بعضها أخضر، و بعضها أسود وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ الجدد جمع جدة، و هى الطريق. قال الأخفش: و لو كان جمع جديد لقال جدد بضم الجيم و الدال، نحو سرير و سرر. قال زهير:

كأنه أسفع الخدين ذو جددطاو و يرتع بعد الصّيف عريانا

و قيل: الجدد القطع، مأخوذ من جددت الشي‌ء إذا قطعته، حكاه ابن بحر. قال الجوهرى: الجدة:

الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه، و الجدة: الطريقة، و الجمع: جدد و جدائد، و من ذلك قول أبى ذؤيب:

جون السّراة له جدائد أربع «۱» قال المبرد: جدد: طرائق و خطوط. قال الواحدى: و نحو هذا قال المفسرون فى تفسير الجدد. و قال الفراء: هى الطرق تكون فى الجبال كالعروق بيض و سود و حمر واحدها جدة. و المعنى: أن اللّه سبحانه أخبر

---

(۱). و صدر البيت: و الدّهر لا يبقى على حدثانه.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۳۹۹

عن جدد الجبال، و هى طرائقها، أو الخطوط التى فيها بأن لون بعضها البياض و لون بعضها الحمرة، و هو معنى قوله: بِيضٌ وَ

حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها قرأ الجمهور «جدد» بضم الجيم و فتح الدال. و قرأ الزهرى بضمهما جمع جديدة و روى عنه أنه قرأ بفتحهما و ردّها أبو حاتم و صححها غيره و قال: الجدد الطريق الواضح البين وَ غَرابِيبُ سُودٌ الغربيب: الشديد السواد الذى يشبه لونه لون الغراب. قال الجوهرى: تقول هذا أسود غربيب: أى شديد السواد، و إذا قلت غرابيب سود جعلت السود بدلا من غرابيب. قال الفراء:

فى الكلام تقديم و تأخير و تقديره: و سود غرابيب، لأنه يقال أسود غربيب، و قلّ ما يقال غربيب أسود، و قوله:

مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها صفة لجدد، و قوله: وَ غَرابِيبُ معطوف على جدد على معنى: و من الجبال جدد بيض و حمر، و من الجبال غرابيب على لون واحد، و هو السواد، أو على حمر، على معنى: و من الجبال جدد بيض و حمر و سود. و قيل: معطوف على بيض، و لا بدّ من تقدير مضاف محذوف قبل جدد، أى: و من الجبال ذو جدد، لأن الجدد إنما هى ألوان بعضها وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ قوله مختلف: صفة لموصوف محذوف، أى: و منهم صنف، أو نوع أو بعض مختلف ألوانه بالحمرة و السواد و البياض و الخضرة و الصفرة. قال الفراء: أى خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات و الجبال، و إنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان فى هذه الأشياء، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة اللّه و بديع صنعه، و معنى كَذلِكَ أى: مختلفا مثل ذلك الاختلاف، و هو صفة لمصدر محذوف، و التقدير مختلف ألوانه اختلافا كائنا كذلك، أى: كاختلاف الجبال و الثمار. و قرأ الزهرى «و الدواب» بتخفيف الباء. و قرأ ابن السميقع «ألوانها». و قيل: إن قوله: كَذلِكَ متعلق بما بعده، أى: مثل ذلك المطر و الاعتبار فى مخلوقات اللّه، و اختلاف ألوانها، يخشى اللّه من عباده العلماء، و هذا اختاره ابن عطية، و هو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها. و الراجح الوجه الأوّل، و الوقف على كذلك تامّ. ثم استؤنف الكلام و أخبر سبحانه بقوله:

إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ أو هو من تتمة قوله: إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، و بما يليق به من صفاته الجليلة و أفعاله الجميلة، و على كلّ تقدير فهو سبحانه قد عين فى هذه الآية أهل خشيته، و هم العلماء به و تعظيم قدرته. قال مجاهد: إنما العالم من خشى اللّه عزّ و جلّ و قال مسروق: كفى بخشية اللّه علما و كفى بالاغترار جهلا، فمن كان أعلم باللّه كان أخشاهم له. قال الربيع بن أنس: من لم يخش اللّه فليس بعالم. و قال الشعبى: العالم من خاف اللّه. و وجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية و لو أخر انعكس الأمر. و قرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف و نصب العلماء، و رويت هذه القراءة عن أبى حنيفة قال فى الكشاف: الخشية فى هذه القراءة استعارة، و المعنى: أنه يجلّهم و يعظّمهم كما يجلّ المهيب المخشى من الرجال بين الناس، و جملة: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ أى: يستمرّون على تلاوته و يداومونها. و الكتاب: هو القرآن الكريم، و لا وجه لما قيل إن المراد به جنس كتب اللّه وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى: فعلوها فى أوقاتها مع كمال أركانها و أذكارها وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۰

فتح القدير ج۴ ۴۴۹

فيه حثّ على الإنفاق كيف ما تهيأ، فإن تهيأ سرّا فهو أفضل و إلا فعلانية، و لا يمنعه ظنه أن يكون رياء، و يمكن أن يراد بالسرّ: صدقة النفل، و بالعلانية: صدقة الفرض و جملة يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ فى محل رفع على خبرية إنّ كما قال ثعلب و غيره، و المراد بالتجارة ثواب الطاعة و معنى: لَنْ تَبُورَ لن تكسد و لن تهلك، و هى صفة للتجارة و الإخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم، و اللام فى: لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ متعلق بلن تبور، على معنى: أنها لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «۱» و

قيل: إن اللام متعلقة بمحذوف دلّ عليه السياق، أى: فعلوا ذلک ليوفّيهم، و معنى: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التى هى جزاء أعمالهم، و جملة:

إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تعليل لما ذكر من التوفية و الزيادة، أى: غفور لذنوبهم شكور لطاعتهم، و قيل: إن هذه الجملة هى خبر إنّ، و تكون جملة يرجون فى محل نصب على الحال، و الأوّل أولى وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ يعنى: القرآن، و قيل: اللوح المحفوظ على أن من تبعيضية أو ابتدائية، و جملة: هُوَ الْحَقُّ خبر الموصول وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ منتصب على الحال: أى موافقا لما تقدّمه من الكتب إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ أى: محيط بجميع أمورهم ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا المفعول الأوّل لأورثنا: الموصول، و المفعول الثانى: الكتاب، و إنما قدّم المفعول الثانى لقصد التشريف و التعظيم للكتاب، و المعنى: ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب، و هو القرآن، أى قضينا و قدّرنا بأن نورث العلماء من أمتک يا محمّد هذا الكتاب الذى أنزلناه عليک، و معنى اصطفائهم اختيارهم و استخلاصهم، و لا شک أن علماء هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم؛ قد شرفهم اللّه على سائر العباد، و جعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس، و أكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء، و سيد ولد آدم.

قال مقاتل: يعنى قرآن محمّد جعلناه ينتهى إلى الذين اصطفينا من عبادنا. و قيل إن المعنى: أورثناه من الأمم السالفة، أى: أخرناه عنهم و أعطيناه الذين اصطفينا، و الأوّل أولى. ثم قسم سبحانه هؤلاء الذى أورثهم كتابه؛ و اصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام فقال: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قد استشكل كثيرا من أهل العلم معنى هذه الآية، لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلک المقسم، و هو من اصطفاهم من العباد، فكيف يكون من اصطفاه اللّه ظالما لنفسه؟ فقيل: إن التقسيم هو راجع إلى العباد، أى: فمن عبادنا ظالم لنفسه، و هو الكافر، و يكون ضمير يدخلونها عائدا إلى المقتصد و السابق. و قيل: المراد بالظالم لنفسه هو المقصر فى العمل به، و هو المرجئ لأمر اللّه، و ليس من ضرورة ورثة الكتاب مراعاته حقّ رعايته، لقوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ «٢» و هذا فيه نظر، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء. و قيل الظالم لنفسه: هو الذى عمل الصغائر، و قد روى هذا القول عن عمر و عثمان و ابن مسعود و أبى الدرداء و عائشة، و هذا هو الراجح، لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء، و لا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور

---

(١). النساء: ١٧٣.

(٢). الأعراف: ١٦٩.

من ذهب إلى آخر ما سيأتى. و وجه كونه ظالما لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلک الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظا عظيما، و قيل: الظالم لنفسه هو صاحب الكبائر.

و قد اختلف السلف فى تفسير السابق و المقتصد، فقال عكرمة و قتادة و الضحاک: إن المقتصد المؤمن العاصى، و السابق التقىّ على الإطلاق، و به قال الفراء، و قال مجاهد فى تفسير الآية: فمنهم ظالم لنفسه أصحاب المشأمة وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ أصحاب الميمنة وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ السابقون من الناس كلهم. و قال المبرد: إن المقتصد هو الذى يعطى الدنيا حقها و الآخرة حقها. و قال الحسن: الظالم الذى ترجح سيئاته على حسناته، و المقتصد: الذى استوت حسناته و سيئاته، و السابق: من رجحت حسناته على سيئاته. و قال مقاتل: الظالم لنفسه: أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، و المقتصد: الذى لم يصب كبيرة، و السابق: الذى سبق إلى الأعمال الصالحة. و حكى النحاس أن الظالم: صاحب الكبائر، و المقتصد: الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فتكون جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها للذين سبقوا بالخيرات لا غير، قال: و هذا قول جماعة من أهل النظر، لأن الضمير فى حقيقة النظر

لما يليه أولى. و قال الضحاك. فيهم ظالم لنفسه: أى من ذرّيتهم ظالم لنفسه. و قال سهل بن عبد اللّه: السابق: العالم، و المقتصد: المتعلم، و الظالم لنفسه:

الجاهل. و قال ذو النون المصرى: الظالم لنفسه: الذاكر للّه بلسانه فقط، المقتصد: الذاكر بقلبه، و السابق:

الذى لا ينساه. و قال الأنطاكى: الظالم: صاحب الأقوال، و المقتصد: صاحب الأفعال، و السابق:

صاحب الأحوال. و قال ابن عطاء: الظالم: الذى يحب اللّه من أجل الدنيا، و المقتصد: الذى يحب اللّه من أجل العقبى، و السابق: الذى أسقط مراده بمراد الحقّ. و قيل: الظالم الذى يعبد اللّه خوفا من النار، و المقتصد: الذى يعبده طمعا فى الجنة، و السابق: الذى يعبده لا لسبب. و قيل: الظالم الذى يحبّ نفسه، و المقتصد: الذى يحبّ دينه، و السابق: الذى يحبّ ربه. و قيل: الظالم الذى ينتصف و لا ينصف، و المقتصد: الذى ينتصف و ينصف، و السابق: الذى ينصف و لا ينتصف. و قد ذكر الثعلبى و غيره أقوالا كثيرة، و لا شك أن المعانى اللغوية للظالم و المقتصد و السابق معروفة، و هو يصدق على الظلم للنفس بمجرّد إحرامها للحظ، و تفويت ما هو خير لها، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوّتها من الثواب، و إن كان قائما بما أوجب اللّه عليه تاركا لما نهاه اللّه عنه، فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه اللّه، و من أهل الجنة، فلا إشكال فى الآية، و من هذا قول آدم: رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا «۱» و قول يونس إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّالِمِینَ «۲» و معنى المقتصد هو من يتوسط فى أمر الدين، و لا يميل إلى جانب الإفراط، و لا إلى جانب التفريط و هذا من أهل الجنة، و أما السابق: فهو الذى سبق غيره فى أمور الدين، و هو خير الثلاثة.

و قد استشكل تقديم الظالم على المقتصد، و تقديمها على السابق، مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه، و السابق أفضل منهما، فقيل: إن التقديم لا يقتضى التشريف كما فى قوله: لا يَسْتَوِی أَصْحابُ

---

(۱). الأعراف: ۲۳.

(۲). الأنبياء: ۸۷.

النّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ «۱» و نحوها من الآيات القرآنية التى فيها تقديم أهل الشرّ على أهل الخير، و تقديم المفضولين على الفاضلين. و قيل: وجه التقديم هنا أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصى قليل، و السابقين بالنسبة إلى الفريقين أقلّ قليل، فقدّم الأكثر على الأقلّ، و الأوّل أولى فإن الكثرة بمجرّدها لا تقتضى تقديم الذكر، و قد قيل فى وجه التقديم غير ما ذكرنا مما لا حاجة إلى التطويل به، و الإشارة بقوله: ذلِکَ إلى توريث الكتاب و الاصطفاء، و قيل: إلى السبق بالخيرات، و الأوّل أولى، و هو: مبتدأ، و خبره: هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ أى: الفضل الذى لا يقادر قدره، و ارتفاع جَنّاتُ عَدْنٍ على أنها مبتدأ، و ما بعدها خبرها، أو على البدل من الفضل لأنه لما كان هو السبب فى نيل الثواب نزل منزلة المسبب، و على هذا فتكون جملة:

یَدْخُلُونَها مستأنفة و قد قدّمنا أن الضمير فى يدخلونها يعود إلى الأصناف الثلاثة، فلا وجه لقصره على الصنف الأخير، و قرأ زرّ بن حبيش و الترمذى «جنّة» بالإفراد، و قرأ الجحدرى «جنات» بالنصب على الاشتغال، و جوّز أبو البقاء أن تكون جنات خبرا ثانيا لاسم الإشارة، و قرأ أبو عمرو «يدخلونها» على البناء للمفعول، و قوله: یُحَلَّوْنَ خبر ثان لجنات عدن، أو حال مقدّرة، و هو من حليت المرأة فهى حال، و فيه إشارة إلى سرعة الدخول، فإن فى تحليتهم خارج الجنة تأخيرا للدخول، فلما قال: یُحَلَّوْنَ فِیها أشار أن دخولهم على وجه السرعة مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ من الأولى تبعيضية، و الثانية بيانية، أى: يحلون بعض أساور كائنة من ذهب، و الأساور جمع أسورة جمع سوار، و انتصاب لُؤْلُؤاً بالعطف على محل مِنْ أَساوِرَ و قرئ بالجرّ عطفا على ذهب وَ لِباسُهُمْ فِیها حَرِیرٌ

قد تقدّم تفسير الآية مستوفى فى سورة الحج وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ قرأ الجمهور «الحزن» بفتحتين. و قرأ جناح ابن حبيش بضمّ الحاء و سكون الزاى. و المعنى: أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة. قال قتادة: حزن الموت. و قال عكرمة: حزن السيئات و الذنوب و خوف ردّ الطاعات. و قال القاسم: حزن زوال النعم و خوف العاقبة. و قيل حزن أهوال يوم القيامة. و قال الكلبى: ما كان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة.

و قال سعيد بن جبير: همّ الخبز فى الدنيا، و قيل همّ المعيشة. و قال الزجاج: أذهب اللّه عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو معاد. و هذا أرجح الأقوال، فإن الدنيا و إن بلغ نعيمها أىّ مبلغ لا تخلو من شوائب و نوائب تكثر لأجلها الأحزان، و خصوصا أهل الإيمان، فإنهم لا يزالون وجلين من عذاب اللّه خائفين من عقابه، مضطربى القلوب فى كلّ حين، هل تقبل أعمالهم أو تردّ؟ حذرين من عاقبة السوء و خاتمة الشرّ، ثم لا تزال همومهم و أحزانهم حتى يدخلوا الجنة. و أما أهل العصيان: فهم و إن نفس عن خناقهم قليلا فى حياة الدنيا التى هى دار الغرور، و تناسوا دار القرار يوما من دهرهم فلا بدّ أن يشتدّ و جلهم و تعظم مصيبتهم، و تغلى مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت، و قربوا من منازل الآخرة، ثم إذا قبضت أرواحهم، و لاح لهم ما يسوءهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غما و حزنا، فإن تفضل اللّه عليهم بالمغفرة، و أدخلهم الجنة، فقد أذهب عنهم أحزانهم و أزال غمومهم و همومهم إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ أى: غفور لمن عصاه، شكور لمن أطاعه

---

(۱). الحشر: ۲۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۳

الَّذِی أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ أى: دار الإقامة التى يقام فيها أبدا، و لا ينتقل عنها تفضلا منه و رحمة لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ أى: لا يصيبنا فى الجنة عناء و لا تعب و لا مشقة وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ و هو الإعياء من التعب، و الكلال من النصب.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها قال الأبيض و الأحمر و الأسود، و فى قوله: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ قال: طرائق بيضٌ يعنى الألوان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الغربيب الأسود: الشديد السواد. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ قال: طرائق تكون فى الجبل بيض وَ حُمْرٌ فتلك الجدد وَ غَرابِيبُ سُودٌ قال: جبال سود وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ قال:

كَذلِكَ اختلاف الناس و الدّواب و الأنعام كاختلاف الجبال، ثم قال: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ قال: فصل لما قبلها. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ قال: العلماء باللّه الذين يخافونه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: الذين يعلمون أن اللّه على كلّ شىء قدير. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن عدىّ عن ابن مسعود قال:

ليس العلم من كثرة الحديث، و لكن العلم من الخشية. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و الطبرانى عنه قال: كفى بخشية اللّه علما، و كفى باغترار باللّه جهلا. و أخرج أحمد فى الزهد عنه أيضا قال: ليس العلم بكثرة الرواية و لكن العلم الخشية. و أخرج ابن أبى شيبة عن حذيفة قال: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى اللّه. و أخرج عبد الغنى بن سعيد الثقفى فى تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف نزلت فيه إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا قال: هم أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم ورثهم اللّه كلّ كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، و مقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، و سابقهم يدخل الجنة بغير حساب. و أخرج الطيالسى، و أحمد، و عبد بن حميد، و

الترمذی و حسنه، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث عن أبی سعید الخدری عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم: أنه قال فی هذه الآیة «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ قال: هؤلاء کلّهم بمنزلة واحدة، و کلّهم یدخلون الجنّة». و فی إسناده رجلان مجهولان. قال الإمام أحمد فی مسنده قال: حدّثنا شعبة عن الولید بن العیزار، أنه سمع رجلا من ثقیف یحدّث عن رجل من کنانة عن أبی سعید. و أخرج الفریابی، و أحمد، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی، و الحاکم، و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث عن أبی الدرداء قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم یقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا، فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ فأمّا الذین سبقوا فأولئک الذین یدخلون الجنّة بغیر حساب. و أما الذین اقتصدوا فأولئک یحاسبون حسابا یسیرا. و أمّا الذین ظلموا

فتح القدیر، ج۴، ص: ۴۰۴

أنفسهم، فأولئک الذین یحسبون فی طول المحشر، ثمّ هم الذین تلافاهم اللّه برحمته، فهم الذین یقولون: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ إلی آخر الآیة». قال البیهقی: إذا کثرت روایات فی حدیث ظهر أن للحدیث أصلا اه. و فی إسناد أحمد: محمّد بن إسحاق، و فی إسناد ابن أبی حاتم رجل مجهول، لأنه رواه من طریق الأعمش عن رجل عن أبی ثابت عن أبی الدرداء، و رواه ابن جریر عن الأعمش قال: ذکر أبو ثابت. و أخرج ابن أبی حاتم، و الطبرانی عن عوف بن مالک عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قال: «أمتی ثلاثة أثلاث: فثلث یدخلون الجنّة بغیر حساب، و ثلث یحاسبون حسابا یسیرا ثم یدخلون الجنّة، و ثلث یمحّصون و یکشفون، ثم تأتی الملائکة فیقولون وجدناهم یقولون: لا إله إلا اللّه وحده، فیقول اللّه: أدخلوهم الجنّة بقولهم لا إله إلا اللّه وحده، و احملوا خطایاهم علی أهل التکذیب و هی التی قال اللّه: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ و تصدیقها فی التی ذکر فی الملائکة. قال اللّه تعالی: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فجعلهم ثلاثة أفواج. فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذی یکشف و یمحّص، و منهم مقتصد، و هو الذی یحاسب حسابا یسیرا. و منهم سابق بالخیرات، فهو الذی یلج الجنّة بغیر حساب و لا عذاب بإذن اللّه، یدخلونها جمیعا». قال ابن کثیر بعد ذکر هذا الحدیث: غریب جدّا اه. و هذه الأحادیث یقوّی بعضها بعضا و یجب المصیر إلیها، و یدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه علی الکافر، و یؤیدها ما أخرجه الطبرانی، و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث عن أسامة بن زید: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ الآیة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «کلّهم من هذه الأمّة، و کلّهم فی الجنّة» و ما أخرجه الطیالسی، و عبد بن حمید، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی فی الأوسط، و الحاکم، و ابن مردویه عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة أ رأیت قول اللّه ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الآیة، قالت: أما السابق، فمن مضی فی حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فشهد له بالجنة. و أما المقتصد فمن تبع آثارهم، فعمل بمثل عملهم حتی لحق بهم. و أما الظالم لنفسه، فمثلی و مثلک و من اتبعنا، و کلّ فی الجنة. و أخرج ابن جریر عن ابن مسعود قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث یوم القیامة: ثلث یدخلون الجنة بغیر حساب، و ثلث یحاسبون حسابا یسیرا، و ثلث یجیئون بذنوب عظام إلا أنهم لم یشرکوا، فیقول الربّ: أدخلوا هؤلاء فی سعة رحمتی، ثم قرأ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الآیة.

و أخرج سعید بن منصور، و ابن أبی شیبة، و ابن المنذر، و البیهقی فی البعث عن عمر بن الخطاب أنه کان إذا نزع بهذه الآیة ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ قال: ألا إن سابقنا سابق، و مقتصدنا ناج و ظالمنا مغفور له.

و أخرجه العقیلی، و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث من وجه آخر عنه مرفوعا. و أخرجه ابن النجار من حدیث أنس مرفوعا. و أخرج الطبرانی عن ابن عباس قال: السابق بالخیرات یدخل الجنة بغیر حساب، و المقتصد یدخل الجنة برحمة اللّه، و الظالم لنفسه

و أصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، و أخرج سعيد ابن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عثمان بن عفان أنه نزع بهذه الآية، ثم قال: ألا إن سابقنا أهل جهادنا، ألا و إن مقتصدنا أهل حضرنا، ألا و إن ظالمنا أهل بدونا. و أخرج سعيد بن منصور، و البيهقى فى البعث عن البراء بن عازب فى قوله: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ الآية قال:

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۵

أشهد على اللّه أن يدخلهم جميعا الجنة. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و ابن مردويه عنه قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا قال: كلهم ناج و هى هذه الأمة».

و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال: هى مثل التى فى الواقعة أصحاب الميمنة و أصحاب المشأمة. و السابقون: صنفان ناجيان، و صنف هالك. و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عنه فى قوله: فمنهم ظالم لنفسه قال: هو الكافر، و المقتصد: أصحاب اليمين.

و هذا المروىّ عنه رضى اللّه عنه لا يطابق ما هو الظاهر من النظم القرآنى، و لا يوافق ما قدّمنا من الروايات عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و عن جماعة من الصحابة. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن عبد اللّه بن الحارث أن ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية، فقال نجوا كلهم، ثم قال: تحاكت مناكبهم و ربّ الكعبة، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم، و قد قدّمنا عن ابن عباس ما يفيده أن الظالم لنفسه من الناجين، فتعارضت الأقوال عنه. و أخرج الترمذى، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم تلا قول اللّه جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً فقال: «إنّ عليهم التّيجان، إنّ أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق و المغرب». و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الآية قال: هم قوم فى الدنيا يخافون اللّه، و يجتهدون له فى العبادة سرّا و علانية، و فى قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم، فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التى سلفت، فعندها قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ غفر لنا العظيم، و شكر لنا القليل من أعمالنا. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه عنه فى الآية قال: حزن النار.

[سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۶ الى ۴۵]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (۳۶) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (۳۷) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۳۸) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (۳۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (۴۰)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۱) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (۴۲) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (۴۳) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي

السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (۴۴) وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (۴۵)

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۶

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين، ذكر جزاء عباده الكافرين فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا أي: لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا و يستريحوا من العذاب وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها بل كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ و هذه الآية هي مثل قوله سبحانه: لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى «۱» قرأ الجمهور «فيموتوا» بالنصب جوابا للنفي، و قرأ عيسى بن عمر و الحسن بإثبات النون. قال المازني: على العطف على يقضى. و قال ابن عطية: هي قراءة ضعيفة و لا وجه لهذا التضعيف بل هي كقوله: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «۲» كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كلّ من هو مبالغ في الكفر، و قرأ أبو عمرو «نجزى» على البناء للمفعول وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها من الصراخ: و هو الصياح، أي: و هم يستغيثون في النار رافعين أصواتهم، و الصارخ: المستغيث، و منه قول الشاعر:

كنّا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصّراخ له قرع الظّنابيبا «۳»

رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أي و هم يصطرخون يقولون: ربنا ... إلخ. قال مقاتل:

هو أنهم ينادون: ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي نعمل: من الشرك و المعاصي، فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر، و الطاعة بدل المعصية، و انتصاب صالحا على أنه صفة لمصدر محذوف، أي: عملا صالحا، أو صفة لموصوف محذوف، أي: نعمل شيئا صالحا. قيل و زيادة قوله: غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة، فأجاب اللّه سبحانه عليهم بقوله: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ و الاستفهام: للتقريع و التوبيخ، و الواو للعطف على مقدّر كما في نظائره، و ما: نكرة موصوفة، أي: أو لم نعمركم عمرا يتمكن من التذكر فيه من تذكر. فقيل: هو ستون سنة، و قيل: أربعون، و قيل: ثماني عشرة سنة. قال بالأوّل: جماعة من الصحابة، و بالثاني: الحسن و مسروق و غيرهما، و بالثالث: عطاء و قتادة. و قرأ الأعمش «ما يذّكّر» بالإدغام وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ قال الواحدي: قال جمهور المفسرين: هو النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم. و قال عكرمة و سفيان ابن عيينة و وكيع و الحسن بن الفضل و الفراء و ابن جرير: هو الشيب، و يكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شبتم، و قيل: هو القرآن، و قيل: الحمى. قال الأزهري: معناه: أن الحمى رسول الموت، أي: كأنها تشعر بقدومه و تنذر بمجيئه، و الشيب: نذير أيضا، لأنه يأتي في سنّ الاكتهال، و هو علامة لمفارقة سنّ الصبا الذي هو سنّ اللهو و اللعب، و قيل: هو موت الأهل و الأقارب، و قيل: هو كمال العقل، و قيل:

---

(۱). الأعلى: ۱۳.

(۲). المرسلات: ۳۶.

(۳). البيت لسلامة بن جندل، و الظّنابيب: جمع الظنبوب، و هو مسمار يكون في جبّة السّنان، و قرع ظنابيب الأمر: ذلّله.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۷

البلوغ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ أي: فذوقوا عذاب جهنم، لأنكم لم تعتبروا و لم تتعظوا، فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب اللّه، و يحول بينكم و بينه. قال مقاتل: فذوقوا العذاب، فما للمشركين من مانع يمنعهم إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قرأ الجمهور بإضافة عالم إلى غيب، و قرأ جناح ابن حبيش بالتنوين و نصب غيب. و المعنى: أنه عالم بكل شيء و من ذلك أعمالا لا تخفى عليه منها خافية، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا كما قال سبحانه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۱» إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ

الصُّدُورِ تعليل لما قبله، لأنه إذا علم مضمرات الصدور و هى أخفى من كلّ شىء علم ما فوقها بالأولى، و قيل: هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى هُوَ الَّذِی جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِی الْأَرْضِ أى: جعلكم أمة خالفة لمن قبلها. قال قتادة: خلفا بعد خلف و قرنا بعد قرن، و الخلف: هو التالى للمتقدّم، و قيل: جعلكم خلفاءه فى أرضه فَمَنْ كَفَرَ منكم هذه النعمة فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أى: عليه ضرر كفره، لا يتعدّاه إلى غيره وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً أى: غضبا و بغضا وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً أى: نقصا و هلاكا، و المعنى: أن الكفر لا ينفع عند اللّه حيث لا يزيدهم إلا المقت، و لا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار. ثم أمره سبحانه أن يوبخهم و يبكتهم فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: أخبرونى عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة و عبدتموهم من دون اللّه، و جملة: أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ بدل اشتمال من أرأيتم، و المعنى: أخبرونى عن شركائكم، أرونى أىّ شىء خلقوا من الأرض؟ و قيل: إن الفعلان، و هما أرأيتم و أرونى من باب التنازع. و قد أعمل الثانى على ما هو اختيار البصريين أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِی السَّماواتِ أى: أم لهم شركة مع اللّه فى خلقها، أو ملكها، أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة فى الإلهية أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً أى: أم أنزلنا عليهم كتابا بالشركة فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ أى: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حمزة و حفص عن عاصم «بيّنة» بالتوحيد، و قرأ الباقون بالجمع. قال مقاتل: يقول هل أعطينا كفار مكة كتابا، فهم على بيان منه بأن مع اللّه شريكا. ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره فقال: بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً أى: ما يعد الظالمون بعضهم بعضا كما يفعله الرّؤساء و القادة من المواعيد لأتباعهم إلا غرورا يغرونهم به و يزينونه لهم، و هو الأباطيل التى تغرّ و لا حقيقة لها، و ذلك قولهم: إن هذه الآلهة تنفعهم و تقرّبهم إلى اللّه، و تشفع لهم عنده. و قيل: إن الشياطين تعد المشركين بذلك، و قيل: المراد بالوعد الذى يعد بعضهم بعضا هو أنهم ينصرون على المسلمين و يغلبونهم، و جملة: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا مستأنفة لبيان قدرة اللّه سبحانه، و بديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام و عدم قدرتها على شىء، و قيل المعنى: إن شركهم يقتضى زوال السموات و الأرض كقوله: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً «٢» وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ أى: ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه، أو من بعد زوالهما، و الجملة سادّة مسدّ جواب القسم و الشرط، و معنى:

---

(١). الأنعام: ٢٨.

(٢). مريم: ٩٠ و ٩١.

أَنْ تَزُولا لئلا تزولا، أو: كراهة أن تزولا. قال الزجاج: المعنى أن اللّه يمنع السموات و الأرض من أن تزولا، فلا حاجة إلى التقدير. قال الفراء: أى و لو زالتا ما أمسكهما من أحد، قال: و هو مثل قوله:

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ و قيل: المراد زوالهما يوم القيامة، و جملة:

إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسموات و الأرض وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ المراد قريش، أقسموا قبل أن يبعث اللّه محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم، بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، و معنى: مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ يعنى: المكذبة للرسل، و النذير: النبىّ، و الهدى: الاستقامة، و كانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كان الرسل فى بنى إسرائيل فَلَمَّا جاءَهُمْ ما تمنوه، و هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الذى هو أشرف نَذِيرٌ و أكرم مرسل و كان من أنفسهم ما زادَهُمْ مجيئه إِلَّا نُفُوراً منهم عنه، و تباعدا عن إجابته اسْتِكْباراً فِی الْأَرْضِ أى: لأجل الاستكبار و العتوّ وَ لأجل مَكْرَ السَّيِّئِ أى: مكر العمل السيئ، أو: مكروا المكر السيئ، و المكر: هو الحيلة و الخداع، و

العمل القبيح، و أضيف إلى صفته كقوله: مسجد الجامع، و صلاة الأولى، و أنث إحدى لكونه أمة مؤنثة كما قال الأخفش. و قيل المعنى: من إحدى الأمم على العموم، و قيل:

من الأمة التى يقال لها إحدى الأمم تفضيلا لها. قرأ الجمهور «و مكر السّيئ» بخفض همزة السىء، و قرأ الأعمش و حمزة بسكونها وصلا. و قد غلط كثير من النحاة هذه القراءة، و نزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها، قالوا: و إنما كان يقف بالسكون، فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلا، و توجيه هذه القراءة ممكن، بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف كما فى قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه و لا واغل

بسكون الباء من أشرب، و مثله قراءة من قرأ «و ما يشعركم» بسكون الراء، و مثل ذلك قراءة أبى عمرو «إلى بارئكم» بسكون الهمزة، و غير ذلك كثير. قال أبو على الفارسى: هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف، و قرأ ابن مسعود «و مكرا سيّئا» وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ أى: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء. قال الكلبى: يحيق بمعنى يحيط، و الحوق الإحاطة، يقال حاق به كذا إذا أحاط به و هذا هو الظاهر من معنى يحيق فى لغة العرب، و لكن قطرب فسره هنا بينزل، و أنشد:

و قد دفعوا المنيّة فاستقلّت ذراعا بعد ما كانت تحيق

أى تنزل فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ أى: سنة اللّه فيهم؛ بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أى: لا يقدر أحد أن يبدّل سنة اللّه التى سنها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا عنه وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا بأن يحوّل ما جرت به سنة اللّه من العذاب، فيدفعه عنهم، و يضعه على غيرهم، و نفى وجدان التبديل و التحويل؛ عبارة عن نفى وجودهما أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما قبلها و تأكيده،

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۰۹

أى: ألم يسيروا فى الأرض فينظروا ما أنزلنا بعاد و ثمود، و مدين و أمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل، فإن ذلك هو من سنة اللّه فى المكذبين التى لا تبدّل و لا تحوّل، و آثار عذابهم و ما أنزل اللّه بهم موجودة فى مساكنهم ظاهرة فى منازلهم وَ الحال أن أولئك كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً و أطول أعمارا، و أكثر أموالا، و أقوى أبدانا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ أى: ما كان ليسبقه و يفوته من شىء من الأشياء كائنا ما كان فيهما إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً أى: كثير العلم، و كثير القدرة لا يخفى عليه شىء، و لا يصعب عليه أمر وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا من الذنوب و عملوا من الخطايا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها أى الأرض مِنْ دَابَّةٍ من الدواب التى تدبّ كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلذنوبهم، و أما غيرهم فلشؤم معاصى بنى آدم. و قيل: المراد ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدبّ من بنى آدم و الجنّ، و قد قال بالأوّل ابن مسعود و قتادة، و قال بالثانى الكلبى. و قال ابن جريج؛ و الأخفش، و الحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو يوم القيامة فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً أى: بمن يستحق منهم الثواب، و من يستحق منهم العقاب، و العامل فى إذا هو جاء، لا بصيرا، و فى هذا تسلية للمؤمنين، و وعيد للكافرين.

و قد أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى السنن عن ابن عباس فى قوله: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ قال: ستين سنة. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عنه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين؟ و هو العمر الذى قال اللّه أ و لم

نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر» و فى إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومى، و فيه مقال. و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و البخارى و النسائى، و البزار، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أعذر اللّه إلى امرئ أخّر عمره حتّى بلغ ستين سنة» و أخرج عبد بن حميد، و الطبرانى، و الحاكم، و ابن مردويه عن سهل بن سعد مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير عن علىّ ابن أبى طالب قال: العمر الذى عمرهم اللّه به ستون سنة. و أخرج الترمذى، و ابن ماجة، و الحاكم، و ابن المنذر، و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أعمار أمّتى ما بين السّتين إلى السّبعين، و أقلّهم من يجوز ذلك». قال الترمذى بعد إخراجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ثم أخرجه فى موضع آخر من كتاب الزهد و قال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبى صالح عن أبى هريرة، و قد روى من غير وجه عنه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: هو ستّ و أربعون سنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: العمر الذى أعذر اللّه إلى ابن آدم فيه بقوله: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أربعون سنة.

و أخرج أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الدارقطنى فى الأفراد، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الخطيب فى تاريخه عن أبى هريرة قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول على المنبر: قال: وقع

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۰

فى نفس موسى هل ينام اللّه عزّ و جلّ؟ فأرسل اللّه إليه ملكا فأرّقه ثلاثا و أعطاه قارورتين، فى كلّ يد قارورة، و أمره أن يحتفظ بهما، فجعل ينام و تكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ، فيحبس إحداهما على الأخرى، حتّى نام نومة، فاصطفقت يداه و انكسرت القارورتان. قال: ضرب اللّه له مثلا: إنّ اللّه تبارك و تعالى لو كان ينام لم تستمسك السّماء و الأرض» و أخرجه ابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن سلام أن موسى قال:

يا جبريل هل ينام ربّك؟ فذكر نحوه. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه أن موسى فذكر نحوه. و أخرج الفريابى، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال:

إنّه كاد الجعل ليعذب فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ الآية.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۱

سورة يس

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: بالإجماع إلا أن فرقة قالت: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، و ينتقلوا إلى جوار مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و سيأتى بيان ذلك. و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: سورة يس نزلت بمكة و أخرج ابن مردويه عن عائشة مثله. و أخرج الدارمى، و الترمذى، و محمّد بن نصر، و البيهقى فى الشعب عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ لكلّ شىء قلبا، و قلب القرآن يس، من قرأ يس، كتب اللّه له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرّات» قال الترمذى بعد إخراجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، و فى إسناده هارون و أبو محمّد، و هو شيخ مجهول، و فى الباب عن أبى بكر، و لا يصح لضعف إسناده. و أخرج البزار من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ لكلّ شىء قلبا، و قلب القرآن يس»، ثم قال بعد إخراجه: لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد، يعنى زيد بن الحباب عن حميد المكى مولى آل

علقمة. و أخرج الدارمی، و أبو یعلی، و الطبرانی فی الأوسط، و ابن مردویه، و البیهقی فی الشعب عن أبی هریرة عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم: «من قرأ یس فی لیلة ابتغاء وجه اللّه غفر له فی تلک اللّیلة» قال ابن کثیر: إسناده جید. و أخرج ابن حبان، و الضیاء عن جندب بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم:

«من قرأ یس فی لیلة ابتغاء وجه اللّه غفر له» و إسناده فی صحیح ابن حبان هکذا: حدّثنا محمّد بن إسحاق ابن إبراهیم مولی ثقیف، حدثنا الولید بن شجاع بن الولید الکوبی، حدّثنا أبی، حدثنا زیاد بن خیثمة، حدثنا محمّد بن جحادة عن الحسن عن جندب بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فذکره. و أخرج أحمد، و أبو داود، و النسائی، و ابن ماجة، و محمّد بن نصر، و ابن حبان و الطبرانی، و الحاکم، و البیهقی فی الشعب عن معقل بن یسار أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قال: «یس قلب القرآن، لا یقرؤها عبد یرید اللّه و الدّار الآخرة إلا غفر له ما تقدّم من ذنبه، فاقرؤوها علی موتاکم» و قد ذکر له أحمد إسنادین: أحدهما فیه مجهول، و الآخر ذکر فیه عن أبی عثمان و قال: و لیس بالنهدی عن أبیه عن معقل. و أخرج سعید بن منصور، و البیهقی عن حسان بن عطیة أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قال: «من قرأ یس فکأنّما قرأ القرآن عشر مرّات». و أخرج ابن الضریس و ابن مردویه و الخطیب و البیهقی عن أبی بکر الصدیق قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «سورة یس تدعی فی التوراة المعمّمة، تعمّ صاحبها بخیر الدنیا و الآخرة، تکابد عنه بلوی الدّنیا و الآخرة، و تدفع عنه أهاویل الآخرة، و تدعی الدّافعة و القاضیة، تدفع عن صاحبها کلّ سوء، و تقضی له کلّ حاجة، من قرأها عدلت عشرین حجّة، و من سمعها عدلت له ألف دینار فی سبیل اللّه، و من کتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء، و ألف نور، و ألف یقین، و ألف برکة، و ألف رحمة، و نزعت عنه کلّ غلّ و داء» قال البیهقی:

تفرّد به عبد الرحمن بن أبی بکر الجدعانی عن سلیمان بن رافع الجندی، و هو منکر. قلت: و هذا الحدیث

فتح القدیر، ج۴، ص: ۴۱۲

هو الذی تقدّمت الإشارة من الترمذی إلی ضعف إسناده، و لا یبعد أن یکون موضوعا، فهذه الألفاظ کلها منکرة بعیدة من کلام من أوتی جوامع الکلم، و قد ذکره الثعلبی من حدیث عائشة، و ذکره الخطیب من حدیث أنس. و ذکر نحوه الخطیب من حدیث علیّ بأخصر منه. و أخرج البزار عن ابن عباس قال: قال النبی صلّی اللّه علیه و سلم فی سورة یس: «لوددت أنّها فی قلب کلّ إنسان من أمتی» و إسناده هکذا: قال حدثنا سلمة ابن شبیب، حدّثنا إبراهیم بن الحکم بن أبان عن أبیه عن عکرمة عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فذکره. و أخرج الطبرانی و ابن مردویه قال السیوطی بسند ضعیف عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم:

«من دوام علی قراءة یس کلّ لیلة ثمّ مات مات شهیدا». و أخرج الدارمی عن ابن عباس قال: من قرأ یس حین یصبح أعطی یسر یومه حتی یمسی، و من قرأها فی صدر لیلته أعطی یسر لیلته حتی یصبح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة یس (۳۶): الآیات ۱ الی ۱۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یس (۱) وَ الْقُرْآنِ الْحَکِیمِ (۲) إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۳) عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۴)

تَنْزِیلَ الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلی أَکْثَرِهِمْ فَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۷) إِنَّا جَعَلْنا فِی أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِیَ إِلَی الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَیْناهُمْ فَهُمْ لا یُبْصِرُونَ (۹)

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢)

قوله: يس قرأ الجمهور بسكون النون، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حمزة و حفص و قالون و ورش بإدغام النون فى الواو الذى بعدها، و قرأ عيسى بن عمر بفتح النون، و قرأ ابن عباس، و ابن أبى إسحاق، و نصر بن عاصم بكسرها، فالفتح على البناء أو على أنه مفعول فعل مقدّر تقديره: اتل يس، و الكسر على البناء أيضا كجير، و قيل الفتح و الكسر للفرار من التقاء الساكنين. و أما وجه قراءة الجمهور بالسكون للنون، فلكونها مسرودة على نمط التعديد؛ فلا حظ لها من الإعراب. و قرأ هارون الأعور و محمّد بن السميقع و الكلبى بضم النون على البناء كمنذ و حيث و قط، و قيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هذه يس، و منعت من الصرف للعلمية و التأنيث.

و اختلف فى معنى هذه اللفظة، فقيل: معناها يا رجل، أو يا إنسان. قال ابن الأنبارى: الوقف على يس حسن لمن قال هو افتتاح للسورة، و من قال معناه يا رجل لم يقف عليه. و قال سعيد بن جبير و غيره:

هو اسم من أسماء محمّد صلّى اللّه عليه و سلم دليله إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ و منه قول السعد الحميرى:

يا نفس لا تمحضى بالنّصح جاهدةعلى المودّة إلّا آل ياسين

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۳

و منه قوله: سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ «١» أى على آل محمّد، و سيأتى فى الصافات ما المراد بآل ياسين.

قال الواحدى: قال ابن عباس و المفسرون: يريد يا إنسان: يعنى محمّدا صلّى اللّه عليه و سلم. و قال أبو بكر الوراق: معناه يا سيد البشر. و قال مالك: هو اسم من أسماء اللّه تعالى، روى ذلك عنه أشهب. و حكى أبو عبد الرحمن السلمى عن جعفر الصادق أن معناه يا سيد. و قال كعب: هو قسم أقسم اللّه به، و رجح الزجاج أن معناه يا محمّد.

و اختلفوا هل هو عربىّ أو غير عربىّ؟ فقال سعيد بن جبير و عكرمة: حبشى، و قال الكلبى: سريانى تكلمت به العرب فصار من لغتهم. و قال الشعبى: هو بلغة طيئ. و قال الحسن: هو بلغة كلب. و قد تقدّم فى طه و فى مفتتح سورة البقرة ما يغنى عن التطويل هاهنا وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ بالجرّ على أنه مقسم به ابتداء.

و قيل هو معطوف على يس على تقدير كونه مجرورا بإضمار القسم. قال النقاش: لم يقسم اللّه لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا لمحمّد صلّى اللّه عليه و سلم تعظيما له و تمجيدا، و الحكيم المحكم الذى لا يتناقض و لا يتخالف، أو الحكيم قائله، و جواب القسم إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ و هذا ردّ على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم: لَسْتَ مُرْسَلًا «٢» و قوله: عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ خبر آخر لإنّ، أى: إنك على صراط مستقيم، و الصراط المستقيم: الطريق القيم الموصل إلى المطلوب. قال الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدّموك، و يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو، و أبو بكر برفع «تنزيل» على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو تنزيل، و يجوز أن يكون خبرا لقوله يس إن جعل اسما للسورة، و قرأ الباقون بالنصب على المصدرية، أى: نزّل اللّه ذلك تنزيل العزيز الرحيم. و المعنى: أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم، و قيل المعنى: إنك يا محمّد تنزيل العزيز الرحيم، و الأوّل أولى. و قيل: هو منصوب على المدح على قراءة من قرأ بالنصب، و عبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس التنزيل، و قرأ أبو حيوة، و الترمذى، و أبو جعفر يزيد بن القعقاع و شيبة «تنزيل» بالجرّ على النعت للقرآن أو البدل منه، و اللام فى لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ يجوز أن تتعلق بتنزيل، أو بفعل مضمر يدلّ عليه من المرسلين، أى: أرسلناك لتنذر، و «ما» فى ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ هى النافية، أى: لم ينذر آباؤهم، و يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة، أى: لتنذر قوما الذى أنذره آباؤهم، أو لتنذرهم عذابا أنذره آباؤهم، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: إنذار آبائهم، و

على القول بأنها نافيـة يكون المعنى: ما أنـذر آباؤهم برسول من أنفسـهم، و يجوز أن يراد ما أنـذر آباؤهم الأقربون لتطاول مـدة الفترة، و قوله: فَهُمْ غافِلُونَ متعلق بنفى الإنذار على الوجه الأوّل:
أى لم ينـذر آباؤهم فهم بسبب ذلك غافلون، و على الوجوه الآخرة متعلق بقوله لتنذر، أى: فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم، و قـد ذهب أكثر أهـل التفسـير إلى أن المعنى على النفى، و هو الظـاهر من النظم لترتيب فهم غـافلون على ما قبله، و اللام فى قوله: لَقَـدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْـثَرِهِمْ هى الموطئـة للقسم، أى: و اللّه لقـد حقّ القول على أكثرهم؛ و معنى حقّ: ثبت و وجب القول، أى: العذاب على أكثرهم، أى: أكثر أهل

---

(١). الصافات: ١٣٠.

(٢). الرعد: ٤٣.

فتح القدير، ج٤، ص: ٤١٤

مكـة، أو أكثر الكفـار على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، و هم من مات على الكفر و أصرّ عليه طول حياته فيتفرّع قوله: فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ على مـا قبله بهـذا الاعتبـار، أى: لأـن اللّه سـبحانه قـد علم منهم الإصـرار على مـا هم فيه من الكفر و الموت عليه، و قيل: المراد بـالقول المـذكور هنـا هو قوله سبحانه: فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْـكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَـكَ «١» و جملـة إِنَّا جَعَلْنـا فِى أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الـذين غلت أعناقهم فَهِىَ أى: الأغلال منتهية إِلَى الْأَذْقانِ فلا يقدرون عند ذلك على الالتفـات و لاـ يتمكنـون من عطفهـا، و هو معنى قوله: فَهُمْ مُقْمَحُونَ أى: رافعون رؤوسـهم غـاضون أبصـارهم. قـال الفراء و الزجاج: المقمح: الغاضّ بصـره بعد رفع رأسه؛ و معنى الإقماح رفع الرأس و غضّ البصـر، يقال أقمح البعير رأسه و قمح: إذا رفع رأسه و لم يشرب الماء، قال الأزهرى: أراد اللّه أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أذقانهم و رؤوسهم صعداء، فهم مرفوعو الرؤوس رفع الأغلال إياها.
و قال قتادة: معنى مقمحون: مغلولون، و الأوّل أولى، و منه قول الشاعر:
و نحن على جوانبها قعودنغضّ الطّرف كالإبل القماح
قال الزجاج: قيل للكانونين شهرا قماح، لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رؤوسها لشدة البرد، و أنشد قول أبى زيد الهذلى:
فتى ما ابن الأغرّ إذا شتوناو حبّ الزّاد فى شهرى قماح
قال أبو عبيـدة: قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض و لم يشـرب. و قال أبو عبيدة أيضا: هو مثل ضـربه اللّه لهم فى امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول، كما يقال فلان حمار، أى: لا يبصر الهدى، و كما قال الشاعر:
لهم عن الرّشـد أغلاـل و أقيـاد و قـال الفراء: هـذا ضـرب مثـل، أى: حسـبناهم عن الإنفاق فى سبيل اللّه، و هو كقوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ «٢» و به قال الضحاك. و قيل: الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم فى النار من وضع الأغلال فى أعناقهم كما قال تعالى: إِذِ الْأَغْلالُ فِى أَعْناقِهِمْ «٣» و قرأ ابن عباس «إنّا جعلنا فى أيمانهم أغلالا» قال الزجاج: أى فى أيـديهم. قال النحاس: و هـذه القراءة تفسير و لا يقرأ بما خالف المصـحف. قال: و فى الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير: إنا جعلنا فى أعناقهم و فى أيديهم أغلالا فهى إلى الأذقان؛ فلفظ هى كناية عن الأيدى لا عن الأعناق، و العرب تحذف مثل هذا، و نظيره سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «٤» و تقـديره: و سـرابيل تقيكم البرد، لأـن مـا وقى من الحرّ وقى من البرد، لأن الغلّ إذا كان فى العنق فلا بـدّ أن يكون فى اليـد، و لاـ سيما و قـد قـال اللّه فَهِىَ إِلَى الْأَذْقـانِ فقـد علم أنه يراد به الأيـدى فهم مقمحون، أى: رافعو رؤوسـهم لاـ يسـتطيعون الإطراق، لأن من غلت يداه إلى ذقنه ارتفع رأسه. و روى عن ابن عباس أنه قرأ «إنا جعلنا فى أيديهم أغلالا» و عن ابن مسعود أنه

قرأ «إنا جعلنا فی أيمانهم أغلالا» كما روی سابقا من قراءة ابن عباس

---

(۱). ص: ۸۴ و ۸۵.

(۲). الإسراء: ۲۹.

(۳). غافر: ۷۳.

(۴). النحل: ۸۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۵

وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا أی: منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلی الإيمان، كالمضروب أمامه و خلفه بالأسداد، و السدّ بضم السين و فتحها لغتان، و من هذا المعنی فی الآية قول الشاعر:

و من الحوادث لا أبالك أنّنی ضربت علیّ الأرض بالأسداد

لا أهتدی فيها لموضع تلعة بين العذيب و بين أرض مراد

فَأَغْشَيْناهُمْ أی: غطينا أبصارهم فَهُمْ بسبب ذلک لا يُبْصِرُونَ أی لا يقدرون علی إبصار شیء. قال الفراء: فألبسنا أبصارهم غشاوة: أی عمی، فهم لا يبصرون سبيل الهدی، و كذا قال قتادة: إن المعنی لا يبصرون الهدی. و قال السدّی: لا يبصرون محمّدا حين ائتمروا علی قتله. و قال الضحاک:

و جعلنا من بين أيديهم سدّا: أی الدنيا و من خلفهم سدّا: أی الآخرة فأغشيناهم فهم لا يبصرون: أی عموا عن البعث، و عموا عن قبول الشرائع فی الدنيا. و قيل ما بين أيديهم الآخرة و ما خلفهم الدنيا، قرأ الجمهور بالغين المعجمة: أی غطينا أبصارهم، فهو علی حذف مضاف. و قرأ ابن عباس، و عمر بن عبد العزيز، و الحسن، و يحيی ابن يعمر، و أبو رجاء، و عكرمة بالعين المهملة من العشا، و هو ضعف البصر. و منه وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ «۱» وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أی: إنذارک إياهم و عدمه سواء. قال الزجاج: أی من أضله اللّه هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار إنما ينفع الإنذار من ذكر فی قوله: إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ أی: اتبع القرآن، و خشی اللّه فی الدنيا، و جملة «لا يؤمنون» مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء، أو فی محل نصب علی الحال، أو بدل، و بالغيب فی محل نصب علی الحال من الفاعل أو المفعول فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ أی: بشر هذا الذی اتبع الذكر، و خشی الرحمن بالغيب بمغفرة عظيمة و أجر كريم، أی: حسن، و هو الجنة. ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتی فقال: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتی أی: نبعثهم بعد الموت. و قال الحسن و الضحاک: أی نحييهم بالإيمان بعد الجهل، و الأوّل أولی. ثم توعدهم بكتب آثارهم فقال: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا أی أسلفوا من الأعمال الصالحة و الطالحة وَ آثارَهُمْ أی ما أبقوه من الحسنة التی لا ينقطع نفعها بعد الموت: كمن سنّ سنة حسنة أو نحو ذلک، أو السيئات التی تبقی بعد موت فاعلها، كمن سنّ سنة سيئة. قال مجاهد و ابن زيد: و نظيره قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ «۲» و قوله: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ «۳» و قيل المراد بالآية آثار المشائين إلی المساجد، و به قال جماعة من الصحابة و التابعين. قال النحاس: و هو أولی ما قيل فی الآية لأنها نزلت فی ذلک. و يجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها، و عمومها يقتضی كتب جميع آثار الخير و الشرّ، و من الخير تعليم العلم و تصنيفه، و الوقف علی القرب، و عمارة المساجد، و القناطر. و من الشرّ ابتداع المظالم و إحداث ما يضرّ بالناس، و يقتدی به أهل الجور، و يعملون عليه من مكس أو غيره، و لهذا قال سبحانه وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ أی: و كلّ شیء من أعمال العباد و غيرها كائنا ما كان فی إمام مبين، أی: كتاب

---

(۱). الزخرف: ۳۶.

(۲). الانفطار: ۵.

(۳). القيامة: ۱۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۱۶

مقتدى به موضح لكل شىء. قال مجاهد و قتادة و ابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، و قالت فرقة: أراد صحائف الأعمال. قرأ الجمهور «و نكتب» على البناء للفاعل. و قرأ زرّ و مسروق على البناء للمفعول. و قرأ الجمهور كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ بنصب كلّ على الاشتغال. و قرأ أبو السّمّال بالرفع. على الابتداء.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود و ابن عباس فى قوله: يس قالا: يا محمّد. و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله:

يس قال: يا إنسان. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن و الضحاك و عكرمة مثله. و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة، حتّى تأذى به ناس من قريش، حتّى قاموا ليأخذوه، و إذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، و إذا هم عمى لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، فقالوا: ننشدك اللّه و الرّحم يا محمّد، قال: و لم يكن بطن من بطون قريش إلا و للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فيهم قرابة، فدعا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إلى قوله: أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد». و فى الباب روايات فى سبب نزول ذلك، هذه الرواية أحسنها و أقربها إلى الصحة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الأغلال ما بين الصدر إلى الذقن فَهُمْ مُقْمَحُونَ كما تقمح الدابة باللجام. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله:

وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا الآية قال: كانوا يمرّون على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فلا يرونه. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: اجتمعت قريش بباب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ينتظرون خروجه ليؤذوه، فشقّ ذلك عليه، فأتاه جبريل بسورة يس، و أمره بالخروج عليهم، فأخذ كفا من تراب و خرج و هو يقرؤها و يذرّ التراب على رؤوسهم، فما رأوه حتى جاز، فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب، و جاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا ننتظر محمّدا، فقال: لقد رأيته داخلا المسجد، قال: قوموا فقد سحركم. و أخرج عبد الرزاق، و الترمذى و حسنه، و البزار، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى قال: كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فأنزل اللّه إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ فدعاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: إنّه يكتب آثاركم، ثم قرأ عليهم الآية فتركوا. و أخرج الفريابى، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و فى صحيح مسلم و غيره من حديث جابر قال: «إنّ بنى سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم و يتحوّلوا قريبا من المسجد، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

يا بنى سلمة، دياركم تكتب آثاركم».

[سورة يس (۳۶): الآيات ۱۳ الى ۲۷]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (۱۳) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (۱۴) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (۱۵) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (۱۶) وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۱۷)

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

قوله: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ قد تقدّم الكلام على نظير هذا فى سورة البقرة، و سورة النمل، و المعنى: اضرب لأجلهم مثلا، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلا: أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية، فعلى الأوّل لما قال تعالى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ و قال: لِتُنْذِرَ قَوْماً قال قل لهم: ما أنا بدعا من الرسل، فإن قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون، و أنذروهم بما أنذرتكم، و ذكروا التوحيد، و خوّفوا بالقيامة، و بشروا بنعيم دار الإقامة. و على الثانى لما قال: إن الإنذار لا ينفع من أضله اللّه، و كتب عليه أنه لا يؤمن، قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: اضرب لنفسك و لقومك مثلا: أى مثل لهم عند نفسك مثلا بأصحاب القرية حيث جاءهم ثلاثة رسل و لم يؤمنوا، و صبر الرسل على الإيذاء و أنت جئت إليهم واحدا، و قومك أكثر من قوم الثلاثة، فإنهم جاءوا إلى أهل القرية، و أنت بعثتك إلى الناس كافة. و المعنى: و اضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية، أى: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، فترك المثل، و أقيم أصحاب القرية مقامه فى الإعراب. و قيل: لا حاجة إلى الإضمار، بل المعنى: اجعل أصحاب القرية لهم مثلا على أن يكون مثلا و أصحاب القرية مفعولين لا ضرب، أو يكون أصحاب القرية بدلا من مثلا، و قد قدّمنا الكلام على المفعول الأوّل من هذين المفعولين هل هو مثلا أو أصحاب القرية. و قد قيل: إن ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ «١» و يستعمل أخرى فى ذكر حالة غريبة، و بيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيره لها كما فى قوله:

وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ «٢» أى: بينا لكم أحوالا بديعة غريبة. هى فى الغرابة كالأمثال فقوله سبحانه هنا وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا يصح اعتبار الأمرين فيه. قال القرطبى: هذه القرية هى إنطاكية فى قول جميع المفسرين، و قوله: إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ بدل اشتمال من أصحاب القرية، و المرسلون: هم أصحاب عيسى بعثهم إلى أهل إنطاكية للدّعاء إلى اللّه، فأضاف اللّه سبحانه الإرسال إلى نفسه فى قوله: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ لأن عيسى أرسلهم بأمر اللّه سبحانه، و يجوز أن يكون اللّه أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء، فكذبوهما فى الرسالة، و قيل ضربوهما و سجنوهما. قيل: و اسم الاثنين يوحنا و شمعون. و قيل: أسماء الثلاثة صادق و مصدوق و شلوم قاله ابن جرير و غيره. و قيل: سمعان و يحيى و بولس فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ قرأ الجمهور

---

(١). التحريم: ١٠.

(٢). إبراهيم: ۴۵.

بالتشديد، و قرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاى. قال الجوهرى «فعزّزنا» يخفف و يشدّد، أى: قوينا و شدّدنا فالقراءتان على هذا بمعنى. و قيل: التخفيف بمعنى غلبنا و قهرنا، و منه وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ «١» و التشديد بمعنى: قوّينا و كثرنا. قيل: و هذا الثالث هو شمعون، و قيل غيره فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ أى: قال الثلاثة جميعا، و جاءوا بكلامهم هذا مؤكدا لسبق التكذيب للاثنين، و التكذيب لهما تكذيب للثالث، لأنهم أرسلوا جميعا بشىء واحد، و هو الدعاء إلى اللّه عزّ و جلّ، و هذه الجملة مستأنفة جواب

سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: ما قال هؤلاء الرّسل بعد التعزيز لهم بثالث؟ و كذلك جملة: قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فإنها مستأنفة جواب سؤال قدّر: كأنه قيل فما قال لهم أهل إنطاكية، فقيل: قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، أى: مشاركون لنا فى البشرية، فليس لكم مزية علينا تختصون بها. ثم صرّحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا: وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ مما تدّعونه أنتم و يدّعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل و أتباعهم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ أى: ما أنتم إلا تكذبون فى دعوى ما تدّعون من ذلك، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيدا بليغا لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية، و هو قوله: رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ فأكدوا الجواب بالقسم الذى يفهم من قولهم: ربنا يعلم، و بإنّ، و باللام وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أى: ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور و الوضوح، و ليس علينا غير ذلك، و هذه الجملة مستأنفة كالتى قبلها، و كذلك جملة: قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ فإنها مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، أى: إنا تشاءمنا بكم، لم تجدوا جوابا تجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب المبنى على الجهل المنبئ عن الغباوة العظيمة، و عدم وجود حجة تدفعون الرسل بها. قال مقاتل: حبس عنهم المطر ثلاث سنين. قيل: إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين، ثم رجعوا إلى التجبر و التكبر لما ضاقت صدورهم و أعيتهم العلل فقالوا: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ أى: لئن لم تتركوا هذه الدعوى و تعرضوا عن هذه المقالة لنرجمنكم بالحجارة وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ أى: شديد فظيع. قال الفراء: عامة ما فى القرآن من الرجم المراد به القتل.

و قال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة. قيل: و معنى العذاب الأليم: القتل، و قيل: الشتم، و قيل:

هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص و هذا هو الظاهر. ثم أجاب عليهم الرسل دفعا لما زعموه من التطير بهم قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أى: شأمكم معكم من جهة أنفسكم، لازم فى أعناقكم، و ليس هو من شؤمنا. قال الفراء: طائركم معكم: أى رزقكم و عملكم و به قال قتادة. قرأ الجمهور «طائركم» اسم فاعل: أى ما طار لكم من الخير و الشرّ، و قرأ الحسن «طيركم» أى: تطيركم أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ قرأ الجمهور من السبعة و غيرهم بهمزة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم فى التسهيل و التحقيق، و إدخال ألف بين الهمزتين و عدمه. و قرأ أبو جعفر و زرّ بن حبيش و ابن السميقع و طلحة بهمزتين مفتوحتين. و قرأ الأعمش و عيسى بن عمر و الحسن «أين» بفتح الهمزة و سكون الياء على صيغة الظرف.

---

(١). ص: ٢٣.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤١٩

و اختلف سيبويه و يونس إذا اجتمع استفهام و شرط أيّهما يجاب؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب الاستفهام، و ذهب يونس إلى أنه يجاب الشرط، و على القولين فالجواب هنا محذوف، أى: أئن ذكرتم فطائركم معكم لدلالة ما تقدّم عليه. و قرأ الماجشون «أن ذكرتم» بهمزة مفتوحة، أى: لأن ذكرتم، ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام و الشرط من كون التذكير سببا للشؤم فقالوا: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أى: ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى المعصية. قال قتادة: مسرفون فى تطيركم. و قال يحيى بن سلام: مسرفون فى كفركم. و قال ابن بحر: السرف هنا الفساد، و الإسراف فى الأصل: مجاوزة الحد فى مخالفة الحقّ وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى هو حبيب بن موسى النجار، و كان نجارا، و قيل: إسكافا، و قيل: قصارا.

و قال مجاهد و مقاتل: هو حبيب بن إسرائيل النجار، و كان ينحت الأصنام. و قال قتادة: كان يعبد اللّه فى غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى، و جملة: قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال لهم عند مجيئه؟ فقيل: قال يا قوم اتبعوا المرسلين هؤلاء الذين أرسلوا إليكم فإنهم جاءوا بحق، ثم أكد ذلك و كرّره فقال: اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً أى: لا يسألونكم أجرا على ما جاءوكم به من الهدى وَ هُمْ مُهْتَدُونَ يعنى: الرسل. ثم أبرز الكلام فى معرض النصيحة لنفسه، و هو يريد

مناصحة قومه فقال: وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي أى: أىّ مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الذى خلقنى. ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه فقال: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و لم يقل إليه ارجع، و فيه مبالغة فى التهديد. ثم عاد إلى المساق الأوّل لقصد التأكيد و مزيد الإيضاح فقال:

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً فجعل الإنكار متوجها إلى نفسه، و هم المرادون به، أى: لا أتخذ من دون اللّه آلهة و أعبدها، و أترك عبادة من يستحق العبادة و هو الذى فطرنى. ثم بين حال هذه الأصنام التى يعبدونها من دون اللّه سبحانه إنكارا عليهم، و بيانا لضلال عقولهم و قصور إدراكهم فقال: إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً أى: شيئا من النفع كائنا ما كان وَ لا يُنْقِذُونِ من ذلك الضرّ الذى أرادنى الرحمن به، و هذه الجملة صفة لآلهة، أو مستأنفة لبيان حالها فى عدم النفع و الدفع، و قوله: لا تُغْنِ جواب الشرط، و قرأ طلحة بن مصرّف «إن يردنى» بفتح الياء، قال: إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: إنى إذا اتخذت من دونه آلهة لفى ضلال مبين واضح، و هذا تعريض بهم كما سبق، و الضلال: الخسران.

ثم صرّح بإيمانه تصريحا لا يبقى بعده شك فقال: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ خاطب بهذا الكلام المرسلين. قال المفسرون: أراد القوم قتله، فأقبل هو على المرسلين، فقال: إنى آمنت بربكم أيها الرسل فاسمعون، أى: اسمعوا إيمانى و اشهدوا لى به. و قيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلبا فى الدين و تشدّدا فى الحقّ، فلما قال هذا القول و صرّح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه، و قيل: وطئوه بأرجلهم، و قيل: حرقوه، و قيل: حفروا له حفرة و ألقوه فيها، و قيل: إنهم لم يقتلوه بل رفعه اللّه إلى السماء فهو فى الجنة، و به قال الحسن، و قيل: نشروه بالمنشار قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ أى: قيل له ذلك تكريما له بدخولها بعد قتله كما هى سنة اللّه فى شهداء عباده. و على قول من قال إنه رفع إلى السماء و لم يقتل يكون المعنى: أنهم

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۰

لما أرادوا قتله نجاه اللّه من القتل، و قيل له: ادخل الجنة فلما دخلها و شاهدها قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، أى: فماذا قال بعد أن قيل له ادخل الجنة فدخلها؟ فقيل: قال يا ليت قومى إلخ، و ما: فى بِما غَفَرَ لِي هى المصدرية، أى:

بغفران ربى، و قيل: هى الموصولة، أى: بالذى غفر لى ربى، و العائد محذوف، أى: غفره لى ربى، و استضعف هذا لأنه لا معنى لتمنيه أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة، و ليس المراد إلا التمنى منه بأن يعلم قومه بغفران ربه له. و قال الفراء: إنها استفهامية بمعنى التعجب، كأنه قال: بأىّ شىء غفر لى ربى. قال الكسائى:

لو صح هذا لقال بم من غير ألف. و يجاب عنه بأنه قد ورد فى لغة العرب إثباتها و إن كان مكسورا بالنسبة إلى حذفها، و منه قول الشاعر:

على ما قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرّغ فى دمان

و فى معنى تمنيه قولان: أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله، و حميد عاقبته إرغاما لهم.

و قيل: إنه تمنى أن يعلموا بذلك ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله.

و قد أخرج الفريابى عن ابن عباس فى قوله: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ قال: هى إنطاكية.

و أخرج ابن أبى حاتم عن بريدة مثله. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان بين موسى بن عمران و بين عيسى ابن مريم ألف سنة و تسعمائة سنة، و لم يكن بينهما فترة، و أنه أرسل بينهما ألف نبىّ من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، و كان بين ميلاد عيسى و النبى صلّى اللّه عليه و سلم خمسمائة سنة و تسع و ستون سنة، بعث فى أوّلها ثلاثة أنبياء و هو قوله: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ و الذى عزّز به شمعون، و كان من الحواريين،

و كانت الفترة التى لم يبعث اللّه فيها رسولا أربعمائة سنة و أربع و ثلاثون سنة. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: طائِرُكُمْ مَعَكُمْ قال: شؤمكم معكم.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ قال: هو حبيب النجار. و أخرج ابن أبى حاتم عنه من وجه آخر، قال اسم صاحب يس: حبيب، و كان الجذام قد أسرع فيه. و أخرج الحاكم عن ابن مسعود قال: لما قال صاحب يس يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء فقال: إِنِّی آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أى: فاشهدوا لى.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٢٨ الى ٤٠]

وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢)

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)

وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِی لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِی فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٢١

لما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب اللّه له و عجل لهم النقمة و أهلكهم بالصيحة، و معنى وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ أى: على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له، أو من بعد رفع اللّه له إلى السموات على الاختلاف السابق مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ لإهلاكهم و للانتقام منهم، أى: لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته و حرب أعدائه وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ أى: و ما صحّ فى قضائنا و حكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جندا لسبق قضائنا و قدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند. و قال قتادة و مجاهد و الحسن: أى ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء و لا نبىّ بعد قتله. و روى عن الحسن أنه قال: هم الملائكة النازلون بالوحى على الأنبياء، و الظاهر أن معنى النظم القرآنى تحقير شأنهم و تصغير أمرهم، أى: ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جندا من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيده قوله: إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أى: إن كانت العقوبة أو النقمة أو الأخذة إلا صيحة واحدة صاح بها جبريل فأهلكهم. قال المفسرون: أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حسّ كالنار إذا طفئت، و هو معنى قوله: فَإِذا هُمْ خامِدُونَ أى:

قوم خامدون ميتون، شبههم بالنار إذا طفئت، لأن الحياة كالنار الساطعة، و الموت كخمودها. قرأ الجمهور صَيْحَةً بالنصب على أن كان ناقصة، و اسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قدّمنا.

و قرأ أبو جعفر، و شيبة، و الأعرج، و معاذ القارى برفعها على أن كان تامة، أى: وقع و حدث، و أنكر هذه القراءة أبو حاتم و كثير من النحويين بسبب التأنيث فى قوله إِنْ كانَتْ قال أبو حاتم:

فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: إن كان إلا صيحة و قدّر الزجاج هذه القراءة بقوله: إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة، و قدّرها غيره: ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة. و قرأ عبد اللّه بن مسعود إن كانت إلا زقية واحدة و الزقية: الصيحة. قال النحاس:

و هـذا مخالف للمصـحف، و أيضا فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح، و منه المثل «أثقل من الزّواقى» فكان يجب على هذا أن تكون زقوة، و يجاب عنه بما ذكره الجوهرى قال: الزقو و الزقى مصدر، و قد زقا الصدا يزقو زقاء:

أى: صاح، و كلّ صائـح زاق، و الزقية الصـيحة يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ قرأ الجمهور بنصب حسرة، على أنها منادى منكر كأنه نادى الحسرة و قال لها: هذا أوانك فاحضرى. و قيل: إنها منصوبة على المصدرية، و المنادى: محذوف، و التقدير: يا هؤلاء تحسروا حسرة. و قرأ قتادة و أبىّ فى رواية عنه بضم حسرة على النداء.

قال الفراء: فى توجيه هذه القراءة: إن الاختيار النصب و إنها لو رفعت النكرة لكان صوابا، و استشهد بأشياء

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۲

نقلها عن العرب منها أنه سمع من العرب يا مهتم بأمرنا لا تهتم، و أنشد:

يا دار غيّرها البلى تغييرا قال النحاس: و فى هـذا إبطال باب النداء أو أكثره. قال: و تقدير ما ذكره: يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا، و تقدير البيت: يا أيتها الدار. و حقيقة الحسرة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا. قال ابن جرير:

المعنى يا حسـرة من العباد على أنفسـهم، و تندّما و تلهفا فى استهزائهم برسل اللّه، و يؤيد هذا قراءة ابن عباس و علىّ بن الحسين «يـا حسـرة العبـاد» على الإضافـة، و رويت هـذه القراءة عن أبىّ. و قال الضـحاك: إنّها حسـرة الملائكـة على الكفار حين كـذبوا الرسل. و قيل: هى من قول الرجل الـذى جاء من أقصـى المدينـة. و قيل إن القائل: يا حسـرة على العباد هم الكفار المكـذبون، و العباد: الرسل، و ذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم و تمنوا الإيمان قاله أبو العالية و مجاهد، و قيل: إن التحسر عليهم هو من اللّه عزّ و جلّ بطريق الاسـتعارة لتعظيم ما جنوه و قرأ ابن هرمز، و مسـلم بن جندب و عكرمة و أبو الزناد يا حَسْرَةً بسكون الهـاء إجراء للوصل مجرى الوقف. و قرئ «يا حسـرتا» كما قرئ بـذلك فى سورة الزمر، و جملة ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ مسـتأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل و الاسـتهزاء بهم، و أن ذلك هو سـبب التحسر عليهم. ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخاليـة فقال أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أى: ألم يعلموا كثرة من أهلكنـا قبلهم من القرون التى أهلكناهـا من الأـمم الخاليـة، و جملـة: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ بـدل من كم أهلكنا على المعنى. قال سيبـويه: أنّ بـدل مـن كم، و هى الخبريـة، فلـذلك جـاز أن يبـدل منهـا مـا ليس باسـتفهام، و المعنى: ألم يروا أن القرون الـذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون. و قال الفراء: كم فى موضع نصب من وجهين: أحـدهما ب (يروا)، و استشـهد على هذا بأنه فى قراءة ابن مسعود «ا لم يروا من أهلكنا» و الوجه الآخر أن تكون كم فى موضع نصب بأهلكنا.

قال النحاس: القول الأوّل محال، لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها لأنها اسـتفهام، و محال أن يدخل الاسـتفهام فى حيز ما قبله، و كذا حكمها إذا كانت خبرا، و إن كان سـيبويه قـد أومأ إلى بعض هـذا فجعل أنهم بـدلا من كم، و قـد ردّ ذلك المبرد أشدّ ردّ وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ أى: محضرون لدينا يوم القيامة للجزاء. قرأ ابن عامر، و عاصم، و حمزة لما بتشديدها، و قرأ الباقون بتخفيفهـا. قـال الفراء: مـن شـدّد جعـل لمـا بمعنى إلاـ و إن بمعنى مـا: أى مـا كـلّ إلاـ جميع لـدينا محضـرون، و معنى جميع مجموعون، فهو فعيل بمعنى مفعول، و لـدينا ظرف له، و أما على قراءة التخفيف فإن هى المخففـة من الثقيلـة، و ما بعـدها مرفوع بالابتـداء، و تنوين كُلٌّ عوض عن المضاف إليه و ما بعـده الخبر، و اللام هى الفارقـة بين المخففـة و النافيـة. قال أبو عبيـدة: و ما على هـذه القراءة زائـدة، و التقـدير عنـده: و إن كلّ لجميع. و قيل معنى محضـرون معذبون، و الأولى أنه على معناه الحقيقى من الإحضار للحساب. ثم ذكر سـبحانه البرهان على التوحيد و الحشـر مع تعداد النعم و تذكيرها فقال: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ فآية: خبر مقـدّم، و تنكيرها للتفخيم، و لهم صـفتها، أو متعلقـة بآيـة لأنها بمعنى علامـة، و الأرض: مبتـدأ، و يجوز أن تكون آية مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة، و ما بعدها

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۳

الخبر. قرأ أهل المدينة «الميتة» بالتشديد و خففها الباقون، و جملة أَحْيَيْناها مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية، و قيل هى صفة للأرض فنبههم اللّه بهذا على إحياء الموتى و ذكرهم نعمه و كمال قدرته، فإنه سبحانه أحيا الأرض بالنبات: و أخرج منها الحبوب التى يأكلونها و يتغذون بها، و هو معنى قوله: وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ و هو ما يقتاتونه من الحبوب، و تقديم منه للدلالة على أن الحبّ معظم ما يؤكل و أكثر ما يقوم به المعاش وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ أى: جعلنا فى الأرض جنات من أنواع النخل و العنب، و خصصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار و أنفعها للعباد وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ أى: فجرنا فى الأرض بعضا من العيون، فحذف الموصوف و أقيمت الصفة مقامه، أو المفعول العيون، و من مزيدة على رأى من جوّز زيادتها فى الإثبات و هو الأخفش و من وافقه، و المراد بالعيون عيون الماء. قرأ الجمهور فَجَّرْنا بالتشديد، و قرأ جناح بن حبيش بالتخفيف، و الفجر و التفجير: كالفتح و التفتيح، لفظا و معنى، و اللام فى لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ متعلق بجعلنا، و الضمير فى مِنْ ثَمَرِهِ يعود إلى المذكور من الجنات و النخيل، و قيل: هو راجع إلى ماء العيون لأن الثمر منه، قاله الجرجانى. قرأ الجمهور: ثَمَرِهِ بفتح الثاء و الميم، و قرأ حمزة و الكسائى بضمهما، و قرأ الأعمش بضم الثاء و إسكان الميم، و قد تقدّم الكلام فى هذا فى الأنعام، و قوله: وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ معطوف على ثمره، أى: ليأكلوا من ثمره و يأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير و الدبس و نحوهما، و كذلك ما غرسوه و حفروه على أن ما موصولة، و قيل: هى نافية؛ و المعنى: لم يعملوه، بل العامل له هو اللّه، أى: وجدوها معمولة و لا صنع لهم فيها، و هو قول الضحاك و مقاتل. قرأ الجمهور عَمِلَتْهُ و قرأ الكوفيون «عملت» بحذف الضمير، و الاستفهام فى قوله:

أَ فَلا يَشْكُرُونَ للتقريع و التوبيخ لهم بعدم شكرهم للنعم، و جملة سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مستأنفة مسوقة لتنزيهه سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة و التعجب من إخلالهم بذلك، و قد تقدّم الكلام مستوفى فى معنى سبحان، و هو فى تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به، و الأزواج: الأنواع و الأصناف، لأن كلّ صنف مختلف الألوان و الطعوم و الأشكال، و مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ بيان للأزواج، و المراد كلّ ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة و غيرها وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى: خلق الأزواج من أنفسهم، و هم الذكور و الإناث وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ من أصناف خلقه فى البرّ و البحر، و السماء و الأرض وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ الكلام فى هذا كما قدّمنا فى قوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها و المعنى:

أن ذلك علامة دالة على توحيد اللّه و قدرته و وجوب إلهيته، و السلخ: الكشط و النزع، يقال سلخه اللّه من دينه، ثم يستعمل بمعنى الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء و مجيء الظلمة كالسلخ من الشيء، و هو استعارة بليغة فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ أى: داخلون فى الظلام مفاجأة و بغتة، يقال أظلمنا: أى دخلنا فى ظلام الليل، و أظهرنا دخلنا فى وقت الظهر، و كذلك أصبحنا و أمسينا، و قيل «منه» بمعنى عنه، و المعنى:

نسلخ عنه ضياء النهار. قال الفراء: يرمى بالنهار على الليل فيأتى بالظلمة، و ذلك أن الأصل هى الظلمة و النهار داخل عليه، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل، أى: كشط و أزيل فتظهر الظلمة وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۴

يحتمل أن تكون الواو للعطف على الليل، و التقدير: و آية لهم الشمس، و يجوز أن تكون الواو ابتدائية، و الشمس مبتدأ، و ما بعدها الخبر، و يكون الكلام مستأنفا مشتملا على ذكر آية مستقلة. قيل:

و فى الكلام حذف، و التقدير: تجرى لمجرى مستقرّ لها، فتكون اللام للعلّة: أى: لأجل مستقرّ لها، و قيل اللام بمعنى إلى و قد قرئ بذلك. قيل: و المراد بالمستقرّ: يوم القيامة، فعنده تستقرّ و لا يبقى لها حركة، و قيل مستقرّها هو أبعد ما تنتهى إليه و لا

تجاوزه، و قيل نهاية ارتفاعها فى الصيف و نهاية هبوطها فى الشتاء، و قيل مستقرها تحت العرش، لأنها تذهب إلى هنالك فتسجد، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها، و هذا هو الرّاجح. و قال الحسن: إن للشمس فى السنة ثلاثمائة و ستين مطلعا تنزل فى كلّ يوم مطلعا ثم لا تنزل إلى الحول، فهى تجرى فى تلك المنازل، و هو مستقرّها، و قيل: غير ذلك. و قرأ ابن مسعود، و ابن عباس، و عكرمة، و زين العابدين، و ابنه الباقر، و الصادق بن الباقر: «لا مستقرّ لها» التى لنفى الجنس، و بناء مستقرّ على الفتح. و قرأ ابن أبى عبلة: لا مستقرّ بلا التى بمعنى ليس، و مستقرّ اسمها، و لها خبرها، و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى جرى الشمس، أى: ذلك الجرى تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ أى: الغالب القاهر الْعَلِيمِ

أى: المحيط علمه بكل شىء، و يحتمل أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقرّ، أى: ذلك المستقرّ: تقدير اللّه.

وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو برفع القمر على الابتداء. و قرأ الباقون بالنصب على الاشتغال، و انتصاب منازل على أنه مفعول ثان، لأن قدرنا بمعنى صيرنا، و يجوز أن يكون منتصبا على الحال، أى: قدّرنا سيره حال كونه ذا منازل، و يجوز أن يكون منتصبا على الظرفية، أى: فى منازل. و اختار أبو عبيد النصب فى القمر، قال: لأن قبله فعلا و هو نسلخ، و بعده فعلا و هو قدّرنا. قال النحاس: أهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال. منهم الفراء قال: الرفع أعجب إلىّ، قال: و إنما كان الرفع عندهم أولى لأنّه معطوف على ما قبله، و معناه: و آية لهم القمر. قال أبو حاتم: الرفع أولى، لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء، و المنازل: هى الثمانية و العشرون التى ينزل القمر فى كلّ ليلة فى واحد منها و هى معروفة و سيأتى ذكرها، فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أوّلها، فيقطع الفلك فى ثمان و عشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين، ثم يطلع هلالا، فيعود فى قطع تلك المنازل من الفلك حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ قال الزجاج: العرجون هو عود العذق الذى فيه الشماريخ، و هو فعلون من الانعراج، و هو الانعطاف، أى:

سار فى منازله، فإذا كان فى آخرها دقّ و استقوس و صغر حتى صار كالعرجون القديم، و على هذا فالنون زائدة.

قال قتادة: و هو العذق اليابس المنحنى من النخلة. قال ثعلب: العرجون الذى يبقى فى النخلة إذا قطعت، و القديم: البالى. و قال الخليل: العرجون أصل العذق و هو أصفر عريض، يشبه به الهلال إذا انحنى، و كذا قال الجوهرى: إنه أصل العذق الذى يعوج و يقطع منه الشماريخ، فيبقى على النخل يابسا، و عرجته: ضربته بالعرجون، و على هذا فالنون أصلية. قرأ الجمهور كَالْعُرْجُونِ بضم العين و الجيم: و قرأ سليمان التيمى بكسر العين و فتح الجيم، و هما لغتان، و القديم: العتيق لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ الشمس مرفوعة بالابتداء، لأنه لا يجوز أن تعمل لا فى المعرفة: أى لا يصح و لا يمكن للشمس أن تدرك القمر فى

فتح القدير، ج‌4، ص: 425

سرعة السير و تنزل فى المنزل الذى ينزل فيه القمر، لأن لكل واحد منهما سلطانا على انفراده، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، فيذهب سلطانه إلى أن يأذن اللّه بالقيامة، فتطلع الشمس من مغربها. و قال الضحاك: معناه إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، و إذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء. و قال مجاهد:

أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر. و قال الحسن: إنهما لا يجتمعان فى السماء ليلة الهلال خاصة، و كذا قال يحيى بن سلام. و قيل معناه: إذا اجتمعا فى السماء كان أحدهما بين يدى الآخر فى منزل لا يشتركان فيه. و قيل القمر فى سماء الدنيا، و الشمس فى السماء الرابعة «1». ذكره النحاس و المهدوى. قال النحاس:

و أحسن ما قيل فى معناه و أبينه: أن سير القمر سير سريع، و الشمس لا تدركه فى السير. و أما قوله: وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ «2» فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه فى الأنعام، و يأتى فى سورة القيامة أيضا، و جمعهما لانقضاء الدنيا و قيام الساعة وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ أى: لا يسبقه فيفوته، و لكن يعاقبه. و يجيء كلّ واحد منهما فى وقته و لا يسبق صاحبه، و قيل:

المراد من الليل و النهار آيتاهما، و هما الشمس و القمر، فيكون عكس قوله: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ أى: و لا القمر سابق الشمس، و إيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ التنوين فى «كلّ» عوض عن المضاف إليه: أى و كلّ واحد منهما، و الفلك: هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة، و الخلاف فى كون السماء مبسوطة أو مستديرة معروف، و السبح: السير بانبساط و سهولة، و الجمع فى قوله:

يَسْبَحُونَ باعتبار اختلاف مطالعهما، فكأنهما متعدّدان بتعدّدها، أو المراد: الشمس و القمر و الكواكب.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ الآية يقول: ما كابدناهم بالجموع: أى الأمر أيسر علينا من ذلك. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ يقول: يا ويلا للعباد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

يا حسرة على العباد قال: الندامة على العباد الذين ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقول:

الندامة عليهم يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ قال: وجدوه معمولا لم تعمله أيديهم: يعنى الفرات و دجلة و نهر بلخ و أشباهها أَ فَلا يَشْكُرُونَ لها. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أبى ذرّ قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها قال:

مستقرّها تحت العرش. و فى لفظ للبخارى و غيره من حديثه قال: «كنت مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فى المسجد عند غروب الشّمس فقال: «يا أبا ذرّ أ تدرى أين تغرب الشّمس؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها». و فى لفظ من حديثه أيضا عند أحمد و الترمذى و النسائى و غيرهم قال: يا أبا ذرّ أ تدرى أين تذهب هذه؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم،

---

(١). هذا الكلام لا يعتمد على نص من القرآن أو السنة، فكل ما يخالف الحقائق العلمية فى هذا المجال لا يعتد به.

(٢). القيامة: ٩.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ۴۲۶

قال: فإنّها تذهب حتّى تسجد بين يدى ربّها فتستأذن فى الرّجوع فيأذن لها، و كأنّها قد قيل لها اطلعى من حيث جئت، فتطلع من مغربها، ثم قرأ «ذلك مستقرّ لها» و ذلك قراءة عبد اللّه. و أخرج الترمذى و النسائى و غيرهما من قول ابن عمر نحوه. و أخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس فى قوله: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ الآية قال: هى ثمانية و عشرون منزلا ينزلها القمر فى كلّ شهر: أربعة عشر منها شامية، و أربعة عشر منها يمانية، أولها الشرطين و البطين و الثريا و الدبران و الهقعة و الهنعة و الذراع و النثرة و الطرف و الجبهة و الدبرة و الصرفة و العوّاء و السماك، و هو آخر الشامية، و الغفر و الزبانا و الإكليل و القلب و الشولة و النعائم و البلدة و سعد الذابح و سعد بلع و سعد السعود و سعد الأخبية و مقدّم الدلو و مؤخر الدلو و الحوت، و هو آخر اليمانية، فإذا سار هذه الثمانية و عشرين منزلا عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ كما كان فى أوّل الشهر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: كالعرجون القديم: يعنى أصل العذق العتيق.

[سورة يس (٣٦): الآيات ۴۱ الى ۵۴]

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۴۱) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (۴۲) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (۴۳) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (۴۴) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵)

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۴۶) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۴۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰)

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (۵۲) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (۵۳) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴)

ثم ذكر سبحانه و تعالى نوعا آخر مما امتنّ به على عباده من النعم فقال: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أى: دلالة و علامة، و قيل معنى: آيَةٌ هنا: العبرة، و قيل: النعمة، و قيل النذارة.

و قد اختلف فى معنى أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ و إلى من يرجع الضمير، لأن الضمير الأوّل و هو قوله:

وَ آيَةٌ لَهُمْ لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو للكفار على الإطلاق الكائنين فى عصر محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، فقيل:

الضمير يرجع إلى القرون الماضية، و المعنى: أن اللّه حمل ذرّية القرون الماضية فى الفلك المشحون، فالضميران مختلفان. و هذا حكاه النحاس عن على بن سليمان الأخفش. و قيل: الضميران لكفار مكة و نحوهم. و المعنى:

أن اللّه حمل ذرّياتهم من أولادهم و ضعفائهم على الفلك، فامتنّ اللّه عليهم بذلك، أى: إنهم يحملونهم معهم فى السفن إذا سافروا، أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها. و قيل: الذرّية الآباء و الأجداد، و الفلك: هو سفينة نوح؛ أى: إن اللّه حمل آباء هؤلاء و أجدادهم فى سفينة نوح. قال الواحدى: و الذرّية تقع على الآباء

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۷

كما تقع على الأولاد. قال أبو عثمان: و سمى الآباء ذرية، لأن منهم ذرء الأبناء، و قيل الذرّية النطف الكائنة فى بطون النساء، و شبه البطون بالفلك المشحون، و الراجح القول الثانى ثم الأوّل ثم الثالث، و أما الرابع ففى غاية البعد و النكارة، و قد تقدّم الكلام فى الذرية و اشتقاقها فى سورة البقرة مستوفى، و المشحون المملوء الموقر، و الفلك يطلق على الواحد و الجمع كما تقدّم فى يونس، و ارتفاع آية على أنها خبر مقدّم، و المبتدأ أَنَّا حَمَلْنا أو العكس على ما قدّمنا. و قيل: إن الضمير فى قوله: وَ آيَةٌ لَهُمْ يرجع إلى العباد المذكورين فى قوله:

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ لأنّه قال بعد ذلك: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ و قال: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ

ثم قال: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فكأنه قال: و آية للعباد أنا حملنا ذريات العباد، و لا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم، و بالضمير الآخر البعض الآخر، و هذا قول حسن وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ أى: و خلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ما هى الموصولة. قال مجاهد و قتادة و جماعة من أهل التفسير: و هى الإبل خلقها لهم للركوب فى البرّ مثل السفن المركوبة فى البحر، و العرب تسمى الإبل: سفائن البرّ، و قيل المعنى: و خلقنا لهم سفنا أمثال تلك السفن يركبونها، قاله الحسن و الضحاك و أبو مالك. قال النحاس: و هذا أصحّ لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس، و قيل: هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ هذا من تمام الآية التى امتنّ اللّه بها عليهم، و وجه الامتنان أنه لم يغرقهم فى لجج البحار مع قدرته على ذلك، و الضمير يرجع إما إلى أصحاب الذرية، أو إلى الذرية، أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال، و الصريخ بمعنى المصرخ و المصرخ هو المغيث، أى: فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم، و قيل: هو المنعة. و معنى ينقذون: يخلصون، يقال أنقذه و استنفذه، إذا خلصه من مكروه إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا استثناء مفرّغ من أعمّ العلل، أى: لا صريخ لهم، و لا ينقذون لشىء من الأشياء إلا لرحمة منا، كذا قال الكسائى و الزجاج و غيرهما، و قيل: هو استثناء منقطع، أى: لكن

لرحمة منا. و قيل:

هو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر وَ انتصاب مَتاعاً على العطف على رحمة، أى: نمتعهم بالحياة الدنيا إِلى حِينٍ و هو الموت، قاله قتادة. و قال يحيى بن سلام: إلى القيامة وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ أى: ما بين أيديكم من الآفات و النوازل فإنها محيطة بكم، و ما خلفكم منها، قال قتادة معنى اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أى: من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم وَ ما خَلْفَكُمْ فى الآخرة. و قال سعيد بن جبير و مجاهد: ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ما مضى من الذنوب وَ ما خَلْفَكُمْ ما بقى منها. و قيل: ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ الدنيا وَ ما خَلْفَكُمْ الآخرة، قاله سفيان. و حكى عكس هذا القول الثعلبى عن ابن عباس. و قيل: ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ما ظهر لكم وَ ما خَلْفَكُمْ ما خفى عنكم، و جواب إذا محذوف، و التقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدلّ عليه إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى: رجاء أن ترحموا، أو كى ترحموا، أو راجين أن ترحموا وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ ما: هى النافية، و صيغة المضارع للدلالة على التجدّد، و من الأولى: مزيدة للتوكيد، و الثانية: للتبعيض، و المعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم و على صحة ما دعا إليه

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۸

من التوحيد فى حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين. و ظاهره يشمل الآيات التنزيلية، و الآيات التكوينية، و جملة: إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ فى محلّ نصب على الحال كما مرّ تقريره فى غير موضع. و المراد بالإعراض: عدم الالتفات إليها، و ترك النظر الصحيح فيها، و هذه الآية متعلقة بقوله: يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: إذا جاءتهم الرسل كذّبوا، و إذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أى: تصدّقوا على الفقراء مما أعطاكم اللّه، و أنعم به عليكم من الأموال، قال الحسن: يعنى اليهود أمروا بإطعام الفقراء. و قال مقاتل: إن المؤمنين قالوا لكفار قريش:

أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه للّه من أموالكم من الحرث و الأنعام كما فى قوله سبحانه: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً «۱» فكان جوابهم ما حكاه اللّه عنهم بقوله: قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا استهزاء بهم، و تهكما بقولهم: أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ أى: من لو يشاء اللّه رزقه، و قد كانوا سمعوا المسلمين يقولون: إن الرّزّاق هو اللّه، و أنه يغنى من يشاء، و يفقر من يشاء فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين و قالوا: نحن نوافق مشيئة اللّه فلا نطعم من لم يطعمه اللّه، و هذا غلط منهم، و مكابرة و مجادلة بالباطل، فإنّ اللّه سبحانه أغنى بعض خلقه و أفقر بعضا، و أمر الغنىّ أن يطعم الفقير، و ابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة. و قولهم: مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ هو و إن كان كلاما صحيحا فى نفسه، و لكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة اللّه، أو إنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة اللّه كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلا. و قوله: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ من تمام كلام الكفار. و المعنى: أنكم أيها المسلمون فى سؤال المال، و أمرنا بإطعام الفقراء لفى ضلال فى غاية الوضوح و الظهور. و قيل هو من كلام اللّه سبحانه جوابا على هذه المقالة التى قالها الكفار. و قال القشيرى و الماوردى: إن الآية نزلت فى قوم من الزنادقة. و قد كان فى كفار قريش و غيرهم من سائر العرب قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين و مناقضة لهم. و حكى نحو هذا القرطبى عن ابن عباس وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ الذى تعدونا به من العذاب و القيامة، و المصير إلى الجنة أو النار. إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تقولونه و تعدونا به. قالوا ذلك استهزاء منهم و سخرية بالمؤمنين. و مقصودهم إنكار ذلك بالمرّة، و نفى تحققه و جحد وقوعه، فأجاب اللّه سبحانه عنهم بقوله: ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أى: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، و هى نفخة إسرافيل فى الصور تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ أى:

يختصمون فى ذات بينهم فى البيع و الشراء و نحوهما من أمور الدنيا، و هذه هى النفخة الأولى، و هى نفخة الصعق.

و قد اختلف القراء فى يخصمون، فقرأ حمزة بسكون الخاء و تخفيف الصاد من خصم يخصم، و المعنى:

يخصم بعضهم بعضا، فالمفعول محذوف. و قرأ أبو عمرو و قالون بإخفاء فتحة الخاء و تشديد الصاد، و قرأ نافع و ابن كثير و هشام كذلك إلا أنهم أخلصوا فتحة الخاء، و قرأ الباقون بكسر الخاء و تشديد الصاد. و الأصل

---

(١). الأنعام: ١٣۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۲۹

فى القراءات الثلاث يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد، فنافع و ابن كثير و هشام نقلوا فتحة التاء قبلها نقلا كاملا، و أبو عمرو و قالون اختلسا حركتها تنبيها على أن الخاء أصلها السكون، و الباقون حذفوا حركتها، فالتقى ساكنان فكسروا أوّلهما. و روى عن أبى عمرو، و قالون أنهما قرءا بتسكين الخاء و تشديد الصاد و هى مشكلة لاجتماع ساكنين فيها. و قرأ أبىّ «يختصمون» على ما هو الأصل فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً أى:

لا يستطيع بعضهم أن يوصى إلى بعض بما له و ما عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة و الإقلاع عن المعاصى، بل يموتون فى أسواقهم و مواضعهم وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ أى: إلى منازلهم التى ماتوا خارجين عنها، و قيل المعنى: لا يرجعون إلى أهلهم قولا، و هذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى. ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ و هى النفخة التى يبعثون بها من قبورهم، و لهذا قال: فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ أى: القبور إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ أى: يسرعون، و بين النفختين: أربعون سنة. و عبر عن المستقبل بلفظ الماضى حيث قال: وَ نُفِخَ تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان، و جعلوا هذه الآية مثالا له، و الصور بإسكان الواو، هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل كما وردت بذلك السنة، و إطلاق هذا الاسم على القرن معروف فى لغة العرب، و منه قول الشاعر:

نحن نطحناهم غداة الغورين بالضّابحات فى غبار النّقعين

نطحا شديدا لا كنطح الصّورين.

أى: القرنين. و قد مضى هذا مستوفى فى سورة الأنعام. و قال قتادة: الصور: جمع صورة، أى: نفخ فى الصور الأرواح، و الأجداث: جمع جدث، و هو القبر. و قرئ «الأجداف» و هى لغة، و اللغة الفصيحة بالثاء المثلثة. و النسل، و النسلان: الإسراع فى السير، يقال: نسل ينسل، كضرب يضرب، و يقال ينسل بالضم، و منه: قول امرئ القيس:

فسلّى ثيابى من ثيابک تنسلى و قول الآخر:

عسلان الذّئب أمسى قاربابرد اللّيل عليه فنسل

قالوا: يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا أى: قالوا عند بعثهم من القبور بالنفخة يا ويلنا: نادوا ويلهم، كأنهم قالوا له احضر فهذا أوان حضورک، و هؤلاء القائلون هم الكفار. قال ابن الأنبارى: الوقف على يا ويلنا وقف حسن. ثم يبتدئ الكلام بقوله: مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، و ما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياما. قرأ الجمهور: يا وَيْلَنا و قرأ ابن أبى ليلى «يا ويلتنا» بزيادة التاء. و قرأ الجمهور مَنْ بَعَثَنا بفتح ميم من على الاستفهام، و قرأ ابن عباس و الضحاک و أبو نهيک بكسر الميم على أنها حرف جرّ، و رويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب. و على هذه القراءة تكون من متعلقة بالويل، و قرأ الجمهور: مَنْ بَعَثَنا. و فى قراءة أبىّ «من أهبّنا» من هبّ من نومه: إذا انتبه،

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۰

و أنشد ثعلب على هذه القراءة:

و عاذلة هبّت بليل تلومنى و لم يعتمرنى قبل ذاک عذول

و قيل: إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم، و قال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور و هجعوا هجعة إلى النفخة الثانية، و جملة: هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ جواب عليهم من جهة الملائكة، أو من جهة المؤمنين. و قيل: هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض. قال بالأوّل الفراء، و بالثانى مجاهد. و قال قتادة: هى من قول اللّه سبحانه، و ما فى قوله: ما وَعَدَ الرَّحْمنُ موصولة و عائدها محذوف و المعنى: هذا الذى وعده الرحمن، و صدق فيه المرسلون قد حق عليكم، و نزل بكم، و مفعولا الوعد و الصدق محذوفان: أى وعدكموه الرحمن و صدقكموه المرسلون، و الأصل وعدكم به، و صدقكم فيه، أو وعدناه الرحمن، و صدقنا المرسلون على أن هذا من قول المؤمنين، أو من قول الكفار إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أى: ما كانت تلك النفخة المذكورة إلا صيحة واحدة صاحها إسرافيل بنفخة فى الصور فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ أى: فإذا هم مجموعون محضرون لدينا بسرعة للحساب و العقاب فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ من النفوس شَيْئاً مما تستحقه، أى: لا ينقص من ثواب عملها شيئا من النقص، و لا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا، أو إلا بما كنتم تعملونه، أى: بسببه، أو: فى مقابلته.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ الآية قال: فى سفينة نوح حمل فيها من كلّ زوجين اثنين وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ قال: السفن التى فى البحر و الأنهار التى يركب الناس فيها. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن أبى صالح نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ قال: هى السفن جعلت من بعد سفينة نوح. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: يعنى الإبل خلقها اللّه كما رأيت، فهى سفن البرّ يحملون عليها و يركبونها. و مثله عن الحسن، و عكرمة، و عبد اللّه بن شدّاد، و مجاهد. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله: فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً الآية قال: تقوم الساعة و الناس فى أسواقهم يتبايعون و يذرعون الثياب و يحلبون اللقاح، و فى حوائجهم فلا يستطيعون توصية وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ و أخرج عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن المنذر عن الزبير بن العوّام قال: إن الساعة تقوم و الرجل يذرع الثوب، و الرجل يحلب الناقة، ثم قرأ: فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً الآية. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لتقومنّ السّاعة و قد نشر الرّجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه، و لا يطويانه، و لتقومنّ السّاعة و هو يليط حوضه فلا يسقى فيه، و لتقومنّ السّاعة و قد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، و لتقومنّ السّاعة و قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها». و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى قوله: مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا قال: ينامون قبل البعث نومة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۱

[سورة يس (۳۶): الآيات ۵۵ الى ۷۰]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (۵۶) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (۵۷) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸) وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (۵۹)
أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴)
الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا

الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (۶۷) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (۶۸) وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹)
لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۰)

لما ذكر اللّه سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين، و جعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم، و تكميلا لجزعهم، و تتميما لما نزل بهم من البلاء، و ما شاهدوه من الشقاء، فإذا رأوا ما أعدّه اللّه لهم من أنواع العذاب، و ما أعدّه لأوليائه من أنواع النعيم، بلغ ذلك من قلوبهم مبلغا عظيما، و زاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها. و المعنى إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ في ذلك الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ بما هم فيه من اللذات التي هي ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر على الاهتمام بأمر الكفار، و مصيرهم إلى النار و إن كانوا من قرابتهم. و الأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين. و قال قتادة و مجاهد: شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى. و قال وكيع: شغلهم بالسماع. و قال ابن كيسان: بزيارة بعضهم بعضا، و قيل شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة اللّه. قرأ الكوفيون و ابن عامر: شغل بضمتين.

و قرأ الباقون بضم الشين و سكون الغين. و هما لغتان كما قال الفراء. و قرأ مجاهد و أبو السمال بفتحتين. و قرأ يزيد النحوي، و ابن هبيرة بفتح الشين و سكون الغين. و قرأ الجمهور فاكِهُونَ بالرفع على أنه خبر إنّ، و في شغل متعلق به، أو في محل نصب على الحال: و يجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر إنّ و فاكهون خبر ثان. و قرأ الأعمش و طلحة بن مصرف «فاكهين» بالنصب على أنه حال، و في شغل هو الخبر. و قرأ الحسن، و أبو جعفر، و أبو حيوة، و أبو رجاء، و شيبة، و قتادة، و مجاهد «فكهون» قال الفراء: هما لغتان كالفاره و الفره، و الحاذر و الحذر. و قال الكسائي و أبو عبيدة الفاكه: ذو الفاكهة مثل تامر و لابن، و الفكه: المتفكه و المتنعم. و قال قتادة: الفكهون المعجبون. و قال أبو زيد: يقال رجل فكه: إذا كان طيب النفس ضحوكا. و قال مجاهد، و الضحاك كما قال قتادة. و قال السدّي كما قال الكسائي هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم و تفكههم و تكميلها بما يزيدهم سرورا و بهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك، فالضمير و هو هم:

مبتدأ، و أزواجهم معطوف عليه، و الخبر: متكئون، و يجوز أن يكون هم تأكيدا للضمير في فاكِهُونَ

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۴۳۲

و أزواجهم معطوف على ذلك الضمير، و ارتفاع متكئون على أنه خبر لمبتدأ محذوف، و في ظلال متعلق به أو حال، و كذا على الأرائك و جوّز أبو البقاء أن يكون فِي ظِلالٍ هو الخبر و عَلَى الْأَرائِكِ مستأنف. قرأ الجمهور فِي ظِلالٍ بكسر الظاء و بالألف و هو جمع ظلّ. و قرأ ابن مسعود و عبيد بن عمير و الأعمش و يحيى بن وثاب و حمزة و الكسائي و خلف فِي ظُلَلٍ بضم الظاء من غير ألف جمع ظلة، و على القراءتين فالمراد الفرش و الستور التي تظلهم كالخيام و الحجال، و الأرائك جمع أريكة، كسفائن جمع سفينة، و المراد بها السرر التي في الحجال. قال أحمد بن يحيى ثعلب: الأريكة لا يكون إلا سريرا في قبة. و قال مقاتل:

إن المراد بالظلال أكنان القصور، و جملة لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ مبينة لما يتمتعون به في الجنة من المآكل و المشارب و نحوها. و المراد فاكهة كثيرة من كلّ نوع من أنواع الفواكه وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ ما هذه هي الموصولة و العائد محذوف أو موصوفة أو مصدرية، و يدّعون مضارع ادّعى. قال أبو عبيدة: يدّعون يتمنون، و العرب تقول: ادّع عليّ ما شئت: أي تمنّ، و فلان في خير ما يدّعي: أي ما يتمنى. و قال الزجاج هو من الدعاء، أي: ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم، من دعوت غلامي، فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل و الارتحال بمعنى الرحل. و قيل: افتعل بمعنى تفاعل، أي: ما يتداعونه كقولهم ارتموا و تراموا. و قيل:

المعنى:

إن من ادّعى منهم شيئا فهو له، لأن اللّه قد طبعهم على أن لا يدّعى أحد منهم شيئا إلا و هو يحسن و يجمل به أن يدّعيه، و ما: مبتدأ، و خبرها: لهم، و الجملة معطوفة على ما قبلها. و قرئ «يدعون» بالتخفيف و معناها واضح. قال ابن الأنبارى: و الوقف على يدّعون وقف حسن، ثم يبتدئ سَلامٌ على معنى لهم سلام، و قيل: إن سلام هو خبر ما، أى: مسلم خالص أو ذو سلامة. و قال الزجاج: سلام مرفوع على البدل من ما، أى: و لهم أن يسلم اللّه عليهم، و هذا منى أهل الجنة، و الأولى أن يحمل قوله: وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ على العموم، و هذا السلام يدخل تحته دخولا أوّليا، و لا وجه لقصره على نوع خاص، و إن كان أشرف أنواعه تحقيقا لمعنى العموم، و رعاية لما يقتضيه النظم القرآنى. و قيل: إن سلام مرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: سلام يقال لهم: قَوْلًا و قيل: إن سلام مبتدأ، و خبره: الناصب لقولا، أى:

سلام يقال لهم قولا، و قيل: خبره من ربّ العالمين، و قيل: التقدير: سلام عليكم هذا على قراءة الجمهور و قرأ أبىّ و ابن مسعود و عيسى «سلاما» بالنصب إما على المصدرية أو على الحالية بمعنى خالصا، و السلام:

إما من التحية أو من السلامة. و قرأ محمّد بن كعب القرظى «سلم» كأنه قال سلم لهم لا يتنازعون فيه، و انتصاب قولا على المصدرية بفعل محذوف على معنى: قال اللّه لهم ذلك قولا، أو يقوله لهم قولا، أو يقال لهم قولا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أى: من جهته، قيل: يرسل اللّه سبحانه إليهم بالسلام. و قال مقاتل: إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كلّ باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من ربّ رحيم وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين، أى: و يقال للمجرمين: امتازوا، أى:

انعزلوا، من مازه غيره، يقال مزت الشيء من الشيء: إذا عزلته عنه و نحيته. قال مقاتل: معناه اعتزلوا اليوم:

يعنى فى الآخرة من الصالحين. و قال السدّى: كونوا على حدة. و قال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين. و قال

فتح القدير، ج‏4، ص: 433

قتادة: عزلوا عن كلّ خير. و قال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، و النصارى فرقة، و المجوس فرقة، و الصابئون فرقة، و عبدة الأوثان فرقة. و قال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين. ثم وبخهم اللّه سبحانه و قرعهم بقوله: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ و هذا من جملة ما يقال لهم. و العهد: الوصية، أى: ألم أوصكم و أبلغكم على ألسن رسلى أن لا تعبدوا الشيطان، أى: لا تطيعوه. قال الزجاج: المعنى ألم أتقدّم إليكم على لسان الرسل يا بنى آدم. و قال مقاتل: يعنى الذين أمروا بالاعتزال. قال الكسائى: لا للنهى، و قيل: المراد بالعهد هنا: الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم، و قيل: هو ما نصبه اللّه لهم من الدلائل العقلية التى فى سماواته و أرضه و جملة إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ تعليل لما قبلها من النهى عن طاعة الشيطان و قبول وسوسته، و جملة وَ أَنِ اعْبُدُونِي عطف على أن لا تعبدوا، و أن فى الموضعين هى المفسرة للعهد الذى فيه معنى القول، و يجوز أن تكون مصدرية فيهما، أى ألم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا بأن اعبدونى، أو ألم أعهد إليكم فى ترك عبادة الشيطان و فى عبادتى هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى: عبادة اللّه و توحيده، أو الإشارة إلى دين الإسلام، ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبنى آدم فقال: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً اللام هى الموطئة للقسم، و الجملة مستأنفة للتقريع و التوبيخ، و اللّه لقد أضل إلخ. قرأ نافع و عاصم جِبِلًّا بكسر الجيم و الباء و تشديد اللام، و قرأ أبو عمرو، و ابن عامر بضم الجيم و سكون الباء، و قرأ الباقون بضمتين مع تخفيف اللام، و قرأ ابن إسحاق، و الزهرى، و ابن هرمز بضمتين مع تشديد اللام، و كذلك قرأ الحسن، و عيسى بن عمر، و النضر بن أنس، و قرأ أبو يحيى، و حماد بن سلمة، و الأشهب العقيلى بكسر الجيم و إسكان الباء و تخفيف اللام. قال النحاس: و أبينها القراءة الأولى. و الدليل على

ذلک أنهم قد قرءوا جميعا وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ «١» بكسر الجيم و الباء و تشديد اللام، فيكون جبلا جمع جبلة، و اشتقاق الكل من جبل اللّه الخلق، أی: خلقهم، و معنی الآية: أن الشيطان قد أغوی خلقا كثيرا كما قال مجاهد. و قال قتادة: جموعا كثيرة، و قال الكلبی: أمما كثيرة. قال الثعلبی: و القراءات كلها بمعنی الخلق، و قرئ «جيلا» بالجيم و الياء التحتية. قال الضحاک: الجيل الواحد عشرة آلاف، و الكثير ما يحصيه إلا اللّه عزّ و جلّ، و رويت هذه القراءة عن علیّ بن أبی طالب، و الهمزة فی قوله: أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف علی مقدّر يقتضيه المقام كما تقدّم فی نظائره، أی: أ تشاهدون آثار العقوبات، أ فلم تكونوا تعقلون، أو أ فلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم، أو أ فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا قرأ الجمهور أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ الخطاب. و قرأ طلحة و عيسی بالغيبة هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أی: و يقال لهم عند أن يدنوا من النار: هذه جهنم التی كنتم توعدون بها فی الدنيا علی ألسنة الرسل، و القائل لهم الملائكة، ثم يقولون لهم:

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أی: قاسوا حرّها اليوم و ادخلوها و ذوقوا أنواع العذاب فيها بما كنتم تكفرون، أی: بسبب كفركم باللّه فی الدنيا و طاعتكم للشيطان و عبادتكم للأوثان، و هذا الأمر أمر تنكيل

---

(١). الشعراء: ١٨٤.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٤٣٤

و إهانة كقوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «١» الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ اليوم ظرف لما بعده، و قرئ يختم علی البناء للمفعول، و النائب الجار و المجرور بعده. قال المفسرون: إنهم ينكرون الشرک و تكذيب الرسل كما فی قولهم: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «٢» فيختم اللّه علی أفواههم ختما لا يقدرون معه علی الكلام، و فی هذا التفات من الخطاب إلی الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم، ثم قال:

وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أی: تكلمت أيديهم بما كانوا يفعلونه، و شهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون. قرأ الجمهور تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ و قرأ طلحة بن مصرف «و لتكلّمنا»، «و لتشهد» بلام كی. و قيل سبب الختم علی أفواههم ليعرفهم أهل الموقف. و قيل ختم علی أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم لأن شهادة غير الناطق أبلغ فی الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز. و قيل: ليعلموا أن أعضاءهم التی كانت أعوانا لهم فی معاصی اللّه صارت شهودا عليهم، و جعل ما تنطق به الأيدی كلاما و إقرارا لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصی، و جعل نطق الأرجل شهادة لأنها حاضرة عند كلّ معصية، و كلام الفاعل إقرار، و كلام الحاضر شهادة، و هذا اعتبار بالغالب، و إلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدی مباشرة لها وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ أی: أذهبنا أعينهم و جعلناها بحيث لا يبدو لها شقّ و لا جفن. قال الكسائی: طمس يطمس و يطمس و المطموس و الطميس عند أهل اللغة الذی ليس فی عينيه شقّ كما فی قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ «٣» و مفعول المشيئة محذوف، أی: لو نشاء أن نطمس علی أعينهم لطمسنا. قال السدّی و الحسن: المعنی لتركناهم عميا يتردّدون لا يبصرون طريق الهدی، و اختار هذا ابن جرير فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ معطوف علی لطمسنا، أی: تبادروا إلی الطريق ليجوزوه و يمضوا فيه، و الصراط منصوب بنزع الخافض، أی: فاستبقوا إليه، و قال عطاء و مقاتل و قتادة: المعنی لو نشاء لفقأنا أعينهم و أعميناهم عن غيهم، و حوّلنا أبصارهم من الضلالة إلی الهدی، فأبصروا رشدهم، و اهتدوا و تبادروا إلی طريق الآخرة، و معنی فَأَنَّى يُبْصِرُونَ أی: كيف يبصرون الطريق و يحسنون سلوكه و لا أبصار لهم. و قرأ عيسی بن عمر فَاسْتَبِقُوا علی صيغة الأمر، أی: فيقال لهم استبقوا، و فی هذا تهديد لهم. ثم كرّر التهديد لهم فقال: وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ المسخ تبديل الخلقة إلی حجر أو غيره من الجماد أو بهيمة، و المكانة المكان، أی: لو شئنا لبدّلنا خلقهم علی المكان

الذى هم فيه.

قيل: و المكانة أخص من المكانة كالمقامة و المقام. قال الحسن: أى لأقعدناهم فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ أى: لا يقدرون على ذهاب و لا مجىء. قال الحسن: فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم و لا يرجعوا وراءهم، و كذلك الجماد لا يتقدّم و لا يتأخر. و قيل المعنى: لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم، و قيل:

لمسخناهم فى المكان الذى فعلوا فيه المعصية. و قال يحيى بن سلام: هذا كله يوم القيامة. قرأ الجمهور عَلى مَكانَتِهِمْ بالإفراد. و قرأ الحسن و السلمى و زرّ بن حبيش و أبو بكر عن عاصم «مكاناتهم» بالجمع.

و قرأ الجمهور مُضِيًّا بضم الميم، و قرأ أبو حيوة مُضِيًّا بفتحها، و روى عنه أنه قرأ بكسرها و رويت

---

(١). الدخان: ۴۹.

(٢). الأنعام: ٢٣.

(٣). البقرة: ٢٠.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۵

هذه القراءة عن الكسائى. قيل و المعنى: و لا يستطيعون رجوعا، فوضع الفعل موضع المصدر لمراعاة الفاصلة، يقال مضى يمضى مضيا: إذا ذهب فى الأرض، و رجع يرجع رجوعا: إذا عاد من حيث جاء وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ قرأ الجمهور نُنَكِّسْهُ بفتح النون الأولى و سكون الثانية و ضم الكاف مخففة. و قرأ عاصم و حمزة بضم النون الأولى و فتح الثانية و كسر الكاف مشدّدة. و المعنى: من نطل عمره نغير خلقه، و نجعله على عكس ما كان عليه أوّلا من القوّة و الطراوة. قال الزجاج: المعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوّة الضعف، و بدل الشباب الهرم، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً «١» و قوله: ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ «٢» و معنى «أ لا تعقلون» أفلا تعلمون بعقولكم أن من قدر على ذلك قدر على البعث و النشور. قرأ الجمهور «يعقلون» بالتحتية و قرأ نافع و ابن ذكوان بالفوقية على الخطاب. و لما قال كفار مكة: إن القرآن شعر، و إن محمّدا شاعر ردّ اللّه عليهم بقوله وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ و المعنى: نفى كون القرآن شعرا، ثم نفى أن يكون النبيّ شاعرا، فقال:

وَ ما يَنْبَغِي لَهُ أى: لا يصح له الشعر و لا يتأتى منه، و لا يسهل عليه لو طلبه و أراد أن يقوله، بل كان صلّى اللّه عليه و سلم إذا أراد أن ينشد بيتا قد قاله شاعر متمثلا به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور، و هو قوله:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاو يأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال: و يأتيك من لم تزوّده بالأخبار و أنشد مرّة أخرى قول العباس بن مرداس السلمى:

أ تجعل نهبى و نهب العبيدبين عيينة و الأقرع

فقال: بين الأقرع و عيينة، و أنشد أيضا:

كفى بالإسلام و الشّيب للمرء ناهيا فقال أبو بكر: يا رسول اللّه إنما قال الشاعر:

كفى الشّيب و الإسلام للمرء ناهيا فقال: أشهد أنك رسول اللّه، يقول اللّه عزّ و جلّ وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ و قد وقع منه صلّى اللّه عليه و سلم كثير من مثل هذا. قال الخليل كان الشعر أحبّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من كثير من الكلام، و لكن لا يتأتى منه اه. و وجه عدم تعليمه الشعر و عدم قدرته عليه، التكميل للحجة و الدحض للشبهة، كما جعله اللّه أميا لا يقرأ و لا يكتب، و أما ما روى عنه من قوله صلّى اللّه عليه و سلم:

هل أنت إلّا إصبع دميتو فى سبيل اللّه ما لقيت

---

(١). الحج: ۵.

(٢). التين: ۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۳۶

و قوله:

أنا النّبىّ لا كذبأنا ابن عبد المطّلب

و نحو ذلك، فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتى ذلك فى بعض آيات القرآن، و ليس بشعر و لا مراد به الشعر، بل اتفق ذلك اتفاقا كما يقع فى كثير من كلام الناس، فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان على وزن الشعر و لا يعدّونه شعرا، و ذلك كقوله تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ «١» و قوله:

وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ «٢» على أنه قد قال الأخفش إن قوله أنا النبىّ لا كذب ليس بشعر.

و قال الخليل فى كتاب العين: إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا. قال ابن العربى، و الأظهر من حاله أنه قال لا كذب برفع الباء من كذب، و بخفضها من عبد المطلب. قال النحاس: قال بعضهم:

إنما الرواية بالإعراب، و إذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا، لأنه إذا فتح الباء من الأوّل أو ضمهما أو نوّنها و كسر الباء من الثانى خرج عن وزن الشعر. و قيل إن الضمير فى له عائد إلى القرآن أى و ما ينبغى للقرآن أن يكون شعرا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ أى ما القرآن إلا ذكر من الأذكار و موعظة من المواعظ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ أى: كتب من كتب اللّه السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا أى: لينذر القرآن من كان حيا؛ أى: قلبه صحيح يقبل الحقّ و يأبى الباطل، أو لينذر الرسول من كان حيا. قرأ الجمهور بالياء التحتية، و قرأ نافع و ابن عامر بالفوقية، فعلى القراءة الأولى المراد القرآن، و على الثانية المراد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ أى: و تجب كلمة العذاب على المصرّين على الكفر الممتنعين من الإيمان باللّه و برسله.

و قد أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى الدنيا، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ قال: فى افتضاض الأبكار. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن مسعود فى الآية قال: شغلهم افتضاض العذارى. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة و قتادة مثله. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد عن ابن عمر قال: إن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء. و قد روى نحوه مرفوعا عن أبى سعيد مرفوعا عند الطبرانى فى الصغير و أبى الشيخ فى العظمة. و روى أيضا نحوه عن أبى هريرة مرفوعا عند الضياء المقدسى فى صفة الجنة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ قال: ضرب الأوتار. قال أبو حاتم:

هذا لعله خطأ من المستمع، و إنما هو افتضاض الأبكار. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال فاكِهُونَ فرحون. و أخرج ابن ماجة، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و البزار، و ابن أبى حاتم، و الآجرى فى الرؤية، و ابن مردويه عن جابر قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «بينا أهل الجنّة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السّلام عليكم يا أهل الجنة، و ذلك قول اللّه سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ قال: فينظر إليهم و ينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، و يبقى نوره و بركته عليهم فى ديارهم» قال ابن كثير: فى إسناده نظر.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآيهٔ قال: إن اللّه هو يسلم عليهم. و أخرج أحمد، و مسلم،

(۱). آل عمران: ۹۲.

(۲). سبأ: ۱۳.

و النسائى، و البزار، و ابن أبى الدنيا فى التوبهٔ و اللفظ له، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أنس فى قوله: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ قال: «كنّا عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فضحك حتّى بدت نواجذه، قال: أ تردون ممّا ضحكت؟ قلنا: لا- يا رسول اللّه! قال: من مخاطبهٔ العبد ربّه يقول: يا ربّ ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول بلى، فيقول: إنى لا أجيز علىّ إلا شاهدا منى، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا و بالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه. و يقال لأركانه: انطقى، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه و بين الكلام، فيقول: بعدا لكنّ و سحقا فعنكن كنت أناضل». و أخرج مسلم، و الترمذى، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى سعيد و أبى هريرهٔ قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «يلقى العبد ربه فيقول اللّه:

فل ألم أكرمك و أسوّدك و أسخر لك الخيل و الإبل و أذرك ترأس و تربع؟ فيقول بلى أى ربّ، فيقول أ فظننت أنك أنك ملاقىّ؟ فيقول لا- إنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى فيقول له مثل ذلك، ثم يلقى فيقول له مثل ذلك، فيقول: آمنت بك و بكتابك و برسولك و صليت و صمت و تصدّقت و يثنى بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك، فيفكر فى نفسه من الذى يشهد علىّ فيختم على فيه، و يقال لفخذه انطقى فتنطق فخذه و فمه و عظامه بعمله ما كان و ذلك ليعذر من نفسه، و ذلك المنافق، و ذلك الذى يسخط عليه».

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم من حديث أبى موسى نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ قال:

أعميناهم و أضللناهم عن الهدى فَأَنَّى يُبْصِرُونَ فكيف يهتدون. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ قال: أهلكناهم عَلى مَكانَتِهِمْ قال: فى مساكنهم. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم قال: بلغنى أنه قيل لعائشهٔ: هل كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتمثل بشىء من الشعر؟ قالت كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس فيجعل أوّله آخره يقول: «و يأتيک من لم تزوّد بالأخبار، فقال أبو بكر: ليس هكذا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: إنّى و اللّه ما أنا بشاعر و لا ينبغى لى» و هذا يردّ ما نقلناه عن الخليل سابقا أن الشعر كان أحبّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من كثير من الكلام و أخرج ابن أبى شيبهٔ، و أحمد عنها قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا استراث الخبر «۱» تمثّل ببيت طرفهٔ:

و يأتيک بالأخبار من لم تزوّد و أخرج ابن أبى شيبهٔ عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتمثّل من الأشعار:

و يأتيک بالأخبار من لم تزوّد و أخرج البيهقى فى سننه عن عائشهٔ قالت: ما جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بيت شعر قط إلّا بيتا واحدا:

تفاءل بما تهوى يكن فلقلّمايقال لشىء كان إلا تحقّق

(۱). فى النهايهٔ: راث علينا خبر فلان يريث: إذا أبطأ.

قالت عائشة: و لم يقل تحققا لئلا يعربه فيصير شعرا، و إسناده هكذا: قال أخبرنا أبو عبيد اللّه الحافظ: يعنى الحاكم حدّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم حدّثنا أبو محمّد عبد اللّه بن خلال النحوى الضرير حدّثنا على بن عمرو الأنصارى حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن عروة عن عائشة فذكره. و قد سئل المزّى عن هذا الحديث فقال: هو منكر و لم يعرف شيخ الحاكم و لا الضرير.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧١ الى ٨٣]

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧٦) أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)

أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة، و إنعامه على عبيده، و جحد الكفار لنعمه فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً و الهمزة للإنكار و التعجيب من حالهم، و الواو للعطف على مقدّر كما فى نظائره و الرؤية هى القلبية، أى: أو لم يعلموا بالتفكر و الاعتبار أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ أى: لأجلهم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا، أى: مما أبدعناه و عملنا من غير واسطة و لا شركة، و إسناد العمل إلى الأيدى مبالغة فى الاختصاص، و التفرّد بالخلق كما يقول الواحد منا: عملته بيدى للدلالة على تفرّده بعمله، و ما بمعنى الذى، و حذف العائد لطول الصلة، و يجوز أن تكون مصدرية، و الأنعام جمع نعم، و هى البقر و الغنم و الإبل، و قد سبق تحقيق الكلام فيها. ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال: فَهُمْ لَها مالِكُونَ أى ضابطون قاهرون يتصرفون بها كيف شاؤوا، و لو خلقناها وحشية لنفرت عنهم و لم يقدروا على ضبطها، و يجوز أن يكون المراد أنها صارت فى أملاكهم، و معدودة من جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ أى: جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح، و يقودها الصبىّ فتنقاد له، و يزجرها فتنزجر، و الفاء فى قوله: فَمِنْها رَكُوبُهُمْ لتفريع أحكام التذليل عليه؛ أى: فمنها مركوبهم الذى يركبونه كما يقال ناقة حلوب: أى محلوبة. قرأ الجمهور «ركوبهم» بفتح الراء. و قرأ الأعمش و الحسن و ابن السميقع بضم الراء على المصدر. و قرأ أبىّ و عائشة «ركوبتهم» و الركوب و الركوبة واحد، مثل الحلوب و الحلوبة و الحمول و الحمولة، و قال أبو عبيدة: الركوبة تكون للواحدة و الجماعة، و الركوب لا يكون إلا للجماعة. و زعم أبو حاتم أنه لا يجوز فمنها ركوبهم بضم الراء لأنه مصدر، و الركوب ما يركب، و أجاز

ذلك الفراء كما يقال: فمنها أكلهم و منها شربهم و معنى: وَ مِنْها يَأْكُلُونَ ما يأكلونه من لحمها، و من للتبعيض وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ أى: لهم فى الأنعام منافع غير الركوب لها، و الأكل منها، و هى ما ينتفعون به من أصوافها، و أوبارها، و أشعارها، و ما يتخذونه من الأدهان من شحومها، و كذلك الحمل عليها و الحراثة بها وَ مَشارِبُ أى: و لهم فيها مشارب مما يحصل من ألبانها أَ فَلا يَشْكُرُونَ اللّه على هذه النعم، و يوحدونه، و يخصونه بالعبادة. ثم ذكر سبحانه جهلهم، و اغترارهم، و وضعهم كفران النعم مكان

شكرها فقال: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً من الأصنام و نحوها يعبدونها و لا قدرة لها على شيء، و لم يحصل لهم منها فائدة، و لا عاد عليهم من عبادتها عائدة لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ أى: رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب أو دهمهم من الأمور، و جملة: لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها و أملوه من نفعها، و جمعهم بالواو و النون جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون و يضرون و يعقلون وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ أى: و الكفار جند للأصنام محضرون، أى: يحضرونهم فى الدنيا. قال الحسن: يمنعون منهم و يدفعون عنهم، و قال قتادة: أى يغضبون لهم فى الدنيا. قال الزجاج: ينتصرون للأصنام و هى لا تستطيع نصرهم. و قيل: إنه نهى لهم عن الأسباب التى تحزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و إن النهى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن التأثر بما يصدر منهم هو من باب «لا أرينّك هاهنا» فإنه يراد به نهى من خاطبه عن الحضور لديه.

لا نهى نفسه عن الرؤية، و هذا بعيد و الأوّل أولى و الكلام من باب التسلية كما ذكرناه، و يجوز أن يكون المراد بالقول المذكور هو قولهم: إنه ساحر و شاعر و مجنون، و جملة إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ لتعليل ما تقدّم من النهى. فإن علمه سبحانه بما يظهرون و يضمرون مستلزم للمجازاة لهم بذلك. و أن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافيا أو باديا، سرّا أو جهرا، مظهرا أو مضمرا. و تقديم السرّ على الجهر للمبالغة فى شمول علمه لجميع المعلومات، و جملة أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث و للتعجيب من جهله، فإن مشاهدة خلقهم فى أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية؛ مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك؛ من بعث الأجسام و ردّها كما كانت، و الإنسان المذكور فى الآية؛ المراد به جنس الإنسان كما فى قوله: أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً «١» و لا وجه لتخصيصه بإنسان معين كما قيل: إنه عبد اللّه بن أبىّ، و أنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. و قال الحسن: هو أمية بن خلف. و قال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمى.

و قال قتادة و مجاهد: هو أبىّ بن خلف الجمحى، فإن أحد هؤلاء و إن كان سببا للنزول فمعنى الآية خطاب الإنسان من حيث هو، لا إنسان معين، و يدخل من كان سببا للنزول تحت جنس الإنسان دخولا أوّليا، و النطفة هى اليسير من الماء، و قد تقدّم معناها فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخلة معها فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، و إذا هى الفجائية، أى: ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء، ففجأ خصومتنا فى أمر قد قامت فيه عليه حجج اللّه و براهينه، و الخصيم الشديد

---

(١). مريم: ٦١.

الخصومة الكثير الجدال، و معنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوّة عارضته و طلاقة لسانه، و هكذا جملة:

وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ معطوفة على الجملة المنفية داخلة فى حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهى تكميل للتعجيب من حال الإنسان، و بيان جهله بالحقائق، و إهماله للتفكر فى نفسه فضلا عن التفكر فى سائر مخلوقات اللّه، و يجوز أن تكون جملة: فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ معطوفة على خلقنا، و هذه معطوفة عليها، أى: أورد فى شأننا قصة غريبة كالمثل: و هى إنكاره إحياءنا للعظام، و نسى خلقه: أى خلقنا إياه، و هذه الجملة معطوفة على ضرب، أو فى محلّ نصب على الحال بتقدير قد، و جملة: قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ استئناف جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل: ما هذا المثل الذى ضربه؟ فقيل قال: من يحيى العظام و هى رميم، و هذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة اللّه على قدرة العبد، فأنكر أن اللّه يحيى العظام البالية حيث لم يكن فى مقدور البشر، يقال رمّ العظم يرمّ رما إذا بلى فهو رميم و رمام و إنما قال رميم و لم يقل رميمة مع كونه خبرا للمؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام

غير صفة كالرمة و الرفات، و قيل: لكونه معدولا عن فاعله و كلّ معدول عن وجهه يكون مصروفا عن إعرابه كما فى قوله: وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا «١» لأنه مصروف عن باغية، كذا قال البغوى و القرطبى، و قال بالأوّل صاحب الكشاف. و الأولى أن يقال: إنه فعيل بمعنى فاعل؛ أو مفعول و هو يستوى فيه المذكر و المؤنث كما قيل فى جريح و صبور. ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل فقال: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ أى: ابتدأها و خلقها أوّل مرة من غير شىء، و من قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه خافية و لا يخرج عن علمه خارج كائنا ما كان. و قد استدلّ أبو حنيفة و بعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة و قال الشافعى: لا تحله الحياة و أن المراد بقوله: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ من يحيى أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف، و ردّ بأن هذا التقدير خلاف الظاهر الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدّم من دفع استبعادهم، فنبه سبحانه على وحدانيته و دلّ على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود النديّ الرطب، و ذلك أن الشجر المعروف بالمرخ، و الشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان، و ضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار و هما أخضران. قيل: المرخ هو الذكر؛ و العفار هو الأنثى، و يسمى الأوّل الزند و الثانى الزندة، و قال الأخضر و لم يقل الخضراء اعتبارا باللفظ. و قرئ (الخضر) اعتبارا بالمعنى، و قد تقرّر أنه يجوز تذكير اسم الجنس كما فى قوله: نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «٢» و قوله: نَخْلٍ خاوِيَةٍ «٣» فبنو تميم و نجد يذكّرونه، و أهل الحجاز يؤنّثونه إلا نادرا، و الموصول بدل من الموصول الأوّل فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أى: تقدحون منه النار و توقدونها من ذلك الشجر الأخضر. ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم خلقا من الإنسان فقال: أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ و الهمزة للإنكار، و الواو للعطف على مقدّر كنظائره، و معنى الآية: أن من قدر على خلق السموات و الأرض؛ و هما فى غاية العظم، و كبر الأجزاء؛ يقدر على إعادة

(١). مريم: ٢٨.

(٢). القمر: ٢٠.

(٣). الحاقة: ٧.

خلق البشر الذى هو صغير الشكل ضعيف القوّة، كما قال سبحانه: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ «١». و قرأ الجمهور بِقادِرٍ بصيغة اسم الفاعل. و قرأ الجحدرى، و ابن أبى إسحاق، و الأعرج، و سلام بن المنذر، و أبو يعقوب الحضرمى «يقدر» بصيغة الفعل المضارع. ثم أجاب سبحانه عما أفاده الاستفهام من الإنكار التقريرىّ بقوله: بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ أى: بلى هو قادر على ذلك و هو المبالغ فى الخلق و العلم على أكمل وجه و أتمه. و قرأ الحسن، و الجحدرى، و مالك بن دينار «و هو الخالق». ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته، و تيسر المبدأ و الإعادة عليه فقال: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ أى: إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشىء من الأشياء أن يقول له: أحدث فيحدث من غير توقف على شىء آخر أصلا، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النحل و فى البقرة.

قرأ الجمهور: فَيَكُونُ بالرفع على الاستئناف. و قرأ الكسائى بالنصب عطفا على يقول. ثم نزّه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة فقال: فَسُبْحانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ و الملكوت فى كلام العرب لفظ مبالغة فى الملك كالجبروت و الرحموت كأنه قال: فسبحان الذى بيده مالكية الأشياء الكلية. قال قتادة: ملكوت كلّ شىء: مفاتح كلّ شىء. قرأ الجمهور مَلَكُوتُ و قرأ الأعمش و طلحة بن مصرف و إبراهيم التيمى «ملكة» بزنة شجرة، و قرأ الجمهور وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالفوقية على الخطاب مبنيا

للمفعول. و قرأ السلمى و زر بن حبيش و أصحاب ابن مسعود بالتحتية على الغيبة مبنيا للمفعول أيضا. و قرأ زيد بن عليّ على البناء للفاعل، أى: ترجعون إليه لا إلى غيره و ذلك فى الدار الآخرة بعد البعث.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم فى معجمه، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و الضياء فى المختارة عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بعظم حائل ففته بيده فقال: يا محمّد أ يحيى اللّه هذا بعد ما أرى؟ قال: «نعم، يبعث اللّه هذا، ثمّ يميتك ثمّ يحييك ثمّ يدخلك نار جهنم» فنزلت الآيات من آخر يس أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ إلى آخر السورة.

و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه قال: جاء عبد اللّه بن أبيّ فى يده عظم حائل إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و ذكر مثل ما تقدّم قال ابن كثير: و هذا منكر، لأن السورة مكية و عبد اللّه بن أبيّ إنما كان بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: جاء أبيّ بن خلف الجمحى و ذكر نحو ما تقدّم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال:

نزلت فى أبى جهل و ذكر نحو ما تقدّم.

---

(١). غافر: ٥٧.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٤٢

سورة الصّافّات

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع، و أخرج ابن الضريس، و ابن النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت بمكة. و أخرج النسائى، و البيهقى فى سننه، عن ابن عمر قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يأمرنا بالتخفيف و يؤمّنا بالصّافات. قال ابن كثير: تفرّد به النسائى. و أخرج ابن أبى داود فى فضائل القرآن، و ابن النجار فى تاريخه من طريق نهشل بن سعد الوردانى، عن الضّحّاك، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ يس و الصّافات يوم الجمعة ثمّ سأل اللّه أعطاه سؤاله».

و أخرج أبو نعيم فى الدلائل، و السّلفى فى الطيوريات، عن ابن عباس: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لما سأله ملوك حضرموت عند قدومهم عليه أن يقرأ عليهم شيئا ممّا أنزل اللّه قرأ الصَّافَّاتِ صَفًّا حتى بلغ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١ الى ١٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (٤)
رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (٦) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ
(٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (٨) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (٩)
إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ

وَ يَسْخَرُونَ (١٢) وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)
وَ قالُوا إِنْ هـذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)

قوله: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا قرأ أبو عمرو، و حمزة، و قيل: حمزة فقط بإدغام التاء من الصافات فى صاد صفا، و إدغام التاء من الزاجرات فى زاى زجرا، و إدغام التاء من التاليات فى ذال ذكرا، و هذه القراءة قد أنكرها أحمد بن حنبل لما سمعها. قال النحاس: و هى بعيده فى العربية من ثلاث جهات: الجهة الأولى أن التاء ليست من مخرج الصاد، و لا من مخرج الزاى، و لا من مخرج الدال، و لا من أخواتهن. الجهة الثانية:

أن التاء فى كلمة و ما بعدها فى كلمة أخرى. الثالثة: أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين، و إنما يجوز الجمع بين ساكنين فى مثل هذا إذا كانا فى كلمة واحدة. و قال الواحدى: إدغام التاء فى الصاد حسن لمقاربة الحرفين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان. و قرأ الباقون بإظهار جميع ذلك، و الواو للقسم، و المقسم به الملائكة: الصافات، و الزاجرات، و التاليات و المراد بالصافات: التى تصفّ فى السماء من الملائكة كصفوف الخلق فى الدنيا، قاله ابن مسعود، و ابن عباس، و عكرمة، و سعيد بن جبير، و مجاهد، و قتادة. و قيل: إنها تصفّ

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۳

أجنحتها فى الهواء واقفة فيه حتى يأمرها اللّه بما يريد. و قال الحسن: صَفًّا كصفوفهم عند ربهم فى صلاتهم.

و قيل: المراد بالصافات هنا الطير كما فى قوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ «١». و الأوّل أولى، و الصف: ترتيب الجمع على خطّ كالصفّ فى الصلاة، و قيل: الصافات جماعات الناس المؤمنين إذا قاموا صفا فى الصلاة أو فى الجهاد، ذكره القشيرى. و المراد ب فَالزَّاجِراتِ الفاعلات للزجر من الملائكة، إما لأنها تزجر السحاب كما قال السدّى، و إما لأنها تزجر عن المعاصى بالمواعظ و النصائح. و قال قتادة: المراد بالزاجرات: الزواجر من القرآن، و هى كلّ ما ينهى، و يزجر عن القبيح، و الأوّل أولى. و انتصاب صفّا.

و زَجْراً على المصدرية لتأكيد ما قبلها. و قيل: المراد بالزاجرات العلماء، لأنهم هم الذين يزجرون أهل المعاصى. و الزجر فى الأصل: الدفع بقوّة، و هو هنا: قوّة التصويت، و منه قول الشاعر:

زجر أبى عروة السّباع إذاأشفق أن يختلطن بالغنم

و منه زجرت الإبل و الغنم: إذا أفزعتها بصوتك، و المراد ب فَالتَّالِياتِ ذِكْراً الملائكة التى تتلو القرآن كما قال ابن مسعود، و ابن عباس، و الحسن، و مجاهد، و ابن جبير، و السدّى. و قيل: المراد جبريل وحده، فذكر بلفظ الجمع تعظيما له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة. و قال قتادة: المراد كلّ من تلا ذكر اللّه و كتبه. و قيل: المراد آيات القرآن، و وصفها بالتلاوة و إن كانت متلوّة كما فى قوله: إِنَّ هـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ «٢» و قيل: لأن بعضها يتلو بعضها و يتبعه. و ذكر الماوردى أن التاليات: هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم، و انتصاب ذكرا على أنه مفعول به، و يجوز أن يكون مصدرا كما قبله من قوله صَفًّا و زَجْراً. قيل: و هذه الفاء فى قوله: فَالزَّاجِراتِ فَالتَّالِياتِ إما لترتب الصفات أنفسها فى الوجود أو لترتب موصوفاتها فى الفضل، و فى الكلّ نظر، و قوله: إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ جواب القسم، أى: أقسم اللّه بهذه الأقسام إنه واحد ليس له شريك. و أجاز الكسائى فتح إن الواقعة فى جواب القسم رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يجوز أن يكون خبرا ثانيا، و أن يكون بدلا من لَواحِدٌ و أن يكون خبر مبتدأ محذوف. قال ابن الأنبارى: الوقف على لواحد وقف حسن، ثم يبتدئ ربّ السموات و الأرض على معنى هو ربّ السموات و الأرض. قال النحاس: و يجوز أن يكون بدلا من لواحد. و المعنى فى الآية:

أن وجود هـذه المخلوقات على هـذا الشـكل البـديع من أوضـح الـدلائل على وجود الصانع و قـدرته، و أنه ربّ ذلك كله، أى: خالقه و مالكه، و المراد بما بينهما: ما بين السموات و الأرض من المخلوقات. و المراد ب الْمَشارِقِ مشارق الشمس. قيل: إن اللّه سبحانه خلق للشمس كلّ يوم مشرقا و مغربا بعدد أيام السنة، تطلع كلّ يوم من واحد منها و تغرب من واحد، كذا قال ابن الأنبارى و ابن عبد البرّ. و أما قوله فى سورة الرحمن رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ «٣» فالمراد بالمشرقين: أقصى مطلع تطلع منه الشمس فى الأيام الطوال، و أقصر يوم فى الأيام القصار، و كذلك فى المغربين. و أما ذكر المشرق و المغرب بالإفراد فالمراد به الجهة التى تشرق منها الشمس، و الجهة التى تغرب منها، و لعله قد تقدّم لنا فى هذا كلام أوسع من هذا

---

(١). الملك: ١٩.

(٢). النمل: ٣۶.

(٣). الرحمن: ١٧.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۴

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ المراد بالسماء الدنيا التى تلى الأرض، من الدنوّ و هو القرب، فهى أقرب السموات إلى الأرض. قرأ الجمهور بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ بإضافة زينة إلى الكواكب. و المعنى: زيناها بتزيين الكواكب: أى بحسنها. و قرأ مسروق و الأعمش و النخعى و حمزة بتنوين «زينة» و خفض الْكَواكِبِ على أنها بدل من الزينة على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر، و التقدير بعد طرح المبدل منه:

إنا زينا السماء بالكواكب، فإن الكواكب فى أنفسها زينة عظيمة، فإنها فى أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

و قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه بتنوين بِزِينَةٍ و نصب «الكواكب» على أن الزينة مصدر و فاعله محذوف، و التقدير: بأن اللّه زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة فى أنفسها، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعنى، أو بدلا من السماء بدل اشتمال، و انتصاب حفظا على المصدرية بإضمار فعل: أى حفظناها حفظا، أو على أنه مفعول لأجله: أى زيناها بالكواكب للحفظ، أو بالعطف على محل زينة كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ أى: متمرد خارج عن الطاعة يرمى بالكواكب، كقوله: وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ «١»، و جملة لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم. و قال أبو حاتم: أى لئلا يسمعوا، ثم حذف أن فرفع الفعل، و كذا قال الكلبى، و الملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها، و سمى الكلّ منهم أعلى بإضافته إلى ملأ الأرض، و الضمير فى يسمعون إلى الشياطين. و قيل: إن جملة لا يسمعون صفة لكل شيطان، و قيل جوابا عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان حالهم بعد حفظ السماء عنهم؟ فقال: لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى قرأ الجمهور «يسمعون» بسكون السين و تخفيف الميم. و قرأ حمزة و الكسائى و عاصم فى رواية حفص عنه بتشديد الميم و السين، و الأصل يتسمعون فأدغم التاء فى السين، فالقراءة الأولى تدلّ على انتفاء سماعهم دون استماعهم، و القراءة الثانية تدلّ على انتفائهما و فى معنى القراءة الأولى قوله تعالى: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ «٢» قال مجاهد: كانوا يتسمعون و لكن لا يسمعون. و اختار أبو عبيدة القراءة الثانية، قال: لأن العرب لا تكاد تقول: سمعت إليه، و تقول تسمعت إليه وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً أى: يرمون من كلّ جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع، و انتصاب دحورا على أنه مفعول لأجله و الدحور الطرد، تقول دحرته دحرا و دحورا: طردته. قرأ الجمهور دُحُوراً بضم الدال، و قرأ علىّ و السلمى و يعقوب الحضرمى، و ابن أبى عبلة بفتحها. و روى عن أبى عمرو أنه قرأ يُقْذَفُونَ مبنيا للفاعل، و هى قراءة غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآنى، و قيل: إن انتصاب دحورا على الحال: أى مدحورين، و قيل: هو جمع

داحر نحو قاعد و قعود فيكون حالاـ أيضا. و قيل: إنه مصدر لمقدّر: أى يدحرون دحورا. و قال الفراء: إن المعنى يقذفون بما يدحرهم: أى بدحور، ثم حذفت الباء فانتصب بنزع الخافض.

---

(۱). الملك: ۵.

(۲). الشعراء: ۲۱۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۵

و اختلف هل كان هذا الرمى لهم بالشهب قبل المبعث أو بعده، فقال بالأوّل طائفة، و بالآخر آخرون، و قالت طائفة بالجمع بين القولين: إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رميا يقطعها عن السمع، و لكن كانت ترمى وقتا و لا ترمى وقتا آخر و ترمى من جانب و لا ترمى من جانب آخر، ثم بعد المبعث رميت فى كلّ وقت، و من كلّ جانب حتى صارت لا تقدر على استراق شىء من السمع؛ إلاـ من اختطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب، و معنى وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ و لهم عذاب دائم لا ينقطع، و المراد به العذاب فى الآخرة غير العذاب الذى لهم فى الدنيا من الرمى بالشهب. و قال مقاتل: يعنى دائما إلى النفخة الأولى، و الأوّل أولى. و قد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم. و قال السدّى و أبو صالح و الكلبى: هو الموجع الذى يصل وجعه إلى القلب، مأخوذ من الوصب و هو المرض، و قيل: هو الشديد، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ هو من قوله: لا يَسَّمَّعُونَ أو من قوله: وَ يُقْذَفُونَ و قيل الاستثناء راجع إلى غير الوحى لقوله: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة و يدور بينهم مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض. و الخطف الاختلاس مسارقة و أخذ الشىء بسرعة.

قرأ الجمهور خَطِفَ بفتح الخاء و كسر الطاء مخففة، و قرأ قتادة و الحسن بكسرهما و تشديد الطاء، و هى لغة تميم بن مرّ و بكر بن وائل. و قرأ عيسى بن عمر بفتح الخاء و كسر الطاء مشددة. و قرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف الطاء، و قيل: إن الاستثناء منقطع فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ أى: لحقه و تبعه شهاب ثاقب:

نجم مضىء فيحرقه، و ربما لاـ يحرقه فيلقى إلى إخوانه ما خطفه، و ليست الشهب التى يرجم بها هى الكواكب الثوابت بل من غير الثوابت، و أصل الثقوب الإضاءة. قال الكسائى: ثقبت النار تثقب ثقابة و ثقوبا: إذا اتقدت، و هذه الآية هى كقوله: إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ «۱» فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا أى: اسأل الكفار المنكرين للبعث أهم أشدّ خلقا و أقوى أجساما و أعظم أعضاء، أم من خلقنا من السموات و الأرض و الملائكة؟ قال الزجاج: المعنى فاسألهم سؤال تقرير أهم أشدّ خلقا: أى أحكم صنعة أم من خلقنا قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الأمم و قد أهلكناهم بالتكذيب فما الذى يؤمنهم من العذاب؟ ثم ذكر خلق الإنسان فقال: إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ أى: إنا خلقناهم فى ضمن خلق أبيهم آدم من طين لازب: أى لاصق، يقال لزب يلزب لزوبا:

إذا لصق. و قال قتادة و ابن زيد: اللازب اللازق. و قال عكرمة: اللازب اللزج. و قال سعيد بن جبير:

اللازب الجيد الذى يلصق باليد. و قال مجاهد: هو اللازم، و العرب تقول: طين لازب و لازم تبدل الباء من الميم، و اللازم الثابت كما يقال: صار الشىء ضربة لازب، و منه قول النابغة:

لا تحسبون الخير لا شرّ بعده‌و لا تحسبون الشرّ ضربة لازب

و حكى الفراء عن العرب: طين لاتب بمعنى لازم، و اللاتب: الثابت. قال الأصمعى. و اللاتب:

اللاصق مثل اللازب. و المعنى فى الآية: أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد و هم مخلوقون من هذا الخلق الضيف

(١). الحجر: ١٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۶

و لم ينكره من هو مخلوق خلقا أقوى منهم و أعظم و أكمل و أتمّ. و قيل اللازب هو المنتن قاله مجاهد و الضحاك.

قرأ الجمهور أَمْ مَنْ خَلَقْنا بتشديد الميم و هى أم المتصلة، و قرأ الأعمش بالتخفيف، و هو استفهام ثان على قراءته. قيل: و قد قرئ لازم و لاتب، و لا أدرى من قرأ بذلك. ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق فقال: بَلْ عَجِبْتَ يا محمّد من قدرة اللّه سبحانه وَ يَسْخَرُونَ منك بسبب تعجبك، أو يسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد. قرأ الجمهور بفتح التاء من عَجِبْتَ على الخطاب للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلم. و قرأ حمزة و الكسائى بضمها، و رويت هذه القراءة عن علىّ و ابن مسعود و ابن عباس، و اختارها أبو عبيد و الفراء. قال الفراء: قرأها الناس بنصب التاء و رفعها، و الرفع أحبّ إلىّ لأنها عن علىّ و عبد اللّه و ابن عباس قال: و العجب إن أسند إلى اللّه فليس معناه من اللّه كمعناه من العباد. قال الهروى: و قال بعض الأئمة: معنى قوله: بَلْ عَجِبْتَ بل جازيتهم على عجبهم، لأن اللّه أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الخلق كما قال: وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ «١» و قالوا: إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ «٢» أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ «٣» و قال علىّ بن سليمان: معنى القراءتين واحد، و التقدير: قل يا محمّد بل عجبت لأن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم مخاطب بالقرآن. قال النحاس: و هذا قول حسن و إضمار القول كثير. و قيل: إن معنى الإخبار من اللّه سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره و سخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين. قال الهروى:

و يقال معنى عجب ربكم: أى رضى ربكم و أثاب، فسماه عجبا، و ليس بعجب فى الحقيقة، فيكون معنى عجبت هنا عظم فعلهم عندى. و حكى النقاش أن معنى بل عجبت: بل أنكرت. قال الحسن بن الفضل:

التعجب من اللّه إنكار الشيء و تعظيمه، و هو لغة العرب، و قيل معناه: أنه بلغ فى كمال قدرته و كثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها، و هؤلاء لجهلهم يسخرون منها، و الواو فى وَ يَسْخَرُونَ للحال؛ أى: بل عجبت و الحال أنهم يسخرون، و يجوز أن تكون للاستئناف وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ أى: و إذا وعظوا بموعظة من مواعظ اللّه أو مواعظ رسوله لا يذكرون، أى: لا يتعظون بها و لا ينتفعون بما فيها. قال سعيد بن المسيب:

أى إذا ذكر لهم ما حلّ بالمكذّبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه و لم يتدبروا وَ إِذا رَأَوْا آيَةً أى معجزة من معجزات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يَسْتَسْخِرُونَ أى يبالغون فى السخرية. قال قتادة: يسخرون و يقولون إنها سخرية، يقال سخر و استسخر بمعنى، مثل قرّ و استقرّ، و عجب و استعجب. و الأوّل أولى، لأن زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى. و قيل معنى يستسخرون: يستدعون السخرية من غيرهم. و قال مجاهد: يستهزئون وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: ما هذا الذى تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً الاستفهام للإنكار: أى أ نبعث إذا متنا؟ فالعامل فى إذا هو ما دلّ عليه أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ و هو أ نبعث، لا نفس مبعوثون لتوسط ما يمنع من عمله فيه، و هذا الإنكار للبعث منهم هو السبب الذى لأجله كذبوا الرسل و ما نزل عليهم و استهزءوا بما جاءوا به من المعجزات، و قد تقدّم تفسير معنى هذه الآية فى مواضع أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ هو: مبتدأ، و خبره: محذوف، و قيل: معطوف على محل إن و اسمها، و قيل: على

(١). ص: ۴.

(٢). ص: ۵.

(۳). يونس: ۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۷

الضمير فى مبعوثون لوقوع الفصل بينهما و الهمزة للإنكار داخلة على حرف العطف، و لهذا قرأ الجمهور بفتح الواو، و قرأ ابن عامر و قالون بسكونها على أن أو هى العاطفة، و ليست الهمزة للاستفهام، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيتا لهم، فقال: قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ أى: نعم تبعثون، و أنتم صاغرون ذليلون. قال الواحدى: و الدخور أشدّ الصغار، و جملة و أنتم داخرون فى محل نصب على الحال. ثم ذكر سبحانه أن بعثهم يقع بزجرة واحدة فقال: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ الضمير للقصة أو البعثة المفهومة مما قبلها، أى: إنما قصة البعث أو البعثة زجرة واحدة، أى: صيحة واحدة من إسرافيل بنفخة فى الصور عند البعث فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ أى: يبصرون ما يفعل اللّه بهم من العذاب. و قال الحسن: هى النفخة الثانية، و سميت الصيحة زجرة، لأن المقصود منها الزجر، و قيل معنى ينظرون: ينتظرون ما يفعل بهم، و الأوّل أولى.

و قد أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، من طرق عن ابن مسعود وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا قال: الملائكة فَالزَّاجِراتِ زَجْراً قال: الملائكة فَالتَّالِياتِ ذِكْراً قال: الملائكة. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد و عكرمة مثله.

و أخرج ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه أنه كان يقرأ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى مخففة. و قال: إنهم كانوا يتسمعون و لكن لا يسمعون. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: عَذابٌ واصِبٌ قال: دائم. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة عنه أيضا إذا رمى الشهاب لم يخطئ من رمى به و تلا فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عنه أيضا فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ قال: لا يقتلون بالشهاب و لا يموتون، و لكنها تحرق، و تخبل، و تجرح فى غير قتل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: مِنْ طِينٍ لازِبٍ قال: ملتصق. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر عنه أيضا مِنْ طِينٍ لازِبٍ قال: اللزج الجيد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: اللازب، و الحمأ، و الطين واحد: كان أوّله ترابا ثم صار حمأ منتنا، ثم صار طينا لازبا، فخلق اللّه منه آدم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: اللازب الذى يلصق بعضه إلى بعض. و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه عن ابن مسعود أنه كان يقرأ بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ بالرفع للتاء من عجبت.

[سورة الصافات (۳۷): الآيات ۲۰ الى ۴۹]

وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (۲۰) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (۲۳) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۲۴)

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۷) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (۲۸) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹)

وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (۳۲) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۳۴)

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (۳۵) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (۳۷) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (۳۸) وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹)

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۴۰) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۴۳) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (۴۴)

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (۴۶) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴۹)

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۸

قوله: وَ قالُوا يا وَيْلَنا أى: قال أولئك المبعوثون لما عاينوا البعث الذى كانوا يكذبون به فى الدنيا:

يا ويلنا، دعوا بالويل على أنفسهم. قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، و قال الفراء: إن أصله ياوى لنا، و وى بمعنى الحزن كأنه قال: يا حزن لنا. قال النحاس: و لو كان كما قال لكان منفصلا، و هو فى المصحف متصل، و لا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا، و جملة هذا يَوْمُ الدِّينِ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم، و الدين الجزاء، فكأنهم قالوا هذا اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا من الكفر و التكذيب للرسل فأجاب عليهم الملائكة بقولهم: هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ و يجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض، و الفصل الحكم و القضاء لأنه يفصل فيه بين المحسن و المسىء، و قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ هو أمر من اللّه سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين و أزواجهم، و هم أشباههم فى الشرك، و المتابعون لهم فى الكفر، و المشايعون لهم فى تكذيب الرسل، كذا قال قتادة و أبو العالية. و قال الحسن و مجاهد: المراد بأزواجهم نساؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر و الظلم. و قال الضحاك: أزواجهم قرناؤهم من الشياطين يحشر كلّ كافر مع شيطانه، و به قال مقاتل وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام و الشياطين، و هذا العموم المستفاد من ما الموصولة، فإنها عبارة عن المعبودين، لا عن العابدين كما قيل مخصوص، لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح، و منهم من عبد الملائكة فيخرجون بقوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «۱» و وجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبكيت لعابديها و تخجيلهم و إظهار أنها لا تنفع و لا تضرّ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ أى عرّفوا هؤلاء المحشورين طريق النار و سوقوهم إليها، يقال هديته الطريق و هديته إليها: أى دللته عليها، و فى هذا تهكم بهم وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ أى احبسوهم، يقال وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هى وقوفا يتعدّى و لا يتعدّى، و هذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم: أى وقوفهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك، و جملة إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ تعليل للجملة الأولى. قال الكلبى: أى: مسؤولون عن أعمالهم و أقوالهم و أفعالهم. و قال الضحاك: عن خطاياهم، و قيل: عن لا إله إلا اللّه، و قيل: عن ظلم العباد، و قيل: هذا السؤال هو المذكور بعد هذا بقوله: ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ أى: أىّ شىء لكم لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا، و هذا توبيخ لهم و تقريع و تهكم بهم، و أصله تتناصر و فطرحت إحدى التاءين تخفيفا. قرأ

---

(۱). الأنبياء: ۱۰۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۴۹

الجمهور إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ بكسر الهمزة، و قرأ عيسى بن عمر بفتحها. قال الكسائى: أى لأنهم أو بأنهم، و قيل: الإشارة بقوله ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ إلى قول أبى جهل يوم بدر نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ «۱» ثم اضرب سبحانه عما تقدم إلى بيان الحالة التى هم عليها هنالك فقال: بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ أى:

منقادون لعجزهم عن الحيلة. قال قتادة: مستسلمون فى عذاب اللّه. و قال الأخفش: ملقون بأيديهم، يقال استسلم للشىء: إذا انقاد له و خضع وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أى: أقبل بعض الكفار على بعض يتساءلون. قيل: هم الأتباع و الرؤساء يسأل

بعضهم بعضا سؤال توبيخ و تقريع و مخاصمة. و قال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين. و قال قتادة: هو قول الإنس للجنّ، و الأوّل أولى لقوله: قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أى: كنتم تأتوننا فى الدنيا عن اليمين: أى من جهة الحقّ و الدين و الطاعة و تصدّونا عنها. قال الزجاج: كنتم تأتوننا من قبل الدين، فترونا أن الدين و الحق ما تضلوننا به، و اليمين عبارة عن الحق، و هذا كقوله تعالى إخبارا عن إبليس: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ «٢» قال الواحدى: قال أهل المعانى: إن الرّؤساء كانوا قد حلفوا لهؤلاء الأتباع أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم؛ فمعنى تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أى من ناحية الأيمان التى كنتم تحلفونها فوثقنا بها. قال: و المفسرون على القول الأوّل. و قيل المعنى: تأتوننا عن اليمين التى نحبها و نتفاءل بها لتغرّونا بذلك عن جهة النصح، و العرب تتفاءل بما جاء عن اليمين و تسميه السانح. و قيل اليمين بمعنى القوّة، أى: تمنعوننا بقوّة و غلبة و قهر كما فى قوله:

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ «٣» أى: بالقوّة و هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و كذلك جملة:

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فإنها مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ و المعنى: أنه قال الرؤساء أو الشياطين لهؤلاء القائلين: كنتم تأتوننا عن اليمين بل لم تكونوا مؤمنين و لم نمنعكم من الإيمان. و المعنى: أنكم لم تكونوا مؤمنين قطّ حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر بل كنتم من الأصل على الكفر فأقمتم عليه وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ من تسلط بقهر و غلبة حتى ندخلكم فى الإيمان و نخرجكم من الكفر بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ أى: متجاوزين الحدّ فى الكفر و الضلال، و قوله: فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ من قول المتبوعين، أى: وجب علينا و عليكم، و لزمنا قول ربنا، يعنون قوله تعالى: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «٤» إنا لذائقو العذاب: أى إنا جميعا لذائقو العذاب الذى ورد به الوعيد. قال الزجاج: أى إن المضلّ و الضّال فى النار فَأَغْوَيْناكُمْ أى أضللناكم عن الهدى، و دعوناكم إلى ما كنا فيه من الغىّ، و زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر إِنَّا كُنَّا غاوِينَ فلا عتب علينا فى تعرّضنا لإغوائكم، لأنا أردنا أن تكونوا أمثالنا فى الغواية؛ و معنى الآية: أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين فى أنفسنا بالغواية، فأقرّوا هاهنا بأنهم تسببوا لإغوائهم، لكن لا بطريق القهر و الغلبة، و نفوا عن أنفسهم فيما سبق أنهم قهروهم و غلبوهم، فقالوا: وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ثم أخبر اللّه سبحانه عن الأتباع و المتبوعين بقوله: فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ كما كانوا مشتركين فى الغواية

---

(١). القمر: ٤٤.

(٢). الأعراف: ١٧.

(٣). الصافات: ٩٣.

(٤). ص: ٨٥.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٥٠

فتح القدير ج‏٤ ٤٩٩

إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ أى: إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين، أى: أهل الإجرام، و هم المشركون كما يفيده قوله سبحانه: إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ أى: إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا اللّه يستكبرون عن القول، و محل يستكبرون النصب على أنه خبر كان، أو الرفع على أنه خبر إن، و كان ملغاة وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ يعنون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، أى: لقول شاعر مجنون، فردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: بَلْ جاءَ بِالْحَقِ يعنى القرآن المشتمل على التوحيد و الوعد و الوعيد وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ أى: صدّقهم فيما جاءوا به من التوحيد و الوعيد، و إثبات الدار الآخرة و لم يخالفهم

و لا جاء بشىء لم تأت به الرسل قبله إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ أى: إنكم بسبب شرككم و تكذيبكم لذائقوا العذاب الشديد الألم. قرأ الجمهور لَذائِقُوا بحذف النون و خفض العذاب، و قرأ أبان بن ثعلب عن عاصم و أبو السمال بحذفها و نصب العذاب، و أنشد سيبويه فى مثل هذه القراءة بالحذف للنون و النصب للعذاب قول الشاعر:

فألفيته غير مستعتبو لا ذاكر اللّه إلّا قليلا

و أجاز سيبويه أيضا وَ الْمُقِيمِى الصَّلاةِ بنصب الصلاة على هذا التوجيه. و قد قرىء بإثبات النون و نصب العذاب على الأصل. ثم بين سبحانه أن ما ذاقوه من العذاب ليس إلا بسبب أعمالهم، فقال: وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: إلا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر و المعاصى، أو إلا بما كنتم تعملون.

ثم استثنى المؤمنين فقال: إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ قرأ أهل المدينة و الكوفة الْمُخْلَصِينَ بفتح اللام، أى: الذين أخلصهم اللّه لطاعته و توحيده. و قرأ الباقون بكسرها، أى الذين أخلصوا للّه العبادة و التوحيد، و الاستثناء إما متصل على تقدير تعميم الخطاب فى تجزون لجميع المكلّفين، أو منقطع، أى: لكن عباد اللّه المخلصين لا يذوقون العذاب، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المخلصين، و هو: مبتدأ، و خبره قوله:

لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ أى: لهؤلاء المخلصين رزق يرزقهم اللّه إياه معلوم فى حسنه و طيبه، و عدم انقطاعه.

قال قتادة: يعنى الجنة، و قيل: معلوم الوقت، و هو أن يعطوا منه بكرة و عشية كما فى قوله: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا «١» و قيل هو المذكور فى قوله بعده فَواكِهُ فإنه بدل من رزق، أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هو فواكه، و هذا هو الظاهر. و الفواكه جمع الفاكهة و هى الثمار كلها رطبها و يابسها، و خصص الفواكه بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه كذا قيل. و الأولى أن يقال: إن تخصيصها بالذكر لأنها أطيب ما يأكلونه و ألذّ ما تشتهيه أنفسهم. و قيل: إن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة، فذكرها يغنى عن ذكر غيرها، و جملة وَ هُمْ مُكْرَمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و لهم من اللّه عزّ و جلّ إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده، و سماع كلامه و لقائه فى الجنة قرأ الجمهور مُكْرَمُونَ بتخفيف الراء. و قرأ أبو مقسم بتشديدها و قوله: فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يجوز أن يتعلق بمكرمون و أن يكون خبرا ثانيا، و أن يكون حالا، و قوله:

عَلى سُرُرٍ يحتمل أن يكون حالا، و أن يكون خبرا ثالثا، و انتصاب مُتَقابِلِينَ على الحالية من الضمير

---

(١). مريم: ٦٢.

فى مكرمون، أو من الضمير فى متعلق على سرر. قال عكرمة و مجاهد: معنى التقابل أنه لا ينظر بعضهم فى قفا بعض، و قيل: إنها تدور بهم الأسرّة كيف شاؤوا فلا يرى بعضهم قفا بعض. قرأ الجمهور سُرُرٍ بضم الراء. و قرأ أبو السمال بفتحها، و هى لغة بعض تميم. ثم ذكر سبحانه صفة أخرى لهم فقال: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ و يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير متقابلين، و الكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكلّ إناء فيه الشراب، فإن كان فارغا فليس بكأس. و قال الضحاك و السدّى: كل كأس فى القرآن فهى الخمر. قال النحاس: و حكى من يوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم يقل له مائدة، و من معين متعلق بمحذوف هو صفة لكأس. قال الزجاج: بكأس من معين، أى: من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض، و المعين الماء الجارى، و قوله: بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ صفتان لكأس. قال الزجاج: أى ذات لذة فحذف المضاف، و يجوز أن يكون الوصف بالمصدر لقصد المبالغة فى كونها لذّة فلا يحتاج إلى تقدير

المضاف. قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضا من اللبن له لذّة لذيذة، يقال شراب لذّ و لذيذ كما يقال نبات غضّ و غضيض، و منه قول الشاعر:

بحديثها اللذّ الذى لو كلّمت أسد الفلاة به أتين سراعا

و اللذيذ: كل شىء مستطاب، و قيل البيضاء: هى التى لم يعتصرها الرجال. ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما يتصف به خمر الدنيا، فقال: لا فِيها غَوْلٌ أى: لا تغتال عقولهم فتذهب بها، و لا يصيبهم منها مرض و لا صداع وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ أى: يسكرون، يقال: نزف الشارب فهو منزوف و نزيف إذا سكر، و منه قول امرئ القيس:

و إذ هى تمشى كمشى النّزيف يصرعه بالكثيب البهر

و قال أيضا:

نزيف إذا قامت لوجه تمايلت ..... «۱» ....

و منه قول الآخر:

فلثمت فاها آخذا بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

قال الفراء: العرب تقول ليس فيها غيلة و غائلة و غول سواء. و قال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولهم، و أنشد قول مطيع بن إياس:

---

(۱). و عجز البيت: تراشى الفؤاد الرّخص ألّا تختّرا.

و الختر: خدر يحصل عند شراب الدواء أو السّم.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۲ و ما زالت الكأس تغتالهم و تذهب بالأوّل الأوّل

و قال الواحدى: الغول حقيقته الإهلاك، يقال غاله غولا و اغتاله: أى أهلكه، و الغول كلّ ما اغتالك:

أى أهلكك. قرأ الجمهور يُنْزَفُونَ بضم الياء و فتح الزاى مبنيا للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى بضم الياء و كسر الزاى من أنزف الرجل: إذا ذهب عقله من السكر فهو نزيف و منزوف، يقال أحصد الزرع:

إذا حان حصاده، و أقطف الكرم: إذا حان قطافه. قال الفراء: من كسر الزاى فله معنيان، يقال أنزف الرجل: إذا فنيت خمره، و أنزف: إذا ذهب عقله من السكر، و تحمل هذه القراءة على معنى لا ينفد شرابهم لزيادة الفائدة. قال النحاس: و القراءة الأولى أبين و أصحّ فى المعنى، لأن معنى لا ينزفون عند جمهور المفسرين:

لا تذهب عقولهم، فنفى اللّه عزّ و جلّ عن خمر الجنة الآفات التى تلحق فى الدنيا من خمرها من الصداع و السكر.

و قال الزجاج و أبو على الفارسى معنى: لا ينزفون بكسر الزاى: لا يسكرون. قال المهدوى: لا يكون معنى ينزفون يسكرون، لأن قبله لا فِيها غَوْلٌ أى: لا تغتال عقولهم فيكون تكريرا، و هذا يقوّى ما قاله قتادة: إن الغول وجع البطن و كذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد. و قال الحسن: إن الغول الصداع. و قال ابن كيسان: هو المغص، فيكون معنى الآية: لا فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر فى الدنيا من مغص أو وجع بطن أو صداع أو عربدة أو لغو أو تأثيم و لا هم يسكرون منها. و يؤيد هذا أن أصل الغول الفساد الذى يلحق فى خفاء، يقال اغتاله اغتيالا: إذا أفسد عليه أمره فى خفية، و منه الغول و الغيلة القتل خفية. و قرأ ابن أبى إسحاق يُنْزَفُونَ بفتح الياء و كسر الزاى. و قرأ طلحة بن مصرّف بفتح الياء و ضم الزاى. و لما ذكر سبحانه صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم فقال: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أى نساء قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم، و القصر معناه الحبس، و منه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطّرف لو دبّ محول‌من الذّرّ فوق الإتب منها لأثّرا

و المحول: الصغير من الذرّ، و الأتب القميص، و قيل القاصرات: المحبوسات على أزواجهنّ، و الأوّل أولى لأنه قال: قاصرات الطرف، و لم يقل مقصورات، و العين عظام العيون جمع عيناء و هى الواسعة العين. قال الزجاج: معنى عِينٌ كبار الأعين حسانها. و قال مجاهد: العين حسان العيون. و قال الحسن: هنّ الشديدات بياض العين الشديدات سوادها، و الأوّل أولى كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ قال الحسن و أبو زيد:

شبههنّ ببيض النعام تكنها النعامة بالريش من الريح و الغبار. فلونه أبيض فى صفرة، و هو أحسن ألوان النساء، و قال سعيد بن جبير و السدّى: شبههنّ ببطن البيض قبل أن يقشر و تمسه الأيدى و به قال ابن جرير، و منه قول امرئ القيس:

و بيضة خدر لا يرام خباؤهاتمتّعت من لهو بها غير معجل

قال المبرد: و تقول العرب إذا وصفت الشىء بالحسن و النظافة كأنه بيض النعام المغطى بالريش. و قيل

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۳

المكنون: المصون عن الكسر: أى إنهنّ عذارى، و قيل: المراد بالبيض اللؤلؤ كما فى قوله: وَ حُورٌ عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ و مثله قول الشاعر:

و هى بيضاء مثل لؤلؤة الغوّاص ميزت من جوهر مكنون

و الأوّل أولى، و إنما قال مكنون و لم يقل مكنونات لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ قال: تقول الملائكة للزبانية هذا القول. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و ابن أبى شيبة، و ابن منيع فى مسنده، و عبد ابن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث من طريق النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب فى قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ قال: أمثالهم الذين هم مثلهم: يجىء أصحاب الرّبا مع أصحاب الرّبا، و أصحاب الزّنا مع أصحاب الزّنا، و أصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج فى الجنة، و أزواج فى النار. و أخرج الفريابى، و سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله:

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ قال: أشباههم، و فى لفظ: نظراءهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ قال: وجهوهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: دلوهم إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ قال: طريق النار. و أخرج عنه أيضا فى قوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ قال: احبسوهم إنهم محاسبون. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الدارمى، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما من داع دعا إلى شىء إلا كان موقوفا معه يوم القيامة لازما به لا يفارقه و إن دعا رجل رجلا، ثم قرأ وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ . و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قال: ذلك إذا بعثوا فى النفخة الثانية. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ قال: كانوا إذا لم يشرك باللّه يستنكفون، وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ لا يعقل، قال: فحكى اللّه صدقه فقال: بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلا اللّه، فمن قال لا إله إلا اللّه فقد عصم منى ماله و نفسه إلا بحقّه و حسابه على اللّه». و أنزل اللّه فى كتابه و ذكر قوما استكبروا، فقال: إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ و قال: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ

كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها «١» و هى «لا إله إلا اللّه محمّد رسول اللّه» استكبر عنها المشركون يوم الحديبية، يوم كاتبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على قضية المدّة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث.

---

(١). الفتح: ٢۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۵۴

عن ابن عباس فى قوله: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ قال: الخمر لا فِيها غَوْلٌ قال ليس فيها صداع وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ قال: لا تذهب عقولهم. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه قال فى الخمر أربع خصال: السكر و الصداع و القيء و البول، فنزّه اللّه خمر الجنة عنها، فقال: لا فِيها غَوْلٌ لا تغول عقولهم من السكر وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ قال: يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس لا فِيها غَوْلٌ قال: هى الخمر ليس فيها وجع بطن. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ يقول:

عن غير أزواجهنّ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ قال: اللؤلؤ المكنون. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ قال: بياض البيضة ينزع عنها فوقها و غشاؤها.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ۵٠ الى ٧۴]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۵٠) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (۵١) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (۵٢) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (۵٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (۵۵) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۵٧) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (۵٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵٩)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (۶١) أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (۶٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (۶٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (۶۴)

طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۶۶) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (۶٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (۶٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (۶٩)

فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧۴)

قوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ معطوف على يطاف، أى: يسأل هذا ذاك، و ذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التى كانت فى الدنيا، و ذلك من تمام نعيم الجنة. و التقدير: فيقبل بعضهم على بعض، و إنما عبر عنه بالماضى للدلالة على تحقق وقوعه قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ أى: قال قائل من أهل الجنة فى حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث و سؤال بعضهم لبعض إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ أى: صاحب ملازم لى فى الدنيا كافر بالبعث منكر له كما يدلّ عليه قوله: أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ يعنى: بالبعث و الجزاء، و هذا الاستفهام من القرين لتوبيخ ذلك المؤمن و تبكيته بإيمانه؛ و تصديقه بما وعد اللّه به من البعث، و كان هذا القول منه فى الدنيا. ثم ذكر ما يدلّ على الاستبعاد للبعث عنده و فى زعمه فقال: أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ أى: مجزيون بأعمالنا و محاسبون بها بعد أن صرنا ترابا و عظاما و قيل معنى مدينون:

مسوسون، يقال دانه: إذا ساسه. قال سعيد بن جبير: قرينه شريكه، و قيل: أراد بالقرين الشيطان الذى يقارنه و أنه كان يوسوس إليه بإنكار البعث، و قد مضى ذكر قصتهما فى سورة الكهف، و الاختلاف فى

اسميهما، قرأ الجمهور لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ بتخفيف الصاد من التصديق، أى: لمن المصدّقين بالبعث، و قرئ بتشديدها، و لا أدرى من قرأ بها، و معناها بعيد لأنها من التصدّق لا من التصديق، و يمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصدّق بماله لطلب الثواب، و علل ذلك باستبعاد البعث.

و قد اختلف القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى و الثانية بالاستفهام بهمزة، و الثالثة بكسر الألف من غير استفهام، و وافقه الكسائى إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، و ابن عامر الأولى و الثالثة بهمزتين، و الثانية بكسر الألف من غير استفهام، و الباقون بالاستفهام فى جميعها. ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطوّلة، و بعده ساكنة خفيفة، و أبو عمرو مطوّلة، و عاصم و حمزة بهمزتين. قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ القائل هو المؤمن الذى فى الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه فى الدنيا، أى: هل أنتم مطلعون إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذى قال لى تلك المقالة كيف منزلته فى النار؟ قال ابن الأعرابى:

و الاستفهام هو بمعنى الأمر، أى: اطلعوا، و قيل: القائل هو اللّه سبحانه، و قيل: الملائكة، و الأوّل أولى فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ أى: فاطلع على النار ذلك المؤمن الذى صار يحدث أصحابه فى الجنة بما قال له قرينه فى الدنيا، فرأى قرينه فى وسط الجحيم. قال الزجاج: سواء كلّ شىء وسطه. قرأ الجمهور مُطَّلِعُونَ بتشديد الطاء مفتوحة و بفتح النون، فاطلع ماضيا مبنيا للفاعل من الطلوع. و قرأ ابن عباس و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو مطلعون بسكون الطاء و فتح النون فَاطَّلَعَ بقطع الهمزة مضمومة و كسر اللام ماضيا مبنيا للمفعول. قال النحاس: فاطلع فيه قولان على هذه القراءة أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا، أى: فأطلع أنا، و يكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام، و القول الثانى: أن يكون فعلا ماضيا، و قرأ حماد بن أبى عمار مُطَّلِعُونَ بتخفيف الطاء و كسر النون فاطلع مبنيا للمفعول، و أنكر هذه القراءة أبو حاتم و غيره. قال النحاس: هى لحن، لأنه لا يجوز الجمع بين النون و الإضافة، و لو كان مضافا لقال هل أنتم مطلعىّ، و إن كان سيبويه و الفراء قد حكيا مثله و أنشدا:

هم القائلون الخير و الآمرونه إذا ما خشوا من محدث الدّهر معظما

و لكنه شاذ خارج عن كلام العرب قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ أى قال ذلك الذى من أهل الجنة لما اطلع على قرينه و رآه فى النار: تاللّه إن كدت لتردين: أى لتهلكنى بالإغواء. قال الكسائى: لتردين لتهلكنى، و الردى: الهلاك. قال المبرد: لو قيل لتردين لتوقعنى فى النار لكان جائزا. قال مقاتل: المعنى و اللّه لقد كدت أن تغوينى فانزل منزلتك، و المعنى متقارب، فمن أغوى إنسانا فقد أهلكه وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أى: لو لا رحمة ربى، و إنعامه علىّ بالإسلام، و هدايتى إلى الحقّ، و عصمتى عن الضلال لكنت من المحضرين معك فى النار. قال الفراء: أى لكنت معك فى النار محضرا. قال الماوردى: و أحضر لا يستعمل إلّا فى الشرّ. و لما تمم كلامه مع ذلك القرين الذى هو فى النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة فقال:

أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ و الهمزة للاستفهام التقريرى و فيها معنى التعجيب، و الفاء للعطف على محذوف كما فى نظائره، أى: أ نحن مخلّدون منعمون فما نحن بميتين إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى التى كانت فى الدنيا، و قوله هذا

كان على طريقة الابتهاج و السرور بما أنعم اللّه عليهم من نعيم الجنة الذى لا ينقطع و أنهم مخلدون لا يموتون أبدا، و قوله: وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ هو من تمام كلامه، أى: و ما نحن بمعذبين كما يعذب الكفار. ثم قال مشيرا إلى ما هم فيه من النعيم إِنَّ هذا لَهُوَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أی: إن هـذا الأمر العظيم، و النعيم المقيم، و الخلود الـدائم الـذی نحن فيه لهو الفوز العظيم الذی لا يقادر قدره و لا يمكن الإحاطـة بوصـفه، و قوله لِمِثْلِ هـذا فَلْيَعْمَـلِ الْعـامِلُونَ من تمـام كلامـه؛ أی: لمثـل هـذا العطـاء؛ و الفضـل العظيم فليعمل العاملون، فإن هـذه هی التجارة الرابحـة، لا العمل للـدنيا الزائلـة فإنها صـفقة خاسـرة، نعيمها منقطع، و خيرها زائل، و صاحبها عن قريب منها راحل. و قيل: إن هـذا من قول اللّه سبحانه، و قيل: من قول الملائكة، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور بِمَيِّتِينَ و قرأ زيد بن علیّ «بمايتين» و انتصاب إلا موتتنا على المصدرية، و الاسـتثناء مفرّغ، و يجوز أن يكون الاستثناء منقطعا. أی: لكن الموتة الأولى التی كانت فی الدنيا أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ الإشارة بقوله ذلك إلى ما ذكره من نعيم الجنة، و هو: مبتدأ، و خبره: خير، و نزلا: تمييز، و النزل فی اللغـة الرزق الـذی يصـلح أن ينزلوا معه و يقيموا فيه، و الخيريـة بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره. قال الزجاج:

المعنى أذلـك خير فی بـاب الإـنزال التی يبقون بهـا نزلاـ أم نزل أهل النار، و هو قوله: أَمْ شَـجَرَةُ الزَّقُّومِ و هو ما يكره تناوله. قال الواحـدی: و هو شـیء مرّ كريه يكره أهل النار على تناوله فهم يتزقمونه، و هی على هـذا مشتقة من التزقيم و هو البلع على جهد لكراهتها و نتنها. و اختلف فيها هل هی من شـجر الـدنيا التی يعرفها العرب أم لا على قولين: أحدهما أنها معروفة من شـجر الدنيا فقال قطرب: إنها شـجرة مرّة تكون بتهامـة من أخبث الشـجر. و قال غيره: بل هو كلّ نبات قاتل. القول الثانی: أنها غير معروفة فی شجر الـدنيا. قال قتادة: لما ذكر اللّه هذه الشـجرة افتتن بها الظلمة فقالوا: كيف تكون فی النار شـجرة. فأنزل اللّه تعالى إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ قال الزجاج: حين افتتنوا بها و كـذبوا بوجودها. و قيل: معنى جعلها فتنـة لهم: أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها، و المراد بالظـالمين هنا: الكفار أو أهل المعاصـی الموجبـة للنار. ثم بين سـبحانه أوصاف هـذه الشـجرة ردّا على منكريها فقال: إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِی أَصْلِ الْجَحِيمِ أی: فی قعرها، قال الحسن:

أصـلها فی قعر جهنم، و أغصانهـا ترفع إلى دركاتهـا، ثم قـال: طَلْعُهـا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ أی: ثمرها و ما تحمله كأنه فی تناهی قبحه و شـناعة منظره رؤوس الشـياطين، فشـبه المحسوس بالمتخيل، و إن كان غير مرئیّ للدلالة على أنه غاية فی القبح كما تقول فی تشبيه من يستقبحونه: كأنه شيطان، و فی تشبيه من يستحسنونه:

كأنه ملك، كما فی قوله: ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ «1» و منه قول امرئ القيس:

أ يقتلنی و المشرفیّ مضاجعیو مسنونة زرق كأنياب أغوال

و قال الزجاج و الفراء: الشـياطين حيات لها رؤوس و أعراف، و هی من أقبح الحيات و أخبثها، و أخفها جسـما، و قيل إن رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح معروف باليمن يقال له الاستن، و يقال له الشيطان. قال النحاس: و ليس ذلك معروفا عند العرب. و قيل: هو شجر خشن منتن مرّ منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس

---

(1). يوسف: 31.

الشـياطين فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها أی: من الشـجرة أو من طلعها، و التأنيث لاكتساب الطلع التأنيث من إضافته إلى الشجرة فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ و ذلـك أنهم يكرهون على أكلهـا حتى تمتلئ بطونهم، فهـذا طعامهم، و فاكهتهم بـدل رزق أهل الجنـة ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها بعـد الأكـل منهـا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ الشوب: الخلط. قال الفراء: شاب طعامه و شـرابه: إذا خلطهما بشـیء يشوبهما شوبا و شـيابة، و الحميم:

الماء الحارّ. فأخبر سبحانه أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحارّ ليكون أفظع لعذابهم و أشنع لحالهم كما فی قوله:

وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ قرأ الجمهور لَشَوْباً بفتح الشين، و هو مصدر، و قرأ شيبان النحوى بالضم. قال الزجاج: المفتوح مصدر، و المضموم اسم بمعنى المشوب، كالنقص بمعنى المنقوص ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ أى: مرجعهم بعد شرب الحميم و أكل الزقوم إلى الجحيم، و ذلك أنهم يوردون الحميم لشربه، و هو خارج الجحيم، كما تورد الإبل، ثم يردّون إلى الجحيم كما فى قوله سبحانه:

يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ و قيل: إن الزقوم و الحميم نزل يقدّم إليهم قبل دخولها. قال أبو عبيدة:

ثم بمعنى الواو، و قرأ ابن مسعود «ثمّ إنّ مقيلهم لإلى الجحيم» و جملة إِنَّهُمْ أَلْفَوْا أى: وجدوا آباءَهُمْ ضالِّينَ تعليل لاستحقاقهم ما تقدّم ذكره، أى: صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم تقليدا و ضلالة لا لحجة أصلا فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ الإهراع الإسراع، الإهراع برعدة. و قال أبو عبيدة:

يهرعون: يستحثون من خلفهم، يقال جاء فلان يهرع إلى النار: إذا استحثه البرد إليها. و قال المفضل يزعجون من شدّة الإسراع. قال الزجاج: هرع و أهرع: إذا استحثّ و انزعج، و المعنى: يتبعون آباءهم فى سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ أى: ضلّ قبل هؤلاء المذكورين أكثر الأوّلين من الأمم الماضية وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ أى: أرسلنا فى هؤلاء الأوّلين رسلا أنذروهم العذاب و بينوا لهم الحقّ فلم ينجع ذلك فيهم فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ أى: الذين أنذرتهم الرسل فإنهم صاروا إلى النار. قال مقاتل: يقول كان عاقبتهم العذاب، يحذر كفار مكة ثم استثنى عباده المؤمنين فقال:

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أى: إلا من أخلصهم اللّه بتوفيقهم إلى الإيمان و التوحيد، و قرئ الْمُخْلِصِينَ بكسر اللام، أى: الذين أخلصوا للّه طاعاتهم و لم يشوبوها بشىء مما يغيرها.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ

قال: اطلع ثم التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيت جماجم القوم تغلى. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: قول اللّه لأهل الجنة كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* قال هنيئا: أى لا تموتون فيها فعند ذلك قالوا: أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ قال: هذا قول اللّه لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ و أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: كنت أمشى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يده فى يدى، فرأى جنازة فأسرع المشى حتى أتى القبر، ثم جثى على ركبتيه فجعل يبكى حتى بلّ الثرى، ثم قال: لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: دخلت مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم على مريض يجود بنفسه فقال: لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:

فتح القدير، ج‏4، ص: 458

مرّ أبو جهل برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو جالس، فلما بعد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى «1». فلما سمع أبو جهل قال: من توعد يا محمّد؟ قال: إياك، قال: بما توعدنى؟ قال:

أوعدك بالعزيز الكريم، قال أبو جهل: أليس أنا العزيز الكريم؟ فأنزل اللّه: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ «2» إلى قوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «3» فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه، فأخرج إليهم زبدا و تمرا فقال: تزقموا من هذا، فو اللّه ما يتوعدكم محمّد إلا بهذا، فأنزل اللّه إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ إلى قوله: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ و أخرج ابن أبى شيبة عنه قال: لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذ عنه أيضا ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً قال: لمزجا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال فى قوله:

لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ يخالط طعامهم و يشاب بالحميم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة، حتى يقيل هؤلاء، و يقيل هؤلاء، أهل الجنة، و أهل النار، و قرأ «ثمّ إنّ مقيلهم لإلى الجحيم» و أخرج ابن جرير، و ابن

المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ قال: وجدوا آباءهم.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٧٥ الى ١١٣]

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (٧٧) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (٧٩)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)

قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤)

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩)

كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

---

(١). القيامة: ٣٤ و ٣٥.

(٢). الدخان: ٤٣ و ٤٤.

(٣). الدخان: ٤٩.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٥٩

لما ذكر سبحانه أنه أرسل فى الأمم الماضية منذرين ذكر تفصيل بعض ما أجمله فقال: وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ و اللام هى الموطئة للقسم، و كذا اللام فى قوله: فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ أى: نحن، و المراد أن نوحا دعا ربه على قومه لما عصوه، فأجاب اللّه دعاءه و أهلك قومه بالطوفان. فالنداء هنا هو نداء الدعاء و الاستغاثة به، كقوله: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١» و قوله: أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «٢» قال الكسائى:

أى فلنعم المجيبون له كنا فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ المراد بأهله أهل دينه، و هم من آمن معه؛ و كانوا ثمانين، و الكرب العظيم: هو الغرق، و قيل: تكذيب قومه له، و ما يصدر منهم إليه من أنواع الأذايا وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل، و ذلك لأن اللّه أهلك الكفرة بدعائه، و لم يبق منهم باقية، و من كان معه فى السفينة من المؤمنين

ماتوا كما قيل، و لم يبق إلا أولاده. قال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة و الناس كلهم من ولد نوح، فسام أبو العرب و فارس و الروم و اليهود و النصارى. و حاتم أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند، و الهند، و النوب، و الزنج، و الحبشة، و القبط، و البربر و غيرهم. و يافث أبو الصقالب و الترك و الخزر و يأجوج و مأجوج و غيرهم. و قيل: إنه كان لمن مع نوح ذرّية كما يدلّ عليه قوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ «٣» و قوله: قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ «٤» فيكون على هذا معنى وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ و ذرّيته و ذرية من معه دون ذرّية من كفر، فإن اللّه أغرقهم فلم يبق لهم ذرّية وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ يعنى فى الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، و المتروك هذا هو قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ أي: تركنا هذا الكلام بعينه، و ارتفاعه على الحكاية، و السلام هو الثناء الحسن، أي: يثنون عليه ثناء حسنا و يدعون له و يترحمون عليه. قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة، و ذلك الذكر هو قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ قال الكسائى: فى ارتفاع سلام وجهان: أحدهما و تركنا عليه فى الآخرين يقال سلام على نوح. و الوجه الثاني: أن يكون المعنى: و أبقينا عليه، و تمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: سلام على نوح، أي: سلامة له من أن يذكر بسوء فى الآخرين. قال المبرد: أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية:

يعنى يسلمون عليه تسليما و يدعون له، و هو من الكلام المحكى كقوله: سُورَةٌ أَنْزَلْناها «٥» و قيل: إنه ضمن تركنا معنى قلنا. قال الكوفيون: جملة سلام على نوح فى العالمين فى محل نصب مفعول تركنا، لأنه ضمن معنى قلنا. قال الكسائى: و فى قراءة ابن مسعود «سلاما» منصوب بتركنا، أي: تركنا عليه ثناء حسنا، و قيل: المراد بالآخرين أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم، و فى العالمين متعلق بما تعلق به الجار و المجرور الواقع خبرا، و هو على نوح، أي: سلام ثابت أو مستمرّ أو مستقرّ على نوح فى العالمين من الملائكة و الجنّ و الإنس، و هذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلم كما قيل: إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه، و بقاء الثناء من اللّه عليه، و بقاء ذريته، أي: إنا كذلك نجزى من كان محسنا فى أقواله و أفعاله راسخا فى الإحسان معروفا به، و الكاف فى كذلك نعت مصدر محذوف، أي:

---

(١). نوح: ٢۶.

(٢). القمر: ١٠.

(٣). الإسراء: ٣.

(۴). هود: ۴٨.

(۵). النور: ١.

جزاء كذلك الجزاء إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ هذا بيان لكونه من المحسنين و تعليل له بأنه كان عبدا مؤمنا مخلصا للّه ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ أي: الكفرة الذين لم يؤمنوا باللّه و لا صدّقوا نوحا. ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم، و بين أنه ممن شايع نوحا فقال: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ أي: من أهل دينه، و ممّن شايعه و وافقه على الدعاء إلى اللّه، و إلى توحيده و الإيمان به. قال مجاهد: أي على منهاجه و سنته. قال الأصمعي:

الشيعة الأعوان و هو مأخوذ من الشياع، و هو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد، و قال الفراء: المعنى و إن من شيعة محمّد لإبراهيم، فالهاء فى شيعته على هذا لمحمّد صلّى اللّه عليه و سلم، و كذا قال الكلبي. و لا يخفى ما فى هذا من الضعف و المخالفة للسياق. و الظرف فى قوله: إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ منصوب بفعل محذوف، أي: اذكر، و قيل: بما فى الشيعة

من معنى المتابعة. قال أبو حيان: لا يجوز لأن فيه الفصل بين العامل و المعمول بأجنبىّ، و هو إبراهيم، و الأولى أن يقال: إن لام الابتداء تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها، و القلب السليم المخلص من الشرك و الشك. و قيل: هو الناصح للّه فى خلقه، و قيل: الذى يعلم أن اللّه حقّ، و أن الساعة قائمة، و أن اللّه يبعث من فى القبور. و معنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده و طاعته. الثانى: عند إلقائه فى النار. و قوله: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ بدل من الجملة الأولى، أو ظرف لسليم، أو ظرف لجاء، و المعنى: وقت قال لأبيه آزر و قومه من الكفار: أىّ شىء تعبدون أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ انتصاب إفكا على أنه مفعول لأجله، و انتصاب آلهة على أنه مفعول تريدون، و التقدير: أ تريدون آلهة من دون اللّه للإفك، و دون: ظرف لتريدون، و تقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام. و قيل: انتصاب إفكا على أنه مفعول به لتريدون، و آلهة بدل منه، جعلها نفس الإفك مبالغة، و هذا أولى من الوجه الأوّل. و قيل: انتصابه على الحال من فاعل تريدون، أى: أ تريدون آلهة آفكين، أو ذوى إفك. قال المبرد: الإفك أسوأ الكذب، و هو الذى لا يثبت و يضطرب و منه ائتفكت بهم الأرض فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ أى: ما ظنكم به إذا لقيتموه و قد عبدتم غيره و ما ترونه يصنع بكم؟ و هو تحذير مثل قوله: ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ «١» و قيل: المعنى: أىّ شىء توهمتموه باللّه حتى أشركتم به غيره فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ قال الواحدى: قال المفسرون: كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه و ذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم لتلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة، و كان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، و أراد أن يتخلف عنهم فاعتلّ بالسقم: و ذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدلّ بها على حاله، فلما نظر إليها قال إنى سقيم أى سأسقم، و قال الحسن: إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكّر فيما يعمل، فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأى، أى: فيما طلع له منه، فعلم أن كلّ شىء يسقم فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ قال الخليل و المبرد: يقال للرجل إذا فكر فى الشىء يدبره: نظر فى النجوم. و قيل: كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تعتاده فيها الحمى. و قال الضحاك: معنى إنى سقيم: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم فى الغالب ثم يموت، و هذا تورية و تعريض كما قال للملك لما سأله عن سارّة هى أختى، يعنى: أخوّة الدين. و قال سعيد

---

(١). الإنفطار: ۶

ابن جبير: أشار لهم إلى مرض يسقم و يعدى و هو الطاعون و كانوا يهربون من ذلك، و لهذا قال: فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ أى: تركوه و ذهبوا مخافة العدوى فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ يقال راغ روغا و روغانا: إذا مال، و منه طريق رائغ: أى مائل. و منه قول الشاعر:

فيريك من طرف اللّسان حلاوة و يروغ عنك كما يروغ الثّعلب

و قال السدّى: ذهب إليهم، و قال أبو مالك: جاء إليهم، و قال الكلبى: أقبل عليهم: و المعنى متقارب فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ أى: فقال إبراهيم للأصنام التى راغ إليها استهزاء و سخرية: ألا تأكلون من الطعام الذى كانوا يصنعونه لها، و خاطبها كما يخاطب من يعقل، لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة، و كذا قوله: ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ فإنه خاطبهم خطاب من يعقل، و الاستفهام للتهكم بهم لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق.

قيل: إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها، و ليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم. و قيل تركوه للسدنة، و قيل إن إبراهيم هو الذى قرب إليها الطعام مستهزئا بها فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ أى: فمال عليهم يضربهم ضربا باليمين فانتصابه على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أو هو مصدر لراغ، لأنه بمعنى ضرب. قال الواحد:

قال المفسرون: يعنى بيده اليمنى يضربهم بها. و قال السدّى: بالقوة و القدرة لأن اليمين أقوى اليدين. قال الفراء و ثعلب ضربا بالقوة، و اليمين القوة. و قال الضحاك و الربيع بن أنس: المراد باليمين: اليمين التى حلفها حين قال: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ و قيل: المراد باليمين هنا العدل كما فى قوله: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أى: بالعدل، و اليمين: كناية عن العدل، كما أن الشمال: كناية عن الجور، و أول هذه الأقوال أولاها فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ أى: أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما علموا بما صنعه بها، و يزفون فى محل نصب على الحال من فاعل أقبلوا قرأ الجمهور يَزِفُّونَ بفتح الياء من زف الظليم «۱» يزف إذا عدا بسرعة، و قرأ حمزة بضم الياء من أزف يزف: أى دخل فى الزفيف، أو يحملون غيرهم على الزفيف. قال الأصمعى: أزففت الإبل: أى حملتها على أن تزف، و قيل هما لغتان، يقال زف القوم و أزفوا، و زفت العروس و أزففتها، حكى ذلك عن الخليل. قال النحاس: زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة: يعنى يزفون بضم الياء، و قد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء، و شبهها بقولهم أطردت الرجل:

أى صيرته إلى ذلك، و قال المبرد: الزفيف الإسراع. و قال الزجاج: الزفيف أوّل عدو النعام. و قال قتادة و السدّى: معنى يزفون يمشون. و قال الضحاك: يسعون. و قال يحيى بن سلام: يرعدون غضبا. و قال مجاهد: يختالون، أى: يمشون مشى الخيلاء، و قيل: يتسللون تسللا بين المشى و العدو، و الأولى تفسير يزفون بيسرعون، و قرئ يَزِفُّونَ على البناء للمفعول، و قرئ يَزِفُّونَ كيرمون. و حكى الثعلبى عن الحسن و مجاهد و ابن السميقع أنهم قرءوا «يزفّون» بالراء المهملة، و هى ركض بين المشى و العدو قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ لما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام، ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها، فقال

---

(۱). الظليم: ذكر النعام.

مبكتا لهم، و منكرا عليهم أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ أى: أ تعبدون أصناما أنتم تنحتونها، و النحت: النجر و البرى، نحته ينحته بالكسر نحتا: أى براه، و النحاتة البراية، و جملة: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل تعبدون، و ما فى ما تَعْمَلُونَ موصولة، أى: و خلق الذى تصنعونه على العموم و يدخل فيها الأصنام التى ينحتونها دخولا أوليا، و يكون معنى العمل هنا التصوير و النحت و نحوهما، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: خلقكم و خلق عملكم، و يجوز أن تكون استفهامية، و معنى الاستفهام التوبيخ و التقريع، أى: و أى شىء تعملون، و يجوز أن تكون نافية، أى: إن العمل فى الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئا، و قد طول صاحب الكشاف الكلام فى رد قول من قال إنها مصدرية، و لكن بما لا طائل تحته، و جعلها موصولة أولى بالمقام، و أوفق بسياق الكلام، و جملة: قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كالجملة التى قبلها، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة، فتشاوروا فيما بينهم أن بينوا له حائطا من حجارة و يملؤوه حطبا و يضرموه، ثم يلقوه فيه، و الجحيم: النار الشديدة الاتقاد، قال الزجاج: و كلّ نار بعضها فوق بعض فهى جحيم، و اللام فى الجحيم عوض عن المضاف إليه؛ أى: فى جحيم ذلك البنيان، ثم لما ألقوه فيها نجاه اللّه منها، و جعلها عليه بردا و سلاما، و هو معنى قوله: فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ الكيد: المكر و الحيلة، أى:

احتالوا لإهلاكه فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين، لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التى لا يقدرون على دفعها، و لا يمكنهم جحدها، فإن النار الشديدة الاتقاد العظيمة الاضطرام المتراكمة الجمار إذا صارت بعد إلقائه عليها بردا و سلاما، و لم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كلّ من له عقل، و صار المنكر له سافلا ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف، و سبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحا، و يسوق إليهم الخير بما هو من صور الضير. و لما انقضت هذه

الوقعة و أسفر الصبح لذى عينين، و ظهرت حجة اللّه لإبراهيم، و قامت براهين نبوته، و سطعت أنوار معجزته قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أى: مهاجر من بلد قومى الذين فعلوا ما فعلوا تعصبا للأصنام، و كفرا باللّه، و تكذيبا لرسله إلى حيث أمرنى بالمهاجرة إليه. أو إلى حيث أتمكن من عبادته سَيَهْدِينِ أى: سيهدينى إلى المكان الذى أمرنى بالذهاب إليه، أو إلى مقصدى.

قيل: إن اللّه سبحانه أمره بالمسير إلى الشام، و قد سبق بيان هذا فى سورة الكهف مستوفى «١». قال مقاتل:

فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ أى ولدا صالحا من الصالحين يعيننى على طاعتك و يؤنسنى فى الغربة هكذا قال المفسرون، و عللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها فى الولد، فتحمل عند الإطلاق عليه، و إذا وردت مقيدة حملت على ما قيدت به كما فى قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا «٢» و على فرض أنها لم تغلب فى طلب الولد فقوله: فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ يدل على أنه

---

(١). ورده سير إبراهيم إلى الشام فى سورة العنكبوت آية: ٢٦.

(٢). مريم: ٥٣.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٤٦٣

ما أراد بقوله: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ إلا الولد، و معنى حليم: أن يكون حليما عند كبره، فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر و يصير حليما، لأن الصغير لا يوصف بالحلم. قال الزجاج: هذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر، و أنه يبقى حتى ينتهى فى السن و يوصف بالحلم فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ فى الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة و التقدير: فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التى يسعى فيها مع أبيه فى أمور دنياه. قال مجاهد: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ أى: شبّ و أدرك سعيه سعى إبراهيم.

و قال مقاتل: لما مشى معه. قال الفراء كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة. و قال الحسن: هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة. و قال ابن زيد: هو السعى فى العبادة، و قيل: هو الاحتلام قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ قال إبراهيم لابنه لما بلغ ذلك المبلغ: إنى رأيت فى المنام هذه الرؤيا. قال مقاتل:

رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات. قال قتادة: رؤيا الأنبياء حقّ إذا رأوا شيئا فعلوه.

و قد اختلف أهل العلم فى الذبيح؟ هل هو إسحاق أو إسماعيل. قال القرطبى: فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق و ممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب و ابنه عبد اللّه، و هو الصحيح عن عبد اللّه بن مسعود، و رواه أيضا عن جابر، و علىّ بن أبى طالب، و عبد اللّه بن عمر، و عمر بن الخطاب، قال: فهؤلاء سبعة من الصحابة. قال: و من التابعين و غيرهم: علقمة، و الشعبى، و مجاهد، و سعيد بن جبير، و كعب الأحبار، و قتادة، و مسروق، و عكرمة، و القاسم بن أبى برزة، و عطاء، و مقاتل، و عبد الرحمن بن سابط، و المهرى، و السدّى، و عبد اللّه بن أبى الهذيل، و مالك بن أنس كلهم قالوا الذبيح إسحاق، و عليه أهل الكتابين اليهود و النصارى، و اختاره غير واحد، منهم: النحاس، و ابن جرير الطبرى، و غيرهما. قال و قال آخرون: هو إسماعيل، و ممن قال بذلك أبو هريرة، و أبو الطفيل عامر بن واثلة، و روى ذلك عن ابن عمر و ابن عباس أيضا، و من التابعين سعيد بن المسيب، و الشعبى، و يوسف بن مهران، و مجاهد، و الربيع بن أنس، و محمّد بن كعب القرظى، و الكلبى، و علقمة، و عن الأصمعى قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعى أين عزب عنك عقلك، و متى كان إسحاق بمكة؟ و إنما كان إسماعيل بمكة. قال ابن كثير فى تفسيره: و قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، و حكى ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة و ليس فى ذلك كتاب و لا سنة، و ما أظنّ ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب، و أخذ مسلما من غير

حجة، و كتاب اللّه شاهد و مرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، و ذكر أنه الذبيح، و قال بعد ذلك وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

و احتجّ القائلون بأنه إسحاق بأن اللّه عزّ و جل قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارّة و ابن أخيه لوط فقال: إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ أنه دعا فقال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فقال تعالى: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ «١» و لأن اللّه قال: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ فذكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم، و إنما بشر بإسحاق،

---

(١). مريم: ۴۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۴

لأنه قال: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ و قال هنا: بِغُلامٍ حَلِيمٍ و ذلك قبل أن يعرف هاجر، و قبل أن يصير له إسماعيل، و ليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحاق. قال الزجاج اللّه أعلم أيّهما الذبيح اه، و ما استدلّ به الفريقان يمكن الجواب عنه و المناقشة له.

و من جملة ما احتجّ به من قال إنه إسماعيل بأن اللّه وصفه بالصبر دون إسحاق كما في قوله: وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ «١» و هو صبره على الذبح، و وصفه بصدق الوعد في قوله: إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ «٢» لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح، فوفى به، و لأن اللّه سبحانه قال: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا فكيف يأمره بذبحه، و قد وعده أن يكون نبيا، و أيضا فإن اللّه قال: فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ «٣» فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب، و أيضا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدل على أن الذبيح إسماعيل، و لو كان إسحاق لكان الذبح واقعا ببيت المقدس و كلّ هذا أيضا يحتمل المناقشة فَانْظُرْ ما ذا تَرى قرأ حمزة و الكسائي «ترى» بضم الفوقية و كسر الراء، و المفعولان محذوفان، أي: انظر ماذا ترينى إياه من صبرك و احتمالك. و قرأ الباقون من السبعة بفتح التاء و الراء من الرأي، و هو مضارع رأيت، و قرأ الضحاك و الأعمش، «ترى» بضم التاء و فتح الراء مبنيا للمفعول، أي: ماذا يخيل إليك و يسنح لخاطرك. قال الفراء في بيان معنى القراءة الأولى: انظر ماذا ترى من صبرك و جزعك. قال الزجاج: لم يقل هذا أحد غيره، و إنما قال العلماء ماذا تشير؟ أي ما تريك نفسك من الرأي، و قال أبو عبيد: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة و كذا قال أبو حاتم، و غلطهما النحاس و قال: هذا يكون من رؤية العين و غيرها، و معنى القراءة الثانية ظاهر واضح، و إنما شاوره ليعلم صبره لأمر اللّه، و إلا فرؤيا الأنبياء وحي، و امتثالها لازم لهم متحتم عليهم قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ أي: ما تؤمر به مما أوحي إليك من ذبحي، و ما: موصولة، و قيل: مصدرية على معنى افعل أمرك، و المصدر مضاف إلى المفعول، و تسمية المأمور به أمرا، و الأوّل أولى سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ على ما ابتلاني من الذبح، و التعليق بمشيئة اللّه سبحانه تبركا بها منه فَلَمَّا أَسْلَما أي: استسلما لأمر اللّه و أطاعاه و انقادا له. قرأ الجمهور أَسْلَمْنا و قرأ عليّ و ابن مسعود و ابن عباس «فلمّا سلّما» أي: فوضا أمرهما إلى اللّه، و روى عن ابن عباس أنه قرأ استسلما قال قتادة: أسلم أحدهما نفسه للّه، و أسلم الآخر ابنه، يقال: سلم لأمر اللّه و أسلم و استسلم بمعنى واحد.

و قد اختلف في جواب لما ماذا هو؟ فقيل: هو محذوف، و تقديره ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما أو فديناه بكبش هكذا قال البصريون. و قال الكوفيون: الجواب هو ناديناه، و الواو زائدة مقحمة، و اعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعاني و لا يجوز أن تزاد، و قال الأخفش الجواب وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ و الواو زائدة، و روى هذا أيضا عن الكوفيين. و اعتراض النحاس يرد عليه كما ورد على الأوّل وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ التلّ: الصرع و الدفع، يقال تلت الرجل: إذا ألقيته، و المراد أنه أضجعه على جبينه على الأرض، و الجبين أحد

(١). الأنبياء: ٨٥.

(٢). مريم: ٥٤.

(٣). هود: ٧١.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۵

جانبى الجبهة، فللوجه جبينان و الجبهة بينهما، و قيل: كبه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرّقة لقلبه.

و اختلف فى الموضع الذى أراد ذبحه فيه، فقيل: هو مكة فى المقام، و قيل: فى المنحر بمنى عند الجمار، و قيل: على الصخرة التى بأصل جبل ثبير، و قيل: بالشام وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا أى: عزمت على الإتيان بما رأيته. قال المفسرون: لما أضجعه للذبح نودى من الجبل يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا، و جعله مصدّقا بمجرد العزم؛ و إن لم يذبحه لأنه قد أتى بما أمكنه، و المطلوب استسلامهما لأمر اللّه و قد فعلا. قال القرطبى: قال أهل السنة إن نفس الذبح لم يقع، و لو وقع لم يتصور رفعه، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل، لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء. قال: و معنى.

صَدَّقْتَ الرُّؤْيا فعلت ما أمكنك ثم امتنعت لما منعناك، هذا أصح ما قيل فى هذا الباب. و قالت طائفة:

ليس هذا مما ينسخ بوجه، لأن معنى ذبحت الشىء قطعته، و قد كان إبراهيم يأخذ السكين فيمرّ بها على حلقه فتنقلب كما قال مجاهد. و قال بعضهم: كان كلما قطع جزءا التأم و قالت طائفة منهم السدّى: ضرب اللّه على عنقه صفيحة نحاس، فجعل إبراهيم يحزّ و لا يقطع شيئا. و قال بعضهم إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقى الذى هو فرى الأوداج، و انهار الدم، و إنما رأى أنه أضجعه للذبح، فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقى فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له قد صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: نجزيهم بالخلاص من الشدائد و السلامة من المحن، فالجملة كالتعليل لما قبلها. قال مقاتل: جزاء اللّه سبحانه بإحسانه فى طاعته العفو عن ذبح ابنه إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ البلاء و الابتلاء: الاختبار، و المعنى: إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره اللّه فى طاعته بذبح ولده. و قيل المعنى: إن هذا هو النعمة الظاهرة حيث سلم اللّه ولده من الذبح و فداه بالكبش، يقال أبلاه اللّه إبلاء و بلاء: إذا أنعم عليه: و الأوّل أولى، و إن كان الابتلاء يستعمل فى الاختبار بالخير و الشرّ، و منه وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً «١» و لكن المناسب للمقام المعنى الأول. قال أبو زيد: هذا فى البلاء الذى نزل به فى أن يذبح ولده. قال: و هذا من البلاء المكروه وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ الذبح: اسم المذبوح و جمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون، و بالفتح المصدر، و معنى عظيم: عظيم القدر، و لم يرد عظم الجثة و إنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح، أو لأنه متقبل. قال النحاس: العظيم فى اللغة يكون للكبير و للشريف، و أهل التفسير على أنه هاهنا للشريف: أى المتقبل. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين:

أنزل عليه كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا. و قال الحسن: ما فدى إلا بتيس من الأروى اهبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه. قال الزجاج: قد قيل إنه فدى بوعل، و الوعل التيس الجبلى، و معنى الآية:

جعلنا الذبح فداء له و خلصناه به من الذبح وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ أى: فى الأمم الآخرة التى تأتى بعده، و السلام الثناء الجميل. و قال عكرمة: سلام منا، و قيل: سلامة من الآفات، و الكلام فى هذا كالكلام فى قوله: سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ و قد تقدم فى هذه السورة بيان معناه، و وجه إعرابه كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من انقاد لأمر اللّه

(١). الأنبياء: ٣٥.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۶

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ أی: الذین أعطوا العبودیهٔ حقها، و رسخوا فی الإیمان باللّه و توحیده وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ أی: بشرنا إبراهیم بولد یولد له و یصیر نبیا بعد أن یبلغ السن التی یتأهل فیها لذلک، و انتصاب نبیا علی الحال، و هی حال مقدرهٔ. قال الزجاج: إن کان الذبیح إسحاق فیظهر کونها مقدرهٔ و الأولی أن یقال إن من فسر الذبیح بإسحاق جعل البشارهٔ هنا خاصهٔ بنبوته. و فی ذکر الصلاح بعد النبوهٔ تعظیم لشأنه، و لا حاجهٔ إلی وجود المبشر به وقت البشارهٔ، فإن وجود ذی الحال لیس بشرط، و إنما الشرط المقارنهٔ للفعل، و «من الصالحین» کما یجوز أن یکون صفهٔ لنبیا یجوز أن یکون حالا من الضمیر المستتر فیه، فتکون أحوالا متداخلهٔ وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ أی: علی إبراهیم و علی إسحاق بمرادفهٔ نعم اللّه علیهما، و قیل:

کثرنا ولدهما، و قیل: إن الضمیر فی علیه یعود إلی إسماعیل و هو بعید، و قیل: المراد بالمبارکهٔ هنا: هی الثناء الحسن علیهما إلی یوم القیامهٔ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ أی: محسن فی عمله بالإیمان و التوحید، و ظالم لها بالکفر و المعاصی، لما ذکر سبحانه البرکهٔ فی الذریهٔ؛ بین أن کون الذریهٔ من هذا العنصر الشریف؛ و المحتد المبارک لیس بنافع لهم، بل إنما ینتفعون بأعمالهم، لا بآبائهم، فإن الیهود و النصاری و إن کانوا من ولد إسحاق فقد صاروا إلی ما صاروا إلیه من الضلال البین، و العرب و إن کانوا من ولد إسماعیل فقد ماتوا علی الشرک إلا من أنقذه اللّه بالإسلام.

و قد أخرج ابن جریر، و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ یقول: لم یبق إلا ذریهٔ نوح وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ یقول: یذکر بخیر. و أخرج الترمذی و حسنه، و ابن جریر، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه عن سمرهٔ بن جندب عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ قال: حام و سام و یافث. و أخرج ابن سعد، و أحمد، و الترمذی و حسنه، و أبو یعلی، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الطبرانی، و الحاکم و صححه عن سمرهٔ أیضا أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «سام أبو العرب، و حام أبو الحبش، و یافث أبو الروم» و الحدیثان هما من سماع الحسن عن سمرهٔ، و فی سماعه منه مقال معروف، و قد قیل: إنه لم یسمع منه إلا حدیث العقیقهٔ فقط و ما عداه فبواسطهٔ. قال ابن عبد البر: و قد روی عن عمران ابن حصین عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم مثله. و أخرج البزار، و ابن أبی حاتم، و الخطیب فی تالی التلخیص عن أبی هریرهٔ قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «ولد نوح ثلاثهٔ: سام و حام و یافث، فولد سام العرب و فارس و الروم و الخیر فیهم، و ولد یافث یأجوج و مأجوج و الترک و الصقالبهٔ و لا خیر فیهم، و ولد حام القبط و البربر و السودان» و هو من حدیث إسماعیل بن عیاش عن یحیی بن سعید عن سعید بن المسیب عنه. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ قال: من أهل دینه. و أخرج عبد بن حمید عنه فی قوله: إِنِّي سَقِيمٌ قال: مریض. و أخرج ابن جریر عنه أیضا قال:

مطعون. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه أیضا فی قوله: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قال:

یخرجون. و أخرج ابن المنذر عنه أیضا فی قوله: قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي قال: حین هاجر. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عنه أیضا فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قال: العمل. و أخرج الطبرانی

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۶۷

عنه أیضا قال: لما أراد إبراهیم أن یذبح إسحاق قال لأبیه: إذا ذبحتنی فاعتزل لا أضطرب فینتضح علیک دمی، فشده، فلما أخذ الشفرهٔ، و أراد أن یذبحه نودی من خلفه أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا و أخرج أحمد عنه أیضا مرفوعا مثله مع زیادهٔ و أخرجه عنه موقوفا. و أخرج ابن المنذر، و الحاکم و صححه من طریق مجاهد عنه أیضا فی قوله: وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ قال: من شیعهٔ نوح علی منهاجه و سننه فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قال شب حتی بلغ سعیه سعی أبیه فی العمل فَلَمَّا أَسْلَما سلما ما أمر به وَ تَلَّهُ وضع

وجهه إلى الأرض، فقال لا تذبحنى و أنت تنظر عسى أن ترحمنى، فلا تجهز على، و أن أجزع فأنكص فأمتنع منك، و لكن اربط يدى إلى رقبتى ثم ضع وجهى إلى الأرض، فلما أدخل يده ليذبحه فلم تصل المدية حتى نودى: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده، قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ بكبش عظيم متقبل، و زعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«رؤيا الأنبياء وحى» و أخرجه البخارى و غيره من قول عبيد بن عمير و استدل بهذه الآية. و أخرج ابن جرير، و الحاكم من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: المفدى إسماعيل، و زعمت اليهود أنه إسحاق و كذبت اليهود. و أخرج الفريابى، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق الشعبى عن ابن عباس قال: الذبيح إسماعيل. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق مجاهد، و يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال الذبيح إسماعيل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير من طريق يوسف ابن ماهك، و أبى الطفيل عن ابن عباس قال الذبيح إسماعيل. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه عن ابن عمر فى قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ قال: إسماعيل ذبح عنه إبراهيم الكبش.

و أخرج عبد بن حميد من طريق الفرزدق الشاعر قال: رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يقول: إن الذى أمر بذبحه إسماعيل. و أخرج البزار، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم، و ابن مردويه عن العباس ابن عبد المطلب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قال نبى اللّه داود: يا رب أسمع الناس يقولون: رب إبراهيم و إسحاق و يعقوب فاجعلنى رابعا، قال: إن إبراهيم ألقى فى النار فصبر من أجلى، و إن إسحاق جاد لى بنفسه، و إن يعقوب غاب عنه يوسف، و تلك بلية لم تنلك» و فى إسناده الحسن بن دينار البصرى، و هو متروك عن على بن زيد بن جدعان و هو ضعيف. و أخرج الديلمى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا نحوه. و أخرج الدارقطنى فى الأفراد، و الديلمى عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الذّبيح إسحاق» و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الذّبيح إسحاق» و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه عن بهار و كانت له صحبة، قال: إسحاق ذبيح اللّه.

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن مسعود قال سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ذبيح اللّه». و أخرج عبد الرزاق و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: الذبيح إسحاق. و أخرج عبد بن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن العباس بن عبد المطلب قال: الذبيح إسحاق. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر، و الحاكم من طريق سعيد بن جبير عن

ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ قال: أكبه على وجهه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه قال: صرعه للذبح. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ قال: كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة فى أصل ثبير. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا، و أخرج عبد بن حميد عنه قال: فدى إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس أن رجلا قال: نذرت لأنحر نفسى، فقال ابن عباس: لقد كان لكم فى رسول اللّه أسوة حسنة، ثم تلا وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ فأمره بكبش فذبحه. و أخرج الطبرانى من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه اللّه من الذبح و لم تكن البشارة بالنبوّة عند مولده.

و بما سقناه من الاختلاف فى الذبيح هل هو إسحاق أو إسماعيل، و ما استدل به المختلفون فى ذلك تعلم أنه لم يكن فى المقام ما يوجب القطع، أو يتعين رجحانه تعينا ظاهرا، و قد رجح كلّ قول طائفة من المحققين المنصفين كابن جرير فإنه رجح أنه إسحاق، و لكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض مما سقناه هاهنا، و كابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل، و جعل الأدلة على ذلك أقوى و أصح، و ليس الأمر كما ذكره، فإنها لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحاق لم تكن فوقها و لا أرجح منها، و لم يصح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلك شيء، و ما روى عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جدّا، و لم يبق إلا مجرّد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، هى محتملة و لا تقوم حجة بمحتمل، فالوقف هو الذى لا ينبغى مجاوزته، و فيه السلامة من الترجيح، بلا مرجح، و من الاستدلال بما هو محتمل.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١١٤ الى ١٤٨]

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ (١١٤) وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (١١٦) وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)

إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣)

إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (١٤٨)

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٤٦٩

لما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح، و ما منّ عليه بعد ذلك من النبوّة ذكر ما منّ به على موسى و هارون، فقال: وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ يعنى بالنبوّة و غيرها من النعم العظيمة التى أنعم اللّه بها عليهما وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ المراد بقومهما: هم المؤمنون من بنى إسرائيل، و المراد بالكرب العظيم: هو ما كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم، و ما كان نصيبهم من جهته من البلاء، و قيل: هو الغرق الذى أهلك فرعون و قومه، و الأوّل أولى وَ نَصَرْناهُمْ جاء بضمير الجماعة. قال الفراء: الضمير لموسى و هارون و قومهما، لأن قبله و نجيناهما و قومهما، و المراد بالنصر التأييد لهم على عدوّهم فَكانُوا بسبب ذلك هُمُ الْغالِبِينَ على عدوّهم بعد أن كانوا تحت أسرهم و قهرهم، و قيل: الضمير فى نصرناهم عائد على الاثنين موسى و هارون تعظيما لهما، و الأوّل أولى وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ المراد بالكتاب التوراة: و المستبين: البين الظاهر، يقال: استبان كذا. أى: صار بينا وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ أى: القيم لا اعوجاج فيه، و هو دين الإسلام فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ أى: أبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل، و قد قدّمنا الكلام فى السلام و فى وجه إعرابه بالرفع، و كذلك تقدّم تفسير إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ فى هذه السورة وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ قال المفسرون: هو نبىّ من أنبياء بنى إسرائيل، و قصته مشهورة مع قومه، قيل: و هو إلياس بن يس من سبط هارون أخى موسى. قال ابن إسحاق و غيره:

كان إلياس هو القيم بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع، و قيل: هو إدريس، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور إِلْياسَ بهمزة مكسورة مقطوعة، و قرأ ابن ذكوان بوصلها، و رويت هذه القراءة عن ابن عامر، و قرأ ابن مسعود، و الأعمش، و يحيى بن وثاب «و إنّ إدريس لمن المرسلين» و قرأ أبىّ «و إنّ إبليس» بهمزة مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم لام مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم سين مهملة مفتوحة إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ هو ظرف لقوله من المرسلين، أو متعلق بمحذوف، أى: اذكر يا محمّد إذ قال، و المعنى: ألا تتقون عذاب اللّه، ثم أنكر عليهم بقوله: أَ تَدْعُونَ بَعْلًا هو اسم لصنم كانوا يعبدونه، أى: أ تعبدون صنما و تطلبون الخير منه.

قال ثعلب: اختلف الناس فى قوله سبحانه: بَعْلًا فقالت طائفة: البعل هنا الصنم، و قالت طائفة:

البعل هنا ملك، و قال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدونها. قال الواحدى: و المفسرون يقولون ربا، و هو بلغة اليمن، يقولون للسيد و الربّ البعل. قال النحاس: القولان صحيحان، أى: أ تدعون صنما عملتموه ربا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ أى: و تتركون عبادة أحسن من يقال له خالق، و انتصاب الاسم الشريف فى قوله: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ على أنه بدل من أحسن، هذا على قراءة حمزة و الكسائى و الربيع

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۰

ابن خثيم و ابن أبى إسحاق و يحيى بن وثاب و الأعمش، فإنهم قرءوا بنصب الثلاثة الأسماء و قيل: النصب على المدح، و قيل: على عطف البيان، و حكى أبو عبيد أن النصب على النعت. قال النحاس: و هو غلط و إنما هو بدل، و لا يجوز النعت لأنه ليس بتحلية و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و عاصم، و أبو جعفر، و شيبة، و نافع بالرفع. قال أبو حاتم: بمعنى هو اللّه ربكم. قال النحاس:

و أولى ما قيل: إنه مبتدأ و خبر بغير إضمار و لا حذف. و حكى عن الأخفش أن الرفع أولى و أحسن. قال ابن الأنبارى: من رفع أو نصب لم يقف على أحسن الخالقين على جهة التمام لأن اللّه مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعا، و المعنى، أنه خالقكم و خالق و من قبلكم فهو الذى تحقّ له العبادة فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى: فإنهم بسبب تكذيبه لمحضرون فى العذاب، و قد تقدّم أن الإحضار المطلق مخصوص بالشرّ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أى: من كان مؤمنا به من قومه، و قرئ بكسر اللام و فتحها كما تقدّم، و المعنى على قراءة الكسر: أنهم أخلصوا للّه؛ و على قراءة الفتح: أن اللّه استخلصهم من عباده. و قد تقدّم تفسير وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ قرأ نافع و ابن عامر و الأعرج على آل ياسين بإضافة آل بمعنى آل ياسين، و قرأ الباقون بكسر الهمزة و سكون اللام موصولة بياسين إلا الحسن، فإنه قرأ «الياسين» بإدخال آلة التعريف على ياسين، قيل: المراد على هذه القراءات كلها إلياس، و عليه وقع التسليم، و لكنه اسم أعجمى، و العرب تضطرب فى هذه الأسماء الأعجمية و يكثر تغييرهم لها. قال ابن جنى: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا؛ فياسين، و إلياس، و إلياسين شىء واحد. قال الأخفش: العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون المهالبة على أنهم سموا كلّ رجل منهم بالمهلب. قال: فعلى هذا إنه سمى كل رجل منهم بالياسين. قال الفراء: يذهب بالياسين إلى أن يجعله جمعا فيجعل أصحابه داخلين معه فى اسمه.

قال أبو علىّ الفارسى: تقديره الياسيين إلا أن الياءين للنسبة حذفتا كما حذفتا فى الأشعرين و الأعجمين.

و رجح الفرّاء و أبو عبيدة قراءة الجمهور قالا: لأنه لم يقل فى شىء من السور على آل فلان، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين

لأنه إنما هو بمعنى إلياس أو بمعنى إلياس و أتباعه. و قال الكلبى: المراد بآل ياسين آل محمّد.

قال الواحدى: و هذا بعيد لأن ما بعده من الكلام و ما قبله لا يدلّ عليه، و قد تقدّم تفسير إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ مستوفى وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ قد تقدّم ذكر قصة لوط مستوفاة إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر و لا يصح تعلقه بالمرسلين، لأنه لم يرسل وقت تنجيته إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى الماضى، و يكون بمعنى الباقى، فالمعنى: إلا عجوزا فى الباقين فى العذاب، أو الماضين الذين قد هلكوا ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ أى: أهلكناهم بالعقوبة، و المعنى: أن فى نجاته و أهله جميعا إلا العجوز و تدمير الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بينة على ثبوت كونه من المرسلين وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ خاطب بهذا العرب أو أهل مكة على الخصوص: أى تمرون على منازلهم التى فيها آثار العذاب وقت الصباح وَ بِاللَّيْلِ و المعنى تمرون على منازلهم فى ذهابكم إلى الشام و رجوعكم منه نهارا و ليلا أَ فَلا تَعْقِلُونَ ما تشاهدونه فى ديارهم من آثار عقوبة

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۱

اللّه النازلة بهم، فإن فى ذلك عبرة للمعتبرين و موعظة للمتدبرين وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ يونس هو ذو النون، و هو ابن متى. قال المفسرون: و كان يونس قد وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم و قصد البحر و ركب السفينة، فكان بذهابه إلى البحر كالفار من مولاه فوصف بالإباق، و هو معنى قوله: إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ و أصل الإباق الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به. و قال المبرد. تأويل أبق تباعد: أى ذهب إليه، و من ذلك قولهم عبد آبق.

و قد اختلف أهل العلم هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه أو بعده؟ و معنى المشحون: المملوء فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ المساهمة أصلها المغالبة، و هى الاقتراع، و هو أن يخرج السهم على من غلب. قال المبرد: أى فقارع. قال: و أصله من السهام التى تجال، و معنى فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فصار من المغلوبين. قال: يقال دحضت حجته و أدحضها اللّه، و أصله من الزلق عن مقام الظفر، و منه قول الشاعر:

قتلنا المدحضين بكلّ فجّفقد قرّت بقتلهم العيون

أى: المغلوبين فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ يقال: لقمت اللقمة و التقمتها: إذا ابتلعتها، أى: فابتلعه الحوت، و معنى وَ هُوَ مُلِيمٌ و هو مستحق للوم، يقال: رجل مليم إذا أتى بما يلام عليه، و أما الملوم:

فهو الذى يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا، و قيل: المليم المعيب، يقال ألام الرجل إذا عمل شيئا صار به معيبا. و معنى هذه المساهمة: أن يونس لما ركب السفينة احتبست، فقال الملاحون: هاهنا عبد أبق من سيده، و هذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجرى، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فقال أنا الآبق و زج نفسه فى الماء. قال سعيد بن جبير: لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغرا فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه فى الماء أخذه الحوت فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ أى: الذاكرين للّه، أو المصلين له لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أى: لصار بطن الحوت له قبرا إلى يوم البعث، و قيل: للبث فى بطنه حيا.

و اختلف المفسرون كم أقام فى بطن الحوت؟ فقال: السدى، و الكلبى، و مقاتل بن سليمان: أربعين يوما. و قال الضحاك: عشرين يوما. و قال عطاء: سبعة أيام. و قال مقاتل بن حبان: ثلاثة أيام، و قيل:

ساعة واحدة. و فى هذه الآية ترغيب فى ذكر اللّه، و تنشيط للذاكرين له فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ النبذ الطرح. قال ابن الأعرابى: هو الصحراء، و قال الأخفش: الفضاء، و قال أبو عبيدة: الواسع من الأرض، و قال الفراء: المكان الخالى. و روى عن أبى عبيدة أيضا أنه قال: هو وجه الأرض، و أنشد لرجل من خزاعة:

و رفعت رجلا لا أخاف عثارهاو نبذت بالبلد العراء ثيابى

و المعنى: أن اللّه طرحه من بطن الحوت فى الصحراء الواسعة التى لا نبات فيها، و هو عند إلقائه سقيم

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۲

لما ناله فى بطن الحوت من الضرر، قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد.

و قد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ، و قوله فى موضع آخر: لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ «۱» فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء.

و أجاب النحاس و غيره بأن اللّه سبحانه أخبر هاهنا أنه نبذ بالعراء و هو غير مذموم، و لو لا رحمته عز و جل لنبذ بالعراء و هو مذموم وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ أى: شجرة فوقه تظلل عليه، و قيل معنى عليه:

عنده، و قيل معنى عليه: له. و اليقطين: هى شجرة الدباء. و قال المبرد: اليقطين يقال لكل شجرة ليس لها ساق، بل تمتد على وجه الأرض نحو الدباء، و البطيخ، و الحنظل، فإن كان لها ساق يقلها فيقال لها شجرة فقط، و هذا قول الحسن، و مقاتل و غيرهما. و قال سعيد بن جبير: هو كلّ شىء ينبت ثم يموت من عامه.

قال الجوهرى: اليقطين ما لا ساق له من شجر؛ كشجر القرع و نحوه. قال الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان: أى: أقام به فهو يفعيل، و قيل: هو اسم أعجمى. قال المفسرون: كان يستظل بظلها من الشمس، و قيض اللّه له أروية من الوحش تروح عليه بكرة و عشية، فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه و نبت شعره ثم أرسله اللّه بعد ذلك، و هو معنى قوله: وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر و جرى له ما جرى بعد هربه كما قصه اللّه علينا فى هذه السورة، و هم أهل نينوى.

قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل، و قد مر الكلام على قصته فى سورة يونس مستوفى، «و أو» فى أو يزيدون، قيل: هى بمعنى الواو، و المعنى: و يزيدون. و قال الفراء: أو هاهنا بمعنى بل، و هو قول مقاتل، و الكلبى. و قال المبرد، و الزجاج، و الأخفش: أو هنا على أصله، و المعنى: أو يزيدون فى تقديركم إذا رآهم الرائى قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين. قال مقاتل و الكلبى: كانوا يزيدون عشرين ألفا. و قال الحسن: بضعا و ثلاثين ألفا. و قال سعيد بن جبير: سبعين ألفا.

و قرأ جعفر بن محمّد: و يزيدون بدون ألف الشك.

و قد وقع الخلاف بين المفسرين هل هذا الإرسال المذكور هو الذى كان قبل التقام الحوت له، و تكون الواو فى و أرسلناه لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت؛ و بين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم فى السياق، و تأخير ما تأخر، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع على قولين، و قد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر أو لم يرسل إلا بعد ذلك؟

و الراجح أنه كان رسولا قبل أن يذهب إلى البحر؛ كما يدل عليه ما قدمنا فى سورة يونس، و بقى مستمرا على الرسالة، و هذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته و رسالته فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ أى:

وقع منهم الإيمان بعد ما شاهدوا أعلام نبوته فمتعهم اللّه فى الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم و منتهى أعمارهم.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن عساكر عن ابن مسعود قال:

إلياس هو إدريس. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن قتادة مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس

(۱). القلم: ۴۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۳

قال: قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «الخضر هو إلياس» و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الدلائل و ضعفه عن أنس قال: «كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر، فنزل منزلا فإذا رجل فى الوادى يقول: اللهم اجعلنى من أمة محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم المرحومة المغفور المثاب لها فأشرفت على الوادى فإذا طوله ثمانون ذراعا و أكثر، فقال: من أنت؟

فقلت: أنس خادم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: أين هو؟ فقلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فأته و أقرئه السلام و قل له أخوك إلياس يقرئك السلام، فأتيت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته، فجاء حتى عانقه و قعدا يتحدّثان، فقال له: يا رسول اللّه إنى إنما آكل فى كلّ سنة يوما و هذا يوم فطرى فآكل أنا و أنت، فنزلت عليهما المائدة من السماء خبز و حوت و كرفس، فأكلا و أطعمانى و صليا العصر ثم ودّعه، ثم رأيته مرّ على السحاب نحو السماء». قال الذهبى متعقبا لتصحيح الحاكم له: بل موضوع قبح اللّه من وضعه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَ تَدْعُونَ بَعْلًا قال: صنما. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عنه فى قوله: سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ قال: نحن آل محمّد آل ياسين. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: بعث اللّه يونس إلى أهل قريته فردّوا عليه ما جاءهم به فامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى اللّه إليهم إنى مرسل عليهم العذاب فى يوم كذا و كذا، فأخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذى وعد اللّه من عذابه إياهم، فقالوا ارمقوه فإن خرج من بين أظهركم فهو و اللّه كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التى وعدوا بالعذاب فى صبيحتها أدلج فرآه القوم فحذروا، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم و فرقوا بين كلّ دابة و ولدها، ثم عجوا إلى اللّه و أنابوا و استقالوا فأقالهم اللّه، و انتظر يونس الخبر عن القرية و أهلها حتى مرّ به مارّ، فقال ما فعل أهل القرية، قال: إن نبيهم لما خرج من بنى أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كلّ ذات ولد و ولدها ثم عجوا إلى اللّه و تابوا إليه، فتقبل منهم و أخر عنهم العذاب، فقال يونس عند ذلك: لا أرجع إليهم كذابا أبدا و مضى على وجهه، و قد قدّمنا الكلام على قصته و ما روى فيها فى سورة يونس فلا نكرره. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: فَساهَمَ قال: اقترع فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ قال:

المقروعين. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ هُوَ مُلِيمٌ قال: مسىء.

و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و أحمد، فى الزهد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ قال: من المصلين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ قال: ألقيناه بالساحل. و أخرج هؤلاء عنه أيضا شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ قال: القرع. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير، عنه أيضا قال: اليقطين كلّ شىء يذهب على وجه الأرض. و أخرج أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن مردويه عنه أيضا قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، ثم تلا: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ إلى قوله: وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ و قد تقدّم عنه ما يدلّ على أن رسالته كانت من قبل ذلك: و ليس فى الآية ما يدلّ على ما ذكره كما قدّمنا. و أخرج الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن أبىّ بن كعب

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۴

قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه: وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ قال: يزيدون عشرين ألفا. قال الترمذى: غريب. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: يزيدون ثلاثين ألفا. و روى عنه أنهم يزيدون بضعة و ثلاثين ألفا. و روى عنه أنهم يزيدون بضعة و أربعين ألفا، و لا يتعلق بالخلاف فى هذا كثير فائدة.

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٤٩ الى ١٨٢]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ (١٦١) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)

وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨)

لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨)

وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٢)

لما كانت قريش، و قبائل من العرب يزعمون أن الملائكة بنات اللّه أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم باستفتائهم على طريقة التقريع و التوبيخ، فقال: فَاسْتَفْتِهِمْ يا محمّد: أى استخبرهم أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ أى: كيف يجعلون للّه على تقدير صدق ما زعموه من الكذب أدنى الجنسين و أوضعهما و هو الإناث، و لهم أعلاهما و أرفعهما و هم الذكور، و هل هذا إلا حيف فى القسمة لضعف عقولهم، و سواء إدراكهم، و مثله قوله: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى «١» ثم زاد فى توبيخهم، و تقريعهم فقال: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ فأضرب عن الكلام الأوّل إلى ما هو أشدّ منه فى التبكيت و التهكم بهم، أى: كيف جعلوهم إناثا و هم لم يحضروا عند خلقنا لهم، و هذا كقوله: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ «٢» فبين سبحانه أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة و لم يشهدوا، و لا دلّ دليل على قولهم من السمع، و لا هو مما يدرك بالعقل حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم. ثم أخبر سبحانه عن كذبهم فقال: أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فبين سبحانه أن قولهم هذا هو من الإفك و الافتراء من دون دليل و لا شبهة دليل فإنه لم يلد و لم يولد. قرأ الجمهور وَلَدَ اللَّهُ فعلا ماضيا مسندا إلى اللّه. و قرئ بإضافة ولد إلى اللّه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: يقولون الملائكة ولد اللّه، و الولد بمعنى

---

(١). النجم: ٢١ و ٢٢.

(٢). الزخرف: ١٩.

مفعول يستوى فيه المفرد و المثنى، و المجموع، و المذكر و المؤنث. ثم كرر سبحانه تقريعهم، و توبيخهم فقال:

أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكارى، و قد حذف معها همزة الوصل استغناء به عنها. و قرأ نافع فى رواية عنه، و أبو جعفر، و شيبة، و الأعمش بهمزة وصل تثبت ابتداء، و تسقط درجا، و يكون الاستفهام منويا قاله الفراء. و حذف حرفه للعلم به من المقام، أو على أن اصطفى و ما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول. و على تقدير عدم الاستفهام و البدل. فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام، و بغير استفهام كما فى قوله: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا «١» و قيل: هو على إضمار القول. و ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ جملتان استفهاميتان ليس لأحدهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب: استفهمهم أوّلا عما استقرّ لهم و ثبت؟ استفهام بإنكار، و ثانيا:

استفهام تعجب من هذا الحكم الذى حكموا به، و المعنى: أىّ شىء ثبت لكم كيف تحكمون للّه بالبنات و هم القسم الذى تكرهونه، و لكم بالبنين و هم القسم الذى تحبونه؟ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ أى: تتذكرون فحذفت إحدى التاءين، و المعنى: ألا تعتبرون و تتفكرون فتتذكرون بطلان قولكم أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ أى:

حجة واضحة ظاهرة على هذا الذى تقولونه، و هو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ و انتقال من تقريع إلى تقريع.

فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: فأتوا بحجّتكم الواضحة على هذا إن كنتم صادقين فيما تقولونه، أو فأتوا بالكتاب الذى ينطق لكم بالحجة و يشتمل عليها وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً قال أكثر المفسرين:

إن المراد بالجنة هنا الملائكة، قيل لهم: جنة، لأنهم لا يرون. و قال مجاهد: هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنة. و قال أبو مالك: إنما قيل لهم الجنة لأنهم خزّان على الجنان. و النسب: الصهر. قال قتادة و الكلبى:

قالوا لعنهم اللّه: إن اللّه صاهر الجنّ فكانت الملائكة من أولادهم؛ قالا: و القائل بهذه المقالة اليهود. و قال مجاهد و السدّى و مقاتل: إن القائل بذلك كنانة و خزاعة قالوا: إن اللّه خطب إلى سادات الجن فزوّجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات اللّه من سروات بنات الجن. و قال الحسن: أشركوا الشيطان فى عبادة اللّه، فهو النسب الذى جعلوه. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى:

علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار و يعذبون فيها. و قيل: علمت الجنة إنهم أنفسهم يحضرون للحساب. و الأوّل أولى، لأن الإحضار إذا أطلق فالمراد لعذاب. و قيل المعنى: و لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة. ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ أو هو حكاية لتنزيه الملك للّه عزّ و جلّ عما وصفه به المشركون، و الاستثناء فى قوله. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ منقطع، و التقدير:

لكن عباد اللّه المخلصين بريئون عن أن يصفوا اللّه بشىء من ذلك. و قد قرئ بفتح اللام و كسرها و معناهما ما بيناه قريبا. و قيل: هو استثناء من المحضرين، أى: إنهم يحضرون النار إلا من أخلص، فيكون متصلا لا منقطعا، و على هذا تكون جملة التسبيح معترضة. ثم خاطب الكفار على العموم أو كفار مكة على الخصوص فقال: فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ أى: فإنكم و آلهتكم التى تعبدون من دون اللّه لستم

---

(١). الأحقاف: ٢٠.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٧٦

بفاتنين على اللّه بإفساد عباده و إضلالهم، و على متعلقة بفاتنين، و الواو فى و ما تعبدون إما للعطف على اسم إن، أو هو بمعنى مع، و ما موصولة أو مصدرية، أى: فإنكم و الذى تعبدون، أو و عبادتكم، و معنى فاتنين مضلين، يقال فتنت الرجل و أفتنته، و يقال فتنه على الشىء و بالشىء كما يقال أضله على الشىء و أضله به.

قال الفراء: أهل الحجاز يقولون فتنته، و أهل نجد يقولون أفتنته، و يقال فتن فلان على فلان امرأته: أى أفسدها عليه، فالفتنة هنا بمعنى الإضلال و الإفساد. قال مقاتل: يقول ما أنتم بمضلين أحدا بآلهتكم إلا من قدّر اللّه له أن يصلى الجحيم، و ما فى ما أَنْتُمْ نافية و أَنْتُمْ خطاب لهم و لمن يعبدونه على التغليب.

قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون فيما علمت أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحدا إلا من قدّر اللّه عز و جلّ عليه أن يضلّ، و منه قول الشاعر:

فردّ بنعمته كيده‌عليه و كان لنا فاتنا

أى: مضلا إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ قرأ الجمهور صالِ بكسر اللام لأنه منقوص مضاف حذفت الياء لالتقاء الساكنين و حمل على لفظ من، و أفرد كما أفرد هو. و قرأ الحسن، و ابن أبى عبلة بضم اللام مع واو بعدها، و روى عنهما أنهما قرءا بضم اللام بدون واو. فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملا على معنى من، و حذفت نون الجمع للإضافة، و أما بدون الواو فيحتمل أن يكون جمعا، و إنما حذفت الواو خطا كما حذفت لفظا، و يحتمل أن يكون مفردا، و حقه على هذا كسر اللام. قال النحاس: و جماعة أهل التفسير يقولون: إنه لحن لأنه لا يجوز هذا قاض المدينة، و المعنى: أن الكفار و ما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحد من عباد اللّه إلا من هو من أهل النار و هم المصرّون على الكفر، و إنما يصرّ على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة، و إنه ممن يصلى النار: أى: يدخلها، ثم قال الملائكة مخبرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم كما حكاه اللّه سبحانه عنهم وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ و فى الكلام حذف، و التقدير: و ما منا من أحد، أو و ما منا ملك إلا له مقام معلوم فى عبادة اللّه. و قيل التقدير: و ما منا إلا من له مقام معلوم، رجح البصريون التقدير الأوّل، و رجح الكوفيون الثانى. قال الزجاج: هذا قول الملائكة و فيه مضمر. المعنى و ما منا ملك إلا له مقام معلوم. ثم قالوا: وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ أى: فى مواقف الطاعة. قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم. و قال الكلبى: صفوف الملائكة فى السماء كصفوف أهل الدنيا فى الأرض وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ أى: المنزّهون للّه المقدّسون له عما أضافه إليه المشركون، و قيل: المصلون، و قيل: المراد بقولهم المسبحون مجموع التسبيح باللسان و بالصلاة، و المقصود أن هذه الصفات هى صفات الملائكة، و ليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات اللّه وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ هذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين، أى:

كانوا قبل المبعث المحمّدى إذا عيروا بالجهل قالوا: لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ أى كتابا من كتب الأوّلين كالتوراة و الإنجيل لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أى: لأخلصنا العبادة له و لم نكفر به، و إن فى قوله:

وَ إِنْ كانُوا هى المخففة من الثقيلة، و فيها ضمير شأن محذوف، و اللام هى الفارقة بينها و بين النافية، أى: و إن الشأن كان كفار العرب ليقولون ... إلخ، و الفاء فى قوله: فَكَفَرُوا بِهِ هى الفصيحة الدالة على

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۷۷

محذوف مقدّر فى الكلام. قال الفراء: تقديره فجاءهم محمّد بالذكر فكفروا به، و هذا على طريق التعجب منهم فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أى: عاقبة كفرهم و مغبته، و فى هذا تهديد لهم شديد، و جملة: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ مستأنفة مقرّرة للوعيد، و المراد بالكلمة ما وعدهم اللّه به من النصر و الظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة قوله سبحانه كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۱» و قال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم، و الأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا، فإنه قال: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ فهذه هى الكلمة المذكورة سابقا و هذا تفسير لها، و المراد بجند اللّه حزبه و هم الرسل و أتباعهم.

قال الشيبانى: جاء هنا على الجمع: يعنى قوله: لَهُمُ الْغالِبُونَ من أجل أنه رأس آية، و هذا الوعد لهم بالنصر و الغلبة لا ينافيه انهزامهم فى بعض المواطن، و غلبة الكفار لهم، فإن الغالب فى كلّ موطن هو انتصارهم على الأعداء، و غلبتهم لهم، فخرج

الكلام مخرج الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كلّ حال و فى كل موطن كما قال سبحانه: وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بالإعراض عنهم و الإغماض عما يصدر منهم من الجهالات و الضلالات فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ أى: أعرض عنهم إلى مدّة معلومة عند اللّه سبحانه، و هى مدة الكف عن القتال. قال السدّى و مجاهد: حتى نأمرك بالقتال. و قال قتادة:

إلى الموت، و قيل: إلى يوم بدر، و قيل: إلى يوم فتح مكة، و قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أى: و أبصرهم إذا نزل بهم العذاب بالقتل و الأسر فسوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار، و عبر بالإبصار عن قرب الأمر: أى: فسوف يبصرون عن قريب. و قيل المعنى: فسوف يبصرون العذاب يوم القيامة. ثم هددهم بقوله سبحانه: أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب؟ فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ أى: إذا نزل عذاب اللّه لهم بفنائهم، و الساحة فى اللغة: فناء الدار الواسع، قال الفراء: نزل بساحتهم و نزل بهم سواء. قال الزجاج: و كان عذاب هؤلاء بالقتل، قيل: المراد به نزول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بساحتهم يوم فتح مكة. قرأ الجمهور «نزل» مبنيا للفاعل.

و قرأ عبد اللّه بن مسعود على البناء للمفعول، و الجار و المجرور قائم مقام الفاعل فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ أى: بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب، و المخصوص بالذم محذوف، أى: صباحهم. و خصّ الصباح بالذكر لأن العذاب كان يأتيهم فيه. ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيدا للوعد بالعذاب فقال: وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ و حذف مفعول أبصر هاهنا و ذكره أوّلا إما لدلالة الأوّل عليه فتركه هنا اختصارا، أو قصدا إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف. و قيل: هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة، و الجملة الأولى المراد بها عذابهم فى الدنيا، و على هذا فلا يكون من باب التأكيد، بل من باب التأسيس. ثم نزّه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم فقال: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ العزّة: الغلبة و القوة، و المراد تنزيهه عن كلّ ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف، و ربّ العزّة بدل من ربك. ثم ذكر ما يدلّ على تشريف رسله و تكريمهم فقال: وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ أى: الذين أرسلهم

---

(١). المجادلة: ٢١.

إلى عباده و بلغوا رسالاته، و هو من السلام الذى هو التحية، و قيل: معناه أمن لهم و سلامة من المكاره وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين و منذرين، و تعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم، و ما يثنون عليه به، و قيل: إنه الحمد على هلاك المشركين و نصر الرسل عليهم، و الأولى أنه حمد للّه سبحانه على كلّ ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيده حذف المحمود عليه، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرّر فى علم المعانى، و الحمد: هو الثناء الجميل بقصد التعظيم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً قال: زعم أعداء اللّه أنه تبارك و تعالى هو و إبليس أخوان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ قال:

فإنكم يا معشر المشركين و ما تعبدون: يعنى الآلهة ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ قال: بمضلين إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ يقول: إلا من سبق فى علمى أنه سيصلى الجحيم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية يقول: إنكم لا تضلون أنتم و لا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال الجحيم. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: لا تفتنون إلا من هو صال الجحيم. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير عنه أيضا فى قوله: وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ قال: الملائكة وَ إِنَّا لَنَحْنُ

الصَّافُّونَ قال: الملائكة وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ قال: الملائكة. و أخرج محمّد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن عائشة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما فى السّماء موضع قدم إلّا عليه ملك ساجد أو قائم، و ذلك قول الملائكة:

وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . و أخرج محمّد بن نصر، و ابن عساكر عن العلاء بن سعد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال يوما لأصحابه: «أطّت السّماء و حقّ لها أن تئطّ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد، ثم قرأ: وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ .

و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: «إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلاـ و عليه جبهة ملك أو قدماه قائما أو ساجدا، ثم قرأ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ و أخرج الترمذى و حسنه، و ابن جرير، و ابن مردويه عن أبى ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى أرى ما لا ترون و أسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطت و حقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلاـ و ملك واضع جبهته ساجدا للّه». و قد ثبت فى الصحيح و غيره «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمر الصحابة أن يصفوا كما تصفّ الملائكة عند ربهم، فقالوا: و كيف تصفّ الملائكة عند ربهم قال: يقيمون الصفوف المقدّمة «۱»، و يتراصون فى الصف». و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ قال: لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأوّلين، و علم الآخرين كفروا بالكتاب

---

(۱). فى صحيح مسلم (۴۳۰): يتمون الصفوف الأول.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أنس قال: «صبّح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خيبر و قد خرجوا بالمساحى، فلما نظروا إليه قالوا: محمّد و الخميس، فقال: اللّه أكبر خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» الحديث. و أخرج ابن سعد، و ابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا سلمتم على المرسلين فسلموا علىّ فإنما أنا بشر من المرسلين» و أخرج ابن مردويه من طريق أبى العوام عن قتادة عن أنس مرفوعا نحوه بأطول منه. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و أبو يعلى، و ابن مردويه عن أبى سعيد عن رسول اللّه أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ و أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال: كنا نعرف انصراف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الصلاة بقوله:

سُبْحانَ رَبِّكَ إلى آخر الآية. و أخرج الخطيب نحوه من حديث أبى سعيد. و أخرج الطبرانى عن زيد ابن أرقم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قال دبر كلّ صلاة: سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون و سلام على المرسلين و الحمد للّه ربّ العالمين» ثلاث مرات «فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر». و أخرج حميد بن زنجويه فى ترغيبه من طريق الأصبغ بن نباتة عن علىّ بن أبى طالب نحوه.

و إلى هنا انتهى الجزء الثالث «۱» من هذا التفسير المبارك بمعونة اللّه، المقبول بفضل اللّه، بقلم مصنفه «محمّد بن على الشوكانى غفر اللّه لهما»، فى نهار الخميس الحادى و العشرين من شهر محرم الحرام من شهور سنة تسع و عشرين و مائتين و ألف من الهجرة النبوية، حامدا للّه شاكرا له مصليا مسلما على رسوله و آله، و يتلوه إن شاء اللّه تفسير سورة ص.

انتهى سماع هذا الجزء على مؤلفه حفظه اللّه فى يوم الإثنين غرة شهر جمادى الآخرة سنة ۱۲۳۰ ه.

كتبه يحيى بن على الشوكانى غفر اللّه لهما

---

(۱). (من تجزئة المؤلف)

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۰

سورة ص

اشارة

آياتها ست و ثمانون، و قيل خمس و ثمانون، و قيل ثمان و ثمانون آيـة، و هى مكيـة: قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة «ص» بمكة. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و صحححه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، و يفعل و يفعل ... و يقول و يقول ... فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه، فجاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فدخل البيت و بينهم و بين أبى طالب قدر مجلس رجل، فخشى أبو جهل أن يجلس إلى أبى طالب و يكون أرقى عليه- فوثب فجلس فى ذلك المجلس، فلم يجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال أبو طالب: أى ابن أخى ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم. و تقول و تقول ... قال: و أكثروا عليه من القول، و تلكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا عم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، و تؤدّى إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته و لقوله: فقال القوم: كلمة واحدة نعم و أبيك عشرا، قالوا فما هى؟ قال:

لا إله إلا اللّه، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، و هم يقولون: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ فنزل فيهم: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إلى قوله: بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ص (۳۸): الآيات ۱ الى ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (۲) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (۳) وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۴)

أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (۵) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (۶) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (۷) أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (۸) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (۹)

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (۱۰) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (۱۱)

قوله: ص قرأ الجمهور بسكون الدال كسائر حروف التهجى فى أوائل السور؛ فإنها ساكنة الأواخر على الوقف. و قرأ أبىّ بن كعب، و الحسن، و ابن أبى إسحاق، و نصر بن عاصم، و ابن أبى عبلة، و أبو السمال بكسر الدال من غير تنوين، و وجه الكسر

أنه لالتقاء الساكنين، و قيل: وجه الكسر أنه من صادى يصادى إذا عارض- و المعنى صاد القرآن بعملك: أى عارضه بعملك و قابله فاعمل به، و هذا حكاه النحاس عن

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۱

الحسن البصرى و قال: إنه فسر قراءته هذه بهذا، و عنه أن المعنى: اتله و تعرّض لقراءته. و قرأ عيسى بن عمر: صاد بفتح الدال، و الفتح لالتقاء الساكنين، و قيل: نصب على الإغراء. و قيل معناه: صاد محمّد قلوب الخلق و استمالها حتى آمنوا به، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و روى عن ابن أبى إسحاق أيضا أنه قرأ «صاد» بالكسر و التنوين تشبيها لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات. و قرأ هارون الأعور و ابن السميقع «صاد» بالضم من غير تنوين على البناء نحو منذ و حيث.

و قد اختلف فى معنى «صاد» فقال الضحاك: معناه صدق اللّه. و قال عطاء: صدق محمّد. و قال سعيد ابن جبير: هو بحر يحيى اللّه به الموتى بين النفختين. و قال محمّد بن كعب: هو مفتاح اسم اللّه. و قال قتادة:

هو اسم من أسماء اللّه. و روى عنه أنه قال: هو اسم من أسماء الرحمن. و قال مجاهد: هو فاتحة السورة.

و قيل: هو مما استأثر اللّه بعلمه، و هذا هو الحقّ كما قدّمنا فى فاتحة سورة البقرة. قيل: و هو إما اسم للحروف مسرودا على نمط التعبد، أو اسم للسورة، أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب إضمار اذكر أو اقرأ، و الواو فى قوله: وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ هى واو القسم، و الإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره و علوّ محله، و معنى ذِي الذِّكْرِ أنه مشتمل على الذكر فيه بيان كلّ شىء. قال مقاتل: معنى ذِي الذِّكْرِ ذى البيان. و قال الضحاك: ذى الشرف كما فى قوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ «۱» أى: شرفكم، و قيل: أى ذى الموعظة.

و اختلف فى جواب هذا القسم ما هو؟ فقال الزجاج و الكسائى و الكوفيون غير الفراء: إنه قوله: إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ و قال الفراء: لا نجده مستقيما لتأخره جدّا عن قوله: وَ الْقُرْآنِ و رجح هو و ثعلب أن الجواب قوله: كَمْ أَهْلَكْنا و قال الأخفش: الجواب هو إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ و قيل: هو صاد، لأن معناه حقّ، فهو جواب لقوله: وَ الْقُرْآنِ كما تقول حقا و اللّه وجب و اللّه. ذكره ابن الأنبارى، و روى أيضا عن ثعلب و الفراء: و هو مبنىّ على أن جواب القسم يجوز تقدّمه و هو ضعيف.

و قيل: الجواب محذوف، و التقدير: و القرآن ذى الذكر لتبعثنّ و نحو ذلك. و قال ابن عطية: تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار، و القول بالحذف أولى. و قيل إن قوله: ص مقسم به، و على هذا القول تكون الواو فى «القرآن» للعطف عليه، و لما كان الإقسام بالقرآن دالا على صدقه، و أنه حقّ، و أنه ليس بمحل للريب قال سبحانه: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ فأضرب عن ذلك و كأنه قال لا ريب فيه قطعا، و لم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه. بل هم فى عزّة عن قبول الحقّ: أى تكبر و تجبر. و شقاق: أى و امتناع عن قبول الحقّ، و العزّة عند العرب: الغلبة و القهر، يقال: من عزّ بزّ أى: من غلب سلب، و منه: وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ أى: غلبنى، و منه قول الشاعر «۲»:

يعزّ على الطريق بمنكبيه كما ابترك الخليع على القداح

---

(۱). الأنبياء: ۱۰.

(۲). هو جرير.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۲

و الشقاق: مأخوذ من الشقّ و قد تقدّم بيانه. ثم خوّفهم سبحانه و هدّدهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار فقال: كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ يعنى الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل، أى: كم أهلكنا من الأمم الخالية الذين كانوا أمنع من هؤلاء و أشدّ

قوّة و أكثر أموالا، و كم: هى الخبريـة الدالـة على التكثير، و هى فى محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به، و من قرن: تمييز، و «من» فى «من قبلهم» هى: لابتـداء الغايـة فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ النـداء هنا: هو نـداء الاسـتغاثة منهم عنـد نزول العـذاب بهم، و ليس الحين حين مناص. قال الحسن: نادوا بالتوبـة و ليس حين التوبة و لا حين ينفع العمل. و المناص: مصدر ناص ينوص، و هو الفوت و التأخر. و لات: بمعنى ليس بلغة أهل اليمن. و قال النحويون: هى لا التى بمعنى لى زيدت عليه التاء كما فى قولهم: ربّ و ربت، و ثمّ و ثمت قال الفراء: النوص التأخر، و أنشد قول امرئ القيس:

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص قال: يقال ناص عن قرنه ينوص نوصا: أى فرّ و زاغ. قال الفراء: و يقال ناص ينوص: إذا تقدّم.

و قيل المعنى: أنه قال بعضـهم لبعض مناص، أى: عليكم بالفرار و الهزيمـة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص، فقال اللّه وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ قال سيبويه: لات مشبهة بليس، و الاسم فيها مضمر، أى: ليس حيننا حين مناص. قال الزجاج: التقدير و ليس أواننا. قال ابن كيسان: و القول كما قال سـيبويه، و الوقف عليها عنـد الكسائى بالهاء، و به قال المبرد و الأخفش. قال الكسائى و الفرّاء و الخليل و سـيبويه و الأخفش: و التاء تكتب منقطعـة عن حين، و كذلك هى فى المصاحف. و قال أبو عبيد: تكتب متصـلة بحين، فيقال: «و لا تحين» و منه قول أبى وجرة السعدى:

العاطفون تحين ما من عاطفو المطعمون زمان ما من مطعم

و قد يستغنى بحين عن المضاف إليه كما قال الشاعر:

تذكر حبّ ليلى لات حيناو أمسى الشيب قد قطع القرينا

قال أبو عبيد: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا فى حين و أوان و الآن. قلت: بل قد يزيدونها فى غير ذلك كما فى قول الشاعر:

فلتعرفنّ خلائقا مشمولةو لتندمنّ و لات ساعة مندم

و قد أنشد الفراء هذا البيت مستدلا به على أن من العرب من يخفض بها، و جملة: وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ فى محل نصب على الحال من ضـمير نـادوا. قرأ الجمهور «لات» بفتـح التاء، و قرئ «لات» بالكسـر كجير وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ أى: عجب الكفار الذين وصفهم اللّه سبحانه بأنهم فى عزّة و شقاق أن جاءهم منذر منهم، أى: رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمرّوا على الكفر، و أن و مـا فى حيزهـا فى محـل نصب بنزع الخـافض، أى: من أن جاءهم، و هو كلام مسـتأنف مشـتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۴۸۳

عن قدرة البشر، أى: هذا المدّعى للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدّعيه من أن اللّه أرسله.

قيـل: و وضع الظاهر موضع المضـمر لإظهار الغضب عليهم، و أن ما قالوه لا يتجاسـر على مثله إلا المتوغلون فى الكفر. ثم أنكروا ما جاء به صـلّى اللّه عليه و سـلّم من التوحيـد و ما نفاه من الشـركاء للّه فقالوا: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً أى: صيرها إلها واحدا و قصرها على اللّه سبحانه إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ أى: لأمر بالغ فى العجب إلى الغاية. قال الجوهرى: العجيب الأمر الذى يتعجب منه، و كذلك العجاب بالضم و العجاب بالتشديد أكثر منه قرأ الجمهور «عجاب» مخففا. و قرأ علىّ و السـلمى و عيسى بن عمر و ابن مقسم بتشديـد الجيم. قال مقاتل: عجاب يعنى بالتخفيف لغـة أزد شـنوءة، قيل: و العجاب بالتخفيف و التشديد يدلان على أنه قد تجاوز الحـدّ فى العجب، كما يقال الطويل: الذى فيه طول، و الطوال الذى قد تجاوز حدّ الطول و كلام الجوهرى يفيد اختصاص المبالغـة بعجّاب مشـدّد الجيم لا بالمخفف، و قـد قـدّمنا فى صـدر هذه السورة سـبب نزول هذه الآيات وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ المراد بالملإ: الأشراف كما هو مقرر فى غير موضع من تفسير الكتاب العزيز أى:

انطلقوا من مجلسهم الذى كانوا فيه عند أبى طالب كما تقدم قائلين أَنِ امْشُوا أى: قائلين لبعضهم بعضا امضوا على ما كنتم عليه و

لا تدخلوا فى دينه وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكَمْ أى: اثبتوا على عبادتها، و قيل المعنى:

و انطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام امشوا و اصبروا على آلهتكم، و «أن» فى قوله: أَنِ امْشُوا هى المفسرة للقول المقدّر، أو لقوله: وَ انْطَلَقَ لأنه مضمن معنى القول، و يجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر، أو للمذكور، أى: بأن امشوا. و قيل المراد بالانطلاق: الاندفاع فى القول، و امشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها، أى: اجتمعوا و أكثروا، و هو بعيد جدّا، و خلاف ما يدل عليه الانطلاق و المشى بحقيقتهما، و خلاف ما تقدم فى سبب النزول، و جملة إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر، أى: يريده محمّد بنا و بآلهتنا، و يودّ تمامه ليعلو علينا، و نكون له أتباعا فيتحكم بما يريد، فيكون هذا الكلام خارجا مخرج التحذير منه و التنفير عنه. و قيل المعنى: إن هذا الأمر يريده اللّه سبحانه، و ما أراده فهو كائن لا محالة، فاصبروا على عبادة آلهتكم. و قيل المعنى: إن دينكم لشىء يراد، أى: يطلب ليؤخذ منكم و تغلبوا عليه، و الأوّل أولى ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ أى: ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمّد من التوحيد فى الملة الآخرة. و هى ملة النصرانية فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام، كذا قال محمّد بن كعب القرظى، و قتادة و مقاتل، و الكلبى، و السدّى. و قال مجاهد: يعنون ملة قريش، و روى مثله عن قتادة أيضا.

و قال الحسن: المعنى ما سمعنا: أن هذا يكون آخر الزمان. و قيل المعنى: ما سمعناه من اليهود و النصارى أن محمّدا رسول إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ أى: ما هذا إلا كذب اختلقه محمّد و افتراه. ثم استنكروا أن يخصّ اللّه رسوله بمزية النبوّة دونهم فقالوا: أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا و الاستفهام للإنكار، أى: كيف يكون ذلك و نحن الرؤساء و الأشراف؟ قال الزجاج: قالوا كيف أنزل على محمّد القرآن من بيننا و نحن أكبر سنا و أعظم شرفا منه؟ و هذا مثل قولهم: لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١» فأنكروا أن يتفضل اللّه سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء. و لما ذكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(١). الزخرف: ٣١.

دونهم بين السبب الذى لأجله تركوا تصديق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما جاء به، فقال: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي أى: من القرآن، أو الوحى لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، و إهمالهم للأدلة الدالة على أنه حقّ منزل من عند اللّه بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أى: بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابى فاغترّوا بطول المهلة، و لو ذاقوا عذابى على ما هم عليه من الشرك؛ و الشكّ لصدّقوا ما جئت به من القرآن، و لم يشكوا فيه أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أى: مفاتيح نعم ربك و هى النبوّة و ما هو دونها من النعم حتى يعطوها من شاؤوا، فما لهم و لإنكار ما تفضل اللّه به على هذا النبىّ و اختاره له و اصطفاه لرسالته.

و المعنى: بل أعندهم، لأن أم هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة. و العزيز: الغالب القاهر. و الوهاب: المعطى بغير حساب أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما أى: بل ألهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاؤوا، و يمنعوا من شاؤوا، و يعترضوا على إعطاء اللّه سبحانه ما شاء لمن شاء، و قوله: فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ جواب شرط محذوف، أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب التى توصلهم إلى السماء أو إلى العرش حتى يحكموا بما يريدون من عطاء و منع، و يدبروا أمر العالم بما يشتهون، أو فليصعدوا، و ليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحى على محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم. و الأسباب: أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها. قال مجاهد و قتادة، و منه قول زهير:

و لو رام أسباب السماء بسلّم «١» قال الربيع بن أنس: الأسباب أدقّ من الشعر، و أشدّ من الحديد؛ و لكن لا ترى. و قال السدّى

فِي الْأَسْبابِ فى الفضل و الدين. و قيل: فليعملوا فى أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة و هو قول أبى عبيدة.

و قيل الأسباب: الحبال، يعنى: إن وجدوا حبالا يصعدون فيها إلى السماء فعلوا، و الأسباب عند أهل اللغة كل شىء يتوصل به إلى المطلوب كائنا ما كان. و فى هذا الكلام تهكم بهم و تعجيز لهم جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ هذا وعد من اللّه سبحانه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالنصر عليهم و الظفر بهم، و جند: مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم جند، يعنى الكفار مهزوم مكسور عما قريب، فلا تبال بهم و لا تظنّ أنهم يصلون إلى شىء مما يضمرونه بك من الكيد، و «ما» فى قوله: ما هُنالِكَ هى صفة لجند لإفادة التعظيم و التحقير، أى: جند أىّ جند. و قيل: هى زائدة، يقال: هزمت الجيش كسرته، و تهزمت القربة: إذا تكسرت، و هذا الكلام متصل بما تقدّم، و هو قوله: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ و هم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تحزن لعزّتهم و شقاقهم، فإنى أسلب عزّهم و أهزم جمعهم، و قد وقع ذلك و للّه الحمد فى يوم بدر و فيما بعده من مواطن اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال: سئل جابر بن عبد اللّه و ابن عباس عن ص فقال:

---

(١). و صدره: و من هاب أسباب المنايا ينلنه.

لا ندرى ما هو. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: ص محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أخرج ابن جرير عنه وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ قال: ذى الشرف. و أخرج أبو داود الطيالسى، و عبد الرزاق، و الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه عن التميمى قال: سألت ابن عباس عن قول اللّه تعالى: فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ قال: ليس بحين نزو و لا فرار. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عنه فى الآية قال: نادوا النداء حين لا ينفعهم، و أنشد:

تذكرت ليلى لات حين تذكرو قد بنت منها و المناص بعيد

و أخرج عنه أيضا فى الآية قال: ليس هذا حين زوال. و أخرج ابن المنذر من طريق عطية عنه أيضا قال:

لا حين فرار. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ الآية قال:

نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبى طالب فكلموه فى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن مردويه عنه وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ قال: أبو جهل. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ قال: النصرانية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ قال: فى السماء.

[سورة ص (٣٨): الآيات ١٢ الى ٢٥]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (١٢) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (١٤) وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (١٥) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (١٦)

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (١٨) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (٢٠) وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (٢١)

إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ

الصِّراطِ (۲۲) إِنَّ هـذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ (۲۳) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ (۲۴) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵)

لما ذكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ذكر أمثالهم ممن تقدّمهم و عمل عملهم من الكفر و التكذيب، فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ قال المفسرون: كانت له أوتاد يعذب بها الناس، و ذلك أنه كان إذا غضب على أحد وتد يديه و رجليه و رأسه على الأرض. و قيل المراد بالأوتاد:

الجموع و الجنود الكثيرة، يعني: أنهم كانوا يقوّون أمره و يشدّون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا. قال ابن قتيبة: العرب تقول هم في عزّ ثابت الأوتاد، و ملك ثابت الأوتاد، يريدون ملكا دائما شديدا، و أصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت و يقوم بالأوتاد. و قيل:

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۶

المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم، أي: و فرعون ذو الأبنية المحكمة. قال الضحاك: و البنيان يسمى أوتادا، و الأوتاد: جمع وتد أفصحها فتح الواو و كسر التاء، و يقال وتد بفتحهما و ودّ بإدغام التاء في الدال و ودت.

قال الأصمعي: و يقال وتد واتد مثل شغل شاغل و أنشد:

لاقت على الماء جذيلا واتداو لم يكن يخلفها المواعدا

وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الأيكة: الغيضة، و قد تقدّم تفسيرها و اختلاف القرّاء في قراءتها في سورة الشعراء، و معنى أُولئِكَ الْأَحْزابُ أنهم الموصوفون بالقوّة و الكثرة كقولهم: فلان هو الرجل، و قريش و إن كانوا حزبا كما قال اللّه سبحانه فيما تقدّم جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ و لكن هؤلاء الذين قصهم اللّه علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عددا، و أقوى أبدانا، و أوسع أموالا و أعمارا، و هذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، و يجوز أن تكون خبرا، و المبتدأ قوله: وَ عادٌ كذا قال أبو البقاء و هو ضعيف، بل الظاهر أن (عاد) و ما بعده معطوفات على قوم نوح، و الأولى أن تكون هذه الجملة خبرا لمبتدأ محذوف، أو بدلا من الأمم المذكورة إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ إن: هي النافية، و المعنى: ما كلّ حزب من هذه الأحزاب إلا كذب الرسل، لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل أو هو من مقابلة الجمع بالجمع، و المراد تكذيب كلّ حزب لرسوله، و الاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال، أي: ما كلّ أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل فَحَقَّ عِقابِ أي: فحقّ عليهم عقابي بتكذيبهم، و معنى حقّ: ثبت و وجب، و إن تأخر فكأنه واقع بهم، و كلّ ما هو آت قريب. قرأ يعقوب بإثبات الياء في «عقاب» و حذفها الباقون مطابقة لرؤوس الآي وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أي:

ما ينتظرون إلا صيحة، و هي النفخة الكائنة عند قيام الساعة. و قيل: هي النفخة الثانية، و على الأوّل: المراد من عاصر نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم من الكفار، و على الثاني: المراد كفار الأمم المذكورة، أي: ليس بينهم و بين حلول ما أعدّ اللّه لهم من عذاب إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية. و قيل: المراد بالصيحة عذاب يفجؤهم في الدنيا كما قال الشاعر:

صاح الزمان بآل برمك صيحةخرّوا لشدتها على الأذقان

و جملة ما لَها مِنْ فَواقٍ في محل نصب صفة لصيحة. قال الزجاج: فواق و فواق بفتح الفاء و ضمها، أي: ما لها من رجوع، و الفواق: ما بين حلبتي الناقة، و هو مشتقّ من الرجوع أيضا، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، و أفاق من مرضه: أي رجع إلى الصحة، و لهذا قال مجاهد و مقاتل: إن الفواق الرجوع.

و قال قتادة ما لها من مثنوية. و قال السدّي: ما لها من إفاقة، و قيل ما لها من مردّ. قال الجوهري: ما لها من نظرة و راحة و إفاقة، و

معنى الآية أن تلك الصيحة هى ميعاد عذابهم، فإذا جاءت لم ترجع، و لا تردّ عنهم، و لا تصرف منهم، و لا تتوقف مقدار فواق ناقة، و هى ما بين حلبتى الحالب لها، و منه قول الأعشى:

حتى إذا فيقة فى ضرعها اجتمعتجاءت لترضع شقّ النفس لو رضعا

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۷

و الفيقة اسم اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين، و جمعها فيق و أفواق. قرأ حمزة و الكسائى ما لها من فواق بضم الفاء، و قرأ الباقون بفتحها. قال الفراء و أبو عبيدة: الفواق بفتح الفاء الراحة، أى: لا يفيقون فيها كما يفيق المريض، و المغشى عليه، و بالضم الانتظار وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ لما سمعوا ما توعدهم اللّه به من العذاب قالوا هذه المقالة استهزاء و سخرية. و القط فى اللغة: النصيب، من القط، و هو القطع، و بهذا قال قتادة، و سعيد بن جبير، قال الفراء: القط فى كلام العرب: الحظ و النصيب، و منه قيل للصك: قط. قال أبو عبيدة و الكسائى: القط الكتاب بالجوائز، و الجمع القطوط، و منه قول الأعشى:

و لا الملك النعمان يوم لقيتهبغبطته يعطى القطوط و يأفق

و معنى يأفق: يصلح، و معنى الآية سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم و حظهم من العذاب، و هو مثل قوله: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ* و قال السدّى: سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به و قال إسماعيل بن أبى خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا، و به قال سعيد بن جبير و السدّى. و قال أبو العالية و الكلبى و مقاتل: لما نزل فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ* «۱» وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ «۲» قالت قريش: زعمت يا محمّد أنا نؤتى كتابنا بشمالنا فعجل لنا قطنا قبل يوم الحساب. ثم أمر اللّه سبحانه نبيه أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال: اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ من أقوالهم الباطلة التى هذا القول المحكى عنهم من جملتها، و هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ لما فرغ من ذكر قرون الضلالة، و أمم الكفر و التكذيب، و أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالصبر على ما يسمعه زاد فى تسليته بذكر قصة داود و ما بعدها. و معنى اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ اذكر قصته فإنك تجد فيها ما تتسلى به، و الأيد: القوّة و منه رجل أيد: أى قوىّ، و تأيد الشيء: تقوّى و المراد ما كان فيه عليه السلام من القوّة على العبادة. قال الزجاج:

و كانت قوّة داود على العبادة أتمّ قوّة، و من قوّته ما أخبرنا به نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم أنه كان يصوم يوما و يفطر يوما، و كان يصلى نصف الليل و كان لا يفرّ إذا لاقى العدوّ، و جملة إِنَّهُ أَوَّابٌ تعليل لكونه ذا الأيد، و الأواب: الرجاع عن كلّ ما يكرهه اللّه سبحانه إلى ما يحبه، و لا يستطيع ذلك إلا من كان قويا فى دينه. و قيل: معناه كلما ذكر ذنبه استغفر منه و تاب عنه، و هذا داخل تحت المعنى الأوّل، يقال آب يؤوب: إذا رجع إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ أى: يقدّسن اللّه سبحانه و ينزهنه عما لا يليق به. و جملة يُسَبِّحْنَ فى محل نصب على الحال، و فى هذا بيان ما أعطاه اللّه من البرهان و المعجزة، و هو تسبيح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر اللّه ذكرت الجبال معه، و كان يفقه تسبيح الجبال. و قال محمّد بن إسحاق: أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوىّ حسن، فهذا معنى تسبيح الجبال، و الأوّل أولى. و قيل معنى «يسبّحن» يصلين، و «معه» متعلق بسخرنا. و معنى «بالعشىّ و الإشراق» قال الكلبى: غدوة و عشية، يقال أشرقت الشمس: إذا أضاءت، و ذلك وقت الضحى. و أما شروقها فطلوعها. قال الزجاج:

شرقت الشمس: إذا طلعت، و أشرقت: إذا أضاءت وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً معطوف على الجبال، و انتصاب

---

(۱). الحاقة: ۱۹.

(۲). الحاقة: ۲۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۸

محشورة على الحال من الطير، أى: و سخرنا الطير حال كونها محشورة، أى: مجموعة إليه تسبح اللّه معه، قيل: كانت تجمعها إليه الملائكة. و قيل: كانت تجمعها الريح كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ أى: كل واحد من داود و الجبال و الطير رجاع إلى طاعة اللّه و أمره، و الضمير فى له راجع إلى اللّه عزّ و جلّ. و قيل: الضمير لداود، أى: لأجل تسبيح داود مسبح، فوضع أوّاب موضع مسبح، و الأوّل أولى. و قد قدّمنا أن الأوّاب: الكثير الرجوع إلى اللّه سبحانه وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ قوّيناه و ثبتناه بالنصر فى المواطن على أعدائه و إلقاء الرعب منه فى قلوبهم. و قيل: بكثرة الجنود وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ المراد بالحكمة: النبوّة و المعرفة بكل ما يحكم به. و قال مقاتل: الفهم و العلم. و قال مجاهد: العدل. و قال أبو العالية: العلم بكتاب اللّه. و قال شريح: السنة. و المراد بفصل الخطاب الفصل فى القضاء و به قال الحسن، و الكلبى، و مقاتل. و حكى الواحدى عن الأكثر أن فصل الخطاب: الشهود و الأيمان لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذا. و قيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل، وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ لما مدحه اللّه سبحانه بما تقدم ذكره أردف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له لما فيها من الأخبار العجيبة. قال مقاتل: بعث اللّه إلى داود ملكين، جبريل و ميكائيل لينبهه على التوبة، فأتياه و هو فى محرابه. قال النحاس: و لا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم هاهنا الملكان، و الخصم مصدر يقع على الواحد و الاثنين و الجماعة. و معنى تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ أتوه من أعلى سوره و نزلوا إليه، و السور: الحائط المرتفع، و جاء بلفظ الجمع فى تسوروا مع كونهم اثنين نظرا إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع. و منه قول الشاعر:

و خصم غضاب ينفضون لحاهم كنفض البراذين العراب المخاليا

و المحراب: الغرفة لأنهم تسوروا عليه و هو فيها، كذا قال يحيى بن سلام. و قال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس و منه محراب المسجد. و قيل: إنهما كانا إنسيين و لم يكونا ملكين، و العامل فى «إذ» فى قوله: إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ النبأ: هل أتاك الخبر الواقع فى وقت تسورهم، و بهذا قال ابن عطية و مكى و أبو البقاء. و قيل:

العامل فيه أتاك. و قيل: معمول للخصم. و قيل: معمول المحذوف، أى: و هل أتاك نبأ تحاكم الخصم. و قيل:

هو معمول لتسوروا. و قيل: هو بدل مما قبله. و قال الفراء إن أحد الظرفين المذكورين بمعنى لما فَفَزِعَ مِنْهُمْ و ذلك لأنهما أتياه ليلا فى غير وقت دخول الخصوم، و دخلوا عليه بغير إذنه، و لم يدخلوا من الباب الذى يدخل منه الناس. قال ابن العربى: و كان محراب داود من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة، و جملة: قالُوا لا تَخَفْ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فماذا قالوا لداود لما فزع منهم؟

و ارتفاع خَصْمانِ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: نحن خصمان، و جاء فيما سبق بلفظ الجمع، و هنا بلفظ التثنية لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد، و المثنى، و المجموع، فالكل جائز. قال الخليل:

هو كما تقول نحن فعلنا كذا: إذا كنتما اثنين. و قال الكسائى: جمع لما كان خبرا فلما انقضى الخبر و جاءت المخاطبة أخبر الاثنان عن أنفسهما، فقالا: خصمان، و قوله: بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ هو على سبيل الفرض و التقدير، و على سبيل التعريض لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان. ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۸۹

و نهياه عن الجور فقالا- فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ أى: لا تجر فى حكمك، يقال شط الرجل و أشط شططا و إشطاطا: إذا جار فى حكمه. قال أبو عبيد: شططت عليه و أشططت: أى جرت. و قال الأخفش: معناه لا تسرف، و قيل: لا تفرط، و قيل: لا تمل. و المعنى متقارب. و الأصل فيه البعد، من شطت الدار: إذا بعدت. قال أبو عمرو: الشطط مجاوزة القدر فى كلّ شىء وَ

اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ سواء الصراط: وسطه. و المعنى: أرشدنا إلى الحق و احملنا عليه. ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالا شرعا فى تفصيلهما و شرحهما فقالا: إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً المراد بالأخوة هنا: أخوة الدين أو الصحبة، و النعجة هى الأنثى من الضأن، و قد يقال لبقر الوحش نعجة وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ قال الواحدى: النعجة: البقرة الوحشية، و العرب تكنى عن المرأة بها، و تشبه النساء بالنعاج من البقر. قرأ الجمهور تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ بكسر التاء الفوقية. و قرأ الحسن، و زيد بن على بفتحها. قال النحاس: و هى لغة شاذة، و إنما عنى ب «هذا» داود لأنه كان له تسع و تسعون امرأة، و عنى بقوله: وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ [أوريا] زوج المرأة التى أراد أن يتزوجها داود كما سيأتى بيان ذلك فَقالَ أَكْفِلْنِيها أى: ضمها إلىّ و انزل لى عنها حتى أكفلها و أصير بعلا لها. قال ابن كيسان: اجعلها كفلى و نصيبى وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ أى: غلبنى، يقال عزه يعزه عزا: إذا غلبه. و فى المثل «من عزّ بزّ» أى: من غلب سلب و الاسم العزة: و هى القوة.

قال عطاء: المعنى إن تكلم كان أفصح منى. و قرأ ابن مسعود و عبيد بن عمير «و عازنى فى الخطاب» أى:

غالبنى من المعازة و هى المغالبة قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ أى: بسؤاله نعجتك ليضمها إلى نعاجه التسع و التسعين إن كان الأمر على ما تقول، و اللام: هى الموطئة للقسم، و هى: و ما بعدها جواب للقسم المقدر، و جاء بالقسم فى كلامه مبالغة فى إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع و التسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التى مع صاحبه و لم يكن معه غيرها. و يمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الاعتراف من الآخر. قال النحاس. و يقال: إن خطيئة داود هى قوله: لَقَدْ ظَلَمَكَ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ و هم الشركاء واحدهم خليط: و هو المخالط فى المال لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أى: يتعدى بعضهم على بعض، و يظلمه غير مراع لحقه إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فإنهم يتحامون ذلك، و لا يظلمون خليطا و لا غيره وَ قَلِيلٌ ما هُمْ أى: و قليل هم، و ما:

زائدة للتوكيد و التعجيب. و قيل: هى موصولة، و هم: مبتدأ، و قليل: خبره وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ

قال أبو عمرو و الفراء: ظن يعنى أيقن. و معنى «فتناه» ابتليناه، و المعنى: أنه عند أن تخاصما إليه و قال ما قال علم عند ذلك أنه المراد، و أن مقصودهما التعريض به و بصاحبه الذى أراد أن ينزل له عن امرأته. قال الواحدى: قال المفسرون: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، فعند ذلك علم داود بما أراده. قرأ الجمهور: «فتناه» بالتخفيف للتاء و تشديد النون. و قرأ عمر بن الخطاب، و الحسن، و أبو رجاء بالتشديد للتاء و النون، و هى مبالغة فى الفتنة. و قرأ الضحاك «افتناه» و قرأ قتادة و عبيد بن عمير و ابن السميقع «فتناه» بتخفيفهما و إسناد الفعل إلى الملكين، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ

لذنبه وَ خَرَّ راكِعاً أى: ساجدا، و عبر بالركوع عن السجود. قال ابن العربى: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود، فإن السجود هو الميل، و الركوع هو الانحناء و أحدهما يدخل فى الآخر و لكنه قد يختص كلّ واحد منهما بهيئة. ثم جاء فى هذا على تسمية أحدهما بالآخر. و قيل المعنى للسجود راكعا:

أى: مصليا. و قيل: بل كان ركوعهم سجودا، و قيل: بل كان سجودهم ركوعا وَ أَنابَ أى: رجع إلى اللّه بالتوبة من ذنبه.

و قد اختلف المفسرون فى ذنب داود الذى استغفر له و تاب عنه على أقوال: الأول أنه نظر إلى امرأة الرجل التى أراد أن تكون زوجة له، كذا قال سعيد بن جبير و غيره. قال الزجاج: و لم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، و صارت الأولى له و الثانية عليه. القول الثانى أنه أرسل زوجها فى جملة الغزاة. الثالث أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. الرابع أن أوريا كان خطب تلك المرأة فلما غاب خطبها داود فزوّجت منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا، فعتب اللّه عليه حيث لم يتركها لخاطبها. الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجند، ثم تزوج امرأته فعاتبه اللّه على ذلك، لأن ذنوب

الأنبياء و إن صغرت فهى عظيمة. السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا «١».
و أقول: الظاهر من الخصومة التى وقعت بين الملكين تعريضا لداود عليه السلام أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها و يضمها إلى نسائه، و لا ينافى هذا العصمة الكائنة للأنبياء، فقد نبهه اللّه على ذلك و عرض له بإرسال ملائكته إليه ليتخاصموا فى مثل قصته حتى يستغفر لذنبه و يتوب منه فاستغفر و تاب. و قد قال سبحانه وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى «٢» و هو أبو و البشر و أوّل الأنبياء، و وقع لغيره من الأنبياء ما قصه اللّه علينا فى كتابه. ثم أخبر سبحانه أنه قبل استغفاره و توبته قال: فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ أى: ذلك الذنب الذى استغفر منه. قال عطاء الخراسانى و غيره: إن داود بقى ساجدا أربعين يوما حتى نبت الرعى حول وجهه و غمر رأسه.
قال ابن الأنبارى: الوقف على قوله: فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ تامّ، ثم يبتدئ الكلام بقوله: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ الزلفى: القربة و الكرامة بعد المغفرة لذنبه. قال مجاهد: الزلفى الدنوّ من اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة، و المراد بحسن المآب: حسن المرجع و هو الجنة.
و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما لَها مِنْ فَواقٍ قال: من رجعة.
وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قال: سألوا اللّه أن يجعل لهم. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق الزبير بن عدى عنه عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قال: نصيبنا من الجنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: ذَا الْأَيْدِ قال: القوّة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأوّاب المسبح. و أخرج الديلمى عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الأوّاب فقال: سألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عنه فقال: هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر اللّه. و أخرج

---

(١). هذا هو القول السديد و اللّه أعلم لأن ما عداه مما ذكر لا يصح بحق أنبياء اللّه و رسله و هو من الإسرائيليات.
(٢). طه: ١٢١.

عبد بن حميد عن ابن عباس قال: الأوّاب الموقن. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن عطاء الخراسانى عنه قال لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ و أخرج ابن المنذر، و ابن مردويه عنه أيضا قال: لقد أتى علىّ زمان و ما أدرى وجه الآية يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ حتى رأيت الناس يصلون الضحى. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عنه قال: كنت أمرّ بهذه الآية يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ فما أدرى ما هى؟ حتى حدثتنى أمّ هانئ بنت أبى طالب أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم دخل عليها يوم الفتح، فدعا بوضوء فتوضّأ ثم صلّى الضّحى، ثم قال:
«يا أمّ هانئ هذه صلاة الإشراق». و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه من وجه آخر عنه نحوه. و الأحاديث فى صلاة الضحى كثيرة جدّا قد ذكرناها فى شرحنا للمنتقى. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: استعدى رجل من بنى إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم فقال: إن هذا غصبنى بقرا لى، فسأل داود الرجل عن ذلك فجحده، فسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة، فقال لهما داود: قوما حتى أنظر فى أمر كما، فقاما من عنده، فأتى داود فى منامه فقيل له: اقتل الرجل الذى استعدى، فقال: إن هذه رؤيا و لست أعجل حتى أتثبت، فأتى الليلة الثانية فى منامه فأمر أن يقتل الرجل فلم يفعل، ثم أتى الليلة الثالثة، فقيل له: اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من اللّه، فأرسل داود إلى الرجل فقال: إن اللّه أمرنى أن أقتلك، قال:
تقتلنى بغير بينة و لا تثبت؟ قال: نعم، و اللّه لأنفذن أمر اللّه فيك، فقال الرجل: لا تعجل علىّ حتى أخبرك، إنى و اللّه ما أخذت بهذا الذنب و لكنى كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت، فأمر به داود فقتل فاشتدّت هيبته فى بنى إسرائيل و شدّد به

ملكه، فهو قول اللّه وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ قال: أعطى الفهم. و أخرج ابن أبى حاتم، و الديلمى عن أبى موسى الأشعرى قال: أوّل من قال أما بعد داود عليه السلام وَ هو فَصْلَ الْخِطابِ و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن سعد، و عبد بن حميد، و ابن المنذر عن الشعبى أنه سمع زياد بن أبيه يقول: فصل الخطاب الذى أوتى داود: أما بعد. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أن داود حدّث نفسه إذا ابتلى أنه يعتصم، فقيل له: إنك ستبتلى و ستعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حذرك، فقيل له هذا اليوم الذى تبتلى فيه، فأخذ الزبور و دخل المحراب و أغلق باب المحراب و أخذ الزبور فى حجره، و أقعد منصفا:

يعنى خادما على الباب و قال: لا تأذن لأحد علىّ اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون الطير، فيه من كلّ لون، فجعل يدور بين يديه، فدنا منه فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده ليأخذه فاستوفز من خلفه، فأطبق الزبور و قام إليه ليأخذه، فطار فوقع على كوّة المحراب، فدنا منه ليأخذه فأفضى فوقع على خصّ فأشرف عليه لينظر أين وقع؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض، فلما رأت ظله حركت رأسها، فغطت جسدها أجمع بشعرها، و كان زوجها غازيا فى سبيل اللّه، فكتب داود إلى رأس الغزاة: انظر أوريا فاجعله فى حملة التابوت و كان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم و إما أن يقتلوا، فقدّمه فى حملة التابوت فقتل، فلما انقضت عدّتها خطبها داود، فاشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة من

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۲

بعده، و أشهدت عليه خمسين من بنى إسرائيل و كتب عليه بذلك كتابا، فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان، و شب فتسوّر عليه الملكان المحراب و كان شأنهما ما قصّ اللّه فى كتابه و خرّ داود ساجدا، فغفر اللّه له و تاب عليه «۱». و أخرج الحاكم و صححه و البيهقى فى الشعب قال: ما أصاب داود بعد ما أصابه بعد القدر إلا من عجب بنفسه، و ذلك أنه قال: يا ربّ ما من ساعة من ليل و لا نهار إلا و عابد من آل داود يعبدك يصلى لك أو يسبح أو يكبر و ذكر أشياء، فكره اللّه ذلك، فقال: يا داود إن ذلك لم يكن إلا بى فلو لا عونى ما قويت عليه، و عزّتى و جلالى لأكلنك إلى نفسك يوما، قال: يا ربّ فأخبرنى به، فأخبر به فأصابته الفتنة ذلك اليوم. و أخرج أصل القصة الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أنس مرفوعا بإسناد ضعيف. و أخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطوّلة. و أخرجها جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ هذا أَخِي قال: على دينى. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و أحمد فى الزهد، و ابن جرير، و الطبرانى عنه قال: ما زاد داود على أن فَقالَ أَكْفِلْنِيها. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَكْفِلْنِيها قال ما زاد داود على أن قال: تحوّل لى عنها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ قَلِيلٌ ما هُمْ يقول: قليل الذى هم فيه، و فى قوله: وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ قال: اختبرناه. و أخرج أحمد، و البخارى، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه أيضا أنه قال فى السجود فى ص ليست من عزائم السجود، و قد رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسجد فيها. و أخرج النسائى و ابن مردويه بسند جيد عنه أيضا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سجد فى ص و قال: سجدها داود و نسجدها شكرا. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سجد فى ص». و أخرج ابن مردويه عن أنس مثله مرفوعا. و أخرج الدارمى، و أبو داود، و ابن خزيمة، و ابن حبان، و الدار قطنى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن أبى سعيد قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو على المنبر ص، فلما بلغ السجدة نزل فسجد و سجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود، فقال: إنما هى توبة و لكنى رأيتكم تهيأتم للسجود، فنزل فسجد». و أخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه ذكر يوم القيامة فعظم شأنه و شدّته قال: و يقول الرحمن عزّ و جلّ لداود عليه السلام مرّ بين يدىّ،

فيقول داود: يا ربّ أخاف أن تدحضنى خطيئتى، فيقول خذ بقدمى، فيأخذ بقدمه عزّ و جلّ فيمرّ، قال: فتلك الزلفى التى قال اللّه وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ

[سورة ص (٣٨): الآيات ٢٦ الى ٣٣]

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (٢٦) وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٩) وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)
إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (٣١) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (٣٢) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ (٣٣)

---

(١). هذه القصة من الإسرائيليات التى لا يعتد بها و لا تجوز فى حق داود عليه السلام.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٤٩٣

لما تمم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه، و الجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا: أى و قلنا له يا داوُدُ إِنَّا استخلفناك على الأرض، أو جَعَلْناكَ خَلِيفَةً لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ أى بالعدل الذى هو حكم اللّه بين عباده وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى أى: هوى النفس فى الحكم بين العباد. و فيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذى عوتب عليه ليس بعدل و أن فيه شائبة من اتباع هوى النفس فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بالنصب على أنه جواب للنهى و فاعل يضلك هو الهوى، و يجوز أن يكون الفعل مجزوما بالعطف على النهى، و إنما حرك لالتقاء الساكنين، فعلى الوجه الأول يكون المنهى عنه الجمع بينهما، و على الوجه الثانى يكون النهى عن كلّ واحد منهما على حدة. و سبيل اللّه: هو طريق الحق، أو طريق الجنة، و جملة إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ تعليل للنهى عن اتباع الهوى و الوقوع فى الضلال، و الباء فى بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ للسببية، و معنى النسيان الترك: أى: بسبب تركهم العمل لذلك اليوم: قال الزجاج: أى بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين و إن كانوا ينذرون و يذكرون. و قال عكرمة و السدّى: فى الآية تقديم و تأخير، و التقدير: و لهم عذاب يوم الحساب بما نسوا، أى: تركوا القضاء بالعدل، و الأوّل أولى. و جملة وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا مستأنفة مقرّرة لما قبلها من أمر البعث و الحساب: أى ما خلقنا هذه الأشياء خلقا باطلا خارجا على الحكمة الباهرة، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا، فانتصاب باطلا على المصدرية، أو على الحالية، أو على أنه مفعول لأجله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى المنفىّ قبله، و هو: مبتدأ، و خبره: ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أى: مظنونهم، فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض، و يقولون إنه لا قيامة، و لا بعث، و لا حساب، و ذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ و الفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل، أى: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم و كفرهم. ثم وبخهم و بكتهم فقال: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ قال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطى فى الآخرة كما تعطون فنزلت، و أم هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة: أى بل أ نجعل الذين آمنوا باللّه، و صدقوا رسله، و عملوا بفرائضه كالمفسدين فى الأرض بالمعاصى. ثم أضرب سبحانه إضرابا آخر، و انتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه فقال: أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ أى: بل نجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين و المنافقين و المنهمكين فى معاصى اللّه سبحانه من

المسلمين، و قيل: إن الفجار هنا خاص بالكافرين، و قيل: المراد بالمتقين الصحابة، و لا وجه للتخصيص بغير مخصص، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۴

ارتفاع كتاب على أنه خبر مبتدأ محذوف، و أنزلناه إليك صفة له، و مبارك: خبر ثان للمبتدأ و لا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح، و قد جوزه بعض النحاة، و التقدير: القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمّد كثير الخير و البركة. و قرئ «مباركا» على الحال و قوله: لِيَدَّبَّرُوا أصله ليتدبروا فأدغمت التاء فى الدال و هو متعلق بأنزلناه. و فى الآية دليل على أن اللّه سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر و التفكر فى معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر. قرأ الجمهور «ليدبروا» بالإدغام. و قرأ أبو جعفر و شيبة «لتدبروا» بالتاء الفوقية على الخطاب، و رويت هذه القراءة عن عاصم و الكسائى، و هى قراءة على رضى اللّه عنه، و الأصل لتتدبروا بتاءين؛ فحذف إحداهما تخفيفا وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ أى: ليتعظ أهل العقول، و الألباب جمع لب: و هو العقل وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ أخبر سبحانه بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولدا، ثم مدح سليمان فقال: نِعْمَ الْعَبْدُ و المخصوص بالمدح محذوف، أى: نعم العبد سليمان، و قيل: إن المدح هنا بقوله: نعم العبد هو لداود، و الأول أولى، و جملة إِنَّهُ أَوَّابٌ تعليل لما قبلها من المدح، و الأواب:

الرجاع إلى اللّه بالتوبة كما تقدم بيانه، و الظرف فى قوله: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ متعلق بمحذوف و هو اذكر، أى: اذكر ما صدر عنه وقت عرض الصافنات الجياد عليه بِالْعَشِيِ و قيل: هو متعلق بنعم، و هو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت، و قيل: متعلق بأواب، و لا وجه لتقييد كونه أوابا بذلك الوقت، و العشى من الظهر أو العصر إلى آخر النهار، و الصافنات جمع صافن.

و قد اختلف أهل اللغة فى معناه، فقال القتبى و الفراء: الصافن فى كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها، و به قال قتادة، و منه الحديث «من أحب أن يتمثل له الناس صفونا فليتبوأ مقعده من النار» أى: يديمون القيام له، و استدلوا بقول النابغة:

لنا قبة مضروبة بفنائهاعتاق المهارى و الجياد الصّوافن

و لا حجة لهم فى هذا فإنه استدلال بمحل النزاع، و هو مصادرة لأن النزاع فى الصافن ما ذا هو؟ و قال الزجاج هو الذى يقف على إحدى اليدين و يرفع الأخرى و يجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث و هى الرجلان و إحدى اليدين، و قد يفعل ذلك بإحدى رجليه و هى علامة الفراهة، و أنشد الزجاج قول الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنّهمما يقوم على الثلاث كسير

و من هذا قول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليهمقلّدة أعنّتها صفونا

فإن قوله صفونا لا بدّ أن يحمل على معنى غير مجرّد القيام، لأن مجرّد القيام قد استفيد من قوله: عاكفة عليه. و قال أبو عبيد: الصافن هو الذى يجمع يديه و يسويهما، و أما الذى يقف على سنبكه فاسمه المتخيم،

فتح القدير، ج۴، ص: ۴۹۵

و الجياد: جمع جواد، يقال للفرس إذا كان شديد العدو. و قيل: إنها الطوال الأعناق، مأخوذ من الجيد:

و هو العنق، قيل: كانت مائة فرس، و قيل: كانت عشرين ألفا، و قيل: كانت عشرين فرسا، و قيل: إنها خرجت له من البحر و كانت لها أجنحة فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي انتصاب حب الخير على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى آثرت. قال الفراء: يقول آثرت حب الخير، و كلّ من أحب شيئا فقد آثره. و قيل: انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد و الناصب له

أحببت، و قيل: هو مصدر تشبيهى، أى: حبا مثل حب الخير، و الأول أولى. و المراد بالخير هنا: الخيل. قال الزجاج: الخير: هنا الخيل. و قال الفراء: الخير و الخيل فى كلام العرب واحد. قال النحاس: و فى الحديث «الخيل معقود بنواصيها الخير» فكأنها سميت خيرا لهذا. و قيل: إنها سميت خيرا لما فيها من المنافع. «و عن» فى عَنْ ذِكْرِ رَبِّی بمعنى على. و المعنى: آثرت حبّ الخيل على ذكر ربى: يعنى صلاة العصر حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ يعنى الشمس و لم يتقدّم لها ذكر، و لكن المقام يدلّ على ذلك. قال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشىء أو دليل الذكر، و قد جرى هنا الدليل، و هو قوله بالعشىّ. و التوارى: الاستتار عن الأبصار، و الحجاب:

ما يحجبها عن الأبصار. قال قتادة و كعب: الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق و هو جبل قاف، و سمى الليل حجابا لأنه يستر ما فيه، و قيل: و الضمير فى قوله: حَتَّى تَوارَتْ للخيل، أى: حتى توارت فى المسابقة عن الأعين. و الأوّل أولى، و قوله: رُدُّوها عَلَيَ من تمام قول سليمان: أى أعيدوا عرضها علىّ مرّة أخرى. قال الحسن: إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب للّه و قال ردّوها علىّ:

أى: أعيدوها. و قيل: الضمير فى ردّوها يعود إلى الشمس و يكون ذلك معجزة له، و إنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلى العصر، و الأوّل أولى، و الفاء فى قوله: فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ هى الفصيحة التى تدل على محذوف فى الكلام، و التقدير هنا: فردّوها عليه. قال أبو عبيدة: طفق يفعل مثل ما زال يفعل، و هو مثل ظلّ و بات و انتصاب مسحا على المصدرية بفعل مقدّر، أى: يمسح مسحا لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلا مضارعا، و قيل: هو مصدر فى موضع الحال، و الأول أولى. و السوق جمع ساق، و الأعناق جمع عنق، و المراد أنه طفق يضرب أعناقها و سوقها، يقال مسح علاوته: أى ضرب عنقه. قال الفراء: المسح هنا القطع، قال: و المعنى أنه أقبل يضرب سوقها و أعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته، و كذا قال أبو عبيدة. قال الزجاج: و لم يكن يفعل ذلك إلا و قد أباحه اللّه له، و جائز أن يباح ذلك لسليمان و يحظر فى هذا الوقت.

و قد اختلف المفسرون فى تفسير هذه الآية، فقال قوم: المراد بالمسح ما تقدّم. و قال آخرون منهم الزهرى و قتادة: إن المراد به المسح على سوقها و أعناقها لكشف الغبار عنها حبا لها. و القول الأوّل أولى بسياق الكلام فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر، ثم أمرهم بردّها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك، و ما صدّه عن عبادة ربه، و شغله عن القيام بما فرضه اللّه عليه، و لا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردّها عليه هو كشف الغبار عن سوقها و أعناقها بالمسح عليها بيده أو بثوبه، و لا متمسك لمن قال: إن

إفساد المال لا يصدر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فإن هذا مجرّد استبعاد باعتبار ما هو المتقرّر فى شرعنا مع جواز أن يكون فى شرع سليمان أن مثل هذا مباح على أن إفساد المال المنهىّ عنه فى شرعنا إنما هو مجرّد إضاعته لغير غرض صحيح، و أما لغرض صحيح فقد جاز مثله فى شرعنا كما وقع منه صلّى اللّه عليه و سلّم من إكفاء القدور التى طبخت من الغنيمة قبل القسمة، و لهذا نظائر كثيرة فى الشريعة، و من ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

و قد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِی الْأَرْضِ قال: الذين آمنوا: علىّ، و حمزة، و عبيدة بن الحارث، و المفسدين فى الأرض: عتبة، و شيبة، و الوليد. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: الصَّافِناتُ الْجِيادُ خيل خلقت على ما شاء. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: الصَّافِناتُ قال: صفون الفرس رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر، و فى قوله: الْجِيادُ السراع. و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله: حُبَّ الْخَيْرِ قال: الماء، و فى قوله ردّوها علىّ قال: الخيل فَطَفِقَ مَسْحاً قال: عقرا بالسيف. و أخرج

ابن جرير، و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: الصلاة التى فرّط فيها سليمان صلاة العصر. و أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن إبراهيم التيمى فى قوله:

إذ عرض عليه بالعشىّ الصافنات الجياد قال: كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها. و أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير عن ابن مسعود بقوله: حَتّٰى تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ قال: توارت من وراء ياقوتة خضراء، فخضرة السماء منها. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن عباس قال: كان سليمان لا يكلم إعظاما له، فلقد فاتته صلاة العصر و ما استطاع أحد أن يكلمه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: عَنْ ذِكْرِ رَبِّي يقول: من ذكر ربى فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنٰاقِ قال: قطع سوقها و أعناقها بالسيف.

[سورة ص (٣٨): الآيات ٣۴ الى ۴٠]

وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَيْمٰانَ وَ أَلْقَيْنٰا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنٰابَ (٣۴) قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لاٰ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّٰابُ (٣۵) فَسَخَّرْنٰا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخٰاءً حَيْثُ أَصٰابَ (٣۶) وَ الشَّيٰاطِينَ كُلَّ بَنّٰاءٍ وَ غَوّٰاصٍ (٣٧) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفٰادِ (٣٨)

هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ (٣٩) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴٠)

قوله: وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَيْمٰانَ أى: ابتليناه و اختبرناه. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين: تزوّج سليمان امرأة من بنات الملوك، فعبدت الصنم فى داره و لم يعلم بذلك سليمان، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك. و قيل: إن سبب الفتنة أنه تزوّج سليمان امرأة يقال لها جرادة و كان يحبها حبا شديدا، فاختصم إليه فريقان: أحدهما من أهل جرادة، فأحبّ أن يكون القضاء لهم، ثم قضى بينهم بالحق. و قيل: إن السبب أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد. و قيل: إنه تزوّج جرادة هذه و هى مشركة لأنه عرض عليها الإسلام فقالت: اقتلنى و لا أسلم. و قال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. و قال الحسن: إنه قارب بعض نسائه فى شىء من حيض أو غيره. و قيل: إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلّا من بنى

فتح القدير، ج۴، ص: ۴٩٧

إسرائيل فتزوّج امرأة من غيرهم. و قيل: إن سبب فتنته ما ثبت فى الحديث الصحيح أنه قال: لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة تأتى كلّ واحدة بفارس يقاتل فى سبيل اللّه، و لم يقل إن شاء اللّه. و قيل غير ذلك. ثم بين سبحانه ما عاقبه به فقال: وَ أَلْقَيْنٰا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً انتصاب جسدا على أنه مفعول ألقينا، و قيل:

انتصابه على الحال على تأويله بالمشتق، أى: ضعيفا أو فارغا، و الأوّل أولى. قال أكثر المفسرين: هذا الجسد الذى ألقاه اللّه على كرسى سليمان هو شيطان اسمه صخر، و كان متمرّدا عليه غير داخل فى طاعته، ألقى اللّه شبه سليمان عليه و ما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان، و ذلك عند دخول سليمان الكنيف لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف، فجاء صخر فى صورة سليمان فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان، فقعد على سرير سليمان و أقام أربعين يوما على ملكه و سليمان هارب. و قال مجاهد: إن شيطانا قال له سليمان:

كيف تفتنون الناس؟ قال: أرنى خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه فى البحر، فذهب ملكه و قعد الشيطان على كرسيه و منعه اللّه نساء سليمان فلم يقربهنّ، و كان سليمان يستطعم فيقول: أ تعرفوننى أطعمونى؟ فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوما حوتا فشقّ بطنه فوجد خاتمه فى بطنه فرجع إليه ملكه، و هو معنى قوله: ثُمَّ أَنٰابَ أى: رجع إلى ملكه بعد أربعين يوما. و قيل معنى أناب: رجع إلى اللّه بالتوبة من ذنبه، و هذا هو الصواب، و تكون جملة: قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي بدلا من جملة أناب و تفسيرا له، أى: اغفر لى

ما صدر عنى من الذنب الذى ابتليتنى لأجله. ثم لما قدّم التوبة و الاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته فقال: وَ هَبْ لِی مُلْکاً لا یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی قال أبو عبيدة: معنى لا ينبغى لأحد من بعدى: لا يكون لأحد من بعدى، و قيل المعنى: لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة، أو لا يصح لأحد من بعدى لعظمته و ليس هذا من سؤال نبىّ اللّه سليمان عليه السلام للدنيا و ملكها و الشرف بين أهلها، بل المراد بسؤاله الملك أن يتمكن به من إنفاذ أحكام اللّه سبحانه، و الأخذ على يد المتمرّدين من عباده من الجنّ و الإنس، و لو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية فى عباد اللّه «١»، و جملة إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهَّابُ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة اللّه له و هبة الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده:

أى فإنك كثير الهبات عظيم الموهبات. ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته و إعطاءه لمسألته فقال: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّیحَ أى: ذللناها له و جعلناها منقادة لأمره. ثم بين كيفية التسخير لها بقوله: تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخاءً أى: لينة الهبوب ليست بالعاصف، مأخوذ من الرخاوة، و المعنى أنها ريح لينة لا تزعزع و لا تعصف مع قوة هبوبها و سرعة جريها، و لا ينافى هذا قوله فى آية أخرى وَ لِسُلَیْمانَ الرِّیحَ عاصِفَةً تَجْرِی بِأَمْرِهِ «٢» لأن المراد أنها فى قوة العاصفة و لا تعصف. و قيل: إنها كانت تارة رخاء، و تارة عاصفة على ما يريده سليمان و يشتهيه، و هذا أولى فى الجمع بين الآيتين حَیْثُ أَصابَ أى: حيث أراد. قال الزجاج: إجماع أهل اللغة و المفسرين أن معنى حيث أصاب: حيث أراد، و حقيقته حيث قعد. و قال الأصمعى و ابن الأعرابى: العرب تقول:

---

(١). ما جاء فى تفسير فتنة سليمان غير الحديث الصحيح إنما هو من الإسرائيليات التى تنسب إلى الأنبياء ما لا يليق بهم، فلا يعتد بها.

(٢). الأنبياء: ٨١..

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۴۹۸

أصاب الصواب، و أخطأ الجواب. و قيل: إن معنى أصاب بلغة حمير أراد، و ليس من لغة العرب، و قيل:

هو بلسان هجر، و الأول أولى، و هو مأخوذ من إصابة السهم للغرض وَ الشَّیاطِینَ معطوف على الريح، أى: و سخرنا له الشياطين، و قوله: کُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ بدل من الشياطين، أى: كل بناء منهم، و غواص منهم يبنون له ما يشاء من المبانى، و يغوصون فى البحر فيستخرجون له الدر منه، و من هذا قول الشاعر «١»:

إلا سليمان إذ قال الجليل لهقم فى البرية فاحددها عن الفند

و خيّس الجنّ أنى قد أذنت لهميبنون تدمر بالصفّاح و العمد

وَ آخَرِینَ مُقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفادِ معطوف على كلّ داخل فى حكم البدل، و هم مردة الشياطين سخروا له حتى قرنهم فى الأصفاد. يقال: قرنهم فى الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة، و الأصفاد: الأغلال واحدها صفة.

قال الزجاج: هى السلاسل، فكل ما شددته شدا وثيقا بالحديد و غيره فقد صفدته. قال أبو عبيدة: صفدت الرجل فهو مصفود، و صفدته فهو مصفد، و من هذا قول عمرو بن كلثوم فى معلقته:

فآبوا بالنهاب و بالسباياو أبنا بالملوك مصفّدينا

قال يحيى بن سلام: و لم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم و لم يسخرهم، و الإشارة بقوله:

«هذا» إلى ما تقدم من تسخير الريح و الشياطين له، و هو بتقدير القول: أى و قلنا له هذا عَطاؤُنا الذى أعطيناكه من الملك العظيم الذى طلبته فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ قال الحسن و الضحاك و غيرهما: أى فأعط من شئت و امنع من شئت بِغَیْرِ حِسابٍ لا حساب عليك

فى ذلك الإعطاء أو الإمساك، أو عطاؤنا لك بغير حساب لكثرته و عظمته. و قال قتادة: إن قوله: هذا عَطاؤُنا إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع، و هذا لا وجه لقصر الآية عليه لو قدّرنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات، فكيف يدعى اختصاص الآية به مع عدم ذكره وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى أى قربة فى الآخرة وَ حُسْنَ مَآبٍ و حسن مرجع، و هو الجنة.

و قد أخرج الفريابى، و الحكيم الترمذى، و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً قال: هو الشيطان الذى كان على كرسيه يقضى بين الناس أربعين يوما، و كان لسليمان امرأة يقال لها جرادة، و كان بين بعض أهلها و بين قوم خصومة، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فأوحى اللّه إليه أن سيصيبك بلاء، فكان لا يدرى أ يأتيه من السماء أم من الأرض؟

و أخرج النسائى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم قال السيوطى بسند قوى عن ابن عباس قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى لجرادة خاتمه، و كانت جرادة امرأته و كانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى فأعطته، فلما لبسه دانت له الإنس و الجن و الشياطين، فلما خرج سليمان

---

(۱). هو النابغة الذبيانى.

من الخلاء قال هاتى خاتمى، قالت قد أعطيته سليمان. قال أنا سليمان، قالت كذبت لست سليمان، فجعل لا يأتى أحدا يقول أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر اللّه، و قام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد اللّه أن يرد على سليمان سلطانه ألقى فى قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: تنكرن من أمر سليمان شيئا؟ قلن نعم إنه يأتينا و نحن نحيض، و ما كان يأتينا قبل ذلك، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتبا فيها سحر و كفر فدفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أثاروها و قرءوها على الناس و قالوا بهذا كان يظهر سليمان على الناس و يغلبهم فأكفر الناس سليمان فلم يزالوا يكفرونه، و بعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه فى البحر فتلقته سمكة فأخذته، و كان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكا فيه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لى هذا السمك؟ قال نعم، قال بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك، فحمل سليمان السمك ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم فى جوفها فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانت له الجنّ و الإنس و الشياطين و عاد إلى حاله و هرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان فى طلبه، و كان شيطانا مريدا، فجعلوا يطلبونه و لا يقدرون عليه حتى وجدوه يوما نائما فجاؤوا فبنوا عليه بنيانا من رصاص فاستيقظ فوثب، فجعل لا يثب فى مكان من البيت إلا أنباط معه الرصاص فأخذوه فأوثقوه و جاءوا به إلى سليمان فأمر به فنقر له تخت من رخام ثم أدخله فى جوفه ثم شدّ بالنحاس ثم أمر به فطرح فى البحر «۱»، فذلك قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً يعنى الشيطان الذى كان سلط عليه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ قال: صخر الجنى تمثل على كرسيه على صورته. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إنّ عفريتا من الجنّ جعل يتفلّت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتى و إنّ اللّه أمكننى منه، فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتّى تصبحوا فتنظروا إليه كلّكم، فذكرت قول أخى سليمان وَ هَبْ لِى مُلْكاً لا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى فردّه اللّه خاسئا». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَامْنُنْ يقول: أعتق من الجنّ من شئت و أمسك منهم من

شئت.

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤١ الى ٥٤]

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (٤٢) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٤٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ (٤٥)

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (٤٨) هذا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (٥٠)

مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (٥١) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (٥٢) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (٥٣) إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (٥٤)

---

(١). هذا كسابقه من الإسرائيليات التى لا يعتد بها.

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٥٠٠

فتح القدير ج‌٤ ٥٤٩

قوله: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ معطوف على قوله: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ و أيوب عطف بيان، و إِذْ نادى رَبَّهُ بدل اشتمال من عبدنا أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذى نادى ربه به، و لو لم يحكه لقال إنه مسه. و قرأ عيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول.

و فى ذكر قصة أيوب إرشاد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى الاقتداء به فى الصبر على المكاره. قرأ الجمهور بضم النون من قوله: بِنُصْبٍ و سكون الصاد، فقيل: هو جمع نصب بفتحتين نحو أسد و أسد، و قيل: هو لغة فى النصب، نحو رشد و رشد. و قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع، و شيبة و حفص، و نافع فى رواية عنه بضمتين، و رويت هذه القراءة عن الحسن. و قرأ أبو حيوة و يعقوب و حفص فى رواية بفتح و سكون، و هذه القراءات كلها بمعنى واحد، و إنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات .. و قال أبو عبيدة: إن النصب بفتحتين: التعب و الإعياء، و على بقية القراءات الشرّ و البلاء، و معنى قوله: وَ عَذابٍ أى ألم. قال قتادة و مقاتل: النصب فى الجسد، و العذاب فى المال. قال النحاس و فيه بعد كذا قال. و الأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوى و هو التعب و الإعياء، و تفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب و هو الألم، و كلاهما راجع إلى البدن ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هو بتقدير القول: أى قلنا له: اركض برجلك كذا قال الكسائى: و الركض الدفع بالرجل، يقال ركض الدابة برجله: إذا ضربها بها. و قال المبرد: الركض التحريك. قال الأصمعى: يقال ركضت الدابة، و لا يقال ركضت هى، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه، و لا فعل لها فى ذلك، و حكى سيبويه: ركضت الدابة فركضت، مثل جبرت العظم فجبر هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ هذا أيضا من مقول القول المقدّر: المغتسل هو الماء الذى يغتسل به، و الشراب الذى يشرب منه. و قيل: إن المغتسل هو المكان الذى يغتسل فيه. قال قتادة: هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها الجابية فاغتسل من إحداهما فأذهب اللّه ظاهر دائه، و شرب من الأخرى فأذهب اللّه باطن دائه، و كذا قال الحسن. و قال مقاتل نبعت عين جارية فاغتسل فيها فخرج صحيحا، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا باردا. و فى الكلام حذف، و التقدير:

فركض برجله فنبعت عين، فقلنا له: هذا مغتسل إلخ، و أسند المسّ إلى الشيطان مع أن اللّه سبحانه هو الذى مسه بذلك: إما

لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلک النصب و العذاب. فقد قيل إنه أعجب بكثرة ماله، و قيل استغاثه مظلوم فلم يغثه، و قيل: إنه قال ذلک على طريقة الأدب، و قيل إنه قال ذلک لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه فرفضوه و أخرجوه من ديارهم، و قيل المراد به ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه و ابتلائه من تحسين الجزع و عدم الصبر على المصيبة، و قيل غير ذلک. و قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ معطوف على مقدّر كأنه قيل: فاغتسل و شرب، فكشفنا بذلک ما به من ضرّ و وهبنا له أهله. قيل: أحياهم اللّه بعد أن أماتهم. و قيل: جمعهم بعد تفرقهم، و قيل: غيرهم مثلهم، ثم زاده مثلهم معهم، و هو معنى قوله:

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۱

وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فكانوا مثل ما كانوا من قبل ابتلائه، و انتصاب قوله: رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ على أنه مفعول لأجله، أى: وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه، و ليتذكر بحاله أولو الألباب فيصبروا على الشدائد كما صبر، و قد تقدّم فى سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى فلا نعيده وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً معطوف على اركض، أو على وهبنا؛ أو التقدير و قلنا له: خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً و الضغث: عثكال النخل بشماريخه، و قيل: هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها، و قيل: الحزمة الكبيرة من القضبان، و أصل المادّة تدلّ على جمع المختلطات. قال الواحدى: الضغث ملء الكفّ من الشجر و الحشيش و الشماريخ فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ أى: اضرب بذلک الضغث، و لا تحنث فى يمينک، و الحنث: الإثم، و يطلق على فعل ما حلف على تركه، و كان أيوب قد حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة.

و اختلف فى سبب ذلک، فقال سعيد بن المسيب إنه جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها. و قال يحيى بن سلام و غيره: إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرّبا إليه، فإنه إذا فعل ذلک برىء، فحلف ليضربنها إن عوفى مائة جلدة. و قيل: باعت ذؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئا، و كان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف ليضربنها. و قيل: جاءها إبليس فى صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب، فقال أداويه على أنه إذا برىء قال أنت شفيتنى، لا أريد جزاء سواه، قالت:

نعم، فأشارت على أيوب بذلک فحلف ليضربنها.

و قد اختلف العلماء هل هذا خاصّ بأيوب أو عامّ للناس كلهم؟ و أن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلک قال الشافعى: إذا حلف ليضربنّ فلانا مائة جلدة أو ضربا و لم يقل ضربا شديدا و لم ينو بقلبه فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية، حكاه ابن المنذر عنه و عن أبى ثور و أصحاب الرأى. و قال عطاء: هو خاصّ بأيوب و رواه ابن القاسم عن مالک. ثم أثنى اللّه سبحانه على أيوب فقال: إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً أى:

على البلاء الذى ابتليناه به، فإنه ابتلى بالداء العظيم فى جسده و ذهاب ماله و أهله و ولده فصبر نِعْمَ الْعَبْدُ أى: أيوب إِنَّهُ أَوَّابٌ أى: رجاع إلى اللّه بالاستغفار و التوبة وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ قرأ الجمهور عِبادَنا بالجمع. و قرأ ابن عباس و مجاهد و حميد و ابن محيصن و ابن كثير «عبدنا» بالإفراد. فعلى قراءة الجمهور يكون إبراهيم و إسحاق و يعقوب عطف بيان، و على القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان، و ما بعده عطف على عبدنا لا على إبراهيم. و قد يقال: لما كان المراد بعبدنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه. و قيل: إن إبراهيم و ما بعده بدل، أو: النصب بإضمار أعنى، و عطف البيان أظهر، و قراءة الجمهور أبين و قد اختارها أبو عبيد، و أبو حاتم أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ الأيدى، جمع اليد التى بمعنى القوّة و القدرة. قال قتادة: أعطوا قوّة فى العبادة و نصرا فى الدين. قال الواحدى: و به قال مجاهد، و سعيد بن جبير، و المفسرون. قال النحاس: أما الأبصار فمتفق على أنها البصائر فى الدين و العلم. و أما الأيدى فمختلف فى تأويلها؛ فأهل التفسير يقولون: إنها القوّة فى الدين، و قوم يقولون: الأيدى جمع يد و هى النعمة، أى: هم أصحاب النعم، أى: الذين أنعم اللّه عزّ و جلّ عليهم، و قيل: هم أصحاب النعم

على الناس و الإحسان

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۲

إليهم، لأنهم قد أحسنوا و قدّموا خيرا، و اختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور أُولِي الْأَيْدِي بإثبات الياء فى الأيدى. و قرأ ابن مسعود و الأعمش و الحسن و عيسى الْأَيْدِ بغير ياء، فقيل معناها معنى القراءة الأولى، و إنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها، و قيل: الأيد: القوّة، و جملة: إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ تعليل لما وصفوا به. قرأ الجمهور بِخالِصَةٍ بالتنوين و عدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى الإخلاص، فيكون ذكرى منصوبا به، أو: بمعنى الخلوص، فيكون ذكرى مرفوعا به، أو يكون خالصة اسم فاعل على بابه، و ذكرى بدل منها أو بيان لها أو بإضمار أعنى أو مرفوعة بإضمار مبتدأ، و الدار يجوز أن تكون مفعولا به لذكرى و أن تكون ظرفا: إما على الاتساع، أو على إسقاط الخافض؛ و على كلّ تقدير؛ فخالصة: صفة لموصوف محذوف، و الباء: للسببية، أى: بسبب خصلة خالصة. و قرأ نافع، و شيبة، و أبو جعفر، و هشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى ذكرى على أن الإضافة للبيان، لأن الخالصة تكون ذكرى و غير ذكرى، أو على أن خالصة: مصدر مضاف إلى مفعول، و الفاعل: محذوف. أى: بأن أخلصوا ذكرى الدار، أو مصدر بمعنى الخلوص مضافا إلى فاعله. قال مجاهد: معنى الآية استصفيناهم بذكر الآخرة فأخلصناهم بذكرها. و قال قتادة: كانوا يدعون إلى الآخرة و إلى اللّه. و قال السدّى: أخلصوا بخوف الآخرة. قال الواحدى: فمن قرأ بالتنوين فى خالصة؛ كان المعنى جعلناهم لنا خالصين؛ بأن خلصت لهم ذكرى الدار، و الخالصة: مصدر بمعنى الخلوص، و الذكرى بمعنى التذكر، أى: خلص لهم تذكر الدار، و هو أنهم يذكرون التأهب لها، و يزهدون فى الدنيا، و ذلك من شأن الأنبياء. و أما من أضاف فالمعنى: أخلصنا لهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار، و الخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل، و الذكرى على هذا المعنى الذكر وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ الاصطفاء: الاختيار، و الأخيار، جمع خيّر بالتشديد، و التخفيف؛ كأموات فى جمع ميت مشدّدا و مخففا؛ و المعنى: إنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ قيل: وجه إفراده بالذكر بعد ذكر أبيه، و أخيه، و ابن أخيه؛ للإشعار بأنه عريق فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير هنا وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ و قد تقدّم ذكر اليسع، و الكلام فيه فى الأنعام، و تقدّم ذكر ذا الكفل و الكلام فيه فى سورة الأنبياء، و المراد من ذكر هؤلاء أنهم من جملة من صبر من الأنبياء و تحملوا الشدائد فى دين اللّه. أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بأن يذكرهم ليسلك مسلكهم فى الصبر وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ يعنى: الذين اختارهم اللّه لنبوّته، و اصطفاهم من خلقه هذا ذِكْرٌ الإشارة إلى ما تقدّم من ذكر أوصافهم، أى: هذا ذكر جميل فى الدنيا و شرف يذكرون به أبدا وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ أى: لهم مع الذكر الجميل حسن مآب فى الآخرة، و المآب: المرجع، و المعنى: أنهم يرجعون فى الآخرة إلى مغفرة اللّه، و رضوانه، و نعيم جنته. ثم بين حسن المرجع فقال: جَنَّاتِ عَدْنٍ قرأ الجمهور جَنَّاتِ بالنصب بدلا من حسن مآب، سواء كان جنات عدن معرفة أو نكرة لأن المعرفة تبدل من النكرة و بالعكس، و يجوز أن يكون جنات عطف بيان إن كانت نكرة، و لا يجوز ذلك فيها إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة و قد جوزه بعضهم. و يجوز أن يكون نصب جنات بإضمار فعل. و العدن فى الأصل: الإقامة،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۳

يقال عدن بالمكان: إذا أقام فيه، و قيل: هو اسم لقصر فى الجنة، و قرئ برفع جنات على أنها مبتدأ. و خبرها مفتحة، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هى جنات عدن، و قوله: مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ حال من جنات، و العامل فيها ما فى المتقين من معنى الفعل، و الأبواب: مرتفعة باسم المفعول، كقوله: وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها و الرّابط بين الحال و صاحبها ضمير مقدر، أى: منها، أو الألف و اللام لقيامه مقام الضمير، إذ الأصل أبوابها. و قيل: إن ارتفاع الأبواب على البدل من الضمير فى مفتحة العائد على جنات، و به قال أبو علىّ الفارسى، أى: مفتحة هى الأبواب. قال الفراء: المعنى مفتحة أبوابها، و العرب تجعل الألف و اللام خلفا من الإضافة.

و قال الزجاج: المعنى مفتحة لهم الأبواب منها. قال الحسن: إن الأبواب يقال لها: انفتحى فتنفتح، انغلقى فتنغلق، و قيل: تفتح لهم الملائكة الأبواب، و انتصاب مُتَّكِئِينَ فِيها على الحال من ضمير لهم، و العامل فيه مفتحة، و قيل: هو حال من يَدْعُونَ قدّمت على العامل فِيها أى يدعون فى الجنات حال كونهم متكئين فيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ أى: بألوان متنوّعة متكثرة من الفواكه وَ شَرابٍ كثير، فحذف كثيرا لدلالة الأوّل عليه، و على جعل مُتَّكِئِينَ حالا من ضمير لهم، و العامل فيه مفتحة، فتكون جملة يَدْعُونَ مستأنفة لبيان حالهم. و قيل إن يدعون فى محل نصب على الحال من ضمير متكئين وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ أى: قاصرات طرفهنّ على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، و قد مضى بيانه فى سورة الصافات. و الأتراب: المتحدات فى السنّ، أو المتساويات فى الحسن. و قال مجاهد: معنى أتراب أنهنّ متواخيات لا يتباغضن و لا يتغايرن. و قيل: أترابا للأزواج. و الأتراب: جمع ترب، و اشتقاقه من التراب لأنه يمسهنّ فى وقت واحد لاتحاد مولدهنّ هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ أى: هذا الجزاء الذى وعدتم به لأجل يوم الحساب، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء، أو المعنى: فى يوم الحساب.

قرأ الجمهور ما تُوعَدُونَ بالفوقية على الخطاب. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو، و ابن محيصن، و يعقوب بالتحتية على الخبر، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم لقوله: وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ فإنه خبر. إِنَّ هذا لَرِزْقُنا أى: إن هذا المذكور من النعم و الكرامات لرزقنا الذى أنعمنا به عليكم ما لَهُ مِنْ نَفادٍ أى انقطاع و لا يفنى أبدا، و مثله قوله: عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ «١» فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها.

و قد أخرج أحمد فى الزهد، و ابن أبى حاتم، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: إن الشيطان عرج إلى السماء، فقال: يا رب سلطنى على أيوب، قال اللّه: لقد سلطتك على ماله و ولده و لم أسلطك على جسده، فنزل فجمع جنوده، فقال لهم: قد سلطت على أيوب فأرونى سلطانكم، فصاروا نيرانا ثم صاروا ماء، فبيناهم فى المشرق إذا هم بالمغرب، و بينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق. فأرسل طائفة منهم إلى زرعه، و طائفة إلى أهله، و طائفة إلى بقره، و طائفة إلى غنمه و قال: إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف، فأتوه بالمصائب بعضها على بعض، فجاء صاحب الزرع فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على زرعك نارا فأحرقته؟ ثم جاء صاحب الإبل، فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى إبلك عدوا فذهب بها، ثم جاء صاحب البقر فقال:

---

(١). هود: ١٠٨.

يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى بقرك عدوا فذهب بها؟ ثم جاءه صاحب الغنم فقال: يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على غنمك عدوا فذهب بها؟ و تفرد هو لبنيه فجمعهم فى بيت أكبرهم، فبينما هم يأكلون و يشربون إذ هبت ريح فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام بأذنيه قرطان فقال:

يا أيوب ألم تر إلى ربك جمع بنيك فى بيت أكبرهم فبينما هم يأكلون و يشربون إذ هبت ريح أخذت بأركان البيت فألقته عليهم، فلو رأيتهم حين اختلطت دماءهم و لحومهم بطعامهم و شرابهم؟ فقال له أيوب: فأين كنت؟ قال: كنت معهم، قال: فكيف انفلتّ؟ قال انفلت، قال أيوب أنت الشيطان؛ ثم قال أيوب أنا اليوم كيوم ولدتنى أمى، فقام فحلق رأسه و قام يصلى، فرنّ إبليس رنة سمعها أهل السماء و أهل الأرض، ثم عرج إلى السماء فقال: أى رب إنه قد اعتصم فسلطنى عليه فإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك، قال: قد سلطتك على جسده و لم أسلطك على قلبه، فنزل فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدمه إلى قرنه، فصار قرحة واحدة و ألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه، فكانت امرأته تسعى عليه، حتى قالت له: ألا ترى يا أيوب قد نزل و اللّه بى من الجهد و الفاقة ما إن بعت قرونى برغيف فأطعمتك فادع اللّه أن يشفيك و يريحك قال: ويحك كنا فى النعم سبعين عاما فاصبرى حتى نكون فى الضراء سبعين عاما، فكان فى البلاء سبع سنين و دعا فجاء جبريل يوما فدعا بيده، ثم قال قم، فقام فنحاه

عن مكانه و قال: اركض برجلك هـذا مغتسل بارد و شـراب فركض برجله فنبعت عين، فقال اغتسل، فاغتسل منها، ثم جاء أيضـا فقال: اركض برجلك فنبعت عين أخرى فقال له اشـرب منها، و هو قوله: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هـذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَـرابٌ و ألبسه اللّه حلـة من الجنـة، فتنحى أيوب فجلس فى ناحيـة و جاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبـد اللّه أين المبتلى الـذى كان هاهنا؟ لعل الكلاب قـد ذهبت به أو الـذئاب و جعلت تكلمه ساعـة، فقال: ويحك أنا أيوب قـد ردّ اللّه علىّ جسـدى. ورد عليه ماله و ولـده عيانا و مثلهم معهم، و أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يأخـذ الجراد بيده ثم يجعله فى ثوبه و ينشـر كساءه و يأخذه فيجعل فيه، فأوحى اللّه إليه يا أيوب أما شبعت؟ قال:

يا رب من ذا الذى يشبع من فضلك و رحمتك.

و فى هذا نكارة شديدة، فإن اللّه سـبحانه لا يمكن الشـيطان من نبى من أنبيائه و يسـلط عليه هذا التسـليط العظيم. و أخرج أحمد فى الزهـد، و عبـد بن حميـد، و ابن أبى حاتم، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: إن إبليس قعـد على الطريق و أخذ تابوتا يداوى الناس، فقالت امرأة أيوب: يا عبـد اللّه إن هاهنا مبتلى من أمره كـذا و كـذا فهل لك أن تداويه قال: نعم بشـرط إن أنا شـفيته أن يقول أنت شـفيتنى لا أريد منه أجرا غيره. فأتت أيوب فذكرت له ذلك، فقال: ويحك ذاك الشيطان، للّه على إن شفانى اللّه أن أجلدك مائة جلدة، فلما شـفاه اللّه أمره أن يأخذ ضـغثا فيضربها به، فأخذ عذقا فيه شمراخ فضربها ضربة واحدة. و أخرج عبد بن حميـد، و ابن جرير، و ابن المنـذر عنه فى قوله: وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً قال: هو الأسل. و أخرج ابن المنـذر عنه أيضا قال: الضـغث القبضة من المرعى الرطب. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الضغث: الحزمة.

و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و الطبرانى، و ابن عساكر من طريق أبى أمامة ابن سهل بن حنيف

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۵

قال: «حملت وليدة فى بنى ساعدة من زنا، فقيل لها ممن حملك؟ قالت من فلان المقعد، فسئل المقعد فقال صدقت، فرفع ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: خذوا عثكولا فيه مائة شـمراخ فاضـربوه به ضـربة واحدة». و أخرج أحمد، و عبد بن حميـد، و ابن جرير، و الطبرانى، و ابن عسـاكر نحوه من طريق أخرى عن أبى أمامـة ابن سـهل بن حنيف عن سـعيد بن سـعد بن عبادة. و أخرج الطبرانى عن سهل بن سعد نحوه.

و أخرج ابن عساكر عن ابن مسـعود قال: أيوب رأس الصابرين يوم القيامـة و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عبـاس فى قوله: أُولِي الْأَيْدِي قـال: القوّة فى العبادة وَ الْأَبْصارِ قال: الفقه فى الـدين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أُولِي الْأَيْدِي قال: النعمة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ قال: أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعملوا لها.

[سورة ص (۳۸): الآيات ۵۵ الى ۷۰]

هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (۵۶) هـذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (۵۸) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (۵۹)

قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (۶۰) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (۶۱) وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (۶۲) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (۶۳) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (۶۴)

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۶۵) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ

(۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) ما كانَ لِی مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹)
إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰)

قوله: هـذا قال الزجاج: هذا خبر مبتدأ محذوف، أی: الأمر هذا فيوقف على هذا. قال ابن الأنباری: و هذا وقف حسن ثم يبتدئ وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ و يجوز أن يكون هذا مبتدأ و خبره محذوف، أی:

هـذا كما ذكر، أو هـذا ذكر. ثم ذكر سبحانه ما لأهل الشرّ بعد أن ذكر ما لأهل الخير فقال: وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ أی: الذين طغوا على اللّه و كذبوا رسله لَشَرَّ مَآبٍ لشر منقلب ينقلبون إليه، ثم بين ذلك فقال: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها و انتصاب جهنم على أنها بدل من شرّ مآب، أو منصوبة بأعنی، و يجوز أن يكون عطف بيان على قول البعض كما سلف قريبا، و يجوز أن يكون منصوبا على الاشتغال، أی: يصلون جهنم يصلونها، و معنى يصلونها: يدخلونها، و هو فی محل نصب على الحالية فَبِئْسَ الْمِهادُ أی: بئس ما مهدوا لأنفسهم، و هو الفراش، مأخوذ من مهد الصبی، و يجوز أن يكون المراد بالمهد: الموضع، و المخصوص بالذمّ محذوف، أی: بئس المهاد هی كما فی قوله: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ «۱» شبه اللّه سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ هذا: فی موضع رفع بالابتداء، و خبره:

حميم و غساق على التقديم و التأخير، أی: هذا حميم و غساق فليذوقوه. قال الفراء و الزجاج: تقدير الآية:

هذا حميم و غساق فليذوقوه، أو يقال لهم فی ذلك اليوم هذه المقالة. و الحميم: الماء الحارّ الذی قد انتهى حرّه،

---

(۱). الأعراف: ۴۱.

و الغساق: ما سال من جلود أهل النار من القيح و الصديد، من قولهم غسقت عينه إذا انصبّت، و الغسقان الانصباب. قال النحاس: و يجوز أن يكون المعنى الأمر هـذا، و ارتفاع حميم و غساق على أنهما خبران لمبتـدأ محذوف، أی: هو حميم و غساق، و يجوز أن يكون هذا فی موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده، أی:

ليـذوقوا هـذا فليـذوقوه، و يجوز أن يكون حميم مرتفع على الابتـداء و خبره مقـدّر قبله، أی: منه حميم، و منه غساق، و مثله قول الشاعر:

حتى ما إذا أضاء البرق فی غلسو غودر البقل ملویّ و مخضود

أی: منه ملویّ، و منه مخضود، و قيل: الغساق ما قتل ببرده، و منه قيل للّيل: غاسق، لأنه أبرد من النهار، و قيل: هو الزمهرير، و قيل: الغساق المنتن، و قيل: الغساق عين فی جهنم يسيل منه كلّ ذوب حية و عقرب. و قال قتادة: هو ما يسيل من فروج النساء الزوانی، و من نتن لحوم الكفرة، و جلودهم. و قـال محمّـد بن كعب: هو عصارة أهل النار، و قال السـدی: الغساق الـذی يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم، و كـذا قال ابن زيـد. و قال مجاهـد و مقاتل: هو الثلج البارد الذی قد انتهى برده، و تفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب، و منه قول الشاعر:

إذا ما تذكرت الحياة و طيبهاإلیّ جرى دمع من الليل غاسق

أی: بـارد، و أنسب أيضـا بمقابلـة الحميم. و قرأ أهل المدينـة، و أهل البصـرة، و بعض الكوفيين بتخفيف السين من غَسَّاقٌ و قرأ يحيى بن وثاب، و الأعمش، و حمزة بالتشديـد، و هما لغتان بمعنى واحد كما قال الأخفش. و قيل: معناهما مختلف، فمن خفف فهو اسم مثل عذاب و جواب و صواب، و من شدّد قال:

هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضـرّاب و قتال وَ آخَرُ مِنْ شَـكْلِهِ قرأ الجمهور وَ آخَرُ مفرد مذكر، و قرأ أبو عمرو «و أخر» بضم الهمزة

على أنه جمع، و أنكر قراءة الجمهور لقوله أزواج، و أنكر عاصم الجحدرى قراءة أبى عمرو و قال: لو كانت كما قرأ لقال من شكلها، و ارتفاع آخر على أنه مبتدأ و خبره أزواج، و يجوز أن يكون من شكله خبرا مقدّما، و أزواج مبتدأ مؤخرا، و الجملة خبر آخر، و يجوز أن يكون خبرا آخر مقدرا، أى: و آخر لهم، و مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ جملة مستقلة؛ و معنى الآية على قراءة الجمهور: و عذاب آخر أو مذوق آخر، أو نوع آخر من شكل العذاب، أو المذوق، أو النوع الأوّل، و الشكل المثل، و على القراءة الثانية يكون معنى الآية: و مذوقات أخر، أو أنواع أخر من شكل ذلك المذوق أو النوع المتقدّم. و إفراد الضمير فى شكله على تأويل المذكور، أى: من شكل المذكور، و معنى أَزْواجٌ أجناس، و أنواع، و أشباه.

و حاصل معنى الآية: أن لأهل النار حميما، و غساقا، و أنواعا من العذاب من مثل الحميم، و الغساق. قال الواحدى: قال المفسرون: هو الزمهرير، و لا يتمّ هذا الذى حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة و أجناس متفاوتة ليطابق معنى أزواج، أو على تقدير أن لكلّ فرد من أهل النار زمهريرا هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ الفوج: الجماعة، و الاقتحام: الدخول، و هذا حكاية لقول الملائكة الذين هم خزنة

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۰۷

النار، و ذلك أن القادة، و الرؤساء إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع؛ قالت الخزنة للقادة: هذا فوج، يعنون: الأتباع، مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ أى داخل معكم إلى النار، و قوله: لا مَرْحَباً بِهِمْ من قول القادة و الرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا لا مرحبا بهم، أى: لا اتسعت منازلهم فى النار، و الرحب:

السعة، و المعنى: لا كرامة لهم، و هذا إخبار من اللّه سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار، و أن المودّة التى كانت بينهم تصير عداوة. و جملة لا مرحبا بهم: دعائية لا محل لها من الإعراب، أو صفة للفوج، أو حال منه أو بتقدير القول: أى: مقولا فى حقهم لا مرحبا بهم، و قيل: إنها من تمام قول الخزنة. و الأوّل أولى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتى، و جملة: إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ تعليل من جهة القائلين لا مرحبا بهم، أى: إنهم صالوا النار كما صليناها و مستحقون لها كما استحقيناها. و جملة (قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم) مستأنفة جواب سؤال مقدّر، أى: قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم بل أنتم لا مرحبا بكم، أى: لا كرامة لكم، ثم عللوا ذلك بقولهم: أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا أى: أنتم قدّمتم العذاب أو الصّلى لنا و أوقعتمونا فيه، و دعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحقّ ما أنتم عليه، و أن الأنبياء غير صادقين فيما جاءوا به فَبِئْسَ الْقَرارُ أى: بئس المقرّ جهنم لنا و لكم. ثم حكى عن الأتباع أيضا أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر، و هو قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ أى: زده عذابا ذا ضعف، و الضعف بأن يزيد عليه مثله، و معنى من قدّم لنا هذا: من دعانا إليه، و سوّغه لنا. قال الفراء: المعنى من سوّغ لنا هذا و سنه، و قيل معناه:

قدّم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر فزده عذابا ضعفا فى النار، أى: عذابا بكفره، و عذابا بدعائه إيانا، فصار ذلك ضعفا، و مثله قوله سبحانه: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ «۱» و قوله: رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ «۲» و قيل: المراد بالضعف هنا الحيات و العقارب وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ قيل: هو من قول الرؤساء، و قيل: من قول الطاغين المذكورين سابقا. قال الكلبى:

ينظرون فى النار فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها، فعند ذلك قالوا: ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدّهم من الأشرار. و قيل: يعنون فقراء المؤمنين كعمار، و خباب، و صهيب، و بلال، و سالم، و سلمان. و قيل: أرادوا أصحاب محمد على العموم أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ قال مجاهد: المعنى أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا، أم زاغت عنهم الأبصار فلم نعلم مكانهم؟ و الإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى كلّ واحد من الأمرين. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا: اتخذوهم

سخريا، و زاغت عنهم أبصارهم. قال الفراء: و الاستفهام هنا بمعنى التوبيخ و التعجب. قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائی، و ابن كثير، و الأعمش بحذف همزة اتخذناهم فی الوصل، و هذه القراءة تحتمل أن يكون الكلام خبرا محضا، و تكون الجملة فی محل نصب صفة ثانية لرجالا، و أن يكون المراد الاستفهام، و حذفت أداته لدلالة أم عليها؛ فتكون أم على الوجه الأوّل منقطعة بمعنى بل و الهمزة، أی: بل أزاغت عنهم الأبصار على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار، ثم الإضراب و الانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء و التحقير، و على الثانی أم هی المتصلة.

---

(١). الأعراف: ٣٨.

(٢). الأحزاب: ۶٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵٠٨

و قرأ الباقون بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل، و لا محل للجملة حينئذ، و فيه التوبيخ لأنفسهم على الأمرين جميعا لأن أم على هذه القراءة هی للتسوية. و قرأ أبو جعفر، و نافع، و شيبة، و المفضل، و هبيرة، و يحيى بن وثاب، و الأعمش، و حمزة، و الكسائی «سخريا» بضم السين، و قرأ الباقون بكسرها. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، و من ضم جعله من التسخير و الإشارة بقوله: إِنَّ ذلِكَ إلى ما تقدّم من حكاية حالهم، و خبر إنّ قوله: لَحَقٌّ أی: لواقع ثابت فی الدار الآخرة لا يتخلف ألبتة، و تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ: خبر مبتدأ محذوف، و الجملة بيان لذلک، و قيل: بيان لحقّ، و قيل: بدل منه، و قيل: بدل من محل ذلک، و يجوز أن يكون خبرا بعد خبر، و هذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم. و المعنى:

إن ذلک الذی حكاه اللّه عنهم لحقّ لا بدّ أن يتكلموا به، و هو تخاصم أهل النار فيها، و ما قالته الرؤساء للأتباع، و ما قالته الأتباع لهم. و قرأ ابن أبی عبلة بنصب تَخاصُمُ على أنه بدل من ذلک أو بإضمار أعنی. و قرأ ابن السميقع «تخاصم» بصيغة الفعل الماضی، فتكون جملة مستأنفة. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول قولا جامعا بين التخويف و الإرشاد إلى التوحيد فقال: قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ أی: مخوّف لكم من عقاب اللّه و عذابه وَ ما مِنْ إِلهٍ يستحق العبادة إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الذی لا شريک له الْقَهَّارُ لكل شیء سواه رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا من المخلوقات الْعَزِيزُ الذی لا يغالبه مغالب الْغَفَّارُ لمن أطاعه، و قيل معنى الْعَزِيزُ: المنيع الذی لا مثل له، و معنى الْغَفَّارُ الستار لذنوب خلقه. ثم أمره سبحانه أن يبالغ فی إنذارهم، و يبين لهم عظم الأمر، و جلالته فقال: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أی: ما أنذرتكم به من العقاب، و ما بينته لكم من التوحيد: هو خبر عظيم، و نبأ جليل، من شأنه العناية به، و التعظيم له، و عدم الاستخفاف به، و مثل هذه الآية قوله: عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ «١».

و قال مجاهد، و قتادة، و مقاتل: هو القرآن، فإنه نبأ عظيم لأنه كلام اللّه. قال الزجاج: قل النبأ الذی أنبأتكم به عن اللّه نبأ عظيم: يعنی ما أنبأهم به من قصص الأولين، و ذلک دليل على صدقه، و نبوّته؛ لأنه لم يعلم ذلک إلا بوحی من اللّه، و جملة: أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ توبيخ لهم، و تقريع لكونهم أعرضوا عنه، و لم يتفكروا فيه فيعلموا صدقه و يستدلوا به على ما أنكروه من البعث، و قوله: ما كانَ لِی مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى استئناف مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم، و الملأ الأعلى هم الملائكة إِذْ يَخْتَصِمُونَ أی: وقت اختصامهم، فقوله: بِالْمَلَإِ الْأَعْلى متعلق بعلم على تضمينه معنى الإحاطة، و قوله: إِذْ يَخْتَصِمُونَ متعلق بمحذوف، أی: ما كان لی فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم، و الضمير فی يختصمون راجع إلى الملأ الأعلى، و الخصومة الكائنة بينهم هی فی أمر آدم كما يفيده ما سيأتی قريبا، و جملة إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ معترضة بين اختصامهم المجمل و بين تفصيله بقوله: إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ. و المعنى: ما يوحى إلیّ إلا أنما أنا نذير مبين. قال الفراء: المعنى ما يوحى إلیّ إلا أننی نذير مبين أبين لكم ما تأتون من الفرائض و السنن و ما تدعون من الحرام و المعصية. قال:

(١). النبأ: ١ و ٢.

فتح القدير، ج۴، ص: ٥٠٩

كأنك قلت ما يوحى إليّ إلا الإنـذار. قال النحاس: و يجوز أن تكون فى محل نصب بمعنى ما يوحى إليّ إلا لأنما أنا نذير مبين. قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها و ما فى حيزها فى محل رفع لقيامها مقام الفاعل، أى:

ما يوحى إليّ إلا الإنـذار، أو إلا كونى نذيرا مبينا، أو فى محل نصب، أو جرّ بعد إسقاط لام العلة، و القائم مقام الفاعل على هذا الجارّ و المجرور. و قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة لأن فى الوحى معنى القول، و هى القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية، كأنه قيل: ما يوحى إليّ إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار، و هو أن أقول لكم: إنما أنا نذير مبين. و قيل: إن الضمير فى يختصمون عائد إلى قريش؛ يعنى قول من قال منهم: الملائكة بنات اللّه، و المعنى: ما كان لى علم بالملائكة إذ تختصم فيهم قريش، و الأوّل أولى.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ غَسَّاقٌ قال: الزمهرير وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ قال: من نحوه أَزْواجٌ قال: ألوان من العذاب. و أخرج أحمد، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لو أنّ دلوا من غسّاق يهرق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا». قال الترمذى بعد إخراجه:

لا نعرفه إلّا من حديث رشدين بن سعد. قلت: و رشدين فيه مقال معروف. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، عن ابن مسعود فى قوله: فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ قال: أفاعى و حيات. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِالْمَلَإِ الْأَعْلى قال: الملائكة حين شووروا فى خلق آدم فاختصموا فيه، و قالوا: لا تجعل فى الأرض خليفة. و أخرج محمّد بن نصر فى كتاب الصلاة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ قال: هى الخصومة فى شأن آدم حيث قالوا: أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها. و أخرج عبد الرزاق، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسنه، و ابن نصر فى كتاب الصلاة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أتانى الليلة ربى فى أحسن صورة، أحسبه قال فى المنام، قال: يا محمّد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا، فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدت بردها بين ثديى أو فى نحرى، فعلمت ما فى السموات و الأرض، ثم قال لى: يا محمّد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت نعم فى الكفارات، و الكفارات: المكث فى المساجد بعد الصلوات، و المشى على الأقدام إلى الجماعات، و إبلاغ الوضوء فى المكاره» الحديث «١». و أخرج الترمذى و صححه، و محمّد بن نصر، و الطبرانى، و الحاكم، و ابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه، و قال «و إسباغ الوضوء فى السّبرات» «٢». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه.

و أخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه، و فى الباب أحاديث.

---

(١). للحديث روايات عدة ذكرها السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٢٠٢) و للحافظ ابن رجب الحنبلى رسالة فى شرح هذا الحديث سماها: «اختيار الأولى فى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» فلتراجع فإنها قيمة.

(٢). السبرات: جمع سبرة و هى شدة البرد.

فتح القدير، ج۴، ص: ٥١٠

[سورة ص (٣٨): الآيات ٧١ الى ٨٨]

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٧۴) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧۵)

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧۶) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠)

إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (٨۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨۵)

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨۶) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٨٧) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

لما ذكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالا فيما تقدّم ذكرها هنا تفصيلا، فقال: إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إذ هذه هي بدل من إِذْ يَخْتَصِمُونَ لاشتمال ما في حيز هذه على الخصومة. و قيل: هي منصوبة بإضمار اذكر و الأوّل أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الأرض. و أما إذا كانت في غير ذلك مما تقدّم ذكره فالثاني أولى إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ أي: خالق فيما سيأتي من الزمن بَشَراً: أي جسما من جنس البشر مأخوذ من مباشرته للأرض، أو من كونه بادي البشرة. و قوله:

مِنْ طِينٍ متعلق بمحذوف هو صفة لبشر أو بخالق و معنى: فَإِذا سَوَّيْتُهُ صوّرته على صورة البشر، و صارت أجزاؤه مستوية وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي أي: من الروح الذي أملكه، و لا يملكه غيري.

و قيل: هو تمثيل، و لا نفخ و لا منفوخ فيه. و المراد: جعله حيا بعد أن كان جمادا لا حياة فيه. و قد مرّ الكلام في هذا في سورة الحجر فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ هو أمر من وقع يقع، و انتصاب ساجدين على الحال، و السجود هنا: هو سجود التحية، لا سجود العبادة، و قد مضى تحقيقه في سورة البقرة فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ في الكلام حذف تدلّ عليه الفاء و التقدير: فخلقه فسوّاه و نفخ فيه من روحه، فسجد له الملائكة. و قوله:

كُلُّهُمْ يفيد أنهم سجدوا جميعا و لم يبق منهم أحد. و قوله: أَجْمَعُونَ يفيد أنهم اجتمعوا على السجود في وقت واحد: فالأوّل لقصد الإحاطة، و الثاني: لقصد الاجتماع. قال في الكشاف: فأفاد معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد، و أنهم سجدوا جميعا في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات. و قيل: إنه أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم إِلَّا إِبْلِيسَ الاستثناء متصل على تقدير أنه كان متصفا بصفات الملائكة داخلا في عدادهم فغلبوا عليه، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم أي لكن إبليس اسْتَكْبَرَ أي: أنف من السجود جهلا منه بأنه طاعة للّه، وَ كان استكباره استكبار كفر، فلذلك كانَ مِنَ الْكافِرِينَ أي: صار منهم بمخالفته لأمر اللّه و استكباره عن طاعته، أو كان من الكافرين في علم اللّه سبحانه، و قد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في سورة البقرة، و الأعراف، و بني إسرائيل، و الكهف، و طه. ثم إن اللّه سبحانه سأله عن سبب تركه للسجود الذي أمره به ف قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ أي: ما صرفك و صدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة، و أضاف

خلقه إلى نفسه تكريما له و تشريفا، مع أنه سبحانه خالق كلّ شيء كما أضاف إلى نفسه الروح، و البيت، و الناقة، و المساجد. قال مجاهد: اليد هنا بمعنى التأكيد و الصلة مجازا كقوله: وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ و قيل: أراد باليد القدرة، يقال: ما لي بهذا الأمر يد،

و ما لى به يدان، أى قدرة، و منه قول الشاعر:

تحملت من ذلفاء ما ليس لى يدو لا للجبال الراسيات يدان

و قيل: التثنية فى اليد للدلالة على أنها ليست بمعنى القوّة و القدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه، و «ما» فى قوله: لِما خَلَقْتُ هى المصدرية أو الموصولة. و قرأ الجحدرى «لما» بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى: حين، كما قال أبو علىّ الفارسى. و قرئ «بيدى» على الإفراد أَسْتَكْبَرْتَ قرأ الجمهور بهمزة الاستفهام، و هو استفهام توبيخ و تقريع و أَمْ متصلة. و قرأ ابن كثير فى رواية عنه و أهل مكة بألف وصل، و يجوز أن يكون الاستفهام مرادا فيوافق القراءة الأولى كما فى قول الشاعر:

تروح من الحىّ أم تبتكر و قول الآخر:

بسبع رمين الجمر أم بثمانيا و يحتمل أن يكون خبرا محضا من غير إرادة للاستفهام فتكون أَمْ منقطعة، و المعنى: استكبرت عن السجود الذى أمرت به بل كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ أى: المستحقين للترفع عن طاعة أمر اللّه؛ المتعالين عن ذلک، و قيل المعنى: استكبرت عن السجود الآن، أم لم تزل من القوم الذين يتكبرون عن ذلک، و جملة:

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، ادّعى اللعين لنفسه أنه خير من آدم، و فى ضمن كلامه هذا أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن، ثم علل ما ادّعاه من كونه خيرا منه بقوله: خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ و فى زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين، و ذهب عنه أن النار إنما هى بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعى الخادم و إن استغنى عنها طردت، و أيضا فالطين يستولى على النار فيطفئها، و أيضا فهى لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض، و على كلّ حال فقد شرّف آدم بشرف و كرّم بكرامة لا يوازيها شىء من شرف العناصر، و ذلک أن اللّه خلقه بيديه، و نفخ فيه من روحه، و الجواهر فى أنفسها متجانسة، و إنما تشرف بعارض من عوارضها، و جملة قالَ فَاخْرُجْ مِنْها مستأنفة كالتى قبلها:

أى: فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة، ثم علل أمره بالخروج بقوله: فَإِنَّکَ رَجِيمٌ أى: مرجوم بالكواكب مطرود من كلّ خير وَ إِنَّ عَلَيْکَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ أى: طردى لک عن الرحمة و إبعادى لک منها، و يوم الدين: يوم الجزاء، فأخبر سبحانه و تعالى أن تلک اللعنة مستمرّة له دائمة عليه ما دامت الدنيا، ثم فى الآخرة يلقى من أنواع عذاب اللّه و عقوبته و سخطه ما هو به حقيق، و ليس المراد أن اللعنة تزول عنه فى الآخرة، بل هو ملعون أبدا، و لكن لما كان له فى الآخرة ما ينسى عنده اللعنة و يذهل عند الوقوع فيه

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۲

منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه، و جملة: قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ مستأنفة كما تقدّم فيما قبلها، أى: أمهلنى و لا تعاجلنى إلى غاية هى يوم يبعثون، يعنى: آدم و ذريته قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ أى: الممهلين إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ الذى قدّره اللّه لفناء الخلائق، و هو عند النفخة الآخرة، و قيل: هو النفخة الأولى. قيل: إنما طلب إبليس الانتظار إلى يوم البعث ليتخلص من الموت، لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث، و عند مجىء البعث لا يموت، فحينئذ يتخلص من الموت. فأجيب بما يبطل مراده، و ينقض عليه مقصده، و هو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم و هو الذى يعلمه اللّه و لا يعلمه غيره، فلما سمع اللعين إنظار اللّه له إلى ذلک الوقت قالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ فأقسم بعزّة اللّه أنه يضلّ بنى آدم بتزيين الشهوات لهم، و إدخال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعا. ثم لما علم أن كيده لا ينجع إلا فى أتباعه، و أحزابه من أهل الكفر و المعاصى، استثنى من لا يقدر على إضلاله، و لا يجد السبيل إلى إغوائه فقال: إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ أى: الذين أخلصتهم لطاعتک و عصمتهم من الشيطان الرجيم و قد تقدّم تفسير هذه الآيات فى سورة الحجر و غيرها. و قد أقسم هاهنا بعزّة اللّه، و

أقسم فی موضع آخر بقوله: فَبِما أَغْوَيْتَنِي و لا تنافی بین القسمین فإن إغواءه إیاه من آثار عزّته سبحانه و جملة: قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ مستأنفة كالجمل التی قبلها. قرأ الجمهور بنصب الحق فی الموضعین علی أنه مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب، أو هما منصوبان علی الإغراء: أی الزموا الحق، أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ و قرأ ابن عباس، و مجاهد، و الأعمش، و عاصم، و حمزة برفع الأوّل، و نصب الثانی، فرفع الأوّل علی أنه مبتدأ، و خبره مقدّر، أی: فالحق منی، أو الحق أنا، أو خبره: لأملأن، أو هو خبر مبتدأ محذوف، و أما نصب الثانی: فبالفعل المذكور بعده، أی: و أنا أقول الحق، و أجاز الفراء، و أبو عبید أن یكون منصوبا بمعنی حقا لأملأن جهنم. و اعترض علیهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها.

و روی عن سیبویه، و الفراء أیضا أن المعنی فالحق أن إملاء جهنم. و روی عن ابن عباس، و مجاهد أنهما قرءا برفعهما، فرفع الأوّل علی ما تقدّم، و رفع الثانی بالابتداء، و خبره الجملة المذكورة بعده، و العائد محذوف.

و قرأ ابن السمیقع و طلحة بن مصرف بخفضهما علی تقدیر حرف القسم. قال الفراء: كما یقول اللّه عزّ و جلّ لأفعلنّ كذا، و غلطه أبو العباس ثعلب و قال: لا یجوز الخفض بحرف مضمر، و جملة لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ جواب القسم علی قراءة الجمهور، و جملة: وَ الْحَقَّ أَقُولُ معترضة بین القسم و جوابه، و معنی مِنْكَ أی: من جنسك من الشیاطین وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أی: من ذرّیة آدم فأطاعوك إذ دعوتهم إلی الضلال و الغوایة و أَجْمَعِينَ تأكید للمعطوف، و المعطوف علیه، أی: لأملأنها من الشیاطین و أتباعهم أجمعین. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن یخبرهم بأنه إنما یرید بالدعوة إلی اللّه امتثال أمره لا عرض الدنیا الزائل، فقال: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ و الضمیر فی علیه راجع إلی تبلیغ الوحی، و لم یتقدّم له ذكر، و لكنه مفهوم من السیاق. و قل: هو عائد إلی ما تقدّم من قوله: أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا و قیل: الضمیر راجع إلی القرآن، و قیل: إلی الدّعاء إلی اللّه علی العموم، فیشمل القرآن و غیره من الوحی

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۱۳

و من قول الرسول صلّی اللّه علیه و سلم. و المعنی ما أطلب منكم من جعل تعطونیه علیه وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ حتی أقول ما لا أعلم إذ أدعوكم إلی غیر ما أمرنی اللّه بالدعوة إلیه، و التكلف: التصنع إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ أی: ما هذا القرآن، أو الوحی، أو ما أدعوكم إلیه إلا ذكر من اللّه عزّ و جلّ للجنّ و الإنس. قال الأعمش:

ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعین وَ لَتَعْلَمُنَّ أیها الكفار نَبَأَهُ أی: ما أنبأ عنه، و أخبر به من الدّعاء إلی اللّه و توحیده، و الترغیب إلی الجنة، و التحذیر من النار بَعْدَ حِينٍ قال قتادة و الزجاج و الفراء: بعد الموت. و قال عكرمة و ابن زید: یوم القیامة. و قال الكلبی: من بقی علم ذلك لما ظهر أمره و علا، و من مات علمه بعد الموت. قال السدّی: و ذلك یوم بدر.

و قد أخرج ابن مردویه عن ابن عباس إِذْ يَخْتَصِمُونَ أن الخصومة هی إِذْ قالَ رَبُّكَ إلخ.

و أخرج ابن جریر، و أبو الشیخ فی العظمة، و البیهقی عن ابن عمر قال: خلق اللّه أربعا بیده: العرش، و جنة عدن، و القلم، و آدم. و أخرج ابن أبی الدنیا فی صفة الجنة، و أبو الشیخ فی العظمة، و البیهقی فی الأسماء و الصفات عن عبد اللّه بن الحارث قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «خلق اللّه ثلاثة أشیاء بیده: خلق آدم بیده، و كتب التوراة بیده، و غرس الفردوس بیده». و أخرج سعید بن منصور، و عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ قال: أنا الحق أقول الحق. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ قال: قل یا محمّد ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ما أدعوكم إلیه مِنْ أَجْرٍ عرض دنیا. و فی البخاری، و مسلم، و غیرهما عن مسروق قال: بینما رجل یحدّث فی المسجد، فقال فیما یقول: يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ قال: دخان یكون یوم القیامة یأخذ بأسماع المنافقین و أبصارهم، و یأخذ المؤمنین كهیئة الزكام، قال: قمنا حتی دخلنا علی عبد اللّه و هو فی بیته و كان متكئا فاستوی قاعدا فقال: یا أیها الناس من علم منكم علما فلیقل به، و من لم

يعلم فليقل اللّه أعلم. فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم اللّه أعلم، قال اللّه تعالى لرسوله صلّى اللّه عليه و سلم: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ و أخرج البخارى عن عمر قال: نهينا عن التكلف. و أخرج الطبرانى و الحاكم و البيهقى عن سلمان قال: نهانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن نتكلف للضيف.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۴

سورة الزّمر

اشارة

هى اثنتان و سبعون آية، و قيل خمس و سبعون، و هى مكية فى قول الحسن، و عكرمة، و جابر بن زيد.

و أخرج ابن الضريس، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الزمر بمكة.

و أخرج النحاس فى ناسخه عنه قال: نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة فى وحشيّ قاتل حمزة يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ الثلاث الآيات. و قال آخرون: إلا سبع آيات من قوله:

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ إلى آخر السبع. و أخرج النسائى عن عائشة: قالت: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصوم حتّى نقول ما يريد أن يفطر، و يفطر حتّى نقول ما يريد أن يصوم، و كان يقرأ فى كلّ ليلة بنى إسرائيل و الزمر» و أخرجه الترمذى عنها بلفظ: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لا ينام حتّى يقرأ الزّمر و بنى إسرائيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۲) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (۳) لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۴)

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۵) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۶)

قوله: تَنْزِيلُ الْكِتابِ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة، أى: هذا تنزيل. و قال أبو حيان: إن المبتدأ المقدّر لفظ هو؛ ليعود على قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ كأنه قيل: و هذا الذكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب، و قيل: ارتفاعه على أنه مبتدأ، و خبره: الجارّ و المجرور بعده، أى:

تنزيل كائن من اللّه، و إلى هذا ذهب الزجاج و الفراء. قال الفراء: و يجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل، و أجاز الفراء و الكسائى النصب على أنه مفعول به لفعل مقدّر، أى: اتبعوا أو اقرءوا تنزيل الكتاب. و قال الفراء: يجوز نصبه على الإغراء، أى: الزموا، و الكتاب: هو القرآن، و قوله: مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ على الوجه الأوّل صلة للتنزيل، أو: خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: متعلق بمحذوف على أنه

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۵۱۵

حال عمل فيه اسم الإشارة المقدّر إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ الباء سببية متعلقة بالإنزال، أى:

أنزلناه بسبب الحقّ، و يجوز أن تتعلق بمحذوف هو حال من الفاعل: أى متلبّسين بالحقّ، أو من المفعول، أى: متلبسا بالحق، و المراد كلّ ما فيه من إثبات التوحيد، و النبوّة، و المعاد، و أنواع التكاليف. قال مقاتل:

يقول لم ننزله باطلا لغير شى‏ء فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و انتصاب مخلصا على الحال من فاعل اعبد، و الإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه اللّه سبحانه، و الدين: العبادة و الطاعة، و رأسها توحيد اللّه، و أنه لا شريك له. قرأ الجمهور «الدين» بالنصب على أنه مفعول مخلصا.

و قرأ ابن أبى عبلة برفعه على أن مخلصا مسند إلى الدين على طريقة المجاز. قيل: و كان عليه أن يقرأ مخلصا بفتح اللام. و فى الآية دليل على وجوب النية، و إخلاصها عن الشوائب، لأن الإخلاص من الأمور القلبية التى لا تكون إلا بأعمال القلب، و قد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر فى الأقوال و الأفعال النية، كما فى حديث «إنّما الأعمال بالنيّات»، و حديث «و لا قول و لا عمل إلا بنيّة»، و جملة: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإخلاص، أى: إن الدين الخالص من شوائب الشرك، و غيره:

هو للّه، و ما سواه من الأديان فليس بدين اللّه الخالص الذى أمر به. قال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا اللّه وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص و أن الدين الخالص له لا لغيره بين بطلان الشرك الذى هو مخالف للإخلاص، و الموصول: عبارة عن المشركين، و محله الرفع على الابتداء، و خبره قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ و جملة: ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى فى محل نصب على الحال بتقدير القول، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ العلل، و المعنى: و الذين لم يخلصوا العبادة للّه، بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشى‏ء من الأشياء إلا ليقرّبونا إلى اللّه تقريبا، و الضمير فى نعبدهم راجع إلى الأشياء التى كانوا يعبدونها من الملائكة و عيسى و الأصنام، و هم المرادون بالأولياء و المراد بقولهم:

إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى الشفاعة، كما حكاه الواحدى عن المفسرين. قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم و خالقكم و من خلق السموات و الأرض و أنزل من السماء ماء؟ قالوا: اللّه، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا: ليقرّبونا إلى اللّه زلفى، و يشفعوا لنا عنده. قال الكلبى: جواب هذا الكلام قوله فى سورة الأحقاف: فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً، و الزلفى: اسم أقيم مقام المصدر، كأنه قال: إلا ليقرّبونا إلى اللّه تقريبا. و فى قراءة ابن مسعود، و ابن عباس، و مجاهد «قالوا ما نعبدهم» و معنى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أى: بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازى كلا بما يستحقه، و قيل: بين المخلصين للدين و بين الذين لم يخلصوا، و حذف الأول لدلالة الحال عليه، و معنى: فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فى الذى اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد و الشرك، فإن كلّ طائفة تدّعى أن الحقّ معها إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ أى: يرشد لدينه، و لا يوفق للاهتداء إلى الحقّ من هو كاذب فى زعمه أن الآلهة تقربه إلى اللّه، و كفر باتخاذها آلهة، و جعلها شركاء للّه، و الكفّار صيغة مبالغة تدلّ على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية. و قرأ الحسن، و الأعرج على صيغة المبالغة ككفار، و رويت هذه القراءة عن أنس.

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۵۱۶

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى هذا مقرّر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات اللّه لتضمنه استحالة الولد فى حقه سبحانه على الإطلاق، فلو أراد أن يتخذ ولدا لامتنع اتخاذ الولد حقيقة، و لم يتأتّ ذلك إلا بأن يصطفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ أى: يختار من جملة خلقه ما شاء أن يصطفيه، إذ لا موجود سواه إلا و هو مخلوق له، و لا يصح أن يكون المخلوق ولدا للخالق لعدم المجانسة بينهما، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبدا كما يفيده التعبير بالاصطفاء مكان الاتخاذ؛ فمعنى الآية: لو أراد أن يتخذ ولدا

لوقع منه شـيء ليس هو من اتخاذ الولد، بل إنما هو من الاصـطفاء لبعض مخلوقاته، و لهذا نزّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال: سُبْحانَهُ أي: تنزيها له عن ذلك، و جملـة: هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ مبينـة لتنزّهه بحسب الصـفات بعد تنزّهه بحسب الذات، أي: هو المستجمع لصـفات الكمال المتوحد فى ذاته فلا مماثل له القهار لكل مخلوقاته، و من كان متصفا بهذه الصفات استحال وجود الولد فى حقه، لأن الولد مماثل لوالده و لا مماثل له سبحانه، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا. ثم لما ذكر سبحانه كونه منزّها عن الولد بكونه إلها واحدا قهارا ذكر ما يدل على ذلك من صفاته فقال: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أي: لم يخلقهما باطلا لغير شـيء، و من كان هذا الخلق العظيم خلقه اسـتحال أن يكون له شريك، أو صاحبـة، أو ولـد. ثم بين كيفيـة تصـرفه فى السـموات و الأرض فقال: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ التكوير فى اللغـة: طرح الشـيء بعضه على بعض. يقـال كوّر المتـاع: إذا ألقى بعضه على بعض، و منه كوّر العمامـة؛ فمعنى تكوير الليل على النهـار تغشـيته إيـاه حتى يـذهب ضوؤه، و معنى تكوير النهار على الليل: تغشـيته إياه حتى تـذهب ظلمته، و هو معنى قوله تعالى: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً هكـذا قال قتادة و غيره. و قال الضـحاك: أى يلقى هـذا على هـذا، و هـذا على هذا، و هو مقارب للقول الأوّل.

و قيل معنى الآية: أن ما نقص من الليل دخل فى النهار، و ما نقص من النهار دخل فى الليل، و هو معنى قوله:

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ* و قيل المعنى: إن هذا يكرّ على هذا و هذا يكر على هذا كرورا متتابعا. قال الراغب: تكوير الشـيء إدارته و ضم بعضه إلى بعض ككور العمامـة اه. و الإشارة بهذا التكوير المذكور فى الآية إلى جريان الشـمس فى مطالعها، و انتقاص الليل و النهار و ازديادهما. قال الرازى: إن النور و الظلمة عسـكران عظيمان، و فى كلّ يوم يغلب هذا ذاك، و ذاك هـذا؟ ثم ذكر تسـخيره لسـلطان النهـار، و سـلطان الليل، و هما الشـمس و القمر فقال: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ أى: جعلهما منقادين لأمره بالطلوع و الغروب لمنافع العباد، ثم بين كيفية هذا التسـخير فقال: كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أى: يجرى فى فلكه إلى أن تنصـرم الـدنيا، و ذلك يوم القيامـة، و قـد تقدّم الكلام على الأجل المسـمى لجريهما مستوفى فى سورة «يس». أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ألاـ حرف تنبيه، و المعنى: تنبهوا أيهـا العبـاد، فاللّه هو الغالب الساتر لـذنوب خلقه بالمغفرة. ثم بين سـبحانه نوعا آخر من قدرته و بديع صـنعه، فقال: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ و هى: نفس آدم ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها جاء بثمّ للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم، و تراخيه عنه لأنها خلقت منه، و العطف: إما على مقدّر هو صفة لنفس. قال الفراء و الزجاج التقدير خلقكم

من نفس خلقها واحـدة ثم جعل منها زوجها. و يجوز أن يكون العطف على معنى واحدة، أى: من نفس انفردت ثم جعل إلخ، و التعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثمّ للدلالـة على أن خلق حوّاء من ضـلع آدم أدخـل فى كونه آيـة بـاهرة دالـة على كمـال القـدرة، لأـن خلق آدم هـو على عـادة اللّه المستمرة فى خلقه، و خلقهـا على الصـفة المـذكورة لم تجر به عـادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضـلع رجل غيرها، و قد تقدّم تفسـير هذه الآية مسـتوفى فى سورة الأعراف. ثم بين سـبحانه نوعا آخر من قدرته البـاهرة فقـال: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ و هو معطوف على خلقكم، و عبر بالإـنزال لما يروى أنه خلقها فى الجنـة ثم أنزلهـا، فيكون الإـنزال حقيقـة، و يحتمـل أن يكون مجازا، لأنها لم تعش إلّا بالنبات، و النبات إنّما يعيش بالماء و الماء منزل من السماء، كانت الأنعام كأنها منزلة، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب فى قوله:

إذا نزل السماء بأرض قومرعيناه و إن كانوا غضابا

و قيـل: إن أنزل بمعنى أنشـأ و جعـل، أو بمعنى: أعطى، و قيـل: جعل الخلق إنزالا، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السـماء، و الثمانيـة الأـزواج: هى مـا فى قـوله مـن الضـأن اثنيـن، و مـن المعز اثنين، و من الإبـل اثنين، و من البقر اثنين، و يعنى بالاـثنين فى

الأربعة المواضع: الذكر و الأنثى، و قد تقدّم تفسير الآية فى سورة الأنعام.

ثم بين سبحانه نوعا آخر من قدرته البديعة فقال: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ و الجملة استئنافية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة فى خلقهم، و خلقا: مصدر مؤكد للفعل المذكور، و مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ صفة له، أى: خلقا كائنا من بعد خلق. قال قتادة و السدّى: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما، ثم لحما. و قال ابن زيد: خلقكم خلقا فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم فى ظهر آدم، و قوله:

فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ متعلق بقوله: يَخْلُقُكُمْ و هذه الظلمات الثلاث هى: ظلمة البطن، و ظلمة الرّحم، و ظلمة المشيمة قاله مجاهد، و عكرمة، و قتادة، و الضحاك. و قال سعيد بن جبير: ظلمة المشيمة، و ظلمة الرّحم، و ظلمة الليل. و قال أبو عبيدة: ظلمة صلب الرجل، و ظلمة بطن المرأة، و ظلمة الرّحم، و الإشارة بقوله: ذلِكُمُ اللَّهُ إليه سبحانه باعتبار أفعاله السابقة، و الاسم الشريف: خبره رَبُّكُمْ خبر آخر لَهُ الْمُلْكُ الحقيقى فى الدنيا و الآخرة لا شركة لغيره فيه، و هو خبر ثالث، و قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خبر رابع فَأَنَّى تُصْرَفُونَ أى: فكيف تنصرفون عن عبادته و تنقلبون عنها إلى عبادة غيره.

قرأ حمزة: «إمهاتكم» بكسر الهمزة و الميم. و قرأ الكسائى بكسر الهمزة و فتح الميم. و قرأ الباقون بضم الهمزة و فتح الميم.

و قد أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشى أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنّا نعطى أموالنا التماس الذكر فهل لنا فى ذلك من أجر؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا» قال: يا رسول اللّه إنما نعطى التماس الأجر و الذكر فهل لنا أجر؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّ اللّه لا يقبل إلا ما أخلص له، ثم تلا هذه الآية أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۱۸

قال: يحمل الليل. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ قال: علقة، ثم مضغة، ثم عظاما فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ البطن، و الرحم، و المشيمة.

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷ الى ۱۲]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۷) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (۸) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (۹) قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (۱۰) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۱۱)

وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (۱۲)

لما ذكر سبحانه النعم التى أنعم بها على عباده، و بين لهم من بديع صنعه، و عجيب فعله ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ أى: غير محتاج إليكم و لا إلى إيمانكم و لا إلى عبادتكم له فإنه الغنىّ المطلق، وَ مع كون كفر الكافر لا يضرّه كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن، فهو أيضا لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ أى: لا يرضى لأحد من عباده الكفر و لا يحبه و لا يأمر به، و مثل هذه الآية قوله: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ «۱» و مثلها ما ثبت فى صحيح مسلم من قوله صلّى اللّه عليه و سلم: «يا عبادى لو أنّ أوّلكم و آخركم و إنسكم و جنّكم كانوا على قلب أفجر رجل

منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا».

و قد اختلف المفسرون فى هذه الآية هل هى على عمومها، و إن الكفر غير مرضىّ للّه سبحانه على كلّ حال كما هو الظاهر، أو هى خاصة؟ و المعنى: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، و قد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضى اللّه عنه كما سيأتى بيانه آخر البحث، و تابعه على ذلك عكرمة و السدّى و غيرهما.

ثم اختلفوا فى الآية اختلافا آخر. فقال قوم: إنه يريد كفر الكافر و لا يرضاه، و قال آخرون: إنه لا يريده و لا يرضاه، و الكلام فى تحقيق مثل هذا يطول جدا. و قد استدلّ القائلون بتخصيص هذه الآية، و المثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ* «٢» وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ* «٣» وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ* «۴» و نحو هذا مما يؤدى معناه كثير فى الكتاب العزيز. ثم لما ذكر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر، فقال: وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ أى:

يرضى لكم الشكر المدلول عليه بقوله و إن تشكروا و يثيبكم عليه، و إنما رضى لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم فى الدنيا و الآخرة كما قال سبحانه لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «۵» قرأ أبو جعفر، و أبو عمرو، و شيبة،

---

(١). إبراهيم: ٨.

(٢). الرعد: ٢٧.

(٣). يونس: ٢۵.

(۴). الإنسان: ٣٠.

(۵). إبراهيم: ٧.

و هبيرة عن عاصم بإسكان الهاء من يرضه، و أشبع الضمة على الهاء ابن ذكوان، و ابن كثير، و الكسائى، و ابن محيصن، و ورش عن نافع، و اختلس الباقون وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أى: لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى، و قد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من خير و شر، و فيه تهديد شديد إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أى: بما تضمره القلوب و تستره، فكيف بما تظهره و تبديه وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ أىّ ضر كان من مرض أو فقر أو خوف دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ أى: راجعا إليه مستغيثا به فى دفع ما نزل به تاركا لما كان يدعوه، و يستغيث به من ميت، أو حىّ، أو صنم، أو غير ذلك ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ أى: أعطاه و ملكه، يقال خوّله الشىء: أى ملكه إياه، و كان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هنالك إن يستخولوا المال يخولواو إن يسألوا يعطوا و إن ييسروا يغلوا «١»

و منه قول أبى النجم:

أعطى و لم يبخل فلم يبخّلكوم الذّرى من خول المخوّل

نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أى: نسى الضرّ الذى كان يدعو اللّه إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله، و قيل: نسى الدعاء الذى كان يتضرع به و تركه، أو نسى ربه الذى كان يدعوه و يتضرّع إليه، ثم جاوز ذلك إلى الشرك باللّه، و هو معنى قوله: وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً أى: شركاء من الأصنام أو غيرها يستغيث بها و يعبدها لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ أى: ليضل الناس عن طريق اللّه التى هى الإسلام و التوحيد.

و قال السدّى: يعنى أندادا من الرجال يعتمد عليهم فى جميع أموره. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يهدّد من

كان متصفا بتلك الصفة فقال: قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا أى: تمتعا قليلا، أو زمانا قليلا، فمتاع الدنيا قليل، ثم علل ذلك بقوله: إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ أى: مصيرك إليها عن قريب، و فيه من التهديد أمر عظيم. قال الزجاج: لفظه لفظ الأمر، و معناه التهديد و الوعيد، قرأ الجمهور لِيُضِلَّ بضم الياء، و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بفتحها. ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين و تمسكهم بغير اللّه عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين فقال: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ و هذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. و المعنى ذلك الكافر أحسن حالا و مآلا، أمن هو قائم بطاعات اللّه فى السرّاء و الضرّاء فى ساعات الليل، مستمرّ على ذلك، غير مقتصر على دعاء اللّه سبحانه عند نزول الضرر به. قرأ الحسن، و أبو عمرو، و ابن عامر، و عاصم، و الكسائى أَمَّنْ بالتشديد، و قرأ نافع، و ابن كثير، و حمزة، و يحيى ابن وثاب، و الأعمش بالتخفيف، فعلى القراءة الأولى: أم داخلة على من الموصولة و أدغمت الميم فى الميم، و أم هى المتصلة و معادلها محذوف تقديره: الكافر خير أم الذى هو قانت؟ و قيل: هى المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة، أى: بل أمن هو قانت كالكافر؟ و أما على القراءة الثانية: فقيل: الهمزة للاستفهام دخلت على من

---

(١). البيت لزهير، و معنى «إن ييسروا يغلوا»: إذا قامروا بالميسر، يأخذون سمان الإبل، فيقامرون عليها.

و الاستفهام: للتقرير و مقابله محذوف، أى: أمن هو قانت كمن كفر؟ و قال الفراء: إن الهمزة فى هذه القراءة للنداء، و من: منادى، و هى عبارة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم المأمور بقوله: قُلْ تَمَتَّعْ و التقدير: يا من هو قانت؛ قل: كيت و كيت، و قيل التقدير: يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة. و من القائلين بأن الهمزة للنداء الفرّاء، و ضعف ذلك أبو حيان، و قال: هو أجنبىّ عما قبله، و عما بعده، و قد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علىّ الفارسى، و اعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم، و الأخفش، و لا وجه لذلك فإنا إذا ثبتت الرواية بطلت الدّراية.

و قد اختلف فى تفسير القانت هنا فقيل: المطيع، و قيل: الخاشع فى صلاته، و قيل: القائم فى صلاته، و قيل: الدّاعى لربه. قال النحاس: أصل القنوت: الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو داخل فى الطاعة، و المراد بآناء الليل: ساعاته، و قيل: جوفه، و قيل: ما بين المغرب و العشاء، و انتصاب ساجِداً وَ قائِماً على الحال، أى: جامعا بين السجود و القيام، و قدّم السجود على القيام لكونه أدخل فى العبادة، و محل يَحْذَرُ الْآخِرَةَ النصب على الحال أيضا، أى: يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير و مقاتل وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ فيجمع بين الرجاء و الخوف، و ما اجتمعا فى قلب رجل إلا فاز. قيل: و فى الكلام حذف، و التقدير:

كمن لا يفعل شيئا من ذلك كما يدل عليه السياق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول لهم قولا آخر يتبين به الحقّ من الباطل فقال: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أى: الذين يعلمون أن ما وعد اللّه به من البعث و الثواب و العقاب حقّ، و الذين لا يعلمون ذلك، أو الذين يعلمون ما أنزل اللّه على رسله، و الذين لا يعلمون ذلك، أو المراد: العلماء و الجهال، و معلوم عند كلّ من له عقل أنه لا استواء بين العلم و الجهل، و لا بين العالم و الجاهل. قال الزجاج: أى كما لا يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون، كذلك لا يستوى المطيع و العاصى. و قيل المراد بالذين يعلمون: هم العاملون بعلمهم فإنهم المنتفعون به، لأنّ من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ أى: إنما يتعظ و يتدبر و يتفكر أصحاب العقول، و هم المؤمنون لا الكفار، فإنهم و إن زعموا أن لهم عقولا فهى كالعدم و هذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به بل من جهة اللّه سبحانه قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم و من لا يعلم، و بين أنه إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه، و الإيمان به. و المعنى: يا أيها

الذين صدّقوا بتوحيد اللّه اتقوا ربكم بطاعته، و اجتناب معاصيه، و إخلاص الإيمان له، و نفى الشركاء عنه، و المراد قل لهم قولى هذا بعينه. ثم لما أمر اللّه سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما فى هذه التقوى من الفوائد فقال لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ أى: للذين عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة و هى الجنة، و قوله: فِي هذِهِ الدُّنْيا متعلق بأحسنوا، و قيل: هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها، فيكون المعنى: للذين أحسنوا فى العمل حسنة فى الدنيا بالصحة و العافية و الظفر و الغنيمة، و الأوّل أولى. ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات و الإحسان فى وطنه أرشد اللّه سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة فقال: وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۱

أى فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة اللّه. و العمل بما أمر به. و الترك لما نهى عنه، و مثل ذلك قوله سبحانه:

أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها «۱» و قد مضى الكلام فى الهجرة مستوفى فى سورة النساء، و قيل المراد بأرض هنا: أرض الجنة، رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها كما فى قوله: جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ «۲» و الأوّل أولى. ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا، و كان لا بدّ فى ذلك من الصبر على فعل الطاعة و على كفّ النفس عن الشهوات، أشار إلى فضيلة الصبر و عظيم مقداره فقال: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ أى: يوفيهم اللّه أجرهم فى مقابلة صبرهم بغير حساب، أى: بما لا يقدر على حصره حاصر، و لا يستطيع حسبانه حاسب. قال عطاء: بما لا يهتدى إليه عقل و لا وصف. و قال مقاتل: أجرهم الجنة، و أرزاقهم فيها بغير حساب. و الحاصل أن الآية تدلّ على أن ثواب الصابرين و أجرهم لا نهاية له، لأن كلّ شىء يدخل تحت الحساب فهو متناه، و ما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه، و هذه فضيلة عظيمة و مثوبة جليلة تقتضى أن على كلّ راغب فى ثواب اللّه، و طامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر و يزم نفسه بزمامه و يقيدها بقيده، فإن الجزع لا يردّ قضاء قد نزل، و لا يجلب خيرا قد سلب، و لا يدفع مكروها قد وقع، و إذا تصوّر العاقل هذا حقّ تصوره و تعقله حقّ تعقله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، و ظفر بهذا الجزاء الخطير، و غير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى، و مع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره و لا يبلغ مداه، فضمّ إلى مصيبته مصيبة أخرى و لم يظفر بغير الجزع، و ما أحسن قول من قال:

أرى الصبر محمودا و عنه مذاهبفكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

هناك يحقّ الصبر و الصبر واجبو ما كان منه للضرورة أوجب

ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يخبرهم بما أمر به من التوحيد و الإخلاص فقال: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أى: أعبده عبادة خالصة من الشرك و الرّياء و غير ذلك. قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: ما يحملك على الذى أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك و سادات قومك يعبدون اللات و العزّى فتأخذ بها؟ فأنزل اللّه الآية، و قد تقدّم بيان معنى الآية فى أوّل هذه السورة وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أى: من هذه الأمة، و كذلك كان صلّى اللّه عليه و سلم فإنه أوّل من خالف دين آبائه و دعا إلى التوحيد، و اللام للتعليل: أى و أمرت بما أمرت به لأجل أن أكون، و قيل: إنها مزيدة للتأكيد، و الأوّل أولى.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله:

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ يعنى: الكفار الذين لم يرد اللّه أن يطهر قلوبهم فيقولون لا إله إلا اللّه، ثم قال: وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ و هم عباده المخلصون الذين قال: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ* فألزمهم شهادة أن لا إله إلا اللّه و حببها إليهم. و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ قال: لا يرضى لعباده المسلمين الكفر. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة

قال: و اللّه ما رضى

---

(۱). النساء: ۹۷.

(۲). آل عمران: ۱۳۳.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۲۲

اللّه لعبد ضلالة، و لا أمره بها، و لا دعا إليها، و لكن رضى لكم طاعته، و أمركم بها، و نهاكم عن معصيته.

و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن عساكر عن ابن عمر أنه تلا هذه الآية أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ قال: ذاك عثمان بن عفان، و فى لفظ:

نزلت فى عثمان بن عفان. و أخرج ابن سعد فى طبقاته، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله:

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ الآية قال: نزلت فى عمار بن ياسر. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

يَحْذَرُ الْآخِرَةَ يقول: يحذر عذاب الآخرة. و أخرج الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة عن أنس قال:

دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على رجل و هو فى الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو اللّه و أخاف ذنوبى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللّه الذى يرجو و أمّنه الذى يخاف» أخرجوه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس. قال الترمذى:

غريب، و قد رواه بعضهم عن ثابت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم مرسلا.

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱۳ الى ۲۰]

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (۱۴) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (۱۶) وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (۱۷)

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱۸) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (۱۹) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (۲۰)

قوله: قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي أى: بترك إخلاص العبادة له، و توحيده، و الدعاء إلى ترك الشرك و تضليل أهله عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و هو يوم القيامة. قال أكثر المفسرين: المعنى إنى أخاف إن عصيت ربى بإجابة المشركين إلى ما دعونى إليه من عبادة غير اللّه. قال أبو حمزة اليمانى، و ابن المسيب: هذه الآية منسوخة بقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «۱» و فى هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب، لأن قبله إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ فالمراد: عصيان هذا الأمر قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ التقديم مشعر بالاختصاص، أى: لا أعبد غيره لا استقلالا، و لا على جهة الشركة، و معنى مُخْلِصاً لَهُ دِينِي أنه خالص للّه غير مشوب بشرك و لا رياء و لا غيرهما، و قد تقدّم تحقيقه فى أول السورة. قال الرازى: فإن قيل ما معنى التكرير فى قوله: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ و قوله: قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي قلنا: ليس هذا بتكرير، لأن الأوّل: إخبار بأنه مأمور من جهة اللّه بالإيمان و العبادة، و الثانى: إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحدا غير اللّه فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ هذا الأمر للتهديد و التقريع

(۱). الفتح: ۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۳

و التوبيخ كقوله: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ «۱» و قيل إن الأمر على حقيقته، و هو منسوخ بآية السيف، و الأوّل أولى قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: إن الكاملين فى الخسران هم هؤلاء، لأن من دخل النار فقد خسر نفسه و أهله. قال الزجاج: و هذا يعنى به الكفار، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد فى النار، و خسروا أهليهم، لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل فى الجنة، و جملة: أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ مستأنفة لتأكيد ما قبلها، و تصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذى حلّ بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية، و كذلك تعريف الخسران و وصفه بكونه مبينا، فإنه يدلّ على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران، و أنه لا خسران يساويه، و لا عقوبة تدانيه. ثم بين سبحانه هذا الخسران الذى حلّ بهم و البلاء النازل عليهم بقوله: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ الظلل عبارة عن أطباق النار، أى: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ أى: أطباق من النار، و سمى ما تحتهم ظللا لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار، لأن طبقات النار صار فى كلّ طبقة منها طائفة من طوائف الكفار، و مثل هذه الآية قوله: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ «۲» و قوله: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ «۳» و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره من وصف عذابهم فى النار، و هو: مبتدأ، و خبره: قوله: يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ أى: يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب ليخافوه فيتقوه، و هو معنى يا عِبادِ فَاتَّقُونِ أى: اتقوا هذه المعاصى الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار، و وجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب فى القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم، و قيل: هو للكفار و أهل المعاصى، و قيل: هو عامّ للمسلمين و الكفار وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها الموصول: مبتدأ، و خبره:

قوله: لَهُمُ الْبُشْرى و الطاغوت بناء مبالغة فى المصدر كالرحموت و العظموت، و هو الأوثان و الشيطان.

و قال مجاهد و ابن زيد: هو الشيطان. و قال الضحاك و السدّى: هو الأوثان. و قيل: إنه الكاهن، و قيل:

هو اسم أعجمى مثل طالوت، و جالوت، و قيل: إنه اسم عربىّ مشتق من الطغيان. قال الأخفش: الطاغوت جمع، و يجوز أن يكون واحده مؤنثا، و معنى اجتنبوا الطاغوت: أعرضوا عن عبادته و خصوا عبادتهم باللّه عزّ و جلّ، و قوله: أَنْ يَعْبُدُوها فى محل نصب على البدل من الطاغوت بدل اشتمال، كأنه قال: اجتنبوا عبادة الطاغوت، و قد تقدّم الكلام على تفسير الطاغوت مستوفى فى سورة البقرة، و قوله: وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ معطوف على اجتنبوا، و المعنى: رجعوا إليه و أقبلوا على عبادته معرضين عما سواه لَهُمُ الْبُشْرى بالثواب الجزيل و هو الجنة، و هذه البشرى إما على ألسنة الرسل، أو عند حضور الموت أو عند البعث فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ المراد بالعباد هنا العموم، فيدخل الموصوفون بالاجتناب و الإنابة إليه دخولا أوّليا، و المعنى: يستمعون القول الحقّ من كتاب اللّه و سنة رسوله فيتبعون أحسنه أى محكمه، و يعملون به. قال السدّى: يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه، و قيل: هو الرجل يسمع الحسن، و القبيح فيتحدّث بالحسن، و ينكف عن القبيح؛ فلا يتحدّث به، و قيل: يستمعون القرآن، و غيره فيتبعون

(۱). فصلت: ۴۰.

(۲). الأعراف: ۴۱.

(۳). العنكبوت: ۵.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۲۴

القرآن، و قيل: يستمعون الرخص و العزائم، فيتبعون العزائم، و يتركون الرخص، و قيل: يأخذون بالعفو، و يتركون العقوبة. ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المذكورين فقال: أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ أى هم الذين أوصلهم اللّه إلى الحق و هم أصحاب العقول الصحيحة، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم، و لم ينتفع من عداهم بعقولهم. ثم ذكر سبحانه من سبقت له الشقاوة و حرم السعادة فقال: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ من هذه يحتمل أن تكون موصولة فى محل رفع بالابتداء، و خبرها: محذوف، أى: كمن يخاف، أو فأنت تخلصه أو تتأسف عليه، و يحتمل أن تكون شرطية، و جوابه أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ فالفاء: فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء، و أعيدت الهمزة الإنكارية لتأكيد معنى الإنكار.

و قال سيبويه إنه كرّر الاستفهام لطول الكلام. و قال الفراء: المعنى أ فأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب، و المراد بكلمة العذاب هنا هى قوله تعالى لإبليس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «۱» و قوله:

لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ «۲» و معنى الآية التسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، لأنه كان حريصا على إيمان قومه، فأعلمه اللّه أن من سبق عليه القضاء، و حقت عليه كلمة اللّه لا يقدر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمنا. قال عطاء: يريد أبا لهب و ولده، و من تخلف من عشيرة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم عن الإيمان، و فى الآية تنزيل لمن يستحقّ العذاب بمن قد صار فيه، و تنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار. و لما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظللا من فوقهم النار، و من تحتهم ظلل استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ و ذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض، و معنى مَبْنِيَّةٌ أنها مبنية بناء المنازل فى إحكام أساسها و قوّة بنائها و إن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى: من تحت تلك الغرف، و فى ذلك كمال لبهجتها و زيادة لرونقها، و انتصاب وَعْدَ اللَّهِ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة، لأن قوله: لَهُمْ غُرَفٌ فى معنى وعدهم اللّه بذلك، و جملة: لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ مقرّرة للوعد، أى: لا يخلف اللّه ما وعد به الفريقين من الخير و الشرّ.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ الآية. قال:

هم الكفار الذين خلقهم اللّه للنار زالت عنهم الدنيا و حرمت عليهم الجنة. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله:

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ قال: أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدّوا لهم لو عملوا بطاعة اللّه فغبنوهم.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: كان سعيد بن زيد، و أبو ذرّ، و سلمان يتبعون فى الجاهلية أحسن القول، و أحسن القول و الكلام: لا إله إلا اللّه، قالوا بها، فأنزل اللّه على نبيه يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ الآية. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد: قال: لما نزل: «فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مناديا فنادى: من مات لا يشرك باللّه شيئا دخل الجنة، فاستقبل عمر الرسول فردّه فقال: يا رسول اللّه خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: لو

(۱). ص: ۸۵.

(۲). الأعراف: ۱۸.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۲۵

يعلم الناس قدر رحمة ربى لا تكلوا، و لو يعلمون قدر سخط ربى و عقابه لاستصغروا أعمالهم» و هذا الحديث أصله فى الصحيح من حديث أبى هريرة.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٢١) أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٢٣) أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥)
فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)

لما ذكر سبحانه الآخرة، و وصفها بوصف يوجب الرغبة فيها، و الشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا، و وصفها بوصف يوجب الرغبة عنها، و النفرة منها، فذكر تمثيلا لها فى سرعة زوالها؛ و قرب اضمحلالها؛ مع ما فى ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة و صنعه البديع فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً أى:

من السحاب مطرا فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ أى: فأدخله و أسكنه فيها، و الينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع، و الينبوع: عين الماء و الأمكنة التى ينبع منها الماء، و المعنى أدخل الماء النازل من السماء فى الأرض و جعله فيها عيونا جارية، أو جعله فى ينابيع، أى: فى أمكنة ينبع منها الماء، فهو على الوجه الثانى منصوب بنزع الخافض. قال مقاتل: فجعله عيونا و ركايا «١» فى الأرض ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ أى: يخرج بذلك الماء من الأرض زرعا مختلفا ألوانه من أصفر و أخضر و أبيض و أحمر، أو من برّ و شعير و غيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ثُمَّ يَهِيجُ يقال هاج النبت يهيج هيجا إذا تمّ جفافه. قال الجوهرى: يقال هاج النبت هياجا: إذا يبس، و أرض هائجة يبس بقلها أو اصفرّ، و أهاجت الريح النبت أيبسته. قال المبرد: قال الأصمعى: يقال هاجت الأرض تهيج: إذا أدبر نبتها و ولى. قال: و كذلك هاج النبت فَتَراهُ مُصْفَرًّا أى: تراه بعد خضرته و نضارته و حسن رونقه مصفرّا قد ذهبت خضرته و نضارته ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً أى:

متفتتا متكسرا، من تحطم العود: إذا تفتت من اليبس إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ أى: فيما تقدّم ذكره تذكير لأهل العقول الصحيحة، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها فيتفكرون و يعتبرون و يعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع فى سرعة التصرم و قرب التقضى، و ذهاب بهجتها و زوال رونقها و نضارتها، فإذا أنتج لهم التفكر و الاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها و الميل إليها و إيثارها على دار النعيم الدائم و الحياة المستمرة و اللذة الخالصة، و لم يبق معهم شك فى أن اللّه قادر على البعث و الحشر،

---

(١). الرّكية: البئر، ج. ركايا.

لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. و قيل هو مثل ضربه اللّه للقرآن و لصدور من فى الأرض. و المعنى: أنزل من السماء قرآنا فسلكه فى قلوب المؤمنين، ثم يخرج به دينا بعضه أفضل من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيمانا و يقينا، و أما الذى فى قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع، و هذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير. قرأ الجمهور ثُمَّ يَجْعَلُهُ بالرفع عطفا على ما قبله، و قرأ أبو بشر بالنصب بإضمار أن، و لا وجه لذلك. ثم لما ذكر سبحانه أن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب، ذكر شرح الصدر للإسلام، لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به فقال: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ أى: وسعه لقبول الحقّ و فتحه للاهتداء إلى سبيل الخير.

قال السدّى: وسع صدره للإسلام للفرح به، و الطمأنينة إليه، و الكلام فى الهمزة و الفاء كما تقدم فى أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ و من: مبتدأ، و خبرها: محذوف تقديره كمن قسا قلبه و حرج صدره، و دلّ على هذا الخبر المحذوف قوله: فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ و المعنى: أ فمن وسع اللّه صدره للإسلام فقبله، و اهتدى بهديه فَهُوَ بسبب ذلك الشرح عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره، فصار فى ظلمات الضلالة، و بليات الجهالة. قال قتادة: النور كتاب اللّه به يؤخذ و إليه ينتهى. قال الزجاج:

تقدير الآية: أ فمن شرح اللّه صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ قال الفراء و الزجاج: أى عن ذكر اللّه كما تقول أتخمت عن طعام أكلته و من طعام أكلته، و المعنى: أنه غلظ قلبه و جفا عن قبول ذكر اللّه، يقال: قسا القلب إذا صلب، و قلب قاس؛ أى: صلب لا يرقّ و لا يلين، و قيل: معنى من ذكر اللّه من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور، و تطمئن به القلوب. و المعنى:

أنه إذا ذكر اللّه اشمأزوا، و الأول أولى، و يؤيده قراءة من قرأ عن ذكر اللّه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى القاسية قلوبهم، و هو مبتدأ، و خبره: فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: ظاهر واضح. ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز فقال: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ يعنى القرآن، و سماه حديثا لأنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم كان يحدّث به قومه و يخبرهم بما ينزل عليه منه. و فيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقا هو القرآن، و انتصاب كِتاباً على البدل من أحسن الحديث، و يحتمل أن يكون حالا منه مُتَشابِهاً صفة لكتابا، أى:

يشبه بعضه بعضا فى الحسن و الإحكام و صحة المعانى، و قوة المبانى، و بلوغه إلى أعلى درجات البلاغة. و قال قتادة: يشبه بعضه بعضا فى الآى و الحروف، و قيل: يشبه كتب اللّه المنزلة على أنبيائه، و مَثانِيَ صفة أخرى لكتابا: أى تثنى فيه القصص و تتكرر فيه الموعظ و الأحكام. و قيل: يثنى فى التلاوة فلا يملّ سامعه و لا يسأم قارئه. قرأ الجمهور مَثانِيَ بفتح الياء، و قرأ هشام عن ابن عامر و بشر بسكونها تخفيفا و استثقالا لتحريكها، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هو مثانى، و قال الرازى فى تبيين مثانى أن أكثر الأشياء المذكورة فى القرآن متكرّرة: زوجين زوجين مثل: الأمر و النهى، و العامّ و الخاصّ، و المجمل و المفصل، و أحوال السموات و الأرض، و الجنة و النار، و النور و الظلمة، و اللوح و القلم، و الملائكة و الشياطين، و العرش و الكرسى، و الوعد و الوعيد، و الرجاء و الخوف، و المقصود من ذلك البيان بأن كلّ ما سوى الحقّ زوج، و أن الفرد الأحد الحقّ هو اللّه، و لا يخفى ما فى كلامه هذا من التكلف و البعد عن مقصود التنزيل تَقْشَعِرُّ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۷

مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة لكتابا، و أن تكون حالا منه، لأنه و إن كان نكرة فقد تخصص بالصفة، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه، و الاقشعرار:

التقبض، يقال اقشعرّ جلده: إذا تقبض و تجمع من الخوف. و المعنى: أنها تأخذهم منه قشعريرة. قال الزجاج: إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرّت جلود الخائفين للّه ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إذا ذكرت آيات الرحمة. قال الواحدى: و هذا قول جميع المفسرين، و من ذلك قول امرئ القيس:

فبتّ أكابد ليل التّمامو القلب من خشية مقشعرّ «۱»

و قيل المعنى: أن القرآن لما كان فى غاية الجزالة و البلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرّت الجلود منه إعظاما له، و تعجبا من حسنه و بلاغته، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ عدّى تلين بإلى لتضمينه فعلا يتعدّى بها، كأنه قيل: سكنت و اطمأنت إلى ذكر اللّه لينة غير منقبضة، و مفعول ذكر اللّه محذوف، و التقدير: إلى ذكر اللّه رحمته و ثوابه و جنته، و حذف للعلم

به. قال قتادة: هذا نعت أولياء اللّه، نعتهم بأنها تقشعرّ جلودهم، و تطمئن قلوبهم إلى ذكر اللّه، و لم ينعتهم بذهاب عقولهم و الغشيان عليهم إنما ذلك فى أهل البدع و هو من الشيطان، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات، و هو مبتدأ، و هُدَى اللَّهِ خبره، أى: ذلك الكتاب هدى اللّه يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ أن يهديه من عباده، و قيل: إن الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما وهبه اللّه لهؤلاء من خشية عذابه، و رجاء ثوابه وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ أى: يجعل قلبه قاسيا مظلما غير قابل للحقّ فَما لَهُ مِنْ هادٍ يهديه إلى الحق، و يخلصه من الضلال. قرأ الجمهور مِنْ هادٍ بغير ياء. و قرأ ابن كثير، و ابن محيصن بالياء. ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا و هو الضلال، حكم عليهم فى الآخرة بحكم آخر و هو العذاب فقال: أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ و الاستفهام للإنكار، و قد تقدّم الكلام فيه، و فى هذه الفاء الداخلة على من فى قوله: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ و من: مبتدأ، و خبرها: محذوف لدلالة المقام عليه، و المعنى: أ فمن شأنه أن يقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شىء من ذلك و لا يحتاج إلى الاتقاء. قال الزجاج: المعنى أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة. قال عطاء و ابن زيد: يرمى به مكتوفا فى النار، فأوّل شىء تمس منه وجهه. و قال مجاهد: يجرّ على وجهه فى النار. قال الأخفش: المعنى أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب أفضل، أم من سعد؟ مثل قوله: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ «٢» ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار فقال: وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ و هو معطوف على يتقى، أى:

و يقال لهم، و جاء بصيغة الماضى للدلالة على التحقيق. قال عطاء: أى جزاء ما كنتم تعملون، و مثل هذه الآية قوله: هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ «٣» و قد تقدّم الكلام على معنى الذوق فى

---

(١). «ليل التّمام»: أطول ما يكون من ليالى الشتاء.

(٢). فصلت: ٤٠.

(٣). التوبة: ٣٥.

غير موضع. ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى:

من قبل الكفار المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم. و المعنى: أنهم كذبوا رسلهم فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أى: من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها، و ذلك عند أمنهم و غفلتهم عن عقوبة اللّه لهم بتكذيبهم فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ أى: الذلّ و الهوان فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بالمسخ، و الخسف، و القتل، و الأسر، و غير ذلك وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لكونه فى غاية الشدّة مع دوامه لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أى: لو كانوا ممن يعلم الأشياء، و يتفكر فيها، و يعمل بمقتضى علمه. قال المبرّد: يقال لكل ما نال الجارحة من شىء قد ذاقته، أى: وصل إليها كما تصل الحلاوة و المرارة إلى الذائق لهما. قال: و الخزى المكروه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً الآية قال:

ما فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، و لكن عروق فى الأرض تغيره، فذلك قوله: فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ فمن سرّه أن يعود الملح عذبا فليصعده. و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ قال: أبو بكر الصديق. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: تلا النبى صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ قلنا يا نبىّ اللّه كيف انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح و انفسح. قلنا: فما علامة ذلك يا رسول اللّه؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود، و التجافى عن دار الغرور، و التأهب للموت قبل نزول الموت. و أخرجه ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظى مرفوعا مرسلا. و أخرج الحكيم

الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عمر «أن رجلا قال: يا نبىّ اللّه أى المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم ذكرا للموت، و أحسنهم له استعدادا، و إذا دخل النور فى القلب انفسح و استوسع، فقالوا: ما آية ذلك يا نبىّ اللّه؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود و التجافى عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل نزول الموت».

و أخرجه عن أبى جعفر عبد اللّه بن المسور عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بنحوه، و زاد فيه. ثم قرأ أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ و أخرج الترمذى، و ابن مردويه، و ابن شاهين فى الترغيب فى الذكر، و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر اللّه قسوة للقلب، و إنّ أبعد النّاس من اللّه القلب القاسى». و أخرج ابن جرير عن ابن عباس «قال: قالوا يا رسول اللّه لو حدّثتنا، فنزل اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ الآية». و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: مَثانِيَ قال: القرآن كله مثانى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: كتاب اللّه مثانى ثنى فيه الأمر مرارا. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدّتى أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا قرءوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم اللّه تدمع أعينهم و تقشعرّ جلودهم، قلت: فإن ناسا هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت: أعوذ باللّه من الشيطان. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ قال: ينطلق به إلى النار مكتوفا ثم يرمى به فيها، فأوّل ما تمسّ وجهه النار.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۲۹

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۷ الى ۳۵]

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۳۲) وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۳۳) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (۳۴) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (۳۵)

قوله: وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ قد قدّمنا تحقيق المثل، و كيفية ضربه فى غير موضع، و معنى مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ما يحتاجون إليه، و ليس المراد ما هو أعمّ من ذلك، فهو هنا كما فى قوله: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ أى: من شىء يحتاجون إليه فى أمر دينهم، و قيل المعنى: ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ يتعظمون فيعتبرون، و انتصاب قُرْآناً عَرَبِيًّا على الحال من هذا و هى حال مؤكدة، و تسمى هذه حالا موطئة، لأن الحال فى الحقيقة هو عربيا، و قرآنا توطئة له، نحو جاءنى زيد رجلا صالحا: كذا قال الأخفش، و يجوز أن ينتصب على المدح. قال الزجاج:

عربيا منتصب على الحال، و قرآنا توكيد، و معنى غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه.

قال الضحاك: أى: غير مختلف. قال النحاس أحسن ما قيل فى معناه قول الضحاك، و قيل: غير متضادّ، و قيل: غير ذى لبس، و قيل: غير ذى لحن، و قيل: غير ذى شك كما قال الشاعر:

و قد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله و قول غير مكذوب

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ علة أخرى بعد العلة الأولى. و هى لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أى: لكى يتقوا الكفر و الكذب. ثم ذكر سبحانه مثلا من الأمثال

القرآنية للتذكير و الاتعاظ، فقال: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى:

تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها. ثم بين المثل فقال: رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ قال الكسائى: نصب رجلا لأنه تفسير للمثل، و قيل: هو منصوب بنزع الخافض، أى: ضرب اللّه مثلا برجل، و قيل: إن رجلا هو المفعول الأوّل، و مثلا: هو المفعول الثانى، و أخر المفعول الأوّل ليتصل بما هو من تمامه، و قد تقدّم تحقيق هذا فى سورة «يس»، و جملة فِيهِ شُرَكاءُ فى محل نصب صفة لرجل، و التشاكس: التخالف.

قال الفراء: أى مختلفون. و قال المبرد: أى متعاسرون من شكس يشكس شكسا فهو شكس مثل عسر يعسر عسرا فهو عسر. قال الجوهرى: التشاكس الاختلاف. قال: و يقال رجل شكس بالتسكين: أى صعب الخلق، و هذا مثل من أشرك باللّه و عبد آلهة كثيرة. ثم قال: وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ أى: خالصا له، و هذا مثل من يعبد اللّه وحده. قرأ الجمهور «سلما» بفتح السين و اللام، و قرأ سعيد بن جبير، و عكرمة، و أبو العالية بكسر السين و سكون اللام. و قرأ ابن عباس، و مجاهد، و الجحدرى، و أبو عمرو، و ابن كثير،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۰

و يعقوب «سالما» بالألف و كسر اللام اسم فاعل من سلم له فهو سالم، و اختار هذه القراءة أبو عبيد قال:

لأن السالم الخالص ضدّ المشترك، و السلم ضدّ الحرب، و لا موضع للحرب هاهنا. و أجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما: فالسلم و إن كان ضدّ الحرب فله معنى آخر بمعنى سالم، من سلم له كذا: إذا خلص له. و أيضا يلزمه فى سالم ما ألزم به، لأنه يقال شىء سالم: أى لا عاهة به، و اختار أبو حاتم القراءة الأولى. و الحاصل أن قراءة الجمهور هى على الوصف بالمصدر للمبالغة، أو على حذف مضاف، أى: ذا سلم، و مثلها قراءة سعيد بن جبير و من معه. ثم جاء سبحانه بما يدلّ على التفاوت بين الرجلين فقال:

هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا و هذا الاستفهام للإنكار و الاستبعاد، و المعنى: هل يستوى هذا الذى يخدم جماعة شركاء؛ أخلاقهم مختلفة، و نياتهم متباينة يستخدمه كل واحد منهم فيتعب و ينصب مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته، و هذا الذى يخدم واحدا لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضى عنه، و إذا عصاه عفا عنه. فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوّه باستوائهما، لأن أحدهما فى أعلى المنازل، و الآخر فى أدناها، و انتصاب مثلا على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوى مثلهما، و أفرد التمييز و لم يثنه لأن الأصل فى التمييز الإفراد لكونه مبينا للجنس و جملة الْحَمْدُ لِلَّهِ تقرير لما قبلها من نفى الاستواء، و للإيذان للموحدين بما فى توحيدهم للّه من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به. ثم أضرب سبحانه عن نفى الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكارى إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون فقال: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ و هم المشركون فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره و وضوحه. قال الواحدى و البغوى: و المراد بالأكثر الكلّ و الظاهر خلاف ما قالاه، فإن المؤمنين باللّه يعلمون ما فى التوحيد من رفعة شأنه و علوّ مكانه، و إن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه، و لا يساويه فى وصف من الأوصاف، و يعلمون أن اللّه سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة، و أن الحمد مختصّ به. ثم أخبر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بأن الموت يدركه لا محالة فقال:

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ قرأ الجمهور «ميت، و ميتون» بالتشديد و قرأ ابن محيصن، و ابن أبى عبلة، و عيسى بن عمر، و ابن أبى إسحاق، و اليمانى «مائت و مائتون» و بها قرأ عبد اللّه بن الزبير. و قد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته و موتهم مستقبلا، و لا وجه للاستحسان، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى. قال الفراء و الكسائى: الميت بالتشديد من لم يمت و سيموت، و الميت بالتخفيف من قد مات و فارقته الرّوح. قال قتادة: نعيت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم نفسه و نعيت إليهم

أنفسـهم، و وجه هذا الإخبار الإعلام للصـحابة بأنه يموت، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة و تمهيدا لما بعده حيث قال: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ أى: تخاصـمهم يا محمد و تحتجّ عليهم بأنك قد بلغتهم و أنذرتهم و هم يخاصـمونك، أو يخاصم المؤمن الكافر، و الظالم المظلوم. ثم بين سـبحانه حال كل فريق من المختصـمين فقال: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ أى: لا أحد أظلم ممن كذب على اللّه، فزعم أن له ولدا، أو شـريكا، أو صاحبة وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ و هو ما جـاء به رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم من دعـاء النـاس إلى التوحيـد، و أمرهم بالقيام بفرائض الشـرع، و نهيهم عن محرماته و إخبارهم بالبعث و النشور، و ما أعدّ اللّه للمطيع

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۱

و العاصـى. ثم اسـتفهم سـبحانه اسـتفهاما تقريريـا فقـال: أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكـافِرِينَ أى: أليس لهؤلاء المفترين المكـذّبين بالصدق، و المثوى: المقام، و هو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوى ثواء و ثويا، مثل مضى مضاء و مضيا. و حكى أبو عبيد أنه يقال أثوى و أنشد قول الأعشى:

أثوى و قصّر ليلة ليزوّداو مضى و أخلف من قتيلة موعدا

و أنكر ذلك الأصـمعى، و قال: لا نعرف أثوى. ثم ذكر سـبحانه فريق المؤمنين المصدّقين فقال: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ الموصول فى موضع رفع بالابتـداء، و هو عبـارة عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم و من تـابعه، و خبره: أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ و قيل: الذى جاء بالصدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى صدّق به أبو بكر.

و قال مجاهد: الذى جاء بالصدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى صدّق به علىّ بن أبى طالب. و قال السدّى:

الذى جاء بالصدق جبريل، و الذى صدّق به رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلم. و قال قتادة و مقاتل و ابن زيد: الذى جاء بالصدق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و الذى صدّق به المؤمنون. و قال النخعى: الذى جاء بالصدق و صدّق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامـة. و قيل: إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيـد اللّه و أرشـد إلى ما شـرعه لعباده، و اختار هذا ابن جرير و هو الذى اختاره من هذه الأقوال، و يؤيده قراءة ابن مسـعود «و الذين جاءوا بالصّدق و صدّقوا به». و لفظ الذى كما وقع فى قراءة الجمهور و إن كان مفردا فمعناه الجمع، لأنه يراد به الجنس كما يفيده قوله: أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ أى المتصـفون بالتقوى التى هى عنوان النجاة. و قرأ أبو صالح «و صدق به» مخففا، أى: صدق به الناس. ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدّقين فى الآخرة فقال: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى: لهم كل ما يشاءونه من رفع الدرجات و دفع المضـرّات، و تكفير السيئات، و فى هذا ترغيب عظيم، و تشويق بالغ، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدم ذكره من جزائهم، و هو مبتدأ، و خبره قوله: جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ أى: الذين أحسـنوا فى أعمالهم. و قـد ثبت فى الصـحيح عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم أن الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ثم بين سـبحانه ما هو الغايـة مما لهم عند ربهم فقال: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا فإن ذلك هو أعظم مـا يرجونه من دفع الضـرر عنهم لأـن اللّه سـبحانه إذا غفر لهم مـا هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقـة الأولى، و اللّام متعلقة بيشاؤون، أو بالمحسـنين، أو بمحذوف. قرأ الجمهور «أسوأ» على أنه أفعل تفضـيل. و قيل: ليست للتفضيل بل بمعنى سيئ الـذى عملوا. و قرأ ابن كثير فى روايـة عنه أسواء بألف بين الهمزة و الواو بزنة أجمال جمع سوء، وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ لما ذكر سبحانه ما يدلّ على دفع المضارّ عنهم ذكر ما يدلّ على جلب أعظم المنافع إليهم، و إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه، بل من إضافة الشـىء إلى بعضه قصدا إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل. قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، و لا يجزيهم بالمساوى.

و قـد أخرج الآـجرّى، و البيهقى عن ابن عبـاس فى قوله: غَيْرَ ذِي عِوَجٍ قـال: غير مخلوق. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه

فى قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا الآية قال: الرجل يعبد آلهة شتى،

فتح القدير، ج‏4، ص: 532

فهذا مثل ضربه اللّه لأهل الأوثان وَ رَجُلًا سَلَماً يعبد إلها واحدا ضرب لنفسه مثلا. و أخرجا عنه أيضا فى قوله: وَ رَجُلًا سَلَماً قال: ليس لأحد فيه شى‏ء. و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عمر قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا؛ و نحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا و فى أهل الكتابين من قبلنا إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ الآية، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا. و أخرج نعيم بن حماد فى الفتن و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن مردويه عنه أيضا قال: نزلت علينا الآية: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ و ما ندرى ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا هذا الذى وعدنا ربنا أن نختصم فيه. و أخرج عبد الرزاق، و أحمد، و ابن منيع، و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى البعث و النشور عن الزبير بن العوّام قال: «لما نزلت إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قلت: يا رسول اللّه أ يكرّر علينا ما يكون بيننا فى الدنيا مع خواصّ الذنوب؟ قال: نعم ليكرّرن عليكم ذلك حتى يؤدى إلى كل ذى حقّ حقه. قال الزبير فو اللّه إن الأمر لشديد». و أخرج سعيد بن منصور عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ كنا نقول: ربنا واحد، و ديننا واحد، و نبينا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين؛ و شدّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله:

وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ يعنى بلا إله إلا اللّه وَ صَدَّقَ بِهِ يعنى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ يعنى: اتقوا الشرك. و أخرج ابن جرير، و الباوردى فى معرفة الصحابة، و ابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان، و له صحبة عن عليّ بن أبى طالب قال: الذى جاء بالصدق محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و صدّق به أبو بكر. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مثله.

[سورة الزمر (39): الآيات 36 الى 42]

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (36) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40)

إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

فتح القدير، ج‏4، ص: 533

قوله: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ قرأ الجمهور عَبْدَهُ بالإفراد. و قرأ حمزة، و الكسائى «عباده» بالجمع، فعلى القراءة الأولى المراد النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم أو الجنس، و يدخل فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم دخولا أوّليا، و على القراءة الأخرى المراد: الأنبياء، أو المؤمنون، أو الجميع، و اختار أبو عبيد قراءة الجمهور لقوله عقبه وَ يُخَوِّفُونَكَ و الاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على

أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره. و قيل: المراد بالعبد و العباد: ما يعمّ المسلم، و الكافر. قال الجرجانى: إن اللّه كاف عبده المؤمن، و عبده الكافر هذا بالثواب، و هذا بالعقاب. و قرئ «بكافى عباده» بالإضافة، و قرئ «يكافى» بصيغة المضارع، و قوله: وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ يجوز أن يكون فى محل نصب على الحال، إذ المعنى أليس كافيك حال تخويفهم إياك، و يجوز أن تكون مستأنفة، و الذين من دونه عبارة عن المعبودات التى يعبدونها وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ أى: من حقّ عليه القضاء بضلالة؛ فما له من هاد يهديه إلى الرّشد، و يخرجه من الضلالة، وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ يخرجه من الهداية، و يوقعه فى الضلالة أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ أى: غالب لكل شىء قاهر له ذِي انْتِقامٍ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه و ما ينزله بهم من سوط عقابه وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ذكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأنه اللّه سبحانه مع عبادتهم للأوثان، و اتخاذهم الآلهة من دون اللّه، و فى هذا أعظم دليل على أنهم كانوا فى غفلة شديدة و جهالة عظيمة لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم و لما يعبدون من دون اللّه هو اللّه سبحانه، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل؛ و تشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة؟

و قد كانوا يذكرون بحسن العقول، و كمال الإدراك، و الفطنة التامة، و لكنهم لما قلدوا أسلافهم و أحسنوا الظنّ بهم هجروا ما يقتضيه العقل، و عملوا بما هو محض الجهل. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف و يوبخهم فقال: قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أى:

أخبرونى عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده اللّه بى من الضرّ، و الضر هو الشدّة أو أعلى أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ عنى بحيث لا تصل إلىّ، و الرحمة النعمة و الرّخاء. قرأ الجمهور ممسكات و كاشفات فى الموضعين بالإضافة و قرأهما أبو عمرو بالتنوين. قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فسكتوا، و قال غيره: قالوا لا تدفع شيئا من قدر اللّه و لكنها تشفع، فنزل قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ فى جميع أمورى فى جلب النفع، و دفع الضرّ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ أى: عليه، لا على غيره يعتمد المعتمدون، و اختار أبو عبيد، و أبو حاتم قراءة أبى عمرو، لأن كاشفات اسم فاعل فى معنى الاستقبال، و ما كان كذلك فتنوينه أجود، و بها قرأ الحسن، و عاصم ثم أمره سبحانه أن يهدّدهم، و يتوعدهم فقال: قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أى: على حالتكم التى أنتم عليها و تمكنتم منها إِنِّي عامِلٌ أى: على حالتى التى أنا عليها، و تمكنت منها، و حذف ذلك للعلم به مما قبله فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ أى: يهينه، و يذله فى الدنيا، فيظهر عند ذلك أنه المبطل؛ و خصمه المحقّ، و المراد بهذا العذاب عذاب الدنيا و ما حلّ بهم من القتل، و الأسر، و القهر، و الذلة. ثم ذكر عذاب الآخرة فقال: وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۴

أى: دائم مستمرّ فى الدار الآخرة، و هو عذاب النار. ثم لما كان يعظم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان، لا بأن يهدى من ضلّ، فقال: إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ أى: لأجلهم و لبيان ما كلفوا به، و بِالْحَقِ حال من الفاعل أو المفعول: أى محقين، أو ملتبسا بالحقّ فَمَنِ اهْتَدى طريق الحق و سلكها فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَ عنها فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أى: على نفسه، فضرر ذلك عليه لا يتعدّى إلى غيره وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى: بمكلف بهدايتهم مخاطب بها، بل ليس عليك إلا البلاغ و قد فعلت. و هذه الآيات هى منسوخة بآية السيف، فقد أمر اللّه رسوله بعد هذا أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا اللّه و يعملوا بأحكام الإسلام. ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته البالغة و صنعته العجيبة فقال: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها أى: يقبضها عند حضور أجلها، و يخرجها من الأبدان وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها أى: و يتوفى الأنفس التى لم تمت، أى: لم يحضر أجلها فى منامها.

و قد اختلف فی هذا، فقیل یقبضها عن التصرّف مع بقاء الروح فی الجسد. و قال الفراء: المعنی و یقبض التی لم تمت عند انقضاء أجلها قال: و قد یکون توفیها نومها، فیکون التقدیر علی هذا: و التی لم تمت وفاتها نومها. قال الزجاج: لکل إنسان نفسان: أحدهما نفس التمییز و هی التی تفارقه إذا نام فلا یعقل، و الأخری نفس الحیاة إذا زالت معها زال النفس، و النائم یتنفس. قال القشیری: فی هذا بعد إذ المفهوم من الآیة أن النفس المقبوضة فی الحالین شیء واحد، و لهذا قال: فَیُمْسِکُ الَّتِی قَضی عَلَیْهَا الْمَوْتَ وَ یُرْسِلُ الْأُخْری أی:

النائمة إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی و هو الوقت المضروب لموته، و قد قال بمثل قول الزجاج: ابن الأنباری. و قال سعید بن جبیر: إن اللّه یقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، و أرواح الأحیاء إذا ناموا فتتعارف ما شاء اللّه أن تتعارف فَیُمْسِکُ الَّتِی قَضی عَلَیْهَا الْمَوْتَ وَ یُرْسِلُ الْأُخْری فیعیدها، و الأولی أن یقال: إن توفی الأنفس حال النوم بإزالة الإحساس و حصول الآفة به فی محل الحس، فیمسک التی قضی علیها الموت و لا یردّها إلی الجسد الذی کانت فیه و یرسل الأخری بأن یعید علیها إحساسها. قیل و معنی: یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِها هو علی حذف مضاف، أی: عند موت أجسادها.

و قد اختلف العقلاء فی النفس و الروح هل هما شیء واحد أو شیئان؟ و الکلام فی ذلک یطول جدّا، و هو معروف فی الکتب الموضوعة لهذا الشأن. قرأ الجمهور «قضی» مبنیا للفاعل، أی: قضی اللّه علیها الموت، و قرأ حمزة، و الکسائی، و الأعمش، و یحیی بن وثاب علی البناء للمفعول، و اختار أبو عبید، و أبو حاتم القراءة الأولی لموافقتها لقوله: اللَّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ و الإشارة بقوله: إِنَّ فِی ذلِکَ إلی ما تقدّم من التوفی، و الإمساک، و الإرسال للنفوس لَآیاتٍ أی: لآیات عجیبة بدیعة دالة علی القدرة الباهرة، و لکن لیس کون ذلک آیات یفهمه کل أحد بل لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ فی ذلک و یتدبرونه و یستدلون به علی توحید اللّه و کما قدرته، فإن فی هذا التوفی و الإمساک و الإرسال موعظة للمتعظین و تذکرة للمتذکرین.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: اللَّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِها الآیة قال: نفس و روح بینهما مثل شعاع الشمس، فیتوفی اللّه النفس فی منامه، و یدع الروح فی جوفه تتقلب

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۳۵

و تعیش، فإن بدا له أن یقبضه قبض الروح فمات، و إن أخر أجله ردّ النفس إلی مکانها من جوفه. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر، و ابن المنذر، و الطبرانی فی الأوسط، و أبو الشیخ فی العظمة، و ابن مردویه، و الضیاء فی المختارة عنه فی الآیة قال: تلتقی أرواح الأحیاء، و أرواح الأموات فی المنام فیتساءلون بینهم ما شاء اللّه، ثم یمسک اللّه أرواح الأموات، و یرسل أرواح الأحیاء إلی أجسادها إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی لا یغلط بشیء منها فذلک قوله: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ و أخرج عبد بن حمید عنه أیضا فی الآیة قال:

کل نفس لها سبب تجری فیه، فإذا قضی علیها الموت نامت حتی ینقطع السبب، و التی لم تمت فی منامها تترک. و أخرج البخاری، و مسلم من حدیث أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: «إذا أوی أحدکم إلی فراشه فلینفضه بداخلة إزاره فإنّه لا یدری ما خلفه علیه، ثم لیقل باسمک ربّی وضعت جنبی و باسمک أرفعه، إن أمسکت نفسی فارحمها، و إن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادک الصّالحین».

[سورة الزمر (۳۹): الآیات ۴۳ الی ۴۸]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَ وَ لَوْ کانُوا لا یَمْلِکُونَ شَیْئاً وَ لا یَعْقِلُونَ (۴۳) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِیعاً لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴) وَ إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُکِرَ الَّذِینَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ

يَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۴۷)

وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۴۸)

قوله: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ أم: هى المنقطعة المقدّرة ببل، و الهمزة، أى: بل اتخذوا من دون اللّه آلهة شفعاء تشفع لهم عند اللّه قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ للإنكار و التوبيخ و الواو للعطف على محذوف مقدّر، أى: أ يشفعون و لو كانوا ... إلخ، و جواب لو محذوف تقديره تتخذونهم.

أى: و إن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم، و معنى لا يملكون شيئا أنهم غير مالكين لشىء من الأشياء، و تدخل الشفاعة فى ذلك دخولا أوّليا، و لا يعقلون شيئا لأنها جمادات لا عقل لها، و جمعهم بالواو و النون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون. ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم أن الشفاعة للّه وحده فقال: قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً فليس لأحد منها شىء إلا أن يكون بإذنه لمن ارتضى، كما فى قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ «۱» و قوله: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى «۲» و انتصاب جميعا على الحال، و إنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعدا لأنها مصدر يطلق على الواحد، و الاثنين، و الجماعة، ثم وصفه بسعة الملك فقال: لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يملكهما، و يملك ما فيهما، و يتصرف فى ذلك كيف يشاء، و يفعل ما يريد ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ لا إلى غيره، و ذلك بعد البعث وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

---

(۱). البقرة: ۲۵۵.

(۲). الأنبياء: ۲۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۶

انتصاب وحده على الحال عند يونس، و على المصدر عند الخليل و سيبويه، و الاشمئزاز فى اللغة:

النفور. قال أبو عبيدة: اشمأزت: نفرت، و قال المبرد: انقبضت. و بالأوّل: قال قتادة، و بالثانى: قال مجاهد و المعنى متقارب. و قال المؤرج: أنكرت، و قال أبو زيد: اشمأزّ الرجل ذعر من الفزع، و المناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت، و هو فى الأصل الازورار، و كان المشركون إذا قيل لهم لا إله إلا اللّه انقبضوا، كما حكاه اللّه عنهم فى قوله: وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً «۱» ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم فقال: وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ أى: يفرحون بذلك و يبتهجون به، و العامل فى إذا فى قوله: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ الفعل الذى بعدها، و هو اشمأزت، و العامل فى إذا فى قوله: وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ الفعل العامل فى إذا الفجائية، و التقدير: فاجؤوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه. و لما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به صلّى اللّه عليه و سلم من الدعاء إلى الخير و صمموا على كفرهم، أمره اللّه سبحانه أن يردّ الأمر إليه فقال: قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و قد تقدّم تفسير فاطر السموات، و تفسير عالم الغيب و الشهادة، و هما منصوبان على النداء و معنى: تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ تجازى المحسن بإحسانه، و تعاقب المسىء بإساءته، فإنه بذلك يظهر من هو المحقّ، و من هو المبطل، و يرتفع عنده خلاف المختلفين، و تخاصم المتخاصمين. ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر اللّه، و الاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدلّ على شدّة عذابهم، و عظيم عقوبتهم فقال: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أى جميع ما فى الدنيا من الأموال و الذخائر وَ مِثْلَهُ مَعَهُ أى: منضما إليه لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: من سوء عذاب ذلك اليوم، و قد مضى تفسير هذا فى آل

عمران وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ أى: ظهر لهم من عقوبات اللّه و سخطه؛ و شدّة عذابه ما لم يكن فى حسابهم، و فى هذا وعيد عظيم، و تهديد بالغ، و قال مجاهد: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات، و كذا قال السدّى. و قال سفيان الثورى: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء هذه آيتهم و قصتهم. و قال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا، فقيل له ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب اللّه وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أى مساوى أعمالهم من الشرك و ظلم أولياء اللّه، و «ما» يحتمل أن تكون مصدرية، أى: سيئات كسبهم، و أن تكون موصولة: أى سيئات الذى كسبوه وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم و نزل بهم ما كانوا يستهزءون به من الإنذار الذى كان ينذرهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ الآية قال: قست و نفرت قُلُوبُ هؤلاء الأربعة الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أبو جهل بن هشام، و الوليد بن عقبة،

---

(١). الإسراء: ۴۶.

و صفوان، و أبىّ بن خلف وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ اللات و العزى إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ و أخرج مسلم، و أبو داود، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن عائشة قالت: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم ربّ جبريل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ۴٩ الى ۶١]

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴٩) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۵٠) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵١) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵٢) قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵٣)

وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۵۵) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۵٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵٨)

بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (۵٩) وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (۶٠) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶١)

قوله: فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ المراد بالإنسان هنا: الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها، و قيل المراد به الكفار فقط و الأوّل أولى، و لا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه، لأن الاعتبار: بعموم اللفظ وفاء بحقّ النظم القرآنى، و وفاء بمدلوله، و المعنى: أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضرّ من مرض، أو فقر، أو غيرهما دعا اللّه، و تضرع إليه فى رفعه و دفعه ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا أى: أعطيناه نعمة كائنة من عندنا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ منى بوجوه المكاسب، أو على خير عندى، أو على علم من اللّه بفضلى. و قال الحسن، على علم علمنى اللّه إياه، و قيل: قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند اللّه منزلة، و جاء

بالضمير فى أوتيته مذكرا مع كونه راجعا إلى النعمة لأنها بمعنى الإنعام. و قيل: إن الضمير عائد إلى ما، و هى موصولة، و الأوّل أولى بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ هذا ردّ لما قاله، أى: ليس ذلك الذى أعطيناك لما ذكرت، بل هو محنة لك، و اختبار لحالك أ تشكر أم تكفر؟ قال الفراء: أنث الضمير فى قوله: «هى» لتأنيث الفتنة، و لو قال بل هو فتنة لجاز. و قال النحاس: بل عطيته فتنة. و قيل: تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة، و تذكير الأوّل فى قوله: أُوتِيتُهُ باعتبار معناها وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن ذلك استدراج

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۳۸

لهم من اللّه و امتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: قال هذه الكلمة التى قالوها و هى قولهم: إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون و غيره، فإن قارون قال: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِی «۱» فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ يجوز أن تكون ما هذه نافية، أى: لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئا، و أن تكون استفهامية، أى: أىّ شىء أغنى عنهم ذلك فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أى: جزاء سيئات كسبهم، أو أصابهم سيئات هى جزاء كسبهم، و سمى الجزاء سيئات لوقوعها فى مقابلة سيئاتهم، فيكون ذلك من باب المشاكلة كقوله: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «۲»، ثم أوعد سبحانه الكفار فى عصره فقال: وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ الموجودين من الكفار سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا كما أصاب من قبلهم، و قد أصابهم فى الدنيا ما أصابهم من القحط و القتل و الأسر و القهر وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ أى: بفائتين على اللّه بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ أى: يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه له وَ يَقْدِرُ أى: يقبضه لمن يشاء أن يقبضه و يضيقه عليه.

قال مقاتل: و عظهم اللّه ليعتبروا فى توحيده، و ذلك حين مطروا بعد سبع سنين، فقال: أو لم يعلموا أن اللّه يوسع الرزق لمن يشاء و يقتر على من يشاء إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ أى: فى ذلك المذكور لدلالات عظيمة و علامات جليلة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ و خصّ المؤمنين لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها. ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد عقبه بذكر سعة رحمته و عظيم مغفرته و أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يبشرهم بذلك فقال: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ المراد بالإسراف: الإفراط فى المعاصى، و الاستكثار منها، و معنى لا تقنطوا: لا تيأسوا من رحمة اللّه: من مغفرته. ثم لما نهاهم عن القنوط أخرهم بما يدفع ذلك و يرفعه و يجعل الرجاء مكان القنوط فقال: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً.

و اعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب اللّه سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أوّلا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، و مزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف فى المعاصى، و الاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهى عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، و بفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك و لا يتخالج القلب عند سماعه ظنّ، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ فالألف و اللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده، فهو فى قوّة: إن اللّه يغفر كلّ ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النصّ القرآنى و هو الشرك إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* «۳» ثم لم يكتف بما أخبر عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: جَمِيعاً فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادقين فى رجائه. الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظنّ بمن لا يتعاظمه ذنب، و لا يبخل بمغفرته و رحمته على عباده المتوجهين إليه فى طلب العفو الملتجئين به فى مغفرة ذنوبهم و ما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا إنه هو الغفور الرحيم. أى: كثير المغفرة و الرحمة؛ عظيمهما؛ بليغهما؛ واسعهما، فمن

---

(۱). القصص: ۷۸.

(٢). الشورى: ۴٠.

(٣). النساء: ۴٨.

أبى هذا التفضل العظيم و العطاء الجسيم؛ و ظنّ أن تقنيط عباد اللّه و تأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم اللّه به؛ فقد ركب أعظم الشطط و غلط أقبح الغلط، فإن التبشير و عدم التقنيط الذى جاءت به مواعيد اللّه فى كتابه العزيز، و المسلك الذى سلكه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم كما صح عنه من قوله: «يسّروا و لا تعسّروا، و بشّروا و لا تنفّروا».

و إذا تقرّر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية و بين قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* هو أن كلّ ذنب كائنا ما كان ما عدا الشرك باللّه مغفور لمن شاء اللّه أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعا يدل على أنه يشاء غفرانها جميعا، و ذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكلّ المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية. و أما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة و أنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين و زعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات. فهو جمع بين الضب و النون، و بين الملاح و الحادى، و على نفسها براقش تجنى، و لو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر اللّه بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، و قد قال: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* فلو كانت التوبة قيدا فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، و قد قال سبحانه وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ «١» قال الواحدى: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك و قتل النفس و معاداة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم.

قلت: هب أنها فى هؤلاء القوم، فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم، و لو كانت الآيات القرآنية، و الأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، و اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله.

و فى السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة فى الصحيحين و غيرهما فى هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حقّ معرفته و قدّره حقّ قدره علم صحة ما ذكرناه و عرف حقيقة ما حررناه. قرأ الجمهور «يا عبادى» بإثبات الياء وصلا و وقفا، و روى أبو بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء. و قرأ الجمهور «تقنطوا» بفتح النون، قرأ أبو عمرو و الكسائى بكسرها وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ أى: ارجعوا إليه بالطاعة. لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعا، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات و اجتناب المعاصى، و ليس فى هذا ما يدلّ على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة، و لا تضمن، و لا التزام، بل غاية ما فيها أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى، ثم دعاهم إلى الخير و خوّفهم من الشرّ على أنه يمكن أن يقال:

إن هذه الجملة مستأنفة خطابا للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله: وَ أَسْلِمُوا لَهُ جاء بها لتحذير الكفار و إنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى و تبشيرهم، و هذا و إن كان بعيدا و لكنه يمكن أن يقال به، و المعنى على ما هو الظاهر: أن اللّه جمع لعباده بين التبشير العظيم، و الأمر بالإنابة إليه و الإخلاص له و الاستسلام لأمره

---

(١). الرعد: ۶.

و الخضوع لحكمه، و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ أى: عذاب الدنيا كما يفيده قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ فليس فى ذلك ما

يدلّ على ما زعمه الزاعمون، و تمسك به القانطون المقنطون، و الحمد للّه رب العالمين وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى: القرآن، يقول: أحلوا حلاله، و حرموا حرامه، و القرآن كله حسن. قال الحسن: التزموا طاعته و اجتنبوا معاصيه. و قال السدّى: الأحسن ما أمر اللّه به فى كتابه. و قال ابن زيد: يعنى المحكمات، و كلوا علم المتشابه إلى عالمه. و قيل: الناسخ دون المنسوخ، و قيل: العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام، و قيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أى: من قبل أن يفاجئكم العذاب؛ و أنتم غافلون عنه لا تشعرون به، و قيل: أراد أنهم يموتون بغتة فيقعون فى العذاب. و الأوّل أولى لأن الذى يأتيهم بغتة هو العذاب فى الدنيا بالقتل، و الأسر، و القهر، و الخوف، و الجدب، لا عذاب الآخرة، و لا الموت، لأنه لم يسند الإتيان إليه أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ قال البصريون: أى حذرا أن تقول. و قال الكوفيون: لئلا تقول. قال المبرد: بادروا خوف أن تقول، أو حذرا من أن تقول نفس. و قال الزجاج:

خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها: يا حسرتا على ما فرّطت فى جنب اللّه، قيل: و المراد بالنفس هنا النفس الكافرة، و قيل: المراد به التكثير كما فى قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ «١» قرأ الجمهور «يا حسرتا» بالألف بدلا من الياء المضاف إليها، و الأصل يا حسرتى، و قرأ ابن كثير «يا حسرتاه» بهاء السكت وقفا، و قرأ أبو جعفر «يا حسرتى» بالياء على الأصل. و الحسرة: الندامة، و معنى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ على ما فرّطت فى طاعة اللّه، قاله الحسن. و قال الضحاك: على ما فرّطت فى ذكر اللّه، و يعنى به القرآن، و العمل به. و قال أبو عبيدة فِي جَنْبِ اللَّهِ أى: فى ثواب اللّه. و قال الفراء: الجنب: القرب و الجوار، أى: فى قرب اللّه و جواره، و منه قوله: وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ «٢» و المعنى على هذا القول، على ما فرّطت فى طلب جنب اللّه: أى فى طلب جواره و قربه و هو الجنة، و به قال ابن الأعرابى و قال الزجاج: أى فرّطت فى الطريق الذى هو طريق اللّه من توحيده و الإقرار بنبوّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و على هذا فالجنب بمعنى الجانب:

أى قصرت فى الجانب الذى يؤدّى إلى رضا اللّه، و منه قول الشاعر:

النّاس جنب و الأمير جنبا «٣» أى الناس من جانب و الأمير من جانب وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أى: و ما كنت إلا من المستهزئين بدين اللّه فى الدنيا، و محل الجملة النصب على الحال. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة اللّه حتى سخر من أهلها أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أى لو أن اللّه أرشدنى إلى دينه لكنت ممن يتقى الشرك و المعاصى، و هذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة، و يتعللون به من العلل الباطلة كما فى قوله:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا «٤» فهى كلمة حقّ يريدون بها باطلا. ثم ذكر سبحانه مقالة.

---

(١). التكوير: ١٤.

(٢). النساء: ٣٦.

(٣). و صدره: قسم مجهودا لذاك القلب.

(٤). الأنعام: ١٤٨.

أخرى مما قالوا فقال: أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً أى: رجعة إلى الدنيا فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ المؤمنين باللّه الموحدين له، المحسنين فى أعمالهم، و انتصاب أكون: إما لكونه معطوفا على كرّة فإنها مصدر و أكون فى تأويل المصدر: كما فى قول الشاعر:

للبس عباءة و تقرّ عينى أحبّ إلىّ من لبس الشّفوف

و أنشد الفرّاء على هذا:

فما لك منها غير ذكرى و خشيةو تسأل عن ركبانها أين يمّموا

و إما لكونه جواب التمنى المفهوم من قوله: لَوْ أَنَّ لِی كَرَّةً. ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة فقال: بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِی فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ

المراد بالآيات: هى الآيات التنزيلية و هو القرآن، و معنى التكذيب بها قوله: إنها ليست من عند اللّه و تكبر عن الإيمان بها، و كان مع ذلك التكذيب و الاستكبار من الكافرين باللّه. و جاء سبحانه بخطاب المذكر فی قوله:

جاءتك و كذّبت و استكبرت و كنت، لأن النفس تطلق على المذكر و المؤنث. قال المبرد: تقول العرب نفس واحد، أی: إنسان واحد، و بفتح التاء فی هذه المواضع قرأ الجمهور. و قرأ الجحدری، و أبو حيوة، و يحيى ابن يعمر بكسرها فی جميعها، و هی قراءة أبی بكر، و ابنته عائشة، و أمّ سلمة، و رويت عن ابن كثير وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أی: ترى الذين كذبوا على اللّه بأن له شركاء و صاحبة و ولدا وجوههم مسودّة لما أحاط بهم من العذاب، و شاهدوه من غضب اللّه و نقمته، و جملة «وجوههم مسودّة» فی محل نصب على الحال. قال الأخفش: ترى غير عامل فی وجوههم مسوّدة، إنما هو مبتدأ و خبر، و الأولى أن ترى إن كانت من الرؤية البصرية، فجملة «وجوههم مسودّة» حالية، و إن كانت قلبية فهی فی محل نصب على أنها المفعول الثانی لترى، و الاستفهام فی قوله: أَ لَيْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ للتقرير، أی: ليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة اللّه، و الكبر هو بطر الحقّ و غمط الناس كما ثبت فی الحديث الصحيح وَ يُنَجِّی اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا أی: اتقوا الشرك و معاصی اللّه، و الباء فی بِمَفازَتِهِمْ متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول، أی: متلبسين بمفازتهم. قرأ الجمهور بمفازتهم بالإفراد على أنها مصدر ميمی و الفوز: الظفر بالخير، و النجاة من الشرّ. قال المبرد: المفازة مفعلة من الفوز و هو السعادة، و إن جمع فحسن:

كقولك السعادة و السعادات. و المعنى ينجيهم اللّه بفوزهم، أی: بنجاتهم من النار، و فوزهم بالجنة. و قرأ حمزة، و الكسائی، و أبو بكر بمفازاتهم جمع مفازة، و جمعها مع كونها مصدر لاختلاف الأنواع، و جملة لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ فی محل نصب على الحال من الموصول، و كذلك جملة وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ فی محل نصب على الحال: أی ينفی السوء و الحزن عنهم و يجوز أن تكون الباء فی بمفازتهم للسببية، أی: بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم، و عدم وصول الحزن إلى قلوبهم لأنهم رضوا بثواب اللّه، و أمنوا من عقابه.

و قد أخرج ابن أبی حاتم قال السيوطی بسند صحيح و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۴۲

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآية فی مشركی أهل مكة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانی، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقی فی الدلائل عن ابن عمر قال: كنا نقول ليس لمفتتن توبة و ما اللّه بقابل منه شيئا، عرفوا اللّه و آمنوا به و صدّقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم، و كانوا يقولونه لأنفسهم، فلما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المدينة أنزل اللّه فيهم يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآيات؛ قال ابن عمر: فكتبتها بيدی، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصی. و أخرج ابن أبی حاتم، و ابن مردويه عن أبی سعد قال: لما أسلم وحشی أنزل اللّه وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ «۱» قال وحشیّ و أصحابه: قد ارتكبنا هذا كله، فأنزل اللّه قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآية. و أخرج البخاری فی الأدب المفرد عن أبی هريرة قال: «خرج النبیّ صلّى اللّه عليه و سلم على رهط من أصحابه و هم يضحكون و يتحدّثون فقال: و الذی نفسی بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، و لبكيتم كثيرا، ثم انصرف و أبكى القوم، و أوحى اللّه إليه: يا محمد لم

تقنط عبادى؟ فرجع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقال: أبشروا و سدّدوا و قاربوا». و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عمر بن الخطاب أنها نزلت فيمن افتتن. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس أنها نزلت فى مشركى مكة لما قالوا إن اللّه لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك و قتل الأنفس و غير ذلك. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن ثوبان:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «ما أحبّ أن لى الدنيا و ما فيها بهذه الآية يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ إلى آخر الآية، فقال رجل و من أشرك؟ فسكت النبى صلّى اللّه عليه و سلم، قال ألا و من أشرك ثلاث مرات». و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و أبو داود، و الترمذى و حسنه، و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الحاكم، و ابن مردويه عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ «يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعا و لا يبالى إنه هو الغفور الرحيم». و أخرج ابن أبى شيبة، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى حسن الظن باللّه و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود أنه مرّ على قاض يذكر الناس فقال: يا مذكر الناس لا تقنط الناس، ثم قرأ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الآية. و أخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال: قال علىّ: أىّ آية أوسع؟

فجعلوا يذكرون آيات من القرآن وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ «٢» الآية و نحوها، فقال علىّ: ما فى القرآن أوسع من يا عِبادِيَ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ الآية قال: قد دعا اللّه إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن اللّه، و من زعم أن عزيرا ابن اللّه، و من زعم أن اللّه فقير، و من زعم أن يد اللّه مغلولة، و من زعم أن اللّه ثالث لهؤلاء أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء من فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «٣» و قال: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «۴» قال ابن عباس؛ و من آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب اللّه، و لكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب اللّه عليه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر،

---

(١). الفرقان: ۶٨.

(٢). النساء: ١١٠.

(٣). النازعات: ٢۴.

(۴). القصص: ٣٨.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴٣

و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ قال: أخبر اللّه ما العباد قائلون قبل أن يقولوا، و علمهم قبل أن يعلموا.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ۶٢ الى ٧٢]

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۶٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶٣) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (۶۴) وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۶۵) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۶)

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶٧) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (۶٨) وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶٩) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما

عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (٧٠) وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (٧١)

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

قوله: اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ من الأشياء الموجودة في الدنيا و الآخرة كائنا ما كان من غير فرق بين شيء و شيء، و قد تقدّم تفسير هذه الآية في الأنعام وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أي: الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها و تدبيرها من غير مشارك له لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ المقاليد واحدها مقليد و مقلاد أو لا واحد له من لفظه كأساطير، و هي مفاتيح السموات و الأرض، و الرزق و الرحمة. قاله مقاتل و قتادة و غيرهما. و قال الليث: المقلاد الخزانة، و معنى الآية له خزائن السموات و الأرض، و به قال الضحاك و السدّي. و قيل: خزائن السموات: المطر، و خزائن الأرض: النبات. و قيل: هي عبارة عن قدرته سبحانه و حفظه لها، و الأوّل أولى. قال الجوهري: الإقليد المفتاح، ثم قال: و الجمع مقاليد، و قيل: هي لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر، و سبحان اللّه و بحمده، و أستغفر اللّه، و لا حول و لا قوّة إلا باللّه. و قيل: غير ذلك وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أي: بالقرآن و سائر الآيات الدالة على اللّه سبحانه و توحيده، و معنى الخاسرون: الكاملون في الخسران لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ الاستفهام للإنكار التوبيخي، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره، و غير منصوب بأعبد، و أعبد معمول لتأمروني على تقدير أن المصدرية، فلما حذفت بطل عملها، و الأصل: أفتأمروني أن أعبد غير اللّه.

قاله الكسائي و غيره. و يجوز أن يكون غير: منصوبا بتأمروني، و أعبد: بدل منه بدل اشتمال، و أن مضمرة معه أيضا. و يجوز أن يكون غير منصوبة بفعل مقدر، أي: أ فتلزموني غير اللّه، أي: عبادة غير اللّه، أو أعبد غير اللّه أعبد. أمره اللّه سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، و قالوا هو

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۴

دين آبائك. قرأ الجمهور «تأمرونّي» بإدغام نون الرفع في نون الوقاية على خلاف بينهم في فتح الياء و تسكينها.

و قرأ نافع «تأمروني» بنون خفيفة و فتح الياء، و قرأ ابن عامر «تأمرونني» بالفك و سكون الياء وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ أي: من الرسل لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل، لأن اللّه سبحانه قد عصمهم عن الشرك، و وجه إيراده على هذا الوجه التحذير، و الإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجبا لإحباط عمل الأنبياء على الفرض، و التقدير: فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى. قيل: و في الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: و لقد أوحي إليك لئن أشركت و أوحي إلى الذين من قبلك كذلك. قال مقاتل: أي أوحي إليك و إلى الأنبياء قبلك بالتوحيد و التوحيد محذوف، قال: لئن أشركت يا محمد ليحبطن عملك، و هو خطاب للنبي صلّى اللّه عليه و سلم خاصة. و قيل إفراد الخطاب في قوله: لَئِنْ أَشْرَكْتَ باعتبار كل واحد من الأنبياء، كأنه قيل أوحي إليك و إلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام، و هو لئن أشركت، و هذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ «۱» و قيل: هذا خاص بالأنبياء لأن الشرك منهم أعظم ذنبا من الشرك من غيرهم، و الأوّل أولى، ثم أمر اللّه سبحانه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بتوحيده، فقال: بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ و في هذا ردّ على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام، و وجه الردّ ما يفيده التقديم من القصر. قال الزجاج: لفظ اسم اللّه منصوب باعبد قال: و لا اختلاف في هذا بين البصريين و الكوفيين. قال الفراء: هو منصوب بإضمار فعل، و روى مثله عن الكسائي، و الأوّل أولى. قال الزجاج: و الفاء في فاعبد للمجازاة. و قال الأخفش: زائدة. قال عطاء و مقاتل معنى فاعبد: وحد، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ

لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد و الدعاء إلى دينه و اختصك به من الرسالة وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ قال المبرد: أى عظموه حق عظمته، من قولك فلان عظيم القدر، و إنما وصفهم بهذا لأنهم عبدوا غير اللّه و أمروا رسوله بأن يكون مثلهم فى الشرك. و قرأ الحسن، و أبو حيوة، و عيسى بن عمر قدّروا بالتشديد وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ القبضة فى اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك، فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها و كثافتها فى مقدوره كالشىء الذى يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو فى يد فلان و فى قبضته للشىء الذى يهون عليه التصرّف فيه و إن لم يقبض عليه، و كذا قوله: وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ فإن ذكر اليمين للمبالغة فى كمال القدرة كما يطوى الواحد منا الشىء المقدور له طيه بيمينه، و اليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة و الملك. قال الأخفش بيمينه يقول فى قدرته، نحو قوله: أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ «٢» أى: ما كانت لكم قدرة عليه، و ليس الملك لليمين دون الشمال و سائر الجسد، و منه قوله سبحانه: لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ «٣» أى: بالقوّة و القدرة، و منه قول الشاعر:

إذا ما راية نصبت لمجدتلقّاها عرابة باليمين

---

(١). البقرة: ٢١٧.

(٢). النساء: ٣.

(٣). الحاقة: ۴۵.

و قول الآخر:

و لمّا رأيت الشمس أشرق نورهاتناولت منها حاجتى بيمين

و قول الآخر:

عطست بأنف شامخ و تناولت‌يداى الثّريّا قاعدا غير قائم

و جملة وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ فى محل نصب على الحال، أى: ما عظموه حق تعظيمه، و الحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة. قرأ الجمهور برفع «قبضته» على أنها خبر المبتدأ، و قرأ الحسن بنصبها، و وجه ابن خالويه بأنه على الظرفية: و قرأ الجمهور «مطويّات» بالرفع على أنها خبر المبتدأ، و الجملة فى محل نصب على الحال كالتى قبلها، و بيمينه متعلق بمطويات، أو حال من الضمير فى مطويات أو خبر ثان، و قرأ عيسى و الجحدرى بنصب «مطويات»، و وجه ذلك أن السموات معطوفة على الأرض، و تكون قبضته خبرا عن الأرض و السموات، و تكون مطويات حالا، أو تكون مطويات منصوبة بفعل مقدّر، و بيمينه الخبر، و خصّ يوم القيامة بالذكر و إن كانت قدرته شاملة، لأن الدعاوى تنقطع فيه كما قال سبحانه: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ «١» و قال: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ «٢» ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة و الحكمة الباهرة وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ هذه هى النفخة الأولى، و الصور: هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل، و قد تقدّم غير مرة، و معنى صعق: زالت عقولهم فخرّوا مغشيا عليهم، و قيل: ماتوا. قال الواحدى: قال المفسرون مات من الفزع؛ و شدة الصوت أهل السموات و الأرض. قرأ الجمهور الصُّورِ بسكون الواو، و قرأ قتادة و زيد بن على بفتحها جمع صورة، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ متصل، و المستثنى جبريل، و ميكائيل، و إسرافيل، و قيل: رضوان، و حملة العرش، و خزنة الجنة و النار ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى يجوز أن يكون أخرى فى محل رفع على النيابة و هى صفة لمصدر محذوف، أى: نفخة أخرى، و يجوز أن يكون فى محل نصب و القائم مقام الفاعل فيه فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ يعنى الخلق

كلهم على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم، أو ينتظرون ذلك. قرأ الجمهور «قيام» بالرفع على أنه خبر، و ينظرون فى محل نصب على الحال، و قرأ زيد بن عليّ بالنصب على أنه حال، و الخبر ينظرون، و العامل فى الحال ما عمل فى إذا الفجائية. قال الكسائى كما تقول خرجت فإذا زيد جالسا وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها الإشراق الإضاءة، يقال أشرقت الشمس: إذا أضاءت، و شرقت: إذا طلعت، و معنى بنور ربها: بعدل ربها، قاله الحسن و غيره. و قال الضحاك: بحكم ربها، و المعنى: أن الأرض أضاءت و أنارت بما أقامه اللّه من العدل بين أهلها، و ما قضى به من الحق فيهم، فالعدل نور و الظلم ظلمات. و قيل: إن اللّه يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض؛ فتشرق به غير نور الشمس و القمر، و لا مانع من الحمل على المعنى الحقيقى، فإن اللّه سبحانه هو نور السموات

---

(١). الحج: ۵۶.

(٢). الفاتحة: ۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۶

و الأرض. قرأ الجمهور «أشرقت» مبنيا للفاعل، و قرأ ابن عباس، و أبو الجوزاء، و عبيد بن عمير على البناء للمفعول وَ وُضِعَ الْكِتابُ قيل: هو اللوح المحفوظ. و قال قتادة: يعنى الكتب و الصحف التى فيها أعمال بنى آدم فآخذ بيمينه و آخذ بشماله، و كذا قال مقاتل. و قيل: هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه، أى: وضع الكتاب للحساب وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ أى: جيء بهم إلى الموقف فسئلوا عما أجابتهم به أممهم وَ الشُّهَداءِ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم كما فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ «١» و قيل: المراد بالشهداء الذين استشهدوا فى سبيل اللّه، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين اللّه. و قيل: هم الحفظة كما قال تعالى: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ «٢» وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ أى: و قضى بين العباد بالعدل و الصدق، و الحال أنهم لا يظلمون: أى لا ينقصون من ثوابهم، و لا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خير و شرّ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ فى الدنيا لا يحتاج إلى كاتب، و لا حاسب، و لا شاهد، و إنما وضع الكتاب، و جيء بالنبيين و الشهداء لتكميل الحجة و قطع المعذرة. ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً أى: سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمرا، أى: جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضا. قال أبو عبيدة و الأخفش، زمرا: جماعات متفرّقة بعضها إثر بعض، و منه قول الشاعر:

و ترى الناس إلى أبوابه‌زمرا تنتابه بعد زمر

و اشتقاقه من الزمر، و هو الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها أى:

فتحت أبواب النار ليدخلوها، و هى سبعة أبواب، و قد مضى بيان ذلك فى سورة الحجر وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها جمع خازن نحو سدنة و سادن أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أى: من أنفسكم يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ التى أنزلها عليهم وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أى: يخوّفونكم لقاء هذا اليوم الذى صرتم فيه، قالوا لهم هذا القول تقريعا و توبيخا، فأجابوا بالاعتراف، و لم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا لانكشاف الأمر و ظهوره، و لهذا قالُوا بَلى أى: قد أتتنا الرسل بآيات اللّه، و أنذرونا بما سنلقاه وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ و هى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ*، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ التى قد فتحت لكم لتدخلوها و انتصاب خالِدِينَ على الحال، أى: مقدّرين الخلود فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ المخصوص بالذم محذوف، أى: بئس مثواهم جهنم، و قد تقدّم تحقيق المثوى فى غير موضع.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: مفاتيحها. و أخرج أبو يعلى، و يوسف القاضى فى سننه، و أبو الحسن القطان، و ابن

---

(۱). البقرة: ۱۴۳.

(۲). ق: ۲۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۷

السنى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عثمان بن عفان قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قول اللّه لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فقال لى: «يا عثمان لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك، مقاليد السموات و الأرض: لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر، و سبحانه اللّه، و الحمد للّه، و أستغفر اللّه الذى لا إله إلا هو، الأوّل و الآخر، و الظاهر و الباطن، يحيى و يميت و هو حىّ لا يموت، بيده الخير و هو على كل شىء قدير؛ ثم ذكر فضل هذه الكلمات» و أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس عن عثمان قال: جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال له: أخبرنى عن مقاليد السموات و الأرض، فذكره. و أخرجه الحارث بن أبى أسامة، و ابن مردويه عن أبى هريرة عن عثمان. و أخرجه العقيلى، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عمر عن عثمان.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا دعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، و يزوجوه ما أراد من النساء و يطئون عقبه، فقالوا له: هذا لك يا محمد و تكفّ عن شتم آلهتنا و لا تذكرها بسوء، قال: حتى أنظر ما يأتينى من ربى، فجاء بالوحى قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ إلى آخر السورة، و أنزل اللّه عليه قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ إلى قوله: مِنَ الْخاسِرِينَ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: يا محمد إنا نجد أن اللّه يحمل السموات يوم القيامة على إصبع، و الشجر على إصبع، و الماء و الثرى على إصبع، و سائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «يقبض اللّه الأرض يوم القيامة و يطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» و فى الباب أحاديث، و آثار تقتضى حمل الآية على ظاهرها من دون تكلف لتأويل، و لا تعسف لقال و قيل، و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة: و الذى اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه، فقال: أتقول هذا و فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكرت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: «قال اللّه وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ فأكون أوّل من يرفع رأسه، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى، أو كان ممن استثنى اللّه». و أخرج أبو يعلى، و الدارقطنى فى الأفراد، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فى قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ قال: «هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة» الحديث. و أخرجه سعيد بن منصور، و عبد بن حميد من أقوال أبى هريرة. و أخرج الفريابى، و ابن جرير، و أبو نصر السجزى فى الإبانة، و ابن مردويه عن أنس أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ فقال: «جبريل و ميكائيل و ملك الموت و إسرافيل و حملة العرش». و أخرج ابن المنذر عن جابر فى قوله: إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ قال: موسى، لأنه كان صعق قبل.

و الأحاديث الواردة فى كيفية نفخ الصور كثيرة. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله:

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۸

وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ قال: النبيين: الرسل، و الشهداء: الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان و لا لعان. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه فى الآية قال: يشهدون بتبليغ الرسالة و تكذيب الأمم إياهم.

[سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷۳ الى ۷۵]

اشارة

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (۷۳) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۷۴) وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۷۵)

لما ذكر فيما تقدّم حال الذين كفروا و سوقهم إلى جهنم، ذكر هنا حال المتقين و سوقهم إلى الجنة فقال:

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً أى ساقتهم الملائكة سوق إعزاز و تشريف و تكريم. و قد سبق بيان معنى الزمر حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها جواب إذا محذوف. قال المبرد تقديره: سعدوا و فتحت، و أنشد قول الشاعر:

فلو أنّها نفس تموت جميعةو لكنّها نفس تساقط أنفسا

فحذف جواب لو، و التقدير: لكان أروح. و قال الزجاج: القول عندى أن الجواب محذوف على تقدير:

حتى إذا جاءوها، و كانت هذه الأشياء التى ذكرت دخلوها فالجواب دخلوها و حذف لأن فى الكلام دليلا عليه. و قال الأخفش و الكوفيون: الجواب فتحت و الواو زائدة، و هو خطأ عند البصريين، لأن الواو من حروف المعانى فلا تزاد. و قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على اللّه، و التقدير: حتى إذا جاءوها و أبوابها مفتحة بدليل قوله: جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ «۱» و حذفت الواو فى قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار و فتحت بعد وقوفهم إذلالا و ترويعا. ذكر معناه النحاس منسوبا إلى بعض أهل العلم، قال: و لا أعلم أنه سبقه إليه أحد. و على هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد، أى: جاءوها و قد فتحت لهم الأبواب. و قيل: إنها واو الثمانية، و ذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون فى العدد: خمسة ستة سبعة و ثمانية، و قد مضى القول فى هذا فى سورة براءة مستوفى، و فى سورة الكهف أيضا. ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال: وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ أى:

سلامة لكم من كلّ آفة طِبْتُمْ فى الدنيا فلم تتدنسوا بالشرك و المعاصى. قال مجاهد: طبتم بطاعة اللّه، و قيل: بالعمل الصالح، و المعنى واحد. قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة و النار فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هذبوا و طيبوا قال لهم رضوان و أصحابه سَلامٌ عَلَيْكُمْ الآية فَادْخُلُوها أى: ادخلوا الجنة خالِدِينَ أى: مقدّرين الخلود فعند ذلك قال أهل الجنة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ بالبعث و الثواب بالجنة وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ أى: أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم؛ فملكوها، و تصرفوا فيها، و قيل: إنهم ورثوا الأرض التى كانت لأهل النار لو كانوا

---

(۱). ص: ۵۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۴۹

مؤمنين. قاله أكثر المفسرين. و قيل: إنها أرض الدنيا، و فى الكلام تقديم و تأخير نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ المخصوص بالمدح محذوف، أى:

فنعم أجر العاملين الجنة، و هذا من تمام قول أهل الجنة. و قيل: هو من قول اللّه سبحانه وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ أى: محيطين محدقين به، يقال حفّ القوم بفلان: إذا أطافوا به، و «من» مزيدة. قاله الأخفش، أو للابتداء، و المعنى: أن الرائى يراهم بهذه الصفة فى ذلك اليوم و جملة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم مسبحين للّه متلبسين بحمده، و قيل: معنى يسبحون يصلون حول العرش شكرا لربهم، و الحافّين: جمع حافّ، قاله الأخفش. و قال الفراء: لا واحد له إذ لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ أى: بين العباد بإدخال بعضهم الجنة و بعضهم النار، و قيل: بين النبيين الذين جىء بهم مع الشهداء و بين أممهم بالحق، و قيل: بين الملائكة بإقامتهم فى منازلهم على حسب درجاتهم، و الأوّل أولى وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ القائلون هم المؤمنون حمدوا اللّه على قضائه بينهم، و بين أهل النار بالحق، و قيل: القائلون هم الملائكة حمدوا اللّه تعالى على عدله فى الحكم و قضائه بين عباده بالحقّ.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أوّل زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، و الذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب درّىّ فى السماء إضاءة».

و أخرجا و غيرهما عن سهل بن سعد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب الريان لا يدخله إلا الصائمون» و قد ورد فى كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث فى الصحيحين و غيرهما.

و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ قال: أرض الجنة. و أخرج هناد عن أبى العالية مثله.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۵۰

سورة غافر

اشارة

فتح القدير ج۴ ۵۹۹

و هى سورة المؤمن، و تسمى سورة الطّول، و هى مكية فى قول الحسن، و عطاء، و عكرمة، و جابر. قال الحسن: إلا قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ لأن الصلوات نزلت بالمدينة. و قال ابن عباس و قتادة: إلا آيتين نزلتا بالمدينة، و هما إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ و التى بعدها، و هى خمس و ثمانون آية، و قيل: اثنتان و ثمانون آية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة حم المؤمن بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج ابن الضريس، و النحاس، و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة. و أخرج ابن مردويه، و الديلمى عن سمرة بن جندب قال: نزلت الحواميم جميعا بمكة. و أخرج محمد بن نصر و ابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «إنّ اللّه أعطانى السّبع «۱» مكان التوراة، و أعطانى الرّاءات إلى الطّواسين مكان الإنجيل، و أعطانى ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزّبور، و فضّلنى بالحواميم و المفصّل، ما قرأهنّ نبى قبلى». و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن ابن عباس قال: إن لكل شىء لبابا، و إن لباب القرآن الحواميم.

و أخرج أبو عبيد، و ابن الضريس، و ابن المنذر، و الحاكم، و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: الحواميم ديباج القرآن. و أخرج أبو عبيد و محمد بن نصر و ابن المنذر عنه قال: إذا وقعت فى الحواميم وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهنّ. و أخرج أبو الشيخ و أبو نعيم و الديلمى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الحواميم ديباج القرآن». و أخرج البيهقى فى الشعب عن خليل بن مرّة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «الحواميم سبع، و أبواب النّار سبع، تجيء كلّ حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللّهمّ لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بى و يقرؤنى». و أخرج أبو عبيد، و ابن سعد، و محمد بن نصر، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ حم المؤمن إلى إليه المصير و آية الكرسىّ حين يصبح، حفظ بهما حتّى يمسى، و من قرأهما حين يمسى، حفظ بهما حتّى يصبح».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۱ الى ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۲) غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۳) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (۴)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (۵) وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۶) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۷) رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۸) وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۹)

---

(۱). و هى الطوال و آخرها براءة. انظر تفسير غريب القرآن؛ لابن قتيبة ص: ۳۵.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۵۱

قوله: حم قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعا، و قرأ حمزة و الكسائى بإمالته إمالة محضة. و قرأ أبو عمرو بإمالته بين بين، و قرأ الجمهور حم بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة. و قرأ الزهرى بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ و الخبر ما بعده. و قرأ عيسى بن عمر الثقفى بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب. و قرأ ابن أبى إسحاق و أبو السمال بكسرها لالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم. و قرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم. و قرأ أبو جعفر بقطعها.

و قد اختلف فى معناه، فقيل: هو اسم من أسماء اللّه، و قيل: اسم من أسماء القرآن. و قال الضحاك و الكسائى: معناه قضى، و جعلاه بمعنى حمّ: أى قضى و وقع، و قيل: معناه حمّ أمر اللّه، أى: قرب نصره لأوليائه، و انتقامه من أعدائه. و هذا كله تكلف لا موجب له، و تعسف لا ملجئ إليه، و الحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة، و أمثالها من المتشابه الذى استأثر اللّه بعلم معناه كما قدّمنا تحقيقه فى فاتحة سورة البقرة. تَنْزِيلُ الْكِتابِ هو خبر لحم على تقدير أنه مبتدأ، أو: خبر لمبتدأ مضمر، أو: هو مبتدأ، و خبره: مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ قال الرازى: المراد بتنزيل: المنزل، و المعنى: أن القرآن منزل من عند اللّه ليس بكذب عليه.

و العزيز: الغالب القاهر، و العليم: الكثير العلم بخلقه، و ما يقولونه و يفعلونه غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ قال الفراء:

جعلها كالنعت للمعرفة، و هى نكرة، و وجه قوله هذا أن إضافتها لفظية، و لكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية، كما قال سيبويه: أن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة، و توصف به المعارف إلا الصفة المشبهة. و أما الكوفيون فلم يستثنوا شيئا بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم الفاعل فى جواز جعلها إضافة محضة، و ذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص، فيجوّزون فى شديد هنا أن تكون إضافته محضة.

و على قول سيبويه لا بدّ من تأويله بمشدد. و قال الزجاج: إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البدل. و روى عنه أنه جعل غافر، و قابل: مخفوضين على الوصف، و شديد: مخفوض على البدل، و المعنى: غافر الذنب لأوليائه، و قابل توبتهم، و شديد العقاب لأعدائه، و التوب مصدر بمعنى التوبة من تاب يتوب توبة و توبا، و قيل: هو جمع توبة، و قيل: غافر الذنب لمن قال لا إله إلا اللّه، و قابل التوب من الشرك، و شديد العقاب لمن لا يوحده، و قوله: ذِي الطَّوْلِ يجوز أن يكون صفة، لأنه معرفة و أن يكون بدلا، و أصل الطول:

الإنعام و التفضل، أى: ذى الإنعام على عباده، و التفضل عليهم. و قال مجاهد: ذى الغنى و السعة. و منه قوله: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا «١» أى: غنى وسعة، و قال عكرمة: ذى الطول ذى المنّ. قال

---

(١). النساء: ٢٥.

الجوهرى: و الطول بالفتح المنّ يقال منه طال عليه و يطول عليه إذا امتنّ عليه. و قال محمد بن كعب: ذى الطول ذى التفضل. قال الماوردى: و الفرق بين المنّ و التفضل أن المنّ عفو عن ذنب، و التفضل إحسان غير مستحقّ. ثم ذكر ما يدلّ على توحيده و أنه الحقيق بالعبادة فقال: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ لا إلى غيره، و ذلك فى اليوم الآخر. ثم لما ذكر أن القرآن كتاب اللّه أنزله ليهتدى به فى الدين ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله فقال: ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أى: ما يخاصم فى دفع آيات اللّه و تكذيبها إلا الذين كفروا، و المراد الجدال بالباطل، و القصد إلى دحض الحقّ كما فى قوله: وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ فأما الجدال لاستيضاح الحقّ، و رفع اللبس، و البحث عن الراجح و المرجوح، و عن المحكم و المتشابه، و دفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، و ردّهم بالجدال إلى المحكم فهو من أعظم ما يتقرّب المتقرّبون، و بذلك أخذ اللّه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ «١» قال: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ «٢» و قال: وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ «٣» فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ لما حكم سبحانه على المجادلين فى آيات اللّه بالكفر، نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن أن يغترّ بشى‏ء من حظوظهم الدنيوية فقال: فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة فى البلاد، و ما يحصلونه من الأرباح، و يجمعونه من الأموال فإنهم معاقبون عما قليل، و إن أمهلوا فإنهم لا يهملون. قال الزجاج: لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك. قرأ الجمهور «لا يغررك» بفك الإدغام. و قرأ زيد ابن على، و عبيد بن عمير بالإدغام. ثم بين حال من كان قبلهم، و أن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك فى التكذيب فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ الضمير من بعدهم يرجع إلى قوم نوح، أى:

و كذبت الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد و ثمود وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ أى: همت كلّ أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم الذى أرسل إليهم ليأخذوه ليتمكنوا منه، فيحبسوه و يعذبوه و يصيبوا منه ما أرادوا. و قال قتادة و السدّى: ليقتلوه، و الأخذ قد يرد بمعنى الإهلاك، كقوله: ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ «٤» و العرب تسمى الأسير: الأخيذ وَ

جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ أی: خاصموا رسولهم بالباطل من القول لیدحضوا به الحقّ لیزیلوه، و منه مکان دحض: أی مزلقة و مزلة أقدام، و الباطل: داحض لأنه یزلق، و یزول فلا یستقرّ. قال یحیی بن سلام: جادلوا الأنبیاء بالشرک لیبطلوا به الإیمان فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ أی: فأخذت هؤلاء المجادلین بالباطل، فکیف کان عقابی الذی عاقبتهم به، و حذف یاء المتکلم من عقاب اجتزاء بالکسرة عنها وصلا و وقفا لأنها رأس آیة وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أی: وجبت و ثبتت و لزمت، یقال حقّ الشیء؛ إذا لزم و ثبت، و المعنی: و کما حقت کلمة العذاب علی الأمم المکذبة لرسلهم حقت علی الذین کفروا به، و جادلوک بالباطل، و تحزبوا علیک، و جملة أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ للتعلیل، أی: لأجل أنهم مستحقون للنار. قال

---

(۱). آل عمران: ۱۸۷.

(۲). البقرة: ۱۵۹.

(۳). العنکبوت: ۴۶.

(۴). الحج: ۴۴.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۵۳

الأخفش: أی لأنهم، أو بأنهم. و یجوز أن تکون فی محل رفع بدلا من کلمة. قرأ الجمهور «کلمة» بالتوحید، و قرأ نافع و ابن عامر «کلمات» بالجمع. ثم ذکر أحوال حملة العرش و من حوله فقال: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ و الموصول: مبتدأ، و خبره: یسبحون بحمد ربهم، و الجملة مستأنفة مسوقة لتسلیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم ببیان أن هذا الجنس من الملائکة الذین هم أعلی طبقاتهم یضمون إلی تسبیحهم للّه و الإیمان به الاستغفار للذین آمنوا باللّه و رسوله و صدّقوا، و المراد بمن حول العرش: هم الملائکة الذین یطوفون به مهللین مکبرین، و هو فی محل رفع عطفا علی الذین یحملون العرش، و هذا هو الظاهر. و قیل: یجوز أن تکون فی محل نصب عطفا علی العرش، و الأوّل أولی. و المعنی: أن الملائکة الذین یحملون العرش، و کذلک الملائکة الذین هم حول العرش ینزهون اللّه متلبسین بحمده علی نعمه، و یؤمنون باللّه، و یستغفرون اللّه لعباده المؤمنین به. ثم بین سبحانه کیفیة استغفارهم للمؤمنین فقال حاکیا عنهم رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً و هو بتقدیر القول: أی یقولون ربنا، أو قائلین: ربنا وسعت کل شیء رحمة و علما، انتصاب رحمة و علما علی التمییز المحوّل عن الفاعل، و الأصل وسعت رحمتک و علمک کل شیء فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ أی: أوقعوا التوبة عن الذنوب و اتبعوا سبیل اللّه، و هو دین الإسلام وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ أی: احفظهم منه رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ «و أدخلهم» معطوف علی قوله: «قهم» و وسط الجملة الندائیة لقصد المبالغة بالتکریر، و وصف جنات عدن بأنها الَّتِي وَعَدْتَهُمْ إیاها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ أی: و أدخل من صلح، و المراد بالصلاح هاهنا: الإیمان باللّه و العمل بما شرعه اللّه، فمن فعل ذلک فقد صلح لدخول الجنة، و یجوز عطف (و من صلح) علی الضمیر فی وعدتهم:

أی و وعدت من صلح، و الأولی عطفه علی الضمیر الأوّل فی: و أدخلهم. قال الفراء و الزجاج: نصبه من مکانین إن شئت علی الضمیر فی أدخلهم، و إن شئت علی الضمیر فی وعدتهم. قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح. و قرأ ابن أبی عبلة بضمها. و قرأ الجمهور «و ذریاتهم» علی الجمع. و قرأ عیسی بن عمر علی الإفراد إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أی: الغالب القاهر الکثیر الحکمة الباهرة وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ أی:

العقوبات، أو: جزاء السیئات علی تقدیر مضاف محذوف. قال قتادة: و قهم ما یسوءهم من العذاب وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ أی: یوم القیامة فَقَدْ رَحِمْتَهُ یقال وقاه یقیه وقایة: أی حفظه، و معنی فَقَدْ رَحِمْتَهُ أی: رحمته من عذابک و أدخلته جنتک، و الإشارة

بقوله: وَ ذلِكَ إلى ما تقدّم من إدخالهم الجنات، و وقايتهم السيئات، و هو: مبتدأ، و خبره: هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: الظفر الذى لا ظفر مثله، و النجاة التى لا تساويها نجاة.

و قد أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال: حم اسم من أسماء اللّه. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و أبو عبيد، و ابن سعد، و ابن أبى شيبة، و أبو داود، و الترمذى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن المهلب ابن أبى صفرة قال: حدّثنى من سمع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم يقول ليلة الخندق «إن أتيتم اللّيلة فقولوا حم لا ينصرون».

و أخرج ابن أبى شيبة، و النسائى، و الحاكم، و ابن مردويه عن البراء بن عازب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إنّكم

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۵۴

تلقون عدوّكم فليكن شعاركم حم لا ينصرون». و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: ذِي الطَّوْلِ قال: ذى السعة و الغنى. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: غافِرِ الذَّنْبِ الآية قال: غافر الذنب لمن يقول لا إله إلا اللّه قابِلِ التَّوْبِ ممن يقول لا إله إلا اللّه شَدِيدِ الْعِقابِ لمن لا يقول لا إله إلا اللّه ذِي الطَّوْلِ ذى الغنى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كانت كفار قريش لا يوحدونه فوحد نفسه إِلَيْهِ الْمَصِيرُ مصير من يقول لا إله إلا اللّه فيدخله الجنة، و مصير من لا يقول لا إله إلا اللّه فيدخله النار. و أخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إن جدالا فى القرآن كفر». و أخرج عبد بن حميد، و أبو داود عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «مراء فى القرآن كفر».

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۰ الى ۲۰]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (۱۲) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۱۴)

رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (۱۵) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۱۶) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱۷) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ (۱۸) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ (۱۹)

وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۲۰)

لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، و أنها حقت عليهم كلمة العذاب، و أنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ قال الواحدى قال المفسرون: إنهم لما رأوا أعمالهم، و نظروا فى كتابهم، و أدخلوا النار، و مقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب اللّه مناد لَمَقْتُ اللَّهِ إياكم فى الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ اليوم. قال الأخفش: هذه اللام فى لمقت هى لام الابتداء أوقعت بعد ينادون، لأن معناه يقال لهم، و النداء قول. قال الكلبى: يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتّك يا نفس، فتقول الملائكة لهم و هم فى النار: لمقت اللّه إياكم فى الدنيا أشدّ من مقتكم أنفسكم اليوم. و قال الحسن: يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون:

لمقت اللّه إياكم فى الدنيا إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، و الظرف فى إِذْ تُدْعَوْنَ منصوب بمقدّر محذوف دلّ عليه المذكور، أى: مقتكم وقت دعائكم، و قيل: بمحذوف هو

فتح القدير، ج‏4، ص: 555
اذكروا، و قيل: بالمقت المذكور، و المقت: أشدّ البغض، ثم أخبر سبحانه عما يقولون فى النار فقال: قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ اثنتين فى الموضعين نعتان لمصدر محذوف، أى: أمتنا إماتتين اثنتين، و أحييتنا إحياءتين اثنتين و المراد بالإماتتين: أنهم كانوا نطفا لا حياة لهم فى أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء فى الدنيا، و المراد بالإحياءتين: أنه أحياهم الحياة الأولى فى الدنيا، ثم أحياهم عند البعث، و مثل هذه الآية قوله: وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ «1» و قيل معنى الآية: أنهم أميتوا فى الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم اللّه فى قبورهم للسؤال، ثم أميتوا ثم أحياهم اللّه فى الآخرة، و وجه هذا القول أن الموت سلب الحياة، و لا حياة للنطفة. و وجه القول الأوّل أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل، و قد ذهب إلى تفسير الأوّل جمهور السلف. و قال ابن زيد: المراد بالآية أنه خلقهم فى ظهر آدم و استخرجهم و أحياهم و أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم. ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا فى النار بما كذبوا به فى الدنيا فقال حاكيا عنهم فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا التى أسلفناها فى الدنيا من تكذيب الرّسل و الإشراك باللّه و ترك توحيده، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، و ندموا حيث لا ينفعهم الندم، و قد جعلوا اعترافهم هذا مقدّمة لقولهم: فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أى: هل إلى خروج لنا من النار، و رجوع لنا إلى الدنيا من سبيل، و مثل هذا قولهم الذى حكاه اللّه عنهم هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ «2» و قوله: فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً «3» و قوله: يا لَيْتَنا نُرَدُّ «4» الآية. ثم أجاب اللّه سبحانه عن قولهم هذا بقوله: ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ أى: ذلك الذى أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعى اللّه فى الدنيا وحده دون غيره كفرتم به، و تركتم توحيده وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ غيره من الأصنام أو غيرها تُؤْمِنُوا بالإشراك و تجيبوا الدّاعى إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، و هو ما كانوا فيه من ترك توحيد اللّه، و إشراك غيره به فى العبادة التى رأسها الدّعاء، و محل ذلكم الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلكم، أو: مبتدأ خبره محذوف، أى: ذلكم العذاب الذى أنتم فيه بذلك السبب، و فى الكلام حذف، و التقدير: فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الردّ، و ذلك لأنكم كنتم إذا دعى اللّه ... إلخ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ وحده دون غيره، و هو الذى حكم عليكم بالخلود فى النار، و عدم الخروج منها و الْعَلِيِ المتعالى عن أن يكون له مماثل فى ذاته و لا صفاته، و الْكَبِيرِ الذى كبر على أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ أى: دلائل توحيده، و علامات قدرته وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً يعنى المطر فإنه سبب الأرزاق. جمع سبحانه بين إظهار الآيات، و إنزال الأرزاق، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان، و بالأرزاق قوام الأبدان، و هذه الآيات هى التكوينية التى جعلها اللّه سبحانه فى سماواته و أرضه، و ما فيهما و ما بينهما. قرأ الجمهور «ينزل» بالتشديد. و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بالتخفيف وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ أى: ما يتذكر و يتعظ بتلك الآيات الباهرة فيستدلّ بها على التوحيد، و صدق الوعد و الوعيد إلا من ينيب، أى: يرجع إلى طاعة اللّه بما يستفيده من النظر فى آيات اللّه. ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من

---

(1). البقرة: 28.

(2). الشورى: 44.

(3). السجدة: 12.

(4). الأنعام: 27.

فتح القدير، ج‏4، ص: 556
الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه، و إخلاص الدّين له فقال: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى:

إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك فادعوا اللّه وحده مخلصين له العبادة التى أمركم بها وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، و دعوهم يموتوا بغيظهم و يهلكوا بحسرتهم رَفِيعُ الدَّرَجاتِ و ارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر آخر عن المبتدأ المتقدّم: أى هو الذى يريكم آياته، و هو رفيع الدرجات، و كذلك ذُو الْعَرْشِ خبر ثالث، و يجوز أن يكون رفيع الدرجات: مبتدأ، و خبره: «ذو العرش»، و يجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف، و رفيع صفة مشبهة. و المعنى: رفيع الصفات، أو رفيع درجات ملائكته:

أى معارجهم، أو رفيع درجات أنبيائه و أوليائه فى الجنة. و قال الكلبى و سعيد بن جبير: رفيع السموات السبع، و على هذا الوجه يكون رفيع بمعنى رافع، و معنى ذو العرش: مالكه و خالقه و المتصرف فيه، و ذلك يقتضى علوّ شأنه و عظم سلطانه، و من كان كذلك فهو الذى يحقّ له العبادة و يجب له الإخلاص، و جملة يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ فى محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدّم أو للمقدّر، و معنى ذلك أنه سبحانه يلقى الوحى عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و سمى الوحى روحا، لأن الناس يحيون به من موت الكفر. كما تحيا الأبدان بالأرواح و قوله: مِنْ أَمْرِهِ متعلق بيلقى، و «من» لابتداء الغاية، و يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من الروح، و مثل هذه الآية قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا «١» و قيل الروح جبريل كما فى قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ «٢» و قوله: نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ «٣» و قوله: عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ هم الأنبياء، و معنى مِنْ أَمْرِهِ من قضائه لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ قرأ الجمهور «لينذر» مبنيا للفاعل و نصب اليوم، و الفاعل هو اللّه سبحانه أو الرسول أو من يشاء، و المنذر به محذوف تقديره: لينذر العذاب يوم التلاق. و قرأ أبيّ و جماعة كذلك إلا أنه رفع اليوم على الفاعلية مجازا. و قرأ ابن عباس، و الحسن، و ابن السميقع «لتنذر» بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب و هو الرسول، أو ضمير يرجع إلى الرّوح لأنه يجوز تأنيثها. و قرأ اليمانى «لينذر» على البناء للمفعول، و رفع يوم على النيابة، و معنى يَوْمَ التَّلاقِ يوم يلتقى أهل السموات و الأرض فى المحشر، و به قال قتادة. و قال أبو العالية و مقاتل: يوم يلتقى العابدون و المعبودون، و قيل الظالم و المظلوم، و قيل الأوّلون و الآخرون، و قيل جزاء الأعمال و العاملون، و قوله: يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ بدل من يوم التلاق. و قال ابن عطية. هو منتصب بقوله: لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ و قيل: منتصب بإضمار اذكر، و الأوّل أولى، و معنى بارزون: خارجون من قبورهم لا يسترهم شىء، و جملة لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ مستأنفة مبينة لبروزهم و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير بارزون، و يجوز أن تكون خبرا ثانيا للمبتدأ: أى لا يخفى عليه سبحانه شىء منهم و لا من أعمالهم التى عملوها فى الدنيا، و جملة لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ مستأنفة جواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا يقال عند بروز الخلائق فى ذلك اليوم؟ فقيل: يقال لمن الملك اليوم؟ قال المفسرون:

إذا هلك كل من فى السموات و الأرض، فيقول الرّبّ تبارك و تعالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ يعنى يوم القيامة

---

(١). الشورى: ٥٢.

(٢). الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤.

(٣). النحل: ١٠٢.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٥٥٧

فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه، فيقول: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ قال الحسن: هو السائل تعالى، و هو المجيب حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه، و قيل: إنه سبحانه يأمر مناديا ينادى بذلك، فيقول أهل المحشر مؤمنهم و كافرهم: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ و قيل: إنه يجيب المنادى بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار، و قيل:

هو حكايـة لما ينطق به لسان الحال فى ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين، كما فى قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ «۱» و قوله:

الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو اللّه سبحانه، و أما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم أو بعضـهم فهو مسـتأنف لبيان ما يقوله اللّه سبحانه بعد جوابهم، أى: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير و شرّ لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه أو بزيادة فى عقابه إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ أى: سريع حساب لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر فى ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بإنـذار عباده فقال: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ أى: يوم القيامة سـميت بذلك لقربها، يقال أزف فلان: أى قرب، يأزف أزفا، و منه قول النابغة:

أزف التّرحّل غير أنّ ركابنالمّا تزل بركابنا و كأن قد

و منه قوله تعالى: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ «۲» أى: قربت الساعـة، و قيل: إن يوم الآزفـة هو يوم حضور الموت، و الأوّل أولى. قال الزجاج: و قيل: لها آزفة لأنها قريبة، و إن اسـتبعد الناس أمرها، و ما هو كائن فهو قريب إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ و ذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله: وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ «۳» كاظِمِينَ مغمومين، مكروبين، ممتلئين غما. قال الزجاج:

المعنى إذ قلوب الناس لـدى الحناجر فى حال كظمهم. قال قتادة: وقعت قلوبهم فى الحناجر من المخافة، فهى لا تخرج و لا تعود فى أمكنتهـا. و قيـل: هو إخبـار عن نهايـة الجزع، و إنمـا قـال كـاظمين باعتبـار أهـل القلوب، لأـن المعنى: إذ قلوب النـاس لـدى حنـاجرهم، فيكون حالاـ منهم. و قيـل: حالاـ من القلوب، و جمع الحـال منهـا جمع العقلاـء لأنه أسـند إليها ما يسـند إلى العقلاء، فجمعت جمعه. ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين فى ذلك اليوم أحد فقال: ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ أى: قريب ينفعهم وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ فى شـفاعته لهم، و محـل يطاع الجر على أنه صـفة لشـفيع. ثم وصف سـبحانه شـمول علمه لكل شـىء و إن كان فى غاية الخفـاء فقـال: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ و هى مسارقـة النظر إلى مـا لاـ يحـلّ النظر إليه، و الجملـة خبر آخر لقوله: هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ قال المؤرج: فيه تقديم و تأخير، أى: يعلم الأعين الخائنة. و قال قتادة: خائنة الأعين:

الهمز بالعين فيما لا يحب اللّه. و قال الضحاك: هو قول الإنسان ما رأيت، و قد رأى، و رأيت و ما رأى.

و قال سفيان: هى النظرة بعد النظرة. و الأول أولى، و به قال مجاهد وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ من الضمائر و تسرّه من معاصى اللّه وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِ فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير و شرّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

---

(۱). الانفطار: ۱۷- ۱۹.

(۲). النجم: ۵۷.

(۳). الأحزاب: ۱۰.

أى: تعبدونهم من دون اللّه لا يَقْضُونَ بِشَيْ‌ءٍ لأنهم لا يعلمون شيئا، و لا يقدرون على شىء: قرأ الجمهور «يدعون» بالتحتية يعنى: الظـالمين، و اختـار هـذه القراءة أبو عبيـد، و أبو حـاتم، و قرأ نافع، و شـيبة، و هشام بالفوقيـة على الخطاب لهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فلا يخفى عليه من المسموعات و المبصرات خافية.

و قد أخرج الفريابى، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صـححه عن ابن مسـعود فى قوله:

أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ قال: هى مثل التى فى البقرة كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ «١» كانوا أمواتا فى صلب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم أماتهم ثم يحييهم بعد الموت.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: كنتم ترابا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة، فما موتتان و حياتان كقوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ الآية.

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ التَّلاقِ قال: يوم القيامة يلتقى فيه آدم و آخر ولده.

و أخرج عنه أيضا قال: يَوْمَ التَّلاقِ يوم الآزفة، و نحو هذا من أسماء يوم القيامة يلتقى فيه آدم و آخر ولده.

و أخرج عنه أيضا قال: يَوْمَ التَّلاقِ يوم الآزفة، و نحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه اللّه و حذره عباده.

و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و أبو نعيم فى الحلية عنه أيضا قال: ينادى مناد بين يدى الساعة: يا أيها الناس أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء و الأموات، و ينزل اللّه إلى السماء الدنيا فيقول: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ. و أخرج ابن أبى الدنيا فى البعث، و الديلمى عن أبى سعيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم مثله. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: «يجمع اللّه الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص اللّه فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء». و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ قال: الرجل يكون فى القوم فتمرّ بهم المرأة فيريهم أنه يغضّ بصره عنها، و إذا غفلوا لحظ إليها، و إذا نظروا غضّ بصره عنها، و قد اطلع اللّه من قلبه أنه ودّ أن ينظر إلى عورتها. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال: إذا نظر إليها يريد الخيانة أو لا وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ قال: إذا قدر عليها أ يزنى بها أم لا؟ ألا أخبركم بالتى تليها وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، و بالسيئة السيئة.

و أخرج أبو داود، و النسائى، و ابن مردويه عن سعد قال: «لما كان يوم فتح مكة أمن النبى صلّى اللّه عليه و سلم الناس إلا أربعة نفر و امرأتين، و قال: اقتلوهم و إن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الناس إلى البيعة جاء به، فقال:

يا رسول اللّه بايع عبد اللّه، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه

---

(١). البقرة: ٢٨.

فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآنى كففت يدى عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول اللّه ما فى نفسك هلا اومأت إلينا بعينك؟ فقال: إنه لا ينبغى لنبى أن يكون له خائنة الأعين».

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٢٩]

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ

الْعِقابِ (۲۲) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۳) إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۲۴) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (۲۵)

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (۲۶) وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (۲۷) وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (۲۸) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (۲۹)

لما خوّفهم سبحانه بأحوال الآخرة؛ أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم، فإن الذين مضوا من الكفار كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً من هؤلاء الحاضرين من الكفار و أقوى وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ بما عمروا فيها من الحصون و القصور و بما لهم من العدد و العدّة، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم اللّه، و قوله:

فَيَنْظُرُوا إما مجزوم بالعطف على يسيروا، أو منصوب بجواب الاستفهام، و قوله: كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً بيان للتفاوت بين حال هؤلاء و أولئك، و قوله: وَ آثاراً عطف على قوّة. قرأ الجمهور «أشدّ منهم» و قرأ ابن عامر «أشد منكم» على الالتفات فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أى: بسبب ذنوبهم وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ أى من دافع يدفع عنهم العذاب، و قد مرّ تفسير هذه الآية فى مواضع، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من الأخذ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بالحجج الواضحة فَكَفَرُوا بما جاءوهم به فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ يفعل كلّ ما يريده لا يعجزه شيء شَدِيدُ الْعِقابِ لمن عصاه و لم يرجع إليه، ثم ذكر سبحانه قصة موسى و فرعون ليعتبروا فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا هى التسع الآيات التى قد تقدّم ذكرها فى غير موضع وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ أى: حجة بينة واضحة، و هى التوراة إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا إنه ساحِرٌ كَذَّابٌ أى: فيما جاء به، و خصهم بالذكر لأنهم رؤساء المكذبين بموسى، ففرعون الملك، و هامان الوزير، و قارون صاحب الأموال

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۰

و الكنوز فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا و هى معجزاته الظاهرة الواضحة قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأوّل، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل الولدان وقت ولادة موسى، فلما بعث اللّه موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل، فكان يأمر بقتل الذكور، و ترك النساء، و مثل هذا قول فرعون سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ «۱» وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ أى:

فى خسران و وبال، لأنه يذهب باطلا، و يحيق بهم ما يريده اللّه عزّ و جلّ وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى إنما قال هذا لأنه كان فى خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل العذاب، و المعنى: اتركونى أقتله وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ الذى يزعم أنه أرسله إلينا فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك، أى: لا يهولنكم ذلك فإنه لا ربّ له حقيقة، بل أنا ربكم الأعلى، ثم ذكر العلة التى لأجلها أراد أن يقتله فقال: إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ الذى أنتم عليه من عبادة غير اللّه و يدخلكم فى دينه الذى هو عبادة اللّه وحده أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ أى: يوقع بين الناس الخلاف و الفتنة، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى، و انتشاره فى الأرض، و اهتداء الناس به فسادا، و ليس الفساد إلا ما هو عليه هو و من تابعه. قرأ الكوفيون و يعقوب «أو أن يظهر» بأو التى للإبهام، و المعنى: أنه لا بدّ من وقوع أحد الأمرين. و قرأ الباقون «و أن يظهر» بدون ألف على معنى وقوع الأمرين جميعا، و قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو بفتح الياء من «إنى أخاف» و قرأ نافع و أبو عمرو و حفص يظهر بضم الياء و كسر الهاء من أظهر، و فاعله

ضمير موسى، و الفساد نصبا على أنه مفعول به، و قرأ الباقون بفتح الياء و الهاء، و رفع الفساد على الفاعلية وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى بإدغام الذال، و قرأ الباقون بالإظهار، لما هدّده فرعون بالقتل استعاذ باللّه عزّ و جلّ من كلّ متعظم عن الإيمان باللّه غير مؤمن بالبعث و النشور، و يدخل فرعون فى هذا العموم دخولا أوّليا وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ قال الحسن، و مقاتل، و السدّى: كان قبطيا، و هو ابن عم فرعون، و هو الذى نجا مع موسى، و هو المراد بقوله:

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى «٢» الآية، و قيل: كان من بنى إسرائيل و لم يكن من آل فرعون و هو خلاف ما فى الآية، و قد تمحل لذلك بأن فى الآية تقديما و تأخيرا، و التقدير: و قال رجل مؤمن من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون. قال القشيرى: و من جعله إسرائيليا ففيه بعد، لأنه يقال كتمه أمر كذا و لا يقال كتم منه كما قال سبحانه وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً «٣» و أيضا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول.

و قد اختلف فى اسم هذا الرجل، فقيل: حبيب، و قيل: حزقيل، و قيل: غير ذلك، قرأ الجمهور «رجل» بضم الجيم، و قرأ الأعمش و عبد الوارث بسكونها، و هى لغة تميم و نجد، و الأولى هى الفصيحة، و قرئ بكسر الجيم «و مؤمن» صفة لرجل، «و من آل فرعون» صفة أخرى، و «يكتم إيمانه» صفة ثالثة، و الاستفهام فى أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا للإنكار، و أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ فى موضع نصب بنزع

---

(١). الأعراف: ١٢٧.

(٢). القصص: ٢٠.

(٣). النساء: ٤٢.

الخافض، أى: لأن يقول أو كراهة أن يقول، و جملة وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات، و الدلالات الظاهرات على نبوّته، و صحة رسالته، ثم تلطف لهم فى الدفع عنه فقال: وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ و لم يكن قوله هذا لشك منه، فإنه كان مؤمنا كما وصفه اللّه، و لا يشك المؤمن، و معنى يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ أنه إذا لم يصبكم كله فلا أقلّ من أن يصيبكم بعضه، و حذفت النون من يكن فى الموضعين تخفيفا لكثرة الاستعمال: كما قال سيبويه، و قال أبو عبيدة و أبو الهيثم: بعض هنا بمعنى كلّ: أى يصبكم كلّ الذى يعدكم، و أنشد أبو عبيد على هذا قول لبيد:

ترّاك أمكنة إذا لم أرضهاأو يرتبط بعض النّفوس حمامها

أى كلّ النفوس، و قد اعترض عليه، و أجيب بأن البعض قد يستعمل فى لغة العرب بمعنى الكلّ كما فى قول الشاعر:

قد يدرك المتأنّى بعض حاجتهو قد يكون مع المستعجل الزّلل

و قول الآخر:

إنّ الأمور إذا الأحداث دبّرهادون الشّيوخ ترى فى بعضها خللا

و ليس فى البيتين ما يدلّ على ما زعموه، و أما بيت لبيد فقيل إنه أراد ببعض النفوس نفسه، و لا ضرورة تلجئ إلى حمل ما فى الآية على ذلك، لأنه أراد التنزّل معهم و إيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوّته كما يفيده قوله:

يَكْتُمُ إِيمانَهُ قال أهل المعانى: و هذا على المظاهرة فى الحجاج، كأنه قال لهم: أقلّ ما يكون فى صدقه أن يصيبكم بعض الذى

يعدكم، و فى بعض ذلك هلاككم، فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل: و قال الليث: بعض هاهنا صلة يريد يصبكم الذى يعدكم، و قيل: يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا و هو بعض ما يتوعدكم به من العذاب، و قيل: إنه وعدهم بالثواب و العقاب، فإذا كفروا أصابهم العقاب، و هو بعض ما وعدهم به إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن، و هو احتجاج آخر ذو وجهين: أحدهما أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه اللّه إلى البينات و لا أيده بالمعجزات، و ثانيهما أنه إذا كان كذلك خذله اللّه و أهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، و المسرف المقيم على المعاصى المستكثر منها، و الكذاب المفترى يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليشكروا اللّه و لا يتمادوا فى كفرهم، و معنى ظاهرين: الظهور على الناس و الغلبة لهم و الاستعلاء عليهم، و الأرض أرض مصر، و انتصاب ظاهرين على الحال فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا أى:

من يمنعنا من عذابه و يحول بيننا و بينه عند مجيئه، و فى هذا تحذير منه لهم من نقمة اللّه بهم، و إنزال عذابه عليهم، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة و الرعاية بمكان مكين، و أنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم، و دفع الضرّ عنهم، و لهذا قال:

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۵۶۲

ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى قال ابن زيد: أى ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسى. و قال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم، و الرؤية هنا هى القلبية لا البصرية، و المفعول الثانى: هو إلا ما أرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ أى: ما أهديكم بهذا الرأى إلا طريق الحقّ. قرأ الجمهور «الرشاد» بتخفيف الشين، و قرأ معاذ ابن جبل بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضرّاب. و قال النحاس: هى لحن، و لا وجه لذلك.

و قد أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ قال: لم يكن فى آل فرعون مؤمن غير امرأة فرعون، و غير المؤمن الذى أنذر موسى الذى قال: إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ «۱» قال ابن المنذر، أخبرت أن اسمه حزقيل. و أخرج عبد بن حميد عن أبى إسحاق قال:

اسمه حبيب. و أخرج البخارى و غيره من طريق عروة قال: قيل لعبد اللّه بن عمرو بن العاص أخبرنا بأشدّ شىء صنعه المشركون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قال: بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و لوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه و دفعه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ثم قال أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ و أخرج أبو نعيم فى فضائل الصحابة و البزار عن علىّ بن أبى طالب أنه قال: أيها الناس أخبرونى من أشجع الناس؟

قالوا أنت. قال: أما أنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه و لكن أخبرونى بأشجع الناس؟ قالوا لا نعلم فمن؟

قال أبو بكر، رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أخذته قريش، فهذا يجؤه و هذا يتلتله «۲»، و هم يقولون أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا، قال: فو اللّه ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا و يجىء هذا و يتلتل هذا، و هو يقول: ويلكم أ تقتلون رجلا أن يقول ربى اللّه؟ ثم رفع بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلّت لحيته، ثم قال: أنشدكم أ مؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فو اللّه لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه و هذا رجل أعلن إيمانه.

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۰ الى ۴۰]

وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (٣١) وَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنادِ (٣٢) یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ ما لَکُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) وَ لَقَدْ جاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِی شَکٍّ مِمَّا جاءَکُمْ بِهِ حَتَّی إِذا هَلَکَ قُلْتُمْ لَنْ یَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (٣٤)

الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا هامانُ ابْنِ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلی إِلهِ مُوسی وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ کاذِباً وَ کَذلِکَ زُیِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِیلِ وَ ما کَیْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِی تَبابٍ (٣٧) وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشادِ (٣٨) یا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَیاةُ الدُّنْیا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِیَ دارُ الْقَرارِ (٣٩)

مَنْ عَمِلَ سَیِّئَةً فَلا یُجْزی إِلاَّ مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ یُرْزَقُونَ فِیها بِغَیْرِ حِسابٍ (٤٠)

---

(١). القصص: ٢٠.

(٢). «یجؤه»: یضربه. و «یتلتله»: یحرّکه بعنف.

فتح القدیر، ج‌۴، ص: ۵۶۳

ثم کرّر ذلک الرجل المؤمن تذکیرهم، و حذرهم أن ینزل بهم ما نزل بمن قبلهم، فقال اللّه حاکیا عنه:

وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ أی: مثل یوم عذاب الأمم الماضیة الذین تحزبوا علی أنبیائهم، و أفرد الیوم لأن جمع الأحزاب قد أغنی عن جمعه، ثم فسر الأحزاب فقال: مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ أی: مثل حالهم فی العذاب، أو مثل عادتهم فی الإقامة علی التکذیب، أو مثل جزاء ما کانوا علیه من الکفر و التکذیب وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ أی: لا یعذبهم بغیر ذنب، و نفی الإرادة للظلم یستلزم نفی الظلم بفحوی الخطاب. ثم زاد فی الوعظ و التذکیر فقال:

وَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنادِ قرأ الجمهور «التناد» بتخفیف الدال و حذف الیاء، و الأصل التنادی، و هو التفاعل من النداء، یقال تنادی القوم: أی نادی بعضهم بعضا، و قرأ الحسن، و ابن السمیقع، و یعقوب، و ابن کثیر، و مجاهد بإثبات الیاء علی الأصل، و قرأ ابن عباس، و الضحاک، و عکرمة بتشدید الدال. قال بعض أهل اللغة هو لحن، لأنه من ندّ یندّ: إذا مرّ علی وجهه هاربا. قال النحاس: و هذا غلط، و القراءة حسنة علی معنی التنافی. قال الضحاک: فی معناه أنهم إذا سمعوا بزفیر جهنم ندّوا هربا، فلا یأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائکة فیرجعون إلی المکان الذی کانوا فیه، فذلک قوله: یَوْمَ التَّنادِ و علی قراءة الجمهور المعنی: یوم ینادی بعضهم بعضا، أو ینادی أهل النار أهل الجنة، و أهل الجنة أهل النار، أو ینادی فیه بسعادة السعداء، و شقاوة الأشقیاء، أو یوم ینادی فیه کلّ أناس بإمامهم، و لا مانع من الحمل علی جمیع هذه المعانی، و قوله: یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ بدل من یوم التناد، أی: منصرفین عن الموقف إلی النار، أو فارّین منها. قال قتادة و مقاتل: المعنی إلی النار بعد الحساب، و جملة ما لَکُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ فی محل نصب علی الحال، أی: ما لکم من یعصمکم من عذاب اللّه، و یمنعکم منه وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ یهدیه إلی طریق الرشاد. ثم زاد فی وعظهم و تذکیرهم فقال: وَ لَقَدْ جاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّناتِ أی: یوسف بن یعقوب، و المعنی: أن یوسف بن یعقوب جاءهم بالمعجزات، و الآیات الواضحات من قبل مجیء موسی إلیهم، أی: جاء إلی آبائکم، فجعل المجیء إلی الآباء مجیئا إلی الأبناء.

و قيل: المراد بيوسف هنا يوسف بن إفراثيم بن يوسف بن يعقوب، و كان أقام فيهم نبيا عشرين سنة. و حكى النقاش عن الضحاك أن اللّه بعث إليهم رسولا من الجنّ يقال له يوسف، و الأوّل أولى. و قد قيل إن فرعون موسى أدرك أيام يوسف بن يعقوب لطول عمره فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ من البينات و لم تؤمنوا به حَتَّى إِذا هَلَكَ يوسف قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا فكفروا به فى حياته و كفروا بمن بعده من الرسل بعد موته كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ أى: مثل ذلك الضلال الواضح

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۴

يضلّ اللّه من هو مسرف فى معاصى اللّه مستكثر منها مرتاب فى دين اللّه شاك فى وحدانيته و وعده و وعيده، و الموصول فى قوله: الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بدل من «من». و الجمع باعتبار معناها، أو بيان لها، أو صفة، أو فى محل نصب بإضمار أعنى، أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين، أو: مبتدأ، و خبره:

يطبع، و بِغَيْرِ سُلْطانٍ متعلق بيجادلون، أى: يجادلون فى آيات اللّه بغير حجة واضحة، و أَتاهُمْ صفة لسلطان كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا يحتمل أن يراد به التعجب، و أن يراد به الذمّ كبئس، و فاعل كبر ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من يجادلون، و قيل: فاعله ضمير يعود إلى من فى «من هو مسرف» و الأوّل أولى. و قوله: عِنْدَ اللَّهِ متعلق بكبر، و كذلك عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا قيل: هذا من كلام الرجل المؤمن، و قيل: ابتداء كلام من اللّه سبحانه كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ أى:

كما طبع على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يطبع: أى يختم على كلّ قلب متكبر جبار. قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد، و فى الكلام حذف و تقديره: كذلك يطبع اللّه على كلّ قلب كل متكبر، فحذف كلّ الثانية لدلالة الأولى عليها، و المعنى: أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين، و قرأ أبو عمرو، و ابن محيصن، و ابن ذكوان عن أهل الشام بتنوين قلب على أن متكبر صفة له، فيكون القلب مرادا به الجملة، لأن القلب هو محل التكبر، و سائر الأعضاء تبع له فى ذلك، و قرأ ابن مسعود على قلب كلّ متكبر. ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره و تجبره معرضا عن الموعظة نافرا من قبولها و قال: يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً أى: قصرا مشيدا كما تقدّم بيان تفسيره لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أى الطرق. قال قتادة و الزهرى و السدّى و الأخفش: هى الأبواب. و قوله: أَسْبابَ السَّماواتِ بيان للأسباب، لأن الشىء إذا أبهم ثم فسر كان أوقع فى النفوس، و أنشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير:

و من هاب أسباب المنايا ينلنهو لو رام أسباب السّماء بسلّم

و قيل: أسباب السموات الأمور التى يستمسك بها فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى قرأ الجمهور بالرفع عطفا على أبلغ، فهو على هذا داخل فى حيز الترجى. و قرأ الأعرج، و السلمى، و عيسى بن عمر و حفص بالنصب على جواب الأمر فى قوله: ابْنِ لِي أو على جواب الترجى كما قال أبو عبيد و غيره. قال النحاس: و معنى النصب خلاف معنى الرفع، لأن معنى النصب: متى بلغت الأسباب اطلعت، و معنى الرفع: لعلى أبلغ الأسباب، و لعلى أطلع بعد ذلك، و فى هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، و بمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدّا وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً أى: و إنى لأظنّ موسى كاذبا فى ادعائه بأن له إلها، أو فيما يدّعيه من الرسالة وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ أى: و مثل ذلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك و التكذيب، فتمادى فى الغىّ و استمرّ على الطغيان وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ أى: سبيل الرشاد. قرأ الجمهور «و صدّ» بفتح الصاد و الدال: أى صدّ فرعون الناس عن السبيل، و قرأ الكوفيون «و صدّ» بضم الصاد مبنيا للمفعول، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم، و لعلّ وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه فى زين من البناء للمفعول، و قرأ يحيى بن وثاب، و علقمة «صد» بكسر الصاد،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۵

و قرأ ابن أبى إسحاق، و عبد الرحمن بن أبى بكرة بفتح الصاد و ضمّ الدال منوّنا على أنه مصدر معطوف على سوء عمله: أى: زين له الشيطان سوء العمل و الصدّ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ التباب: الخسار و الهلاك و منه تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ «١»، ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير و التحذير كما حكى اللّه عنه بقوله: وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ أى: اقتدوا بى فى الدين أهدكم طريق الرشاد، و هو الجنة، و قيل: هذا من قول موسى، و الأوّل أولى. و قرأ معاذ بن جبل «الرشّاد» بتشديد الشين كما تقدّم قريبا فى قول فرعون و وقع فى المصحف اتبعون بدون ياء، و كذلك قرأ أبو عمرو، و نافع بحذفها فى الوقف، و إثباتها فى الوصل، و قرأ يعقوب، و ابن كثير بإثباتها وصلا و وقفا، و قرأ الباقون بحذفها وصلا، و وقفا فمن أثبتها فعلى ما هو الأصل، و من حذفها فلكونها حذفت فى المصحف يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ يتمتع بها أياما، ثم تنقطع و تزول وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ أى: الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع و مستمرة لا تزول مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها أى: من عمل فى دار الدنيا معصية من المعاصى كائنة ما كانت فلا يجزى إلا مثلها و لا يعذب إلا بقدرها، و الظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة، و قيل: هى خاصة بالشرك، و لا وجه لذلك وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أى: من عمل صالحا مع كونه مؤمنا باللّه، و بما جاءت به رسله فَأُولئِكَ الذين جمعوا بين العمل الصالح و الإيمان يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ أى: بغير تقدير، و محاسبة. قال مقاتل: يقول لا تبعة عليهم فيما يعطون فى الجنة من الخير، و قيل: العمل الصالح، هو لا إله إلا اللّه. قرأ الجمهور «يدخلون» بفتح التحتية مبنيا للفاعل. و قرأ ابن كثير، و ابن محيصن، و أبو عمرو، و يعقوب و أبو بكر عن عاصم بضمها مبنيا للمفعول.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس مِثْلَ دَأْبِ قال: مثل حال. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد عن قتادة مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ قال: هم الأحزاب: قوم نوح و عاد و ثمود. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ قال: رؤيا يوسف، و فى قوله: الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ قال يهود. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا فِي تَبابٍ قال: خسران. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن الحياة الدنيا متاع و ليس من متاعها شىء أفضل من المرأة الصالحة، التى إذا نظرت إليها سرّتك، و إذا غبت عنها حفظتك فى نفسها و مالك».

---

(١). المسد: ١.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٥٦٦

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٤١ الى ٥٢]

وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٤٤) فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (٤٥)

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (٤٦) وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (٤٧) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ

الْعِبادِ (۴۸) وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (۴۹) قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (۵۰)

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (۵۱) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۵۲)

كرّر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى اللّه و صرّح بإيمانه، و لم يسلك المسالك المتقدّمة من إيهامه لهم أنه منهم، و أنه إنما تصدّى للتذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى، كما يقوله الرجل المحبّ لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه فقال: وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ أى: أخبرونى عنكم كيف هذه الحال: أدعوكم إلى النجاة من النار و دخول الجنة بالإيمان باللّه و إجابة رسله، و تدعوننى إلى النار بما تريدونه منى من الشرك. قيل: معنى ما لِي أَدْعُوكُمْ ما لكم أدعوكم كما تقول: مالى أراك حزينا أى مالك. ثم فسر الدعوتين فقال: تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ فقوله تدعوننى بدل من تدعوننى الأولى أو بيان لها ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أى ما لا علم لى بكونه شريكا للّه وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ أى: إلى العزيز فى انتقامه ممن كفر «الغفار» لذنب من آمن به لا جَرَمَ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة هود، و جرم فعل ماض بمعنى حقّ، و لا الداخلة عليه لنفى ما ادّعوه و ردّ ما زعموه، و فاعل هذا الفعل هو قوله: أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ أى: حقّ و وجب بطلان دعوته. قال الزجاج: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع، و قيل:

ليس له دعوة توجب له الألوهية فى الدنيا و لا فى الآخرة. و قال الكلبى: ليس له شفاعة وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ أى: مرجعنا و مصيرنا إلى بالموت أوّلا، و بالبعث آخرا، فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير و شرّ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ أى: المستكثرين من معاصى اللّه. قال قتادة و ابن سيرين: يعنى المشركين. و قال مجاهد و الشعبى: هم السفهاء السفاكون للدّماء بغير حقها. و قال عكرمة: الجبارون، و المتكبرون. و قيل: هم الذين تعدّوا حدود اللّه، «و أن» فى الموضعين عطف على «أن» فى قوله:

أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ و المعنى: و حقّ أن مردّنا إلى اللّه، و حقّ أن المسرفين إلخ فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ إذا نزل بكم العذاب و تعلمون أنى قد بالغت فى نصحكم و تذكيركم، و فى هذا الإبهام من التخويف و التهديد ما لا يخفى وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ أى: أتوكل عليه و أسلم أمرى إليه. قيل: إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به. قال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه. و قيل: القائل هو موسى، و الأوّل أولى فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا أى: وقاه اللّه ما أرادوا به من المكر السيئ، و ما أرادوه به من الشرّ. قال قتادة:

نجاه اللّه مع بنى إسرائيل وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ أى: أحاط بهم، و نزل عليهم سوء العذاب.

قال الكسائى: يقال حاق يحيق حيقا و حيوقا: إذا نزل و لزم. قال الكلبى: غرقوا فى البحر و دخلوا النار، و المراد بآل فرعون: فرعون و قومه، و ترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره لكونه أولى بذلك منهم، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه. و الأوّل أولى لأنهم قد عذبوا فى الدنيا جميعا بالغرق، و سيعذبون فى الآخرة بالنار ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب، فقال: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب، و قيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، و خبره: يعرضون، و الأوّل أولى و رجحه الزجاج و على الوجهين الأخيرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر. و قرىء بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى، أى: يصلون النار يعرضون عليها، أو على الاختصاص، و أجاز الفرّاء الخفض على البدل من العذاب. و ذهب الجمهور أن هذا العرض هو فى البرزخ، و قيل: هو فى الآخرة. قال الفراء: و يكون فى

الآيـة تقـديم و تأخير، أى: أدخلوا آل فرعون أشدّ العـذاب النار يعرضون عليها غـدوّا و عشـيا، و لا ملجئ إلى هذا التكلف، فإن قوله: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ يدل دلالة واضـحة على أن ذلك العرض هو فى البرزخ، و قوله: أَدْخِلُوا هو بتقـدير القول: أى يقال للملائكـة أدخلوا آل فرعون، و أَشَدَّ الْعَذابِ هو عذاب النار. قرأ حمزة، و الكسائى، و نافع، و حفص «أدخلوا» بفتـح الهمزة و كسـر الخـاء، و هو على تقـدير القول كما ذكر. و قرأ الباقون «ادخلوا» بهمزة وصل من دخل يـدخل أمرا لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء، أى: ادخلوا يا آل فرعون أشدّ العذاب وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ الظرف منصوب بإضـمار اذكر. و المعنى: اذكر لقومك وقت تخاصـمهم فى النار، ثم بين سبحانه هذا التخاصم فقال: فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عن الانقيـاد للأنبيـاء و الاتباع لهم، و هم رؤساء الكفر إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً جمع لتابع، كخـدم و خادم، أو مصـدر واقع موقع اسم الفاعل، أى: تابعين أو على حذف مضاف، أى: ذوى تبع. قال البصريون:

التبع يكون واحـدا و يكون جمعـا. و قال الكوفيون هو جمع لا واحـد له فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ أى: هل تـدفعون عنا نصيبا منها، أو تحملونه معنا، و انتصاب نصيبا بفعل مقدّر يدل عليه مغنون: أى:

هل تدفعون عنا نصـيبا أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين، أى: هل أنتم حاملون معنا نصيبا، أو على المصدرية هل تدفعون عنا نصـيبا أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين، أى: هل أنتم حاملون معنا نصيبا، أو على المصدرية قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر و المعنى: إنا نحن و أنتم جميعا فى جهنم، فكيف نغنى عنكم. قرأ الجمهور «كلّ»، بالرّفع على الابتداء، و خبره «فيها»، و الجملة خبر

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۸

إن، قاله الأخفش. و قرأ ابن السـميقع و عيسـى بن عمر «كلّا» بالنصب. قال الكسائى و الفراء على التأكيـد لاسم إن بمعنى كلنا، و تنوينه عوض عن المضـاف إليه، و قيل: على الحال و رجحه ابن مالك إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ أى: قضـى بينهم بأن فريقا فى الجنـة، و فريقـا فى السعير وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ من الأمم الكافرة، مستكبرهم و ضـعيفهم لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ جمع خازن، و هو القوّام بتعـذيب أهل النار ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ يوما ظرف ليخفف، و مفعول يخفف محذوف، أى: يخفف عنا شـيئا من العـذاب مقـدار يوم أو فى يوم، و جملـة قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ مسـتأنفة جواب سؤال مقـدّر، و الاسـتفهام للتوبيـخ و التقريع قالُوا بَلى أى: أتونا بها فكـذبناهم و لم نؤمن بهم و لا بما جاءوا به من الحجـج الواضـحة، فلما اعترفوا قالُوا أى: قال لهم الملائكـة الذين هم خزنة جهنم فَادْعُوا أى: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنا لا ندعو لمن كفر باللّه و كذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة.

ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شـيئا فقالوا: وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ أى: فى ضياع و بطلان و خسار و تبار، و جملة إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مسـتأنفة من جهته سبحانه، أى: نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، و الموصول: فى محل نصب عطفا على رسلنا، أى: لننصـر رسلنا، و ننصر الذين آمنوا معهم فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بما عوّدهم اللّه من الانتقام منهم بالقتل، و السلب، و الأسر، و القهر وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ و هو يوم القيامة. قال زيد بن أسلم: الأشهاد هم الملائكة و النبيون. و قال مجاهد و السدّى: الأشـهاد الملائكة تشـهد للأنبياء بالإبلاغ، و على الأمم بالتكذيب. قال الزجاج: الأشـهاد جمع شاهد مثل صاحب و أصحاب. قال النحاس: ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال و لا يقاس عليه، و لكن ما جاء منه مسـموعا أدّى على ما يسمع، فهو على هذا جمع شهيد، مثل شـريف و أشراف، و معنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد: أن اللّه يجازيهم بأعمالهم، فيدخلهم الجنة، و يكرمهم بكراماته، و يجازى الكفار بأعمالهم، فيلعنهم، و يـدخلهم النار، و هو معنى قوله: يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أى: البعد عن الرّحمة وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أى: النار و يوم بدل من يوم يقول الأشـهاد، و إنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة، و تعلة داحضـة

و شبهة زائغة، قرأ الجمهور «تنفع» بالفوقية. و قرأ نافع و الكوفيون بالتحتية، و الكل جائز فى اللغة.
و قد أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ قال: السفاكين للدّماء بغير حقها. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:
«إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشىّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، و إن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك اللّه إليه يوم القيامة» زاد ابن مردويه.
ثم قرأ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا- أثابه اللّه، قلنا يا رسول اللّه ما إثابة الكافر؟ قال: المال و الولد و الصحة و أشباه ذلك، قلنا: و ما إثابته فى الآخرة؟
فتح القدير، ج۴، ص: ۵۶۹
قال: عذابا دون العذاب، و قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ . و أخرج أحمد، و الترمذى و حسنه، و ابن أبى الدنيا، و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من ردّ عن عرض أخيه ردّ اللّه عن وجهه نار جهنّم يوم القيامة، ثم تلا- إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا». و أخرج ابن مردويه من حديث أبى هريرة مثله.

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۵۳ الى ۶۵]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (۵۳) هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (۵۵) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۵۶) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۵۷)
وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (۵۸) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا- يُؤْمِنُونَ (۵۹) وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (۶۰) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۶۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۶۲)
كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۶۳) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۶۴) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۵)
قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى هذا من جملة ما قصه اللّه سبحانه قريبا من نصره لرسله: أى:
آتيناه التوراة و النبوّة، كما فى قوله سبحانه: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ «۱» قال مقاتل: الهدى من الضلالة: يعنى التوراة وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ المراد بالكتاب التوراة، و معنى أورثنا أن اللّه سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم و توارثوها خلفا عن سلف.
و قيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة على أنبياء بنى إسرائيل بعد موت موسى، و هدى و ذكرى: فى محل نصب على أنهما مفعول لأجله، أى: لأجل الهدى و الذكر، أو على أنهما مصدران فى موضع الحال، أى:

هاديا و مذكرا، و المراد بأولى الألباب: أهل العقول السليمة. ثم أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بالصبر على الأذى فقال: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل؛ إن وعد اللّه الذى وعد به رسله حقّ لا خلف فيه، و لا شك فى وقوعه كما فى قوله: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا «٢» و قوله:

---

(١). المائدة: ۴۴.

(٢). غافر: ۵۱.

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «١» قال الكلبى: نسخ هذا بآية السيف. ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه فقال: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ قيل: المراد ذنب أمتك فهو على حذف مضاف، و قيل: المراد الصغائر عند من يجوّزها على الأنبياء، و قيل: هو مجرد تعبد له صلّى اللّه عليه و سلم بالاستغفار لزيادة الثواب، و قد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ أى: دم على تنزيه اللّه متلبسا بحمده، و قيل: المراد صلّ فى الوقتين: صلاة العصر، و صلاة الفجر. قاله الحسن و قتادة، و قيل: هما صلاتان: ركعتان غدوة، و ركعتان عشية، و ذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ أى: بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة اللّه سبحانه إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ أى: ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق يحملهم على تكذيبك، و جملة ما هُمْ بِبالِغِيهِ صفة لكبر قال الزجاج: المعنى ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه، فجعله على حذف المضاف. و قال غيره: ما هم ببالغى الكبر. و قال ابن قتيبة: المعنى إن فى صدورهم إلا كبر، أى: تكبر على محمد صلّى اللّه عليه و سلم و طمع أن يغلبوه و ما هم ببالغى ذلك، و قيل: المراد بالكبر الأمر الكبير، أى:

يطلبون النبوّة، أو يطلبون أمرا كبيرا يصلون به إليك من القتل و نحوه و لا يبلغون ذلك. و قال مجاهد: معناه فى صدورهم عظمة ما هم ببالغيها. و المراد بهذه الآية المشركون، و قيل: اليهود كما سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء اللّه. ثم أمره اللّه سبحانه بأن يستعيذ باللّه من شرورهم فقال: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أى: فالتجئ إليه من شرّهم، و كيدهم، و بغيهم عليك إنه السميع لأقوالهم؛ البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية. ثم بين سبحانه عظيم قدرته فقال: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ أى: أعظم فى النفوس و أجلّ فى الصدور، لعظم أجرامهما، و استقرارهما من غير عمد، و جريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فكيف ينكرون البعث و إحياء ما هو دونهما من كل وجه كما فى قوله: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ «٢» قال أبو العالية: المعنى لخلق السموات و الأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود. و قال يحيى بن سلام: هو احتجاج على منكرى البعث، أى: هما أكبر من إعادة خلق الناس وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ بعظيم قدرة اللّه و أنه لا يعجزه شى‌ء.

ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالا للباطل و الحق و أنهما لا يستويان فقال: وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أى: الذى يجادل بالباطل، و الذى يجادل بالحق وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لَا الْمُسِي‌ءُ أى: و لا يستوى المحسن بالإيمان، و العمل الصالح؛ و المسى‌ء بالكفر، و المعاصى، و زيادة «لا» فى و لا المسى‌ء للتأكيد قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ قرأ الجمهور «يتذكرون» بالتحية على الغيبة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، و أبو حاتم، لأن قبلها و بعدها على الغيبة لا على الخطاب، و قرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات، أى: تذكرا قليلا ما تتذكرون إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها أى: لا شك فى مجيئها، و حصولها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ و لا يصدقونه لقصور أفهامهم و ضعف عقولهم عن إدراك

(۱). الصافات: ۱۷۱- ۱۷۳.

(۲). يس: ۸۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۱

الحجة، و المراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث. ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه و لا شبهة، أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة فى دار الخلود، فأمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يحكى عنه ما أمره بإبلاغه و هو وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ قال أكثر المفسرين المعنى: وحدونى و اعبدونى أتقبل عبادتكم و أغفر لكم، و قيل: المراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع، و دفع الضر. قيل: الأوّل أولى لأن الدعاء فى أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة. قلت: بل الثانى أولى لأن معنى الدعاء حقيقة و شرعا: هو الطلب، فإن استعمل فى غير ذلك فهو مجاز، على أن الدعاء فى نفسه باعتبار معناه الحقيقى هو عبادة، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فاللّه سبحانه قد أمر عباده بدعائه و وعدهم بالإجابة و وعده الحق، و ما يبدل القول لديه، و لا يخلف الميعاد. ثم صرّح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقى و هو الطلب هو من عبادته فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ أى: ذليلين صاغرين و هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء اللّه، و فيه لطف بعباده عظيم و إحسان إليهم جليل؛ حيث توعد من ترك طلب الخير منه، و استدفاع الشرّ به بهذا الوعيد البالغ، و عاقبه بهذه العقوبة العظيمة. فيا عباد اللّه وجهوا رغباتكم و عوّلوا فى كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، و أرشدكم إلى التعويل عليه، و كفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه، و يغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، و ملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا و الدين، قيل: و هذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة؛ أى:
أستجب لكم إن شئت كقوله سبحانه: فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ «۱» اللّه، قرأ الجمهور «سيدخلون» بفتح الياء و ضم الخاء مبنيا للفاعل، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و ورش و أبو جعفر بضم الياء و فتح الخاء مبنيا للمفعول. ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده فقال: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ من الحركات فى طلب الكسب لكونه جعله مظلما باردا تناسبه الراحة بالسكون و النوم وَ النَّهارَ مُبْصِراً أى: مضيئا لتبصروا فى حوائجكم و تتصرفوا فى طلب معايشكم إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ يتفضل عليهم بنعمه التى لا تحصى وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ النعم، و لا يعترفون بها، إما لجحودهم لها، و كفرهم بها كما هو شأن الكفار، أو لإغفالهم للنظر، و إهمالهم لما يجب من شكر المنعم، و هم الجاهلون ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بين سبحانه فى هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده قرأ الجمهور خالق بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأوّل عن المبتدأ، و قرأ زيد بن علىّ بنصبه على الاختصاص فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى: فكيف تنقلبون عن عبادته و تنصرفون عن توحيده كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أى: مثل الإفك يؤفك الجاحدون لآيات اللّه المنكرون لتوحيده. ثم ذكر لهم سبحانه نوعا آخر من نعمه التى أنعم بها عليهم مع ما فى ذلك من الدلالة على كمال قدرته و تفرّده بالإلهية فقال: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً أى: موضع قرار فيها تحيون، و فيها تموتون وَ السَّماءَ بِناءً: أى سقفا قائما ثابتا. ثم بين بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد فقال: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ أى: خلقكم فى أحسن صورة. قال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. قرأ الجمهور

(۱). الأنعام: ۴۱.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۲

«صوركم» بضم الصاد و قرأ الأعمش و أبو رزين بكسرها. قال الجوهري: و الصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أي: المستلذات ذلِكُمُ المبعوث بهذه النعوت الجليلة اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أي: كثرة خيره و بركته هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي: الباقي الذي لا يفنى المنفرد بالألوهية فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أي: الطاعة و العبادة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ قال الفراء: هو خبر و فيه إضمار أمره، أي: احمدوه.

و قد أخرج عبد بن حميد، و ابن أبي حاتم. قال السيوطي بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، و يكون في أمره فعظموا أمره، و قالوا: نصنع كذا و نصنع كذا، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ قال: لا يبلغ الذي يقول: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ فأمر نبيه أن يتعوّذ من فتنة الدجال لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ الدجال. و أخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في الآية قال:

هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن مجاهد في قوله: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ قال: عظمة قريش. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبي شيبة، و أحمد، و عبد بن حميد، و البخاري في الأدب المفرد، و أبو داود، و الترمذي، و النسائي، و ابن ماجة، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و الطبراني، و ابن حبان، و الحاكم، و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم في الحلية، و البيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي قال: عن دعائي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ . قال الترمذي: حسن صحيح. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب عن البراء أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إن الدعاء هو العبادة وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . و أخرج ابن جرير و ابن مردويه و أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ قال: وحدوني أغفر لكم. و أخرج الحاكم و صححه عن جرير بن عبد اللّه في الآية قال: اعبدوني. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الدعاء الاستغفار» و أخرج ابن أبي شيبة، و الحاكم، و أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من لم يدع اللّه يغضب عليه». و أخرج أحمد، و الحكيم الترمذي، و أبو يعلى، و الطبراني عن معاذ بن جبل عن النبي صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا ينفع حذر من قدر، و لكن الدعاء ينفع مما نزل و مما لم ينزل فعليكم بالدعاء». و أخرج الترمذي، و الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «الدعاء مخّ العبادة». و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: أفضل العبادة الدعاء، قرأ وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ الآية. و أخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت: سئل النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم أيّ العبادة أفضل؟ فقال: دعاء المرء لنفسه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقي في الأسماء و الصفات عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا اللّه فليقل على أثرها: الحمد للّه ربّ العالمين، و ذلك قوله: فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۳

[سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۶ الى ۸۵]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶۶) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۶۸) أَ لَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (۶۹) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰)
إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳)
مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (۷۴) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵)
ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (۷۸) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها
تَأْكُلُونَ (۷۹) وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۸۰)
وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (۸۱) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ
أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ
حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸۳) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (۸۴) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ
إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (۸۵)

أمر اللّه سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن اللّه نهاه عن عبادة غيره و أمره بالتوحيد فقال: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و هى: الأصنام. ثم بين وجه النهى فقال: لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي و هى للأدلة العقلية و النقلية، فإنها توجب التوحيد وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ أى:

استسلم له بالانقياد و الخضوع. ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة على التوحيد فقال: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أى: خلق أباكم الأوّل، و هو آدم، و خلقه من تراب يستلزم خلق ذرّيته منه ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ قد تقدم تفسير هذا فى غير موضع ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أى: أطفالا، و أفرده لكونه اسم جنس، أو على معنى يخرج كلّ واحد منكم طفلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ و هى الحالة التى تجتمع فيها القوّة و العقل، و قد سبق بيان الأشدّ مستوفى فى الأنعام، و اللام التعليلية فى: لتبلغوا معطوفة على علة أخرى،

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۷۴

ليخرجكم مناسبة لها، و التقدير: لتكبروا شيئا فشيئا، ثم لتبلغوا غاية الكمال، و قوله: ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً معطوف على لتبلغوا، قرأ نافع، و حفص، و أبو عمرو، و ابن محيصن، و هشام «شيوخا» بضم الشين، و قرأ الباقون بكسرها، و قرىء و شيخا على الإفراد لقوله طفلا، و الشيخ من جاوز أربعين سنة وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ أى: من قبل الشيخوخة وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى أى: وقت الموت أو يوم القيامة، و اللام هى لام العاقبة وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: لكى تعقلوا توحيد ربكم و قدرته البالغة فى خلقكم على هذه الأطوار المختلفة هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ أى: يقدر على الإحياء و الإماتة فَإِذا قَضى أَمْراً من الأمور التى يريدها فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ من غير توقف، و هو تمثيل لتأثير قدرته فى المقدورات عند تعلق إرادته بها، و قد تقدّم تحقيق معناه فى البقرة و فيما بعدها. ثم عجب سبحانه من أحوال المجادلين فى آيات اللّه فقال: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ و قد سبق بيان معنى المجادلة أَنَّى يُصْرَفُونَ أى: كيف يصرفون عنها مع قيام الأدلة الدالة على صحتها، و أنها فى أنفسها موجبة للتوحيد.

قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قوله: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا قال القرطبى:

و قال أكثر المفسرين نزلت فى القدرية. قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت فى القدرية فلا أدرى فيمن نزلت، و يجاب عن هذا بأن اللّه سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدلّ على غير ما قالوه، فقال: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ أى: بالقرآن، و هذا وصف لا يصحّ أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام، و الموصول إما فى محل جرّ على أنه نعت للموصول الأوّل، أو بدل منه، و يجوز أن

يكون فى محل نصب على الذمّ، و المراد بالكتاب: إما القرآن، أو: جنس الكتب المنزلة من عند اللّه، و قوله: وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا معطوف على قوله بالكتاب، و يراد به ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام فى الكتاب للجنس، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب: القرآن فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة أمرهم، و وبال كفرهم، و فى هذا وعيد شديد، و الظرف فى قوله: إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ متعلق بيعلمون، أى: فسوف يعلمون وقت كون الأغلال فى أعناقهم وَ السَّلاسِلُ معطوف على الأغلال، و التقدير: إذ الأغلال و السلاسل فى أعناقهم، و يجوز أن يرتفع السلاسل: على أنه مبتدأ، و خبره: محذوف لدلالة فى أعناقهم عليه، و يجوز أن يكون خبره:

يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ بحذف العائد، أى: يسحبون بها فى الحميم، و هذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل، و قرأ ابن عباس، و ابن مسعود، و عكرمة، و أبو الجوزاء بنصبها، و قرءوا «يسحبون» بفتح الياء مبنيا للفاعل، فتكون السلاسل مفعولا مقدّما، و قرأ بعضهم بجرّ السلاسل. قال الفراء: و هذه القراءة محمولة على المعنى، إذ المعنى: أعناقهم فى الأغلال و السلاسل. و قال الزجاج: المعنى على هذه القراءة: و فى السلاسل يسحبون، و اعترضه ابن الأنبارى بأن ذلك لا يجوز فى العربية، و محل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال، و على تقدير كونها: مبتدأ، و خبرها: فى أعناقهم النصب على الحال، أو لا محل له، بل هو مستأنف جواب سؤال مقدّر، و الحميم: هو المتناهى فى الحرّ، و قيل: الصديد و قد تقدّم تفسيره ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ يقال سجرت التنور: أى أوقدته، و سجرته: ملأته بالوقود، و منه

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۵۷۵

وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ «۱» أى: المملوء، فالمعنى توقد بهم النار، أو تملأ بهم. قال مجاهد و مقاتل: توقد بهم النار فصاروا وقودها ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هذا توبيخ و تقريع لهم، أى: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون اللّه قالُوا ضَلُّوا عَنَّا أى: ذهبوا، و فقدناهم فلا نراهم، ثم أضربوا عن ذلك، و انتقلوا إلى الإخبار بعدمهم، و أنه لا وجود لهم فقالوا: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً أى: لم نكن نعبد شيئا، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة و الجهالة، و أنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر و لا يسمع، و لا يضرّ و لا ينفع، و ليس هذا إنكارا منهم لوجود الأصنام التى كانوا يعبدونها، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ أى: مثل ذلك الضلال يضلّ اللّه الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التى أوصلتهم إلى النار، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى الإضلال المدلول عليه بالفعل: أى ذلك الإضلال بسبب بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ أى: بما كنتم تظهرون فى الدنيا من الفرح بمعاصى اللّه، و السرور بمخالفة رسله و كتبه، و قيل: بما كنتم تفرحون به من المال و الأتباع و الصحة، و قيل:

بما كنتم تفرحون به من إنكار البعث، و قيل: المراد بالفرح هنا: البطر و التكبر، و بالمرح: الزيادة فى البطر.

و قال مجاهد و غيره: تمرحون: أى تبطرون و تأشرون. و قال الضحاک: الفرح السرور، و المرح: العدوان.

و قال مقاتل. المرح: البطر و الخيلاء ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ حال كونكم خالِدِينَ فِيها أى:

مقدّرين الخلود فيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ عن قبول الحق جهنم. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم بالصبر، فقال: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة، إما فى الدنيا، أو فى الآخرة، و لهذا قال: فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب فى الدنيا بالقتل، و الأسر، و القهر، و ما فى «فإما» زائدة على مذهب المبرد و الزجاج، و الأصل فإن نرک، و لحقت بالفعل دون التأكيد و قوله:

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ معطوف على نرينك، أى: أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ يوم القيامة فنعذبهم وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ أى: أنبأناك بأخبارهم و ما لقوه من قومهم وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ خبره و لا أوصلنا

إلیک علم ما کان بینه و بین قومه وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لا من قبل نفسه، و المراد بالآیة: المعجزة الدالة علی نبوّته فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ أی: إذا جاء الوقت المعین لعذابهم فی الدنیا أو فی الآخرة قُضِیَ بِالْحَقِ فیما بینهم فینجی اللّه بقضائه الحق عباده المحقین وَ خَسِرَ هُنالِکَ أی: فی ذلک الوقت الْمُبْطِلُونَ الذین یتبعون الباطل، و یعملون به. ثم امتنّ سبحانه علی عباده بنوع من أنواع نعمه التی لا تحصی فقال: اللَّهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَنْعامَ أی: خلقها لأجلکم، قال الزجاج: الأنعام هاهنا: الإبل، و قیل: الأزواج الثمانیة لِتَرْکَبُوا مِنْها من للتبعیض، و کذلک فی قوله: وَ مِنْها تَأْکُلُونَ و یجوز أن تکون لابتداء الغایة فی الموضعین و معناها ابتداء الرکوب، و ابتداء الأکل، و الأوّل أولی. و المعنی: لترکبوا بعضها و تأکلوا بعضها وَ لَکُمْ فِیها مَنافِعُ أخر غیر الرکوب و الأکل من الوبر، و الصوف، و الشعر، و الزبد، و السمن، و الجبن، و غیر ذلک وَ لِتَبْلُغُوا عَلَیْها حاجَةً فِی صُدُورِکُمْ قال مجاهد، و مقاتل، و قتادة: تحمل أثقالکم من بلد إلی بلد،

---

(۱). الطور: ۶.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۷۶

و قد تقدم بیان هذا مستوفی فی سورة النحل وَ عَلَیْها وَ عَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ أی: علی الإبل فی البرّ، و علی السفن فی البحر. و قیل: المراد بالحمل علی الأنعام هنا حمل الولدان، و النساء بالهوادج وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ أی: دلالاته الدالة علی کمال قدرته و وحدانیته فَأَیَّ آیاتِ اللَّهِ تُنْکِرُونَ فإنها کلها من الظهور، و عدم الخفاء بحیث لا ینکرها منکر، و لا یجحدها جاحد، و فیه تقریع لهم، و توبیخ عظیم، و نصب أی بتنکرون، و إنما قدم علی العامل فیه لأن له صدر الکلام. ثم أرشدهم سبحانه إلی الاعتبار، و التفکر فی آیات اللّه فقال:

أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم التی عصت اللّه، و کذبت رسلها، فإن الآثار الموجودة فی دیارهم تدلّ علی ما نزل بهم من العقوبة و ما صاروا إلیه من سوء العاقبة.

ثم بین سبحانه أن تلک الأمم کانوا فوق هؤلاء فی الکثرة و القوّة فقال: کانُوا أَکْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً أی:

أکثر منهم عددا و أقوی منهم أجسادا، و أوسع منهم أموالا وَ أظهر منهم آثاراً فِی الْأَرْضِ بالعمائر، و المصانع، و الحرث فَما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ یجوز أن تکون ما الأولی استفهامیة:

أی: أیّ شیء أغنی عنهم، أو نافیة: أی: لم یغن عنهم، و ما الثانیة یجوز أن تکون موصولة و أن تکون مصدریة فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ أی: بالحجج الواضحات و المعجزات الظاهرات فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أی: أظهروا الفرح بما عندهم مما یدعون أنه من العلم من الشبه الداحضة، و الدعاوی الزائفة، و سماه علما تهکما بهم، أو علی ما یعتقدونه. و قال مجاهد: قالوا نحن أعلم منهم لن نعذب، و لن نبعث، و قیل: المراد من علم أحوال الدنیا لا الدین کما فی قوله: یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَیاةِ الدُّنْیا و قیل: الذین فرحوا بما عندهم من العلم هم الرسل، و ذلک أنه لما کذبهم قومهم أعلمهم اللّه بأنه مهلک الکافرین، و منجی المؤمنین ففرحوا بذلک وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ أی: أحاط بهم جزاء استهزائهم فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا أی: عاینوا عذابنا النازل بهم قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ کَفَرْنا بِما کُنَّا بِهِ مُشْرِکِینَ و هی الأصنام التی کانوا یعبدونها فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا أی: عند معاینة عذابنا، لأن ذلک الإیمان لیس بالإیمان النافع لصاحبه، فإنه إنما ینفع الإیمان الاختیاری لا الإیمان الاضطراری سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ أی: التی مضت فی عباده، و المعنی: أن اللّه سبحانه سن هذه السنة فی الأمم کلها أنه لا ینفعهم الإیمان إذا رأوا العذاب و قد مضی بیان هذا فی سورة النساء، و سورة التوبة، و انتصاب سنة علی أنها مصدر مؤکد لفعل محذوف بمنزلة وعد اللّه و ما أشبهه من المصادر المؤکدة. و قیل: هو منصوب علی التحذیر، أی:

احذروا یا أهل مکة سنة اللّه فی الأمم الماضیة، و الأوّل أولی وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ أی: وقت رؤیتهم بأس اللّه و معاینتهم لعذابه. قال الزجاج: الکافر خاسر فی کل وقت، و لکنه یتبین لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

و قد أخرج أحمد، و الترمذی و حسنه، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث و النشور عن عبد اللّه بن عمرو قال: «تلا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم إِذِ الْأَغْلالُ فِی أَعْناقِهِمْ إلی قوله: یُسْجَرُونَ فقال: لو أن رصاصة مثل هذه- و أشار إلی جمجمة- أرسلت من السماء إلی الأرض، و هی مسیرة خمسمائة

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۷۷

سنة لبلغت الأرض قبل اللیل، و لو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعین خریفا اللیل و النهار قبل أن تبلغ أصلها، أو قال قعرها». و أخرج ابن أبی الدنیا فی صفة النار عن ابن عباس قال: یسحبون فی الحمیم فینسلخ کل شیء علیهم من جلد، و لحم، و عرق حتی یصیر فی عقبه حتی إن لحمه قدر طوله، و طوله ستون ذراعا، ثم یکسی جلدا آخر، ثم یسجر فی الحمیم. و أخرج الطبرانی فی الأوسط، و ابن مردویه عن علیّ بن أبی طالب فی قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَیْکَ قال: بعث اللّه عبدا حبشیا فهو ممن لم یقصص علی محمد.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۵۷۸

سورة فصّلت

اشارة

و تسمی سورة فصلت و هی أربع و خمسون آیة، و قیل ثلاث و خمسون. قال القرطبی: و هی مکیة فی قول الجمیع. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس، و ابن الزبیر أنها نزلت بمکة. و أخرج ابن أبی شیبة، و عبد بن حمید، و أبو یعلی، و الحاکم و صححه، و ابن مردویه، و أبو نعیم و البیهقی کلاهما فی الدلائل، و ابن عساکر عن جابر بن عبد اللّه قال: «اجتمعت قریش یوما فقالوا: انظروا أعلمکم بالسحر و الکهانة و الشعر فلیأت هذا الرجل الذی قد فرّق جماعتنا و شتت أمرنا و عاب دیننا، فلیکلمه و لینظر ماذا یردّ علیه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غیر عتبة بن ربیعة، فقالوا: أنت یا أبا الولید، فأتاه فقال: یا محمد أنت خیر أم عبد اللّه، أنت خیر أم عبد المطلب؟ فسکت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، قال: فإن کنت تزعم أن هؤلاء خیر منک فقد عبدوا الآلهة التی عبت، و إن کنت تزعم أنک خیر منهم فتکلم حتی نسمع قولک، أما و اللّه ما رأینا سخلة قط أشأم علی قومک منک، فرّقت جماعتنا و شتت أمرنا و عبت دیننا و فضحتنا فی العرب، حتی لقد طار فیهم أن فی قریش ساحرا و أن فی قریش کاهنا، و اللّه ما ننتظر إلا مثل صیحة الحبلی أن یقوم بعضنا إلی بعض بالسیوف، یا رجل إن کان إنما بک الحاجة جمعنا لک حتی تکون أغنی قریش رجلا، و إن کان إنما بک الباءة فاختر أیّ نساء قریش شئت فلنزوّجنک عشرا، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: فرغت؟

قال نعم، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: بسم اللّه الرحمن الرحیم حم تنزیل من الرحمن الرحیم کتاب فصلت آیاته» حتی بلغ «فإن أعرضوا فقل أنذرتکم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود» فقال عتبة: حسبک حسبک ما عندک غیر هذا؟ قال لا، فرجع إلی قریش فقالوا ما وراءک؟ قال: ما ترکت شیئا أری أنکم تکلمونه به إلا کلمته، فقالوا: فهل أجابک قال: و الذی نصبها بنیة ما فهمت شیئا مما قال غیر أنه أنذرکم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود، قالوا: ویلک یکلمک الرجل بالعربیة و ما تدری ما قال؟ قال: لا و اللّه ما فهمت شیئا مما قال غیر ذکر الصاعقة». و أخرج أبو نعیم و البیهقی کلاهما فی الدلائل عن ابن عمر قال: «لما قرأ النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم علی عتبة بن ربیعة حم تنزیل من الرحمن الرحیم أتی أصحابه فقال: یا قوم أطیعونی فی هذا الیوم و

اعصونى بعده، فو اللّه لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ما سمعت أذنى قط كلاما مثله، و ما دريت ما أرد عليه». و فى هذا الباب روايات تدلّ على اجتماع قريش و إرسالهم عتبة بن ربيعة و تلاوته صلّى اللّه عليه و سلم أوّل هذه السورة عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فصلت (41): الآيات 1 الى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4)

وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9)

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (13) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14)

فتح القدير، ج4، ص: 579

قوله: حم قد تقدم الكلام على إعرابه و معناه فى السورة التى قبل هذه السورة فلا نعيده، و كذلك تقدّم الكلام على معنى تَنْزِيلٌ و إعرابه. قال الزجاج و الأخفش: تنزيل مرفوع بالابتداء، و خبره:

كِتابٌ فُصِّلَتْ و قال الفراء: يجوز أن يكون على إضمار هذا، و يجوز أن يقال كتاب بدل من قوله تنزيل، و مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ متعلق بتنزيل، و معنى فُصِّلَتْ آياتُهُ بينت أو جعلت أساليب مختلفة، قال قتادة: فصلت ببيان حلاله من حرامه و طاعته من معصيته. و قال الحسن: بالوعد و الوعيد. و قال سفيان:

بالثواب و العقاب و لا مانع من الحمل على الكل. و الجملة فى محلّ نصب صفة لكتاب. و قرئ «فصلت» بالتخفيف، أى: فرقت بين الحق و الباطل، و انتصاب قُرْآناً عَرَبِيًّا على الحال، أى: فصلت آياته حال كونه قرآنا عربيا. و قال الأخفش: نصب على المدح، و قيل: على المصدرية، أى: يقرؤه قرآنا، و قيل:

مفعول ثان لفصلت، و قيل: على إضمار فعل يدل عليه فصلت، أى: فصلناه قرآنا عربيا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى يعلمون معانيه و يفهمونها: و هم أهل اللسان العربى. قال الضحاك: أى يعلمون أن القرآن منزل من عند اللّه. و قال مجاهد: أى يعلمون أنه إله واحد فى التوراة و الإنجيل، و اللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآن، أى: كائنا لقوم أو متعلق بفصلت، و الأول أولى، و كذلك بَشِيراً وَ نَذِيراً: صفتان أخريان لقرآنا، أو حالان من كتاب، و المعنى: بشيرا لأولياء اللّه، و نذيرا لأعدائه. و قرئ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ بالرفع على أنهما صفة لكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ المراد بأكثر هنا: الكفار، أى: فأعرض الكفار عما اشتمل عليه من النذارة فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماعا ينتفعون به لإعراضهم عنه وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ أى: فى أغطية مثل الكنانة التى

فيها السهام، فهى لا تفقه ما تقول، و لا يصل إليها قولك، و الأكنة:
جمع كنان، و هو الغطاء، قال مجاهد: الكنان للقلب: كالجنة للنبل، و قد تقدّم بيان هذا فى البقرة وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ أى: صمم، و أصل الوقر: الثقل. و قرأ طلحة بن مصرف «وقر» بكسر الواو. و قرئ بفتح الواو و القاف، و مِنْ فى وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ لابتداء الغاية، و المعنى: أن الحجاب ابتدأ منا، و ابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا و جهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها، و هذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق، و مج أسماعهم له، و امتناع المواصلة بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فَاعْمَلْ إِنَّنا

فتح القدير، ج‏4، ص: 580

عامِلُونَ أى: اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا. و قال الكلبى: اعمل فى هلاكنا فإنا عاملون فى هلاكك. و قال مقاتل: اعمل لإلهك الذى أرسلك؛ فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها، و قيل: اعمل لآخرتك فإنا عاملون لدنيانا. ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ أى: إنما أنا كواحد منكم لو لا الوحى، و لم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم فى أكنة مما أدعوكم إليه، و فى آذانكم وقر، و من بينى و بينكم حجاب، و لم أدعكم إلى ما يخالف العقل، و إنما أدعوكم إلى التوحيد قرأ الجمهور يُوحى مبنيا للمفعول. و قرأ الأعمش و النخعى مبنيا للفاعل، أى: يوحى اللّه إلىّ. قيل و معنى الآية: إنى لا أقدر على أن أحملكم على الإيمان قسرا فإنى بشر مثلكم و لا امتياز لى عنكم إلا أنى أوحى إلىّ التوحيد و الأمر به، فعلىّ البلاغ وحده فإن قبلتم رشدتم، و إن أبيتم هلكتم.
و قيل المعنى: إنى لست بملك و إنما أنا بشر مثلكم، و قد أوحى إلىّ دونكم، فصرت بالوحى نبيا، و وجب عليكم اتباعى. و قال الحسن فى معنى الآية: إن اللّه سبحانه علم رسوله صلّى اللّه عليه و سلم كيف يتواضع فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ عدّاه بإلى لتضمنه معنى توجهوا، و المعنى: وجهوا استقامتكم و لا تميلوا عن سبيله وَ اسْتَغْفِرُوهُ لما فرط منكم من الذنوب. ثم هدّد المشركين و توعدهم فقال: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ثم وصفهم بقوله:
الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ أى: يمنعونها و لا يخرجونها إلى الفقراء. و قال الحسن و قتادة: لا يقرّون بوجوبها. و قال الضحاك و مقاتل: لا يتصدقون و لا ينفقون فى الطاعة. و قيل معنى الآية، لا يشهدون أن لا إله إلا اللّه لأنها زكاة الأنفس و تطهيرها. و قال الفراء: كان المشركون ينفقون النفقات، و يسقون الحجيج و يطعمونهم فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم فنزلت فيهم هذه الآية وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ معطوف على لا يؤتون داخل معه فى حيز الصلة، أى: منكرون للآخرة جاحدون لها، و المجيء بضمير الفصل لقصد الحصر إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى: غير مقطوع عنهم، يقال مننت الحبل: إذا قطعته، و منه قول الأصبغ الأودى:
إنّى لعمرك ما بابى بذى غلق‏على الصّديق و لا خيرى بممنون
و قيل الممنون: المنقوص، قاله قطرب، و أنشد قول زهير:
فضل الجياد على الخيل البطاء فلا‏يعطى بذلك ممنونا و لا نزقا
قال الجوهرى: المنّ: القطع، و يقال: النقص، و منه قوله تعالى: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ و قال لبيد:
غبس كواسب لا يمنّ طعامها «1» و قال مجاهد غير ممنون: غير محسوب، و قيل معنى الآية: لا يمن عليهم به لأنه إنما يمنّ بالتفضل، فأما الأجر فحقّ أداؤه. و قال السدّى: نزلت فى المرضى، و الزمنى، و الهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم

---

(1). و صدر البيت، كما فى القرطبى و اللسان:

لمعفّر قهد تنازع شلوه

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۱

من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يوبخهم و يقرعهم فقال: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ أى: لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم، و قدرته هذه القدرة الباهرة. قيل: اليومان هما يوم الأحد، و يوم الإثنين، و قيل: المراد مقدار يومين؛ لأن اليوم الحقيقى إنما يتحقق بعد وجود الأرض و السماء. قرأ الجمهور أَ إِنَّكُمْ بهمزتين الثانية بين بين، و قرأ ابن كثير بهمزة و بعدها ياء خفيفة وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً أى: أضداد و شركاء، و الجملة معطوفة على تكفرون داخلة تحت الاستفهام، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الموصول المتصف بما ذكر و هو: مبتدأ، و خبره: رَبُّ الْعالَمِينَ و من جملة العالمين ما تجعلونها أندادا للّه فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له فى عبادته، و قوله:

وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ معطوف على خلق، أى: كيف تكفرون بالذى خلق الأرض، و جعل فيها رواسى، أى: جبالا ثوابت من فوقها، و قيل: جملة و جعل فيها رواسى مستأنفة غير معطوفة على خلق لوقوع الفصل بينهما بالأجنبى. و الأوّل أولى لأن الجملة الفاصلة هى مقررة لمضمون ما قبلها فكانت بمنزلة التأكيد، و معنى مِنْ فَوْقِها أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض، و إنما خالفتها باعتبار الارتفاع، فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها وَ بارَكَ فِيها أى: جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد. قال السدى: أنبت فيها شجرها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها قال قتادة و مجاهد: خلق فيها أنهارها و أشجارها و دوابها، و قال الحسن و عكرمة و الضحاك: قدّر فيها أرزاق أهلها، و ما يصلح لمعايشهم من التجارات، و الأشجار، و المنافع، جعل فى كلّ بلد ما لم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة، و الأسفار من بلد إلى بلد، و معنى: فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أى: فى تتمة أربعة أيام باليومين المتقدّمين. قاله الزجاج و غيره. قال ابن الأنبارى: و مثاله قول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام، و إلى الكوفة فى خمسة عشر يوما، أى: فى تتمة خمسة عشر يوما، فيكون المعنى: أن حصول جميع ما تقدّم من خلق الأرض و ما بعدها فى أربعة أيام. و انتصاب سَواءً على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام، أى: استوت سواء بمعنى استواء، و يجوز أن يكون منتصبا على الحال من الأرض، أو من الضمائر الراجعة إليها. قرأ الجمهور بنصب سَواءً و قرأ زيد بن على، و الحسن، و ابن أبى إسحاق، و عيسى، و يعقوب، و عمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة الأيام. و قرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الحسن: المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة، و قوله: لِلسَّائِلِينَ متعلق بسواء، أى: مستويات للسائلين، أو بمحذوف كأنه قيل: هذا الحصر للسائلين فى كم خلقت الأرض و ما فيها؟ أو متعلق بقدّر، أى: قدّر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها. قال الفراء: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: و قدّر فيها أقواتها سواء للمحتاجين فى أربعة أيام، و اختار هذا ابن جرير. ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض و ما فيها؛ ذكر كيفية خلقه للسموات فقال:

ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ أى: عمد و قصد نحوها قصدا سويا. قال الرازى: هو من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجها لا يلتفت معه إلى عمل آخر، و هو من الاستواء الذى هو ضدّ الاعوجاج، و نظيره قولهم استقام إليه، و منه قوله تعالى: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ «۱»، و المعنى: ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق

---

(۱). فصلت: ۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۲

السموات بعد خلق الأرض و ما فيها. قال الحسن: معنى الآية صعد أمره إلى السماء وَ هِيَ دُخانٌ الدخان: ما ارتفع من لهب النار، و يستعار لما يرى من بخار الأرض. قال المفسرون: هذا الدخان هو بخار الماء، و خصّ سبحانه الاستواء إلى السماء مع كون

الخطاب المترتب على ذلک متوجها إليها. و إلى الأرض كما يفيده قوله: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً استغناء بما تقدّم من ذكر تقديرها، و تقدير ما فيها، و معنى ائتيا: افعلا- ما آمركما به و جيئا به، كما يقال ائت ما هو الأحسن أي: افعله. قال الواحدى: قال المفسرون: إن اللّه سبحانه قال: أما أنت يا سماء فاطلعى شمسک، و قمرک، و نجومک، و أما أنت يا أرض فشقى أنهارک، و أخرجى ثمارک، و نباتک. قرأ الجمهور ائْتِيا أمرا من الإتيان. و قرأ ابن عباس، و ابن جبير، و مجاهد «آتيا» قالتا آتينا بالمدّ فيهما، و هو إما من المؤاتاة، و هى الموافقة، أى: لتوافق كلّ منكما الأخرى أو من الإيتاء و هو الإعطاء فوزنه على الأوّل فاعلا- كقاتلا- و على الثانى افعلا- كأكرما طَوْعاً أَوْ كَرْهاً مصدران فى موضع الحال، أى: طائعتين أو مكرهتين، و قرأ الأعمش «كرها» بالضمّ. قال الزجاج: أطيعا طاعة أو تكرهان كرها. قيل و معنى هذا الأمر لهما التسخير: أى كونا فكانتا، كما قال تعالى: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «١» فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته و استحالة امتناعها قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ أى: أتينا أمرک منقادين و معهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء. قال القرطبى: قال أكثر أهل العلم إن اللّه سبحانه خلق فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد سبحانه، و قيل: هو تمثيل لظهور الطاعة منهما، و تأثير القدرة الربانية فيهما فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ أى: خلقهنّ و أحكمهنّ و فرغ منهنّ. كما فى قول الشاعر:

و عليهما مسرودتان قضاهماداود أو صنع السّوابغ تبّع «٢»

و الضمير فى قضاهنّ: إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات، أو مبهم مفسر بسبع سموات، و انتصاب سبع سموات على التفسير، أو على البدل من الضمير. و قيل: إن انتصابه على أنه المفعول الثانى لقضاهنّ لأنه مضمن معنى صيرهنّ، و قيل على الحال، أى: قضاهنّ حال كونهنّ معدودات بسبع، و يكون قضى بمعنى صنع، و قيل: على التمييز، و معنى: فِي يَوْمَيْنِ كما سبق فى قوله: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ فالجملة ستة أيام، كما فى قوله سبحانه: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ* «٣» و قد تقدّم بيانه فى سورة الأعراف. قال مجاهد: و يوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدّون. قال عبد اللّه بن سلام: خلق الأرض فى يوم الأحد و يوم الإثنين، و قدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء، و خلق السموات فى يوم الخميس و يوم الجمعة، و قوله: وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها عطف على قضاهنّ. قال قتادة و السدّى، أى:

خلق فيها شمسها، و قمرها، و نجومها، و أفلاكها، و ما فيها من الملائكة، و البحار، و البرد، و الثلوج. و قيل

---

(١). النحل: ٤٠.

(٢). البيت لأبى ذؤيب الهذلى، و «الصّنع»: الحاذق.

(٣). الأعراف: ٥٤.

المعنى: أوحى فيها ما أراده و ما أمر به، و الإيحاء قد يكون بمعنى الأمر كما فى قوله: بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى «١» و قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ «٢» أى: أمرتهم.

و قد استشكل الجمع بين هذه الآية و بين قوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «٣» فإن ما فى هذه الآية من قوله: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ مشعر بأن خلقها متأخر عن خلق الأرض، و ظاهره يخالف قوله:

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها فقيل إن ثُم فى ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ ليست للتراخى الزمانى؛ بل للتراخى الرتبى، فيندفع الإشكال من أصله، و على تقدير أنها للتراخى الزمانى فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدّم على خلق السماء، و دحوها بمعنى بسطها هو أمر زائد على مجرّد خلقها فهى متقدّمة خلقا متأخرة دحوا و هذا ظاهر، و لعله يأتى عند تفسيرنا لقوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها

زيادة إيضاح للمقام إن شاء اللّه وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ أى: بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح، وَ انتصاب حِفْظاً على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أى: و حفظناها حفظا، أو على أنه مفعول لأجله على تقدير: و خلقنا المصابيح زينة و حفظا، و الأوّل أولى. قال أبو حيان: فى الوجه الثانى هو تكلف، و عدول عن السهل البين، و المراد بالحفظ: حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أى: البليغ القدرة الكثير العلم فَإِنْ أَعْرَضُوا عن التدبر و التفكر فى هذه المخلوقات فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ أى: فقل لهم يا محمد أنذرتكم خوّفتكم صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ أى: عذابا مثل عذابهم، و المراد بالصاعقة العذاب المهلك من كلّ شىء. قال المبرد: الصاعقة المرّة المهلكة لأىّ شىء كان. قرأ الجمهور صاعِقَةً فى الموضعين بالألف، و قرأ ابن الزبير، و النخعى، و السلمى، و ابن محيصن (صعقة) فى الموضعين، و قد تقدّم بيان معنى الصاعقة و الصعقة فى البقرة، و قوله:

إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ظرف لأنذرتكم، أو لصاعقة، لأنها بمعنى العذاب، أى: أنذرتكم العذاب الواقع وقت مجىء الرسل، أو حال من صاعقة عاد. و هذا أولى من الوجهين الأولين، لأن الإنذار لم يقع وقت مجىء الرسل؛ فلا يصح أن يكون ظرفا له، و كذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفا لها، و قوله: مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ متعلق بجاءتهم، أى: جاءتهم من جميع جوانبهم، و قيل: المعنى جاءتهم الرسل المتقدّمون، و المتأخرون على تنزيل مجىء كلامهم منزلة مجيئهم أنفسهم، فكأن الرسل قد جاءوهم، و خاطبوهم بقولهم: أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ أى: بأن لا تعبدوا على أنها المصدرية، و يجوز أن تكون التفسيرية أو المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف. ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل فقال: قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أى: لأرسلهم إلينا، و لم يرسل إلينا بشرا من جنسنا، ثم صرّحوا بالكفر و لم يتلعثموا، فقالوا: فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أى: كافرون بما تزعمونه من أن اللّه أرسلكم إلينا، لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، فكيف اختصكم برسالته دوننا، و قد تقدّم دفع هذه الشبهة الداحضة التى جاءوا بها فى غير موضع.

---

(١). الزلزلة: ۵.

(٢). المائدة: ١١١.

(٣). النازعات: ٣٠.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۴

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله:

وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ قال: لا يشهدون أن لا إله إلا اللّه، و فى قوله: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ قال: غير منقوص. و أخرج ابن جرير، و النحاس فى ناسخه، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه «أن اليهود أتت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فسألته عن خلق السموات و الأرض، فقال: خلق اللّه الأرض فى يوم الأحد و الاثنين، و خلق الجبال و ما فيهنّ من منافع يوم الثلاثاء، و خلق يوم الأربعاء الشجر، و الحجر، و الماء و المدائن، و العمران و الخراب، فهذه أربعة أيام، فقال تعالى قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ و خلق يوم الخميس السماء، و خلق يوم الجمعة النجوم و الشمس، و القمر و الملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق من أوّل ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات، و فى الثانية: ألقى فيها من كلّ شىء مما ينتفع به، و فى الثالثة: خلق آدم و أسكنه الجنة، و أمر إبليس بالسجود له و أخرجه منها فى آخر ساعة، قالت اليهود:

ثم ماذا يا محمد؟ قال ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا ثم استراح، فغضب النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم غضبا شديدا، فنزل وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ «۱». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها قال:

شق الأنهار، و غرس الأشجار، و وضع الجبال، و أجرى البحار، و جعل فى هذه ما ليس فى هذه، و فى هذه ما ليس فى هذه. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال: إن اللّه تعالى خلق يوما فسماه الأحد، ثم خلق ثانيا فسمّاه الإثنين، ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعا فسماه الأربعاء، ثم خلق خامسا فسماه الخميس و ذكر نحو ما تقدّم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عمر عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «إن للّه فرغ من خلقه فى ستة أيام و ذكر نحو ما تقدّم». و أخرج ابن جرير عن أبى بكر نحو ما تقدّم عن ابن عباس. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قال قال للسماء: أخرجى شمسك، و قمرك، و نجومك، و للأرض شققى أنهارك، و أخرجى ثمارك قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ائْتِيا قال أعطيا و فى قوله:

قالَتا أَتَيْنا قال: أعطينا.

[سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۵ الى ۲۴]

فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۱۶) وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۱۸) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۹)

حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (۲۳) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (۲۴)

---

(۱). ق: ۳۸ و ۳۹.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۵

لما ذكر سبحانه عادا و ثمود إجمالا ذكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلا، فقال: فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ أى: تكبروا عن الإيمان باللّه، و تصديق رسله، و استعلوا على من فى الأرض بغير الحق، أى: بغير استحقاق ذلك الذى وقع منهم من التكبر و التجبر. ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار فقال: وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً و كانوا ذوى أجسام طوال و قوّة شديدة، فاغترّوا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب، و مرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب، فردّ اللّه عليهم بقوله: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً و الاستفهام للاستنكار عليهم، و للتوبيخ لهم، أى: أو لم يعلموا بأن اللّه أشد منهم قدرة، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله كن فيكون وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أى: بمعجزات الرسل التى خصهم اللّه بها و جعلها دليلا على نبوّتهم، أو بآياتنا التى أنزلناها على رسلنا، أو بآياتنا التكوينية التى نصبناها لهم، و جعلناها حجة عليهم، أو بجميع ذلك. ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه،

فقال: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً الصرصر: الريح الشديدة الصوت من الصرّة، و هى الصيحة. قال أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة. و قال الفراء: هى الباردة تحرق كما تحرق النار. و قال عكرمة، و سعيد بن جبير، و قتادة: هى الباردة، و أنشد قطرب قول الحطيئة:

المطعمون إذا هبّت بصرصرةو الحاملون إذا استودوا عن النّاس

أى: إذا سئلوا الدية. و قال مجاهد: هى الشديدة السموم، و الأولى تفسيرها بالبرد، لأن الصرّ فى كلام العرب: البرد، و منه قول الشاعر:

لها عذر كقرون النّساءركّبن فى يوم ريح و صرّ

قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصرّ و هو البرد، و يجوز أن يكون من صرصر الباب، و من الصرة: و هى الصيحة، و منه فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ. ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم فقال: فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ أى: مشؤومات ذوات نحوس. قال مجاهد، و قتادة: كن آخر شوّال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، و ذلك سبع ليال، و ثمانية أيام حسوما، و قيل: نحسات: باردات، و قيل:

متتابعات، و قيل: شداد، و قيل: ذوات غبار. قرأ نافع، و ابن كثير، و أبو عمرو نَحِساتٍ بإسكان

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۶

الحاء على أنه جمع نحس، و قرأ الباقون بكسرها، و اختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ «۱» و اختار أبو عبيد القراءة الثانية لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أى: لكى نذيقهم، و الخزى: هو الذل، و الهوان بسبب ذلك الاستكبار وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى أى: أشدّ إهانة و ذلا، و وصف العذاب بذلك، و هو فى الحقيقة وصف للمعذبين، لأنهم الذين صاروا متصفين بالخزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ أى: لا يمنعون من العذاب النازل بهم، و لا يدفعه عنهم دافع. ثم ذكر حال الطائفة الأخرى فقال:

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ أى: بينا لهم سبيل النجاة و دللناهم على طريق الحقّ بإرسال الرسل إليهم، و نصب الدلالات لهم من مخلوقات اللّه، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن باللّه و يصدّق رسله. قال الفراء: معنى الآية: دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل. قرأ الجمهور وَ أَمَّا ثَمُودُ بالرفع و منع الصرف. و قرأ الأعمش و ابن وثاب بالرفع و الصرف و قرأ ابن عباس و ابن أبى إسحاق و عاصم فى رواية بالنصب و الصرف و قرأ الحسن و ابن هرمز و عاصم فى رواية بالنصب و المنع، فأما الرفع فعلى الابتداء و الجملة بعد الخبر، و أما النصب فعلى الاشتغال و أما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب أو الحى، و أما المنع فعلى تأويله بالقبيلة فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى أى اختاروا الكفر على الإيمان و قال أبو العالية اختاروا العمى على البيان و قال السدّى:

اختاروا المعصية على الطاعة فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ قد تقدّم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأىّ شيء كان، و الهون: الهوان و الإهانة، فكأنه قال أصابهم مهلك العذاب ذى الهوان أو الإهانة، و يقال عذاب هون: أى مهين كقوله: ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ «۲» و الباء فى بِما كانُوا يَكْسِبُونَ للسببية، أى: بسبب الذى كانوا يكسبونه، أو بسبب كسبهم وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ و هم صالح و من معه من المؤمنين فإن اللّه نجاهم من ذلك العذاب ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به فى الدنيا ذكر ما عاقبهم به فى الآخرة فقال: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ و فى وصفهم بكونهم أعداء اللّه مبالغة فى ذمهم، و العامل فى الظرف محذوف دلّ عليه ما بعده تقديره: يساق الناس يوم يحشر، أو باذكر، أى: اذكر يوم يحشرهم. قرأ الجمهور يُحْشَرُ بتحتية مضمومة و رفع أَعْداءُ على النيابة، و قرأ نافع «نحشر» بالنون و نصب أعداء، و معنى حشرهم إلى النار سوقهم إليها أو إلى موقف الحساب، لأنه يتبين عنده فريق الجنة، و فريق النار فَهُمْ يُوزَعُونَ أى: يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا، و يجتمعوا، كذا قال

قتادة و السدّى و غيرهما، و قد سبق تحقيق معناه فى سورة النمل مستوفى حَتَّى إِذا ما جاؤُها أى: جاءوا النار التى حشروا إليها أو موقف الحساب و ما مزيدة للتوكيد شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فى الدنيا من المعاصى. قال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم بالشرك، و المراد بالجلود: هى جلودهم المعروفة فى فول أكثر المفسرين. و قال السدّى، و عبيد بن أبى جعفر، و الفراء: أراد بالجلود الفروج، و الأوّل أولى وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا وجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها ما ذكره الرازى أن الحواس الخمس: و هى السمع، و البصر، و الشم، و الذوق، و اللمس، و آلة المس:

---

(١). القمر: ١٩.

(٢). سبأ: ١۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۷

هى الجلد، فاللّه سبحانه ذكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس، و هى السمع و البصر و اللمس، و أهمل ذكر نوعين و هما الذوق و الشم، فالذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام، و كذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الحنك مماسة لجرم المشموم، فكانا داخلين فى جنس اللمس، و إذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال؛ لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس، فكان تأتى المعصية من جهتها أكثر و أما على قول من فسر الجلود بالفروج فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر، لأن ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحا، و أجلب للخزى، و العقوبة، و قد قدّمنا وجه إفراد السمع و جمع الأبصار قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ أى: أنطق كلّ شىء مما ينطق من مخلوقاته فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، و قيل المعنى: ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا اللّه. و الأوّل أولى وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ قيل: هذا من تمام كلام الجلود، و قيل:

مستأنف من كلام اللّه، و المعنى: أن من قدر على خلقكم و إنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم، و رجعكم إليه وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ هذا تقريع لهم، و توبيخ من جهة اللّه سبحانه، أو من كلام الجلود، أى: ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة حذرا من شهادة الجوارح عليكم، و لما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفى من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية. و قيل معنى الاستتار: الاتقاء، أى: ما كنتم تتقون فى الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم فى الآخرة، فتتركوا المعاصى خوفا من هذه الشهادة و أَنْ فى قوله: أَنْ يَشْهَدَ فى محل نصب على العلة، أى: لأجل أن تشهد، أو: مخافة أن تشهد. و قيل: منصوبة بنزع الخافض، و هو الباء، أو عن، أو من. و قيل: إن الاستتار مضمن معنى الظنّ، أى: و ما كنتم تظنون أن تشهد، و هو بعيد وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ من المعاصى فاجترأتم على فعلها، قيل: كان الكفار يقولون: إن اللّه لا يعلم ما فى أنفسنا، و لكن يعلم ما نظهر دون ما نسرّ. قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العلم، و قيل: أريد بالظنّ معنى مجازى يعم معناه الحقيقى، و ما هو فوقه من العلم، وَ الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما ذكر من ظنهم، و هو: مبتدأ، و خبره: ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ و قوله: أَرْداكُمْ خبر آخر للمبتدأ، و قيل: إن أرداكم فى محل نصب على الحال المقدّرة. و قيل: إن ظنكم بدل من ذلك، و الذى ظننتم:

خبره، و أرداكم: خبر آخر، أو: حال، و قيل: إن ظنكم خبر أوّل، و الموصول و صلته: خبر ثان، و أرداكم:

خبر ثالث، و المعنى: أن ظنكم بأن اللّه لا يعلم كثيرا مما تعملون، أهلككم و طرحكم فى النار فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ أى: الكاملين فى الخسران. ثم أخبر عن حالهم فقال: فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أى: فإن يصبروا على النار فالنار مثواهم، أى: محل

استقرارهم، و إقامتهم لا خروج لهم منها. و قيل المعنى:

فإن يصبروا فى الدنيا على أعمال أهل النار، فالنار مثوى لهم وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ يقال أعتبنى فلان: أى أرضانى بعد إسخاطه إياى، و استعتبته: طلبت منه أن يرضى، و المعنى: أنهم إن يسألوا أن يرجع بهم إلى ما يحبون لم يرجع لأنهم لا يستحقون ذلك. قال الخليل: تقول استعتبته فأعتبنى: أى استرضيته

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۸

فأرضانى، و معنى الآية: إن يطلبوا الرّضا لم يقع الرّضا عنهم، بل لا بدّ لهم من النار. قرأ الجمهور يَسْتَعْتِبُوا بفتح التحتية و كسر التاء الفوقية الثانية مبنيا للفاعل. و قرءوا مِنَ الْمُعْتَبِينَ بفتح الفوقية اسم مفعول، و قرأ الحسن، و عبيد بن عمير، و أبو العالية يَسْتَعْتِبُوا مبنيا للمفعول فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ اسم فاعل: أى إنهم إن أقالهم اللّه، و ردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته كما فى قوله سبحانه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۱».

و قد أخرج الطبرانى عن ابن عباس فى قوله: فَهُمْ يُوزَعُونَ قال: يحبس أوّلهم على آخرهم. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: يدفعون. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن ابن مسعود قال: كنت مستترا بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر: قرشى و ثقفيان، أو ثقفىّ و قرشيان، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أ ترون أن اللّه يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخران:

إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه و إنا إذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخران: إن سمع منه شيئا سمعه كله؛ قال:

فذكرت ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فأنزل اللّه وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ إلى قوله: مِنَ الْخاسِرِينَ و أخرج عبد الرزاق، و أحمد، و النسائى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى البعث عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تحشرون هاهنا، و أومأ بيده إلى الشام، مشاة و ركبانا، و على وجوهكم، و تعرضون على اللّه و على أفواهكم الفدام، و أوّل ما يعرب عن أحدكم فخذه و كتفه»، و تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ و أخرج أحمد، و أبو داود الطيالسى، و عبد بن حميد، و مسلم، و أبو داود، و ابن ماجة، و ابن حبان، و ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا يموتنّ أحدكم إلا و هو يحسن الظن باللّه تعالى، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم باللّه»، فقال اللّه: وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ

[سورة فصلت (۴۱): الآيات ۲۵ الى ۳۶]

وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (۲۵) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (۲۹)

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِى الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (۳۲) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۳) وَ لا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَ لا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (۳۴)

وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۶)

---

(۱). الأنعام: ۲۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۸۹

قوله: وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ أى: هيأنا قرناء من الشياطين. و قال الزجاج: سببنا لهم قرناء حتى أضلوهم، و قيل: سلطنا عليهم قرناء، و قيل: قدّرنا، و المعانى متقاربة، و أصل التقييض: التيسير و التهيئة، و القرناء: جمع قرين، و هم الشياطين، جعلهم بمنزلة الأخلاء لهم. و قيل: إن اللّه قيض لهم قرناء فى النار، و الأولى أن ذلک فى الدنيا لقوله: فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ فإن المعنى: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا و شهواتها، و حملوهم على الوقوع فى معاصى اللّه بانهماكهم فيها، و زينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة فقالوا: لا بعث و لا حساب، و لا جنة و لا نار. و قال الزجاج: ما بين أيديهم ما عملوه، و ما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه. و روى عن الزجاج أيضا أنه قال: ما بين أيديهم: من أمر الآخرة أنه لا بعث و لا جنة و لا نار، و ما خلفهم: من أمر الدنيا وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أى: وجب و ثبت عليهم العذاب، و هو قوله سبحانه: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «۱» و فِي أُمَمٍ فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم. و المعنى: كائنين فى جملة أمم، و قيل فى: بمعنى مع، أى: مع أمم من الأمم الكافرة التى قَدْ خَلَتْ و مضت مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ على الكفر، و جملة إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ تعليل لاستحقاقهم العذاب وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ أى: قال بعضهم لبعض لا تسمعوه و لا تنصتوا له، و قيل معنى لا تسمعوا: لا تطيعوا، يقال سمعت لک: أى أطعتک وَ الْغَوْا فِيهِ أى: عارضوه باللغو و الباطل، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارئ له. و قال مجاهد:

الغوا فيه بالمكاء و التصدية و التصفيق و التخليط فى الكلام حتى يصير لغوا و قال الضحاک: أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول. و قال أبو العالية: قعوا فيه و عيبوه. قرأ الجمهور وَ الْغَوْا بفتح الغين، من لغا إذا تكلم باللغو، و هو ما لا فائدة فيه، أو من لغى بالفتح يلغى بالفتح أيضا كما حكاه الأخفش، و قرأ عيسى بن عمر الجحدرى، و ابن أبى إسحاق، و أبو حيوة، و بكر بن حبيب السهمى، و قتادة، و أبو السمّال، و الزعفرانى بضم الغين. و قد تقدّم الكلام فى اللغو فى سورة البقرة لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ أى: لكى تغلبوهم فيسكتوا.

ثم توعدهم سبحانه على ذلک فقال: فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً و هذا وعيد لجميع الكفار، و يدخل فيهم الذين السياق معهم دخولا أوليا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أى: و لنجزينهم فى الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا. قال مقاتل: و هو الشرک. و قيل المعنى: إنه يجازيهم بمساوى أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام، و إكرام الضيف، لأن ذلک باطل لا أجر له مع كفرهم، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم، و هو: مبتدأ، و خبره جزاء أعداء اللّه، أو: خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلک، و جملة جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ مبينة للجملة التى قبلها، و الأوّل أولى،

---

(۱). ص: ۸۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۰

و تكون النار: عطف بيان للجزاء، أو: بدلا منه، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، و الخبر: لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ. و على الثلاثة الوجوه الأولى تكون جملة لهم فيها دار الخلد مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و معنى دار الخلد: دار الإقامة المستمرة التى لا انقطاع لها

جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أى: يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات اللّه. قال مقاتل: يعنى القرآن يجحدون أنه من عند اللّه، و على هذا يكون التعبير عن اللغوب الجحود لكونه سببا له، إقامة للسبب مقام المسبب وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قالوا هذا و هم فى النار، و ذكره بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه، و المراد أنهم طلبوا من اللّه سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن و الإنس من الشياطين الذين كانوا يسوّلون لهم، و يحملونهم على المعاصى، و من الرؤساء الذين كانوا يزيّنون لهم الكفر. و قيل: المراد إبليس و قابيل لأنهما سنا المعصية لبنى آدم. قرأ الجمهور أَرِنَا بكسر الراء. و قرأ ابن محيصن، و السوسى عن أبى عمرو، و ابن عامر بسكون الراء، و بها قرأ أبو بكر و المفضل و هما لغتان بمعنى واحد. و قال الخليل: إذا قلت أرنى ثوبك بالكسر فمعناه بصرنيه و بالسكون أعطنيه نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا أى ندوسهما بأقدامنا لنشتفى منهم، و قيل: نجعلهم أسفل منا فى النار لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ فيها مكانا؛ أو: ليكونا من الأذلين المهانين، و قيل: ليكونوا أشد عذابا منا. ثم لما ذكر عقاب الكافرين و ما أعدّه لهم ذكر حال المؤمنين، و ما أنعم عليهم به فقال: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ أى: وحده لا شريك له ثُمَّ اسْتَقامُوا على التوحيد و لم يلتفتوا إلى إله غير اللّه.

قال جماعة من الصحابة و التابعين: معنى الاستقامة إخلاص العمل للّه. و قال قتادة و ابن زيد: ثم استقاموا على طاعة اللّه. و قال الحسن: استقاموا على أمر اللّه، فعملوا بطاعته، و اجتنبوا معصيته. و قال مجاهد و عكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا اللّه حتى ماتوا. و قال الثورى: عملوا على وفاق ما قالوا. و قال الربيع: أعرضوا عما سوى اللّه. و قال الفضيل بن عياض: زهدوا فى الفانية، و رغبوا فى الباقية تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ من عند اللّه سبحانه بالبشرى التى يريدونها من جلب نفع، أو دفع ضرر، أو رفع حزن.

قال ابن زيد و مجاهد: تتنزل عليهم عند الموت. و قال مقاتل و قتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. و قال وكيع:

البشرى فى ثلاثة مواطن: عند الموت، و فى القبر، و عند البعث أَلَّا أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا أن هى المخففة أو المفسرة أو الناصبة، و لا على الوجهين الأوّلين ناهية، و على الثالث نافية، و المعنى: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة، و لا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل و ولد و مال. قال مجاهد: لا تخافوا الموت و لا تحزنوا على أولادكم، فإن اللّه خليفتكم عليهم. و قال عطاء: لا تخافوا ردّ ثوابكم فإنه مقبول، و لا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها لكم. و الظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين، و عدم تقييد نفى الخوف و الحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق فى الجميع وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بها فى الدنيا فإنكم واصلون إليها مستقرّون بها خالدون فى نعيمها. ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله، فقال: نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ أى: نحن المتولون لحفظكم، و معونتكم فى أمور الدنيا و أمور الآخرة، و من كان اللّه وليه فاز بكلّ مطلب و نجا من كلّ مخافة.

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۱

و قيل: إن هذا من قول الملائكة. قال مجاهد: يقولون لهم نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا: لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. و قال السدّى: نحن الحفظة لأعمالكم فى الدنيا و أولياؤكم فى الآخرة. و قيل: إنهم يشفعون لهم فى الآخرة، و يتلقونهم بالكرامة وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ من صنوف اللذات و أنواع النعم وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ أى: ما تتمنون، افتعال من الدعاء بمعنى الطلب، و قد تقدّم بيان معنى هذا فى قوله: وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ مستوفى، و الفرق بين الجملتين أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم، و الثانية باعتبار ما يطلبونه أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولا. و قال الرازى: الأقرب عندى أن قوله: وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة فى قوله: دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَ الآية، و انتصاب نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ على الحال من الموصول، أو من عائده، أو من فاعل تدّعون، أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف، أى: أنزلناه

نزلا، و النزل: ما يعدّلهم حال نزولهم من الرزق و الضيافة، و قد تقدم تحقيقه فى سورة آل عمران وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ أى:

إلى توحيد اللّه و طاعته. قال الحسن: هو المؤمن أجاب اللّه دعوته و دعا الناس إلى ما أجاب اللّه فيه من طاعته وَ عَمِلَ صالِحاً فى إجابته وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لربى. و قال ابن سيرين، و السدّى، و ابن زيد: هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و روى هذا أيضا عن الحسن. و قال عكرمة، و قيس بن أبى حازم، و مجاهد:

نزلت فى المؤذنين. و يجاب عن هذا بأن الآية مكية، و الأذان إنما شرع بالمدينة. و الأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ و يدخل فيها من كان سببا لنزولها دخولا أوليا، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه اللّه، و عمل عملا صالحا، و هو تأدية ما فرضه اللّه عليه مع اجتناب ما حرمه عليه، و كان من المسلمين دينا لا من غيرهم فلا شىء أحسن منه، و لا أوضح من طريقته، و لا أكثر ثوابا من عمله. ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال و مساويها فقال: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ أى: لا تستوى الحسنة التى يرضى اللّه بها و يثيب عليها، و لا السيئة التى يكرهها اللّه و يعاقب عليها، و لا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات، و تخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصى، فإن اللفظ أوسع من ذلك. و قيل: الحسنة التوحيد، و السيئة الشرك. و قيل: الحسنة المداراة، و السيئة الغلظة. و قيل: الحسنة العفو، و السيئة: الانتصار.

و قيل: الحسنة العلم، و السيئة: الفحش. قال الفراء لا فى قوله: وَ لَا السَّيِّئَةُ زائدة ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى: ادفع السيئة إذا جاءتك من المسىء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، و منه مقابلة الإساءة بالإحسان، و الذنب بالعفو، و الغضب بالصبر، و الإغضاء عن الهفوات، و الاحتمال للمكروهات. و قال مجاهد و عطاء: بالتى هى أحسن: يعنى بالسلام إذا لقى من يعاديه، و قيل: بالمصافحة عند التلاقى فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ هذه هى الفائدة الحاصلة من الدفع بالتى هى أحسن، و المعنى:

أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدوّ كالصديق، و البعيد عنك كالقريب منك. و قال مقاتل: نزلت فى أبى سفيان بن حرب كان معاديا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فصار له وليا بالمصاهرة التى وقعت بينه و بينه، ثم أسلم فصار وليا فى الإسلام حميما بالصهارة، و قيل غير ذلك، و الأولى حمل الآية على العموم وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۲

قال الزجاج: ما يلقى هذه الفعلة و هذه الحالة، و هى دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، و احتمال المكروه وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ فى الثواب و الخير. و قال قتادة: الحظ العظيم الجنة، أى:

ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة، و قيل: الضمير فى يلقاها عائد إلى الجنة، و قيل: راجع إلى كلمة التوحيد.

قرأ الجمهور يُلَقَّاها من التلقية، و قرأ طلحة بن مصرف و ابن كثير فى رواية عنه «يلاقاها» من الملاقاة.

ثم أمره سبحانه بالاستعاذة من الشيطان فقال: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ النزغ شبيه النخس، شبه به الوسوسة لأنها تبعث على الشرّ؛ و المعنى: و إن صرفك الشيطان عن شىء مما شرعه اللّه لك، أو عن الدفع بالتى هى أحسن فاستعذ باللّه من شرّه، و جعل النزغ نازغا على المجاز العقلى كقولهم: جدّ جدّه، و جملة إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها، أى: السميع لكلّ ما يسمع، و العليم بكلّ ما يعلم، و من كان كذلك فهو يعيذ من استعاذ به.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطردون الناس عنه و يقولون لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ و كان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحبّ أن يسمع القرآن، فأنزل اللّه وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها «۱» و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور،

و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن عليّ بن أبى طالب أنه سئل عن قوله: رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قال: هو ابن آدم الذى قتل أخاه و إبليس. و أخرج الترمذى، و النسائى، و البزار، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن عدى، و ابن مردويه عن أنس قال: «قرأ علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: قد قالها ناس من الناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حين يموت فهو ممن استقام عليها. و أخرج ابن المبارك، و عبد الرزاق، و الفريابى، و سعيد بن منصور، و مسدد، و ابن سعد، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن عمران عن أبى بكر الصديق فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: الاستقامة أن لا يشركوا باللّه شيئا. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبى بكر الصديق أنه قال: ما تقولون فى هاتين الآيتين إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا، و الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ قالوا: الذين قالوا ربنا اللّه ثم عملوا بها و استقاموا على أمره فلم يذنبوا، و لم يلبسوا إيمانهم بظلم: لم يذنبوا. قال: لقد حملتموهما على أمر شديد. الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ يقول بشرك، و الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا فلم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. و أخرج ابن مردويه عن بعض الصحابة: ثم استقاموا على فرائض اللّه. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: على شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن المبارك، و سعيد بن منصور، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و الحكيم

---

(۱). الإسراء: ۱۱۰.

الترمذى، و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: استقاموا بطاعة اللّه و لم يروغوا روغان الثعلب. و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و الدارمى، و البخارى فى تاريخه، و مسلم، و الترمذى، و النسائى، و ابن ماجة، و ابن حبان عن سفيان الثقفى أن رجلا قال: يا رسول اللّه مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: قل آمنت باللّه ثم استقم، قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه.

قال الترمذى: حسن صحيح. و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن عائشة فى قوله:

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ قالت: المؤذن وَ عَمِلَ صالِحاً قالت: ركعتان فيما بين الأذان و الإقامة. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن المنذر، و ابن مردويه من وجه آخر عنها قالت: ما أرى هذه الآية نزلت إلا فى المؤمنين. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: أمر المسلمين بالصبر عند الغضب، و الحلم عند الجهل، و العفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم اللّه من الشيطان و خضع لهم عدوّهم كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ و أخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله: وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا قال: الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت صادقا فغفر اللّه لى، و إن كنت كاذبا فغفر اللّه لك. و أخرج البخارى، و مسلم و غيرهما عن سليمان بن صرد قال: استبّ رجلان عند النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم فاشتدّ غضب أحدهما، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم: «إنّى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ باللّه من الشّيطان الرجيم، فقال:

الرجل: أ مجنون ترانى؟ فتلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ من الشّيطان الرجيم».

[سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۷ الى ۴۴]

وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِی أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِی النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِی آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (٤١)

لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِی آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٤٤)

شرع سبحانه فی بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته، و قوّة تصرفه للاستدلال بها على توحيده فقال: وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۴

و القمر، و أمرهم بأن يسجدوا للّه عزّ و جلّ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ لأنهما مخلوقان من مخلوقاته، فلا يصح أن يكونا شريكين له فی ربوبيته وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَهُنَّ أی: خلق هذه الأربعة المذكورة، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الإناث، أو الآيات، أو الشمس و القمر، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ قيل: كان ناس يسجدون للشمس و القمر كالصابئين فی عبادتهم الكواكب، و يزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود للّه فنهوا عن ذلك، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهی عنه. و قيل: وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة، و هذه الآية من آيات السجود بلا خلاف، و إنما اختلفوا فی موضع السجدة، فقيل موضعه عند قوله: إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ لأنه متصل بالأمر، و قيل عند قوله: وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ لأنه تمام الكلام فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ أی: إن استكبر هؤلاء عن الامتثال فالملائكة يديمون التسبيح للّه سبحانه بالليل و النهار و هم لا يملون و لا يفترون وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً الخطاب هنا لكل من يصلح له أو لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و الخاشعة: اليابسة الجدبة. و قيل: الغبراء التی لا تنبت. قال الأزهری: إذا يبست الأرض و لم تمطر قيل: قد خشعت فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ أی: ماء المطر، و معنى اهتزت: تحركت بالنبات، يقال اهتزّ الإنسان: إذا تحرك، و منه قول الشاعر:

تراه كنصل السّيف يهتزّ للنّدىإذا لم تجد عند امرئ السّوء مطعما

و معنى ربت: انتفخت و علت قبل أن تنبت، قاله مجاهد و غيره، و على هذا ففی الكلام تقديم و تأخير، و تقديره: ربت و اهتزّت، و قيل: الاهتزاز و الربو قد يكونان قبل خروج النبات، و قد يكونان بعده، و معنى الربو لغة: الارتفاع، كما يقال للموضع المرتفع: ربوة و رابية، و قد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى فی سورة الحج، و قيل: اهتزت استبشرت بالمطر، و ربت: انتفخت بالنبات. و قرأ أبو جعفر و خالد «و ربأت» إِنَّ الَّذِی أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى بالبعث و النشور إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شیء كائنا ما كان إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِی آياتِنا أی: يميلون عن الحق، و الإلحاد: الميل و العدول، و منه اللحد فی القبر: لأنه أميل إلى ناحية منه، يقال ألحد فی دين اللّه: أی مال و عدل عنه، و يقال لحد، و قد تقدّم تفسير الإلحاد. قال مجاهد: معنى الآية يميلون عن الإيمان بالقرآن. و قال مجاهد: يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء و التصدية، و اللغو و الغناء. و قال قتادة: يكذبون فی آياتنا. و قال السدّی: يعاندون و يشاقون. قال ابن زيد يشركون لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا بل نحن نعلمهم فنجازيهم بما يعملون. ثم بين كيفية الجزاء و التفاوت بين المؤمن و الكافر فقال أَ فَمَنْ يُلْقى فِی النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِی آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ هذا الاستفهام للتقرير، و الغرض

منه التنبيه على أن الملحدين فى الآيات يلقون فى النار، و أن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة. و ظاهر الآية العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قيل: المراد بمن يلقى فى النار: أبو جهل، و من يأتى آمنا:
النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل: حمزة، و قيل: عمر بن الخطاب، و قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ هذا أمر تهديد، أى: اعملوا من أعمالكم التى تلقيكم فى النار ما شئتم إنه

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۵

بما تعملون بصير، فهو مجازيكم على كل ما تعملون. قال الزجاج لفظه لفظ الأمر، و معناه الوعيد إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و خبر إن محذوف، أى: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم، أو هالكون، أو يعذّبون، و قيل: هو قوله: يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ و هذا بعيد و إن رجحه أبو عمرو بن العلاء. و قال الكسائى: إنه سدّ مسدّه الخبر السابق، و هو لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا و قيل: إن الجملة بدل من الجملة الأولى و هى: الذين يلحدون فى آياتنا، و خبر إن: هو الخبر السابق وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ أى: القرآن الذى كانوا يلحدون فيه، أى: عزيز عن أن يعارض أن يطعن فيه الطاعنون، منيع عن كل عيب. ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه، فقال: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ قال الزجاج: معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، و به قال قتادة و السدّى، و معنى الباطل على هذا: الزيادة و النقصان. و قال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التى قبله، و لا يجىء من بعده كتاب فيبطله، و به قال الكلبى و سعيد بن جبير. و قيل: الباطل هو الشيطان، أى: لا يستطيع أن يزيد فيه، و لا ينقص منه.
و قيل: لا يزاد فيه، و لا ينقص منه، لا من جبريل، و لا من محمد صلّى اللّه عليه و سلم تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ هو خبر مبتدأ محذوف، أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوّز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح، و قيل:
إنه الصفة لكتاب، و جملة لا يأتيه معترضة بين الموصوف و الصفة، ثم سلى سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم عن ما كان يتأثر له من أذية الكفار فقال: ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ أى: ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر و الكذب و الجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء، و قيل المعنى: ما يقال لك من التوحيد و إخلاص العبادة للّه إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك، و قيل: هو استفهام، أى: أىّ شىء يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين بايعوك، و بايعوا من قبلك من الأنبياء وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ للكفار المكذّبين المعادين لرسل اللّه، و قيل: لذو مغفرة للأنبياء، و ذو عقاب لأعدائهم وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا أى: لو جعلنا هذا القرآن الذى تقرؤه على الناس بغير لغة العرب لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أى: بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم لغة العجم، و الاستفهام فى قوله:
ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ للإنكار، و هو من جملة قول المشركين، أى: لقالوا أ كلام أعجمىّ و رسول عربىّ.
و الأعجمى: الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم. و الأعجم ضد الفصيح: و هو الذى لا يبين كلامه، و يقال للحيوان غير الناطق: أعجم. قرأ أبو بكر، و حمزة، و الكسائى «ء أعجمىّ» بهمزتين محققتين. و قرأ الحسن، و أبو العالية، و نصر بن عاصم، و هشام بهمزة واحدة على الخبر و قرأ الباقون: بتسهيل الثانية بين بين، و قيل المراد: هلا فصلت آياته؛ فجعل بعضها أعجميا لإفهام العجم، و بعضها عربيا لإفهام العرب. ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يجيبهم فقال: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ أى: يهتدون به إلى الحق، و يشتفون به من كل شك و شبهة، و من الأسقام و الآلام وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۶

أی: صمم عن سماعه و فهم معانيه، و لهذا تواصوا باللغو فيه وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى قال قتادة: عموا عن القرآن و صموا عنه. و قال السدّی: عميت قلوبهم عنه. و المعنی: و هو عليهم ذو عمی، أو وصف بالمصدر للمبالغة، و الموصول فی قوله: وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ مبتدأ، و خبره: فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ أو:

الموصول الثانی عطف علی الموصول الأوّل، و وقر: عطف علی هدی عند من جوّز العطف علی عاملين مختلفين، و التقدير: هو للأوّلين هدی و شفاء، و للآخرين وقر فی آذانهم. قرأ الجمهور عَمًى بفتح الميم منوّنة علی أنه مصدر، و قرأ ابن عباس، و عبد اللّه بن الزبير، و عمرو بن العاص، و ابن عمر: بكسر الميم منوّنة علی أنه اسم منقوص علی أنه وصف به مجازا. و قرأ عمرو بن دينار: بكسر الميم و فتح الياء علی أنه فعل ماض، و اختار أبو عبيدة القراءة الأولی لقوله أولا هُدىً وَ شِفاءٌ و لم يقل: هاد و شاف، و قيل المعنی: و الوقر عليهم عمی، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلی الذين لا يؤمنون و ما فی حيزه، و خبره يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادی من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه منها. قال الفراء: تقول للرجل الذی لا يفهم كلامك أنت تنادی من مكان بعيد. و قال الضحاک: ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد. و قال مجاهد من مكان بعيد من قلوبهم.

و قد أخرج ابن أبی شيبة، و الحاكم و صححه، و البيهقی فی سننه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يسجد بآخر الآيتين من حم السجدة، و كان ابن مسعود يسجد بالأولی منهما. و أخرج ابن سعد، و ابن أبی شيبة من طريق نافع عن ابن عمر أنه كان يسجد بالأولی. و أخرج سعيد بن منصور عنه أنه كان يسجد فی الآية الأخيرة. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا قال: هو أن يضع الكلام علی غير موضعه. و أخرج ابن مردويه فی قوله: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ قال:

أبو جهل بن هشام أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ قال: أبو بكر الصديق و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن عساكر عن بشير بن تميم قال: نزلت هذه الآية فی أبی جهل، و عمار بن ياسر و أخرج ابن عساكر عن عكرمة مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ قال: هذا لأهل بدر خاصة. و أخرج ابن أبی حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا الآية يقول: لو جعلنا القرآن أعجميا و لسانک يا محمد عربیّ لقالوا أعجمیّ و عربیّ تأتينا به مختلفا أو مختلطا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ هلا بينت آياته فكان القرآن مثل اللسان. يقول: فلم نفعل لئلا يقولوا فكانت حجة عليهم.

[سورة فصلت (41): الآيات 45 الی 54]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48) لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49)

وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50) وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

فتح القدير، ج‏4، ص: 597

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ هذا كلام مستأنف يتضمن تسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه، و طعنهم في القرآن، فأخبره أن هذا عادة قديمة في أمم الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة إليهم، و المراد بالكتاب: التوراة، و الضمير من قوله: فِيهِ راجع إليه، و قيل: يرجع إلى موسى، و الأوّل أولى وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ في تأخير العذاب عن المكذّبين من أمتك كما في قوله: وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى* «1» لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ أي: من كتابك المنزّل عليك و هو القرآن، و معنى الشك المريب: الموقع في الريبة، أو الشديد الريبة. و قيل: إن المراد اليهود، و أنهم في شك من التوراة مريب، و الأوّل أولى مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ أي: من أطاع اللّه و آمن برسوله و لم يكذّبهم فثواب ذلك راجع إليه و نفعه خاصّ به وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أي: عقاب إساءته عليه لا على غيره وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فلا يعذّب أحدا إلا بذنبه، و لا يقع منه الظلم لأحد كما في قوله سبحانه إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً «2» و قد تقدّم الكلام على معنى هذه الآية في سورة آل عمران عند قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ* «3» و في سورة الأنفال أيضا. ثم أخبر سبحانه أن علم القيامة، و وقت قيامها لا يعلمه غيره، فقال: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يردّ علمها إليه لا إلى غيره، و قد روى أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى تقوم الساعة؟ فنزلت، و ما في قوله: وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها نافية، و من الأولى للاستغراق، و من الثانية لابتداء الغاية، و قيل: هي موصولة في محلّ جرّ عطفا على الساعة، أي: علم الساعة و علم التي تخرج، و الأوّل أولى. و الأكمام جمع كمّ بكسر الكاف، و هو وعاء الثمرة، و يطلق على كل ظرف لمال أو غيره. قال أبو عبيدة: أكمامها أوعيتها، و هي ما كانت فيه الثمرة واحدها كمّ و كمة. قال الراغب: الكم ما يغطي اليد من القميص، و ما يغطي الثمرة، و جمعه أكمام، و هذا يدلّ على أن الكمّ بضمّ الكاف لأنه جعله مشتركا بين كمّ القميص، و كمّ الثمرة، و لا خلاف في كمّ القميص أنه بالضمّ. و يمكن أن يقال: إن في الكمّ الذي هو وعاء الثمر لغتين. قرأ الجمهور «من ثمرة» بالإفراد، و قرأ نافع و ابن عامر و حفص بالجمع وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى‏ وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ أي: ما تحمل أنثى حملا

---

(1). النحل: 61.

(2). يونس: 44.

(3). آل عمران: 182.

فتح القدير، ج‏4، ص: 598

في بطنها و لا تضع ذلك الحمل إلا بعلم اللّه سبحانه، و الاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال، أي: ما يحدث شي‏ء من خروج ثمرة، و لا حمل حامل، و لا وضع واضع في حال من الأحوال إلا كائنا بعلم اللّه، فإليه يردّ علم الساعة كما إليه يرد علم هذه الأمور وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أي: ينادي اللّه سبحانه المشركين، و ذلك يوم القيامة فيقول لهم: أَيْنَ شُرَكائِي الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الدنيا من الأصنام و غيرها فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو يدفعوا عنكم العذاب، و هذا على طريقة التهكم بهم. قرأ الجمهور شُرَكائِي بسكون الياء، و قرأ ابن كثير بفتحها، و العامل في يوم محذوف، أي: اذكر. قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ يقال آذن يأذن: إذا أعلم، و منه قول الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماءربّ ثاو يملّ منه الثّواء

و المعنى: أعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا، و ذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرؤوا من الشركاء و تبرّأت منهم تلك

الأصنام التى كانوا يعبدونها. و قيل: إن القائل بهذا هى المعبودات التى كانوا يعبدونها، أى: ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين، و الأوّل أولى وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ أى: زال و بطل فى الآخرة ما كانوا يعبدون فى الدنيا من الأصنام؛ و نحوها وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ أى: أيقنوا و علموا أنه لا محيص لهم، يقال حاص يحيص حيصا: إذا هرب. و قيل: الظنّ على معناه الحقيقى لأنه لهم فى تلك الحال ظنّ و رجاء، و الأوّل أولى. ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان فقال: لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ أى: لا يملّ من دعاء الخير لنفسه و جلبه إليه، و الخير هنا: المال و الصحة و السلطان و الرفعة. قال السدّى: و الإنسان هنا يراد به الكافر، و قيل الوليد بن المغيرة، و قيل عتبة و شيبة ابنا ربيعة و أمية ابن خلف. و الأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب فلا ينافيه خروج خلص العباد. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «لا يسأم الإنسان من دعاء المال» وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ أى: و إن مسه البلاء، و الشدّة، و الفقر، و المرض فيؤوس من روح اللّه؛ قنوط من رحمته. و قيل: يؤوس من إجابة دعائه؛ قنوط بسوء الظنّ بربه. و قيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوط بما يحصل له من ظنّ دوامه، و هما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ أى: و لئن آتيناه خيرا و عافية و غنى، من بعد شدّة و مرض و فقر لَيَقُولَنَّ هذا لِي أى: هذا شىء أستحقه على اللّه لرضاه بعملى، فظنّ أن تلك النعمة التى صار فيها و صلت إليه باستحقاقه لها، و لم يعلم أن اللّه يبتلى عباده بالخير و الشرّ؛ ليتبين له الشاكر من الجاحد، و الصابر من الجزع. قال مجاهد: معناه هذا بعملى، و أنا محقوق به وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أى: ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء، أو لست على يقين من البعث، و هذا خاص بالكافرين و المنافقين، فيكون المراد بالإنسان المذكور فى صدر الآية الجنس باعتبار غالب أفراده، لأن اليأس من رحمة اللّه، و القنوط من خيره، و الشک فى البعث لا يكون إلا من الكافرين، أو المتزلزلين فى الدين المتظهرين بالإسلام المبطنين للكفر وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء من قيام الساعة و حصول البعث و النشور إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى أى: للحالة الحسنى من الكرامة، فظنّ أنه استحق

فتح القدير، ج۴، ص: ۵۹۹

خير الدنيا بما فيه من الخير، و استحقّ خير الآخرة بذلک الذى اعتقده فى نفسه و أثبته لها، و هو اعتقاد باطل، و ظنّ فاسد فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا أى: لنخبرنهم بها يوم القيامة وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ شديد بسبب ذنوبهم، و اللام هذه و التى قبلها هى الموطئة للقسم وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أى: على هذا الجنس باعتبار غالب أفراده أَعْرَضَ عن الشكر وَ نَأى بِجانِبِهِ أى ترفع عن الانقياد للحق، و تكبر و تجبر، و الجانب هنا مجاز عن النفس، و يقال نأيت و تناءيت: أى: بعدت و تباعدت، و المنتأى: الموضع البعيد. و منه قول النابغة:

فإنّک كاللّيل الذى هو مدركى و إن خلت أنّ المنتأى عنک واسع

و قرأ يزيد بن القعقاع «و ناء بجانبه» بالألف قبل الهمزة وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ أى: البلاء و الجهد، و الفقر، و المرض فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ أى: كثير، و العرب تستعمل الطول و العرض فى الكثرة مجازا، يقال: أطال فلان فى الكلام و أعرض فى الدعاء: إذا أكثر، و المعنى: أنه إذا مسه الشرّ تضرّع إلى اللّه، و استغاث به أن يكشف عنه ما نزل به، و استكثر من ذلک، فذكره فى الشدّة و نسيه فى الرخاء و استغاث به عند نزول النقمة، و تركه عند حصول النعمة، و هذا صنيع الكافرين و من كان غير ثابت القدم من المسلمين. ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار، و محاجتهم فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ أى: أخبرونى إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أى:

القرآن ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ أى: كذبتم به، و لم تقبلوه، و لا عملتم بما فيه مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ أى: لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم، و شدّة عداوتكم، و الأصل: أىّ شىء أضلّ منكم، فوضع مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ موضع الضمير لبيان حالهم فى المشاقة، و أنها السبب الأعظم فى ضلالهم سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ أى: سنريهم دلالات صدق القرآن، و علامات كونه من عند

اللّه فی الآفاق وَ فِی أَنْفُسِهِمْ الآفاق: جمع أفق: و هو الناحیة. و الأفق بضم الهمزة و الفاء، کذا قال أهل اللغة. و نقل الراغب أنه یقال أفق بفتحهما، و المعنى: سنریهم آیاتنا فی النواحی و فی أنفسهم. قال ابن زید: فی الآفاق آیات السماء، و فی أنفسهم حوادث الأرض. و قال مجاهد: فی الآفاق فتح القرى التی یسر اللّه فتحها لرسوله و للخلفاء من بعده و نصّار دینه فی آفاق الدنیا شرقا و غربا، و من الظهور على الجبابرة و الأکاسرة، و فی أنفسهم: فتح مکة، و رجح هذا ابن جریر. و قال قتادة و الضحاک: فی الآفاق: وقائع اللّه فی الأمم، و فی أنفسهم فی یوم بدر.

و قال عطاء: فی الآفاق: یعنی أقطار السموات و الأرض، من الشمس و القمر، و النجوم و اللیل، و النهار، و الریاح، و الأمطار، و الرعد، و البرق، و الصواعق، و النبات، و الأشجار، و الجبال، و البحار، و غیر ذلک، و فی أنفسهم من لطیف الصنعة، و بدیع الحکمة، کما فی قوله: وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ «۱». حَتَّى یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ الضمیر راجع إلى القرآن، و قیل: إلى الإسلام الذی جاءهم به رسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلم، و قیل: إلى ما یریهم اللّه، و یفعل من ذلک، و قیل: إلى محمد صلّى اللّه علیه و سلم أنه الرسول الحق من عند اللّه، و الأوّل أولى أَ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلى کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ الجملة مسوقة لتوبیخهم و تقریعهم

---

(۱). الذاریات: ۲۱.

فتح القدیر، ج‏۴، ص: ۶۰۰

فتح القدیر ج‏۴ ۶۴۹

و بِرَبِّکَ فی موضع رفع على أنه الفاعل لکیف، و الباء زائدة، و أَنَّهُ بدل من ربک و الهمزة للإنکار. و المعنى: ألم یغنهم عن الآیات الموعودة المبینة لحقیة القرآن أنه سبحانه شهید على جمیع الأشیاء.

و قیل المعنى: أو لم یکف بربک یا محمد أنه شاهد على أعمال الکفار. و قیل: أو لم یکف بربک شاهدا على أن القرآن منزل من عنده، و الشهید: بمعنى العالم، أو هو بمعنى الشهادة التی هی الحضور. قال الزجاج:

و معنى الکنایة هاهنا أن اللّه عزّ و جلّ قد بین لهم ما فیه کفایة فی الدلالة، و المعنى: أو لم یکف ربک أنه على کل شیء شهید شاهد للأشیاء لا یغیب عنه شیء أَلا إِنَّهُمْ فِی مِرْیَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أی: فی شک من البعث و الحساب، و الثواب و العقاب أَلا إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ أحاط علمه بجمیع المعلومات، و أحاطت قدرته بجمیع المقدورات، یقال أحاط یحیط إحاطة و حیطة، و فی هذا وعید شدید لأن من أحاط بکل شیء بحیث لا یخفى علیه شیء جازى المحسن بإحسانه، و المسیء بإساءته.

و قد أخرج عبد بن حمید عن قتادة قال: فی قوله: وَ لَوْ لا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ سبق لهم من اللّه حین و أجل هم بالغوه. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَکْمامِها قال: حین تطلع. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: آذَنَّاکَ قال: أعلمناک. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر عن عکرمة فی قوله: لا یَسْأَمُ الْإِنْسانُ قال: لا یملّ. و أخرج عبد بن حمید، و ابن جریر عن مجاهد فی قوله: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ قال: محمدا صلّى اللّه علیه و سلم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر عنه فی الآیة قال: ما یفتح اللّه من القرى وَ فِی أَنْفُسِهِمْ قال:

فتح مکة. و أخرج ابن المنذر عن ابن جریج فی الآیة قال: أمسک المطر عن الأرض کلها وَ فِی أَنْفُسِهِمْ قال: البلایا التی تکون فی أجسامهم. و أخرج عبد بن حمید عن ابن عباس فی الآیة قال: کانوا یسافرون فیرون آثار عاد و ثمود، فیقولون: و اللّه لقد صدق محمد. و ما أراهم فی أنفسهم: قال الأمراض.

فتح القدیر، ج‏۴، ص: ۶۰۱

سورة الشّورى

اشارة

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت «حم عسق» بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و كذا قال الحسن، و عكرمة، و عطاء، و جابر. و روى عن ابن عباس، و قتادة أنها مكية إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى إلى آخرها. و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و نعيم بن حماد، و الخطيب عن أرطأة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس و عنده حذيفة ابن اليمان فقال: أخبرنى عن تفسير حم عسق، فأعرض عنه، ثم كرّر مقالته فأعرض عنه و كرر مقالته، ثم كرّرها الثالثة فلم يجبه، فقال له حذيفة: أنا أنبئك بها لم كررتها؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له عبد إله أو عبد اللّه ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبنى عليه مدينتين، يشقّ النهر بينهما شقا، يجتمع فيهما كل جبار عنيد، فإذا أذن اللّه فى زوال ملكهم و انقطاع دولتهم و مدتهم بعث اللّه على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة، قد احترقت كأنها لم تكن مكانها، و تصبح صاحبتها متعجبة كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف اللّه بها و بهم جميعا، فذلك قوله: حم عسق يعنى عزيمة من اللّه و فتنة و قضاء حم. عين، يعنى عدلا منه، سين: يعنى سيكون، ق: واقع لهاتين المدينتين.

أقول: هذا الحديث لا يصح و لا يثبت و ما أظنه إلا من الموضوعات المكذوبات، و الحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول و الحط من شأنهم و الإزراء عليهم. و أخرج أبو يعلى و ابن عساكر قال السيوطى بسند ضعيف: قلت بل بسند موضوع و متن مكذوب عن أبى معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس هل سمع منكم أحد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يفسر حم عسق فوثب ابن عباس فقال: إن حم اسم من أسماء اللّه، قال: فعين قال: عاين المذكور عذاب يوم بدر، قال: فسين، قال: فسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون. قال: فقاف فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس و قال: قاف قارعة من السماء تصيب الناس. قال ابن كثير فى الحديث الأوّل: إنه غريب عجيب منكر، و فى الحديث الثانى: إنه أغرب من الحديث الأوّل. و عندى أنهما موضوعان مكذوبان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)

وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‌ءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيمٌ (١٢)

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶۰۲

قوله: حم عسق قد تقدّم الكلام فى أمثال هذه الفواتح، و سئل الحسن بن الفضل لم قطع حم عسق و لم يقطع كهيعص فقال: لأنها سور أوّلها حم فجرت مجرى نظائرها، فكأن حم مبتدأ و عسق خبره، و لأنهما عدا آيتين، و أخواتهما مثل: كهيعص و المر و المص آية واحدة. و قيل لأن أهل التأويل لم يختلفوا فى كهيعص و أخواتها أنها حروف التهجى لا غير، و اختلفوا فى حم فقيل معناها حم: أى قضى كما تقدّم. و قيل: إن ح حلمه و م مجده، و ع علمه، و س سناه، و ق قدرته، أقسم اللّه بها. و قيل غير ذلك مما هو متكلف متعسف لم يدلّ عليه دليل و لا جاءت به حجة و لا شبهة حجة، و قد ذكرنا قبل هذا ما روى فى ذلك مما لا أصل له، و الحق ما قدّمناه لك فى فاتحة سورة البقرة. و قيل: هما اسمان للسورة، و قيل:

اسم واحد لها، فعلى الأوّل يكونان خبرين لمبتدأ محذوف، و على الثانى يكون خبرا لذلك المبتدأ المحذوف.

و قرأ ابن مسعود و ابن عباس حم عسق كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هذا كلام مستأنف غير متعلق بما قبله، أى: مثل ذلك الإيحاء الذى أوحى إلى سائر الأنبياء من كتب اللّه المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد و البعث يوحى إليك يا محمد فى هذه السورة. و قيل:

إن حم عسق أو حيت إلى من قبله من الأنبياء، فتكون الإشارة بقوله: كَذلِكَ إليها. قرأ الجمهور يُوحِي بكسر الحاء مبنيا للفاعل و هو اللّه. و قرأ مجاهد و ابن كثير و ابن محيصن بفتحها مبنيا للمفعول، و القائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على كذلك، و التقدير: مثل ذلك الإيحاء هو إليك، أو القائم مقام الفاعل:

إليك، أو الجملة المذكورة، أى: يوحى إليك هذا اللفظ أو القرآن أو مصدر يوحى، و ارتفاع الاسم الشريف على أنه فاعل لفعل محذوف كأنه قيل من يوحى؟ فقيل: اللّه العزيز الحكيم. و أما قراءة الجمهور فهى واضحة اللفظة و المعنى، و قد تقدّم مثل هذا فى قوله: يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ رِجالٌ «١» و قرأ أبو حيوة و الأعمش و أبان «نوحى» بالنون فيكون قوله: اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فى محلّ نصب، و المعنى: نوحى إليك هذا اللفظ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف و هو ملك جميع ما فى السموات و الأرض لدلالته على كمال قدرته و نفوذ تصرّفه فى جميع مخلوقاته تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ قرأ الجمهور تَكادُ بالفوقية، و كذلك «تتفطّرن» قرءوه بالفوقية

---

(١). النور: ٣۶ و ٣٧.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶۰۳

مع تشديد الطاء. و قرأ نافع و الكسائى، و ابن وثاب: «يكاد» يَتَفَطَّرْنَ بالتحتية فيهما، و قرأ أبو عمرو، و المفضل، و أبو بكر، و أبو عبيد، «ينفطرن» بالتحتية و النون من الانفطار كقوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ «١» و التفطر: التشقق. قال الضحاك و السدّى: يتفطرن يتشققن من عظمة اللّه و جلاله من فوقهنّ.

و قيل المعنى: تكاد كلّ واحدة منها تتفطر فوق التى تليها من قول المشركين: اتخذ اللّه ولدا، و قيل من فوقهنّ: من فوق الأرضين، و الأوّل أولى. و من فى «من فوقهنّ» لابتداء الغاية: أى: يبتدئ التفطر من جهة الفوق. و قال الأخفش الصغير: إن الضمير يعود إلى جماعات الكفار، أى: من فوق جماعات الكفار و هو بعيد جدا، و وجه تخصيص جهة الفوق أنها أقرب إلى الآيات العظيمة، و المصنوعات الباهرة، أو على طريق المبالغة كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت فى جهة

الفوق، فتأثيرها فى جهة التحت بالأولى وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى: ينزهونه عما لا يليق به و لا يجوز عليه متلبسين بحمده. و قيل: إن التسبيح موضوع موضع التعجب، أى: يتعجبون من جراءة المشركين على اللّه. و قيل معنى: بِحَمْدِ رَبِّهِمْ بأمر ربهم قاله السدّى وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ من عباد اللّه المؤمنين. كما فى قوله: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا «٢» و قيل: الاستغفار منهم بمعنى السعى فيما يستدعى المغفرة لهم، و تأخير عقوبتهم طمعا فى إيمان الكافر، و توبة الفاسق فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين، و إن كانوا داخلين فيها دخولا أوّليا أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أى: كثير المغفرة و الرحمة لأهل طاعته و أوليائه، أو لجميع عباده؛ فإن تأخير عقوبة الكفار و العصاة نوع من أنواع مغفرته و رحمته وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أى:

أصناما يعبدونها اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ أى: يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى:

لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بذنوبهم، و لا و كل إليك هدايتهم، و إنما عليك البلاغ. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية السيف وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا أى: مثل ذلك الإيحاء أو حينا إليك، و قرآنا مفعول أوحينا؛ و المعنى: أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك كما أرسلنا كلّ رسول بلسان قومه لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى و هى: مكة، و المراد: أهلها وَ مَنْ حَوْلَها من الناس و المفعول الثانى محذوف، أى: لتنذرهم العذاب وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ أى: و لتنذر بيوم الجمع: و هو يوم القيامة لأنه مجمع الخلائق. و قيل: المراد جمع الأرواح بالأجساد، و قيل: جمع الظالم و المظلوم، و قيل: جمع العامل و العمل لا رَيْبَ فِيهِ أى: لا شك فيه، و الجملة معترضة مقررة لما قبلها، أو صفة ليوم الجمع، أو حال منه فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ قرأ الجمهور برفع فَرِيقٌ فى الموضعين، إما: على أنه مبتدأ، و خبره: الجار و المجرور، و شاع الابتداء بالنكرة لأن المقام مقام تفصيل، أو: على أن الخبر مقدّر قبله، أى: منهم فريق فى الجنة، و منهم فريق فى السعير، أو أنه خبر مبتدأ محذوف، و هو ضمير عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع، أى: هم فريق فى الجنة و فريق فى السعير. و قرأ زيد بن على «فريقا» بالنصب فى الموضعين على الحال من جملة محذوفة، أى: افترقوا حال كونهم كذلك، و أجاز الفراء و الكسائى النصب على تقدير لتنذر فريقا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً

---

(١). الانفطار: ١.

(٢). غافر: ٧.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٦٠٤

قال الضحاك: أهل دين واحد، إما على هدى و إما على ضلالة، و لكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، و هو معنى قوله: وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ فى الدين الحق: و هو الإسلام وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ أى: المشركون ما لهم من ولىّ يدفع عنهم العذاب، و لا نصير ينصرهم فى ذلك المقام، و مثل هذا قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى «١» و قوله: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها «٢» و هاهنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على ما درج عليه أسلافهم فدبوا عليه من بعدهم و ليس بنا إلى ذكر شى‏ء من ذلك فائدة كما هو عادتنا فى تفسيرنا هذا فهو تفسير سلفى يمشى مع الحق و يدور مع مدلولات النظم الشريف، و إنما يعرف ذلك من رسخ قدمه، و تبرأ من التعصب قلبه و لحمه و دمه، و جملة: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من انتفاء كون للظالمين وليا و نصيرا، و أم: هذه هى المنقطعة المقدّرة ببل المفيدة للانتقال و بالهمزة المفيدة للإنكار، أى: بل أتخذ الكافرون من دون اللّه أولياء من الأصنام يعبدونها؟ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ أى: هو الحقيق بأن يتخذوه وليا، فإنه الخالق الرازق الضار النافع. و قيل الفاء جواب شرط محذوف، أى: إن أرادوا أن يتخذوا وليا فى الحقيقة فاللّه

هو الولىّ وَ هُوَ أى: و من شأنه أنه يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أى: يقدر على كل مقدور، فهو الحقيق بتخصيصه بالألوهية و إفراده بالعبادة وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ هذا عام فى كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه و مرجعه إلى اللّه يحكم فيه يوم القيامة بحكمه و يفصل خصومة المختصمين فيه، و عند ذلك يظهر المحقّ من المبطل، و يتميز فريق الجنة و فريق النار. قال الكلبى.

و ما اختلفتم فيه من شيء: أى من أمر الدين فحكمه إلى اللّه يقضى فيه. و قال مقاتل: إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن، و آمن به بعضهم فنزلت، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و يمكن أن يقال: معنى حكمه إلى اللّه: أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه فتكون الآية عامة فى كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يردّ إلى كتاب اللّه، و مثله قوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ «٣» و قد حكم سبحانه بأن الدين هو الإسلام، و أن القرآن حق، و أن المؤمنين فى الجنة و الكافرين فى النار، و لكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقا إلا فى الدار الآخرة وعدهم اللّه بذلك يوم القيامة ذلِكُمُ الحاكم بهذا الحكم اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ اعتمدت عليه فى جميع أمورى، لا على غيره و فوّضته فى كلّ شؤونى وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أى: أرجع فى كل شيء يعرض لى لا- إلى غيره فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قرأ الجمهور بالرفع: على أنه خبر آخر لذلكم، أو: خبر مبتدأ محذوف. أو: مبتدأ، و خبره ما بعده: أو:

نعت لربى لأن الإضافة محضة، و يكون عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ معترضا بين الصفة و الموصوف. و قرأ زيد بن علىّ فاطِرُ بالجرّ على أنه نعت للاسم الشريف فى قوله: إِلَى اللَّهِ و ما بينهما اعتراض، أو بدل من الهاء فى عليه، أو إليه، و أجاز الكسائى النصب على النداء، و أجازه غيره على المدح. و الفاطر:

الخالق المبدع، و قد تقدّم تحقيقه جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً أى: خلق لكم من جنسكم نساء،

---

(١). الأنعام: ٣٥.

(٢). السجدة: ١٣.

(٣). النساء: ٥٩.

أو المراد: حوّاء لكونها خلقت من ضلع آدم. و قال مجاهد: نسلا بعد نسل وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً أى:

و خلق للأنعام من جنسها إناثا، أو: و خلق لكم من الأنعام أصنافا من الذكور و الإناث، و هى الثمانية التى ذكرها فى الأنعام يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أى: يبثكم، من الذرء: و هو البثّ، أو يخلقكم و ينشئكم، و الضمير فى يذرؤكم للمخاطبين، و الأنعام إلا أنه غلب فيه العقلاء، و ضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل، و قيل: راجع إلى ما ذكر من التدبير. و قال الفراء و الزجاج و ابن كيسان: معنى يذرؤكم فيه يكثركم به: أى يكثركم بجعلكم أزواجا لأن ذلك سبب النسل. و قال ابن قتيبة: يذرؤكم فيه، أى: فى الزوج، و قيل: فى البطن، و قيل: فى الرحم لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ المراد بذكر المثل هنا: المبالغة فى النفى بطريق الكناية، فإنه إذا نفى عمن يماثله كان نفيه عنه أولى. كقولهم: مثلك لا- يبخل، و غيرك لا يجود، و قيل: إن الكاف زائدة للتوكيد، أى: ليس مثله شيء، و قيل: إن مثل زائدة، قاله ثعلب و غيره كما فى قوله: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ «١» أى: بما آمنتم به، و منه قول أوس بن حجر:

و قتلى كمثل جذوع النّخيل يغشاهم مطر منهمر

أى: كجذوع، و الأوّل أولى، فإن الكناية باب مسلوك للعرب، و مهيع مألوف لهم، و منه قول الشاعر:

ليس كمثل الفتى زهيرخلق يوازيه فى الفضائل

و قال آخر:

على مثل ليلى يقتل المرء نفسهو إن بات من ليلى على اليأس طاويا

و قال آخر:

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهمفما كمثلهم فى النّاس من أحد

قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلى لا- يقال له هذا، أى: أنا لا يقال لى. و قال أبو البقاء مرجحا لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال، إذ يكون المعنى: أن له مثلا و ليس لمثله مثل، و فى ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، و هو هو مع أن إثبات المثل للّه سبحانه محال، و هذا تقرير حسن، و لكنه يندفع ما أورده بما ذكرنا من كون الكلام خارجا مخرج الكناية، و من فهم هذه الآية الكريمة حقّ فهمها، و تدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين فى الصفات على طريقة بيضاء واضحة، و يزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفى للماثل قد اشتمل على برد اليقين، و شفاء الصدور، و انثلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحقّ قدر هذه الحجة النيرة، و البرهان القوىّ، فإنك تحطم بها كثيرا من البدع، و تهشم بها رؤوسا من الضلالة، و ترغم بها آناف طوائف من المتكلفين، و لا سيما إذا ضممت إليه قول اللّه سبحانه: وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً «٢»

---

(١). البقرة: ١٣٧.

(٢). طه: ١١٠.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٦٠٦

فإنك حينئذ قد أخذت بطرفى حبل ما يسمّونه علم الكلام، و علم أصول الدين:

و دع عنك نهبا صيح فى حجراتهو لكن حديث ما حديث الرّواحل

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: خزائنهما أو مفاتيحهما، و قد تقدّم تحقيقه فى سورة الزمر، و هى جمع إقليد، و هو المفتاح جمع على خلاف القياس. قال النحاس: و الذى يملك المفاتيح يملك الخزائن.

ثم لما ذكر سبحانه أن بيده مقاليد السموات و الأرض ذكر بعده البسط و القبض فقال: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ أى: يوسعه لمن يشاء من خلقه، و يضيقه على من يشاء إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ من الأشياء عَلِيمٌ فلا تخفى عليه خافية، و إحاطة علمه بكل شى‏ء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع و معصية العاصى، فهو يجازى كلا بما يستحقه من خير و شرّ.

و قد أخرج أحمد، و الترمذى و صححه، و النسائى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن مردويه عن عبد اللّه ابن عمرو. قال: خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و فى يده كتابان. فقال: أ تدرون ما هذان الكتابان؟

قلنا لا، إلا أن تخبرنا يا رسول اللّه، قال: للذى فى يده اليمنى: هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل الجنة و أسماء آبائهم و قبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم و لا ينقص منهم؛ ثم قال للذى فى شماله:

هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل النار و أسماء آبائهم و قبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم و لا ينقص منهم أبدا، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول اللّه إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سدّدوا و قاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة و إن عمل أىّ عمل، و إن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار و إن عمل أىّ عمل له. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بيديه فنبذهما، ثم قال: فرغ ربكم من العباد فريق فى الجنة و فريق فى السعير» قال الترمذى بعد إخراجه: حديث حسن

صحيح غريب. و روى ابن جرير طرفا منه عن ابن عمر موقوفا عليه. قال ابن جرير: و هذا الموقوف أشبه بالصواب. قلت: بل المرفوع أشبه بالصواب، فقد رفعه الثقة و رفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح، و يقوّى الرّفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء.

قال: «خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى يده كتاب ينظر فيه قالوا: انظروا إليه كيف و هو أمىّ لا يقرأ، قال: فعلمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل الجنة و أسماء قبائلهم لا يزاد منهم و لا ينقص منهم، و قال: فريق فى الجنة، و فريق فى السعير فرغ ربكم من أعمال العباد».

[سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۳ الى ۱۸]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِی إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِی إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) وَ ما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِی شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۴) فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۵) وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (۱۶) اللَّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (۱۷)

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِی السَّاعَةِ لَفِی ضَلالٍ بَعِيدٍ (۱۸)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰۷

الخطاب فى قوله: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم، أى: بين و أوضح لكم من الدين ما وَصَّى بِهِ نُوحاً من التوحيد و دين الإسلام و أصول الشرائع التى لم يختلف فيها الرسل و توافقت عليها الكتب وَ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من القرآن، و شرائع الإسلام، و البراءة من الشرك، و التعبير عنه بالموصول لتفخيم شأنه، و خص ما شرعه لنبينا صلّى اللّه عليه و سلم بالإيحاء مع كون ما بعده، و ما قبله مذكورا بالتوصية للتصريح برسالته وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى مما تطابقت عليه الشرائع.

ثم بين ما وصى به هؤلاء فقال:

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ أى: توحيد اللّه، و الإيمان به، و طاعة رسله، و قبول شرائعه، و أن: هى المصدرية:

و هى و ما بعدها: فى محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، كأنه قيل: ما ذلك الذى شرعه اللّه؟ فقيل: هو إقامة الدين، أو: هى فى محل نصب بدلا من الموصول، أو: فى محل جرّ بدلا من الدين، أو: هى المفسرة، لأنه قد تقدمها ما فيه معنى القول. قال مقاتل: يعنى أنه شرع لكم، و لمن قبلكم من الأنبياء دينا واحدا.

قال مقاتل: يعنى التوحيد. قال مجاهد: لم يبعث اللّه نبيا قط إلا وصّاه بإقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة، و الإقرار للّه بالطاعة، فذلك دينه الذى شرع لهم. و قال قتادة: يعنى تحليل الحلال، و تحريم الحرام، و خصّ إبراهيم، و موسى، و عيسى بالذكر مع نبينا صلّى اللّه عليه و سلم لأنهم أرباب الشرائع. ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين، نهاهم عن الاختلاف فيه فقال: وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ أى: لا تختلفوا فى التوحيد، و الإيمان باللّه، و طاعة رسله، و قبول شرائعه، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، و توافقت فيها الأديان، فلا ينبغى الخلاف فى مثلها، و ليس من هذا فروع المسائل التى تختلف فيها الأدلة، و تتعارض فيها الأمارات، و تتباين فيها الأفهام، فإنها من مطارح الاجتهاد، و مواطن الخلاف. ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شقّ على المشركين فقال:

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أى: عظم و شق عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد و رفض الأوثان.
قال قتادة: كبر على المشركين، و اشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده، و ضاق بها إبليس و جنوده، فأبى اللّه إلا أن ينصرها، و يعليها، و يظهرها، و يظفرها على من ناوأها. ثم خصّ أولياءه فقال: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ أى: يختار، و الاجتباء: الاختيار، و المعنى: يختار لتوحيده و الدخول فى دينه من يشاء من عباده وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ أى: يوفق لدينه و يستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، و يقبل إلى عبادته.
ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين، و عدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرّق و الاختلاف فقال:
وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ أى: ما تفرّقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة، ففعلوا ذلك التفرّق للبغى بينهم بطلب الرياسة و شدّة الحمية، قيل: المراد قريش هم الذين تفرّقوا بعد ما جاءهم العلم،

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۰۸

و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم بَغْياً منهم عليه، و قد كانوا يقولون ما حكاه اللّه عنهم بقوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ «۱» الآية، و بقوله: فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ «۲» و قيل: المراد أمم الأنبياء المتقدمين، و أنهم فيما بَيْنَهُمْ اختلفوا لما طال بهم المدى فآمن قوم، و كفر قوم، و قيل: اليهود و النصارى خاصة كما فى قوله: وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ «۳» وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ و هى تأخير العقوبة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و هو يوم القيامة كما فى قوله: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ «۴» و قيل: إلى الأجل الذى قضاه اللّه لعذابهم فى الدنيا بالقتل و الأسر، و الذلّ و القهر لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى: لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة، و قيل: لقضى بين من آمن منهم، و من كفر بنزول العذاب بالكافرين، و نجاة المؤمنين وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ من اليهود و النصارى مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد من قبلهم من اليهود و النصارى لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أى من القرآن، أو من محمد مُرِيبٍ موقع فى الريب و لذلك لم يؤمنوا. و قال مجاهد: معنى من بعدهم: من قبلهم: يعنى من قبل مشركى مكة، و هم اليهود و النصارى. و قيل المراد كفار المشركين من العرب الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم، وصفهم بأنهم فى شك من القرآن مريب. قرأ الجمهور أُورِثُوا و قرأ زيد بن علىّ «ورثوا» بالتشديد فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ أى: فلأجل ما ذكر من التفرّق و الشكّ، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع فادع و استقم؛ أى: فادع إلى اللّه و إلى توحيده و استقم على ما دعوت إليه. قال الفراء و الزجاج:
المعنى فإلى ذلك فادع كما تقول: دعوت إلى فلان و لفلان، و ذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد.
و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع. قال قتادة: استقم على أمر اللّه. و قال سفيان: استقم على القرآن. و قال الضحاك: استقم على تبليغ الرسالة كَما أُمِرْتَ بذلك من جهة اللّه وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ الباطلة و تعصباتهم الزائغة، و لا تنظر إلى خلاف من خالفك فى ذكر اللّه وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ أى: بجميع الكتب التى أنزلها اللّه على رسله، لا كالذين آمنوا ببعض منها و كفروا ببعض وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ فى أحكام اللّه إذا ترافعتم إلىّ، و لا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه اللّه، أو بنقصان منه، و أبلغ إليكم ما أمرنى اللّه بتبليغه كما هو، و اللام لام كى، أى:
أمرت بذلك الذى أمرت به لكى أعدل بينكم، و قيل: هى زائدة، و المعنى: أمرت أن أعدل. و الأوّل أولى.
قال أبو العالية: أمرت لأسوّى بينكم فى الدين فأومن بكل كتاب و بكل رسول. و الظاهر أن الآية عامة فى كل شىء، و المعنى: أمرت لأعدل بينكم فى كل شىء اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ أى: إلهنا و إلهكم، و خالقنا و خالقكم لَنا أَعْمالُنا أى: ثوابها و عقابها خاصّ بنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ أى: ثوابها و عقابها خاصّ بكم لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ أى: لا خصومة بيننا و بينكم، لأن الحق قد ظهر و وضح اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا فى المحشر وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ أى: المرجع يوم القيامة فيجازى كلا بعمله: و هذا منسوخ بآية السيف. قيل:

الخطاب لليهود، و قيل: للكفار على العموم وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ أى:

---

(۱). فاطر: ۴۲.

(۲). البقرة: ۸۹.

(۳). التين: ۴.

(۴). القمر: ۴۶.

يخاصمون فى دين اللّه من بعد ما استجاب الناس له، و دخلوا فيه. قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال:

و هؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود. و قال قتادة: هم اليهود و النصارى، و محاجتهم قولهم: نبينا قبل نبيكم، و كتابنا قبل كتابكم، و كانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب، و أنهم أولاد الأنبياء، و كان المشركون يقولون: أىّ الفريقين خير مقاما و أحسن نديا؟ فنزلت هذه الآية، و الموصول: مبتدأ، و خبره: الجملة بعده و هى حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى: لا ثبات لها كالشىء الذى يزول عن موضعه، يقال: دحضت حجته دحوضا: بطلت، و الإدحاض: الإزلاق، و مكان دحض: أى زلق، و دحضت رجله: زلقت.

و قيل: الضمير فى له راجع إلى اللّه. و قيل: راجع إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلم. و الأوّل أولى وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ أى:

غضب عظيم من اللّه لمجادلتهم بالباطل وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ فى الآخرة اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ المراد بالكتاب: الجنس فيشمل جميع الكتب المنزّلة على الرسل. و قيل: المراد به القرآن خاصة، و بالحق متعلق بمحذوف، أى: ملتبسا بالحق، و هو الصدق وَ المراد ب الْمِيزانَ العدل، كذا قال أكثر المفسرين، قالوا و سمى العدل ميزانا لأن الميزان آلة الإنصاف و التسوية بين الخلق. و قيل: الميزان ما بين فى الكتب المنزّلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به. و قيل: هو الجزاء على الطاعة بالثواب، و على المعصية بالعقاب. و قيل: إنه الميزان نفسه أنزله اللّه من السماء، و علم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم و تباخس كما فى قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ «۱» و قيل:

هو محمد صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ أى: أىّ شىء يجعلك داريا بها، عالما بوقتها لعلها شىء قريب، أو قريب مجيئها، أو ذات قرب. و قال قريب و لم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقى. قال الزجاج:

المعنى لعلّ البعث أو لعلّ مجىء الساعة قريب. و قال الكسائى: قريب نعت ينعت به المؤنث و المذكر كما فى قوله: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «۲» و منه قول الشاعر:

و كنّا قريبا و الدّيار بعيدةفلمّا وصلنا نصب أعينهم غبنا

قيل: إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم ذكر الساعة و عنده قوم من المشركين، فقالوا متى تكون الساعة؟ تكذيبا لها فأنزل اللّه الآية، و يدلّ على هذا قوله: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها استعجال استهزاء منهم بها، و تكذيبا بمجيئها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها أى: خائفون وجلون من مجيئها. قال مقاتل: لأنهم لا يدرون على ما يهجمون عليه. و قال الزجاج: لأنهم يعلمون أنهم محاسبون و مجزيون وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُ أى:

أنها آتية لا ريب فيها، و مثل هذا قوله: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ «۳».

ثم بين ضلال الممارين فيها فقال: أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِى السَّاعَةِ أى: يخاصمون فيها مخاصمة شك و ريبة، من المماراة و هى: المخاصمة و المجادلة، أو من المرية: و هى الشك و الريبة لَفِى ضَلالٍ بَعِيدٍ عن الحق لأنهم لم يتفكروا فى الموجبات للإيمان

بها من الدلائل التى هى مشاهدة لهم منصوبة لأعينهم مفهومة لعقولهم، و لو تفكروا لعلموا أن الذى خلقهم ابتداء قادر على الإعادة.

(۱). الحديد: ۲۵.

(۲). الأعراف: ۵۶.

(۳). المؤمنون: ۶۰.

و قد أخرج ابن جرير عن السدّى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ قال: اعملوا به. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ قال: ألا تعلموا أن الفرقة هلكة، و أن الجماعة ثقة كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ قال: استكبر المشركون أن قيل لهم: لا إله إلا اللّه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن مجاهد اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ قال: يخلص لنفسه من يشاء. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ قال: هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين، و يصدّونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا للّه. و قال: هم قوم من أهل الضلالة و كانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية. و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ الآية. قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ «۱» قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين:
قد دخل الناس فى دين اللّه أفواجا؛ فاخرجوا من بين أظهرنا فنزلت وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ الآية.

[سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۹ الى ۲۸]

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۱۹) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (۲۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۱) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (۲۲) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (۲۳)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (۲۶) وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (۲۸)
قوله: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ أى: كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم. قال مقاتل: لطيف بالبارّ و الفاجر حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم. قال عكرمة: بار بهم. و قال السدّى: رفيق بهم، و قيل: حفيّ بهم. و قال

(۱). أى: سورة النصر.

القرطبى: لطيف بهم فى العرض و المحاسبة، و قيل: غير ذلك. و المعنى: أنه يجرى لطفه على عباده فى كل أمورهم، و من جملة ذلك الرزق الـذى يعيشون به فى الـدنيا، و هو معنى قوله: يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، و يضـيق على هذا وَ هُوَ الْقَوِيُ العظيم القوّة الباهرة القادرة الْعَزِيزُ الـذى يغلب كل شـىء، و لا يغلبه شـىء مَنْ كانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ الحرث فى اللغة:

الكسب، يقال هو يحرث لعياله و يحترث: أى يكتسب. و منه سمى الرجل حارثا، و أصل معنى الحرث:

إلقـاء البـذر فى الأـرض، فـأطلق على ثمرات أعمال و فوائـدها بطريق الاسـتعارة: و المعنى: من كان يريـد بأعماله و كسـبه ثواب الآخرة يضاعف اللّه له ذلك الحسـنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف. و قيل: معناه يزيد فى توفيقه و إعانته و تسهيل سبل الخير له وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها أى: من كان يريد بأعماله و كسـبه ثواب الدنيا و هو متاعها، و ما يرزق اللّه به عباده منها نعطه منها ما قضت به مشيئتنا و قسم له فى قضائنا.

قال قتادة: معنى نُؤْتِهِ مِنْها نقدّر له ما قسم له كما قال: عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ «١». و قال قتادة أيضا:

إن اللّه يعطى على نيـة الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، و لا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا قال القشـيرى: و الظاهر أن الآية فى الكافر، و هو تخصـيص بغير مخصـص. ثم بين سبحانه أن هذا الذى يريد بعمله الدنيا لا نصيب له فى الآخرة فقال: وَ ما لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَصِـيبٍ لأنه لم يعمل للآخرة فلا نصيب له فيها، و قد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة الإسراء أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مـا لَمْ يَـأْذَنْ بِهِ اللَّهُ لمـا بين سـبحانه القـانون فى أمر الـدنيا و الآـخرة أردفه ببيـان مـا هـو الـذنب العظيم الموجب للنـار، و الهمزة: لاستفهام التقرير و التقريع، و ضـمير شرعوا عائد إلى الشركاء، و ضمير لهم إلى الكفار، و قيل العكس، و الأوّل أولى. و معنى ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ما لم يأذن به من الشـرك و المعاصى وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ و هى تأخير عذابهم حيث قال: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ «٢» لَقُضِـىَ بَيْنَهُمْ فى الدنيا فعوجلوا بالعقوبة، و الضمير فى بينهم راجع إلى المؤمنين و المشركين، أو إلى المشركين و شركائهم وَ إِنَّ الظَّالِمِيـنَ لَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ أى: المشـركين و المكـذبين لهم عـذاب أليم فى الـدنيا و الآـخرة. قرأ الجمهـور وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بكسـر الهمزة على الاستئناف.

و قرأ مسـلم، و الأـعرج، و ابن هرمز بفتحهـا عطفـا على كلمـة الفصـل تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّا كَسَـبُوا أى خائفين وجلين مما كسـبوا من السـيئات، و ذلك الخوف و الوجل يوم القيامة وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير مضاف قاله الزجاج، أى: و جزاء ما كسـبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا، و الجملة فى محل نصب على الحال. و لما ذكر حال الظـالمين ذكر حـال المؤمنين فقـال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحـاتِ فِى رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ روضات جمع روضـة. قال أبو حيان: اللغـة الكثيرة تسـكين الواو، و لغة هذيل فتحها، و الروضة: الموضع النزه الكثير الخضـرة، و قد مضـى بيان هذا فى سورة الروم، و روضة الجنة: أطيب مساكنها كما أنها فى الدنيا لأحسن أمكنتها لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ من صـنوف النعم و أنواع المستلذّات، و العامل فى عند ربهم يشاءون، أو العامل فى روضات الجنات و هو الاستقرار،

---

(١). الإسراء: ١٨.

(٢). القمر: ۴۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۲

و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر للمؤمنين قبله، و خبره الجملـة المـذكورة بعده و هى: هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أى: الذى لا يوصف و لا تهتـدى العقول إلى معرفة حقيقته، و الإشارة بقوله: ذلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ إلى الفضل الكبير، أى: يبشـرهم به. ثم وصـف

العباد بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان و العمل بما أمر اللّه به و ترك ما نهى عنه هم المبشرون بتلك البشارة.

قرأ الجمهور يُبَشِّرُ مشدّدا من بشر. و قرأ مجاهد، و حميد بن قيس بضم التحتية و سكون الموحدة و كسر الشين من أبشر. و قرأ بفتح التحتية و ضم الشين بعض السبعة، و قد تقدّم بيان القراءات فى هذه اللفظة. ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلّى اللّه عليه و سلم من هذه الأحكام الشريفة التى اشتمل عليها كتابه أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثوابا منهم فقال: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً أى: قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا و لا نفعا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلا، أى: إلا أن تودّونى لقرابتى بينكم أو تودّوا أهل قرابتى، و يجوز أن يكون منقطعا. قال الزجاج: إلا المودّة استثناء ليس من الأوّل: أى: إلا أن تودّونى لقرابتى فتحفظونى، و الخطاب لقريش، و هذا قول عكرمة، و مجاهد، و أبى مالك، و الشعبى، فيكون المعنى على الانقطاع: لا أسألكم أجرا قط، و لكن أسألكم المودّة فى القربى التى بينى و بينكم، ارقبونى فيها و لا تعجلوا إلىّ و دعونى و الناس، و به قال قتادة، و مقاتل، و السدّى، و الضحاك، و ابن زيد و غيرهم، و هو الثابت عن ابن عباس كما سيأتى. و قال سعيد بن جبير و غيره: هم آل محمد، و سيأتى ما استدل به القائلون بهذا. و قال الحسن و غيره: معنى الآية: إلا التودّد إلى اللّه عزّ و جلّ، و التقرّب بطاعته. و قال الحسن بن الفضل: و رواه ابن جرير عن الضحاك إن هذه الآية منسوخة، و إنما نزلت بمكة، و كان المشركون يؤذون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأمرهم اللّه بمودّته، فلما هاجر أوته الأنصار و نصروه، فأنزل اللّه عليه وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ «۱» و أنزل عليه قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ «۲» و سيأتى فى آخر البحث ما يتضح به الثواب و يظهر به معنى الآية إن شاء اللّه وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً أصل القرف: الكسب، يقال فلان يقرف لعياله: أى يكتسب؛ و الاقتراف: الاكتساب، مأخوذ من قولهم رجل قرفة: إذا كان محتالا. و المعنى: من يكتسب حسنة نزد له هذه الحسنة حسنا بمضاعفة ثوابها. قال مقاتل: المعنى من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسنا نضاعفها بالواحدة عشرا فصاعدا. و قيل: المراد بهذه الحسنة هى المودّة فى القربى، و الحمل على العموم أولى، و يدخل تحته المودّة فى القربى دخولا أوّليا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ أى: كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين. قال قتادة: غفور للذنوب شكور للحسنات. و قال السدّى: غفور لذنوب آل محمد أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أم هى المنقطعة، أى: بل أ يقولون افترى محمد على اللّه كذبا بدعوى النبوة، و الإنكار للتوبيخ. و معنى افتراء الكذب: اختلاقه. ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ أى: لو افترى على اللّه الكذب لشاء عدم صدوره منه و ختم على قلبه بحيث لا يخطر

---

(۱). الشعراء: ۱۰۹.

(۲). سبأ: ۴۷.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶۱۳

بباله شيئا مما كذب فيه كما تزعمون. قال قتادة: يختم على قلبك فينسيك القرآن، فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به فى هذه الآية. و قال مجاهد و مقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم. و قيل الخطاب له، و المراد الكفار، أى: إن يشأ يختم على قلوب الكفار، و يعاجلهم بالعقوبة، ذكره القشيرى. و قيل المعنى: لو حدّثتك نفسك أن تفترى على اللّه كذبا لطبع على قلبك، فإنه لا يجترئ على الكذب إلا من كان مطبوعا على قلبه، و الأوّل أولى، و قوله: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ استئناف مقرّر لما قبله من نفى الافتراء. قال ابن الأنبارى: يختم على قلبك تامّ، يعنى و ما بعده مستأنف.

و قال الكسائى: فيه تقديم و تأخير، أى: و اللّه يمحو الباطل. و قال الزجاج: أم يقولون افترى على اللّه كذبا تامّ. و قوله: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم، أى: لو كان ما أتى به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم باطلا لمحاه. كما جرت به عادته فى المفترين وَ يُحِقُّ الْحَقَ أى الإسلام فيبينه بِكَلِماتِهِ أى: بما أنزل من القرآن إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ عالم بما فى قلوب العباد، و قد سقطت الواو من و يمحو فى بعض المصاحف كما حكاه الكسائى وَ هُوَ الَّذِی يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ أى: يقبل من المذنبين من عباده توبتهم إليه مما عملوا من المعاصى و اقترفوا من السيئات، و التوبة الندم على المعصية و العزم على عدم المعاودة لها. و قيل: يقبل التوبة عن أوليائه و أهل طاعته. و الأوّل أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد مسلمهم و كافرهم؛ إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية، و عزيمة صحيحة وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ على العموم لمن تاب عن سيئته وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ من خير و شرّ فيجازى كلا بما يستحقه.

قرأ حمزة، و الكسائى، و حفص، و خلف تَفْعَلُونَ بالفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية على الخبر، و اختار القراءة الثانية أبو عبيدة، و أبو حاتم لأن هذا الفعل وقع بين خبرين وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ الموصول فى موضع نصب، أى: يستجيب اللّه للذين آمنوا و يعطيهم ما طلبوه منه، يقال أجاب و استجاب بمعنى. و قيل: المعنى يقبل عبادة المخلصين، و قيل: التقدير و يستجيب لهم، فحذف اللام كما حذف فى قوله: وَ إِذا كالُوهُمْ أى: كالوا لهم، و قيل: إن الموصول فى محل رفع: أى يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله: اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ «١» قال المبرد: معنى وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا و يستدعى الذين آمنوا الإجابة، هكذا حقيقة معنى استفعل، فالذين فى موضع رفع، و الأوّل أولى وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أى: يزيدهم على ما طلبوه منه، أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلا منه، و قيل: يشفعهم فى إخوانهم وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ هذا للكافرين مقابلا ما ذكره للمؤمنين فيما قبله وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ أى: لو وسع اللّه لهم رزقهم لبغوا فى الأرض: لعصوا فيها، و بطروا النعمة، و تكبروا، و طلبوا ما ليس لهم طلبه، و قيل المعنى: لو جعلهم سواء فى الرزق لما انقاد بعضهم لبعض، و لتعطلت الصنائع، و الأوّل أولى. و الظاهر عموم أنواع الرزق، و قيل: هو المطر خاصة وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ أى: ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته، و ما تقتضيه حكمته

---

(١). الأنفال ٢۴.

البالغة إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ بأحوالهم بما يصلحهم من توسيع الرزق، و تضييقه، فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه، و يكفه عن الفساد بالبغى فى الأرض وَ هُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ الْغَيْثَ أى: المطر الذى هو أنفع أنواع الرزق و أعمها فائدة و أكثرها مصلحة مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا أى: من بعد ما أيسوا عن ذلك فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم، و يشكرون له ما يجب الشكر عليه وَ هُوَ الْوَلِيُ للصالحين من عباده بالإحسان إليهم و جلب المنافع لهم، و دفع الشرور عنهم الْحَمِيدُ المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصا و عموما.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ قال: عيش الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها الآية. قال: من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل اللّه له نصيبا فى الآخرة إلا النار، و لم يزدد بذلك من الدنيا شيئا إلا رزقا فرغ منه و قسم له، و أخرج أحمد و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابن حبان عن أبىّ بن كعب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «بشر هذه الأمة بالسناء و الرفعة، و النصر و التمكين فى الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب». و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة:

قال تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ الآيهٔ، ثم قال: يقول اللّه: ابن آدم تفرّغ لعبادتى أملأ صدرك غنى و أسدّ فقرك، و إن لاـ تفعل ملأت صدرك شغلا و لم أسدّ فقرك. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن عساكر عن علىّ قال: الحرث حرثان، فحرث الدنيا المال و البنون، و حرث الآخرهٔ الباقيات الصالحات.

و أخرج أحمد، و عبد بن حميد، و البخارى، و مسلم، و الترمذى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى قال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. قال ابن عباس: عجلت، إن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابهٔ، فقال:

إلا أن تصلوا ما بينى و بينكم من القرابهٔ. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عنه قال: قال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لا أسألكم عليه أجرا إلّا أن تودّونى فى نفسى لقرابتى و تحفظوا القرابهٔ التى بينى و بينكم».

و أخرج سعيد بن منصور، و ابن سعد، و عبد بن حميد، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن الشعبى قال: أكثر الناس علينا فى هذه الآيهٔ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فقال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان واسط النسب فى قريش ليس بطن من بطونهم إلا و له فيه قرابهٔ، فقال اللّه: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً على ما أدعوكم إليه إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى أن تودونى لقرابتى منكم، و تحفظونى بها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه من طريق علىّ بن أبى طلحهٔ عن ابن عباس فى الآيهٔ قال: كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرابهٔ من جميع قريش، فلما كذبوه و أبوا أن يبايعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تبايعونى فاحفظوا قرابتى فيكم، و لا يكون غيركم من العرب أولى بحفظى و نصرتى منكم». و أخرج عبد بن حميد، و ابن مردويه عنه نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه عنه أيضا نحوه. و أخرج ابن مردويه

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۵

عنه أيضا نحوه. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا من طريق أخرى نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس قال: قالت الأنصار فعلنا و فعلنا و كأنهم فخروا، فقال العباس:

لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأتاهم فى مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلهٔ فأعزكم اللّه؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: أفلاـ تجيبون؟ قالوا: ما نقول يا رسول اللّه؟ قال: ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك؟ ألم يكذّبوك فصدّقناك؟ ألم يخذلوك فنصرناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب و قالوا: أموالنا و ما فى أيدينا للّه و رسوله، فنزلت قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى و فى إسناده يزيد بن أبى زياد، و هو ضعيف، و الأولى أن الآيهٔ مكيهٔ لا مدنيهٔ، و قد أشرنا فى أوّل السورهٔ إلى قول من قال إن هذه الآيهٔ و ما بعدها مدنيهٔ، و هذا متمسكهم. و أخرج أبو نعيم، و الديلمى من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى أى: تحفظونى فى أهل بيتى و تودونهم بى». و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه. قال السيوطى: بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآيهٔ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى قالوا: يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: علىّ و فاطمهٔ و ولدهما» و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآيهٔ بمكهٔ، و كان المشركون يؤذون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فأنزل اللّه قل لهم يا محمد لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ يعنى: على ما أدعوكم إليه أَجْراً عرضا من الدنيا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى إلا الحفظ لى فى قرابتى فيكم، فلما هاجر إلى المدينهٔ أحبّ أن يلحقه بإخوته من الأنبياء فقال: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ «۱» يعنى ثوابه و كرامته فى الآخرهٔ كما قال نوح وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ* و كما

قال هود، و صالح، و شعيب لم يستثنوا أجرا كما استثنى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فردّه عليهم، و هى منسوخة. و أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى و الحاكم و صححه، و ابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فى الآية: قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات و الهدى أجرا إلا أن تودوا اللّه و أن تتقرّبوا إليه بطاعته. هذا حاصل ما روى عن حبر الأمة ابن عباس رضى اللّه عنه فى تفسير هذه الآية. و المعنى الأوّل هو الذى صح عنه، و رواه عنه الجمع الجمّ من تلامذته فمن بعدهم، و لا ينافيه ما روى عنه من النسخ، فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن فى مكة بأن يودّه كفار قريش لما بينه و بينهم من القربى و يحفظوه بها، ثم ينسخ ذلك و يذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدلّ عليه ما ذكرنا مما يدلّ على أنه لم يسأل على التبليغ أجرا على الإطلاق، و لا يقوى ما روى من حملها على آل محمد صلّى اللّه عليه و سلم على معارضة ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، و قد أغنى اللّه آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة، و المزايا الجميلة، و قد بينا بعض ذلك عند تفسيرنا لقوله: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ «٢» و كما لا يقوى هذا على المعارضة، فكذلك لا يقوى ما روى عنه أن المراد بالمودّة فى القربى أن

---

(١). سبأ: ٤٧.

(٢). الأحزاب: ٣٣.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٦١٦

يودوا اللّه و أن يتقرّبوا إليه بطاعته، و لكنه يشدّ من عضد هذا أنه تفسير مرفوع إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و إسناده عند أحمد فى المسند هكذا: حدّثنا حسن بن موسى حدّثنا قزعة بن سويد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن قزعة به. و أخرج ابن المبارك، و سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الشعب. قال السيوطى بسند صحيح عن أبى هانئ الخولانى قال:
سمعت عمر بن حريث و غيره يقولون: إنما نزلت هذه الآية فى أصحاب الصفة وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ و ذلك أنهم قالوا لو أن لنا، فتمنوا الدنيا. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن علىّ مثله.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٩ الى ٤٣]

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٣١) وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)
وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

ذكر سبحانه بعض آياته على كمال قدرته الموجبة لتوحيده، و صدق ما وعد به من البعث، فقال: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: خلقهما على هذه الكيفية العجيبة، و الصنعة الغريبة وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ يجوز عطفه على خلق، و يجوز عطفه على السموات، و الدابة: اسم لكل ما دبّ. قال الفراء:

أراد ما بث فى الأرض دون السماء كقوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ «١» و إنما يخرج من الملح دون العذب. و قال أبو علىّ الفارسى: تقديره و ما بثّ فى أحدهما، فحذف المضاف. قال مجاهد: يدخل فى هذا الملائكة و الناس، و قد قال تعالى: وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ «٢» وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ أى: حشرهم يوم القيامة إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ الظرف متعلق بجمعهم لا بقدير قال أبو البقاء؛ لأن ذلك يؤدى: و هو على جمعهم قدير إذا يشاء، فتتعلق القدرة بالمشيئة، و هو محال. قال شهاب الدين: و لا أدرى ما وجه كونه محالا على

---

(١). الرحمن: ٢٢.

(٢). النحل: ٨.

مذهب أهل السنة، فإن كان يقول بقول المعتزلة و هو أن القدرة تتعلق بما لم يشأ اللّه مشى كلامه، و لكنه مذهب ردىء لا يجوز اعتقاده وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أى: و ما أصابكم من المصائب كائنة ما كانت فبسبب ما كسبت أيديكم من المعاصى. قرأ نافع، و ابن عامر «بما كسبت» بغير فاء، و قرأ الباقون بالفاء، وَ ما فى أَصابَكُمْ هى الشرطية، و لهذا دخلت الفاء فى جوابها على قراءة الجمهور، و لا يجوز حذفها عند سيبويه و الجمهور، و جوّز الأخفش الحذف كما فى قوله: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ «١» و قول الشاعر:

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها و الشّرّ بالشّرّ عند اللّه مثلان

و قيل: هى الموصولة، فيكون الحذف و الإثبات جائزين، و الأوّل أولى. قال الزجاج: إثبات الفاء أجود لأن الفاء مجازاة جواب الشرط، و من حذف الفاء فعلى أن: ما، فى معنى: الذى، و المعنى: الذى أصابكم وقع بما كسبت أيديكم. قال الحسن: المصيبة هنا الحدود على المعاصى، و الأولى الحمل على العموم كما يفيده وقوع النكرة فى سياق النفى، و دخول من الاستغراقية عليها وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ من المعاصى التى يفعلها العباد؛ فلا يعاقب عليها، فمعنى الآية: أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب، و يعفو عن كثير من الذنوب.

و قد ثبتت الأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان فى الدنيا يؤجر عليه، أو يكفر عنه من ذنوبه. و قيل:

هذه الآية مختصة بالكافرين على معنى: أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفرا عنهم لذنب و لا محصلا لثواب، و يترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم فلا يعاجلهم فى الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة. و الأولى حمل الآية على العموم، و العفو يصدق على تأخير العقوبة كما يصدق على محو الذنب و رفع الخطاب به. قال الواحدى: و هذه أرجى آية فى كتاب اللّه لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب، و صنف عفا عنه فى الدنيا، و هو كريم لا يرجع فى عفوه، فهذه سنة اللّه مع المؤمنين. و أما الكافر فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أى: بفائتين عليه هربا فى الأرض و لا فى السماء لو كانوا فيها بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍ يواليكم فيمنع عنكم ما قضاه اللّه وَ لا نَصِيرٍ ينصركم من عذاب اللّه فى الدنيا و لا فى الآخرة. ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده و صدق ما وعد به فقال:

وَ مِنْ آيـاتِهِ الْجَـوارِ قرأ نـافع، و أبـو عمرو «الجوارى» بإثبـات اليـاء فى الوصـل، و أمـا فى الوقف فإثباتهـا على الأصـل و حـذفها للتخفيف، و هى السفن واحدتها جارية، أى: سائرة فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ أى:
الجبال جمع علم و هو الجبل، و منه قول الخنساء:
و إنّ صخرا لتأتمّ الهداة بهكأنّه علم فى رأسه نار
قال الخليل: كلّ شيء مرتفع عند العرب فهو علم. و قال مجاهد: الأعلام القصور واحدها علم

---

(١). الأنعام: ١٢١.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۸
إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ قرأ الجمهور بهمز يَشَأْ و قرأ ورش عن نافع بلا همز. و قرأ الجمهور الرِّيحَ بالإفراد، و قرأ نافع «الرياح» على الجمع: أى يسكن الريح التى تجرى بها السفن فَيَظْلَلْنَ أى: السفن رَواكِدَ أى: سواكن ثوابت عَلى ظَهْرِهِ البحر، يقال ركد الماء ركودا: سكن، و كذلك ركدت الريح و ركدت السفينة و كل ثابت فى مكان فهو راكد. قرأ الجمهور فَيَظْلَلْنَ بفتح اللام الأولى، و قرأ قتادة بكسرها، و هى لغة قليلة إِنَّ فِي ذلِكَ الذى ذكر من أمر السفن لَآياتٍ دلالات عظيمة لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أى: لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء. قال قطرب:
الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر و إذا ابتلى صبر. قال عون بن عبد اللّه:
فكم من منعم عليه غير شاكرو كم من مبتلى غير صابر
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا معطوف على يسكن: أى يهلكهنّ بالغرق، و المراد أهلكهنّ بما كسبوا من الذنوب، و قيل: بما أشركوا. و الأوّل أولى، فإنه يهلك فى البحر المشرك و غير المشرك، يقال أوبقه: أى أهلكه وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم فينجيهم من الغرق. قرأ الجمهور يَعْفُ بالجزم عطفا على جواب الشرط. قال القشيرى: و فى هذه القراءة إشكال لأن المعنى: إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد أو يهلكها بذنوب أهلها فلا يحسن عطف يَعْفُ على هذا، لأنه يصير المعنى:
إن يشأ يعف و ليس المعنى ذلك، بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى، و قد قرأ قوم «و يعفوا» بالرفع و هى جيدة فى المعنى. قال أبو حيان:
و ما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم مدلول التركيب، و المعنى: إلا أنه تعالى أهلك ناسا و أنجى ناسا على طريق العفو عنهم، و قرأ الأعمش «و يعفوا» بالرفع، و قرأ بعض أهل المدينة بالنصب بإضمار أن بعد الواو كما فى قول النابغة:
فإن يهلك أبو قابوس يهلكربيع النّاس و الشّهر الحرام
و نأخذ بعده بذناب عيشأجبّ الظّهر ليس له سنام
بنصب و نأخذ وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ قرأ الجمهور بنصب يَعْلَمَ قال الزجاج: على الصرف، قال: و معنى الصرف صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى، قال:
و ذلك أنه لما لم يحسن عطف، و يعلم، مجزوما على ما قبله إذ يكون المعنى: إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذى قبله، و لا يتأتى ذلك إلا بإضمار أن لتكون مع الفعل فى تأويل اسم، و من هذا بيتا النابغة المذكوران قريبا، و كما قال الزجاج. قال المبرّد و أبو علىّ الفارسى: و اعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته. و قيل: النصب على العطف على تعليل محذوف، و التقدير: لينتقم منهم و يعلم. و اعترضه أبو حيان بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم و نجاة قوم فلا يحسن تقدير

لينتقم منهم. و قرأ نافع، و ابن عامر برفع «يعلم» على الاستئناف و هى قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ. و قرئ بالجزم عطفا على المجزوم قبله على معنى: و إن

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۱۹

يشأ يجمع بين الإهلاك، و النجاة، و التحذير، و معنى ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ما لهم من فرار و لا مهرب، قاله قطرب. و قال السدى: ما لهم من ملجأ، و هو مأخوذ من قولهم حاص به البعير حيصة: إذا رمى به، و منه قولهم فلان يحيص عن الحق، أى: يميل عنه فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ذكر التنفير عن الدنيا، أى: ما أعطيتهم من الغنى و السعة فى الرزق فإنما هو متاع قليل فى أيام قليلة ينقضى و يذهب. ثم رغبهم فى ثواب الآخرة و ما عند اللّه من النعيم المقيم فقال: وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى أى: ما عند اللّه من ثواب الطاعات و الجزاء عليها بالجنات خير من متاع الدنيا و أبقى لأنه دائم لا ينقطع، و متاع الدنيا ينقطع بسرعة. ثم بين سبحانه لمن هذا فقال: لِلَّذِينَ آمَنُوا أى: صدقوا و عملوا على ما يوجبه الإيمان وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أى: يفوّضون إليه أمورهم، و يعتمدون عليه فى كل شؤونهم لا على غيره وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ الموصول فى محل جرّ معطوف على الذين آمنوا، أو بدلا منه، أو فى محلّ نصب بإضمار: أعنى و الأوّل: أولى، و المعنى: أن ما عند اللّه خير و أبقى للذين آمنوا و للذين يجتنبون. و المراد بكبائر الإثم: الكبائر من الذنوب، و قد قدّمنا تحقيقها فى سورة النساء. قرأ الجمهور كَبائِرَ بالجمع، و قرأ حمزة و الكسائى «كبير» بالإفراد و هو يفيد مفاد الكبائر، لأن الإضافة للجنس كاللام. و الفواحش هى من الكبائر، و لكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها، و ذلك كالقتل، و الزنا، و نحو ذلك. و قال مقاتل: الفواحش موجبات الحدود. و قال السدّى: هى الزنا وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ أى: يتجاوزون عن الذنب الذى أغضبهم، و يكظمون الغيظ، و يحملون على من ظلمهم، و خص الغضب بالغفران لأن استيلاءه على طبع الإنسان، و غلبته عليه شديدة، فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح اللّه صدره و خصه بمزية الحلم، و لهذا أثنى اللّه سبحانه عليهم بقوله: فى آل عمران وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ «۱» قال ابن زيد: جعل اللّه المؤمنين صنفين: صنفا يعفون عن ظالمهم فبدأ بذكرهم، و صنفا ينتصرون من ظالمهم و هم الذين سيأتى ذكرهم وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى: أجابوه إلى ما دعاهم إليه و أقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة. قال ابن زيد: هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيبا منهم قبل الهجرة، و أقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها و هيئاتها وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أى: يتشاورون فيما بينهم، و لا يعجلون، و لا ينفردون بالرأى، و الشورى مصدر شاورته مثل البشرى و الذكرى. قال الضحاك: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و ورود النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم فى دار أبى أيوب على الإيمان به و النصرة له. و قيل: المراد تشاورهم فى كلّ أمر يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم على بعض برأى، و ما أحسن ما قاله بشار بن برد:

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى لبيب أو نصيحة حازم

و لا تجعل الشّورى عليك غضاضة فريش الخوافى قوّة للقوادم

و قد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يشاور أصحابه فى أموره، و أمره اللّه سبحانه بذلك فقال:

---

(۱). آل عمران: ۱۳۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۰

وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ «۱» و قد قدّمنا فى آل عمران كلاما فى الشورى وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أى: ينفقونه فى سبيل الخير و يتصدّقون به على المحاويج. ثم ذكر سبحانه الطائفة التى تنتصر ممن ظلمها فقال: وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ أى:

أصابهم بغى من بغى عليهم بغير الحق، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين فى معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب فى معرض المدح لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل اللّه له العزة حيث قال: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ «۲» فالانتصار عند البغى فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة.

قال النخعى: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء، و لكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله اللّه له و عدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فبيّن سبحانه أن العدل فى الانتصار هو الاقتصار على المساواة، و ظاهر هذا العموم. و قال مقاتل و الشافعى و أبو حنيفة و سفيان: إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره. و قال مجاهد و السدّى: هو جواب القبيح إذا قال أخزاك اللّه يقول أخزاك اللّه من غير أن يعتدى، و تسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه أو على طريق المشاكلة لتشابههما فى الصورة. ثم لما بين سبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جائز؛ بين فضيلة العفو فقال: فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ أى: من عفا عمن ظلمه و أصلح بالعفو بينه و بين ظالمه، أى: أن اللّه سبحانه يأجره على ذلك، و أبهم الأجر تعظيما لشأنه، و تنبيها على جلالته. قال مقاتل:

فكان العفو من الأعمال الصالحة، و قد بينا هذا فى سورة آل عمران. ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التى هى سبب الفوز و النجاة فقال: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ أى: المبتدئين بالظلم قال مقاتل: يعنى من يبدأ بالظلم، و به قال سعيد بن جبير. و قيل: لا يحبّ من يتعدّى فى الاقتصاص و يجاوز الحدّ فيه لأن المجاوزة ظلم وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ مصدر مضاف إلى المفعول، أى: بعد أن ظلمه الظالم له، و اللام هى لام الابتداء. و قال ابن عطية: هى لام القسم، و الأوّل أولى. و من: هى الشرطية، و جوابه: فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ بمؤاخذة و عقوبة، و يجوز أن تكون من: هى الموصولة، و دخلت الفاء فى جوابها تشبيها للموصولة بالشرطية، و الأوّل أولى. و لما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ أى: يتعدّون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر. و قال ابن جريج: أى يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ أى: يعملون فى النفوس و الأموال بغير الحقّ كذا قال الأكثر. و قال مقاتل: بغيهم: عملهم بالمعاصى، و قيل: يتكبرون و يتجبرون.

و قال أبو مالك: هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام دينا، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الذين يظلمون الناس، و هو: مبتدأ، و خبره: لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: لهم بهذا السبب عذاب شديد الألم. ثم رغب سبحانه فى الصبر و العفو فقال: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ أى: صبر على الأذى و غفر لمن ظلمه و لم ينتصر، و الكلام فى هذه اللام و من كالكلام فى و لمن انتصر (إن ذلك) الصبر و المغفرة لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

---

(۱). آل عمران: ۱۵۹.

(۲). المنافقون: ۸.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۱

أى: أن ذلك منه فحذف لظهوره، كما فى قولهم:

السّمن منوان بدرهم قال مقاتل: من الأمور التى أمر اللّه بها. و قال الزجاج: الصابر يؤتى بصبره ثوابا، فالرغبة فى الثواب أتمّ عزما. قال ابن زيد: إن هذا كله منسوخ بالجهاد، و أنه خاصّ بالمشركين. و قال قتادة: إنه عام، و هو ظاهر النظم القرآنى وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ أى: فما له من أحد يلى هدايته و ينصره، و ظاهر الآية العموم، و قيل: هى خاصة بمن أعرض عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم و لم يعمل بما دعاه من الإيمان باللّه و العمل بما شرعه، و الأوّل أولى.

و قد أخرج أحمد، و ابن راهويه، و ابن منيع، و عبد بن حميد، و الحكيم، و الترمذى، و أبو يعلى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و الحاكم عن علىّ بن أبى طالب: قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب اللّه حدّثنا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ و سأفسرها لك يا علىّ: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم، و اللّه أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة، و ما عفا اللّه عنه فى الدنيا؛ فاللّه أكرم من أن يعود بعد عفوه. و أخرج عبد بن حميد، و الترمذى عن أبى موسى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، و ما يعفو اللّه عنه أكثر، و قرأ وَ ما أَصابَكُمْ الآية». و أخرج عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى الكفارات و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن عمران بن حصين أنه دخل عليه بعض أصحابه، و كان قد ابتلى فى جسده، فقال: إنا لنبتئس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس لما ترى، فإن ما ترى بذنب، و ما يعفو اللّه عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ إلى آخرها.

و أخرج أحمد عن معاوية بن أبى سفيان سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: «ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفّر اللّه عنه به من سيئاته». و أخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما عثرة قدم و لا اختلاج عرق و لا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم و ما يعفو اللّه أكثر». و أخرج ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس فى قوله: فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ قال: يتحرّكن و لا يجرين فى البحر.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: رواكد قال: وقوفا أَوْ يُوبِقْهُنَ قال:

يهلكهنّ. و أخرج النسائى، و ابن ماجة، و ابن مردويه عن عائشة. قالت: «دخلت علىّ زينب و عندى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فأقبلت علىّ فسبتنى، فردعها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فلم تنته، فقال لى: سبيها، فسببتها حتى جفّ ريقها فى فمها، و وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتهلل سرورا». و أخرج أحمد، و مسلم، و أبو داود، و الترمذى، و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «المستبان ما قالا من شىء فعلى البادئ حتى يعتدى المظلوم» ثم قرأ وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

«إذا كان يوم القيامة أمر اللّه مناديا ينادى ألا ليقم من كان له على اللّه أجر، فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا» و ذلك قوله: فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ و أخرج البيهقى عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ينادى

فتح القدير، ج‏4، ص: 622

مناد من كان له أجر على اللّه فليدخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه، قال اللّه فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .

[سورة الشورى (42): الآيات 44 الى 53]

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ

ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۲) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (۵۳)

قوله: وَ تَرَى الظَّالِمِينَ أی: المشركين المكذبين بالبعث لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ أی: حين نظروا النار، و قيل: نظروا ما أعده اللّه لهم عند الموت يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ أی: هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ أی: ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذلّ و الهوان، و الضمير فی عليها راجع إلى العذاب و أنثه لأن العذاب هو النار و قوله:

يُعْرَضُونَ فی محل نصب على الحال، لأن الرؤية بصرية، و كذلك خاشعين، و من الذلّ: يتعلق بخاشعين، أی: من أجله يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ من: هی التی لابتداء الغاية، أی: يبتدئ نظرهم إلى النار، و يجوز أن تكون تبعيضية، و الطرف الخفیّ: الذی يخفی نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذلّ، و الخوف، و الوجل. قال مجاهد مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ أی: ذليل، قال: و إنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يحشرون عميا، و عين القلب طرف خفیّ. و قال قتادة، و سعيد بن جبير، و السدّی، و القرظی: يسارقون النظر من شدّة الخوف. و قال يونس: إن مِنَ فی مِنْ طَرْفٍ بمعنى الباء، أی: ينظرون بطرف ضعيف من الذلّ و الخوف و به قال الأخفش: وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أی: إنّ الكاملين فی الخسران: هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس و الأهلين فی يوم القيامة. أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا فی النار معذّبين بها، و أما خسرانهم لأهليهم؛ فلأنهم إن كانوا معهم فی النار فلا ينتفعون بهم، و إن كانوا فی الجنة فقد حيل بينهم و بينهم، و قيل خسران الأهل: أنهم لو

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۳

آمنوا لكان لهم فی الجنة أهل من الحور العين أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين، و يجوز أن يكون من كلام اللّه سبحانه، أی: هم فی عذاب دائم لا ينقطع وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أی: لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب، و أنصار ينصرونهم فی ذلك الموطن من دون اللّه، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان، و ما لم يشأ لم يكن وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ أی: من طريق يسلكها إلى النجاة. ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة له و حذرهم فقال:

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ أی: استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به، و بكتبه، و رسله من قبل أن يأتی يوم لا يقدر أحد على ردّه و دفعه، على معنى: من قبل أن يأتی من اللّه يوم لا يردّه أحد، أو لا يردّه اللّه بعد أن حكم به على عباده، و وعدهم به، و المراد به: يوم القيامة، أو: يوم الموت ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ تلجؤون إليه، وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ أی: إنكار، و المعنى: ما لكم من إنكار يومئذ، بل تعترفون بذنوبكم. و قال مجاهد: وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ أی: ناصر ينصركم، و قيل:

النكير بمعنى المنكر، كالأليم بمعنى المؤلم، أی: لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب قاله الكلبی و غيره، و الأوّل أولى. قال الزجاج: معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التی يوقفون عليها فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً أی: حافظا تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها، و لا موكلا بهم رقيبا عليهم إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ أی: ما عليك إلا البلاغ لما أمرت بإبلاغه، و ليس عليك غير ذلك، و هذا منسوخ بآية السيف وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها أی: إذا أعطيناه رخاء و صحة و غنى فرح بها بطرا، و المراد بالإنسان الجنس، و لهذا قال: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أی: بلاء و شدّة و مرض بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ من الذنوب فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ أی: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، و هذا باعتبار غالب جنس الإنسان.

ثم ذكر سبحانه سعة ملكه و نفاذ تصرفه فقال: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: له التصرّف فيهما بما يريد، لا مانع لما أعطى، و لا معطى لما منع يَخْلُقُ ما يَشاءُ من الخلق يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ قال مجاهد، و الحسن، و الضحاك، و أبو مالك، و أبو عبيدة: يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهنّ، و يهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم. قيل:

و تعريف الذكور بالألف و اللام للدلالة على شرفهم على الإناث، و يمكن أن يقال إن التقديم للإناث قد عارض ذلك، فلا دلالة فى الآية على المفاضلة بل هى مسوقة لمعنى آخر. و قد دلّ على شرف الذكور قوله سبحانه:

الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ «١» و غير ذلك من الأدلة الدّالة على شرف الذكور على الإناث، و قيل: تقديم الإناث لكثرتهنّ بالنسبة إلى الذكور، و قيل: لتطييب قلوب آبائهن، و قيل: لغير ذلك مما لا حاجة إلى التطويل بذكره أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً أى: يقرن بين الإناث و الذكور و يجعلهم أزواجا فيهبهما جميعا لبعض خلقه. قال مجاهد: هو أن تلد المرأة غلاما، ثم تلد جارية، ثم تلد غلاما، ثم تلد جارية.

و قال محمد بن الحنفية: هو أن تلد توأما غلاما و جارية. و قال القتبى: التزويج هنا: هو الجمع بين البنين

---

(١). النساء: ٣٤.

و البنات تقول العرب: زوجت إبلى: إذا جمعت بين الصغار و الكبار، و معنى الآية أوضح من أن يختلف فى مثله، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إناثا، و يهب لبعض ذكورا، و يجمع لبعض بين الذكور و الإناث وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً لا يولد له ذكر و لا أنثى، و العقيم الذى لا يولد له، يقال رجل عقيم و امرأة عقيم، و عقمت المرأة تعقم عقما، و أصله القطع، و يقال نساء عقم، و منه قول الشاعر:

عقم النّساء فما يلدن شبيههإنّ النّساء بمثله عقم

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ أى: بليغ العلم عظيم القدرة وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أى:

ما صح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه اللّه بوجه من الوجوه إلّا بأن يوحى إليه فيلهمه و يقذف ذلك فى قلبه قال مجاهد: نفث ينفث فى قلبه، فيكون إلهاما منه؛ كما أوحى إلى أم موسى، و إلى إبراهيم فى ذبح ولده أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ كما كلم موسى، يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى، و هو تمثيل بحال الملك المحتجب الذى يكلم خواصه من وراء حجاب أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ أى: يرسل ملكا، فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر اللّه و تيسيره ما يشاء أن يوحى إليه. قال الزجاج: المعنى أن كلام اللّه للبشر: إما أن يكون بإلهام يلهمهم، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى، أو برسالة ملك إليهم.

و تقدير الكلام: ما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا أن يوحى وحيا، أو يكلمه من وراء حجاب أو يرسل رسولا.

و من قرأ «يرسل» رفعا أراد و هو يرسل، فهو ابتداء و استئناف اه. قرأ الجمهور بنصب أَوْ يُرْسِلَ و بنصب فَيُوحِيَ على تقدير أن، و تكون أن و ما دخلت عليه معطوفين على وحيا، و وحيا فى محل الحال، و التقدير: أو موحيا أو مرسلا، و لا يصح عطف أو يرسل على أن يكلمه لأنه يصير التقدير: و ما كان لبشر أن يرسل اللّه رسولا، و هو فاسد لفظا و معنى. و قد قيل فى توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف. و قرأ نافع «أو يرسل» بالرفع، و كذلك «فيوحى» بإسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف، و التقدير: أو هو يرسل، كما قال الزجاج و غيره، و جملة إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ تعليل لما قبلها، أى: متعال عن صفات النقص، حكيم فى كل أحكامه.

قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: ألا تكلم اللّه و تنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى، فنزلت وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا أى: و كالوحى الذى أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، المراد به: القرآن، و قيل: النبوّة. قال مقاتل: يعنى الوحى بأمرنا و معناه القرآن، لأنه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر. ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه فقال:

ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ أى: أىّ شىء هو، لأنه صلّى اللّه عليه و سلم كان أميا لا يقرأ، و لا يكتب و ذلك أدخل فى الإعجاز، و أدلّ على صحة نبوّته، و معنى وَ لَا الْإِيمانُ أنه كان صلّى اللّه عليه و سلم لا يعرف تفاصيل الشرائع و لا يهتدى إلى معالمها، و خص الإيمان لأنه رأسها و أساسها، و قيل: أراد بالإيمان هنا الصلاة. قال بهذا جماعة من أهل العلم: منهم إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، و احتجّ بقوله تعالى:

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۵

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ «۱» يعنى الصلاة، فسماها إيمانا. و ذهب جماعة إلى أن اللّه سبحانه لم يبعث نبيا إلا و قد كان مؤمنا به، و قالوا معنى الآية: ما كنت تدرى قبل الوحى كيف تقرأ القرآن، و لا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، و قيل: كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلا- و فى المهد. و قال الحسين بن الفضل: إنه على حذف مضاف، أى: و لا- أهل الإيمان، و قيل: المراد بالإيمان دين الإسلام، و قيل: الإيمان هنا عبارة عن الإقرار بكل ما كلف اللّه به العباد وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ أى و لكن جعلنا الروح الذى أوحيناه إليك ضياء و دليلا على التوحيد و الإيمان نهدى به من نشاء هدايته مِنْ عِبادِنا و نرشده إلى الدين الحقّ وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ قال قتادة، و السدّى، و مقاتل: و إنك لتدعو إلى الإسلام، فهو الصراط المستقيم. قرأ الجمهور لَتَهْدِي على البناء للفاعل. و قرأ ابن حوشب على البناء للمفعول. و قرأ ابن السميقع بضمّ التاء و كسر الدّال من أهدى، و فى قراءة أبىّ «و إنّك لتدعو» ثم بيّن الصراط المستقيم بقوله: صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و فى هذه الإضافة للصراط إلى الاسم الشريف من التعظيم له، و التفخيم لشأنه ما لا يخفى، و معنى لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أنه المالك لذلك و المتصرّف فيه أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ أى: تصير إليه يوم القيامة لا إلى غيره جميع أمور الخلائق، و فيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ قال: ذليل. و أخرج عبد ابن حميد، و ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن المنذر عن محمد ابن كعب قال: يسارقون النظر إلى النار. و أخرج ابن مردويه، و ابن عساكر عن واثلة بن الأسقع عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى، لأن اللّه قال: يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً قال: الذى لا يولد له. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً قال: إلا أن يبعث ملكا يوحى إليه من عنده، أو يلهمه فيقذف فى قلبه، أو يكلمه من وراء حجاب. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا قال: القرآن. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل، و ابن عساكر عن علىّ قال: قيل لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم هل عبدت وثنا قط؟ قال لا: قالوا: فهل شربت خمرا قط؟ قال لا، و ما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر، و ما كنت أدرى ما الكتاب و لا الإيمان، و بذلك نزل القرآن ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ

---

(۱). البقرة: ۱۴۳.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۶

سورة الزّخرف

اشارة

قال القرطبى: هى مكيـة بالإجماع. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة حم الزخرف بمكة، قال مقاتل: إلا قوله: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا يعنى فإنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۱ الى ۲۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (۴)

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۵) وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِى الْأَوَّلِينَ (۶) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (۸) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۹)

الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ الَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (۱۳) وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِى الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِى الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (۱۹)

وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۲۰)

قوله: حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ الكلام هاهنا فى الإعراب كالكلام الذى قدّمناه فى يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ فإن جعلت حم قسما كانت الواو عاطفة، و إن لم تجعل قسما فالواو للقسم، و جواب القسم إِنَّا جَعَلْناهُ و قال ابن الأنبارى: من جعل جواب و الكتاب حم كما تقول: نزل و اللّه، وجب و اللّه وقف على الكتاب المبين، و معنى جعلناه: أى سميناه و وصفناه، و لذلك تعدّى إلى مفعولين. و قال السدّى: المعنى أنزلناه قُرْآناً و قال مجاهد: قلناه. و قال سفيان الثورى: بيناه عَرَبِيًّا و كذا قال الزجاج، أى:

أنزل بلسان العرب، لأن كل نبىّ أنزل كتابه بلسان قومه. و قال مقاتل: لأن لسان أهل الجنة عربىّ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكى تفهموه و تتعقلوا معانيه و تحيطوا بما فيه. قال ابن زيد:

لعلكم تتفكرون وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتابِ أى: و إن القرآن فى اللوح المحفوظ لَدَيْنا أى: عندنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۲۷

رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف، و لا تناقض، و الجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها. قال الزجاج: أمّ الكتاب أصل الكتاب، و أصل كلّ شىء: أمه، و القرآن مثبت عند اللّه فى اللوح المحفوظ كما قال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۱» و قال ابن جريج: المراد بقوله: وَ إِنَّهُ أعمال الخلق من إيمان و كفر، و طاعة و معصية. قال قتادة: أخبر عن منزلته و شرفه و فضله، أى: إن كذبتم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريف رفيع محكم من

الباطل أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً يقال ضربت عنه و أضربت عنه: إذا تركته و أمسكت عنه، كذا قال الفراء و الزجاج و غيرهما، و انتصاب صفحا: على المصدرية، و قيل: على الحال؛ على معنى: أ فنضرب عنكم الذكر صافحين، و الصفح مصدر قولهم: صفحت عنه إذا أعرضت عنه، و ذلك أنك توليه صفحة وجهك و عنقك، و المراد بالذكر هنا القرآن، و الاستفهام للإنكار و التوبيخ. قال الكسائى: المعنى أ فنضرب عنكم الذكر طيا، فلا توعظون و لا تؤمرون. و قال مجاهد و أبو صالح و السدّى: أ فنضرب عنكم العذاب و لا نعاقبكم على إسرافكم و كفركم. و قال قتادة: المعنى أ فنهلككم و لا نأمركم و لا ننهاكم. و روى عنه أنه قال: المعنى أ فنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به. و قيل الذكر: التذكير، كأنه قال: أ نترك تذكيركم أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ قرأ نافع و حمزة و الكسائى إن كنتم بكسر إن على أنها الشرطية، و الجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه. و قرأ الباقون بفتحها على التعليل، أى: لأن كنتم قوما منهمكين فى الإسراف مصرّين عليه، و اختار أبو عبيد قراءة الفتح. ثم سلى سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم فقال: وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ كم هى الخبرية التى معناها التكثير، و المعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء فى الأمم السابقة وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ كاستهزاء قومك بك فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً أى: أهلكنا قوما أشدّ قوة من هؤلاء القوم، و انتصاب بطشا: على التمييز، أو الحال، أى: باطشين وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ أى: سلف فى القرآن ذكرهم غير مرة. و قال قتادة: عقوبتهم، و قيل: صفتهم، و المثل الوصف و الخبر، و فى هذا تهديد شديد، لأنه يتضمن أن الأوّلين أهلكوا بتكذيب الرسل، و هؤلاء إن استمروا على تكذيبك و الكفر بما جئت به هلكوا مثلهم وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ أى: لئن سألت هؤلاء الكفار من قومك من خلق هذه الأجرام العلوية و السفلية؛ أقرّوا بأن اللّه خالقهنّ و لم ينكروا، و ذلك أسوأ لحالهم و أشدّ لعقوبتهم، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات اللّه، و جعلوه شريكا له، بل عمدوا إلى ما لا يسمع و لا يبصر، و لا ينفع و لا يضرّ من المخلوقات و هى: الأصنام؛ فجعلوها شركاء للّه. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على عظيم نعمته على عباده، و كمال قدرته فى مخلوقاته فقال: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً و هذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله، و لو كان متصلا بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا الذى جعل لنا الأرض مهادا، و المهاد: الفراش و البساط، و قد تقدّم بيانه، قرأ الجمهور «مهادا» و قرأ الكوفيون مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا أى: طرقا تسلكونها إلى حيث تريدون، و قيل: معايش تعيشون بها لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

---

(١). البروج: ٢١- ٢٢.

بسلوكها إلى مقاصدكم و منافعكم وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ أى: بقدر الحاجة و حسبما تقتضيه المصلحة و لم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرائعكم و يهدم منازلكم و يهلككم بالغرق، و لا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة، و على حسب ما تقتضيه مشيئته فى أرزاق عباده بالتوسيع تارة و التقتير أخرى فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً أى: أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات. قرأ الجمهور مَيْتاً بالتخفيف.

و قرأ عيسى، و أبو جعفر بالتشديد كَذلِكَ تُخْرَجُونَ من قبوركم، أى: مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها تبعثون من قبوركم أحياء، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك، و قد مضى بيان هذا فى آل عمران، و الأعراف. قرأ الجمهور تُخْرَجُونَ مبنيا للمفعول و قرأ الأعمش، و يحيى ابن وثاب، و حمزة، و الكسائى، و ابن ذكوان عن ابن عامر مبنيا للفاعل وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها المراد بالأزواج هنا: الأصناف، قال سعيد بن جبير: الأصناف كلها. و قال الحسن: الشتاء و الصيف، و الليل و النهار، و السموات و الأرض، و الجنة و النار، و قيل: أزواج الحيوان من ذكر و أنثى، و قيل: أزواج النبات، كقوله: وَ أَنْبَتْنا

فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ «۱» و مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ* «۲» و قيل: ما يتقلب فيه الإنسان من خير و شرّ، و إيمان و كفر، و الأوّل أولى وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ فى البحر و البرّ، أى: ما تركبونه لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ الضمير راجع إلى ما قاله أبو عبيد. و قال الفراء:

أضاف الظهور إلى واحد، لأن المراد به الجنس، فصار الواحد فى معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك ذكر، و جمع الظهر لأن المراد: ظهور هذا الجنس، و الاستواء: الاستعلاء، أى: لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك و الأنعام ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ أى: هذه النعمة التى أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب فى البحر و البرّ. و قال مقاتل و الكلبى: هو أن يقول الحمد للّه الذى رزقنى هذا، و حملنى عليه وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا أى: ذلل هذا المركب، و قرأ علىّ بن أبى طالب «سبحان من سخّر لنا هذا» قال قتادة: قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتم، و معنى وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ما كنا له مطيقين، يقال أقرن هذا البعير: إذا أطاقه. و قال الأخفش و أبو عبيدة: مقرنين ضابطين، و قيل: مماثلين له فى القوّة، من قولهم: هو قرن فلان إذا كان مثله فى القوّة، و أنشد قطرب قول عمرو بن معدى كرب:

لقد علم القبائل ما عقيل لنا فى النّائبات بمقرنينا

و قال آخر:

ركبتم صعبتى أشرا و حيفا و لستم للصّعاب بمقرنينا

و المراد بالأنعام هنا: الإبل خاصة، و قيل: الإبل و البقر، و الأوّل أولى وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ أى:

راجعون إليه، و هذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة. ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدّم ذكرهم، فقال: وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً قال قتادة: أى عدلا، يعنى ما عبد من دون اللّه. و قال

---

(۱). ق: ۷.

(۲). الشعراء: ۷.

الزجاج و المبرد: الجزء هنا البنات، و الجزء عند أهل العربية البنات، يقال قد أجزأت المرأة: إذا ولدت البنات، و منه قول الشاعر:

إن أجزأت حرّة يوما فلا عجب قد تجزئ المذكار أحيانا

و قد جعل صاحب الكشاف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير، و صرح بأنه مكذوب على العرب.

و يجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج و المبرد، و هما إماما اللغة العربية و حافظاها و من إليهما المنتهى فى معرفتها، و يؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتى من قوله: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ و قوله: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ و قوله: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً و قيل: المراد بالجزء هنا الملائكة؛ فإنهم جعلوهم أولادا للّه سبحانه قاله مجاهد و الحسن. قال الأزهرى: و معنى الآية أنهم جعلوا للّه من عباده نصيبا على معنى أنهم جعلوا نصيب اللّه من الولدان إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أى: ظاهر الكفران مبالغ فيه، قيل: المراد بالإنسان هنا الكافر، فإنه الذى يجحد نعم اللّه عليه جحودا بينا. ثم أنكر عليهم هذا فقال:

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ و هذا استفهام تقريع و توبيخ. و أم هى المنقطعة، و المعنى: أتخذ ربكم لنفسه البنات وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ فجعل لنفسه المفضول من الصنفين و لكم الفاضل منهما، يقال: أصفيته بكذا، أى: آثرته به، و أصفيته الودّ: أخلصته له، و مثل هذه الآية قوله: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى «۱» و قوله: أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ و جملة و أصفاكم: معطوفة على اتخذ داخلة معها تحت الإنكار. ثم زاد فى تقريعهم و توبيخهم فقال: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا أى: بما جعله

للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات، و المعنى: أنه إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتمّ لذلك و ظهر عليه أثره، و هو معنى قوله: ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا أى: صار وجهه مسودّا بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكرا مكانها وَ هُوَ كَظِيمٌ أى شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه. قال قتادة:

حزين. و قال عكرمة: مكروب، و قيل: ساكت، و جملة وَ هُوَ كَظِيمٌ فى محل نصب على الحال. ثم زاد فى توبيخهم و تقريعهم فقال: أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ معنى ينشأ: يربى، و النشوء: التربية، و الحلية: الزينة، و من فى محل نصب بتقدير مقدّر معطوف على جعلوا؛ و المعنى: أو جعلوا له سبحانه من شأنه أن يربى فى الزينة و هو عاجز عن أن يقوم بأمور نفسه، و إذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته، و دفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله و ضعف رأيه. قال المبرد: تقدير الآية: أو يجعلون له من ينشأ فى الحلية. أى ينبت فى الزينة. قرأ الجمهور يُنَشَّؤُا بفتح الياء و إسكان النون، و قرأ ابن عباس، و الضحاك، و ابن وثاب، و حفص، و حمزة، و الكسائى، و خلف بضم الياء، و فتح النون، و تشديد الشين.

و اختار القراءة الأولى: أبو حاتم، و اختار الثانية: أبو عبيد. قال الهروى: الفعل على القراءة الأولى لازم، و على الثانية متعدّ. و المعنى: يربى و يكبر فى الحلية. قال قتادة: قلما تتكلم امرأة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. و قال ابن زيد و الضحاك: الذى ينشأ فى الحلية أصنامهم التى صاغوها من ذهب و فضة

---

(١). النجم: ٢١ و ٢٢.

فتح القدير، ج‌۴، ص: ۶۳۰

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً الجعل هنا لمعنى القول و الحكم على الشيء كما تقول: جعلت زيدا أفضل الناس، أى: قلت بذلك و حكمت له به. قرأ الكوفيون عِبادُ بالجمع، و بها قرأ ابن عباس.

و قرأ الباقون «عند الرحمن» بنون ساكنة، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد، لأن الإسناد فيها أعلى، و لأن اللّه إنما كذبهم فى قوله: إنهم بنات اللّه فأخبرهم أنهم عباده، و يؤيد هذه القراءة قوله: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ «١» و اختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: و تصديق هذه القراءة قوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ «٢». ثم وبخهم و قرعهم فقال: أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ أى: أحضروا خلق اللّه إياهم فهو من الشهادة التى هى الحضور، و فى هذا تهكّم بهم و تجهيل لهم. و قرأ الجمهور أَ شَهِدُوا على الاستفهام بدون واو. و قرأ نافع «أو شهدوا». و قرأ الجمهور سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ بضم التاء الفوقية و بناء الفعل للمفعول و رفع شهادتهم، و قرأ السلمى و ابن السميقع و هبيرة عن حفص بالنون، و بناء الفعل للفاعل و نصب شهادتهم، و قرأ أبو رجاء «شهاداتهم» بالجمع، و المعنى: سنكتب هذه الشهادة التى شهدوا بها فى ديوان أعمالهم لنجازيهم على ذلك وَ يُسْئَلُونَ عنها يوم القيامة وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ هذا فن آخر من فنون كفرهم باللّه جاءوا به للاستهزاء و السخرية، و معناه: لو شاء الرحمن فى زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة، و هذا كلام حقّ يراد به باطل، و قد مضى بيانه فى الأنعام، فبين سبحانه جهلهم بقوله: ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ أى: ما لهم بما قالوه من أن اللّه لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عبدوهم من علم، بل تكلموا بذلك جهلا، و أرادوا بما صورته صورة الحقّ باطلا، و زعموا أنه إذا شاء فقد رضى. ثم بين انتفاء علمهم بقوله: إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أى: ما هم إلا يكذبون فيما قالوا، و يتمحلون تمحلا باطلا.

و قيل: الإشارة بقوله:

بِذلِكَ إلى قوله: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً. قاله قتادة، و مقاتل، و الكلبى، و قال مجاهد، و ابن جريج: أى ما لهم بعبادة الأوثان من علم.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: إن أول ما خلق اللّه من شيء القلم، و أمره أن يكتب ما هو كائن إلى

يوم القيامة، و الكتاب عنده، ثم قرأ: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ

و أخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً قال: أحببتم أن يصفح عنكم و لم تفعلوا ما أمرتم به. و أخرج مسلم، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و الحاكم، و ابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثا ثم قال سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ قال: مطيقين. و أخرج عبد ابن حميد عنه أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ قال: هو النساء فرق بين زيّهن و زى الرجال و نقصهنّ من الميراث و بالشهادة و أمرهنّ بالقعدة و سماهنّ الخوالف. و أخرج سعيد بن منصور، و عبد بن حميد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن سعيد بن جبير قال: كنت أقرأ هذا الحرف «الذين هم عند الرّحمن إناثا»

---

(١). الأنبياء: ٢۶.

(٢). الأعراف: ٢٠۶.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶٣١

فسألت ابن عباس فقال: عباد الرحمن؟ قلت: فإنها فى مصحفى «عند الرّحمن» قال: فامحها و اكتبها عِبادُ الرَّحْمنِ

[سورة الزخرف (۴٣): الآيات ٢١ الى ٣۵]

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢۴) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢۵)

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢۶) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠)

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (٣۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣۵)

قوله: أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ أم: هى المنقطعة، أى: بل أ أعطيناهم كتابا من قبل القرآن بأن يعبدوا غير اللّه فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ يأخذون بما فيه، و يحتجون به و سيجعلونه لهم دليلا، و يحتمل أن تكون أم معادلة لقوله: أَ شَهِدُوا، فتكون متصلة، و المعنى أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا إلخ. و قيل:

إن الضمير فى مِنْ قَبْلِهِ يعود إلى ادّعائهم، أى: أم آتيناهم كتابا من قبل ادّعائهم ينطق بصحة ما يدّعونه، و الأوّل أولى. ثم بين سبحانه أنه لا حجة بأيديهم و لا شبهة؛ و لكنهم اتبعوا آباءهم فى الضلالة فقال: بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ فاعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم، و معنى على أمة: على طريقة و مذهب. قال أبو عبيد: هى الطريقة و الدين، و به قال قتادة و غيره. قال الجوهرى: و الأمة الطريقة و الدين، يقال فلان لا أمة له: أى لا دين له، و لا نحلة، و منه قول

قيس بن الخطيم:

كنّا على أمّة آبائناو يقتدى الآخر بالأوّل

و قول الآخر:

و هل يستوى ذو أمّة و كفور و قال الفراء و قطرب: على قبلة. و قال الأخفش: على استقامة، و أنشد قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو هل يأثمن ذو أمّة و هو طائع

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۲

قرأ الجمهور أُمَّةٍ بضم الهمزة، و قرأ مجاهد، و قتادة، و عمر بن عبد العزيز بكسرها. قال الجوهرى: و الإمة بالكسر: النعمة، و الإمة: أيضا لغة فى الأمة، و منه قول عدىّ بن زيد:

ثمّ بعد الفلاح و الملك و الإمةوارتهم هناك قبور

ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم إلى هذه المقالة و قال بها فقال: وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِی قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ مترفوها:

أغنياؤها و رؤساؤها، قال قتادة: مقتدون متبعون، و معنى الاهتداء و الاقتداء متقارب، و خصص المترفين تنبيها على أن التنعم هو سبب إهمال النظر. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يردّ عليهم، فقال: قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ أى: أ تتبعون آباءكم؛ و لو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم، قال الزجاج: المعنى قل لهم أ تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم و إن جئتكم بأهدى منه. قرأ الجمهور «قل أ و لو جئتكم» و قرأ ابن عامر و حفص قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ و هو حكاية لما جرى بين المنذرين و قومهم، أى: قال كلّ منذر من أولئك المنذرين لأمته، و قيل: إن كلا القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء و قومهم، كأنه قال: لكل نبىّ قل، بدليل قوله: قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ و هذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد و قبحه، فإن هؤلاء المقلدة فى الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، و يتبعون آثارهم، و يقتدون بهم، فإذا رام الداعى إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها و ورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير و لا حجة واضحة، بل بمجرّد قال، و قيل: لشبهة داحضة، و حجة زائفة، و مقالة باطلة، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل: إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون، أو بما يلاقى معناه معنى ذلك، فإن قال لهم الداعى إلى الحقّ: قد جمعتنا الملة الإسلامية و شملنا هذا الدين المحمدى، و لم يتعبدنا اللّه و لا تعبدكم و لا تعبد آباءكم من قبلكم إلّا بكتابه الذى أنزله على رسوله و بما صحّ عن رسوله، فإنه المبين لكتاب اللّه الموضح لمعانيه، الفارق بين محكمه و متشابهه، فتعالوا نردّ ما تنازعنا فيه إلى كتاب اللّه و سنة رسوله كما أمرنا اللّه بذلك فى كتابه بقوله: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِی شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ «۱» فإن الردّ إليهما أهدى لنا و لكم من الردّ إلى ما قاله أسلافكم و درج عليه آباؤكم، نفروا نفور الوحوش، و رموا الداعى لهم إلى ذلك بكل حجر و مدر، كأنهم لم يسمعوا قول اللّه سبحانه: إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا «۲» و لا قوله: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً «۳» فإن قال لهم القائل: هذا العالم الذى تقتدون به و تتبعون أقواله هو مثلكم فى كونه متعبدا بكتاب اللّه و سنة رسوله، مطلوبا منه ما هو مطلوب منكم، و إذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل، فذلك رخصة له لا يحلّ أن يتبعه غيره عليها، و لا يجوز لهم العمل بها، و قد وجدوا الدليل الذى لم يجده، و ها أنا أوجدكموه فى كتاب اللّه، أو فيما صحّ من سنة رسوله، و ذلك أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا نعمل بهذا و لا سمع لك و لا طاعة، و وجدوا فى صدورهم أعظم

(۱). النساء: ۵۹.

(۲). النور: ۵۱.

(۳). النساء: ۶۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۳

الحرج من حكم الكتاب و السنة، و لم يسلموا بذلك و لا أذعنوا له، و قد وهب لهم الشيطان عصا يتوكؤون عليها عند أن يسمعوا من يدعوهم إلى الكتاب و السنة، و هى أنهم يقولون: إن إمامنا الذى قلدناه و اقتدينا به أعلم منك بكتاب اللّه و سنة رسوله، و ذلك لأن أذهانهم قد تصوّرت من يقتدون به تصورا عظيما بسبب تقدّم العصر و كثرة الأتباع، و ما علموا أن هذا منقوض عليهم مدفوع به فى وجوههم، فإنه لو قيل لهم إن فى التابعين من هو أعظم قدرا، و أقدم عصرا من صاحبكم، فإن كان لتقدم العصر و جلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء، فتعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصرا و أجلّ قدرا، فإن أبيتم ذلك، ففى الصحابة رضى اللّه عنهم من هو أعظم قدرا من صاحبكم علما و فضلا و جلالة قدر، فإن أبيتم ذلك، فها أنا أدلكم على من هو أعظم قدرا و أجلّ خطرا و أكثر أتباعا و أقدم عصرا، و هو محمد بن عبد اللّه نبينا و نبيكم و رسول اللّه إلينا و إليكم فتعالوا فهذه سنته موجودة فى دفاتر الإسلام و دواوينه التى تلقتها جميع هذه الأمة قرنا بعد قرن و عصرا بعد عصر، و هذا كتاب ربنا خالق الكل و رازق الكل و موجد الكل بين أظهرنا موجود فى كل بيت، و بيد كل مسلم لم يلحقه تغيير و لا تبديل، و لا زيادة و لا نقص، و لا تحريف و لا تصحيف، و نحن و أنتم ممن يفهم ألفاظه و يتعقل معانيه، فتعالوا لنأخذ الحقّ من معدنه و نشرب صفو الماء من منبعه، فهو أهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا سمع و لا طاعة، إما بلسان المقال أو بلسان الحال، فتدبر هذا و تأمله إن بقى فيك بقية من إنصاف و شعبة من خير و مزعة من حياء و حصة من دين و لا حول و لا قوّة إلا باللّه العلىّ العظيم. و قد أوضحت هذا غاية الإيضاح فى كتابى الذى سميته «أدب الطلب و منتهى الأرب» فارجع إليه إن رمت أن تجلى عنك ظلمات التعصب و تتقشع لك سحائب التقليد فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ و ذلك الانتقام: ما أوقعه اللّه بقوم نوح، و عاد، و ثمود فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ من تلك الأمم، فإن آثارهم موجودة وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ أى: و اذكر لهم وقت قوله لأبيه و قومه الذين قلدوا آباءهم و عبدوا الأصنام إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ البراء: مصدر نعت به للمبالغة، و هو يستعمل للواحد، و المثنى، و المجموع، و المذكر، و المؤنث. قال الجوهرى: و تبرأت من كذا و أنا منه براء و خلاء، لا يثنى و لا يجمع لأنه مصدر فى الأصل، ثم استثنى خالقه من البراءة فقال: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي أى: خلقنى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ سيرشدنى لدينه و يثبتنى على الحق، و الاستثناء: إما منقطع، أى: لكن الذى فطرنى، أو: متصل من عموم ما، لأنهم كانوا يعبدون اللّه و الأصنام، و إخباره بأنه سيهديه جزما لثقته باللّه سبحانه، و قوّة يقينه وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ الضمير فى جعلها عائد إلى قوله: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي و هى بمعنى التوحيد كأنه قال: و جعل كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم و هم ذرّيته، فلا يزال فيهم من يوحد اللّه سبحانه، و فاعل جعلها إبراهيم، و ذلك حيث وصاهم بالتوحيد و أمرهم بأن يدينوا به كما فى قوله: وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ «۱» الآية، و قيل: الفاعل هو اللّه عزّ و جلّ، أى: و جعل اللّه عزّ و جلّ كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم، و العقب من بعد. قال مجاهد و قتادة: الكلمة لا إله إلا اللّه، لا يزال من عقبه من يعبد اللّه إلى يوم القيامة. و قال عكرمة:

---

(۱). البقرة: ۱۳۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۴

هى الإسلام. قال ابن زيد: الكلمة هى قوله: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «۱» و جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ تعليل للجعل، أى: جعلها باقية رجاء

أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد. و قيل: الضمير فى لعلهم راجع إلى أهل مكة، أى: لعلّ أهل مكة يرجعون إلى دينك الذى هو دين إبراهيم. و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون و جعلها ... إلخ. قال السدّى: لعلهم يتوبون، فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة اللّه، ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش و من وافقهم من الكفار المعاصرين لهم فقال:

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ أضرب عن الكلام الأوّل إلى ذكر ما متعهم به من الأنفس و الأهل و الأموال و أنواع النعم و ما متع به آباءهم و لم يعاجلهم بالعقوبة، فاغترّوا بالمهلة و أكبوا على الشهوات حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ يعنى القرآن وَ رَسُولٌ مُبِينٌ يعنى محمدا صلّى اللّه عليه و سلم، و معنى مبين ظاهر الرسالة واضحها، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين فلم يجيبوه و لم يعملوا بما أنزل عليه. ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحقّ فقال: وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ أى: جاحدون، فسموا القرآن سحرا و جحدوه. و استحقروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ المراد بالقريتين: مكة، و الطائف، و بالرجلين: الوليد بن المغيرة من مكة، و عروة بن مسعود الثقفى من الطائف كذا قال قتادة و غيره. و قال مجاهد و غيره: عتبة بن ربيعة من مكة، و عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف، و قيل: غير ذلك. و ظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسوّد فى قومه و المعنى: أنه لو كان قرآنا لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين، فأجاب اللّه سبحانه عنهم بقوله:

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ يعنى: النبوّة أو ما هو أعمّ منها، و الاستفهام للإنكار. ثم بين أنه سبحانه هو الذى قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا فقال: نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا و لم نفوّض ذلك إليهم، و ليس لأحد من العباد أن يتحكم فى شيء بل الحكم للّه وحده، و إذا كان اللّه سبحانه هو الذى قسم بينهم أرزاقهم و رفع درجات بعضهم على بعض فكيف لا يقنعون بقسمته فى أمر النبوّة، و تفويضها إلى من يشاء من خلقه. قال مقاتل: يقول أ بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا. قرأ الجمهور مَعِيشَتَهُمْ بالإفراد، و قرأ ابن عباس، و مجاهد، و ابن محيصن «معايشهم» بالجمع «و» معنى رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ أنه فاضل بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض فى الدنيا بالرزق، و الرياسة، و القوّة، و الحرية، و العقل، و العلم، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض، فقال:

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا أى: ليستخدم بعضهم بعضا فيستخدم الغنىّ الفقير، و الرئيس المرؤوس، و القوىّ الضعيف، و الحرّ العبد، و العاقل من هو دونه فى العقل، و العالم الجاهل، و هذا فى غالب أحوال أهل الدنيا، و به تتمّ مصالحهم و ينتظم معاشهم و يصل كلّ واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجا إلى البعض لتحصل المواساة بينهم فى متاع الدنيا، و يحتاج هذا إلى هذا، و يصنع هذا لهذا، و يعطى هذا هذا. قال السدّى و ابن زيد: سخريا: خولا و خداما، يسخر الأغنياء الفقراء

---

(١). البقرة: ١٣١.

فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض. و قال قتادة و الضحاك: ليملك بعضهم بعضا، و قيل: هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء، و هذا و إن كان مطابقا للمعنى اللغوى، و لكنه بعيد من معنى القرآن، و مناف لما هو مقصود السياق وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ يعنى بالرحمة: ما أعدّه اللّه لعباده الصالحين فى الدار الآخرة، و قيل: هى النبوّة لأنها المراد بالرحمة المتقدّمة فى قوله: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ و لا مانع من أن يراد كلّ ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولا، أو بدلا، و معنى مِمَّا يَجْمَعُونَ ما

يجمعونه من الأموال و سائر متاع الـدنيا. ثم بين سـبحانه حقارة الـدنيا عنده فقال: وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أى: لو لا أن يجتمعوا على الكفر ميلا إلى الـدنيا و زخرفها لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ جمع الضـمير فى بيوتهم و أفرده فى يكفر باعتبار معنى من و لفظها، و لبيوتهم بدل اشتمال من الموصول و السقف جمع سقف. قرأ الجمهور بضمّ السين و القاف كرهن و رهن. قـال أبو عبيـدة: و لاـ ثـالث لهمـا. و قال الفراء: هو جمع سـقيف نحو كثيب و كثب، و رغيف و رغف، و قيل: هو جمع سقوف، فيكون جمعا للجمع.

و قرأ ابن كثير، و أبو عمرو بفتح السين و إسكان القاف على الإفراد و معناه الجمع لكونه للجنس. قال الحسن:

معنى الآيـة: لو لا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا و تركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ما وصـفناه لهوان الدنيا عند اللّه، و قال بهـذا أكثر المفسـرين. و قال ابن زيـد: لو لا أن يكون الناس أمـة واحدة فى طلب الدنيا و اختيارهم لها على الآخرة. و قـال الكسـائى: المعنى لو لا أن يكون فى الكفار غنىّ و فقير، و فى المسـلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الـدنيا هـذا لهوانها وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ المعارج: الدرج جمع معراج، و المعراج السـلم. قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحدة معرج و معرج، مثل: مرقاة و مرقاة، و المعنى:

فجعلنا لهم معارج من فضة عليها يظهرون: أى: على المعارج يرتقون و يصعدون، يقال ظهرت على البيت:

أى علوت سطحه، و منه قول النابغة:

بلغنا السّماء مجدا و فخرا و سؤدداو إنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أى مصعدا وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً أى: و جعلنا لبيوتهم أبوابا من فضة و سـررا من فضة عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ أى: على السـرر و هو جمع سرير، و قيل: جمع أسرة فيكون جمعا للجمع، و الاتكاء و التوكؤ:

التحامل على الشىء، و منه أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها «۱» و اتكأ على الشىء فهو متكئ، و الموضع متكأ، و الزخرف:

الـذهب. و قيل: الزينـة أعمّ من أن تكون ذهبا أو غيره. قال ابن زيـد: هو ما يتخـذه الناس فى منازلهم من الأمتعـة و الأثاث. و قال الحسن: النقوش و أصـله الزينة، يقال: زخرفت الدار، أى: زينتها، وَ انتصاب زُخْرُفاً بفعل مقدّر، أى: و جعلنا لهم مع ذلك زخرفا، أو بنزع الخـافض، أى: أبوابـا و سـررا من فضـة و من ذهب، فلمـا حـذف الخـافض انتصب. ثم أخبر سـبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به فى الدنيا فقال:

وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا قرأ الجمهور لَمَّا بـالتخفيف و قرأ عـاصم و حمزة و هـاشم عن ابن عامر بالتشديـد. فعلى القراءة الأولى تكون إن هى المخففة من الثقيلة، و على القراءة الثانية هى النافية. و لما

---

(۱). طه: ۱۸.

بمعنى إلا، أى: ما كل ذلك إلا شـىء يتمتع به فى الدنيا. و قرأ أبو رجاء بكسـر اللام من «لما» على أن اللام للعلة و ما موصولة و العائدة محـذوف، أى: للذى هو متاع وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ أى: لمن اتقى الشـرك و المعاصـى و آمن باللّه وحده و عمل بطاعته، فإنها الباقية التى لا تفنى، و نعيمها الدائم الذى لا يزول.

و قـد أخرج ابن جرير عن ابن عباس إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ قال: على دين. و أخرج عبد بن حميد عنه وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً قال: لا إله إلا اللّه فِي عَقِبِهِ قال: عقب إبراهيم ولـده. و أخرج عبـد بن حميـد، و ابن المنذر، و ابن مردويه عنه أيضا أنه سئل عن قول اللّه لَوْ لاـ نُزِّلَ هـذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ مـا القريتـان؟ قـال: الطـائف و مكـة، قيـل: فمن الرجلاـن؟ قال: عمير بن

مسعود، و خيار قريش. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه أيضا قال: يعنى بالقريتين مكة و الطائف، و العظيم: الوليد بن المغيرة القرشي و حبيب بن عمير الثقفى. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال:

يعنون أشرف من محمد الوليد بن المغيرة من أهل مكة، و مسعود بن عمرو الثقفى من أهل الطائف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً الآية يقول:

لو لا أن أجعل الناس كلهم كفارا لجعلت لبيوت الكفار سقفا من فضة و معارج من فضة، و هى درج عليها يصعدون إلى الغرف و سرر فضة، زخرفا: و هو الذهب. و أخرج الترمذى و صححه، و ابن ماجة عن سهل ابن سعد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «لو كانت الدّنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء».

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣٦ الى ٤٥]

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٠)

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

قوله: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ يقال عشوت إلى النار: قصدتها، و عشوت عنها: أعرضت عنها، كما تقول: عدلت إلى فلان، و عدلت عنه، و ملت إليه، و ملت عنه، كذا قال الفراء و الزجاج و أبو الهيثم و الأزهرى. فالمعنى: و من يعرض عن ذكر الرحمن. قال الزجاج: معنى الآية أن من أعرض عن القرآن و ما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه اللّه بشيطان يقيضه له حتى يضله و يلازمه قرينا له، فلا يهتدى مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين. و قال الخليل: العشو النظر الضعيف، و منه:

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء ناره إذا الرّيح هبّت و المكان جديب

فتح القدير، ج‌٤، ص: ٦٣٧

و الظاهر أن معنى البيت القصد إلى النار لا النظر إليها ببصر ضعيف كما قال الخليل، فيكون دليلا على ما قدّمنا من أنه بمعنى القصد، و بمعنى الإعراض؛ و هكذا ما أنشده الخليل مستشهدا به على ما قاله من قول الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فإن الظاهر أن معناه: تقصد إلى ضوء ناره، لا تنظر إليها ببصر ضعيف. و يمكن أن يقال: إن المعنى فى البيتين المبالغة فى ضوء النار و سطوعها، بحيث لا ينظرها الناظر إلا كما ينظر من هو معشى البصر لما يلحق بصره من الضعف عند ما يشاهده من عظم وقودها. و قال أبو عبيدة و الأخفش: إن معنى وَ مَنْ يَعْشُ و من تظلم عينه، و هو نحو قول الخليل، و هذا على قراءة الجمهور وَ مَنْ يَعْشُ بضم الشين من عشا يعشو.

و قرأ ابن عباس و عكرمة وَ مَنْ يَعْشُ بفتح الشين، يقال عشى الرجل يعشى عشيا إذا عمى، و منه قول الأعشى:

رأت رجلا غائب الوافدين مختلف الخلق أعشى ضريرا

و قال الجوهرى: و العشا مقصور مصدر الأعشى: و هو الذى لا يبصر بالليل و يبصر بالنهار، و المرأة عشواء. و قرئ «يعشو» بالواو على أن «من» موصولة غير متضمنة معنى الشرط. قرأ الجمهور نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً بالنون و قرأ السلمى، و ابن أبى إسحاق، و

يعقوب، و عصمة عن عاصم و الأعمش بالتحتية مبنيا للفاعل، و قرأ ابن عباس بالتحتية مبنيا للمفعول و رفع شيطان على النيابة فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ أى:

ملازم له لا يفارقه، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه، بل يتبعه فى جميع أموره و يطيعه فى كلّ ما يوسوس به إليه وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أى: و إن الشياطين الذين يقيضهم اللّه لكلّ أحد ممن يعشو عن ذكر الرحمن كما هو معنىّ من لَيَصُدُّونَهُمْ أى يحولون بينهم و بين سبيل الحق و يمنعونهم منه، و يوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صدق ما يوسوسون به، و هو معنى قوله: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ أى: يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم فى أنفسهم مهتدون حَتَّى إِذا جاءَنا قرأ الجمهور بالتثنية، أى: الكافر، و الشيطان المقارن له، و قرأ أبو عمرو، و حمزة، و الكسائى، و حفص بالإفراد، أى: الكافر أو جاء كلّ واحد منهم قالَ الكافر مخاطبا للشيطان يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ أى: بعد ما بين المشرق و المغرب، فغلب المشرق على المغرب.

قال مقاتل: يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم فى السنة من مشرق أقصر يوم فى السنة، و الأوّل أولى، و به قال الفراء فَبِئْسَ الْقَرِينُ المخصوص بالذم محذوف، أى: أنت أيها الشيطان وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة إِذْ ظَلَمْتُمْ أى: لأجل ظلمكم أنفسكم فى الدنيا، و قيل إن: إِذْ بدل من اليوم لأنه تبين فى ذلك اليوم أنهم ظلموا أنفسهم فى الدنيا. قرأ الجمهور أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ بفتح أن على أنها و ما بعدها فى محلّ رفع على الفاعلية، أى: لن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب. قال المفسرون: لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شىء من العذاب لأن لكلّ أحد من الكفار

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۳۸

و الشياطين الحظ الأوفر منه. و قيل: إنها لنفى النفع، أى: لأن حقكم أن تشتركوا أنتم و قرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا، و يقوّى هذا المعنى قراءة ابن عامر على اختلاف عليه فيها بكسر إن.

ثم ذكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة و الوعظ من سبقت له الشقاوة فقال: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ الهمزة لإنكار التعجب، أى: ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا، و فيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و إخبار له أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه عزّ و جلّ، و قوله: وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ عطف على العمى، أى: إنك لا تهدى من كان كذلك، و معنى الآية: أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصمّ الذين لا يعقلون ما جئت به، و بمنزلة العمى الذين لا يبصرونه لإفراطهم فى الضلالة و تمكنهم من الجهالة فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ بالموت قبل أن ينزل العذاب بهم فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ إما فى الدنيا أو فى الآخرة، و قيل المعنى: نخرجنك من مكة أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ من العذاب قبل موتك فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ متى شئنا عذبناهم. قال كثير من المفسرين: قد أراه اللّه ذلك يوم بدر. و قال الحسن و قتادة: هى فى أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبى صلّى اللّه عليه و سلم من الفتن، و قد كان بعد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فتنة شديدة، فأكرم اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلم و ذهب به فلم يره فى أمته شيئا من ذلك، و الأوّل أولى فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ أى: من القرآن و إن كذّب به من كذّب إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى: طريق واضح، و الجملة تعليل لقوله:

فَاسْتَمْسِكْ وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ أى: و إن القرآن لشرف لك و لقومك من قريش إذ نزل عليك و أنت منهم بلغتك و لغتهم و مثله قوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ «۱» و قيل: بيان لك و لأمتك فيما لكم إليه حاجة. و قيل: تذكرة تذكرون بها أمر الدين و تعملون به وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ عما جعله اللّه لكم من الشرف، كذا قال الزجاج و الكلبى و غيرهما. و قيل: يسئلون عما يلزمهم من القيام بما فيه و العمل به وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ قال الزهرى، و سعيد ابن جبير، و ابن زيد: إن جبريل قال ذلك للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم لما أسرى به. فالمراد سؤال الأنبياء فى

ذلک الوقت عنـد ملاقاته لهم، و به قال جماعة من السـلف. و قال المبرد، و الزجاج، و جماعة من العلماء: إن المعنى و اسأل أمم من قد أرسلنا. و به قال مجاهد، و السدّی، و الضحاک، و قتادة، و عطاء، و الحسن و معنى الآية على القولين:

سؤالهم هل أذن اللّه بعبادة الأوثان فی ملـة من الملل و هل سوّغ ذلک لأحـد منهم؟ و المقصود تقریع مشـرکی قریش بأن ما هم علیه لم یأت فی شریعة من الشرائع.

و قـد أخرج ابن أبی حاتم عن محمـد بن عثمان المخزومی أن قریشا قالت: قیضوا لکل رجل من أصـحاب محمـد رجلا یأخـذه، فقیضوا لأبی بکر طلحة بن عبید اللّه، فأتاه و هو فی القوم، فقال أبو بکر: إلام تدعونی؟

قال: أدعوک إلى عبادة اللات و العزّى. قال أبو بکر: و ما اللات؟ قال: أولاد اللّه. قال: و ما العزّى. قال:

بنات اللّه. قال أبو بکر: فمن أمهم؟ فسکت طلحة فلم یجبه، فقال لأصحابه: أجیبوا الرجل، فسکت

---

(۱). الأنبیاء: ۱۰.

فتح القدیر، ج۴، ص: ۶۳۹

القوم، فقال طلحـة: قم یا أبا بکر أشـهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمـدا رسول اللّه، فأنزل اللّه وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ الآیة. و ثبت فی صحیح مسلم و غیره أن مع کل إنسان قرینا من الجنّ. و أخرج ابن مردویه عن علیّ فی قوله: فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِکَ قال: ذهب نبیه صـلّى اللّه علیه و سـلم و بقیت نقمته فی عـدوّه. و أخرج ابن مردویه عن ابن عبـاس فی قوله: أَوْ نُرِیَنَّکَ الَّذِی وَعَـدْناهُمْ قال: یوم بـدر. و أخرج ابن جریر، و ابن المنـذر، و ابن أبی حـاتم، و الطـبرانی، و ابن مردویه، و الـبیهقی فی الشـعب من طرق عنه فی قوله: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ قال: شـرف لک و لقومک. و أخرج ابن عـدیّ، و ابن مردویه عن علیّ، و ابن عباس قالا: کان رسول اللّه صـلّى اللّه علیه و سـلم یعرض نفسه على القبائـل بمکـة و یعـدهم الظهور، فإذا قالوا لمن الملک بعـدک؟ أمسک فلم یجبهم بشـیء لأنـه لم یؤمر فی ذلک بشـیء حتی نزلت وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ فکان إذا سـئل قال لقریش فلا یجیبونه حتی قبلته الأنصار على ذلک. و أخرج عبد بن حمید من طریق الکلبی عن ابن عباس فی قوله: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا قال: اسأل الذین أرسلنا إلیهم قبلک من رسلنا.

[سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۴۶ الى ۵۶]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآیاتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِینَ (۴۶) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآیاتِنا إِذا هُمْ مِنْها یَضْحَکُونَ (۴۷) وَ ما نُرِیهِمْ مِنْ آیَةٍ إِلاَّ هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا یا أَیُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا کَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ (۵۰)

وَ نادى فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قالَ یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لا یَکادُ یُبِینُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِکَةُ مُقْتَرِنِینَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۵)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِینَ (۵۶)

لما أعلم اللّه سبحانه نبیه بأنه منتقم له من عدوّه و ذکر اتفاق الأنبیاء على التوحید أتبعه بذکر قصة موسى، و فرعون و بیان ما نزل بفرعون و قومه من النقمة فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآیاتِنا و هی التسع التی تقدّم بیانها إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ الملأ: الأشـراف فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِینَ أرسـلنی إلیکم فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآیاتِنا إِذا هُمْ مِنْها یَضْحَکُونَ استهزاء و سخریة، و جواب لما هو إذا الفجائیة،

لأن التقدر: فاجئوا وقت ضحكهم وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها أى: كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها، و أعظم قدرا مع كون التى قبلها عظيمة فى نفسها، و قيل المعنى: إن الأولى تقتضى علما، و الثانية تقتضى علما، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح، و معنى الأخوة بين الآيات: أنها متشاكلة متناسبة فى دلالتها على صحة نبوة موسى كما يقال هذه صاحبة هذه، أى: هما قرينتان فى المعنى، و جملة إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها فى محل جرّ صفة لآية، و قيل المعنى: أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظنّ الظانّ أنها أكبر من سائر الآيات، و مثل هذا قول القائل:

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۰ من تلق منهم تقل لاقيت سيّدهممثل النّجوم التى يسرى بها السّارى

وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، و العذاب هو المذكور فى قوله:

وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ «۱» الآية، و بين سبحانه أن العلة فى أخذه لهم بالعذاب هو رجاء رجوعهم، و لما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات و الدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ و كانوا يسمون العلماء سحرة، و يوقرون السحرة و يعظمونهم، و لم يكن السحر صفة ذم عندهم. قال الزجاج: خاطبوه بما تقدّم له عندهم من التسمية بالساحر ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ أى: بما أخبرتنا من عهده إليك إنا إذا آمنا كشف عنا العذاب، و قيل: المراد بالعهد النبوّة، و قيل: استجابة الدعوة على العموم إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ أى إذا كشف عنا العذاب الذى نزل بنا فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان، و مؤمنون بما جئت به فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ فى الكلام حذف، و التقدير: فدعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب فلما كشف عنهم العذاب فاجؤوا وقت نكثهم للعهد الذى جعلوه على أنفسهم من الاهتداء، و النكث: النقض وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قيل: لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى، فجمعهم و نادى بصوته فيما بينهم أو أمر مناديا ينادى بقوله: يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ لا ينازعنى فيه أحد و لا يخالفنى مخالف وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أى:

من تحت قصرى، و المراد أنهار النيل. و قال قتادة: المعنى تجرى بين يدىّ. و قال الحسن: تجرى بأمرى:

أى تجرى تحت أمرى. و قال الضحاك: أراد بالأنهار: القوّاد و الرؤساء و الجبابرة و أنهم يسيرون تحت لوائه.

و قيل: أراد بالأنهار الأموال، و الأوّل أولى. و الواو فى وَ هذِهِ عاطفة على ملك مصر، و تَجْرِي فى محلّ نصب على الحال، أو هى واو الحال، و اسم الإشارة: مبتدأ، و الأنهار: صفة له، و تجرى: خبره، و الجملة فى محل نصب أَ فَلا تُبْصِرُونَ ذلك و تستدلون به على قوّة ملكى، و عظيم قدرى، و ضعف موسى عن مقاومتى أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ أم هى المنقطعة المقدّرة ببل التى للإضراب دون الهمزة التى للإنكار، أى: بل أنا خير، قال أبو عبيدة: أم بمعنى بل، و المعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خير.

و قال الفراء: إن شئت جعلتها من الاستفهام الذى جعل بأم لاتصاله بكلام قبله، و قيل: هى زائدة، و حكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة، و المعنى: أنا خير من هذا. و قال الأخفش: فى الكلام حذف، و المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ ثم ابتدأ فقال: أَنَا خَيْرٌ و روى عن الخليل و سيبويه نحو قول الأخفش، و يؤيد هذا أن عيسى الثقفى و يعقوب الحضرمى وقفا على أَمْ على تقدير أم تبصرون، فحذف لدلالة الأوّل عليه، و على هذا فتكون أم متصلة لا منقطعة و الأوّل أولى. و مثله قول الشاعر الذى أنشده الفراء:

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحىو صورتها أم أنت فى العين أملح

---

(۱). الأعراف: ۱۳۰.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۱

أی: بل أنت. و حکی الفراء أن بعض القراء قرأ «أما أنا خیر» أی: أ لست خیرا من هـذا الـذی هو مهین: أی ضـعیف حقیر ممتهن فی نفسه لا عزّ له وَ لا یَکادُ یُبِینُ الکلام لما فی لسانه من العقـدة، و قـد تقدم بیانه فی سورة طه فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أی: فهلاـ حلی بأساورة الـذهب إن کان عظیما، و کان الرجل فیهم إذا سوّدوه سوّروه بسوار من ذهب، و طوّقوه بطوق من ذهب. قرأ الجمهور أَسْوِرَةٌ جمع أسورة جمع سوار. و قال أبو عمرو بن العلاء: واحد الأساورة و الأساور و الأساویر أسوار، و هی لغة فی سوار. و قرأ حفص أَسْوِرَةٌ جمع سوار، و قرأ أبیّ: أساور، و ابن مسعود أساویر. قال مجاهد:

کانوا إذا سوّدوا رجلا سوّروه بسوارین و طوّقوه بطوق ذهب علامـة لسیادته أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِکَةُ مُقْتَرِنِینَ معطوف علی ألقی، و المعنی: هلاـ جاء معه الملائکـة متتـابعین متقارنین؛ إن کان صادقا یعینونه علی أمره و یشـهدون له بالنبوّة، فأوهم اللعین قومه أن الرسل لا بـدّ أن یکونوا علی هیئـة الجبابرة، و محفوفین بالملائکـة فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ أی: حملهم علی خفة الجهل و السـفه بقوله، و کیده، و غروره.

فأطاعوه فیما أمرهم به، و قبلوا قوله و کذبوا موسـی إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ أی: خارجین عن طاعة اللّه. قال ابن الأعرابی: المعنی فاستجهل قومه فأطاعوه بخفة أحلامهم، و قلة عقولهم، یقال استخفه الفرح:

أی أزعجه، و اسـتخفه: أی حمله، و منه وَ لا یَسْـتَخِفَّنَّکَ الَّذِینَ لا یُوقِنُونَ «۱» و قیل اسـتخفّ قومه: أی وجدهم خفاف العقول، و قـد اسـتخف بقومه و قهرهم حتی اتبعوه فَلَمَّا آسَـفُونا انْتَقَمْنـا مِنْهُمْ قـال المفسـرون: أغضـبونا، و الأـسف: الغضب، و قیـل: أشـدّ الغضب، و قیـل: السـخط، و قیل المعنی: أغضـبوا رسـلنا. ثم بین العـذاب الـذی وقع به الانتقام فقال: فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ فی البحر فَجَعَلْناهُمْ سَـلَفاً أی: قدوة لمن عمل بعملهم من الکفار فی اسـتحقاق العذاب. قرأ الجمهور: سـلفا بفتح السین و اللام جمع سالف کخـدم و خـادم، و رصـد و راصـد، و حرس و حـارس، یقـال سـلف یسـلف: إذا تقـدّم و مضـی. قـال الفراء و الزجاج: جعلناهم متقدّمین لیتعظ بهم الآخرون، و قرأ حمزة و الکسائی: سـلفا بضم السـین و اللام. قال الفراء: هو جمع سـلیف، نحو سرر و سریر. و قال أبو حاتم: هو جمع سـلف نحو خشب و خشب. و قرأ علی، و ابن مسعود، و علقمـة، و أبو وائل، و النخعی، و حمید بن قیس بضم السین، و فتح اللام جمع سلفة، و هی:

الفرقة المتقدّمة نحو غرف و غرفة، کذا قال النضـر بن شـمیل وَ مَثَلًا لِلْآخِرِینَ أی: عبرة و موعظة لمن یأتی بعدهم، أو قصة عجیبة تجری مجری الأمثال.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ لا یَکادُ یُبِینُ قال: کانت بموسی لثغة فی لسانه.

و أخرج ابن جریر، و ابن أبی حاتم عنه فَلَمَّا آسَفُونا قال: أسخطونا. و أخرجا عنه أیضا آسفونا قال:

أغضـبونا، و فی قوله: سَـلَفاً قال: أهواء مختلفـة. و أخرج أحمـد، و الطبرانی، و البیهقی فی الشـعب، و ابن أبی حاتم عن عقبـة بن عامر أن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلم قال: «إذا رأیت اللّه یعطی العبد ما شاء و هو مقیم علی معصیة فإنما ذلک استدراج منه له، و قرأ فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ . و أخرج ابن المنذر،

---

(۱). الروم: ۶۰.

و ابن أبی حاتم عن طارق بن شـهاب قال: کنت عنـد عبـد اللّه فذکر عنده موت الفجأة فقال: تخفیف علی المؤمن و حسـرة علی الکافر، فلما آسفونا انتقمنا منهم.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٧٣]

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)

وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١)

وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣)

لما قال سبحانه وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ تعلق المشركون بأمر عيسى و قالوا: ما يريد محمد إلّا أن نتخذه إلها كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل اللّه وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا كذا قال قتادة و مجاهد. و قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى مجادلة ابن الزبعرى مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم لما نزل قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ «١» فقال ابن الزبعرى: خصمتك و ربّ الكعبة، أ ليست النصارى يعبدون المسيح و اليهود عزيرا و بنو مليح الملائكة؟ ففرح بذلك من قوله، فأنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ «٢» و نزلت هذه الآية المذكورة هنا، و قد مضى هذا فى سورة الأنبياء. و لا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعرى مندفع من أصله و باطل برمته، فإن اللّه سبحانه قال: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ و لم يقل و من تعبدون حتى يدخل فى ذلك العقلاء كالمسيح، و عزير، و الملائكة إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ أى: إذا قومك يا محمد من ذلك المثل المضروب يصدّون، أى: يضجون و يصيحون فرحا بذلك المثل المضروب، و المراد بقوله هنا: كفار قريش. قرأ الجمهور «يصدّون» بكسر الصاد، و قرأ نافع، و ابن عامر، و الكسائى بضمها. قال الكسائى، و الفراء، و الزجاج، و الأخفش: هما لغتان و معناهما: يضجون قال الجوهرى: صدّ يصدّ صديدا: أى ضجّ.

و قيل: إنه بالضم، الإعراض، و بالكسر من الضجيج، قاله قطرب. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود

---

(١). الأنبياء: ٩٨.

(٢). الأنبياء: ١٠١.

عن الحق لقال: إذا قومك عنه يصدّون. قال الفراء: هما سواء منه و عنه. و قال أبو عبيدة: من ضم فمعناه يعدلون، و من كسر فمعناه يضجون وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ أى: أ آلهتنا خير أم المسيح؟ قال السدى و ابن زيد: خاصموه و قالوا: إن كان كل من عبد غير اللّه فى النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى و عزير و الملائكة. و قال قتادة: يعنون محمدا، أى: أ آلهتنا خير أم محمد؟ و يقوّى هذا قراءة ابن مسعود:

أ آلهتنا خير أم هذا. قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، و قرأ الكوفيون و يعقوب بتحقيقها. ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا أى: ما ضربوا لك هذا المثل فى عيسى إلا ليجادلوك؛ على أن جدلا منتصب على العلة، أو مجادلين على أنه مصدر فى موضع الحال، و قرأ ابن مقسم «جدالا» بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ أى: شديد و الخصومة كثير و اللدد عظيمو الجدل. ثم بين سبحانه أن عيسى ليس بربّ، و إنما هو عبد من عباده اختصه بنبوّته فقال: إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ بما أكرمناه به وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ أى: آية و عبرة لهم يعرفون به قدرة اللّه سبحانه، فإنه كان من غير أب، و كان يحيى الموتى، و يبرئ الأكمه و الأبرص، و كل مريض وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ أى: لو نشاء أهلكناكم و جعلنا بدلا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون، أى: يخلفونكم فيها. قال الأزهرى: و من قد تكون للبدل كقوله: لَجَعَلْنا مِنْكُمْ يريد بدلا منكم. و قيل المعنى: لو نشاء لجعلنا من بنى آدم ملائكة. و الأوّل أولى. و مقصود الآية: أنا لو نشاء لأسكنا الملائكة الأرض و ليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا.

و قيل معنى «يخلفون» يخلف بعضهم بعضا وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ قال مجاهد و الضحاك و السدّى و قتادة:

إن المراد المسيح، و إن خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطا من أشراطها، لأن اللّه سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدّجال من أعلام الساعة. و قال الحسن و سعيد بن جبير: المراد القرآن، لأنه يدلّ على قرب مجيء الساعة، و به يعلم وقتها و أهوالها و أحوالها، و قيل المعنى: أن حدوث المسيح من غير أب، و إحياءه للموتى دليل على صحة البعث. و قيل: الضمير لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور «لعلم» بصيغة المصدر جعل المسيح علما مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله، و قرأ ابن عباس، و أبو هريرة، و أبو مالك الغفارى، و قتادة، و مالك بن دينار، و الضحاك، و زيد بن على بفتح العين و اللام، أى: خروجه علم من أعلامها، و شرط من شروطها، و قرأ أبو نضرة و عكرمة: «و إنّه للعلم» بلامين مع فتح العين و اللام، أى: للعلامة التى يعرف بها قيام الساعة فَلا تَمْتَرُنَّ بِها أى: فلا تشكنّ فى وقوعها و لا تكذبنّ بها، فإنها كائنة لا محالة وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى: اتبعونى فيما آمركم به من التوحيد و بطلان الشرك، و فرائض اللّه التى فرضها عليكم، هذا الذى آمركم به و أدعوكم إليه طريق قيم موصل إلى الحقّ.

قرأ الجمهور بحذف الياء من «اتبعون» وصلا و وقفا، و كذلك قرءوا بحذفها فى الحالين فى «أطيعون» و قرأ يعقوب بإثباتها وصلا و وقفا فيهما، و قرأ أبو عمرو و هى رواية عن نافع بحذفها فى الوصل دون الوقف وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ أى: لا تغتروا بوساوسه و شبهه التى يوقعها فى قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعى، فإن الذى دعوتكم إليه هو دين اللّه الذى اتفق عليه رسله و كتبه. ثم علل نهيهم عن أن يصدّهم الشيطان ببيان عداوته

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۴

لهم فقال: إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أى: مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلك و لا متكتم به كما يدلّ على ذلك ما وقع بينه و بين آدم و ما ألزم به نفسه من إغواء جميع بنى آدم إلا عباد اللّه المخلصين وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ أى: جاء إلى بنى إسرائيل بالمعجزات الواضحة و الشرائع. قال قتادة: البينات هنا: الإنجيل قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ أى: النبوّة، و قيل: الإنجيل، و قيل: ما يرغّب فى الجميل و يكفّ عن القبيح وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ من أحكام التوراة. و قال قتادة: يعنى اختلاف الفرق الذين تحزّبوا فى أمر عيسى. قال الزجاج: الذى جاء به عيسى فى الإنجيل إنما هو بعض الذى اختلفوا فيه، فبين لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. و قيل: إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم.

و قال أبو عبيدة: إن البعض هنا بمعنى الكلّ كما فى قوله: يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ و قال مقاتل:

هو كقوله: وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ يعنى ما أحلّ فى الإنجيل مما كان محرّما فى التوراة كلحم الإبل، و الشحم من

كل حيوان، و صيد السمك يوم السبت، و اللام فى: وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ معطوفة على مقدّر كأنه قال: قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها و لأبين لكم. ثم أمرهم بالتقوى و الطاعة فقال:

فَاتَّقُوا اللَّهَ أى: اتقوا معاصيه وَ أَطِيعُونِ فيما آمركم به من التوحيد و الشرائع إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى عبادة اللّه وحده و العمل بشرائعه فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قال مجاهد و السدّى: الأحزاب هم أهل الكتاب من اليهود و النصارى. و قال الكلبى و مقاتل: هم فرق النصارى اختلفوا فى أمر عيسى. قال قتادة: و معنى «من بينهم»: أنهم اختلفوا فيما بينهم، و قيل: اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود و النصارى، و الأحزاب هى الفرق المحزبة فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من هؤلاء المختلفين، و هم الذين أشركوا باللّه، و لم يعملوا بشرائعه مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ أى: أليم عذابه و هو يوم القيامة هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أى: هل يرتقب هؤلاء الأحزاب و ينتظرون إلا الساعة أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أى: فجأة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أى: لا يفطنون بذلك، و قيل: المراد بالأحزاب: الذين تحزّبوا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و كذبوه، و هم المرادون بقوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ و الأوّل أولى الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أى: الأخلاء فى الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم لبعض عدوّ، أى: يعادى بعضهم بعضا، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق، و اشتغل كل واحد منهم بنفسه، و وجدوا تلك الأمور التى كانوا فيها أخلاء أسبابا للعذاب فصاروا أعداء. ثم استثنى المتقين فقال: إِلَّا الْمُتَّقِينَ فإنهم أخلاء فى الدنيا و الآخرة، لأنهم وجدوا تلك الخلة التى كانت بينهم من أسباب الخير و الثواب، فبقيت خلتهم على حالها يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ أى: يقال لهؤلاء المتقين المتحابين فى اللّه بهذه المقالة فيذهب عند ذلك خوفهم، و يرتفع حزنهم الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ الموصول: يجوز أن يكون نعتا لعبادى، أو: بدلا منه، أو: عطف بيان له، أو:

مقطوعا عنه فى محل نصب على المدح، أو: فى محل رفع بالابتداء، و خبره: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ على تقدير:

يقال لهم ادخلوا الجنة. و الأوّل أولى، و به قال الزجاج. قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۵

يا عبادى لا خوف عليكم، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال: الذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين. قرأ نافع، و ابن عامر، و أبو عمرو يا عبادى بإثبات الياء ساكنة وصلا و وقفا، و قرأ أبو بكر و زرّ بن حبيش بإثباتها و فتحها فى الحالين، و قرأ الباقون بحذفها فى الحالين ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ المراد بالأزواج نساؤهم المؤمنات، و قيل: قرناؤهم من المؤمنين، و قيل: زوجاتهم من الحور العين تُحْبَرُونَ تكرمون، و قيل: تنعمون، و قيل: تفرحون، و قيل: تسرون، و قيل:

تعجبون، و قيل: تلذذون بالسماع، و الأولى تفسير ذلك بالفرح و السرور الناشئين عن الكرامة و النعمة يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ الصحاف جمع صفحة: و هى القصعة الواسعة العريضة. قال الكسائى: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة، و هى تشبع عشرة، ثم الصحفة، و هى تشبع خمسة، ثم المكيلة و هى تشبع الرجلين و الثلاثة، و المعنى: أن لهم فى الجنة أطعمة يطاف عليهم بها فى صحاف الذهب وَ لهم فيها أشربة يطاف عليهم بها فى ال أَكْوابٍ و هى جمع كوب. قال الجوهرى. الكوب كوز لا عروة له، و الجمع أكواب. قال الأعشى:

صريفيّة طيّب طعمهالها زبد بين كوب و دنّ

و قال آخر:

متّكئا تصفق أبوابهيسعى عليه العبد بالكوب

قال قتادة: الكوب المدوّر القصير العنق؛ القصير العروة، و الإبريق المستطيل العنق الطويل العروة. و قال الأخفش: الأكواب

الأباريق التى لا خراطيم لها. و قال قطرب: هى الأباريق التى ليست لها عرا وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ قرأ الجمهور «تشتهى» و قرأ نافع و ابن عامر و حفص «تشتهيه» بإثبات الضمير العائد على الموصول، و المعنى: ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة و الأشربة و نحوهما مما تطلبه النفس و تهواه كائنا ما كان، و تلذ الأعين من كل المستلذات التى تستلذّ بها و تطلب مشاهدتها، تقول لذّ الشيء يلذ لذاذا و لذاذة: إذا وجده لذيذا و التذّ به، و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود «تشتهيه الأنفس و تلذّه الأعين» وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ لا تموتون و لا تخرجون منها وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة: أى: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث بما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة، و اسم الإشارة: مبتدأ، و الجنة: صفته، و التى أورثتموها: صفة للجنة، و الخبر: بما كنتم تعملون، و قيل الخبر: الموصول مع صلته، و الأوّل أولى لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ الفاكهة معروفة، و هى: الثمار كلها رطبها و يابسها، أى: لهم فى الجنة سوى الطعام و الشراب فاكهة كثيرة الأنواع و الأصناف مِنْها تَأْكُلُونَ من تبعيضية أو ابتدائية، و قدّم الجار لأجل الفاصلة.

و قد أخرج أحمد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و ابن مردويه عن ابن عباس أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال لقريش: «إنه ليس أحد يعبد من دون اللّه فيه خير، قالوا: أ لست تزعم أن عيسى كان نبيا و عبدا من عباد اللّه

صالحا و قد عبدته النصارى؟ فإن كنت صادقا فإنه كآلهتهم، فأنزل اللّه وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ قلت: و ما يصدّون؟ قال: يضجون وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ قال: خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة». و أخرج سعيد بن منصور، و أحمد، و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال، ثم تلا هذه الآية ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا». و قد ورد فى ذمّ الجدال بالباطل أحاديث كثيرة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس «أن المشركين أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: أ رأيت ما نعبد من دون اللّه أين هم؟

قال: فى النار، قالوا: و الشمس و القمر؟ قال: و الشمس و القمر قالوا: فعيسى بن مريم قال: قال اللّه إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ . و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور، و مسدّد، و عبد بن حميد، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى من طرق عنه فى قوله: وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ قال:

خروج عيسى قبل يوم القيامة. و أخرجه الحاكم، و ابن مردويه عنه مرفوعا. و أخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة نحوه. و أخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام، و قلت الأنساب، و ذهبت الأخوة إلا الأخوة فى اللّه، و ذلك قوله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ . و أخرج عبد الرزاق، و عبد بن حميد، و حميد بن زنجويه فى ترغيبه، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ قال: خليلان مؤمنان، و خليلان كافران توفى أحد المؤمنين فبشر بالجنة، فذكر خليله و قال: اللهم إن خليلى فلانا كان يأمرنى بطاعتك و طاعة رسولك، و يأمرنى بالخير، و ينهانى عن الشرّ، و ينبئنى أنى ملاقيك، اللهم لا تضله بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، و ترضى عنه كما رضيت عنى، فيقال له: اذهب؛ فلو تعلم ما له عندى لضحكت كثيرا، و لبكيت قليلا، ثم يموت الآخر فيجمع بين رواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، و نعم الصاحب، و نعم الخليل؛ و إذا مات أحد الكافرين بشر بالنار، فيذكر خليله، فيقول: اللهم إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك و معصية رسولك، و يأمرنى بالشرّ، و ينهانى عن الخير، و ينبئنى أنى غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى و تسخط عليه كما سخطت علىّ، فيموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كلّ واحد

منكما على صاحبه، فيقول كلّ منهما لصاحبه: بئس الأخ و بئس الصاحب و بئس الخليل، و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الأكواب الجرار من الفضـة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «ما من أحـد إلا و له منزل فى الجنـة و منزل فى النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، و المؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة، و ذلك قوله: وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِی أُورِثْتُمُوها.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۷

[سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۷۴ الى ۸۹]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِی عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (۷۴) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (۷۶) وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۸)

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (۸۱) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِی يُوعَدُونَ (۸۳)

وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (۸۴) وَ تَبارَكَ الَّذِی لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵) وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (۸۸)

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹)

قوله: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ أى: أهل الإجرام الكفرية، كما يدل عليه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره اللّه سبحانه قبل هذا فِی عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ لا ينقطع عنهم العذاب أبدا لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ أى: لا يخفف عنهم ذلك العذاب، و الجملة فى محل نصب على الحال وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أى: آيسون من النجاة، و قيل: ساكتون سكوت يأس، و قد مضى تحقيق معناه فى الأنعام وَ ما ظَلَمْناهُمْ أى: ما عذبناهم بغير ذنب، و لا بزيادة على ما يستحقونه وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب. قرأ الجمهور «الظّالمين» بالنصب على أنه خبر كان، و الضمير ضمير فصل. و قرأ أبو زيد النحوى «الظّالمون» بالرفع على أن الضمير: مبتدأ، و ما بعده: خبره، و الجملة خبر كان وَ نادَوْا يا مالِكُ أى: نادى المجرمون هذا النداء، و مالك هو خازن النار. قرأ الجمهور «يا مالك» بدون ترخيم. و قرأ علىّ، و ابن مسعود، و يحيى بن وثاب، و الأعمش «يا مال» بالترخيم لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ بالموت توسلوا بمالك إلى اللّه سبحانه ليسأله لهم أن يقضى عليهم بالموت ليستريحوا من العذاب قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ أى: مقيمون فى العذاب، قيل: سكت عن إجابتهم ثمانين سنة، ثم أجابهم بهذا الجواب، و قيل: سكت عنهم ألف عام، و قيل مائة سنة، و قيل أربعين سنة لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِ يحتمل أن يكون هذا من كلام اللّه سبحانه، و يحتمل أن يكون من كلام مالك، و الأوّل أظهر؛ و المعنى: إنا أرسلنا إليكم الرسل، و أنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم فلم تقبلوا، و لم تصدّقوا، و هو معنى قوله: وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ لا يقبلونه، و المراد بالحق:

كل ما أمر اللّه به على ألسن رسله و أنزله فى كتبه. و قيل: هو خاص بالقرآن. و قيل و معنى أكثركم: كلكم.

و قيل: أراد الرؤساء و القادة، و من عداهم أتباع لهم أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ أم: هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، أى: بل أ أبرموا أمرا. و فى ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء، و إبرام: الإتقان و الإحكام، يقال أبرمت الشىء: أحكمته و أتقنته، و أبرم الحبل: إذا أحكم فتله، و المعنى:

بل أحكموا كيدا للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فإنا محكمون لهم كيدا قاله مجاهد، و قتادة، و ابن زيد، و مثل هذا قوله تعالى:

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۸

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ «۱» و قيل المعنى: أم قضوا أمرا فإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبى. أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ أى: بل أ يحسبون أنا لا نسمع ما يسرّون به فى أنفسهم، أو ما يتحدثون به سرّا فى مكان خال، و ما يتناجون به فيما بينهم بَلى نسمع ذلك و نعمل به وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ أى: الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل، و الجملة فى محل نصب على الحال، أو معطوفة على الجملة التى تدلّ عليها بلى. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلم أن يقول للكفار قولا يلزمهم به الحجة و يقطع ما يوردونه من الشبهة فقال: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ أى: إن كان له ولد فى قولكم و على زعمكم فأنا أوّل من عبد اللّه وحده، لأن من عبد اللّه وحده فقد دفع أن يكون له ولد، كذا قال ابن قتيبة. و قال الحسن و السدّى: إن المعنى ما كان للرحمن ولد، و يكون قوله: فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ ابتداء كلام، و قيل المعنى: قل يا محمد إن ثبت للّه ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذى تزعمون ثبوته، و لكنه يستحيل أن يكون له ولد. و فيه نفى للولد على أبلغ وجه، و أتمّ عبارة، و أحسن أسلوب، و هذا هو الظاهر من النظم القرآنى، و من هذا القبيل قوله تعالى: إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ «۲» و مثل هذا قول الرجل لمن يناظره: إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أوّل من يعتقد و يقول به، فتكون «إن» فى «إن كان» شرطية، و رجح هذا ابن جرير و غيره. و قيل معنى العابدين: الآنفين من العبادة، و هو تكلف لا ملجئ إليه، و لكنه قرأ أبو عبد الرحمن اليمانى «العبدين» بغير ألف، يقال عبد يعبد عبدا بالتحريك: إذا أنف و غضب فهو عبد، و الاسم العبدة مثل الأنفة، و لعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ و ليس بمستبعد و لا مستنكر. و قد حكى الجوهرى عن أبى عمرو فى قوله: فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ أنه من الأنف و الغضب. و حكاه الماوردى عن الكسائى و القتبى، و به قال الفراء: و كذا قال ابن الأعرابى: إن معنى العابدين الغضاب الآنفين. و قال أبو عبيدة: معناه الجاحدين، و حكى عبدنى حقى: أى جحدنى، و قد أنشدوا على هذا المعنى الذى قالوه قول الفرزدق:

أولئك أحلاسى فجئنى بمثلهمو أعبد أن يهجى كليبا بدارم

و قوله أيضا:

أولئك ناس لو هجونى هجوتهمو أعبد أن يهجى كليب بدارم

و لا شك أن عبد و أعبد بمعنى أنف أو غضب ثابت فى لغة العرب و كفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة، و لكن جعل ما فى القرآن من هذا من التكلف الذى لا ملجئ إليه و من التعسف الواضح. و قد ردّ ابن عرفة ما قالوه فقال: إنما يقال عبد يعبد فهو عبد، و قلّ ما يقال عابد و القرآن لا يأتى بالقليل من اللغة و لا الشاذ. قرأ الجمهور «ولد» بالإفراد، و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما «ولد» بضم الواو و سكون اللام سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ أى: تنزيها له و تقديسا عما يقولون من الكذب بأن له ولدا و يفترون

---

(۱). الطور: ۴۲.

(۲). سبأ: ۲۴.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۴۹

عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه، و هذا إن كان من كلام اللّه سبحانه فقد نزه عما قالوه، و إن كان من تمام كلام رسوله الذى أمره بأن يقوله فقد أمره بأن يضمّ إلى ما حكاه عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه و تقديسه فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا أى: اترك الكفار

حيث لم يهتدوا بما هديتهم به و لا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا فى أباطيلهم، و يلهوا فى دنياهم حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ و هو يوم القيامة، و قيل: العذاب فى الدنيا، قيل: و هذا منسوخ بآية السيف، و قيل: هو غير منسوخ و إنما أخرج مخرج التهديد. قرأ الجمهور «يلاقوا» و قرأ مجاهد، و ابن محيصن، و ابن السميقع «حتّى يلقوا» بفتح الياء و إسكان اللام من غير ألف، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ الجار و المجرور فى الموضعين متعلق بإله لأنه بمعنى معبود أو مستحق للعبادة، و المعنى: و هو الذى معبود فى السماء و معبود فى الأرض، أو مستحق للعبادة فى السماء، و العبادة فى الأرض. قال أبو علىّ الفارسى: و إله فى الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: و هو الذى فى السماء هو إله، و فى الأرض هو إله، و حسن حذفه لطول الكلام، قال: و المعنى على الإخبار بإلاهيته، لا على الكون فيهما. قال قتادة: يعبد فى السماء و الأرض، و قيل فى:

بمعنى على، أى: هو القادر على السماء و الأرض كما فى قوله: وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ «١» و قرأ عمر ابن الخطاب، و علىّ بن أبى طالب، و ابن مسعود «و هو الذى فى السماء اللّه و فى الأرض اللّه» على تضمين العلم معنى المشتق فيتعلق به الجار و المجرور من هذه الحيثية وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ أى: البليغ الحكمة الكثير العلم وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما تبارك تفاعل من البركة و هى كثرة الخيرات، و المراد بما بينهما: الهواء و ما فيه من الحيوانات وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أى: علم الوقت الذى يكون قيامها فيه وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازى كلّ أحد بما يستحقه من خير و شرّ، و فيه وعيد شديد. قرأ الجمهور «ترجعون» بالفوقية، و قرأ ابن كثير، و حمزة، و الكسائى بالتحتية وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ أى: لا يملك من يدعونه من دون اللّه من الأصنام و نحوها الشفاعة عند اللّه كما يزعمون أنهم يشفعون لهم. قرأ الجمهور «يدعون» بالتحتية، و قرأ السلمى و ابن وثاب بالفوقية إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ أى:

التوحيد وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أى: هم على علم و بصيرة بما شهدوا به، و الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا، و المعنى: إلا من شهد بالحق، و هم المسيح و عزير و بصيرة بما شهدوا به، و الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا، و المعنى: إلا من شهد بالحق، و هم المسيح و عزير و الملائكة، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها. و قيل:

هو منقطع، و المعنى: لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء. و يجوز أن يكون المستثنى منه محذوفا، أى:

لا يملكون الشفاعة فى أحد إلا فيمن شهد بالحق. قال سعيد بن جبير و غيره: معنى الآية: أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق، و آمن على علم و بصيرة. و قال قتادة: لا يشفعون لعابديها، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية. و قيل: مدار الاتصال فى هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاما لكل ما يعبد من دون اللّه، و مدار الانقطاع على جعله خاصا بالأصنام وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ اللام هى الموطئة للقسم، و المعنى: لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام من خلقهم أقرّوا و اعترفوا بأن خالقهم اللّه،

---

(١). طه: ٧١.

فتح القدير، ج‏٤، ص: ٦٥٠

فتح القدير ج‏٤ ٦٦٧

و لا يقدرون على الإنكار، و لا يستطيعون الجحود لظهور الأمر و جلائه فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: فكيف ينقلبون عن عبادة اللّه إلى عبادة غيره، و ينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، فإن المعترف بأن اللّه خالقه إذا عمد إلى صنم، أو حيوان و عبده مع اللّه، أو عبده و حده فقد عبد بعض مخلوقات اللّه، و فى هذا من الجهل ما لا يقادر قدره. يقال أفكه يأفكه إفكا: إذا قلبه و صرفه عن الشيء. و

قيـل المعنى: و لئن سألت المسيـح و عزيرا و الملائكـة من خلقهم ليقولنّ اللّه، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار فى اتخاذهم لها آلهـة. و قيـل المعنى: و لئن سـألت العابـدين و المعبودين جميعـا. قرأ الجمهور وَ قِيلِهِ بالنصب عطفا على محلّ الساعـة، كأنه قيل: إنه يعلم الساعـة و يعلـم قيلـه أو عطفـا على سـرّهم و نجـواهم، أى: يعلـم سرّهم و نجـواهم و يعلـم قيلـه، أو عطفـا على مفعـول يكتبـون المحذوف، أى: يكتبون ذلك، و يكتبون قيله، أو عطفا على مفعول يعلمون المحذوف، أى:

يعلمون ذلـك، و يعلمون قيله، أو هو مصـدر، أى: قـال قيله، أو منصوب بإضـمار فعـل، أى: اللّه يعلم قيل رسوله، أو هو معطوف على محل بالحقّ، أى: شهد بالحق و بقيله، أو منصوب على حذف حرف القسم.

و من المجـوّزين للـوجه الأـوّل المـبرد و ابن الأنبـارى، و من المجـوّزين للثـانى الفراء و الأـخفش، و من المجـوّزين للنصب على المصدريـة الفراء و الأـخفش أيضـا. و قرأ حمزة و عاصم «و قيله» بالجرّ عطفا على لفظ الساعـة، أى: و عنـده علم الساعـة، و علم قيله، و القول و القـال و القيـل بمعنى واحـد، أو: على أن الواو للقسم. و قرأ قتادة، و مجاهـد، و الحسن، و أبو قلابـة، و الأعرج، و ابن هرمز، و مسـلم بن جنـدب «و قيله» بالرفع عطفا على علم الساعـة، أى: و عنـده علم الساعـة، و عنـده قيله، أو: على الابتـداء، و خبره: الجملـة المـذكورة بعده، أو: خبره محذوف تقديره و قيله كيت و كيت، أو: و قيله مسـموع. قال أبو عبيد: يقال قلت قولا و قيلا و قالا، و الضـمير فى و قيله راجع إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم. قال قتادة: هذا نبيكم يشـكو قومه إلى ربه، و قيل: الضمير عائد إلى المسيح، و على الوجهين فالمعنى: أنه قال مناديا لربه يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ الذين أرسلتنى إليهم قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ

ثم لما نادى ربه بهذا أجابه بقوله: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ أى أعرض عن دعوتهم وَ قُلْ سَلامٌ أى: أمرى تسـليم منكم، و متاركة لكم. قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمى، و معناه: المتاركة. كقوله:

سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ و قـال قتـادة: أمره بالصـفح عنهم ثم أمره بقتـالهم فصـار الصـفح منسوخـا بالسـيف، و قيل: هى محكمة لم تنسخ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ فيه تهديد شديد، و وعيد عظيم من اللّه عزّ و جلّ.

قرأ الجمهور «يعلمون» بالتحتية، و قرأ نافع و ابن عامر بالفوقية. قال الفراء: إن سلام مرفوع بإضمار عليكم.

و قـد أخرج ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم، و الحـاكم و صـححه، و البيهقى فى البعث و النشور عن ابن عباس فى قوله: وَ نادَوْا يا مالِكُ قـال: يمكث عنهم ألف سـنة ثم يجيبهم إِنَّكُمْ ماكِثُونَ و أخرج ابن جرير عن محمـد بن كعب القرظى قال: بينا ثلاثـة بين الكعبة و أستارها، قرشيان و ثقفى، أو ثقفيان و قرشى، فقال واحد منهم: ترون أن اللّه يسمع كلامنا؟ فقال واحد منهم: إذا جهرتم سمع، و إذا أسـررتم لم يسـمع، فنزلت أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۱

عن ابن عبـاس فى قوله: إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ يقول: إن يكن للرحمن ولـد فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ قال: الشاهـدين. و أخرج ابن جرير عن زيـد بن أسـلم فى قوله: إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ قال: هـذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط: أى ما كان. و أخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۲

سورة الدّخان

اشارة

هى تسع و خمسون، و قيل سبع و خمسون آية، قال القرطبى هى مكية باتفاق إلا قوله: إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و عبد اللّه بن الزبير أن سورة الدخان نزلت بمكة. و أخرج الترمذى، و البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ حم الدّخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». قال الترمذى بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و عمرو بن أبى خثعم ضعيف. قال البخارى: منكر الحديث. و أخرج الترمذى، و محمد بن نصر، و ابن مردويه، و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ حم الدّخان فى ليلة جمعة أصبح مغفورا له». قال الترمذى بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و هشام بن المقدام يضعّف، و الحسن لم يسمع من أبى هريرة، كذا قال أيوب، و يونس بن عبيد، و على بن زيد، و يشهد له ما أخرجه ابن الضريس، و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكره، و ما أخرجه ابن الضريس عن الحسن مرفوعا بنحوه و هو مرسل، و ما أخرجه الدارمى، و محمد بن نصر عن أبى رافع قال: من قرأ الدّخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفورا له و زوّج من الحور العين.

و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «من قرأ سورة حم الدّخان فى ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى اللّه له بيتا فى الجنة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱ الى ۱۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (۳) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (۴)

أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۷) لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۸) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (۹)

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (۱۰) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۱) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴)

إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (۱۵) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (۱۶)

قوله: حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ قد تقدّم فى السورتين المتقدمتين قبل هذه السورة الكلام على هذا معنى و إعرابا، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ جواب القسم، و إن جعلت الجواب حم كانت هذه الجملة مستأنفة، و قد أنكر بعض النحويين أن تكون هذه الجملة جوابا للقسم لأنها صفة للمقسم به؛ و لا تكون صفة المقسم به جوابا للقسم، و قال الجواب إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ و اختاره ابن عطية، و قيل إن قوله:

إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ جواب ثان، أو: جملة مستأنفة مقرّرة للإنزال، و فى حكم العلة له كأنه قال: إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار، و الضمير فى أنزلناه راجع إلى الكتاب المبين و هو القرآن. و قيل: المراد بالكتاب سائر الكتب المنزّلة، و الضمير فى أنزلناه راجع إلى القرآن على معنى أنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزّلة أنه أنزل القرآن، و الأوّل أولى. و الليلة المباركة: ليلة القدر كما فى قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ «۱» و لها أربعة أسماء: الليلة المباركة، و ليلة البراءة، و ليلة الصكّ، و ليلة القدر. قال عكرمة: الليلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان.

و قال قتادة: أنزل القرآن كله فى ليلة القدر من أمّ الكتاب و هو اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة فى سماء الدنيا، ثم أنزله اللّه

سبحانه على نبيه صلّى اللّه عليه و سلم فى الليالى و الأيام فى ثلاث و عشرين سنة، و قد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا فى البقرة عند قوله: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «٢» و قال مقاتل: كان ينزل من اللوح كل ليلة قدر من الوحى على مقدار ما ينزل به جبريل فى السنة إلى مثلها من العام، و وصف اللّه سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة لنزول القرآن فيها، و هو مشتمل على مصالح الدين و الدنيا، و لكونها تتنزّل فيها الملائكة و الروح، كما سيأتى فى سورة القدر، و من جملة بركتها ما ذكره اللّه سبحانه هاهنا بقوله: فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ و معنى يفرق: يفصل و يبين من قولهم: فرقت الشىء أفرقه فرقا، و الأمر الحكيم: المحكم، و ذلك أن اللّه سبحانه يكتب فيها ما يكون فى السنة من حياة و موت و بسط و خير و شرّ و غير ذلك، كذا قال مجاهد و قتادة و الحسن و غيرهم: و هذه الجملة: إما صفة أخرى لليلة و ما بينهما اعتراض، أو: مستأنفة لتقرير ما قبلها. قرأ الجمهور «يفرق» بضمّ الياء و فتح الراء مخففا، و قرأ الحسن و الأعمش و الأعرج بفتح الياء و ضم الراء و نصب كل أمر و رفع حكيم على أنه الفاعل. و الحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هى ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان، لأن اللّه سبحانه أجملها هنا و بينها فى سورة البقرة شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ و بقوله فى سورة القدر: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف و لا ما يقتضى الاشتباه أَمْراً مِنْ عِنْدِنا قال الزجاج و الفراء: انتصاب أمرا بيفرق، أى: يفرق فرقا، لأن أمرا بمعنى فرقا. و المعنى: إنا نأمر ببيان ذلك و نسخه من اللوح المحفوظ، فهو على هذا منتصب على المصدرية مثل قولك يضرب ضربا. قال المبرد: أمرا فى موضع المصدر، و التقدير أنزلناه إنزالا. و قال الأخفش: انتصابه على الحال، أى: آمرين. و قيل: هو منصوب على الاختصاص، أى: أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا، و فيه تفخيم لشأن القرآن، و تعظيم له. و قد ذكر بعض أهل العلم فى انتصاب أمرا اثنى عشر وجها أظهرها ما ذكرناه. و قرأ زيد بن على «أمر» بالرفع، أى: هو أمر إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ هذه الجملة: إما بدل من قوله: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ أو: جواب ثالث للقسم، أو: مستأنفة، قال الرازى: المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل إنا كنا مرسلين للأنبياء رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ انتصاب رحمة على العلة، أى: أنزلناه للرحمة، قاله الزجاج. و قال المبرد: إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين، أى: إنا كنا مرسلين رحمة. و قيل: هى مصدر فى موضع الحال، أى: راحمين، قاله الأخفش. و قرأ الحسن «رحمة» بالرفع على تقدير: هى رحمة

---

(١). القدر: ١.

(٢). البقرة: ١٨٥.

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لمن دعاه بكل شىء. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على عظيم قدرته الباهرة فقال: رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما قرأ الجمهور «رب» بالرفع عطفا على السميع العليم، أو: على أنه مبتدأ، و خبره: لا إله إلا هو، أو: على أنه خبر، لمبتدأ محذوف، أى: هو ربّ، و قرأ الكوفيون رَبِّ بالجرّ: على أنه بدل من ربك، أو: بيان له، أو نعت إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ بأنه ربّ السموات و الأرض و ما بينهما، و قد أقرّوا بذلك كما حكاه اللّه عنهم فى غير موضع، و جملة: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ مستأنفة مقرّرة لما قبلها، أو خبر ربّ السموات كما مرّ، و كذلك جملة: يُحْيِي وَ يُمِيتُ فإنها مستأنفة مقرّرة لما قبلها رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ، أى: هو ربكم، أو: على أنه بدل من ربّ السموات، أو: بيان، أو نعت له، و قرأ الكسائى فى رواية الشيرازى عنه، و ابن محيصن، و ابن أبى إسحاق، و أبو حيوة، و الحسن بالجرّ، و وجه الجرّ ما ذكرناه فى قراءة من قرأ بالجرّ فى ربّ السموات بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم فى شكّ من التوحيد و البعث، و فى إقرارهم بأن اللّه خلقهم، و خالق سائر المخلوقات، و أن ذلك منهم على طريقة اللعب و الهزو، و محلّ يلعبون: الرفع على أنه

خبر ثان، أو: النصب على الحال فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن كونهم فى شك و لعب يقتضى ذلك؛ و المعنى: فانتظر لهم يا محمد يوم تأتى السماء بدخان مبين، و قيل المعنى: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين.

و قد اختلف فى هذا الدخان المذكور فى الآية متى يأتى؟ فقيل إنه من أشراط الساعة، و أنه يمكث فى الأرض أربعين يوما. و قد ثبت فى الصحيح أنه من جملة العشر الآيات التى تكون قبل قيام الساعة، و قيل: إنه أمر قد مضى، و هو ما أصاب قريشا بدعاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم حتى كان الرجل يرى بين السماء و الأرض دخانا، و هذا ثابت فى الصحيحين و غيرهما: و ذلك حين دعا عليهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم قحط و جهد حتى أكلوا العظام، و كان الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه و بينها كهيئة الدخان من الجهد، و قيل: إنه يوم فتح مكة، و سيأتى فى آخر البحث بيان ما يدلّ على هذه الأقوال. و قوله: يَغْشَى النَّاسَ صفة ثانية لدخان، أى: يشملهم، و يحيط بهم هذا عَذابٌ أَلِيمٌ أى: يقولون هذا عذاب أليم، أو: قائلين ذلك، أو: يقول اللّه لهم ذلك رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أى: يقولون ذلك، و قد روى أنهم أتوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم و قالوا: إن كشف اللّه عنا هذا العذاب أسلمنا، و المراد بالعذاب الجوع الذى كان بسببه ما يرونه من الدخان، أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذى هو من آيات الساعة، أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال. و الراجح منها أنه الدخان الذى كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجهد، و شدّة الجوع، و لا ينافى ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة، فإن ذلك دخان آخر و لا ينافيه أيضا ما قيل إنه الذى كان يوم فتح مكة، فإنه دخان آخر على تقدير صحة وقوعه أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى أى: كيف يتذكرون و يتعظون بما نزل بهم وَ الحال أن قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ يبين لهم كل شىء يحتاجون إليه من أمر الدين و الدنيا

فتح القدير، ج‏۴، ص: ۶۵۵

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ أى: أعرضوا عن ذلك الرسول الذى جاءهم، و لم يكتفوا بمجرّد الإعراض عنه، بل جاوزوه وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ أى: قالوا: إنما يعلمه القرآن بشر و قالوا إنه مجنون، فكيف يتذكر هؤلاء و أنى لهم الذكرى. ثم لما دعوا اللّه بأن يكشف عنهم العذاب و أنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب سبحانه عليهم بقوله: إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا أى: إنا نكشفه عنهم كشفا قليلا، أو زمانا قليلا- ثم أخبر اللّه سبحانه عنهم أنهم لا- ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك، و لا يفون بما وعدوا به من الإيمان فقال: إِنَّكُمْ عائِدُونَ أى: إلى ما كنتم عليه من الشرك، و قد كان الأمر هكذا، فإن اللّه سبحانه لما كشف عنهم ذلك العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر و العناد، و قيل المعنى: إنكم عائدون إلينا بالبعث و النشور، و الأوّل أولى يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى الظرف منصوب بإضمار اذكر، و قيل: هو بدل من يوم تأتى السماء، و قيل:

هو متعلق بمنتقمون، و قيل: بما دلّ عليه منتقمون و هو ننتقم. و البطشة الكبرى: هى يوم بدر، قاله الأكثر.

و المعنى: أنهم لما عادوا إلى التكذيب و الكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم اللّه منهم بوقعة بدر. و قال الحسن و عكرمة: المراد بها عذاب النار، و اختار هذا الزجاج، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور نَبْطِشُ بفتح النون و كسر الطاء: أى: نبطش بهم، و قرأ الحسن و أبو جعفر بضم الطاء و هى لغة، و قرأ أبو رجاء و طلحة بضم النون و كسر الطاء.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر و نزل به جبريل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم نجوما لجواب الناس. و أخرج محمد بن نصر، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ قال: يكتب من أمّ الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق و موت، و حياة و مطر، حتى يكتب الحاج: يحج فلان، و يحج فلان. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ قال: أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء و السعادة، فإنه فى

كتاب اللّه لا يبدّل و لا يغير. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب [عن ابن عباس «۱»] قال: إنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق و قد وقع اسمه فى الموتى ثم قرأ إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ الآية، يعنى ليلة القدر، قال: ففى تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت أو حياة أو رزق، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها. و أخرج ابن زنجويه و الديلمى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح و يولد له و قد خرج اسمه فى الموتى». و أخرجه ابن أبى الدنيا، و ابن جرير عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس، و هذا مرسل و لا تقوم به حجة و لا تعارض بمثله صرائح القرآن. و ما روى فى هذا فهو إما مرسل أو غير صحيح. و قد أورد ذلك صاحب الدرّ المنثور.

و أورد ما ورد فى فضل ليلة النصف من شعبان، و ذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله فى ليلة مباركة. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن ابن مسعود أن قريشا لما استعصت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أبطئوا عن الإسلام قال: اللهمّ أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابهم قحط و جهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه و بينها كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل اللّه فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ

---

(۱). ما بين حاصرتين مستدرك من: الدر المنثور (۷/ ۴۰۰)

مُبِينٍ الآية، فأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقيل: يا رسول اللّه استسق اللّه لمضر، فاستسقى لهم فسقوا، فأنزل اللّه إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل اللّه يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ فانتقم اللّه منهم يوم بدر، فقد مضى البطشة و الدخان و اللزام. و قد روى عن ابن مسعود نحو هذا من غير وجه، و روى نحوه عن جماعة من التابعين. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الحاكم عن ابن أبى مليكة قال: دخلت على ابن عباس فقال: لم أنم هذه الليلة، فقلت لم؟ قال: طلع الكوكب فخشيت أن يطرق الدخان. قال ابن كثير: و هذا إسناد صحيح، و كذا صححه السيوطى و لكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية. و قد عرّفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة فى الدخان الذى كان يتراءى لقريش من الجوع، و بين كون الدّخان من آيات الساعة و علاماتها و أشراطها.

فقد وردت أحاديث صحاح و حسان و ضعاف بذلك، و ليس فيها أنه سبب نزول الآية، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها، و الواجب التمسك بما ثبت فى الصحيحين و غيرهما أن دخان قريش عند الجهد و الجوع هو سبب النزول، و بهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذى هو من أشراط الساعة كابن كثير فى تفسيره و غيره، و هكذا يندفع قول من قال إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكا بما أخرجه ابن سعد عن أبى هريرة قال: كان يوم فتح مكة دخان و هو قول اللّه فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ فإن هذا لا يعارض ما فى الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضى اللّه عنه ظنّ من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية، و لهذا لم يصرّح بأنه سبب نزولها. و أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر و أنا أقول هى يوم القيامة. قال ابن كثير: و هذا إسناد صحيح. و قال ابن كثير قبل هذا: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر، و هذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدّخان بما تقدّم، و روى أيضا عن ابن عباس من رواية العوفى عنه و عن أبىّ ابن كعب و جماعة و هو محتمل. و الظاهر أن ذلك يوم القيامة و إن كان يوم بدر يوم بطشه كبرى أيضا انتهى.

قلت: بل الظاهر أنه يوم بدر، و إن كان يوم القيامة يوم بطشه أكبر من كل بطشة، فإن السياق مع قريش، فتفسيره بالبطشة الخاصة

بهم أولى من تفسيره بالبطشة التى تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس و الجنّ.

[سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱۷ الى ۳۷]

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۸) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۹) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (۲۱)

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۲۶)

وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (۲۷) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹) وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (۳۱)

وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (۳۳) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۶)

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷)

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۷

قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أى: ابتليناهم، و معنى الفتنة هنا أن اللّه سبحانه أرسل إليهم رسله، و أمروهم بما شرعه لهم فكذبوهم، أو وسع عليهم الأرزاق فطغوا و بغوا. قال الزجاج: بلوناهم، و المعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم، و قرئ فَتَّنَّا بالتشديد وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أى: كريم على اللّه كريم فى قومه. و قال مقاتل: حسن الخلق بالتجاوز و الصفح. و قال الفراء: كريم على ربه إذ اختصه بالنبوّة أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ أن هذه هى المفسرة لتقدّم ما هو بمعنى القول، و يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، و المعنى: أن الشأن و الحديث أدّوا إلىّ عباد اللّه، و يجوز أن تكون مصدرية، أى:

بأن أدّوا؛ و المعنى: أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بنى إسرائيل. قال مجاهد: المعنى أرسلوا معى عباد اللّه و أطلقوهم من العذاب، فعباد اللّه على هذا مفعول به. و قيل: المعنى: أدّوا إلىّ عباد اللّه ما وجب عليكم من حقوق اللّه، فيكون منصوبا على أنه منادى مضاف. و قيل: أدّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ هو تعليل لما تقدّم، أى: رسول من اللّه إليكم أمين على الرسالة غير متهم وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ أى: لا تتجبروا و تتكبروا عليه بترفعكم عن طاعته، و متابعة رسله، و قيل: لا تبغوا على اللّه، و قيل: لا تفتروا عليه، و الأوّل أولى، و به قال ابن جريج، و يحيى بن سلام، و جملة: إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ تعليل لما قبله من النهى، أى: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها. و قال قتادة: بعذر بين.

و الأوّل أولى، و به قال يحيى بن سلام. قرأ الجمهور بكسر همزة إِنِّي و قرئ بالفتح بتقدير اللام وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ استعاذ باللّه سبحانه لما توعدوه بالقتل، و المعنى: من أن ترجمون. قال قتادة: ترجمونى بالحجارة، و قيل: تشتمون، و قيل: تقتلون وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أى: إن لم تصدّقونى؛ و تقرّوا بنبوّتى؛ فاتركونى و لا تتعرّضوا لى بأذى. قال مقاتل: دعونى كفافا لا علىّ و لا لى، و قيل: كونوا بمعزل عنى، و أنا بمعزل منكم إلى أن يحكم اللّه بيننا، و قيل: فخلوا سبيلى، و المعنى متقارب.

ثم لما لم يصدّقوه و لم يجيبوا دعوته، رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى اللّه عنه بقوله: فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجرّ: أى: دعاه بأن هؤلاء، و قرأ الحسن، و ابن أبى إسحاق، و عيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول، و فى الكلام حذف، أى: فكفروا فدعا ربه، و المجرمون: الكافرون، و سماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرّد

كونهم مجرمين، لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا أجاب اللّه سبحانه دعاءه، فأمره أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا. يقال سرى و أسرى لغتان، قرأ الجمهور فَأَسْرِ بالقطع، و قرأ أهل الحجاز بالوصل، و وافقهم ابن كثير، فالقراءة الأولى من أسرى، و الثانية من سرى، و الجملة بتقدير القول: أى فقال اللّه لموسى أسر بعبادى إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۸

أى: يتبعكم فرعون و جنوده، و قد تقدّم فى غير موضع خروج فرعون بعدهم وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً أى: ساكنا، يقال رها يرهو رهوا: إذا سكن لا يتحرّك. قال الجوهرى: يقال افعل ذلك رهوا، أى: ساكنا على هيئتك، و عيش راه: أى ساكن، و رها البحر سكن، و كذا قال الهروى و غيره، و هو المعروف فى اللغة، و منه قول الشاعر:

و الخيل تمرح رهوا فى أعنّتهاكالطير تنجو من الشرنوب ذى الوبر

أى: و الخيل تمرح فى أعنتها ساكنة، و المعنى: اترك البحر ساكنا على صفته بعد أن ضربته بعصاك، و لا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك و بعد بنى إسرائيل فينطبق عليهم فيغرقون. و قال أبو عبيدة:

رها بين رجليه يرهو رهوا: أى فتح .. قال، و منه قوله: وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً و المعنى: اتركه منفرجا كما كان بعد دخولكم فيه، و كذا قال أبو عبيد: و به قال مجاهد و غيره. قال ابن عرفة: و هما يرجعان إلى معنى واحد، و إن اختلف لفظاهما، لأن البحر إذا سكن جريه انفرج. قال الهروى: و يجوز أن يكون رهوا نعتا لموسى، أى: سر ساكنا على هيئتك. و قال كعب و الحسن رهوا: طريقا. و قال الضحاك: و الربيع سهلا.

و قال عكرمة: يبسا كقوله: فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً و على كل تقدير، فالمعنى اتركه ذا رهو أو اتركه رهوا على المبالغة فى الوصف بالمصدر إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ أى: إن فرعون و قومه مغرقون.

أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه و يطمئن جأشه. قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك، و قرئ بالفتح على تقدير لأنهم كَمْ هى الخبرية المفيدة للتكثير، و قد مضى الكلام فى معنى الآية فى سورة الشعراء. قرأ الجمهور وَ مَقامٍ بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام، و قرأ ابن هرمز، و قتادة، و ابن السميقع، و روى عن نافع بضمها اسم مكان الإقامة وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ النعمة بالفتح التنعم: يقال نعمه اللّه و ناعمه فتنعم، و بالكسر المنة، و ما أنعم به عليك، و فلان واسع النعمة: أى واسع المال ذكر معنى هذا الجوهرى. قرأ الجمهور فاكِهِينَ بالألف. و قرأ أبو رجاء، و الحسن، و أبو الأشهب، و الأعرج، و أبو جعفر، و شيبة «فكهين» بغير ألف، و المعنى على القراءة الأولى: متنعمين طيبة أنفسهم، و على القراءة الثانية: أشرين بطرين. قال الجوهرى: فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا، و الفكه أيضا: الأشر البطر. قال: و فاكهين: أى ناعمين. و قال الثعلبى: هما لغتان كالحاذر و الحذر، و الفاره و الفره. و قيل إن الفاكه: هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ الكاف فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف. قال الزجاج: أى الأمر كذلك، و يجوز أن تكون فى محل نصب، و الإشارة إلى مصدر فعل يدلّ عليه تركوا، أى: مثل ذلك السلب سلبناهم إياها، و قيل: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، و قيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم. فعلى الوجه الأوّل يكون قوله: وَ أَوْرَثْناها معطوفا على تَرَكُوا و على الوجوه الآخرة يكون معطوفا على الفعل المقدّر. و المراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل، فإن اللّه سبحانه ملكهم أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين: أى أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث، و مثل هذا قوله:

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۵۹

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا «۱» فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ هذا بيان لعدم الاكتراث بهلاكهم: قال المفسرون: أى إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم به و لم يصعد لهم إلى السماء عمل

طيب تبكى عليهم به، و المعنى: أنه لم يصب بفقدهم و هلاكهم أحد من أهل السماء و لا من أهل الأرض، و كانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء و الأرض، أى:

عمت مصيبته، و من ذلك قول جرير:

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعتسور المدينة و الجبال الخشّع

و منه قول النابغة:

بكى حارث الجولان من فقد ربّهو حوران منه خاشع متضائل

و قال الحسن: فى الكلام مضاف محذوف: أى ما بكى عليهم أهل السماء و الأرض من الملائكة و الناس.

و قال مجاهد: إن السماء و الأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحا، و قيل إنه يبكى على المؤمن مواضع صلاته و مصاعد عمله وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ أى: ممهلين إلى وقت آخر بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم و شدّة عنادهم وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِى إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ أى خلصناهم بإهلاك عدوّهم مما كانوا فيه من الاستبعاد، و قتل الأبناء و استحياء النساء و تكليفهم للأعمال الشاقة، و قوله: مِنْ فِرْعَوْنَ بدل من العذاب إما على حذف مضاف، أى: من عذاب فرعون، و إما على المبالغة كأنه نفس العذاب فأبدل منه، أو على أنه حال من العذاب تقديره صادرا من فرعون، و قرأ ابن عباس: «من فرعون» بفتح الميم على الاستفهام التحقيرى كما يقال لمن افتخر بحسبه أو نسبه: من أنت؟ ثم بين سبحانه حاله فقال: إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ أى: عاليا فى التكبر و التجبر من المسرفين فى الكفر باللّه و ارتكاب معاصيه كما فى قوله:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ «۲» و لما بين سبحانه كيفية دفعه للضر عن بنى إسرائيل بين ما أكرمهم به فقال:

وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ أى: اختارهم اللّه على عالمى زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، و ليس المراد أنه اختارهم على جميع العالمين بدليل قوله فى هذه الأمة كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «۳» و قيل: على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم، و محل على علم: النصب على الحال من فاعل اخترناهم، أى:

حال كون اختيارنا لهم على علم منا، و على العالمين متعلق باخترناهم وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ أى: معجزات موسى ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ أى: اختبار ظاهر، و امتحان واضح لننظر كيف يعملون. و قال قتادة: الآيات إنجاؤهم من الغرق، و فلق البحر لهم، و تظليل الغمام عليهم، و إنزال المنّ و السلوى لهم. و قال ابن زيد: الآيات هى الشرّ الذى كفهم عنه، و الخير الذى أمرهم به. و قال الحسن و قتادة: البلاء المبين: النعمة الظاهرة كما فى قوله: وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً «۴» و منه قول زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

---

(۱). الأعراف: ۱۳۷.

(۲). القصص: ۴.

(۳). آل عمران: ۱۱۰.

(۴). الأنفال: ۱۷.

و الإشارة بقوله: إِنَّ هؤُلاءِ إلى كفار قريش، لأن الكلام فيهم، و قصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم فى الإصرار على الكفر لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى أى: ما هى إلا موتتنا الأولى التى نموتها فى الدنيا و لا حياة بعدها و لا بعث، و هو معنى قوله: وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ أى: بمبعوثين، و ليس فى الكلام قصد إلى إثبات موتة أخرى، بل المراد ما العاقبة و نهاية الأمر إلا الموتة

الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، قال الرازى: المعنى: أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلا، و هو حجة داحضة، فقالوا فَأْتُوا بِآبائِنا أى: ارجعوهم بعد موتهم إلى الدنيا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تقولونه و تخبرونا به من البعث. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ أى: أهم خير فى القوّة و المنعة: أم قوم تبع الحميرى الذى دار فى الدنيا بجيوشه، و غلب أهلها و قهرهم، و فيه وعيد شديد. و قيل: المراد بقوم تبع جميع أتباعه لا واحد بعينه. و قال الفراء: الخطاب فى قوله: فَأْتُوا بِآبائِنا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم وحده كقوله: رَبِّ ارْجِعُونِ «١» و الأولى أنه خطاب له و لأتباعه من المسلمين وَ المراد ب الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ عاد، و ثمود، و نحوهم، و قوله: أَهْلَكْناهُمْ جملة مستأنفة لبيان حالهم و عاقبة أمرهم، و جملة: إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ تعليل لإهلاكهم، و المعنى: أن اللّه سبحانه قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرما مع ضعفه و قصور قدرته بالأولى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قال: ابتلينا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ قال: هو موسى أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ أرسلوا معى بنى إسرائيل وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ قال: لا تعثوا إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ قال: بعذر مبين وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ قال: بالحجارة وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أى خلوا سبيلى. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عنه فى قوله: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ قال: يقول اتبعونى إلى ما أدعوكم إليه من الحق، و فى قوله: وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ قال: لا تفتروا و فى قوله: أَنْ تَرْجُمُونِ قال: تشتمون.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: رَهْواً قال: سمتا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا رَهْواً قال: كهيئته و امض. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا أنه سأل كعبا عن قوله: وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً قال: طريقا. و أخرج ابن جرير، عن ابن عباس أيضا قال: الرّهو أن يترك كما كان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ مَقامٍ كَرِيمٍ قال: المنابر. و أخرج ابن مردويه عن جابر مثله. و أخرج الترمذى، و ابن أبى الدنيا، و أبو يعلى، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و الخطيب عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: ما من عبد إلا و له بابان: باب يصعد منه عمله، و باب ينزل منه رزقه، فإذا مات فقداه و بكيا عليه، و تلا هذه الآية: فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ و ذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم و لم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم، و لا من عملهم كلام صالح فتفقدهم فتبكى عليهم. و أخرج عبد بن حميد، و ابن جرير، و ابن المنذر، و البيهقى

---

(١). المؤمنون: ٩٩.

فى الشعب نحوه من قول ابن عباس. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: يقال الأرض تبكى على المؤمن أربعين صباحا.

و أخرج ابن أبى الدنيا، و ابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمى مرسلا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «إن الإسلام بدأ غريبا و سيعود غريبا كما بدأ، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء و الأرض». ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ ثم قال:

إنهما لا يبكيان على كافر». و أخرج ابن المبارك، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا، و ابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علىّ بن أبى طالب قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض، و مصعد عمله من السماء، ثم تلا الآية. و أخرج ابن المبارك، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: إن الأرض لتبكى على ابن آدم أربعين صباحا ثم قرأ الآية. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم قال: «لا تسبوا تبعا

فإنه قد أسلم». و أخرجه أحمد و الطبرانى و ابن ماجة و ابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فذكر مثله، و روى نحو هذا عن غيرهما من الصحابة و التابعين.

[سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۸ الى ۵۹]

وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (۳۸) ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۹) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۰) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۴۲)

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (۴۳) طَعامُ الْأَثِيمِ (۴۴) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (۴۹) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (۵۱) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۲)

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (۵۳) كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۵۴) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (۵۵) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۵۶) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۵۷)

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

قوله: وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما أى: بين جنسى السماء و الأرض لاعِبِينَ أى: لغير غرض صحيح. قال مقاتل: لم نخلقهما عابثين لغير شيء. و قال الكلبى: لاهين، و قيل: غافلين.

قرأ الجمهور وَ ما بَيْنَهُما و قرأ عمرو بن عبيد «و ما بينهنّ» لأن السموات و الأرض جمع، و انتصاب لاعبين على الحال ما خَلَقْناهُما أى: و ما بينهما إِلَّا بِالْحَقِ أى: إلا بالأمر الحق، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال. و قال الكلبى: إلا للحق، و كذا قال الحسن، و قيل: إلا لإقامة الحق و إظهاره وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كذلك و هم المشركون إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أى: إن يوم القيامة الذى يفصل فيه الحق عن الباطل ميقاتهم، أى: الوقت المجعول لتمييز المحسن من المسيء و المحق من المبطل، أجمعين لا يخرج عنهم أحد من ذلك. و قد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر إن، و اسمها: يوم الفصل.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۶۲

و أجاز الكسائى و الفراء نصبه على أنه اسمها، و يوم الفصل: خبرها. ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال:

يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً يوم بدل من يوم الفصل، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل، أى: يفصل بينهم يوم لا يغنى، و لا يجوز أن يكون معمولا للفصل لأنه قد وقع الفصل بينهما بأجنبى، و المعنى:

أنه لا ينفع فى ذلك اليوم قريب قريبا، و لا يدفع عنه شيئا، و يطلق المولى على الولى، و هو القريب و الناصر وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ الضمير راجع إلى المولى باعتبار المعنى. لأنه نكرة فى سياق النفى و هى من صيغ العموم، أى: و لا هم يمنعون من عذاب اللّه إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ قال الكسائى: الاستثناء منقطع، أى: لكن من رحم اللّه، و كذا قال الفراء. و قيل: هو متصل، و المعنى: لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنهم يؤذن لهم فى الشفاعة فيشفعون، و يجوز أن يكون مرفوعا على البدل من مولى الأوّل، أو من الضمير فى ينصرون إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى: الغالب الذى لا ينصر من أراد عذابه الرحيم لعباده المؤمنين. ثم لما وصف اليوم ذكر بعده وعيد الكفار، فقال: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ شجرة الزقوم هى الشجرة التى خلقها اللّه فى جهنم و سماها الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، و قد مضى الكلام على شجرة الزقوم فى سورة الصافات، و الأثيم: الكثير الإثم. قال فى الصحاح: أثم الرجل بالكسر إثما و مأثما:

إذا وقع فى الإثم فهو آثم و أثيم و أثوم، فمعنى طعام الأثيم: ذى الإثم كَالْمُهْلِ و هو درديّ الزيت و عكر القطران. و قيل: هو

النحاس المذاب. و قيل: كلّ ما يذوب فى النار يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ قرأ الجمهور تغلى بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة، و الجملة: خبر ثان، أو: حال، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: تغلى غليا مثل غلى الحميم، و هو الماء الشديد الحرارة. و قرأ ابن كثير، و حفص، و ابن محيصن، و ورش عن يعقوب يَغْلِي بالتحتية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام، و هو فى معنى الشجرة، و لا يصح أن يكون الضمير عائدا إلى المهل لأنه مشبه به، و إنما يغلى ما يشبه بالمهل، و قوله: كَغَلْيِ الْحَمِيمِ صفة مصدر محذوف، أي: غليا كغلى الحميم خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ أي: يقال للملائكة الذين هم خزنة النار خذوه: أى الأثيم فاعتلوه، العتل: القود بالعنف، يقال عتله يعتله، إذا جرّه و ذهب به إلى مكروه، و قيل العتل: أن يأخذ بتلابيب الرجل و مجامعة فيجره، و منه قول الشاعر يصف فرسا:

نفرعه فرعا و لسنا نعتله و منه قول الفرزدق يهجو جريرا:

حتّى تردّ إلى عطيّة تعتل «١» قرأ الجمهور فَاعْتِلُوهُ بكسر التاء. و قرأ نافع، و ابن كثير، و ابن عامر بضمها، و هما لغتان إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ أي: إلى وسطه، كقوله: فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ «٢» ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ

---

(١). و صدر البيت كما فى الديوان (٢/ ١٦٠): ليس الكرام بناحليك أباهم. و معنى «تعتل»: تقاد قسرا.

(٢). الصافات: ۵۵.

من هى التبعيضية، أي: صبوا فوق رأسه بعض هذا النوع، و إضافة العذاب إلى الحميم للبيان، أي: عذاب هو الحميم، و هو الماء الشديد الحرارة كما تقدّم ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ أي: و قولوا له تهكما و تقريعا و توبيخا: ذق العذاب إنك أنت العزيز الكريم. و قيل إن أبا جهل كان يزعم أنه أعزّ أهل الوادى و أكرمهم، فيقولون له: ذق العذاب أيها المتعزّز المتكرم فى زعمك، و فيما كنت تقوله. قرأ الجمهور إِنَّكَ بكسر الهمزة، و قرأ الكسائى و روى ذلك عن عليّ بفتحها، أي: لأنك. قال الفراء: أي بهذا القول الذى قلته فى الدنيا، و الإشارة بقوله: إِنَّ هذا إلى العذاب ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ أي:

تشكون فيه حين كنتم فى الدنيا، و الجمع باعتبار جنس الأثيم. ثم ذكر سبحانه مستقرّ المتقين فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ أي: الذين اتقوا الكفر و المعاصى. قرأ الجمهور مَقامٍ بفتح الميم، و قرأ نافع و ابن عامر بضمها. فعلى القراءة الأولى هو موضع القيام، و على القراءة الثانية هو موضع الإقامة قاله الكسائى و غيره. و قال الجوهرى: قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة؛ و قد يكون بمعنى موضع القيام. ثم وصف المقام بأنه أمين يأمن صاحبه من جميع المخاوف فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ بدل من مقام أمين، أو: بيان له، أو: خبر ثان يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ خبر ثان، أو ثالث أو حال من الضمير المستكنّ فى الجار و المجرور، و السندس ما رقّ من الديباج، و الإستبرق ما غلظ منه، و قد تقدّم بيانه فى سورة الكهف، و انتصاب مُتَقابِلِينَ على الحال من فاعل يلبسون، أي: متقابلين فى مجالسهم ينظر بعضهم إلى بعض، و الكاف فى قوله: كَذلِكَ إما نعت مصدر محذوف، أي: نفعل بالمتقين فعلا كذلك. أو: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أي: أكرمناهم بأن زوّجناهم بحور عين، و الحور جمع حوراء: و هى البيضاء، و العين جمع عيناء: و هى الواسعة العينين. و قال مجاهد: إنما سميت الحوراء حوراء، لأنه يحار الطرف فى حسنها، و قيل: هو من حور العين: و هو شدّة بياض العين فى شدّة سوادها كذا قال أبو عبيدة. و قال الأصمعى: ما أدرى ما الحور فى العين. قال أبو عمرو: الحور أن تسودّ العين كلها مثل أعين الظباء و البقر، قال: و ليس فى بنى آدم حور، و إنما قيل للنساء حور، لأنهنّ شبهن بالظباء و البقر.

و قيل: و المراد بقوله: زَوَّجْناهُمْ قرناهم و ليس من عقد التزويج، لأنه لا يقال زوّجته بامرأة. و قال أبو عبيدة: و جعلناهم أزواجا

لهن كما يزوّج البعل بالبعل، أى: جعلناهم اثنين اثنين، و كـذا قال الأخفش يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ أى يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم آمنين من التخم و الأسقام و الآلام. قال قتادة: آمنين من الموت و الوصب و الشيطان، و قيل: من انقطاع ما هم فيه من النعيم لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى أى: لا يموتون فيها أبـدا إلا الموتـة التى ذاقوها فى الـدنيا، و الاسـتثناء منقطع: أى لكن الموتـة التى قـد ذاقوها فى الدنيا كذا قال الزّجاج و الفراء و غيرهما، و مثل هذه الآية قوله: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ «۱» و قيل: إن إلا بمعنى بعد، كقولك:

ما كلمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك، أى: بعد رجل عندك، و قيل: هى بمعنى سوى، أى: سوى الموتة

---

(۱). النساء: ۲۲.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۶۴

الأولى. و قال ابن قتيبـة: إنما اسـتثنى الموتـة الأولى و هى فى الدنيا، لأن السـعداء حين يموتون يصـيرون بلطف اللّه و قدرته إلى أسـباب من الجنـة يلقون الروح و الريحـان، و يرون منازلهم من الجنـة، و تفتـح لهم أبوابها، فإذا ماتوا فى الـدنيا فكأنهم ماتوا فى الجنة لاتصالهم بأسبابها و مشاهدتهم إياها، فيكون الاستثناء على هذا متصلا.

و اختار ابن جرير أن إلا بمعنى بعد، و اختار كونها بمعنى سوى ابن عطية وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ

قرأ الجمهور وَقـاهُمْ بـالتخفيف، و قرأ أبو حيوة بالتشديـد على المبالغـة فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ أى لأجـل الفضـل منه، أو أعطاهم ذلك عطـاء فضـلا منه ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: ذلك الـذى تقـدّم ذكره هو الفوز الـذى لا فوز بعـده المتناهى فى العظم. ثم لما بين سبحـانه الـدلائل و ذكر الوعـد و الوعيـد، قـال: فَإِنَّمـا يَسَّرْنـاهُ بِلِسانِـكَ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ أى: إنما أنزلنا القرآن بلغتك كى يفهمه قومك، فيتذكروا و يعتبروا و يعملوا بما فيه، أو سهلناه بلغتك عليك و على من يقرؤه لعلهم يتذكرون فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ أى: فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم و إهلاكهم على يدك فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت أو غيره، و قيل: انتظر أن يحكم اللّه بينك و بينهم، فإنهم منتظرون بك نوائب الدهر، و المعنى متقارب.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ يقول: لست بعزيز و لا كريم. و أخرج الأموى فى مغـازيه عن عكرمـة قـال: «لقى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم أبا جهل، فقال: إن اللّه أمرنى أن أقول لك أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى «۱» قال: فنزع يده من يده و قال: ما تستطيع لى أنت و لا صاحبك من شىء، لقد علمت أنى أمنع أهل بطحاء، و أنـا العزيز الكريـم، فقتلـه اللّـه يـوم بـدر و أذلـه و عيره بكلمتـه و أنزل: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ و أخرج ابن مردويه عن ابن عبـاس فى قوله: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ قـال: المهـل. و أخرج عنه أيضا ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ قال: هو أبو جهل بن هشام.

---

(۱). القيامة: ۳۴ و ۳۵.

فتح القدير، ج۴، ص: ۶۶۵

فهرس الموضوعات

اشارة

الآيات الصفحة الآيات الصفحة

سورة النور

تفسير الآيات (١ – ٣) ٥ تفسير الآيات (٤– ١٠) ٩ تفسير الآيات (١١– ٢١) ١٤ تفسير الآيات (٢٢– ٢٦) ١٩ تفسير الآيات (٢٧– ٢٩) ٢٣ تفسير الآيات (٣٠– ٣١) ٢٦ تفسير الآيات (٣٢– ٣٤) ٣٢ تفسير الآيات (٣٥– ٣٨) ٣٧ تفسير الآيات (٣٩– ٤٦) ٤٥ تفسير الآيات (٤٧– ٥٧) ٥١ تفسير الآيات (٥٨– ٦١) ٥٨ تفسير الآيات (٦٢– ٦٤) ٦٦.

سورة الفرقان (٢٥)

تفسير الآيات (١ – ٦) ٧٠ تفسير الآيات (٧– ١٦) ٧٣ تفسير الآيات (١٧– ٢٤) ٧٧ تفسير الآيات (٢٥– ٣٤) ٨٣ تفسير الآيات (٣٥– ٤٤) ٨٧ تفسير الآيات (٤٥– ٥٤) ٩٢ تفسير الآيات (٥٥– ٦٧) ٩٦ تفسير الآيات (٦٨– ٧٧) ١٠٢.

سورة الشعراء (٢٦)

تفسير الآيات (١ – ٢٢) ١٠٨ تفسير الآيات (٢٣– ٥١) ١١٣ تفسير الآيات (٥٢– ٦٨) ١١٧ تفسير الآيات (٦٩– ١٠٤) ١٢٠ تفسير الآيات (١٠٥– ١٣٥) ١٢٥ تفسير الآيات (١٣٦– ١٥٩) ١٢٨ تفسير الآيات (١٦٠– ١٩١) ١٣١ تفسير الآيات (١٩٢– ٢٢٧) ١٣٥.

سورة النمل (٢٧)

تفسير الآيات (١ – ١٤) ١٤٤ تفسير الآيات (١٥ – ٢٦) ١٤٩ تفسير الآيات (٢٧ – ٤٠) ١٥٧ تفسير الآيات (٤١– ٤٤) ١٦٢ تفسير الآيات (٤٥– ٥٣) ١٦٤ تفسير الآيات (٥٤– ٦٦) ١٦٧ تفسير الآيات (٦٧– ٨٢) ١٧١ تفسير الآيات (٨٣– ٩٣) ١٧٦.

سورة القصص (٢٨)

تفسير الآيات (١ – ١٣) ١٨٢ تفسير الآيات (١٤ – ٢٤) ١٨٧ تفسير الآيات (٢٥ – ٣٢) ١٩٤ تفسير الآيات (٣٣– ٤٣) ١٩٩ تفسير الآيات (٤٤– ٥٧) ٢٠٢ تفسير الآيات (٥٨– ٧٠) ٢٠٨ تفسير الآيات (٧١– ٨٨) ٢١٢

سورة العنكبوت (٢٩)

تفسير الآيات (١– ١٣) ٢٢١

فتح القدير، ج٤، ص: ٦٦٦

الآيات الصفحة الآيات الصفحة تفسير الآيات (١٤– ٢٧) ٢٢٦ تفسير الآيات (٢٨– ٤٠) ٢٣١ تفسير الآيات (٤١– ٤٦) ٢٣٥ تفسير الآيات (٤٧– ٥٥) ٢٣٨ تفسير الآيات (٥٦– ٦٩) ٢٤٢

سورة الروم (٣٠)

تفسير الآيات (١ – ١٠) ٢٤٦ تفسير الآيات (١١ – ٢٧) ٢٥٠ تفسير الآيات (٢٨– ٣٧) ٢٥٧ تفسير الآيات (٣٨– ٤٦) ٢٦١ تفسير

سورة لقمان (٣١)

سورة السجدة (٣٢)

سورة الأحزاب (٣٣)

سورة سبأ (٣٤)

سورة فاطر (٣٥)

سورة يس (٣٦)

سورة الصافات (٣٧)

فتح القدير، ج٤، ص: ٦٦٧

سورة ص (٣٨)

سورة الزمر (٣٩)

سورة غافر (٤٠)

سورة فصلت (٤١)

سورة الشورى (٤٢)

سورة الزخرف (٤٣)

سورة الدخان (٤٤)

الجزء الخامس

سورة الجاثية

اشارة

و هی مکیـة کلّها فی قول الحسن و جابر و عکرمـة. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس و ابن الزبیر أنها نزلت بمکـة، و روی عن ابن عبـاس و قتـادة أنهمـا قالا: إلا آیـة منها، و هی قوله: لِلَّذِینَ آمَنُوا إلی أَیَّامَ اللَّهِ فإنها نزلت بالمدینـة فی عمر بن الخطاب؛ کما سیأتی.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الجاثیة (۴۵): الآیات ۱ الی ۱۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

حم (۱) تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (۲) إِنَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِلْمُؤْمِنِینَ (۳) وَ فِی خَلْقِکُمْ وَ ما یَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آیاتٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۴)

وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِیفِ الرِّیاحِ آیاتٌ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۵) تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آیاتِهِ یُؤْمِنُونَ (۶) وَیْلٌ لِکُلِّ أَفَّاکٍ أَثِیمٍ (۷) یَسْمَعُ آیاتِ اللَّهِ تُتْلی عَلَیْهِ ثُمَّ یُصِرُّ مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِیمٍ (۸) وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آیاتِنا شَیْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِینٌ (۹) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا یُغْنِی عَنْهُمْ ما کَسَبُوا شَیْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِیاءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ (۱۰) هذا هُدیً وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ (۱۱) اللَّهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۲) وَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۱۳) قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا یَغْفِرُوا لِلَّذِینَ لا یَرْجُونَ أَیَّامَ اللَّهِ لِیَجْزِیَ قَوْماً بِما کانُوا یَکْسِبُونَ (۱۴)

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵)

قوله: حم قد تقدّم الکلام فی هذه الفاتحة و فی إعرابها فی فاتحة سورة غافر و ما بعدها، فإن جعل اسما للسورة فمحلّه الرفع علی أنه خبر مبتـدأ محـذوف أو مبتـدأ، و إن جعـل حروفـا مسرودة علی نمط التعدیـد فلا محلّ له، و قوله: تَنْزِیلُ الْکِتابِ علی الوجه الأوّل خبر ثان، و علی الوجه الثانی خبر المبتـدأ، و علی الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ و خبره مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ ثم أخبر سبحانه بمـا یـدلّ علی قـدرته البـاهرة فقـال: إِنَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِلْمُؤْمِنِینَ أی: فیها نفسها فإنها من فنون الآیات، أو فی خلقها. قال الزجّاج: و یدلّ علی أن المعنی فی خلق السماوات و الأرض قوله: وَ فِی خَلْقِکُمْ أی: فی خلقکم أنفسکم علی أطوار مختلفة. قال مقاتل: من تراب ثم من نطفة إلی أن یصیر إنسانا وَ ما یَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آیاتٌ أی: و فی خلق مـا یبثّ من دابـة، و ارتفـاع آیـات علی أنهـا مبتـدأ مؤخر و خبره الظرف قبله، و بالرفع قرأ الجمهور، و قرأ حمزة و الکسائی «آیات» بالنصب عطفا علی اسم إنّ، و الخبر قوله: وَ فِی

خَلْقِکُمْ کـأنه قیـل: و إن فی خلقکم و ما یبثّ من دابـة آیات، أو علی أنها تأکیـد لآیات الأولی. و قرأ الجمهور أیضا آیاتٌ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ بالرّفع، و قرأ حمزة و الکسائی بنصبها مع اتفاقهم علی الجرّ فی «اختلاف»، أما جرّ «اختلاف» فهو علی تقریر حرف الجرّ، أی: و فی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ آیـات، فمن رفع «آیـات» فعلی أنها مبتـدأ، و خبرها: «فی اختلاف»، و أما النصب فهو من باب العطف علی معمولی عـاملین مختلفین. قـال الفرّاء: الرفع علی الاستئنـاف بعـد إنّ، تقول العرب: إنّ لی علیک مالا و علی أخیک مال، ینصبون الثانی و یرفعونه و للنّحاة فی هذا الموضع کلام طویل. و البحث فی مسألة العطف علی معمولی عاملین مختلفین؛ و حجج المجوّزین له و جوابات المانعین له مقرّر فی علم النّحو، مبسوط فی مطوّلاته. و معنی ما یَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ ما یفرّقه و ینشره وَ

اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ تعاقبهما أو تفارقهما فى الطول و القصر، و قوله: وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ معطوف على اختلاف، و الرزق: المطر؛ لأنه سبب لكل ما يرزق اللّه العباد به، و إحياء الأرض: إخراج نباتها، و مَوْتِها خلوّها عن النبات و معنى تَصْرِيفِ الرِّياحِ أنها تهب تارة من جهة، و تارة من أخرى، و تارة تكون حارّة، و تارة تكون باردة، و تارة نافعة، و تارة ضارّة تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ أى: هذه الآيات المذكورة هى حجج اللّه و براهينه، و محل: نتلوها عليك بالنصب على الحال، و يجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة، و آيات اللّه بيان له أو بدل منه، و قوله: بِالْحَقِ حال من فاعل نتلو، أو من مفعوله، أى: محقّين، أو متلبسة بالحقّ، و يجوز أن تكون الباء للسببية، فتتعلّق بنفس الفعل فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ أى: بعد حديث اللّه و بعد الآيات، فيكون من باب: أعجبنى زيد و كرمه. و قيل: المراد بعد حديث اللّه، و هو القرآن كما فى قوله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ و هو المراد بالآيات، و العطف لمجرّد التغاير العنوانى.

قرأ الجمهور «تؤمنون» بالفوقية، و قرأ حمزة و الكسائى بالتحتية. و المعنى: يؤمنون بأىّ حديث، و إنما قدّم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ أى: لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجبه، و الويل: واد فى جهنم. ثم وصف هذا الأفاك بصفة أخرى فقال: يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ و قيل:

إن يسمع فى محل نصب على الحال، و قيل: استئناف، و الأوّل أولى، و قوله: تُتْلى عَلَيْهِ فى محل نصب على الحال ثُمَّ يُصِرُّ على كفره و يقيم على ما كان عليه حال كونه مُسْتَكْبِراً أى: يتمادى على كفره متعظّما فى نفسه عن الانقياد للحقّ، و الإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة «١»، و هو أن ينحنى عليها صارّا أذنيه. قال مقاتل: إذا سمع من آيات القرآن شيئا اتخذها هزوا، و جملة كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فى محل نصب على الحال أو مستأنفة، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ هذا من باب التهكّم؛ أى: فبشره على إصراره و استكباره و عدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً قرأ الجمهور: «علم» بفتح العين و كسر اللام مخففة على البناء للفاعل. و قرأ قتادة

---

(١). «العانة»: الأتان (الحمارة)

و مطر الورّاق على البناء للمفعول. و المعنى: أنه إذا وصل إليه علم شى‏ء من آيات اللّه اتَّخَذَها أى:

الآيات هُزُواً و قيل: الضمير فى «اتّخذها» عائد إلى «شيئا»؛ لأنه عبارة عن الآيات، و الأوّل أولى.

و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى كلّ أفّاك متّصف بتلك الصفات لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ بسبب ما فعلوا من الإصرار و الاستكبار عن سماع آيات اللّه و اتخاذها هزوا، و العذاب المهين هو المشتمل على الإذلال و الفضيحة مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ أى: من وراء ما هم فيه من التعزّز بالدنيا و التكبر عن الحقّ جهنّم، فإنها من قدّامهم لأنهم متوجهون إليها، و عبّر بالوراء عن القدّام، كقوله: مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ «١» و قول الشاعر:

أليس ورائى إن تراخت منيّتى «٢» ....

و قيل: جعلها باعتبار إعراضهم عنها كأنها خلفهم وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً أى: لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم و أولادهم شيئا من عذاب اللّه، و لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ معطوف على «ما كسبوا»، أى: و لا يغنى عنهم ما اتخذوا من دون اللّه أولياء من الأصنام، و «ما» فى الموضعين إما مصدرية أو موصولة، و زيادة لا فى الجملة الثانية للتأكيد وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ فى جهنم التى هى من ورائهم هذا هُدىً جملة مستأنفة من مبتدأ و خبر، يعنى هذا القرآن هدى للمهتدين به وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ القرآنية لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ الرجز: أشدّ العذاب.

قرأ الجمهور: «أليم» بالجرّ صفة للرّجز. و قرأ ابن كثير و حفص و ابن محيصن بالرفع صفة لعذاب اللَّهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمُ الْبَحْرَ أی: جعله علی صفة تتمکنون بها من الرکوب علیه لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ أی: بإذنه و إقداره لکم وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة تارة، و الغوص للدّر، و المعالجة للصید و غیر ذلک وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ أی: لکی تشکروا النعم التی تحصل لکم بسبب هذا التسخیر للبحر وَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ أی: سخّر لعباده جمیع ما خلقه فی سماواته و أرضه ممّا تتعلّق به مصالحهم و تقوم به معایشهم، و ممّا سخره لهم من مخلوقات السموات؛ الشمس و القمر و النجوم النیّرات و المطر و السحاب و الرّیاح، و انتصاب جمیعا علی الحال من ما فی السماوات و ما فی الأرض أو تأکید له، و قوله «منه» یجوز أن یتعلّق بمحذوف هو صفة لجمیعا، أی: کائنة منه، و یجوز أن یتعلّق بسخر، و یجوز أن یکون حالا من ما فی السماوات، أو خبر المبتدأ محذوف. و المعنی: أن کل ذلک رحمة منه لعباده إِنَّ فِی ذلِکَ المذکور من التسخیر لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ و خصّ المتفکّرین لأنه لا ینتفع بها إلا من تفکر فیها، فإنه ینتقل من التفکر إلی الاستدلال بها علی التوحید قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا یَغْفِرُوا أی: قل لهم: اغفروا یغفروا لِلَّذِینَ لا یَرْجُونَ أَیَّامَ اللَّهِ و قیل: هو علی حذف اللام، و التقدیر: قل لهم لیغفروا. و المعنی: قل لهم:

یتجاوزوا عن الذین لا یرجون وقائع اللّه بأعدائه، أی: لا یتوقعونها، و معنی الرجاء هنا الخوف، أی: هو علی معناه الحقیقی. و المعنی: لا یرجون ثوابه فی الأوقات التی وقّتها اللّه لثواب المؤمنین، و الأوّل أولی. و الأیام

---

(۱). إبراهیم: ۱۶.

(۲). و عجزه: أدبّ مع الولدان أزحف کالنّسر.

یعبّر بها عن الوقائع، کما تقدم فی تفسیر قوله: وَ ذَکِّرْهُمْ بِأَیَّامِ اللَّهِ «۱» قال مقاتل: لا یخشون مثل عذاب اللّه للأمم الخالیة، و ذلک أنهم لا یؤمنون به فلا یخافون عقابه. و قیل: المعنی: لا یأملون نصر اللّه لأولیائه و إیقاعه بأعدائه، و قیل: لا یخافون البعث. قیل: و الآیة منسوخة بآیة السیف لِیَجْزِیَ قَوْماً بِما کانُوا یَکْسِبُونَ قرأ ابن عامر و حمزة و الکسائی «لنجزی» بالنون؛ أی: لنجزی نحن. و قرأ باقی السبعة بالتحتیة مبنیا للفاعل، أی: لیجزی اللّه. و قرأ أبو جعفر و شیبة و عاصم بالتحتیة مبنیا للمفعول مع نصب قوما، فقیل:

النائب عن الفاعل مصدر الفعل، أی: لیجزی الجزاء قوما، و قیل: إن النائب الجارّ و المجرور کما فی قول الشاعر «۲»:

و لو ولدت قفیرة «۳» جرو کلب لسبّ بذلک الجرو الکلابا

و قد أجاز ذلک الأخفش و الکوفیون، و منعه البصریون، و الجملة لتعلیل الأمر بالمغفرة، و المراد بالقوم المؤمنون، أمروا بالمغفرة لیجزیهم اللّه یوم القیامة بما کسبوا فی الدنیا من الأعمال الحسنة التی من جملتها الصبر علی أذیة الکفار و الإغضاء عنهم بکظم الغیظ و احتمال المکروه. و قیل: المعنی: لیجزی الکفار بما عملوا من السیئات، کأنه قال: لا تکافئوهم أنتم لنکافئهم نحن، و الأوّل أولی. ثم ذکر المؤمنین و أعمالهم و المشرکین و أعمالهم فقال: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها و المعنی: أن عمل کل طائفة من إحسان أو إساءة لعامله لا یتجاوزه إلی غیره و فیه ترغیب و تهدید ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ فیجازی کلا بعمله إن کان خیرا فخیر، و إن کان شرّا فشرّ.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفریابی و عبد بن حمید و ابن المنذر، و أبو الشیخ فی العظمة، من طریق عکرمة عن ابن عباس فی قوله: جَمِیعاً مِنْهُ قال: منه النور و الشمس و القمر. و أخرج ابن جریر عنه فی الآیة قال: کل شیء هو من اللّه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن المنذر، و الحاکم و صحّحه، و البیهقی فی الأسماء و الصفات، عن طاوس قال: جاء رجل إلی عبد اللّه بن

عمرو بن العاص فسأله: ممّ خلق الخلق؟

قال: من الماء و النور و الظلمة و الهواء و التراب، قال: فممّ خلق هؤلاء؟ قال: لا أدرى. ثم أتى الرجل عبد اللّه ابن الزبير، فسأله فقال مثل قول عبد اللّه بن عمرو، فأتى ابن عباس فسأله: ممّ خلق الخلق؟ فقال: من الماء و النور و الظلمة و الريح و التراب، قال: فممّ خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس: وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ فقال الرجل: ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا الآية قال: كان نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعرض عن المشركين إذا آذوه، و كانوا يستهزئون به و يكذّبونه، فأمره اللّه أن يقاتل المشركين كافة، فكان هذا من المنسوخ.

---

(۱). إبراهيم: ۵.

(۲). هو جرير.

(۳). «قفيرة»: أم الفرزدق.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۹

[سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۶ الى ۲۶]

وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (۱۹) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۲) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۳) وَ قالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۵)

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۶)

قوله: وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ المراد بالكتاب التوراة و بالحكم الفهم و الفقه الذى يكون بهما الحكم بين الناس و فصل خصوماتهم، و بالنبوّة من بعثه اللّه من الأنبياء فيهم وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى: المستلذات التى أحلها اللّه لهم، و من ذلك المنّ و السلوى وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر و نحوه، و قد تقدّم بيان هذا فى سورة الدخان وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ أى: شرائع واضحات فى الحلال و الحرام، أو معجزات ظاهرات، و قيل:

العلم بمبعث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و شواهد نبوّته، و تعيين مهاجره فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ أى:

فما وقع الاختلاف بينهم فى ذلك الأمر إلا بعد مجىء العلم إليهم ببيانه و إيضاح معناه، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لثبوته، و قيل: المراد بالعلم يوشع بن نون، فإنه آمن به بعضهم و كفر بعضهم، و قيل: نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فاختلفوا

فيها حسدا و بغيا، و قيل: بَغْياً من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين، فيجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ الشريعة فى اللغة: المذهب، و الملة، و المنهاج، و يقال: لمشرعة الماء، و هى مورد شاربيه، شريعة، و منه الشارع لأنه طريق إلى المقصد، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه اللّه لعباده من الدين، و الجمع شرائع، و قيل: جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق فَاتَّبِعْها فاعمل بأحكامها فى أمتك وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ توحيد اللّه و شرائعه لعباده، و هم كفار قريش و من وافقهم إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: لا يدفعون عنك شيئا مما أراده اللّه بك إن اتبعت أهواءهم وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى: أنصار ينصر بعضهم بعضا. قال

فتح القدير، ج‏5، ص: 10

ابن زيد: إن المنافقين أولياء اليهود وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ أى: ناصرهم، و المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك و المعاصى، و الإشارة بقوله: هذا إلى القرآن أو إلى اتباع الشريعة، و هو مبتدأ و خبره بَصائِرُ لِلنَّاسِ أى: براهين و دلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، جعل ذلك بمنزلة البصائر فى القلوب، و قرئ هذه بصائر أى: هذه الآيات؛ لأن القرآن بمعناها كما قال الشاعر:

.... سائل بنى أسد ما هذه الصّوت «1» لأن الصوت بمعنى الصيحة. وَ هُدىً أى: رشد، و طريق يؤدى إلى الجنة لمن عمل به وَ رَحْمَةٌ من اللّه فى الآخرة لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى: من شأنهم الإيقان و عدم الشك و التزلزل بالشبه أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ «أم» هى المنقطعة المقدرة ببل و الهمزة و ما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأوّل إلى الثانى، و الهمزة لإنكار الحسبان، و الاجتراح: الاكتساب، و منه الجوارح، و قد تقدّم فى المائدة، و الجملة مستأنفة لبيان تباين حالى المسيئين و المحسنين، و هو معنى قوله: أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: نسوّى بينهم، مع اجتراحهم السيئات، و بين أهل الحسنات سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ فى دار الدنيا و فى الآخرة، كلا لا يستوون، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة. و قيل:

المراد إنكار أو يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة. قرأ الجمهور «سواء» بالرفع على أنه خبر مقدّم، و المبتدأ:

محياهم و مماتهم، و المعنى: إنكار حسبانهم أن محياهم و مماتهم سواء. و قرأ حمزة و الكسائى و حفص «سواء» بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر فى الجار و المجرور فى قوله: كَالَّذِينَ آمَنُوا أو على أنه مفعول ثان لحسب، و اختار قراءة النصب أبو عبيد، و قال معناه: نجعلهم سواء، و قرأ الأعمش و عيسى بن عمر «مماتهم» بالنصب على معنى: سواء فى محياهم و مماتهم، فلما سقط الخافض انتصب، أو على البدل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال ساءَ ما يَحْكُمُونَ أى: ساء حكمهم هذا الذى حكموا به وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: بالحقّ المقتضى للعدل بين العباد، و محل بالحقّ النصب على الحال من الفاعل، أو من المفعول، أو الباء للسببية. و قوله: وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ يجوز أن يكون على الحقّ؛ لأن كلا منهما سبب، فعطف السبب على السبب، و يجوز أن يكون معطوفا على محذوف، و التقدير: خلق اللّه السماوات و الأرض ليدلّ بهما على قدرته: «و لتجزى» يجوز أن تكون اللام للصيرورة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ أى: النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب. ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ قال الحسن و قتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. و قال عكرمة: يعبد ما يهواه أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئا و هويه اتخذه إلها. قال

---

(1). و صدره: يا أيّها الراكب المزجى مطيّته.

و البيت لرويشد بن كثير الطائى. (شرح المعلقات السبع للزوزنى ص 250) طبع دار ابن كثير.

فتح القدير، ج‏5، ص: 11

سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به و عبد الآخر. وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ أى: على علم قد علمه، و قيل: المعنى: أضلّه عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه. و قال مقاتل: على علم منه أنه ضال لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع و لا يضرّ. قال الزجاج: على سوء فى علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، و محل «على علم» النصب على الحال من الفاعل أو المفعول: وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ أى: طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، و طبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً أى: غطاء حتى لا يبصر الرشد. قرأ الجمهور: «غشاوة» بالألف مع كسر الغين. و قرأ حمزة و الكسائى «غشوة» بغير ألف مع فتح الغين، و منه قول الشاعر:

لئن كنت ألبستنى غشوةلقد كنت أصفيتك الودّ حينا

و قرأ ابن مسعود و الأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين، و هى لغة ربيعة. و قرأ الحسن و عكرمة بضمها، و هى لغة عكل فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أى: من بعد إضلال اللّه له أَ فَلا تَذَكَّرُونَ تذكّر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال. ثم بيّن سبحانه بعض جهالاتهم و ضلالاتهم فقال: وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا أى: ما الحياة إلا الحياة الدنيا التى نحن فيها نَمُوتُ وَ نَحْيا أى: يصيبنا الموت و الحياة فيها، و ليس وراء ذلك حياة، و قيل: نموت نحن و يحيا فيها أولادنا، و قيل: نكون نطفا ميتة ثم نصير أحياء، و قيل:

فى الآية تقديم و تأخير، أى: نحيا و نموت، و كذا قرأ ابن مسعود، و على كل تقدير فمرادهم بهذه المقالة إنكار البعث و تكذيب الآخرة وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ أى: إلا مرور الأيام و الليالى. قال مجاهد: يعنى السنين و الأيام. و قال قتادة: إلا العمر، و المعنى واحد. و قال قطرب: المعنى و ما يهلكنا إلا الموت. و قال عكرمة:

و ما يهلكنا إلا اللّه وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ أى: ما قالوا هذه المقالة إلا شاكّين غير عالمين بالحقيقة.

ثم بيّن كون ذلك صادرا منهم لا عن علم، فقال: إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ أى: ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظنّ، فما يتكلمون إلا به، و لا يستندون إلا إليه وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ أى: إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى و الدلالة على البعث ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنا نبعث بعد الموت، أى: ما كان لهم حجّة و لا متمسك إلا هذا القول الباطل الذى ليس من الحجة فى شىء، و إنما سمّاه حجّة تهكّما بهم. قرأ الجمهور بنصب حُجَّتَهُمْ على أنه خبر كان، و اسمها إِلَّا أَنْ قالُوا و قرأ زيد بن علىّ و عمرو بن عبيد و عبيد بن عمرو برفع حجتهم على أنها اسم كان، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يردّ عليهم فقال: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ فى الدنيا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ بالبعث و النشور لا رَيْبَ فِيهِ أى:

فى جمعكم؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ بذلك، فلهذا حصل معهم الشكّ فى البعث، و جاءوا فى دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، و لو نظروا حقّ النظر لحصلوا على العلم اليقين، و اندفع عنهم الرّيب، و أراحوا أنفسهم من ورطة الشكّ و الحيرة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۲

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ يقول: على هدى من أمر دينه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ قال: المؤمن فى الدنيا و الآخرة مؤمن، و الكافر فى الدنيا و الآخرة كافر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ قال: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من اللّه و لا برهان وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ يقول: أضله فى سابق علمه. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عنه قال: كان الرّجل من العرب يعبد الحجر، فإذا وجد أحسن منه

أخـذه و ألقى الآخر، فأنزل اللّه: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: كان أهل الجاهليـة يقولون: إنما يهلكنا الليل و النهار، فقال اللّه فى كتابه: وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ قال اللّه: يؤذينى ابن آدم يسبّ الـدهر و أنا الدهر، بيدى الأمر أقلّب الليل و النهار. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما من حـديث أبى هريرة: سـمعت رسـول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «قـال اللّه عزّ و جلّ: يؤذينى ابن آدم يسبّ الـدهر و أنا الدهر، بيدى الأمر أقلّب اللّيل و النّهار».

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٧ الى ٣٧]

وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١)

وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٤) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٦)

وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

لما ذكر سبحانه ما احتجّ به المشركون و ما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك، فقال: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: هو المتصرّف فيهما وحده، لا يشاركه أحد من عباده. ثم توعّد أهل الباطل فقال: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ أى: المكذّبون الكافرون المتعلّقون بالأباطيل، يظهر فى ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار، و العامل فى «يوم» هو «يخسر»، و «يومئذ» بدل منه، و التنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه، فيكون التقدير: و يوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة، فيكون بدلا توكيديا، و الأولى أن يكون العامل فى يوم هو ملك، أى: و للّه ملك يوم تقوم الساعة، و يكون «يومئذ» معمولا ليخسر: وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً الخطاب لكلّ من يصلح له،

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٣

أو للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأمة: الملة، و معنى جاثية: مستوفزة، و المستوفز: الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه و أطراف أنامله، و ذلك عند الحساب. و قيل: معنى جاثية: مجتمعة، قال الفراء: المعنى و ترى أهل كلّ ذى دين مجتمعين. و قال عكرمة: متميّزة عن غيرها. و قال مؤرّج: معناه بلغة قريش: خاضعة. و قال الحسن:

باركة على الركب. و الجثو: الجلوس على الركب، تقول. جثا يجثو و يجثى جثوّا و جثيا؛ إذا جلس على ركبتيه، و الأوّل أولى. و لا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر فى لسان العرب. و قد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شىء فى لغة العرب، و منه قول طرفة يصف قبرين:

ترى جثوتين من تراب عليهماصفائح صمّ من صفيح منضّد «١»

و ظاهر الآية أنّ هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل و غيرهم من أهل الشرك. و قال يحيى بن سلام: هو خاصّ بالكفار، و الأوّل أولى. و يؤيده قوله: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا و لقوله فيما سيأتى: فَأَمَّا الَّذِينَ

آمَنُوا، و معنى «إِلى كِتابِهَا»: إلى الكتاب المنزّل عليها، و قيل: إلى صحيفة أعمالها، و قيل: إلى حسابها، و قيل: اللوح المحفوظ، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور «كلّ أمة» بالرفع على الابتداء، و خبره: تدعى. و قرأ يعقوب الحضرمى بالنصب على البدل من كل أمة. الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى: يقال لهم اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير و شرّ هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ هذا من تمام ما يقال لهم، و القائل بهذا هم الملائكة. و قيل: هو من قول اللّه سبحانه، أى: يشهد عليكم، و هو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا، أى: بين، و قيل: إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذى لا زيادة فيه و لا نقصان، و محل «ينطق» بالنصب على الحال، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة، و جملة إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تعليل للنطق بالحقّ، أى: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أى: بكتبها و تثبيتها عليكم. قال الواحدى: و أكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم، فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه. قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. و قيل: المعنى: نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون. و قيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات و السيئات و تركوا المباحات. و قيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى اللّه سبحانه أمر عزّ و جلّ أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب و عقاب، و يسقط منها ما لا ثواب فيه و لا عقاب فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ أى: الجنة، و هذا تفصيل لحال الفريقين، فالمؤمنون يدخلهم اللّه برحمته الجنة ذلِكَ أى: الإدخال فى رحمته هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أى: الظاهر الواضح وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ أى: فيقال لهم ذلك، و هو استفهام توبيخ، لأن الرسل قد أتتهم و تلت عليهم آيات اللّه، فكذّبوها و لم يعملوا بها فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ أى: تكبرتم عن قبولها و عن الإيمان بها،

---

(١). «الصم»: الصلب. «المنضد»: الذى جعل بعضه على بعض.

و كنتم من أهل الإجرام، و هى الآثام، و الاجترام: الاكتساب، يقال: فلان جريمة أهله؛ إذا كان كاسبهم، فالمجرم: من كسب الآثام بفعل المعاصى وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: وعده بالبعث و الحساب، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة، واقع لا محالة وَ السَّاعَةُ أى: القيامة لا رَيْبَ فِيها أى:

فى وقوعها. و قرأ الجمهور «و الساعة» بالرفع على الابتداء، أو العطف على موضع اسم إن، و قرأ حمزة بالنصب عطفا على اسم إن قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ أى: أىّ شيء هى؟ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا أى: نحدس حدسا، نتوهم توهّما. قال المبرّد: تقديره: إن نحن إلا نظنّ ظنا، و قيل: التقدير: إن نظنّ إلا أنكم تظنون ظنا، و قيل: إن نظنّ مضمن معنى نعتقد، أى: ما نعتقد إلا ظنا لا علما، و قيل: إن «ظنا» له صفة مقدّرة، أى: إلا ظنّا بيّنا، و قيل: إن الظنّ يكون بمعنى العلم و الشك، فكأنهم قالوا: ما لنا اعتقاد إلا الشك وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ أى: لم يكن لنا يقين بذلك، و لم يكن معنا إلا مجرّد الظنّ أن الساعة آتية وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا أى: ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التى هى عليها وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم، و نزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أى: نترككم فى النار كما تركتم العمل لهذا اليوم، و أضاف اللقاء إلى اليوم توسّعا، لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه وَ مَأْواكُمُ النَّارُ أى: مسكنكم و مستقرّكم الذى تأوون إليه وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً أى: ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا و لعبا وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا أى: خدعتكم بزخارفها و أباطيلها، فظننتم أنه لا دار غيرها و لا بعث و لا نشور فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها أى: من النار. قرأ الجمهور «يخرجون» بضم الياء و فتح الراء مبنيا للمفعول، و قرأ حمزة و الكسائى بفتح الياء و ضمّ

الرّاء مبنيا للفاعل، و الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أى: لا يسترضون و يطلب منهم الرجوع إلى طاعة اللّه؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة و لا تنفع فيه معذرة فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ لا يستحقّ الحمد سواه. قرأ الجمهور «رب» فى المواضع الثلاثة بالجرّ على الصفة للاسم الشريف. و قرأ مجاهد و حميد و ابن محيصن بالرفع فى الثلاثة على تقدير مبتدأ، أى: هو ربّ السماوات إلخ وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: الجلال و العظمة و السلطان، و خصّ السماوات و الأرض لظهور ذلك فيهما وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: العزيز فى سلطانه. فلا يغالبه مغالب، الحكيم فى كل أفعاله و أقواله و جميع أقضيته.

و قد أخرج سعيد بن منصور، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن عبد اللّه بن باباه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كأنى أراكم بالكوم دون جهنم جاثين، ثم قرأ سفيان وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً قال:

كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على كوم، قد علا الخلائق، فذلك المقام المحمود. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ قال: هو أمّ الكتاب، فيه أعمال بنى

فتح القدير، ج‏5، ص: 15

آدم إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال: هم الملائكة يستنسخون أعمال بنى آدم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه بمعناه مطوّلا، فقام الرجل فقال: يا ابن عباس، ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة فى كل يوم و ليلة، فقال ابن عباس: إنكم لستم قوما عربا إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هل يستنسخ الشي‏ء إلا من كتاب؟. و أخرج ابن جرير عنه نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير عن عليّ أبى طالب: إن للّه ملائكة ينزلون فى كل يوم بشي‏ء يكتبون فيه أعمال بنى آدم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحو ما روى عن ابن عباس.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أمّ الكتاب. و أخرج نحوه الحاكم عنه و صحّحه. و أخرج الطبرانى عنه أيضا فى الآية قال: إنّ اللّه وكّل ملائكته ينسخون من ذلك العام فى رمضان ليلة القدر ما يكون فى الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة، فيتعارضون به حفظة اللّه على العباد عشية كل خميس، فيجدون ما رفع الحفظة موافقا لما فى كتابهم ذلك، ليس فيه زيادة و لا نقصان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قال: نترككم. و أخرج ابن أبى شيبة و مسلم و أبو داود و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يقول اللّه تبارك و تعالى: الكبرياء ردائى، و العظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار».

فتح القدير، ج‏5، ص: 16

سورة الأحقاف

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول جميعهم. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير قالا: نزلت سورة حم الأحقاف مكة. و أخرج ابن الضريس، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سورة الأحقاف و أقرأها

آخر، فخالف قراءته، فقلت: من أقرأكها؟ قال: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و اللّه لقد أقرأني رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غير ذا، فأتينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقلت: يا رسول اللّه ألم تقرئني كذا و كذا؟

قال: بلى، و قال الآخر: ألم تقرئني كذا و كذا؟ قال بلى، فتمعّر «١» وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: «ليقرأ كلّ واحد منكما ما سمع، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴)

وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (۵) وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)

قوله: حم- تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ قد تقدّم الكلام على هذا في سورة غافر و ما بعدها مستوفى، و ذكرنا وجه الإعراب، و بيان ما هو الحقّ؛ من أن فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما من المخلوقات بأسرها إِلَّا بِالْحَقِ هو استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أي: إلا خلقا ملتبسا بالحقّ الذي تقتضيه المشيئة الإلهية، و قوله: وَ أَجَلٍ مُسَمًّى معطوف على الحقّ، أي: إلا بالحقّ، و بأجل مسمّى على تقدير مضاف محذوف، أي: و تقدير أجل مسمّى، و هذا الأجل هو يوم القيامة، فإنها تنتهي فيه السماوات و الأرض و ما بينهما، و تبدّل الأرض

---

(١). «تمعّر الوجه»: تغيّر.

غير الأرض و السماوات. و قيل: المراد بالأجل المسمّى هو انتهاء أجل كلّ فرد من أفراد المخلوقات، و الأوّل أولى. و هذا إشارة إلى قيام الساعة و انقضاء مدّة الدنيا، و أن اللّه لم يخلق خلقه باطلا و عبثا لغير شي‏ء، بل خلقه للثواب و العقاب وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ أي: عمّا أنذروا و خوّفوا به في القرآن من البعث و الحساب و الجزاء معرضون مولون، غير مستعدّين له، و الجملة في محل نصب على الحال، أي:

و الحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به، و «ما» في قوله: ما أنذروا يجوز أن تكون الموصولة، و يجوز أن تكون المصدرية قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي: أخبروني ما تعبدون من دون اللّه من الأصنام أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أي: أيّ شي‏ء خلقوا منها، و قوله: «أروني» يحتمل أن يكون تأكيدا لقوله أ رأيتم، أي: أخبروني أروني، و المفعول الثاني لأرأيتم: «ما ذا خلقوا»، و يحتمل أن لا يكون تأكيدا، بل يكون هذا من باب التنازع، لأنّ أرأيتم يطلب مفعولا ثانيا، و أروني كذلك أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ «أم» هذه هي المنقطعة المقدّرة ببل و الهمزة، و المعنى: بل ألهم شركة مع اللّه فيها، و الاستفهام للتوبيخ و

التقريع ائْتُونِی بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هـذا هـذا تبكيت لهم و إظهـار لعجزهم و قصورهم عن الإتيان بـذلك، و الإشارة بقوله هـذا إلى القرآن، فإنه قـد صـرّح ببطلان الشـرك، و أن اللّه واحـد لا شـريك له، و إن الساعة حقّ لا ريب فيها، فهل للمشـركين من كتاب يخـالف هـذا الكتاب؟ أو حجّـة تنافى هـذه الحجـة؟ أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال فى الصـحاح: أو أثارة من علم: بقيـة منه، و كـذا الأثرة بالتحريك. قال ابن قتيبة:

أى: بقيـة من علم الأولين. و قـال الفرّاء و المبرّد: يعنى مـا يؤثر عن كتب الأوّلين. قال الواحـدى: و هو معنى قول المفسـرين. قال عطاء: أو شـىء تأثرونه عن نبى كان قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قال مقاتل: أو رواية من علم عن الأنبياء. و قال الزجاج: أو أثارة، أى: علامة، و الأثارة: مصدر كالسماحة و الشجاعة، و أصل الكلمة من الأثر، و هى الرواية، يقال: أثرت الحديث آثره أثرة و أثارة و أثرا؛ إذا ذكرته عن غيرك. قرأ الجمهور:

«أثارة» على المصدر كالسـماحة و الغواية. و قرأ ابن عباس و زيد بن على و عكرمة و السلمى و الحسن و أبو رجاء بفتح الهمزة و الثاء من غير ألف. و قرأ الكسائى «أثرة» بضم الهمزة و سكون الثاء إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم التى تدّعونها، و هى قولكم: إن اللّه شـريكا، و لم تأتوا بشـىء من ذلك، فتبيّن بطلان قولهم لقيام البرهان العقلى و النقلى على خلافه. وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ أى: لا أحد أضلّ منه و لا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع فى الإجابة، فضلا عن جلب نفع أو دفع ضـرّ؟ فتبين بهـذا أنه أجهل الجاهلين و أضلّ الضالين، و الاسـتفهام للتقريع و التوبيـخ. و قوله: إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ غايـة لعدم الاسـتجابة وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ الضمير الأوّل للأصنام، و الثانى لعابديها، و المعنى: و الأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسـمعون و لا يعقلون لكونهم جمادات، و الجمع فى الضـميرين باعتبار معنى من، و أجرى على الأصـنام ما هو للعقلاء لاعتقـاد المشـركين فيهـا أنهـا تعقل وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً أى: إذا حشـر الناس العابـدين للأصـنام كان الأصـنام لهم أعـداء، يتبرأ بعضـهم من بعض، و يلعن بعضـهم بعضا. و قـد قيل: إن اللّه يخلق الحياة فى الأصـنام فتكذّبهم. و قيل: المراد

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۸

أنّها تكذّبهم و تعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال. و أما الملائكة و المسيح و عزيز و الشياطين فإنهم يتبرّؤون ممّن عبدهم يوم القيامـة؛ كمـا فى قوله تعـالى: تَبَرَّأْنـا إِلَيْـكَ مـا كـانُوا إِيَّانا يَعْبُـدُونَ «۱». وَ كـانُوا بِعِبـادَتِهِمْ كـافِرِينَ أى: كـان المعبـودون بعبـادة المشـركين إياهم كافرين، أى: جاحـدين مكـذّبين. و قيل: الضـمير فى «كانوا» للعابدين، كما فى قوله: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «۲»، و الأوّل أولى. وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا أى: آيات القرآن حال كونهم بَيِّناتٍ واضـحات المعانى ظاهرات الـدلالات قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِ أى: لأجله و فى شأنه، و هو عبارة عن الآيات لَمَّا جاءَهُمْ أى: وقت أن جاءهم هذا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: ظاهر السّحرية أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ «أم» هى المنقطعة؛ أى: بل أ يقولون افتراه؟

و الاسـتفهام للإنكار و التعجب من صـنيعهم، و بل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحرا إلى قولهم: إن رسول اللّه افترى ما جاء به، و فى ذلك من التوبيخ و التقريع ما لا يخفى. ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم، فقال:

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: قـل إن افتريته على سبيـل الفرض و التقـدير: كما تـدّعون، فلا تقـدرون على أن تردّوا عنّى عقـاب اللّه، فكيـف أفترى على اللّه لأجلكم و أنتم لا تقـدرون على دفع عقـابه عنى هُوَ أَعْلَمُ بِمـا تُفِيضُونَ فِيهِ أى: تخوضون فيه من التكذيب و الإفاضة فى الشـىء: الخوض فيه و الاندفاع فيه، يقال: أفاضوا فى الحديث، أى: اندفعوا فيه، و أفاض البعير: إذا دفع جرّته من كرشه، و المعنى:

اللّه أعلم بمـا تقولـون فى القرآن و تخوضون فيه من التكـذيب له و القول بـأنه سـحر و كهانـة كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فـإنه

يشهد لى بأن القرآن من عنده و أنى قد بلّغتكم، و يشهد عليكم بالتكذيب و الجحود، و فى هذا وعيد شديد وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لمن تاب و آمن و صدّق بالقرآن و عمل بما فيه، أى: كثير المغفرة و الرحمة بليغهما قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ البدع من كلّ شىء المبدأ، أى: ما أنا بأوّل رسول، قد بعث اللّه قبلى كثيرا من الرسل. قيل: البدع بمعنى البديع كالخفّ و الخفيف، و البديع: ما لم ير له مثل، من الابتداع و هو الاختراع، و شىء بدع بالكسر، أى: مبتدع، و فلان بدع فى هذا الأمر، أى: بديع، كذا قال الأخفش، و أنشد قطرب:

فما أنا بدع من حوادث تعترى رجالا غدت من بعد بؤس بأسعد «٣»

و قرأ عكرمة و أبو حيوة و ابن أبى عبلة «بدعا» بفتح الدال على تقدير حذف المضاف، أى: ما كنت ذا بدع، و قرأ مجاهد بفتح الباء و كسر الدال على الوصف. وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ أى: ما يفعل بى فيما يستقبل من الزمان هل أبقى فى مكة أو أخرج منها؟ و هل أموت أو أقتل؟ و هل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ و هذا إنما هو فى الدنيا. و أما فى الآخرة فقد علم أنه و أمته فى الجنة و أن الكافرين فى النار. و قيل:

إن المعنى: ما أدرى ما يفعل بى و لا بكم يوم القيامة، و إنها لما نزلت فرح المشركون و قالوا: كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به و لا بنا، و أنه لا فضل له علينا؟ فنزل قوله تعالى:

---

(١). القصص: ٦٣.

(٢). الأنعام: ٢٣.

(٣). البيت لعدىّ بن زيد.

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «١» و الأوّل أولى. إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ قرأ الجمهور «يُوحى مبنيا للمفعول، أى: ما أتبع إلا القرآن و لا أبتدع من عندى شيئا، و المعنى: قصر أفعاله صلّى اللّه عليه و سلّم على الوحى لا قصر اتّباعه على الوحى وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أى أنذركم عقاب اللّه و أخوّفكم عذابه على وجه الإيضاح.

و قد أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال: الخط. قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، يعنى أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس. و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كان نبىّ من الأنبياء يخطّ، فمن صادف مثل خطّه علم» و معنى هذا ثابت فى الصحيح، و لأهل العلم فيه تفاسير مختلفة. و من أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط؟ و أين السند الصحيح إلى ذلك النبىّ؟ أو إلى نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم أن هذا الخط هو على صورة كذا؟ فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات و ضلالات. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال: «حسن الخط». و أخرج الطبرانى فى الأوسط و الحاكم من طريق الشعبى عن ابن عباس أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ قال:

خط كان يخطه العرب فى الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ يقول: بيّنة من الأمر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ يقول: لست بأوّل الرسل وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ فأنزل اللّه بعد هذا:

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «٢» و قوله: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ «٣» الآية، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل

به و بالمؤمنين جميعا. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا أن هذه الآية منسوخة بقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ و قد ثبت فى صحيح البخارى و غيره من حديث أمّ العلاء قالت: «لما مات عثمان بن مظعون قلت: رحمك اللّه أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك اللّه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

و ما يدريك أن اللّه أكرمه؟ أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه و إنى لأرجو له الخير، و اللّه ما أدرى و أنا رسول اللّه ما يفعل بى و لا بكم، قالت أمّ العلاء: فو اللّه لا أزكّى بعده أحدا».

---

(۱). الفتح: ۲.

(۲). الفتح: ۲.

(۳). الفتح: ۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰

[سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۰ الى ۱۶]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (۱۲) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۳) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴)

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (۱۶)

قوله قُلْ أَ رَأَيْتُمْ أى: أخبرونى إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يعنى ما يوحى إليه من القرآن، و قيل:

المراد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: إن كان مرسلا من عند غير اللّه، و قوله: وَ كَفَرْتُمْ بِهِ فى محل نصب على الحال بتقدير قد، و كذلك قوله: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ و المعنى: أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند اللّه، و الحال أنكم قد كفرتم به، و شهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل اللّه فى التوراة على مثله، أى: القرآن من المعانى الموجودة فى التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد و البعث و النشور و غير ذلك، و هذه المثلية هى باعتبار تطابق المعانى و إن اختلفت الألفاظ. و قال الجرجانى: مثل صلة: و المعنى:

و شهد شاهد عليه أنه من عند اللّه، و كذا قال الواحدى. فَآمَنَ الشاهد بالقرآن لما تبيّن له أنه من كلام اللّه و من جنس ما ينزله على رسله، و هذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد اللّه بن سلام كما قال الحسن و مجاهد و قتادة و عكرمة و غيرهم، و فى هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع، و عبد اللّه بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة، فيكون المراد بالشاهد رجلا من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن فى مكة و صدّقه، و اختار هذا ابن جرير، و سيأتى فى آخر البحث ما يترجّح به أن عبد اللّه بن سلام، و أن هذه الآية مدنية لا مكية. و روى عن مسروق أن المراد بالرجل موسى عليه السلام. و قوله: وَ اسْتَكْبَرْتُمْ معطوف على شهد، أى: آمن الشاهد و استكبرتم أنتم عن الإيمان إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فحرمهم اللّه سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام

الحجّة الظّاهرة على وجوب الإيمان، و من فقد هداية اللّه له ضلّ.

و قد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو؟ فقال الزجّاج: محذوف تقديره أ تؤمنون، و قيل: قوله: فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ و قيل: محذوف بتقديره: فقد ظلمتم؛ لدلالة إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ عليه، أى: تقديره: فمن أضلّ منكم، كما فى قوله: أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ «١» الآية.

و قال أبو على الفارسى: تقديره: أ تأمنون عقوبة اللّه، و قيل: التقدير: ألستم ظالمين. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فقال: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أى: لأجلهم، و يجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ أى: لو كان ما جاء به محمد من القرآن و النبوّة خيرا ما سبقونا إليه لأنهم عند أنفسهم المستحقّون للسبق إلى كلّ مكرمة، و لم يعلموا أن اللّه سبحانه يختصّ برحمته من يشاء، و يعزّ من يشاء، و يذلّ من يشاء، و يصطفى لدينه من يشاء وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ

---

(١). فصلت: ٥٢.

أى: بالقرآن، و قيل: بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: بالإيمان فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ فجاوزوا نفى خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم، كما قالوا: أساطير الأوّلين، و العامل فى «إذ» مقدّر، أى: ظهر عنادهم، و لا يجوز أن يعمل فيه «فسيقولون» لتضادّ الزمانين، أعنى المضى و الاستقبال و لأجل الفاء أيضا، و قيل:

إن العامل فيه فعل مقدّر من جنس المذكور، أى: لم يهتدوا به، و إذ لم يهتدوا به فسيقولون. وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى قرأ الجمهور بكسر الميم من «من» على أنها حرف جرّ، و هى مع مجرورها خبر مقدّم، و كتاب موسى مبتدأ مؤخّر، و الجملة فى محل نصب على الحال، أو هى مستأنفة، و الكلام مسوق لردّ قولهم:

هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى، و هو التوراة، و توافقا فى أصول الشرائع، يدلّ على أنه حقّ و أنه من عند اللّه، و يقتضى بطلان قولهم. و قرئ بفتح ميم «من» على أنها موصولة و نصب كتاب، أى: و آتينا من قبله كتاب موسى، و رويت هذه القراءة عن الكلبى إِماماً وَ رَحْمَةً أى: يقتدى به فى الدّين و رحمة من اللّه لمن آمن به، و هما منتصبان على الحال. قاله الزجّاج و غيره. و قال الأخفش على القطع، و قال أبو عبيدة: أى: جعلناه إماما و رحمة وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ يعنى القرآن، فإنه مصدّق لكتاب موسى الّذى هو إمام و رحمة و لغيره من كتب اللّه، و قيل: مصدّق للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و انتصاب لِساناً عَرَبِيًّا على الحال الموطئة و صاحبها الضمير فى «مصدق» العائد إلى «كتاب»، و جوّز أبو البقاء أن يكون مفعولا لمصدّق، و الأوّل أولى، و قيل: هو على حذف مضاف، أى: ذا لسان عربىّ، و هو النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قرأ الجمهور: «لينذر» بالتحتية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب، أى:

لينذر الكتاب الذين ظلموا، و قيل: الضمير راجع إلى اللّه، و قيل: إلى الرسول، و الأوّل أولى. و قرأ نافع و ابن عامر و البزّى بالفوقية على أن فاعله النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد. و قوله: وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ فى محل نصب عطفا على محل «لينذر». و قال الزجّاج: الأجود أن يكون فى محل رفع، أى:

و هو بشرى، و قيل: على المصدرية لفعل محذوف، أى: و تبشر بشرى، و قوله: «للمحسنين» متعلّق ببشرى إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا أى: جمعوا بين التوحيد و الاستقامة على الشريعة، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة السجدة فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ الفاء زائدة فى الخبر الموصول لما فيه من معنى الشرط وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ المعنى: أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم، و لا يحزنون من فوات محبوب، و أن ذلك مستمر دائم أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أى: أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار

المؤمنين حال كونهم خالِدِينَ فِيها و فى هذه الآية من الترغيب أمر عظيم، فإن نفى الخوف و الحزن على الدوام و الاستقرار فى الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه، و لا تتشوّف إلى ما عداه جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات للّه و ترك معاصيه و وصينا الإنسان بوالديه حسنا قرأ الجمهور حسنا بضم الحاء و سكون السين. و قرأ علىّ و السلمى بفتحهما. و قرأ ابن عباس و الكوفيون «إِحْساناً» و قد تقدم فى سورة العنكبوت وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً من غير اختلاف بين القراء، و تقدّم فى سورة الأنعام و سورة بنى إسرائيل وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً فلعل هذا هو

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۲

وجه اختلاف القراء فى هذه الآية، و على جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية، أى: وصّيناه أن يحسن إليهما حسنا، أو إحسانا، و قيل: على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى ألزمنا، و قيل: على أنه مفعول له حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً قرأ الجمهور «كرها» فى الموضعين بضم الكاف. و قرأ أبو عمرو و أهل الحجاز بفتحهما. قال الكسائى: و هما لغتان بمعنى واحد. قال أبو حاتم: الكره بالفتح لا يحسن لأنه الغضب و الغلبة، و اختار أبو عبيدة قراءة الفتح قال: لأن لفظ الكره فى القرآن كله بالفتح إلا التى فى سورة البقرة كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ «۱» و قيل: إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره. و إنما ذكر سبحانه حمل الأمّ و وضعها تأكيدا لوجوب الإحسان إليها الّذى وصّى اللّه به، و المعنى: أنها حملته ذات كره و وضعته ذات كره. ثم بيّن سبحانه مدّة حمله و فصاله فقال: وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً أى: مدتهما هذه المدّة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع، أى: يفطم عنه، و قد استدلّ بهذه الآية على أن أقلّ الحمل ستة أشهر؛ لأنّ مدة الرضاع سنتان، أى: مدّة الرضاع الكامل، كما فى قوله: حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ «۲» فذكر سبحانه فى هذه الآية أقل مدّة الحمل، و أكثر مدّة الرضاع. و فى هذه الآية إشارة إلى أنّ حقّ الأم آكد من حقّ الأب لأنها حملته بمشقة و وضعته بمشقة، و أرضعته هذه المدّة بتعب و نصب و لم يشاركها الأب فى شىء من ذلك. قرأ الجمهور «و فصاله» بالألف، و قرأ الحسن و يعقوب و قتادة و الجحدرى «و فصله» بفتح الفاء و سكون الصاد بغير ألف، و الفصل و الفصال بمعنى؛ كالفطم و الفطام و القطف و القطاف حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ أى: بلغ استحكام قوّته و عقله، و قد مضى تحقيق الأشدّ مستوفى. و لا بدّ من تقدير جملة تكون حتى غاية لها أى: عاش و استمرت حياته حتى بلغ أشدّه، قيل: بلغ عمره ثمانى عشرة سنة، و قيل: الأشدّ: الحلم، قاله الشعبى و ابن زيد. و قال الحسن:

هو بلوغ الأربعين، و الأوّل أولى لقوله: وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شىء وراء بلوغ الأشد. قال المفسرون: لم يبعث اللّه نبيا قط إلا بعد أربعين سنة قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أى:

ألهمنى. قال الجوهرى: استوزعت اللّه فأوزعنى؛ أى: استلهمته فألهمنى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَ أى: ألهمنى شكر ما أنعمت به علىّ من الهداية، و على والدىّ من التحنن علىّ منهما حين ربيانى صغيرا. و قيل: أنعمت علىّ بالصحة و العافية، و على والدىّ بالغنى و الثروة، و الأولى عدم تقييد النعمة عليه و على أبويه بنعمة مخصوصة وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ أى: و ألهمنى أن أعمل عملا صالحا ترضاه منى وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي أى: اجعل ذريتى صالحين راسخين فى الصلاح متمكّنين منه.

و فى هذه الآية دليل على أنه ينبغى لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات، و قد روى أنها نزلت فى أبى بكر كما سيأتى فى آخر البحث إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ من ذنوبى وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الإنسان المذكور، و الجمع لأنه

(١). البقرة: ٢١۶.

(٢). البقرة: ٢٣٣.

يراد به الجنس و هو مبتدأ، و خبره: الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا من أعمال الخير فى الدنيا، و المراد بالأحسن الحسن، كقوله: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ «١» و قيل: إن اسم التفضيل على معناه، و يراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن و ليس بأحسن وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فلا نعاقبهم عليها. قرأ الجمهور: «يتقبل و يتجاوز» على بناء الفعلين للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائى بالنون فيهما على إسنادهما إلى اللّه سبحانه، و التجاوز: الغفران، و أصله من جزت الشىء؛ إذا لم تقف عليه، و معنى فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ أنهم كائنون فى عدادهم منتظمون فى سلكهم، فالجارّ و المجرور فى محل النصب على الحال، كقولك: أكرمنى الأمير فى أصحابه، أى: كائنا فى جملتهم، و قيل: إن فى بمعنى مع، أى: مع أصحاب الجنة، و قيل: إنهما خبر مبتدأ محذوف، أى: هم فى أصحاب الجنة وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ وعد الصدق مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة، لأن قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ إلخ فى معنى الوعد بالتقبل و التجاوز، و يجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف، أى:

وعدهم اللّه وعد الصدق الّذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا.

و قد أخرج أبو يعلى و ابن جرير و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن عوف بن مالك الأشجعى قال: انطلق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه يحطّ اللّه تعالى عن كل يهودىّ تحت أديم السماء الغضب الّذى عليه، فسكتوا؛ فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا، فقال: أبيتم فو اللّه لأنا الحاشر، و أنا العاقب، و أنا المقفى آمنتم أو كذبتم»، ثم انصرف و أنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود، فقالوا: و اللّه ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب اللّه و لا أفقه منك و لا من أبيك و لا من جدّك، قال: فإنى أشهد باللّه أنه النبىّ الّذى تجدونه مكتوبا فى التوراة و الإنجيل، قالوا: كذبت، ثم ردّوا عليه و قالوا شرا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كذبتم لن يقبل منكم قولكم»، فخرجنا و نحن ثلاثة، رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أنا و ابن سلام، فأنزل اللّه: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إلى قوله: لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ و صحّحه السيوطى. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن سعد بن أبى وقاص قال: ما سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد اللّه بن سلام، و فيه نزلت:

وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن مردويه عن عبد اللّه بن سلام قال: نزل فى آيات من كتاب اللّه نزلت فىّ: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ و نزل فىّ: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ «٢». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ قال: عبد اللّه بن سلام، و قد روى نحو هذا عن جماعة

---

(١). الزمر: ۵۵.

(٢). الرعد: ۴٣.

من التابعين. و فيه دليل على أن هذه الآية مدنية فيخصّص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلّها مكية.
و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال: قال ناس من المشركين نحن أعزّ و نحن و نحن، فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان و فلان، فنزل وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ
و أخرج ابن المنذر عن عون بن أبى شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله: يقال لها زنّيرة، و كان عمر يضربها على الإسلام، و كان كفار قريش يقولون: لو كان خيرا ما سبقنا إليه زنيرة، فأنزل اللّه فى شأنها وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الآية. و أخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «بنو غفار و أسلم كانوا لكثير من الناس فتنة، يقولون لو كان خيرا ما جعلهم اللّه أوّل الناس فيه».
و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزل قوله: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ الآية إلى قوله: وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ فى أبى بكر الصديق. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال: إنى لصاحب المرأة التى أتى بها عمر التى وضعت لستة أشهر، فأنكر الناس ذلك. فقلت لعمر: لم تظلم؟ قال: كيف؟ قلت: اقرأ: وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ «١» كم الحول؟ قال: سنة، قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهرا، قلت: فأربعة و عشرون شهرا حولان كاملان، و يؤخّر اللّه من الحمل ما شاء و يقدّم ما شاء، فاستراح عمر إلى قولى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد و عشرون شهرا، و إذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة و عشرون شهرا، و إذا وضعت لستة أشهر فحولان كاملان؛ لأن اللّه يقول: وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: أنزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي الآية، فاستجاب اللّه له، فأسلم والده جميعا و إخوته و ولده كلّهم، و نزلت فيه أيضا: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى «٢» إلى آخر السورة.

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٧ الى ٢٠]

وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة اللّه سبحانه عليه و على والديه ذكر من قال لهما قولا يدلّ على التضجر

---

(١). البقرة: ٢٣٣.

(٢). الليل: ٥.

منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان، فقال: وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول، و لهذا أخبر عنه بالجمع، و «أفّ» كلمة تصدر عن قائلها عند تضجّره من شي‌ء يرد عليه. قرأ نافع و حفص أُفٍّ بكسر الفاء مع التنوين. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و ابن محيصن بفتحها من غير تنوين، و قرأ الباقون بكسر من غير تنوين، و هى لغات، و قد مضى بيان

الكلام فى هذا فى سورة بنى إسرائيل، و اللام فى قوله: لَكُما لبيان التأفيف، أى: التأفيف لكما، كما فى قوله: هَيْتَ لَکَ «١» قرأ الجمهور: أَ تَعِدانِنِی بنونين مخففتين، و فتح ياءه أهل المدينة و مكة و أسكنها الباقون. و قرأ أبو حيوة و المغيرة و هشام بإدغام إحدى النونين فى الأخرى، و رويت هذه القراءة عن نافع. و قرأ الحسن و شيبة و أبو جعفر و عبد الوارث عن أبى عمرو بفتح النون الأولى، كأنهم فرّوا من توالى مثلين مكسورين. و قرأ الجمهور:

أَنْ أُخْرَجَ بضم الهمزة و فتح الراء مبنيا للمفعول. و قرأ الحسن و نصر و أبو العالية و الأعمش و أبو معمر بفتح الهمزة و ضم الراء مبنيا للفاعل. و المعنى: أ تعداننى أن أبعث بعد الموت، و جملة: وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قد مضت القرون من قبلى فماتوا و لم يبعث منهم أحد، و هكذا جملة: وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنهما يستغيثان اللّه له، و يطلبان منه التوفيق إلى الإيمان، و استغاث يتعدّى بنفسه و بالباء، يقال: استغاث اللّه و استغاث به. و قال الرازى:

معناه يستغيثان باللّه من كفره، فلما حذف الجار وصل الفعل، و قيل: الاستغاثة الدعاء، فلا حاجة إلى الباء.

قال الفرّاء: يقال أجاب اللّه دعاءه و غواثه، و قوله: وَيْلَکَ هو بتقدير القول، أى: يقولان له ويلك، و ليس المراد به الدعاء فيه، بل الحثّ له على الإيمان، و لهذا قالا له: آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: آمن بالبعث إن وعد اللّه حقّ لا خلف فيه فَيَقُولُ عند ذلك مكذّبا لما قالاه: ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: ما هذا الّذى تقولانه من البعث إلا أحاديث الأوّلين و أباطيلهم التى سطّروها فى الكتاب. قرأ الجمهور:

«إن وعد اللّه» بكسر إن على الاستئناف أو التعليل، و قرأ عمر بن فائد و الأعرج بفتحها على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء. أى: آمن بأن وعد اللّه بالبعث حقّ أُولئِکَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أى: أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حقّ عليهم القول، أى: وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ كما يفيده قوله: فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ و جملة إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ «٢» تعليل لما قبله، و هذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرّحمن بن أبى بكر، و أنه الّذى قال لوالديه ما قال، فإنه من أفاضل المؤمنين، و ليس ممّن حقّت عليه كلمة العذاب، و سيأتى بيان سبب النزول فى آخر البحث إن شاء اللّه وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أى: لكلّ فريق من الفريقين المؤمنين و الكافرين من الجنّ و الإنس مراتب عند اللّه يوم القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجات أهل النار فى هذه الآية تذهب سفلا، و درجات أهل الجنة تذهب علوّا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ أى: جزاء أعمالهم. قرأ

---

(١). يوسف: ٢٣.

(٢). ص: ٨٥.

الجمهور: لنوفيهم بالنون، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و عاصم و أبو عمرو و يعقوب بالياء التحتية.

و اختار أبو عبيد القراءة الأولى، و اختار الثانية أبو حاتم وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ أى: لا يزاد مسىء و لا ينقص محسن، بل يوفّى كل فريق ما يستحقّه من خير و شرّ، و الجملة فى محلّ نصب على الحال، أو مستأنفة مقررة لما قبلها وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الظرف متعلّق بمحذوف، أى: اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار و يقربون منها، و قيل: معنى يعرضون يعذبون، من قولهم: عرضه على السيف، و قيل: فى الكلام قلب. و المعنى: تعرض النار عليهم. أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِی حَياتِكُمُ الدُّنْيا أى: يقال لهم ذلك، و قيل: و هذا المقدر هو الناصب للظرف، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: أَذْهَبْتُمْ بهمزة واحدة،

و قرأ الحسن و نصر أبو العالية و يعقوب و ابن كثير بهمزتين مخففتين، و معنى الاستفهام التقريع و التوبيخ. قال الفراء و الزجّاج: العرب توبّخ بالاستفهام و بغيره، فالتوبيخ كائن على القراءتين. قال الكلبي:

المراد بالطيبات اللذات و ما كانوا فيه من المعايش وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها أي: بالطيبات، و المعنى: أنهم اتبعوا الشهوات و اللذات التى فى معاصى اللّه سبحانه، و لم يبالوا بالذنب تكذيبا منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب و العقاب و الثواب فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أى: العذاب الّذى فيه ذلّ لكم و خزى عليكم. قال مجاهد و قتادة: الهون الهوان بلغة قريش بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ أى:

بسبب تكبركم عن عبادة اللّه و الإيمان به و توحيده وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ أى: تخرجون عن طاعة اللّه و تعملون بمعاصيه، فجعل السبب فى عذابهم أمرين: التكبر عن اتّباع الحقّ، و العمل بمعاصى اللّه سبحانه و تعالى، و هذا شأن الكفرة فإنهم قد جمعوا بينهما.

و قد أخرج البخارى عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال عبد الرّحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما فقالت عائشة: ما أنزل اللّه فينا شيئا من القرآن؛ إلا أن اللّه أنزل عذرى.

و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن محمد بن زياد قال:

لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سنّة أبى بكر و عمر، فقال عبد الرّحمن: سنّة هرقل و قيصر، فقال مروان:

هذا الّذى قال اللّه فيه: وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان و اللّه ما هو به، و لو شئت أن أسمّى الّذى نزلت فيه لسمّيته، و لكنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعن أبا مروان و مروان فى صلبه، فمروان من لعنه اللّه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: هذا ابن لأبى بكر. و أخرج نحوه أبو حاتم عن السدّى، و لا يصحّ هذا كما قدّمنا.

فتح القدير، ج‌5، ص: 27

[سورة الأحقاف (46): الآيات 21 الى 28]

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (28)

قوله: وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ أى: و اذكر يا محمد لقومك أخا عاد، و هو هود بن عبد اللّه بن رباح، كان أخاهم فى النسب، لا فى الدّين، و قوله: إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بدل اشتمال منه، أى: وقت إنذاره إياهم بِالْأَحْقافِ و هى ديار عاد، جمع حقف، و هو الرمل العظيم المستطيل المعوج، قاله الخليل و غيره، و كانوا قهروا أهل الأرض بقوّتهم. و المعنى أن اللّه سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا و يخافوا، و قيل: أمره بأن يتذكر فى نفسه قصّتهم مع هود ليقتدى به، و يهون عليه تكذيب قومه. قال عطاء: الأحقاف: رمال بلاد الشّحر. و قال مقاتل: هى باليمن فى حضر موت. و قال ابن زيد: هى رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال، و لم تبلغ أن

تكون جبالا وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أى: و قد مضت الرسل من قبله و من بعده، كذا قال الفراء و غيره. و فى قراءة ابن مسعود «من بين يديه و من بعده». و الجملة فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود و بين قوله لقومه: إِنِّی أَخافُ عَلَيْكُمْ و الأوّل أولى. و المعنى: أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله و الذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره، ثم رجع إلى كلام هود لقومه، فقال حاكيا عنه: إِنِّی أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و قيل: إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام و أوفق بالمعنى قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا أى: لتصرفنا عن عبادتها، و قيل: لتزيلنا، و قيل: لتمنعنا، و المعنى متقارب، و منه قول عروة بن أذينة:

إن تلك عن أحسن الصنيعة «۱» مأفوكا ففى آخرين قد أفكوا

يقول: إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا عن ذلك فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب العظيم إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى وعدك لنا به قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ أى: إنما العلم بوقت مجيئه عند

---

(۱). الّذى فى اللسان: المروءة.

اللّه لا عندى وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إليكم من ربّكم من الإنذار و الإعذار، فأما العلم بوقت مجى‏ء العذاب فما أوحاه إلىّ وَ لكِنِّی أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ حيث بقيتم مصرّين على كفركم، و لم تهتدوا بما جئتكم به، بل اقترحتم علىّ ما ليس من وظائف الرسل فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً الضمير يرجع إلى «ما» فى قوله «بما تعدنا». و قال المبّرد و الزّجّاج: الضمير فى رَأَوْهُ يعود إلى غير مذكور، و بيّنه قوله: عارِضاً، فالضمير يعود إلى السحاب، أى: فلما رأوا السحاب عارضا، فعارضا نصب على التكرير، يعنى التفسير، و سمّى السحاب عارضا لأنه يبدو فى عرض السماء. قال الجوهرى: العارض: السحاب يعترض فى الأفق، و منه قوله: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا و انتصاب عارضا على الحال أو التمييز مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ أى:

متوجّها نحو أوديتهم. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما، فساق اللّه إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له: المعتب، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا، و قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا أى: غيم فيه مطر، و قوله: مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ صفة لعارض لأن إضافته لفظية لا معنوية، فصحّ وصف النكرة به، و هكذا ممطرنا، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود، فقال: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ يعنى من العذاب حيث قالوا: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا و قوله: رِيحٌ بدل من ما، أو خبر مبتدأ محذوف، و جملة فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ صفة لريح، و الريح التى عذّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الّذى رأوه تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‏ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها هذه الجملة صفة ثانية لريح، أى: تهلك كل شى‏ء مرّت به من نفوس عاد و أموالها، و التدمير: الإهلاك، و كذا الدمار، و قرئ يدمر بالتحتية مفتوحة و سكون الدال و ضم الميم و رفع كلّ على الفاعلية من دمر دمارا. و معنى بِأَمْرِ رَبِّها أن ذلك بقضائه و قدره فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم أى: لا ترى أنت يا محمد أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم و أموالهم. قرأ الجمهور لا تَرى بالفوقية على الخطاب، و نصب مساكنهم. و قرأ حمزة و عاصم بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول و رفع «مساكنهم». قال سيبويه: معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم، و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الثانية. قال الكسائى و الزجاج: معناها لا يرى شى‏ء إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى، كما تقول: ما قام إلا هند، و المعنى: ما قام أحد إلا هند، و فى الكلام حذف، و التقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كَذلِكَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الجزاء نجزى هؤلاء، و قد مرّ بيان هذه القصة فى سورة الأعراف وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ قال المبرّد:

«ما» فى قوله فيما بمنزلة الّذى و إن بمنزلة ما: يعنى النافية، و تقديره: و لقد مكنّاهم فى الّذى ما مكناكم فيه من المال و طول

العمر و قوّة الأبدان، و قيل: إنْ زائدة، و تقديره: و لقد مكناهم فيما مكناهم فيه، و به قال القتبى، و مثله قول الشاعر «۱»:

فما إن طبّنا «۲» جبن و لكن منايانا و دولة آخرينا

---

(۱). هو فروة بن مسيک المرادى.

(۲). «الطب»: الشأن و العادة و الشهوة و الإرادة.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۹

و الأوّل أولى، لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش و أمثالهم وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً أى:

إنهم أعرضوا عن قبول الحجة و التذكر مع ما أعطاهم اللّه من الحواس التى تدرک بها الأدلة، و لهذا قال:

فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ أى: فما نفعهم ما أعطاهم اللّه من ذلک حيث لم يتوصّلوا به إلى التوحيد و صحّة الوعد و الوعيد، و قد قدّمنا من الكلام على وجه إفراد السمع و جمع البصر ما يغنى عن الإعادة، و «من» فى مِنْ شَيْ‏ءٍ زائدة، و التقدير: فما أغنى عنهم شيئا من الإغناء و لا نفعهم بوجه من وجوه النفع إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ الظرف متعلّق بأغنى، و فيها معنى التعليل، أى: لأنهم كانوا يجحدون وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم العذاب الّذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا. وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى الخطاب لأهل مكة، و المراد بما حولهم من القرى قرى ثمود، و قرى لوط، و نحو هما مما كان مجاورا لبلاد الحجاز، و كانت أخبارهم متواترة عندهم وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى: بيّنّا الحجج و نوّعناها لكى يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا. ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب اللّه ناصر فقال: فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً أى: فهلّا نصرهم آلهتهم التى تقرّبوا بها بزعمهم إلى اللّه لتشفع لهم، حيث قالوا: هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ و منعتهم من الهلاک الواقع بهم.

قال الكسائى: القربان: كلّ ما يتقرّب به إلى اللّه من طاعة و نسيكة، و الجمع قرابين، كالرّهبان و الرّهابين، و أحد مفعولى «اتخذوا» ضمير راجع إلى الموصول، و الثانى آلهة، و قربانا حال، و لا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا، و آلهة بدلا منه لفساد المعنى، و قيل: يصحّ ذلک و لا يفسد المعنى، و رجّحه ابن عطية و أبو البقاء و أبو حيّان، و أنكر أن يكون فى المعنى فساد على هذا الوجه بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أى: غابوا عن نصرهم و لم يحضروا عند الحاجة إليهم، و قيل: بل هلكوا، و قيل: الضمير فى «ضلوا» راجع إلى الكفار، أى: تركوا الأصنام و تبرّؤوا منها، و الأوّل أولى، و الإشارة بقوله: وَ ذلِكَ إلى ضلال آلهتهم. و المعنى:

و ذلک الضلال و الضياع أثر إِفْكُهُمْ الّذى هو اتخاذهم إياها آلهة و زعمهم أنها تقرّبهم إلى اللّه.

قرأ الجمهور: إِفْكُهُمْ بكسر الهمزة و سكون الفاء مصدر أفک يأفک إفكا، أى: كذبهم. و قرأ ابن عباس و ابن الزبير و مجاهد بفتح الهمزة و الفاء و الكاف على أنه فعل، أى: ذلک القول صرفهم عن التوحيد.

و قرأ عكرمة بفتح الهمزة و تشديد الفاء، أى: صيّرهم آفكين. قال أبو حاتم: يعنى قلبهم عمّا كانوا عليه من النعيم، و روى عن ابن عباس أنه قرأ بالمدّ و كسر الفاء، بمعنى صارفهم وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ معطوف على إفكهم، أى: و أثر افترائهم أو أثر الّذى كانوا يفترونه. و المعنى: و ذلک إفكهم، أى: كذبهم الّذى كانوا يقولون إنها تقرّبهم إلى اللّه و تشفع لهم وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: يكذبون أنها آلهة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأحقاف: جبل بالشام. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عنه فى قوله: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا قال: هو السحاب. و أخرج البخارىّ و مسلم و غير هما عن عائشة قالت: ما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان

فتح القدير، ج‏5، ص: 30
يتبسّم، و كان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه، قلت: يا رسول اللّه، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر، و أراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، قال: يا عائشة: و ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالرّيح و قد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا».

و أخرج مسلم و الترمذي و النسائي و ابن ماجة عنها قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها و خير ما فيها و خير ما أرسلت به، و أعوذ بك من شرّها و شرّ ما فيها و شرّ ما أرسلت به، فإذا تخيّلت السماء تغيّر لونه، و خرج و دخل، و أقبل و أدبر، فإذا مطرت سرّي عنه، فسألته فقال:

لا أدري، لعله كما قال قوم عاد هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا». و أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «السحاب»، و أبو الشيخ في «العظمة»، عن ابن عباس في قوله: فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالوا: غيم فيه مطر، فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من رجالهم و مواشيهم تطير بين السماء و الأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم و غلقوا أبوابهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم و مالت عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبع ليال و ثمانية أيام حسوما لهم أنين، ثم أمر اللّه الريح فكشفت عنهم الرمل و طرحتهم في البحر، فهو قوله:

فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: ما أرسل اللّه على عاد من الريح إلا قدر خاتمي هذا. و أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عنه في قوله: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ يقول: لم نمكّنكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال:

عاد مكّنوا في الأرض أفضل ممّا مكّنت فيه هذه الأمة، و كانوا أشدّ قوة و أكثر أموالا و أطول أعمارا.

[سورة الأحقاف (46): الآيات 29 الى 35]

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31) وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

لمّا بيّن سبحانه أنّ في الإنس من آمن، و فيهم من كفر، بيّن أيضا أن في الجنّ كذلك، فقال: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ العامل في الظرف مقدّر، أي: و اذكر إذ صرفنا، أي: وجّهنا إليك نفرا من الجنّ و بعثناهم إليك، و قوله: يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ في محل نصب صفة ثانية لنفرا أو حال لأن النكرة قد تخصّصت بالصفة الأولى فَلَمَّا حَضَرُوهُ أي: حضروا القرآن عند تلاوته، و قيل: حضروا النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم،

فتح القدير، ج‏5، ص: 31

و يكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، و الأول أولى قالُوا أَنْصِتُوا أي: قال بعضهم لبعض اسكتوا، أمروا بعضهم بعضا

بذلك لأجل أن يسمعوا فَلَمَّا قُضِيَ قرأ الجمهور قُضِيَ مبنيا للمفعول؛ أى: فرغ من تلاوته. و قرأ حبيب بن عبيد اللّه بن الزبير و لا حق بن حميد و أبو مجلز على البناء للفاعل، أى: فرغ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من تلاوته، و القراءة الأولى تؤيد أن الضمير فى حَضَرُوهُ للقرآن، و القراءة الثانية تؤيد أنه للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ أى: انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن و محذرين لهم، و انتصاب «مُنْذِرِينَ» على الحال المقدّرة، أى: مقدّرين الإنذار، و هذا يدل على أنهم آمنوا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و سيأتى فى آخر البحث بيان ذلك. قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى يعنون القرآن؛ و فى الكلام حذف، و التقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا. قال عطاء: كانوا يهودا فأسلموا مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أى: لما قبله من الكتب المنزّلة يَهْدِي إِلَى الْحَقِ أى: إلى الدّين الحقّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ أى: إلى طريق اللّه القويم. قال مقاتل: لم يبعث اللّه نبيا إلى الجنّ و الإنس قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يعنون محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم أو القرآن يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أى: بعضها، و هو ما عدا حقّ العباد، و قيل: إن من هنا لابتداء الغاية. و المعنى: أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهى إلى غفران ترك ما هو الأولى، و قيل: هى زائدة وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ و هو عذاب النار، و فى هذه الآية دليل على أن حكم الجنّ حكم الإنس فى الثّواب و العقاب و التعبد بالأوامر و النواهى. و قال الحسن: ليس لمؤمنى الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار، و به قال أبو حنيفة. و الأوّل أولى، و به قال مالك و الشافعى و ابن أبى ليلى. و على القول الأوّل، فقال القائلون به أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم: كونوا ترابا، كما يقال للبهائم، و الثانى أرجح. و قد قال اللّه سبحانه فى مخاطبة الجنّ و الإنس: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ- فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ «١» فامتنّ سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، و لا ينافى هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم، و ممّا يؤيّد هذا أن اللّه سبحانه قد جازى كافرهم بالنار و هو مقام عدل، فكيف لا يجازى محسنهم بالجنة و هو مقام فضل، و ممّا يؤيّد هذا أيضا ما فى القرآن الكريم فى غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة، و جزاء من عمل الصالحات الجنة؛ و جزاء من قال لا إله إلا اللّه الجنة، و غير ذلك ممّا هو كثير فى الكتاب و السّنّة.

و قد اختلف أهل العلم هل أرسل اللّه إلى الجن رسلا منهم أم لا، و ظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط كما فى قوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى «٢». و قال: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ «٣» و قال سبحانه فى إبراهيم الخليل:

وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ «۴»، فكل نبىّ بعثه اللّه بعد إبراهيم هو من ذرّيته، و أما قوله تعالى فى سورة

---

(١). الرّحمن: ۴۶ و ۴۷.

(٢). يوسف: ١٠٩.

(٣). الفرقان: ٢٠.

(۴). العنكبوت: ٢٧.

الأنعام: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ «١» فقيل: المراد من مجموع الجنسين و صدق على أحدهما، و هم الإنس، كقوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ «٢» أى: من أحدهما وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ أى: لا يفوت اللّه، و لا يسبقه، و لا يقدر على الهرب منه؛ لأنه و إن هرب كل مهرب فهو فى الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها، و فى هذا ترهيب شديد وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أى: أنصار يمنعونه من عذاب اللّه. بيّن سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة

غيره، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى من لا يجب داعى اللّه، و أخبر أنهم فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: ظاهر واضح. ثم ذكر سبحانه دليلا على البعث، فقال: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ الرؤية هنا هى القلبية التى بمعنى العلم و الهمزة للإنكار، و الواو للعطف على مقدّر، أى: ألم يتفكّروا و لم يعلموا أن الّذى خلق هذه الأجرام العظام من السّموات و الأرض ابتداء وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَ أى: لم يعجز عن ذلك و لا ضعف عنه، يقال: عىّ بالأمر و عيى؛ إذا لم يهتد لوجهه، و منه قول الشاعر «٣»:

عيّوا بأمرهم كماعيّت ببيضتها الحمامه

قرأ الجمهور: وَ لَمْ يَعْيَ بسكون العين و فتح الياء مضارع عيى. و قرأ الحسن بكسر العين و سكون الياء. بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى قال أبو عبيدة و الأخفش: الباء زائدة للتوكيد، كما فى قوله: وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً* «۴». قال الكسائى و الفراء و الزجاج: العرب تدخل الباء مع الجحد و الاستفهام، فتقول: ما أظنّك بقائم، و الجار و المجرور فى محل رفع على أنهما خبر لأن، و قرأ ابن مسعود و عيسى بن عمر و الأعرج و الجحدرى و ابن أبى إسحاق و يعقوب و زيد بن علىّ «يقدر» على صيغة المضارع، و اختار أبو عبيد القراءة الأولى، و اختار أبو حاتم القراءة الثانية، قال: لأن دخول الباء فى خبر أنّ قبيح. بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شىء وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الظرف متعلق بقول مقدّر، أى: يقال ذلك اليوم للذين كفروا أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِ و هذه الجملة هى المحكية بالقول، و الإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار، و فى الاكتفاء بمجرّد الإشارة من التهويل للمشار إليه و التفخيم لشأنه ما لا يخفى، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه قالُوا بَلى وَ رَبِّنا اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، و أكدوا هذا الاعتراف بالقسم؛ لأنّ المشاهدة هى حقّ اليقين الّذى لا يمكن جحده و لا إنكاره قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أى: بسبب كفركم بهذا فى الدنيا و إنكاركم له، و فى هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ و تهكّم عظيم. لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوّة و التوحيد و المعاد أمر رسوله بالصبر، فقال: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و الفاء جواب شرط محذوف، أى: إذا عرفت ذلك و قامت عليه البراهين و لم ينجع فى الكافرين فاصبر كما صبر أولو العزم، أى: أرباب الثبات و الحزم فإنك منهم. قال مجاهد: أولو

---

(١). الأنعام: ١٣٠.

(٢). الرّحمن: ٢٢.

(٣). هو عبيد بن الأبرص.

(۴). النساء: ٧٩.

العزم من الرسل خمسة: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و هم أصحاب الشرائع، و قال أبو العالية: هم نوح و هود و إبراهيم، فأمر اللّه رسوله أن يكون رابعهم. و قال السدّى: هم ستة إبراهيم و موسى و داود و سليمان و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: نوح و هود و صالح و شعيب و لوط و موسى. و قال ابن جريج: إن منهم إسماعيل و يعقوب و أيوب و ليس منهم يونس. و قال الشعبى و الكلبى: هم الذين أمروا بالقتال، فأظهروا المكاشفة و جاهدوا الكفرة، و قيل: هم نجباء الرّسل المذكورون فى سورة الأنعام، و هم ثمانية عشر: إبراهيم و إسحاق و يعقوب و نوح و داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى و إلياس و إسماعيل و اليسع و يونس و لوط. و اختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم: أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ «١» و قيل: إن الرسل كلهم أولو عزم، و قيل: هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى نبى إسرائيل.

و قال الحسن: هم أربعة: إبراهيم و موسى و داود و عيسى وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أى: لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر و نهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ من العذاب لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ أى: كأنهم يوم يشاهدونه فى الآخرة لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام؛ لما يشاهدونه من الهول العظيم و البلاء المقيم. قرأ الجمهور بَلاغٌ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هذا الّذى وعظتهم به بلاغ، أو تلك الساعة بلاغ، أو هذا القرآن بلاغ، أو هو مبتدأ، و الخبر لهم الواقع بعد قوله: «و لا تستعجل» أى: لهم بلاغ، و قرأ الحسن و عيسى بن عمر و زيد بن علىّ بلاغا بالنصب على المصدر، أى: بلغ بلاغا، و قرأ أبو مجلز بلغ بصيغة الأمر. و قرئ بلغ بصيغة الماضى فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ قرأ الجمهور فَهَلْ يُهْلَكُ على البناء للمفعول. و قرأ ابن محيصن على البناء للفاعل، و المعنى: أنه لا يهلك بعذاب اللّه إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون فى معاصى اللّه. قال قتادة: لا يهلك على اللّه إلا هالك مشرك. قيل: و هذه الآية أقوى آية فى الرجاء. قال الزجّاج: تأويله لا يهلك مع رحمة اللّه و فضله إلا القوم الفاسقون.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن منيع، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن مسعود قال: هبطوا: يعنى الجن على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا:

أنصتوا، قالوا: صه، و كانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل اللّه: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ إلى قوله: ضَلالٍ مُبِينٍ و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن مردويه عن الزبير: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ قال: بنخلة، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى العشاء الآخرة كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً.

و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ أى: الآية، قال: كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رسلا إلى قومهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم عنه نحوه قال: أتوه ببطن نخلة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه عنه أيضا قال:

---

(١). الأنعام: ٩٠.

صرفت الجنّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مرّتين، و كانوا أشراف الجنّ بنصيبين. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن مسروق قال: سألت ابن مسعود من آذن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن؟ قال: آذنته بهم شجرة.

و أخرج عبد بن حميد و أحمد و مسلم و الترمذى عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم منكم أحد ليلة الجنّ؟ قال: ما صحبه منا أحد، و لكنا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل، استطير «١» ما فعل؟ قال: فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجىء من قبل حراء، فأخبرناه، فقال: «إنه أتانى داعى الجنّ فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن» فانطلق فأرانا آثارهم و آثار نيرانهم. و أخرج أحمد عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة الجنّ. و قد روى نحو هذا من طرق. و الجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه صلّى اللّه عليه و سلّم مع الجنّ حضر إحداهما ابن مسعود و لم يحضر فى الأخرى. و قد وردت أحاديث كثيرة أن الجنّ بعد هذا وفدت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مرّة بعد مرّة و أخذوا عنه الشرائع. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى. و أخرج ابن مردويه عنه قال: هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك: نوح و هود و صالح و موسى و داود و سليمان. و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: بلغنى أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلاثمائة و ثلاثة عشر. و أخرج ابن أبى حاتم و الديلمى عن عائشة قالت: ظلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صائما

ثم طوى، ثم ظلّ صائما ثم طوى، ثم ظل صائما قال: يا عائشة إن الدّين لا ينبغى لمحمد و لا لآل محمد، يا عائشة إن اللّه لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها و الصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلّفهم، فقال: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إنى و اللّه لأصبرنّ كما صبروا جهدى، و لا قوّة إلا باللّه».

---

(١). «استطير»: طارت به الجن.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٥

سورة محمّد

اشارة

و تسمّى سورة القتال، و سورة الذين كفروا. و هى تسع و ثلاثون آية، و قيل: ثمان و ثلاثون.
و هى مدنية. قال الماوردى: فى قول الجميع، إلا ابن عباس و قتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة و جعل ينظر إلى البيت و هو يبكى حزنا عليه، فنزل قوله تعالى: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ و قال الثعلبى: إنها مكية. و حكاه ابن هبة اللّه عن الضحاك و سعيد بن جبير، و هو غلط من القول، فالسورة مدنية كما لا يخفى. و قد أخرج ابن الضّريس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القتال بالمدينة. و أخرج النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى «الدلائل» عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا. و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ بهم فى المغرب: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة محمد (٤٧): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ (٢) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (٣) فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (٤)
سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ (٥) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩)
أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١٢)
قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ هم كفّار قريش كفروا باللّه و صدّوا أنفسهم و غيرهم عن سبيل اللّه، و هو دين الإسلام،

بنهيهم عن الدخول فيه، كذا قال مجاهد و السدّى. و قال الضحاك. معنى «عن سبيل اللّه»: عن بيت اللّه؛ بمنع قاصديه. و قيل: هم أهل الكتاب، و الموصول مبتدأ و خبره أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أى: أبطلها و جعلها ضائعة. قال الضحاك: معنى «أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ»: أبطل كيدهم و مكرهم بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و جعل الدائرة عليهم فى كفرهم. و قيل: أبطل ما عملوه فى الكفر مما كانوا يسمّونه مكارم

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۶

أخلاق؛ من صلة الأرحام و فكّ الأسارى، و قرى الأضياف، و هذه و إن كانت باطلة من أصلها، لكن المعنى أنه سبحانه حكم ببطلانها. و لما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين، فقال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ ظاهر هذا العموم، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، و لا يمنع من ذلك خصوص سببها؛ فقد قيل: إنها نزلت فى الأنصار، و قيل: فى ناس من قريش، و قيل: فى مؤمنى أهل الكتاب، و لكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و خصّ سبحانه الإيمان بما أنزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالذكر مع اندراجه تحت مطلق الإيمان المذكور قبله؛ تنبيها على شرفه و علوّ مكانه. و جملة وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ معترضة بين المبتدأ، و هو قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا، و بين خبره و هو قوله: كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ و معنى كونه الحق أنه الناسخ لما قبله، و قوله: مِنْ رَبِّهِمْ فى محل نصب على الحال، و معنى «كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ»، أى: السيئات التى عملوها فيما مضى، فإنه غفرها لهم بالإيمان و العمل الصالح وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ أى: شأنهم و حالهم. قال مجاهد: شأنهم، و قال قتادة:

حالهم، و قيل: أمرهم، و المعانى متقاربة. قال المبرّد: البال: الحال ها هنا. قيل: و المعنى: أنه عصمهم عن المعاصى فى حياتهم، و أرشدهم إلى أعمال الخير، و ليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال، و نحو ذلك. و قال النقاش: إن المعنى أصلح نياتهم، و منه قول الشاعر:

فإنّ تقبلى بالودّ أقبل بمثلهو إن تدبرى أذهب إلى حال باليا

و الإشارة بقوله: ذلِكَ إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار و وعد به المؤمنين، و هو مبتدأ خبره ما بعده، و قيل: إنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر ذلك بسبب أن الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ فالباطل: الشرك، و الحق: التوحيد و الإيمان، و المعنى: أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك باللّه و العمل بمعاصيه، و ذلك التكفير لسيئات المؤمنين و إصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحقّ الّذى أمر اللّه باتباعه من التوحيد و الإيمان و عمل الطاعات كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ أى: مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم، أى: أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة. قال الزّجّاج: «كذلك يضرب» يبيّن اللّه للناس أمثال حسنات المؤمنين و إضلال أعمال الكافرين، يعنى أن من كان كافرا أضلّ اللّه عمله، و من كان مؤمنا كفّر اللّه سيئاته. فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ لمّا بيّن سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار، و المراد بالذين كفروا المشركين و من لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب، و انتصاب «ضرب» على أنه مصدر لفعل محذوف. قال الزّجّاج: أى:

فاضربوا الرقاب ضربا، و خصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها، و قيل: هو منصوب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولهم: يا نفس صبرا، و قيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب. و قيل:

إنما خصّ ضرب الرقاب لأن فى التعبير عنه من الغلظة و الشدّة ما ليس فى نفس القتل، و هى حزّ العنق و إطارة العضو الّذى هو رأس البدن و علوّه و أحسن أعضائه حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ أى: بالغتم فى قتلهم و أكثرتم القتل فيهم، و هذه غاية للأمر بضرب الرقاب، لا لبيان غاية القتل، و هو مأخوذ من الشيء الثخين، أى:

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۷

الغليظ، و قد مضى تحقيق معناه فى سورة الأنفال فَشُدُّوا الْوَثاقَ الوثاق بالفتح و يجى‏ء بالكسر: اسم الشى‏ء الّذى يوثق به كالرباط. قال الجوهرى: و أوثقه فى الوثاق، أى: شدّه، قال: و الوثاق بكسر الواو لغة فيه. قرأ الجمهور فَشُدُّوا بضم الشين، و قرأ السّلمى بكسرها، و إنما أمر سبحانه بشدّ الوثاق لئلا ينفلتو، و المعنى: إذا بالغتم فى قتلهم فأسروهم و أحيطوهم بالوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً أى:

فإما أن تمنّوا عليهم بعد الأسر منا، أو تفدوا فداء، و المنّ: الإطلاق بغير عوض، و الفداء: ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر، و لم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدّم. قرأ الجمهور: فِداءً بالمد. و قرأ ابن كثير فدى بالقصر، و إنما قدّم المنّ على الفداء، لأنه من مكارم الأخلاق، و لهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

و لا نقتل الأسرى و لكن نفكّهمإذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك قال: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها أوزار الحرب: التى لا- تقوم إلا- بها من السلاح و الكراع، أسند الوضع إليها و هو لأهلها على طريق المجاز، و المعنى: أنّ المسلمين مخيّرون بين تلك الأمور إلى غاية هى أن لا يكون حرب مع الكفار، قال مجاهد: المعنى حتى لا يكون دين غير دين الإسلام؛ و به قال الحسن و الكلبى. قال الكسائى: حتى يسلم الخلق. قال الفراء: حتى يؤمنوا و يذهب الكفر. و قيل:

المعنى: حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، و هو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة. و روى عن الحسن و عطاء أنهما قالا: فى الآية تقديم و تأخير، و المعنى: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها، فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق.

و قد اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها منسوخة فى أهل الأوثان، و أنه لا يجوز أن يفادوا و لا يمنّ عليهم، و الناسخ لها قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۱» و قوله:

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ «۲» و قوله: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً «۳» و بهذا قال قتادة و الضحاك و السدّى و ابن جريج و كثير من الكوفيين: قالوا: و المائدة آخر ما نزل، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء و الصبيان و من تؤخذ منه الجزية، و هذا هو المشهور من مذهب أبى حنيفة. و قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ روى ذلك عن عطاء و غيره. و قال كثير من العلماء: إن الآية محكمة، و الإمام مخيّر بين القتل و الأسر، و بعد الأسر مخيّر بين المنّ و الفداء. و به قال مالك و الشافعى و الثورى و الأوزاعى و أبو عبيد و غيرهم. و هذا هو الراجح؛ لأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و الخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك. و قال سعيد بن جبير: لا يكون فداء و لا أسر إلا بعد الإثخان و القتل بالسيف؛ لقوله: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى‏ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ «۴» فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ محل «ذلك» الرفع على أنه خبر مبتدأ

---

(۱). التوبة: ۵.

(۲). الأنفال: ۵۷.

(۳). التوبة: ۳۶.

(۴). الأنفال: ۶۷.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۸

محذوف، أى: الأمر ذلك، و قيل: فى محل نصب على المفعولية بتقدير فعل، أى: افعلوا ذلك، و يجوز أن يكون مبتدأ و خبره

محذوف يدلّ عليه ما تقدّم، أى: ذلك حكم الكفار، و معنى «لو يشاء اللّه لانتصر منهم» أى: قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم و إهلاكهم و تعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب وَ لٰكِنْ أمركم بحربهم لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ أى: ليختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين فى سبيله و الصابرين على ابتلائه و يجزل ثوابهم و يعذب الكفار بأيديهم وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ قرأ الجمهور «قاتلوا» مبنيا للفاعل، و قرأ أبو عمرو و حفص قُتِلُوا مبنيا للمفعول، و قرأ الحسن بالتشديد مبنيا للمفعول أيضا. و قرأ الجحدرى و عيسى بن عمر و أبو حيوة «قتلوا» على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف، و المعنى على القراءة الأولى.

و الرابعة: أن المجاهدين فى سبيل اللّه ثوابهم غير ضائع، و على القراءة الثانية و الثالثة: أن المقتولين فى سبيل اللّه كذلك لا يضيع اللّه سبحانه أجرهم. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد. ثم ذكر سبحانه ما لهم عنده من جزيل الثواب فقال: سَيَهْدِيهِمْ أى: سيهديهم اللّه سبحانه إلى الرشد فى الدنيا، و يعطيهم الثواب فى الآخرة وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ أى: حالهم و شأنهم و أمرهم. قال أبو العالية: قد ترد الهداية، و المراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان و الطريق المفضية إليها، و قال ابن زياد: يهديهم إلى محاجّة منكر و نكير وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ أى: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، و ذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرّقوا إلى منازلهم. قال الواحدى: هذا قول عامة المفسرين. و قال الحسن: وصف اللّه لهم الجنة فى الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. و قيل: فيه حذف، أى: عرفوا طرقها و مساكنها و بيوتها. و قيل: هذا التعريف بدليل يدلّهم عليها، و هو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه حتى يدخله منزله، كذا قال مقاتل. و قيل: معنى «عرفها لهم»: طيبها بأنواع الملاذّ، مأخوذ من العرف، و هو الرائحة. ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ أى: إن تنصروا دين اللّه ينصركم على الكفار و يفتح لكم، و مثله قوله: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ «۱» قال قطرب: إن تنصروا نبىّ اللّه ينصركم وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ أى: عند القتال. و تثبيت الأقدام عبارة عن النصر و المعونة فى مواطن الحرب، و قيل: على الإسلام، و قيل: على الصراط وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ الموصول فى محل رفع على أنه مبتدأ، و خبره محذوف تقديره فتعسوا بدليل ما بعده، و دخلت الفاء تشبيها للمبتدأ بالشرط، و انتصاب تعسا على المصدر للفعل المقدّر خبرا. قال الفراء: مثل سقيا لهم و رعيا، و أصل التعس الانحطاط و العثار. قال ابن السّكّيت:

التعس: أن يجرّ على وجهه، و النكس: أن يجر على رأسه، قال: و التعس أيضا الهلاك. قال الجوهرى: و أصله الكبّ و هو ضد الانتعاش، و منه قول مجمّع بن هلال:

تقول و قد أفردتها من خليلهاتعست كما أتعستنى يا مجمّع

قال المبّرد: أى: فمكروها لهم، و قال ابن جريج: بعدا لهم، و قال السدّى: خزيا لهم. و قال ابن زيد:

---

(۱). الحج: ۴۰.

شقاء لهم. و قال الحسن: شتما لهم. و قال ثعلب: هلاكا لهم، و قال الضحاك: خيبة لهم. و قيل: قبحا لهم، حكاه النقاش. و قال الضحاك: رغما لهم. و قال ثعلب أيضا: شرّا لهم. و قال أبو العالية: شقوة لهم. و اللام فى «لهم» للبيان كما فى قوله: هَيْتَ لَكَ «۱». و قوله: وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ معطوف على ما قبله، داخل معه فى خبرية الموصول، و الإشارة بقوله: ذٰلِكَ إلى ما تقدّم ممّا ذكره اللّه من التعس و الإضلال، أى: الأمر ذلك، أو ذلك الأمر بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللّٰهُ على رسوله من القرآن، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما فى القرآن من التوحيد و البعث فَأَحْبَطَ* اللّه أَعْمالَهُمْ بذلك السبب، و المراد بالأعمال ما كانوا عملوا من أعمال الخير فى الصورة و إن كانت باطلة من الأصل؛ لأنّ عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه. ثم خوّف سبحانه الكفار و

أرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم، فقال: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ أى: ألم يسيروا فى أرض عاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم ليعتبروا فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: آخر أمر «٢» الكافرين قبلهم، فإن آثار العذاب فى ديارهم باقية. ثم بيّن سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال: دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و التدمير:

الإهلاك، أى: أهلكهم و استأصلهم، يقال: دمّره و دمر عليه بمعنى. ثم توعّد مشركى مكة فقال:

وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها أى: لهؤلاء أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة. قال الزجاج و ابن جرير: الضمير فى «أَمْثالُها» يرجع إلى «عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، و إنما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدّد الأمم المعذّبة، و قيل: أمثال العقوبة، و قيل: الهلكة، و قيل: التدمير، و الأوّل أولى لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من أن للكافرين أمثالها بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا أى: بسبب أنّ اللّه ناصرهم وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ أى: لا ناصر يدفع عنهم. و قرأ ابن مسعود: ذلك بأن اللّه ولىّ الذين آمنوا قال قتادة: نزلت يوم أحد إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قد تقدّم تفسير الآية فى غير موضع، و تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات، و الجملة مسوقة لبيان ولاية اللّه للمؤمنين وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ أى: يتمتعون بمتاع الدنيا و ينتفعون به كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم و فروجهم، ساهون عن العاقبة، لاهون بما هم فيه وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أى: مقام يقيمون به، و منزل ينزلونه و يستقرّون فيه، و الجملة فى محل نصب على الحال أو مستأنفة.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: هم أهل مكة قريش نزلت فيهم وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قال: هم أهل المدينة الأنصار وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ قال: أمرهم.

و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ قال: كانت لهم أعمال فاضلة، و لا يقبل اللّه مع الكفر

---

(١). يوسف: ٢٣.

(٢). من تفسير القرطبى (١٦/ ٢٣٥)

عملا. و أخرج النحّاس عنه أيضا فى قوله: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً قال: فجعل اللّه النبىّ و المؤمنين بالخيار فى الأسارى، إن شاؤوا قتلوهم، و إن شاؤوا استعبدوهم، و إن شاؤوا فادوهم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: هذا منسوخ، نسختها: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ «١». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن الحسن قال: أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا، إنما قال اللّه حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف و ابن المنذر و ابن مردويه عن ليث قال: قلت لمجاهد: بلغنى أن ابن عباس قال: لا يحلّ قتل الأسارى؛ لأن اللّه قال: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً فقال مجاهد: لا تعبأ بهذا شيئا، أدركت أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كلهم ينكر هذا، و يقول: هذه منسوخة، إنما كانت فى الهدنة التى كانت بين النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و بين المشركين، فأما اليوم فلا، يقول اللّه: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «٢» و يقول: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ فإن كان من مشركى العرب لم يقبل شىء منهم إلا الإسلام، فإن لم يسلموا فالقتل، و أما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار إن شاؤوا قتلوهم و إن شاؤوا استحيوهم، و إن شاؤوا فادوهم إذا لم يتحوّلوا عن دينهم، فإن أظهروا الإسلام لم يفادوا. و نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قتل الصغير و المرأة و الشيخ الفانى. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه

عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماما مهديا و حكما عادلا، فيكسر الصليب، و يقتل الخنزير، و توضع الجزية، و تضع الحرب أوزارها».

و أخرج ابن سعد و أحمد و النسائى و البغوى و الطبرانى و ابن مردويه عن سلمة بن نفيل عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من حديث قال: «لا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج و مأجوج». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس:

وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها قال: لكفار قومك يا محمد [مثل «۳» ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف.

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۳ الى ۱۹]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (۱۴) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (۱۵) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (۱۶) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ (۱۷)

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ (۱۹)

---

(۱). التوبة: ۵.

(۲). التوبة: ۵.

(۳). من الدر المنثور (۷/ ۴۶۳)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۱

خوّف سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشدّ منهم، فقال: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ قد قدّمنا أن «كأين» مركبة من الكاف و أيّ، و أنها بمعنى كم الخبرية؛ أى: و كم من قرية، و أنشد الأخفش قول الوليد «۱»:

و كأين رأينا من ملوك و سوقةو مفتاح قيد للأسير المكبل

و معنى الآية: و كم من أهل قرية هم أشدّ قوة من أهل قريتك التى أخرجوك منها أهلكناهم فَلا ناصِرَ لَهُمْ فبالأولى من هو أضعف منهم و هم قريش الذين هم أهل قرية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هى مكة، فالكلام على حذف المضاف؛ كما فى قوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ قال مقاتل: أى أهلكناهم بالعذاب حين كذّبوا رسولهم. ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمن و حال الكافر فقال: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ و الهمزة للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر كنظائره، و من مبتدأ، و الخبر كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ و أفرد فى هذا باعتبار لفظ من، و جمع فى قوله: وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ باعتبار معناها، و المعنى: أنه لا يستوى من كان على يقين من ربّه و لا يكون كمن زيّن له سوء عمله، و هو عبادة الأوثان، و الإشراك باللّه، و العمل بمعاصى اللّه، و اتبعوا أهواءهم فى عبادتها، و انهمكوا فى أنواع الضلالات، بل شبهة توجب الشك فضلا عن حجّة نيرة. ثم لمّا بيّن سبحانه الفرق بين الفريقين فى الاهتداء و الضلال بيّن الفرق فى مرجعهما و مآلهما، فقال: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ و الجملة مستأنفة لشرح محاسن الجنة و بيان ما فيها، و معنى «مَثَلُ الْجَنَّةِ» وصفها العجيب الشأن، و هو مبتدأ و خبره محذوف. قال النضر بن شميل: تقديره ما يسمعون، و قدّره سيبويه: فيما يتلى عليكم مثل الجنة، قال: و المثل هو الوصف، و معناه وصف الجنة، و جملة فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ

إلـخ، مفسـرة للمثل. و قيل: إنّ «مثل» زائـدة، و قيل: إن مثل الجنة مبتدأ، و الخبر فيها أنهار، و قيل: خبره كمن هو خالد، و الآسن: المتغير، يقال: أسن الماء يأسن أسونا؛ إذا تغيرت رائحته، و مثله الآجن، و منه قول زهير:

قد أترك القرن مصفرّا أنامله يميد فى الرّمح ميد الماتح الآسن

قرأ الجمهور: آسِنٍ بالمـدّ. و قرأ حميـد و ابن كثير بالقصر، و همـا لغتـان كحـاذر و حـذر. و قـال الأخفش: إن الممـدود يراد به الاستقبال، و المقصور يراد به الحال وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ أى:

لم يحمض كما تغير ألبان الـدنيا؛ لأنها لم تخرج من ضـروع الإبل و الغنم و البقر وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ أى: لذيـذة لهم، طيبـة الشـرب، لاـ يتكرهها الشاربون، يقال: شـراب لـذّ و لذيـذ و فيه لـذة بمعنى، و مثل هـذه الآيـة قوله: بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ قرأ الجمهور لَذَّةٍ بالجرّ صـفة لخمر، و قرئ بالنصب على أنه مصدر، أو مفعول له. و قرئ بالرفع صـفة لأنهار وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى أى: مصفّى ممّا يخالطه

---

(١). فى تفسير القرطبى: لبيد.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٢

من الشـمع و القـذى و العكر و الكـدر وَ لَهُمْ فِيهـا مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أى: لأهـل الجنـة فى الجنـة مـع مـا ذكر من الأشـربة من كل الثمرات، أى: من كـلّ صـنف من أصـنافها، و مِنْ زائـدة للتوكيـد وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ لـذنوبهم، و تنكير مغفرة للتعظيم، أى: و لهم مغفرة عظيمـة كائنـة من ربهم كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النّارِ هو خبر لمبتـدأ محـذوف، و التقـدير: أم من هو فى نعيم الجنـة على هـذه الصـفة خالـدا فيها كمن هو خالـد فى النار، أو خبر لقوله: مثل الجنـة كما تقدّم. و رجح الأوّل الفراء فقال: أراد أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالـد فى النار. و قال الزجاج: أى أ فمن كان على بينـة من ربه، و أعطى هـذه الأشـياء، كمن زيّن له سوء عمله و هو خالد فى النار؟ فقوله: كَمَنْ بدل من قوله: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ و قال ابن كيسان: ليس مثل الجنة التى فيها الثمار و الأنهار كمثـل النـار التى فيهـا الحميم و الزقوم، و ليس مثل أهل الجنـة فى النعيم كمثل أهل النار فى العـذاب الأليم، و قوله: وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً عطف على الصلة عطف جملة فعلية على اسمية، لكنه راعى فى الأولى لفظ من، و فى الثانية معناها، و الحميم: الماء الحارّ الشديـد الغليـان، فـإذا شـربوه قطع أمعـاءهم، و هـو معنى قوله: فَقَطَّعَ أَمْعـاءَهُمْ لفرط حرارته. و الأمعـاء: جمع معى، و هى مـا فى البطون من الحوايا. وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ أى: من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام من يسـتمع إليك، و هم المنافقون. أفرد الضمير باعتبار لفظ من، و جمع فى قوله: حَتّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ باعتبار معناها، و المعنى: أن المنافقين كـانوا يحضـرون مواقف وعـظ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم و مواطن خطبه التى يمليها على المسـلمين، حتى إذا خرجوا من عنـده قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ و هم علماء الصـحابة، و قيل: عبـد اللّه بن عباس، و قيل: عبـد اللّه بن مسـعود، و قيل: أبو الدرداء، و الأوّل أولى، أى:

سألوا أهل العلم، فقالوا لهم: ما ذا قالَ آنِفاً أى: ماذا قال النبيّ الساعة على طريقة الاستهزاء، و المعنى:

أنا لم نلتفت إلى قوله، و آنفا يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات، و منه أمر أنف، أى: مسـتأنف، و روضة أنف، أى: لم يرعها أحـد، و انتصابه على الظرفيـة، أى: وقتا مؤتنفا، أو حال من الضـمير فى قال. قال الزجاج: هو من اسـتأنفت الشـئ؛ إذا ابتـدأته، و أصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدّم منه، مستعار من الجارحة، و منه قول الشاعر «١»:

و يحرم سرّ جارتهم عليهم و يأكل جارهم أنف القصاع

و الإشـارة بقوله: أُولئِكَ إلى المـذكورين من المنافقين الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فلم يؤمنوا و لا توجهت قلوبهم إلى شـيء من

الخير وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ أى: فى الكفر و العناد. ثم ذكر حال أضدادهم فقال وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً أى: و الذين اهتدوا إلى طريق الخير، فآمنوا باللّه و عملوا بما أمرهم به زادهم هدى بالتوفيق، و قيل: زادهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: زادهم القرآن. و قال الفراء: زادهم إعراض المنافقين و استهزاؤهم هدى. و قيل: زادهم نزول الناسخ هدى، و على كل تقدير فالمراد أنه زادهم إيمانا و علما

---

(١). هو الحطيئة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۳

و بصيرة فى الدين وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ أى: ألهمهم إياها و أعانهم عليها. و التقوى فى الربيع: هى الخشية.

و قال السدّى: هى ثواب الآخرة. و قال مقاتل: هى التوفيق للعمل الّذى يرضاه، و قيل: العمل بالناسخ و ترك المنسوخ، و قيل: ترك الرّخص و الأخذ بالعزائم فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أى: القيامة أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أى: فجأة، و فى هذا وعيد للكفار شديد، و قوله: أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً بدل من الساعة بدل اشتمال.

و قرأ أبو جعفر الرؤاسى: «إن تأتهم» بإن الشرطية فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها أى: أماراتها و علاماتها، و كانوا قد قرءوا فى كتبهم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم آخر الأنبياء، فبعثته من أشراطها، قاله الحسن و الضحاك. و الأشراط:

جمع شرط بسكون الراء و فتحها. و قيل: المراد بأشراطها هنا: أسبابها التى هى دون معظمها. و قيل: أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر و الدخان، كذا قال الحسن، و قال الكلبى: كثرة المال و التجارة و شهادة الزور و قطع الأرحام و قلة الكرام و كثرة اللئام، و منه قول أبى الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصّرم بيننافقد جعلت أشراط أوّله تبدو

فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ ذكراهم مبتدأ و خبره فإنّى لهم، أى: أنّى لهم التذكّر إذا جاءتهم الساعة، كقوله: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى «١» و «إذا جاءتهم» اعتراض بين المبتدأ و الخبر فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ أى: إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد و الطاعة، و مدار الشرّ هو الشرك و العمل بمعاصى اللّه فاعلم أنه لا إله غيره و لا ربّ سواه، و المعنى: اثبت على ذلك و استمر عليه، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم قد كان عالما بأنه لا إله إلا اللّه قبل هذا، و قيل: ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. و قيل: المعنى: فاذكر أنه لا إله إلا اللّه، فعبر عن الذكر بالعلم وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ أى: استغفر اللّه أن يقع منك ذنب، أو استغفر اللّه ليعصمك، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى. و قيل: الخطاب له، و المراد الأمة، و يأبى هذا قوله: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ فإن المراد به استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عمّا فرط من ذنوبهم وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ فى أعمالكم وَ مَثْواكُمْ فى الدار الآخرة، و قيل: متقلّبكم فى أعمالكم نهارا و مثواكم فى ليلكم نياما. و قيل: متقلبكم فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات و مثواكم فى الأرض، أى:

مقامكم فيها. قال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن فى الدنيا، و مثواكم فى القبور.

و قد أخرج عبد بن حميد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة و قال: أنت أحبّ بلاد اللّه إلىّ، و لو لا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج، فأعتى الأعداء من عتا على اللّه فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية» فأنزل اللّه: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ قال: غير متغير. و أخرج أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن معاوية بن حيدة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «فى الجنة بحر اللبن و بحر الماء

و بحر العسل و بحر

---

(۱). الفجر: ۲۳.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۴

الخمر، ثم تشقّق الأنهار منها». و أخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده، و البيهقى عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل فى الجنة، و نهر دجلة نهر اللبن فى الجنة، و نهر الفرات نهر الخمر فى الجنة، و نهر سيحان نهر الماء فى الجنة. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صححه، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً قال: كنت فيمن يسأل. و أخرج عبد بن حميد من وجه آخر عنه فى الآية قال: أنا منهم. و فى هذا منقبة لابن عباس جليلة لأنه كان إذ ذاك صبيا غير بالغ، فإن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم مات و هو فى سنّ البلوغ، فسؤال الناس له عن معانى القرآن فى حياة النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و وصف اللّه سبحانه للمسئولين بأنهم الذين أوتوا العلم و هو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه و مزيد فقهه فى كتاب اللّه و سنة رسوله، مع كون أترابه و أهل سنّه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: كانوا يدخلون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس: ماذا قال آنفا؟ فيقول:

كذا و كذا، و كان ابن عباس أصغر القوم، فأنزل اللّه الآية، فكان ابن عباس من الذين أتوا العلم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن عساكر عن ابن بريدة فى الآية قال: هو عبد اللّه بن مسعود. و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: هو عبد اللّه بن مسعود. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ قال: لما أنزل القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى. و أخرج ابن المنذر عنه فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها قال:

أوّل الساعات. و قد ثبت فى الصحيحين و غير هما من حديث أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «بعثت أنا و الساعة كهاتين، و أشار بالوسطى و السبابة» و مثله عند البخارى من حديث سهل بن سعد. و فى الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة و بيان ما قد وقع منها و ما لم يكن قد وقع، و هى تأتى فى مصنّف مستقل فلا نطيل بذكرها. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و الديلمى عن عبد اللّه بن عمرو عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أفضل الذكر لا إله إلا اللّه، و أفضل الدعاء الاستغفار» ثم قرأ: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة فى قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّى لأستغفر اللّه فى اليوم سبعين مرة». و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد اللّه بن سرجس قال: «أتيت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأكلت معه من طعام، فقلت: غفر اللّه لك يا رسول اللّه، قال: و لك، فقيل: أستغفر لك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قال: نعم و لكم، و قرأ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ . و قد ورد أحاديث فى استغفاره صلّى اللّه عليه و سلّم لنفسه و لأمته و ترغيبه فى الاستغفار. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ فى الدنيا وَ مَثْواكُمْ فى الآخرة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵

[سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۰ الى ۳۱]

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (٢٠) طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (٢٢) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ (٢٣) أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (٢٤)

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ (٢٥) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ (٢٧) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (٢٩)

وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (٣٠) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (٣١)

سأل المؤمنون ربهم عزّ و جلّ أن ينزل على رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار؛ حرصا منهم على الجهاد، و نيل ما أعدّ اللّه للمجاهدين من جزيل الثواب، فحكى اللّه عنهم ذلك بقوله: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ أي: هلا نزلت فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ أي: غير منسوخة وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ أي: فرض الجهاد. قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، و هي أشدّ القرآن على المنافقين، و في قراءة ابن مسعود «فإذا أنزلت سورة محدثة» أي: محدثة النزول. قرأ الجمهور: فَإِذا أُنْزِلَتْ و ذكر على بناء الفعلين للمفعول. و قرأ زيد بن عليّ و ابن عمير «نزلت» «و ذكر» على بناء الفعلين للفاعل و نصب القتال رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي: شك، و هم المنافقون يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أي: ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت لجبنهم عن القتال و ميلهم إلى الكفار. قال ابن قتيبة و الزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، و ينظرون إليك نظرا شديدا، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت فَأَوْلى لَهُمْ قال الجوهري: و قولهم: أولى لك، تهديد و وعيد، و كذا قال مقاتل و الكلبي و قتادة. قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: أولى لك، أي: وليك و قاربك ما تكره، و أنشد قول الشاعر:

فعادى بين هاديتين منهاو أولى أن يزيد على الثّلاث

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: و لم يقل (أحد) «١» في أولى أحسن ممّا قاله الأصمعي. و قال المبرّد: يقال لمن همّ بالعطب ثم أفلت: أولى لك؛ أي: قاربت العطب. و قال الجرجاني: هو مأخوذ من الويل؛

---

(١). من تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٤)

أي: فويل لهم، و كذا قال في الكشاف. قال قتادة أيضا: كأنه قال: العقاب أولى لهم، و قوله: طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ كلام مستأنف، أي: أمرهم طاعة، أو طاعة و قول معروف خير لكم. قال الخليل و سيبويه: إن التقدير طاعة و قول معروف أحسن و أمثل لكم من غير هما. و قيل: إن طاعة خبر أولى، و قيل:

إن طاعة صفة لسورة، و قيل: إن لهم خبر مقدّم و طاعة مبتدأ مؤخر، و الأول أولى. فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ عزم الأمر: جدّ الأمر، أي: جدّ القتال و وجب و فرض، و أسند العزم إلى الأمر و هو لأصحابه مجازا، و جواب «إذا» قيل: هو فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ و قيل: محذوف تقديره كرهوه. قال المفسرون: معناه إذا جدّ الأمر و لزم فرض القتال خالفوا و تخلفوا فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ في إظهار الإيمان و الطاعة

لَكانَ خَيْراً لَهُمْ من المعصية و المخالفة فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ هذا خطاب للذين فى قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ و التقريع. قال الكلبى: أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم. و قال كعب: أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ أى: بقتل بعضكم بعضا، و قال قتادة: إن توليتم عن طاعة كتاب اللّه عز و جل أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء و تقطعوا أرحامكم. و قال ابن جريج:

إن توليتم عن الطاعة، و قيل: أعرضتم عن القتال و فارقتم أحكامه. قرأ الجمهور: تَوَلَّيْتُمْ مبنيا للفاعل، و قرأ علىّ بن أبى طالب: بضم التاء و الواو و كسر اللام مبنيا للمفعول، و بها قرأ ابن أبى إسحاق و ورش عن يعقوب، و معناها: فهل عسيتم إن ولّى عليكم ولاة جائرين أن تخرجوا عليهم فى الفتنة و تحاربوهم و تقطعوا أرحامكم بالبغى و الظلم و القتل. و قرأ الجمهور: وَ تُقَطِّعُوا بالتشديد على التكثير، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه و سلام و عيسى و يعقوب بالتخفيف من القطع، يقال: عسيت أن أفعل كذا، و عسيت، بالفتح و الكسر لغتان، ذكره الجوهرى و غيره، و خبر عسيتم هو أن تفسدوا، و الجملة الشرطية بينهما اعتراض، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المخاطبين بما تقدّم و هو مبتدأ و خبره الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أى: أبعدهم من رحمته و طردهم عنها فَأَصَمَّهُمْ عن استماع الحق وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد و البعث و حقّية سائر ما دعاهم إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستفهام فى قوله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ للإنكار؛ و المعنى: أفلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة، و الحجج الظاهرة، و البراهين القاطعة؛ التى تكفى من له فهم و عقل، و تزجره عن الكفر باللّه و الإشراك به و العمل بمعاصيه أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها «أم» هى المنقطعة، أى: بل أعلى قلوب أقفالها فهم لا يفهمون و لا يعقلون. قال مقاتل:

يعنى الطبع على القلوب، و الأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، و إضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب، و معنى الآية أنه لا يدخل فى قلوبهم الإيمان و لا يخرج منها الكفر و الشرك؛ لأنّ اللّه سبحانه قد طبع عليها، و المراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين. قرأ الجمهور:

أَقْفالُها بالجمع، و قرئ: «إقفالها» بكسر الهمزة على أنه مصدر كالإقبال إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ أى: رجعوا كفارا كما كانوا. قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ما عرفوا نعته عندهم، و به قال ابن جرير. و قال الضحاك و السدّى: هم المنافقون قعدوا عن القتال، و هذا أولى؛

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٧

لأن السياق فى المنافقين مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى بما جاءهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المعجزات الظاهرة و الدلائل الواضحة الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ أى: زيّن لهم خطاياهم و سهّل لهم الوقوع فيها، و هذه الجملة خبر إن، و معنى وَ أَمْلى لَهُمْ أن الشيطان مدّ لهم فى الأمل و وعدهم طول العمر، و قيل: إن الّذى أملى لهم هو اللّه عزّ و جلّ على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة. قرأ الجمهور أَمْلى مبنيا للفاعل، و قرأ أبو عمرو و ابن أبى إسحاق و عيسى بن عمر و أبو جعفر و شيبة على البناء للمفعول. قيل: و على هذه القراءة يكون الفاعل هو اللّه أو الشيطان كالقراءة الأولى، و قد اختار القول بأن الفاعل اللّه الفرّاء و المفضل، و الأولى اختيار أنه الشيطان لتقدّم ذكره قريبا، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من ارتدادهم، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ أى: بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم قالوا للذين كرهوا ما نزل اللّه، و هم المشركون سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ و هذا البعض هو عداوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و مخافة ما جاء به. و قيل المعنى: إن المنافقين قالوا لليهود: سنطيعكم فى بعض الأمر، و قيل: إن القائلين اليهود و الذين كرهوا ما أنزل اللّه المنافقون، و قيل: إن الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الإملاء، و قيل: إن الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الإسلام، و قيل: إلى التسويل، و الأوّل أولى. و يؤيد كون القائلين المنافقين و الكارهين اليهود قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ

أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكَمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكَمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكَمْ «۱» و لما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل اللّه بطريقة السرّ بينهم. قال اللّه سبحانه: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ قرأ الجمهور بفتح الهمزة، جمع سرّ، و اختار هذه القراءة أبو عبيدة و أبو حاتم. و قرأ الكوفيون و حمزة و الكسائى و حفص عن عاصم و ابن وثاب و الأعمش بكسر الهمزة على المصدر، أى: إخفاءهم فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و «كيف» فى محل رفع على أنها خبر مقدّم، و التقدير، فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة، أو فى محل نصب بفعل محذوف: أى فكيف يصنعون، أو خبر لكان مقدّرة: أى فكيف يكونون، و الظرف معمول للمقدّر، قرأ الجمهور تَوَفَّتْهُمُ و قرأ الأعمش «توفاهم» و جملة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ فى محل نصب على الحال من فاعل توفتهم أو من مفعوله، أى: ضاربين وجوههم و ضاربين أدبارهم، و فى الكلام تخويف و تشديد، و المعنى: أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا، و هو تصوير لتوفيهم على أقبح حال و أشنعه. و قيل: ذلک عند القتال نصرة من الملائكة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: ذلک يوم القيامة، و الأوّل أولى. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى التوفى المذكور على الصفة المذكورة، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ أى: بسبب اتباعهم ما يسخط اللّه من الكفر و المعاصى، و قيل:

كتمانهم ما فى التوراة من نعت نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأوّل أولى لما فى الصيغة من العموم وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ أى: كرهوا ما يرضاه اللّه من الإيمان و التوحيد و الطاعة فَأَحْبَطَ اللّه أَعْمالَهُمْ بهذا السبب، و المراد

---

(۱). الحشر: ۱۱.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۸

بأعمالهم الأعمال التى صورتها صورة الطاعة؛ و إلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردّة أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يعنى المنافقين المذكورين سابقا، و «أم» هى المنقطعة، أى: بل أحسب المنافقون أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ الإخراج بمعنى الإظهار، و الأضغان: جمع ضغن، و هو ما يضمر من المكروه. و اختلف فى معناه، فقيل: هو الغش، و قيل: الحسد، و قيل: قال الجوهرى: الضغن و الضغينة: الحقد، و قال قطرب: هو فى الآية العداوة، و أن هى المخففة من الثقيلة و اسمها ضمير شأن مقدّر وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ أى: لأعلمناكهم و عرّفناكهم بأعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، تقول العرب:

سأريک ما أصنع، أى: سأعلمک فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ أى: بعلامتهم الخاصة بهم التى يتميزون بها. قال الزجّاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة، و هى السيما فلعرفتهم بتلك العلامة، و الفاء لترتيب المعرفة على الإرادة، و ما بعدها معطوف على جواب لو، و كررت فى المعطوف للتأكيد، و أما اللام فى قوله:

وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ فهى جواب قسم محذوف. قال المفسرون: لحن القول: فحواه و مقصده و مغزاه و ما يعرّضون به من تهجين أمرک و أمر المسلمين، و كان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه. قال أبو زيد: لحنت له اللحن: إذا قلت له قولا يفقهه عنک و يخفى على غيره، و منه قول الشاعر «۱»:

منطق صائب و تلحن أحيانا و خير الكلام ما كان لحنا

أى: أحسنه ما كان تعريضا يفهمه المخاطب و لا يفهمه غيره لفطنته و ذكائه، و أصل اللحن إمالة الكلام إلى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها، و فيه وعيد شديد وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ أى: لنعاملنكم معاملة المختبر، و ذلک بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد و صبر على دينه و مشاقّ ما كلّف به. قرأ الجمهور الأفعال الثلاثة بالنون، و قرأ أبو بكر عن عاصم بالتحتية فيها كلها، و معنى وَ نَبْلُوَا

أَخْبارَكُمْ نظهرها و نكشفها امتحانا لكم ليظهر للناس من أطاع ما أمره اللّه به، و من عصى، و من لم يمتثل. و قرأ الجمهور وَ نَبْلُوَا بنصب الواو عطفا على قوله: حَتَّى نَعْلَمَ و روى ورش عن يعقوب إسكانها على القطع عمّا قبله.
و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ اللّه تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرّحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضى أن أصل من وصلك و أقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك؛ ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اقرءوا إن شئتم فَهَلْ عَسَيْتُمْ الآية إلى قوله: أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها» و الأحاديث فى صلة الرحم كثيرة جدا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ قال: هم أهل النفاق. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

---

(١). هو الفزارىّ.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ قال: أعمالهم خبثهم و الحسد الّذى فى قلوبهم، ثم دلّ اللّه تعالى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد على المنافقين، فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق. و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ قال: ببغضهم علىّ بن أبى طالب.

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٢ الى ٣٨]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (٣٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (٣٦)
إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (٣٧) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (٣٨)
قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ المراد بهؤلاء هم المنافقون، و قيل: أهل الكتاب، و قيل: هم المطعمون يوم بدر من المشركين، و معنى صدّهم عن سبيل اللّه: منعهم للناس عن الإسلام و اتّباع الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و معنى شَاقُّوا الرَّسُولَ عادوه و خالفوه مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى أى: علموا أنه صلّى اللّه عليه و سلّم نبى من عند اللّه بما شاهدوا من المعجزات الواضحة و الحجج القاطعة لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً بتركهم الإيمان و إصرارهم على الكفر و ما ضرّوا إلا أنفسهم وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ أى: يبطلها، و المراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير كإطعام الطعام و صلة الأرحام و سائر ما كانوا يفعلونه من الخير و إن كانت باطلة من الأصل؛ لأن الكفر مانع، و قيل: المراد بالأعمال المكائد التى نصبوها لإبطال دين اللّه، و الغوائل التى كانوا يبغونها برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته و طاعة رسوله فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة فى كتاب اللّه و سنّة رسوله، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالها بالإصرار على الكفر، فقال: وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ قال الحسن: أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى. و قال الزهرى: بالكبائر. و قال الكلبى و ابن جريج: بالرياء و السمعة. و قال مقاتل: بالمنّ. و الظاهر النهى عن كل سبب من الأسباب التى توصل إلى بطلان الأعمال، كائنا ما كان، من غير تخصيص بنوع معين. ثم بيّن سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر و

الصدّ عن سبيل اللّه، فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فقيّد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأن باب التوبة و طريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا، و ظاهر الآية العموم و إن كان السبب خاصا. ثم نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن و الضعف فقال: فَلا تَهِنُوا أي: تضعفوا عن القتال، و الوهن: الضعف وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ أي: و لا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم،

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰

فتح القدير ج۵ ۹۹

فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف. قال الزجاج: منع اللّه المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح و أمرهم بحربهم حتى يسلموا. و قرأ أبو عبد الرّحمن السّلمى وَ تَدّعُوا بتشديد الدال، من ادّعى القوم و تداعوا.

قال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

و اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة؟ فقيل: إنها محكمة، و إنها ناسخة لقوله:

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها و قيل: منسوخة بهذه الآية. و لا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإن اللّه سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء، و لم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان، و لم يتوارد على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص، و جملة: وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها من النهى، أى: و أنتم الغالبون بالسيف و الحجّة. قال الكلبى: أى آخر الأمر لكم و إن غلبوكم فى بعض الأوقات، و كذا جملة قوله:

وَ اللَّهُ مَعَكُمْ فى محل نصب على الحال، أى: معكم بالنصر و المعونة عليهم وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ أى: لن ينقصكم شيئا من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وترا؛ إذا نقصه حقه. و أصله من و ترت الرجل:

إذا قتلت له قريبا، أو نهبت له مالا، و يقال: فلان موتور: إذا قتل له قتيل و لم يؤخذ بدمه. قال الجوهرى:

أى لن ينقصكم فى أعمالكم، كما تقول: دخلت البيت؛ و أنت تريد فى البيت. قال الفراء: هو مشتق من الوتر و هو الذّحل «۱»، و قيل: مشتق من الوتر و هو الفرد، فكأن المعنى: و لن يفردكم بغير ثواب إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ أى: باطل و غرور، لا أصل لشىء منها و لا ثبات له و لا اعتداد به وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ أى: إن تؤمنوا و تتقوا الكفر و المعاصى يؤتكم جزاء ذلك فى الآخرة، و الأجر:

الثواب على الطاعة وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ أى: لا يأمركم بإخراجها جميعها فى الزكاة و سائر وجوه الطاعات، بل أمركم بإخراج القليل منها و هو الزكاة. و قيل المعنى: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله لأنه أملك لها، و هو المنعم عليكم بإعطائها. و قيل: لا يسألكم أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة، كما فى قوله:

ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ* و الأوّل أولى إِنْ يَسْئَلْكُمُوها أى: أموالكم كلها فَيُحْفِكُمْ قال المفسرون: يجهدكم و يلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفى بالمسألة و ألحف و ألحّ بمعنى واحد، و الحفى:

المستقصى فى السؤال، و الإحفاء: الاستقصاء فى الكلام، و منه إحفاء الشارب، أى: استئصاله، و جواب الشرط قوله: تَبْخَلُوا أى: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها و تمتنعوا من الامتثال وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ معطوف على جواب الشرط، و لهذا قرأ الجمهور يُخْرِجْ بالجزم، و روى عن أبى عمرو أنه قرأ بالرفع على الاستئناف، و روى عنه أنه قرأ بفتح الياء و ضم الراء و رفع أضغانكم، و روى عن يعقوب الحضرمى أنه قرأ بالنون، و قرأ ابن عباس و مجاهد و ابن محيصن و حميد بالفوقية المفتوحة مع ضم الراء. و على قراءة الجمهور فالفاعل ضمير يعود إلى اللّه سبحانه، أو إلى البخل المدلول عليه بتبخلوا. و الأضغان: الأحقاد،

(١). «الذّحل»: الحقد و العداوة و الثأر.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۱

و المعنى: أنها تظهر عند ذلك. قال قتادة: قد علم اللّه أن فى سؤال المال خروج الأضغان ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا فى الجهاد و فى طريق الخير فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ بما يطلب منه و يدعى إليه من الإنفاق فى سبيل اللّه، و إذا كان منكم من يبخل باليسير من المال، فكيف لا تبخلون بالكثير و هو جميع الأموال. ثم بيّن سبحانه أنّ ضرر البخل عائد على النفس، فقال:

وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ أى: يمنعها الأجر و الثواب ببخله، و بخل يتعدى بعلى تارة و بعن أخرى. و قيل: إن أصله أن يتعدى بعلى، و لا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى الإمساك وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ المطلق، المتنزّه عن الحاجة إلى أموالكم وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إلى اللّه و إلى ما عنده من الخير و الرحمة، و جملة وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ معطوفة على الشرطية المتقدمة و هى «وَ إِنْ تُؤْمِنُوا»، و المعنى: و إن تعرضوا عن الإيمان و التقوى يستبدل قوما آخرين يكونون مكانكم هم أطوع للّه منكم ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ فى التولى عن الإيمان و التقوى. قال عكرمة: هم فارس و الروم. و قال الحسن: هم العجم. و قال شريح بن عبيد: هم أهل اليمن، و قيل: الأنصار، و قيل: الملائكة، و قيل: التابعون. و قال مجاهد: هم من شاء اللّه من سائر الناس. قال ابن جرير: و المعنى ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ أى: فى البخل بالإنفاق فى سبيل اللّه.

و قد أخرج عبد بن حميد، و محمد بن نصر فى كتاب «الصلاة»، و ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال:

كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يرون أنه لا يضرّ مع لا إله إلا اللّه ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فخافوا أن يبطل الذنب العمل، و لفظ عبد ابن حميد: فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم. و أخرج ابن نصر و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عمر قال:

كنّا معشر أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الّذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات و الفواحش، فكنّا إذا رأينا من أصاب شيئا منها قلنا قد هلك، حتى نزلت هذه الآية إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، و كنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه، و إن لم يصب منها شيئا رجوناه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله:

يَتِرَكُمْ قال: يظلمكم. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه قال: لما نزلت: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ قالوا: من هؤلاء؟ و سلمان إلى جانب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: «هم الفرس، هذا و قومه». و فى إسناده مسلم بن خالد الزنجى و قد تفرّد به، و فيه مقال معروف.

و أخرجه عنه عبد الرزاق و عبد بن حميد و الترمذى. و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الدلائل، عن أبى هريرة قال: «تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ فقالوا: يا رسول اللّه من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على منكب سلمان ثم قال: هذا و قومه، و الّذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» و فى إسناده أيضا مسلم بن خالد الزنجى. و أخرج ابن مردويه من حديث جابر نحوه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۲

سورة الفتح

اشارة

و هى مدنية قال القرطبى: بالإجماع. و أخرج ابن الضّريس و النحّاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الفتح بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج ابن إسحاق، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عن المسور بن مخرمة و مروان قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة و المدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها. و هذا لا ينافى الإجماع على كونها مدنية؛ لأنّ المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن عبد اللّه بن مغفل قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها. و فى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يسير فى بعض أسفاره و عمر بن الخطاب يسير معه ليلا، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: هلكت أمّ عمر، نزرت «۱» رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، فقال عمر: فحرّكت بعيرى ثم تقدّمت أمام الناس و خشيت أن ينزل فىّ قرآن، فما نشبت «۲» أن سمعت صارخا يصرخ بى؛ فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل فى قرآن، فجئت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسلّمت عليه، فقال: «لقد أنزلت علىّ سورة لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس»، ثم قرأ:

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً و فى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال: لما نزلت إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً الآية إلى قوله: فَوْزاً عَظِيماً مرجعه من الحديبية، و هم يخالطهم الحزن و الكآبة، و قد نحر الهدى بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ من الدنيا جميعها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱ الى ۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (۱) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۲) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (۳) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۴)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (۵) وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۶) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۷)

---

(۱). «نزرت»: أى ألححت عليه و بالغت فى السؤال.

(۲). «ما نشبت»: أى ما لبثت.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳

قوله: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً اختلف فى تعيين هذا الفتح، فقال الأكثر: هو صلح الحديبية، و الصلح قد يسمّى فتحا. قال الفرّاء: و

الفتح قد يكون صلحا، و معنى الفتح فى اللغة: فتح المنغلق، و الصّلح الّذى كان مع المشركين بالحديبية كان مسدودا متعذّرا حتى فتحه اللّه. قال الزهرى: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، و ذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام فى قلوبهم، و أسلم فى ثلاث سنين خلق كثير، و كثر بهم سواد الإسلام. قال الشعبى: لقد أصاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الحديبية ما لم يصب فى غزوة، غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر، و بويع بيعة الرّضوان، و أطعموا نخل خيبر، و بلغ الهدى محلّه، و ظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. و قال قوم:

إنه فتح مكة. و قال آخرون: إنه فتح خيبر. و الأوّل أرجح، و يؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة أنزلت فى شأن الحديبية. و قيل: هو جميع ما فتح اللّه لرسوله من الفتوح، و قيل: هو ما فتح له من النبوّة و الدعوة إلى الإسلام، و قيل: فتح الروم، و قيل: المراد بالفتح فى هذه الآية الحكم و القضاء، كما فى قوله: افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ فكأنه قال: إنا قضينا لك قضاء مبينا، أى: ظاهرا واضحا مكشوفا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ اللام متعلقة بفتحنا، و هى لام العلة. قال ابن الأنبارى: سألت أبا العباس، يعنى المبرد، عن اللام فى قوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ فقال: هى لام كى، معناها: إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح، فلما انضمّ إلى المغفرة شىء حادث واقع؛ حسن معنى كى، و غلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة. و قال صاحب الكشاف: إن اللام لم تكن علّة للمغفرة، و لكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة و هى: المغفرة، و إتمام النعمة، و هداية الصراط المستقيم، و النصر العزيز، كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكة و نصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عزّ الدارين، و أعراض العاجل و الآجل. و هذا كلام غير جيد، فإن اللام داخلة على المغفرة فهى علة للفتح. فكيف يصح أن تكون معللة؟ و قال الرازى فى توجيه التعليل: إن المراد بقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ التعريف بالمغفرة تقديره: إنا فتحنا لك لنعرف أنك مغفور لك معصوم. و قال ابن عطية: المراد أن اللّه فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك. فكأنها لام الصيرورة. و قال أبو حاتم: هى لام القسم و هو خطأ، فإن لام القسم لا تكسر و لا ينصب بها.

و اختلف فى معنى قوله: ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ فقيل: ما تقدّم من ذنبك قبل الرسالة، و ما تأخر بعدها، قاله مجاهد و سفيان الثورى و ابن جرير و الواحدى و غيرهم. و قال عطاء: ما تقدّم من ذنبك:

يعنى ذنب أبويك آدم و حوّاء، و ما تأخر من ذنوب أمتك. و ما أبعد هذا عن معنى القرآن! و قيل: ما تقدّم من ذنب أبيك أبيك إبراهيم، و ما تأخر من ذنوب النّبيين من بعده، و هذا كالذى قبله. و قيل: ما تقدّم من ذنب يوم بدر، و ما تأخر من ذنب يوم حنين، و هذا كالقولين الأولين فى البعد. و قيل: لو كان ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك، و قيل: غير ذلك مما لا وجه له، و الأوّل أولى. و يكون المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى، و سمّى ذنبا فى حقه لجلالة قدره و إن لم يكن ذنبا فى حق غيره وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بإظهار دينك على الدين كله، و قيل: بالجنة، و قيل: بالنبوّة و الحكمة، و قيل: بفتح مكة و الطائف و خيبر، و الأولى أن

فتح القدير، ج‏5، ص: 54

يكون المعنى؛ ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة و الهداية إلى صراط مستقيم، و هو الإسلام، و معنى «يهديك»: يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً أى: غالبا منيعا لا يتبعه ذلّ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أى: السكون و الطمأنينة بما يسّره لهم من الفتح؛ لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ أى: ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانا منضمّا إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل. قال الكلبى: كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم، و قال الربيع بن أنس: خشية مع خشيتهم. و قال الضحاك: يقينا مع يقينهم وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يعنى الملائكة و الإنس و الجن و الشياطين يدبّر أمرهم كيف يشاء، و يسلّط بعضهم على بعض، و يحوط بعضهم ببعض وَ كانَ اللَّهُ

عَلِيماً كثير العلم بليغه حَكِيماً فى أفعاله و أقواله.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ هذه اللام متعلقة بمحذوف يدلّ عليه ما قبله، تقديره: يبتلى بتلك الجنود من يشاء، فيقبل الخير من أهله و الشرّ ممن قضى له به ليدخل و يعذب، و قيل:

متعلّقة بقوله: إِنَّا فَتَحْنا كأنه قال: إنا فتحنا لك ما فتحنا ليدخل و يعذب، و قيل: متعلقة بينصرك:

أى نصرك اللّه بالمؤمنين ليدخل و يعذب، و قيل: متعلقة بيزدادوا، أى: يزدادوا «ليدخل» و «يعذب»، و الأوّل أولى. وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أى: يسترها و لا يظهرها و لا يعذّبهم بها، و قدّم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، و المقصد الأسنى وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً أى: و كان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة و تكفير سيئاتهم عند اللّه و فى حكمه فوزا عظيما، أى:

ظفرا بكل مطلوب و نجاة من كل غمّ، و جلبا لكل نفع، و دفعا لكل ضرّ، و قوله: عِنْدَ اللَّهِ متعلّق بمحذوف على أنه حال من فوزا؛ لأنه صفة فى الأصل، فلما قدم صار حالا، أى: كائنا عند اللّه، و الجملة معترضة بين جزاء المؤمنين و جزاء المنافقين و المشركين.

ثم لما فرغ ممّا وعد به صالحى عباده ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال: وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ و هو معطوف على «يدخل»، أى: يعذّبهم فى الدنيا بما يصل إليهم من الهموم و الغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام و قهر المخالفين له، و بما يصابون به من القهر و القتل و الأسر، و فى الآخرة بعذاب جهنم، و فى تقديم المنافقين على المشركين دلالة على أنهم أشدّ منهم عذابا، و أحقّ منهم بما وعدهم اللّه به. ثم وصف الفريقين، فقال: الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ و هو ظنّهم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يغلب؛ و أن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام.

و ممّا ظنّوه ما حكاه اللّه عنهم بقوله: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً.

عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ أى: ما يظنّونه و يتربّصونه بالمؤمنين دائر عليهم، حائق بهم، و المعنى: أن العذاب و الهلاك الّذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم. و قال الخليل و سيبويه: السوء هنا الفساد. قرأ الجمهور السَّوْءِ بفتح السين. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بضمها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً لمّا بيّن سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا بيّن ما يستحقّونه مع ذلك من الغضب و اللعنة و عذاب جهنم وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من الملائكة و الإنس و الجنّ و الشياطين

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۵

وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً كرّر هذه الآية لقصد التأكيد. و قيل: المراد بالجنود هنا جنود العذاب كما يفيده التعبير بالعزة هنا مكان العلم هنا لك.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن مجمّع بن جارية الأنصارى قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها حتى بلغنا كراع الغميم «۱»، إذ الناس يهزّون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ فقالوا: أوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فخرجنا مع الناس نوجف «۲»، فإذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً، فقال رجل: أى رسول اللّه أو فتح هو؟ قال:

إى و الّذى نفس محمد بيده، إنه لفتح. فقسمت خيبر على أهل الحديبية، لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثمانية عشر سهما، و كان الجيش ألفا و خمسمائة، منهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، و أعطى الراجل سهما. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و البخارى فى تاريخه، و أبو داود و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فبينا

نحن نسير إذا أتاه الوحی، و كان إذا أتاه اشتدّ عليه، فسرّی عنه و به من السرور ما شاء اللّه، فأخبرنا أنه أنزل عليه: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. و أخرج البخاری و غيره عن أنس فی قوله: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً قال: الحديبية. و أخرج البخاری و غيره عن البراء قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكّة، و قد كان فتح مكّة فتحا، و نحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً قال: «فتح مكّة». و أخرج البخاری و مسلم و غير هما عن المغيرة بن شعبة قال: «كان النبی صلّى اللّه عليه و سلّم يصلی حتی ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا» و فی الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانی و ابن مردويه، و البيهقی فی الدلائل، عن ابن عباس فی قوله: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ قال: السكينة هی الرحمة، و فی قوله: لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ قال: إن اللّه بعث نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بشهادة أن لا إله إلا اللّه، فلما صدّق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدّقوا بها زادهم الحجّ، فلما صدّقوا به زادهم الجهاد.
ثم أكمل لهم دينهم فقال: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً «٣».
قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل السماء و أهل الأرض و أصدقه و أكمله شهادة أن لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ قال: تصديقا مع تصديقهم. و أخرج البخاری و مسلم

---

(١). «كراع الغميم»: موضع بناحية الحجاز بين مكة و المدينة.

(٢). «نوجف»: نسرع السير.

(٣). المائدة: ٣.

و غير هما عن أنس قال: لما أنزل على النبی صلّى اللّه عليه و سلّم لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ مرجعه من الحديبية. قال: «لقد أنزلت علیّ آية هی أحبّ إلیّ مما على الأرض، ثم قرأها عليهم. فقالوا: هنيئا مريئا يا رسول اللّه، قد بيّن اللّه لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا. فنزلت عليه لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ حتى بلغ فَوْزاً عَظِيماً».

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٥]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِی قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِی قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢)
وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥)
قوله: إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً أی: على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم وَ مُبَشِّراً بالجنة للمطيعين وَ نَذِيراً لأهل المعصية لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ قرأ الجمهور: لِتُؤْمِنُوا بالفوقية. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالتحتية، فعلى القراءة الأولى الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه

و سلّم و لأمته، و على القراءة الثانية المراد المبشرين و المنذرين، و انتصاب شاهدا و مبشرا و نذيرا على الحال المقدرة وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ الخلاف بين القرّاء فى هذه الثلاثة الأفعال كالخلاف فى لِتُؤْمِنُوا كما سلف، و معنى تعزّروه: تعظّموه و تفخّموه؛ قال الحسن و الكلبى، و العزيز: التعظيم و التوقير. و قال قتادة: تنصروه و تمنعوا منه. و قال عكرمة: تقاتلون معه بالسيف، و معنى توقروه: تعظموه. و قال السدّى: تسوّدوه، و قيل: و الضميران فى الفعلين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و هنا وقف تام، ثم يبتدئ و تسبحوه، أى: تسبحوا اللّه عزّ و جلّ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أى: غدوة و عشية، و قيل: الضمائر كلها فى الأفعال الثلاثة للّه عزّ و جلّ، فيكون معنى تعزروه و توقروه: تثبتون له التوحيد و تنفون عنه الشركاء، و قيل: تنصروا دينه و تجاهدوا مع رسوله. و فى التسبيح وجهان، أحد هما التنزيه له سبحانه من كل قبيح، و الثانى الصلاة إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ يعنى بيعة الرضوان بالحديبية، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم هى بيعة له، فتح القدير، ج۵، ص: ۵۷

كما قال: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «۱» و ذلك لأنهم باعوا أنفسهم من اللّه بالجنة، و جملة: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التّخييل، فى محل نصب على الحال، و المعنى: أن عقد الميثاق مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كعقده مع اللّه سبحانه من غير تفاوت. و قال الكلبى: المعنى: إن نعمة اللّه عليهم فى الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. و قيل: يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء. و قال ابن كيسان: قوّة اللّه و نصرته فوق قوّتهم و نصرتهم فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ أى: فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه إلى غيره وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ أى:

ثبت على الوفاء بما عاهد عليه فى البيعة لرسوله. قرأ الجمهور: فَسَيُؤْتِيهِ بالتحتية، و قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر بالنون، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية الفراء سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ هم الذين خلفهم اللّه عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية. قال مجاهد و غيره: يعنى أعراب غفار و مزينة و جهينة و أسلم و أشجع و الدّئل، و هم الأعراب الذين كانوا حول المدينة.

و قيل: تخلّفوا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين سافر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان قد استنفرهم ليخرجوا معه، و المخلّف: المتروك شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا أى: منعنا عن الخروج معك ما لنا من الأموال و النّساء و الذّرارى، و ليس لنا من يقوم بهم و يخلفنا عليهم فَاسْتَغْفِرْ لَنا ليغفر اللّه لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب، و لما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء، و كانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم اللّه سبحانه بقوله: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ و هذا هو صنيع المنافقين.

و الجملة مستأنفة لبيان ما تنطوى عليه بواطنهم، و يجوز أن تكون بدلا من الجملة الأولى. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب عنهم، فقال: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: فمن يمنعكم ممّا أراده اللّه بكم من خير و شرّ، ثم بيّن ذلك فقال: إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أى: إنزال ما يضرّكم من ضياع الأموال و هلاك الأهل. قرأ الجمهور: ضَرًّا بفتح الضاد، و هو مصدر ضررته ضرّا. و قرأ حمزة و الكسائى بضمّها، و هو اسم ما يضرّ، و قيل: هما لغتان أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً أى: نصرا و غنيمة، و هذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدفع عنه الضرّ، و يجلب لهم النفع، ثم أضرب سبحانه عن ذلك و قال: بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً أى: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان اللّه خبيرا بجميع ما تعملونه من الأعمال التى من جملتها تخلفكم، و قد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك و النفاق و ما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة باللّه، و لهذا قال: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً و هذه الجملة مفسرة لقوله: بَلْ كانَ

اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً لما فيها من الإبهام، أى:

بل ظننتم أن العدوّ يستأصل المؤمنين بالمرة فلا يرجع منهم أحد إلى أهله، فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من

---

(۱). النساء: ۸۰.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۸

المعاذير الباطلة وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ أى: و زيّن الشيطان ذلك الظن فى قلوبكم فقبلتموه. قرأ الجمهور وَ زُيِّنَ مبنيا للمفعول، و قرئ مبنيا للفاعل. وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ أن اللّه سبحانه لا ينصر رسوله، و هذا الظن إما هو الظن الأول، و التكرير للتأكيد و التوبيخ، و المراد به ما هو أعمّ من الأوّل، فيدخل الظنّ الأوّل تحته دخولا أوّليا وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً أى: هلكى. قال الزجاج: هالكين عند اللّه، و كذا قال مجاهد. قال الجوهرى: البور: الرجل الفاسد الهالك الّذى لا خير فيه. قال أبو عبيد قَوْماً بُوراً هلكى، و هو جمع بائر، مثل حائل و حول، و قد بار فلان، أى: هلك، و أباره اللّه: أهلكه وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً هذا الكلام مستأنف من جهة اللّه سبحانه غير داخل تحت ما أمر اللّه سبحانه رسوله أن يقوله، أى: و من لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزاؤهم ما أعدّه اللّه لهم من عذاب السعير وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يتصرّف فيه كيف يشاء لا يحتاج إلى أحد من خلقه، و إنّما تعبّدهم بما تعبّدهم ليثيب من أحسن و يعاقب من أساء، و لهذا قال: يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ أن يغفر له وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ أن يعذبه لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «۱». وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً أى: كثير المغفرة و الرحمة بليغها، يخصّ بمغفرته و رحمته من يشاء من عباده سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها المخلفون هؤلاء المذكورون سابقا، و الظرف متعلّق بقوله سَيَقُولُ و المعنى:

سيقولون عند انطلاقكم أيها المسلمون إِلى مَغانِمَ يعنى مغانم خيبر لِتَأْخُذُوها لتحوزوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ أى: اتركونا نتبعكم و نشهد معكم غزوة خيبر. و أصل القصة أنه لما انصرف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه من المسلمين من الحديبية وعدهم اللّه فتح خيبر، و خصّ بغنائمها من شهد الحديبية، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون: ذرونا نتبعكم، فقال اللّه سبحانه: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ أى: يغيروا كلام اللّه، و المراد بهذا الكلام الّذى أرادوا أن يبدّلوه هو مواعيد اللّه لأهل الحديبية خاصّة بغنيمة خيبر. و قال مقاتل:

يعنى أمر اللّه لرسوله أن لا يسير معه أحد منهم. و قال ابن زيد: هو قوله تعالى: فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا «۲» و اعترض على هذا ابن جرير و غيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر و بعد فتح مكة، و الأوّل أولى، و به قال مجاهد و قتادة، و رجّحه ابن جرير و غيره. قرأ الجمهور:

كَلامَ اللَّهِ و قرأ حمزة و الكسائى «كلم اللّه» قال الجوهرى: الكلام اسم جنس يقع على القليل و الكثير، و الكلام لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة، مثل نبقة و نبق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يمنعهم من الخروج معه فقال: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا هذا النفى هو فى معنى النهى، و المعنى: لا تتبعونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ أى: من قبل رجوعنا من الحديبية أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ليس لغيرهم فيها نصيب فَسَيَقُولُونَ يعنى المنافقين عند سماع هذا القول، و هو قوله: «لَنْ تَتَّبِعُونا» بَلْ تَحْسُدُونَنا أى: بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم فى الغنيمة، و ليس ذلك

---

(۱). الأنبياء: ۲۳.

(۲). التوبة: ۸۳.

فتح القدير، ج‏5، ص: 59

بقول اللّه كما تزعمون. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا أى: لا يعلمون إلا علما قليلا، و هو علمهم بأمر الدنيا، و قيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقها قليلا، و هو ما يصنعونه نفاقا بظواهرهم دون بواطنهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ تُعَزِّرُوهُ يعنى الإجلال وَ تُوَقِّرُوهُ يعنى التعظيم، يعنى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه فى قوله: وَ تُعَزِّرُوهُ قال: تضربوا بين يديه بالسيف. و أخرج ابن عدى و ابن مردويه و الخطيب، و ابن عساكر فى تاريخه، عن جابر بن عبد اللّه قال: «لما أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية وَ تُعَزِّرُوهُ قال لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: لتنصروه».

و أخرج أحمد و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على السمع و الطاعة فى النشاط و الكسل، و على النّفقة فى العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و على أن نقول فى اللّه لا تأخذنا فيه لومة لائم، و على أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه ممّا نمنع منه أنفسنا و أزواجنا و أبناءنا و لنا الجنة، فمن وفّى وفّى اللّه له، و من نكث فإنما ينكث على نفسه». و فى الصحيحين من حديث جابر: «أنهم كانوا فى بيعة الرضوان خمس عشرة مائة» و فيهما عنه أنهم كانوا أربعة عشرة مائة، و فى البخارى من حديث قتادة عن سعيد بن المسيب أنه سأله كم كانوا فى بيعة الرضوان قال: خمس عشرة مائة، فقال له: إن جابرا قال:

كانوا أربع عشرة مائة، قال رحمه اللّه: و هم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

[سورة الفتح (48): الآيات 16 الى 24]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20)

وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (21) وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (24)

قوله: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ هم المذكورون سابقا سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ قال عطاء بن أبى رباح و مجاهد و ابن أبى ليلى و عطاء الخراسانى: هم فارس. و قال كعب و الحسن: هم الروم.

و روى عن الحسن أيضا أنه قال: هم فارس و الروم. و قال سعيد بن جبير: هم هوازن و ثقيف. و قال عكرمة:

فتح القدير، ج‏5، ص: 60

هوازن. و قال قتادة: هوازن و غطفان يوم حنين. و قال الزهرى و مقاتل: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة. و حكى هذا القول الواحدى عن أكثر المفسرين. تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ أى: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، لا ثالث لهما، و هذا حكم الكفار الّذين لا تؤخذ منهم الجزية. قال الزجّاج: التقدير: أو هم يسلمون، و فى قراءة أبىّ أو يسلموا أى: حتى يسلموا فَإِنْ

تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً و هو الغنيمة فى الدنيا و الجنة فى الآخرة وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا أى: تعرضوا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ و ذلك عام الحديبية يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً بالقتل و الأسر و القهر فى الدنيا و بعذاب النار فى الآخرة لتضاعف جرمكم. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ أى: ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج فى التخلف عن الغزو لعدم استطاعتهم. قال مقاتل: عذر اللّه أهل الزمانة الذين تخلّفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية، و الحرج: الإثم وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فيما أمراه به و نهياه عنه يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قرأ الجمهور: يُدْخِلْهُ بالتحتية، و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون. وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً أى: و من يعرض عن الطاعة يعذّبه اللّه عذابا شديد الألم. ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم و شهدوا بيعة الرضوان، فقال:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أى: رضى اللّه عنهم وقت تلك البيعة، و هى بيعة الرضوان، و كانت بالحديبية، و العامل فى «تحت» إما يبايعونك، أو محذوف على أنه حال من المفعول، و هذه الشجرة المذكورة هى شجرة كانت بالحديبية، و قيل: سدرة. و كانت البيعة على أن يقاتلوا قريشا و لا يفرّوا. و روى أنه بايعهم «١» على الموت، و قد تقدّم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريبا، و القصة مبسوطة فى كتب الحديث و السّير فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ معطوف على يبايعونك. قال الفراء: أى: علم ما فى قلوبهم من الصدق و الوفاء. و قال قتادة و ابن جريج: من الرضى بأمر البيعة على أن لا يفرّوا. و قال مقاتل: من كراهة البيعة على الموت فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ معطوف على رضى. و السكينة: الطمأنينة و سكون النفس كما تقدّم، و قيل: الصبر وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية. قاله قتادة و ابن أبى ليلى و غير هما، و قيل: فتح مكة، و الأوّل أولى وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها أى: و أثابكم مغانم كثيرة، أو: و آتاكم، و هى غنائم خيبر، و الالتفات لتشريفهم بالخطاب وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً أى: غالبا مصدرا أفعاله و أقواله على أسلوب الحكمة وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فى هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة يأخذونها فى أوقاتها التى قدّر وقوعها فيها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ أى: غنائم خيبر، قاله مجاهد و غيره، و قيل: صلح الحديبية وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ أى: و كفّ أيدى قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح، و قيل: كفّ أيدى أهل خيبر و أنصارهم عن قتالكم، و قذف فى قلوبهم الرعب. و قال قتادة: كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الحديبية و خيبر،

---

(١). فى مسند أحمد (٤/ ٥١): فبايعوه.

و رجّح هذا ابن جرير، قال: لأن كفّ أيدى الناس بالحديبية مذكور فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ و قيل: كفّ أيدى الناس عنكم؛ يعنى عيينة بن حصن الفزارى، و عوف بن مالك النضرى، و من كان معهما، إذا جاءوا لينصروا أهل خيبر عند حصار النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لهم وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ اللام يجوز أن تتعلّق بفعل محذوف يقدّر بعده، أى: فعل ما فعل من التعجيل و الكفّ لتكون آية، أو على علة محذوفة تقديرها: وعد فعجل و كفّ لتنتفعوا بذلك و لتكون آية. و قيل: إن الواو مزيدة و اللام لتعليل ما قبله؛ أى:

و كفّ لتكون؛ و المعنى: ذلك الكفّ آية يعلم بها صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى جميع ما يعدكم به وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً أى: يزيدكم بتلك الآية هدى، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحقّ وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها معطوف على «هذه»، أى: فعجّل لكم هذه المغانم، و مغانم أخرى لم تقدروا عليها، و هى الفتوح التى فتحها اللّه على المسلمين من بعد كفارس و الروم و نحوهما، كذا قال الحسن و مقاتل و ابن أبى ليلى. و قال الضحاك و ابن زيد و ابن أبى إسحاق: هى خيبر

وعـدها اللّه نبيّه قبل أن يفتحها و لم يكونوا يرجونها. و قال قتادة: فتـح مكة. و قال عكرمة: حنين، و الأوّل أولى قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها صفـة ثانيـة لأخرى. قال الفراء: أحاط اللّه بها لكم حتى تفتحوها و تأخذوها، و المعنى: أنه أعدّها لهم و جعلها كالشـىء الّذى قد أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت منه شـىء، فهم و إن لم يقـدروا عليها فى الحال فهى محبوسة لهم لا تفوتهم، و قيل: معنى أحاط: علم أنها ستكون لهم وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً لا يعجزه شـىء، و لا تختص قـدرته ببعض المقدورات دون بعض وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ قال قتادة:

يعنى كفـار قريش بالحديبيـة، و قيل: أسـد و غطفان الـذين أرادوا نصـر أهل خيبر، و الأول أولى ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يواليهم على قتالكم وَ لا نَصِيراً ينصرهم عليكم سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ أى: طريقته و عادته التى قد مضت فى الأمم من نصـر أوليائه على أعـدائه، و انتصـاب «سنّة» على المصدريـة بفعـل محـذوف، أى: بين اللّه سـنة اللّه، أو هـو مصـدر مؤكـد لمضـمون الجملة المتقدّمة وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أى:

لن تجد لها تغييرا، بل هى مستمرّة ثابتة وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ أى: كفّ أيدى المشـركين عن المسـلمين و أيدى المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصدون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه عن البيت عام الحديبية، و هى: المراد ببطن مكة. و قيل: إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من قبل جبل التنعيم متسلحين يريدون غرّة «١» النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخذهم المسلمون ثم تركوهم. و فى رواية اختلاف سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء اللّه وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً لا يخفى عليه من ذلك شىء.

و قـد أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم، و البيهقى فى الـدلائل، عن ابن عبـاس فى قـوله: أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يقول: فارس. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة، أنهم الأكراد. و أخرج ابن مردويه عن

---

(١). «الغرّة»: الغفلة.

ابن عبـاس قـال: فـارس و الروم. و أخرج الفريابى و ابن مردويه عنه قال: هوازن و بنى حنيفـة. و أخرج الطبرانى- قال السـيوطى- بسند حسن عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إنى لواضع القلم على أذنى، إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال: كيف لى و أنا ذاهب البصـر؟ فنزلت لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ الآيـة. قال هـذا فى الجهاد، و ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتم و ابن مردويه عن سـلمة بن الأكوع قال: «بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو تحت شجرة سمرة فبايعنـاه، فـذلك قول اللّه تعـالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فبايع لعثمان إحـدى يـديه على الأخرى، فقـال النـاس: هنيئـا لابن عفـان يطوف بالبيت و نحن ها هنا، فقال رسول اللّه: لو مكث كـذا و كـذا سـنة ما طاف حتى أطواف».

و أخرج ابن أبى شيبة فى «المصنف» عن نافع قال: بلغ عمر بن الخطاب أن ناسا يأتون الشجرة التى بويع تحتها، فأمر بها. فقطعت. و أخرج البخـارى عن سـلمة بن الأكوع قـال: بـايعت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم تحت الشـجرة، قيل: على أى شـىء كنتم تبايعونه يومئذ؟ قال: على الموت. و أخرج مسلم و غيره عن جابر قال:

بايعناه على ألّا نفرّ، و لم نبايعه على الموت. و أخرج أحمـد و أبو داود و الترمـذى عن جابر عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشـجرة». و أخرج مسلم من حديثه مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ

عَلَيْهِمْ قال: إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ يعنى الفتح. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ يعنى خيبر وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ يعنى أهل مكة أن يستحلوا حرم اللّه، و يستحلّ بكم و أنتم حرم وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ قال: سنة من بعدكم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عنه أيضا فى قوله: وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قال: هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قال: هى خيبر. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبال التنعيم يريدون غرّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ

و فى صحيح مسلم و غيره: أنها نزلت فى نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية. و أخرج أحمد و النسائى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، فى سبب نزول الآية: «إن ثلاثين شابا من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين فى السلاح، فثاروا فى وجوههم، فدعا عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخذ اللّه بأسماعهم- و لفظ الحاكم: بأبصارهم- فقام إليهم المسلمون فأخذوهم، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل جئتم فى عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانا؟ فقالوا: لا، فخلّى سبيلهم، فنزلت هذه الآية».

فتح القدير، ج‏5، ص: 63

[سورة الفتح (48): الآيات 25 الى 29]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (29)

قوله: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ يعنى كفار مكة، و معنى صدّهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به و يحلّوا عن عمرتهم وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً قرأ الجمهور بنصب «الهدى» عطفا على الضمير المنصوب فى «صدّوكم»، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجرّ عطفا على «المسجد»، و لا بدّ من تقدير مضاف، أى: عن نحر الهدى. و قرئ بالرفع على تقدير: و صد الهدى، و قرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدى و سكون الدال، و روى عن أبى عمرو و عاصم بكسر الدال و تشديد الياء. و انتصاب معكوفا على الحال من الهدى، أى: محبوسا. قال الجوهرى: عكفه، أى: حبسه و وقفه، و منه: وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً و منه الاعتكاف فى المسجد، و هو الاحتباس. و قال أبو عمرو بن العلاء: معكوفا: مجموعا، و قوله: أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ أى: عن أن يبلغ

محله، أو هو مفعول لأجله، و المعنى: صدّوا الهدى كراهة أن يبلغ محله، أو هو بدل من الهدى بدل اشتمال، و محلّه: منحره، و هو حيث يحلّ نحره من الحرم، و كان الهدى سبعين بدنة، و رخّص اللّه سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الّذى وصلوا إليه و هو الحديبية محلا للنحر.

و للعلماء فى هذا كلام معروف فى كتب الفروع. وَ لَوْ لاٰ رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰاءٌ مُؤْمِنٰاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة، و معنى: «لم تعلموهم» لم تعرفوهم، و قيل: لم تعلموا أنهم مؤمنون أَنْ تَطَؤُهُمْ يجوز أن يكون بدلا من رجال و نساء، و لكنه غلب الذكور، و أن يكون بدلا من مفعول «تعلموهم»، و المعنى أن تطئوهم بالقتل و الإيقاع بهم، يقال: وطئت القوم، أى: أوقعت بهم، و ذلك أنهم لو كسبوا مكة و أخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم فيها من الكفار، و عند ذلك لاٰ يأمنوا أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفّارة و تلحقهم سبّة، و هو معنى قوله: فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ أى: من جهتهم مَعَرَّةٌ أى: مشقة؛ بما يلزمهم فى قتلهم من كفّارة و عيب، و أصل المعرّة: العيب، مأخوذة من العرّ؛

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۴

و هو الجرب، و ذلك أن المشركين سيقولون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم. قال الزجاج: لو لا أن تقتلوا رجالا مؤمنين و نساء مؤمنات فتصيبكم منهم معرّة، أى: إثم، و كذا قال الجوهرى، و به قال ابن زيد. و قال الكلبى و مقاتل و غير هما: المعرّة: كفارة قتل الخطأ، كما فى قوله: فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ «۱» و قال ابن إسحاق: المعرّة: غرم الدية. و قال قطرب: المعرّة: الشدّة، و قيل: الغمّ، و بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلّق بأن تطئوهم، أى: غير عالمين، و جواب لو لاٰ محذوف، و التقدير: لأذن اللّه لكم أو لما كفّ أيديكم عنهم، و اللام فى لِيُدْخِلَ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ متعلّقة بما يدلّ عليه الجواب المقدّر، أى: و لكن لم يأذن لكم، أو كفّ أيديكم ليدخل اللّه فى رحمته بذلك من يشاء من عباده و هم المؤمنون و المؤمنات الذين كانوا فى مكة، فيتمّ لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهرانى الكفار و يفكّ أسرهم، و يرفع ما كان ينزل بهم من العذاب. و قيل: اللام متعلّقة بمحذوف غير ما ذكر، و تقديره: لو قتلتموهم لأدخلهم اللّه فى رحمته، و الأوّل أولى. و قيل: إن «من يشاء» عباده ممّن رغب فى الإسلام من المشركين لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً التزيل: التميّز، أى: لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم لعذبنا الذين كفروا، و قيل: التزيل: التفرق، أى: لو تفرّق هؤلاء من هؤلاء، و قيل: لو زال المؤمنون من بين أظهرهم، و المعانى متقاربة، و العذاب الأليم هو القتل و الأسر و القهر، و الظرف فى قوله: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر وقت جعل الذين كفروا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجٰاهِلِيَّةِ و قيل:

متعلّق بعذبنا، و الحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية، أى: ذو أنفة و غضب، أى: جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم، و الجعل بمعنى الإلقاء، و حمية الجاهلية بدل من الحمية. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان:

قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا و إخواننا و يدخلون علينا فى منازلنا، فتتحدّث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا، و اللات و العزّى لا يدخلونها علينا. فهذه الحمية هى حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم. و قال الزهرى: حميتهم: أنفتهم من الإقرار للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالرسالة. قرأ الجمهور: «لَوْ تَزَيَّلُوا» و قرأ ابن أبى عبلة و أبو حيوة و ابن عون لو تزايلوا و التزايل: التباين. فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أى: أنزل الطمأنينة و الوقار على رسوله و على المؤمنين؛ حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحميّة، و قيل: ثبّتهم على الرضى و التسليم وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ و هى «لا إله إلا اللّه» كذا قال الجمهور، و زاد بعضهم «محمد رسول اللّه» صلّى اللّه عليه و سلّم و زاد بعضهم «وحده لاٰ شريك له». و قال الزهرى هى: «بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» و ذلك أن الكفار لم يقرّوا بها، و امتنعوا من كتابتها فى كتاب الصلح الّذى كان بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما ثبت ذلك فى كتب الحديث و السير، فخصّ اللّه بهذه الكلمة المؤمنين و ألزمهم بها، و الأوّل أولى؛ لأن كلمة التوحيد

هى الـتى يتّقى بهـا الشـرك بـاللّه، و قيـل: كلمـۀ التقوى هى الوفـاء بالعهـد و الثبـات عليه وَ كـانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها أى: و كـان المؤمنون أحقّ بهـذه الكلمـۀ من الكفار و المسـتأهلين لها دونهم؛ لأن اللّه سـبحانه أهّلهم لدينه و صـحبۀ رسوله صـلّى اللّه عليه و سلّم لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِ قال الواحدى: قال

---

(۱). النساء: ۹۲.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۵

المفسـرون: إن اللّه سـبحانه أرى نبيه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى المدينـۀ قبل أن يخرج إلى الحديبيـۀ كأنه هو و أصـحابه حلقوا و قصّـروا، فأخبر بذلك أصـحابه ففرحوا و حسبوا أنهم سيدخلون مكۀ عامهم ذلك، فلما رجعوا من الحديبيۀ و لم يدخلوا مكۀ قال المنافقون: و اللّه ما حلقنا و لا قصّـرنا و لا دخلنا المسـجد الحرام، فأنزل اللّه هـذه الآيـۀ، و قيل: إن الرؤيا كانت بالحديبيۀ. و قوله: بالحقّ صـفۀ لمصدر محذوف، أى: صدقا متلبسا بالحقّ، و جواب القسم المحذوف المدلول عليه باللام الموطئۀ هو قوله: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ أى: فى العام القابل، و قوله:

إِنْ شاءَ اللَّهُ تعليق للعدۀ بالمشيئۀ لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‌ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «۱» قال ثعلب: إن اللّه استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون. و قيل:

كان اللّه سـبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه فى الحديبيۀ، فوقع الاسـتثناء لهذا المعنى، قاله الحسن ابن الفضل. و قيل: معنى إن شاء اللّه: كما شاء اللّه. و قال أبو عبيدۀ: «أن» بمعنى إذ، يعنى إذ شاء اللّه حيث أرى رسوله ذلك، و انتصاب آمِنِينَ على الحال من فاعل لتـدخلنّ، و كـذا مُحَلِّقِينَ رُؤُسَـكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ أى: آمنين من العدوّ، و محلّقا بعضـكم و مقصّـرا بعضـكم، و الحلق و التقصـير خاصّ بالرجال، و الحلق أفضل من التقصير كما يدلّ على ذلك الحديث الصحيح فى استغفاره صلّى اللّه عليه و سلّم للمحلقين فى المرّۀ الأولى و الثانيـۀ، و القائل يقول له: و للمقصـرين؟ فقال فى الثالثـۀ: و للمقصـرين، و قوله: لا تَخافُونَ فى محـل نصب على الحـال أو مسـتأنف، و فيه زيـادۀ تأكيـد لمـا قـد فهم من قـوله: آمِنِينَ فَعَلِمَ مـا لَمْ تَعْلَمُـوا أى: مـا لم تعلمـوا من المصـلحۀ فى الصـلح؛ لما فى دخولكم فى عام الحديبيۀ من الضـرّر على المستضعفين من المؤمنين، و هو معطوف على «صدق»، أى: صـدق رسوله الرؤيـا، فعلم مـا لم تعلموا به فَجَعَـلَ مِنْ دُونِ ذلِـكَ فَتْحـاً قَرِيبـاً أى: فجعـل من دون دخولكم مكـۀ، كما أرى رسوله، فتحا قريبا. قال أكثر المفسرين:

هو صـلح الحديبيۀ. و قال ابن زيد و الضحاك: فتح خيبر. و قال الزهرى: لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبيۀ، و لقد دخل فى تلك السـنتين فى الإسـلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل أكثر، فإن المسـلمين كانوا فى سـنۀ ست، و هى سنۀ الحديبيـۀ ألفا و أربعمائـۀ، و كانوا فى سـنۀ ثمان عشـرۀ آلاف. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُـدى أى: إرسالا متلبسا بالهـدى وَ دِينِ الْحَقِ و هو الإسـلام لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ أى: يعليه على كـلّ الأديـان كما يفيـده تأكيـد الجنس، و قيل: ليظهر رسوله، و الأوّل أولى. و قد كان ذلك بحمد اللّه، فإن دين الإسـلام قد ظهر على جميع الأديان و انقهر له كلّ أهل الملل وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً الباء زائـدۀ كما تقدّم فى غير موضع، أى: كفى اللّه شـهيدا على هذا الإظهار الّذى وعد المسـلمين به و على صـحۀ نبوّۀ نبيه صـلّى اللّه عليه و سـلّم مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ محمـد مبتـدأ، و رسول اللّه خبره، أو هو خبر مبتـدأ محذوف، و رَسُولُ اللَّهِ بدل منه، و قيل: محمد مبتـدأ و رسول اللّه نعت له. وَ الَّذِينَ مَعَهُ معطوف على المبتـدأ و مـا بعـده الخبر، و الأوّل أولى، و الجملـۀ مبينـۀ لما هو من جملۀ المشهود به وَ الَّذِينَ مَعَهُ قيل: هم أصحاب الحديبيۀ، و الأولى

---

(١). الكهف: ٢٣ و ٢۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۶

الحمل على العموم أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ أى: غلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته، و هو جمع شديد رُحَماءُ بَيْنَهُمْ أى: متوادّون متعاطفون، و هو جمع رحيم، و المعنى: أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدّة و الصلابة، و لمن وافقه الرحمة و الرأفة. قرأ الجمهور برفع أَشِدَّاءُ و رُحَماءُ على أنه خبر للموصول، أو خبر لمحمد و ما عطف عليه كما تقدم. و قرأ الحسن بنصبهما على الحال أو المدح، و يكون الخبر على هذه القراءة تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً أى: تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، و على قراءة الجمهور هو خبر آخر أو استئناف، أعنى قوله «تراهم». يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً أى: يطلبون ثواب اللّه لهم و رضاه عنهم، و هذه الجملة خبر ثالث على قراءة الجمهور، أو فى محل نصب على الحال من ضمير «تراهم»، و هكذا سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ السيما: العلامة، و فيها لغتان المدّ و القصر، أى: تظهر علامتهم فى جباههم من أثر السجود فى الصلاة و كثرة التعبّد بالليل و النهار. و قال الضحّاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفرا، فجعل هذا هو السيما. و قال الزهرى: مواضع السجود أشدّ وجوههم بياضا يوم القيامة. و قال مجاهد: هو الخشوع و التواضع، و بالأوّل: أعنى كونه ما يظهر فى الجباه من كثرة السجود، قال سعيد بن جبير و مالك. و قال ابن جرير: هو الوقار. و قال الحسن: إذا رأيتهم مرضى و ما هم بمرضى، و قيل: هو البهاء فى الوجه و ظهور الأنوار عليه، و به قال سفيان الثورى. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من هذه الصفات الجليلة، و هو مبتدأ و خبره قوله: مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ أى: وصفهم الّذى وصفوا به فى التوراة و وصفهم الّذى وصفوا به فِي الْإِنْجِيلِ و تكرير ذكر المثل لزيادة تقريره و للتنبيه على غرابته و أنه جار مجرى الأمثال فى الغرابة كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ إلخ كلام مستأنف، أى: هم كزرع إلخ، و قيل: هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدّم من الأوصاف، و قيل: هو خبر، لقوله: وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ أى: و مثلهم فى الإنجيل كزرع، قال الفراء: فيه و جهان: إن شئت قلت ذلك مثلهم فى التوراة و مثلهم فى الإنجيل، يعنى كمثلهم فى القرآن، فيكون الوقف على الإنجيل، و إن شئت قلت: ذلك مثلهم فى التوراة، ثم تبتدئ: و مثلهم فى الإنجيل كزرع، قرأ الجمهور شَطْأَهُ بسكون الطاء، و قرأ ابن كثير و ابن ذكوان بفتحها، و قرأ أنس و نصر بن عاصم و يحيى بن وثّاب «شطأه» كعصاه. و قرأه الجحدرى و ابن أبى إسحاق شطه بغير همزة، و كلها لغات. قال الأخفش و الكسائى: شطأه: أى طرفه. قال الفراء:

أشطأ الزرع فهو مشطئ إذا خرج. قال الزجاج: أَخْرَجَ شَطْأَهُ أى: نباته. و قال قطرب: الشطء:

شوك السّنبل. و روى عن الفراء أيضا أنه قال: هو السنبل. و قال الجوهرى: شطء الزرع و النبات:

[فراخه «١»، و الجمع أشطاء. و قد أشطأ الزرع خرج شطؤه. فَآزَرَهُ أى: قواه و أعانه و شدّه، و قيل: المعنى: إن الشطء قوّى الزرع، و قيل: إن الزرع قوّى الشطء، و مما يدلّ على أن الشطء خروج النبات قول الشاعر:

أخرج الشّطء على وجه الثّرىو من الأشجار أفنان الثّمر

(١). من تفسير القرطبى (١۶/ ٢٩۴)

فتح القدير، ج۵، ص: ۶٧

قرأ الجمهور فَآزَرَهُ بالمد. و قرأ ابن ذكوان و أبو حيوة و حميد بن قيس بالقصر، و على قراءة الجمهور قول امرئ القيس:

بمحنية «١» قد آزر الضّال «٢» نبتهامجرّ جيوش غانمين و خيّب

قال الفراء: آزرت فلانا آزره أزرا؛ إذا قوّيته فَاسْتَغْلَظَ أى: صار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ أى: فاستقام على أعواده، و السّوق: جمع ساق. و قرأ قنبل: سؤقه بالهمزة الساكنة يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ أى: يعجب هذا الزرع زارعه؛ لقوته و

حسن منظره، و هذا مثل ضربه اللّه سبحانه لأصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أنهم يكونون فى الابتداء قليلا، ثم يزدادون و يكثرون و يقوون كالزرع، فإنه يكون فى الابتداء ضعيفا، ثم يقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه. قال قتادة: مثل أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى الإنجيل أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر. ثم ذكر سبحانه علّة تكثيره لأصحاب نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و تقويته لهم، فقال: لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفّٰارَ أى: كثّرهم و قوّاهم ليكونوا غيظا للكافرين، و اللام متعلقة بمحذوف، أى: فعل ذلك ليغيظ وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً أى: وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يغفر ذنوبهم، و يجزل أجرهم بإدخالهم الجنة؛ التى هى أكبر نعمة و أعظم منّة.

و قد أخرج أحمد، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة، فلما صدّت عن البيت حنّت كما تحنّ إلى أولادها. و أخرج الحسن بن سفيان و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن قانع و الباوردى و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند جيد، عن أبى جميعة جنيد بن سبع قال: «قابلت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أوّل النهار كافرا، و قابلت معه آخر النهار مسلما، و فينا نزلت وَ لَوْ لا رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰاءٌ مُؤْمِنٰاتٌ و كنا تسعة نفر سبعة رجال و امرأتان» و فى رواية عند ابن أبى حاتم: «كنّا ثلاثة رجال و تسع نسوة». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس لَوْ لا رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰاءٌ مُؤْمِنٰاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ قال: حين ردّوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أَنْ تَطَؤُهُمْ بقتلكم إياهم لَوْ تَزَيَّلُوا يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذّبهم اللّه عذابا أليما بقتلكم إياهم. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن سهل بن حنيف أنه قال: يوم صفّين: [أيها الناس «٣» اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية، يعنى الصلح الّذى كان بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بين المشركين، و لو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه ألسنا على الحق و هم على الباطل؟ أ ليس قتلانا فى الجنة و قتلاهم فى النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطى الدنيّة فى ديننا و نرجع و لمّا يحكم اللّه بيننا و بينهم؟ قال: «يا بن الخطاب إنى رسول اللّه و لن يضيعنى اللّه

---

(١). «المحنية»: معاطف الأودية.

(٢). «الضال»: شجرة السدر.

(٣). من صحيح مسلم (١٧٨٥)

أبدا». فرجع متغيّظا، فلم يصبر حتى جاء أبو بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق و هم على الباطل؟

قال: بلى، قال: أ ليس قتلانا فى الجنة و قتلاهم فى النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطى الدنيّة فى ديننا؟ قال:

يا بن الخطاب إنه رسول اللّه و لن يضيعه اللّه أبدا، فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى عمر فأقرأه إياها، قال: يا رسول اللّه أفتح هو؟ قال: «نعم». و أخرج الترمذى، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن جرير، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبىّ بن كعب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ قال: «لا إله إلا اللّه» و فى إسناده الحسن بن قزعة، قال الترمذى بعد إخراجه: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه، و كذا قال أبو زرعة. و أخرج ابن مردويه عن سلمة ابن الأكوع مرفوعا مثله. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن علىّ بن أبى طالب مثله فى قوله. و أخرج أحمد و ابن حبان و الحاكم من قول عمر بن الخطاب نحوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و

البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الأفراد، عن المسور بن مخرمة و مروان نحوه. و روى عن جماعة من التابعين نحو ذلك. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِ قال: هو دخول محمد البيت و المؤمنين محلّقين و مقصّرين، و قد ورد فى الدعاء للمحلّقين و المقصّرين فى الصحيحين و غير هما أحاديث منها ما قدّمنا الإشارة إليه، و هو فى الصحيحين من حديث ابن عمر و فيهما من حديث أبى هريرة أيضا. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ قال: أما إنه ليس الّذى يرونه، و لكنه سيما الإسلام و سمته و خشوعه. و أخرج محمد بن نصر فى كتاب «الصلاة» و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى الآية قال:

هو السمت الحسن. و أخرج الطبرانى فى الأوسط و الصغير، و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند حسن، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ قال:

«النور يوم القيامة». و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن نصر عن ابن عباس فى الآية قال: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ:

يعنى نعتهم مكتوب فى التوراة و الإنجيل قبل أن يخلق اللّه السماوات و الأرض. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أنس كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ قال: نباته: فروخه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۹

سورة الحجرات

اشارة

هى ثمانى عشرة آية و هى مدنية، قال القرطبى: بالإجماع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس و ابن الزبير أنها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۴)

وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (۶) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (۷) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۸)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قرأ الجمهور تُقَدِّمُوا بضم المثناة الفوقية و تشديد الدال مكسورة. و فيه وجهان: أحدهما: أنه متعدّ و حذف مفعوله لقصد التعميم، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل، كقولهم: هو يعطى و يمنع. و الثانى: أنه لازم نحو وجه توجه، و يعضده قراءة ابن عباس و الضحاك و يعقوب «تقدّموا» بفتح التاء و القاف و الدال. قال الواحدى: قدم ها هنا بمعنى تقدّم، و هو لازم، قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تقدّم بين يدى الإمام و بين يدى الأب، أى: لا تعجل بالأمر دونه و النهى؛ لأن المعنى: لا تقدّموا قبل أمر هما و نهيهما، و بين يدى الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدى الإنسان، و معنى الآية: لا تقطعوا أمرا دون اللّه و رسوله و لا تعجلوا به. و قيل: المراد معنى بين يدى فلان: بحضرته؛ لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى كلّ أموركم، و يدخل تحتها الترك للتقدّم بين يدى اللّه و رسوله دخولا أوّليا. ثم علّل ما أمر به من التقوى بقوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لكلّ مسموع عَلِيمٌ بكل معلوم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت، لأن ذلك يدلّ على قلة الاحتشام و ترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت و عدم رفعه من لوازم التعظيم و التوقير. و يحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام و مزيد اللغط. و الأوّل أولى. و المعنى: لا ترفعوا

أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. قال المفسرون: المراد من الآية تعظيم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و توقيره و أن لا ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أى: لا تجهروا بالقول إذا كلّمتموه، كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضا. قال الزجاج: أمرهم اللّه بتبجيل نبيه و أن يغضوا أصواتهم و يخاطبوه بالسكينة و الوقار، و قيل: المراد بقوله: وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ لا تقولوا: يا محمد، و يا أحمد، و لكن يا نبىّ اللّه، و يا رسول اللّه، توقيرا له، و الكاف فى محل نصب على أنها مصدر محذوف، أى: جهرا مثل جهر بعضكم لبعض، و ليس المراد برفع الصوت و بالجهر فى القول هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فإن ذلك كفر، و إنما المراد أن يكون الصوت فى نفسه غير مناسب لما يقع فى مواقف من يجب تعظيمه و توقيره. و الحاصل: أن النهى هنا وقع عن أمور: الأوّل: عن التقدّم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام. و الثانى: عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته، سواء كان فى خطابه أو فى خطاب غيره. و الثالث: ترك الجفاء فى مخاطبته و لزوم الأدب فى مجاورته؛ لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزيّة توجب احترامه و توقيره. ثم علّل سبحانه ما ذكره بقوله:

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ قال الزجّاج: «أن تحبط أعمالكم» التقدير لأن تحبط أعمالكم، أى: فتحبط، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال، و هذه العلّة يصحّ أن تكون للنهى، أى: نهاكم اللّه عن الجهر خشية أن تحبط، أو كراهة أن تحبط، أو علّة للمنهى، أى: لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدّى إلى الحبوط، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثانى لا إلى الوجه الأوّل، و جملة: وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ فى محل نصب على الحال، و فيه تحذير شديد و وعيد عظيم. قال الزجاج: و ليس المراد و أنتم لا تشعرون يوجب أن يكفر الإنسان و هو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم. ثم رغّب سبحانه فى امتثال ما أمر به، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أصل الغض النقص من كل شىء، و منه نقص الصوت أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى قال الفراء:

أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديئه و يسقط خبيثه. و به قال مقاتل و مجاهد و قتادة. و قال الأخفش: اختصّها للتقوى، و قيل: طهّرها من كلّ قبيح، و قيل: وسّعها و سرّحها، من منحت الأديم؛ إذا أوسعته. و قال أبو عمرو: كلّ شىء جهدته فقد محنته، و اللام فى «للتقوى» متعلّقة بمحذوف، أى: صالحة للتقوى، كقولك: أنت صالح لكذا، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب، كقولك: جئتك لأداء الواجب، أى: ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ أى:

أولئك لهم، فهو خبر آخر لاسم الإشارة، و يجوز أن يكون مستأنفا لبيان ما أعدّ اللّه لهم فی الآخرة إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ هم جفاة بنی تميم كما سيأتی بيانه، و وراء الحجرات.

خارجها و خلفها، و الحجرات: جمع حجرة، كالغرفات جمع غرفة، و الظّلمات: جمع ظلمة، و قيل:

الحجرات جمع حجر، و الحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع. و الحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها، و هی فعلة بمعنی مفعولة. قرأ الجمهور: الحجرات بضم الجيم. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و شيبة

فتح القدير، ج‏5، ص: 71

بفتحها تخفيفا، و قرأ ابن أبی عبلة: بإسكانها، و هی لغات، و مِنْ فی مِنْ وَراءِ لابتداء الغاية، و لا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنی أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ لغلبة الجهل عليهم و كثرة الجفاء فی طباعهم وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ أی: لو انتظروا خروجك، و لم يعجلوا بالمناداة، لكان أصلح لهم فی دينهم و دنياهم، لما فی ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم، و رعاية جانبه الشريف و العمل بما يستحقّه من التعظيم و التبجيل. و قيل: إنهم جاءوا شفعاء فی أساری، فأعتق رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم نصفهم و فادی نصفهم، و لو صبروا لأعتق الجميع، ذكر معناه مقاتل. وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كثير المغفرة و الرحمة، بليغهما، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا قرأ الجمهور: فَتَبَيَّنُوا من التبيّن، و قرأ حمزة و الكسائی: «فتثبتوا» من التثبت، و المراد من التبين التعرّف و التفحّص، و من التثبت: الأناة و عدم العجلة، و التبصّر فی الأمر الواقع، و الخبر الوارد حتی يتّضح و يظهر. قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت فی الوليد بن عقبة بن أبی معيط كما سيأتی بيانه إن شاء اللّه. و قوله أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ مفعول له، أی: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممّن لم يتبين الأمر و لم يتثبت فيه هو الغالب و هو جهالة، لأنه لم يصدر عن علم، و المعنی:

متلبسين بجهالة بحالهم فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ بهم من إصابتهم بالخطإ نادِمِينَ على ذلك مغتمين له مهتمين به. ثم وعظهم اللّه سبحانه فقال: وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فلا تقولوا قولا باطلا و لا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبيّن، و «أن» و ما فی حيزها سادة مسدّ مفعولی «اعلموا»، و جملة لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ فی محل نصب على الحال من ضمير فيكم أو مستأنفة، و المعنی:

لو يطيعكم فی كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة، و تشيرون به عليه من الآراء التی ليست بصواب لوقعتم فی العنت؛ و هو التعب، و الجهد، و الإثم، و الهلاك، و لكنه لا يطيعكم فی غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، و لا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ أی: جعله أحبّ الأشياء إليكم، أو محبوبا لديكم، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه و يقتضيه من الأمور الصالحة، و ترك التسرع فی الأخبار، و عدم التثبت فيها، قيل: و المراد بهؤلاء من عدا الأوّلين لبيان براءتهم عن أوصاف الأوّلين، و الظاهر: أنه تذكير للكلّ بما يقتضيه الإيمان و توجبه محبته التی جعلها اللّه فی قلوبهم وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ أی: حسّنه بتوفيقه حتی جروا على ما يقتضيه فی الأقوال و الأفعال وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أی:

جعل كل ما هو من جنس الفسوق و من جنس العصيان مكروها عندكم. و أصل الفسق الخروج على الطاعة، و العصيان جنس ما يعصی اللّه به، و قيل: أراد بذلك الكذب خاصة، و الأول أولی أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ أی: الموصوفون بما ذكرهم الراشدون. و الرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب، من الرّشادة: و هی الصخرة فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً أی: لأجل فضله و إنعامه، و المعنی: أنه حبّب إليكم ما حبّب، و كرّه لأجل فضله و إنعامه، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك، و قيل: النصب بتقدير فعل: أی تبتغون فضلا و نعمة وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بكل معلوم حَكِيمٌ فی كل ما يقضی به بين عباده و يقدّره لهم.

فتح القدير، ج‏5، ص: 72

و قـد أخرج البخارى و غيره عن عبد اللّه بن الزبير قال: «قدم ركب من بنى تميم على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال أبو بكر: أمّر القعقـاع بن معبـد، و قـال عمر: بـل أمّر الأقرع بن حـابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ حتى انقضت الآيۀ». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتم و ابن مردويه عن ابن عبـاس فى قـوله: لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قـال: نهوا أن يتكلموا بين يـدى كلامه. و أخرج عن عائشۀ فى الآيـۀ قـالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. و أخرج البخارى فى تاريخه عنها قالت: كان أناس يتقـدّمون بين يـدى رمضان بصيام؛ يعنى يوما أو يومين، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنهـا أيضـا: أن ناسـا كـانوا يتقـدّمون الشـهر فيصومون قبل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الآيـۀ. و أخرج البزار و ابن عـدى و الحاكم و ابن مردويه عن أبى بكر الصـديق قال: أنزلت هـذه الآيـۀ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ قلت:

يا رسول اللّه: و اللّه لا أكلّمك إلا كأخى السّرار، و فى إسناده حصين بن عمر، و هو ضعيف، و لكنه يؤيـده ما أخرجه عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، من طريق أبى سلمۀ عن أبى هريرۀ قال: لما نزلت إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ قال أبو بكر: و الّذى أنزل عليك الكتاب يا رسول اللّه لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى اللّه. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس قـال: «لمـا نزلت يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ إلى قوله: وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ و كان ثابت بن قيس بن شـماس رفيع الصوت، فقال: أنا الّذى كنت أرفع صوتى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، حبط عملى، أنا من أهل النار، و جلس فى بيته حزينا، ففقده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا: فقدك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، مـا لـک؟ قـال: أنا الّذى أرفع صوتى فوق صوت النبىّ و أجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار، فأتوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبروه بذلك، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنۀ». فلما كان يوم اليمامۀ قتل. و فى الباب أحاديث بمعناه.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِ الآيۀ: قال:

نزلت فى ثـابت بن قيس بن شـماس. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرۀ فى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى «منهم ثابت بن قيس بن شماس». و أخرج أحمد و ابن جرير و أبو القاسم البغوى و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند صحيح، من طريق أبى سلمۀ بن عبد الرّحمن عن الأقرع بن حابس:

«أنه أتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد اخرج إلينا، فلم يجبه، فقال: يا محمد إن حمدى زين و إن ذمى شـين، فقال: ذاك اللّه، فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ قال ابن منيع: لا أعلم روى الأقرع مسـندا غير هـذا. و أخرج الترمذى و حسّـنه، و ابـن جرير و ابـن المنـذر و ابـن أبى حـاتم و ابن مردويه عن البراء بن عـازب فى قـوله: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ قال: جاء رجل فقال: يا محمد إن حمدى زين و إن ذمّى شـين، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «ذاك اللّه». و أخرج ابن راهويه و مسدد و أبو يعلى و ابن

فتح القدير، ج‌5، ص: 73

جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بإسناد حسن، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع ناس من العرب فقـالوا: انطلقوا إلى هـذا الرجـل فـإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، و إن يك ملكا نعش بجناحه، فأتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فـأخبرته بمـا قـالوا، فجـاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينـادونه: يا محمـد! فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ فأخـذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأذنى و جعل يقول: «لقـد صـدّق اللّه قولك يا زيـد، لقـد صـدق اللّه قولك يا زيد». و فى الباب أحاديث.

و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مندة و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند جيد- عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال: قدمت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فدعانى إلى الإسلام، فدخلت فيه و أقررت به، و دعانى إلى الزكاة فأقررت بها، و قلت: يا رسول اللّه أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام و أداء الزّكاة، فمن استجاب لى جمعت زكاته، و ترسل إلىّ يا رسول اللّه رسولا- لإبّان كذا و كذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له و بلغ الإبان الّذى أراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت، فظنّ الحارث أن قد حدث فيه سخط من اللّه و رسوله، فدعا سروات «١» قومه فقال لهم: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان وقت لى وقتا يرسل إلىّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة و ليس من رسول اللّه الخلف، و لا- أرى حبس رسوله إلا- من سخطه، فانطلقوا فنأتى رسول اللّه. و بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الوليد ابن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق «٢» فرجع، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إن الحارث منعنى الزكاة و أراد قتلى، فضرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقلّ البعث و فصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث؟ فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: و لم؟ قالوا: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة و أردت قتله، قال: لا و الّذى بعث محمدا بالحقّ ما رأيته و لا أتانى، فلما دخل الحارث على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «منعت الزكاة و أردت قتل رسولى؟» قال: لا و الّذى بعثك بالحقّ ما رأيته و لا رآنى، و ما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خشيت أن تكون سخطة من اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، فنزل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ إلى قوله: حَكِيمٌ قال ابن كثير: هذا من أحسن ما روى فى سبب نزول الآية. و قد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية، و أنه المراد بها و إن اختلفت القصص.

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ٩ الى ١٢]

وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لا- تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لا- تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا- تَجَسَّسُوا وَ لا- يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

---

(١). «سروات»: أى زعماء.

(٢). أى خاف.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٧٤

قوله: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا قرأ الجمهور: اقْتَتَلُوا باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا «١» و الضمير فى قوله: بَيْنَهُما عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ. و قرأ ابن أبى عبلة: «اقتتلتا» اعتبارا بلفظ طائفتان، و قرأ زيد بن علىّ و عبيد بن عمير: «اقتتلا» و تذكير الفعل فى هذه القراءة باعتبار الفريقين أو الرهطين. و البغى: التعدّى بغير حق و الامتناع من الصلح الموافق للصواب، و الفىء: الرجوع. و المعنى: أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم و يدعوهم إلى

حكم اللّه، فإن حصل بعد ذلك التعدّى من إحدى الطائفتين على الأخرى، و لم تقبل الصلح، و لا دخلت فيه، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر اللّه و حكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها و أجابت الدعوة إلى كتاب اللّه و حكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم، و يتحرّوا الصواب المطابق لحكم اللّه، و يأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، و تؤدّى ما يجب عليها للأخرى. ثم أمر اللّه سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال: وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أى: و اعدلوا إن اللّه يحب العادلين، و محبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء. قال الحسن و قتادة و السدّى: فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالدعاء إلى حكم كتاب اللّه، و الرضى بما فيه لهما و عليهما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما و طلبت ما ليس لها، و لم ترجع إلى الصلح فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حتى ترجع إلى طاعة اللّه و الصلح الّذى أمر اللّه به، و جملة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، و المعنى: أنهم راجعون إلى أصل واحد و هو الإيمان. قال الزّجّاج:

الدّين يجمعهم، فهم إخوة إذا كانوا متفقين فى دينهم، فرجعوا بالاتفاق فى الدين إلى أصل النسب؛ لأنهم لآدم و حواء فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ يعنى كل مسلمين تخاصما و تقاتلا، و تخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. قرأ الجمهور: بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ على التثنية، و قرأ زيد بن ثابت و عبد اللّه بن مسعود و الحسن و حماد بن سلمة و ابن سيرين «إخوانكم» بالجمع، و روى عن أبى عمرو و نصر بن عاصم و أبى العالية و الجحدرى و يعقوب أنهم قرءوا: «بين إخوتكم» بالفوقية على الجمع أيضا.

قال أبو علىّ الفارسى فى توجيه قراءة الجمهور: أراد بالأخوين الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية قد يرد و يراد به الكثرة. و قال أبو عبيدة: أى: أصلحوا بين كلّ أخوين وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى كل أموركم لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

---

(١). الحج: ١٩.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٧٥

بسبب التقوى، و الترجى باعتبار المخاطبين، أى: راجين أن ترحموا، و فى هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام، أو على أحد من المسلمين، و على فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلّا بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«قتال المسلم كفر» فإن المراد بهذا الحديث و ما ورد فى معناه قتال المسلم الّذى لم يبغ. قال ابن جرير:

لو كان الواجب فى كلّ اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه و لزوم المنازل لما أقيم حقّ، و لا أبطل باطل و لوجد أهل النفاق و الفجور سببا إلى استحلال كل ما حرّم اللّه عليهم من أموال المسلمين، و سبى نسائهم، و سفك دمائهم بأن يتحزّبوا عليهم، و لكفّ المسلمين أيديهم عنهم، و ذلك مخالف لقوله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«خذوا على أيدى سفهائكم». قال ابن العربى: هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، و عمدة فى حرب المتأوّلين، و عليها عوّل الصحابة، و إليها لجأ الأعيان من أهل الملّة، و إياها عنى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: «تقتل عمارا الفئة الباغية»، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى شأن الخوارج: «يخرجون على حين فرقة من الناس، تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ». يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ السخرية: الاستهزاء.

و حكى أبو زيد: سخرت به و ضحكت به و هزأت به. و قال الأخفش: سخرت منه و سخرت به، و ضحكت منه و ضحكت به، و هزئت منه و هزئت به، كل ذلك يقال: و الاسم السخرية و السّخرى، و قرئ بهما فى: لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا «١»، و معنى الآية: النهى للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض، و علّل هذا النهى بقوله: عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ أى: أن يكون المسخور

بهم عند اللّه خيرا من الساخرين بهم، و لما كان لفظ قوم مختصّا بالرجال، لأنهم القوّم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال: وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ أى: و لا يسخر نساء من نساء عَسى أَنْ يَكُنَ المسخور بهن خَيْراً مِنْهُنَ يعنى خيرا من الساخرات منهنّ، و قيل: أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهنّ أكثر وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ اللمز: العيب، و قد مضى تحقيقه فى سورة براءة عند قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ «٢» قال ابن جرير: اللمز باليد و العين و اللسان و الإشارة، و الهمز لا يكون إلا باللسان، و معنى: لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ لا يلمز بعضكم بعضا، كما فى قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «٣» و قوله: فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ «۴» قال مجاهد و قتادة و سعيد بن جبير: لا يطعن بعضكم على بعض. و قال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضا وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ التنابز: التفاعل من النّبز بالتسكين و هو المصدر، و النّبز بالتحريك اللقب، و الجمع أنباز، و الألقاب جمع لقب، و هو اسم غير الّذى سمّى به الإنسان، و المراد هنا لقب السوء، و التنابز بالألقاب بأن يلقب بعضهم بعضا. قال الواحدى: قال المفسرون: هو أن يقول لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق. أو يقول لمن أسلم: يا يهودى، يا نصرانى، قال عطاء: هو كلّ شىء أخرجت به أخاك من الإسلام، كقولك يا كلب، يا حمار، يا خنزير. قال الحسن و مجاهد: كان الرجل يعيّر بكفره، فيقال له: يا يهودى يا نصرانى، فنزلت، و به قال قتادة و أبو العالية و عكرمة بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ أى: بئس الاسم الّذى

---

(١). الزخرف: ٣٢.

(٢). التوبة: ۵٨.

(٣). النساء: ٢٩.

(۴). النور: ۶١.

يذكر بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان، و الاسم هنا بمعنى الذكر. قال ابن زيد: أى بئس أن يسمّى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه و توبته. و قيل: أن من فعل ما نهى عنه من السخرية و اللمز و النبذ فهو فاسق. قال القرطبى: إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج و الأحدب، و لم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه، فجوّزته الأئمة و اتفق على قوله أهل اللغة اه. وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ عمّا نهى اللّه عنه فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لارتكابهم ما نهى اللّه عنه و امتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، و ظلموا أنفسهم بما لزمها من الإثم. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ الظن هنا: هو مجرد التهمة التى لا سبب لها كمن يتّهم غيره بشىء من الفواحش و لم يظهر عليه ما يقتضى ذلك، و أمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه؛ لأنّ من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ، كالقياس، و خبر الواحد، و دلالة العموم، و لكن هذا الظنّ الّذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به؛ فارتفع عن الشكّ و التهمة. قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءا، فأما أهل السوء و الفسوق قلنا أن نظن بهم مثل الّذى ظهر منهم. قال مقاتل بن سليمان و مقاتل بن حيان: هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءا، و لا بأس به ما لم يتكلّم به، فإن تكلم بذلك الظن و أبداه أثم. و حكى القرطبى عن أكثر العلماء:
أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، و أنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبيح، و جملة إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظن، و هذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير، و الإثم:
هو ما يستحقه الظانّ من العقوبة. و ممّا يدلّ على تقييد هذا الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى:
وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً «١» فلا يدخل فى الظنّ المأمور باجتنابه شىء من الظنّ المأمور باتباعه فى مسائل الدين، فإن اللّه قد تعبّد عباده باتّباعه، و أوجب العمل به جمهور أهل العلم، و لم ينكر ذلك إلّا بعض طوائف المبتدعة كيادا للدين، و

شذوذا عن جمهور المسلمين، و قد جاء التعبد بالظن فى كثير من الشريعة المطهرة بل فى أكثرها. ثم لما أمرهم اللّه سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسّس فقال: وَ لاٰ تَجَسَّسُوا التجسس: البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين و عوراتهم، نهاهم اللّه سبحانه عن البحث عن معايب الناس و مثالبهم. قرأ الجمهور تَجَسَّسُوا بالجيم، و معناه ما ذكرنا. و قرأ الحسن و أبو رجاء و ابن سيرين بالحاء. قال الأخفش: ليس يبعد أحد هما من الآخر؛ لأن التجسس بالجيم: البحث عما يكتم عنك، و التحسس بالحاء: طلب الأخبار و البحث عنها. و قيل: إن التجسس بالجيم هو البحث، و منه قيل رجل جاسوس؛ إذا كان يبحث عن الأمور، و بالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. و قيل: إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه، و بالجيم أن يكون رسولا لغيره، قاله ثعلب. وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أى:

لاٰ يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوءه، و الغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه، كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أ تدرون ما الغيبة؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: ذكرك

---

(١). الفتح: ١٢.

أخاك بما يكره، فقيل: أ فرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، و إن لم يكن فيه فقد بهته» أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً مثّل سبحانه الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحيّ لا يعلم بغيبة من اغتابه. ذكر معناه الزجاج. و فيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه، و أنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة فى عرضه «١»، و فى هذا من التنفير عن الغيبة و التوبيخ لها و التوبيخ لفاعلها و التشنيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، و تستكرهه الجبلّة البشرية، فضلا عن كونه محرّما شرعا فَكَرِهْتُمُوهُ قال الفراء: تقديره فقد كرهتموه فلا تفعلوا، و المعنى: فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا. قال الرازى: الفاء فى تقدير جواب كلام، كأنه قال: لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذا. و قال أبو البقاء: هو معطوف على محذوف تقديره:

عرض عليكم ذلك فكرهتموه وَ اتَّقُوا اللّٰهَ بترك ما أمركم باجتنابه إِنَّ اللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ لمن اتقاه و تاب عما فرط منه من الذنب و مخالفة الأمر.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس قال: قيل للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو أتيت عبد اللّه بن أبىّ، فانطلق إليه و ركب حمارا، و انطلق المسلمون يمشون و هى أرض سبخة «٢»، فلما انطلق إليه قال: إليك عنى، فو اللّه لقد آذانى ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: و اللّه لحمار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أطيب ريحا منك، فغضب لعبد اللّه رجال من قومه، فغضب لكلّ منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد «٣» و الأيدى و النّعال، فنزلت فيهم: وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا الآية». و قد روى نحو هذا من وجوه أخر.

و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن عمر قال: ما وجدت فى نفسى من شىء ما وجدت فى نفسى من هذه الآية، إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: إن اللّه أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم اللّه و ينصف بعضهم من بعض، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب اللّه حتى ينصف المظلوم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، و حقّ على إمام المؤمنين و المؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر اللّه، و يقرّوا بحكم اللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا الآية. قال: كان قتال بالنعال و العصىّ، فأمرهم أن

يصلحوا بينهما. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن عائشة قالت: ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة فى هذه الآية: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ قال: نزلت فى قوم من بنى تميم استهزءوا من بلال و سلمان و عمّار و خبّاب و صهيب و ابن فهيرة و سالم مولى أبى حذيفة. و أخرج عبد

---

(١). «الاستطالة فى العرض»: أى استحقاره و الترفع عليه و الوقيعة فيه.

(٢). «أرض سبخة»: أى لا تنبت.

(٣). «الجريد»: سعف النخل، أى أغصانه.

ابن حميد، و البخارى فى الأدب، و ابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ قال: لا يطعن بعضكم على بعض.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و البخارى فى الأدب، و أهل السنن الأربع و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان، و الشيرازى فى الألقاب، و الطبرانى، و ابن السّنى فى عمل يوم و ليلة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب، عن أبى جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت فى بنى سلمة وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة و ليس فينا رجل إلا و له اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول اللّه إنه يكرهه، فنزلت: وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها و راجع الحقّ، فنهى اللّه أن يعيّر بما سلف من عمله. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى الآية قال: إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول: يا يهودى، يا نصرانى، يا مجوسى، و يقول للرجل المسلم: يا فاسق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ قال: نهى اللّه المؤمن أن يظنّ بالمؤمن سوءا.

و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إياكم و الظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث، و لا تجسّسوا، و لا تحسّسوا، و لا تنافسوا، و لا تحاسدوا، و لا تباغضوا، و كونوا عباد اللّه إخوانا، و لا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَجَسَّسُوا قال: نهى اللّه المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أبو داود و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن زيد بن وهب قال: أتى ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال ابن مسعود:

إنا قد نهينا عن التجسس، و لكن إن يظهر لنا شى‌ء نأخذه. و قد وردت أحاديث فى النهى عن تتبع عورات المسلمين و التجسس على عيوبهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً الآية قال: حرّم اللّه أن يغتاب المؤمن بشى‌ء كما حرّم الميتة.

و الأحاديث فى تحريم الغيبة كثيرة جدا، معروفة فى كتب الحديث.

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٣ الى ١٨]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳) قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۱۵) قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۷)
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸)

فتح القدير، ج۵، ص: ۷۹

قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى هما آدم و حوّاء، و المقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد، و كونه يجمعهم أب واحد و أمّ واحدة، و أنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب، و قيل: المعنى:

أن كل واحد منكم من أب و أمّ، فالكل سواء وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ الشعوب جمع شعب بفتح الشين، و هو الحيّ العظيم، مثل مضر و ربيعة، و القبائل دونها كبنى بكر من ربيعة، و بنى تميم من مضر. قال الواحدى:

هذا قول جماعة من المفسرين، سمّوا شعبا لتشعبهم و اجتماعهم كشعب أغصان الشجرة، و الشعب من أسماء الأضداد. يقال شعبته: إذا جمعته، و شعبته إذا فرّقته، و منه سمّيت المنية شعوبا لأنها مفرّقة، فأما الشّعب بالكسر فهو الطريق فى الجبل. قال الجوهرى: الشعب ما تشعب من قبائل العرب و العجم، و الجمع الشعوب.

و قال مجاهد: الشعوب: البعيد من النسب، و القبائل دون ذلك. و قال قتادة: الشعوب: النسب الأقرب.

و قيل: إن الشعوب: عرب اليمن من قحطان، و القبائل من ربيعة و مضر و سائر عدنان. و قيل: الشعوب بطون العجم، و القبائل بطون العرب. و حكى أبو عبيدة أن الشعب أكثر من القبيلة، ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة. و مما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر:

قبائل من شعوب ليس فيهم كريم قد يعدّ و لا نجيب

قرأ الجمهور: لِتَعارَفُوا بتخفيف التاء، و أصله لتتعارفوا فحذفت إحدى التاءين. و قرأ البزّى بتشديدها على الإدغام. و قرأ الأعمش بتاءين، و اللام متعلقة بخلقناكم، أى: خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا. و قرأ ابن عباس: «لتعرفوا» مضارع عرف. و الفائدة فى التعارف أن ينتسب كلّ واحد منهم إلى نسبه و لا يعترى إلى غيره. و المقصود من هذا أن اللّه سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم، و دعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، و هذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، و هذا البطن أشرف من هذا البطن. ثم علّل سبحانه ما يدلّ عليه الكلام من النهى عن التفاخر فقال: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ أى: إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن تلبّس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها و أشرف و أفضل، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب، فإن ذلك لا يوجب كرما و لا يثبت شرفا و لا يقتضى فضلا.

قرأ الجمهور: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ بكسر إن. و قرأ ابن عباس بفتحها، أى: لأن أكرمكم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بكل معلوم و من ذلك أعمالكم خَبِيرٌ بما تسرّون و ما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية. و لما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند اللّه أتقاهم له، و كان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف و الفضل، فقال: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا و هم بنو أسد أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة يريدون الصدقة، فأمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يردّ عليهم فقال: قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا أى: لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب و خلوص نية و طمأنينة وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا أى: استسلمنا خوف

فتح القدير، ج۵، ص: ۸۰

القتل و السبى أو للطمع فى الصدقة، و هذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر و لم تؤمن قلوبهم، و لهذا قال سبحانه: وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ أى: لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح و لا نية خالصة، و الجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها، أو فى محل نصب على الحال، و فى لَمَّا معنى التوقع. قال الزجاج: الإسلام: إظهار الخضوع و قبول ما أتى به النبيّ، و بذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد و تصديق بالقلب فذلك الإيمان و صاحبه المؤمن.

و قد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله: وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ أى: لم تصدّقوا و إنما أسلمتم تعوّذا من القتل وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ طاعة صحيحة صادرة عن نيات خالصة، و قلوب مصدّقة غير منافقة لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً يقال: لات يلت: إذا نقص، ولاته يليته و يلوته؛ إذا نقصه، و المعنى:

لا ينقصكم من أعمالكم شيئا. قرأ الجمهور يَلِتْكُمْ من لاته يليته، كباع يبيعه. و قرأ أبو عمرو لا يألتكم بالهمز من ألته يألته بالفتح فى الماضى و الكسر فى المضارع، و اختار قراءة أبى عمرو أبو حاتم لقوله:

وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ «1» و عليها قول الشاعر:

أبلغ بنى أسد «2» عنّى مغلغلةجهر الرّسالة لا ألتا و لا كذبا

و اختار أبو عبيدة قراءة الجمهور، و عليها قول رؤبة بن العجّاج:

و ليلة ذات ندى سريتو لم يلتنى عن سراها ليت

و هما لغتان فصيحتان إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ أى: بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب رَحِيمٌ بليغ الرحمة لهم. ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا و لا دخل الإيمان فى قلوبهم بيّن المؤمنين المستحقّين لإطلاق اسم الإيمان عليهم، فقال إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ يعنى إيمانا صحيحا خالصا عن مواطأة القلب و اللسان ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا أى: لم يدخل قلوبهم شىء من الريب، و لا خالطهم شكّ من الشكوك وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى: فى طاعته و ابتغاء مرضاته، و يدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر اللّه بها، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به و يؤدّيه كما أمر اللّه سبحانه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة و هو مبتدأ، و خبره قوله: هُمُ الصَّادِقُونَ أى: الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان و الدخول فى عداد أهله، لا من عداهم ممّن أظهر الإسلام بلسانه، و ادّعى أنه مؤمن، و لم يطمئن بالإيمان قلبه، و لا وصل إليه معناه، و لا عمل بأعمال أهله، و هم الأعراب الذين تقدّم ذكرهم و سائر أهل النفاق. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب و أمثالهم قولا آخر لما ادّعوا أنهم مؤمنون، فقال: قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ التعليم ها هنا بمعنى الإعلام، و لهذا دخلت الباء فى دينكم، أى: أ تخبرونه بذلك حيث قلتم آمنّا وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

---

(1). الطور: 21.

(2). فى تفسير القرطبى (16/ 349): ثعل.

فكيف يخفى عليه بطلان ما تدّعونه من الإيمان. و الجملة من محل النصب على الحال من مفعول تعلمون وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا تخفى عليه من ذلك خافية، و قد علم ما تبطنونه من الكفر و تظهرونه من الإسلام لخوف الضرّاء و رجاء النفع. ثم أخبر اللّه سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المنّ عليه منهم بما يدّعونه من الإسلام، فقال:

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا أى: يعدّون إسلامهم منّة عليك، حيث قالوا: جئناك بالأثقال و العيال، و لم نقاتلك كما قاتلك بنو

فلان و بنو فلان قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ أی: لا تعدّوه علیّ، فإن الإسلام هو المنّة التی لا يطلب موليها ثوابا لمن أنعم بها عليه، و لهذا قال: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ أی: أرشدكم إليه و أراكم طريقه، سواء وصلتم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه، و انتصاب إسلامكم إما على أنه مفعول به على تضمين يمنون معنى يعدّون، أو بنزع الخافض، أی: لأن أسلموا، و هكذا قوله: أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ فإنه يحتمل الوجهين إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تدّعونه، و الجواب محذوف يدلّ عليه ما قبله؛ أی:

إن كنتم صادقين فللّه المنّة عليكم، قرأ الجمهور: أَنْ هَداكُمْ بفتح أن، و قرأ عاصم بكسرها. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أی: ما غاب فيهما وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا يخفى عليه من ذلك شیء، فهو مجازيكم بالخير خيرا و بالشرّ شرّا. قرأ الجمهور تَعْمَلُونَ على الخطاب، و قرأ ابن كثير على الغيبة.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و البيهقی فی الدلائل، عن ابن أبی مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذّن على الكعبة، فقال بعض الناس: أ هذا العبد الأسود يؤذّن على ظهر الكعبة؟! و قال بعضهم:

إن يسخط اللّه هذا يغيّره، فنزلت: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج أبو داود فی مراسيله، و ابن مردويه، و البيهقی فی سننه، عن الزهری قال: أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بنی بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا: يا رسول اللّه، أ نزوّج بناتنا موالينا؟ فنزلت هذه الآية. و أخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى هی مكية، و هی للعرب خاصة الموالی، أی قبيلة لهم، و أی شعاب، و قوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ قال: أتقاكم للشرك. و أخرج البخاری و ابن جرير عن ابن عباس قال: الشعوب: القبائل العظام، و القبائل: البطون. و أخرج الفريابی و ابن جرير و ابن أبی حاتم عنه قال: الشعوب: الجماع، و القبائل:

الأفخاذ التی يتعارفون بها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عنه أيضا قال: القبائل الأفخاذ، و الشعوب:

الجمهور مثل مضر. و أخرج البخاری و غيره عن أبی هريرة قال: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أیّ الناس أكرم؟

قال: أكرمهم عند اللّه أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبیّ اللّه ابن نبیّ اللّه ابن نبیّ اللّه ابن خليل اللّه. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألونی؟

قالوا: نعم، قال: خيارهم فی الجاهلية خيارهم فی الإسلام إذا فقهوا» و قد وردت أحاديث فی الصحيح و غيره أن التقوى هی التی يتفاضل بها العباد.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قال: أعراب

بنی أسد و خزيمة، و فی قوله: وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا استسلمنا «1» مخافة القتل و السبی. و أخرج ابن جرير عن قتادة: أنها نزلت فی بنی أسد. و أخرج ابن المنذر و الطبرانی و ابن مردويه، قال السيوطی: بسند حسن، عن عبد اللّه بن أبی أوفى: أن ناسا من العرب قالوا: يا رسول اللّه أسلمنا و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأنزل اللّه: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا. و أخرج النسائی و البزار و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه، و ذكر أنهم بنو أسد.

---

(1). من الدر المنثور (7/ 582)

سورة ق

اشارة

و هى مكية كلها فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر. و روى عن ابن عباس و قتادة أنها مكية إلا آية، و هى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ و هى أوّل المفصّل على الصّحيح، و قيل: من الحجرات. و أخرج ابن الضّريس و النحّاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة ق بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و قد أخرج مسلم و غيره عن قطبة بن مالك قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الفجر فى الركعة الأولى ق و القرآن المجيد» و أخرج أحمد و مسلم و أهل السنن عن أبى واقد الليثىّ قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى العيد بقاف و اقتربت». و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و ابن ماجة و البيهقى عن أم هشام ابنة حارثة قالت: ما أخذت ق و القرآن المجيد إلاـ من فىّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس. و هو فى صحيح مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ق (۵۰): الآيات ۱ الى ۱۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (۲) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (۳) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (۴)

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (۵) أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (۹)

وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (۱۱) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (۱۲) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ (۱۳) وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (۱۴)

أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۵)

قوله: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الكلام فى إعراب هذا كالكلام الّذى قدّمنا فى قوله: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. و فى قوله: حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ و اختلف فى ق، فقال الواقدى: قال المفسرون:

هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد و السماء مقبّبة عليه، و هو وراء الحجاب الّذى تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة «۱». قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى ق لأنه اسم، و ليس بهجاء. قال:

---

(۱). قال أبو حيان: (ق) حرف هجاء، و قد اختلف المفسرون فى مدلوله على أحد عشر قولا متعارضة، لا دليل على صحة شىء منها.

فتح القدير، ج۵، ص: ۸۴

و لعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل:

قلت لها قفى لنا قالت قاف أى: أنا واقفة. و حكى الفراء و الزجاج: أن قوما قالوا معنى ق: قضى الأمر و قضى ما هو كائن، كما

قيل فى حم: حمّ الأمر. و قيل: هو اسم من أسماء اللّه أقسم به. و قال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن.
و قال الشعبى: فاتحة السورة. و قال أبو بكر الورّاق معناه: قف عند أمرنا و نهينا و لا تتعداهما، و قيل غير ذلك ممّا هو أضعف منه. و الحق أنه من المتشابه الّذى استأثر اللّه بعلمه كما حققنا ذلك فى فاتحة سورة البقرة، و معنى المجيد: أنه ذو مجد و شرف على سائر الكتب المنزلة. و قال الحسن: الكريم، و قيل: الرفيع القدر، و قيل:
الكبير القدر، و جواب القسم قال الكوفيون هو قوله: بَلْ عَجِبُوا و قال الأخفش: جوابه محذوف، كأنه قال: ق و القرآن المجيد لتبعثن، يدلّ عليه أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً و قال ابن كيسان جوابه: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ و قيل هو: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ بتقدير اللام، أى: لقد علمنا، و قيل:
هو محذوف و تقديره أنزلناه إليك لتنذر، كأنه قيل ق و القرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر به الناس. قرأ الجمهور قاف بالسكون. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق و نصر بن عاصم بكسر الفاء. و قرأ عيسى الثقفى بفتح الفاء.
و قرأ هارون و محمد بن السّميع بالضم بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ بل للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال، و أن فى موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. و المعنى: بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و لم يكتفوا بمجرد الشك و الردّ، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، و قيل:
هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيدا. و قد تقدم تفسير هذا فى سورة ص. ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله: فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ و فيه زيادة تصريح و إيضاح. قال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إله واحد، و قيل: تعجبهم من البعث، فيكون لفظ هذا إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من قوله: أَ إِذا مِتْنا إلخ، و الأول أولى. قال الرازى: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر، ثم قالوا: أَ إِذا مِتْنا و أيضا قد وجد ها هنا بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدّى معنى التعجّب، و هو قولهم: ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ فإنه استبعاد و هو كالتعجب، فلو كان التعجب بقولهم هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ عائدا إلى قولهم: «أ إذا» لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من قولك: هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجيء المنذر، فإن تعجبهم منه علم من قوله: بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ فقولهم: هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ يكون تكرارا، فنقول: ذلك ليس بتكرار، بل هو تقرير؛ لأنه لما قال بل عجبوا بصيغة الفعل و جاز أن يتعجّب الإنسان ممّا لا يكون عجبا، كقوله: أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ و يقال فى العرف: لا وجه لتعجّبك مما ليس بعجب، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لتعجبكم، فقالوا: هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ فكيف لا نعجب منه، و يدلّ على ذلك قوله ها هنا: فَقالَ الْكافِرُونَ بالفاء، فإنها تدلّ على أنه مترتّب على ما قدّم، قرأ الجمهور أَ إِذا مِتْنا بالاستفهام. و قرأ ابن عامر فى رواية عنه و أبو جعفر و الأعمش و الأعرج بهمزة واحدة، فيحتمل الاستفهام كقراءة الجمهور، و همزة الاستفهام مقدّرة، و يحتمل أن معناه الإخبار،

فتح القدير، ج۵، ص: ۸۵

و العامل فى الظرف مقدّر، أى: أ يبعثنا، أو أ نرجع إذا متنا لدلالة ما بعده عليه، هذا على قراءة الجمهور، و أما على القراءة الثانية فجواب إذا محذوف، أى: رجعنا، و قيل: ذلك رجع، و المعنى: استنكارهم للبعث بعد موتهم و مصيرهم ترابا. ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا: ذلِكَ أى: البعث رَجْعٌ بَعِيدٌ أى: بعيد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو الإمكان، يقال: رجعته أرجعه رجعا، و رجع هو يرجع رجوعا.
ثم ردّ سبحانه ما قالوه فقال: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ أى: ما تأكل من أجسادهم فلا يضلّ عنّا شيء من ذلك، و من أحاط علمه بشيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى فى القبور لا يصعب عليه البعث و لا يستبعد منه، و قال السدّى: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا من يموت منهم و من يبقى؛ لأنّ من مات دفن، فكأن الأرض تنقص من الأموات، و

قيل: المعنى: من يدخل فى الإسلام من المشركين، و الأوّل أولى وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ أى: حافظ لعدّتهم و أسمائهم و لكلّ شيء من الأشياء، و هو اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالكتاب هنا العلم و الإحصاء، و الأوّل أولى. و قيل: حفيظ بمعنى محفوظ، أى:

محفوظ من الشياطين، أو محفوظ فيه كل شيء. ثم أضرب سبحانه عن كلامهم الأوّل، و انتقل إلى ما هو أشنع منه، فقال: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِ فإنه تصريح منهم بالتكذيب بعد ما تقدّم عنهم من الاستبعاد، و المراد بالحق هنا القرآن. قال الماوردى: فى قول الجميع، و قيل: هو الإسلام، و قيل: محمد، و قيل: النبوّة الثابتة بالمعجزات لَمَّا جاءَهُمْ أى: وقت مجيئه إليهم من غير تدبّر و لا تفكّر و لا إمعان نظر، قرأ الجمهور:

بفتح اللام و تشديد الميم. و قرأ الجحدرى: بكسر اللام و تخفيف الميم فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ أى: مختلط مضطرب، يقولون مرة ساحر، و مرة شاعر، و مرة كاهن؛ قاله الزجاج و غيره. و قال قتادة: مختلف. و قال الحسن: ملتبس، و المعنى متقارب، و قيل: فاسد، و المعانى متقاربة. و منه قولهم: مرجت أمانات الناس:

أى فسدت، و مرج الدين و الأمر اختلط أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ أى: الاستفهام للتقريع و التوبيخ: أى كيف غفلوا عن النظر إلى السماء فوقهم كَيْفَ بَنَيْناها و جعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه وَ زَيَّنَّاها بما جعلنا فيها من المصابيح وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ أى: فتوق و شقوق و صدوع، و هو جمع فرج، و منه قول امرئ القيس:

تسدّ به فرجها من دبر «1» قال الكسائى: ليس فيها تفاوت و لا اختلاف و لا فتوق وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها أى: بسطناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ أى: جبالا ثوابت، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الرعد وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أى: من كل صنف حسن. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحج تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ هما علّتان لما تقدّم منتصبان بالفعل الأخير منها، أو بمقدّر، أى: فعلنا ما فعلنا للتبصير و التذكير، قاله الزجاج.

و قال أبو حاتم: انتصبا على المصدرية، أى: جعلنا ذلك تبصرة و ذكرى. و المنيب الراجع إلى اللّه بالتوبة،

---

(1). و صدره: لها ذنب مثل ذيل العروس.

المتدبر فى بديع صنعه و عجائب مخلوقاته. و فى سياق هذه الآيات تذكير لمنكرى البعث و إيقاظ لهم عن سنة الغفلة، و بيان لإمكان ذلك و عدم امتناعه، فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه، و هكذا قوله:

وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً أى: نزّلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به فى غالب أمورهم فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ أى: أنبتنا بذلك الماء بساتين كثيرة وَ حَبَّ الْحَصِيدِ أى: ما يقتات و يحصد من الحبوب، و المعنى: و حبّ الزرع الحصيد، و خصّ الحبّ لأنه المقصود، كذا قال البصريون. و قال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه كمسجد الجامع، حكاه الفرّاء. قال الضحاك: حبّ الحصيد: البرّ و الشعير، و قيل: كل حبّ يحصد و يدّخر و يقتات وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ هو معطوف على جنات؛ أى: و أنبتنا به النخل، و تخصيصها بالذكر مع دخولها فى الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار، و انتصاب باسقات على الحال، و هى حال مقدّرة لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة.

قال مجاهد و عكرمة و قتادة: الباسقات: الطوال، و قال سعيد بن جبير: مستويات. و قال الحسن و عكرمة و الفراء: مواقير حوامل، يقال للشاة بسقت إذا ولدت، و الأشهر فى لغة العرب الأوّل، يقال: بسقت النخلة بسوقا؛ إذا طالت، و منه قول الشاعر:

لنا خمر و ليست خمر كرمو لكن من نتاج الباسقات

كرام فى السّماء ذهبن طولاو فات ثمارها أيدى الجناة

و جملة لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ فى محل نصب على الحال من النخل، و الطلع: هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل، يقال: طلع الطّلع طلوعا. و النّضيد: المتراكب الّذى نضّد بعضه على بعض، و ذلك قبل أن ينفتح فهو نضيد فى أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد رِزْقاً لِلْعِبادِ انتصابه على المصدرية، أى: رزقناهم رزقا، أو على العلّة، أى: أنبتنا هذه الأشياء للرزق وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً أى: أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها و لا زرع، و جملة كَذلِكَ الْخُرُوجُ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الّذى أحيا اللّه به الأرض الميتة، قرأ الجمهور مَيْتاً على التخفيف، و قرأ أبو جعفر و خالد بالتثقيل. ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِ هم قوم شعيب كما تقدّم بيانه، و قيل: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى، و هم من قوم عيسى. و قيل: هم أصحاب الأخدود. و الرسّ: إما موضع نسبوا إليه، أو فعل، و هو حفر البئر، يقال: رس؛ إذا حفر بئرا وَ ثَمُودُ- وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ أى: فرعون و قومه وَ إِخْوانُ لُوطٍ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره، و قيل: هم من قوم إبراهيم، و كانوا من معارف لوط وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ تقدّم الكلام على الأيكة، و اختلاف القراء فيها فى سورة الشعراء مستوفى، و نبيهم الّذى بعثه اللّه إليهم شعيب وَ قَوْمُ تُبَّعٍ هو تبّع الحميرى الّذى تقدّم ذكره فى قوله: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ و اسمه سعد أبو كرب، و قيل: أسعد. قال قتادة: ذمّ اللّه قوم تبع، و لم يذمّه. كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ التنوين عوض عن المضاف إليه؛ أى: كل واحد من هؤلاء كذّب رسوله الّذى أرسله اللّه إليه، و كذب ما جاء به من الشرع، و اللام فى الرسل تكون للعهد،

و يجوز أن تكون للجنس؛ أى: كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل، و إفراد الضمير فى كذب باعتبار لفظ كل، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كأنه قيل له: لا تحزن و لا تكثر غمّك لتكذيب هؤلاء لك، فهذا شأن من تقدّمك من الأنبياء، فإن قومهم كذّبوهم و لم يصدّقهم إلا القليل منهم فَحَقَّ وَعِيدِ أى: وجب عليهم وعيدى، و حقّت عليهم كلمة العذاب، و حلّ بهم ما قدّره اللّه عليهم من الخسف و المسخ و الإهلاك بالأنواع التى أنزلها اللّه بهم من عذابه أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الّذى أنكرته الأمم؛ أى: أ فعجزنا بالخلق حين خلقناهم أوّلا و لم يكونوا شيئا، فكيف نعجز عن بعثهم، يقال: عييت بالأمر؛ إذا عجزت عنه و لم أعرف وجهه. قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة. و قرأ ابن أبى عبلة بتشديد الياء من غير إشباع. ثم ذكر أنهم فى شكّ من البعث، فقال:

بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أى: فى شك و حيرة و اختلاط من خلق مستأنف، و هو بعث الأموات، و معنى الإضراب أنهم غير منكرين لقدرة اللّه على الخلق الأوّل بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ق قال: هو اسم من أسماء اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: خلق اللّه من وراء هذه الأرض بحرا محيطا، ثم خلق وراء ذلك جبلا يقال له: ق، السماء الدنيا مرفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق وراء ذلك جبلا، يقال له قاف، السماء الثانية مرفرفة عليه، حتى عدّ سبع أرضين و سبعة أبحر و سبعة أجبل و سبع سماوات، قال: و ذلك قوله: وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ «1» قال ابن كثير: لا يصحّ سنده عن ابن عباس. و قال أيضا: و فيه انقطاع. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عنه أيضا قال: هو جبل، و عروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض، فإذا أراد اللّه أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرّك ذلك العرق الّذى يلى تلك القرية فيزلزلها و يحرّكها، فمن ثم يحرّك القرية دون القرية «2». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه أيضا: وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ قال: الكريم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: القرآن المجيد ليس شىء أحسن منه و لا أفضل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ قال: أجسادهم و ما يذهب منها. و أخرج ابن جرير

عنه أيضا فى الآيـة قال: ما تأكل من لحومهم و عظامهم و أشعارهم. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضـا قال: المريج:

الشىـء المتغير. و أخرج الحاكم و صـحّحه، و ابن مردويه عن قطبة قال: «سـمعت النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم يقرأ فى الصبح ق، فلما أتى على هـذه الآيهٔ وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ فجعلت أقول: ما بسوقها؟ قال: طولها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ قال: الطول.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ قال: متراكم بعضه على بعض. و أخرج

---

(١). لقمان: ٢٧.

(٢). هذا الكلام لا يستند إلى أصل شرعى و يتنافى مع الحقائق العلميهٔ فلا يعتد به.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٨٨

ابن جرير و ابن أبى حـاتم عنه أيضـا فى قوله: أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ يقول: لم يعينـا الخلق الأوّل، و فى قوله: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ فى شكّ من البعث.

[سورهٔ ق (٥٠): الآيات ١٦ الى ٣٥]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (١٧) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠)

وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥)

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ (٣٥)

قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرهٔ الربانيهٔ. و المراد بالإنسان الجنس، و قيل: آدم. و الوسوسهٔ هى فى الأصل: الصوت الخفىّ، و المراد بها هنا ما يختلج فى سرّه و قلبه و ضـميره، أى: نعلم ما يخفى و يكنّ فى نفسه، و من استعمال الوسوسهٔ فى الصوت الخفىّ قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت «١» فاستعمل لما خفى من حديث النفس وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ هو حبل العاتق، و هو ممتـدّ من ناحيهٔ حلقه إلى عاتقه، و هما وريدان من عن يمين و شـمال. و قال الحسن: الوريد الوتين، و هو عرق معلّق بالقلب. و هو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان، أى: نحن أقرب إليه من حبل وريـده، و الإضافهٔ بيانيهٔ، أى: حبل هو الوريد. و قيل: الحبل هو نفس الوريد، فهو من باب مسجد الجامع. ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به و كلّ به ملكين يكتبان و يحفظان عليه عمله إلزاما للحجهٔ فقـال: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ الظرف منتصب بما فى أَقْرَبُ من معنى الفعل، و يجوز أن يكون منصوبا بمقـدّر هو

اذکر، و المعنی: أنه أقرب إلیه من حیل وریده حین یتلقی المتلقیان، و هما الملکان الموکلان به ما یلفظ به و ما یعمل به، أی: یأخذان ذلک و یثبتانه، و التلقی: الأخذ، أی: نحن أعلم بأحواله غیر محتاجین إلی الحفظة الموکّلین به، و إنما جعلنا

---

(۱). و عجزه: کما استعان بریح عشرق زجل.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۸۹

ذلک إلزاما للحجة و توکیدا للأمر. قال الحسن و قتادة و مجاهد: المتلقیان: ملکان یتلقیان عملک أحد هما عن یمینک یکتب حسناتک، و الآخر عن شمالک یکتب سیئاتک. و قال مجاهد أیضا: و کل اللّه بالإنسان ملکین باللیل و ملکین بالنهار یحفظان عمله و یکتبان أثره عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِیدٌ إنما قال قعید و لم یقل قعیدان و هما اثنان، لأن المراد عن الیمین قعید و عن الشمال قعید. فحذف الأوّل لدلالة الثانی علیه، کذا قال سیبویه، کقول الشاعر «۱»:

نحن بما عندنا و أنت بماعندک راض و الرّأی مختلف

و قول الفرزدق:

و أبی فکان و کنت غیر غدور «۲» أی: و کان غیر غدور و کنت غیر غدور، و قال الأخفش و الفراء: إن لفظ قعید یصلح للواحد و الاثنین و الجمع، و لا یحتاج إلی تقدیر فی الأوّل. قال الجوهری و غیره من أئمة اللغة و النحو: فعیل و فعول مما یستوی فیه الواحد و الاثنان و الجمع، و القعید: المقاعد کالجلیس بمعنی المجالس ما یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَیْهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ أی: ما یتکلم من کلام، فیلفظه و یرمیه من فیه إلّا لدیه، أی: علی ذلک اللافظ رقیب، أی:

ملک یرقب قوله و یکتبه، و الرقیب: الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الّذی یکتب ما یقوله من خیر و شرّ، فکاتب الخیر هو ملک الیمین، و کاتب الشرّ ملک الشمال. و العتید: الحاضر المهیّأ. قال الجوهری: العتید: الحاضر المهیأ، یقال: عتّده تعتیدا و أعتده إعتادا، أی: أعدّه، و منه: وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّکَأً «۳» و المراد هنا أنه معدّ للکتابة مهیّأ لها وَ جاءَتْ سَکْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ لما بین سبحانه أن جمیع أعمالهم محفوظة مکتوبة ذکر بعده ما ینزل بهم من الموت، و المراد بسکرة الموت شدّته و غمرته التی تغشی الإنسان و تغلب علی عقله، و معنی بالحق: أنه عند الموت یتضح له الحق و یظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث و الوعد و الوعید، و قیل: الحق هو الموت، و قیل: فی الکلام تقدیم و تأخیر، أی: و جاءت سکرة الموت بالحق، و کذا قرأ أبو بکر الصدیق و ابن مسعود. و السکرة: هی الحق، فأضیفت إلی نفسها لاختلاف اللفظین، و قیل: الباء للملابسة کالتی فی قوله: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ «۴» أی: متلبسة بالحق، أی: بحقیقة الحال، و الإشارة بقوله:

ذلِکَ إلی الموت، و الحید: المیل، أی: ذلک الموت الّذی کنت تمیل عنه و تفرّ منه، یقال: حاد عن الشیء یحید حیودا و حیدة و حیدودة؛ مال عنه و عدل، و منه قول طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبتهوحدت کما حاد البعیر عن الدّحض

---

(۱). هو قیس بن الخطیم.

(۲). و صدره: إنّی ضمنت لمن أتانی ما جنی.

(۳). یوسف: ۳۱.

(۴). المؤمنون: ۲۰.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۹۰

و قال الحسن: تحيد: تهرب وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ عبّر عنه بالماضى لتحقّق وقوعه، و هذه هى النفخة الآخرة للبعث ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ أى: ذلك الوقت الّذى يكون فيه النفخ فى الصور يوم الوعيد الّذى أوعد اللّه به الكفار. قال مقاتل: يعنى بالوعيد العذاب فى الآخرة، و خصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد و الوعيد جميعا لتهويله وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ أى: جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها و من يشهد لها أو عليها.

و اختلف فى السائق و الشهيد، فقال الضحاك: السائق من الملائكة، و الشهيد من أنفسهم: يعنى الأيدى و الأرجل. و قال الحسن و قتادة: سائق يسوقها و شاهد يشهد عليها بعملها. و قال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين، سمّى سائقها لأنه يتبعها و إن لم يحثّها. و قال مجاهد: السائق و الشهيد ملكان. و قيل: السائق الملك، و الشهيد العمل، و قيل: السائق كاتب السيئات، و الشهيد كاتب الحسنات. و محل الجملة النصب على الحال. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا أى: يقال له: لقد كنت فى غفلة من هذا، و الجملة فى محل نصب على الحال من نفس أو مستأنفة، كأنه قيل ما يقال له؟ قال الضحاك: و المراد بهذا المشركون لأنهم كانوا فى غفلة من عواقب أمورهم. و قال ابن زيد: الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: لقد كنت يا محمد فى غفلة من الرسالة.

و قال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برّهم و فاجرهم، و اختار هذا ابن جرير. قرأ الجمهور بفتح التاء من كُنْتَ و فتح الكاف فى غطاءك و بصرك، حملا على ما فى لفظ كل من التذكير. و قرأ الجحدرى و طلحة بن مصرّف بالكسر فى الجميع؛ على أن المراد النفس فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ الّذى كان فى الدنيا، يعنى: رفعنا الحجاب الّذى كان بينك و بين أمور الآخرة، و رفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ أى: نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك فى الدنيا. قال السدّى: المراد بالغطاء أنه كان فى بطن أمه فولد، و قيل: إنه كان فى القبر فنشر، و الأوّل أولى. و البصر قيل: هو بصر القلب، و قيل: بصر العين.

و قال مجاهد: بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك و سيئاتك، و به قال الضحاك. وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ أى: قال الملك الموكّل به: هذا ما عندى من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته، كذا قال الحسن و قتادة و الضحاك. و قال مجاهد: إن الملك يقول للربّ سبحانه: هذا الّذى وكّلتنى به من بنى آدم قد أحضرته و أحضرت ديوان عمله. و روى عنه أنه قال: إن قرينه من الشياطين، يقول ذلك، أى:

هذا ما قد هيّأته لك بإغوائى و إضلالى. و قال ابن زيد: إن المراد هنا قرينه من الإنس، و عتيد مرفوع على أنه صفة لما إن كانت موصوفة، و إن كانت موصولة فهو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ هذا خطاب من اللّه عزّ و جلّ للسائق و الشهيد. قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به، و هما السائق و الشاهد. «كل كفّار» للنعم، «عنيد» مجانب للإيمان مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ لا يبذل خيرا مُعْتَدٍ ظالم لا يقرّ بتوحيد اللّه مُرِيبٍ شاكّ فى الحق، من قولهم: أراب الرجل؛ إذا صار ذا ريب. و قيل: هو خطاب للملكين من خزنة النار، و قيل: هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل و تكريره. قال الخليل و الأخفش: هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين

فتح القدير، ج‏5، ص: 91

يقولون: ارحلاها و ازجراها، و خذاه و أطلقاه للواحد. قال الفراء: العرب تقول للواحد: قوما عنا. و أصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله و غنمه و رفقته فى سفره اثنان، فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك، و منه قولهم للواحد فى الشعر: خليلىّ، كما قال امرؤ القيس:

خليلىّ مرّا بى على أمّ جندب نقضّ لبانات الفؤاد المعذّب

و قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل

و قول الآخر «١»:

فإن تزجرانى يا ابن عفّان أنزجرو إن تدعانى أحم عرضا ممنّعا

قال المازنى: قوله: أَلْقِيا يـدل على ألق ألق. قال المبرد: هى تثنيـة على التوكيـد، فناب «ألقيا» مناب ألق ألق. قال مجاهد و عكرمة: العنيـد: المعانـد للحق، و قيـل: المعرض عن الحق، يقـال: عنـد يعنـد بالكسر عنودا؛ إذا خالف الحق الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ يجوز أن يكون بـدلا من كـلّ، أو منصوبـا على الـذم، أو بـدلا من كفار، أو مرفوعا بالابتـداء أو الخبر فَأَلْقِياهُ فِى الْعَـذابِ الشَّـدِيدِ تأكيـدا للأمر الأول أو بـدل منه قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ هذه الجملة مسـتأنفة لبيان ما يقوله القريب، و المراد بالقرين هنا الشيطان الّذى قيّض لهذا الكافر، أنكر أن يكون أطغاه، ثم قال: وَ لكِنْ كانَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ أى:

عن الحق فدعوته فاستجاب لى، و لو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، و قيل: إن قرينه الملك الّذى كان يكتب سيئاته. و إن الكـافر يقـول: ربّ إنه أعجلنى فيجيبه بهـذا، كـذا قـال مقاتـل و سـعيد بن جـبير. و الأـوّل أولى، و به قـال الجمهور. قـالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل:

فماذا قال اللّه؟ فقيل: قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَ يعنى الكافرين و قرنائهم، نهاهم سبحانه عن الاختصام فى موقف الحساب، و جملة وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيـدِ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أن قد قدّمت إليكم بالوعيد بإرسال الرسل و إنزال الكتب، و الباء فى «بالوعيـد» مزيـدة للتأكيـد، أو على تضـمين قـدّم معنى تقـدّم ما يُبَـدَّلُ الْقَوْلُ لَـدَيَ أى: لا خلف لوعـدى، بل هو كائن لا محالة، و قد قضـيت عليكم بالعذاب فلا تبديل له، و قيل: هذا القول هو قوله: مَنْ جاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَهُ عَشْـرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها «٢» و قيـل: هو قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ* «٣» و قال الفراء و ابن قتيبـة: معنى الآية: أنه ما يكذب عندى بزيادة فى القول و لا ينقص منه لعلمى بالغيب، و هو قول الكلبى.

و اختاره الواحدى لأنه قال لَدَيَ و لم يقل: و ما يبدّل قولى، و الأوّل أولى. و قيل: إن مفعول قدّمت

---

(١). الشاعر هو سويد بن كراع، و البيت فى الأغانى (١١/ ١٢٣)، و شرح المعلقات السبع للزوزنى ص (٣٣)

(٢). الأنعام: ١٦٠.

(٣). هود: ١١٩.

إليكم هو ما يبدّل، أى: و قد قدّمت إليكم هو ما يبدّل، أى: و قد قدّمت إليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد، و هذا بعيد جدا وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ أى: لا أعذّبهم ظلما بغير جرم اجترموه و لا ذنب أذنبوه. و لما كان نفى الظّلّام لا يستلزم نفى مجرّد الظلم قيل: إنه هنا بمعنى الظالم كالتمّار بمعنى الثامر. و قيل: إن صيغة المبالغة لتأكيـد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم. و قيل: صـيغة المبالغـة لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: فلان ظالم لعبده و ظلّام لعبيده، و قيل: غير ذلك، و قد تقـدّم الكلاـم على هـذا فى سورة آل عمران و فى سورة الحـج يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَـلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيـدٍ قرأ الجمهور نَقُولُ بـالنون. و قرأ نافع و أبو بكر بالياء. و قرأ الحسن «أقول». و قرأ الأعمش: «يقال» و العامل فى الظرف ما يُبَـدَّلُ الْقَوْلُ لَـدَيَ أو محـذوف، أى: اذكر، أو أنذرهم، و هذا الكلام على طريقة التمثيل و التخييل، و لا سؤال و لا جواب، كذا قيل، و الأولى أنه على طريقـة التحقيق، و لاـ يمنع من ذلـك عقل و لا شـرع. قال الواحـدى: قال المفسـرون: أراها اللّه تصـديق قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ* فلما امتلأت قال لها:

هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيـدٍ أى: قد امتلأت و لم يبق فىّ موضع لم يمتلئ، و بهذا قال عطاء و مجاهد و مقاتل بن سـليمان. و

قيل: إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة، أى: أنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها. و قيل: إن المعنى أنها طلبت أن يزاد فى سعتها لتضايقها بأهلها، و المزيد إما مصدر كالمجيد، أو اسم مفعول كالمنيع، فالأول بمعنى: هل من زيادة، و الثانى بمعنى: هل من شىء تزيدونيه. ثم لما فرغ من بيان حال الكافرين شرع فى بيان حال المؤمنين فقال: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ أى: قرّبت للمتقين تقريبا غير بعيد أو مكان غير بعيد منهم، بحيث يشاهدونها فى الموقف، و ينظرون ما فيها مما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و يجوز أن يكون انتصاب غَيْرَ بَعِيدٍ على الحال. و قيل: المعنى: أنها زينت قلوبهم فى الدنيا بالترغيب و الترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، و الأوّل أولى. و الإشارة بقوله: هذا ما تُوعَدُونَ إلى الجنة التى أزلفت لهم، على معنى: هذا الّذى ترونه من فنون نعيمها ما توعدون، و الجملة بتقدير القول، أى: يقال لهم هذا ما توعدون. قرأ الجمهور: تُوعَدُونَ بالفوقية. و قرأ ابن كثير بالتحتية. لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ هو بدل من «لِلْمُتَّقِينَ» بإعادة الخافض، أو متعلق بقول محذوف هو حال، أى: مقولا لهم لكل أواب، و الأواب: الرجّاع إلى اللّه تعالى بالتوبة عن المعصية، و قيل: هو المسبح، و قيل: هو الذاكر للّه فى الخلوة. قال الشعبى و مجاهد: هو الّذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر اللّه منها.

و قال عبيد بن عمير: هو الّذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر اللّه فيه، و الحفيظ: هو الحافظ لذنوبه حتى يتوب منها. و قال قتادة: هو الحافظ لما استودعه اللّه من حقه و نعمته، قاله مجاهد. و قيل: هو الحافظ لأمر اللّه.

و قال الضحاك: هو الحافظ لوصية اللّه له بالقبول مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ الموصول فى محل جرّ بدلا أو بيانا لكل أوّاب، و قيل: يجوز أن يكون بدلا بعد بدل من المتقين، و فيه نظر لأنه لا يتكرر البدل، و المبدل منه واحد، و يجوز أن يكون فى محل رفع على الاستئناف، و الخبر «ادخلوها» بتقدير: يقال لهم: ادخلوها، و الخشية بالغيب أن يخاف اللّه و لم يكن رآه. و قال الضحاك و السدّى: يعنى فى الخلوة حيث لا يراه أحد.

فتح القدير، ج‏5، ص: 93

قال الحسن: إذا أرخى الستر و أغلق الباب، «و بالغيب» متعلق بمحذوف هو حال أو صفة لمصدر خشى وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ أى: راجع إلى اللّه مخلص لطاعته، و قيل: المنيب: المقبل على الطاعة، و قيل: السليم ادْخُلُوها هو بتقدير القول، أى: يقال لهم ادخلوها، و الجمع باعتبار معنى من، أى: ادخلوا الجنة بِسَلامٍ أى: بسلامة من العذاب، و قيل: بسلام من اللّه و ملائكته، و قيل: بسلامة من زوال النعم، و هو متعلق بمحذوف هو حال، أى: متلبسين بسلام، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى زمن ذلك اليوم كما قال أبو البقاء، و خبره يَوْمُ الْخُلُودِ و سماه يوم الخلود لأنه لا انتهاء له، بل هو دائم أبدا لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها أى: فى الجنة ما تشتهى أنفسهم و تلذ أعينهم من فنون النعم و أنواع الخير وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ من النعم التى لم تخطر لهم على بال، و لا مرّت لهم فى خيال.

و قد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «نزل اللّه من ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد، و هو يحول بين المرء و قلبه، و هو آخذ بناصية كل دابة، و هو معهم أينما كانوا».

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ قال: عروق العنق. و أخرج ابن المنذر عنه قال: هو نياط القلب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا، فى قوله: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شرّ حتى إنه ليكتب قوله: أكلت و شربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله و عمله فأقرّ منه ما كان من خير أو شرّ و ألقى سائره، فذلك قوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال: إنما يكتب الخير و الشرّ، لا يكتب: يا غلام أسرج الفرس، يا غلام اسقنى الماء. و قد ثبت فى الصحيحين و غير هما عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «إن اللّه غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم». و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و الحكيم و الترمذى و أبو

نعيم، و البيهقى فى الشعب، عن عمرة بن ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إن اللّه عند لسان كل قائل، فليتق اللّه عبد، و لينظر ما يقول». و أخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا مثله. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، و ابن عساكر عن عثمان بن عفان أنه قرأ: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ قال: سائق يسوقها إلى أمر اللّه، و شهيد يشهد عليها بما عملت. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة فى الآية قال:

السائق: الملك، و الشهيد: العمل. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: السائق: من الملائكة، و الشهيد: شاهد عليه من نفسه.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا قال: هو الكافر.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ قال: الحياة بعد الموت. و أخرج ابن

فتح القدير، ج‏5، ص: 94

جرير عنه أيضا، و قالَ قَرِينُهُ قال: شيطانه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم فى قوله:

لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَ قال: إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل اللّه حجّتهم و ردّ عليهم قولهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم «1». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا، فى قوله: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ قال: و هل فىّ من مكان يزاد فىّ؟ و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تزال جهنم يلقى فيها و تقول: هل من مزيد، حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض و تقول: قط قط، و عزّتك و كرمك. و لا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ اللّه لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة». و أخرجا أيضا من حديث أبى هريرة نحوه، و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث و النشور، عن أنس، فى قوله: وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ قال: يتجلى لهم الربّ تبارك و تعالى فى كل جمعة. و أخرج البيهقى فى الرؤية، و الديلمى عن علىّ فى الآية قال: يتجلى لهم الرب عزّ و جلّ. و فى الباب أحاديث.

[سورة ق (50): الآيات 36 الى 45]

وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (37) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ (40)

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)

خوّف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية قَبْلَهُمْ أى: قبل قريش و من وافقهم مِنْ قَرْنٍ أى: من أمة هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً أى: قوة كعاد و ثمود و غير هما فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ أى: ساروا و تقلّبوا فيها و طافوا بقاعها. و أصله من النقب، و هو الطريق. قال مجاهد: ضربوا و طافوا. و قال النضر بن شميل: دوّروا. و قال المؤرّج: تباعدوا. و الأوّل أولى. و منه قول امرئ القيس:

و قد نقّبت فى الآفاق حتّىرضيت من الغنيمة بالإياب

و مثله قول الحارث بن حلّزة:

نقّبوا فى البلاد من حذر المو* ت و جالوا فى الأرض كلّ مجال

---

(۱). «يجترم»: يرتكب الذّنب.

فتح القدير، ج۵، ص: ۹۵

و قرأ ابن عباس و الحسن و أبو العالية و أبو عمرو فى رواية: نقبوا بفتح القاف مخففة، و النقب: هو الخرق و الطريق فى الجبل و كذا المنقب و المنقبة، كذا قال ابن السّكّيت، و جمع النّقب نقوب. و قرأ السلمى و يحيى بن يعمر بكسر القاف مشدّدة على الأمر للتهديد، أى: طوّفوا فيها و سيروا فى جوانبها. و قرأ الباقون بفتح القاف مشدّدة على الماضى. هَلْ مِنْ مَحِيصٍ أى: هل لهم من مهرب يهربون إليه، أو مخلص يتخلصون به من العذاب. قال الزجاج: لم يروا محيصا من الموت، و المحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصا و حيوصا و محيصا و محاصا و حيصانا، أى: عدل و حاد، و الجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم، و فى هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت و العذاب مفرّا إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى أى:

فيما ذكر من قصتهم تذكرة و موعظة لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أى: عقل. قال الفراء: و هذا جائز فى العربية، تقول: ما لك قلب، و ما قلبك معك، أى: ما لك عقل، و ما عقلك معك، و قيل: المراد القلب نفسه، لأنه إذا كان سليما أدرك الحقائق و تفكّر كما ينبغى. و قيل: لمن كان له حياة و نفس مميزة، فعبّر عن ذلك بالقلب لأنه وطنها و معدن حياتها، و منه قول امرئ القيس:

أغرّك منّى أنّ حبّك قاتلىو أنّك مهما تأمرى النّفس «۱» تفعل

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ أى: استمع ما يقال له، يقال: ألق سمعك إلىّ، أى: استمع منى، و المعنى:

أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحى الحاكى لما جرى على تلك الأمم. قرأ الجمهور: أَلْقَى مبنيا للفاعل. و قرأ السلمى و طلحة و السدّى على البناء للمفعول و رفع السمع وَ هُوَ شَهِيدٌ أى: حاضر الفهم أو حاضر القلب؛ لأن من لا يفهم فى حكم الغائب و إن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه. قال الزجاج:

أى: و قلبه حاضر فيما يسمع. قال سفيان: أى لا يكون حاضرا و قلبه غائب. قال مجاهد و قتادة: هذه الآية فى أهل الكتاب، و كذا قال الحسن. و قال محمد بن كعب و أبو صالح: إنها فى أهل القرآن خاصة وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ قد تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف و غيرها وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ اللغوب: التعب و الإعياء، تقول: لغب يلغب بالضم لغوبا. قال الواحدى: قال جماعة المفسرين: إن اليهود قالوا: خلق اللّه السماوات و الأرض و ما بينهما فى ستة أيام، أوّلها الأحد و آخرها الجمعة، و استراح يوم السبت، فكذّبهم اللّه تعالى بقوله: وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ- فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ هذه تسلية للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أمر لهم بالصبر على ما يقوله المشركون، أى: هوّن عليك، و لا تحزن لقولهم و تلقّ ما يرد عليك منه بالصبر وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ أى: نزّه اللّه عمّا لا يليق بجنابه العالى متلبسا بحمده وقت الفجر و وقت العصر، و قيل: المراد صلاة الفجر و صلاة العصر، و قيل: الصلوات الخمس، و قيل: صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس و ركعتين قبل غروبها، و الأول أولى وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ من للتبعيض: أى سبحه بعض الليل، و قيل: هى صلاة الليل، و قيل: ركعتا الفجر، و قيل: صلاة العشاء،

---

(۱). و فى رواية: القلب.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۹۶

و الأوّل أولى وَ أَدْبارَ السُّجُودِ أى: و سبحه أعقاب الصلوات. قرأ الجمهور: أَدْبارَ بفتح الهمزة جمع دبر. و قرأ نافع و ابن كثير و حمزة بكسرها على المصدر، من أدبر الشي‌ء إدبارا؛ إذا ولى. و قال جماعة من الصحابة و التابعين: إدبار السجود الركعتان بعد المغرب، و إدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر. و قد اتفق القراء السبعة فى إدبار النجوم أنه بكسر الهمزة كما سيأتى وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ أى: استمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة؛ يوم ينادى المناد، و هو إسرافيل أو جبريل، و قيل: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، و هى صيحة القيامة، أعنى النفخة الثانية فى الصور من إسرافيل، و قيل: إسرافيل ينفخ، و جبريل ينادى أهل المحشر، و يقول: هلمّوا للحساب، فالنداء على هذا فى المحشر. قال مقاتل: هو إسرافيل ينادى بالحشر فيقول: يا أيها الناس هلمّوا للحساب مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر. قال قتادة: كنا نحدّث أنه ينادى من صخرة بيت المقدس. قال الكلبى: و هى أقرب الأرض إلى السماء باثنى عشر ميلا. و قال كعب: بثمانية عشر ميلا يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِ هو بدل من يوم ينادى، يعنى صيحة البعث، و «بالحق» متعلق بالصيحة ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ أى:

يوم الخروج من القبور. قال الكلبى: معنى بالحق: بالبعث. و قال مقاتل: يعنى أنها كائنة حقا إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ أى: نحيى فى الآخرة و نميت فى الدنيا، لا يشاركنا فى ذلك مشارك، و الجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ فنجازى كل عامل بعمله يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ قرأ الجمهور بإدغام التاء فى الشين. و قرأ الكوفيون بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين تخفيفا. و قرأ زيد بن علىّ: تشقق بإثبات التاءين على الأصل، و قرئ على البناء للمفعول، و انتصاب سِراعاً على أنه حال من الضمير فى عنهم، و العامل فى الحال تشقق، و قيل: العامل فى الحال هو العامل فى يوم، أى: مسرعين إلى المنادى الّذى ناداهم ذلِكَ حَشْرٌ أى: بعث و جمع عَلَيْنا يَسِيرٌ هين. ثم عزّى اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ يعنى من تكذيبك فيما جئت به و من إنكار البعث و التوحيد وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ أى: بمسلّط يجبرهم و يقهرهم على الإيمان، و الآية منسوخة بآية السيف فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ أى: من يخاف وعيدى لعصاتى بالعذاب، و أما من عداهم فلا تشتغل بهم. ثم أمره اللّه سبحانه بعد ذلك بالقتال.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ قال: من نصب. و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن عساكر عن جرير بن عبد اللّه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ «صلاة الصبح» وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ «صلاة العصر». و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «بتّ عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فصلّى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: يا ابن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم و ركعتان بعد المغرب إدبار السجود». و أخرج مسدّد فى مسنده، و ابن المنذر و ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن إدبار النجوم و إدبار السجود، فقال: إدبار السجود ركعتان

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۹۷

بعد المغرب، و إدبار النجوم ركعتان قبل الغداة». و أخرج محمد بن نصر فى الصلاة، و ابن المنذر عن عمر ابن الخطاب: إدبار السجود ركعتان بعد المغرب، و إدبار النجوم ركعتان قبل الفجر. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن علىّ بن أبى طالب مثله.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى هريرة مثله. و أخرج البخارى و غيره عن مجاهد قال: قال ابن عباس: أمره أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها. و أخرج ابن جرير عنه وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ قال: هى الصيحة. و أخرج الواسطى عنه أيضا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ قال:

من صخرة بيت المقدس. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن المنذر عنه أيضا ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ قال: يوم يخرجون إلى البعث من القبور. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: قالوا: يا رسول اللّه لو خوّفتنا، فنزلت:

فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ.

فتح القدير، ج۵، ص: ۹۸

سورة الذّاريات

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع.

و أخرج ابن الضّريس و النحّاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الذاريات بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۱ الى ۲۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً (۱) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (۲) فَالْجارِياتِ يُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (۴)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (۵) وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (۶) وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹)

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (۱۰) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (۱۱) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۱۹)

وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (۲۰) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳)

قوله: وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً يقال: ذرت الرّيح التراب تذروه ذروا؛ و أذرته تذريه ذريا. أقسم سبحانه بالرياح التى تذرى التراب، و انتصاب ذروا على المصدرية، و العامل فيها اسم الفاعل، و المفعول محذوف.

قرأ أبو عمرو و حمزة بإدغام تاء الذاريات فى ذال ذروا، و قرأ الباقون بدون إدغام. و قيل: المقسم به مقدّر و هو ربّ الذاريات و ما بعدها، و الأوّل أولى فَالْحامِلاتِ وِقْراً هى السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر، و انتصاب «وِقْراً» على أنه مفعول به، كما يقال: حمل فلان عدلا ثقيلا. قرأ الجمهور: وِقْراً بكسر الواو اسم ما يوقر، أى: يحمل، و قرئ بفتحها على أنه مصدر و العامل فيه اسم الفاعل، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة فَالْجارِياتِ يُسْراً هى السفن الجارية فى البحر بالرّياح جريا سهلا، و انتصاب «يسرا» على المصدرية، أو صفة لمصدر محذوف، أو على الحال، أى: جريا ذا يسر. و قيل: هى الرّياح، و قيل: السحاب، و الأوّل أولى، و اليسر: السهل فى كل شىء فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً هى الملائكة التى تقسم الأمور. قال الفرّاء: تأتى بأمر مختلف، جبريل بالغلظة، و ميكائيل صاحب الرحمة، و ملك الموت يأتى بالموت، و قيل: تأتى بأمر مختلف من الجدب و

الخصب و المطر و الموت و الحوادث. و قيل: هى السحب التى يقسم اللّه بها أمر العباد، و قيل: إن المراد بالذاريات و الحاملات و الجاريات و المقسمات: الرياح، فإنها توصف بجميع ذلك لأنها تذرو التراب، و تحمل السحاب، و تجرى فى الهواء، و تقسم الأمطار، و هو ضعيف جدّا.

فتح القدير، ج‏5، ص: 99

و انتصاب «أمرا» على المفعول به، و قيل: على الحال، أى: مأمورة، و الأوّل أولى إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ هذا جواب القسم، أى: إنما توعدون من الثواب و العقاب لكائن لا محالة. و ما يجوز أن تكون موصولة و العائد محذوف، و أن تكون مصدرية. و وجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ قرأ الجمهور: الْحُبُكِ بضم الحاء و الباء، و قرئ بضم الحاء و سكون الباء و بكسر الحاء و فتح الباء، و بكسر الحاء و ضم الباء. قال ابن عطية: هى لغات، و المراد بالسماء هنا هى المعروفة، و قيل: المراد بها السحاب، و الأوّل أولى.

و اختلف المفسرون فى تفسير الحبك؛ فقال مجاهد و قتادة و الربيع و غيرهم: المعنى ذات الخلق المستوى الحسن. قال ابن الأعرابى: كل شى‏ء أحكمته و أحسنت عمله فقد حبكته و احتبكته. و قال الحسن و سعيد ابن جبير: ذات الزينة. و روى عن الحسن أيضا أنه قال: ذات النجوم. و قال الضحاك: ذات الطرائق، و به قال الفراء، يقال لما تراه من الماء و الرمل إذا أصابته الريح: حبك. قال الفراء: الحبك تكسّر كل شى‏ء كالرمل إذا مرّت به الريح الساكنة، و الماء إذا مرّت به الرّيح، و يقال لدرع الحديد: حبك، و منه قول الشاعر:

كأنّما جلّلها الحوّاكطنفسة فى وشيها حباك

أى: طرق، و قيل: الحبك الشدّة، و المعنى: و السماء ذات الشدّة، و المحبوك: الشديد الخلق من فرس أو غيره، و منه قول الشاعر:

قد غدا يحملنى فى أنفهلاحق الإطلين «1» محبوك ممر

و قول الآخر «2»:

مرج الدّين فأعددت لهمشرف الحارك محبوك الكتد «3»

قال الواحدى بعد حكاية القول الأوّل: هذا قول الأكثرين إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك. أى: إنكم يا أهل مكة لفى قول مختلف متناقض فى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. بعضكم يقول:

إنه شاعر. و بعضكم يقول: إنه ساحر، و بعضكم يقول: إنه مجنون. و وجه تخصيص القسم بالسماء المتّصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم فى اختلافها باختلاف طرائق السماء، و استعمال الحبك فى الطرائق هو الّذى عليه أهل اللغة، و إن كان الأكثر من المفسرين على خلافه. على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال فى تفسير الحبك إلى هذا، و ذلك بأن يقال: إن ما فى السماء من الطرائق يصحّ أن يكون سببا لمزيد حسنها و استواء خلقها

---

(1). «الإطل»: الخاصرة.

(2). هو أبو دؤاد.

(3). «الكتد»: هو مجتمع الكتفين من الإنسان و الفرس.

فتح القدير، ج‏5، ص: 100

و حصول الزينة فيها و مزيد القوّة لها. و قيل: إن المراد بكونهم فى قول مختلف أن بعضهم ينفى الحشر و بعضهم يشكّ فيه، و قيل: كونهم يقرّون أن اللّه خالقهم و يعبدون الأصنام يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ أى: يصرف عن الإيمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بما جاء به، أو عن الحقّ، و هو البعث و التوحيد من صرف. و قيل: يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه اللّه عنه بالعصمة و التوفيق، يقال: أفكه يأفكه أفكا، أى: قلبه عن الشىء، و صرفه عنه، و منه قوله تعالى: قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا «١» و قال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، و الأفن: فساد العقل، و قيل: يحرمه من حرم. و قال قطرب: يخدع عنه من خدع. و قال اليزيدى: يدفع عنه من دفع قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ هذا دعاء عليهم. و حكى الواحدى عن المفسرين جميعا أن المعنى: لعن الكذابون.

قال ابن الأنبارى: و القتل إذا أخبر به عن اللّه كان بمعنى اللعن؛ لأن من لعنه اللّه فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قال الفرّاء: معنى «قتل»: لعن. و الخرّاصون: الكذابون الذين يتخرّصون فيما لا يعلمون، فيقولون:

إن محمدا مجنون، كذّاب، شاعر، ساحر. قال الزجاج: الخرّاصون: هم الكذابون، و الخرص: حزر ما على النخل من الرّطب تمرا، و الخرّاص: الّذى يخرصها، و ليس هو المراد هنا. ثم قال: الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ أى: فى غفلة و عمى و جهالة عن أمور الآخرة. و معنى ساهون: لاهون غافلون، و السهو: الغفلة عن الشىء و ذهابه عن القلب، و أصل الغمرة ما ستر الشىء و غطّاه، و منها غمرات الموت يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ أى: يقولون متى يوم الجزاء تكذيبا منهم و استهزاء. ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ أى: يحرقون و يعذّبون، يقال: فتنت الذهب؛ إذا أحرقته لتختبره؛ و أصل الفتنة: الاختبار. قال عكرمة: أ لم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل: فتن. و انتصاب يوم بمضمر: أى الجزاء: يوم هم على النار، و يجوز أن يكون بدلا من يوم الدين، و الفتح للبناء لكونه مضافا إلى الجملة، و قيل: هو منصوب بتقدير أعنى. و قرأ ابن أبى عبلة برفع يَوْمَ على البدل من يوم الدين، و جملة: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هى بتقدير القول، أى: يقال لهم ذوقوا عذابكم، قاله ابن زيد. و قال مجاهد:

حريقكم، و رجح الأوّل الفرّاء، و جملة هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ من جملة ما هو محكىّ بالقول، أى: هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاء منكم، و قيل: هى بدل من فتنتكم إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة، أى: هم فى بساتين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ أى: قابلين ما أعطاهم ربّهم من الخير و الكرامة، و جملة إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ تعليل لما قبلها، أى: لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين فى أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به، و ترك ما نهوا عنه. ثم بيّن إحسانهم الّذى وصفهم به فقال: كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ الهجوع: النوم بالليل دون النهار، و المعنى: كانوا قليلا ما ينامون من الليل، و «ما» زائدة، و يجوز أن تكون مصدرية أو موصولة، أى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه، و من ذلك قول أبى قيس بن الأسلت:

---

(١). الأحقاف: ٢٢.

 قد حصّت البيضة رأسى فماأطعم نوما غير تهجاع

و التهجاع: القليل من النوم، و فى ذلك قول عمرو بن معدى كرب:

أمن ريحانة الدّاعى السّميع يهيّجنى و أصحابى هجوع «١»

و قيل: «ما» نافية، أى: ما كانوا ينامون قليلا من الليل، فكيف بالكثير منه؟! و هذا ضعيف جدّا.

و هذا قول من قال: إن المعنى كان عددهم قليلا. ثم ابتدأ فقال: ما يَهْجَعُونَ و به قال ابن الأنبارى، و هو أضعف ممّا قبله. و قال قتادة فى تفسير هذه الآية: كانوا يصلون بين العشاءين، و به قال أبو العالية و ابن وهب وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أى: يطلبون فى أوقات السحر من اللّه سبحانه أن يغفر ذنوبهم.

قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى الأسحار، ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار. و قال الكلبى و مقاتل و مجاهد: هم بالأسحار يصلون، و ذلک أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة. و قال الضحاک: هى صلاة الفجر. ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال: وَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ أى: يجعلون فى أموالهم على أنفسهم حقا للسائل و المحروم تقرّبا إلى اللّه عزّ و جلّ. و قال محمد بن سيرين و قتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة، و الأوّل أولى، فيحمل على صدقة النفل وصلة الرحم و قرى الضيف؛ لأن السورة مكية، و الزكاة لم تفرض إلا بالمدينة، و سيأتى فى سورة: سأل سائل وَ الَّذِينَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ- لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ «٢» بزيادة معلوم، و السائل:

هو الّذى يسأل الناس لفاقته.

و اختلف فى تفسير المحروم، فقيل: هو الّذى يتعفّف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيا فلا يتصدّقون عليه، و به قال قتادة و الزهرى. و قال الحسن و محمد بن الحنفية: هو الّذى لا سهم له فى الغنيمة و لا يجرى عليه من الفىء شىء. و قال زيد بن أسلم: هو الّذى أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته. قال القرطبى: هو الّذى أصابته الجائحة، و قيل: الّذى لا يكتسب، و قيل: هو الّذى لا يجد غنى يغنيه، و قيل: هو الّذى يطلب الدنيا و تدبر عنه، و قيل: هو الملوک، و قيل: الكلب، و قيل: غير ذلک. قال الشعبى: لى اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليوم بأعلم منى فيه يومئذ. و الّذى ينبغى التعويل عليه ما يدلّ عليه المعنى اللغوى، و المحروم فى اللغة: الممنوع، من الحرمان و هو المنع، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل، و من أصيب ماله بجائحة أذهبته، و من حرم العطاء، و من حرم الصدقة لتعفّفه. ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل على توحيده و صدق وعده و وعيده فقال: وَ فِی الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ أى: دلائل واضحة و علامات ظاهرة من الجبال و البرّ و البحر و الأشجار و الأنهار و الثمار، و فيها آثار الهلاک للأمم الكافرة المكذّبة لما جاءت به رسل اللّه و دعتهم إليه، و خصّ الموقنين باللّه لأنهم الذين يعترفون بذلک و يتدبرون فيه فينتفعون

---

(١). هذا البيت قاله عمرو بن معدى كرب يتشوّق أخته، و كان قد أسرها الصّمّة أبو دريد بن الصّمّة.

(٢). المعارج: ٢٤- ٢٥.

به وَ فِی أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ أى: و فى أنفسكم آيات تدلّ على توحيد اللّه و صدق ما جاءت به الرّسل، فإنه خلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما إلى أن ينفخ فيه الروح، ثم تختلف بعد ذلک صورهم و ألوانهم و طبائعهم و ألسنتهم، ثم نقش خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم و دم و عظم و أعضاء و حواس و مجارى و منافس. و معنى أَ فَلا تُبْصِرُونَ أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستدلون بذلک على الخالق الرزّاق المتفرّد بالألوهية، و أنه لا شريک له و لا ضدّ و لا ندّ، و أن وعده الحقّ، و قوله الحقّ و أن ما جاءت إليكم به رسله هو الحقّ الّذى لا شک فيه و لا شبهة تعتريه، و قيل: المراد بالأنفس الأرواح، أى: و فى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وَ فِی السَّماءِ رِزْقُكُمْ أى: سبب رزقكم، و هو المطر فإنه سبب الأرزاق. قال سعيد ابن جبير و الضحاک: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر و ثلج. و قيل: المراد بالسماء السحاب، أى:

و فى السحاب رزقكم، و قيل: المراد بالسماء المطر، و سمّاه سماء لأنه ينزل من جهتها، و منه قول الشاعر «١»:

إذا نزل السّماء بأرض قوم‌رعيناه و إن كانوا غضابا

و قال ابن كيسان: يعنى و على ربّ السماء رزقكم، قال: و نظيره: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها «٢» و هو بعيد. و قال سفيان الثورى: أى عند اللّه فى السماء رزقكم. و قيل: المعنى: و فى السماء تقدير رزقكم. قرأ الجمهور رِزْقُكُمْ بالإفراد، و قرأ

يعقوب و ابن محيصن و مجاهد «و أرزاقكم» «٣» بالجمع. وَ ما تُوعَدُونَ من الجنة و النار، قاله مجاهد. قال عطاء: من الثواب و العقاب، و قال الكلبى:

من الخير و الشرّ، قال ابن سيرين: ما توعدون من أمر الساعة، و به قال الربيع. و الأولى الحمل على ما هو أعمّ من هذه الأقوال، فإن جزاء الأعمال مكتوب فى السماء، و القضاء و القدر ينزل منها، و الجنة و النار فيها.

ثم أقسم سبحانه بنفسه فقال: فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ أى: ما أخبركم به فى هذه الآيات.

قال الزجاج: هو ما ذكر من أمر الرزق و الآيات. قال الكلبى: يعنى ما قصّ فى الكتاب. و قال مقاتل:

يعنى من أمر الساعة. و قيل: إن ما فى قوله: وَ ما تُوعَدُونَ مبتدأ و خبره «فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ»، فيكون الضمير ل «ما».

ثم قال سبحانه: مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ قرأ الجمهور بنصب مِثْلَ على تقدير: كمثل نطقكم، و «ما» زائدة، كذا قال بعض الكوفيين إنه منصوب ينزع الخافض.

و قال الزجاج و الفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد، أى: لحقّ حقا مثل نطقكم. و قال المازنى: إن مِثْلَ مع ما بمنزلة شىء واحد فبنى على الفتح. و قال سيبويه: هو مبنىّ لإضافته إلى غير متمكّن، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم. و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر و الأعمش مثل بالرفع على أنه

---

(١). هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك.

(٢). هود: ۶.

(٣). فى تفسير القرطبى (١٧/ ٤١): رازقكم.

صفة لحقّ؛ لأن مثل نكرة و إن أضيفت فهى لا تتعرّف بالإضافة كغير. و رجّح قول المازنى أبو علىّ الفارسى، قال: و مثله قول حميد:

....

و ويحا لمن لم يدر ما هنّ ويحما فبنى ويح مع ما و لم يلحقه التنوين، و معنى الآية تشبيه تحقيق ما أخبر اللّه عنه بتحقيق نطق الآدمى و وجوده، و هذا كما تقول: إنه لحق كما أنك ها هنا، و إنه لحق كما أنك تتكلّم، و المعنى: أنه فى صدقه و وجوده كالذى تعرفه ضرورة.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى، و الدار قطنى فى الأفراد، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن على بن أبى طالب فى قوله:

وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً قال: الرياح: فَالْحامِلاتِ وِقْراً قال: السحاب: فَالْجارِياتِ يُسْراً قال: السفن فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً قال: الملائكة، و أخرج البزار، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه و ابن عساكر عن عمر بن الخطاب مثله و رفعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى إسناده أبو بكر بن أبى سبرة و هو ليّن الحديث، و سعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث، كذا قال البزار. قال ابن كثير: فهذا الحديث ضعيف رفعه، و أقرب ما فيه أنه موقوف على عمر. و أخرج الفريابى و ابن مردويه عن ابن عباس مثل قول علىّ. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ قال: حسنها و استواؤها. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عنه فى الآية قال: ذات البهاء و الجمال و إن بنيانها كالبرد المسلسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: ذات الخلق الحسن. و أخرج ابن

جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر مثله.

و أخرج ابن منيع عن علىّ قال: هى السماء السابعة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ قال: يضلّ عنه من ضلّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ قال: لعن المرتابون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: هم الكهنة الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ قال: فى غفلة لاهون. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الغمرة: الكفر و الشك.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: فى ضلالتهم يتمادون، و فى قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ قال: يعذّبون. و أخرج هؤلاء عنه أيضا فى قوله: آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ قال: الفرائض إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ قال: قبل أن تنزل الفرائض يعملون.

و أخرج هؤلاء أيضا و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه أيضا كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ قال: ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلّون فيها. و أخرج ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى الآية يقول: قليلا ما كانوا ينامون. و أخرج أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أنس فى الآية قال:

فتح القدير، ج‏5، ص: 104

كانوا يصلّون بين المغرب و العشاء. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ قال: يصلّون. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ قال: سوى الزكاة، يصل بها رحما، أو يقرى بها ضيفا، أو يعين بها محروما. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: السائل الّذى يسأل الناس، و المحروم الّذى ليس له سهم فى فيء المسلمين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: المحروم هو المحارف الّذى يطلب الدنيا و تدبر عنه و لا يسأل الناس، فأمر اللّه المؤمنين برفده. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية: قالت:

هو المحارف الّذى لا يكاد يتيسّر له مكسبه. و أخرج الترمذى، و البيهقى فى سننه، عن فاطمة بنت قيس أنها سألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية قال: «إن فى المال حقا سوى الزكاة» و تلا هذه الآية لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ إلى قوله: وَ فِي الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن الزبير فى قوله: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ قال: سبيل الغائط و البول.

[سورة الذاريات (51): الآيات 24 الى 37]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33)

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37)

قوله: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ذكر سبحانه قصة إبراهيم ليبيّن أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك. و فى

الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول اللّه، و أنه إنما علمه بطريق الوحى. و قيل: إن «هل» بمعنى قد، كما فى قوله: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ «١» و الضيف مصدر يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، و قد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم فى سورة هود و سورة الحجر، و المراد بكونهم مكرمين: أنهم مكرمون عند اللّه سبحانه لأنهم ملائكة جاءوا إليه فى صورة بنى آدم، كما قال تعالى فى وصفهم فى آية أخرى: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ «٢» و قيل: هم جبريل و ميكائيل و إسرافيل.

و قال مقاتل و مجاهد: أكرمهم إبراهيم و أحسن إليهم و قام على رؤوسهم، و كان لا يقوم على رؤوس الضيف، و أمر امرأته أن تخدمهم. و قال الكلبى: أكرمهم بالعجل إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ العامل فى الظرف «حديث»، أى: هل أتاك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه، أو العامل فيه ضيف لأنه مصدر، أو العامل فيه

---

(١). الإنسان: ١.

(٢). الأنبياء: ٢٦.

المكرمين، أو العامل فيه فعل مضمر، أى: اذكر فَقالُوا سَلاماً أى: نسلّم عليك سلاما قالَ سَلامٌ أى: قال إبراهيم سلام. قرأ الجمهور بنصب سَلاماً الأول و رفع الثانى، فنصب الأول على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا، و المراد به التحية، و يحتمل أن يكون المعنى: فقالوا كلاما حسنا لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو، فيكون على هذا مفعولا به. و أما الثانى فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أى:

عليكم سلام، و لهذا قال أهل المعانى: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة. و قرئ بالرفع فى الموضعين، و قرئ بالنصب فيهما. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر السين، و قرئ «سلم» فيهما. قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: أنتم قوم منكرون. قيل: إنه قال هذا فى نفسه و لم يخاطبهم به؛ لأن ذلك يخالف الإكرام. قيل: إنه أنكرهم لكونهم ابتدءوا بالسلام و لم يكن ذلك معهودا عند قومه، و قيل: لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية، و قيل: لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين يعرفهم، و قيل: غير ذلك فَراغَ إِلى أَهْلِهِ قال الزّجّاج: أى عدل إلى أهله، و قيل: ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه، و المعنى متقارب، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الصافات. يقال: راغ و ارتاغ بمعنى طلب، و ماذا يريغ: أى يرصد و يطلب، و أراغ إلى كذا: مال إليه سرّا و حاد فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ أى: فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم، كما فى سورة هود بِعِجْلٍ حَنِيذٍ و فى الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة، أى: فذبح عجلا فحنذه فجاء به فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ أى: قرّب العجل إليهم و وضعه بين أيديهم ف قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ الاستفهام للإنكار، و ذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه. قال فى الصّحاح: العجل ولد البقر، و العجول مثله، و الجمع العجاجيل و الأنثى عجلة، و قيل: العجل فى بعض اللغات الشاة فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أى: أحسّ فى نفسه خوفا منهم لما لم يأكلوا ممّا قرّبه إليهم. و قيل: معنى أوجس أضمر، و إنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه، و من أخلاق الناس أنّ من أكل من طعام إنسان صار آمنا منه، فظن إبراهيم أنهم جاءوا للشرّ و لم يأتوا للخير. و قيل: إنه وقع فى قلبه أنهم ملائكة، فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف قالُوا لا تَخَفْ و أعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة اللّه سبحانه وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ أى: بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند ما يبلغ مبالغ الرجال، و المبشّر به عند الجمهور هو إسحاق. و قال مجاهد وحده: إنه إسماعيل، و هو مردود بقوله: وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ و قد قدّمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان، و إنما هو كقولك: أقبل يشتمنى، أى: أخذ فى شتمى، كذا قال الفراء و غيره. و

الصرّة: الصيحة و الضجّة، و قيل:

الجماعة من الناس. قال الجوهرى: الصرّة: الضجّة و الصيحة، و الصرّة: الجماعة، و الصرّة، الشدّة من كرب أو غيره، و المعنى: أنها أقبلت فى صيحة، أو فى ضجّة، أو فى جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة، و من هذا قول امرئ القيس:

فألحقه بالهاديات و دونهجواحرها فى صرّة لم تزيّل «۱»

---

(۱). «الهاديات»: أوائل بقر الوحش. «جواحرها»: متخلفاتها. «لم تزيل»: لم تتفرق.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۰۶

و قوله: فِي صَرَّةٍ فى محل نصب على الحال فَصَكَّتْ وَجْهَها أى: ضربت بيدها على وجهها؛ كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب. قال مقاتل و الكلبى: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجّبا، و معنى الصكّ: ضرب الشىء بالشىء العريض، يقال صكّه، أى: ضربه وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ أى: كيف ألد و أنا عجوز عقيم؟ استبعدت ذلك لكبر سنها، و لكونها عقيما لا تلد قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ أى:

كما قلنا لك و أخبرناك قال: ربك فلا تشكّى فى ذلك و لا تعجبى منه، فإن ما أراده اللّه كائن لا محالة و لم نقل ذلك من جهة أنفسنا، و قد كانت إذ ذاك بنت تسع و تسعين سنة، و إبراهيم ابن مائة سنة، و قد سبق بيان هذا مستوفى، و جملة إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ تعليل لما قبلها، أى: حكيم فى أفعاله و أقواله، عليم بكل شىء، و جملة قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ مستأنفة جوابا عن سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة، و الخطب: الشأن و القصة، و المعنى: فما شأنكم و ما قصّتكم أيها المرسلون من جهة اللّه، و ما ذاك الأمر الّذى لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ يريدون قوم لوط لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ أى: لنرجمهم بحجارة من طين متحجّر، و انتصاب مُسَوَّمَةً على الصفة لحجارة، أو على الحال فى الضمير المستكن فى الجار و المجرور، أو من الحجارة لكونها قد وصفت بالجار و المجرور، و معنى: مُسَوَّمَةً معلّمة بعلامات تعرف بها، و قيل: كانت مخطّطة بسواد و بياض، و قيل: بسواد و حمرة، و قيل: معروفة بأنها حجارة العذاب، و قيل: مكتوب على كل حجر من يهلك بها، و قوله: عِنْدَ رَبِّكَ ظرف لمسومة، أى: معلمة عنده لِلْمُسْرِفِينَ المتمادين فى الضلالة المجاوزين الحدّ فى الفجور. و قال مقاتل: للمشركين، و الشرك أسرف الذنوب و أعظمها فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هذا كلام من جهة اللّه سبحانه، أى: لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى:

غير أهل بيت. يقال: بيت شريف و يراد به أهله، و قيل: و هم أهل بيت لوط، و الإسلام: الانقياد و الاستسلام لأمر اللّه سبحانه، فكل مؤمن مسلم، و من ذلك قوله: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا «۱» و قد أوضح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الفرق بين الإسلام و الإيمان فى الحديث فى الصحيحين و غير هما، الثابت من طرق، أنه سئل عن الإسلام فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا اللّه، و تقيم الصلاة.

و تؤتى الزكاة، و تحجّ البيت، و تصوم رمضان»، و سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن باللّه و ملائكته و كتبه و رسله، و القدر خيره و شره» «۲» فالمرجع فى الفرق بينهما هو هذا الّذى قاله الصادق المصدوق، و لا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم فى رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة متناقضة، و أما ما فى الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام و الإيمان فذلك باعتبار المعانى اللغوية و الاستعمالات العربية، و الواجب

---

(١). الحجرات: ١۴.

(٢). سقط من الحديث: و اليوم الآخر.

فتح القدير، ج۵، ص: ١٠٧

تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، و الحقيقة الشرعية هى هذه التى أخبرنا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و إجابة سؤال السائل له عن ذلك بها وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ أى: و تركنا فى تلك القرى علامة و دلالة تدلّ على ما أصابهم من العذاب، كلّ من يخاف عذاب اللّه و يخشاه من أهل ذلك الزمان و من بعدهم، و هذه الآية هى آثار العذاب فى تلك القرى، فإنها ظاهرة بيّنة، و قيل: هى الحجارة التى رجموا بها، و إنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم لأنهم الذين يتّعظون بالمواعظ و يتفكّرون فى الآيات دون غيرهم ممّن لا يخاف ذلك، و هم المشركون المكذّبون بالبعث و الوعد و الوعيد.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عباس فى قوله: فِي صَرَّةٍ قال: فى صيحة فَصَكَّتْ وَجْهَها قال: لطمت. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قال: لوط و ابنتيه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا ثلاثة عشر.

[سورة الذاريات (۵١): الآيات ٣٨ الى ۶٠]

وَ فِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۴٠) وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴١) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴٢)

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (۴٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۴۶) وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ (۴٧)

وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (۴٨) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۴٩) فَفِرُّوا إِلَى اللّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵٠) وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵١) كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵٢)

أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۵٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (۵۵) وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ (۵۶) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵٧)

إِنَّ اللّهَ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (۵٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (۵٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (۶٠)

قوله: وَ فِي مُوسى معطوف على قوله «فيها» بإعادة الخافض، و التقدير: و تركنا فى قصة موسى آية، أو معطوف على وَ فِي الْأَرْضِ و التقدير: و فى الأرض و فى موسى آيات، قاله الفراء و ابن عطية و الزمخشرى. قال أبو حيان: و هو بعيد جدا ينزّه القرآن عن مثله. و يجوز أن يكون متعلقا بجعلنا مقدّر لدلالة وَ تَرَكْنا عليه قيل: و يجوز أن يعطف على «وَ تَرَكْنا» على طريقة قول القائل:

علفتها تبنا و ماء باردا و التقدير: و تركنا فيها آية، و جعلنا فى موسى آية. قال أبو حيان: و لا حاجة إلى إضمار و جعلنا؛ لأنه قد أمكن أن يكون العامل فى المجرور: و تركنا. و الوجه الأوّل هو الأولى، و ما عداه متكلّف متعسّف لم تلجئ

فتح القدير، ج۵، ص: ١٠٨

إليه حاجة، و لا دعت إليه ضرورة إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية، أى: كائنة وقت أرسلناه، أو بآية نفسها، و الأوّل أولى. و السلطان المبين: الحجّة الظاهرة الواضحة، و هى العصى و ما معه من الآيات فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ

التولى: الإعراض، و الركن: الجانب.

قاله الأخفش. و المعنى: أعرض بجانبه كما فى قوله: أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ* «١» قال الجوهرى: ركن الشىء جانبه الأقوى، و هو يأوى إلى ركن شديد، أى: عزّ و منعة. و قال ابن زيد و مجاهد و غير هما: الركن جمعه و جنوده الذين كان يتقوّى بهم، و منه قوله تعالى: أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ «٢» أى: عشيرة و منعة، و قيل:

الركن: نفس القوّة، و به قال قتادة و غيره، و منه قول عنترة:

فما أوهى مراس الحرب ركنىو لكن ما تقادم من زمانى

وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أى: قال فرعون فى حقّ موسى: هو ساحر أو مجنون، فردّد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحرا أو مجنونا، و هذا من اللعين مغالطة و إيهام لقومه، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسّر على يد ساحر، و لا يفعله من به جنون. و قيل: إنّ «أو» بمعنى واو، لأنه قد قال ذلك جميعا و لم يتردّد، قاله المؤرّج و الفرّاء، كقوله: وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً «٣» فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ أى: طرحناهم فى البحر، و جملة وَ هُوَ مُلِيمٌ فى محل نصب على الحال، أى: آت بما يلام عليه حين ادّعى الربوبية، و كفر باللّه، و طغى فى عصيانه وَ فِي عادٍ أى: و تركنا فى قصة عاد آية إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ و هى التى لا خير فيها و لا بركة، لا تلقح شجرا و لا تحمل مطرا، إنما هى ريح الإهلاك و العذاب، ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال: ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ أى: ما تذر من شىء مرّت عليه من أنفسهم و أنعامهم و أموالهم إلا جعلته كالشىء الهالك البالى. قال الشاعر «۴»:

تركتنى حين كفّ الدهر من بصرىو إذ بقيت كعظم الرّمّة البالى

و قال قتادة: إنه الّذى ديس من يابس النبات، و قال السدّى و أبو العالية: إنه التراب المدقوق، و قال قطرب: إنه الرماد، و أصل الكلمة من رمّ العظم: إذا بلى فهو رميم، و الرّمة: العظام البالية وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ أى: و تركنا فى قصة ثمود آية وقت قلنا لهم: عيشوا بالدنيا إلى حين وقت الهلاك، و هو ثلاثة أيام، كما فى قوله: تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ «۵» فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أى: تكبروا عن امتثال أمر اللّه فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ و هى كل عذاب مهلك. قرأ الجمهور: الصَّاعِقَةُ و قرأ عمر

---

(١). الإسراء: ٨٣.

(٢). هود: ٨٠.

(٣). هو جرير.

(۴). الإنسان: ٢۴.

(۵). هود: ۶۵.

ابن الخطاب و حميد و ابن محيصن و مجاهد و الكسائى «الصّعقة». و قد مرّ الكلام على الصاعقة فى البقرة، و فى مواضع وَ هُمْ يَنْظُرُونَ أى: يرونها عيانا، و الجملة فى محل نصب على الحال، و قيل: إن المعنى:

ينتظرون ما وعدوه من العذاب، و الأوّل أولى فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ أى: لم يقدروا على القيام. قال قتادة: من نهوض، يعنى لم ينهضوا من تلك الصرعة، و المعنى: أنهم عجزوا عن القيام فضلا عن الهرب، و مثله قوله: فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ* «١». وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ أى: ممتنعين من عذاب اللّه بغيرهم وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ أى: من قبل هؤلاء المهلكين، فإن زمانهم متقدّم على زمن فرعون و عاد و ثمود إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ أى: خارجين عن طاعة اللّه. قرأ حمزة و الكسائى و أبو عمرو بخفض قوم أى: و فى

قوم نوح آية، و قرأ الباقون بالنصب، أى: و أهلكنا قوم نوح، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة، أو على مفعول نبذناهم، أى: نبذناهم و نبذنا قوم نوح، أو يكون العامل فيه اذكر وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ أى: بقوّة و قدرة، قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال، و التقدير: و بنينا السماء بنيناها. و قرأ أبو السمال و ابن مقسم برفعها على الابتداء وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ الموسع: ذو الوسع و السعة، و المعنى: إنا لذو سعة بخلقها و خلق غيرها لا نعجز عن ذلك، و قيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة و القدرة، و قيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهرى: و أوسع الرجل: صار ذا سعة و غنى وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها قرأ الجمهور بنصب الْأَرْضَ على الاشتغال. و قرأ أبو السمال و ابن مقسم برفعها، كما تقدّم فى قوله: وَ السَّماءَ بَنَيْناها و معنى فرشناها: بسطناها كالفراش فَنِعْمَ الْماهِدُونَ أى: نحن، يقال: مهدت الفراش: بسطته و وطّأته، و تمهيد الأمور: تسويتها و إصلاحها وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ أى: صنفين و نوعين من ذكر و أنثى، و برّ و بحر، و شمس و قمر، و حلو و مرّ، و سماء و أرض، و ليل و نهار، و نور و ظلمة، و جنّ و إنس، و خير و شر لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى: خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شىء، و تستدلوا بذلك على توحيده و صدق وعده و وعيده فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أى: قل لهم يا محمد: ففرّوا إلى اللّه بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر و المعاصى، و جملة إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ تعليل للأمر بالفرار، و قيل: معنى: فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ اخرجوا من مكة. و قال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شىء غير اللّه، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه. و قيل: فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرّحمن، و قيل: فرّوا من الجهل إلى العلم، و معنى إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ أى: من جهته منذر بيّن الإنذار وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ نهاهم عن الشرك باللّه بعد أمرهم بالفرار إلى اللّه، و جملة:

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ تعليل للنهى كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة، و أن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول اللّه، و وصفه بالسحر و الجنون، قد كان ممّن قبلهم لرسلهم، و كَذلِكَ فى محل رفع على أنه

---

(١). الأعراف: ٧٨.

خبر محذوف، أى: الأمر كذلك. ثم فسّر ما أجمله بقوله: ما أَتَى إلخ، أو فى محل نصب نعتا لمصدر محذوف، أى: أنذركم إنذارا كإنذار من تقدّمنى من الرسل الذين أنذروا قومهم، و الأوّل أولى أَ تَواصَوْا بِهِ الاستفهام للتقريع و التوبيخ و التعجيب من حالهم، أى: هل أوصى أوّلهم آخرهم بالتكذيب و تواطؤوا عليه بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ إضراب على التّواصى إلى ما جمعهم من الطغيان، أى: لم يتواصوا بذلك، بل جمعهم الطغيان و هو مجاوزة الحدّ فى الكفر. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالإعراض عنهم فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أى: أعرض عنهم، و كفّ عن جدالهم و دعائهم إلى الحق، فقد فعلت ما أمرك اللّه به و بلّغت رسالته فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ عند اللّه بعد هذا لأنك قد أدّيت ما عليك، و هذا منسوخ بآية السيف. ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير و الموعظة بالتى هى أحسن، فقال: وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ قال الكلبى: المعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم. و قال مقاتل: عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان فى علم اللّه أنه يؤمن. و قيل: ذكّرهم بالعقوبة و أيام اللّه، و خصّ المؤمنين بالتذكير لأنهم المنتفعون به، و جملة وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مستأنفة مقرّرة لما قبلها؛ لأن كون خلقهم لمجرّد العبادة مما ينشط رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للتذكير، و ينشطهم للإجابة. قيل: هذا خاصّ فى من سبق فى علم اللّه سبحانه أنه يعبده، فهو عموم مراد به الخصوص. قال الواحدى: قال المفسرون: هذا خاصّ لأهل طاعته، يعنى من أهّل من الفريقين. قال: و هذا قول الكلبى و الضحاك و اختيار الفرّاء و ابن قتيبة.

قال القشيرى: و الآيهٔ دخلها التخصيص بالقطع، لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادهٔ و لا أرادها منهم، و قد قال:
وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ «١» و من خلق لجهنم لا يكون ممّن خلق للعبادهٔ. فالآيـهٔ محمولهٔ على المؤمنين منهم، و يدل عليه قراءهٔ ابن مسعود و أبىّ بن كعب: «و ما خلقت الجنّ و الإنس من المؤمنين إلا ليعبدون. و قال مجاهد: إن المعنى: إلا ليعرفونى. قـال الثعلبى: و هـذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده و توحيـده. و روى عن مجاهـد أنه قال: المعنى إلا لآمرهم و أنهاهم، و يدلّ عليه قوله: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٢» و اختار هذا الزجاج. و قال زيد بن أسلم:
هو ما جبلوا عليه من السعادهٔ و الشقاوهٔ، فخلق السعداء من الجن و الإنس للعبادهٔ، و خلق الأشقياء للمعصيهٔ.
و قال الكلبى: المعنى إلا ليوحـدون، فأما المؤمن فيوحّـده فى الشدّهٔ و الرخاء، و أما الكافر فيوحّده فى الشدّهٔ دون النعمهٔ، كما فى قوله: وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ «٣» و قال جماعهٔ: إلا ليخضعوا لى و يتذلّلوا، و معنى العبادهٔ فى اللغهٔ: الذل و الخضوع و الانقياد، و كل مخلوق من الإنس و الجنّ خاضع لقضاء اللّه، متذلل لمشـيئته، منقاد لما قدّره عليه. خلقهم على ما أراد، و رزقهم كما قضـى، لا يملك أحـد منهم لنفسه نفعا و لا ضـرا. و وجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم ما أُرِيـدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ هذه الجملهٔ فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده، و أنه لا يريد منهم منفعهٔ كما تريده السادهٔ

---

(١). الأعراف: ١٧٩.

(٢). التوبهٔ: ٣١.

(٣). لقمان: ٣٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١١١

من عبيدهم، بل هو الغنىّ المطلق الرازق المعطى. و قيل: المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من خلقى و لا أن يرزقوا أنفسـهم، و لا يطعموا أحـدا من خلقى و لا يطعموا أنفسـهم، و إنما أسـند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال اللّه، فمن أطعم عيال اللّه فهو كمن أطعمه. و هذا كما ورد فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «يقول اللّه عبدى استطعمتک فلم تطعمنى» أى: لم تطعم عبادى، و «من» فى قوله: مِنْ رِزْقٍ زائدهٔ لتأكيد العموم.
ثم بيّن سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره، فقال: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ لا رزّاق سواه و لا معطى غيره، فهو الّذى يرزق مخلوقاته، و يقوم بما يصلحهم، فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادهٔ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق، أو لذو، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. قرأ الجمهور:
الرَّزَّاقُ و قرأ ابن محيصن: «الرزاق» و قرأ الجمهور: الْمَتِينُ بـالرفع، و قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش بالجرّ صـفهٔ للقوهٔ، و التـذكير لكون تأنيثها غير حقيقى. قال الفراء: كان حقه المتينـهٔ، فذكّرها لأنه ذهب بها إلى الشـىء المبرم المحكم الفتل، يقال: حبل متين، أى: محكم الفتـل، و معنى المتين: الشديـد القوهٔ هنا فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ أى: ظلموا أنفسـهم بالكفر و المعاصـى، فـإن لهم ذنوبا، أى: نصـيبا من العـذاب مثل نصـيب الكفار من الأمم السابقـهٔ. قال ابن الأعرابى: يقال يوم ذنوب، أى: طويل الشرّ لا ينقضى، و أصل الذّنوب فى اللغهٔ الدلو العظيمهٔ، و من استعمال الذنوب فى النصب من الشىء قول الشاعر «١»:
لعمرک و المنايا طارقاتلكلّ بنى أب منها ذنوب
و ما فى الآيـهٔ مأخوذ من مقاسـمهٔ السـقاهٔ الماء بالـدلو الكبير، فهو تمثيل، جعل الـذنوب مكان الحظ و النصـيب، قاله ابن قتيبهٔ فَلا

يَسْتَعْجِلُونِ أى: لا- يطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب، كما فى قولهم: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* «٢». فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِی يُوعَدُونَ قيل: هو يوم القيامة، و قيل: يوم بدر، و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر فى قوله: فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ عن ابن عباس قال: بقومه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه فى قوله: الرِّيحَ الْعَقِيمَ قال: الشديدة التى لا تلقح شيئا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: لا تلقح الشجر و لا تثير السحاب، و فى قوله: إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ قال: كالشىء الهالك. و أخرج الفريابى و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: الريح:

العقيم النكباء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ قال: بقوة. و أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن المنذر فى قوله: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ قال: أمره اللّه أن يتولّى عنهم ليعذبهم، و عذر محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم قال: وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ فنسختها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

---

(١). هو أبو ذؤيب.

(٢). الأعراف: ٧٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١١٢

قال: ليقرّوا بالعبودية طوعا أو كرها. و أخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال: على ما خلقتهم عليه من طاعتى و معصيتى و شقوتى و سعادتى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه أيضا فى قوله: الْمَتِينُ يقول: الشديد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله:

ذَنُوباً قال: دلوا.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١١٣

سورة الطّور

اشارة

و هى مكية، قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت الطور بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى المغرب بالطور. و أخرج البخارى و غيره عن أمّ سلمة:

«أنها سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى إلى جنب البيت بالطور و كتاب مسطور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ٢٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الطُّورِ (١) وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِی رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (٧) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (٩)
وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٤)
أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (١٧) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)
مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

قوله: وَ الطُّورِ قال الجوهری: هو الجبل الّذی کلّم اللّه علیه موسی. قال مجاهد: الطور بالسريانية الجبل، و المراد به طور سيناء. قال مقاتل بن حيان: هما طوران: يقال لأحد هما طور سينا، و للآخر طور زيتا، لأنهما ينبتان التين و الزيتون. و قيل: هو جبل مدين، و قيل: إن الطور كل جبل ينبت، و ما لا ينبت فليس بطور، أقسم اللّه سبحانه بهذا الجبل تشريفا له و تكريما. وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ المسطور: المكتوب، و المراد بالكتاب: القرآن، و قيل: هو اللوح المحفوظ، و قيل: جميع الكتب المنزلة، و قيل: ألواح موسى، و قيل: ما تكتبه الحفظة، قاله الفراء و غيره، و مثله: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً «١» و قوله:
وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ «٢» فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ متعلّق بمسطور، أی: مکتوب فی رقّ. قرأ الجمهور:
فِي رَقٍ بفتح الراء، و قرأ أبو السمال بكسرها. قال الجوهری: الرّقّ بالفتح ما يكتب فيه، و هو جلد رقيق، و منه قوله تعالى: فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ قال المبرد: الرقّ: ما رقّ من الجلد ليكتب فيه، و المنشور:
المبسوط. قال أبو عبيدة: و جمعه رقوق، و من هذا قول المتلمّس:

---

(١). الإسراء: ١٣.
(٢). التكوير: ١٠.

فتح القدير، ج٥، ص: ١١٤ فكأنّما هی من تقادم عهدهارقّ أتيح كتابها مسطور
و أما الرّقّ بالكسر فهو المملوك، يقال عبد رقّ و عبد مرقوق وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فی السماء السابعة.
و قيل: فی سماء الدنيا، و قيل: هو الكعبة، فعلى القولين الأوّلين كون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة و يعبد اللّه فيه. و على القول الثالث يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازا؛ باعتبار كثرة من يتعبّد فيه من بنی آدم وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ يعنی السماء، سمّاها سقفا لكونها كالسقف للأرض، و منه قوله:
وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً «١» و قيل: هو العرش وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ أی: الموقد، من السجر:
و هو إيقاد النار فی التنور، و منه قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ «٢» و قد روی أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا، و قيل: المسجور: المملوء، و قيل: إنه من أسماء الأضداد، يقال: بحر مسجور، أی: مملوء، و بحر مسجور، أی: فارغ، و قيل: المسجور: الممسوك، و منه ساجور الكلب، لأنه يمسكه. و قال أبو العالية: المسجور الّذی ذهب ماؤه، و قيل: المسجور المفجور، و منه: وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ «٣» و قال الربيع ابن أنس: هو الّذی يختلط فيه العذب بالمالح. و الأوّل أولى، و به قال مجاهد و الضحاك و محمد بن كعب و الأخفش و غيرهم إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ هذا جواب القسم، أی: كائن لا محالة لمن يستحقه ما لَهُ مِنْ دافِعٍ يدفعه و يردّه عن أهل النار، و هذه الجملة خبر ثان لأن، أو صفة لواقع، و «من» مزيدة للتأكيد. و وجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالّة على كمال القدرة الربانية يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً العامل فی الظرف «لواقع» أی: إنه لواقع فی هذا اليوم، و يجوز أن يكون العامل فيه دافع. و المور:

الاضطراب و الحركة. قال أهل اللغة: مار الشيء يمور مورا؛ إذا تحرك و جاء و ذهب، قاله الأخفش و أبو عبيدة، و أنشد بيت الأعشى:

كأنّ مشيتها من بيت جارتهامشى «۴» السّحابة لا ريث و لا عجل

و ليس فى البيت ما يدلّ على ما قالاه إلا إذا كانت هذه المشية المذكورة فى البيت يطلق المور عليها لغة.

و قال الضحاك: يموج بعضها فى بعض، و قال مجاهد: تدور دورا، و قيل: تجرى جريا، و منه قول الشاعر «۵»:

و ما زالت القتلى تمور دماؤهابدجلة حتّى ماء دجلة أشكل «۶»

و يطلق المور على الموج، و منه ناقة موّارة اليد، أى: سريعة تموج فى مشيها موجا، و معنى الآية أن العذاب

---

(۱). الأنبياء: ۳۲.

(۲). التكوير: ۶.

(۳). الانفطار: ۳.

(۴). فى تفسير القرطبى: مور.

(۵). هو جرير.

(۶). «الأشكل»: ما فيه بياض و حمرة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۱۵

يقع بالعصاة و لا يدفعه عنهم دافع فى هذا اليوم الّذى تكون فيه السماء هكذا، و هو يوم القيامة. و قيل: إن السماء ها هنا الفلك، و موره: اضطراب نظمه و اختلاف سيره وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً أى: تزول عن أماكنها، و تسير عن مواضعها كسير السحاب، و تكون هباء منبثّا، و قيل: و وجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتهما و خروجهما عن المعهود، و قد تقدّم تفسير مثل هذا فى سورة الكهف فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ويل: كلمة تقال للهالك، و اسم واد فى جهنم، و إنما دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة، أى: إذا وقع ما ذكر من مور السماء و سير الجبال فويل لهم. ثم وصف المكذّبين بقوله: الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ أى: فى تردّد فى الباطل و اندفاع فيه يلهون لا يذكرون حسابا و لا يخافون عقابا. و المعنى:

أنهم يخوضون فى أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالتكذيب و الاستهزاء، و قيل: يخوضون فى أسباب الدنيا و يعرضون عن الآخرة يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا الدعّ: الدفع بعنف و جفوة، يقال: دعّته أدعّه دعّا، أى: دفعته، و المعنى: أنهم يدفعون إلى النار دفعا عنيفا شديدا. قال مقاتل: تغلّ أيديهم إلى أعناقهم، و تجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون إلى جهنم دفعا على وجوههم. قرأ الجمهور: بفتح الدال و تشديد العين. و قرأ علىّ و السلمى و أبو رجاء و زيد بن علىّ و ابن السّميقع بسكون الدال و تخفيف العين مفتوحة، أى: يدعون إلى النار من الدعاء. و «يوم» إما بدل من يوم تمور، أو متعلق بالقول المقدر فى الجملة التى بعد هذه، و هى هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ أى: يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعا، أى: هذه النار التى تشاهدونها هى النار التى كنتم تكذّبون بها فى الدنيا، و القائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار، ثم وبّخهم سبحانه أو أمر ملائكته بتوبيخهم، فقال: أَ فَسِحْرٌ هذا الّذى ترون و تشاهدون كما كنتم تقولون لرسل اللّه المرسلة و لكتبه المنزلة، و قدّم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الّذى وقع الاستفهام عنه و توجه التوبيخ إليه أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ أى: أم أنتم عمى عن هذا كما كنتم عميا عن الحقّ فى الدنيا اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا أى: إذا لم يمكنكم إنكارها، و تحققتم أن ذلك ليس بسحر، و لم يكن فى أبصاركم خلل، فالآن ادخلوها و قاسوا شدّتها، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، و افعلوا ما شئتم، فالأمران سَواءٌ عَلَيْكُمْ فى عدم النفع، و

قيل: أيضا تقول لهم الملائكة هذا القول، و سواء خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمران سواء، و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر محذوف، أى: سواء عليكم الصبر و عدمه، و جملة: إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تعليل للاستواء، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعا حتما كان الصبر و عدمه سواء إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين، و هذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة، و يجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة فى غمّهم و حسرتهم، و التنوين فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ للتفخيم فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ يقال رجل فاكه، أى: ذو فاكهة، كما قيل: لابن، و تامر. و المعنى: أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة، و قيل: ذوو نعمة و تلذّذ بما صاروا فيه ممّا أعطاهم اللّه عزّ و جلّ مما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و قد تقدّم بيان معنى هذا. قرأ الجمهور: فاكِهِينَ بالألف و النصب على الحال. و قرأ خالد: «فاكهون» بالرفع على أنه خبر بعد خبر. و قرأ ابن عباس: «فكهين»

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۱۶

بغير ألف، و الفكه: طيب النفس، كما تقدم فى الدخان، و يقال للأشر و البطر، و لا يناسب التفسير به هنا وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ معطوف على آتاهم، أو على خبر إنّ، أو الجملة فى محل نصب على الحال بإضمار قد كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً أى: يقال لهم ذلك، و الهنيء: ما لا تنغيص فيه و لا نكد و لا كدر.

قال الزجاج: أى ليهنئكم ما صرتم إليه هنيئا و المعنى: كلوا طعاما هنيئا، و اشربوا شرابا هنيئا، و قد تقدم تفسير هنيئا فى سورة النساء، و قيل: معنى هنيئا: أنكم لا تموتون مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ انتصابه على الحال من فاعل كلوا، أو من مفعول آتاهم، أو من مفعول وقاهم، أو من الضمير المستكنّ فى الظرف، أو من الضمير فى فاكهين. قرأ الجمهور: عَلى سُرُرٍ بضم الراء الأولى. و قرأ أبو السمال: بفتحها، و السّرر: جمع سرير. و المصفوفة: المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفا وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أى: قرنّاهم بها. قال يونس بن حبيب: تقول العرب زوّجته امرأة و تزوّجت بامرأة، و ليس من كلام العرب زوّجته بامرأة. قال: و قول اللّه تعالى: وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أى: قرناهم بهنّ. و قال الفرّاء: زوّجته بامرأة لغة أزد شنوءة، و قد تقدم تفسير الحور العين فى سورة الدخان. قرأ الجمهور: بِحُورٍ عِينٍ من غير إضافة. و قرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن عباس وَ الطُّورِ قال: جبل. و أخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد اللّه بن عوف عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الطور: جبل من جبال الجنة» و كثير: ضعيف جدا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ قال: فى الكتاب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «البيت المعمور فى السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»، و فى الصحيحين و غير هما: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزه إلى السماء السابعة: «ثم رفع إلىّ البيت المعمور، و إذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن أبى الطفيل أن ابن الكوّاء سأل عليا عن البيت المعمور فقال: ذلك الضراح بيت فوق سبع سماوات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة. و أخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمر و رفعه. قال: إن البيت المعمور لبحيال الكعبة، لو سقط منه شىء لسقط عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا، ثم لا يعودون إليه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه، و ضعّف إسناده السيوطى. و أخرج ابن راهويه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ قال:

السماء. و أخرج عبد الرّزّاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عليّ بن أبى طالب فى قوله:
وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ قال: بحر فى السماء تحت العرش. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المسجور: المحبوس. و أخرج ابن المنذر عنه قال: المسجور:

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۱۷

المرسل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً قال: تحرك، و فى قوله: يَوْمَ يُدَعُّونَ قال: يدفعون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا قال: يدفع فى أعناقهم حتى يردوا النار. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً أى: لا تموتون فيها، فعندها قالوا: أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ- إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ «۱».

[سورة الطور (۵۲): الآيات ۲۱ الى ۳۴]

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (۲۱) وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۲) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ (۲۳) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (۲۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۵)
قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (۲۶) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ (۲۷) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (۲۸) فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ (۲۹) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (۳۰)
قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (۳۱) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۳۲) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۳۴)
لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص، فقال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ و الموصول مبتدأ، و خبره أَلْحَقْنا بِهِمْ و يجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر، أى: و أكرمنا الذين آمنوا، و يكون «ألحقنا» مفسرا لهذا الفعل المقدّر. قرأ الجمهور:
وَ اتَّبَعَتْهُمْ بإسناد الفعل إلى الذرّية. و قرأ أبو عمرو: «أتبعناهم» بإسناد الفعل إلى المتكلم، كقوله:
ألحقنا. و قرأ الجمهور: ذُرِّيَّتُهُمْ بالإفراد. و قرأ نافع و ابن عامر و أبو عمرو و يعقوب على الجمع، و جملة:
وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ معطوف على آمنوا، أو معترضة، و «بِإِيمانٍ» متعلّق بالاتباع، و معنى هذه الآية:
أن اللّه سبحانه يرفع ذرّية المؤمن إليه و إن كانوا دونه فى العمل؛ لتقر عينه، و تطيب نفسه، بشرط أن يكونوا مؤمنين، فيختصّ ذلك بمن يتّصف بالإيمان من الذرية و هم البالغون دون الصغار، فإنهم و إن كانوا لاحقين بآبائهم فبدليل آخر غير هذه الآية. و قيل: إن الذرّية تطلق على الكبار و الصغار كما هو المعنى اللغوى، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذرّيتهم و كبارهم، و يكون قوله: بِإِيمانٍ فى محل نصب على الحال، أى: بإيمان من الآباء. و قيل: إن الضمير فى «بهم» راجع إلى الذرّية المذكورة أوّلا، أى: ألحقنا بالذرّية المتبعة لآبائهم بإيمان ذرّيتهم. و قيل: المراد بالذين آمنوا المهاجرون و الأنصار فقط، و ظاهر الآية العموم، و لا يوجب تخصيصها بالمهاجرين و الأنصار كونهم السبب فى نزولها إن صحّ ذلك، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ قرأ الجمهور بفتح اللام من أَلَتْناهُمْ و قرأ ابن كثير بكسرها،

---

(۱). الصافات: ۵۸- ۵۹.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١١٨

أى: و ما نقصنا الآباء بإلحاق ذرّيتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئا، فضمير المفعول عائد إلى الذين آمنوا. و قيل: المعنى: و ما نقصنا الذرية من أعمالهم لقصر أعمارهم، و الأول أولى، و قد قدّمنا تحقيق معنى لاته و ألاته فى سورة الحجرات. و قرأ ابن هرمز «١» آلتناهم بالمدّ، و هو لغة. قال فى الصحاح: يقال: ما ألته من عمله شيئا، أى: ما نقصه كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ رهين بمعنى مرهون، و الظاهر أنه عامّ، و أن كل إنسان مرتهن بعمله، فإن قام به على الوجه الّذى أمره اللّه به فكّه و إلا أهلكه. و قيل: هو بمعنى راهن، كلّ امرئ بما كسب دائم ثابت. و قيل: هذا خاصّ بالكفار لقوله:؛ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ- إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ «٢» ثم ذكر سبحانه ما أمدّهم به من الخير فقال: وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ أى: زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة متنوّعة، و لحم من أنواع اللحمان مما تشتهيه أنفسهم و يستطيبونه يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً أى: يتعاطون و يتناولون كأسا، و الكأس: إناء الخمر، و يطلق على كل إناء مملوء من خمر أو غيره، فإذا فرغ لم يسمّ كأسا لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ قال الزجاج: لا يجرى بينهم ما يلغى و لا ما فيه إثم يجرى بين من يشرب الخمر فى الدنيا، و التأثيم: تفعيل من الإثم، و الضمير فى فِيها راجع إلى الكأس، و قيل: «لا لَغْوٌ فِيها» أى: فى الجنة و لا يجرى فيها ما فيها إثم، و الأوّل أولى. قال ابن قتيبة: لا تذهب بعقولهم فيلغوا كما يكون من خمر الدنيا، و لا يكون منهم ما يؤثمهم. و قال الضحاك: «لا تَأْثِيمٌ» أى: لا كذب. قرأ الجمهور: لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ بالرفع و التنوين فيهما. و قرأ ابن كثير و ابن محيصن بفتحهما من غير تنوين. قال قتادة: اللغو: الباطل. و قال مقاتل بن حيان: لا فضول فيها. و قال سعيد ابن المسيب: لا رفث فيها. و قال ابن زيد: لا سباب و لا تخاصم فيها. و الجملة فى محل نصب على الحال صفة لكأسا وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ أى: يطوف عليهم بالكأس و الفواكه و الطعام و غير ذلك مماليك لهم، و قيل: أولادهم كَأَنَّهُمْ فى الحسن و البهاء لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ أى: مستور مصون فى الصّدف لم تمسّه الأيدى. قال الكسائى: كننت الشي‌ء: سترته و صنته من الشمس، و أكننته: جعلته فى الكنّ، و منه: كننت الجارية، و أكننتها، فهى مكنونة وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أى: يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله، و ما كان فيه من تعب الدنيا و خوف العاقبة، فيحمدون اللّه الّذى أذهب عنهم الحزن و الخوف و الهمّ، و ما كانوا فيه من الكدّ و النكد بطلب المعاش و تحصيل ما لا بدّ منه من الرزق. و قيل: يقول بعضهم لبعض: بم صرتم فى هذه المنزلة الرفيعة؟ و قيل: إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور. و الأوّل أولى لدلالة السياق على أنهم قد صاروا فى الجنة، و جملة قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل؟ فقيل: قالوا إنّا كنّا قبل، أى: قبل الآخرة، و ذلك فى الدنيا فى أهلنا خائفين وجلين من عذاب اللّه، أو كنا خائفين من عصيان اللّه فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالمغفرة و الرحمة أو بالتوفيق لطاعته وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ يعنى عذاب جهنم، و السّموم من أسماء جهنم، كذا قال

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٧/ ٦٧): أبو هريرة.

(٢). المدثر: ٣٨- ٣٩.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١١٩

الحسن و مقاتل. و قال الكلبى و أبو عبيدة: هو عذاب النار. و قال الزجّاج: سموم جهنم ما يوجد من حرّها.

قال أبو عبيدة: السّموم بالنهار، و قد يكون بالليل، و الحرور بالليل، و قد يكون بالنهار، و قد يستعمل السموم فى لفح البرد، و فى لفح الشمس و الحرّ أكثر، و منه قول الشاعر:

اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا ألومه

و قيل: سميت الريح سموما لأنها تدخل المسامّ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ أى: نوحّد اللّه و نعبده، أو نسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة و الرّحمة إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف، و قرأ نافع و الكسائى بفتحها، أى لأنه، و البرّ: كثير الإحسان، و قيل: اللطيف، و الرّحيم: كثير الرحمة لعباده فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ أى: اثبت على ما أنت عليه من الوعظ و التذكير، و الباء متعلّقة بمحذوف هو حال، أى: ما أنت متلبسا بنعمة ربك التى أنعم بها عليك من رجاحة العقل و النبوّة بكاهن و لا مجنون، و قيل: بمحذوف يدل عليه الكلام، أى: ما أنت فى حال إذكارك بنعمة ربّك بكاهن و لا مجنون، و قيل: الباء سببية متعلّقة بمضمون الجملة المنفية، و المعنى: انتفى عنك الكهانة و الجنون بسبب نعمة اللّه عليك، كما تقول: ما أنا بمعسر بحمد اللّه. و قيل: الباء للقسم متوسطة بين اسم ما و خبرها، و التقدير:

ما أنت و نعمة اللّه بكاهن و لا مجنون، و الكاهن: هو الّذى يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحى، أى: ليس ما تقوله كهانة، فإنك إنما تنطق بالوحى الّذى أمرك اللّه بإبلاغه. و المقصود من الآية ردّ ما كان يقوله المشركون: إنه كاهن أو مجنون أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ «أم» هى المنقطعة، و قد تقدّم الخلاف هل هى مقدّرة ببل و الهمزة، أو ببل وحدها. قال الخليل: هى هنا للاستفهام. قال سيبويه:

خوطب العباد بما جرى فى كلامهم. قال النحاس: يريد سيبويه أنّ «أم» فى كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث، و «نتربص» فى محل رفع صفة لشاعر، و «ريب المنون»: صروف الدهر، و المعنى: ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره، أو يهلك كما هلك من قبله، و المنون يكون بمعنى الدهر، و يكون بمعنى المنية. قال الأخفش: المعنى نتربّص إلى ريب المنون، فحذف حرف الجرّ، كما تقول: قصدت زيدا، و قصدت إلى زيد، و من هذا قول الشاعر:

تربّص بها ريب المنون لعلّهاتطلّق يوما أو يموت حليلها

و قول أبى ذؤيب الهذلى:

أمن المنون و ريبه تتوجعو الدّهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعى: المنون واحد لا جمع له. قال الفرّاء: يكون واحدا و جمعا. و قال الأخفش: هو جمع لا واحد له. ثم أمره سبحانه أن يجيب عنهم، فقال: قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أى:

انتظروا موتى أو هلاكى، فإنى معكم من المتربّصين لموتكم أو هلاككم. قرأ الجمهور «نتربص» بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين. و قرأ زيد بن علىّ على البناء للمفعول. أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أى: بل

فتح القدير، ج‏5، ص: 120

أ تأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض، فإن الكاهن هو المفرط فى الفطنة و الذكاء، و المجنون: هو ذاهب العقل فضلا عن أن يكون له فطنة و ذكاء. قال الواحدى: قال المفسرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام، و جاوزوا الحدّ فى العناد، فقالوا ما قالوا، و هذه الاضطرابات من شى‏ء إلى شى‏ء مع الاستفهام كما هو مدلول «أم» المنقطعة تدل على أن ما تعقبها أشنع ممّا تقدّمها، و أكثر جرأة و عنادا أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ أى: اختلق القرآن من جهة نفسه و افتعله، و التقوّل لا يستعمل إلا فى الكذب فى الغالب، و إن كان أصله تكلّف القول، و منه اقتال عليه، و يقال اقتال عليه: بمعنى تحكّم، و منه قول الشاعر «1»:

و منزلة فى دار صدق و غبطةو ما اقتال فى حكم علىّ طبيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم: تَقَوَّلَهُ و انتقل إلى ما هو أشدّ شناعة عليهم فقال: بَلْ لا يُؤْمِنُونَ أى: سبب صدور هذه الأقوال. المتناقضة عنهم كونهم كفارا لا يؤمنون باللّه، و لا يصدقون ما جاء به رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم. ثم تحدّاهم سبحانه و ألزمهم الحجّة فقال: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ أى: مثل القرآن فى نظمه، و حسن بيانه، و بديع أسلوبه إِنْ كانُوا صادِقِينَ فيما زعموا من قولهم:

إن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم تقوّله و جاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربيّ، و هم رؤوس العرب و فصحاؤهم و الممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم و نثر.

و قد أخرج سعيد بن منصور و هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و البيهقى عن ابن عباس قال: «إن اللّه ليرفع ذرّية المؤمن معه فى درجته فى الجنة و إن كانوا دونه فى العمل لتقرّ بهم عينه. ثم قرأ:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ الآية. و أخرجه البزار و ابن مردويه عنه مرفوعا. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه و زوجته و ولده، فيقال:

إنهم لم يبلغوا درجتك و عملك، فيقول: يا ربّ قد عملت لى و لهم، فيؤمر بإلحاقهم به» و قرأ ابن عباس وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ الآية. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند عن على بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن المؤمنين و أولادهم فى الجنة، و إن المشركين و أولادهم فى النار» ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآية. و إسناده هكذا. قال عبد اللّه بن أحمد: حدّثنا عثمان بن أبى شيبة، حدّثنا محمد بن فضيل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن عليّ بن أبى طالب قال: «سألت خديجة النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هما فى النار، فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: يا رسول اللّه فولدىّ منك. قال: فى الجنة، قال: ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن المؤمنين و أولادهم فى الجنة، و إن المشركين و أولادهم فى النار، ثم قرأ: وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الآية. و قال الإمام أحمد فى المسند: حدّثنا يزيد، حدّثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النّجود، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة، فيقول: يا ربّ

---

(1). هو كعب بن سعد الغنوى.

فتح القدير، ج‏5، ص: 121

من أين لى هذا، فيقول: باستغفار ولدك لك». و إسناده صحيح. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم عن ابن عباس وَ ما أَلَتْناهُمْ قال: ما نقصناهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه لا لَغْوٌ فِيها يقول:

باطل وَ لا تَأْثِيمٌ يقول: كذب. و أخرج البزار عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا، فيتحدّثان فيتكئ ذا و يتكئ ذا فيتحدّثان بما كانوا فى الدنيا، فيقول أحد هما: يا فلان تدرى أي يوم غفر اللّه لنا؟ يوم كنا فى موضع كذا و كذا، فدعونا اللّه فغفر لنا». و أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت: لو فتح اللّه على أهل الأرض من عذاب السموم قد الأنملة لأحرقت الأرض و من عليها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ قال: اللطيف. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عنه: أن قريشا لما اجتمعوا إلى دار الندوة فى أمر النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال قائل منهم: احبسوه فى وثاق، تربّصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير و النابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل اللّه فى ذلك أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: رَيْبَ الْمَنُونِ قال: الموت.

[سورة الطور (52): الآيات 35 الى 49]

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ (39)

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۰) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۱) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۳) وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (۴۴)
فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (۴۵) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (۴۸) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ (۴۹)

قوله: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ «أم» هذه هى المنقطعة كما تقدّم فيما قبلها، و كما سيأتى فيما بعدها، أى: بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة و الصنعة العجيبة من غير خالق لهم. قال الزجاج: أى: أخلقوا باطلا لغير شىء لا يحاسبون و لا يؤمرون و لا ينهون؟! و جعل مِنْ بمعنى اللام. قال ابن كيسان: أم خلقوا عبثا و تركوا سدى لا يؤمرون و لا ينهون. و قيل: المعنى: أم خلقوا من غير أب و لا أمّ، فهم كالجماد لا يفهمون و لا تقوم عليهم حجّة أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ أى: بل أ يقولون هم الخالقون لأنفسهم، فلا يؤمرون و لا ينهون مع أنهم يقرّون أن اللّه خالقهم، و إذا أقرّوا لزمتهم الحجّة أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ و هم لا يدّعون ذلك فلزمتهم الحجّة، و لهذا أضرب عن هذا و قال: بَلْ لا يُوقِنُونَ أى: ليسوا على يقين من الأمر، بل يخبطون فى ظلمات الشك فى وعد اللّه و وعيده أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أى: خزائن أرزاق العباد، و قيل: مفاتيح الرحمة. قال مقاتل: يقول: أ بأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۲۲

و كذا قال عكرمة. و قال الكلبى: خزائن المطر و الرزق أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أى: المسلّطون الجبّارون.
قال فى الصّحاح: المسيطر: المسلّط على الشىء ليشرف عليه، و يتعهد أحواله، و يكتب عمله، و أصله من السّطر لأن الكتاب يسطّر. و قال أبو عبيدة: تسيطرت علىّ: اتّخذتنى خولا لك. قرأ الجمهور «المصيطرون» بالصاد الخالصة، و قرأ ابن محيصن و حميد و مجاهد و قنبل و هشام بالسين الخالصة، و رويت هذه القراءة عن حفص، و قرأ خلاد «۱» بصاد مشمّة زايا أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ أى: بل أ يقولون إن لهم سلما منصوبا إلى السماء يصعدون به، و يستمعون فيه كلام الملائكة و ما يوحى إليهم، و يصلون به إلى علم الغيب كما يصل إليه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بطريق الوحى. و قوله: فِيهِ صفة لسلم، و هى للظرفية على بابها، و قيل: هى بمعنى على، أى: يستمعون عليه كقوله: وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ «۲» قاله الأخفش. و قال أبو عبيدة: يستمعون به. و قال الزجاج: المعنى: أنهم كجبريل الّذى يأتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالوحى، و قيل: هى فى محلّ نصب على الحال، أى: صاعدين فيه فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ إن ادّعى ذلك بِسُلْطانٍ مُبِينٍ أى: بحجّة واضحة ظاهرة أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ أى: بل أ تقولون للّه البنات و لكم البنون. سفّه سبحانه أحلامهم، و ضلّل عقولهم و وبّخهم، أى: أ يضيفون إلى اللّه البنات و هى أضعف الصّنفين، و يجعلون لأنفسهم البنين و هم أعلاهما، و فيه إشعار بأن من كان هذا رأيه فهو بمحلّ سافل فى الفهم و العقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث و جحد التوحيد. ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً أى: بل أ تسألهم أجرا يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أى: من التزام غرامة تطلبها منهم مثقلون، أى: مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل. قال قتادة: يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجرا يجهدهم فلا يستطيعون الإسلام أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أى: بل أ يدّعون أن عندهم علم الغيب، و هو ما فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب. قال قتادة: هذا جواب لقولهم: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ يقول اللّه: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ حتى علموا أن محمدا يموت قبلهم فهم يكتبون. قال ابن قتيبة: معنى يكتبون يحاكمون بما يقولون أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً أى: مكرا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فيهلكونه بذلك المكر فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أى: الممكور بهم، المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا

بِأَهْلِهِ و قد قتلهم اللّه فى يوم بدر، و أذلهم فى غير موطن، و مكر سبحانه بهم: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ «٣» أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ أى:

بل أ يدّعون أنّ لهم إلها غير اللّه يحفظهم و يرزقهم و ينصرهم. ثم نزّه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال:

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: عن شركهم به، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له. ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم، فقال: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ الكسف جمع

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٧/ ٧٥): حمزة.

(٢). طه: ٧١.

(٣). آل عمران: ٥۴.

كسفة، و هى القطعة من الشى‌ء، و انتصاب ساقطا على الحال، أو على أنه المفعول الثانى، و المركوم: المجعول بعضه على بعض. و المعنى: أنهم إن يروا كسفا من السماء ساقطا عليهم لعذابهم لم ينتهوا عن كفرهم، بل يقولون: هو سحاب متراكم بعضه على بعض، و قد تقدّم اختلاف القراء فى «كسفا». قال الأخفش: من قرأ كسفا، يعنى بكسر الكاف و سكون السين جعله واحدا، و من قرأ كسافا، يعنى بكسر الكاف و فتح السين جعله جمعا. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يتركهم، فقال: فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ أى: اتركهم و خلّ عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم، أو يوم قتلهم ببدر، أو يوم القيامة. قرأ الجمهور: يُلاقُوا و قرأ أبو حيوة «يلقوا» و قرأ الجمهور: «يصعقون» على البناء للفاعل. و قرأ ابن عامر و عاصم على البناء للمفعول، و الصعقة: الهلاك على ما تقدّم بيانه يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً هو بدل من يومهم، أى: لا ينفعهم فى ذلك اليوم كيدهم الّذى كادوا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الدنيا وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ أى: و لا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع، بل هو واقع بهم لا محالة وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ أى: لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصى عذابا فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة، أى: قبله، و هو قتلهم يوم بدر. و قال ابن زيد: هو مصائب الدنيا من الأوجاع و الأسقام و البلايا، و ذهاب الأموال و الأولاد. و قال مجاهد: هو الجوع و الجهد سبع سنين، و قيل: عذاب القبر، و قيل: المراد بالعذاب هو القحط، و بالعذاب الّذى يأتى بعده هو قتلهم يوم بدر وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ما يصيرون إليه من عذاب اللّه، و ما أعدّه لهم فى الدنيا و الآخرة وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إلى أن يقع لهم العذاب الّذى وعدناهم به فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا أى: بمرأى و منظر منّا، و فى حفظنا و حمايتنا، فلا تبال بهم. قال الزجاج: إنك بحيث نراك و نحفظك و نرعاك فلا يصلون إليك وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ أى: نزّه ربك عمّا لا يليق به، متلبسا بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك. قال عطاء و سعيد بن جبير و سفيان الثورى و أبو الأحوص: يسبح اللّه حين يقوم من مجلسه فيقول: سبحان اللّه و بحمده، أو سبحانك اللهمّ و بحمدك؛ عند قيامه من كلّ مجلس يجلسه. و قال محمد بن كعب و الضحاك و الربيع بن أنس: حين تقول إلى الصلاة. قال الضحاك يقول: اللّه أكبر كبيرا، و الحمد للّه كثيرا، و سبحان اللّه بكرة و أصيلا. و فيه نظر لأن التكبير يكون بعد القيام لا حال القيام، و يكون التسبيح بعد التكبير، و هذا غير معنى الآية، فالأوّل أولى. و قيل: المعنى:

صلّ للّه حين تقوم من منامك، و به قال أبو الجوزاء و حسان بن عطية. و قال الكلبى: و اذكر اللّه باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة، و هى صلاة الفجر وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أمره اللّه سبحانه أن يسبّحه فى بعض الليل. قال مقاتل: أى صلّ المغرب و العشاء، و قيل: ركعتى الفجر وَ إِدْبارَ النُّجُومِ أى: وقت إدبارها من آخر الليل، و قيل: صلاة الفجر، و اختاره ابن جرير،

و قيل: هو التسبيح فى إدبار الصلوات، و قرأ الجمهور إِدْبارَ بكسر الهمزة على أنه مصدر، و قرأ سالم بن أبى الجعد و محمد بن السّميقع و يعقوب و المنهال بن عمر بفتحها على الجمع، أى: أعقاب النجوم، و أدبارها: إذا غربت، و دبر الأمر: آخره، و قد تقدم الكلام على هذا فى سورة «ق».

فتح القدير، ج‏5، ص: 124

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ قال: المسلّطون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: أم هم المنزلون. و أخرجا عنه أيضا عَذاباً دُونَ ذلِكَ قال: عذاب القبر قبل يوم القيامة. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و النسائى و الحاكم و بان مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بآخرة إذا قام من المجلس يقول: سبحانك اللهمّ و بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك و أتوب إليك، فقال رجل: يا رسول اللّه؛ إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى، قال كفّارة لما يكون فى المجلس». و أخرجه النسائى و الحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن رافع بن خديج عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج الترمذى و ابن جرير عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال:

«من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهمّ و بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك و أتوب إليك، إلا غفر له ما كان فى مجلسه». قال الترمذى: حسن صحيح.

و فى الباب أحاديث مسندة و مرسلة.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ قال: حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل فى الصلاة. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ قال: الركعتان قبل صلاة الصبح. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ إِدْبارَ النُّجُومِ قال: ركعتى الفجر.

فتح القدير، ج‏5، ص: 125

سورة النجم

اشارة

هى إحدى و ستون آية، و قيل ثنتان و ستون آية و هى مكية جميعها فى قول الجمهور. و روى عن ابن عباس و عكرمة أنها مكية إلا آية منها. و هى قوله: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ الآية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النجم بمكة. و أخرج أيضا عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة و النجم، فسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و سجد الناس كلهم، إلّا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا، و هو أمية بن خلف. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: أوّل سورة استعان بها النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرؤها و النجم. و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عمر قال: «صلّى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ النجم، فسجد بنا فأطال السجود». و أخرج ابن مردويه عن عائشة: «أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ النجم، فلما بلغ السجدة سجد فيها». و أخرج الطيالسى و ابن أبى شيبة و أحمد و البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و الطبرانى و ابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يسجد فيها. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسجد فى النجم بمكة، فلمّا هاجر إلى المدينة تركها. و أخرج أيضا عنه أن رسول اللّه

صلّى اللّه عليه و سلّم لم يسجد فى شىء من المفصّل منذ تحوّل إلى المدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النجم (۵۳): الآيات ۱ الى ۲۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّجْمِ إِذا هَوى (۱) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى (۲) وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (۳) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (۴)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (۵) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (۶) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (۷) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (۸) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (۹)

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (۱۰) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (۱۱) أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (۱۲) وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (۱۳) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (۱۴)

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (۱۵) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (۱۶) ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى (۱۷) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (۱۸) أَ فَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَ الْعُزَّى (۱۹)

وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (۲۰) أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى (۲۱) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (۲۲) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (۲۳) أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (۲۴) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى (۲۵) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى (۲۶)

قوله: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى التعريف للجنس، و المراد به جنس النجوم، و به قال جماعة من المفسرين،

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۲۶

و منه قول عمر بن أبى ربيعة:

أحسن النّجم فى السّماء الثّريّاو الثّريّا فى الأرض زين النّساء

و قيل: المراد به الثريا، و هو اسم غلب فيها، تقول العرب: النجم و تريد به الثريا، و به قال مجاهد و غيره.

و قال السدّى: النجم هنا هو الزهرة؛ لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها، و قيل: النجم هنا النبت الّذى لا ساق له، كما فى قوله: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ «۱» قاله الأخفش. و قيل: النجم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل:

النجم القرآن، و سمّى نجما لكونه نزل منجّما مفرّقا، و العرب تسمّى التفريق تنجيما، و المفرّق: المنجم، و به قال مجاهد و الفراء و غير هما، و الأوّل أولى. قال الحسن: المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة.

و قيل: المراد بها النجوم التى ترجم بها الشياطين، و معنى هويه: سقوطه من علو، يقال: هوى النجم يهوى هويّا؛ إذا سقط من علو إلى سفل، و قيل: غروبه، و قيل: طلوعه، و الأوّل أولى، و به قال الأصمعى و غيره، و منه قال زهير:

فشجّ بها الأماعز و هى تهوى‌هوىّ الدّلو أسلمها الرّشاء

و يقال: هوى فى السير؛ إذا مضى؛ و منه قول الشاعر:

بينما نحن بالبلاكث فالقاع سراعا و العيس تهوى هويّا

خطرت خطرة على القلب من ذكراك و هنا فما استطعت مضيّا

و معنى الهوىّ على قول من فسّر النجم بالقرآن؛ أنه نزل من أعلى إلى أسفل، و أما على قول من قال إنه الشجر الّذى لا ساق له، أو أنه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فلا يظهر للهوىّ معنى صحيح، و العامل فى الظرف فعل القسم المقدّر، و جواب القسم قوله: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى أى: ما ضلّ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عن الحق و الهدى و لا عدل عنه، و الغىّ: ضدّ الرشد، أى:

ما صار غاويا، و لا تكلّم بالباطل، و قيل: ما خاب فيما طلب، و الغيّ: الخيبة، و منه قول الشاعر:

فمن يلق خيرا يحمد النّاس أمرهو من يغو لا يعدم على الغيّ لائما

و فى قوله: صاحِبُكُمْ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله، و الخطاب لقريش وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى أى: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن و لا بغيره، فعن على بابها. و قال أبو عبيدة: إنّ عن بمعنى الباء، أى: بالهوى. قال قتادة: أى: ما ينطق بالقراءة عن هواه إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى أى:

ما هو الّذى ينطق به إلا وحى من اللّه يوحيه إليه. و قوله: يُوحى صفة لوحى تفيد الاستمرار التجدّدى، و تفيد نفى المجاز، أى: هو وحى حقيقة لا لمجرد التسمية عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى القوى: جمع قوّة، و المعنى: أنه علمه جبريل الّذى هو شديد قواه، هكذا قال أكثر المفسرين إن المراد جبريل. و قال الحسن:

---

(۱). الرّحمن: ۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۲۷

هو اللّه عزّ و جلّ، و الأوّل أولى، و هو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى المرّة:

القوّة و الشدّة فى الخلق، و قيل: ذو صحة جسم و سلامة من الآفات، و منه قول النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تحلّ الصدقة لغنىّ، و لا لذى مرّة سوىّ «۱»». و قيل: ذو حصافة عقل و متانة رأى. قال قطرب: العرب تقول لكلّ من هو جزل الرأى حصيف العقل: ذو مرّة، و منه قول الشاعر:

قد كنت قبل لقاكم ذا مرّةعندى لكلّ مخاصم ميزانه

و التفسير للمرّة بهذا أولى؛ لأن القوّة و الشدّة قد أفادها قوله: شَدِيدُ الْقُوى قال الجوهرى: المرّة:

إحدى الطبائع الأربع، و المرّة: القوّة و شدّة العقل، و الفاء فى قوله: فَاسْتَوى للعطف على علّمه، يعنى جبريل، أى: ارتفع و علا إلى مكانه فى السماء بعد أن علم محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، قاله سعيد بن المسيّب و سعيد بن جبير. و قيل: معنى استوى قام فى صورته التى خلقه اللّه عليها؛ لأنه كان يأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى صورة الآدميين، و قيل: المعنى: فاستوى القرآن فى صدره صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال الحسن: فاستوى: يعنى اللّه عزّ و جلّ على العرش وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى، و المراد بالأفق الأعلى: جانب المشرق، و هو فوق جانب المغرب، و قيل: المعنى: فاستوى عاليا، و الأفق:

ناحية السماء، و جمعه آفاق. قال قتادة و مجاهد: هو الموضع الّذى تطلع منه الشمس، و قيل: هو يعنى جبريل و النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالأفق الأعلى ليلة المعراج، و يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى أى: دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى، أى: قرب من الأرض، فتدلّى، فنزل على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم بالوحى، و قيل:

فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: ثم تدلّى فدنا، قاله ابن الأنبارى و غيره، قال الزّجّاج: معنى دنا فتدلى واحد، أى: قرب و زاد فى القرب، كما تقول: فدنا منى فلان و قرب، و لو قلت: قرب منى و دنا جاز.

قال الفراء: الفاء فى «فتدلى» بمعنى الواو، و التقدير: ثم تدلّى جبريل و دنا، و لكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أن تقدّم أيهما شئت. قال الجمهور: و الّذى دنا فتدلى هو جبريل؛ و قيل: هو النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى:

دنا منه أمره و حكمه، و الأوّل أولى، و قيل: و من قال: إن الّذى استوى هو جبريل و محمد، فالمعنى عنده:

ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلى، أى: هوى للسجود، و به قال الضحّاك. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى أى: فكان مقدار ما

بين جبريل و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو ما بين محمد و ربه قاب قوسين، أى: قدر قوسين عربيين. و القاب و القيب، و القاد و القيد: المقدار، ذكر معناه فى الصّحاح. قال الزجاج: أى: فيما تقدّرون أنتم، و اللّه سبحانه عالم بمقادير الأشياء، و لكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا. و قيل «أو» بمعنى الواو، أى: و أدنى، و قيل: بمعنى بل، أى: بل أدنى. و قال سعيد بن جبير و عطاء و أبو إسحاق الهمدانى و أبو وائل شقيق بن سلمة فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ قدر ذراعين، و القوس: الذّراع يقاس بها كل شىء، و هى لغة بعض الحجازيين، و قيل: هى لغة أزد شنوءة. و قال الكسائى: «فكان قاب قوسين» أراد قوسا

---

(١). «السوى»: صحيح الأعضاء.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٢٨

واحدة فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى أى: فأوحى جبريل إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ما أوحى، و فيه تفخيم للوحى الّذى أوحى إليه، و الوحى: إلقاء الشىء بسرعة، و منه الوحاء و هو السرعة، و الضمير فى عبده يرجع إلى اللّه، كما فى قوله: ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ «١» و قيل: المعنى: فأوحى اللّه إلى عبده جبريل ما أوحى، و بالأوّل قال الربيع و الحسن و ابن زيد و قتادة. و قيل: فأوحى اللّه إلى عبده محمد. قيل: و قد أبهم اللّه سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد، أو ما أوحاه اللّه إلى عبده جبريل، أو إلى محمد، و لم يبينه لنا، فليس لنا أن نتعرّض لتفسيره. و قال سعيد بن جبير: الّذى أوحى إليه هو أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ إلخ «٢»، و أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى إلخ «٣». و قيل: أوحى اللّه إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها [يا محمد] «۴»، و على الأمم حتى تدخلها أمتك. و قيل: إن «ما» للعموم لا للإبهام، و المراد كل ما أوحى به إليه، و الحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أى: ما كذب فؤاد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم ما رآه بصره ليلة المعراج، يقال: كذبه؛ إذا قال له الكذب و لم يصدقه. قال المبرد: معنى الآية أنه رأى شيئا فصدق فيه. قال الجمهور ما كَذَبَ مخففا، و قرأ هشام و أبو جعفر بالتشديد؛ و «ما» فى ما رَأى موصولة أو مصدرية، فى محل نصب بكذب، مخففا و مشدّدا أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى قرأ الجمهور: أَ فَتُمارُونَهُ بالألف من المماراة، و هى المجادلة و الملاحاة، و قرأ حمزة و الكسائى: «أ فتمرونه» بفتح التاء و سكون الميم، أى:
أ فتجحدونه، و اختار أبو عبيد القراءة الثانية: قال: لأنهم لم يماروه و إنما جحدوه، يقال: مراه حقه، أى:
جحده، و مريته أنا: جحدته. قال: و منه قول الشاعر:
لئن هجوت أخا صدق و مكرمةلقد مريت أخا ما كان يمريكا
أى: جحدته. قال المبرد: يقال مراه عن حقه و على حقه: إذا منعه منه و دفعه عنه «۵». و قيل: على بمعنى عن. و قرأ ابن مسعود و الشعبى و مجاهد و الأعرج «أ فتمرونه» بضم التاء من أمريت، أى: أ تريبونه و تشكّون فيه. قال جماعة من المفسرين: المعنى على قراءة الجمهور: أ فتجادلونه، و ذلك أنهم جادلوه حين أسرى به، فقالوا: صف لنا مسجد بيت المقدس، أى: أ فتجادلونه جدالا ترمون به دفعه عمّا شاهده و علمه، و اللام فى قوله: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى هى الموطئة للقسم، أى: و اللّه لقد رآه نزلة أخرى، و النزلة: المرة من النزول، فانتصابها على الظرفية، أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال، أى: رأى جبريل نازلا نزلة أخرى؛ أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف، أى: رآه رؤية أخرى. قال جمهور المفسرين:
المعنى أنه رأى محمد جبريل مرّة أخرى، و قيل: رأى محمد ربّه مرّة أخرى بفؤاده عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى الظرف منتصب برآه، و السّدر: هو شجر النّبق، و هذه السدرة هى فى السماء السادسة كما فى الصحيح،

---

(١). فاطر: ۴۵.

(٢). الشرح: ١- ٨.

(٣). الضحى: آية ۶ إلى آخر السورة.

(۴). من تفسير القرطبى (١٧/ ٩٢)

(۵). من تفسير القرطبى (١٧/ ٩٣)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ١٢٩

و روى أنها فى السماء السابعة. و «الْمُنْتَهى : مكان الانتهاء، أو هو مصدر ميمى، و المراد به الانتهاء نفسه، و قيل: تنتهى إليها أرواح الشهداء، و قيل: غير ذلك. و إضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشى‌ء إلى مكانه.

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى أى: عند تلك السدرة جنّة تعرف بجنة المأوى، و سمّيت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم، و قيل: إن أرواح المؤمنين تأوى إليها. قرأ الجمهور جَنَّةُ برفع جنة على أنها مبتدأ و خبرها الظرف المتقدّم. و قرأ علىّ و أبو الدرداء و أبو هريرة و ابن الزبير و أنس و زرّ بن حبيش و محمد بن كعب و مجاهد و أبو سبرة الجهنى «جنّة» فعلا ماضيا من جنّ يجن، أى: ضمّه المبيت، أو ستره إيواء اللّه له. قال الأخفش:

أدركه كما تقول جنّة الليل، أى: ستره و أدركه، و الجملة فى محل نصب على الحال إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى العامل فى الظرف رآه أيضا، و هو ظرف زمان، و الّذى قبله ظرف مكان، و الغشيان بمعنى التغطية و السرّ، و بمعنى الإتيان، يقال: فلان يغشانى كل حين، أى: يأتينى، و فى الإبهام فى قوله: ما يَغْشى

من التفخيم ما لا يخفى، و قيل: يغشاها جراد من ذهب، و قيل: طوائف الملائكة. و قال مجاهد: رفرف أخضر، و قيل: رفرف من طيور خضر، و قيل: غشيها أمر اللّه، و المجى‌ء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا للصورة البديعة، أو للدلالة على الاستمرار التجددى ما زاغَ الْبَصَرُ أى: ما مال بصر النبى عما رآه وَ ما طَغى أى: ما جاوز ما رأى، و فى هذا وصف أدب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلك المقام حيث لم يلتفت، و لم يمل بصره، و لم يمدّه إلى غير ما رأى، و قيل: ما جاوز ما أمر به لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى أى: و اللّه لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، و قيل: رأى رفرفا سدّ الأفق، و قيل: رأى جبريل فى حلّة خضراء، قد ملأ ما بين السماء و الأرض، له ستّمائة جناح، كذا فى صحيح مسلم و غيره، و قال الضحاك: رأى سدرة المنتهى، و قيل: هو كل ما رآه تلك الليلة فى مسراه و عوده، و «من» للتبعيض، و مفعول «رأى»: «الكبرى»، و يجوز أن يكون المفعول محذوفا، أى رأى شيئا عظيما من آيات ربه، و يجوز أن تكون «من» زائدة أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى- وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى لما قصّ اللّه سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين موبخا و مقرّعا: أَ فَرَأَيْتُمُ أى: أخبرونى عن الآلهة التى تعبدونها من دون اللّه هل لها قدرة توصف بها؟ و هل أوحت إليكم شيئا كما أوحى اللّه إلى محمد؟ أم هى جمادات لا تعقل و لا تنفع؟ ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التى اشتهرت فى العرب و عظم اعتقادهم فيها. قال الواحدى و غيره: و كانوا يشتقون لها اسما من أسماء اللّه تعالى، فقالوا من اللّه اللات، و من العزيز العزّى، و هى تأنيث الأعز بمعنى العزيزة، و مناة من منى اللّه الشى‌ء إذا قدّره. قرأ الجمهور: اللَّاتَ بتخفيف التاء، فقيل:

هو مأخوذ من اسم اللّه سبحانه كما تقدّم، و قيل: أصله لات يليت، فالتاء أصلية، و قيل: هى زائدة، و أصله لوى يلوى؛ لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها، أو يلتوون عليها، و يطوفون بها. و اختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء أو بالهاء؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء و وقف عليها الكسائى بالهاء، و اختار الزجاج و الفراء الوقف بالتاء لاتباع رسم المصحف فإنها تكتب بالتاء، و قرأ ابن عباس و ابن الزبير و مجاهد و منصور بن المعتمر و أبو الجوزاء و أبو صالح و حميد اللَّاتَ بتشديد التاء، و رويت القراءة عن ابن كثير، فقيل: هو اسم رجل كان

فتح القدير، ج‏5، ص: 130
يلتّ السّويق و يطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، فهو اسم فاعل فى الأصل غلب على هذا الرجل. قال مجاهد: كان رجلا فى رأس جبل [له غنيمة يسلى «1» منها السمن، و] «2» يتخذ من لبنها و سمنها حيسا «3»، و يطعم الحاج، و كان ببطن نخلة، فلما مات عبدوه. و قال الكلبى: كان رجلا من ثقيف له صرمة غنم، و قيل: إنه عامر بن الظّرب العدوانى، و كان هذا الصنم لثقيف، و فيه يقول الشاعر «4»:

لا تنصروا اللّات إنّ اللّه مهلكهاو كيف ينصركم من ليس ينتصر

قال فى الصحاح: و اللات اسم صنم لثقيف، و كان بالطائف، و بعض العرب يقف عليها بالتاء، و بعضهم بالهاء. وَ الْعُزَّى صنم قريش و بنى كنانة. قال مجاهد: هى شجرة كانت بغطفان، و كانوا يعبدونها، فبعث إليها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خالد بن الوليد فقطعها، و قيل: كانت شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة. و قال سعيد بن جبير: العزى: حجر أبيض كانوا يعبدونه. و قال قتادة: هى بيت كان ببطن نخلة وَ مَناةَ صنم بنى هلال. و قال ابن هشام: صنم هذيل و خزاعة. و قال قتادة: كانت للأنصار. قرأ الجمهور مَناةَ بألف من دون همزة، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و حميد و مجاهد و السلمى بالمدّ و الهمز «5». فأما قراءة الجمهور فاشتقاقها من منى يمنى، أى صبّ؛ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها يتقرّبون بذلك إليها.

و أما على القراءة الثانية فاشتقاقها من النوء، و هو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، و قيل: هما لغتان للعرب، و مما جاء على القراءة الأولى قول جرير:

أزيد مناة توعّد يا ابن تيمتأمّل أين تاه بك الوعيد

و مما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثى:

ألا هل أتى التّيم بن عبد مناءةعلى الشّنء فيما بيننا ابن تميم

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعا لرسم المصحف، و وقف ابن كثير و ابن محيصن عليها بالهاء. قال فى الصحاح: و مناة اسم صنم كان بين مكة و المدينة، و الهاء للتأنيث و يسكت عليها بالتاء، و هى لغة. قوله:

الثَّالِثَةَ الْأُخْرى هذا وصف لمناة، وصفها بأنها ثالثة و بأنها أخرى، و الثالثة لا تكون إلا أخرى. قال أبو البقاء: فالوصف بالأخرى للتأكيد، و قد استشكل وصف الثالثة بالأخرى، و العرب إنما تصف به الثانية، فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآى كقوله: مَآرِبُ أُخْرى «6» و قال الحسين بن الفضل:

---

(1). «يسلى»: يجمع.

(2). من تفسير القرطبى (17/ 100)

(3). «الحيس»: الطعام المتّخذ من التمر و الأقط و السمن.

(4). هو شداد بن عارض الجشمى.

(5). أى: مناءة.

(6). طه: 18.

فتح القدير، ج‏5، ص: 131
فيه تقديم و تأخير، و التقدير: أ فرأيتم اللات و العزّى الأخرى و مناة الثالثة. و قيل: إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم لأنها كانت عند المشركين عظيمة، و قيل: إن ذلك للتحقير و الذم، و إن المراد المتأخرة الوضيعة كما فى قوله: قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ «1»

أى: وضعاؤهم لرؤسائهم. ثم كرّر سبحانه توبيخهم و تقريعهم بمقالة شنعاء قالوها فقال: أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى‌ أى: كيف تجعلون للّه ما تكرهون من الإناث، و تجعلون لأنفسكم ما تحبّون من الذكور، قيل: و ذلك قولهم إن الملائكة بنات اللّه، و قيل: المراد كيف تجعلون اللات و العزّى و مناة، و هى إناث، فى زعمكم شركاء للّه، و من شأنهم أن يحتقروا الإناث. ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية و القسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة، فقال: تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‌ قرأ الجمهور:

ضِيزى بياء ساكنة بغير همزة، و قرأ ابن كثير بهمزة ساكنة، و المعنى: أنها قسمة خارجة عن الصواب جائرة عن العدل مائلة عن الحق. قال الأخفش: يقال: ضاز فى الحكم، أى: جار، و ضاز حقه يضيزه ضيزا، أى: نقصه و بخسه، قال: و قد يهمز، و أنشد:

فإن تنأ عنّا ننتقصك و إن تغب «2»فحقّك «3» مضئوز و أنفك راغم

و قال الكسائى: ضاز يضيز ضيزا، و ضاز يضوز ضوزا؛ إذا تعدّى و ظلم و بخس و انتقص، و منه قول الشاعر «4»:

ضازت بنو أسد بحكمهمإذ يجعلون الرّأس كالذّنب

قال الفراء: و بعض العرب يقول: ضئزى بالهمز، و حكى أبو حاتم عن أبى زيد أنه سمع العرب تهمز «ضيزى». قال البغوى: ليس فى كلام العرب فعلى بكسر الفاء فى النعوت، إنما تكون فى الأسماء مثل ذكرى.

قال المؤرّج: كرهوا ضم الضاد فى ضيزى، و خافوا انقلاب الياء واوا، و هى من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلّة، كما قالوا فى جمع أبيض بيض، و كذا قال الزجاج: و قيل: هى مصدر كذكرى، فيكون المعنى:

قسمة ذات جور و ظلم. ثم ردّ سبحانه عليهم بقوله: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ أى:

ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شى‌ء من معنى الألوهية التى تدعونها؛ لأنها لا تبصر و لا تسمع، و لا تعقل و لا تفهم، و لا تضرّ و لا تنفع، فليست إلا مجرّد أسماء سمّيتموها أنتم و آباؤكم، قلّد الآخر فيها الأوّل، و تبع فى ذلك الأبناء الآباء. و فى هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى، كما تقول فى تحقير رجل: ما هو إلا اسم، إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة، و مثل هذه الآية قوله تعالى:

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها «5» يقال: سميته زيدا و سميته بزيد، فقوله «سمّيتموها» صفة

---

(1). الأعراف: 38.

(2). فى تفسير القرطبى: تقم.

(3). فى تفسير القرطبى: فقسمك.

(4). هو امرؤ القيس.

(5). يوسف: 40.

لأصنام، و الضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام، أى: جعلتموها أسماء لا جعلتم لها اسما. و قيل: إن قوله:

هِيَ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة، و الأوّل أولى. ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ أى: ما أنزل بها من حجة و لا برهان. قال مقاتل: لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون إنها آلهة، ثم أخبر عنهم بقوله:

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ‌ أى: ما يتبعون فيما ذكر من التسمية و العمل بموجبها إلا الظنّ الّذى لا يغنى من الحق شيئا، و التفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم و تحقيرا لشأنهم، فقال: وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ‌ أى: تميل إليه و تشتهيه؛ من غير التفات إلى ما هو الحق الّذى يجب الاتباع له. قرأ الجمهور: يَتَّبِعُونَ‌ بالتحتية على الغيبة، و قرأ عيسى بن عمر و أيوب و ابن السّميقع بالفوقية على

الخطاب، و رويت هذه القراءة عن ابن مسعود و ابن عباس و طلحة و ابن وثّاب. وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى أى: البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة، و الجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يتبعون، و يجوز أن يكون اعتراضا، و الأوّل أولى. و المعنى: كيف يتبعون ذلك و الحال أن قد جاءهم ما فيه هدى لهم من عند اللّه؛ على لسان رسوله الّذى بعثه اللّه بين ظهرانيهم، و جعله من أنفسهم أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى «أم» هى المنقطعة المقدرة ببل و الهمزة التى للإنكار، فأضرب عن اتباعهم الظنّ الّذى هو مجرد التوهم، و عن اتباعهم هوى الأنفس و ما تميل إليه، و انتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم و تشفع لهم. ثم علّل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله: فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى أى: أن أمور الآخرة و الدنيا بأسرها للّه عزّ و جلّ، فليس لهم معه أمر من الأمور، و من جملة ذلك أمنياتهم الباطلة و أطماعهم الفارغة، ثم أكّد ذلك و زاد فى إبطال ما يتمنونه فقال: وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً و «كم» هنا هى الخبرية المفيدة للتكثير، و محلها الرفع على الابتداء، و الجملة بعدها خبرها، و لما فى كم من معنى التكثير جمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك، و المعنى: التوبيخ لهم بما يتمنون و يطمعون فيه من شفاعة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها و كرامتها على اللّه لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له، فكيف هذه الجمادات الفاقدة للعقل و الفهم، و هو معنى قوله: إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لهم بالشفاعة لِمَنْ يَشاءُ أن يشفعوا له وَ يَرْضى بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد، و ليس للمشركين فى ذلك حظّ، و لا يأذن اللّه بالشفاعة لهم، و لا يرضاها؛ لكونهم ليسوا من المستحقّين لها.

و قد أخرج ابن جرير و عن ابن عباس وَ النَّجْمِ إِذا هَوى قال: إذا انصبّ. و أخرج ابن المنذر عنه قال: هو الثريا إذا تدلت. و أخرج عنه أيضا قال: أقسم اللّه أنه ما ضلّ محمد و لا غوى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ذُو مِرَّةٍ قال: ذو خلق حسن. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن مسعود «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لم ير جبريل فى صورته إلاـ مرّتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته فأراه صوته فسدّ الأفق، و أما الثانية فإنه كان معه حيث صعد فذلك قوله: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى قال: خلق جبريل.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستّمائة جناح»

فتح القدير، ج٥، ص: ١٣٣

و أخرجه أحمد عنه أيضا. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى قال: مطلع الشمس.

و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود فى قوله: فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى قال: «رأى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم جبريل له ستّمائة جناح». و أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى فى قوله:

ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى قال: «رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جبريل عليه حلّتا رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء و الأرض». و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه قال: دنا ربه فتدلى. و أخرج قال: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم دنا فتدلى إلى ربه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه قال: دنا ربه فتدلى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ قال: دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: القاب: القيد، و القوسين: الذراعين. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أسرى بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم اقترب من ربه، فكان قاب قوسين أو أدنى، ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر. و أخرج النسائى و ابن المنذر و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى قال: عبده محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج مسلم و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه فى قوله: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى قال: رأى محمد ربه بقلبه مرّتين. و أخرج نحوه عنه عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: رأى محمد ربه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم رأى ربه بعينه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه قال: رأى محمد ربه مرّتين، مرّة ببصره و مرّة بفؤاده. و أخرج الترمذى و حسّنه، و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى عنه أيضا قال: لقد رأى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ربه عزّ و جلّ. و أخرج النسائى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عنه أيضا قال: أ تعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم، و الكلام لموسى، و الرؤية لمحمد؟ و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج مسلم و الترمذى و ابن مردويه عن أبى ذرّ قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل رأيت ربك؟» قال: نور أنّى أراه؟». و أخرج مسلم و ابن مردويه عنه «أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل رأيت ربك؟ قال: رأيت نورا». و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ربه بقلبه و لم يره ببصره. و أخرج مسلم عن أبى هريرة فى قوله: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى قال جبريل. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى عن ابن مسعود:

«لما أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم انتهى إلى سدرة المنتهى، و هى فى السماء السادسة، إليها ينتهى ما يصعد من الأرواح فيقبض منها، و إليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها» إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى قال: فراش من ذهب. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن مسعود قال: «الجنة فى السماء السابعة العليا، و النار فى الأرض السابعة السفلى». و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: كان اللات رجلا يلتّ السّويق للحاجّ. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه: أن العزى كانت ببطن نخلة، و أن اللات كانت بالطائف، و أن

مناة كانت بقديد. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس ضِيزى قال: جائرة، لا حقّ لها.

[سورة النجم (53): الآيات 27 الى 42]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (29) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31)

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (32) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَ أَعْطى قَلِيلاً وَ أَكْدى (34) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (36)

وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38) وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى (39) وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41)

وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى أى: أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث و ما بعده من الدار الآخرة، و هم الكفار، يضمّون إلى كفرهم مقالة شنعاء و جهالة جهلاء، و هى أنهم يسمّون الملائكة المنزّهين عن كلّ نقص

تسمية الأنثى، و ذلک أنهم زعموا أنها بنات اللّه، فجعلوهم إناثا، و سمّوهم بنات وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ جملة فی محل نصب علی الحال، أی: یسمونهم هذه التسمیة و الحال أنهم غیر عالمین بما یقولون، فإنهم لم یعرفوهم، و لا شاهدوهم، و لا بلّغ إلیهم ذلک من طریق من الطرق التی یخبر المخبرون عنها، بل قالوا ذلک جهلا و ضلالة و جرأة. و قرئ «ما لهم بها» أی: بالملائکة أو التسمیة إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ أی: ما یتبعون فی هذه المقالة إلا مجرّد الظنّ و التوهم. ثم أخبر سبحانه عن الظنّ و حکمه فقال: وَ إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً أی: إن جنس الظنّ لا یغنی من الحق شیئا من الإغناء، و الحقّ هنا العلم. و فیه دلیل علی أن مجرّد الظن لا یقوم قیام العلم، و أن الظانّ غیر عالم. و هذا فی الأمور التی یحتاج فیها إلی العلم و هی المسائل العلمیة، لا فیما یکتفی فیه بالظنّ، و هی الحقائق العملیة، و قد قدّمنا تحقیق هذا. و لا بدّ من هذا التخصیص، فإن دلالة العموم و القیاس و خبر الواحد و نحو ذلک ظنیة، فالعمل بها عمل بالظن، و قد وجب علینا العمل به فی مثل هذه الأمور، فکانت أدلة وجوبه العمل بما فیها مخصصة لهذا العموم، و ما ورد فی معناه من الذمّ لمن عمل بالظنّ و النهی عن اتباعه فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّی عَنْ ذِکْرِنا أی: أعرض عمّن أعرض عن ذکرنا، و المراد بالذکر هنا القرآن، أو ذکر الآخرة، أو ذکر اللّه علی العموم، و قیل: المراد بالذکر هنا الإیمان، و المعنی: اترک مجادلتهم فقد بلّغت إلیهم ما أمرت به، و لیس علیک إلا البلاغ، و هذا منسوخ بآیة السیف وَ لَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیاةَ الدُّنْیا أی: لم یرد سواها، و لا طلب غیرها، بل قصر نظره علیها؛ فإنه غیر متأهّل للخیر، و لا مستحقّ للاعتناء بشأنه. ثم صغّر سبحانه شأنهم، و حقّر أمرهم فقال: ذلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أی: إن ذلک التولی و قصر الإرادة علی الحیاة الدنیا هو مبلغهم من العلم، لیس لهم غیره،

فتح القدیر، ج۵، ص: ۱۳۵

و لا یلتفتون إلی سواه من أمر الدین. قال الفرّاء: أی: ذلک قدر عقولهم و نهایة علمهم أن آثروا الدنیا علی الآخرة، و قیل: الإشارة بقوله: ذلِکَ إلی جعلهم للملائکة بنات اللّه، و تسمیتهم لهم تسمیة الأنثی، و الأوّل أولی. و المراد بالعلم هنا مطلق الإدراک الّذی یندرج تحته الظنّ الفاسد، و الجملة مستأنفة لتقریر جهلهم و اتباعهم مجرّد الظن. و قیل: معترضة بین المعلّل و العلّة، و هی قوله: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدی فإن هذا تعلیل للأمر بالإعراض، و المعنی: أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق، و أعرض عنه، و لم یهتد إلیه، و أعلم بمن اهتدی فقبل الحق و أقبل إلیه و عمل به، فهو مجاز کلّ عامل بعمله، إن خیرا فخیر، و إن شرّا فشرّ. و فیه تسلیة لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و إرشاد له بأنه لا یتعب نفسه فی دعوة من أصرّ علی الضلالة و سبقت له الشقاوة، فإن اللّه قد علم حال هذا الفریق الضال کما علم حال الفریق الراشد. ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته و عظیم ملکه، فقال: وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ أی: هو المالک لذلک و المتصرّف فیه لا یشارکه فیه أحد، و اللام فی لِیَجْزِیَ الَّذِینَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا متعلّقة بما دلّ علیه الکلام، کأنه قال: هو مالک ذلک، یضل من یشاء، و یهدی من یشاء؛ لیجزی المسیء بإساءته و المحسن بإحسانه. و قیل: إن قوله: وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ معترضة، و المعنی: إن ربک هو أعلم بمن ضل عن سبیله، و هو أعلم بمن اهتدی؛ لیجزی. و قیل: هی لام العاقبة، أی: و عاقبة أمر الخلق الذین فیهم المحسن و المسیء أن یجزی اللّه کلا منهما بعمله. و قال مکی: إن اللام متعلقة بقوله: لا تُغْنِی شَفاعَتُهُمْ و هو بعید من حیث اللفظ و من حیث المعنی. قرأ الجمهور لِیَجْزِیَ بالتحتیة. و قرأ زید ابن علیّ بالنون، و معنی بِالْحُسْنَی أی: بالمثوبة الحسنی و هی الجنة، أو بسبب أعمالهم الحسنی، ثم وصف هؤلاء المحسنین فقال: الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ فهذا الموصول فی محل نصب علی أنه نعت للموصول الأول فی قوله: الَّذِینَ أَحْسَنُوا و قیل بدل منه، و قیل بیان له، و قیل منصوب علی المدح بإضمار أعنی، أو فی رفع علی أنه خبر مبتدأ محذوف، أی: هم الذین یجتنبون کبائر الإثم. قرأ الجمهور: کَبائِرَ علی الجمع. و قرأ حمزة و الکسائی و الأعمش و یحیی بن وثّاب کبیر علی الإفراد، و الکبائر:

كـل ذنب توعّـد اللّه عليه بالنـار، أو ذمّ فـاعله ذمّـا شديـدا، و لأهل العلم فى تحقيق الكبائر كلام طويل. و كما اختلفوا فى تحقيق معناهـا و ماهيتهـا اختلفوا فى عـددها، و الفواحش: جمع فاحشـة، و هى مـا فحش من كبائر الـذنوب كالزنا و نحوه. و قال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار، و الفواحش: كلّ ذنب فيه الحد. و قيل:

الكبـائر: الشـرك، و الفواحش: الزنا، و قـد قـدّمنا فى سورة النساء ما هو أبسط من هـذا و أكثر فائـدة، و الاسـتثناء بقوله: إِلَّا اللَّمَمَ منقطع «١». و أصل اللمم فى اللغة ما قلّ و صـغر، منه: ألمّ بالمكان قلّ لبثه فيه، و ألمّ بالطعام قلّ أكله منه، قال المبرد: أصل اللمم أن تلمّ بالشـىء من غير أن تركبه. يقال: ألم بكـذا إذا قاربه و لم يخالطه. قال الأزهرى: العرب تسـتعمل الإلمام فى معنى الـدنوّ و القرب، و منه قول جرير:

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٧/ ١٠٨): متصل.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٣٦ بنفسى من تجنّبه عزيزعلىّ و من زيارته لمام

و قول الآخر:

متى تأتنا تلمّم بنا فى ديارناتجد حطبا جزلا «١» و نارا تأجّجا

قال الزجاج: أصل اللمم و الإلمام ما يعمله الإنسان المرّة بعد المرّة، و لا يتعمق فيه، و لا يقيم عليه، يقال:

ألممت به؛ إذا زرته و انصرفت عنه، و يقال: ما فعلته إلا لمما و إلماما، أى: الحين بعد الحين، و منه إلمام الخيال. قال الأعشى:

ألمّ خيال من قتيلة بعد ماهى حبلها من حبلنا فتصرّما

قال فى الصحاح: ألمّ الرجل من اللمم و هو صغائر الذنوب، و يقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة، و أنشد غيره:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الرّكبو قل إن تملّينا فما ملّك القلب

و قد اختلفت أقوال أهل العلم فى تفسير هذا اللمم المذكور فى الآية، فالجمهور على أنه صغائر الذنوب، و قيل: هو ما كان دون الزنا من القبلة و الغمزة و النظرة، و قيل: هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب، و به قال مجاهد و الحسن و الزهرى و غيرهم، و منه:

إن تغفر اللّهم تغفر جمّاو أىّ عبد لك لا ألمّا؟

اختـار هـذا القول الزجـاج و النحـاس. و قيـل: هو ذنوب الجاهليـة، فإن اللّه لا يؤاخـذ بها فى الإسـلام، و قال نفطويه: هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعبادة. قال: و العرب تقول: ما تأتينا إلا إلماما، أى: فى الحين بعد الحين. قال: و لا يكون أن يلمّ و لا يفعل؛ لأن العرب لاـ تقول ألمّ بنـا إلاـ إذا فعـل، لاـ إذا همّ و لم يفعـل، و الراجـح الأول، و جملـة: إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ تعليل لما تضـمنه الاسـتثناء، أى: إن ذلـك و إن خرج عن حكم المؤاخـذة فليس يخلو عن كونه ذنبـا يفتقر إلى مغفرة اللّه و يحتـاج إلى رحمته، و قيـل: إنه سبحانه يغفر لمن تـاب عن ذنبه. ثم ذكر سبحانه إحاطـة علمه بأحوال عباده فقال: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أى: خلقكم منهـا فى ضـمن خلق أبيكم آدم. و قيـل: المراد آدم فـإنه خلقه من طين وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ أى: هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنّة، و الأجنّة: جمع جنين هو الولد ما دام فى البطن، سـمّى بذلك لاجتنانه، أى: استتاره، و لهذا قال: فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فلا يسـمّى من خرج عن البطن جنينا، و الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ أى لا تمدحوها و لا تبرئوها عن الآثام و لا تثنوا عليها، فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء و أقرب إلى الخشوع، و جملة: هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى مستأنفة مقررة

---

(١). «الجزل»: الكثير العظيم.

للنهى، أى: هو أعلم بمن أتقى عقوبة اللّه و أخلص العمل له. قال الحسن: و قد علم سبحانه من كلّ نفس ما هى عاملة، و ما هى صانعة، و إلى ما هى صائرة. ثم لمّا بيّن سبحانه جهالة المشركين على العمون خصّ بالذمّ بعضهم، فقال: أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى أى: تولى عن الخير، و أعرض عن اتباع الحق وَ أَعْطى قَلِيلًا وَ أَكْدى أى: أعطى عطاء قليلا، و أعطى شيئا قليلا، و قطع ذلك و أمسك عنه، و أصل أكدى من الكدية و هى الصّلابة، يقال: لمن حفر بئرا ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر: قد أكدى، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتمّ، و لمن طلب شيئا فلم يبلغ آخره، و منه قول الحطيئة:

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاءهو من يبذل المعروف فى النّاس يحمد

قال الكسائى و أبو زيد: [أكدى الحافر و أجبل: إذا بلغ فى حفره كدية أو جبلا، فلا يمكنه أن يحفر.

و حفر فأكدى: إذا بلغ إلى الصّلب «١». و يقال: كديت أصابعه: إذا محلت «٢» من الحفر، و كديت يده: إذا كلّت فلم تعمل شيئا، و كدت الأرض: إذا قلّ نباتها، و أكديت الرجل عن الشىء رددته، و أكدى الرجل: إذا قلّ خيره. قال الفراء: معنى الآية: أمسك من العطية و قطع. و قال المبرد: منعه منعا شديدا.

قال مجاهد و ابن زيد و مقاتل: نزلت فى الوليد بن المغيرة، و كان قد اتبع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على دينه، فعيّره بعض المشركين فترك و رجع إلى شركه. قال مقاتل: كان الوليد مدح القرآن، ثم أمسك عنه فأعطى قليلا من لسانه من الخير ثم قطعه. و قال الضحاك: نزلت فى النضر بن الحارث. و قال محمد بن كعب القرظى: نزلت فى أبى جهل. أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و المعنى: أعند هذا المكدى علم ما غاب عنه أمر العذاب، فهو يعلم ذلك أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى أى: أ لم يخبر و لم يحدّث بما فى صحف موسى؟ يعنى أسفاره، و هى التوراة، و بما فى صحف إبراهيم الّذى و فى، أى: تمّم و أكمل ما أمر به. قال المفسرون: أى: بلّغ قومه ما أمر به و أدّاه إليهم، و قيل: بالغ فى الوفاء بما عاهد اللّه عليه. ثم بيّن سبحانه ما فى صحفهما فقال: أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أى: لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى، و معناه: لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، و «أن» هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن مقدّر، و خبرها الجملة بعدها، و محل الجملة الجرّ على أنها بدل من صحف موسى و صحف إبراهيم، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، و قد مضى تفسير هذه الآية فى سورة الأنعام وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى عطف على قوله: أَلَّا تَزِرُ و هذا أيضا ممّا فى صحف موسى، و المعنى: ليس له إلا أجر سعيه و جزاء عمله، و لا ينفع أحدا عمل أحد، و هذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه: أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «٣»، و بمثل ما ورد فى شفاعة الأنبياء و الملائكة للعباد و مشروعية دعاء الأحياء للأموات و نحو ذلك،

---

(١). من تفسير القرطبى (١١/ ١١٢)

(٢). فى تفسير القرطبى: كلّت.

(٣). الطور: ٢١.

و لم يصب من قال: إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور، فإن الخاصّ لا ينسخ العام، بل يخصصه، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به و هو من غير سعيه كان مخصصا لما فى هذه الآية من العموم. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى أى: يعرض عليه و يكشف له يوم القيامة ثُمَّ يُجْزاهُ أى: يجزى الإنسان سعيه، يقال: جزاه اللّه بعمله و جزاه على عمله، فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان و المنصوب إلى سعيه. و قيل:

إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر و هو قوله: الْجَزاءَ الْأَوْفى فيكون الضمير راجعا إلى متأخّر عنه هو مفسر له، و

يجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعا إلى الجزاء الّذى هو مصدر يجزاه، و يجعل الجزاء الأوفى تفسيرا للجزاء المدلول عليه بالفعل، كما فى قوله: اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ «١» قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء «٢» و جزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما وَ أَنَّ إِلى رَبِّکَ الْمُنْتَهى أى: المرجع و المصير إليه سبحانه لا إلى غيره فيجازيهم بأعمالهم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ قال: الكبائر:

ما سمّى اللّه فيه النار، و الفواحش: ما كان فيه حدّ الدنيا. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن اللّه كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرک ذلک لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، و النفس تتمنّى و تشتهى، و الفرج يصدّق ذلک أو يكذبه». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى، فى الشعب، عن ابن مسعود فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ قال: زنا العينين: النظر، وزنا الشفتين:

التقبيل، وزنا اليدين: البطش، وزنا الرجلين: المشى، و يصدّق ذلک الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، و إلا فهو اللمم.

و أخرج مسدد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنه سئل عن قوله: إِلَّا اللَّمَمَ قال: هى النظرة و الغمزة و القبلة و المباشرة، فإذا مسّ الختان الختان فقد وجب الغسل، و هو الزنا.

و أخرج سعيد بن منصور، و الترمذى و صحّحه، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ هو الرجل يلمّ بالفاحشة ثم يتوب منها. قال: و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

إن تغفر اللّهمّ تغفر جمّاو أىّ عبد لک لا ألمّا؟

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ يقول: إلا ما قد سلف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة فى قوله: إِلَّا اللَّمَمَ قال:

اللمة: من الزنا ثم يتوب و لا يعود، و اللمة: من شرب الخمر ثم يتوب و لا يعود، فذلک الإلمام. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس قال: اللمم كل شىء بين الحدّين حدّ الدنيا و حدّ الآخرة يكفّره الصلاة، و هو دون كلّ موجب، فأما حدّ الدنيا فكلّ حدّ فرض اللّه عقوبته فى الدنيا؛ و أما حدّ الآخرة فكلّ شىء

---

(١). المائدة: ٨.

(٢). من تفسير القرطبى (١٧/ ١١٥)

ختمه اللّه بالنار و أخّر عقوبته إلى الآخرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن ثابت بن الحارث الأنصارى قال: كانت اليهود إذا هلک لهم صبىّ صغير قالوا: هو صدّيق، فبلغ ذلک النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «كذبت يهود ما من نسمة يخلقها فى بطن أمها إلا أنه شقىّ أو سعيد، فأنزل اللّه عند ذلک هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ الآية كلها». و أخرج أحمد و مسلم و أبو داود عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت برّة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تزكوا أنفسكم اللّه أعلم بأهل البرّ منكم، سمّوها زينب». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ أَعْطى قَلِيلًا وَ أَكْدى قال: قطع، نزلت فى العاص بن وائل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: أطاع قليلا ثم انقطع. و أخرج سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الشيرازى فى الألقاب، و الديلمى، قال السيوطى:

بسند ضعيف، عن أبى أمامة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أ تدرون ما قوله: وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: و فى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهنّ، و زعم أنها صلاة الضحى» و فى إسناده جعفر بن الزبير، و هو ضعيف. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: سهام الإسلام ثلاثون سهما لم يتمّمها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال اللّه: وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: يقول إبراهيم الّذى استكمل الطاعة فيما فعل بابنه حين رأى الرؤيا، و الّذى فى صحف موسى. أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى إلى آخر الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن سهل بن معاذ ابن أنس عن أبيه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «ألا أخبركم لم سمّى اللّه إبراهيم خليله الّذى وفّى؟ إنه كان يقول كلما أصبح و أمسى: فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ إلى آخر الآية» و فى إسناده ابن لهيعة. و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس. قال: لما نزلت: وَ النَّجْمِ فبلغ وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى قال: و فى أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى إلى قوله: مِنَ النُّذُرِ الْأُولى

و أخرج أبو داود و النحاس كلاهما فى الناسخ، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى فأنزل اللّه بعد ذلك وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «١»، فأدخل اللّه الأبناء الجنة بصلاح الآباء. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ:

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى استرجع و استكان.

و أخرج الدار قطنى فى الأفراد، و البغوى فى تفسيره، عن أبىّ بن كعب عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى قال: «لا فكرة فى الرب» «٢».

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٤٣ الى ٦٢]

وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى (٤٣) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا (٤٤) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (٤٦) وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (٤٧)

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى (٤٨) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (٤٩) وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (٥٠) وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى (٥١) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى (٥٢)

وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (٥٣) فَغَشَّاها ما غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (٥٥) هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (٥٨) أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ (٦٠) وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (٦٢)

---

(١). الطور: ٢١.

(٢). أى لا تحيط به الفكرة. [تفسير البغوى: ٤/ ٢٥٥].

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٤٠

قوله: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى أى: هو الخالق لذلك و القاضى بسببه. قال الحسن و الكلبى:

أضحك أهل الجنة فى الجنة، و أبكى أهل النار فى النار. و قال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، و أبكى السماء بالمطر، و قيل: أضحك من شاء فى الدنيا بأن سرّه، و أبكى من شاء بأن غمّه. و قال سهل بن عبد اللّه:

أضحك المطيعين بالرحمة، و أبكى العاصين بالسخط وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا أى: قضى أسباب الموت و الحياة، و لا يقدر على

ذلـك غيره، و قيـل: خلق نفس الموت و الحيـاة، كما فى قوله: خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ «۱» و قيـل: أمات الآباء و أحيا الأبناء، و قيل: أمـات فى الـدنيا و أحيـا للبعث و قيل: المراد بهما النوم و اليقظـة. و قال عطاء: أمات بعـدله و أحيا بفضـله، و قيل: أمات الكافر و أحيـاء المؤمن، كما فى قوله: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ «۲» و أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الـذَّكَرَ وَ الْأُنْثى مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى المراد بالزوجين الـذكر و الأنثى من كل حيوان، و لا يـدخل فى ذلك آدم و حوّاء فإنهما لم يخلقا من النطفـة، و النطفة: الماء القليل، و معنى: إِذا تُمْنى إذا تصبّ فى الرحم و تدفق فيه، كذا قال الكلبى و الضحاك و عطاء بن أبى رباح و غيرهم، يقال: منى الرجل و أمنى، أى: صب المنىّ. و قال أبو عبيدة إِذا تُمْنى إذا تقدّر، يقال:

منيت الشيء: إذا قدّرته، و منى له أى: قدّر له، و منه قول الشاعر «۳»:

حتّى تلاقى ما يمنى لك المانى «۴» و المعنى: أنه يقـدّر منها الولد. وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى أى: إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده. قرأ الجمهور: النَّشْأَةَ بالقصر بوزن الضربة، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة، و هما على القراءتين مصدران وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى أى: أغنى من شاء و أفقر من شاء، و مثله قوله: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ* «۵» و قوله: يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ «۶» قـاله ابن زيـد، و اختـاره ابن جرير، و قـال مجاهـد و قتادة و الحسن: أغنى: موّل، و أقنى: أخـدم، و قيل: معنى أقنى: أعطى القنية، و هى ما يتأثل من الأموال. و قيل: معنى أقنى: أرضى بما أعطى، أى: أغناه، ثم رضّاه بما أعطاه. قال الجوهرى: قنى الرجل قنى، مثل غنى غنى، أى: أعطاه ما يقتنى، و أقناه: أرضاه، و القنى: الرضا. قال أبو زيد: تقول

---

(۱). الملك: ۲.

(۲). الأنعام: ۱۲۲.

(۳). هو أبو قلابة الهذلى.

(۴). و صدره: و لا تقولن لشيء سوف أفعله.

(۵). الرعد: ۲۶.

(۶). البقرة: ۲۴۵.

العرب من أعطى مائـة من البقر فقـد أعطى القنى، و من أعطى مائـة من الضأن فقـد أعطى الغنى، و من أعطى مائـة من الإبل فقد أعطى المنى. قـال الأخفش و ابن كيسـان: أقنى: أفقر، و هو يؤيـد القول الأوّل وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى هى كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها، و المراد بها الشّعرى التى يقال لها العبور، و هى أشدّ ضياء من الشعرى التى يقال لها الغميصاء. و إنما ذكر سبحـانه أنه ربّ الشعرى مع كونه ربـا لكلّ الأشـياء للردّ على من كان يعبـدها، و أوّل من عبـدها أبو كبشـة، و كان من أشـراف العرب، و كانت قريش تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ابن أبى كبشة تشبيها له به لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة، و من ذلك قول أبى سفيان يوم الفتح: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة: وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى وصف عادا بالأولى لكونهم كانوا من قبـل ثمود. قـال ابن زيـد: قيل لها عادا الأولى، لأنهم أوّل أمـة أهلكت بعـد نوح. و قال ابن إسـحاق: هما عادان، فالأولى أهلكت بالصّرصر، و الأخرى أهلكت بالصيحة. و قيل: عاد الأولى قوم هود و عاد الأخرى إرم.

قرأ الجمهور: عاداً الْأُولى بالتنوين و الهمز، و قرأ نافع و ابن كثير و ابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام و إدغام التنوين فيها وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى أى: و أهلك ثمودا كما أهلك عادا، فما أبقى من الفريقين، و ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة، و قد تقدّم الكلام على عاد و ثمود فى غير موضع وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ أى:

و أهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد و ثمود إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى أى: أظلم من عاد و ثمود و أطغى منهم، أو أظلم و أطغى من جميع الفرق الكفرية، أو أظلم و أطغى من مشركى العرب، و إنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على اللّه بالمعاصى مع طول مدة دعوة نوح لهم، كما فى قوله: فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً «١» وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى الائتفاك: الانقلاب، و المؤتفكة: مدائن قوم لوط، و سميت المؤتفكة.

لأنها انقلبت بهم و صار عاليها سافلها، تقول: أفكته إذا قلبته، و معنى أهوى: أسقط، أى: أهواها جبريل بعد أن رفعها. قال المبرد: جعلها تهوى فَغَشَّاها ما غَشَّى أى: ألبسها ما ألبسها من الحجارة التى وقعت عليها، كما فى قوله: فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «٢» و فى هذه العبارة تهويل للأمر الّذى غشّاها به و تعظيم له، و قيل: إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة، أى: فغشّاها من العذاب ما غشّى على اختلاف أنواعه فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى هذا خطاب للإنسان المكذب، أى: فبأى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكّك و تمترى، و قيل: الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تعريضا لغيره، و قيل: لكلّ من يصلح له، و إسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدّده بحسب تعدد متعلقه، و سمّى هذه الأمور المذكورة آلاء، أى: نعما مع كون بعضها نقما لا نعما، لأنها مشتملة على العبر و المواعظ، و لكون فيها انتقام من العصاة، و فى ذلك نصرة للأنبياء و الصالحين. قرأ الجمهور: تَتَمارى من غير إدغام، و قرأ يعقوب و ابن محيصن بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى أى: هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدّمين قبله فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم، كذا قال ابن جريج و محمد بن كعب و غير هما. و قال

---

(١). العنكبوت: ١۴.

(٢). الحجر: ٧۴.

قتادة: يريد القرآن، و أنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى، و قيل: هذا الّذى أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة أن ينزل بهم ما نزل بأولئك، كذا قال أبو مالك. و قال أبو صالح: إن الإشارة بقوله: هذا إلى ما فى صحف موسى و إبراهيم، و الأوّل أولى أَزِفَتِ الْآزِفَةُ أى: قربت الساعة و دنت، سمّاها آزفة لقرب قيامها، و قيل: لدنوّها من الناس، كما فى قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ «١» أخبرهم بذلك ليستعدّوا لها.

قال فى الصحاح: أزفت الآزفة: يعنى القيامة، و أزف الرجل عجل، و منه قول الشاعر:

أزف التّرحّل غير أنّ ركابنالمّا تزل برحالنا و كأن قد

و لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ أى: ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا اللّه سبحانه، و قيل: كاشفة بمعنى انكشاف، و الهاء فيها كالهاء فى العاقبة و الداهية، و قيل: كاشفة بمعنى كاشف، و الهاء للمبالغة كرواية، و الأوّل أولى، و كاشفة صفة لموصوف محذوف كما ذكرنا، و المعنى: أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها و أهوالها أحد غير اللّه، كذا قال عطاء و الضحاك و قتادة و غيرهم. ثم وبّخهم سبحانه فقال: أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ المراد بالحديث القرآن، أى: كيف تعجبون منه تكذيبا وَ تَضْحَكُونَ منه استهزاء مع كونه غير محلّ للتكذيب و لا موضع للاستهزاء وَ لا تَبْكُونَ خوفا و انزجارا لما فيه من الوعيد الشديد، و جملة: وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ فى محل نصب على الحال، و يجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها، و السمود: الغفلة و السهو عن الشي‌ء. و قال فى الصّحاح: سمد سمودا رفع رأسه تكبرا، فهو سامد، قال الشاعر «٢»:

سوامد اللّيل خفاف الأزواد و قال ابن الأعرابى: السّمود: اللهو، و السّامد: اللاهى، يقال للقينة: أسمدينا، أى: ألهينا بالغناء، و قال

المبرد: سامدون: خامدون. قال الشاعر:

رمى الحدثان نسوة آل عمروبمقدار سمدن له سمودا

فردّ شعورهنّ السّود بيضاو ردّ وجوههنّ البيض سودا

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا لمّا وبّخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن و الضحك منه و السخرية به و عدم الانتفاع بمواعظه و زواجره؛ أمر عباده المؤمنين بالسّجود للّه و العبادة له، و الفاء جواب شرط محذوف، أى: إذا كان الأمر من الكفار كذلك، فاسجدوا للّه و اعبدوا، فإنه المستحقّ لذلك منكم، و قد تقدم فى فاتحة السورة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سجد عند تلاوة هذه الآية، و سجد معه الكفار، فيكون المراد بها سجود التلاوة، و قيل: سجود الفرض.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى قال: أعطى

---

(١). القمر: ١.

(٢). هو رؤبة بن العجاج.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٤٣

و أرضى. و أخرج ابن جرير عنه وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى قال: هو الكوكب الّذى يدعى الشعرى.

و أخرج الفاكهى عنه أيضا قال: نزلت هذه الآية فى خزاعة، و كانوا يعبدون الشّعرى، و هو الكوكب الّذى يتبع الجوزاء. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى قال: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الآزفة من أسماء القيامة. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن صالح أبى الخليل قال: لما نزلت هذه الآية أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ- وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ فما ضحك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك إلا أن يتبسم. و لفظ عبد بن حميد:

فما رؤى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم ضاحكا و لا متبسّما حتى ذهب من الدنيا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سامِدُونَ قال:

لاهون معرضون عنه. و أخرج الفريابى، و أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد، و ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، عنه: وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ قال: الغناء باليمانية، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنّوا و لعبوا. و أخرج الفريابى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: سامِدُونَ قال: كانوا يمرّون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم شامخين، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن أبى خالد الوالبى قال: خرج علىّ بن أبى طالب علينا و قد أقيمت الصلاة و نحن قيام ننتظره ليتقدّم، فقال: مالكم سامدون؟ لا أنتم فى صلاة، و لا أنتم فى جلوس تنتظرون؟

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٤٤

سورة القمر

اشارة

و يقال سورة اقتربت، و هى خمس و خمسون آية و هى مكية كلها فى قول الجمهور. و قال مقاتل: هى مكية إلا ثلاث آيات من

قوله: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ إلى قوله: وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ قال القرطبى: و لا يصحّ. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و النحاس، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس:

أنها نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال:

«اقتربت» تدعى فى التوراة المبيضة؛ تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه. قال البيهقى: منكر. و أخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد اللّه بن أبى فروة، رفعه: «من قرأ اقتربت السّاعة فى كلّ ليلتين بعثه اللّه يوم القيامة و وجهه كالقمر ليلة البدر». و أخرج ابن الضريس نحوه عن ليث بن معن عن شيخ من همدان رفعه، و قد تقدم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ بقاف و اقتربت الساعة فى الأضحى و الفطر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القمر (۵۴): الآيات ۱ الى ۱۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ (۱) وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (۳) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (۴)

حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (۵) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (۶) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (۸) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (۹) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (۱۴)

وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۵) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۷)

قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ أى: قربت و لا شك أنها قد صارت، فاعتبار نسبة ما بقى بعد قيام النبوّة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة. و يمكن أن يقال: إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكلّ آت قريب وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ أى: و قد انشقّ القمر، و كذا قرأ حذيفة بزيادة قد، و المراد:

الانشقاق الواقع فى أيام النبوّة معجزة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إلى هذا ذهب الجمهور من السلف و الخلف. قال الواحدى: و جماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشقّ القمر، و العلماء كلهم على خلافه. قال: و إنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوّة محمد

صلّى اللّه عليه و سلّم و نبوّته و زمانه من أشراط اقتراب الساعة. قال ابن كيسان: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: انشقّ القمر و اقتربت الساعة. و حكى القرطبى عن الحسن مثل قول عطاء: أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة. و قيل: معنى و انشقّ القمر: وضح الأمر و ظهر، و العرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح. و قيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه، و طلوعه فى أثنائها، كما يسمّى الصبح فلقا لانفلاق الظلمة عنه. قال ابن كثير: قد كان الانشقاق فى زمان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. قال: و هذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه كان إحدى المعجزات الباهرات. قال الزجّاج، زعم قوم عندوا عن القصد و ما عليه أهل العلم أن تأويله: أن القمر ينشقّ يوم القيامة، و الأمر بيّن فى اللفظ و إجماع أهل العلم، لأن قوله: وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ يدلّ على

أن هـذا كـان فى الـدنيا لا فى القيامـة. انتهى. و لم يأت من خالف الجمهور و قال: إن الانشـقاق سـيكون يوم القيامـة؛ إلا بمجرد استبعاد، فقال: لأنه لو انشق فى زمن النبوّة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية، و الناس فى الآيات سواء. و يجاب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلا و لا شرعا و لا عادة، و مع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر، و هذا بمجرده يدفع الاستبعاد و يضرب به فى وجه قائله.

و الحاصـل أنا إذا نظرنا إلى كتاب اللّه، فقـد أخبرنا بأنه انشقّ، و لم يخبرنا بأنه سـينشق، و إن نظرنا إلى سـنّة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم فقد ثبت فى الصـحيح و غيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك فى أيام النبوّة، و إن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا، و لا يلتفت إلى شذوذ من شذّ، و استبعاد من استبعد، و سيأتى ذكر بعض ما ورد فى ذلك إن شاء اللّه وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ قال الواحدى: قال المفسرون: لما انشقّ القمر قال المشركون: سحرنا محمد، فقال اللّه: وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يعنى انشقاق القمر يعرضوا عن التصـديق و الإيمان بها، و يقولوا: سحر قوىّ شديـد يعلو كل سحر، من قولهم: استمرّ الشـىء؛ إذا قوى و استحكم، و قـد قال بأن معنى مستمرّ: قوى شديـد؛ جماعة من أهل العلم. قال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، و هو شدّة فتله، و به قال أبو العالية و الضحاك، و اختاره النحّاس، و منه قول لقيط:

حتّى استمرّت على شزر مريرتهصدق العزيمة لا رتّا و لا ضرعا «۱»

و قال الفراء و الكسائى و أبو عبيدة سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ أى: ذاهب، من قولهم: مرّ الشـىء و استمر؛ إذا ذهب، و به قال قتادة و مجاهد و غير هما، و اختاره النحاس. و قيل: معنى مستمرّ: دائم مطرد، و منه قول الشاعر «۲»:

ألا إنّما الدّنيا ليال و أعصرو ليس على شىء قويم بمستمر

---

(۱). «الرتة»: ردّة قبيحة فى اللسان من العيب. «الضّرع» اللين الذليل.

(۲). هو امرؤ القيس.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۱۴۶

أى: بـدائم بـاق، و قيـل: مسـتمرّ: باطـل، روى هـذا عن أبى عبيـدة أيضا. و قيل: يشبه بعضه بعضا، و قيل: قـد مرّ من الأرض إلى السـماء، و قيل: هو من المرارة، يقال: مرّ الشـىء صار مرّا، أى: مسـتبشع عندهم. و فى هذه الآية أعظم دليل على أن الانشـقاق قد كان كما قرّرناه سابقا. ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال:

وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ أى: و كـذبوا رسول اللّه، و ما عاينوا من قـدرة اللّه، و اتبعوا أهواءهم و ما زيّنه لهم الشـيطان الرجيم، و جملة وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب و اتباع الأهواء، أى: و كلّ أمر من الأمور منته إلى غاية، فالخير يسـتقرّ بأهل الخير، و الشـرّ يسـتقر بأهل الشـرّ. قال الفراء: يقول: يسـتقرّ قرار تكـذيبهم و قرار قول المصـدّقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب و العقاب. قال الكلبى:

المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه فى الدنيا فسيظهر، و ما كان منه فى الآخرة فسيعرف. قرأ الجمهور:

مُسْتَقِرٌّ بكسر القاف، و هو مرتفع على أنه خبر المبتدأ و هو «كلّ». و قرأ أبو جعفر و زيد بن على بجرّ مستقر على أنه صفة لأمر، و قرأ شيبة بفتح القاف، و رويت هذه القراءة عن نافع. قال أبو حاتم:

و لا وجه لها، و قيل: لها وجه بتقـدير مضاف محذوف، أى: و كلّ أمر ذو اسـتقرار، أو زمان اسـتقرار، أو مكان اسـتقرار، على أنه مصـدر، أو ظرف زمان، أو ظرف مكان وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ أى: و لقـد جاء كفار مكـة، أو الكفار على العموم من الأنباء، و هى أخبار الأمم المكذّبة المقصوصة علينا فى القرآن ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ أى: ازدجار على أنه مصدر ميمىّ، يقال: زجرته؛

إذا نهيته عن السوء و وعظته، و يجوز أن يكون اسم مكان، و المعنى: جاءهم ما فيه موضع ازدجار، أي: إنه فى نفسه موضع لذلك، و أصله مزتجر، و تاء الافتعال تقلب دالا مع الزاى و الدال و الذال كما تقرّر فى موضعه، و قرأ زيد بن علىّ مزّجر بقلب تاء الافتعال زايا و إدغام الزاى فى الزاى، و «من» فى قوله: مِنَ الْأَنْباءِ للتبعيض، و هى و ما دخلت عليه فى محل نصب على الحال، و ارتفاع حِكْمَةٌ بالِغَةٌ على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من «ما»، بدل كل من كل، أو بدل اشتمال، و المعنى: إن القرآن حكمة قد بلغت الغاية، ليس فيها نقص و لا خلل، و قرئ بالنصب على أنها حال من «ما»، أى: حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة فَما تُغْنِ النُّذُرُ «ما» يجوز أن تكون استفهامية و أن تكون نافية، أى: أىّ شىء تغنى النذر؟ أو: لم تغن النذر شيئا، و الفاء لترتيب عدم الإغناء على مجىء الحكمة البالغة، و النذر جمع نذير بمعنى المنذر، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر. ثم أمره اللّه سبحانه بالإعراض عنهم فقال: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أى: أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار، و هى منسوخة بآية السيف يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ انتصاب الظرف إما بفعل مقدّر، أى: اذكر، و إما بيخرجون المذكور بعده، و إما بقوله: فَما تُغْنِ و يكون قوله: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ اعتراض، أو بقوله: يَقُولُ الْكافِرُونَ أو بقوله: خُشَّعاً و سقطت الواو من يدع اتباعا للفظ، و قد وقعت فى الرسم هكذا و حذفت الياء من الداع للتخفيف و اكتفاء بالكسرة، و الداع هو إسرافيل، و الشىء النكر: الأمر الفظيع الّذى ينكرونه استعظاما له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله. قرأ الجمهور بضم الكاف.

و قرأ ابن كثير بسكونها تخفيفا. و قرأ مجاهد و قتادة بكسر الكاف و فتح الراء على صيغة الفعل المجهول

فتح القدير، ج ۵، ص: ۱۴۷

خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ قرأ الجمهور: خُشَّعاً جمع خاشع. و قرأ حمزة و الكسائى و أبو عمرو خاشعا على الإفراد، و منه قول الشاعر «۱»:

و شباب حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معدّ

و قرأ ابن مسعود خاشعة قال الفراء: الصفة إذا تقدّمت على الجماعة جاز فيها التذكير و التأنيث و الجمع، يعنى جمع التكسير لا جمع السلامة؛ لأنه يكون من الجمع بين فاعلين، و مثل قراءة الجمهور قول امرئ القيس «۲»:

وقوفا بها صحبى علىّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسى و تجلّد

و انتصاب «خشّعا» على الحال من فاعل «يخرجون»، أو من الضمير فى «عنهم»، و الخشوع فى البصر الخضوع و الذلة، و أضاف الخشوع إلى الأبصار لأن العزّ و الذلّ يتبيّن فيها يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ أى: يخرجون من القبور، و واحد الأجداث: جدث، و هو القبر، كأنهم لكثرتهم و اختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر، أى: منبثّ فى الأقطار، مختلط بعضه ببعض مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ الإهطاع:

الإسراع، أى: قال كونهم مسرعين إلى الداعى، و هو إسرافيل، و منه قول الشاعر:

بدجلة دارهم و لقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السّماع

أى: مسرعين إليه. و قال الضحاك: مقبلين. و قال قتادة: عامدين. و قال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت، و الأوّل أولى، و به قال أبو عبيدة و غيره، و جملة يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ فى محل نصب على الحال من ضمير «مهطعين»، و الرابط مقدر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ و العسر: الصعب الشديد، و فى إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين. ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدّم من الأنباء المجملة فقال: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ أى: كذّبوا نبيّهم، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قوله: فَكَذَّبُوا عَبْدَنا تفسير لما قبله من التكذيب المبهم، و فيه مزيد تقرير و تأكيد، أى: فكذّبوا عبدنا نوحا، و قيل: المعنى: كذّبت قوم نوح الرسل، فكذبوا عبدنا نوحا بتكذيبهم للرسل؛ فإنه منهم. ثم بيّن سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرّد التكذيب فقال: وَ قالُوا مَجْنُونٌ أى: نسبوا نوحا إلى الجنون، و قوله: وَ ازْدُجِرَ

معطوف على قالوا، أى: و زجر عن دعوى النبوّة و عن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر، و الدال بدل من تاء الافتعال كما تقدّم قريبا، و قيل: إنه معطوف على مجنون، أى: و قالوا إنه ازدجر، أى: ازدجرته الجنّ و ذهبت بلبّه، و الأوّل أولى. قال مجاهد: هو من كلام اللّه سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر و زجر بالسبّ و أنواع الأذى. قال الرازى: و هذا أصح؛ لأن المقصود

---

(١). هو الحرث بن دوس الإيادى، و يروى لأبى دؤاد الإيادى.

(٢). البيت لطرفة بن العبد. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزنى ص (٨٨)

تقوية قلب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بذكر من تقدّمه فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ أى: دعا نوح ربّه على قومه بأنى مغلوب من جهة قومى لتمرّدهم عن الطاعة و زجرهم لى عن تبليغ الرسالة، فانتصر لى، أى: انتقم لى منهم.

طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لمّا أيس من إجابتهم، و علم تمرّدهم و عتوّهم و إصرارهم على ضلالتهم.

قرأ الجمهور أَنِّي بفتح الهمزة، أى: بأنى. و قرأ ابن أبى إسحاق و الأعمش بكسر الهمزة، و رويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول، أى: فقال. ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ أى: منصبّ انصبابا شديدا، و الهمر: الصبّ بكثرة؛ يقال: همر الماء و الدمع يهمر همرا و همورا؛ إذا كثر، و منه قول الشاعر:

أ عينىّ جودا بالدّموع الهوامرعلى خير باد من معدّ و حاضر

و منه قول امرئ القيس يصف غيثا:

راح تمريه الصّبا ثم انتحىفيه شؤبوب جنوب منهمر «١»

قرأ الجمهور: فَفَتَحْنا مخففا. و قرأ ابن عامر و يعقوب بالتشديد وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً أى:

جعلنا الأرض كلها عيونا متفجرة، و الأصل: فجرنا عيون الأرض. قرأ الجمهور: فَجَّرْنَا بالتشديد، و قرأ ابن مسعود و أبو حيوة و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف. قال عبيد بن عمير: أوحى اللّه إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ أى: التقى ماء السماء و ماء الأرض على أمر قد قضى عليهم، أى: كائنا على حال قدّرها اللّه و قضى بها. و حكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، بل كان ماء السماء و ماء الأرض على سواء. قال قتادة: قدّر لهم إذ كفروا أن يغرقوا.

و قرأ الجحدرى: فالتقى الماءان و قرأ الحسن فالتقى الماوان و رويت هذه القراءة عن علىّ بن أبى طالب و محمد بن كعب. وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ أى: و حملنا نوحا على سفينة ذات ألواح، و هى الأخشاب العريضة وَ دُسُرٍ قال الزجاج: هى المسامير التى تشدّ بها الألواح، واحدها دسار، و كل شىء أدخل فى شىء يشدّه فهو الدسر، و كذا قال قتادة و محمد بن كعب و ابن زيد و سعيد بن جبير و غيرهم.

و قال الحسن و شهر بن حوشب و عكرمة: الدسر: ظهر السفينة التى يضربها الموج، سمّيت بذلك لأنها تدسر الماء، أى: تدفعه، و الدّسر: الدفع، و قال الليث: الدّسار: خيط تشدّ به ألواح السفينة. قال فى الصحاح:

الدّسار واحد الدسر، و هى خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، و يقال: هى المسامير تَجْرِي بِأَعْيُنِنا أى:

بمنظر و مرأى منا و حفظ لها، كما فى قوله: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا «٢» و قيل: بأمرنا، و قيل: بوحينا، و قيل:

بالأعين النابعة من الأرض، و قيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ قال الفراء: فعلنا به و بهم ما فعلنا من إنجائه و إغراقهم ثوابا لمن كفر به و جحد أمره، و هو نوح عليه السلام،

(١). «راح» عاد فى الرواح. «تمريه»: تستدرّه. «الشؤبوب» الدفعة من المطر.

(٢). هود: ٣٧.

فإنه كان لهم نعمة كفروها، فانتصاب «جزاء» على العلّة، و قيل: على المصدرية بفعل مقدّر، أى: جازيناهم جزاء. قرأ الجمهور: كُفِرَ مبنيا للمفعول، و المراد به نوح. و قيل: هو اللّه سبحانه، فإنهم كفروا به و جحدوا نعمته. و قرأ يزيد بن رومان و قتادة و مجاهد و حميد و عيسى «كفر» بفتح الكاف و الفاء مبنيا للفاعل، أى: جزاء و عقابا لمن كفر باللّه وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً أى: السفينة تركها اللّه عبرة للمعتبرين، و قيل: المعنى: و لقد تركنا هذه الفعلة التى فعلناها بهم عبرة و موعظة فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ أصله مذتكر، فأبدلت التاء دالا مهملة، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما، و أدغمت الدال فى الذال و المعنى: هل من متّعظ و معتبر يتّعظ بهذه الآية و يعتبر بها فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ أى: إنذارى. قال الفراء: الإنذار و النذر مصدران، و الاستفهام للتهويل و التعجيب، أى: كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف، و قيل:

نذر جمع نذير، و نذير بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أى: سهّلناه للحفظ، و أعنّا عليه من أراد حفظه، و قيل: هيّأناه للتذكّر و الاتعاظ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ أى: متّعظ بمواعظه و معتبر بعبره. و فى الآية الحث على درس القرآن، و الاستكثار من تلاوته، و المسارعة فى تعلمه. و مدكر أصله مذتكر كما تقدّم قريبا.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما». و روى عنه من طريق أخرى عند مسلم و الترمذى و غيرهم قال:

فنزلت اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: «انشقّ القمر على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فرقتين، فرقة فوق الجبل، و فرقة دونه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اشهدوا» و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم، و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عنه قال: رأيت القمر منشقا شقتين مرّتين، مرّة بمكة قبل أن يخرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم؛ شقة على أبى قبيس، و شقة على السويداء ... و ذكر أن هذا سبب نزول الآية. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم عنه أيضا قال: رأيت القمر و قد انشقّ، و أبصرت الجبل بين فرجتى القمر. و له طرق عنه. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن عباس قال: انشقّ القمر فى زمن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و له طرق عنه. و أخرج مسلم و الترمذى و غير هما عن ابن عمر فى قوله: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ قال: كان ذلك على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم انشقّ فرقتين: فرقة من دون الجبل، و فرقة خلفه، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، اللهم أشد، و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن جبير بن مطعم عن أبيه فى قوله:

وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ قال: انشقّ القمر و نحن بمكة على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى صار فرقة على هذا الجبل و فرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم عن أبى عبد الرّحمن السلمى قال: «خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن، فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: اقتربت الساعة و انشقّ القمر، ألا و إن الساعة قد اقتربت، ألا و إن القمر قد انشقّ على عهد رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ألا و إن الدنيا قد آذنت بفراق، اليوم المضمار و غدا السباق» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: مُهْطِعِينَ قال: ناظرين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ قال: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم و لا بعده إلا من السحاب، و فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ قال: الألواح: ألواح السفينة، و الدسر: معاريضها التى تشد بها السفينة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ دُسُرٍ قال: المسامير. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: الدسر: كلكل السفينة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عنه أيضا فى قوله: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قال: لولا أن اللّه يسّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلّموا بكلام اللّه. و أخرج الديلمى عن أنس مرفوعا مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قال: هل من متذكّر.

[سورة القمر (54): الآيات 18 الى 40]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (21) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (24) أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (27)

وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (37)

وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (39) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

قوله: كَذَّبَتْ عادٌ هم قوم عاد فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ أى: فاسمعوا كيف كان عذابى لهم و إنذارى إياهم، و «نذر» مصدر بمعنى إنذار كما تقدم تحقيقه، و الاستفهام للتهويل و التعظيم إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقا من العذاب، و الصرصر: شدة البرد، أى: ريح شديدة البرد، و قيل: الصرصر: شدّة الصوت، و قد تقدّم بيانه فى سورة حم السجدة فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ أى: دائم الشؤم استمرّ عليهم بنحوسه، و قد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم. قال الزجاج: قيل:

فى يوم الأربعاء فى آخر الشهر. قرأ الجمهور: «فى يوم نحس» بإضافة يوم إلى نحس مع سكون الحاء، و هو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أو على تقدير مضاف، أى: فى يوم عذاب نحس. و قرأ الحسن بتنوين يوم على أن نحس صفة له. و قرأ هارون بكسر الحاء. قال الضحاك: كان ذلك اليوم مرّا عليهم. و كذا

حكى الكسائى عن قوم أنهم قالوا: هو من المرارة، و قيل: هو من المرّة بمعنى القوّة، أى: فى يوم قوىّ الشؤم مستحكمه؛ كالشىء المحكم الفتل الّذى لا يطاق نقضه، و الظاهر أنه من الاستمرار، لا من المرارة و لا من المرّة، أى: دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم، و شمل بهلاكه كبيرهم و صغيرهم، و جملة تَنْزِعُ النَّاسَ فى محل نصب على أنها صفة لريحا أو حال منها و يجوز أن

يكون استئنافا، أى: تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النّخلة من أصلها. قال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض فترمى بهم على رؤوسهم، فتدقّ أعناقهم، و تبين رؤوسهم من أجسادهم، و قيل: الناس من البيوت، و قيل: من قبورهم؛ لأنّهم حفروا حفائر و دخلوها كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ الأعجاز: جمع عجز، و هو مؤخر الشىء، و المنقعر: المنقطع المنقلع من أصله، يقال: قعرت النخلة؛ إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط. شبّههم فى طول قاماتهم حين صرعتهم الريح و طرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التى ليست لها رؤوس، و ذلك أن الرّيح قلعت رؤوسهم أولا، ثم كبّتهم على وجوههم. و تذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل و هى مؤنثة اعتبارا باللفظ، و يجوز تأنيثه اعتبارا بالمعنى كما قال: أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ «١» قال المبرد: كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا، أو إلى المعنى تأنيثا. و قيل: إن النخل و النخيل يذكر و يؤنث فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ قد تقدّم تفسيره قريبا، و كذلك قوله: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. ثم لما ذكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود فقال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ يجوز أن يكون جمع نذير، أى: كذبت بالرّسل المرسلين إليهم، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإنذار، أى: كذبت بالإنذار الّذى أنذروا به، و إنما كان تكذيبهم لرسولهم و هو صالح تكذيبا للرسل؛ لأن من كذّب واحدا من الأنبياء فقد كذب سائرهم لاتفاقهم فى الدعوة إلى كليات الشرائع فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ الاستفهام للإنكار، أى: كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه؟ قرأ الجمهور بنصب «بشرا» على الاشتغال، أى: أ نتبع بشرا واحدا؟ و قرأ أبو السّمّال أنه قرأ برفع: «بشرا» و نصب بالرفع على الابتداء، و واحدا صفته، و نتبعه خبره. و روى عن أبى السّمّال أنه قرأ برفع: «بشرا» و نصب «واحدا» على الحال. إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ أى: إنّا إذا اتبعناه لفى خطأ و ذهاب عن الحق وَ سُعُرٍ أى: عذاب و عناء و شدّة، كذا قال الفراء و غيره. و قال أبو عبيدة: هو جمع سعير، و هو لهب النار، و السّعر:

الجنون يذهب كذا و كذا لما يلتهب به من الحدّة. و قال مجاهد: «و سعر» و بعد عن الحق. و قال السدى:

فى احتراق، و قيل: المراد به هنا الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أى: كأنها من شدّة نشاطها مجنونة، و منه قول الشاعر يصف ناقة:

تخال بها سعرا إذ السّفر هزّهاذميل و إيقاع من السّير متعب

ثم كرّروا الإنكار و الاستبعاد، فقالوا: أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا أى: كيف خصّ من بيننا بالوحى

---

(١). الحاقة: ٧.

و النبوّة، و فينا من هو أحقّ بذلك منه؟ ثم أضربوا عن الاستنكار و انتقلوا إلى الجزم بكونه كذابا أشرا، فقالوا:

بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ و الأشر: المرح و النشاط، أو البطر و التكبّر، و تفسيره بالبطر و التكبر أنسب بالمقام، و منه قول الشاعر:

أشرتم بلبس الخزّ لمّا لبستمو من قبل لا تدرون من فتح القرى

قرأ الجمهور «أشر» كفرح. و قرأ أبو قلابة و أبو جعفر بفتح الشين و تشديد الرّاء على أنه أفعل تفضيل.

و نقل الكسائى عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة. ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله: سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ و المراد بقوله: «غدا» وقت نزول العذاب بهم فى الدنيا، أو فى يوم القيامة جريا على عادة الناس فى التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر و إن بعد، كما فى قولهم: إن مع اليوم غدا، و كما فى قول الحطيئة:

للموت فيها سهام غير مخطئةمن لم يكن ميّتا فى اليوم مات غدا

و منه قول الطّرمّاح:

ألا علّلانى قبل نوح النّوائحو قبل اضطراب النّفس بين الجوانح

و قبل غد يا لهف نفسى على غدإذا راح أصحابى و لست برائح

قرأ الجمهور: «سيعلمون» بالتحتية، إخبار من اللّه سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة. و قرأ أبو عمرو و ابن عامر و حمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه، و جملة: إِنّٰا مُرْسِلُوا النّٰاقَةِ مستأنفة لبيان ما تقدّم إجماله من الوعيد، أى: إنّا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه فِتْنَةً لَهُمْ أى: ابتلاء و امتحانا، و انتصاب فتنة على العلّة فَارْتَقِبْهُمْ أى: انتظر ما يصنعون وَ اصْطَبِرْ على ما يصيبك من الأذى منهم وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمٰاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ أى: بين ثمود و بين الناقة، لها يوم و لهم يوم، كما فى قوله: لَهٰا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ «١» و قال: نَبِّئْهُمْ بضمير العقلاء تغليبا كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ الشّرب: بكسر الشين: الحظ من الماء. و معنى محتضر: أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوما و هم يحضرونه يوما. قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم، فيشربون، و يحضرون يوم نوبتها فيحتلبون. قرأ الجمهور: «قسمة» بكسر القاف بمعنى مقسوم، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بفتحها فَنٰادَوْا صٰاحِبَهُمْ أى: نادى ثمود صاحبهم و هو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضّونه على عقرها فَتَعٰاطىٰ فَعَقَرَ أى: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطى أسباب العقر فعقر.

قال محمد بن إسحاق: كمن لها فى أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم فانتظم به ساقها، ثم شدّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها، و التعاطى: تناول الشىء بتكلّف فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي وَ نُذُرِ قد تقدّم

---

(١). الشعراء: ١٥٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٥٣

تفسيره فى هذه السورة. ثم بيّن ما أجمله من العذاب فقال: إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وٰاحِدَةً قال عطاء:

يريد صيحة جبريل، و قد مضى بيان هذا فى سورة هود و فى الأعراف فَكٰانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ قرأ الجمهور بكسر الظاء، و الهشيم: حطام الشجر و يابسه، و المحتظر: صاحب الحظيرة، و هو الّذى يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح، يقال: احتظر على غنمه؛ إذا جمع الشجر و وضع بعضه فوق بعض. قال فى الصحاح: و المحتظر: الّذى يعمل الحظيرة. و قرأ الحسن و قتادة و أبو العالية بفتح الظاء، أى: كهشيم الحظيرة، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار، و من قرأ بالفتح أراد الحظيرة، و هى فعلية بمعنى مفعولة، و معنى الآية أنهم صاروا كالشجر إذا يبس فى الحظيرة و داسته الغنم بعد سقوطه، و منه قول الشاعر:

أثرن عجاجة كدخان نارتشبّ بغرقد بال هشيم

و قال قتادة: هو العظام النّخرة المحترقة. و قال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح.

و قال سفيان الثورى: هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى. قال ابن زيد: العرب تسمى كل شىء كان رطبا فيبس هشيما و منه قول الشاعر:

ترى جيف المطىّ بجانبيهكأنّ عظامها خشب الهشيم

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قد تقدّم تفسير هذا فى هذه السورة. ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل اللّه كما كذبهم غيرهم فقال: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ و قد تقدّم تفسير النذر قريبا. ثم بيّن سبحانه ما عذّبهم به فقال: إِنّٰا أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ حٰاصِباً أى: ريحا ترميهم بالحصباء، و هى الحصى. قال أبو عبيدة و النّضر بن شميل: الحاصب: الحجارة فى الريح. قال فى الصحاح: الحاصب: الريح الشديدة التى تثير الحصباء، و منه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشّام يضربهابحاصب كنديف القطن منثور

إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ يعنى لوطا و من تبعه، و السحر: آخر الليل، و قيل: هو فى كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار، و انصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة و لو قصد معينا لامتنع. كذا قال الزجاج و الأخفش و غير هما، و انتصاب نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا على العلّة، أو على المصدرية، أى: إنعاما منا على لوط و من تبعه كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ أى: مثل ذلك الجزاء نجزى من شكر نعمتنا و لم يكفرها وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا أى: أنذر لوط قومه بطشة اللّه بهم، و هى عذابه الشديد و عقوبته البالغة فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ أى: شكّوا فى الإنذار و لم يصدّقوه، و هو تفاعل من المرية، و هى الشك وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ أى: أرادوا منه تمكينهم ممّن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم، يقال:

راودته عن كذا مراودة و روادا، أى: أردته، وراد الكلام يروده رودا: أى طلبه، و قد تقدّم تفسير المراودة مستوفى فى سورة هود فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ أى: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شقّ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب. و قيل: أذهب اللّه نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها. قال

فتح القدير، ج‏5، ص: 154

الضّحاك: طمس اللّه على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ قد تقدّم تفسيره فى هذه السورة وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ أى: أتاهم صباحا عذاب مستقرّ بهم نازل عليهم لا يفارقهم و لا ينفكّ عنهم. قال مقاتل: استقرّ بهم العذاب بكرة، و انصراف بكرة لكونه لم يرد بها وقتا بعينه كما سبق فى «بسحر» فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ- وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ قد تقدّم تفسير هذا فى هذه السورة، و لعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر فى هذه السورة الإشعار بأنه منّة عظيمة، لا ينبغى لأحد أن يغفل عن شكرها.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً قال: باردة فِي يَوْمِ نَحْسٍ قال: أيام شداد. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر». و أخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا. و أخرجه ابن مردويه عن عليّ مرفوعا. و أخرج ابن مردويه أيضا عن أنس مرفوعا، و فيه «قيل: و كيف ذاك يا رسول اللّه؟

قال: أغرق اللّه فيه فرعون و قومه، و أهلك فيه عادا و ثمودا». و أخرج ابن مردويه و الخطيب بسند، قال السيوطى: ضعيف، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر». و أخرج ابن المنذر عنه كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ قال: أصول النخل مُنْقَعِرٍ قال: منقلع.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: أعجاز سواد النخل. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا وَ سُعُرٍ قال: شقاء. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ قال: كحظائر من الشجر محترقة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: كالعظام المحترقة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال: كالحشيش تأكله الغنم.

[سورة القمر (54): الآيات 41 الى 55]

وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42) أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى‏ وَ أَمَرُّ (46) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى‏ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (49) وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۵۱) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (۵۲) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (۵۳) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (۵۴) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (۵۵)

النُّذُرُ يجوز أن يكون جمع نذير، و يجوز أن يكون مصدرا كما تقدّم، و هى الآيات التى أنذرهم بها موسى، و هذا أولى لقوله: كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فإنه بيان لذلك، و المراد بها الآيات التسع التى تقدم ذكرها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ أى: أخذناهم بالعذاب أخذ غالب فى انتقامه، قادر على إهلاكهم، لا يعجزه شىء. ثم خوّف سبحانه كفار مكة فقال: أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ و الاستفهام للإنكار،

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۵۵

و المعنى النفى، أى: ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب، خير من كفار من تقدّمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم، فكيف تطمعون فى السلامة من العذاب و أنتم شرّ منهم. ثم أضرب سبحانه عن ذلك و انتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيت بالوجه الأول، فقال: أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ و الزبر: هى الكتب المنزّلة على الأنبياء، و المعنى: إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب اللّه فى شىء من كتب الأنبياء. ثم أضرب عن هذا التبكيت، و انتقل إلى التبكيت لهم بوجه آخر، فقال: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ أى: جماعة لا تطاق لكثرة عددنا و قوتنا، أو أمرنا مجتمع لا نغلب، و أفرد منتصرا اعتبارا بلفظ «جميع». قال الكلبى: المعنى: نحن جميع أمرنا، ننتصر من أعدائنا، فردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ أى: جمع كفار مكة، أو كفار العرب على العموم. قرأ الجمهور «سيهزم» بالتحتية مبنيا للمفعول. و قرأ ورش عن يعقوب «سنهزم» بالنون و كسر الزاى و نصب الجمع. و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة بالتحتية مبنيا للفاعل، و قرئ بالفوقية مبنيا للفاعل وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ قرأ الجمهور: «يولون» بالتحتية، و قرأ عيسى و ابن أبى إسحاق و ورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب، و المراد بالدبر: الجنس، و هو فى معنى الإدبار، و قد هزمهم اللّه يوم بدر و ولّوا الأدبار، و قتل رؤساء الشرك و أساطين الكفر، فللّه الحمد بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ أى: موعد عذابهم الأخروىّ، و ليس هذا العذاب الكائن فى الدنيا بالقتل و الأسر و القهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب، و إنما هو مقدّمة من مقدماته، و طليعة من طلائعه، و لهذا قال: وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ أى: و عذاب الساعة أعظم فى الضرّ و أفظع، مأخوذ من الدهاء، و هو النكر و الفظاعة، و معنى أمرّ: أشد مرارة من عذاب الدنيا، يقال: دهاه أمر كذا، أى: أصابه دهوا و دهيا إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ أى: فى ذهاب عن الحق و بعد عنه، و قد تقدّم فى هذه السورة تفسير «و سعر» فلا نعيده يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ و الظرف منتصب بما قبله، أى: كائنون فى ضلال و سعر يوم يسحبون، أو بقول مقدّر بعده، أى: يوم يسحبون يقال لهم: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ أى: قاسوا حرّها و شدّة عذابها، و سقر: علم لجهنم. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بإدغام سين «مس» فى سين «سقر» إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ قرأ الجمهور بنصب كل على الاشتغال. و قرأ أبو السّمال بالرفع، و المعنى: أن كل شىء من الأشياء خلقه اللّه سبحانه متلبسا بقدر قدّره و قضاء قضاه سبق فى علمه، مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه. و القدر: التقدير، و قد قدّمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى.

وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ أى: إلا مرة واحدة، أو كلمة كلمح بالبصر فى سرعته، و اللمح: النظر على العجلة و السرعة. و فى الصحاح: لمحه و ألمحه؛ إذا أبصره بنظر خفيف، و الاسم اللمحة. قال الكلبى: و ما أمرنا بمجىء الساعة فى السرعة إلا كطرف البصر وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ أى: أشباهكم و نظراءكم فى الكفر من الأمم، و قيل: أتباعكم و أعوانكم فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ يتذكّر و يتّعظ بالمواعظ و يعلم أن ذلك حق، فيخاف العقوبة و أن يحل به ما حلّ بالأمم السالفة وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ أى: جميع ما فعلته الأمم من خير أو شرّ مكتوب فى اللوح المحفوظ، و قيل: فى كتب الحفظة وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۵۶
مُسْتَطَرٌ أی: کل شـیء من أعمال الخلق و أقوالهم و أفعالهم مسطور فی اللوح المحفوظ، صغیره و کبیره، و جلیله و حقیره. یقال: سطر یسـطر سطرا: کتب، و استطر مثله. ثم لما فرغ سبحانه من ذکر حال الأشقیاء ذکر حال السعداء فقال: إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ أی: فی بساتین مختلفهٔ و جنان متنوعهٔ و أنهار متدفقهٔ.
قرأ الجمهور «و نهر» بفتح الهاء علی الإفراد، و هو جنس یشـمل أنهار الجنهٔ و قرأ مجاهد و الأعرج و أبو السـمال بسـکون الهاء و هما لغتان، و قرأ أبو مجلز و أبو نهشل و الأعرج و طلحـهٔ بن مصـرّف و قتادهٔ «نهر» بضم النون و الهاء علی الجمع فِی مَقْعَدِ صِدْقٍ أی: فی مجلس حقّ لا لغو فیه و لا تأثیم، و هو الجنـهٔ عِنْدَ مَلِیکٍ مُقْتَدِرٍ أی: قادر علی ما یشاء لا یعجزه شـیء، و عند هاهنا کنایهٔ عن الکرامهٔ و شرف المنزلهٔ، و قرأ عثمان البتّی «فی مقاعد صدق».
و قـد أخرج ابن جریر عن ابن عبـاس أَ کُفَّارُکُمْ خَیْرٌ مِنْ أُولئِکُمْ یقول: لیس کفـارکم خیر من قوم نوح و قوم لوط. و أخرج ابن أبی شـیبهٔ و ابن منیع و ابن جریر و ابن المنـذر و ابن مردویه عنه فی قوله: سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الـدُّبُرَ قال: کان ذلک یوم بـدر قالوا: نَحْنُ جَمِیعٌ مُنْتَصِرٌ فنزلت هذه الآیهٔ. و فی البخاری و غیره عنه أیضا أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال و هو فی قبّهٔ له یوم بدر: «أنشدک عهدک و وعدک، اللهمّ إن شئت لم تعبد بعد الیوم أبدا، فأخذ أبو بکر بیده و قال: حسبک یا رسول اللّه ألححت علی ربک، فخرج و هو یثب فی الدرع و یقول: سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ- بَلِ السَّاعَهُٔ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَهُٔ أَدْهی وَ أَمَرُّ.
و أخرج أحمـد و عبد بن حمید و مسـلم و الترمذی و ابن ماجهٔ و غیرهم عن أبی هریرهٔ قال: جاء مشـرکو قریش إلی النبیّ صـلّی اللّه علیه و سلّم یخاصـمونه فی القـدر، فنزلت: یَوْمَ یُسْحَبُونَ فِی النَّارِ عَلی وُجُوهِهِمْ و أخرج مسلم عن ابن عمر قـال: قال رسول اللّه: «کـل شـیء بقـدر حـتی العجز و الکیس». و أخرج ابن المنـذر عنه فی قوله: وَ کُلُّ صَغِیرٍ وَ کَبِیرٍ مُسْتَطَرٌ قـال: مسـطور فی الکتاب.
فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۱۵۷

سورهٔ الرّحمن

اشارهٔ

و هی مکیـهٔ. قال القرطبی: کلها فی قول الحسن و عروهٔ بن الزبیر و عکرمهٔ و عطاء و جابر قال: قال ابن عباس: إلا آیهٔ منها، و هی قوله: یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الآیهٔ. و قال ابن مسعود و مقاتل:
هی مدینهٔ کلها، و الأوّل أصح، و یدلّ علیه ما أخرجه النحّاس عن ابن عباس قال: نزلت سورهٔ الرّحمن بمکهٔ.
و أخرج ابن مردویه عن عبد اللّه بن الزبیر قال: أنزل بمکهٔ سورهٔ الرّحمن. و أخرج ابن مردویه عن عائشهٔ قالت:
نزلت سورهٔ الرَّحْمنُ- عَلَّمَ الْقُرْآنَ بمکهٔ. و أخرج أحمد و ابن مردویه، قال السیوطی: بسند حسن، عن أسماء بنت أبی بکر قالت: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقرأ و هو یصلّی نحو الرکن قبل أن یصدع بما یؤمر و المشـرکون یسـمعون: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ و یؤید القول الثانی ما أخرجه ابن الضـریس و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورهٔ الرّحمن بالمدینـهٔ، و یمکن الجمع بین القولین بـأنه نزل بعضـها بمکـهٔ و بعضـها بالمدینـهٔ. و أخرج الترمـذی و ابن المنـذر، و أبو الشـیخ فی العظمـهٔ، و الحاکم و صـحّحه، و ابن مردویه، و البیهقیّ فی الدلائل، عن جابر بن عبد اللّه قال: «خرج رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سلّم علی أصـحابه. فقرأ علیهم سورهٔ الرّحمن من أولها إلی آخرها فسکتوا، فقال: ما لی أراکم سکوتا لقد قرأتها علی

الجنّ ليلة الجنّ، فكانوا أحسن مردودا منكم، كلما أتيت على قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ* قالوا:
و لا بشـيء من نعمك ربنا نكذّب، فلك الحمد» قال الترمذى بعد إخراجه: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد. و حكى عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير.
و قال البزار: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه. و أخرجه البزار و ابن جرير و ابن المنذر، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه، و الخطيب فى تاريخه، من حديث ابن عمر، و صـحّح السيوطى إسناده، و قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. و أخرج البيهقى فى الشعب، عن عليّ، سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لكل شيء عروس، و عروس القرآن الرّحمن».
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١ الى ٢٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (٤)
الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (٥) وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ (٦) وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (٨) وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (٩)
وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (١٠) فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (١١) وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)
وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (١٩)
بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٢٣) وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٢٤)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٢٥)
فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٥٨
قوله: الرَّحْمنُ- عَلَّمَ الْقُرْآنَ ارتفاع الرّحمن على أنه مبتـدأ و ما بعـده من الأفعال أخبار له، و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أى: اللّه الرّحمن. قال الزجّاج: معنى عَلَّمَ الْقُرْآنَ يسّره. قال الكلبى:
علّم القرآن محمـدا و علّمه محمـد أمته، و قيل: جعله علامـة لما يعبـد الناس به، قيل: نزلت هذه الآية جوابا لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر، و قيل: جوابا لقولهم: و ما الرّحمن؟ و لما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التى أنعم بها على عباده قدّم النعمة التى هى أجلّها قـدرا، و أكثرها نفعا، و أتمّها فائـدة، و أعظمها عائـدة، و هى نعمـة تعليم القرآن، فإنها مـدار سـعادة الـدارين، و قطب رحى الخيرين، و عماد الأمرين. ثم امتنّ بعـد هذه النعمة بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور و مرجع جميع الأشـياء فقال: خَلَقَ الْإِنْسانَ ثم امتنّ ثالثا بتعليمه البيان الّذى يكون به التفاهم، و يدور عليه التّخاطب، و تتوقف عليه مصالح المعاش و المعاد؛ لأنه لا يمكن إبراز ما فى الضـمائر و لا إظهار ما يـدور فى الخلـد إلا به. قال قتادة و الحسن: المراد بالإنسان آدم، و المراد بالبيان أسـماء كلّ شيء، و قيل: المراد به اللغات. و قال ابن كيسان: المراد بالإنسان هاهنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و بالبيان بيان الحلال من الحرام، و الهدى من الضلال، و هو بعيد. و قال الضحاك: البيان: الخير و الشرّ. و قال الربيع بن أنس:

هو ما ينفعه ممّا يضره، و قيل: البيان: الكتابة بالقلم. و الأولى حمل الإنسان على الجنس، و حمل البيان على تعليم كلّ قوم لسانهم الّذى يتكلمون به الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ أى: يجريان بحساب و منازل لا يعدوانها، و يدلان بذلك على عدد الشهور و السنين. قال قتادة و أبو مالك: يجريان بحسبان فى منازل لا يعدوانها و لا يحيدان عنها. و قال ابن زيد و ابن كيسان: يعنى أن بهما تحسب الأوقات و الآجال و الأعمار، و لو لا الليل و النهار و الشمس و القمر لم يدر أحد كيف يحسب؛ لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا. و قال الضحاك:

معنى بحسبان: بقدر. و قال مجاهد: بحسبان كحسبان الرحى، يعنى قطبهما الّذى يدوران عليه. قال الأخفش: الحسبان جماعة الحساب، مثل شهب و شهبان. و أما الحسبان بالضمّ فهو العذاب؛ كما مضى فى سورة الكهف وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ النجم: ما لا ساق له من النبات، و الشجر: ما له ساق.

قال الشاعر «١»:

لقد أنجم القاع الكبير عضاههو تمّ به حيّا تميم و وائل

و قال زهير:

مكلّل بأصول النّجم تنسجهريح الجنوب لضاحى مائه حبك

---

(١). هو صفوان بن أسد التميمى.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٥٩

و المراد بسجودهما انقياد هما للّه تعالى انقياد الساجدين من المكلفين. و قال الفراء: سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء. و قال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما فى قوله: يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ «١» و قال الحسن و مجاهد: المراد بالنجم نجم السماء و سجوده طلوعه، و رجّح هذا ابن جرير. و قيل: سجوده أفوله، و سجود الشجر: تمكينها من الاجتناء لثمارها. قال النحاس: أصل السجود الاستسلام و الانقياد للّه، و هذه الجملة و التى قبلها خبران آخران للرحمن، و ترك الرابط فيهما لظهوره، كأنه قيل: الشمس و القمر بحسبانه، و النجم و الشجر يسجدان له وَ السَّماءَ رَفَعَها قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال. و قرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء، و المعنى: أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض وَ وَضَعَ الْمِيزانَ المراد بالميزان العدل، أى: وضع فى الأرض العدل الّذى أمر به، كذا قال مجاهد و قتادة و السدى و غيرهم. قال الزجاج: المعنى أنه أمرنا بالعدل، و يدل عليه قوله: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ أى: لا تجاوزوا العدل. و قال الحسن و الضحاك: المراد به آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف و الانتصاف. و قيل: الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، و به قال الحسين بن الفضل، و الأوّل أولى. ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم، فقال: وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ أى: قوّموا وزنكم بالعدل، و قيل:

المعنى: أقيموا لسان الميزان بالعدل، و قيل: المعنى: أنه وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال، و «أن» فى قوله: أَلَّا تَطْغَوْا مصدرية، أى: لئلا تطغوا، و «لا» نافية، أى: وضع الميزان لئلا تطغوا، و قيل:

هى مفسرة، لأن فى الوضع معنى القول، و الطغيان: مجاوزة الحد، فمن قال: الميزان العدل، قال: طغيانه الجور، و من قال: الميزان الآلة التى يوزن بها، قال: البخس وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ أى: لا تنقصوه، أمر سبحانه أولا بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الّذى هو المجاوزة للحد بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الّذى هو النقص و البخس. قرأ الجمهور: «تخسروا» بضم التاء و كسر السين من أخسر، و قرأ بلال بن أبى بردة و أبان بن عثمان و زيد بن على بفتح التاء و السين بن خسر، و هما لغتان. يقال أخسرت الميزان و

خسرته. ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال: وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ أى: بسطها على الماء لجميع الخلق ممّا له روح و حياة، و لا وجه لتخصيص الأنام بالإنس و الجنّ. قرأ الجمهور: بنصب الأرض على الاشتغال، و قرأ أبو السمال بالرفع على الابتداء، و جملة فِيها فاكِهَةٌ فى محل نصب على أنها حال من الأرض مقدّرة، و قيل: مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التى قبلها، و المراد بها كلّ ما يتفكّه به من أنواع الثمار. ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه و مزيد فائدته على سائر الفواكه، فقال: وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ الأكمام: جمع كمّ بالكسر، و هو وعاء التمر. قال الجوهرى: و الكمّ بالكسر و الكمامة وعاء الطلع و غطاء النّور، و الجمع كمام و أكمّة و أكمام. قال الحسن: ذات الأكمام، أى: ذات الليف، فإن النخلة تكمّم بالليف و كمامها ليفها، و قال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق. و قال عكرمة: ذات الأحمال. وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ الحبّ: هو جميع ما يقتات من الحبوب و العصف. قال السدىّ و الفراء: هو بقل الزرع،

---

(١). النحل: ۴٧.

و هو أوّل ما ينبت به. قال ابن كيسان: يبدو أولا ورقا، و هو العصف، ثم يبدو له ساق، ثم يحدث اللّه فيه أكماما، ثم يحدث فى الأكمام الحبّ. قال الفراء: و العرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، و كذا قال الصحاح. و قال الحسن: العصف: التبن، و قال مجاهد: هو ورق الشجر و الزرع.

و قيل: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه و يبس، و منه قوله: كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ «١»، و قيل: هو الزرع الكثير، يقال: قد أعصف الزرع، و مكان معصف، أى: كثير الزرع، و منه قول أبى قيس بن الأسلت:

إذا جمادى منعت قطرهازان جنابى عطن معصّف

و الريحان: الورق فى قول الأكثر. و قال الحسن و قتادة و الضحاك و ابن زيد: إنه الريحان الّذى يشم.

و قال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. و قال الكلبى: إن العصف: هو الورق الّذى لا يؤكل، و الريحان:

هو الحب المأكول. و قال الفراء أيضا: العصف: المأكول من الزرع، و الريحان: ما لا يؤكل، و قيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح. قال ابن الأعرابى: يقال شىء ريحانى و روحانى. و قال فى الصحاح: الريحان نبت معروف، و الريحان: الرزق، تقول: خرجت أبتغى ريحان اللّه. قال النّمر بن تولب:

سلام الإله و ريحانهو رحمته و سماء درر

و قيل: العصف: رزق البهائم، و الريحان: رزق الناس. قرأ الجمهور: وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ برفع الثلاثة عطفا على فاكهة. و قرأ ابن عامر و أبو حيوة و المغيرة بنصبهما عطفا على الأرض، أو على إضمار فعل، أى: و خلق الحبّ ذا العصف و الريحان. و قرأ حمزة و الكسائى و الريحان بالجرّ عطفا على العصف. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ الخطاب للجنّ و الإنس؛ لأن لفظ الأنام يعمّهما و غير هما، ثم خصّص بهذا الخطاب من يعقل. و بهذا قال الجمهور من المفسرين، و يدلّ عليه قوله فيما سيأتى: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ و يدلّ على هذا ما قدّمنا فى فاتحة هذه السورة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قرأها على الجنّ و الإنس، و قيل: الخطاب للإنس، و ثناه على قاعدة العرب فى خطاب الواحد بلفظ التثنية كما قدّمنا فى قوله: أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ «٢» و الآلاء: النعم. قال القرطبى: و هو قول جميع المفسرين، واحدها إلى مثل معى و عصا. و قال ابن زيد: إنها القدرة، أى: فبأىّ قدرة ربكما تكذّبان، و به قال الكلبى. و كرّر سبحانه هذه الآية فى هذه السورة تقريرا للنعمة و تأكيدا للتذكير بها على عادة العرب فى الاتساع. قال القتبى: إن اللّه عدّد فى هذه السورة نعماءه، و ذكّر خلقه آلاءه، ثم أتبع كلّ خلّة وضعها بهذه الآية، و جعلها فاصلة

بين كلّ نعمتين لينبههم على النعم و يقرّرهم بها كما تقول لمن تتابع له إحسانك، و هو يكفره: ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ أ فتنكر هذا؟ ألم تكن راجلا فحملتك؟ أ فتنكر هذا؟ و التكرير حسن فى مثل هذا، و منه قول الشاعر:

لا تقتلى رجلا إن كنت مسلمةإيّاك من دمه إيّاك إيّاك

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، و تأكيد للحجة. خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ

---

(١). الفيل: ۵.

(٢). ق: ٢۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ١۶١

لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير، و هو السماء و الأرض و ما فيهما، ذكر خلق العالم الصغير، و المراد بالإنسان هنا آدم. قال القرطبى: باتفاق من أهل التأويل، و لا يبعد أن يراد الجنس لأن بنى آدم مخلوقون فى ضمن خلق أبيهم آدم، و الصّلصال: الطين اليابس الّذى يسمع له صلصلة، و قيل: هو طين خلط برمل، و قيل: هو الطين المنتن، يقال: صلّ اللحم و أصلّ إذا أنتن، و قد تقدّم بيانه فى سورة الحجر، و الفخار:

الخزف الّذى طبخ بالنار، و المعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه فى يبسه الخزف. وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ يعنى خلق أبا الجنّ أو جنس الجن من مارج من نار، و المارج: اللهب الصافى من النار، و قيل: الخالص منها، و قيل: لسانها الّذى يكون فى طرفها إذا التهبت، و قال الليث: المارج: الشّعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. و قال المبرد: المارج: النار المرسلة التى لا تمنع، و قال أبو عبيدة: المارج: خلط النار، من مرج إذا اختلط و اضطرب. قال الجوهرى: «مارِجٍ مِنْ نارٍ»: نار لا دخان لها، خلق منها الجان.

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنه أنعم عليكما فى تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ قرأ الجمهور: «ربّ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو ربّ المشرقين و المغربين، و قيل: مبتدأ و خبره مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ و ما بينهما اعتراض، و الأوّل أولى، و المراد بالمشرقين مشرقا الشتاء و الصيف، و بالمغربين مغرباهما فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى ذلك من النعم ما لا يحصى و لا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ المرج: التخلية و الإرسال، يقال: مرجت الدابة؛ إذا أرسلتها، و أصله الإهمال كما تمرج الدّابة فى المرعى، و المعنى: أنه أرسل كل واحد منهما، يلتقيان: أى يتجاوران لا فصل بينهما فى مرأى العين، و مع ذلك فلم يختلطا، و لهذا قال: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ أى: حاجز يحجز بينهما لا يَبْغِيانِ أى: لا يبغى أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه و يختلط به. قال الحسن و قتادة: هما بحر فارس و الروم. و قال ابن جريج: هما البحر المالح و الأنهار العذبة، و قيل:

بحر المشرق و المغرب، و قيل: بحر اللؤلؤ و المرجان، و قيل: بحر السماء و بحر الأرض. قال سعيد بن جبير:

يلتقيان فى كل عام، و قيل: يلتقى طرفاهما. و قوله: يَلْتَقِيانِ فى محلّ نصب على الحال من البحرين، و جملة بَيْنَهُما بَرْزَخٌ يجوز أن تكون مستأنفة، و أن تكون حالا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن هذه الآية و أمثالها لا يتيسّر تكذيبها بحال يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ قرأ الجمهور: «يَخْرُجُ» بفتح الياء و ضم الراء مبنيا للفاعل، و قرأ نافع و أبو عمرو بضم الياء و فتح الراء مبنيا للمفعول، و اللؤلؤ: الدرّ، و المرجان: الخرز الأحمر المعروف. و قال الفراء: اللؤلؤ: العظام، و المرجان ما صغر. قال الواحدى: و هو قول جميع أهل اللغة. و قال مقاتل و السدى و مجاهد: اللؤلؤ صغاره، و المرجان كباره، و قال: يَخْرُجُ مِنْهُمَا و إنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب، لأنه إذا خرج من أحد هما فقد خرج منهما، كذا قال الزجاج و غيره. و قال أبو على الفارسى: هو من باب حذف

المضـاف، أى: من أحـدهما، كقوله: عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١». و قـال الأخفش: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العـذب، و قيل: هما بحران يخرج من

---

(١). الزخرف: ٣١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٦٢

أحـدهما اللؤلؤ، و من الآخر المرجان، و قيل: هما بحر السـماء و بحر الأرض، فإذا وقع ماء السـماء فى صـدف البحر انعقـد لؤلؤا فصـار خارجـا منهمـا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى ذلك من الآيات ما لا يسـتطيع أحـد تكـذيبه و لا يقـدر على إنكاره وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ المراد بالجوار: السـفن الجاريهٔ فى البحر، و المنشآت: المرفوعات التى رفع بعض خشبها على بضـع و ركـب، حتى ارتفعت و طـالت، حتى صـارت فى البحر كالأعلام، و هى الجبـال، و العلم: الجبـل الطويـل. و قـال قتـادهٔ: المنشـآت: المخلوقـات للجرى. و قـال الأخفش: المنشـآت: المجريـات. و قـد مضـى بيان الكلام فى هـذا فى سورهٔ الشورى. قرأ الجمهـور: «الْجَوارِ» بكسـر الراء و حـذف اليـاء لالتقـاء السـاكنين، و قرأ ابن مسـعود و الحسن و أبو عمرو فى روايـهٔ عنه رفع الراء تناسبا للحـذف، و قرأ يعقوب: بإثبـات الياء، و قرأ الجمهور: الْمُنْشَآتُ بفتـح الشـين، و قرأ حمزهٔ و أبو بكر فى روايـهٔ عنه: بكسـر الشين فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن ذلك من الوضوح و الظهور بحيث لا يمكن تكذيبه و لا إنكاره.

و قـد أخرج الفريـابى و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم، و الحاكم و صـحّحه، عن ابن عباس فى قوله: الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ قال: بحساب و منازل يرسلان. و أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم عنه وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ قال: للناس. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عنه أيضـا قـال: للخلق. و أخرج ابن جرير عنه أيضـا قال: كل شـىء فيه روح. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ قال: أوعيهٔ الطلع. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضـا فى قوله:

وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ قـال: التبن وَ الرَّيْحـانُ قـال: خضـرهٔ الزرع. و أخرج ابن جرير عنه أيضـا قـال: الْعَصْفِ ورق الزرع إذا يبس وَ الرَّيْحـانُ مـا أنبتت الأرض من الريحان الّـذى يشمّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الْعَصْفِ الزرع أوّل مـا يخرج بقلاـ وَ الرَّيْحـانُ حتى يسـتوى على سوقه و لم يسـنبل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: كلّ ريحان فى القرآن فهو رزق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ* قال: يعنى بأىّ نعمهٔ اللّه.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآيـهٔ قال: يعنى الجنّ و الإنس. و أخرج عبـد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضـا مِنْ مـارِجٍ مِنْ نـارٍ قال: من لهب النار. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآيـهٔ قال: خالص النار. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ قال: للشمس مطلع فى الشتاء، و مغرب فى الشتاء، و مطلع فى الصيف، و مغرب فى الصيف، غير مطلعها فى الشتاء و غير مغربها فى الشـتاء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآيـهٔ قال: مشـرق الفجر و مشـرق الشـفق. و مغرب الشـمس و مغرب الشـفق. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عنه أيضـا فى قوله: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيـانِ قـال: أرسـل البحرين بَيْنَهُمـا بَرْزَخٌ قـال: حـاجز لاـ يَبْغِيانِ لا يختلطان. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: بحر السـماء و بحر الأرض، و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ قال: بينهما من البعد ما لا يبغى

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٦٣

كـل واحـد منهما على صاحبه. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ

قال: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف فى البحر أفواهها، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن علىّ بن أبى طالب قال: المرجان: عظام اللؤلؤ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: اللؤلؤ: ما عظم منه، و المرجان: اللؤلؤ الصغار. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى عن ابن مسعود قال: المرجان: الخرز الأحمر.

[سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۲۶ الى ۴۵]

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (۲۶) وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۲۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۸) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (۲۹) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۰)
سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (۳۱) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۲) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (۳۳) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۴) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (۳۵)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۶) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (۳۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۸) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ (۳۹) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۰)
يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ (۴۱) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۲) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (۴۳) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (۴۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۵)

قوله: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ أى: كلّ من على الأرض من الحيوانات هالك، و غلّب العقلاء على غيرهم، فعبّر عن الجميع بلفظ من، و قيل: أراد من عليها من الجنّ و الإنس وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه و وجوده، و قد تقدّم فى سورة البقرة بيان معنى هذا، و قيل: معنى يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ تبقى حجّته التى يتقرّب بها إليه، و الجلال: العظمة و الكبرياء، و استحقاق صفات المدح، يقال: جلّ الشيء، أى: عظم، و أجللته، أى: أعظمته، و هو اسم من جلّ. و معنى ذو الإكرام:
إنه يكرم عن كل شيء لا يليق به، و قيل: إنه ذو الإكرام لأوليائه، و الخطاب فى قوله: ربك، للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له. قرأ الجمهور: ذُو الْجَلالِ على أنه صفة لوجه، و قرأ أبىّ و ابن مسعود: «ذى الجلال» على أنه صفة لربّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ وجه النعمة فى فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء و الثواب. و قال مقاتل: وجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت، و مع الموت تستوى الأقدام يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: يسألونه جميعا لأنهم محتاجون إليه لا يستغنى عنه أحد منهم. قال أبو صالح: يسأله أهل السّماوات المغفرة و لا يسألونه الرزق، و أهل الأرض يسألونه الأمرين جميعا. و قال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق و المغفرة، و تسأل لهم الملائكة أيضا الرزق و المغفرة، و كذا قال ابن جريج. و قيل: يسألونه الرحمة. قال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السماء و لا أهل الأرض. و الحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال أو لسان الحال، من خيرى الدارين أو من خيرى إحداهما

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۶۴

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ انتصاب «كلّ» بالاستقرار الّذى تضمنه الخبر، و التقدير: استقرّ سبحانه فى شأنه كل وقت من الأوقات، و اليوم عبارة عن الوقت، و الشأن هو الأمر، و من جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السماوات و الأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم و تباين أغراضهم. قال المفسرون: من شأنه أنه يحيى و يميت، و يرزق و يفقر، و يعزّ و يذلّ، و يمرض و يشفى، و يعطى و يمنع، و يغفر و يعاقب، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

و قيل: المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا و يوم الآخرة. قال ابن بحر: الدّهر كله يومان: أحدهما مدّة أيام الدنيا، و الآخر يوم القيامة. و قيل: المراد كل يوم من أيام الدنيا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن اختلاف شؤونه سبحانه فى تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها، و لا يتيسر لمكذّب تكذيبها سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ هذا وعيد شديد من اللّه سبحانه للجنّ و الإنس. قال الزجاج و الكسائى و ابن الأعرابى و أبو على الفارسى:

إن الفراغ هاهنا ليس هو الفراغ من شغل، و لكن تأويله القصد، أى: سنقصد لحسابكم. قال الواحدى حاكيا عن المفسرين: إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده، و من هذا قول القائل لمن يريد تهديده: إذن أتفرغ لك، أى: أقصد قصدك، و فرغ يجىء بمعنى قصد، و أنشد ابن الأنبارى قول الشاعر «١»:

ألان و قد فرغت إلى نميرفهذا حين كنت لها عذابا

يريد: و قد قصدت، و أنشد النحاس قول الشاعر «٢»:

...

فرغت إلى القين المقيّد فى الحجل «٣» أى: قصدت. و قيل: إن اللّه سبحانه وعد على التقوى و أوعد على المعصية، ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم و نوصل كلا إلى ما وعدناه، و به قال الحسن و مقاتل و ابن زيد، و يكون الكلام على طريق التمثيل.

قرأ الجمهور: سَنَفْرُغُ بالنون و ضمّ الراء، و قرأ حمزة و الكسائى بالتحتية مفتوحة مع ضم الرّاء، أى:

سيفرغ اللّه، و قرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء. قال الكسائى: هى لغة تميم، و قرأ عيسى الثقفى بكسر النون و فتح الراء، و قرأ الأعمش و إبراهيم بضمّ الياء و فتح الراء على البناء للمفعول. و سمّى الجنّ و الإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غير هما من حيوانات الأرض، و قيل: سمّوا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء و أمواتا، كما فى قوله: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها «٤» و قال جعفر الصادق: سيما ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب، و جمع فى قوله: لَكُمْ ثم قال: أَيُّهَ الثَّقَلانِ لأنهما فريقان، و كل فريق جمع. قرأ الجمهور: بفتح الهاء، و قرأ أهل الشام بضمها فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسىء عن إساءته، و يزداد به المحسن إحسانا فيكون ذلك سببا للفوز بنعيم الدار الآخرة الّذى

---

(١). هو جرير.

(٢). هو جرير أيضا.

(٣). و صدره: و لمّا اتّقى القين العراقى باسته.

(٤). الزلزلة: ٢.

هو النعيم فى الحقيقة يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ قدّم الجنّ هنا لكون خلق أبيهم متقدّما على خلق آدم، و لوجود جنسهم قبل جنس الإنس إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات و الأرض و نواحيهما هربا من قضاء اللّه و قدره فَانْفُذُوا منها و خلصوا أنفسكم، يقال: نفذ الشىء من الشىء؛ إذا خلص منه كما يخلص السهم لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ أى: لا تقدرون على النفوذ إلا بقوّة و قهر، و لا قوّة لكم على ذلك و لا قدرة، و السلطان: القوّة التى يتسلّط بها صاحبها على الأمر، و الأمر بالنفوذ أمر تعجيز. قال الضحاك: بينما الناس فى أسواقهم إذ انفتحت السماء و نزلت الملائكة فهرب الجنّ و الإنس فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله: لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ قال ابن المبارك:

إن ذلك يكون فى الآخرة. و قال الضحاك أيضا: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا.

و قيل: إن استطعتم أن تعلموا ما فى السماوات و الأرض فاعلموه، و لن تعلموه إلا بسلطان، أى: ببينة من اللّه. و قال قتادة: معناها لا تنفذوا إلا بملك و ليس لكم ملك. و قيل الباء بمعنى إلى، أى: لا تنفذون إلا إلى سلطان فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ و من جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير و التهديد، فإنها تزيد المحسن إحسانا، و تكفّ المسىء عن إساءته، مع أن من حذّركم و أنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ قرأ الجمهور: يُرْسَلُ بالتحتية مبنيا للمفعول، و قرأ زيد بن علىّ بالنون و نصب شُواظٌ. و الشواظ: اللهب الّذى لا دخان معه. و قال مجاهد: الشواظ اللهب الأخضر المتقطع من النار. و قال الضحاك: هو الدخان الّذى يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. و قال الأخفش و أبو عمرو: هو النار و الدخان جميعا. قرأ الجمهور: شُواظٌ بضم الشين، و قرأ ابن كثير بكسرها و هما لغتان، و قرأ الجمهور وَ نُحاسٌ بالرفع عطفا على شواظ، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و مجاهد و أبو عمرو بخفضه عطفا على نار، و قرأ الجمهور: نُحاسٌ بضمّ النون، و قرأ مجاهد و عكرمة و حميد و أبو العالية بكسرها. و قرأ مسلم بن جندب و الحسن

«و نحس» . و النحاس: الصّفر المذاب يصبّ على رؤوسهم، قاله مجاهد و قتادة و غير هما. و قال سعيد بن جبير: هو الدخان الّذى لا لهب له، و به قال الخليل.

و قال الضحاك: هو درديّ الزيت المغلى. و قال الكسائى: هو النار التى لها ريح شديدة، و قيل: هو المهل فَلا تَنْتَصِرانِ أى: لا تقدران على الامتناع من عذاب اللّه فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذا الوعيد الّذى يكون به الانزجار عن الشرّ و الرغوب فى الخير فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ أى: انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ أى: كوردة حمراء. قال سعيد بن جبير و قتادة:

المعنى: فكانت حمراء، و قيل: فكانت كلون الفرس الورد، و هو الأبيض الّذى يضرب إلى الحمرة أو الصّفرة.

قال الفراء و أبو عبيدة: تصير السماء كالأديم لشدّة حرّ النار. و قال الفراء أيضا: شبّه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل، و شبّه الورد فى ألوانها بالدهن و اختلاف ألوانه. و الدهان: جمع دهن، و قيل: المعنى تصير السماء فى حمرة الورد، و جريان الدهن، أى: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، و تصير مثل الدهن لذوبانها، و قيل: الدهان: الجلد الأحمر. و قال الحسن: «كَالدِّهانِ» أى: كصبيب

فتح القدير، ج‌5، ص: 166

الدهن، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا. و قال زيد بن أسلم: إنها تصير كعكر الزيت. قال الزجاج: إنها اليوم خضراء و سيكون لها لون أحمر. قال الماوردى: و زعم «1» المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة، و أنها لكثرة الحوائل و بعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها ما فى هذا التهديد و التخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير و الإعراض عن الشرّ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ أى: يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الإنس و لا من الجنّ عن ذنبه، لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، و الجمع بين هذه الآية و بين مثل قوله: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «2» أن ما هنا يكون فى موقف و السؤال فى موقف آخر من مواقف القيامة. و قيل: إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم، لأن اللّه سبحانه قد أحصى الأعمال و حفظها على العباد، و لكن يسألون سؤال توبيخ و تقريع، و مثل هذه الآية قوله: وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «3» قال أبو العالية: المعنى لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. و قيل: إن عدم السؤال هو عند البعث، و السؤال هو فى موقف الحساب فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد لكثرة ما يترتّب عليه من الفوائد يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال. السيما: العلامة. قال الحسن: سيماهم: سواد الوجوه و زرقة الأعين، كما فى قوله: وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً «4» و قال: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ «5» و قيل: سيماهم ما

يعلوهم من الحزن و الكآبة فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ و الجار و المجرور فى محل رفع على أنه النائب، و النواصى: شعور مقدم الرؤوس، و المعنى: أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصى، و تلقيهم الملائكة فى النار. قال الضّحّاك: يجمع بين ناصيته و قدمه فى سلسلة من وراء ظهره. و قيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بنواصيهم و تجرّهم على وجوههم، و تارة تأخذ بأقدامهم و تجرّهم على رؤوسهم فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد و الوعيد البالغ الّذى ترجف له القلوب و تضطرب لهوله الأحشاء هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ أى: يقال لهم عند ذلك هذه جهنم التى تشاهدونها و تنظرون إليها، مع أنكم كنتم تكذبون بها و تقولون إنها لا تكون، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصى و الأقدام؟ فقيل: يقال لهم: هذه جهنم، تقريعا لهم و توبيخا يَطُوفُونَ بَيْنَها أى: بين جهنم فتحرقهم وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ فتصبّ على وجوههم، و الحميم: الماء الحارّ، و الآن: الّذى قد انتهى حرّه و بلغ غايته. كذا قال الفراء. قال الزجاج: أنى يأنى أنّى فهو آن: إذا انتهى فى النضج و الحرارة، و منه قول النابغة الذّبيانى:

و تخضب لحية غدرت و خانت بأحمر من نجيع الجوف آن

و قيل: هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون فيه. قال قتادة: يطوفون مرّة بين

---

(١). الزّعم: القول يشكّ فيه.

(٢). الحجر: ٩٢.

(٣). القصص: ٧٨.

(۴). طه: ١٠٢.

(۵). آل عمران: ١٠۶.

الحميم و مرّة بين الجحيم فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف و ما يحصل به من الترغيب فى الخير و الترهيب عن الشرّ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ قال: ذو الكبرياء و العظمة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ قال: مسألة عباده إياه الرزق و الموت و الحياة كل يوم هو فى ذلك. و أخرج الحسن بن سفيان فى مسنده و البزار و ابن جرير و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مندة و ابن مردويه و أبو نعيم و ابن عساكر عن عبد اللّه بن منيب قال: «تلا علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فقلنا: يا رسول اللّه و ما ذلك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، و يفرّج كربا، و يرفع قوما و يضع آخرين». و أخرج البخارى فى تاريخه، و ابن ماجة و ابن أبى عاصم و البزار و ابن جرير و ابن المنده و ابن أبى حاتم و ابن حبان و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و ابن عساكر، و البيهقى فى الشعب، عن أبى الدرداء عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، و يفرج كربا، و يرفع قوما، و يضع آخرين». زاد البزار «و يجيب داعيا»، و قد رواه البخارى تعليقا، و جعله من كلام أبى الدرداء. و أخرج البزار عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «يغفر ذنبا و يفرج كربا». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ قال: هذا وعيد من اللّه لعباده، و ليس باللّه شغل، و فى قوله: لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ يقول: لا تخرجون من سلطانى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ

نارٍ قال: لهب النار وَ نُحاسٌ قال: دخان النار. و أخرج ابن جرير عنه أيضا وَ نُحاسٌ

قال: الصفر يعذبون به. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فَكانَتْ وَرْدَةً يقول: حمراء كَالدِّهانِ قال: هو الأديم الأحمر. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ قال: مثل لون الفرس الورد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا و كذا، لأنه أعلم بذلك منهم، و لكن يقول لهم: لم عملتم كذا و كذا. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى البعث و النشور عنه أيضا فى قوله: فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ قال: تأخذ الزبانية بناصيته و قدميه و يجمع فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ قال: هو الّذى انتهى حرّه.

[سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۴۶ الى ۷۸]

وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (۴۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۷) ذَواتا أَفْنانٍ (۴۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۹) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (۵۰)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۱) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (۵۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۳) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (۵۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۵)

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (۵۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۹) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (۶۰)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۱) وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (۶۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۳) مُدْهامَّتانِ (۶۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۵)

فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (۶۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۷) فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (۶۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۹) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (۷۰)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۱) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (۷۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۳) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۷۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۵)

مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (۷۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۷) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۷۸)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۶۸

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التى أنعم بها عليهم، فقال:

وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ مقامه سبحانه: هو الموقف الّذى يقف فيه العباد للحساب، كما فى قوله:

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «۱» فالمقام مصدر بمعنى القيام، و قيل: المعنى: خاف قيام ربه عليه، و هو إشرافه على أحواله و اطلاعه على أفعاله و أقواله، كما فى قوله: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ «۲» قال مجاهد و النّخعى: هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر اللّه فيدعها من خوفه.

و اختلف فى الجنتين، فقال مقاتل: يعنى جنة عدن و جنة النعيم، و قيل: إحداهما التى خلقت له و الأخرى ورثها. و قيل: إحداهما منزله و الأخرى منزل أزواجه. و قيل: إحداهما أسافل القصور و الأخرى أعاليها.

و قيل: جنة للخائف الإنسى، و جنة للخائف الجنّى. و قيل: جنة لفعل الطاعة و أخرى لترك المعصية، و قيل:

جنة للعقيدة التى يعتقدها، و أخرى للعمل الّذى يعمله، و قيل: جنة بالعمل و جنة بالتفضّل، و قيل: جنة روحانية و جنة جسمانية،

و قيل: جنة لخوفه من ربه و جنة لتركه شهوته، و قال الفرّاء: إنما هى جنة واحدة، و التثنية لأجل موافقة رؤوس الآى. قال النحاس: و هذا القول من أعظم الغلط على كتاب اللّه، فإن اللّه يقول:

«جنتان» و يصفهما بقوله فيهما إلخ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة، و هى إعطاء الخائف من مقام ربّه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة ذَواتا أَفْنانٍ هذه صفة للجنتين، و ما بينهما اعتراض، و الأفنان: الأغصان، واحدها فنن، و هو الغصن المستقيم طولا، و بهذا قال مجاهد و عكرمة و عطية و غيرهم. و قال الزجاج: الأفنان: الألوان، واحدها فنّ، و هو الضرب من كل شىء، و به قال عطاء و سعيد بن جبير، و جمع عطاء بين القولين، فقال: فى كلّ غصن فنون من الفاكهة، و من إطلاق الفنن على الغصن قول النابغة:

دعاء حمامة تدعو هديلامفجّعة على فنن تغنّى

و قول الآخر:

---

(۱). المطففين: ۶.

(۲). الرعد: ۳۳.

 ما هاج شوقك من هديل حمامةتدعو على فنن الغصون حماما

و قيل: معنى ذَواتا أَفْنانٍ ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة، و قيل: الأفنان: ظلّ الأغصان على الحيطان، روى هذا عن مجاهد و عكرمة فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب و لا بموضع للإنكار فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ هذا أيضا صفة أخرى ل «جنتان»، أى: فى كل واحدة منهما عين جارية. قال الحسن: إحداهما السلسبيل و الأخرى التسنيم. و قال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، و الأخرى من خمر لذة للشاربين، قيل: كلّ واحدة منهما مثل الدنيا أضعافا مضاعفة فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة فى الجنة لأهل السعادة فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ هذا صفة ثالثة لجنتان، و الزوجان: الصنفان و النوعان، و المعنى: أن فى الجنتين من كلّ نوع يتفكّه به ضربين يستلذ بكلّ نوع من أنواعه، قيل: أحد الصنفين رطب و الآخر يابس، لا يقصر أحدهما عن الآخر فى الفضل و الطيب فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى مجرّد تعداد هذه النعم و وصفها فى هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير و الترهيب عن فعل الشرّ ما لا يخفى على من يفهم، و ذلك نعمة عظمى و منّة كبرى، فكيف بالتنعّم به عند الوصول إليه مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ انتصاب متكئين على الحال من فاعل قوله: وَ لِمَنْ خافَ و إنما جمع حملا على معنى من، و قيل: عاملها محذوف، و التقدير:

يتنعمون متكئين. و قيل: منصوب على المدح، و الفرش: جمع فراش، و البطائن: هى التى تحت الظهائر، و هى جمع بطانة. قال الزجاج: هى ما يلى الأرض، و الإستبرق: ما غلظ من الديباج، و إذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر؟ قيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال اللّه فيه: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «۱» قيل: إنما اقتصر على ذكر البطائن؛ لأنه لم يكن أحد فى الأرض يعرف ما فى الظهائر. و قال الحسن: بطائنها من إستبرق من نور جامد. و قال الحسن:

البطائن هى الظهائر، و به قال الفراء، و قال: قد تكون البطانة الظهارة و الظهارة البطانة؛ لأن كلّ واحد منهما يكون وجها، و العرب تقول: هذا ظهر السماء، و هذا بطن السماء لظاهرها الّذى نراه، و أنكر ابن قتيبة هذا، و قال: لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ مبتدأ و خبر، و الجنى:

ما يجتنى من الثمار، قيل: إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها. و منه قول الشاعر «۲»:

هذا جناى و خياره فيه إذ كلّ جان يده إلى فيه

قرأ الجمهور: فُرُشٍ بضمتين، و قرأ أبو حيوة بضمة و سكون، و قرأ الجمهور: جَنَى بفتح الجيم، و قرأ عيسى بن عمر بكسرها، و قرأ عيسى أيضا بكسر النون على الإمالة فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها كلها بموضع لا يتيسّر لمكذّب أن يكذب بشىء منها؛ لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة

---

(١). السجدة: ١٧.

(٢). هو عمرو بن عدى اللخمى.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٧٠

و الآجلة فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ أى: فى الجنتين المذكورتين. قال الزجاج: و إنما قال فيهنّ؛ لأنه عنى الجنتين و ما أعدّ لصاحبهما فيهما من النعيم، و قيل فيهنّ: أى فى الفرش التى بطائنها من إستبرق. و معنى قاصِراتُ الطَّرْفِ أنهنّ يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الصافات لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ قال الفراء: الطمث: الافتضاض، و هو النكاح بالتّدمية، يقال: طمث الجارية: إذا افترعها. قال الواحدى: قال المفسرون: لم يطأهن و لم يغشهنّ و لم يجامعهنّ قبلهم أحد. قال مقاتل: لأنّهن خلقن فى الجنة، و الضمير فى «قبلهم» يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف، و قيل: يعود إلى متكئين، و الجملة فى محل رفع صفة لقاصرات؛ لأن إضافتها لفظية، و قيل: الطمث: المسّ، أى: لم يمسسهنّ، قاله أبو عمرو. و قال المبرد: أى: لم يذللهنّ، و الطمث:

التذليل، و من استعمال الطمث فيما ذكره الفراء قول الفرزدق:

وقعن إلىّ لم يطمثن قبلى و هنّ أصحّ من بيض النّعام

قرأ الجمهور: يَطْمِثْهُنَ بكسر الميم، و قرأ الكسائى بضمها، و قرأ الجحدرى و طلحة بن مصرّف بفتحها، و فى هذه الآية بل فى كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا باللّه سبحانه و عملوا بفرائضه و انتهوا عن مناهيه فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن فى مجرّد هذا الترغيب فى هذه النعم نعمة جليلة و منّة عظيمة، لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة و الفرار من الأعمال الطالحة، فكيف بالوصول إلى هذه النعم و التنعم بها فى جنات النعيم بلا انقطاع و لا زوال كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ هذا صفة لقاصرات، أو حال منهنّ، شبههنّ سبحانه فى صفاء اللون مع حمرته بالياقوت و المرجان، و الياقوت:

هو الحجر المعروف، و المرجان قد قدّمنا الكلام فيه فى هذه السورة على الخلاف فى كونه صغار الدرّ، أو الأحمر المعروف. قال الحسن: هنّ فى صفاء الياقوت و بياض المرجان، و إنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ؛ لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شىء منها كائنة ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة و المنن الجزيلة؟ هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و المعنى ما جزاء من أحسن العمل فى الدنيا إلا الإحسان إليه فى الآخرة، كذا قال ابن زيد و غيره. قال عكرمة: هل جزاء من قال لا إله إلا اللّه إلا الجنة، و قال الصادق: هل جزاء من أحسنت عليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليه فى الأبد. قال الرازى: فى هذه الآية وجوه كثيرة، حتى قيل: إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل واحدة منها مائة قول، إحداها قوله تعالى: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ «١» و ثانيها وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا «٢» و ثالثها هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ قال محمد بن الحنفية: هى للبرّ و الفاجر، البرّ فى الآخرة، و الفاجر فى الدنيا فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها الإحسان إليكم فى الدنيا و الآخرة بالخلق و الرزق، و الإرشاد إلى العمل الصالح، و الزّجر عن العمل الّذى لا يرضاه

(۱). البقرة: ۱۵۲.

(۲). الإسراء: ۸.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۷۱

وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ أى: و من دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدّمة جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة، و معنى «من دونهما» أى: من أمامهما و من قبلهما، أى: هما أقرب منهما و أدنى إلى العرش، و قيل: الجنتان الأوليان جنة عدن و جنة النعيم، و الأخريان جنة الفردوس و جنة المأوى. قال ابن جريج: هى أربع جنات: جنتان منهما للسابقين المقرّبين فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ و «عينان تجريان»، و جنتان لأصحاب اليمين فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ و فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ قال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقرّبين، و الأخريين من ورق «۱» لأصحاب اليمين فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها كلها حقّ و نعم لا يمكن جحدها. ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين فقال: مُدْهامَّتانِ و ما بينهما اعتراض. قال أبو عبيدة و الزجاج: من خضرتهما قد اسودّتا من الرّيّ، و كل ما علاه السواد ريا فهو مدهم. قال مجاهد: مسودتان، و الدّهمة فى اللغة: السواد، يقال فرس أدهم و بعير أدهم؛ إذا اشتدّت زرقته حتى ذهب البياض الّذى فيه فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد و لا تنكر فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ النضخ: فوران الماء من العين، و المعنى:

أن فى الجنتين المذكورتين عينين فوّارتين. قال أهل اللغة: و النضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة.

قال الحسن و مجاهد: تنضخ على أولياء اللّه بالمسك و العنبر و الكافور فى دور أهل الجنة كما ينضخ رشّ المطر.

و قال سعيد بن جبير: إنها تنضخ بأنواع الفواكه و الماء فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها ليست بموضع للتكذيب و لا بمكان للجحد فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريبا، و النخل و الرمان و إن كانا من الفاكهة لكنهما خصّصا بالذكر لمزيد حسنهما و كثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه؛ كما حكاه الزجاج و الأزهرى و غير هما. و قيل: إنّما خصّهما لكثرتهما فى أرض العرب، و قيل: خصّهما لأن النخل فاكهة و طعام، و الرمان فاكهة و دواء. و قد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم، و لم يخالف فى ذلك إلا أبو حنيفة، و قد خالفه صاحباه أبو يوسف و محمد فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن من جملتها هذه النعم التى فى جنات النعيم، و مجرّد الحكاية لها أثر فى نفوس السامعين و تجذبهم إلى طاعة ربّ العالمين فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ قرأ الجمهور: خَيْراتٌ بالتخفيف، و قرأ قتادة و ابن السّميقع و أبو رجاء العطاردى و بكر بن حبيب السهمى و ابن مقسم و النهدى بالتشديد، فعلى القراءة الأولى هى جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين، يقال: امرأة خيرة و أخرى شرّة، أو جمع خيرة مخفّف خيّرة، و على القراءة الثانية جمع خيّرة بالتشديد. قال الواحدى: قال المفسرون: الخيرات: النساء خيرات الأخلاق و حسان الوجوه.

قيل: و هذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع، و لا وجه لهذا، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهنّ قاصرات الطرف كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ و بين الصفتين بون بعيد فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن شيئا منها كائنا ما كان لا يقبل التكذيب حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ أى: محبوسات، و منه القصر، لأنه يحبس من فيه، و الحور جمع حوراء، و هى شديدة بياض العين شديدة سوادها، و قد تقدّم بيان معنى الحوراء

(۱). «ورق»: فضة.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۱۷۲

و الخلاف فيه. و قيل معنى «مَقْصُوراتٌ»: أنهنّ قصرن على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم، و حكاه الواحدى عن المفسرين. و الأوّل أولى، و به قال أبو عبيدة و مقاتل و غير هما. قال فى الصّحاح: قصرت الشىء أقصره قصرا: حبسته، و المعنى: أنهنّ خدّرن فى الخيام. و الخيام جمع خيمة، و قيل: جمع خيم، و الخيم: جمع خيمة، و هى أعواد تنصب و تظلّل بالثياب، فتكون أبرد من الأخبية. قيل: الخيمة من خيام الجنة درّة مجوّفة فرسخ فى فرسخ. و ارتفاع «حور» على البدلية من خيرات لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ قد تقدّم تفسيره فى صفة الجنتين الأوليين فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنها كلها نعم لا تكفر و منن لا تجحد مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ انتصاب «مُتَّكِئِينَ» على الحال أو المدح كما سبق، قال أبو عبيدة: الرفارف: البسط، و به قال الحسن و مقاتل و الضحاك و غيرهم. و قال ابن عيينة: هى الزرابى. و قال ابن كيسان: هى المرافق.

و روى عن أبى عبيدة أنه قال: هى حاشية الثوب. و قال الليث: ضرب من الثياب الخضر. و قيل: الفرش المرتفعة، و قيل: كل ثوب عريض. قال فى الصحاح: و الرّفرف: ثياب خضر تتّخذ منها المحابس، الواحدة رفرفة. و قال الزجاج: قالوا الرّفرف هنا رياض الجنة، و قالوا: الرّفرف: الوسائد، و قالوا: الرّفرف:

المحابس ا ه. و من القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير، و اشتقاق الرّفرف من رفّ يرفّ؛ إذا ارتفع، و منه رفرفة الطائر، و هى تحريك جناحيه فى الهواء. قرأ الجمهور: رَفْرَفٍ على الإفراد. و قرأ عثمان بن عفان و الحسن و الجحدرى رفارف على الجمع وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ العبقرى: الزرابى و الطنافس الموشية. قال أبو عبيدة: كلّ و شى من البسط عبقرىّ، و هو منسوب إلى أرض يعمل فيه الوشى. قال الفرّاء:

العبقرىّ: الطنافس الثخان. و قيل: الزرابى، و قيل: البسط، و قيل: الديباج. قال ابن الأنبارى: الأصل فيه أن عبقر قرية تسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق، قال الخليل: العبقرىّ عند العرب كل جليل فاضل فاخر من الرجال و النساء، و منه قول زهير:

بخيل عليها جنّة عبقريّةجديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

قال الجوهرىّ: العبقرىّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لبيد:

كهول و شبّان كجنّة عبقر «١» ثم نسبوا إليه كل شىء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته و قوّته فقالوا: عبقرى، و هو واحد و جمع. قرأ الجمهور: عَبْقَرِيٍ و قرأ عثمان بن عفان و الحسن و الجحدرى «عباقرىّ» و قرئ «عباقر» و هما نسبة إلى عباقر اسم بلد. و قال قطرب: ليس بمنسوب، و هو مثل كرسىّ و بختىّ و بخاتى. قرأ الجمهور خُضْرٍ بضم الخاء و سكون الضاد، و قرئ بضمهما و هى لغة قليلة. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإن كل واحد منها أجلّ من أن يتطرق إليه التكذيب، و أعظم من أن يجحده جاحد أو ينكره منكر، و قد

---

(١). و صدره: و من فاد من إخوانهم و بنيهم.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٧٣

قدّمنا فى أوّل هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ تبارك:

تفاعل، من البركة، قال الرّازى: و أصل التبارك من التبرّك، و هو الدوام و الثبات، و منه برك البعير و بركة الماء فإن الماء يكون دائما، و المعنى: دام اسمه و ثبت أو دام الخير عنده، لأن البركة و إن كانت من الثبات لكنها تستعمل فى الخير، أو يكون معناه علا و ارتفع شأنه. و قيل معناه: تنزيه اللّه سبحانه و تقديسه، و إذا كان هذا التبارك منسوبا إلى اسمه عزّ و جلّ، فما ظنك بذاته سبحانه، و قيل: الاسم بمعنى الصفة، و قيل:

هو مقحم كما فى قول الشاعر:

إلى الحول ثمّ اسم السّلام عليكماو من يبك حولا كاملا فقد اعتذر

و قد تقدّم تفسير ذى الجلال و الإكرام فى هذه السورة. قرأ الجمهور: «ذِي الْجَلالِ» على أنه صفة للربّ سبحانه. و قرأ ابن عامر ذو الجلال على أنه صفة لاسم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال: وعد اللّه المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدّوا فرائضه الجنة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية يقول: خاف ثم اتقى، و الخائف:

من ركب طاعة اللّه و ترک معصيته. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن عطاء: أنها نزلت فى أبى بكر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب مثله. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى الآية قال: لمن خافه فى الدنيا. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و ابن منيع و الحاكم و الترمذى و النسائى و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى الدّرداء: «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت: و إن زنى و إن سرق يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الثانية: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت: و إن زنى و إن سرق يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الثانية: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت: و إن زنى و إن سرق، فقال الثالثة: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقلت:

و إن زنى و إن سرق، قال نعم: و إن رغم أنف أبى الدّرداء». و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فقال أبو الدرداء: و إن زنى و إن سرق يا رسول اللّه؟

قال: و إن زنى و إن سرق، و إن رغم أنف أبى الدّرداء». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبىّ الدّرداء فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال: قيل لأبى الدّرداء: و إن زنى و إن سرق؟ قال: من خاف مقام ربه و لم يزن و لم يسرق. و أخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال:

كنت عند هشام بن عبد الملک، فقال قال أبو هريرة: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال أبو هريرة: و إن زنى و إن سرق؟ فقلت: إنما كان ذلک قبل أن تنزل الفرائض، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا». و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى موسى الأشعرى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «جنان الفردوس أربع جنات: جنتان من ذهب حليتهما و أبنيتهما و ما فيهما، و جنتان من فضة حليتهما و أبنيتهما و ما فيهما، و ما بين القوم و بين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى موسى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ و فى قوله:

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۷۴

وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ قال: «جنتان من ذهب للمقرّبين، و جنتان من ورق لأصحاب اليمين». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن أبى موسى فى قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ قال: جنتان من ذهب للسابقين، و جنتان من فضة للتابعين.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذَواتا أَفْنانٍ قال: ذواتا ألوان.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ذَواتا أَفْنانٍ قال: ذواتا ألوان.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: فنّ غصونهما يمسّ بعضها بعضا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قال: الفنّ: الغصن. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود فى قوله:

مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ قال: أخبرتم بالبطائن، فكيف الظهائر؟ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل له: بطائنها من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: ذلك مما قال اللّه:

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه فى قوله: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ قال: جناها: ثمرها، و الدانى: القريب منك يناله القائم و القاعد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه أيضا فى قوله:

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ يقول: عن غير أزواجهنّ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ يقول: لم يدن منهنّ أو لم يدمهنّ.

و أخرج أحمد و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى البعث، عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ قال: تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة، و إن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق و المغرب، و إنه يكون عليها سبعون ثوبا، و ينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك». و أخرج ابن أبى شيبة و هناد بن السرىّ و الترمذىّ، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة، حتى يرى مخّها، و ذلك أن اللّه يقول: كأنهنّ الياقوت و المرجان، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه» و قد رواه الترمذى موقوفا، و قال: هو أصحّ. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، و ضعّفه، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى «قوله: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة». و أخرج الحكيم الترمذىّ فى نوادر الأصول، و البغوىّ فى تفسيره، و الديلمى فى مسند الفردوس، و ابن النجار فى تاريخه، عن أنس مرفوعا مثله، و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا فى الآية قال: «هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة». و أخرج ابن النجار فى تاريخه، عن علىّ بن أبى طالب مرفوعا مثل حديث ابن عمر. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ قال: هل جزاء من قال لا إله إلا اللّه فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة. و أخرج ابن عدىّ و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى، و البيهقىّ فى الشعب، و ضعّفه، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنزل اللّه علىّ هذه الآية فى

سورة الرّحمن للكافر و المسلم: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان». و أخرجه ابن مردويه مرفوعا على ابن عباس. و أخرج هناد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: مُدْهامَّتانِ قال: هما خضراوان. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: قد اسودّتا من الخضرة من الرىّ من الماء.

و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عبد اللّه بن الزبير نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: سألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: مُدْهامَّتانِ قال: خضراوان.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نَضَّاخَتانِ قال: فائضتان. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: ينضخان بالماء. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: خَيْراتٌ حِسانٌ قال: لكل مسلم خيرة، و لكل خيرة خيمة و لكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من اللّه كل يوم تحفة و كرامة و هدية لم تكن قبل ذلك، لا مراحات، و لا طمّاحات، و لا بخرات «1»، و لا دفرات «2»، حور عين كأنهن بيض مكنون. و أخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعا. و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: حُورٌ قال: بيض

مَقْصُوراتٌ قال: محبوسات فِي الْخِيامِ قال: فی بیوت اللؤلؤ. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم قال: الحور: سود الحدق. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن مسعود عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «الخیام درّ مجوّف». و أخرج البخاری و مسلم و غیر هما عن أبی موسی الأشعری عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم «الخیمة درّة مجوّفة طولها فی السماء ستون میلا، فی کل زاویة منها للمؤمن أهل لا یراهم الآخرون یطوف علیهم المؤمن». و أخرج الفریابی و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ قال: فضول المحابس و الفرش و البسط. و أخرج عبد بن حمید عن علی بن أبی طالب قال: هی فضول المحابس. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن المنذر، و البیهقی فی البعث، من طرق عن ابن عباس رَفْرَفٍ خُضْرٍ قال: المحابس وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ قال: الزرابی. و أخرج عبد بن حمید عنه فی الآیة قال: الرّفرف: الرّیاض، و العبقریّ: الزرابی.

---

(۱). بخر الفم: أنتنت رائحته.

(۲). دفر الشیء: خبثت رائحته. و الأدفر: من فاح ریح صنانه. و الدّفار: المنتنة.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۱۷۶

سورة الواقعة

اشارة

هی سبع و تسعون، أو ست و تسعون آیة و هی مکیة فی قول الحسن و عکرمة و جابر و عطاء. و قال ابن عباس و قتادة: إلا آیة منها نزلت بالمدینة و هی قوله تعالی: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ «۱» و قال الکلبی: إنها مکیة إلا أربع آیات منها، و هی أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ- وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ «۲» و قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ «۳». و أخرج ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه، و البیهقی فی الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الواقعة بمکة. و أخرج عن ابن الزبیر مثله.

و أخرج أبو عبید فی فضائله، و ابن الضریس و الحارث بن أبی أسامة و أبو یعلی و ابن مردویه، و البیهقی فی الشعب، عن ابن مسعود: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: «من قرأ سورة الواقعة کل لیلة لم تصبه فاقة أبدا». و أخرج ابن عساکر عن ابن عباس عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «سورة الواقعة سورة الغنی، فاقرؤوها، و علّموها أولادکم». و أخرج الدیلمی عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «علموا نساءکم سورة الواقعة فإنها سورة الغنی» و قد تقدّم قوله صلّی اللّه علیه و سلّم: «شیّبتنی هود و الواقعة» ا ه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الواقعة (۵۶): الآیات ۱ الی ۲۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (۲) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (۳) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (۴)
وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (۵) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (۶) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (۷) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۸) وَ أَصْحابُ

الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (٩)
وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١۴)
عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (١۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨)
لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ (١٩)
وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَ حُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢۴)
لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً (٢۵) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (٢۶)

قوله: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ الواقعة: اسم للقيامة كالآزفة و غيرها، و سمّيت واقعة لأنها كائنة لا محالة، أو لقرب وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد، و انتصاب «إذا» بمضمر، أى: اذكر وقت وقوع الواقعة، أو بالنفى المفهوم من قوله: لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ أى: لا يكون عند وقوعها تكذيب، و الكاذبة مصدر كالعاقبة، أى: ليس لمجيئها و ظهورها كذب أصلا، و قيل: «إذا» شرطية و جوابها مقدّر،

---

(١). الواقعة: ٨٢.

(٢). الواقعة: ٨١- ٨٢.

(٣). الواقعة: ١٣- ١۴.

أى: إذا وقعت كان كيت و كيت، و الجواب هذا هو العامل فيها، و قيل: إنها شرطية، و العامل فيها الفعل الّذى بعدها، و اختار هذا أبو حيان، و قد سبقه إلى هذا مكىّ فقال: و العامل وقعت. قال المفسرون: و الواقعة هنا هى النفخة الآخرة، و معنى الآية: أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلا، أو لا يكون هناك نفس تكذيب على اللّه و تكذيب بما أخبر عنه من أمور الآخرة. قال الزجاج: «ليس لوقعتها كاذبة» أى: لا يردّها شى‌ء، و به قال الحسن و قتادة. و قال الثورى: ليس لوقعتها أحد يكذب بها.
و قال الكسائى: ليس لها تكذيب، أى: لا ينبغى أن يكذب بها أحد خافِضَةٌ رافِعَةٌ قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ، أى: هى خافضة رافعة. و قرأ الحسن و عيسى الثقفى بنصبهما على الحال. قال عكرمة و السدّى و مقاتل: خفضت الصوت فأسمعت من دنا، و رفعت الصوت فأسمعت من نأى، أى: أسمعت القريب و البعيد. و قال قتادة: خفضت أقواما فى عذاب اللّه، و رفعت أقواما إلى طاعة اللّه. و قال محمد بن كعب: خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين، و رفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين. و العرب تستعمل الخفض و الرفع فى المكان و المكانة و العزّ و الإهانة، و نسبة الخفض و الرفع إليها على طريق المجاز، و الخافض و الرّافع فى الحقيقة هو اللّه سبحانه. إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا أى: إذا حرّكت حركة شديدة، يقال: رجّه يرجّه رجّا إذا حرّكه، و الرّجة: الاضطراب، و ارتجّ البحر: اضطرب. قال المفسرون: ترتجّ كما يرتجّ الصبىّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها، و ينكسر كل شى‌ء من الجبال و غيرها. قال قتادة و مقاتل و مجاهد: معنى رجّت:
زلزلت، و الظرف متعلق بقوله: خافِضَةٌ رافِعَةٌ أى: تخفض و ترفع وقت رجّ الأرض و بس الجبال؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض و ينخفض ما هو مرتفع. و قيل: إنه بدل من الظرف الأوّل ذكره الزجاج، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رجّ الأرض، و بس الجبال. وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا البس: الفتّ، يقال: بسّ الشى‌ء إذا فتّه حتى يصير فتاتا، و يقال: بسّ السويق: إذابته بالسمن أو

بـالزيت. قـال مجاهـد و مقاتـل: المعنى أن الجبال فتت فتا. و قال السـدّى: كسـرت كسـرا. و قال الحسن: قلعت من أصـلها. و قال مجاهد أيضا.

بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت، و المعنى: أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت. و قال أبو زيد:

البسّ السوق، و المعنى على هذا: سيقت الجبال سوقا. قال أبو عبيد: بسّ الإبل و أبسّها لغتان؛ إذا زجرها.

و قال عكرمة: المعنى هدّت هدّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا أى: غبارا متفرّقا منتشرا. قال مجاهد: الهباء الشعاع الّذى يكون فى الكوّة كهيئة الغبار، و قيل: هو الرّهج الّذى يسطع من حوافر الدّواب ثم يذهب، و قيل:

ما تطاير من النار إذا اضـطرمت على سورة الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا، و قد تقدم بيانه فى الفرقان عند تفسير قوله: فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً «١» قرأ الجمهور مُنْبَثًّا بالمثلثـة. و قرأ مسـروق و النخعى و أبو حيوة بالتـاء المثنـاة من فوق. أى: منقطعا، من قولهم: بتّه اللّه، أى: قطعه. ثم ذكر سـبحانه أحوال النـاس و اختلافهم فقـال: وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً و الخطاب لجميع الناس أو للأمـة الحاضـرة، و الأزواج:

الأصناف، و المعنى: و كنتم فى ذلك اليوم أصنافا ثلاثة. ثم فسّر سبحانه هذه الأصناف فقال:

---

(١). الفرقان: ٢٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٧٨

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ أى: أصحاب اليمين، و هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، و أصـحاب الميمنة مبتدأ، و خبره: ما أصـحاب الميمنة، أى: أىّ شـىء هم فى حالهم وصـفتهم، و الاستفهام للتعظيم و التفخيم، و تكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرّابط، كما فى قوله:

الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ «١» و الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ «٢» و لا يجوز مثل هذا إلا فى مواضع التفخيم و التعظيم، و الكلام فى أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ مـا أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ كالكلام فى أصـحاب الميمنـة ما أصـحاب الميمنـة، و المراد الّـذى يؤخـذ بهم ذات الشـمال إلى النار، أو يأخـذون صـحائف أعمـالهم بشـمالهم، و المراد تعجيب السـامع من حـال الفريقين فى الفخامـة و الفظاعـة، كـأنه قيل: فأصـحاب الميمنة فى نهاية السعادة و حسن الحال، و أصـحاب المشأمة فى نهاية الشـقاوة و سوء الحال. و قال السدّى: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صـلبه، و أصـحاب المشأمة هم الذين كانوا عن شـماله. و قال زيد بن أسـلم: أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن، و أصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر. و قال ابن جريج:

أصـحاب الميمنة هم أهل الحسـنات، و أصـحاب المشأمة هم أهل السـيئات. و قال الحسن و الربيع: أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسـهم بالأعمال الصالحة، و أصـحاب المشأمة هم المشائيم على أنفسـهم بالأعمال القبيحة. و قال المبرد: أصـحاب الميمنة أصحاب التقدّم، و أصحاب المشأمة أصحاب التأخر، و العرب تقول:

اجعلنى فى يمينك و لا تجعلنى فى شمالك، أى: اجعلنى من المتقدّمين و لا تجعلنى من المتأخرين، و منه قول ابن الدّمينة:

أ بتِيَى أفى يمنى يديك جعلتنىفأفرح أم صيّرتنى فى شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث فقال: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ و التكرير فيه للتفخيم و التعظيم كما مرّ فى القسمين الأوّلين، كما تقول أنت أنت و زيد زيد، و السابقون مبتدأ، و خبره السابقون. و فيه تأويلان:

أحد هما أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك. و الثانى: أن متعلق السابقين مختلف، و التقدير:

و السـابقون إلى الإيمـان السـابقون إلى الجنـة. و الأـوّل أولى لمـا فيه من الدلالـة على التفخيم و التعظيم. قال الحسن و قتادة: هم

السابقون إلى الإيمان من كل أمة. و قال محمد بن كعب: إنهم الأنبياء. و قال ابن سيرين:
هم الذين صلّوا إلى القبلتين. و قال مجاهد: هم الذين سبقوا إلى الجهاد، و به قال الضحاك. و قال سعيد بن جبير: هم السابقون إلى التوبة و أعمال البرّ. و قال الزجاج: المعنى و السابقون إلى طاعة اللّه هم السابقون إلى رحمة اللّه. و قيل: و وجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأوّلين هو أن يقترن به ما بعده، و هو قوله: أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ فالإشارة هى إليهم، أى: المقرّبون إلى جزيل ثواب اللّه و عظيم كرامته، أو الذين قربت درجاتهم و أعليت مراتبهم عند اللّه. و قوله: فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ متعلق بالمقربون، أى مقرّبون عند اللّه فى جنات النعيم. و يجوز أن يكون خبرا ثانيا لأولئك، و أن يكون حالا من

---

(١). الحاقة: ١- ٢.

(٢). القارعة: ١- ٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٧٩

الضمير فى المقرّبون، أى: كائنين فيها. قرأ الجمهور: فِي جَنَّاتِ بالجمع، و قرأ طلحة بن مصرّف «فى جنة» بالإفراد، و إضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال: دار الضيافة و دار الدعوة و دار العدل، و ارتفاع ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم ثلة، و الثلة الجماعة التى لا يحصر عددها. قال الزجاج: معنى ثلة معنى فرقة، من ثللت الشي‌ء؛ إذا قطعته، و المراد بالأوّلين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ أى: من هذه الأمّة، و سمّوا قليلا بالنسبة إلى من كان قبلهم، و هم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم و كثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقوا من مضى أكثر من سابقينا. قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء و صدّقوا بهم أكثر ممّن عاين النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يخالف هذا ما ثبت فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. ثم قال: ثلث أهل الجنة، ثم قال: نصف أهل الجنة» لأن قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ* وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ إنما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتى فى ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين و ثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون فى أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة و من ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، و المقابلة بين الثلثين فى أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة، كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة و هذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، و هذه القطعة أكثر من هذه القطعة. و بهذا تعرف أنه لم يصب من قال إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور. ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين فقال: عَلىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ قرأ الجمهور سُرُرٍ بضم السين و الراء الأولى، و قرأ أبو السّمّال و زيد بن علىّ بفتح الراء، و هى لغة كما تقدّم، و الموضونة: المنسوجة: و الوضن: النسج المضاعف. قال الواحدى: قال المفسرون: منسوجة بقضبان الذهب، و قيل: مشبكة بالدرّ و الياقوت و الزبرجد، و قيل: إنّ الموضونة: المصفوفة. و قال مجاهد:

الموضونة: المرمولة «١» بالذهب، و انتصاب مُتَّكِئِينَ عَلَيْهٰا على الحال، و كذا انتصاب مُتَقٰابِلِينَ و المعنى: مستقرّين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ الجملة فى محل نصب على الحال من المقرّبين، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعدّ اللّه لهم من النعيم، و المعنى يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون و لا يتغيّرون، بل شكلهم شكل الولدان دائما. قال مجاهد: المعنى لا يموتون.

و قال الحسن و الكلبى: لا يهرمون و لا يتغيّرون. قال الفراء: و العرب تقول للرجل إذا كبر و لم يشمط إنه لمخلد. و قال سعيد بن

جبير: مخلدون مقرّطون. قال الفراء: و يقال مخلدون: مقرّطون، يقال: خلد جاريته؛ إذا حلاها بالخلدة، و هى القرط. و قال عكرمة: مخلدون: منعّمون، و منه قول امرئ القيس:

و هل ينعمن إلا سعيد مخلّدقليل الهموم ما يبيت بأوجال

و قيل: مستورون بالحلية، و روى نحوه عن الفراء، و منه قول الشاعر:

---

(١). «مرمولة»: منسوجة.

و مخلّدات باللّجين كأنّماأعجازهنّ أقاوز «١» الكثبان

و قيل: مخلدون: منطقون، قيل: و هم ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا و لا حسنة لهم و لا سيئة، و قيل: هم أطفال المشركين، و لا يبعد أن يكونوا مخلوقين فى الجنة للقيام بهذه الخدمة، و الأكواب: هى الأقداح المستديرة الأفواه التى لا آذان لها و لا عرى، و قد مضى بيان معناها فى سورة الزخرف، و الأباريق: هى ذات العرا و الخراطيم، واحدها إبريق، و هو الّذى يبرق لونه من صفائه وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ أى: من خمر جارية أو من ماء جار، و المراد به هاهنا الخمر الجارية من العيون، و قد تقدّم بيان معنى الكأس فى سورة الصافات لا يُصَدَّعُونَ عَنْها أى: لا تتصدّع رؤوسهم من شربها كما تتصدّع من شرب خمر الدنيا. و الصداع:

هو الداء المعروف الّذى يلحق الإنسان فى رأسه، و قيل: لا يصدعون لا يتفرقون كما يتفرق الشّراب، و يقوّى هذا المعنى قراءة مجاهد يصدعون بفتح الياء و تشديد الصاد، و الأصل يتصدعون، أى: يتفرقون، و الجملة مستأنفة لبيان ما أعد اللّه لهم من النعيم، أو فى محل نصب على الحال، و جملة وَ لا يُنْزِفُونَ معطوفة على الجملة التى قبلها، و قد تقدم اختلاف القراء فى هذا الحرف فى سورة الصافات، و كذلك تقدّم تفسيره، أى: لا يسكرون فتذهب عقولهم، من أنزف الشارب؛ إذا نفد عقله أو شرابه، و منه قول الشاعر «٢»:

لعمرى لئن أنزفتم أو صحوتملبئس النّدامى كنتم آل أبجرا

وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ أى: يختارونه، يقال: تخيرت الشى‏ء: إذا أخذت خيره. قرأ الجمهور وَ فاكِهَةٍ بالجر وَ كذا لَحْمِ عطفا على أكواب، أى: يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول و المشروب و المتفكّه به. و قرأ زيد بن على و أبو عبد الرّحمن برفعهما على الابتداء، و الخبر مقدّر، أى: و لهم فاكهة و لحم، و معنى مِمَّا يَشْتَهُونَ ممّا يتمنّونه و تشتهيه أنفسهم وَ حُورٌ عِينٌ- كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ قرأ الجمهور: وَ حُورٌ عِينٌ برفعهما عطفا على ولدان، أو على تقدير مبتدأ، أى: نساؤهم حور عين، أو على تقدير خبر، أى: و لهم حور عين، و قرأ حمزة و الكسائى بجرهما عطفا على أكواب. قال الزجاج: و جائز أن يكون معطوفا على جنات، أى: هم فى جنات و فى حور على تقدير مضاف محذوف، أى: و فى معاشرة حور. قال الفراء: فى توجيه العطف على أكواب إنه يجوز الجرّ على الاتباع فى اللفظ و إن اختلفا فى المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهنّ، كما فى قول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماو زجّجن الحواجب و العيونا

و العين لا تزجج و إنما تكحل. و من هذا قول الشاعر:

علفتها تبنا و ماء باردا

---

(١). «الأقاوز»: جمع قوز: و هو كثيب من الرمل صغير؛ شبه به أرداف النساء.

(٢). هو الحطيئة.

و قول الآخر:

متقلّدا سيفا و رمحا «١» قال قطرب: هو معطوف على الأكواب و الأباريق من غير حمل على المعنى. قال: و لا ينكر أن يطاف عليهم بالحور، و يكون لهم فى ذلك لذة. و قرأ الأشهب العقيلى و النّخعى و عيسى بن عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل، كأنه قيل: و يزوّجون حورا عينا، أو و يعطون، و رجّح أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الجمهور.

ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ المكنون، و هو الّذى لم تمسّه الأيدى و لا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء، و انتصاب جزاء فى قوله: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ على أنه مفعول له، أى: يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم. و يجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لفعل محذوف، أى: يجزون جزاء، و قد تقدّم تفسير الحور العين فى سورة الطور و غيرها لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً اللغو: الباطل من الكلام، و التأثيم النسبة إلى الإثم. قال محمد بن كعب: لا يؤثّم بعضهم بعضا، و قال مجاهد: لا يسمعون شتما و لا مأثما، و المعنى:

أنه لا يقول بعضهم لبعض أثمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً القيل: القول، و الاستثناء منقطع، أى: لكن يقولون قيلا، أو يسمعون قيلا، و انتصاب سلاما سلاما على أنه بدل من «قيلا»، أو صفة له، أو هو مفعول به لقيلا، أى: إلا أن يقولوا سلاما سلاما، و اختار هذا الزجاج، أو على أنه منصوب بفعل هو محكى بقيلا، أى: إلا قيلا سلموا سلاما سلاما، و المعنى فى الآية: أنهم لا يسمعون إلا تحية بعضهم لبعض. قال عطاء: يحيى بعضهم بعضا بالسلام، و قيل: إن الاستثناء متصل و هو بعيد، لأن التحية ليست ممّا يندرج تحت اللغو و التأثيم، و قرئ سلام سلام بالرفع. قال مكى: و يجوز الرفع على معنى سلام عليكم مبتدأ و خبر.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ قال: يوم القيامة لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ قال: ليس لها مرد يرد خافِضَةٌ رافِعَةٌ قال: تخفض ناسا و ترفع آخرين. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه خافِضَةٌ رافِعَةٌ قال: أسمعت القريب و البعيد. و أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب خافِضَةٌ رافِعَةٌ قال: الساعة خفضت أعداء اللّه إلى النار، و رفعت أولياء اللّه إلى الجنة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا قال: زلزلت وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا قال: فتتت فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا قال: شعاع الشمس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا قال: الهباء الّذى يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: الهباء: ما يثور مع شعاع الشمس، و انبثاثه تفرقه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: الهباء المنبث: رهج الدواب، و الهباء المنثور: غبار الشمس الّذى تراه فى شعاع الكوّة. و أخرج ابن

---

(١). و صدره: و رأيت زوجك فى الوغى.

أبى حاتم عن ابن عباس وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً قال: أصنافا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً قال: هى التى فى سورة الملائكة: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ «١». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى، و مؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، و علىّ بن أبى طالب سبق إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون، و حبيب النجار الّذى ذكر فى يس، و علىّ بن أبى طالب، و كل رجل منهم سابق أمته، و علىّ أفضلهم سبقا. و أخرج أحمد عن معاذ بن جبل «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

تلا هذه الآية وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ وَ أَصْحابُ الشِّمالِ فقبض بيديه قبضتين فقال: هذه فى الجنة و لا أبالى، و هذه فى النار و لا أبالى». و أخرج أحمد أيضا عن عائشة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أ تدرون من السابقون إلى ظلّ اللّه يوم القيامة؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، و إذا سئلوا بذلوا، و حكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». و أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: لما نزلت: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ شقّ على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فنزلت: ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة و تقاسمونهم النصف الثانى». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس: عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ قال: مصفوفة.

و أخرج سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عنه قال: مرمولة بالذهب. و أخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة، و البزار، و ابن مردويه فى البعث، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنك لتنظر إلى الطّير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويا». و أخرج أحمد و الترمذى و الضياء عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة، فقال أبو بكر: يا رسول اللّه إن هذه الطير لناعمة، قال: آكلها أنعم منها، و إنى لأرجو أن تكون ممّن يأكل منها» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:

كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ قال: الّذى فى الصّدف. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً قال: باطلا وَ لا تَأْثِيماً قال: كذبا.

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٢٧ الى ٥٦]

وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (٣٥) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (٣٦)

عُرُباً أَتْراباً (٣٧) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (٤٢) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦)

وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١)

لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)

---

(١). فاطر: ٣٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٨٣

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين و ما أعدّه لهم من النعيم المقيم، ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال:

وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ قد قدّمنا وجه إعراب هذا الكلام، و ما فى هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم و التعظيم، و هى خبر المبتدأ. و هو أصحاب اليمين، و قوله: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف، أى: هم فى سدر مخضود، و

السدر: نوع من الشجر، و المخضود: الّذى خضد شوكه، أى: قطع فلا شوك فيه. قال أمية بن أبى الصّلت يصف الجنة:
إنّ الحدائق فى الجنان ظليلةفيها الكواعب سدرها مخضود
و قال الضحاك و مجاهد و مقاتل بن حيان: إن السدر المخضود: الموقر حملا وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ قال أكثر المفسرين: إن الطلح فى الآية هو شجر الموز. و قال جماعة: ليس هو شجر الموز، و لكنه الطلح المعروف، و هو أعظم أشجار العرب. قال الفراء و أبو عبيدة: هو شجر عظام لها شوك. قال الزجاج: الطلح هو أمّ غيلان. و لها نور طيّب، فخوطبوا و وعدوا بما يحبون، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا. قال: و يجوز أن يكون فى الجنة و قد أزيل شوكه. قال السدى: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا، لكن له ثمر أحلى من العسل، و المنضود: المتراكب الّذى قد نضد أوله و آخره بالحمل ليس له سوق بارزة.
قال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيد، ثمر كله، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ أى: دائم باق لا يزول و لا تنسخه الشمس. قال أبو عبيدة: و العرب تقول لكل شىء طويل لا ينقطع ممدود، و منه قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ «١» و الجنة كلها ظلّ لا شمس معه.
قال الربيع بن أنس: يعنى ظلّ العرش، و من استعمال العرب للممدود فى الدائم الّذى لا ينقطع قول لبيد:
غلب العزاء و كنت غير مغلّبدهر طويل دائم ممدود
وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ أى: منصبّ يجرى بالليل و النهار أينما شاؤوا لا ينقطع عنهم، فهو مسكوب يسكبه اللّه فى مجاريه، و أصل السكب: الصبّ، يقال سكبه سكبا، أى: صبّه وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ أى: ألوان متنوعة متكثرة لا مَقْطُوعَةٍ فى وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا فى بعض الأوقات وَ لا مَمْنُوعَةٍ أى: لا تمتنع على من أرادها فى أى وقت على أىّ صفة، بل هى معدّة لمن أرادها لا يحول بينه

---

(١). الفرقان: ۴۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۸۴
و بينها حائل. قال ابن قتيبة: يعنى أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ أى:
مرفوع بعضها فوق بعض، أو مرفوعة على الأسرّة. و قيل: إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة، و ارتفاعها كونها على الأرائك، أو كونها مرتفعات الأقدار فى الحسن و الكمال إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً أى:
خلقناهنّ خلقا جديدا من غير توالد، و قيل: المراد نساء بنى آدم، و المعنى: أن اللّه سبحانه أعادهنّ بعد الموت إلى حال الشباب، و النساء و إن لم يتقدّم لهنّ ذكر لكنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين، و أما على قول من قال:
إن الفرش المرفوعة عين النساء فمرجع الضمير ظاهر فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً. لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ* «١». عُرُباً أَتْراباً العرب: جمع عروب، و هى المتحبّبة إلى زوجها، قال المبرد: هى العاشقة لزوجها، و منه قول لبيد:
و فى الخباء عروب غير فاحشةريّا الرّوادف يعشى ضوؤها البصرا «٢»
و قال زيد بن أسلم: هى الحسنة الكلام. قرأ الجمهور بضم العين و الراء. و قرأ حمزة و أبو بكر عن عاصم بإسكان الراء و هما لغتان فى جمع فعول، و الأتراب: هنّ اللواتى على ميلاد واحد و سنّ واحد. و قال مجاهد:
أترابا: أمثالا و أشكالا. و قال السدّى: أترابا فى الأخلاق لا تباغض بينهن و لا تحاسد. قوله: لِأَصْحابِ الْيَمِينِ متعلّق بأنشأناهن، أو بجعلنا، أو بأترابا، و المعنى: أن اللّه أنشأهنّ لأجلهم، أو خلقهنّ لأجلهم، أو هنّ مساويات لأصحاب اليمين فى السنّ، أو هو خبر

لمبتدأ محذوف، أى: هنّ لأصحاب اليمين ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ هذا راجع إلى قوله: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ أى: هم ثلة من الأوّلين و ثلة من الآخرين، و قد تقدّم تفسير الثلة عند ذكر السابقين، و المعنى: أنهم جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأوّلين، و هم من لدن آدم إلى نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين و هم أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال أبو العالية و مجاهد و عطاء بن أبى رباح و الضحاك: «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» يعنى: من سابقى هذه الأمة، «وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ»: من هذه الأمة من آخرها. ثم لمّا فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع فى ذكر أصحاب الشمال و ما أعدّه لهم فقال: وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ الكلام فى إعراب هذا و ما فيه من التفخيم كما سبق فى أصحاب اليمين، و قوله: فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ إما خبر ثان لأصحاب الشمال أو خبر مبتدأ محذوف، و السموم: حرّ النار، و الحميم: الماء الحارّ الشديد الحرارة، و قد سبق بيان معناه. و قيل: السموم: الريح الحارة التى تدخل فى مسامّ البدن وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ اليحموم يفعول من الأحم، و هو الأسود؛ و العرب تقول: أسود يحموم؛ إذا كان شديد السواد، و المعنى: أنهم يفزعون إلى الظلّ فيجدونه ظلا من دخان جهنم شديد السواد. و قيل: و هو مأخوذ من الحم و هو الشّحم المسودّ باحتراق النار. و قيل: مأخوذ من الحمم و هو الفحم. قال الضحاك: النار سوداء، و أهلها سود،

---

(١). الرّحمن: ٥٦ و ٧٤.

(٢). فى تفسير القرطبى: يغشى دونها البصر.

و كل ما فيها أسود. ثم وصف هذا الظلّ بقوله: لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ أى: ليس كغيره من الظلال التى تكون باردة، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم. قال سعيد بن المسيب: «وَ لا كَرِيمٍ»، أى: ليس فيه حسن منظر و كل ما لا خبر فيه فليس بكريم. قال الضحاك: و لا كريم و لا عذب. قال الفراء: العرب تجعل الكريم تابعا لكلّ شىء نفت عنه وصفا تنوى به الذم، تقول: ما هو بسمين و لا بكريم، و ما هذه الدار بواسعة و لا كريمة. ثم ذكر سبحانه أعمالهم التى استحقّوا بها هذا العذاب فقال: إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ و هذه الجملة تعليل لما قبلها، أى: إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل مترفين فى الدنيا، أى: منعّمين بما لا يحلّ لهم، و المترف: المتنعم. و قال السدى: مشركين، و قيل: متكبّرين، و الأوّل أولى وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ الحنث: الذنب، أى: يصرون على الذنب العظيم. قال الواحدى: قال أهل التفسير:
عنى به الشرك، أى: كانوا لا يتوبون عن الشرك. و به قال الحسن و الضحاك و ابن زيد. و قال قتادة و مجاهد:
هو الذنب العظيم الّذى لا يتوبون عنه. و قال الشعبى: هو اليمين الغموس، وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ الهمزة فى الموضعين للإنكار و الاستبعاد، و قد تقدّم الكلام على هذا فى الصافات، و فى سورة الرعد، و المعنى: أنهم أنكروا و استبعدوا أن يبعثوا بعد الموت، و قد صاروا عظاما و ترابا، و المراد أنه صار لحمهم و جلودهم ترابا، و صارت عظامهم نخرة بالية، و العامل فى الظرف ما يدلّ عليه مبعوثون، لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله، أى: أ نبعث إذا متنا؟ إلخ أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ معطوف على الضمير فى لمبعوثون لوقوع الفصل بينهما بالهمزة، و المعنى: أن بعث آبائهم الأوّلين أبعد لتقدّم موتهم، و قرئ و آباؤنا. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عليهم و يردّ استبعادهم فقال: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ أى: قل لهم يا محمد إن الأوّلين من الأمم و الآخرين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ و هو يوم القيامة ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ هذا و ما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول، و هو معطوف على إِنَّ الْأَوَّلِينَ و وصفهم سبحانه بوصفين قبيحين، و هما الضلال عن الحقّ و التكذيب له لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ أى: لآكلون فى الآخرة من

شجر كريه المنظر كريه الطعم، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الصافات، و من الأولى لابتداء الغاية، و الثانية بيانية، و يجوز أن تكون الأولى مزيدة، و الثانية بيانية، و أن تكون الثانية مزيدة، و الأولى للابتداء فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ أى: مالئون من شجر الزقوم بطونكم لما يلحقكم من شدّة الجوع فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ الضمير فى عليه إلى الزقوم، و الحميم: الماء الّذى قد بلغ حرّه إلى الغاية، و المعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحارّ، و يجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكّر و يؤنّث. و يجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله: لَآكِلُونَ و قرئ «من شجرة» بالإفراد فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ قرأ الجمهور:

شُرْبَ الْهِيمِ بفتح الشين، و قرأ نافع و عاصم و حمزة بضمها، و قرأ مجاهد و أبو عثمان النهدى بكسرها، و هى لغات. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم السين و فتحها و كسرها. قال المبرد: الفتح على أصل المصدر و الضم اسم المصدر، و الهيم: الإبل العطاش التى لا تروى لداء يصيبها، و هذه الجملة بيان لما قبلها:

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۸۶

أى: لا يكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم التى تعطش و لا تروى بشرب الماء، و مفرد الهيم:

أهيم، و الأنثى هيماء. قال قيس بن الملوح:

يقال به داء الهيام أصابهو قد علمت نفسى مكان شفائها

و قال الضحاك و ابن عيينة و الأخفش و ابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل، و المعنى: أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء و لا يظهر له فيها أثر. قال فى الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، و الهيام كالجنون من العشق، و الهيام: داء يأخذ الإبل تهيم فى الأرض لا ترعى، يقال: ناقة هيماء، و الهيماء أيضا: المفازة لا ماء بها، و الهيام بالفتح: الرمل الّذى لا يتماسك فى اليد للينه، و الجمع هيم، مثل قذال و قذل، و الهيام بالكسر الإبل العطاش. هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ قرأ الجمهور: نُزُلُهُمْ بضمتين، و روى عن أبى عمرو و ابن محيصن بضمة و سكون، و قد تقدم أن النزل ما يعدّ للضيف، و يكون أوّل ما يأكله، و يوم الدين يوم الجزاء و هو يوم القيامة، و المعنى: أن ما ذكر من شجر الزقوم و شراب الحميم هو الّذى يعدّ لهم و يأكلونه يوم القيامة، و فى هذا تهكّم بهم؛ لأن النزل هو ما يعدّ للأضياف تكرمة لهم، و مثل هذا قوله:

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* «۱».

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى أمامة قال: «كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقولون:

إن اللّه ينفعنا بالأعراب و مسائلهم، أقبل أعرابى يوما فقال: يا رسول اللّه ذكر فى القرآن شجرة مؤذية، و ما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها. قال: و ما هى؟ قال: السدر فإن لها شوكا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أ ليس اللّه يقول: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ؟ يخضد اللّه شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمرا يتفتق الثمر منها عن اثنين و سبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر». و أخرج ابن أبى داود و الطبرانى، و أبو نعيم فى الحلية، و ابن مردويه عن عيينة بن عبد السلمى قال: «كنت جالسا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فجاء أعرابى فقال: يا رسول اللّه أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكا منها: يعنى الطلح، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود- يعنى: الخصىّ منها- فيها سبعون لونا من الطعام لا يشبه لون آخر» و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: سِدْرٍ مَخْضُودٍ قال: خضده: وقره من الحمل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عنه قال: المخضود: الّذى لا شوك فيه. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: المخضود:

الموقر الّذى لا شوك فيه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ قال: هو الموز. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن

المنذر من طرق عن ابن عباس مثله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن

---

(۱). آل عمران: ۲۱ و التوبة: ۳۴ و الانشقاق: ۲۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۸۷

أبی هريرة مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن أبی سعيد الخدری مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبی حاتم عن علیّ بن أبی طالب أنه قرأ: و طلع منضود و أخرج ابن جرير، و ابن الأنباری فی المصاحف، عن قيس بن عباد قال: قرأت علی علیّ بن أبی طالب وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ فقال علیّ: ما بال الطلح، أما تقرأ: و طلع؟ ثم قال: «و طلع نضيد» فقيل له: يا أمير المؤمنين أ نحكّها فی المصحف؟ قال: لا يهاج القرآن اليوم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی قوله: مَنْضُودٍ قال: بعضه علی بعض. و أخرج البخاری و مسلم و غير هما من حديث أبی هريرة عن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ فی الجنة شجرة يسير الراكب فی ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم: وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ». و أخرج البخاری و غيره نحوه من حديث أنس. و أخرج البخاری و مسلم و غير هما نحوه من حديث أبی سعيد. و أخرج أحمد، و الترمذی و حسّنه، و النسائی و غيرهم عن أبی سعيد الخدری عن النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فی قوله: وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ قال:

ارتفاعها كما بين السماء و الأرض، و مسيرة ما بينهما خمسمائة عام. قال الترمذی بعد إخراجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد انتهی، و رشدين ضعيف. و أخرج الفريابی و هناد و عبد بن حميد و الترمذی و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه، و البيهقی فی البعث، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم فی قوله: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً قال: «إن المنشآت اللاتی كنّ فی الدنيا عجائز عمشا رمصا» قال الترمذی بعد إخراجه: غريب، و موسی و يزيد ضعيفان. و أخرج الطيالسی و ابن جرير و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردويه و ابن قانع، و البيهقی فی البعث، عن سلمة بن يزيد الجعفی سمعت النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم يقول فی قوله: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً قال: «الثيبات و الأبكار اللاتی كنّ فی الدنيا». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فی الآية قال: خلقهنّ الأوّل. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أَبْكاراً قال: عذاری. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقی فی البعث، من طريق علیّ بن أبی طلحة عن ابن عباس فی قوله: عُرُباً قال: عواشق أَتْراباً يقول: مستويات. و أخرج ابن أبی حاتم عنه عُرُباً قال: عواشق لأزواجهنّ، و أزواجهنّ لهنّ عاشقون أَتْراباً قال: فی سنّ واحد ثلاثا و ثلاثين سنة. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: العروب الملقة لزوجها. و أخرج مسدّد فی مسنده و ابن المنذر و الطبرانی و ابن مردويه بسند حسن عن أبی بكرة عن النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فی قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال:

«جميعهما من هذه الأمة». و أخرج أبو داود الطيالسی و مسدّد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبی بكرة فی قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ- وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال: هما جميعا من هذه الأمة. و أخرج الفريابی و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن عدی و ابن مردويه. قال السيوطی بسند ضعيف عن ابن عباس «فی قوله: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «هما جميعا من أمتی».

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: الثلتان جميعا من هذه الأمة. و أخرج الفريابی و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۸۸

فی قوله: وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ قال: من دخان أسود، و فی لفظ: من دخان جهنم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: شُرْبَ الْهِيمِ قال: الإبل العطاش.

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٥٧ الى ٧٤]

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (٥٨) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (٦١)

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (٦٣) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١)

أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)

قوله: نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتا لهم و إلزاما للحجة، أي: فهلا تصدّقون بالبعث أو بالخلق. قال مقاتل: خلقناكم و لم تكونوا شيئا و أنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث؟ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أي: ما تقذفون و تصبّون في أرحام النساء من النطف، و معنى أ فرأيتم:

أخبروني، و مفعولها الأول ما تمنون، و الثاني: الجملة الاستفهامية، و هي أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ أي: تقدّرونه و تصوّرونه بشرا أم نحن المقدرون المصوّرون له، و «أم» هي المتصلة، و قيل: هي المنقطعة، و الأول أولى. قرأ الجمهور: «تُمْنُونَ» بضم الفوقية من أمنى يمنى. و قرأ ابن عباس و أبو السّمّال و محمد ابن السّميقع و الأشهب العقيلي بفتحها من منى يمنى، و هما لغتان، و قيل: معناهما مختلف، يقال: أمنى إذا أنزل عن جماع، و منى إذا أنزل عن احتلام، و سمي المنيّ منيا لأنه يمنى، أي: يراق، نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ قرأ الجمهور قَدَّرْنا بالتشديد، و قرأ مجاهد و حميد و ابن محيصن و ابن كثير بالتخفيف، و هما لغتان، يقال: قدرت الشيء و قدّرته، أي: قسمناه عليكم و وقّتناه لكل فرد من أفرادكم، و قيل: قضينا، و قيل: كتبنا، و المعنى متقارب. قال مقاتل: فمنكم من يموت كبيرا و منكم من يموت صغيرا. و قال الضّحّاك: معناه أنه جعل أهل السماء و أهل الأرض فيه سواء، وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ بمغلوبين، بل قادرين عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ أي: نأتي بخلق مثلكم. قال الزجاج: إن أردنا أن نخلق خلقا غيركم لم يسبقنا سابق و لا يفوتنا. قال ابن جرير: المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم و ما نحن بمسبوقين في آجالكم، أي: لا يتقدّم متأخّر و لا يتأخر متقدّم وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ من الصّور و الهيئات. قال الحسن: أي نجعلكم قردة و خنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم، و قيل: المعنى: ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا. و قال سعيد بن المسيب: «فيما لا تعلمون»: يعني في حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف. و برهوت واد باليمن. و قال مجاهد:

فِي ما لا تَعْلَمُونَ يعني في أيّ خلق شئنا، و من كان قادرا على هذا فهو قادر على البعث

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٨٩

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى و هي ابتداء الخلق من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة و لم تكونوا قبل ذلك شيئا. و قال قتادة و الضحّاك: يعني خلق آدم من تراب فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ أي: فهلّا تذكرون قدرة اللّه سبحانه على النشأة الأخيرة و تقيسونها على النشأة الأولى. قرأ الجمهور: النَّشْأَةَ بالقصر، و قرأ مجاهد و الحسن و ابن كثير و أبو عمرو بالمدّ، و قد مضى تفسير هذا في سورة العنكبوت أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أي: أخبروني ما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيه البذر أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أي: تنبتونه و تجعلونه زرعا فيكون فيه السّنبل و الحبّ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ أي: المنبتون له الجاعلون له زرعا لا أنتم. قال المبرد: يقال زرعه اللّه، أي:

أنماه؛ فإذا أقررتم بهذا فكيف تنكرون البعث لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً أي: لو نشاء جعلناه ما تحرثون حطاما، أي: متحطما متكسّرا، و الحطام: الهشيم الّذي لا ينتفع به و لا يحصل منه حبّ و لا شيء ممّا يطلب من الحرث فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ أي: صرتم تعجبون. قال الفرّاء: تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم في زرعكم. قال في الصحاح: و تفكّه: تعجّب، و يقال: تندّم. قال الحسن و قتادة و غير هما: معنى الآية:

تعجبون من ذهابها و تندمون ممّا حلّ بكم. و قال عكرمة: تلاومون و تندمون على ما سلف منكم من معصية اللّه. و قال أبو عمرو و الكسائي: هو التلهف على ما فات. قرأ الجمهور: فَظَلْتُمْ بفتح الظاء مع لام واحدة. و قرأ أبو حيوة و أبو بكر في رواية عنه بكسر الظاء. و قرأ ابن عباس و الجحدري «فظللتم» بلامين، أولاهما مكسورة على الأصل، و روى عن الجحدري فتحها، و هي لغة. و قرأ الجمهور: تَفَكَّهُونَ و قرأ أبو حزام العكلي تفكّنون بالنون مكان الهاء، أي: تندمون. قال ابن خالويه: تفكّه: تعجب. و تفكّن: تندم. و في الصحاح: التفكن: التندم إِنَّا لَمُغْرَمُونَ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر، و قرأ أبو بكر و المفضل و زرّ بن حبيش بهمزتين على الاستفهام، و الجملة بتقدير القول، أي: تقولون إنا لمغرمون، أي: ملزمون غرما بما هلك من زرعنا، و المغرم الّذي ذهب ماله بغير عوض، قال الضحاك و ابن كيسان. و قيل: إنا لمعذبون، قال قتادة و غيره. و قال مجاهد و عكرمة: لمولع بنا، و منه قول النّمر بن تولب:

سلا عن تذكّره تكتماو كان رهينا بها مغرما

يقال: أغرم فلان بفلانة، أي: أولع. و قال مقاتل: مهلكون. قال النحاس: مأخوذ من الغرام، و هو الهلاك، و منه قول الشاعر «١»:

يوم النّسار و يوم الجفاركانا عليكم عذابا مقيما «٢»

و الظاهر من السياق المعنى الأول، أي: إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه و مصيره حطاما، ثم أضربوا عن قولهم هذا و انتقلوا، فقالوا: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أي: حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا، و المحروم: الممنوع

---

(١). هو بشر بن أبي حازم.

(٢). في تفسير القرطبي. و كان عذابا و كان غراما.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٩٠

من الرزق الّذي لا حظّ له فيه، و هو المحارف. أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ فتسكنون به ما يلحقكم من العطش، و تدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ. و اقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء و منافعه، لأنه أعظم فوائده و أجلّ منافعه أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أي: السحاب: قال في الصحاح:

قال أبو زيد: المزنة: السحابة البيضاء. و الجمع مزن. و المزنة: المطرة. قال الشاعر «١»:

ألم تر أنّ اللّه أنزل مزنةو عفر الظّباء في الكناس تقمّع

و ممّا يدلّ على أنه السحاب قول الشاعر:

فنحن كماء المزن ما في نصابناكهام و لا فينا يعدّ بخيل «٢»

و قول الآخر:

فلا مزنة و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها

أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ له بقدرتنا دون غيرنا، فإذا عرفتم ذلك، فكيف لا تقرّون بالتوحيد و تصدقون بالبعث. ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال: لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً الأجاج:

الماء الشديد الملوحة الّذى لا يمكن شربه، و قال الحسن: هو الماء المرّ الّذى لا ينتفعون به فى شرب و لا زرع و لا غير هما فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ أى: فهلّا تشكرون نعمة اللّه الّذى خلق لكم ماء عذبا تشربون منه و تنتفعون به أَ فَرَأَيْتُمُ النّارَ الَّتِي تُورُونَ أى: أخبرونى عنها، و معنى تورون: تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب، يقال: أوريت النار إذا قدحتها أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها التى يكون منها الزّناد، و هى المرخ و العفار، تقول العرب: فى كل شجر نار، و استمجد المرخ و العفار أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ لها بقدرتنا دونكم. و معنى الإنشاء الخلق، و عبّر عنه بالإنشاء للدلالة على ما فى ذلك من بديع الصنعة و عجيب القدرة نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً أى: جعلنا هذه النار التى فى الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى. قال مجاهد و قتادة:

تبصرة للناس فى الظلام، و قال عطاء: موعظة ليتّعظ به المؤمن وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ أى: منفعة للذين ينزلون بالقواء، و هى الأرض القفر كالمسافرين و أهل البوادى النازلين فى الأراضى المقفرة، يقال: أرض قواء بالمد و القصر، أى: مقفرة، و منه قول النابغة:

يا دارمية بالعلياء فالسّندأقوت و طال عليها سالف الأمد

و قال عنترة:

حيّيت من طلل تقادم عهدهأقوى و أقفر بعد أمّ الهيثم

---

(١). هو أوس بن حجر.

(٢). «نصاب» أصل. «كهام»: ثقيل، لا غناء عنده.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۹۱

و قول الآخر «۱»:

ألم تسأل الرّبع القواء فينطق؟و هل تخبرنّك اليوم بيداء سملق؟ «۲»

و يقال: أقوى إذا سافر، أى: نزل القوى. و قال مجاهد: المقوين: المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ و الخبز و الاصطلاء و الاستضاءة، و تذكّر نار جهنم. و قال ابن زيد: للجائعين فى إصلاح طعامهم، يقال: أقويت منذ كذا و كذا، أى: ما أكلت شيئا، و بات فلان القوى، أى: بات جائعا، و منه قول الشاعر «۳»:

و إنّى لأختار القوى طاوى الحشىمحافظة من أن يقال لئيم

و قال قطرب: المقوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر، و يكون بمعنى الغنى؛ يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، و أقوى إذا قويت دوابه و كثر ماله. و حكى الثعلبى عن أكثر المفسرين القول الأوّل، و هو الظاهر فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر اللّه سبحانه، و تنزيه على ما قبلها مما عدّده من النعم التى أنعم بها على عباده و جحوده المشركين لها و تكذيبهم بها.

و قد أخرج البزار و ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم، و البيهقى فى الشعب، و ضعّفه، عن أبى هريرة.

قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يقولنّ أحدكم زرعت، و لكن يقول: حرثت». قال أبو هريرة: ألم تسمعوا اللّه يقول: أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ و أخرج ابن جرير عن ابن عباس تَفَكَّهُونَ قال: تعجبون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس. قال:

الْمُزْنِ السحاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً قال: تذكرة للنار الكبرى وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ قال: للمسافرين.

[سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۷۵ الى ۹۶]

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (۷۶) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (۷۷) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (۷۸) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (۷۹)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۸۰) أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (۸۱) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (۸۲) فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (۸۳) وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (۸۴)

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ (۸۵) فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (۸۶) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۸۷) فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۸۸) فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ (۸۹)

وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (۹۰) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (۹۱) وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (۹۲) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (۹۳) وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (۹۴)

إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (۹۵) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۹۶)

---

(۱). هو جميل.

(۲). «سملق»: هى الأرض المستوية.

(۳). هو حاتم الطائى.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۹۲

قوله: فَلا أُقْسِمُ ذهب جمهور المفسرين إلا أن «لا» مزيدة للتوكيد، و المعنى: فأقسم، و يؤيد هذا قوله بعد وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ و قال جماعة من المفسرين: إنها للنفى، و إن المنفىّ بها محذوف، و هو كلام الكفار الجاحدين. قال الفراء: هى نفى، و المعنى: ليس الأمر كما تقولون. ثم استأنف فقال: أقسم، و ضعف هذا بأن حذف اسم لا و خبرها غير جائز، كما قال أبو حيان و غيره. و قيل: إنها لام الابتداء، و الأصل:

فلأقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف، كقول الشاعر:

أعوذ باللّه من العقراب «۱» و قد قرأ هكذا فلأقسم بدون ألف الحسن و حميد و عيسى بن عمر، و على هذا القول، و هذه القراءة؛ يقدّر مبتدأ محذوف، و التقدير: فلأنا أقسم بذلك. و قيل: إن «لا» هنا بمعنى ألا التى للتنبيه، و هو بعيد. و قيل: «لا» هنا على ظاهرها، و إنها لنفى القسم، أى: فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك، و هذا مدفوع بقوله: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ مع تعيين المقسم به و المقسم عليه، و معنى قوله: بِمَواقِعِ النُّجُومِ مساقطها، و هى مغاربها، كذا قال قتادة و غيره. و قال عطاء بن أبى رباح:

منازلها. و قال الحسن: انكدارها و انتثارها يوم القيامة، و قال الضحاك: هى الأنواء التى كان أهل الجاهلية يقولون: مطرنا بنوء كذا. و قيل: المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما من اللوح المحفوظ، و به قال السدّى و غيره، و حكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. قرأ الجمهور: بِمَواقِعِ على الجمع، و قرأ ابن مسعود و النخعي و حمزة و الكسائى و ابن محيصن و ورش «۲» عن يعقوب «بموقع» على الإفراد. قال المبرد: «موقع» هاهنا مصدر، فهو يصلح للواحد و الجمع. ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم و تفخيمه فقال: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ هذه الجملة معترضة بين المقسم به و المقسم عليه، و قوله: لَوْ تَعْلَمُونَ جملة معترضة بين جزأى الجملة المعترضة، فهو اعتراض فى اعتراض. قال الفراء و الزجاج: هذا يدل على أن

المراد بمواقع النجوم نزول القرآن، و الضمير فى «إنه» على القسم الّذى يدل عليه أقسم، و المعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون. ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ أى: كرّمه اللّه و أعزّه و رفع قدره على جميع الكتب، و كرّمه عن أن يكون سحرا أو كهانة أو كذبا، و قيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق و معالى الأمور، و قيل: لأنه يكرم حافظه و يعظم قارئه.

و حكى الواحدى عن أهل المعانى أن وصف القرآن بالكريم، لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التى تؤدّى إلى الحق فى الدّين. قال الأزهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد، و القرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى و البيان و العلم و الحكمة فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ أى: مستور مصون، و قيل: محفوظ عن الباطل، و هو اللوح

---

(١). و تتمته فى تاج العروس:

الشّائلات عقد الأذناب و الشاهد فى قوله: «عقراب» حيث أشبعت الراء المفتوحة فصارت عقراب. و الأصل: عقرب.

(٢). فى تفسير القرطبى: رويس بدل ورش.

المحفوظ، قاله جماعة. و قيل: هو كتاب. و قال عكرمة: هو التوراة و الإنجيل فيهما ذكر القرآن و من ينزل عليه، و قال السدّى: هو الزبور. و قال مجاهد و قتادة: هو المصحف الّذى فى أيدينا لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون، أى: لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون، و هم الملائكة، و قيل: هم الملائكة و الرسل من بنى آدم، و معنى «لا يَمَسُّهُ» المسّ الحقيقى، و قيل: معناه: لا ينزل به إلا المطهرون، و قيل: معناه: لا يقرؤه، و على كون المراد الكتاب المكنون هو القرآن، فقيل لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ من الأحداث و الأنجاس. كذا قال قتادة و غيره: و قال الكلبى: المطهرون من الشرك. و قال الربيع بن أنس: المطهرون من الذنوب و الخطايا. و قال محمد بن الفضل و غيره: معنى لا يمسه: لا يقرؤه، إلا المطهرون أى: إلا الموحّدون. و قال الفراء: لا يجد نفعه و بركته إلا المطهرون، أى: المؤمنون. و قال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره و تأويله إلّا من طهّره اللّه من الشرك و النفاق.

و قد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مسّ المصحف، و به قال علىّ و ابن مسعود و سعد بن أبى وقاص و سعيد ابن زيد و عطاء و الزهرى و النخعى و الحكم و حماد و جماعة من الفقهاء منهم مالك و الشافعى. و روى عن ابن عباس و الشعبى و جماعة منهم أبو حنيفة، أنه يجوز للمحدث مسّه، و قد أوضحنا ما هو الحق فى هذا فى شرحنا للمنتقى فليرجع إليه. قرأ الجمهور: الْمُطَهَّرُونَ بتخفيف الطاء و تشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول. و قرأ سلمان الفارسى بكسر الهاء على أنه اسم فاعل، أى: المطهرون أنفسهم. و قرأ نافع و ابن عمر، و فى رواية عنهما عيسى بن عمر، بسكون الطاء و فتح الهاء خفيفة، اسم مفعول من أطهر، و قرأ الحسن و زيد بن علىّ و عبد اللّه بن عوف بتشديد الطاء و كسر الهاء، و أصله المتطهرون. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ قرأ الجمهور بالرفع، و قرئ بالنصب، فالرفع على أنه صفة أخرى للقرآن، أو خبر مبتدأ محذوف، و النصب على الحال أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة، و المدهن و المداهن المنافق.

كذا قال الزجاج و غيره و قال عطاء و غيره: هو الكذاب. و قال مقاتل بن سليمان و قتادة: «مدهنون»: كافرون، كما فى قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ و قال الضحاك: «مدهنون»: معرضون، و قال مجاهد: ممالئون للكفار على الكفر، و قال أبو كيسان: المدهن: الّذى لا يعقل حق اللّه عليه و يدفعه بالعلل.

و الأوّل أولى؛ لأن أصل المدهن الّذى ظاهره خلاف باطنه كأنه يشبه الدهن فى سهولته. قال المؤرّج: المدهن:

المنافق الّذى يلين جانبه ليخفى كفره، و الإدهان و المداهنة: التكذيب و الكفر و النفاق، و أصله اللين، و أن يسرّ خلاف ما يظهر، و قال فى الكشاف: «مدهنون» أى: متهاونون به، كمن يدهن فى الأمر، أى:

يلين جانبه و لا يتصلب فيه تهاونا به، انتهى. قال الراغب: و الإدهان فى الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المدارة و الملاينة، و ترك الجدّ: كما جعل التقريد، و هو نزع القراد عبارة عن ذلك، و يؤيد ما ذكره قول أبى قيس بن الأسلت:

الحزم و القوّة خير من الإدهان و الفهّة و الهاع «١»

---

(١). «الفهة»: العى. «الهاع»: سوء الحرص مع ضعف.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ١٩٤

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ فى الكلام مضاف محذوف، كما حكاه الواحدى عن المفسرين، أى: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة اللّه فتضعون التكذيب موضع الشكر. و قال الهيثم: إن أزد شنوءة يقولون: ما رزق فلان؟ أى: ما شكره. و على هذه اللغة لا يكون فى الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق و الشكر. و وجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق فيكون الشكر رزقا تعبيرا بالسبب عن المسبب، و مما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم اللّه، و أنزل عليهم المطر: سقينا بنوء كذا، و مطرنا بنوء كذا. قال الأزهرى: معنى الآية و تجعلون بدل شكركم رزقكم الّذى رزقكم اللّه التكذيب بأنه من عند اللّه الرّزاق. و قرأ علىّ و ابن عباس «و تجعلون شكركم» و قرأ الجمهور أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بالتشديد من التكذيب، و قرأ علىّ و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف من الكذب. فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ أى: فهلا إذا بلغت الروح، أو النفس، الحلقوم عند الموت، و لم يتقدّم لها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة، و منه قول حاتم طيء:

أماوىّ ما يغنى الثّراء عن الفتى إذا حشرجت يوما و ضاق بها الصّدر

وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ إلى ما هو فيه ذلك الّذى بلغت نفسه أو روحه الحلقوم. قال الزجاج: و أنتم يا أهل الميت فى تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه، و المعنى أنهم فى تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه، و لا يستطيعون شيئا ينفعه أو يخفف عنه ما هو فيه وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ أى: بالعلم و القدرة و الرؤية، و قيل: أراد و رسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ أى: لا تدركون ذلك لجهلكم بأن اللّه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت و يتولون قبضه فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ- تَرْجِعُونَها يقال: دان السلطان رعيته؛ إذا ساسهم و استعبدهم. قال الفراء: دنته ملكته، و أنشد للحطيئة:

لقد ديّنت أمر بنيك حتّى تركتهم أدّق من الطّحين

أى: ملّكت، و يقال دانه؛ إذا أذله و استعبده، و قيل: معنى مدينين محاسبين، و قيل: مجزيين، و منه قول الشاعر:

و لم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا

و المعنى الأوّل ألصق بمعنى الآية، أى: فهلّا إن كنتم غير مربوبين و مملوكين ترجعونها، أى: النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مقرّها الّذى كانت فيه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و لن ترجعوها، فبطل زعمكم إنكم غير مربوبين و لا مملوكين، و العامل فى قوله: إذا بلغت هو قوله: ترجعونها، و لو لا الثانية تأكيد للأولى. قال الفراء: و ربما أعادت العرب الحرفين و معناهما واحد. ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت و بعده فقال:

فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ أى: السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدّم تفصيل أحوالهم فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ قرأ الجمهور فَرَوْحٌ بفتح الراء، و معناه الراحة من الدنيا و الاستراحة من أحوالها. و قال

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٩٥

الحسن: الروح: الرحمة. و قال مجاهد: الروح: الفرح. و قرأ ابن عباس و عائشة و الحسن و قتادة و نصر بن عاصم و الجحدرى فَرَوْحٌ بضم الراء، و رويت هذه القراءة عن يعقوب، قيل: و معنى هذه القراءة الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم، و الريحان: الرزق فى الجنة، قاله مجاهد و سعيد بن جبير و مقاتل. هو الرزق بلغة حمير، يقال خرجت أطلب ريحان اللّه: أى رزقه، و منه قول النّمر بن تولب:

سلام الإله و ريحانهو رحمته و سماء درر

و قال قتادة: إنه الجنة. و قال الضحاك: هو الرحمة. و قال الحسن: هو الريحان المعروف الّذى يشم.

قال قتادة و الربيع بن خثيم: هذا عن الموت، و الجنة مخبوءة له إلى أن يبعث، و كذا قال أبو الجوزاء و أبو العالية، و معنى «و جنة نعيم»: أنها ذات تنعم، و ارتفاع روح و ما بعده على الابتداء، و الخبر محذوف، أى: فله روح. وَ أَمَّا إِنْ كانَ ذلک المتوفى مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ و قد تقدّم ذكرهم و تفصيل أحوالهم و ما أعدّه اللّه لهم من الجزاء فَسَلامٌ لَکَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ أى: لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة، فلا تهتم بهم، فإنهم يسلمون من عذاب اللّه، و قيل: المعنى: سلام لک منهم، أى: أنت سالم من الاغتمام بهم، و قيل المعنى: إنهم يدعون لک و يسلمون عليک، و قيل: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم يحين بالسلام إكراما، و قيل: هو إخبار من اللّه سبحانه بتسليم بعضهم على بعض، و قيل: المعنى: سلام لک يا صاحب اليمين من إخوانک أصحاب اليمين، وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ أى: المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى، و هم أصحاب الشمال المتقدّم ذكرهم، و تفصيل أحوالهم فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ أى: فله نزل يعدّ لنزوله من حميم، و هو الماء الّذى قد تناهت حرارته، و ذلک بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ يقال: أصلاه النار و صلاه، أى: إذا جعله فى النار، و هو من إضافة المصدر إلى المفعول، أو إلى المكان. قال المبرد: و جواب الشرط فى هذه المواضع الثلاثة محذوف، و التقدير: مهما يكن من شى‌ء فروح إلخ. و قال الأخفش: إن الفاء فى المواضع الثلاثة هى جواب أما، و جواب حرف الشرط. قرأ الجمهور: وَ تَصْلِيَةُ بالرفع عطفا على فنزل. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه بالجر عطفا على حميم، أى: فنزل من حميم و من تصلية جحيم. إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الإشارة إلى ما ذكر فى هذه السورة، أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرقين له حق اليقين، الإشارة إلى ما ذكر فى هذه السورة، أو إلى المذكور قريبا من أحوال المتفرقين له حق اليقين، أى:

محض اليقين و خالصه، و إضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشى‌ء إلى نفسه. قال المبرّد: هو كقولک عين اليقين و محض اليقين، هذا عند الكوفيين و جوّزوا ذلک لاختلاف اللفظ؛ و أما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفا، و التقدير: حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين، و الفاء فى فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِيمِ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: نزّهه عمّا لا يليق بشأنه، و الباء متعلقة بمحذوف، أى: فسبح متلبسا باسم ربک للتبرک به. و قيل: المعنى: فصلّ بذكر ربک: و قيل: الباء زائدة، و الاسم بمعنى الذات. و قيل: هى للتعدية لأن سبح يتعدّى بنفسه تارة و يتعدّى بالحرف أخرى، و الأوّل أولى.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ١٩٦

و قد أخرج النسائى و ابن جرير و محمد بن نصر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرّق فى السنين، و فى لفظ: ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوما. ثم قرأ فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و محمد بن نصر و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ قال القرآن وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ قال: القرآن. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نجوم القرآن حين ينزل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى المعرفة،

من طرق عن ابن عباس أيضا لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال الكتاب المنزل فى السماء لا يمسّه إلا الملائكة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن أنس لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال: الملائكة. و أخرج عبد الرّزاق و ابن المنذر عن علقمة قال: أتينا سلمان الفارسى فخرج علينا من كنيف، فقلنا له: لو توضأت يا أبا عبد اللّه ثم قرأت علينا سورة كذا و كذا، قال: إنما قال اللّه: فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ- لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ و هو الّذى فى السماء لا يمسّه إلا الملائكة، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا. و أخرج عبد الرّزاق و ابن أبى داود و ابن المنذر عن عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال فى كتاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لعمرو بن حزم: «لا تمس القرآن إلا على طهر». و أخرجه مالك فى الموطأ، عن عبد اللّه بن أبى بكر، و أخرجه أبو داود فى المراسيل، من حديث الزهرى قال: قرأت فى صحيفة عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «و لا يمس القرآن إلا طاهر» و قد أسنده الدار قطنى عن عمرو بن حزم و عبد اللّه بن عمر و عثمان ابن أبى العاص، و فى أسانيدها نظر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئا.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة فى المصنف و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن عبد الرّحمن بن زيد قال: كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة، فتوارى عنا ثم خرج إلينا، فقلنا: لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن، فقال: سلونى، فإنى لست أمسّه، إنما يمسه المطهرون، ثم تلا: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يمسّ القرآن إلّا طاهر». و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل: «أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما بعثه إلى اليمن كتب له فى عهده: أن لا يمسّ القرآن إلّا طاهر». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عباس فى قوله: أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ قال: مكذبون. و أخرج مسلم و ابن المنذر و ابن مردويه عن عباس قال: «مطر الناس على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

أصبح من الناس شاكر و منهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها اللّه. و قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا و كذا، فنزلت هذه الآية فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ حتى بلغ وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ . و أصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت فى الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهنى، و من حديث أبى سعيد الخدرى، و فى الباب أحاديث. و أخرج أحمد و ابن منيع و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن علىّ عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله:

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ قال: «شكركم، تقولون مطرنا بنوء كذا و كذا و بنجم كذا و كذا».

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۹۷

و أخرج ابن عساكر فى تاريخه، عن عائشة قالت: ما فسّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من القرآن إلا آيات يسيرة، قوله:

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ قال: «شكركم». و أخرج ابن مردويه عن علىّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: «و تجعلون شكركم». و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «و تجعلون شكركم» قال: يعنى الأنواء، و ما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافرا كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا و كذا، فأنزل اللّه: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ و أخرج ابن مردويه عن أبى عبد الرّحمن السلمى عن علىّ أنه قرأ: «و تجعلون شكركم» و قال:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرؤها كذلك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: غَيْرَ مَدِينِينَ قال: غير محاسبين. و أخرج ابن أبى شيبة، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن المنذر عن الربيع بن خثيم فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ الآية قال: هذا له عند الموت وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ- فَنُزُلٌ مِنْ

حَمِيمٍ قال: هذا عند الموت وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ قال:
تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَرَوْحٌ قال:
رائحة وَ رَيْحانٌ قال: استراحة. و أخرج ابن جرير عنه قال: يعنى بالريحان: المستريح من الدنيا وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ يقول: مغفرة و رحمة. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: الريحان: الرزق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ قال: تأتيه الملائكة بالسلام من قبل اللّه تسلم عليه و تخبره أنه من أصحاب اليمين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ قال:
ما قصصنا عليك فى هذه السورة. و أخرج عنه أيضا: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قال: فصلّ لربك.
و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و أبو داود و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عقبة بن عامر الجهنى قال: «لما نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قال:
اجعلوها فى ركوعكم، فلما نزلت: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قال: اجعلوها فى سجودكم».
فتح القدير، ج‏5، ص: 198

سورة الحديد

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحديد بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند ضعيف، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء، و خلق اللّه الحديد يوم الثلاثاء، و قتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء، و نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن الحجامة يوم الثلاثاء». و أخرج الديلمى عن جابر مرفوعا: «لا تحتجموا يوم الثلاثاء، فإن سورة الحديد أنزلت علىّ يوم الثلاثاء». و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و النسائى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن العرباض بن سارية: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد و قال: إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية». و فى إسناده بقية بن الوليد، و فيه مقال معروف. و قد أخرجه النسائى عن خالد بن معدان قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لم يذكر العرباض بن سارية، فهو مرسل. و أخرج ابن الضريس عن يحيى ابن أبى كثير قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لا ينام حتى يقرأ المسبحات، و كان يقول: إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية» قال يحيى: فنراها الآية التى فى آخر الحشر. و قال ابن كثير فى تفسيره: و الآية المشار إليها و اللّه أعلم هى قوله: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ الآية. و المسبّحات المذكورة هى: الحديد، و الحشر، و الصفّ، و الجمعة، و التغابن.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحديد (57): الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى

الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴)

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۵) يُولِجُ اللَّيْلَ فِی النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۶)

قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أی: نزّهه و مجّده. قال المقاتلان: يعنی كل شیء من ذی روح و غيره، و قد تقدّم الكلام فی تسبيح الجمادات عند تفسير قوله: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ «۱» و المراد بالتسبيح المسند إلی ما فی السّماوات و الأرض من العقلاء و غيرهم

---

(۱). الإسراء: ۴۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۱۹۹

و الحيوانات و الجمادات: هو ما يعمّ التسبيح بلسان المقال؛ كتسبيح الملائكة و الإنس و الجنّ، و بلسان الحال كتسبيح غيرهم، فإنّ كل موجود يدل علی الصانع. و قد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة، و قال: لو كان هذا تسبيح الدلالة و ظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ و إنما هو تسبيح مقال. و استدل بقوله: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ «۱» فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة. و فعل التسبيح قد يتعدّی بنفسه تارة، كما فی قوله: وَ سَبِّحُوهُ و باللام أخری كهذه الآية، و أصله أن يكون متعديا بنفسه؛ لأن معنی سبّحته:

بعّدته عن السّوء، فإذا استعمل باللام فهی إما مزيدة للتأكيد كما فی شكرته و شكرت له، أو هی للتعليل، أی: افعل التسبيح لأجل اللّه سبحانه خالصا له، و جاء هذا الفعل فی بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة، و فی بعضها مضارعا، و فی بعضها أمرا للإشارة إلی أن هذه الأشياء مسبّحة فی كل الأوقات، لا يختصّ تسبيحها بوقت دون وقت، بل هی مسبحة أبدا فی الماضی، و ستكون مسبحة أبدا فی المستقبل وَ هُوَ الْعَزِيزُ أی:

القادر الغالب الّذی لا ينازعه أحد و لا يمانعه ممانع كائنا ما كان الْحَكِيمُ الّذی يفعل أفعال الحكمة و الصواب لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يتصرف فيه وحده و لا ينفذ غير تصرّفه و أمره، و قيل: أراد خزائن المطر و النبات و سائر الأرزاق يُحْيِی وَ يُمِيتُ الفعلان فی محل رفع علی أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أو فی محل نصب علی الحال من ضمير له، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك، و المعنی: أنه يحيی فی الدنيا و يميت الأحياء، و قيل: يحيی النطف و هی موات و يميت الأحياء، و قيل: يحيی الأموات للبعث وَ هُوَ عَلی كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شیء كائنا ما كان هُوَ الْأَوَّلُ قبل كل شیء وَ الْآخِرُ بعد كل شیء، أی: الباقی بعد فناء خلقه وَ الظَّاهِرُ العالی الغالب علی كل شیء، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة وَ الْباطِنُ أی: العالم بما بطن، من قولهم فلان يبطن أمر فلان، أی: يعلم داخلة أمره، و يجوز أن يكون المعنی المحتجب عن الأبصار و العقول، و قد فسّر هذه الأسماء الأربعة رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم كما سيأتی، فيتعين المصير إلی ذلك وَ هُوَ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ لا يعزب عن علمه شیء من المعلومات هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَيَّامٍ هذا بيان لبعض ملكه للسماوات و الأرض. و قد تقدّم تفسيره فی سورة الأعراف و فی غيرها مستوفی يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِی الْأَرْضِ أی: يدخل فيها من مطر و غيره وَ ما يَخْرُجُ مِنْها من نبات و غيره وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من مطر و غيره وَ ما يَعْرُجُ فِيها أی: يصعد إليها من الملائكة و أعمال العباد، و قد تقدّم تفسير هذا فی سورة سبأ وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ أی: بقدرته و سلطانه و علمه، و هذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا فی الأرض من برّ و بحر وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفی عليه من أعمالكم شیء لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ هذا التكرير للتأكيد وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ

الْأُمُورُ لا إلى غيره. قرأ الجمهور: «ترجع» مبنيا للمفعول. و قرأ حمزة و الكسائی و ابن عامر على البناء للفاعل يُولِجُ اللَّيْلَ فِی النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّيْلِ قد تقدّم تفسير هذا فی سورة آل عمران، و فی مواضع

---

(١). الأنبياء: ٧٩.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٠٠

فتح القدير ج‌٥ ٢٤٩

وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أی: بضمائر الصدور و مكنوناتها، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

و قد أخرج ابن أبی شيبة و مسلم و الترمذی و البيهقی عن أبی هريرة قال: جاءت فاطمة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تسأله خادما، فقال قولی: «اللهم ربّ السموات السبع و رب العرش العظيم، و ربنا و رب كل شی‌ء، منزل التوراة و الإنجيل و الفرقان، فالق الحب و النوى، أعوذ بك من شرّ كل شی‌ء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شی‌ء، و أنت الآخر فليس بعدك شی‌ء، و أنت الظاهر فليس فوقك شی‌ء، و أنت الباطن فليس دونك شی‌ء، اقض عنا الدّين، و أغننا من الفقر». و أخرج أحمد و مسلم و غير هما من حديث أبی هريرة من وجه آخر مرفوعا مثل هذا فی الأربعة الأسماء المذكورة و تفسيرها. و أخرج أبو الشيخ فی العظمة، عن ابن عمر و أبی سعيد عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يزال الناس يسألون عن كل شی‌ء حتى يقولوا: هذا اللّه كان قبل كل شی‌ء، فماذا كان قبل اللّه؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا: هو الأول قبل كل شی‌ء، و الآخر فليس بعده شی‌ء، و هو الظاهر فوق كل شی‌ء، و هو الباطن دون كل شی‌ء، و هو بكل شی‌ء عليم». و أخرج أبو داود عن أبی زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شی‌ء أجده فی صدری، قال: ما هو؟ قلت:

و اللّه لا أتكلّم به، قال: فقال لی: أ شی‌ء من شك؟ قال: و ضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال:

حتى أنزل اللّه: فَإِنْ كُنْتَ فِی شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ «١» الآية قال: و قال لی: إذا وجدت فی نفسك شيئا فقل: هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شی‌ء عليم.

و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ قال: عالم بكم أينما كنتم.

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١١]

آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٩) وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا يَسْتَوِی مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِی يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

قوله: آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أی: صدّقوا بالتوحيد و بصحة الرسالة، و هذا خطاب لكفار العرب، و يجوز أن يكون خطابا للجميع، و يكون المراد بالأمر بالإيمان فی حق المسلمين الاستمرار عليه، أو الازدياد منه. ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق فی سبيل اللّه فقال: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ أی:

جعلكم خلفاء فی التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، فإن المال مال اللّه و العباد خلفاء اللّه فی أمواله، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه. و قيل: جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممّن ترثونه، و سينتقل إلى غيركم ممن يرثكم،

(۱). يونس: ۹۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۱

فلا تبخلوا به. كذا قال الحسن و غيره. و فيه الترغيب إلى الإنفاق فى سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم و يصير إلى غيرهم. و الظاهر أن معنى الآية الترغيب فى الإنفاق فى الخير، و ما يرضاه اللّه على العموم، و قيل: هو خاص بالزكاة المفروضة، و لا وجه لهذا التخصيص. ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فى سبيل اللّه، فقال:

فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ أى: الذين جمعوا بين الإيمان باللّه و رسوله، و بين الإنفاق فى سبيل اللّه لهم أجر كبير، و هو الجنة وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ هذا الاستفهام للتوبيخ و التقريع، أى:

أىّ عذر لكم، و أىّ مانع من الإيمان، و قد أزيحت عنكم العلل؟ و «ما» مبتدأ و «لكم» خبره و لا تؤمنون فى محل نصب على الحال من الضمير فى «لكم»، و العامل «ما» فيه من معنى الاستقرار، و قيل: المعنى:

أىّ شىء لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا؟ و جملة: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ فى محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل، و «لتؤمنوا» متعلق بيدعوكم، أى: يدعوكم للإيمان، و المعنى: أىّ عذر لكم فى ترك الإيمان و الرسول يدعوكم إليه و ينبّهكم عليه؟ و جملة: وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ فى محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضا، أى: و الحال أن قد أخذ اللّه ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد وجوب الإيمان. قرأ الجمهور: «و قد أخذ» مبنيا للفاعل، و هو اللّه سبحانه لتقدّم ذكره. و قرأ أبو عمرو على البناء للمفعول إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بما أخذ عليكم من الميثاق، أو بالحجج و الدلائل، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب، فهذا من أعظم أسبابه و أوضح موجباته هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ أى: واضحات ظاهرات، و هى الآيات القرآنية، و قيل: المعجزات و القرآن أعظمها لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ أى: ليخرجكم اللّه بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات، أو بالدعوة وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: لكثير الرأفة و الرحمة بليغهما، حيث أنزل كتبه و بعث رسله لهداية عباده، فلا رأفة و لا رحمة أبلغ من هذه، و الاستفهام فى قوله: وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ للتقريع و التوبيخ، و الكلام فى إعراب هذا كالكلام فى إعراب قوله: وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ و فى هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به فى قوله: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ هو الإنفاق فى سبيل كما بيّنّا ذلك، و المعنى: أىّ عذر لكم و أىّ شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه؟ و الأصل: فى أن لا تنفقوا، و قيل: إنّ أن زائدة، و جملة وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فى محل نصب على الحال من فاعل «ألا تنفقوا» أو من مفعوله، و المعنى: أىّ شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه؟ و الحال أن كلّ ما فى السّماوات و الأرض راجع إلى اللّه سبحانه بانقراض العالم؛ كرجوع الميراث إلى الوارث، و لا يبقى لهم منه شىء، و هذا أدخل فى التوبيخ و أكمل فى التقريع، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها، و تصير للّه سبحانه، و لا يبقى أحد من مالكيها أقوى فى إيجاب الإنفاق عليهم من كونها للّه فى الحقيقة، و هم خلفاؤه فى التصرّف فيها. ثم بيّن سبحانه فضل من سبق بالإنفاق فى سبيل اللّه فقال: لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ قيل: المراد بالفتح فتح مكة، و به قال أكثر المفسرين. و قال الشعبى و الزهرى: فتح الحديبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۲

من الآخر، و نفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال و النفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال و النفقة بعد ذلك، و كذا قال مقاتل و غيره، و فى الكلام حذف، و التقدير: لا يستوى من أنفق من قبل الفتح و قاتل و من أنفق من بعد الفتح و قاتل،

فحذف لظهوره و لدلالة ما سيأتى عليه، و إنما كانت النفقة و القتال بعد الفتح؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، و هم أقل و أضعف، و تقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم و لا يجدون ما يجدون به من الأموال:

و الجود بالنفس أقصى غاية الجود «۱» و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى «من» باعتبار معناها، و هو مبتدأ و خبره أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا أى: أرفع منزلة و أعلى رتبة من الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل اللّه من بعد الفتح و قاتلوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل؛ فالذين أنفقوا من قبل الفتح فى أفضلها. قال الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، و كانت بصائرهم أيضا أنفذ.

و قد أرشد صلّى اللّه عليه و سلّم إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صحّ عنه: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم و لا نصيفه» و هذا خطاب منه صلّى اللّه عليه و سلّم للمتأخرين و صحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الّذى ورد فيه هذا الحديث وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى أى: و كلّ واحد من الفريقين وعد اللّه المثوبة الحسنى، و هى الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها. قرأ الجمهور: «و كلا» بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر. و قرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء، و الجملة بعده خبره و العائد محذوف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، و مثل هذا قول الشاعر «۲»:

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعىعلىّ ذنبا كلّه لم أصنع

وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه من ذلك شىء. ثم رغّب سبحانه فى الصدقة فقال: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أى: من ذا الّذى ينفق ماله فى سبيل اللّه، فإنه كمن يقرضه، و العرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض، و منه قول الشاعر «۳».

و إذا جوزيت قرضا فاجزهإنّما يجزى الفتى ليس الجمل

قال الكلبى قَرْضاً أى: صدقة حَسَناً أى: محتسبا من قلبه بلا منّ و لا أذى. قال مقاتل:

حسنا طيبة به نفسه، و قد تقدم تفسير الآية فى سورة البقرة فَيُضاعِفَهُ لَهُ قرأ ابن عامر و ابن كثير «فيضعّفه» بإسقاط الألف، إلا أن ابن عامر و يعقوب نصبوا الفاء. و قرأ نافع و أهل الكوفة و البصرة «فيضاعفه» بالألف و تخفيف العين، إلا أن عاصما نصب الفاء و رفع الباقون. قال ابن عطية: الرّفع على العطف على يقرض، أو الاستئناف و النصب لكون الفاء فى جواب الاستفهام. و ضعف النصب أبو على

---

(۱). و صدره: تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها. و البيت لمسلم بن الوليد.

(۲). هو لبيد.

(۳). هو لبيد.

الفارسى، قال: لأن السؤال لم يقع على القرض، و إنما وقع عن فاعل القرض، و إنما تنصب الفاء فعلا مردودا على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كأن قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ بمنزلة قوله: أ يقرض اللّه أحد وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ و هو الجنة، و المضاعفة هنا هى كون الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف؛ على اختلاف الأحوال و الأشخاص و الأوقات.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال: «خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان؛ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يوشك أن يأتى قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم، قلنا: من هم يا رسول اللّه؟

أ قريش؟ قال: لا، و لكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة و ألين قلوبا، فقلنا: أهم خير منّا يا رسول اللّه؟

قال: لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم و لا نصيفه، إلا أن هذا فصل ما بيننا و بين الناس لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ الآية» و هذا الحديث قال ابن كثير: هو غريب بهذا الإسناد، و قد رواه ابن جرير و لم يذكر فيه الحديبية. و أخرج أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد و بين عبد الرّحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرّحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «دعوا لى أصحابى، فو الّذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم».

و الّذى فى الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بلفظ: «لا تسبّوا أصحابى، فو الّذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم و لا نصيفه»، و فى لفظ: «ما بلغ مدّ أحدهم و لا نصيفه» أخرج هذا الحديث البخارى و مسلم و غير هما من حديث أبى سعيد الخدرى. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال: لا تسبّوا أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره.

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٢ الى ١٥]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (١٣) يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

قوله: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ العامل فى الظرف مضمر و هو اذكر، أو «كريم»، أو «فيضاعفه»، أو العامل فى لهم و هو الاستقرار، و الخطاب لكل من يصلح له، و قوله: يَسْعى نُورُهُمْ فى محل نصب على الحال من مفعول ترى، و النور: هو الضياء الّذى يرى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ و ذلك على الصراط يوم القيامة، و هو دليلهم إلى الجنة. قال قتادة: إن المؤمن يضىء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، حتى إنّ من المؤمنين من لا يضىء له نوره إلا موضع قدميه. و قال الضحاك و مقاتل: و بأيمانهم كتبهم التى

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٠٤

أعطوها، فكتبهم بأيمانهم، و نورهم بين أيديهم. قال الفراء: الباء بمعنى فى، أى: فى أيمانهم، أو بمعنى عن.

قال الضحاك أيضا: نورهم هداهم، و بأيمانهم كتبهم، و اختار هذا ابن جرير الطبرى، أى: يسعى إيمانهم و عملهم الصالح بين أيديهم، و فى أيمانهم كتب أعمالهم، قرأ الجمهور: «بأيمانهم» جمع يمين. و قرأ سهل ابن سعد الساعدى و أبو حيوة «بإيمانهم» بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر، و قيل: هو القرآن، و الجار و المجرور فى الموضعين فى محل نصب على الحال من نورهم، أى: كائنا بين أيديهم و بأيمانهم بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها «بشراكم» مبتدأ، و خبره «جنات» على تقدير مضاف، أى: دخول جنات، و الجملة مقول قول مقدر، أى: يقال لهم هذا، و القائل لهم هم الملائكة. قال مكّى:

و أجاز الفراء نصب جنات على الحال، و يكون «اليوم» خبر «بشراكم»، و هذا بعيد جدا. «خالدين فيها» حال مقدرة، و الإشارة بقوله ذلِكَ إلى النور و البشرى، و هو مبتدأ و خبره هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى:

لاـ يقادر قـدره حتى كأنه لا فوز غيره، و لا اعتـداد بما سواه يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ «يوم» بـدل من «يوم» الأول، و يجوز أن يكون العامـل فيه هو الفوز العظيم، و يجوز أن يكون منصوبـا بفعـل مقـدّر، أي: اذكر لِلَّذِينَ آمَنُوا اللام للتبليغ كنظائرهـا. قرأ الجمهور: انْظُرُونـا أمرا بوصـل الهمزة و ضم الظـاء من النظر بمعنى الانتظـار، أي: انتظرونا، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسـرع بهم إلى الجنـة. و قرأ الأـعمش و حمزة و يحيى بن وثّاب بقطع الهمزة و كسـر الظـاء من الإنظـار، أي: أمهلونـا و أخّرونـا، يقال: أنظرته و استنظرته، أي: أمهلته و استمهلته، قال الفراء: تقول العرب أنظرني، أي: انتظرني، و أنشد قول عمرو ابن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علیناو أنظرنا نخبّرك اليقينا

و قيل: معنى انظرونا: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم اسـتقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ أي: نستضيء منه، و القبس: الشعلة من النـار و السـراج، فلمـا قـالوا ذلـك قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ أي: قال لهم المؤمنون أو الملائكـة زجرا لهم و تهكّمـا بهم، أي: ارجعـوا وراءكم إلى الموضع الّـذی أخـذنا منه النور فَالْتَمِسُوا نُوراً أي: اطلبوا هنالـك نورا لأنفسـكم، فـإنه من هنالك يقتبس، و قيل:

المعنى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان و الأعمال الصالحة، و قيل: أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكما بهم فَضُـرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ السور: هو الحاجز بين الشـيئين، و المراد به هنا الحاجز بين الجنة و النار، أو بين أهل الجنة و أهل النـار. قـال الكسـائی: و الباء فی بِسُورٍ زائـدة: ثم وصف سـبحانه السور المـذكور فقال: لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَـةُ أي: باطن ذلك السور. و هو الجانب الّـذی يلی أهل الجنة فيه الرحمة و هی الجنة وَ ظاهِرُهُ و هو الجانب الّذی يلی أهل النار مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ أي: من جهته عذاب جهنم، و قيل: إن المؤمنين يسـبقونهم فيدخلون الجنة، و المنافقون يجعلون فی العذاب و بينهم السور، و قيل: إن الرحمة التی فی باطنه نور المؤمنين، و العذاب الّذی فی ظاهره ظلمة المنافقين، و لما ضرب بالسور بين المؤمنين و المنافقين أخبر اللّه سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك، فقال: يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۵

أي: موافقين لكم فی الظاهر، نصـلی بصـلاتكم فی مساجدكم، و نعمل بأعمال الإسـلام مثلكم، و الجملة مستأنفة كأنه قيل: فماذا قـال المنافقون بعـد ضـرب السور بينهم و بين المؤمنين؟ فقال: يُنادُونَهُمْ ثم أخبر سـبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال: قالُوا بَلى أي: كنتم معنـا فی الظـاهر وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَـكُمْ بالنفـاق و إبطـان الكفر. قال مجاهـد: أهلكتموها بالنفاق، و قيل: بالشّـهوات و اللذّات وَ تَرَبَّصْتُمْ بمحمد صلّی اللّه عليه و سلّم و بمن معه من المؤمنين حوادث الدهر، و قيل: تربّصتم بالتوبة، و الأول أولی.

وَ ارْتَبْتُمْ أي: شـككتم فی أمر الـدّين، و لم تصـدقوا بما نزل من القرآن و لا بالمعجزات الظاهرة وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ الباطلة التی من جملتها ما كنتم فيه من التربّص، و قيل: هو طول الأمل، و قيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين. و قال قتادة: الأمانی هنا غرور الشـيطان، و قيـل: الـدنيا، و قيـل: هو طمعهم فی المغفرة، و كـل هـذه الأشـياء تـدخل فی مسـمّی الأمـانی حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ و هو الموت، و قيـل: نصـره سـبحانه لنبيه صـلّی اللّه عليه و سـلّم. و قـال قتـادة: هو إلقـاؤهم فی النار وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قرأ الجمهور: «الغرور» بفتـح الغين، و هـو صـفة على فعول، و المراد به الشـيطان، أي: خـدعكم بحلم اللّه و إمهـاله الشـيطان. و قرأ أبو حيوة و محمد ابن السّميقع و سماك بن حرب بضمّها و هو مصدر فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا باللّه ظاهرا و باطنا مَأْواكُمُ النَّارُ أي: منزلكم الّذی تأوون إليه النار هِيَ مَوْلاكُمْ أي: هی أولی بكم، و المولی فی الأصل من يتولی مصالـح الإنسان، ثم اسـتعمل فيمن يلازمه، و قيل: معنى مولاكم: مكانكم عن قرب، من الولی و هو القرب. و قيل: إن اللّه يركّب فی النار الحياة و العقل، فهی تتميّز غيظا على الكفار، و قيل: المعنى: هی ناصركم، على طريقة قول الشاعر:

تحيّة بينهم ضرب وجيع وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ الّذی تصيرون إليه هو النار.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، يمرّون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، و منهم من نوره مثل النخلة، و أدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرّة و يوقد أخرى. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: بينما الناس فى ظلمة إذ بعث اللّه نورا، فلما رأى المؤمنون النور توجّهوا نحوه، و كان النور دليلهم من اللّه إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم، فأظلم اللّه على المنافقين، فقالوا حينئذ: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ فإنّا كنّا معكم فى الدنيا، قال المؤمنون: ارْجِعُوا وَراءَكُمْ من حيث جئتم من الظلمة فَالْتَمِسُوا هنالك النور. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه على عباده، و أما عند الصراط فإن اللّه يعطى كل مؤمن نورا و كل منافق نورا، فإذا استووا على الصراط سلب اللّه نور المنافقين و المنافقات، فقال المنافقون: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ و قال المؤمنون:

فتح القدير، ج‏5، ص: 206

رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا «1» فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا» و فى الباب أحاديث و آثار. و أخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت: أنه كان على سور بيت المقدس فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هاهنا أخبرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه رأى جهنم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: إن السور الّذى ذكره اللّه فى القرآن فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ هو السور الّذى ببيت المقدس الشرقى باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ المسجد وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ يعنى وادى جهنم و ما يليه.

و لا يخفاك أن تفسير السّور المذكور فى القرآن فى هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال ما لا يدفعه مقال، و لا سيما بعد زيادة قوله: «باطنه فيه الرحمة»: المسجد، فإن هذا غير ما سيقت له الآية و غير ما دلّت عليه، و أين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقى المؤمنين و المنافقين؟ و أىّ معنى لذكر مسجد بيت المقدس هاهنا؟ فإن كان المراد أن اللّه سبحانه ينزع سور بيت المقدس، و يجعله فى الدار الآخرة سورا مضروبا بين المؤمنين و المنافقين، فما معنى تفسير باطن السور و ما فيه من الرحمة بالمسجد، و إن كان المراد أن اللّه يسوق فريقى المؤمنين و المنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور فى المسجد، و يجعل المنافقين خارجه، فهم إذ ذاك على الصراط و فى طريق الجنة و ليسوا ببيت المقدس، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبلناه و آمنّا به، و إلا فلا كرامة و لا قبول. و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ قال: بالشهوات و اللذات وَ تَرَبَّصْتُمْ قال: بالتوبة وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قال: الموت وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ قال: الشيطان.

[سورة الحديد (57): الآيات 16 الى 19]

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (19)

قوله: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا يقال: أنى لك يأنى إنى؛ إذا حان، قرأ الجمهور: «ألم يأن» و قرأ الحسن و أبو السّمّال «ألمّا يأن» و أنشد ابن السكيت:

ألمّا يئن لى أن تجلّى عمايتىو أقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

و أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ فاعل يأن، أى: ألم يحضر خشوع قلوبهم و يجىء وقته، و منه قول الشاعر:

---

(۱). التحريم: ۸.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۰۷ أ لم يأن لى يا قلب أن أترك الجهلاو أن يحدث الشّيب المنير لنا عقلا

هـذه الآيهٔ نزلت فى المؤمنين. قال الحسن: يستبطئهم و هم أحب خلقه إليه. و قيل: إن الخطاب لمن آمن بموسى و عيسى دون محمد. قال الزّجّاج: نزلت فى طائفهٔ من المؤمنين، حثّوا على الرقهٔ و الخشوع، فأما من وصفهم اللّه بالرقهٔ و الخشوع فطبقهٔ فوق هؤلاء. و قال السدى و غيره: المعنى أ لم يأن للذين آمنوا فى الظاهر و أسرّوا الكفر أن تخشع قلوبهم لِذِكْرِ اللَّهِ و سيأتى فى آخر البحث ما يقوّى قول من قال: إنها نزلت فى المسلمين، و الخشوع: لين القلب و رقته. و المعنى: أنه ينبغى أن يورثهم الذكر خشوعا و رقهٔ، و لا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر و لا يخشع له وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِ معطوف على ذكر اللّه، و المراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه ما عداه مما فيه ذكر اللّه سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب، و قيل: المراد بالذكر هو القرآن، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير، أو باعتبار تغاير المفهومين.

قرأ الجمهور: «نزّل» مشددا مبنيا للفاعل. و قرأ نافع و حفص بالتخفيف مبنيا للفاعل. و قرأ الجحدرى و أبو جعفر و الأعمش و أبو عمرو و فى روايهٔ عنه مشدّد مبنيا للمفعول. و قرأ ابن مسعود «أنزل» مبنيا للفاعل وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ قرأ الجمهور بالتحتيهٔ على الغيبهٔ جريا على ما تقدم. و قرأ أبو حيوهٔ و ابن أبى عبلهٔ بالفوقيهٔ على الحساب التفاتا، و بها قرأ عيسى و ابن إسحاق، و الجملهٔ معطوفهٔ على «تخشع» أى: ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم و لا يكونوا، و المعنى: النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود و النصارى الذين أوتوا التوراهٔ و الإنجيل من قبل نزول القرآن فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ أى: طال عليهم الزمان بينهم و بين أنبيائهم. قرأ الجمهور: «الأمد» بتخفيف الدال، و قرأ ابن كثير فى روايهٔ عنه بتشديدها، أى:

الزمن الطويل، و قيل: المراد بالأمد على القراءهٔ الأولى الأجل و الغايهٔ، يقال: أمد فلان كذا، أى: غايته فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ بذلك السبب، فلذلك حرّفوا و بدّلوا، فنهى اللّه سبحانه أمهٔ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يكونوا مثلهم وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ أى: خارجون عن طاعهٔ اللّه لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم، و حرّفوا و بدّلوا و لم يؤمنوا بما نزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانيهٔ، و هم أصحاب الصوامع اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها، و يلين القلوب بعد قسوتها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ التى من جملتها هذه الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى: كى تعقلوا ما تضمنته من المواعظ و تعملوا بموجب ذلك إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ قرأ الجمهور بتشديد الصاد فى الموضعين من الصدقهٔ، و أصله المتصدقين و المتصدقات، فأدغمت التاء فى الصاد. و قرأ أبىّ: «المتصدّقين و المتصدّقات» بإثبات التاء على الأصل. و قرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق، أى: صدقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما جاء به وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً معطوف على اسم الفاعل فى المصدقين؛ لأنه لما وقع صلهٔ للألف و اللام الموصولهٔ حلّ محلّ الفعل، فكأنه قال:

إن الذين تصدقوا و أقرضوا، كذا قال أبو على الفارسى و غيره. و قيل: جملهٔ و أقرضوا معترضهٔ بين اسم إن و خبرها، و هو يُضاعَفُ و قيل: هى صلهٔ لموصول محذوف، أى: و الذين أقرضوا، و القرض

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۰۸

الحسن: عبارهٔ عن التصدق و الإنفاق فى سبيل اللّه مع خلوص نيهٔ، و صحهٔ قصد، و احتساب أجر. قرأ الجمهور: يُضاعَفُ لَهُمْ

بفتح العين على البناء للمفعول، و القائم مقام الفاعل إما الجار و المجرور، أو ضمير يرجع إلى المصدقين على حذف مضاف، أى: ثوابهم، و قرأ الأعمش: «يضاعفه» بكسر العين و زيادة الهاء.

و قرأ ابن كثير و ابن عامر و يعقوب «يضعّف» بتشديد العين و فتحها وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ و هو الجنة، و المضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ جميعا، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول، و خبره قوله: هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ و الجملة خبر الموصول.

قال مجاهد: كل من آمن باللّه و رسله فهو صدّيق. قال المقاتلان: هم الذين لم يشكّوا فى الرسل حين أخبروهم و لم يكذّبوهم. و قال مجاهد: هذه الآية للشهداء خاصة، و هم الأنبياء الذين يشهدون للأمم و عليهم، و اختار هذا الفراء و الزجاج. و قال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا فى سبيل اللّه، و كذا قال ابن جرير، و قيل: هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ، و الظاهر أن معنى الآية: إن الذين آمنوا باللّه و رسله جميعا بمنزلة الصديقين و الشهداء المشهورين بعلوّ الدرجة عند اللّه، و قيل: إن الصديقين هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا باللّه و صدّقوا جميع رسله، و القائمون للّه سبحانه بالتوحيد. ثم بيّن سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتّصفوا به من الإيمان باللّه و رسله فقال: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ و الضمير الأول راجع إلى الموصول، و الضميران الأخيران راجعان إلى الصديقين و الشهداء، أى: لهم مثل أجرهم و نورهم، و أما على قول من قال: إن الذين آمنوا باللّه و رسله هم نفس الصديقين و الشهداء، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شىء واحد، و المعنى: لهم الأجر و النور الموعودان لهم. ثم لما ذكر حال المؤمنين و ثوابهم ذكر حال الكافرين و عقابهم فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: جمعوا بين الكفر و تكذيب الآيات، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول باعتبار ما فى صلته من اتصافهم بالكفر و التكذيب، و هذا مبتدأ و خبره أَصْحابُ الْجَحِيمِ يعذّبون بها، و لا أجر لهم و لا نور، بل عذاب مقيم و ظلمة دائمة.

و قد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «استبطأ اللّه قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل اللّه: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية». و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:

«خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على نفر من أصحابه فى المسجد و هم يضحكون، فسحب رداءه محمّرا وجهه فقال: أ تضحكون و لم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم؟! و لقد أنزل علىّ فى ضحككم آية: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ قالوا: يا رسول اللّه فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون بقدر ما ضحكتم». و أخرج مسلم و النسائى و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا و بين أن عاتبنا اللّه بهذه الآية أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا إلا أربع سنين. و أخرج نحوه عنه ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طريق أخرى. و أخرج أبو يعلى و ابن مردويه عنه أيضا قال:

لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض: أى شىء أحدثنا؟ أىّ شىء صنعنا؟. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: إن اللّه استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۰۹

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية.

و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، عن عبد العزيز بن أبى روّاد أن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ظهر فيهم المزاح و الضحك، فنزلت هذه الآية: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا. و أخرج ابن المبارك عن ابن عباس اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قال: يعنى أنه يلين القلوب بعد قسوتها. و أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب:

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «مؤمنو أمتى شهداء، ثم تلا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ

أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: كل مؤمن صديق و شهيد.

و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن مسعود قال: «إن الرجل ليموت على فراشه و هو شهيد، ثم تلا هذه الآية» و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ قال: هذه مفصولة: وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ و أخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهنى: قال: «جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه أ رأيت إن شهدت أن لا إله إلا اللّه و أنك رسول اللّه و صليت الصلوات الخمس و أديت الزكاة و صمت رمضان و قمته، فممن أنا؟ قال: من الصّدّيقين و الشهداء».

[سورة الحديد (57): الآيات 20 الى 24]

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (20) سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

قوله: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ لما ذكر سبحانه حال الفريق الثانى و ما وقع منهم من الكفر و التكذيب، و ذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا و تأثيرها، بيّن لهم حقارتها، و أنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة، و اللعب: هو الباطل، و اللهو: كل شىء يتلهى به ثم يذهب. قال قتادة: «لعب و لهو»:

أكل و شرب. قال مجاهد: كلّ لعب لهو، و قيل: اللعب: ما رغّب فى الدنيا، و اللهو: ما ألهى عن الآخرة و شغل عنها، و قيل: اللعب: الاقتناء، و اللهو: النساء، و قد تقدّم تحقيق هذا فى سورة الأنعام، و الزينة:

التزيّن بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ قرأ الجمهور بتنوين «تفاخر» و الظرف صفة له، و قرأ السلمى بالإضافة، أى: يفتخر به بعضكم على بعض، و قيل: يتفاخرون بالخلقة و القوّة، و قيل:

بالأنساب و الأحساب كما كانت عليه العرب وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ أى: يتكاثرون بأموالهم

فتح القدير، ج‌5، ص: 210

و أولادهم، و يتطاولون بذلك على الفقراء. ثم بيّن سبحانه لهذه الحياة شبها، و ضرب لها مثلا، فقال:

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ أى: كمثل مطر أعجب الزراع نباته، و المراد بالكفار هنا الزرّاع لأنهم يكفرون البذر، أى: يغطونه بالتراب، و معنى نباته: النبات الحاصل به ثُمَّ يَهِيجُ أى: يجفّ بعد خضرته و ييبس فَتَراهُ مُصْفَرًّا أى: متغيّرا عما كان عليه من الخضرة و الرّونق إلى لون الصفرة و الذبول ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً أى: فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه، و قد تقدّم تفسير هذا المثل فى سورة يونس و الكهف. و المعنى: أن الحياة كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته و كثرة نضارته، ثم لا يلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن. و قرئ «مصفارّا» و الكاف فى محل نصب على الحال، أو فى محل رفع على أنها خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف. ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا و سرعة زوالها؛ ذكر ما أعدّه للعصاة فى الدار الآخرة فقال: وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ و أتبعه ما أعدّه لأهل الطاعة فقال: وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ و التنكير فيها للتعظيم. قال قتادة: عذاب شديد لأعداء اللّه، و مغفرة من اللّه و رضوان لأوليائه و أهل طاعته. قال الفراء: التقدير فى الآية إما عذاب شديد، و إما مغفرة، فلا يوقف على «شديد».

ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب و الترغيب حقارة الدنيا فقال: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ لمن اغترّ بها و لم يعمل لآخرته. قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة. و من اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. و هذه الجملة مقرّرة للمثل المتقدّم و مؤكدة له. ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة و العمل الصالح؛ فإن ذلك سبب إلى الجنة، فقال: سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أي: سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم، و توبوا ممّا وقع منكم من المعاصى، و قيل: المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول، و قيل: المراد الصف الأوّل، و لا وجه لتخصيص ما فى الآية بمثل هذا، بل هو من جملة ما تصدق عليه صدقا شموليا أو بدليا وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أي: كعرضهما، و إذا كان هذا قدر عرضها فما ظنّك بطولها. قال الحسن:

يعنى جميع السماوات و الأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبتها، و قيل: المراد بالجنة التى عرضها هذا العرض هى جنة كل واحد من أهل الجنة. و قال ابن كيسان: عنى به جنة واحدة من الجنات، و العرض أقل من الطول، و من عادة العرب أنها تعبر عن [سعة] «١» الشيء بعرضه دون طوله، و من ذلك قول الشاعر:

كأنّ بلاد اللّه و هى عريضةعلى الخائف المطلوب كفّة حابل

و قد مضى تفسير هذا فى سورة آل عمران. ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال: أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ و يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة. و فى هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرّد الإيمان باللّه و رسله، و لكن هذا مقيّد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلّا من عمل بما فرض اللّه عليه، و اجتنب ما نهاه اللّه عنه، و هى أدلة كثيرة فى الكتاب و السنة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما وعد به

---

(١). من تفسير القرطبى (١٧/ ٢٥٦)

سبحانه من المغفرة و الجنة، و هو مبتدأ و خبره فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ أي: يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضّلا و إحسانا وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فهو يتفضّل على من يشاء، لا مانع لما أعطى و لا معطى لما منع، و الخير كله بيده، و هو الكريم المطلق و الجواد الّذى لا يبخل. ثم بيّن سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه و قدره، و ثبت فى أمّ الكتاب، فقال: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ من قحط مطر، و ضعف نبات، و نقص ثمار. قال مقاتل: القحط و قلة النبات و الثمار، و قيل: الجوائح فى الزرع وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ قال قتادة: بالأوصاب و الأسقام. و قال مقاتل: إقامة الحدود. و قال ابن جريج:

ضيق المعاش إِلَّا فِي كِتابٍ فى محل نصب على الحال من «مصيبة»، أي: إلا حال كونها مكتوبة فى كتاب، و هو اللوح المحفوظ، و جملة مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها فى محل جر صفة لكتاب، و الضمير فى نبرأها عائد إلى المصيبة، أو إلى الأنفس، أو إلى الأرض، أو إلى جميع ذلك، و معنى نَبْرَأَها نخلقها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي: إن إثباتها فى الكتاب على كثرته على اللّه يسير غير عسير، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ أي: اختبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ منها، أي: أعطاكم منها، فإن ذلك يزول عن قريب، و كل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، و لا يحزن على فواته، و مع أن الكل بقضاء اللّه و قدره، فلن يعدو أمر ما كتب له، و ما كان حصوله كائنا لا محالة فليس بمستحقّ للفرح بحصوله و لا للحزن على فوته، قيل: و الحزن و الفرح المنهىّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز، و إلا فليس من أحد إلا و هو يحزن و يفرح. قرأ الجمهور: بِما آتاكُمْ بالمدّ، أي: أعطاكم، و قرأ أبو العالية و نصر بن عاصم و أبو عمرة بالقصر، أي: جاءكم، و اختار القراءة الأولى أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ أي: لا يحبّ من اتصف بهاتين الصفتين و هما

الاختيال و الافتخار، قيل: هو ذمّ للفرح الّذى يختال فيه صاحبه و يبطر، و قيل: إن من فرح بالحظوظ الدنيوية، و عظمت فى نفسه، اختال و افتخر بها، و قيل: المختال: الّذى ينظر إلى نفسه، و الفخور: الّذى ينظر إلى نفسه، و الفخور: الّذى ينظر إلى الناس بعين الاستحقار. و الأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعى ثم اللغوى، فمن حصلتا فيه فهو الّذى لا يحبه اللّه الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ الموصول فى محل رفع بالابتداء، و هو كلام مستأنف لا تعلّق له بما قبله، و الخبر مقدّر، أى: الذين يبخلون فاللّه غنّى عنهم، و يدل على ذلك قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ و قيل: الموصول فى محل جرّ بدل من «مختال»، و هو بعيد، فإن هذا البخل بما فى اليد، و أمر الناس بالبخل، ليس هو معنى المختال الفخور، لا لغة و لا شرعا. و قيل: هو فى محل جرّ نعت له، و هو أيضا بعيد. قال سعيد بن جبير: الذين يبخلون بالعلم و يأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلّموا الناس شيئا. و قال زيد بن أسلم: إنه البخل بأداء حق اللّه، و قيل: إنه البخل بالصدقة، و قال طاوس:

إنه البخل بما فى يديه، و قيل: أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم، قاله السدّى و الكلبى. قرأ الجمهور: بِالْبُخْلِ بضم و سكون الخاء. و قرأ أنس و عبيد بن عمير و يحيى بن يعمر و مجاهد و حميد و ابن محيصن و حمزة و الكسائى بفتحتين، و هى لغة الأنصار.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۱۲

و قرأ أبو العالية و ابن السّميقع بفتح الباء و إسكان الخاء. و قرأ نصر بن عاصم بضمّهما، و كلها لغات وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أى: و من يعرض عن الإنفاق فإن اللّه غنىّ محمود عند خلقه لا يضره ذلك.

قرأ الجمهور هو الغنى بإثبات ضمير الفصل. قرأ نافع و ابن عامر فإن اللّه الغنى الحميد بحذف الضمير.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ يقول فى الدين و الدنيا إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها قال: نخلقها لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ من الدنيا وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ منها. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هو شى‏ء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ الآية قال: ليس أحد إلا و هو يحزن و يفرح، و لكن من أصابته مصيبة جعلها صبرا، و من أصابه خير جعله شكرا. و أخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال: يريد مصائب المعاش، و لا يريد مصائب الدين، إنه قال: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ و ليس هذا من مصائب الدين، أمرهم أن يأسوا على السيئة و يفرحوا بالحسنة.

[سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۵ الى ۲۹]

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۵) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۲۶) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۲۷) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۸) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْ‏ءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۹)

قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ أى: بالمعجزات البينة و الشرائع الظاهرة وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ المراد الجنس، فيدخل فيه كتاب

كلّ رسول وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ قال قتادة و مقاتل ابن حيان: الميزان: العدل، و المعنى: أمرناهم بالعدل، كما فى قوله: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ «١» و قوله: اللَّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ «٢» و قال ابن زيد: هو ما يوزن به و يتعامل به، و معنى لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة، و القسط: العدل، و هو يدل على أن المراد بالميزان العدل، و معنى إنزاله: إنزال أسبابه و موجباته. و على القول

---

(١). الرّحمن: ٧.

(٢). الشورى: ١٧.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢١٣

بأن المراد به الآلة التى يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه و إلهامهم الوزن به، و يكون الكلام من باب:

علفتها تبنا و ماء باردا ....

و أنزلنا الحديد أى خلقناه كما فى قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ «١» و المعنى: أنه خلقه من المعادن و علّم الناس صنعته، و قيل: إنه نزل مع آدم فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ لأنه تتّخذ منه آلات الحرب.

قال الزّجّاج: يمتنع به و يحارب، و المعنى: أنه تتخذ منه آلة للدفع و آلة للضرب. قال مجاهد: فيه جنّة و سلاح، و معنى وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين و الفأس و الإبرة و آلات الزراعة و النجارة و العمارة وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ معطوف على قوله: «ليقوم الناس» أى:

لقد أرسلنا رسلنا و فعلنا كيت و كيت ليقوم الناس و ليعلم، و قيل: معطوف على علة مقدّرة، كأنه قيل:

ليستعلموه و ليعلم اللّه، و الأوّل أولى. و المعنى: أن اللّه أمر فى الكتاب الّذى أنزل بنصره دينه و رسله فمن نصر دينه و رسله علمه ناصرا، و من عصى علمه بخلاف ذلك و بالغيب فى محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله، أى: غائبا عنهم أو غائبين عنه إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ أى: قادر على كل شى‌ء غالب لكل شى‌ء، و ليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده و ينصر رسله، بل كلّفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا، و يحصل له ما وعد به عباده المطيعين وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل، فذكر رسالته لنوح و إبراهيم، و كرّر القسم للتوكيد وَ جَعَلْنا فِی ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ أى: جعلنا فيهم النبوّة و الكتب المنزلة على الأنبياء منهم، و قيل: جعل بعضهم أنبياء و بعضهم يتلون الكتاب فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ أى: فمن الذرية من اهتدى بهدى نوح و إبراهيم، و قيل: المعنى: فمن الرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ خارجون عن الطاعة ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا أى: أتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح و إبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى و إلياس و داود و سليمان و غيرهم وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أى: أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، و هو من ذرية إبراهيم من جهة أمه وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ و هو الكتاب الّذى أنزله اللّه عليه، و قد تقدّم ذكر اشتقاقه فى سورة آل عمران. قرأ الجمهور: الْإِنْجِيلَ بكسر الهمزة، و قرأ الحسن بفتحها وَ جَعَلْنا فِی قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً الذين اتبعوه هم الحواريون جعل اللّه فى قلوبهم مودّة لبعضهم البعض، و رحمة يتراحمون بها، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك، و أصل الرأفة:

اللين، و الرحمة: الشفقة، و قيل: الرأفة أشد الرحمة وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها انتصاب رهبانية على الاشتغال، أى: و ابتدعوا رهبانية ابتدعوها، و ليس بمعطوفة على ما قبلها، أى: و جعلنا فى قلوبهم رأفة و رحمة و رهبانية مبتدعة من عند أنفسهم. و الأوّل أولى، و رجّحه أبو على الفارسى غيره، و جملة ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ صفة ثانية لرهبانية، أو مستأنفة مقرّرة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم، و

المعنى: ما فرضناها عليهم،

---

(۱). الزمر: ۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۱۴

و الرهبانية بفتح الراء و ضمها، و قد قرئ بهما. و هى بالفتح الخوف من الرهب، و بالضم منسوبة إلى الرهبان، و ذلك لأنهم غلوا فى العبادة، و حملوا على أنفسهم المشتقات فى الامتناع من المطعم و المشرب و المنكح، و تعلّقوا بالكهوف و الصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا و بدلوا و بقى منهم نفر قليل فترهبوا و تبتّلوا، ذكر معناه الضحاك و قتادة و غيرهما إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ بدلا من الهاء و الألف فى كتبناها، و المعنى: ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان اللّه فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها أى: لم يرعوا هذه الرهبانية التى ابتدعوها من جهة أنفسهم، بل صنعوها و كفروا بدين عيسى، و دخلوا فى دين الملوك الذين غيروا و بدّلوا و تركوا الترهب؛ و لم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم، و هم المرادون بقوله: فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ الّذى يستحقونه بالإيمان، و ذلك لأنهم آمنوا بعيسى و ثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم لما بعثه اللّه وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به، و وجه الذمّ لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة و أن اللّه يرضاها، فكان تركها و عدم رعايتها حق الرعاية يدلّ على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه دينا. و أما على القول بأن الاستثناء متصل، و أن التقدير: ما كتبناها عليهم لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان اللّه بعد أن وفّقناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر. ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدمين بالتقوى و الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ بترك ما نهاكم عنه وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ أى: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، و أصل الكفل: الحظ و النصيب، و قد تقدّم الكلام على تفسيره فى سورة النساء وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ يعنى على الصراط كما قال: نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ «۱» و قيل:

المعنى: و يجعل لكم سبيلا واضحا فى الدين تهتدون به وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ما سلف من ذنوبكم وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغ المغفرة و الرحمة لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان و التقوى، و التقدير: اتقوا و آمنوا يؤتكم كذا و كذا ليعلم الذين لم يتقوا و لا آمنوا من أهل الكتاب أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ و «لا» فى قوله: لِئَلَّا زائدة للتوكيد، قاله الفراء و الأخفش و غير هما، و أن فى قوله: أَلَّا يَقْدِرُونَ هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، و خبرها ما بعدها، و الجملة فى محل نصب على أنها مفعول يعلم، و المعنى: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئا من فضل اللّه الّذى تفضّل به على من آمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يقدرون على دفع ذلك الفضل الّذى تفضل اللّه به على المستحقين له، و جملة وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ معطوفة على الجملة التى قبلها، أى:

ليعلموا أنهم لا يقدرون و ليعلموا أن الفضل بيد اللّه سبحانه، و قوله: يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ خبر ثان لأنّ، أو هو الخبر، و الجارّ و المجرور فى محل نصب على الحال وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، و المراد بالفضل هنا ما تفضّل به على الذين اتقوا و آمنوا برسوله من الأجر المضاعف. و قال الكلبى:

---

(۱). التحريم: ۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۱۵

هو رزق اللّه، و قيل: نعم اللّه التى لا تحصى، و قيل: هو الإسلام، و قد قيل: إن «لا» فى «لئلا» غير مزيدة، و ضمير «لا يقدرون»

للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه. و المعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبىّ و المؤمنون على شىء من فضل اللّه الّذى هو عبارة عما أوتوه، و الأوّل أولى. و قرأ ابن مسعود «لكيلا يعلم» و قرأ حطّان بن عبد اللّه: «لأن يعلم» و قرأ عكرمة: «ليعلم» و قرئ: «ليلا» بقلب الهمزة ياء، و قرئ بفتح اللام.

و قد أخرج عبد بن حميد، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن مسعود قال: «قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يا عبد اللّه، قلت: لبيك يا رسول اللّه ثلاث مرات، قال: هل تدرى أى عرى الإسلام أوثق؟

قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: أفضل الناس أفضلهم عملا إذا فقهوا فى دينهم؛ يا عبد اللّه هل تدرى أىّ الناس أعلم؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس و إن كان مقصرا بالعمل و إن كان يزحف على استه، و اختلف من كان قبلنا على اثنتين و سبعين فرقة نجا منها ثلاث و هلك سائرها، فرقة وازت الملوك و قاتلتهم على دين اللّه و عيسى ابن مريم، و فرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين اللّه و دين عيسى فقتلهم الملوك و نشرتهم بالمناشير، و فرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك و لا بالمقام معهم فساحوا فى الجبال و ترهبوا فيها و هم الذين قال اللّه:

وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ هم الذين آمنوا بى و صدّقونى وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ الذين جحدونى و كفروا بى». و أخرج النسائى، و الحكيم و الترمذى فى نوادر الأصول، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة و الإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة و الإنجيل، فقيل لملوكهم: ما نجد شيئا أشدّ من شتم يشتمنا هؤلاء، إنهم يقرءون: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ «۱» وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «۲» فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ* «۳» مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم، فادعوهم فليقرءوا كما نقرأ و ليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم فجمعهم و عرض عليهم القتل، أو ليتركوا التوراة و الإنجيل إلا ما بدلوا منهما، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟

دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا و شرابنا و لا نرد عليكم، و قالت طائفة: دعونا نسيح فى الأرض و نهيم و نأكل مما تأكل منه الوحوش و نشرب مما تشرب، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا، و قالت طائفة: ابنوا لنا دورا فى الفيافى و نحتفر الآبار و نحرث البقول فلا نرد عليكم و لا نمرّ بكم، و ليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك، فأنزل اللّه: رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها و قال الآخرون ممن تعبّد من أهل الشرك

---

(۱). المائدة: ۴۴.

(۲). المائدة: ۴۵.

(۳). المائدة: ۴۷.

و فنى من فنى منهم قالوا: نتعبد كما تعبد فلان و نسيح كما ساح فلان و نتخذ دورا كما اتخذ فلان و هم على شركهم، لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يبق منهم إلا القليل انحطّ صاحب الصومعة من صومعته و

جاء السائح من سياحته و صاحب الدّير من ديره، فآمنوا به و صدّقوه، فقال اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ أجرين بإيمانهم بعيسى و نصب أنفسهم و التوراة و الإنجيل، و بإيمانهم بمحمد و تصديقهم وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ القرآن و اتباعهم النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج أحمد و الحكيم الترمذى و أبو يعلى، و البيهقى فى الشعب، عن أنس أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن لكل أمة رهبانية و رهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل اللّه». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى فى قوله: كِفْلَيْنِ قال: ضعفين، و هى بلسان الحبشة. و أخرج الفريابى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ قال:

الكفل ثلاثمائة جزء و خمسون جزءا من رحمة اللّه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۱۷

سورة المجادلة

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدنى. و باقيها مكى. و قال الكلبى: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ نزلت بمكة. و أخرج ابن الضريس و النحاس، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المجادلة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۱) الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۲) وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۳) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (۴)

قوله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائى بإدغام الدال فى السين، و قرأ الباقون بالإظهار.

قال الكسائى: من بيّن الدال عند السين فلسانه أعجمى و ليس بعربى قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها أى: تراجعك الكلام فى شأنه وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ معطوف على «تجادلك». و المجادلة هذه الكائنة منها مع رسول اللّه أنه كان كلما قال لها: قد حرمت عليه، قالت: و اللّه ما ذكر طلاقا، ثم تقول: أشكو إلى اللّه فاقتى و وحدتى، و إن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، و إن ضممتهم إلىّ جاعوا، و جعلت ترفع رأسها إلى السماء و تقول: اللهم إنى أشكوا إليك، فهذا معنى قوله: وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ قال الواحدى:

قال المفسرون: نزلت هذه الآية فى خولة بنت ثعلبة و زوجها أوس بن الصامت و كان به لمم «۱»، فاشتد به لممه ذات يوم فظاهر

منها، ثم نـدم على ذلک، و کان الظهار طلاقا فى الجاهليـة. و قيل: هى خولـة بنت حکيم، و قيل: اسـمها جميلة، و الأول أصح، و قيل: هى بنت خويلـد. و قال الماوردى: إنها نسـبت تارة إلى أبيها، و تارة إلى جـدّها و أحـدهما أبوها و الآخر جـدها، فهى خولة بنت ثعلبة بن خويلد، و جملة وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها، أى: و اللّه يعلم تراجعکما

---

(١). «اللمم»: طرف من الجنون يلمّ بالإنسان، أى يعتريه.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢١٨

فى الکلام إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يسمع کل مسموع، و يبصر کل مبصر، و من جملة ذلک ما جادلتک به هذه المرأة. ثم بيّن سبحانه شـأن الظهـار فى نفسه، و ذکر حکمه، فقـال: الَّذِينَ يُظـاهِرُونَ مِنْکُمْ مِنْ نِسـائِهِمْ قرأ الجمهور «يظّهّرون» بالتشديـد مع فتـح حرف المضارعـة. و قرأ ابن عامر و حمزة و الکسائى «يظّاهرون» بفتـح الياء و تشديـد الظاء و زيادة ألف، و قرأ أبو العالية و عاصم و زرّ بن حبيش «يظـاهرون» بضم اليـاء و تخفيف الظـاء و کسـر الهاء. و قـد تقـدم مثل هـذا فى سورة الأحزاب. و قرأ أبىّ «يتظاهرون» بفک الإدغام. و معنى الظهار أن يقول لامرأته: أنت على کظهر أمى، أى: و لا خلاف فى کون هذا ظهارا.

و اختلفوا إذا قـال: أنت على کظهر ابنتى أو أختى أو غير ذلک من ذوات المحارم؛ فـذهب جماعـة منهم أبو حنيفـة و مالک إلى أنه ظهـار، و به قال الحسن و النخعى و الزهرى و الأوزاعى و الثورى. و قال جماعـة منهم قتادة و الشـعبى: إنه لا يکون ظهارا، بل يختصّ الظهار بالأم وحـدها. و اختلفت الروايـة عن الشافعى، فروى عنه کالقول الأول، و روى عنه کالقول الثانى، و أصل الظهار مشتق من الظهر.

و اختلفوا إذا قـال لامـرأته: أنت على کرأس أمى أو يـدها أو رجلهـا أو نحو ذلک، هل يکون ظهارا أم لا، و هکـذا إذا قال: أنت على کأمى، و لم يذکر الظهر، و الظاهر أنه إذا قصد بذلک الظهار کان ظهارا. و روى عن أبى حنيفة أنه إذا شـبهها بعضو من أمه يحلّ له النظر إليه لم يکن ظهارا. و روى عن الشافعى أنه لا يکون الظهار إلا فى الظهر وحده.

و اختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية؛ فقيل: يکون ظهارا، و قيل: لا، و الکلام فى هذا مبسوط فى کتب الفروع، و جملة ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ فى محل رفع على أنها خبر الموصول. أى: ما نساؤهم بأمهاتهم، فـذلک کـذب منهم، و فى هذا توبيخ للمظاهرين و تبکيت لهم. قرأ الجمهور: «أمهـاتهم» بـالنصب على اللغـة الحجازيـة فى إعمـال «مـا» عمـل ليس، و قرأ أبو عمرو و السـلمى بـالرفع على عـدم الإعمال، و هى لغة نجد و بنى أسد.

ثم بيّن سـبحانه لهم أمهـاتهم على الحقيقـة فقـال: إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِی وَلَدْنَهُمْ أى: ما أمهاتهم إلا النساء اللائى ولـدنهم. ثم زاد سبحانه فى توبيخهم و تقريعهم فقال: وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْکَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً أى: و إن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منکرا من القول، أى: فظيعا من القول ينکره الشرع، و الزور:

الکذب، و انتصاب منکرا و زورا على أنهما صـفة لمصدر محذوف، أى: قولا منکرا و زورا وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ أى: بليغ العفو و المغفرة، إذ جعـل الکفـارة عليهم مخلّصـة لهم من هـذا القول المنکر. وَ الَّذِينَ يُظـاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا لما ذکر سبحانه الظهار إجمالا و وبّخ فاعليه؛ شـرع فى تفصـيل أحکامه، و المعنى: و الذين يقولون ذلک القول المنکر الزور، ثم يعودون لما قالوا، أى: ما قالوا بالتدارک و التلافى، کما فى قوله: أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ «١» أى: إلى مثله. قال الأخفش لِما قالُوا و «إلى ما

---

(١). النور: ١٧.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۱۹

قالوا» [واحد، و اللام و إلى «۱» يتعاقبان. قال: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا «۲» و قال:

فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ «۳» و قال: بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها «۴» و قال: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ «۵» و قال الفراء: اللام بمعنى عن، و المعنى: ثم يرجعون عما قالوا و يريدون الوطء. و قال الزجاج:

المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. قال الأخفش أيضا: الآية فيها تقديم و تأخير، و المعنى:

و الذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ لما قالوا، أي: فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا، فالجار في قوله: لِما قالُوا متعلق بالمحذوف الّذي هو خبر المبتدأ و هو:

فعليهم.

و اختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال: الأول: أنه العزم على الوطء، و به قال العراقيون أبو حنيفة و أصحابه، و روى عن مالك. و قيل: هو الوطء نفسه، و به قال الحسن، و روى أيضا عن مالك.

و قيل: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، و به قال الشافعي. و قيل: هو الكفارة، و المعنى: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة، و به قال الليث بن سعد، و روى عن أبي حنيفة. و قيل: هو تكرير الظهار بلفظه، و به قال أهل الظاهر. و روى عن بكير بن الأشج و أبي العالية و الفراء. و المعنى. ثم يعودون إلى قول ما قالوا. و الموصول مبتدأ و خبره فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ على تقدير: فعليهم تحرير رقبة كما تقدم، أو فالواجب عليهم إعتاق رقبة، يقال: حررته، أي: جعلته حرا، و الظاهر أنها تجزئ أيّ رقبة كانت، و قيل:

يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة في كفارة القتل؛ و بالأول قال أبو حنيفة و أصحابه و بالثاني قال مالك و الشافعي، و اشترطا أيضا سلامتها من كل عيب مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا المراد الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة، و به قال مالك، و هو أحد قولي الشافعي، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى الحكم المذكور و هو مبتدأ و خبره تُوعَظُونَ بِهِ أي: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، و فيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفّارة. قال الزجاج: معنى الآية: ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به، أي:

إن غلظ الكفّارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها. ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا أي: فمن لم يجد الرقبة في ملكه، و لا تمكّن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، و إن كان لعذر من سفر أو مرض فقال سعيد بن المسيب و الحسن و عطاء بن أبي رباح و عمرو بن دينار و الشعبي و الشافعي و مالك: إنه يبني و لا يستأنف. و قال أبو حنيفة: إنه يستأنف، و هو مروى عن الشافعي؛ و معنى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا هو ما تقدم قريبا، فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف، و به قال أبو حنيفة و مالك. و قال الشافعي:

---

(۱). من تفسير القرطبي (۱۷/ ۲۸۲)

(۲). الأعراف: ۴۳.

(۳). الصافات: ۲۳.

(۴). الزلزلة: ۵.

(۵). هود: ۳۶.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٢٠

لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم، و الأول أولى فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ يعنى صيام شهرين متتابعين فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً أى: فعليه أن يطعم ستين مسكينا، لكل مسكين مدّان، و هما نصف صاع، و به قال أبو حنيفة و أصحابه. و قال الشافعى و غيره: لكل مسكين مدّ واحد، و الظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، و لا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين فى يوم، و بعضهم فى يوم آخر، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدم ذكره من الأحكام، و هو مبتدأ و خبره مقدّر، أى: ذلك واقع لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و يجوز أن يكون اسم الإشارة فى محل نصب، و التقدير: فعلنا ذلك لتؤمنوا، أى: لتصدّقوا أن اللّه أمر به و شرعه، أو لتطيعوا اللّه و رسوله فى الأوامر و النواهى، و تقفوا عند حدود الشرع و لا تتعدوها، و لا تعودوا إلى الظهار الّذى هو منكر من القول و زور، و الإشارة بقوله: وَ تِلْكَ إلى الأحكام المذكورة و هو مبتدأ، و خبره حُدُودُ اللَّهِ فلا تجاوزوا حدوده التى حدّها لكم، فإنه قد بيّن لكم أن الظهار معصية، و أن كفّارته المذكورة توجب العفو و المغفرة وَ لِلْكافِرِينَ الذين لا يقفون عند حدود اللّه و لا يعملون بما حدّه اللّه لعباده عَذابٌ أَلِيمٌ و هو عذاب جهنم، و سمّاه كفرا تغليظا و تشديدا.

و قد أخرج ابن ماجة و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن عائشة قالت: تبارك الّذى وسع سمعه كل شى‌ء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة و يخفى على بعضه، و هى تشتكى زوجها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هى تقول: يا رسول اللّه أكل شبابى، و نثرت له بطنى، حتى إذا كبر سنى و انقطع ولدى ظاهر منى، اللهم إنى أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها و هو أوس بن الصامت. و أخرج النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال:

كان أول من ظاهر فى الإسلام أوس، و كانت تحته ابنة عم له يقال لها خولة بنت خويلد، فظاهر منها فأسقط فى يده و قال: ما أراك إلا و قد حرمت على، فانطلقى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فاسأليه، فأتت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته، فقال: يا خولة ما أمرنا فى أمرك بشى‌ء، فأنزل اللّه على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

يا خولة أبشرى. قالت: خيرا. قال: خيرا، فقرأ عليها: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها الآيات. و أخرج أحمد و أبو داود و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى من طريق يوسف بن عبد اللّه ابن سلام قال: «حدثتنى خولة بنت ثعلبة قالت: فىّ و اللّه و فى أوس بن الصامت أنزل اللّه صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، و كان شيخا قد ساء خلقه، فدخل علىّ يوما فراجعته بشى‌ء، فغضب، فقال: أنت علىّ كظهر أمى، ثم رجع فجلس فى نادى قومه ساعة، ثم دخل علىّ فإذا هو يريدنى عن نفسى، قلت:

كلا و الّذى نفس خوله بيده، لا تصل إلىّ، و قد قلت ما قلت، حتى يحكم اللّه و رسوله فينا، ثم جئت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكرت ذلك له، فما برحت حتى نزل القرآن، فتغشّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما كان يغشاه ثم سرّى عنه، فقال لى: يا خولة قد أنزل اللّه فيك و فى صاحبك، ثم قرأ علىّ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ إلى قوله: عَذابٌ أَلِيمٌ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: مريه فليعتق رقبة قلت: يا رسول اللّه ما عنده ما يعتق،

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٢١

قال: فليصم شهرين متتابعين، قلت: و اللّه إنه لشيخ كبير ما به من صيام، قال: فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر، قلت: و اللّه ما ذاك عنده، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فأنا سأعينه بعرق من تمر، فقلت: و أنا يا رسول اللّه سأعينه بعرق آخر، فقال: قد أصبت و أحسنت فاذهبى فتصدقى به عنه ثم استوصى بابن عمك خيرا، قالت: ففعلت» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن

المنذر، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله:

ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا قال: هو الرجل لامرأته: أنت على كظهر أمى، فإذا قال ذلك فليس يحلّ له أن يقربها بنكاح و لا غيره حتى يكفر بعتق رقبة فَمَنْ فإن لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا و المسّ النكاح فَمَنْ فإن لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً و إن هو قال لها: أنت على كظهر أمى إن فعلت كذا فليس يقع فى ذلك ظهار حتى يحنث، فإن حنث فلا يقربها حتى يكفّر، و لا يقع فى الظهار طلاق. و أخرج ابن المنذر عن أبى هريرة قال: ثلاث فيه مدّ: كفارة اليمين، و كفارة الظهار، و كفارة الصيام.

و أخرج البزار و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: «أتى رجل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى ظاهرت من امرأتى، فرأيت بياض خلخالها فى ضوء القمر، فوقعت عليها قبل أن أكفّر، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

ألم يقل اللّه: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا قال: قد فعلت يا رسول اللّه، قال: أمسك عنها حتى تكفر». و أخرج عبد الرزاق و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و الحاكم و البيهقى عن ابن عباس «أن رجلا قال: يا رسول اللّه إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفّر، فقال: و ما حملك على ذلك؟ قال: رأيت خلخالها فى ضوء القمر، قال: فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك اللّه» و أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و الطبرانى و البغوى فى معجمه، و الحاكم و صحّحه، عن سلمة بن صخر الأنصارى قال: كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها فى ليلى فأتتابع فى ذلك و لا أستطيع أن أنزع حتى يدركنى الصبح، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشف لى منها شىء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومى فأخبرتهم خبرى، فقلت: انطلقوا معى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره بأمرى، فقالوا: لا، و اللّه لا نفعل نتخوّف أن ينزل فينا القرآن، أو يقول فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مقالة يبقى علينا عارها، و لكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته خبرى، فقال: أنت بذاك «۱»؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك و ها أنا ذا فامض فى حكم اللّه فإنى صابر لذلك، قال: أعتق رقبة، فضربت عنقى بيدى فقلت: لا و الّذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها، قال: فصم شهرين متتابعين، فقلت: هل أصابنى إلا فى الصيام؟ قال: فأطعم ستين مسكينا، قلت: و الّذى بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشين «۲» ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صاحب صدقة بنى زريق، فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكينا، ثم استعن بسائرها عليك و على

---

(۱). «أنت بذاك»: أى أنت متلبّس بذلك الفعل؟

(۲). «وحشين»: رجل وحش، أى جائع لا طعام له.

عيالك. فرجعت إلى قومى فقلت: وجدت عندكم الضيق و سوء الرأى، و وجدت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم السعة و البركة، أمر لى بصدقتكم فادفعوها إلى، فدفعوها إليه».

[سورة المجادلة (58): الآيات 5 الى 10]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ شَهِيدٌ (6) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي

الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)

إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين، و المحادة: المشاقة و المعاداة و المخالفة، و مثله قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قال الزجّاج: المحادة:

أن تكون فى حدّ يخالف صاحبك، و أصلها الممانعة، و منه الحديد، و منه الحدّاد للبوّاب كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: أذلوا و أخزوا، يقال: كبت اللّه فلانا إذا أذله، و المردود بالذل يقال له مكبوت.

قال المقاتلان: أخزوا كما أخزى الّذى من قبلهم من أهل الشرك، و كذا قال قتادة. و قال أبو عبيدة و الأخفش:

أهلكوا. و قال ابن زيد، عذبوا. و قال السدى: لعنوا. و قال الفراء: أغيظوا، و المراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعادين لرسل اللّه، و عبّر عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيها على تحقّق وقوعه، و قيل: المعنى: على المضى، و ذلك ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن اللّه كبتهم بالقتل و الأسر و القهر، و جملة وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ فى محل نصب على الحال من الواو فى كبتوا، أى: و الحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حادّ اللّه و رسله من الأمم المتقدمة، و قيل: المراد الفرائض التى أنزلها اللّه سبحانه، و قيل: هى المعجزات وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ أى: للكافرين بكل ما يجب الإيمان به، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولا أوّليا، و العذاب المهين: الّذى يهين صاحبه و يذلّه و يذهب بعزّه يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً الظرف منتصب بإضمار اذكر، أو بمهين، أو بما تعلّق به اللام من الاستقرار، أو بأحصاه المذكور بعده، و انتصاب جميعا على الحال، أى: مجتمعين فى حالة واحدة، أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أى: يخبرهم بما عملوه فى الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخا لهم و تبكيتا و لتكميل الحجّة عليهم، و جملة أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: كيف ينبئهم بذلك على كثرته

و اختلاف أنواعه، فقيل: أحصاه اللّه جميعا و لم يفته منه شى‏ء، و الحال أنهم قد نسوه و لم يحفظوه، بل وجدوه حاضرا مكتوبا فى صحائفهم وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ لا يخفى عليه شى‏ء من الأشياء، بل هو مطّلع و ناظر. ثم أكّد سبحانه بيان كونه عالما بكل شى‏ء، فقال: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى: ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شى‏ء مما فيهما، و جملة ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إلخ مستأنفة لتقرير شمول علمه و إحاطته بكل المعلومات. قرأ الجمهور «يكون» بالتحتية.

و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و الأعرج و أبو حيوة بالفوقية، و «كان» على القراءتين تامة، و «من» مزيدة للتأكيد، و «نجوى» فاعل كان، و النجوى: السرار، يقال: قوم نجوى، أى: ذوو نجوى، و هى مصدر.

و المعنى: ما يوجد من تناجى ثلاثة أو من ذوى نجوى، و يجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين؛ فعلى الوجه الأول انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه، و على الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى أو الصفة لها. قال الفراء: ثلاثة نعت للنجوى فانخفضت، و إن شئت أضفت نجوى إليها، و لو نصبت على إضمار فعل جاز، و هى قراءة ابن أبى عبلة، و يجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ هذه الجملة فى موضع نصب على الحال، و كذا قوله: إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ إِلَّا هُوَ

مَعَهُمْ أى: ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا فى حال من هذه الأحوال، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، و معنى رابعهم جاعلهم أربعة، و كذا سادسهم جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم فى الاطلاع على تلك النجوى وَ لا خَمْسَةٍ أى: و لا نجوى خمسة، و تخصيص العددين بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة؛ أو كانت الواقعة التى هى سبب النزول فى متناجين كانوا ثلاثة فى موضع و خمسة فى موضع.

قال الفراء: العدد غير مقصود لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلم السر و الجهر، لا تخفى عليه خافية وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أى: و لا أقلّ من العدد المذكور: كالواحد، و الاثنين، و لا أكثر منه: كالستة و السبعة؛ إلا هو يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه من شيء، قرأ الجمهور: «و لا أكثر» بالجرّ بالفتحة عطفا على لفظ نجوى. و قرأ الحسن و الأعمش و ابن إسحاق و أبو حيوة و يعقوب و أبو العالية و نصر و عيسى بن عمر و سلام بالرفع عطفا على محل نجوى. و قرأ الجمهور: «و لا أكثر» بالمثلثة.

و قرأ الزهرى و عكرمة بالموحدة. قال الواحدى: قال المفسرون: إن المنافقين و اليهود كانوا يتناجون فيما بينهم و يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم، فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك و كثر شكوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك و عادوا إلى مناجاتهم، فأنزل اللّه هذه الآيات، و معنى أَيْنَ ما كانُوا إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم فى أى مكان من الأمكنة ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ أى:

يخبرهم بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ توبيخا و تبكيتا و إلزاما للحجة إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شيء كائنا ما كان أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ هؤلاء الذين نهوا، ثم عادوا لما نهوا عنه هم من تقدم ذكره من المنافقين و اليهود. قال مقاتل: كان بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بين اليهود مواعدة، فإذا مرّ بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرّا فنهاهم اللّه فلم ينتهوا، فنزلت. و قال ابن

فتح القدير، ج‏5، ص: 224

زيد: كان الرجل يأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيسأله الحاجة و يناجيه و الأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بلية أو أمر مهمّ؛ فيفزعون لذلك وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ قرأ الجمهور:

«يتناجون» بوزن يتفاعلون، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لقوله فيما بعد: إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا و قرأ حمزة و خلف و ورش عن يعقوب «و ينتجون» بوزن يفتعلون، و هى قراءة ابن مسعود و أصحابه، و حكى سيبويه أن تفاعلوا و افتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو: تخاصموا و اختصموا، و تقاتلوا و اقتتلوا، و معنى الإثم ما هو إثم فى نفسه كالكذب و الظلم، و العدوان ما فيه عدوان على المؤمنين و معصية الرسول مخالفته. قرأ الجمهور: «و معصية» بالإفراد. و قرأ الضحاك و حميد و مجاهد «و معصيات» بالجمع. وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ قال القرطبى: إن المراد بها اليهود، كانوا يأتون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيقولون:

السام عليك، يريدون ذلك السلام ظاهرا، و هم يعنون الموت باطنا، فيقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «عليكم». و فى رواية أخرى: «و عليكم». وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أى: فيما بينهم لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ أى: هلّا يعذّبنا بذلك، و لو كان محمد نبيا لعذبنا بما يتضمّنه قولنا من الاستخفاف به، و قيل: المعنى: لو كان نبيا لاستجيب له فينا حيث يقول: و عليكم، و وقع علينا الموت عند ذلك. حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ عذابا يَصْلَوْنَها يدخلونها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ أى: المرجع، و هو جهنم، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ لما فرغ سبحانه عن نهى اليهود و المنافقين عن النجوى؛ أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم و عدوان و معصية لرسول اللّه كما يفعله اليهود و المنافقون.

ثم بيّن لهم ما يتناجون به فى أنديتهم و خلواتهم، فقال: وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى أى: بالطاعة و ترك المعصية، و قيل: الخطاب للمنافقين، و المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى، و الأول أولى، ثم خوّفهم سبحانه فقال: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيجزيكم بأعمالكم. ثم بيّن سبحانه أن ما يفعله اليهود و المنافقون من التناجى هو من جهة الشيطان، فقال: إِنَّمَا النَّجْوى يعنى بالإثم و العدوان و معصية الرسول مِنَ الشَّيْطانِ لا من غيره، أى: من تزيينه و تسويله لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا أى: لأجل أن يوقعهم فى الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها فى مكيدة يكادون بها وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً أو: و ليس الشيطان أو التناجى الّذى يزيّنه الشيطان بضار المؤمنين شيئا من الضرر إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: بمشيئته، و قيل: بعلمه وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أى: يكلون أمرهم إليه، و يفوّضونه فى جميع شؤونهم، و يستعيذون باللّه من الشيطان، و لا يبالون بما يزيّنه من النّجوى.

و قد أخرج أحمد و عبد بن حميد و البزار و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، قال السيوطى: بسند جيد، عن ابن عمر: إن اليهود كانوا يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: السام عليك، يريدون بذلك شتمه، ثم يقولون فى أنفسهم: لولا يعذّبنا اللّه بما نقول، فنزلت هذه الآية: وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ و أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى، و الترمذى و صحّحه، عن أنس: «أن يهوديا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه فقال: السام عليكم، فردّ عليه القوم، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: هل تدرون ما قال

هذا؟ قالوا: اللّه أعلم، سلّم يا نبى اللّه، قال: لا، و لكنه قال كذا و كذا، ردّوه علىّ، فردّوه، قال: قلت السام عليكم؟ قال: نعم، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عند ذلك: إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: عليك، قال: عليك ما قلت. قال: وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ . و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن عائشة قالت: «دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم؟ فقالت عائشة: عليكم السام و اللعنة، فقال: يا عائشة إن اللّه لا يحب الفحش و لا المفتحش، قلت: ألا تسمعهم يقولون السام؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أو ما سمعتنى أقول و عليكم؟ فأنزل اللّه:

وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ . و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان المنافقون يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا حيّوه: سام عليك، فنزلت. و أخرج ابن مردويه عنه قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذا بعث سرية و أغزاها التقى المنافقون فأنغضوا رؤوسهم إلى المسلمين و يقولون: قتل القوم، و إذا رأوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تناجوا و أظهروا الحزن، فبلغ ذلك من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من المسلمين، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ الآية». و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد قال: كنا نتناوب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، يطرقه أمر، أو يأمر بشى‏ء، فكثر أهل النّوب و المحتسبون ليلة حتى إذا كنا أندية نتحدّث، فخرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الليل فقال: ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟ قلنا: يا رسول اللّه إنا كنا فى ذكر المسيح فرقا منه، فقال: ألا أخبركم مما هو أخوف عليكم عندى منه؟ قلنا: بلى يا رسول اللّه. قال: الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل». قال ابن كثير: هذا إسناد غريب، و فيه بعض الضعفاء.

[سورة المجادلة (58): الآيات 11 الى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

مِنْكَمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٣)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ يقال: فسح له يفسح فسحا، أى:

وسع له، و منه قولهم: بلد فسيح. أمر اللّه سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضا بالتوسعة فى المجلس و عدم التضايق فيه. قال قتادة و مجاهد و الضحاك: كانوا يتنافسون فى مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض. و قال الحسن و يزيد بن أبى حبيب: هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحّون على الصف الأول، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى القتال لتحصيل الشهادة فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ أى: فوسّعوا

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٢٦

يوسّع اللّه لكم فى الجنة، أو فى كلّ ما تريدون التفسح فيه من المكان و الرزق و غير هما، قرأ الجمهور: «تفسّحوا فى المجلس» و قرأ السلمى و زرّ بن حبيش و عاصم فِي الْمَجالِسِ على الجمع؛ لأنّ لكلّ واحد منهم مجلسا، و قرأ قتادة و الحسن و داود بن أبى هند و عيسى بن عمر «تفاسحوا». قال الواحدى: و الوجه التوحيد فى المجلس، لأنه يعنى به مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال القرطبى: الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير و الأجر؛ سواء كان مجلس حرب، أو ذكر، أو يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الّذى سبق إليه، و لكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه، و يؤيد هذا: حديث ابن عمر عند البخارى و مسلم و غير هما عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»، [و عنه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه و يجلس فيه آخر] «١» و لكن تفسّحوا و توسّعوا».

وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا قرأ الجمهور بكسر الشين فيها، و قرأ نافع و ابن عامر و عاصم بضمّها فيهما، و هما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز، أى: ارتفع، ينشز و ينشز، كعكف يعكف و يعكف، و المعنى:

إذا قيل لكم انهضوا فانهضوا. قال جمهور المفسرين: أى: انهضوا إلى الصلاة و الجهاد و عمل الخير. و قال مجاهد و الضحاك و عكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة، فقيل لهم: إذا نودى للصلاة فانهضوا. و قال الحسن: انهضوا إلى الحرب. و قال ابن زيد: هذا فى بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال اللّه تعالى: وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فَانْشُزُوا فإن له حوائج فلا تمكثوا. و قال قتادة: المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، و الظاهر حمل الآية على العموم؛ و المعنى:

إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا و لا تتثاقلوا و لا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصا، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق، و يندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجا أوّليا، و هكذا يندرج ما فيه السياق و هو التفسيح فى المجلس اندراجا أوّليا، و قد قدّمنا أن معنى نشر ارتفع، و هكذا يقال نشز ينشز؛ إذا تنحى عن موضعه، و منه امرأة ناشز، أى: متنحية عن زوجها، و أصله مأخوذ من النشز، و هو ما ارتفع من الأرض و تنحى، ذكر معناه النحاس يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فى الدنيا و الآخرة بتوفير نصيبهم فيهما وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ أى: و يرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية فى الكرامة فى الدنيا و الثواب فى الآخرة، و معنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات و يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان و العلم رفعه اللّه بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات، و قيل: المراد بالذين آمنوا من الصحابة و كذلك الذين أوتوا العلم، و قيل: المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن. و الأولى

حمل الآيهٔ على العموم فى كل مؤمن و كل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملّهٔ، و لا دليل يدلّ على تخصيص الآيهٔ بالبعض دون البعض، و فى هذه الآيهٔ فضيلهٔ عظيمهٔ للعلم و أهله، و قد دلّ على فضله و فضلهم آيات قرآنيهٔ و أحاديث نبويهٔ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

---

(١). من تفسير القرطبى (١٧/ ٢٩٨)

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٢٧

لا- يخفى عليه شى‌ء من أعمالكم من خير و شرّ، فهو مجازيكم بالخير خيرا و بالشر شرّا يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً المناجاهٔ: المساررهٔ، و المعنى: إذا أردتم مساررهٔ الرسول فى أمر من أموركم فقدّموا بين يدى مساررتكم له صدقهٔ. قال الحسن: نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم فى النجوى، فشقّ عليهم ذلك، فأمرهم اللّه بالصدقهٔ عند النجوى لتقطعهم عن استخلائه. و قال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين و اليهود كانوا يناجون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و يقولون: إنه أذن يسمع كل ما قيل له، و كان لا يمنع أحدا من مناجاته، و كان ذلك يشقّ على المسلمين؛ لأنّ الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ «١» فلم ينتهوا، فأنزل اللّه هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقهٔ، و شقّ ذلك على أهل الإيمان، و امتنعوا عن النجوى، لضعف كثير منهم عن الصدقهٔ فخفّف اللّه عنهم بالآيهٔ التى بعد هذه، و الإشارهٔ بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدم من تقديم الصدقة بين يدى النجوى، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ لما فيه من طاعهٔ اللّه، و تقييد الأمر يكون امتثاله خيرا لهم من عدم الامتثال و أطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يعنى من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدى النجوى، فلا حرج عليه فى النجوى بدون صدقهٔ أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ أى: أخفتم الفقر و العيلهٔ لأن تقدموا ذلك، و الإشفاق: الخوف من المكروه و الاستفهام للتقرير. و قيل المعنى: أ بخلتم، و جمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين. قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. و قال الكلبى: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. و قال قتادهٔ: ما كان إلا ساعة من النهار فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ما أمرتم به من الصدقة بين يدى النجوى، و هذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به و لم يفعل، و أما من لم يجد فقد تقدم الترخيص له بقوله: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بأن رخص لكم فى الترك، «و إذ» على بابها فى الدلالة على المضى، و قيل: هى بمعنى إن، و تاب معطوف على لم تفعلوا، أى: و إذا لم تفعلوا و إذ تاب عليكم فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ و المعنى: إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقهٔ بين يدى النجوى فاثبتوا على إقامهٔ الصلاهٔ و إيتاء الزكاهٔ و طاعهٔ اللّه و رسوله؛ فيما تؤمرون به و تنهون عنه وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا- يخفى عليه من ذلك شى‌ء فهو مجازيكم، و ليس فى الآية ما يدلّ على تقصير المؤمنين فى امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم فالأمر واضح، و أما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلّفوا بالمناجاهٔ حتى تجب عليهم الصدقهٔ بل أمروا بالصدقهٔ إذا أرادوا المناجاهٔ، فمن ترك المناجاهٔ فلا يكون مقصرا فى امتثال الأمر بالصدقة، على أن فى الآيهٔ ما يدل على أن الأمر للندب كما قدمنا. و قد استدل بهذه الآيهٔ من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل، و ليس هذا

---

(١). المجادلة: ٩.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٢٨

الاستدلال بصحيح، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل، و أيضا قد فعل ذلک البعض، فتصدّق بين يدى نجواه كما سيأتى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال: أنزلت هذه الآية إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ يوم جمعة و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ فى الصفّة، و فى المكان ضيق و كان يكرم أهل بدر من المهاجرين و الأنصار، فجاء ناس من أهل بدر و قد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: السلام عليک أيها النبى و رحمة اللّه و بركاته، فردّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم، ثم سلّموا على القوم بعد ذلک فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ما يحملهم على القيام، فلم يفسح لهم، فشقّ ذلک عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين و الأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان و أنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام من أهل بدر، فشقّ ذلک على من أقيم من مجلسه، فنزلت هذه الآية. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: ذلک فى مجلس القتال وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا قال: إلى الخير و الصلاة. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى المدخل، عن ابن عباس فى قوله: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ قال: يرفع اللّه الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى تفسير هذه الآية قال: يرفع اللّه الذين آمنوا و أوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم درجات. و أخرج ابن المنذر عنه قال: ما خصّ اللّه العلماء فى شىء من القرآن ما خصّهم فى هذه الآية، فضّل اللّه الذين آمنوا و أوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ الآية قال:

إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى شقّوا عليه، فأراد اللّه أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلک ضنّ كثير من الناس و كفوا عن المسألة؛ فأنزل اللّه بعد هذا أَ أَشْفَقْتُمْ الآية، فوسع اللّه عليهم و لم يضيق. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و النحاس و ابن مردويه عن على بن أبى طالب قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً قال لى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما ترى دينارا؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار؟ قلت لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنک لزهيد، قال: فنزلت: أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ الآية، فبى خفّف اللّه عن هذه الأمة» و المراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب، و ليس المراد واحدة من حب الشعير. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: ما عمل بها أحد غيرى حتى نسخت، و ما كانت إلا ساعة: يعنى آية النجوى. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن راهويه و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عنه أيضا قال: إن فى كتاب اللّه لآية ما عمل بها أحد قبلى و لا يعمل بها أحد بعدى آية النجوى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قدمت بين يدى نجواى درهما، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد، فنزلت:

فتح القدير، ج‏5، ص: 229

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ الآية. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى:

بسند ضعيف، عن سعد بن أبى وقاص قال: «نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً فقدمت شعيرة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنک لزهيد»، فنزلت الآية الأخرى:

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ.

[سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۴ الى ۲۲]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۴) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۵) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۶) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۷) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (۱۸)

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۹) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (۲۰) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۱) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۲۲)

قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً أى: والوهم. قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود. و قال السدى و مقاتل: هم اليهود تولوا المنافقين، و يدل على الأول قوله: غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ* فإن المغضوب عليهم هم اليهود، و يدلّ على الثانى قوله: ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ فإن هذه صفة المنافقين، كما قال اللّه فيهم: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ «۱» و جملة ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ فى محل نصب على الحال، أو هى مستأنفة وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ أى: يحلفون أنهم مسلمون، أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، و الجملة عطف على تولوا داخلة فى حكم التعجب من فعلهم، و جملة وَ هُمْ يَعْلَمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، و أنه كذب لا حقيقة له أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً بسبب هذا التولّى و الحلف على الباطل إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الأعمال القبيحة اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً قرأ الجمهور: «أيمانهم» بفتح الهمزة، جمع يمين، و هى ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقّيا من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية و سترة دون دمائهم، كما يجعل المقاتل الجنّة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم. و قرأ الحسن و أبو العالية: «إيمانهم» بكسر الهمزة، أى: جعلوا تصديقهم جنّة من القتل، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل و لم تؤمن قلوبهم فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التّثبيط، و تهوين أمر المسلمين، و تضعيف

---

(۱). النساء ۱۴۳.

شوكتهم، و قيل: المعنى: فصدّوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أى: يهينهم و يخزيهم، قيل: هو تكرير لقوله: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً للتأكيد، و قيل: الأول عذاب القبر، و هذا عذاب الآخرة، و لا وجه للقول بالتكرار، فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: لن تغنى عنهم من عذابه شيئا من الإغناء.

قال مقاتل: قال المنافقون: إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة؛ لقد شقينا إذا! فو اللّه لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا و أموالنا و أولادنا إن كانت قيامة، فنزلت الآية أُولئِكَ الموصوف بما ذكر أَصْحابُ النَّارِ لا يفارقونها هُمْ فِيها خالِدُونَ لا يخرجون منها يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً الظرف منصوب بقوله: مهين، أو بمقدر، أى: اذكر فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ أى: يحلفون اللّه يوم القيامة

على الكذب كما يحلفون لكم فى الدنيا، و هذا من شدة شقاوتهم و مزيد الطبع على قلوبهم، فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق و صارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة، فكيف يجترءون على أن يكذبوا فى ذلك الموقف، و يحلفون على الكذب وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أى: يحسبون فى الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعا، أو يدفع ضررا، كما كانوا يحسبون ذلك فى الدنيا أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ أى: الكاملون فى الكذب، المتهالكون عليه، البالغون فيه إلى حدّ لم يبلغ غيرهم إليه؛ بإقدامهم عليه و على الأيمان الفاجرة فى موقف القيامة بين يدى الرّحمن اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ أى: غلب عليهم و استعلى و استولى. قال المبرّد: استحوذ على الشيء: حواه و أحاط به، و قيل: قوى عليهم، و قيل: جمعهم، يقال: أحوذ الشيء، أى: جمعه و ضمّ بعضه إلى بعض، و المعانى متقاربة؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوى عليهم و غلبهم و استعلى عليهم و استولى و أحاط بهم فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أى: أوامره و العمل بطاعته، فلم يذكروا شيئا من ذلك. و قيل: زواجره فى النهى عن معاصيه، و قيل: لم يذكروه بقلوبهم و لا بألسنتهم، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات، و هو مبتدأ و خبره حِزْبُ الشَّيْطانِ أى: جنوده و أتباعه و رهطه أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ أى: الكاملون فى الخسران، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران؛ لأنهم باعوا الجنة و الهدى بالضلالة، و كذبوا على اللّه و على نبيه، و حلفوا الأيمان الفاجرة فى الدنيا و الآخرة. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ تقدم معنى المحادّة للّه و لرسوله فى أول هذه السورة، و الجملة تعليل لما قبلها أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ أى: أولئك المحادّون للّه و رسوله، المتّصفون بتلك الصفات المتقدمة، من جملة من أذلّه اللّه من الأمم السابقة و اللاحقة؛ لأنهم لما حادّوا اللّه و رسوله صاروا من الذلّ بهذا المكان.

قال عطاء: يريد الذلّ فى الدنيا و الخزى فى الآخرة كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم فى الأذلين، أى: كتب فى اللوح المحفوظ، و قضى فى سابق علمه: لأغلبن أنا و رسلى بالحجّة و السيف. قال الزجّاج: معنى غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب فهو غالب فى الحرب، و من بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة. قال الفراء: كتب بمعنى قال، و قوله: «أنا» توكيد، ثم ذكر مثل قول الزجاج. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ فهو قوى على نصر أوليائه، غالب لأعدائه، لا يغلبه أحد

فتح القدير، ج‌5، ص: 231

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له، أى: يحبون و يوالون من عادى اللّه و رسوله و شاقّهما، و جملة «يوادون» فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لتجد إن كان متعديا إلى مفعولين، أو فى محل نصب على الحال إن كان متعديا إلى مفعول واحد، أو صفة أخرى ل «قوما»، أى: جامعون بين الإيمان و الموادة لمن حادّ اللّه و رسوله وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أى: و لو كان المحادّون للّه و رسوله آباء الموادّين إلخ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك و يمنع منه، و رعايته أقوى من رعاية الأبوّة و البنوّة و الأخوّة و العشيرة أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ يعنى الّذى لا يوادون من حاد اللّه و رسوله، و معنى كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ خلقه، و قيل:

أثبته، و قيل: جعله، و قيل: جمعه، و المعانى متقاربة وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ أى: قوّاهم بنصر منه على عدوهم فى الدنيا، و سمّى نصره لهم روحا لأن به يحيا أمرهم، و قيل: هو نور القلب. و قال الربيع بن أنس:

بالقرآن و الحجة، و قيل: بجبريل، و قيل: بالإيمان، و قيل: برحمة. قرأ الجمهور «كتب» مبنيا للفاعل و نصب الإيمان على المفعولية. و قرأ زرّ بن حبيش و المفضّل عن عاصم على البناء للمفعول و رفع الإيمان على النيابة. و قرأ زرّ بن حبيش: «عشيراتهم» بالجمع، و رويت هذه القراءة عن عاصم وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها على الأبد رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمْ أى: قبل أعمالهم، و أفاض عليهم آثار رحمته العاجلة و الآجلة وَ رَضُوا عَنْهُ أى: فرحوا بما أعطاهم عاجلا و آجلا أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أى: جنده الذين يمتثلون أوامره و يقاتلون أعداءه و ينصرون أولياءه، و فى إضافتهم إلى اللّه سبحانه تشريف لهم عظيم و تكريم فخيم أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون بسعادة الدنيا و الآخرة، الكاملون فى الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم ك: لا فلاح.

و قد أخرج أحمد و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا فى ظل حجرة من حجره، و عنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلّموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق، فقال حين رآه: علام تشتمنى أنت و أصحابك؟ فقال: ذرنى آتيك بهم، فحلفوا و اعتذروا، فأنزل اللّه: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ الآية و التى بعدها». و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى سننه، عن عبد اللّه بن شوذب قال: جعل والد أبى عبيدة بن الجراح يتقصّاه، لأبى عبيدة، يوم بدر، و جعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله، فنزلت: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۳۲

سورة الحشر

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحشر بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: سورة النضير؛ يعنى أنها نزلت فى بنى النضير كما صرّح بذلك فى بعض الروايات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱ الى ۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (۲) وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (۳) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۴)

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (۵) وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۷)

قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة الحديد هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ هم بنو النضير، و هم رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظارا منهم لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فغدروا بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعد أن عاهدوه، و صاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى رضوا بالجلاء. قال الكلبى: كانوا أوّل من أجلى من أهل الذمّة من جزيرة العرب، ثم أجلى آخرهم فى زمن عمر بن الخطاب، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة، و آخر حشر إجلاء عمر لهم. و قيل: إن أوّل الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، و آخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام. و قيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر، و هى الشام. قال عكرمة: من شكّ أن المحشر يوم القيامة فى الشام فليقرأ هذه الآية، و أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال لهم: اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. قال ابن العربى: الحشر أوّل و أوسط

و آخر، فالأوّل إجلاء بنى النضير، و الأوسط إجلاء أهل خيبر، و الآخر يوم القيامة.

و قد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين فى الآية هم بنو النضير، و لم يخالف فى ذلك إلا الحسن البصرى فقال: هم بنو قريظة، و هو غلط. فإن بنى قريظة ما حشروا، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلتهم، و تسبى ذراريهم، و تغنم أموالهم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لسعد: لقد حكمت بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة. و اللام فى «لأوّل الحشر» متعلقة ب «أخرج»، و هى لام التوقيت، كقوله:

لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا هذا خطاب للمسلمين، أى: ما ظننتم أيها المسلمون أن بنى النضير يخرجون من ديارهم لعزّتهم و منعتهم، و ذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة و عقار و نخيل واسعة، و أهل عدد و عدّة وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ أى: و ظنّ بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس اللّه، و قوله «ما نعتهم» خبر مقدّم، و «حصونهم» مبتدأ مؤخر، و الجملة خبر «أنهم»، و يجوز أن يكون «ما نعتهم» خبر «أنهم»، و «حصونهم» فاعل «ما نعتهم». و رجّح الثانى أبو حيان، و الأوّل أولى فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا أى: أتاهم أمر اللّه من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة، و هو أنه سبحانه أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بقتالهم و إجلائهم و كانوا لا يظنون ذلك، و قيل: هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف، قاله ابن جريج و السدّى و أبو صالح، فإنّ قتله أضعف شوكتهم. و قيل: إن الضمير فى «أتاهم» و «لم يحتسبوا» للمؤمنين، أى: فأتاهم نصر اللّه من حيث لم يحتسبوا، و الأوّل أولى؛ لقوله:

وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فإن قذف الرعب كان فى قلوب بنى النضير، لا فى قلوب المسلمين. قال أهل اللغة: الرعب: الخوف الّذى يرعب الصدر، أى: يملؤه، و قذفه: إثباته فيه. و قيل: كان قذف الرعب فى قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، و الأولى عدم تقييده بذلك و تفسيره به، بل المراد بالرعب الّذى قذفه اللّه فى قلوبهم هو الّذى ثبت فى الصحيح من قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «نصرت بالرّعب مسيرة شهر». يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ و ذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، و المسلمون من خارج. قال قتادة و الضحاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، و اليهود من داخل ليبنوا به ما خرّب من حصنهم. قال الزجاج: معنى تخريبها بأيدى المؤمنين أنهم عرّضوها لذلك. قرأ الجمهور: يُخْرِبُونَ بالتخفيف، و قرأ الحسن و السلمى و نصر بن عاصم و أبو العالية و أبو عمرو بالتشديد. قال أبو عمرو: إنما اخترت القراءة بالتشديد، لأن الإخراب ترك الشىء خرابا، و إنما خربوها بالهدم. و ليس ما قاله بمسلّم، فإن التخريب و الإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد. قال سيبويه: إن معنى فعلت و أفعلت يتعاقبان، نحو: أخبرته و خبّرته، و أفرحته و فرّحته، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم.

قال الزهرى و ابن زيد و عروة بن الزبير: لما صالحهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم على أن لهم ما أقلّت الإبل؛ كانوا يستحسنون

الخشبة أو العمود فيهدمون بيوتهم، و يحملون ذلك على إبلهم، و يخرب المؤمنون باقيها. و قال الزهرى أيضا:

يخربون بيوتهم بنقض المعاهدة، و أيدى المؤمنين بالمقاتلة. و قال أبو عمرو: بأيديهم فى تركهم لها، و بأيدى المؤمنين فى إجلائهم عنها، و الجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه، أو فى محل نصب على الحال فَاعْتَبِرُوا يا

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۳۴

أُولِي الْأَبْصارِ أى: اتّعظوا و تدبروا و انظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول و البصائر. قال الواحدى: و معنى الاعتبار: النظر فى الأمور ليعرف بها شىء آخر من جنسها وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا أى: لو لا أن كتب اللّه عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه و قضى به عليهم لعذبهم بالقتل و السبى فى الدنيا كما فعل ببنى قريظة. و الجلاء: مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، و أجلاه غيره إجلاء.

و الفرق بين الجلاء و الإخراج، و إن كان معناهما فى الإبعاد واحدا، من جهتين: إحداهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل و الولد، و الإخراج قد يكون مع بقاء الأهل و الولد. الثانى: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، و الإخراج يكون لجماعة و لواحد، كذا قال الماوردى. وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ هذه الجملة مستأنفة، غير متعلّقة بجواب لولا، متضمنة لبيان ما يحصل لهم فى الآخرة من العذاب؛ و إن نجوا من عذاب الدنيا، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره من الجلاء فى الدنيا و العذاب فى الآخرة بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أى: بسبب المشاقة منهم للّه و لرسوله؛ بعدم الطاعة، و الميل مع الكفار، و نقض العهد وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ اقتصرها هنا على مشاقة اللّه، لأن مشاقته مشاقة لرسوله. قرأ الجمهور: يُشَاقِ بالإدغام، و قرأ طلحة بن مصرّف و محمد بن السّميقع يشاقق بالفكّ ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ قال مجاهد: إن بعض المهاجرين وقعوا فى قطع النخل فنهاهم بعضهم، و قالوا: إنما هى مغانم للمسلمين، و قال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعدوّ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل و تحليل من قطعه من الإثم، فقال: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ قال قتادة و الضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم و أحرقوا ست نخلات. و قال محمد بن إسحاق: قطعوا نخلة و أحرقوا نخلة، فقال بنو النضير و هم أهل كتاب: يا محمد أ لست تزعم أنك نبىّ تريد الصلاح، أ فمن الصلاح قطع النخل و حرق الشجر؟ و هل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد فى الأرض، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و وجد المسلمون فى أنفسهم فنزلت الآية، و معنى الآية: أىّ شىء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن اللّه، و الضمير فى تَرَكْتُمُوها عائد إلى ما لتفسيرها باللينة، و كذا فى قوله: قائِمَةً عَلى أُصُولِها و معنى على أصولها:

أنها باقية على ما هى عليه.

و اختلف المفسرون فى تفسير اللينة، فقال الزهرى و مالك و سعيد بن جبير و عكرمة و الخليل: إنها النخل كله إلا العجوة. و قال مجاهد: إنها النخل كله، و لم يستثن عجوة و لا غيرها. و قال الثورى: هى كرام النخل.

و قال أبو عبيدة: إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة و البرنى. و قال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة، و قيل: هى ضرب من النخل، يقال لتمره: اللّون، تمره أجود التمر. و قال الأصمعى: هى الدّقل، و أصل اللينة لونة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، و جمع اللينة: لين، و قيل: ليان. و قرأ ابن مسعود «ما قطعتم من لينة و لا تركتم قوما على أصولها» أى: قائمة على سوقها، و قرئ: «على أصلها» و قرئ: «قائما على أصوله». وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ أى: ليذلّ الخارجين عن الطاعة، و هم اليهود، و يغيظهم فى قطعها و تركها؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف شاؤوا من القطع و الترك ازدادوا غيظا. قال الزجاج:

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۳۵

و ليخزى الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع و ترك، و التقدير: و ليخزى الفاسقين أذن فى

ذلك، يـدل على المحـذوف قوله: فَبِإِذْنِ اللَّهِ و قـد اسـتدلّ بهـذه الآيـة على جواز الاجتهاد و على تصويب المجتهدين، و البحث مسـتوفى فى كتب الأـصول وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ أى: ما ردّه عليه من أموال الكفار، يقال: فاء يفىء إذا رجع، و الضـمير فى «منهم» عائـد إلى بنى النضـير فَمـا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا ـرِكـابٍ يقـال: وجف الفرس و البعير يجف و جفا: و هو سـرعة السير، و أوجفه صاحبه: إذا حمله على السير السريع، و منه قول تميم بن مقبل:

مذاويد بالبيض الحديث صقالهاعن الرّكب أحيانا إذا الرّكب أوجفوا

و قال نصيب:

ألا ربّ ركب قد قطعت و جيفهم إليك و لو لا أنت لم يوجف الرّكب

و ما فى فَما أَوْجَفْتُمْ نافية، و الفاء جواب الشرط إن كانت ما فى قوله: ما أَفاءَ اللَّهُ شرطية، و إن كانت موصولة فالفاء زائدة. و مِنْ فى قوله: مِنْ خَيْلٍ زائدة للتأكيد، و الركاب: ما يركب من الإبل خاصة، و المعنى: أن ما ردّ اللّه على رسوله من أموال بنى النضـير لم تركبوا لتحصـيله خيلا ـ و لا إبلا، و لا تجشّـمتم لها شـقة، و لا لقيتم بها حربا و لا مشـقّة، و إنما كانت من المدينـة على ميلين، فجعل اللّه سبحانه أموال بنى النضير لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحا و أخذ أموالها، و قد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ من أعدائه، و فى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصـة لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم دون أصـحابه؛ لكونهم لم يوجفوا عليهـا بخيـل و لا ـ ركاب، بل مشوا إليها مشـيا، و لم يقاسوا فيها شـيئا من شدائد الحروب وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يسلّط من يشاء على من أراد، و يعطى من يشاء و يمنع من يشاء لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «۱» و مـا أَفـاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى هـذا بيان لمصارف الفىء بعـد بيان أنه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة، و التكرير لقصد التقرير و التأكيد، و وضع أهل القرى موضع قوله: منهم أى: من بنى النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختصّ ببنى النضـير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم صلحا، و لم يوجف عليها المسـلمون بخيل و لا ركاب. قيل: و المراد بالقرى: بنو النضـير و قريظـة و فـدك و خيبر. و قـد تكلم أهل العلم فى هذه الآية و التى قبلها؟ هل معناهما متفق أو مختلف، فقيل: معناهما متفق كما ذكرنا، و قيل:

مختلف، و فى ذلك كلام لأهل العلم طويل. قال ابن العربى: لا إشـكال أنها ثلاثـة معان فى ثلاث آيات. أما الآية الأولى، و هى قوله: وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فهى خاصّـة برسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم خالصـة له، و هى أموال بنى النضـير و ما كان مثلها. و أما الآيـة الثانيـة، و هى قوله: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فهذا كلام مبتدأ غير الأوّل بمستحق غير الأول، و إن اشتركت هى و الأولى فى أن كل واحدة منهما تضمنت

---

(۱). الأنبياء: ۲۳.

شيئـا أفـاءه اللّه على رسوله، و اقتضت الآيـة أنه حاصـل بغير قتال، و اقتضت آيـة الأنفال، و هى الآيـة الثالثـة، أنه حاصل بقتال، و عريت الآيـة الثانيـة، و هى قوله: مـا أَفـاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال، فنشأ الخلاف من ها هنا؛ فطائفـة قالت: هى ملحقـة بالأولى، و هى مال الصلح، و طائفـة قالت: هى ملحقة بالثالثة و هى آية الأنفال. و الذين قالوا إنها ملحقـة بآيـة الأنفال اختلفوا هل هى منسوخـة أو محكمة، هذا معنى حاصل كلامه. و قال مالك: إن الآية الأولى من هذه السورة خاصّـة برسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و الآيـة الثانيـة هى فى بنى قريظـة، و يعنى أن معناهـا يعود إلى آيـة الأنفال. و مـذهب الشافعى أن سبيل خمس الفىء سبيل خمس الغنيمـة، و أن أربعة أخماسه كانت للنبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم و هى بعده لمصالح

المسلمين فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ المراد بقوله: لله أنه يحكم فيه بما يشاء وَ لِلرَّسُولِ يكون ملكا له وَ لِذِي الْقُرْبى و هم بنو هاشم و بنو المطلب، لأنهم قد منعوا من الصدقة، فجعل لهم حقا فى الفىء. قيل: تكون القسمة فى هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و خمسه يقسم أخماسا: للرسول خمس، و لكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس، و قيل: يقسم أسداسا. السادس: سهم اللّه سبحانه، و يصرف إلى وجوه القرب؛ كعمارة المساجد و نحو ذلك كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ أى: كيلا يكون الفىء دولة بين الأغنياء دون الفقراء، و الدولة: اسم للشىء يتداوله القوم بينهم، يكون لهذا مرّة، و لهذا مرّة. قال مقاتل: المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم. قرأ الجمهور: يَكُونَ بالتحتية دولة بالنصب، أى: كيلا يكون الفىء دولة.

و قرأ أبو جعفر و الأعرج و هشام و أبو حيوة تكون بالفوقية دولة بالرفع، أى: كيلا تقع أو توجد دولة، و كان تامة. و قرأ الجمهور دُولَةً بضم الدال. و قرأ أبو حيوة و السّلمى بفتحها. قال عيسى بن عمر و يونس و الأصمعى: هما لغتان بمعنى واحد. و قال أبو عمرو بن العلاء: الدّولة بالفتح الّذى يتداول من الأموال، و بالضم الفعل. و كذا قال أبو عبيدة. ثم لما بيّن لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا أى: ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، و ما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه و لا تأخذوه. قال الحسن و السدّى: ما أعطاكم من مال الفىء فاقبلوه، و ما منعكم منه فلا تطلبوه. و قال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتى فافعلوا، و ما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه.

و الحقّ أن هذه الآية عامة فى كل شىء يأتى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أمر أو نهى أو قول أو فعل، و إن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و كل شىء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه و أوصله إلينا، و ما أنفع هذه الآية و أكثر فائدتها. ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرّسول، و ترك ما نهاهم عنه، أمرهم بتقواه، و خوفهم شدّة عقوبته، فقال: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ فهو معاقب من لم يأخذ ما آتاه الرّسول و لم يترك ما نهاه عنه.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن عائشة قالت: كانت غزوة بنى النضير، و هم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، و كان منزلهم و نخلهم فى ناحية المدينة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۳۷

فحاصرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزلوا على الجلاء، و على أن لهم ما أقلّت الإبل من الأمتعة و الأموال إلا الحلقة، يعنى السلاح، فأنزل اللّه فيهم: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إلى قوله: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فقاتلهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم حتى صالحهم على الإجلاء و جلاهم إلى الشام، و كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، و كان اللّه قد كتب عليهم ذلك، و لو لا ذلك لعذّبهم فى الدنيا بالقتل و السبى، و أمّا قوله: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ فكان إجلاؤهم ذلك أوّل حشر فى الدنيا إلى الشام. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: «من شكّ أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ قال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ:

«اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، و أن يخرجهم من أرضهم و أوطانهم، و أن يسيروا إلى أذرعات الشام، و جعل لكل ثلاثة منهم بعيرا و سقاء. و فى البخارى و مسلم و غير هما عن ابن عمر: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حرق نخل بنى النضير و قطع، و هى البويرة «۱»، و لها يقول حسان:

فهان على سراة بنى لؤىّ حريق بالبويرة مستطير

فأنزل اللّه: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ

و أخرج الترمذى و حسّنه، و النسائى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: اللينة النخلة وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ قال: استنزلوهم من حصونهم، و أمروا بقطع النخل، فحكّ فى صدورهم «٢»، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضا و تركنا بعضا، فلنسألنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ و هل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل اللّه: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ الآية، و فى الباب أحاديث، و الكلام فى صلح بنى النضير مبسوط فى كتب السير. و أخرج البخارىّ و مسلم و غير هما عن عمر بن الخطاب قال: كانت أموال بنى النضير مما أفاء اللّه على رسوله، و ممّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل و لا ركاب، و كانت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى فى السلاح و الكراع عدّة فى سبيل اللّه.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ فجعل ما أصاب رسوله اللّه يحكم فيه ما أراد، و لم يكن يومئذ خيل و لا ركاب يوجف بها. قال: و الإيجاف: أن يوضعوا السير، و هى لرسول اللّه، فكان من ذلك خيبر و فدك و قرى عرينة «٣». و أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يعمد لينبع،

---

(١). هى مكان بين المدينة و تيماء، من جهة مسجد قباء إلى جهة الغرب.

(٢). حكّ الشىء فى النفس: إذا لم يكن الإنسان منشرح الصّدر به، و كان فى قلبه منه شىء من الشك و الريب، و أوهم أنه ذنب و خطيئة.

(٣). فى الدر المنثور (٨/ ١٠٠): عربية.

فأتاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاحتواها كلها، فقال ناس: هلّا قسمها اللّه، فأنزل اللّه عذره فقال: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى الآية. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كان ما أفاء اللّه على رسوله من خيبر نصف للّه و رسوله، و النصف الآخر للمسلمين، فكان الّذى للّه و رسوله من ذلك الكثيبة و الوطيح و سلالم و وخدة، و كان الّذى للمسلمين الشقّ، و الشقّ ثلاثة عشر سهما، و نطاة «١» خمسة أسهم، و لم يقسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية. و لم يأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأحد من المسلمين تخلّف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصارىّ.

و أخرج أبو داود و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صفايا «٢» فى النضير و خيبر و فدك؛ فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه، و أما فدك فكانت لابن السبيل، و أما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء:

قسم منها جزءين بين المسلمين، و حبس جزءا لنفسه و لنفقة أهله، فما فضل عن نفقة أهله ردها على فقراء المهاجرين. و أخرج عبد الرزاق و ابن سعد و ابن أبى شيبة، و ابن زنجويه فى الأموال، و عبد بن حميد و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: ما على وجه الأرض مسلم إلا و له فى هذا الفىء حقّ إلا ما ملكت أيمانكم.

و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن ابن مسعود قال: «لعن اللّه الواشمات و المستوشمات و المتنمصات و المتفلجات للحسن المغيرات لخلق اللّه» فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أمّ يعقوب، فجاءت ابن مسعود، فقالت: بلغنى أنك لعنت كيت و كيت، قال: و ما لى لا ألعن من لعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى كتاب اللّه؟

قالت: لقد قرأت الدّفتين فما وجدت فيه شيئا من هذا، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه».

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ٨ الى ١٠]

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٠)

قوله: لِلْفُقَراءِ قيل: هو بدل من لِذِي الْقُرْبى و ما عطف عليه، و لا يصحّ أن يكون بدلا من الرسول و ما بعده؛ لئلا يستلزم وصف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالفقر، و قيل: التقدير كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً و لكن يكون للفقراء، و قيل: التقدير: اعجبوا للفقراء، و قيل: التقدير: و اللّه شديد العقاب للفقراء، أى:

---

(١). «النّطاة»: علم لخيبر، أو حصن بها.

(٢). «الصفايا»: جمع صفي، و هو ما يصطفيه صلّى اللّه عليه و سلّم من عرض الغنيمة من شيء قبل أن يخمس: عبد أو جارية أو فرس أو سيف أو غيرها- و كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مخصوصا بذلك مع الخمس الّذى كان له خاصة.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٣٩

شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء، و قيل: هو عطف على ما مضى بتقدير الواو، كما تقول: المال لزيد لعمرو لبكر، و المراد ب الْمُهاجِرِينَ الذين هاجروا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رغبة فى الدين و نصرة له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار و الأموال و الأهلين، و معنى أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ أن كفار مكة أخرجوهم منها و اضطروهم إلى الخروج، و كانوا مائة رجل يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً أى: يطلبون منه أن يتفضّل عليهم بالرزق فى الدنيا، و بالرضوان فى الآخرة وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ بالجهاد للكفار، و هذه الجملة معطوفة على «يبتغون»، و محل الجملتين النصب على الحال، الأولى مقارنة، و الثانية مقدّرة، أى: ناوين لذلك، و يجوز أن تكون حالا مقارنة لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة للّه و رسوله، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات، و هو مبتدأ و خبره هُمُ الصَّادِقُونَ أى: الكاملون فى الصدق، الراسخون فيه. ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ المراد بالدار المدينة، و هى دار الهجرة، و معنى تبوّئهم الدار و الإيمان أنهم اتخذوها مباءة، أى: تمكّنوا منهما تمكّنا شديدا، و التبوّء فى الأصل إنما يكون للمكان، و لكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل، و قيل: إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور، و التقدير: و اعتقدوا الإيمان، أو و أخلصوا الإيمان، كذا قال أبو على الفارسى. و يجوز أن يكون على حذف مضاف، أى: تبوّءوا مضمّنا لمعنى لزموا، و التقدير: لزموا الدار و الإيمان. و معنى «من قبلهم»: من قبل هجرة المهاجرين، فلا بدّ من تقدير مضاف؛ لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين، و الموصول مبتدأ و خبره يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ و ذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين و أشركوهم فى أموالهم و مساكنهم وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً أى: لا يجد الأنصار فى صدورهم حسدا و غيظا و حزازة مِمَّا أُوتُوا أى:

ممّا أوتى المهاجرون دونهم من الفيء، بل طابت أنفسهم بذلك، و فى الكلام مضاف محذوف، أى: لا يجدون فى صدورهم

مسّ حاجة أو أثر حاجة، و كلّ ما يجده الإنسان فى صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة. و كان المهاجرون فى دور الأنصار، فلما غنم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بنى النضير دعا الأنصار و شكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم فى منازلهم، و إشراكهم فى أموالهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير بينكم و بين المهاجرين» و كان المهاجرون على ما هم عليه من السّكنى فى مساكنكم و المشاركة لكم فى أموالكم، و إن أحببتم أعطيتهم ذلك و خرجوا من دياركم، فرضوا بقسمة ذلك فى المهاجرين و طابت أنفسهم وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ الإيثار: تقديم الغير على النفس فى حظوظ الدنيا رغبة فى حظوظ الآخرة، يقال: آثرته بكذا، أى: خصصته به، و المعنى: و يقدّمون المهاجرين على أنفسهم فى حظوظ الدنيا وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ أى: حاجة و فقر، و الخصاصة مأخوذة من خصاص البيت، و هى الفرج التى تكون فيه، و جملة «و لو كان بهم خصاصة» فى محل نصب على الحال؛ و قيل: إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص، و هو الانفراد بالأمر، فالخصاصة: الانفراد بالحاجة، و منه قول الشاعر:

أمّا الرّبيع إذا تكون خصاصةعاش السقيم به و أثرى المقتر

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۴۰

وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قرأ الجمهور: يُوقَ بسكون الواو و تخفيف القاف من الوقاية. و قرأ ابن أبى عبلة و أبو حيوة بفتح الواو و تشديد القاف. و قرأ الجمهور: شُحَّ نَفْسِهِ بضم الشين. و قرأ ابن عمر و ابن أبى عبلة بكسرها. و الشحّ: البخل مع حرص، كذا فى الصحاح، و قيل:

الشحّ أشدّ من البخل. قال مقاتل: شحّ نفسه: حرص نفسه. قال سعيد بن جبير: شحّ النفس هو أخذ الحرام و منع الزكاة. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئا نهاه اللّه عنه، و لم يمنع شيئا أمره اللّه بأدائه، فقد وقى شحّ نفسه. قال طاوس: البخيل: أن يبخل الإنسان بما فى يده، و الشحّ: أن يشحّ بما فى أيدى الناس، يحبّ أن يكون له ما فى أيديهم بالحلال و الحرام، لا يقنع. و قال ابن عيينة: الشحّ: الظلم. و قال الليث:

ترك الفرائض و انتهاك المحارم. و الظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شحّ النفس بشىء من الأشياء التى يقبح الشحّ بها شرعا من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك، كما تفيده إضافة الشحّ إلى النفس. و الإشارة بقوله: فَأُولئِكَ إلى مِنْ باعتبار معناها، و هو مبتدأ و خبره هُمُ الْمُفْلِحُونَ و الفلاح: الفوز و الظفر بكل مطلوب. ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين و الأنصار، ذكر ما ينبغى أن يقوله من جاء بعدهم، فقال: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ و هم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، و قيل: هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام، و الظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم فى عصر النبوّة، و من تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوّة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصدق على الكلّ أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأوّلين و الأنصار، و الموصول مبتدأ و خبره: يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ و يجوز أن يكون الموصول معطوفا على قوله: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ فيكون «يقولون» فى محل نصب على الحال، أو مستأنف لا محل له، و المراد بالأخوة هنا أخوة الدّين، أمرهم اللّه أن يستغفروا لأنفسهم و لمن تقدّمهم من المهاجرين و الأنصار وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا أى:

غشّا و بغضا و حسدا. أمرهم اللّه سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين و الأنصار أن يطلبوا من اللّه سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل فى ذلك الصحابة دخولا أوّليا لكونهم أشرف المؤمنين، و لكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم و يطلب رضوان اللّه لهم فقد خالف ما أمره اللّه به فى هذه الآية، فإن وجد فى قلبه غلا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، و حلّ به نصيب وافر من عصيان اللّه؛ بعداوة أوليائه و خير أمة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم، و انفتح له باب من

الخذلان يفد به على نار جهنم؛ إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى اللّه سبحانه و الاستغاثة به؛ بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغلّ لخير القرون و أشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزمام و وقع فى غضب اللّه و سخطه، و هذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلّم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة؛ الذين تلاعب بهم الشيطان، و زيّن لهم الأكاذيب المختلفة و الأقاصيص المفتراة و الخرافات الموضوعة، و صرفهم عن كتاب اللّه الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و عن سنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر فى كل عصر من العصور، فاشتروا الضلالة بالهدى، و استبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر، و ما

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۴۱

زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة، و من رتبة إلى رتبة، حتى صاروا أعداء كتاب اللّه، و سنّة رسوله، و خير أمته، و صالحى عباده، و سائر المؤمنين، و أهملوا فرائض اللّه، و هجروا شعائر الدين، وسعوا فى كيد الإسلام و أهله كل السعى، و رموا الدين و أهله بكلّ حجر و مدر، و اللّه من ورائهم محيط رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: كثير الرأفة و الرحمة، بلّغهما لمن يستحق ذلك من عبادك.

و قد أخرج البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال: أوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم حقهم، و يحفظ لهم حرمتهم، و أوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار و الإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم و يتجاوز من مسيئهم. و أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن أبى هريرة قال: أتى رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

يا رسول اللّه؟ أصابنى الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا فقال: ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه اللّه، فقال رجل من الأنصار، و فى رواية فقال أبو طلحة الأنصارى: أنا يا رسول اللّه، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لا ـ تدّخريه شيئا، قالت: و اللّه ما عندى إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم و تعالى فأطفئى السراج؛ و نطوى بطوننا الليل لضيف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ففعلت، ثم غدا الضيف على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «لقد عجب اللّه الليلة من فلان و فلانة»، و أنزل فيهما:

وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عمر قال: أهدى إلى رجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رأس شاة فقال: إن أخى فلانا و عياله أحوج إلى هذا منّا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوّل، فنزلت فيهم وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ. و أخرج الفريابى و سعيد ابن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود أن رجلا قال: إنى أخاف أن أكون قد هلكت، قال:

و ما ذاك؟ قال: إنى سمعت اللّه يقول: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و أنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء، فقال له ابن مسعود: ليس ذاك بالشحّ، و لكنه البخل، و لا خير فى البخل. و إن الشحّ الّذى ذكره اللّه فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال: ليس الشحّ أن يمنع الرجل ماله، و لكنه البخل و إنه لشرّ، إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له. و أخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: من أدّى زكاة ماله فقد و قى شحّ نفسه. و أخرج الحكيم الترمذى و أبو يعلى و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما محق الإسلام محق الشحّ شىء قط». و أخرج أحمد، و البخارى فى الأدب، و مسلم و البيهقى عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، و اتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن

سفكوا دماءهم، و استحلّوا محارمهم». و قد وردت أحاديث كثيرة فى ذمّ الشحّ.

و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: الناس على ثلاث منازل، قد مضت منزلتان و بقيت منزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت، ثم قرأ:

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۴۲

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و ابن مردويه عن عائشة قالت: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فسبّوهم، ثم قرأت هذه الآية وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلا- و هو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أ فمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ الآية. ثم قال: هؤلاء الأنصار أ فأنت منهم؟ قال: لا، ثم قرأ عليه:

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ الآية، ثم قال: أ فمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء.

[سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۱ الى ۲۰]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۱) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (۱۲) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۱۳) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۱۴) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۵)

كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (۱۶) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (۱۷) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۱۹) لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰)

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين، ذكر ما جرى بين المنافقين و اليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا و الخطاب لرسول اللّه، أو لكلّ من يصلح له، و الذين نافقوا هم: عبد اللّه بن أبىّ و أصحابه، و جملة: يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مستأنفة لبيان المتعجب منه، و التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار، و جعلهم إخوانا لهم لكون الكفر قد جمعهم، و إن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان فى الكفر، و اللام فى «لإخوانهم» هى لام التبليغ، و قيل: هو من قول بنى النضير لبنى قريظة، و الأوّل أولى؛ لأن بنى النضير و بنى قريظة هم يهود، و المنافقون غيرهم، و اللام فى قوله: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ هى الموطئة للقسم، أى:

و اللّه لئن أخرجتم من دياركم لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ هذا جواب القسم، أى: لنخرجن من ديارنا فى صحبتكم وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أى: فى شأنكم، و من أجلكم أَحَداً ممّن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم و إن طال الزمان، و هو معنى قوله: أَبَداً. ثم لما و عدوهم بالخروج معهم و عدوهم بالنصرة لهم، فقالوا:

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۴۳

وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ على عدوّكم. ثم كذّبهم سبحانه فقال: وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما و عدوهم به من الخروج معهم و

النصرة لهم. ثم لمّا أجمل كذبهم فيما و عدوا به فصّل ما كذبوا فيه فقال:
لَئِنْ أُخْرِجُوا لاٰ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لاٰ يَنْصُرُونَهُمْ و قد كان الأمر كذلك، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود و هم بنو النضير و من معهم، و لم ينصروا من قوتل من اليهود و هم بنو قريظة و أهل خيبر وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ أى: لو قدّر وجود نصرهم إياهم؛ لأن ما نفاه اللّه لا يجوز وجوده، قال الزجاج:
معناه لو قصدوا نصر اليهود لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ منهزمين ثُمَّ لاٰ يُنْصَرُونَ يعنى اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم، و هم المنافقون، و قيل: يعنى لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك، بل يذلّهم اللّه، و لا ينفعهم نفاقهم، و قيل: معنى الآية: لا ينصرونهم طائعين، و لئن نصروهم مكرهين ليولنّ الأدبار، و قيل:
معنى «لا ينصرونهم»: لا يدومون على نصرهم، و الأوّل أولى، و يكون من باب قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «١» لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللّٰهِ أى: لأنتم يا معاشر المسلمين أشدّ خوفا و خشية فى صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور الجميع من اللّه، أى: من رهبة اللّه، و الرهبة هنا بمعنى المرهوبية، لأنها مصدر من المبنى للمفعول، و انتصابها على التمييز ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ أى:
ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشىء من الأشياء، و لو كان لهم فقه لعلموا أن اللّه سبحانه هو الّذى سلطكم عليهم، فهو أحقّ بالرهبة منه دونكم، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم و ضعف نكايتهم، فقال:
لاٰ يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً يعنى لا يبرز اليهود و المنافقون مجتمعين لقتالكم، و لا يقدرون على ذلك إِلاّٰ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ بالدروب و الدور، أو من وراء جدر، أى: من خلف الحيطان التى يستترون بها لجبنهم و رهبتهم. قرأ الجمهور جُدُرٍ بالجمع، و قرأ ابن عباس و مجاهد و ابن محيصن و ابن كثير و أبو عمرو جدار بالإفراد. و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم لأنها موافقة لقوله «قرى محصنة». و قرأ بعض المكّيين جُدْرٍ بفتح الجيم و إسكان الدال، و هى لغة فى الجدار. بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ أى:
بعضهم غليظ فظّ على بعض، و قلوبهم مختلفة، و نياتهم متباينة. قال السدّى: المراد اختلاف قلوبهم حيث لا يتفقون على أمر واحد. و قال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام و الوعيد: ليفعلن كذا، و المعنى: أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدّة و البأس، و إذا لاقوا عدوّا ذلّوا و خضعوا و انهزموا، و قيل: المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، و إنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف اللّه فى قلوبهم من الرعب، و الأوّل أولى لقوله:
تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتّٰى فإنه يدلّ على أن اجتماعهم إنما هو فى الظاهر مع تخالف قلوبهم فى الباطن، و هذا التخالف هو البأس الّذى بينهم الموصوف بالشدّة، و معنى شتّى: متفرّقة، قال مجاهد: يعنى اليهود و المنافقين تحسبهم جميعا و قلوبهم شتّى. و روى عنه أيضا أنه قال: المراد المنافقون. و قال الثورى: هم المشركون و أهل الكتاب. قال قتادة: «تحسبهم جميعا» أى: مجتمعين على أمر و رأى، و قلوبهم شتى متفرقة، فأهل

---

(١). الأنعام: ٢٨.

الباطن مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، و هم مجتمعون فى عداوة أهل الحقّ. و قرأ ابن مسعود: «و قلوبهم أشتّ» أى: أشدّ اختلافا ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَعْقِلُونَ أى: ذلك الاختلاف و التشتّت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئا، و لو عقلوا لعرفوا الحقّ و اتبعوه كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى:
مثلهم كمثل الذين من قبلهم، و المعنى: أن مثل المنافقين و اليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين قَرِيباً يعنى فى

زمان قريب، و انتصاب قريبا على الظرفية، أى: يشبهونهم فى زمن قريب، و قيل: العامل فيه ذاقوا، أى: ذاقوا فى زمن قريب، و معنى ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ أى: سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا بقتلهم يوم بدر، و كان ذلك قبل غزوة بنى النضير بستة أشهر، قاله مجاهد و غيره، و قيل: المراد بنو النضير حيث أمكن اللّه منهم، قاله قتادة. و قيل: قتل بنى قريظة، قاله الضحاك. و قيل: هو عامّ فى كل من انتقم اللّه منه بسبب كفره، و الأوّل أولى وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: فى الآخرة. ثم ضرب لليهود و المنافقين مثلا آخر فقال: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ أى: مثلهم فى تخاذلهم و عدم تناصرهم، فهو إما خبر مبتدأ محذوف، أو خبر آخر للمبتدأ المقدّر قبل قوله: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ على تقدير حذف حرف العطف، كما تقول: أنت عاقل، أنت عالم، أنت كريم. و قيل: المثل الأوّل خاص باليهود، و الثانى خاص بالمنافقين، و قيل: المثل الثانى بيان للمثل الأوّل. ثم بيّن سبحانه وجه الشبه فقال: إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ أى: أغراه بالكفر، و زيّنه له، و حمله عليه، و المراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، و قيل: هو عابد كان فى بنى إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ أى: فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، و قبولا لتزيينه، قال الشيطان: إنى برىء منك. و هذا يكون منه يوم القيامة. و جملة إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره، و قيل:

المراد بالإنسان هنا أبو جهل، و الأوّل أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم، قيل: و ليس قول الشيطان إِنِّي أَخافُ اللَّهَ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّى من الإنسان، فهو تأكيد لقوله: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ قرأ الجمهور: إِنِّي بإسكان الياء. و قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو بفتحها فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ قرأ الجمهور: عاقِبَتَهُما بالنصب على أنه خبر كان، و اسمها «أنهما فى النار». و قرأ الحسن و عمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان، و الخبر ما بعده؛ و المعنى:

فكان عاقبة الشيطان و ذلك الإنسان الّذى كفر أنهما صائران إلى النار خالِدَيْنِ فِيها قرأ الجمهور خالِدَيْنِ بالنصب على الحال، و قرأ ابن مسعود و الأعمش و زيد بن علىّ و ابن أبى عبلة «خالدان» على أنه خبر أنّ و الظرف متعلق به وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ أى: الخلود فى النار جزاء الظالمين، و يدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا. ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أى: اتّقوا عقابه بفعل ما أمركم به و ترك ما نهاكم عنه وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ أى: لتنظر أىّ شىء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة، و العرب تكنى عن المستقبل بالغد، و قيل: ذكر الغد تنبيها على قرب الساعة وَ اتَّقُوا اللَّهَ كرّر الأمر بالتقوى للتأكيد إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا تخفى عليه من

فتح القدير، ج‏5، ص: 245

ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ أى:

تركوا أمره، أو ما قدروه حقّ قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أى: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التى تنجيهم من العذاب، و لم يكفّوا عن المعاصى التى توقعهم فيه، ففى الكلام مضاف محذوف، أى: أنساهم حظوظ أنفسهم. قال سفيان: نسوا حقّ اللّه فأنساهم حق أنفسهم، و قيل: نسوا للّه فى الرخاء فأنساهم أنفسهم فى الشدائد أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى: الكاملون فى الخروج عن طاعة اللّه لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ فى الفضل و الرتبة، و المراد الفريقان على العموم، فيدخل فى فريق أهل النار من نسى اللّه منهم دخولا أوّليا، و يدخل فى فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولا أوّليا لأن السياق فيهم، و قد تقدم الكلام فى معنى مثل هذه الآية فى سورة المائدة، و فى سورة السجدة، و فى سورة ص. ثم أخبر سبحانه و تعالى عن أصحاب الجنة بعد نفى التساوى بينهم و بين أهل النار فقال:

أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ أى: الظافرون بكلّ مطلوب، الناجون من كلّ مكروه.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا قال: عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، و رفاعة بن تابوت، و

عبد اللّه بن نبتل، و أوس بن قيظى، و إخوانهم بنو النضير. و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر، و أبو نعيم فى الدلائل، عنه: أن رهطا من بنى عوف بن الحارث منهم عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، و وديعة بن مالك، و سويد و داعس بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا و تمنعوا فإننا لا نسلمكم، و إن قوتلتم قاتلنا معكم، و إن أخرجتم خرجنا معكم، فتربّصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، و قذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجليهم و يكفّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة «١»، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، و منهم من سار إلى الشام.

و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى قال: هم المشركون. و أخرج عبد الرزاق و ابن راهويه، و أحمد فى الزهد، و عبد بن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن علىّ بن أبى طالب أن رجلا كان يتعبد فى صومعة، و أن امرأة كان لها إخوة، فعرض لها شىء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال:

اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها و دفنها، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: إنى أنا الّذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجيك، فسجد له، فذلك قوله: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ الآية. قلت: و هذا لا يدلّ على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية، بل يدلّ على أنه من جملة من تصدق عليه. و قد أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا، و ليس فيه ما يدلّ على أنه المقصود بالآية. و أخرجوه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود

---

(١). «الحلقة»: السلاح، و قيل: الدروع خاصة.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢۴۶

فى قوله: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ قال: ضرب اللّه مثل الكفار و المنافقين الذين كانوا على عهد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر.

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ٢١ الى ٢۴]

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢۴)

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة و أهل النار، و بيّن عدم استوائهم فى شىء من الأشياء، ذكر تعظيم كتابه الكريم، و أخبر عن جلالته، و أنه حقيق بأن تخشع له القلوب، و ترقّ له الأفئدة، فقال: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أى: من شأنه، و عظمته، وجودة ألفاظه، و قوّة مبانيه، و بلاغته، و اشتماله على المواعظ التى تلين لها القلوب؛ أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة فى الأرض لرأيته مع كونه فى غاية القسوة و شدّة الصلابة و ضخامة الجرم خاشعا متصدعا، أى: متشققا من خشية اللّه سبحانه؛ حذرا من عقابه، و خوفا من أن لا يؤدى ما يجب عليه من تعظيم كلام اللّه، و هذا تمثيل و تخييل يقتضى علوّ شأن القرآن و قوّة تأثيره فى القلوب، و يدلّ على هذا قوله: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ و ينزجروا بالزواجر، و فيه توبيخ و تقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، و لا اتعظوا بمواعظه، و لا

انزجروا بزواجره، و الخاشع: الذليل المتواضع.

و قيل: الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت و لتصدّع من نزوله عليه، و قد أنزلناه عليك و ثبتناك له و قوّيناك عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم؛ لأن اللّه سبحانه ثبّته لما لا تثبت له الجبال الرواسى. ثم أخبر سبحانه بربوبيته و عظمته، فقال: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و فى هذا تقرير للتوحيد و دفع للشرك عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: عالم ما غاب من الإحساس و ما حضر، و قيل: عالم السرّ و العلانية، و قيل: ما كان و ما يكون، و قيل: الآخرة و الدنيا، و قدّم الغيب على الشهادة لكونه متقدّما وجودا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ قد تقدّم تفسير هذين الاسمين هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كرّره للتأكيد و التقرير لكون التوحيد حقيقا بذلك الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أى: الطاهر من كل عيب، المنزّه عن كل نقص، و القدس: بالتحريك فى لغة أهل الحجاز السّطل؛ لأنه يتطهر به، و منه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها الماء. قرأ الجمهور: الْقُدُّوسُ بضم القاف. و قرأ أبو ذرّ و أبو السّمّال بفتحها، و كان سيبويه يقول: سبوح قدّوس بفتح أوّلهما، و حكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائى أعرابيا فصيحا يقرأ: الْقَدُّوسُ بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل إلا السبوح و القدّوس،

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۴۷

فإن الضم فيهما أكثر، و قد يفتحان. السَّلامُ أى: الّذى سلم من كل نقص و عيب، و قيل: المسلّم على عباده فى الجنة، كما قال: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ «۱» و قيل: الّذى سلم الخلق من ظلمه، و به قال الأكثر، و قيل: المسلم لعباده، و هو مصدر وصف به للمبالغة. الْمُؤْمِنُ أى: الّذى وهب لعباده الأمن من عذابه، و قيل: المصدّق لرسله بإظهار المعجزات، و قيل: المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، و المصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، يقال: أمنه من الأمن و هو ضدّ الخوف، و منه قول النابغة:

و المؤمن العائذات الطير يمسحهاركبان مكّة بين الغيل و السّند «۲»

و قال مجاهد: المؤمن الّذى وحّد نفسه بقوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ. قرأ الجمهور:

الْمُؤْمِنُ بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن. و قرأ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله: وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ «۳» و قال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة لأن معناه أنه كان خائفا فأمنه غيره. الْمُهَيْمِنُ أى: الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم. كذا قال مجاهد و قتادة و مقاتل: يقال: همين يهيمن فهو مهيمن؛ إذا كان رقيبا على الشىء. قال الواحدى: و ذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن، فيكون بمعنى المؤمن، و الأوّل أولى، و قد قدّمنا الكلام على المهيمن فى سورة المائدة، الْعَزِيزُ الّذى لا يوجد له نظير، و قيل: القاهر، و قيل: الغالب غير المغلوب، و قيل: القوىّ، الْجَبَّارُ جبروت اللّه: عظمته، و العرب تسمّى الملك الجبار، و يجوز أن يكون من جبر:

إذا أغنى الفقير، و أصلح الكسير، و يجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد، فهو الّذى جبر خلقه على ما أراد منهم، و به قال السدّى و مقاتل، و اختاره الزجاج و الفراء، قال: هو من أجبره على الأمر، أى: قهره. قال: و لم أسمع فعّالا من أفعل إلا فى جبّار من أجبر، و درّاك من أدرك، و قيل: الجبار الّذى لا تطاق سطوته. الْمُتَكَبِّرُ أى: الّذى تكبر عن كل نقص، و تعظّم عمّا لا يليق به، و أصل التكبر الامتناع و عدم الانقياد، و منه قول حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحتبها كبرياء الصّعب و هى ذلول

و الكبر فى صفات اللّه مدح، و فى صفات المخلوقين ذمّ. قال قتادة: هو الّذى تكبر عن كل سوء. قال ابن الأنبارى: المتكبر: ذو الكبرياء، و هو الملك، ثم نزّه سبحانه نفسه عن شرك المشركين، فقال:

(١). يس: ٥٨.

(٢). «العائذات»: ما عاذ بالبيت من الطير.

«الغيل»: الشجر الكثيف الملتف.

«السند»: ما قابلك من الجبل و علا عن السفح.

(٣). الأعراف: ١٥٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٤٨

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: عمّا يشركونه أو عن إشراكهم به هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ أى: المقدّر للأشياء على مقتضى إرادته و مشيئته الْبارِئُ أى: المنشئ، المخترع للأشياء، الموجد لها. و قيل: المميّز لبعضها من بعض.

الْمُصَوِّرُ أى: الموجد للصور، المركّب لها على هيئات مختلفة، فالتصوير مترتب على الخلق و البراية و تابع لهما، و معنى التصوير التخطيط و التشكيل، قال النابغة:

الخالق البارئ المصوّر فى الأرحام ماء حتّى يصير دما

و قرأ حاطب بن أبى بلتعة الصحابى: «المصوّر» بفتح الواو و نصب الراء على أنه مفعول له للبارئ، أى: الّذى برأ المصوّر، أى: ميّزه. لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى قد تقدّم بيانها و الكلام فيها عند تفسير قوله:

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها «١» يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى: ينطق بتنزيهه بلسان الحال، أو المقال كل ما فيهما وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: الغالب لغيره الّذى لا يغالبه مغالب، الحكيم فى كل الأمور التى يقضى بها.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس، فى قوله: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ قال:

يقول لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل، حمّلته إياه، تصدّع و خشع من ثقله و من خشية اللّه، فأمر اللّه الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة و التخشّع. قال: وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ و أخرج الديلمى عن ابن مسعود و علىّ مرفوعا فى قوله: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ إلى آخر السورة قال: هى رقية الصداع. رواه الديلمى بإسنادين لا ندرى كيف حال رجالهما.

و أخرج الخطيب فى تاريخه، بإسناده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنى قرأت على حمزة، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإنى قرأت على الأعمش ثم ساق الإسناد مسلسلا هكذا إلى ابن مسعود فقال: فإنى قرأت على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فلما بلغت هذه الآية قال لى: «ضع يدك على رأسك، فإن جبريل لما نزل بها قال لى: ضع يدك على رأسك، فإنها شفاء من كل داء إلا السام، و السام الموت». قال الذهبى: هو باطل. و أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم و الليلة، و ابن مردويه عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أمر رجلا إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سور الحشر و قال: «إن متّ متّ شهيدا». و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من تعوّذ باللّه من الشيطان ثلاث مرات، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث اللّه سبعين ملكا يطردون عنه شياطين الإنس و الجنّ، إن كان ليلا حتى يصبح، و إن كان نهارا حتى يمسى» و أخرج أحمد و الدارمى، و الترمذى و حسّنه، و الطبرانى و ابن الضريس، و البيهقى فى الشعب، عن معقل بن يسار عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و كلّ اللّه به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يمسى، و إن مات ذلك اليوم مات

(۱). الأعراف: ۱۸۰.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۴۹

شهيدا، و من قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة». قال الترمذى بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن عدى و ابن مردويه و الخطيب، و البيهقى فى الشعب، عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ خواتيم الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته أوجب اللّه له الجنة». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ قال: السرّ و العلانية. و فى قوله:

الْمُؤْمِنُ قال: المؤمّن خلقه من أن يظلمهم، و فى قوله: الْمُهَيْمِنُ قال: الشاهد.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۵۰

سورة الممتحنة

اشارة

و هى مدنية، قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الممتحنة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و الممتحنة، بكسر الحاء، اسم فاعل أضيف الفعل إليها مجازا؛ كما سميت سورة براءة الفاضحة؛ لكشفها عن عيوب المنافقين، و قيل: الممتحنة بفتح الحاء اسم مفعول أضافه إلى المرأة التى نزلت فيها، و هى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، لقوله سبحانه: فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ «۱».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱ الى ۳]

فتح القدير ج‌۵ ۲۹۹

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (۲) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳)

قال المفسرون: نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ فى حاطب بن أبى بلتعة؛ حين كتب إلى مشركى قريش يخبرهم بمسير النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إليهم، و سيأتى ذكر القصة آخر البحث إن شاء اللّه، و قوله: عَدُوِّي هو المفعول الأوّل وَ عَدُوَّكُمْ معطوف عليه، و المفعول الثانى «أولياء»، و أضاف سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيما لجرمهم، و العدوّ مصدر يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، و الآية تدلّ على النهى عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه. تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أى: توصلون إليهم المودّة، على أن الباء زائدة، أو هى سببية. و المعنى: تلقون إليهم أخبار النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بسبب المودّة التى بينكم و بينهم.

قال الزجاج: تلقون إليهم أخبار النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم و سرّه بالمودّة التى بينكم و بينهم، و الجملة فی محل نصب على الحال من ضمير «تتخذوا»، و يجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته أو لتفسير موالاتهم إياهم، و يجوز أن تكون فى محل نصب صفة لأولياء، و جملة: وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِ فى محل نصب على الحال من فاعل تلقون، أو من فاعل «لا تتخذوا»، و يجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار. قرأ الجمهور:

بِما جاءَكُمْ بالباء الموحدة. و قرأ الجحدرى و عاصم فى رواية عنه: لما جاءكم باللام، أی: لأجل

---

(۱). الممتحنة: ۱۰.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۵۱

ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به، أی: كفروا باللّه و الرسول لأجل ما جاءكم من الحق، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سببا للكفر توبيخا لهم يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم، أو فى محل نصب على الحال، و قوله: أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ تعليل للإخراج، أی: يخرجونكم لأجل إيمانكم، أو كراهة أن تؤمنوا إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِی سَبِيلِی وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِی جواب الشرط محذوف:

إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودّة، أو إن كنتم كذلك فلا تتخذوا عدوّى و عدوّكم أولياء، و انتصاب جهادا و ابتغاء على العلة: أی إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد فى سبيلى و لأجل ابتغاء مرضاتى، و جملة: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مستأنفة للتقريع و التوبيخ، أی: تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودّة، و قيل: هى بدل من قوله:

«تلقون». ثم أخبر بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شی‌ء، فقال: وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ و الجملة فى محل نصب على الحال، أی: بما أضمرتم و ما أظهرتم، و الباء فى «بما» زائدة. يقال: علمت كذا و علمت بكذا، هذا على أن «أعلم» مضارع، و قيل: هو أفعل تفضيل، أی: أعلم من كل أحد بما تخفون و ما تعلنون وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أی: من يفعل ذلك الاتّخاذ لعدوّى و عدوّكم أولياء، و يلقى إليهم بالمودّة، فقد أخطأ طريق الحق و الصواب، و ضلّ عن قصد السبيل إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً أی: إن يلقوكم و يصادفوكم يظهروا لكم ما فى قلوبهم من العداوة، و منه المثاقفة: و هى طلب مصادفة الغرّة فى المسايفة، و قيل: المعنى: إن يظفروا بكم و يتمكّنوا منكم، و المعنيان متقاربان وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ أی: يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب و نحوه، و ألسنتهم بالشتم و نحوه وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ هذا معطوف على جواب الشرط، أو على جملة الشرط و الجزاء، و رجّح هذا أبو حيان. و المعنى:

أنهم تمنّوا ارتدادهم و ودّوا رجوعهم إلى الكفر «۱» لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ أی: لا تنفعكم القرابات على عمومها و لا الأولاد، و خصّهم بالذّكر مع دخولهم فى الأرحام لمزيد المحبة لهم و الحنوّ عليهم، و المعنى: أن هؤلاء لا ينفعونكم حين توالوا الكفار لأجلهم؛ كما وقع فى قصة حاطب بن أبى بلتعة، بل الّذى ينفعكم هو ما أمركم اللّه به من معاداة الكفار و ترك موالاتهم. و جملة يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام و الأولاد فى ذلك اليوم، و معنى يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ يفرّق بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة، و أهل معصيته النار. و قيل: المراد بالفصل بينهم أنه يفرّ كلّ منهم من الآخر من شدّة الهول، كما فى قوله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ «۲» الآية. قيل: و يجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله، أی: لن تنفعكم أرحامكم و لا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه، و يبتدأ بقوله: يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ و الأولى أن يتعلق بما بعده كما ذكرنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه شی‌ء من أقوالكم و أفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك.

قرأ الجمهور: يَفْصِلُ بضم الياء و تخفيف الفاء و فتح الصاد مبنيا للمفعول، و اختار هذه القراءة أبو عبيد.

(۱). المقصود أن الكافرين تمنوا ارتداد المؤمنين عن الحق و رجوعهم إلى الكفر.

(۲). عبس: ۳۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۵۲

و قرأ عاصم بفتح الياء و كسر الصاد مبنيا للفاعل. و قرأ حمزة و الكسائى بضم الياء و فتح الفاء و كسر الصاد مشدّدة. و قرأ علقمة بالنون. و قرأ قتادة و أبو حيوة بضم الياء و كسر الصاد مخففة.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غير هما عن علىّ بن أبى طالب قال: «بعثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنا و الزبير و المقداد، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ «۱» فإن بها ظعينة «۲» معها كتاب فخذوه منها فأتونى به، فخرجنا حتى أتينا الرّوضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى من كتاب، فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم:

ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علىّ يا رسول اللّه، إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش و لم أكن من أنفسها، و كان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم و أموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتى، و ما فعلت ذلك كفرا و لا ارتدادا عن دينى، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم:

صدق، فقال عمر: دعنى أضرب عنقه، فقال: إنه شهد بدرا، و ما يدريك لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. و نزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ. و فى الباب أحاديث مسندة و مرسلة متضمّنة لبيان هذه القصة، و أن هذه الآيات إلى قوله: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ «۳» نازلة فى ذلك.

[سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۴ الى ۹]

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (۴) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۵) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷) لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۸)

إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹)

لما فرغ سبحانه من النهى عن موالاة المشركين، و الذمّ لمن وقع منه ذلك، ضرب لهم إبراهيم مثلا حين

(۱). «روضة خاخ»: موضع بين مكة و المدينة، على اثنى عشر ميلا من المدينة.

(۲). «الظعينة»: هى المرأة فى الهودج.

(۳). الممتحنة: ۴.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۵۳
تبرّأ من قومه، فقال: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، أی: خصلة حمیدة تقتدون بها، یقال: لی به أسوة فی هذا الأمر، أی: اقتداء، فأرشدهم سبحانه إلی الاقتداء به فی ذلک إلا فی استغفاره لأبیه. قرأ الجمهور إسوة بکسر الهمزة، و قرأ عاصم بضمها و هما لغتان، و أصل الأسوة بالضم و الکسر: القدوة، و یقال:
هو أسوتک، أی: مثلک و أنت مثله، و قوله: «فی إبراهیم و الذین معه» متعلّق بأسوة، أو بحسنة، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضمیر المستتر فی «حسنة»، أو خبر کان، «و لکم» للبیان، «و الذین معه» هم أصحابه المؤمنون. و قال ابن زید: هم الأنبیاء. قال الفرّاء: یقول أفلا تأسیت یا حاطب بإبراهیم، فتتبرأ من أهلک کما تبرأ إبراهیم من أبیه و قومه؟! و الظرف فی قوله: إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ هو خبر کان، أو متعلّق به، أی: وقت قولهم لقومهم الکفار إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ جمع بریء، مثل: شرکاء و شریک، و ظرفاء و ظریف. قرأ الجمهور: بُرَآؤُا بضم الباء و فتح الراء و ألف بین همزتین، ککرماء فی کریم. و قرأ عیسی ابن عمر و ابن أبی إسحاق بکسر الباء و همزة واحدة بعد ألف، ککرام فی جمع کریم. و قرأ أبو جعفر بضم الباء و همزة بعد ألف وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و هی الأصنام كَفَرْنا بِكُمْ أی: بما آمنتم به من الأوثان، أو بدینکم، أو بأفعالکم وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً أی: هذا دأبنا معکم ما دمتم علی کفرکم حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ و تترکوا ما أنتم علیه من الشرک، فإذا فعلتم ذلک صارت تلک العداوة موالاة و البغضاء محبة إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ هو استثناء متصل من قوله «فِي إِبْراهِيمَ» بتقدیر مضاف محذوف لیصح الاستثناء، أی: قد کانت لکم أسوة حسنة فی مقالات إبراهیم إلا قوله لأبیه، أو من «أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»، و صحّ ذلک لأن القول من جملة الأسوة، کأنه قیل: قد کانت أسوة حسنة فی إبراهیم فی جمیع أقواله و أفعاله إلا قوله لأبیه، أو من التبری و القطیعة التی ذکرت، أی: لم یواصله إلا قوله، ذکر هذا ابن عطیة، أو هو منقطع، أی: لکن قول إبراهیم لأبیه لأستغفرنّ لک، فلا تأتسوا به، فتستغفرون للمشرکین، فإنه کان عن موعدة وعدها إیاه، أو أن ذلک إنما وقع منه لأنه ظنّ أنه قد أسلم، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ و قد تقدّم تحقیق هذا فی سورة براءة وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ هذا من تمام القول المستثنی، یعنی ما أغنی عنک، و ما أدفع عنک، من عذاب اللّه شیئا، و الجملة فی محل نصب علی الحال من فاعل «لَأَسْتَغْفِرَنَّ»، فالاستثناء متوجّه إلی الاستغفار لا إلی هذا القید، فإنه إظهار للعجز و تفویض للأمر إلی اللّه، و ذلک من خصال الخیر. رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ هذا من دعاء إبراهیم و أصحابه و ممّا فیه أسوة حسنة یقتدی به فیها، و قیل: هو تعلیم للمؤمنین أن یقولوا هذا القول، و التوکل: هو تفویض الأمور إلی اللّه، و الإنابة: الرجوع، و المصیر: المرجع، و تقدیم الجارّ و المجرور لقصر التوکل و الإنابة و المصیر علی اللّه رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قال الزجاج: لا تظهرهم علینا فیظنّوا أنهم علی حقّ؛ فیفتنوا بذلک. و قال مجاهد: لا تعذبنا بأیدیهم و لا بعذاب من عندک، فیقولوا: لو کان هؤلاء علی حقّ ما أصابهم هذا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ أی: الغالب الّذی لا یغالب الْحَكِيمُ ذو الحکمة البالغة لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أی: لقد کان لکم فی إبراهیم و الذین معه قدوة حسنة،
فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۵۴
و کرّر هذا للمبالغة و التأکید، و قیل: إن هذا نزل بعد الأوّل بمدّة لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ بدل من قوله «لکم» بدل بعض من کلّ، و المعنی: أن هذه الأسوة إنما تکون لمن یخاف اللّه و یخاف عقاب الآخرة، أو یطمع فی الخیر من اللّه فی الدنیا و فی الآخرة وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أی:
یعرض عن ذلک، فإن اللّه هو الغنیّ عن خلقه، الحمید إلی أولیائه عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً و ذلک بأن یسلموا فیصیروا من أهل دینکم، و قد أسلم قوم منهم بعد فتح مکة، و حسن إسلامهم، و وقعت بینهم و بین من

تقدّمهم فى الإسلام مودّة، و جاهدوا، و فعلوا الأفعال المقرّبة إلى اللّه، و قيل:
المراد بالمودّة هنا تزويج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بأمّ حبيبة بنت أبى سفيان. و لا وجه لهذا التخصيص، و إن كان من جملة ما صار سببا إلى المودّة، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكنها لم تحصل المودّة إلا بإسلامه يوم الفتح و ما بعده، وَ اللَّهُ قَدِيرٌ أى: بليغ القدرة كثيرها، وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغهما، كثيرهما. ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغى للمؤمنين من معاداة الكفار و ترك موادّتهم فصّل القول فيمن يجوز برّه منهم و من لا يجوز، فقال: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أى: لا ينهاكم عن هؤلاء أَنْ تَبَرُّوهُمْ هذا بدل من الموصول بدل اشتمال، و كذا قوله: وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ يقال: أقسطت إلى الرجل؛ إذا عاملته بالعدل. قال الزجاج:
المعنى: و تعدلوا فيما بينكم و بينهم من الوفاء بالعهد إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أى: العادلين؛ و معنى الآية: أن اللّه سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، و على أن لا يظاهروا الكفّار عليهم، و لا ينهى عن معاملتهم بالعدل. قال ابن زيد: كان هذا فى أوّل الإسلام عند الموادعة و ترك الأمر بالقتال، ثم نسخ. قال قتادة: نسختها: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١» و قيل:
هذا الحكم كان ثابتا فى الصلح بين النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و بين قريش، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم. و قيل:
هى خاصة فى حلفاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و من بينه و بينه عهد، قاله الحسن. و قال الكلبى: هم خزاعة و بنو الحارث ابن عبد مناف. و قال مجاهد: هى خاصة فى الذين آمنوا و لم يهاجروا، و قيل: هى خاصة بالنساء و الصبيان.
و حكى القرطبى عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة. ثم بيّن سبحانه من لا يحلّ برّه و لا العدل فى معاملته فقال:
إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ و هم صناديد الكفر من قريش وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أى: عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك، و هم سائر أهل مكة من دخل معهم فى عهدهم، و قوله: أَنْ تَوَلَّوْهُمْ بدل اشتمال من الموصول كما سلف وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى: الكاملون فى الظلم؛ لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوّا للّه و لرسوله و لكتابه، و جعلوهم أولياء لهم.
و قد أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ قال: نهوا أن يتأسوا

---

(١). التوبة: ٥.

باستغفار إبراهيم لأبيه، و قوله: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لا تعذبنا بأيديهم، و لا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقّ ما أصابهم هذا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قال: فى صنيع إبراهيم كله إلا فى الاستغفار لأبيه، و هو مشرك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قال: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا. و أخرج ابن مردويه عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرّحمن عن أبى هريرة قال: أوّل من قاتل أهل الردّة على إقامة دين اللّه أبو سفيان بن حرب، و فيه نزلت هذه الآية: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً. و أخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أقبل فلقى ذا الخمار مرتدّا، فكان أوّل من قاتل فى الردّة و جاهد عن الدّين. قال: و هو فيمن قال اللّه فيه: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن عدىّ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآية

قال: كانت المودة التى جعل بينهم تزويج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمّ حبيبة بنت أبى سفيان، فصارت أمّ المؤمنين، فصار معاوية خال المؤمنين. و فى صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال: «يا رسول اللّه ثلاث أعطنيهن، قال: نعم، قال: تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم، قال: و معاوية تجعله كاتبا بين يديك، قال: نعم، قال:
و عندى أحسن العرب و أجمله أمّ حبيبة بنت أبى سفيان أزوّجكها» الحديث. و أخرج الطيالسى و أحمد و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و النحاس فى ناسخه، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزّى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا: ضباب و أقط «١» و سمن و هى مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها؛ حتى أرسلت إلى عائشة أن سلى عن هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألته، فأنزل اللّه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها و تدخلها بيتها. و زاد ابن أبى حاتم: فى المدّة التى كانت بين قريش و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و فى البخارى و غيره عن أسماء بنت أبى بكر قالت: «أتتنى أمى راغبة و هى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسألت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: أ أصلها؟ فأنزل اللّه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ الآية: فقال: نعم صلى أمك».

---

(١). «ضباب»: جمع ضبّة، و هى جلد الضّبّ يدبغ ليوضع فيه السّمن.

«أقط»: لبن مجفف يابس متحجّر يطبخ به.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٥٦

[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١٠ الى ١٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (١٣)

لما ذكر سبحانه حكم فريقى الكافرين فى جواز البرّ و الإقساط للفريق الأوّل دون الفريق الثانى؛ ذكر حكم من يظهر الإيمان، فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ من بين الكفار، و ذلك أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء أبى اللّه أن يرددن إلى المشركين، و أمر بامتحانهنّ فقال: فَامْتَحِنُوهُنَ أى: فاختبروهنّ. و قد اختلف فيما كان يمتحنّ به، فقيل: كنّ يستحلفن باللّه ما خرجن من بغض زوج، و لا رغبة من أرض إلى أرض، و لا لالتماس دنيا، بل حبا للّه و لرسوله و رغبة فى دينه، فإذا حلفت كذلك أعطى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم زوجها مهرها، و ما أنفق عليها، و لم يردّها إليه. و قيل: الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، و قيل:
ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الآية، و هى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ إلى آخرها.

و اختلف أهل العلم هل دخل النساء فى عهد الهدنة أم لا؟ على قولين، فعلى القول بالدخول: تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد، و به قال الأكثر. و على القول بعدمه: لا نسخ و لا تخصيص، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهنّ لا يعلمها إلا اللّه سبحانه، و لم يتعبّدكم بذلك، و إنما تعبّدكم بامتحانهنّ حتى يظهر لكم ما يدلّ على صدق دعواهنّ فى الرغوب فى الإسلام فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ أى: علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الّذى أمرتم به فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ أى:

إلى أزواجهنّ الكافرين، و جملة لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَ تعليل للنهى عن إرجاعهنّ. و فيه دليل على أن المؤمنة لا تحلّ لكافر، و أن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها، لا مجرّد هجرتها، و التكرير لتأكيد الحرمة، أو الأوّل: لبيان زوال النكاح، و الثانى: لامتناع النكاح الجديد وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا أى: و أعطوا أزواج هؤلاء اللاتى هاجرون و أسلمن مثل ما أنفقوا عليهنّ من المهور. قال الشافعى: و إذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَ لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ أى: مهورهنّ، و ذلك بعد انقضاء عدتهن كما تدل عليه أدلة وجوب العدة، وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ قرأ الجمهور تُمْسِكُوا بالتخفيف من الإمساك، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، لقوله: فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ* «١» و قرأ الحسن و أبو العالية و أبو عمرو بالتشديد من التمسّك،

---

(١). البقرة: ٢٣١ و الطلاق: ٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٥٧

و العصم: جمع عصمة، و هى ما يعتصم به، و المراد هنا عصمة عقد النكاح، و المعنى أنّ من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدّين. قال النخعى: هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر، و كان الكفار يتزوجون المسلمات، و المسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، و هذا خاصّ بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب. و قيل: عامة فى جميع الكوافر مخصّصة بإخراج الكتابيات منها. و قد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم و ثنى أو كتابىّ لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدّة. و قال بعض أهل العلم: يفرق بينهما بمجرّد إسلام الزوج، و هذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولا بها، و أما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم فى انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدة عليها وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ أى: اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار: هاتوا مهرها، و يقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين و أسلمت: ردّوا مهرها على زوجها الكافر ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ أى: ذلكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم اللّه، و قوله: يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فى محل نصب على الحال. أو مستأنفة وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أى: بليغ العلم لا تخفى عليه خافية، بليغ الحكمة فى أقواله و أفعاله. قال القرطبى: و كان هذا مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصّة بإجماع المسلمين وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْ‏ءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ لما نزلت الآية المتقدّمة قال المسلمون: رضينا بحكم اللّه و كتبوا إلى المشركين فامتنعوا، فنزل قوله: وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْ‏ءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات، و قيل: المعنى: و إن انفلت منكم أحد من نساءكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة فَعاقَبْتُمْ قال الواحدى: قال المفسرون: فعاقبتم فغنمتم. قال الزجاج: تأويله: و كانت العقبى لكم، أى: كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا من مهر المهاجرة التى تزوّجوها و دفعوه إلى الكفار، و لا تؤتوه زوجها الكافر. قال قتادة و مجاهد: إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفى‏ء و الغنيمة، و هذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح. و حاصل معناها أن مِنْ أَزْواجِكُمْ يجوز أن يتعلّق بفاتكم، أى: من جهة أزواجكم، و

يراد بالشيء المهر الّذى غرمه الزوج، و يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء. ثم يجوز فى شيء أن يراد به المهر، و لكن لا بدّ على هذا من مضاف محذوف، أى: من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف و صفته، و يجوز أن يراد بشيء النساء: أىّ نوع و صنف منهنّ، و هو ظاهر قوله: مِنْ أَزْواجِكُمْ و قوله: فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ و المعنى: أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت، و لم يردّ عليه المشركون مهرها، كما حكم اللّه مثل ذلك المهر الّذى أنفقه عليها من الغنيمة وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أى: احذروا أن تتعرّضوا لشيء ممّا يوجب العقوبة عليكم، فإن الإيمان الّذى أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ أى: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، و عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً من الأشياء كائنا ما كان، هذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة أتين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يبايعنه، فأمره اللّه

أن يأخذ عليهنّ أن لا يشركن وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَ و هو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَ أى: لا يلحقن بأزواجهنّ ولدا ليس منهم.

قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدى منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهنّ و أرجلهنّ، و ذلك أن الولد إذا وضعته الأمّ سقط بين يديها و رجليها، و ليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها، لأن ذلك قد دخل تحت النهى عن الزنا وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ أى: فى كل أمر هو طاعة للّه. قال عطاء: فى كل برّ و تقوى، و قال المقاتلان: عنى بالمعروف النهى عن النوح، و تمزيق الثياب، و جزّ الشعر، و شقّ الجيب، و خمش الوجوه، و الدعاء بالويل، و كذا قال قتادة و سعيد بن المسيب و محمد ابن السائب و زيد بن أسلم، و معنى القرآن أوسع مما قالوه. قيل: و وجه التقييد بالمعروف، مع كونه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق فَبايِعْهُنَ هذا جواب إذا، و المعنى: إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهنّ، و لم يذكر فى بيعتهن الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج؛ لوضوح كون هذه الأمور و نحوها من أركان الدين و شعائر الإسلام. و إنما خصّ الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ أى: اطلب من اللّه المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغ المغفرة و الرحمة لعباده يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هم جميع طوائف الكفر، و قيل: اليهود خاصة، و قيل: المنافقون خاصة. و قال الحسن: اليهود و النصارى. و الأوّل أولى؛ لأن جميع طوائف الكفر تتّصف بأن اللّه سبحانه غضب عليها قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ «من» لابتداء الغاية، أى: إنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ أى: كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، و قيل: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة؛ لأنهم قد وقفوا على الحقيقة، و علموا أنه لا نصيب لهم فى الآخرة، فتكون مِنَ على الوجه الأوّل ابتدائية، و على الثانى بيانية، و الأوّل أولى.

و قد أخرج البخارى عن المسور بن مخرمة و مروان بن الحكم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ حتى بلغ: وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك. و أخرجه أيضا من حديثهما بأطول من هذا، و فيه و كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممّن خرج إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هى عاتق «١»، فجاء أهلها يسألون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يرجعها إليهم حتى أنزل اللّه فى المؤمنات ما أنزل. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَامْتَحِنُوهُنَ قال: كان امتحانهنّ أن يشهدن أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا عبده و رسوله، فإذا علموا أن ذلك حقا منهنّ لم يرجعن إلى الكفار، و أعطى بعلها فى الكفار الذين عقد لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صداقها الّذى أصدقها و أحلهنّ للمؤمنين إذا آتوهنّ أجورهنّ. و أخرج ابن مردويه

(۱). «العاتق»: الشابة أول ما تدرک (النهاية ۳/ ۱۷۸)

عنه قال: نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح، فكان من أسلم من نسائهم، فسئلت: ما أخرجک؟ فإن كانت خرجت فرارا من زوجها و رغبة عنه ردت، و إن كانت خرجت رغبة فی الإسلام أمسک و ردّ علی زوجها مثل ما أنفق. و أخرج ابن أبی أسامة و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الطبرانی فی الكبير، و ابن مردويه، بسند حسن كما قال السيوطی، عن ابن عباس فی قوله: إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَ قال: كان إذا جاءت المرأة النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم حلفها عمر بن الخطاب باللّه ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، و باللّه ما خرجت من بغض زوج، و باللّه ما خرجت التماس دنيا، و باللّه ما خرجت إلا حبا للّه و رسوله. و أخرج ابن منيع من طريق الكلبی عن أبی صالح عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب و تأخرت امرأته فی المشركين، فأنزل اللّه: وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و البخاری و الترمذی و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة: أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ إلی قوله: غَفُورٌ رَحِيمٌ فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: قد بايعتک- كلاما-، و اللّه ما مسّت يده يد امرأة قط من المبايعات ما بايعهنّ إلا بقوله: قد بايعتک علی ذلک. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن سعد و أحمد و عبد بن حميد، و الترمذی و صحّحه، و النسائی و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت: «أتيت النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فی نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما فی القرآن أن لا نشرک باللّه شيئا حتی بلغ: وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فقال: فيما استطعتن و أطقتن، فقلنا: اللّه و رسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول اللّه ألا تصافحنا؟ قال: إنی لا أصافح النساء، إنما قولی لمائة امرأة كقولی لامرأة واحدة» و فی الباب أحاديث. و أخرج البخاری و مسلم و غير هما عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فقال:

«بايعونی علی أن لا تشركوا باللّه شيئا، و لا تسرقوا، و لا تزنوا، و قرأ آية النساء، فمن وفی منكم فأجره علی اللّه، و من أصاب من ذلک شيئا فعوقب فی الدنيا فهو كفارة له، و من أصاب من ذلک شيئا فستره اللّه فهو إلی اللّه، إن شاء عذبه و إن شاء غفر له». و أخرج ابن المنذر من طريق ابن جريح عن ابن عباس فی قوله: وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ قال: كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عنه فی الآية. قال لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ قال: إنما هو شرط شرطه اللّه للنساء. و أخرج ابن سعد و ابن أبی شيبة و أحمد و عبد ابن حميد، و الترمذی و حسّنه، و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية قالت: قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الّذی لا ينبغی لنا أن نعصيک فيه؟ قال: «لا تنحن، قلت: يا رسول اللّه إن بنی فلان أسعدونی علی عمی لا بدّ لی من قضائهن. فأبی علی فعاودته مرارا فأذن لی فی قضائهنّ، فلم أنح بعد، و لم يبق من النسوة امرأة إلا و قد ناحت غيری». و أخرج البخاری و مسلم و غير هما عن أمّ عطية قالت: «بايعنا رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم فقرأ علينا أن لا نشرک باللّه شيئا و نهانا عن النياحة، فقبضت امرأة منا يدها فقالت: يا رسول اللّه إن فلانة أسعدتنی و أنا أريد أن أجزيها، فلم يقل لها شيئا. فذهبت

ثم رجعت فقالت: ما وفت منا امرأة إلا أمّ سليم و أمّ العلاء و بنت أبی سبرة امرأة معاذ أو بنت أبی سبرة و امرأة معاذ». و قد وردت أحاديث كثيرة فی النهی عن النوح. و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر عن ابن عباس قال:

كان عبد اللّه بن عمرو و زيد بن الحارث يودّان رجلا من اليهود، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

الآيهٔ. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن مسعود فى قوله:
قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ قال: فلا يؤمنون بها و لا يرجونها كما يئس الكافر إذا مات و عاين ثوابه و اطلع عليه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى الآيهٔ قال: هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرهٔ. و أخرج ابن جرير عنه فى الآيهٔ قال: من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم اللّه.
فتح القدير، ج۵، ص: ۲۶۱

سورهٔ الصّف

اشارهٔ

و هى مدنيهٔ. قال الماوردى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورهٔ الصف بالمدينهٔ. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورهٔ الصفّ بمكهٔ، و لعل هذا لا يصحّ عنه. و يؤيد كونها مدنيهٔ ما أخرجه أحمد عن عبد اللّه ابن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيسأله: أىّ الأعمال أحبّ إلى اللّه؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلينا رجلا رجلا فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورهٔ يعنى سورهٔ الصف كلها، و أخرجه ابن أبى حاتم، و قال فى آخره: فنزلت فيهم هذه السورهٔ. و أخرجه أيضا الترمذى و ابن حبان و الحاكم و قال:
صحيح على شرط الشيخين، و البيهقى فى الشعب و السنن.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورهٔ الصف (۶۱): الآيات ۱ الى ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (۲) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (۳) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (۴)
وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۵) وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۶) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۷) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۸) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۹)
قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قد تقدّم الكلام على هذا، و وجه التعبير فى بعض السور بلفظ الماضى كهذه السورهٔ، و فى بعضها بلفظ المضارع، و فى بعضها بلفظ الأمر: الإرشاد إلى مشروعيهٔ التسبيح فى كل الأوقات ماضيها و مستقبلها و حالها، و قد قدّمنا نحو هذا فى أوّل سورهٔ الحديد وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: الغالب الّذى لا يغالب، الحكيم فى أفعاله و أقواله، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ هذا الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه، و «لم» مركبهٔ من اللام الجارّهٔ، و ما الاستفهاميهٔ، و حذفت ألفها تخفيفا لكثرهٔ استعمالها كما فى نظائرها، ثم ذمّهم سبحانه على ذلك فقال: كَبُرَ

مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ أی: عظم ذلک فی المقت، و هو البغض، و المقت

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۶۲

و المقاتة مصدران، يقال: رجل مقيت و ممقوت؛ إذا لم يحبه الناس. قال الكسائی: أَنْ تَقُولُوا فی موضع رفع، لأن «كبر» فعل بمعنی بئس، و «مقتا» منتصب علی التميز، و علی هذا فيكون فی كبر ضمير مبهم مفسّر بالنكرة، و أن «تقولوا» هو المخصوص بالذم، و يجیء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء، و خبره الجملة المتقدمة عليه، أو خبره محذوف أو هو خبر مبتدأ محذوف. و قيل: إنه قصد بقوله كبر التعجب، و قد عدّه ابن عصفور من أفعال التعجب. و قيل: إنه ليس من أفعال الذم و لا من أفعال التعجب، بل هو مسند إلی «أن تقولوا»، و «مقتا» تمييز محوّل عن الفاعل. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وددنا أن اللّه يخبرنا بأحبّ الأعمال إليه حتی نعمله و لو ذهبت فيه أموالنا و أنفسنا.

فأنزل اللّه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ الآية، و انتصاب «صفا» علی المصدرية، و المفعول محذوف، أی: يصفون أنفسهم صفا، و قيل: هو مصدر فی موضع الحال، أی: صافّين أو مصفوفين. قرأ الجمهور:

يُقاتِلُونَ علی البناء للفاعل. و قرأ زيد بن علیّ علی البناء للمفعول، و قرئ «يقتلون» بالتشديد، و جملة كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ فی محل نصب علی الحال من فاعل يقاتلون، أو من الضمير فی «صفا» علی تقدير أنه مؤوّل بصافين أو مصفوفين، و معنی مرصوص: ملتصق بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصّه رصّا؛ إذا ضممت بعضه إلی بعض. قال الفرّاء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء؛ إذا لاءمت بينه و قاربت حتی يصير كقطعة واحدة، و قيل: هو من الرّصيص، و هو ضمّ الأشياء بعضها إلی بعض، و التراصّ: التلاصق. وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ لما ذكر سبحانه أنه يحبّ المقاتلين فی سبيله بين أن موسی و عيسی أمرا بالتوحيد، و جاهدا فی سبيل اللّه، و حلّ العقاب بمن خالفهما، و الظرف متعلّق بمحذوف هو اذكر، و أی: اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسی، و يجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسی و عيسی بعد محبة المجاهدين فی سبيل اللّه التحذير لأمة محمد صلّی اللّه عليه و سلّم أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسی و عيسی معهما يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي هذا مقول القول، أی: لم تؤذوننی بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التی افترضها اللّه عليكم، أو لم تؤذوننی بالشتم و الانتقاص، و من ذلک رميه بالأدرة، و قد تقدّم بيان هذا فی سورة الأحزاب، و جملة وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فی محل نصب علی الحال، و (قد) لتحقّق العلم أو لتأكيده، و صيغة المضارع للدلالة علی الاستمرار، و المعنی: كيف تؤذوننی مع علمكم بأنی رسول اللّه، و الرسول يحترم و يعظم، و لم يبق معكم شک فی الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التی توجب عليكم الاعتراف برسالتی، و تفيدكم العلم بها علما يقينيا فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ أی: لما أصرّوا علی الزيغ، و استمرّوا عليه، أزاغ اللّه قلوبهم عن الهدی؛ و صرفها عن قبول الحقّ، و قيل: فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ اللّه قلوبهم عن الثواب. قال مقاتل: لما عدلوا عن الحق أمال اللّه قلوبهم عنه، يعنی أنهم لما تركوا الحقّ بإيذاء نبيهم أمال اللّه قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها. قال الزجاج: لا يهدی من سبق فی علمه أنه فاسق، و المعنی: أنه لا يهدی كل متّصف بالفسق و هؤلاء من جملتهم وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ معطوف علی وَ إِذْ قالَ مُوسی معمول لعامله، أو

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۶۳

معمول لعامل مقدّر معطوف علی عامل الظرف الأوّل يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ أی: إنی رسول اللّه إليكم بالإنجيل مصدّقا لما بين يدیّ من التوراة لأنی لم آتكم بشیء يخالف التوراة، بل هی مشتملة علی التبشير بی، فكيف تنفرون عنی و تخالفوننی، و انتصاب مصدّقا علی الحال، وَ كذا مُبَشِّراً، و العامل فيهما ما فی الرسول من معنی الإرسال، و المعنی: أنی أرسلت إليكم حال كونی مصدّقا لما بين يدی من التوراة و مبشرا بمن يأتی بعدی، و إذا كنت كذلک

فى التصديق و التبشير فلا مقتضى لتكذيبى، و أحمد اسم نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و هو علم منقول من الصفة، و هى تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمدا للّه من غيره، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره، قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمرو و السلمى و زرّ بن حبيش و أبو بكر عن عاصم مِنْ بَعْدِي بفتح الياء. و قرأ الباقون بإسكانها فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ أى: لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الّذى جاءنا به سحر واضح ظاهر، و قيل: المراد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أى لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: سِحْرٌ و قرأ حمزة و الكسائى: «ساحر». وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ أى: لا أحد أكثر ظلما منه حيث يفترى على اللّه الكذب، و الحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الّذى هو خير الأديان و أشرفها؛ لأن من كان كذلك فحقّه أن لا يفترى على غيره الكذب، فكيف يفتريه على ربّه. قرأ الجمهور: وَ هُوَ يُدْعى من الدعاء مبنيا للمفعول. و قرأ طلحة ابن مصرّف يُدْعى بفتح الياء و تشديد الدال من الادّعاء مبنيا للفاعل، و إنما عدّى بإلى لأنه ضمّن معنى الانتماء و الانتساب وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها. و المعنى: لا يهدى من اتصف بالظلم، و المذكورون من جملتهم يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ الإطفاء: الإخماد، و أصله فى النار، و استعير لما يجرى مجراها من الظهور. و المراد بنور اللّه القرآن، أى: يريدون إبطاله و تكذيبه بالقول، أو الإسلام، أو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو الحجج و الدلائل، أو جميع ما ذكر، و معنى بأفواههم: بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ بإظهاره فى الآفاق و إعلائه على غيره. قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائى و حفص عن عاصم مُتِمُّ نُورِهِ بالإضافة و الباقون بتنوين متمّ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ذلك فإنه كائن لا محالة، و الجملة فى محل نصب على الحال. قال ابن عطية: و اللام فى «ليطفئوا» لام مؤكّدة دخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفئوا، و أكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدّم، كقولك:

لزيد ضربت، و لرؤيتك قصدت، و قيل: هى لام العلة، و المفعول محذوف، أى: يريدون إبطال القرآن أو دفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا، و قيل: إنها بمعنى أن الناصبة و أنها ناصبة بنفسها. قال الفراء:

العرب تجعل لام كى فى موضع أن فى أراد و أمر، و إليه ذهب الكسائى، و مثل هذا قوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ «١» و جملة: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ مستأنفة مقرّرة لما قبلها، و الهدى: القرآن أو المعجزات، و معنى دين الحق: الملّة الحقة، و هى

---

(١). النساء: ٢۶.

ملّة الإسلام؛ و معنى ليظهره: ليجعله ظاهرا على جميع الأديان، عاليا عليها غالبا لها، و لو كره المشركون ذلك فإنه كائن لا محالة. قال مجاهد: ذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام، و الدّين مصدر يعبّر به عن الأديان المتعدّدة، و جواب «لو» فى الموضعين محذوف، و التقدير: أتمه و أظهره.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: وددنا لو أن اللّه أخبرنا بأحبّ الأعمال فنعمل به، فأخبر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن أحبّ الأعمال إيمان باللّه لا شك فيه، و جهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان و لم يقرّوا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين و شقّ عليهم أمره، فقال اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ قال: هذه الآية فى القتال وحده، و هم قوم كانوا يأتون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فيقول الرجل: قاتلت و ضربت

بسيفى و لم يفعلوا، فنزلت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه عنه أيضا قال: قالوا لو نعلم أحبّ الأعمال إلى اللّه لفعلناه، فأخبرهم اللّه فقال: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ فكرهوا ذلك، فأنزل اللّه:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ قال: مثبت لا يزول ملصق بعضه على بعض. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن جبير بن مطعم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن لى أسماء: أنا محمد، و أنا أحمد، و أنا الحاشر الّذى يحشر اللّه الناس على قدمى، و أنا الماحى الّذى يمحو اللّه بى الكفر، و أنا العاقب:

و العاقب الّذى ليس بعده نبىّ».

[سورة الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (١٤)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، و ذلك بدخولهم الجنة و نجاتهم من النار. قرأ الجمهور: تُنْجِيكُمْ بالتخفيف من الإنجاء. و قرأ الحسن و ابن عامر و أبو حيوة بالتشديد من التنجية. ثم بيّن سبحانه هذه التجارة التى دلّ عليها فقال: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ و هو خبر فى معنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه، و قدّم ذكر الأموال على الأنفس لأنها

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٦٥

هى التى يبدأ بها فى الإنفاق و التجهّز إلى الجهاد. قرأ الجمهور: تُؤْمِنُونَ و قرأ ابن مسعود: «آمنوا و جاهدوا» على الأمر. قال الأخفش: تؤمنون عطف بيان لتجارة، و الأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما ذكر من الإيمان و الجهاد، و هو مبتدأ و خبره خَيْرٌ لَكُمْ أى: هذا الفعل خير لكم من أموالكم و أنفسكم إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: إن كنتم ممن يعلم فإنكم تعلمون أنه خير لكم، لا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لا تعلمون ذلك يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، و لهذا جزم. قال الزجاج و المبرد: قوله: تُؤْمِنُونَ فى معنى آمنوا، و لذلك جاء يغفر لكم مجزوما. و قال الفرّاء: يغفر لكم جواب الاستفهام فجعله مجزوما لكونه جواب الاستفهام، و قد غلّطه بعض أهل العلم. قال الزجاج: ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا و جاهدوا.

و قال الرازى فى توجيه قول الفراء: إن «هل أدلكم» فى معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت ساكت؟ أى: اسكت، و بيانه أن هل بمعنى الاستفهام، ثم يتدرّج إلى أن يصير عرضا و حثا، و الحثّ كالإغراء، و الإغراء أمر. و قرأ زيد بن علىّ: «تؤمنوا، و تجاهدوا» على إضمار لام الأمر. و قيل: إن يَغْفِرْ لَكُمْ مجزوم بشرط مقدّر، أى: إن تؤمنوا يغفر لكم، و قرأ بعضهم بالإدغام فى يغفر لكم، و الأولى ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرّر فلا يحسن إدغامه فى اللام وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قد تقدّم بیان کیفیة جری الأنهار من تحت الجنات وَ مَساکِنَ طَیِّبَةً فِی جَنَّاتِ عَدْنٍ أی: فی جنات إقامة ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ أی: ذلک المذکور من المغفرة، و إدخال الجنات الموصوفة بما ذکر هو الفوز الّذی لا فوز بعده، و الظفر الّذی لا ظفر یماثله وَ أُخْری تُحِبُّونَها، قال الأخفش و الفرّاء: «أخری» معطوفة علی «تجارة» فهی فی محل خفض، أی: و هل أدلّکم علی خصلة أخری تحبونها فی العاجل مع ثواب الآخرة، و قیل: هی فی محل رفع، أی: و لکم خصلة أخری، و قیل: فی محل نصب، أی: و یعطیکم خصلة أخری. ثم بیّن سبحانه هذه الأخری فقال: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِیبٌ أی: هی نصر من اللّه لکم، و فتح قریب یفتحه علیکم، و قیل: نصر بدل من أخری علی تقدیر کونها فی محلّ رفع، و قیل: التقدیر: و لکم نصر و فتح قریب.

قال الکلبی: یعنی النصر علی قریش و فتح مکة. و قال عطاء: یرید فتح فارس و الروم وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ معطوف علی محذوف، أی: قل یا أیها الذین آمنوا و بشر، أو علی تؤمنون لأنه فی معنی الأمر، و المعنی:

و بشر یا محمد المؤمنین بالنصر و الفتح، أو بشرهم بالنصر فی الدنیا و الفتح، و بالجنة فی الآخرة، أو و بشرهم بالجنة فی الآخرة.

ثم حضّ سبحانه المؤمنین علی نصرة دینه فقال: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ أی: دوموا علی ما أنتم علیه من نصرة الدین. قرأ ابن کثیر و أبو عمرو و نافع أَنْصاراً لِلَّهِ بالتنوین و ترک الإضافة. و قرأ الباقون بالإضافة، و الرسم یحتمل القراءتین معا، و اختار أبو عبید قراءة الإضافة لقوله: نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ بالإضافة کَما قالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ لِلْحَوارِیِّینَ مَنْ أَنْصارِی إِلَی اللَّهِ أی انصروا دین اللّه مثل نصرة الحواریین لما قال لهم عیسی مَنْ أَنْصارِی إِلَی اللَّهِ فقالوا: نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ و الکاف فی کَما قالَ نعت مصدر محذوف تقدیره: کونوا کونا کما قال، و قیل: الکاف فی محل نصب علی إضمار الفعل،

فتح القدیر، ج۵، ص: ۲۶۶

و قیل: هو کلام محمول علی معناه دون لفظه، و المعنی: کونوا أنصار اللّه کما کان الحواریون أنصار عیسی حین قال لهم من أنصاری إلی اللّه و قوله: إِلَی اللَّهِ قیل: إلی بمعنی مع، أی من أنصاری مع اللّه، و قیل التقدیر: من أنصاری فیما یقرّب إلی اللّه. و قیل: التقدیر: من أنصاری متوجّها إلی نصرة اللّه، و قد تقدّم الکلام علی هذا فی سورة آل عمران. و الحواریون: هم أنصار المسیح و خلّص أصحابه، و أوّل من آمن به، و قد تقدّم بیانهم فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ کَفَرَتْ طائِفَةٌ أی آمنت طائفة بعیسی و کفرت به طائفة، و ذلک لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرّقوا و تقاتلوا فَأَیَّدْنَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلی عَدُوِّهِمْ أی: قوینا المحقین منهم علی المبطلین فَأَصْبَحُوا ظاهِرِینَ أی: عالین غالبین، و قیل المعنی: فأیّدنا الآن المسلمین علی الفرقتین جمیعا.

و قد أخرج ابن مردویه عن أبی هریرة قال: قالوا: لو کنّا نعلم أیّ الأعمال أحبّ إلی اللّه؟ فنزلت: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلی تِجارَةٍ تُنْجِیکُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ فکرهوا فنزلت: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ إلی قوله: بُنْیانٌ مَرْصُوصٌ «۱». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حمید و ابن المنذر عن قتادة فی قوله: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ قال: قد کان ذلک بحمد اللّه جاءه سبعون رجلا فبایعوه عند العقبة و آووه و نصروه حتی أظهر اللّه دینه. و أخرج ابن إسحاق و ابن سعد عن عبد اللّه ابن أبی بکر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم للنفر الذین لقوه بالعقبة: «أخرجوا إلیّ اثنی عشر منکم یکونوا کفلاء علی قومهم کما کفلت الحواریون لعیسی بن مریم». و أخرج ابن سعد عن محمود بن لبید قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم للنقباء: «إنکم کفلاء علی قومکم ککفالة الحواریین لعیسی ابن مریم، و أنا کفیل قومی، قالوا: نعم». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فَأَیَّدْنَا الَّذِینَ آمَنُوا قال:

فقوینا الذین آمنوا. و أخرج ابن أبی حاتم عنه: فَأَیَّدْنَا الَّذِینَ آمَنُوا بمحمد صلّی اللّه علیه و سلّم و أمته علی عدوّهم فَأَصْبَحُوا الیوم ظاهِرِینَ

(١). الصف: ٢- ۴.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٢۶٧

سورة الجمعة

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجمعة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله.

و أخرج مسلم و أهل السنن عن أبى هريرة: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الجمعة سورة الجمعة و إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ و أخرج مسلم و أهل السنن عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن حبان، و البيهقى فى سننه، عن جابر بن سمرة قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة ب قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، و كان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة، ليلة الجمعة، سورة الجمعة و المنافقون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجمعة (۶٢): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۴)

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵) قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۶) وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

قوله: يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ قد تقدم تفسير هذا فى أوّل سورة الحديد، و ما بعدها من المسبّحات الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ قرأ الجمهور بالجرّ فى هذه الصفات الأربع على أنها نعت للّه، و قيل: على البدل، و الأوّل أولى. و قرأ أبو وائل بن محارب و أبو العالية و نصر بن عاصم و رؤبة بالرفع على إضمار مبتدأ. و قرأ الجمهور: الْقُدُّوسِ بضم القاف، و قرأ زيد بن على بفتحها، و قد تقدم تفسيره. هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ المراد بالأميين العرب، من كان يحسن الكتابة منهم و من لا يحسنها، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، و الأميّ فى الأصل الّذى لا يكتب و لا يقرأ المكتوب، و كان غالب العرب كذلك، و قد مضى بيان معنى الأميّ فى سورة البقرة، و معنى مِنْهُمْ من أنفسهم و من جنسهم و من جملتهم، و ما كان حيّ من أحياء العرب إلا و لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم قرابة، و وجه الامتنان بكونه

فتح القدير، ج‌۵، ص: ٢۶٨

منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة، لأن الجنس أميل إلى جنسه و أقرب إليه يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ يعنى القرآن مع كونه أميا لا يقرأ و لا يكتب و لا تعلّم ذلك من أحد، و الجملة صفة ل «رسولا»، و كذا قوله: وَ يُزَكِّيهِمْ قال ابن جريج و مقاتل: أى يطهرهم من دنس الكفر و الذنوب، و قال السدّى: يأخذ زكاة أموالهم، و قيل:

يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ هذه صفة ثالثة ل «رسولا»، و المراد بالكتاب:

القرآن، و بالحكمة: السّنّة، كذا قال الحسن. و قيل: الكتاب: الخط بالقلم، و الحكمة: الفقه فى الدين، كذا قال مالك بن أنس «۱» وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أى: و إن كانوا من قبل بعثته فيهم فى شرك و ذهاب عن الحق وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ معطوف على الأميين، أى: بعث فى الأميين، و بعث فى آخرين منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ذلك الوقت، و سيلحقون بهم من بعد، أو هو معطوف على المفعول الأوّل فى «يعلمهم»، أى: و يعلم آخرين، أو على مفعول «يزكيهم» أى: يزكّيهم و يزكّى آخرين منهم، و المراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة، و قيل: المراد بهم من أسلم من غير العرب. و قال عكرمة:

هم التابعون. و قال مجاهد: هم الناس كلهم، و كذا قال ابن زيد و السدّى. و جملة: لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ صفة لآخرين، و الضمير فى «منهم» و «بهم» راجع إلى الأميين، و هذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتى بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة، و هو صلّى اللّه عليه و سلّم و إن كان مرسلا إلى جميع الثقلين، فتخصيص العرب ها هنا لقصد الامتنان عليهم، و ذلك لا ينافى عموم الرسالة، و يجوز أن يراد بالآخرين العجم؛ لأنهم و إن لم يكونوا من العرب، فقد صاروا بالإسلام منهم و المسلمون كلهم أمة واحدة، و إن اختلفت أجناسهم وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: بليغ العزة و الحكمة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره. و قال الكلبى: يعنى الإسلام. و قال قتادة: يعنى الوحى و النبوّة. و قيل: إلحاق العجم بالعرب، و هو مبتدأ و خبره فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ أى: يعطيه من يشاء من عباده وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الّذى لا يساويه فضل و لا يدانيه مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلا فقال: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ أى: كلّفوا القيام بها و العمل بها فيها ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها أى:

لم يعملوا بموجبها، و لا أطاعوا ما أمروا به فيها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً هى جمع سفر، و هو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زبيل «۲»؛ فهكذا اليهود. و قال الجرجانى: هو يعنى حملوا من الحمالة بمعنى الكفالة، أى: ضمّنوا أحكام التوراة، و قوله: يحمل فى محل نصب على الحال، أو صفة للحمار إذ ليس المراد به حمارا معينا، فهو فى حكم النكرة، كما فى قول الشاعر:

و لقد أمرّ على اللّئيم يسبّنىفمضيت ثمّ قلت: لا يعنينى

---

(۱). فى تفسير القرطبى (۱۸/ ۹۲): أن تفسير الكتاب بالخط بالقلم هو قول ابن عباس، و أن تفسير الحكمة بالفقه فى الدّين من قول مالك بن أنس.

(۲). «الزبيل»: الزّبل و القفّة.

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ أى: بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات اللّه، على أن التميز محذوف، و الفاعل المفسّر به مضمر، و مثل القوم هو المخصوص بالذّمّ، أو مثل القوم فاعل بئس، و المخصوص بالذمّ الموصول بعده على حذف مضاف، أى: مثل الذين كذبوا، و يجوز أن يكون الموصول صفة للقوم، فيكون فى محل جرّ، و المخصوص بالذمّ محذوف، و التقدير بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يعنى على العموم، فيدخل فيهم اليهود دخولا أوّليا قُلْ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكَمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ المراد بالذين هادوا الذين تهوّدوا، و ذلك أن اليهود ادّعوا الفضيلة على الناس، و أنهم أولياء اللّه من دون الناس، كما فى قولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «۱» و قولهم:

لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى «۲» فأمر اللّه سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادّعوا هذه الدعوى الباطلة: فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة فى زعمكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى هذا الزعم، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلوص من هذه الدار. قرأ الجمهور:

فَتَمَنَّوُا بضم الواو، و قرأ ابن السميقع بفتحها تخفيفا، و حكى الكسائى إبدال الواو همزة. ثم أخبر اللّه سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبدا بسبب ذنوبهم، فقال: وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أى: بسبب ما عملوا من الكفر و المعاصى و التحريف و التبديل وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ يعنى على العموم، و هؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أوّليا. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم و أنه نازل بهم، فقال: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ لا محالة، و نازل بكم بلا شك، و الفاء فى قوله: فَإِنَّهُ داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط، قال الزجاج: لا يقال إن زيدا فمنطلق، و ها هنا قال: «فإنه ملاقيكم» لما فى معنى «الّذى» من الشرط و الجزاء، أى: إن فررتم منه فإنه ملاقيكم، و يكون مبالغة فى الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه. و قيل: إنها مزيدة، و قيل: إن الكلام قد تم عند قوله: تَفِرُّونَ مِنْهُ ثم ابتدأ فقال: فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ و ذلك يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال القبيحة و يجازيكم عليها.

و قد أخرج ابن المنذر و الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائة آية يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ أوّل سورة الجمعة. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنا أمة أمية لا نكتب و لا نحسب». و أخرج البخارى و غيره عن أبى هريرة قال: «كنا جلوسا عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حين نزلت سورة الجمعة فتلاها، فلما بلغ: وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ قال له رجل: يا رسول اللّه من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسى و قال: و الّذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء». و أخرجه أيضا مسلم من حديثه مرفوعا بلفظ: «لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال

---

(۱). المائدة: ۱۸.

(۲). البقرة: ۱۱۱.

من فارس، أو قال من أبناء فارس». و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و الضياء عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا و نساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ قال: الدّين.

و أخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها قال: اليهود. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: أَسْفاراً قال: كتبا.

[سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۹ الى ۱۱]

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَـةِ فَاسْـعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذا قُضِـيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ أي: وقع النـداء لها، و المراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعـة، لأنه لم يكن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نداء سواه، و قوله: مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بيان لإذا و تفسير لها. و قال أبو البقاء: إن «من» بمعنى «في»، كما في قوله: أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ* «١» أي في الأرض. قرأ الجمهور: «الجمعة» بضم الميم. و قرأ عبد اللّه بن الزبير و الأعمش بإسـكانها تخفيفا. و هما لغتان، و جمعها جمع و جمعات. قال الفراء: يقال الجمعـة بسـكون الميم و بفتحها و بضـمها. و هي صـفة لليوم، أي: يوم يجمع الناس، قال الفراء أيضا و أبو عبيـد: و التخفيف أخفّ و أقيس، نحو: غرفـة و غرف، و طرفة و طرف، و حجرة و حجر. و فتح الميم لغة عقيل. و قيل: إنما سـميت جمعة لأن اللّه جمع فيها خلق آدم، و قيل: لأن اللّه فرغ فيها من خلق كل شيء فاجتمعت فيها جميع المخلوقات، و قيل:

لاجتماع الناس فيها للصـلاة فَاسْـعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ قال عطاء: يعني الذهاب و المشـي إلى الصـلاة. و قال الفراء: المضي و السعي و الـذهاب في معنى واحـد، و يـدلّ على ذلك قراءة عمر بن الخطاب و ابن مسعود فامضوا إلى ذكر اللّه و قيل: المراد القصد. قال الحسن: و اللّه مـا هو بسـعي على الأقـدام، و لكنه قصـد بـالقلوب و النيـات، و قيـل: هو العمل كقوله: مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَـعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ «٢» و قوله:

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى «٣» و قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى «۴» قال القرطبي: و هذا قول

---

(١). فاطر: ۴٠ و الأحقاف: ۴.

(٢). الإسراء: ١٩.

(٣). الليل: ٨۴.

(۴). النجم: ٣٩.

فتح القدير، ج۵، ص: ٢٧١ سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم «١» و قال أيضا:

سعى ساعيا غيظ بن مرّة بعد ماتبزّل ما بين العشيرة بالدّم «٢»

أي فاعملوا على المضي إلى ذكر اللّه، و اشتغلوا بأسبابه من الغسل و الوضوء و التوجه إليه، و يؤيد هذا القول قول الشاعر:

أسعى على جلّ بني مالك كلّ امرئ في شأنه ساعي

وَ ذَرُوا الْبَيْعَ أي: اتركوا المعاملة به و يلحق به سائر المعاملات. قال الحسن: إذا أذّن المؤذن يوم الجمعة لم يحلّ الشـراء و البيع، و الإشـارة بقوله: ذلِكُمْ إلى السـعي إلى ذكر اللّه و ترك الـبيع، و هو مبتـدأ و خـبره خَيْرٌ لَكُمْ أي: خير لكم من فعـل الـبيع و ترك السـعي، لما في الامتثال من الأجر و الجزاء. و في عـدمه من عـدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أي: إن كنتم من أهل العلم، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ أي: إذا فعلتم الصلاة و أدّيتموها و فرغتم منها فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ للتجارة و التصـرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أي: من رزقه الّذي يتفضّل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات و المكاسب، و قيل: المراد به ابتغاء ما عند اللّه من الأجر بعمل الطاعات و اجتناب ما لا يحلّ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً أي: ذكرا كثيرا بالشـكر له على ما هـداكم إليه من الخير الأخروي و الدنيويّ، و كذا اذكروه بما يقرّبكم إليه من الأذكار، كالحمـد و التسبيح و التكبير و الاسـتغفار و نحو ذلك لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أي: كي تفوزوا بخير الدارين و تظفروا به

وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة و حاجة، فأقبلت عير «۳» من الشام و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب يوم الجمعة، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فى المسجد. و معنى: «انفضّوا إليها» تفرّقوا خارجين إليها. و قال المبرد: مالوا إليها، و الضمير للتجارة، و خصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو لأنها كانت أهمّ عندهم، و قيل: التقدير: و إذا رأوا تجارة انفضّوا إليها، أو لهوا انفضوا إليه، فحذف الثانى لدلالة الأول عليه كما فى قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرّأى مختلف

و قيل: إنه اقتصر على ضمير التجارة؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموما مع الحاجة إليها فكيف

---

(۱). و عجزه: فلم يفعلوا و لم يلاموا و لم يألوا.

(۲). «غيظ بن مرة»: حىّ من غطفان بن سعد. «تبزّل بالدم»: أى تشقّق.

(۳). «العير»: الإبل تحمل الطعام، ثم غلب على كل قافلة.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۷۲

بالانفضاض إلى اللهو، و قيل غير ذلك: وَ تَرَكُوكَ قائِماً أى: على المنبر، ثم أمره اللّه سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا، فقال: قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ يعنى من الجزاء العظيم و هو الجنة خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ اللذين ذهبتم إليهما و تركتم البقاء فى المسجد و سماع خطبة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأجلها وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فمنه اطلبوا الرزق، و إليه توسّلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق و أعظم ما يجلبه.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: «قلت: يا رسول اللّه لأىّ شى‏ء سمى يوم الجمعة؟ قال: لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم، و فيه الصعقة و البعثة، و فى آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا اللّه فيها بدعوة استجاب له». و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و النسائى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن سلمان قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أ تدرى ما يوم الجمعة؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قالها ثلاث مرات، ثم قال فى الثالثة: هو اليوم الّذى جمع اللّه فيه أباكم آدم، أفلا أحدّثكم عن يوم الجمعة» الحديث. و أخرج أحمد و مسلم و الترمذى و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم و فيه أدخل الجنة، و فيه أخرج منها، و لا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة» و فى الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم.

و ورد فى فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة، و كذلك فى فضل صلاة الجمعة و عظيم أجرها، و فى الساعة التى فيها، و أنه يستجاب الدعاء فيها، و قد أوضحت ذلك فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره.

و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن خرشة بن الحرّ قال: رأى معى عمر بن الخطاب لوحا مكتوبا فيه: إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ فقال: من أملى عليك هذا؟ قلت: أبىّ بن كعب، قال: إنّ أبيّا أقرأنا للمنسوخ اقرأها:

«فامضوا إلى ذكر اللّه» و روى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال: لقد توفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ما نقرأ هذه الآية التى فى سورة الجمعة إلا «فامضوا إلى ذكر اللّه»، و أخرجه عنه أيضا الشافعى فى الأمّ، و عبد الرزاق و الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم. و أخرجوا كلهم أيضا عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «فامضوا إلى ذكر اللّه» قال: و لو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائى. و أخرج عبد بن حميد عن أبىّ بن كعب أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ

اللَّهِ قـال: فـامضوا. و أخرج عبـد ابن حميـد عنه أن السـعى: العمـل. و أخرج عبـد بن حميـد عن محمـد بن كعب: أن رجلين من أصـحاب النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم كانا يختلفان فى تجارتهما إلى الشام، فربما قدما يوم الجمعهٔ و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب فيـدعونه و يقومون، فنزلت الآيـهٔ: وَ ذَرُوا الْبَيْعَ فحرم عليهم مـا كـان قبل ذلك. و أخرج ابن جرير عن أنس قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى قوله: فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ قال: ليس لطلب دنيا، و لكن عيـادهٔ مريض، و حضور جنازهٔ، و زيارهٔ أخ فى اللّه». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآيـهٔ قال: لم تؤمروا بشـىء من طلب الدنيا إنما هو عيادهٔ مريض و حضور جنازهٔ و زيارهٔ أخ فى اللّه. و أخرج

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۷۳

البخـارى و مسـلم و غيرهما عن جابر بن عبـد اللّه قال: بينما النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم يخطب يوم الجمعـهٔ قائما إذ قـدمت عير المدينهٔ، فابتدرها أصـحاب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم و أبو بكر و عمر، فأنزل اللّه: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها إلى آخر السورهٔ. و أخرج عبـد بن حميـد عن ابن عباس فى الآيـهٔ قال: جاءت عير عبد الرّحمن بن عوف تحمل الطعام، فخرجوا من الجمعهٔ بعضـهم يريد أن يشترى، و بعضـهم يريد أن ينظر إلى دحيهٔ، و تركوا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم قائما على المنبر، و بقى فى المسجد اثنا عشر رجلا و سبع نسوهٔ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نارا. و فى الباب روايات متضمنهٔ لهذا المعنى عن جماعهٔ من الصحابهٔ و غيرهم.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۷۴

سورهٔ المنافقون

اشارهٔ

و هى مدنيـهٔ. قـال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضـريس و النحـاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عبـاس قال: نزلت سورهٔ المنافقين بالمدينهٔ. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج سعيد بن منصور و الطبرانى فى الأوسط، قال السيوطى: بسند حسن، عن أبى هريرهٔ قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى صلاهٔ الجمعهٔ بسورهٔ الجمعهٔ فيحرّض بها المؤمنين، و فى الثانيهٔ بسورهٔ المنافقين فيقرع بها المنافقين. و أخرج البزار و الطبرانى عن أبى عنبهٔ الخولانى مرفوعا نحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورهٔ المنافقون (۶۳): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (۱) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (۳) وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۴)

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۵) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۶) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا

وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨)

قوله: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ أى: إذا وصلوا إليك و حضروا مجلسك، و جواب الشرط قالوا، و قيل: محذوف، و قالوا: حال، و التقدير: جاءوك قائلين كيت و كيت فلا تقبل منهم، و قيل: الجواب: اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً و هو بعيد قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ أكدوا شهادتهم بإنّ، و اللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم، و المراد بالمنافقين عبد اللّه بن أبىّ و أصحابه، و معنى نشهد: نحلف، فهو يجرى مجرى القسم، و لذلك يتلقى بما يتلقى به القسم، و من هذا قول قيس بن ذريح:

و أشهد عند اللّه أنّى أحبّهافهذا لها عندى فما عندها ليا

و مثل نشهد نعلم، فإنه يجرى مجرى القسم، كما فى قول الشاعر:

و لقد علمت لتأتينّ منيّتىإنّ المنايا لا تطيش سهامها

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٧٥

و جملة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ معترضة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و هو ما أظهروه من الشهادة، و إن كانت بواطنهم على خلاف ذلك وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ أى فى شهادتهم التى زعموا أنها من صميم القلب و خلوص الاعتقاد؛ لا إلى منطوق كلامهم، و هو الشهادة بالرسالة، فإنه حق، و المعنى:

و اللّه يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمّنه كلامهم من التأكيد الدالّ على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد و طمأنينة قلب و موافقة باطن لظاهر اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً أى: جعلوا حلفهم الّذى حلفوا لكم به إنهم لمنكم و إن محمدا لرسول اللّه وقاية تقيهم منكم، و سترة يستترون بها من القتل و الأسر، و الجملة مستأنفة لبيان كذبهم و حلفهم عليه، و قد تقدّم قول من قال إنها جواب الشرط. قرأ الجمهور: «أيمانهم» بفتح الهمزة، و قرأ الحسن بكسرها، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة المجادلة فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: منعوا الناس عن الإيمان و الجهاد و أعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك و القدح فى النبوّة. هذا معنى الصدّ الّذى بمعنى الصّرف، و يجوز أن يكون من الصدود، أى: أعرضوا عن الدخول فى سبيل اللّه و إقامة أحكامه إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من النفاق و الصدّ، و فى ساء معنى التعجب و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره من الكذب و الصدّ و قبح الأعمال، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُمْ آمَنُوا أى:

بسبب أنهم آمنوا فى الظاهر نفاقا ثُمَّ كَفَرُوا فى الباطن، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين و أظهروا الكفر للكافرين، و هذا صريح فى كفر المنافقين، و قيل: نزلت الآية فى قوم آمنوا ثم ارتدّوا. و الأوّل أولى كما يفيده السياق فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ أى: ختم عليها بسبب كفرهم. قرأ الجمهور: «فطبع» على البناء للمفعول، و القائم مقام الفاعل الجار و المجرور بعده، و قرأ زيد بن علىّ على البناء للفاعل، و الفاعل ضمير يعود إلى اللّه سبحانه، و يدل على هذه قراءة الأعمش «فطبع اللّه على قلوبهم» فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ما فيه من صلاحهم و رشادهم و هو الإيمان وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ أى: هيئاتهم و مناظرهم، يعنى أن لهم أجساما تعجب من يراها لما فيها من النضارة و الرونق وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ فتحسب أن قولهم حقّ و صدق لفصاحتهم و ذلاقة ألسنتهم، و قد كان عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين فصيحا جسيما جميلا، و كان يحضر مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا قال سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مقالته. قال الكلبى: المراد عبد اللّه بن أبىّ، و جدّ بن قيس، و معتّب ابن قشير، كانت لهم أجسام و منظر و فصاحة، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: لكلّ من يصلح له، و يدل عليه قراءة من قرأ «يسمع» على البناء للمفعول، و جملة: كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائى و تروق الناظر، و يجوز أن تكون فى محل رفع

على أنها خبر مبتدأ محذوف، شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التى لا تفهم و لا تعلم، و هم كذلك لخلوّهم عن الفهم النافع و العلم الّذى ينتفع به صاحبه، قال الزجاج: وصفهم بتمام الصور، ثم أعلم أنهم فى ترك الفهم و الاستبصار بمنزلة الخشب. قرأ الجمهور: «خشب» بضمتين، و قرأ أبو عمرو و الكسائى و قنبل بإسكان الشين، و بها قرأ البراء بن عازب، و اختارها أبو عبيد؛ لأن واحدتها خشبة كبدنة و بدن، و اختار القراءة الأولى أبو حاتم. و قرأ سعيد بن جبير و سعيد بن المسيب بفتحتين، و معنى مسندة

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٧٦

أنها أسندت إلى غيرها، من قولهم: أسندت كذا إلى كذا، و التشديد للتكثير. ثم عابهم اللّه سبحانه بالجبن فقال: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ أى: يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم، نازلة بهم، لفرط جبنهم و رعب قلوبهم، و فى المفعول الثانى للحسبان و جهان: أحدهما أنه عليهم، و يكون قوله: هُمُ الْعَدُوُّ جملة مستأنفة لبيان أنهم الكاملون فى العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون، و الوجه الثانى أن المفعول الثانى للحسبان هو قوله: هُمُ الْعَدُوُّ، و يكون قوله: عَلَيْهِمْ متعلقا بصيحة، و إنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر، و كان حقه أن يقال: هو العدوّ، و الوجه الأوّل أولى. قال مقاتل و السدّى: أى:

إذا نادى مناد فى العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالّة، ظنوا أنهم المرادون لما فى قلوبهم من الرعب، و من هذا قول الشاعر «١»:

ما زلت تحسب كلّ شى‌ء بعدهم خيلا تكرّ عليهم و رجالا

و قيل: كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم، و يبيح دماءهم و أموالهم. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال: فَاحْذَرْهُمْ أن يتمكنوا من فرصة منك، أو يطلعوا على شى‌ء من أسرارك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار. ثم دعا عليهم بقوله: قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: لعنهم اللّه، و قد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب، كقولهم: قاتله اللّه من شاعر، أو ما أشعره، و ليس بمراد هنا، بل المراد ذمهم و توبيخهم، و هو طلب من اللّه سبحانه طلبه من ذاته عزّ و جلّ أن يلعنهم و يخزيهم، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك؛ و معنى أَنَّى يُؤْفَكُونَ كيف يصرفون عن الحق و يميلون عنه إلى الكفر. قال قتادة: معناه يعدلون عن الحق. و قال الحسن: معناه يصرفون عن الرشد وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أى: إذا قال لهم القائل من المؤمنين: قد نزل فيكم ما نزل من القرآن، فتوبوا إلى اللّه و رسوله، و تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ أى: حرّكوها استهزاء بذلك. قال مقاتل: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار. قرأ الجمهور: «لوّوا» بالتشديد. و قرأ نافع بالتخفيف، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ أى: يعرضون عن قول من قال لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه، أو يعرضون عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و جملة: وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ فى محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى، ويه يصدّون؛ لأن الرؤية بصرية فيصدّون فى محل نصب على الحال، و المعنى:

و رأيتهم صادّين مستكبرين سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أى: الاستغفار و عدمه سواء لا ينفعهم ذلك؛ لإصرارهم على النفاق و استمرارهم على الكفر. قرأ الجمهور: «أستغفرت» بهمزة مفتوحة من غير مدّ، و حذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها. و قرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ أى: ما داموا على النفاق إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أى: الكاملين فى الخروج عن الطاعة و الانهماك فى معاصى اللّه، و يدخل فيهم المنافقون دخولا أوّليا. ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال:

---

(١). هو الأخطل.

فتح القدير، ج‏5، ص: 277

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى‏ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا أي: حتّى يتفرّقوا عنه، يعنون بذلك فقراء المهاجرين، و الجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم، أو لعدم مغفرة اللّه لهم. قرأ الجمهور:

«ينفضوا» من الانفضاض، و هو التفرّق، و قرأ الفضل بن عيسى الرقاشي «ينفضوا» من أنفض القوم؛ إذا فنيت أزوادهم، يقال: نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفضّ. ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال: وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أي: إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطي من شاء ما شاء و يمنع من شاء ما شاء وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ذلك و لا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد اللّه عزّ و جلّ و أنه الباسط القابض المعطي المانع. ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال: يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ القائل لهذه المقالة هو عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين، و عنى بالأعزّ نفسه و من معه، و بالأذلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه، و مراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة، و إنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم، و هو عبد اللّه بن أبيّ، لكونه كان رئيسهم و صاحب أمرهم، و هم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون. ثم ردّ اللّه سبحانه على قائل تلك المقالة فقال: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ أي: القوّة و الغلبة للّه وحده و لمن أفاضها عليه من رسله و صالحي عباده لا لغيرهم.

اللهم كما جعلت العزّة للمؤمنين على المنافقين فاجعل العزّة للعادلين من عبادك، و أنزل الذلة على الجائرين الظالمين وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ بما فيه النفع فيفعلونه، و بما فيه الضرّ فيجتنبونه، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم و مزيد حيرتهم و الطبع على قلوبهم.

و قد أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن زيد بن أرقم قال: «خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في سفر فأصاب الناس شدّة، فقال عبد اللّه بن أبيّ لأصحابه: لا تُنْفِقُوا عَلى‏ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا من حوله، و قال: لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فأتيت النبي صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد اللّه بن أبيّ فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كذب زيد رسول اللّه، فوقع في نفسي مما قالوا شدّة، حتى أنزل اللّه تصديقي في إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ فدعاهم النبي صلّى اللّه عليه و سلّم ليستغفر لهم فلوّوا رؤوسهم، و هو قوله: كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ قال: كانوا رجالا أجمل شي‏ء. و أخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد و عبد بن حميد، و الترمذي و صحّحه، و ابن المنذر و الطبراني، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقي.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما سمّاهم اللّه منافقين لأنهم كتموا الشرك و أظهروا الإيمان. و أخرج ابن المنذر عنه اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً قال: حلفهم باللّه إنهم لمنكم اجتنوا بأيمانهم من القتل و الحرب.

و أخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ قال: نخل قيام. و أخرج ابن مردويه، و الضياء في المختارة، عنه أيضا، قال: نزلت هذه الآية هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى‏ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا في عسيف «1» لعمر بن الخطاب. و أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم و ابن مسعود أنهما قرءا:

---

(1). «العسيف»: الأجير المستهان به.

فتح القدير، ج‏5، ص: 278

لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتّى ينفضّوا من حوله. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن جابر ابن عبد اللّه قال: «كنا مع النبي صلّى اللّه عليه و سلّم في غزاة، قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق فكسع «1» رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار،

فقال المهاجرى: يا للمهاجرين، و قال الأنصارىّ: يا للأنصار، فسمع ذلك النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «دعوها فإنها منتنة»، فسمع ذلك عبد اللّه بن أبىّ فقال: و قد فعلوها، و اللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقام عمر فقال: يا رسول اللّه دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «دعه، لا يتحدّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» زاد الترمذى:

«فقال له ابنه عبد اللّه، و اللّه لا تنفلت «۲» حتى تقرّ أنك الذليل، و رسول اللّه العزيز، ففعل».

[سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۹ الى ۱۱]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۹) وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۰) وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۱)

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغّبا لهم فى ذكره فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم و أولادهم عن ذكر اللّه، و معنى لا تلهكم: لا تشغلكم، و المراد بالذكر فرائض الإسلام، قاله الحسن. و قال الضحاك:

الصلوات الخمس. و قيل: قراءة القرآن، و قيل: هو خطاب للمنافقين، و وصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا ظاهرا، و الأوّل أولى وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أى: يلتهى بالدنيا عن الدين فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أى:

الكاملون فى الخسران وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ الظاهر أن المراد الإنفاق فى الخير على عمومه، و من للتبعيض، أى: أنفقوا بعض ما رزقناكم فى سبيل الخير، و قيل: المراد الزكاة المفروضة مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ بأن تنزل به أسبابه و يشاهد حضور علاماته، و قدّم المفعول على الفاعل للاهتمام فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ أى: يقول عند نزول ما نزل به مناديا لربه هلا أمهلتنى و أخّرت موتى إلى أجل قريب، أى: أمدّ قصير فَأَصَّدَّقَ أى: فأتصدّق بمالى وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ قرأ الجمهور: «فأصّدّق» بإدغام التاء فى الصاد، و انتصابه على أنه جواب التمنى، و قيل: إن «لا» فى لو لا زائدة، و الأصل: لو أخرتنى.

و قرأ أبىّ و ابن مسعود و سعيد بن جبير «فأتصدق» بدون إدغام على الأصل. و قرأ الجمهور: «و أكن» بالجزم على محل فأتصدّق، كأنه قيل: إن أخّرتنى أتصدّق و أكن. قال الزجاج: معناه هلا أخّرتنى، و جزم

---

(۱). «كسع»: ضرب عجيزته و دبره، بيد أو رجل أو سيف، أو غيره.

(۲). «تنفلت»: أى لا ترجع.

«أكن» على موضع فأصدق لأنه على معنى إن أخرتنى أصدّق و أكن. و كذا قال أبو علىّ الفارسى و ابن عطية و غيرهم. و قال سيبويه حاكيا عن الخليل: إنه جزم على توهم الشرط الّذى يدلّ عليه التمنى، و جعل سيبويه هذا نظير قول زهير:

بدا لى أنّى لست مدرك ما مضىو لا سابق شيئا «۱» إذا كان جائيا

فخفض «و لا سابق» عطفا على «مدرك» الّذى هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه. و قرأ أبو عمرو و ابن محيصن و مجاهد «و أكون» بالنصب عطفا على «فأصدق»، و وجهها واضح. و لكن قال أبو عبيد:

رأيت فى مصحف عثمان «و أكن» بغير واو، و قرأ عبيد بن عمير: «و أكون» بالرفع على الاستئناف، أى: و أنا أكون. قال الضحاك: لا ينزل بأحد الموت لم يحج و لم يؤدّ زكاة إلا سأل الرجعة، و قرأ هذه الآية؛ ثم أجاب اللّه سبحانه عن هذا المتمنى فقال: وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها أى: إذا حضر أجلها و انقضى عمرها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ لا يخفى عليه شيء منه، فهو مجازيكم بأعمالكم. قرأ الجمهور:
«تَعْمَلُونَ» بالفوقية على الخطاب، و قرأ أبو بكر عن عاصم و السلمى بالتحتية على الخبر.
و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ الآية قال: هم عباد من أمتى الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه، و عن الصلوات الخمس المفروضة.
و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من كان له مال يبلغه حجّ بيت اللّه، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق اللّه، فإنما يسأل الرجعة الكافر، فقال: سأتلوا عليكم بذلك قرآنا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إلى آخر السورة». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ قال: أحجّ.

---

(١). فى الديوان ص (٢٨٧): و لا سابقى شيء.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٨٠

سورة التغابن

اشارة

و هى مدنية فى قول الأكثر. و قال الضحاك: هى مكية. و قال الكلبى: هى مدنية و مكية. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة فى عوف بن مالك الأشجعىّ، شكا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جفاء أهله و ولده، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ إلى آخر السورة «١». و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار نحوه. و أخرج ابن حبان فى «الضعفاء»، و الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من مولود يولد إلّا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن» قال ابن كثير: و هو غريب جدّا، بل منكر. و أخرج البخارى فى تاريخه عن عبد اللّه بن عمرو قال: ما من مولود يولد إلّا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من أوّل سورة التغابن.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ ما

فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴)
أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۵) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۶)
قوله: يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى: ينزّهه سبحانه جميع مخلوقاته التى فى سماواته و أرضه عن كل نقص و عيب لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ يختصّان به ليس لغيره منهما شى‏ء، و ما كان لعباده منهما فهو من فيضه و راجع إليه وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شى‏ء هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ أى: فبعضكم كافر و بعضكم مؤمن. قال الضحاك: فمنكم كافر فى السرّ مؤمن فى العلانية كالمنافق، و منكم مؤمن فى السرّ كافر فى العلانية كعمار بن ياسر و نحوه ممن أكره على الكفر. و قال عطاء: فمنكم كافر باللّه مؤمن بالكواكب، و منكم مؤمن باللّه كافر بالكواكب. قال الزجاج: إن اللّه خلق الكافر، و كفره فعل له و كسب، مع أن اللّه خالق الكفر. و خلق المؤمن و إيمانه فعل له و كسب، مع أن

---

(۱). التغابن: ۱۴- ۱۸.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۲۸۱

اللّه خالق الإيمان. و الكافر يكفر و يختار الكفر بعد خلق اللّه إياه؛ لأن اللّه تعالى قدّر ذلك عليه و علمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عجز، و وجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبى: و هذا أحسن الأقوال و هو الّذى عليه جمهور الأمة، و قدّم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم.
ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ أى: بالحكمة البالغة. و قيل: خلق ذلك خلقا يقينا لا ريب فيه، و قيل: الباء بمعنى اللام، أى: خلق ذلك لإظهار الحق، و هو أن يجزى المحسن بإحسانه و المسى‏ء بإساءته. ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال:
وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ قيل: المراد آدم، خلقه بيده كرامة له، كذا قال مقاتل، و قيل: المراد جميع الخلائق، و هو الظاهر، أى: أنه سبحانه خلقهم فى أكمل صورة و أحسن تقويم و أجمل شكل.
و التصوير: التخطيط و التشكيل. قرأ الجمهور: فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ بضمّ الصاد، و قرأ زيد بن علىّ و الأعمش و أبو زيد بكسرها. وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ فى الدار الآخرة، لا إلى غيره. يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تخفى عليه من ذلك خافية وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ أى: ما تخفونه و ما تظهرونه، و التصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد فى الوعد و الوعيد وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم، و هى تذييلية أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ و هم كفار الأمم الماضية كقوم نوح و عاد و ثمود، و الخطاب لكفار العرب فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ بسبب كفرهم، و الوبال: الثقل و الشدّة، و المراد بأمرهم هنا ما وقع منهم من الكفر و المعاصى، و بالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ و ذلك فى الآخرة و هو عذاب النار؛ و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من العذاب فى الدارين، و هو مبتدأ و خبره بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الظاهرة فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا أى: قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر، متعجبين من ذلك، و أراد بالبشر الجنس، و لهذا قال يهدوننا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا أى: كفروا بالرسل و بما جاءوا به، و أعرضوا عنهم، و لم يتدبروا فيما جاءوا به، و قيل:
كفروا بهذا القول الّذى قالوه للرسل وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ عن إيمانهم و عبادتهم. و قال مقاتل: استغنى اللّه بما أظهره لهم من البرهان، و أوضحه من المعجزات، و قيل: استغنى بسلطانه عن طاعة عباده وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أى: غير محتاج إلى العالم و لا إلى عبادتهم له،

محمود من كلّ مخلوقاته بلسان المقال و الحال.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى ذرّ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا مكث المنىّ فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به إلى الربّ فيقول: يا ربّ أذكر أم أنثى؟ فيقضى اللّه ما هو قاض، فيقول: أشقى أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق، و قرأ أبو ذرّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ». و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «العبد يولد مؤمنا و يعيش مؤمنا و يموت مؤمنا، و العبد يولد كافرا

فتح القدير، ج‌5، ص: 282

و يعيش كافرا و يموت كافرا، و إن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقيا، و إن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا».

[سورة التغابن (64): الآيات 7 الى 13]

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (10) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عَلِيمٌ (11)

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

قوله: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا الزّعم: هو القول بالظن، و يطلق على الكذب. قال شريح: لكل شي‌ء كنية، و كنية الكذب زعموا، و أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قائم مقام مفعول زعم، و «أن» هى المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب، و المراد بالكفار كفار العرب؛ و المعنى:

زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبدا. ثم أمر سبحانه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يردّ عليهم و يبطل زعمهم فقال: قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَ «بل» هى التى لإيجاب النفى، فالمعنى: بل تبعثون. ثم أقسم على ذلك، و جواب القسم لتبعثنّ، أى: لتخرجن من قبوركم لتنبؤن بِما عَمِلْتُمْ أى: لتخبرنّ بذلك إقامة للحجّة عليكم، ثم تجزون به وَ ذلِكَ البعث و الجزاء عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ إذ الإعادة أيسر من الابتداء فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ الفاء هى الفصيحة الدالة على شرط مقدّر، أى: إذا كان الأمر هكذا فصدّقوا باللّه و رسوله محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنا و هو القرآن؛ لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال. وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لا يخفى عليه شي‌ء من أقوالكم و أفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ العامل فى الظرف «لتنبؤن»، قاله النحاس. و قال غيره: العامل فيه خبير، و قيل: العامل فيه محذوف هو اذكر. و قال أبو البقاء: العامل فيه ما دلّ عليه الكلام، أى: تتفاوتون يوم يجمعكم. قرأ الجمهور «يَجْمَعُكُمْ» بفتح الياء و ضم العين، و روى عن أبى عمرو إسكانها، و لا وجه لذلك إلا التخفيف و إن لم يكن هذا موضعا له، كما قرئ فى وَ ما يُشْعِرُكُمْ «1» بسكون الراء، و كقول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما «2» من اللّه و لا واغل «3»

(١). الأنعام: ١٠٩.

(٢). «استحقب الإثم»: ارتكبه.

(٣). «و اغل»: و غل فى الشىء: أمعن فيه و ذهب و أبعد.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٨٣

بإسكان باء أشرب، و قرأ زيد بن على و الشعبى و يعقوب و نصر و ابن أبى إسحاق و الجحدريّ:

«نجمعكم» بالنون، و معنى لِيَوْمِ الْجَمْعِ ليوم القيامة؛ فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء، و يجمع فيه بين كل عامل و عمله، و بين كل نبيّ و أمته، و بين كل مظلوم و ظالمه ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ يعنى أن يوم القيامة هو يوم التغابن، و ذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضا، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، و يغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، و أهل الطاعة أهل المعصية، و لا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة و هؤلاء النار، فنزلوا منازلهم التى كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فكان أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ، و الجيد بالردى‏ء، و النعيم بالعذاب، و أهل الجنة على العكس من ذلك. يقال: غبنت فلانا؛ إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه و الغلبة، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غبن أهله و منازله فى الجنة وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ أى: من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته، قرأ الجمهور: «يُكَفِّرْ» «وَ يُدْخِلْهُ» بالتحتية، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون فيهما، و انتصاب خالِدِينَ فِيها أَبَداً على أنها حال مقدرة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من التكفير و الإدخال، و هو مبتدأ و خبره الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: الظفر الّذى لا يساويه ظفر. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ المراد بالآيات إما التنزيلية أو ما هو أعمّ منها. ذكر سبحانه حال السعداء و حال الأشقياء ها هنا لبيان ما تقدم من التّغابن، و أنه سيكون بسبب التكفير و إدخال الجنة للطائفة الأولى، و بسبب إدخال الطائفة الثانية النار و خلودهم فيها ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلا بإذن اللّه، أى: بقضائه و قدره، قال الفراء:

إلا بإذن اللّه، أى: بأمر اللّه، و قيل: إلا بعلم اللّه. قيل: و سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم اللّه عن المصائب فى الدنيا وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ أى: من يصدق و يعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره اللّه عليه يهد قلبه للصبر و الرضا بالقضاء. قال مقاتل بن حيان: يهد قلبه عند المصيبة فيعلم أنها من اللّه فيسلم لقضائه و يسترجع. و قال سعيد بن جبير: يهد قلبه عند المصيبة فيقول: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ «١» و قال الكلبى: هو إذا ابتلى صبر، و إذا أنعم عليه شكر، و إذا ظلم غفر. قرأ الجمهور: «يهد» بفتح الياء و كسر الدال، أى: يهده اللّه، و قرأ قتادة و السلمى و الضحاك و أبو عبد الرّحمن بضم الياء و فتح الدال على البناء للمفعول، و قرأ طلحة بن مصرّف و الأعرج و سعيد بن جبير و ابن هرمز و الأزرق «نهد» بالنون، و قرأ مالك بن دينار و عمرو بن دينار و عكرمة «يهدأ» بهمزة ساكنة، و رفع قلبه، أى:

يطمئن و يسكن وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ أى: بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ أى: هوّنوا على أنفسكم المصائب، و اشتغلوا بطاعة اللّه و طاعة رسوله فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أى:

أعرضتم عن الطاعة فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ليس عليه غير ذلك و قد فعل، و جواب الشرط

---

(١). البقرة: ١٥٦.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٨٤

محذوف و التقدير فلا بأس على الرسول، و جملة فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا تعليل للجواب المحذوف، ثم أرشد إلى التوحيد و التوكل

فقال: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أى: هو المستحق للعبودية دون غيره، فوحّده و لا تشركوا به وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أى: يفوّضوا أمورهم إليه و يعتمدوا عليه، لا على غيره.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و البيهقى و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له: ما سمعت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول فى زعموا؟ قال: سمعته يقول: «بئس مطية الرجل». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عنه: أنه كره زعموا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: يوم التغابن من أسماء يوم القيامة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه فى قوله: ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ قال: غبن أهل الجنة أهل النار. و أخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود فى قوله: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ قال: هى المصيبات تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند اللّه، فيسلم لها و يرضى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يَهْدِ قَلْبَهُ قال: يعنى يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، و ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١٤ الى ١٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ يعنى أنهم يعادونكم و يشغلونكم عن الخير، و يدخل فى ذلك سبب النزول دخولا أوّليا، و هو أن رجالا من مكة أسلموا و أرادوا أن يهاجروا، فلم يدعهم أزواجهم و لا أولادهم، فأمر اللّه سبحانه بأن يحذروهم فلا يطيعوهم فى شى‏ء ممّا يريدونه منهم؛ مما فيه مخالفة لما يريده اللّه، و الضمير فى فَاحْذَرُوهُمْ يعود إلى العدوّ، أو إلى الأزواج و الأولاد، لكن لا على العموم، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم، و إنما جاز جمع الضمير على الوجه الأول، لأن العدوّ يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة. ثم أرشدهم اللّه إلى التجاوز فقال: وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا أى: تعفوا عن ذنوبهم التى ارتكبوها، و تتركوا التثريب عليها، و تستروها فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بالغ المغفرة و الرحمة لكم و لهم، قيل: كان الرجل الّذى ثبطه أزواجه و أولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها، و فقهوا فى الدين، همّ أن يعاقب أزواجه و أولاده، فأنزل اللّه: وَ إِنْ تَعْفُوا الآية، و الآية تعمّ و إن كان السبب خاصا كما عرّفناك غير مرة. قال مجاهد: و اللّه ما عادوهم فى الدنيا، و لكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٢٨٥

ثم أخبر اللّه سبحانه بأن الأموال و الأولاد فتنة فقال: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ أى: بلاء و اختبار و محنة، يحملونكم على كسب الحرام و منع حق اللّه، فلا تطيعوهم فى معصية اللّه وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ لمن آثر طاعة اللّه و ترك معصيته فى محبة ماله و ولده. ثم أمرهم سبحانه بالتقوى و الطاعة فقال: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ أى: ما أطقتم، و بلغ إليه جهدكم. و قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «١» و منهم قتادة و الربيع بن أنس و السدى و ابن زيد، و قد أوضحنا الكلام فى قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَ «٢» و معنى وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا أى: اسمعوا ما تؤمرون به، و أطيعوا الأوامر. قال مقاتل: «اسمعوا» أى: اصغوا إلى ما ينزل عليكم و أطيعوا لرسوله فيما يأمركم و ينهاكم.

و قيل: معنى «اسمعوا»: اقبلوا ما تسمعون؛ لأنه لا فائدة فى مجرد السماع وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ أى: أنفقوا من أموالكم التى رزقكم اللّه إياها فى وجوه الخير، و لا تبخلوا بها، و قوله: خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ منتصب بفعل دلّ عليه أنفقوا، كأنه قال: ائتوا فى الإنفاق

خيرا لأنفسكم، أو قدّموا خيرا لها، كذا قال سيبويه. و قال الكسائى و الفراء: هو نعت لمصدر محذوف، أى: إنفاقا خيرا. و قال أبو عبيدة: هو خبر لكان المقدرة، أى: يكن الإنفاق خيرا لكم. و قال الكوفيون: هو منتصب على الحال، و قيل: هو مفعول به لأنفقوا، أى: فأنفقوا، أى: فأنفقوا خيرا. و الظاهر فى الآية الإنفاق مطلقا من غير تقييد بالزكاة الواجبة، و قيل: المراد زكاة الفريضة، و قيل: النافلة، و قيل: النفقة فى الجهاد وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: و من يوق شحّ نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، و لا يمنعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خير، الفائزون بكل مطلب، و قد تقدم تفسير هذه الآية إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فتصرفون أموالكم فى وجوه الخير بإخلاص نية و طيب نفس يُضاعِفْهُ لَكُمْ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، و قد تقدم تفسير هذه الآية و اختلاف القراء فى قراءتها فى سورة البقرة و سورة الحديد وَ يَغْفِرْ لَكُمْ أى: يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، و لا يعاجل من عصاه بالعقوبة عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: ما غاب و ما حضر لا تخفى عليه منه خافية، و هو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: الغالب القاهر، ذو الحكمة الباهرة. و قال ابن الأنبارى: الحكيم: هو المحكم لخلق الأشياء.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ فى قوم من أهل مكة أسلموا و أرادوا أن يأتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فأبى أزواجهم و أولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم، فنزلت إلى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجة،

---

(۱). آل عمران: ۱۰۲.

(۲). آل عمران: ۱۰۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۸۶

و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن بريدة قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب، فأقبل الحسن و الحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران، فنزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشقّ و واحدا من ذا الشقّ، ثم صعد المنبر فقال: «صدق اللّه: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ، إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان و يعثران لم أصبر أن قطعت كلامى و نزلت إليهما». و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يقول اللّه: استقرضت عبدى، فأبى أن يقرضنى، و شتمنى عبدى و هو لا يدرى، يقول: وا دهراه وا دهراه و أنا الدهر، ثم تلا أبو هريرة: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ .

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۸۷

سورة الطّلاق

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و ابن النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الطلاق بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (١) فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣) وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (٤)

ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (٥)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ نادى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أولا تشريفا له، ثم خاطبه مع أمته، أو الخطاب له خاصة، و الجمع للتعظيم، و أمته أسوته فى ذلك، و المعنى: إذا أردتم تطليقهن و عزمتم عليه فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ أى: مستقبلات لعدتهن، أو فى قبل عدتهن، أو لقبل عدتهن. و قال الجرجانى: إن اللام فى «لعدتهن» بمعنى فى، أى: فى عدتهن. و قال أبو حيان: هو على حذف مضاف، أى: لاستقبال عدتهن، و اللام للتوقيت، نحو: لقيته لليلة بقيت من شهر كذا. و المراد أن يطلقوهن فى طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضى عدتهن، فإذا طلقوهن هكذا فقد طلقوهنّ لعدتهنّ، و سيأتى بيان هذا من السنة فى آخر البحث إن شاء اللّه وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ أى: احفظوها، و احفظوا الوقت الّذى وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة، و هى ثلاثة قروء، و الخطاب للأزواج، و قيل: للزوجات، و قيل: للمسلمين على العموم، و الأول أولى لأن الضمائر كلها لهم وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فلا تعصوه فيما أمركم و لا تضاروهن لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ أى: التى كنّ فيها عند الطلاق ما دمن فى العدة، و أضاف البيوت إليهنّ و هى لأزواجهنّ لتأكيد النهى، و بيان

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٢٨٨

كمال استحقاقهنّ للسكنى فى مدّة العدّة، و مثله قوله: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ «١» و قوله:

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ «٢» ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التى وقع الطلاق و هنّ فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضا، فقال: وَ لا يَخْرُجْنَ أى: لا يخرجن من تلك البيوت ما دمن فى العدّة؛ إلا لأمر ضرورى كما سيأتى بيان ذلك، و قيل: المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهنّ الأزواج فلا بأس، و الأول أولى إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى، أى: لا تخرجوهن من بيوتهن، لا من الجملة الثانية. قال الواحدى: أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا، و ذلك أن تزنى فتخرج لإقامة الحدّ عليها. و قال الشافعى و غيره: هى البذاء فى اللسان و الاستطالة بها على من هو ساكن معها فى ذلك البيت، و يؤيد هذا ما قال عكرمة: إن فى مصحف أبيّ «إلا أن يفحشن عليكم» و قيل: المعنى:

إلا أن يخرجن تعديا، فإنّ خروجهن على هذا الوجه فاحشة، و هو بعيد، و الإشارة بقوله: وَ تِلْكَ إلى ما ذكر من الأحكام، و هو مبتدأ، و خبره حُدُودُ اللَّهِ و المعنى: إن هذه الأحكام التى بيّنها لعباده هى حدوده التى حدّها لهم، لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ أى: يتجاوزها إلى غيرها، أو يخلّ بشيء منها فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بإيرادها مورد الهلاك، و أوقعها فى مواقع الضرر بعقوبة اللّه له على مجاوزته لحدوده و تعديه لرسمه، و جملة: لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً مستأنفة

لتقرير مضمون ما قبلها و تعليله. قال القرطبى: قال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة؛ و المعنى: التحريض على طلاق الواحدة و النهى عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثا أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق و الرغبة فى الارتجاع، فلا يجد إلى المراجعة سبيلا. و قال مقاتل بعد ذلك: أى بعد طلقة أو طلقتين أمرا بالمراجعة.

قال الواحدى: الأمر الّذى يحدث أن يوقع فى قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة و الطلقتين. قال الزجاج: و إذا طلّقها ثلاثا فى وقت واحد فلا معنى لقوله: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً. فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَ أى: قاربن انقضاء أجل العدة، و شارفن آخرها فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أى: راجعوهنّ بحسن معاشرة و رغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارة لهنّ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أى: اتركوهن حتى تنقضى عدتهنّ، فيملكن نفوسهن مع إيفائهنّ بما هو لهنّ عليكم من الحقوق و ترك المضارة لهنّ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ على الرجعة، و قيل: على الطلاق، و قيل: عليهما قطعا للتنازع و حسما لمادة الخصومة، و الأمر للندب كما فى قوله: وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ و قيل: إنه للوجوب، و إليه ذهب الشافعى، قال: الإشهاد واجب فى الرجعة، مندوب إليه فى الفرقة، و إليه ذهب أحمد بن حنبل. و فى قول للشافعى: إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، و روى نحو هذا عن أبى حنيفة و أحمد وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقرّبا إلى اللّه، و قد تقدم تفسير هذا فى سورة البقرة. و قيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة، أى: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله: وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ أمرا بنفس الإشهاد، و يكون قوله: وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ أمرا بأن تكون خالصة للّه، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ

---

(١). الأحزاب: ٣٣.

(٢). الأحزاب: ٣٤.

إلى ما تقدم من الأمر بالإشهاد و إقامة الشهادة للّه، و هو مبتدأ و خبره يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و خصّ المؤمن باللّه و اليوم الآخر؛ لأنه المنتفع بذلك دون غيره وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً أى: من يتّق عذاب اللّه بامتثال أوامره و اجتناب نواهيه و الوقوف على حدوده التى حدّها لعباده و عدم مجاوزتها يجعل له مخرجا مما وقع فيه من الشدائد و المحن وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ أى: من وجه لا يخطر بباله و لا يكون فى حسابه. قال الشعبى و الضحاك: هذا فى الطلاق خاصة، أى: من طلّق كما أمره اللّه يكن له مخرج فى الرجعة فى العدة، و أنه يكون كأحد الخطّاب بعد العدة. و قال الكلبى: و من يتق اللّه بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار إلى الجنة. و قال الحسن: مخرجا ممّا نهى اللّه عنه. و قال أبو العالية: مخرجا من كل شى‏ء ضاق على الناس. و قال الحسين بن الفضل: و من يتق اللّه فى أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة و يرزقه الثواب من حيث لا يحتسب، أى: يبارك له فيما آتاه. و قال سهل بن عبد اللّه: و من يتق اللّه فى اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة أهل البدع و يرزقه الجنة من حيث لا يحتسب، و قيل غير ذلك.

و ظاهر الآية العموم، و لا وجه للتخصيص بنوع خاص و يدخل ما فيه السياق دخولا أوليا وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أى: و من وثق باللّه فيما نابه كفاه ما أهمّه إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قرأ الجمهور: «بالغ أمره» بتنوين بالغ و نصب أمره، و قرأ حفص بالإضافة، و قرأ ابن أبى عبلة و داود بن أبى هند و أبو عمرو فى رواية عنه بتنوين بالغ و رفع أمره على أنه فاعل بالغ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر، و بالغ خبر مقدم. قال الفراء فى توجيه هذه القراءة: أى أمره بالغ؛ و المعنى على القراءة الأولى و الثانية: أن اللّه سبحانه بالغ ما يريده من الأمر، لا يفوته شى‏ء، و لا يعجزه مطلوب، و على القراءة الثالثة: أن اللّه نافذ أمره لا يردّه شى‏ء. و قرأ المفضّل: «بالغا» بالنصب على الحال، و يكون خبر إن قوله: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً أى: تقديرا و توقيتا، أو مقدارا. فقد جعل سبحانه

للشدة أجلا تنتهى إليه، و للرخاء أجلا ينتهى إليه. و قال السدى: هو قدر الحيض و العدة وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ و هنّ الكبار اللاتى قد انقطع حيضهن و أيسن منه إِنِ ارْتَبْتُمْ أى: شككتم و جهلتم كيف عدتهن فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ لصغرهن و عدم بلوغهن سن المحيض، أى: فعدتهنّ ثلاثة أشهر، و حذف هذا لدلالة ما قبله عليه وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ أى: انتهاء عدتهن وضع الحمل، و ظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع، سواء كن مطلقات أو متوفّى عنهن، و قد تقدم الكلام فى هذا فى سورة البقرة مستوفى، و حقّقنا البحث فى هذه الآية، و فى الآية الأخرى وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً «١» و قيل: معنى إِنِ ارْتَبْتُمْ إن تيقنتم، و رجّح ابن جرير أنه بمعنى الشك و هو الظاهر. قال الزجاج: إن ارتبتم فى حيضها و قد انقطع عنها الحيض و كانت ممّن يحيض مثلها. و قال مجاهد: إِنِ ارْتَبْتُمْ يعنى لم تعلموا عدة الآيسة و التى لم تحض فالعدة هذه. و قيل: المعنى: إن ارتبتم فى الدم الّذى يظهر منها هل هو حيض أم لا بل استحاضة؛ فالعدة ثلاثة أشهر وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً أى: من يتّقه فى امتثال

---

(١). البقرة: ٢٣٤.

أوامره و اجتناب نواهيه يسهل عليه أمره فى الدنيا و الآخرة. و قال الضحاك: من يتّق اللّه فليطلق للسّنّة يجعل له من أمره يسرا فى الرجعة. و قال مقاتل: من يتق اللّه فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا فى توفيقه للطاعة، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من الأحكام، أى: ذلك المذكور من الأحكام أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ أى: حكمه الّذى حكم به بين عباده و شرعه الّذى شرعه لهم، و معنى أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ أنزله فى كتابه على رسوله و بيّنه لكم و فصل أحكامه و أوضح حلاله و حرامه وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ بترك ما لا يرضاه يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ التى اقترفها، لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً أى: يعطه من الأجر فى الآخرة أجرا عظيما و هو الجنة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: طلّق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حفصة فأتت أهلها، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ فقيل له: راجعها فإنها صوّامة قوامة، و هى من أزواجك فى الجنة. و أخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلا. و أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: طلّق عبد يزيد أبو ركانة أمّ ركانة، ثم نكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت: يا رسول اللّه ما يغنى عنى إلا ما تغنى عنى هذه الشعرة، لشعرة أخذتها من رأسها، فأخذت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حميّة عند ذلك، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ركانة و إخوته، ثم قال لجلسائه: أ ترون كذا من كذا؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعبد يزيد: طلّقها، ففعل، فقال لأبى ركانة: ارتجعها، فقال: يا رسول اللّه إنى طلقتها، قال: قد علمت ذلك فارتجعها، فنزلت:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ قال الذهبى: إسناده واه، و الخبر خطأ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر: «أنه طلق امرأته و هى حائض، فذكر ذلك عمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فتغيّظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض و تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها، فتلك العدة التى أمر اللّه أن يطلق لها النساء، و قرأ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم «يا أيها النّبى إذا طلّقتم النساء فطلقوهن فى قبل عدتهن»». و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ: «فطلّقوهن فى قبل عدتهن». و أخرج ابن الأنبارى عن ابن عمر أنه قرأ: «فطلّقوهن لقبل عدتهن». و أخرج ابن الأنبارى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقى عن مجاهد أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد الرزاق، و

أبو عبيد فى فضائله، و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس أنه قرأ كذلك. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: من أراد أن يطلق للسنة كما أمره اللّه، فليطلقها طاهرا فى غير جماع. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ قال: طاهرا من غير جماع. و فى الباب أحاديث. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ قال: الطلاق طاهرا فى غير جماع.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله: وَ لا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قال: خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هى

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۹۱

الفاحشة المبينة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قال: الزنا.

و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقى من طرق عن ابن عباس قال: الفاحشة المبينة أن تبذو «۱» المرأة على أهل الرجل، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حلّ لهم إخراجها. و أخرج ابن أبى حاتم عن فاطمة بنت قيس فى قوله: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً قالت: هى الرجعة. و أخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلا سأل عمران بن حصين: أن رجلا طلق و لم يشهد، و أرجع و لم يشهد. قال: بئس ما صنع، طلق فى بدعة، و ارتجع فى غير سنّة، فليشهد على طلاقه و على مراجعته و يستغفر اللّه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً قال: مخرجه أن يعلم أنه قبل أمر اللّه، و أن اللّه هو الّذى يعطيه و هو يمنعه، و هو يبتليه و هو يعافيه، و هو يدفع عنه، و فى قوله: وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ قال: من حيث لا يدرى. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً قال: ينجيه من كل كرب فى الدنيا و الآخرة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ضعّفه الذهبى، من طريق سالم بن أبى الجعد عن جابر قال: نزلت هذه الآية وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً فى رجل من أشجع كان فقيرا، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال:

اتق اللّه و اصبر، فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدوّ أصابوه، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسأله عنها و أخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ الآية. و أخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: «جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه إن ابنى أسره العدو و جزعت أمه، فما تأمرنى؟ قال: آمرك و إياها أن تستكثرا من قول: لا حول و لا قوة إلا باللّه، فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلا يكثران منها، فتغفّل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» الآية. و فى الباب روايات تشهد لهذا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة فى الآية قالت: يكفيه همّ الدنيا و غمّها. و أخرج أحمد و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، و البيهقى عن أبى ذرّ قال: «جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يتلو هذه الآية: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ فجعل يردّدها حتى نعست، ثم قال: يا أبا ذرّ لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ قال: ليس المتوكّل الّذى يقول: تقضى حاجتى، و ليس كل من يتوكل على اللّه كفاه ما أهمّه، و دفع عنه ما يكره، و قضى حاجته، و لكن اللّه جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفّر عنه سيئاته، و يعظم له أجرا، و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قال: يقول قاضى أمره على من توكل و على من لم يتوكل، و لكن المتوكل يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا، و فى قوله: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً قال: يعنى أجلا و منتهى ينتهى إليه. و أخرج ابن المبارك و الطيالسى و أحمد و عبد بن حميد

(۱). تبذو: تفحش فى القول.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۹۲

و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و أبو يعلى و الحاكم، و صحّحه، و البيهقى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو أنكم توكلتم على اللّه حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصا و تروح بطانا».

و أخرج إسحاق بن راهويه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن أبىّ بن كعب: أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية فى البقرة فى عدة النساء قالوا: لقد بقى من عدة النساء عددا لم تذكر فى القرآن: الصغار و الكبار اللاتى قد انقطع حيضهن و ذوات الحمل، فأنزل اللّه: وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ الآية. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و أبو يعلى، و الضياء فى المختارة، و ابن مردويه عن أبى بن كعب قال: «قلت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أهى المطلقة ثلاثا، أو المتوفّى عنها؟ قال: هى المطلقة ثلاثا و المتوفى عنها». و أخرج نحوه عنه مرفوعا ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الدار قطنى من وجه آخر. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و أبو داود و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن عليا قال: تعتدّ آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته، إن الآية التى فى سورة النساء القصرى «۱» نزلت بعد سورة البقرة وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ بكذا و كذا أشهرا، و كل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها. و روى نحو هذا عنه من طرق و بعضها فى صحيح البخارى. و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث أم سلمة: أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها و هى حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و فى الباب أحاديث.

[سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۶ الى ۷]

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (۶) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (۷)

قوله: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ هذا كلام مبتدأ يتضمّن بيان ما يجب للنساء من السكنى، و من للتبعيض، أى: بعض مكان سكناكم، و قيل: زائدة مِنْ وُجْدِكُمْ أى: من سعتكم و طاقتكم، و الوجد: القدرة. قال الفراء: يقول: على ما يجد، فإن كان موسعا عليه وسع عليها فى المسكن و النفقة، و إن كان فقيرا فعلى قدر ذلك. قال قتادة: إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه.

و قد اختلف أهل العلم فى المطلقة ثلاثا، هل لها سكنى و نفقة أم لا؟ فذهب مالك و الشافعى أن لها السكنى و لا نفقة لها. و ذهب أبو حنيفة و أصحابه أن لها السكنى و النفقة. و ذهب أحمد و إسحاق و أبو ثور أنه لا نفقة

(۱). أى سورة الطلاق.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۹۳

لها و لا سكنى، و هذا هو الحق، و قد قررته فى شرحى للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. وَ لا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن فى المسكن و النفقة. و قال مجاهد: فى المسكن.

و قال مقاتل: في النفقة. و قال أبو الضحى: هو أن يطلّقها، فإذا بقى يومان من عدّتها راجعها، ثم طلّقها.

وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ أى: إلى غاية هى وضعهن للحمل. و لا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة و السكنى للحامل المطلقة؛ فأما الحامل المتوفى عنها زوجها، فقال على و ابن عمر و ابن مسعود و شريح و النخعى و الشعبى و حماد و ابن أبى ليلى و سفيان و أصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. و قال ابن عباس و ابن الزبير و جابر بن عبد اللّه و مالك و الشافعى و أبو حنيفة و أصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، و هذا هو الحق للأدلة الواردة فى ذلك من السنة فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ أولادكم بعد ذلك فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ أى: أجور إرضاعهن، و المعنى: أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهن منهن فلهن أجورهن على ذلك وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ هو خطاب للأزواج و الزوجات، أى: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، و ليقبل بعضكم من بعض [ما أمره به «١» من المعروف الجميل، و أصل معناه ليأمر بعضكم بعضا بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم. قال مقاتل: المعنى ليتراض الأب و الأم على أجر مسمّى، قيل: و المعروف الجميل من الزوج أن يوفّر لها الأجر، و المعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ أى: فى أجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطى الأم الأجر، و أبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى أى: يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، و لا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة، و لا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر. قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ أى: كان رزقه بمقدار القوت، أو مضيق ليس بموسع فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ أى: ممّا أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها أى: ما أعطاها من الرزق، فلا يكلّف الفقير بأن ينفق ما ليس فى وسعه، بل عليه ما يقدر عليه و تبلغ إليه طاقته مما أعطاه اللّه من الرزق سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً أى: بعد ضيق و شدة سعة و غنى.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: مِنْ وُجْدِكُمْ قال: من سعتكم وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ قال: فى المسكن. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ الآية، قال: فهذه فى المرأة يطلّقها زوجها و هى حامل، فأمره اللّه أن يسكنها و ينفق عليها حتى تضع، و إن أرضعت حتى تفطم، فإن أبان طلاقها و ليس بها حمل فلها السكنى حتى تنقضى عدتها و لا نفقة لها. و أخرج عبد بن حميد عن أبى سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب و يأكل

---

(١). من تفسير القرطبى (١٨/ ١٦٩)

أخشن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، و قال للرسول: انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب، و أكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه اللّه، تأوّل هذه الآية لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١٢]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (٨) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (١٠) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ

جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (۱۱) اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْ‌ءٍ قَدِیرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِکُلِّ شَیْ‌ءٍ عِلْماً (۱۲)

لما ذکر سبحانه ما تقدم من الأحکام، حذّر من مخالفتها، و ذکر عتوّ قوم خالفوا أوامره، فحلّ بهم عذابه، فقال: وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ یعنی عصت، و المراد أهلها، و المعنی: و کم من أهل قریة عصوا أمر اللّه و رسله، أو أعرضوا عن أمر اللّه و رسله؛ علی تضمین عتت معنی أعرضت، و قد قدّمنا الکلام فی کأین فی سورة آل عمران و غیرها فَحاسَبْناها حِساباً شَدِیداً أی: شددنا علی أهلها فی الحساب بما عملوا. قال مقاتل: حاسبها اللّه بعملها فی الدنیا فجازاها بالعذاب، و هو معنی قوله:

وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُکْراً أی: عذّبنا أهلها عذابا عظیما منکرا فی الآخرة، و قیل: فی الکلام تقدیم و تأخیر، أی: عذّبنا أهلها عذابا نکرا فی الدنیا بالجوع و القحط و السیف و الخسف و المسخ، و حاسبناهم فی الآخرة حسابا شدیدا. و النکر المنکر فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها أی: عاقبة کفرها وَ کانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً أی: هلاکا فی الدنیا و عذابا فی الآخرة أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِیداً فی الآخرة، و هو عذاب النار، و التکریر للتأکید فَاتَّقُوا اللَّهَ یا أُولِی الْأَلْبابِ أی: یا أولی العقول الراجحة، و قوله: الَّذِینَ آمَنُوا فی محل نصب بتقدیر، أعنی بیانا للمنادی بقوله: یا أُولِی الْأَلْبابِ أو عطف بیان له، أو نعت قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکُمْ ذِکْراً- رَسُولًا قال الزجاج: إنزال الذکر دلیل علی إضمار أرسل، أی: أنزل إلیکم قرآنا، و أرسل إلیکم رسولا، و قال أبو علی الفارسی: إن رسولا منصوب بالمصدر، و هو ذکرا؛ لأن المصدر المنوّن یعمل. و المعنی: أنزل إلیکم ذکر الرسول. و قیل: إن رسولا بدل من ذکرا، و کأنه جعل الرسول نفس الذکر مبالغة. و قیل: إنه بدل منه علی حذف مضاف من الأول تقدیره: أنزل ذا ذکر رسولا، أو صاحب ذکر رسولا. و قیل: إن رسولا نعت علی حذف مضاف، أی: ذکرا ذا رسول، فذا رسول نعت للذکر.

و قیل: إن «رسولا» بمعنی رسالة، فیکون «رسولا» بدلا صریحا من غیر تأویل، أو بیانا.

و قیل: إن رسولا منتصب علی الإغراء، کأنه قال: الزموا رسولا. و قیل: إن الذکر ها هنا بمعنی الشرف

کقوله: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ کِتاباً فِیهِ ذِکْرُکُمْ «۱» و قوله: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ «۲». ثم بیّن هذا الشرف فقال: رَسُولًا و قد ذهب الأکثر إلی أن المراد بالرسول هنا محمد صلّی اللّه علیه و سلّم. و قال الکلبی: هو جبریل، و المراد بالذکر القرآن، و یختلف المعنی باختلاف وجوه الإعراب السابقة کما لا یخفی. ثم نعت سبحانه الرسول المذکور بقوله: یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِ اللَّهِ مُبَیِّناتٍ أی: حال کونها مبینات، قرأ الجمهور:

«مبینات» علی صیغة اسم المفعول، أی: بینها اللّه و أوضحها، و قرأ ابن عامر و حفص و حمزة و الکسائی علی صیغة اسم الفاعل، أی: الآیات تبین للناس ما یحتاجون إلیه من الأحکام. و رجّح القراءة الأولی أبو حاتم و أبو عبید لقوله: قَدْ بَیَّنَّا لَکُمُ الْآیاتِ* لِیُخْرِجَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ اللام متعلقة بیتلو، أی: لیخرج الرسول الّذی یتلو الآیات الذین آمنوا و عملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلی نور الهدایة، و یجوز أن تتعلق اللام بأنزل، فیکون المخرج هو اللّه سبحانه وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ یَعْمَلْ صالِحاً أی: یجمع بین التصدیق، و العمل بما فرضه اللّه علیه، مع اجتناب ما نهاه عنه یُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ قرأ الجمهور: «یُدْخِلْهُ» بالتحتیة، و قرأ نافع و ابن عامر بالنون، و جمع الضمیر فی خالِدِینَ فِیها أَبَداً باعتبار معنی من، و وحّده فی «یُدْخِلْهُ»* باعتبار لفظها، و جملة قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً فی محل نصب علی الحال من الضمیر فی خالدین علی التدخل، أو من مفعول یدخله علی الترادف؛ و معنی قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً أی: وسّع له رزقه فی الجنة اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ الاسم الشریف مبتدأ و خبره الموصول مع صلته وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ أی: و خلق من الأرض مثلهن یعنی سبعا.

و اختلف فی کیفیة طبقات الأرض. قال القرطبی فی تفسیره: و اختلف فیهنّ علی قولین: أحدهما: و هو قول الجمهور أنها سبع

أرضين طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض و أرض مسافة كما بين السماء و السماء، و فى كل أرض سكان من خلق اللّه. و قال الضحاك: إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. و الأول أصح «٣»؛ لأن الأخبار دالة عليه فى الترمذى و النسائى و غيرهما، و قد مضى ذلك مبينا فى البقرة قال: و فى صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين» إلى آخر كلامه، و سيأتى فى آخر البحث ما يقوى قول الجمهور. قرأ الجمهور: «مثلهنّ» بالنصب عطفا على «سبع سموات» أو على تقدير فعل، أى: و خلق من الأرض مثلهنّ. و قرأ عاصم فى رواية عنه بالرفع على الابتداء، و الجار و المجرور قبله خبره يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ الجملة مستأنفة، و يجوز أن تكون صفة لما قبلها، و الأمر الوحى. قال مجاهد: يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع. و قال الحسن: بين كل سماءين أرض و أمر. و قال قتادة: فى كل أرض من أرضه و سماء من سمائه خلق من خلقه، و أمر من أمره، و قضاء من قضائه، و قيل: بينهنّ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التى هى أدناها، و بين السماء السابعة التى هى أعلاها، و قيل: هو ما يدبّر فيهن

---

(١). الأنبياء: ١٠.

(٢). الزخرف: ۴۴.

(٣). هذا الكلام لا يعتمد على قرآن أو سنّة، و قد أثبت العلم خلافه.

من عجيب تدبيره، فينزل المطر و يخرج النبات، و يأتى بالليل و النهار، و الصيف و الشتاء، و يخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها و هيئاتها فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: و هذا هو مجال اللغة و اتساعها، كما يقال للموت: أمر اللّه، و للريح و السحاب و نحوها. قرأ الجمهور: «يتنزل الأمر» من التنزل و رفع الأمر على الفاعلية، و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه «ينزل» من الإنزال، و نصب الأمر على المفعولية و الفاعل اللّه سبحانه، و اللام فى لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيرٌ متعلق بخلق، أو بيتنزل أو بمقدر، أى: فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته و إحاطته بالأشياء، و هو معنى وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْ‌ءٍ عِلْماً فلا يخرج عن علمه شى‌ء منها كائنا ما كان، و انتصاب علما على المصدرية، لأن أحاط بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف، أى: أحاط إحاطة علما، و يجوز أن يكون تمييزا.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً يقول: لم ترحم وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً يقول: عظيما منكرا. و أخرج ابن مردويه قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً- رَسُولًا قال: محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ إلى آخر السورة، فقال ابن عباس:

ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر؟. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ قال: سبع أرضين فى كلّ أرض نبى كنبيكم، و آدم كآدم، و نوح كنوح، و إبراهيم كإبراهيم، و عيسى كعيسى. قال البيهقى: هذا إسناده صحيح، و هو شاذ بمرة، لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن الأرضين بين كل أرض و التى تليها مسيرة خمسمائة عام، و العليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء، و الحوت على صخرة، و الصخرة بيد ملك. و الثانية مسخر الريح، فلما أراد اللّه أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا يهلك عادا، فقال: يا رب أرسل عليهم

من الريح قدر منخر الثور؟ فقال له الجبار: إذن تكفأ «۱» الأرض و من عليها، و لكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهى التى قال اللّه فى كتابه: ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‌ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ «۲». و الثالثة فيها حجارة جهنم، و الرابعة فيها كبريت جهنم، فقالوا: يا رسول اللّه أ للنار كبريت؟ قال: نعم، و الّذى نفسى بيده؛ إن فيها لأودية من كبريت، لو أرسل فيها الجبال الرواسى لماعت» إلى آخر الحديث. قال الذهبى متعقبا للحاكم: هو حديث منكر. و أخرج عثمان بن سعيد الدارمى عن ابن عباس قال: سيد السموات السماء التى فيها العرش، و سيد الأرضين الأرض التى نحن فيها.

---

(۱). فى المستدرك للحاكم: تكفى.

(۲). الذاريات: ۴۲.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۲۹۷

سورة التّحريم

اشارة

و هى مدنية. قال القرطبى: فى قول الجميع، و تسمى سورة النبى. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة التحريم بالمدينة، و لفظ ابن مردويه سورة المحرم. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت بالمدينة سورة النساء يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التحريم (۶۶): الآيات ۱ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۲) وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (۳) إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (۴)

عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً (۵)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ اختلف فى سبب نزول الآية على أقوال: الأول قول أكثر المفسرين. قال الواحدى: قال المفسرون: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيت حفصة فزارت أباها، فلما رجعت أبصرت مارية فى بيتها مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، فلما رأى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى وجه حفصة الغيرة و الكآبة قال لها: لا تخبرى عائشة و لك على أن لا أقربها أبدا، فأخبرت حفصة عائشة و كانتا متصافيتين، فغضبت عائشة و لم تزل بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى حلف أن لا يقرب مارية، فأنزل اللّه هذه السورة.

قال القرطبى: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت فى حفصة، و ذكر القصة. و قيل: السبب أنه كان صلّى اللّه عليه و سلّم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة و حفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريح مغافير. و قيل: السبب

المرأة التى وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و سيأتى دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء اللّه، و ستعرف كيفية الجمع بينهما، و جملة تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ مستأنفة، أو مفسرة لقوله:

«تحرّم»، أو فى محل نصب على الحال من فاعل تحرم، أى: مبتغيا به مرضاة أزواجك، و مرضاة اسم مصدر، و هو الرضى، و أصله مرضوة، و هو مضاف إلى المفعول، أى: أن ترضى أزواجك، أو إلى الفاعل، أى:

أن يرضين هن وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: بليغ المغفرة و الرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحلّ اللّه لك،

فتح القدير، ج‌5، ص: 298

قيل: و كان لك ذنبا من الصغائر، فلذا عاتبه اللّه عليه، و قيل: إنها معاتبة على ترك الأولى «1» قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ أى: شرع لكم تحليل أيمانكم، و بيّن لكم ذلك، و تحلة أصلها تحللة، فأدغمت.

و هى من مصادر التفعيل كالتوصية و التسمية، فكأن اليمين عقد، و الكفّارة حلّ، لأنها تحلّ للحالف ما حرّمه على نفسه. قال مقاتل: المعنى قد بيّن اللّه كفّارة أيمانكم فى سورة المائدة. أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يكفر يمينه و يراجع وليدته فأعتق رقبة. قال الزجاج: و ليس لأحد أن يحرم ما أحلّ اللّه.

قلت: و هذا هو الحق أن تحريم ما أحل اللّه لا ينعقد و لا يلزم صاحبه. فالتحليل و التحريم هو إلى اللّه سبحانه لا إلى غيره، و معاتبته لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه السورة أبلغ دليل على ذلك، و البحث طويل و المذاهب فيه كثيرة و المقالات فيه طويلة، و قد حققناه فى مؤلفاتنا بما يشفى.

و اختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا؟ و فى ذلك خلاف، و ليس فى الآية ما يدل على أنه يمين؛ لأن اللّه سبحانه عاتبه على تحريم ما أحلّه له، ثم قال: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ و قد ورد فى القصة التى ذهب أكثر المفسرين إلى أنها سبب نزول الآية أنه حرم أولا ثم حلف ثانيا كما قدمنا وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ أى: وليّكم و ناصركم و المتولّى لأموركم وَ هُوَ الْعَلِيمُ بما فيه صلاحكم و فلاحكم الْحَكِيمُ فى أفعاله و أقواله.

وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً قال أكثر المفسرين: هى حفصة كما سبق، و الحديث هو تحريم مارية، أو العسل، أو تحريم التى وهبت نفسها له، و العامل فى الظرف فعل مقدر، أى: و اذكر إذ أسرّ. و قال الكلبى: أسرّ إليها أن أباك و أبا عائشة يكونان خليفتى على أمتى من بعدى فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ أى أخبرت به غيرها وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ أى: أطلع اللّه نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها عَرَّفَ بَعْضَهُ أى: عرّف حفصة بعض ما أخبرت به. قرأ الجمهور: «عرف» مشددا من التعريف، و قرأ على و طلحة بن مصرّف و أبو عبد الرّحمن السّلمى و الحسن و قتادة و الكسائى بالتخفيف. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الأولى لقوله: وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ أى: لم يعرفها إياه، و لو كان مخففا لقال فى ضده: و أنكر بعضا وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ أى و أعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر فى الناس، و قيل: الّذى أعرض عنه هو حديث مارية. و للمفسرين ها هنا خبط و خلط، و كل جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف و الإعراض بما يطابق بعض ما ورد فى سبب النزول، و سنوضح لك ذلك إن شاء اللّه فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ أى:

أخبرها بما أفشت من الحديث قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا أى: من أخبرك به قالَ: نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ أى: أخبرنى الّذى لا تخفى عليه خافية. إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما الخطاب لعائشة و حفصة، أى: إن تتوبا إلى اللّه فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، و معنى صَغَتْ عدلت و مالت عن الحق، و هو

---

(1). قال القرطبى (18/ 184): و الصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى، و أنّه لم تكن له صغيرة و لا كبيرة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۲۹۹
أنهما أحبتا ما كره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو إفشاء الحديث. و قيل: المعنى: إن تتوبا إلى اللّه فقد مالت قلوبكما إلى التوبة، و قال قلوبكما و لم يقل قلبا كما لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين فى لفظ واحد وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ أى: تتظاهروا، قرأ الجمهور: «تظاهرا» بحذف إحدى التاءين تخفيفا. و قرأ عكرمة «تتظاهرا» على الأصل. و قرأ الحسن و أبو رجاء و نافع و عاصم فى رواية عنهم «تظّهّرا» بتشديد الظاء و الهاء بدون ألف، و المراد بالتظاهر: التعاضد و التعاون، و المعنى: و إن تعاضدا و تعاونا فى الغيرة عليه منكما و إفشاء سرّه فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ أى: فإن اللّه يتولّى نصره، و كذلك جبريل و من صلح من عباده المؤمنين، فلن يعدم ناصرا ينصره وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ أى: بعد نصر اللّه و نصر جبريل و صالح المؤمنين ظَهِيرٌ أى: أعوان يظاهرونه، و الملائكة مبتدأ، و خبره ظهير. قال أبو على الفارسى: قد جاء فعيل للكثرة، كقوله: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً «۱» قال الواحدى: و هذا من الواحد الّذى يؤدى عن الجمع كقوله: وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً «۲» و قد تقرر فى علم النحو أن مثل جريح و صبور و ظهير يوصف به الواحد و المثنى و الجمع. و قيل: كان التّظاهر بين عائشة و حفصة فى التحكم على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى النفقة عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَ أى: يعطيه بدلكن أزواجا أفضل منكن، و قد علم اللّه سبحانه أنه لا يطلقهن، و لكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيرا منهن تخويفا لهن، و هو كقوله:
وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ «۳» فإنه إخبار عن القدرة و تخويف لهم. ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله: مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ أى: قائمات بفرائض الإسلام، مصدّقات باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و القدر خيره و شره. و قال سعيد بن جبير: مُسْلِماتٍ أى: مخلصات. و قيل معناه: مسلمات لأمر اللّه و رسوله قانِتاتٍ مطيعات للّه. و القنوت: الطاعة، و قيل: مصلّيات تائِباتٍ يعنى من الذنوب عابِداتٍ للّه متذللات له. قال الحسن و سعيد بن جبير: كثيرات العبادة. سائِحاتٍ أى:
صائمات. و قال زيد بن أسلم: مهاجرات، و ليس فى أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم سياحة إلا الهجرة. قال ابن قتيبة و الفراء و غيرهما: و سمى الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه. و قيل المعنى: ذاهبات فى طاعة اللّه، من ساح الماء إذا ذهب، و أصل السياحة: الجولان فى الأرض، و قد مضى الكلام على السياحة فى سورة براءة. ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً وسط بينهما العاطف لتنافيهما، و الثيبات: جمع ثيب، و هى المرأة التى قد تزوجت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج. و الأبكار: جمع بكر، و هى العذراء، سميت بذلك لأنها على أول حالها التى خلقت عليه.
و قد أخرج البخارى و غيره عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يمكث عند زينب بنت جحش و يشرب عندها لبنا أو عسلا، فتواصيت أنا و حفصة أنّ أيّتنا دخل عليها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلتقل: إنى أجد منك ريح مغافير، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، و لن أعود، فنزلت:

---

(۱). المعارج: ۱۰.

(۲). النساء: ۶۹.

(۳). محمد: ۳۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۰۰
فتح القدير ج۵ ۳۴۹
يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إلى قوله: إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ لعائشة و حفصة وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً لقوله: بل شربت عسلا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال:

«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إنى أجد منك ريحا، فدخل على حفصة فقالت: إنى أجد منك ريحا، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، و اللّه لا أشربه أبدا، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ الآية». و أخرج ابن سعد عن عبد اللّه بن رافع قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ قالت: كانت عندى عكّة «١» من عسل أبيض، فكان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يلعق منها و كان يحبه، فقالت له عائشة:
نحلها تجرس عرفطا «٢»، فحرّمها، فنزلت الآية. و أخرج النسائى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أنس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كانت له أمة يطؤها، فلم تزل عائشة و حفصة حتى جعلها على نفسه حراما، فأنزل اللّه هذه الآية يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ و أخرج البزار و الطبرانى، قال السيوطى: بسند صحيح، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ قال: عائشة و حفصة، و كان بدوّ الحديث فى شأن مارية القبطية أم إبراهيم أصابها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيت حفصة فى يومها، فوجدت حفصة فقالت: يا رسول اللّه لقد جئت إلىّ بشىء ما جئته إلى أحد من أزواجك فى يومى و فى دورى على فراشى، قال: ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها أبدا؟ قالت: بلى، فحرّمها و قال: لا تذكرى ذلك لأحد، فذكرته لعائشة فأظهره اللّه عليه، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ الآيات كلها، فبلغنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كفّر عن يمينه، و أصاب مارية. و أخرجه ابن سعد و ابن مردويه عنه بأطول من هذا. و أخرجه ابن مردويه أيضا من وجه آخر عنه بأخصر منه، و أخرجه ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه عنه مختصرا بلفظ قال: حرّم سريته، و جعل ذلك سبب النزول فى جميع ما روى عنه من هذه الطرق، و أخرج الهيثم بن كليب فى مسنده، و الضياء المقدسى فى المختارة، من طريق نافع عن ابن عمر قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لحفصة: لا تحدثى أحدا، و إن أم إبراهيم علىّ حرام، فقالت: أ تحرم ما أحل اللّه لك؟ قال: فو اللّه لا أقربها. فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل اللّه:
قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ و أخرج الطبرانى فى الأوسط و ابن مردويه عن أبى هريرة أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف، و سنده ضعيف. فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، و الجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، و قصة مارية، و أن القرآن نزل فيهما جميعا، و فى كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه، و أما ما قيل من أن السبب هو تحريم المرأة التى وهبت نفسها، فليس فى ذلك إلا ما روى ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ فى المرأة التى وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. قال السيوطى: و سنده ضعيف. و يردّ هذا أيضا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم

---

(١). «العكة»: زقّ صغير للسمن.

(٢). «تجرس»: تأكل. و «العرفط»: شجر.

يقبل تلك الواهبة لنفسها، فكيف يصحّ أن يقال إنه نزل فى شأنها: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ فإن من ردّ ما وهب له لم يصح أن يقال إنه حرمه على نفسه، و أيضا لا ينطبق على هذا السبب قوله: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً إلى آخر ما حكاه اللّه. و أما ما ثبت فى الصحيحين و غيرهما: أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأخبره أنهما عائشة و حفصة، ثم ذكر قصة الإيلاء كما فى الحديث الطويل، فليس فى هذا نفى لكون السبب هو ما قدمنا من قصة العسل و قصة السرية، لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين، و ذكر فيه أن أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يراجعنه و تهجره إحداهن اليوم إلى الليل، و أن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ و

يؤيد هذا ما قدّمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ فأخبره بأنهما حفصة و عائشة، و بيّن له أن السبب قصة مارية. هذا ما تيسّر من تلخيص سبب نزول الآية، و دفع الاختلاف فى شأنه، فاشدد عليه يديك لتنجو به من الخبط و الخلط الّذى وقع للمفسرين. و أخرج عبد الرزاق و البخارى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: فى الحرام يكفر، و قال: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «١». و أخرج ابن المنذر و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عنه أنه جاءه رجل فقال: إنى جعلت امرأتى علىّ حراما، فقال: كذبت ليست عليك بحرام، ثم تلا: لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ قال: عليك أغلظ الكفّارات عتق رقبة. و أخرج الحارث ابن أبى أسامة عن عائشة قالت: «لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح، فأنزل اللّه: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ فأحلّ يمينه و أنفق عليه». و أخرج ابن عدى و ابن عساكر عن عائشة فى قوله: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً قالت: أسرّ إليها أن أبا بكر خليفتى من بعدى. و أخرج ابن عدى، و أبو نعيم فى الصحابة، و العشارى فى فضائل الصديق، و ابن مردويه و ابن عساكر من طرق عن علىّ و ابن عباس قال: و اللّه إن إمارة أبى بكر و عمر لفى الكتاب: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً قال لحفصة: «أبوك و أبو عائشة و اليا الناس بعدى، فإياك أن تخبرى أحدا بهذا». قلت: و هذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ بل فيه أن الحديث الّذى أسره صلّى اللّه عليه و سلّم هو هذا، فعلى فرض أن له إسنادا يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة، و هى مقدّمة عليه و مرجّحة بالنسبة إليه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما قال: زاغت و أثمت. و أخرج ابن المنذر عنه قال: مالك. و أخرج ابن عساكر من طريق عبد اللّه بن بريدة عن أبيه فى قوله: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ قال: أبو بكر و عمر. و أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله.

و أخرج الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى فضائل الصحابة، من وجه آخر عنه مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر و ابن عباس مثله. و أخرج الحاكم عن أبى أمامة مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبى حاتم، قال السيوطى:

بسند ضعيف، عن علىّ مرفوعا قال: «هو علىّ بن أبى طالب». و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ علىّ بن أبى طالب». و أخرج ابن مردويه و ابن

---

(١). الأحزاب: ٢١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٠٢

عساكر عن ابن عباس فى قوله: وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ قال: هو علىّ بن أبى طالب. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن بريدة فى قوله: ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً قال: وعد اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه أن يزوّجه بالثيب آسية امرأة فرعون، و بالبكر مريم بنت عمران.

[سورة التحريم (٦٦): الآيات ٦ الى ٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ بفعل ما أمركم به و ترك ما نهاكم عنه وَ أَهْلِيكُمْ بأمرهم بطاعة اللّه، و نهيهم عن معاصيه ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أى: نارا عظيمة تتوقد بالناس و بالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب، و قد تقدم بيان هذا فى سورة

البقرة. قال مقاتل بن سليمان: المعنى: قوا أنفسكم و أهليكم، بالأدب الصالح، النار فى الآخرة. و قال قتادة و مجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، و قوا أهليكم بوصيتكم. قال ابن جرير: فعلينا أن نعلّم أولادنا الدّين و الخير و ما لا يستغنى عنه من الأدب، و من هذا قوله:

وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها «١» و قوله: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٢». عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ أى: على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها و تعذيب أهلها، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يرحمونهم إذا استرحموهم؛ لأن اللّه سبحانه خلقهم من غضبه، و حبّب إليهم تعذيب خلقه، و قيل:

المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان، و قيل: غلاظ الأقوال شداد الأفعال، و قيل: الغلاظ ضخام الأجسام، و الشداد: الأقوياء لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ أى: لا يخالفونه فى أمره، و «ما» فى ما أَمَرَهُمْ يجوز أن تكون موصولة و العائد محذوف، أى: لا يعصون اللّه الّذى أمرهم به، و يجوز أن تكون مصدرية، أى: لا يعصون اللّه أمره، على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف، أو على تقدير نزع الخافض، أى: لا يعصون اللّه فى أمره وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ أى: يؤدّونه فى وقته من غير تراخ، لا يؤخّرونه عنه و لا يقدّمونه يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ أى: يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييسا لهم و قطعا لأطماعهم إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الأعمال فى الدنيا، و مثل هذا قوله: فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ «٣» يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً أى: تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه، و صفت بذلك على الإسناد المجازى، و هو فى الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب و ترك المعاودة له.

---

(١). طه: ١٣٢.

(٢). الشعراء: ٢١۴.

(٣). الروم: ۵٧.

فتح القدير، ج۵، ص: ٣٠٣

و التوبة فرض على الأعيان. قال قتادة: التوبة النصوح: الصادقة، و قيل: الخالصة. و قال الحسن: التوبة النصوح: أن يبغض الذنب الّذى أحبه و يستغفر منه إذا ذكره. و قال الكلبى: التوبة النصوح الندم بالقلب، و الاستغفار باللسان، و الإقلاع بالبدن، و الاطمئنان على أن لا يعود. و قال سعيد بن جبير: هى التوبة المقبولة.

قرأ الجمهور: «نصوحا» بفتح النون على الوصف للتوبة، أى: توبة بالغة فى النصح، و قرأ الحسن و خارجة و أبو بكر عن عاصم بضمها، أى: توبة نصح لأنفسكم، و يجوز أن يكون جمع ناصح، و أن يكون مصدرا، يقال: نصح نصاحة و نصوحا. قال المبرّد: أراد توبة ذات نصح. عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ بسبب تلك التوبة، و عسى و إن كان أصلها للإطماع فهى من اللّه واجبة، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و يدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه و بالنصب قرأ الجمهور، و قرئ بالجزم عطفا على محل عيسى، كأنه قال: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم و يدخلكم يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَ الظرف متعلق بيدخلكم، أى: يدخلكم يوم لا يخزى اللّه النبى وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ و الموصول معطوف على النبى، و قيل: الموصول مبتدأ، و خبره: نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ و الأول أولى، و تكون جملة نُورُهُمْ يَسْعى فى محل نصب على الحال أو مستأنفة لبيان حالهم، و قد تقدّم فى سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصّراط، و جملة يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فى محل نصب على الحال أيضا، و على الوجه الآخر تكون خبرا آخر، و هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ اللّه نور المنافقين، كما تقدّم بيانه و تفصيله.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً قال: علّموا أنفسكم و أهليكم الخير و أدّبوهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى الآية قال: اعملوا بطاعة اللّه و اتقوا معاصى اللّه، و أمروا أهلكم بالذكر ينجكم اللّه من النار. و أخرج عبد بن حميد عنه فى الآية قال: أدّبوا أهليكم.

و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، عن أبى عمران الجونى قال: بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر، ما بين منكبى أحدهم مسيرة مائة خريف، ليس فى قلوبهم رحمة، إنّما خلقوا للعذاب، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحنا من لدن قرنه إلى قدمه. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد و ابن منيع و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح، فقال:

أن يتوب الرجل من العمل السّيّئ ثم لا يعود إليه أبدا. و أخرج أحمد و ابن مردويه و البيهقى عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «التوبة من الذنب أن يتوب منه، ثم لا يعود إليه أبدا» و فى إسناده إبراهيم ابن مسلم الهجرى، و هو ضعيف، و الصحيح الموقوف. كما أخرجه موقوفا عنه ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: التوبة النصوح تكفر كلّ سيئة، و هو فى القرآن، ثم قرأ هذه الآية. و أخرج الحاكم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ

فتح القدير، ج‌5، ص: 304

لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى الآية قال: ليس أحد من الموحّدين إلا يعطى نورا يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، و المؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا.

[سورة التحريم (66): الآيات 9 الى 12]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (9) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (12)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ أى: بالسيف و الحجة، و قد تقدّم الكلام على هذه الآية فى سورة براءة وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ أى: شدّد عليهم فى الدعوة، و استعمل الخشونة فى أمرهم بالشرائع.

قال الحسن: أى: جاهدهم بإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أى: مصيرهم إليها، يعنى الكفّار و المنافقين وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ أى: المرجع الّذى يرجعون إليه ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قد تقدّم غير مرّة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها فى الغرابة، أى: جعل اللّه مثلا لحال هؤلاء الكفرة، و أنه لا يغنى أحد عن أحد امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ هذا هو المفعول الأوّل، و «مثلا» المفعول الثانى حسبما قدّمنا تحقيقه، و إنما أخّر ليتصل به ما هو تفسير له و إيضاح لمعناه كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ و هما نوح و لوط، أى: كانتا فى عصمة نكاحهما فَخانَتاهُما أى: فوقعت منهما الخيانة لهما. قال عكرمة و الضحاك: بالكفر، و قيل:

كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، و كانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه، و قد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبيّ قطّ. و قيل: كانت خيانتهما النفاق، و قيل: خانتاهما بالنميمة فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى: فلم ينفعهما نوح و لوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئا من النفع، و لا دفعا عنهما من عذاب اللّه مع كرامتهما على اللّه شيئا من الدفع وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ أى: و قيل لهما فى الآخرة، أو عند موتهما ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر و المعاصى. و قال يحيى بن سلام: ضرب اللّه مثلا للذين كفروا يحذّر به عائشة و حفصة من المخالفة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين تظاهرتا عليه. و ما أحسن ما قال؛ فإن ذكر امرأتى النبيين بعد ذكر قصتهما و مظاهرتهما على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يرشد أتمّ إرشاد، و يلوّح أبلغ تلويح، إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، و بيان أنهما و إن كانتا تحت عصمة خير خلق اللّه و خاتم رسله، فإن ذلك لا يغنى عنهما من اللّه شيئا، و قد عصمهما اللّه عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة

فتح القدير، ج‏5، ص: 305

الخالصة وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ الكلام فى هذا كالكلام فى المثل الّذى قبله، أى:

جعل اللّه حال امرأة فرعون مثلا لحال المؤمنين ترغيبا لهم فى الثبات على الطاعة، و التمسّك بالدين، و الصبر فى الشدّة، و أن صولة الكفر لا تضرّهم، كما لم تضر امرأة فرعون، و قد كانت تحت أكفر الكافرين، و صارت بإيمانها باللّه فى جنات النعيم إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ الظرف متعلق بضرب أو بمثلا، أى: ابن لى بيتا قريبا من رحمتك، أو فى أعلى درجات المقربين منك، أو فى مكان لا يتصرّف فيه إلا بإذنك و هو الجنة وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ أى: من ذاته، و ما يصدر عنه من أعمال الشرّ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قال الكلبى: هم أهل مصر. و قال مقاتل: هم القبط. قال الحسن و ابن كيسان: نجّاها اللّه أكرم نجاة، و رفعها إلى الجنة فهى تأكل و تشرب وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها معطوف على امرأة فرعون، أى: و ضرب اللّه مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران، أى: حالها وصفتها، و قيل: إن الناصب لمريم فعل مقدّر، أى: و اذكر مريم، و المقصود من ذكرها أن اللّه سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا و الآخرة، و اصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها أى: عن الفواحش، و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب؛ لقوله: فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا «1» و ذلك أن جبريل نفخ فى جيب درعها فحبلت بعيسى وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها يعنى شرائعه التى شرعها لعباده، و قيل: المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها: إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ «2» الآية. و قال مقاتل: يعنى بالكلمات عيسى. قرأ الجمهور: «و صدقت» بالتشديد، و قرأ حميد و الأموى و يعقوب و قتادة و أبو مجلز و عاصم فى رواية عنه بالتخفيف. و قرأ الجمهور: «بكلمات» بالجمع، و قرأ الحسن و مجاهد و الجحدرى «بكلمة» بالإفراد. و قرأ الجمهور: «و كتابه» بالإفراد، و قرأ أهل البصرة و حفص «كتبه» بالجمع، و المراد على قراءة الجمهور الجنس فيكون فى معنى الجمع، و هى الكتب المنزلة على الأنبياء وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. و قال عطاء: من المصلّين، كانت تصلى بين المغرب و العشاء، و يجوز أن يراد بالقانتين رهطها و عشيرتها الذين كانت منهم، و كانوا مطيعين أهل بيت صلاح و طاعة، و قال: من القانتين، و لم يقل من القانتات؛ لتغليب الذكور على الإناث.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَخانَتاهُما قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون؛ و أما خيانة امرأة لوط فكانت تدلّ على الضيف، فتلك خيانتهما. و أخرج ابن المنذر عنه قال: ما بغت امرأة نبيّ قط، و قد رواه ابن عساكر مرفوعا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عن سلمان قال:

كانت امرأة فرعون تعذّب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلّتها الملائكة بأجنحتها، و كانت ترى بيتها فى الجنة.

---

(١). الأنبياء: ٩١.

(٢). مريم: ١٩.

فتح القدير، ج۵، ص: ٣٠۶

و أخرج عبد بن حميد عن أبى هريرة: إنّ فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد، و أضجعها على صدرها «١»، و جعل على صدرها رحى و استقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء، ف قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ إلى قوله: مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ففرج اللّه لها عن بيتها فى الجنة فرأته. و أخرج أحمد و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد، و مريم بنت عمران، و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قصّ اللّه علينا من خبرها فى القرآن قالت رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً» الآية. و فى الصحيحين و غيرهما من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كمل من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون و مريم بنت عمران و خديجة بنت خويلد، و إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». و أخرج وكيع فى «الغرر»، عن ابن عباس فى قوله: وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ قال: من جماعته.

---

(١). لعلّه: على ظهرها؛ بدليل قوله بعد: و جعل على صدرها.

فتح القدير، ج۵، ص: ٣٠٧

سورة الملك

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة تبارك الملك. و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن الضريس، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إن سورة من كتاب اللّه ما هى إلّا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ قال الترمذى: هذا حديث حسن. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «سورة فى القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ . و أخرج الترمذى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و ابن نصر، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: «ضرب بعض أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خباءه على قبر، و هو لا- يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هى المانعة، هى المنجية، تنجيه من عذاب القبر». قال الترمذى بعد إخراجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «تبارك هى المانعة من عذاب القبر»، و أخرجه أيضا النسائى و صحّحه، و الحاكم. و أخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج و أبى هريرة أنهما سمعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«أنزلت عليّ سورة تبارك، و هى ثلاثون آية جملة واحدة، و هى المانعة فى القبور». و أخرج عبد بن حميد فى مسنده، و الطبرانى، و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال بلى: قال: اقرأ: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ و علّمها أهلك و جميع ولدك و صبيان بيتك و جيرانك، فإنها المنجية، و المجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، و تطلب له أن ينجيه اللّه من عذاب النار، و ينجو بها صاحبها من عذاب القبر. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (٤)

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (٥) وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (٧) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (٩)

وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (١١)

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٠٨

قوله: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ تبارك: تفاعل من البركة، و البركة: النماء و الزيادة، و قيل: تعالى و تعاظم عن صفات المخلوقين، و قيل: دام فهو الدائم الّذى لا أوّل لوجوده و لا آخر لدوامه. و قال الحسن:

تبارك: تقدّس، و صيغة التفاعل للمبالغة، و اليد مجاز عن القدرة و الاستيلاء، و الملك: هو ملك السّماوات و الأرض فى الدنيا و الآخرة، فهو يعزّ من يشاء و يذلّ من يشاء، و يرفع من يشاء و يضع من يشاء، و قيل:

المراد بالملك ملك النبوّة، و الأوّل أولى؛ لأنّ الحمل على العموم أكثر مدحا و أبلغ ثناء، و لا وجه للتخصيص وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أى: بليغ القدرة، لا يعجزه شيء من الأشياء، يتصرّف فى ملكه كيف يريد من إنعام و انتقام، و رفع و وضع، و إعطاء و منع الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ الموت: انقطاع تعلّق الروح بالبدن و مفارقته له، و الحياة: تعلّق الروح بالبدن و اتصاله به، و قيل: هى ما يصحّ بوجوده الإحساس، و قيل:

ما يوجب كون الشيء حيا، و قيل: المراد الموت فى الدنيا و الحياة فى الآخرة. و قدّم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة، و الحياة عارضة لها، و قيل: لأن الموت أقرب إلى القهر. و قال مقاتل: خَلَقَ الْمَوْتَ يعنى النطفة و المضغة و العلقة، وَ الْحَياةَ يعنى خلقه إنسانا و خلق الروح فيه، و قيل: خلق الموت على صورة كبش لا يمرّ على شيء إلا مات، و خلق الحياة على صورة فرس لا تمر بشيء إلا حيي، قاله مقاتل و الكلبى. و قد ورد فى التنزيل: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ «١» و قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ «٢» و قوله: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا «٣» و قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها «٤» و غير ذلك من الآيات. لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا اللام متعلقة بخلق، أى: خلق الموت و الحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملا، فيجازيكم على ذلك، و قيل: المعنى: ليبلوكم أيكم أكثر للموت ذكرا و أشدّ منه خوفا، و قيل: أيكم أسرع إلى طاعة اللّه،

و أورع عن محارم اللّه. و قال الزجاج:
اللام متعلق بخلق الحياة، لا بخلق الموت، و قال الزجاج أيضا و الفراء: أن قوله: «ليبلوكم» لم يقع على أىّ؛ لأن فيما بين البلوى و أىّ إضمار فعل، كما تقول: بلوتكم لأنظر أيكم أطوع، و مثله قوله: سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ «۵» أى: سلهم ثم انظر أيهم، فأيكم فى الآية مبتدأ و خبره أحسن، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و إيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن و القبيح لا إلى الحسن و الأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات و المقصد الأصلى من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين وَ هُوَ الْعَزِيزُ أى: الغالب الّذى لا يغالب الْغَفُورُ لمن تاب و أناب الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً الموصول يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور نعتا أو بيانا أو بدلا، و أن يكون منقطعا عنه على أنه خبر مبتدأ

---

(۱). السجدة: ۱۱.

(۲). الأنفال: ۵۰.

(۳). الأنعام: ۶۱.

(۴). الزمر: ۴۲.

(۵). القلم: ۴۰.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۰۹

محذوف، أو منصوب على المدح، و طباقا صفة لسبع سماوات، أى: بعضها فوق بعض، و هو جمع طبق، نحو جبل و جبال، أو جمع طبقة، نحو رحبة و رحاب، أو مصدر طابق، يقال: طابق مطابقة و طباقا، و يكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف، أى: ذات طباق، و يجوز أن يكون منتصبا على المصدرية بفعل محذوف، أى: طوبقت طباقا ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ هذه الجملة صفة ثانية لسبع سماوات، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له، و من مزيدة لتأكيد النفى. قرأ الجمهور: «من تفاوت»، و قرأ ابن مسعود و أصحابه و الكسائى «تفوّت» مشدّدا بدون ألف، و هما لغتان، كالتعاهد و التعهّد، و التحامل و التحمّل؛ و المعنى على القراءتين: ما ترى فى خلق الرّحمن من تناقض و لا تباين و لا اعوجاج و لا تخالف، بل هى مستوية مستقيمة دالّة على خالقها، و إن اختلفت صورها و صفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ الفطور:
الشقوق و الصدوع و الخروق، أى: اردد طرفك حتى يتّضح لك ذلك بالمعاينة. أخبر أوّلا بأنه لا تفاوت فى خلقه، ثم أمر ثانيا بترديد البصر فى ذلك لزيادة التأكيد و حصول الطمأنينة. قال مجاهد و الضحاك: الفطور و الشقوق جمع فطر، و هو الشق. و قال قتادة: هل ترى من خلل. و قال السدى: هل ترى من خروق، و أصله من التفطر و الانفطار، و هو التشقق و الانشقاق، و منه قول الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماءو زيّنها فما فيها فطور

و قول الآخر

شققت القلب ثم ذررت فيههواك فليم فالتأم الفطور

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ أى: رجعتين مرّة بعد مرّة، و انتصابه على المصدر، و المراد بالتثنية التكثير، كما فى لبيك و سعديك، أى: رجعة بعد رجعة و إن كثرت. و وجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب فى النظرة الأولى و لا فى الثانية. و لهذا قال أوّلا: ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ ثم قال ثانيا: فَارْجِعِ الْبَصَرَ ثم قال ثالثا: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ

فيكون ذلك أبلغ فى إقامة الحجة و أقطع للمعذرة يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً أى: يرجع إليك البصر ذليلا صاغرا عن أن يرى شيئا من ذلك، و قيل: معنى خاسئا: مبعدا مطرودا عن أن يبصر ما التمسه من العيب، يقال:

خسأت الكلب، أى: أبعدته و طردته. قرأ الجمهور: «ينقلب» بالجزم جوابا للأمر. و قرأ الكسائى فى رواية بالرفع على الاستئناف وَ هُوَ حَسِيرٌ أى: كليل منقطع. قال الزجاج: أى: و قد أعيا من قبل أن يرى فى السماء خللا، و هو فعيل بمعنى فاعل من الحسور، و هو الإعياء، يقال: حسر بصره يحسر حسورا، أى: كلّ و انقطع، و منه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصّب من منىفعاد إلىّ الطّرف و هو حسير

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ بيّن سبحانه بعد خلق السماوات، و خلوّها من العيب و الخلل؛

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۱۰

أنه زيّنها بهذه الزينة، فصارت فى أحسن خلق، و أكمل صورة، و أبهج شكل، و المجىء بالقسم لإبراز كمال العناية، و المصابيح: جمع مصباح، و هو السراج، و سميت الكواكب مصابيح لأنها تضىء كإضاءة السراج و بعض الكواكب و إن كان فى غير سماء الدنيا من السماوات التى فوقها، فهى تتراءى كأنها كلها فى سماء الدنيا؛ لأن أجرام السماوات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة؛ لكونها أجراما صقيلة شفافة وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ أى: و جعلنا المصابيح رجوما يرجم بها الشياطين، و هذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى و هى كونها زينة للسماء الدنيا؛ و المعنى أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع، و الرّجوم: جمع رجم بالفتح، و هو فى الأصل مصدر أطلق على المرجوم به، كما فى قولهم: الدرهم ضرب الأمير، أى: مضروبه، و يجوز أن يكون باقيا على مصدريته، و يقدر مضاف محذوف، أى: ذات رجم، و جمع المصدر باعتبار أنواعه.

و قيل: إن الضمير فى قوله: وَ جَعَلْناها راجع إلى المصابيح على حذف مضاف، أى: شهبها، و هى نارها المقتبسة منها، لا هى أنفسها؛ لقوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ «۱» و وجه هذا أن المصابيح التى زيّن اللّه بها السماء الدنيا لا تزول و لا يرجم بها، كذا قال أبو علىّ الفارسى جوابا لمن سأله:

كيف تكون المصابيح زينة و هى رجوم؟ قال القشيرى: و أمثل من قوله هذا أن نقول: هى زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق اللّه النجوم لثلاث: زينة للسماء، و رجوما للشياطين، و علامات يهتدى بها فى البرّ و البحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم و تعدّى و ظلم؛ و قيل: معنى الآية:

و جعلناها ظنونا لشياطين الإنس، و هم المنجمون. وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ أى: و أعتدنا للشياطين فى الآخرة بعد الإحراق فى الدنيا بالشهب عذاب السعير، أى: عذاب النار، و السعير: أشدّ الحريق، يقال:

سعرت النار فهى مسعورة. وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ من كفار بنى آدم، أو من كفار الفريقين عَذابُ جَهَنَّمَ قرأ الجمهور برفع «عذاب» على أنه مبتدأ و خبره «للذين كفروا». و قرأ الحسن و الضحاك و الأعرج بنصبه عطفا على «عذاب السعير» وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ما يصيرون إليه، و هو جهنم إِذا أُلْقُوا فِيها أى: طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار سَمِعُوا لَها شَهِيقاً أى: صوتا كصوت الحمير عند أوّل نهيقها، و هو أقبح الأصوات، و قوله: لَها فى محل نصب على الحال، أى: كائنا لها؛ لأنه فى الأصل صفة، فلما قدّمت صارت حالا- و قال عطاء: الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم فى النار، و جملة وَ هِيَ تَفُورُ فى محل نصب على الحال: أى و الحال أنها تغلى بهم غليان المرجل، و منه قول حسان:

تركتم قدركم لا شىء فيها* و قدر الغير «۲» حامية تفور تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ أى: تكاد تتقطع و ينفصل بعضها من بعض من تغيّظها عليهم. قال ابن قتيبة:

تكاد تنشقّ غيظا على الكفّار. قرأ الجمهور: «تميز» بتاء واحدة مخفّفة، و الأصل تتميز بتاءين. و قرأ طلحة بتاءين على الأصل. و

قرأ البزى عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى. و قرأ الضحاك:

---

(۱). الصافات: ۱۰.

(۲). فى تفسير القرطبى: القوم.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۱۱

«تمايز» بالألف و تاء واحدة، و الأصل تتمايز، و قرأ زيد بن علىّ «تميز» من ماز يميز، و الجملة فى محل نصب على الحال، أو فى محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ، و جملة كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها مستأنفة لبيان حال أهلها، أو فى محل نصب على الحال من فاعل تميز، و الفوج: الجماعة من الناس، أى: كلما ألقى فى جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ و تقريع أَ لَمْ يَأْتِكُمْ فى الدنيا نَذِيرٌ ينذركم هذا اليوم و يحذركم منه؟ و جملة قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قالوا بعد هذا السؤال؟ فقال: قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فأنذرنا و خوّفنا و أخبرنا بهذا اليوم فَكَذَّبْنا ذلك النذير وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‌ءٍ من الأشياء على ألسنتكم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ أى: فى ذهاب عن الحق و بعد عن الصواب، و المعنى أنه: قال كلّ فوج من تلك الأفواج حاكيا لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه: ما أنتم أيها الرسل فيم تدّعون أن اللّه نزل عليكم آيات تنذرونا بها إلا فى ذهاب عن الحق و بعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره. ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ أى: لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل، أو نعقل شيئا من ذلك ما كنّا فى عداد أهل النار، و من جملة من يعذّب بالسعير، و هم الشياطين كما سلف.

قال الزجاج: لو كنا نسمع سمع من يعى، أو نعقل عقل من يميز، و ينظر، ما كنّا من أهل النار، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال اللّه سبحانه: فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ الّذى استحقوا به عذاب النار، و هو الكفر و تكذيب الأنبياء فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ أى: فبعدا لهم من اللّه و من رحمته. و قال سعيد بن جبير و أبو صالح:

هو واد فى جهنم يقال له السّحق. قرأ الجمهور: «فسحقا» بإسكان الحاء. و قرأ الكسائى و أبو جعفر بضمها، و هما لغتان، مثل السّحت و الرّعب. قال الزجاج و أبو علىّ الفارسى: فسحقا منصوب على المصدر، أى: أسحقهم اللّه سحقا. قال أبو علىّ الفارسى: و كان القياس إسحاقا فجاء المصدر على الحذف، و اللام فى لِأَصْحابِ السَّعِيرِ للبيان كما فى: هَيْتَ لَكَ «۱».

و قد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله: سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً قال: بعضها فوق بعض.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ قال: ما تفوت بعضه بعضا تفاوتا مفرقا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: مِنْ تَفاوُتٍ قال:

من تشقق، و فى قوله: هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ قال: شقوق، و فى قوله: خاسِئاً قال: ذليلا وَ هُوَ حَسِيرٌ كليل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا. قال: الفطور: الوهى. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا: مِنْ فُطُورٍ قال: من تشقّق أو خلل، و فى قوله: يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ قال: يرجع إليك خاسِئاً صاغرا وَ هُوَ حَسِيرٌ قال: يعيى و لا يرى شيئا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا خاسِئاً قال: ذليلا وَ هُوَ حَسِيرٌ قال: عيىّ مرتجع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس

---

(۱). يوسف: ۲۳.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۱۲

تَكادُ تَمَيَّزُ قال: تتفرّق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا تَكادُ تَمَيَّزُ قال: يفارق بعضها بعضا. و أخرج ابن جرير و ابن

المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: فَسُحْقاً قال: بعدا.

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ٢١]

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (١٦)

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (١٨) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١)

قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة، و «بالغيب» حال من الفاعل أو المفعول، أى: غائبين عنه، أو غائبا عنهم، و المعنى: أنهم يخشون عذابه و لم يروه فيؤمنون به خوفا من عذابه، و يجوز أن يكون المعنى: يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس و ذلك فى خلواتهم، أو المراد بالغيب كون العذاب غائبا عنهم لأنهم فى الدنيا، و هو إنما يكون يوم القيامة فتكون الباء على هذا سببية لَهُمْ مَغْفِرَةٌ عظيمة يغفر اللّه بها ذنوبهم وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ و هو الجنة، و مثل هذه الآية قوله: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ «١». ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوى الإسرار و الجهر بالنسبة إلى علم اللّه سبحانه، و المعنى: إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به فى أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فكلّ ذلك يعلمه اللّه، لا تخفى عليه منه خافية، و جملة: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ تعليل للاستواء المذكور، و ذات الصدور هى مضمرات القلوب، و الاستفهام فى قوله: أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ للإنكار، و المعنى: ألا يعلم السرّ و مضمرات القلوب من خلق ذلك و أوجده، فالموصول عبارة عن الخالق، و يجوز أن يكون عبارة عن المخلوق، و فى «يعلم» ضمير يعود إلى اللّه، أى: ألا يعلم اللّه المخلوق الّذى هو من جملة خلقه، فإن الإسرار و الجهر و مضمرات القلوب من جملة خلقه، و جملة وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فى محل نصب على الحال من فاعل يعلم، أى: الّذى لطف علمه بما فى القلوب، الخبير بما تسرّه و تضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية. ثم امتنّ سبحانه على عباده فقال: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا أى: سهلة لينة تستقرّون عليها، و لم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها و المشى عليها، و الذلول فى الأصل: هو المنقاد الّذى يذلّ لك و لا يستصعب عليك، و المصدر الذّل، و الفاء فى قوله: فَامْشُوا فِي مَناكِبِها لترتيب الأمر بالمشى على الجعل المذكور، و الأمر للإباحة. قال مجاهد و الكلبى و مقاتل: مناكبها: طرقها و أطرافها و جوانبها. و قال قتادة و شهر بن

---

(١). ق: ٣٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣١٣

حوشب: مناكبها: جبالها، و أصل المنكب الجانب، و منه منكب الرجل، و منه الريح النّكباء، لأنها تأتى من جانب دون جانب وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ أى: ممّا رزقكم و خلقه لكم فى الأرض وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ أى: و إليه البعث من قبوركم، لا إلى غيره، و فى هذا وعيد شديد. ثم خوّف سبحانه الكفار. فقال: أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ قال الواحدى: قال المفسرون: يعنى عقوبة من فى السماء، و قيل «من فى السماء»: قدرته و سلطانه و عرشه و ملائكته، و قيل: من فى السماء من الملائكة، و قيل: المراد جبريل، و معنى أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ يقلعها ملتبسة بكم كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذلولا تمشون فى مناكبها، و قوله:

أَنْ يَخْسِفَ بدل اشتمال من الموصول، أى: أ أمنتم خسفه، أو على حذف من، أى: من أن يخسف فَإِذا هِيَ تَمُورُ أى: تضطرب و تتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون. قرأ الجمهور: «ء أمنتم» بهمزتين، و قرأ البصريون و الكوفيون بالتخفيف، و قرأ ابن كثير بقلب الأولى واوا. ثم كرّر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً أى: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط و أصحاب الفيل، و قيل: سحاب فيه حجارة، و قيل:

ريح فيها حجارة فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ أى: إنذارى إذا عاينتم العذاب و لا ينفعكم هذا العلم، و قيل:

النذير هنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، قاله عطاء و الضحاك. و المعنى: ستعلمون رسولى و صدقه، و الأوّل أولى. و الكلام فى أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً كالكلام فى أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فهو إما بدل اشتمال، أو بتقدير من. وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية؛ كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و أصحاب الأيكة و أصحاب الرس و قوم فرعون فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أى: فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ الهمزة للاستفهام و الواو للعطف على مقدّر، أى: أغفلوا و لم ينظروا، و معنى صافَّاتٍ أنها صافة لأجنحتها فى الهواء و تبسيطها عند طيرانها وَ يَقْبِضْنَ أى: يضممن أجنحتهنّ. قال النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه:

صافّ، و إذا ضمّهما: قابض؛ لأنه يقبضهما، و هذا معنى الطيران، و هو بسط الجناح و قبضه بعد البسط، و منه قول أبى خراش:

يبادر جنح اللّيل فهو موائل «۱»يحث الجناح بالتّبسّط و القبض

و إنما قال: وَ يَقْبِضْنَ و لم يقل قابضات كما قال صافات، لأن القبض يتجدد تارة فتارة، و أما البسط فهو الأصل، كذا قيل. و قيل: إن معنى وَ يَقْبِضْنَ قبضهنّ لأجنحتهنّ عند الوقوف من الطيران، لا قبضها فى حال الطيران، و جملة ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ فى محل نصب على الحال من فاعل يقبضن، أو مستأنفة لبيان كمال قدرة اللّه سبحانه، و المعنى: أنه ما يمسكهنّ فى الهواء عند الطيران إلا الرّحمن القادر على كلّ شىء إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ لا يخفى عليه شىء كائنا ما كان أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ

---

(۱). «واءل الطير»: لجأ. و فى اللسان: مهابذ، و المهابذة: الإسراع.

الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و المعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب اللّه، و الجند: الحزب و المنعة. قرأ الجمهور: «أمّن» هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم فى ميم من، و أم بمعنى بل، و لا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب فى تقدير أم المنقطعة ببل و الهمزة، لأن بعدها هنا من الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير، و من الاستفهامية مبتدأ، و اسم الإشارة خبره، و الموصول مع صلته صفة اسم الإشارة، و ينصركم صفة لجند، و من دون الرّحمن فى محل نصب على الحال من فاعل ينصركم، و المعنى: بل من هذا الحقير الّذى هو فى زعمكم جند لكم متجاوزا نصر الرّحمن. و قرأ طلحة بن مصرّف بتخفيف الأولى و تثقيل الثانية، و جملة إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ معترضة مقرّرة لما قبلها، ناعية عليهم ما هم فيه من الضلال، و المعنى: ما الكافرون إلا فى غرور عظيم من جهة الشيطان يغرّهم به أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ الكلام فى هذا كالكلام فى الّذى قبله قراءة و إعرابا، أى: من الّذى يدرّ عليكم الأرزاق من المطر و غيره إن أمسك اللّه ذلك عنكم و منعه عليكم بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ أى: لم يتأثروا لذلك، بل تمادوا فى عناد و استكبار عن الحقّ و نفور عنه، و لم يعتبروا، و لا تفكروا، و جواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أى: إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره، و العتوّ: العناد و الطغيان، و النفور: الشرود.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ قال: أبو بكر و عمر و علىّ و أبو عبيدة بن الجراح. و أخرج

ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: فِي مَناكِبِها قال: جبالها. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: أطرافها. و أخرج الطبرانى و ابن عدى، و البيهقى فى الشعب، و الحكيم الترمذى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يحبّ العبد المؤمن المحترف». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ قال: فى ضلال.

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦)
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (٣٠)

ضرب سبحانه مثلا للمشرك و الموحد لإيضاح حالهما و بيان مآلهما، فقال: أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى و المكبّ و المنكبّ: الساقط على وجهه، يقال: كببته فأكبّ و انكبّ، و قيل: هو الّذى يكب رأسه فلا ينظر يمينا و لا شمالا و لا أماما، فهو لا يأمن العثور و الانكباب على وجهه. و قيل: أراد به الأعمى الّذى لا يهتدى إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه. قال قتادة: هو الكافر يكبّ على معاصى

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۱۵

اللّه فى الدنيا فيحشره اللّه يوم القيامة على وجهه. و الهمزة للاستفهام الإنكارى، أى: هل هذا الّذى يمشى على وجهه أهدى إلى المقصد الّذى يريده أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا معتدلا ناظرا إلى ما بين يديه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى: على طريق مستو لا اعوجاج به و لا انحراف فيه، و خبر «من» محذوف لدلالة خبر «من» الأولى و هو «أهدى» عليه، و قيل: لا حاجة إلى ذلك، لأن «من» الثانية معطوفة على «من» الأولى عطف المفرد، كقولك: أزيد قائم أم عمرو؟ و قيل: أراد بمن يمشى مكبا على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار، و من يمشى سويا من يحشر على قدميه إلى الجنة، و هو كقول قتادة الّذى ذكرناه، و مثله قوله: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ «١». قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يخبرهم بأن اللّه هو الّذى أنشأهم النشأة الأولى وَ جَعَلَ لهم السَّمْعَ ليسمعوا به وَ الْأَبْصارَ ليبصروا بها، و وجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل و الكثير، و قد قدّمنا بيان هذا فى مواضع مع زيادة فى البيان وَ الْأَفْئِدَةَ القلوب التى يتفكرون بها فى مخلوقات اللّه، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات و المبصرات و المعقولات إيضاحا للحجّة، و قطعا للمعذرة، و ذمّا لهم على عدم شكر نعم اللّه، و لهذا قال: قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ و انتصاب قليلا على أنه نعت مصدر محذوف، و «ما» مزيدة للتأكيد، أى: شكرا قليلا أو زمانا قليلا، و قيل: أراد بقلّة الشكر عدم وجوده منهم. قال مقاتل:
يعنى أنكم لا تشكرون ربّ هذه النعم فتوحّدونه قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يخبرهم أن اللّه هو الّذى خلقهم فى الأرض و نشرهم فيها، و فرقهم على ظهرها، و أن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره. ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: متى هذا الوعد الّذى تذكرونه لنا من الحشر و القيامة و النار و العذاب إن كنتم صادقين فى ذلك، و الخطاب منهم للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لمن معه من المؤمنين، و جواب الشرط محذوف، و التقدير: إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبيّنوه لنا، و هذا منهم استهزاء و سخرية. ثم لما

قالوا هذا القول أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يجيب عليهم، فقال: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ أي: إن وقت قيام الساعة علمه عند اللّه لا يعلمه غيره، و مثله قوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب، فقال: وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أنذركم و أخوّفكم عاقبة كفركم، و أبيّن لكم ما أمرنى اللّه ببيانه. ثم ذكر اللّه سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً يعنى رأوا العذاب قريبا، و زلفة مصدر بمعنى الفاعل، أي:

مزدلفا، أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف، أي: ذا زلفة و قرب، أو ظرف، أي: رأوه فى مكان ذى زلفة. قال مجاهد: أى قريبا. و قال الحسن: عيانا. قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة، و قال مجاهد: المراد عذاب بدر، و قيل: رأوا ما وعدوا به من الحشر قريبا منهم، كما يدلّ عليه قوله: وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ و قيل: لما رأوا عملهم السيّئ قريبا سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أى: اسودّت، و علتها

---

(١). الإسراء: ٩٧.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣١٦

الكآبة، و غشيتها الذّلّة، يقال: ساء الشيء يسوء فهم سيّئ؛ إذا قبح. قال الزجاج: المعنى تبيّن فيها السوء، أي: ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسببه فى وجوههم ما يدلّ على كفرهم كقوله: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ «١». قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام، و قرأ نافع و ابن عامر و الكسائى و ابن محيصن بالإشمام وَ قِيلَ هذَا الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ أى: قيل لهم توبيخا و تقريعا هذا المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب الّذى كنتم به تدّعون فى الدنيا: أى تطلبونه و تستعجلون به استهزاء، على أن معنى تدّعون الدعاء.

قال الفراء: تفتعلون من الدعاء، أي: تتمنون و تسألون، و بهذا قال الأكثر من المفسرين. و قال الزجاج:

هذا الّذى كنتم به تدّعون الأباطيل و الأحاديث. و قيل: معنى تدّعون: تكذبون، و هذا على قراءة الجمهور:

«تدّعون» بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج و من وافقه، و المعنى:

أنهم كانوا يدّعون أنه لا بعث و لا حشر و لا جنة و لا نار. و قرأ قتادة و ابن أبى إسحاق و يعقوب و الضحاك:

تدعون مخففا، و معناها ظاهر. و قال قتادة: هو قولهم: رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا «٢» و قال الضحاك: هو قولهم: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «٣» الآية. قال النحاس: تدّعون تدعون بمعنى واحد، كما تقول: قدر و اقتدر، و عدى و اعتدى، إلا أنّ افتعل معناه مضى شيئا بعد شىء، و فعل يقع على القليل و الكثير قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أى: أخبرونى إن أهلكنى اللّه بموت أو قتل، و من معى من المؤمنين أَوْ رَحِمَنا بتأخير ذلك إلى أجل، و قيل المعنى: إن أهلكنى اللّه و من معى بالعذاب، أو رحمنا، فلم يعذبنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ أى: فمن يمنعهم و يؤمنهم من العذاب. و المعنى: أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك اللّه الرسول و المؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه، أو أمهلهم. و قيل: المعنى؛ إنا مع إيماننا بين الخوف و الرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، و وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر، و بيان أنه السبب فى عدم نجاتهم قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وحده، لا نشرك به شيئا وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا لا على غيره، و التوكّل: تفويض الأمور إليه عزّ و جلّ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ منا و منكم، و فى هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف. قرأ الجمهور: «ستعلمون» بالفوقية على الخطاب. و قرأ الكسائى بالتحتية على الخبر، ثم احتجّ سبحانه عليهم ببعض نعمه، و خوّفهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً أى: أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا فى الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلا، أو صار ذاهبا فى الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدّلاء. يقال: غار الماء غورا، أى:

نضب، و الغور: الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة، كما يقال رجل عدل، و قد تقدم مثل هذا فى سورة الكهف فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ أى: ظاهر تراه العيون، و تناله الدّلاء، و قيل: هو من معن الماء، أى: كثر. و قال قتادة و الضحاك: أى جار، و قد تقدم معنى المعين فى سورة المؤمن. و قرأ ابن عباس: «فمن يأتيكم بماء عذب».

---

(۱). آل عمران: ۱۰۶.

(۲). ص: ۱۶.

(۳). الأنفال: ۳۲.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۱۷

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا قال: فى الضلالة أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا قال: مهتديا. و أخرج الخطيب فى تاريخه، و ابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من اشتكى ضرسه فليضع إصبعه عليه، و ليقرأ هذه الآية هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ . و أخرج الدار قطنى فى الأفراد، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«من اشتكى ضرسه فليضع إصبعه عليه، و ليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ إلى يَفْقَهُونَ «۱» و هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ فإنه يبرأ بإذن اللّه». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً قال: داخلا فى الأرض فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ قال: الجارى. و أخرج ابن المنذر عنه إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً قال: يرجع فى الأرض. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا بِماءٍ مَعِينٍ قال: ظاهر. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا بِماءٍ مَعِينٍ قال: عذب.

---

(۱). الأنعام: ۹۸.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۱۸

سورة القلم

اشارة

و هى مكية فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر. و روى عن ابن عباس و قتادة أن من أوّلها إلى قوله:
سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ مكىّ، و من بعد ذلك إلى قوله: مِنَ الصَّالِحِينَ مدنىّ، و باقيها مكى، كذا قال الماوردى، و أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد اللّه فيها ما يشاء، و كان أوّل ما نزل من القرآن اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ثم نون، ثم المزمل، ثم المدثر.
و أخرج النحاس و ابن مردويه و البيهقى عنه قال: نزلت سورة ن بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القلم (۶۸): الآيات ۱ الى ۱۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ (١) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (۴) فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ (۵) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)
وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ (١۴)
إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١۵) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١۶)
قوله: ن قرأ أبو بكر و ورش و ابن عامر و الكسائى و ابن محيصن و هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها فى الواو، و قرأ الباقون بالإظهار. و قرأ أبو عمرو و عيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل. و قرأ ابن عامر «١» و نصر و ابن أبى إسحاق بكسرها على إضمار القسم، أو لأجل التقاء الساكنين، و قرأ محمد بن السّميقع و هارون بضمها على البناء. قال مجاهد و مقاتل و السدّى: هو الحوت الّذى يحمل الأرض، و به قال مرّة الهمدانى و عطاء الخراسانى و الكلبى. و قيل: إن نون آخر حرف من حروف الرّحمن. و قال ابن زيد:
هو قسم أقسم اللّه به. و قال ابن كيسان: هو فاتحة السورة. و قال عطاء و أبو العالية: هى النون من نصير و ناصر. قال محمد بن كعب: أقسم اللّه تعالى بنصره للمؤمنين، و قيل: هو حرف من حروف الهجاء، كالفواتح الواقعة فى أوائل السور المفتتحة بذلك، و قد عرّفناك ما هو الحق فى مثل هذه الفواتح فى أوّل سورة البقرة، و الواو فى قوله: وَ الْقَلَمِ واو القسم، أقسم اللّه بالقلم لما فيه من البيان و هو واقع على كل قلم يكتب به، و قال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الّذى كتب به اللوح المحفوظ، أقسم اللّه به تعظيما له.

---

(١). فى تفسير القرطبى: ابن عباس.

فتح القدير، ج۵، ص: ٣١٩
قال قتادة: القلم من نعمة اللّه على عباده وَ ما يَسْطُرُونَ «ما» موصولة، أى: و الّذى يسطرون، و الضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره؛ لأن ذكر آلة الكتابة تدلّ على الكاتب. و المعنى:
و الّذى يسطرون، أى: يكتبون كل ما يكتب، أو الحفظة على ما تقدّم. و يجوز أن تكون ما مصدرية، أى:
و سطرهم، و قيل: الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة و إجرائها مجرى العقلاء، و جواب القسم قوله: ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ما نافية، و أنت اسمها، و بمجنون خبرها. قال الزجاج: أنت هو اسم ما، و بمجنون خبرها، و قوله: بِنِعْمَةِ رَبِّكَ كلام وقع فى الوسط، أى: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد اللّه عاقل، قيل: الباء متعلقة بمضمر هو حال، كأنه قيل:
أنت برىء من الجنون متلبسا بنعمة اللّه التى هى النبوة و الرياسة العامة. و قيل: الباء للقسم، أى: و ما أنت و نعمة ربك بمجنون. و قيل: النعمة هنا الرحمة، و الآية ردّ على الكفار حيث قالوا: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «١» وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً أى: ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوّة، و قاسيت من أنواع الشدائد غَيْرَ مَمْنُونٍ أى: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل إذا قطعته. و قال مجاهد: غَيْرَ مَمْنُونٍ غير محسوب، و قال الحسن: غَيْرَ مَمْنُونٍ غير مكدّر بالمنّ. و قال الضحاك: أجرا بغير عمل. و قيل: غير مقدّر، و قيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ قيل:

هو الإسلام و الدين، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين. و قيل: هو القرآن، روى هذا عن الحسن و العوفى.

و قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر اللّه و ينتهى عنه من نهى اللّه. قال الزجاج: المعنى إنك على الخلق الّذى أمرك اللّه به فى القرآن، و قيل: هو رفقه بأمته و إكرامه إيّاهم، و قيل: المعنى: إنک على طبع کریم. قال الماوردى: و هذا هو الظاهر، و حقيقة الخلق فى اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب. و قد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالت: كان خلقه القرآن. و هذه الجملة و التى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم. فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ أى: ستبصر يا محمد و يبصر الكفار إذا تبين الحق و انكشف الغطاء، و ذلک يوم القيامة بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ الباء زائدة للتأكيد، أى: أيكم المفتون بالجنون، كذا قال الأخفش و أبو عبيدة و غيرهما، و مثله قول الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسّيف و نرجو بالفرج

و قيل: ليست الباء زائدة، و المفتون مصدر جاء على مفعول، كالمعقول و الميسور، و التقدير: بأيكم الفتون أو الفتنة، و منه قول الشاعر الراعى:

حتّى إذا لم يتركوا لعظامه لحما و لا لفؤاده معقولا

أى: عقلا. و قال الفراء: إن الباء بمعنى فى، أى: فى الفريق الآخر. و يؤيد هذا قراءة ابن أبى عبلة «فى أيكم المفتون» و قيل: الكلام على حذف مضاف، أى: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف و أقيم المضاف

---

(١). الحجر: ۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۲۰

إليه مقامه، روى هذا عن الأخفش أيضا. و قيل: المفتون: المعذّب، من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته، و منه قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «١» و قيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنه مفتون فى دينه، و المعنى: بأيكم الشيطان. و قال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، و المعنى: سترى و يرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون، و جملة إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ تعليل للجملة التى قبلها، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل و الآجل، و اختيارهم ما فيه ضرهم فيهما، و المعنى: هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة و العاجلة، فهو مجاز كلّ عامل بعمله، إن خيرا فخير، و إن شرّا فشر فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ نهاه سبحانه عن ممايلة «٢» المشركين، و هم رؤساء كفار مكة، لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه، فنهاه عن طاعتهم؛ أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما فى الضمير، فنهاه اللّه عن ذلک، كما يدل عليه قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ فإن الادّهان: هو الملاينة و المسامحة و المداراة. قال الفرّاء: المعنى لو تلين فيلينوا لک، و كذا قال الكلبى.

و قال الضحاک و السدّى: ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر. و قال الربيع بن أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون.

و قال قتادة: ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معک. و قال الحسن: ودّوا لو تصانعهم فى دينک فيصانعونک. و قال مجاهد: ودّوا لو تركن إليهم و تترک ما أنت عليه من الحق فيما يلونک. قال ابن قتيبة:

كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة، و يعبدوا اللّه مدّة. و قوله: فَيُدْهِنُونَ عطف على تدهن، داخل فى حيز «لو»، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أى: فهم يدهنون. قال سيبويه: و زعم قالون أنها فى بعض المصاحف «ودّوا لو تدهن فيدهنوا» بدون نون، و النصب على جواب التمنى المفهوم من ودّوا، و الظاهر من اللغة فى معنى الادهان هو ما ذكرناه أوّلا. وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ أى: كثير الحلف بالباطل مَهِينٍ فعيل من المهانة، و هى القلة فى الرأى و التميز. و قال مجاهد: هو الكذاب. و قال قتادة: المكثار فى

الشرّ، و كـذا قال الحسن. و قيل: هو الفاجر العاجز، و قيل: هو الحقير عنـد اللّه، و قيل: هو الـذليل، و قيل: هو الوضـيع هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ الهماز المغتاب للناس. قال ابن زيد: هو الّذى يهمز بأخيه، و قيل: الهمّاز:

الّذى يـذكر الناس فى وجوههم، و اللمّاز: الّذى يـذكرهم فى مغيبهم، كذا قال أبو العالية و الحسن و عطاء ابن أبى رباح، و قال مقاتل عكس هذا. و المشاء بنميم: الّذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال:

نمّ ينمّ؛ إذا سعى بالفساد بين الناس، و منه قول الشاعر:

و مولى كبيت النّمل لا خير عندهلمولاه إلّا سعيه بنميم

و قيل: النميم: جمع نميمة مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ أى: بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه، و قيل: هو الّذى يمنع أهله و عشيرته عن الإسلام. قال الحسن: يقول لهم من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

---

(١). الذاريات: ١٣.

(٢). «مايله»: مالأه.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٢١

أى: متجاوز الحدّ فى الظلم، كثير الإثم عُتُلٍ قال الواحدى: المفسرون يقولون هو الشديد الخلق الفاحش الخلق. و قال الفراء: هو الشديـد الخصومـة فى الباطـل. و قـال الزجّـاج: هو الغليـظ الجافى. و قال الليث: هو الأكول المنوع، يقال: عتلت الرجل أعتله؛ إذا جذبته جذبا عنيفا، و منه قول الشاعر «١»:

نفرعه فرعـا و لسـنا نعتله بَعْـدَ ذلِكَ زَنِيمٍ أى: هو بعـد ما عـدّ من معايبه زنيم، و الزنيم و الـدّعىّ: الملصق بالقوم و ليس هو منهم؛ مأخوذ من الزّنمة المتدلية فى حلق الشاة، أو الماعز، و منه قول حسان:

زنيم تداعاه الرّجال زيادةكما زيد فى عرض الأديم الأكارع

و قال سعيد بن جبير: الزنيم: المعروف بالشرّ، و قيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة، و قيل: هو الظلوم. أَنْ كانَ ذا مـالٍ وَ بَنِينَ متعلق بقوله: لاـ تُطِعْ أى: لاـ تطع من هـذه مثالبه لكونه ذا مال و بنين. قال الفراء و الزجاج: أى لأن كان، و المعنى: لا تطعه لماله و بنيه. قرأ ابن عامر و أبو جعفر و المغيرة و أبو حيوة أَنْ كانَ بهمزة واحـدة ممدودة على الاسـتفهام. و قرأ حمزة و أبو بكر و المفضّل أ أن كان بهمزتين مخففتين، و قرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر، و على قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ و التقريع حيث جعـل مجازاة النعم التى خوّله اللّه من المـال و البنين أن كفر به و برسوله. و قرأ نافع فى روايـة عنه بكسـر الهمزة على الشـرط، و جملة إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى، و قد تقدّم معنى أساطير الأوّلين فى غير موضع سَنَسِـمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ أى: سنسـمه بالكىّ على خرطومه. قال أبو عبيـدة و أبو زيـد و المبرد: الخرطوم: الأنف. قال مقاتـل: سنسـمه بالسواد على الأنف، و ذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار. قال الفراء: و الخرطوم و إن كان قـد خصّ بالسّـمة فإنه فى مذهب «٢» الوجه، لأـن بعض الوجه يؤدى عن بعض. قال الزجاج: سـيجعل له فى الآخرة العلم الّذى يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم. و قال قتادة: سنلحق به شينا لا يفارقه، و اختار هذا ابن قتيبة، قال:

و العرب تقول: قـد و سـمه ميسم سوء؛ يريـدون ألصق به عـارا لاـ يفـارقه، فـالمعنى: أن اللّه ألحق به عارا لا يفارقه، كالوسم على الخرطوم، و قيل: معنى سنسـمه: سـنحطمه بالسـيف. و قال النضـر بن شـميل: المعنى سنحدّه على شرب الخمر، و قد يسمى الخمر بالخرطوم، و منه قول الشاعر:

تظلّ يومك فى لهو و فى طربو أنت باللّيل شرّاب الخراطيم

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الخطيب فى

---

(١). هو أبو النجم الرّاجز.

(٢). فى تفسير القرطبى: معنى.

تاريخه، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: إن أوّل شى‌ء خلقه اللّه القلم، فقال له: اكتب، فقال:

يا ربّ و ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ثم طوى الكتاب و رفع القلم، و كان عرشه على الماء، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السماوات، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه، و الأرض على ظهر النون «١»، فاضطرب النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:

«إن أوّل ما خلق اللّه القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد». و أخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: إن اللّه خلق النون، و هى الدواة، و خلق القلم، فقال: اكتب، قال: و ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. و أخرج الحكيم الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: ن الدواة. و أخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «النون: السمكة التى عليها قرار الأرضين، و القلم الّذى خطّ به ربنا عزّ و جلّ القدر خيره و شرّه و ضرّه و نفعه، وَ ما يَسْطُرُونَ قال: الكرام الكاتبون». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ ما يَسْطُرُونَ قال: ما يكتبون. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ ما يَسْطُرُونَ قال: و ما يعلمون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و مسلم و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أمّ المؤمنين أخبرينى بخلق رسول اللّه، قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و الواحدى عنها قالت: «ما كان أحد أحسن خلقا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ما دعاه أحد من أصحابه و لا من أهل بيته إلا قال: لبيك، فلذلك أنزل اللّه: وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ . و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه؛ و البيهقى فى الدلائل، عن أبى الدرداء قال: «سئلت عائشة عن خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالت:

كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه و يسخط لسخطه». و أخرج ابن أبى شيبة، و الترمذى و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى عبد اللّه الجدلىّ قال: «قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قالت: لم يكن فاحشا و لا متفاحشا، و لا صخّابا فى الأسواق، و لا يجزى بالسيئة السيئة، و لكن يعفو و يصفح». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ قال: تعلم و يعلمون يوم القيامة بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ قال: الشيطان، كانوا يقولون: إنه شيطان و إنه مجنون. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال:

بأيكم المجنون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ يقول:

لو ترخص لهم فيرخصون. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ الآية قال: يعنى الأسود بن عبد يغوث. و أخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدى قال: «قال مروان لما بايع الناس ليزيد:

(١). «النون»: الحوت.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٢٣

سنّة أبى بكر و عمر، فقال عبد الرّحمن بن أبى بكر: إنها ليست بسنّة أبى بكر و عمر، و لكنها سنّة هرقل، فقال مروان: هذا الّذى أنزل فيه: وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما «١» الآية، قال: فسمعت ذلك عائشة فقالت: إنها لم تنزل فى عبد الرّحمن، و لكن نزل فى أبيك: وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ- هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «نزل على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ- هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ فلم نعرفه حتى نزل عليه بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: العتلّ: هو الدعىّ، و الزنيم: هو المريب الّذى يعرف بالشرّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن عساكر عنه قال: الزنيم: هو الدعىّ. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا قال: الزنيم: الّذى يعرف بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هو الرجل يمرّ على القوم، فيقولون: رجل سوء. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: زَنِيمٍ قال: ظلوم، و قد قيل: إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق، و قيل: فى الوليد بن المغيرة.

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١٧ الى ٣٣]

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (١٧) وَ لا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١)

أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ (٢٣) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَ غَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (٣١)

عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (٣٢) كَذلِكَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

قوله: إِنَّا بَلَوْناهُمْ يعنى كفار مكة، فإن اللّه ابتلاهم بالجوع و القحط بدعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم، و الابتلاء: الاختبار، و المعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع و القحط كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ المعروف خبرهم عندهم، و ذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدّى حق اللّه منها، فمات و صارت إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها، و بخلوا بحقّ اللّه فيها.

قال الواحدى: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات و زرع و نخيل، و كان أبوهم يجعل ممّا فيها من كل شي‌ء حظا للمساكين عند الحصاد و الصرام، فقالت بنوه: المال قليل، و العيال كثير، و لا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، و عزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ اللّه فى كتابه. قال الكلبى: كان بينهم و بين صنعاء فرسخان ابتلاهم اللّه بأن حرق جنتهم. و قيل: هى جنة كانت بضوران، و ضوران على فراسخ من صنعاء، و كان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ أى: حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح، و الصرم: القطع للثمر

(١). الأحقاف: ١٧.

فتح القدير، ج‏5، ص: 324
و الزرع، و انتصاب مُصْبِحِينَ على الحال من فاعل ليصرمنها، و الكاف فى كَما بَلَوْنا نعت مصدر محذوف، أى: بلوناهم ابتلاء كما بلونا، و ما مصدرية، أو بمعنى الّذى، و «إذ» ظرف لبلونا منتصب به، و ليصرمنها جواب القسم وَ لا يَسْتَثْنُونَ يعنى: و لا يقولون إن شاء اللّه، و هذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم، أو حال. و قيل: المعنى: و لا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الّذى كان يدفعه أبوهم إليهم، قاله عكرمة: فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ أى: طاف على تلك الجنة طائف من جهة اللّه سبحانه، و الطائف قيل: هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل. و قيل: الطائف جبريل اقتلعها، و جملة وَ هُمْ نائِمُونَ فى محل نصب على الحال فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ أى: كالشى‏ء الّذى صرمت ثماره، أى: قطعت، فعيل بمعنى مفعول، و قال الفرّاء: كالصريم المظلم، و منه قول الشاعر:
تطاول ليلك الجون الصّريمفما ينجاب عن صبح بهيم
و المعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود، قال: و الصريم: الرماد الأسود بلغة خزيمة. و قال الأخفش: أى كالصبح انصرم من الليل، يعنى أنها يبست و ابيضت. و قال المبرد: الصريم: الليل، و الصريم:
النهار، أى: ينصرم هذا عن هذا، و ذاك عن هذا، و قيل: سمّى الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرّف.
و قال المؤرج: الصريم: الرملة لأنها لا يثبت عليها شى‏ء ينتفع به. و قال الحسن: صرم منها الخير، أى: قطع فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ أى: نادى بعضهم بعضا داخلين فى الصباح. قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض أَنِ اغْدُوا عَلى‏ حَرْثِكُمْ و أَنِ فى قوله: أَنِ اغْدُوا هى المفسرة؛ لأنّ فى التنادى معنى القول، أو هى المصدرية، أى: بأن اغدوا، و المراد اخرجوا غدوة، و المراد بالحرث: الثمار و الزرع إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ أى: قاصدين للصرم، و الغدوّ يتعدّى بإلى و على، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل: و جواب الشرط محذوف، أى: إن كنتم صارمين فاغدوا، و قيل، معنى صارمين ماضين فى العزم، من قولك سيف صارم فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ أى: ذهبوا إلى جنّتهم و هم يسرّون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم، يقال: خفت يخفت؛ إذا سكن و لم يبين، و منه قول دريد بن الصّمّة:
و إنّى لم أهلك سلالا و لم أمتخفاتا و كلّا ظنّه بى عوّدى
و قيل: المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، و الأوّل أولى لقوله: أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ فإنّ «أن» هى المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول. و المعنى: يسرّ بعضهم إلى بعض هذا القول، و هو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم وَ غَدَوْا عَلى‏ حَرْدٍ قادِرِينَ الحرد يكون بمعنى المنع و القصد. قال قتادة و مقاتل و الكلبى و الحسن و مجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشى‏ء حارد، يقال: حرد يحرد إذا قصد، تقول: حردت حردك، أى: قصدت قصدك، و منه قول الراجز:
فتح القدير، ج‏5، ص: 325 أقبل سيل جاء من عند اللّهيحرد حرد الجنّة المغلّة
و قال أبو عبيد و المبرد و القتيبى: على حرد على منع، من قولهم حاردت الإبل حردا؛ إذا قلّت ألبانها، و الحرود من النوق هى القليلة اللبن. و قال السدّى و سفيان و الشعبى عَلى‏ حَرْدٍ على غضب، و منه قول الشاعر:
إذا جياد الخيل جاءت تردىمملوءة من غضب و حرد
و قول الآخر:
تساقوا على حرد دماء الأساود و منه قيل: أسد حارد. و روى عن قتادة و مجاهد أيضا أنهما قالا: عَلى‏ حَرْدٍ أى: على حسد.
و قال الحسن أيضا: على حاجة و فاقة. و قيل: عَلى‏ حَرْدٍ: على انفراد، يقال: حرد يحرد حردا أو حرودا؛ إذا تنحى عن قومه و نزل

منفردا عنهم و لم يخالطهم، و به قال الأصمعى و غيره. و قال الأزهرى:

حرد اسم قريتهم، و قال السدّى: اسم جنتهم. قرأ الجمهور حَرْدٍ بسكون الراء. و قرأ أبو العالية و ابن السّميقع بفتحها، و انتصاب قادِرِينَ على الحال. قال الفراء: و معنى قادرين: قد قدّروا أمرهم و بنوا عليه، و قال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. و قال الشعبى: يعنى قادرين على المساكين فَلَمَّا رَأَوْها أى: لما رأوا جنتهم و شاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التى أذهبت ما فيها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ أى: قال بعضهم لبعض: قد ضللنا جنتنا و ليست هذه، ثم لما تأملوا و علموا أنها جنتهم، و أن اللّه سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر و الزرع قالوا: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، فأضربوا عن قولهم الأوّل إلى هذا القول، و قيل: معنى قولهم:

إِنَّا لَضَالُّونَ أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم قالَ أَوْسَطُهُمْ أى: أمثلهم و أعقلهم و خيرهم أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ أى: هلّا تسبحون، يعنى تستثنون، و سمّى الاستثناء تسبيحا؛ لأنه تعظيم للّه و إقرار به، و هذا يدلّ على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه، و قال مجاهد و أبو صالح و غير هما:

كان استثناؤهم تسبيحا. قال النحاس: أصل التسبيح التنزيه للّه عزّ و جلّ، فجعل التسبيح فى موضع إن شاء اللّه. و قيل: المعنى: هلا تستغفرون اللّه من فعلكم و تتوبون إليه من هذه النية التى عزمتم عليها، و كان أوسطهم قد قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ أى: تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب ذنبنا الّذى فعلناه، و قيل: معنى تسبيحهم الاستغفار، أى نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا فى منعنا للمساكين فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ أى: يلوم بعضهم بعضا فى منعهم للمساكين و عزمهم على ذلك، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ أى: عاصين متجاوزين حدود اللّه بمنع الفقراء و ترك الاستثناء. قال ابن كيسان:

أى: طغينا نعم اللّه فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل، ثم رجعوا إلى اللّه و سألوه أن يعوضهم بخير منها،

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٢۶

فقالوا: عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من اللّه عزّ و جلّ أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم، قيل: إنهم تعاقدوا فيما بينهم، و قالوا: إن أبدلنا اللّه خيرا منها لنصنعنّ كما صنع أبونا، فدعوا اللّه و تضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها. قرأ الجمهور: يُبْدِلَنا بالتخفيف، و قرأ أبو عمرو و أهل المدينة بالتشديد، و هما لغتان، و التبديل: تغيير ذات الشى‏ء، أو تغيير صفته، و الإبدال: رفع الشى‏ء جملة و وضع آخر مكانه، كما مضى فى سورة سبأ إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ أى: طالبون منه الخير، راجون لعفوه، راجعون إليه. و عدّى بإلى و هو إنما يتعدّى بعن أو فى لتضمينه معنى الرجوع كَذلِكَ الْعَذابُ أى:

مثل ذلك العذاب الّذى بلوناهم به و بلونا أهل مكة بعذاب الدنيا، و العذاب مبتدأ مؤخر، و كذلك خبره وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أى: أشدّ و أعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك، و لكنهم لا يعلمون.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ قال: هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة و كان يطعم منها المساكين، فمات أبوهم، فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق، كان يطعم المساكين أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ و أن لا يطعموا مسكينا. و أخرج ابن جرير عنه فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ قال: أمر من اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إياكم و المعصية، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، و إن العبد ليذنب فيحرم به قيام الليل، و إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيّئ له. ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ قد حرموا خير جنّتهم بذنبهم». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم

عن ابن عباس فی قوله: كَالصَّرِيمِ قال:
مثل الليل الأسود. و أخرج ابن المنذر عنه وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ قال: الإسرار و الكلام الخفیّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ يقول: ذوی قدرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا فی قوله: إِنَّا لَضَالُّونَ قال: أضللنا مكان جنتنا. و أخرجا عنه أيضا قالَ أَوْسَطُهُمْ قال:
أعدلهم.

[سورة القلم (۶۸): الآيات ۳۴ الی ۵۲]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۳۴) أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (۳۵) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۶) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (۳۷) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (۳۸)
أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (۳۹) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (۴۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۴۱) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (۴۲) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ (۴۳)
فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۴۴) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۴۵) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۶) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۷) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (۴۸)
لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (۴۹) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۵۰) وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (۵۱) وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۵۲)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۲۷

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار، و تشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ذكر حال المتقين، و ما أعدّه لهم من الخير، فقال: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أی: للمتقين ما يوجب سخطه- من الكفر و المعاصی- عنده عزّ و جلّ فی الدار الآخرة جنات النعيم الخالص؛ الّذی لا يشوبه كدر و لا ينغصه خوف زوال أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ الاستفهام للإنكار. و كان صناديد كفار قريش يرون و فور حظّهم فی الدنيا، و قلّة حظوظ المسلمين فيها، فلما سمعوا بذكر الآخرة، و ما يعطی اللّه المسلمين فيها قالوا: إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا و حالهم إلا مثل ما هی فی الدنيا، فقال اللّه مكذبا لهم رادّا عليهم: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ الآية، و الفاء للعطف علی مقدر كنظائره. ثم وبّخهم اللّه، فقال: ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الأعوج؛ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ أی: تقرؤون فيه فتجدون المطيع كالعاصی، و مثل هذا قوله تعالی: أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ- فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ «۱»، ثم قال سبحانه:
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ قرأ الجمهور بكسر إن علی أنها معمولة لتدرسون، أی: تدرسون فی الكتاب إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة، كقوله: علمت إنک لعاقل بالكسر، أو علی الحكاية للمدروس، كما فی قوله: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ- سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ «۲» و قيل:
قد تمّ الكلام عند قوله: تَدْرُسُونَ ثم ابتدأ فقال: إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ أی: ليس لكم ذلک، و قرأ طلحة بن مصرّف و الضحاک إِنَّ لَكُمْ بفتح الهمزة علی أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد، و معنی تَخَيَّرُونَ تختارون و تشتهون. ثم زاد سبحانه فی التوبيخ فقال: أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ أی: عهود مؤكّدة موثقة متناهية، و المعنی: أم لكم أيمان علی اللّه استوثقتم بها

فى أن يدخلكم الجنة، و قوله:

إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ متعلق بالمقدر فى لكم، ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ، و جواب القسم قوله: إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ لأن معنى أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ أى: أم أقسمنا لكم.

قال الرازى: و المعنى أم ضمنا لكم، و أقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. و قيل: قد تمّ الكلام عند قوله: إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثم ابتدأ فقال: إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ أى: ليس الأمر كذلك. قرأ الجمهور: بالِغَةٌ بالرفع على النعت لأيمان، و قرأ الحسن و زيد بن علىّ بنصبها على الحال من أيمان؛ لأنها قد تخصّصت بالوصف، أو من الضمير فى لكم أو من الضمير فى علينا سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ أى:

سل يا محمد الكفار، موبّخا لهم و مقرّعا، أيّهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب، كفيل لهم بأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها. و قال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجّة و الدعوى. و قال الحسن: الزعيم:

الرسول أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ يشاركونهم فى هذا القول و يوافقونهم فيه فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ

---

(١). الصافات: ١٥٦- ١٥٧.

(٢). الصافات: ٧٨- ٧٩.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٢٨

فيما يقولون، و هو أمر تعجيز. و قيل: المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ يوم ظرف، لقوله فليأتوا، أى: فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق، و يجوز أن يكون ظرفا لفعل مقدّر، أى: اذكر يوم يكشف. قال الواحدى: قال المفسرون فى قوله: عَنْ ساقٍ عن شدّة من الأمر. قال ابن قتيبة: أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمّر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق فى موضع الشدّة، و أنشد لدريد بن الصّمّة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلّاع أنجد

و قال: و تأويل الآية يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق. قال أبو عبيدة:

إذا اشتدّ الحرب و الأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه، و الأصل فيه: من وقع فى شى‏ء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق و الكشف عن موضع الشدّة، و هكذا قال غيره من أهل اللغة، و قد استعملت ذلك العرب فى أشعارها، و من ذلك قول الشاعر «١»:

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضّها و إن شمرت عن ساقها الحرب شمّرا

و قول آخر:

و الخيل تعدو عند وقت الإشراق و قامت الحرب بنا على ساق

و قول آخر أيضا:

قد كشفت عن ساقها فشدّوا و جدّت الحرب بكم فجدّوا

و قول آخر أيضا:

فى سنة قد كشفت عن ساقها حمراء تبرى اللّحم عن عراقها «٢».

و قيل: ساق الشى‏ء: أصله و قوامه كساق الشجرة، و ساق الإنسان، أى: يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه، و قيل: يكشف عن ساق جهنم، و قيل: عن ساق العرش، و قيل: هو عبارة عن القرب، و قيل: يكشف الربّ سبحانه عن نوره، و سيأتى فى آخر

البحث ما هو الحق، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل.

قرأ الجمهور يُكْشَفُ بالتحتية مبنيا للمفعول، و قرأ ابن مسعود و ابن عباس و ابن أبى عبلة تكشف بالفوقية مبنيا للفاعل، أى: الشدّة أو الساعة، و قرئ بالفوقية مبنيا للمفعول، و قرئ بالنون، و قرئ بالفوقية المضمومة و كسر الشين من أكشف الأمر، أى: دخل فى الكشف وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ قال الواحدى: قال المفسرون: يسجد الخلق كلهم للّه سجدة واحدة، و يبقى الكفار و المنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون؛ لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس: يكشف

---

(١). هو حاتم الطائى.

(٢). «العراق»: العظم بغير لحم.

عن الغطاء فيقع من كان آمن باللّه فى الدنيا فيسجدون له، و يدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا باللّه فى الدنيا، و انتصاب خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ على الحال من ضمير «يدعون»، و «أبصارهم» مرتفع به على الفاعلية، و نسبة الخشوع إلى الأبصار، و هو الخضوع و الذلة لظهور أثره فيها تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أى: تغشاهم ذلّة شديدة و حسرة و ندامة وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ أى:

فى الدنيا وَ هُمْ سالِمُونَ أى: معافون عن العلل متمكّنون من الفعل. قال إبراهيم التّيمى: يدعون بالأذان و الإقامة فيأبون. و قال سعيد بن جبير: يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيبون. قال كعب الأحبار: و اللّه ما نزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلّفون عن الجماعات. و قيل: يدعون بالتكليف المتوجّه عليهم بالشرع فلا يجيبون، و جملة وَ هُمْ سالِمُونَ فى محل نصب على الحال من ضمير يدعون فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ أى: حل بينى و بينه و كل أمره إلىّ فأنا أكفيكه. قال الزجاج: معناه لا يشتغل به قلبك، كله إلىّ أكفك أمره. و الفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها، و مَنْ منصوب بالعطف على ضمير المتكلم أو على أنه مفعول معه، و المراد بهذا الحديث القرآن، قاله السدّى. و قيل: يوم القيامة، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و جملة سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ و الضمير عائد إلى «من» باعتبار معناها، و المعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، و نسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه؛ من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنهم يظنّونه إنعاما و لا يفكرون فى عاقبته و ما سيلقون فى نهايته. قال سفيان الثورى:

يسبغ عليهم النعم و ينسيهم الشكر. و قال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه! و كم من مفتون بالثناء عليه! و كم من مغرور بالستر عليه! و الاستدراج: ترك المعاجلة، و أصله النقل من حال إلى حال، و يقال: استدرج فلان فلانا، أى: استخرج ما عنده قليلا قليلا، و يقال: درّجه إلى كذا و استدرجه، بمعنى، أى «١» أدناه إلى التدريج فتدرّج هو. ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين، فقال: وَ أُمْلِي لَهُمْ أى: أمهلهم ليزدادوا إثما.

و قد مضى تفسير هذا فى سورة الأعراف و الطور، و أصل الملاوة: المدّة من الدهر، يقال: أملى اللّه له، أى: أطال له المدّة، و الملا، مقصور: الأرض الواسعة، سمّيت به لامتدادها إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أى: قوىّ شديد فلا يفوتنى شى‏ء، و سمّى سبحانه إحسانه كيدا، كما سمّاه استدراجا؛ لكونه فى صورة الكيد باعتبار عاقبته و وصفه بالمتانة لقوّة أثره فى التسبب للهلاك أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ أى: أم تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان باللّه فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ المغرم: الغرامة، أى: فهم من غرامة ذلك الأجر، و «مثقلون» أى: يثقل عليهم حمله لشحّهم ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب، و الاستفهام للتوبيخ لهم، و المعنى: أنك لم تسألهم ذلك و لم تطلبه منهم أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ

أى: اللوح المحفوظ، أو كلّ ما غاب عنهم، فهم

(۱). من تفسير القرطبى (۱۸/ ۲۵۲)

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۳۰

من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدلّ على قولهم، و يخاصمونك بما يكتبونه من ذلك و يحكمون لأنفسهم بما يريدون و يستغنون بذلك عن الإجابة لك و الامتثال لما تقوله: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أى: لقضائه الّذى قد قضاه فى سابق علمه، قيل: و الحكم هنا هو إمهالهم و تأخير نصرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم، و قيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة، قيل: و هذا منسوخ بآية السيف وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ يعنى يونس عليه السلام، أى: لا تكن مثله فى الغضب و الضجر و العجلة. و الظرف فى قوله: إِذْ نادى منصوب بمضاف محذوف، أى: لا تكن حالك كحاله وقت ندائه، و جملة وَ هُوَ مَكْظُومٌ فى محل نصب على الحال من فاعل نادى، و المكظوم: المملوء غيظا و كربا. قال قتادة: إن اللّه يعزّى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و يأمره بالصبر و لا يعجل كما عجل صاحب الحوت، و قد تقدّم بيان قصته فى سورة الأنبياء و يونس و الصّافّات، و كان النداء منه بقوله: لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّی كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «۱» و قيل:

إن المكظوم: المأخوذ بكظمه و هو مجرى النفس. قاله المبرّد، و قيل: هو المحبوس، و الأوّل أولى، و منه قول ذى الرّمة:

و أنت من حبّ ميّ مضمر حزناعانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ أى: لو لا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من اللّه و هى توفيقه للتوبة فتاب اللّه عليه لَنُبِذَ بِالْعَراءِ أى: لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات وَ هُوَ مَذْمُومٌ أى: يذمّ و يلام بالذنب الّذى أذنبه و يطرد من الرحمة، و الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير نبذ. قال الضحاك: النعمة هنا للنبوّة. و قال سعيد بن جبير: عبادته التى سلفت. و قال ابن زيد: هى نداؤه بقوله: لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّی كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ و قيل: مذموم: مبعد. و قيل: مذنب. قرأ الجمهور: تَدارَكَهُ على صيغة الماضى، و قرأ الحسن و ابن هرمز و الأعمش بتشديد الدال، و الأصل تتداركه بتاءين مضارعا فأدغم، و تكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية، و قرأ أبيّ و ابن مسعود و ابن عباس تداركته بتاء التأنيث فَاجْتَباهُ رَبُّهُ أى: استخلصه و اصطفاه و اختاره للنبوّة فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أى: الكاملين فى الصلاح و عصمه من الذنب، و قيل: ردّ إليه النبوّة و شفعه فى نفسه و فى قومه، و أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدّم وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ إن هى المخففة من الثقيلة. قرأ الجمهور: لَيُزْلِقُونَكَ بضم الياء من أزلقه، أى: أزلّ رجله، يقال: أزلقه عن موضعه إذا نحّاه، و قرأ نافع و أهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه؛ و إذا تنحّى. قال الهروى: أى: فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الّذى أقامك اللّه فيه عداوة لك، و قرأ ابن عباس و ابن مسعود و الأعمش و مجاهد و أبو وائل ليرهقونك أى: يهلكونك. و قال الكلبى: لَيُزْلِقُونَكَ أى: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة، و كذا قال السدّى و سعيد بن جبير. و قال النضر بن شميل و الأخفش: يفتنونك. و قال

(۱). الأنبياء: ۸۷.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۳۱

الحسن و ابن كيسان: ليقتلونك. قال الزجاج فى الآية: مذهب أهل اللغة و التأويل أنهم من شدّة إبغاضهم و عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، و هذا مستعمل فى الكلام، يقول القائل نظر إلىّ نظرا يكاد يصرعنى، و نظرا يكاد يأكلنى.

قال ابن قتيبة: ليس يريد اللّه أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، و إنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة و البغضاء يكاد يسقطك، كما قال الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا فى مجلس نظرا يزيل مواطئ الأقدام

لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ أى: وقت سماعهم للقرآن لكراهتهم لذلك أشدّ كراهة، و لما: ظرفية منصوبة بيزلقونك، و قيل: هى حرف، و جوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ أى: ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن، فردّ اللّه عليهم بقوله: وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ و الجملة مستأنفة، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون، أى: و الحال أنه تذكير و بيان لجميع ما يحتاجون إليه، أو شرف لهم كما قال سبحانه: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ و قيل: الضمير لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إنه مذكر للعالمين أو شرف لهم.

و قد أخرج البخارى و غيره عن أبى سعيد قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن و مؤمنة، و يبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء و سمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا» و هذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين و غيرهما، و له ألفاظ فى بعضها طول، و هو حديث مشهور معروف. و أخرج ابن مندة عن أبى هريرة فى الآية قال: يكشف اللّه عزّ و جلّ عن ساقه. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن مندة عن ابن مسعود فى الآية قال: يكشف عن ساقه تبارك و تعالى. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن مردويه فى الأسماء و الصفات، و ضعّفه و ابن عساكر عن أبى موسى عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «عن نور عظيم فيخرّون له سجدا». و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن مندة و البيهقى عن إبراهيم النّخعى عن ابن عباس فى الآية قال: يكشف عن أمر عظيم، ثم قال: قد قامت الحرب على ساق. قال: و قال ابن مسعود: يكشف عن ساقه فيسجد كلّ مؤمن، و يقسو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ قال: إذا خفى عليكم شيء من القرآن فابتغوه فى الشعر فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:

و قامت الحرب بنا على ساق «1» قال ابن عباس: هذ يوم كرب شديد، روى عنه نحو هذا من طرق أخرى، و قد أغنانا اللّه سبحانه فى

---

(1). جاء هذا القول على المثل. كما فى اللسان (مادة سوق)، و تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص (481)

تفسير هذه الآية بما صح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما عرفت، و ذلك لا يستلزم تجسيما و لا تشبيها فليس كمثله شىء.

دعوا كلّ قول عند قول محمّدفما آمن فى دينه كمخاطر

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ قال:

هم الكفار يدعون فى الدنيا و هم آمنون فاليوم يدعون و هم خائفون. و أخرج البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال: الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله:

لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ قال: ينفذونك بأبصارهم.

سورة الحاقّة

اشارة

هی إحدی و خمسون آیة، و قیل: اثنتان و خمسون و هی مکیة. قال القرطبی: فی قول الجمیع. و أخرج ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال: نزلت سورة الحاقة بمکة. و أخرج ابن مردویه عن ابن الزبیر مثله. و أخرج الطبرانی عن أبی برزة قال: «إنّ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم کان یقرأ فی الفجر بالحاقة و نحوها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الحاقة (۶۹): الآیات ۱ الی ۱۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الْحَاقَّةُ (۱) مَا الْحَاقَّةُ (۲) وَ ما أَدْراکَ مَا الْحَاقَّةُ (۳) کَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ (۴)

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِکُوا بِالطَّاغِیَةِ (۵) وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِکُوا بِرِیحٍ صَرْصَرٍ عاتِیَةٍ (۶) سَخَّرَها عَلَیْهِمْ سَبْعَ لَیالٍ وَ ثَمانِیَةَ أَیَّامٍ حُسُوماً فَتَرَی الْقَوْمَ فِیها صَرْعی کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِیَةٍ (۷) فَهَلْ تَری لَهُمْ مِنْ باقِیَةٍ (۸) وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِکاتُ بِالْخاطِئَةِ (۹)

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِیَةً (۱۰) إِنَّا لَمَّا طَغَی الْماءُ حَمَلْناکُمْ فِی الْجارِیَةِ (۱۱) لِنَجْعَلَها لَکُمْ تَذْکِرَةً وَ تَعِیَها أُذُنٌ واعِیَةٌ (۱۲) فَإِذا نُفِخَ فِی الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (۱۳) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُکَّتا دَکَّةً واحِدَةً (۱۴)

فَیَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱۵) وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِیَ یَوْمَئِذٍ واهِیَةٌ (۱۶) وَ الْمَلَکُ عَلی أَرْجائِها وَ یَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ یَوْمَئِذٍ ثَمانِیَةٌ (۱۷) یَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفی مِنْکُمْ خافِیَةٌ (۱۸)

قوله: الْحَاقَّةُ هی القیامة؛ لأن الأمر یحقّ فیها، و هی تحقّ فی نفسها من غیر شک. قال الأزهری:

یقال: حاققته فحققته أحقّه: غالبته فغلبته أغلبه، فالقیامة حاقة لأنها تحقّ کلّ محاقّ فی دین اللّه بالباطل و تخصم کل مخاصم. و قال فی الصحاح: حاقّه أی خاصمه فی صغار الأشیاء، و یقال: ما له فیها حقّ و لا حقاق، أی: خصومة، و التحاقّ: التخاصم، و الحاقة و الحقّة و الحقّ ثلاث لغات بمعنی. قال الواحدی: هی القیامة فی قول کل المفسرین، و سمّیت بذلک لأنها ذات الحواقّ من الأمور، و هی الصادقة الواجبة الصدق، و جمیع أحکام القیامة صادقة واجبة الوقوع و الوجود. قال الکسائی و المؤرّج: الحاقة یوم الحق، و قیل: سمّیت بذلک لأنّ کلّ إنسان فیها حقیق بأن یجزی بعمله، و قیل: سمیت بذلک لأنها أحقّت لقوم النار، و أحقّت لقوم الجنّة، و هی مبتدأ و خبرها قوله: مَا الْحَاقَّةُ علی أن «ما» الاستفهامیة مبتدأ ثان و خبره «الحاقة»، و الجملة خبر للمبتدأ الأول، و المعنی: أیّ شیء هی فی حالها أو صفاتها، و قیل: إن «ما» الاستفهامیة خبر لما بعدها، و هذه الجملة و إن کان لفظها لفظ الاستفهام فمعناها التعظیم و التفخیم لشأنها، کما تقول: زید ما زید، و قد قدّمنا تحقیق هذا المعنی فی سورة الواقعة. ثم زاد سبحانه فی تفخیم أمرها و تفظیع شأنها و تهویل حالها فقال: وَ ما أَدْراکَ مَا الْحَاقَّةُ أی: أیّ شیء أعلمک ما هی؟ أی: کأنک لست تعلمها إذ لم

فتح القدیر، ج۵، ص: ۳۳۴

تعاینها و تشاهد ما فیها من الأهوال فکأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقین. قال یحیی بن سلام: بلغنی أن کل شیء فی القرآن وَ ما أَدْراکَ* فقد أدراه إیاه و علمه، و کلّ شیء قال فیه: وَ ما یُدْرِیکَ* [فهو مما لم یعلمه. و قال سفیان بن عیینة: کل شیء قال فیه: وَ ما أَدْراکَ*] «۱» فإنه أخبره به، و «ما» مبتدأ، و خبره «أدراک»، و «ما الحاقة» جملة من مبتدأ و خبر محلها النصب بإسقاط

الخافض؛ لأن أدرى يتعدّى إلى المفعول الثانى بالباء كما فى قوله: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت فى موضع المفعول الثانى، و بدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو: دريت بكذا، و إن كان بمعنى العلم تعدّى إلى مفعولين، و جملة «و ما أدراك» معطوفة على جملة «ما الحاقة». كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ أى:

بالقيامة، و سمّيت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها. و قال المبرّد: عنى بالقارعة القرآن الّذى نزل فى الدنيا على أنبيائهم، و كانوا يخوّفونهم بذلك فيكذبونهم، و قيل: القارعة مأخوذة من القرعة لأنها ترفع أقواما و تحطّ آخرين، و الأوّل أولى، و يكون وضع القارعة موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها و فظاعة حالها، و الجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ثمود: هم قوم صالح، و قد تقدّم بيان هذا فى غير موضع و بيان منازلهم و أين كانت، و الطاغية الصيحة التى جاوزت الحدّ، و قيل: بطغيانهم و كفرهم، و أصل الطغيان: مجاوزة الحدّ وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاد: هم قوم هود، و قد تقدّم بيان هذا، و ذكر منازلهم و أين كانت فى غير موضع، و الريح الصرصر: هى الشديدة البرد، مأخوذ من الصرّ و هو البرد، و قيل: هى الشديدة الصوت. و قال مجاهد: الشديدة السموم، و العاتية: التى عتت عن الطاعة؛ فكأنها عتت على خزّانها فلم تطعهم، و لم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها، أو عتت على عاد؛ فلم يقدروا على ردّها، بل أهلكتهم سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم، و معنى سخّرها: سلّطها، كذا قال مقاتل، و قيل: أرسلها. و قال الزجاج: أقامها عليهم كما شاء، و التسخير: استعمال الشىء بالاقتدار، و يجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح، و أن تكون حالا منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير فى عاتية، وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ معطوف على سبع ليال، و انتصاب حُسُوماً على الحال، أى: ذات حسوم، أو على المصدر بفعل مقدّر، أى: تحسمهم حسوما، أو على أنه مفعول به، و الحسوم: التتابع، فإذا تتابع الشىء و لم ينقطع أوّله عن آخره قيل له: الحسوم. قال الزجاج:

الّذى توجبه اللغة فى معنى قوله حسوما، أى: تحسمهم حسوما: تفنيهم و تذهبهم. قال النضر بن شميل:

حسمتهم: قطعتهم و أهلكتهم. و قال الفراء: الحسوم: التّباع، من حسم الداء و هو الكىّ، لأن صاحبه يكوى بالمكواة، ثم يتابع ذلك عليه، و منه قول أبى داود «٢»:

يفرّق بينهم زمن طويلتتابع فيه أعواما حسوما «٣»

---

(١). من تفسير القرطبى (١٨/ ٢٥٧)

(٢). فى تفسير القرطبى: عبد العزيز بن زرارة الكلابى.

(٣). فى تفسير القرطبى: ففرّق بين بينهم زمانتتابع فيه أعوام حسوم فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٣٥

و قال المبرّد: هو من قولك: حسمت الشىء؛ إذا قطعته و فصلته عن غيره، و قيل: الحسم:

الاستئصال، و يقال للسيف حسام؛ لأنه يحسم العدوّ عما يريده من بلوغ عداوته، و المعنى: أنها حسمتهم، أى: قطعتهم و أذهبتهم، و منه قول الشاعر:

فأرسلت ريحا دبورا عقيمافدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد: أى حسمتهم فلم تبق منهم أحدا. و روى عنه أنه قال: حسمت الأيام و الليالى حتى استوفتها، لأنها بدأت بطلوع الشمس من أوّل يوم و انقطعت بغروب الشمس من آخر يوم. و قال الليث: الحسوم هى الشؤم، أى: تحسم الخير عن أهلها، كقوله: فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ «١».

و اختلف فى أوّلها، فقيل: غداة الأحد، و قيل: غداة الجمعة، و قيل: غداة الأربعاء. قال وهب: و هذه الأيام هى التى تسميها العرب

أيام العجوز، كان فيها برد شديد و ريح شديدة، و كان أوّلها يوم الأربعاء، و آخرها يوم الأربعاء. فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى الخطاب لكلّ من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضرا حينئذ لرأى ذلك، و الضمير فى فيها يعود إلى الليالى و الأيام، و قيل: إلى مهاب الريح، و الأوّل أولى. و صرعى:

جمع صريع، يعنى: موتى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ أى: أصول نخل ساقطة، أو بالية، و قيل: خالية لا جوف فيها، و النخل يذكّر و يؤنّث، و مثله قوله: كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «٢» و قد تقدّم تفسيره، و هو إخبار عن عظم أجسامهم. قال يحيى بن سلام: إنما قال خاوية لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ أى: من فرقة باقية، أو من نفس باقية، أو من بقيّة، على أن باقية مصدر كالعاقبة و العافية. قال ابن جريج: أقاموا سبع ليال و ثمانية أيام أحياء فى عذاب الريح، فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم فى البحر وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ أى: من الأمم الكافرة.

قرأ الجمهور قبله بفتح القاف و سكون الباء، أى: و من تقدّمه من القرون الماضية و الأمم الخالية، و قرأ أبو عمرو و الكسائى بكسر القاف و فتح الباء، أى: و من هو فى جهته من أتباعه، و اختار أبو حاتم و أبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود و أبيّ «و من معه»، و لقراءة أبى موسى «و من تلقاءه» وَ الْمُؤْتَفِكاتُ قرأ الجمهور: الْمُؤْتَفِكاتُ بالجمع و هى قرى قوم لوط، و قرأ الحسن و الجحدرى: المؤتفكة بالإفراد، و اللام للجنس، فهى فى معنى الجمع، و المعنى: و جاءت المؤتفكات بِالْخاطِئَةِ أى: بالفعلة الخاطئة، أو الخطأ على أنها مصدر. و المراد أنها جاءت بالشرك و المعاصى. قال مجاهد: بالخطايا. و قال الجرجانيّ: بالخطإ العظيم فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ أى: فعصت كلّ أمة رسولها المرسل إليها. قال الكلبى:

هو موسى: و قيل: لوط لأنه أقرب، و قيل: و رسول هنا بمعنى رسالة، و منه قول الشاعر «٣»:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسرّ و لا أرسلتهم برسول

---

(١). فصلت: ١٦.

(٢). القمر: ٢٠.

(٣). هو كثير عزّة.

أى: برسالة. فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً أى: أخذهم اللّه أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم، و المعنى:

أنها بالغة فى الشدّة إلى الغاية، يقال: ربا الشي‏ء يربو؛ إذا زاد و تضاعف. قال الزجاج: تزيد على الأخذات.

قال مجاهد: شديدة إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ أى: تجاوز فى الارتفاع و العلوّ، و ذلك فى زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر و كذبوه، و قيل: طغى على خزّانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه. قال قتادة:

زاد على كل شي‏ء خمسة عشر ذراعا حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ أى: فى أصلاب آبائكم، أو حملناهم و حملناكم فى أصلابهم تغليبا للمخاطبين على الغائبين. و الجارية: سفينة نوح، و سمّيت جارية لأنها تجرى فى الماء، و محل «فى الجارية» النصب على الحال، أى: رفعناكم فوق الماء حال كونكم فى السفينة، و لما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم، و ذكر ما حلّ بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول، قال: لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً أى: لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم، يا أمة محمّد، عبرة و موعظة؛ تستدلون بها على عظيم قدرة اللّه و بديع صنعه، أو لنجعل هذه الفعلة التى هى عبارة عن إنجاء المؤمنين و إغراق الكافرين لكم تذكرة، وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ أى: تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت. قال الزجاج:

يقال وعيت كذا، أى: حفظته فى نفسى، أعيه وعيا، و وعيت العلم، و وعيت ما قلته؛ كلّه بمعنى، و أوعيت المتاع فى الوعاء، و

يقال لكل ما وعيته فى غير نفسك: أوعيته بالألف، و لما حفظته فى نفسك: وعيته بغير ألف.

قال قتادة فى تفسير الآية: أذن سمعت و عقلت ما سمعت. قال الفراء: المعنى لتحفظها كل أذن؛ عظة لمن يأتى بعد. قرأ الجمهور تَعِيَها بكسر العين. و قرأ طلحة بن مصرّف و حميد الأعرج و أبو عمرو فى رواية عنه بإسكان العين، تشبيها لهذه الكلمة برحم و شهد، و إن لم تكن من ذلك. قال الرازي: و روى عن ابن كثير إسكان العين، جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة، فخفف و أسكن، كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ و كبد و كتف انتهى. و الأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف، كما فى قراءة من قرأ وَ ما يُشْعِرُكُمْ «١» بسكون الراء، قال القرطبى: و اختلفت القراءة فيها عن عاصم و ابن كثير، يعنى تعيها فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ هذا شروع فى بيان الحاقة، و كيف وقوعها، بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين. قال عطاء: يريد النفخة الأولى. و قال الكلبى و مقاتل: يريد النفخة الأخيرة.

قرأ الجمهور: نَفْخَةٌ واحِدَةٌ بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة، و واحدة تأكيد لها، و حسن تذكير الفعل لوقوع الفصل، و قرأ أبو السّمّال بنصبهما على أن النائب هو الجار و المجرور. قال الزجاج: قوله:

فِي الصُّورِ يقوم مقام ما لم يسمّ فاعله وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ أى: رفعت من أماكنها و قلعت عن مقارّها بالقدرة الإلهية. قرأ الجمهور: حُمِلَتِ بتخفيف الميم. و قرأ الأعمش و ابن أبى عبلة و ابن مقسم و ابن عامر فى رواية عنه بتشديدها للتكثير أو للتعدية فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً أى: فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيبا مهيلا و هباء منبثا. قال الفراء: و لم

---

(١). الأنعام: ١٠٩.

يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، و مثله قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما «١» و قيل: دكّتا: بسطتا بسطة واحدة، و منه اندك سنام البعير؛ إذا انفرش على ظهره فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ أى: قامت القيامة وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ أى: انشقت بنزول ما فيها من الملائكة، فهى فى ذلك اليوم ضعيفة مسترخية. قال الزجاج: يقال: لكل ما ضعف جدّا قد و هى فهو واه، و قال الفرّاء: وهيها: تشقّقها وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها أى: جنس الملك على أطرافها و جوانبها، و هى جمع رجا مقصور، و تثنيته رجوان، مثل قفا و قفوان، و المعنى: أنها لما تشقّقت السماء، و هى مساكنهم، لجئوا إلى أطرافها. قال الضحاك: إذا كان يوم القيامة أمر اللّه السماء الدنيا فتشققت، و تكون الملائكة على حافاتها حيث يأمرهم الربّ فينزلون إلى الأرض، و يحيطون بالأرض و من عليها. و قال سعيد بن جبير: المعنى: و الملك على حافات الدنيا، أى: ينزلون إلى الأرض، و قيل: إذا صارت السماء قطعا يقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشقّقة فى أنفسها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ أى: يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك، و قيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا اللّه عزّ و جلّ، و قيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة، قاله الكلبى و غيره يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ أى: تعرض العباد على اللّه لحسابهم، و مثله: وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا «٢»، و ليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالما به. و إنما هو عرض الاختبار و التوبيخ بالأعمال، و جملة لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ فى محل نصب على الحال من ضمير تعرضون، أى: تعرضون حال كونه لا يخفى على اللّه سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم و أفعالكم خافية كائنة ما كانت، و التقدير: أىّ نفس خافية، أو فعلة خافية.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الْحَاقَّةُ من أسماء القيامة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن

جرير عنه قال: ما أرسل اللّه شيئا من ريح إلا بمكيال، و لا قطرة من ماء إلا بمكيال؛ إلا يوم نوح و يوم عاد. فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ و أما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. و أخرج ابن جرير عن عليّ بن أبى طالب نحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس عن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «نصرت بالصبا، و أهلكت عاد بالدّبور». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر مرفوعا:

«قال ما أمر الخزّان أن يرسلوا على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح، فعتت على الخزان فخرجت من نواحى الأبواب» فذلك قوله: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ قال: عتوّها: عتت على الخزّان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ قال: الغالبة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فى قوله:

حُسُوماً قال: متتابعات. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير من طرق عن ابن عباس فى قوله:

---

(١). الأنبياء: ٣٠.

(٢). الكهف: ٤٨.

حُسُوماً قال: تباعا، و فى لفظ: متتابعات. و أخرج ابن المنذر عنه كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ قال:

هى أصولها، و فى قوله: خاوِيَةٍ قال: خربة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله:

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ قال: طغى على خزانه فنزل، و لم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل و لا وزن. و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، من طريق مكحول عن عليّ بن أبى طالب فى قوله: وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«سألت اللّه أن يجعلها أذنك يا عليّ» فقال على: ما سمعت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شيئا فنسيته. قال ابن كثير:

و هو حديث مرسل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الواحدى و ابن مردويه و ابن عساكر و ابن النجار عن بريدة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعليّ: «إن اللّه أمرنى أن أدنيك و لا أقصيك، و أن أعلمك، و أن تعى، و حقّ لك أن تعى، فنزلت هذه الآية وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ فأنت أذن واعية، لعليّ» قال ابن كثير:

و لا يصح. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عمر فى قوله: أُذُنٌ واعِيَةٌ قال: أذن عقلت عن اللّه. و أخرج الحاكم، و البيهقى فى البعث، عن أبيّ بن كعب فى قوله: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً قال: تصيران غبرة على وجوه الكافرين لا على وجوه المؤمنين، و ذلك قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ- تَرْهَقُها قَتَرَةٌ «١». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ قال:

متخرقة. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها قال:

على حافاتها على ما لم يهيئ منها. و أخرج عبد بن حميد، و عثمان بن سعيد الدّارمى فى الردّ على الجهمية، و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن خزيمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و الخطيب فى تالى التلخيص، عنه أيضا فى قوله: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ قال: ثمانية أملاك على صورة الأوعال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا من طرق فى الآية قال: يقال ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلّا اللّه، و يقال: ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش فى السماء

السابعة و أقدامهم فى الأرض السفلى، و لهم قرون كقرون الوعلة، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن ماجة و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى موسى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال و معاذير، و أما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدى؛ فآخذ بيمينه و آخذ بشماله». و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود نحوه.

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٩ الى ٥٢]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُها دانِيَةٌ (٢٣)

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (٢٤) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (٢٥) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (٢٦) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (٢٧) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (٢٨)

هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣)

وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (٣٥) وَ لا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (٣٧) فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (٣٨)

وَ ما لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (٤١) وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٣)

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (٤٧) وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨)

وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

---

(١). عبس: ٤٠- ٤١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٣٩

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ أى: أعطى كتابه الّذى كتبته الحفظة عليه من أعماله فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ يقول ذلك سرورا و ابتهاجا. قال ابن السكيت و الكسائى: العرب تقول: هاء يا رجل، و للاثنين هاؤما يا رجلان، و للجمع هاؤم يا رجال، و قيل:

و الأصل هاكم، فأبدلت الهمزة من الكاف، قال ابن زيد: و معنى هاؤم: تعالوا. و قال مقاتل: هلم، و قيل:

خذوا، فهى اسم فعل، و قد يكون فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، و فيها ثلاث لغات كما هو معروف فى علم الإعراب، و قوله: كِتابِيَهْ معمول لقوله: اقْرَؤُا لأنه أقرب الفعلين، و معمول هاؤُمُ محذوف يدل عليه معمول اقْرَؤُا و التقدير: هاؤم كتابيه اقرءوا كتابيه، و الهاء فى كتابيه و حسابيه و سلطانيه و ماليه هى هاء السكت. قرأ الجمهور فى هذه بإثبات الهاء وقفا و وصلا مطابقة لرسم المصحف، و لو لا ذلك لحذفت فى الوصل كما هو شأن هاء السكت، و اختار أبو عبيد أن يتعمّد الوقف عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السكت و يوافق الخط، يعنى خط المصحف. و قرأ ابن محيصن و ابن أبى إسحاق و حميد و مجاهد و الأعمش و يعقوب بحذفها وصلا و إثباتها وقفا فى جميع هذه الألفاظ. و رويت هذه القراءة عن حمزة، و اختار أبو

حاتم هذه القراءة اتباعا للغة. و روى عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلا و وقفا.

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ أى: علمت و أيقنت فى الدنيا أنى أحاسب فى الآخرة، و قيل: المعنى:

إنى ظننت أن يأخذنى اللّه بسيئاتى فقد تفضّل علىّ بعفوه و لم يؤاخذنى. قال الضحاك: كل ظنّ فى القرآن من المؤمن فهو يقين، و من الكافر فهو شك. قال مجاهد: ظن الآخرة يقين، و ظن الدنيا شك. قال الحسن فى هذه الآية: إن المؤمن أحسن الظنّ بربه، فأحسن العمل للآخرة، و إن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل.

قيل: و التعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يقدح فى الاعتقاد ما يهجس فى النفس من الخطرات التى لا تنفك عنها العلوم النظرية غالبا فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ أى: فى عيشة مرضية لا مكروهة، أو ذات رضى، أى:

يرضى بها صاحبها. قال أبو عبيدة و الفرّاء: راضية أى مرضية، كقوله: ماءٍ دافِقٍ «1» أى: مدفوق، فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها، فكان ذلك من المجاز فى الإسناد فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ أى: مرتفعة المكان لأنها فى السماء، أو مرتفعة المنازل، أو عظيمة فى النفوس قُطُوفُها دانِيَةٌ القطوف: جمع قطف بكسر

---

(1). الطارق: 6.

فتح القدير، ج‌5، ص: 340

ما يقطف من الثمار، و القطف بالفتح المصدر، و القطاف بالفتح و الكسر وقت القطف، و المعنى: أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع كُلُوا وَ اشْرَبُوا أى: يقال لهم كلوا و اشربوا فى الجنة هَنِيئاً أى: أكلا و شربا هنيئا لا تكدير فيه و لا تنغيص بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ أى: بسبب ما قدّمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا. و قال مجاهد: هى أيام الصيام وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ حزنا و كربا لما رأى فيه من سيئاته: يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ أى: لم أعط كتابيه وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ أى: لم أدر أىّ شى‌ء حسابى؛ لأن كلّه عليه يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ أى: ليت الموتة التى متّها كانت القاضية و لم أحى بعدها، و معنى: القاضية: القاطعة للحياة، و المعنى: أنه تمنى دوام الموت و عدم البعث لما شاهد من سوء عمله و ما يصير إليه من العذاب، فالضمير فى ليتها يعود إلى الموتة التى قد كان ماتها و إن لم تكن مذكورة؛ لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. قال قتادة: تمنى الموت و لم يكن فى الدنيا شى‌ء عنده أكره منه، و شر من الموت ما يطلب منه الموت. و قيل: الضمير يعود إلى الحالة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب، و المعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضيت علىّ ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ أى: لم يدفع عنى من عذاب اللّه شيئا، على أن ما نافية أو استفهامية، و المعنى: أىّ شى‌ء أغنى عنى مالى هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ أى: هلكت عنى حجّتى و ضلّت عنى، كذا قال مجاهد و عكرمة و السدّى و الضحاك. و قال ابن زيد: يعنى سلطانى الّذى فى الدنيا، و هو الملك، و قيل: تسلّطى على جوارحى. قال مقاتل: يعنى حين شهدت عليه الجوارح بالشرك، و حينئذ يقول اللّه عزّ و جلّ: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ أى: اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ أى: أدخلوه الجحيم، و المعنى: لا تصلوه إلا الجحيم، و هى النار العظيمة ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ السلسلة: حلق منتظمة، و ذرعها: طولها. قال الحسن:

اللّه أعلم بأىّ ذراع هو. قال نوف الشامى: كل ذراع سبعون باعا أبعد مما بينك و بين مكة، و كان نوف فى رحبة الكوفة. قال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص، و معنى فَاسْلُكُوهُ فاجعلوه فيها، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه. قال سفيان: بلغنا أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فيه. قال الكلبى: تسلك سلك الخيط فى اللؤلؤ. و قال سويد بن أبى نجيح: بلغنى أن جميع أهل النار فى تلك السلسلة. و تقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم، و جملة إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ تعليل لما قبلها وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ أى: لا يحث على إطعام المسكين من ماله، أو لا

يحثّ الغير على إطعامه، و وضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر «۱»:
أ كفرا بعد ردّ موتى عنّيو بعد عطائك المائة الرّتاعا «۲»

(۱). هو القطامى.

(۲). «الرتاع»: التى ترتع.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۴۱

أى: بعد إعطائك، و يجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر، و المعنى: أنه لا يحثّ نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، و فى جعل هذا قرينا لترك الإيمان باللّه من الترغيب فى التصدّق على المساكين و سدّ فاقتهم، و حثّ النفس و الناس على ذلك؛ ما يدلّ أبلغ دلالة، و يفيد أكمل فائدة، على أن منعهم من أعظم الجرائم و أشدّ المآثم فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ أى: ليس له يوم القيامة فى الآخرة قريب ينفعه، أو يشفع له؛ لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه، و يهرب عنده الحبيب من حبيبه وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ أى: و ليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار، و ما ينغسل من أبدانهم من القيح و الصديد، و غسلين: فعلين، من الغسل. و قال الضحاك و الربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. و قال قتادة: هو شرّ الطعام. و قال ابن زيد: لا يعلم ما هو و لا ما الزقوم إلّا اللّه تعالى. و قال سبحانه فى موضع آخر لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى فليس له اليوم ها هنا حميم من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار وَ لا طَعامٌ أى: ليس لهم طعام يأكلونه. و لا ملجئ لهذا التقديم و التأخير، و جملة لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ صفة لغسلين، و المراد أصحاب الخطايا و أرباب الذنوب. قال الكلبى: المراد: الشرك. قرأ الجمهور: الْخاطِؤُنَ مهموزا، و هو اسم فاعل من خطىء إذا فعل غير الصواب متعمدا، و المخطئ: من يفعله غير متعمد. و قرأ الزهرى و طلحة بن مصرّف و الحسن «الخاطيون» بياء مضمومة بدل الهمزة. و قرأ نافع فى رواية عنه بضم الطاء بدون همزة. فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ- وَ ما لا تُبْصِرُونَ هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال: ليس الأمر كما تقولون، و «لا» زائدة، و التقدير: فأقسم بما تشاهدونه و ما لا تشاهدونه. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها و ما لا يبصر، فيدخل فى هذا جميع المخلوقات، و قيل: إن «لا» ليست زائدة، بل هى لنفى القسم، أى: لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحقّ فى ذلك، و الأوّل أولى إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ أى: إن القرآن لتلاوة رسول كريم، على أن المراد بالرسول محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم.

قال الحسن و الكلبى و مقاتل: يريد به جبريل، دليله قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ- ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ «۱» و على كل حال فالقرآن ليس من قول محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا من قول جبريل عليه السلام؛ بل هو قول اللّه، فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ كما تزعمون؛ لأنه ليس من أصناف الشعر و لا مشابه لها قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ أى: إيمانا قليلا تؤمنون، و تصديقا يسيرا تصدقون، و «ما» زائدة وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها و بين هذا قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ أى: تذكّرا قليلا، أو زمانا قليلا تتذكرون، و «ما» زائدة، و القلّة فى الموضعين بمعنى النفى، أى: لا تؤمنون و لا تتذكرون أصلا تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو تنزيل. و قرأ أبو السّمّال بالنصب على المصدرية بإضمار فعل، أى: نزل تنزيلا،

(۱). التكوير: ۱۹- ۲۰.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۳۴۲

و المعنى: إنه لقول رسول كريم، و هو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ أى: و لو تقوّل ذلك الرسول، و هو محمد، أو جبريل على ما تقدّم، و التقوّل: تكلف القول، و المعنى:

لو تكلّف ذلك و جاء به من جهة نفسه، و سمّى الافتراء تقوّلا لأنه قول متكلّف، و كلّ كاذب يتكلّف ما يكذب به. قرأ الجمهور: تَقَوَّلَ مبنيا للفاعل. و قرئ مبنيا للمفعول مع رفع بعض. و قرأ ابن ذكوان و لو يقول على صيغة المضارع، و الأقاويل: جمع أقوال، و الأقوال: جمع قول لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أى: بيده اليمين، قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس فى الأخذ بيد من يعاقب.

و قال الفراء و المبرد و الزجاج و ابن قتيبة: لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أى: بالقوّة و القدرة. قال ابن قتيبة: و إنما أقام اليمين مقام القوّة؛ لأن قوّة كلّ شىء فى ميامنه، و من هذا قول الشاعر «۱»:

إذا ما راية نصبت لمجدتلقّاها عرابة «۲» باليمين

و قول الآخر:

و لمّا رأيت الشّمس أشرق نورهاتناولت منها حاجتى بيمينى

ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ الوتين: عرق يجرى فى الظهر حتى يتّصل بالقلب، و هو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه. قال الواحدى: و المفسرون يقولون: إنه نياط القلب انتهى. و من هذا قول الشاعر:

إذا بلّغتنى و حملت رحلىعرابة فاشرقى «۳» بدم الوتين

فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ أى: ليس منكم أحد يحجزنا عنه و يدفعنا منه، فكيف يتكلّف الكذب على اللّه لأجلكم؛ مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه، و لا تقدرون على الدّفع منه، و الحجز: المنع، و حاجِزِينَ صفة لأحد، أو خبر لما الحجازية وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ أى: إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ أى: أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك، و فى هذا وعيد شديد وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ أى: و إن القرآن لحسرة و ندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين، و قيل: هى حسرتهم فى الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ أى: و إن القرآن لكونه من عند اللّه حقّ فلا يحوم حوله ريب، و لا يتطرّق إليه شك فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ أى: نزّهه عمّا لا يليق به، و قيل: فصلّ لربك، و الأوّل أولى.

---

(۱). هو الشّماخ.

(۲). هو عرابة بن أوس الأوسى الأنصارى، من سادات المدينة الأجواد، أدرک حياة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أسلم، و توفى بالمدينة.

(۳). «شرق»: غصّ.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۴۳

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي ظَنَنْتُ قال: أيقنت. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قُطُوفُها دانِيَةٌ قال: قريبة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن البراء فى الآية قال: يتناول الرجل من فواكهها و هو قائم. و أخرج ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: فَاسْلُكُوهُ قال: السلسلة تدخل فى استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود، ثم يشوى. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى الدرداء قال: إن للّه سلسلة لم تزل تغلى منها مراجل النار منذ خلق اللّه جهنم إلى يوم تلقى فى أعناق الناس، و قد نجّانا اللّه من

نصفها بإيماننا باللّه العظيم، فحضّى على طعام المسكين يا أمّ الدرداء. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين: الدّم و الماء و الصديد الّذى يسيل من لحومهم. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو أن دلوا من غسلين يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: الغسلين: اسم طعام من أطعمة أهل النار. و أخرج ابن جرير عنه فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ- وَ ما لا تُبْصِرُونَ يقول: بما ترون و ما لا ترون. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ قال: بقدرة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه قال الْوَتِينَ عرق القلب. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم عنه أيضا قال: الْوَتِينَ نياط القلب. و أخرج ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا قال: قال: هو حبل القلب الّذى فى الظهر.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۴۴

سورة المعارج

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: باتفاق. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال:
نزلت سورة سأل بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱ الى ۱۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (۱) لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (۲) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (۳) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۴)
فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (۵) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (۶) وَ نَراهُ قَرِيباً (۷) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (۸) وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (۹)
وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (۱۰) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴)
كَلاَّ إِنَّها لَظى (۱۵) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (۱۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (۱۷) وَ جَمَعَ فَأَوْعى (۱۸)

قوله: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ قرأ الجمهور: سَأَلَ بالهمزة، و قرأ نافع و ابن عامر بغير همزة، فمن همز فهو من السؤال، و هى اللغة الفاشية، و هو إما مضمّن معنى الدعاء، فلذلك عدّى بالباء، كما تقول: دعوت لكذا، و المعنى: دعا داع على نفسه بعذاب واقع، و يجوز أن يكون على أصله، و الباء بمعنى عن، كقوله: فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً «۱» و من لم يهمز، فهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفا، فيكون معناها معنى قراءة من همز، أو يكون من السيلان، و المعنى: سال: واد فى جهنم يقال له سائل، كما قال زيد بن ثابت. و يؤيده قراءة ابن عباس: سأل سيل و قيل: إن سال بمعنى التمس، و المعنى: التمس ملتمس عذابا للكفار، فتكون الباء زائدة، كقوله: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ و الوجه الأوّل هو الظاهر. و قال الأخفش:
يقال خرجنا نسأل عن فلان و بفلان. قال أبو علىّ الفارسى: و إذا كان من السؤال فأصله أن يتعدّى إلى مفعولين، و يجوز

الاقتصار على أحدهما و يتعدّى إليه بحرف الجر، و هذا السّائل هو النضر بن الحارث حين قال: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «٢» و هو ممّن قتل يوم بدر صبرا، و قيل: هو أبو جهل، و قيل: هو الحارث بن النعمان الفهرى. و الأوّل أولى لما سيأتى. و قرأ أبىّ و ابن مسعود سال سال مثل مال مال على أن الأصل سائل، فحذفت العين تخفيفا، كما قيل: شاك فى: شائك السلاح. و قيل: السائل هو نوح عليه السلام، سأل العذاب للكافرين، و قيل:

---

(١). الفرقان: ٥٩.

(٢). الأنفال: ٣٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٤٥

هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دعا بالعقاب عليهم، و قوله: بِعَذابٍ واقِعٍ يعنى إما فى الدنيا كيوم بدر، أو فى الآخرة، و قوله: لِلْكافِرينَ صفة أخرى لعذاب، أى: كائن للكافرين، أو متعلّق بواقع، و اللام للعلّة، أو بسأل على تضمينه معنى دعا، أو فى محل رفع على تقدير: هو للكافرين، أو تكون اللام بمعنى على: و يؤيده قراءة أبىّ بعذاب واقع على الكافرين. قال الفرّاء: التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم، فالواقع من نعت العذاب، و جملة لَيْسَ لَهُ دافِعٌ صفة أخرى لعذاب، أو حال منه، أو مستأنفة، و المعنى: أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد، و قوله: مِنَ اللَّهِ متعلّق بواقع، أى: واقع من جهته سبحانه، أو بدافع، أى: ليس له دافع من جهته تعالى ذِي الْمَعارِجِ أى: ذى الدرجات التى تصعد فيها الملائكة، و قال الكلبى: هى السّماوات، و سمّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، و قيل: المعارج مراتب نعم اللّه سبحانه على الخلق، و قيل: المعارج: العظمة، و قيل: هى الغرف. و قرأ ابن مسعود: «ذى المعاريج» بزيادة الياء، يقال: معارج و معاريج مثل مفاتح و مفاتيح تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ أى: تصعد فى تلك المعارج التى جعلها اللّه لهم، و قرأ الجمهور: تَعْرُجُ بالفوقية، و قرأ ابن مسعود و أصحابه و الكسائى و السلمى بالتحتية، و الروح: جبريل، أفراد بالذكر بعد الملائكة لشرفه، و يؤيد هذا قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ و قيل: الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل. و قال أبو صالح: إنّه خلق من خلق اللّه سبحانه كهيئة الناس و ليسوا من الناس. و قال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين تقبض، و الأول أولى. و معنى إِلَيْهِ أى: إلى المكان الّذى ينتهون إليه، و قيل: إلى عرشه، و قيل: هو كقول إبراهيم: إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أى: حيث أمرنى ربى فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال ابن إسحاق و الكلبى و وهب ابن منبه: أى: عروج الملائكة إلى المكان الّذى هو محلها فى وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة، و به قال مجاهد. و قال عكرمة، و روى عن مجاهد: أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدرى أحد كم مضى و لا كم بقى، و لا يعلم ذلك إلا اللّه. و قال قتادة و الكلبى و محمد بن كعب: إن المراد يوم القيامة، يعنى أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة، و هو سبحانه يفرغ منه فى ساعة، و قيل: إن مدّة موقف العباد للحساب هى هذا المقدار، ثم يستقرّ بعد ذلك أهل الجنة فى الجنة و أهل النار فى النار. و قيل:

إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة، و على المؤمنين مقدار ما بين الظهر و العصر، و قيل:

ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل و التخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج و بعد مداها، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد و المكاره، كما تصف العرب أيام الشدّة بالطول و أيام الفرح بالقصر، و يشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة، و الطويل بظل الرمح، و منه قول الشاعر «١»:

و يوم كظلّ الرّمح قصّر طولهدم الزّقّ عنّا و اصطفاق المزاهر «٢»

---

(١). هو شبرمة بن الطفيل.

(٢). «الزق»: وعاء من جلد. و دم الزق: الخمر. «المزاهر»: العيدان. و اصطفاق المزاهر: تجاوب بعضها بعضا.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣۴۶

و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: ليس له دافع من اللّه ذى المعارج فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة و الروح إليه، و قد قدّمنا الجمع بين هذه الآية و بين قوله فى سورة السجدة: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ «١» فارجع إليه. و قد قيل فى الجمع: إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة، و من أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة، لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام، و ما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام، فالمعنى: أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة، و إن عرجوا من هذه الأرض التى نحن فيها إلى باطن هذه السماء التى هى سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة، و سيأتى فى آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالصبر فقال: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا أى: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك و كفرهم بما جئت به صبرا جميلا، لا جزع فيه و لا شكوى إلى غير اللّه، و هذا معنى الصبر الجميل، و قيل: هو أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى بأنه مصاب. قال ابن زيد و غيره: هى منسوخة بآية السيف إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً أى:

يرون العذاب الواقع بهم، أو يرون يوم القيامة بعيدا، أى: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به، فمعنى بَعِيداً أى: مستبعدا محالا، و ليس المراد أنهم يرونه بعيدا غير قريب. قال الأعمش: يرون البعث بعيدا لأنهم لا يؤمنون به، كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة، كما تقول لمن تناظره: هذا بعيد، أى: لا يكون وَ نَراهُ قَرِيباً أى: نعلمه كائنا قريبا؛ لأن ما هو آت قريب. و قيل: المعنى: و نراه هينا فى قدرتنا غير متعسّر و لا متعذّر، و الجملة تعليل للأمر بالصبر. ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب، فقال: يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ و الظرف متعلّق بمضمر دلّ عليه واقع، أو بدل من قوله: فِي يَوْمٍ على تقدير تعلّقه بواقع، أو متعلّق بقريبا، أو مقدّر بعده: أى يوم تكون إلخ كان كيت و كيت، أو بدل من الضمير فى نراه و الأوّل أولى. و التقدير يقع بهم العذاب يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ و المهل: ما أذيب من النحاس و الرصاص و الفضة. و قال مجاهد: هو القيح من الصديد و الدم. و قال عكرمة و غيره: هو درديّ الزيت، و قد تقدّم تفسيره فى سورة الكهف و الدخان وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ أى: كالصوف المصبوغ، و لا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغا. قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، و هو الصوف الأحمر، و هو أضعف الصوف، و قيل: العهن: الصوف ذو الألوان، فشبّه الجبال به فى تكوّنها ألوانا كما فى قوله: جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ وَ غَرابِيبُ سُودٌ «٢» فإذا بست و طيرت فى الهواء أشبهت العهن المنقوض إذا طيّرته الريح. وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً أى: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه فى ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التى أذهلت القريب عن قريبه، و الخليل عن خليله، كما قال سبحانه: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ و قيل: المعنى:

لا يسأل حميم عن حميم، فحذف الحرف و وصل الفعل. قرأ الجمهور: لا يَسْئَلُ مبنيا للفاعل، قيل:

و المفعول الثانى محذوف، و التقدير: لا يسأله نصره و لا شفاعته، و قرأ أبو جعفر و أبو حيوة و شيبة و ابن كثير

---

(١). السجدة: ۵.

(٢). فاطر: ٢٧.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣۴٧

فى رواية عنه على البناء للمفعول. و روى هذه القراءة البزىّ عن عاصم. و المعنى: لا يسأل حميم إحضار حميمه، و قيل: هذه

القراءة على إسقاط حرف الجرّ، أى: لا يسأل حميم عن حميم، بل كلّ إنسان يسأل عن نفسه و عن عمله، و جملة يُبَصَّرُونَهُمْ مستأنفة، أو صفة لقوله: حَمِيماً أى: يبصر كلّ حميم حميمه، لا يخفى منهم أحد عن أحد. و ليس فى القيامة مخلوق إلا و هو نصب عين صاحبه، و لا يتساءلون و لا يكلّم بعضهم بعضا؛ لاشتغال كل أحد منهم بنفسه، و قال ابن زيد: يبصر اللّه الكفار فى النار الذين أضلّوهم فى الدنيا، و هم الرؤساء المتبوعون. و قيل: إن قوله: يُبَصَّرُونَهُمْ يرجع إلى الملائكة، أى: يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم، و إنما جمع الضمير فى يبصرونهم، و هما للحميمين، حملا على معنى العموم؛ لأنهما نكرتان فى سياق النفى، قرأ الجمهور: يُبَصَّرُونَهُمْ بالتشديد، و قرأ قتادة بالتخفيف. ثم ابتدأ سبحانه الكلام فقال: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ المراد بالمجرم الكافر، أو كلّ مذنب ذنبا يستحق به النار، لو يفتدى من عذاب يوم القيامة الّذى نزل به بِبَنِيهِ- وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه و أكرمهم لديه، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه، و خلص مما نزل به من العذاب، و الجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يود الافتداء من العذاب بمن ذكر. قرأ الجمهور: مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بإضافة عذاب إلى يومئذ. و قرأ أبو حيوة بتنوين عذاب و قطع الإضافة. و قرأ الجمهور:

يَوْمِئِذٍ بكسر الميم، و قرأ نافع و الكسائى و الأعرج و أبو حيوة بفتحها وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ أى:

عشيرته الأقربين الذين يضمّونه فى النّسب أو عند الشدائد و يأوى إليهم. قال أبو عبيد: الفصيلة: دون القبيلة.

و قال ثعلب: هم آباؤهم الأدنون. قال المبرد: الفصيلة: القطعة من أعضاء الجسد. و سمّيت عشيرة الرجل فصيلة تشبيها لها بالبعض منه. و قال مالك: إن الفصيلة هى التى تربيه وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أى: و يودّ المجرم لو افتدى بمن فى الأرض جميعا من الثقلين و غيرهما من الخلائق. و قوله: ثُمَّ يُنْجِيهِ معطوف على يفتدى، أى: يودّ لو يفتدى ثم ينجيه الافتداء، و كان العطف بثم لدلالتها على استبعاد النجاة، و قيل: إن يودّ تقتضى جوابا كما فى قوله: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ و الجواب «ثُمَّ يُنْجِيهِ»، و الأوّل أولى. و قوله:

كَلَّا ردع للمجرم عن تلك الودادة، و بيان امتناع ما ودّه من الافتداء، و كَلَّا يأتى بمعنى حقا، و بمعنى لا مع تضمّنها لمعنى الزجر و الرّدع، و الضمير فى قوله: إِنَّها لَظى عائد إلى النار المدلول عليها لذكر العذاب، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده، و «لظى» علم لجهنم، و اشتقاقها من التلظّى فى النار و هو التلهّب، و قيل: أصله لظظ بمعنى دوام العذاب، فقلبت إحدى الظاءين ألفا، و قيل: لظى: هى الدركة الثانية من طباق جهنم نَزَّاعَةً لِلشَّوى قرأ الجمهور نَزَّاعَةً بالرفع على أنه خبر ثان لإنّ، أو خبر مبتدأ محذوف، أو تكون «لظى» بدلا من الضمير المنصوب، و «نزاعة» خبر إنّ، أو على أن «نزاعة» صفة للظى على تقدير عدم كونها علما، أو يكون الضمير فى إنها للقصة، و يكون «لظى» مبتدأ، و «نزاعة» خبره، و الجملة خبر إنّ، و قرأ حفص عن عاصم و أبو عمرو فى رواية عنه و أبو حيوة و الزعفرانى و الترمذى و ابن مقسم «نزاعة» بالنصب على الحال. و قال أبو على الفارسى: حمله على الحال بعيد ليس فى الكلام ما

فتح القدير، ج‌5، ص: 348

يعمل فى الحال، و قيل: العامل فيها ما دلّ عليه الكلام من معنى التلظى، أو النصب على الاختصاص، و الشوى: الأطراف، أو جمع شواة، و هى جلدة الرأس، و منه قول الأعشى:

قالت قتيلة ماله‌قد جلّلت شيبا شواته

و قال الحسن و ثابت البنانى: نَزَّاعَةً لِلشَّوى أى: لمكارم الوجه و حسنه، و كذا قال أبو العالية و قتادة. و قال قتادة: تبرى اللحم و الجلد عن العظم؛ حتى لا تترك فيه شيئا. و قال الكسائى: هى المفاصل.

و قال أبو صالح: هى أطراف اليدين و الرجلين تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ أى: تدعو لظى من أدبر عن الحقّ فى الدنيا وَ تَوَلَّى أى: أعرض

عنه وَ جَمَعَ فَأَوْعى أى: جمع المال فجعله فى وعاء، و قيل: إنها تقول إلىّ يا مشرك، إلىّ يا منافق، و قيل: معنى تدعو: تهلك، تقول العرب: دعاك اللّه، أى: أهلكك، و قيل:

ليس هو الدعاء باللسان، و لكن دعاؤها إياهم تمكّنها من عذابهم، و قيل: المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين و المنافقين، فأسند الدعاء إلى النار؛ من باب إسناد ما هو للحال إلى المحلّ، و قيل: هو تمثيل و تخييل، و لا دعاء فى الحقيقة، و المعنى: أن مصيرهم إليها، كما قال الشاعر:

و لقد هبطنا الواديين فواديايدعو الأنيس به العضيض الأبكم

و العضيض الأبكم: الذباب، و هو لا يدعو «۱».

و فى هذا ذمّ لمن جمع المال فأوعاه، و كنزه و لم ينفقه فى سبل الخير، أو لم يؤدّ زكاته.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و النسائى و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سَأَلَ سائِلٌ قال: هو النضر بن الحارث قال: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «۲» و فى قوله: بِعَذابٍ واقِعٍ قال: كائن لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ- مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ قال: ذى الدرجات. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه فى قوله:

سَأَلَ سائِلٌ قال: سال: واد فى جهنم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ذِي الْمَعارِجِ قال: ذى العلوّ و الفواضل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة، و «يوم كان مقداره ألف سنة» قال: يعنى بذلك ينزل الأمر من السماء إلى الأرض و من الأرض إلى السماء فى يوم واحد، فذلك مقدار ألف سنة؛ لأن ما بين السماء و الأرض مسيرة خمسمائة عام.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: غلظ كل أرض خمسمائة عام، و غلظ كل سماء خمسمائة عام، و بين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، و من السماء إلى السماء خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام، و بين السماء

---

(۱). فى القرطبى (۱۸/ ۲۸۹): و إنما طنينه نبّه عليه فدعا إليه.

(۲). الأنفال: ۳۲.

السابعة و بين العرش مسيرة ستة و ثلاثين ألف عام، فذلك قوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عنه أيضا فى قوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «۱» قال: هذا فى الدنيا تعرج الملائكة فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون، و فى قوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فهذا يوم القيامة جعله اللّه على الكافر مقدار خمسين ألف سنة. و أخرج ابن أبى حاتم و البيهقى عنه أيضا فى قوله: فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال: لو قدّرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم. قال: يعنى يوم القيامة. و قد قدّمنا عن ابن عباس الوقف فى الجمع بين الآيتين فى سورة السجدة. و أخرج أحمد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن أبى سعيد الخدرى قال: «سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ما أطول هذا اليوم! فقال: و الّذى نفسى بيده إنه ليخفّف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا».

و فى إسناده دراج عن أبى الهيثم، و هما ضعيفان. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم، و البيهقى فى البعث، عن أبى هريرة مرفوعا

قال: «ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر و العصر». و أخرج الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» عن ابن عباس فى قوله: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا قال: لا تشك إلى أحد غيرى. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الخطيب فى المتفق و المفترق، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ قال: كدرديّ الزيت. و أخرج ابن جرير عنه قال:

يُبَصَّرُونَهُمْ يعرف بعضهم بعضا و يتعارفون، ثم يفرّ بعضهم من بعض. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: نَزَّاعَةً لِلشَّوى قال: تنزع أمّ الرأس.

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الى ٣٩]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (٢٣)

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (٢٥) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨)

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (٣١) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (٣٢) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (٣٣)

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٣٤) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (٣٧) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨)

كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)

قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً قال فى الصحاح: الهلع فى اللغة: أشدّ الحرص و أسوأ الجزع و أفحشه، يقال: هلع بالكسر فهو هلع و هلوع، على التكثير. و قال عكرمة: هو الضّجور. قال الواحدى:

و المفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعنى قوله: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً- وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً

---

(١). السجدة: ٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٥٠

فتح القدير ج‌٥ ٣٩٩

أى: إذا أصابه الفقر و الحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو جزوع، أى: كثير الجزع، و إذا أصابه الخير من الغنى و الخصب و السعة و نحو ذلك فهو كثير المنع و الإمساك. و قال أبو عبيدة: الهلوع: هو الّذى إذا مسّه الخير لم يشكر، و إذا مسّه الشرّ لم يصبر. قال ثعلب: قد فسّر اللّه الهلوع؛ هو الّذى إذا أصابه الشرّ أظهر شدّة الجزع، و إذا أصابه الخير بخل به و منعه الناس، و العرب تقول: ناقة هلواعة و هلواع؛ إذا كانت سريعة السير خفيفته، و منه قول الشاعر «١»:

صكّاء «٢» ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع

و الذعلبة: الناقة السريعة، و انتصاب هلوعا و جزوعا و منوعا على أنها أحوال مقدّرة، أو محققة؛ لكونها طبائع جبل الإنسان عليها، و الظرفان معمولان لجزوعا و منوعا إِلَّا الْمُصَلِّينَ أى: المقيمين للصلاة، و قيل: المراد بهم أهل التوحيد، يعنى أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع، و الجزع، و المنع، و أنهم على صفات محمودة و خلال مرضية؛ لأن إيمانهم و ما تمسّكوا به من التوحيد

و دين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات، و يحملهم على الاتصاف بصفات الخير. ثم بيّنهم سبحانه، فقال: الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ أى: لا يشغلهم عنها شاغل، و لا يصرفهم عنها صارف، و ليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبدا.

قال الزجاج: هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة. و قال الحسن و ابن جريج: هو التطوع منها.

قال النّخعي: المراد بالمصلين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة، و قيل: الذين يصلونها لوقتها، و المراد بالآية جميع المؤمنين، و قيل: الصحابة خاصة، و لا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين وَ الَّذِينَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ قال قتادة و محمد بن سيرين: المراد الزكاة المفروضة. و قال مجاهد: سوى الزكاة، و قيل: صلة الرحم، و الظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوما و لجعله قرينا للصلاة، و قد تقدّم تفسير السائل و المحروم فى سورة الذاريات مستوفى وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ أى: بيوم الجزاء، و هو يوم القيامة لا يشكّون فيه و لا يجحدونه، و قيل: يصدّقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم فى الطاعات وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ أى: خائفون وجلون؛ مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقارا لأعمالهم، و اعترافا بما يجب للّه سبحانه عليهم. و جملة إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ مقرّرة لمضمون ما قبلها، مبينة أن ذلک ممّا لا ينبغى أن يأمنه أحد، و أن حق كلّ أحد أن يخافه وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلى قوله: فَأُولئِکَ هُمُ العادُونَ قد تقدم تفسيره فى سورة المؤمنين مستوفى وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ أى:

لا يخلّون بشىء من الأمانات التى يؤتمنون عليها، و لا ينقضون شيئا من العهود التى يعقدونها على أنفسهم.

قرأ الجمهور: لِأَماناتِهِمْ بالجمع، و قرأ ابن كثير و ابن محيصن لأمانتهم بالإفراد، و المراد الجنس وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ أى: يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، أو رفيع أو وضيع، و لا يكتمونها و لا يغيّرونها، و قد تقدّم القول فى الشهادة فى سورة البقرة، قرأ الجمهور: بشهادتهم

---

(١). هو المسيب بن علس.

(٢). «صكاء»: شبيهة بالنعامة.

بالإفراد، و قرأ حفص و يعقوب و هى رواية عن ابن كثير بالجمع. قال الواحدى: و الإفراد أولى لأنه مصدر، و من جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات. قال الفرّاء: و يدل على قراءة التوحيد قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ «١». وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ أى: على أذكارها و أركانها و شرائطها لا يخلّون بشىء من ذلک. قال قتادة: على وضوئها و ركوعها و سجودها. و قال ابن جريج: المراد التطوّع، و كرّر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أوّلا و ما وصفهم به ثانيا، فإن معنى الدوام: هو أن لا يشتغل عنها بشىء من الشّواغل كما سلف؛ و معنى المحافظة: أن يراعى الأمور التى لا تكون صلاة بدونها، و قيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها و يبطل ثوابها، و كرّر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلک الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقلّ بموصوف منفرد، و الإشارة بقوله: أُولئِکَ إلى الموصوفين بتلک الصفات فِی جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ أى: مستقرّون فيها مكرمون بأنواع الكرامات، و خبر المبتدأ قوله: فِی جَنَّاتٍ و قوله: مُكْرَمُونَ خبر آخر، و يجوز أن يكون الخبر مكرمون، و فى جنات متعلق به فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِينَ أى: أىّ شىء لهم حواليک مسرعين. قال الأخفش: مهطعين: مسرعين، و منه قول الشاعر:

بمكّة أهلها و لقد أراهم إليه مهطعين إلى السّماع

و قيل: المعنى: ما بالهم يسرعون إليک يجلسون حواليک و لا يعملون بما تأمرهم، و قيل: ما بالهم مسرعين إلى التكذيب، و قيل:

ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونک و يستهزئون بک. و قال الكلبى: إن معنى: مهطعين ناظرين إليک. و قال قتادة: عامدين، و قيل: مسرعين إليک، مادّى أعناقهم، مديمى النظر إليک عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ أى: عن يمين النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و عن شماله جماعات متفرقة، و عزين: جمع عزة، و هى العصبة من الناس، و منه قول الشاعر:

ترانا عنده و اللّيل داج على أبوابه حلقا عزينا

و قال الراعى:

أ خليفة الرّحمن إنّ عشيرتى أمسى سراتهم إليک عزينا

و قول عنترة:

و قرن قد تركت لدى ولىّ عليه الطّير كالعصب العزين

و قيل: أصلها عزوة من العزو، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى. قال فى الصحاح:

و العزة: الفرقة من الناس، و الهاء عوض من التاء، و الجمع عزى و عزون، و قوله: عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ متعلّق بعزين، أو بمهطعين. أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ قال المفسرون:

---

(١). الطلاق: ٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٥٢

كان المشركون يقولون لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّ قبلهم، فنزلت الآية، قرأ الجمهور: أَنْ يُدْخَلَ مبنيا للمفعول، و قرأ الحسن و زيد بن علىّ و طلحة بن مصرّف و الأعرج و يحيى بن يعمر و أبو رجاء و عاصم فى رواية عنه على البناء للفاعل. ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم فقال: كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ أى:

من القذر الذين يعلمون به فلا ينبغى لهم هذا التكبر، و قيل المعنى: إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون، و هو امتثال الأمر و النهى و تعرّضهم للثواب و العقاب كما فى قوله: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «١» و منه قول الأعشى:

أ أزمعت من آل ليلى ابتكارا و شطّت على ذى هوى أن تزارا

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الهلوع فقال: هو كما قال اللّه: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً- وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً. و أخرج ابن المنذر عنه هَلُوعاً قال: الشره. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن ابن مسعود الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ قال: على مواقيتها. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن عمران بن حصين الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ قال: الّذى لا يلتفت فى صلاته. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عقبة بن عامر الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا.

و أخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ قال: ينظرون عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ قال: [العزين «٢»]: العصب من الناس، عن يمين و شمال، معرضين، يستهزئون به. و أخرج مسلم و غيره عن جابر قال: دخل علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد و نحن حلق متفرقون فقال: «مالى أراكم عزين». و أخرج أحمد و ابن ماجة و ابن سعد و ابن أبى عاصم و الباوردى و ابن قانع و الحاكم، و البيهقى فى الشعب، و الضياء عن بسر بن جحاش قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ إلى قوله: كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ثم بزق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على كفه و وضع عليها إصبعه و قال: «يقول اللّه: ابن آدم أنّى تعجزنى و قد خلقتک من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتک و عدّلتک مشيت بين بردين، و للأرض منک وئيد، فجمعت و منعت، حتى إذا بلغت التّراقى قلت:

[أتصدّق «٣»، و أنّى أوان الصدقة».

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٤٠ الى ٤٤]

فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (٤٠) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

---

(١). الذاريات: ٥٦.

(٢). من تفسير الطبرى (٢٩/ ٨٥)

(٣). من سنن ابن ماجة (٢٧٠٧)

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٥٣

قوله: فَلا أُقْسِمُ «لا» زائدة كما تقدّم قريبا، و المعنى: فأقسم بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ يعنى: مشرق كل يوم من أيام السنة و مغربه. قرأ الجمهور: الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ بالجمع و قرأ أبو حيوة و ابن محيصن و حميد بالإفراد إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ أى: على أن نخلق أمثل منهم، و أطوع للّه، حين عصوه، و نهلك هؤلاء وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ أى: بمغلوبين إن أردنا ذلك، بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شى‌ء و لا يعجزنا أمر، و لكن مشيئتنا و سابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء، و عدم تبديلهم بخلق آخر فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا أى: اتركهم يخوضوا فى باطلهم، و يلعبوا فى دنياهم، و اشتغل بما أمرت به، و لا يعظمنّ عليك ما هم فيه، فليس عليك إلا البلاغ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ و هو يوم القيامة، و هذه الآية منسوخة بآية السيف. قرأ الجمهور: «يلاقوا»، و قرأ أبو جعفر و ابن محيصن و حميد و مجاهد «حتى يلقوا» يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً «يوم» بدل من «يومهم»، و «سراعا» منتصب على الحال من ضمير «يخرجون»، قرأ الجمهور: يخرجون على البناء للفاعل، و قرأ السّلمى و الأعمش و المغيرة و عاصم فى رواية على البناء للمفعول، و الأجداث: جمع جدث، و هو القبر كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ قرأ الجمهور: نصب بفتح النون و سكون الصاد. و قرأ ابن عامر و حفص: بضم النون و الصاد، و قرأ عمرو بن ميمون و أبو رجاء بضم النون و إسكان الصاد. قال فى الصحاح: و النّصب: ما نصب فعبد من دون اللّه، و كذا النّصب بالضم، و قد يحرّك. قال الأعشى:

و ذا النّصب المنصوب لا تعبدنّه و لا تعبد الشّيطان و اللّه فاعبدا «١»

و الجمع: الأنصاب، و قال الأخفش و الفراء: النّصب جمع النّصب، مثل رهن و رهن، و الأنصاب: جمع النّصب، فهو جمع الجمع، و قيل: النّصب جمع نصاب، و هو حجر أو صنم يذبح عليه، و منه قوله: وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ و قال النحاس: نصب و نصب [و نصب «٢» بمعنى واحد، و قيل: معنى إِلى نُصُبٍ إلى غاية، و هى التى تنصب إليها بصرك، و قال الكلبى: إلى شى‌ء منصوب علم أو راية، أى:

كأنّهم إلى علم يدعون إليه، أو راية تنصب لهم يوفضون، قال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التى كانوا يعبدونها من دون اللّه لا يلوى أوّلهم على آخرهم. و قال أبو عمرو: النصب: شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته. و معنى يُوفِضُونَ يسرعون، و الإيفاض:

الإسراع. يقال: أوفض إيفاضا: أى أسرع إسراعا، و منه قول الشاعر:

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجنّ يوفضن من عبقر

(۱). الّذى فى تفسير القرطبى (۱۸/ ۲۹۶): و ذا النّصب المنصوب لا تنسكنّهلعافية و اللّه ربّک فاعبدا

(۲). من تفسير القرطبى (۱۸/ ۲۹۷)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۵۴

و عبقر: قرية من قرى الجن كما تزعم العرب. و منه قول لبيد:

كهول و شبّان كجنّة عبقر «۱» و انتصاب خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ على الحال من ضمير يوفضون، و أبصارهم مرتفعة به، و الخشوع: الذلة و الخضوع، أى: لا يرفعونها لما يتوقّعونه من العذاب تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أى: تغشاهم ذلة شديدة.

قال قتادة: هى سواد الوجوه، و منه غلام مراهق؛ إذا غشيه الاحتلام، يقال: رهقه بالكسر يرهقه رهقا، أى: غشيه، و مثل هذا قوله: وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ «۲» و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره. و هو مبتدأ و خبره: الْيَوْمُ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ أى: الّذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق بهم و حضر، و وقع بهم من عذابه ما وعدهم اللّه به، و إن كان مستقبلا، فهو فى حكم الّذى قد وقع لتحقّق وقوعه.

و قد أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ قال: للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه، و مغرب تغرب فيه؛ غير مطلعها بالأمس و غير مغربها بالأمس. و أخرج ابن جرير عنه إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ قال: إلى علم يستبقون «۳».

(۱). و صدره: و من فاد من إخوانهم و بنيهم.

(۲). يونس: ۲۶.

(۳). الّذى فى تفسير الطبرى و الدر المنثور: يسعون.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۵۵

سورة نوح

اشارة

هى تسع و عشرون آية، أو ثمان و عشرون آية و هى مكية، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: نزلت سورة إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة نوح (۷۱): الآيات ۱ الى ۲۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱) قالَ يا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (۳) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴)

قالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَ نَهاراً (۵) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِى إِلاَّ فِراراً (۶) وَ إِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى

آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (٩)

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (١١) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (١٢) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (١٣) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (١٤)

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (١٥) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (١٦) وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (١٨) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (١٩)

لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً (٢٠)

قوله: إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ قد تقدّم أن نوحا أوّل رسول أرسله اللّه، و هو نوح بن لامك ابن متوشلخ بن أخنوخ «١» بن قينان بن شيث بن آدم، و قد تقدّم مدّة لبثه فى قومه، و بيان جميع عمره، و بيان السنّ التى أرسل و هو فيها فى سورة العنكبوت أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ أى: بأن أنذر، على أنها مصدرية، و يجوز أن تكون هى المفسّرة؛ لأن فى الإرسال معنى القول. و قرأ ابن مسعود أَنْذِرْ بدون أن، و ذلك على تقدير القول، أى: فقلنا له أنذر مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: عذاب شديد الألم، و هو عذاب النار. و قال الكلبى: هو ما نزل بهم من الطوفان، و جملة قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ مستأنفة استئنافا بيانيا على تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال لهم ... إلخ. و المعنى: إنى لكم منذر من عقاب اللّه، و مخوّف لكم، و مبين لما فيه نجاتكم أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ «أن» هى التفسيرية لنذير، أو هى المصدرية، أى: بأن اعبدوا اللّه و لا تشركوا به غيره و اتقوه، أى: اجتنبوا ما يوقعكم فى عذابه،

---

(١). فى تفسير القرطبى: و هو إدريس بن يردين مهلايل بن أنوش.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٥٦

و أطيعون فيما آمركم به؛ فإنى رسول إليكم من عند اللّه يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ هذا جواب الأمر، و «من» للتبعيض، أى: بعض ذنوبكم، و هو ما سلف منها قبل طاعة الرسول و إجابة دعوته. و قال السدّى: المعنى يغفر لكم ذنوبكم، فتكون «من» على هذا زائدة، و قيل: المراد بالبعض ما لا يتعلّق بحقوق العباد، و قيل: هى لبيان الجنس، و قيل: يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى أى: يؤخّر موتكم إلى الأمد الأقصى الّذى قدّره اللّه لكم بشرط الإيمان و الطاعة فوق ما قدّره لكم، على تقدير بقائكم على الكفر و العصيان، و قيل: التأخير بمعنى البركة فى أعمارهم إن آمنوا، و عدم البركة فيها إن لم يؤمنوا. قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم. و قال الزجاج: أى يؤخّركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب. و قال الفراء: المعنى لا يميتكم غرقا و لا حرقا و لا قتلا إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ أى: ما قدّره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء، و أنتم باقون على الكفر، لا يؤخر، بل يقع لا محالة، فبادروا إلى الإيمان و الطاعة. و قيل: المعنى: إنّ أجل اللّه و هو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان، و قيل: المعنى: إذا جاء الموت لا يؤخّر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: شيئا من العلم لسارعتم إلى ما أمرتكم به، أو لعلمتم أنّ أجل اللّه إذا جاء لا يؤخّر قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً أى: قال نوح مناديا لربه و حاكيا له ما جرى بينه و بين قومه، و هو أعلم به منه: إنى دعوت قومى إلى ما أمرتنى بأن أدعوهم إليه من الإيمان دعاء دائما فى الليل و النهار من غير تقصير فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً عمّا دعوتهم إليه و بعدا عنه. قال مقاتل: يعنى تباعدا من الإيمان، و إسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها، كما فى قوله: زادَتْهُمْ إِيماناً*. قرأ الجمهور: دعائى بفتح الياء، و قرأ الكوفيون و يعقوب و الدّورى عن أبى عمرو بإسكانها، و الاستثناء مفرّغ وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ أى: كلّما دعوتهم إلى

سبب المغفرة، و هو الإيمان بك، و الطاعة لك جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ لئلا يسمعوا صوتى وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ أى: غطّوا بها وجوههم لئلا يرونى، و قيل: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامى، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة فى سدّ الآذان، و قيل: هو كناية عن العداوة، يقال: لبس فلان ثياب العداوة، و قيل: استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم وَ أَصَرُّوا أى: استمروا على الكفر، و لم يقلعوا عنه، و لا تابوا منه وَ اسْتَكْبَرُوا عن قبول الحق، و عن امتثال ما أمرهم به اسْتِكْباراً شديدا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً أى: مظهرا لهم الدعوة، مجاهرا لهم بها ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ أى: دعوتهم معلنا لهم بالدعاء وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً أى: و أسررت لهم الدعوة إسرارا كثيرا، قيل: المعنى: أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلّمه سرا فيما بينه و بينه، و المقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة و أساليب متفاوتة، فلم ينجع ذلك فيهم. قال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، و قيل: معنى أسررت: أتيتهم فى منازلهم فدعوتهم فيها. و انتصاب جهارا على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهارا و يكون غير جهار، فالجهار نوع من الدعاء، كقولهم: قعد القرفصاء، و يجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، أى: دعاء جهارا، و أن يكون مصدرا فى موضع الحال، أى: مجاهرا، و معنى ثُمَ الدلالة

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٥٧

على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، و الجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما. قرأ الجمهور إِنِّي بسكون الياء، و قرأ أبو عمرو و الحرميون بفتحها فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً أى:

سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية، إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً أى: كثير المغفرة للمذنبين، و قيل:

معنى استغفروا: توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتائبين، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً أى: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، و قيل: المراد بالسماء المطر، كما فى قول الشاعر «١»:

إذا نزل السّماء بأرض قوم‌رعيناه و إن كانوا غضابا

و المدرارا: الدرور، و هو التحلّب بالمطر، و انتصابه إما على الحال من السماء، و لم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث؛ تقول: امرأة مئناث و مذكار، أو على أنه نعت لمصدر محذوف، أى: إرسالا مدرارا، و قد تقدّم الكلام عليه فى سورة الأنعام، و جزم يرسل لكونه جواب الأمر. و فى هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر و حصول أنواع الأرزاق، و لهذا قال: وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ يعنى بساتين وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً جارية. قال عطاء: المعنى يكثر أموالكم و أولادكم. أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم باللّه يجمع لهم مع الحظّ الوافر فى الآخرة الخصب و الغنى فى الدنيا. ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً أى: أىّ عذر لكم فى ترك الرجاء، و الرجاء هنا بمعنى الخوف، أى: مالكم لا تخافون اللّه، و الوقار: العظمة من التوقير و هو التعظيم، و المعنى لا تخافون حقّ عظمته فتوحّدونه و تطيعونه، و لا تَرْجُونَ فى محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين، و العامل فيه معنى الاستقرار فى «لكم»، و من إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلى:

إذا لسعته النّحل لم يرج لسعها و قال سعيد بن جبير و أبو العالية و عطاء بن أبى رباح: ما لكم لا ترجون للّه ثوابا، و لا تخافون منه عقابا.

و قال مجاهد و الضحاك: ما لكم لا تبالون للّه عظمته. قال قطرب: هذه لغة حجازية، و هذيل و خزاعة و مضر يقولون: لم أرج: لم أبال. و قال قتادة: ما لكم لا ترجون للّه عاقبة الإيمان. و قال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون فى عبادة اللّه و طاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا. و قال ابن زيد: ما لكم لا تؤدّون للّه طاعة.

و قال الحسن: ما لكم لا تعرفون للّه حقا و لا تشكرون له نعمة. و جملة وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة: نطفة، ثم مضغة، ثم علقة إلى تمام الخلق، كما تقدّم بيانه فى سورة المؤمنين. و

الطّور فى اللغة: المرّة، و قال ابن الأنبارى: الطور الحال، و جمعه أطوار، و قيل: أطوارا صبيانا ثم شبانا ثم شيوخا، و قيل: الأطوار اختلافهم فى الأفعال و الأقوال و الأخلاق، و المعنى: كيف تقصّرون فى توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً الخطاب لمن يصلح له، و المراد الاستدلال بخلق السماوات على كمال قدرته و بديع

---

(١). هو معاوية بن مالك، معوّد الحكماء.

صنعه، و أنه الحقيق بالعبادة. و الطّباق: المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب.

قال الحسن: خلق اللّه سبع سماوات على سبع أرضين، بين كل سماء و سماء، و أرض و أرض، خلق و أمر، و قد تقدّم تحقيق هذا فى قوله: وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ «١» و انتصاب طباقا على المصدرية، تقول طابقه مطابقة و طباقا، أو حال بمعنى ذات طباق، فحذف ذات و أقام طباقا مقامه، و أجاز الفراء فى غير القرآن جرّ «طباقا» على النعت. وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً أى: منوّرا لوجه الأرض، و جعل القمر فى السماوات على كونها فى سماء الدنيا؛ لأنها إذا كانت فى إحداهنّ، فهى فيهنّ، كذا قال ابن كيسان. قال الأخفش: كما تقول أتانى بنو تميم، و المراد بعضهم. و قال قطرب: فيهنّ بمعنى معهنّ، أى: خلق القمر و الشمس مع خلق السماوات و الأرض، كما فى قول امرئ القيس:

و هل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

أى: مع ثلاثة أحوال. وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً أى: كالمصباح لأهل الأرض ليتوصّلوا بذلك إلى التصرّف فيما يحتاجون إليه من المعاش وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً يعنى آدم خلقه اللّه من أديم الأرض، و المعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث و التكوين، و «نباتا» إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد، أو مصدر لفعل محذوف، أى: أنبتكم من الأرض فنبتّم نباتا. و قال الخليل و الزجاج: هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى أنبتكم: جعلكم تنبتون نباتا. و قيل: المعنى: و اللّه أنبت لكم من الأرض النبات، فنباتا على هذا مفعول به. قال ابن بحر: أنبتهم فى الأرض بالكبر بعد الصّغر و بالطول بعد القصر. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها أى فى الأرض وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً يعنى يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً أى: فرشها و بسطها لكم، تتقلبون عليها تقلّبكم على بسطكم فى بيوتكم لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً أى: طرقا واسعة، و الفجاج: جمع فجّ، و هو الطريق الواسع، كذا قال الفراء و غيره، و قيل: الفجّ: المسلك بين الجبلين، و قد مضى تحقيق هذا فى سورة الأنبياء و فى سورة الحج مستوفى.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ قال: لئلّا يسمعوا ما يقول وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ قال: ليتنكّروا فلا يعرفهم وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً قال: تركوا التوبة.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ قال: غطّوا وجوههم لئلا يروا نوحا و لا يسمعوا كلامه. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا فى قوله: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً قال: لا تعلمون للّه عظمة. و أخرج ابن جرير و البيهقى عنه أيضا وَقاراً قال عظمة. و فى قوله: وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً قال: نطفة ثم علقة ثم مضغة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: لا تخافون للّه عظمة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: لا

---

(١). الطلاق: ١٢.

تخشون له عقابا و لا ترجون له ثوابا. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، عن عليّ بن أبى طالب: «أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم رأى ناسا يغتسلون عراة ليس عليهم أزر، فوقف فنادى بأعلى صوته: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً».

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، عن عبد اللّه بن عمرو قال: الشمس و القمر وجوههما قبل السماء و أقفيتهما قبل الأرض، و أنا أقرأ بذلك عليكم آية من كتاب اللّه وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، عن عبد اللّه ابن عمر قال: تضىء لأهل السماوات كما تضىء لأهل الأرض. و أخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال: اجتمع عبد اللّه بن عمرو بن العاص و كعب الأحبار و قد كان بينهما بعض العتب فتعاتبا فذهب ذلك، فقال عبد اللّه بن عمرة لكعب: سلنى عمّا شئت، فلا تسألنى عن شىء إلا أخبرتك بتصديق قولى من القرآن، فقال له: أ رأيت ضوء الشمس و القمر أهو فى السماوات السبع كما هو فى الأرض؟ قال: نعم، ألم تروا إلى قول اللّه: خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً، وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً. و أخرج عبد ابن حميد، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً قال:

وجهه فى السماء إلى العرش و قفاه إلى الأرض. و أخرج عبد بن حميد من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً قال: خلق فيهنّ خلقهنّ ضياء لأهل الأرض، و ليس فى السماء من ضوئه شىء.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا سُبُلًا فِجاجاً قال: طرقا مختلفة.

[سورة نوح (71): الآيات 21 الى 28]

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (٢١) وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً (٢٢) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً (٢٣) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (٢٥)

وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (٢٨)

قوله: قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي أى: استمرّوا على عصيانى و لم يجيبوا دعوتى، شكاهم إلى اللّه عزّ و جلّ، و أخبره بأنهم عصوه و لم يتبعوه، و هو أعلم بذلك وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلّا خَساراً أى: اتبع الأصاغر رؤساءهم، و أهل الثروة منهم؛ الذين لم يزدهم كثرة المال و الولد إلا ضلالا فى الدنيا و عقوبة فى الآخرة. قرأ أهل المدينة و الشام و عاصم «و ولده» بفتح الواو و اللام. و قرأ الباقون بسكون اللام، و هى لغة فى الولد، و يجوز أن يكون جمعا، و قد تقدّم تحقيقه، و معنى «و اتبعوا»: أنهم استمرّوا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً أى: مكرا كبيرا عظيما، يقال: كبير و كبار و كبّار، مثل عجيب و عجاب و عجّاب، و جميل و جمال و جمّال. قال المبرد: كبارا بالتشديد للمبالغة، و مثل كبارا:

قرّاء؛ لكثير القراءة، و أنشد ابن السّكّيت:

فتح القدير، ج‏5، ص: 360 بيضاء تصطاد القلوب و تستبى بالحسن قلب المسلم القرّاء

قرأ الجمهور: كُبّاراً بالتشديد. و قرأ ابن محيصن و حميد و مجاهد بالتخفيف. قال أبو بكر: هو جمع كبير؛ كأنه جعل مكرا مكان ذنوب أو أفاعيل، فلذلك وصفه بالجمع. و قال عيسى بن عمر: هى لغة يمانية.

و اختلف فى مكرهم هذا ما هو؟ فقيل: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح، و قيل: هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال و الولد، حتى قال الضعفة: لو لا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم. و قال الكلبى:

هو ما جعلوه للّه من الصاحبة و الولد. و قال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكَمْ و قيل:
مكرهم: كفرهم وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ أى: لا تتركوا عبادة آلهتكم، و هى الأصنام و الصور التى كانت لهم، ثم عبدتها العرب من بعدهم، و بهذا قال الجمهور: وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً أى: لا تتركوا عبادة هذه. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم و نوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة، فقال لهم إبليس: لو صوّرتم صورهم كان أنشط لكم و أسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، و سمّيت هذه الصور بهذه الأسماء؛ لأنهم صوّروها على صورة أولئك القوم. و قال عروة بن الزبير و غيره: إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم، و كان ودّ أكبرهم. قال الماوردى:
فأما ودّ فهو أوّل صنم معبود، سمى ودّا لودّهم له، و كان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل فى قول ابن عباس و عطاء و مقاتل، و فيه يقول شاعرهم:
حيّاك ودّ فإنّا لا يحلّ لنالهو النّساء و إنّ الدّين قد عزما
و أما سواع فكان لهذيل بساحل البحر، و أما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ، فى قول قتادة. و قال المهدوى: لمراد ثم لغطفان؛ و أما يعوق فكان لهمدان، فى قول قتادة و عكرمة و عطاء. و قال الثعلبى: كان لكهلان بن سبأ، ثم توارثوه حتى صار فى همدان، و فيه يقول مالك بن نمط الهمدانى:
يريش اللّه فى الدّنيا و يبرىو لا يبرى يعوق و لا يريش
و أما نسر فكان لذى الكلاع من حمير، فى قول قتادة و مقاتل. قرأ الجمهور: وَدًّا بفتح الواو.
و قرأ نافع بضمها. قال الليث: ودّ بضم الواو صنم لقريش، و بفتحها صنم كان لقوم نوح، و به سمى عمور ابن ودّ. قال فى الصحاح، و الودّ بالفتح: الوتد فى لغة أهل نجد، كأنّهم سكّنوا التاء و أدغموها فى الدال.
و قرأ الجمهور: وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ بغير تنوين، فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية و وزن الفعل، و إن كانا أعجميين فللعجمة و العلمية. و قرأ الأعمش: و لا يغوثا و يعوقا بالصرف. قال ابن عطية:
و ذلك و هم. و وجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم و أعظمها وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً أى: أضلّ كبراؤهم و رؤساؤهم كثيرا من الناس، و قيل: الضمير راجع إلى الأصنام،
فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٦١
أى: ضلّ بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ «١» و أجرى عليهم ضمير من يعقل؛ لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا معطوف على رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي و وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم. و قال أبو حيان: إنه معطوف على «قد أضلّوا»، و معنى «إلا ضلالا»: إلا عذابا، كذا قال ابن بحر، و استدلّ على ذلك بقوله: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ «٢»، و قيل: إلا خسرانا، و قيل: إلا فتنة بالمال و الولد، و قيل: الضياع، و قيل: ضلالا فى مكرهم. مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا «ما» مزيدة للتأكيد، و المعنى: من خطيئاتهم، أى: من أجلها و بسببها أغرقوا بالطوفان فَأُدْخِلُوا ناراً عقب ذلك، و هى نار الآخرة، و قيل: عذاب القبر. قرأ الجمهور: خَطِيئاتِهِمْ على جمع السلامة، و قرأ أبو عمرو: خَطاياهُمْ على جمع التكسير، و قرأ الجحدرى و عمرو بن عبيد و الأعمش و أبو حيوة و أشهب العقيلى «خطيئتهم» على الإفراد.
قال الضحاك: عذّبوا بالنار فى الدنيا مع الغرق فى حالة واحدة، كانوا يغرقون فى جانب و يحترقون فى جانب.
قرأ الجمهور: أُغْرِقُوا من أغرق، و قرأ زيد بن عليّ غرقوا بالتشديد فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً أى: لم يجدوا أحدا يمنعهم من عذاب اللّه و يدفعه عنهم وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً معطوف على قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ

عَصَوْنِی لما أیس نوح علیه السلام من إیمانهم و إقلاعهم عن الکفر دعا علیهم بالهلاک. قال قتادة: دعا علیهم بعد أن أوحی إلیه أَنَّهُ لَنْ یُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِکَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فأجاب اللّه دعوته و أغرقهم. و قال محمد بن کعب و مقاتل و الربیع بن أنس و ابن زید و عطیة:

إنما قال هذا حین أخرج اللّه کلّ مؤمن من أصلابهم و أرحام نسائهم، و أعقم أرحام النساء و أصلاب الآباء قبل العذاب بسبعین سنة، و قیل: بأربعین. قال قتادة: لم یکن فیهم صبیّ وقت العذاب. و قال الحسن و أبو العالیة: لو أهلک اللّه أطفالهم معهم کان عذابا من اللّه لهم و عدلا فیهم، و لکن أهلک ذرّیتهم و أطفالهم بغیر عذاب، ثم أهلکهم بالعذاب، و معنی «دیّارا»: من یسکن الدیار، و أصله دیوار علی فیعال، من دار یدور، فقلبت الواو یاء، و أدغمت إحداهما فی الأخری، مثل القیّام؛ أصله قیوام، و قال القتبیّ: أصله من الدار؛ أی نازل بالدار، یقال: ما بالدار دیّار، أی: أحد، و قیل: الدیّار: صاحب الدیار، و المعنی: لا تدع أحدا منهم إلا أهلکته إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ إن تترکهم علی الأرض یضلوا عبادک عن طریق الحقّ وَ لا یَلِدُوا إِلَّا فاجِراً کَفَّاراً أی: إلا فاجرا بترک طاعتک کفارا لنعمتک، أی: کثیر الکفران لها، و المعنی: إلا من سیفجر و یکفر. ثم لما دعا علی الکافرین أتبعه بالدعاء لنفسه و والدیه و المؤمنین، فقال: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَ و کانا مؤمنین، و أبوه: لامک بن متوشلخ کما تقدّم، و أمه شمخی بنت أنوش، و قیل:

أراد آدم و حواء. و قال سعید بن جبیر: أراد بوالدیه أباه و جدّه. و قرأ سعید بن جبیر: وَ لِوالِدَیَ بکسر الدال علی الإفراد. وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ قال الضحاک و الکلبی: یعنی مسجده، و قیل: منزله الّذی هو

---

(۱). إبراهیم: ۳۶.

(۲). القمر: ۴۷.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۳۶۲

ساکن فیه، و قیل: سفینته، و قیل: لمن دخل فی دینه، و انتصاب مُؤْمِناً علی الحال، أی: لمن دخل بیتی متصفا بصفة الإیمان، فیخرج من دخله غیر متصف بهذه الصفة کامرأته و ولده الّذی قال: سَآوِی إِلی جَبَلٍ یَعْصِمُنِی مِنَ الْماءِ. ثم عمّم الدعوة، فقال: وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ أی: و اغفر لکل متّصف بالإیمان من الذکور و الإناث. ثم عاد إلی الدعاء علی الکافرین، فقال: وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلَّا تَباراً أی:

لا تزد المتصفین بالظلم إلا هلاکا و خسرانا و دمارا، و قد شمل دعاؤه هذا کل ظالم إلی یوم القیامة، کما شمل دعاؤه للمؤمنین و المؤمنات کل مؤمن و مؤمنة إلی یوم القیامة.

و قد أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً قال: هذه الأصنام کانت تعبد فی زمن نوح. و أخرج البخاری و ابن المنذر و ابن مردویه عنه قال:

صارت الأوثان التی کانت تعبد فی قوم نوح فی العرب. أما ودّ فکانت لکلب بدومة الجندل، و أما سواع فکانت لهذیل، و أما یغوث فکانت لمراد ثم لبنی غطیف، و أما یعوق فکانت لهمدان، و أما نسر فکانت لحمیر لآل ذی الکلاع، أسماء رجال صالحین من قوم نوح، فلما هلکوا أوحی الشیطان إلی قومهم أن انصبوا إلی مجلسهم الّذی کانوا یجلسون فیه أنصابا، و سمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتی هلک أولئک، و نسخ العلم؛ فعبدت.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۳۶۳

سورة الجنّ

اشارة

و هى مكية. قال القرطبى: فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجن بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة و ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ١٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (٢) وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً (٣) وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (٤)

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (٥) وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (٦) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (٧) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (٨) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (٩)

وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠) وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (١١) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (١٢) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً (١٣)

قوله: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَ قرأ الجمهور: أُوحِيَ رباعيا. و قرأ ابن أبى عبلة و أبو إياس و العتكى عن أبى عمرو أحى ثلاثيا، و هما لغتان. و اختلف هل رآهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أم لم يرهم؟ فظاهر القرآن أنه لم يرهم؛ لأن المعنى: قل يا محمد لأمتك أوحى إلىّ على لسان جبريل أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و مثله قوله: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ «١» و يؤيّد هذا ما ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على الجنّ، و ما رآهم. قال عكرمة: و السورة التى كان يقرؤها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ «٢» و قد تقدّم فى سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة فى هذا. قوله: أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ هذا هو القائم مقام الفاعل، و لهذا فتحت أنّ، و الضمير للشأن.

و عند الكوفيين و الأخفش يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجارّ و المجرور، و النفر: اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة. قال الضحاك: و الجنّ ولد الجانّ و ليسوا شياطين. و قال الحسن: إنهم ولد إبليس. قيل: هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية و الهوائية، و قيل: نوع من الأرواح المجرّدة، و قيل: هى النفوس البشرية المفارقة لأبدانها.

---

(١). الأحقاف: ٢٩.

(٢). العلق: ١.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٦۴

و قد اختلف أهل العلم فى دخول مؤمنى الجنّ الجنة كما يدخل عصاتهم النار؛ لقوله فى سورة تبارك:

وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ «١» و قول الجنّ فيما سيأتى فى هذه السورة:

وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً و غير ذلك من الآيات، فقال الحسن: يدخلون الجنة، و قال مجاهد: لا يدخلونها و إن صرفوا عن النار. و الأوّل أولى؛ لقوله فى سورة الرّحمن: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ «۲» و فى سورة الرّحمن آيات غير هذه تدلّ على ذلك، فراجعها، و قد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل اللّه إليهم رسلا منهم، بل الرسل جميعا من الإنس، و إن أشعر قوله: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ* بخلاف هذا، فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة فى الكتاب العزيز؛ دالة على أن اللّه سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بنى آدم، و هذه الأبحاث الكلام فيها يطول، و المراد الإشارة بأخصر عبارة. فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً أى:

قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم، أى: سمعنا كلاما مقروءا عجبا فى فصاحته و بلاغته، و قيل: عجبا فى مواعظه، و قيل: فى بركته، و عجبا مصدر وصف به للمبالغة، أو على حذف المضاف، أى: ذا عجب، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل، أى: معجبا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ أى: إلى مراشد الأمور، و هى الحقّ و الصواب، و قيل: إلى معرفة اللّه، و الجملة صفة أخرى للقرآن فَآمَنَّا بِهِ أى: صدّقنا به بأنه من عند اللّه وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً من خلقه، و لا نتخذ معه إلها آخر؛ لأنه المتفرّد بالربوبية، و فى هذا توبيخ للكفّار من بنى آدم؛ حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة، و انتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، و أدركوا بعقولهم أنه كلام اللّه، و آمنوا به، و لم ينتفع كفّار الإنس؛ لا سيما رؤساؤهم و عظماؤهم بسماعه مرّات متعدّدة و تلاوته عليهم فى أوقات مختلفة؛ مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم، لا جرم صرعهم اللّه أذلّ مصرع، و قتلهم أقبح مقتل، و لعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا قرأ حمزة و الكسائى و ابن عامر و حفص و علقمة و يحيى بن وثّاب و الأعمش و خلف و السّلمى وَ أَنَّهُ تَعالى بفتح أنّ، و كذا قرءوا فيما بعدها ممّا هو معطوف عليها، و ذلك أحد عشر موضعا إلى قوله: وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ و قرأ الباقون بالكسر فى هذه المواضع كلها إلا فى قوله: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فإنهم اتفقوا على الفتح، أما من قرأ بالفتح فى هذه المواضع، فعلى العطف على محل الجار و المجرور فى فَآمَنَّا بِهِ كأنه قيل: فصدّقناه و صدّقنا أنه تعالى جدّ ربنا إلخ، و أما من قرأ بالكسر فى هذه المواضع فعلى العطف على إنا سمعنا، أى: فقالوا: إنا سمعنا قرآنا، و قالوا: إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره. و اختار أبو حاتم و أبو عبيد قراءة الكسر؛ لأنه كلّه من كلام الجنّ، و ممّا هو محكىّ عنهم بقوله: «فقالوا إنا سمعنا». و قرأ أبو جعفر و شعبة بالفتح فى ثلاثة مواضع، و هى:

وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ قالا: لأنه من الوحى، و كسرا ما بقى لأنه من كلام الجن. و قرأ الجمهور: وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ بالفتح لأنه معطوف على قوله: «أنه استمع». و قرأ نافع و ابن عامر و شيبة و زرّ بن حبيش و أبو بكر و المفضّل عن عاصم بالكسر

---

(۱). الملك: ۵.

(۲). الرّحمن: ۵۶.

فى هذا الموضع عطفا على «فآمنا به» بذلك التقدير السابق، و اتفقوا على الفتح فى أَنَّهُ اسْتَمَعَ كما اتفقوا على الفتح فى أَنَّ الْمَساجِدَ و فى وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا و اتفقوا على الكسر فى فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا و قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي و قُلْ إِنْ أَدْرِي و قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ و الجدّ عند أهل اللغة:

العظمة و الجلال، يقال: جدّ فى عينى: أى عظم، فالمعنى: ارتفعت عظمة ربنا و جلاله، و به قال عكرمة و مجاهد. و قال الحسن: المراد تعالى غناه، و منه قيل للحظ: جدّ، و رجل مجدود، أى: محظوظ، و فى الحديث: «و لا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»، قال أبو عبيد و الخليل: أى لا ينفع ذا الغنى منك الغنى، أى:

إنما تنفعه الطاعة، و قال القرظیّ و الضحاک: جدّه: آلاؤه و نعمه علی خلقه. و قال أبو عبیدة و الأخفش: ملکه و سلطانه. و قال السدّی: أمره. و قال سعید بن جبیر: وَ أَنَّهُ تَعالی جَدُّ رَبِّنا أی: تعالی ربنا، و قیل: جدّه قدرته. و قال محمد بن علیّ بن الحسین و ابنه جعفر الصادق و الربیع بن أنس: لیس للّه جدّ، و إنما قالته الجنّ للجهالة. قرأ الجمهور: جَدُّ بفتح الجیم، و قرأ عکرمة و أبو حیوة و محمد بن السّمیقع بکسر الجیم، و هو ضدّ الهزل، و قرأ أبو الأشهب: جدا ربّنا أی: جدواه و منفعته. و روی عن عکرمة أیضا أنه قرأ بتنوین جد و رفع ربنا علی أنه بدل من جدّ. مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً هذا بیان لتعالی جدّه سبحانه. قال الزجاج: تعالی جلال ربنا و عظمته عن أن یتخذ صاحبة أو ولدا، و کأن الجن نبهوا بهذا علی خطأ الکفار الذین ینسبون إلی اللّه الصاحبة و الولد، و نزّهوا اللّه سبحانه عنهما وَ أَنَّهُ کانَ یَقُولُ سَفِیهُنا عَلَی اللَّهِ شَطَطاً الضمیر فی أنه للحدیث أو الأمر، و «سفیهنا» یجوز أن یکون اسم کان، و «یقول» الخبر، و یجوز أن یکون «سفیهنا» فاعل یقول: و الجملة خبر کان، و اسمها ضمیر یرجع إلی الحدیث أو الأمر. و یجوز أن تکون کان زائدة، و مرادهم بسفیههم: عصاتهم و مشرکوهم. و قال مجاهد و ابن جریج و قتادة: أرادوا به إبلیس، و الشطط: الغلوّ فی الکفر. و قال أبو مالک: الجور، و قال الکلبی: الکذب، و أصله البعد عن القصد و مجاوزة الحدّ، و منه قول الشاعر:

بأیّة حال حکّموا فیک فاشتطّوا ما ذاک إلّا حیث یمّمک الوخط «۱»

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَی اللَّهِ کَذِباً أی: إنا حسبنا أن الإنس و الجنّ کانوا لا یکذبون علی اللّه بأن له شریکا و صاحبة و ولدا، فلذلک صدّقناهم فی ذلک حتی سمعنا القرآن؛ فعلمنا بطلان قولهم، و بطلان ما کنّا نظنّه بهم من الصّدق، و انتصاب کذبا علی أنه مصدر مؤکد لیقول؛ لأنّ الکذب نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف، أی: قولا کذبا. و قرأ یعقوب و الجحدری و ابن أبی إسحاق أَنْ لَنْ تَقُولَ من التقوّل، فیکون علی هذه القراءة کذبا مفعول به وَ أَنَّهُ کانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ یَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ قال الحسن و ابن زید و غیرهما: کان العرب إذا نزل الرجل بواد قال: أعوذ بسید هذا الوادی من شرّ سفهاء قومه، فیبیت فی جواره حتی یصبح، فنزلت هذه الآیة. قال مقاتل: کان أوّل من تعوّذ بالجنّ

---

(۱). «یممک»: قصدک. «الوخط»: الطعن بالرمح، و الشیب.

قوم من أهل الیمن، ثم من بنی حنیفة، ثم فشا ذلک فی العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا باللّه و ترکوهم فَزادُوهُمْ رَهَقاً أی: زاد رجال الجنّ من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقا، أی: سفها و طغیانا، أو تکبرا و عتوّا، أو: زاد المستعیذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجنّ رهقا؛ لأن المستعاذ بهم کانوا یقولون: سدنا الجنّ و الإنس. و بالأوّل قال مجاهد و قتادة، و بالثانی قال أبو العالیة و قتادة و الربیع ابن أنس و ابن زید. و الرهق فی کلام العرب: الإثم و غشیان المحارم، و رجل رهق؛ إذا کان کذلک، و منه قوله: تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ «۱» أی: تغشاهم، و منه قول الأعشی:

لا شی‌ء ینفعنی من دون رؤیتهاهل یشتفی عاشق ما لم یصب رهقا

یعنی إثما. و قیل الرهق: الخوف، أی: أن الجنّ زادت الإنس بهذا التعوّذ بهم خوفا منهم، و قیل: کان الرجل من الإنس یقول: أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادی، و یؤید هذا ما قیل من أن لفظ رجال لا یطلق علی الجنّ، فیکون قوله «برجال» وصفا لمن یستعیذون به من رجال الإنس، أی: یعوذون بهم من شرّ الجن، و هذا فیه بعد، و إطلاق لفظ رجال علی الجنّ، علی تسلیم عدم صحته لغة، لا مانع من إطلاقه علیهم هنا من باب المشاکلة وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا کَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ یَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً هذا من قول الجنّ للإنس، أی: و إن الجنّ ظنوا کما ظننتم أیها الإنس أنه لا بعث. و قیل: المعنی: و إن الإنس ظنّوا کما ظننتم

أيها الجنّ، و المعنى: أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ هذا من قول الجنّ أيضا، أي: طلبنا خبرها كما به جرت عادتنا فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، و الحرس: جمع حارس، و شَدِيداً صفة لحرسا، أي: قويا وَ شُهُباً جمع: شهاب، و هو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب، كما تقدّم بيانه فى تفسير قوله: وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ و محل قوله:

مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً النصب على أنه ثانى مفعولى وجدنا؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، و يجوز أن يكون متعدّيا إلى مفعول واحد، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد، و حرسا منصوب على التمييز، و وصفه بالمفرد اعتبارا باللفظ، كما يقال السلف الصالح، أي: الصالحين وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ أي: و إنا كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع، أي: مواضع نقعد فى مثلها لاستماع الأخبار من السماء، و «للسمع» متعلق بنقعد، أي: لأجل السمع، أو بمضمر هو صفة لمقاعد، أي: مقاعد كائنة للسمع، و المقاعد: جمع مقعد، اسم كان، و ذلك أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها اللّه سبحانه ببعثة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالشّهب المحرقة، و هو معنى قوله:

فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً أي: أرصد له ليرمى به، أو لأجله لمنعه من السماع، و قوله:

الْآنَ هو ظرف للحال، و استعير للاستقبال، و انتصاب «رصدا» على أنه صفة ل «شهابا»، أو مفعول له، و هو مفرد و يجوز أن يكون اسم جمع كالحرس.

---

(١). يونس: ٢٧.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٦٧

و قد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم يكن ذلك. و حكى الواحدى عن معمر قال: قلت للزهرى: أ كان يرمى بالنجوم فى الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أ فرأيت قوله:

وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها الآية، قال: غلظت و شدّد أمرها حين بعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قال ابن قتيبة: إن الرجم قد كان قبل مبعثه، و لكنه لم يكن مثله فى شدّة الحراسة بعد مبعثه، و كانوا يسترقون فى بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلك أصلا. و قال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى و محمد، فلما بعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حرست السماء، و رميت الشياطين بالشّهب، و منعت من الدنوّ إلى السماء. و قال نافع بن جبير: كانت الشياطين فى الفترة تسمع فلا ترمى، فلما بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رميت بالشّهب، و قد تقدّم البحث عن هذا وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً أي: لا ندرى أشرّ أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء، أم أراد بهم ربهم رشدا، أي: خيرا. قال ابن زيد:

قال إبليس: لا ندرى أراد اللّه بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا، أو يرسل إليهم رسولا، و ارتفاع أَ شَرٌّ على الاشتغال، أو على الابتداء، و خبره ما بعده، و الأوّل أولى، و الجملة سادّة مسدّ مفعولى ندرى، و الأولى أن هذا من قول الجنّ فيما بينهم، و ليس من قول إبليس كما قال ابن زيد وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ أي: قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم: و أنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح، وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ أي: قوم دون ذلك، أي: دون الموصوفين بالصلاح، و قيل: أراد ب «الصالحون» المؤمنين، و بمن هم دون ذلك الكافرين، و الأوّل أولى، و معنى كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً أي:

جماعات متفرّقة و أصنافا مختلفة، و القدّة: القطعة من الشى‏ء، و صار القوم قددا؛ إذا تفرقت أحوالهم، و منه قول الشاعر:

القابض الباسط الهادى لطاعته‏فى فتنة النّاس إذ أهواؤهم قدد

و المعنى: كنا ذوى طرائق قددا، أو كانت طرائقنا طرائق قددا، أو كنا مثل طرائق قددا، و من هذا قول لبيد:

لم تبلغ العين كلّ نهمتهايوم تمشى الجياد بالقدد

و قوله أيضا:

و لقد قلت و زيد حاسريوم ولّت خيل عمرو قددا

قال السدّى و الضحاك: أديانا مختلفة، و قال قتادة: أهواء متباينة. و قال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين و يهود و نصارى و مجوس، و كذا قال مجاهد. قال الحسن: الجنّ أمثالكم قدرية و مرجئة و رافضة و شيعة، و كذا قال السدّى: وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ الظنّ هنا بمعنى العلم و اليقين، أى: و إنا علمنا أن الشأن لن نعجز اللّه فى الأرض أينما كنّا فيها، و لن نفوته إن أراد بنا أمرا وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً أى: هاربين منها، فهو مصدر فى موضع الحال وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى يعنون القرآن آمَنَّا بِهِ و صدّقنا أنه من

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۶۸

عند اللّه، و لم نكذب به؛ كما كذبت به كفرة الإنس فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً أى:

لا يخاف نقصا فى عمله و ثوابه، و لا ظلما و مكروها يغشاه، و البخس: النقصان، و الرهق: العدوان و الطغيان، و المعنى: لا يخاف أن ينقص من حسناته و لا أن يزاد فى سيئاته، و قد تقدّم تحقيق الرهق قريبا.

قرأ الجمهور: بَخْساً بسكون الخاء، و قرأ يحيى بن وثّاب بفتحها. و قرأ يحيى بن وثّاب و الأعمش فلا يخف جزما على جواب الشرط، و لا وجه لهذا بعد دخول الفاء، و التقدير: فهو لا يخاف، و الأمر ظاهر.

و قد أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و غيرهم عن ابن عباس قال: انطلق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، و قد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء، و أرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا و بين خبر السماء و أرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم و بين خبر السماء إلا شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض و مغاربها؛ لتعرفوا ما هذا الأمر الّذى حال بينكم و بين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، و هو يصلّى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا و اللّه الّذى حال بينكم و بين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فَقالُوا يا قومنا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً فأنزل اللّه على نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و إنما أوحى إليه قول الجنّ.

و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ قال: كانوا من جنّ نصيبين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا قال: آلاؤه و عظمته.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: أمره و قدرته. و أخرج ابن مردويه و الديلمى، قال السيوطى: بسند واه، عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا فى قوله: وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا قال: إبليس.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و العقيلى فى الضعفاء، و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه و ابن عساكر عن كردم بن أبى السائب الأنصارى قال: خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجة، و ذلك أوّل ما ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة، فآوانا المبيت إلى راعى غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم، فوثب الراعى فقال: يا عامر الوادى أنا جارك، فنادى مناد: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتدّ حتى دخل فى الغنم، و أنزل اللّه على رسوله بمكة: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَزادُوهُمْ رَهَقاً قال: إثما. و أخرج

ابن مردويه عنه قال: كان القوم فى الجاهلية إذا نزلوا بالوادى قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه، فلا يكون بشىء أشدّ ولعا منهم بهم، فذلك قوله: فَزادُوهُمْ رَهَقاً. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد ابن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: كانت الشياطين لهم مقاعد فى السماء يسمعون فيها الوحى، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما

فتح القدير، ج‏5، ص: 369

الكلمة فتكون حقا، و أما ما زادوا فيكون باطلا، فلما بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، و لم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قائما يصلى بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الّذى حدث فى الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ يقول:

منّا المسلم، و منّا المشرك، و كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً أهواء شتى. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً قال: لا يخاف نقصا من حسناته، و لا زيادة فى سيئاته.

[سورة الجن (72): الآيات 14 الى 28]

وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15) وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17) وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18)

وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19) قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23)

حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً (28)

قوله: وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ هم الذين آمنوا بالنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ أى: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق، و مالوا إلى طريق الباطل، يقال: قسط؛ إذا جار، و أقسط؛ إذا عدل فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً أى: قصدوا طريق الحق. قال الفراء: أمّوا الهدى وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً أى: وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ هذا ليس من قول الجنّ بل هو معطوف على أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و المعنى: و أوحى إلىّ أن الشأن لو استقام الجنّ أو الإنس أو كلاهما على الطريقة، و هى طريقة الإسلام، و قد قدّمنا أن القراء اتفقوا على فتح «أن» هاهنا. قال ابن الأنبارى: و الفتح هنا على إضمار يمين تأويلها: و اللّه أن لو استقاموا على الطريقة كما يقال فى الكلام: و اللّه أن قمت لقمت، و و اللّه لو قمت لقمت، كما فى قول الشاعر:

أما و اللّه أن لو كنت حرّاو ما بالحرّ أنت و لا العتيق

قال: أو على «أوحى إلىّ أنه استمع»، «و أن لو استقاموا»، أو على «آمنا به»: أى آمنا به، و بأن لو استقاموا. قرأ الجمهور بكسر الواو من «لو» لالتقاء الساكنين. و قرأ ابن وثّاب و الأعمش بضمها

فتح القدير، ج‏5، ص: 370
لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً أي: كثيرا واسعا. قال مقاتل: ماء كثيرا من السماء، و ذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. و قال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعا لوسعنا عليهم في الدنيا، و ضرب الماء الغدق مثلا؛ لأن الخير كله و الرزق بالمطر، و هذا كقوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا «1» الآية، و قوله:
وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً- وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «2» و قوله: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً- يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً- وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ «3» الآية. و قيل المعنى: و أن لو استقام أبوهم على عبادته، و سجد لآدم، و لم يكفر، و تبعه ولده على الإسلام؛ لأنعمنا عليهم، و اختار هذا الزجاج. و الماء الغدق: هو الكثير في لغة العرب لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ أي: لنختبرهم؛ فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم.
و قال الكلبي: المعنى و أن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا؛ لأوسعنا أرزاقهم مكرا بهم و استدراجا؛ حتى يفتنوا بها؛ فنعذّبهم في الدّنيا و الآخرة. و به قال الربيع بن أنس و زيد بن أسلم و ابنه عبد الرّحمن و الثّمالي و يمان بن رباب و ابن كيسان و أبو مجلز، و استدلوا بقوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْ‏ءٍ «4» و قوله: وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ «5» الآية، و الأوّل أولى. وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً أي: و من يعرض عن القرآن، أو عن العبادة، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه، أي:
يدخله عذابا صعدا، أي: شاقا صعبا. قرأ الجمهور نَسْلُكْهُ بالنون مفتوحة. و قرأ الكوفيون و أبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ و لم يقل عن ذكرنا. و قرأ مسلم بن جندب و طلحة بن مصرّف و الأعرج بضم النون و كسر اللام، من أسلكه، و قراءة الجمهور من سلكه. و الصعد في اللغة: المشقة، تقول: تصعّدني الأمر: إذا شقّ عليك، و هو مصدر صعد، يقال: صعد صعدا و صعودا، فوصف به العذاب مبالغة؛ لأنه يتصعّد المعذّب، أي: يعلوه و يغلبه فلا يطيقه.
قال أبو عبيد: الصّعد مصدر، أي: عذابا ذا صعد. و قال عكرمة: الصّعد: هو صخرة ملساء في جهنم يكلّف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم، كما في قوله: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً «6» و الصعود:
العقبة الكؤود وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ قد قدّمنا اتفاق القراء هنا على الفتح فهو معطوف على أنه استمع، أي:
و أوحي إليّ أن المساجد مختصّة باللّه. و قال الخليل: التقدير و لأن المساجد. و المساجد: المواضع التي بنيت للصّلاة فيها. قال سعيد بن جبير: قالت الجنّ: كيف لنا أن نأتي المساجد، و نشهد معك الصلاة، و نحن ناؤون عنك؟ فنزلت. و قال الحسن: أراد بها كل البقاع لأن الأرض كلها مسجد. و قال سعيد بن المسيب و طلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، و هي القدمان و الركبتان و اليدان و الجبهة،

---

(1). المائدة: 65.

(2). الطلاق: 2- 3.

(3). نوح: 10- 12.

(4). الأنعام: 44.

(5). الزخرف: 33.

(6). المدثر: 17.

فتح القدير، ج‌5، ص: 371

و يقول: هذه أعضاء أنعم اللّه بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة اللّه، و كذا قال عطاء. و قيل: المساجد هى الصلاة؛ لأن السجود من جملة أركانها، قاله الحسن فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً من خلقه كائنا ما كان وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ قد قدّمنا أن الجمهور قرءوا هنا بفتح أن، عطفا على أنه استمع: أى و أوحى إلىّ أنّ الشأن لما قام عبد اللّه، و هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يَدْعُوهُ أى: يدعو اللّه و يعبده، و ذلك ببطن نخلة «1» كما تقدّم حين قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى و يتلو القرآن، و قد قدّمنا أيضا قراءة من قرأ بكسر «إن» هناك، و فيها غموض و بعد عن المعنى المراد كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً أى: كاد الجنّ يكونون على رسول اللّه لبدا، أى: متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه. قال الزجاج: و معنى لبدا: يركب بعضهم بعضا، و من هذا اشتقاق هذه اللبود التى تفرش. قرأ الجمهور لِبَداً بكسر اللام و فتح الباء. و قرأ مجاهد و ابن محيصن و هشام بضم اللام و فتح الباء، و قرأ أبو حيوة و محمد بن السّميقع و العقيلى و الجحدرى بضم الباء و اللام. و قرأ الحسن و أبو العالية و الأعرج بضم اللام و تشديد الباء مفتوحة. فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه، و على قراءة اللام يكون المعنى كثيرا، كما فى قوله: أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً «2» و قيل المعنى: كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حردا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال الحسن و قتادة و ابن زيد: لما قام عبد اللّه محمد بالدعوة، تلبدت الإنس و الجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى اللّه إلا أن ينصره، و يتم نوره. و اختار هذا ابن جرير. قال مجاهد: لِبَداً أى: جماعات، و هو من تلبد الشي‌ء على الشي‌ء، أى: اجتمع، و منه اللبد:

الّذى يفرش لتراكم صوفه، و كل شي‌ء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبّدته، و يقال للشّعر الّذى على ظهر الأسد:

لبدة، و جمعها لبد، و يقال للجراد الكثير: لبد؛ و يطلق اللّبد بضم اللام و فتح الباء على الشي‌ء الدائم، و منه قيل لنسر لقمان لبد لطول بقائه، و هو المقصود بقول النابغة:

أخنى عليها الّذى أخنى على لبد «3» قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي أى: قال عبد اللّه إنما أدعو ربى و أعبده وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً من خلقه.

قرأ الجمهور: قال و قرأ عاصم و حمزة «قل» على الأمر. و سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: إنك جئت بأمر عظيم، و قد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجيرك قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً أى: لا أقدر أن أدفع عنكم ضرّا، و لا أسوق إليكم خيرا، و قيل: الضرّ: الكفر، و الرشد: الهدى، و الأوّل أولى لوقوع النكرتين فى سياق النفى، فهما يعمّان كل ضرر و كل رشد فى الدنيا و الدين قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ أى: لا يدفع عنى أحد عذابه إن أنزله بى وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً أى: ملجأ و معدلا و حرزا، و الملتحد معناه فى اللغة: الممال؛ أى: موضعا أميل إليه. قال قتادة:

مولى. و قال السدّى: حرزا، و قال الكلبى: مدخلا فى الأرض مثل السّرب، و قيل: مذهبا و مسلكا،

---

(1). «بطن نخلة»: موضع بين مكة و الطائف.

(2). البلد: 6.

(3). و صدره: أضحت خلاء و أضحى أهلها احتملوا.

فتح القدير، ج‌5، ص: 372

و المعنى متقارب، و منه قول الشاعر:

يا لهف نفسى و لهفى غير مجدية‌عنّى و ما من قضاء اللّه ملتحد

و الاستثناء فى قوله: إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ هو من قوله لا أملك، أى: لا أملك ضرّا و لا رشدا إلا التبليغ من اللّه، فإن فيه أعظم الرشد، أو من ملتحدا، أى: لن أجد من دونه إلا التبليغ. قال مقاتل: ذلك الّذى يجيرنى من عذابه. و قال قتادة: إلا بلاغا من اللّه، فذلك

الّذى أملكه بتوفيق اللّه، فأما الكفر و الإيمان فلا أملكهما. قال الفراء: لكن أبلغكم ما أرسلت به، فهو على هذا منقطع. و قال الزجاج: هو منصوب على البدل من قوله: مُلْتَحَداً أى: و لن أجد من دونه ملتحدا؛ إلا أن أبلغ ما يأتى من اللّه، و قوله: وَ رِسالاتِهِ معطوف على بلاغا، أى: إلا بلاغا من اللّه و إلا رسالاته التى أرسلنى بها إليكم، أو إلا أن أبلغ عن اللّه و أعمل برسالاته، فآخذ نفسى بما آمر به غيرى. و قيل: الرسالات معطوفة على الاسم الشريف، أى: إلا بلاغا عن اللّه و عن رسالاته، كذا قال أبو حيان و رجّحه وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فى الأمر بالتوحيد لأنّ السياق فيه فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ قرأ الجمهور بكسر إن؛ على أنها جملة مستأنفة. و قرئ بفتح الهمزة؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، و التقدير: فجزاؤه أن له نار جهنم، أو: فحكمه أن له نار جهنم، و انتصاب خالِدِينَ فِيها على الحال، أى: فى النار أو فى جهنم، و الجمع باعتبار معنى من كما أن التوحيد فى قوله: فَإِنَّ لَهُ باعتبار لفظها، و قوله: أَبَداً تأكيد لمعنى الخلود، أى: خالدين فيها بلا نهاية حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ يعنى من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة. و المعنى: لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر و عداوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمنين؛ حتى إذا رأوا الّذى يوعدون به فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً أى: من هو أضعف جندا ينتصر به و أقلّ عددا، أهم أم المؤمنون؟ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أى: ما أدرى أ قريب حصول ما توعدون من العذاب أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً أى: غاية و مدّة، أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له: متى يكون هذا الّذى توعدنا به؟ قال عطاء: يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا اللّه وحده، و المعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا اللّه. قرأ الجمهور رَبِّي بإسكان الياء. و قرأ الحرميان و أبو عمرو بفتحها.

و مَنْ فى مَنْ أَضْعَفُ موصولة، و أضعف خبر مبتدأ محذوف، أى: هو أضعف، و الجملة صلة الموصول، و يجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء، و أضعف: خبرها. و الجملة فى محل نصب سادة مسدّ مفعولى «أدرى»، و قوله: أَ قَرِيبٌ خبر مقدّم وَ ما تُوعَدُونَ مبتدأ مؤخر عالِمُ الْغَيْبِ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من «ربى»، أو بيان له، أو خبر مبتدأ محذوف، و الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عدم الدراية. و قرئ بالنصب على المدح. و قرأ السرىّ «علم الغيب» بصيغة الفعل و نصب الغيب، و الفاء فى فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً لترتيب عدم الإظهار على تفرّده بعلم الغيب، أى: لا يطلع على الغيب الّذى يعلمه، و هو ما غاب عن العباد، أحدا منهم، ثم استثنى فقال: إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ أى: إلا من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه؛ ليكون ذلك دالّا

فتح القدير، ج‏5، ص: 373

على نبوّته. قال القرطبى: قال العلماء: لمّا تمدّح سبحانه بعلم الغيب، و استأثر به دون خلقه، كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحى إليهم، و جعله معجزة لهم، و دلالة صادقة على نبوّتهم، و ليس المنجم و من ضاهاه ممّن يضرب بالحصى، و ينظر فى الكتب، و يزجر بالطير، ممّن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر باللّه، مفتر عليه بحدسه و تخمينه و كذبه. و قال سعيد بن جبير: إلا من ارتضى من رسول هو جبريل، و فيه بعد. و قيل:

المراد بقوله: إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فإنه يطلعه على بعض غيبه، و هو ما يتعلّق برسالته كالمعجزة و أحكام التكاليف و جزاء الأعمال و ما يبينه من أحوال الآخرة، لا ما لا يتعلّق برسالته من الغيوب، كوقت قيام الساعة و نحوه. قال الواحدى: و فى هذا دليل على أنّ من ادّعى أن النجوم تدلّه على ما يكون من حادث فقد كفر بما فى القرآن. قال فى الكشاف: و فى هذا إبطال للكرامات؛ لأن الذين تضاف إليهم و إن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، و قد خصّ اللّه الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب، و إبطال للكهانة و التنجيم؛ لأن أصحابهما أبعد شىء من الارتضاء، و أدخله فى السّخط. قال الرازى: و عندى لا

دلالـة فى الآيـة على شـىء مما قالوه؛ إذ لا صـيغة عموم فى غيبه، فتحمل على غيب واحد و هو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله: أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ الآيـة. فإن قيل: فما معنى الاسـتثناء حينئـذ؟ قلنا: لعلّه إذا قربت القيامة يظهره، و كيف لا؟ و قد قال: يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا «۱» فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة، أو هو استثناء منقطع، أى: من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه، و من خلفه حفظة؛ يحفظونه من شرّ مردة الجنّ و الإنس. و يدلّ على أنه ليس المراد به لا يطلع أحدا على شىء من المغيبات أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شـقّا و سـطيحا كانا كاهنين، و قد عرفا بحديث النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قبل ظهوره، و كانا مشـهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى. فثبت أن اللّه تعالى قد يطلع غير الرسل على شىء من المغيبات، و أيضا أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة، و يكون صادقا فيها، و أيضا قـد نقل السـلطان سـنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان، و سألها عن أمور مستقبلة، فأخبرته بها، فوقعت على وفق كلامها. قال: و أخبرنى ناس محققون فى علم الكلام و الحكمـة أنها أخبرت عن أمور غائبـة بالتفصـيل، فكانت على وفق خبرها. و بالغ أبو البركات فى كتاب «التعبير» فى شـرح حالهـا و قـال: فحصت عن حالهـا ثلاثين سـنة، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارا مطابقا. و أيضا فإنا نشاهد ذلك فى أصـحاب الإلهامات الصادقـة، و قـد يوجـد ذلك فى السـحرة أيضا، و قد نرى الأحكام النجومية مطابقة و إن كانت قد تتخلف، و لو قلنا:

إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة؛ لتطرّق الطعن إلى القرآن، فيكون التأويل ما ذكرنا، انتهى كلامه.

قلت: أما قوله: إذ لا صيغة عموم فى غيبه، فباطل، فإن إضافة المصدر و اسم الجنس من صيغ العموم

---

(۱). الفرقان: ۲۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۷۴

كما صرّح به أئمة الأصول و غيرهم. و أما قوله: أو هو استثناء منقطع فمجرّد دعوى يأباه النظم القرآنى.

و أمـا قوله: إن شـقّا و سـطيحا إلـخ، فقـد كانـا فى زمن تسترق فيه الشـياطين السـمع، و يلقون ما يسـمعونه إلى الكهان، فيخلطون الصّـدق بالكـذب، كما ثبت فى الحـديث الصـحيح. و فى قوله: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ «۱» و نحوها من الآيات، فباب الكهانـة قد ورد بيانه فى هذه الشريعة، و أنه كان طريقا لبعض الغيب بواسطة استراق الشياطين؛ حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية. و قالوا: أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً- وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً «۲» فباب الكهانـة فى الوقت الّـذى كانت فيه مخصوص بأدلته، فهو من جملـة ما يخصـص به هـذا العموم، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانـة على هـذه الآيـة. و أما حديث المرأة الّذى أورده فحديث خرافة، و لو سـلّم وقوع شـىء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد فى الحـديث: «إن فى هذه الأمة محدّثين و إن منهم عمر»، فيكون كالتخصـيص لعموم هذه الآية لا انقضاء لها، و أما ما اجترأ به على اللّه و على كتابه من قوله فى آخر كلامه؛ فلو قلنا: إن القرآن يـدلّ على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن، فيقال له:

ما هذه بأوّل زلّة من زلاتك، و سـقطة من سـقطاتك، و كم لها لديك من أشـباه و نظائر، نبض بها عرق فلسـفتك، و ركض بها الشـيطان الّـذى صـار يتخبطـك فى مبـاحث تفسـيرك، يـا عجبا لك أ يكون ما بلغك من خبر هـذه المرأة و نحوه موجبا لتطرّق الطعن إلى القرآن؟! و ما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا:

و إذا رامت الذبابة للشّمس غطاء مدّت عليها جناحا

و قلت من أبيات:

مهبّ رياح سدّه بجناح‌و قابل بالمصباح ضوء صباح
فإن قلت: إذن قد تقرّر بهذا الدليل القرآنى أن اللّه يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الّذى أظهره اللّه على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟ قلت: نعم و لا مانع من ذلك.
و قد ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من هذا ما لا يخفى على عارف بالسّنّة المطهرة، فمن ذلك ما صحّ أنه قام مقاما أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة، و ما ترك شيئا ممّا يتعلّق بالفتن و نحوها، حفظ ذلك من حفظه، و نسيه من نسيه، و كذلك ما ثبت من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بما يحدث من الفتن بعده، حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة و رجعوا إليه. و ثبت فى الصحيح و غيره «أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التى تموج كموج البحر، فقال: إن بينك و بينها بابا، فقال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ فقال: بل يكسر، فعلم عمر أنه الباب، و أن كسره قتله» كما فى الحديث الصحيح المعروف؛ أنه قيل لحذيفة: هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال: نعم كان يعلم أن دون غد الليلة. و كذلك ما ثبت من إخباره لأبى ذرّ بما يحدث

---

(۱). الصافات: ۱۰.

(۲). الجن: ۸- ۹.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۷۵
له، و إخباره لعلىّ بن أبى طالب بخبر ذى الثدية، و نحو هذا مما يكثر تعدده، و لو جمع لجاء منه مصنف مستقلّ.
و إذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختصّ بعض صلحاء هذه الأمة بشىء من أخبار الغيب التى أظهرها اللّه لرسوله، و أظهرها رسوله لبعض أمته؛ و أظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل، و الكل من الفيض الرّبانى بواسطة الجناب النبوىّ.
ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الّذى يطلع عليه الرسول فقال: فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً و الجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء، و المعنى: أنه يجعل سبحانه بين يدى الرسول و من خلفه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب، أو يجعل بين يدى الوحى و خلفه حرسا من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، و المراد من جميع الجوانب.
قال الضحاك: ما بعث اللّه نبيا إلا و معه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان فى صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، و إن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد:
رَصَداً أى: حفظة يحفظون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من أمامه و ورائه من الجنّ و الشياطين. قال قتادة و سعيد بن المسيب: هم أربعة من الملائكة حفظة. و قال الفراء: المراد جبريل. قال فى الصحاح: الرّصد: القوم يرصدون كالحرس، يستوى فيه الواحد و الجمع و المذكر و المؤنث، و الرصد للشىء: الراقب له، يقال: رصده يرصده رصدا و رصدا و الترصّد: الترقّب، و المرصد: موضع الرّصد لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ اللام متعلق بيسلك، و المراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن، و الخبر الجملة، و الرسالات: عبارة عن الغيب الّذى أريد إظهاره لمن ارتضاه اللّه من رسول، و ضمير «أبلغوا» يعود إلى الرصد. و قال قتادة و مقاتل: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة، و فيه حذف تتعلق به اللام، أى: أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ. و قيل: ليعلم محمد أن جبريل و من معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه، قاله سعيد بن جبير. و قيل:

ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلّغوا رسالات ربهم. و قيل: ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط. و قال ابن قتيبة: أى ليعلم الجنّ أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم، و لم يكونوا هم المبلغين باستراق السّمع عليهم. و قال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلّغوا رسالات ربهم. قرأ الجمهور «ليعلم» بفتح التحتية على البناء للفاعل. و قرأ ابن عباس و مجاهد و حميد و يعقوب و زيد بن على بضمها على البناء للمفعول، أى: ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا. و قال الزجاج: ليعلم اللّه أن رسله قد أبلغوا رسالاته، أى: ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيبا. و قرأ ابن أبى عبلة و الزهرى بضم الياء و كسر اللام وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ أى: بما عنده الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلّغين لرسالاته، و الجملة فى محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد، أى: و الحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال. قال سعيد ابن جبير: ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً من جميع الأشياء التى كانت و التى ستكون، و هو معطوف على أحاط، و عددا يجوز أن يكون منتصبا على التمييز محوّلا من المفعول

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۷۶

به، أى: و أحصى عدد كل شىء، كما فى قوله: وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً و يجوز أن يكون منصوبا على المصدرية، أو فى موضع الحال: معدودا، و المعنى: أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال، بل على وجه التفصيل، أى: أحصى كلّ فرد من مخلوقاته على حدة.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الْقاسِطُونَ العادلون عن الحقّ. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ قال: أقاموا ما أمروا به لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً قال: معينا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن السدّى قال: قال عمر: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ قال: حيثما كان الماء كان المال، و حيثما كان المال كانت الفتنة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ قال: لنبتليهم به. و فى قوله: وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً قال: مشقّة من العذاب يصعد فيها. و أخرج هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عنه فى قوله: يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً قال: جبلا فى جهنم. و أخرج ابن جرير عنه أيضا عَذاباً صَعَداً قال: لا راحة فيه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا مسجد الحرام، و مسجد إيلياء ببيت المقدس. و أخرج ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، عن ابن مسعود قال: «خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل الهجرة إلى نواحى مكة فخطّ لى خطا، و قال: لا تحدثن شيئا حتى آتيك» ثم قال: «لا يهولنك شىء تراه» فتقدم شيئا؛ ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزطّ، و كانوا كما قال اللّه تعالى: كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: «لما سمعوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه، و دنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه أيضا فى الآية قال: «لما أتى الجنّ إلى رسول اللّه و هو يصلى بأصحابه يركعون بركوعه و يسجدون بسجوده، فعجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ أى: يدعو اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً قال: أعوانا. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عنه أيضا فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً- إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ قال: أعلم اللّه الرسل من الغيب الوحى، و أظهرهم عليه، ممّا أوحى إليهم من غيبه، و ما يحكم اللّه، فإنه لا يعلم ذلك غيره. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه أيضا رَصَداً قال: هى معقبات من الملائكة يحفظون رسول اللّه من الشياطين حتى يبيّن الّذى أرسل إليهم به، و ذلك حتى يقول أهل الشرك قد أبلغوا رسالات ربهم. و أخرج ابن مردويه عنه

أيضا قال: ما أنزل اللّه على نبيه آية من القرآن إلا و معها أربعة من الملائكة يحفظونها؛ حتى يؤدّوها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم قرأ: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً- إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً يعنى الملائكة الأربعة لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۷۷

سورة المزّمّل

اشارة

هى تسع عشرة آية، و قيل عشرون آية و هى مكية. قال الماوردى: كلها فى قول الحسن و عكرمة و جابر، قال: و قال ابن عباس و قتادة: إلا آيتين منها وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ «۱» و التى تليها. و قال الثعلبى: إلا قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ «۲» إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة. و أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة المزّمّل بمكة إلا آيتين «۳» إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى «۴». و أخرج البزار، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الدلائل، عن جابر قال: اجتمعت قريش فى دار الندوة، فقالوا: سمّوا هذا الرجل اسما تصدّون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن؛ قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون؛ قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فتفرّق المشركون على ذلك، فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فتزمّل فى ثيابه و تدثر فيها، فأتاه جبريل، فقال: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ «۵» يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ «۶» قال البزار: بعد إخراجه من طريق معلى بن عبد الرّحمن: إن معلى قد حدّث عنه جماعة من أهل العلم و احتملوا حديثه، لكنه إذا تفرّد بالأحاديث لا يتابع عليها. و أخرج أبو داود، و البيهقى فى السنن، عن ابن عباس قال: «بتّ عند خالتى ميمونة، فقام النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر، فحزرت قيامه فى كل ركعة بقدر يا أيها المزّمّل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المزمل (۷۳): الآيات ۱ الى ۱۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (۲) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (۳) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (۴)

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (۵) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا (۶) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا (۷) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (۸) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (۹)

وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (۱۰) وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (۱۱) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَ جَحِيماً (۱۲) وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً (۱۳) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا (۱۴)

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (۱۵) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا (۱۶) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (۱۷) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (۱۸)

---

(۱). المزمل: ۱۰.

(۲). المزمل: ۲۰.

(۳). كذا فى الأصل، و الصواب: آية.

(۴). المزمل: ۲۰.

(۵). المزمل: ۱.

(۶). المدثر: ۱.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۷۸

قوله: يـا أَيُّهَـا الْمُزَّمِّلُ أصـله المتزمل؛ فأدغمت التاء فى الزاى، و التزمّل: التلفّف فى الثوب. قرأ الجمهور: «المزمل» بالإدغام. و قرأ أبى: «المتزمّل» على الأصل. و قرأ عكرمة بتخفيف الزاى، و مثل هذه القراءة قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى أفانين و بله‌كبير أناس فى بجاد مزمّل

و هـذا الخطاب للنبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و قد اختلف فى معناه، فقال جماعة: إنه كان يتزمل صـلّى اللّه عليه و سـلّم بثيابه فى أوّل مـا جاءه جبريل بالوحى فرقا منه حتى أنس به، و قيل: المعنى: يا أيها المزمل بالنبوّة و الملتزم للرسالـة. و بهـذا قال عكرمـة و كان يقرأ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ بتخفيف الزاى و فتـح الميم مشدّدة اسم مفعول. و قيل المعنى: يا أيها المزمل بالقرآن. و قال الضـحاك: تزمل بثيابه لمنامه، و قيل: بلغه من المشـركين سوء قول، فتزمّل فى ثيابه و تـدثر، فنزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ و يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. و قد ثبت أن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم لما سمع صوت الملك و نظر إليه أخذته الرّعدة، فأتى أهله و قال: زملونى دثرونى، و كان خطابه صلّى اللّه عليه و سلّم بهذا الخطاب فى أول نزول الوحى.

ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة و الرسالة. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا أى: قم للصلاة فى الليل. قرأ الجمهور:

قُمِ بكسر الميم لالتقاء الساكنين. و قرأ أبو السّمّال بضمها اتباعا لضمة القاف. قال عثمان بن جنّى:

الغرض بهـذه الحركـة الهرب من التقاء الساكنين، فبأىّ حركـة تحرك فقـد وقع الغرض. و انتصاب الليل على الظرفيـة. و قيل: إن معنى قم: صـلّ، عبّر به عنه و اسـتعير له. و اختلف: هـل كـان هـذا القيام الّـذى أمر به فرضا عليه أو نفلا؟ و سـيأتى إن شاء اللّه ما روى فى ذلك. و قوله: إِلَّا قَلِيلًا استثناء من الليل، أى:

صلّ الليل كلّه إلا يسيرا منه، و القليل من الشيء: هو ما دون النصف، و قيل: ما دون السدس. و قيل:

ما دون العشر. و قال مقاتل و الكلبى: المراد بالقليل هنا الثلث، و قد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله:

نِصْفَهُ إلـخ، و انتصـاب «نصـفه» على أنه بـدل من الليل. قال الزجاج: «نصـفه» بـدل من الليل، و «إلا قليلا» استثناء من النصف، و الضـمير فى «منه» و «عليه» عائـد إلى النصـف. و المعنى: قم نصف الليـل، أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد عليه قليلا إلى الثلثين، فكـأنه قـال: قم ثلثى الليـل، أو نصـفه، أو ثلثه. و قيـل: إن «نصـفه» بـدل من قوله «قليلا»، فيكون المعنى: قم الليـل إلا نصـفه، أو أقلّ من نصـفه، أو أكثر من نصفه، قال الأخفش: نِصْفَهُ أى: أو نصفه، كما يقال: أعطه درهما، درهمين، ثلاثة، يريد أو درهمين أو ثلاثـة. قـال الواحـدى: قال المفسـرون: أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، جعل له سعـة فى مـدة قيامه فى الليل، و خيّره فى هـذه الساعات للقيام، فكان النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم و طائفـة معه يقومون على هذه المقادير، و شقّ ذلك عليهم، فكان الرجل لا يدرى كم صـلّى، أو كم بقى من الليل، فكان يقوم الليل كلّه حتى خفّف اللّه عنهم، و قيل: الضميران فى «منه» و «عليه» راجعان للأقل من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصفه، أو قم أنقص من ذلك الأقلّ، أو أزيد منه قليلا، و هو بعيد جدّا، و الظاهر أن «نصفه» بدل من «قليلا»، و الضميران راجعان إلى النصف المبدل من «قليلا».

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۳۷۹

و اختلف فى الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ «۱» إلى آخر السورة، و قيل: هو قوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ «۲» و قيل: هو قوله: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى «۳» و قيل: هو منسوخ بالصلوات الخمس، و بهذا قال مقاتل و الشافعى و ابن كيسان، و قيل: هو قوله: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ «۴» و ذهب الحسن و ابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم و لو قدر حلب شاة وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا أى: اقرأه على مهل مع تدبّر. قال الضحاك: اقرأه حرفا حرفا. قال الزجاج: هو أن يبيّن جميع الحروف، و يوفى حقها من الإشباع. و أصل الترتيل: التنضيد و التنسيق و حسن النظام، و تأكيد الفعل بالمصدر يدلّ على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، و لا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم من استيفاء حركته المعتبرة إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا أى: سنوحى إليك القرآن، و هو قول ثقيل. قال قتادة: ثقيل و اللّه فرائضه و حدوده.

قال مجاهد: حلاله و حرامه. قال الحسن: العمل به. قال أبو العالية: ثقيلا بالوعد و الوعيد، و الحلال و الحرام. و قال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين و الكفار؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم، و البيان لضلالهم، و سبّ آلهتهم. و قال السدّى: ثقيل بمعنى: كريم، و من قولهم: فلان ثقيل علىّ، أى: يكرم علىّ، قال الفراء:

ثقيلا- رزينا ليس بالخفيف السّفساف؛ لأنه كلام ربّنا. و قال الحسين بن الفضل: ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيّد بالتوفيق، و نفس مزيّنة بالتوحيد. و قيل: وصفه بكونه ثقيلا- حقيقة لما ثبت أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا أوحى إليه و هو على ناقته وضعت جرانها «۵» على الأرض، فما تستطيع أن تتحرّك حتى يسرّى «۶» عنه إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ أى: ساعاته و أوقاته، لأنها تنشأ أوّلا فأولا، يقال: نشأ الشيء ينشأ؛ إذا ابتدأ و أقبل شيئا بعد شيء فهو ناشئ، و أنشأه اللّه فنشأ، و منه نشأت السحاب؛ إذا بدأت، فناشئة فاعلة من نشأت تنشأ فهى ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه؛ أى حدث، فهو ناشئة. قال الواحدى: قال المفسرون: الليل كله ناشئة، و المراد أن ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف. و قيل:

إن ناشئة الليل هى النفس التى تنشأ من مضجعها للعبادة: أى تنهض، من نشأ من مكانه: إذا نهض. و قيل:

الناشئة بالحبشية قيام الليل، و قيل: إنما يقال لقيام الليل ناشئة إذا كان بعد نوم. قال ابن الأعرابى: إذا نمت من أوّل الليل ثم قمت فتلك المنشأة و النشأة، و منه: ناشئة الليل. قيل: و ناشئة الليل هى: ما بين المغرب و العشاء، لأن معنى نشأ ابتدأ، و منه قول نصيب:

و لو لا أن يقال صبا نصيبلقلت بنفسى النّشأ الصّغار

قال عكرمة و عطاء: إن ناشئة الليل: بدوّ الليل. و قال مجاهد و غيره: هى فى الليل كلّه؛ لأنه ينشأ بعد النهار، و اختار هذا مالك. و قال ابن كيسان: هى القيام من آخر الليل. قال فى الصحاح: ناشئة الليل أوّل

---

(۱). المزمل: ۲۰.

(۲). المزمل: ۲۰.

(۳). المزمل: ۲۰.

(۴). المزمل: ۲۰.

(۵). «جرانها»: أى صدرها.

(۶). أى الوحى.

ساعاته. و قال الحسن: هى ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً قرأ الجمهور: وَطْئاً بفتح الواو و سكون الطاء،

مقصورة، و اختار هذه القراءة أبو حاتم. و قرأ أبو العالية و ابن أبى إسحاق و مجاهد و أبو عمرو و ابن عامر و حميد و ابن محيصن و المغيرة و أبو حيوة بكسر الواو و فتح الطاء ممدودة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد، فالمعنى على القراءة الأولى: أن الصلاة فى ناشئة الليل أثقل على المصلى من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم. قال ابن قتيبة: المعنى أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدّت على القوم وطأة السلطان؛ إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهمّ اشدد وطأتك على مضر». و المعنى على القراءة الثانية أنها أشدّ مواطأة، أى: موافقة، من قولهم: واطأت فلانا على كذا مواطأة و وطاء؛ إذا وافقته عليه. قال مجاهد و ابن أبى مليكة: أى أشد موافقة بين السمع و البصر و القلب و اللسان؛ لانقطاع الأصوات و الحركات فيها، و منه: لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ «١» أى: ليوافقوا. و قال الأخفش:

أشدّ قياما. و قال الفرّاء: أى أثبت للعمل، و أدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، و الليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش، فعبادته تدوم و لا تنقطع. و قال الكلبى: أشدّ نشاطا. وَ أَقْوَمُ قِيلًا أى: و أشدّ مقالا و أثبت قراءة؛ لحضور القلب فيها و هدوء الأصوات، و أشدّ استقامة و استمرارا على الصواب؛ لأن الأصوات فيها هادئة، و الدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّى ما يقرؤه. قال قتادة و مجاهد: أى أصوب للقراءة و أثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. قال أبو علىّ الفارسى: أَقْوَمُ قِيلًا أى: أشدّ استقامة لفراغ البال بالليل.

قال الكلبى: أى: أبين قولا بالقرآن. و قال عكرمة: أى: أتمّ نشاطا و إخلاصا، و أكثر بركة. و قال ابن زيد: أجدر أن يتفقّه فى القرآن، و قيل: أعجل إجابة للدعاء. إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا قرأ الجمهور سَبْحاً بالحاء المهملة، أى: تصرفا فى حوائجك و إقبالا و إدبارا، و ذهابا و مجيئا، و السبح: الجرى و الدوران، و منه السابح فى الماء لتقلبه ببدنه و رجليه، و فرس سابح: أى: شديد الجرى. و قيل: السبح:

الفراغ، أى: إن لك فراغا بالنهار للحاجات؛ فصّل بالليل. قال ابن قتيبة: أى تصرّفا و إقبالا و إدبارا فى حوائجك و أشغالك. و قال الخليل: إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً أى: نوما، و التسبح: التمدّد. قال الزجاج: المعنى: إن فاتك فى الليل شىء فلك فى النهار فراغ للاستدراك. و قرأ يحيى بن يعمر و أبو وائل و ابن أبى عبلة سبخا بالخاء المعجمة، قيل: و معنى هذه القراءة: الخفة و السّعة و الاستراحة. قال الأصمعى:

يقال: سبّخ اللّه عنك الحمّى، أى: خفّفها، و سبخ الحرّ: فتر و خفّ، و منه قول الشاعر:

فسبّخ عليك الهمّ و اعلم بأنّهإذا قدّر الرّحمن شيئا فكائن

أى: خفف عنك الهمّ. و التسبيخ من القطن ما يسبّخ بعد النّدف. و منه قول الأخطل:

فأرسلوهنّ يذرين التراب كمايذرى سبائخ قطن ندف أوتار

قال ثعلب: السّبخ بالخاء المعجمة: التردّد و الاضطراب، و السّبخ: السكون. و قال أبو عمرو: السّبخ: النوم و الفراغ وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ أى: ادعه بأسمائه الحسنى، و قيل: اقرأ باسم ربك فى ابتداء صلاتك،

---

(١). التوبة: ٣٧.

و قيل: اذكر اسم ربك فى وعده و وعيده؛ لتوفّر على طاعته و تبعد عن معصيته، و قيل المعنى: دم على ذكر ربك ليلا و نهارا و استكثر من ذلك. و قال الكلبى: المعنى صلّ لربك. وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا أى: انقطع إليه انقطاعا بالاشتغال بعبادته، و التبتل: الانقطاع، يقال: بتلت الشىء: أى قطعته و ميزته من غيره، و صدقة بتلة، أى: منقطعة من مال صاحبها، و يقال للراهب: متبتل؛ لانقطاعه عن

الناس، و منه قول الشاعر «١»:

تضىء الظّلام بالعشاء كأنّهامنارة ممسى راهب «٢» متبتّل.

و وضع تبتيلا مكان تبتلا لرعاية الفواصل. قال الواحدى: و التبتل: رفض الدنيا و ما فيها، و التماس ما عند اللّه. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر و ابن عامر بجرّ «ربّ» على النعت «لربك» أو البدل منه، أو البيان له. و قرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ و خبره لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ربّ المشرق. و قرأ زيد بن علىّ بنصبه على المدح. و قرأ الجمهور: الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ مفردين، و قرأ ابن مسعود و ابن عباس «المشارق و المغارب» على الجمع، و قد قدّمنا تفسير المشرق و المغرب، و المشرقين و المغربين، و المشارق و المغارب فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا أى: إذا عرفت أنه المختصّ بالربوبية فاتخذه وكيلا أى: قائما بأمورك، و عوّل عليه فى جميعها، و قيل: كفيلا بما وعدك من الجزاء و النصر وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ من الأذى و السب و الاستهزاء، و لا تجزع من ذلك وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا أى: لا تتعرّض لهم، و لا تشتغل بمكافأتهم، و قيل: الهجر الجميل: الّذى لا جزع فيه، و هذا كان قبل الأمر بالقتال وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أى: دعنى و إيّاهم، و لا تهتم بهم، فإنى أكفيك أمرهم، و أنتقم لك منهم. قيل: نزلت فى المطعمين يوم بدر، و هم عشرة، و قد تقدّم ذكرهم. و قال يحيى بن سلّام: هم بنو المغيرة. و قال سعيد بن جبير: أخبرت أنهم اثنا عشر. أُولِي النَّعْمَةِ أى: أرباب الغنى و السعة و الترفّه و اللذة فى الدنيا وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا أى: تمهيلا قليلا على أنه نعت لمصدر محذوف، أو زمانا قليلا على أنه صفة لزمان محذوف، و المعنى: أمهلهم إلى انقضاء آجالهم، و قيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر، و الأول أولى لقوله: إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا و ما بعده، فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة، و الأنكال: جمع نكل، و هو القيد، كذا قال الحسن و مجاهد و غيرهما، و قال الكلبى: الأنكال: و الأغلال، و الأوّل أعرف فى اللغة، و منه قول الخنساء:

أتوك فقطّعت أنكالهم «٣»و قد كنّ قبلك لا تقطع

و قال مقاتل: هى أنواع العذاب الشديد. و قال أبو عمران الجونى: هى قيود لا تحلّ وَ جَحِيماً أى: نارا مؤججة وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ أى: لا يسوغ فى الحلق، بل ينشب فيه، فلا ينزل و لا يخرج.

---

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). «ممسى راهب»: أى إمساؤه.

(٣). فى تفسير القرطبى (١٩/ ٤٦): دعاك فقطّعت أنكاله.

قال مجاهد: هو الزّقّوم. و قال الزجاج: هو الضريع كما قال: لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ «١» قال: و هو شوك العوسج. قال عكرمة: هو شوك يأخذ بالحلق لا يدخل و لا يخرج، و الغصّة: الشّجا فى الحلق، و هو ما ينشب فيه من عظم أو غيره، و جمعها: غصص وَ عَذاباً أَلِيماً أى: و نوعا آخر من العذاب غير ما ذكر يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ انتصاب الظرف إما بذرنى، أو بالاستقرار المتعلّق به لدينا، أو هو صفة لعذاب فيتعلق بمحذوف، أى: عذابا واقعا يوم ترجف، أو متعلّق بأليما. قرأ الجمهور: تَرْجُفُ بفتح التاء و ضم الجيم مبنيا للفاعل، و قرأ زيد بن علىّ على البناء للمفعول، مأخوذ من أرجفها، و المعنى:

تتحرك و تضطرب بمن عليها، و الرجفة: الزلزلة و الرعدة الشديدة وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا أى:

و تكون الجبال، و إنما عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه، و الكثيب: الرمل المجتمع، و المهيل: الّذى يمرّ تحت الأرجل. قال الواحدى: أى رملا سائلا، يقال لكل شىء أرسلته إرسالا من تراب أو طعام: أهلته هيلا.

قال الضحاك و الكلبى: المهيل: الّذى إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، و إذا أخذت أسفله انهال، و منه قول حسان:

عرفت ديار زينب بالكثيب كخطّ الوحى فى الورق القشيب «٢»

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ الخطاب لأهل مكة، أو لكفار العرب، أو لجميع الكفار، و الرسول محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا يعنى موسى فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ الّذى أرسلناه إليه، و كذّبه، و لم يؤمن بما جاء به، و محل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف، و المعنى: إنا أرسلنا إليكم رسولا فعصيتموه، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا أى: شديدا ثقيلا غليظا، و المعنى: عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق؛ و فيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به؛ و إن اختلف نوع العقوبة. قال الزجاج: أى ثقيلا غليظا، و منه قيل للمطر: وابل. و قال الأخفش: شديدا، و المعنى متقارب، و منه طعام وبيل؛ إذا كان لا يستمرأ، و منه قول الخنساء:

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت فوارس مالك أكلا وبيلا

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ أى: كيف تقون أنفسكم إِنْ كَفَرْتُمْ أى: إن بقيتم على كفركم يَوْماً أى: عذاب يوم يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً لشدّة هوله، أى: يصير الولدان شيوخا، و الشيب: جمع أشيب، و هذا يجوز أن يكون حقيقة، و أنهم يصيرون كذلك، أو تمثيلا؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه، و ضعفت أعضاؤه، و صار كالشيخ فى الضعف و سقوط القوّة، و فى هذا تقريع لهم شديد و توبيخ عظيم. قال الحسن: أى كيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم، و كذا قرأ ابن مسعود و عطية، و «يوما» مفعول به لتتقون. قال ابن الأنبارى: و منهم من نصب اليوم بكفرتم، و هذا قبيح. و الولدان: الصبيان. ثم زاد فى

---

(١). الغاشية: ۶.

(٢). «الوحى»:- هنا- الكتابة. «القشيب»: الجديد.

وصف ذلك اليوم بالشدّة فقال: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ أى: متشققة به بشدّته و عظيم هوله، و الجملة صفة أخرى ليوم، و الباء سببية، و قيل: هى بمعنى فى، أى: منفطر فيه، و قيل: بمعنى اللام، أى: منفطر له، و إنما قال منفطر و لم يقل منفطرة لتنزيل السماء منزلة شى‌ء لكونها قد تغيرت، و لم يبق منها إلا ما يعبّر عنه بالشى‌ء.

و قال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطرة؛ لأن مجازها «١» السقف، كما قال الشاعر:

فلو رفع السّماء إليه قوما لحقنا بالسّماء و بالسّحاب

فيكون هذا كما فى قوله: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً و قال الفرّاء: السماء تذكّر و تؤنّث. و قال أبو علىّ الفارسى: هو من باب الجراد المنتشر، و الشجر الأخضر، و أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «٢» قال أيضا: أى السماء ذات انفطار كقولهم: امرأة مرضع، أى: ذات إرضاع على طريق النسب، و انفطارها لنزول الملائكة، كما قال: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ «٣» و قوله: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ «۴» و قيل: منفطر به، أى: باللّه، و المراد بأمره، و الأوّل أولى كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا أى:

و كان وعد اللّه بما وعد به من البعث و الحساب و غير ذلك كائنا لا محالة، و المصدر مضاف إلى فاعله، أو:

و كان وعد اليوم مفعولا، فالمصدر مضاف إلى مفعوله. و قال مقاتل: كان وعده أن يظهر دينه على الدّين كلّه.

و قد أخرج أحمد و مسلم و أبو داود و النسائى، و محمد بن نصر فى كتاب الصلاة، و البيهقى فى سننه، عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئينى عن قيام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، قالت: أ لست تقرأ هذه السورة يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ «۵» قلت: بلى، قالت:

فإن اللّه افترض قيام الليل فی أوّل هـذه السورة، فقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و أصحابه حولا حتی انتفخت أقدامهم، و أمسک اللّه خاتمتها فی السماء اثنی عشر شهرا، ثم أنزل التخفیف فی آخر هذه السورة، فصار قیام اللیل تطوّعا من بعد فرضه» و قد روی هذا الحدیث عنها من طرق.

و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن أبی حاتم و محمد بن نصر و الطبرانی، و الحاکم و صحّحه، و البیهقی فی سننه، عن ابن عباس قال: لما نزلت أوّل المزمل کانوا یقومون نحوا من قیامهم فی شهر رمضان حتی نزل آخرها، و کان بین أوّلها و آخرها نحو من سنة. و أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن نصر عن أبی عبد الرّحمن السّلمی قال: لما نزلت یا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قاموا حولا حتی و رمت أقدامهم و سوقهم حتی نزلت: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ «۶» فاستراح الناس. و أخرج أبو داود فی ناسخه، و ابن نصر و ابن مردویه، و البیهقی فی سننه، من طریق عکرمة عن ابن عباس قال: فی المزمل قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا- نِصْفَهُ نسختها الآیة التی فیها عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ و ناشئة اللیل أوّله.

کانت صلاتهم أوّل اللیل. یقول: هذا أجدر أن تحصوا ما فرض اللّه علیکم من قیام اللیل، و ذلک أن الإنسان

---

(۱). «مجازها»: معناها.

(۲). القمر: ۲۰.

(۳). الانفطار: ۱.

(۴). الشوری: ۵.

(۵). المزمل: ۱.

(۶). المزمل: ۲۰.

إذا نام لم یدر متی یستیقظ. و قوله: أَقْوَمُ قِيلًا هو أجدر أن یفقه قراءة القرآن، و قوله: إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا یقول: فراغا طویلا. و أخرج الحاکم و صحّحه، عنه فی قوله: یا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قال: زملت هذا الأمر فقم به. و أخرج ابن المنذر عنه فی الآیة أیضا قال: یتزمل «۱» بالثیاب. و أخرج الفریابی عن أبی صالح عنه أیضا وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا قال: تقرأ آیتین ثلاثا ثم تقطع لا تهدر. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید، و ابن منیع فی مسنده، و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و محمد بن نصر عنه أیضا وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا قال: بیّنه تبیینا. و أخرج العسکری فی المواعظ، عن علیّ بن أبی طالب مرفوعا نحوه.

و أخرج أحمد و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن نصر، و الحاکم و صحّحه، عن عائشة «أن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم کان إذا أوحی إلیه و هو علی ناقته وضعت جرانها، فما تستطیع أن تتحرک حتی یسرّی عنه، و تلت: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. و أخرج سعید بن منصور و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن نصر، و البیهقی فی سننه، عن ابن عباس فی قوله: إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ قال: قیام اللیل بلسان الحبشة، إذا قام الرجل قالوا:

نشأ. و أخرج البیهقی عنه قال ناشِئَةَ اللَّيْلِ أوّله. و أخرج ابن المنذر و ابن نصر عنه أیضا قال: اللیل کله ناشئة. و أخرج ابن أبی شیبة و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، عن ابن مسعود قال: ناشِئَةَ اللَّيْلِ بالحبشة قیام اللیل. و أخرج ابن أبی شیبة فی المصنف، و ابن نصر، و البیهقی فی سننه، عن أنس بن مالک قال: ناشِئَةَ اللَّيْلِ ما بین المغرب و العشاء. و أخرج عبد بن حمید و ابن نصر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاکم فی الکنی، عن ابن عباس فی قوله: إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا قال: السبح: الفراغ للحاجة و النوم. و أخرج أبو یعلی و ابن جریر و ابن المنذر، و الحاکم و صحّحه، و البیهقی فی الدلائل، عن عائشة قالت:

لما نزلت وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر. و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا قال: قيودا. و أخرج عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن عباس وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ قال: شجرة الزقوم. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه فى قوله: كَثِيباً مَهِيلًا قال: المهيل الّذى إذا أخذت منه شيئا تبعك آخره. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا كَثِيباً مَهِيلًا قال: الرمل السائل، و فى قوله: أَخْذاً وَبِيلًا قال: شديدا. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً قال: ذلك يوم القيامة، و ذلك يوم يقول اللّه لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار، قال: من كم يا ربّ؟ قال: من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعين، و ينجو واحد، فاشتدّ ذلك على المسلمين، فقال حين أبصر ذلك فى وجوههم: إن بنى آدم كثير، و إن يأجوج و مأجوج من ولد آدم، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل، ففيهم و فى أشباههم جنّة لكم». و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن

---

(١). فى الدر المنثور (٨/ ٣١٢): يتدثر.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٣٨٥

ابن عباس فى قوله: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ قال: ممتلئة، بلسان الحبشة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: مثقلة موقرة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال: يعنى تشقق السماء.

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١٩ الى ٢٠]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

الإشارة بقوله: إِنَّ هذِهِ إلى ما تقدّم من الآيات. و التذكرة: الموعظة، و الإشارة إلى جميع آيات القرآن، لا إلى ما فى هذه السورة فقط فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا أى: اتخذ بالطاعة التى أهم أنواعها التوحيد إلى ربّه طريقا توصله إلى الجنة إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ معنى أدنى: أقلّ، استعير له الأدنى لأن المسافة بين الشّيئين إذا دنت قلّ ما بينهما وَ نِصْفَهُ معطوف على أدنى وَ ثُلُثَهُ معطوف على نصفه، و المعنى: أن اللّه يعلم أن رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم يقوم أقلّ من ثلثى الليل، و يقوم نصفه، و يقوم ثلثه، و بالنصب قرأ ابن كثير و الكوفيون، و قرأ الجمهور: وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ بالجرّ، عطفا على ثلثى الليل، و المعنى: أن اللّه يعلم أن رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم يقوم أقلّ من ثلثى الليل، و أقلّ من نصفه، و أقلّ من ثلثه، و اختار قراءة الجمهور أبو عبيد و أبو حاتم لقوله: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فكيف يقومون نصفه و ثلثه و هم لا يحصونه.

و قال الفرّاء: القراءة الأولى أشبه بالصواب؛ لأنه قال: أقلّ من ثلثى الليل، ثم فسر القلة. وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ معطوف على الضمير فى تقوم، أى: و تقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ أى: يعلم مقادير الليل و النهار على حقائقها، و يختصّ بذلك دون غيره؛ و أنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: يريد لا يفوته علم ما تفعلون، أى: أنه

يعلم مقـادير الليـل و النهـار، فيعلم قـدر الّـذى تقومونه من الليـل عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ أن لن تطيقوا علم مقـادير الليل و النهار على الحقيقة، و فى «أن» ضمير شأن محذوف، و قيل المعنى: لن تطيقوا قيام الليل. قال القرطبى: و الأوّل أصحّ؛ فإن قيام الليل ما فرض كله قـط. قـال مقاتـل و غيره: لمـا نزل: قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا- نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا- أَوْ زِدْ عَلَيْهِ شقّ ذلك عليهم، و كان الرجل لا يـدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم و انتقعت ألوانهم، فرحمهم اللّه، و خفّف عنهم، فقـال: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ أى: علم أن لن تحصوه؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، و احتجتم إلى تكلّف ما ليس فرضا، و إن نقصتم شقّ ذلك عليكم فَتابَ عَلَيْكُمْ أى: فعاد عليكم بالعفو، و رخّص لكم فى ترك القيام. و قيل: فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم، و أصل التوبة: الرجوع، كما تقدّم؛ فالمعنى: رجع بكم من التثقيل إلى التخفيف، و من العسـر إلى اليسر فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ أى: فاقرؤوا فى الصلاة بالليل ما خفّ عليكم و تيسّر لكم منه؛

فتح القدير، ج۵، ص: ۳۸۶

من غير أن ترقبوا وقتا. قال الحسن: هو ما نقرأ فى صلاة المغرب و العشاء. قال السدّى: ما تيسّر منه هو مائة آية. قال الحسن: أيضا من قرأ مائـة آيـة فى ليلة لم يحاجه القرآن: و قال كعب: من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين، و قال سـعيد: خمسون آية، و قيل: معنى فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ فصلوا ما تيسّـر لكم من صـلاة الليل، و الصـلاة تسـمّى قرآنا كقوله: وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ «۱» قيل: إنّ هذه الآيـة نسـخت قيـام الليـل و نصـفه، و النقصـان من النصف، و الزيادة عليه. فيحتمل أن يكون ما تضـمّنته هـذه الآيـة فرضا ثابتا، و يحتمل أن يكون منسوخا لقوله: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «۲».

قال الشافعى: الواجب طلب الاستدلال بالسـنة على أحـد المعنيين، فوجدنا سـنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تدلّ على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس. و قد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ فى حقه صلّى اللّه عليه و سلّم و فى حق أمته. و قيل:

نسـخ التقدير بمقدار، و بقى أصل الوجوب. و قيل: إنه نسخ فى حق الأمة، و بقى فرضا فى حقه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و الأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم فى حقه صلّى اللّه عليه و سلّم و فى حق أمته، و ليس فى قوله: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ ما يدل على بقاء شـىء من الوجوب؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت فى صـلاة المغرب و العشاء و ما يتبعهما من النوافل المؤكدة، و إن كان المراد به الصـلاة من الليل؛ فقد وجدت صـلاة الليل بصلاة المغرب و العشاء و ما يتبعهما من التطوّع. و أيضا الأحاديث الصـحيحة المصرّحة بقول السائل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هل علىّ غيرها؟ يعنى الصلوات الخمس فقال: «لا، إلاـ أن تطوّع» تـدل على عـدم وجوب غيرهـا، فارتفع بهـذا وجوب قيام الليل و صـلاته على الأمـة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله:

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ «۳» قال الواحدى: قال المفسـرون فى قوله: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ كان هذا فى صدر الإسلام، ثم نسخ بالصـلوات الخمس عن المؤمنين، و ثبت على النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم خاصة، و ذلك قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ. ثم ذكر سبحانه عـذرهم فقـال: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى فلاـ يطيقـون قيـام الليـل وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أى: يسـافرون فيهـا للتجـارة و الأرباح يطلبون من رزق اللّه ما يحتاجون إليه فى معاشـهم، فلا يطيقون قيام الليل وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يعنى المجاهـدين فلا يطيقون قيام الليل. ذكـر سـبحانه ها هنا ثلاثة أسـباب مقتضـية للترخيص، و رفع وجوب قيام الليل، فرفعه عن جميع الأمـة لأجل هذه الأعذار التى تنوب بعضـهم. ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ و قد سبق تفسيره قريبـا، و التكرير للتأكيـد وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ يعنى المفروضـة، و هى الخمس لوقتهـا وَ آتُوا الزَّكاةَ يعنى الواجبـة فى الأـموال. و قـال الحارث العكلى: هى صدقـة الفطر؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعـد ذلك، و قيل: صدقـة التطوّع، و قيل: كل أفعال الخير وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أى: أنفقوا فى سبيل الخير من أموالكم إنفاقا حسنا. و قد مضى تفسيره فى سورة الحديد.

قال زيد بن أسلم: القرض الحسن: النفقة على الأهل، و قيل: النفقة فى الجهاد، و قيل: هو إخراج الزكاة

---

(١). الإسراء: ٧٨.

(٢). الإسراء: ٧٩.

(٣). الإسراء: ٧٩.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٨٧

المفترضة على وجه حسن، فيكون تفسيرا لقوله: وَ آتُوا الزَّكاةَ و الأوّل أولى لقوله: وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ فإن ظاهره العموم، أى: أىّ خير كان ممّا ذكر و ممّا لم يذكر هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً مما تؤخّرونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج بعد موتكم، و انتصاب خيرا على أنه ثانى مفعولى تجدوه، و ضمير هو ضمير فصل، و بالنصب قرأ الجمهور، و قرأ أبو السّمّال و ابن السّميقع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ، و خير خبره، و الجملة فى محل نصب على أنها ثانى مفعولى تجدوه، قال أبو زيد: و هى لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل، و أنشد سيبويه:

تحنّ إلى ليلى و أنت تركتهاو كنت عليها بالملاء أنت أقدر

و قرأ الجمهور أيضا: وَ أَعْظَمَ بالنصب عطفا على خيرا: و قرأ أبو السّمّال و ابن السّميقع بالرفع، كما قرأ برفع خَيْرٍ و انتصاب أَجْراً على التميز وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ أى: اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم؛ فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الطبرانى عن ابن عباس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ قال: مائة آية. و أخرج الدار قطنى، و البيهقى فى سننه، و حسّناه، عن قيس بن أبى حازم قال: «صليت خلف ابن عباس، فقرأ فى أوّل ركعة بالحمد للّه ربّ العالمين، و أوّل آية من البقرة ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال: إن اللّه يقول: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ قال ابن كثير: و هذا حديث غريب جدّا، لم أره إلّا فى معجم الطبرانى. و أخرج أحمد، و البيهقى فى سننه، عن أبى سعيد قال: «أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نقرأ بفاتحة الكتاب و ما تيسّر». و قد قدّمنا فى البحث الأول من هذه السورة ما روى أن هذه الآيات المذكورة هنا هى الناسخة لوجوب قيام الليل، فارجع إليه.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٨٨

سورة المدّثّر

اشارة

و هى مكية بلا خلاف و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدثر بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و سيأتى أن أوّل هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٣٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ (۴)
وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)
عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (١٢) وَ بَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١۴)
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١۵) كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (١۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢۴)
إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢۵) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢۶) وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩)
عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)

قال الواحدى: قال المفسرون: لما بدئ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالوحى أتاه جبريل، فرآه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على سرير بين السماء و الأرض كالنور المتلألئ، ففزع و وقع مغشيّا عليه، فلما أفاق دخل على خديجة و دعا بماء فصبّه عليه، و قال: «دثرونى دثرونى» فدثروه بقطيفة، فقال: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ- قُمْ فَأَنْذِرْ و معنى يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ: يا أيها الّذى قد تدثّر بثيابه، أى: تغشّى بها، و أصله المتدثر، فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما. و قد قرأ الجمهور بالإدغام، و قرأ أبيّ «المتدثر» على الأصل، و الدثار: هو ما يلبس فوق الشعار، و الشعار: هو الّذى على الجسد، و قال عكرمة: المعنى يا أيها المدّثّر بالنبوّة و أثقالها. قال ابن العربى: و هذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبيا إذ ذاك. قُمْ فَأَنْذِرْ أى: انهض فخوّف أهل مكة، و حذّرهم العذاب إن لم يسلموا، أو قم من مضجعك، أو قم قيام عزم و تصميم. و قيل: الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوّته، و قيل:
إعلامهم بالتوحيد. و قال الفراء: المعنى قم فصّل و أمر بالصلاة وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ أى: و اختصّ سيدك و مالكك و مصلح أمورك بالتكبير، و هو وصفه سبحانه بالكبرياء و العظمة، و أنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار، و أعظم من أن يكون له صاحبة، أو ولد. قال ابن العربى: المراد به تكبير التقديس و التنزيه بخلع الأضداد و الأنداد و الأصنام، و لا يتخذ وليا غيره، و لا يعبد سواه، و لا يرى لغيره فعلا إلا له، و لا نعمة إلا منه. قال الزجاج: إن الفاء فى «فكبر» دخلت على معنى الجزاء كما دخلت فى «فأنذر». و قال ابن جنى: هو كقولك زيدا فاضرب، أى: زيدا اضرب، فالفاء زائدة وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ المراد بها الثياب

فتح القدير، ج۵، ص: ٣٨٩

الملبوسة على ما هو المعنى اللغوى، أمره اللّه سبحانه بتطهير ثيابه و حفظها عن النجاسات، و إزالة ما وقع فيها منها، و قيل: المراد بالثياب العمل، و قيل: القلب، و قيل: النفس، و قيل: الجسم، و قيل: الأهل، و قيل:
الدين، و قيل: الأخلاق. قال مجاهد و ابن زيد و أبو رزين: أى عملك فأصلح. و قال قتادة: نفسك فطهّر من الذنب، و الثياب عبارة عن النفس. و قال سعيد بن جبير: قلبك فطهر، و من هذا قول امرئ القيس:
فسلّى ثيابى من ثيابك تنسل «١» و قال عكرمة: المعنى البسها على غير غدرة و غير فجرة «٢». و قال: أما سمعت قول الشاعر:
فإنّى بحمد اللّه لا ثوب فاجرلبست و لا من غدرة أتقنّع
و الشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفى. و من إطلاق الثياب على النفس قول عنترة:
فشككت بالرّمح الطّويل ثيابهليس الكريم على القنا بمحرّم
و قول الآخر «٣»:
ثياب بنى عوف طهارى نقيّة «۴» و قال الحسن و القرظى: إن المعنى: و أخلاقك فطهر؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه، و منه قول الشاعر:

و يحيى لا يلام بسوء خلقو يحيى طاهر الأثواب حرّ

و قال الزجاج: المعنى و ثيابك فقصر؛ لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجرّ على الأرض، و به قال طاوس، و الأوّل أولى لأنه المعنى الحقيقى. و ليس فى استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدلّ على أنه المراد عند الإطلاق، و ليس فى مثل هذا الأصل، أعنى: الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف، و فى الآية دليل على وجوب طهارة الثياب فى الصلاة وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ الرجز معناه فى اللغة:

العذاب، و فيه لغتان كسر الراء و ضمّها، و سمّى الشرك و عبادة الأوثان رجزا لأنها سبب الرجز. قرأ الجمهور: الرجز بكسر الراء. و قرأ الحسن و مجاهد و عكرمة و حفص و ابن محيصن بضمها. و قال مجاهد و عكرمة: الرّجز الأوثان كما فى قوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ و به قال ابن زيد. و قال إبراهيم النخعى: الرجز: المأثم، و الهجر: الترك. و قال قتادة: الرجز: إساف و نائلة، و هما صنمان كانا عند البيت. و قال أبو العالية و الربيع و الكسائى: الرجز بالضم الوثن و بالكسر العذاب. و قال السدى: الرّجز بضم الراء الوعيد، و الأوّل أولى وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ قرأ الجمهور لا تَمْنُنْ بفك الإدغام، و قرأ الحسن

---

(١). و صدر البيت: و إن كنت قد ساءتك منّى خليقة.

(٢). «الفجرة»: الكذبة العظيمة.

(٣). هو ابن أبى كبشة، و ينسب لامرئ القيس.

(۴). و عجز البيت: و أوجههم بيض المسافر غرّان.

و أبو اليمان «١» و الأشهب العقيلى بالإدغام، و قرأ الجمهور: تَسْتَكْثِرُ بالرفع على أنه حال، أى: و لا تمنن حال كونك مستكثرا، و قيل: على حذف أن، و الأصل: و لا تمنن أن تستكثر، فلما حذفت رفع. قال الكسائى: فإذا حذف أن رفع الفعل. و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش تَسْتَكْثِرُ بالنصب؛ على تقدير أن و بقاء عملها، و يؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود «و لا تمنن أن تستكثر» بزيادة أن. و قرأ الحسن أيضا و ابن أبى عبلة تَسْتَكْثِرُ بالجزم على أنه بدل من تمنن كما فى قوله: يَلْقَ أَثاماً- يُضاعَفْ لَهُ «٢»، و قول الشاعر:

متى تأتنا تلمّم بنا فى ديارناتجد حطبا جزلا و نارا تأجّجا

أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف، كما فى قول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما «٣» من اللّه و لا واغل

بتسكين أشرب. و قد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله «تستكثر» لا يصح أن يكون بدلا من «تمنن»، لأن المنّ غير الاستكثار، و لا يصح أن يكون جوابا للنهى.

و اختلف السلف فى معنى الآية، فقيل: المعنى: لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوّة كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير، و قيل: لا تعط عطية تلتمس فيها أفضل منها، قاله عكرمة و قتادة. قال الضحاك:

هذا ما حرّمه اللّه على رسوله؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب و أجلّ الأخلاق، و أباحه لأمته. و قال مجاهد:

لا تضعف أن تستكثر من الخير، من قولك: «حبل متين» إذا كان ضعيفا. و قال الربيع بن أنس: لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير. و قال ابن كيسان: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك منّة من اللّه عليك؛ إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته. و قيل: لا تمنن بالنبوّة و القرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثر به. و قال محمد بن كعب: لا تعط مالك مصانعة. و

قال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطيۀ فأعطها لربک. وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ أی: لوجه ربک فاصبر علی طاعته و فرائضه، و المعنی: لأجل ربک و ثوابه.

و قال مقاتل و مجاهد: اصبر علی الأذی و التکذیب. و قال ابن زید: حمّلت أمرا عظیما فحاربتک العرب و العجم؛ فاصبر علیه للّه. و قیل: اصبر تحت موارد القضاء للّه، و قیل: فاصبر علی البلوی، و قیل: علی الأوامر و النواهی. فَإِذا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ الناقور: فاعول من النقر، کأنه من شأنه أن ینقر فیه للتصویت، و النقر فی کلام العرب: الصوت، و منه قول امرئ القیس:

أخفّضه بالنّقر لمّا علوته «۴»

(۱). فی تفسیر القرطبی: أبو السّمال.

(۲). الفرقان: ۶۸- ۶۹.

(۳). «استحقب الإثم»: ارتکبه.

(۴). و عجز البیت: و یرفع طرفا غیر خاف غضیض.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۳۹۱

و یقولون: نقّر باسم الرجل إذا دعاه، و المراد هنا النفخ فی الصور، و المراد النفخۀ الثانیۀ، و قیل: الأولی، و قد تقدّم الکلام فی هذا فی سورۀ الأنعام و سورۀ النحل، و الفاء للسببیۀ، کأنه قیل: اصبر علی أذاهم، فبین أیدیهم یوم هائل یلقون فیه عاقبۀ أمرهم، و العامل فی «إذا» ما دلّ علیه قوله: فَذلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِیرٌ- عَلَی الْکافِرِینَ فإن معناه عسر الأمر علیهم، و قیل: العامل فیه ما دلّ علی فَذلِکَ لأنه إشارۀ إلی النقر، و «یومئذ» بدل من «إذا»، أو مبتدأ و خبره «یوم عسیر»، و الجملۀ خبر فذلک، و قیل: هو ظرف للخبر؛ لأن التقدیر وقوع یوم عسیر، و قوله: غَیْرُ یَسِیرٍ تأکید لعسره علیهم؛ لأن کونه غیر یسیر قد فهم من قوله: «یوم عسیر». ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً أی: دعنی، و هی کلمۀ تهدید و وعید، و المعنی:

دعنی و الّذی خلقته حال کونه وحیدا فی بطن أمه لا مال له و لا ولد، هذا علی أن «وحیدا» منتصب علی الحال من الموصول، أو من الضمیر العائد إلیه المحذوف، و یجوز أن یکون حالا من الیاء فی «ذرنی»، أی:

دعنی وحدی معه، فإنی أکفیک فی الانتقام منه، و الأوّل أولی. قال المفسرون: و هو الولید بن المغیرۀ. قال مقاتل: یقول: خلّ بینی و بینه فأنا أنفرد بهلکته، و إنما خصّ بالذکر لمزید کفره و عظیم جحوده لنعم اللّه علیه، و قیل: أراد بالوحید الّذی لا یعرف أبوه، و کان یقال فی الولید بن المغیرۀ: إنه دعیّ. وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً أی: کثیرا، أو یمدّ بالزیادۀ و النماء شیئا بعد شیء. قال الزجاج: مالا غیر منقطع عنه، و قد کان الولید بن المغیرۀ مشهورا بکثرۀ المال علی اختلاف أنواعه، قیل: کان یحصل له من غلّۀ أمواله ألف ألف دینار، و قیل: أربعۀ آلاف دینار، و قیل: ألف دینار. وَ بَنِینَ شُهُوداً أی: و جعلت له بنین حضورا بمکۀ معه لا یسافرون و لا یحتاجون إلی التفرّق فی طلب الرزق؛ لکثرۀ مال أبیهم. قال الضحاک: کانوا سبعۀ ولدوا بمکۀ. و خمسۀ ولدوا بالطائف. و قال سعید بن جبیر: کانوا ثلاثۀ عشر ولدا. و قال مقاتل: کانوا سبعۀ کلهم رجال، أسلم منهم ثلاثۀ خالد و هشام و الولید بن الولید، فما زال الولید بعد نزول هذه الآیۀ فی نقصان من ماله و ولده حتی هلک. و قیل: معنی شهودا أنه إذا ذکر ذکروا معه، و قیل: کانوا یشهدون معه ما کان یشهده، و یقومون بما کان یباشره. وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِیداً أی: بسطت له فی العیش و طول العمر و الریاسۀ فی قریش، و التمهید عند العرب: التوطئۀ، و منه: مهد الصبیّ. و قال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض کما یمهد الفراش ثُمَّ یَطْمَعُ أَنْ أَزِیدَ أی: یطمع بعد هذا کلّه فی الزیادۀ لکثرۀ حرصه و شدۀ طمعه مع کفرانه للنعم و إشراکه باللّه. قال الحسن: ثمّ یطمع أن أدخله الجنۀ، و کان یقول: إن کان محمد صادقا فما خلقت الجنۀ إلا لی. ثم ردعه اللّه سبحانه و زجره فقال: کَلَّا أی: لست أزیده. ثم علّل ذلک بقوله: إِنَّهُ کانَ لِآیاتِنا عَنِیداً أی: معاندا لها کافرا بما أنزلناه منها علی رسولنا. یقال: عند

يعنـد بالكسـر إذا خالف الحق و ردّه، و هو يعرفه، فهو عنيد و عاند، و العاند: البعير الّذى يجور عن الطريق و يعدل عن القصد، و منه قول الحارثىّ:

إذا ركبت فاجعلانى وسطاإنّى كبير لا أطيق العنّدا

قال أبو صالح: «عنيدا» معناه مباعدا. و قال قتادة: جاحدا، و قال مقاتل: معرضا. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٩٢

أى: سأكلّفه مشقّة من العذاب، و هو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الّذى لا يطاق، و قيل:

المعنى: إنه يكلف أن يصعد جبلا من نار، و الإرهاق فى كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشىء الثقيل.

و جملة: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ تعليل لما تقدّم من الوعيد، أى: إنه فكّر فى شأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و ما أنزل عليه من القرآن، و قدّر فى نفسه، أى: هيّأ الكلام فى نفسه، و العرب تقول: هيأت الشىء؛ إذا قدّرته، و قدرت الشىء؛ إذا هيأته، و ذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه، و قـدّر فى نفسه ما يقول، فـذمّه اللّه و قال: فَقُتِلَ كَيْفَ قَـدَّرَ أى: لعن و عذّب كيف قدّر، أى: على أىّ حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال فى الكلام: لأضربنه كيف صنع، أى: على أىّ حال كانت منه، و قيل: المعنى: قهر و غلب كيف قدّر، و منه قول الشاعر «١»:

و ما ذرفت عيناك إلا لتضربىبسهميك فى أعشار قلب مقتّل

و قال الزهرى: عـذّب، و هو من باب الـدعاء عليه. و التكرير فى قوله: ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ للمبالغة و التأكيد ثُمَّ نَظَرَ أى: بأىّ شـىء يـدفع القرآن و يقـدح فيه، أو فكّر فى القرآن و تـدبّر مـا هو ثُمَّ عَبَسَ أى: قطّب وجهه لمّـا لم يجـد مطعنا يطعن به فى القرآن، و العبس: مصـدر عبس مخفّفـا يعبس عبسا و عبوسا؛ إذا قطّب، و قيل: عبس فى وجوه المؤمنين، و قيل: عبس فى وجه النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم وَ بَسَرَ أى: كلح وجهه و تغيّر، و منه قول الشاعر «٢»:

صبحنا تميما غداة الجفاربشهباء ململومة بأسره «٣»

و قول الآخر «٤»:

و قد رابنى منها صدود رأيتهو إعراضها عن حاجتى و بسورها

و قيل: إن ظهور العبوس فى الوجه يكون بعد المحاورة، و ظهور البسور فى الوجه قبلها، و العرب تقول:

وجه باسـر؛ إذا تغير و اسودّ. و قال الراغب: البسـر: استعجال الشرّ قبل أوانه، نحو بسر الرجل حاجته، أى: طلبها فى غير أوانها. قال: و منه قوله: عَبَسَ وَ بَسَرَ أى: أظهر العبوس قبل أوانه و قبل وقته، و أهل اليمن يقولون: بسر المركب و أبسر، أى: وقف لا يتقدّم و لا يتأخر، و قـد أبسـرنا، أى: صـرنا إلى البسور ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ أى: أعرض عن الحقّ، و ذهب إلى أهله، و تعظّم عن أن يؤمن، فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ أى: يأثره عن غيره و يرويه عنه. و السّحر: إظهار الباطل فى صورة الحقّ، أو

---

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). هو بشر بن أبى خازم.

(٣). «الجفار»: اسم موضع. «ململومة»: مجتمعة.

(٤). هو توبة بن الحمير.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٩٣

الخديعة؛ على ما تقدّم بيانه فى سورة البقرة، يقال: أثرت الحديث آثره؛ إذا ذكرته عن غيرك، و منه قول الأعشى:

إنّ الّذى فيه تماريتمابيّن للسّامع و الآثر

إِنْ هـذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَـرِ يعنى أنه كلام الإنس، و ليس بكلام اللّه، و هو تأكيـد لما قبله، و سيأتى أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة، و أن عليه طلاوة إلى آخر كلامه.

و لما قال هذا القول الّذى حكاه اللّه عنه قال اللّه عزّ و جلّ: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ أى: سأدخله النار، و سقر من أسماء النار، و من دركات جهنم، و قيل: إن هـذه الجملـة بـدل من قوله: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ثم بالغ سبحانه فى وصف النار و شدة أمرها فقال: وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ أى: و مـا أعلمـك أى شـىء هى؟ و العرب تقول: و مـا أدراك ما كـذا؛ إذا أرادوا المبالغـة فى أمره و تعظيم شأنه و تهويل خطبه، و «ما» الأولى مبتدأ، و جملة «ما سـقر» خبر المبتدأ. ثم فسّر حالها فقال: لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ و الجملة مستأنفة لبيان حال سقر، و الكشف عن وصـفها، و قيـل: هى فى محل نصب على الحال، و العامل فيها معنى التعظيم، لأن قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ يـدلّ على التعظيم، فكأنه قال: استعظموا سـقر فى هذه الحال، و الأوّل أولى، و مفعول الفعلين محذوف. قال السدّى: لا تبقى لهم لحما و لا تذر لهم عظما. و قال عطاء: لا تبقى من فيها حيّا و لا تذره ميتا، و قيل: هما لفظان بمعنى واحد، كرّرا للتأكيد، كقولك: صدّ عنى، و أعرض عنى. لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ قرأ الجمهور: لَوَّاحَةٌ بالرفع على أنه خبر مبتـدأ محـذوف، و قيل: على أنه نعت لسـقر، و الأوّل أولى و قرأ الحسـن و عطيـة العـوفى و نصـر بن عـاصم و عيسـى بن عمر و ابن أبى عبلـة و زيـد بن علىّ بـالنصب على الحـال أو الاختصـاص للتهويـل، لاـح يلـوح، و المعنى: أنهـا تظهر للبشـر. قـال الحسن: تلوح لهم جهنم حـتى يرونهـا عيانـا كقوله: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى «١» و قيل: معنى لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ أى: مغيرة لهم و مسوّدة. قال مجاهد: و العرب تقول: لاحه الحرّ و البرد و السّقم و الحزن؛ إذا غيره، و هذا أرجح من الأوّل؛ و إليه ذهب جمهور المفسرين، و منه قول الشاعر:

و تعجب هند أن رأتنى شاحباتقول لشىء لوّحته السّمائم «٢»

أى: غيرته. و منه قول رؤبة بن العجّاج:

لوّح منه بعد بدن و سنقتلويحك الضّامر يطوى للسّبق «٣»

---

(١). النازعات: ٣٦.

(٢). «السمائم»: جمع سموم، و هى الريح الحارّة.

(٣). «البدن»: السمن و اكتناز اللحم. «السنق»: الشبع حتى يكون كالتخمة. «الضامر»: الفرس. «يطوى»: يجوع.

و قال الأخفش: المعنى أنها معطّشة للبشر، و أنشد:

سقتنى على لوح من الماء شربةسقاها به اللّه الرّهام الغواديا «١»

و المراد بالبشـر إمـا جلـدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر، أو المراد به أهل النار من الإنس كما قال الأخفش، عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ قال المفسـرون: يقول: على النار تسـعة عشـر من الملائكة هم خزنتها، و قيل: تسـعة عشر صنفا من أصناف الملائكة، و قيل: تسعة عشر صفّا من صفوفهم، و قيل: تسعة عشر نقيبا، مع كل نقيب جماعة من الملائكة، و الأوّل أولى. قال الثعلبى: و لا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق. قرأ الجمهور: تِسْعَةَ عَشَرَ بفتح الشين من عشر. و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و طلحة بن سليمان بإسكانها.

و قد أخرج البخارى و مسـلم و غيرهما عن جابر بن عبد اللّه أن أبا سـلمة بن عبد الرّحمن قال: إن أوّل ما نزل من القرآن: يا أَيُّهَا

الْمُدَّثِّرُ فقال له يحيى بن أبى كثير: يقولون: إن أوّل ما نزل: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ «٢» فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد اللّه عن ذلك، قلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحدّثنك إلا ما حدّثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «جاورت بحراء؛ فلما قضيت جوارى هبطت، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا، و نظرت عن شمالى فلم أر شيئا، و نظرت خلفى فلم أر شيئا، فرفعت رأسى فإذا الملك الّذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء و الأرض، فجثيت منه رعبا، فرجعت فقلت: دثّرونى فدثّرونى، فنزلت: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ إلى قوله: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ و سيأتى فى سورة اقرأ ما يدل على أنها أوّل سورة أنزلت، و الجمع ممكن. و أخرج الحاكم و صحّحه؛ عن ابن عباس يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فقال: دثر هذا الأمر، فقم به. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ فقال: النائم وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال: لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب باطل وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ قال: الأصنام وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ قال: لا تعط تلتمس بها أفضل منها. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال:

من الإثم. قال: و هى فى كلام العرب نقىّ الثياب. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال:

من الغدر، لا تكن غدّارا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن الأنبارى و ابن مردويه عن عكرمة عنه أيضا أنه سئل عن قوله: وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ قال: لا تلبسها على غدرة، ثم قال: ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة:

فإنّى بحمد اللّه لا ثوب فاجرلبست و لا من غدرة أتقنّع

---

(١). «اللوح»: شدة العطش. «الرهام»: جمع رهمة و هى المطرة الضعيفة.

(٢). العلق: ١.

و أخرج الطبرانى، و البيهقى فى سننه، عنه أيضا: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ قال: لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عنه أيضا: فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ قال:

الصور يَوْمٌ عَسِيرٌ قال: شديد. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً قال الوليد بن المغيرة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عنه أيضا: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له، و أنك كاره له، قال: و ماذا أقول؟ فو اللّه ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه و لا بقصيده و لا بأشعار الجن، و اللّه ما يشبه هذا الّذى يقول شيئا من هذا، و اللّه إن لقوله الّذى يقول لحلاوة، و إن عليه لطلاوة و إنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، و إنه ليعلو و ما يعلى، و إنه ليحطم ما تحته؛ قال: و اللّه لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنى حتى أفكّر، فلما فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. و قد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلا، و كذا أخرجه ابن جرير و ابن إسحاق و ابن المنذر و غير واحد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله: وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً قال: غلة شهر بشهر. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً قال: ألف دينار. و أخرج هناد عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً قال: هو جبل فى النار يكلفون أن يصعدوا فيه، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت، فإذا رفعوها عادت كما كانت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس عَنِيداً قال: جحودا.

و أخرج أحمد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى سعيد عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الصعود جبل فى النار؛ يصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ثم يهوى و هو كذلك فيه أبدا». قال الترمذى بعد إخراجه: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن درّاج.

قال ابن كثير: و فيه غرابة و نكارة، انتهى. و قد أخرجه جماعة من قول أبى سعيد. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: صَعُوداً صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. و أخرج ابن المنذر عنه قال:

جبل فى النار. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ قال: لا تبقى منهم شيئا، و إذا بدّلوا خلقا آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأوّل. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ قال: تلوح الجلد فتحرقه و تغيّر لونه، فيصير أسود من الليل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا:

لَوَّاحَةٌ قال: محرقة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن البراء: أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن خزنة جهنم، فقال: اللّه و رسوله أعلم، فجاء جبريل، فأخبر النبىّ، فنزلت عليه ساعتئذ عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٩٦

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣١ الى ٣٧]

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَ ما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَ الْقَمَرِ (٣٢) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥)

نَذِيراً لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

لما نزل قوله سبحانه: عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر و أنتم الدّهم «١»، أ فيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار؟

فقال أبو الأشدّ، و هو رجل من بنى جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة، فأنا أمشى بين أيديكم، فأدفع عشرة بمنكبى الأيمن و تسعة بمنكبى الأيسر و نمضى ندخل الجنة، فأنزل اللّه: وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً يعنى: ما جعلنا المدبّرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة؟

و من يغلبهم؟ فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم؟ و قيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجنّ و الإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة و الرأفة، و قيل: لأنهم أقوم خلق اللّه بحقه و الغضب له، و أشدهم بأسا و أقواهم بطشا وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً أى: ضلالة لِلَّذِينَ استقلوا عددهم، و محنة لهم، و المعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور فى القرآن إلا ضلالة و محنة لهم، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، و يكثر غضب اللّه عليهم. و قيل: معنى إلا فتنة إلا عذابا؛ كما فى قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «٢» أى: يعذبون، و اللام فى قوله: لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ متعلّق بجعلنا، و المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم.

قاله قتادة و الضحاك و مجاهد و غيرهم، و المعنى: أن اللّه جعل عدّة الخزنة هذه العدّة ليحصل اليقين لليهود و النصارى بنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لموافقة ما فى القرآن لما فى كتبهم وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً و قيل: المراد الذين آمنوا من أهل

الكتاب كعبد اللّه بن سلام، و قيل: أراد بالذين آمنوا: المؤمنين من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: ليزدادوا يقينا إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم، و جملة: وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ مقرّرة لما تقدّم من الاستيقان و ازدياد الإيمان، و المعنى: نفى الارتياب عنهم فى الدين، أو: فى أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر، و لا ارتياب فى الحقيقة من المؤمنين، و لكنه من باب التعريض لغيرهم ممن فى قلبه شك وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا المراد بالذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون، و السورة و إن كانت مكية و لم يكن إذ ذاك نفاق، فهو إخبار بما سيكون فى المدينة، أو المراد بالمرض مجرّد حصول الشكّ و الريب، و هو كائن فى الكفار. قال الحسين بن الفضل: السورة مكية و لم يكن بمكة نفاق، فالمرض فى هذه الآية الخلاف، و المراد بقوله: وَ الْكافِرُونَ كفار العرب من أهل

---

(١). «الدهم»: العدد الكثير.

(٢). الذاريات: ١٣.

مكة و غيرهم، و معنى ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا أىّ شى‌ء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل. قال الليث: المثل: الحديث، و منه قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ* «١» أى: حديثها و الخبر عنها كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ أى: مثل ذلك الإضلال المتقدّم ذكره، و هو قوله: وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ من عباده، و الكاف نعت مصدر محذوف وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ من عباده، و المعنى: مثل ذلك الإضلال للكافرين و الهداية للمؤمنين يضلّ اللّه من يشاء إضلاله و يهدى من يشاء هدايته. و قيل: المعنى: كذلك يضلّ اللّه عن الجنة من يشاء و يهدى إليها من يشاء وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ أى: ما يعلم عدد خلقه و مقدار جموعه من الملائكة و غيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد. و قال عطاء: يعنى من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدّتهم إلا اللّه، و المعنى:

أن خزنة النار و إن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان و الجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا اللّه سبحانه. ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال: وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ أى: و ما سقر و ما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة و موعظة للعالم، و قيل: وَ ما هِيَ أى: الدلائل و الحجج و القرآن إلا تذكرة للبشر. و قال الزجاج: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة، و هو بعيد. و قيل: ما هى أى عدّة خزنة جهنم إلا تذكرة للبشر؛ ليعلموا كمال قدرة اللّه و أنه لا يحتاج إلى أعوان و أنصار. و قيل: الضمير فى وَ ما هِيَ يرجع إلى الجنود. ثم ردع سبحانه المكذبين و زجرهم فقال: كَلَّا وَ الْقَمَرِ قال الفراء: كلا صلة للقسم. التقدير: أى و القمر، و قيل: المعنى: حقا و القمر. قال ابن جرير: و المعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم، أى: ليس الأمر كما يقول، ثم أقسم على ذلك بالقمر و بما بعده، و هذا هو الظاهر من معنى الآية وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ أى ولى. قرأ الجمهور: إذا بزيادة الألف، دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان، و قرأ نافع و حفص و حمزة: إِذْ بدون ألف، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان، و دبر و أدبر لغتان، كما يقال: أقبل، و قبل الزمان، يقال: دبر الليل و أدبر؛ إذا تولى ذاهبا وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ أى: أضاء و تبين إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ هذا جواب القسم، و الضمير راجع إلى سقر، أى: إنّ سقر لإحدى الدواهى أو البلايا الكبر، و الكبر: جمع كبرى، و قال مقاتل: إن الكبر اسم من أسماء النار، و قيل:

إنها أى: تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر، و قيل: إن قيام الساعة لإحدى الكبر، و منه قول الشاعر:

يا ابن المعلّى نزلت إحدى الكبرداهية الدّهر و صمّاء الغير

قرأ الجمهور: لَإِحْدَى بالهمزة، و قرأ نصر بن عاصم و ابن محيصن و ابن كثير فى رواية عنه: إنها لحدى بدون همزة. و قال

الكلبى: أراد بالكبر دركات جهنم و أبوابها نَذِيراً لِلْبَشَرِ انتصاب نذيرا على الحال من الضـمير فى إنها، قاله الزجاج. و روى عنه و عن الكسائى و أبى علىّ الفارسى أنه حال من قوله:

قُمْ فَأَنْذِرْ أى: قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيرا للبشر. و قال الفراء: هو مصدر بمعنى الإنذار

---

(١). الرعد: ٣٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٣٩٨

منصوب بفعل مقدّر، و قيل: إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التعظم؛ كأنه قيل: أعظم الكبر إنذارا، و قيل: إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور فى أوّل السورة، و قيل: منصوب بإضمار أعنى، و قيل:

منصوب بتقدير: ادع، و قيل: منصوب بتقدير: ناد أو بلغ، و قيل: إنه مفعول لأجله، و التقدير: و إنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر. قرأ الجمهور بالنصب، و قرأ أبىّ بن كعب و ابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هى نذير، أو هو نذير.

و قد اختلف فى النذير، فقال الحسن: هى النار، و قيل: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال أبو رزين: المعنى أنا نذير لكم منها، و قيل: القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد و الوعيد لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ هو بدل من قوله للبشر، أى: نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الطاعة أو يتأخر عنها، و المعنى: أن الإنذار قد حصل لكل من آمن و كفر، و قيل: فاعل المشيئة هو اللّه سبحانه، أى: لمن شاء أن يتقدّم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر، و الأوّل أولى. و قال السدّى: لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخّر إلى الجنة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما سمع أبو جهل عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ. قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر و أنتم الدّهم «١»، أ فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟. و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا قال: قال أبو الأشدّ: خلوا بينى و بين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤونتهم، قال: و حدّثت أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم وصف خزّان جهنم فقال: «كأن أعينهم البرق، و كأن أفواههم الصّياصى، يجرّون أشعارهم، لهم مثل قوّة الثقلين، يقبل أحدهم بالأمّة من الناس يسوقهم و على رقبته جبل حتى يرمى بهم فى النار فيرمى بالجبل عليهم». و أخرج الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ عن أبى سعيد الخدرى: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حدّثهم عن ليلة أسرى به قال: «فصعدت أنا و جبريل إلى السماء الدنيا، فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل و هو صاحب سماء الدنيا و بين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف، و تلا هذه الآية: وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ». و أخرج أحمد عن أبى ذر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أطّت السماء و حقّ لها أن تئط، ما فيها موضع إصبع إلا عليه ملك ساجد». و أخرجه الترمذى و ابن ماجة. قال الترمذى:

حسن غريب، و يروى عن أبى ذرّ موقوفا.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: إِذْ أَدْبَرَ قال: دبور ظلامه. و أخرج مسدّد فى مسنده و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: سألت ابن عباس عن قوله: وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ فسكت عنى حتى إذا كان من آخر الليل و سمع الأذان نادانى: يا مجاهد هذا حين دبر الليل. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ قال: من شاء اتبع طاعة اللّه، و من شاء تأخّر عنها.

---

(١). «الدهم»: أى العدد الكثير و الشجعان.

فتح القدير، ج‏5، ص: 399

[سورة المدثر (74): الآيات 38 الى 56]

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)

قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (45) وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47)

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52)

كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَ ما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

قوله: كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ أي: مأخوذة بعملها و مرتهنة به، إما خلّصها و إما أوبقها، و الرهينة: اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، و ليست صفة، و لو كانت صفة لقيل: رهين؛ لأن فعيلا يستوى فيه المذكر و المؤنث، و المعنى: كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.

و اختلف في تعيينهم، فقيل: هم الملائكة، و قيل: المؤمنون، و قيل: أولاد المسلمين، و قيل: الذين كانوا عن يمين آدم، و قيل: أصحاب الحقّ، و قيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، و قيل: هم الذين اختارهم اللّه لخدمته، فِي جَنَّاتٍ هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و الجملة استئناف جوابا عن سؤال نشأ مما قبله، و يجوز أن يكون في جنات حالا من أصحاب اليمين، و أن يكون حالا- من فاعل يتساءلون، و أن يكون ظرفا ليتساءلون، و قوله: يَتَساءَلُونَ يجوز أن يكون على بابه، أي: يسأل بعضهم بعضا، و يجوز أن يكون بمعنى يسألون، أي: يسألون غيرهم، نحو دعيته و تداعيته، فعلى الوجه الأوّل يكون عَنِ الْمُجْرِمِينَ متعلقا بيتساءلون، أي: يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين، و على الوجه الثاني تكون عن زائدة، أي: يسألون المجرمين، و قوله: ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ هو على تقدير القول، أي: يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سلككم في سقر، أو يسألونهم قائلين لهم: ما سلككم في سقر، و الجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال، و المعنى: ما أدخلكم في سقر، تقول: سلكت الخيط في كذا؛ إذا دخلته فيه. قال الكلبي: يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان ما سلكك في النار؟ و قيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم: ما سلككم في سقر؟ قال الفراء: في هذا ما يقوّى أن أصحاب اليمين هم الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال: قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ أي: من المؤمنين الذين يصلون للّه في الدنيا وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ أي: لم نتصدّق على المساكين، قيل: و هذان محمولان على الصلاة الواجبة و الصدقة الواجبة؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب، و فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات، وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ أي: نخالط أهل الباطل في باطلهم. قال قتادة: كلما غوى غاو غوينا معه. و قال السدّي: كنا نكذّب مع المكذّبين. و قال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و هو قولهم: كاذب، مجنون، ساحر، شاعر وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ أي: بيوم الجزاء و الحساب

فتح القدير، ج‏5، ص: 400

حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ و هو الموت، كما فى قوله: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «۱».

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ أى: شفاعة الملائكة و النبيين كما تنفع الصالحين فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ التذكرة: التذكير بمواعظ القرآن، و الفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها، و انتصاب معرضين على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ و المجرور، أى: أىّ شىء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الّذى هو مشتمل على التذكرة الكبرى و الموعظة العظمى.

ثم شبّههم فى نفورهم عن القرآن بالحمر فقال: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ و الجملة حال من الضمير فى معرضين على التداخل، و معنى مستنفرة: نافرة، يقال: نفر و استنفر، مثل عجب و استعجب، و المراد:

الحمر الوحشية. قرأ الجمهور: مُسْتَنْفِرَةٌ بكسر الفاء، أى: نافرة، و قرأ نافع و ابن عامر بفتحها، أى: منفرة مذعورة، و اختار القراءة الثانية أبو حاتم و أبو عبيد. قال فى الكشاف: المستنفرة: الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له، و حملها عليه فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أى: من رماة يرمونها، و القسور: الرامى، و جمعه قسورة قاله سعيد بن جبير و عكرمة و مجاهد و قتادة و ابن كيسان، و قيل: هو الأسد، قاله عطاء و الكلبى. قال ابن عرفة من القسر بمعنى القهر؛ لأنه يقهر السباع، و قيل:

القسورة: أصوات الناس، و قيل: القسورة بلسان العرب: الأسد، و بلسان الحبشة: الرماة. و قال ابن الأعرابى: القسورة: أوّل الليل، أى: فرّت من ظلمة الليل، و به قال عكرمة، و الأوّل أولى، و كلّ شديد عند العرب فهو قسورة، و منه قول الشاعر:

يا بنت كونى خيرة لخيّرةأخوالها الجنّ و أهل القسورة

و منه قول لبيد:

إذا ما هتفنا هتفة فى ندّيناأتانا الرّجال العابدون القساور

و من إطلاقه على الأسد قول الشاعر:

مضمّر تحذره الأبطالكأنّه القسور الرّهال

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً عطف على مقدر يقتضيه المقام، كأنه قيل:

لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد ... قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من اللّه أنك رسول اللّه. و الصحف: الكتب، واحدتها صحيفة، و المنشرة:

المنشورة المفتوحة، و مثل هذه الآية قوله سبحانه: حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ «۲» قرأ الجمهور:

مُنَشَّرَةً بالتشديد. و قرأ سعيد بن جبير بالتخفيف. و قرأ الجمهور: أيضا بضم الحاء من صحف. و قرأ سعيد بن جبير بإسكانها. ثم ردعهم اللّه سبحانه عن هذه المقالة و زجرهم فقال: كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ

---

(۱). الحجر: ۹۹.

(۲). الإسراء: ۹۳.

يعنى عذاب الآخرة؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، و قيل: كلّا بمعنى حقا. ثم كرّر الردع و الزجر لهم فقال: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ يعنى القرآن؛ أو حقا إنه تذكرة، و المعنى: أنه يتذكر به و يتعظ بمواعظه فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ أى: فمن شاء أن يتعظ به اتعظ، ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال:

وَ ما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ قرأ الجمهور: يَذْكُرُونَ بالياء التحتية. و قرأ نافع و يعقوب بالفوقية، و اتفقوا على التخفيف، و قوله:

إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال. قال مقاتل: إلا أن يشاء اللّه لهم الهدى هُوَ أَهْلُ التَّقْوى أى: هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه و العمل بطاعاته وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ أى: هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، و الحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ قال: مأخوذة بعملها.

و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ قال: هم المسلمون. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن علىّ بن أبى طالب إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ قال: هم أطفال المسلمين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ قال: الموت. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن أبى موسى الأشعرى فى قوله: فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: هم الرماة رجال القسىّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس قال: القسورة: الرجال الرماة رجال القنص.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال: قلت لابن عباس:

القسورة الأسد؟ فقال: ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد! هم عصبة الرجال. و أخرج سفيان ابن عيينة و عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: هو ركز الناس، يعنى أصواتهم.

و أخرج أحمد و الدارمى، و الترمذى و حسنه، و النسائى و ابن ماجة و البزار و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عدّى و صححه، و ابن مردويه عن أنس «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية: هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ فقال: قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهل أن أغفر له». و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة و ابن عمر و ابن عباس مرفوعا نحوه.

فتح القدير، ج‏5، ص: 402

سورة القيمة

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة، و فى لفظ: سورة لا أقسم بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القيامة (75): الآيات 1 الى 25]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلاَّ لا وَزَرَ (11) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)

وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15) لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا

بَيانَهُ (١٩)
كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (٢٠) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (٢٢) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (٢٣) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (٢٥)

قوله: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ قال أبو عبيدة و جماعة من المفسرين: إنّ لا زائدة، و التقدير: أقسم.

قال السمرقندى: أجمع المفسرون أن معنى لا أقسم: أقسم، و اختلفوا فى تفسير لا، فقال بعضهم: هى زائدة، و زيادتها جارية فى كلام العرب كما فى قوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «١» يعنى أن تسجد، و لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ و من هذا قول الشاعر:

تذكّرت ليلى فاعترتنى صبابةفكاد صميم القلب لا يتقطّع

و قال بعضهم: هى ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث؛ كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة، و هذا قول الفرّاء و كثير من النحويين، كقول القائل: لا، و اللّه، ف: لا: ردّ لكلام قد تقدّمها، و منه قول الشاعر «٢»:

فلا و أبيك ابنة العامرىّ (م) «٣»لا يدّعى القوم أنّى أفرّ

---

(١). الأعراف: ١٢.

(٢). هو امرؤ القيس.

(٣). يشير هذا الحرف إلى أن البيت مدور، يعنى: أن آخر الصدر و أول العجز مشتركان فى الحرف المشدد.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٠٣

و قيل: هى للنفى، لكن لا لنفى الإقسام، بل لنفى ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به و تفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامى به حقّ إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك و قيل: إنها لنفى الإقسام لوضوح الأمر، و قد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير قوله: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ «١» و قرأ الحسن و ابن كثير فى رواية عنه و الزهرى و ابن هرمز لأقسم بدون ألف على أن اللام لام الابتداء، و القول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، و قد اعترض عليه الرازى بما لا يقدح فى قوته و لا يفتّ فى عضد رجحانه، و إقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه و تفخيمه، و للّه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوّامة كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام فى «لا» هذه كالكلام فى الأولى، و هذا قول الجمهور. و قال الحسن: أقسم بيوم القيامة و لم يقسم بالنفس اللوّامة. قال الثعلبى:

و الصحيح أنه أقسم بهما جميعا، و معنى النفس اللوّامة: النفس التى تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هى و اللّه نفس المؤمن، لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا؟

ما أردت بكذا؟ و الفاجر لا يعاتب نفسه. قال مجاهد: هى التى تلوم على ما فات و تندم، فتلوم نفسها على الشرّ لم تعمله؟ و على الخير لم لم تستكثر منه؟ قال الفرّاء: ليس من نفس برّة و لا فاجرة إلا و هى تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرا قالت: هلا ازددت! و إن كانت عملت سوءا قالت: ليتنى لم أفعل. و على هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها حسنا سائغا. و قيل: اللوّامة هى الملومة المذمومة، فهى صفة ذمّ، و بهذا احتج من نفى أن يكون قسما، إذ ليس لنفس العاصى خطر يقسم له. قال مقاتل: هى نفس الكافر يلوم نفسه و يتحسر فى الآخرة على ما فرّط فى جنب اللّه، و الأوّل أولى.

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ المراد بالإنسان الجنس، و قيل: الإنسان الكافر، و الهمزة للإنكار، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف، و المعنى: أ يحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتا، فنعيدها خلقا جديدا، و ذلك حسبان باطل، فإنا نجمعها، و ما يدلّ عليه هذا الكلام هو جواب القسم. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة و

بالنفس اللوّامة ليجمعنّ العظام للبعث، فهذا جواب القسم. و قال النحاس: جواب القسم محذوف، أى: ليبعثنّ، و المعنى: أن اللّه سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان، و إنما خصّ العظام لأنها قالب الخلق بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ بلى إيجاب لما بعد النفى المنسحب إليه الاستفهام، و الوقف على هذا اللفظ وقف حسن، ثم يبتدئ الكلام بقوله:

قادِرِينَ و انتصاب قادرين على الحال، أى: بلى نجمعها قادرين، فالحال من ضمير الفعل المقدّر، و قيل:

المعنى: بلى نجمعها نقدر قادرين. قال الفراء: أى نقدر، و نقوى، قادرين على أكثر من ذلك. و قال أيضا:

إنه يصلح نصبه على التكرير، أى: بلى فليحسبنا قادرين، و قيل: التقدير: بلى كنا قادرين. و قرأ ابن أبى عبلة و ابن السّميقع بَلى قادِرِينَ على تقدير مبتدأ، أى: بلى نحن قادرون، و معنى عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ

---

(۱). الواقعة: ۷۵.

على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردّها كما كانت مع لطافتها و صغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبّه سبحانه بالبنان، و هى الأصابع على بقية الأعضاء، و أن الاقتدار على بعثها و إرجاعها كما كانت أولى فى القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل و الأظافر و العروق اللطاف و العظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر، و بهذا قال الزجاج و ابن قتيبة.

و قال جمهور المفسرين: إن معنى الآية أن نجعل أصابع يديه و رجليه شيئا واحدا، كخف البعير و حافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها فى الأعمال كالكتابة و الخياطة و نحوهما، و لكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها. و قيل: المعنى: بل نقدر على أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم، فكيف فى صورته التى كانت عليها، و الأوّل أولى، و منه قول عنترة:

و أنّ الموت طوع يدى إذا ماوصلت بنانها بالهندوانى

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء. بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ هو عطف على أ يحسب، إما على أنه استفهام مثله، و أضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام.

و المعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، و ما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب و يؤخّر التوبة. قال ابن الأنبارى: يريد أن يفجر ما امتدّ عمره، و ليس فى نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه.

قال مجاهد و الحسن و عكرمة و السدّى و سعيد بن جبير: يقول سوف أتوب و لا يتوب حتى يأتيه الموت. و هو على أشرّ أحواله. قال الضحاك: هو الأمل، يقول سوف أعيش و أصيب من الدنيا، و لا يذكر الموت.

و الفجور: أصله الميل عن الحقّ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، و منه قول الشاعر:

أقسم باللّه أبو حفص عمرما مسّها من نقب و لا دبر

فاغفر له اللّهمّ إن كان فجر و جملة يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ مستأنفة لبيان معنى يفجر، و المعنى: يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد و استهزاء فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ أى: فزع و تحير، من برق الرجل؛ إذا نظر إلى البرق فدهش بصره.

قرأ الجمهور: بَرِقَ بكسر الراء. قال أبو عمرو بن العلاء و الزجاج و غيرهما: المعنى تحيّر فلم يطرف، و منه قول ذى الرّمّة:

و لو أنّ لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه ميّ سافرا كاد يبرق

و قال الخليل و الفراء: برق بالكسر: فزع و بهت و تحيّر، و العرب تقول للإنسان المبهوت: قد برق فهو برق، و أنشد الفرّاء:

فنفسك فانع و لا تنعنى و داو الكلوم و لا تبرق «۱»

أى: لا تفزع من كثرة الكلوم التى بك. و قرأ نافع و أبان عن عاصم بَرَقَ بفتح الراء، أى: لمع

(١). البيت لطرفة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۰۵

بصره من شدة شخوصه للموت. قال مجاهد و غيره: هذا عند الموت، و قيل: برق يبرق: شق عينيه و فتحهما. و قال أبو عبيدة: فتح الراء و كسرها لغتان بمعنى. وَ خَسَفَ الْقَمَرُ قرأ الجمهور: خَسَفَ بفتح الخاء و السين مبنيا للفاعل. و قرأ ابن أبى إسحاق و عيسى و الأعرج و ابن أبى عبلة و أبو حيوة بضم الخاء و كسر السين مبنيا للمفعول، و معنى خسف القمر: ذهب ضؤوه و لا يعود كما يعود إذا خسف فى الدنيا، و يقال: خسف؛ إذا ذهب جميع ضوئه، و كسف: إذا ذهب بعض ضوئه وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ أى: ذهب ضوؤهما جميعا، و لم يقل جمعت لأن التأنيث مجازىّ، قاله المبرد. و قال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. و قال الكسائى: حمل على معنى جمع النّيران. و قال الزجاج و الفراء: و لم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما فى ذهاب نورهما، و قيل: جمع بينهما فى طلوعهما من الغرب أسودين مكوّرين مظلمين.

قال عطاء: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكونان نار اللّه الكبرى. و قيل: تجمع الشمس و القمر فلا يكون هناك تعاقب ليل و نهار. و قرأ ابن مسعود: «و جمع بين الشمس و القمر». يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ أى: يقول عند وقوع هذه الأمور أين المفرّ؟ أى: الفرار، و المفرّ: مصدر بمعنى الفرار.

قال الفراء: يجوز أن يكون موضع الفرار، و منه قول الشاعر:

أين المفرّ و الكباش تنتطحو كلّ كبش فرّ منها يفتضح

قال الماوردى: يحتمل وجهين: أحدهما: أين المفرّ من اللّه سبحانه استحياء منه. و الثانى: أين المفرّ من جهنم حذرا منها. قرأ الجمهور: أَيْنَ الْمَفَرُّ بفتح الميم و الفاء مصدرا كما تقدّم. و قرأ ابن عباس و مجاهد و الحسن و قتادة بفتح الميم و كسر الفاء على أنه اسم مكان: أى: أين مكان الفرار؟ و قال الكسائى: هما لغتان مثل مدب و مدب و مصح و مصح، و قرأ الزهرى بكسر الميم و فتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، و منه قول امرئ القيس:

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاكجلمود صخر حطّه السّيل من عل

أى: جيد الفرّ و الكرّ. كَلَّا لا وَزَرَ أى: لا جبل و لا حصن و لا ملجأ من اللّه. و قال ابن جبير:

لا محيص و لا منعة. و الوزر فى اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصن، أو جبل أو غيرهما، و منه قول طرفة:

و لقد تعلم بكر أنّنافاضلو الرّأى و فى الرّوع وزر

و قال آخر:

لعمرى ما للفتى من وزرمن الموت يدركه و الكبر

قال السدّى: كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال لهم اللّه: و لا وزر يعصمكم منى يومئذ، و كلّا: للردع، أو لنفى ما قبلها، أو بمعنى حقا إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ أى: المرجع و المنتهى و المصير لا إلى غيره، و قيل: إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره، و قيل: المستقر: الاستقرار حيث يقرّه اللّه يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ أى: يخبر يوم القيامة بما عمل من خير و شرّ. و قال قتادة: بما عمل من طاعة،

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۰۶

و ما أخّر من طاعة فلم يعمل بها. و قال زيد بن أسلم: بما قدّم من أمواله و ما خلف للورثة. و قال مجاهد:

بأوّل عمله و آخره. و قال الضحاك: بما قدّم من فرض و أخّر من فرض. قال القشيرى: هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن

الأعمال، و يجوز أن يكون عند الموت. قال القرطبى: و الأوّل أظهر بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان، «على نفسه» متعلق ببصيرة. قال الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك، و قيل المعنى: إن جوارحه تشهد عليه بما عمل، كما فى قوله: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ «١»، و أنشد الفرّاء:

كأنّ على ذى العقل عينا بصيرةبمقعده أو منظر هو ناظره

فيكون المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة. قال أبو عبيدة و القتبى: إن هذه الهاء فى بصيرة هى التى يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كما فى قولهم: علامة. و قيل: المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير و شرّ، و التاء على هذا للتأنيث. و قال الحسن: أى بصير بعيوب نفسه وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ أى: و لو اعتذر و جادل عن نفسه لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة و معاذير. قال الفرّاء: أى:

و إن اعتذر فعليه من يكذب عذره «٢». و قال الزجاج: المعاذير: الستور، و الواحد معذار، أى: و إن أرخى الستور يريد أن يخفى نفسه فنفسه شاهدة عليه، كذا قال الضحاك و السدّى: و الستر بلغة اليمن يقال له معذار.

كذا قال المبرد. و منه قول الشاعر:

و لكنّها ضنّت بمنزل ساعةعلينا و أطّت يومها بالمعاذر

و الأوّل أولى، و به قال مجاهد و قتادة و سعيد بن جبير و ابن زيد و أبو العالية و مقاتل، و مثله قوله: يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ «٣» و قوله: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «٤» و قول الشاعر:

فما حسن أن يعذر المرء نفسهو ليس له من سائر النّاس عاذر

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحرّك شفتيه و لسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصا على أن يحفظه صلّى اللّه عليه و سلّم، فنزلت هذه الآية، أى: لا تحرّك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلّت منك، و مثل هذا قوله: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ «٥» الآية. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ فى صدرك حتى لا يذهب عليك منه شىء وَ قُرْآنَهُ أى: إثبات قراءته فى لسانك. قال الفرّاء: القراءة و القرآن مصدران. و قال قتادة فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

---

(١). النور: ٢٤.

(٢). فى القرطبى [١٩/ ١٠٠]: أى و لو اعتذر فقال لم أفعل شيئا لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه.

(٣). غافر: ٥٢.

(٤). المرسلات: ٣٦.

(٥). طه: ١١٤.

أى: شرائعه و أحكامه فَإِذا قَرَأْناهُ أى: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ أى: قراءته ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ أى: تفسير ما فيه من الحلال و الحرام، و بيان ما أشكل منه. قال الزجاج:

المعنى علينا أن ننزله عليك قرآنا عربيا فيه بيان للناس. و قيل: المعنى: إن علينا أن نبينه بلسانك كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ كلا للردع عن العجلة و الترغيب فى الأناة، و قيل: هى ردع لمن لا يؤمن بالقرآن و بكونه بيّنا من الكفار. قال عطاء: أى: لا يؤمن أبو جهل بالقرآن و بيانه. قرأ أهل المدينة و الكوفيون: بَلْ تُحِبُّونَ وَ تَذَرُونَ بالفوقية فى الفعلين جميعا. و قرأ الباقون بالتحتية فيهما، فعلى

القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريعا و توبيخا، و على القراءة الثانية يكون الكلام عائدا إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس، و المعنى:

تحبون الدنيا و تتركون الْآخِرَةَ فلا تعملون لها وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ أى: ناعمة غضّة حسنة، يقال: شجر ناضر و روض ناضر، أى: حسن ناعم، و نضارة العيش: حسنه و بهجته. قال الواحدى و المفسرون: يقولون مضيئة مسفرة مشرقة إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ هذا من النظر، أى: إلى خالقها و مالك أمرها ناظِرَةٌ أى: تنظر إليه، هكذا قال جمهور أهل العلم، و المراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: و هذا بحمد اللّه مجمع عليه بين الصحابة و التابعين و سلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام و هداة الأنام. و قال مجاهد:

أن النظر هنا انتظار ما لهم عند اللّه من الثواب، و روى نحوه عن عكرمة، و قيل: لا يصح هذا إلا عن مجاهد وحده. قال الأزهرى:

و قول مجاهد خطأ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى الانتظار. و إن قول القائل:

نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، إذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته، كما فى قول الشاعر:

فإنّكما إن تنظرانى ساعةمن الدّهر تنفعنى لدى أمّ جندب

فإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه، كما قال الشاعر «١»:

نظرت إليها و النّجوم كأنّهامصابيح رهبان تشبّ لقفّال «٢»

و قول الآخر:

إنّى إليك لما وعدت لناظرنظر الفقير إلى الغنىّ الموسر

أى: أنظر إليك نظر ذلّ كما ينظر الفقير إلى الغنىّ. و أشعار العرب و كلماتهم فى هذه كثيرة جدّا.

و «وجوه» مبتدأ، و جاز الابتداء به مع كونه نكرة، لأن المقام مقام تفصيل، و «ناضرة» صفة لوجوه، و «يومئذ» ظرف لناضرة، و لو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله: ناضِرَةٌ مسوّغا للابتداء بها، و لكن مقام التفصيل بمجرده مسوّغ للابتداء بالنكرة وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ أى: كالحة

---

(١). هو امرؤ القيس.

(٢). «تشب»: توقد. «القفال»: جمع قافل، و هو الراجع من السفر.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٠٨

عابسة كئيبة. قال فى الصحاح: بسر الرجل وجهه بسورا، أى: كلح. قال السدىّ: باسِرَةٌ أى:

متغيرة، و قيل: مصفرّة، و المراد بالوجوه هنا وجوه الكفار تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ الفاقرة: الداهية العظيمة، يقال: فقرته الفاقرة، أى: كسرت فقار ظهره. قال قتادة: الفاقرة: الشرّ، و قال السدّى:

الهلاك، و قال ابن زيد: دخول النار. و أصل الفاقرة: الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم، كذا قال الأصمعى، و من هذا قولهم: قد عمل به الفاقرة. قال النابغة:

أبى لى قبر لا يزال مقابلىو ضربة فأس فوق رأسى فاقره

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه، قلت: وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ قال: النفس اللؤوم «١»، قلت: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ- بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ قال: لو شاء لجعله خفا أو حافرا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه

اللَّوَّامَةِ قال:

المذمومة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قال: التى تلوم على الخير و الشرّ، تقول: لو فعلت كذا و كذا. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: تندم على ما فات و تلوم عليه. و أخرج ابن جرير عنه أيضا بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ قال: يمضى قدما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال:

هو الكافر الّذى يكذب بالحساب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: يعنى الأمل، يقول: أعمل ثم أتوب. و أخرج ابن أبى الدنيا فى ذمّ الأمل، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا فى الآية قال: يقدّم الذنب و يؤخّر التوبة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، عنه أيضا بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ يقول: سوف أتوب يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ قال: يقول متى يوم القيامة، قال: فبين له فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ. و أخرج ابن جرير عنه قال:

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ يعنى الموت.

و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: لا وَزَرَ قال: لا حصن. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله:

لا وَزَرَ قال: لا حصن و لا ملجأ، و فى لفظ: لا حرز، و فى لفظ: لا جبل. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ قال:

بما قدّم من عمل، و أخر من سنّة عمل بها من بعده من خير أو شرّ. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بما قدّم من المعصية و أخّر من الطاعة فينبأ بذلك.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عنه فى قوله: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ قال:

شهد على نفسه وحده وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ قال: و لو اعتذر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى

---

(١). فى الدر المنثور (٨/ ٣٤٢): الملومة.

حاتم عنه بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ قال: سمعه و بصره و يديه و رجليه و جوارحه وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ قال: و لو تجرّد من ثيابه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعالج من التنزيل شدّة، فكان يحرّك به لسانه و شفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل اللّه: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ قال: يقول إنّ علينا أن نجمعه فى صدرك ثم تقرأه فَإِذا قَرَأْناهُ يقول: إذا أنزلناه عليك فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ فاستمع له و أنصت ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ أن نبيّه بلسانك، و فى لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. و فى لفظ: استمع، فإذا ذهب قرأه كما وعده اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فَإِذا قَرَأْناهُ قال: بيناه فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ يقول:

اعمل به. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، عن ابن مسعود فى قوله: كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ قال: عجلت لهم الدنيا شرّها و خيرها، و غيبت الآخرة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ قال: ناعمة. و أخرج ابن المنذر، و الآجرى فى الشريعة، و اللالكائى فى السنة، و البيهقى فى الرؤية، عنه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ قال: يعنى حسنها إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ قال: نظرت إلى الخالق. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ قال:

تنظر إلى وجه ربّها. و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حدّ محدود و لا صفة معلومة». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال الناس: يا رسول اللّه هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول اللّه، قال: فهل تضارّون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول اللّه، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة نحوه. و قد قدّمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها، و هى تأتى فى مصنف مستقلّ، و لم يتمسك من نفاها و استبعدها بشيء يصلح للتمسك به لا من كتاب اللّه و لا من سنّة رسوله.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و الدار قطنى و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه و أزواجه و نعيمه و خدمه و سرره مسيرة ألف سنة، و أكرمهم على اللّه من ينظر إلى وجهه غدوة و عشية، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ». و أخرجه أحمد فى المسند من حديثه بلفظ: «إن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه اللّه كل يوم مرّتين». و أخرج النسائى، و الدار قطنى و صححه، و أبو نعيم عن أبى هريرة قال: «قلنا: يا رسول اللّه هل نرى ربنا، قال: هل ترون الشمس فى يوم لا غيم فيه، و ترون القمر فى ليلة لا غيم فيها؟ قلنا: نعم، قال: فإنكم سترون ربكم عزّ و جلّ، حتى إن أحدكم

ليحاضره ربّه محاضرة، فيقول: عبدى هل تعرف ذنب كذا و كذا؟ فيقول: أ لم تغفر لى؟ فيقول: بمغفرتى صرت إلى هذا».

[سورة القيامة (75): الآيات 26 الى 40]

كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30) فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى (31) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35)

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (37) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (39) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (40)

قوله: كَلَّا ردع و زجر، أى: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف، فقال: إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ أى: بلغت النفس أو الروح التراقى، و هى جمع ترقوة، و هى عظم بين نقرة النحر و العاتق، و يكنى ببلوغ النفس التراقى عن الإشفاء على الموت، و مثله قوله: فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ «1» و قيل:

معنى كَلَّا حقا، أى: حقا أن المساق إلى اللّه إذا بلغت التراقى، و المقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت. قال دريد بن الصّمّة:

و ربّ كريهة دافعت عنهمو قد بلغت نفوسهم التراقى

وَ قِيلَ مَنْ راقٍ أى: قال من حضر صاحبها: من يرقيه و يشتفى برقيته؟ .. قال قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء اللّه شيئا، و به قال أبو قلابة، و منه قول الشاعر:

هل للفتى من بنات الدّهر من واقأم هل له من حمام الموت من راق

و قال أبو الجوزاء: هو من رقى يرقى؛ إذا صعد، و المعنى: من يرقى بروحه إلى السماء أ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ و

قيل: إنه يقول ذلك ملك الموت، و ذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ أى: و أيقن الّذى بلغت روحه التراقى أنه الفراق من الدنيا و من الأهل و المال و الولد وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ أى: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به. و قال جمهور المفسرين: المعنى تتابعت عليه الشدائد. و قال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا فى الكفن. و قال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت، و قيل: ماتت رجلاه و يبست ساقاه فلم تحملاه، و قد كان جوّالا عليهما. و قال الضحاك: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، و الملائكة يجهزون روحه. و به قال ابن زيد. و العرب لا تذكر الساق إلا فى الشدائد الكبار، و المحن العظام، و منه قولهم: قامت الحرب على ساق. و قيل: الساق الأوّل تعذيب روحه عند خروج نفسه، و الساق الآخر شدّة البعث و ما بعده إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ أى: إلى خالقك يوم القيامة المرجع، و ذلك جمع العباد إلى اللّه يساقون إليه فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى أى: لم يصدّق بالرسالة

---

(١). الواقعة: ٨٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤١١

و لا بالقرآن، و لا صلّى لربه، و الضمير يرجع إلى الإنسان المذكور فى أوّل هذه السورة. قال قتادة: فلا صدّق بكتاب اللّه و لا صلّى للّه، و قيل: فلا آمن بقلبه و لا عمل ببدنه. قال الكسائى لا بمعنى لم، و كذا قال الأخفش:

و العرب تقول: لا ذهب، أى: لم يذهب، و هذا مستفيض فى كلام العرب، و منه:

إن تغفر اللّهمّ تغفر جمّاو أىّ عبد لك لا ألمّا

وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى أى: كذّب بالرسول و بما جاء به، و تولّى عن الطاعة و الإيمان ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أى: يتبختر و يختال فى مشيته افتخارا بذلك. و قيل: هو مأخوذ من المطى و هو الظهر، و المعنى: يلوى مطاه. و قيل: أصله يتمطط، و هو التمدّد و التثاقل، أى: يتثاقل و يتكاسل عن الداعى إلى الحق أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى أى: وليك الويل، و أصله أولاك اللّه ما تكرهه، و اللام مزيدة كما فى رَدِفَ لَكُمْ «١» و هذا تهديد شديد، و التكرير للتأكيد، أى: يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة.

قال الواحدى: قال المفسرون: أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بيد أبى جهل، ثم قال: أَوْلى لَكَ فَأَوْلى فقال أبو جهل: بأىّ شى‏ء تهدّدنى لا تستطيع أنت و لا ربك أن تفعلا بى شيئا، و إنى لأعزّ أهل هذا الوادى، فنزلت هذه الآية. و قيل: معناه: الويل لك، و منه قول الخنساء:

هممت بنفسى كل الهمومفأولى لنفسى أولى لها

و على القول بأنه الويل، قيل: هو من المقلوب كأنه قيل: أويل لك، ثم أخّر الحرف المعتل. قيل: و معنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات، و الويل لك حيا، و الويل لك ميتا، و الويل لك يوم البعث، و الويل لك يوم تدخل النار. و قيل: المعنى: إن الذمّ لك أولى لك من تركه. و قيل: المعنى: أنت أولى و أجدر بهذا العذاب قاله ثعلب. و قال الأصمعى: أولى فى كلام العرب معناه مقاربة الهلاك. قال المبرّد: كأنه يقول: قد وليت الهلاك و قد دانيته، و أصله من الولى، و هو القرب، و أنشد الفراء:

فأولى أن يكون لك الولاء «٢» أى: قارب أن يكون لك، و أنشد أيضا:

أولى لمن هاجت له أن يكمدا أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أى: هملا، لا يؤمر و لا ينهى، و لا يحاسب و لا يعاقب، و قال السدى: معناه المهمل، و منه إبل سدى، أى: ترعى بلا راع، و قيل: المعنى: أ يحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يبعث. و جملة أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى مستأنفة، أى: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منّى يراق فى الرحم، و سمّى المنىّ منيا

لإراقته، و النطفة: الماء القليل، يقال: نطف الماء؛ إذا قطر.

---

(۱). النمل: ۷۲.

(۲). فى القرطبى قاله الأصمعى هكذا: و أولى أن يكون له الولاء.

قرأ الجمهور أَ لَمْ يَکُ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الإنسان. و قرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخا له. و قرأ الجمهور أيضا: تمنى بالفوقية على أن الضمير للنطفة. و قرأ حفص و ابن محيصن و مجاهد و يعقوب بالتحتية على أن الضمير للمنى، و رويت هذه القراءة عن أبى عمرو، و اختارها أبو حاتم ثُمَّ كانَ عَلَقَةً أى: كان بعد النطفة علقة، أى: دما فَخَلَقَ أى: فقدّر بأن جعلها مضغة مخلّقة فَسَوَّى أى: فعدّله و كمل نشأته و نفخ فيه الروح فَجَعَلَ مِنْهُ أى: حصل من الإنسان، و قيل: من المنىّ الزَّوْجَيْنِ أى: الصنفين من نوع الإنسان. ثم بين ذلك فقال: الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى أى: الرجل و المرأة أَ لَيْسَ ذلِکَ أى: أ ليس ذلک الّذى أنشأ هذا الخلق البديع و قدر عليه بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى أى: يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه فى الدنيا؛ فإن الإعادة أهون من الابتداء، و أيسر مؤنة منه. قرأ الجمهور: بِقادِرٍ و قرأ زيد بن علىّ: يقدر فعلا مضارعا، و قرأ الجمهور: يُحْيِيَ بنصبه بأن. و قرأ طلحة بن سليمان و الفياض بن غزوان بسكونها تخفيفا، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مرّ فى مواضع.

و قد أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قِيلَ مَنْ راقٍ قال: تنتزع نفسه حتى إذا كانت فى تراقيه، قيل: من يرقى بروحه؛ ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟

وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ قال: التفت عليه الدنيا و الآخرة و ملائكة العذاب أيهم يرقى به. و أخرج عبد ابن حميد عنه وَ قِيلَ مَنْ راقٍ قال: من راق يرقى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا و أوّل يوم من أيام الآخرة، فتلتقى الشدّة بالشدّة إلا من رحم اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا يَتَمَطَّى قال: يختال.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: أَوْلى لَکَ فَأَوْلى أ شىء قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى جهل من قبل نفسه، أم أمره اللّه به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس أَنْ يُتْرَکَ سُدىً قال: هملا. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى عن صالح أبى الخليل قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ هذه الآية أَ لَيْسَ ذلِکَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى قال: سبحانک اللهم و بلى». و أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: لما نزلت هذه الآية أَ لَيْسَ ذلِکَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى قال الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم: «سبحانک ربى و بلى». و أخرج ابن النجار فى تاريخه عن أبى أمامة أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول عند قراءته لهذه الآية: «بلى و أنا على ذلک من الشاهدين». و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و ابن المنذر، و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ منكم و التين و الزيتون فانتهى إلى آخرها»: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ «۱» فليقل: بلى و أنا على ذلک من الشاهدين. و من قرأ: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ فانتهى

---

(۱). التين: ۸.

إلى قوله: أَ لَيْسَ ذلِکَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى فليقل: بلى، و من قرأ: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً فبلغ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ «۱»

فليقل: آمنا باللّه» و فى إسناده رجل مجهول. و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا قرأت: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ فبلغت أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى فقل: بلى».

---

(۱). سورة المرسلات بتمامها.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۱۴

سورة الإنسان

اشارة

قال الجمهور: هى مدنية. و قال مقاتل و الكلبى: هى مكية. و أخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و قيل: فيها مكى من قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا «۱» إلى آخر السورة، و ما قبله مدنىّ. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «سل و استفهم»، فقال:

يا رسول اللّه فضلتم علينا بالألوان و الصور و النبوّة، أ فرأيت إن آمنت بما آمنت به و عملت بما عملت به؛ أنى كائن معك فى الجنة؟ قال: «نعم و الّذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال: من قال: لا إله إلا اللّه كان له عهد عند اللّه. و من قال: سبحان اللّه و بحمده كتب له مائة ألف حسنة و أربعة و عشرون ألف حسنة» و نزلت هذه السورة: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ إلى قوله: مُلْكاً كَبِيراً فقال الحبشىّ: و إن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة؟ قال: «نعم»، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يدليه فى حفرته بيده.

و أخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدّثنى الثقة: أن رجلا أسود كان يسأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن التسبيح و التهليل، فقال له عمر بن الخطاب: أكثرت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: مه يا عمر. و أنزلت على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «مات شوقا إلى الجنة».

و أخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعا مرسلا. و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و ابن ماجة و ابن منيع، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صححه، و الضّياء عن أبى ذرّ قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حتى ختمها، ثم قال: إنى أرى ما لا ترون و أسمع ما لا تسمعون، أطت السماء و حقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا و ملك واضع جبهته ساجدا للّه، و اللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا- و لبكيتم كثيرا، و ما تلذذتم بالنساء على الفرش، و لخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللّه عزّ و جلّ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱ الى ۱۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (۱) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۲)

إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالاً وَ سَعِيراً (۴)
إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (۵) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (۶) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (٨) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً (٩)
إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (١١) وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (١٢)

---

(١). الإنسان: ٢٣.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۱۵

حكى الواحدى عن المفسرين و أهل المعانى أن هَلْ هنا بمعنى قد، و ليس باستفهام، و قد قال بهذا سيبويه و الكسائى و الفراء و أبو عبيدة. قال الفراء: «هل» تكون جحدا، و تكون خبرا، فهذا من الخبر، لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرّره بأنك أعطيته، و الجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ و قيل:

هى و إن كانت بمعنى قد ففيها معنى الاستفهام، و الأصل: أهل أتى، فالمعنى: أقد أتى، و الاستفهام للتقرير و التقريب، و المراد بالإنسان هنا آدم، قاله قتادة و الثورى و عكرمة و السدّى و غيرهم حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، و قيل: إنه خلق من طين أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة و عشرين سنة. و قيل: الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره، و قيل: المراد بالإنسان بنو آدم، و الحين مدّة الحمل، و جملة: لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً فى محل نصب على الحال من الإنسان، أو فى محل رفع صفة لحين. قال الفراء و قطرب و ثعلب: المعنى أنه كان جسدا مصوّرا ترابا و طينا لا يذكر و لا يعرف و لا يدرى ما اسمه و لا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا.

و قال يحيى بن سلام: لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق و إن كان عند اللّه شيئا مذكورا، و قيل: ليس المراد بالذكر هنا الإخبار، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم، بل هو الذكر بمعنى الخطر و الشرف، كما فى قوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «١». قال القشيرى: ما كان مذكورا للخلق و إن كان مذكورا للّه سبحانه. قال الفراء:

كان شيئا و لم يكن مذكورا. فجعل النفى متوجها إلى القيد. و قيل: المعنى: قد مضت أزمنة و ما كان آدم شيئا و لا مخلوقا و لا مذكورا لأحد من الخليقة. و قال مقاتل: فى الكلام تقديم و تأخير، و تقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، و لم يخلق بعده حيوان إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ المراد بالإنسان هنا ابن آدم. قال القرطبى: من غير خلاف، و النطفة: الماء الّذى يقطر، و هو المنىّ، و كل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة، و جمعها نطف، و أَمْشاجٍ صفة لنطفة، و هى جمع مشج، أو مشيج، و هى الأخلاط، و المراد نطفة الرجل و نطفة المرأة و اختلاطهما. يقال: مشج هذا بهذا فهو ممشوج، أى: خلط هذا بهذا فهو مخلوط. قال المبرد: مشج يمشج إذا اختلط، و هو هنا اختلاط النطفة بالدم. قال رؤبة بن العجاج:

يطرحن كلّ معجل نشّاج لم يكس جلدا فى دم أمشاج

---

(١). الزخرف: ۴۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۱۶

قال الفراء: أمشاج: اختلاط ماء الرجل و ماء المرأة و الدم و العلقة، و يقال: مشج هذا؛ إذا خلط، و قيل: الأمشاج: الحمرة فى

البياض و البياض فى الحمرة. قال القرطبى: و هذا قول يختاره كثير من أهل اللغة.

قال الهذلى:

كأنّ الرّيش و الفوقين منهخلاف النّصل سيط به «۱» مشيج

و ذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ و ماء المرأة أصفر رقيق فيخلق منهما الولد. قال ابن السّكّيت: الأمشاج: الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها ذا طباع مختلفة. و قيل: الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار، و يؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة، و جملة: نَبْتَلِيهِ فى محل نصب على الحال من فاعل خلقنا، أى: مريدين ابتلاءه، و يجوز أن يكون حالا من الإنسان، و المعنى: نبتليه بالخير و الشرّ و بالتكاليف. قال الفراء: معناه و اللّه أعلم: فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً لنبتليه و هى مقدّمة معناها التأخير؛ لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، و على هذا تكون هذه الحال مقدّرة، و قيل: مقارنة. و قيل: معنى الابتلاء: نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة، و الأوّل أولى. ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه الابتلاء فقال: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً أى: بيّنا له، و عرّفناه طريق الهدى و الضّلال و الخير و الشّرّ؛ كما فى قوله:

وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «۲» قال مجاهد: أى بينا السبيل إلى الشقاء و السعادة. و قال الضحاك و السدّى و أبو صالح: السبيل هنا خروجه من الرحم، و قيل: منافعه و مضارّه التى يهتدى إليها بطبعه و كمال عقله، و انتصاب شاكرا و كفورا على الحال من مفعول هَدَيْناهُ أى: مكناه من سلوك الطريق فى حالتيه جميعا، و قيل:

على الحال من سبيل على المجاز، أى: عرّفناه السبيل إما سبيلا شاكرا و إما سبيلا كفورا. و حكى مكّى عن الكوفيين أن قوله: إما: هى إن شرطية زيدت بعدها ما، أى: بيّنا له الطريق إن شكر و إن كفر. و اختار هذا الفرّاء، و لا يجيزه البصريون لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل، و لا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع شاكرا و كفورا. و يمكن أن يضمر فعل ينصب شاكرا و كفورا، و تقديره:

إن خلقناه شاكرا فشكور و إن خلقناه كافرا فكفور، و هذا على قراءة الجمهور: إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً بكسر همزة إما. و قرأ ابن السّمّال و أبو العجاج بفتحها، و هى على الفتح إما العاطفة فى لغة بعض العرب، أو هى التفصيلية و جوابها مقدّر، و قيل: انتصب شاكرا و كفورا بإضمار كان، و التقدير: سواء كان شاكرا أو كان كفورا. ثم بيّن سبحانه ما أعدّ للكافرين فقال: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً قرأ نافع و الكسائى و أبو بكر عن عاصم و هشام عن ابن عامر سلاسلا بالتنوين، و وقف قنبل و ابن كثير و حمزة بغير ألف، و الباقون وقفوا بالألف. و وجه من قرأ بالتنوين فى سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله و هو: إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً، و ما بعده و هو أَغْلالًا وَ سَعِيراً

---

(۱). «سيط به»: أى خرج شىء من الريش مختلط من الدم و الماء.

(۲). البلد: ۱۰.

منوّن؛ أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف كما حكاه الكسائى و غيره من الكوفيين عن بعض العرب.

قال الأخفش: سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف، لأن الأصل فى الأسماء الصرف و ترك الصرف لعارض فيها. قال الفراء: هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلا قولهم: هو أظرف منك فإنهم لا يجرونه، و أنشد ابن الأنبارى فى ذلك قول عمرو بن كلثوم:

كأنّ سيوفنا فينا و فيهممخاريق بأيدى لاعبينا

و من ذلك قول الشاعر:

و إذا الرّجال رأوا يزيد رأيتهمخضع الرّقاب نواكس الأبصار

بكسر السين من نواكس، و قول لبيد:

و جزور أستار دعوت لحتفهابمغالق متشابه أعلاقها

و قوله أيضا:

فضلا و ذو كرم يعين على النّدىسمح كسوب رغائب غنّامها

و قيل: إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية و المدنية و الكوفية فإنها فيها بالألف، و قيل: إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق، و يجرى الوصل مجرى الوقف، و السلاسل قد تقدّم تفسيرها، و الخلاف فيها هل هى القيود، أو ما يجعل فى الأعناق، كما فى قول الشاعر:

... و لكن أحاطت بالرّقاب السلاسل و الأغلال

جمع غلّ تغل به الأيدى إلى الأعناق، و السعير: الوقود الشديد، و قد تقدّم تفسير السعير.

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه للشاكرين فقال: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ الأبرار: أهل الطاعة و الإخلاص و الصدق، جمع برّ أو: بارّ. قال فى الصحاح: جمع البرّ الأبرار، و جمع البارّ البررة، و فلان يبرّ خالقه و يبرره، أى: يطيعه. و قال الحسن: البرّ الّذى لا يؤذى الذرّ. و قال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حق اللّه و يوفون بالنذر. و الكأس فى اللغة هو الإناء الّذى فيه الشراب، و إذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأسا، و لا وجه لتخصيصه بالزجاجة، بل يكون من الزجاج و من الذهب و الفضة و الصينى و غير ذلك، و قد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة، و قد يطلق الكأس على نفس الخمر كما فى قول الشاعر:

و كأس شربت على لذّةو أخرى تداويت منها بها

كانَ مِزاجُها كافُوراً أى: يخالطها و تمزج به، يقال مزجه يمزجه مزجا، أى: خلطه يخلطه خلطا، و منه قول الشاعر «١»:

---

(١). هو حسان.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤١٨ كأنّ سبيئة من بيت رأس كان مزاجها عسل و ماء

و قول عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنّا أمّ عمروو كان الكأس مجراها اليمينا

معتّقة «١» كأنّ الحصّ «٢» فيهاإذا ما الماء خالطها سخينا

و منه مزاج البدن، و هو ما يمازجه من الأخلاط، و كافُوراً قيل: هو اسم عين فى الجنة يقال لها الكافور تمزج خمر الجنة بماء هذه العين. و قال قتادة و مجاهد: تمزج لهم بالكافور و تختم لهم بالمسك. و قال عكرمة: مزاجها طعمها، و قيل: إنما الكافور فى ريحها لا فى طعمها. و قيل: إنما أراد الكافور فى بياضه و طيب رائحته و برده، لأن الكافور لا يشرب كما فى قوله: حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً «٣» أى ك: نار. و قال ابن كيسان:

طيبها المسك و الكافور و الزنجبيل. و قال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، و إنما سمى اللّه ما عنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب، و الجملة فى محل جرّ صفة لكأس. و قيل: إن كان هنا زائدة، أى: من كأس مزاجها كافورا عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ انتصاب عينا على أنها بدل من كافُوراً، لأن ماءها فى بياض الكافور. و قال مكى: إنها بدل من محل مِنْ كَأْسٍ على حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرا خمر عين، و قيل: إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون، أى: عينا من كأس، و قيل: هى منتصبة

على الاختصاص، قاله الأخفش، و قيل: منتصبة بإضمار فعل يفسره ما بعده، أى: يشربون عينا يشرب بها عباد اللّه، و الأوّل أولى، و تكون و جملة يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ صفة لعينا. و قيل: إن الباء فى يَشْرَبُ بِها زائدة، و قيل: بمعنى من، قاله الزجاج، و يعضده قراءة ابن أبى عبلة «يشربها عباد اللّه». و قيل:

إن يشرب مضمن معنى يلتذّ، و قيل: هى متعلقة بيشرب، و الضمير يعود إلى الكأس. و قال الفراء: يشربها و يشرب بها سواء فى المعنى، و كأنّ يشرب بها يروى بها و ينتفع بها، و أنشد قول الهذلى:

شربن بماء البحر ثمّ ترفّعت «۴» قال: و مثله تكلم بكلام حسن، و تكلم كلاما حسنا يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً أى: يجرونها إلى حيث يريدون و ينتفعون بها كما يشاءون، و يتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه، فهم يشقّونها شقّا كما يشقّ النهر و يفجر إلى هنا و هنا. قال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا، و تتبعهم حيث مالوا مالت معهم، و الجملة صفة أخرى لعينا، و جملة يُوفُونَ بِالنَّذْرِ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر. و كذا ما عطف عليها، و معنى النذر فى اللغة الإيجاب، و المعنى: يوفون بما أوجبه اللّه عليهم من الطاعات. قال قتادة و مجاهد: و يوفون بطاعة اللّه

---

(۱). فى شرح المعلقات السبع: مشعشعة.

(۲). «الحص»: الورس، و هو نبت له نوار أحمر؛ يشبه الزعفران.

(۳). الكهف: ۹۶.

(۴). و عجز البيت: متى لجج خضر لهنّ نئيج. و «نئيج»: أى: مرّ سريع مع صوت.

من الصلاة و الحج و نحوهما. و قال عكرمة: يوفون إذا نذروا فى حق اللّه سبحانه، و النذر فى الشرع: ما أوجبه المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. قال الفراء: فى الكلام إضمار، أى: كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا. و قال الكلبى: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ أى: يتممون العهد. و الأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص. وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً المراد يوم القيامة، و معنى استطارة شرّه: فشوّه و انتشاره، يقال: استطار يستطير استطارة فهو مستطير، و هو استفعل من الطيران، و منه قول الأعشى:

فبانت و قد أسأرت فى الفؤاد صدعا على نأيها مستطيرا

و العرب تقول: استطار الصدع فى القارورة و الزجاجة؛ إذا امتدّ، و يقال: استطار الحرق؛ إذا انتشر.

قال الفرّاء: المستطير: المستطيل. قال قتادة: استطار شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات و الأرض. قال مقاتل: كان شرّه فاشيا فى السموات فانشقت و تناثرت الكواكب و فزعت الملائكة، و فى الأرض نسفت الجبال و غارت المياه. وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً أى: يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبّه لديهم و قلّته عندهم. قال مجاهد: على قلّته و حبهم إياه و شهوتهم له؛ فقوله عَلى حُبِّهِ فى محل نصب على الحال، أى: كائنين على حبه، و مثله قوله: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ «۱» و قيل: على حبّ الإطعام لرغبتهم فى الخير. قال الفضيل بن عياض: على حبّ إطعام الطعام. و قيل: الضمير فى حبه يرجع إلى اللّه، أى: يطعمون الطعام على حبّ اللّه، أى: يطعمون إطعاما كائنا على حبّ اللّه، و يؤيد هذا قوله: إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ و المسكين: ذو المسكنة، و هو الفقير، أو من هو أفقر من الفقير، و المراد باليتيم يتامى المسلمين، و الأسير: الّذى يؤسر فيحبس. قال قتادة و مجاهد: الأسير: المحبوس. و قال عكرمة: الأسير: العبد. و قال أبو حمزة الثّمالى: الأسير: المرأة. قال سعيد بن جبير: نسخ هذا الإطعام آية الصدقات و آية السيف فى حق الأسير الكافر. و قال غيره: بل هى محكمة، و إطعام المسكين و اليتيم

على التطوّع، و إطعام الأسير لحفظ نفسه إلّا أن يتخير فيه الإمام، و جملة إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ فى محل نصب على الحال بتقدير القول، أى: يقولون إنما نطعمكم، أو قائلين: إنما نطعمكم، يعنى: أنهم لا يتوقعون المكافأة و لا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك. قال الواحدى: قال المفسرون: لم يستكملوا بهذا، و لكن علمه اللّه من قلوبهم فأثنى عليهم، و علم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفا من اللّه و رجاء ثوابه لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً أى: لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام و لا نريد منكم الشكر لنا، بل هو خالص لوجه اللّه، و هذه الجملة مقررة لما قبلها، لأن من أطعم لوجه اللّه لا يريد المكافأة و لا يطلب الشكر له ممّن أطعمه إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً أى: نخاف عذاب يوم متّصف بهاتين الصفتين. و معنى عبوسا:
أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله و شدته، فالمعنى: أنه ذو عبوس. قال الفراء و أبو عبيدة و المبرد: يوم قمطرير

---

(۱). آل عمران: ۹۲.

و قماطر؛ إذا كان صعبا شديدا، و أنشد الفراء:

بنى عمّنا هل تذكرون بلاءناعليكم إذا ما كان يوم قماطر

قال الأخفش: القمطرير أشد ما يكون من الأيام و أطوله فى البلاء، و منه قول الشاعر:

ففرّوا إذا ما الحرب ثار غبارهاو لجّ بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائى: اقمطرّ اليوم و ازمهرّ؛ إذا كان صعبا شديدا، و منه قول الشاعر «۱»:

بنو الحرب أرضعنا لهم مقمطرةو من يلق منّا ذلك اليوم يهرب

و قال مجاهد: إن العبوس بالشفتين، و القمطرير بالجبهة و الحاجبين، فجعلهما من صفات المتغيّر فى ذلك اليوم لما يراه من الشدائد، و أنشد ابن الأعرابى:

يغدو على الصّيد يعود منكسرو يقمطرّ ساعة و يكفهر

قال أبو عبيدة: يقال قمطرير، أى: متقبض ما بين العينين و الحاجبين. قال الزجاج: يقال اقمطرّت الناقة؛ إذا رفعت ذنبها و جمعت قطريها و زمّت بأنفها، فاشتقّه من القطر، و جعل الميم مزيدة. فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ أى: دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه و إطعامهم لوجهه وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً أى:
أعطاهم بدل العبوس فى الكفار نضرة فى الوجوه و سرورا فى القلوب. قال الضحاك: و النضرة: البياض و النقاء فى وجوههم. و قال سعيد بن جبير: الحسن و البهاء، و قيل: النضرة أثر النعمة. وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا أى: بسبب صبرهم على التكاليف، و قيل: على الفقر، و قيل: على الجوع، و قيل: على الصوم. و الأولى حمل الآية على الصبر على كل شى‏ء يكون الصبر عليه طاعة للّه سبحانه، و «ما» مصدرية، و التقدير: بصبرهم جَنَّةً وَ حَرِيراً أى: أدخلهم الجنة و ألبسهم الحرير، و هو لباس أهل الجنة عوضا عن تركه فى الدنيا امتثالا لما ورد فى الشرع من تحريمه، و ظاهر هذه الآيات العموم فى كلّ من خاف من يوم القيامة و أطعم لوجه اللّه و خاف من عذابه، و السبب و إن كان خاصا كما سيأتى فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و يدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولا أوليا.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ قال: كل إنسان. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله: أَمْشاجٍ قال: أمشاجها: عروقها. و أخرج سعيد ابن منصور و ابن أبى حاتم أَمْشاجٍ قال: العروق. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ قال: ماء الرجل و ماء المرأة حين يختلطان. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى

حاتم عنه قال:

أَمْشاجٍ ألوان؛ نطفة الرجل بيضاء و حمراء، و نطفة المرأة خضراء و حمراء. و أخرج ابن أبى حاتم عنه

---

(۱). حذيفة بن أنس الهذلى.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۲۱

أيضا قال: الأمشاج: الّذى يخرج على أثر البول كقطع الأوتار، و منه يكون الولد «۱». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً قال: فاشيا.

و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ أَسِيراً قال: هو المشرك. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: مِسْكِيناً قال: فقيرا وَ يَتِيماً قال:

لا أب له وَ أَسِيراً قال: المملوك و المسجون. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ الآية قال: نزلت هذه الآية فى علىّ بن أبى طالب و فاطمة بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يَوْماً عَبُوساً قال: ضيقا قَمْطَرِيراً قال: طويلا. و أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً قال: يقبض ما بين الأبصار. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طرق عن ابن عباس قال: القمطرير الرجل المنقبض ما بين عينيه و وجهه.

و أخرج ابن المنذر عنه وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً قال: نضرة فى وجوههم و سرورا فى صدورهم.

[سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱۳ الى ۲۲]

مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً (۱۳) وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (۱۴) وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (۱۵) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (۱۶) وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (۱۷) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (۱۸) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (۱۹) وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (۲۰) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (۲۱) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (۲۲)

قوله: مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ منصوب على الحال من مفعول جزاهم، و العامل فيها جزى، و لا يعمل فيها صبروا؛ لأنّ الصبر إنما كان فى الدنيا، و جوّز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة. قال الفرّاء: و إن شئت جعلت متكئين تابعا، كأنه قال: جزاهم جنة متكئين فيها. و قال الأخفش: يجوز أن يكون منصوبا على المدح، و الضمير من فِيها يعود إلى الجنة، و الأرائك: السرر فى الحجال، و قد تقدّم تفسيرها فى سورة الكهف لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً الجملة فى محل نصب على الحال من مفعول «جزاهم»، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير فى متكئين، فتكون من الحال المتداخلة، أو صفة أخرى للجنة، و الزمهرير: أشدّ البرد، و المعنى: أنهم لا يرون فى الجنة حرّ الشمس و لا برد الزمهرير، و منه قول الأعشى:

منعّمة طفلة كالمهاة لم تر شمسا و لا زمهريرا

و قال ثعلب: الزّمهرير: القمر؛ بلغة طيّئ، و أنشد لشاعرهم:

و ليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها و الزّمهرير ما زهر

---

(١). هذان الأثران لا يستندان إلى دليل شرعى فلا يعتد بهما.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۲۲

و يروى: ما ظهر، أى: لم يطلع القمر. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة مريم. وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها قرأ الجمهور «دانية» بالنصب عطفا على محل «لا يرون»، أو على «متكئين»، أو صفة لمحذوف، أى:

و جنة دانية، كأنه قال: و جزاهم جنة دانية. و قال الزجاج: هو صفة لجنة المتقدّم ذكرها. و قال الفرّاء:

هو منصوب على المدح. و قرأ أبو حيوة «و دانية» بالرفع على أنه خبر مقدّم، و ظلالها مبتدأ مؤخر، و الجملة فى موضع النصب على الحال. و المعنى: أن ظلال الأشجار قريبة منهم، مظلة عليهم، زيادة فى نعيمهم و إن كان لا شمس هنالك. قال مقاتل: يعنى شجرها قريب منهم. و قرأ ابن مسعود: «و دانيا عليهم».

وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا معطوف على دانية، كأنه قال: و مذللة. و يجوز أن تكون الجملة فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم، و يجوز أن تكون مستأنفة، و القطوف: الثمار، و المعنى: أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيرا كثيرا، بحيث يتناولها القائم و القاعد و المضطجع، لا يردّ أيديهم عنها بعد و لا شوك. قال النحاس: المذلّل: القريب المتناول، و منه قولهم: حائط ذليل، أى: قصير. قال ابن قتيبة: ذُلِّلَتْ

أدنيت، من قولهم حائط ذليل، أى: كان قصير السّمك. و قيل: ذُلِّلَتْ أى: جعلت منقادة، لا تمتنع على قطّافها كيف شاؤوا وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ أى: يدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية الفضة، و الأكواب: جمع كوب، و هو الكوز العظيم الّذى لا أذن له و لا عروة، و منه قول عدىّ:

متّكئا تقرع أبوابه‌يسعى عليه العبد بالكوب

و قد مضى تفسيره فى سورة الزخرف كانَتْ قَوارِيرَا- قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ أى: فى صفاء القوارير و فى بياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج و لونها لون الفضة. قرأ نافع و الكسائى و أبو بكر قَوارِيرَا- قَوارِيرَا بالتنوين فيهما مع الوصل، و بالوقف عليهما بالألف، و قد تقدم وجه هذه القراءة فى تفسير قوله:

سلاسلا من هذه السورة، و بينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه. و قرأ حمزة بعدم التنوين فيهما و عدم الوقف بالألف، و وجه هذه القراءة ظاهر؛ لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع.

و قرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف، و قرأ ابن كثير بتنوين الأوّل دون الثانى و الوقف على الأوّل بالألف دون الثانى. و قرأ أبو عمرو و حفص و ابن ذكوان بعدم التنوين فيهما، و الوقف على الأوّل بالألف دون الثانى، و الجملة فى محل جرّ صفة لأكواب. قال أبو البقاء: و حسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها.

قال الواحدى: قال المفسرون: جعل اللّه قوارير أهل الجنة من فضة، فاجتمع لها بياض الفضة و صفاء القوارير.

قال الزجاج: القوارير التى فى الدنيا من الرمل، فأعلم اللّه فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما فى داخلها، و جملة قَدَّرُوها تَقْدِيراً صفة لقوارير. قرأ الجمهور: «قدّروها» بفتح القاف على البناء للفاعل، أى: قدّرها السّقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة و لا نقصان. قال مجاهد و غيره: أتوا بها على قدر ريّهم بغير زيادة و لا نقصان. قال الكلبى: و ذلك ألذّ و أشهى، و قيل: قدّرها الملائكة، و قيل: قدّرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۲۳

و حاجتهم؛ فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد و لا تنقص. و قرأ علىّ و ابن عباس و السّلمى و الشّعبى و زيد ابن علىّ و

عبيد بن عمير و أبو عمرو، و فى رواية عنه «قدّروها» بضم القاف و كسر الدال مبنيا للمفعول، أى: جعلت لهم على قدر إرادتهم. قال أبو على الفارسى: هو من باب القلب، قال: لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدّرت عليهم لا قدّروها، لأنه فى معنى قدروا عليها. و قال أبو حاتم: التقدير: قدّرت الأوانى على قدر ريّهم، فمفعول ما لم يسمّ فاعله محذوف. قال أبو حيان: و الأقرب فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال:

قدّر ريهم منها تقديرا، فحذف المضاف فصار: قدّروها. و قال المهدوى: إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى، و كأن الأصل قدّروا عليها فحذف حرف الجرّ، كما أنشد سيبويه:

آليت حبّ العراق الدّهر آكله و الحبّ يأكله فى القرية السّوس

أى: آليت على حبّ العراق وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر، و إذا كان خاليا عن الخمر فلا يقال له كأس، و المعنى: أن أهل الجنة يسقون فى الجنة كأسا من الخمر، ممزوجة بالزنجبيل. و قد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته. و قال مجاهد و قتادة:

الزنجبيل: اسم للعين التى يشرب بها المقرّبون. و قال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا انتصاب عينا على أنها بدل من كأسا. و يجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدّر، أى: يسقون عينا، و يجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض، أى: من عين، و السلسبيل: الشراب اللذيذ، مأخوذ من السلاسة، تقول العرب: هذا شراب سلس، و سلسال، و سلسبيل، أى: طيب لذيذ. قال الزجاج: السلسبيل فى اللغة: اسم لماء فى غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ فى حلوقهم، و منه قول حسان بن ثابت:

يسقون من ورد البريص عليهم كأسا «١» يصفّق بالرّحيق السّلسل «٢»

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم، و وصف آنيتهم، و وصف السّقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب. و معنى: مُخَلَّدُونَ باقون على ما هم عليه من الشباب و الطراوة و النضارة، لا يهرمون و لا يتغيرون، و قيل: معنى مُخَلَّدُونَ لا يموتون، و قيل: التخليد: التحلية، أى محلّون إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم و صفاء ألوانهم و نضارة وجوههم لؤلؤا مفرّقا. قال عطاء: يريد فى بياض اللون و حسنه، و اللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما. قال أهل المعانى: إنما شبّهوا بالمنثور لانتثارهم فى الخدمة، و لو كانوا صفا لشبهوا بالمنظوم، و قيل: إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع فى الخدمة؛ بخلاف الحور العين فإنه شبههنّ باللؤلؤ المكنون لأنهنّ لا يمتهنّ بالخدمة.

---

(١). فى تفسير القرطبى: بردى. و هو نهر بدمشق.

(٢). «البريص»: نهر بدمشق. «يصفق»: يمزج. «الرحيق»: الخمر البيضاء.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٢٤

وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً أى: و إذا رميت ببصرك هناك، يعنى فى الجنة رأيت نعيما لا يوصف، و ملكا كبيرا لا يقادر قدره، و «ثم» ظرف مكان، و العامل فيها «رأيت». قال الفرّاء: فى الكلام «ما» مضمرة، أى: و إذا رأيت ما ثم، كقوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ «١» أى: ما بينكم. قال الزجاج معترضا على الفراء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول و ترك الصّلة، و لكن «رأيت» يتعدّى فى المعنى إلى «ثم». و المعنى: إذا رأيت ببصرك ثم، و يعنى بثمّ الجنة، قال السدّى: النعيم: ما يتنعم به، و الملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، و كذا قال مقاتل و الكلبى. و قيل: إن «رأيت» ليس له مفعول ملفوظ و لا مقدّر و لا منوىّ، بل معناه: أن بصرك أينما وقع فى الجنة رأيت نعيما و ملكا كبيرا عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ قرأ نافع و حمزة و ابن محيصن «عاليهم» بسكون الياء و كسر الهاء على أنه خبر مقدّم، و ثياب مبتدأ مؤخر، أو على أن عاليهم مبتدأ، و ثياب مرتفع بالفاعلية؛ و إن لم يعتمد الوصف كما

هو مذهب الأخفش. و قال الفراء:

هو مرفوع بالابتداء، و خبره: ثياب سندس، و اسم الفاعل مراد به الجمع. و قرأ الباقون بفتح الياء و ضم الهاء على أنه ظرف فى محلّ رفع على أنه خبر مقدّم، و ثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قيل: فوقهم ثياب. قال الفرّاء:

إن عاليهم بمعنى فوقهم، و كذا قال ابن عطية. قال أبو حيان: عال و عالية اسم فاعل، فيحتاج فى كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من كلام العرب، و قد تقدّمه إلى هذا الزجاج و قال: هذا مما لا نعرفه فى الظروف، و لو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء، و لكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما الهاء و الميم فى قوله: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ أى: على الأبرار وِلْدانٌ عاليا الأبرار ثِيابُ سُندُسٍ أى: يطوف عليهم فى هذه الحال.

و الثانى أن يكون حالا من الولدان، أى: إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا فى حال علوّ الثياب أبدانهم. و قال أبو علىّ الفارسىّ: العامل فى الحال إما «لقّاهم نضرة و سرورا»، و إما «جزاهم بما صبروا». قال: و يجوز أن يكون ظرفا. و قرأ ابن سيرين و مجاهد و أبو حيوة و ابن أبى عبلة: «عليهم»، و هى قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة. و اختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود: «عاليتهم». و قرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس. و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة بتنوين ثياب و قطعها عن الإضافة و رفع سندس، و خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ على أن السندس نعت للثياب؛ لأن السندس نوع من الثياب، و على أن خضر نعت لسندس؛ لأنه يكون أخضر و غير أخضر، و على أن إستبرق معطوف على سندس، أى: و ثياب إستبرق، و الجمهور من القرّاء اختلفوا فى خضر و إستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه؛ فقرأ ابن كثير و أبو بكر عن عاصم و ابن محيصن بجرّ خضر نعتا لسندس، و رفع إستبرق عطفا على ثياب، أى: عليهم ثياب سندس و عليهم إستبرق. و قرأ أبو عمرو و ابن عامر برفع خضر نعتا لثياب، و جرّ إستبرق نعت لسندس. و اختار هذه القراءة أبو حاتم و أبو عبيد؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة، و الإستبرق من جنس السندس. و قرأ نافع و حفص برفع: «خضر و إستبرق» لأن خضر نعت للثياب، و إستبرق عطف على

---

(١). الأنعام: ٩۴.

الثياب. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى بجرّ: «خضر و إستبرق» على أن خضر نعت للسندس، و إستبرق معطوف على سندس. و قرءوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن فإنه لم يصرفه، قال: لأنه أعجمى، و لا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب. و السندس: ما رقّ من الديباج.

و الإستبرق: ما غلظ منه، و قد تقدّم تفسيرهما فى سورة الكهف وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ عطف على يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة و فى سورة فاطر يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ «١» و فى سورة الحج يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً «٢» و لا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب و فضة و لؤلؤ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة، و سوارات الفضة تارة، و سوارات اللؤلؤ تارة، أو أنه يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك، و يجوز أن تكون هذه الجملة فى محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً هذا نوع آخر من الشراب الّذى يمنّ اللّه عليهم به. قال الفرّاء: يقول: هو طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا موصوفا بالنجاسة. و المعنى: أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا. قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع اللّه ما كان فى قلبه من غش و غلّ و حسد. قال أبو قلابة و إبراهيم النخعى: يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك، و يفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً أى: يقال لهم: إن هذا الّذى ذكر من

أنواع النعم كان لكم جزاء بأعمالكم، أى: ثوابا لها وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً أى: كان عملكم فى الدنيا بطاعة اللّه مرضيا مقبولا، و شكر اللّه سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: الزمهرير هو البرد الشديد. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربّ أكل بعضى بعضا، فجعل لها نفسين: نفسا فى الصيف، و نفسا فى الشتاء، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها، و شدّة ما تجدون فى الصيف من الحرّ من سمومها».

و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد ابن السرىّ و عبد بن حميد، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن البراء بن عازب فى قوله: وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها قال: قريبة وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا قال: إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياما و قعودا و مضطجعين و على أىّ حال شاؤوا. و فى لفظ قال: ذللت فيتناولون منها كيف شاؤوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس قال: بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ و صفاؤها كصفاء القوارير قَدَّرُوها تَقْدِيراً قال: قدّرت للكف. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و البيهقى عنه قال: لو أخذت فضة من فضة

---

(١). فاطر: ٣٣.

(٢). الحج: ٢٣.

الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، و لكن قوارير الجنة ببياض الفضة فى صفاء القوارير. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: ليس فى الجنة شى‌ء إلا و قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. و أخرج الفريابى عنه أيضا فى قوله: قَدَّرُوها تَقْدِيراً قال: أتوا بها على قدر الفم لا يفضلون شيئا و لا يشتهون بعدها شيئا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا قَدَّرُوها تَقْدِيراً قال: قدّرتها السقاة. و أخرج ابن المبارك و هناد و عبد بن حميد، و البيهقى فى البعث، عن ابن عمرو قال: إن أدنى أهل الجنة منزلا من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه، و تلا هذه الآية: إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً.

[سورة الإنسان (٧۶): الآيات ٢٣ الى ٣١]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢۴) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٢۵) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢۶) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧)
نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٣١)

قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا أى: فرّقناه فى الإنزال و لم ننزله جملة واحدة. و قيل:

المعنى: نزلناه عليك و لم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ أى: لقضائه، و من حكمه و قضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته. قيل: و هذا منسوخ بآية السيف وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً أى: لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم و غال فى كفر، فنهاه اللّه سبحانه عن ذلك.

قال الزجاج: إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك إذا قلت: لا تطع زيدا و عمرا، فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره

أن لا يطيع الاثنين، فإذا قال: لا تطع منهم آثما أو كفورا دلّ ذلك على أن كلّ واحد منهما أهل أن يعصى، كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، فقد قلت إنهما أهل أن يتبعا، و كل واحد منهما أهل أن يتبع. و قال الفراء: «أو» هنا بمنزلة لا، كأنه قال: و لا كفورا. و قيل: المراد بقوله:

آثِماً عتبة بن ربيعة، و بقوله: أَوْ كَفُوراً الوليد بن المغيرة؛ لأنهما قالا- للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: ارجع عن هذا الأمر و نحن نرضيك بالمال و التزويج وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أى: دم على ذكره فى جميع الأوقات. و قيل: المعنى: صلّ لربك أوّل النهار و آخره، فأوّل النهار صلاة الصبح، و آخره صلاة العصر وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ أى: صلّ المغرب و العشاء. و قيل: المراد الصلاة فى بعضه من غير تعيين، و من:

للتبعيض على كل تقدير وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا أى: نزّهه عما لا يليق به، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها. و قيل: المراد التطوّع فى الليل. قال ابن زيد و غيره: إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس. و قيل: الأمر للندب. و قيل: هو مخصوص بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ

فتح القدير، ج‏5، ص: 427

يعنى كفار مكة و من هو موافق لهم. و المعنى: أنهم يحبون الدار العاجلة، و هى دار الدنيا وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا أى: يتركون و يدعون وراءهم، أى: خلفهم أو بين أيديهم و أمامهم يوما شديدا عسيرا، و هو يوم القيامة، و سمّى ثقيلا لما فيه من الشدائد و الأهوال. و معنى كونه يذرونه وراءهم: أنهم لا يستعدّون له و لا يعبئون به، فهم كمن ينبذ الشى‏ء وراء ظهره تهاونا به و استخفافا بشأنه، و إن كانوا فى الحقيقة مستقبلين له و هو أمامهم نَحْنُ خَلَقْناهُمْ أى: ابتدأنا خلقهم من تراب، ثم من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، و لم يكن لغيرنا فى ذلك عمل و لا سعى لا اشتراكا و لا استقلالا وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ الأسر: شدّة الخلق، يقال: شدّ اللّه أسر فلان: أى قوّى خلقه. قال مجاهد و قتادة و مقاتل و غيرهم: شددنا خلقهم. قال الحسن: شددنا أوصالهم بعضا إلى بعض بالعروق و العصب. قال أبو عبيد: يقال فرس شديد الأسر، أى: الخلق. قال لبيد:

ساهم الوجه شديد أسره مشرف الحارك محبوك الكتد

و قال الأخطل:

من كلّ مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا

و قال ابن زيد: الأسر القوّة، و اشتقاقه من الإسار، و هو القدّ الّذى تشدّ به الأقتاب. و منه قول ابن أحمر يصف فرسا:

يمشى بأوظفة شداد أسرها صمّ السّنابك لا تقى بالجدجد «1»

وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا أى: لو شئنا لأهلكناهم و جئنا بأطوع للّه منهم. و قيل: المعنى:

مسخناهم إلى أسمج صورة و أقبح خلقة إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ يعنى إن هذه السورة تذكير و موعظة فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا أى: طريقا يتوصّل به إليه، و ذلك بالإيمان و الطاعة، و المراد: إلى ثوابه أو إلى جنّته وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أى: و ما تشاؤون أن تتخذوا إلى اللّه سبيلا إلا أن يشاء اللّه، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، و الخير و الشرّ بيده، لا مانع لما أعطى، و لا معطى لما منع، فمشيئة العبد مجرّدة لا تأتى بخير و لا تدفع شرّا، و إن كان يثاب على المشيئة الصالحة، و يؤجر على قصد الخير كما فى حديث: «إنّما الأعمال بالنّيّات، و إنما لكل امرئ ما نوى». قال الزجاج: أى لستم تشاؤون إلا بمشيئة اللّه إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً فى أمره و نهيه، أى: بليغ العلم و الحكمة يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ أى: يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها، أو يدخل فى جنته من يشاء من عباده. قال عطاء: من صدقت نيته أدخله جنته وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً انتصاب الظالمين بفعل مقدّر يدل عليه ما قبله، أى: يعذب الظالمين، نصب الظالمين لأن ما قبله منصوب، أى: يدخل من يشاء فى رحمته و يعذب الظالمين، أى:

المشركين،

---

(۱). «الجدجد»: الأرض الصلبة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۲۸

و يكون «أعدّ لهم» تفسيرا لهذا المضمر، و الاختيار النصب و إن جاز الرفع، و بالنصب قرأ الجمهور. و قرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء، و وجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ قال: خلقهم. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ قال: هى المفاصل.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۲۹

سورة المرسلات

اشارة

و هى مكية فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر. قال قتادة: إلا آية منها و هى قوله: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ «۱» فإنها مدنية، و روى هذا عن ابن عباس. و أخرج النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة المرسلات بمكة. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال:

«بينما نحن مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى غار بمنى إذا نزلت سورة: المرسلات عرفا، فإنه ليتلوها و إنى لأتلقّاها من فيه، و إن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: اقتلوها، فابتدرناها فذهبت؛ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: وقيت شرّكم كما وقيتم شرّها». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس أن أمّ الفضل سمعته و هو يقرأ و المرسلات عرفا فقالت: يا بنى لقد ذكرتنى بقراءتك هذه السورة، إنها آخر ما سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ بها فى المغرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱ الى ۲۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (۱) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (۲) وَ النَّاشِراتِ نَشْراً (۳) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (۴)
فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (۷) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (۸) وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (۹)
وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (۱۰) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (۱۱) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (۱۲) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (۱۳) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (۱۴)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۵) أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (۱۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (۱۷) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۱۸) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۹)
أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (۲۰) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (۲۱) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۲) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (۲۳) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۲۴)
أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (۲۵) أَحْياءً وَ أَمْواتاً (۲۶) وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (۲۷) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

قوله: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال جمهور المفسرين: هى الرياح، و قيل: هى الملائكة، و به قال مقاتل و أبو صالح و الكلبى، و قيل: هم الأنبياء، فعلى الأوّل أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به كما فى قوله:

وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ «٢» و قوله: يُرْسِلُ الرِّياحَ* «٣» و غير ذلك. و على الثانى أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه و أمره و نهيه. و على الثالث أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه، و انتصاب عُرْفاً إما على أنه مفعول لأجله، أى: المرسلات؛ لأجل العرف و هو ضدّ النكر، و منه قول الشاعر:

---

(١). المرسلات: ٤٨.

(٢). الحجر: ٢٢.

(٣). النمل: ٦٣.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٣٠ من يفعل الخير لا يعدم جوازيه‌لا يذهب العرف بين اللّه و النّاس

أو على أنه حال بمعنى متابعة؛ و يتبع بعضها بعضا كعرف الفرس، تقول العرب: سار الناس إلى فلان عرفا واحدا؛ إذا توجهوا إليه، و هم على فلان كعرف الضبع؛ إذا تألبوا عليه، أو على أنه مصدر كأنه قال:

و المرسلات إرسالا، أى: متتابعة، أو على أنه منصوب بنزع الخافض، أى: و المرسلات بالعرف. قرأ الجمهور: «عرفا» بسكون الراء، و قرأ عيسى بن عمر بضمها، و قيل: المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة و نقمة فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً و هى الرياح الشديدة الهبوب. قال القرطبى: بغير اختلاف، يقال:

عصف بالشى‌ء؛ إذا أباده و أهلكه، و ناقة عصوف، أى: تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة، و يقال: عصفت الحرب بالقوم؛ إذا ذهبت بهم، و قيل: هى الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، و قيل:

يعصفون بروح الكافر، و قيل: هى الآيات المهلكة كالزلازل و نحوها وَ النَّاشِراتِ نَشْراً يعنى الرياح تأتى بالمطر و هى تنشر السحاب نشرا، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها، أو ينشرون أجنحتهم فى الجوّ عند النزول بالوحى، أو هى الأمطار لأنها تنشر النبات. و قال الضحاك: يريد ما ينشر من الكتب و أعمال بنى آدم. و قال الربيع: إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح، و جاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر فَالْفارِقاتِ فَرْقاً يعنى الملائكة تأتى بما يفرّق بين الحق و الباطل و الحلال و الحرام. و قال مجاهد: هى الريح تفرق بين السحاب فتبدّده. و روى عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق و الباطل، و قيل: هى الرسل فرقوا ما بين ما أمر اللّه به و نهى عنه، و به قال الحسن، فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً هى الملائكة. قال القرطبى: بإجماع، أى:

تلقى الوحى إلى الأنبياء، و قيل: هو جبريل، و سمّى باسم الجمع تعظيما له، و قيل: هى الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل اللّه عليهم، قاله قطرب. قرأ الجمهور: «فالملقيات» بسكون اللام و تخفيف القاف اسم فاعل، و قرأ ابن عباس بفتح اللام و تشديد القاف من التلقية و هى إيصال الكلام إلى المخاطب، و الراجح أن الثلاثة الأول للرياح، و الرابع و الخامس للملائكة، و هو الّذى اختاره الزجاج و القاضى و غيرهما عُذْراً أَوْ نُذْراً انتصابهما على البدل من ذكرا، أو على المفعولية، و العامل فيهما المصدر المنوّن، كما فى قوله: أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ- يَتِيماً «١» أو على المفعول لأجله: أى للإعذار و الإنذار، أو على الحال بالتأويل المعروف، أى: معذرين أو منذرين. قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما. و قرأ زيد بن ثابت و ابنه خارجة ابن زيد و طلحة بضمهما. و قرأ الحرميان و ابن عامر و أبو بكر بسكونها فى عُذْراً و ضمها فى نُذْراً.

و قرأ الجمهور: «عذرا أو نذرا» على العطف بأو. و قرأ إبراهيم التيمى و قتادة على العطف بالواو بدون ألف، و المعنى: أن

الملائكة تلقى الوحى عذرا إلى خلقه و إنذارا من عذابه، كذا قال الفراء: و قيل: عذرا للمحقّين و نذرا للمبطلين. قال أبو على الفارسى: يجوز أن يكون العذر و النذر بالتثقيل جمع عاذر و ناذر كقوله: هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى «٢» فيكون نصبا على الحال من الإلقاء، أى: يلقون الذكر فى حال العذر و الإنذار،

---

(١). البلد: ١۴- ١۵.

(٢). النجم: ۵۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۳۱

أو مفعولا لذكرا، أى: تذكر عذرا أو نذرا. قال المبرد: هما بالتثقيل جمع، و الواحد عذير و نذير. ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال: إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ أى: إن الّذى توعدونه من مجي‌ء الساعة و البعث كائن لا محالة، ثم بيّن سبحانه متى يقع ذلك فقال: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ أى محى نورها و ذهب ضوءها، يقال: طمس الشي‌ء؛ إذا درس و ذهب أثره وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ أى: فتحت و شقت، و مثله قوله: وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً «١» وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ أى قلعت من مكانها بسرعة، يقال نسفت الشي‌ء و أنسفته؛ إذا أخذته بسرعة. و قال الكلبى: سوّيت بالأرض، و العرب تقول:

نسفت الناقة الكلأ؛ إذا رعته، و قيل: جعلت كالحبّ الّذى ينسف بالمنسف، و منه قوله: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا «٢» و الأوّل أولى. قال المبرد: نسفت: قلعت من مواضعها وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ الهمزة فى أقتت بدل من الواو المضمومة، و كل واو انضمت و كانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة، و قد قرأ بالواو أبو عمرو و شيبة و الأعرج و قرأ الباقون بالهمزة، و الوقت: الأجل الّذى يكون عنده الشي‌ء المؤخر إليه، و المعنى:

جعل لها وقت للفصل و القضاء بينهم و بين الأمم كما فى قوله سبحانه: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ «٣» و قيل:

هذا فى الدنيا، أى: جمعت الرسل لميقاتها الّذى ضرب لها فى إنزال العذاب بمن كذبها، و الأوّل أولى. قال أبو علىّ الفارسى: أى جعل يوم الدين و الفصل لها وقتا، و قيل: أقتت: أرسلت لأوقات معلومة على ما علم اللّه به لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ هذا الاستفهام للتعظيم و التعجيب، أى: لأى يوم عظيم يعجب العباد منه لشدّته و مزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم، و الجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا، أو فى محل نصب على الحال من الضمير فى «أقتت». قال الزجاج: المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الّذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم، ثم بين هذا اليوم فقال: لِيَوْمِ الْفَصْلِ قال قتادة: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة و النار، ثم عظم ذلك اليوم فقال: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ أى: و ما أعلمك بيوم الفصل يعنى أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره، و «ما» مبتدأ و «أدراك» خبره، أو العكس كما اختاره سيبويه. ثم ذكر حال الذين كذّبوا بذلك اليوم فقال: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أى: ويل لهم فى ذلك اليوم الهائل، و ويل:

أصل مصدر سادّ مسدّ فعله، و عدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات، و الويل: الهلاك؛ أو هو: اسم واد فى جهنم، و كرّر هذه الآية فى هذه السورة لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشي‌ء عذابا سوى تكذيبه بشي‌ء آخر، و ربّ شي‌ء كذب به هو أعظم جرما من التكذيب بغيره، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب. ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال: أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قال مقاتل: يعنى بالعذاب فى الدنيا حين كذبوا رسلهم ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ يعنى كفار مكة، و من وافقهم حين كذبوا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قرأ الجمهور: «نتبعهم» بالرفع على الاستئناف، أى: ثم نحن نتبعهم. قال أبو البقاء ليس بمعطوف؛ لأن العطف

(۱). النبأ: ۱۹.

(۲). الواقعة: ۵.

(۳). المائدة: ۹.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۳۲

يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين فى الإهلاك. و ليس كـذلك؛ لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد. و يـدل على الرفع قراءة ابن مسعود «ثم سنتبعهم الآخرين». و قرأ الأعرج و العباس عن أبى عمرو و «نتبعهم» بـالجزم عطفا على «نهلك». قال شهاب الـدين: على جعل الفعل معطوفا على مجموع الجملـة من قوله: «أ لم نهلك». كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم، يريـد من يهلكه فيما بعـد، و الكاف فى موضع نصب على النعت لمصـدر محذوف، أى: مثل ذلـك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما فى الـدنيا أو فى الآخرة وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أى: ويل يوم ذلك الإهلاك للمكـذبين بكتب اللّه و رسله، قيل: الويل الأوّل لعذاب الآخرة، و هذا لعذاب الدنيا أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ أى:

ضعيف حقير، و هو النطفـة فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ أى: مكان حريز، و هو الرحم إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ أى: إلى مقدار معلوم، و هو مدّة الحمل، و قيل: إلى أن يصوّر فَقَدَرْنا قرأ الجمهور: «فقدرنا» بالتخفيف. و قرأ نافع و الكسائى بالتّشديد من التقدير. قال الكسائى و الفراء: و هما لغتان بمعنى، تقول:

قدّرت كذا، و قدرته فَنِعْمَ الْقادِرُونَ أى: نعم المقدّرون نحن، قيل: المعنى: قدّرناه قصيرا أو طويلا، و قيل: معنى قدّرنا ملكنا وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بقدرتنا على ذلك. ثم بيّن لهم بديع صنعه و عظيم قدرته ليعتبروا، فقال: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً معنى الكفت فى اللغـة: الضم و الجمع، يقـال: كفت الشـى‌ء؛ إذا ضـمّه و جمعه، و من هـذا يقال للجراب و القـدر: كفت، و المعنى: ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها و الأموات فى باطنها تضمهم و تجمعهم. قال الفرّاء: يريد تكفتهم أحياء على ظهرها فى دورهم و منازلهم، و تكفتهم أمواتا فى بطنها، أى: تحوزهم، و هو معنى قوله: أَحْياءً وَ أَمْواتاً و أنشد سيبويه:

كرام حين تنكفت الأفاعى إلى أجحارهنّ من الصّقيع

قال أبو عبيدة: كِفاتاً أوعية، و منه قول الشاعر:

فأنت اليوم فوق الأرض حيّا و أنت غدا تضمّك فى كفات

أى: فى قبر، و قيـل: معنى جعلهـا كفاتـا؛ أنه يـدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضـلات. قال الأخفش و أبو عبيـدة: الأحياء و الأمـوات وصـفان للأرض، أى: الأرض منقسـمة إلى حىّ و هو الّـذى ينبت، و إلى ميت و هو الّـذى لا ينبت. قال الفراء: انتصاب أحياء و أمواتا بوقوع الكفات عليه، أى: ألم نجعل الأرض كفات أحياء و أموات، فإذا نوّن نصب ما بعده، و قيل: نصبا على الحال من الأرض، أى: و منها كذا، و قيل:

هو مصدر نعت به للمبالغة. و قال الأخفش: كفاتا جمع كافتة، و الأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع.

و قال الخليل: التكفيت: تقليب الشى‌ء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر، و يقال: انكفت القوم إلى منازلهم، أى:

ذهبـوا وَ جَعَلْنـا فِيهـا رَواسِيَ شامِخـاتٍ أى: جبالا طوالا، و الرواسـى: الثوابت، و الشامخات: الطوال، و كـل عـال فهو شامـخ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً أى: عذبا، و الفرات: الماء العذب يشرب منه و يسقى به.

قال مقاتل: و هذا كله أعجب من البعث وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التى هذه من جملتها.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۳۳

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، عن أبى هريرة وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: هى الملائكة أرسلت بالعرف. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: الريح فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً قال: الريح وَ النَّاشِراتِ نَشْراً قال: الريح. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، أنه جاء رجل إلى علىّ بن أبى طالب، فقال: ما العاصفات عصفا؟ قال: الرياح. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: الريح فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً قال: الريح فَالْفارِقاتِ فَرْقاً قال: الملائكة فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً قال: الملائكة. و أخرج ابن المنذر عنه وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: الملائكة فَالْفارِقاتِ فَرْقاً قال: الملائكة، فرقت بين الحق و الباطل فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً بالتنزيل. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن مسعود قال: ويل: واد فى جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، فجعل للمكذبين. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مِنْ ماءٍ مَهِينٍ قال: ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه كِفاتاً قال: كنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا رَواسِيَ شامِخاتٍ قال: جبالا مشرفات، و فى قوله: فُراتاً قال: عذبا.

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٢٩ الى ٥٠]

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (٣٣)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (٣٨)

فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ (٤١) وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ هو بتقدير القول، أى: يقال لهم توبيخا و تقريعا انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ فى الدنيا، تقول لهم ذلك خزنة جهنم، أى: سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب، و هو عذاب النار انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ أى: إلى ظل من دخان جهنم قد سطع، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب، و هذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعّب شعبا. قرأ الجمهور:

«انطلقوا» فى الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد. و قرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضى فى الثانى:

أى لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا. و قيل: المراد بالظل هنا هو السرادق، و هو لسان من النار يحيط بهم. ثم يتشعب ثلاث شعب فيظلّهم حتى يفرغ من حسابهم، ثم يصيرون إلى النار. و قيل: هو الظلّ من يحموم كما فى قوله: فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ- وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ «١» على ما تقدّم. ثمّ وصف سبحانه هذا الظلّ

---

(١). الواقعة: ٤٢- ٤٣.

تهكما بهم فقال: لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ أى: لا يظل من الحرّ و لا يغنى من اللهب. قال الكلبى:
لا يردّ حرّ جهنم عنكم. ثم وصف سبحانه النار فقال: إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ أى: كل شررة من شررها التى ترمى بها كالقصر من القصور فى عظمها، و الشرر: ما تطاير من النار متفرّقا، و القصر: البناء العظيم. و قيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد، مثل جمر و جمرة، و تمر و تمرة، و هى الواحدة من جزل الحطب الغليظ. قال سعيد بن جبير و الضحاك: و هى أصول الشجر العظام، و قيل: أعناقه. قرأ الجمهور:
«كَالْقَصْرِ» بإسكان الصاد، و هو واحد القصور كما تقدم. و قرأ ابن عباس و مجاهد و حميد و السّلمى بفتح الصاد، أى: أعناق النخل، و القصرة: العنق، جمعه قصر و قصرات. و قال قتادة: أعناق الإبل. و قرأ سعيد ابن جبير بكسر القاف و فتح الصاد، و هى أيضا جمع قصرة مثل بدر و بدرة، و قصع و قصعة. و قرأ الجمهور:
«بِشَرَرٍ» بفتح الشين. و قرأ ابن عباس و ابن مقسم بكسرها مع ألف بين الراءين. و قرأ عيسى كذلك إلا أنه يفتح الشين، و هى لغات، ثم شبّه الشرر باعتبار لونه فقال: كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ و هى جمع جمال، و هى الإبل، أو جمع جمالة. قرأ الجمهور:
«جمالات» بكسر الجيم. و قرأ حمزة و الكسائى و حفص «جمالة» جمع جمل. و قرأ ابن عباس و الحسن و ابن جبير و قتادة و أبو رجاء «جمالات» بضم الجيم، و هى حبال السفن. قال الواحدى: و الصفر معناها السود فى قول المفسرين. قال الفرّاء: الصفر: سواد الإبل، لا يرى أسود من الإبل إلا و هو مشرب صفرة، لذلك سمّت العرب سود الإبل صفرا. قيل: و الشرر إذا تطاير و سقط و فيه بقية من لون النار أشبه بالإبل السود. و منه قول الشاعر:
تلك خيلى منه و تلك ركابى هنّ صفر أولادها كالزّبيب
أى: هنّ سود، قيل: و هذا القول محال فى اللغة أن يكون شىء يشوبه شىء قليل، فينسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قال بهذا، و قد قال تعالى: جِمالَتٌ صُفْرٌ. و أجيب بأن وجهه: أن النار خلقت من النور فهى مضيئة، فلما خلق اللّه جهنم، و هى موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار، و بعث إليها سلطانه و غضبه فاسودّت من سلطانه و ازدادت سوادا، و صارت أشدّ سوادا من كل شىء، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء.
قلت: و هذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل؛ لأنّ كلامه باعتبار ما وقع فى الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار، و اسوداد شررها، لقال اللّه: كأنها جمالات سود، و لكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال، لأن القرآن نزل بلغتهم، و قد نقل الثقات عنهم ذلك، فكان ما فى القرآن هنا واردا على هذا الاستعمال العربى وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ لرسل اللّه و آياته هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ أى: لا يتكلمون، قال الواحدى: قال المفسرون: فى يوم القيامة مواقف، ففى بعضها يتكلمون، و فى بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون، و قد قدّمنا الجمع بهذا فى غير موضع.
و قيل: إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار و هم عند ذلك لا ينطقون؛ لأن مواقف السؤال و الحساب قد انقضت. و قال الحسن: لا ينطقون بحجة و إن كانوا ينطقون. قرأ الجمهور برفع «يوم» على أنه خبر لاسم

الإشارة. و قرأ زيد بن علىّ و الأعرج و الأعمش و أبو حيوة و عاصم فى رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل، و محله الرفع على الخبرية، و قيل: هو منصوب على الظرفية، و الإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الوعيد كأنه قيل: هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ قرأ الجمهور:
«يؤذن» على البناء للمفعول، و قرأ زيد بن علىّ: «و لا يأذن» على البناء للفاعل، أى: لا يأذن اللّه لهم، أى: لا يكون لهم إذن من اللّه فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن كما لو نصب.

قال الفرّاء: الفاء فى فيعتذرون نسق على يؤذن و أجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون، و لو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات، و قد قال: لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا «١» بالنصب، و الكل صواب وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بما دعتهم إليه الرسل و أنذرتهم عاقبته هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ أى: و يقال لهم: هذا يوم الفصل الّذى يفصل فيه بين الخلائق و يتميز فيه الحق من الباطل، و الخطاب فى جمعناكم للكفار فى زمن نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المراد بالأوّلين كفار الأمم الماضية فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ أى: إن قدرتم على كيد الآن فَكِيدُونِ و هذا تقريع و توبيخ لهم. قال مقاتل: يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم، و قيل المعنى: فإن قدرتم على حرب فحاربون، و قيل: إن هذا من قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فيكون كقول هود:

فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ «٢». وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ لأنه قد ظهر لهم عجزهم و بطلان ما كانوا عليه فى الدنيا. ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ أى: فى ظلال الأشجار و ظلال القصور، لا كالظلّ الّذى للكفار من الدخان، أو من النار كما تقدّم. قال مقاتل و الكلبى: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك باللّه؛ لأن السورة من أوّلها إلى آخرها فى تقريع الكفار على كفرهم. قال الرازى: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض و إلا لتفككت السورة فى نظمها و ترتيبها و إنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم، فأما جعله سببا للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال. و المراد بالعيون الأنهار، و بالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم و تستدعيه شهواتهم كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى:

يقال لهم ذلك، فالجملة مقدّرة بالقول، و هى فى محل نصب على الحال من ضمير المتقين، و الباء للسببية:

أى بسبب ما كنتم تعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى المحسنين فى أعمالهم، قرأ الجمهور: «فى ظلال». و قرأ الأعمش و الزهرى و طلحة و الأعرج «فى ظلل» جمع ظلّة وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ حيث صاروا فى شقاء عظيم، و صار المؤمنون فى نعيم مقيم كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ الجملة بتقدير القول فى محل نصب على الحال من المكذبين:

أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم ذلك تذكيرا لهم بحالهم فى الدنيا، أو يقال لهم هذا فى الدنيا، و المجرمون:

المشركون باللّه، و هذا و إن كان فى اللفظ أمرا فهو فى المعنى تهديد و زجر عظيم وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ كرّره لزيادة التوبيخ و التقريع وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ أى: و إذا أمروا بالصلاة لا يصلون.

---

(١). فاطر: ٣٦.

(٢). هود: ٥٥.

قال مقاتل: نزلت فى ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بها فقالوا: لا ننحنى فإنها مسبة علينا، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا خير فى دين ليس فيه ركوع و لا سجود». و قيل: إنما يقال لهم ذلك فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. و قيل: المعنى بالركوع: الطاعة و الخشوع وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بأوامر اللّه سبحانه و نواهيه فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ أى: فبأىّ حديث بعد القرآن يصدقون إذا لم يؤمنوا به. قرأ الجمهور: «يؤمنون» بالتحتية على الغيبة. و قرأ ابن عامر فى رواية عنه، و يعقوب: بالفوقية على الخطاب.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ قال: كالقصر العظيم، و قوله: جِمالَتٌ صُفْرٌ قال: قطع النحاس. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و هناد و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه من طريق عبد الرّحمن بن عباس قال: سمعت ابن عباس يسأل عن قوله: إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ قال: كنا نرفع

الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقلّ، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر. قال: و سمعته يسأل عن قوله: جِمالَتٌ صُفْرٌ قال: حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال. و لفظ البخارى: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع و فوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أنه قرأ: «كالقصر» بفتح القاف و الصاد. و قال: قصر النخل: يعنى الأعناق. و أخرج ابن مردويه عنه أيضا قال: كانت العرب فى الجاهلية تقول: أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر الذراع و الذراعين. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، عن ابن مسعود فى قوله: تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ قال: إنها ليست كالشجر و الجبال، و لكنها مثل المدائن و الحصون. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: كَالْقَصْرِ قال: هو القصر، و فى قوله: جِمالَتٌ صُفْرٌ قال: الإبل. و أخرج الحاكم و صححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله: هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً «١» وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ* «٢» و هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ «٣» فقال له: ويحك هل سألت عن هذا أحد قبلى؟ قال لا، قال: أما إنك لو كنت سألت هلكت، أليس قال اللّه: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «٤» قال: بلى، قال: فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لونا من الألوان. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون للّه فى الدنيا.

---

(١). طه: ١٠٨.

(٢). الصافات: ٢٧.

(٣). الحاقة: ١٩.

(٤). الحج: ٤٧.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٣٧

سورة النّبأ

اشارة

و هى مكية عند الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت عَمَّ يَتَساءَلُونَ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النبإ (٧٨): الآيات ١ الى ٣٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
عَمَّ يَتَساءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤)
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (٦) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (٧) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (٨) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (٩)
وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (١٠) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (١١) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (١٢) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (١٣) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (١٤)

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (١۵) وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (١۶) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (١٨) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (١٩)

وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآباً (٢٢) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً (٢۴)

إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (٢۵) جَزاءً وِفاقاً (٢۶) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (٢٧) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (٢٨) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (٢٩)

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً (٣٠)

قوله: عَمَّ يَتَساءَلُونَ أصله عن ما؛ فأدغمت النون فى الميم؛ لأن الميم تشاركها فى الغنة، كذا قال الزجاج، و حذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام، و كذلك فيم و ممّ و نحو ذلك، و المعنى: عن أىّ شىء يسأل بعضهم بعضا. قرأ الجمهور: «عمّ» بحذف الألف لما ذكرنا، و قرأ أبىّ و ابن مسعود و عكرمة و عيسى بإثباتها، و منه قول الشاعر:

علام قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرّغ فى دمان؟!

و لكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، و قرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف، و روى ذلك عن ابن كثير.

قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، و المعنى تفخيم القصة، كما تقول: أىّ شىء تريد؛ إذا عظمت شأنه.

قال الواحدى: قال المفسرون: لما بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أخبرهم بتوحيد اللّه و البعث بعد الموت و تلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون: ماذا جاء به محمد و ما الّذى أتى به؟ فأنزل اللّه: عَمَّ يَتَساءَلُونَ قال الفراء: التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضا كالتقابل، و قد يستعمل أيضا فى أن يتحدّثوا به و إن لم يكن

فتح القدير، ج۵، ص: ۴٣٨

بينهم سؤال. قال اللّه تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ- قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ «١» الآية، و هذا يدل على أنه التحدّث، و لفظ «ما» موضوع لطلب حقائق الأشياء، و ذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا، فجعل الشىء العظيم الّذى يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، و لهذا جاء سبحانه بلفظ ما. ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا و بيّنه فقال: عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ فأورده سبحانه أوّلا على طريقة الاستفهام، مبهما لتتوجه إليه أذهانهم، و تلتفت إليه أفهامهم، ثم بينه بما يفيد تعظيمه و تفخيمه كأنه قيل:

عن أىّ شىء يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل: بطريق الجواب: «عن النبأ العظيم» على منهاج قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «٢» فالجارّ و المجرور متعلق بالفعل الّذى قبله، أو بما يدلّ عليه. قال ابن عطية: قال أكثر النحاة: عن النبأ العظيم متعلق بيتساءلون الظاهر، كأنه قال: لم يتساءلون عن النبأ العظيم، و قيل: ليس بمتعلق بالفعل المذكور؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون التقدير: أعن النبأ العظيم؟

فلزم أن يتعلق بيتساءلون آخر مقدّر، و إنما كان ذلك النبأ، أى: القرآن، عظيما؛ لأنه ينبئ عن التوحيد و تصديق الرسول و وقوع البعث و النشور. قال الضحاك: يعنى نبأ يوم القيامة، و كذا قال قتادة، و قد استدلّ على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله: الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ فإنهم اختلفوا فى القرآن، فجعله بعضهم سحرا، و بعضهم شعرا، و بعضهم كهانة، و بعضهم قال: هو أساطير الأوّلين. و أما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره. و يمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الجملة، فصدّق به المؤمنون و كذب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية، و إن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم و التنزل، و مما يدلّ على أنه القرآن قوله سبحانه: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ- أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ «٣» و مما يدلّ على أنه البعث أنه

أكثر ما كان يستنكره المشركون و تأباه عقولهم السخفية. و أيضا فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث؛ فأثبت النصارى المعاد الروحانى، و أثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسمانى، و فى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ «جنعيذا» بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف. و فى الإنجيل فى مواضع كثيرة التصريح بالمعاد، و أنه يكون فيه النعيم للمطيعين و العذاب للعاصين، و قد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى اللّه عنهم بقوله: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ* «۴» و كانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه، بل شاكّة فيه، كما حكى اللّه عنهم بقوله: إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ «۵» و ما حكاه عنهم بقوله: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّی إِنَّ لِی عِنْدَهُ لَلْحُسْنى «۶» فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة. و قد قيل: إن الضمير فى قوله: يتساءلون يرجع إلى المؤمنين و الكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه، فأما المسلم فيزداد يقينا و استعدادا و بصيرة فى دينه، و أما

---

(۱). الصافات: ۵۰- ۵۱.

(۲). غافر: ۱۶.

(۳). ص: ۶۷- ۶۸.

(۴). الجاثية: ۲۴.

(۵). الجاثية: ۳۲.

(۶). فصلت: ۵۰.

الكافر فاستهزاء و سخرية. قال الرازى: و يحتمل أنهم يسألون الرسول و يقولون: ما هذا الّذى يعدنا به من أمر الآخرة، و الموصول فى محل جرّ صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيما، فهو متّصف بوقوع الاختلاف فيه كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ردع لهم و زجر، و هذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار، و به يندفع ما قيل إن الخلاف بينهم و بين المؤمنين، فإنه إنما يتوجه الردع و الوعيد إلى الكفار فقط، و قيل: «كلا» بمعنى حقا، ثم كرّر الردع و الزجر فقال: ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ للمبالغة فى التأكيد و التشديد فى الوعيد. قرأ الجمهور بالياء التحتية فى الفعلين على الغيبة. و قرأ الحسن و أبو العالية و ابن دينار و ابن عامر فى رواية عنه بالفوقية على الخطاب.

و قرأ الضحاك الأوّل بالفوقية و الثانى بالتحتية. قال الضحاك: أيضا كَلَّا سَيَعْلَمُونَ يعنى الكافرين عاقبة تكذيبهم ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ يعنى المؤمنين عاقبة تصديقهم، و قيل: بالعكس، و قيل: هو وعيد بعده وعيد، و قيل: المعنى كَلَّا سَيَعْلَمُونَ عند النزع، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ عند البعث. ثم ذكر سبحانه بديع صنعه و عظيم قدرته ليعرفوا توحيده و يؤمنوا بما جاء به رسوله فقال: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً- وَ الْجِبالَ أَوْتاداً أى: قدرتنا على هذا الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث. و المهاد: الوطاء و الفراش كما فى قوله: الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً «۱» قرأ الجمهور: «مهادا» و قرأ مجاهد و عيسى و بعض الكوفيين «مهدا» و المعنى: أنها كالمهد للصبى و هو ما يمهد له فينوّم عليه. و الأوتاد جمع وتد، أى: جعلنا الجبال أوتادا للأرض لتسكن و لا تتحرك كما ترسى الخيام بالأوتاد، و فى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث، لا عن القرآن، و لا عن نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كما قيل؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً معطوف على المضارع المنفى داخل فى حكمه، فهو فى قوّة: أما خلقناكم، و المراد بالأزواج هنا الأصناف، أى: الذكور و الإناث، و قيل:

المراد بالأزواج الألوان، و قيل:

يدخل فى هذا كلّ زوج من المخلوقات من قبيح و حسن و طويل و قصير وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً أى: راحة لأبدانكم. قال الزجّاج: السبات أن ينقطع عن الحركة و الروح فى بدنه، أى: جعلنا نومكم راحة لكم.

قال ابن الأنبارى: جعلنا نومكم قطعا لأعمالكم؛ لأن أصل السبت القطع، و قيل: أصله التمدّد، يقال:

سبتت المرأة شعرها؛ إذا حلّته و أرسلته، و رجل مسبوت الخلق: أى ممدودة، و الرجل إذا أراد أن يستريح تمدّد، فسمّى النوم سباتا، و قيل: المعنى: و جعلنا نومكم موتا، و النوم أحد الموتتين، فالمسبوت يشبه الميت و لكنه لم تفارقه الروح، و منه قول الشاعر «٢»:

و مطويّة الأقراب أمّا نهارهافسبت و أمّا ليلها فذميل «٣»

---

(١). البقرة: ٢٢.

(٢). هو حميد بن ثور.

(٣). «السبت»: السير السريع. «الذميل»: السير اللين. استشهد القرطبى بهذا البيت بعد أن قال: سير سبت: أى سهل لين.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٤٠

و من هذا قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها «١» الآية، و قوله: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ «٢» وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً أى: نلبسكم ظلمته و نغشيكم بها كما يغشيكم اللباس.

و قال سعيد بن جبير و السدّى: أى سكنا لكم، و قيل: المراد به ما يستره عند النوم من اللحاف و نحوه، و هو بعيد؛ لأن الجعل وقع على الليل، لا على ما يستتر به النائم عند نومه وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً أى:

وقت معاش، و المعاش: العيش، و كلّ شي‌ء يعاش به فهو معاش، و المعنى: أن اللّه جعل لهم النهار مضيئا ليسعوا فيما يقوم به معاشهم و ما قسمه اللّه لهم من الرزق وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً يريد سبع سماوات قوية الخلق محكمة البناء، و لهذا وصفها بالشدّة و غلظ كلّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، كما ورد ذلك وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً المراد به الشمس، و جعل هنا بمعنى خلق، و هكذا قوله: وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً و ما بعده؛ لأن هذه الأفعال قد تعدّت إلى مفعولين فلا بدّ من تضمينها معنى فعل يتعدّى إليهما كالخلق و التصيير و نحو ذلك. و قيل: إن الجعل بمعنى الإنشاء و الإبداع فى جميع هذه المواضع، و المراد به الإنشاء التكوينى الّذى بمعنى التقدير و التسوية. قال الزجّاج: الوهاج: الوقاد، و هو الّذى وهج، يقال: وهجت النار تهج و هجا و وهجانا. قال مقاتل: جعل فيه نورا و حرّا، و الوهج يجمع النور و الحرارة وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً المعصرات: هى السحاب التى تنعصر بالماء و لم تمطر بعد، كالمرأة المعتصرة التى قد دنا حيضها، كذا قال سفيان و الربيع و أبو العالية و الضحاك. و قال مجاهد و مقاتل و قتادة و الكلبى: هى الرياح، و الرياح تسمى معصرات، يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا؛ إذا أثارت العجاج. قال الأزهرى:

هى الرياح ذوات الأعاصير و ذلك أن الرياح تستدرّ المطر. و قال الفرّاء: المعصرات: السحائب التى يتحلّب منها المطر. قال النحاس: و هذه الأقوال صحاح، يقال للريح التى تأتى بالمطر معصرات، و الرياح تلقح السحاب فيكون المطر. و يجوز أن تكون هذه الأقوال قولا واحدا، و يكون المعنى: و أنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجّاجا. قال فى الصحاح: و المعصرات السحائب تعتصر بالمطر و عصر القوم أى مطروا. قال المبرد: يقال سحاب معصر، أى: ممسك للماء يعتصر منه شي‌ء بعد شي‌ء. و قال أبيّ بن كعب و الحسن و ابن جبير و زيد ابن أسلم و مقاتل بن حيان: المعصرات: السماوات، و الثجاج: المنصبّ بكثرة على جهة

التتابع، يقال:

ثجّ الماء، أي: سال بكثرة، و ثجّه، أي: أساله. قال الزجاج: الثجاج: الصّبّاب. قال ابن زيد: ثجاجا:

كثيرا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً أي: لنخرج بذلك الماء حبا يقتات، كالحنطة و الشعير و نحوهما، و النبات:

ما تأكله الدواب من الحشيش و سائر النبات وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً أي: بساتين ملتفّ بعضها ببعض لتشعّب أغصانها، و لا واحد للألفاف، كالأوزاع و الأخياف، و قيل: واحدها لف بكسر اللام و ضمها، ذكره الكسائى. و قال أبو عبيدة: واحدها لفيف؛ كشريف و أشراف، و روى عن الكسائى أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء و نبت لف، و الجمع لفّ بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف، و قيل: هو جمع

---

(١). الزمر: ۴۲.

(٢). الأنعام: ۶۰.

ملتفة بحذف الزوائد. قال الفراء: الجنة: ما فيه النخيل، و الفردوس: ما فيه الكرم إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً أي: وقتا و مجمعا و ميعادا للأوّلين و الآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب و العقاب، و سمّى يوم الفصل؛ لأنّ اللّه يفصل فيه بين خلقه، و هذا شروع فى بيان ما يتساءلون عنه من البعث، و قيل: معنى ميقاتا؛ أنه حدّ توقت به الدنيا و تنتهى عنده، و قيل: حدّ للخلائق ينتهون إليه يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً أي: يوم ينفخ فى الصور، و هو القرن الّذى ينفخ فيه إسرافيل، و المراد هنا النفخة الثانية التى تكون للبعث فَتَأْتُونَ أي: إلى موضع العرض أَفْواجاً أي: زمرا زمرا، و جماعات جماعات، و هى جمع فوج، و انتصاب يَوْمَ يُنْفَخُ على أنه بدل من يوم الفصل، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه و تهويله و إن كان الفصل متأخرا عن النفخ، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى، و انتصاب أفواجا على الحال من فاعل «تأتون»، و الفاء فى «فتأتون» فصيحة تدلّ على محذوف، أي: فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً معطوف على «ينفخ»، و صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع أى فتحت لنزول الملائكة فَكانَتْ أَبْواباً كما فى قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا «١» و قيل: معنى فتحت قطعت فصارت قطعا كالأبواب، و قيل: أبوابها: طرقها، و قيل: تنحلّ و تتناثر حتى تصير فيها أبواب، و قيل: إن لكل عبد بابين فى السماء؛ باب لرزقه و باب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب، و ظاهر قوله: فَكانَتْ أَبْواباً أنها صارت كلها أبوابا، و ليس المراد ذلك، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى «فتحت» مخففا. و قرأ الباقون بالتشديد وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً أي: سيرت عن أماكنها فى الهواء، و قلعت عن مقارّها، فكانت هباء منبثا يظنّ الناظر أنها سراب، و المعنى: أن الجبال صارت كلا شىء؛ كما أن السراب يظنّ الناظر أنه ماء، و ليس بماء، و قيل: معنى سيرت: أنها نسفت من أصولها، و مثل هذا قوله: وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ «٢» و قد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة، و لكن الجمع بينها أن نقول: أوّل أحوالها الاندكاك، و هو قوله: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً «٣» و ثانى أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما فى قوله: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ «۴» و ثالث أحوالها أن تصير كالهباء، و هو قوله: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا- فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا «۵» و رابع أحوالها: أن تنسف و تحملها الرياح كما فى قوله: وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ و خامس أحوالها أن تصير سرابا، أي: لا شىء كما فى هذه الآية.

ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحكام الفصل فقال: إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً قال الأزهرى:

المرصاد: المكان الّذى يرصد الراصد فيه العدوّ. قال المبرد: مرصادا يرصدون به، أي: هو معدّ لهم يرصد به خزنتها الكفار. قال

الحسن: إن على الباب رصدا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم، فمن جاء بجواز

---

(۱). الفرقان: ۲۵.

(۲). النمل: ۸۸.

(۳). الحاقة: ۱۴.

(۴). القارعة: ۵.

(۵). الواقعة: ۵- ۶.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۴۲

جاز، و من لم يجى‏ء بجواز حبس. و قال مقاتل: محبسا، و قيل: طريقا و ممرّا، قال فى الصحاح: الراصد للشى‏ء الراقب له، يقال: رصده يرصده رصدا، و الترصّد: الترقّب، و المرصد: موضع الرّصد. قال الأصمعى: رصدته أرصده: ترقبته، و معنى الآية: إن جهنم كانت فى حكم اللّه و قضائه موضع رصد؛ يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها، أو هى فى نفسها متطلعة لمن يأتى إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به و يأتى إليهم، و المرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار و المغيار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار. ثم ذكر من هى مرصد له فقال: لِلطَّاغِينَ مَآباً أى: مرجعا يرجعون إليه، و المآب: المرجع، يقال: آب يؤوب؛ إذا رجع، و الطاغى: هو من طغى بالكفر، و «للطاغين» نعت «لمرصادا» متعلق بمحذوف، و «مآبا» بدل من «مرصادا»، و يجوز أن يكون للطاغين فى محل نصب على الحال من «مآبا» قدّمت عليه لكونه نكرة، و انتصاب لابِثِينَ فِيها على الحال المقدّرة من الضمير المستكنّ فى الطاغين.

قرأ الجمهور: لابِثِينَ بالألف. و قرأ حمزة و الكسائى: «لبثين» بدون ألف، و انتصاب أَحْقاباً على الظرفية، أى: ماكثين فى النار ما دامت الأحقاب، و هى لا تنقطع، و كلما مضى حقب جاء حقب، و هى جمع حقب بضمتين، و هو الدهر، و الأحقاب: الدهور، و الحقب بضم الحاء و سكون القاف: قيل:

هو ثمانون سنة، و حكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع و ثمانون سنة، السنة ثلاثمائة و ستون يوما، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا. و قيل: الأحقاب: وقت لشربهم الحميم و الغساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب، و قال السدّى: الحقب سبعون سنة. و قال بشير بن كعب: ثلاثمائة سنة. و قال ابن عمر: أربعون سنة، و قيل: ثلاثون ألف سنة. قال الحسن: الأحقاب لا يدرى أحدكم هى، و لكن ذكروا أنها مائة حقب، و الحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة. و قيل: الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار، و الأولى ما ذكرناه أوّلا من أن المقصود بالآية التأبيد لا التقييد. و حكى الواحدى: عن الحسن أنه قال: و اللّه ما هى إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر، ثم كذلك إلى الأبد، و جملة لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً- إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون فى جهنم أو فى الأحقاب بردا ينفعهم من حرّها و لا شرابا ينفعهم من عطشها إلا حميما، و هو الماء الحارّ، و غساقا و هو صديد أهل النار. و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير الطاغين، أو صفة للأحقاب، و الاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم، و يجوز أن يكون متصلا من قوله: شَراباً و قال مجاهد و السدّى و أبو عبيدة و الكسائى و الفضل بن خالد و أبو معاذ النحوى: البرد المذكور فى هذه الآية هو النوم، و منه قول الكندى:

بردت مراشفها علىّ فصدّنى* عنها و عن تقبيلها البرد أى: النوم. قال الزجاج: أى: لا يذوقون فيها برد ريح و لا ظل و لا نوم، فجعل البرد يشمل هذه الأمور.

و قال الحسن و عطاء و ابن زيد: بردا، أى: روحا و راحة. قرأ الجمهور: غَسَّاقاً بالتخفيف. و قرأ حمزة و الكسائى بتشديد السين، و قد تقدّم تفسيره و تفسير الحميم و الخلاف فيهما فى سورة ص جَزاءً وِفاقاً أى: موافقا لأعمالهم، و جزاء منتصب على المصدر، و وفاقا نعت له. قال الفرّاء و الأخفش: جازيناهم جزاء

فتح القدير، ج‌٥، ص: ۴۴۳

وافق أعمالهم، قال الزجاج: جوزوا جزاء وافق أعمالهم. قال الفرّاء: الوفاق: جمع الوفق، و الوفق و الموافق «١» واحد. قال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك و لا عذاب أعظم من النار.

و قال الحسن و عكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم اللّه بما يسوءهم إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً أى:

لا- يرجون ثواب حساب. قال الزجاج: كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم، و الجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً أى: كذّبوا بالآيات القرآنية، أو كذّبوا بما هو أعم منها تكذيبا شديدا، و فعال من مصادر التفعل. قال الفرّاء: هى لغة فصيحة يمانية، تقول: كذبت كذابا، و خرقت القميص خراقا. قال فى الصحاح: و كذبوا بآياتنا كذابا هو أحد مصادر المشدّد؛ لأن مصدره قد يجي‌ء على تفعيل مثل التكليم، و على فعّال مثل كذّاب، و على تفعلة مثل توصية، و على مفعّل مثل وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ قرأ الجمهور: كِذَّاباً بالتشديد. و قرأ علىّ بن أبى طالب بالتخفيف. و قال أبو علىّ الفارسى التخفيف و التشديد جميعا مصدر المكاذبة. و قرأ ابن عمر «كذّابا» بضم الكاف و التشديد، جمع كاذب.

قال أبو حاتم و نصبه على الحال. قال الزمخشرى: و قد يكون يعنى على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ فى الكذب، تقول: رجل كذّاب كقولك حسّان و بخّال وَ كُلَّ شَيْ‌ءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً قرأ الجمهور:

وَ كُلَ بالنصب على الاشتغال، أى: و أحصينا كل شي‌ء أحصيناه. و قرأ أبو السّمّال برفعه على الابتداء، و ما بعده خبره، و هذه الجملة معترضة بين السبب و المسبب، و انتصاب «كتابا» على المصدرية لأحصيناه؛ لأن أحصيناه فى معنى كتبناه، و قيل: هو منتصب على الحال، أى: مكتوبا، قيل: المراد كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، و قيل: أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم، و قيل: المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، و الأوّل أولى لقوله: وَ كُلَّ شَيْ‌ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ «٢» فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً هذه الجملة مسببة عن كفرهم و تكذيبهم بالآيات. قال الرّازى: هذه الفاء للجزاء، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم؛ و من الزيادة فى عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلودا غيرها. و كلما خبت النار زادهم اللّه سعيرا.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ قال: القرآن: و هذا مرويّ عن جماعة من التابعين، و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً قال: مضيئا وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ قال: السحاب ماءً ثَجَّاجاً قال: منصبّا. و أخرج عبد بن حميد و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا ثَجَّاجاً قال: منصبّا. و أخرج الشافعى و سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً قال:

يبعث اللّه الريح، فتحمل الماء فيمرّ به السحاب، فتدرّ كما تدرّ اللقحة، و الثجاج ينزل من السماء أمثال

---

(١). فى تفسير القرطبى (١٩/ ١٨١): اللفق.

(٢). يس: ١٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ۴۴۴

العزالى «١» فتصرّفه الرياح فينزل متفرّقا. و أخرج ابن جرير، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن قتادة قال:

فى قراءة ابن عباس وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ بالرياح. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً قال: ملتفة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: يقول: التفّ بعضها ببعض.

و أخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً قال: سراب الشمس: الآل «٢». و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً قال: سنين. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و هناد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال: سأل علىّ بن أبى طالب هلال الهجرى: ما تجدون الحقب فى كتاب اللّه؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة منها اثنا عشر شهرا كل شهر ثلاثون يوما كل يوم ألف سنة. و أخرج سعيد بن منصور، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فى الآية قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. و أخرج البزار عن أبى هريرة رفعه قال: «الحقب ثمانون سنة، و السنة ثلاثمائة و ستون يوما، و اليوم كألف سنة مما تعدّون». و أخرج عبد بن حميد عنه قال: الحقب ثمانون عاما اليوم منها كسدس الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن أبى أمامة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً قال: الحقب ألف شهر، و الشهر ثلاثون يوما، و السنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة و ستون يوما كل يوم منها ألف سنة مما تعدون، فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة. و أخرج البزار و ابن مردويه و الديلمى عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «و اللّه لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا، و الحقب بضع و ثمانون سنة، كل سنة ثلاثمائة و ستون يوما، و اليوم ألف سنة مما تعدّون». قال ابن عمر: فلا يتكلنّ أحد أنه يخرج من النار. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن عبد اللّه بن عمرو قال: الحقب الواحد ثمانون سنة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الحقب أربعون سنة». و أخرج ابن جرير عن خالد بن معدان فى قوله: لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً و قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ* إنهما فى أهل التوحيد من أهل القبلة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب؛ لأن اللّه يقول: لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم «فى قوله: لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً إِلَّا حَمِيماً قال: قد انتهى حرّه وَ غَسَّاقاً قد انتهى برده، و إن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه، حتى يبقى عظاما تقعقع». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس جَزاءً وِفاقاً قال: وافق أعمالهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عبد اللّه ابن عمرو قال: ما أنزلت على أهل النار آية قط أشدّ منها فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً فهم فى مزيد من عذاب اللّه أبدا.

---

(١). العزالى: جمع عزلاء، و هى مصب الماء من الراوية و نحوها.

(٢). فى لسان العرب: الآل: هو الّذى يكون ضحى كالماء بين السماء و الأرض.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ۴۴۵

[سورة النبإ (٧٨): الآيات ٣١ الى ۴٠]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (٣١) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (٣٢) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (٣٣) وَ كَأْساً دِهاقاً (٣۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً (٣۵) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (٣۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (٣٨) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (۴٠)

قوله: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً هذا شروع فى بيان حال المؤمنين، و ما أعدّ اللّه لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين و ما أعدّ اللّه لهم

من الشرّ، و المفاز مصدر؛ بمعنى الفوز و الظفر بالنعمة و المطلوب و النجاة من النار، و منه قيل: للفلاة مفازة تفاؤلا بالخلاص منها. ثم فسّر سبحانه هذا المفاز فقال: حَدائِقَ وَ أَعْناباً و انتصابهما على أنهما بدل من «مفازا» بدل اشتمال، أو بدل كلّ من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة، و يجوز أن يكون النصب بإضمار أعنى، و إذا كان مفازا بمعنى الفوز، فيقدر مضاف محذوف، أي: فوز حدائق، و هى جمع حديقة، و هى البستان المحوّط عليه، و الأعناب: جمع عنب، أي: كروم أعناب وَ كَواعِبَ أَتْراباً الكواعب: جمع كاعبة، و هى الناهدة، يقال: كعبت الجارية تكعب تكعيبا و كعوبا، و نهدت تنهد نهودا، و المراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن و تفلكت، أي: صارت ثديهنّ كالكعب فى صدورهنّ. قال الضحاك: الكواعب: العذارى. قال قيس بن عاصم:

و كم من حصان قد حوينا كريمةو من كاعب لم تدر ما البؤس معصر

و قال عمر بن أبى ربيعة:

و كان مجنى دون ما كنت أتّقىثلاث شخوص كاعبان و معصر

و الأتراب: الأقران فى السنّ، و قد تقدّم تحقيقه فى سورة البقرة وَ كَأْساً دِهاقاً أي: ممتلئة. قال الحسن و قتادة و ابن زيد: أي مترعة مملوءة، يقال: أدهقت الكأس، أي: ملأتها، و منه قول الشاعر:

ألا فاسقنى صرفا سقانى السّاقىمن مائها بكأسك الدّهاق

و قال سعيد بن جبير و عكرمة و مجاهد: دِهاقاً متتابعة يتبع بعضها بعضا. و قال زيد بن أسلم:

دِهاقاً صافية، و المراد بالكأس الإناء المعروف، و لا يقال له الكأس إلا إذا كان فيه الشراب لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً أي: لا يسمعون فى الجنة لَغْواً و هو الباطل من الكلام، وَ لا كِذَّاباً أي: و لا يكذب بعضهم بعضا. قرأ الجمهور: كِذَّاباً بالتشديد، و قرأ الكسائى هنا بالتخفيف، و وافق الجماعة على التشديد فى قوله: وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً المتقدم فى هذه السورة للتصريح بفعله هناك، و قد قدّمنا الخلاف فى كذابا هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة. جَزاءً مِنْ رَبِّكَ أي: جازاهم بما تقدّم ذكره جزاء. قال الزجاج: المعنى جزاهم جزاء، و كذا عَطاءً أي:

و أعطاهم عطاء حِساباً قال أبو عبيدة: كافيا. و قال ابن قتيبة: كثيرا، يقال: أحسبت فلانا، أي:

فتح القدير، ج‏٥، ص: ۴۴۶

أكثرت له العطاء، و منه قول الشاعر «۱»:

و نقفى «۲» وليد الحيّ إن كان جائعاو نحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة: أي: نعطيه حتى يقول حسبى. قال الزجاج: حِساباً أي: ما يكفيهم. قال الأخفش: يقال: أحسبنى كذا، أي: كفانى. قال الكلبى: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا. و قال مجاهد:

حسابا لما عملوه، فالحساب بمعنى القدر، أي: يقدّر ما وجب له فى وعد الربّ سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشرا، و وعد لقوم سبعمائة ضعف، و قد وعد لقوم جزاء لا نهاية له و لا مقدار كقوله: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ «۳» و قرأ أبو هاشم «حسّابا» بفتح الحاء و تشديد السين، أي: كفافا. قال الأصمعى: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد؛ إذا أكرمته، و منه قول الشاعر:

إذا أتاه ضيفه يحسّبه و قرأ ابن عباس: «حسانا» بالنون. رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ قرأ ابن مسعود و نافع و أبو عمرو و ابن كثير و زيد عن يعقوب و المفضل عن عاصم برفع رب و الرحمن على أن ربّ مبتدأ و الرّحمن خبره، أو على أن ربّ خبر مبتدأ مقدّر: أي: هو ربّ، و الرّحمن صفته، و لا يَمْلِكُونَ خبر ربّ، أو على أن ربّ مبتدأ، و الرّحمن مبتدأ ثان، و لا

يملكون خبر المبتدأ الثانى، و الجملة خبر المبتدأ الأوّل. و قرأ يعقوب فى رواية عنه و ابن عامر و عاصم فى رواية عنه بخفضهما على أن ربّ بدل من ربك، و الرّحمن صفة له. و قرأ ابن عباس و حمزة و الكسائى بخفض الأوّل على البدل، و رفع الثانى على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هو الرّحمن، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و قال هذه القراءة أعدلها، فخفض ربّ لقربه من ربك، فيكون نعتا له و رفع الرّحمن لبعده منه على الاستئناف، و خبره: لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً أى:

لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه. و قال الكسائى: لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه، و قيل:

الخطاب الكلام، أى: لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه، دليله: لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ «۴». و قيل: أراد الكفار، و أما المؤمنون فيشفعون. و يجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه، و يجوز أن تكون مستأنفة مقرّرة لما تفيده الربوبية من العظمة و الكبرياء يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا الظرف منتصب بلا يتكلمون، أو بلا يملكون، و «صفا» منتصب على الحال، أى:

مصطفين، أو على المصدرية، أى: يصفون صفا، و قوله: لا يَتَكَلَّمُونَ فى محل نصب على الحال، أو مستأنف لتقرير ما قبله.

---

(۱). القائل: امرأة من بنى قشير.

(۲). «نقفيه»: أى نؤثره بالتقفية، و هى ما يؤثر به الضيف و الصبى.

(۳). الزمر: ۱۰.

(۴). هود: ۱۰۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۴۷

و اختلف فى الروح؛ فقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السماوات السبع و من الأرضين السبع و من الجبال، و قيل: هو جبريل، قاله الشعبى و الضحاك و سعيد بن جبير. و قيل: الروح جند من جنود اللّه ليسوا ملائكة، قاله أبو صالح و مجاهد، و قيل: هم أشراف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان. و قيل: هم حفظة على الملائكة، قاله ابن أبى نجيح. و قيل: هم بنو آدم، قاله الحسن و قتادة. و قيل: هم أرواح بنى آدم تقوم صفا و تقوم الملائكة صفا، و ذلك بين النفختين قبل أن تردّ إلى الأجسام، قاله عطية العوفى. و قيل: إنه القرآن، قاله زيد بن أسلم. و قوله: إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ يجوز أن يكون بدلا من ضمير يتكلمون، و أن يكون منصوبا على أصل الاستثناء، و المعنى: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرّحمن بالشفاعة، أو لا يتكلّمون إلا فى حقّ من أذن له الرّحمن وَ كان ذلك الشخص ممّن قالَ صَواباً قال الضحاك و مجاهد:

صَواباً يعنى حقا. و قال أبو صالح: لا إله إلا اللّه. و أصل الصواب السداد من القول و الفعل. قيل:

لا يَتَكَلَّمُونَ يعنى الملائكة و الروح الذين قاموا صفا هيبة و إجلالا إلا من أذن له الرّحمن منهم فى الشفاعة، و هم قد قالوا صوابا. قال الحسن: إن الروح يقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، و لا النار إلا بالعمل. قال الواحدى: فهم لا يَتَكَلَّمُونَ يعنى الخلق كلهم إلا من أذن له الرّحمن و هم المؤمنون و الملائكة، وَ قالَ فى الدنيا صَواباً أى: شهد بالتوحيد، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة، و هو مبتدأ و خبره الْيَوْمُ الْحَقُّ أى الكائن الواقع المتحقق فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً أى: مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح؛ لأنه إذا عمل خيرا قرّبه إلى اللّه، و إذا عمل شرّا باعده منه، و معنى إِلى رَبِّهِ إلى ثواب ربه، قال قتادة: مَآباً: سبيلا. ثم زاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال: إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يعنى العذاب فى الآخرة، و كلّ ما هو آت فهو قريب، و مثله قوله:

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها «۱» كذا قال الكلبى و غيره. و قال قتادة: هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين. قال

مقاتل: هو قتل قريش ببدر، و الأوّل أولى لقوله: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ فإن الظرف إما بدل من عذاب، أو ظرف لمضمر هو صفة له، أى: عذابا كائنا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ أى: يشاهد ما قدّمه من خير أو شرّ، و «ما» موصولة أو استفهامية. قال الحسن: و المرء هنا هو المؤمن، أى: يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا، و قيل: المراد به الكافر على العموم، و قيل: أبىّ بن خلف و عقبة بن أبى معيط، و الأوّل أولى لقوله: وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء، و المراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعدّه اللّه له من أنواع العذاب، و المعنى: أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق، أو ترابا يوم القيامة. و قيل:

المراد بالكافر أبو جهل، و قيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، و قيل: إبليس، و الأوّل أولى اعتبارا بعموم اللفظ، و لا ينافيه خصوص السبب كما تقدّم غير مرّة.

---

(١). النازعات: ۴۶.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۴۸

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً قال: منتزها وَ كَواعِبَ قال: نواهد أَتْراباً قال: مستويات وَ كَأْساً دِهاقاً قال: ممتلئا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى قوله: وَ كَأْساً دِهاقاً قال: هى الممتلئة المترعة المتتابعة، و ربما سمعت العباس يقول: يا غلام اسقنا و ادهق لنا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه: دِهاقاً قال: دراكا.

و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: إذا كان فيها خمر فهى كأس، و إذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه عنه أيضا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الروح جند من جنود اللّه، ليسوا بملائكة، لهم رؤوس و أيد و أرجل» ثم قرأ: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا قال: هؤلاء جند و هؤلاء جند. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ قال: هو ملك من أعظم الملائكة خلقا. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: «الروح فى السماء الرابعة، و هو أعظم من السموات و الجبال و من الملائكة، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة، يخلق اللّه من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجى‏ء يوم القيامة صفا وحده».

و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: «إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار ترعد فرائصه فرقا من عذاب اللّه، يقول: سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك، ما بين منكبيه كما بين المشرق و المغرب، أما سمعت قول اللّه: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا». و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه فى قوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ قال: يعنى حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردّ الأرواح إلى الأجساد.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عنه أيضا وَ قالَ صَواباً قال:

لا إله إلا اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث و النشور، عن أبى هريرة قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم و الدواب و الطير و كلّ شى‏ء، فيبلغ من عدل اللّه أن يؤخذ للجمّاء «١» من القرناء، ثم يقول: كونى ترابا، فذلك حين يقول الكافر يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً.

---

(١). «الجماء»: التى لا قرون لها.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۴۹

سورة النّازعات

اشارة

و تسمى سورة الساهرة، هى خمس و أربعون آية، و قيل: ست و أربعون آية و هى مكية بلا خلاف.

و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١ الى ٢٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (١) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (٢) وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً (٣) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (۴)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (۵) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (٨) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (٩)

يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (١٠) أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (١١) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (١٣) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١۴)

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (١۵) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١۶) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (١٩)

فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (٢٠) فَكَذَّبَ وَ عَصى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (٢٢) فَحَشَرَ فَنادى (٢٣) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (٢۴) فتح القدير ج۵ ۴٧٩

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى (٢۵) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (٢۶)

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها، و هى الملائكة التى تنزع أرواح العباد عن أجسادهم؛ كما ينزع النازع فى القوس فيبلغ بها غاية المدّ، و كذا المراد بالناشطات و السابحات و السابقات و المدبرات، يعنى:

الملائكة، و العطف مع اتحاد الكلّ لتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى، كما فى قول الشاعر:

إلى الملك القرم و ابن الهمامو ليث الكتيبة فى المزدحم

و هذا قول الجمهور من الصحابة و التابعين و من بعدهم. و قال السدّى: النَّازِعاتِ هى النفوس حين تغرق فى الصدور. و قال مجاهد: هى الموت ينزع النفس. و قال قتادة: هى النجوم تنزع من أفق إلى أفق، من قولهم: نزع إليهم إذا ذهب، أو من قولهم نزعت بالحبل، أى: إنها تغرب و تغيب و تطلع من أفق آخر. و به قال أبو عبيدة و الأخفش و ابن كيسان. و قال عطاء و عكرمة: النازعات: القسى تنزع بالسهام، و إغراق النازع فى القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهى به إلى النصب. و قال يحيى بن سلام: تنزع من الكلأ و تنفر، و قيل: أراد بالنّازعات: الغزاة الرّماة، و انتصاب غَرْقاً على أنه مصدر بحذف الزوائد، أى:

إغراقا، و الناصب له ما قبله لملاقاته له فى المعنى، أى: إغراقا فى النزع حيث تنزعها من أقاصى الأجسام، أو على الحال، أى: ذوات إغراق، يقال: أغرق فى الشىء يغرق فيه؛ إذا أوغل فيه و بلغ غايته وَ معنى النَّاشِطاتِ أنها تنشط النفوس، أى: تخرجها من

الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير؛ إذا

فتح القدير، ج‏5، ص: 450

حلّ عنه، و نشط الرجل الدلو من البئر؛ إذا أخرجها، و النّشط: الجذب بسرعة، و منه الأنشوطة للعقدة التى يسهل حلّها. قال أبو زيد: نشطت الحبل أنشطه عقدته، و أنشطته، أى: حللته، و أنشطت الحبل، أى: مددته. قال الفراء: أنشط العقال، أى: حلّ، و نشط، أى: ربط الحبل فى يديه. قال الأصمعى:

بئر أنشاط، أى: قريبة القعر، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة، و بئر نشوط، و هى التى لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيرا. و قال مجاهد: هى الموت ينشط نفس الإنسان. و قال السدّى: هى النفوس حين تنشط من القدمين. و قال عكرمة و عطاء: هى الأوهاق «1» التى تنشط السهام، و قال قتادة و الحسن و الأخفش:

هى النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أى: تذهب. قال فى الصحاح: وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً يعنى النجوم من برج إلى برج؛ كالثور الناشط من بلد إلى بلد. و الهموم تنشط بصاحبها. و قال أبو عبيدة و قتادة: هى الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد. و قيل: الناشطات لأرواح المؤمنين، و النازعات لأرواح الكافرين؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق و تجذب روح الكافر بعنف، و قوله: نَشْطاً مصدر، و كذا سبحا و سبقا.

وَ السَّابِحاتِ الملائكة تسبح فى الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغوّاص فى البحر لإخراج شي‏ء منه.

و قال مجاهد و أبو صالح: هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر اللّه، كما يقال للفرس الجواد سابح؛ إذا أسرع فى جريه.

و قال مجاهد أيضا: السّابحات: الموت يسبح فى نفوس بنى آدم. و قيل: هى الخيل السابحة فى الغزو، و منه قول عنترة:

و الخيل تعلم حين تسبح فى حياض الموت سبحا

و قال قتادة و الحسن: هى النجوم تسبح فى أفلاكها، كما فى قوله: وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ «2» و قال عطاء: هى السفن تسبح فى الماء، و قيل: هى أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى اللّه فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف. قال مسروق و مجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحى إلى الأنبياء.

و قال أبو روق: هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير و العمل الصالح، و روى نحوه عن مجاهد. و قال مقاتل:

هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. و قال الربيع: هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى اللّه. و قال مجاهد أيضا: هو الموت يسبق الإنسان. و قال قتادة و الحسن و معمر: هى النجوم يسبق بعضها فى السير بعضا. و قال عطاء: هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد. و قيل: هى الأرواح التى تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار. قال الجرجانى: عطف السابقات بالفاء؛ لأنها مسببة من التى قبلها، أى: و اللاتى يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب، و لو قلت قام و ذهب بالواو لم يكن القيام سببا للذهاب. قال الواحدى: و هذا غير مطرد فى قوله: فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبّر، قال الرازى: و يمكن الجواب عما قاله الواحدى: بأنها لما أمرت سبحت فسبقت

---

(1). «الأوهاق»: جمع وهق، الحبل تشدّ به الإبل و الخيل لئلا تندّ.

(2). يس: 40.

فتح القدير، ج‏5، ص: 451

فدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض، كقوله: قام زيد فذهب. و لما سبقوا فى الطاعات و سارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوّض إليهم التدبير. و يجاب عنه بأن السبق لا يكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق و القيام للذهاب، و مجرد

الاتصال لا يوجب السببية و المسببية. و الأولى أن يقال العطف بالفاء فى المدبرات طوبق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء، و لا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته و موافقته فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً قال القشيرى: أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة. و قال الماوردى: فيه قولان: أحدهما: الملائكة و هو قول الجمهور، و الثانى: أنها الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. و فى تدبيرها الأمر و جهان: أحدهما: تدبّر طلوعها و أفولها. الثانى: تدبّر ما قضاه اللّه فيها من الأحوال. و معنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال و الحرام و تفصيلهما و الفاعل للتدبير فى الحقيقة و إن كان هو اللّه عزّ و جلّ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به. و قيل:

إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض فى الرياح و الأمطار و غير ذلك قيل لها: مدبرات. قال عبد الرّحمن ابن سابط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح و الجنود، و أما ميكائيل فمو كل بالقطر و النبات، و أما عزرائيل فمو كل بقبض الأنفس، و أما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، و جواب القسم بهذه الأمور التى أقسم اللّه بها محذوف، أى: و النازعات، و كذا و كذا لتبعثنّ. قال الفرّاء: و حذف لمعرفة السامعين به، و يدل عليه قوله: أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً «١» و قيل:

إن جواب القسم قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى «٢» أى: إن فى يوم القيامة ذكر و موسى و فرعون لعبرة لمن يخشى. قال ابن الأنبارى: و هذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما، و قيل: جواب القسم هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى «٣» لأن المعنى: قد أتاك، و هذا ضعيف جدا. و قيل: الجواب يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ على تقدير: ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة. و قال السجستانى: يجوز أن يكون هذا من التقديم و التأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة و النازعات. قال ابن الأنبارى: و هذا خطأ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام، و الأوّل أولى يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدّر للقسم، أو بإضمار: اذكر، و الراجفة:

المضطربة، يقال: رجف يرجف؛ إذا اضطرب، و المراد هنا الصيحة العظيمة التى فيها تردّد و اضطراب كالرعد، و هى النفخة الأولى التى يموت بها جميع الخلائق، و الرادفة: النفخة الثانية التى تكون عند البعث، و سميت رادفة لأنها ردفت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسرين. و قال ابن زيد: الراجفة: الأرض، و الرادفة: الساعة. و قال مجاهد: الرادفة: الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة، و قيل: الراجفة: اضطراب الأرض، و الرادفة: الزلزلة، و أصل الرجفة: الحركة، و ليس المراد التحرك هنا فقط؛ بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفا و رجيفا؛ إذا ظهر صوته، و منه سميت الأراجيف؛ لاضطراب الأصوات بها و ظهور الأصوات فيها، و منه قول الشاعر «٤»:

---

(١). النازعات: ١١.

(٢). النازعات: ٢٦.

(٣). طه: ٩.

(٤). هو منازل بن ربيعة المنقرى.

 أ بالأراجيف يا ابن اللؤم توعدنىو فى الأراجيف خلت اللؤم و الخورا

و محل تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ النصب على الحال من الراجفة، و المعنى: لتبعثنّ يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ قلوب مبتدأ، و يومئذ منصوب بواجفة، و واجفة صفة قلوب، و جملة أَبْصارُها خاشِعَةٌ خبر قلوب، و الواجفة: المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة. قال جمهور المفسرين: أى خائفة وجلة. و قال السدّى: زائلة عن أماكنها، نظيره إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ «١» و قال المؤرج: قلقة مستوفزة. و قال المبرد: مضطربة، يقال: وجف القلب يجف وجيفا؛ إذا خفق، كما

يقال: وجب يجب وجيبا، و الإيجاف: السير السريع، فأصل الوجيف اضطراب القلب، و منه قول قيس بن الخطيم:

إنّ بنى جحجبى و قومهمأكبادنا من ورائهم تجف

أَبْصارُها خاشِعَةٌ أى: أبصار أصحابها، فحذف المضاف، و الخاشعة: الذليلة، و المراد أنها تظهر عليهم الذلة و الخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة؛ كقوله: خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِ «٢» قال عطاء: يريد أبصار من مات على غير الإسلام، و يدلّ على هذا أن السياق فى منكرى البعث يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ هـذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون، أى: أ نردّ إلى أوّل حالنا و ابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا، يقال: رجع فلان فى حافرته، أى: رجع من حيث جاء، و الحافرة عند العرب اسم لأوّل الشيء و ابتداء الأمر، و منه قولهم: رجع فلان على حافرته، أى: على الطريق الّذى جاء منه، و يقال: اقتتل القوم عند الحافرة، أى: عند أوّل ما التقوا؛ و سمّيت الطريق التى جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهى حافرة بمعنى محفورة، و من هـذا قول الشاعر:

أ حافرة على صلع و شيبمعاذ اللّه من سفه و عار

أى: أ أرجع إلى ما كنت عليه فى شبابى من الغزل بعد الشيب و الصلع. و قيل: الحافرة: العاجلة، و المعنى: إنّا لمردودون إلى الدنيا، و قيل: الحافرة: الأرض التى تحفر فيها قبورهم، و منه قول الشاعر:

آليت لا أنساكم فاعلمواحتّى يردّ النّاس فى الحافرة

و المعنى: إنا لمردودون فى قبورنا أحياء، كذا قال الخليل و الفراء، و به قال مجاهد. و قال ابن زيد: الحافرة: النار، و استدلّ بقوله: تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ. قرأ الجمهور: فِي الْحافِرَةِ و قرأ أبو حيوة «فى الحفرة». أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً أى: بالية متفتتة. يقال: نخر العظم بالكسر؛ إذا بلى، و هـذا تأكيد لإنكار البعث، أى: كيف نردّ أحياء و نبعث إذا كنا عظاما نخرة، و العامل فى «إذا» مضمر يدلّ عليه مردودون، أى: أ إذا كنا عظاما بالية نرد و نبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة. قرأ الجمهور: نَخِرَةً

---

(١). غافر: ١٨.

(٢). الشورى: ۴۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵۳

و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر «ناخرة» و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية الفراء و ابن جرير و أبو معاذ النحوى. قال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التى لم تنخر بعد، أى: لم تبل و لا بدّ أن تنخر. و قيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشيء فهو ناخر و نخر، و طمع فهو طامع و طمع و نحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن. قال الشاعر:

يظلّ بها الشيخ الّذى كان بادنايدبّ على عوج له نخرات

يعنى على قوائم عوج، و قيل: الناخرة التى أكلت أطرافها و بقيت أوساطها، و النخرة: التى فسدت كلّها. و قال مجاهد نَخِرَةً أى: مرفوتة، كما فى قوله: رُفاتاً* «١»، و قرئ إِذا كُنَّا و أَ إِذا كُنَّا بالاستفهام و بعدمه. ثم ذكر سبحانه عنهم قولا آخر قالوه فقال: قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ أى: رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران، و المعنى: أنهم قالوا: إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد. و قيل: معنى خاسرة كاذبة، أى: ليست بكائنة، كذا قال الحسن و غيره. و قال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. و قال قتادة و محمد بن كعب: أى لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار، و إنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار، و الكرّة: الرجعة، و الجمع كرّات.

و قوله: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ تعليل لما يدل عليه ما تقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة و إحياء الأموات، و المعنى: لا تستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة، و كان ذلك الإحياء و البعث، و المراد بالزجرة الصيحة و هى النفخة الثانية التى يكون البعث بها. و قيل: إن الضمير فى قوله: فَإِنَّما هِيَ راجع إلى الرادفة المتقدّم ذكرها فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ أى: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا و دفنوا أحياء على وجه الأرض، قال الواحدى: المراد بالساهرة وجه الأرض، و ظاهرها فى قول الجميع. قال الفرّاء: سمّيت بهذا الاسم لأن فيها نوم الحيوان و سهرهم، و قيل: لأن يسهر فى فلاتها خوفا منها، فسميت بذلك، و منه قول أبى كبير الهذلىّ:

يرتدن ساهرة كأنّ جميمهاو عميمها أسداف ليل مظلم «٢»

و قول أمية بن أبى الصّلت:

و فيها لحم ساهرة و بحرو ما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة. قال فى الصحاح: الساهرة: وجه الأرض، و منه قوله: فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ. و قال: الساهرة: أرض بيضاء، و قيل: أرض من فضة لم يعص اللّه سبحانه فيها، و قيل:

الساهرة: الأرض السابعة يأتى بها اللّه سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. و قال سفيان الثورى: الساهرة: أرض

---

(١). الإسراء: ٤٩.

(٢). «الجميم»: النبت الّذى قد نبت و ارتفع قليلا و لم يتم كل التمام. «العميم»: المكتمل التام من النبت. «الأسداف»: جمع سدف، و هو ظلمة الليل.

الشام. و قال قتادة: هى جهنم، أى: فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم، و إنما قيل: لها ساهرة لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم. و جملة هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى مستأنفة مسوقة لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن تكذيب قومه، و أنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممّن هو أقوى منهم، و معنى هَلْ أَتاكَ

قد جاءك و بلغك، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون و موسى ما يعرف به حديثهما، و على تقدير أن هذا ما نزل عليه فى شأنهما؛ فيكون المعنى على الاستفهام، أى: هل أتاك حديثه أنا أخبرك به إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً الظرف متعلق بحديث لا بأتاك لاختلاف وقتيهما، و قد مضى من خبر موسى و فرعون فى غير موضع ما فيه كفاية، و قد تقدّم الاختلاف بين القرّاء فى طوى فى سورة طه. و الواد المقدّس:

المبارك المطهر. قال الفراء: طوى واد بين المدينة و مصر. قال: و هو معدول من طاو، كما عدل عمر من عامر. قال: و الصرف أحبّ إذ لم أجد فى المعدول نظيرا له. و قيل: طوى معناه يا رجل بالعبرانية، فكأنه قيل يا رجل اذهب، و قيل: المعنى: إن الوادى المقدّس بورك فيه مرتين، و الأوّل أولى. و قد مضى تحقيق القول فيه اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى قيل: هو على تقدير القول، و قيل: هو تفسير للنداء، أى:

ناداه نداء هو قوله: اذهب. و قيل: هو على حذف أن المفسرة، و يؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب؛ لأن فى النداء معنى القول، و جملة إِنَّهُ طَغى تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال، أى: جاوز الحدّ فى العصيان و التكبر و الكفر باللّه فَقُلْ له هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى أى: قل له بعد وصولك إليه: هل لك رغبة إلى التزكى؟ و هو التطهر من الشرك، و أصله تتزكى فحذفت إحدى التاءين. قرأ الجمهور: تَزَكَّى بالتخفيف. و قرأ نافع و ابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى. قال أبو عمرو بن العلاء: معنى قراءة التخفيف تكون زكيا مؤمنا، و معنى قراءة التشديد الصدقة، و فى الكلام مبتدأ مقدّر يتعلق به إلى، و التقدير: هل لك رغبة أو

هل بك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى، و مثل هذا قولهم: هل لك فى الخير؟
يريدون: هل لك رغبة فى الخير، و من هذا قول الشاعر «۱»:
فهل لكم فيها إلىّ فإنّنى‌طبيب بما أعيا النطاسىّ حذيما «۲»
وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى أى: أرشدك إلى عبادته و توحيده فتخشى عقابه، و الفاء لترتيب الخشية على الهداية؛ لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف، يعنى: فذهب فقال له ما قال مما حكاه اللّه فى غير موضع، و أجاب عليه بما أجاب إلى أن قال: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها «۳» فعند ذلك أراه الآية الكبرى.
و اختلف فى الآية الكبرى ما هى؟ فقيل: يده، و قيل: فلق البحر، و قيل: هى جميع ما جاء به من الآيات التسع فَكَذَّبَ وَ عَصى أى: فلما أراه الآية الكبرى كذّب بموسى و بما جاء به، و عصى اللّه عزّ

---

(۱). هو أوس بن أوس.

(۲). أى: ابن حذيم.

(۳). الأعراف: ۱۰۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۵۵

و جلّ فلم يطعه ثُمَّ أَدْبَرَ أى: تولّى و أعرض عن الإيمان يَسْعى أى: يعمل بالفساد فى الأرض و يجتهد فى معارضة ما جاء به موسى، و قيل: أدبر هاربا من الحية يسعى خوفا منها. و قال الرازى: معنى أَدْبَرَ يَسْعى أقبل يسعى، كما يقال: أقبل يفعل كذا، أى: أنشأ يفعل كذا، فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال. فَحَشَرَ أى: فجمع جنوده للقتال و المحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة؛ أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحية فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى أى:
قال لهم بصوت عال، أو أمر من ينادى بهذا القول. و معنى أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى أنه لا ربّ فوقى. قال عطاء: كان صنع لهم أصناما صغارا و أمرهم بعبادتها و قال: أنا ربّ أصنامكم، و قيل: أراد بكونه ربهم أنه قائدهم و سائدهم. و الأوّل أولى لقوله فى آية أخرى: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «۱» فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى النكال نعت مصدر محذوف، أى: أخذه أخذ نكال، أو هو مصدر لفعل محذوف، أى: أخذه اللّه فنكله نكال الآخرة و الأولى، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة، و المراد بنكال الآخرة عذاب النار و نكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق. و قال مجاهد: عذاب أوّل عمره و آخره، و قال قتادة: الآخرة قوله:
أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى و الأولى تكذيبه لموسى. و قيل: الآخرة قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى و الأولى قوله:
ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و كان بين الكلمتين أربعون سنة، و يجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له، أى: أخذه اللّه لأجل نكال، و يجوز أن ينتصب بنزع الخافض، أى: بنكال. و رجح الزجاج أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنى أخذه اللّه: نكل اللّه به، فأخرج من معناه لا من لفظه. و قال الفرّاء:
أى أخذه اللّه أخذا نكالا: أى: للنكال، و النكال: اسم لما جعل نكالا للغير، أى: عقوبة له، يقال: نكل فلان بفلان: إذا عاقبه، و أصل الكلمة من الامتناع، و منه النكول عن اليمين، و النكل القيد إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى أى: فيما ذكر من قصة فرعون و ما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى اللّه و يتقيه، و يخاف عقوبته و يحاذر غضبه.
و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً قال:
هى الملائكة تنزع روح الكفار وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً قال: هى الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار و الجلد حتى تخرجها وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً هى الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء و الأرض فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً هى الملائكة يسبق بعضها بعضا

بأرواح المؤمنين إلى اللّه فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً هى الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً قال: هى أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق فى النار. و أخرج الحاكم و صححه عنه وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً- وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً قال: الموت.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً قال: الملائكة الذين يلون أنفس الكفار

---

(۱). القصص: ۳۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵۶

إلى قوله: وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً قال: الملائكة.

و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال: قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تمزّق الناس فتمزقك كلاب النار، قال اللّه: وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً أ تدرى ما هو؟ قلت: يا نبىّ اللّه ما هو؟ قال: كلاب فى النار تنشط اللحم و العظم». و أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أن ابن الكواء سأله عن فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً قال: هى الملائكة يدبرون ذكر الرّحمن و أمره. و أخرج ابن أبى الدنيا فى «ذكر الموت» عن ابن عباس قال: المدبرات أمرا ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم، فمنهم من يعرج بالروح، و منهم من يؤمّن على الدّعاء، و منهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه و يدلى فى حفرته.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ قال: النفخة الأولى تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قال: النفخة الثانية قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ قال: خائفة أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ قال:

الحياة. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبىّ بن كعب قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا ذهب ربع الليل قام فقال: «أيها الناس اذكروا اللّه، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ترجف الأرض رجفا، و تزلزل بأهلها، و هى التى يقول اللّه:

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ- تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ يقول: مثل السفينة فى البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ قال: وجلة متحركة. و أخرج عبد ابن حميد عنه أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ قال: خلقا جديدا. و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن الأنبارى فى الوقف و الابتداء، و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا أنه سئل عن قوله: فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ فقال: الساهرة وجه الأرض، و فى لفظ قال: الأرض كلها ساهرة، ألا ترى قول الشاعر:

صيد بحر و صيد ساهرة و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه أيضا هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى قال: هل لك أن تقول:

لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ قال: قوله: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى وَ الْأُولى قال: قوله: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عبد اللّه ابن عمرو قال: كان بين كلمتيه أربعون سنة.

[سورة النازعات (۷۹): الآيات ۲۷ الى ۴۶]

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (۲۷) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (۲۹) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱)

وَ الْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۳) فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (۳۴) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (۳۵) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (۳۶)

فَأَمَّا مَنْ طَغى (۳۷) وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۳۸) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (۳۹) وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (۴۰) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (۴۱)

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (۴۲) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (۴۳) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (۴۴) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (۴۵) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (۴۶)

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵۷

قوله: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ أى: أخلقكم بعد الموت و بعثكم أشدّ عندكم و فى تقديركم أم خلق السماء، و الخطاب لكفار مكة، و المقصود به التوبيخ لهم و التبكيت؛ لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الجرم العظيم و فيها من عجائب الصنع و بدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها أوّل مرّة؟ و مثل هذا قوله سبحانه: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ «۱» و قوله: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ «۲» ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال: بَناها- رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها أى: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، و رفع سمكها، أى: أعلاه فى الهواء، فقوله: رَفَعَ سَمْكَها بيان للبناء، يقال سمكت الشى‌ء، أى: رفعته فى الهواء، و سمك الشى‌ء سموكا: ارتفع. قال الفرّاء: كل شى‌ء حمل شيئا من البناء أو غيره فهو سمك، و بناء مسموك، و سنام سامك، أى: عال، و المسموكات: السماوات: و منه قول الفرزدق:

إنّ الّذى سمك السّماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ و أطول

قال البغوى: رَفَعَ سَمْكَها أى: سقفها. قال الكسائى و الفراء و الزجاج: تمّ الكلام عند قوله:

أَمِ السَّماءُ بَناها لأنه من صلة السماء، و التقدير: أم السماء التى بناها، فحذف التى، و مثل هذا الحذف جائز. و معنى فَسَوَّاها فجعلها مستوية الخلق معدّلة الشكل لا تفاوت فيها و لا اعوجاج و لا فطور و لا شقوق وَ أَغْطَشَ لَيْلَها الغطش: الظلمة، أى: جعله مظلما، يقال: غطش الليل و أغطشه اللّه، كما يقال: أظلم الليل و أظلمه اللّه، و رجل أغطش و امرأة غطشى لا يهتديان. قال الراغب: و أصله من الأغطش، و هو الّذى فى عينه عمش، و منه فلاة غطشى لا يهتدى فيها «۳»، و التغاطش: التعامى. قال الأعشى:

و يهماء باللّيل غطشى الفلاة يؤنسنى صوت فيادها «۴»

و قوله:

و غامرهم مدلهمّ غطش «۵» يعنى: غمرهم سواد الليل، و أضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس و الشمس مضافة إلى السماء وَ أَخْرَجَ ضُحاها أى: أبرز نهارها المضى‌ء بإضاءة الشمس، و عبّر عن النهار بالضحى؛ لأنه

---

(۱). غافر: ۵۷.

(۲). يس: ۸۱.

(۳). فى تفسير القرطبى: لها.

(۴). «الفياد»: ذكر البوم.

(۵). و صدر البيت: عقرت لهم موهنا ناقتى.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۵۸

أشرف أوقاته و أطيبها، و أضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس، و هى منسوبة إلى السماء وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها أى:

بعد خلق السماء، و معنى دحاها: بسطها، و هذا يدلّ على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، و لا معارضة بين هذه الآية و بين ما تقدّم فى سورة فصلت من قوله: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ «۱» بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أوّلا غير مدحوّة ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، و قد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك، و قدّمنا أيضا بحثا فى هذا فى أوّل سورة البقرة عند قوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «۲» و ذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع كما فى قوله: عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ «۳»؛ و قيل: بعد بمعنى قبل كقوله: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ «۴» أى: من قبل الذكر.

و الجمع الّذى ذكرناه أولى، و هو قول ابن عباس و غير واحد، و اختاره ابن جرير. يقال: دحوت الشىء أدحوه؛ إذا بسطته، و يقال لعشّ النعامة: أدحى، لأنه مبسوط على الأرض، و أنشد المبرد:

دحاها فلمّا رآها استوتعلى الماء أرسى عليها الجبالا

و قال أمية بن أبى الصّلت:

و بثّ الخلق فيها إذ دحاهافهم قطّانها حتّى التّنادى

و قال زيد بن عمرو بن نفيل:

و أسلمت وجهى لمن أسلمتله الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلمّا استوت شدّهابأيد و أرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال، و قرأ الحسن و عمرو بن ميمون و ابن أبى عبلة و أبو حيوة و أبو السّمّال و عمرو بن عبيد و نصر بن عاصم بالرفع على الابتداء أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها أى: فجّر من الأرض الأنهار و البحار و العيون أَخْرَجَ مِنْها ماءَها- وَ مَرْعاها أى: النبات الّذى يرعى، و مرعاها مصدر ميمىّ، أى: رعيها، و هو فى الأصل موضع الرعى، و الجملة إما بيان و تفسير لدحاها؛ لأنّ السّكنى لا تتأتى بمجرّد البسط بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل و المشرب. و إما فى محل نصب على الحال وَ الْجِبالَ أَرْساها أى: أثبتها فى الأرض و جعلها كالأوتاد للأرض لتثبت و تستقرّ و أن لا تميد بأهلها. قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال. و قرأ الحسن و عمرو بن ميمون و أبو حيوة و أبو السّمّال و عمرو بن عبيد و نصر ابن عاصم بالرفع على الابتداء، قيل: و لعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء و المرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل و المشرب مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ أى: منفعة لكم و لأنعامكم من البقر و الإبل و الغنم، و انتصاب «متاعا» على المصدرية، أى: متعكم بذلك متاعا، أو هو مصدر من غير لفظه، لأن قوله: أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها بمعنى متع بذلك، أو على أنه مفعول له، أى: فعل ذلك لأجل

---

(۱). فصلت: ۱۱.

(۲). البقرة: ۲۹.

(۳). القلم: ۱۳.

(۴). الأنبياء: ۱۰۵.

التمتيع، و إنما قال: لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ لأن فائدة ما ذكر من الدحوّ و إخراج الماء و المرعى كائنة لهم و لأنعامهم، و المرعى: يعمّ ما يأكله الناس و الدواب فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى أى: الداهية العظمى التى تطمّ على سائر الطامات. قال الحسن و غيره: و هى النفخة الثانية. و قال الضحاك و غيره: هى القيامة سميت بذلك لأنها تطمّ على كل شىء لعظم هولها. قال المبرد: الطامة عند

العرب: الداهیة التی لا تستطاع، و إنما أخذت فیما أحسب من قولهم: طمّ الفرس طمیما؛ إذا استفرغ جهده فی الجری، و طمّ الماء؛ إذا ملأ النهر کله. و قال غیره: هو من طمّ السّیل الرّکیة «۱»، أی: دفنها، و الطمّ: الدفن. قال مجاهد و غیره:

الطامة الکبری هی التی تسلم أهل الجنة إلی الجنة و أهل النار إلی النار، و الفاء للدلالة علی ترتب ما بعدها علی ما قبلها، و جواب «إذا» قیل هو قوله: فَأَمَّا مَنْ طَغی و قیل: محذوف، أی: فإن الأمر کذلک، أو عاینوا، أو علموا، أو أدخل أهل النار النار و أهل الجنة الجنة. و قال أبو البقاء: العامل فیها جوابها، و هو معنی یَوْمَئِذٍ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسانُ فإنه منصوب بفعل مضمر، أی: أعنی یوم یتذکر، أو یوم یتذکر یکون کیت و کیت. و قیل: إن الظرف بدل من إذا، و قیل: هو بدل من الطامة الکبری؛ و معنی یَتَذَکَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعی أنه یتذکر ما عمله من خیر أو شر؛ لأنه یشاهده مدوّنا فی صحائف عمله، و «ما» مصدریة، أو موصولة وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِمَنْ یَری معطوف علی جاءت، و معنی برزت: أظهرت إظهارا لا یخفی علی أحد. قال مقاتل: یکشف عنها الغطاء فینظر إلیها الخلق، و قیل: لِمَنْ یَری من الکفار، لا من المؤمنین؛ و الظاهر أن تبرز لکلّ راء، فأما المؤمن فیعرف برؤیتها قدر نعمة اللّه علیه بالسلامة منها، و أما الکافر فیزداد غمّا إلی غمّه، و حسرة إلی حسرته. قرأ الجمهور: لِمَنْ یَری بالتحتیة، و قرأت عائشة و مالک ابن دینار و عکرمة و زید بن علیّ بالفوقیة، أو: لمن تراه الجحیم، أو لمن تراه أنت یا محمد. و قرأ ابن مسعود:

«لمن رأی» علی صیغة الفعل الماضی فَأَمَّا مَنْ طَغی أی: جاوز الحد فی الکفر و المعاصی وَ آثَرَ الْحَیاةَ الدُّنْیا أی: قدّمها عن الآخرة و لم یستعدّ لها و لا عمل عملها فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْوی أی:

مأواه، و الألف و اللام عوض عن المضاف إلیه، و المعنی: أنها منزله الّذی ینزله، و مأواه الّذی یأوی إلیه؛ لا غیرها. ثم ذکر القسم الثانی من القسمین فقال: وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ أی: حذر مقامه بین یدی ربه یوم القیامة. قال الربیع: مقامه یوم الحساب. قال قتادة: یقول: إن اللّه عزّ و جلّ مقاما قد خافه المؤمنون. و قال مجاهد: هو خوفه فی الدنیا من اللّه عزّ و جلّ عند مواقعة الذنب فیقلع عنه، نظیره قوله: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ «۲» و الأوّل أولی وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوی أی: زجرها عن المیل إلی المعاصی و المحارم التی تشتهیها. قال مقاتل: هو الرجل یهمّ بالمعصیة فیذکر مقامه للحساب فیترکها فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِیَ الْمَأْوی أی: المنزل الّذی ینزله و المکان الّذی یأوی إلیه لا غیرها یَسْئَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَیَّانَ مُرْساها أی: متی وقوعها و قیامها؟ قال الفراء: أی: منتهی قیامها کرسوّ السفینة. قال أبو عبیدة: و مرسی السفینة

---

(۱). أی البئر؛ أی جری سیل الوادی.

(۲). الرّحمن: ۵۶.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۴۶۰

حین تنتهی، و المعنی: یسألونک عن الساعة متی یقیمها اللّه، و قد مضی بیان هذا فی سورة الأعراف فِیمَ أَنْتَ مِنْ ذِکْراها أی: فی أیّ شیء أنت یا محمد من ذکر القیامة و السؤال عنها، و المعنی: لست فی شیء من علمها و ذکراها إنما یعلمها اللّه سبحانه، و هو إنکار و ردّ لسؤال المشرکین عنها، أی: فیم أنت من ذلک حتی یسألونک عنه و لست تعلمه إِلی رَبِّکَ مُنْتَهاها أی: منتهی علمها، فلا یوجد علمها عند غیره، و هذا کقوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی «۱» و قوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «۲» فکیف یسألونک عنها و یطلبون منک بیان وقت قیامها إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ یَخْشاها أی: مخوّف لمن یخشی قیام الساعة، و ذلک وظیفتک لیس علیک غیره من الإخبار بوقت قیام الساعة و نحوه مما استأثر اللّه بعلمه، و خصّ الإنذار بمن یخشی؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار و إن کان منذرا لکلّ مکلّف من مسلم و کافر. قرأ الجمهور بإضافة مُنْذِرُ إلی ما بعده. و قرأ عمر بن عبد العزیز و أبو جعفر و طلحة و ابن محیصن و شیبة و الأعرج و حمید بالتنوین، و رویت هذه القراءة عن أبی عمرو. قال الفراء: و

التنوين و تركه فی منذر صواب، كقوله: بالِغُ أَمْرِهِ «٣» و مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ «۴». قال أبو علیّ الفارسی: يجوز أن تكون الإضافة للماضی، نحو ضارب زيد أمس كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها أی: إلا قدر آخر نهار أو أوّله، أو قدر الضحى الّذی يلی تلك العشية، و المراد تقليل مدّة الدنيا، كما قال: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ «۵» و قيل: لم يلبثوا فی قبورهم إلا عشية أو ضحاها. قال الفراء و الزّجّاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، و آتيك العشية أو غداتها فتكون العشية فی معنى آخر النهار، و الغداة فی معنى أوّل النهار. و منه قول الشاعر:

نحن صبحنا عامرا فی دارهاجردا تعادى طرفی نهارها

عشية الهلال أو سرارها و الجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجیء المنذر به.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: رَفَعَ سَمْكَها قال: بناها وَ أَغْطَشَ لَيْلَها قال: أظلم ليلها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه وَ أَغْطَشَ لَيْلَها قال:

و أظلم ليلها وَ أَخْرَجَ ضُحاها قال: أخرج نهارها. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أيضا وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها قال: مع ذلك. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبی حاتم عنه أيضا أن رجلا قال له: آيتان فی كتاب اللّه تخالف إحداهما الأخرى، فقال: إنما أتيت من قبل رأيك، قال: اقرأ: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ الْأَرْضَ فِی يَوْمَيْنِ حتى بلغ: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ «۶» و قوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها

(١). الأعراف: ١٨٧.

(٢). لقمان: ٣۴.

(٣). الطلاق: ٣.

(۴). الأنفال: ١٨.

(۵). الأحقاف: ٣۵.

(۶). فصلت: ٩- ١١.

قال: خلق اللّه الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ما خلق السماء، و إنما قوله: دَحاها: بسطها. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: دَحاها أن أخرج منها الماء و المرعى و شقق فيها الأنهار و جعل فيها الجبال و الرمال و السبل و الآكام و ما بينهما فی يومين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: الطامة من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن مردويه عن علیّ بن أبی طالب: «كان النبی صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عن الساعة فنزلت: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها». و أخرج البزار و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عائشة قالت: «ما زال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عن الساعة حتى أنزل اللّه فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها فانتهى فلم يسأل عنها». و أخرج عبد بن حميد و النسائی و ابن جرير و الطبرانی و ابن مردويه عن طارق بن شهاب قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها فكفّ عنها. و أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس- قال السيوطی: بسند ضعيف- أن مشركی مكة سألوا النبی صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: متى الساعة؟ استهزاء منهم. فأنزل اللّه: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها يعنی مجيئها فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها يعنی ما أنت من علمها يا محمد إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها يعنی منتهى علمها. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت:

«كانت الأعراب إذا قدموا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: إن يعش هذا قرنا قامت عليكم ساعتكم» «۱».

---

(۱). انظر رأى الإمام النووى و الحافظ ابن حجر حول هذا الحديث فى فتح البارى (۱۰/ ۵۵۷)

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۶۲

سورة عبس

اشارة

و تسمى سورة السفرة، و هى إحدى و أربعون، أو اثنتان و أربعون آية و هى مكية فى قول الجميع. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۴۲]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (۱) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (۲) وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (۳) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (۴)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (۶) وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (۷) وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (۸) وَ هُوَ يَخْشى (۹)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (۱۰) كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (۱۲) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴)

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (۱۵) كِرامٍ بَرَرَةٍ (۱۶) قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹)

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (۲۳) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (۲۴)

أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً (۲۹)

وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۲) فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴)

وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹)

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (۴۱) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (۴۲)

قوله: عَبَسَ وَ تَوَلَّى أى: كلح بوجهه و أعرض. و قرئ «عبّس» بالتشديد أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى مفعول لأجله، أى: لأن جاءه الأعمى، و العامل فيه إما عبس أو تولى على الاختلاف بين البصريين و الكوفيين فى التنازع هل المختار إعمال الأوّل أو الثانى؟.

و قد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية: أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد طمع فى إسلامهم، فأقبل عبد اللّه بن أمّ مكتوم، فكره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقطع عليه ابن أمّ مكتوم كلامه، فأعرض عنه فنزلت، و سيأتى فى آخر البحث بيان هذا إن شاء اللّه، وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى التفت سبحانه إلى خطاب نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم، لأن المشافهة أدخل فى العتاب، أى: أىّ شىء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه، و جملة لَعَلَّهُ يَزَّكَّى مستأنفة لبيان أن له شأنا ينافى الإعراض عنه، أى: لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، فالضمير فى «لعله» راجع إلى «الأعمى»، و قيل: هو راجع إلى الكافر، أى: و ما يدريك أن ما طعمت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو

يذكر، و الأوّل أولى. و كلمة الترجى باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوّ التزكى مما

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۶۳

لا يجوز. قرأ الجمهور: أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى على الخبر بدون استفهام، و وجهه ما تقدّم. و قرأ الحسن:

«آن جاءه» بالمدّ على الاستفهام، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دلّ عليه عَبَسَ وَ تَوَلَّى و التقدير: آن جاءه الأعمى تولّى و أعرض، و مثل هذه الآية قوله فى سورة الأنعام: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ «۱» و كذلك قوله فى سورة الكهف: وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا «۲» و قوله: أَوْ يَذَّكَّرُ عطف على يزكى داخل معه فى حكم الترجى، أى: أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى أى: الموعظة. قرأ الجمهور: «فتنفعه» بالرفع، و قرأ عاصم ابن أبى إسحاق و عيسى و السلمى و زرّ بن حبيش بالنصب على جواب الترجى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى أى كان ذا ثروة و غنى، أو استغنى عن الإيمان و عما عندك من العلم فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى أى: تصغى لكلامه، و التصدى: الإصغاء. قرأ الجمهور: «تصدى» بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفا، و قرأ نافع و ابن محيصن بالتشديد على الإدغام، و فى هذا مزيد تنفير له صلّى اللّه عليه و سلّم عن الإقبال عليهم و الإصغاء إلى كلامهم وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى أى: أىّ شىء عليك فى أن لا يسلم و لا يهتدى، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار، و يجوز أن تكون «ما» نافية، أى: ليس عليك بأس فى أن لا يتزكى من تصدّيت له و أقبلت عليه، و تكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تصدّى. ثم زاد سبحانه فى معاتبة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى أى: وصل إليك حال كونه مسرعا فى المجىء إليك؛ طالبا منك أن ترشده إلى الخير و تعظه بمواعظ اللّه، و جملة وَ هُوَ يَخْشى حال من فاعل يسعى على التداخل، أو من فاعل جاءك على الترادف فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى أى: تتشاغل عنه، و تعرض عن الإقبال عليه، و التلهى:

التشاغل و التغافل، يقال: لهيت عن الأمر ألهى، أى: تشاغلت عنه، و كذا تلهيت. و قوله: كَلَّا ردع له صلّى اللّه عليه و سلّم عما عوتب عليه، أى: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، و التصدى للغنى و التشاغل به، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكى و القبول للموعظة، و هذا الواقع من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هو من باب ترك الأولى، فأرشده اللّه سبحانه إلى ما هو الأولى به إِنَّها تَذْكِرَةٌ أى: إن هذه الآيات أو السورة موعظة، حقّها أن تتعظ بها و تقبلها و تعمل بموجبها و يعمل بها كل أمتك فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ أى: فمن رغب فيها اتّعظ بها و حفظها و عمل بموجبها، و من رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره. قيل: الضميران فى «إنها»، و فى «ذكره» للقرآن، و تأنيث الأوّل لتأنيث خبره. و قيل: الأوّل للسورة، أو للآيات السابقة، و الثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر، و قيل: إن معنى فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فمن شاء اللّه ألهمه و فهمه القرآن حتى يذكره و يتعظ به، و الأوّل أولى. ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة و جلالتها فقال: فِي صُحُفٍ أى: إنها تذكرة كائنة فى صحف، فالجار و المجرور صفة لتذكرة، و ما بينهما اعتراض، و الصّحف: جمع صحيفة، و معنى مُكَرَّمَةٍ أنها مكرمة عند اللّه

---

(۱). الأنعام: ۵۲.

(۲). الكهف: ۲۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۶۴

لما فيها من العلم و الحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، و قيل: المراد بالصحف كتب الأنبياء، كما فى قوله: إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى «۱». و معنى مَرْفُوعَةٍ أنها رفيعة القدر عند اللّه، و قيل: مرفوعة فى السماء السابعة. قال

الواحدى: قال المفسرون: مكرّمة يعنى اللوح المحفوظ مَرْفُوعَةٍ يعنى فى السماء السابعة. قال ابن جرير: مرفوعة القدر و الذكر، و قيل: مرفوعة عن الشبه و التناقض مُطَهَّرَةٍ أى: منزّهة لا يمسها إلا المطهرون. قال الحسن: مطهرة من كل دنس. قال السدى: مصانة عن الكفار لا ينالونها بِأَيْدِي سَفَرَةٍ السفرة: جمع سافر ككتبة و كاتب، و المعنى: أنها بأيدى كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ. قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين اللّه و رسوله، من السفارة و هو السعى بين القوم، و أنشد:

فما أدع السّفارة بين قومى و لا أمشى بغشّ إن مشيت «٢»

قال الزجاج: و إنما قيل للكتاب سفر بكسر السين، و الكاتب سافر، لأن معناه أنه يبيّن، يقال أسفر الصبح؛ إذا أضاء، و أسفرت المرأة؛ إذا كشفت النقاب عن وجهها، و منه سفرت بين القوم أسفر سفارة، أى: أصلحت بينهم. قال مجاهد: هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد. و قال قتادة: السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرءون الأسفار. و قال وهب بن منبه: هم أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال: كِرامٍ بَرَرَةٍ أى: كرام على ربهم، كذا قال الكلبى. و قال الحسن: كرام عن المعاصى، فهم يرفعون أنفسهم عنها. و قيل: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو قضى حاجته. و قيل: يؤثرون منافع غيرهم على منافع. و قيل: يتكرّمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. و البررة: جمع بارّ، مثل كفرة و كافر، أى: أتقياء مطيعون لربهم صادقون فى إيمانهم، و قد تقدّم تفسيره.

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ أى: لعن الإنسان الكافر ما أشدّ كفره! و قيل: عذّب، قيل: و المراد به عتبة بن أبى لهب، و معنى ما أَكْفَرَهُ التعجب من إفراط كفره. قال الزجاج: معناه اعجبوا أنتم من كفره، و قيل: المراد بالإنسان من تقدم ذكره فى قوله: أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى و قيل: المراد به الجنس، و هذا هو الأولى، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، و يدخل تحته من كان سببا لنزول الآية دخولا أوّليا.

ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغى لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره و يكفّ عن طغيانه فقال:

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ أى: من أىّ شىء خلق اللّه هذا الكافر، و الاستفهام للتقرير. ثم فسّر ذلك فقال:

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ أىّ من ماء مهين، و هذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرّتين، و معنى فَقَدَّرَهُ أى: فسوّاه و هيّأه لمصالح نفسه، و خلق له اليدين و الرجلين و العينين و سائر الآلات و الحواسّ، و قيل: قدّره أطوارا من حال إلى حال، نطفة ثم علقة إلى أن تمّ خلقه ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ

---

(١). الأعلى: ١٨- ١٩.

(٢). فى المطبوع: و لا أمشى بغير أب نسيب.

أى: يسرّ له الطريق إلى الخير و الشرّ. و قال السدى و مقاتل و عطاء و قتادة: يسّره للخروج من بطن أمه، و الأوّل أولى. و مثله قوله: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «١» و انتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور، أى: يسّر السبيل يسّره ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ أى: جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراما له، و لم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع و الطير، كذا قال الفراء: و قال أبو عبيدة: جعل له قبرا و أمر أن يقبر فيه. و قال أقبره، و لم يقل قبره، لأن القابر هو الدافن بيده، و منه قول الأعشى:

لو أسندت ميتا إلى صدرها «٢»عاش و لم ينقل إلى قابر

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ أى: ثم إذا شاء إنشاره أنشره، أى: أحياه بعد موته، و علق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين، بل

هو تابع للمشيئة. قرأ الجمهور: «أَنْشَرَهُ» بالألف، و روى أبو حيوة عن نافع و شعيب بن أبى حمزة «نشره» بغير ألف، و هما لغتان فصيحتان كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ كلا:

ردع و زجر للإنسان الكافر، أى: ليس الأمر كما يقول. و معنى: «لما يقض ما أمره»: لم يقض ما أمره اللّه به من العمل بطاعته و اجتناب معاصيه، و قيل: المراد الإنسان على العموم، و أنه لم يفعل ما أمره اللّه به مع طول المدّة لأنه لا يخلو من تقصير. قال الحسن: أى حقا لم يعمل ما أمر به. و قال ابن فورك: أى كلّا لما يقض اللّه لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له. قال ابن الأنبارى: الوقف على كلا قبيح و الوقف على أمره جيد، و كلّا على هذا بمعنى حقا. و قيل: المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره، بل أخلّ به؛ بعضها بالكفر، و بعضها بالعصيان، و ما قضى ما أمره اللّه إلا القليل.

ثم شرع سبحانه فى تعداد نعمه على عباده ليشكروها، و ينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ أى: ينظر كيف خلق اللّه طعامه الّذى جعله سببا لحياته؟ و كيف هيأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخروية؟ قال مجاهد: معناه فلينظر الإنسان إلى طعامه، أى: إلى مدخله و مخرجه، و الأوّل أولى. ثم بيّن ذلك سبحانه فقال: أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا قرأ الجمهور: «إنا» بالكسر على الاستئناف. و قرأ الكوفيون و رويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتمال؛ لكون نزول المطر سببا لحصول الطعام، فهو كالمشتمل عليه، أو بتقدير لام العلّة. قال الزجاج: الكسر على الابتداء و الاستئناف، و الفتح على معنى البدل من الطعام. المعنى: فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبّا، و أراد بصبّ الماء المطر. و قرأ الحسن بن علىّ بالفتح و الإمالة ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا أى: شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لائقا بما يخرج منه فى الصغر و الكبر و الشكل و الهيئة. ثم بيّن سبب هذا الشقّ و ما وقع لأجله فقال: فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا يعنى الحبوب الّذى يتغذى بها، و المعنى: أن النبات لا يزال ينمو و يتزايد إلى أن يصير حبا، و قوله: وَ عِنَباً معطوف على «حبا»، أى: و أنبتنا فيها عنبا، قيل: و ليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضير فى خلوّ إنبات العنب عن شقّ

---

(١). البلد: ١٠.

(٢). فى تفسير القرطبى (١٩/ ٢١٩): نحرها.

الأرض، و القضب: هو القتّ الرطب الّذى يقضب مرّة بعد أخرى تعلف به الدواب، و لهذا سمّى قضبا على مصدر قضبه، أى: قطعه؛ كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع. قال الخليل: القضب: الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهى القتّ. قال فى الصحاح: و القضبة و القضب الرّطبة، قال: و الموضع الّذى ينبت فيه مقضبة.

قال القتبىّ و ثعلب: و أهل مكة يسمون القتّ القضب. و الزيتون: هو ما يعصر منه الزيت، و هو شجرة الزيتون المعروفة، و النخل هو جمع نخلة وَ حَدائِقَ غُلْباً جمع حديقة، و هى البستان، و الغلب: العظام الغلاظ الرقاب. و قال مجاهد و مقاتل: الغلب: الملتف بعضها ببعض، يقال: رجل أغلب؛ إذا كان عظيم الرقبة، و يقال للأسد أغلب؛ لأنه مصمت العنق؛ لا يلتفت إلا جميعا. قال العجّاج:

ما زلت يوم البين ألوى صلبى و الرّأس حتّى صرت مثل الأغلب

و جمع أغلب و غلباء غلب، كما جمع أحمر و حمراء على حمر. و قال قتادة و ابن زيد: الغلب: النخل الكرام.

و عن ابن زيد أيضا و عكرمة: هى غلاظ الأوساط و الجذوع. و الفاكهة: ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب و التين و الخوخ و نحوها. و الأبّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس و لا يزرعونه من الكلأ و سائر أنواع المرعى، و منه قول الشاعر:

جذمنا قيس و نجد دارنا و لنا الأبّ به و المكرع «١»

قال الضحاك: الأبّ كل شيء ينبت على وجه الأرض. و قال ابن أبى طلحة: هو الثمار الرطبة. و روى عن الضحاك أيضا أنه قال: هو التين خاصة، و الأوّل أولى. ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المعاد فقال:

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ يعنى صيحة يوم القيامة، و سمّيت صاخة لشدّة صوتها لأنها تصخ الآذان، أى:

تصمها فلا تسمع، و قيل: سميت صاخة لأنها يصيخ لها الأسماع، من قولك أصاخ إلى كذا، أى: استمع إليه، و الأوّل أصح. قال الخليل: الصاخّة: صيحة تصخ الآذان حتى تصمّها بشدّة وقعها، و أصل الكلمة فى اللغة مأخوذة من الصك الشديد، يقال: صخّه بالحجر؛ إذا صكّه بها، و جواب إذا محذوف يدل عليه قوله: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ أى: فإذا جاءت الصّاخّة اشتغل كل أحد بنفسه، و الظرف فى قوله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ- وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ- وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ إما بدل من «إذا جاءت»، أو منصوب بمقدّر، أى: أعنى و يكون تفسيرا للصاخة، أو بدلا منها مبنىّ على الفتح، و خصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أخصّ القرابة، و أولاهم بالحنوّ و الرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم، و خطب فظيع لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ أى: لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء و يصرفه عنهم. و قيل: إنما يفرّ عنهم حذرا من مطالبتهم إياه بما بينهم، و قيل: يفرّ عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدّة، و قيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه و لا يغنون عنه شيئا كما قال تعالى: يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً «٢» و الجملة مستأنفة

---

(١). «الجذم»: الأصل. «المكرع»: مفعل من الكرع، أراد به الماء الصالح للشرب.

(٢). الدخان: ٤١.

مسوقة لبيان سبب الفرار. قال ابن قتيبة: يُغْنِيهِ أى: يصرفه عن قرابته، و منه يقال: أغن عنى وجهك، أى: اصرفه. قرأ الجمهور: «يغنيه» بالغين المعجمة. و قرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء، أى:

يهمه، من عناه الأمر إذا أهمه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ وجوه مبتدأ و إن كان نكرة؛ لأنه فى مقام التفصيل، و هو من مسوّغات الابتداء بالنكرة، و «يومئذ» متعلق به، و «مسفرة» خبره، و معنى مسفرة: مشرقة مضيئة، و هى وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم و الكرامة، يقال: أسفر الصبح؛ إذا أضاء. قال الضحاك: مسفرة من آثار الوضوء، و قيل: من قيام الليل ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ أى: فرحة بما نالته من الثواب الجزيل. ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال: وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ أى: غبار و كدورة لما تراه مما أعدّه اللّه لها من العذاب تَرْهَقُها قَتَرَةٌ أى: يغشاها و يعلوها سواد و كسوف، و قيل: ذلّة، و قيل: شدّة، و القتر فى كلام العرب: الغبار، كذا قال أبو عبيدة، و أنشد قول الفرزدق:

متوّج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات و القترا

و يدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار. و قال زيد بن أسلم: القترة ما ارتفعت إلى السماء، و الغبرة ما انحطت إلى الأرض أُولئِكَ يعنى أصحاب الوجوه هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ أى:

الجامعون بين الكفر باللّه و الفجور، يقال: فجر؛ أى فسق، و فجر، أى: كذب، و أصله الميل، و الفاجر:

المائل عن الحق.

و قد أخرج الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن عائشة قالت:

«أنزلت عبس و تولى فى ابن أمّ مكتوم الأعمى، أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فجعل يقول: يا رسول اللّه أرشدنى و عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعرض عنه و يقبل على

الآخر و يقول:

«أ ترى بما أقول بأسا؟» فيقول: لا، ففى هذا أنزلت». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو يعلى عن أنس قال: «جاء بن أمّ مكتوم، و هو يكلم أبىّ بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل اللّه عَبَسَ وَ تَوَلَّى- أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى فكان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك يكرمه». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يناجى عتبة بن ربيعة و العباس بن عبد المطلب و أبا جهل بن هشام، و كان يتصدى لهم كثيرا، و يحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد اللّه بن أمّ مكتوم يمشى، و هو يناجيهم، فجعل عبد اللّه يستقرئ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم آية من القرآن قال: يا رسول اللّه علمنى مما علمك اللّه، فأعرض عنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عبس فى وجهه و تولى، و كره كلامه، و أقبل على الآخرين، فلما قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نجواه، و أخذ ينقلب إلى أهله أمسك اللّه ببعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل اللّه: عَبَسَ وَ تَوَلَّى الآية، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كلمه و قال له: «ما حاجتك؟ هل تريد منى شىء»؟

و إذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة فى شىء»؟ قال ابن كثير: فيه غرابة، و قد تكلم فى إسناده.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس بِأَيْدِي سَفَرَةٍ قال: كتبة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى

فتح القدير، ج‏5، ص: 468

حاتم عنه بِأَيْدِي سَفَرَةٍ قال: هم بالنبطية القراء. و أخرج ابن جرير عنه أيضا كِرامٍ بَرَرَةٍ قال:

الملائكة. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الّذى يقرأ القرآن و هو ماهر به مع السّفرة الكرام البررة، و الّذى يقرؤه و هو عليه شاقّ له أجران».

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ قال: يعنى بذلك خروجه من بطن أمه يسره له. و أخرج ابن المنذر عن عبد اللّه بن الزبير فى قوله: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ قال: إلى مدخله و مخرجه. و أخرج ابن أبى الدنيا عن ابن عباس فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ قال: إلى خرئه. و أخرج ابن المنذر عنه أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا قال: المطر ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا قال: عن النبات. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ قَضْباً قال: الفصفصة، يعنى القتّ، وَ حَدائِقَ غُلْباً قال: طوالا وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا قال: الثمار الرطبة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الحدائق: كل ملتفّ، و الغلب: ما غلظ، و الأبّ: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدوابّ و لا يأكله الناس. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا وَ حَدائِقَ غُلْباً قال: شجر فى الجنة يستظل به لا يحمل شيئا. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: الأبّ: الكلأ و المرعى. و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد عن إبراهيم التيمى قال: سئل أبو بكر الصديق عن الأبّ ما هو؟ فقال: أىّ سماء تظلنى و أىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب اللّه ما لا أعلم؟. و أخرج عبد بن حميد عن عبد اللّه بن يزيد: أن رجلا سأل عمر عن قوله: وَ أَبًّا فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة. و أخرج ابن سعد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب، و الخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر: فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَ عِنَباً إلى قوله: وَ أَبًّا قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رفض «1» عصا كانت فى يده فقال: هذا لعمر اللّه هو التكلف، فما عليك أن لا تدرى ما الأبّ، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه، و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الصاخة من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

مُسْفِرَةٌ قال: مشرقة، و فى قوله: تَرْهَقُها قَتَرَةٌ قال: تغشاها شدّة و ذلّة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قَتَرَةٌ قال: سواد الوجه.

(۱). فى اللسان: رفض الشيء: تركه.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۶۹

سورة التّكوير

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة و ابن الزبير مثله. و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ: إذا الشمس كورت، و إذا السماء انفطرت، و إذا السماء انشقت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱ الى ۲۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴)

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹)

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (۱۱) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (۱۴)

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (۱۷) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (۱۸) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (۱۹)

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (۲۰) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (۲۱) وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (۲۲) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (۲۳) وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (۲۴)

وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (۲۵) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (۲۶) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۲۷) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (۲۸) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۲۹)

قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال، و هذا عند البصريين، و أما عند الكوفيين و الأخفش فهو مرتفع على الابتداء. و التكوير: الجمع، و هو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها. قال الزجاج: لفت كما تلف العمامة، يقال: كورت العمامة على رأسى أكورها كورا، و كوّرتها تكويرا؛ إذا لففتها. قال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع. قال الربيع ابن خثيم: كُوِّرَتْ أى رمى بها، و منه كوّرته فتكوّر، أى: سقط. و قال مقاتل و قتادة و الكلبى:

ذهب ضوءها. و قال مجاهد: اضمحلت. قال الواحدى: قال المفسرون: تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها. فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لفّ جرمها، أو لفّ ضوئها، أو الرمى بها وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ أى: تهافتت و انقضّت و تناثرت، يقال: انكدر الطائر من الهواء؛ إذا انقضّ، و الأصل فى الانكدار الانصباب. قال الخليل: يقال انكدر عليهم القوم؛ إذا جاءوا أرسالا فانصبوا عليهم. قال أبو عبيدة:

انصبت كما ينصب العقاب. قال الكلبى و عطاء: تمطر السماء يومئذ نجوما، فلا يبقى نجم فى السماء إلا وقع

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٧٠

على الأرض، و قيل: انكدارها: طمس نورها وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ أى: قلعت عن الأرض، و سيرت فى الهواء، و منه قوله: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً «١». وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ العشار: النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها، الواحدة عشراء، و هى التى قد أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع. و خصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب، و أعزّه عندهم، و معنى «عطّلت»: تركت هملا بلا راع؛ و ذلك لما شاهدوا من الهول العظيم، قيل: و هذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء فى ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها و لم يلتفت إليها؛ اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة، و سيأتى آخر البحث إن شاء اللّه ما يفيد أن هذا فى الدنيا. و قيل: العشار: السحاب، فإن العرب تشبهها بالحامل، و منه قوله: فَالْحامِلاتِ وِقْراً «٢» و تعطيلها عدم إمطارها. قرأ الجمهور: «عطلت» بالتشديد، و قرأ ابن كثير فى رواية عنه بالتخفيف. و قيل:

المراد أن الديار تعطّل فلا تسكن، و قيل: الأرض التى يعشّر زرعها تعطّل فلا تزرع وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ الوحوش: ما توحّش من دوابّ البرّ، و معنى حشرت: بعثت حتى يقتصّ بعضها من بعض، فيقتصّ للجماء من القرناء. و قيل: حشرها: موتها، و قيل: إنها مع نفرتها اليوم من الناس و تبدّدها فى الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم. قرأ الجمهور: «حشرت» بالتخفيف، و قرأ الحسن و عمرو بن ميمون بالتشديد وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ أى: أو قدت فصارت نارا تضطرم. و قال الفراء: ملئت بأن صارت بحرا واحدا و كثر ماؤها، و به قال الربيع بن خثيم و الكلبى و مقاتل و الحسن و الضحاك. و قيل: أرسل عذبها على مالحها و مالحها على عذبها حتى امتلأت، و قيل: فجرت فصارت بحرا واحدا. و روى عن قتادة و ابن حبان أن معنى الآية: يبست و لا يبقى فيها قطرة، يقال: سجرت الحوض أسجره سجرا؛ إذا ملأته. و قال القشيرى: هو من سجرت التنوّر أسجره سجرا؛ إذا أحميته. قال ابن زيد و عطية و سفيان و وهب و غيرهم:

أوقدت فصارت نارا، و قيل: معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم، من قولهم عين سجراء، أى: حمراء.

قرأ الجمهور: «سجرت» بتشديد الجيم، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بتخفيفها، وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ أى: قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة، و قرن بين رجل السوء مع رجل السوء فى النار.

و قال عطاء: زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين، و قرنت نفوس الكافرين بالشياطين. و قيل: قرن كل شكل إلى شكله فى العمل، و هو راجع إلى القول الأوّل. و قيل: قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما فى قوله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ «٣» و قال عكرمة وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ يعنى قرنت الأرواح بالأجساد. و قال الحسن: ألحق كل امرئ بشيعته؛ اليهود باليهود، و النصارى بالنصارى، و المجوس بالمجوس، و كل من كان يعبد شيئا من دون اللّه يلحق بعضهم ببعض و المنافقون بالمنافقين، و المؤمنون بالمؤمنين. و قيل: يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان، و يقرن المطيع بمن دعاه

(١). الكهف: ٤٧.

(٢). الذاريات: ٢.

(٣). الصافات: ٢٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٧١

إلى الطاعة من الأنبياء و المؤمنين. و قيل: قرنت النفوس بأعمالها وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ أى: المدفونة حية، و قد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة، يقال: وأد يئد وأدا فهو وائد، و المفعول به موءود، و أصله مأخوذ من

الثقل لأنها تدفن، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت، و منه:

وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما «١» أى: لا يثقله، و منه قول متمّم بن نويرة:

و موءودة مقبورة فى مفازة «٢» و منه قول الراجز:

سمّيتها إذ ولدت تموتو القبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور: «الموءودة» بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة. و قرأ البزى فى رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة. و قرأ الأعمش: «المودة» بزنة الموزة. و قرأ الجمهور: «سئلت» مبنيا للمفعول، و قرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل. و قرأ الجمهور: «قتلت» بالتخفيف مبنيا للمفعول، و قرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير. و قرأ علىّ و ابن مسعود و ابن عباس سألت مبنيا للفاعل «قتلت» بضم التاء الأخيرة.

و معنى «سئلت» على قراءة الجمهور: أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب و يسأل عن ذلك، و فيه تبكيت لقاتلها و توبيخ له شديد. قال الحسن: أراد اللّه أن يوبّخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب، و فى مصحف أبىّ «و إذا الموءودة سألت بأىّ ذنب قتلتنى». وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ يعنى صحائف الأعمال نشرت للحساب، لأنها تطوى عند الموت و تنشر عند الحساب، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها، فيقول: ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها «٣» قرأ نافع و عاصم و ابن عامر و أبو عمرو: «نشرت» بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد على التكثير. وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ الكشط: قلع عن شدّة التزاق، [فالسماء تكشط كما] «۴» يكشط الجلد عن الكبش، و القشط بالقاف لغة فى الكشط، قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف. و قال الفراء:

نزعت فطويت. و قال مقاتل: كشفت عما فيها. قال الواحدى: و معنى الكشط رفعك شيئا عن شىء قد غطاه وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ أى: أوقدت لأعداء اللّه إيقادا شديدا. قرأ الجمهور: «سعرت» بالتخفيف، و قرأ نافع و ابن ذكوان و حفص بالتشديد لأنها أوقدت مرّة بعد مرّة. قال قتادة: سعّرها غضب اللّه و خطايا بنى آدم وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ أى: قرّبت إلى المتقين و أدنيت منهم. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها. و قال ابن زيد: معنى أزلفت تزيّنت. و الأوّل أولى لأن الزلفى فى كلام العرب القرب. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر؛ ستّ منها فى الدنيا، و هى من أوّل السورة إلى قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ

---

(١). البقرة: ٢۵۵.

(٢). و عجز البيت: بآمتها موسودة لم يمهّد.

(٣). الكهف: ۴٩.

(۴). من تفسير القرطبى (١٩/ ٢٣۵)

، و ستّ فى الآخرة و هى: وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ إلى هنا، و جواب الجميع قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف، يعنى ما عملت من خير أو شرّ، و معنى ما أَحْضَرَتْ ما أحضرت من أعمالها، و المراد حضور صحائف الأعمال، أو حضور الأعمال نفسها، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها و تعرف بها، و تنكير «نفس» المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور و الوضوح بحيث لا يخفى على أحد، و يدلّ على هذا قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً «١» و قيل: يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا

علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت، فكيف و كلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه: لعلك ستندم على ما فعلت، و ربما ندم الإنسان على فعله فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ «لا» زائدة كما تقدّم تحقيقه و تحقيق ما فيه من الأقوال فى أوّل سورة القيامة، أى: فأقسم بالخنس، و هى الكواكب؛ و سميت الخنس من خنس؛ إذا تأخر؛ لأنها تخنس بالنهار فتخفى و لا ترى، و هى زحل و المشترى و المريخ و الزهرة و عطارد كما ذكره أهل التفسير. و وجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس و تقطع المجرة. و قال فى الصحاح:

الخنس: الكواكب كلها؛ لأنها تخنس فى المغيب، أو لأنها تخفى نهارا، أو يقال هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة. قال الفراء: إنها الكواكب الخمسة المذكورة، لأنها تخنس فى مجراها، و تكنس، أى: تستر كما تكنس الظباء فى المغار، و يقال: سمّيت خنسا لتأخّرها؛ لأنها الكواكب المتحيزة التى ترجع و تستقيم. يقال:

خنس عنه يخنس خنوسا؛ إذا تأخر، و أخنسه غيره؛ إذا خلفه و مضى عنه، و الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة، و معنى الْجَوارِ أنها تجرى مع الشمس و القمر، و معنى الْكُنَّسِ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس؛ فخنوسها رجوعها، و كنوسها اختفاؤها تحت ضوئها، و قيل:

خنوسها: خفاؤها بالنهار، و كنوسها: غروبها. قال الحسن و قتادة: هى النجوم التى تخنس بالنهار و إذا غربت، و المعنى متقارب لأنها تتأخر فى النهار عن البصر لخفائها فلا ترى، و تظهر بالليل و تكنس فى وقت غروبها. و قيل: المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس و بالجوار و بالكنس. و قال عكرمة: الخنس: البقر و الكنس الظباء، فهى تخنس إذا رأت الإنسان و تنقبض و تتأخر و تدخل كناسها. و قيل: هى الملائكة. و الأوّل أولى لذكر الليل و الصبح بعد هذا، و الكنس مأخوذ من الكناس الّذى يختفى فيه الوحش، و الخنس: جمع خانس و خانسة، و الكنس: جمع كانس و كانسة وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ قال أهل اللغة: هو من الأضداد، يقال: عسعس الليل؛ إذا أقبل، و عسعس؛ إذا أدبر، و يدل على أن المراد هنا أدبر قوله: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر، كذا حكاه عنه الجوهرى، و قال الحسن:

---

(١). آل عمران: ٣٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٧٣

أقبل بظلامه. قال الفراء: العرب تقول عسعس الليل؛ إذا أقبل، و عسعس الليل؛ إذا أدبر، و هذا لا ينافى ما تقدّم عنه، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه فى هذه الآية على أدبر، و إن كان فى الأصل مشتركا بين الإقبال و الإدبار. قال المبرد: هو من الأضداد. قال: و المعنيان يرجعان إلى شى‏ء واحد، و هو ابتداء الظلام أوّله و إدباره فى آخره. قال رؤبة بن العجاج:

يا هند ما أسرع ما تعسعسامن بعد ما كان فتى ترعرعا «١»

و قال امرؤ القيس:

عسعس حتّى لو يشاء إدّناكان لنا من ناره مقبس

و قوله:

ألمّا على الرّبع القديم بعسعسا «٢» وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ التنفس الأصل: خروج النسيم من الجوف، و تنفس الصبح: إقباله؛ لأنه يقبل بروح و نسيم، فجعل ذلك تنفسا له مجازا. قال الواحدى: تَنَفَّسَ أى امتدّ ضوءه حتى يصير نهارا، و منه يقال للنهار إذا زاد:

تنفس. و قيل: إذا تَنَفَّسَ إذا انشقّ و انفلق، و منه تنفست القوس، أى: تصدّعت. ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ يعنى جبريل؛ لكونه نزل به من جهة اللّه سبحانه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلا به، و قيل: المراد بالرسول فى الآية محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و الأوّل أولى. ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال: ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أى: ذى قوّة شديدة فى القيام بما كلّف به، كما فى قوله: شَدِيدُ الْقُوى «٣»، و معنى عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أنه ذو رفعة عالية و مكانة مكينة عند اللّه سبحانه، و هو فى محل نصب على حال من «مكين»، و أصله الوصف فلما قدّم صار حالا، و يجوز أن يكون نعتا لرسول، يقال: مكن فلان عند فلان مكانة، أى: صار ذا منزلة عنده و مكانة. قال أبو صالح: من مكانته عند ذى العرش أنه يدخل سبعين سرادقا بغير إذن، و معنى مُطاعٍ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه و يطيعونه ثَمَّ أَمِينٍ قرأ الجمهور بفتح «ثمّ» على أنها ظرف مكان للبعيد، و العامل فيه «مطاع» أو ما بعده، و المعنى: أنه مطاع فى السّماوات أو أمين فيها، أى: مؤتمن على الوحى و غيره، و قرأ هشيم و أبو جعفر و أبو حيوة بضمها على أنها عاطفة، و كان العطف بها للتراخى فى الرتبة؛ لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، و من قال: إن المراد بالرسول محمد

---

(١). فى لسان العرب: تسعسع بدل تعسعس و سرعرع بدل ترعرع و معنى «تسعسع»: أدبر و فنى. و «السرعرع»: الشاب الناعم.

(٢). و عجز البيت: كأنى أنادى أو أكلم أخرسا.

(٣). النجم: ۵.

صلّى اللّه عليه و سلّم فالمعنى: أنه ذو قوّة على تبليغ الرسالة إلى الأمة «مطاع» يطيعه من أطاع اللّه «أمين» على الوحى وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ الخطاب لأهل مكة، و المراد بصاحبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: و ما محمد يا أهل مكة بمجنون، و ذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، و أنه ليس ممّا يرمونه به من الجنون و غيره فى شى‌ء، و أنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس و أكملهم، و هذه الجملة داخلة فى جواب القسم، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، و أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم ليس كما يقولون من أنه مجنون، و أنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ اللام واقعة جواب قسم محذوف، أى: و تاللّه لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين، أى: بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين؛ لأن من جهته ترى الأشياء. و قيل: بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ أقطار السماء و نواحيها، و منه قول الشاعر:

أخذنا بآفاق السّماء عليكم لنا قمراها و النّجوم الطّوالع

و إنما قال سبحانه: وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ مع أنه قد رآه غير مرّة؛ لأنه رآه هذه المرّة فى صورته له ستّمائة جناح، قال سفيان: إنه رآه فى أفق السماء الشرقى. و قال ابن بحر: فى أفق السماء الغربى. و قال مجاهد: رآه نحو أجياد، و هو مشرق مكة، و «المبين» صفة للأفق، قاله الربيع. و قيل: صفة لمن رآه قاله مجاهد، و قيل: معنى الآية: و لقد رأى محمد ربه عزّ و جلّ، و قد تقدّم القول فى هذا فى سورة النجم وَ ما هُوَ أى: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عَلَى الْغَيْبِ يعنى خبر السماء و ما اطلع عليه ممّا كان غائبا علمه عن أهل مكة بِضَنِينٍ بمتهم، أى: هو ثقة فيما يؤدى عن اللّه سبحانه. و قيل: «بضنين»: ببخيل، أى: لا يبخل بالوحى، و لا يقصر فى التبليغ، و سبب هذا الاختلاف اختلاف القراء؛ فقرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائى «بظنين» بالظاء المشالة، أى: بمتهم، و الظنة:

التهمة، و اختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأنهم لم يبخّلوه و لكن كذبوه. و قرأ الباقون بضنين بالضاد، أى: ببخل، من ضننت بالشىء أضنّ ضنا؛ إذا بخلت. قال مجاهد: أى لا يضنّ عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام اللّه و أحكامه. و قيل: المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين، و الأوّل أولى وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ أى: و ما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب. قال الكلبى: يقول إن القرآن ليس بشعر و لا كهانة كما قالت قريش. قال عطاء:

يريد بالشيطان: الشيطان الأبيض الّذى كان يأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه. ثم بكّتهم سبحانه و وبّخهم فقال: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ أى: أين تعدلون عن هذا القرآن و عن طاعته، كذا قاله قتادة. و قال الزجاج: معناه أىّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى قد بينت لكم، يقال: أين تذهب؟ و إلى أين تذهب؟ و حكى الفراء عن العرب: ذهبت الشام، و خرجت العراق، و انطلقت السوق، أى: إليها. قال:

سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة، و أنشد لبعض بنى عقيل:

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا- و أىّ الأرض تذهب بالصّياح

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۷۵

تريد إلى أىّ الأرض تذهب، فحذف إلى إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ أى: ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، و تذكير لهم، و قوله: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ بدل من العالمين بإعادة الجار و مفعول المشيئة «أن يستقيم» أى: لمن شاء منكم الاستقامة على الحقّ و الإيمان و الطاعة وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أى: و ما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء اللّه تلك المشيئة، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة فى التوفيق إليه، و أنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة اللّه و توفيقه، و مثل هذا قوله سبحانه: وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «۱» و قوله: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «۲» و قوله: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «۳» و الآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قال: أظلمت وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ قال: تغيرت. و أخرج ابن أبى حاتم و الديلمى عن أبى مريم أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال فى قوله: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قال: كوّرت فى جهنم وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ قال: انكدرت فى جهنم، فكلّ من عبد من دون اللّه فهو فى جهنم، إلا ما كان من عيسى و أمه، و لو رضيا أن يعبدا لدخلاها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى العالية قال: ست آيات من هذه السورة فى الدنيا، و الناس ينظرون إليها، و ست فى الآخرة إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ إلى وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ هذه فى الدنيا و الناس ينظرون إليها وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ إلى وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ هذه فى الآخرة.

و أخرج ابن أبى الدنيا فى الأهوال، و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس فى أسواقهم؛ إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت و اضطربت و اختلطت، ففزعت الجنّ إلى الإنس و الإنس إلى الجنّ، و اختلطت الدوابّ و الطير و الوحش فماجوا بعضهم فى بعض وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: اختلطت وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ قال: أهملها أهلها وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجّج، فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة و إلى السماء السابعة، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ قال: حشر البهائم: موتها، و حشر كلّ شىء الموت غير الجنّ و الإنس فإنهما يوافيان يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الخطيب فى المتفق و المفترق، عنه فى قوله: وَ إِذَا الْوُحُوشُ

حُشِرَتْ قال: يحشر كل شىء يوم القيامة حتى أن الدوابّ لتحشر. و أخرج البيهقى فى البعث عنه أيضا فى قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ قال: تسجر حتى تصير نارا. و أخرج الطبرانى عنه سُجِّرَتْ قال: اختلط ماؤها بماء الأرض. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى

(۱). يونس: ۱۰۰.

(۲). الأنعام: ۱۱۱.

(۳). القصص: ۵۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۷۶

و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى البعث، عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب فى قوله:

وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ قال: يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح فى الجنة و يقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار، كذلك تزويج الأنفس: و فى رواية: ثم قرأ: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ «۱» و أخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعا. و أخرج البزار، و الحاكم فى الكنى، و البيهقى فى سننه، عن عمر بن الخطاب قال: جاء قيس بن عاصم التميمى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى و أدت ثمان بنات لى فى الجاهلية، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعتق عن كل واحدة رقبة»، قال: إنى صاحب إبل، قال: «فأهد عن كل واحدة بدنة». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ قال: قربت. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ قال: خمسة أنجم؛ زحل و عطارد و المشترى و بهرام و الزهرة، ليس شىء يقطع المجرّة غيرها. و أخرج ابن مردويه، و الخطيب فى كتاب النجوم، عن ابن عباس فى الآية قال: هى النجوم السبعة: زحل و بهرام و عطارد و المشترى و الزهرة و الشمس و القمر، خنوسها: رجوعها، و كنوسها: تغيبها بالنهار. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن سعد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، من طرق عن ابن مسعود فى قوله: بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ قال: هى بقر الوحش. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هى البقر تكنس إلى الظلّ. و أخرج ابن المنذر عنه قال: تكنس لأنفسها فى أصول الشجر و تتوارى فيه.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: هى الظباء. و أخرج ابن راهويه و عبد بن حميد، و البيهقى فى الشعب، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: الْجَوارِ الْكُنَّسِ قال: هى الكواكب. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس الخنس البقر الْجَوارِ الْكُنَّسِ الظباء، أ لم ترها إذا كانت فى الظلّ كيف تكنس بأعناقها و مدّت نظرها. و أخرج أبو أحمد الحاكم فى الكنى، عن أبى العديس قال: كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين ما الْجَوارِ الْكُنَّسِ فطعن عمر بمحضرة معه فى عمامة الرجل فألقاها عن رأسه، فقال عمر: أ حرورىّ؟ و الّذى نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقا لأنحيت القمل عن رأسك.

و هذا منكر، فالحرورية لم يكونوا فى زمن عمر و لا كان لهم فى ذلك الوقت ذكر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ قال: إذا أدبر وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ قال: إذا بدا النهار حين طلوع الفجر. و أخرج الطبرانى عنه إِذا عَسْعَسَ قال: إقبال سواده. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ قال: جبريل. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ قال: رأى جبريل له ستّمائة جناح قد سدّ الأفق.

(۱). الصافات: ۲۲.

فتح القدير، ج‏5، ص: 477

و أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إنما عنى جبريل و أن محمدا رآه في صورته عند سدرة المنتهى. و أخرج ابن مردويه عنه بالأفق المبين، قال: السماء السابعة. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ: بِضَنِينٍ بالضاد، و قال: ببخيل.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: «و ما هو على الغيب بظنين» بالظاء قال: ليس بمتّهم. و أخرج الدار قطني في الأفراد، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الخطيب في تاريخه، عن عائشة أن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرؤه «بظنين» بالظاء. و أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ قالوا: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا و إن شئنا لم نستقم، فهبط جبريل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: كذبوا يا محمد وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ

فتح القدير، ج‏5، ص: 478

سورة الانفطار

اشارة

و هي مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج النسائي عن جابر قال: «قام معاذ فصلّى العشاء فطوّل، فقال النبي صلّى اللّه عليه و سلّم: أ فتّان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن: سبّح اسم ربك الأعلى، و الضحى، و إذا السماء انفطرت» و أصل الحديث في الصحيحين، و لكن بدون ذكر إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ و قد تفرّد بها النسائي، و قد تقدّم في سورة التكوير حديث: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأي عين فليقرأ إذا الشمس كوّرت، و إذا السماء انفطرت، و إذا السماء انشقت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الانفطار (82): الآيات 1 الى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (5) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9)

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (10) كِراماً كاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)

يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (15) وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (16) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

قوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ قال الواحدي: قال المفسرون: انفطارها: انشقاقها، كقوله:

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا «1» و الفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، و منه فطر ناب البعير؛ إذا طلع، قيل: و المراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها، و قيل: انفطرت لهيبة اللّه، وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ أي: تساقطت متفرقة، يقال: نثرت

الشیء أنثره نثرا. وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ أی: بعضها فی بعض فصارت بحرا واحدا، و اختلط العذب منها بالمالح. و قال الحسن: معنی فجرت: ذهب ماؤها و یبست، و هذه الأشیاء بین یدی الساعة کما تقدّم فی السورة التی قبل هذه، وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ أی: قلب ترابها و أخرج الموتی الذین هم فیها، یقال: بعثر یبعثر بعثرة؛ إذا قلب التراب، و یقال: بعثر المتاع:

قلبه ظهرا لبطن، و بعثرت الحوض و بحثرته؛ إذا هدمته و جعلت أعلاه أسفله. قال الفراء: بعثرت: أخرجت ما فی بطنها من الذهب و الفضة، و ذلک من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبا و فضتها. ثم ذکر سبحانه

---

(۱). الفرقان: ۲۵.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۴۷۹

الجواب عما تقدّم فقال: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ و المعنی: أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث؛ لأنه وقت واحد من عند البعث إلی عند مصیر أهل الجنة إلی الجنة و أهل النار إلی النار، و الکلام فی إفراد نفس هنا کما تقدّم فی السورة الأولی فی قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ «۱». و معنی ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ ما قدّمت من عمل خیر أو شرّ، و ما أخّرت من سنّة حسنة أو سیئة؛ لأن لها أجر ما سنّته من السنن الحسنة و أجر من عمل بها، و علیها وزر ما سنّته من السنن السیئة و وزر من عمل بها. و قال قتادة:

ما قدّمت من معصیة و أخّرت من طاعة، و قیل: ما قدّم من فرض و أخّر من فرض، و قیل: أوّل عمله و آخره، و قیل: إن النفس تعلم عند البعث بما قدّمت و أخّرت علما إجمالیا؛ لأن المطیع یری آثار السعادة، و العاصی یری آثار الشقاوة، و أما العلم التفصیلی فإنما یحصل عند نشر الصحف یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِیمِ هذا خطاب للکافر، أی: ما الّذی غرّک و خدعک حتی کفرت بربک الکریم الّذی تفضّل علیک فی الدنیا بإکمال خلقک و حواسّک، و جعلک عاقلا فاهما، و رزقک و أنعم علیک بنعمه التی لا تقدر علی جحد شیء منها. قال قتادة: غرّه شیطانه المسلّط علیه. و قال الحسن: غرّه شیطانه الخبیث، و قیل: حمقه و جهله، و قیل: غرّه عفو اللّه إذ لم یعاجله بالعقوبة أوّل مرّة. کذا قال مقاتل، الَّذِی خَلَقَکَ فَسَوَّاکَ فَعَدَلَکَ أی: خلقک من نطفة و لم تک شیئا، فسوّاک رجلا تسمع و تبصر و تعقل، فعدلک: جعلک معتدلا. قال عطاء: جعلک قائما معتدلا حسن الصورة. و قال مقاتل: عدّل خلقک فی العینین و الأذنین و الیدین و الرجلین، و المعنی: عدل بین ما خلق لک من الأعضاء. قرأ الجمهور: فَعَدَلَکَ مشدّدا، و قرأ عاصم و حمزة و الکسائی بالتخفیف، و اختار أبو حاتم و أبو عبید القراءة الأولی. قال الفراء و أبو عبید: یدلّ علیها قوله:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیمٍ «۲» و معنی القراءة الأولی: أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فیها؛ و معنی القراءة الثانیة: أنه صرفه و أماله إلی أیّ صورة شاء، إما حسنا و إما قبیحا، و إما طویلا و إما قصیرا، فِی أَیِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَکَّبَکَ فی أیّ صورة متعلق برکبک، و ما مزیدة، و شاء صفة لصورة، أی: رکبک فی أیّ صورة شاءها من الصور المختلفة، و تکون هذه الجملة کالبیان لقوله: فَعَدَلَکَ و التقدیر: فعدلک: رکبک فی أیّ صورة شاءها، و یجوز أن یتعلّق بمحذوف علی أنه حال، أی: رکبک حاصلا فی أیّ صورة. و نقل أبو حیان عن بعض المفسرین أنه متعلق بعدّلک. و اعترض علیه بأن أیّ لها صدر الکلام فلا یعمل فیها ما قبلها. قال مقاتل و الکلبی و مجاهد: فی أیّ شبه من أب أو أمّ أو خال أو عمّ. و قال مکحول: إن شاء ذکرا و إن شاء أنثی، و قوله: کَلَّا للردع و الزجر عن الاغترار بکرم اللّه و جعله ذریعة إلی الکفر به و المعاصی له، و یجوز أن یکون بمعنی حقا. و قوله: بَلْ تُکَذِّبُونَ بِالدِّینِ إضراب عن جملة مقدّرة ینساق إلیها الکلام، کأنه قیل: بعد الردع و أنتم لا ترتدعون عن ذلک بل تجاوزونه إلی ما هو أعظم منه من التکذیب بالدین و هو الجزاء، أو بدین الإسلام. قال ابن الأنباری: الوقف الجید علی

«الدين» و على

---

(۱). التكوير: ۱۴.

(۲). التين: ۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۸۰

فتح القدير ج۵ ۴۹۹

«ركبك»، و على «كلا» قبيح، و المعنى: بل تكذبون يا أهل مكة بالدين، أي: بالحساب، و بل لنفى شىء تقدّم و تحقيق غيره، و إنكار البعث قد كان معلوما عندهم و إن لم يجر له ذكر. قال الفراء: كلا- ليس الأمر كما غررت به. قرأ الجمهور: «تكذبون» بالفوقية على الخطاب. و قرأ الحسن و أبو جعفر و شيبة بالتحتية على الغيبة، و جملة وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ فى محل نصب على الحال من فاعل تكذبون، أى: تكذبون، و الحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم، و يجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم، و الحافظين الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم و يكتبونها فى الصحف. و وصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد، و جملة يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ فى محل نصب على الحال من ضمير كاتبين، أو على النعت، أو مستأنفة. قال الرازى: و المعنى التعجيب من حالهم، كأنه قال: إنكم تكذبون بيوم الدين، و ملائكة اللّه موكّلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، و نظيره قوله تعالى: عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ- ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ «۱». ثم بيّن سبحانه حال الفريقين فقال: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ- وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ و الجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الّذى سيقت له، و هى كقوله سبحانه: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ «۲» و قوله: يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ صفة لجحيم؛ و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى متعلق الجارّ و المجرور، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما حالهم؟ فقيل يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ أى يوم الجزاء الّذى كانوا يكذبون به، و معنى يصلونها: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها و حرّها يومئذ. قرأ الجمهور: «يصلونها» مخففا مبنيا للفاعل، و قرئ بالتشديد مبنيا للمفعول وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ أى: لا يفارقونها أبدا و لا يغيبون عنها، بل هم فيها، و قيل المعنى: و ما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرّها فى قبورهم.

ثم عظّم سبحانه ذلك اليوم فقال: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ أى: يوم الجزاء و الحساب، و كرّره تعظيما لقدره و تفخيما لشأنه، و تهويلا لأمره كما فى قوله: الْقارِعَةُ- مَا الْقارِعَةُ- وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ «۳» و الْحَاقَّةُ- مَا الْحَاقَّةُ- وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ «۴» و المعنى: أىّ شىء جعلك داريا ما يوم الدين. قال الكلبى: الخطاب للإنسان الكافر. ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال: يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ قرأ ابن كثير و أبو عمرو برفع «يوم» على أنه بدل من يوم الدين، أو خبر مبتدأ محذوف. و قرأ أبو عمرو فى رواية: «يوم» بالتنوين، و القطع عن الإضافة. و قرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير أعنى أو اذكر، فيكون مفعولا به، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين، و هو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه بدل من يوم الدين. قال الزجاج:

يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه مبنى على الفتح لإضافته إلى قوله: لا تَمْلِكُ و ما أضيف إلى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح، و إن كان فى موضع رفع، و هذا الّذى ذكره إنما تجوز عند الخليل و سيبويه إذا

---

(۱). ق: ۱۷- ۱۸.

(۲). الشورى: ۱۷.

(۳). القارعة: ۱- ۳.

(۴). الحاقة: ۱- ۳.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۸۱

كانت الإضافة إلى الفعل الماضى، و أما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما، و قد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسى و الفراء و غيرهما، و المعنى: أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرّ وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وحده لا يملك شيئا من الأمر غيره كائنا ما كان. قال مقاتل: يعنى لنفس كافرة شيئا من المنفعة. قال قتادة: ليس ثم أحد يقضى شيئا، أو يصنع شيئا إلا اللّه ربّ العالمين، و المعنى: أن اللّه لا يملك أحدا فى ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم فى الدنيا، و مثل هذا قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «۱».

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ قال: بعضها فى بعض، و فى قوله: وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ قال: بحثت. و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ قال:

ما قدّمت من خير و ما أخرت من سنّة صالحة يعمل بها [بعده، فإن له مثل أجر من عمل بها] «۲» من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، أو سنّة سيئة تعمل بعده، فإن عليه مثل وزر من عمل بها و لا ينقص من أوزارهم شيئا. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه. و أخرج الحاكم و صححه، عن حذيفة قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«من استنّ خيرا فاستنّ به فله أجره و مثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم، و من استنّ شرّا فاستنّ به فعليه وزره و مثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم، و تلا حذيفة عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ . و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية: ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ قال: غرّه و اللّه جهله. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل اللّه على ابن آدم حافظين فى الليل و حافظين فى النهار يحفظان عمله و يكتبان أثره.

---

(۱). غافر: ۱۶.

(۲). ما بين حاصرتين سقط من الأصل و استدركناه من الدر المنثور (۸/ ۴۳۸)

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۴۸۲

سورة المطفّفين

اشارة

قال القرطبى: و هى مكية فى قول ابن مسعود و الضحاك و مقاتل، و مدنية فى قول الحسن و عكرمة. و قال مقاتل أيضا: هى أوّل سورة نزلت بالمدينة. و قال ابن عباس و قتادة: هى مدنية إلا ثمان آيات من قوله: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا إلى آخرها. و قال الكلبى و جابر بن زيد: نزلت بين مكة و المدينة. و أخرج النحاس و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين. و أخرج ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب: قال السيوطى بسند صحيح: عن ابن عباس قال: لما قدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل اللّه: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ١٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٦) كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (٨) كِتابٌ مَرْقُومٌ (٩)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)

كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)

قوله: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ «ويل» مبتدأ، و سوّغ الابتداء به كونه دعاء، و لو نصب لجاز. قال مكى و المختار فى ويل و شبهه: إذا كان غير مضاف الرفع، و يجوز النصب، فإن كان مضافا أو معرّفا كان الاختيار فيه النصب؛ نحو قوله: وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا «١» و للمطففين خبره، و المطفّف: المنقص، و حقيقته:

الأخذ فى الكيل أو الوزن شيئا طفيفا، أى: نزرا حقيرا. قال أهل اللغة: المطفّف مأخوذ من الطّفيف، و هو القليل، فالمطفّف هو المقلّل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذى ينقص المكيال و الميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال و الميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة و المبرد:

المطفف الّذى يبخس فى الكيل و الوزن. و المراد بالويل هنا شدّة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشرّ الشديد، أو هو واد فى جهنم. قال الكلبى: قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة و هم يسيئون كيلهم و وزنهم لغيرهم، و يستوفون لأنفسهم، فنزلت هذه الآية. و قال السدى: قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة، و كان بها رجل يقال له أبو جهينة،

---

(١). طه: ٦١.

و معه صاعان يكيل بأحدهما و يكتال بالآخر، فأنزل اللّه هذه الآية. قال الفراء: هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا. ثم بيّن سبحانه المطففين من هم، فقال: الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ أى: يستوفون الاكتيال و الأخذ بالكيل. قال الفراء: يريد اكتالوا من الناس، و «على» و «من» فى هذا الموضع يعتقبان، يقال: اكتلت منك، أى: استوفيت منك، و تقول: اكتلت عليك، أى: أخذت ما عليك. قال الزجاج: إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، و لم يذكر اتزنوا لأن الكيل و الوزن بهما الشراء و البيع، فأحدهما يدل على الآخر. قال الواحدى: قال المفسرون: يعنى الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا فى الكيل و الوزن، و إذا باعوا و وزنوا لغيرهم نقصوا، و هو معنى قوله: وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أى: كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول، فهو من باب الحذف و الإيصال، و مثله: نصحتك و نصحت لك، كذا قال الأخفش و الكسائى و الفراء. قال الفراء:

و سمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المدّ و المدّين إلى الموسم المقبل. قال: و هو من كلام أهل الحجاز و

من جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على «كالوا» حتى يوصل بالضمير، و من الناس من يجعله توكيدا، أى توكيدا للضمير المستكنّ فى الفعل، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا.

قال أبو عبيدة: و كان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، و يقف على كالوا أو وزنوا، ثم يقول: هم يخسرون.

قال: و أحسب قراءة حمزة كذلك. قال أبو عبيد: و الاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: إحداهما الخط، و لذلك كتبوهما بغير ألف، و لو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف. و الأخرى أنه يقال:

كلتك و وزنتك بمعنى: كلت لك و وزنت لك، و هو كلام عربيّ؛ كما يقال: صدتك و صدت لك، و كسبتك و كسبت لك، و شكرتك و شكرت لك و نحو ذلك. و قيل: هو على حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه، و المضاف المكيل و الموزون، أى: و إذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم، و معنى يخسرون:

ينقصون، كقوله: وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ «١» و العرب تقول: خسرت الميزان و أخسرته. ثم خوّفهم سبحانه فقال: أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ و الجملة مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف و تفظيعه و للتعجيب من حالهم فى الاجتراء عليه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المطففين، و المعنى: أنهم لا يخطرون ببالهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون. قيل: و الظنّ هنا بمعنى اليقين، أى: لا يوقن أولئك، و لو أيقنوا ما نقصوا الكيل و الوزن، و قيل: الظن على بابه، و المعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث، فهلّا ظنّوه حتى يتدبروا فيه و يبحثوا عنه و يتركوا ما يخشون من عاقبته. و اليوم العظيم هو يوم القيامة، و وصفه بالعظم لكونه زمانا لتلك الأمور العظام من البعث و الحساب و العقاب، و دخول أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار. ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ انتصاب الظرف بمبعوثون المذكور قبله، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون، أى: يبعثون يوم يقوم الناس، أو على البدل من محل ليوم، أو بإضمار

---

(١). الرّحمن: ٩.

أعنى، أو هو فى محلّ رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو فى محلّ جرّ على البدل من لفظ ليوم، و إنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل. قال الزجاج: «يوم» منصوب بقوله «مبعوثون»، المعنى:

ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة، و معنى يوم يقوم الناس: يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين، أو لجزائه، أو لحسابه، أو لحكمه و قضائه. و فى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس للّه خاضعين فيه و وصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف، و مزيد إثمه و فظاعة عقابه. و قيل: المراد بقوله: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ قيامهم فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم، و قيل: المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد، و قيل:

المراد قيام الرسل بين يدى اللّه للقضاء، و الأوّل أولى. قوله: كَلَّا هى للردع و الزجر للمطففين الغافلين عن البعث و ما بعده. ثم استأنف فقال: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ أن كلا بمعنى حقا متصلة بما بعدها على معنى: حقا إن كتاب الفجار لفى سجين، و سجين هو ما فسره به سبحانه من قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ- كِتابٌ مَرْقُومٌ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم، أى: مسطور، قيل: هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين و الكفرة و الفسقة، و لفظ سجين علم له. و قال قتادة و سعيد بن جبير و مقاتل و كعب: إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها، و به قال مجاهد، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف، و التقدير: محل كتاب مرقوم. و قال أبو عبيدة و الأخفش و المبرد و الزجاج لَفِي سِجِّينٍ لفى حبس و ضيق شديد، و المعنى: كأنهم فى حبس، جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم و هوانها. قال الواحدى: ذكر قوم أن قوله: كِتابٌ

مَرْقُومٌ تفسير لسجين، و هو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب فى شىء على ما حكيناه عن المفسرين، و الوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ على تقدير هو كتاب مرقوم، أى: مكتوب قد بينت حروفه. انتهى. و الأولى ما ذكرناه، و يكون المعنى: إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون، أى: ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر، و هو سجين. ثم ذكر ما يدل على تهويله و تعظيمه، فقال: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ ثم بينه بقوله: كِتابٌ مَرْقُومٌ قال الزجاج: معنى قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت و لا قومك. قال قتادة: و معنى مرقوم: رقم لهم بشرّ، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر. و كذا قال مقاتل. و قد اختلفوا فى نون سجين، فقيل: هى أصلية و اشتقاقه من السجن، و هو الحبس، و هو بناء مبالغة كخمير و سكير و فسيق، من الخمر و السكر و الفسق. و كذا قال أبو عبيدة و المبرد و الزجاج. قال الواحدى: و هذا ضعيف لأن العرب ما كانت تعرف سجينا. و يجاب عنه بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة، و تدل على أنه من لغة العرب، و منه قول ابن مقبل:

و رفقة يضربون البيض ضاحيةضربا تواصت به الأبطال سجّينا

و قيل: النون بدل من اللام، و الأصل: سجيل؛ مشتقا من السجل، و هو الكتاب. قال ابن عطية:

من قال إن سجينا موضع فكتاب مرفوع على أنه خبر إن، و الظرف و هو قوله: لَفِي سِجِّينٍ ملغى، و من جعله عبارة عن الكتاب، فكتاب خبر مبتدأ محذوف، التقدير: هو كتاب، و يكون هذا الكلام مفسرا

فتح القدير، ج‌٥، ص: ۴۸۵

لسجين ما هو؟ كذا قال. قال الضحاك: مرقوم: مختوم بلغة حمير، و أصل الرقم الكتابة. قال الشاعر:

سأرقم بالماء القراح «۱» إليكمعلى بعد كم إن كان للماء راقم

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هذا متصل بقوله: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ و ما بينهما اعتراض، و المعنى: ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث و بما جاءت به الرسل. ثم بيّن سبحانه هؤلاء المكذبين فقال: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ و الموصول صفة للمكذبين، أو بدل منه وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ أى: فاجر جائر، متجاوز فى الإثم، منهمك فى أسبابه إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا المنزّلة على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: أحاديثهم و أباطيلهم التى زخرفوها. قرأ الجمهور إذا «تتلى» بفوقيتين.

و قرأ أبو حيوة و أبو السّمّال و الأشهب العقيلى و السلمى بالتحتية، و قوله: كَلَّا للردع و الزجر للمعتدى الأثيم عن ذلك القول الباطل و تكذيب له، و قوله: بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ بيان للسبب الّذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأوّلين. قال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها رينا و ريونا، و كل ما غلبك و علاك فقد ران بك عليك. قال الفراء: هو أنها كثرت منهم المعاصى و الذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب. قال مجاهد: القلب مثل الكف، و رفع كفه، فإذا أذنب انقبض، و ضمّ إصبعه، فإذا أذنب ذنبا آخر انقبض، و ضم أخرى؛ حتى ضم أصابعه كلها، حتى يطبع على قلبه. قال: و كانوا يرون أن ذلك هو الرين. ثم قرأ هذه الآية.

قال أبو زيد: يقال: قد رين بالرجل رينا؛ إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه و لا قبل له به. و قال أبو معاذ النحوىّ: الرين: أن يسودّ القلب من الذنوب، و الطّبع: أن يطبع على القلب، و هو أشدّ من الرين، و الإقفال: أشدّ من الطّبع. قال الزجاج: الرين هو كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق، و مثله الغين. ثم كرّر سبحانه الردع و الزجر فقال: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ و قيل: كلا بمعنى حقا، أى: حقا إنهم، يعنى الكفار، عن ربهم يوم القيامة لا يرونه أبدا. قال مقاتل: يعنى أنهم بعد العرض و الحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم. قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم فى الدنيا عن توحيده حجبهم فى الآخرة

عن رؤيته. قال الزجاج: فى هذه الآية دليل على أن اللّه عزّ و جلّ يرى فى القيامة، و لو لا ذلک ما كان فى هذه الآية فائدة. و قال جلّ ثناؤه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ- إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ «٢» فأعلم جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، و أعلم أن الكفار محجوبون عنه. و قيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوک. و قال قتادة و ابن أبى مليكة: هو أن لا ينظر إليهم برحمته و لا يزكيهم. و قال مجاهد:

محجوبون عن كرامته، و كذا قال ابن كيسان ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ أى: داخلو النار و ملازموها غير خارجين منها، و «ثم» لتراخى الرتبة؛ لأن صلى الجحيم أشدّ من الإهانة و حرمان الكرامة

---

(١). «القراح»: الماء الّذى لا ثقل فيه.

(٢). القيامة: ٢٢- ٢٣.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٨٦

ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ أى: تقول لهم خزنة جهنم تبكيتا و توبيخا: هذا الّذى كنتم به تكذبون فى الدنيا، فانظروه و ذوقوه.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما نقض قوم العهد إلا سلط اللّه عليهم عدوّهم، و لا طففوا الكيل إلا منعوا النبات و أخذوا بالسنين». و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه». و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه الآية: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ قال: فكيف إذا جمعكم اللّه كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم». و أخرج أبو يعلى و ابن حبان و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلک على المؤمن كتدلّى الشّمس إلى الغروب إلى أن تغرب». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما. و أخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا. و أخرج الطبرانى عن ابن عمر أنه قال: يا رسول اللّه كم مقام الناس بين يدى ربّ العالمين يوم القيامة؟ قال: «ألف سنة لا يؤذن لهم». و أخرج ابن المبارک فى الزهد، و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله: كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ قال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها، فيهبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين، و هو خدّ إبليس، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم و يوضع تحت خد إبليس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: سِجِّينٍ أسفل الأرضين.

و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الفلق جب فى جهنم مغطى، و أما سجين فمفتوح». قال ابن كثير: هو حديث غريب منكر لا يصحّ. و أخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: سِجِّينٍ الأرض السابعة السفلى. و أخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا. و أخرج عبد بن حميد و ابن ماجة و الطبرانى، و البيهقى فى البعث، عن عبد اللّه بن كعب بن مالک قال: لما حضرت كعبا الوفاة أتته أمّ بشر بنت البراء فقالت: إن لقيت ابنى فأقرئه منى السلام، فقال: غفر اللّه لک يا أمّ براء نحن أشغل من ذلک، فقالت: أما سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت، و إن نسمة الكافر فى سجين»؟ قال: بلى، قالت: فهو ذلک. و أخرج ابن المبارک نحوه عن سلمان. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صححه، و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و

صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه، و إن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك الران الّذى ذكره اللّه سبحانه فى القرآن كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ .

فتح القدير، ج‏5، ص: 487

[سورة المطففين (83): الآيات 18 الى 36]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26) وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27)

عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (32)

وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)

قوله: كَلَّا للردع و الزجر عما كانوا عليه، و التكرير للتأكيد، و جملة إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ مستأنفة لبيان ما تضمنته، و يجوز أن يكون «كلا» بمعنى حقا، و الأبرار: هم المطيعون، و كتابهم:

صحائف حسناتهم. قال الفراء: «عليين» ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له، و وجه هذا أنه منقول من جمع عليّ من العلوّ. قال الزجاج: هو أعلى الأمكنة. قال الفراء و الزجاج: فأعرب كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع و لا واحد له من لفظه نحو ثلاثين و عشرين و قنّسرين، قيل: هو علم لديوان الخير الّذى دوّن فيه ما عمله الصالحون. و حكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة. قال الضحاك و مجاهد و قتادة: يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. و قال الضحاك: هو سدرة المنتهى ينتهى إليه كل شي‏ء من أمر اللّه لا يعدوها، و قيل: هو الجنة. و قال قتادة أيضا: هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى، و قيل: إن عليين صفة للملائكة فإنهم فى الملأ الأعلى، كما يقال: فلان فى بنى فلان، أى: فى جملتهم وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ- كِتابٌ مَرْقُومٌ أى: و ما أعلمك يا محمد أىّ شي‏ء عليون؟ على جهة التفخيم و التعظيم لعليين، ثم فسره فقال:

كِتابٌ مَرْقُومٌ أى: مسطور، و الكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله: وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ- كِتابٌ مَرْقُومٌ و جملة يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ صفة أخرى لكتاب، و المعنى: أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم، و قيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة. قال وهب و ابن إسحاق: المقرّبون هنا إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صعدت الملائكة بالصحيفة و لها نور يتلألأ فى السماوات كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها. ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ أى: إن أهل الطاعة لفى تنعّم عظيم لا يقادر قدره عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ الأرائك: الأسرّة التى فى الحجال «1»، و قد تقدّم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة. قال الحسن: ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. و معنى يَنْظُرُونَ أنهم ينظرون إلى ما أعدّ اللّه لهم من الكرامات، كذا قال عكرمة و مجاهد و غيرهما. و قال مقاتل:

ينظرون إلى أهل النار، و قيل: ينظرون إلى وجهه و جلاله تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ أى: إذا

(۱). الحجال: جمع الحجلة، و هی ساتر كالقبّة يتّخذ للعروس، يزيّن بالثياب و السّتور و الأسرّة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۸۸

رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فی وجوههم من النور و الحسن و البياض و البهجة و الرونق، و الخطاب لكلّ راء يصلح لذلک، يقال: أنضر النبات؛ إذا أزهر و نوّر. قال عطاء: و ذلک أن اللّه زاد فی جمالهم و فی ألوانهم ما لا يصفه واصف. قرأ الجمهور: «تعرف» بفتح الفوقية و كسر الراء، و نصب نضرة، و قرأ أبو جعفر بن القعقاع و يعقوب و شيبة و طلحة و ابن أبی إسحاق بضم الفوقية و فتح الراء على البناء للمفعول، و رفع «نضرة» بالنيابة يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قال أبو عبيدة و الأخفش و المبرد و الزجاج: الرحيق من الخمر ما لا غشّ فيه و لا شیء يفسده، و المختوم: الّذی له ختام. و قال الخليل: الرحيق أجود الخمر. و فی الصحاح:

الرحيق: صفرة الخمر. و قال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية، و منه قول حسان:

يسقون من ورد البريص عليهمبردی يصفّق بالرّحيق السّلسل

قال مجاهد مَخْتُومٍ مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين، و يكون المعنى: أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفک ختمه للأبرار. قال سعيد بن جبير و إبراهيم النخعی: ختامه: آخر طعمه، و هو معنى قوله:

خِتامُهُ مِسْکٌ أی: آخر طعمه ريح المسک إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسک.

و قيل: مختوم أوانيه من الأكواب و الأباريق بمسک مكان الطين، و كأنه تمثيل لكمال نفاسته و طيب رائحته.

و الحاصل أن المختوم و الختام إما أن يكون من ختام الشیء و هو آخره، أو من ختم الشیء و هو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين و نحوه. قرأ الجمهور: «ختامه» و قرأ علیّ و علقمة و شقيق و الضحاک و طاوس و الكسائی «خاتمه» بفتح الخاء و التاء و ألف بينهما. قال علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتمه مسكا، أی: آخره، و الخاتم و الختام يتقاربان فی المعنى، إلا أن الخاتم الاسم و الختام المصدر، كذا قال الفراء قال فی الصحاح: و الختام الطين الّذی يختم به، و كذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

و بتن بجانبی مصرّعات- و بت أفضّ أغلاق الختام وَ فِی ذلِکَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ أی: فليرغب الراغبون، و الإشارة بقوله: «ذلک» إلى الرحيق الموصوف بتلک الصفة، و قيل: إن «فی» بمعنى إلى: أی و إلى ذلک فليتبادر المتبادرون فی العمل كما فی قوله:

لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ «۱» و أصل التنافس: التشاجر على الشیء و التنازع فيه؛ بأن يحبّ كل واحد أن يتفرّد به دون صاحبه، يقال: نفست الشیء عليه أنفسه نفاسة: أی ظننت به و لم أحبّ أن يصير إليه.

قال البغوی: أصله من الشیء النفيس الّذی تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه، و ينفس به على غيره، أی: يضن به. قال عطاء: المعنى فليستبق المستبقون. و قال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعون، و قوله: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ معطوف على خِتامُهُ مِسْکٌ صفة أخرى لرحيق، أی:

و مزاج ذلک الرحيق من تسنيم، و هو شراب ينصبّ عليهم من علو، و هو أشرف شراب الجنة، و أصل التسنيم فی اللغة: الارتفاع، فهی عين ماء تجری من علوّ إلى أسفل، و منه سنام البعير لعلوّه من بدنه، و منه تسنيم

(۱). الصافات: ۶۱.

فتح القدير، ج‏5، ص: 489

القبور، ثم بين ذلک فقال: عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ و انتصاب عينا على المدح. و قال الزجاج: على الحال، و إنما جاز أن تكون عينا حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: يَشْرَبُ بِهَا و قال الأخفش: إنها منصوبة بيسقون، أی: يسقون عينا، أو من عين. و قال الفراء: إنها منصوبة بتسنيم على أنه مصدر مشتق من السنام كما فی قوله: أَوْ إِطْعامٌ فِی يَوْمٍ ذِی مَسْغَبَةٍ- يَتِيماً «1» و الأوّل أولى، و به قال المبرد. قيل و الباء فی بها زائدة، أی: يشربها، أو بمعنى من، أی: يشرب منها. قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجری من تحت العرش، قيل: يشرب المقربون صرفا، و يمزج بها كأس أصحاب اليمين.

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا و هم كفار قريش و من وافقهم على الكفر كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ أی: كانوا فی الدنيا يستهزئون بالمؤمنين، و يسخرون منهم وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ أی: مرّ المؤمنون بالكفار و هم فی مجالسهم يَتَغامَزُونَ من الغمز، و هو الإشارة بالجفون و الحواجب، أی: يغمز بعضهم بعضا، و يشيرون بأعينهم و حواجبهم، و قيل: يعيرونهم بالإسلام و يعيبونهم به وَ إِذَا انْقَلَبُوا أی: الكفار إِلى أَهْلِهِمُ من مجالسهم انْقَلَبُوا فَكِهِينَ أی: معجبين بما هم فيه متلذّذين به، يتفكهون بذكر المؤمنين و الطعن فيهم و الاستهزاء بهم و السخرية منهم. و الانقلاب:

الانصراف. قرأ الجمهور: «فاكهين» و قرأ حفص و ابن القعقاع و الأعرج و السلمی «فكهين» بغير ألف.

قال الفراء: هما لغتان، مثل طمع و طامع، و حذر و حاذر. و قد تقدّم بيانه فی سورة الدخان أن الفكه: الأشر البطر، و الفاكه: الناعم المتنعم وَ إِذا رَأَوْهُمْ أی: إذا رأى الكفار المسلمين فی أی مكان قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ فی اتباعهم محمدا، و تمسّكهم بما جاء به، و تركهم التنعم الحاضر، و يجوز أن يكون المعنى:

و إذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول، و الأوّل أولى، و جملة وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ فی محل نصب على الحال من فاعل قالوا، أی: قالوا ذلک أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة اللّه موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم و أعمالهم فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا المراد باليوم: اليوم الآخر مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ و المعنى: أن المؤمنين فی ذلک اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحک الكفار منهم فی الدنيا، و جملة عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ فی محل نصب على الحال من فاعل يضحكون، أی: يضحكون منهم ناظرين إليهم و إلى ما هم فيه من الحال الفظيع، و قد تقدّم تفسير الأرائک قريبا. قال الواحدی: قال المفسرون: إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء اللّه و هم يعذبون فی النار، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم فی الدنيا. و قال أبو صالح: يقال لأهل النار اخرجوا و يفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج و المؤمنون ينظرون إليهم على الأرائک، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، فذلک قوله: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم فی الدنيا من الضحک

---

(1). البلد: 14- 15.

فتح القدير، ج‏5، ص: 490

من المؤمنين و الاستهزاء بهم، و الاستفهام للتقرير، و ثوّب بمعنى أثيب، و المعنى: هل جوزی الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ و قيل: الجملة فی محل نصب بينظرون، و قيل هی على إضمار القول، أی: يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوّبت الكفار، و الثواب ما يرجع على العبد فی مقابلة عمله و يطلق على الخير و الشرّ.

و قد أخرج ابن المبارک فی الزهد و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن

قوله: إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ قال: روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء، ففتح لها أبواب السماء و تلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهى بها إلى العرش و تعرج الملائكة، فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم و يختم و يوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لَفِي عِلِّيِّينَ قال: الجنة، و فى قوله: يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ قال: أهل السماء.

و أخرج أحمد و أبو داود و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين». و أخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: نَضْرَةَ النَّعِيمِ قال: عين فى الجنة يتوضّؤون منها و يغتسلون فتجرى عليهم نضرة النعيم. و أخرج عبد بن حميد و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر، و البيهقى فى البعث، عن ابن مسعود فى قوله: يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قال: الرحيق: الخمر، و المختوم: يجدون عاقبتها طعم المسك. و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و ابن المنذر عنه فى قوله: مَخْتُومٍ قال: ممزوج خِتامُهُ مِسْكٌ قال: طعمه و ريحه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى البعث، عن ابن عباس فى قوله: مِنْ رَحِيقٍ قال: خمر، و قوله:

مَخْتُومٍ قال: ختم بالمسك. و أخرج الفريابى و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن ابن مسعود فى قوله: خِتامُهُ مِسْكٌ قال: ليس بخاتم يختم به، و لكن خلطه مسك، ألم تر إلى المرأة من نسائكم تقول:

خلطه من الطيب كذا و كذا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن أبى الدرداء خِتامُهُ مِسْكٌ قال:

هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم، و لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: تَسْنِيمٍ أشرف شراب أهل الجنة، و هو صرف للمتقين، و يمزج لأصحاب اليمين. و أخرج ابن المبارك و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و هناد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ قال: عين فى الجنة تمزج لأصحاب اليمين و يشربها المقرّبون صرفا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ قال: هذا مما قال اللّه: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «١».

---

(١). السجدة: ١٧.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٤٩١

سورة الانشقاق

اشارة

و هى ثلاث و عشرون آية، و قيل خمس و عشرون آية و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى رافع قال: «صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبى القاسم صلّى اللّه عليه و سلّم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه». و أخرج مسلم و أهل السنن و غيرهم عن أبى هريرة قال: «سجدنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ . و أخرج ابن خزيمة، و الرويانى فى مسنده، و الضياء

المقدسی فی المختارة، عن بریدة «أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم کان یقرأ فی الظهر إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و نحوها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة الانشقاق (۸۴): الآیات ۱ الی ۲۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ ما فِیها وَ تَخَلَّتْ (۴)

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۵) یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ (۷) فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً (۸) وَ یَنْقَلِبُ إِلی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹)

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً (۱۱) وَ یَصْلی سَعِیراً (۱۲) إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ (۱۴)

بَلی إِنَّ رَبَّهُ کانَ بِهِ بَصِیراً (۱۵) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّیْلِ وَ ما وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْکَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹)

فَما لَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذا قُرِئَ عَلَیْهِمُ الْقُرْآنُ لا یَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُکَذِّبُونَ (۲۲) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما یُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ (۲۴)

إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

قوله: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ هو کقوله: إِذَا الشَّمْسُ کُوِّرَتْ «۱» فی إضمار الفعل و عدمه.

قال الواحدی: قال المفسرون: انشقاقها من علامات القیامة، و معنی انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبیض کما فی قوله: وَ یَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ «۲» و قیل: تنشقّ من المجرّة، و المجرّة باب السماء.

و اختلف فی جواب إذا، فقال الفراء: إنه أذنت، و الواو زائدة، و کذلک ألقت. قال ابن الأنباری:

هذا غلط، لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتی إذا کقوله: حَتَّی إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها «۳» و مع لما کقوله: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِینِ- وَ نادَیْناهُ «۴» و لا تقحم مع غیر هذین. و قیل: إن الجواب

---

(۱). التکویر: ۱.

(۲). الفرقان: ۲۵.

(۳). الزمر: ۷۳.

(۴). الصافات: ۱۰۳- ۱۰۴.

قوله: فَمُلاقِیهِ أی: فأنت ملاقیه، و به قال الأخفش. و قال المبرد: إن فی الکلام تقدیما و تأخیرا، أی: یا أیها الإنسان إنک کادح إلی ربک کدحا فملاقیه إذا السماء انشقت. و قال المبرد أیضا: إن الجواب قوله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ و به قال الکسائی، و التقدیر: إذا السماء انشقت فمن أوتی کتابه بیمینه فحکمه کذا، و قیل: هو یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ علی إضمار الفاء، و قیل: إنه یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ علی إضمار القول، أی: یقال له یا أیها الإنسان، و قیل: الجواب محذوف تقدیره بعثتم، أو لاقی کلّ إنسان عمله، و قیل: هو ما صرّح به فی سورة التکویر، أی: علمت نفس هذا، علی تقدیر أن إذا شرطیة، و قیل:

لیست بشرطیة و هی منصوبة بفعل محذوف، أی: اذکر، أو هی مبتدأ و خبرها إذا الثانیة و الواو مزیدة، و تقدیره: وقت انشقاق

السماء وقت مدّ الأرض، و معنى وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها أنها أطاعته فى الانشقاق، من الإذن، و هو: الاستماع للشىء و الإصغاء إليه وَ حُقَّتْ أى: و حقّ لها أن تطيع و تنقاد و تسمع، و من استعمال الإذن فى الاستماع قول الشاعر:

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت بهو إن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

و قول الآخر:

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحامنّى و ما أذنوا من صالح دفنوا

و قيل: المعنى: و حقق اللّه عليها الاستماع لأمره بالانشقاق، أى: جعلها حقيقة بذلك. قال الضحاك:

حقّت: أطاعت، و حقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها، يقال: فلان محقوق بكذا، و معنى طاعتها: أنها لا تمتنع ممّا أراده اللّه بها. قال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك، و من هذا قول كثير:

فإن تكن العتبى فأهلا و مرحباو حقّت لها العتبى لدينا و قلّت

وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ أى: بسطت كما تبسط الأدم؛ و دكت جبالها حتى صارت قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا و لا أمتا. قال مقاتل: سوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى عليها بناء و لا جبل إلا دخل فيها، و قيل:

مدّت: زيد فى سعتها، من المدد، و هو الزيادة وَ أَلْقَتْ ما فِيها أى: أخرجت ما فيها من الأموات و الكنوز و طرحتهم إلى ظهرها وَ تَخَلَّتْ من ذلك. قال سعيد بن جبير: ألقت ما فى بطنها من الموتى و تخلت ممّن على ظهرها من الأحياء، و مثل هذا قوله: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها «۱» وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها أى:

سمعت و أطاعت لما أمرها به من الإلقاء و التخلى وَ حُقَّتْ أى: و جعلت حقيقة بالاستماع لذلك و الانقياد له، و قد تقدّم بيان معنى الفعلين قبل هذا يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ المراد جنس الإنسان فيشمل المؤمن و الكافر، و قيل: هو الإنسان الكافر، و الأوّل أولى لما سيأتى من التفصيل إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً الكدح فى كلام العرب: السعى فى الشىء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشىء خيرا أو شرّا، و المعنى:

---

(۱). الزلزلة: ۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۴۹۳

أنك ساع إلى ربك فى عملك، أو إلى لقاء ربك، مأخوذ من كدح جلده؛ إذا خدشه قال ابن مقبل:

و ما الدّهر إلا تارتان فمنهماأموت و أخرى أبتغى العيش أكدح

قال قتادة و الضحاك و الكلبى: عامل لربك عملا فَمُلاقِيهِ أى: فملاق عملك، و المعنى: أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله و ما يترتب عليه من الثواب و العقاب. قال القتبى: معنى الآية: إنك كادح، أى:

عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك، و الملاقاة بمعنى اللقاء، أى: تلقى ربك بعملك، و قيل: فملاق كتاب عملك، لأن العمل قد انقضى فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ و هم المؤمنون فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً لا مناقشة فيه. قال مقاتل: لأنها تغفر ذنوبه و لا يحاسب بها. و قال المفسرون: هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها اللّه، فهو الحساب اليسير وَ يَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً أى: و ينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم فى الجنة من عشيرته، أو إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا من الزوجات و الأولاد و قد سبقوه إلى الجنة، أو إلى من أعدّه اللّه له فى الجنة من الحور العين و الولدان المخلدين، أو إلى جميع هؤلاء مسرورا مبتهجا بما أوتى من الخير و الكرامة وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ قال الكلبى: لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، و تكون يده اليسرى خلفه. و قال قتادة و مقاتل: تفكّ ألواح صدره و عظامه، ثم تدخل يده و تخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك فَسَوْفَ يَدْعُوا

ثُبُوراً أی: إذا قرأ کتابه قال: یا ویلاه! یا ثبوراه! و الثبور:

الهلاک وَ یَصْلی سَعِیراً أی: یدخلها و یقاسی حرّ نارها و شدّتها. قرأ أبو عمرو و حمزة و عاصم بفتح الیاء و سکون الصاد و تخفیف اللام. و قرأ الباقون بضم الیاء و فتح اللام و تشدیدها، و روی إسماعیل المکی عن ابن کثیر و کذلک خارجة عن نافع و کذلک روی إسماعیل المکی عن ابن کثیر أنهم قرءوا بضم الیاء و إسکان الصاد من أصلی یصلی إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً أی کان بین أهله فی الدنیا مسرورا باتباع هواه و رکوب شهوته بطرا أشرا لعدم حضور الآخرة بباله، و الجملة تعلیل لما قبلها، و جملة إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ تعلیل لکونه کان فی الدنیا فی أهله مسرورا، و المعنی: أن سبب ذلک السرور ظنه بأنه لا یرجع إلی اللّه و لا یبعث للحساب و العقاب لتکذیبه بالبعث و جحده للدار الآخرة، و أن فی قوله: أَنْ لَنْ یَحُورَ هی المخففة من الثقیلة سادّة مع ما فی حیزها مسدّ مفعولی ظنّ، و الحور فی اللغة: الرجوع، یقال: حار یحور؛ إذا رجع، و قال الراغب:

الحور: التردّد فی الأمر، و منه: نعوذ باللّه من الحور بعد الکور، أی: من التردّد فی الأمر بعد المضیّ فیه، و محاورة الکلام مراجعته، و المحار: المرجع و المصیر. قال عکرمة و داود بن أبی هند: یحور کلمة بالحبشیة و معناها یرجع. قال القرطبی: الحور فی کلام العرب: الرجوع، و منه قوله صلّی اللّه علیه و سلّم: «اللهم إنی أعوذ بک من الحور بعد الکور» یعنی من الرجوع إلی النقصان بعد الزیادة، و کذلک الحور بالضم، و فی المثل: «حور فی محارة» أی: نقصان فی نقصان، و منه قول الشاعر «۱»:

و الذّمّ یبقی و زاد القوم فی حور «۲»

---

(۱). هو سبیع بن الخطیم.

(۲). و صدر البیت: و استعجلوا عن خفیف المضغ فازدردوا.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۴۹۴

و الحور أیضا الهلکة، و منه قول الراجز «۱»:

فی بئر لا حور سری و ما شعر قال أبو عبیدة: أی فی بئر حور، و لا زائدة بَلی إِنَّ رَبَّهُ کانَ بِهِ بَصِیراً «بلی» إیجاب للمنفیّ بلن، أی: بلی لیحورنّ و لیبعثنّ. ثم علّل ذلک بقوله: إِنَّ رَبَّهُ کانَ بِهِ بَصِیراً أی: کان به و بأعماله عالما لا یخفی علیه منها خافیة. قال الزجاج: کان به بصیرا قبل أن یخلقه عالما بأن مرجعه إلیه فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ «لا» زائدة کما تقدّم فی أمثال هذه العبارة، و قد قدّمنا الاختلاف فیها فی سورة القیامة فارجع إلیه، و الشفق:

الحمرة التی تکون بعد غروب الشمس إلی وقت صلاة العشاء الآخرة. قال الواحدی: هذا قول المفسرین و أهل اللغة جمیعا. قال الفراء: سمعت بعض العرب یقول: علیه ثوب مصبوغ کأنه الشفق؛ و کان أحمر، و حکاه القرطبی عن أکثر الصحابة و التابعین و الفقهاء. و قال أسد بن عمرو و أبو حنیفة؛ فی إحدی الروایتین عنه: إنه البیاض، و لا وجه لهذا القول و لا متمسک له لا من لغة العرب و لا من الشرع. قال الخلیل: الشفق:

الحمرة من غروب الشمس إلی وقت العشاء الآخرة. قال فی الصحاح: الشفق: بقیة ضوء الشمس و حمرتها فی أوّل اللیل إلی قریب العتمة، و کتب اللغة و الشرع مطبقة علی هذا، و منه قول الشاعر:

قم یا غلام أعنی غیر مرتبک‌علی الزّمان بکأس حشوها شفق

و قال آخر:

و أحمر اللّون کمحمرّ الشّفق و قال مجاهد: الشفق: النهار کله، ألا تراه قال: وَ اللَّیْلِ وَ ما وَسَقَ و قال عکرمة: هو ما بقی من النهار، و إنما قالا هذا لقوله بعده: وَ اللَّیْلِ وَ ما وَسَقَ فکأنه تعالی أقسم بالضیاء و الظلام، و لا وجه لهذا، علی أنه قد روی عن عکرمة أنه قال: الشفق: الّذی یکون بین المغرب و العشاء، و روی عن أسد بن عمرو الرجوع وَ اللَّیْلِ وَ ما وَسَقَ الوسق عند أهل اللغة: ضمّ

الشـیء بعضه إلى بعض، یقال: استوسـقت الإبل؛ إذا اجتمعت و انضمّت، و الراعی یسقها، أی: یجمعها. قال الواحدی: المفسرون یقولون: و مـا جمع و ضمّ و حوى و لف، و المعنى: أنه جمع و ضمّ مـا کان منتشـرا بالنهار فی تصرّفه، و ذلک أن اللیل إذا أقبل آوى کل شیء إلى مأواه، و منه قول ضابئ بن الحارث البرجمیّ:

فإنّی و إیّاکم و شوقا إلیکم کقابض شیئا لم تنله أنامله «۲»

و قال عکرمة: وَ ما وَسَقَ أی: و ما ساق من شـیء إلى حیث یأوی، فجعله من السوق لا من الجمع، و قیل: وَ ما وَسَقَ أی: و ما جنّ و ستر، و قیل: «و ما وسق» أی: و ما حمل، و کل شیء حملته فقد

---

(۱). هو العجاج.

(۲). فی تفسیر القرطبی: کقابض ماء لم تسقه أنامله.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۴۹۵

و سقته، و العرب تقول: لا أحمله ما وسقت عینی الماء، أی: حملته، و وسقت الناقة تسق وسقا، أی:

حملت. قال قتادة و الضحاک و مقاتل بن سلیمان: وَ ما وَسَقَ و ما حمل من الظلمة، أو حمل من الکواکب. قال القشیری: و معنى حمل: ضمّ و جمع، و اللیل یحمل بظلمته کل شیء. و قال سعید بن جبیر:

وَ ما وَسَقَ أی: و ما عمل فیه من التهجد و الاستغفار بالأسحار، و الأوّل أولى وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أی: اجتمع و تکامل. و قال الفراء: اتساقه امتلاؤه و اجتماعه و استواؤه لیلة ثالث عشر و رابع عشر إلى ست عشرة، و قد افتعل من الوسق الّذی هو الجمع. قال الحسن: اتسق: امتلأ و اجتمع. و قال قتادة: استدار، یقال: و سقته فاتّسق، کما یقال: وصلته فاتصل، و یقال: أمر فلان متّسق، أی: مجتمع منتظم، و یقال:

اتسق الشیء؛ إذا تتابع لَتَرْکَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ هذا جواب القسم. قرأ حمزة و الکسائی و ابن کثیر و أبو عمرو لَتَرْکَبَنَ بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد، و هو النبی صلّى اللّه علیه و سلّم، أو لکل من یصلح له، و هی قراءة ابن مسعود و ابن عباس و أبی العالیة و مسروق و أبی وائل و مجاهد و النخعی و الشعبی و سعید بن جبیر و قرأ الباقون بضم الموحدة خطابا للجمع و هم الناس. قال الشعبی و مجاهد: لترکبنّ یا محمد سماء بعد سماء. قال الکلبی: یعنی تصعد فیها، و هذا على القراءة الأولى، و قیل: درجة بعد درجة، و رتبة بعد رتبة، فی القرب من اللّه و رفعة المنزلة، و قیل: المعنى: لترکبنّ حالا بعد حال کل حالة منها مطابقة لأختها فی الشدّة، و قیل المعنى: لترکبنّ أیها الإنسان حالا بعد حال من کونک نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم حیا و میتا و غنیا و فقیرا، فالخطاب للإنسان المذکور فی قوله: یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلى رَبِّکَ کَدْحاً و اختار أبو عبید و أبو حاتم القراءة الثانیة قالا: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبی صلّى اللّه علیه و سلّم. و قرأ عمر «لیرکبنّ» بالتحتیة و ضم الموحدة على الإخبار، و روی عنه و عن ابن عباس أنهما قرأ بالغیبة و فتح الموحدة، أی: لیرکبنّ الإنسان، و روی عن ابن مسعود و ابن عباس أنهما قرأ بکسر حرف المضارعة و هی لغة، و قرئ بفتح حرف المضارعة و کسر الموحدة على أنه خطاب للنفس. و قیل: إن معنى الآیة: لیرکبنّ القمر أحوالا من سرار و استهلال، و هو بعید. قال مقاتل: طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ یعنی الموت و الحیاة. و قال عکرمة: رضیع ثم فطیم ثم غلام ثم شابّ ثم شیخ.

و محل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقا أی طبقا مجاوزا لطبق، أو على الحال من ضمیر لترکبنّ، أی:

مجاوزین، أو مجاوزا فَما لَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ الاستفهام للإنکار، و الفاء لترتیب ما بعدها من الإنکار و التعجیب على ما قبلها من أحوال یوم القیامة أو من غیرها على الاختلاف السابق، و المعنى: أیّ شیء للکفار لا یؤمنون بمحمد صلّى اللّه علیه و سلّم و بما

جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ هذه الجملة الشرطية و جوابها فى محل نصب على الحال، أى: أى مانع لهم حال عدم سجودهم و خضوعهم عند قراءة القرآن؟ قال الحسن و عطاء و الكلبى و مقاتل: ما لهم لا يصلون؟ و قال أبو مسلم:

المراد الخضوع و الاستكانة. و قيل: المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة. و قد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا؟ و قد تقدّم فى فاتحة هذه السورة الدليل على السجود بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ أى: يكذبون بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و بما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد و البعث

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۴۹۶

و الثواب و العقاب وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ أى: بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب، و قال مقاتل:

يكتمون من أفعالهم. و قال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة و السيئة، مأخوذ من الوعاء الّذى يجمع ما فيه، و منه قول الشاعر:

الخير أبقى و إن طال الزمان بهو الشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

و يقال: وعاه: حفظه، و وعيت الحديث أعيه وعيا، و منه: أُذُنٌ واعِيَةٌ. فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أى: اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم؛ لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم، و الأليم: المؤلم الموجع، و الكلام خارج مخرج التهكّم بهم إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ هذا الاستثناء منقطع، أى: لكن الذين جمعوا بين الإيمان باللّه و العمل الصالح لهم أجر عند اللّه غير ممنون، أى: غير مقطوع، يقال: مننت الحبل؛ إذا قطعته، و منه قول الشاعر:

فترى خلفهنّ من سرعة الرّجع منينا كأنّه أهباء

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنها تقطعه وراءها، و كل ضعيف منين و ممنون. و قيل: معنى غير ممنون أنه لا يمنّ عليهم به، و يجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ قال: تنشقّ السماء من المجرّة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ قال: سمعت حين كلمها. و أخرج ابن أبى حاتم عنه وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ قال: أطاعت و حقّت بالطّاعة. و أخرج الحاكم عنه و صحّحه قال: سمعت و أطاعت وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ قال: يوم القيامة وَ أَلْقَتْ ما فِيها قال: أخرجت ما فيها من الموتى وَ تَخَلَّتْ عنهم. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا وَ أَلْقَتْ ما فِيها قال: سوارى الذهب.

و أخرج الحاكم- قال السيوطى: بسند جيد- عن جابر قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «تمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه».

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً قال: عامل عملا فَمُلاقِيهِ قال: فملاق عملك. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، فقلت: أليس يقول اللّه: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً؟ قال: ليس ذلك بالحساب و لكن ذلك العرض، و من نوقش الحساب هلك». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه عن عائشة قالت: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول فى بعض صلاته: «اللهم حاسبنى حسابا يسيرا، فلما انصرف قلت: يا رسول اللّه ما الحساب اليسير؟

قال: أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب هلك» و فى بعض ألفاظ الحديث الأوّل و هذا الحديث الآخر: «من نوقش الحساب عذّب». و أخرج البزار، و الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى و الحاكم عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثلاث من كنّ فيه يحاسبه اللّه حسابا يسيرا و يدخله الجنة

فتح القدير، ج‏5، ص: 497

برحمته: تعطى من حرمك، و تعفو عمن ظلمك، و تصل من قطعك». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يَدْعُوا ثُبُوراً قال: الويل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ قال: يبعث. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا أَنْ لَنْ يَحُورَ قال: أن لن يرجع. و أخرج سمويه فى فوائده عن عمر بن الخطاب قال: الشفق الحمرة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: الشفق النهار كله. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ قال: و ما دخل فيه. و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ ما وَسَقَ قال: و ما جمع. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ قال: إذا استوى. و أخرج عبد بن حميد و ابن الأنبارى من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ قال: و ما جمع، أما سمعت قوله:

إنّ لنا قلائصا نقانقامستوسقات لو يجدن سائقا

و أخرج عبد بن حميد عنه وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ قال: ليلة ثلاثة عشر. و أخرج عبد بن حميد عن عمر ابن الخطاب لَتَرْكَبُنَ قال: حالا بعد حال. و أخرج البخارى عن ابن عباس لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ حالا بعد حال، قال: هذا نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو عبيد فى القراءات و سعيد بن منصور و ابن منيع و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ يعنى بفتح الباء من تركبنّ. و قال: يعنى نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم حالا بعد حال. و أخرج الطيالسى و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و الطبرانى عنه قال: لَتَرْكَبُنَ يا محمد السماء طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر، و الحاكم فى الكنى، و الطبرانى و ابن مندة و ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ: لَتَرْكَبُنَ يعنى بفتح الباء. و قال: لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عنه لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ قال: يعنى السماء تنفطر، ثم تنشق، ثم تحمرّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و البيهقى عنه أيضا فى الآية قال: السماء تكون كالمهل، و تكون وردة كالدّهان، و تكون واهية، و تشقق فتكون حالا بعد حال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ قال: يسرّون.

فتح القدير، ج‏5، ص: 498

سورة البروج

اشارة

هى اثنتان و عشرون آية، و هى مكية بلا خلاف، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ بمكة. و أخرج أحمد قال: حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا رزيق بن أبى سلمى، حدّثنا أبو المهزّم، عن أبى هريرة: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، و السماء و الطارق. و أخرج الطيالسى، و ابن أبى شيبة فى المصنف، و أحمد و الدارمى و أبو داود، و الترمذى و حسنه، و النسائى و ابن حبان و الطبرانى، و البيهقى فى سننه، عن جابر بن سمرة: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى الظهر و العصر بالسماء و الطارق، و السماء ذات

البروج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (١) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (٤)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (٦) وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (١٣) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩)

وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

قوله: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ قد تقدّم الكلام فی البروج عند تفسير قوله: جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً «١» قال الحسن و مجاهد و قتادة و الضحاک: هی النجوم، و المعنى: و السماء ذات النجوم. و قال عكرمة و مجاهد أيضا: هی قصور فی السماء. و قال المنهال بن عمرو: ذات الخلق الحسن. و قال أبو عبيدة و يحيى بن سلام و غيرهما: هی المنازل للكواكب، و هی اثنا عشر برجا لاثنی عشر كوكبا، و هی الحمل، و الثّور، و الجوزاء، و السّرطان، و الأسد، و السّنبلة، و الميزان، و العقرب، و القوس، و الجدی، و الدلو، و الحوت. و البروج فی كلام العرب: القصور: و منه قوله: وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ «٢» شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها، و قيل: هی أبواب السماء، و قيل: هی منازل القمر، و أصل

---

(١). الفرقان: ٦١.

(٢). النساء: ٧٨.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٤٩٩

البرج: الظهور، سمّيت بذلک لظهورها وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ أی: الموعود به، و هو يوم القيامة. قال الواحدی: فی قول جميع المفسرين وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ المراد بالشاهد من يشهد فی ذلک اليوم من الخلائق، أی: يحضر فيه، و المراد بالمشهود ما يشاهد فی ذلک اليوم من العجائب و ذهب جماعة من الصحابة و التابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة، و أنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه، و المشهود: يوم عرفة؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج، و تحضره الملائكة. قال الواحدی: و هذا قول الأكثر. و حكى القشيری عن ابن عمر و ابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى. و قال سعيد بن المسيب: الشاهد: يوم التروية، و المشهود: يوم عرفة.

و قال النخعی: الشاهد: يوم عرفة، و المشهود: يوم النحر، و قيل: الشاهد: هو اللّه سبحانه. و به قال الحسن و سعيد بن جبير، لقوله: وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً* و قوله: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ «١» و قيل: الشاهد: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لقوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «٢» و قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ

نَذِيراً «۳» و قوله: وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «۴» و قيل: الشاهد: جميع الأنبياء لقوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ «۵» و قيل: هو عيسى ابن مريم لقوله: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ «۶» و المشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما: أمة محمد، أو: أمم الأنبياء، أو: أمة عيسى. و قيل: الشاهد آدم. و المشهود ذريته.

و قال محمد بن كعب: الشاهد: الإنسان لقوله: كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً «۷» و قال مقاتل:

أعضاؤه لقوله: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ «۸» و قال الحسين بن الفضل: الشاهد: هذه الأمة، و المشهود: سائر الأمم لقوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ «۹» و قيل: الشاهد: الحفظة، و المشهود: بنو آدم، و قيل: الأيام و الليالى. و قيل: الشاهد:

الخلق يشهدون للّه عزّ و جلّ بالوحدانية، و المشهود له بالوحدانية: هو اللّه سبحانه، و سيأتى بيان ما ورد فى تفسير الشاهد و المشهود، و بيان ما هو الحقّ إن شاء اللّه قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ هذا جواب القسم، و اللام فيه مضمرة، و هو الظاهر، و به قال الفراء و غيره، و قيل تقديره: لقد قتل، فحذفت اللام و قد، و على هذا تكون الجملة خبرية، و الظاهر أنها دعائية؛ لأن معنى قتل لعن. قال الواحدى: فى قول الجميع، و الدعائية لا تكون جوابا للقسم، فقيل: الجواب قوله: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ و قيل: قوله: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ و به قال المبرد، و اعترض عليه بطول الفصل، و قيل: هو مقدّر يدلّ عليه قوله: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ كأنه قال: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود، و قيل: تقدير الجواب: لتبعثنّ، و اختاره ابن الأنبارى. و قال أبو حاتم السجستانى و ابن الأنبارى أيضا: فى الكلام تقديم و تأخير، أى: قتل أصحاب الأخدود و السماء ذات البروج، و اعترض عليه بأنه لا يجوز أن

---

(۱). الأنعام: ۱۹.

(۲). النساء: ۴۱.

(۳). الأحزاب: ۴۵.

(۴). البقرة: ۱۴۳.

(۵). النساء: ۴۱.

(۶). المائدة: ۱۱۷.

(۷). الإسراء: ۱۴.

(۸). النور: ۲۴.

(۹). البقرة: ۱۴۳.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۰

فتح القدير ج۵ ۵۴۹

يقال: و اللّه قام زيد، و الأخدود: الشقّ العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق، و جمعه أخاديد، و منه الخدّ لمجارى الدموع، و المخدة لأن الخد يوضع عليها، و يقال: تخدّد وجه الرجل؛ إذا صارت فيه أخاديد من خراج، و منه قول طرفة:

و وجه كأنّ الشمس ألقت رداءهاعليه نقيّ اللون لم يتخدّد

و سيأتى بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء اللّه. قرأ الجمهور: النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود؛ لأن الأخدود مشتمل عليها، و ذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة، و الوقود: الحطب الّذى توقد به، و قيل: هو بدل كل من

كل، لا بـدل اشـتمال. و قيل: إن النار مخفوضـة على الجوار، كذا حكى مكى عن الكوفيين. و قرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود، و قرأ قتادة و أبو رجاء و نصـر ابن عاصـم بضـمها. و قرأ أشـهب العقيلى و أبو حيوة و أبو السّـمّال العدوى و ابن السّميقع و عيسى برفع النـار على أنهـا خبر مبتـدأ محـذوف، أى: هى النـار، أو على أنهـا فاعل فعل محـذوف، أى: أحرقتهم النار إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ العامل فى الظرف «قتل» أى: لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها، و يقرب إليها.

قـال مقاتـل: يعنى عنـد النـار قعود يعرضونهم على الكفر. و قال مجاهـد: كانوا قعودا على الكراسـى عنـد الأخـدود وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُـهُودٌ أى: الـذين خـدّوا الأخـدود، و هم الملك و أصـحابه، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضـهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شـهود، أى: حضور، أو يشـهد بعضـهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به. و قيل: يشهدون بما فعلوا يوم القيامة، ثم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم.

و قيل: على بمعنى مع، و التقـدير: و هم مع ما يفعلون بالمؤمنين شـهود. قال الزجاج: أعلم اللّه قصـة قوم بلغت بصـيرتهم و حقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار فى اللّه وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ أى: ما أنكروا عليهم و لا عابوا منهم إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ أى: إلا أن صدّقوا باللّه الغالب المحمود فى كل حال.

قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم، و هـذا كقوله: هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ «١» و هذا من تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ، كما فى قوله:

لا عيب فيهم سوى أنّ النزيل بهميسلو عن الأهل و الأوطان و الحشم

و قول الآخر:

و لا عيب فيها غير شكلة عينهاكذاك عتاق الطّير شكل عيونها

قرأ الجمهور: نَقَمُوا بفتح النون، و قرأ أبو حيوة بكسـرها، و الفصـيح الفتح. ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على العظم و الفخامة فقـال: الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و من كان هـذا شأنه، فهو حقيق بأن يؤمن به و يوحـد وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَـىْءٍ شَـهِيدٌ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منهم خافية،

---

(١). المائدة: ٥٩.

و فى هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، و وعد خير لمن عذّبوه على دينه من أولئك المؤمنين. ثم بيّن سبحانه ما أعدّ لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ أى: حرقوهم بالنار، و العرب تقول: فتنت الشيء، أى:

أحرقته، و فتنت الدرهم و الدينار؛ إذا أدخلته النار لتنظر جودته. و يقال: دينار مفتون، و يسمّى الصائغ:

الفتان، و منه قوله: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ «١» أى: يحرقون، و قيل: معنى فتنوا المؤمنين: محنوهم فى دينهم ليرجعوا عنه، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم و يرجعوا عن كفرهم و فتنتهم، فلهم عذاب جهنم، أى:

لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، و الجملة فى محل رفع على أنها خبر إن؛ أو الخبر: لهم، و عذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية، و الفاء لتضـمن المبتدأ معنى الشـرط، و لا يضـرّ نسخه بأنّ، خلافا للأخفش، وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ ى: و لهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، و هو عذاب الحريق الّذى وقع منهم للمؤمنين، و قيل: إن الحريق اسم من أسماء النار ك السعير، و قيل: إنهم يعذبون فى جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق؛ فالأوّل: عذاب ببردها، و الثانى: عذاب بحرّها. و قال الربيع بن أنس:

إن عذاب الحريق أصيبوا به فى الدنيا، و ذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك و أصحابه فأحرقتهم، و به قال الكلبى. ثم ذكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ و ظاهر الآية العموم، فيدخل فى ذلك المحرقون فى الأخدود بسبب إيمانهم دخولا أوّليا، و المعنى: أن الجامعين بين الإيمان و عمل الصالحات لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى: لهم بسبب الإيمان و العمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة. و قد تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات فى غير موضع، و أوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من تحتها واضح، و إن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر و هو الشجر لأنها ساترة لساحتها، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم ذكره مما أعدّه اللّه لهم، أى: ذلك المذكور الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الّذى: لا يعدله فوز و لا يقاربه و لا يدانيه، و الفوز: الظفر بالمطلوب، و جملة إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ مستأنفة لخطاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مبينة لما عند اللّه سبحانه من الجزاء لمن عصاه، و المغفرة لمن أطاعه، أى: أخذه للجبابرة و الظلمة شديد، و البطش: الأخذ بعنف، و وصفه بالشدّة يدل على أنه قد تضاعف و تفاقم، و مثل هذه قوله: إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ «٢» إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ أى: يخلق الخلق أوّلا فى الدنيا و يعيدهم أحياء بعد الموت. كذا قال الجمهور، و قيل: يبدئ للكفار عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده لهم فى الآخرة، و اختار هذا ابن جرير، و الأوّل أولى وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ أى: بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه. قال مجاهد: الوادّ لأوليائه، فهو فعول بمعنى فاعل. و قال ابن زيد: معنى الودود الرّحيم. و حكى المبرد عن إسماعيل القاضى أن الودود هو الّذى لا ولد له، و أنشد:

---

(١). الذاريات: ١٣.

(٢). هود: ١٠٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٠٢
و أركب فى الرّوع عريانةذلول الجناح لقاحا ودودا

أى: لا ولد لها تحنّ إليه. و قيل: الودود بمعنى المودود، أى: يودّه عباده الصالحون و يحبونه، كذا قال الأزهرى. قال: و يجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل، أى: يكون محبا لهم. قال: و كلتا الصفتين مدح، لأنه جلّ ذكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه، و إن أحبه عباده العارفون فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه. قرأ الجمهور ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ برفع المجيد على أنه نعت لذو، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم قالا: لأن المجد هو النهاية فى الكرم و الفضل، و اللّه سبحانه هو المنعوت بذلك. و قرأ الكوفيون إلا عاصما بالجر على أنه نعت للعرش. و قد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما فى آخر سورة المؤمنون. و قيل:
هو نعت لربك، و لا يضرّ الفصل بينهما لأنها صفات للّه سبحانه. و قال مكى: هو خبر بعد خبر، و الأوّل أولى. و معنى ذو العرش: ذو الملك و السلطان كما يقال: فلان على سرير ملكه، و منه قول الشاعر:

رأوا عرشى تثلّم جانباهفلمّا أن تثلّم أفردونى

و قول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهمبعتيبة بن الحارث بن شهاب

و قيل: المراد خالق العرش فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ أى: من الإبداء و الإعادة. قال عطاء: لا يعجز عن شىء يريده و لا يمتنع منه شىء طلبه، و ارتفاع «فعال» على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الفراء: هو رفع على التكرير و الاستئناف، لأنه نكرة محضة، قال ابن جرير: رفع «فعال»، و هو نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب الغفور الودود، و إنما قال: فعال لأن ما يريد و يفعل فى غاية الكثرة. ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ و الجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم بطشه سبحانه و كونه فعالا لما يريده، و فيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة

عليها.

ثم بينهم فقال: فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ و هو بدل من الجنود، و المراد بفرعون هو و قومه، و المراد بثمود القوم المعروفون، و المراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر و العناد و ما وقع عليهم من العذاب، و قصتهم مشهورة قد تكرّر فى الكتاب العزيز ذكرها فى غير موضع، و اقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب و عند مشركى العرب و دلّ بهما على أمثالهما. ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين فى عصره صلّى اللّه عليه و سلّم لمن تقدّم ذكره، و بين أنهم أشدّ منهم فى الكفر و التكذيب فقال: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ أى بل هؤلاء المشركون من العرب فى تكذيب شديد لك، و لما جئت به، و لم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ أى: يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، و الإحاطة بالشىء: الحصر له من جميع جوانبه، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط. ثم ردّ سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ أى: متناه فى الشرف و الكرم و البركة لكونه بيانا لما شرعه اللّه لعباده من أحكام الدّين و الدنيا، و ليس هو كما يقولون إنه شعر و كهانة و سحر فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ أى: مكتوب فى لوح، و هو أمّ الكتاب

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۳

محفوظ عند اللّه من وصول الشياطين إليه. قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح و قرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن، أى: بل هو قرآن مجيد محفوظ فى لوح. و اتفق القراء على فتح اللام من لوح إلا يحيى بن يعمر و ابن السّميقع فإنهما قرءا بضمها. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. قيل: و المراد باللوح بضم اللام: الهواء الّذى فوق السماء السابعة. قال أبو الفضل: اللوح بضم اللام: الهواء، و كذا قال ابن خالويه. قال فى الصحاح: اللوح بالضم: الهواء بين السماء و الأرض.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: الْبُرُوجِ قصور فى السماء. و أخرج ابن مردويه عن جابر ابن عبد اللّه أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ فقال: الكواكب، و سئل عن قوله: الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً «۱» قال: الكواكب، و عن قوله: فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ «۲» قال: القصور.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ- وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: اليوم الموعود:

يوم القيامة، و الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود: يوم عرفة، و هو الحج الأكبر، فيوم الجمعة جعله اللّه عيدا لمحمد و أمته، و فضّله بها على الخلق أجمعين، و هو سيد الأيام عند اللّه، و أحبّ الأعمال فيه إلى اللّه، و فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل اللّه فيها خيرا إلا أعطاه إياه. و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أبى هريرة. قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«اليوم الموعود يوم القيامة، و اليوم المشهود يوم عرفة، و الشاهد يوم الجمعة، و ما طلعت الشمس و لا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو اللّه بخير إلا استجاب اللّه له، و لا يستعيذ من شىء إلا أعاذه منه». و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة رفعه: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: «الشاهد يوم عرفة و يوم الجمعة، و المشهود هو الموعود يوم القيامة». و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: اليوم الموعود: يوم القيامة، و المشهود: يوم النحر، و الشاهد: يوم الجمعة. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «اليوم الموعود: يوم القيامة، و الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود:

يوم عرفة». و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن جبير بن مطعم قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية:

«الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود: يوم عرفة». و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس و أبى هريرة مثله موقوفا. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن سيد الأيام

يوم الجمعة و هو الشاهد، و المشهود: يوم عرفة» و هذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب. و أخرج ابن ماجة و الطبرانى و ابن جرير عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة؛ فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة». و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب فى الآية قال: الشاهد: يوم الجمعة، و المشهود:

---

(۱). الفرقان: ۶۱.

(۲). النساء: ۷۸.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۴

يوم عرفة. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن الحسن بن علىّ أن رجلا سأله عن قوله: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: هل سألت أحدا قبلى؟ قال: نعم سألت ابن عمرو و ابن الزبير فقالا: يوم الذبح و يوم الجمعة. قال:

لا، و لكن الشاهد محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم قرأ: وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «۱» و المشهود: يوم القيامة، ثم قرأ: ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ «۲». و أخرج عبد بن حميد، و الطبرانى فى الأوسط و الصغير، و ابن مردويه عن الحسين بن علىّ فى الآية قال: الشاهد: جدّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المشهود:

يوم القيامة، ثم تلا: إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً* «۳» وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ «۴». و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن أبى الدنيا و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال:

اليوم الموعود: يوم القيامة، و الشاهد: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و المشهود: يوم القيامة، ثم تلا: ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. و أخرج ابن جرير عنه قال: الشاهد: اللّه، و المشهود: يوم القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: الشاهد: اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال:

الشاهد: اللّه، و المشهود: يوم القيامة.

قلت: و هذه التفاسير عن الصحابة رضى اللّه عنهم قد اختلفت كما ترى، و كذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم، و استدلّ من استدلّ منهم بآيات ذكر اللّه فيها أن ذلك الشىء شاهد أو مشهود، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد و المشهود فى هذه الآية المطلقة، و ليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد و المشهود المذكورين فى هذا المقام هو ذلك الشاهد و المشهود الّذى ذكر فى آية أخرى، و إلّا لزم أن يكون قوله هنا:

وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ هو جميع ما أطلق عليه فى الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود، و ليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض، و لم يقل قائل بذلك. فإن قلت: هل فى المرفوع الّذى ذكرته من حديثى أبى هريرة، و حديث أبى مالك، و حديث جبير بن مطعم و مرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود، و الشاهد و المشهود؟ قلت: أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التى ذكر فيها، بل اتفقت على أنه يوم القيامة، و أما الشاهد ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم الجمعة، و فى حديثه الثانى أنه يوم عرفة و يوم الجمعة، و فى حديث أبى مالك أنه يوم الجمعة، و فى حديث جبير أنه يوم الجمعة، و فى مرسل سعيد أنه يوم الجمعة، فاتفقت هذه الأحاديث عليه، و لا تضرّ زيادة يوم عرفة فى حديث أبى هريرة الثانى؛ و أما المشهود ففى حديث أبى هريرة الأوّل أنه يوم عرفة، و فى حديثه الثانى أنه يوم القيامة، و فى حديث أبى مالك أنه يوم عرفة، و فى حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة، و كذا فى حديث سعيد فقد تعين فى هذه الروايات أنه يوم عرفة، و هى أرجح من تلك الرواية التى صرح فيها بأنه يوم القيامة، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة و التابعين و

من بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة و المشهود يوم عرفة، و أما اليوم الموعود فقد قدّمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة.

---

(۱). النساء: ۴۱.

(۲). هود: ۱۰۳.

(۳). الأحزاب: ۴۵.

(۴). هود: ۱۰۳.

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۵۰۵

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و النسائى و الطبرانى عن صهيب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، و كان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن: انظروا لى غلاما فهما، أو قال فطنا لقنا فأعلمه علمى، فإنى أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم و لا يكون فيكم من يعلمه، قال: فنظروا له على ما وصف، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن و أن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، و كان على طريق الغلام راهب فى صومعة، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مرّ به، فلم يزل به حتى أخبره فقال: إنما أعبد اللّه، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب و يبطئ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرنى، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك أين كنت؟ فقل عند أهلى، و إذا قال لك أهلك أين كنت؟ فأخبرهم أنى كنت عند الكاهن، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة، يقال: إنها كانت أسدا، فأخذ الغلام حجرا فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن أقتل هذه الدابة، و إن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها، ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا: الغلام، ففزع الناس و قالوا: قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد، فسمع أعمى فجاءه فقال له: إن أنت رددت علىّ بصرى فلك كذا و كذا، فقال الغلام: لا أريد منك هذا، و لكن أ رأيت إن رجع عليك بصرك أ تؤمن بالذى ردّه عليك؟ قال: نعم، فدعا اللّه فردّ عليه بصره فآمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليه فأتى بهم فقال: لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب و الرجل الّذى كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، و قتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا و كذا فألقوه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الّذى أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل و يترددون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلى البحر، فغرّق اللّه الذين كانوا معه و أنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلنى حتى تصلبنى و ترمينى و تقول إذا رميتنى: بسم اللّه رب الغلام، فأمر به فصلب ثم رماه و قال: بسم اللّه رب الغلام، فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد، فإنا نؤمن بربّ هذا الغلام، فقيل للملك: أ جزعت أن خالفك ثلاثة؟ فهذا العالم كلهم قد خالفوك، قال: فخدّ أخدودا ثم ألقى فيه الحطب و النار، ثم جمع الناس فقال: من رجع عن دينه تركناه، و من لم يرجع ألقيناه فى هذه النار، فجعل يلقيهم فى تلك الأخدود: فقال: يقول اللّه: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ- النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ حتى بلغ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

فأما الغلام فإنه دفن، ثم أخرج، فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر بن الخطاب و إصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل. و لهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف. و قد رواها مسلم فى أواخر الصحيح عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرّحمن بن أبى ليلى عن صهيب. و أخرجها أحمد من طريق عفان عن

فتح القدير، ج‏۵، ص: ۵۰۶

حماد به. و أخرجها النسائى عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. و أخرجها الترمذى عن محمود بن غيلان و عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: أَصْحابُ الْأُخْدُودِ قال: هم الحبشة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدودا فى الأرض أوقدوا فيها نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا و نساء، فعرضوا عليها. و أخرج ابن المنذر و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ إلى قوله: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ قال: هذا قسم على إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إلى آخرها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ قال: يبدئ العذاب و يعيده. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: الْوَدُودُ قال: الحبيب، و فى قوله: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ قال: الكريم. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ قال: أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر. و إن ذلك اللوح من نور، و إنه مسيرة ثلاثمائة سنة. و أخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الّذى ذكره اللّه فى قوله:

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ- فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ فى جبهة إسرافيل. و أخرج أبو الشيخ- قال السيوطى: بسند جيد- عن ابن عباس قال: خلق اللّه اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق:

اكتب علمى فى خلقى، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة. ا ه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۷

سورة الطّارق

اشارة

هى سبع عشرة آية، و هى مكية بلا خلاف، و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت و السماء و الطارق بمكة، و أخرج أحمد، و البخارى فى تاريخه، و الطبرانى و ابن مردويه عن خالد العدوانى: «أنه أبصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سوق ثقيف و هو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغى النصر عندهم، فسمعه يقرأ: وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ حتى ختمها، قال: فوعيتها فى الجاهلية، ثم قرأتها فى الإسلام، قال: فدعتنى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل، فقرأتها، فقال من معهم من قريش:

نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱ الى ۱۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ (۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (۲) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (۳) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (۴)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (۵) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (۶) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (۷) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (۸) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (۹)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (۱۰) وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (۱۱) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (۱۲) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (۱۳) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (۱۴)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١۵) وَ أَكِيدُ كَيْداً (١۶) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)

أقسم سبحانه بالسماء و الطارق، و هو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل قال الواحدى: قال المفسرون:

أقسم اللّه بالسماء و الطارق، يعنى الكواكب تطرق بالليل و تخفى بالنهار. قال الفرّاء: الطارق: النجم لأنه يطلع بالليل، و ما أتاك ليلا فهو طارق. و كذا قال الزجاج و المبرد: و منه قول امرئ القيس:

و مثلك حبلى قد طرقت و مرضعافألهيتها عن ذى تمائم محول «١»

و قوله أيضا:

ألم تريانى كلّما جئت طارقاوجدت بها طيبا و إن لم تطيّب

و قد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم؟ فقيل: هو زحل، و قيل: الثريا، و قيل:

هو الّذى ترمى به الشياطين. و قيل: هو جنس النجم. قال فى الصحاح: و الطارق: النجم الّذى يقال له كوكب الصبح، و منه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارقنمشى على النّمارق

---

(١). «التمائم»: التعاويذ التى تعلق فى عنق الصبى. و ذو التمائم: هو الصبى. «المحول»: الّذى أتى عليه الحول.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵٠٨

أى: إن أبانا فى الشرف كالنجم المضىء، و أصل الطروق: الدقّ، فسمّى قاصد الليل طارقا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق. و قال قوم: إن الطروق قد يكون نهارا، و العرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين، أى:

مرتين، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل و النهار إلا طارقا يطرق بخير». ثم بيّن سبحانه ما هو الطارق، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال: وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ- النَّجْمُ الثَّاقِبُ الثاقب: المضىء، و منه يقال: ثقب النجم ثقوبا و ثقابة؛ إذا أضاء، و ثقوبه: ضوءه، و منه قول الشاعر:

أذاع به فى النّاس حتّى كأنّهبعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى: الطارق يقع على كل ما طرق ليلا، و لم يكن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يدرى ما المراد به لو لم يبينه بقوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ قال مجاهد: الثاقب: المتوهّج. قال سفيان: كل ما فى القرآن وَ ما أَدْراكَ* فقد أخبره [به «١»، و كل شىء قال: وَ ما يُدْرِيكَ* لم يخبره به، و ارتفاع قوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ على أنه خبر مبتدأ محذوف، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ هذا جواب القسم، و ما بينهما اعتراض، و قد تقدّم فى سورة هود اختلاف القرّاء فى لَمَّا فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هى المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر، و هو اسمها، و اللام هى الفارقة، و «ما» مزيدة، أى: إن الشأن كل نفس لعليها حافظ، و من قرأ بالتشديد فإن نافية، و لما بمعنى إلا، أى: ما كل نفس إلا عليها حافظ، و قد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر و عاصم و حمزة. و قرأ الباقون بالتخفيف. قيل: و الحافظ: هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها و قولها و فعلها، و يحصون ما تكسب من خير و شرّ، و قيل: الحافظ هو اللّه عزّ و جلّ، و قيل: هو العقل يرشدهم إلى المصالح، و يكفّهم عن المفاسد. و الأوّل أولى لقوله: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ «٢» و قوله: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً «٣» و قوله: لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ «۴» و الحافظ على الحقيقة هو اللّه عزّ و جلّ كما فى قوله: فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً «۵» و حفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر فى مبتدأ خلقه؛ ليعلم قدرة اللّه على ما هو دون ذلك من البعث. قال مقاتل: يعنى المكذّب

بالبعث مِمَّ خُلِقَ من أى شىء خلقه اللّه، و المعنى: فلينظر نظر التفكر و الاستدلال حتى يعرف أن الّذى ابتدأه من نطفة قادر على إعادته.

ثم بين سبحانه ذلك فقال: خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الماء: هو المنى، و الدفق: الصبّ، يقال: دفقت الماء، أى: صببته، يقال: ماء دافق، أى: مدفوق، مثل: عِيشَةٍ راضِيَةٍ* «۶» أى: مرضية. قال الفرّاء و الأخفش: ماء دافق. أى مصبوب فى الرحم. قال الفرّاء: و أهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول فى كثير من كلامهم، كقولهم: سرّ كاتم، أى: مكتوم، و همّ ناصب،

---

(۱). من تفسير القرطبى (۲۰/ ۳)

(۲). الانفطار: ۱۰.

(۳). الأنعام: ۶۱.

(۴). الرعد: ۱۱.

(۵). يوسف: ۶۴.

(۶). القارعة: ۷.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۰۹

أى: منصوب، و ليل نائم و نحو ذلك. قال الزجاج: من ماء ذى اندفاق، يقال: دارع و قايس و نابل، أى:

ذو درع و قوس و نبل، و أراد سبحانه ماء الرجل و المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما، ثم وصف هذا الماء فقال: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ أى: صلب الرجل، و ترائب المرأة، و الترائب: جمع تريبة، و هى موضع القلادة من الصدر، و الولد لا يكون إلا من الماءين. قرأ الجمهور:

يَخْرُجُ مبنيا للفاعل. و قرأ ابن أبى عبلة و ابن مقسم مبنيا للمفعول. و فى الصلب، و هو الظهر، لغات.

قرأ الجمهور بضم الصاد و سكون اللام، و قرأ أهل مكة بضم الصاد و اللام. و قرأ اليمانى بفتحهما، و يقال:

صالب على وزن قالب. و منه قول العباس بن عبد المطلب:

تنقل من صالب إلى رحم «۱» فى أبياته المشهورة فى مدح النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد تقدّم كلام فى هذا عند تفسير قوله:

الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ «۲» و قيل: الترائب: ما بين الثديين. و قال الضحاك: ترائب المرأة: اليدين و الرجلين و العينين.

و قال سعيد بن جبير: هى الجيد. و قال مجاهد: هى ما بين المنكبين و الصدر. و روى عنه أيضا أنه قال:

هى الصدر، و روى عنه أيضا أنه قال: هى التراقى. و حكى الزجاج: أن الترائب عصارة القلب، و منه يكون الولد، و المشهور فى اللغة أنها عظام الصّدر و النّحر، و منه قول دريد بن الصّمة:

فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركمو إن تقبلوا نأخذكم فى التّرائب

قال عكرمة: الترائب: الصدر، و أنشد:

نظام درّ على ترائبها قال فى الصّحاح: التريبة: واحدة الترائب، و هى عظام الصدر. قال أبو عبيدة: جمع التريبة تريب، و منه قول المثقّب العبدى:

و من ذهب يلوح على تريبكلون العاج ليس بذى غضون

و قول امرئ القيس:

ترائبها مصقولة كالسّجنجل «٣» و محكى الزجاج: أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر، و أربع أضلاع من يسرة الصدر. قال قتادة و الحسن: المعنى و يخرج من صلب الرجل و ترائب المرأة. و حكى الفرّاء أن مثل هذا يأتى عن العرب يكون

---

(١). و تمام البيت: إذا مضى عالم بدا طبق.

(٢). النساء: ٢٣.

(٣). و صدر البيت: مهفهفة بيضاء غير مفاضة.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥١٠

معنى من بين الصلب، و من الصلب، و قيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، و لا يخالف هذا ما فى الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب و الترائب، و قيل: إن المعنى: يخرج من جميع أجزاء البدن، و لا يخالف هذا ما فى الآية، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب و الترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هى الصلب و الترائب و ما يجاورها و ما فوقها مما يكون تنزله منها إِنَّهُ عَلى‌ رَجْعِهِ لَقادِرٌ الضمير فى إنه يرجع إلى اللّه سبحانه لدلالة قوله: خُلِقَ عليه، فإن الّذى خلقه هو اللّه سبحانه، و الضمير فى رجعه عائد إلى الإنسان، و المعنى: أن اللّه سبحانه قادر على رجع الإنسان، أى: إعادته بالبعث بعد الموت لَقادِرٌ هكذا قال جماعة من المفسرين. و قال مجاهد: على أن يردّ الماء فى الإحليل. و قال عكرمة و الضحاك: على أن يردّ الماء فى الصلب.

و قال مقاتل بن حيان يقول: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، و من الشباب إلى الصبا، و من الصبا إلى النطفة. و قال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر، و الأوّل أظهر، و رجحه ابن جرير و الثعلبى و القرطبى يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ العامل فى الظرف على التفسير الأوّل، هو «رجعه»، و قيل:

«لقادر». و اعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم، و قيل: العامل فيه مقدّر، أى: يرجعه يوم تبلى السرائر، و قيل: العامل فيه مقدّر، و هو اذكر، فيكون مفعولا به؛ و أما على قول من قال: إن المراد رجع الماء، فالعامل فى الظرف مقدّر، و هو اذكر، و معنى تبلى السرائر: تختبر و تعرف، و منه قول الراجز:

قد كنت قبل اليوم تزدرينى فاليوم أبلوك و تبتلينى

أى: أختبرك و تختبرنى، و أمتحنك و تمتحننى، و السرائر: ما يسر فى القلوب من العقائد و النيات و غيرها، و المراد هنا عرض الأعمال و نشر الصحف، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح، و الغثّ من السمين فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ أى: فما للإنسان من قوّة فى نفسه يمتنع بها عن عذاب اللّه، و لا ناصر ينصره ممّا نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوّة و لا ناصر. قال سفيان: القوة: العشيرة، و الناصر: الحليف، و الأوّل أولى وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ الرجع: المطر. قال الزجاج: الرجع: المطر؛ لأنه يجى‌ء و يرجع و يتكرر. قال الخليل: الرجع: المطر نفسه، و الرجع: نبات الربيع. قال أهل اللغة:

الرجع: المطر. قال المتنخّل يصف سيفا له:

أبيض كالرّجع رسوب إذاما ثاخ فى محتفل يختلى «١»

قال الواحدى: الرجع: المطر فى قول جميع المفسرين، و فى هذا الّذى حكاه عن جميع المفسرين نظر، فإن ابن زيد قال: الرجع الشمس و القمر و النجوم يرجعن فى السماء من ناحية و تغيب فى أخرى. و قال بعض المفسرين: ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد. و قال بعضهم: معنى «ذات الرجع»:

ذات النفع، و وجه تسمية المطر رجعا ما قاله القفّال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت و هو إعادته، و كذا المطر لكونه يعود مرّة بعد أخرى سمّى رجعا. و قيل: إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار

(۱). «ثاخ» خاض. «المحتفل»: أعظم موضع فى الجسد. «يختلى»: يقطع.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۱۱

الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، و قيل: سمّته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم، و قيل: لأن اللّه يرجعه وقتا بعد وقت وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات و الثمار و الشجر، و الصدع: الشقّ؛ لأنه يصدع الأرض فتنصدع له. قال أبو عبيدة و الفرّاء: تتصدّع بالنبات. قال مجاهد:

و الأرض ذات الطّرق التى تصدعها المياه، و قيل: ذات الحرث لأنه يصدعها، و قيل: ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث.

و الحاصل أن الصدع إن كان اسما للنبات فكأنه قال: و الأرض ذات النبات؛ و إن كان المراد به الشق فكأنه قال: و الأرض ذات الشق الّذى يخرج منه النبات و نحوه، و جواب القسم قوله: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ أى:

إن القرآن لقول يفصل بين الحق و الباطل بالبيان عن كل واحد منهما وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ أى: لم ينزل باللعب، فهو جدّ ليس بالهزل، و الهزل ضد الجدّ. قال الكميت:

يجدّ بنا فى كلّ يوم و نهزل «۱» إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً أى: يمكرون فى إبطال ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الدّين الحقّ. قال الزّجّاج: يخاتلون النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و يظهرون ما هم على خلافه وَ أَكِيدُ كَيْداً أى: أستدرجهم من حيث لا يعلمون، و أجازيهم جزاء كيدهم، قيل: هو ما أوقع اللّه بهم يوم بدر من القتل و الأسر فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أى: أخّرهم، و لا تسأل اللّه سبحانه تعجيل هلاكهم، و ارض بما يدبّره لك فى أمورهم، و قوله:

أَمْهِلْهُمْ بدل من مهّل. و مهّل و أمهل بمعنى، مثل: نزّل و أنزل، و الإمهال: الإنظار، و تمهّل فى الأمر اتّأد، و انتصاب رُوَيْداً على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور أو نعت لمصدر محذوف، أى: أمهلهم إمهالا رويدا، أى: قريبا أو قليلا. قال أبو عبيدة: و الرّويد فى كلام العرب تصغير الرّود، و أنشد:

كأنّها ثمل يمشى على رود «۲» أى: على مهل، و قيل: تصغير إرواد مصدر أرود تصغير الترخيم، و يأتى اسم فعل نحو: رويد زيدا، أى: أمهله، و يأتى حالا نحو سار القوم رويدا، أى: متمهلين، ذكر معنى هذا الجوهرى، و البحث مستوفى فى علم النحو.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ قال: أقسم ربك بالطارق، و كل شىء طرقك بالليل فهو طارق. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ قال: كل نفس عليها حفظة من الملائكة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس فى قوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ قال: النّجم المضىء إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ

(۱). و صدر البيت: أرانا على حب الحياة و طولها.

(۲). و صدر البيت: تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۱۲

قال: إلا عليها حافظ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ قال: ما بين الجيد و النحر. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: تريبة المرأة، و هى موضع القلادة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا قال: الترائب: بين ثديى المرأة. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا قال: الترائب أربعة أضلاع من كلّ جانب من أسفل الأضلاع. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عنه أيضا: إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ قال: على أن يجعل الشيخ شابا و الشابّ شيخا. و أخرج عبد الرزاق و

الفريابى و عبد بن حميد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ قال: المطر بعد المطر وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ قال: صدعها عن النبات. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ تصدّع الأودية. و أخرج ابن مندة و الديلمى عن معاذ بن أنس مرفوعا وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ قال:

«تصدع بإذن اللّه عن الأموال و النبات». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ قال: حقّ وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ قال: بالباطل، و فى قوله: أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً قال: قريبا.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۱۳

سورة الأعلى

اشارة

و يقال: سورة سبّح، و هى تسع عشرة آية و هى مكية فى قول الجمهور. و قال الضحاك: هى مدنيّة.

و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير و عائشة مثله. و أخرج البخارى و غيره عن البراء بن عازب قال: «أوّل من قدم علينا من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مصعب بن عمير و ابن أمّ مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار و بلال و سعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين، ثم جاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به حتى رأيت الولائد و الصبيان يقولون: هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد جاء، فما جاء حتى قرأت: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى فى سور مثلها». و أخرج أحمد و البزار و ابن مردويه عن علىّ قال:

«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحبّ هذه السورة: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى و أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن ثوير بن أبى فاختة عن أبيه عن علىّ. و أخرج أحمد و مسلم و أهل السنن عن النعمان بن بشير:

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى العيدين و فى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، و هل أتاك حديث الغاشية، و إن وافق يوم جمعة قرأهما جميعا» و فى لفظ «و ربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما» و فى الباب أحاديث.

و أخرج مسلم و غيره عن جابر بن سمرة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم «كان يقرأ فى الظهر بسبح اسم ربك الأعلى».

و أخرج أبو داود و النسائى و ابن ماجة و الدار قطنى و الحاكم و البيهقى عن أبىّ بن كعب قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوتر بسبح اسم ربك الأعلى، و قل يا أيها الكافرون، و قل هو اللّه أحد». و أخرج أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن عائشة قالت: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الوتر فى الركعة الأولى بسبح، و فى الثانية قل يا أيها الكافرون، و فى الثالثة قل هو اللّه أحد و المعوّذتين».

و فى الصحيحين أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۱ الى ۱۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى (١) الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدى (٣) وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعى (۴)
فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (۵) سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى (۶) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ یَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما یَخْفى (٧) وَ نُیَسِّرُکَ لِلْیُسْرى (٨) فَذَکِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّکْرى (٩)
سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشى (١٠) وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِی یَصْلَى النَّارَ الْکُبْرى (١٢) ثُمَّ لا یَمُوتُ فِیها وَ لا یَحْیى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّى (١۴)
وَ ذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١۵) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَیاةَ الدُّنْیا (١۶) وَ الْآخِرَةُ خَیْرٌ وَ أَبْقى (١٧) إِنَّ هذا لَفِی الصُّحُفِ الْأُولى (١٨) صُحُفِ إِبْراهِیمَ وَ مُوسى (١٩)

فتح القدير، ج۵، ص: ۵١۴

قوله: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى أی: نزّهه عن کلّ ما لا یلیق به. قال السدی: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى أی: عظمه، قیل: و الاسم هنا مقحم لقصد التعظیم، کما فی قول لبید:

إلی الحول ثمّ اسم السّلام علیکماو من یبک حولا کاملا فقد اعتذر

و المعنی: سبح ربک الأعلی. قال ابن جریر: المعنی نزّه اسم ربک أن یسمّی به أحد سواه، فلا تکون علی هذا مقحمة. و قیل: المعنی: نزّه تسمیة ربک و ذکرک إیاه أن تذکره إلا و أنت خاشع معظّم، و لذکره محترم. و قال الحسن: معنی سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى صلّ له. و قیل: المعنی: صلّ بأسماء اللّه لا کما یصلی المشرکون بالمکاء و التصدیة. و قیل المعنی: ارفع صوتک بذکر ربک، و منه قول جریر:

قبّح الإله وجوه تغلب کلّماسبّح الحجیج و کبّروا تکبیرا

و الأعلی صفة للربّ، و قیل: للاسم، و الأوّل أولی، و قوله: الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّى صفة أخری للربّ. قال الزجاج: خلق الإنسان مستویا، و معنی سوّی: عدّل قامته. قال الضحاک: خلقه فسوّی خلقه، و قیل: خلق الأجساد فسوّی الأفهام، و قیل: خلق الإنسان و هیأه للتکلیف وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدى صفة أخری للربّ، أو معطوف علی الموصول الّذی قبله. قرأ علیّ بن أبی طالب و الکسائی و السلمی قَدَّرَ مخففا، و قرأ الباقون بالتشدید. قال الواحدی: قال المفسرون: قَدَّرَ: خلق الذکر و الأنثی من الدواب فهدی الذکر للأنثی کیف یأتیها. و قال مجاهد: هدی الإنسان لسبیل الخیر و الشرّ، و السعادة و الشقاوة.

و روی عنه أیضا أنه قال فی معنی الآیة: قدّر السعادة و الشقاوة، و هدی للرشد و الضلالة، و هدی الأنعام لمراعیها. و قیل: قدّر أرزاقهم و أقواتهم، و هداهم لمعایشهم إن کانوا إنسا، و لمراعیهم إن کانوا وحشا. و قال عطاء: جعل لکل دابة ما یصلحها و هداها له. و قیل: خلق المنافع فی الأشیاء، و هدی الإنسان لوجه استخراجها منها. و قال السدیّ: قدّر مدّة الجنین فی الرحم تسعة أشهر و أقلّ و أکثر، ثم هداه للخروج من الرحم. قال الفراء: أی: قدّر فهدی و أضلّ، فاکتفی بأحدهما، و فی تفسیر الآیة أقوال غیر ما ذکرنا. و الأولی عدم تعیین فرد أو أفراد مما یصدق علیه قدّر و هدی إلا بدلیل یدلّ علیه، و مع عدم الدلیل یحمل علی ما یصدق علیه معنی الفعلین، إما علی البدل أو علی الشمول، و المعنی: قدّر أجناس الأشیاء و أنواعها و صفاتها و أفعالها و أقوالها و آجالها، فهدی کل واحد منها إلی ما یصدر عنه و ینبغی له، و یسّره لما خلق له، و ألهمه إلی أمور دینه و دنیاه. وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعى صفة أخری للربّ، أی: أنبت العشب و ما ترعاه النعم من النبات الأخضر فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى أی: فجعله بعد أن کان أخضر غثاء، أی: هشیما جافا کالغثاء الّذی یکون فوق السیل، أحوی: أی: أسود بعد اخضراره، و ذلک أن الکلأ إذا یبس اسودّ. قال قتادة: الغثاء:

الشىء اليابس، و يقال للبقل و الحشيش إذا انحطم و يبس: غثاء و هشيم. قال امرؤ القيس:

كأنّ ذرا رأس المجيمر غدوةمن السّيل و الأغثاء فلكة مغزل «۱»

---

(۱). «المجيمر»: أرض لبنى فزارة.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۱۵

و انتصاب غثاء على أنه المفعول الثانى، أو على الحال، و أحوى صفة له. و قال الكسائى: هو حال من المرعى، أى: أخرجه أحوى من شدّة الخضرة و الرىّ فَجَعَلَهُ غُثاءً بعد ذلك، و الأحوى مأخوذ من الحوّة، و هى سواد يضرب إلى الخضرة. قال فى الصحاح: و الحوّة: سمرة الشفة، و منه قول ذى الرّمّة:

لمياء فى شفتيها حوّة لعس‌و فى اللّثات و فى أنيابها شنب «۱»

سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى أى: سنجعلك قارئا بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه، و الجملة مستأنفة لبيان هدايته صلّى اللّه عليه و سلّم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة، و هى هدايته صلّى اللّه عليه و سلّم لحفظ القرآن. قال مجاهد و الكلبى:

كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا نزل عليه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلّم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بأوّلها مخافة أن ينساها، فنزلت: سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى و قوله: إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ استثناء مفرغ من أعمّ المفاعيل، أى: لا تنسى مما تقرؤه شيئا من الأشياء إلا ما شاء اللّه أن تنساه. قال الفرّاء: و هو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم شيئا كقوله: خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ* «۲» و قيل: إلا ما شاء اللّه أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك، فإذن قد نسى و لكنه يتذكر و لا ينسى شيئا نسيانا كليا. و قيل بمعنى النسخ: أى إلّا ما شاء اللّه أن ينسخه مما نسخ تلاوته. و قيل: معنى فلا تنسى: فلا تترك العمل إلا ما شاء اللّه أن تتركه لنسخه و رفع حكمه. و قيل: المعنى: إلا ما شاء اللّه أن يؤخّر إنزاله. و قيل: «لا» فى قوله:

فَلا تَنْسى للنهى. و الألف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما فى قوله: فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا «۳» يعنى فلا تغفل قراءته و تذكره إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى الجملة تعليل لما قبلها، أى: يعلم ما ظهر و ما بطن و الإعلان و الإسرار، و ظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل إن الجهر ما حفظه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من القرآن، و ما يخفى هو ما نسخ من صدره، و يدخل تحته أيضا ما قيل من أن الجهر: هو إعلان الصدقة، و ما يخفى، هو إخفاؤها، و يدخل تحته أيضا ما قيل: إن الجهر جهره صلّى اللّه عليه و سلّم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه، و ما يخفى ما فى نفسه مما يدعوه إلى الجهر وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى معطوف على «سنقرئك»، و ما بينهما اعتراض.

قال مقاتل: أى نهوّن عليك عمل الجنة، و قيل: نوفّقك للطريقة التى هى أيسر و أسهل، و قيل: للشريعة اليسرى، و هى الحنيفية السهلة، و قيل: نهوّن عليك الوحى حتى تحفظه و تعمل له، و الأولى حمل الآية على العموم، أى: نوفقك للطريقة اليسرى فى الدين و الدنيا فى كلّ أمر من أمورهما التى تتوجه إليك فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى أى: عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك و أرشدهم إلى سبل الخير و اهدهم إلى شرائع الدين. قال الحسن: تذكرة للمؤمن و حجّة على الكافر. قال الواحدى: إن نفعت أو لم تنفع، لأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بعث مبلّغا للإعذار و الإنذار، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع، و لم يذكر الحالة الثانية كقوله:

سَرابِيلَ تَقِيکُمُ الْحَرَّ «۴» الآية. قال الجرجانى: التذكير واجب و إن لم ينفع، فالمعنى: إن نفعت

---

(۱). «اللمياء»: الشفة اللطيفة القليلة الدم. «اللعس»: لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا و ذلك يستملح.
«الشنب»: برودة و عذوبة فی الفم، و رقّه فی الأسنان.
(۲). هود: ۱۰۷.
(۳). الأحزاب: ۶۷.
(۴). النحل: ۸۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۱۶

الذكرى أو لم تنفع. و قيل: إنه مخصوص فی قوم بأعيانهم، و قيل: إن بمعنى «ما»، أی: فذكر ما نفعت الذكرى؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال، و قيل: إنها بمعنى قد، و قيل: إنها بمعنى إذ. و ما قاله الواحدی و الجرجانی أولى، و قد سبقهما إلى القول به الفراء و النحاس. قال الرازی: إنّ قوله: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى للتنبيه على أشرف الحالين و هو وجود النفع الّذی لأجله شرعت الذكرى، و المعلق بإن على الشیء لا يلزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشیء، و يدل عليه آيات: منها هذه الآية، و منه قوله تعالى: وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ «۱» و منها قوله: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ «۲» فإن القصر جائز عند الخوف و عدمه، و منها قوله: فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ «۳» و المراجعة جائزة بدون هذا الظنّ، فهذا الشرط فيه فوائد: منها ما تقدّم، و منها البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، و هو تنبيه للنبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم على أنها لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا فی تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأوّل فعامّ انتهى.

ثم بيّن سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى و من لا تنفعه فقال: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى أی: سيتّعظ بوعظك من يخشى اللّه فيزداد بالتذكير خشية و صلاحا وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى أی: و يتجنّب الذكرى و يبعد عنها الأشقى من الكفار؛ لإصراره على الكفر باللّه و انهماكه فی معاصيه. ثم وصف الأشقى فقال: الَّذِی يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى أی: العظيمة الفظيعة؛ لأنها أشدّ حرّا من غيرها. قال الحسن: النار الكبرى: نار جهنم، و النار الصغرى: نار الدنيا. و قال الزجاج: هی السفلى من أطباق النار. ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى أی: لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب، و لا يحيا حياة ينتفع بها، و منه قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضیعناها و لا تحيا حياة لها طعم

و «ثم» للتراخی فی مراتب الشدّة؛ لأن التردّد بين الموت و الحياة أفظع من صلی النار الكبرى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى أی: من تطهّر من الشرك فآمن باللّه و وحده و عمل بشرائعه. قال عطاء و الربيع: من كان عمله زاكيا ناميا. و قال قتادة: تزكّى بعمل صالح. قال قتادة و عطاء و أبو العالية: نزلت فی صدقة الفطر. قال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدّم زكاتی بين يدی صلاتی. و أصل الزكاة فی اللغة: النماء. و قيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها، و قيل: المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال، لأن الأكثر أن يقال فی الأموال زكى لا تزكى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قيل: المعنى: ذكر اسم ربّه بالخوف فعبده و صلّى له، و قيل: ذكر اسم ربه بلسانه فصلى، أی: فأقام الصلوات الخمس، و قيل: ذكر موقفه و معاده فعبده، و هو كالقول الأوّل.

و قيل: ذكر اسم ربه بالتكبير فی أوّل الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره، و هو قوله: اللّه أكبر. و قيل: ذكر اسم ربه فی طريق المصلى فصلى، و قيل: هو أن يتطوّع بصلاة بعد زكاة، و قيل: المراد بالصلاة هنا صلاة العيد، كما أن المراد بالتزكی فی الآية زكاة الفطر، و لا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية، و لم

---

(۱). البقرة: ۱۷۲.

(٢). النساء: ١٠١.

(٣). البقرة: ٢٣٠.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥١٧

تفرض زكاة الفطر و صلاة العيد إلا بالمدينة بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا هذا إضراب عن كلام مقدّر يدل عليه السياق، أى: لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية فى الدنيا، قرأ الجمهور تُؤْثِرُونَ بالفوقية على الخطاب، و يؤيدها قراءة أبىّ «بل أنتم تؤثرون»، و قرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة. قيل: و المراد بالآية الكفرة، و المراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها و الاطمئنان إليها و الإعراض عن الآخرة بالكلية، و قيل: المراد بها جميع الناس من مؤمن و كافر، و المراد بإيثارها ما هو أعمّ من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، و التوجّه إلى تحصيل منافعها و الاهتمام بها اهتماما زائدا على اهتمامه بالطاعات. و جملة وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى فى محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون، أى: و الحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل و أدوم من الدنيا. قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، و الآخرة من خزف يبقى؛ لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف و الآخرة من ذهب يبقى، و الدنيا من خزف يفنى؟. و الإشارة بقوله: إِنَّ هذا إلى ما تقدّم من فلاح من تزكى و ما بعده، و قيل إنه إشارة إلى جميع السورة، و معنى لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى أى: ثابت فيها، و قوله: صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى بدل من الصحف الأولى. قال قتادة و ابن زيد: يريد بقوله: إِنَّ هذا: و الآخرة خير و أبقى. و قالا: تتابعت كتب اللّه عزّ و جلّ أنّ الآخرة خير و أبقى من الدنيا. و قال الحسن: تتابعت كتب اللّه جلّ ثناؤه إن هذا لفى الصحف الأولى، و هو قوله: قَدْ أَفْلَحَ إلى آخر السورة. قرأ الجمهور: لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ بضم الحاء فى الموضعين، و قرأ الأعمش و هارون و أبو عمرو فى رواية عنه بسكونها فيهما، و قرأ الجمهور: إِبْراهِيمَ بالألف بعد الراء و بالياء بعد الهاء. و قرأ أبو رجاء بحذفهما و فتح الهاء، و قرأ أبو موسى و ابن الزبير «إبراهام» بألفين.

و قد أخرج أحمد و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهنى قال: «لما نزلت فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ* قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اجعلوها فى ركوعكم، فلما نزلت سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قال: اجعلوها فى سجودكم» و لا مطعن فى إسناده. و أخرج أحمد و أبو داود و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى»: قال أبو داود: خولف فيه وكيع، فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفا. و أخرجه موقوفا أيضا عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى و فى لفظ لعبد بن حميد عنه قال: «إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى فقل: سبحان ربى الأعلى». و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن الأنبارى فى «المصاحف» عن علىّ بن أبى طالب أنه قرأ: سبح اسم ربك الأعلى، فقال: سبحان ربى الأعلى و هو فى الصلاة، فقيل له: أ تزيد فى القرآن؟ قال: لا، إنما أمرنا بشى‌ء فقلته. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى موسى الأشعرى أنه قرأ فى الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥١٨

و صحّحه، عن سعيد بن جبير قال: سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى، و كذلك هى فى قراءة أبىّ بن كعب. و أخرج ابن أبى شيبة عن عمر أنه قال: إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال: سبحان ربى الأعلى. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن عبد اللّه بن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربى الأعلى، و هو فى الصلاة. و

أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:
فَجَعَلَهُ غُثاءً قال: هشيما أَحْوى قال: متغيرا. و أخرج ابن مردويه عنه قال: «كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى، فقيل له: قد كفيناك ذلك، و نزلت: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى . و أخرج الحاكم عن سعد بن أبى وقاص نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ يقول: إلا ما شئت أنا فأنسيك. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى قال: للخير. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى قال: الجنة.
و أخرج البزار و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال:
«من شهد أن لا إله إلا اللّه، و خلع الأنداد، و شهد أنى رسول اللّه وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قال:
هى الصلوات الخمس، و المحافظة عليها و الاهتمام بمواقيتها». قال البزار: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال:
من الشرك وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ قال: وحّد اللّه فَصَلَّى قال: الصلوات الخمس. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: من قال لا إله إلا اللّه. و أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم فى الكنى، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن كثير بن عبد اللّه بن عمرو ابن عوف عن أبيه عن جدّه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد، و يتلو هذه الآية قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى- وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . و فى لفظ قال: «سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن زكاة الفطر، فقال: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: هى زكاة الفطر» و كثير بن عبد اللّه ضعيف جدّا، قال فيه أبو داود: هو ركن من أركان الكذب، و قد صحّح الترمذى حديثا من طريقه، و خطىء فى ذلك، و لكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى- وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر» و ليس فى هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول، بل فيهما أنه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا الآية. و قوله: هى زكاة الفطر، يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكى، و قد قدّمنا أن السورة مكية، و لم تكن فى مكة صلاة عيد و لا فطرة.
و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن أبى سعيد الخدرى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قال: أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قال: خرج إلى العيد و صلى. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن ابن عمر قال: «إنما أنزلت هذه الآية فى إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى- وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: قلت لابن عباس: أ رأيت قوله:
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى للفطر؟ قال: لم أسمع بذلك، و لكن للزكاة كلها. ثم عاودته فقال لى: و الصدقات

كلها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عرفجة الثقفى قال: استقرأت ابن مسعود: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى فلما بلغ: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا ترك القراءة، و أقبل على أصحابه فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها و نساءها و طعامها و شرابها، و زويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل و تركنا الآجل، و قال: بل يؤثرون الحياة الدّنيا بالياء. و أخرج البزار و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هى كلها فى صحف إبراهيم و موسى».
و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية قال:
نسخت هذا السورة من صحف إبراهيم و موسى، و فى لفظ: هذه السورة فى صحف إبراهيم و موسى. و أخرج عبد بن حميد و

ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى ذرّ قال: «قلت: يا رسول اللّه كم أنزل اللّه من كتاب؟ قال: مائة كتاب و أربعة كتب» الحديث.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۲۰

سورة الغاشية

اشارة

هى ست و عشرون آية، و هى مكية بلا خلاف، أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، و قد تقدّم حديث النعمان بن بشير أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى، و الغاشية فى صلاة العيد، و يوم الجمعة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱ الى ۲۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (۲) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (۳) تَصْلى ناراً حامِيَةً (۴)

تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (۵) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (۶) لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (۸) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (۹)

فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۱۰) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (۱۱) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (۱۲) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴)

وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (۱۶) أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹)

وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (۲۰) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (۲۱) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (۲۲) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (۲۳) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (۲۴)

إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (۲۵) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (۲۶)

قوله: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ قال جماعة من المفسرين: هل هنا بمعنى قد، و به قال قطرب، أى: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، و هى القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها. و قيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامى المتضمّن للتعجب مما فى خبره، و التشويق إلى استماعه أولى. و قد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين. و قال سعيد بن جبير و محمد بن كعب: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار كما فى قوله: وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ «۱». و قيل: الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها و يقتحمونها و الأوّل أولى. قال الكلبى: المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما هو؟ أو مستأنفة استئنافا نحويّا لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة، و وجوه مرتفع على الابتداء و إن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل، و قد تقدّم مثل هذا فى سورة القيامة، و فى سورة النازعات. و التنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه، أى: يوم غشيان الغاشية، و الخاشعة: الذليلة الخاضعة، و كل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال: خشع الصوت؛ إذا خفى، و خشع فى صلاته؛ إذا تذلل و نكس رأسه. و المراد بالوجوه هنا

أصحابها.

---

(١). إبراهيم: ٥٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٢١

قال مقاتل: يعنى الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة اللّه. قال قتادة و ابن زيد: خاشعة فى النار، و قيل: أراد وجوه اليهود و النصارى على الخصوص، و الأوّل أولى. قوله: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ معنى عاملة أنها تعمل عملا شاقا. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب فى سيره: عمل يعمل عملا، و يقال للسحاب إذا دام برقه:

قد عمل يعمل عملا. قيل: و هذا العمل هو جرّ السلاسل و الأغلال و الخوض فى النار. ناصِبَةٌ أى:

تعبة، يقال: نصب بالكسر ينصب نصبا؛ إذا تعب، و المعنى: أنها فى الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب اللّه.

و قيل: إن قوله: عامِلَةٌ فى الدنيا إذ لا عمل فى الآخرة، أى: تعمل فى الدنيا بالكفر و المعاصى، و تنصب فى ذلك. و قيل: إنها عاملة فى الدنيا ناصبة فى الآخرة، و الأوّل أولى. قال قتادة: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تكبرت فى الدنيا عن طاعة اللّه؛ فأعملها اللّه، و أنصبها فى النار بجرّ السلاسل الثقال و حمل الأغلال و الوقوف حفاة عراة فى العرصات فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «١» قال الحسن و سعيد بن جبير: لم تعمل للّه فى الدنيا و لم تنصب فأعملها و أنصبها فى جهنم. قال الكلبى: يجرّون على وجوههم فى النار. و قال أيضا:

يكلّفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل و الأغلال و الخوض فى النار كما تخوض فى الوحل. قرأ الجمهور: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ، أو على تقدير مبتدأ، و هما خبران له، و قرأ ابن محيصن و عيسى و حميد و ابن كثير فى رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الذم. و قوله: تَصْلى ناراً حامِيَةً خبر آخر للمبتدأ، أى: تدخل نارا متناهية فى الحرّ، يقال: حمى النهار و حمى التنور، أى: اشتدّ حرّهما. قال الكسائى: يقال: اشتدّ حمى النهار و حموه بمعنى.

قرأ الجمهور: «تصلى» بفتح التاء مبنيا للفاعل. و قرأ أبو عمرة و يعقوب و أبو بكر بضمها مبنيا للمفعول.

و قرأ أبو رجاء بضم التاء و فتح الصاد و تشديد اللام، و الضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات، و المراد أصحابها كما تقدّم، و هكذا الضمير تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ و المراد بالعين الآنية: المتناهية فى الحرّ، و الآنى: الّذى قد انتهى حره، من الإيناء «٢» بمعنى التأخر، يقال: آناه يؤنيه إيناء، أى: أخّره و حبسه كما فى قوله: يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ «٣» قال الواحدى: قال المفسرون: لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا لذابت. و لما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال: لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ هو نوع من الشوك يقال له الشّبرق فى لسان قريش إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع. كذا قال مجاهد و قتادة و غيرهما من المفسرين. قيل: و هو سمّ قاتل، و إذا يبس لا تقربه دابة و لا ترعاه، و قيل: هو شى‏ء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع و هلكت هزالا.

قال الخليل: الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر. و جمهور أهل اللغة و التفسير قالوا: بالأوّل،

---

(١). المعارج: ٤.

(٢). الصواب أن يقول: من: أنى يأنى، كرمى يرمى. و ليس من الإيناء مصدر آنى بمعنى آخر.

(٣). الرّحمن: ٤٤.

فتح القدير، ج‏5، ص: 522

و منه قول أبى ذؤيب:

رعى الشّبرق الرّيّان حتّى إذا ذوى‏و عاد ضريعا بان عنه النّحائص «1»

و قال الهذلى يذكر إبلاء و سوء مرعاها:

و حبسن فى هزم الضّريع فكلّهاحدباء دامية اليدين حرود «2»

و قال سعيد بن جبير: الضريع: الحجارة، و قيل: هو شجرة فى نار جهنم. و قال الحسن: هو بعض ما أخفاه اللّه من العذاب. و قال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده و يذلون و يتضرّعون إلى اللّه بالخلاص منه، فسمّى بذلك؛ لأن آكله يتضرّع إلى اللّه فى أن يعفى عنه لكراهته و خشونته. قال النحاس: قد يكون مشتقا من الضارع و هو الذليل، أى: من شربه يلحقه ضراعة و ذلة. و قال الحسن أيضا: هو الزقوم، و قيل:

هو واد فى جهنم، و قد تقدّم فى سورة الحاقة فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ- وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ «3» و الغسلين غير الضريع كما تقدّم، و جمع بين الآيتين بأن النار دركات، فمنهم من طعامه الضريع، و منهم من طعامه الغسلين. ثم وصف سبحانه الضريع فقال: لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ أى: لا يسمن الضريع آكله و لا يدفع عنه ما به من الجوع. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية. قال المشركون: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزلت: لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ و كذبوا فى قولهم هذا، فإن الإبل لا تأكل الضريع و لا تقربه. و قيل: اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع. ثم شرع سبحانه فى بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ أى: ذات نعمة و بهجة، و هى وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم و ما أعدّه اللّه لهم من الخير الّذى يفوق الوصف، و مثله قوله: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ «4» ثم قال: لِسَعْيِها راضِيَةٌ أى: لعملها الّذى عملته فى الدنيا راضية؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها و قرّت به عيونها، و المراد بالوجوه هنا أصحابها كما تقدّم فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ أى عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة، أو عالية لأن فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ الأعين لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً قرأ الجمهور: لا تَسْمَعُ بفتح الفوقية و نصب لاغية، أى: لا تسمع أنت أيها المخاطب، أو لا تسمع تلك الوجوه. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول و رفع لاغية. و قرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنيا للمفعول و رفع لاغية. و قرأ الفضل و الجحدرى بفتح التحتية مبنيا للفاعل و نصب لاغية، و اللغو: الكلام الساقط. قال الفرّاء و الأخفش: أى لا تسمع فيها كلمة لغو.

---

(1). «النحائص»: جمع نحوص، و هى الأتان الوحشية التى فى بطنها ولد.

(2). «هزيم الضريع»: ما تكسر منه. «الحدباء»: الناقة التى بدت حراقفها و عظم ظهرها. «الحرود»: التى لا تكاد تدرّ.

(3). الحاقة: 35- 36.

(4). المطففين: 24.

فتح القدير، ج‏5، ص: 523

قيل: المراد بذلك الكذب و البهتان و الكفر قاله قتادة، و قال مجاهد: أى الشتم. و قال الفرّاء: لا تسمع فيها حالفا يحلف بكذب. و قال الكلبى: لا تسمع فى الجنة حالفا بيمين برّة و لا فاجرة. و قال الفرّاء أيضا: لا تسمع فى كلام أهل الجنة كلمة تلغى؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة و حمد اللّه تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم، و هذا أرجح الأقوال لأن النكرة فى سياق النفى من صيغ العموم، و لا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصّص يصلح للتخصيص، و لاغية: إما صفة موصوف محذوف، أى:

كلمة لاغية، أو نفس لاغية، أو مصدر، أى: لا تسمع فيها لغوا فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ قد تقدّم فى سورة الإنسان أن فيها عيونا، و العين هنا بمعنى: العيون؛ كما فى قوله: عَلِمَتْ نَفْسٌ* «١» و معنى جارية أنها تجرى مياهها و تتدفق بأنواع الأشربة المستلذة. قال الكلبى: لا أدرى بماء أو بغيره فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ أى: عالية مرتفعة السمك، أو عالية القدر وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ قد تقدّم أن الأكواب جمع كوب، و أنه القدح الّذى لا عروة له، و معنى موضوعة: أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ النمارق: الوسائد. قال الواحدى: فى قول الجميع، واحدتها نمرقة بضم النون، و زاد الفرّاء سماعا عن العرب نمرقة بكسرها. قال الكلبى: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض، و منه قول الشاعر:

و إنّا لنجرى الكأس بين شروبناو بين أبى قابوس فوق النّمارق

و قال الآخر:

كهول و شبّان حسان وجوههمعلى سرر مصفوفة و نمارق

قال فى الصحاح: النّمرق و النّمرقة: و سادة صغيرة، و كذلك النّمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ يعنى البسط، واحدها: زربيّة. قال أبو عبيدة و الفرّاء: الزرابىّ: الطنافس التى لها خمل رقيق، واحدها زربيّة، و المبثوثة: المبسوطة، قاله قتادة. و قال عكرمة: بعضها فوق بعض. قال الواحدى: و يجوز أن يكون المعنى: أنها مفرقة فى المجالس. و به قال القتبىّ. و قال الفرّاء: معنى مبثوثة:

كثيرة، و الظاهر أن معنى البث: التفرّق مع كثرة، و منه وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ* «٢». أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر كما فى نظائره مما مرّ غير مرّة، و الجملة مسوقة لتقرير أمر البعث و الاستدلال عليه، و كذا ما بعدها، و كيف منصوبة بما بعدها، و الجملة فى محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل، و المعنى: أ ينكرون أمر البعث و يستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التى هى غالب مواشيهم و أكبر ما يشاهدونه من المخلوقات كَيْفَ خُلِقَتْ على ما هى عليه من الخلق البديع من عظم جثّتها و مزيد قوّتها و بديع أوصافها. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما خصّ الإبل لأنها من ذوات الأربع تبرك فتحمل عليها الحمولة، و غيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا و هو قائم: قال الزّجّاج:

---

(١). التكوير: ١۴.

(٢). البقرة: ١۶۴.

تبّههم على عظيم من خلقه قد ذلّه اللّه للصغير يقوده و ينيخه و ينهضه و يحمل عليه الثقيل من الحمل و هو بارك، فينهض بثقل حمله، و ليس ذلك فى شىء من الحوامل غيره، فأراهم عظيما من خلقه ليدلّ بذلك على توحيده.

و سئل الحسن عن هذه الآية، و قيل له: الفيل أعظم فى الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، ثم هو خنزير لا يركب ظهره و لا يؤكل لحمه و لا يحلب درّه، و الإبل من أعزّ مال العرب و أنفسه، تأكل النّوى و القتّ، و تخرج اللبن، و يأخذ الصبىّ بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها فى نفسها. و قال المبرد:

الإبل هنا هى القطع العظيمة من السحاب، و هو خلاف ما ذكره أهل التفسير و اللغة. و روى عن الأصمعى أنه قال: من قرأ خُلِقَتْ بالتخفيف عنى به البعير، و من قرأ بالتشديد عنى به السحاب. وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ أى: رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم و لا يدركه العقل، و قيل: رفعت فلا ينالها شىء وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ على الأرض مرساة راسخة لا تميد و لا تزول وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ أى: بسطت، و السطح: بسط الشىء، يقال: لظهر البيت إذا كان مستويا: سطح.

قرأ الجمهور: سُطِحَتْ مبنيا للمفعول مخففا. و قرأ الحسن: بالتشديد. و قرأ عليّ بن أبى طالب و ابن السّميقع و أبو العالية: خلقت و رفعت و نصبت و سطحت على البناء للفاعل، و ضم التاء فيها كلها. ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالتذكير فقال: فَذَكِّرْ و الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى: فعظهم يا محمد و خوّفهم، ثم علل الأمر بالتذكير فقال: إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ أى: ليس عليك إلا ذلك، و لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ المصيطر و المسيطر بالسين و الصاد: المسلط على الشىء ليشرف عليه و يتعهد أحواله كذا فى الصحاح، أى: لست عليهم بمصيطر حتى تكرههم على الإيمان، و هذا منسوخ بآية السيف. قرأ الجمهور:

بِمُصَيْطِرٍ بالصاد، و قرأ هشام و قنبل فى رواية بالسين. و قرأ خلف بإشمام الصاد زايا. و قرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ هذا استثناء منقطع، أى: لكن من تولى عن الوعظ و التذكير فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ و هو عذاب جهنم الدائم، و قيل: هو استثناء متصل من قوله: فَذَكِّرْ أى: فذكر كلّ أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه و تولّى فاستحق العذاب الأكبر، و الأوّل أولى. و إنما قال:

الْأَكْبَرَ لأنهم قد عذّبوا فى الدّنيا بالجوع و القحط و القتل و الأسر. و قرأ ابن مسعود: «فإنه يعذّبه اللّه» و قرأ ابن عباس و قتادة: «ألا من تولى» على أنها ألا التى للتنبيه و الاستفتاح إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ أى: رجوعهم بعد الموت، يقال آب يؤوب: إذا رجع، و منه قول عبيد بن الأبرص:

و كلّ ذى غيبة يؤوبو غائب الموت لا يؤوب

قرأ الجمهور: إِيابَهُمْ بالتخفيف، و قرأ أبو جعفر و شيبة بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد و لو جاز لجاز مثله فى الصيام و القيام، و قيل: هما لغتان بمعنى. قال الواحدى: و أما إِيابَهُمْ بتشديد الياء فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ يعنى جزاءهم بعد رجوعهم إلى اللّه بالبعث، و «ثم» للتراخى فى الرتبة؛ لبعد منزلة الحساب فى الشدّة عن منزلة الإياب.

فتح القدير، ج‏5، ص: 525

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الغاشية من أسماء القيامة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ قال: الساعة وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ- عامِلَةٌ ناصِبَةٌ قال: تعمل و تنصب فى النار تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ قال: هى التى قد طال أنيها لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ قال: الشبرق. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ- عامِلَةٌ ناصِبَةٌ قال:

يعنى اليهود و النصارى تخشع و لا ينفعها عملها تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ قال: قد أنى غليانها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: تَصْلى ناراً حامِيَةً قال: حارّة، تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ قال: انتهى حرّها لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ يقول: من شجر من نار. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ قال: الشبرق اليابس. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً يقول: لا تسمع أذى و لا باطل و فى قوله: فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ قال: بعضها فوق بعض وَ نَمارِقُ قال: مجالس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا وَ نَمارِقُ قال: المرافق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ قال: جبار إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ قال:

حسابه على اللّه. و أخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ثم نسخ ذلك فقال: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «1». و أخرج ابن المنذر عنه أيضا إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ قال: مرجعهم

(1). التوبة: 5.

فتح القدير، ج‏5، ص: 526

سورة الفجر

اشارة

هى ثلاثون آية، و قيل: تسع و عشرون آية و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس، و النحاس فى ناسخه، و ابن مردويه و البيهقى من طرق عن ابن عباس قال: نزلت وَ الْفَجْرِ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير و عائشة مثله. و أخرج النسائى عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذا فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه جئت أصلى فطوّل علىّ، فانصرفت فصليت فى ناحية المسجد فعلفت ناضحى؛ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أ فتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الفجر، و الليل إذا يغشى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ١۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْفَجْرِ (١) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (۴)

هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (۵) أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (٨) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (٩)

وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (١۴)

أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته. و اختلف فى الفجر الّذى أقسم اللّه به هنا؛ فقيل:

هو الوقت المعروف، و سمّى فجرا لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. و قال قتادة: إنه فجر أوّل يوم من شهر محرّم؛ لأن منه تتفجر السنة. و قال مجاهد: يريد يوم النحر. و قال الضحاك: فجر ذى الحجّة؛ لأن اللّه قرن الأيام به فقال: وَ لَيالٍ عَشْرٍ أى: ليال من ذى الحجّة، و به قال السدّى و الكلبى.

و قيل المعنى: و صلاة الفجر أو ربّ الفجر. و الأوّل أولى. و جواب هذا القسم و ما بعده هو قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ كذا قال ابن الأنبارى، و قيل: محذوف لدلالة السياق عليه، أى: ليجازينّ كل أحد بما عمل، أو ليعذبن، و قدّره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التى قبله، أى: و الفجر إلخ ... لإيابهم إلينا و حسابهم علينا، و هذا ضعيف جدّا. و أضعف منه قول من قال: إن الجواب من قوله: هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ و أن هل بمعنى قد؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسما عليه أبدا وَ لَيالٍ عَشْرٍ هى عشر ذى الحجة فى قول جمهور المفسرين. و قال الضحاك: إنها الأواخر من رمضان، و قيل: العشر الأوّل من المحرّم إلى عاشرها يوم عاشوراء. قرأ الجمهور: لَيالٍ بالتنوين، و «عشر» صفة لها. و قرأ ابن عباس: و ليالى عشر بالإضافة، قيل: و المراد ليالى أيام عشر، و كان حقه على هذا أن يقال عشرة،

فتح القدير، ج۵، ص: ۵٢٧

لأن المعدود مذكر. و أجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان. وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ الشفع و الوتر يعمّان كلّ الأشياء شفعها و وترها، و قيل: شفع الليالى و وترها. و قال قتادة: الشفع و الوتر شفع الصلاة و وترها، منها شفع و منها وتر. و قيل: الشفع يوم عرفة

و يوم النحر، و الوتر: ليلة يوم النحر. و قال مجاهد و عطية العوفى: الشفع: الخلق، و الوتر: اللّه الواحد الصمد، و به قال محمد بن سيرين و مسروق و أبو صالح و قتادة. و قال الربيع بن أنس و أبو العالية: هى صلاة المغرب فيها ركعتان و الوتر الركعة. و قال الضحاك:

الشفع: عشر ذى الحجة، و الوتر: أيام منى الثلاثة، و به قال عطاء. و قيل: هما آدم و حواء، لأن آدم كان وترا فشفع بحوّاء. و قيل: الشفع: درجات الجنة و هى ثمان، و الوتر: دركات النار و هى سبع، و به قال الحسين بن الفضل. و قيل: الشفع الصفا و المروة، و الوتر: الكعبة. و قال مقاتل: الشفع: الأيام و الليالى، و الوتر: اليوم الّذى لا ليلة بعده، و هو يوم القيامة. و قال سفيان بن عيينة: الوتر: هو اللّه سبحانه، و هو الشفع أيضا لقوله: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ «۱» الآية. و قال الحسن: المراد بالشفع و الوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما. و قيل: الشفع: مسجد مكة و المدنية، و الوتر: مسجد بيت المقدس. و قيل: الشفع حج القران، و الوتر: الإفراد. و قيل: الشفع: الحيوان لأنه ذكر و أنثى، و الوتر:

الجماد. و قيل: الشفع: ما سمّى، و الوتر: ما لا يسمّى. و لا يخفاك ما فى غالب هذه الأقوال من السقوط البين و الضعف الظاهر، و الإنكار فى التعيين على مجرّد الرأى الزائف، و الخاطر الخاطئ.

و الّذى ينبغى التعويل عليه و يتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع و الوتر فى كلام العرب، و هما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، و الوتر: الفرد. فالمراد بالآية إما نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر. و إذا قام دليل على تعيين شىء من المعدودات فى تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدلّ على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك، و إن كان الدليل يدلّ على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعا من تناولها لغيره. قرأ الجمهور «و الوتر» بفتح الواو. و قرأ حمزة و الكسائى و خلف بكسرها، و هى قراءة ابن مسعود و أصحابه و هما لغتان، و الفتح لغة قريش و أهل الحجاز، و الكسر لغة تميم، قال الأصمعى: كلّ فرد وتر، و أهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر فى الفرد. و حكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو و كسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، و يحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ قرأ الجمهور يَسْرِ بحذف الياء وصلا و وقفا اتباعا لرسم المصحف. و قرأ نافع و أبو عمرو بحذفها فى الوقف و إثباتها فى الوصل. و قرأ ابن كثير و ابن محيصن و يعقوب بإثباتها فى الوصل و الوقف. قال الخليل: تسقط الياء موافقة لرؤوس الآى. قال الزجاج: و الحذف أحب إلىّ لأنها فاصلة و الفواصل تحذف منها الياءات. قال الفرّاء: قد تحذف العرب الياء و تكتفى بكسر ما قبلها، و أنشد بعضهم:

كفّاك كفّ ما تليق درهما جودا و أخرى تعط بالسّيف الدّما

---

(۱). المجادلة: ۷.

ما تليق؛ أى: ما تمسك. قال المؤرّج: سألت الأخفش عن العلّة فى إسقاط الياء من يسر فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة، فبتّ على باب داره سنة فقال: الليل لا يسرى، و إنما يسرى فيه، فهو مصروف عن جهته، و كلّ ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، أ لا ترى إلى قوله: وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا «۱» و لم يقل بغية؛ لأنه صرفها من باغية.

و فى كلام الأخفش هذا نظر، فإن صرف الشىء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه، و لو صحّ ذلك للزم فى كلّ المجازات العقلية و اللفظية، و اللازم باطل فالملزوم مثله، و الأصل ها هنا إثبات الياء؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع، و لم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف و موافقة رؤوس الآى إجراء للفواصل مجرى القوافى، و

معنى وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ إذا يمضى، كقوله:

وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ «۲». وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ «۳» و قيل: معنى يسر: يسار فيه، كما يقال: ليل نائم و نهار صائم، كما فى قول الشاعر «۴»:

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السّرىو نمت و ما ليل المطىّ بنائم

و بهذا قال الأخفش و القتبى و غيرهما من أهل المعانى، و بالأوّل قال جمهور المفسرين. و قال قتادة و أبو العالية: وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ أى جاء و أقبل. و قال النخعى: أى استوى. قال عكرمة و قتادة و الكلبى و محمد ابن كعب: هى ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة اللّه سبحانه، و قيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها. و الراجح عدم تخصيص ليلة من الليالى دون أخرى هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به و تفخيمه من هذه الأمور المذكورة، و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى تلك الأمور، و التذكير بتأويل المذكور، أى: هل فى ذلك المذكور، من الأمور التى أقسمنا بها قسم، أى مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار لِذِي حِجْرٍ أى: عقل و لبّ، فمن كان ذا عقل و لبّ علم أن ما أقسم اللّه به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به، و مثل هذا قوله: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ «۵». قال الحسن: لِذِي حِجْرٍ أى: لذى حلم. و قال أبو مالك: لذى ستر من الناس. و قال الجمهور: الحجر: العقل. قال الفرّاء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذى عقل و لذى حلم و لذى ستر، الكلّ بمعنى العقل. و أصل الحجر: المنع، يقال لمن ملك نفسه و منعها: إنه لذو حجر، و منه سمى الحجر لامتناعه بصلابته، و منه حجر الحاكم على فلان، أى: منعه. قال و العرب تقول: إنه لذو حجر؛ إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها. ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم و عنادهم و تكذيبهم للرسل تحذيرا للكفار فى عصر نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و تخويفا لهم أن يصيبهم ما أصابهم

---

(۱). مريم: ۲۸.

(۲). المدثر: ۳۳.

(۳). التكوير: ۱۷.

(۴). هو جرير.

(۵). الواقعة: ۷۶.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۲۹

فقال: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ- إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ قرأ الجمهور بتنوين: عاد على أن يكون إرم عطف بيان لعاد، و المراد بعاد اسم أبيهم، و إرم: اسم القبيلة أو بدلا منه، و امتناع صرف إرم للتعريف و التأنيث. و قيل: المراد بعاد أولاد عاد، و هم عاد الأولى، و يقال لمن بعدهم عاد الأخرى، فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل؛ للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى، و لا بدّ من تقدير مضاف على كلا القولين: أى أهل إرم، أو سبط إرم؟ فإن إرم هو جدّ عاد، لأنه عاد بن إرم بن عوص بن سام ابن نوح. و قرأ الحسن و أبو العالية بإضافة عاد إلى إرم. و قرأ الجمهور: إِرَمَ بكسر الهمزة. و فتح الراء و الميم. و قرأ الحسن و مجاهد و قتادة و الضحاك إِرَمَ بفتح الهمزة و الراء، و قرأ معاذ بسكون الراء تخفيفا، و قرئ بإضافة إرم إلى ذات العماد. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التى هى الأعلام واحدها أرم، و فى الكلام تقديم و تأخير، أى: و الفجر كذا و كذا إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ أَ لَمْ تَرَ، أى: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، و هذه الرؤية رؤية القلب، و الخطاب للنبىّ، أو لكلّ من يصلح له، و قد كان أمر عاد و ثمود مشهورا عند العرب؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب، و كانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر

فرعون. و قـال مجاهـد أيضـا: إرم: أمـة من الأـمم، و قال قتادة: هى قبيلـة من عاد، و قيل: هما عادان، فالأولى هى إرم، و منه قول قيس بن الرّقيّات:

مجدا تليدا بناه أوّلهم أدرك عادا و قبله إرما

قال معمر: إرم إليه مجتمع عاد و ثمود، و كان يقال: عاد إرم و عاد و ثمود، و كانت القبيلتان تنسب إلى إرم. قال أبو عبيـدة: هما عادان، فالأولى إرم. و معنى ذات العماد: ذات القوّة و الشـدّة، مأخوذ من قوة الأعمدة، كذا قال الضـحاك: و قال قتادة و مجاهد: إنهم كـانوا أهـل عمـد سيارة فى الربيع، فـإذا هـاج النبت رجعوا إلى منـازلهم. و قال مقاتل: ذات العماد يعنى طولهم، كان طول الرجل منهم اثنى عشـرة ذراعا، و يقال رجل طويل العماد: أى القامـة. قال أبو عبيـدة: ذات العماد ذات الطول، يقال رجل معمـد: إذا كان طويلا.

و قال مجاهد و قتادة: أيضا كان عمادا لقومهم، يقال: فلان عميد القوم و عمودهم، أى: سيدهم. و قال ابن زيد: ذات العماد يعنى إحكام البنيان بالعمد. قال فى الصحاح: و العماد: الأبنية الرفيعة، تذكر و تؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

و نحن إذا عماد الحيّ خرّت على الأخفاض نمنع من يلينا

و قال عكرمة و سعيد المقبرى: هى دمشق، و رواه ابن وهب و أشهب عن مالك. و قال محمد بن كعب:

هى الإسـكندرية. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ هـذه صـفة لعاد، أى: لم يخلق مثل تلك القبيلـة فى الطول و الشدّة و القوّة، و هم الذين قالوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً «١» أو صفة للقرية على قول من قال: إن إرم اسم

---

(١). فصلت: ١٥.

لقريتهم أو للأرض التى كـانوا فيهـا. و الأـولى أولى. و يـدل عليه قراءة أبىّ التى لم يخلق مثلهم فى البلاد و قيل: الإرم: الهلاك. قـال الضـحاك إرم ذات العماد: أى أهلكهم فجعلهم رميما، و به قال شـهر بن حوشب. و قـد ذكر جماعـة من المفسـرين أن إرم ذات العمـاد اسم مدينـة مبنيـة بالـذهب و الفضـة قصورهـا و دورها و بساتينها، و إن حصبـاءها جواهر و ترابها مسك، و ليس بها أنيس و لاـ فيهـا سـاكن من بنى آدم، و إنهـا لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع، فتارة تكون باليمن، و تارة تكون بالشام، و تارة تكون بـالعراق، و تارة تكون بسائر البلاد، و هـذا كـذب بحت لا ينفق على من له أدنى تمييز. و زاد الثعلبى فى تفسـيره فقال: إن عبـد اللّه ابن قلابـة فى زمان معاوية دخل هذه المدينة، و هذا كذب على كذب و افتراء على افتراء، و قد أصـيب الإسـلام و أهله بداهيـة دهيـاء و فـاقرة عظمى و رزيـة كبرى من أمثـال هؤلاـء الكـذابين الـدجالين الـذين يجترءون على الكـذب، تـارة على بنى إسرائيل، و تارة على الأنبياء، و تارة على الصالحين، و تارة على ربّ العالمين، و تضاعف هذا الشرّ و زاد كثرة بتصدّر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف و التفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة و الأقاصـيص المنحولة و الأساطير المفتعلة فى تفسـير كتاب اللّه سـبحانه، فحرّفوا و غيروا و بدّلوا. و من أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر فى كتابى الّذى سمّيته:

«الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة».

ثم عطف سـبحانه القبيلـة الآخرة، و هى ثمود على قبيلة عاد فقال: وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ و هم قوم صالح سـموا باسـم جـدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، و معنى جابوا الصـخر: قطعوه، و الجوب القطع، و منه جاب البلاد: إذا قطعها، و منه سمّى جيب القميص لأنه جيب، أى: قطع. قال المفسـرون: أوّل من نحت الجبال و الصخور ثمود، فبنوا من المدائن ألفا و سبعمائة

مدينة كلها من الحجارة، و منه قوله سبحانه: وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً «١» و كانوا ينحتون الجبال و ينقبونها و يجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها، و قوله: بِالْوادِ متعلق بجابوا، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر، و هو وادى القرى. قرأ الجمهور: ثَمُودَ بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة، ففيه التأنيث و التعريف.

و قرأ يحيى بن وثّاب بالصرف على أنه اسم لأبيها. و قرأ الجمهور أيضا بالواد بحذف الياء وصلا و وقفا اتباعا لرسم المصحف. و قرأ ابن كثير بإثباتها فيهما. و قرأ قنبل فى رواية عنه بإثباتها فى الوصل دون الوقف وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ أى: ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدّونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتادا لأنهم يشدّون الملك كما تشد الأوتاد الخيام، و قيل: كان له أوتاد يعذّب الناس بها و يشدّهم إليها. و قد تقدم بيان هذا فى سورة ص الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ الموصول صفة لعاد و ثمود و فرعون، أى: طغت كل طائفة منهم فى بلادهم و تمرّدت و عتت، و الطغيان: مجاوزة الحدّ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ بالكفر و معاصى اللّه و الجور على عباده، و يجوز أن يكون الموصول فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: هم الذين طغوا،

---

(١). الشعراء: ١٤٩.

أو فى محل نصب على الذمّ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ أى: أفرغ عليهم و ألقى على تلك الطوائف سوط عذاب، و هو ما عذّبهم به. قال الزجاج: جعل سوطه الّذى ضربهم به العذاب، يقال: صبّ على فلان خلعة، أى: ألقاها عليه، و منه قول النابغة:

فصبّ عليه اللّه أحسن صنعه‌و كان له بين البريّة ناصرا

و منه قول الآخر:

ألم تر أنّ اللّه أظهر دينه‌و صبّ على الكفّار سوط عذاب

و معنى سوط عذاب: نصيب عذاب، و ذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم فى الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. و قيل: ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم، و كان السوط عندهم هو نهاية ما يعذّب به. قال الفرّاء: هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، و أصل ذلك أن السوط هو عذابهم الّذى يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب. و قيل معناه: عذاب يخالط اللحم و الدم، من قولهم: يسوطه سوطا، أى: خلطه، فالسوط: خلط الشي‌ء بعضه ببعض، و منه قول كعب بن زهير:

لكنّها خلّة قد سيط من دمهافجع و ولع «١» و إخلاف و تبديل

و قال الآخر:

أ حارث إنّا لو تساط دماؤناتزايلن حتّى لا يمسّ دم دما

و قال آخر:

فسطها ذميم الرّأى غير موفّق‌فلست على تسويطها بمعان

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ قد قدّمنا قول من قال إن هذا جواب القسم. و الأولى أن الجواب محذوف، و هذه الجملة تعليل لما قبلها، و فيها إرشاد إلى أن كفار قومه صلّى اللّه عليه و سلّم سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار، و معنى بالمرصاد: أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيرا و بالشرّ شرّا. قال الحسن و عكرمة: أى عليه طريق العباد لا يفوته أحد، و الرصد و المرصاد: الطريق. و قد تقدّم بيانه فى سورة براءة، و تقدّم أيضا عند قوله: إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً «٢».

و قد أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صححه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: وَ الْفَجْرِ

قال: فجر النهار. و أخرج ابن جرير عنه قال: يعنى صلاة الفجر. و أخرج سعيد

---

(۱). «فجع»: إصابة بمكروه. «ولع»: كذب.

(۲). النبأ: ۲۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳۲

ابن منصور و البيهقى فى الشعب و ابن عساكر عنه أيضا فى قوله: وَ الْفَجْرِ قال: هو المحرّم فجر السنة، و قد ورد فى فضل صوم شهر محرّم أحاديث صحيحة، و لكنها لا تدلّ على أنه المراد بالآية لا مطابقة و لا تضمنا و لا التزاما. و أخرج أحمد و النسائى و البزار و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن جابر «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: وَ الْفَجْرِ- وَ لَيالٍ عَشْرٍ- وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ قال: إن العشر عشر الأضحى، و الوتر: يوم عرفة، و الشفع: يوم النحر. و فى لفظ: هى ليالى من ذى الحجة».

و أخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد اللّه أنه دخل على ابن عمر هو و أبو سلمة بن عبد الرّحمن فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة، فقال أبو سلمة: أ ليس هذه الليالى العشر التى ذكرها اللّه فى القرآن؟ فقال ابن عمر:

و ما يدريك؟ قال: ما أشك، قال: بلى فشكّ. و قد ورد فى فضل هذه العشر أحاديث. و ليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما فى القرآن هنا بوجه من الوجوه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ لَيالٍ عَشْرٍ قال: هى العشر الأواخر من رمضان. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و صححه عن عمران بن حصين «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن الشفع و الوتر، فقال:

هى الصلاة بعضها شفع و بعضها وتر». و فى إسناده رجل مجهول، و هو الراوى له عن عمران بن حصين.

و قد روى عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول. و قال الترمذى بعد إخراجه بالإسناد الّذى فيه الرجل المجهول: هو حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة. قال ابن كثير: و عندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه، و اللّه أعلم. قال: و لم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع و الوتر. و قد أخرج هذا الحديث موقوفا على عمران بن حصين عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير، فهذا يقوّى ما قاله ابن كثير. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله: وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ فقال: كل شىء شفع فهو اثنان، و الوتر واحد. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن أبى أيوب عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنه سئل عن الشفع و الوتر فقال: يومان و ليلة، يوم عرفة، و يوم النحر، و الوتر ليلة النحر ليلة جمع». و أخرج ابن جرير عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الشفع اليومان، و الوتر اليوم الثالث». و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن سعد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن الزبير أنه سئل عن الشفع و الوتر فقال: الشفع: قول اللّه فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ «۱» و الوتر: اليوم الثالث. و فى لفظ: الوتر أوسط أيام التشريق. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، من طرق عن ابن عباس قال: الشفع:

يوم النحر، و الوتر: يوم عرفة. و أخرج ابن جرير عنه وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ قال: إذا ذهب. و أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ وَ الْفَجْرِ إلى قوله: إِذا يَسْرِ قال: هذا قسم على إن ربك بالمرصاد.

و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشعب،

---

(١). البقرة: ٢٠٣.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٣٣

من طرق عن ابن عباس فى قوله: قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ قال: لـذى حجى و عقل و نهى. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: بِعادٍ- إِرَمَ قال: يعنى بالإرم: الهالـك، ألا- ترى أنـك تقول: أرم بنو فلان، ذاتِ الْعِمادِ يعنى طولهم مثل العماد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن المقدام بن معدى كرب عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه ذكر إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ فقال: «كان الرجل منهم يأتى إلى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أىّ حىّ» أراد فيهلكهم. و فى إسناده رجل مجهول؛ لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدّثه عن المقدام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ قال: و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: كانوا ينحتون من الجبال بيوتا وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ قال: الأوتاد: الجنود الذين يشدّون أمره. و أخرج الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود فى قوله: ذِي الْأَوْتادِ قال: وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ قال: يسمع و يرى. و أخرج الحاكم و صححه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ قال: من وراء الصراط جسور: جسر عليه الأمانة، و جسر عليه الرحم، و جسر عليه الربّ عزّ و جلّ.

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٥ الى ٣٠]

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (١٩)

وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَ جِي‌ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى (٢٣) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (٢٤)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (٢٩)

وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدلّ على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير و عند إصابة الشرّ، و أن مطمح أنظارهم و معظم مقاصدهم هو الدنيا فقال: فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ أى: امتحنه و اختبره بالنعم فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ أى: أكرمه بالمال و وسّع عليه رزقه فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ فرحا بما نال و سرورا بما أعطى، غير شاكر للّه على ذلك و لا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه و اختبار لحاله و كشف لما يشتمل عليه من الصبر و الجزع و الشكر للنعمة و كفرانها، و «ما» فى قوله: فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ تفسير للابتلاء. و معنى أَكْرَمَنِ أى: فضلنى بما أعطانى من المال و أسبغه علىّ من النعم لمزيد استحقاقى لذلك و كونى موضعا له، و الإنسان مبتدأ، و خبره «فيقول ربى أكرمن» و دخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط، و الظرف المتوسط بين المبتدأ و الخبر و إن تقدّم لفظا فهو مؤخر فى المعنى، أى: فأما الإنسان فيقول ربى أكرمنى وقت ابتلائه بالإنعام. قال الكلبى: الإنسان هو الكافر أبىّ بن خلف. و قال مقاتل: نزلت فى أمية بن خلف،

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٣٤

و قيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة و أبى حذيفة بن المغيرة وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ أى: اختبره و عامله معاملة من يختبره فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أى: ضيّقه و لم يوسعه له، و لا بسط له فيه فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ أى:

أولانى هوانا. و هـذه صـفة الكافر الّـذى لا يؤمن بالبعث، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا فى متاعها، و لا إهانة عنده إلا فوتها و عدم وصوله إلى ما يريـد من زينتها، فأما المؤمن فالكرامـة عنـده أن يكرمه اللّه بطاعته و يوفّقه لعمل الآخرة، و يحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعـدم تيقّظه أن مـا صـار إليه من الخير و مـا أصيب به من الشـرّ فى الـدنيا ليس إلا للاختبار و الامتحان، و أن الـدنيا بأسـرها لا تعـدل عنـد اللّه جناح بعوضـة، و لو كانت تعـدل جناح بعوضة ما سـقى الكافر منها شـربة ماء. قرأ نافع بإثبات الياء فى «أكرمن و أهانن» وصلا و حذفهما وقفا، و قرأ ابن كثير فى رواية البزى عنه و ابن محيصن و يعقوب بإثباتهما وصلا و وقفا، و قرأ البـاقون بحـذفهما فى الوصل و الوقف اتباعا لرسم المصـحف و لموافقـة رؤوس الآى، و الأصل إثباتها لأنها اسم، و من الحـذف قول الشاعر:

و من كاشح ظاهر غمرهإذا ما انتصبت له أنكرن

أى: أنكرنى. و قرأ الجمهور «فقدر» بالتخفيف، و قرأ ابن عامر بالتشديد، و هما لغتان. و قرأ الحرميان و أبو عمرو «ربى» بفتح الياء فى الموضعين و أسكنها الباقون. و قوله: كَلَّا ردع للإنسان القائل فى الحالتين ما قال: و زجر له، فإن اللّه سبحانه قد يوسع الرزق و يبسـط النعم للإنسـان لاـ لكرامته، و يضـيقه عليه لاـ لإهـانته، بل للاختبار و الامتحان كما تقـدّم. قال الفراء: كلّا فى هـذا الموضـع بمعنى أنـه لم يكن ينبغى للعبـد أن يكـون هكـذا، و لكن يحمـد اللّه على الغنى و الفقر. ثم انتقـل سبحانه من بيـان سـوء أقـوال الإنسـان إلى بيـان سوء أفعـاله فقـال: بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ و الالتفات إلى الخطاب لقصـد التوبيـخ و التقريع على قراءة الجمهور بالفوقيـة. و قرأ أبـو عمرو و يعقوب بالتحتيـة على الخبر، و هكـذا اختلفوا فيمـا بعـد هـذا من الأفعـال، فقرأ الجمهور «تحضون، و تـأكلون، و تحبون» بالفوقيـة على الخطـاب فيهـا. و قرأ أبو عمرو و يعقوب بالتحتيـة فيهـا، و الجمع فى هـذه الأفعـال باعتبار معنى الإنسـان، لأـن المراد به الجنس، أى: بـل لكم أفعـال هى أقبـح مما ذكر، و هى أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله و تمنعونه من فضل أموالكم. قال مقاتل: نزلت فى قدامة بن مظعون و كان يتيما فى حجر أمية بن خلف. وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ قرأ الجمهور «تحضون» من حضّه على كـذا، أى: أغراه به، و مفعوله محـذوف، أى: لاـ تحضون أنفسـكم، أو لاـ يحضّ بعضـكم بعضـا على ذلـك و لاـ يـأمر به و لاـ يرشـد إليه، و قرأ الكوفيون «تحـاضون» بفتـح التاء و الحاء بعـدها ألف، و أصـله تتحاضون، فحـذف إحدى التاءين، أى: لا يحضّ بعضـكم بعضا. و قرأ الكسائى فى رواية عنه و السـلمى «تحاضون» بضم التاء من الحضّ، و هـو الحث. و قـوله: عَلى طَعـامِ الْمِسْـكِينِ متعلّق بتحضون، و هو إمـا اسم مصـدر، أى: على إطعـام المسـكين، أو اسم للمطعوم، و يكون على حذف مضاف، أى: على بذل طعام المسـكين، أو على إعطاء طعام المسـكين وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أصله الوراث، فأبدلت التاء من الواو المضمومة، كما فى تجاه و وجاه، و المراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم، و كذلك أموال النساء،

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳۵

و ذلـك أنهم كـانوا لاـ يورّثون النساء و الصبيان و يأكلون أموالهم أَكْلًا لَمًّا أى: أكلا شديـدا، و قيل معنى لمّا: جمعا، من قولهم: لممت الطعـام؛ إذا أكلته جميعـا. قـال الحسن: يأكـل نصـيبه و نصـيب اليتيم، و كـذا قال أبو عبيـدة: و أصل اللمّ فى كلام العرب: الجمع، يقال: لممت الشىء ألمه لما: جمعته، و منه قولهم:

لمّ اللّه شعثه: أى جمع ما تفرّق من أموره، و منه قول النابغة:

و لست بمستبق أخا لا تلمّهعلى شعث أىّ الرّجال المهذّب

قال الليث: اللمّ: الجمع الشديـد، و منه حجر ملموم، و كتيبـة ملمومـة، و للآكل: يلمّ الثريد فيجمعه ثم يأكله. و قال مجاهد: يسفّه سفّا. و قال ابن زيد: هو إذا أكل ماله ألمّ بمال غيره فأكله و لا يفكر فيما أكل من خبيث و طيب وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا أى: حبّا كثيرا، و الجمّ: الكثير، يقـال: جمّ المـاء فى الحوض؛ إذا كثر و اجتمع، و الجملـة: المكان الّـذى يجتمع فيه الماء. ثم كرّر سـبحانه

الردع لهم و الزجر فقال كَلَّا أى: ما هكذا ينبغى أن يكون عملكم. ثم استأنف سبحانه فقال إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا و فيه وعيد لهم بعد الردع و الزجر، و الدكّ: الكسر و الدق، و المعنى هنا: أنها زلزلت و حركت تحريكا بعد تحريك. قال ابن قتيبة: دكّت جبالها حتى استوت. قال الزّجّاج: أى: تزلزلت فدكّ بعضها بعضا. قال المبرّد: أى: بسطت و ذهب ارتفاعها. قال: و الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط، و قد تقدّم الكلام على الدكّ فى سورة الأعراف، و فى سورة الحاقة. و المعنى: أنها دكت مرة بعد أخرى، و انتصاب «دكا» الأوّل على أنه مصدر مؤكد للفعل، و «دكا» الثانى تأكيد للأوّل، كذا قال ابن عصفور. و يجوز أن يكون النصب على الحال، أى: حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة، كما يقال: علّمته الحساب بابا بابا، و علّمته الخطّ حرفا حرفا، و المعنى: أنه كرّر الدك عليها حتى صارت هباء منبثا. وَ جاءَ رَبُّكَ أى: جاء أمره و قضاؤه و ظهرت آياته، و قيل: المعنى: أنها زالت الشبه فى ذلك اليوم، و ظهرت المعارف، و صارت ضرورية، كما يزول الشكّ عن مجيء الشيء الّذى كان يشكّ فيه، و قيل: جاء قهر ربّك و سلطانه و انفراده و التدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئا من ذلك وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا انتصاب «صفا صفا» على الحال، أى:

مصطفين، أو ذوى صفوف. قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، و أهل كلّ سماء صفّ كلّ على حدة.

قال الضحاك: أهل كلّ سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفا محيطين بالأرض و من فيها، فيكونون سبعة صفوف وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ «يومئذ» منصوب بجيء، و القائم مقام الفاعل بجهنم، و جوّز مكّى أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل، و ليس بذاك. قال الواحدى: قال جماعة من المفسرين: جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها حتى تنصب عن يسار العرش، فلا يبقى ملك مقرّب و لا نبى مرسل إلا جثا لركبتيه يقول: يا ربّ نفسى نفسى. و سيأتى الّذى نقله هذا عن جماعة المفسرين مرفوعا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إن شاء اللّه. يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ «يومئذ» هذا بدل من يومئذ الّذى قبله، أى: يوم جيء بجهنم يتذكر الإنسان، أى: يتّعظ و يذكر ما فرط منه و يندم على ما قدّمه فى الدنيا من الكفر و المعاصى. و قيل: إن قوله «يومئذ» الثانى بدل من قوله «إذا دكت» و العامل فيهما هو قوله:

فتح القدير، ج‌5، ص: 536

يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى أى: و من أين له التّذكّر و الاتّعاظ، و قيل: هو على حذف مضاف، أى: و من أين له منفعة الذكرى. قال الزّجّاج: يظهر التوبة و من أين له التوبة؟ يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا يقول الإنسان، و يجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله: يتذكر، و المعنى: يتمنى أنه قدّم الخير و العمل الصالح، و اللام فى لحياتى بمعنى لأجل حياتى، و المراد حياة الآخرة، فإنها الحياة بالحقيقة؛ لأنها دائمة غير منقطعة. و قيل: إن اللام بمعنى فى، و المراد حياة الدنيا، أى: يا ليتنى قدّمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا أنتفع بها هذا اليوم، و الأوّل أولى.

قال الحسن: علم و اللّه أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ أى: يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب اللّه أحد وَ لا يُوثِقُ كَ وَثاقَهُ أَحَدٌ أو لا يتولى عذاب اللّه و وثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له، و الضميران على التقديرين فى عذابه و وثاقه للّه عزّ و جلّ، و هذا على قراءة الجمهور يعذب و يوثق مبنيين للفاعل. و قرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان، أى: لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد و لا يوثق كوثاقه أحد، و المراد بالإنسان الكافر، أى: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر، و قيل: إبليس، و قيل: المراد به أبىّ بن خلف.

قال الفرّاء: المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، و لا يوثق بالسلاسل و الأغلال كوثاقه أحد لتناهيه فى الكفر و العناد. و قيل: المعنى: أنه لا يعذب مكانه أحد و لا يوثق مكانه أحد، و لا تؤخذ منه فدية، و هو كقوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «1» و العذاب بمعنى التعذيب، و الوثاق بمعنى التوثيق، و اختار أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الكسائى، قال: و تكون الهاء فى

الموضعين ضمير الكافر؛ لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب اللّه. قال أبو علىّ الفارسى: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة، أى: لا يعذب أحد أحدا مثل تعذيب هذا الكافر.

و لما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ المطمئنة: هى الساكنة الموقنة بالإيمان و توحيد اللّه، الواصلة إلى ثلج اليقين؛ بحيث لا يخالطها شكّ و لا يعتريها ريب. قال الحسن: هى المؤمنة الموقنة. و قال مجاهد: الراضية بقضاء اللّه التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، و أن ما أصابها لم يكن ليخطئها. و قال مقاتل، هى الآمنة المطمئنة. و قال ابن كيسان: المطمئنة بذكر اللّه، و قيل: المخلصة. قال ابن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت و عند البعث ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ أى: ارجعى إلى اللّه راضِيَةً بالثواب الّذى أعطاك مَرْضِيَّةً عنده، و قيل: ارجعى إلى موعده، و قيل: إلى أمره. و قال عكرمة و عطاء: معنى ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ إلى جسدك الّذى كنت فيه، و اختاره ابن جرير، و يدل على هذا قراءة ابن عباس «فادخلى فى عبدى» بالإفراد، و الأوّل أولى فَادْخُلِي فِي عِبادِي أى: فى زمرة عبادى الصالحين، و كونى من جملتهم، و انتظمى فى سلكهم

---

(۱). الأنعام: ۱۶۴.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳۷

وَ ادْخُلِي جَنَّتِي معهم، قيل: إنه يقال لها ارجعى إلى ربك عند خروجها من الدنيا، و يقال لها: ادخلى فى عبادى و ادخلى جنتى يوم القيامة، و المراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم، و لا ينافى ذلك نزولها فى نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَكْلًا لَمًّا قال: سفا، و فى قوله: حُبًّا جَمًّا قال: شديدا، و أخرج ابن جرير عنه أَكْلًا لَمًّا قال: شديدا.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا قال: تحريكها. و أخرج مسلم و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى يقول: و كيف له؟ و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ الآية قال: لا يعذب بعذاب اللّه أحد و لا يوثق بوثاق اللّه أحد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عنه أيضا فى قوله: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ قال: المؤمنة ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ يقول: إلى جسدك. قال: «نزلت هذه الآية و أبو بكر جالس، فقال: يا رسول اللّه ما أحسن هذا، فقال: أما إنه سيقال لك هذا». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، عن سعيد بن جبير نحوه مرسلا. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول نحوه عن أبى بكر الصديق و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ قال: هو النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ المصدّقة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: تردّ الأرواح يوم القيامة فى الأجساد. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً قال: بما أعطيت من الثواب مَرْضِيَّةً عنها بعملها فَادْخُلِي فِي عِبادِي المؤمنين. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه، ثم لم ير خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندرى من تلاها يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ- ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً- فَادْخُلِي فِي عِبادِي- وَ ادْخُلِي جَنَّتِي و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عكرمة مثله.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۳۸

سورة البلد

اشارة

و يقال سورة: لا أقسم، هى عشرون آية و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة لا أقسم بهذا البلد بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البلد (۹۰): الآيات ۱ الى ۲۰]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (۲) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی كَبَدٍ (۴)

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (۵) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (۶) أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (۷) أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (۸) وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ (۹)

وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (۱۰) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (۱۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (۱۲) فَكُّ رَقَبَةٍ (۱۳) أَوْ إِطْعامٌ فِی يَوْمٍ ذِی مَسْغَبَةٍ (۱۴)

يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (۱۵) أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (۱۶) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (۱۷) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۱۸) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (۱۹)

عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (۲۰)

قوله: لا أُقْسِمُ لا زائدة، و المعنى أقسم بِهذَا الْبَلَدِ و قد تقدّم الكلام على هذا فى تفسير لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ «۱»، و من زيادة «لا» فى الكلام فى غير القسم قول الشاعر:

تذكّرت ليلى فاعترتنى صبابةو كاد صميم القلب لا يتصدّع «۲»

أى: يتصدّع، و من ذلك قوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «۳» أى: أن تسجد. قال الواحدى:

أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام و هو مكة. قرأ الجمهور «لا أقسم» و قرأ الحسن و الأعمش «لأقسم» من غير ألف، و قيل: هو نفى للقسم، و المعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. و قال مجاهد: إن «لا» ردّ على من أنكر البعث، ثم ابتدأ فقال أقسم، و المعنى: ليس الأمر كما تحسبون، و الأوّل أولى. و المعنى: أقسم بالبلد الحرام الّذى أنت حلّ فيه. و قال الواسطى: إن المراد بالبلد المدينة، و هو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية، و جملة قوله: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ معترضة، و المعنى: أقسم بهذا البلد وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ- لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی كَبَدٍ و اعترض بينهما بهذه الجملة، و المعنى: و من المكابد أن مثلك على عظيم حرمته يستحل بهذا البلد كما يستحلّ الصيد فى غير الحرم. و قال الواحدى: الحلّ و الحلال و المحل واحد، و هو ضدّ المحرّم، أحلّ اللّه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة يوم

---

(۱). القيامة: ۱.

(۲). فى تفسير القرطبى: لا يتقطع.

(٣). الأعراف: ١٢.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٣٩

الفتح حتى قاتل، و قد قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «لم تحلّ لأحد قبلى، و لا تحلّ لأحد بعدى، و لم تحلّ لى إلا ساعة من نهار». قال: و المعنى أن اللّه لما ذكر القسم بمكة دلّ ذلك على عظم قدرها مع كونها حراما، فوعد نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يحلّها له حتى يقاتل فيها و يفتحها على يده، فهذا وعد من اللّه تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلا، انتهى. فالمعنى: و أنت حلّ بهذا البلد فى المستقبل، كما فى قوله: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ «١» قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شىء فأنت حلّ. قال قتادة: أنت حلّ له لست بآثم، يعنى: أنك غير مرتكب فى هذه البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر و المعاصى. و قيل: المعنى: لا أقسم بهذا البلد و أنت حالّ به و مقيم فيه و هو محلك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى: لا أقسم به و أنت حالّ به، فأنت أحقّ بالإقسام بك، و على القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الّذى أنت مقيم به تشريفا لك و تعظيما لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيما شريفا، و زاد على ما كان عليه من الشرف و العظم، و لكن هذا إذا تقرّر فى لغة العرب أن لفظ حلّ يجىء بمعنى حلّ، و كما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ عطف على البلد. قال قتادة و مجاهد و الضحاك و الحسن و أبو صالح وَ والِدٍ أى: آدم وَ ما وَلَدَ أى: و ما تناسل من ولده أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق اللّه على وجه الأرض لما فيهم من البيان و العقل و التدبير، و فيهم الأنبياء و العلماء و الصالحون. و قال أبو عمران الجونى: الوالد: إبراهيم و ما ولد: ذريته. قال الفرّاء: إن «ما» عبارة عن الناس كقوله: ما طابَ لَكُمْ «٢» و قيل: الوالد: إبراهيم، و الولد: إسماعيل و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و قال عكرمة و سعيد بن جبير: وَ والِدٍ يعنى الّذى يولد له وَ ما وَلَدَ يعنى العاقر الّذى لا يولد له، و كأنهما جعلا «ما» نافية، و هو بعيد، و لا يصحّ ذلك إلا بإضمار الموصول: أى: و والد و الّذى ما ولد، و لا يجوز إضمار الموصول عند البصريين، و قال عطية العوفى: هو عام فى كل والد و مولود من جميع الحيوانات، و اختار هذا ابن جرير لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ هذا جواب القسم، و الإنسان هو هذا النوع الإنسانى، و الكبد: الشدّة و المشقة، يقال: كابدت الأمر: قاسيت شدّته، و الإنسان لا يزال فى مكابدة الدنيا و مقاساة شدائدها حتى يموت، و أصل الكبد: الشدّة، و منه تكبّد اللبن: إذا غلظ و اشتدّ، و يقال: كبد الرجل؛ إذا وجعت كبده، ثم استعمل فى كل شدّة و مشقة، و منه قول أبى الأصبغ:

لى ابن عمّ لو أن النّاس فى كبدلظلّ محتجرا بالنّبل يرمينى

قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا و شدائد الآخرة. و قال أيضا: يكابد الشكر على السرّاء، و يكابد الصبر على الضرّاء، لا يخلو عن أحدهما. قال الكلبى: نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح يقال له أبو الأشدين «٣»، و كان يأخذ الأديم العكاظىّ و يجعله تحت رجليه، و يقول: من أزالنى عنه فله كذا، فيجذبه

---

(١). الزمر: ٣٠.

(٢). النساء: ٣.

(٣). فى الكشاف: أبو الأشدّ.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٤٠

عشرة حتى يتمزّق و لا تزول قدماه، و كان من أعداء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و فيه نزل: أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يعنى لقوّته، و يكون معنى فِي كَبَدٍ على هذا: فى شدّة خلق، و قيل: معنى فِي كَبَدٍ أنه جرىء القلب غليظ الكبد أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ

عَلَيْهِ أَحَدٌ أى: يظنّ ابن آدم أن لن يقدر عليه و لا ينتقم منه أحد، أو يظنّ أبو الأشدّين أن لن يقدر عليه أحد، و أن هى المخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن مقدّر. ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال: يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً أى: كثيرا مجتمعا بعضه على بعض. قال الليث: مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته. قال الكلبى و مقاتل: يقول أهلكت فى عداوة محمد مالا كثيرا. و قال مقاتل: نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل؛ أذنب فاستفتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فأمره أن يكفّر، فقال: لقد ذهب مالى فى الكفّارات و النفقات منذ دخلت فى دين محمد. قرأ الجمهور «لبدا» بضم اللام و فتح الباء مخفّفا، و قرأ مجاهد و حميد بضم اللام و الباء مخففا. و قرأ أبو جعفر بضم اللام و فتح الباء مشدّدا. قال أبو عبيدة: لبد: فعل من التلبيد، و هو المال الكثير بعضه على بعض. قال الزجاج: فعل للكثرة، يقال رجل حطم: إذا كان كثير الحطم. قال الفرّاء: واحدته لبدة و الجمع لبد. و قد تقدّم بيان هذا فى سورة الجنّ أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ أى: أ يظنّ أنه لم يعاينه أحد، قال قتادة: أ يظنّ أن اللّه سبحانه لم يره و لا يسأله عن ماله من أين كسبه، و أين أنفقه؟ و قال الكلبى: كان كاذبا لم ينفق ما قال، فقال اللّه: أ يظنّ أن اللّه لم ير ذلك منه، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق.

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال: أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ يبصر لهما وَ لِساناً ينطق به وَ شَفَتَيْنِ يستر بهما ثغره. قال الزجاج: المعنى ألم نفعل به ما يدلّ على أن اللّه قادر على أن يبعثه، و الشفة محذوفة الهاء، و أصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ النجد: الطريق فى ارتفاع. قال المفسرون: بيّنّا له طريق الخير و طريق الشرّ. قال الزجاج: المعنى أ لم نعرفه طريق الخير و طريق الشرّ، مبينتين كتبيّن الطريقين العاليتين. و قال عكرمة و سعيد بن المسيب و الضحاك: النجدان: الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد و رزقه، و الأوّل أولى. و أصل النجد المكان المرتفع، و جمعه نجود، و منه سمّيت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان: الطريقان العاليان، و منه قول امرئ القيس:

فريقان منهم قاطع بطن نخلةو آخر منهم قاطع نجد كبكب

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ الاقتحام: الرمى بالنفس فى شىء من غير روية، يقال منه: قحم فى الأمر قحوما، أى: رمى بنفسه فيه من غير روية، و تقحيم النفس فى الشىء: إدخالها فيه من غير رويّة، و القحمة بالضم:

المهلكة. و العقبة فى الأصل: الطريق التى فى الجبل؛ سمّيت بذلك لصعوبة سلوكها، و هو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس و الهوى و الشيطان فى أعمال البر، فجعله كالذى يتكلّف صعود العقبة. قال الفرّاء و الزجاج:

ذكر سبحانه هنا «لا» مرة واحدة، و العرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضى فى مثل هذا الموضع حتى يعيدوها

فتح القدير، ج‌5، ص: 541

فى كلام آخر كقوله: فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى «1» و إنما أفردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله: ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا قائما مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة، و لا آمن.

قال المبرد و أبو على الفارسى: إن «لا» هنا بمعنى لم، أى: فلم يقتحم العقبة، و روى نحو ذلك عن مجاهد، فلهذا لم يحتج إلى التكرير، و منه قول زهير:

و كان طوى كشحا على مستكنّةفلا هو أبداها و لم يتقدّم

أى: فلم يبدها و لم يتقدم، و قيل: هو جار مجرى الدعاء كقولهم: لا نجا. قال أبو زيد و جماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الّذى بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلا اقتحم العقبة.

ثم بيّن سبحانه العقبة فقال وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ أى: أىّ شىء أعلمك ما اقتحامها فَكُّ رَقَبَةٍ أى هى إعتاق رقبة و تخليصها من أسار الرّق، و كل شىء أطلقته فقد فككته، و منه: فك الرهن، و فك الكتاب، فقد بيّن سبحانه أن العقبة هى هذه القرب

المذكورة التى تكون بها النجاة من النار. قال الحسن و قتادة: هى عقبة شديدة فى النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة اللّه. و قال مجاهد و الضحاك و الكلبى: هى الصراط الّذى يضرب على جهنم كحدّ السيف. و قال كعب: هى نار دون الجسر. قيل: و فى الكلام حذف، أى: و ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ قرأ أبو عمرو و ابن كثير و الكسائى «فك رقبة» على أنه فعل ماض و نصب رقبة على المفعولية، و هكذا قرءوا أو أطعم: على أنه فعل ماض. و قرأ الباقون فكّ أو إطعام على أنهما مصدران و جرّ رقبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلا من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل: فلا فك و لا أطعم، و الفكّ فى الأصل: حلّ القيد، سمّى العتق فكّا لأن الرق كالقيد، و سمى المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته أَوْ إِطْعامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ المسغبة: المجاعة، و السّغب: الجوع، و الساغب: الجائع. قال الراغب: يقال منه: سغب الرجل سغبا و سغوبا فهو ساغب و سغبان، و المسغبة مفعلة منه، و أنشد أبو عبيدة:

فلو كنت حرّا يا ابن قيس بن عاصملما بتّ شبعانا و جارك ساغبا

قال النخعى فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ أى: عزيز فيه الطعام يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أى: قرابة، يقال:

فلان ذو قرابتى و ذو مقربتى، و اليتيم فى الأصل: الضعيف، يقال: يتم الرجل: إذا ضعف، و اليتيم عند أهل اللغة: من لا أب له، و قيل: هو من لا أب له و لا أمّ، و منه قول قيس بن الملوّح:

إلى اللّه أشكو فقد ليلى كما شكاإلى اللّه فقد الوالدين يتيم

أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ أى: لا شىء؛ له كأنه لصق بالتراب لفقره، و ليس له مأوى إلا التراب، يقال: ترب الرجل يترب تربا و متربة: إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرّا. قال مجاهد: هو الّذى لا يقيه

---

(١). القيامة: ٣١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٤٢

من التراب لباس و لا غيره. و قال قتادة: هو ذو العيال. و قال عكرمة: هو المديون. و قال أبو سنان: هو ذو الزّمانة. و قال ابن جبير: هو الّذى ليس له أحد. و قال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، و الأوّل أولى، و منه قول الهذلىّ:

و كنّا إذا ما الضّيف حلّ بأرضناسفكنا دماء البدن فى تربة الحال

قرأ الجمهور «ذى مسغبة» على أنه صفة ليوم، و يتيما هو مفعول إطعام. و قرأ الحسن «ذا مسغبة» بالنصب على أنه مفعول إطعام، أى: يطعمون ذا مسغبة، و يتيما بدل منه ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا عطف على المنفىّ بلا، و جاء بثم للدلالة على تراخى رتبة الإيمان و رفعة محلّه. و فيه دليل على أن هذه القرب إنما نفع مع الإيمان، و قيل: المعنى: ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم. و قيل المعنى: أنه أتى بهذه القرب لوجه اللّه وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ معطوف على آمنوا، أى: أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة اللّه، و عن معاصيه، و على ما أصابهم من البلايا و المصائب وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أى: بالرحمة على عباد اللّه فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم و المسكين، و استكثروا من فعل الخير بالصدقة و نحوها، و الإشارة بقوله:

أُولئِكَ* إلى الموصول باعتبار اتّصافه بالصفات المذكورة هم أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ أى: أصحاب جهة اليمين، أو أصحاب اليمن، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، و قيل غير ذلك مما قد قدّمنا ذكره فى سورة الواقعة وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا أى: بالقرآن، أو بما هو أعمّ منه، فتدخل الآيات التنزيلية و الآيات التكوينية التى تدلّ على الصانع سبحانه هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ أى: أصحاب الشمال، أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم، أو غير ذلك مما تقدّم عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ أى: مطبقة مغلقة، يقال:

آصدت الباب و أوصدته؛ إذا أغلقته و أطبقته، و منه قول الشاعر:

تحنّ إلى أجبال مكّة ناقتىو من دونها أبواب صنعاء مؤصده

قرأ الجمهور «موصدة» بالواو. و قرأ أبو عمرو و حمزة و حفص بالهمزة مكان الواو، و هما لغتان، و المعنى واحد.

و قد أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ قال: مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ يعنى بذلك النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أحلّ اللّه له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء و يستحيى من شاء، فقتل له يومئذ ابن خطل صبرا، و هو آخذ بأستار الكعبة، فلم يحلّ لأحد من الناس بعد النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أن يفعل فيها حراما حرّمه اللّه، فأحلّ اللّه له ما صنع بأهل مكة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ قال مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ قال: أنت يا محمد يحلّ لك أن تقاتل فيه، و أما غيرك فلا. و أخرج ابن مردويه عن أبى برزة الأسلمى قال: نزلت هذه الآية لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ- وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ فىّ، خرجت فوجدت عبد اللّه بن خطل و هو متعلّق بأستار الكعبة، فضربت عنقه بين الركن و المقام. و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عباس لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ- وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۳

الْبَلَدِ قال: أحلّ له أن يصنع فيه ما شاء وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ قال: يعنى بالوالد: آدم، و ما ولد: ولده. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية. قال:

الوالد: الّذى يلد، و ما ولد: العاقر لا يلد من الرجال و النساء. و أخرج ابن جرير و الطبرانى عنه أيضا [فى قوله: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ قال: مكة وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ قال: مكة وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ قال: آدم «۱» لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: اعتدال و انتصاب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: فى نصب. و أخرج ابن جرير عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: فى شدّة. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: فى شدّة خلق ولادته و نبت أسنانه و معيشته و ختانه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: خلق اللّه كل شىء يمشى على أربع إلا الإنسان فإنه خلق منتصبا. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ قال: منتصبا فى بطن أمه أنه قد و كل له ملك إذا نامت الأمّ أو اضطجعت رفع رأسه، و لو لا ذلك لغرق فى الدم. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله: مالًا لُبَداً قال: كثيرا. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، عن ابن مسعود فى قوله: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ قال: سبيل الخير و الشرّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ قال: الهدى و الضلالة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عنه قال: سبيل الخير و الشرّ. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس قال: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «هما نجدان، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير».

تفرّد به سنان بن سعد، و يقال: سعد بن سنان. و قد وثّقه يحيى بن معين. و قال الإمام أحمد و النسائى و الجوزجانى: منكر الحديث. و قال أحمد: تركت حديثه لاضطرابه، قد روى خمسة عشر حديثا منكرة كلها، ما أعرف منها حديثا واحدا، يشبه حديثه حديث الحسن البصرى، لا يشبه حديث أنس. و أخرجه عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه من طرق عن الحسن قال: ذكر لنا أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول، فذكره. و هذا مرسل، و كذا رواه قتادة مرسلا. أخرجه عنه ابن جرير و يشهد له ما أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أن النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يا أيها الناس إنهما نجدان: نجد خير، و نجد شرّ، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير»، و يشهد له أيضا ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«إنما هما نجدان: نجد الخير، و نجد الشرّ، فلا يكن نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير». و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و

ابن جرير و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ قال: الثّديين.

---

(۱). ما بين حاصرتين سقط من الأصل و استدرک من الدر المنثور (۸/ ۵۱۹)

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۴

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ قال: جبل زلال فى جهنم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: العقبة النار. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: عقبة بين الجنة و النار. و أخرج الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عائشة قالت: لما نزل فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ قيل: يا رسول اللّه ما عند أحدنا ما يعتق إلا أنّ عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه، فلو أمرناهنّ بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لأن أمتع بسوط فى سبيل اللّه أحبّ إلىّ من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد». و أخرجه ابن جرير عنها بلفظ: «لعلاقة سوط فى سبيل اللّه أعظم أجرا من هذا».

و قد ثبت الترغيب فى عتق الرقاب بأحاديث كثيرة: منها فى الصحيحين و غيرهما عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق اللّه بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج». و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ قال: مجاعة.

و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ قال: جوع. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ قال: ذا قرابة، و فى قوله: ذا مَتْرَبَةٍ قال: بعيد التربة، أى: غريبا عن وطنه. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عنه أيضا أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ قال: هو المطروح الّذى ليس له بيت. و فى لفظ للحاكم: هو الّذى لا يقيه من التراب شىء. و فى لفظ: هو اللازق بالتراب من شدّة الفقر.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ قال: «الّذى مأواه المزابل». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ يعنى بذلك رحمة الناس كلهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه مُؤْصَدَةٌ قال: مغلقة الأبواب. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مُؤْصَدَةٌ قال: مطبقة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۵

سورة الشمس

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: نزلت «و الشمس و ضحاها» بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج أحمد، و الترمذى و حسّنه، و النسائى عن بريدة: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ فى صلاة العشاء و الشمس و ضحاها و أشباهها من السور». و قد تقدّم حديث جابر فى الصحيح: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لمعاذ: «هلّا صليت بسبّح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى». و أخرج الطبرانى عن ابن عباس: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح بالليل إذا يغشى و الشمس و ضحاها». و

أخرج البيهقى فى الشعب عن عقبة ابن عامر قال: «أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نصلّى ركعتى الضحى بسورتيهما بالشمس و ضحاها و الضّحى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (١) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (٢) وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها (٣) وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (٤)

وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (٥) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (٦) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (٧) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (٩)

وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (١٢) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (١٤)

وَ لا يَخافُ عُقْباها (١٥)

أقسم سبحانه بهذه الأمور، و له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، و قال قوم: إن القسم بهذه الأمور و نحوها مما تقدّم، و مما سيأتى هو على حذف مضاف، أى: و ربّ الشَّمْسِ و ربّ القمر، و هكذا سائرها، و لا ملجئ إلى هذا و لا موجب له، و قوله: وَ ضُحاها هو قسم ثان، قال مجاهد: وَ ضُحاها أى: ضوؤها و إشراقها، و أضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، و كذا قال الكلبى. و قال قتادة: ضُحاها: نهارها كله. قال الفراء: الضحى: هو النهار. و قال المبرد: أصل الضحى، الصبح، و هو نور الشمس. قال أبو الهيثم: الضحى: نقيض الظلّ، و هو نور الشمس على وجه الأرض، و أصله:

الضحى فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفا. قيل: و المعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس و بعيد ذلك قليلا، فإذا زاد فهو الضّحاء بالمد. قال المبرد: الضحى و الضحوة مشتقان من الضّحّ و هو النور، فأبدلت الألف و الواو من الحاء.

و اختلف فى جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها قاله الزجاج و غيره.

قال الزجاج: و حذفت اللام؛ لأن الكلام قد طال، فصار طوله عوضا منها، و قيل: الجواب محذوف، أى:

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٤٦

و الشمس، و كذا: لتبعثنّ، و قيل: تقديره: ليدمدمنّ اللّه على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما دمدم على ثمود لأنهم كذّبوا صالحا، و أما قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها فكلام تابع لقوله: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها على سبيل الاستطراد، و ليس من جواب القسم فى شىء، و قيل: هو على التقديم و التأخير بغير حذف، و المعنى: قد أفلح من زكّاها و قد خاب من دسّاها و الشمس و ضحاها، و الأوّل أولى. وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها أى: تبعها، و ذلك بأن طلع بعد غروبها، يقال: تلا يتلو تلوا؛ إذا تبع. قال المفسّرون: و ذلك فى النصف الأوّل من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر فى الإضاءة و خلفها فى النور. قال الزجاج: تلاها حين استدار، فكان يتلو الشمس فى الضياء و النور، يعنى إذا كمل ضوءه فصار تابعا للشمس فى الإنارة، ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال. قال ابن زيد: إذا غربت الشمس فى النصف الأوّل من الشهر تلاها القمر بالطلوع، و فى آخر الشهر يتلوها بالغروب، و قال الفراء: تلاها: أخذ منها، يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها أى: جلّى الشمس، و ذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلى تمام الانجلاء، فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه. و قيل: الضمير عائد إلى الظلمة، أى: جلّى الظلمة، و إن لم يجر للظلمة ذكر، لأن المعنى معروف. قال الفراء: كما تقول أصبحت باردة، أى: أصبحت غداتنا باردة، و الأوّل أولى.

و منه قول قيس بن الخطيم:

تجلّت لنا كالشّمس تحت غمامةبدا حاجب منها و ضنّت بحاجب

و قيل: المعنى: جلّى ما فى الأرض من الحيوانات و غيرها بعد أن كانت مستترة فى الليل، و قيل: جلّى الدّنيا، و قيل: جلّى الأرض وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها أى: يغشى الشمس فيذهب بضوئها فتغيب و تظلم الآفاق، و قيل: يغشى الآفاق، و قيل: الأرض، و إن لم يجر لهما ذكر لأن ذلك معروف، و الأوّل أولى وَ السَّماءِ وَ ما بَناها يجوز أن تكون ما مصدرية، أى: و السماء و بنيانها. و يجوز أن تكون موصولة، أى: و الّذى بناها، و إيثار «ما» على من لإرادة الوصفية لقصد التفخيم؛ كأنه قال: و القادر العظيم الشأن الّذى بناها. و رجح الأوّل الفراء و الزجاج، و لا وجه لقول من قال: إن جعلها مصدرية مخلّ بالنّظم. و رجّح الثانى ابن جرير وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها الكلام فى «ما» هذه كالكلام فى التى قبلها، و معنى طحاها:

بسطها، كذا قال عامة المفسرين، كما فى قوله: دَحاها «١» قالوا: طحاها و دحاها واحد، أى:

بسطها من كل جانب، و الطّحو: البسط، و قيل: معنى طحاها قسمها، و قيل: خلقها، و منه قول الشاعر:

و ما تدرى جذيمة من طحاهاو لا من ساكن العرش الرّفيع

و الأوّل أولى. و الطّحو أيضا: الذهاب. قال أبو عمرو بن العلاء: طحا الرجل؛ إذا ذهب فى الأرض،

---

(١). النازعات: ٣٠.

يقال: ما أدرى أين طحا! و يقال: طحا به قلبه، و منه قول الشاعر «١»:

طحا بك قلب فى الحسان طروببعيد الشّباب عصر حان مشيب

وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها الكلام فى «ما» هذه كما تقدّم، و معنى سوّاها: خلقها و أنشأها و سوّى أعضاءها. قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجنّ و الإنس، و التنكير للتفخيم، و قيل: المراد نفس آدم فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها أى: عرّفها و أفهمها حالهما و ما فيهما من الحسن و القبح. قال مجاهد: عرّفها طريق الفجور و التّقوى و الطّاعة و المعصية. قال الفراء: فألهمها: عرّفها طريق الخير و طريق الشرّ، كما قال:

وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ «٢». قال محمد بن كعب: إذا أراد اللّه بعبده خيرا ألهمه الخير فعمل به، و إذا أراد به الشرّ ألهمه الشرّ فعمل به. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى، و خذلانه إياها للفجور، و اختار هذا الزجاج، و حمل الإلهام على التوفيق و الخذلان. قال الواحدى: و هذا هو الوجه لتفسير الإلهام؛ فإن التبيين و التعليم و التعريف دون الإلهام، و الإلهام: أن يوقع فى قلبه و يجعل فيه، و إذا أوقع اللّه فى قلب عبده شيئا ألزمه ذلك الشيء. قال: و هذا صريح فى أن اللّه خلق فى المؤمن تقواه، و فى الكافر فجوره قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها أى: قد فاز من زكّى نفسه و أنماها و أعلاها بالتقوى بكل مطلوب و ظفر بكلّ محبوب، و قد قدّمنا أن هذا جواب القسم على الرّاجح، و أصل الزكاة: النموّ و الزيادة، و منه زكا الزرع؛ إذا كثر وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها أى: خسر من أضلّها و أغواها. قال أهل اللغة: دسّاها أصله دسّسها، من التّدسيس، و هو إخفاء الشيء فى الشيء، فمعنى دسّاها فى الآية: أخفاها و أهملها و لم يشهرها بالطاعة و العمل الصالح، و كانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها فيقصدها الضيوف، و كانت لئام العرب تنزل الهضاب و الأمكنة المنخفضة ليخفى مكانها عن الوافدين. و قيل: معنى دساها: أغواها، و منه قول الشاعر:

و أنت الّذى دسّيت عمرا فأصبحتحلائله منه أرامل ضيّعا

و قال ابن الأعرابى وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها أى: دسّ نفسه فى جملة الصالحين و ليس منهم كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها الطّغوى: اسم من

الطغيان؛ كالدعوى من الدعاء. قال الواحدى: قال المفسرون: كذبت ثمود بطغيانها، أى: الطغيان حملهم على التكذيب، و الطغيان: مجاوزة الحدّ فى المعاصى، و الباء للسببية.

و قيل: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها أى: بعذابها الّذى وعدت به، و سمّى العذاب طغوى؛ لأنه طغى عليهم، فتكون الباء على هذا للتعدية.

و قال محمد بن كعب: بِطَغْواها أى: بأجمعها. قرأ الجمهور:

بِطَغْواها بفتح الطاء. و قرأ الحسن و الجحدرى و محمد بن كعب و حماد بن سلمة بضم الطاء، فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان، و إنما قلبت الياء و الواو للفرق بين الاسم و الصفة؛ لأنهم يقلبون الياء فى الأسماء كثيرا نحو تقوى و سروى، و على القراءة الثانية هو مصدر كالرّجعى و الحسنى و نحوهما، و قيل: هما لغتان.

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها العامل فى الظرف كذبت، أو بطغواها، أى: حين قام أشقى ثمود، و هو قدار بن

---

(١). هو علقمة.

(٢). البلد: ١٠.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٤٨

سالف فعقر الناقة، و معنى انبعث: انتدب لذلک و قام به، يقال: بعثته على الأمر فانبعث له، و قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ يعنى صالحا ناقَةَ اللَّهِ قال الزجاج: ناقة اللّه منصوبة على معنى: ذروا ناقة اللّه. قال الفراء: حذّرهم إياها، و كل تحذير فهو نصب وَ سُقْياها معطوف على ناقة، و هو شربها من الماء. قال الكلبى و مقاتل: قال لهم صالح: ذروا ناقة اللّه فلا تعقروها و ذروا سقياها، و هو شربها من النهر فلا تعرّضوا له يوم شربها، فكذبوا بتحذيره إياهم فَعَقَرُوها أى: عقرها الأشقى، و إنما أسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله. قال قتادة: إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم و كبيرهم و ذكرهم و أنثاهم. قال الفراء: عقرها اثنان، و العرب تقول: هذان أفضل الناس، و هذان خير الناس، فلهذا لم يقل أشقياها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها أى: أهلكهم و أطبق عليهم العذاب، و حقيقة الدمدمة:

تضعيف العذاب و ترديده، يقال: دمدمت على الشى‏ء، أى: أطبقت عليه، و دمدم عليه القبر، أى: أطبقه، و ناقة مدمومة؛ إذا لبسها الشحم، و الدمدمة: إهلاک باستئصال، كذا قال المؤرّج. قال فى الصحاح:

دمدمت الشى‏ء: إذا ألزقته بالأرض و طحطحته، و دمدم اللّه عليهم، أى: أهلكهم. و قال ابن الأعرابى:

دمدم: إذا عذّب عذابا تاما. و الضمير فى «فسوّاها» يعود إلى الدمدمة، أى: فسوّى الدمدمة عليهم و عمّهم بها فاستوت على صغيرهم و كبيرهم، و قيل: يعود إلى الأرض، أى: فسوّى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب، و قيل: يعود إلى الأمة، أى: ثمود. قال الفراء: سوّى الأمة: أنزل العذاب بصغيرها و كبيرها بمعنى سوّى بينهم. قرأ الجمهور: فَدَمْدَمَ بميم بين الدالين، و قرأ ابن الزبير: «فدهدم» بهاء بين الدالين.

قال القرطبى: و هما لغتان كما يقال: امتقع لونه، و اهتقع لونه وَ لا يَخافُ عُقْباها أى: فعل اللّه ذلک بهم غير خائف من عاقبة و لا تبعة، و الضمير فى عقباها يرجع إلى الفعلة، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم.

و قال السدّى و الضحاک و الكلبى: إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى اللّه سبحانه، أى: لم يخف الّذى عقرها عقبى ما صنع. و قيل: لا يخاف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عاقبة إهلاک قومه و لا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: وَ لا يَخافُ بالواو، و قرأ نافع و ابن عامر بالفاء.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عباس وَ ضُحاها قال: ضوءها وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها قال:

تبعها وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها قال: أضاءها وَ السَّماءِ وَ ما بَناها قال: اللّه بنى السماء وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها قال: دحاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قال: علّمها الطاعة و المعصية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها يقول: قسمها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قال: من الخير و الشرّ. و أخرج الحاكم و صحّحه عنه أيضا فَأَلْهَمَها قال: ألزمها فجورها و تقواها.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عمران بن حصين «أن رجلا قال: يا رسول اللّه أ رأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه، شىء قد قضى عليهم، و مضى فى قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون ممّا أتاهم نبيهم و اتّخذت عليهم به الحجّة، قال: بل شىء قد قضى عليهم، قال: فلم يعملون إذن؟ قال: من كان اللّه خلقه لواحدة من المنزلتين يهيّئه لعملها و تصديق ذلك فى كتاب

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۴۹

اللّه: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها- فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها و سيأتى فى السورة التى بعد هذه نحو هذا الحديث.

و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و النسائى عن زيد بن أرقم قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «اللهم آت نفسى تقواها، و زكّها أنت خير من زكاها، أنت وليّها و مولاها». و أخرجه ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه من حديث ابن عباس، و زاد: «كان إذا تلا هذه الآية وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها- فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قال: فذكره» و زاد أيضا: «و هو فى الصلاة». و أخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضا. و أخرج نحوه أحمد من حديث عائشة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها يقول: قد أفلح من زكّى اللّه نفسه وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها يقول: قد خاب من دسّ اللّه نفسه فأضله وَ لا يَخافُ عُقْباها قال: لا يخاف من أحد تبعة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها يعنى مكر بها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول فى قوله قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها الآية: أفلحت نفس زكّاها اللّه، و خابت نفس خيّبها اللّه من كلّ خير و جويبر ضعيف. و أخرج ابن جرير عنه أيضا بِطَغْواها قال: اسم العذاب الّذى جاءها الطّغوى، فقال: كذّبت ثمود بعذابها. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن عبد اللّه بن زمعة قال: «خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فذكر الناقة و ذكر الّذى عقرها، فقال إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها قال: «انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة». و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و البغوى و الطبرانى و ابن مردويه و الحاكم، و أبو نعيم فى الدلائل، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعلى: «ألا أحدّثك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال: رجلان:

أحيمر ثمود الّذى عقر الناقة، و الّذى يضربك على هذا» يعنى قرنه «حتى تبتلّ منه هذه» يعنى لحيته.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۵۰

سورة الليل

اشارة

فتح القدير ج۵ ۵۹۹

و هى مكية عند الجمهور، و قيل: مدنية. و أخرج ابن الضريس و النحاس و البيهقى عن ابن عباس قال:

نزلت سورة وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى مكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال: «كان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ فى الظهر و العصر وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى و نحوها». و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس: «أن

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صلّى بهم الهاجرة فرفع صوته، فقرأ وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى فقال له أبى بن كعب: يا رسول اللّه أمرت فى هذه الصلاة بشىء؟

قال: لا، و لكن أردت أن أوقت لكم»، و قد تقدّم حديث: «فهلا صلّيت بسبّح اسم ربك الأعلى، و الشمس و ضحاها، و الليل إذا يغشى؟». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إنى لأقول إن هذه السورة نزلت فى السماحة و البخل وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٢١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى (١) وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى (٢) وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى (٥) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (٧) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى (٨) وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى (٩)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (١٠) وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (١٢) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (١٤)

لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (١٦) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (١٩)

إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (٢٠) وَ لَسَوْفَ يَرْضى (٢١)

و قوله: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى أى: يغطى بظلمته ما كان مضيئا. قال الزجاج: يغشى الليل الأفق و جميع ما بين السماء و الأرض فيذهب ضوء النهار، و قيل: يغشى النهار، و قيل: يغشى الأرض، و الأوّل أولى وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى أى: ظهر و انكشف و وضح لزوال الظلمة التى كانت فى الليل، و ذلك بطلوع الشمس وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى «ما» هنا هى الموصولة، أى: و الّذى خلق الذكر و الأنثى، و عبّر عن من بما للدلالة على الوصفية و لقصد التفخيم، أى: و القادر العظيم الّذى خلق الذكر و الأنثى. قال الحسن و الكلبى: معناه و الّذى خلق الذكر و الأنثى، فيكون قد أقسم بنفسه. قال أبو عبيدة: وَ ما خَلَقَ أى:

و من خلق. و قال مقاتل: يعنى و خلق الذكر و الأنثى، فتكون «ما» على هذا مصدرية. قال الكلبى و مقاتل:

يعنى آدم و حواء، و الظاهر العموم. قرأ الجمهور: وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى و قرأ ابن مسعود:

«و الذكر و الأنثى» بدون ما خلق إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى هذا جواب القسم، أى: إن عملكم لمختلف؛ فمنه عمل للجنة، و منه عمل للنار. قال جمهور المفسرين: السعى: العمل، فساع فى فكاك نفسه، و ساع

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٥١

فى عطبها، و شتّى: جمع شتيت، كمرضى و مريض، و قيل للمختلف: شتّى؛ لتباعد ما بين بعضه و بعض فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى أى: بذل ماله فى وجوه الخير و اتّقى محارم اللّه التى نهى عنها وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى أى: بالخلف من اللّه. قال المفسرون: فأما من أعطى المعسرين. و قال قتادة: أعطى حقّ اللّه الّذى عليه.

و قال الحسن: أعطى الصدق من قبله و صدّق بالحسنى، أى: بلا إله إلا اللّه، و به قال الضّحّاك و السّلمى.

و قال مجاهد: بالحسنى: بالجنة. و قال زيد بن أسلم: بالصلاة و الزكاة و الصوم، و الأوّل أولى. قال قتادة:

بِالْحُسْنى أى بموعود اللّه الّذى وعده أن يثيبه. قال الحسن: بالخلف من عطائه، و اختار هذا ابن جرير فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى أى: فسنهيّئه للخصلة الحسنى، و هى عمل الخير، و المعنى: فسنيسّر له الإنفاق فى سبيل الخير و العمل بالطاعة للّه. قال الواحدى: قال

المفسرون: نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا فى أيدى أهل مكة يعذّبونهم فى اللّه وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى أى: بخل بماله فلم يبذله فى سبل الخير وَ اسْتَغْنى أى: زهد فى الأجر و الثواب، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى أى: بالخلف من اللّه عزّ و جلّ، و قال مجاهد: بالجنة؛ و روى عنه أيضا أنه قال: بلا إله إلا اللّه فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى أى: فسنهيئه للخصلة العسرى و نسهّلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير و الصلاح و يضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار. قال مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيرا.

قيل: العسرى: الشر؛ و ذلك أن الشرّ يؤدى إلى العذاب، و العسرة فى العذاب، و المعنى: سنهيئه للشرّ بأن نجريه على يديه. قال الفراء: سنيسّره: سنهيّئه، و العرب تقول: قد يسّرت الغنم؛ إذا ولدت أو تهيأت للولادة. قال الشاعر «۱»:

همّا سيّدانا يزعمان و إنّمايسوداننا إن يسّرت غنماهما

وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى أى: لا يغنى عنه شيئا ماله الّذى بخل به، أو: أىّ شيء يغنى عنه إذا تردّى، أى: هلك، يقال: ردى الرجل يردى ردى، و تردّى يتردّى؛ إذا هلك. و قال قتادة: و أبو صالح و زيد بن أسلم: إِذا تَرَدَّى إذا سقط فى جهنم، يقال: ردى فى البئر و تردّى: إذا سقط فيها، و يقال: ما أدرى أين ردى، أى: أين ذهب؟ إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى هذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، أى: إنّ علينا البيان. قال الزجاج: علينا أن نبيّن طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على اللّه البيان؛ بيان حرامه و طاعته و معصيته. قال الفراء: من سلك الهدى فعلى اللّه سبيله، لقوله: وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ «۲» يقول: من أراد اللّه فو على السبيل القاصد. قال الفراء أيضا: المعنى إن علينا للهدى و الإضلال، فحذف الإضلال كقوله: سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «۳» و قيل المعنى: إن علينا ثواب هداه الّذى هديناه وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى أى: لنا كلّ ما فى الآخرة، و كلّ ما فى الدنيا نتصرّف به كيف نشاء، فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منّا، و قيل: المعنى: إن لنا ثواب الآخرة و ثواب الدنيا فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى

---

(۱). هو أبو أسيدة الدبيرى.

(۲). النحل: ۹.

(۳). النحل: ۸۱.

أى: حذّرتكم و خوّفتكم نارا تتوقد و تتوهج، و أصله تتلظّى فحذفت إحدى التاءين تخفيفا.

و قرأ على الأصل عبيد بن عمير و يحيى بن يعمر و طلحة بن مصرّف لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى أى: يصلاها صليا لازما على جهة الخلود إلا الأشقى و هو الكافر، و إن صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه، و المراد بقوله: يَصْلاها: يدخلها أو يجد صلاها، و هو حرّها. ثم وصف الأشقى فقال: الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى أى: كذّب بالحق الّذى جاءت به الرسل و أعرض عن الطاعة و الإيمان.

قال الفراء إِلَّا الْأَشْقَى إلا من كان شقيا فى علم اللّه جلّ ثناؤه. قال أيضا: لم يكن كذب بردّ ظاهر، و لكن قصّر عمّا أمر به من الطاعة فجعل تكذيبا، كما تقول: لقى فلان العدوّ فكذب؛ إذا نكل و رجع عن اتباعه. قال الزجاج: هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ و لأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار. و اللّه سبحانه كلّ ما وعد عليه بجنس من العذاب؛ فجدير أن يعذّب به، و قد قال: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* «۱» فلو كان كلّ من لم يشرك لم يعذب لم يكن فى قوله: وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ* فائدة. و قال فى الكشاف: الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين و عظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، و جعل مختصّا بالصّلى؛ كأن النار لم تخلق إلّا له، و قيل: الأتقى، و جعل مختصّا بالنجاة كأن الجنة

لم تخلق إلا له، و قيل: المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف، و بالأتقى أبو بكر الصدّيق، و معنى سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى سيباعد عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا. قال الواحدى: الأتقى أبو بكر الصدّيق فى قول جميع المفسرين، انتهى. و الأولى حمل الأشقى و الأتقى على كل متّصف بالصفتين المذكورتين، و يكون المعنى أنه لا يصلاها صليا تاما لازما إلا الكامل فى الشقاء و هو الكافر، و لا يجنّبها و يبعد عنها تبعيدا كاملا بحيث لا يحوم حولها فضلا عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى، فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولا غير لازم، و لا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيدا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل فى التقوى عنها. و الحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله: لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى زاعما أن الأشقى الكافر، لأنّه الّذى كذّب و تولّى، و لم يقع التكذيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول فى قوله:

وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى فإنه يدلّ على أنه لا يجنب النار إلا الكامل فى التقوى، فمن لم يكن كاملا فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار، فإن أوّلت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله فى الأشقى فخذ إليك هذه مع تلك، و كن كما قال الشاعر:

على أنّنى راض بأن أحمل الهوىو أخرج منه لا علىّ و لا ليه

و قيل: أراد بالأشقى و الأتقى الشقى و التقى، كما قال طرفة بن العبد:

تمنّى رجال أن أموت و إن أمتفتلك سبيل لست فيها بأوحد

---

(١). النساء: ۴٨.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۵٣

أى: بواحد. و لا يخفاك أنه ينافى هذا وصف الأشقى بالتكذيب، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر فلا يتمّ ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين.

ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال: الَّذِى يُؤْتِى مالَهُ أى: يعطيه و يصرفه فى وجوه الخير، و قوله:

يَتَزَكَّى فى محل نصب على الحال من فاعل يؤتى، أى: حال كونه يطلب أن يكون عند اللّه زكيا لا يطلب رياء و لا سمعة، و يجوز أن يكون بدلا من يؤتى داخلا معه فى حكم الصلة. قرأ الجمهور: يَتَزَكَّى مضارع تزكى. و قرأ علىّ بن الحسين بن على تزكى بإدغام التاء فى الزاى وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التزكّى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص، أى: ليس ممن يتصدّق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده و يكافئه عليها، و إنما يبتغى بصدقته وجه اللّه تعالى. و معنى الآية: أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتى من ماله مجازاتها، و إنما قال «نجزى» مضارعا مبنيا للمفعول لأجل الفواصل، و الأصل يجزيها إياه، أو يجزيه إياها إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى قرأ الجمهور: إِلَّا ابْتِغاءَ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة، أى: لكن ابتغاء وجه ربّه الأعلى، و يجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول له على المعنى، أى: لا يؤتى إلا لابتغاء وجه ربّه لا لمكافأة نعمة. قال الفراء: هو منصوب على التأويل، أى: ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه اللّه، و قرأ يحيى بن وثّاب بالرفع على البدل من محل نعمة، لأن محلها الرفع إما على الفاعلية و إما على الابتداء و من مزيدة، و الرفع لغة تميم، لأنهم يجوّزون البدل فى المنقطع و يجرونه مجرى المتصل. قال مكى: و أجاز الفراء الرفع فى ابْتِغاءَ على البدل من موضع نعمة، و هو بعيد.

قال شهاب الدين: كأنه لم يطلع عليها قراءة، و استبعاده هو البعيد فإنها لغة فاشية، و قرأ الجمهور أيضا ابْتِغاءَ بالمدّ، و قرأ ابن أبى عبلة بالقصر، و الأعلى نعت للربّ وَ لَسَوْفَ يَرْضى اللام هى الموطئة للقسم، أى: و تاللّه لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة و الجزاء العظيم. قرأ الجمهور: يَرْضى مبنيا للفاعل، و قرئ مبنيا للمفعول.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى قال: إذا أظلم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن ابن مسعود قال: إن أبا بكر الصدّيق اشترى بلالا من أمية بن خلف و أبىّ بن خلف ببردة و عشر أواق فأعتقه للّه، فأنزل اللّه: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى إلى قوله: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى سعى أبى بكر و أمية و أبىّ إلى قوله: وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى قال: لا إله إلا اللّه إلى قوله: فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى قال: النار. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس فى قوله: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى من الفضل وَ اتَّقى قال: اتقى ربه وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى قال: صدّق بالخلف من اللّه فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى قال: للخير من اللّه وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى قال: بخل بماله و استغنى عن ربه وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى قال: بالخلف من اللّه فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى قال: للشرّ من اللّه. و أخرج ابن جرير عنه وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى قال: أيقن بالخلف. و أخرج

فتح القدير، ج‌5، ص: 554

ابن جرير عنه أيضا وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى يقول: صدّق بلا إله إلا اللّه وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى يقول:

من أغناه اللّه فبخل بالزكاة. و أخرج ابن جرير و ابن عساكر عن عامر بن عبد اللّه بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة، و كان يعتق عجائز و نساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أى بنىّ أراك تعتق أناسا ضعّفا، فلو أنك تعتق رجالا جلدا يقومون معك و يمنعونك و يدفعون عنك. قال: أى أبت إنما أريد ما عند اللّه، قال: فحدّثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية نزلت فيه فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى قال: أبو بكر الصدّيق وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى قال: أبو سفيان بن حرب. و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن علىّ بن أبى طالب قال: كنا مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا و قد كتب مقعده من الجنة و مقعده من النار، فقالوا: يا رسول اللّه أ فلا نتّكل؟ قال: اعملوا فكل ميسّر لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة فييسّر لعمل أهل السعادة، و أما من كان من أهل الشقاء فييسّر لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى إلى قوله لِلْعُسْرى . و أخرج أحمد و مسلم و غيرهما عن جابر بن عبد اللّه «أن سراقة بن مالك قال: يا رسول اللّه فى أىّ شىء نعمل؟ أ فى شىء ثبتت فيه المقادير و جرت به الأقلام، أم فى شىء يستقبل فيه العمل؟ قال: بل فى شىء ثبتت فيه المقادير و جرت فيه الأقلام، قال سراقة: ففيم العمل إذن يا رسول اللّه؟ قال: اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له، و قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى إلى قوله: فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى . و قد تقدّم حديث عمران بن حصين فى السورة التى قبل هذه. و فى الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة.

و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال: «لتدخلن الجنة إلا من يأبى، قالوا: و من يأبى أن يدخل الجنة؟

فقرأ الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى . و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى أمامة قال: لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله اللّه الجنة، إلا من شرد على اللّه كما يشرد البعير السّوء على أهله، فمن لم يصدّقنى فإن اللّه يقول: لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى- الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى و كذّب بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و تولى عنه. و أخرج أحمد و الحاكم و الضياء عن أبى أمامة الباهلى أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ألا كلّكم يدخل اللّه الجنة إلا من شرد على اللّه شراد البعير على أهله». و أخرج أحمد و ابن ماجة و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«لا يدخل النار إلا شقّى. قيل: و من الشقىّ؟ قال: الّذى لا يعمل للّه بطاعة و لا يترك للّه معصية».

و أخرج أحمد و البخارى عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كلّ أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: و من يأبى يا رسول اللّه؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة، و من عصانى فقد أبى».

و أخرج ابن أبی حاتم عن عروة أنّ أبا بکر الصدّیق أعتق سبعة کلّهم یعذّب فی اللّه: بلال، و عامر بن فهیرة، و النهدیة و ابنتها، و زنیرة، و أمّ عیسی، و أمة بنی المؤمل، و فیه نزلت: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى إلی

فتح القدیر، ج۵، ص: ۵۵۵

آخر السورة. و أخرج الحاکم و صحّحه عن عامر بن عبد اللّه ابن الزبیر ما قدّمنا عنه، و زاد فیه: فنزلت فیه هذه الآیة: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى إلی قوله: وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى وَ لَسَوْفَ يَرْضى و أخرج البزار و ابن جریر و ابن المنذر و الطبرانی و ابن مردویه و ابن عساکر عنه نحو هذا من وجه آخر. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس فی قوله: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى قال: هو أبو بکر الصدّیق.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۵۵۶

سورة الضّحی

اشارة

و هی مکیة بلا خلاف. و أخرج ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس: نزلت وَ الضُّحى بمکة. و أخرج الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه، و البیهقی فی الشعب، من طریق أبی الحسن المقری قال: سمعت عکرمة بن سلیمان یقول: «قرأت علی إسماعیل بن قسطنطین، فلما بلغت و الضحی قال: کبّر حتی تختم، و أخبره عبد اللّه بن کثیر أنه قرأ علی مجاهد فأمره بذلک. و أخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلک. و أخبره ابن عباس أن أبیّ بن کعب أمره بذلک. و أخبره أبیّ أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أمره بذلک».

و أبو الحسن المقری المذکور هو أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن أبی بزة المقری. قال ابن کثیر: فهذه سنة تفرّد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد اللّه البزی من ولد القاسم بن أبی بزة، و کان إماما فی القراءات. و أما فی الحدیث فقد ضعّفه أبو حاتم الرازی و قال: لا أخذت عنه، و کذلک أبو جعفر العقیلی قال: هو منکر الحدیث. قال ابن کثیر: ثم اختلف القرّاء فی موضع هذا التکبیر و کیفیته، فقال بعضهم: یکبر من آخر اللیل إذا یغشی، و قال آخرون: من آخر الضحی. و کیفیة التکبیر عند بعضهم أن یقول: اللّه أکبر، و یقتصر، و منهم من یقول: اللّه أکبر، لا إله إلا اللّه، اللّه أکبر. و ذکروا فی مناسبة التکبیر من أول الضحی أنه لما تأخر الوحی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و فتر تلک المدّة، ثم جاء الملک، فأوحی إلیه: وَ الضُّحى وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى السورة کبّر فرحا و سرورا، و لم یرووا ذلک بإسناد یحکم علیه بصحة و لا ضعف. و أخرج البخاری و مسلم و غیرهما عن جندب البجلی قال: اشتکی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فلم یقم لیلتین أو ثلاثا، فأتته امرأة فقالت: یا محمد ما أری شیطانک إلا قد ترکک لم یقربک لیلتین أو ثلاثا، فأنزل اللّه: وَ الضُّحى وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى . و أخرج الفریابی و عبد بن حمید و سعید بن منصور و ابن جریر و الطبرانی و ابن مردویه عن جندب قال: أبطأ جبریل عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فقال المشرکون: قد ودّع محمد، فنزلت: ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى و أخرج الطبرانی عن جندب قال: احتبس جبریل عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فقالت بعض بنات عمه: ما أری صاحبک إلا قد قلاک، فنزلت: و الضحی. و أخرجه الترمذی و صححه و ابن أبی حاتم عن جندب، و فیه: فقالت له امرأة: ما أری شیطانک إلا قد ترکک، فنزلت: و الضحی.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الضحی (۹۳): الآیات ۱ الی ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الضُّحى (۱) وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى (۲) ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلى (۳) وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولى (۴)
وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّکَ فَتَرْضى (۵) أَ لَمْ يَجِدْکَ يَتِيماً فَآوى (۶) وَ وَجَدَکَ ضَالًّا فَهَدى (۷) وَ وَجَدَکَ عائِلًا فَأَغْنى (۸) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹)
وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ (۱۱)
فتح القدير، ج۵، ص: ۵۵۷
و المراد بالضحى هنا النهار كله، لقوله: وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى فلما قابل الضحى بالليل دلّ على أن المراد به النهار كله لا بعضه. و هو فى الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدّم فى قوله: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها «۱» و الظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين. و قال قتادة و مقاتل و جعفر الصادق: إن المراد الضحى الّذى كلم اللّه فيه موسى، و المراد بقوله: وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى ليلة المعراج، و قيل: المراد بالضحى هو الساعة التى خرّ فيها السحرة سجدا، كما فى قوله: وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى «۲» و قيل: المقسم به مضاف مقدّر كما تقدّم فى نظائره، أى: و ربّ الضحى، و قيل: تقديره: و ضحاوة الضحى، و لا وجه لهذا، فللّه سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه، و قيل: الضحى: نور الجنة، و الليل: ظلمة النار، و قيل: الضحى:
نور قلوب العارفين، و الليل: سواد قلوب الكافرين، وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى أى: سكن، كذا قال قتادة و مجاهد و ابن زيد و عكرمة و غيرهم. يقال: ليلة ساجية: أى ساكنة، و يقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية، يقال: سجا الشيء يسجو سجوا؛ إذا سكن. قال عطاء: سجا: إذا غطّى بالظلمة. و روى ثعلب عن ابن الأعرابى: سجا: امتدّ ظلامه. و قال الأصمعى: سجو الليل: تغطيته النهار، مثل ما يسجى الرجل بالثوب.
و قال الحسن: غشى بظلامه. و قال سعيد بن جبير: أقبل. و قال مجاهد أيضا: استوى، و الأوّل أولى، و عليه جمهور المفسرين و أهل اللغة. و معنى سكونه: استقرار ظلامه و استواؤه، فلا يزاد بعد ذلك. ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ هذا جواب القسم، أى: ما قطعك قطع المودّع. قرأ الجمهور: «ما ودّعك» بتشديد الدال من التوديع، و هو توديع المفارق، و قرأ ابن عباس و عروة بن الزبير و ابنه هاشم و ابن أبى عبلة و أبو حيوة بتخفيفها، من قولهم ودعه، أى: تركه، و منه قول الشاعر:
سل أميرى ما الّذى غيّره‌عن وصالى اليوم حتّى ودعه
و التوديع أبلغ فى الوداع؛ لأنّ من ودّعك مفارقا فقد بالغ فى تركك. قال المبرد: لا يكادون يقولون ودع و لا وذر، لضعف الواو إذا قدّمت، و استغنوا عنها بترك. قال أبو عبيدة: ودّعك: من التوديع كما يودّع المفارق. و قال الزجاج: لم يقطع الوحى، و قد قدّمنا سبب نزول هذه الآية فى فاتحة هذه السورة وَ ما قَلى القلى: البغض، يقال: قلاه يقليه قلاء. قال الزجاج: و ما أبغضك، و قال: و ما قلى، و لم يقل و ما قلاك؛ لموافقة رؤوس الآى، و المعنى: و ما أبغضك، و منه قول امرئ القيس:
و لست بمقلىّ الخلال و لا قال «۳» وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولى اللام جواب قسم محذوف، أى: الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أوتى فى الدنيا من شرف النبوّة ما يصغر عنده كلّ شرف، و يتضاءل بالنسبة إليه كلّ مكرمة فى الدنيا، و لكنها لمّا كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار، منغّصة بالعوارض البشرية، و كانت الحياة فيها

---

(۱). الشمس: ۱.
(۲). طه: ۵۹.
(۳). و صدر البيت: صرفت الهوى عنهن من خشية الردى.

فتح القدير، ج‌5، ص: 558

كأحلام نائم، أو كظل زائل، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئا؛ و لما كانت طريقا إلى الآخرة و سببا لنيل ما أعدّه اللّه لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة؛ كان فيها خير فی الجملة من هذه الحيثية. وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى‌ هذه اللام قيل: هی لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، و المبتدأ محذوف تقديره: و لأنت سوف يعطيك إلخ، و ليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، و قيل: هی للقسم. قال أبو علیّ الفارسی: ليست هذه اللام هی التی فی قولك: إن زيدا لقائم، بل هی التی فی قولك: لأقومنّ، و نابت سوف عن إحدى نونی التأكيد، فكأنه قال: و ليعطينك. قيل: المعنى: و لسوف يعطيك ربك الفتح فی الدنيا و الثواب فی الآخرة فترضى.

و قيل: الحوض و الشفاعة، و قيل: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، و قيل: غير ذلك. و الظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيرى الدنيا و الآخرة، و من أهمّ ذلك عنده و أقدمه لديه قبول شفاعته لأمته.

أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى‌ هذا شروع فی تعداد ما أفاضه اللّه سبحانه عليه من النعم، أی: وجدك يتيما لا أب لك فآوى، أی: جعل لك مأوى تأوى إليه، قرأ الجمهور: «فآوى» بألف بعد الهمزة رباعيا، من آواه يؤويه، و قرأ أبو الأشهب: «فأوى» ثلاثيا، و هو إما بمعنى الرباعی، أو هو من أوى له إذا رحمه.

و عن مجاهد معنى الآية: ألم يجدك واحدا فی شرفك لا نظير لك فآواك اللّه بأصحاب يحفظونك و يحوطونك، فجعل يتيما من قولهم: درّة يتيمة، و هو بعيد جدا، و الهمزة لإنكار النفی و تقرير المنفیّ على أبلغ وجه، فكأنه قال: قد وجدك يتيما فآوى، و الوجود بمعنى العلم، و يتيما مفعوله الثانی، و قيل: بمعنى المصادفة، و يتيما حال من مفعوله وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى‌ معطوف على المضارع المنفیّ، و قيل: هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الّذی قبله كما ذكرنا، أی: قد وجدك يتيما فآوى و وجدك ضالًّا فهدى، و الضلال هنا بمعنى الغفلة، كما فی قوله: لا يَضِلُّ رَبِّی وَ لا يَنْسى‌ «1» و كما فی قوله: وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ «2» و المعنى: أنه وجدك غافلا عما يراد بك من أمر النبوّة، و اختار هذا الزجاج. و قيل: معنى ضالا: لم تكن تدرى القرآن و لا الشرائع فهداك لذلك. و قال الكلبی و السدّی و الفراء: وجدك فی قوم ضلال فهداهم اللّه لك. و قيل: وجدك طالبا للقبلة فهداك إليها كما فی قوله: قَدْ نَرى‌ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِی السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها «3» و يكون الضلال بمعنى الطلب. و قيل: وجدك ضائعا فی قومك فهداك إليه، و يكون الضلال بمعنى الضياع. و قيل: وجدك محبا للهداية فهداك إليها، و يكون الضلال بمعنى المحبة، و منه قول الشاعر:

عجبا لعزّة فی اختيار قطيعتی بعد الضّلال فحبلها قد أخلقا

و قيل: وجدك ضالا فی شعاب مكة فهداك، أی: ردّك إلى جدّك عبد المطلب وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى‌

---

(1). طه: 52.

(2). يوسف: 3.

(3). البقرة: 144.

فتح القدير، ج‌5، ص: 559

أی: وجدك فقيرا لا مال لك فأغناك، يقال: عال الرجل يعيل عيلة؛ إذا افتقر، و منه قول أحيحة بن الجلاح:

فما يدری الفقير متى غناه و ما يدری الغنیّ متى يعيل

أی: يفتقر. قال الكلبی: فَأَغْنى‌ أی: رضّاك بما أعطاك من الرزق، و اختار هذا الفراء، قال:

لأنه لم يكن غنيا من كثرة، و لكن اللّه سبحانه رضّاه بما آتاه، و ذلك حقيقة الغنى. و قال الأخفش:

عائِلًا ذا عيال، و منه قول جرير:

اللّه أنزل فى الكتاب فريضةلابن السّبيل و للفقير العائل

و قيل: فأغنى بما فتح لك من الفتوح، و فيه نظر؛ لأن السورة مكية، و قيل: بمال خديجة بنت خويلد، و قيل: وجدك فقيرا من الحجج و البراهين فأغناك بها. قرأ الجمهور: «عائلا» و قرأ محمد بن السّميقع و اليمانى «عيّلا» بكسر الياء المشدّدة كسيد.

ثم أوصاه سبحانه باليتامى و الفقراء فقال: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ أى: لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائنا ما كان. قال مجاهد: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما. قال الأخفش: لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقّه، و اذكر يتمك. قال الفرّاء و الزّجّاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقّه لضعفه، و كذا كانت العرب تفعل فى حقّ اليتامى تأخذ أموالهم و تظلمهم حقوقهم، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحسن إلى اليتيم و يبرّه و يوصى باليتامى. قرأ الجمهور: «فلا تقهر» بالقاف، و قرأ ابن مسعود و النّخعى و الشعبىّ و الأشهب العقيلى:

«تكهر» بالكاف، و العرب تعاقب بين القاف و الكاف. قال النحاس: إنما يقال كهره؛ إذا اشتدّ عليه و غلظ. و قيل: القهر: الغلبة، و الكهر: الزجر. قال أبو حيان: هى لغة، يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور، و اليتيم منصوب بتقهر. وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ يقال: نهره و انتهره؛ إذا استقبله بكلام يزجره، فهو نهى عن زجر السائل و الإغلاظ له، و لكن يبذل اليسير أو يردّه بالجميل. قال الواحدى: قال المفسرون:

يريد السائل على الباب، يقول: لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيرا، فإما أن تطعمه، و إما أن تردّه ردّا لينا.

قال قتادة: معناه ردّ السائل برحمة ولين. و قيل: المراد بالسائل الّذى يسأل عن الدين، فلا تنهره بالغلظة و الجفوة، و أجبه برفق ولين، كذا قال سفيان، و السائل منصوب بتنهر، و التقدير: مهما يكن من شىء فلا تقهر اليتيم و لا تنهر السائل وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ أمره سبحانه بالتحدّث بنعم اللّه عليه و إظهارها للناس و إشهارها بينهم، و الظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها. و قال مجاهد و الكلبى: المراد بالنعمة هنا القرآن. قال الكلبى: و كان القرآن أعظم ما أنعم اللّه بن عليه فأمره أن يقرأه.

قال الفراء: و كان يقرؤه و يحدّث به. و قال مجاهد أيضا: المراد بالنعمة النبوّة التى أعطاه اللّه، و اختار هذا الزجاج فقال: أى بلغ ما أرسلت به و حدّث بالنبوّة التى آتاك اللّه، و هى أجلّ النعم. و قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعمة عليك فى هذه السورة من الهدى بعد الضلالة و جبر اليتم، و الإغناء بعد العيلة فاشكر هذه النعم. و التحدث بنعمة اللّه شكر، و الجارّ و المجرور متعلق بحدّث، و الفاء غير مانعة من تعلقه به، و هذه

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۰

النواهى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى نواه له و لأمته لأنهم أسوته، فكلّ فرد من أفراد هذه الأمة منهىّ بكلّ فرد من أفراد هذه النواهى.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى قال: إذا أقبل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه إِذا سَجى قال: إذا ذهب ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ قال: ما تركك وَ ما قَلى قال: ما أبغضك. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الدلائل، عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «عرض علىّ ما هو مفتوح لأمتى بعدى، فأنزل اللّه وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى .

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى و أبو

نعيم عنه أيضا قال: «عرض على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما هو مفتوح على أمته من بعده فسّر بذلك، فأنزل اللّه: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى فأعطاه فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج و الخدم». و أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى قال: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: من رضا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. و أخرج الخطيب فى التلخيص من وجه آخر عنه أيضا فى الآية قال:

لا يرضى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أحد من أمته فى النار، و يدلّ على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تلا قول اللّه فى إبراهيم: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي «١» و قول عيسى إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ «٢» الآية، فرفع يديه و قال: اللهم أمتى أمتى، و بكى، فقال اللّه: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك و لا نسوءك». و أخرج ابن المنذر و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين: أ رأيت هذه الشفاعة التى يتحدّث بها أهل العراق أحقّ هى؟

قال: إى و اللّه، حدثنى محمد بن الحنفية عن علىّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت، ثم أقبل علىّ فقال: إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية فى كتاب اللّه: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً «٣» قلت إنا لنقول ذلك، قال: فكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية فى كتاب اللّه وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى و هى الشفاعة». و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنا أهل البيت اختار اللّه لنا الآخرة على الدنيا، و لسوف يعطيك ربك فترضى». و أخرج العسكرى فى المواعظ، و ابن مردويه و ابن النجار عن جابر بن عبد اللّه قال: «دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على فاطمة و هى تطحن بالرّحى، و عليها كساء من جلد الإبل، فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجّلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة، فأنزل اللّه وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى و أبو نعيم و ابن عساكر عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «سألت

---

(١). إبراهيم: ٣٦.

(٢). المائدة: ١١٨.

(٣). الزمر: ٥٣.

ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته، قلت: قد كانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح، و منهم من كان يحيى الموتى، فقال تعالى: يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالًّا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا ربّ».

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت وَ الضُّحى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يمنّ علىّ ربى، و أهل أن يمنّ ربى». و أخرج ابن مردويه عنه فى قوله: وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى قال:

وجدك بين الضّالّين فاستنقذك من ضلالتهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن علىّ فى قوله: وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ قال: ما علمت من الخير. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: إذا أصبت خيرا فحدّث إخوانك. و أخرج عبد اللّه بن أحمد

فی زوائد المسند، و البیهقی فی الشعب، و الخطیب فی المتفق- قال السیوطی: بسند ضعیف- عن النعمان بن بشیر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم علی المنبر: «من لم یشکر القلیل لم یشکر الکثیر، و من لم یشکر الناس لم یشکر اللّه، و التحدّث بنعمهٔ اللّه شکر، و ترکها کفر، و الجماعهٔ رحمهٔ». و أخرج أبو داود، و الترمذی و حسّنه، و أبو یعلی و ابن حبان و البیهقی و الضیاء عن جابر ابن عبد اللّه عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «من أبلی بلاء فذکره فقد شکره، و إن کتمه فقد کفره». و أخرج البخاری فی الأدب، و أبو داود و الضیاء عنه قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «من أعطی عطاء فوجد فلیجز به، فإن لم یجد فلیثن به، فمن أثنی به فقد شکره، و من کتمه فقد کفره، و من تحلّی بما لم یعط فإنه کلابس ثوبی زور». و أخرج أحمد، و الطبرانی فی الأوسط، و البیهقی عن عائشهٔ قالت: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «من أولی معروفا فلیکافئ به، فإن لم یستطع فلیذکره، فإن من ذکره فقد شکره».

فتح القدیر، ج۵، ص: ۵۶۲

سورهٔ الشرح

اشارهٔ

و هی مکیهٔ بلا خلاف. و أخرج ابن الضریس و النحاس و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس قال: نزلت ألم نشرح بمکهٔ، و زاد: بعد الضحی. و أخرج ابن مردویه عن عائشهٔ قالت: نزلت سورهٔ ألم نشرح بمکهٔ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورهٔ الشرح (۹۴): الآیات ۱ الی ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ (۱) وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ (۲) الَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ (۳) وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ (۴)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً (۶) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (۷) وَ إِلی رَبِّکَ فَارْغَبْ (۸)

معنی شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما یصدّ عن الإدراک، و الاستفهام إذا دخل علی النفی قرّره، فصار المعنی: قد شرحنا لک صدرک، و إنما خصّ الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم و الإدراکات، و المراد الامتنان علیه صلّی اللّه علیه و سلّم بفتح صدره و توسیعه حتی قام بما قال به من الدعوهٔ، و قدر علی ما قدر علیه من حمل أعباء النبوّهٔ و حفظ الوحی، و قد مضی القول فی هذا عند تفسیر قوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلی نُورٍ مِنْ رَبِّهِ «۱». وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ معطوف علی معنی ما تقدّم، لا علی لفظه: أی قد شرحنا لک صدرک و وضعنا إلخ، و منه قول جریر یمدح عبد الملک بن مروان:

ألستم خیر من رکب المطایاو أندی العالمین بطون راح

أی: أنتم خیر من رکب المطایا، و أندی إلخ. قرأ الجمهور: نَشْرَحْ بسکون الحاء بالجزم، و قرأ أبو جعفر المنصور العباسی بفتحها. قال الزمخشری: قالوا: لعله بیّن الحاء و أشبعها فی مخرجها، فظنّ السامع أنه فتحها. و قال ابن عطیهٔ: إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفیفهٔ، ثم إبدالها ألفا، ثم حذفها تخفیفا کما أنشد أبو زید:

من أیّ یومیّ من الموت أفرّأیوم لم یقدّر أم یوم قدر

بفتح الراء من لم یقدر، و مثله قوله:

اضرب عنك الهموم طارقهاضربك بالسّيف قونس الفرس
بفتح الباء من اضرب، و هذا مبنى على جواز توكيد المجزوم بلم، و هو قليل جدا كقوله:
يحسبه الجاهل ما لم يعلماشيخا على كرسيّه معمّما

---

(۱). الزمر: ۲۲.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۶۳

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة، الأول: توكيد المجزوم بلم، و هو ضعيف. الثانى: إبدالها ألفا، و هو خاص بالوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف. و الثالث: حذف الألف، و هو ضعيف أيضا لأنه خلاف الأصل، و خرّجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم و يجزمون بلن، و منه قول الشاعر:
فى كلّ ما همّ أمضى رأيه قدماو لم يشاور فى إقدامه أحدا
بنصب الراء من يشاور، و هذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح، و إن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها. و على كل حال فقراءة هذا الرجل مع شدّة جوره و مزيد ظلمه و كثرة جبروته و قلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها. و الوزر: الذنب، أى: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية. قال الحسن و قتادة و الضحاك و مقاتل: المعنى حططنا عنك الّذى سلف منك فى الجاهلية، و هذا كقوله: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ «۱» ثم وصف هذا الوزر فقال: الَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَكَ قال المفسرون: أى أثقل ظهرك. قال الزجاج: أثقله حتى سمع له نقيض، أى: صوت، و هذا مثل معناه: أنه لو كان حملا يحمل لسمع نقيض ظهره، و أهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة؛ إذا سمع له صرير، و منه قول جميل:
و حتّى تداعت بالنّقيض حبالهو همّت بوانى زوره «۲» أن تحطّما
و قول العباس بن مرداس:
و أنقض ظهرى ما تطويت منهمو كنت عليهم مشفقا متحنّنا
قال قتادة: كان للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ذنوب قد أثقلته فغفرها اللّه له، و قوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوّة التى تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل اللّه ذلك عليه حتى تيسرت له، و كذا قال أبو عبيدة و غيره و قرأ ابن مسعود: «و حللنا عنك و وقرك».
ثم ذكر سبحانه منّته عليه و كرامته فقال: وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ قال الحسن: و ذلك أن اللّه لا يذكر فى موضع إلا ذكر معه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال قتادة: رفع اللّه ذكره فى الدنيا و الآخرة، فليس خطيب و لا متشهد و لا صاحب صلاة إلا ينادى فيقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه أشهد أن محمدا رسول اللّه. قال مجاهد: وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ يعنى بالتأذين. و قيل المعنى: ذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، و أمرناهم بالبشارة بك، و قيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء و عند المؤمنين فى الأرض. و الظاهر أن هذا الرفع لذكره

---

(۱). الفتح: ۲.

(۲). «بوانى زوره»: أى أصول صدره.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۶۴

الّذی امتنّ اللّه به علیه یتناول جمیع هذه الأمور، فکل واحد منها من أسباب رفع الذکر، و کذلک أمره بالصلاة و السلام علیه، و إخباره صلّی اللّه علیه و سلّم عن اللّه عزّ و جلّ أن من صلّی علیه واحدة صلّی علیه بها عشرا، و أمر اللّه بطاعته کقوله: أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ* «۱» و قوله: وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۲» و قوله: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللَّهُ «۳» و غیر ذلک. و بالجملة فقد ملأ ذکره الجلیل السّماوات و الأرضین، و جعل اللّه له من لسان الصدق و الذکر الحسن و الثناء الصالح ما لم یجعله لأحد من عباده ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ* «۴» اللهمّ صلّ و سلّم علیه و علی آله عدد ما صلّی علیه المصلّون بکل لسان فی کل زمان، و ما أحسن قول حسان:

أغرّ علیه للنبوّة خاتممن اللّه مشهود یلوح و یشهد

و ضمّ الإله اسم النبیّ مع اسمهإذا قال فی الخمس المؤذّن أشهد

و شقّ له من اسمه لیجلّهفذو العرش محمود و هذا محمّد

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً أی: إن مع الضیقة سعة، و مع الشدّة رخاء، و مع الکرب فرج. و فی هذا وعد منه سبحانه بأن کل عسر یتیسر، و کل شدید یهون، و کل صعب یلین. ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقریرا و تأکیدا، فقال مکرّرا له بلفظ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً أی: إن مع ذلک العسر المذکور سابقا یسرا آخر لما تقرّر من أنه إذا أعید المعرّف یکون الثانی عین الأوّل؛ سواء کان المراد به الجنس أو العهد، بخلاف المنکّر إذا أعید فإنه یراد بالثانی فرد مغایر لما أرید بالفرد الأوّل فی الغالب، و لهذا قال النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم فی معنی هذه الآیة:

«لن یغلب عسر یسرین» قال الواحدی: و هذا قول النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و الصحابة و المفسرین علی أن العسر واحد و الیسر اثنان. قال الزجاج: ذکر العسر مع الألف و اللام ثم ثنی ذکره، فصار المعنی: إن مع العسر یسرین.

قیل: و التنکیر فی الیسر للتفخیم و التعظیم، و هو فی مصحف ابن مسعود غیر مکرّر. قرأ الجمهور بسکون السین فی العسر و الیسر فی الموضعین. و قرأ یحیی بن وثاب و أبو جعفر و عیسی بضمها فی الجمیع فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ أی: إذا فرغت من صلاتک، أو من التبلیغ، أو من الغزو فانصب، أی: فاجتهد فی الدعاء و اطلب من اللّه حاجتک، أو فانصب فی العبادة، و النصب: التعب، یقال: نصب ینصب نصبا، أی: تعب.

قال قتادة و الضحاک و مقاتل و الکلبی: إذا فرغت من الصلاة المکتوبة فانصب إلی ربک فی الدعاء، و ارغب إلیه فی المسألة یعطک، و کذا قال مجاهد. قال الشعبی: إذا فرغت من التشهد فادع لدنیاک و آخرتک، و کذا قال الزهری. و قال الکلبی أیضا: إذا فرغت من تبلیغ الرسالة فانصب: أی استغفر لذنبک و للمؤمنین و المؤمنات. و قال الحسن و قتادة: إذا فرغت من جهاد عدوّک فانصب لعبادة ربک. و قال مجاهد أیضا: إذا فرغت من دنیاک فانصب فی صلاتک، وَ إِلی رَبِّکَ فَارْغَبْ قال الزجاج: أی اجعل رغبتک إلی اللّه وحده. قال عطاء: یرید أن یضرع إلیه راهبا من النار، راغبا فی الجنة، و المعنی: أنه یرغب إلیه سبحانه

---

(۱). النور: ۵۴.

(۲). الحشر: ۷.

(۳). آل عمران: ۲۱.

(۴). الحدید: ۲۱.

فتح القدیر، ج۵، ص: ۵۶۵

لا إلی غیره کائنا من کان، فلا یطلب حاجاته إلا منه، و لا یعول فی جمیع أموره إلا علیه. قرأ الجمهور:

فَارْغَبْ و قرأ زيد بن عليّ و ابن أبى عبلة «فرغب» بتشديد الغين، أى: فرغب الناس إلى اللّه و شوّقهم إلى ما عنده من الخير.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ قال: شرح اللّه صدره للإسلام. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أتانى جبريل فقال: إن ربك يقول:

تدرى كيف رفعت ذكرك؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معى» و إسناد ابن جرير هكذا: حدّثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد. و أخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج. و أخرجه ابن أبى حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به. و أخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ الآية قال: لا يذكر اللّه إلا ذكر معه. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا و حياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاءه اليسر فدخل عليه فأخرجه، فأنزل اللّه: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً- إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً». و أخرج ابن النجار عنه مرفوعا نحوه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا مرفوعا نحوه- قال السيوطى: و سنده ضعيف- و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا فى الصبر و ابن المنذر و البيهقى فى الشعب عن ابن مسعود مرفوعا: «لو كان العسر فى جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه، و لن يغلب عسر يسرين إن اللّه يقول: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً- إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح. قال فيه أبو حاتم الرازى: فى حديثه ضعف، و لكن رواه شعبة عن معاوية بن قرّة عن رجل عن عبد اللّه بن مسعود. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و الحاكم و البيهقى عن الحسن قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوما فرحا مسرورا و هو يضحك و يقول: «لن يغلب عسر يسرين، إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا» و هذا مرسل. و روى نحوه مرفوعا مرسلا عن قتادة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله:

فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ الآية، قال: إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء و اسأل اللّه و ارغب إليه.

و أخرج ابن مردويه عنه قال: قال اللّه لرسوله: إذا فرغت من الصلاة و تشهدت فانصب إلى ربك و اسأله حاجتك. و أخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن ابن مسعود: فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ إلى الدعاء وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ فى المسألة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه: فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ قال: إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۶

سورة التّين

اشارة

و هى مكية فى قول الجمهور، و روى القرطبى عن ابن عباس أنها مدنية، و يخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: أنزلت سورة التين بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن البراء بن عازب قال: «كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر، فصلى العشاء، فقرأ فى إحدى الركعتين بالتين و الزيتون، فما سمعت أحدا أحسن صوتا و لا قراءة منه». و أخرج الخطيب عنه قال: «صليت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المغرب، فقرأ بالتين و الزيتون». و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و عبد بن حميد فى مسنده، و الطبرانى عن

عبد اللّه بن يزيد «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ فى المغرب و التين و الزيتون». و أخرج ابن قانع و ابن السكن، و الشيرازى فى الألقاب، عن زرعة بن خليفة قال: «أتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من اليمامة، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، فلما صلّينا الغداة قرأ بالتين و الزيتون، و إنا أنزلناه فى ليلة القدر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (١) وَ طُورِ سِينِينَ (٢) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)
ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (٨)

قال أكثر المفسرين: هو التين الّذى يأكله الناس وَ الزَّيْتُونِ الّذى يعصرون منه الزيت، و إنما أقسم بالتين؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، و فيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيّأها لذلك، و جعلها على مقدار اللقمة. قال كثير من أهل الطب: إن التين أنفع الفواكه و أكثرها غذاء، و ذكروا له فوائد كما فى كتب المفردات و المركبات، و أما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الّذى هو إدام غالب البلدان و دهنهم، و يدخل فى كثير من الأدوية. و قال الضحاك: التين: المسجد الحرام، و الزيتون: المسجد الأقصى. و قال ابن زيد:

التين: مسجد دمشق، و الزيتون: مسجد بيت المقدس. و قال قتادة: التين: الجبل الّذى عليه دمشق، و الزيتون: الجبل الّذى عليه بيت المقدس. و قال عكرمة و كعب الأحبار: التين: دمشق، و الزيتون: بيت المقدس.

و ليت شعرى ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقى فى اللغة العربية، و العدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى؛ المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل و لا نقل. و أعجب من هذا اختيار ابن

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٦٧

جرير للآخر منها مع طول باعه فى علم الرواية و الدراية. قال الفراء: سمعت رجلا يقول: التين: جبال حلوان إلى همدان، و الزيتون: جبال الشام. هب أنك سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبيت اللغة، و لا هو نقل عن الشارع. و قال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، و الزيتون: مسجد إيلياء، و قيل: إنه على حذف مضاف، أى: و منابت التين و الزيتون. قال النحّاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، و لا من قول من لا يجوّز خلافه. وَ طُورِ سِينِينَ هو الجبل الّذى كلّم اللّه عليه موسى اسمه الطور، و معنى سينين: المبارك الحسن بلغة الحبشة، قاله قتادة. و قال مجاهد: هو المبارك بالسريانية. و قال مجاهد و الكلبى: سينين: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين و سيناء بلغة النّبط. قال الأخفش: طور: جبل، و سينين: شجر، واحدته سينينة. قال أبو على الفارسى: سينين فعليل، فكرّرت اللام التى هى نون فيه، و لم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء لأنه جعل اسما للبقعة، و إنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام، و هى الأرض المقدسة كما فى قوله: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ «١» و أعظم بركة حلّت به و وقعت عليه تكليم اللّه لموسى عليه. قرأ الجمهور: سِينِينَ بكسر السين، و قرأ ابن إسحاق و عمرو بن ميمون و أبو رجاء بفتحها، و هى لغة بكر و تميم. و قرأ عمر بن الخطاب و ابن مسعود و الحسن و طلحة سَيْناءَ بالكسر و المدّ. وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ يعنى مكة، سمّاه أمينا لأنه آمن كما قال: أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً «٢» يقال أمن الرجل أمانة فهو أمين. قال الفراء و غيره: الأمين بمعنى الآمن، و يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول من أمنه؛ لأنه مأمون الغوائل لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

هـذا جواب القسم، أى: خلقنا جنس الإنسان كائنا فى أحسن تقويم و تعديل. قال الواحدى: قال المفسـرون: إن اللّه خلق كل ذى روح مكبّا على وجهه إلا الإنسان، خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده، و معنى التقويم: التعديل، يقال: قوّمته فاستقام.
قال القرطبى: هو اعتداله و استواء شأنه، كذا قال عامة المفسرين. قال ابن العربى: ليس للّه تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن اللّه خلقه حيا عالما قادرا مريدا متكلّما سـميعا بصيرا مدبّرا حكيما، و هذه صفات الرب سبحانه، و عليها جعل بعض العلماء قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه خلق آدم على صورته» يعنى على صـفاته التى تقدم ذكرها. قلت: و ينبغى أن يضمّ إلى كلامه هذا قوله سبحانه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «٣» و قوله: وَ لاـ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً «۴» و من أراد أن يقف على حقيقـة ما اشـتمل عليه الإنسان من بديع الخلق و عجيب الصـنع فلينظر فى كتاب «العبر و الاعتبار» للجاحظ، و فى الكتاب الّذى عقده النيسابورى على قوله: وَ فِی أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ «۵» و هو فى مجلـدين ضـخمين. ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْـفَلَ سافِلِينَ أى: رددناه إلى أرذل العمر، و هو الهرم و الضـعف بعد الشباب و القوّة حتى يصير كالصبىّ فيخرف و ينقص عقله، كذا قال جماعة من المفسرين. قال الواحدى: و السافلون: هم الضعفاء و الزمناء و الأطفال، و الشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا.

---

(١). الإسراء: ١.

(٢). العنكبوت: ۶٧.

(٣). الشورى: ١١.

(۴). طه: ١١٠.

(۵). الذاريات: ٢١.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶٨

و قال مجاهد و أبو العالية و الحسن: المعنى: ثم رددنا الكافر إلى النار، و ذلك أن النار درجات بعضـها أسـفل من بعض، فالكافر يردّ إلى أسـفل الـدرجات السافلـة، و لاـ ينافى هـذا قوله تعالى: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِی الـدَّرْكِ الْأَسْـفَلِ مِنَ النَّارِ «١» فلاـ مانع من كون الكفار و المنافقين مجتمعين فى ذلك الدرك الأسـفل، و قوله: أَسْفَلَ سافِلِينَ إما حال من المفعول، أى: رددناه حال كونه أسفل سـافلين، أو صـفة لمقـدر محـذوف، أى: مكانا أسـفل سافلين إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هـذا الاسـتثناء على القول الأوّل منقطع، أى: لكن الذين آمنوا ... إلخ، و وجهه أن الهرم و الردّ إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر، فلا يكون لاسـتثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى. و على القول الثانى يكون الاسـتثناء متصـلا من ضمير «رددناه»، فإنه فى معنى الجمع، أى: رددنـا الإنسـان أسـفل سـافلين من النـار إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى: غير مقطوع، أى: فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعـاتهم؛ فهـذه الجملـة على القول الأـوّل مبنيـة لكيفيـة حال المؤمنين، و على القول الثانى مقرّرة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الردّ، و قال: أسفل سافلين على الجمع؛ لأن الإنسان فى معنى الجمع، و لو قال أسفل سافل لجاز؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحـد. و قيل: معنى «رددناه أسـفل سافلين»: رددناه إلى الضـلال، كما قال: إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ- إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحـاتِ «٢» أى: إلاـ هؤلاء؛ فلا يردّون إلى ذلك فَما يُكَذِّبُكَ بَعْـدُ بِالـدِّينِ الخطاب للإنسان الكـافر، و الاستفهام للتقريع و التوبيـخ و إلزام الحجـة، أى: إذا عرفت أيها الإنسان أن اللّه خلقك فى أحسن تقويم، و أنه يردّك أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث و الجزاء؟ و قيل:
الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: أىّ شىء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة، فاستيقن مع ما جاءك من اللّه أنه أحكم الحاكمين. قال الفراء و الأخفش: المعنى: فمن يكـذبك أيها الرسول بعـد هـذا البيان بالـدين، كأنه قال: من يقـدر

على ذلک؟ أی: على تکذيبک بالثواب و العقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر، و اختار هذا ابن جرير. و الدين: الجزاء، و منه قول الشاعر:

دنّا تميما كما كانت أوائلنادانت أوائلهم من سالف الزّمن

و قال الآخر:

و لمّا صرّح الشرّفأمسى و هو عريان

و لم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ أی: أليس الّذی فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعا و تدبيرا؟ حتى تتوهّم عدم الإعادة و الجزاء، و فيه وعيد شديد للكفار، و معنى أحكم الحاكمين: أتقن الحاكمين فی كل ما يخلق، و قيل: أحكم الحاكمين قضاء و عدلا. و الاستفهام إذا دخل على النفی صار الكلام إيجابا كما تقدّم تفسير قوله: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ «٣».

---

(١). النساء: ١۴۵.

(٢). العصر: ٢- ٣.

(٣). الشرح: ١.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۶۹

و قد أخرج الخطيب و ابن عساكر- قال السيوطی: بسند فيه مجهول- عن الزهری عن أنس قال: لما أنزلت سورة التين و الزيتون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فرح فرحا شديدا؛ حتى تبين لنا شدّة فرحه، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال: التين: بلاد الشام، و الزيتون: بلاد فلسطين، و طور سيناء: الّذی كلّم اللّه عليه موسى، و هذا البلد الأمين: مكة لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ محمدا ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ عبدة اللات و العزّى إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أبو بكر و عمر و عثمان و علیّ فَما يُكَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّينِ- أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ إذ بعثک فيهم نبيا و جمعک على التقوى يا محمد، و مثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدّم من كون فی إسناده ذلک المجهول. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله: وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ قال: مسجد نوح الّذی بنی على الجودیّ، و الزيتون قال: بيت المقدس وَ طُورِ سِينِينَ قال: مسجد الطور وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ قال: مكة لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ- ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ يقول: يردّ إلى أرذل العمر كبر حتى ذهب عقله، هم نفر كانوا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين سفهت عقولهم، فأنزل اللّه عذرهم أن لهم أجرهم الّذی عملوا قبل أن تذهب عقولهم فَما يُكَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّينِ يقول: بحكم اللّه. و أخرج ابن مردويه عنه نحوه. و أخرج ابن أبی حاتم و الحاكم و صححه عنه أيضا وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ قال: الفاكهة التی يأكلها الناس وَ طُورِ سِينِينَ قال: الطور: الجبل، و السينين:

المبارک. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه أيضا قال: سينين: هو الحسن. و أخرج سعيد ابن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عنه أيضا لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ قال: فی أعدل خلق ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ يقول: إلى أرذل العمر إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ يعنی: غير منقوص، يقول: فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر و كان يعمل فی شبابه عملا صالحا كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فی صحته و شبابه و لم يضرّه ما عمل فی كبره، و لم تكتب عليه الخطايا التی يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر. و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقی فی

الشعب، عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، و ذلك قوله: ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ- إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ قال: لا- يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ يقول: إلى الكبر و ضعفه، فإذا كبر و ضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل فى شبيبته. و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما عن أبى موسى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إذا مرض العبد أو سافر كتب اللّه له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما». و أخرج الترمذى و ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا: «من قرأ التين و الزيتون، فقرأ: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ فليقل: بلى و أنا على ذلك من الشاهدين». و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا: «إذا قرأت التين و الزيتون فقرأت أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ فقل: بلى». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ قال: سبحانك اللهمّ فبلى.

فتح القدير، ج‌5، ص: 570

سورة العلق

اشارة

و يقال سورة العلق، و هى تسع عشرة آية، و قيل: عشرون آية و هى مكية بلا خلاف، و هى أوّل ما نزل من القرآن. و أخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: أوّل ما نزل من القرآن اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن الضريس و ابن الأنبارى و الطبرانى و الحاكم و صححه و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية عن أبى موسى الأشعرى قال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ أوّل سورة أنزلت على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى و صحّحه، عن عائشة قالت: إن أوّل ما نزل من القرآن: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ و يدل على أن هذه السورة أول ما نزل: الحديث الطويل الثابت فى البخارى و مسلم و غيرهما من حديث عائشة، و فيه: «فجاءه الحق و هو فى غار حراء، فقال له: اقرأ» الحديث، و فى الباب أحاديث و آثار عن جماعة من الصحابة. و قد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العلق (96): الآيات 1 الى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)
عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (7) إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (8) أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9)
عَبْداً إِذا صَلَّى (10) أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (12) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (13) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (14)
كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18) كَلَّا لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (19)

قرأ الجمهور: اقْرَأْ بسكون الهمزة أمرا من القراءة. و قرأ عاصم فى رواية عنه بفتح الراء، و كأنه قلب الهمزة ألفا ثم حذفها للأمر، و الأمر بالقراءة يقتضى مقروءا، فالتقدير: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، و قوله: بِاسْمِ رَبِّكَ متعلق

بمحذوف هو حال: أی: اقرأ متلبسا باسم ربک أو مبتدئا باسم ربک أو مفتتحا، و یجوز أن تکون الباء زائدة، و التقدیر: اقرأ اسم ربک، کقول الشاعر «۱»:

سود المحاجر لا یقرأن بالسّور «۲»

(۱). هو الراعی.

(۲). و صدر البیت: هنّ الحرائر لا ربّات أحمرة.

فتح القدیر، ج‌۵، ص: ۵۷۱

قاله أبو عبیدة. و قال أیضا: الاسم صلة، أی: اذکر ربک. و قیل: الباء بمعنی علی، أی: اقرأ علی اسم ربک، یقال: افعل کذا بسم اللّه، و علی اسم اللّه، قاله الأخفش. و قیل: الباء للاستعانة، أی: مستعینا باسم ربک، و وصف الربّ بقوله: الَّذِی خَلَقَ لتذکیر النعمة؛ لأنّ الخلق هو أعظم النعم، و علیه یترتّب سائر النعم. قال الکلبی: یعنی الخلائق خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ یعنی بنی آدم، و العلقة: الدم الجامد، و إذا جری فهو المسفوح. و قال: «من علق» بجمع علق لأن المراد بالإنسان الجنس، و المعنی: خلق جنس الإنسان من جنس العلق، و إذا کان المراد بقوله: «الّذی خلق» کلّ المخلوقات، فیکون تخصیص الإنسان بالذکر تشریفا له لما فیه من بدیع الخلق و عجیب الصنع، و إذا کان المراد بالذی خلق الّذی خلق الإنسان فیکون الثانی تفسیرا للأول. و النکتة ما فی الإبهام، ثم التفسیر من التفات الذهن و تطلعه إلی معرفة ما أبهم أوّلا ثم فسّر ثانیا. ثم کرر الأمر بالقراءة للتأکید و التقریر فقال: اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ أی: افعل ما أمرت به من القراءة، و جملة وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلّی اللّه علیه و سلّم من قوله: «ما أنا بقارئ»، یرید أن القراءة شأن من یکتب و یقرأ و هو أمیّ، فقیل له: اقرأ، و ربک الّذی أمرک بالقراءة هو الأکرم.

قال الکلبی: یعنی الحلیم عن جهل العباد فلم یعجل بعقوبتهم، و قیل: إنه أمره بالقراءة أوّلا لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانیا للتبلیغ، فلا یکون من باب التأکید، و الأوّل أولی الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ أی: علّم الإنسان الخط بالقلم، فکان بواسطة ذلک یقدر علی أن یعلم کل مکتوب، قال الزجاج: علم الإنسان الکتابة بالقلم.

قال قتادة: القلم نعمة من اللّه عزّ و جلّ عظیمة، لو لا ذلک لم یقم دین و لم یصلح عیش، فدلّ علی کمال کرمه بأنه علم عباده ما لم یعلموا و نقلهم من ظلمة الجهل إلی نور العلم، و نبّه علی فضل علم الکتابة لما فیه من المنافع العظیمة التی لا یحیط بها إلا هو، و ما دوّنت العلوم و لا قیدت الحکم و لا ضبطت أخبار الأوّلین و مقالاتهم و لا کتب اللّه المنزلة إلا بالکتابة، و لو لا هی ما استقامت أمور الدین و لا أمور الدنیا، و سمّی قلما لأنه یقلم، أی: یقطع، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ هذه الجملة بدل اشتمال من التی قبلها، أی: علمه بالقلم من الأمور الکلیة و الجزئیة ما لم یعلم به منها، قیل: المراد بالإنسان هنا آدم کما فی قوله: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ کُلَّها «۱» و قیل: الإنسان هنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. و الأولی حمل الإنسان علی العموم، و المعنی: أن من علمه اللّه سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم یعلم، و قوله: کَلَّا ردع و زجر لمن کفر نعم اللّه علیه بسبب طغیانه، و إن لم یتقدم له ذکر، و معنی إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی أنه یجاوز الحد و یستکبر علی ربه. و قیل: المراد بالإنسان هنا أبو جهل، و هو المراد بهذا و ما بعده إلی آخر السورة، و أنه تأخّر نزول هذا و ما بعده عن الخمس الآیات المذکورة فی أوّل هذه السورة. و قیل «کلا» هنا بمعنی حقا، قاله الجرجانی، و علّل ذلک بأنه لیس قبله و لا بعده شی‌ء یکون کلا ردّا له، و قوله: أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی علّة لیطغی، أی:

لیطغی أن رأی نفسه مستغنیا، أو لأن رأی نفسه مستغنیا، و الرؤیة هنا بمعنی العلم، و لو کانت البصریة لامتنع

(۱). البقرة: ۳۱.

الجمع بين الضـميرين فى فعلها لشيء واحد لأن ذلك من خواص باب علم، و نحوه. قال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل: قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد اسـما و خبرا نحو الظنّ و الحسـبان؛ فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، و العرب تطرح النفس من هـذا الجنس تقول: رأيتنى و حسبتنى، و متى تراك خارجـا، و متى تظنـك خارجا، قيل: و المراد هنا أنه اسـتغنى بالعشـيرة و الأنصار و الأموال. قرأ الجمهور: «أن رآه» بمد الهمزة. و قرأ قنبل عن ابن كثير بقصـرها. قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد فى ثيابه و مركبه و طعامه و شـرابه؛ فذلك طغيانه، و كذا قال الكلبى. ثم هدّد سـبحانه و خوّف، فقال: إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى أى: المرجع، و الرجعى و المرجع و الرجوع: مصادر، يقال: رجع إليه مرجعا و رجوعا و رجعى، و تقدّم الجار و المجرور للقصـر، أى: الرجعى إليه سـبحانه لا- إلى غيره أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى قـال المفسـرون: الّـذى ينهى أبو جهـل، و المراد بالعبد محمـد صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و فيه تقبيح لصـنعه و تشـنيع لفعله؛ حتى كأنه بحيث يراه كلّ من تتأتى منه الرؤية أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى يعنى العبـد المنهىّ إذا صـلّى، و هو محمد صـلّى اللّه عليه و سـلّم أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى أى: بالإخلاص و التوحيد و العمل الصالـح الّـذى تتّقى به النار أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى يعنى أبا جهل، كذّب بما جاء به رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم و تولّى عن الإيمان، و قوله:

أَ رَأَيْتَ فى الثلاثة المواضع بمعنى: أخبرنى؛ لأن الرؤية لما كانت سببا للإخبار عن المرئى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلّقها، و الخطاب لكل من يصلح له. و قد ذكر هنا أ رأيت ثلاث مرات، و صرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية فتكون فى موضع المفعول الثـانى لهـا، و مفعولهـا الأـوّل محـذوف، و هو ضـمير يعود على الّـذى ينهى الواقع مفعولا أوّل لأرأيت الأولى، و مفعول أ رأيت الأولى الثانى محـذوف، و هو جملـة اسـتفهامية كالجملـة الواقعة بعد أ رأيت الثانية، و أما أ رأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أوّل و لا ثان، حـذف الأوّل لدلالـة مفعول أ رأيت الثالثـة عليه فقـد حـذف الثانى من الأولى، و الأول من الثالثـة، و الاثنان من الثانية، و ليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع لأنه يستدعى إضمارا، و الجمل لا تضمر، إنما تضـمر المفردات، و إنما ذلك من باب الحذف للدلالة، و أما جواب الشـرط المذكورة مع أ رأيت فى الموضـعين الآخرين. فهو محـذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى و إنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشـرط الثانى، و معنى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى أى: يطلع على أحـواله، فيجـازيه بهـا، فكيـف اجـترأ على مـا اجـترأ عليه؟ و الاسـتفهام للتقريـع و التوبيـخ، و قيـل: أ رأيت الأـولى مفعولهـا الأـوّل الموصول، و مفعولهـا الثـانى الشـرطية الأولى بجوابها المحـذوف المـدلول عليه بالمـذكور، و أ رأيت فى الموضـعين تكرير للتأكيـد، و قيـل: كـل واحـدة من أ رأيت بـدل من الأـولى، و أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى الخبر. قوله:

كَلَّا ردع للناهى، و اللام فى قوله: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ هى الموطئة للقسم، أى، و اللّه لئن لم ينته عما هو عليه و لم ينزجر لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ السـفع: الجـذب الشديـد، و المعنى: لنأخـذنّ بناصـيته و لنجرّنه إلى النار، و هـذا كقوله: فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ «۱» و يقـال: سفعت الشىء؛ إذا قبضته و جذبته،

---

(۱). الرّحمن: ۴۱.

و يقال: سـفع بناصـية فرسه. قال الراغب: السـفع: الأخذ بسـفعة الفرس، أى: بسواد ناصـيته، و باعتبار السواد قيل: به سـفعة غضب؛ اعتبارا بما يعلو من اللون الدخانى وجه من اشتدّ به الغضب، و قيل للصقر:

أسفع لما فيه من لمع السواد، و امرأة سفعاء اللون. انتهى، و قيل: هو مأخوذ من سفع النار و الشمس؛ إذا غيرت وجهه إلى سواد، و منه قول الشاعر «۱»:

أثافىّ سفعا فى معرّس مرجل «۲» . و قوله: ناصِيَةٍ بدل من الناصية، و إنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله: كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ و هذا على مذهب الكوفيين فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها. و أما على مذهب البصريين، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط، و أنشدوا:

فلا و أبيك خير منك إنّى ليؤذينى التّحمحم و الصّهيل

قرأ الجمهور بجرّ «ناصية كاذبة خاطئة» و الوجه ما ذكرنا. و قرأ الكسائى فى رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ، أى: هى ناصية، و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة و زيد بن علىّ بنصبها على الذمّ. قال مقاتل: أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ، فقال: «ناصية كاذبة خاطئة»، و تأويلها: صاحبها كاذب خاطئ فَلْيَدْعُ نادِيَهُ أى: أهل ناديه، و النادى: المجلس الّذى يجلس فيه القوم و يجتمعون فيه من الأهل و العشيرة؛ و المعنى:

ليدع عشيرته و أهله ليعينوه و ينصروه، و منه قول الشاعر «۳»:

و استبّ بعدك يا كليب المجلس «۴» أى: أهله. قيل: إن أبا جهل قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أ تهددنى و أنا أكثر الوادى ناديا؟ فنزلت: فَلْيَدْعُ نادِيَهُ- سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ أى: الملائكة الغلاظ الشداد، كذا قال الزجاج. قال الكسائى و الأخفش و عيسى ابن عمر: واحدهم زابن، و قال أبو عبيدة: زبنية، و قيل: زبانىّ، و قيل: هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد و أبابيل. و قال قتادة: هم الشّرط فى كلام العرب، و أصل الزّبن الدّفع، و منه قول الشاعر:

و مستعجب ممّا يرى من أناتناو لو زبّنته الحرب لم يترمرم

و العرب تطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه، و منه قول الشاعر:

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغىزبانية غلب «۵» عظام حلومها

قرأ الجمهور: «سندع» بالنون، و لم ترسم الواو كما فى قوله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ «۶» و قرأ ابن أبى

---

(۱). هو زهير بن أبى سلمى.

(۲). و عجز البيت: و نؤيا كجذم الحوض لم يتثلّم.

(۳). هو المهلهل.

(۴). و صدر البيت: نبئت أنّ النار بعدك أوقدت.

(۵). «غلب»: جمع أغلب، و هو الغليظ الرقبة.

(۶). القمر: ۶.

عبلة: «سيدعى» على البناء للمفعول و رفع الزبانية على النيابة. ثم كرّر الردع و الزجر فقال: كَلَّا لا تُطِعْهُ أى: لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة وَ اسْجُدْ أى: صلّ للّه غير مكترث به، و لا مبال بنهيه وَ اقْتَرِبْ أى: تقرّب إليه سبحانه بالطاعة و العبادة. و قيل: المعنى: إذا سجدت اقترب من اللّه بالدعاء. و قال زيد بن أسلم: و اسجد أنت يا محمد، و اقترب أنت يا أبا جهل من النار، و الأوّل أولى.

و السجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة، و قيل: سجود التلاوة، و يدلّ على هذا ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من السجود

عند تلاوة هذه الآية، كما سيأتى إن شاء اللّه.
و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير، و أبو نعيم فى الدلائل، عن عبد اللّه بن شداد قال: «أتى جبريل محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا محمد اقرأ، فقال: و ما أقرأ؟ فضمه ثم قال: يا محمد اقرأ، قال: و ما أقرأ؟ قال اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِی خَلَقَ حتى بلغ ما لَمْ يَعْلَمْ . و فى الصحيحين و غيرهما من حديث عائشة: «فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال: قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِی خَلَقَ- خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ- اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ- الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ الآية. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلّى عند الكعبة لأطأنّ عنقه، فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عنه قال:
«كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر ناديا منى، فأنزل اللّه: فَلْيَدْعُ نادِيَهُ- سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ فجاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصلّى، فقيل: ما يمنعك؟ فقال: قد اسودّ ما بينى و بينه».
قال ابن عباس: و اللّه لو تحرك لأخذته الملائكة و الناس ينظرون إليه. و أخرج أحمد و مسلم و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا نعم، قال: و اللات و العزّى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأنّ على رقبته و لأعفرن وجهه فى التراب، فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يصلى ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا و هو ينكص على عقبيه و يتّقى بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بينى و بينه خندقا من نار و هولا و أجنحة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا» قال: و أنزل اللّه: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى إلى آخر السورة، يعنى أبا جهل فَلْيَدْعُ نادِيَهُ يعنى قومه: سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ يعنى الملائكة.
و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ رَأَيْتَ الَّذِی يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى قال:
أبو جهل بن هشام حين رمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالسّلى على ظهره و هو ساجد للّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: لَنَسْفَعاً قال: لنأخذن. و أخرج ابن جرير عنه أيضا فَلْيَدْعُ نادِيَهُ قال: ناصره، و قد قدّمنا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يسجد فى إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و فى اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِی خَلَقَ
فتح القدير، ج۵، ص: ۵۷۵

سورة القدر

اشارة

و هى مكية عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردى. و قال الثعلبى: هى مدنية فى قول أكثر المفسرين، و ذكر الواقدى أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشة أنها نزلت بمكة.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القدر (۹۷): الآيات ۱ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (۴)
سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (۵)

الضمير فى أنزلناه للقرآن، و إن لم يتقدّم له ذكر، أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، و كان ينزل على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نجوما على حسب الحاجة، و كان بين نزول أوّله و آخره على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاث و عشرون سنة، و فى آية أخرى: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «١» و هى ليلة القدر، و فى آية أخرى شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «٢» و ليلة القدر فى شهر رمضان. قال مجاهد: فى ليلة القدر ليلة الحكم وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ ليلة الحكم، قيل: سمّيت ليلة القدر لأن اللّه سبحانه يقدّر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة. و قيل: إنها سمّيت بذلك لعظيم قدرها و شرفها، من قولهم: لفلان قدر، أى:

شرف و منزلة، كذا قال الزهرى. و قيل: سمّيت بذلک؛ لأن للطاعات فيها قدرا عظيما و ثوابا جزيلا.

و قال الخليل: سمّيت ليلة القدر؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة، كقوله: وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ «٣» أى: ضيق.

و قد اختلف فى تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولا، قد ذكرناها بأدلتها و بيّنا الراجح منها فى شرحنا للمنتقى وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا اللّه سبحانه. قال سفيان: كلّ ما فى القرآن من قوله: و ما أدراك؛ فقد أدراه، و كلّ ما فيه: و ما يدريک؛ فلم يدره، و كذا قال الفراء. و المعنى: أىّ شىء تجعله داريا بها؟ و قد قدّمنا الكلام فى إعراب هذه الجملة فى قوله: وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ «۴» ثم قال: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قال كثير من المفسرين: أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، و اختار هذا الفراء و الزجاج، و ذلک أن الأوقات إنّما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير و النفع، فلما جعل اللّه الخير الكثير فى

---

(١). الدخان: ٣.

(٢). البقرة: ١٨۵.

(٣). الطلاق: ٧.

(۴). الحاقة: ٣.

ليلة كانت خيرا من ألف شهر لا يكون فيها من الخير و البركة ما فى هذه الليلة. و قيل: أراد بقوله: ألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف فى كثير من الأشياء على طريق المبالغة. و قيل: وجه ذكر الألف الشهر:

أن العابد كان فيما مضى لا يسمّى عابدا حتى يعبد اللّه ألف شهر، و ذلک ثلاث و ثمانون سنة و أربعة أشهر، فجعل اللّه سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيرا من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها. و قيل: إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رأى أعمار أمته قصيرة، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر، فأعطاه اللّه ليلة القدر و جعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم، و قيل غير ذلک مما لا طائل تحته، و جملة تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مستأنفة مبينة لوجه فضلها، موضّحة للعلّة التى صارت بها خيرا من ألف شهر، و قوله:

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يتعلّق بتنزل أو بمحذوف هو حال، أى: متلبسين بإذن ربهم، و الإذن: الأمر، و معنى «تنزل»: تهبط من السماوات إلى

الأرض. و الروح: هو جبريل عند جمهور المفسرين، أى: تنزل الملائكة و معهم جبريل. و وجه ذكره بعد دخوله فى الملائكة التعظيم له و التشريف لشأنه. و قيل: الرّوح صنف من الملائكة هم أشرافهم، و قيل: هم جند من جنود اللّه من غير الملائكة، و قيل: الروح: الرحمة، و قد تقدّم الخلاف فى الروح عند قوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا «١» قرأ الجمهور: «تنزل» بفتح التاء، و قرأ طلحة بن مصرّف و ابن السّميقع بضمّها على البناء للمفعول، و قوله: مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أى: من أجل كلّ أمر من الأمور التى قضى اللّه بها فى تلك السنة، و قيل: إن «من» بمعنى اللام، أى: لكلّ أمر، و قيل:

هى بمعنى الباء، أى: بكلّ أمر، قرأ الجمهور: «أمر» و هو واحد الأمور، و قرأ علىّ و ابن عباس و عكرمة و الكلبى «امرئ» مذكر امرأة، أى: من أجل كلّ إنسان، و تأوّلها الكلبى على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلّمون على كلّ إنسان، فمن على هذا بمعنى على، و الأوّل أولى. و قد تمّ الكلام عند قوله: من كلّ أمر، ثم ابتدأ فقال: سَلامٌ هِيَ أى: ما هى إلا سلامة و خير كلها لا شرّ فيها، و قيل: هى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان من مؤمن أو مؤمنة. قال مجاهد: هى ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا و لا أذى. و قال الشعبى: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرّون على كلّ مؤمن و يقولون: السلام عليك أيها المؤمن، و قيل: يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض.

قال عطاء: يريد سلام على أولياء اللّه و أهل طاعته حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ أى حتى وقت طلوعه. قرأ الجمهور: «مطلع» بفتح اللام. و قرأ الكسائى و ابن محيصن بكسرها، فقيل: هما لغتان فى المصدر، و الفتح أكثر؛ نحو: المخرج و المقتل، و قيل: بالفتح اسم مكان، و بالكسر المصدر، و قيل: العكس، و «حتى» متعلّقة بتنزل؛ على أنها غاية لحكم التنزل، أى: لمكثهم فى محل تنزلهم؛ بأن لا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر، و قيل: متعلقة بسلام بناء على أن الفصل بين المصدر و معموله بالمبتدأ مغتفر.

و قد أخرج ابن الضريس و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى

---

(١). النبأ: ٣٨.

فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ قال: أنزل القرآن فى ليلة القدر حتى وضع فى بيت العزّة فى السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد و أعمالهم. و أخرج عبد بن حميد عن أنس قال: العمل فى ليلة القدر و الصدقة و الصلاة و الزكاة أفضل من ألف شهر. و أخرج الترمذى و ضعّفه، و ابن جرير و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن الحسن بن علىّ بن أبى طالب أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أرى بنى أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ «١» يا محمد يعنى: نهرا فى الجنة، و نزلت: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ- وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ- لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم: فعددنا فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوما و لا تنقص يوما، و المراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور فى إسناده. قال الترمذى: إن يوسف هذا مجهول، يعنى:

يوسف بن سعد الّذى رواه عن الحسن بن علىّ. قال ابن كثير: فيه نظر، فإنه قد روى عنه جماعة: منهم حماد بن سلمة و خالد الحذاء و يونس بن عبيد. و قال فيه يحيى بن معين: هو مشهور. و فى رواية عن ابن معين قال: هو ثقة، و رواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن. قال ابن كثير: ثمّ هذا الحديث على كلّ تقدير منكر جدا. قال المزى: هو حديث منكر، و قول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد و لا تنقص ليس بصحيح، فإن جملة مدّتهم من عند أن استقل بالملك معاوية و هى سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس، و هى سنة اثنين و ثلاثين و مائة مجموعها اثنتان و تسعون سنة.

و أخرج الخطيب فى تاريخه؛ عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن علىّ. و أخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعا مرسلا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: سَلامٌ قال: فى تلك الليلة تصفد مردة الشياطين، و تغلّ عفاريت الجنّ، و تفتح فيها أبوابها السماء كلها، و يقبل اللّه فيها التوبة لكلّ تائب، فلذا قال: سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ قال: و ذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر. و الأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة، و ليس هذا موضع بسطها، و كذلك الأحاديث فى تعيينها و الاختلاف فى ذلك.

---

(١). الكوثر: ١.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٧٨

سورة البيّنة

اشارة

و هى مدنية فى قول الجمهور، و قيل: مكية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة لم يكن بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة. و أخرج أبو نعيم فى المعرفة عن إسماعيل بن أبى حكيم المزنى، حدّثنى فضل: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه يستمع قراءة لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا فيقول: أبشر عبدى و عزتى و جلالى لأمكننّ لك فى الجنة حتى ترضى» قال ابن كثير:
حديث غريب جدّا. و أخرجه أبو موسى المدينى عن مطر المزنى، أو المدنى بنحوه. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبىّ بن كعب: «إن اللّه أمرنى أن أقرأ عليك لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: و سمّانى لك؟ قال: نعم، فبكى». و أخرج أحمد، و ابن قانع فى معجم الصحابة، و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى حية البدرى قال: «لما نزلت لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول اللّه إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيّا، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأبىّ: إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة، فقال أبىّ: و قد ذكرت ثم يا رسول اللّه؟ قال: نعم، فبكى».
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (٢) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤)
وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)
المراد ب الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ اليهود و النصارى، وَ المراد ب الْمُشْرِكِينَ مشركو العرب، هم عبدة الأوثان، و مُنْفَكِّينَ

خبر كان، يقال: فككت الشيء فانفك، أي:

انفصل، و المعنى: أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم و لا منتهين عنه حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ و قيل: الانفكاك بمعنى الانتهاء و بلوغ الغاية، أي: لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة، و قيل: منفكين:

زائلين، أي: لم تكن مدّتهم لتزول حتى تأتيهم البينة، يقال: ما انفك فلان قائما، أي: ما زال قائما، و أصل الفكّ: الفتح، و منه فكّ الخلخال. و قيل: منفكين: بارحين، أي: لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۷۹

الدنيا حتى تأتيهم البينة. و قال ابن كيسان: المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حتى بعث، فلما بعث حسدوه و جحدوه، و هو كقوله: فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ «۱» و على هذا فيكون قوله: وَ الْمُشْرِكِينَ أنهم ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حتى بعث، فإنهم كانوا يسمّونه الأمين، فلما بعث عادوه و أساؤوا القول فيه. و قيل: مُنْفَكِّينَ هالكين، من قولهم: انفكّ صلبه، أي: انفصل فلم يلتئم فيهلك، و المعنى: لم يكونوا معذبين و لا هالكين إلا بعد قيام الحجّة عليهم. و قيل: إن المشركين هم أهل الكتاب، فيكون وصفا لهم لأنهم قالوا: المسيح ابن اللّه و عزير ابن اللّه. قال الواحدى: و معنى الآية إخبار اللّه تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم و شركهم باللّه حتى أتاهم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم و جهالتهم و دعاهم إلى الإيمان، و هذا بيان عن النعمة و الانقياد به من الجهل و الضلالة و الآية فيمن آمن من الفريقين. قال: و هذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظما و تفسيرا، و قد تخبّط فيها الكبار من العلماء، و سلكوا فى تفسيرها طرقا لا تفضى بهم إلى الصواب. و الوجه ما أخبرتك، فاحمد اللّه إذ أتاك بيانها من غير لبس و لا إشكال. قال: و يدلّ على أن البينة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أنه فسرها و أبدل منها فقال: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً يعنى ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها، و هو القرآن، و يدلّ على ذلك أنه كان يتلو على ظهر قلبه، لا عن كتاب. انتهى كلامه. و قيل: إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب و المشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبى الموعود به، فلما بعث تفرّقوا كما حكاه اللّه عنهم فى هذه السورة. و البينة على ما قاله الجمهور هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ لأنه فى نفسه بينة و حجة و لذلك سمّاه سراجا منيرا، و قد فسر اللّه سبحانه هذه البينة المجملة بقوله: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ فاتّضح الأمر و تبين أنه المراد بالبينة. و قال قتادة و ابن زيد: البينة هى القرآن كقوله: أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى «۲» و قال أبو مسلم: المراد بالبينة مطلق الرسل، و المعنى: حتى تأتيهم رسل من اللّه، و هم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة، و الأوّل أولى. قرأ الجمهور: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين» و قرأ ابن مسعود: «لم يكن المشركون و أهل الكتاب» قال ابن العربى: و هى قراءة فى معرض البيان، لا فى معرض التلاوة، و قرأ الأعمش و النخعى:

و المشركون بالرفع عطفا على الموصول. و قرأ أبىّ «فلما كان الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركون» قرأ الجمهور: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ برفع رسول على أنه بدل كل من كلّ مبالغة، أو بدل اشتمال. قال الزجاج:

رسول رفع على البدل من البينة. و قال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: هى رسول أو هو رسول.

و قرأ أبىّ و ابن مسعود «رسولا» بالنصب على القطع، و قوله: مِنَ اللَّهِ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول، أي: كائن من اللّه، و يجوز تعلّقه بنفس رسول، و جوّز أبو البقاء أن يكون حالا من صحف، و التقدير: يتلو صحفا مطهرة منزلة من اللّه، و قوله: يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول، أن حالا من متعلق الجار و المجرور قبله. و معنى يتلو: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة، و الصحف:

(١). البقرة: ٨٩.

(٢). طه: ١٣٣.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٨٠

جمع صحيفة، و هى ظرف المكتوب، و معنى مطهرة: أنها منزهة من الزور و الضلال. قال قتادة: مطهرة من الباطل، و قيل: مطهرة من الكذب و الشبهات و الكفر، و المعنى واحد؛ و المعنى: أنه يقرأ ما تتضمّنه الصحف من المكتوب فيها لأنه كان صلّى اللّه عليه و سلّم يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب كما تقدّم، و قوله: فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ صفة لصحفا، أو حال من ضميرها، و المراد الآيات و الأحكام المكتوبة فيها، و القيمة: المستقيمة المستوية المحكمة، من قول العرب: قام الشي‌ء؛ إذا استوى و صحّ. و قال صاحب النظم: الكتب بمعنى الحكم كقوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «١» أى: حكم، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى قصة العسيف «لأقضينّ بينكما بكتاب اللّه» ثم قضى بالرجم، و ليس الرجم فى كتاب اللّه، فالمعنى: لأقضين بينكما بحكم اللّه، و بهذا يندفع ما قيل إن الصحف هى الكتب، فكيف قال صُحُفاً مُطَهَّرَةً- فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ و قال الحسن: يعنى بالصحف المطهرة: التى فى السماء، يعنى فى اللوح المحفوظ كما فى قوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ- فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «٢». وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب و تقريعهم، و بيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر، بل كان بعد وضوح الحق و ظهور الصواب.

قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث اللّه محمدا، فلما بعث تفرقوا فى أمره و اختلفوا، فآمن به بعضهم و كفر آخرون. و خصّ أهل الكتاب، و إن كان غيرهم مثلهم فى التفرّق بعد مجي‌ء البينة لأنهم كانوا أهل علم، فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ مفرّغ من أعم الأوقات، أى: و ما تفرّقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة، و هى بعثة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالشريعة الغرّاء و المحجّة البيضاء. و قيل: البينة: البيان الّذى فى كتبهم أنه نبيّ مرسل، كقوله: وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ «٣» قال القرطبى: قال العلماء: من أوّل السورة إلى قوله: كُتُبٌ قَيِّمَةٌ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب و المشركين، و قوله: وَ ما تَفَرَّقَ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب و المشركين بعد قيام الحجج، و جملة وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم و توبيخهم بما فعلوا من التفرّق بعد مجي‌ء البينة، أى: و الحال أنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا اللّه و يوحّدوه حال كونهم مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى: جاعلين دينهم خالصا له سبحانه أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين، و قيل:

إن اللام فى ليعبدوا بمعنى أن، أى: ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ «٤» أى: أن يبين، و يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ «٥» أى: أن يطفئوا. قرأ الجمهور: «مخلصين» بكسر اللام، و قرأ الحسن بفتحها. و هذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات لأن الإخلاص من عمل القلب،

---

(١). المجادلة: ٢١.

(٢). البروج: ٢١- ٢٢.

(٣). آل عمران: ١٩.

(٤). النساء: ٢٦.

(٥). الصف: ٨.

فتح القدير، ج‏5، ص: 581

و انتصاب حُنَفاءَ على الحال من ضمير مخلصين، فتكون من باب التداخل، و يجوز أن تكون من فاعل يعبدوا، و المعنى: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. قال أهل اللغة: أصله أن يحنف إلى دين الإسلام، أى: يميل إليه وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ أى: يفعلوا الصلوات فى أوقاتها، و يعطوا الزكاة عند محلّها، و خصّ الصلاة و الزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين. قيل: إن أريد بالصلاة و الزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة و الزكاة فالأمر ظاهر، و إن أريد ما فى شريعتنا فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا، و هما من جملة ما وقع الأمر به فيها وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ أى: و ذلك المذكور من عبادة اللّه و إخلاصها و إقامة الصلاة و الزكاة دِينُ الْقَيِّمَةِ أى دين الملة المستقيمة. قال الزجاج: أى ذلك دين الملة المستقيمة، فالقيمة صفة لموصوف محذوف. قال الخليل: القيمة جمع القيم، و القيم: القائم. قال الفراء:

أضاف الدّين إلى القيمة، و هو نعته لاختلاف اللفظين. و قال أيضا: هو من إضافة الشى‏ء إلى نفسه، و دخلت الهاء للمدح و المبالغة.

ثم بيّن سبحانه حال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ الموصول اسم إنّ، و المشركين معطوف عليه، و خبرها: فى نار جهنم، و خالِدِينَ فِيها حال من المستكنّ فى الخبر، و يجوز أن يكون قوله و المشركين مجرورا عطفا على أهل الكتاب و معنى كونهم فى نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى من تقدّم ذكرهم من أهل الكتاب و المشركين المتّصفين بالكون فى نار جهنم و الخلود فيها هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ أى: الخليقة، يقال برأ، أى: خلق، و البارئ: الخالق، و البرية: الخليقة. قرأ الجمهور: «البرية» بغير همز فى الموضعين و قرأ نافع و ابن ذكوان فيهما بالهمز. قال الفراء: إن أخذت البرية من البراء و هو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ، و إن أخذتها من بريت القلم، أى: قدّرته دخلت. و قيل: إن الهمز هو الأصل؛ لأنه يقال:

برأ اللّه الخلق بالهمز، أى: ابتدعه و اخترعه، و منه قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها «1» و لكنها خففت الهمزة، و التزم تخفيفها عند عامة العرب. ثم بيّن حال الفريق الآخر فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: جمعوا بين الإيمان و العمل الصالح أُولئِكَ المنعوتون بهذا هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ قال: و المراد أن أولئك شرّ البرية فى عصره صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يبعد أن يكون فى كفار الأمم من هو شرّ منهم، و هؤلاء خير البرية فى عصره صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يبعد أن يكون فى مؤمنى الأمم السابقة من هو خير منهم جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى: ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان و العمل الصالح جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و المراد بجنات عدن هى أوسط الجنات و أفضلها، يقال: عدن بالمكان يعدن عدنا، أى: أقام، و معدن الشى‏ء: مركزه و مستقرّه، و منه قول الأعشى:

و إن يستضافوا إلى حكمه يضافوا إلى راجح قد عدن

---

(1). الحديد: 22.

فتح القدير، ج‏5، ص: 582

و قد قدّمنا فى غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، و إن أريد مجموع قرار الأرض و الشجر، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر، و هو الشجر خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يخرجون منها و لا يظعنون عنها، بل هم دائمون فى نعيمها مستمرون فى لذاتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل اللّه به عليهم من الزيادة على مجرّد الجزاء، و هو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره و قبلوا شرائعه، و رضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت، و لا

أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر. و يجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا، و أن تكون فى محل نصب على الحال بإضمار قد ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ أى: ذلك الجزاء و الرضوان لمن وقعت منه الخشية للّه سبحانه فى الدنيا و انتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التى وقعت له لا مجرّد الخشية مع الانهماك فى معاصى اللّه سبحانه فإنها ليست بخشية على الحقيقة.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: مُنْفَكِّينَ قال: برحين. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: أ تعجبون من منزلة الملائكة من اللّه، و الّذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند اللّه يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، و اقرءوا إن شئتم: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ.

و أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: «قلت: يا رسول اللّه من أكرم الخلق على اللّه؟ قال: يا عائشة أما تقرئين: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ». و أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه قال: «كنا عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأقبل علىّ، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: و الّذى نفسى بيده إن هذا و شيعته لهم الفائزون يوم القيامة، و نزلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ فكان أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أقبل قالوا: قد جاء خير البرية». و أخرج ابن عدى و ابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعا: «علىّ خير البرية». و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعلىّ: «هو أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين». و أخرج ابن مردويه عن علىّ مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل اللّه كلما كانت هيعة «١» استوى عليه، ألا أخبركم بشرّ البرية؟ قالوا: بلى: قال: الّذى يسأل باللّه و لا يعطى به». قال أحمد: حدّثنا إسحاق بن عيسى، حدّثنا أبو معشر عن أبى وهب مولى أبى هريرة عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فذكره.

---

(١). الهيعة: الصوت الّذى تفزع منه و تخافه من عدو.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٨٣

سورة الزّلزلة

اشارة

و هى مدنية فى قول ابن عباس و قتادة، و مكية فى قول ابن مسعود و عطاء و جابر. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت إِذا زُلْزِلَتِ بالمدينة. و أخرج أحمد و أبو داود و النسائى و محمد بن نصر، و الحاكم و صححه، و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن عبد اللّه بن عمرو قال: «أتى رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: أقرئنى يا رسول اللّه، قال: اقرأ ثلاثا من ذوات الرّاء، فقال الرجل: كبر سنى، و اشتدّ قلبى، و غلظ لسانى، قال: اقرأ ثلاثا من ذوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثا من المسبحات، فقال مثل مقالته الأولى، و قال: و لكن أقرئنى يا رسول اللّه سورة جامعة، فأقرأه: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها حتى فرغ منها، قال الرجل: و الّذى بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أفلح الرويجل، أفلح الرويجل». و أخرج الترمذى و ابن مردويه و البيهقى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ إذا زلزلت الأرض عدلت له بنصف القرآن، و من قرأ: قل هو اللّه أحد عدلت له بثلث القرآن، و من قرأ: قل يا أيها الكافرون

عـدلت له بربع القرآن». و أخرج الترمـذى و ابن الضـريس و ابن الضـريس و محمد بن نصـر، و الحاكم و صـحـحه، و البيهقى عن ابن عباس قال: قـال رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «إذا زلزلت تعـدل نصـف القرآن، و قـل هـو اللّه أحـد تعـدل ثلث القرآن، و قـل يـا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن». قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلّا من حديث يمان بن المغيرة. و أخرج الترمذى عن أنس: «أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال لرجل من أصحابه: هل تزوّجت يا فلان؟ قال: لا و اللّه يا رسول اللّه، و لا عندى ما أتزوّج به، قال: أليس معـك قـل هو اللّه أحـد؟ قـال: بلى، قـال: ثلث القرآن، قـال: أ ليس معـك إذا جـاء نصـر اللّه و الفتـح؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أ ليس معك قل يا أيها الكافرون؟ قال: بلى، قال:

ربع القرآن، قال: أليس معك إذا زلزلت الأرض؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، تزوّج». قال الترمـذى: هـذا حـديث حسن. و أخرج ابـن مردويـه عن أبى هريرة: سـمعت رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يقـول: «من قرأ فى ليلـة إذا زلزلت كـان له عـدل نصـف القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (١) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (٢) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (۴)
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (۵) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (۶) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

قوله: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها أى: إذا حركت حركة شديدة، و جواب الشرط: تحدث،

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۸۴

و المراد تحركها عند قيام الساعة فإنها تضـطرب حتى يتكسـر كلّ شـىء عليها. قال مجاهد: و هى النفخة الأولى لقوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ- تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ «١» و ذكر المصـدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله، و المعنى: زلزالها المخصوص الّذى يستحقه و يقتضيه جرمها و عظمها. قرأ الجمهور:

«زلزالهـا» بكسـر الزاى، و قرأ الجحـدرى و عيسـى بفتحهـا، و همـا مصـدران بمعنى، و قيل: المكسور مصـدر و المفتوح اسم. قال القرطبى: و الزلزال بالفتـح مصدر كالوسواس و القلقال «٢» وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها أى: ما فى جوفها من الأموات و الـدفائن، و الأثقـال: جمع ثقـل، قال أبو عبيـدة و الأخفش: إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها، و إذا كان فوقها فهو ثقل عليها. قال مجاهـد: أثقالها موتاها تخرجهم فى النفخـة الثانيـة، و قد قيل للإنس و الجنّ الثقلان، و إظهار الأرض فى موضع الإضـمار لزيادة التقرير وَ قـالَ الْإِنْسـانُ مـا لَهـا أى: قـال كـل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت؟ لما يـدهمه من أمرها و يبهره من خطبها، و قيل: المراد بالإنسـان الكـافر، و قـوله: مالهـا مبتـدأ و خبر، و فيـه معنى التعجيب، أى: أىّ شـىء لهـا، أو لأىّ شـىء زلزلت و أخرجت أثقالهـا؟ و قوله: يَوْمَئِذٍ بـدل من إذا، و العامل فيهما قوله: تُحَدِّثُ أَخْبارَها و يجوز أن يكون العامل فى إذا محـذوفا و العامل فى يومئـذ تحـدّث، و المعنى: يوم إذا زلزلت و أخرجت تخبر بأخبارهـا و تحـدّثهم بما عمل عليها من خير و شرّ، و ذلك إما بلسان الحال حيث يـدلّ على ذلك دلالة ظاهرة، أو بلسان المقال، بأن ينطقها اللّه سـبحانه. و قيل: هذا متصل بقوله: وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها أى: قال مالها تُحَدِّثُ أَخْبارَها متعجّبا من ذلك، و قال يحيى بن سلام: تحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها، و قيل:

تحـدث بقيام الساعـة، و أنها قـد أتت و أن الـدنيا قـد انقضت. قال ابن جرير: تبين أخبارها بالرجفـة و الزلزلة و إخراج الموتى، و

مفعول تحدّث الأوّل محذوف و الثانى هو أخبارها، أى: تحدّث الخلق أخبارها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها متعلّق بتحدّث، و يجوز أن يتعلق بنفس أخبارها، و قيل: الباء زائدة، و أنّ و ما فى حيزها بدل من أخبارها، و قيل: الباء سببية، أى: بسبب إيحاء اللّه إليها. قال الفراء: تحدّث أخبارها بوحى اللّه و إذنه لها، و اللام فى أوحى لها بمعنى إلى و إنما أثرت على إلى لموافقة الفواصل، و العرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة. و قيل: إن أوحى يتعدّى باللام تارة، و بإلى أخرى، و قيل: إن اللام على بابها من كونها للعلة، و الموحى إليه محذوف، و هو الملائكة، و التقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض: أى لأجل ما يفعلون فيها، و الأوّل أولى يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً الظرف إما بدل من يومئذ الّذى قبله، و إما منصوب بمقدّر هو اذكر، و إما منصوب بما بعده، و المعنى: يوم إذ يقع ما ذكر يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتا، أى: متفرّقين، و المصدر: الرجوع و هو ضدّ الورود، و قيل: يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار، و انتصاب أشتاتا على الحال، و المعنى: أن بعضهم آمن و بعضهم خائف، و بعضهم بلون أهل الجنة و هو البياض، و بعضهم بلون أهل النار و هو السواد، و بعضهم ينصرف إلى جهة

---

(١). النازعات: ۶- ٧.

(٢). «القلقال»: من قلقل الشيء إذا حرّكه.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۸۵

اليمين و بعضهم إلى جهة الشمال، مع تفرّقهم فى الأديان و اختلافهم فى الأعمال لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ متعلّق بيصدر، و قيل: فيه تقديم و تأخير، أى: تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً. قرأ الجمهور: «ليروا» مبنيا للمفعول، و هو من رؤية البصر، أى: ليريهم اللّه أعمالهم.

و قرأ الحسن و الأعرج و قتادة و حماد بن سلمة و نصر بن عاصم و طلحة بن مصرّف على البناء للفاعل، و رويت هذه القراءة عن نافع، و المعنى: ليروا جزاء أعمالهم فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ أى: وزن نملة، و هى أصغر ما يكون من النمل. قال مقاتل: فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرّة خيرا يره يوم القيامة فى كتابه فيفرح به، وَ كذلك مَنْ يَعْمَلْ فى الدنيا مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ يوم القيامة فيسوؤه، و مثل هذه الآية قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ «١». و قال بعض أهل اللغة: إن الذرّة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو الذرّة، و قيل: الذرّ ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء، و الأوّل أولى، و منه قول امرئ القيس:

من القاصرات الطّرف لو دبّ محول من الذرّ فوق الأتب منها لأثّرا

و «من» الأولى عبارة عن السعداء، و «من» الثانية عبارة عن الأشقياء. و قال محمد بن كعب: فمن يعمل مثقال ذرّة من خير من كافر يرى ثوابه فى الدنيا و فى نفسه و ماله و أهله و ولده حتى يخرج من الدنيا، و ليس له عند اللّه خير، و من يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى ماله و نفسه و أهله و ولده حتى يخرج من الدنيا، و ليس له عند اللّه شرّ، و الأوّل أولى. قال مقاتل: نزلت فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة و الكسرة، و كان الآخر يتهاون بالذنب اليسير و يقول: إنما أوعد اللّه النار على الكافرين. قرأ الجمهور «يره» فى الموضعين بضم الهاء وصلا و سكونها وقفا، و قرأ هشام بسكونها وصلا و وقفا، و نقل أبو حيان عن هشام و أبى بكر سكونها، و عن أبى عمرو ضمها مشبعة، و باقى السبعة بإشباع الأولى و سكون الثانية، و فى هذا النقل نظر، و الصواب ما ذكرنا. و قرأ الجمهور: «يره» مبنيا للفاعل فى الموضعين. و قرأ ابن عباس و ابن عمر و الحسن و الحسين ابنا علىّ و زيد بن علىّ و أبو حيوة و عاصم و الكسائى فى رواية عنهما و الجحدرى و السلمى و عيسى على البناء للمفعول فيهما، أى: يريه اللّه إياه. و قرأ عكرمة «يراه» على توهم أن من موصولة، أو على تقدير الجزم بحذف

الحركة المقدّرة فى الفعل.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها قال: تحركت من أسفلها وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها قال: الموتى وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها قال: الكافر يقول: ما لها يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها قال: قال لها ربك قولى فقالت. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها قال: أوحى إليها يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً قال: من كل من هاهنا و هاهنا. و أخرج ابن المنذر عنه وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها قال: الكنوز و الموتى. و أخرج مسلم و الترمذى عن أبى هريرة قال:

---

(۱). النساء: ۴۰.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۸۶

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب و الفضة، فيجىء القاتل فيقول: فى هذا قتلت، و يجىء القاطع فيقول: فى هذا قطعت رحمى، و يجىء السارق فيقول: فى هذا قطعت يدى، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا». و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال:

«قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها فقال: أ تدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد و أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا و كذا، فهذا أخبارها». و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل على ظهرها، و قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها حتى بلغ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها». و أخرج الطبرانى عن ربيعة الحرشى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «تحفظوا من الأرض فإنها أمّكم، و إنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرّا إلا و هى مخبرة». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و الحاكم فى تاريخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: «بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إذ نزلت عليه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فرفع أبو بكر يده و قال: يا رسول اللّه إنى لراء ما عملت من مثقال ذرّة من شرّ، فقال: يا أبا بكر أ رأيت ما ترى فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشرّ و يدخر لك مثاقيل ذرّ الخير حتى توفاه يوم القيامة». و أخرج إسحاق بن راهويه و عبد بن حميد و الحاكم و ابن مردويه عن أبى أسماء قال: «بينما أبو بكر يتغدّى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذ نزلت هذه الآية: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فأمسك أبو بكر و قال: يا رسول اللّه ما عملنا من شرّ رأيناه، فقال:

ما ترون مما تكرهون فذاك مما تجزون و يؤخر الخير لأهله فى الآخرة». و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن عبد اللّه بن عمر بن العاص قال: «أنزلت إذا زلزلت الأرض زلزالها و أبو بكر الصديق قاعد فبكى، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكينى هذه السورة، فقال: لو لا أنكم تخطئون و تذنبون فيغفر لكم خلق اللّه قوما يخطئون و يذنبون فيغفر لهم».

و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، و لرجل ستر، و على رجل وزر» الحديث. و قال: «و سئل عن الحمر فقال: ما أنزل علىّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ- وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۸۷

سورة العاديات

اشارة

و هى مكية فى قول ابن مسعود و جابر و الحسن و عكرمة و عطاء، و مدنية فى قول ابن عباس و أنس بن مالك و قتادة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة وَ الْعادِياتِ بمكة. و أخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، و العاديات تعدل نصف القرآن»، و هو مرسل. و أخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس مرفوعا مثله، و زاد: «و قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن، و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (٩)

وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

الْعادِياتِ جمع عادية، و هى الجارية بسرعة، من العدو: و هو المشى بسرعة، فأبدلت الواو ياء لكسر ما قبلها كالغازيات من الغزو، و المراد بها الخيل العادية فى الغزو نحو العدوّ، و قوله: ضَبْحاً مصدر مؤكد لاسم الفاعل، فإن الضبح نوع من السير و نوع من العدو، يقال: ضبح الفرس؛ إذا عدا بشدّة، مأخوذ من الضبح، و هو الدفع، و كأن الحاء بدل من العين. قال أبو عبيدة و المبرّد: الضبح من أضباعها فى السير، و منه قول عنترة:

و الخيل تعلم حين تضبح فى حياض الموت ضبحا

و يجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال، أى: ضابحات، أو ذوات ضبح، و يجوز أن يكون مصدرا لفعل محذوف، أى: تضبح ضبحا، و قيل: الضبح: صوت حوافرها إذا عدت، و قال الفراء: الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت. قيل: كانت تكعم «١» لئلا تصهل فيعلم العدوّ بهم، فكانت تتنفس فى هذه الحالة بقوّة، و قيل: الضبح: صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ليس بصهيل. و قد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن «العاديات ضبحا» هى الخيل. و قال عبيد بن عمير و محمد بن كعب و السدّى: هى الإبل، و منه قول صفية بنت عبد المطلب:

---

(١). «تكعم»: الكعام: شىء يجعل على فم البعير.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٨٨ فلا و العاديات غداة جمع بأيديها إذا سطع الغبار

و نقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل، و منه قول الشاعر:

تضبح فى الكفّ ضباح الثّعلب فَالْمُورِياتِ قَدْحاً هى الخيل حين تورى النار بسنابكها، و الإيراء: إخراج النار، و القدح: الصك، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد. قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل و أصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران،

و الكلام فى انتصاب قدحا كالكلام فى انتصاب ضبحا، و الخلاف فى كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الّذى تقدّم فى العاديات، و الراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور، و كما هو الظاهر فى هذه الأوصاف المذكورة فى هذه السورة ما تقدّم منها و ما سيأتى، فإنها فى الخيل أوضح منها فى الإبل، و سيأتى ما فى ذلك من الخلاف بين الصحابة فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً أى: التى تغير على العدوّ وقت الصباح، يقال: أغار يغير إغارة: إذا باغت عدوّه بقتل أو أسر أو نهب و أسند الإغارة إليها و هى لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم فى إغارتهم، و انتصاب صبحا على الظرفية فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً معطوف على الفعل الّذى دلّ عليه اسم الفاعل، إذ المعنى: و اللاتى عدون فأثرن، أو على اسم الفاعل نفسه لكونه فى تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول، فإن الألف و اللام فى الصفات أسماء موصولة، فالكلام فى قوّة: و اللاتى عدون فأغرن فأثرن، و النقع: الغبار الّذى أثرنه فى وجه العدو عند الغزو، و تخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة، و لكونه لا يظهر أثر النقع فى الليل الذى اتصل به الصبح. و قيل: المعنى: فأثرن بمكان عدوهنّ نقعا، يقال ثار النقع و أثرته: أى هاج أو هيجته.

قرأ الجمهور: فَأَثَرْنَ بتخفيف المثلثة. و قرأ أبو حيوة و ابن أبى عبلة بالتشديد، أى: فأظهرن به غبارا.

و قال أبو عبيدة: النقع: رفع الصوت، و أنشد قول لبيد:

فمتى ينقع صراخ صادقيحلبوها ذات جرس و زجل

يقول حين سمعوا صراخا: أحلبوا الحرب، أى: جمعوا لها. قال أبو عبيدة: و على هذا رأيت قول أكثر أهل العلم انتهى، و المعروف عند جمهور أهل اللغة و المفسرين أن النقع الغبار، و منه قول الشاعر:

يخرجن من مستطار النّقع داميةكأنّ أذنابها أطراف أقلام

و قول عبد اللّه بن رواحة:

عدمنا خيلنا إن لم تروهاتثير النّقع من كنفى كداء

و قول الآخر:

كأنّ مثار النّقّع فوق رؤوسناو أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

و هذا هو المناسب لمعنى الآية، و ليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى، فإن قولك أغارت الخيل على بنى فلان صبحا فأثرن به صوتا، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة. و قيل:

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٨٩

النقع: شقّ الجيوب، و قال محمد بن كعب: النقع ما بين مزدلفة إلى منى، و قيل: إنه طريق الوادى. قال فى الصّحاح: النقع: الغبار، و الجمع: أنقاع، و النقع: محبس الماء، و كذلك ما اجتمع فى البئر منه، و النقع: الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً أى: توسطن بذلك الوقت، أو توسطن متلبسات بالنقع جمعا من جموع الأعداء، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء، و الباء إما للتعدية، أو للحالية، أو زائدة؛ يقال: وسطت المكان، أى: صرت فى وسطه، و انتصاب «جمعا» على أنه مفعول له، و الفاءات فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحد منها على ما قبلها. قرأ الجمهور: فَوَسَطْنَ بتخفيف السين، و قرئ بالتشديد إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ هذا جواب القسم، و المراد بالإنسان بعض أفراده، و هو الكافر، و الكنود: الكفور للنعمة، و قوله: لِرَبِّهِ متعلّق بكنود، قدّم لرعاية الفواصل، و منه قول الشاعر:

كنود لنعماء الرّجال و من يكن كنودا لنعماء الرّجال يبعّد

أى: كفور لنعماء الرجال، و قيل: هو الجاحد للحقّ، قيل: إنها إنما سميت كندة لأنها جحدت أباها.

و قيل: الكنود مأخوذ من الكند، و هو القطع، كأنه قطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر. يقال كند الحبل:

إذا قطعه، و منه قول الأعشى:

وصول حبال و كنّادها «١» و قيل: الكنود: البخيل، و أنشد أبو زيد:

إنّ نفسى لم تطب منك نفساغير أنّى أمسى بدين كنود

و قيل: الكنود: الحسود، و قيل: الجهول لقدره، و تفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام، و الجاحد للنعمة كافر لها، و لا يناسب المقام سائر ما قيل، وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ أى: و إن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه؛ و قيل المعنى: و إن اللّه جلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، و به قال الجمهور. و قال بالأوّل الحسن و قتادة و محمد بن كعب، و هو أرجح من قول الجمهور لقوله: وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ فإن الضمير راجع إلى الإنسان، و المعنى: إنه لحبّ المال قوىّ مجدّ فى طلبه و تحصيله متهالك عليه، يقال: هو شديد لهذا الأمر و قوىّ له؛ إذا كان مطيقا له، و منه قوله تعالى: إِنْ تَرَكَ خَيْراً «٢» و منه قول عدىّ بن حاتم:

ماذا ترجّى النفوس من طلب الخير و حبّ الحياة كاربها «٣»

---

(١). و صدر البيت: أميطى تميطى بصلب الفؤاد.

(٢). البقرة: ١٨٠.

(٣). أى غامّها، من كربه الأمر: أى اشتدّ عليه.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٥٩٠

و قيل: المعنى: و إن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، و الأوّل أولى. و اللام فى لِحُبِ متعلقة بشديد. قال ابن زيد: سمّى اللّه المال خيرا، و عسى أن يكون شرّا، و لكن الناس يجدونه خيرا، فسمّاه خيرا. قال الفراء: أصل نظم الآية أن يقال: و إنه لشديد الحبّ للخير، فلما قدّم الحبّ قال: لشديد، و حذف من آخره ذكر الحبّ، لأنه قد جرى ذكره، و لرؤوس الآى كقوله: فِي يَوْمٍ عاصِفٍ «١» و العصوف للريح لا لليوم، كأنه قال: فى يوم عاصف الريح أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أى: يفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم، و بعثر معناه: نثر و بحث، أى: نثر ما فى القبور من الموتى و بحث عنهم و أخرجوا. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع: جعلت أسفله أعلاه. قال الفرّاء: سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول: بحثر بالحاء مكان العين، و قد تقدّم الكلام على هذا فى قوله: وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ «٢» وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ أى: ميز و بيّن ما فيها من الخير و الشرّ، و التحصيل: التمييز، كذا قال المفسرون، و قيل: حصل: أبرز. قرأ الجمهور: حُصِّلَ بضم الحاء و تشديد الصاد مكسورا مبنيا للمفعول، و قرأ عبيد بن عمير و سعيد بن جبير و يحيى بن يعمر و نصر بن عاصم «حصل» بفتح الحاء و الصاد و تخفيفها مبنيا للفاعل، أى: ظهر إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ أى:

إن ربّ المبعوثين بهم لخبير، لا تخفى عليه منهم خافية؛ فيجازيهم بالخير خيرا، و بالشرّ شرّا. قال الزجاج:

اللّه خبير بهم فى ذلك اليوم و فى غيره، و لكن المعنى: إن اللّه يجازيهم على كفرهم فى ذلك اليوم، و مثله قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ «٣» معناه: أولئك الذين لا يترك اللّه مجازاتهم. قرأ الجمهور إِنَّ رَبَّهُمْ بكسر الهمزة و باللام فى «لخبير»، و قرأ أبو السمّال بفتح الهمزة و إسقاط اللام من «الخبير».

و قد أخرج البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الأفراد، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

«بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خيلا فاستمرت شهرا لا يأتيه منها خبر، فنزلت: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً ضبحت بأرجلها» و لفظ ابن مردويه: ضبحت بمناخرها فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قدحت بحوافرها الحجارة فأورت نارا فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً صبحت القوم بغارة فَأَثَرْنَ

بِهِ نَقْعاً أثارت بحوافرها التراب فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً صبحت القوم جميعا. و أخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سرية إلى العدوّ فأبطأ خبرها، فشقّ ذلك عليه، فأخبره اللّه خبرهم و ما كان من أمرهم، فقال: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: «هى الخيل». و الضبح: نخير الخيل حين تنخر، فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قال: حين تجرى الخيل تورى نارا أصابت سنابكها الحجارة فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال: هى الخيل أغارت فصبحت العدوّ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: هى الخيل أثرن بحوافرها، يقول: بعدو الخيل، و النقع: الغبار، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: الجمع: العدو. و أخرج عبد بن حميد عن أبى صالح قال: تقاولت أنا و عكرمة فى شأن العاديات، فقال: قال ابن عباس: هى الخيل فى القتال، و ضبحها حين ترخى مشافرها إذا عدت فَالْمُورِياتِ قَدْحاً

---

(۱). إبراهيم: ۱۸.

(۲). الانفطار: ۴.

(۳). النساء: ۶۳.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۹۱

أرت المشركين مكرهم فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال: إذا أصبحت العدو فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: إذا توسطت العدو. و قال أبو صالح: فقلت: قال علىّ: هى الإبل فى الحج، و مولاى كان أعلم من مولاك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم، و ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: بينما أنا فى الحجر جالس إذ أتانى رجل يسأل عن «العاديات ضبحا» فقلت: الخيل حين تغير فى سبيل اللّه، ثم تأوى إلى الليل؛ فيصنعون طعامهم و يورون نارهم، فانفتل عنى فذهب إلى على بن أبى طالب و هو جالس تحت سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحا، فقال: سألت عنها أحدا قبلى؟ قال:

نعم سألت عنها ابن عباس، فقال: هى الخيل حين تغير فى سبيل اللّه، فقال: اذهب فادعه لى، فلما وقفت على رأسه قال: تفتى الناس بما لا علم لك، و اللّه إن كانت لأوّل غزوة فى الإسلام لبدر، و ما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير و فرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون الْعادِياتِ ضَبْحاً إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أووا إلى المزدلفة أوقدوا النيران، فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً من المزدلفة إلى منى، فذلك جمع، و أما قوله: فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فهى نقع الأرض تطؤه بأخفافها و حوافرها. قال ابن عباس: فنزعت عن قولى، و رجعت إلى الّذى قال علىّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: الإبل، أخرجوه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعى. قال إبراهيم:

و قال علىّ بن أبى طالب: هى الإبل. و قال ابن عباس: هى الخيل، فبلغ عليا قول ابن عباس: فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كانت تلك فى سرية بعثت. و أخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبى قال: تمارى علىّ و ابن عباس فى العاديات ضبحا، فقال ابن عباس: هى الخيل؛ و قال علىّ: كذبت يا ابن فلانة، و اللّه ما كان معنا يوم بدر فارس إلّا المقداد كان على فرس أبلق قال: و كان يقول هى الإبل، فقال ابن عباس: ألا ترى أنها تثير نقعا فما شىء تثير إلا بحوافرها. و أخرج عبد بن حميد، و الحاكم و صحّحه، من طريق مجاهد عن ابن عباس وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: الخيل فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قال: الرجل إذا أورى زنده فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال: الخيل تصبح العدوّ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: التراب فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: العدوّ. و أخرج عبد بن حميد عن مجاهد وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: قال ابن عباس:

القتال. و قال ابن مسعود: الحج. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: ليس شىء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس فَالْمُورِياتِ قَدْحاً قال: هو مكر الرجل قدح فأورى فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً قال:

غارة الخيل صبحا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: غبار وقع سنابک الخيل فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً قال: جمع العدوّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: الخيل ضبحها زحيرها، أ لم تر أن الفرس إذا عدا قال: أح أح، فذلک ضبحها. و أخرج ابن المنذر عن عليّ قال: الضبح من الخيل الحمحمة، و من الإبل النفس. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً قال: هی الإبل فی الحج فَالْمُورِياتِ قَدْحاً إذا سفت الحصی بمناسمها فضرب الحصی بعضه بعضا فيخرج منه النار

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۹۲

فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً حين يفيضون من جمع فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً قال: إذا سرن يثرن التراب.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: الكنود بلساننا أهل البلد الكفور. و أخرج ابن عساكر عن أبی أمامة عن النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم فی قوله: إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ قال لكفور. و أخرج عبد بن حميد، و البخاری فی الأدب، و الحكيم الترمذی و ابن مردويه عن أبی أمامة قال: الكنود الّذی يمنع رفده، و ينزل وحده، و يضرب عبده. و رواه عنه ابن جرير و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردويه و الديلمی و ابن عساكر مرفوعا- و ضعّف إسناده السيوطی- و فی إسناده جعفر بن الزبير و هو متروک، و الموقوف أصحّ لأنه لمن يكن من طريقه. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ إِنَّهُ عَلی ذلِكَ لَشَهِيدٌ قال: الإنسان وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ قال: المال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه إِذا بُعْثِرَ ما فِی الْقُبُورِ قال: بحث وَ حُصِّلَ ما فِی الصُّدُورِ قال: أبرز.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۹۳

سورة القارعة

اشارة

هی إحدی عشرة آية، و قيل: عشر آيات و هی مكية بلا خلاف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة القارعة بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القارعة (۱۰۱): الآيات ۱ الی ۱۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْقارِعَةُ (۱) مَا الْقارِعَةُ (۲) وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (۳) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (۴)

وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (۵) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (۶) فَهُوَ فِی عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۷) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (۸) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (۹)

وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ (۱۰) نارٌ حامِيَةٌ (۱۱)

الْقارِعَةُ من أسماء القيامة؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع، و تقرع أعداء اللّه بالعذاب، و العرب تقول:

قرعتهم القارعة؛ إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر:

و قارعة من الأيّام لولاسبيلهم لراحت عنک حينا

و قال آخر:

متى تقرع بمروتكم «۱» نسؤكمو لم توقد لنا فى القدر نار

و القارعة مبتدأ و خبرها قوله: مَا الْقارِعَةُ و بالرفع قرأ الجمهور، و قرأ عيسى بنصبها على تقدير: احذروا القارعة، و الاستفهام للتعظيم و التفخيم لشأنها، كما تقدّم بيانه فى قوله: الْحَاقَّةُ- مَا الْحَاقَّةُ- وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ «۲» و قيل: معنى الكلام على التحذير. قال الزجاج: و العرب تحذر و تغرى بالرفع كالنصب، و أنشد قول الشاعر:

لجديرون بالوفاء إذا قال‌أخو النّجدة السّلاح السّلاح

و الحمل على معنى التفخيم و التعظيم أولى، و يؤيده وضع الظاهر موضع الضمير، فإنه أدلّ على هذا المعنى، و يؤيده أيضا قوله: وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ فإنه تأكيد لشدّة هولها و مزيد فظاعتها؛ حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم، و ما الاستفهامية مبتدأ، و أدراك خبرها و ما القارعة مبتدأ

---

(۱). «المروة»: حجر يقدح منه النار.

(۲). الحاقة: ۱- ۳.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۵۹۴

و خبر، و الجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى؛ و المعنى: و أىّ شىء أعلمك ما شأن القارعة؟ ثم بيّن سبحانه متى تكون القارعة فقال: يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ و انتصاب الظرف بفعل محذوف تدلّ عليه القارعة، أى: تقرعهم يوم يكون الناس ... إلخ، و يجوز أن يكون منصوبا بتقدير اذكر. و قال ابن عطية و مكى و أبو البقاء: هو منصوب بنفس القارعة، و قيل: هو خبر مبتدأ محذوف، و إنما نصب لإضافته إلى الفعل، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب، أى: هى يوم يكون ... إلخ، و قيل التقدير: ستأتيكم القارعة يوم يكون. و قرأ زيد بن علىّ برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدّر. و الفراش: الطير الّذى تراه يتساقط فى النار و السراج، و الواحدة: فراشة، كذا قال أبو عبيدة و غيره. قال الفراء: الفراش: هو الطائر من بعوض و غيره. و منه الجراد. قال: و به يضرب المثل فى الطيش و الهوج، يقال: أطيش من فراشة، و أنشد:

فراشة الحلم فرعون العذاب و إن‌يطلب نداه فكلب دونه كلب

و قول آخر:

و قد كان أقوام رددت حلومهم‌عليهم و كانوا كالفراش من الجهل

و المراد بالمبثوث المتفرّق المنتشر، يقال بثه: إذا فرّقه، و مثل هذا قوله سبحانه فى آية أخرى: كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ «۱» و قال المبثوث و لم يقل المبثوثة، لأنّ الكل جائز؛ كما فى قوله: أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «۲» و أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ «۳» و قد تقدّم بيان وجه ذلك وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ أى: كالصوف الملوّن بالألوان المختلفة الّذى نفش بالندف، و العهن عند أهل اللغة: الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة، و قد تقدّم بيان هذا فى سورة سأل سائل، و قد ورد فى الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة، و قد قدّمنا بيان الجمع بينها. ثم ذكر سبحانه أحوال الناس و تفرّقهم فريقين على جهة الإجمال فقال: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ- فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ قد تقدّم القول فى الميزان فى سورة الأعراف و سورة الكهف و سورة الأنبياء.

و قد اختلف فيها هنا، فقيل: هى جمع موزون، و هو العمل الّذى له وزن و خطر عند اللّه، و به قال الفرّاء و غيره، و قيل: هى جمع ميزان، و هو الآلة التى توضع فيها صحائف الأعمال، و عبر عنه بلفظ الجمع، كما يقال لكلّ حادثة ميزان، و قيل: المراد بالموازين الحجج و الدلائل، كما فى قول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرّةعندى لكلّ مخاصم ميزانه

و معنى عيشة راضية: مرضية يرضاها صاحبها. قال الزجاج: أى ذات رضى يرضاها صاحبها، و قيل:

«عيشة راضية» أى: فاعلة للرضى، و هو اللين، و الانقياد لأهلها. و العيشة: كلمة تجمع النعم التى فى الجنة وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ أى: رجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات يعتدّ بها فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ

---

(۱). القمر: ۷.

(۲). القمر: ۲۰.

(۳). الحاقة: ۷.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۹۵

أى: فمسكنه جهنم، و سمّاها أمه؛ لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه، و الهاوية من أسماء جهنم، و سميت هاوية؛ لأنه يهوى فيها مع بعد قعرها، و منه قول أمية بن أبى الصّلت:

فالأرض معقلنا و كانت أمّنافيها مقابرنا و فيها نولد

و قول الآخر:

يا عمرو لو نالتك أرماحناكنت كمن تهوى به الهاوية

و المهوى و المهواة: ما بين الجبلين، و تهاوى القوم فى المهواة؛ إذا سقط بعضهم فى إثر بعض. قال قتادة: معنى فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ فمصيره إلى النار. قال عكرمة: لأنه يهوى فيها على أمّ رأسه. قال الأخفش: أمه مستقرّة وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ هذا الاستفهام للتهويل و التفظيع؛ ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر و لا تدرى كنهها. ثم بيّنها سبحانه فقال: نارٌ حامِيَةٌ أى: قد انتهى حرّها و بلغ فى الشدّة إلى الغاية و ارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هى نار حامية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: الْقارِعَةُ من أسماء يوم القيامة. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ قال: كقوله هوت أمه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ قال: أمّ رأسه هاوية فى جهنم. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فإذا كان مات و لم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية، فبئست الأمّ و بئست المربية». و أخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى و نحوه. و أخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضا.

فتح القدير، ج۵، ص: ۵۹۶

سورة التّكاثر

اشارة

و هى مكية عند الجميع. و روى البخارى أنها مدنية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزل بمكة أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ. و أخرج الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟ قالوا: و من يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم؟ قال:

أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر؟!». و أخرج الخطيب فى المتفق و المفترق، و الديلمى عن عمر بن الخطاب قال: قال

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ فى ليلة ألف آية لقى اللّه و هو ضاحك فى وجهه، قيل:

يا رسول اللّه و من يقوى على ألف آية؟ فقرأ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ألهاكم التكاثر إلى آخرها، ثم قال:

و الّذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية». و أخرج مسلم و الترمذى و النسائى و غيرهم عن عبد اللّه بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يقرأ ألهاكم التكاثر، و فى لفظ: و قد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر، و هو يقول: «يقول ابن آدم: مالى مالى، و هل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؟». و أخرجه مسلم و غيره من حديث أبى هريرة و لم يذكر فيه قراءة هذه السورة و لا نزولها بلفظ: «يقول العبد: مالى مالى، و إنّما له من ماله ثلاثة: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأقنى، و ما سوى ذلك فهو ذاهب و تاركه للناس».

و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و البيهقى فى الشعب، و ضعّفه، عن جرير بن عبد اللّه قال:

قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنى قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر، فمن بكى فله الجنة، فقرأها فمنّا من بكى و منّا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: قد جهدنا يا رسول اللّه أن نبكى فلم نقدر عليه، فقال:

إنى قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنّة، و من لم يقدر أن يبكى فليتباكى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

قوله: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ أى: شغلكم التكاثر بالأموال و الأولاد و التفاخر بكثرتها و التغالب فيها.

يقال: ألهاه عن كذا و ألهاه؛ إذا شغله، و منه قول امرئ القيس:

فألهيتها عن ذى تمائم محول «١»

---

(١). و صدر البيت: فمثلك حبلى قد طرقت و مرضع.

و قال الحسن: معنى ألهاكم: أنساكم حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ أى: حتى أدرككم الموت و أنتم على تلك الحال. و قال قتادة: إن التكاثر: التفاخر بالقبائل و العشائر. و قال الضحاك: ألهاكم التشاغل بالمعاش. و قال مقاتل و قتادة أيضا و غيرهما: نزلت فى اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بنى فلان، و بنو فلان أكثر من بنى فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا. و قال الكلبى: نزلت فى حيّين من قريش: بنى عبد مناف، و بنى سهم، تعادّوا و تكاثروا بالسيادة و الأشراف فى الإسلام، فقال كل حيّ منهم: نحن أكثر سيدا، و أعزّ عزيزا، و أعظم نفرا، و أكثر قائدا، فكثر بنو عبد مناف بنى سهم، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم سهم، فنزلت: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ فلم ترضوا حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ مفتخرين بالأموات. و قيل: نزلت فى حيّين من الأنصار.

و المقابر: جمع مقبرة بفتح الباء و ضمها. و فى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا و المكاثرة بها و المفاخرة من الخصال المذمومة. و قال سبحانه أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ و لم يقل عن كذا، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذمّ، لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، و لأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر فى علم البيان؛ و المعنى أنه شغلكم التكاثر عن كلّ شىء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة اللّه و العمل للآخرة، و عبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار

إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الّذى يزوره هذا على قول من قال: إن معنى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ متم، و أما على قول من قال: إن معنى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ ذكرتم الموتى و عدّدتموهم للمفاخرة و المكاثرة، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم، و قيل: إنهم كانوا يزورون المقابر، فيقولون هذا قبر فلان، و هذا قبر فلان يفتخرون بذلك كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ردع و زجر لهم عن التكاثر و تنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة و فيه وعيد شديد. قال الفرّاء: أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر و التفاخر، ثم كرّر الردع و الزجر و الوعيد فقال: ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ و ثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأوّل، و قيل: الأوّل عند الموت أو فى القبر، و الثانى يوم القيامة. قال الفرّاء:

هذا التكرار على وجه التغليظ و التأكيد. قال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد. و كذا قال الحسن و مجاهد كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أى: لو تعلمون الأمر الّذى أنتم صائرون إليه علما يقينا كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا، و جواب لو محذوف، أى: لشغلكم ذلك عن التكاثر و التفاخر، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير و تركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه، و كلا فى هذا الموضع الثالث للزجر و الرّدع كالموضعين الأوّلين. و قال الفرّاء:

هى بمعنى حقا، و قيل: هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا. قال قتادة: اليقين هنا الموت، و روى عنه أيضا أنه قال: هو البعث. قال الأخفش: التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم، و قوله: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ جواب قسم محذوف، و فيه زيادة وعيد و تهديد، أى: و اللّه لترون الجحيم فى الآخرة. قال الرازى: و ليس هذا جواب لو؛ لأن جواب لو يكون منفيا، و هذا مثبت و لأنه عطف عليه ثُمَّ لَتُسْئَلُنَ و هو مستقبل لا بدّ من وقوعه، قال: و حذف جواب «لو» كثير، و الخطاب للكفار، و قيل: عام كقوله: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها «١» قرأ الجمهور: لَتَرَوُنَ بفتح التاء مبنيا للفاعل، و قرأ الكسائى و ابن عامر بضمها مبنيا

---

(١). مريم: ٧١.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٥٩٨

للمفعول، ثم كرّر الوعيد و التهديد للتأكيد فقال: ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ أى: ثم لترونّ الجحيم الرؤية التى هى نفس اليقين، و هى المشاهدة و المعاينة، و قيل: المعنى: لترونّ الجحيم بأبصاركم على البعد منكم، ثم لترونها مشاهدة على القرب. و قيل: المراد بالأوّل رؤيتها قبل دخولها، و الثانى رؤيتها حال دخولها، و قيل:

هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار، أى: هى رؤية دائمة متّصلة. و قيل المعنى: لو تعلمون اليوم علم اليقين و أنتم فى الدنيا لترونّ الجحيم بعيون قلوبكم، و هو أن تتصوّروا أمر القيامة و أهوالها ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ أى عن نعيم الدنيا الّذى ألهاكم عن العمل للآخرة. قال قتادة: يعنى كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير و النعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، و لم يشكروا ربّ النعم حيث عبدوا غيره و أشركوا به. قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. و قال قتادة: إن اللّه سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه، و هذا هو الظاهر، و لا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد، أو نوع من الأنواع؛ لأن تعريفه للجنس أو الاستغراق، و مجرّد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التى يسأل عنها، فقد يسأل اللّه المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فيم صرفها، و بم عمل فيها؟ ليعرف تقصيره و عدم قيامه بما يجب عليه من الشكر، و قيل: السؤال عن الأمن و الصحة، و قيل: عن الصحة و الفراغ، و قيل: عن الإدراك بالحواسّ، و قيل:

عن ملاذّ المأكول و المشروب، و قيل: عن الغداء و العشاء، و قيل: عن بارد الشراب و ظلال المساكن، و قيل:

عن اعتدال الخلق، و قيل: عن لذة النوم، و الأولى العموم كما ذكرنا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ قال: نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة و بنى

الحارث تفاخروا و تكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان و فلان، و قال الآخرون مثل ذلك. تفاخروا بالأحياء. ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول:

فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر، و مثل فلان، و فعل الآخرون كذلك، فأنزل اللّه: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ- حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ لقد كان لكم فيما زرتم عبرة و شغل. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله:

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ قال: فى الأموال و الأولاد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ يعنى عن الطاعة حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ يقول: حتى يأتيكم الموت كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ يعنى لو دخلتم قبوركم ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدى ربكم لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ و ذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فناج مسلم، و مخدوش مسلم، و مكدوش فى نار جهنم ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ يعنى شبع البطون، و بارد الشرب، و ظلال المساكن، و اعتدال الخلق، و لذّة النوم. و أخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعا نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قال:

صحة الأبدان و الأسماع و الأبصار، و هو أعلم بذلك منهم، و هو قوله: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُ

فتح القدير، ج‏5، ص: 599

أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا «1». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قال: «الأمن و الصحة». و أخرج البيهقى عن علىّ بن أبى طالب قال: النعيم: العافية. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال:

من أكل خبز البرّ، و شرب ماء الفرات مبردا، و كان له منزل يسكنه، فذلك من النعيم الّذى يسأل عنه.

و أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية: «أكل خبز البرّ، و النوم فى الظل، و شرب ماء الفرات مبردا». و لعل رفع هذا لا يصح، فربما كان من قول أبى الدرداء. و أخرج أحمد فى الزهد، و ابن مردويه عن أبى قلابة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «ناس من أمتى يعقدون السمن و العسل بالنّقى فيأكلونه» و هذا مرسل. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية.

قال الصحابة: يا رسول اللّه أىّ نعيم نحن فيه؟ و إنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير، فأوحى اللّه إلى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن قل لهم: «أليس تحتذون النعال، و تشربون الماء البارد، فهذا من النعيم». و أخرج ابن أبى شيبة و هناد و أحمد و ابن جرير و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن محمود بن لبيد قال: لما نزلت أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ فقرأ حتى بلغ: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قالوا: يا رسول اللّه أىّ نعيم نسأل عنه؟ و إنما هما الأسودان: الماء و التمر، و سيوفنا على رقابنا، و العدوّ حاضر، فعن أىّ نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». و أخرجه عبد بن حميد و الترمذى و ابن مردويه من حديث أبى هريرة. و أخرجه أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه من حديث الزبير بن العوّام. و أخرج أحمد فى الزهد، و عبد ابن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن حبان و ابن مردويه و الحاكم، و البيهقى فى الشعب، عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أوّل ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصحّ لك جسدك و نروك من الماء البارد؟». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن جابر بن عبد اللّه قال: «جاءنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر و عمر فأطعمناهم رطبا و سقيناهم ماء، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هذا من النعيم الّذى تسألون عنه». و أخرج عبد بن حميد و ابن مردويه و البيهقى من حديث جابر بن

عبد اللّه نحوه. و أخرج مسلم و أهل السنن و غيرهم عن أبى هريرة قالا:

«خرج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فإذا هو بأبى بكر و عمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول اللّه، قال: و الّذى نفسى بيده لأخرجنى الّذى أخرجكما فقوما، فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبا، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: أين فلان؟ قالت: انطلق يستعذب لنا الماء؛ إذ جاء الأنصارىّ، فنظر إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و صاحبيه فقال: الحمد للّه ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر و تمر. فقال: كلوا من هذا و أخذ المدية، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إياك و الحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة، و من ذلك العذق و شربوا، فلما شبعوا و رووا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى بكر و عمر: و الّذى نفسى بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» و فى الباب أحاديث.

---

(١). الإسراء: ٣۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۰۰

سورة العصر

اشارة

فتح القدير ج۵ ۶۵۰

و هى مكية عند الجمهور. و قال قتادة: هى مدنية. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة العصر بمكة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مزينة الدارمى، و كانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر.

ثم يسلّم أحدهما على الآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)

أقسم سبحانه بالعصر و هو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل و النهار على تقدير الأدوار و تعاقب الظلام و الضياء، فإن فى ذلك دلالة بينة على الصانع عزّ و جلّ و على توحيده، و يقال لليل: عصر و للنهار:

عصر، و منه قول حميد بن ثور:

و لم يلبث العصران يوم و ليلةإذا طلبا أن يدركا ما تيمّما

و يقال للغداة و العشىّ: عصران، و منه قول الشاعر:

و أمطله العصرين حتّى يملّنىو يرضى بنصف الدّين و الأنف راغم

و قال قتادة و الحسن: المراد به فى الآية العشىّ، و هو ما بين زوال الشمس و غروبها، و منه قول الشاعر:

تروّح بنا يا عمرو و قد قصر العصرو فى الرّوحة الأولى الغنيمة و الأجر

و روى عن قتادة أيضا أنه: آخر ساعة من ساعات النهار، و قال مقاتل: إن المراد به صلاة العصر و هى الصلاة الوسطى التى أمر اللّه سبحانه بالمحافظة عليها، و قيل: هو قسم بعصر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. قال الزجاج: قال بعضهم؛ معناه و رب العصر، و الأوّل أولى إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ هذا جواب القسم. الخسر و الخسران: النقصان و ذهاب رأس المال، و المعنى: أن كل إنسان فى المتاجر و المساعى و صرف الأعمار فى أعمال الدنيا لفى نقص و ضلال عن الحقّ حتى يموت. و قيل: المراد بالإنسان الكافر، و قيل: جماعة من الكفار، و هم الوليد بن المغيرة، و العاص بن وائل، و الأسود بن عبد المطلب بن أسد، و الأوّل أولى لما فى لفظ الإنسان من العموم و لدلالة الاستثناء عليه. قال الأخفش: لَفِي خُسْرٍ فى هلكة. و قال الفراء:

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۰۱

عقوبة، و قال ابن زيد: لفى شرّ. قرأ الجمهور: «و العصر» بسكون الصاد. و قرءوا أيضا: خُسْرٍ بضم الخاء و سكون السين. و قرأ يحيى بن سلام وَ الْعَصْرِ بكسر الصاد. و قرأ الأعرج و طلحة و عيسى:

خُسُرٍ بضم الخاء و السين، و رويت هذه القراءة عن عاصم إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أى: جمعوا بين الإيمان باللّه و العمل الصالح، فإنهم فى ربح لا فى خسر؛ لأنهم عملوا للآخرة و لم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، و الاستثناء متصل، و من قال: إن المراد بالإنسان الكافر فقط؛ فيكون منقطعا، و يدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن و مؤمنة، و لا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتّصف بالإيمان و العمل الصالح وَ تَواصَوْا بِالْحَقِ أى: وصّى بعضهم بعضا بالحق الّذى يحقّ القيام به، و هو الإيمان باللّه و التوحيد، و القيام بما شرعه اللّه، و اجتناب ما نهى عنه. قال قتادة:

«بالحق» أى: بالقرآن، و قيل: بالتوحيد، و الحمل على العموم أولى وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ أى: بالصبر عن معاصى اللّه سبحانه، و الصبر على فرائضه. و فى جعل التواصى بالصبر قرينا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره و فخامة شرفه، و مزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* «۱» و أيضا التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق، فإفراده بالذكر و تخصيصه بالنصّ عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، و مزيد شرفه عليها، و ارتفاع طبقته عنها.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ الْعَصْرِ قال: الدهر. و أخرج ابن جرير عنه قال:

هو ساعة من ساعات النهار. و أخرج ابن المنذر عنه أيضا قال: هو ما قبل مغيب الشمس من العشىّ. و أخرج الفريابى، و أبو عبيد فى فضائله، و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن علىّ بن أبى طالب أنه كان يقرأ: «و العصر، و نوائب الدهر، إن الإنسان لفى خسر، و إنه فيه إلى آخر الدهر». و أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «و العصر، إن الإنسان لفى خسر، و إنه لفيه إلى آخر الدهر».

---

(۱). البقرة: ۱۵۳.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۰۲

سورة الهمزة

اشارة

هى تسع آيات، و هى مكية بلا خلاف و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)

وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

الويل: هو مرتفع على الابتداء، و سوّغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم، و خبره لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ و المعنى: خزى، أو عذاب، أو هلكة، أو واد فى جهنم لكل همزة لمزة. قال أبو عبيدة و الزجاج: الهمزة اللمزة الّذى يغتاب الناس، و على هذا هما بمعنى. و قال أبو العالية و الحسن و مجاهد و عطاء ابن أبى رباح: الهمزة: الّذى يغتاب الرجل فى وجهه، و اللمزة: الّذى يغتابه من خلفه. و قال قتادة عكس هذا. و روى عن قتادة و مجاهد أيضا أن الهمزة: الّذى يغتاب الناس فى أنسابهم. و روى عن مجاهد أيضا أن الهمزة: الّذى يهمز الناس بيده، و اللمزة: الّذى يلمزهم بلسانه. و قال سفيان الثورى: يهمزهم بلسانه و يلمزهم بعينه. و قال ابن كيسان: الهمزة: الّذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ، و اللمزة: الّذى يكسر عنه على جليسه و يشير بيده و برأسه و بحاجبه، و الأوّل أولى، و منه قول زياد الأعجم:

تدلى بودّى إذا لاقيتنى كذباو إن أغيّب فأنت الهامز اللّمزه

و قول الآخر:

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنيو إن تغيّبت كنت الهامز اللّمزه

و أصل الهمز الكسر، يقال: همز رأسه كسره، و منه قول العجاج:

و من همزنا رأسه تهشّما و قيل: أصل الهمز و اللمز: الضرب و الدفع، يقال: همزه يهمزه همزا، و لمزه يلمزه لمزا: إذا دفعه و ضربه، و منه قول الشاعر:

و من همزنا عزّه تبركعاعلى استه زوبعة أو زوبعا

فتح القدير، ج٥، ص: ٦٠٣

البركعة: القيام على أربع، يقال: بركعه فتبركع، أى: صرعه فوقع على استه، كذا فى الصحاح.

و بناء فعلة يدلّ على الكثرة، ففيه دلالة على أن يفعل ذلك كثيرا، و أنه قد صار ذلك عادة له، و مثله ضحكة و لعنة. قرأ الجمهور هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ بضم أوّلهما و فتح الميم فيهما. و قرأ الباقر و الأعرج بسكون الميم فيهما.

و قرأ أبو وائل و النّخعى و الأعمش «ويل للهمزة اللمزة»، و الآية تعمّ كلّ من كان متّصفا بذلك، و لا ينافيه نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الَّذِي جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ الموصول بدل من كلّ، أو فى محل نصب على الذمّ، و هذا أرجح؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه فى حكم الطرح، و إنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب، و العلّة فى الهمز و اللمز، و هو إعجابه بما جمع من المال و ظنه أنه الفضل، فلأجل ذلك يستقصر غيره. قرأ الجمهور: جَمَعَ مخففا. و قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى بالتشديد. و قرأ الجمهور: وَ عَدَّدَهُ بالتشديد، و قرأ الحسن الكلبى و نصر بن عاصم و أبو العالية بالتخفيف، و التشديد فى الكلمتين يدلّ على التكثير، و هو جمع الشىء بعد الشىء، و تعديده مرّة بعد أخرى. قال الفراء: معنى عدّده: أحصاه. و قال الزجاج: و عدّده لنوائب الدّهور. يقال أعددت الشىء و عددته: إذا أمسكته. قال السدّى: أحصى عدده. و قال الضحاك: أعدّ ماله لمن يرثه. و قيل المعنى:

فاخر بكثرته و عدده، و المقصود ذمه على جمع المال، و إمساكه و عدم إنفاقه فى سبيل الخير. و قيل: المعنى على قراءة التخفيف فى عدّده؛ أنه جمع عشيرته و أقاربه. قال المهدوى: من خفّف «و عدّده» فهو معطوف على المال، أى: و جمع عدده، و جملة يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ مستأنفة لتقرير ما قبلها، و يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال، أى: يعمل عمل من يظنّ أن ماله يتركه حيا مخلدا لا يموت. و قال عكرمة: يحسب أن ماله يزيد فى عمره، و الإظهار فى موضع الإضمار للتقريع و التوبيخ. و قيل: هو تعريض بالعمل الصالح، و أنه الّذى يخلد صاحبه فى الحياة الأبدية، لا المال. و قوله: كَلَّا ردع له عن ذلك الحسبان، أى: ليس الأمر على ما يحسبه هذا الّذى جمع المال و عدده، و اللام فى لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ جواب قسم محذوف، أى: ليطرحنّ فى النّار و ليلقينّ فيها. قرأ الجمهور: لَيُنْبَذَنَ و قرأ علىّ و الحسن و محمد بن كعب و نصر ابن عاصم و مجاهد و حميد و ابن محيصن: «لينبذانّ» بالتثنية، أى: لينبذ هو و ماله فى النار. و قرأ الحسن أيضا:

«لينبذنّ» أى: لينبذنّ ماله فى النار وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ هذا الاستفهام للتهويل و التفظيع؛ حتى كأنها ليست مما تدركه العقول و تبلغه الأفهام. ثم بيّنها سبحانه فقال: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ أى: هى نار اللّه الموقدة بأمر اللّه سبحانه، و فى إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها و تفخيم، و كذلك فى وصفها بالإيقاد، و سمّيت حطمة لأنها تحطم كل ما يلقى فيها و تهشمه، و منه:

إنّا حطمنا بالقضيب مصعبايوم كسرنا أنفه ليغضبا

قيل: هى الطبقة السادسة من طبقات جهنم، و قيل: الطبقة الثانية منها، و قيل: الطبقة الرابعة الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ أى: يخلص حرّها إلى القلوب فيعلوها و يغشاها، و خصّ الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم؛ لأنها محلّ العقائد الزائغة، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها، أى: إنهم فى حال من يموت

فتح القدير، ج‏5، ص: 604

و هم لا يموتون. و قيل: معنى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ أنها تعلم بمقدار ما يستحقّه كل واحد منهم من العذاب، و ذلك بأمارات عرّفها اللّه بها إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ أى: مطبقة مغلقة؛ كما تقدّم بيانه فى سورة البلد، يقال: آصدت الباب؛ إذا أغلقته، و منه قول ابن قيس الرقيات:

إنّ فى القصر لو دخلنا غزالامصفقا «1» موصدا عليه الحجاب

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ فى محل نصب على الحال من الضمير فى عليهم، أى: كائنين فى عمد ممدّدة موثقين فيها، أو فى محلّ رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أى هم فى عمد، أو صفة لمؤصدة، أى: مؤصدة بعمد ممدّدة. قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم؛ ثم شدّت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، و لا يدخل عليهم روح. و معنى كون العمد ممدّدة: أنها مطوّلة، و هى أرسخ من القصيرة. و قيل: العمد أغلال فى جهنم، و قيل: القيود. قال قتادة: المعنى هم فى عمد يعذبون بها، و اختار هذا ابن جرير: قرأ الجمهور فِي عَمَدٍ بفتح العين و الميم. قيل: هو اسم جمع لعمود. و قيل: جمع له. قال الفرّاء: هى جمع لعمود كأديم و أدم. و قال أبو عبيدة: هى جمع عماد. و قرأ حمزة و الكسائى و أبو بكر بضم العين و الميم، جمع عمود.

قال الفرّاء: هما جمعان صحيحان لعمود. و اختار أبو عبيد و أبو حاتم قراءة الجمهور. قال الجوهرى: العمود:

عمود البيت، و جمع القلة: أعمدة، و جمع الكثرة: عمد و عمد، و قرئ بهما. قال أبو عبيدة: العمود:

كلّ مستطيل من خشب أو حديد.

و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ قال: هو المشّاء بالنميمة، المفرّق بين الجمع، المغرى بين الإخوان. و أخرج ابن جرير عنه وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ قال: طعان لُمَزَةٍ قال: مغتاب.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا فى قوله: إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ قال: مطبقة فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ قال: عمد من نار. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: هى الأدهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الأبواب هى الممدّدة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: أدخلهم فى عمد فمدّت عليهم فى أعناقهم فشدّت بها الأبواب.

---

(١). «صفق الباب و أصفقه»: أغلقه.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٠٥

سورة الفيل

اشارة

هى خمس آيات، و هى مكية بلا خلاف و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت بمكة أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (١) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

الاستفهام فى قوله: أَ لَمْ تَرَ لتقرير رؤيته صلّى اللّه عليه و سلّم بإنكار عدمها. قال الفرّاء: المعنى ألم تخبر. و قال الزجاج: ألم تعلم، و هو تعجيب له صلّى اللّه عليه و سلّم بما فعله اللّه بِأَصْحابِ الْفِيلِ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة، و «كيف» منصوبة بالفعل الّذى بعدها، و معلقة لفعل الرؤية، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و يجوز أن يكون لكلّ من يصلح له. و المعنى: قد علمت يا محمد، أو علم الناس الموجودون فى عصرك و من بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل و ما فعل اللّه بهم، فما لكم لا تؤمنون؟ و الفيل هو الحيوان المعروف، و جمعه أفيال، و فيول، و فيلة. قال ابن السكيت: و لا تقل أفيلة، و صاحبه فيّال، و سيأتى ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء اللّه أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ أى: ألم يجعل مكرهم و سعيهم فى تخريب الكعبة و استباحة أهلها فى تضليل عما قصدوا إليه؛ حتى لم يصلوا إلى البيت، و لا إلى ما أرادوه بكيدهم، و الهمزة للتقرير، كأنه قيل: قد جعل كيدهم فى تضليل، و الكيد: هو إرادة المضرّة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل و السبى، و يكيدوا البيت الحرام بالتخريب و الهدم وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ أى: أقاطيع يتبع بعضها بعضا كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة: أبابيل: جماعات فى تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل، أى: جماعات من هاهنا و هاهنا. قال النحاس: و حقيقته أنها جماعات عظام، يقال: فلان توبل على فلان، أى: تعظم عليه و تكبر، و هو مشتق من الإبل، و هو من الجمع الّذى لا واحد له. و قال بعضهم:

واحده إبّول مثل عجّول. و قال بعضهم: إبّيل. قال الواحدى: و لم نر أحدا يجعل لها واحدا. قال الفراء:

لا واحد له من لفظه. و زعم الرؤاسى، و كان ثقة، أنه سمع فى واحدها: إبّال مشدّدا. و حكى الفرّاء أيضا:

إبـال بـالتخفيف. قال سـعيد بن جبير: كانت طيرا من السـماء لم ير قبلها و لا بعـدها. قال قتادة: هى طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجران فى رجليه، و حجر فى منقاره، لا يصـيب شـيئا إلا هشـمه. و قيل: كانت طيرا خضـرا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع. و قيل:

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٠٦

كـان لها خراطيم كخراطيم الطير و أكفّ كأكف الكلاب. و قيل فى صـفتها غير ذلك، و العرب تسـتعمل الأبابيل فى الطير، كما فى قول الشاعر:

تراهم إلى الدّاعى سراعا كأنّهم أبابيل طير تحت دجن مسخّن «١»

و تستعملها فى غير الطير، كقول الآخر:

كادت تهدّ من الأصوات راحلتى إذ سالت الأرض بالجرد «٢» الأبابيل

تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ الجملة فى محلّ نصب صفة لطير. قرأ الجمهور: تَرْمِيهِمْ بالفوقية.

و قرأ أبو حنيفة و أبو معمر و عيسـى و طلحة بالتحتية، و اسم الجمع يذكر و يؤنث. و قيل: الضـمير فى القراءة الثانية للّه عزّ و جلّ. قال الزجاج مِنْ سِجِّيلٍ أى: ممّا كتب عليهم العذاب به، مشتقا من السجل.

قال فى الصـحاح: قالوا: هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسـماء القوم. قال عبـد الرّحمن ابن أبزى: مِنْ سِجِّيلٍ من السـماء، و هى الحجـارة التى نزلت على قوم لوط، و قيـل: من الجحيم التى هى سـجين، ثم أبـدلت النون لاما، و منه قول ابن مقبل:

ضربا تواصت به الأبطال سجّيلا «٣» و إنما هو سجّينا. قال عكرمة: كان ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجـدرى، و كان الحجر كالحمّصـة و فوق العدسـة، و قد قدّمنا الكلام فى سـجيل فى سورة هود فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ أى: جعـل اللّه أصـحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الـدواب فرمت به من أسـفل، شـبّه تقطع أوصالهم بتفرّق أجزائه. و قيل: المعنى: أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدّوابّ و بقى منه بقايا، أو أكلت حبة فبقى بدون حبة. و العصف جمع عصـفة و عصافة و عصيفة، و قد قدّمنا الكلام فى العصف فى سورة الرّحمن فارجع إليه.

و قـد أخرج عبـد بن حميـد و ابن المنـذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عبـاس قـال: جاء أصـحاب الفيل حتى نزلوا الصـفاح فأتاهم عبـد المطلب فقال: إن هـذا بيت اللّه لم يسـلّط عليه أحدا، قالوا: لا نرجع حتى نهدمه و كانوا لا يقدّمون فيلهم إلا تأخر، فـدعا اللّه الطير الأبابيل، فأعطاها حجارة سودا عليها الطين، فلما حاذتهم رمتهم فما بقى منهم أحـد إلا أخذته الحكة، فكان لا يحكّ الإنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه.

و أخرج ابن المنـذر و الحاكم و أبو نعيم و البيهقى عنه قال: أقبل أصـحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكـة اسـتقبلهم عبـد المطلب، فقال لملكهم. ما جاء بك إلينا؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شيء؟ فقال: أخبرت بهذا البيت الّذى

---

(١). قال فى حاشية القرطبى: لعل صوابه: مسخر.

(٢). «الجرد»: الخيل لا رجالة فيها.

(٣). و صدر البيت: و رجلة يضربون البيض عن عرض.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦٠٧

لا يـدخله أحـد إلا أمن، فجئت أخيف أهله، فقال: إنا نأتيك بكل شـىء تريد فارجع، فأبى إلا أن يدخله، و انطلق يسـير نحوه، و

تخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت و أهله، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التى قال اللّه: تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فجعل الفيل يعجّ عجا فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ و قصّة أصحاب الفيل مبسوطة مطوّلة فى كتب التاريخ و السير فلا نطوّل بذكرها. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ قال: حجارة مثل البندق و بها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة حجار. حجران فى رجليه، و حجر فى منقاره حلقت عليه من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم. و أخرج أبو نعيم من طريق عطاء و الضحاك عنه: أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة. فأرسل اللّه عليهم طيرا أبابيل يريد مجتمعة، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها و حصاتين فى رجليها. ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه و دمه و يبقى عظاما خاوية لا لحم عليها و لا جلد و لا دم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى الدلائل عنه أيضا: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ يقول: كالتبن. و أخرج ابن إسحاق فى السيرة، و الواقدى و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل و سائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان.

و أخرج الواقدى نحوه عن أسماء بنت أبى بكر. و أخرج أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس قال: ولد النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عام الفيل. و أخرج ابن إسحاق و أبو نعيم و البيهقى عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عام الفيل.

فتح القدير، ج‏5، ص: 608

سورة قريش

اشارة

و يقال: سورة لإيلاف، و هى أربع آيات و هى مكية عند الجمهور. و قال الضحاك و الكلبى: هى مدنية.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة لِإِيلافِ بمكة. و أخرج البخارى فى تاريخه، و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه و البيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«فضّل اللّه قريشا بسبع خصال لم يعطها أحدا قبلهم و لا يعطيها أحدا بعدهم: أني فيهم. و فى لفظ: النبوّة فيهم، و الخلافة فيهم، و الحجابة فيهم، و السقاية فيهم، و نصروا على الفيل، و عبدوا اللّه سبع سنين. و فى لفظ: عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم، و نزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لِإِيلافِ قُرَيْشٍ قال ابن كثير: هو حديث غريب، و يشهد له ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه و ابن عساكر عن الزبير بن العوّام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «فضّل اللّه قريشا بسبع خصال: فضّلهم بأنهم عبدوا اللّه عشر سنين لا يعبده إلا قريش، و فضّلهم بأنه نصرهم يوم الفيل و هم مشركون، و فضّلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم، و هى لإيلاف قريش، و فضّلهم بأن فيهم النبوّة، و الخلافة، و السقاية». و أخرج الخطيب فى تاريخه، عن سعيد بن المسيب مرفوعا نحوه، و هو مرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة قريش (106): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

اللام فى قوله: لِإِيلافِ قيل: هى متعلقة بآخر السورة التى قبلها، كأنه قال سبحانه: أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش. قال الفرّاء: هذه السورة متّصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ أى: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، و ذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها فلا يغار عليها فى الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت اللّه عزّ و جلّ، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة و يأخذ حجارتها فيبنى بها بيتا فى اليمن يحجّ الناس إليه، فأهلكهم اللّه عزّ و جلّ، فذكّرهم نعمته، أى: فعل ذلك لإيلاف قريش، أى: ليألفوا الخروج و لا يجترأ عليهم، و ذكر نحو هذا ابن قتيبة. قال الزجاج: و المعنى: فجعلهم كعصف مأكول لِإِيلافِ قُرَيْشٍ أى: أهلك اللّه أصحاب الفيل لتبقى قريش و ما قد ألفوا من رحلة الشتاء و الصيف. و قال فى الكشاف: إن اللام متعلق بقوله: فَلْيَعْبُدُوا أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، و دخلت الفاء لما فى الكلام

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۰۹

من معنى الشرط؛ لأن المعنى: أما لا فليعبدوه. و قد تقدّم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد، و المعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. و قال الكسائى و الأخفش: اللام لام التعجب، أى: اعجبوا لإيلاف قريش. و قيل: هى بمعنى إلى. قرأ الجمهور: لِإِيلافِ بالياء مهموزا من ألفت أولف إيلافا. يقال: ألفت الشىء إلافا و إلفا، و ألفته إيلافا بمعنى، و منه قول الشاعر:

المنعمين إذا النّجوم تغيّرتو الظّاعنين لرحلة الإيلاف

و قرأ ابن عامر: «لإلاف» بدون الياء، و قرأ أبو جعفر: «لإلف» و قد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر، فقال:

زعمتم أنّ إخوتكم قريشلهم إلف و ليس لكم إلاف

و قرأ عكرمة: «ليألف قريش» بفتح اللام على أنها لام الأمر، و كذلك هو فى مصحف ابن مسعود، و فتح لام الأمر لغة معروفة. و قرأ بعض أهل مكة: «إلاف قريش»، و استشهد بقول أبى طالب:

تذود الورى «۱» عن عصبة هاشميةإلافهم فى النّاس خير إلاف

و قريش هم: بن و النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى، و من لم يلده النضر فليس بقرشى، و قريش يأتى منصرفا إن أريد به الحىّ، و غير منصرف إن أريد به القبيلة، و منه قول الشاعر «۲»:

و كفى قريش المعضلات و سادها «۳» و قيل: إنّ قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر، و الأوّل أصح، و قوله: إِيلافِهِمْ بدل من إيلاف قريش، و رِحْلَةَ مفعول به لإيلافهم و أفردها، و لم يقل رحلتى الشتاء و الصيف لأمن الإلباس، و قيل:

إن إيلافهم تأكيد للأوّل لا بدل، و الأوّل أولى. و رجحه أبو البقاء، و قيل: إن رحلة منصوبة بمصدر مقدّر، أى: ارتحالهم رحلة الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ و قيل: هى منصوبة على الظرفية، و الرحلة: الارتحال، و كانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حارّة، و الرحلة الأخرى إلى الشام فى الصيف لأنها بلاد باردة.

و روى أنهم كانوا يشتون بمكة، و يصيفون بالطائف. و الأوّل أولى، فإن ارتحال قريش للتجارة معلوم معروف فى الجاهلية و الإسلام. قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة و كانت لهم رحلتان فى كل سنة؛ رحلة فى الشتاء إلى اليمن، و رحلة فى الصيف إلى الشام، و لو لا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، و لو لا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرّف فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم

(١). فى تفسير القرطبى (٢٠/ ٢٠٢): العدا.

(٢). هو عدى بن الرقاع.

(٣). و صدر البيت: غلب المساميح الوليد سماحة.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦١٠

به عليهم، أى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة، و البيت: الكعبة. و عرّفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميّز نفسه عنها. و قيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تذكيرا لنعمته الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ أى: أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، و قيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذّبوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف، فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع اللّه لنا فإنا مؤمنون، فدعا؛ فأخصبوا، و زال عنهم الجوع، و ارتفع القحط وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ أى: من خوف شديد كانوا فيه. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، و يسبى بعضها بعضا، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم. و قال الضحاك و الربيع و شريك و سفيان: آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

و قد أخرج أحمد و ابن أبى حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ و يحكم يا قريش، اعبدوا ربّ هذا البيت الّذى أطعمكم من جوع و آمنكم من خوف». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ قال: نعمتى على قريش إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ كانوا يشتون بمكة، و يصيفون بالطائف فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ قال: الكعبة الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ قال:

الجذام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ قال:

لزومهم الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ يعنى قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال: وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ «١»، وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ حيث قال إبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً «٢». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا فى قوله: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ الآية، قال: نهاهم عن الرحلة و أمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت، و كفاهم المؤنة، و كانت رحلتهم فى الشتاء و الصيف و لم يكن لهم راحة فى شتاء و لا صيف، فأطعمهم اللّه بعد ذلك من جوع، و آمنهم من خوف فألفوا الرحلة و كان ذلك من نعمة اللّه عليهم.

و أخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: أمروا أن يألفوا عبادة ربّ هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء و الصيف، و قد وردت أحاديث فى فضل قريش و إن الناس تبع لهم فى الخير و الشرّ، و إن هذا الأمر يعنى الخلافة لا تزال فيهم ما بقى اثنان، و هى فى دواوين الإسلام.

(١). البقرة: ١٢٦.

(٢). إبراهيم: ٣٥.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦١١

سورة الماعون

اشارة

و يقـال: سورة الـدين، و يقـال: سورة المـاعون، و يقال: سورة اليتيم، و هى سـبع آيات و هى مكيـة فى قول عطاء و جابر، و أحد قولى ابن عبـاس، و مدنيـة فى قول قتـادة و آخرين. و أخرج ابن مردويه عن ابن عبـاس قال: نزلت أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَـذِّبُ بِالـدِّينِ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (٦) وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ (٧)

الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح له، و الاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين.

و الرؤية: بمعنى المعرفة؛ و الدين: الجزاء و الحساب فى الآخرة. قيل: و فى الكلام حذف، و المعنى: أ رأيت الّذى يكذب بالدين أ مصيب هو أم مخطئ. قـال مقاتـل و الكلبى: نزلت فى العـاص بن وائـل السـهمى. و قـال السـدّى: فى الوليـد بن المغيرة. و قال الضحّاك: فى عمرة بن عائذ. و قال ابن جرير فى أبى سفيان، و قيل:

فى رجل من المنافقين. قرأ الجمهور أَ رَأَيْتَ بإثبات الهمزة الثانية. و قرأ الكسائى بإسـقاطها. قال الزجاج: لا يقال فى رأيت ريت، و لكن ألف الاسـتفهام سـهلت الهمزة ألفا. و قيل: الرؤية: هى البصرية، فيتعدّى إلى مفعول واحد، و هو الموصول، أى: أ أبصرت المكـذب. و قيل: إنها بمعنى أخبرنى؛ فيتعدى إلى اثنين. الثانى محذوف، أى: من هو فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ الفاء جواب شـرط مقـدّر، أى إن تأملته أو طلبته فـذلك الّذى يدعّ اليتيم، و يجوز أن تكون عاطفة على الّذى يكذب، إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة. فعلى الأوّل يكون اسم الإشارة مبتدأ و خبره الموصول بعده، أو خبر لمبتدأ محذوف، أى:

فهو ذلك، و الموصول صفته. و على الثانى يكون فى محل نصب لعطفه على الموصول الّذى هو فى محل نصب.

و معنى يـدعّ: يـدفع دفعا بعنف و جفوة، أى: يدفع اليتيم عن حقّه دفعا شديدا، و منه قوله سبحانه: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا «١» و قـد قـدّمنا أنهم كـانوا لا يورّثون النساء و الصبيان وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْـكِينِ أى: لا يحضّ نفسه و لا أهله و لا غيرهم على ذلـك؛ بخلاـ بالمـال، أو تكـذيبا بـالجزاء، و هو مثل قوله فى سورة الحاقـة وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْـكِينِ «٢» فَوَيْلٌ يومئذ لِلْمُصَلِّينَ الفاء جواب

---

(١). الطور: ١٣.

(٢). الحاقة: ٣٤.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦١٢

لشرط محذوف، كأنه قيل: إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم و المسكين فويل للمصلين الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ أى: عـذاب لهم، أو هلاك، أو واد فى جهنم لهم كما سبق الخلاف فى معنى الويل، و معنى ساهون: غافلون غير مبالين بها، و يجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم، و وضع المصـلّين موضع ضمير هم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائـح أخرى غير ما ذكر. قال الواحـدى: نزلت فى المنافقين الّذين لا يرجون بصـلاتهم ثوابا إن صـلوا، و لا يخافون عليها عقابـا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يـذهب وقتها، و إذا كانوا مع المؤمنين صـلوا رياء، و إذا لم يكونوا معهم لم يصـلوا، و هو

معنى قوله: الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ أى: يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراءون الناس بكل ما علموه من أعمال البرّ ليثنوا عليهم. قال النخعى: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ هو الّذى إذا سجد قال برأسه هكذا و هكذا ملتفتا. و قال قطرب: هو الّذى لا يقرأ و لا يذكر اللّه. و قرأ ابن مسعود: الذين هم عن صلاتهم لاهون وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ قال أكثر المفسرين: الماعون: اسم لما يتعاوره الناس بينهم: من الدلو و الفأس و القدر، و ما لا يمنع كالماء و الملح. و قيل: هو الزكاة، أى: يمنعون زكاة أموالهم. و قال الزجاج و أبو عبيد و المبرّد: الماعون فى الجاهلية: كل ما فيه منفعة حتى الفأس و الدلو و القدر و القدّاحة، و كل ما فيه منفعة من قليل و كثير، و أنشدوا قول الأعشى:

بأجود منه بماعونهإذا ما سماؤهم لم تغم

قال الزجاج و أبو عبيد و المبرّد أيضا: و الماعون فى الإسلام: الطاعة و الزكاة، و أنشدوا قول الراعى:

أ خليفة الرّحمن إنّا معشرحنفاء نسجد بكرة و أصيلا

عرب نرى للّه من أموالناحقّ الزّكاة منزّلا تنزيلا

قوم على الإسلام لمّا يمنعواماعونهم و يضيّعوا التّهليلا

و قيل: الماعون: الماء. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء، و أنشدنى:

يمجّ صبيره الماعون صبّا و الصبير: السحاب، و قيل: الماعون: هو الحق على العبد على العموم، و قيل: هو المستغلّ من منافع الأموال، مأخوذ من المعن، و هو القليل. قال قطرب: أصل الماعون من القلة، و المعن: الشيء القليل، فسمّى اللّه الصدقة و الزكاة و نحو ذلك من المعروف ماعونا؛ لأنه قليل من كثير، و قيل: هو ما لا يبخل به كالماء و الملح و النار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ قال: يكذب بحكم اللّه فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ قال: يدفعه عن حقّه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عنه فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ- الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال: هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا و يتركونها إذا غابوا، و يمنعونهم العارية بغضا لهم، و هى الماعون. و أخرج

فتح القدير، ج‏5، ص: 613

ابن جرير و ابن مردويه عنه أيضا الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال: هم المنافقون يتركون الصلاة فى السرّ، و يصلون فى العلانية. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبىّ: أ رأيت قول اللّه: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ أيّنا لا يسهو؟ أيّنا لا يحدّث نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، إنه إضاعة الوقت.

و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن سعد بن أبى وقاص قال: سألت النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال: هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها. و قال الحاكم و البيهقى: الموقوف أصح. قال ابن كثير: و هذا يعنى الموقوف أصح إسنادا. قال: و قد ضعّف البيهقى رفعه و صحّح وقفه، و كذلك الحاكم. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه- قال السيوطى: بسند ضعيف- عن أبى برزة الأسلمى قال: «لما نزلت هذه الآية الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اللّه أكبر، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا، هو الّذى إن صلّى لم يرج خير صلاته، و إن تركها لم يخف ربّه». و فى إسناده جابر الجعفى، و هو ضعيف، و شيخه مبهم لم يسمّ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال: هم الذين يؤخّرونها عن وقتها. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أبو داود و النسائى و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى

الأوسط، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، من طرق عن ابن مسعود قال:
كنا نعدّ الماعون على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عارية الدلو و القدر و الفأس و الميزان و ما تتعاطون بينكم. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر و الفأس و شبهه فيمنعونهم، فأنزل اللّه:
وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ و أخرج أبو نعيم و الديلمى و ابن عساكر عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال:
ما تعاون الناس بينهم الفأس و القدر و الدلو و أشباهه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن قرّة بن دعموص النميرى: «أنهم وفدوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالوا: يا رسول اللّه ما تعهد إلينا؟ قال: لا تمنعوا الماعون، قالوا: و ما الماعون؟ قال: فى الحجر و الحديدة و فى الماء، قالوا: فأىّ الحديدة؟ قال: قدوركم النحاس و حديد الفأس الّذى تمتهنون به، قالوا: و ما الحجر؟ قال: قدوركم الحجارة». قال ابن كثير: غريب جدا، و رفعه منكر، و فى إسناده من لا يعرف. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: الماعون: الفأس و القدر و الدلو. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى، و الحاكم و صححه، و البيهقى، و الضياء فى المختارة، من طرق عن ابن عباس فى الآية قال: عارية متاع البيت. و أخرج الفريابى و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم، و البيهقى فى سننه، عن علىّ بن أبى طالب قال: الماعون: الزكاة المفروضة يُراؤُنَ بصلاتهم وَ يَمْنَعُونَ زكاتهم.
فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۴

سورة الكوثر

اشارة

و هى مكية فى قول ابن عباس و الكلبى و مقاتل، و مدنية فى قول الحسن و عكرمة و مجاهد و قتادة. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشة أنها نزلت سورة الكوثر بمكة.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكوثر (۱۰۸): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (۱) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ (۲) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (۳)
قرأ الجمهور: إِنَّا أَعْطَيْناكَ و قرأ الحسن و ابن محيصن و طلحة و الزعفرانى «أنطيناك» بالنون.
قيل: هى لغة العرب العاربة. قال الأعشى:
حباؤك خير حبا الملوك يصان الحلال و تنطى الحلولا
و الْكَوْثَرَ فوعل من الكثرة، وصف به للمبالغة فى الكثرة، مثل النوفل من النفل، و الجوهر من الجهر، و العرب تسمى كلّ شىء كثير فى العدد أو القدر أو الخطر كوثرا، و منه قول الشاعر «۱»:
و قد ثار نقع الموت حتّى تكوثرا «۲» فالمعنى على هذا: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ فى الكثرة إلى الغاية. و ذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدى إلى أن الكوثر نهر فى الجنة، و قيل: هو حوض النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الموقف، قاله عطاء. و قال عكرمة: الكوثر: النبوّة. و قال الحسن: هو القرآن. و قال الحسن بن الفضل: هو تفسير القرآن و تخفيف الشرائع. و

قال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب و الأمة. و قال ابن كيسان: هو الإيثار. و قيل:
هو الإسلام، و قيل: رفعة الذكر، و قيل: نور القلب، و قيل: الشفاعة، و قيل: المعجزات، و قيل: إجابة الدعوة، و قيل: لا إله إلا اللّه، و قيل: الفقه فى الدين، و قيل: الصلوات الخمس، و سيأتى بيان ما هو الحق.
فَصَلِّ لِرَبِّكَ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و المراد الأمر له صلّى اللّه عليه و سلّم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة وَ انْحَرْ البدن التى هى خيار أموال العرب. قال محمد بن كعب: إن ناسا كانوا يصلّون لغير اللّه، و ينحرون لغير اللّه، فأمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن تكون صلاته و نحره له. و قال قتادة و عطاء و عكرمة: المراد صلاة العيد، و نحر الأضحية. و قال سعيد بن جبير: صلّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع، و انحر البدن

---

(١). هو حسان بن نشبة.

(٢). و صدر البيت: أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم.

فتح القدير، ج‌٥، ص: ٦١٥

فى منى: و قيل: النحر: وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة حذاء النحر، قاله محمد بن كعب. و قيل: هو أن يرفع يديه فى الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره. و قيل: هو أن يستقبل القبلة بنحره، قاله الفراء و الكلبى و أبو الأحوص. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: نتناحر، أى: نتقابل؛ نحر هذا إلى نحر هذا، أى:
قبالته، و منه قول الشاعر:
أبا حكم ما أنت عمّ مجالدو سيّد أهل الأبطح المتناحر
أى: المتقابل. و قال ابن الأعرابى: هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر، أى: تتقابل. و روى عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوى بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره.
و قال سليمان التيمى: المعنى: و ارتفع يديك بالدعاء إلى نحرك، و ظاهر الآية الأمر له صلّى اللّه عليه و سلّم بمطلق الصلاة و مطلق النحر، و أن يجعلهما للّه عزّ و جلّ لا لغيره، و ما ورد فى السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو فى حكم التقييد له، و سيأتى إن شاء اللّه. إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ أى: إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم، فيعمّ خيرى الدنيا و الآخرة، أو الّذى لا عقب له، أو الّذى لا يبقى ذكره بعد موته. و ظاهر الآية العموم، و أن هذا شأن كل من يبغض النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مرّ غير مرّة. قيل: كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا: قد بتر فلان، فلما مات ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتر محمد، فنزلت الآية. و قيل: القائل بذلك عقبة بن أبى معيط. قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال؛ الّذى لا ولد له، و من الدوابّ؛ الّذى لا ذنب له، و كل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر، و أصل البتر: القطع، يقال: بترت الشىء بترا؛ قطعته.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أنس قال: «أغفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إغفاءة، فرفع رأسه مبتسما فقال: إنه أنزل عليّ آنفا سورة، فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ- إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ حتى ختمها قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا:
اللّه و رسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتى يوم القيامة، آنيته كعدد الكواكب يختلج «١» العبد منهم فأقول: يا ربّ إنه من أمتى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدث بعدك». و أخرجه أيضا مسلم فى صحيحه، و أخرج

البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل، قال: هذا الكوثر الّذى أعطاكه اللّه» و قد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الّذى فى الجنة. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و ابن جرير و ابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ قالت: هو نهر أعطيه نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم فى بطنان الجنة.

---

(١). أى ينتزع و يقتطع.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦١٦

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر فى الجنة. و أخرج الطبرانى فى الأوسط، عن حذيفة فى قوله: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ قال: نهر فى الجنة، و حسّن السيوطى إسناده. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن أسامة ابن زيد مرفوعا «أنه قيل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر، فقال: أجل، و أرضه ياقوت و مرجان و زبرجد و لؤلؤ». و أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه:

«أن رجلا قال: يا رسول اللّه ما الكوثر؟ قال: هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه اللّه».

فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الّذى فى الجنة، فيتعين المصير إليها، و عدم التعويل على غيرها، و إن كان معنى الكوثر: هو الخير الكثير فى لغة العرب، فمن فسّره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوىّ. كما أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عطاء بن السائب قال: قال محارب بن دثار: قال سعيد بن جبير فى الكوثر:

قلت: حدّثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير فقال: صدق إنه للخير الكثير. و لكن حدّثنا ابن عمر قال: نزلت إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الكوثر نهر فى الجنة، حافتاه من ذهب يجرى على الدرّ و الياقوت، تربته أطيب من المسك، و ماؤه أشد بياضا من اللبن و أحلى من العسل». و أخرج البخارى و ابن جرير و الحاكم من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: فى الكوثر هو الخير الّذى أعطاه اللّه إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير فإن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة، قال: النهر الّذى فى الجنة من الخير الّذى أعطاه اللّه إياه. و هذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضى اللّه عنه ناظر إلى المعنى اللغوىّ كما عرّفناك، و لكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد فسّره فيما صحّ عنه أنه النهر الّذى فى الجنة، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل. و أخرج ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن علىّ بن أبى طالب قال: «لما نزلت هذه السورة على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لجبريل: ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى؟ فقال: إنها ليست بنحيرة، و لكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، و إذا ركعت، و إذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا و صلاة الملائكة الذين هم فى السماوات السبع، و إن لكل شى‏ء زينة، و زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة، قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: رفع اليدين من الاستكانة التى قال اللّه: فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ و هو من طريق مقاتل بن حيان، عن الأصبغ بن نباتة، عن علىّ. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: «إن اللّه أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة، فذاك النحر». و أخرج ابن أبى شيبة، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الأفراد، و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن علىّ بن أبى طالب فى قوله: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ قال: وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره فى الصّلاة. و أخرج أبو الشيخ، و البيهقى فى سننه، عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مثله. و أخرج

ابن أبی حاتم، و ابن شاهین فی سننه، و ابن مردویه و البیهقی عن ابن عباس فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ قال: إذا صلیت فرفعت رأسک من الركوع فاستو قائما. و أخرج ابن جرير و ابن

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۷

المنذر عن ابن عباس فی الآية قال: الصلاة المكتوبة، و الذبح يوم الأضحى. و أخرج البيهقی فی سننه؛ عنه وَ انْحَرْ قال: يقول: و اذبح يوم النحر. و أخرج البزار و ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة. فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة و سيّدهم، ألا ترى إلى هذا الصّابئ المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، و نحن أهل الحجيج و أهل السقاية و أهل السدانة؟! قال: أنتم خير منه، فنزلت: إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ و نزلت: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ إلى قوله: فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً «۱» قال ابن كثير: و إسناده صحيح. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عن أبی أيوب قال: لما مات إبراهيم بن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا: إن هذا الصابئ قد بتر الليلة فأنزل اللّه: إِنَّا أَعْطَيْناکَ الْكَوْثَرَ إلى آخر السورة. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر من طريق الكلبی عن أبی صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم القاسم، ثم زينب، ثم عبد اللّه، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم و هو أوّل ميت من أهله، و ولده بمكة، ثم مات عبد اللّه، فقال العاص بن وائل السهمی: قد انقطع نسله؛ فهو أبتر، فأنزل اللّه إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ و فی إسناده الكلبی. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ قال: أبو جهل. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عنه إِنَّ شانِئَکَ يقول: عدوّک.

---

(۱). النساء: ۴۴- ۵۲.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۸

سورة الكافرون

اشارة

و هی مكية فی قول ابن مسعود و الحسن و عكرمة. و مدنية فی أحد قولی ابن عباس و قتادة و الضحاک.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت سورة يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه ابن الزبير قال: أنزلت يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ بالمدينة. و قد ثبت فی صحيح مسلم من حديث جابر:

«أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ بهذه السورة، و بقل هو اللّه، فی ركعتی الطواف». و فی صحيح مسلم أيضا من حديث أبی هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ بهما فی ركعتی الفجر. و أخرج أحمد، و الترمذی و حسّنه، و النسائی و ابن ماجة و ابن حبان و ابن مردويه عن ابن عمر: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ فی الركعتين قبل الفجر و الركعتين بعد المغرب بضعا و عشرين مرة، أو بضع عشرة مرة قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». و أخرج الحاكم و صحّحه، عن أبیّ قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوتر بسبّح، و قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و أخرج محمد بن نصر، و الطبرانی فی الأوسط، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن، و قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ تعدل ربع القرآن، و كان يقرأ بهما فی ركعتی الفجر». و أخرج ابن مردويه عن أبی هريرة سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «من قرأ يا أيها الكافرون كانت له عدل ربع القرآن». و أخرج الطبرانی فی الصغير، و البيهقی فی الشعب، عن سعد بن

أبى وقـاص قـال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «من قرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ فكأنما قرأ ربع القرآن، و من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فكأنما قرأ ثلث القرآن». و أخرج أحمـد و ابن الضـريس و البغوى، و حميـد بن زنجويه فى ترغيبه، عن شـيخ أدرك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «خرجت مع النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر فمرّ برجل يقرأ: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ فقال: أما هذا فقد برىء من الشـرك، و إذا آخر يقرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فقال النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم: بها وجبت له الجنة»، و فى رواية: «أما هذا فقد غفر له». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى، و ابن الأنبارى فى المصاحف، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشـعب، عن فروة بن نوفـل بن معاويـة الأشـجعى عن أبيه أنه قـال: يـا رسول اللّه علّمنى مـا أقول إذا أويت إلى فراشى قال: «اقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك». و أخرجه سعيد بن منصور و ابن أبى شيبـة و ابن مردويه عن عبـد الرّحمن بن نوفـل الأشـجعى عن أبيه مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم لنوفل بن معاوية الأشـجعى: «إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ فإنك إذا قلتها فقد برئت من الشـرك». و أخرج أحمـد، و الطبرانى فى الأوسط، عن الحارث بن جبلـة، و قال الطبرانى: عن جبلة بن حارثة، و هو أخو زيد ابن حارثـة قال: «قلت: يا رسول اللّه علمنى شـيئا أقوله عنـد منامى قال: إذا أخـذت مضـجعك من الليل فاقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ حتى تمرّ بآخرها فإنها براءة من الشرك». و أخرج البيهقى فى الشعب،

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۱۹

عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لمعاذ: «اقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ عند منامك فإنها براءة من الشرك». و أخرج أبو يعلى و الطبرانى عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «ألا أدلّكم على كلمة تنجيكم من الإشراك باللّه؟ تقرؤون قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ عند منامكم». و أخرج البزار و الطبرانى و ابن مردويه عن خباب أن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا أخذت مضـجعك فاقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و إن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم لم يأت فراشه قطّ إلا قرأ: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ حتى يختم». و أخرج ابن مردويه عن زيـد بن أرقم قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «من لقى اللّه بسورتين فلا حساب عليه قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». و أخرج أبو عبيد فى فضائله، و ابن الضريس عن أبى مسعود الأنصارى قال: من قرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فى ليلة فقد أكثر و أطاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكافرون (۱۰۹): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (۱) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (۲) وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۳) وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (۴)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۵) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (۶)

الألف و اللام فى يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ للجنس، و لكنها لما كانت الآية خطابا لمن سبق فى علم اللّه أنه يموت على كفره؛ كان المراد بهـذا العموم خصوص من كان كـذلك؛ لأنّ من الكفار عنـد نزول هـذه الآيـة من أسـلم و عبـد اللّه سـبحانه. و سـبب نزول هذه السورة أن الكفّار سألوا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم أن يعبد آلهتهم سنة و يعبدوا إلهه سنة، فأمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ أى: لا أفعل ما تطلبون منى من عبادة ما تعبـدون من الأصـنام، و قيل: و المراد فيما يسـتقبل من الزمان لأن لا النافيـة لا تدخل فى الغالب إلا على المضارع الّذى فى معنى الاسـتقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أى: و لا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ أى: و لا أنا قطّ

فيما سلف عابد ما عبدتم فيه، و المعنى: أنه لم يعهد منى ذلك وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أى: و ما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته، كذا قيل، و هذا على قول من قال: إنه لا تكرار فى هذه الآيات؛ لأن الجملة الأولى لنفى العبادة فى المستقبل لما قدّمنا من أن «لا» لا تدخل إلّا على مضارع فى معنى الاستقبال، و الدليل على ذلك أن لن تأكيد لما تنفيه لا. قال الخليل فى لن: إن أصله لا، فالمعنى:

لا أعبد ما تعبدون فى المستقبل، و لا أنتم عابدون فى المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهى. ثم قال: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ أى: و لست فى الحال بعباد معبودكم، و لا- أنتم فى الحال بعابدين معبودى. و قيل: بعكس هذا، و هو أن الجملتين الأوليين للحال، و الجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ كما لو قال القائل: أنا ضارب زيدا، و أنا قاتل عمرا، فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال. قال الأخفش و الفرّاء: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، و لا أنتم عابدون الساعة ما أعبد، و لا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم،

فتح القدير، ج‏5، ص: 620

و لا أنتم عابدون فى المستقبل ما أعبد. قال الزجاج: نفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه فى الحال و فيما يستقبل، و نفى عنهم عبادة اللّه فى الحال و فيما يستقبل. و قيل: إن كل واحد منهما يصلح للحال و الاستقبال، و لكنّا نخصّ أحدهما بالحال، و الثانى بالاستقبال دفعا للتكرار. و كل هذا فيه من التكلف و التعسف ما لا يخفى على منصف، فإن جعل قوله: و لا- أعبد ما تعبدون للاستقبال. و إن كان صحيحا على مقتضى اللغة العربية، و لكنه لا يتمّ جعل قوله: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ للاستقبال؛ لأن الجملة اسمية تفيد الدوام و الثبات فى كل الأوقات فدخول النفى عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام، و الثبات فى كل الأوقات، و لو كان حملها على الاستقبال صحيحا للزم مثله فى قوله: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ و فى قوله: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ فلا يتمّم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال، و كما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس؛ لأن الجملة الثانية و الثالثة و الرابعة كلها جمل اسمية، مصدّرة بالضمائر التى هى المبتدأ فى كل واحد منها، مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف واحد، و هو لفظ لا فى كل واحد منها، فكيف يصحّ القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها فى الحال و الاستقبال مختلفة. و أما قول من قال: إن كل واحد منها يصلح للحال و الاستقبال، فهو إقرار منه بالتكرار؛ لأن حمل هذا على معنى و حمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الّذى لا- يدلّ عليه دليل. و إذا تقرّر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، و من مذاهبهم التى لا تجحد، و استعمالاتهم التى لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرّروا، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، و هذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء و يبرهن على ما هو متنازع فيه. و أما ما كان من الوضوح و الظهور و الجلاء بحيث لا يشكّ فيه شاكّ، و لا يرتاب فيه مرتاب، فهو مستغن عن التطويل، غير محتاج إلى تكثير القال و القيل.

و قد وقع فى القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، و ربما يكثر فى بعض السور كما فى سورة الرّحمن و سورة المرسلات و فى أشعار العرب من هذا ما لا يتأتى عليه الحصر، و من ذلك قول الشاعر «1»:

يا لبكر أنشروا لى كليبايا لبكر أين أين الفرار؟

و قول الآخر:

هلّا سألت جموع كندةيوم ولّوا أين أينا

و قول الآخر:

يا علقمه يا علقمه يا علقمهخير تميم كلّها و أكرمه

و قول الآخر:

ألا يا اسلمى ثمّ اسلمى ثمّت اسلمى ثلاث تحيّات و إن لم تكلّم

---

(۱). هو المهلهل بن ربيعة.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۲۱

و قول الآخر:

يا جعفر يا جعفر يا جعفرإن أكك دحداحا فأنت أقصر

و قول الآخر:

أتاك أتاك اللّاحقون احبس احبس «۱» و قد ثبت عن الصادق المصدوق، و هو أفصح من نطق بلغة العرب، أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات، و إذا عرفت هذا ففائدة ما وقع فى السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم، و إنما عبر سبحانه بما التى لغير العقلاء فى المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك، كما فى قولهم: سبحان ما سخر كنّ لنا، و نحوه، و النكتة فى ذلك أن يجرى الكلام على نمط واحد و لا يختلف. و قيل: إنه أراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل و لا تعبدون الحق. و قيل: إن «ما» فى المواضع الأربعة هى المصدرية لا الموصولة، أى: لا أعبد عبادتكم و لا أنتم عابدون عبادتى ... إلخ، و جملة لَكُمْ دِينُكُمْ مستأنفة لتقرير قوله: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ و قوله: وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ كما أن قوله: وَ لِيَ دِينِ تقرير لقوله: وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ فى الموضعين، أى: إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بدينى، كما فى قوله: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ* «۲» و المعنى: أن دينكم الّذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لى كما تطمعون، و دينى الّذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لا يتجاوزه إلى الحصول لكم. و قيل المعنى: لكم جزاؤكم ولى جزائى؛ لأن الدين الجزاء. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية السيف، و قيل: ليست بمنسوخة؛ لأنها أخبار، و الأخبار لا يدخلها النسخ. قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله: «ولى» قرأ نافع و هشام و حفص و البزى بفتحها. و قرأ الجمهور أيضا بحذف الياء من دينى وقفا و وصلا، و أثبتها نصر بن عاصم و سلام و يعقوب وصلا و وقفا. قالوا لأنها اسم فلا تحذف.

و يجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ و إن كانت اسما.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن ابن عباس: «أن قريشا دعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، و يزوّجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد و كفّ عن شتم آلهتنا، و لا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنّا نعرض عليك خصلة واحدة و لك فيها صلاح، قال: ما هى؟

قالوا: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتينى من ربى، فجاء الوحى من عند اللّه قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ- لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ إلى آخر السورة، و أنزل اللّه: قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ إلى قوله: بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ «۳». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم،

---

(۱). و صدره: فأين إلى أين النّجاة ببغلتى.

(۲). البقرة: ۱۳۹.

(۳). الزمر: ۶۴- ۶۶.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۲۲

و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن سعيد بن مينا مولى البخترى قال: «لقى الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و الأسود بن المطلب و أمية بن خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قالوا: يا محمد هلمّ فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد، و نشترك نحن و أنت فى أمرنا كله، فإن كان الّذى نحن عليه أصحّ من الّذى أنت عليه كنت قد أخذت منه حظا، و إن كان الّذى أنت عليه أصحّ من الّذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظا، فأنزل اللّه: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ إلى آخر السورة». و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس أن قريشا قالت:

لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فأنزل اللّه: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ السورة كلها.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۲۳

سورة النّصر

اشارة

و تسمّى سورة التوديع، هى ثلاث آيات و هى مدنية بلا خلاف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بالمدينة إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و البزار و أبو يعلى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عمر قال: هذه السورة نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أوسط أيام التشريق بمنى، و هو فى حجّة الوداع إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ حتى ختمها فعرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنها الوداع. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: نعيت إلىّ نفسى». و أخرج ابن مردويه عنه قال: «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: نعيت إلىّ نفسى، و قرب إلىّ أجلى». و أخرج النسائى، و عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عنه أيضا قال: لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ نعيت لرسول اللّه نفسه حين أنزلت، فأخذ فى أشدّ ما كان قط اجتهادا فى أمر الآخرة. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أمّ حبيبة قالت: «لما أنزل إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن اللّه لم يبعث نبيا إلا عمر فى أمته شطر ما عمر النبىّ الماضى قبله، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة فى بنى إسرائيل، و هذه لى عشرون سنة، و أنا ميت فى هذه السنة، فبكت فاطمة، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: أنت أوّل أهلى بى لحوقا، فتبسمت». و أخرج البيهقى عن ابن عباس قال «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فاطمة و قال: إنه قد نعيت إلىّ نفسى، فبكت ثم ضحكت، و قالت: أخبرنى أنه نعيت إليه نفسه فبكيت؟ فقال: اصبرى فإنك أوّل أهلى لحاقا بى فضحكت» و قد تقدّم فى تفسير سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النصر (۱۱۰): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (۱) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (۲) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (۳)

النصر: العون: مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها و منع من قحطها، و منه قول الشاعر «۱»:

إذا انصرف الشّهر الحرام فودّعى بلاد تميم و انصرى أرض عامر

(۱). هو الراعی.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۲۴

يقال: نصره على عدوّه ينصره نصرا؛ إذا أعانه، و الاسم: النصرة، و استنصره على عدوّه؛ إذا سأله أن ينصره عليه، قال الواحدی: قال المفسرون: إِذا جاءَ ك يا محمد نَصْرُ اللَّهِ على من عاداك، و هم قريش وَ الْفَتْحُ فتح مكة، و قيل: المراد نصره صلّى اللّه عليه و سلّم على قريش من غير تعيين، و قيل: نصره على من قاتله من الكفار، و قيل: هو فتح سائر البلاد، و قيل: هو ما فتحه اللّه عليه من العلوم، و عبّر عن حصول النصر و الفتح بالمجی‌ء للإيذان بأنهما متوجّهان إليه صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: إذا: بمعنى: قد، و قيل: بمعنى إذ. قال الرازی: الفرق بين النصر و الفتح؛ أن الفتح هو تحصيل المطلوب الّذی كان منغلقا؛ كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر و عطف عليه الفتح؛ أو يقال النصر كمال الدين، و الفتح: إقبال الدنيا الّذی هو تمام النعمة؛ أو يقال: النصر: الظفر، و الفتح: الجنة، هذا معنى كلامه. و يقال: الأمر أوضح من هذا و أظهر؛ فإن النصر: هو التأييد الّذی يكون به قهر الأعداء و غلبهم و الاستعلاء عليهم، و الفتح: هو فتح مساكن الأعداء و دخول منازلهم وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِی دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً أی: أبصرت الناس من العرب و غيرهم يدخلون فی دين اللّه الّذی بعثك به جماعات فوجا بعد فوج. قال الحسن: لما فتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة قال العرب: أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، و قد أجارهم اللّه من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون فی دين اللّه أفواجا، أی: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدا واحدا، و اثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها فی الإسلام. قال عكرمة و مقاتل: أراد بالناس: أهل اليمن، و ذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين. و انتصاب أفواجا على الحال من فاعل يدخلون، و محل قوله «يدخلون فی دين اللّه» النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية، و إن كانت بمعنى العلم فهو فی محل نصب على أنه المفعول الثانی. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ هذا جواب الشرط، و هو العامل فيه، و التقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر اللّه. و قال مكی: العامل فی إذا هو جاء، و رجّحه أبو حيان و ضعف الأوّل بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، و قوله: بِحَمْدِ رَبِّكَ فی محل نصب على الحال، أی: فقل سبحان اللّه متلبسا بحمده، أو حامدا له. و فيه الجمع بين تسبيح اللّه المؤذن بالتعجب مما يسره اللّه له مما لم يكن يخطر بباله و لا بال أحد من الناس، و بين الحمد له على جميل صنعه له و عظيم منته عليه بهذه النعمة التی هی النصر و الفتح لأمّ القرى التی كان أهلها قد بلغوا فی عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة، و الأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون، هو ساحر، هو شاعر، هو كاهن، و نحو ذلك. ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالاستغفار: أی اطلب منه المغفرة لذنبك هضما لنفسك و استقصارا لعملك، و استدراكا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى، و قد كان صلّى اللّه عليه و سلّم يرى قصوره عن القيام بحق اللّه و يكثر من الاستغفار و التضرّع و إن كان قد غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر. و قيل: إن الاستغفار منه صلّى اللّه عليه و سلّم و من سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم اللّه به، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم. و قيل: إنما أمره اللّه سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته و تعريضا بهم، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار. و قيل: إن اللّه سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه. و قيل: المراد بالتسبيح هنا: الصلاة. و الأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سرورا بالنعمة،

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۲۵

و فرحا بما هيأه اللّه من نصر الدين، و كبت أعدائه و نزول الذلة بهم و حصول القهر لهم. قال الحسن: أعلم اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قد اقترب أجله؛ فأمر بالتسبيح و التوبة ليختم له فی آخر عمره بالزيادة فی العمل الصالح، فكان يكثر أن يقول:

«سبحانك اللهم و بحمدك اغفر لى إنك أنت التواب». قال قتادة و مقاتل: و عاش صلّى اللّه عليه و سلّم بعد نزول هذه السورة سنتين، و جملة إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً تعليل لأمره صلّى اللّه عليه و سلّم بالاستغفار، أى: من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم و يرحمهم بقبول توبتهم، و توّاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ فى قبول توبة التائبين. و قد حكى الرازى فى تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلّت على نعى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول اللّه: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فقالوا:

فتح المدائن و القصور، قال: فأنت يا ابن عباس ما تقول؟ قال: قلت مثل ضرب لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم نعيت له نفسه.

و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا و لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلّا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قول اللّه عزّ و جلّ: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد اللّه و نستغفره إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لى: أ كذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أعلمه اللّه له، قال: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فذلك علامة أجلك فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً فقال عمر: لا أعلم منها إلّا ما تقول. و أخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبى بكر أن سورة إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ حين أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نفسه نعيت إليه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن عائشة قالت: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكثر من قول: سبحان اللّه و بحمده، و أستغفره و أتوب إليه، فقلت: يا رسول اللّه أراك تكثر من قول سبحان اللّه و بحمده و أستغفر اللّه و أتوب إليه، فقال: خبرنى ربى أنى سأرى علامة من أمتى، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان اللّه و بحمده، و أستغفر اللّه و أتوب إليه، فقد رأيتها إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فتح مكة وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً- فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً».

و أخرج البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن ماجة و غيرهم عن عائشة قالت: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يكثر أن يقول فى ركوعه و سجوده: سبحانك اللهمّ و بحمدك اللهمّ اغفر لى، يتأوّل القرآن» يعنى إذا جاء نصر اللّه و الفتح، و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: «لما نزلت إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «جاء أهل اليمن هم أرقّ قلوبا، الإيمان يمان، و الفقه يمان، و الحكمة يمانية». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المدينة إذ قال: اللّه أكبر قد جاء نصر اللّه و الفتح، و جاء أهل اليمن، قوم رقيقة قلوبهم، لينة طاعتهم، الإيمان يمان، و الفقه

فتح القدير، ج‏5، ص: 626

يمان، و الحكمة يمانية». و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن الناس دخلوا فى دين اللّه أفواجا و سيخرجون منه أفواجا». و أخرج الحاكم و صحّحه، عن أبى هريرة قال: «تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً قال: ليخرجنّ منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا».

فتح القدير، ج‏5، ص: 627

سورة المسد

اشارة

و هى مكية بلا خلاف. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير و عائشة قالوا: نزلت تَبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ وَ تَبَّ (١) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ (٢) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (٣) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)

معنى تَبَّتْ هلكت. و قال مقاتل: خسرت، و قيل: خابت. و قال عطاء: ضلّت. و قيل:

صفرت من كل خير، و خصّ اليدين بالتباب؛ لأن أكثر العمل يكون بهما. و قيل: المراد باليدين نفسه، و قد يعبّر باليد عن النفس، كما فى قوله: بِما قَدَّمَتْ يَداكَ «١» أى: نفسك، و العرب تعبّر كثيرا ببعض الشىء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، و أصابته يد المنايا، كما فى قول الشاعر:

لمّا أكبّت يد الرّزاياعليه نادى ألا مجير

و أبو لهب اسمه: عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم، و قوله: وَ تَبَ أى: هلك. قال الفراء:

الأوّل دعاء عليه، و الثانى خبر، كما تقول: أهلكه اللّه، و قد هلك. و المعنى: أنه قد وقع ما دعا به عليه. و يؤيده قراءة ابن مسعود: «و قد تبّ». و قيل: كلاهما إخبار، أراد بالأوّل هلاك عمله، و بالثانى هلاك نفسه.

و قيل: كلاهما دعاء عليه، و يكون فى هذا شبه من مجىء العامّ بعد الخاص، و إن كان حقيقة اليدين غير مرادة، و ذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها، و لكون اسمه كما تقدّم عبد العزى، و العزى: اسم صنم، و لكون فى هذه الكنية ما يدلّ على أنه ملابس للنار؛ لأن اللهب هو لهب النار، و إن كان إطلاق ذلك عليه فى الأصل لكونه كان جميلا، و أن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار. قرأ الجمهور: «لهب» بفتح اللام و الهاء. و قرأ مجاهد و حميد و ابن كثير و ابن محيصن بإسكان الهاء، و اتفقوا على فتح الهاء فى قوله: ذاتَ لَهَبٍ و روى صاحب الكشاف أنه قرئ «تبت يدا أبو لهب»، و ذكر وجه ذلك ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ أى: ما دفع عنه ما حلّ به من التباب و ما نزل به من عذاب اللّه ما جمع من المال و لا ما كسب من الأرباح و الجاه؛ أو المراد بقوله: ماله: ما ورثه من أبيه، و بقوله: وَ ما كَسَبَ الّذى كسبه بنفسه. قال مجاهد:

---

(١). الحج: ١٠.

و ما كسب من ولد، و ولد الرجل من كسبه، و يجوز أن تكون «ما» فى قوله: ما أَغْنى استفهامية، أى: أىّ شىء أغنى عنه؟ و كذا يجوز فى قوله: وَ ما كَسَبَ أن تكون استفهامية، أى: و أىّ شىء كسب؟ و يجوز أن تكون مصدرية، أى: و كسبه. و الظاهر أن ما الأولى نافية، و الثانية موصولة. ثم أوعده سبحانه بالنار فقال: سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ قرأ الجمهور: «سيصلى» بفتح الياء و إسكان الصاد و تخفيف اللام، أى: سيصلى هو بنفسه، و قرأ أبو رجاء و أبو حيوة و ابن مقسم و الأشهب العقيلى و أبو السّمّال و الأعمش و محمد بن السّميقع بضم الياء و فتح الصاد و تشديد اللام، و رويت هذه القراءة عن ابن كثير، و المعنى سيصليه اللّه، و معنى ذاتَ لَهَبٍ ذات اشتعال و توقد، و هى نار جهنم وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ معطوف على الضمير فى يصلى، و جاز ذلك للفصل، أى: و تصلى امرأته نارا ذات لهب، و هى أمّ جميل بنت حرب أخت أبى سفيان، و كانت تحمل الغضى و الشوك، فتطرحه

بالليل على طريق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، كذا قال ابن زيد و الضحاك و الربيع بن أنس و مرّة الهمدانى. و قال مجاهد و قتادة و السدى: إنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس. و العرب تقول: فلان يحطب على فلان؛ إذا نمّ به، و منه قول الشاعر:

إنّ بنى الأدرم حمّالو الحطبهم الوشاة فى الرّضا و فى الغضب

عليهم اللّعنة تترى و الحرب و قال آخر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمةو لم تمش بين النّاس بالحطب الرّطب

و جعل الحطب فى هذا البيت رطبا؛ لما فيه من التدخين الّذى هو زيادة فى الشر، و من الموافقة للمشى بالنميمة، و قال سعيد بن جبير: معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا و الذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره، كما فى قوله: وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ «۱» و قيل: المعنى: حمالة الحطب فى النار. قرأ الجمهور: «حمالة» بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لهب حمالة الحطب، و أما على ما قدّمنا من عطف و امرأته على الضمير فى تصلى، فيكون رفع حمالة على النعت لامرأته، و الإضافة حقيقية لأنها بمعنى المضىّ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف: أى هى حمالة. و قرأ عاصم بنصب «حمالة» على الذمّ، أو على أنه حال من امرأته. و قرأ أبو قلابة: «حاملة الحطب» فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ الجملة فى محل نصب على الحال من امرأته، و الجيد: العنق، و المسد: الليف الّذى تفتل منه الحبال، و منه قول النابغة:

مقذوفة بدخيس النّحض بازلهاله صريف صريف القعو بالمسد «۲»

---

(۱). الأنعام: ۳۱.

(۲). «مقذوفة»: مرمية باللحم. «الدخيس»: الّذى قد دخل بعضه فى بعض من كثرته. «النحض»: اللحم. «البازل»: الكبير. «الصريف»: الصيح. «القعو»: ما يضم البكرة إذا كان خشبا.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۲۹

و قول الآخر:

يا مسد الخوص تعوّذ منّىإن كنت لدنا ليّنا فإنّى

و قال أبو عبيدة: المسد: هو الحبل يكون من صوف. و قال الحسن: هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد. و قد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها. قال الضحاك و غيره: هذا فى الدنيا، كانت تعير النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالفقر، و هى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها، فخنقها اللّه به فأهلكها، و هو فى الآخرة حبل من نار. و قال مجاهد و عروة بن الزبير: هو سلسلة من نار تدخل فى فيها و تخرج من أسفلها. و قال قتادة:

هو قلادة من ودع كانت لها. قال الحسن: إنما كان خرزا فى عنقها. و قال سعيد بن المسيب: كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: و اللات و العزّى لأنفقنها فى عداوة محمد، فيكون ذلك عذابا فى جسدها يوم القيامة. و المسد: الفتل، يقال: مسد حبله يمسده مسدا؛ أجاد فتله.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس قال: «لما نزلت: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «۱» خرج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال: أ رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أ كنتم مصدّقى؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد؛ فقال أبو لهب: تبا لك إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ . قال: خسرت. و أخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، و إن ابنه من كسبه، ثم قرأت: ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ قالت: و ما كسب ولده.

و أخرج عبد الرزاق و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كَسَبَ قال: كسبه ولده. و أخرج ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ قال:

كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليعقره و أصحابه، و قال: حَمَّالَةَ الْحَطَبِ نقالة الحديث حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ قال: هى حبال تكون بمكة. و يقال: المسد: العصا التى تكون فى البكرة.

و يقال المسد: قلادة من ودع. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو زرعة عن أسماء بنت أبى بكر قالت «لما نزلت تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب و لها ولولة، و فى يدها فهر «۲»، و هى تقول:

مذمّما أبيناو دينه قلينا

و أمره عصينا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالس فى المسجد و معه أبو بكر، فلما رآه أبو بكر قال: يا رسول اللّه قد أقبلت، و أنا أخاف أن تراك، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إنها لن ترانى و قرأ قرآنا، اعتصم به، كما قال تعالى: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً «۳» فأقبلت حتى وقفت على أبى

---

(۱). الشعراء: ۲۱۴.

(۲). «الفهر»: الحجر.

(۳). الإسراء: ۴۵.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۰

بكر و لم تر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقالت: يا أبا بكر إنى أخبرت أن صاحبك هجانى، قال: لا و ربّ البيت ما هجاك، فولّت و هى تقول: قد علمت قريش أنى ابنة سيدها» و أخرجه البزار بمعناه، و قال: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۱

سورة الإخلاص

اشارة

و هى مكية فى قول ابن مسعود و الحسن و عطاء و عكرمة و جابر، و مدنية فى أحد قولى ابن عباس و قتادة و الضّحّاك و السدى. و أخرج أحمد، و البخارى فى تاريخه، و الترمذى و ابن جرير و ابن خزيمة، و ابن أبى عاصم فى السنة، و البغوى فى معجمه، و ابن المنذر، و أبو الشيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبيّ بن كعب: أن المشركين قالوا للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل اللّه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ- اللَّهُ الصَّمَدُ- لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ. ليس شىء يولد إلا سيموت، و ليس شىء يموت إلا سيورث، و إن اللّه لا يموت و لا يورث وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ قال: لم يكن له شبيه و لا عدل، و ليس كمثله شىء» و رواه الترمذى من طريق أخرى عن أبى العالية مرسلا و لم يذكر أبيّا، ثم قال: و هذا أصحّ. و أخرج أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى عن جابر قال: جاء أعرابيّ إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: انسب لنا ربك، فأنزل اللّه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إلى آخر السورة» و حسّن السيوطى إسناده. و أخرج الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن مسعود قال: قالت قريش لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

انسب لنا ربك. فنزلت هذه السورة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن عدىّ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن

ابن عباس: أن اليهود جاءت إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، منهم كعب بن الأشرف و حيى بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الّذى بعثك، فأنزل اللّه: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ- اللَّهُ الصَّمَدُ- لَمْ يَلِدْ فيخرج منه الولد وَ لَمْ يُولَدْ فيخرج من شىء». و أخرج أبو عبيدة فى فضائله، و أحمد، و النسائى فى اليوم و الليلة، و ابن منيع و محمد بن نصر و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، عن أبىّ بن كعب، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ قل هو اللّه أحد فكأنّما قرأ ثلث القرآن». و أخرج ابن الضريس و البزار، و البيهقى فى الشعب، عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ قل هو اللّه أحد مائتى مرة غفر له ذنب مائتى سنة».

قال البزار: لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبى جعفر و الأغلب بن تميم، و هما يتقاربان فى سوء الحفظ.

و أخرج أحمد و الترمذى و ابن الضريس، و البيهقى فى سننه، عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى أحبّ هذه السورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «حبّك إيّاها أدخلك الجنة».

و أخرج ابن الضريس و أبو يعلى، و ابن الأنبارى فى المصاحف، عن أنس قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثلاث مرّات فى ليلة؟ فإنها تعدل ثلث القرآن» و إسناده ضعيف. و أخرج محمد بن نصر و أبو يعلى عن أنس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خمسين مرّة غفر له ذنوب خمسين سنة» و إسناده ضعيف. و أخرج الترمذى و ابن عدىّ، و البيهقى فى الشعب، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مائتى مرة، كتب اللّه له ألفا و خمسمائة حسنة، و محا عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين» و فى إسناده حاتم بن ميمون ضعّفه البخارى

فتح القدير، ج‏5، ص: 632

و غيره، و لفظ الترمذى: «من قرأ فى يوم مائتى مرة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، محى عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين»، و فى إسناده حاتم بن ميمون المذكور. و أخرج الترمذى و محمد بن نصر و أبو يعلى و ابن عدى و البيهقى عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أراد أن ينام على فراشه من الليل فنام على يمينه، ثم قرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول له الربّ: يا عبدى ادخل على يمينك الجنة» و فى إسناده أيضا حاتم بن ميمون المذكور. قال الترمذى بعد إخراجه: غريب من حديث ثابت. و قد روى من غير هذا الوجه عنه. و أخرج ابن سعد و ابن الضريس و أبو يعلى، و البيهقى فى الدلائل، عن أنس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالشام،- و فى لفظ: بتبوك- فهبط جبريل فقال: «يا محمد إن معاوية ابن معاوية المزنى هلك، أ فتحبّ أن تصلّى عليه؟ قال: نعم، فضرب بجناحه الأرض فتضعضع له كل شىء و لزق بالأرض و رفع سريره فصلّى عليه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: من أىّ شىء أوتى معاوية هذا الفضل، صلى عليه صفان من الملائكة فى كل صف ستة آلاف ملك؟ قال: بقراءة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ كان يقرؤها قائما و قاعدا و جائيا و ذاهبا و نائما»، و فى إسناده العلاء بن محمد الثقفى، و هو متهم بالوضع. و روى عنه من وجه آخر بأطول من هذا، و فى إسناده هذا المتهم. و فى الباب أحاديث فى هذا المعنى و غيره.

و قد روى من غير هذا الوجه أنها تعدل ثلث القرآن، و فيها ما هو صحيح و فيها ما هو حسن؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم، و الترمذى و صححه، و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ثم خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا و إنها تعدل ثلث القرآن». و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

سلّم: «و الّذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» يعنى قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما من حديث أبى سعيد قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأصحابه: «أ يعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة؟ فشقّ ذلك عليهم و قالوا: أينا يطيق ذلك؟ فقال:

اللّه الواحد الصمد ثلث القرآن». و أخرج مسلم و غيره من حديث أبى الدرداء نحوه. و قد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة و حديث ابن مسعود، و حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، و روى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن و بعضها ضعيف، و لو لم يرد فى فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخارى و مسلم و غيرهما: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعث رجلا- فى سرية، فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو اللّه أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال: «سلوه لأىّ شىء يصنع ذلك»؟

فسألوه فقال: لأنها صفة الرّحمن و أنا أحبّ أن أقرأ بها، فقال: «أخبروه أن اللّه تعالى يحبه» هذا لفظ البخارى فى كتاب التوحيد. و أخرج البخارى أيضا فى كتاب الصلاة من حديث أنس قال: «كان رجل من الأنصار يؤمّهم فى مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو اللّه أحد حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، و كان يصنع ذلك فى كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح

فتح القدير، ج‏5، ص: 633

بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها و إما أن تدعها و تقرأ بأخرى، قال:

ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمّكم بذلك فعلت، و إن كرهتم تركتكم، و كانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمّهم غيره، فلما أتاهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك و ما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة»؟ فقال: إنى أحبّها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة» و قد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخارى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإخلاص (112): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (3) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

قوله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ الضمير يجوز أن يكون عائدا إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول، و أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، و اللّه مبتدأ ثان، و أحد خبر المبتدأ الثانى، و الجملة خبر المبتدأ الأوّل، و يجوز أن يكون اللّه بدلا من هو، و الخبر أحد. و يجوز أن يكون اللّه خبرا أوّل، و أحد خبرا ثانيا، و يجوز أن يكون أحد خبرا لمبتدأ محذوف، أى: هو أحد. و يجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم، و الجملة بعده مفسرة له و خبر عنه، و الأوّل أولى. قال الزجاج: هو كناية عن ذكر اللّه، و المعنى: إن سألتم تبيين نسبته هو اللّه أحد، قيل: و همزة أحد بدل من الواو و أصله واحد. و قال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة، و ذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد، و ممّا يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهرى: أنه لا يوصف بالأحدية غير اللّه تعالى، لا يقال: رجل أحد، و لا درهم أحد؛ كما يقال:

رجل واحد و درهم واحد، قيل: و الواحد يدخل فى الأحد و الأحد لا يدخل فيه، فإذا قلت: لا يقاومه واحد؛ جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. و فرّق ثعلب بين واحد و بين أحد بأن الواحد يدخل فى العدد، و أحد لا يدخل فيه.

و ردّ علیه أبو حیان بأنه یقال: أحـد و عشـرون و نحوه فقـد دخله العـدد، و هذا کما تری. و من جملهٔ القائلین بالقلب الخلیل. قرأ الجمهور: «قل هو اللّه أحد» بإثبات قل.

و قرأ عبـد اللّه بن مسـعود و أبیّ: «اللّه أحـد» بـدون قـل. و قرأ الأـعمش «قل هو اللّه الواحـد»، و قرأ الجمهور بتنوین أحـد، و هو الأصل. و قرأ زیـد بن علیّ و أبان بن عثمان و ابن أبی إسـحاق و الحسن و أبو السّـمّال و أبو عمرو فی روایـهٔ عنه بحذف التنوین للخفهٔ؛ کما فی قول الشاعر:

عمرو الّذی هشم الثّرید لقومهو رجال مکّهٔ مسنتون عجاف

و قیـل: إن ترک التنوین لملاقـاته لاـم التعریف، فیکون الترک لأجل الفرار من التقاء الساکنین. و یجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساکنین قد حصل مع التنوین بتحریک الأوّل منهما بالکسر اللَّهُ الصَّمَدُ الاسم الشریف مبتدأ، و الصمد خبره، و الصمد: هو الّذی یصـمد إلیه فی الحاجـات، أی: یقصـد؛ لکونه قادرا علی قضائها، فهو فعل بمعنی مفعول کالقبض بمعنی المقبوض؛ لأنه مصـمود إلیه، أی: مقصود إلیه، قال

فتح القدیر، ج۵، ص: ۶۳۴

الزجاج: الصّمد: السّند الّذی انتهی إلیه السؤدد، فلا سید فوقه. قال الشاعر:

ألا بکّر النّاعی بخیر بنی أسدبعمرو بن مسعود و بالسّیّد الصّمد

و قیل: معنی الصـمد: الـدائم الباقی الّـذی لم یزل و لا یزول. و قیل: معنی الصـمد ما ذکره بعده من أنه الّذی لم یلد و لم یولد. و قیل: هو المستغنی عن کل أحد، و المحتاج إلیه کل أحد. و قیل: هو المقصود فی الرغائب، و المستعان به فی المصائب، و هذان القولاـن یرجعان إلی معنی القول الأوّل. و قیل: هو الّـذی یفعل ما یشاء و یحکم ما یریـد. و قیل: هو الکامل الّـذی لا عیب فیه. و قال الحسن و عکرمـهٔ و الضـحاک و سـعید بن جبیر و سـعید بن المسـیب و مجاهد و عبد اللّه بن بریدهٔ و عطاء و عطیهٔ العوفی و السدی: الصمد: هو المصمت الّذی لا جوف له، و منه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جیادهعوابس یعلکن الشّکیم المصمّدا «۱»

و هـذا لا ینافی القول الأوّل لجواز أن یکون هـذا أصل معنی الصـمد، ثم اسـتعمل فی السـید المصـمود إلیه فی الحوائـج، و لهذا أطبق علی القول الأوّل أهل اللغهٔ و جمهور أهل التفسیر، و منه قول الشاعر:

علوته بحسام ثمّ قلت لهخذها حذیف فأنت السّیّد الصّمد

و قال الزبرقان بن بدر:

سیروا جمیعا بنصف اللّیل و اعتمدواو لا رهینهٔ إلا سیّد صمد

و تکریر الاسم الجلیل للإشـعار بأن من لم یتصف بـذلک فهو بمعزل عن اسـتحقاق الألوهیـهٔ، و حـذف العاطف من هـذه الجملهٔ لأنها کالنتیجـهٔ للجملـهٔ الأولی، و قیل: إن الصـمد صـفهٔ للاسم الشـریف و الخبر هو ما بعـده، و الأوّل أولی؛ لأن السـیاق یقتضـی اسـتقلال کل جملـهٔ لَمْ یَلِدْ وَ لَمْ یُولَدْ أی: لم یصدر عنه ولد، و لم یصدر هو عن شـیء؛ لأنه لا یجانسه شـیء، و لاسـتحالهٔ نسـبهٔ العـدم إلیه سابقا و لا حقا. قال قتادهٔ: إن مشـرکی العرب قالوا: الملائکهٔ بنات اللّه. و قالت الیهود: عزیر ابن اللّه. و قالت النصاری: المسیح ابن اللّه، فأکذبهم اللّه فقال: لَمْ یَلِدْ وَ لَمْ یُولَدْ قال الرازی: قدّم ذکر نفی الولد، مع أن الولد مقدّم للاهتمام، لأجل ما کان یقوله الکفار من المشـرکین: إن الملائکـهٔ بنات اللّه، و الیهود: عزیر ابن اللّه، و النصاری: المسـیح ابن اللّه، و لم یـدّع أحـد أن له والدا، فلهذا السبب بدأ بالأهمّ فقال: لَمْ یَلِدْ ثم أشار إلی الحجّهٔ فقال: وَ لَمْ یُولَدْ کأنه قیل: الدلیل علی امتناع الولد اتفاقنا علی أنه ما کان ولـدا لغیره، و إنما عبّر سـبحانه بما یفیـد انتفاء کونه لم یلد و لم یولد فی الماضـی و لم یذکر ما یفید انتفاء کونه کذلک

فى المستقبل لأنه ورد جوابا عن قولهم:

ولد اللّه كما حكى اللّه عنهم بقوله: أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ- وَلَدَ اللَّهُ «٢» فلما كان المقصود من

---

(١). «علكت الدابة اللجام»: لاكته و حرّكته. «الشكيم»: الحديد المعترضة فى فم الدابة.

(٢). الصافات: ١٥١- ١٥٢.

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦٣٥

هذه الآية تكذيب قولهم، و هم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفى فيما مضى، وردت الآية لدفع قولهم هذا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها؛ لأنه سبحانه إذا كان متّصفا بالصفات المتقدمة كان متّصفا بكونه لم يكافئه أحد، و لا يماثله، و لا يشاركه فى شى‏ء، و أخّر اسم كان لرعاية الفواصل، و قوله:

«له» متعلق بقوله: «كفوا» قدم عليه لرعاية الاهتمام؛ لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته. و قيل: إنه فى محل نصب على الحال، و الأوّل أولى. و قد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر، و هاهنا لم يجعل خبرا مع تقدّمه، و قد ردّ على المبرد بوجهين: أحدهما: أن سيبويه لم يجعل ذلك حتما بل جوّزه. و الثانى: أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبرا و يكون كفوا منتصبا على الحال. و حكى فى الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربيّ الفصيح أن يؤخر الظرف الّذى هو لغو غير مستقرّ، و اقتصر فى هذه الحكاية على نقل أوّل كلام سيبويه و لم ينظر إلى آخره، فإنه قال فى آخر كلامه: و التقديم و التأخير و الإلغاء و الاستقرار عربيّ جيد كثير، انتهى. قرأ الجمهور:

«كفوا» بضم الكاف و الفاء و تسهيل الهمزة، و قرأ الأعرج و سيبويه و نافع فى رواية عنه بإسكان الفاء، و روى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واوا وصلا و وقفا، و قرأ نافع فى رواية عنه «كفأ» بكسر الكاف و فتح الفاء من غير مدّ، و قرأ سليمان بن عليّ بن عبد اللّه بن العباس كذلك مع المدّ، و أنشد قول النابغة:

لا تقذفنّى بركن لا كفاء له و الكف‏ء فى لغة العرب النظير، يقول: هذا كفؤك، أى: نظيرك، و الاسم الكفاءة بالفتح.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و المحاملى فى أماليه، و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، عن بريدة، لا أعلمه إلا رفعه. قال: الصَّمَدُ: الّذى لا جوف له، و لا يصحّ رفع هذا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: الصَّمَدُ: الّذى لا جوف له، و فى لفظ: ليس له أحشاء.

و أخرج ابن أبى عاصم و ابن جرير و ابن المنذر، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن المنذر عنه قال: الصَّمَدُ: الّذى لا يطعم، و هو المصمت. و قال: أو ما سمعت النائحة و هى تقول:

لقد بكّر النّاعى بخير بنى أسدبعمرو بن مسعود و بالسّيّد الصّمد

و كان لا يطعم عند القتال، و قد روى عنه أن الّذى يصمد إليه فى الحوائج، و أنه أنشد البيت، و استدلّ به على هذا المعنى، و هو أظهر فى المدح و أدخل فى الشرف، و ليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: الصَّمَدُ: السيد الّذى قد كمل فى سؤدده، و الشريف الّذى قد كمل فى شرفه، و العظيم الّذى قد كمل فى عظمته، و الحليم الّذى قد كمل فى حلمه، و الغنيّ الّذى قد كمل فى غناه، و الجبار الّذى قد كمل فى جبروته، و العالم الّذى قد كمل فى علمه، و الحكيم الّذى قد كمل فى حكمته، و هو الّذى قد كمل فى أنواع الشرف و السؤدد، و هو اللّه سبحانه هذه صفة لا تنبغى إلا

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۶

له ليس له كفو و ليس كمثله شيء. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن ابن مسعود قال: الصَّمَدُ: هو السيد الّذى قد انتهى سؤدده فلا شيء أسود منه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ فى العظمة، عن ابن عباس قال: الصَّمَدُ: الّذى تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء. و أخرج ابن جرير من طرق عنه فى قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ قال: ليس له كفو و لا مثل.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۷

سورة الفلق

اشارة

و هى مكية فى قول الحسن و عكرمة و عطاء و جابر، و مدنية فى أحد قولى ابن عباس و قتادة، و أخرج أحمد و البزار و الطبرانى و ابن مردويه من طرق- قال السيوطى: صحيح- عن ابن مسعود أنه كان يحكّ المعوّذتين فى المصحف يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب اللّه، إنما أمر النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أن يتعوّذ بهما، و كان ابن مسعود لا يقرأ بهما. قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة. و قد صحّ عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قرأ بهما فى الصلاة و أثبتتا فى المصحف. و أخرج أحمد و البخارى و النسائى و غيرهم عن زرّ بن حبيش قال: «أتيت المدينة فلقيت أبىّ بن كعب، فقلت له: أبا المنذر إنى رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوّذتين فى مصحفه، فقال: أما و الّذى بعث محمدا بالحقّ لقد سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عنهما و ما سألنى عنهما أحد منذ سألته غيرك، قال: «قيل لى: قل، فقلت: فقولوا» فنحن نقول كما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم». و أخرج الطبرانى عن ابن مسعود «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سئل عن هاتين السورتين، فقال: «قيل لى، فقلت فقولوا كما قلت».

و أخرج مسلم و الترمذى و النسائى و غيرهم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنزلت علىّ الليلة آيات لم أر مثلهنّ قطّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . و أخرج ابن الضريس و ابن الأنبارى، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول اللّه:

أقرئنى سورة يوسف و سورة هود، قال: «يا عقبة اقرأ بقل أعوذ برب الفلق، فإنك لن تقرأ سورة أحبّ إلى اللّه و أبلغ منها، فإذا استطعت أن لا تفوتك فافعل». و أخرج ابن سعد و النسائى و البغوى و البيهقى عن أبى حابس الجهنى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يا أبا حابس أخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوّذون؟ قال بلى يا رسول اللّه، قال: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هما المعوّذتان».

و أخرج الترمذى و حسّنه، و ابن مردويه و البيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يتعوّذ من عين الجانّ و من عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوّذتين أخذ بهما و ترك ما سوى ذلك». و أخرج أبو داود و النسائى، و الحاكم و صحّحه، عن ابن مسعود: «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يكره عشر خصال، و منها أنه كان يكره الرقى إلا بالمعوّذتين». و أخرج ابن مردويه عن أمّ سلمة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أحب السور إلى اللّه قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . و أخرج النسائى و ابن الضريس، و ابن حبان فى صحيحه، و ابن الأنبارى و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: «أخذ بمنكبى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ بأبى أنت و أمى؟ قال: قل أعوذ

بربّ الفلق، ثم قال اقرأ، قلت: بأبى أنت و أمى ما أقرأ؟ قال: قل أعوذ بربّ الناس، و لم تقرأ بمثلهما». و أخرج مالك فى الموطأ، عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوّذتين و ينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه و أمسح بيده عليه رجاء بركتهما». و أخرجه البخارى و مسلم فى

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۳۸

صحيحيهما، من طريق مالك بالإسناد المذكور. و أخرج عبد بن حميد فى مسنده، عن زيد بن أرقم قال:

«سحر النبىّ رجل من اليهود، فاشتكى، فأتاه جبريل، فنزل عليه بالمعوّذتين، و قال: إن رجلا من اليهود سحرك، و السحر فى بئر فلان، فأرسل عليا، فجاء به، فأمره أن يحلّ العقد، و يقرأ آية و يحلّ، حتى قام النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كأنما نشط من عقال». و أخرجه ابن مردويه و البيهقى من حديث عائشة مطوّلا، و كذلك أخرجه من حديث ابن عباس.

و قد ورد فى فضل المعوّذتين، و فى قراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لهما فى الصلاة و غيرهما أحاديث، و فيما ذكرناه كفاية. و أخرج الطبرانى فى الصغير، عن علىّ بن أبى طالب قال: «لدغت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عقرب و هو يصلى، فلما فرغ قال: لعن اللّه العقرب لا تدع مصلّيا و لا غيره، ثم دعا بماء و ملح و جعل يمسح عليها و يقرأ:

قل يا أيها الكافرون، و قل هو اللّه أحد، و قل أعوذ بربّ الفلق، و قل أعوذ برب الناس».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ۵]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (٢) وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (٣) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (۴)

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (۵)

الْفَلَقِ الصبح، يقال: هو أبين من فلق الصبح، و سمّى فلقا لأنه يفلق عنه الليل، و هو فعل بمعنى مفعول، قال الزجاج: لأن الليل ينفلق عنه الصبح، و يكون بمعنى مفعول، يقال: هو أبين من فلق الصبح، و من فرق الصبح، و هذا قول جمهور المفسرين، و منه قول ذى الرّمة:

حتّى إذا ما انجلى عن وجهه فلقهاديه «١» فى أخريات اللّيل منتصب

و قول الآخر:

يا ليلة لم أنمها بتّ مرتفقا «٢»أرعى النّجوم إلى أن نوّر الفلق

و قيل: هو سجن فى جهنم، و قيل: هو اسم من أسماء جهنم، و قيل: شجرة فى النار، و قيل: هو الجبال و الصخور، لأنها تفلق بالمياه، أى: تشقق، و قيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشقّ من خوف اللّه. قال النحاس: يقال لكل ما اطمأنّ من الأرض فلق، و منه قول زهير:

ما زلت أرمقهم حتّى إذا هبطتأيدى الرّكاب بهم من راكس فلقا

و الركس: بطن الوادى، و مثله قول النابغة:

---

(١). «هاديه»: أى أوله.

(٢). «مرتفقا»: أى متكئا على مرفق يده.

فتح القدير، ج‏5، ص: 639 أتـانى و دونى راكس فالضّواجع «1» و قيـل: هو الرحم تنفلق بـالحيوان، و قيـل: هو كلّ ما انفلق عن جميع مـا خلق اللّه من الحيوان و الصـبح و الحبّ و النوى، و كـلّ شـىء من نبات و غيره، قاله الحسن و الضـحاك. قال القرطبى: هذا القول يشـهد له الانشـقاق، فإن الفلق: الشقّ، فلقت الشىء فلقا: شققته، و التفليق مثله، يقال: فلقته فانفلق و تفلق، فكلّ ما انفلق عن شىء من حيوان و صبح و حبّ و نوى و ماء فهو فلق. قال اللّه سبحانه: فالِقُ الْإِصْباحِ «2» و قال: فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى «3» انتهى. و القول الأوّل أولى لأن المعنى و إن كان أعمّ منه و أوسع مما تضـمّنه لكنه المتبادر عنـد الإطلاق. و قـد قيل فى وجه تخصـيص الفلق: الإيماء إلى أن القادر على إزالـة هـذه الظلمات الشديـدة عن كلّ هـذا العالم يقدر أيضا أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه و يخشـاه، و قيـل: طلوع الصـبح كالمثـال لمجىء الفرح؛ فكمـا أن الإنسان فى الليل يكون منتظرا لطلوع الصـباح، كـذلك الخائف يكون مترقبا لطلوع صـباح النجاح، و قيل: غير هـذا مما هو مجرّد بيان مناسـبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسـير مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ متعلق بأعوذ، أى: من شـرّ كلّ ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته فيعمّ جميع الشرور، و قيل: هو إبليس و ذريّته، و قيل: جهنم، و لا وجه لهـذا التخصـيص، كما أنه لا وجه لتخصـيص من خصّـص هـذا العموم بالمضارّ البدنية. و قد حرّف بعض المتعصّبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه و تقويما لباطله، فقرؤوا بتنوين شرّ على أن «ما» نافية، و المعنى: من شرّ لم يخلقه، و منهم عمرو بن عبيد و عمرو بن عائذ وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ الغاسق: الليل، و الغسق: الظلمة، يقال: غسق الليل يغسق؛ إذا أظلم. قال الفراء:

يقال: غسق الليل و أغسق؛ إذا أظلم، و منه قول قيس بن الرقيات:

إنّ هذا اللّيل قد غسقاو اشتكيت الهمّ و الأرقا

و قال الزجاج: قيل لليل: غاسق؛ لأنه أبرد من النهار، و الغاسق، البارد، و الغسق: البرد، و لأن فى الليل تخرج السـباع من آجامها، و الهوامّ من أماكنها، و ينبعث أهل الشـرّ على العيث و الفساد، كـذا قال، و هو قول بارد، فإن أهل اللغـة على خلافه، و كذا جمهور المفسرين. و وقبه: دخول ظلامه، و منه قول الشاعر:

وقب العذاب عليهم فكأنّهملحقتهم نار السّموم فأحصدوا

أى: دخـل العـذاب عليهم، و يقـال: وقبت الشـمس؛ إذا غـابت، و قيـل: الغاسق: الثريا، و ذلك أنها إذا سـقطت كثرت الأسـقام و الطواعين، و إذا طلعت ارتفع ذلـك، و به قـال ابن زيـد. و هـذا محتـاج إلى نقـل عن العرب أنهم يصـفون الثريـا بالغسوق. و قال الزهرى: هو الشـمس إذا غربت، و كـأنه لاحـظ معنى الوقوب و لم يلاحـظ معنى الغسوق، و قيل: هو القمر إذا خسف، و قيل: إذا غاب. و بهـذا قال قتادة و غيره، و اسـتدلوا بحديث أخرجه أحمد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر، و أبو الشـيخ فى العظمة، و الحاكم و صحّحه، و ابن

---

(1). و صدر البيت: وعيد أبى قابوس فى غير كنهه.

(2). الأنعام: 96.

(3). الأنعام: 95.

فتح القدير، ج‏5، ص: 640

مردويه عن عائشة قالت: «نظر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يوما إلى القمر لما طلع فقال: يا عائشة استعيذى باللّه من شرّ هذا، فإن هـذا هو الغاسق إذا وقب». قال الترمـذى: بعـد إخراجه حسن صـحيح، و هـذا لا ينافى قول الجمهور، لأن القمر آية الليل و لا يوجد له سلطان إلا فيه، و هكذا يقال فى جواب من قال: إنه الثريا.

قال ابن الأعرابى: فى تأويل هـذا الحـديث: و ذلك أن أهل الريب يتحينون و جبـة القمر. و قيل: الغاسق: الحيـة إذا لدغت. و قيل

الغاسق: كلّ هاجم يضرّ كائنا من كان، من قولهم غسقت القرحة؛ إذا جرى صديدها.
و قيل: الغاسق: هو السائل، و قد عرّفناك أن الراجح فی تفسیر هذه الآیة هو ما قاله أهل القول الأوّل، و وجه تخصیصه أن الشرّ فیه أكثر، و التحرز من الشرور فیه أصعب، و منه قولهم: اللیل أخفی للویل وَ مِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ فِی الْعُقَدِ النفاثات: هنّ السواحر، أی: و من شر النفوس النفاثات، أو النساء النفاثات، و النفث: النفخ كما یفعل ذلک من یرقی و یسحر، قیل: مع ریق، و قیل: بدون ریق، و العقد: جمع عقدة، و ذلک أنهنّ كن ینفثن فی عقد الخیوط حین یسحرن بها، و منه قول عنترة:
فإن یبرأ فلم أنفث علیهو إن یفقد فحقّ له الفقود
و قول متمّم بن نویرة:
نفثت فی الخیط شبیه الرّقیمن خشیة الجنّة و الحاسد
قال أبو عبیدة: النفاثات هنّ بنات لبید الأعصم الیهودی، سحرن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم. قرأ الجمهور:
النَّفّاثاتِ جمع: نفاثة؛ علی المبالغة. و قرأ یعقوب و عبد الرّحمن بن سابط و عیسی بن عمر النَّفّاثاتِ جمع: نافثة. و قرأ الحسن النُّفّاثاتِ بضم النون. و قرأ أبو الربیع النفثات بدون ألف. وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ الحسد: تمنی زوال النعمة التی أنعم اللّه بها علی إیقاع الشرّ بالمحسود.
قال عمر بن عبد العزیز: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد. و قد نظم الشاعر هذا المعنی فقال:
قل للحسود إذا تنفّس طعنةیا ظالما و كأنّه مظلوم
ذكر اللّه سبحانه فی هذه السورة إرشاد رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم إلی الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته علی العموم، ثم ذكر بعض الشرور علی الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزیادة شرّه و مزید ضرّه، و هو الغاسق و النفاثات و الحاسد، فكأن هؤلاء لما فیهم من مزید الشرّ حقیقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر.
و قد أخرج ابن مردویه عن عمرو بن عبسة قال: «صلی بنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقرأ: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ فقال: یا ابن عبسة أ تدری ما الفلق؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: بئر فی جهنم». و أخرجه ابن أبی حاتم من قول عمرو بن عبسة غیر مرفوع.
و أخرج ابن مردویه عن عقبة بن عامر قال: قال لی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «اقرأ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ هل تدری ما الفلق؟ باب فی النار إذا فتح سعرت جهنم».
و أخرج ابن مردویه و الدیلمی عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال: «سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عن قول اللّه

عزّ و جلّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ فقال: هو سجن فی جهنم، یحبس فیه الجبارون و المتكبرون، و إن جهنّم لتتعوّذ باللّه منه». و أخرج ابن جریر عن أبی هریرة عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: «الفلق جبّ فی جهنم».
و هذه الأحادیث لو كانت صحیحة ثابتة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لكان المصیر إلیها واجبا، و القول بها متعینا.
و أخرج ابن جریر عن ابن عباس قال: الفلق سجن فی جهنم. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن جابر بن عبد اللّه قال: الفلق: الصبح. و أخرج ابن جریر عن ابن عباس مثله. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عنه قال: الفلق: الخلق. و أخرج ابن جریر و أبو الشیخ و ابن مردویه عن أبی هریرة عن النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم فی قوله: وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ قال: النجم: هو الغاسق، و هو الثریا. و أخرجه ابن جریر و ابن أبی حاتم، و من وجه آخر عنه غیر مرفوع. و قد قدّمنا تأویل هذا، و تأویل ما ورد أن الغاسق القمر. و أخرج أبو الشیخ عنه أیضا قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «إذا ارتفعت النجوم رفعت كلّ عاهة عن كلّ بلد». و هذا لو صحّ لم یكن فیه دلیل علی أن الغاسق هو النجم أو النجوم. و أخرج ابن جریر و ابن

المنذر عن ابن عباس وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ قال: الليل إذا أقبل. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ قال: الساحرات. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: هو ما خالط السحر من الرقى. و أخرج النسائى و ابن مردويه عن أبى هريرة أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، و من سحر فقد أشرك، و من تعلّق شيئا و كل إليه». و أخرج ابن سعد و ابن ماجة و الحاكم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: «جاء النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يعودنى فقال: ألا أرقيك برقية رقانى بها جبريل؟ فقلت:

بلى بأبى أنت و أمى، قال: بسم اللّه أرقيك و اللّه يشفيك من كل داء فيك» مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ- وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ فرقى بها ثلاث مرات». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ قال: نفس ابن آدم و عينه.

فتح القدير، ج‌۵، ص: ۶۴۲

سورة النّاس

اشارة

و الخلاف فى كونها مكية أو مدنية كالخلاف الّذى تقدّم فى سورة الفلق. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزل بمكة قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ و أخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزل بالمدينة قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ و قد قدّمنا فى سورة الفلق ما ورد فى سبب نزول هذه السورة، و ما ورد فى فضلها، فارجع إليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الناس (۱۱۴): الآيات ۱ الى ۶]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (۱) مَلِكِ النَّاسِ (۲) إِلهِ النَّاسِ (۳) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (۴)

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (۵) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (۶)

قرأ الجمهور: قُلْ أَعُوذُ بالهمزة. و قرئ بحذفها و نقل حركتها إلى اللام، و قرأ الجمهور بترك الإمالة فى الناس، و قرأ الكسائى بالإمالة. و معنى ربّ الناس: مالك أمرهم و مصلح أحوالهم، و إنما قال ربّ الناس مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم، و لكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس فى صدورهم، و قوله: مَلِكِ النَّاسِ عطف بيان جى‌ء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم ممن مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل، و السلطان القاهر إِلهِ النَّاسِ هو أيضا عطف بيان كالذى قبله؛ لبيان أن ربوبيته و ملكه قد انضمّ إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية، المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى بالاتحاد و الإعدام، و أيضا الربّ قد يكون ملكا، و قد لا يكون ملكا، كما يقال ربّ الدار و ربّ المتاع، و منه قوله: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ «۱» فبين أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلها، و قد لا يكون، فبين أنه إله؛ لأن اسم الإله خاصّ به لا يشاركه فيه أحد، و أيضا بدأ باسم الربّ و هو اسم لمن قام بتدبيره و إصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلا كاملا، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس. ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه، و أنه عبد مخلوق و أن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس، و كرّر لفظ الناس فى الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار، و لأن التكرير يقتضى مزيد شرف الناس مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ قال الفرّاء: هو بفتح الواو بمعنى الاسم، أى:

الموسوس، و بكسرها المصدر، أى: الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، و قيل: هو بالفتح اسم بمعنى

---

(۱). التوبة: ۳۱.

فتح القدير، ج۵، ص: ۶۴۳

الوسوسة، و الوسوسة: هى حديث النفس: يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة، أى: حدّثته حديثا، و أصلها، الصوت الخفىّ، و منه قيل: لأصوات الحلى وسواس، و منه قول الأعشى:

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت «۱» قال الزجّاج: الوسواس هو الشيطان، أى: ذى الوسواس، و يقال: إن الوسواس ابن لإبليس، و قد سبق تحقيق معنى الوسوسة فى تفسير قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ «۲» و معنى الْخَنَّاسِ كثير الخنس، و هو التأخر، يقال: خنس يخنس؛ إذا تأخر، و منه قول أبى العلاء الحضرمىّ يمدح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

فإن دحسوا بالشّرّ فاعف تكرّماو إن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد: إذا ذكر اللّه خنس و انقبض، و إذا لم يذكر انبسط على القلب. و وصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء، و منه قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ «۳» يعنى النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدّم، و قيل: الخناس اسم لابن إبليس كما تقدّم فى الوسواس الَّذِی يُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النَّاسِ الموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للوسواس، و يجوز أن يكون منصوبا على الذم، و يجوز أن يكون مرفوعا على تقدير مبتدأ. و قد تقدّم معنى الوسوسة. قال قتادة: إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر اللّه وسوس له، و إذا ذكر العبد ربّه خنس. قال مقاتل: إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه، سلّطه اللّه على ذلك، و وسوسته: هى الدعاء إلى طاعته بكلام خفىّ يصل إلى القلب من غير سماع صوت.

ثم بيّن سبحانه الّذى يوسوس بأنه ضربان: جنى و إنسى، فقال: مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس، و أما شيطان الإنس فوسوسته فى صدور الناس: أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع فى الصدر من كلامه الّذى أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه:

شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ «۴» و يجوز أن يكون متعلقا ب «يوسوس» أى يوسوس فى صدورهم من جهة الجنة و من جهة الناس، و يجوز أن يكون بيانا للناس. قال الرازى و قال قوم: من الجنة و الناس قسمان مندرجان تحت قوله: فِی صُدُورِ النَّاسِ لأن القدر المشترك بين الجنّ و الإنس يسمّى إنسانا، و الإنسان أيضا يسمّى إنسانا، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس و النوع بالاشتراك. و الدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس و الجنّ ما روى أنه جاء نفر من الجنّ، فقيل لهم: من أنتم؟ قالوا: ناس من الجنّ. و أيضا قد سمّاهم اللّه رجالا فى قوله: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ «۵» و قيل: يجوز أن يكون المراد أعوذ بربّ الناس من الوسواس الخناس؛ الّذى يوسوس فى صدور الناس، و من الجنة و الناس،

---

(۱). و عجز البيت: كما استعان بريح عشرق زجل. و العشرق: نبت له ورق فإذا يبس طار. و نبت زجل: صوّتت فيه الريح.

(۲). الأعراف: ۲۰.

(۳). التكوير: ۱۵.

(۴). الأنعام: ۱۱۲.

(۵). الجن: ۶.

كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة و الناس، و قيل: المراد بالناس الناسى و سقطت الياء كسقوطها فى قوله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ «١» ثم بيّن بالجنة و الناس؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين فى الغالب مبتلى بالنسيان، و أحسن من هذا أن يكون قوله: وَ النَّاسِ معطوفا على الوسواس، أى: من شرّ الوسواس و من شرّ الناس؛ كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ و الإنس. قال الحسن: أما شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس، و أما شيطان الإنس فيأتى علانية. و قال قتادة: إن من الجنّ شياطين، و إن من الإنس شياطين، فنعوذ باللّه من شياطين الجنّ و الإنس، و قيل: إن إبليس يوسوس فى صدور الجنّ كما يوسوس فى صدور الإنس، و واحد الجنة: جنّى، كما أن واحد الإنس إنسىّ. و القول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال، و إن كان وسوسة الإنس فى صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الّذى قدّمنا، و يكون هذا البيان تذكير الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ باللّه منهما ارتفعت عنه محن الدنيا و الآخرة.

و قد أخرج ابن أبى داود عن ابن عباس فى قوله: الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ قال: مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه، فإن ذكر اللّه خنس، و إن سكت عاد إليه، فهو الوسواس الخناس.

و أخرج ابن أبى الدنيا فى مكائد الشيطان، و أبو يعلى و ابن شاهين، و البيهقى فى الشعب، عن أنس عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر اللّه خنس، و إن نسيه التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ قال: الشيطان جاث على قلب ابن آدم، فإذا سها و غفل وسوس، و إذا ذكر اللّه خنس. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و الضياء فى المختارة، و البيهقى عنه قال: ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس، فإذا ذكر اللّه خنس، و إذا غفل وسوس، فذلك قوله:

الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ و قد ورد فى معنى هذا غيره، و ظاهره أن مطلق ذكر اللّه يطرد الشيطان، و إن لم يكن على طريق الاستعاذة، و لذكر اللّه سبحانه فوائد جليلة؛ حاصلها: الفوز بخيرى الدنيا و الآخرة.

و إلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن على بن محمد الشوكانى، غفر اللّه له ذنوبه، و كان الفراغ منه فى ضحوة يوم السبت؛ لعله الثامن و العشرون من شهر رجب، أحد شهور سنة تسع و عشرين بعد مائتين و ألف سنة من الهجرة النبوية.

اللهمّ كما مننت علىّ بإكمال هذا التفسير، و أعنتنى على تحصيله، و تفضّلت علىّ بالفراغ منه، فامنن علىّ بقبوله، و اجعله لى ذخيرة عندك، و أجزل لى المثوبة بما لاقيته من التعب و النصب فى تحريره و تقريره، و انفع به من شئت من عبادك ليدوم لى الانتفاع به بعد موتى، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف، و اجعله

---

(١). القمر: ٦.

خالصا لك، و تجاوز عنى إذا خطر لى من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص، و اغفر لى ما لا يطابق مرادك، فإنى لم أقصد فى جميع أبحاثى فيه إلا إصابة الحق و موافقة ما ترضاه، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيئات، و مسبل ذيل الستر على الهفوات، يا بارئ البريات، و أحمدك لا أحصى حمدا لك، و أشكرك لا أحصى شكرك، أنت كما أثنيت على نفسك، و أصلى و أسلم على رسولك.

تمّ سماعا على مؤلفه، حفظ اللّه عزّته يوم الاثنين؛ صبح اليوم الخامس من شهر ربيع الأوّل سنة (١٢٤١) ه.

كتبه يحيى بن على الشوكانى غفر اللّه لهما

فتح القدير، ج‏٥، ص: ٦٤٧

فهرس الموضوعات

الجزء السادس

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين، حمدا يوافى نعمه، و يكافئ مزيده. يا ربنا لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك و عظيم سلطانك. سبحانك لا نحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

و الصّلاة و السلام الأتمّان الأكملان على سيّدنا محمد، خاتم الأنبياء و إمام المرسلين، و على آله و صحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فقد رأينا- بتوفيق اللّه تعالى- أن نضع فهارس علمية لكتاب «فتح القدير» للإمام الشوكانى- رحمه اللّه- تفتح آفاقا رحبة أمام الدّارسين، و تيسّر تناول الكتاب لشداة العلم و طلّاب المعرفة، من جميع جوانبه، و بخاصة طلّاب المعاهد الشرعية و الدراسات

الجامعية العليا؛ بحيث تجعل هذا الكتاب سهل التّناول، قريب المأخذ، فهو مفتاح دلالة لمن رام شيئا من كنوزه و لآلئه.

و قد تمحورت هذه الفهارس على ستّة محاور هى:

أولا- الأحاديث النبوية

: و ذلك لمعرفة مكان كلّ حديث، من خلال معرفة طرفه، و كانت الفهرسة ألفبائية لكلّ حديث وارد فى التفسير، حسب نقل المؤلّف له، أو لجزء منه، مع ذكر اسم الراوى إن وجد.

ثانيا- الآثار المروية

: و قد أفردناها فى فهرس مستقل، وفق الخطّة التى تقدّمت فى فهرس الأحاديث النبوية.

ثالثا- الشعر

: و قد فهرسنا الأبيات حسب الروى ألفبائيا، مع ذكر اسم الشاعر إن وجد. و أفردنا فهرسا آخر لأنصاف الأبيات.

رابعا- القراءات القرآنية

: و كانت فهرستها وفق ورودها فى كلّ سورة، مبتدئين بسورة الفاتحة، منتهين بسورة الناس. فكنّا نذكر رقم الآية، ثم موضع الشاهد، مع تحديد الجزء و الصفحة.

خامسا- المفردات اللغوية

: و هذا الفهرس جدير بالاهتمام و التدوين؛ و ذلك لما يحمله من دلالات للمعانى القرآنية الواردة، متّبعين خطّة فهرسة القراءات القرآنية.

سادسا- الموضوعات العامة

: و هى بمثابة كشّاف تحليلى تفصيلى لكلّ ما ورد فى هذا التفسير، من رؤوس

المسائل و الأحكام الفقهية، فصّلناها على أكثر من عشرين عنوانا رئيسيا، و تحت كل عنوان تفريعات مسهبة تغنى و تفيد. فمن أراد موضوعا ما، ما عليه إلا النّظر فى هذا الفهرس، فيجد ما تكلّم عليه الإمام الشوكانى فى كامل تفسيره، فيحصل على مراده بيسر و سهولة. و هذا الفهرس له أهمية بالغة للدارسين و الباحثين.

هذا، و اللّه نسأل أن نكون قد وفّقنا فى تنظيم هذه الفهارس، و تبويبها، مع الاستقصاء و الشمول.

و الحمد للّه الذى بنعمته تتمّ الصّالحات.

دمشق الشام فى: ۸/ ۲/ ۱۴۱۴ ه مكتب التحقيق العلمى ۲۷/ ۷/ ۱۹۹۳ م فى دار ابن كثير و دار الكلم الطّيّب

(أ) فهرس الأحاديث النبوية

اشارة

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۱

حرف الألف

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۳

آخر أربعاء فی الشهر یوم نحس/ ابن عباس/ ۵/ ۱۵۴ آمرک و إیّاها أن تستکثرا من قول/ ابن عباس/ ۵/ ۲۹۱ الآن نغزوهم و لا یغزونا/ سلیمان بن صرد/ ۴/ ۳۱۵ أ أنت فتشت عن قلبه// ۱/ ۱۱۲ أبو حذافهٔ/ ابن عباس/ ۲/ ۹۴ أبو و أبو عائشهٔ و الیا الناس بعدی/ علیّ و ابن عباس/ ۵/ ۳۰۱ أتانی جبریل فأمرنی أن أضع هذه الآیهٔ/ أبو العاص/ ۳/ ۲۲۷ أتانی جبریل فقال إن ربک/ أبو سعید/ ۵/ ۵۶۵ أتانی جبریل لدلوک الشمس حین زالت/ عقبهٔ بن عمرو/ ۳/ ۳۰۳ أتانی اللیلهٔ ربی فی أحسن صورهٔ// ۴/ ۵۲۹ أ تحب أن أعلمک سورهٔ/ أبیّ بن کعب/ ۱/ ۱۸ أ تحب علیّا/ ابن عباس/ ۱/ ۳۱۰ أتخوف علی أمتی الشرک و الشهوهٔ الخفیهٔ/ شداد بن أوس/ ۳/ ۳۷۷ أ تدری ما ذاک؟/ أسید بن حضیر/ ۱/ ۳۳ أ تدری ما یوم الجمعهٔ/ سلمان/ ۵/ ۲۷۲ أ تدرون ما أخبارها/ أبو هریرهٔ/ ۵/ ۵۸۵ أ تدرون ما الغیبهٔ/ أبو هریرهٔ/ ۵/ ۷۶ أ تدرون ما کان لقمان/ أبو هریرهٔ/ ۴/ ۲۷۶ أ تدرون من السابقون/ عائشهٔ/ ۵/ ۱۸۲ أ تردین علیه حدیقتک التی أصدقک/ ابن عباس/ ۱/ ۲۷۶ أ تری بما أقول بأسا/ عائشهٔ/ ۵/ ۴۶۷ أ تقعد قعدهٔ المغضوب علیهم/ الشرید/ ۱/ ۳۰ أتی رجل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فقال أقرئنی/ ابن عمرو/ ۵/ ۵۸۲ أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم بر من العراق/ سیّار أبو الحکم/ ۳/ ۲۶۸ أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم محمود بن سیحان و نعیمان بن أحیّ/ ابن عباس/ ۳/ ۳۰۸ أتی قوم النبی صلّی اللّه علیه و سلم فقالوا/ ابن عباس/ ۴/ ۵۷ أتی النبی صلّی اللّه علیه و سلم سائل فأمر له بتمرهٔ/ أنس/ ۳/ ۱۱۸ أتی الیهود النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم فقال/ زید بن ثابت/ ۳/ ۱۴۳ أتیت النبی صلّی اللّه علیه و سلم فأکلت معه/ عبد اللّه بن سرجس/ ۵/ ۴۴ أتیت النبی صلّی اللّه علیه و سلم فقلت یا رسول اللّه/ فروهٔ بن مسیک/ ۴/ ۳۷۱

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۴

أتیت النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم لنبایعه/ أمیمهٔ/ ۵/ ۲۵۹ أتیت النبیّ صلّی اللّه علیه و سلم من الیمامهٔ/ زرعهٔ بن خلیفهٔ/ ۵/ ۵۶۶ أجب عنی اللهم أیده بروح القدس/ أبو هریرهٔ/ ۳/ ۱۴۳ أحب عباد اللّه إلی اللّه الذین یراعون الشمس/ أبو هریرهٔ/ ۲/ ۱۶۶ أحب الکلام إلی اللّه ما اصطفاه لملائکهٔ/ أبو ذر/ ۱/ ۷۹۶ أحد أبوی بلقیس کان جنیّا/ أبو هریرهٔ/ ۴/ ۱۵۷ أحل لکم میتتان و دمان// ۲/ ۹۱ أحل لنا میتتان و دمان// ۲/ ۱۱ و ۱/ ۱۹۵ أخذ بمنکبی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم ثم قال/ جابر/ ۵/ ۶۳۶ أخذ اللّه منی المیثاق/ أبو مریم الغسانی/ ۴/ ۳۰۸ أخذ النبی صلّی اللّه علیه و سلم بیدی فقال خلق اللّه التربهٔ یوم السبت/ أبو هریرهٔ/ ۱/ ۷۳ أخبرنی بهن جبریل آنفا/ أنس/ ۱/ ۱۲۷ أخرجوا إلی اثنی عشر منکم/ عبد اللّه بن أبی بکر/ ۵/ ۲۶۶ أخبرونی عن شجرهٔ کالرجل المسلم/ ابن عمر/ ۳/ ۱۲۹ أخر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم صلاهٔ العشاء لیلهٔ/ ابن مسعود/ ۱/ ۴۳۰ أدّ الأمانهٔ إلی من ائتمنک/ أبو هریرهٔ/ ۱/ ۵۵۵ أدّ الأمانهٔ إلی من ائتمنک و لا تخن من خانک// ۱/ ۲۲۱ أذکر کم اللّه فی أهل بیتی/ زید بن أرقم/ ۴/ ۳۲۲ أربع من أعطیهن لم یمنع من اللّه أربعا/ أبو هریرهٔ/ ۳/ ۱۱۸ أربع نسوهٔ سادات نساء عالمهن/ ابن عباس/ ۱/ ۳۹۰ أربعهٔ یحتجون یوم القیامهٔ: رجل أصم/ الأسود بن سریع/ ۳/ ۲۵۸ أردنا أمرا و أراد اللّه غیره// ۱/ ۵۳۳ أرض بیضاء کأنها فضهٔ/ ابن مسعود/ ۳/ ۱۴۳ أشترط لربی أن تعبدوه/ محمد بن کعب/ ۲/ ۴۶۵ أشرفت الملائکهٔ علی الدنیا فرأت بنی آدم/ ابن عمر/ ۱/ ۱۴۳ أشفع لأمتی حین ینادینی ربی/ علی/ ۵/ ۵۶۰ أضاف النبی صلّی اللّه علیه و سلم ضیفا/ أبو رافع/ ۳/ ۴۶۸ أطت السماء و حق لها أن تئط/ أنس/ ۳/ ۲۷۷ و ۴/ ۴۷۸ و ۵/ ۳۹۸

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۵

أطعمنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم لحوم الخیل/ جابر/ ۳/ ۱۸۲ أطیعوا السلطان و إن کان عبدا حبشیا// ۲/ ۶۰۱ أعددت لعبادی الصالحین ما لا عین رأت/ أبو هریرهٔ/ ۴/ ۲۹۵ أعذر اللّه إلی امرئ أخّر عمره/ أبو هریرهٔ/ ۴/ ۴۰۹ أعطوهم الذی لهم و اسألوا اللّه// ۲/ ۶۰۱ أعطی یوسف و أمه شطر الحسن/ أنس/ ۳/ ۳۰ أعطیت أمتی شیئا لم یعطه أحد من الأمم/ ابن عباس/ ۱/

٣/ ٢٦٢ أن بعض نساء الأنصار سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن التجبية/ عائشة/ ١/ ٢٦١ أن بنى النضير هموا أن يطرحوا حجرا على النبى صلّى اللّه عليه و سلم// ٢/ ٢٥ أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا/ أنس/ ١/ ١٤٩ أن تجعل للّه ندا و هو خلقك/ ابن مسعود/ ١/ ٦٢ و ٤/ ١٠٦ أن تشهد أن لا إله إلا اللّه/ عمر/ ٥/ ١٠٦ أن تطعمها إذا طعمت و تكسوها إذا اكتسيت/ معاوية بن حيدة/ ١/ ٢٧٣ أن تعبد اللّه كأنك تراه/ عمر بن الخطاب/ ٤/ ٢٦١ و ٢٧٨ أنت بذاك/ سلمة بن صخر/ ٥/ ٢٢١ أنت زيد بن حارثة بن شراحيل/ ابن عمر/ ٤/ ٣٠٣ أنت الذى تقول ثبت اللّه/ البراء بن عازب/ ٤/ ١٤٣ أنت الهادى يا علىّ/ ابن عباس/ ٣/ ٨٤ أنت و مالك لأبيك// ٤/ ٦٢ أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت/ قتادة/ ١/ ٣٠٧ أنتم حجّاج/ ابن عمر/ ١/ ٢٣٣ أن تؤمن باللّه و ملائكته و كتبه/ عمر/ ٥/ ١٠٦

فتح القدير، ج‌٦، ص: ١٨

أن ثقيفا قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم أجلنا سنة حتى يهدى لآلهتنا/ ابن عباس/ ٣/ ٢٩٧ أن حبرا من اليهود دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ عبد اللّه بن عباس/ ٣/ ٥ أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبى صلّى اللّه عليه و سلم/ عبيد اللّه/ ١/ ٣٨٠ أن الربيع بنت معوّذ اختلعت على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ الربيع/ ١/ ٢٧٧ أنّ رجلا أتى بعض أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم فكلّمها/ ابن عباس/ ٤/ ٣٤٤ أن رجلا أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال/ أبو سعيد/ ٣/ ٢١٣ أن رجلا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلم بجارية سوداء/ أبو هريرة/ ١/ ٥٧٧ أن رجلا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال// ٢/ ٦٠٤ أن رجلا جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال: إنى نزلت محلة قوم// ١/ ٥٣٦ أن رجلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن العمرة أ واجبة هى؟/ جابر/ ١/ ٢٢٥ أن رجلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال ليس لى مال/ ابن عمر/ ١/ ٤٩٢ أن رجلا قال يا رسول اللّه إنى أحب// ٤/ ٢١٩ أن رجلا قال يا رسول اللّه إنى ذو مال كثير/ أنس/ ٣/ ٢٦٨ أن رجلا قال يا رسول اللّه إن لى مملوكين/ عائشة/ ٣/ ٤٨٨ أن رجلا قال يا نبى اللّه أىّ المؤمنين// ٤/ ٥٢٨ أن رجلا مر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو فى مجلس/ أبو هريرة/ ١/ ٥٧١ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أخذ قبضة من التراب/ أبو أمامة/ ٣/ ٤٤٠ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حدّثهم أن عبدا من عباد اللّه/ ابن عمر/ ١/ ٢٤ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حين انصرف من أحد/ أبو هريرة/ ٤/ ٣١٤ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم دعا على قريش حين استعصوا/ ابن عباس/ ٣/ ٥٨٦ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل أى العباد أفضل درجة/ أبو سعيد/ ٤/ ٣٣٢ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل عن الأمة إذا زنت و لم تحصن/ زيد بن خالد/ ١/ ٥٢٠ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل عن الراسخين فى العلم/ أبو الدرداء/ ١/ ٣٦٧ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صلى بهم الهاجرة/ أنس/ ٥/ ٥٥٠ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرأ (اهدنا الصراط المستقيم)/ أبو هريرة/ ١/ ٢٨ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرأ بهذه السورة قل يا أيها الكافرون جابر/ ٥/ ٦١٧ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرأ البسملة فى أول الفاتحة/ أم سلمة/ ١/ ٢٠ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرأ فى الركعتين قبل الفجر/ ابن عمر/ ٥/ ٦١٧ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان إذا اشتكى يقرأ/ عائشة/ ٥/ ٦٣٦

فتح القدير، ج‌٦، ص: ١٩

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان إذا ذكر شعيبا قال: ذاك خطيب الأنبياء ابن أبى سلمة/ ٢/ ٢٥٨ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان إذا سافر ركب راحلة/ ابن عمر/ ٤/ ٦٣٠ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يصلى على راحلة قبل المشرق/ جابر/ ١/ ١٥٥ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران/ أبو هريرة/ ١/ ٤٧٦ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يفتتح الصلاة ببسم اللّه/ ابن عباس/ ١/ ٢٠ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ فى صلاة العشاء/ بريدة/ ٥/ ٥٤٥ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ فى العيدين/ النعمان بن بشير/ ٥/ ٥١٣ أن رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و سلم كان يقرأ مالك يوم الدين/ أبو هريرة/ ۱/ ۲۶ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ المسبحات/ العرباض/ ۵/ ۱۹۸ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان يمر بباب فاطمة/ أنس/ ۴/ ۳۲۲ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان لا يعرف فصل السورة حتى/ ابن عباس/ ۱/ ۲۰ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى/ عبد الرحمن بن قرط/ ۳/ ۲۷۷ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم نهى أن تنكح الأمة على الحرة/ الحسن/ ۱/ ۵۲۵ أن سائلا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن إتيان النساء فى أدبارهن/ خزيمة بن ثابت/ ۱/ ۲۶۲ أن عبد اللّه بن عمر سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول/ ابن عمر/ ۴/ ۲۷۲ أن عثمان بن عفان سأل النبى صلّى اللّه عليه و سلم عن بسم اللّه/ ابن عباس/ ۱/ ۲۲ أن قريشا أتوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا له إن كنت أرسلت/ جبير بن نفير/ ۳/ ۲۹۶ أن الكبر بطر الحق و غمط الناس// ۱/ ۷۹ أن كرسيه وسع السماوات و الأرض/ عمر/ ۱/ ۳۱۳ أن الكمأة من المن الذى أنزل على موسى/ أم سعيد بن زيد/ ۱/ ۱۰۳ أن اللّه غفر لهذه الأمة ما حدّثت به نفسها// ۱/ ۳۵۰ أن المشركين أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا/ ابن عباس/ ۴/ ۶۴۶ أن من قرأ هذه الآية على شىء ضاع منه ردّه اللّه عليه/ جعفر بن محمد/ ۱/ ۳۶۷ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أتى فاطمة بعبد/ أنس/ ۴/ ۳۲ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أتى سعد بن أبى وقاص يعوده فى مرضه/ سعد/ ۱/ ۵۰۳ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أقبل ذات يوم من العالية/ سعد بن أبى وقاص/ ۲/ ۱۴۱ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أمر امرأة ثابت بن قيس أن تتربص حيضة واحدة/ الربيع/ ۱/ ۲۷۶ و ۲۷۷ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح/ ابن عباس/ ۵/ ۵۴۵

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۲۰

أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أمره بقتل الكلاب/ ۲/ ۱۹ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم بعث رهطا و بعث عليهم أبا عبيدة/ جندب بن عبد اللّه/ ۱/ ۲۵۱ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم جاء صفّة المهاجرين/ ابن الأسقع/ ۱/ ۳۱۴ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم رأى ناسا يغتسلون/ على/ ۵/ ۳۵۹ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم رمل ثلاثة أشواط/ جابر/ ۱/ ۱۶۳ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم سأل أبى بن كعب أى آية من كتاب اللّه أعظم/ أبىّ بن كعب/ ۱/ ۳۱۴ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم سئل أى الأجلين قضى موسى// ۴/ ۱۹۸ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم سئل عن الشفع و الوتر/ عمران بن حصين/ ۵/ ۵۳۲ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم سجد فى ص/ أبو هريرة/ ۴/ ۴۹۲ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم طرق عليا و فاطمة ليلا فقال: ألا تصليان/ على/ ۳/ ۳۵۰ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قرأ بالسبع الطوال فى ركعة/ بعض أهل النبى/ ۱/ ۴۷۹ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: يا أبا ذر أ رأيت إن قتل الناس بعضهم/ أبو ذر/ ۲/ ۳۶ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قرأ فى المغرب و التين عبد اللّه بن يزيد/ ۵/ ۵۶۶ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قرأ النجم/ عائشة/ ۵/ ۱۲۵ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قرأ و لمن خاف مقام ربّه أبو الدرداء/ ۵/ ۱۷۳ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قضى فى بنت و بنت ابن و أخت// ۱/ ۶۲۶ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله// ۱/ ۱۷۶ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان إذا اشتد غمه/ عائشة/ ۱/ ۴۶۰ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يرمى الجمار و يكبر مع كل حصاة/ ابن عمر/ ۱/ ۲۳۸ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يصلّى بمكة نحو بيت المقدس// ۱/ ۱۷۶ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يقبل ثم يصلى و لا يتوضأ/ أم سلمة/ ۱/ ۵۴۳ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ ملك بغير ألف/ أم سلمة/ ۱/ ۲۶ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يقرأ فى صلاة الفجر/ أبو هريرة/ ۴/ ۲۸۴ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يكتب باسمك اللهم/ ميمون بن مهران/ ۴/ ۱۶۱ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم كان يكره عشر خصال/ ابن مسعود/ ۵/ ۶۳۶ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم لما خرج من مكة إلى الغار/ ابن عباس/ ۵/ ۴۳ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم مرّ على قبرين// ۳/ ۲۷۵ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم نزل منزلا فتفرّق الناس فى العضاة/ جابر/ ۲/ ۲۴ و ۲۵ أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم و أبا بكر و عمر و عثمان كانوا يقرءون مالك بالألف/ أنس/ ۱/ ۲۶ أن نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أتاه

اليهود يسألونه/ عكرمة/ ۲/ ۲۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۱

أن نفرا من اليهود سألوا النبى صلّى اللّه عليه و سلم عن ذى القرنين/ عقبة بن عامر/ ۳/ ۳۶۷ أن نمروذ لما ألقى إبراهيم فى النار/ أنس/ ۳/ ۶۶ أن لا يمس القرآن إلا طاهر/ معاذ/ ۵/ ۱۹۶ أن هلال بن أمية قذف امرأته/ ابن عباس/ ۴/ ۱۳ أن يغفر ذنبا و يفرج كربا/ عبد اللّه بن منيب/ ۵/ ۱۶۷ أن اليهود أتت النبى صلّى اللّه عليه و سلم فسألته عن خلق السماوات/ ابن عباس/ ۴/ ۵۸۴ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا إلى هذا النبى/ صفوان بن عسال/ ۳/ ۳۱۵ أنبئونى بأفضل أهل الإيمان إيمانا/ عمر بن الخطاب/ ۱/ ۴۰ أنا سيد ولد آدم// ۱/ ۳۰۸ أنا فرطكم على الحوض// ۳/ ۲۰۷ أنا و أمتى يوم القيامة على كوم مشرفين/ جابر/ ۱/ ۱۷۶ أنزل آدم عليه السلام بالهند فاستوحش/ أبو هريرة/ ۱/ ۸۴ أنزل اللّه آيتين من كنوز الجنة/ ابن مسعود/ ۱/ ۳۵۶ أنزل اللّه علىّ أمانين لأمتى/ أبو موسى/ ۲/ ۳۴۸ أنزل اللّه على هذه الآية/ ابن عباس/ ۵/ ۱۷۴ أنزل اللّه من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار/ ابن عباس/ ۳/ ۵۶۹ أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان/ واثلة بن الأسقع/ ۱/ ۲۱۱ أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سورة المائدة/ عبد اللّه بن عمرو/ ۲/ ۵ أنزلت على سورة تبارك/ أبو هريرة/ ۵/ ۳۰۷ أنزلت على الليلة آيات لم أر مثلهن/ عقبة بن عامر/ ۵/ ۶۳۶ أنشدك بالذى أنزل التوراة/ سعيد بن جبير/ ۲/ ۱۶۱ أنشدك عهدك و وعدك/ ابن عباس/ ۵/ ۱۵۶ أنفقى ما على ظهر كفى/ أبو أمامة/ ۳/ ۲۶۹ أنكحوا الأيامى فقال رجال: يا رسول اللّه/ ابن عمر/ ۱/ ۲۸۱ أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن الإيمان/ أبو ذر/ ۱/ ۲۰۰ أنه سئل عن الشفع و الوتر فقال يومان و ليلة/ أبو أيوب/ ۵/ ۵۳۲ أنه سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلم، فقال تجد ظهر بعير/ علىّ/ ۱/ ۴۱۸ أنه شكا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم دينا عليه/ معاذ/ ۱/ ۳۷۹ أنه صلّى اللّه عليه و سلم رهن درعا له من يهودى// ۱/ ۳۴۸ أنه صلّى اللّه عليه و سلم كان يأمر بزكاة الفطر/ ابن عمرو/ ۵/ ۵۱۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۲

أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك/ أبو هريرة/ ۱/ ۶۵ أهل الجنة لا يبصقون و لا يتمخطون و لا يتغوّطون// ۱/ ۶۶ أو أثارة من علم حسن الخط/ أبو سعيد/ ۵/ ۱۹ أوتيت القرآن و مثله معه/ أبو هريرة/ ۴/ ۵۴۹ أوقد عليها ألف عام حتى احمرّت/ أنس/ ۱/ ۶۴ أول زمرة يدخلون الجنة/ أبو هريرة/ ۴/ ۵۴۹ أول ما نزل عليه الوحى كان يقوم على صدر قدميه/ ابن عباس/ ۳/ ۴۲۶ أول من حاك آدم عليه السلام/ أنس/ ۱/ ۸۴ أول من صنعت له الحمّامات سليمان/ أبو موسى/ ۴/ ۱۶۴ أول من دخل الحمّام سليمان/ أبو موسى/ ۴/ ۱۶۴ أول قاس أمر الدين برأيه إبليس/ جعفر بن محمد/ ۲/ ۲۲۰ أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة/ أنس/ ۴/ ۲۳۱ أول من يدخل الجنة من خلق اللّه فقراء المهاجرين/ ابن عمر/ ۳/ ۹۶ أول من يدعى إلى الجنة الحمّادون// ۲/ ۴۶۶ أول نبى أرسل نوح// ۲/ ۱۳۵ أولئك قوم آمنوا بالغيب/ نويلة بنت أسلم/ ۱/ ۴۰ أو ولد صالح يدعو له// ۱/ ۴۹۹ أومن باللّه و ما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل/ ابن عباس/ ۲/ ۶۵ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر/ أبو بكرة/ ۱/ ۵۲۹ و ۳/ ۵۳۷ ألا أنبئكم بخير أعمالكم/ أبو الدرداء/ ۴/ ۳۳۲ ألا أحدثك بأشقى الناس/ عمار بن ياسر/ ۵/ ۵۴۹ ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء/ المغيرة بن شعبة/ ۳/ ۳۹۴ ألا أخبرك بأفضل القرآن/ أنس/ ۱/ ۱۹ ألا أخبرك بأخير سورة فى القرآن/ عبد اللّه بن جابر/ ۱/ ۱۸ ألا أخبركم بخير البرية/ أبو هريرة/ ۵/ ۵۸۱ ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء و الأرض/ عائشة/ ۳/ ۳۱۹ ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه/ جابر/ ۳/ ۲۷۷ ألا أخبركم عن أهل الجنة و أهل النار/ عبد اللّه بن عمرو/ ۱/ ۴۵ ألا أخبركم لم سمّى اللّه إبراهيم/ أنس/ ۴/ ۲۵۶ ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش/ أبو هريرة/ ۳/ ۳۴۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳

ألا أدلكم على كلمة تنجيكم/ ابن عباس/ ۵/ ۶۱۸ ألا إن كل ربا فى الجاهلية موضوع/ ابن الأحوص/ ۱/ ۳۴۳ ألا إن لكم على

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۷

سخبرة/ ۱/ ۶۲ إن طير الجنة كأمثال البخت/ أنس/ ۵/ ۱۸۲ إن العبد إذا أذنب ذنبا/ أبو هريرة/ ۵/ ۴۸۶ إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند اللّه/ أبو برزة/ ۱/ ۳۴۱ إن العشر عشر الضحى/ جابر/ ۵/ ۵۳۲ إن عفريتا من الجنّ جعل يتفلّت عليّ البارحة/ أبو هريرة/ ۴/ ۴۹۹ إن علمتم فيهم حرفة/ يحيى بن أبى كثير/ ۴/ ۳۷ إن عليهم التيجان/ أبو سعيد/ ۴/ ۴۰۵ إن العمرة هى الحج الأصغر/ عمرو بن حزم/ ۱/ ۲۲۵ إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب/ أبو سعيد/ ۱/ ۲۲ إن فى أصلاب أصلاب أصلاب الرجال/ سهل بن سعد/ ۵/ ۲۷۰ إن فى الجنة شجرة يسير الراكب/ أبو هريرة/ ۳/ ۴۶۲ و ۵/ ۱۸۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۸

إن فى الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين فى سبيل اللّه/ أبو هريرة/ ۱/ ۵۸۲ إن فى الصلاة لشغلا// ۱/ ۲۹۷ إن فاتحة الكتاب و آية الكرسى/ على/ ۱/ ۳۷۵ إن فى المال حقا سوى الزكاة/ فاطمة بنت قيس/ ۵/ ۱۰۴ إن فيهما اسم اللّه الأعظم/ أسماء بنت يزيد/ ۱/ ۳۱۵ إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه/ البراء بن عازب/ ۱/ ۱۸۸ إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم// ۴/ ۲۳۱ إن الكفار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا/ السدى/ ۴/ ۵۱ إن كنتم فى مقالتكم صادقين فقولوا/ ابن عباس/ ۱/ ۱۳۶ إن اللّه اتخذنى خليلا/ جندب/ ۱/ ۵۹۹ إن اللّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل/ واثلة/ ۲/ ۴۷۷ إن اللّه اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم// ۲/ ۳۷۲ إن اللّه أخذ الميثاق من ظهر آدم/ ابن عباس/ ۲/ ۳۰۰ إن اللّه أعطانى الرائيات إلى الطواسين/ أنس/ ۲/ ۴۷۹ إن اللّه أعطانى السبع الطوال/ البراء/ ۴/ ۱۰۸ إن أعطانى السبع مكان التوراة/ أنس/ ۴/ ۵۵۰ إن اللّه أعطانى فيما منّ به عليّ فاتحة الكتاب/ أنس/ ۱/ ۱۸ إن اللّه أمر آدم بالسجود فسجد/ ابن عباس/ ۱/ ۷۹ إن اللّه أمرنا أن نصلى عليك// ۴/ ۳۴۶ إن اللّه أمرنا أن أدنيك/ بريدة/ ۵/ ۳۳۸ إن اللّه أمرنى أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا/ أبيّ بن كعب/ ۵/ ۵۷۷ إن اللّه بعثنى برسالته فضقت بها ذرعا/ الحسن/ ۲/ ۶۹ إن اللّه بعثنى رحمة للعالمين/ أبو أمامة/ ۳/ ۵۱۳ إن اللّه تبارك و تعالى قرأ طه و يس قبل أن يخلق السّماوات/ أبو هريرة/ ۳/ ۴۲۰ إن اللّه تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۵۱ إن اللّه تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ/ أبو هريرة/ ۵/ ۴۸ إن اللّه جعل القرآن شفاء لما فى الصدور/ الحسن/ ۲/ ۵۱۶ إن اللّه جميل يحب الجمال/ ابن مسعود/ ۳/ ۱۹۱ إن اللّه حدّ حدودا فلا تعتدوها/ أبو ثعلبة/ ۲/ ۹۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۹

إن اللّه حرّم القينة و بيعها و ثمنها/ عائشة/ ۴/ ۲۷۲ إن اللّه حرم مكة يوم خلق السماوات// ۱/ ۱۶۶ إن اللّه حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه/ العباس/ ۲/ ۴۷۷ إن اللّه ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما/ أبو ذر/ ۱/ ۳۵۶ إن اللّه خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه/ عمر/ ۲/ ۳۰۰ إن اللّه خلق آدم على صورته// ۵/ ۵۶۷ إن اللّه خلق آدم و طوله ستون ذراعا// ۲/ ۳۲ إن اللّه طيب لا يقبل إلا طيبا/ أبو هريرة/ ۱/ ۱۹۶ إن اللّه غفر لهذه الأمة// ۵/ ۹۳ إن اللّه فرض على المسلمين حج البيت/ عكرمة/ ۱/ ۴۰۹ إن اللّه فرغ من خلقه فى ستة أيام/ ابن عمر/ ۴/ ۵۸۴ إن اللّه قد أثنى عليكم فى الطهور/ عبد اللّه بن سلام/ ۲/ ۴۶۲ إن اللّه قد أحسن الثناء عليك و على أمتك/ حكيم بن جبير/ ۱/ ۳۵۵ إن اللّه قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور/ عويم بن ساعدة/ ۲/ ۴۶۲ إن اللّه قد أمكنكم منهم/ أنس/ ۲/ ۳۷۲ إن اللّه قسم الخلق قسمين/ ابن عباس/ ۴/ ۳۲۲ إن اللّه كتب على ابن آدم حظه من الزنا/ أبو هريرة/ ۵/ ۱۳۸ إن اللّه كتب عليكم السعى فاسعوا/ ابن عباس/ ۱/ ۱۸۶ إن اللّه كتب كتابا قبل أن يخلق السماوات/ النعمان بن بشير/ ۱/ ۳۵۵ و ۳۵۶ إن اللّه لم يبعث نبيا إلا عمّر/ أم حبيبة/ ۵/ ۶۲۳ إن اللّه لم يهلك قوما، أو قال لم يمسخ قوما/ ابن مسعود/ ۲/ ۶۵ إن اللّه لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهبا و لا فضة/ عليّ/ ۱/ ۸۴ إن اللّه لمّا ذرأ لجهنم ذرأ/ عبد اللّه بن عمرو/ ۲/ ۳۰۵ إن اللّه ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت/ ابن عمر/ ۱/ ۳۰۷ إن اللّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها/ أنس/ ۱/ ۲۵ إن اللّه ليرفع الدرجة للعبد/ أبو هريرة/ ۵/ ۱۲۰ إن اللّه ليرفع ذرية المؤمن معه/ ابن عباس/ ۵/ ۱۲۰ إن اللّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن// ۳/

٣٠١ إن اللّه عز و جل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده و ولد ولده/ جابر/ ٣/ ٣٦٣ إن للّه عبادا ليسوا بالأنبياء و لا شهداء/ ابن عمر/ ٢/ ٥٢١

الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه/ عمر بن الخطاب/ ۱/ ۱۰۶ الإحصان إحصانان: إحصان نكاح/ أبو هريرة/ ۱/ ۵۲۴ الإسلام يجبّ ما قبله/ ابن عمرو بن العاص/ ۲/ ۳۵۲ الإسلام يهدم ما قبله// ۲/ ۴۰ الإيمان: أن تؤمن باللّه و ملائكته و كتبه/ عمر بن الخطاب/ ۱/ ۱۱۰ اللّه أكبر قد جاء نصر اللّه و الفتح/ ابن عباس/ ۵/ ۶۲۴ اللّه أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها/ أبو واقد الليثى/ ۲/ ۲۷۵ اللّه أكبر هذه الآية خير لكم/ أبو برزة/ ۵/ ۶۱۲ اللهم آت نفسى تقواها/ زيد بن أرقم/ ۴/ ۵۴۹ اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف// ۲/ ۲۷۰ اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه/ حذيفة/ ۴/ ۳۰۹ اللهم اشدد وطأتك على مضر// ۳/ ۲۳۹ و ۵۸۱ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون// ۲/ ۴۶۷ اللهم العن أبا سفيان اللهم العن الحارث بن هشام/ ابن عمر/ ۱/ ۴۳۵ اللهم العن فلانا و فلانا// ۱/ ۴۳۶ اللهم العن لحيان و رعلا و ذكوان// ۱/ ۴۳۶ اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون/ ابن عباس/ ۲/ ۷۰ اللهم أحينى مسكينا و أمتنى مسكينا// ۲/ ۴۲۵ اللهم أعز الإسلام بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب/ زيد بن أسلم/ ۲/ ۱۸۲ اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف/ ابن مسعود/ ۴/ ۶۵۵ اللهم أمتى أمتى/ ابن عمرو/ ۵/ ۵۶۰ اللهم أنج الوليد بن الوليد// ۱/ ۵۶۲ اللهم أنجز لى ما وعدتنى/ عمر بن الخطاب/ ۲/ ۳۳۱

اللهم أيد حسان بروح القدس// ۱/ ۱۳۰ اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد/ على/ ۲/ ۳۳۵ اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها و خيلائها/ قتادة/ ۲/ ۳۶۱ اللهم حاسبنى حسابا يسيرا/ عائشة/ ۵/ ۴۹۶ اللهم ربّ السماوات السبع/ أبو هريرة/ ۵/ ۲۰۰ اللهم صلّ على آل فلان/ عبد اللّه بن أبى أوفى/ ۲/ ۴۵۷ اللهم قنعنى بما رزقتنى/ ابن عباس/ ۳/ ۲۳۵ اللهم لا تقتلنا بغضبك/ ابن عمر/ ۳/ ۹۲ اللهم لا قوة لنا إلا بك/ ابن جريج/ ۱/ ۴۴۴ اللهم لا يعلون علينا/ ابن عباس/ ۱/ ۴۴۴ اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى// ۱/ ۶۰۲ اللهم هؤلاء أهلى/ سعد بن أبى وقاص/ ۱/ ۳۹۹

حرف الباء

بادروا الأعمال قبل طلوع الشمس/ أبو هريرة/ ۴/ ۱۷۶ بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على السمع و الطاعة/ عبادة/ ۵/ ۵۹ بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقرأ علينا أن لا نشرك/ أم عطية/ ۵/ ۲۵۹ بايعونى على أن لا تشركوا باللّه شيئا/ عبادة/ ۱/ ۵۷۶ و ۵/ ۲۵۹ بت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فصلّى ركعتين/ ابن عباس/ ۵/ ۹۶ بجهنم سبعة أبواب/ ابن عمر/ ۳/ ۱۶۰ بسم اللّه الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب/ أبو جعفر/ ۱/ ۲۲ بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه إلى هرقل عظيم الروم/ ابن عباس/ ۱/ ۳۹۹ بشر هذه الأمة بالسناء و الرفعة/ أبيّ بن كعب/ ۴/ ۶۱۴ بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بعثا فاستقرأ/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۳ بعثت امرأة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم بابنها فقالت: قل له اكسنى/ المنهال/ ۳/ ۲۶۹ بعثت أنا و الساعة كهاتين/ أنس/ ۵/ ۴۴ بعثت بالحنيفية السمحة/ أبو أمامة/ ۱/ ۱۷۳ بعثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى قومى/ أبو أمامة/ ۲/ ۱۴

بكى شعيب عليه السلام من حب اللّه حتى عمى/ شداد بن أوس/ ۲/ ۵۹۲ بل ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر/ أبو ثعلبة الخشنى/ ۲/ ۹۶ بل آمنوا باللّه و رسوله محمد و كتابه القرآن/ ابن عباس/ ۱/ ۶۰۵ بل أجر خمسين منكم/ أبو ثعلبة الخشنى/ ۲/ ۹۶ بل فى شى‌ء ثبتت فيه المقادير/ جابر/ ۵/ ۵۵۴ بلى و لكنكم أحدثتم و جحدتم/ ابن عباس/ ۲/ ۷۴ بما ذا قرأت فى أذنه؟/ ابن مسعود/ ۳/ ۵۹۵ بم تقضى؟ قال: بكتاب اللّه/ معاذ/ ۳/ ۲۷۱ بنو غفار و أسلم كانوا لكثير من الناس فتنة/ سمرة/ ۵/ ۲۴ بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع/ جابر/ ۴/ ۴۳۶ بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و عنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه/ ابن عباس/ ۱/

١٩ بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصلى بفناء الكعبة/ عبد اللّه بن عمرو/ ۴/ ۵۶۲ بينما امرأتان معهما ابنان/ أبو هريرة/ ٣/ ۵۰۰ بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و عنده جبريل/ ابن عباس/ ۱/ ٣۵۶ بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقسم قسما/ أبو سعيد/ ٢/ ۴٢۶ بينما النبى صلّى اللّه عليه و سلم يخطب يوم الجمعة/ جابر/ ۵/ ٢٧٣ بينما نحن عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذ طلع راكبان/ أبو عبد الرحمن الجهنى/ ۱/ ۴۱ بينما نحن مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى غار بمنى/ ابن مسعود/ ۵/ ۴٢٩ بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة/ أسيد بن حضير/ ۱/ ٣٣ بئس خطيب القوم أنت// ۴/ ٣۱٢ بئس مطية الرجل/ ابن مسعود/ ۵/ ٢٨۴ البر حسن الخلق/ النواس بن سمعان/ ٢/ ۱۰ البر ما اطمأن إليه القلب/ وابصة/ ٢/ ۱۰ البقرة سنام القرآن/ معقل بن يسار/ ۱/ ٣٢ البيعان بالخيار ما لم يتفرقا// ۱/ ۵٢۶ البيت قبلة لأهل المسجد/ ابن عباس/ ۱/ ۱٨۰ البيت الذى تقرأ فيه سورة الكهف/ عبد اللّه بن مغفل/ ٣/ ٣۱٩ البيت المعمور فى السماء السابعة/ أنس/ ۵/ ۱۱۶ البيّنة و إلا حدّ فى ظهرك/ ابن عباس/ ۴/ ۱٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٧

حرف التاء

تبارك هى المانعة من عذاب القبر/ ابن مسعود/ ۵/ ٣۰٧ تب إلى اللّه تاب اللّه عليك/ أبو هريرة/ ٢/ ۴٧ تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء/ أبو هريرة/ ٣/ ٣٣٨ تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة/ أبو هريرة/ ۱/ ۴۱۰ تحشرون ها هنا و أومأ بيده إلى الشام/ معاوية بن حيدة/ ۴/ ۵٨٨ تحفظوا من الأرض فإنها أمكم/ ربيعة الحرشى/ ۵/ ۵٨۵ تخرج دابة الأرض و معها عصا موسى/ أبو هريرة/ ۴/ ۱٣۶ تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم/ أبو أمامة/ ۴/ ۱٧۶ تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة/ حذيفة بن أسيد/ ۴/ ۱٧۶ تدمع العين و يحزن القلب// ٣/ ۵٧ تذاكرنا زيادة العمر عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ أبو الدرداء/ ٢/ ٢٣٣ ترجف الأرض رجفا/ أبو هريرة/ ۵/ ۴۵۶ تردين عليه حديقته/ ابن جريج/ ۱/ ٢٧۶ تصبر و لا- تعاقب، كفّوا عن القوم/ أبيّ بن كعب/ ٣/ ٢۴۵ تصدع بإذن اللّه عن الأموال و البنات/ ابن عباس/ ۵/ ۵۱٢ تعبد اللّه و لا تشرك به شيئا و تقيم الصلاة/ ابن عمر/ ۱/ ٢٢۵ تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة/ بريدة/ ۱/ ٣٢ تعلموا سورة البقرة و آل عمران/ بريدة/ ۱/ ٣٢ تعلموا علم الفرائض و علّموه الناس/ ابن مسعود/ ۱/ ۵۰٢ تعلموا الفرائض و علّموه فإنه نصف العلم/ أبو هريرة/ ۱/ ۵۰۴ تعلموا من النجوم ما تهتدون به/ ابن عمر/ ٢/ ۱۶۶ تفرقت أمة موسى على اثنتين و سبعين ملة/ أنس/ ٢/ ۶٨ تقتل عمارا الفئة الباغية// ۵/ ٧۵ تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان/ أبو هريرة/ ۴/ ۶۵۵ تقىء الأرض أفلاذ كبدها/ أبو هريرة/ ۵/ ۵٨۵ تكفيك آية الصيف/ البراء بن عازب/ ۱/ ۶٢٧ تكلم أربعة و هم صغار/ ابن عباس/ ٣/ ٢۴

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٨

تلا- رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذ الأغلال فى أعناقهم ابن عمرو/ ۴/ ۵٧۶ تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم/ أبو الدرداء/ ٣/ ٣٩٣ تلك السكينة نزلت للقرآن/ البراء/ ۱/ ٣۰٧ تنظر إلى وجهها فى خدرها/ أبو سعيد/ ۵/ ۱٧۴ تؤتيه حين تؤتيه المال و نفسك تحدثك بطول العمر و الفقر/ المطلب/ ۱/ ٢۰۰ التأنى من اللّه و العجلة من الشيطان/ أنس/ ۱/ ٢۴ التسريح بإحسان الثالثة الثالثة/ أبو زيد الأسدى/ ۱/ ٢٧۵ التوبة من الذنب أن يتوب منه/ ابن مسعود/ ۵/ ٣۰٣ التوحيد ثمن الجنة، و الحمد ثمن كل نعمة/ أبان بن أنس/ ۱/ ٢۴

حرف الثاء

ثلاث جدهن جد و هزلهن جد/ أبو هريرة/ ١/ ٢٧٩ ثلاث من فعلهن فقد أجرم/ معاذ بن جبل/ ۴/ ٢٩٥ ثلاث من قالهن لاعبا أو غير لاعب فهن جائزات/ عبادة بن الصامت/ ١/ ٢٧٩ ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا// ١/ ٥٩ ثلاث من كن فيه يحاسبه اللّه/ أبو هريرة/ ۵/ ۴۹۶ ثلاث من الميسر: الصفير بالحمام و القمار/ يزيد بن شريح/ ٢/ ٨٧ ثلاث هن رواجع على أهلها المكر و النكث و البغى/ أنس/ ٢/ ۴۹۶ ثلاث هن على فرائض و هن لكم سنة/ عائشة/ ٣/ ٣٠۴ ثلاثة حق على اللّه عونهم/ أبو هريرة/ ۴/ ٣۶ ثلاثة على كثبان المسك/ ابن عمر/ ٣/ ۵١٢ ثلاثة يظلهم اللّه فى ظله يوم لا ظل إلا ظله/ أبو هريرة/ ٢/ ١۶۶ ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين/ أبو موسى/ ۴/ ٢٠٨ ثلاثمائة و خمسة عشر جمّا غفيرا/ أبو ذر/ ١/ ٨٢ ثم رفع إلىّ البيت المعمور// ۵/ ١١۶ ثنتان لا يردان: الدعاء عند النداء و عند البأس/ سهل بن سعد/ ٢/ ٣۶٠ الثلث كثير/ ابن عباس/ ١/ ۵٠٣ الثيبات و الأبكار اللاتى كن فى الدنيا/ يزيد الجعفى/ ۵/ ١٨٧

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٩

حرف الجيم

جاء أعرابى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ عتبة بن عبيد/ ٣/ ٩٩ جاء أعرابى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ أنس/ ١/ ۵٩۴- ۵٩۵ جاء أهل اليمن و هم أرق قلوبا/ أبو هريرة/ ۵/ ۶٢۴ جاء الإيمان و الشرك يجثوان بين يدى اللّه/ صفوان بن عسال/ ۴/ ١٨٠ جاء بستاني اليهودى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم/ جابر/ ٣/ ٨ جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم فقال السلام عليك/ سليمان/ ١/ ۵٧٠ جاء رجل من أهل البادية إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم/ مجاهد/ ۴/ ٢٨٢ جاء رجل من اليهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ ثوبان/ ٣/ ١۴٣ جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى فاطمة و معه علىّ/ واثلة بن الأسقع/ ۴/ ٣٢٢ جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و رجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف/ أبو هريرة/ ٣/ ٣٣٧ جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول اللّه/ أنس/ ۴/ ٣٢٩ جاء عمر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال يا رسول اللّه هلكت/ ابن عباس/ ١/ ٢۶١ جاء عويمر إلى عاصم بن عدىّ فقال سل رسول اللّه// ۴/ ١٣- ١۴ جاءت من مكة أفلاذها/ قتادة/ ٢/ ٣۶١ جامعوهن فى البيوت و اصنعوا كل شىء إلا النكاح/ أنس/ ١/ ٢۶٠ جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت/ جابر/ ۵/ ٣٩۴ جبريل و ميكائيل و ملك الموت/ أنس/ ۴/ ۵۴٧ جرح العجماء جبار// ٣/ ۴٩۵ جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتلو هذه الآية و من يتق اللّه أبو ذر/ ۵/ ٢٩١ جعل اللّه الأهلة مواقيت للناس/ ابن عمر/ ١/ ٢١٨- ٢١٩ جعلتنى للّه ندا، ما شاء اللّه وحده/ ابن عباس/ ١/ ۶١ جنان الفردوس أربع جنات/ أبو موسى/ ۵/ ٢٧٣ الجدال فى القرآن مراء/ أبو هريرة/ ١/ ٣۶٧

حرف الحاء

حاج آدم موسى قال له: أنت الذى أخرجت الناس/ أبو هريرة/ ٣/ ۴۶٢ حال اللّه بينك و بين ما تريد/ جابر/ ٢/ ٧٠ حبك إيّاها أدخلك الجنة/ أنس/ ۵/ ۶٣٠

فتح القدير، ج۶، ص: ۴٠

حتى أنظر ما يأتينى من ربى/ ابن عباس/ ۵/ ۶٢٠ حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء// ٢/ ١٣١ حرمت الخمر/ ابن عمر/ ٢/ ٨۶ حسبنا اللّه و نعم الوكيل// ١/ ۴۶٠ حسبى اللّه و نعم الوكيل أمان كل خائف/ شداد بن أوس/ ١/ ۴۶٠ حسن الشعر كحسن الكلام/ أبو هريرة/ ۴/ ١۴٣ حضرت عصابة من اليهود النبى صلّى اللّه عليه و سلم/ ابن عباس/ ١/ ١٣٧ حفظت عن رسول اللّه

صلّى اللّه عليه و سلم دعاءين/ أبو هريرة/ ١/ ١٨٧ حملت وليدة في بني ساعدة من زنا/ أبو أمامة/ ٤/ ٥٠٥ حيات على الصراط تقوم حس حس/ أبو هريرة/ ٣/ ٥١١ الحج جهاد و العمرة تطوع/ أبو صالح الحنفي/ ١/ ٢٢٥ الحج عرفات، فمن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر/ عبد الرحمن بن يعمر/ ١/ ٢٣٨ الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم// ٢/ ١٢٩ الخيمة درة مجوفة// ٥/ ١٧٥ الحقب أربعون سنة/ عبادة/ ٥/ ٤٤٤ الحقب ثمانون سنة/ أبو هريرة/ ٥/ ٤٤٤ الحمد للّه رأس الشكر/ عبد اللّه بن عمرو/ ١/ ٢٤ الحمد للّه الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر/ عبد الرحمن بن سهل/ ٣/ ٣٣٧ الحمد للّه الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي/ سلمان/ ٣/ ٣٣٧ الحنيفية السمحة/ ابن عباس/ ١/ ١٧٣ الحواميم ديباج القرآن/ أنس/ ٤/ ٥٥٠ الحواميم سبع، و أبواب النار سبع/ خليل بن مرة/ ٤/ ٥٥٠

حرف الخاء

خبيثة من الخبائث/ ابن عمر/ ٢/ ١٩٧ خذوا جنتكم/ أبو هريرة/ ٣/ ٣٤٥ خذوا زينة الصّلاة/ أبو هريرة/ ٢/ ٢٣٠ خذوا على أيدي سفهائكم// ٥/ ٧٥ خذوا عني قد جعل اللّه لهن سبيلا// ١/ ٥٠٤

فتح القدير، ج‏٦، ص: ٤١

خذوا عني مناسككم// ١/ ١٨٦ و ٢٣٤ خذوا منها/ حبيبة بنت سهل/ ١/ ٢٧٦ خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقرأ آيات الربا/ عائشة/ ١/ ٣٤٠ خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على أصحابه/ جابر/ ٥/ ١٥٧ خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على نفر من أصحابه/ عائشة/ ٥/ ٢٠٨ خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و من وراء حجرته/ ابن عمر/ ١/ ٣٦٧ خرج النبي صلّى اللّه عليه و سلم حتى صعد الصفا/ ابن عباس/ ٥/ ٦٢٨ خرج النبي صلّى اللّه عليه و سلم على رهط من أصحابه/ أبو هريرة/ ٤/ ٥٤٢ خرج النبي صلّى اللّه عليه و سلم غداة و عليه مرط مرحل/ عائشة/ ٤/ ٣٢٢ خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم في يده كتاب/ البراء/ ٤/ ٦٠٦ خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و في يده كتابان/ ابن عمرو/ ٤/ ٦٠٦ خرجت أنا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و يده في يدي/ أبو هريرة/ ٣/ ٣١٨ خرجت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حتى دخل بعض حيطان المدينة/ ابن عمر/ ٤/ ٢٤٥ خرجت من نكاح و لم أخرج من سفاح/ عليّ/ ٢/ ٤٧٧ خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عام الحديبية/ أبو سعيد/ ٥/ ٢٠٣ خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم في سفر/ زيد بن أرقم/ ٥/ ٢٧٧ خطب النبي صلّى اللّه عليه و سلم خطبة/ أنس/ ٢/ ٩٤ خطّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خطا بيده/ ابن مسعود/ ٢/ ٢٠٤ خلق اللّه البيت قبل الأرض بألفي سنة/ ابن عمر/ ١/ ٤١٧ خلق اللّه ثلاثة أشياء بيده/ عبد اللّه بن الحارث/ ٣/ ٥١٣ خلق اللّه يوم خلق السماوات و الأرض مائة رحمة/ سلمان/ ٢/ ١٢١ خلقت الملائكة من نور/ عائشة/ ٢/ ٢٢٠ خمّروا آنيتكم// ١/ ٢٥٢ خمس لا يعلمهن إلا اللّه/ أبو هريرة/ ٤/ ٢٨٣ خمس فواسق// ١/ ٦٨ خيار عباد اللّه الذين إذا رأوا ذكر اللّه/ عبد الرحمن بن غنم/ ٢/ ٥٢١ خياركم من ذكركم اللّه رؤيته/ ابن عمر/ ٢/ ٥٢١ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى/ أبو هريرة/ ١/ ٢٥٦ خير نسائها مريم بنت عمران/ عليّ/ ١/ ٣٩٠

فتح القدير، ج‏٦، ص: ٤٢

خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة/ أبو هريرة/ ٥/ ٢٧٢ خيركم خيركم لأهله و أنا خيركم لأهلي// ١/ ٤٩٠ الخضر هو إلياس/ ابن عباس/ ٤/ ٤٧٣ الخيام درّ مجوّف/ ابن مسعود/ ٥/ ١٧٥ الخير اتباع القرآن و سنتي/ أبو جعفر/ ١/ ٤٢٤ الخيل لثلاثة؛ لرجل أجر/ أبو هريرة/ ٥/ ٥٨٥ الخيل معقود بنواصيها الخير// ٤/ ٤٩٥

حرف الدال

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۴۳

حرف الذال

حرف الراء

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۴۴

ما أخذتم و اقتسموا بالعدل و السويۀ/ أبو أيوب/ ۲/ ۳۲۴ رغبا هكذا، و رهبا هكذا/ جابر/ ۳/ ۵۲۶ رفع عن أمتى الخطأ و النسيان// ۱/ ۳۵۳ رفع اليدين من الاستكانۀ/ علىّ/ ۵/ ۶۱۵ الربا ثلاثۀ و سبعون بابا أيسرها/ ابن مسعود/ ۱/ ۳۴۰ الربوۀ: الرملۀ/ مرۀ البهزى/ ۳/ ۵۷۸ الرجز عذاب/ عائشۀ/ ۲/ ۲۷۳ الروح جند من جنود اللّه/ ابن عباس/ ۵/ ۴۴۸ روح القدس جبريل/ جابر/ ۱/ ۱۳۰ الرؤيا الصالحۀ يبشر بها المؤمن/ عبد اللّه بن عمرو/ ۲/ ۵۲۱ ريح الجنوب من الجنۀ/ أبو هريرۀ/ ۳/ ۱۵۴

حرف الزاى

زوجۀ و مسكن و خادم/ زيد بن أسلم/ ۲/ ۳۴ الزيادۀ خمسۀ أنهار تجرى من تحت العرش/ جابر/ ۳/ ۲۲۷

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۴۵

حرف السين

سأل أهل مكۀ النبى أن يجعل لهم الصفا ذهبا/ ابن عباس/ ۳/ ۲۸۶ سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سائل، فقال// ۳/ ۸۴ سألت خديجۀ النبى صلّى اللّه عليه و سلم عن ولدين/ على/ ۵/ ۱۲۰ سألت ربى مسألۀ وددت أنى لم أكن سألته/ ابن عباس/ ۵/ ۵۶۰- ۵۶۱ سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن إدبار النجوم/ علىّ/ ۵/ ۹۶ سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن تفسير سبحان اللّه/ طلحۀ بن عبيد اللّه/ ۱/ ۱۵۷ سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن نظرۀ الفجأۀ/ جرير البجلى/ ۴/ ۳۰ سألت النبى صلّى اللّه عليه و سلم عن قوله و ما كنت بجانب الطور/ عمرو بن عبسۀ/ ۴/ ۲۰۷ سألت اليهود النبى صلّى اللّه عليه و سلم عن الرعد ما هو؟/ ابن عباس/ ۱/ ۵۷ سباب المسلم فسوق// ۱/ ۲۳۱ سبحان ربى الأعلى/ ابن عباس/ ۵/ ۵۱۷ سبحان اللّه نصف الميزان و الحمد للّه تملأ الميزان/ رجل من بنى سليم/ ۱/ ۲۴ سبحان اللّه يخرج الحى من الميت/ عبيد اللّه/ ۱/ ۳۸۰ سبحانك اللهم و بلى/ البراء/ ۵/ ۴۱۲ سبحانك اللهم و بلى/ صالح أبو الخليل/ ۵/ ۴۱۲ سبعۀ فى ظل اللّه يوم لا ظل إلا ظله/ سلمان/ ۲/ ۱۶۶ سبق المفردون/ أبو هريرۀ/ ۴/ ۳۳۲ سدّدوا و قاربوا و اعلموا أن لن يدخل أحد الجنۀ بعمله// ۲/ ۲۳۵ و ۳/ ۱۹۳ و ۴/ ۱۵۲ سرق يوسف صنما لجده أبى أمه/ ابن عباس/ ۳/ ۵۶ سلوا اللّه الفردوس فإنها سرۀ الجنۀ/ أبو أمامۀ/ ۳/ ۳۷۵ سلوا اللّه لى الوسيلۀ/ أبو هريرۀ/ ۳/ ۲۸۵ سلوا اللّه من فضله فإن اللّه يحب أن يسأل/ ابن مسعود/ ۱/ ۵۳۲ سلونى عمّا شئتم/ ابن عباس/ ۱/ ۱۳۷ سلوه لأى شىء يصنع ذلك/ عائشۀ/ ۵/ ۶۳۱ سمع عبد اللّه بن سلام بمقدم النبى صلّى اللّه عليه و سلم/ أنس/ ۱/ ۱۳۷ سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا قال: و لا الضالين على/ ۱/ ۳۰

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۴۶

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ فى الجمعۀ سورۀ الجمعۀ/ أبو هريرۀ/ ۵/ ۲۶۷ سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو بعرفۀ/ الزبير بن العوام/ ۱/ ۳۷۵ سنّوا بهم سنۀ أهل الكتاب// ۲/ ۱۸ سورۀ البقرۀ فيها آيۀ سيدۀ آى القرآن/ أبو هريرۀ/ ۱/ ۳۱۴ سورۀ فى القرآن خاصمت عن صاحبها/ أنس/ ۵/ ۳۰۷ سورۀ الواقعۀ سورۀ الغنى/ ابن عباس/ ۵/ ۱۷۶ سورۀ يس تدعى فى التوراۀ المعممۀ/ أبو بكر الصديق/ ۴/ ۴۱۱ سيهلك من أمتى أهل الكتاب و أهل اللّين/ عقبۀ بن عامر/ ۳/ ۴۰۳ سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أى البقاع أحبّ إلى اللّه/ أنس/ ۳/ ۴۰۸ سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أىّ القرآن أفضل/ ربيعۀ الحرشى/ ۱/ ۳۳ سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أى الناس أكرم/ أبو هريرۀ/ ۵/ ۸۱ سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن العزم فقال/ على/ ۱/ ۴۵۳ سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن يوم كان مقداره/ أبو سعيد/ ۵/ ۳۴۹ سئل رسول اللّه

حرف الشين

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۷

حرف الصاد

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۸

حرف الضاد

حرف الطاء

طائر كل إنسان فى عنقه/ جابر/ ۳/ ۲۵۷ طلاق الأمة تطليقتان و عدتها حيضتان/ عائشة/ ۱/ ۲۷۰، ۲۷۱، ۲۸۵ طلحة ممن قضى نحبه/ معاوية/ ۴/ ۳۱۵ طوبى لمن آمن بى و رآنى/ أبو سعيد/ ۳/ ۹۹ طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل اللّه/ معاذ/ ۱/ ۳۲۹ طوبى لمن رآنى و آمن بى/ أبو سعيد/ ۱/ ۴۱ طوبى لمن رآنى و آمن بى/ أبو أمامة/ ۱/ ۴۱ الطهور شطر الإيمان، و الحمد للّه/ أبو مالك الأشعرى/ ۱/ ۲۴ و ۱۷۸ الطهور ماؤه و الحل ميتته// ۲/ ۹۱ الطور جبل من جبال الجنة/ كثير بن عبد اللّه/ ۵/ ۱۱۶ الطوفان الموت/ عائشة/ ۲/ ۲۷۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۹

حرف الظاء

ظلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم صائما ثم طوى/ عائشة/ ۴/ ۳۴

حرف العين

عدة أم الولد إذا توفى عنها سيّدها/ عمرو بن العاص/ ۱/ ۲۸۵ عرض علىّ ما هو مفتوح لأمتى بعدى/ ابن عباس/ ۵/ ۵۶۰ علم اللّه آدم فى تلك الأسماء ألف حرفة/ عطية بن بشر/ ۱/ ۷۷ علموا رجالكم سورة المائدة و علموا نساءكم سورة النور/ مجاهد/ ۴/ ۵ علموا نساءكم سورة الواقعة/ أنس/ ۵/ ۱۷۶ عليك بقراءة القرآن و العسل/ واثلة/ ۲/ ۵۱۶ عليكم بالشفاءين العسل و القرآن/ ابن مسعود/ ۳/ ۲۱۳ علىّ خير البرية/ أبو سعيد/ ۵/ ۵۸۱ عمدا فعلته يا عمر/ بريدة/ ۲/ ۲۱ عن نور عظيم فيخرون له سجدا/ أبو موسى/ ۵/ ۳۳۱ العبد يولد مؤمنا و يعيش مؤمنا/ ابن مسعود/ ۵/ ۲۸۱ العدل الفدية/ رجل/ ۱/ ۹۹ العنكبوت شيطان مسخها اللّه/ يزيد بن مرثد/ ۴/ ۲۳۷

حرف الغين

الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل/ ابن مسعود/ ۴/ ۲۷۲ الغىّ واد فى جهنم/ ابن عباس/ ۳/ ۴۰۴

حرف الفاء

فاتحة الكتاب تجزى ما لا يجزى شىء من القرآن/ أبو الدرداء/ ۱/ ۱۹ فاتحة الكتاب تعدل بثلثى القرآن/ ابن عباس/ ۱/ ۱۹ فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم/ أبو سعيد الخدرى/ ۱/ ۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۵۰

فتح القدير ج۶ ۱۰۱

فأخبرنى عن الإيمان/ عمر بن الخطاب/ ۱/ ۴۰ فأكون أول من يرفع رأسه/ أبو هريرة/ ۴/ ۵۴۷ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة/ أبو الدرداء/ ۴/ ۴۰۳ فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه/ عائشة/ ۱/ ۳۶۶ فإنكم أخذتموهن بأمانة اللّه// ۱/ ۵۰۸ فإنى أحكم بما فى التوراة/ أبو هريرة/ ۲/ ۵۱ فصعدت أنا و جبريل إلى السماء الدنيا/ أبو سعيد/ ۵/ ۳۹۸ فضل اللّه قريشا بسبع خصال/ الزبير بن العوام/ ۵/ ۶۰۷ فضل كلام اللّه على سائر الكلام// ۱/ ۱۴ فضلنا الناس بثلاث/ حذيفة/ ۱/ ۵۴۵ فلعله قرأ سورة

البقرة/ جرير بن يزيد/ ۱/ ۳۳ فمن ذكرنى و هو مطيع فحق علىّ أن أذكره بمغفرتى/ أبو هند الدارى/ ۱/ ۱۸۳ فمن فاته حزبه من الليل// ۲/ ۶۰ فمن كانت هجرته إلى اللّه و رسوله فهجرته إلى اللّه و رسوله// ۱/ ۵۸۳ فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام فى الحج/ ابن عمر/ ۱/ ۲۲۷ فى بيض النعام ثمنه/ أبو هريرة/ ۲/ ۹۱ فى الجنة بحر اللّبن و بحر الماء/ معاوية/ ۵/ ۴۳ فى الجنة ثمانية أبواب/ سهل بن سعد/ ۴/ ۵۴۹ فى الصلوات الخمس شغلا للعبادة/ أنس/ ۳/ ۵۱۳ فى قوله بماء كالمهل كعكر الزيت/ أبو سعيد/ ۳/ ۳۳۸ فى قوله تتجافى جنوبهم قيام العبد من الليل/ معاذ بن جبل/ ۴/ ۲۹۴ فى المال حق سوى الزكاة/ فاطمة بنت قيس/ ۱/ ۲۰۱ فهلا بكرا تلاعبها و تلاعبك/ جابر/ ۳/ ۱۲ فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى// ۵/ ۵۵۰ الفردوس ربوة فى الجنة و أوسطها/ أنس/ ۳/ ۵۶۴ الفلق جب فى جهنم/ أبو هريرة/ ۵/ ۴۸۶ و ۶۴۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۵۱

حرف القاف

قاتلهم اللّه ألا سألوا فإنما شفاء العىّ السؤال// ۲/ ۹۳ قاربوا و سددوا ففى كل ما يصاب به المسلم/ أبو هريرة/ ۱/ ۵۹۸ قاربوا و سددوا و أبشروا/ عمران بن حصين/ ۳/ ۵۱۸ قال ابن صوريا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم/ ابن عباس/ ۱/ ۱۴۲ قال ربكم أنا أهل أن أتقى/ أنس/ ۵/ ۴۰۱ قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة/ أبو هريرة/ ۳/ ۳۳۳ قال اللّه عز و جل أنفق يا ابن آدم/ أبو هريرة/ ۴/ ۳۸۱ قال اللّه لأيوب: تدرى ما جرمك على/ عقبة بن عامر/ ۳/ ۵۰۰ قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و نحن بالمدينة/ أبو أيوب/ ۲/ ۳۲۹ قال لى جبريل ما كان على الأرض/ أبو هريرة/ ۲/ ۵۳۶ قالت امرأة: يا رسول اللّه إنى أكون فى بيتى/ عدى بن ثابت/ ۴/ ۲۴- ۲۵ قالت قريش للنبى صلّى اللّه عليه و سلم/ ابن عباس/ ۱/ ۱۸۹ قتال المسلم كفر// ۵/ ۷۵ قتلت بنو إسرئيل ثلاثة و أربعين نبيا/ أبو عبيدة/ ۲/ ۷۶ قتلوه قتلهم اللّه// ۱/ ۵۴۴ قد أفلح من أسلم و رزق كفافا/ ابن عمرو/ ۳/ ۲۳۵ قدم زيد بن أسلم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم// ۴/ ۵۷ قدم على النبى صلّى اللّه عليه و سلم العاقب و السيد/ جابر/ ۱/ ۳۹۹ قرأ رجل سورة الكهف و فى الدار دابة/ البراء/ ۳/ ۳۱۹ قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عام الفتح/ عبد اللّه بن مغفل/ ۵/ ۵۲ قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو على المنبر ص أبو سعيد الخدرى/ ۴/ ۴۹۲ قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و للّه على الناس حج البيت نفيع/ ۱/ ۴۱۹ قرآن الفجر تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار/ أبو هريرة/ ۳/ ۳۰۴ قرآن الفجر تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار/ أبو الدرداء/ ۳/ ۳۰۴ قرصت نملة نبيا من الأنبياء/ أبو هريرة/ ۳/ ۲۷۷ القرن مائة سنة/ أبو سلمة/ ۴/ ۹۱ قصر من لؤلؤة فى الجنة/ عمران بن حصين/ ۲/ ۴۳۵ قصر من لؤلؤة فى الجنة/ أبو هريرة/ ۲/ ۴۳۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۵۲

قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن/ ابن عمر/ ۵/ ۶۱۷ قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن/ ابن عباس/ ۵/ ۵۸۶ قل اللهم اجعل لى عندك عهدا/ البراء/ ۳/ ۴۲۹ قل اللهم صلّ على محمد و على آل محمد/ كعب بن عجرة/ ۴/ ۳۴۸ قل اللهم صلّ على محمد و على آل محمد/ طلحة بن عبيد اللّه/ ۴/ ۳۴۸ قلت يا رسول اللّه أ رأيت آدم نبيا كان/ أبو ذر/ ۱/ ۹۲ قلت يا رسول اللّه إنى أرمى بالمعراض الصيد/ عدى/ ۲/ ۱۱ و ۱۲ قلت: يا رسول اللّه أى مسجد وضع أول/ أبو ذر/ ۱/ ۴۱۷ قلت يا رسول اللّه أى الناس أشد عذابا يوم القيامة/ أبو عبيدة/ ۱/ ۳۷۷ قلت يا رسول اللّه كم الأنبياء؟/ أبو ذر/ ۱/ ۶۲۱ قلت يا رسول اللّه من أول الأنبياء/ أبو ذر/ ۱/ ۸۲ قلوب لاهية و أيدى عليلة/ يحيى بن كثير/ ۲/ ۸۷ قم يا فلان فاخرج فإنك منافق/ ابن عباس/ ۲/ ۴۵۶ قمت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقرأ السبع الطوال/ حذيفة/ ۱/ ۴۷۹ قمت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ليلة/ عوف بن مالك/ ۱/ ۳۴ قولوا اللهم صل على محمد و أزواجه/ أبو حميد الساعدى/ ۴/ ۳۴۹ قومى إلى هذا فعلميه/ عمر بن سعيد الثقفى/ ۴/ ۲۵ قيل لبنى

إسرائيل ادخلوا الباب سجدا/ أبو هريرة/ ١/ ١٠۶ قيل لى: قل، فقلت: قولوا/ زر بن حبيش/ ۵/ ۶۳۶ قيل: يا رسول اللّه أىّ الأديان أحب إلى اللّه/ ابن عباس/ ١/ ١٧٣ القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل/ أبو سعيد/ ١/ ١٣١ القنطار اثنا عشر ألف أوقية/ أبو هريرة/ ١/ ٣٧٢ القنطار ألف أوقية/ أنس/ ١/ ٣٧٢ القنطار ألف أوقية و مائتا أوقية/ أبىّ بن كعب/ ١/ ٣٧٢

فتح القدير، ج۶، ص: ۵۳

حرف الكاف

كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر/ ابن عباس/ ۴/ ١١٩ كان إذا نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الوحى/ عمر بن الخطاب/ ٣/ ۵۶٣ كان جبريل إذا جاءنى بالوحى أول ما يلقى علىّ بسم اللّه/ ابن عمر/ ١/ ٢١ كان ذكره مثل هدبة الثوب/ ابن عمرو/ ١/ ٣٨٩ كان الرجل منهم يأتى إلى الصخرة/ المقدام بن معدى كرب/ ۵/ ۵٣٣ كان رجل يدخل على أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم مخنث/ عائشة/ ۴/ ٣٢ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا توضأ/ جابر/ ٢/ ٢١ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا قام من الليل/ عائشة/ ۴/ ۵٣٧ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بآخرة إذا قام/ أبو برزة/ ۵/ ١٢۴ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بالحديبية/ زيد بن أسلم/ ٢/ ١٠ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى خطبته يحمد اللّه/ جابر/ ٢/ ٣٠۴ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم جالسا فى ظل حجرة/ ابن عباس/ ۵/ ٢٣١ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتعوّذ من عين الجان/ أبو سعيد/ ۵/ ۶٣۶ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتكفّأ فى مشيه// ۴/ ٩٩ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم/ ابن عباس/ ١/ ٢٠ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يحاصر أهل وادى القرى/ عبد اللّه بن شقيق/ ١/ ٣٠ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يحب هذه السورة سبح اسم ربك علىّ/ ۵/ ۵١٣ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يسجد فى النجم بمكة/ ابن عباس/ ۵/ ١٢۵ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يستلم الحجر/ سعيد بن جبير/ ٣/ ٢٩۶ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يصوم حتى نقول/ عائشة/ ۴/ ۵١۴ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يعلم الغلام من بنى هاشم/ عبد الكريم بن أبى أمية/ ٣/ ٣١٨ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يعلّمنا كلمات نقولهن عند اللزوم/ عبد اللّه بن عمرو/ ٣/ ۵٨٩ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يفتتح الصلاة بالتكبير و القراءة و الحمد/ عائشة/ ١/ ٢٠ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقطع قراءته/ أم سلمة/ ١/ ٢٠ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة/ أبو هريرة/ ۵/ ٢٧۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۵۴

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يكبر أيام التشريق/ الزهرى/ ١/ ٢٣٨ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لا ينام حتى يقرأ المسبحات/ يحيى بن أبى كثير/ ۵/ ١٩٨ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: قد أفلح من تزكى/ أبو سعيد/ ۵/ ۵١٨ كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوتر بسبح/ أبىّ بن كعب/ ۵/ ۵١٣ و ۶١٧ كان زكريا نجارا/ أبو هريرة/ ٣/ ٣٨۴ كان سليمان إذا صلّى رأى شجرة/ ابن عباس/ ۴/ ٣۶۶ كان على النصارى صوم شهر رمضان/ معقل بن حنظلة/ ١/ ٢٠٨ كان فرعون عدو اللّه حيث أغرقه اللّه/ ابن عباس/ ۴/ ١١٩ كان فيمن خلا من إخوانى من الأنبياء/ أنس/ ١/ ۶٢١ كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد/ ابن مسعود/ ١/ ٣۶۶ كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع/ ابن عمرو/ ٣/ ۵٠١ كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم/ صهيب/ ۵/ ۵٠۵ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم إذا أصابت أهله خصاصة/ ثابت/ ٣/ ۴۶٨ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة/ حذيفة/ ١/ ٩۵ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم إذا نزلت بأهله شدة/ عبد اللّه بن سلام/ ٣/ ۴۶٨ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى سفر/ البراء/ ۵/ ۵۶۶ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يصلى حتى ترم قدماه/ المغيرة

بن شعبة/ ۵/ ۵۵ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ فى الظهر و العصر و الليل إذا يغشى جابر بن سمرة/ ۵/ ۵۵۰ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة/ ابن عباس/ ۴/ ۴۱۶ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يقرأ فى الوتر/ عائشة/ ۵/ ۵۱۳ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يتوضأ ثم يقبل ثم يصلى و لا يتوضأ/ عائشة/ ۱/ ۵۴۳ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يتوضأ عند كل صلاة/ بريدة/ ۲/ ۲۱ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يصلّى على راحلته تطوعا أينما توجهت به/ ابن عمر/ ۱/ ۱۵۴ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول/ عائشة/ ۱/ ۶۲۲ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم يقص أو يأخذ من شاربه// ۱/ ۱۶۲ كان النبى صلّى اللّه عليه و سلم لا- ينام حتى يقرأ/ جابر/ ۴/ ۲۸۴ كان نبى من أنبياء اللّه يخط/ أبو هريرة/ ۵/ ۹۱ كان نوح مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما/ عائشة/ ۲/ ۵۶۸ كان يقرأ فى الظهر بسبح اسم ربك/ جابر بن سمرة/ ۵/ ۵۱۳ كانت امرأة تصلى خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ ابن عباس/ ۳/ ۱۵۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۵۵

كانت الأعراب إذا قدموا على النبى/ عائشة/ ۵/ ۴۶۱ كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم/ أبو سعيد/ ۲/ ۳۴ كانت قراءته صلّى اللّه عليه و سلم مدّا/ أنس/ ۱/ ۲۰ كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل/ أم هانئ/ ۴/ ۲۳۴ كأنى أراكم بالكوم دون جهنم// ۵/ ۱۴ كأن أعينهم البرق/ ابن عباس/ ۵/ ۳۹۸ كتب اللّه على ابن آدم حظه من الزنا/ أبو هريرة/ ۴/ ۳۰ كذب أعداء اللّه ما من شىء كان فى الجاهلية/ سعيد بن جبير/ ۱/ ۴۰۶ كذبت يهود، ما من نسمة/ ثابت بن الحارث/ ۵/ ۱۳۹ كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها/ عكرمة/ ۱/ ۱۲۵ كذبنى ابن آدم و شتمنى/ ابن عباس/ ۱/ ۱۵۶ كرسيه موضع قدمه/ ابن عباس/ ۱/ ۳۱۳ كفّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بصاع من تمر/ ابن عباس/ ۲/ ۸۲ كفّر عن يمينك/ مالك الجشمى/ ۱/ ۲۶۶ كفى بالسيف شا// ۱/ ۳۵ كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا/ يحيى بن جعدة/ ۴/ ۲۴۱ كل أمتى تدخل الجنة/ أبو هريرة/ ۵/ ۵۵۴ كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد اللّه فهو أقطع/ أبو هريرة/ ۱/ ۲۴ كل أهل النار يرى منزله من الجنة/ أبو هريرة/ ۲/ ۲۳۶ كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت/ أبو سعيد/ ۱/ ۱۵۷ كل حلف كان فى الجاهلية أو عقد// ۱/ ۵۳۳ كل سبب و نسب منقطع يوم القيامة/ عمر بن الخطاب/ ۳/ ۵۹۵ كل شىء بقدر حتى العجز و الكيس/ ابن عمر/ ۵/ ۱۵۶ كل عمل ابن آدم يضاعف/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۲۹ كل فلعمرى من أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق/ خارجة بن الصلت/ ۱/ ۱۹ كل قرآن يوضع عن أهل الجنة/ أبو أمامة/ ۳/ ۴۲۰ كل معروف صدقة و إن من المعروف// ۱/ ۵۹۴ كل من مال يتيمك غير مسرف/ ابن عمر/ ۱/ ۴۹۲ كل مولود يولد على الفطرة/ جابر/ ۴/ ۲۶۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۵۶

كل نسب و صهر ينقطع يوم القيامة/ ابن عمر/ ۳/ ۵۹۵ كلام ابن آدم كله عليه لا- له إلا أمرا بمعروف/ أم حبيبة/ ۱/ ۵۹۴ كلما أنفق العبد من نفقة فعلى اللّه/ جابر/ ۴/ ۳۸۱ كلمتان قالهما فرعون/ ابن عباس/ ۴/ ۲۰۱ كلهم من هذه الأمة و كلهم فى الجنة/ أسامة بن زيد/ ۴/ ۴۰۴ كلوا و اشربوا و تصدقوا و البسوا/ عبد اللّه بن عمرو/ ۲/ ۲۳۰ كما تكونون كذلك يؤمر عليكم/ أبو إسحاق/ ۲/ ۱۸۶ كمل من الرجال كثير و لم يكمل من النساء إلا مريم/ أبو موسى/ ۱/ ۳۹۰ و ۵/ ۳۰۶ كنا جلوسا عند النبى حين نزلت سورة الجمعة/ أبو هريرة/ ۵/ ۲۶۹ كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال أ يعجز أحدكم/ سعد بن أبى وقاص/ ۴/ ۳۳۲ كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى سفر/ أنس/ ۴/ ۴۷۳ كنا عند النبى صلّى اللّه عليه و سلم فضحك حتى بدت/ أنس/ ۴/ ۴۷۳ كنت أمشى مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى خرب المدينة/ ابن مسعود/ ۳/ ۳۰۶ كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ أبو سعيد/ ۲/ ۳۴۳ كنت أقوم مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى الليل/ عائشة/ ۱/ ۳۴ كنت مع النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى المسجد عند غروب الشمس/ أبو ذر/ ۴/ ۴۲۵ كنديّان أو مذحجيّان/ أبو عبد الرحمن

الجهنی/ ۱/ ۴۱ کیف أنعم و صاحب القرن قد التقم القرن/ ابن عباس/ ۱/ ۴۶۱ کیف بالغضب یا ربّ/ ابن زید/ ۲/ ۳۲۱ الکبائر الإشراک باللّه/ ابن عمرو/ ۱/ ۵۲۹ الکرامهٔ: الأکل بالأصابع/ جابر/ ۳/ ۲۹۳ الکلب الأسود شیطان// ۲/ ۱۶ الکلمهٔ الطیبهٔ صدقهٔ، و إن من المعروف// ۱/ ۳۲۶ الکوثر نهر فی الجنهٔ/ ابن عمر/ ۵/ ۶۱۵

فتح القدیر، ج۶، ص: ۵۷

حرف لا

لا أحد أغیر من اللّه، من أجل ذلک حرم الفواحش/ ابن مسعود/ ۱/ ۶۲۱ لا أسألکم علیه أجرا إلا أن تودونی/ سعید بن جبیر/ ۴/ ۶۱۴ لا- إله إلا اللّه/ أنس/ ۲/ ۱۷۸ لا إله إلا اللّه بـذلک بعثت// ۲/ ۱۲۱ لا إله إلا اللّه، ویل للعرب من شر قد اقترب/ زینب بنت جحش/ ۵/ ۳۷۲ لا تبیعوا القینات و لا تشتروهن/ أبو أمامهٔ/ ۴/ ۲۷۲ لا تتبع النظرهٔ النظرهٔ/ بریدهٔ/ ۴/ ۳۰ لا- تتعلمها و آمن بها، و تعلموا/ عمر بن الخطاب/ ۴/ ۲۴۱ لا- تحتجموا یوم الثلاثاء/ جابر/ ۵/ ۱۹۸ لا- تجعلوا بیوتکم مقابر/ أبو هریرهٔ/ ۱/ ۳۲ لا تحدثن شیئا حتی آتیک/ ابن مسعود/ ۵/ ۳۷۶ لا تحدثی أحدا، و إن أم إبراهیم/ ابن عمر/ ۵/ ۳۰۰ لا تحل الصدقهٔ لغنی إلا لخمسهٔ/ أبو سعید/ ۲/ ۴۲۷- ۴۲۸ لا- تحل الصدقهٔ لغنی و لا لـذی مرّهٔ سوی/ ابن عمر/ ۲/ ۴۲۸ لا تخادع اللّه/ رجل من الصحابهٔ/ ۱/ ۴۹ لا تخن/ أم سلمهٔ/ ۵/ ۲۵۹ لا- تخیروا بین الأنبیاء/ أبو هریرهٔ/ ۱/ ۳۰۸ لا تـدخلوا علی هؤلاء القوم/ ابن عمر/ ۳/ ۱۶۹ لا تدخلوا علی هؤلاء المعـذبین/ ابن عمر/ ۲/ ۲۵۲ لا تزال أمتی بخیر ما لم یتخـذوا فی مساجـدهم مذابـح// ۱/ ۳۸۹ لا- تزال جهنم یلقی فیها و تقول/ أنس/ ۵/ ۹۴ لا تزال طائفهٔ من أمتی علی الحق ظاهرین/ النعمان بن بشـیر/ ۱/ ۳۹۷ لا- تسأل المرأهٔ زوجها الطلاق فی غیر کنهه/ ابن عباس/ ۱/ ۲۷۶ لا تسألوا أهل الکتاب عن شـیء/ جابر/ ۴/ ۲۳۸ لا تسألوا أهل الکتاب فإن کنتم سائلیهم/ ابن مسـعود/ ۴/ ۲۳۸ لا تسبّوا أصحابی فوالذی نفسی بیده/ أنس/ ۵/ ۲۰۳ لا تسبوا تبعا فإنه قد أسلم// ۴/ ۶۶۱

فتح القدیر، ج۶، ص: ۵۸

لا تصـدقوا أهل الکتاب و لا تکذبوهم// ۱/ ۱۷۳ لا تضع الحرب أوزارها/ سـلمهٔ بن نفیل/ ۵/ ۴۰ لا تطرونی کما أطرت النصاری عیسـی بن مریم/ عمر/ ۱/ ۶۲۴ لا تعجزوا عن الـدعاء/ علیّ/ ۱/ ۲۱۳ لا تفضـلونی علی الأنبیاء/ أبو هریرهٔ/ ۱/ ۳۰۸ لا تقتل نفس ظلما إلا کان علی ابن آدم الأول کفل/ ابن مسـعود/ ۲/ ۳۸ لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسـماء اللّه/ أبو هریرهٔ/ ۱/ ۲۱۱ لا تقوم الساعهٔ حتی تروا عشر آیات/ حذیفهٔ/ ۴/ ۱۷۶ لا تقوم الساعهٔ حتی تطلع الشمس من مغربها/ أبو هریرهٔ/ ۲/ ۲۰۷ لا تقولوا سورهٔ البقرهٔ و لا سورهٔ آل عمران/ أنس/ ۱/ ۳۴ لا تقولوا سورهٔ البقرهٔ و لکن قولوا/ ابن عمر/ ۱/ ۳۴ لا تقولوا للعنب الکرم و لکن قولوا// ۱/ ۱۴۶ لا- تقولوا ما شاء اللّه و شاء فلان/ حذیفـهٔ بن الیمان/ ۱/ ۶۲ لا- تکثروا الکلام بغیر ذکر اللّه/ ابن عمر/ ۴/ ۵۲۸ لا تکونوا عونا للشـیطان علی أخیکم// ۱/ ۱۸۷ لا- تلقنوا الناس فیکـذبوا/ ابن عمر/ ۳/ ۱۴ لا- تمس القرآن إلا- علی طهر/ عمرو بن حزم/ ۵/ ۱۹۶ لا تمنعوا الماعون/ قرهٔ بن دعموص/ ۵/ ۶۱۲ لا تنزلوهن الغرف و لا تعلموهن الکتابهٔ/ عائشهٔ/ ۴/ ۵ لا حتی تذوقی عسـیلته و یذوق عسـیلتک/ عائشهٔ/ ۱/ ۲۷۷ لا- حسـد إلا فی اثنتین// ۱/ ۵۳۰ لا- خیر فی دین لیس فیه رکـوع// ۵/ ۴۳۶ لا طاعهٔ لمخلوق فی معصـیهٔ اللّه/ عمران بن حصین/ ۱/ ۱۶۳ لا طاعـهٔ إلا فی معروف/ علیّ/ ۱/ ۱۶۳ لا طلاق إلا بعـد نکاح// ۴/ ۳۳۸ لا فکرهٔ فی الرب/ أبیّ بـن کعب/ ۵/ ۱۳۹ لا نـذر و لا یمین فیما لا یملک ابن آدم/ عبـد اللّه بن عمرو/ ۱/ ۲۶۶ لا نذر فی معصیهٔ// ۱/ ۳۳۹ لا وصیهٔ لوارث// ۱/ ۲۰۵ لا و لکن أکرموا بنیکم و اعرفوا الحق لأهله/ الحسن البصری/ ۱/ ۴۰۸

فتح القدیر، ج۶، ص: ۵۹

لا و لکنه الرجل یصوم و یتصدق و یصـلی/ عائشهٔ/ ۳/ ۵۸۲ لا و اللّه لا یعـذب اللّه حبیبه/ الحسن/ ۲/ ۳۰ لا یبقی بر و لا فاجر إلا

دخلها/ جابر/ ۳/ ۴۰۹ لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين/ عطية السعدى/ ۱/ ۴۰ لا يتلوكن عبد دبر كل صلاة مكتوبة/ أبو أيوب/ ۱/ ۳۷۵ لا يتوارث أهل ملتان/ أسامة/ ۲/ ۳۷۷ لا يجمع اللّه بين هذه الأمة على الضلالة أبدا/ ابن عمر/ ۱/ ۵۹۵ لا يحجّنّ بعد العام مشرك// ۲/ ۸ لا يحق العبد حقّ صريح الإيمان حتى يحبّ للّه و يبغض للّه/ عمرو بن الجموح/ ۲/ ۵۲۱ لا يحرم الحرام الحلال// ۴/ ۵۱۴ لا يحل لامرأة تؤمن باللّه و اليوم الآخر أن تحد على ميت// ۱/ ۲۸۶ لا يخرج رجلان يضربان الغائط// ۱/ ۵۷۸ لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر/ ابن مسعود/ ۳/ ۱۹۰ لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك/ جابر/ ۲/ ۴۰۱ لا يدخل النار أحد شهد بدرا و الحديبية/ أم بشر/ ۳/ ۴۰۹ لا يدخل النار إلا شقى/ أبو هريرة/ ۵/ ۵۵۴ لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن// ۱/ ۱۲۱ لا- يزال الناس يسألون عن كل شىء/ ابن عمر/ ۵/ ۲۰۰ لا يزال الناس يسألون عن كل شىء/ أبو سعيد/ ۵/ ۲۰۰ لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها/ أبو موسى/ ۴/ ۶۲۱ لا- يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى// ۱/ ۳۰۸ لا يقولن أحدكم زرعت// ۵/ ۱۹۱ لا يقولن أحدكم عبدى و أمتى// ۱/ ۵۱۹ لا- يقيم الرجل الرجل من مجلسه/ ابن عمر/ ۵/ ۲۲۶ لا يمسّ القرآن إلا- طاهر/ ابن عمر/ ۵/ ۱۹۶ لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار// ۳/ ۴۱۰ لا- يموتن أحدكم إلا و هو يحسن الظن باللّه/ جابر/ ۴/ ۵۸۸ لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى/ ابن عباس/ ۳/ ۵۰۲ لا ينفع حذر من قدر/ معاذ/ ۴/ ۵۷۲

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۶۰

لا ينظر اللّه إلى رجل نظر إلى فرج امرأة و ابنتها// ۱/ ۵۱۴ لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله/ أبو هريرة/ ۴/ ۹

حرف اللام

لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن/ أبو سعيد بن المعلا/ ۱/ ۱۸ لأن أمتع بسوط فى سبيل اللّه/ عائشة/ ۵/ ۵۴۴ لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم/ أبو هريرة/ ۵/ ۲۷۲ لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا/ أبو سعيد/ ۴/ ۱۴۲ لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا/ أبو هريرة/ ۴/ ۱۴۳ لتدخلن الجنة إلا من يأبى/ أبو هريرة/ ۵/ ۵۵۴ لتقومنّ الساعة و قد نشر الرجلان ثوبهما/ أبو هريرة/ ۴/ ۴۳۰ لتلبسها أختها من جلبابها/ أم عطية/ ۴/ ۳۴۹ لعلاقة سوط فى سبيل اللّه/ ابن عباس/ ۵/ ۵۴۴ لعن اللّه العقرب لا تدع مصلّيا/ علىّ/ ۵/ ۶۳۷ لعن النبى صلّى اللّه عليه و سلم المحلّل و المحلّل له/ ابن مسعود/ ۱/ ۲۷۷ لقد أنزلت علىّ سورة لهى أحبّ إلى/ زيد بن أسلم/ ۵/ ۵۲ لقد أنزلت علىّ آية هى أحب/ أنس/ ۵/ ۵۲ لقد أنزلت علىّ آية هى أحب/ أنس/ ۵/ ۵۶ لقد أوذيت فى اللّه و ما يؤذى أحد/ أنس/ ۴/ ۲۲۵، ۲۲۶ لقد حكمت فيهم بحكم اللّه/ عائشة/ ۴/ ۳۱۷ لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق/ جابر/ ۲/ ۱۱۱ لقد صدق اللّه قولك يا زيد/ زيد بن الأرقم/ ۵/ ۷۳ لقد عجب اللّه الليلة من فلان/ أبو هريرة/ ۵/ ۲۴۱ لقد عجبت من يوسف و كرمه و صبره/ عكرمة/ ۳/ ۴۰ لقى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أبا جهل/ عكرمة/ ۴/ ۶۶۴ لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة/ ابن مسعود/ ۱/ ۳۲۸ لكل شىء عروس و عروس القرآن الرحمن/ علىّ/ ۵/ ۱۵۷ لكل نبى حوارىّ و حواريى الزبير/ ۱/ ۳۹۵

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۶۱

لكنى أصوم و أفطر و أنام/ ابن عباس/ ۲/ ۸۱ للّه تسعة و تسعون اسما/ ابن عباس/ ۲/ ۳۰۸ للّه تسعة و تسعون اسما/ ابن عمر/ ۲/ ۳۰۸ لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس// ۱/ ۱۱۲ لم تقصر و لم أنس/ ذو اليدين/ ۱/ ۳۲۰ لم تكن نبوة قط إلا تناسخت// ۱/ ۱۴۷ لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة// ۱/ ۳۹۳ لم يتكلم فى المهد إلا عيسى و شاهد يوسف/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۹۳ لم يجئ تأويلها، لا يجئ تأويلها/ أبو سعيد/ ۲/ ۹۷ لم يكذب إبراهيم فى شىء قط إلا فى ثلاث/ أبو هريرة/ ۳/ ۴۹۱ لما أصيب إخوانكم بأحد جعل اللّه أرواحهم/ ابن عباس/ ۱/ ۴۶۱ لما أقرأ جبريل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فاتحة الكتاب/ أبو ميسرة/ ۱/ ۳۰ لما أهبط اللّه آدم إلى الأرض قام و جاء الكعبة/ عائشة/ ۱/ ۸۵ لما تجلّى اللّه للجبل طارت لعظمته ستة أجبل/ أنس/ ۲/ ۲۸۰ لما تزوّج رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلم زينب بنت جحش/ أنس/ ۴/ ۳۴۴ لما توفى عبد اللّه بن أبى دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم للصلاة عليه/ عمر/ ۲/ ۴۴۳ لما خلق اللّه الجنة قال لها: تكلمى/ أنس/ ۳/ ۵۶۱ لما خلق اللّه الخلق و قضى القضية/ أبو أمامة/ ۲/ ۳۰۱ لما رجع صلّى اللّه عليه و سلم من الحديبية قال يا علىّ أشعرت/ أبو سلمة/ ۲/ ۵ لما سار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم معتمرا فى سنة ست/ ابن عباس/ ۱/ ۲۲۱ لما طاف النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال له عمر:/ جابر/ ۱/ ۱۶۴ لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة/ جابر/ ۱/ ۲۹۹ لما فتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مكة التفت إلى الناس/ عبد اللّه بن عمرو/ ۳/ ۶۵ لما فرغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوم أحد مر على مصعب/ أبو ذر/ ۴/ ۳۱۵ لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم المدينة// ۲/ ۴۷۸ لما قرأ النبى صلّى اللّه عليه و سلم على عتبة بن ربيعة حم/ ابن عمر/ ۴/ ۵۷۸ لما قضى اللّه الخلق كتب فى كتاب على نفسه/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۹ لما قضى اللّه الخلق كتب كتابا فوضعه عنده// ۱/ ۱۲۱ لما كان يوم فتح مكة أمن النبى صلّى اللّه عليه و سلم الناس/ سعد/ ۴/ ۵۵۸

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۶۲

لما كلم اللّه موسى يوم الطور/ جابر/ ۲/ ۲۷۹ لما مات عثمان بن مظعون قلت: رحمك اللّه/ أم العلاء/ ۵/ ۱۹ لما نزل عذرى قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على المنبر فذكر ذلك/ عائشة/ ۴/ ۱۸ لما أنزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم هذه الآية و تعزّروه جابر/ ۵/ ۵۹ لما نزلت هذه الآية إنك ميّت على بن أبى طالب/ ۴/ ۲۴۵ لما نزلت هذه الآية و أنذر عشيرتك دعا رسول اللّه/ أبو هريرة/ ۴/ ۱۴۱ لما نظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى حمزة/ سعد بن عبادة/ ۳/ ۳۲۰ لما وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى القبلة/ ابن عباس/ ۱/ ۱۷۷ لما ولدت حواء طاف بها إبليس/ سمرة/ ۲/ ۳۱۴- ۳۱۵ لن يدخل أحد الجنة بعمله// ۱/ ۴۲۴ لن يغلب عسر يسرين/ الحسن/ ۵/ ۵۶۵ لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها فى عينك/ سهل بن سعد/ ۴/ ۲۵ لو أن أحدكم يعمل فى صخرة/ أبو سعيد/ ۲/ ۴۵۸ لو أن الإنس و الجن و الملائكة/ أبو سعيد/ ۲/ ۱۶۹ لو أن دلوا من غسّاق يهرق/ أبو سعيد/ ۴/ ۵۰۹ لو أن دلوا من غسلين/ أبو سعيد/ ۵/ ۳۴۳ لو أن الدنيا كلها بحذافيرها فى يد رجل/ أنس/ ۱/ ۲۴ لو أن رجلا عمل عملا فى صخرة صمّاء/ أبو سعيد/ ۱/ ۱۱۹ لو أن رجلا همّ فيه بإلحاد و هو بعدن/ ابن مسعود/ ۳/ ۵۳۳ لو أن رصاصة مثل هذه أرسلت/ ابن عمرو/ ۴/ ۵۷۶ لو أن صخرة زنة عشر أواق/ أبو أمامة/ ۴/ ۴۰۴ لو أن مقمعا من حديد وضع فى الأرض/ أبو سعيد الخدرى/ ۳/ ۵۲۸ لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا/ ابن عباس/ ۱/ ۱۳۶ لو أنكم توكلتم على اللّه حق توكله/ عمر/ ۵/ ۲۹۲ لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغى منهما/ ابن عباس/ ۲/ ۴۹۶ لو جاء العسر فدخل هذا الجحر/ أنس/ ۵/ ۵۶۵ لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم/ أبو هريرة/ ۲/ ۸۶ لو دنا منى لاختطفته/ أبو هريرة/ ۵/ ۵۷۳ لو علم اللّه شيئا من العقوق أدنى من أف لحرّمه/ الحسن بن على/ ۳/ ۲۶۳

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۶۳

لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون فى النار/ ابن مسعود/ ۱/ ۶۶ لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس/ قيس بن سعد/ ۵/ ۲۷۰ لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به/ أبو هريرة/ ۵/ ۲۶۹ لو كان العسر فى جحر/ ابن مسعود/ ۵/ ۲۶۵ لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة/ سهل بن سعد/ ۴/ ۶۳۶ لو لم يقل يوسف الكلمة التى قال، ما لبث/ ابن عباس/ ۳/ ۳۶ لو لم ينزل على أمتى إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم/ أبو حكيم/ ۳/ ۳۷۸ لو نزل موسى ما تبعتموه و تركتمونى/ عبد اللّه بن الحارث/ ۴/ ۲۴۱ لو يعلم المؤمن ما عند اللّه من العقوبة/ أبو هريرة/ ۱/ ۲۶ لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى/ ابن عباس/ ۴/ ۴۱۲، ۳۰۷ لو لا أن بنى إسرائيل قالوا و إنا إن شاء اللّه لمهتدون/ أبو هريرة/ ۱/ ۱۱۷ لو لا بنو إسرائيل لم يختر اللحم/ أبو هريرة/ ۱/ ۸۴ لو لا عفو اللّه و تجاوزه ما هنأ لأحد العيش/ سعيد بن المسيب/ ۳/ ۸۴ ليت شعرى ما فعل أبواى/ محمد بن كعب/ ۱/ ۱۵۸ ليراجعها ثم يمسكها

فتح القدير، ج۶، ص: ۶۴

حرف الميم

فتح القدير، ج۶، ص: ۶۵

يوم القيامة// ۲/ ۱۳۱ ما من داع دعا إلى شىء إلا كان موقوفا معه/ أنس/ ۴/ ۴۵۳ ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم/ أبو بكر/ ۱/ ۴۳۸ ما من زرع على الأرض و لا ثمار/ ابن عمر/ ۲/ ۱۴۱ ما من ساعة من ليل و لا نهار إلا و السماء تمطر/ المطلب بن حنطب/ ۱/ ۶۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۶۶

ما من شىء أكرم على اللّه يوم القيامة/ ابن عمرو/ ۳/ ۲۹۲ ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده/ معاوية/ ۴/ ۶۲۱ ما من صاحب ذهب و لا فضة لا يؤدى زكاتها/ أبو هريرة/ ۲/ ۴۰۸ ما من صدقة أحب إلى اللّه من قول الحق/ عمرو بن دينار/ ۱/ ۳۲۹ ما من عبد تشهد له أمة/ أنس/ ۳/ ۲۴۴ و ۲۴۵ ما من عبد سبّح تسبيحة إلا سبح ما خلق اللّه من شىء/ أبو أمامة/ ۳/ ۲۷۷ ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة/ سلمان/ ۳/ ۲۶۲ ما من عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد/ جابر/ ۱/ ۲۴ ما من غداة من غدوات الجنة و كل الجنة غدوات/ أبو هريرة/ ۳/ ۲۰۴ ما من مسلم يدعو اللّه بدعوة ليس فيها إثم/ أبو سعيد/ ۱/ ۲۱۳ ما من مسلم يرد عن عرض أخيه/ أبو الدرداء/ ۴/ ۲۶۸ ما من مسلم يصاب بشىء فى جسده/ أبو الدرداء/ ۲/ ۵۶ ما من مولود يولد إلا مكتوب فى تشبيك رأسه/ ابن عمر/ ۵/ ۲۸۰ ما من مولود إلا- و الشيطان يمسه/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۸۵ ما من مولود إلا يولد على الفطرة/ أبو هريرة/ ۴/ ۲۵۸ ما من مولود إلا يولد على هذه الملة/ أبو هريرة/ ۴/ ۲۵۸ ما من مؤمن إلا و أنا أولى الناس به/ أبو هريرة/ ۴/ ۳۰۳ ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر/ أبو هريرة/ ۱/ ۶۳ ما من يوم طلعت شمسه إلا وكّل بجنبتيها ملكان/ أبو الدرداء/ ۲/ ۵۰۱ ما من يوم يصبح العباد فيه إلا و ملكان/ أبو هريرة/ ۴/ ۳۸۱ ما منكم من أحد إلا و قد كتب مقعده/ على/ ۵/ ۵۵۴ ما نزلت حتى اشتقت إليك/ الشعبى/ ۲/ ۳۲۰ ما هذا يا جبريل؟/ ابن عباس/ ۱/ ۱۰۰ ما هذا اليوم؟/ أبو سعيد/ ۵/ ۵۲۵ ما هذه النجوى؟/ على/ ۵/ ۶۱۵ ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى؟/ عبد اللّه بن رواحة/ ۱/ ۲۵۸ ما هى يا عبد اللّه؟// ۲/ ۵ المائدة من آخر القرآن تنزيلا/ ابن عمرو/ ۵/ ۵۸۵ ما يبكيك يا أبا بكر؟/ ابن عباس/ ۳/ ۴۰۸ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟/ أبو جمعة الأنصارى/ ۱/ ۴۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۶۷

ما يمنعكم من ذلك و رسول اللّه بين أظهركم؟/ زيد بن أبى أوفى/ ۳/ ۱۶۴ مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلى/ جندب بن عبد اللّه/ ۱/ ۹۵ مثل العالم الذى يعلم الناس الخير/ أبو رافع/ ۱/ ۷۸ مثلت لى أمتى فى الماء و الطين/ جابر/ ۴/ ۳۳۰ مثلى و مثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى/ جابر/ ۴/ ۳۳۰ مثلى و مثل النبيين كمثل رجل/ أبو سعيد/ ۴/ ۳۳۰ مر أبو ياسر بن أخطب فى رجال من يهود برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ جابر/ ۱/ ۳۶ مر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بقوم ينتصلون/ الحسن/ ۱/ ۲۶۶ مر الملأ من قريش على النبى صلّى اللّه عليه و سلم و عنده صهيب و عمار// ۲/ ۱۳۸ مر النبى صلّى اللّه عليه و سلم على أبى سفيان و أبى جهل و هما يتحدثان/ السدى/ ۳/ ۴۸۴ مر النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى نفر من أصحابه و صبىّ فى الطريق/ أنس/ ۲/ ۳۱ مره فليراجعها ثم ليمسكها/ ابن عمر/ ۱/ ۲۷۰ مروا بجنازة فأثنى عليها خيرا/ أنس/ ۱/ ۱۷۶ و ۱۷۷ مروا بالمعروف و انهوا عن المنكر// ۲/ ۹۷ مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم/ علىّ/ ۱/ ۴۵۳ معاذ اللّه أن نعبد غير اللّه أو نأمر بعبادة غيره/ ابن عباس/ ۱/ ۴۰۸ مع كل إنسان ملك إذا نام/ ابن عباس/ ۲/ ۱۴۲ مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه/ ابن عمر/ ۲/ ۱۴۱ و ۴/ ۲۸۳ مكة مباحة لا تؤجر بيوتها/ ابن عمر/ ۳/ ۵۳۳ ملعون من أتى امرأته فى دبرها/ أبو هريرة/ ۱/ ۲۶۲ ملعون من سبّ والديه// ۲/ ۱۷۲ من اتّبع كتاب اللّه هداه اللّه من الضلالة/ ابن عباس/ ۴/ ۴۶۴ من استرجع عند المصيبة جبر اللّه مصيبته// ۱/ ۱۸۵ من استنّ خيرا فاستنّ به/ حذيفة/ ۵/ ۴۸۱ من اشتكى ضرسه فليضع إصبعه/ ابن عباس/ ۵/ ۳۱۷ من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة/ ابن عباس/ ۲/ ۱۶۶ من آتاه اللّه مالا فلم يؤد زكاته/ أبو هريرة/ ۱/ ۴۶۴ من أبلى بلاء فذكره فقد شكره/ جابر/ ۴/ ۵۶۱ من أتى كاهنا أو ساحرا و صدّقه/ ابن

مسعود/ ۱/ ۱۴۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۶۸

من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر// ۲/ ۱۴۰ من أحبّ أن يتمثل له الناس صفوفا/ قتادة/ ۴/ ۴۹۴ من أخذ السّبع الأول من القرآن فهو خير/ عائشة/ ۱/ ۳۳ من أخذ السّبع فهو خير/ عائشة/ ۱/ ۳۳ من أخذ شبرا من الأرض/ سعيد بن زيد/ ۵/ ۲۹۵ من أخذ شبرا من الأرض ظلما/ عائشة/ ۱/ ۷۲ من أخذ شبرا من الأرض ظلما/ سعيد بن زيد/ ۱/ ۷۲ من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرّني/ ابن عباس/ ۳/ ۴۱۷ من أراد أن ينام على فراشه من الليل/ أنس/ ۵/ ۶۳۱ من أرسل بنفقة فى سبيل اللّه و أقام فى بيته/ عمران بن حصين/ ۱/ ۳۲۹ من أسلف فى تمر فليسلف فى كيل معلوم// ۱/ ۳۴۴ من أصبح منكم معافى فى جسده// ۲/ ۳۴ من أطاق الحج فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا/ عمر/ ۱/ ۴۱۸ من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة// ۱/ ۳۵ من أعتق رقبة مؤمنة/ أبو هريرة/ ۵/ ۵۴۴ من أعطى عطاء فوجد فليجز به/ جابر/ ۵/ ۵۶۱ من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا/ ابن عمر/ ۳/ ۵۳۳ من ألهم خمسة لم يحرم خمسة/ أنس/ ۳/ ۱۱۸ من أنفق نفقة فى سبيل اللّه كتب له/ خريم/ ۱/ ۳۲۹ من أهل النار؟/ أبو هريرة/ ۱/ ۱۲۵ من أولى معروفا فليكافئ به/ عائشة/ ۵/ ۵۶۱ من بثّ لم يصبر/ مسلم بن يسار/ ۳/ ۶۱ من بدا جفا، و من اتبع الصيد غفل/ أبو هريرة/ ۲/ ۴۵۳ من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى/ واثلة بن الأسقع/ ۴/ ۶۲۶ من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه// ۱/ ۱۷۰ من بلغه القرآن فكأنما رأى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلم/ محمد بن كعب/ ۲/ ۱۲۲ من بلغه القرآن فكأنما شافهته به/ ابن عباس/ ۲/ ۱۲۲ من ترك المراء و لو محقّا// ۱/ ۴۰۰ من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۴۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۶۹

من تطيّر أو تطيّر له أو تكهن/ عمران بن حصين/ ۱/ ۱۴۴ من تعلم من السحر قليلا أو كثيرا/ صفوان بن سليم/ ۱/ ۱۴۴ من تعوّذ باللّه من الشيطان ثلاث مرات/ أبو أمامة/ ۵/ ۲۴۸ من جاء بالحسنة يعنى بشهادة أن لا إله إلا اللّه/ كعب بن عجرة/ ۴/ ۱۸۱ من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة/ أبو هريرة/ ۳/ ۴۱۷ من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه/ أبو هريرة/ ۵/ ۱۲۴ من حرس من وراء المسلمين فى سبيل اللّه متطوعا/ معاذ/ ۳/ ۴۱۰ من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف/ أبو الدرداء/ ۳/ ۳۱۹ من حلف على شيء فرأى غيره خيرا منه// ۱/ ۲۶۸ من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها// ۱/ ۲۶۵ و ۳/ ۲۲۸ من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية/ عائشة/ ۱/ ۲۶۵ من حلف على يمين هو فيها فاجر/ ابن مسعود/ ۱/ ۴۰۶ من حلف على فليحلف برب الكعبة/ قتيلة بنت صيفى/ ۱/ ۶۱ من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج/ أبو هريرة/ ۱/ ۵۸۵ من خرج من بيته مجاهدا فى سبيل اللّه/ عبد اللّه بن عتيك/ ۱/ ۵۸۵ من دوام على قراءة يس/ أنس/ ۴/ ۴۱۳ من دعا على من ظلمه فقد انتصر/ عائشة/ ۱/ ۶۱۳ من دعى إلى سلطان فلم يجب/ سمرة/ ۴/ ۵۷ من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى// ۴/ ۲۳۶ من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين/ أنس/ ۱/ ۴۷۶ من ردّ عن عرض أخيه/ أبو الدرداء/ ۴/ ۵۶۹ من ساء خلقه من الرقيق و الدواب و الصبيان/ أنس/ ۱/ ۴۱۰ من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض/ عائشة/ ۴/ ۳۱۵ من سره أن ينظر إلى يوم القيامة// ۵/ ۴۷۸ من سره أن ينظر إلى يوم القيامة/ ابن عمر/ ۵/ ۴۶۹ من سمّى المدينة يثرب فليستغفر اللّه/ البراء بن عازب/ ۴/ ۳۰۹ من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها// ۴/ ۲۲۵، ۳۹۶ من شأنه أن يغفر ذنبا/ أبو الدرداء/ ۵/ ۱۶۷ من شهد أن لا إله إلا اللّه/ جابر/ ۵/ ۵۱۸ من صافح مشركا فليتوضأ/ ابن عباس/ ۲/ ۴۰۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۷۰

من صام رمضان إيمانا و احتسابا// ۱/ ۲۱۱ من الصديقين و الشهداء/ عمرو بن مرة/ ۵/ ۲۰۹ من صلّى أربع ركعات خلف العشاء/ ابن عباس/ ۴/ ۲۸۴ من صلّى صلاة الفجر فى جماعة و قعد فى مصلّاه/ ابن مسعود/ ۲/ ۱۱۲ من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأم

ثلاثة أيام/ عائشة/ ١/ ٢٢٩ من مات مرابطا أجرى اللّه عليه/ سلمان الفارسى/ ٣/ ٥٥٢ من مات و لم يحج حجة الإسلام/ أبو أمامة/ ١/ ٤١٨ من مات و هو موسر و لم يحج/ ابن عمر/ ١/ ٤١٨ من مات لا يشرك باللّه شيئا دخل الجنة/ أبو سعيد/ ٤/ ٥٢٤ من المغضوب عليهم يا رسول اللّه؟ قال اليهود/ عبد اللّه بن شقيق/ ١/ ٢٩ من ملك زادا و راحلة تبلغه إلى بيت اللّه و لم يحج/ على/ ١/ ٤١٩ من نذر أن يطيع اللّه فليطعه// ١/ ٣٣٥ من نوقش الحساب عذب// ٥/ ٤٩٦ من وجد إلى الحج سبيلا سنة/ ابن عمر/ ١/ ٤١٩ من يأجوج و مأجوج ألف و منكم واحد/ أبو سعيد/ ٣/ ٥١٩ من يقل علىّ ما لم أقل/ خالد بن دريك/ ٤/ ٧٧ منعت الزكاة و أردت قتل رسولى/ الحارث بن ضرار/ ٥/ ٧٣ منها خلقناكم و فيها نعيدكم/ أبو أمامة/ ٣/ ٤٤٠ موسى بن عمران صفىّ اللّه/ أنس/ ٣/ ٥٥٩ مؤمنو أمتى شهداء/ البراء/ ٥/ ٢٠٩ المتحابون فى اللّه فى الجنة ينظر بعضهم/ عبد الرحيم الخطمى/ ٢/ ٨٧ المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة اللّه/ فضالة بن عبيد/ ٣/ ٥٥٩ المختلعات و المنتزعات هن المنافقات/ أبو هريرة/ ١/ ٢٧٦ المستبان ما قالا، فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم/ أبو هريرة/ ١/ ٦١٣ المستبان ما قالا من شىء، فعلى البادئ/ أبو هريرة/ ٤/ ٦٢١

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٧٣

المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا اللّه/ البراء بن عازب/ ٣/ ١٣٠ المسلم إن نسى أن يسمّى حين يذبح/ ابن عباس/ ٢/ ١٨٠ المسلمون تتكافأ دماؤهم// ١/ ٢٠٢ المعيشة الضّنكى أن يسلط عليه/ أبو هريرة/ ٣/ ٤٦٤ المغضوب عليهم اليهود/ إسماعيل بن أبى خالد/ ١/ ٣٠ الملائكة أطاعوه فى السماء/ أنس/ ١/ ٤١٠ المهاجرون بعضهم أولياء بعض/ جرير بن عبد اللّه/ ٢/ ٣٧٧

حرف النون

نار بنى آدم التى توقدون جزء من سبعين جزءا/ أبو هريرة/ ١/ ٦٤ ناس من أمتى يعقدون السّمن و العسل/ أبو قلابة/ ٥/ ٥٩٨ نام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على حصير/ ابن مسعود/ ٣/ ٩٨ نتزوج نساء أهل الكتاب/ جابر/ ٢/ ٢٠ نحرنا فرسا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ أسماء/ ٣/ ١٨٢ نحن الآخرون السابقون يوم القيامة/ أبو هريرة/ ٣/ ٢٤٥ نحن أحق بالشك من إبراهيم// ١/ ٣٢٣ نحن أحق بموسى منكم/ ابن عباس/ ١/ ١٠٠ نحن الأولون و الآخرون الأولون يوم القيامة/ أبو هريرة/ ١/ ٢٤٦ نحن معاشر الأنبياء لا نورث// ٣/ ٣٨١ نزل القرآن على سبعة أحرف/ أبو هريرة/ ١/ ٣٦٦ نزل اللّه من ابن آدم أربع منازل/ أبو سعيد/ ٥/ ٩٣ نزلت سورة الأنعام و معها موكب من الملائكة/ أنس/ ٢/ ١١١ نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء/ ابن عمر/ ٥/ ١٩٨ نزلت علىّ سورة الأنعام جملة واحدة/ ابن عمر/ ٢/ ١١١ نزلت المائدة من السماء خبزا و لحما/ عمار بن ياسر/ ٢/ ١٠٧ نصرت بالصّبا و أهلكت عاد بالدبور/ ابن عباس/ ٤/ ٣٠٩ و ٥/ ٣٣٧ نظرت فإذا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل/ أبو سعيد/ ١/ ٤٩٥ نعم إذا كثر الخبث/ ٣/ ٨٤

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٧٤

نعم أفضل الحسنات/ سعد بن جبير/ ٢/ ٢٠٩ نعم بين آدم و نوح عشرة قرون رجل// ١/ ٨٢ نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما/ عقبة بن عامر/ ٣/ ٥١٤ نعم فيها شجرة تدعى طوبى/ عتبة بن عبد/ ٣/ ٩٩ نعم كان نبيا رسولا/ أبو ذر/ ١/ ٨٢ نعم ليكررن عليكم ذلك/ الزبير بن العوام/ ٤/ ٥٣٢ نعم يبعث اللّه هذا ثم يميتك/ ابن عباس/ ٤/ ٤٤١ نعوذ باللّه من شياطين الإنس و الجن/ أبو ذر/ ١/ ٥٤ نعيت إلى نفسى/ ابن عباس/ ٥/ ٦٢٢ نودوا أن صحوا فلا تسقموا/ أبو هريرة/ ٢/ ٢٣٥- ٢٣٦ نور يقذف فيه فينشرح صدره/ أبو جعفر المدائنى/ ٢/ ٢٨٤ نهانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن نتكلف للضيف/ سلمان/ ٤/ ٥١٣ نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن أكل كل ذى ناب/ خالد بن الوليد/ ٣/ ١٨٢ نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن التبتل/ سمرة/ ٣/ ١٠٦ نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قتل الضفدع/ ابن عمرو/ ٣/ ٢٧٧ نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن لحوم الحمر

الأهلية/ جابر/ ٣/ ١٨٢ نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن النظر فى النجوم/ أبو هريرة/ ٢/ ١٦٦ نهى النبى صلّى اللّه عليه و سلم أن يتزوّج بعد نسائه/ ابن عباس/ ٤/ ٣٠ نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين/ عبد الرحمن بن عوف/ ٤/ ٢٧٢ النائحة إذا لم تتب قبل موتها/ أبو مالك الأشعرى/ ٣/ ١٤٤ النذر ما تبتغى به وجه اللّه// ١/ ٣٣٦ النظرة سهم من سهام إبليس/ حذيفة/ ٤/ ٣٠ النور يوم القيامة/ أبى بن كعب/ ٥/ ٦٨ النون: السمكة التى عليها قرار الأرضين/ ابن عباس/ ٥/ ٣٢٢

حرف الهاء

هبط آدم و حواء عريانين جميعا/ أنس/ ١/ ٨٤ هذا الإخلاص/ ابن عباس/ ١/ ٣٩٩

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٧٥

هذا أمين هذه الأمة/ حذيفة/ ١/ ٣٩٨ هذا باب قد فتح من السماء/ ابن عباس/ ١/ ١٩ هذا عقوبة ذنبك/ علىّ/ ٤/ ٣٠ هذا النعيم الذى تسألون عنه/ جابر/ ٥/ ٥٩٨ هذا وضوء لا يقبل اللّه الصلاة إلا به// ٢/ ٢٢ هذا و قومه و الذى نفسى بيده/ أبو هريرة/ ٥/ ٥١ هذا يوم الحج الأكبر/ ابن عمر/ ٢/ ٣٨٣ هذه أمتى بالحق يحكمون و يقضون/ ابن جريج/ ٢/ ٣١٠ هذه فى الجنة و لا أبالى/ معاذ/ ٥/ ١٨٢ هل تجدنى فى الإنجيل؟/ ابن عباس/ ٣/ ١٠٩ هل تدرون ما الشجرة الطيبة؟/ ابن عمر/ ٣/ ١٢٩ هل تدرون ما قال؟/ أنس/ ٥/ ٢٢٤ هل تدرون ما معنى ذلك؟/ أنس/ ٣/ ٩٨ هل ترون الشمس فى يوم لا- غيم فيه؟/ أبو هريرة/ ٥/ ٤٠٩ هل ترون قبلتى هاهنا؟/ أبو هريرة/ ٤/ ١٤١ هل تزوجت يا فلان؟/ أنس/ ٥/ ٥٨٢ هل تضارّون فى الشمس ليس دونها سحاب؟/ أبو هريرة/ ٥/ ٤٠٩ هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام ...؟/ جابر/ ٥/ ١٧٤ هل جئتم فى عهد أحد؟// ٥/ ٦٢ هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت؟/ عمرو بن الشريد/ ٤/ ١٤٣ هم آخر من يفصل بينهم من العباد (أهل الأعراف)/ أبو زرعة/ ٢/ ٢٣٨ هل أهل البدع و الأهواء من هذه الأمة/ ابن عباس/ ٢/ ٢٠٩ هم الشهداء متقلدون أسيافهم/ أبو هريرة/ ٤/ ٥٤٧ هم على الفطرة/ عائشة/ ٣/ ٢٥٧ هم قوم قتلوا فى سبيل اللّه فى معصية آبائهم (أهل الأعراف)/ عبد الرحمن المزنى/ ٢/ ٢٣٨ هم منهم (ذرارى المشركين)// ٣/ ٢٥٧ هما جميعا من أمتى/ ابن عباس/ ٥/ ١٨٧ هما نجدان فما جعل نجد الشر أحب إليكم/ أنس/ ٥/ ٥٤٣ هن حولى يسألننى النفقة/ جابر/ ٤/ ٣٢٣

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٧٦

هو اسم من أسماء اللّه و ما بينه/ ابن عباس/ ١/ ٢٢ هو أمان من السرق/ ابن عباس/ ٣/ ٣١٧ هو أن تشهد أن لا إله إلا اللّه/ عمر بن الخطاب/ ٤/ ٣٢٥ هو أنت و شيعتك/ ابن عباس/ ٥/ ٥٨١ هو سجن فى جهنم (الفلق)/ ابن عمرو/ ٥/ ٦٤٠ هو الطهور ماؤه و الحل ميتته// ٢/ ١١ هو عبد ناصح اللّه فنصحه ذو القرنين/ علىّ/ ٣/ ٣٦٧ هو علىّ بن أبى طالب/ علىّ/ ٥/ ٣٠١ هو قول أخى يعقوب لبنيه/ ابن عباس/ ٣/ ٦٦ هو كلام الرجل فى بيته كلا- و اللّه و بلى و اللّه/ عائشة/ ١/ ٢٦٦ هو المقام المحمود الذى أشفع فيه لأمتى/ أبو هريرة/ ٣/ ٣٠٤ هو ملك مسح الأرض بالأسباب (ذو القرنين)/ الأحوص بن حكيم/ ٣/ ٣٦٦ هو نهر من أنهار الجنة/ ابن عمرو/ ٥/ ٦١٥ هو هذا/ عديم بن ساعدة/ ٢/ ٤٦٢ هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرّجس/ أم سلمة/ ٤/ ٣٢١ هؤلاء قوم من أهل اليمن// ٤/ ٦١ هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة/ أبو سعيد/ ٤/ ٤٠٣ هلا صلّيت بسبح اسم ربك الأعلى/ معاذ/ ٥/ ٥١٣، ٥٤٥ هى أم القرآن و هى السبع المثانى/ أبو هريرة/ ١/ ١٨ هى أم القرآن و هى فاتحة الكتاب/ أبو هريرة/ ١/ ١٨ هى زكاة الفطر/ ابن عمرو/ ٥/ ٥١٨ هى فى الدنيا الرؤيا الصالحة/ أبو هريرة/ ٢/ ٥٢١ هى كلها فى صحف إبراهيم/ ابن عباس/ ٥/ ٥١٩ هى لمن عمل بها من أمتى/ ابن مسعود/ ٢/ ٦٠٤ هى المانعة، هى المنجية/ ابن عباس/ ٥/ ٣٠٧ هى المطلقة ثلاثا و المتوفى عنها زوجها/ أبىّ بن كعب/ ٥/ ٢٩٢ الهالك فى الفترة يقول/ أبو سعيد/ ٤/ ٢٠٧

فتح القدير، ج۶، ص: ۷۷

حرف الواو

و اتبعوا المحكم و آمنوا بالمتشابه/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۶۶ و آدم بين الروح و الجسد/ ابن عباس/ ۴/ ۳۰۸ و الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه/ ابن عمر/ ۳/ ۲۲۵ و إذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم ابن عمر/ ۲/ ۳۰۰ و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى/ عقبة بن عامر/ ۲/ ۳۶۶ و ألزمهم كلمة التقوى لا- إله إلا اللّه/ أبىّ بن كعب/ ۵/ ۶۸ و أنا على ذلك من الشاهدين/ أبو أيوب/ ۱/ ۳۷۵ و أنا فرطكم على الحوض// ۲/ ۱۲۷ و إن أخذ مالك و ضرب ظهرك// ۲/ ۶۰۱ و إن منكم إلا واردها مجتاز فيها/ أبو هريرة/ ۳/ ۴۰۹ و إن هذا الطاعون رجز و بقية عذاب/ أسامة بن زيد/ ۱/ ۱۰۷ و إن هذا الطاعون رجز و بقية عذاب/ سعد بن مالك/ ۱/ ۱۰۷ و إن هذا الطاعون رجز و بقية عذاب/ خزيمة بن ثابت/ ۱/ ۱۰۷ و أن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم// ۱/ ۶۰۸ و إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم/ عياض بن حمار/ ۴/ ۲۶۱ و أهلها ينصف بعضهم بعضا/ جرير/ ۲/ ۶۰۷ و أوفوا بعقد الجاهلية و لا تحدثوا عقدا// ۲/ ۱۰ وجبت، وجبت، وجبت/ أنس/ ۱/ ۱۷۷ وجهت وجهى للذى فطر السماوات و الأرض/ علىّ/ ۲/ ۲۱۱ و سألته أن لا يسلط عليهم عدوا/ ثوبان/ ۲/ ۱۴۴ و سبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم/ ابن عباس/ ۱/ ۲۲۷ و صلاة الرجل فى جوف الليل/ معاذ بن جبل/ ۴/ ۲۹۴ و صلاة المرء فى جوف الليل/ أبو هريرة/ ۴/ ۲۹۴ و كلنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بحفظ زكاة الفطر/ أبو هريرة/ ۱/ ۳۱۴ و علموا أقاربكم سورة يوسف/ أبىّ بن كعب/ ۳/ ۵ وقع فى نفس موسى/ أبو هريرة/ ۴/ ۴۰۹، ۴۱۰ و كانوا- يعنى الأنبياء- يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة/ صهيب/ ۱/ ۹۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۷۸

ولد الرجل من كسبه// ۴/ ۶۲ ولد نوح ثلاثة: سام و حام و يافث/ أبو هريرة/ ۴/ ۴۶۶ و الذى بعثنى بالحق لو لا ضعفاء الناس// ۲/ ۴۷۳ و الذى نفسى بيده إن هذا و شيعته/ جابر/ ۵/ ۵۸۱ و الذى نفسى بيده إنها ختمت/ صالح أبو الخليل/ ۳/ ۵۶۹ و الذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن/ أبو سعيد/ ۵/ ۶۳۱ و الذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم/ أبو هريرة/ ۵/ ۵۹۸ و الذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف/ الزهرى/ ۴/ ۲۴۱ و الذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم/ أنس/ ۴/ ۲۶۸ و الذى نفسى بيده ما السماوات السبع عند الكرسى/ أبو ذر/ ۱/ ۳۱۳ و الذى نفسى بيده ما من عبد يصلى/ أبو هريرة/ ۱/ ۵۲۹ و الذى نفسى بيده ما من عبد يصلى/ أبو سعيد/ ۱/ ۵۲۹ و الذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم// ۴/ ۳۰۳ و لكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتهم اللّه إماتة/ أبو سعيد/ ۱/ ۷۱ و اللّه إن شاء اللّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها// ۱/ ۲۶۵ و اللّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها// ۳/ ۲۲۸ و اللّه لا- يخرج من النار من دخلها/ ابن عمر/ ۵/ ۴۴۴ و لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف// ۳/ ۴۰ و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون// ۳/ ۲۴۱ و لا- يمسّ القرآن إلا- طاهر/ عمرو بن حزم/ ۵/ ۱۹۶ و ما حملك على ذلك/ ابن عباس/ ۵/ ۲۲۱ و ما كان يدريه أنها رقية/ أبو سعيد الخدرى/ ۱/ ۱۹ و ما وجعه؟ قال: به لمم/ أبىّ بن كعب/ ۱/ ۴۵ و من أنفق على نفسه و أهله/ أبو عبيدة/ ۱/ ۳۲۹ و يأتيك من لم تزود بالأخبار/ عائشة/ ۴/ ۴۳۷ و يقول الكافرون عند ذلك قد وجد المؤمنون/ عقبة بن عامر/ ۳/ ۱۲۶ الويل جبل فى النار/ عثمان/ ۱/ ۱۲۴ ويل للأعقاب من النار// ۲/ ۲۲ ويل للذى لا يعلم مرة و لو شاء اللّه لعلمه/ أبو الدرداء/ ۱/ ۹۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۷۹

ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر/ أبو سعيد/ ۱/ ۱۲۴

أرونی اثنی عشر رجلا منکم/ عوف بن مالک/ ۵/ ۲۳ یا معشر الیهود أسلموا قبل أن یصیبکم اللّه بما أصاب قریشا/ ابن عباس/ ۱/ ۳۷۰ یا مقلب القلوب ثبت قلبی علی دینک/ أم سلمة/ ۱/ ۳۶۷ یأتی آکل الربا یوم القیامة مختبلا/ أنس/ ۱/ ۳۴۰ یبعث الناس یوم القیامة فأکون أنا و أمتی/ کعب بن مالک/ ۳/ ۳۰۴ یبعث یوم القیامة قوم من قبورهم/ أبو برزة/ ۱/ ۴۹۵ یتلونه حق تلاوته یتبعونه حق اتباعه/ ابن عمر/ ۱/ ۱۵۸ یجاء بالرجل یوم القیام فیلقی فی النار/ أسامة بن زید/ ۱/ ۹۵ یجاء بصاحبها یوم القیامة فیقول اللّه/ ابن مسعود/ ۱/ ۳۷۵، ۳۷۶ یجاء بالکافر یوم القیامة فیقال له/ أنس/ ۱/ ۴۱۲ یجمع اللّه الأولین و الآخرین لمیقات یوم معلوم/ ابن مسعود/ ۱/ ۲۴۳ یجمع الناس یوم القیامة فیؤمر بأهل الجنة إلی الجنة/ حذیفة/ ۲/ ۲۳۸ یجیء یوم القیامة ناس من المسلمین/ أبو موسی/ ۳/ ۵۶۴ یحرم کل ذی ناب من السبع و مخلب من الطیر// ۲/ ۷ یحرم من الرضاع ما یحرم من النسب// ۱/ ۵۱۳ و ۴/ ۹۶ یحشر الناس یوم القیامة/ عبد بن عبید/ ۴/ ۲۱۱، ۲۱۲ یحشر الناس یوم القیامة علی ثلاثة أصناف/ أبو هریرة/ ۳/ ۳۱۲، ۴۱۷ یخرج قوم من النار/ أنس/ ۲/ ۵۹۷ یخرج من الناس قوم فیدخلون الجنة/ جابر/ ۲/ ۴۵ یخرجون علی حین فرقة من الناس// ۵/ ۷۵ ید اللّه علی القاضی حین یقضی// ۲/ ۶۶ یدخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار/ ابن عمر/ ۱/ ۶۶ یدخل الملک علی النطفة بعد ما تستقر فی الرحم/ حذیفة بن أسید/ ۴/ ۳۹۵ یدعی أحدهم فیعطی کتابه بیمینه/ أبو هریرة/ ۳/ ۲۹۶ یدعی نوح یوم القیامة فیقال له هل بلغت/ أبو سعید/ ۱/ ۱۷۶

فتح القدیر، ج۶، ص: ۸۲

یستجاب لأحدکم ما لم یعجل/ أبو هریرة/ ۱/ ۲۱۳ یسروا و لا تعسروا و بشروا و لا تنفروا// ۱/ ۲۱۱ و ۵۴۴ و ۴/ ۵۳۹ یس قلب القرآن/ معقل بن یسار/ ۴/ ۴۱۱ یصاح برجل من أمتی علی رؤوس الخلائق/ عبد اللّه بن عمرو/ ۲/ ۲۲۰ یعرض الناس یوم القیامة/ أبو موسی/ ۵/ ۳۳۸ یغفر ذنبا و یفرج کربا/ ابن عمر/ ۵/ ۱۶۷ یغفر اللّه للوط إن کان یأوی إلی رکن شدید/ أبو هریرة/ ۲/ ۵۸۶ یقبض اللّه الأرض یوم القیامة/ أبو هریرة/ ۴/ ۵۴۷ یقرب إلیه فیتکرهه/ أبو أمامة/ ۳/ ۱۲۲ یقول ابن آدم: مالی مالی/ عبد اللّه بن الشخیر/ ۵/ ۵۹۵ یقول العبد: مالی مالی/ أبو هریرة/ ۵/ ۵۹۵ یقول اللّه: ابن آدم أنّی تعجزنی/ بسر بن جحاش/ ۵/ ۳۵۲ یقول اللّه: ابن آدم تفرّغ لعبادتی/ أبو هریرة/ ۴/ ۶۱۴ یقول اللّه عز و جل: یا ابن آدم مرضت فلم تعدنی/ أبو هریرة/ ۴/ ۲۱۱ یقول اللّه: استقرضت عبدی/ أبو هریرة/ ۵/ ۲۸۶ یقول اللّه تبارک و تعالی الکبریاء ردائی// ۵/ ۱۵ یقول اللّه تعالی: قسمت الصّلاة بینی و بین عبدی نصفین/ أبو هریرة/ ۱/ ۲۷ یکشف ربنا عن ساقه فیسجد له/ أبو سعید/ ۵/ ۳۳۱ یکون خلف من بعد ستین سنة أضاعوا الصّلاة/ أبو سعید/ ۳/ ۴۰۳ یلقی إبراهیم أباه آزر یوم القیامة/ أبو هریرة/ ۴/ ۱۲۵ یلقی العبد ربه فیقول اللّه/ أبو سعید/ ۴/ ۴۳۷ یلقی العبد ربه فیقول اللّه/ أبو هریرة/ ۴/ ۴۳۷ یمثل لهم یوم القیامة ما کانوا یعبدون/ ابن مسعود/ ۲/ ۵۰۳ یمحو اللّه ما یشاء و یثبت/ ابن عمر/ ۳/ ۱۰۷ ینادی مناد من کان له أجر/ أنس/ ۴/ ۶۲۱ ینادی مناد یا قارئ سورة الأنعام/ أنس/ ۲/ ۱۱۱ ینزل اللّه تبارک و تعالی فی کل لیلة إلی سماء الدنیا// ۱/ ۳۷۳ ینشئ اللّه السّحاب ثم ینزل فیه الماء/ أبو هریرة/ ۳/ ۹۲

فتح القدیر، ج۶، ص: ۸۳

ینظرون إلی ربهم بلا کیفیة/ أنس/ ۵/ ۴۰۹ یؤتی بجهنم یومئذ لها سبعون ألف زمام/ ابن مسعود/ ۵/ ۵۳۷ یؤتی بالرجل یوم القیامة/ أبو ذر/ ۴/ ۱۰۷ یؤتی بالقرآن و أهله الذین کانوا یعملون به فی الدنیا/ النواس بن سمعان/ ۱/ ۳۲ یؤتی یوم القیامة بالظالم و المظلوم// ۲/ ۳۷ یؤتی یوم القیامة بالممسوح عقلا/ معاذ بن جبل/ ۳/ ۲۵۸ یوشک من عاش منکم أن یلقی/ أبو هریرة/ ۵/ ۴۰ یوم الأربعاء یوم نحس مستمر/ جابر/ ۵/ ۱۵۴ یوم عرفة هذا یوم الحج الأکبر/ المسور بن مخرمة/ ۲/ ۳۸۳ الیوم الموعود یوم القیامة/ أبو هریرة/ ۵/ ۵۰۳ الیوم الموعود یوم القیامة/ أبو مالک الأشعری/ ۵/ ۵۰۳

فتح القدیر، ج۶، ص: ۸۵

(٢) فهرس الآثار

اشارة

فتح القدير، ج۶، ص: ۸۷

حرف الألف

فتح القدير، ج۶، ص: ۸۸

يسترقون السمع من السماء/ ابن عباس/ ١/ ١٤٢

فتح القدير، ج۶، ص: ٨٩

إن شئتما أعطيتكما و لاحظ فيها لغنيّ/ عبيد اللّه بن عدى/ ٢/ ٤٢٨ أن العاقب و السيد أتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم/ حذيفة/ ١/ ٣٩٨ أن عبد اللّه بن سلام و أسدا و أسيدا ابنى كعب و ثعلبة/ ابن عباس/ ١/ ٦٠٥ أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله// ٢/ ٤٢ أن العلاء بن الحضرمى بعث إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بمال من البحرين/ أبو موسى/ ٢/ ٣٧٤ إن فى الجنة مائة درجة/ عبادة من الصامت/ ٣/ ٣٧٥ إن قوما يأتوننا بلحمان لا ندرى/ عائشة/ ٢/ ١٧٩ إن للدابة ثلاث خرجات/ ابن عباس/ ۴/ ١٧۶ إن اللّه أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه/ ابن عباس/ ١/ ٧٥ إن اللّه تصدّق عليكم بثلث أموالكم/ معاذ بن جبل/ ١/ ٥٠٣ إن اللّه ليعطى العبد المؤمن بالحسنة الواحدة/ أبو هريرة/ ١/ ٣٠١ إن اللّه ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة/ أبو هريرة/ ١/ ٣٠١ إن للّه لوحا محفوظا/ ابن عباس/ ٣/ ١٠۶ إن المسلمين كانوا فى شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء/ ابن عباس/ ١/ ٢١٥ أنزل القرآن خمسا خمسا/ علىّ/ ٢/ ١١١ إنما أحلت ذبائح اليهود و النصارى/ ابن عباس/ ٢/ ٢٠ إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض// ١/ ٧٧ إنما سميت حواء لأنها أم كل حى/ ابن عباس/ ١/ ٨٣ إنما مثلنا فى هذه الأمة كسفينة نوح، و كباب حطّة/ علىّ/ ١/ ١٠۶ الأقراء الأطهار/ عائشة/ ١/ ٢٧٢ الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل/ ابن عباس/ ١/ ۶٢ إيلاء العبد شهران/ عمر/ ١/ ٢۶٩ الإيلاء أن يحلف أنه لا يجامعها أبدا/ ابن عباس/ ١/ ٢۶٨ الإيلاء إيلاءان إيلاء فى الغضب و إيلاء فى الرضا/ علىّ/ ١/ ٢۶٨

فتح القدير، ج۶، ص: ٩٠

حرف التاء

تعلموا سورة براءة و علّموا نساءكم سورة النور/ عمر/ ٢/ ٣٧٩ تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى بركم/ عمر بن الخطاب/ ٢/ ١۶۶ تفسير القرآن على أربعة وجوه/ ابن عباس/ ١/ ٣۶۶ تمام التقوى أن يتقى اللّه العبد/ أبو الدرداء/ ١/ ۴٠ التهلكة: عذاب اللّه/ ابن عباس/ ١/ ٢٢٣

حرف الثاء

ثلاث من تكلم بواحدة منها/ عائشة/ ۴/ ١٧١ ثلاث وددت أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان عهد إلينا فيهن عهدا// ١/ ۶٢٧ الثلث وسط لا بخس و لا شطط/ ابن عمر/ ١/ ٥٠٣ الثلثان جميعا من هذه الأمة/ ابن عباس/ ٥/ ١٨٧

حرف الجيم

جاء ابن أم مكتوم/ أنس/ ٥/ ۴۶٧ الجنف فى الوصية و الإضرار فيها من الكبائر/ ابن عباس/ ١/ ٢٠۶ الجنة فى السماء السابعة العليا/ ابن مسعود/ ٥/ ١٣٣

حرف الحاء

حججت فدخلت على عائشة/ جبير بن نفير/ ٢/ ٥ الحرورية: هم الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه/ سعد بن أبى وقاص/ ١/

٧٠ الحسنى: الجنة و الزيادة النظر إلى وجه اللّه/ أبو بكر/ ٢/ ٥٠٢ الحمد للّه كلمة رضيها لنفسه/ على بن أبى طالب/ ١/ ٢٣ الحمد للّه كلمة الشكر/ ابن عباس/ ١/ ٢٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٩١

الحمد للّه هو الشكر صلّى اللّه عليه و سلم/ ابن عباس/ ١/ ٢٣

حرف الخاء

خرج سليمان بن داود يستسقى بالناس/ أبو الصديق الناجى/ ۴/ ١۵۵ خرج عزير نبى اللّه من مدينته و هو شاب/ علىّ/ ١/ ٣٢٣ خرجت يوم الخندق أقفوا الناس/ عائشة/ ۴/ ٣١۶ الخلق أربعة: فخلق فى الجنة كلهم/ ابن عباس/ ٢/ ١٨٧

حرف الذال

ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم/ ابن عمر/ ١/ ١۴٣ ذكرى لكم خير من ذكركم لى/ ابن عباس/ ١/ ١٨٣

حرف الراء

رأى محمد ربّه/ ابن عباس/ ٢/ ١۶٩ رحل مسروق فى تفسير آية إلى البصرة/ الشعبى/ ١/ ١۶ رحم اللّه نساء المهاجرات الأولات/ عائشة/ ۴/ ٣١ رنّ إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب// ١/ ١٧ الروح فى السماء الرابعة/ ابن مسعود/ ۵/ ۴۴٨ الريب: الشك/ أبو الدرداء/ ١/ ۴٠

حرف الزاى

الزيادة: النظر إلى وجه اللّه/ حذيفة/ ٢/ ۵٠٢

فتح القدير، ج۶، ص: ٩٢

حرف السين

سلونى عن سورة النساء/ ابن عباس/ ٣/ ٢٨۶

حرف الصاد

صلى أبو هريرة فجهر بالفاتحة/ أبو هريرة/ ١/ ٢٠ صليت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ليلة من رمضان/ حذيفة/ ١/ ٣۴ صلينا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم نحو بيت المقدس/ البراء/ ١/ ١٧٩ الصلاة شكر و الصيام شكر/ أبو عبد الرحمن الحبلى/ ١/ ٢۴ الصيام للتمتع ما بين إحرامه إلى يوم عرفة/ ابن عباس/ ١/ ٢٢٩

حرف العين

عليك بأساس القرآن/ الشعبى/ ١/ ١٨ عن الكافية تسأل/ ابن أبى كثير/ ١/ ١٨ العاشر من رجب و هو يوم يمحو اللّه/ قيس بن

عبّاد/ ۳/ ۱۰۷

حرف الغين

غشى على عبد الرحمن بن عوف فى وجعه/ إبراهيم بن عبد الرحمن/ ۱/ ۱۸۴

حرف الفاء

فاتحة الكتاب ثلث القرآن/ ابن عباس/ ۱/ ۱۹ فاتحة الكتاب نزلت بمكة/ عبادة/ ۱/ ۱۷ فرضت الصلاة ركعتين ركعتين/ عائشة/ ۱/ ۵۸۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۹۳

فسروا قوله تعالى سبعا من المثانى بالفاتحة/ علىّ/ ۱/ ۱۸ فلولا أخذتم مسكها/ ابن عباس/ ۱/ ۱۹۷ فى قوله الم و حم و ن اسم مقطع/ ابن عباس/ ۱/ ۳۸ فى قوله الم و المص هو قسم أقسمه اللّه/ ابن عباس/ ۱/ ۳۸ فى قوله الم هى اسم اللّه الأعظم/ ابن مسعود/ ۱/ ۳۸ فى قوله الم ألف مفتاح اسمه اللّه/ أنس/ ۱/ ۳۸ فى قوله هدى للمتقين نور للمتقين و هم المؤمنون/ ابن مسعود/ ۱/ ۴۰ فى قوله و مما رزقناهم ينفقون أنفقوا فى فرائض اللّه/ قتادة/ ۱/ ۴۲ فى قوله و مما رزقناهم ينفقون زكاة أموالهم/ ابن عباس/ ۱/ ۴۲ فى قوله و مما رزقناهم ينفقون هى نفقة الرجل على أهله/ ابن مسعود/ ۱/ ۴۲ فى قوله لا ريب فيه لا شك فيه/ ابن عباس/ ۱/ ۳۹ فى قوله يا أيها الناس هى للفريقين جميعا من الكفار و المؤمنين/ ابن عباس/ ۱/ ۶۰ فى قوله: يقيمون الصلاة الصلوات الخمس/ ابن عباس/ ۱/ ۴۲ فىّ نزل تحريم الخمر/ سعد بن أبى وقاص/ ۲/ ۸۶ الفىء الجماع/ علىّ/ ۱/ ۲۶۸

حرف القاف

قال عمر: قد علمنا سبحان اللّه و لا إله إلا اللّه فما الحمد للّه/ ابن عباس/ ۱/ ۲۳ قال الغلمان ليحيى بن زكريا أهب بنا نلعب/ ابن عباس/ ۳/ ۳۸۷ قال اللّه تعالى سبنى ابن آدم/ أبو هريرة/ ۳/ ۱۹۶ و ۱۹۷ قال مجاهد: أحبّ الخلق إلى اللّه أعلمهم بما أنزل اللّه// ۱/ ۱۶ قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول اللّه/ أبو عبد اللّه الجدلى/ ۵/ ۳۲۲ قلت لعلى بن أبى طالب رضى اللّه عنه: هل عندكم شىء من الوحى/ أبو جحيفة/ ۲/ ۶۸ كان آصف كاتب سليمان و كان يعلم الاسم الأعظم/ ابن عباس/ ۱/ ۱۴۲ كان أصحاب الرسول صلّى اللّه عليه و سلم إذا كان الرجل صائما/ البراء/ ۱/ ۲۱۵ كان رجل يقال له مرثد يحمل الأسارى من مكة/ ابن عمرو/ ۴/ ۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۹۴

كان رجل يقرأ سورة الكهف و عنده فرس/ البراء/ ۱/ ۳۰۷ كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا/ ابن مسعود/ ۱/ ۵۸ كان عاشوراء صياما/ عائشة/ ۱/ ۲۰۶ كان لأبىّ بن كعب جرن فيه تمر/ أبى بن كعب/ ۱/ ۳۱۴ كان المشركون يجلسون فى الحج فيذكرون أيام آبائهم/ ابن عباس/ ۱/ ۲۳۷ كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم/ ابن عباس/ ۱/ ۲۱۵ كان الناس فى الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام/ عبد اللّه بن الزبير/ ۱/ ۲۳۷ كان يسمى فاتحة الكتاب الواقية/ سفيان بن عيينة/ ۱/ ۱۸ كان يكره أن يقول أم الكتاب/ ابن سيرين/ ۱/ ۱۷ كانت بغايا فى الجاهلية بغايا آل فلان/ ابن عباس/ ۴/ ۸ كانت الزهرة امرأة/ ابن عباس/ ۱/ ۱۴۴ كانت قريش تدعى الحمس و كانوا يدخلون من الأبواب/ جابر/ ۱/ ۲۱۹ كانت القريش و من دان بدينها يقفون بالمزدلفة//

۱/ ۲۳۶ کـانت لی أخت فأتـانی ابن عم فأنکحتهـا إیـاه/ معقل بن یسار/ ۱/ ۲۸۰ کـانوا إذا أحرموا فی الجاهلیـة أتوا الـبیوت من ظهورها/ البراء/ ۱/ ۲۱۹ کل سلطان فی القرآن فهو حجة/ ابن عباس/ ۱/ ۶۱۲ کل شیء فی کتاب اللّه الرجز یعنی به العذاب/ ابن عباس/ ۱/ ۱۰۷ کل ظن فی القرآن فهو یقین/ مجاهـد/ ۱/ ۹۶ کم کان المرسلون/ أبو ذر/ ۱/ ۸۲ کن نساء فی الجاهلیات بغیات/ مجاهد/ ۴/ ۸ کنا فی غزاة فحاص الناس حیصة/ ابن عمر/ ۲/ ۳۳۸ کنا مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فی لیلة سوداء مظلمة/ عامر بن ربیعـة/ ۱/ ۱۵۴ کنت أخدم النبی صـلّی اللّه علیه و سـلم و أرحل له/ أسلع/ ۱/ ۵۴۶ کنت أسـیر مع عبـد اللّه بن عمر فی طریق فسـمع زمارة/ نافع/ ۴/ ۲۷۲ کنت مع علی حین بعثه رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلم إلی أهـل مکـة ببراءة/ أبو هریرة/ ۲/ ۳۸۱ کلهم ناج و هی هذه الأمة/ البراء بن عازب/ ۴/ ۴۰۵

فتح القدیر، ج۶، ص: ۹۵

حرف اللام

لأن أوصی بالخمس أحبّ إلی/ علی/ ۱/ ۵۰۳ لبث آدم فی ساعـة من نهار/ ابن عباس/ ۱/ ۸۲ لعمری ما أتم اللّه حج من لم یسع بین الصـفا و المروة/ عائشـة/ ۱/ ۱۸۶ لعن اللّه الواشـمات و المستوشـمات/ ابن مسـعود/ ۵/ ۲۳۸ لغـو الیمین: حلف الإنسـان علی الشـیء یظن أنه الذی حلف علیه// ۱/ ۲۶۷ لقیت عبـد اللّه بن عمرو بن العـاص فقلت له أخبرنی عن صـفة رسول اللّه/ عطاء بن یسار/ ۲/ ۲۸۹ لم أتخلف عن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلم فی غزوة غزاها/ کعب بن مالک/ ۲/ ۴۷۱ لم یبعث اللّه نبیا- آدم فمن بعد- إلا أخذ علیه العهد/ علیّ/ ۱/ ۴۰۹ لما أسلمت فتیان بنی سلمة/ رجل من بنی سلمة/ ۱/ ۱۷ لما بعث أهل مکة فی فداء أسراهم/ عائشة/ ۲/ ۳۷۴ لما توفی عبد اللّه بن أبی ابن سلول/ ابن عمر/ ۲/ ۴۴۴ لما جعل اللّه الإسلام فی قلبی/ عمرو بن العاص/ ۲/ ۳۵۲ لما حضـرت الوفاة أبا طالب/ سعید بن المسیب/ ۲/ ۴۶۸ لما حلف أبو بکر أن لا ینفق علی مسـطح/ عائشـة/ ۵/ ۳۰۱ لما خلق اللّه آدم و خلق له زوجة/ النخعی/ ۱/ ۸۳ لما کبرت سودة بنت زمعة وهبت یومها لعائشة/ عائشة/ ۱/ ۶۰۲ لما نزل صوم شهر رمضان کانوا لا یقربون النساء/ البراء/ ۱/ ۲۱۵ لما نزلت بسم اللّه الرحمن الرحیم ضجت الجبال/ عائشة/ ۱/ ۲۲ لما نزلت بسم اللّه الرحمن الرحیم هرب الغیم إلی المشـرق/ جابر/ ۱/ ۲۲ لما نزلت علی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و سـلم ما فی السماوات و ما فی الأرض/ أبو هریرة/ ۱/ ۳۵۱ لما نزلت من ذا الذی یقرض اللّه قال أبو الدحداح/ ابن مسعود/ ۱/ ۳۰۱ لو تمنّ الیهود الموت لماتوا/ ابن عباس/ ۱/ ۱۳۶ لو طلبتم کتاب اللّه لوجدتم فیه شـفاء/ فضل بن عیاض/ ۱/ ۱۶ لو کان لابن آدم وادیان من مال/ أبو موسـی/ ۱/ ۱۴۹ یرد الناس کلهم النار ثم یصدرون عنها بأعمالهم/ ابن مسعود/ ۳/ ۴۰۹ لیس فی الدنیا مما فی الجنة شیء إلا الأسماء// ۱/ ۶۶ لیس یهودی یموت أبدا حتی یؤمن بعیسی/ ابن عباس/ ۱/ ۶۱۸

فتح القدیر، ج۶، ص: ۹۶

لیلة القدر هی اللیلة المبارکة و هی فی رمضان/ ابن عباس/ ۱/ ۲۱۲ اللغو هو اللغو فی المزاحة و الهزل/ عائشة/ ۱/ ۲۶۶

حرف المیم

ما أحل اللّه فی کتابه فهو حلال/ أبو الـدرداء/ ۳/ ۴۰۸ ما تمنیت منذ أسـلمت/ عثمان بن عفان/ ۱/ ۱۲۳ ما حسدتکم الیهود علی شیء/ ابن عبـاس/ ۱/ ۳۱ مـا خـالف القرآن فهو من خطوات الشیطان/ ابن عباس/ ۱/ ۱۹۴ ما سـکن آدم الجنة إلا ما بین صـلاة العصـر/ ابن عباس/ ۱/ ۸۲ مـا غـابت الشـمس من ذلک الیوم حتی أهبط من الجنـة/ ابن عباس/ ۱/ ۸۲ ما فی القرآن عنـدی آیة

أرجى منها/ ابن عباس/ ۱/ ۳۲۳ ما كان من ظن الآخرة فهو علم/ قتادة/ ۱/ ۹۶ ما كان يا أيها الذين آمنوا فهو أنزل بالمدينة/ ابن مسعود/ ۱/ ۶۰ ما كان يا أيها الناس فهو أنزل بمكة/ ابن مسعود/ ۱/ ۶۰ ما من عام بأمطر من عام/ الحسن البصرى/ ۱/ ۶۱ ما نزل مطر من السماء إلا و معه البذر/ ابن عباس/ ۱/ ۶۱ ما يصاد بالبزاة و غيرها من الطير/ ابن عمر/ ۲/ ۱۶ مثل الذين يقرءون القرآن و هم لا ـ يعلمون/ إياس بن معاوية/ ۱/ ۱۶ محاش النساء عليكم حرام/ ابن مسعود/ ۱/ ۲۶۲ مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين تظاهرتا/ ابن عباس/ ۱/ ۱۶ من اتقى فى حجه غفر له ما تقدم من ذنبه/ ابن مسعود/ ۱/ ۲۳۸ من بلغه القرآن حتى تفهمه و تعقله/ محمد بن كعب/ ۲/ ۱۲۲ من دخل فى دين قوم فهو منهم/ ابن عباس/ ۲/ ۶۲ من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثا جهنم/ الحارث الأشعرى/ ۳/ ۵۶۰ من زعم أن محمدا كتم شيئا من الوحى فقد كذب/ عائشة/ ۲/ ۶۸ من سكن البادية جفا و من اتبع الصيد غفل/ ابن عباس/ ۲/ ۴۵۲ و ۴۵۳ من شفع لرجل ليدفع عنه مظلمة/ ابن مسعود/ ۲/ ۵۱ من علم أن اللّه عز و جل حق/ ابن مسعود/ ۳/ ۵۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۹۷

مر قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة/ ابن مسعود/ ۱/ ۴۵ من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات/ ابن عباس/ ۲/ ۱۱۲ من قرأ سورة النساء فعلم ما يحجب/ ابن عباس/ ۱/ ۴۷۹ من قرأ عشر آيات من سورة البقرة/ ابن مسعود/ ۱/ ۴۵ من نسى صلاة فليقمها إذا ذكرها/ أبو هريرة/ ۳/ ۴۲۷ منهم ثابت بن قيس/ أبو هريرة/ ۵/ ۷۲ المتقون قوم اتقوا الشّرك/ معاذ بن جبل/ ۱/ ۴۰ المسلم يتزوج النصرانية/ عمر/ ۲/ ۲۰ المطر مزاجه من الجنة/ ابن عباس/ ۱/ ۶۱

حرف النون

نزل القرآن جملة لأربعة و عشرين من رمضان/ ابن عباس/ ۱/ ۲۱۲ نزلت بالمدينة سورة البقرة/ ابن عباس/ ۱/ ۳۲ نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة/ ابن مسعود/ ۲/ ۱۱۱ نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة/ مجاهد/ ۱/ ۱۷ نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش// ۱/ ۱۷ نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها/ ابن عباس/ ۲/ ۳۸ نهينا عن التكلف/ عمر بن الخطاب/ ۴/ ۵۱۳ نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى/ أبو هريرة/ ۴/ ۲۰۷

حرف الهاء

هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة/ ابن مسعود/ ۱/ ۳۴

حرف الواو

و العصر إن الإنسان/ ابن مسعود/ ۵/ ۶۰۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۹۸

و العصر و نوائب الدهر/ على/ ۵/ ۶۰۰ و الذى لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب/ ابن مسعود/ ۱/ ۴۱

حرف لا

لا ـ إحصار إلا من مرض أو عدو/ ابن عمر/ ۱/ ۲۲۸ لا ـ إحصار إلا من مرض أو عدو أو أمر حادث/ عطاء/ ۱/ ۲۲۸ لا إيلاء إلا

بغضب/ ابن عباس/ ۱/ ۲۶۸ لا حصر إلا حصر العدو/ ابن عباس/ ۱/ ۲۲۸ لا يحيط بصر أحد باللّه/ ابن عباس/ ۲/ ۱۶۹ لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس/ أبو الدرداء/ ۱/ ۹۴ لا ينفع الحذر من القدر/ ابن عباس/ ۳/ ۱۰۷ اللاعب بالنرد قمارا كآكل لحم الخنزير/ ابن عمر/ ۲/ ۸۷

حرف الياء

يتكلم الرجل بتسبيحه و تكبيره/ أبو أيوب/ ۴/ ۲۵ يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم/ على/ ۱/ ۵۷۰ يجمع اللّه يوم القيامة الناس فى صعيد واحد/ أسماء بنت يزيد/ ۴/ ۴۴ يوم الدين: يوم الحساب/ ابن مسعود/ ۱/ ۲۶ يوم الدين: يوم يدين اللّه العباد بأعمالهم/ قتادة/ ۱/ ۲۶

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۹۹

(۳) فهرس الشعر

اشارة

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۰۱

حرف الألف

عليك السلام لا مللت قريبةو مالك عندى إن نأيت قلاء

/ الحارث بن حلزة/ ۲/ ۱۳۲

كأن سبيئة من بيت رأسكان مزاجها عسل و ماء

/ حسان/ ۵/ ۴۱۸

و كانت لا يزال بها أنيسخلال مروجها نعم و شاء

// ۱/ ۳۷۱ و ۳/ ۱۷۸

ظاهرات الجمال و الحسن ينظرن كما ينظر الأراك الظباء

// ۱/ ۱۴۵

و نشربها فتتركنا ملوكاو أسدا ما ينهنهنا اللقاء

/ ۱/ ۲۵۳

فدع هذا و لكن من لطيفيؤرقنى إذا ذهب العشاء

// ۲/ ۳۱۸

ثلاث بالغداة و ذاك حسبىو ست حين يدركنى العشاء

// ۱/ ۲۲۷

ربما ضربة بسيف صقيلبين بصرى و طعنة نجلاء

/ عدى بن الرعلاء/ ۳/ ۱۴۵

غافلا تعرض المنيۀ للمرء فيدعى و لات حين إباء

// ۴/ ۳۷۶

ديار من بنى الحسحاس قفرتعفيها الروامس و السماء

/ حسان/ ۱/ ۵۷

آذنتنا ببينها أسماءربّ ثاو يمل منه الثواء

// ۴/ ۵۹۸

فصحوت عنها بعد حب داخلو الحب تشربه فؤادك داء

/ زهير/ ۱/ ۱۳۴

فإما يثقفن بنى لؤىجذيمۀ إن قتلهم دواء

/ حسان/ ۱/ ۲۱۹

أ تهجوه و لست له بكفءفشرّ كما لخير كما الفداء

// ۴/ ۷۶ و ۱۶۸

و ما أدرى و سوف إخال أدرىأقوم آل حصن أم نساء

/ زهير/ ۱/ ۱۰۱

فشج بها الأماعز و هى تهوىهوى الدلو أسلمها الرشاء

/ زهير/ ۵/ ۱۲۶

أرونا خطۀ لا ضيم فيهايسوى بيننا فيها السّواء

/ زهير/ ۱/ ۳۹۹ و ۳/ ۴۳۹

فمن يهجو رسول اللّه منكمو يمدحه و ينصره سواء

/ حسان بن ثابت/ ۴/ ۲۲۸

و جبريل أمين اللّه فيناو روح القدس ليس به خفاء

/ حسان/ ۱/ ۱۲۹

أنا الموت الذى حدثت عنهفليس لهارب منى نجاء

/ جرير/ ۱/ ۲۰۴

كيف نومى على الفراش و لماتشمل الشام غارۀ شعواء

// ۱/ ۴۱۱

أفى غير المخلقۀ البكاءفأين الحزم ويحك و الحياء

// ۳/ ۵۱۶

فترى خلفهن من سرعۀ الرجع منينا كأنه أهباء

// ۵/ ۴۹۸

عدمنا خيلنا إن لم تروهاتثير النقع من كنفى كداء

/ عبد اللّه بن رواحۀ/ ۵/ ۵۸۷

أحسن النجم فی السماء الثریاو الثریا فی الأرض زین النساء

/ عمرو بن أبی ربیعة/ ۵/ ۱۲۶

فاضرب وجوه الغدر الأعداءحتی یجیبوک إلی السواء

// ۲/ ۳۶۵

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۰۲

فتح القدیر ج۶ ۱۴۹

لا تدعنی إلا بیا عبدهافإنه أشرف أسمائی

// ۳/ ۲۴۶

حرف الباء

إن بنی الأدرم حمالو الحطبهم الوشاة فی الرضا و فی الغضب

// ۵/ ۶۲۸

سأغسل عنی العار بالسیف جالباعلیّ قضاء اللّه ما کان جالبا

// ۱/ ۲۰۳

لا أبتغی الحمد القلیل بقاؤهبذم یکون الدهر أجمع واصبا

/ الدؤلی/ ۳/ ۲۰۲

إنا حطمنا بالقضیب مصعبایوم کسرنا أنفه لیغضبا کذبا

// ۵/ ۶۰۳

أبلغ بنی أسد عنی مغلغلةجهر الرسالة لا ألتا و لا کذبا

// ۵/ ۸۰

فالآن إذ هازلتهن فإنمایقلن ألا لم یذهب الشیخ مذهبا

/ الأسود بن جعفر/ ۲/ ۱۰۸

یا أوسط الناس طرا فی مفاخرهمو أکرم الناس أما برة و أبا

// ۱/ ۲۹۳

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهمشدوا العناج و شدوا فوقه الکربا

/ الحطیئة/ ۲/ ۸۲

الآن و قد فرغت إلی نمیرفهذا حین کنت لها عذابا

/ جریر/ ۳/ ۴۹۷ و ۵/ ۱۶۴

إذا نزل السماء بأرض قومرعیناه و إن کانوا غضابا

// ۲/ ۱۱۵ و ۴/ ۵۱۷ و ۵/ ۱۰۲ و ۳۵۷

أ ثعلبة الفوارس أو ریاحاعدلت بهم طهیة و الخشابا

/ جریر/ ۴/ ۳۷۴

و كائن بالأباطح من صديقيرانى لو أصبت هو المصابا

// ۱/ ۴۴۲

فغض الطرف إنک من نميرفلا كعبا بلغت و لا كلابا

/ جرير/ ۴/ ۲۶

و لو ولدت قفيرة جرو كلبلشبّ بذلک الجرو الكلابا

/ جرير/ ۳/ ۴۹۸ و ۵/ ۸

جريمة ناهض فى رأس نيقترى لعظام ما جمعت صليبا

// ۲/ ۹

إن فى القصر لو دخلنا غزالامصفقا موصدا عليه الحجاب

/ ابن قيس الرقيات/ ۵/ ۶۰۴

أرب يبول الثعلبان برأسهلقد هان من بالت عليه الثعالب

// ۱/ ۲۵

بنو الحرب أرضعنا لهم مقمطرةو من يلق منا ذلک اليوم يهرب

/ حذيفة بن أنس الهذلى/ ۵/ ۴۲۰

ألم تر أن اللّه أعطاک سورةترى كل ملک دونها يتذبذب

// ۱/ ۶۱۰ و ۴/ ۵

فإنک شمس و الملوک كواكبإذا ظهرت لم يبق فيهن كوكب

/ النابغة/ ۴/ ۳۸

و قد عاد ماء الأرض بحرا فزادنىإلى مرضى أن أبحر المشرب العذب

/ نصيب/ ۱/ ۹۹

لا بل هو الشوق من دار تخونهامرا سحاب و مرا بارح ترب

/ ذو الرمة/ ۳/ ۱۹۸

فيريک من طرف اللسان حلاوةو يروغ عنک كما يروغ الثعلب

// ۴/ ۴۶۱

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۰۳ قسم مجهودا لذاک القلبالناس جنب و الأمير جنب

// ۴/ ۵۴۰

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمتهو إن كنت ذا عتبى فمثلک يعتب

/ النابغة/ ۳/ ۲۲۳

أرى الصبر محمودا و عنه مذاهبفكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

// ۴/ ۵۲۱

هناک يحق الصبر و الصبر واجبو ما كان منه للضرورة أوجب

// ۴/ ۵۲۱

و لست بمستبق أخا لا تلمه‌على شعث أى الرجال المهذب

/ النابغة/ ۵/ ۵۳۵

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى‌إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

// ۱/ ۳۴۲

نقتلهم جيلا فجيلا تراهم‌شعائر قربان بهم يتقرب

/ الكميت/ ۱/ ۱۸۵

تريك سنة وجه غير مقرفة‌ملساء ليس بها خال و لا ندب

/ ذو الرمة/ ۳/ ۱۵۶

حلفت فلم أترک لنفسک ريبة‌و ليس وراء اللّه للمرء مذهب

/ النابغة/ ۳/ ۱۲۰

تصغى إذا شدها بالكور جانحة‌حتى إذا ما استوى فى غرزها تثب

/ ذو الرمة/ ۲/ ۱۷۵

تخال بها سعرا إذا السفر هزها‌ذ ميل و إيقاع من السير متعب

// ۵/ ۱۵۱

لمياء فى شفتيها حوة لعس‌و فى اللثات و فى أنيابها شنب

/ ذى الرمة/ ۵/ ۵۱۵

ألا رب ركب قد قطعت و جيفهم‌إليك و لو لا أنت لم يوجف الركب

/ نصيب/ ۵/ ۲۳۵

خفضت لهم منى جناحى مودة‌إلى كنف عطفاه أهل و مرحب

/ الكميت/ ۳/ ۱۷۱

حلفت فلم أترک لنفسک ريبة‌و ليس وراء اللّه للمرء مذهب

/ النابغة/ ۲/ ۴۶۰

فلا تعدلى بينى و بين مغمر‌سقتك روايا المزن حيث تصوّب

/ علقمة/ ۱/ ۵۷

إذا توجس ركزا مقفر ندس‌بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب

/ ذو الرمة/ ۳/ ۴۱۷

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر‌من الغيظ فى أكبادنا و النحوب

/ طفيل/ ۴/ ۲۹۲

حتى إذا ما انجلى عن وجهه خلق‌هاديه فى أخريات الليل منتصب

/ ذى الرمة/ ۵/ ۶۳۸

كأنه كوكب فى إثر عفرية‌مصوّب فى سواد الليل منقضب

/ ذو الرمة/ ۳/ ۱۵۱ و ۴/ ۱۶۰

و كل ذى غيبة يؤوبو غائب الموت لا يؤوب

/ عبيد بن الأبرص/ ۵/ ۵۲۴

لعمرك و المنايا طارقاتلكل بنى أب منها ذنوب

/ أبو ذؤيب/ ۵/ ۱۱۱

يحف بهم بيض الوجوه و عصبةكراسى بالأحداث حين تنوب

// ۱/ ۳۱۲

فلست لإنسى و لكن لملاكتنزل من جو السماء يصوب

/ أبو وجزة/ ۳/ ۲۸

فإن تسألونى بالنساء فإننىبصير بأدواء النساء طبيب

/ امرؤ القيس/ ۱/ ۱۳۶ و ۴/ ۹۸

و إنك إلا ترض بكر بن وائليكن لك يوم بالعراق عصيب

// ۲/ ۵۸۲

وداع دعا يا من يجيب إل الندافلم يستجبه عند ذاك مجيب

// ۱/ ۵۵

بمحنية قد آزر الضال نبتهامجر جيوش غانمين و خيب

/ امرئ القيس/ ۵/ ۶۷

قبائل من شعوب ليس فيهمكريم قد يعد و لا نجيب

// ۵/ ۷۹

فلا تحرمنى نائلا عن جنابةفإنى امرؤ وسط الديار غريب

/ علقمة بن عبدة/ ۴/ ۱۸۶

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۰۴ فمن يك أمسى بالمدينة رحلهفإنى و قيار بها لغريب

/ ضابئ البرجمى/ ۱/ ۹۳

و منزلة فى دار صدق و غبطةو ما اقتال فى حكم على طبيب

/ كعب بن سعد الغنوى/ ۵/ ۱۲۰

طحا بك قلب فى الحسان طروببعيد الشباب عصر حسان مشيب

/ علقمة/ ۵/ ۵۴۷

فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركمو إن تقبلوا نأخذكم فى الترائب

/ دريد بن الصمة/ ۵/ ۵۰۹

لا تحسبون الخير لا شر بعدهو لا تحسبون الشر ضربة لازب

/ النابغة/ ۴/ ۴۴۵

و لو لا جنان الليل أدرك ركضنابذى الرمث و الأرطى عياض بن ناشب

// ۲/ ۱۵۲

جوانح قد أيقن أن قبيله‌إذا ما التقى الجمعان أول غالب

/ النابغة/ ۲/ ۳۶۸

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة‌بدا حاجب منها و ضنت بحاجب

/ قيس بن الخطيم/ ۵/ ۵۴۶

أ ترجو أمة قتلت حسيناشفاعة جده يوم الحساب

// ۴/ ۸۰

فلو رفع السماء إليه قومالحقنا بالسماء و السحاب

// ۵/ ۳۸۳

همت سخينة أن تغالب ربهافلتغلبن مغالب الغلاب

// ۴/ ۱۴۳

أرانا موضعين لأمر غيب‌و نسحر بالطعام و بالشراب

/ امرؤ القيس/ ۳/ ۲۷۵

و قد طوفت فى الآفاق حتى‌رضيت من الغنيمة بالإياب

/ امرؤ القيس/ ۱/ ۳۷۱ و ۵/ ۹۴

و لا عيب فيهم غير أن سيوفهم‌بهن فلول من قراع الكتائب

/ النابغة/ ۲/ ۴۳۷ و ۳/ ۵۴۰

لدوا للموت و ابنوا للخراب‌فكلكم يصير إلى يباب

/ أبو العتاهية/ ۴/ ۱۱۴

أعوذ باللّه من العقراب‌الشائلات عقد الأذناب

// ۵/ ۱۹۲

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم‌بعتيبة بن الحارث بن شهاب

// ۲/ ۲۴۱

زعموا بأنهم على سبل النجاة و إنما نكص على الأعقاب

// ۳/ ۵۸۰

و قد طوفت فى الآفاق حتى‌رضيت من الغنيمة بالإياب

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۹۴

و بدلت بعد المسك و البان شقوة‌دخان الجذا فى رأس أشمط شاحب

/ السلمى/ ۴/ ۱۹۶

أجالدهم يوم الحديقة حاسراكأن يدى بالسيف مخراق لاعب

/ قيس بن الخطيم/ ۴/ ۱۰

عقرتم ناقة كانت لربى‌مسيبة فقوموا للعقاب

// ۲/ ۹۴

من رسولى إلى الثريا يأتى‌ضقت ذرعا بهجرها و الكتاب

// ۲/ ۵۹۱

ألم أنض المطى بكل خرق‌طويل الطول لماع السراب

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۴۵

أثرن عجاجة و خرجن منهاخروج الودق من خلل السحاب

// ۴/ ۴۹

تكلفنى معيشة آل زيدو من لى بالمرقق و الصّناب

/ جرير/ ۳/ ۱۵۲

ألم تر أن اللّه أظهر دينه‌و صب على الكفار سوط عذاب

// ۵/ ۵۳۱

أذاع به فى الناس حتى كأنه‌بعلياء نار أوقدت بثقوب

/ ۵/ ۵۰۸

و مشى بأعطان المباءة و ابتغى‌قلائص منها صعبة و ركوب

// ۴/ ۸۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۰۵ و قد أتاك يقين غير ذى عوج‌من الإله و قول غير مكذوب

// ۴/ ۵۲۹

متكئا تفرع أبوابه‌يسعى عليه العبد بالكوب

/ عدى/ ۴/ ۶۴۵ و ۵/ ۴۲۲

تدعو قعينا و قد عضّ الحديد بهاعض الثقاف على ضم الأنابيب

/ النابغة/ ۲/ ۳۶۵

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع‌كان الجواب له قرع الظنابيب

// ۴/ ۱۹۰ و ۴۰۶

فبئس الوليجة للهاربى‌ن و المعتدين و أهل الريب

/ أبان بن تغلب/ ۲/ ۳۹۰

ألم تريانى كلما جئت طارقاوجدت بها طيبا و إن لم تطيب

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۵۰۷

خليلى مرا بى على أم جندب‌نقض لبانات الفؤاد المعذب

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۹۱

لا تذكرى مهرى و ما أطعمته‌فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

/ عنترة/ ۳/ ۴۸۱

العفو يرجى من بنى آدم‌فكيف لا يرجى من الربّ

// ۳/ ۱۸۵

من يساجلنى يساجل ماجدايملأ الدلو إلى عقد الكرب

// ۲/ ۵۸۵ و ۳/ ۵۰۷

فاليوم قربت تهجونا و تمدحنافاذهب فما بك و الأيام من عجب

// ۱/ ۴۸۰

بطخفة جالدنا الملوك و خيلناعشية بسطام جرين على نحب

// ۴/ ۳۱۳

ضازت بنو أسد بحكمهمإذ يجعلون الرأس كالذنب

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۱۳۱

من البيض لم تصطد على ظهر لأمةو لم تمش بين الناس بالحطب الرطب

// ۵/ ۶۲۸

ما زلت يوم البين ألوى صلبىو الرأس حتى صرت مثل الأغلب

/ العجاج/ ۵/ ۴۶۶

فريقان منهم قاطع بطن نخلةو آخر منهم قاطع نجد كبكب

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۵۴۰

خفاهن من إنفاقهن كأنماخفاهن و دق من عشى مجلب

/ امرؤ القيس/ ۳/ ۴۲۴

فإنكما إن تنظرانى ساعةمن الدهر ينفعنى لدى أم جندب

// ۱/ ۱۴۵ و ۵/ ۴۰۷

فذوقوا كما ذقنا غداة محجرمن الغيظ فى أكبادنا و التحوّب

/ طفيل/ ۱/ ۴۸۲

تلك خيلى منه و تلك ركابىهن صفر أولادها كالزبيب

// ۵/ ۴۳۴

و هم خلصائى كلهم و بطانتىو هم عيبتى من دون كل قريب

// ۱/ ۴۳۰

عرفت ديار زينب بالكثيبكخط الوحى فى الورق القشيب

/ حسان/ ۵/ ۳۸۲

فإنه أرأف بى منهمحسبى به حسبى حسبى

// ۳/ ۱۸۵

إلى هند صبا قلبىو هند حبها يصبى

/ زيد بن حينة/ ۳/ ۲۹

إن الرجال لهم إليك وسيلةأن يأخذوك تكحلى و تخضبى

/ عنترة/ ۲/ ۴۴

حرف التاء

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات ثعلب

// ۱/ ۲۶۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۰۶ أشكو إليك سنة قد أجحفت‌جهدا إلى جهد بنا و أضعفت

// ۳/ ۲۸۸

بالخير خيرات و إن شرا فاو لا أريد الشر إلا أن تا

// ۲/ ۴۸۰

سميتها إذ ولدت تموت‌و القبر صهر ضامن رميت

// ۵/ ۴۷۱

يا أيها الراكب المزجى مطيته‌سائل بنى أسد ما هذه الصوت/ رويشد بن كثير

/ ۳/ ۲۸۹ و ۵/ ۱۰

ألى الفضل أم على إذا حوسبت إنى على الحساب مقيت

// ۱/ ۵۶۹

فقال شيطان لهم عفريت‌ما لكم مكث و لا تبييت

// ۴/ ۱۶۰

هل أنت إلا إصبع دميت‌و فى سبيل اللّه ما لقيت

// ۴/ ۴۳۵

و ليلة ذات ندى سريت‌و لم يلتنى عن سراها ليت

/ رؤبة بن العجاج/ ۵/ ۸۰

ليت قومى بالأبعدين إذا ماقال داع من العشيرة هيت

/ طرفة/ ۳/ ۲۰

لو شربت السلوى ما سلوت‌ما بى غنى عنك و إن غنيت

/ رؤبة/ ۱/ ۱۰۴

لنا خمر و ليست خمر كرم‌و لكن من نتاج الباسقات

// ۵/ ۸۶

و إنما حمل التوراة قارئهاكسب الفؤاد لا حب التلاوات

/ المعرى/ ۱/ ۹۲

حلف برب مكة و المصلى‌و أعناق الهدى مقلدات

// ۱/ ۲۲۵

فأنت اليوم فوق الأرض حياو أنت غدا تضحك فى كفات

// ۵/ ۴۳۲

يظل بها الشيخ الذى كان بادنايدب على عوج له نخرات

// ۵/ ۴۵۳

فإن تكن العتبى فأهلا و مرحباو حقت لها العتبى لدنيا و قلت

/ كثير/ ۵/ ۴۹۲

فيا أسفا للقلب كيف انصرافهو للنفس لما سلّيت فتسلت

/ كثير/ ۳/ ۵۷

قليل الألايا حافظ ليمينهو إن بدرت منه الألية برت

// ۴/ ۲۶

ثلاثة تحذف تاءاتهامضافة عند جمع النّحاة

// ۴/ ۴۱

كرام فى السماء ذهبن طولاوفات ثمارها أيدى الجناة

// ۵/ ۸۶

حرف الثاء

أ شاقتك الظعائن يوم بانوابذى الرئى الجميل من الأثاث

/ محمد بن نمير الثقفى/ ۳/ ۴۱۰

فعادى بين هاديتين منهاو أولى أن يزيد على الثلاث

// ۵/ ۴۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۰۷

حرف الجيم

نحن بنو جعدة أصحاب الفلجنضرب بالسيف و نرجو بالفرج

// ۳/ ۵۶۶

تركنا ديارهم منهم قفاراو هدّمنا المصانع و البروجا

// ۴/ ۱۲۷

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارناتجد حطبا جزلا و نارا تأججا

// ۵/ ۱۳۶

كأن الريش و الفوقين منهخلاف النصل سيط به مشيج

/ الهذلى/ ۵/ ۴۱۶

شربن بماء البحر ثم ترفعتمتى لجج خضر لهن نئيج

/ الهذلى/ ۵/ ۴۱۸

يطرحن كل معجل نشاج‌لم يكس جلدا فى دم أمشاج

/ رؤبة بن العجاج/ ۵/ ۴۱۵

فلثمت فاها آخذا بقرونهاشرب النزيف ببرد ماء الحشرج

/ عمر بن أبى ربيعة/ ۳/ ۳۶۳

لا تكسع الشول بأغبارهاإنك لا تدرى من الناتج

/ الحارث بن حلزة/ ۳/ ۱۶۳

حرف الحاء

هذا مقام قدمى رباح‌ذب حتى دلكت براح

// ۳/ ۲۹۸

و الحرب لا يبقى لجاحمها التخيل و المراح

// ۲/ ۷۹

أين المفر و الكباش تنتطح‌و كل كبش فر منها يفتضح

// ۵/ ۴۹۵

و الخيل تعلم حين تضبح فى حياض الموت ضبحا

/ عنترة/ ۵/ ۵۸۶

و الخيل تعلم حين تسبح فى حياض الموت سبحا

/ عنترة/ ۵/ ۴۵۰

يا ليت زوجك فى الوغى‌متقلدا سيفا و رمحا

// ۲/ ۵۲۵ و ۵/ ۱۸۱

و حسبك فتية لزعيم قوم‌يمد على أخى سقم جناحا

// ۳/ ۱۷۱

و إذا رامت الذبابة للشمس غطاء مدت عليها جناحا

// ۵/ ۳۷۴

بر يصلى ليله و نهاره‌يظل كثير الذكر للّه سائحا

// ۲/ ۴۶۵

يا ناق سيرى عنقا فسيحاإلى سليمان فنستريحا

// ۲/ ۵۳۳

كرهت العقر عقر بنى شليل‌إذا هبت لقارئها الرياح

// ۱/ ۲۶۹

فلم أر حيا صابروا مثل صبرهاو لا كانوا مثل الذين نكافح

/ عنترة/ ۱/ ۴۷۵

و ما الدهر إلا تارتان فمنهماأموت و أخرى أبتغى العيش أكدح

/ ابن مقبل/ ۵/ ۴۹۳

يأبى الفتى إلا اتباع الهوىو منهج الحق له واضح

// ۲/ ۲۷۷

و أنى إذا ملت ركابى مناخهافإنى على حظى من الأمر جامح

// ۲/ ۴۲۹

إذا مات فوق الرحل أحييت روحهبذكراك و العيش المراسيل جنّح

/ ذو الرمة/ ۲/ ۳۶۷

يأبى الفتى إلا اتباع الهوىو منهج الحق له واضح

// ۳/ ۴۸۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۰۸ أخو بيضات رائح متأوبرفيق لمسح المنكبين سبوح

// ۴/ ۲۹

لو خفت هذا منك ما نلتنىحتى ترى خيلا أمامى تسيح

/ طرفة/ ۲/ ۳۸۰

ليبك يزيد ضارع لخصومةو مختبط مما تطيح الطوائح

/ سيبويه/ ۲/ ۱۴۹

إن قوما منهم عمير و أشباه عمير و منهم السفاح

// ۱/ ۴۸۱

كانت خراسان أرضا إذ يزيد بهاو كل باب من الخيرات مفتوح

// ۲/ ۶۶

ألستم خير من ركب المطاياو أندى العالمين بطون راح

/ جرير/ ۵/ ۵۶۲

مهب رياح سده جناحو قابل بالمصباح ضوء صباح

// ۵/ ۳۷۴

و قيل غدا يا لهف نفسى على غدإذا راح أصحابى و لست برائح

/ الطرماح/ ۵/ ۱۵۲

ألا غللانى قبل نوح النوائحو قبل اضطراب النفس بين الجوانح

/ الطرماح/ ۵/ ۱۵۲

يعز على الطريق بمنكبيهكما ابترك الخليع على القداح

// ۴/ ۴۸۱

فتى ما ابن الأغر إذا شتوناو حب الزاد فى شهرى قماح

/ أبو زيد الهذلى/ ۴/ ۴۱۴

و نحن على جوانبها قعودنغض الطرف كالإبل القماح

// ۴/ ۴۱۴

لا يدلفون إلى ماء بآنيةإلا اغترافا من الغدران بالراح

// ۱/ ۳۰۴

قل للقوافل و الغزى إذا غزواو الباكرين و للمجد الرائح

// ۱/ ۴۵۰

قاتلها اللّه تلحانى و قد علمتأنى لنفسى إفسادى و إصلاحى

/ أبان بن تغلب/ ۲/ ۴۰۳

حرف الخاء

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهملؤما و أبيضهم سربال طباخ

// ۳/ ۲۹۳

حرف الدال

مرج الدين فأعددت لهمشرف الحارك محبوك الكتد

// ۵/ ۹۹

ساهم الوجه شديد أسرهمشرف الحارك محبوك الكتد

/ لبيد/ ۵/ ۴۲۷

لطالما حلأتماها لا تردفخلياها و السّجال تبترد

// ۴/ ۱۳۷

و ذا النصب المنصوب لا تعبدنهو لا تعبد الشيطان و اللّه فاعبدا

/ الأعشى/ ۵/ ۳۵۳

إذا نزلت فاجعلونى وسطاإنى كبير لا أطيق العندا

// ۳/ ۱۲۰

للموت فيها سهام غير مخطئةمن لم يكن ميتا فى اليوم مات غدا

/ الحطيئة/ ۵/ ۱۵۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۰۹ فإن تسألى عنى فيا ربّ سائلحفى عن الأعشى به حيث أصعدا

// ۲/ ۳۱۱

شهاب حروب لا تزال جيادهعوابس يعلكن الشكيم المصمدا

// ۵/ ۶۳۴

ألا أيهذا السائلى أين أصعدتفإن لها من بطن يثرب موعدا

// ۱/ ۴۴۷

كأنما كان شهابا واقداأضاء ضوءا ثم صار خامدا

/ أبو النجم/ ۴/ ۱۴۶

و قد رام آفاق السماء فلم يجدله مصعدا فيها و لا الأرض مقعدا

// ۱/ ۴۸۰

أبيت نجيا للهموم كأننى‌أخاصم أقواما ذوى جدل لدا

// ۳/ ۴۱۷

و لقد رأيت معاشراقد ثمروا مالا و ولدا

/ الحارث بن حلزة/ ۳/ ۴۱۱

أرينى جوادا مات هزلا لأننى‌أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

/ دريد بن الصّمة/ ۲/ ۱۷۳

و لقد قلت و زيد حاسريوم ولت خيل عمرو قددا

// ۵/ ۳۶۷

فى كل ما هم أمضى رأيه قدماو لم يشاور فى إقدامه أحدا

// ۵/ ۵۶۳

كم من أخ لى ماجدبوأته بيدىّ لحدا

/ عمرو بن معديكرب/ ۳/ ۵۲۹

كسدن من الفقر فى قومهنو قد زادهن مقامى كسادا

// ۲/ ۳۹۵

فرد شعورهن السود بيضاورد وجوههن البيض سودا

// ۵/ ۱۴۲

رمى الحدثان نسوة آل عمروبمقدار سمدن له سمودا

// ۵/ ۱۴۲

نسب كأن عليه من شمس الضحى‌نورا و من فلق الصباح عمودا

// ۴/ ۳۸

يا عاذلى دعا الملام و أقصراطال الهوى و أطلتما التفنيدا

// ۳/ ۶۴

لقد سلبت عصاك بنو تميمفما تدرى بأى عصا تذود

// ۴/ ۱۹۱

و غنيت سبتا قبل مجرى داحس‌لو كان للنفس اللجوج خلود

/ لبيد/ ۲/ ۴۹۸

غلب العزاء و كنت غير مغلبدهر طويل دائم ممدود

/ لبيد/ ۵/ ۱۸۳

و حبسن فى هزم الضريع فكلهاحدباء دامية اليدين حرود

/ الهذلى/ ۵/ ۵۲۲

إن الحدائق فى الجنان ظليلةفيها اللواعب سدرها مخضود

/ أمية بن أبى الصلت/ ۵/ ۱۸۳

حتى ما إذا أضاء البرق فى غلسو غودر البقل ملوى و مخضود

// ۴/ ۵۰۶

أردت لكيما يعلم الناس أنهاسراويل قيس و الوفود شهود

// ۱/ ۵۲۱

يا حكم بن المنذر بن الجارودسرادق المجد عليك ممدود

/ رؤبة/ ۳/ ۳۳۵

ألا زارت و أهل منى هجودفليت خيالها بمنى يعود

// ۳/ ۲۹۸

ألا طرقتنا و الرفاق هجودفباتت بعلات النوال تجود

// ۳/ ۲۹۸

فإن يبرأ فلم أنفث عليهو إن يفقد فحق له الفقود

/ عنترة/ ۵/ ۶۴۰

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۱۰ أزيد مناة توعد يا ابن تيمتأمل أين تاه بك الوعيد

/ جرير/ ۵/ ۱۳۰

تألى ابن أوس حلفة ليردنىإلى نسوة كأنهن مفايد

// ۴/ ۱۹

القابض الباسط الهادى لطاعتهفى فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

// ۵/ ۳۱۷

أغر عليه للنبوة خاتممن اللّه مشهود يلوح و يشهد

/ حسان/ ۵/ ۵۶۴

و شقّ له من اسمه ليجلّهفذو العرش محمود و هذا محمد

/ حسان/ ۵/ ۵۶۴

بردت حراشفها على فصدنىعنها و عن تقبيلها البرد

/ الكندى/ ۵/ ۴۴۲

علوته بحسام ثم قلت لهخذها حذيف فأنت السيد الصمد

// ۵/ ۶۳۳

فالأرض معقلنا و كانت أمنافيها مقابرنا و فيها نولد

/ أمیة بن أبی الصلت/ ۵/ ۵۹۴

جزى اللّه بالإحسان ما فعلا بكمو أبلاهما خير البلاء الذى يبلو

/ زهير/ ۱/ ۹۸

و لا سنة طوال الدهر تأخذهو لا ينام و ما فی أمره فند

/ زهير/ ۱/ ۳۱۱

أو درة صدفية غواصهابهج متى يرها يهل و يسجد

/ النابغة/ ۱/ ۱۹۶

و الشمس تطلع كل آخر ليلةحمراء يصبح لونها يتورد

/ أمية بن أبی الصلت/ ۱/ ۱۸۹

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه و تسجد

/ أمية بن أبی الصلت/ ۳/ ۴۵۷

قد كان ذو القرنين عمرو مسلماملكا تذل له الملوك و تحسد

/ تبع/ ۳/ ۳۶۷

فإن تكتموا الداء لا نخفهو إن تبعثوا الحرب لا نقعد

/ امرؤ القيس/ ۳/ ۴۲۳

و ضم الإله اسم النبی مع اسمهإذا قال فی الخمس المؤذن أشهد

/ حسان/ ۵/ ۵۶۴

يا لهف نفسی و لهفی غير مجديةعنی و ما من قضاء اللّه ملتحد

// ۵/ ۳۷۲

فمن لم يمت بالسيف مات بغيرهتعددت الأسباب و الموت واحد

// ۱/ ۵۶۴

إذا أنكرتنی بلدة أو نكرتهاخرجت مع البازىّ علىّ سواد

// ۲/ ۵۷۸

ألم يأتيك و الأنباء تنمیبلا لاقت لبون بنی زياد

/ قيس بن زهير/ ۳/ ۶۲ و ۱۱۵ و ۵۳۰

إلا سليمان إذ قال المليك لهقم فی البرية فاحددها عن الفند

/ النابغة/ ۳/ ۶۴ و ۴/ ۴۹۸

هل فی افتخار الكريم من أودأم هل لقول الصديق من فند

// ۳/ ۶۴

فأصبحت مما كان بينی و بينهامن الود مثل القابض الماء باليد

// ۳/ ۸۸

مؤللتان يعرف العتق فيهماكسامعتی شاة بحومل مفرد

/ طرفة/ ٢/ ٣٨٧

أعاذل إن الجهل من لذة الفتىو إن المنايا للنفوس بمرصد

/ عدىّ/ ٢/ ٣٨٥

فتح القدير، ج۶، ص: ١١١ و لقد علمت و ما إخالك عالماإن المنية للفتى بالمرصد

/ عامر بن الطفيل/ ٢/ ٣٨٥

و إنى لعبد الضيف ما دام ثاوياو ما فى إلا تلك من شيمة العبد

/ حاتم الطائى/ ٢/ ٣١٣

أعاذل ما يدريك أن منيتىإلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

/ عدى بن زيد/ ٢/ ١٧٣

إن بنى الأدرد ليسوا من أحدو لا توفاهم قريش فى العدد

// ٢/ ١۴١

هلا خصصت من البلاد بمقصدقمر القبائل خالد بن يزيد

// ۴/ ٣٨

يا دارمية بالعلياء فالسندأقوت و طال عليها سالف الأمد

/ النابغة/ ۵/ ١٩٠

و شباب حسن أوجههم منإياد بن نزار بن معد

// ۵/ ١۴٧

ترى جثوتين من تراب عليهماصفائح صم من صفيح منضد

/ طرفة/ ۵/ ١٣

متى تأته تعشو إلى ضوء نارهتجد خير نار عندها خير موقد

/ الحطيئة/ ۴/ ۶٣٧

فما أنا بدع من حوادث تعترىرجالا غدت من بعد بؤس بأسعد

/ عدى بن زيد/ ۵/ ١٨

و خبر الجن أنى قد أذنت لهمينون تدمر بالصفاح و العمد

/ النابغة/ ٣/ ٧٨ و ۴/ ۴٩٨

يا ويح أصحاب النبى و رهطهبعد المغيب فى سواء الملحد

/ حسان/ ١/ ١۴٩

تعلم رسول اللّه أنك مدركىو أن وعيدا منك كالأخذ باليد

/ كعب بن مالك/ ١/ ۴٠

يا بكر بكرين و يا خلب الكبدأصبحت منى كذراع من عضد

// ١/ ١١۵

فقلت لهم ظنوا بألفى مدججسراتهم فى الفارسى المسرد

/ دريد بن الصمۀ/ ۱/ ۹۴

فارتاع من صوت كلّاب فبات لهطوع الشوامت من خوف و من صرد

/ النابغۀ/ ۲/ ۵۸۰

كميش الإزار خارج نصف ساقهصبور على الجلاء طلاع أنجد فتح القدير ج۶ ۱۲۰

/ دريد بن الصمۀ/ ۵/ ۳۲۸

و موؤودۀ مقبورۀ فى مفازۀبآمتها موسودۀ لم يمهد

/ متمم بن نويرۀ/ ۵/ ۴۷۱

لقد بكر الناعى بخير بنى أسدبعمرو بن مسعود و بالسيد الصمد

// ۵/ ۶۳۵

يا رب إنى ناشد محمداحلف أبينا و أبيه الأتلد

// ۲/ ۳۹۲

كنود لنعماء الرجال و من يكن كنودا لنعماء الرجال يبعد

// ۵/ ۵۸۹

وقوفا بها صحبى علىّ مطيهميقولون لا تهلك أسى و تجلد

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۱۴۷

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاءهو من يبذل المعروف فى الناس يحمد

/ الحطيئۀ/ ۵/ ۱۳۷

أزف الترحل غير أن ركابنالما تزل بركابنا و كأن قد

/ النابغۀ/ ۴/ ۵۵۷ و ۵/ ۱۴۲

ما كان ينفعنى مقال نسائهمو قتلت دون رجالهم لا تبعد

/ ۲/ ۵۷۴

نفثت فى الخيط شبيه الرقىمن خشيۀ الجنۀ و الحاسد

/ متمم بن نويرۀ/ ۵/ ۶۴۰

سيروا جميعا بنصف الليل و اعتمدواو لا رهينۀ إلا سيد صمد

/ الزبرقان بن بدر/ ۵/ ۶۳۴

سبحانه ثم سبحانا يعود لهو قبلنا سبّح الجودى و الجمد

/ زيد بن عمرو/ ۲/ ۵۶۸

و صادقتا سمع التوجس للسّرىلركز خفى أو لصوت مفتد

/ طرفۀ/ ۳/ ۴۱۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۱۲ ترى جثوتين من تراب عليهماصفائح صم من صفيح منضد

/ طرفۀ/ ۳/ ۴۰۵

غدوت صباحا باكرا فوجدتهمقبيل الضحى فى السّابرىّ الممرد

// ۴/ ۱۶۳

لعمرک ما أمری علیّ بغمةنهاری و لا لیلی علی بسرمد

/ طرفة/ ۲/ ۵۲۶ و ۴/ ۲۱۳

مضی الخلفاء فی أمر رشیدو أصبحت المدینة للولید

// ۴/ ۱۸۵

إذا جیاد الخیل جاءت تردیمملوءة من غضب و حرد

// ۵/ ۳۲۵

أضحت خلاء و أضحی أهلها احتملواأخنی علیها الذی أخنی علی لبد

/ النابغة/ ۵/ ۳۷۱

لم تبلغ العین کل نهمتهایوم تمشی الجیاد بالقدد

/ لبید/ ۵/ ۳۶۷

یمشی بأوظفة شداد أسرهاصمّ السنابل لا تفی بالجدجد

/ ابن أحمر/ ۵/ ۴۲۷

تمنی رجال أن أموت و إن أمتفتلک سبیل لست فیها بأوحد

/ طرفة بن العبد// ۵/ ۵۵۲

و وجه کأن الشمس ألقت رداءهاعلیه نقی اللون لم یتخدد

/ طرفة/ ۵/ ۵۰۰

الخیر أبقی و إن طال الزمان بهو الشر أخبث ما أوعیت من زاد

// ۵/ ۴۹۶

مقذوفة بد خیس النحض بازلهاله صریف صریف القعو بالمسد

/ النابغة/ ۵/ ۶۲۸

و المؤمن العائذات الطیر یمسحهارکبان مکة بین الغیل و السند

/ النابغة/ ۵/ ۲۴۷

یجود بالنفس إن ضن الجبان بهاو الجود بالنفس أقصی غایة الجود

/ مسلم بن الولید/ ۲/ ۴۶۳ و ۵/ ۲۰۲

فکنت کالساعی إلی مثعبموائلا من سبل الراعد

// ۲/ ۴۴۲

سبوحا جموحا و إحضارهاکمعمعة السعف الموقد

// ۲/ ۴۲۳

و ما أنا إلا من غزیة إن غوتغویت و إن ترشد غزیة أرشد

// ۲/ ۴۰۴ و ۳/ ۴۸۶

إن یغبطوا یهبطوا و إن أمروایوما یصیروا للهلک و النکد

/ لبيد/ ٣/ ٢٥٥

إن لا يكن ورق يوما أجود بهاللسائلين فإنى ليّن العود

// ٣/ ٢٦٨

لا تحسبنى و إن كنت امرأ غمراكحيّة الماء بين الطين و الشّيد

/ الشماخ/ ٣/ ٥٤٣

هذا الثناء فإن تسمع لقائلهو لم أعرض أبيت اللعن بالصفد

/ النابغة/ ٣/ ١٤٢

فاستعجلونا و كانوا من صحابتناكما تعجل فراط لوراد

/ القطامى/ ٣/ ٢٠٦

أبو بيضات رائح أو مبعدعجلان ذا زاد و غير مزوّد

// ٤/ ٦٠

أسرت عليه من الجوزاء ساريةتزجى الشمال عليه جامد البرد

/ النابغة/ ٤/ ٤٨

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفىعقيلة مال الفاحش المتشدد

/ طرفة/ ١/ ٣٣٢

أبنى لبينى لستم بيدإلا يدا مخبولة العضد

/ أوس/ ١/ ٤٣١

و إن الذى حانت بفلج دماؤهمهم القوم كل القوم يا أم خالد

// ١/ ٥٥

فجئت إليه و الرماح تنوشهكوقع الصياصى فى النسيج الممدد

/ دريد بن الصمة/ ٤/ ٣١٦

فإنا و إن عيرتمونا بقلّةو أرجف بالإسلام باغ و حاسد

// ٤/ ٣٥٠

فتح القدير، ج۶، ص: ١١٣ أمون كألواح الإران نسأتهاعلى لاحب كأنه ظهر برجد

/ طرفة/ ٤/ ٣٦٤

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهمفما كمثلهم فى الناس من أحد

// ٤/ ۶٠٤

إذا قيل من ربّ المزالف و القرىو رب الجياد الجرد قلت لخالد

// ٣/ ٥٨٧

لا أهتدى فيها لموضع تلعةبين العذيب و بين أرض مراد

// ٤/ ٤١٥

تظاهرتم من كل أوب و وجهةعلى واحد لا زلتم قرن واحد

// ۱/ ۱۲۷

حلوا بأنقرة يسيل عليهمماء الفرات يجیء من أطواد

/ الأسود بن يعقر/ ۴/ ۱۱۹

و من الحوادث لا أبا لک أننیضربت علی الأرض بالأسداد

// ۴/ ۴۱۵

يا صاحبی دعا لومی و تفنيدیفليس ما فات من أمری بمردود

// ۳/ ۶۴

صاديا يستغيث غير مغاثو لقد کان عصرة المنجود

// ۳/ ۳۹

تحسهم السيوف کما تسامیحريق النار فی الأجم الحصيد

/ جرير/ ۱/ ۴۴۶

و إنی لم أهلک سلالا و لم أمتخفاتا و کلا ظنه بی عودی

/ دريد بن الصمة/ ۵/ ۳۲۴

إذا ما صنعت الزاد فالتمسی لهأکيلا فإنی لست آکله وحدی

/ حاتم/ ۴/ ۶۳

أو أن سلمی أبصرت تخددیو دقة فی عظم ساقی و يدی

// ۳/ ۱۱۶

و کم من ماجد لهم کريمو من ليث يعزر فی الندی

/ أبو عبيدة/ ۲/ ۲۶

و کتيبة لبستها بکتيبةحتی إذا التبست نفضت لها يدی

/ عنترة/ ۱/ ۸۸

تسليت طرا عنکم بعد بينکمبذکراکم حتی کأنکم عندی

// ۴/ ۳۷۶

و بث الخلق فيها إذا دحاهافهم قطانها حتی التنادی

/ أمية بن أبی الصلت/ ۵/ ۴۵۸

ألا أيهذا الزاجری أحضر الوغیو أن أشهد اللذات هل أنت مخلدی

/ طرفة/ ۱/ ۱۲۶ و ۲/ ۵۸ و ۴/ ۲۵۴

و من ورائک يوم أنت بالغهلا حاضر معجز عنه و لا بادی

// ۳/ ۱۲۰

فأسررت الندامة يوم نادیبرد جمال غاضرة المنادی

/ کثير/ ۲/ ۵۱۵

حرف الراء

و قتلى كمثل جذوع النخيل يغشاهم مطر منهمر

/ أوس بن حجر/ ۴/ ۶۰۴

راح تمريه الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۱۴۸

يغدو على الصيد بعود منكسرو يقمطر ساعة و يكفهر

// ۵/ ۴۲۰

يا جعفر يا جعفر يا جعفرإن أك دحداحا فأنت أقصر

// ۵/ ۶۲۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۱۴ لا تعدمى الدهر شفار الجازرللضيف و الضيف أحق زائر

// ۲/ ۵۸۳

تمنى كتاب اللّه أول ليلةو آخرة لاقى حمام المقادر

/ كعب بن مالك/ ۱/ ۱۲۳

إلى الحول ثم اسم السلام عليكماو من يبك حولا كاملا فقد اعتذر

/ لبيد/ ۲/ ۴۴۵ و ۵/ ۱۷۳ و ۵۱۴

فما ونى محمد مذ أن غفرله الإله ما مضى و ما غبر

/ العجاج/ ۳/ ۴۳۲

جذّذ الأصنام فى محرابهاذاك فى اللّه العلىّ المقتدر

// ۳/ ۴۸۸

جعل البيت مثابا لهمليس منه الدهر يقضون الوطر

// ۱/ ۱۶۱

لها عذر كقرون النساء ركبن فى يوم ريح و صر

// ۴/ ۵۸۵

قد غدا يحملنى فى أثفهلا حق الإطلين محبوك ممر

/ أبو دؤاد/ ۵/ ۹۹

سلام الإله و ريحانهو رحمته و سماء درر

/ النمر بن تولب/ ۵/ ۱۶۰ و ۱۹۵

و ليلة ظلامها قد اعتكرقطعتها و الزمهرير ما زهر

// ۵/ ۴۲۱

فلا و أبيك ابنة العامرىلا يدعى القوم أنى أفر

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۴۰۲

أقسم باللّه أبو حفص عمرما مسها من نقل و لا دبر

// ۵/ ۴۰۴

و لقد تعلم بكر أننافاضلو الرأى و فى الروع وزر

/ طرفۀ/ ۵/ ۴۰۵

لعمرى ما للفتى من وزرمن الموت يدركه و الكبر

// ۵/ ۴۰۵

أرى الناس قد أحدثوا شيمۀو فى كل حادثۀ يؤتمر

/ النمر بن تولب/ ۴/ ۱۹۱

إنى أتتنى لسان لا أسر بهامن علو لا عجب منها و لا سخر

/ الأعشى/ ۴/ ۱۲۳

أتونى فلم أرض ما بيتواو كانوا أتونى بأمر نكر

// ۱/ ۵۶۶

و إن قريشا كلها عشر أبطنو أنت برىء من قبائلها العشر

// ۲/ ۲۹۱

لا يبعدن قومى الذين همسم العداۀ و آفۀ الجزر

// ۱/ ۶۱۹ و ۲/ ۵۷۴

أنتم أوسط حىّ علموابصغير الأمر أو إحدى الكبر

// ۱/ ۱۷۴

و إذ هى تمشى كمشى النزيف يصرعه بالكثيب البهر

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۴۵۱

و ترى الناس إلى أبوابهزمرا تنتابه بعد زمر

// ۴/ ۵۴۶

لها ذنب مثل ذيل العروستسد به فرجها من دبر

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۸۵

أخرج الشطء على وجه الثرىو من الأشجار أفنان الثمر

// ۵/ ۶۶

يا ابن المغلى نزلت إحدى الكبرداهيۀ الدهر و صماء الغير

// ۵/ ۳۹۷

لما أكبت يدا لرزاياعليه نادى ألا مجير

// ۵/ ۶۲۶

فهان على سراۀ بنى لؤىحريق بالبويرۀ مستطير

/ حسان/ ۵/ ۲۳۷

فكيف أنا و انتحال القوافى‌بعد الشيب يكفى ذاك عارا

/ الأعشى/ ۳/ ۳۴۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۱۵ أ أزمعت من آل ليلى ابتكاراو شطت على ذى هوى أن تزارا

/ الأعشى/ ۵/ ۳۵۲

نأتى النساء على أطهارهن و لانأتى النساء إذا أكبرن إكبارا

// ۳/ ۲۷

يهوين فى نجد و غورا غائرافواسقا عن قصدها جوائرا

/ رؤبة بن العجاج/ ۱/ ۶۸

و قيدنى الشعر فى بيته‌كما قيد الآسرات الحمارا

/ الأعشى/ ۲/ ۳۷۱

نشرب الخمر بالصواع جهاراو ترى المتک بيننا مستعارا

// ۲/ ۲۲۹ و ۳/ ۲۶ و ۵۰

أيها الرائح المجد ابتكاراقد قضى من تهامة الأوطارا

/ عمر بن أبى ربيعة/ ۴/ ۳۲۷

إذا ما رأين الفحل من فوق قلةصهلن و أكبرن المنى المقطرا

// ۳/ ۲۶

متوج برداء الملک يتبعه‌موج ترى فوقه الرايات و القترا

/ الفرزدق/ ۲/ ۴۹۹

نجا سالم و النفس منه بشدقه‌و لم ينج إلا جفن سيف و مئزرا

/ أبو فراس/ ۱/ ۹۱

و لما قرعنا النبع بالنبع بعضه‌ببعضه أبت عيدانه أن تكسرا

// ۴/ ۶۰

فقلت له لا تبک عينک إنمانحاول ملكا أو نموت فنعذرا

/ امرؤ القيس/ ۲/ ۲۴۰

له الويل إن أمسى و لا أم هاشم‌قريب و لا البسباسة ابنة يشكرا

/ امرؤ القيس/ ۲/ ۲۴۴

أصبحت لا أحمل السلام و لاأملک رأس البعير إن نفرا

/ سيبويه/ ۱/ ۶۲۰

أخو الحرب إن غضت به الحرب غضهاو إن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

/ حاتم الطائى/ ۵/ ۳۲۸

أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم‌و قد ثار نقع الموت حتى تكوثرا

/ حسان بن نشبة/ ۵/ ۶۱۴

و فى الخباء عروب غير فاحشةريا الروادف يعشى ضوؤها البصرا

/ لبيد/ ۵/ ۱۸۴

لعمرى لئن أنزفتم أو صحوتملبئس الندامى كنتم آل أبجرا

/ الحطيئة/ ۵/ ۱۸۰

نزيف إذا قامت لوجه تمايلتتراشى الفؤاد الرخص ألا تخترا

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۴۵۱

تمنى حصين أن يسود جذاعهفأمسى حصين قد أذل و أقهرا

/ المخبل السعدى// ۲/ ۱۲۰

بلغنا السماء مجدا و فخرا و سؤدداو إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

/ النابغة/ ۴/ ۶۳۵

فأشهد من عوف حلولا كثيرةيحجون سب الزبرقان المزعفرا

// ۱/ ۱۸۵

و يذهب بينها المرئى لغواكما ألغيت فى الدية الحوارا

/ ذو الرمة/ ۱/ ۲۶۴

فطافت ثلاثا بين يوم و ليلةو كان النكير أن تضيف و تجأرا

/ الأعشى/ ۳/ ۲۰۳

أبا لأراجيف يا ابن اللؤم توعدنىو فى الأراجيف خلت اللؤم و الخورا

/ منازل بن ربيعة المنقرى/ ۴/ ۳۵۰ و ۵/ ۴۵۲

يثبت اللّه ما آتاك من حسنتثبيت موسى و نصرا كالذى نصرا

/ عبد اللّه بن رواحة/ ۳/ ۱۲۸ و ۴/ ۱۴۳

من القاصرات الطرف لو دب محولمن الذر فوق الإتب منها لأثرا

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۴۵۲ و ۵/ ۵۸۵

وصيت من برة قلبا حرابالكلب خيرا و الحماة شرا

// ۴/ ۲۲۳

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۱۶ من شاء بايعته مالى و خلعتهما تكمل التيم فى ديوانها سطرا

/ جرير/ ۳/ ۲۸۲

قد لقى الأقران منى نكراداهية دهياء إدّا إمرا

// ۳/ ۳۵۷

تجازى القروض بأمثالهافبالخير خيرا و بالشر شرا

// ۱/ ۳۰۰

فصب عليه اللّه أحسن صنعهو كان له بين البرية ناصرا

/ النابغة/ ۵/ ۵۳۱

يردّ عنك القدر المقدوراو دائرات الدهر أن تدورا

// ٢/ ٥٨

فاز بالحطة التى جعل الله بها ذنب عبده مغفورا

// ١/ ١٠٥

لقدر سخت فى الصدر منى مودةلليلى أبت آياتها أن تغيرا

// ١/ ٣٦٣

عفت الديار خلافها فكأنمابسط الشواطب بينهن حصيرا

/ الحارث بن خالد/ ٣/ ٢٩٤

ألف الصفون فما يزال كأنهمما يقوم على الثلاث كسيرا

// ٣/ ٥٣٧- ٤/ ٤٩٤

قبح الإله وجوه تغلب كلماسبح الحجيج و كبروا تكبيرا

/ جرير/ ٥/ ٥١٤

فبانت و قد أسأرت فى الفؤاد صدعا على نابها مستطيرا

/ الأعشى/ ٥/ ٤١٩

منعمة طفلة كالمهاةلم تر شمسا و لا زمهريرا

/ الأعشى/ ٥/ ٤٢١

لا أرى الموت يسبق الموت شىءنغّص الموت ذا الغنى و الفقيرا

/ عدى بن زيد/ ١/ ١٠٦

فلا و العاديات غداة جمعبأيديها إذا سطع الغبار

/ صفية بنت عبد المطلب/ ٥/ ٥٨٧

يا لبكر أنشروا لى كليبايا لبكر أين أين الفرار

/ المهلهل بن ربيعة/ ٥/ ٦٢٠

و لو لا أن يقال صبا نصيبلقلت بنفسى النشأ الصغار

/ نصيب/ ٥/ ٣٧٩

متى تقرع بمروتكم تسؤكمو لم توقد لنا فى القدر نار

// ٥/ ٥٩٢

فلم أر مثلهم أبطال حربغداة الحرب إذ خيف البوار

// ٣/ ١٣١

و يرين من أنس الحديث زوانياو بهن عن رفث الرجال نفار

// ١/ ٢١٤

غدونا غدوة سحرا بليلعشيا بعد ما انتصف النهار

// ٤/ ٢٥٢

و إن صخرا لتأتم الهداةكأنه علم فى رأسه نار

/ الخنساء/ ٣/ ۴٨۶ و ۴/ ۶١٧

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرتفإنما هى إقبال و إدبار

/ الخنساء/ ٣/ ١٢

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفاأنيس و لم يسمر بمكة سامر

// ٣/ ۵٨١

أقول لمّا جاءنى فخرهسبحان من علقمة الفاخر

/ الأعشى/ ١/ ٧۵

إذا ما هتفنا هتفة فى نديناأتانا الرجال العابدون القساور

/ لبيد/ ۵/ ۴٠٠

إذا حول الظل العشى رأيتهحنيفا و فى قرن الضحى يتنصر

// ١/ ١٧٠

ففروا إذا ما الحرب ثار غبارهاولج بها اليوم العبوس القماطر

// ۵/ ۴٢٠

فتح القدير، ج۶، ص: ١١٧ فما حسن أن يعذر المرء نفسهو ليس له من سائر الناس عاذر

// ۵/ ۴٠۶

أ عيرتنا ألبانها و لحومهاو ذلك عمار يا ابن ريطة ظاهر

// ٣/ ١٠٢

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسهلشىء نحته عن يديك المقادر

/ ذو الرمة/ ٣/ ٣٢١

رهبان مدين لو رأوك تنزلواو العصم من شعف العقول الفادر

/ جرير/ ٢/ ٧٨

أبا حكم ما أنت عم مجالدو سيد أهل الأبطح المتناحر

// ۵/ ۶١۴

إما يصبك عدو فى مناوأةيوما فقد كنت تستعلى و تنتصر

// ٢/ ١۴۶

غنينا زمانا بالتصعلك و الغنىكما الدهر فى أيامه العسر و اليسر

/ حاتم الطائى/ ٢/ ٢۵٧

فلا تجزعوا إنى لكم غير مصرخو ليس لكم عندى غناء و لا نصر

/ أمية بن أبى الصلت/ ٣/ ١٢۵

و هم كشوث فلا أصل و لا ورقو لا نسيم و لا ظل و لا ثمر

// ٣/ ١٢٨

و طلعت شمس عليها مغفرو جعلت عين الحرور تسكر

// ۳/ ۱۴۸

بئس الصحاب و بئس الشرب شربهمإذا جرى فيهم الهذى و السكر

// ۳/ ۲۱۱

فليست عشيات اللوى برواجعلنا أبدا ما أبرم السّلم النضر

// ۳/ ۴۹۷

اللّه يعلم أنا فى تلفتنايوم الفراق إلى جيراننا صور

// ۱/ ۳۲۴

و كم من حصان قد حوينا كريمةو من كاعب لم تدر ما البؤس معصر

/ قيس بن عاصم/ ۵/ ۴۴۵

و كان مجنى دون ما كنت أتقىثلاث شخوص كاعبان و معصر

/ عمر بن أبى ربيعة/ ۵/ ۴۴۵

عشية فرّ الحارثيون بعد ماقضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

// ۴/ ۳۱۳

قعدت زمانا على طلابك للعلاو جئت نئيشا بعد ما فاتك الخير

// ۴/ ۳۸۵

تروح بنا يا عمرو و قد قصر العصرو فى الروحة الأولى الغنيمة و الأجر

// ۵/ ۵۹۹

و يحيى لا يلام بسوء خلقو يحيى طاهر الأثواب حر

// ۵/ ۳۸۹

ألا يا اسلمى يا دارمىّ على البلىو لا زال منهلا بجرعائك القطر

// ۴/ ۱۵۴

و قد جعلت أرى الاثنين أربعةو الأربع اثنين لما هدّنى الكبر

// ۱/ ۶۰

و إنى لتعرونى لذكراك سلوةكما انتفض السلواة من سلكه القطر

// ۱/ ۱۰۴

فإن رددت فما فى الرد منقصةعلىّ قد ردّ موسى قبل و الخضر

// ۳/ ۳۵۸

أماوى ما يغنى الثراء على الفتىإذا حشرجت يوما و ضاق بها الصدر

/ حاتم الطائى/ ۵/ ۱۹۴

أما الربيع إذا تكون خصاصتهعاش السقيم به و أثرى المقتر

// ۵/ ۲۳۹

لا تنصروا اللات إن اللّه مهلكهاو كيف ينصركم من ليس ينتصر

/ شداد بن عارض الجشمى/ ۵/ ۱۳۰

تهل بالفرقد ركبانهاكما يهل الراكب المعتمر

// ۱/ ۱۹۶

فبت أكابد ليل النمام و القلب من خشية مقشعر

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۵۲۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۱۸ يا قومنا لا تروموا حربنا سفهاإن السّفاه و إن البغى مبثور

/ أبان بن تغلب/ ۳/ ۳۱۲

و فى الجهل قبل الموت موت لأهلهفأجسامهم قبل القبور قبور

// ۲/ ۱۸۱

ثم بعد الفلاح و الملك و الإمة و ارتهم هناك القبور

/ عدى بن زيد/ ۴/ ۶۳۲

فكأنما هى من تقادم عهدهارق أتيح كتابها مسطور

/ المتلمس/ ۵/ ۱۱۴

تركتم قدركم لا شىء فيهاو قدر الغير حامية تفور

/ حسان/ ۵/ ۳۱۰

شققت القلب ثم ذررت فيه‌هواك فليم فالتأم الفطور

// ۵/ ۳۰۹

بنى لكم بلا عمد سماءو زينها فما فيها فطور

// ۵/ ۳۰۹

خليلى هل فى نظرة بعد توبةأداوى بها قلبى علىّ فجور

// ۴/ ۹۳

شاده مرمرا و جلله كلسا فللطير فى ذراه و كور

/ عدىّ بن زيد/ ۳/ ۵۴۳

مستقبلين شمال الشام يضربهابحاصب كنديف القطن منثور

/ الفرزدق/ ۵/ ۱۵۳

رأت رجلا غائب الوافدين مختلف الخلق أعشى ضرير

/ الأعشى/ ۴/ ۶۳۷

يباعده الصديق و تزدريه‌حليلته و ينهره الصغير

/ الفرّاء/ ۲/ ۵۶۲

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحت‌لها حفد مما يعد كثير

/ جميل بن معمر/ ۳/ ۲۱۴

و ما كادت إذا رفعت سناهاليبصر ضوءها إلا البصير

/ الشماخ/ ۴/ ۴۹

إذا المرء أعيته السيادة ناشئافمطلبها كهلا عليه عسير

// ۴/ ۳۷۶

نظرت إليها بالمحصب من منىفعاد إلى الطرف و هو حسير

// ۵/ ۳۰۹

يا قابض الروح عن جسم عصى زمناو غافر الذنب زحزحنى عن النار

/ ذو الرمة/ ۱/ ۱۳۵

أ حافرة على صلع و شيبمعاذ اللّه من سفه و عار

// ۵/ ۴۵۲

ألبست قومك مخزاة و منقصةحتى أبيحو و حلّوا فجوة الدار

// ۳/ ۳۲۶

دعوا كل قول عند قول محمدفما آمن فى دينه كمخاطر

// ۲/ ۴۰۴- ۳/ ۴۸۶- ۵/ ۳۳۲

و يوم كظل الرمح قصر طولهدم الزق عنا و اصطفاق المزاهر

/ شبرمة بن الطفيل/ ۴/ ۲۸۷ و ۵/ ۳۴۵

أعينى جودا بالدموع الهوامرعلى خير باد من معد و حاضر

/ ۵/ ۱۴۸

إذا انصرف الشهر الحرام فودعىبلاد تميم و انصرى أرض عامر

/ الراعى/ ۵/ ۶۲۲

و لكنها ضنت بمنزل ساعةعلينا و أطت يومها بالمعاذر

// ۵/ ۴۰۶

حتى يقول الناس مما رأوايا عجبا للميت الناشر

// ۴/ ۷۱

كبهيمة عمياء قاد زمامهاأعمى على عوج الطريق الجائر

// ۳/ ۲۴۱- ۴/ ۱۲۱

فكم من منعم عليه غير شاكرو كم من مبتلى غير صابر

/ عون بن عبد اللّه/ ۴/ ۶۱۸

ما زلت أغلق أبوابا و أفتحهاحتى أتيت أبا عمرو بن عمار

/ أبو عمرو بن العلاء/ ۳/ ۲۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۱۹ فليت فلانا كان فى بطن أمهو ليت فلانا كان ولد حمار

// ۳/ ۴۱۲

لو أسندت ميتا إلى صدرهاعاش و لم ينقل إلى قابر

/ الأعشى / ۵/ ۴۶۵

فلما علونا و استوينا عليهمتركناهم صرعى لنسر و كاسر

// ۱/ ۳۱۲

و رأت قضاعة فى الأيامن رأى مثبور و ثابر

/ الكميت/ ۳/ ۳۱۲

بالأبلق الفرد من تيماء منزلهحصن حصين و جار غير ختار

/ الأعشى / ۴/ ۲۸۲

و إذا الرجال رأوا يزيد رأيتهمخضع الرقاب فواكس الأبصار

// ۵/ ۴۱۷

فأرسلوهن يذرين التراب كمايذرى سبائخ قطن ندف أوتار

/ الأخطل / ۵/ ۳۸۰

حذر أمورا لا تضير و حاذرما ليس ينجيه من الأقدار

// ۴/ ۱۱۷

شفارة تقذ الفصيل برجلهافطارة لقوادم الأبكار

/ الفرزدق/ ۲/ ۱۱

حذر أمورا لا تضير و آمنما ليس منجيه من الأقدار

// ۴/ ۱۱۷

إن الذى فيه تماريتمابين للسامع و الآثر

/ الأعشى / ۵/ ۳۹۳

فإن تسألينا فيم نحن فإنناعصافير من هذا الأنام المسحر

/ لبيد/ ۴/ ۱۳۰

و أسمر خطيا كأن كعوبهنوى القسب قد أردى ذراعا على العشر

// ۴/ ۱۹۹

فوارس ذبيان تحت الحديد كالجن يوفضن من عبقر

// ۵/ ۳۵۳

إنى إليك لما وعدت لناظرنظر الفقير إلى الغنى الموسر

// ۵/ ۴۰۷

و من فاد من إخوانهم و بينهمكهول و شبان كجنة عبقر

/ لبيد/ ۵/ ۱۷۲ و ۳۵۴

أليس ورائى إن تراخت منيتىأدب مع الولدان أزحف كالنسر

// ۵/ ۷

و الخيل تمرح رهوا فى أعنتهاكالطير تنجو من الشرنوب ذى الوبر

// ۴/ ۶۵۸

لا يبعدن قومى الذين همسم العداة و آفة الجزر

/ أبو عبيدة/ ۱/ ۱۹۹

إذا المعضلات تصدين لى كشفت خفاء لها بالنظر

/ الشافعى/ ۱/ ۲۷۹

هن الحرائر لا ربات أحمرةسود المحاجر لا يقرأن بالسور

/ الراعى/ ۳/ ۵۶۶- ۵/ ۵۷۰

و إن حراما لا أرى الدهر باكياعلى شجوه إلا بكيت على صخر

/ الخنساء/ ۳/ ۵۰۳

و إن أبانا كان حلّ ببلدةسوى بين قيس عيلان و الفزر

/ موسى بن جابر/ ۳/ ۴۳۸

فلم يبق إلا داخر فى مخيسو منجحر فى غير أرضك فى جحر

/ الفرزدق/ ۳/ ۱۹۹

لكم قدم لا ينكر الناس أنهامع الحسب العالى طمت على البحر

/ ذو الرمة/ ۲/ ۴۸۱

نبئت أن بنى سحيم أدخلواأبياتهم تامور نفس المنذر

// ۱/ ۹۲

كسا اللؤم تيما خضرة فى جلودهافويل لتيم من سرابيلها الخضر

// ۱/ ۵۵۴

نال الخلافة أو كانت له قدراكما أتى ربه موسى على قدر

// ۱/ ۵۷- ۳/ ۴۳۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۲۰ فإنك لا يضورك بعد حولأ ظبى كان أمك أم حمار

/ خداش بن زهير/ ۴/ ۱۱۶

إنى ضمنت لمن أتانى ما جنىو أبى فكان و كنت غير غدور

/ الفرزدق/ ۵/ ۸۹

يلحيننى من حبّها و يلمننىإن العواذل لسن لى بأمير

// ۳/ ۵۱۶

ألا طعان و لا فرسان عاديةإلا تجشؤكم حول التنانير

/ حسان/ ۱/ ۳۱۰

يعطى بها ثمنا فيمنعهاو يقول صاحبها ألا تشرى

// ۱/ ۲۴۰

حی النضیرة ربة الخدرأسرت إلیّ و لم تکن تسری

/ حسان/ ۲/ ۵۸۴ و ۳/ ۲۴۶

أبلغ النعمان عنی مالکاأنه قد طال حبسی و انتظاری

/ عدی بن زید/ ۱/ ۷۴

و لأنت تفری ما خلقت و بعض القوم یخلق ثم لا یفری

/ زهیر/ ۱/ ۵۹

حرف الزای

فتح القدیر ج۶ ۱۴۹

فلما شراها فاضت العین عبرةو فی الصدر حزاز من اللوم حامز

/ الشمّاخ/ ۳/ ۱۶

حرف السین

یا صاح هل تعرف رسما مکرساقال نعم أعرفه و أبلسا

/ العجاج/ ۲/ ۱۳۳- ۴/ ۲۵۱

ألما علی الربع القدیم بعسعساکأنی أنادی أو أکلم أخرسا

/ امرؤ القیس/ ۵/ ۴۷۳

حمال رایات بها قنا عساحتی تقول الأزد لا مسایسا

// ۱/ ۳۵۴

تری الجلیس یقول الحق تحسبهرشدا و هیهات فانظر ما به التبسا

/ الخنساء/ ۱/ ۸۸

فلو أنها نفس تموت جمیعةو لکنها نفس تساقط أنفسا

/ امرؤ القیس/ ۳/ ۱۰۰

و هم سائرون إلی أرضهمتنابلة یحفرون الرساسا

// ۴/ ۸۹

إذا ما الضجیع ثنی جیدهاتثنت علیه فکانت لباسا

/ الجعدی/ ۱/ ۸۹

لیث یدق الأسد الهموساو الأقهبین الفیل و الجاموسا

/ رؤبة/ ۳/ ۴۵۷

تراه إذا دار العشا متحنفاو یضحی لدیه و هو نصران شامس

// ۱/ ۱۱۱

عسعس حتى لو يشاء إدّناكان لنا من ناره مقبس

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۴۷۳

إلا اليعافير و إلا العيسو بقر ملمع كنوس

/ عامر بن الحارث/ ۴/ ۱۷۰

آليت حبّ العراق الدهر أطعمهو الحب يأكله فى القرية السوس

/ المتلمس/ ۱/ ۳۲۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۲۱ سريع إلى الهيجاء شاك سلاحهفما إن يكاد قرنه يتنفس

/ زيد الخيل/ ۳/ ۴۲۵

نبئت أن النار بعد أوقدتو استبّ بعدك يا كليب المجلس

/ المهلهل/ ۱/ ۶۵ و ۵/ ۵۷۲

أقول للركب إذ طال الثواء بنايا صاح هل لك فى فتيا ابن عباس

// ۱/ ۵۲۵

المطعمون إذا هبت بصرصرةو الحاملون إذا استودوا عن الناس

// ۴/ ۵۸۵

من يفعل الخير لا يعدم جوازيهلا يذهب العرف بين اللّه و الناس

/ الحطيئة/ ۱/ ۵۹۴ و ۵/ ۴۳۰

أصبح الملك ثابت الأساسبالبهاليل من بنى العباس

// ۲/ ۴۵۹

و طالب الدنيا بعلم الدين أى بائسكمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

// ۲/ ۴۷۴

أيا أيها المشتكى عكلا و ما جرمتإلى القبائل من قتل و إبآس

// ۲/ ۹

فأين إلى أين النجاة ببغلتىأتاك أتاك اللاحقون احبس احبس

// ۵/ ۶۲۱

فى كفه صعدة مثقفةفيها سنان كشعلة القبس

// ۴/ ۱۴۶

الواردون و تيم فى ذرى سبأقد عضى أعناقهم جلد الجواميس

// ۴/ ۱۵۳ و ۳۶۶

حنت إلى النخلة القصوى فقتل لهاحجر حرام ألا تلك الدهاريس

// ۴/ ۸۱

دع المكارم لا تنهض لبغيتهاو اقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

/ الحطيئة/ ۲/ ۵۶۷

حرف الشين

عقرت لهم موهنا ناقتیو غامرهم مدلهم غطش

/ الأعشی/ ۵/ ۴۵۷

یریش اللّه فی الدنیا و یبریو لا یبری یعوق و لا یریش

/ مالك بن نمط الهمدانی/ ۵/ ۳۶۰

إلیك أشکو شدة المعیشو مرّ أعوام نتفن ریشی

/ رؤبة/ ۱/ ۲۵۸

حرف الصاد

تبیتون فی المشتی ملاء بطونکمو جاراتکم غرثی یبتن خمائصا

/ الأعشی/ ۲/ ۱۴

رعی الشبرق الریان حتی إذا ذویو عاد ضریعا بان عنه النحائص

/ أبو ذؤیب/ ۵/ ۵۲۲

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۲۲

حرف الضاد

سری همّی فأمرضنیو قدما زادنی مرضا

// ۳/ ۵۸

طلبته الخیل یوما کاملاو لو ألفته لأضحی محرضا

// ۳/ ۵۸

یا رب ذی ضغن علی فارضله قروء کقروء الحائض

// ۱/ ۱۱۵ و ۲۷۰

أبا منذر رمت الوفاء فهبتهوحدت کما حاد البعیر عن الدحض

/ طرفة/ ۳/ ۳۵۰ و ۳۸۴ و ۵/ ۸۹

یبادر جنح اللیل فهو موائلیحث الجناح بالتبسط و القبض

/ أبو خراش/ ۵/ ۳۱۳

أبا منذر أفنیت فاستبق بعضناحنانیك بعض الشر أهون من بعض

// ۱/ ۳۹۳

بك نال النضال دون المساعیفاهتدین النبال للأغراض

// ۳/ ۴۶۹

أخفضه بالنقر لما علوتهو یرفع طرفا غیر خاف غضیض

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۳۹۰

طول الليالى أسرعت فى نقضى‌طوين طولى و طوين عرضى

// ۴/ ۱۰۹

حرف الطاء

لا تذهبن فى الأمور فرطالا تسألن إن سألت شططا

// ۱/ ۱۷۴

بأية حال حكموا فيك فاشتطواو ما ذاك إلا حيث يممك الوخط

// ۵/ ۳۶۵

حرف العين

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه‌إذا رام تطيارا يقال له قع

/ عمر بن حممة الدوسى/ ۱/ ۱۵۶

لما رأى أن لا دعه و لا شبع‌مال إلى أرطاة حقف فاضطجع

// ۱/ ۴۰۵

يا ليتنى فيها جذع‌أخب فيها و أضع

/ ورقة بن نوفل/ ۲/ ۴۱۸

أبيض اللون رقيق طعمه‌طيب الريق إذا الريق خدع

/ سويد/ ۱/ ۴۸

ألم يحزنك أن حبال قيس‌و تغلب قد تباينتا انقطاعا

/ القطامى/ ۴/ ۹۷

و سائبة للّه تنمى تشكراإن اللّه عافى عامرا أو مجاشعا

// ۲/ ۹۴

إن علىّ اللّه أن تبايعاتؤخذ كرها أو تجىء طائعا

// ۴/ ۱۰۲

تعلم أن بعد الغى رشداو أن لذلك الغى انقشاعا

/ القطامى/ ۱/ ۴۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۲۳ ققى فادى أسيرك إن قومى‌و قومك ما أرى لهم اجتماعا

// ۱/ ۱۲۸

و من همزنا عزه تبركعاعلى استه زوبعة أو زوبعا

// ۵/ ۶۰۲

يا هند ما أسرع ما تعسعسامن بعد ما كان فتى ترعرعا

/ رؤبة بن العجاج/ ۵/ ۴۷۳

هم صلبوا العبدىّ فى جذع نخلةفلا عطست شيبان إلا بأجدعا

/ سويد بن أبى كاهل/ ۳/ ۴۴۴

و كنا كندمانى جذيمة حقبةمن الدهر حتى قيل لن يتصدعا

// ۴/ ۲۶۴

أنغض نحوى رأسه و أقنعاكأنما أبصر شيئا أطمعا

// ۳/ ۱۳۸

هو الجلاء الذى يجتث أصلكمفمن رأى مثل ذا يوما و من سمعا

// ۳/ ۱۲۸

بذات لوث عفرناة إذا عثرتفالتعس أدنى لها من أن أقول لعا

/ الأعشى/ ۲/ ۱۰۰

بنى أسد هل تعلمون بلاءناإذا كان يوم ذو كواكب أشنعا

/ سيبويه/ ۲/ ۱۴۴

تلفت نحو الحىّ حتى رأيتنىوجعت من الإصفاء ليتا و أخدعا

// ۲/ ۵۲۸

فأنكرتنى و ما كان الذى نكرتمن الحوادث إلا الشيب و الصلعا

// ۲/ ۵۷۸

جاء البريد بقرطاس يخبّ بهفأوجس القلب فى قرطاسه جزعا

// ۲/ ۵۷۸

و أنت الذى دسيت عمرا فأصبحتحلائله منه أرامل ضيعا

// ۵/ ۵۴۷

فإن تزجرانى يا ابن عفان أنزجرو إن تدعانى أحم عرضا ممنعا

/ سويد بن كراع/ ۵/ ۹۱

أبيت على باب القوافى كأنماأذود سربا من الوحش نزعا

// ۴/ ۱۹۱

و كائن رددنا عنكم من مذحجيجىء أمام الركب يردى مقنعا

// ۱/ ۴۴۲

بحديثها اللذ الذى لو كلمتأسد الفلاة به أتين سراعا

// ۴/ ۴۵۱

أ كفرا بعد رد موتى عنىو بعد عطائك المائة الرتاعا

/ القطامى/ ۵/ ۳۴۰

على حين عاتبت المشيب على الصباو قلت ألما أصح و الشيب وازع

// ۲/ ۱۰۹ و ۴/ ۱۵۰

و إذا الأمور تعاظمت و تشاكلتفهناك يعترفون أين المفزع

// ۴/ ۳۰۶

و الدهر لا يبقى على حدثانهجون السراة له جدائد أربع

/ أبو ذؤيب/ ۴/ ۳۹۸

و عليهما مسرودتان قضاهماداود أو صنع السوابغ تبع

/ أبو ذؤيب الهذلى/ ۴/ ۳۶۲

فإنک کالليل الذى هو مدركىو إن خلت أن المنتأى عنک واسع

/ النابغة/ ۴/ ۵۹۹

سبقوا هوىّ و أعنقوا لهواهمفتخرموا و لكل جنب مصرع

/ أبو ذؤيب/ ۲/ ۲۱۰

إن الكريم إذا تشاء خدعتهو ترى اللئيم مجربا لا يخدع

/ نفطويه/ ۱/ ۳۳۵

يا ليت شعرى و المنى لا تنفعهل أغدون يوما و أمرى مجمع

// ۲/ ۵۲۵

فصبرت عارفة لذلک حرةترسو إذا نفس الجبان تطلع

/ عنترة/ ۱/ ۹۲ و ۳/ ۷۸ و ۱۸۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۲۴ ظعن الذين فراقهم أتوقعو جرى بينهم الغراب الأبقع

/ عنترة/ ۳/ ۲۲۰

فما الناس إلا عاملان فعامليتبر ما يبنى و آخر رافع

// ۳/ ۲۵۰

فما فتئت حتى كأن غبارهاسرادق يوم ذى رياح ترفع

/ أوس بن حجر/ ۳/ ۵۸

أمن ريحانة الداعى السميعيؤرقنى و أصحابى هجوع

/ عمرو بن معدى كرب/ ۲/ ۱۶۸ و ۵/ ۱۰۱

تناذرها الراقون من سوء سمهاتطلقه حينا و حينا تراجع

/ النابغة/ ۳/ ۱۲۷

و لا تمش فوق الأرض إلا تواضعافكم تحتها قوم هم منك أرفع

// ۳/ ۲۷۱

طوى النحز و الأجراز ما فى بطونهافما بقيت إلا الضلوع الجراشع

/ ذو الرمة/ ۳/ ۳۲۱

أخذنا بآفاق السماء عليكم‌لنا قمراها و النجوم الطوالع

// ۵/ ۴۷۴

أخبر أخبار القرون التى مضت‌أدب كأنى كلما قمت راكع

/ لبيد/ ۱/ ۹۰

و صفت التقى حتى كأنك ذو تقى‌و ريح الخطايا من ثيابك تسطع

/ أبو العتاهية/ ۱/ ۹۱

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة‌و هل يأثم ذو أمة و هو طائع

/ النابغة/ ۱/ ۴۲۵ و ۳/ ۵۷۵ و ۴/ ۶۳۱

حتى كأنى للحوادث مروة‌بصفا المشقر كل يوم تقرع

/ أبو ذؤيب/ ۱/ ۱۸۵

و خيل قد دلفت لها بخيل‌تحية بينهم ضرب وجيع

/ معدى كرب/ ۱/ ۲۴۰

و ظل بنات الليل حولى عكفاعكوف البواكى حولهن صريع

// ۱/ ۲۱۵

لما أتى خبر الزبير تواضعت‌سور المدينة و الجبال الخشع

/ جرير/ ۱/ ۱۱۹ و ۲/ ۲۰۶ و ۳/ ۴۵۶ و ۴/ ۶۵۹

تقول و قد أفردتها من خليلهاتعست كما أتعستنى يا مجمع

/ مجمع بن هلال/ ۵/ ۳۸

أمن المنون و ريبه تتوجع‌و الدهر ليس بمعتب من يجزع

/ أبو ذؤيب الهذلى/ ۵/ ۱۱۹

ألم تر أن اللّه أنزل مزنة‌و عفر الظباء فى الكناس تقمع

/ أوس بن حجر/ ۵/ ۱۹۰

أتوك فقطعت أنكالهم‌و قد كن قبلك لا تقطع

/ الخنساء/ ۵/ ۳۸۱

فإنى بحمد اللّه لا ثوب فاجرلبست و لا من غدرة أتقنع

/ غيلان بن سلمة/ ۵/ ۳۸۹ و ۳۹۴

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة‌فكاد صميم القلب لا ينقطع

// ۵/ ۴۰۲

صكاء ذعلبة إذا استدبرتهاحرج إذا استقبلتها هلواع

/ المسيب بن علس/ ۵/ ۳۵۰

زنيم تداعاه الرجال زيادة‌كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

/ حسان/ ۵/ ۳۲۱

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه‌أتانى و دونى راكس فالضواجع

/ النابغة/ ۵/ ۶۳۸

جذمنا قيس و نجد دارناو لنا الأب به المكرع

// ۵/ ۴۶۶

بلينا و ما تبلى النجوم الطوالعو تبقى الجبال بعدنا و المصانع

/ لبيد/ ۴/ ۱۲۷

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۲۵ من يرجع العام إلى أهله‌فما أكيل السبع بالراجع

/ عتبة بن أبى لهب/ ۲/ ۱۲

فإن الغدر فى الأقوام عارو أن الحر يجزى بالكراع

// ۱/ ۹۷

و من يأمن الدنيا يكن مثل قابض‌على الماء خانته فروج الأصابع

// ۳/ ۸۸

بدجلة دارهم و لقد أراهم‌بدجلة مهطعين إلى السماع

// ۳/ ۱۳۸ و ۵/ ۱۴۷

الحزم و القوة خير من الإدهان و الفهة و الهاع

/ أبو قيس بن الأسلت/ ۵/ ۱۹۳

بمكة أهلها و لقد أراهم‌إليه مهطعين إلى السماع

// ۵/ ۳۵۱

قد حصت البيضة رأسى فماأطعم نوما غير تهجاع

/ أبو قيس بن الأسلت/ ۳/ ۴۱ و ۵/ ۱۰۱

و يحرم سر جارتهم عليهم‌و يأكل جارهم أنف القصاع

/ الحطيئة/ ۱/ ۲۸۷ و ۵/ ۴۲

و نقفى وليد الحى إن كان جائعاو نحسبه إن كان ليس بجائع

/ امرأة من بنى قشير/ ۵/ ۴۴۶

قد أصبحت أم الخيار تدعى‌على ذنبا كله لم أصنع

/ لبيد/ ۵/ ۲۰۲

تصيبهم و تخطئنى المناياو أحلف فى ربوع عن ربوع

/ الشمّاخ/ ۲/ ۲۱۲

لمال المرء يصلحه فيغنى‌مفاقره أعف من القنوع

/ الشمّاخ/ ۳/ ۵۳۸

و ما تدرى جذيمة من طحاهاو لا من ساكن العرش الرفيع

// ۵/ ۵۴۶

و لست أبالی حین أقتل مسلماعلی أی جنب کان فی اللّه مصرعی

// ۱/ ۹۴

لعمرک ما أرجو إذا کنت مسلماعلی أی جنب کان فی اللّه مصرعی

// ۴/ ۸۰

أسعی علی جل بنی مالککل امرئ فی شأنه ساعی

// ۵/ ۲۷۱

حرف الغین

و کل أناس لهم صبغةو صبغة همدان خیر الصّبغ

/ بعض شعراء همدان/ ۱/ ۱۷۲

حرف الفاء

إنا وجدنا خلفا بئس الخلفعبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

// ۴/ ۲۱۴

یردن فی فیه غیظ الحسود حتی یعضّ علیّ الأکفا

// ۳/ ۱۱۶

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۲۶ عاد السواد بیاضا فی مفارقهلا مرحبا ببیاض الشیب إذ ردفا

/ أبو ذؤیب/ ۴/ ۱۷۲

عمرو العلا هشم الثرید لقومهو رجال مکة مسنتون عجاف

/ ابن الزبعری/ ۲/ ۲۷۰ و ۵/ ۶۳۲

و حتی رأینا أحسن الفعل بیننامساکنة لا یقرف الشر قارف

// ۴/ ۱۳۷

زعمتم أن إخوتکم قریشلهم إلف و لیس لکم إلاف

// ۵/ ۶۰۹

نحن بما عندنا و أنت بماعندک راض و الرأی مختلف

// ۱/ ۳۳۳ و ۲/ ۴۰۷ و ۴۸۴ و ۵/ ۸۹ و ۲۷۱

إن بنی جحجبی و قومهمأکبادنا من ورائهم تجف

/ قیس بن الخطیم/ ۵/ ۴۵۲

و کل یوم مضی أو لیلة سلفتفیها النفوس إلی الآجال تزدلف

// ۴/ ۱۱۹

و أدماء مثل الفحل یوما عرضتهالرحلی و فیها هزة و تقاذف

/ أوس بن حجر/ ۱/ ۲۶۳

الحافظو عورة العشيرة لا يأتيهم من ورائنا نطف

// ۳/ ۵۳۵

إذا جمادى منعت قطرهازان جنابى عطن معصف

/ أبو قيس بن الأسلت/ ۵/ ۱۶۰

ففاجأه بعادية لزام كما يتفجر الحوض اللفيف

/ أبو ذؤيب/ ۴/ ۱۰۶

سوى الأربع الدهم اللواتى كأنهابقية وحى فى بطون الصحائف

/ ذو الرمة/ ۳/ ۳۸۲

إذا نهى السفيه جرى إليهو خالف و السفيه إلى خلاف

// ۱/ ۴۶۳

تذود الورى عن عصبة هاشميةإلا فهم فى الناس خير إلاف

/ أبى طالب/ ۵/ ۶۰۸

نعلق فى مثل السّوارى سيوفناو ما بينها و الكعب مهوى نفانف

// ۱/ ۴۸۰

المطعمون اللحم كل عشيةحتى تغيب الشمس فى الرجاف

// ۴/ ۳۵۰

المنعمين إذا النجوم تغيرتو الظاعنين لرحلة الإيلاف

// ۵/ ۶۰۹

فكلتاهما خرت و أسجد رأسهاكما أسجدت نصرانة لم تحنف

// ۱/ ۱۱۱

فجاؤوا يهرعون و هم أسارىنقودهم على رغم الأنوف

/ مهلهل/ ۲/ ۵۸۲

للبس عباءة و تقرّ عينىأحب إلىّ من لبس الشفوف

/ ميسون بنت بحدل/ ۲/ ۵۹ و ۴/ ۵۴۱

حرف القاف

نحن بنات طارقنمشى على النمارق/ هند بنت عتبة

/ ۵/ ۵۰۷

لوح منه بعد بدن و سنقتلو يحك الضامر يطوى للسبق

/ رؤبة بن العجاج/ ۵/ ۳۹۳

تفاءل بما تهوى يكن فلقلمايقال لشىء كان إلا تحقق

// ۴/ ۴۳۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۲۷ لما رأوا جيشا عليهم قد طرقجاءوا بأسراب من الشأم ولق

// ۴/ ۱۶

تنقل من صالب إلى رحمإذا مضى عالم بدا طبق

/ العباس بن عبد المطلب/ ۵/ ۵۰۹

إن لنا قلائصا نقانقامستوسقات لو يجدن سائقا

// ۵/ ۴۹۷

و ضحك الأرانب فوق الصفاكمثل دم الجوف يوم اللّقا

// ۲/ ۵۷۹

و لما رأته الخيل من رأس شاهقصهلن و أمنين المنى المدفقا

// ۳/ ۳۰

ما زلت أرمقهم حتى إذا هبطتأيدى الركاب بهم من راكس فلقا

/ زهير/ ۵/ ۶۳۸

إن هذا الليل قد غسقاو اشتكيت الهمّ و الأرقا

/ ابن قيس الرقيات/ ۳/ ۲۹۷ و ۵/ ۶۳۹

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتىبعد الضلال فحبلها قد أخلقا

// ۵/ ۵۵۸

لا شىء ينفعنى من دون رؤيتهاهل يشتفى عاشق ما لم يصب رهقا

/ الأعشى/ ۵/ ۳۶۶

قالت جناحاه لساقيه الحقاو نجيا لحمكما أن يمزقا

// ۱/ ۱۵۶

فضل الجياد على الخيل البطاء فلايعطى بذلك ممنونا و لا نزقا

/ زهير/ ۴/ ۵۸۰

كأن عينىّ فى غربى مقتلةمن النواضح تسقى جنة سحقا

/ زهير/ ۴/ ۱۳۰

يا ليلة لم أتمها بتّ مرتفقاأرعى النجوم إلى أن نور الفلق

// ۵/ ۶۳۸

إذا ما تذكرت الحياة و طيبهاإلى جرى دمع من الليل غاسق

// ۴/ ۵۰۶

ظلت تجود يداها و هى لاهيةحتى إذا جعجع الإظلام و الغسق

/ زهير/ ۳/ ۲۹۷

طراق الخوافى مشرق فوق ريعةندى ليله فى ريشة يترقرق

/ ذو الرمۀ/ ۴/ ۱۲۷

و لو أن لقمان الحکیم تعرضت‌لعینیه میّ سافرا کاد یبرق

/ ذو الرمۀ/ ۵/ ۴۰۴

قم یا غلام أعنی غیر مرتبک‌علی الزمان بکأس حشوها شفق

// ۵/ ۴۹۴

و لا الملک النعمان یوم لقیته‌بغبطته یعطی القطوط و یأنق

/ الأعشی/ ۴/ ۴۸۷

فیهم المجد و السماحۀ و النجدۀ فیهم و الخاطب السلاق

/ الأعشی/ ۴/ ۳۱۱

و تصبح من غب السّری و کأنماألم بها من طائف الجن أولق

/ الأعشی/ ۱/ ۳۳۹

إنی أتیتک من أهلی و من وطنی‌أزجی حشاشۀ نفس ما بها رمق

/ النابغۀ/ ۴/ ۴۸

فلما کففنا الحرب کانت عهودهم‌کلمع سراب بالفلا متألق

// ۴/ ۴۵

نفی الذم عن آل المحلق جفنۀکجابیۀ الشیخ العراقی تفهق

// ۲/ ۱۵۶

و أنت لنا نور و غیث و عصمۀو نبت لمن یرجو نداک و ریق

// ۴/ ۳۸

لقد زرقت عیناک یا ابن معکبرکما کل ضبیّ من اللؤم أزرق

// ۳/ ۴۵۵

فسیرا فإما حاجۀ تقضیانهاو إما مقیل صالح و صدیق

// ۳/ ۳۶۵

ظلت سیوف بنی أبیه تنوشه‌للّه أرحام هناک تشقق

/ قتیلۀ/ ۲/ ۳۷۶

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۲۸ دعون الهوی ثم ارتمین قلوبنابأسهم أعداء و هن صدیق

/ جریر/ ۴/ ۶۲

جاء الشتاء و قمیصی أخلاق‌شرازم یضحک منها النواق

// ۴/ ۱۱۷

ألم تسأل الربع القواء فینطق‌و هل تخبرنک الیوم بیداء سملق

/ جمیل بثینۀ/ ۳/ ۵۵۰ و ۵/ ۱۹۱

هل للفتی من بنات الدهر من واق‌أم هل له من حمام الموت من راق

// ۵/ ۴۱۰

حمی لا یحل الدهر إلا بإذنناو لا نسأل الأقوام عهد المیاثق

// ۱/ ۶۹

و إنا لنجری الکأس بین شروبناو بین أبی قابوس فوق النمارق

// ۵/ ۵۲۳

کهول و شبان حسان وجوههمعلی سرر مصفوفهٔ و نمارق

// ۵/ ۵۲۳

ألا فاسقنی صرفا سقانی الساقیمن مائها بکأسک الدهاق

// ۵/ ۴۴۵

قد استوی بشر علی العراقمن غیر سیف و دم مهراق

// ۲/ ۲۴۰

یا نفس صبرا کل حیّ لاقو کل اثنین إلی افتراق

// ۲/ ۲۳۲

ألا من مبلغ عنی رسولافکیف وجدتم طعم الشقاق

/ الأخطل/ ۲/ ۵۸۹

و الخیل تعدو عند وقت الإشراقو قامت الحرب بنا علی ساق

// ۵/ ۳۲۸

و إلا فاعلموا أنا و أنتمبغاهٔ ما بقینا فی شقاق

// ۱/ ۱۷۱ و ۲/ ۷۱

إلی کم تقتل العلماء قسراو تفجر بالشقاق و بالنفاق

// ۱/ ۱۷۱

أمر الإله بربطها لعدوهفی الحرب إن اللّه خیر موفق

// ۲/ ۳۶۶

و من یشتری حسن الثناء بمالهیصن عرضه عن کل شنعاء موبق

/ زهیر/ ۳/ ۳۴۸

و قلتم لنا کفوا الحروب لعلنانکف و وثقتم لنا کل موثق

// ۱/ ۶۰

هو المدخل النعمان بیتا سماؤهصدور الفیول بعد بیت مسردق

// ۳/ ۳۳۴

أفنی تلادی و ما جمعت من نشبقرع القواقیز أفواه الأباریق

/ الأقیشر الأسدی/ ۳/ ۱۰۱

ألا یا زید و الضحاک سیرافقد جاوزتما خمر الطریق

// ۱/ ۲۵۲

أما و اللّه لو كنت حراو ما بالحر أنت و لا العتيق

// ۵/ ۳۶۹

و رب كريهة دافعت عنهمو قد بلغت نفوسهم التراقى

/ دريد بن الصمة/ ۵/ ۴۱۰

و رحنا بكابن الماء يجنب وسطناتصوب فيه العين طورا و ترتقى

/ امرؤ القيس/ ۱/ ۵۵

يممته الرمح شزرا ثم قلت لههذى البسالة لا لعب الزحاليق

/ الخليل/ ۱/ ۵۴۴

حرف الكاف

و انصر على آل الصليب و عابديه اليوم آلك

/ عبد المطلب/ ۱/ ۹۸

فلما خشيت أظافيرهمنجوت و أرهنتهم مالكا

/ عبد اللّه بن همام/ ۱/ ۳۴۸ و ۴/ ۱۸۳

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۱۲۹ و إنى لآتى العرس عند طهورهاو أهجرها يوما إذا تك ضاحكا

// ۲/ ۵۷۹

لئن هجوت أخا صدق و مكرمةلقد مريت أخا ما كان يمريكا

// ۵/ ۱۲۸

أرسلت فيها رجلا لكالكايقصر يمشى و يطول باركا

/ ثعلب/ ۱/ ۳۶۲

تجانف عن حجر اليمامة ناقتىو ما قصدت من أهلها لسوائكا

/ الأعشى/ ۱/ ۲۰۵ و ۳/ ۵۷۸

أفى كل عام أنت جاشم غزوةتشد لأقصاها عزيم عزائكا

/ الأعشى/ ۱/ ۲۷۰

نظرت إلى عنوانه فنبذتهكنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

/ أبو الأسود/ ۱/ ۱۳۸

لا هم رب إن يكونوا دونكايبرك الناس و يفجرونكا

// ۱/ ۹۱

أقول له و الرمح يأطر متنهتأمل خفافا أننى أنا ذلكا

/ خفاف/ ۱/ ۳۸

كأنما جللها الحواكطنفسة فى وشيها حباك

// ۵/ ۹۹

مکلل بأصول النجم تنسجهريح الجنوب لضاحى مائه حبك

/ زهير/ ۵/ ۱۵۸

حتى إذا ما هوت كف الغلام لهاطارت و فى كفه من ريشها بتك

/ زهير/ ۱/ ۵۹۶

لا تقتلى رجلا إن كنت مسلمةإياك من دمه إياك إياك

// ۵/ ۱۶۰

أ بنتى أفى يمنى يديك جعلتنىفأفرح أم صيرتنى فى شمالك

/ ابن الدمينة/ ۵/ ۱۷۸

تنقلت فى أشرف التنقلبين رماحى نهشل و مالك

// ۴/ ۱۱۴

مصابيح ليست باللواتى تقودهانجوم و لا بالآفات الدوالك

/ ذو الرمة/ ۳/ ۲۹۷

حرف اللام

و إذا جوزيت قرضا فاجزهإنما يجزى الفتى ليس الجمل

/ لبيد/ ۵/ ۲۰۲

فى كهول سادة من قومهنظر الدهر إليهم فابتهل

/ لبيد/ ۱/ ۳۹۸

إن ترى رأسى أمسى واضحاسلط الشيب عليه فاشتعل

/ لبيد/ ۳/ ۳۷۹

عسلان الذئب أمسى قاربابرد الليل عليه فنسل

// ۴/ ۴۲۹

مضمر تحذره الأبطالكأنه القسور الرهال

// ۵/ ۴۰۰

قانتا للّه يتلو كتبهو على عمر من الناس اعتزل

// ۱/ ۱۵۵ و ۲۹۶

و غلام أرسلته أمهبألوك فبذلنا ما سأل

/ لبيد/ ۱/ ۷۴

و له فى كل شىء خلقةو كذاك اللّه ما شاء فعل

// ۳/ ۴۳۵

و قد لبست لهذا الأمر أعصرهحتى تجلل رأسى الشيب فاشتعلا

/ الأخطل/ ۱/ ۸۹

و نحن رهنا بالإفاقة عامرابما كان فى الدرداء رهنا فأبسلا

/ النابغة/ ۲/ ۱۴۷

تحنن عليّ هداك المليكفإن لكل مقام مقالا

/ الحطيئة/ ۳/ ۳۸۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۳۰ أمن أجل حبل لا أباك ضربتهبمنسأة قد جر حبلك أحبلا

// ۴/ ۳۶۴

إن الأمور إذا الأحداث دبرهادون الشيوخ ترى فى بعضها خللا

// ۴/ ۵۶۱

تحالفت طيء من دوننا حلفاو اللّه أعلم ما كنا لهم خذلا

/ حاتم الطائى/ ۲/ ۱۷۷

ألم يأن يا قلب أن أترک الجهلاو أن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

// ۵/ ۲۰۷

قلت إذا أقبلت و زهر تهادىكنعاج الملا تعسفن رملا

// ۱/ ۸۰

و إن الموت يأخذ كل حيّبلا شك و إن أمشى و عالا

/ أبو عمر الدورى/ ۱/ ۴۸۴

و حق لمن أبو موسى أبوهيوفقه الذى نصب الجبالا

// ۳/ ۳۱

دعوت بطه فى القتال فلم يجبفخفت عليه أن يكون موائلا

/ ابن جرير/ ۳/ ۴۲۰

خالى لأنت و من جرير خالهينل العلاء و يكرم الأخوالا

// ۳/ ۵۲۱

ما زلت تحسب كل شيء بعدهمخيلا تكر عليهم و رجالا

/ الأخطل/ ۵/ ۲۷۶

فبينا المرء فى الأحياء طودرماه الناس عن كثب فمالا

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۱۱۹

و أسلمت وجهى لمن أسلمتله الأرض تحمل صخرا ثقالا

/ زيد بن عمرو/ ۵/ ۴۵۸

دحاها فلما استوت شدهابأيد و أرسى عليها الجبالا

/ زيد بن عمر بن نفيل/ ۵/ ۴۵۸

قد تخللت مسلك الروح منىو به سمى الخليل خليلا

/ بشار/ ۱/ ۵۹۸

الحمد للّه إذ لم يأتنى أجلىحتى اكتسيت من الإسلام سربالا

/ النابغة/ ۱/ ۳۲۱

كنت القذى فى موج أكدر مزبدقذف الأتى به فضل ضلالا

/ الأخطل/ ۴/ ۲۸۹

من كل مجتنب شديد أسرهسلس القياد تخاله مختالا

/ الأخطل/ ۵/ ۴۲۷

فى مهمه فلقت به هاماتهافلق الفؤوس إذا أردن نصولا

/ الراعى/ ۳/ ۳۵۸

حباؤك خير حبا الملوكيصان الحلال و تنطى الحلولا

/ الأعشى/ ۵/ ۶۱۳

حتى إذا لم يتركوا لعظامهلحما و لا لفؤاده معقولا فتح القدير ج۶ ۱۳۹

/ الراعى/ ۵/ ۳۱۹

لا تدخلنك ضجرة من سائلفلخير دهرك أن ترى مسؤولا

/ ابن دريد/ ۱/ ۳۲۷

وجدنا الصالحين لهم جزاءو جنات و عينا سلسبيلا

/ عبد العزيز الكلابى/ ۱/ ۴۲۱

و رجلة يضربون البيض عن عرضضربا تواصت به الأبطال سجيلا

/ ابن مقبل/ ۵/ ۶۰۵

لقد أكلت بجيلة يوم لاقتفوارس مالك أكلا وبيلا

/ الخنساء/ ۵/ ۳۸۲

ضربنا بمنسأة وجههفصار بذاك مهينا ذليلا

// ۴/ ۳۶۴

فألفيته غير مستعتبو لا ذاكر اللّه إلا قليلا

// ۴/ ۴۵۰

فاليوم أشرب غير مستحقبإثما من اللّه و لا واغل

// ۲/ ۵۶۱ و ۴/ ۴۰۸ و ۵/ ۲۸۲ و ۳۹۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۳۱ ألا كل شىء ما خلا اللّه باطلو كل نعيم لا محالة زائل

/ لبيد/ ۱/ ۸۹ و ۴۷۱

إذا لسعته النحل لم يرج لسعهاو خالفها فى بيت نوب عواسل

// ۲/ ۴۸۵

فلا تبعدن إن المنية منهلو كل امرئ يوما به الحال زائل

/ النابغة/ ۲/ ۵۷۴

إذا غفل الواشون عدنا لوصلناو عاد التصابی بیننا و الوسائل

// ۲/ ۴۴

مثابا لأفناء القبائل کلهاتخب إلیها الیعملات الذوامل

/ ورقة بن نوفل/ ۱/ ۱۶۱

ما روضة من ریاض الحزن معشبةخضراء جاد علیها مسبل هاطل

/ الأعشى/ ۴/ ۲۵۱

بکی حارث الجولان من فقد ربهو حوران منه خاشع متضائل

/ النابغة/ ۴/ ۶۵۹

تسمع للحلی وسواسا إذا انصرفتکما استعان بریح عشرق زجل

/ الأعشى/ ۲/ ۲۲۱ و ۵/ ۸۸ و ۶۴۲

قالت سلیمی أ تسری الیوم أم تقلو قد ینسیک بعض الحاجة الکسل

// ۲/ ۱۴۶

تدارکتما عبسا و قد ثلّ عرشهاو ذبیان إذ زلت بأقدامها النعل

/ زهیر/ ۲/ ۲۴۱ و ۳/ ۲۳۰

لو أبصرت رهبان دیر فی الجبللانحدر الرهبان یسعی و یصل

// ۲/ ۷۸

کانت منازلهم إذ ذاک ظاهرةفیها الفرادیس و الفومان و البصل

/ أمیة بن أبی الصلت/ ۱/ ۱۰۸

دعینی إنما خطئی و صوبیعلی و إن ما أهلکت مال

// ۳/ ۲۶۵

و ما صرمتک حتی قلت معلنةلا ناقة لی فی هذا و لا جمل

/ الراعی/ ۱/ ۳۱۰

کأن مشیتها من بیت جارتهامشی السحابة لا ریث و لا عجل

/ الأعشى/ ۵/ ۱۱۴

فی فتیة من سیوف الهند قد علمواأن هالک کل من یحفی و ینتعل

// ۳/ ۴۵۰

و ما زالت القتلی تمور دماؤهابدجلة حتی ماء دجلة أشکل

// ۵/ ۱۱۴

تسیل علی حد السیوف نفوسناو لیست علی غیر الظبات تسیل

// ۱/ ۹۱

تخوف غدرهم مالی و أهدیسلاسل فی الحلوق لها صلیل

// ۳/ ۱۹۸

لما رأيت العدم قيد نائلیو أملق ما عندی خطوب تنبل

/ أوس/ ۳/ ۲۶۵

ذکرت أبا أروی فبت کأننیبرد الأمور الماضیات وکیل

// ۳/ ۲۸۰

أ تنتهون و لن ینهی ذوی شططکالطعن یذهب فیه الزیت و الفتل

/ الأعشی/ ۱/ ۵۵ و ۳/ ۳۲۴

لمن زحلوقة زلّبها العینان تنهلّ

// ۳/ ۳۳۴

و هل هند إلا مهرة عربیةسلیلة أفراس تجللها بغل

/ هند بنت النعمان/ ۳/ ۵۶۴

رأیت ذوی الحاجات حول بیوتهمقطینا بها حتی إذا أنبت البقل

/ زهیر/ ۳/ ۵۶۷

أ إن ذکرتک الدار منزلها جملبکیت فدمع العین منحدر سجل

// ۳/ ۵۷۰

و ما کان من خیر أتوه فإنماتوارثه آباء آبائهم قبل

/ زهیر/ ۱/ ۲۸۳

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۳۲ حماها أبو قابوس فی عز ملکهکما قد حمی أولاد أولاده الفحل

// ۲/ ۹۴

و فیهم مقامات حسان وجوههمو أندیة ینتابها القول و الفعل

// ۱/ ۱۶۱- ۴/ ۱۱۸

إن الذی سمک السماء بنی لنابیتا دعائمه أعز و أطول

/ الفرزدق/ ۴/ ۲۵۵ و ۵/ ۲۵۷

لیس الکرام بناحلیک أباهمحتی ترد إلی عطیة تعتل

/ الفرزدق/ ۴/ ۶۶۲

تکاد لا تثلم البطحاء وطأتهایجد بنا فی کل یوم و تهزل

/ الکمیت/ ۵/ ۵۱۱

تضیء الظلام بالعشاء کأنهامنارة حمسی راهب متبتل

// ۵/ ۳۸۱

فقل لبنی مروان ما بال ذمتیو جعل ضعیف لا یزال یوصل

// ۴/ ۲۰۵

و ما هجر لیلی أن تکون تباعدتعلیک و لا أحصرتک شغول

// ۱/ ۳۸۷

ذاک فتی یبذل ذا قدره‌لا یفسد اللحم لدیه الصلول

/ الحطیئة/ ۳/ ۱۵۵ و ۴/ ۲۸۹

عفت مثل ما یعفو الفصیل فأصبحت‌بها کبریاء الصعب و هی ذلول

/ حمید بن ثور/ ۵/ ۲۴۷

و أنتم أناس لئام الأصول‌طعامکم الفوم و الحوقل

/ حسان/ ۱/ ۱۰۸

ضربت علیک العنکبوت بنسجهاو قضی علیک به الکتاب المنزل

/ الفرزدق/ ۱/ ۱۰۹

قد یدرک المتأنی بعض حاجته‌و قد یکون مع المستعجل الزلل

// ۴/ ۵۶۱

کما خط الکتاب بکف یومایهودی یقارب أو یزیل

// ۲/ ۱۸۸

و ما یدری الفقیر متی غناه‌و ما یدری الغنی متی یعیل

/ أحیحة بن الجلاح/ ۲/ ۳۹۹- ۵/ ۵۵۹

بکت عینی و حق لها بکاهاو ما یغنی البکاء و العویل

/ عبد اللّه بن رواحة/ ۳/ ۴۰۰

فنحن کماء المزن ما فی نصابناکهام و لا فینا یعدّ بخیل

// ۵/ ۱۹۰

تلقاکم عصب حول النبی لهم‌من نسج داود فی الهیجا سرابیل

/ کعب بن مالک/ ۳/ ۱۴۳

تمنی أن تؤوب إلیّ میّ‌و لیس إلی تناوشها سبیل

// ۴/ ۳۸۵

لکنها خلة قد سیط من دمهافجع و ولع و إخلاف و تبدیل

/ کعب بن زهیر/ ۵/ ۵۳۱

إن المنیة لو تمثل مثلت‌مثلی إذا نزلوا بضنک المنزل

/ عنترة/ ۳/ ۴۶۲

یسقون من ورد البریص علیهم‌کأسا یصفق بالرحیق السلسل

/ حسان بن ثابت/ ۵/ ۴۲۳ و ۴۸۸

و قد کان أقوام رددت حلومهم‌علیهم و کانوا کالفراش من الجهل

// ۵/ ۵۹۴

و لما اتقی القین العراقی باسته‌فرغت إلی القین المقید فی الحجل

// ۵/ ۱۶۴

و كأين رأينا من ملوك و سوقةو مفتاح قيد للأسير المكبل

/ لبيد/ ۵/ ۴۱

كنا على أمة آبائناو يقتدى الآخر بالأول

/ قيس بن الخطيم/ ۴/ ۶۳۱

أعطى و لم يبخل فلم يبخلكوم الذرى من خول المخول

/ أبو النجم/ ۴/ ۵۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۳۳ تمنى كتاب اللّه آخر ليلهتمنى داود الزبور على رسل

// ۱/ ۱۲۳

تولى الضجيع إذا ما استافها خصراعذب المذاق إذا ما اتّابع القبل

/ الكسائى/ ۲/ ۴۱۲

و ألد ذى حنق على كأنماتغلى عداوة صدره فى مرجل

// ۱/ ۲۳۹

و النبع فى الصخرة الصماء منبتهو النخل ينبت بين الماء و العجل

// ۳/ ۴۸۱

مسح إذا ما السابحات على الونىأثرن غبارا بالكديد المركل

// ۳/ ۴۳۳

حفد الولائد حولهن و أسلمتبأكفهن أزمة الإجمال

// ۳/ ۲۱۶

سقى قومى بنى مجد و أسقىنميرا و القبائل من هلال

/ لبيد/ ۳/ ۲۰۸

و من الطريقة جائر و هدىقصد السبيل منه ذو دخل

/ امرؤ القيس/ ۳/ ۱۸۰

صل لذى العرش و اتخذ قدماينجك يوم الخصام و الزلل

/ ابن الوضاح/ ۲/ ۴۸۱

ليس النكوص على الأعقاب مكرمةإن المكارم إقدام على الأسل

// ۲/ ۳۶۰

فظلوا منهم دمعه سابق لهو آخر يذرى عبرة العين بالهمل

/ ذو الرمة/ ۱/ ۵۴۸

فإن تزعمينى كنت أجهل فيكمفإنى شريت الحلم بعدك بالجهل

/ أبو ذؤيب/ ۱/ ۵۴

ألم تر أن أصرم كان ردئىو خير الناس فى قل و مال

// ۴/ ۱۹۹

و عندی لبوس فی اللباس کأنه‌روق بجبهته ذی نعاج مجفل

/ الهذلی/ ۳/ ۴۹۴

فأعنهم و أیسر کما یسروا به‌و إذا هم نزلوا بضنک فانزل

// ۱/ ۲۵۲

قفا نبک من ذکری حبیب و منزل‌بسقط اللوی بین الدخول فحومل

/ امرؤ القیس/ ۳/ ۵۸۹ و ۵/ ۹۱

مهفهفهٔ بیضاء غیر مفاضهٔ‌ترائبها مصقولهٔ کالسجنجل

/ امرؤ القیس/ ۵/ ۵۰۹

کأن ذرا رأس المجیمر غدوهٔ‌من السیل و الأغثاء فلکهٔ مغزل

/ امرؤ القیس/ ۵/ ۵۱۴

و بیضهٔ خدر لا یرام خباؤها‌تمتعت من لهو بها غیر معجل

/ امرؤ القیس/ ۴/ ۴۵۲

کدأبک من أم الحویرث قبلها‌و جارتها أم الرباب بمأسل

/ امرؤ القیس/ ۱/ ۳۶۸

فتوضح فالمقراهٔ لم یعف رسمها‌لما نسجتها من جنوب و شمأل

/ امرؤ القیس/ ۱/ ۳۳۳

یضیء سناه أو مصابیح راهب‌أهان السلیط فی الذبال المفتل

/ امرؤ القیس/ ۴/ ۵۰

دریر کخذروف الولید أمره‌یقلب کفیه بخیط موصل

/ امرؤ القیس/ ۴/ ۲۰۵

و فرع یزین المتن أسود فاحم‌أثیث کقنو النخلهٔ المتعثکل

/ امرؤ القیس/ ۳/ ۲۲۲

و إن کنت قد ساءتک منی خلیقهٔ‌فسلی ثیابی من ثیابک تنسل

/ امرؤ القیس/ ۵/ ۳۸۹

أغرک منی أن حبک قاتلی‌و أنک مهما تأمری النفس تفعل

/ امرؤ القیس/ ۵/ ۹۵

فلما أجزنا ساحهٔ الحیّ و انتحی‌بنا بطن خبت ذی حقاف عقنقل

/ امرؤ القیس/ ۳/ ۵۰۴

فألحقه بالهادیات و دونه‌جواهرها فی صرهٔ لم تزیل

/ امرؤ القیس/ ۵/ ۱۰۵

و مثلک حبلی قد طرقت و مرضعا‌فألهیتها عن ذی تمائم محول

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۵۰۷ و ۵۹۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۳۴ كأن ثبيرا فى أفانين ويلهكبير أناس فى بجاد مزمل

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۳۷۸

و ما ذرفت عيناك إلا لتضربىبسهميك فى أعشار قلب مقتل

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۳۹۲

مكر مفر مقبل مدبر معاكجلمود صخر حطه السيل من عل

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۴۰۵

و بالسائحين لا يذوقون قطرةلربهم و الذاكرات العوامل

/ على بن أبى طالب/ ۲/ ۴۶۵

نصروا نبيهم و شدوا أزرهبحنين يوم تواكل الأبطال

// ۲/ ۳۹۷

و هل ينعمن من كان آخر عهدهثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۳۵۸

و هل ينعمن إلا سعيد مخلدقليل الهموم ما يبيت بأوجال

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۱۷۹

نقبوا فى البلاد من حذر الموت و جالوا فى الأرض كل مجال

/ الحارث بن حلزة/ ۵/ ۹۴

ليس كمثل الفتى زهيرخلق يوازيه فى الفضائل

// ۴/ ۶۰۴

أ يقتلنى و المشرفى مضاجعىو مسنونة زرق كأنياب أغوال

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۴۵۶

إذا لسعته النحل لم يرج لسعهاو خالفها فى بيت نوب عوامل

/ الهذلى/ ۴/ ۸۰ و ۲۲۲

أبنى غدانة إننى حررتكمفوهبتكم لعطية بن جعال

/ الفرزدق/ ۲/ ۸۲

فدع عنك نهبا صيح فى حجراتهو هات حديثا ما حديث الرواحل

// ۱/ ۸۷ و ۲/ ۴۱

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقتحمامة فى غصون ذات أوقال

/ أبو قيس بن الأسلت/ ۲/ ۲۴۶

أرى مرّ السنين أخذن منى كما أخذ السّرار من الهلال

/ جرير/ ۲/ ۲۷۰ و ۳/ ۱۰ و ۴/ ۱۰۹

لعمرى لأنت البيت أكرم أهلهو أقعد فى أفنان بالأصائل

// ۲/ ۳۲۰

إنا إذا احمر الوغى نروى القناو نعفّ عند مقاسم الأنفال

/ عنترة/ ۲/ ۳۲۳

ربّ رفد هرقته ذلك اليوم و أسرى من معشر أقيال

// ۳/ ۱۴۵

حفد الولائد حولهن و أسلمتبأكفهن أزمّة الإجمال

// ۳/ ۲۱۶

حصان رزان ما تزن بريبةو تصبح غرثى من لحوم الغوافل

/ حسان/ ۱/ ۵۱۶ و ۴/ ۱۹

أيّما شاطن عصاه عكاهثم يلقى فى السجن و الأغلال

/ أمية بن أبى الصلت/ ۱/ ۵۲

و ماذا عليه إن ذكرت أوانساكغزلان رمل فى محاريب أقيال

// ۴/ ۳۶۳

كأن قلوب الطير رطبا و يابسالدى و كرها العتاب و الحشف البالى

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۲۱۳

فنحن ثلاثة و ثلاث ذودلقد عال الزمان على عيال

// ۱/ ۴۸۴

تركتنى حين كف الدهر من بصرىو إذا بقيت كعظم الرمة البالى

/ جرير/ ۵/ ۱۰۸

لم أكن من جناتها علم الله و إنى لحرّها اليوم صالى

/ الحارث بن عباد/ ۱/ ۴۹۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۳۵ تنورتها من أذرعات و أهلهابيثرب أدنى دارها نظر عالى

// ۱/ ۲۳۲ و ۵۴۴

إن يعاقب يكن غراما و إن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

/ الأعشى/ ۴/ ۱۰۰

صرفت الهوى عنهن من خشية الردىفلست بمقلى الخلال و لا قالى

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۱۳۲ و ۵/ ۵۵۷

نظرت إليها و النجوم كأنهامصابيح رهبان تشب لقفال

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۴۰۷

و كنا إذا ما الضيف حل بأرضناسفكنا دماء البدن فى تربة الحال

/ الهذلى/ ۵/ ۵۴۲

اللّه أنزل فى الكتاب فريضةلابن السبيل و للفقير العائل

/ جرير/ ۵/ ۵۵۹
كأن بلاد اللّه و هى عريضۀعلى الخائف المطلوب كفۀ حابل
// ۵/ ۲۱۰
نخاف أن تسفه أحلامناو نجهل الدهر مع الجاهل
// ۱/ ۳۴۵
و ما المرء ما دامت حشاشۀ نفسهبمدرك أطراف الخطوب و لا آل
/ امرؤ القيس/ ۱/ ۴۳۰- ۴/ ۲۰
بميزان قسط لا يخيس شعيرۀو وازن صدق وزنه غير عائل
/ الحطيئۀ/ ۱/ ۴۸۸
بميزان صدق لا يغل شعيرۀله شاهد من نفسه غير عائل
/ أبو طالب/ ۱/ ۴۸۴
لقد أنجم القاع الكبير عضاههو تم به حيا تميم و وائل
/ صفوان بن أسد/ ۵/ ۱۵۸
تجاوزت أحراسا و أهوال معشرعلى حراصا لو يسرون مقتلى
// ۴/ ۳۷۷
أبيض كالرجع رسوب إذاما ثاخ فى محتفل يختلى
// المتنخل/ ۵/ ۵۱۰
إنى امرؤ من خير عبس منصباشطرى و أحمى سائرى بالمنصل
/ عنترۀ/ ۱/ ۱۷۸
لقد كذب الواشون ما بحت عندهمبسر و لا أرسلتهم برسول
/ كثير عزۀ/ ۵/ ۳۳۵
كتب القتل و القتال عليناو على الغانيات جر الذيول
/ عمر بن أبى ربيعۀ/ ۱/ ۲۰۱
أممت و كنت لا أنسى حديثاكذاك الدهر يودى بالعقول
// ۳/ ۳۸
شربت الإثم حتى ضلّ عقلى‌كذاك الإثم تذهب بالعقول
// ۲/ ۲۲۹
من كل نضاخۀ الذفرى إذا عرقت‌عرضتها طامس الأعلام مجهول
/ كعب بن زهير/ ۱/ ۲۶۳
منه تظل سباع الجو ضامزۀو لا تمشّى بواديه الأراجيل
/ كعب بن زهير/ ۴/ ۸۰
كادت تهد من الأصوات راحلتى‌إذا سالت الأرض بالجرد الأبابيل

// ۵/ ۶۰۶

أريد لأنسى ذكرها فكأنماتمثل لى ليلى بكل سبيل

/ كثير بن صخر/ ۱/ ۲۱۱ و ۵۲۱

و مطويۀ الأقراب أما نهارهافسبت و أما ليلها فذميل

/ حيد بن ثور/ ۵/ ۴۳۹

و كم من خليل أو حميم رزئتهفلم أبتئس و الرزء فيه حليل

// ۲/ ۵۶۴

فقلت يمين اللّه أبرح قاعداو لو قطعوا رأسى لديك و أوصالى

/ امرؤ القيس/ ۳/ ۵۸۲ و ۴/ ۲۶

أ تقتلنى من قد شغفت فؤادهاكما شغف المهنوءۀ الرجل الطالى

/ امرؤ القيس/ ۳/ ۲۵

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثلهكفى قاتلا سلخى الشهور و إهلالى

// ۲/ ۳۸۴

عذافرۀ تقمص بالرّدافىتخونها نزولى و ارتحالى

/ لبيد/ ۳/ ۱۹۸

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۳۶ ألا زعمت بسباسۀ اليوم أننى‌كبرت و ألا يشهد اللهو أمثالى

/ امرؤ القيس/ ۱/ ۲۸۷ و ۲/ ۷۲ و ۳/ ۴۷۴

حرف الميم

عجيب لها أن يكون غناؤهافصيحا و لم يفغر بمنطقها فما

/ حميد بن ثور/ ۴/ ۱۵۰

فإما ينجوا من خسف أرض‌فقد لقيا حتوفهما لزاما

/ صخر/ ۴/ ۱۰۶

ألا أصبحت أسماء حجرا محرماو أصبحت من أدنى حموتها حما

// ۴/ ۸۱

ألا قبّح اللّه البراجم كلهاو قبح يربوعا و قبح دراما

// ۴/ ۲۰۱

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمرهو من يغو لا يعدم على الغى لائما

// ۵/ ۱۲۶

فلما اشتد بأس الحرب فيناتأملنا رياحا أو رزاما

// ۴/ ۳۷۴

أنا شيخ العشيرۀ فاعرفونى‌حميدا قد تذريت السناما

// ۱/ ۳۱۸ و ۳/ ۳۴۰

أتيح لها أقيدر ذو خشيف‌إذا سامت على الملقات ساما

/ الهذلى/ ۳/ ۲۶۴

ألسنا الناسئين على معدشهور الحل نجعلها حراما

/ الكميت/ ۲/ ۴۱۰

كفاك كف ما تليق درهماجودا و أخرى تعط بالسيف الدما

// ۲/ ۵۹۴

حياك ود فإنا لا يحل لنالهو النساء و إن الدين قد عزما

// ۵/ ۳۶۰

و حتى تداعت بالنقيض حبالهو همت بوانى زوره أن تحطما

/ جميل/ ۵/ ۵۶۳

أ حارث إنا لو تساط دماؤناتزايلن حتى لا يمس دم دما

// ۵/ ۵۳۱

هما سيدانا يزعمان و إنمايسوداننا إن يسرت غنماهما

/ أبو أسيدة الدبيرى/ ۵/ ۵۵۱

مجدا تليدا بناه أولهمأدرك عادا و قبله إرما

/ قيس بن الرقيات/ ۵/ ۵۲۹

و لم يلبث العصران يوم و ليلةإذا طلبا أن يدركا ما تيمما

/ حميد بن ثور/ ۵/ ۶۰۰

الخالق البارئ المصور فى الأرحام ماء حتى يصير دما

/ النابغة/ ۵/ ۲۴۸

يوم النسار و يوم الجفاركانا عليكم عذابا مقيما

/ بشر بن أبى حازم/ ۵/ ۱۸۹

سلا عن تذكره تكتماو كان رهينا بها مغرما

/ النّمر بن تولب/ ۵/ ۱۸۹

ما هاج شوقك من هديل حمامةتدعو على فنن الغصون حماما

/ النابغة/ ۵/ ۱۶۹

إن تغفر اللهم تغفر جماو أى عبد لك لا ألما

// ۵/ ۱۳۶ و ۴۱۱

ألم خيال من قتيلة بعد ماو هى حبله من حبلنا فتصرما

/ الأعشى/ ۵/ ۱۳۶

تراه كنصل السيف يهتز للندىإذا لم تجد عند امرئ السوء مطعما

// ۴/ ۵۹۴

من سبأ الحاضرين مأرب إذيبنون من دون سيلها العرما

// ۴/ ۳۶۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۳۷ و كنا إذا الجبار صعّر خدّهأقمنا له من ميله فتقوما

// ۴/ ۲۷۵

إنى إذا ما حدث ألماأقول يا اللهم يا اللهما

// ۱/ ۳۷۸

و فى ناتق أجلت لدى حومة الوغىو ولت على الأدبار فرسان خثعما

/ المفضل/ ۱/ ۲۱۰

خيل صيام و خيل غير صائمةتحت العجاج و خيل تعلك اللجما

/ النابغة/ ۱/ ۲۰۷

و ما عليك أن تقولى كلماسبحت أو هللت يا اللهما

// ۱/ ۳۷۸

فما كان قيس هلكه هلك واحدو لكنه بنيان قوم تهدما

// ۱/ ۲۴۹

إنى أتمم أيسارى و أمنحهممشى الأيادى و أكسو الحفنة الأدما

/ النابغة/ ۱/ ۲۵۲

فأطرق إطراق الشجاع و لو يرىمساغا لناباه الشجاع لصمما

/ المتلمس/ ۳/ ۴۴۱

و هل لى أم غيرها إن تركتهاأبى اللّه إلا أن أكون لها ابنما

// ۲/ ۴۰۴

و أبيض ذى تاج أشاطت رماحنالمعترك بين الفوارس أقتما

// ۱/ ۵۲

و أنت التى حببت شغبا إلى بداإلى و أوطانى بلاد سواهما

/ جميل/ ۳/ ۶۸

و أغفر عوراء الكريم ادخارهو أعرض عن شتم اللئيم تكرما

// ۱/ ۱۹۱

فأرسلت ريحا دبورا عقيمافدارت عليهم فكانت حسوما

// ۵/ ۳۳۵

يفرق بينهم زمن طويلتتابع فيه أعواما حسوما

/ أبو داود/ ۵/ ۳۳۴

رأيت الخمر صالحة و فيهاخصال تفسد الرجل الحليما

// ۱/ ۲۵۳

و شر الغالبين فلا تكنه‌يقاتل عمه الرّوف الرحيما

/ الوليد بن عتبة/ ۱/ ۱۷۶

فهل لكم فيها إلى فإننى‌طبيب بما أعيا النطاسى حذيما

/ أوس بن أوس/ ۵/ ۴۵۴

بنفسى من تجنبه عزيزعلى و من زيارته لمام

/ جرير/ ۵/ ۱۳۶

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى‌و لا تلقنى إلا و أنفك راغم

/ الأعشى/ ۲/ ۵۳۲

و وجه نقى اللون صاف يزينه‌مع الجيد لبات لها و معاصم

/ الأعشى/ ۳/ ۳۷۵

و نأخذ بعده بذناب عيش‌أجب الظهر ليس له سنام

/ النابغة/ ۴/ ۶۱۸

و أمطله العصرين حتى يملنى‌و يرضى بنصف الدين و الأنف راغم

// ۵/ ۶۰۰

سأرقم بالماء القراح إليكم‌على بعدكم إن كان للماء راقم

// ۵/ ۴۸۵

و تعجب هند أن رأتنى شاحباتقول لشى‌ء لوحته السمائم

// ۵/ ۳۹۳

لقد كان فى حول ثواء ثويته‌تقضى لبانات و يسأم سائم

/ ذو الرمة/ ۴/ ۲۰۳

نهارك يا مغرور سهو و غفلة‌و ليلك نوم و الردى لك لازم

// ۳/ ۳۹

فمن مبلغ عنى خداشا فإنه‌كذوب إذا ما حصحص الحق ظالم

// ۳/ ۴۱

إن الذين أمرتهم أن يعدلوانبذوا كتابك و استحل المحرم

// ۱/ ۱۳۸

إنى امرؤ لجّ بى حب فأمرضنى‌حتى بليت و حتى شفنى السقم

/ العرجى/ ۳/ ۵۸

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۳۸ ألا ما لنفس لا تموت فينقضى‌عناها و لا تحيا حياة لها طعم

// ۵/ ۵۱۶

و لقد هبطنا الواديين فواديايدعو الأنيس به الوضيض الأبكم

// ۵/ ۳۴۸

رفونى و قالوا يا خويلد لا ترعفقلت و أنكرت الوجوه هم هم

/ الهذلى/ ۲/ ۱۵۲

إنى وجدت الأمر أرشدهتقوى الإله و شره الإثم

// ۲/ ۲۲۹

أو كلما وردت عكاظ قبيلةبعثوا إلى عريفهم يتوسم

/ طريف بن تميم/ ۳/ ۱۶۶

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقلهو أخو الجهالة فى الجهالة ينعم

/ المتنبى/ ۳/ ۴۲۱

ألا من لنفس تموت فينقضىشقاها و لا تحيا حياة لها طعم

// ۳/ ۴۴۵

عقم النساء فما يلدن شبيههإن النساء بمثله عقم

// ۴/ ۶۲۴

و ما ينفع المستأخرين نكوصهمو لا ضر أهل السابقات التقدم

// ۲/ ۳۶۰

قد استهزءوا منهم بألفى مدججسراتهم وسط الصحاصح جثم

// ۱/ ۵۲

و أنت من حب مى مضمر حزناعانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

/ ذو الرمة/ ۵/ ۳۳۰

كأنه بالضحى ترمى الصعيد بهدبابة فى عظام الرأس خرطوم

/ ذو الرمة/ ۱/ ۵۴۵

و قريش تجول منا لواذالم تحافظ و خف معها الحلوم

/ حسان/ ۴/ ۶۸

و قد أبيت من الفتاة بمنزلفأبيت لا حرج و لا محروم

// ۳/ ۴۰۶

قل للحسود إذا تنفس طعنةيا ظالما و كأنه مظلوم

// ۵/ ۶۴۰

و مطعم الغنم يوم الغنم مطعمهأنى توجه و المحروم محروم

// ۲/ ۳۵۳

و فيها لحم ساهرة و بحرو ما فاهوا به لهم مقيم

/ أمية بن أبى الصلت/ ۵/ ۴۵۳

إلى اللّه أشكو فقد ليلى كما شكاإلى اللّه فقد الوالدين يتيم

/ قيس بن الملوح/ ۵/ ۵۴۱

و إنى لأختار القوى طاوى الحشى‏محافظة من أن يقال لئيم

/ حاتم الطائى/ ۵/ ۱۹۱

و لا تغل فى شى‏ء من الأمر و اقتصدكلا طرفى الأمور ذميم

// ۱/ ۶۲۳

و كان طوى كشحا على مستكنة‏فلا هو أبداها و لم يتقدم

/ زهير/ ۵/ ۵۴۱

أثافى سفعا فى معرس مرجل‏و نؤيا كجذم الحوض لم يتثلم

/ زهير بن أبى سلمى/ ۵/ ۵۷۳

و مستعجب مما يرى من أناتناو لا زبنته الحرب لم يترمرم

// ۵/ ۵۷۳

لو قلت ما فى قومها لم أيثم‏يفضلها فى حسب معيثم

// ۱/ ۵۴۸

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى‏ثلاث تحيات و إن لم تكلم

// ۴/ ۴۵۴ و ۵/ ۶۲۰

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك‏إن كنت جاهلة بما لم تعلم

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۹۸

و مهما تكن عند امرئ من خليقة‏و إن خالها تخفى على الناس تعلم

/ زهير/ ۲/ ۴۵۵

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۱۳۹ و من يجعل المروف من دون عرضه‏يفره و من لا يتقى الشتم يشتم

/ زهير/ ۳/ ۲۸۷

فى كل أسواق العراق إتاوةو فى كل ما باع امرؤ مكس درهم

/ زهير/ ۲/ ۲۵۵

زل بنو العوام عند آل الحكم‏و تركوا الملك لملك ذى قدم

/ العجاج/ ۲/ ۴۸۱

حييت من طلل تقادم عهده‏أقوى و أقفر بعد أم الهيثم

// ۱/ ۱۰۱

قد كنت أحسبنى كأغنى واجدنزل المدينة عن زراعة فوم

// ۱/ ۱۰۸

ألا تنتهى عنا ملوك و تتقى‏محارمنا لا يبوء الدم بالدم

// ۱/ ۱۰۹

عهدى به شد النهار كأنماخضب البنان و رأسه بالعظلم

// ۳/ ۱۸

أقول لهم بالشعب إذ يأسروننیألم تيأسوا أنی ابن فارس زهدم

/ مالك بن عوف/ ۳/ ۱۰۰

و فيهن ملهی للصديق و منظرأنيق لعين الناظر المتوسم

/ زهير/ ۳/ ۱۶۶ و ۴۷۳

و هتكت بالرمح الطويل إهانۀفخر صريعا لليدين و للفم

/ ربيعۀ بن مكدم/ ۳/ ۲۵۰

كانت فريضۀ ما تقول كماكان الزناء فريضۀ الرجم

// ۳/ ۲۶۵

يدعون عنتر و الرماح كأنهاأشطان بئر فی لبان الأدهم

/ عنترۀ/ ۳/ ۵۲۱

و رب أسراب حجيج كظمعن اللغاء و رفث التكلم

// ۱/ ۲۳۱ و ۲۶۴

سئمت تكاليف الحياۀ و من يعش‌ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

/ زهير/ ۱/ ۳۴۷

و كائن تری من معجب لك شخصه‌زيادته أو نقصه فی التكلم

/ زهير/ ۱/ ۴۴۲

هم وسط يرضی الأنام بحكمهمإذا نزلت إحدی الليالی بمعظم

/ زهير/ ۱/ ۱۷۴

لقد نحبت كلب علی الناس إنهمأحق بتاج المجد المتكرم

// ۴/ ۳۱۳

سرد الدروع مضاعفا أسراده‌لينال طول العيش غير مردم

/ لبيد/ ۴/ ۳۶۲

زجر أبی عروۀ السباع إذاأشفق أن يختلطن بالغنم

// ۴/ ۴۴۳

العاطفون تحين ما من عاطفو المطعمون زمان ما من مطعم

/ أبی وجرۀ السعدی/ ۴/ ۴۸۲

فلتعرفن خلائقا مشمولۀو لتندمن و لات ساعۀ مندم

// ۴/ ۴۸۲

و من هاب أسباب المنايا ينلنهو لو رام أسباب السماء بسلّم

/ زهير/ ۴/ ۵۶۴

لا عيب فيهم سوی أن النزيل بهميسلو عن الأهل و الأوطان و الحشم

// ۵/ ۵۰۰ فتح القدير ج۶ ۱۴۹
يرتدن ساهرة كأن جميعهاو عميمها أسداف ليل مظلم
/ أبى كبير الهذلى/ ۵/ ۴۵۳
فلما وردنا الماء زرقا حمامهوضعن عصىّ الحاضر المتخيّم
/ زهير/ ۳/ ۴۰۶- ۴/ ۱۹۱
بكرن بكورا و استحرن بسحرةفهن لوادى الرس كاليد للفم
/ زهير/ ۴/ ۸۹
إلى الملك القرم و ابن الهمامو ليث الكتيبة فى المزدحم
// ۱/ ۱۰۱ و ۳/ ۷۷ و ۱۷۰ و ۴/ ۳۵۰
فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۰ هل غادر الشعراء من متردمأم هل عرفت الدار بعد توهم
/ عنترة/ ۳/ ۳۶۹
كوحى صحائف من عهد كسرىفأهداها لأعجم طمطمى
/ عنترة/ ۳/ ۳۸۳
تيممت العين التى عند ضارجيفىء عليها الظل عرمضها طامى
// ۱/ ۵۴۴
ثلاث و اثنان فهن خمسو سادسة تميل إلى شمامى
// ۱/ ۲۲۷
يتقارضون إذا التقوا فى مجلسنظرا يزيل مواطئ الأقدام
// ۵/ ۳۳۱
يخرجن من مستطار النقع داميةكأن أذنابها أطراف أقلام
// ۵/ ۵۸۸
لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرىو نمت و ما ليل المطى بنائم
// ۵/ ۵۲۸
و بتن بجانبى مصرعاتو بت أفضل أغلاق الختام
/ الفرزدق/ ۵/ ۴۸۸
وقعن إلى لم يطمثن قبلىو هن أصح من بيض النعام
/ الفرزدق/ ۵/ ۱۷۰
و لا نقتل الأسرى و لكن نفكهمإذا أثقل الأعناق حمل المغارم
// ۵/ ۳۷
و لا تجعل الشورى عليك غضاضةفريش الخوافى قوة للقوادم
/ بشار بن برد/ ۴/ ۶۱۹
إذا بلغ الرأى المشورة فاستعنبرأى لبيب أو نصيحة حازم

/ بشار بن برد/ ۴/ ۶۱۹

عطست بأنف شامخ و تناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم

// ۴/ ۵۴۵

مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مر الرياح النواسم

/ ذو الرمة/ ۱/ ۳۴۵

أهش بالعصا على أغنامى من ناعم الأراك و البشام

// ۳/ ۴۲۷

كلا الصدفين ينفده سناها توقد مثل مصباح الظلام

// ۳/ ۳۶۹

من بين مأسور يشد صفاده صقر إذا لاقى الكريهة حام

/ حسان بن ثابت/ ۳/ ۱۴۲

تحيى بالسلامة أم بكرو هل لک بعد قومک من سلام

// ۲/ ۴۹۸

لعمرک أن إلک من قريش كإل السّقب من رأل النعام

/ حسان/ ۲/ ۳۸۷

هل أنتم عائجون بنا لأن نرى العرصات أو أثر الخيام

/ جرير/ ۲/ ۱۷۳

فلئن جذيمة قتلت ساداتها فنساؤها يضربن بالأزلام

// ۲/ ۱۳

فإن يهلک أبو قابوس يهلک ربيع الناس و الشهر الحرام

/ النابغة/ ۴/ ۶۱۸

إنى امرؤ منعت أرومة عامر ضيمى و قد جنفت على خصومى

/ لبيد/ ۱/ ۲۰۵

و مولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم

// ۵/ ۳۲۰

تظل فى يومک فى لهو و فى طرب و أنت بالليل شراب الخراطيم

// ۵/ ۳۲۱

تطاول ليلک الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم

// ۵/ ۳۲۴

ترى جيف المطى بجانبه كأن عظامها خشب الهشيم

// ۵/ ۱۵۳

ألا هل أتى اليتم بن عبد مناءة على الشنء فيما بيننا ابن تميم

/ الحارثى/ ۵/ ۱۳۰

أقول لأم زنباع أقيمى‌صدور العيس شطر بنى تميم

// ۱/ ۱۷۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۱ أثرن عجاجة كدخان نارتشب بفرقد بال هشيم

// ۵/ ۱۵۳

تزوّد منا بين أذناه ضربةدعته إلى هابى التراب عقيم

/ هوبر الحارثى/ ۳/ ۴۴۱

أطوف فى الأباطح كل يوم‌مخافة أن يشرد بى حكيم

// ۲/ ۳۶۵

حرف النون

و إن يستضافوا إلى حكمه‌يضافوا إلى راجح قد عدن

/ الأعشى/ ۵/ ۵۸۱

و من كاشح ظاهر غمره‌إذا ما انتصبت له أنكرن

// ۵/ ۵۳۴

ما بالمدينة دار غير واحدةدار الخليفة إلا دار مروانا

// ۱/ ۱۸۲

إن أجزأت مرة يوما فلا عجب‌قد تجزئ المذكار أحيانا

// ۴/ ۶۲۹

كأنه أسفع الخدين ذو جددطاو و يرتع بعد الصيف عريانا

/ زهير/ ۴/ ۳۹۸

و لقد سلقنا هوازنابنواهل حتى انحنينا

// ۴/ ۳۱۱

عجبت من دهماء إذ تشكوناو من أبى دهماء إذ يوصينا

// ۴/ ۲۲۳

و أنقض ظهرى ما تطويت منهمو كنت عليهم مشفقا متحننا

/ العباس بن مرداس/ ۵/ ۵۶۳

منطق صائب و تلحن أحيانا و خير الكلام ما كان لحنا

/ الفزارى/ ۵/ ۴۸

و كنا قريبا و الديار بعيدةفلما وصلنا نصب أعينهم غبنا

// ۴/ ۶۰۹

فرد بنعمته كيده‌عليه و كان لنا فاتنا

// ۴/ ۴۷۶

فلما تبين أصواتنابكين و فديننا بالأبينا

// ۱/ ۱۶۹

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسناأو سيئا و مدينا مثل ما دانا

/ أمية/ ۱/ ۳۰۰

ضحوا بأشمط عنوان السجود بهيقطع الليل تسبيحا و قرآنا

/ ۱/ ۲۱۰

ذراعى عيطل أدماء بكرهجان اللون لم تقرا جنينا

/ عمرو بن كلثوم/ ۱/ ۲۷۰

دعوت عشيرتى للسلم لمارأيتهم تولوا مدبرينا

/ الكندى/ ۱/ ۲۴۲

تركنا الخيل عاكفة عليهمقلّدة أعنتها صفونا

/ عمرو بن كلثوم/ ۳/ ۵۳۷- ۴/ ۴۹۴

مهلا بنى عمّنا مهلا موالينالا تنشروا بيننا ما كان مدفونا

/ الفضل بن العباس// ۳/ ۳۸۰

فحبسنا ديارهم عنوةو أبنا بساداتهم موثقينا

// ۳/ ۲۴۹

فآبوا بالنهاب و بالسباياو أبنا بالملوك مصفدينا

/ عمرو بن كلثوم/ ۳/ ۱۴۲- ۴/ ۴۹۸

أحبها و الذى أرسى قواعدهحتى إذا ظهرت آياته بطنا

/ جميل/ ۳/ ۷۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۲ أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتينا

// ۳/ ۲۱

ترى الأبدان فيها مسبغاتعلى الأبطال و اليلب الحصينا

/ كعب بن مالك/ ۲/ ۵۳۴

إن شرخ الشباب و الشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

/ حسان/ ۱/ ۹۳- ۲/ ۴۰۷

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلاكله أناخ بآخرينا

// ۲/ ۲۸۳

فقددت الأديم لراهشيهو ألفى قولها كذبا و مينا

/ عدى بن زيد/ ۱/ ۵۲۷

آمين آمين لا أرضى بواحدةحتى أبلغها ألفين آمينا

// ۱/ ۳۱

يا رب لا تسلبنى حبها أبداو يرحم اللّه عبدا قال آمينا

// ۱/ ۳۱

إذا ما علا المرء رام العلاءو يقنع بالدون من كان دونا

// ۱/ ۶۲

إذا الجوزاء أردفت الثرياظننت بآل فاطمة الظنونا

/ خزيمة بن مالک/ ۴/ ۱۷۲

ترانا عنده و الليل داج‌على أبوابه حلقا عزينا

// ۵/ ۳۵۱

أ خليفة الرحمن إن عشيرتى‌أمسى سراتهم إليک عزينا

/ الراعى/ ۵/ ۳۵۱

صددت الكأس عنا أم عمروو كان الكأس مجراها اليمينا

// ۵/ ۴۱۸

معتقة كأن الحص فيهاإذا ما الماء خالطها سخينا

// ۵/ ۴۱۸

أبا هند فلا تعجل علیناو أنظرنا نخبرک اليقينا

/ عمرو بن كلثوم/ ۱/ ۱۴۵- ۵/ ۲۰۴

و نحن إذا عماد الحى خرت‌على الأحفاض نمنع من يلينا

/ عمرو بن كلثوم/ ۵/ ۵۲۹

كأن سيوفنا فينا و فيهم‌مخاريق بأيدى لاعبينا

/ عمرو بن كلثوم/ ۵/ ۴۱۷

و رفقة يضربون البيض ضاحيةضربا تواصت به الأبطال سجينا

/ ابن مقبل/ ۵/ ۴۸۴

هلا سألت جموع كندةيوم ولوا أين أينا

// ۵/ ۶۲۰

و قارعة من الأيام لولاسبيلهم لراحت عنک حينا

/ ابن أحمر/ ۵/ ۵۹۳

إذا ما الغانيات برزن يوماو زججن الحواجب و العيونا

// ۵/ ۱۸۰

فما أن طبنا جبن و لكن‌منايانا و دولة آخرينا

/ فروة بن مسيک المرادى/ ۵/ ۲۸

لئن كنت ألبستنى غشوةلقد كنت أصفيتک الود حينا

// ۵/ ۱۱

ركبتم صعبتى أشرا و حيفاو لستم للصعاب بمقرنينا

/ عمرو بن معدى كرب/ ۴/ ۶۲۸

لقد علم القبائل ما عقيل‌لنا فى النائبات بمقرنينا

/ عمرو بن معدى كرب/ ۴/ ۶۲۸

تذكر حب ليلى لات حيناو أمسى الشيب قد قطع القرينا

// ۴/ ۴۸۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۳ لسان الشر تهديها إليناو خنت و ما حسبتك أن تخونا

// ۳/ ۲۳۳

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بهاو أصبحت أنبياء اللّه ذكرانا

/ قيس بن عاصم/ ۳/ ۷۲

و كيف أرجى الخلد و الموت طالبى‌و ما لى من كأس المنيهٔ فرقان

// ۲/ ۳۴۶

ثياب بنى عوف طهارى نقيهٔو أوجههم بيض المسافر غران

/ امرؤ القيس/ ۵/ ۳۸۹

فسبح عليك الهم و اعلم بأنه‌إذا قدر الرحمن شيئا فكائن

// ۵/ ۳۸۰

و لما صرح الشرفأمسى و هو عريان

// ۵/ ۵۶۸

هل للعواذل من ناه فيزجرهاإن العواذل فيها الأين و الوهن

/ قعنب/ ۴/ ۲۷۴

أركسوا فى فتنهٔ مظلمهٔكسواد الليل يتلوها فتن

/ عبد اللّه بن رواحهٔ/ ۱/ ۵۷۲

قتلنا المدحضين بكل فج‌فقد قرت بقتلهم العيون

// ۴/ ۴۷۱

ليت شعرى مسافر بن أبى عمرو و ليت يقولها المخرون

/ عمرو بن أميهٔ/ ۴/ ۳۹

إذا ما أراد اللّه أمرا فإنمايقول له كن قوله فيكون

// ۱/ ۱۵۶

إذا هبت رياحك فاغتنمهافعقبى كل خافقهٔ سكون

// ۲/ ۳۶۰

و إن الموت طوع يدى إذا ماوصلت بنانها بالهندوانى

/ عنترة/ ۱/ ۲۰۴ و ۲/ ۳۳۳ و ۵/ ۴۰۴

و كل أخ مفارقه أخوه‌لعمر أبيك إلا الفرقدان

// ۳/ ۴۷۵ و ۴/ ۲۱۸

لنا قبة مضروبة بفنائهاعتاق المهارى و الجياد الصوافن

/ النابغة/ ۴/ ۴۹۴

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

// ۳/ ۵۷۲- ۴/ ۴۸۶

علام قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى دمان

// ۴/ ۴۲۰ و ۵/ ۴۳۷

فسطها ذميم الرأى غير موفق‌فلست على تسويطها بمعان

// ۵/ ۵۳۱

أخزى الإله بنى الصليب عنيزة و اللابسين ملابس الرهبان

// ۱/ ۴۷۱

و مخلدات باللجين كأنماأعجازهن أقاوز الكثبان

// ۵/ ۱۸۰

و تخضب لحية غدرت و خانت بأحمر من نجيع الجوف آن

/ النابغة/ ۵/ ۱۶۶

من يفعل الحسنات اللّه يشكرهاو الشر بالشر عند اللّه مثلان

// ۱/ ۲۰۵ و ۴/ ۶۱۷

فدمعهما ودق و سح و ديمة و سكب و توكاف و تنهملان

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۴۹

و يمنحها بنو شمجى بن جرم معيزهم حنانك ذا الحنان

/ امرؤ القيس/ ۳/ ۳۸۵

عجبت لمولود و ليس له أب و ذى ولد لم يلده أبوان

// ۴/ ۵۴

و فتيان صدق قد بعثت بسحرة فقاموا جميعا بين عاث و نشوان

/ امرؤ القيس/ ۱/ ۱۰۳

تراجمنا بمر القول حتى تصير كأننا فرسا رهان

/ الجعدى/ ۲/ ۵۹۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۴ و مضى نساؤهم بكل مفاضة جدلاء سابغة و بالأبدان

/ عمرو بن معدى كرب/ ۲/ ۵۳۴

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان

// ۲/ ۴۱۳

و كان فتى الهيجاء يحمى ذمارهاو يضرب عند الكرب كل بنان

/ عنترة/ ۲/ ۳۳۳

لعمرك ما أدرى و إن كنت داريابسبع رمين الجمر أم بثمان

// ۲/ ۱۵۳

لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحا شديدا لا كنطح الصورين

// ۲/ ۱۴۹

قالوا اتبعنا رسول اللّه و اطرحواقول الرسول و عالوا فى الموازين

// ۱/ ۴۸۴

و إذا يقال أتيتم لم يبرحواحتى تقيم الخيل سوق طعان

// ۱/ ۴۲

فإن أك كاظما لمصاب ناس فإنى اليوم منطلق لسانى

// ۳/ ۵۸

فما أوهى مراس الحرب ركنىو لكن ما تقادم من زمانى

/ عنترة/ ۵/ ۱۰۸

و مكروب كشفت الكرب عنه بطعنة فيصل لما دعانى

/ عنترة/ ۲/ ۱۴۳

رمانى بأمر كنت منه و والدى بريئا و من أجل الطوىّ رمانى

// ۲/ ۴۰۷ و ۴/ ۹

ينادى بأعلى صوته متعوذاليصحب منا و الرماح دوانى

// ۳/ ۴۸۳

لا تأمنن و إن أمسيت فى حرم حتى تلاقى ما يمنى لك المانى

/ أبو قلابة الهذلى/ ۱/ ۱۲۳ و ۵/ ۱۴۰

دنا تميما كما كانت أوائلنادانت أوائلهم من سالف الزمن

// ۵/ ۵۶۸

يا مسد الخوص تعوذ منى إن كنت لدنا لينا فإنى

// ۵/ ۶۲۹

تراهم إلى الداعى سراعا كأنّهم أبابيل طير تحت دج مسخن

// ۵/ ۶۰۶

قد أترك القرن مصفرا أنامله يميد فى الرمح ميد الماتح الأسن

/ زهير/ ۵/ ۴۱

صريفية طيب طعمهالها زبد بين كوب و دن

/ الأعشى/ ۴/ ۶۴۵

إن كنت حاولت ذنبا أو ظفرت بهفما أصبت بترك الحج من ثمن

// ۱/ ۸۸

ألا أبلغ بنى عمرو رسولافإنى عن فتاحتكم غنى

// ۴/ ۱۱۱

لما لبسن الحق بالتجنىغنين فاستبدلن زيدا منى

/ العجّاج/ ۱/ ۸۸

إذا حاولت فى أسد فجورافإنى لست منك و لست منى

// ۱/ ۳۰۴

دعاء حمامة تدعو هديلامفجعة على فنن تغنى

/ النابغة/ ۵/ ۱۶۸

إذا ما راية نصبت لمجدتلقاها عرابة باليمين

/ الشماخ/ ۱/ ۴۸۳ و ۴/ ۵۴۴ و ۵/ ۳۴۲

إنى لعمرک ما بابى بذى غلقعلى الصديق و لا خيرى بممنون

/ الأصبغ الأودى/ ۴/ ۵۸۰

و لما رأيت الشمس أشرق نورهاتناولت منها حاجتى بيمين

// ۴/ ۵۴۵ و ۵/ ۳۴۲

و هى بيضاء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون

// ۴/ ۴۵۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۵ نحن نطحناهم غداة الغورينبالضابحات فى غبار النقعين

// ۴/ ۴۲۹

يا نفس لا تمحضى بالنّصح جاهدةعلى المودة إلا آل ياسين

/ السعد الحميدى/ ۴/ ۴۱۲

إذا ما أوقدوا حطبا و نارافذاک الموت نقدا غير دين

// ۱/ ۳۴۴

وعدتنا بدرهمينا طلاءو شواء معجلا غير دين

// ۱/ ۳۴۴

ذغرت به القطا و نفيت عنهمقام الذئب كالرجل اللعين

/ الشماخ/ ۱/ ۱۳۰

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتىإن العواذل ليس لى بأمين

// ۴/ ۱۰۴

و قرن و قد تركت لدى ولىعليه الطير كالعصب العزين

/ عنترة/ ۵/ ۳۵۱

و من ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

/ المثقب العبدى/ ۵/ ۵۰۹

فجاءت به عضب الأديم غضنفرا سلالة فرج كان غير حصين

/ حسان/ ۳/ ۵۶۴

ثم خاصرتها إلى القبة الحمراء تمشى فى مرمر مسنون

/ عبد الرحمن بن حسان/ ۳/ ۱۵۶

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

// ۲/ ۴۶۸

و ماذا تزدرى الأقوام منى و قد جاوزت حدّ الأربعين

// ۲/ ۲۷۰

لى ابن عم أن الناس فى كبد لظل محتجرا بالنبل يرمينى

/ أبو الأصبغ/ ۵/ ۵۳۹

قد كنت قبل اليوم تزورينى فاليوم أبلوك و تبتلينى

// ۵/ ۵۱۰

أنا ابن جلا و طلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

/ الحجاج/ ۲/ ۲۷۰

رأوا عرشى تثلّم جانباه فلما أن تثلّم أفردونى

// ۲/ ۲۴۱ و ۵/ ۵۰۲

و لقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثم قلت لا يعنينى

// ۵/ ۲۶۸

حرف الهاء

رأيت اليزيد بن الوليد مباركا شديدا بأعباء الخلافة كاهله

// ۲/ ۱۵۶

قالت قتيلة ماله قد جللت شيبا شواته

/ الأعشى/ ۵/ ۴۸۵

اليوم يبدو بعضه أو كله و ما بدا منه فلا أحله

// ۲/ ۲۲۹

تغط بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيب و السّخاء غطاؤه

// ۲/ ۲۲۵

لا تهين الفقير علك أن تركع يوما و الدهر قد رفعه

// ۱/ ۹۱

لكل هم من الهموم سعةو الصبح و المساء لا فلاح معه

// ۱/ ۹۳

قصرت على ليلة ساهرةفليست بطلق و لا ساكره

/ أوس بن حجر/ ۳/ ۱۴۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۶ و شريت بردا ليتنىمن بعد برد كنت هامة

/ يزيد بن مفرغ الحميرى/ ۱/ ۲۴۰ و ۳/ ۱۶

قد هزئت منى أم طيسلهقالت أراه معدما لا مال له

// ۱/ ۵۲

فظلنا بنعمة و اتكأناو شربنا الحلال من قلله

/ جميل بن معمر/ ۳/ ۲۶

وقفت على ربع لمية ناقتىفما زلت أبكى عنده و أخاطبه

/ ذو الرمة/ ۳/ ۵۹

فإنى و إياكم و شوقا إليكمكقابض شيئا لم تنله أنامله

/ ضابئ بن الحارث البرجمى/ ۵/ ۴۹۴

إذا المرء قال الجهل و الحوب و الخناتقدم يوما ثم ضاعت مآربه

/ طرفة/ ۴/ ۲۹

و لكن ديافى أبوه و أمهبحوران يعصرن السليط أقاربه

/ الفرزدق/ ۳/ ۴۷۰

هممت و لم أفعل و كدت و ليتنىتركت على عثمان تبكى حلائله

/ عمير بن ضابئ/ ۳/ ۴۲۵

ضربا يزيل الهام عن مقيلهو يذهل الخليل عن خليله

/ عبد اللّه بن رواحة/ ۳/ ۵۱۴

و يوما شهدناه سليما و عامراقليل سوى الطعن النهال نوافله

// ۲/ ۳۸

لا يكن برقك برقا خلباإن خير البرق ما الغيث معه

/ ابن بحر/ ۴/ ۲۵۴

و كنا إذا الجبار صعر خدّهمشينا إليه بالسيوف نعاتبه

// ۴/ ۲۷۵

كأن مثار النقع فوق رؤوسناو أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

// ۵/ ۵۸۸

قد كنت قبل لقائكم ذا مرّةعندى لكل مخاصم ميزانه

// ۳/ ۱۵۲ و ۵/ ۱۲۷ و ۵۹۴

يا عمرو لو نالتك أرماحناكنت كمن تهوى به الهاوية

// ۵/ ۵۹۵

آليت لا أنساكم فاعلمواحتى يرد الناس فى الحافرة

// ۵/ ۴۵۲

صبحنا تميما غداة الجفاربشهباء ململومة بأسره

/ بشر بن أبى خازم/ ۵/ ۳۹۲

أبى لى قبر لا يزال مقابلو ضربة فأس فوق رأسى فاقرة

/ النابغة/ ۵/ ۴۰۸

على أننى راض بأن أحمل الهوىو أخرج منه لا علىّ و لا ليه

// ۵/ ۵۵۲

سل أميرى ما الذى غيرهعن وصالى اليوم حتى ودعه

// ۵/ ۵۵۷

يا بنت كونى خيرة لخيرةأخوالها الجن و أهل القسورة

// ۵/ ۴۰۰

نحن إلى جبال مكة ناقتىو من دونها أبواب صنعاء موصدة

// ۵/ ۵۴۲

الريح تبكى شجوهاو البرق يلمع فى الغمامة

// ۱/ ۳۶۲

عيوا بأمرهم كماعيت ببيضتها الحمامة

/ عبيد بن الأبرص/ ۵/ ۳۲

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذباو إن أغيب فأنت الهامز اللمزة

/ زياد الأعجم/ ۵/ ۶۰۲

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنىو إن تغيبت كنت الهامز اللمزة

// ۵/ ۶۰۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۷ يا علقمة يا علقمة يا علقمةخير تميم كلها و أكرمه

// ۵/ ۶۲۰

أقبل سيل جاء من عند اللّهيحرد حرد الجنة المغلة

// ۵/ ۳۲۵

فبتنا قياما عند رأس جوادنايزاولنا عن نفسه و نزاوله

/ امرؤ القيس/ ۴/ ۱۰۰

و لا يزع النفس اللجوج عن الهوىمن الناس إلا وافر العقل كامله

// ۴/ ۱۵۰

فزججتها بمزجةزج القلوص أبى مزادة

// ۲/ ۱۸۹

فلا مزقة و رقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها

// ۲/ ۲۴۴ و ۵/ ۱۹۰

لما رأت ساتيد ما استعبرتللّه در اليوم من لامها

/ عمرو بن قميئة/ ۲/ ۱۸۸

يا قاتل اللّه ليلى كيف تعجبنىو أخبر الناس أنى لا أباليها

/ الأصمعى/ ۲/ ۴۰۳

أوردتموها حياض الموت ضاحيةفالنار موعدها و الموت لاقيها

/ حسان/ ۲/ ۵۵۵

و قاسمهما باللّه جهدا لأنتماألذ من السلوى إذا ما نشورها

/ الهذلى/ ۱/ ۱۰۳ و ۲/ ۲۲۲

إن علىّ عقبة أقضيهالست بناسيها و لا منسيها

// ۱/ ۱۴۸

تميم بن زيد لا تكونن حاجتىبظهر فلا يعيا علىّ جوابها

/ الفرزدق/ ۱/ ۱۳۹

فإن الصبا ريح إذا ما تنفستعلى نفس مهموم تجلت همومها

// ۳/ ۶۴

لا يعرف الشوق إلا من يكابدهو لا الصبابة إلا من يعانيها

// ۳/ ۶۴

تهين النفوس و هو من النفوس يوم الكريهة أبقى لها

/ الخنساء/ ۳/ ۲۰۴

و من يذق الدنيا فإنى طعمتهاو سيق إلينا عذبها و عذابها

// ۳/ ۲۳۸

و عمرة من سروات النساءتنفح بالمسک أردانها

/ قيس بن الخطيم/ ۳/ ۴۸۴

و أغض طرفى ما بدت لى جارتىحتى يوارى جارتى مأواها

/ عنترة/ ۳/ ۱۳۸- ۴/ ۲۶

إذا سار عبد اللّه من مرو ليلةفقد سار منها نورها و جمالها

// ۴/ ۳۸

و تضىء فى وجه النهار منيرةكجمانة البحرى سل نظامها

// ۱/ ۴۰۲

عصيت إليها القلب إنى لأمرهامطيع فما أدرى أرشد طلابها

/ أبو ذؤيب/ ۱/ ۴۲۸

تراهن يلبسن المشاعر مرؤو إستبرق الديباج طورا لباسها

// ۳/ ۳۳۶

تراک أمكنۀ إذا لم أرضهاأو يرتبط بعض النفوس حمامها

/ لبيد/ ۱/ ۳۹۳- ۴/ ۵۶۱

لمعفر قهد تنازع شلوهغبس كواسب لا يمن طعامها

// ۴/ ۵۸۰

تربص بها ريب المنون لعلهاتطلّق يوما أو يموت حليلها

// ۱/ ۲۶۷- ۵/ ۱۱۹

و لقد علمت لتأتين منيتىإنّ المنايا لا تطيش سهامها

// ۵/ ۲۷۴

أميطى تميطى بصلب الفؤادوصول حبال و كنادها

/ الأعشى/ ۵/ ۵۸۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۸ فضلا و ذو كرم يعين على الندىسمح كسوب رغائب غنامها

/ لبيد/ ۵/ ۴۱۷

و جزور أستار دعوت لحتفهابمغالق متشابه أعلاقها

/ لبيد/ ۵/ ۴۱۷

هممت بنفسى كل الهمومفأولى لنفسى أولى لها

/ الخنساء/ ۵/ ۴۱۱

و للمنايا تربى كل مرضعۀو دورنا لخراب الدهر نبنيها

// ۴/ ۱۱۴

ألا من مبلغ عنى خفافارسولا بيت أهلک منتهاها

/ العباس بن مرداس/ ۴/ ۱۱۲

من لم يمت عبطۀ يمت هرماالموت كأس و المرء ذائقها

/ أميۀ بن أبى الصلت/ ۱/ ۴۶۷

تميم بن قيس لا تكونن حاجتىبظهر فلا يعيا علىّ جوابها

/ الفرزدق/ ۴/ ۹۷

فلا مزنۀ و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها

// ۴/ ۴۸

أكرّ على الكتيبۀ لست أدرىأحتفى كان فيها أم سواها

// ۱/ ۴۸۰

تمر على ما تستمر و قد شفت‌غلائل عبد القيس منها صدورها

// ۲/ ۱۸۸

و صحابة شم الأنوف بعثتهم‌ليلا و قد مال الكرى بطلاها

/ عنترة/ ۱/ ۱۰۴

غلب المساميح الوليد سماحةو كفى قريش المعضلات و سادها

// ۲/ ۵۷۵ و ۵/ ۶۰۹

هل الدهر إلا ليلة و نهارهاو إلا طلوع الشمس ثم غيارها

/ أبو ذؤيب/ ۳/ ۳۴۱

إن أباها و أبا أباهاقد بلغا فى المجد غايتاها

/ أبو النجم/ ۳/ ۴۴۱

و كم دون بيتك من صفصفو دكداك رمل و أعقادها

/ الأعشى/ ۳/ ۴۵۶

إن سليمى و اللّه يكلؤهاضنت بشى‌ء ما كان يرزؤها

/ ابن هرمة/ ۳/ ۴۸۲

علفتها تبنا و ماء بارداحتى شتت همالة عيناها

// ۳/ ۵۲۵

فأدنت لى الأسباب حتى بلغتهابنهضى و قد كان اجتماعى يصورها

// ۱/ ۳۲۴

فلن يطلبوا سرها للغنى‌و لن يسلموها لإزهادها

/ الأعشى/ ۱/ ۲۸۷

فلا تجزعن من سنة أنت سيرتهافأول راض سنة من يسيرها

/ الهذلى/ ۱/ ۴۳۹

و قد زعمت ليلى بأنى فاجرلنفسى تقاها أو عليها فجورها

// ۱/ ۵۷

من معشر سنت لهم آباؤهم‌و لكل قوم سنة و إمامها

/ لبيد/ ۱/ ۴۳۹

و إن الذى يسعى ليفسد زوجتى‌كساع إلى أسد الشرى يستميلها

// ۱/ ۸۰

أو كلما قال الرجال قصيدةأصموا فقالوا ابن الأبيرق قالها

// ۱/ ۵۹۰

و كل قوم أطاعوا أمر سيدهم‌إلا نميرا أطاعت أمر غاويها

// ۱/ ۶۱۹

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته‌كما و فى بقلاص النجم حاديها

// ۲/ ۶

فى سنهٔ قد كشفت عن ساقهاحمراء تبرى اللحم عن عراقها

// ۵/ ۳۲۸

و قد رابنى منها صدود رأيته‌و إعراضها عن حاجتى و بسورها

// ۴/ ۱۵۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۴۹ و كأس شربت على لذهٔو أخرى تداويت منها بها

// ۵/ ۴۱۷

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى‌زبانيهٔ غلب عظام حلومها

// ۵/ ۵۷۳

و لا عيب فيها غير شكلهٔ عينهاكذاك عتاق الطير شكل عيونها

// ۵/ ۵۰۰

و يهماء بالليل غطشى الفلاه يؤنسنى صوت فيادها

/ الأعشى/ ۵/ ۴۵۷

نحن صبحنا عامرا فى دارهاجردا تعادى طرفى نهارها

// ۵/ ۴۶۰

يقال به داء الهيام أصابه‌و قد علمت نفسى مكان شفائها

/ قيس بن الملوح/ ۵/ ۱۸۶

كأنما يسقط من لغامهابيت عنكباهٔ على زمامها

// ۴/ ۲۳۵

و مهمهٔ أطرافه فى مهمه‌أعمى الهدى بالجائرين العمّه

// ۴/ ۱۴۵ فتح القدير ج۶ ۱۵۹

هذا جناى و خياره فيه‌إذ كل جان يده إلى فيه

/ عمرو بن عدى اللخمى/ ۵/ ۱۶۹

و اللّه لولا حنف فى رجله‌ما كان فى رجالكم من مثله

// ۱/ ۱۷۰

عصى أبو العالم و هو الذى‌من طينهٔ صوره اللّه

// ۳/ ۴۶۱

قلت لشيبان ادن من لقائه‌أن تغدى اليوم من شوائه

/ أبو النجم/ ۲/ ۱۷۳

أعوذ بربى من النافثات فى عقد العاضه المعضه

// ۳/ ۱۷۲

ما يبلغ الأعداء من جاهل‌ما يبلغ الجاهل من نفسه

// ۲/ ۵۰۸

و الشيخ لا يترك أخلاقه‌حتى يوارى فى ثرى رمسه

// ۳/ ۳۹۷

حرف الواو

قد كشفت عن ساقها فشدواوجدت الحرب بكم فجدوا

// ۵/ ۳۲۸

و لم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا

// ۵/ ۵۶۸

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحامنى و ما أذنوا من صالح دفنوا

// ۵/ ۴۹۲

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به‌و إن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

// ۵/ ۴۹۲

وقب العذاب عليهم فكأنهم‌لحقتهم نار السموم فأحصدوا

// ۵/ ۶۳۹

سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم‌فلم يفعلوا و لم يلاموا و لم يألوا

/ زهير/ ۵/ ۲۷۱

مذاويد بالبيض الحديث صقالهاعن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

/ تميم بن مقبل/ ۵/ ۲۳۵

بخيل عليها جنة عبقرية‌جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

/ زهير/ ۵/ ۱۷۲

فإن تابوا فإن بنى سليم‌و قومهم هوازن قد أثابوا

/ أبو قيس بن الأسلت/ ۴/ ۲۵۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۵۰ و لقد طعنت أبا عيينة طعنة‌جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

// ۲/ ۸

فأهلكوا بعذاب حصّ دابرهم‌فما استطاعوا له صرفا و لا انتصروا

// ۲/ ۱۳۳

ما لك من طول الأسى فرقان‌بعد قطين رحلوا و بانوا

// ۳/ ۳۴۵

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننافقد جعلت أشراط أوله تبدو

/ أبو الأسود/ ۵/ ۴۳

كلفت مجهولها نوقا يمانيۀإذا الحداۀ على أكتافها حفدوا

/ الأعشى/ ۳/ ۲۱۴

إن الخليط أجدوا البين فانجردواو أخلفوك عد الأمر الذى و عدوا

// ۴/ ۴۱

يا مانع الضيم أن تغشى سراتهمو الحامل الإصر عنهم بعد ما غرقوا

/ النابغۀ/ ۱/ ۳۵۴

حسسناهم بالسيف حسا فأصبحتبقيتهم قد شردوا و تبددوا

// ۱/ ۴۴۶

ما نقموا من بنى أميۀ إلاأنهم يحلمون إن غضبوا

/ قيس الرقيات/ ۲/ ۴۳۷

ألا من مبلغ عمرا رسولاو ما تغنى الرسالۀ شطر عمرو

// ۱/ ۱۷۸

أرنا إداوۀ عبد اللّه نملؤهامن ماء زمزم إن القوم قد ظمئوا

// ۱/ ۱۶۵

و قدم الخوارج الضلالإلى عباد ربهم فقالوا

// ۴/ ۸۲

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرۀو قد حلق النجم اليمانى فاستوى

// ۲/ ۲۴۰

إن الشقى بالشقاء مولعلا يملك الرد له إذا أتى

// ۱/ ۱۰۷

و إنما المرء حديث بعدهفكن حديثا حسنا لمن وعى

/ ابن دريد/ ۳/ ۵۷۴

إلى كم و كم أشياء منك تريبنىأغمض عنها لست عنها بذى عمى

// ۱/ ۳۳۲

ثم جزاه اللّه عنى إذ جزىجنات عدن فى السماوات العلى

/ أبو النجم/ ۲/ ۱۰۸

أشرتم بلبس الخز لما لبستمو من قبل لا تدرون من فتح القرى

// ۵/ ۱۵۲

إما ترى رأسى حاكى لونهطرۀ صبح تحت أذيال الدجى

/ ابن دريد/ ۳/ ۳۸۹

جاءت معا و أطرقت شتيتاو هى تثير الساطع السخيا

/ رؤبة/ ۳/ ۴۳۷

خطرت خطرة على القلب من ذكراك و هنا فما استطعت مضيا

// ۵/ ۱۲۶

بينما نحن بالبلاكث فالقاع سراعا و العيس تهوى هويا

// ۵/ ۱۲۶

و أشهد عند اللّه أنى أحبهافهذا لها عندى فما عندها ليا

/ قيس بن ذريح/ ۵/ ۲۷۴

فتصدعت صم الجبال لموتهو بكت عليه المرملات مليا

/ مهلهل/ ۳/ ۳۹۷

إنما يعذر الوليد و لا يعذر من كان فى الزمان عتيا

// ۳/ ۳۸۱

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالثأنا ذا كما قد غيبتنى غيابيا

// ۳/ ۱۰

ففاءت و لم تقض الذى أقبلت لهو من حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

// ۱/ ۲۶۷

هممت بهم من ثنية لؤلؤشفيت غليلات الهوى من فؤاديا

// ۳/ ۲۱

أ ترجو بنى مروان سمعى و طاعتىو قومى تميم و الفلاة و رائيا

// ۲/ ۴۸۵ و ۳/ ۱۲۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۵۱ فأصبحت الثيران صرعى و أصبحتنساء تميم يبتدرن الصياصيا

// ۴/ ۳۱۶

على مثل ليلى يقتل المرء نفسهو إن بات من ليلى على اليأس طاويا

// ۴/ ۶۰۴

و خصم غضاب ينفضون لحاهمكنفض البراذين العراب المخاليا

// ۴/ ۴۸۸

فإن تقبلى بالود أقبل بمثلهو إن تدبرى أذهب إلى حال باليا

// ۵/ ۳۶

ألم ييأس الأقوام أنى أنا ابنهو إن كنت عن أرض العشيرة نائيا

/ رباح بن عدى/ ۳/ ۱۰۰

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقىتقلّب عريانا و إن كان كاسيا

// ۲/ ۲۲۴

تصافح من لاقيت لى ذا عداوةصفاحا و عنى بين عينيك منزوى

// ۲/ ۹۸

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۵۲

أنصاف الأبیات

الشطر/ القائل/ ج/ ص

هم الأنصار عرضتها اللقاء // ۱/ ۲۶۳

و کان مزاجها عسل و ماء // ۴/ ۱۳۶

أری الموت لا یسبق الموت شیء // ۴/ ۳۱۲

الناس جنب و الأمیر جنب / الأخفش/ ۱/ ۵۳۶

تضبح فی الکف ضباح الثعلب // ۵/ ۵۸۸

یحدو بها کل فتی هیّات // ۳/ ۲۱

و طاب إلقاح اللبان و برد // ۳/ ۲۰۹

علفتها تبنا و ماء باردا // ۱/ ۴۷ و ۵/ ۱۰۷ و ۱۸۰ و ۲۱۳

إنی کبیر لا أطیق العنّدا // ۲/ ۵۷۴

نحسبک و الضحاک سیف مهند // ۱/ ۴۸۰

و یأتیک بالأخبار من لم تزود / طرفة/ ۴/ ۴۳۷

و جرح اللسان کجرح الید / النابغة/ ۴/ ۹

ألا فارحمونی یا إله محمد // ۳/ ۵۸۹

تصابی و أمسی علاه الکبر // ۱/ ۴۷۳

فی بئر لا حور سری و ما شعر // ۵/ ۴۹۴

لتجدنی بالأمیر برا / الطبری/ ۲/ ۴۰۲

جعلت عیب الأکرمین سکرا // ۳/ ۲۱۱

جدب المندّی عن هوانا أزور / الکلیبی/ ۳/ ۳۲۵

تروح من الحی أم تبتکر // ۴/ ۵۱۱

و هل یستوی ذو أمة و کفور // ۴/ ۶۳۱

أر یا اسلمی یا هند هند بنی بکر // ۴/ ۱۵۴

أنادی به آل الولید و جعفر // ۳/ ۴۱۰

کأن عینیه مشکاتان فی جحر // ۴/ ۳۸

یا سارق اللیلة أهل الدار // ۱/ ۵۳۴

کحائضة یزنی بها غیر طاهر // ۱/ ۲۵۸

و أغضب أن تهجی تمیم بعامر // ۳/ ۴۹۶

فإذا شربت فإننی رب الخورنق و السدیر // ۱/ ۲۵۳

و هن يمشين بنا هميسا // ٣/ ٤٥٧

فتح القدير، ج۶، ص: ١٥٣ و منا ناسئ الشهر القلمّس // ٢/ ٤١٠

و جيد كجيد الريم ليس بفاحش // ١/ ١٩٣

فلا يك موقف منك الوداعا // ۴/ ١٣۶

أنغض نحوى رأسه و أقنعا // ٣/ ٢٧٩

و هل يأثمن ذو أمة و هو طائع // ١/ ۴٢٨

فارعى فزارة لا هناك المرتع // ٣/ ١٢

تحية بينهم ضرب وجيع // ٢/ ۴٠٧

يتبعها و هى له شغاف // ٣/ ٢۵

ما إن بها و الأمور من تلف // ١/ ۴٨٠

و أحمر اللون كمحمر الشفق // ۵/ ۴٩۴

قالت سليمى اشتر لنا دقيقا // ۴/ ۵۴

و قامت الحرب بنا على ساق // ١/ ۴٢ و ۵/ ٣٣١

نحن بنو عدنان ليس شك // ٢/ ۵٣٠

قد أفرط العلج علينا و عجل // ٣/ ۴٣۴

يصبحن عن قس الأذى غوافلا // ٢/ ٧٧

و قد يشيط على أرماحنا البطل // ١/ ۵٢

أحاطت بالرقاب السلاسل و الأغلال // ۵/ ۴١٧

حدثانى عن فلان و فل // ۴/ ٨۴

فى لجة أمسك فلانا عن فل // ۴/ ٨۴

طال الثواء على رسول المنزل // ۴/ ٢٠٣

فصيروا مثل كعصف مأكول // ١/ ١٧١

هل غير غاد دك غارا فانهدم // ٣/ ٣٧٠

و جيران لنا كانوا كرام // ١/ ۴٢۵

فإن تقتلونا نقتلكم // ١/ ۴٧۴

غفرت أو عذبت يا اللهما // ١/ ٣٧٨

و من همزنا رأسه تهشما / العجاج/ ۵/ ۶٠٢

و ويحا لمن لم يدر ما هن ويحما / حميد/ ۵/ ١٠٣

و لو شئت حرمت النساء سواكم // ٣/ ۵٨٩

إن الكريم على علاته هرم / زهير/ ١/ ١٩٩

فتح القدير، ج۶، ص: ١۵۴ و قائلة خولان فانكح فتاتهم // ۴/ ٩٨

إذا نزل السماء بأرض قوم // ١/ ۵٧

(۴) فهرس القراءات القرآنية

اشارة

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۱۵۹

سورة الفاتحة (۱)

(۴)/ مالک ۱/ ۲۶ (۵)/ إياک ۱/ ۲۷ (۶)/ الصراط/ ۱/ ۲۷ (۷)/ صراط الذين ۱/ ۲۹/ عليهم ۱/ ۲۹

سورة البقرة (۲)

(۷)/ غشاوة/ ۱/ ۴۶ (۹)/ يخدعون ۱/ ۴۸ (۱۰)/ يكذبون ۱/ ۴۹ (۱۴)/ لقوا/ ۱/ ۵۱ (۱۶)/ اشتروا/ ۱/ ۵۴ (۱۷)/ ظلمات ۱/ ۵۵ (۲۶)/ لا يستحى ۱/ ۶۷ (۲۸)/ ترجعون ۱/ ۷۱ (۳۱)/ عرضهم ۱/ ۷۷ (۳۵)/ رغدا/ ۱/ ۸۰ (۳۶)/ فأزلهما/ ۱/ ۸۰ (۳۷)/ آدم ۱/ ۸۱ (۴۰)/ إسرائيل ۱/ ۸۷ (۵۱)/ واعدنا/ ۱/ ۱۰۰ (۵۵)/ جهرة/ ۱/ ۱۰۲ (۵۸)/ حطة/ ۱/ ۱۰۵/ نغفر/ ۱/ ۱۰۶ (۶۱)/ قثائها/ ۱/ ۱۰۸/ مصرا/ ۱/ ۱۰۸ (۷۰)/ البقر/ ۱/ ۱۱۴ (۷۴)/ أو أشدّ/ ۱/ ۲۱۱۸/ يشقق ۱/ ۱۱۹ (۷۵)/ كلام اللّه ۱/ ۱۲۰ (۸۱)/ خطيئته ۱/ ۱۲۴ (۸۳)/ لا تعبدون ۱/ ۱۲۶/ حسنا/ ۱/ ۱۲۶ (۸۵)/ تظاهرون ۱/ ۱۲۷/ أسارى ۱/ ۱۲۸/ تفادوهم ۱/ ۱۲۸/ لو يردون ۱/ ۱۲۸ (۹۰)/ أن ينزل ۱/ ۱۳۲ (۱۰۲)/ الملكين ۱/ ۱۴۰ (۱۰۶)/ ننسأها/ ۱/ ۱۴۷ (۱۱۹)/ و لا تسأل ۱/ ۱۵۷ (۱۲۵)/ مثابة/ ۱/ ۱۶۱/ و اتخذوا/ ۱/ ۱۶۱/ بيتى ۱/ ۱۶۴ (۱۲۶)/ فأمتعه ۱/ ۱۶۵ (۱۲۷)/ ربنا تقبل ۱/ ۱۶۵ (۱۲۸)/ و أرنا/ ۱/ ۱۶۵ (۱۲۹)/ و ابعث فيهم ۱/ ۱۶۷ (۱۳۰)/ سفه نفسه ۱/ ۱۶۸ (۱۳۲)/ و وصى بها/ ۱/ ۱۶۸ (۱۳۳)/ و إله آبائک ۱/ ۱۶۹ (۱۳۹)/ أتحاجوننا/ ۱/ ۱۷۲ (۱۴۰)/ أم تقولون ۱/ ۱۷۲ (۱۴۳)/ لرؤوف ۱/ ۱۷۵ (۱۴۴)/ يعملون ۱/ ۱۷۸ (۱۴۷)/ الحق ۱/ ۱۷۹ (۱۴۸)/ موليها/ ۱/ ۱۸۱

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۱۶۰

فتح القدير ج‏۶ ۱۹۸

(۱۵۵)/ بشى‏ء/ ۱/ ۱۸۴ (۱۶۵)/ و لو يرى ۱/ ۱۹۱/ إذ يرون ۱/ ۱۹۱ (۱۶۸)/ خطوات ۱/ ۱۹۳ (۱۷۳)/ حرم ۱/ ۱۹۵ (۱۷۷)/ و الموفون ۱/ ۱۹۹/ و الصابرين ۱/ ۱۹۹ (۱۸۴)/ يطيقونه ۱/ ۲۰۸/ مسكين ۱/ ۲۰۸/ تطوع ۱/ ۲۰۸ (۱۷۸)/ و ابتغوا/ ۱/ ۲۱۴ (۱۸۹)/ و الحج ۱/ ۲۱۸/ البيوت ۱/ ۲۱۸ (۱۹۶)/ و سبعة/ ۱/ ۲۲۶ (۱۹۷)/ فلا رفث و لا فسوق و لا جدال ۱/ ۲۳۱ (۱۹۸)/ عرفات ۱/ ۲۳۱ (۲۰۴)/ و يشهد اللّه ۱/ ۲۳۸ (۲۰۵)/ و يهلک ۱/ ۲۳۹ (۲۱۰)/ فى ظلل ۱/ ۲۴۲/ و الملائكة/ ۱/ ۲۴۲/ و قضى الأمر/ ۱/ ۲۴۲ (۲۱۲)/ زين ۱/ ۲۴۴ (۲۱۳)/ كان الناس أمة واحدة/ ۱/ ۲۴۴ (۲۱۴)/ حتى يقول ۱/ ۲۴۷ (۲۱۷)/ قتال فيه ۱/ ۲۴۹ (۲۱۹)/ كبير/ ۱/ ۲۵۴/ و إثمهما أكبر من نفعهما/ ۱/ ۲۲۵۴ (۲۲۱)/ و لا تنكحوا/ ۱/ ۲۵۷ (۲۲۲)/ يطهرن ۱/ ۲۵۹ (۲۲۶)/ يؤلون ۱/ ۲۶۶ (۲۲۸)/ قروء/ ۱/ ۲۶۹ (۲۲۹)/ إلا أن يخافا/ ۱/ ۲۷۴ (۲۳۳)/ لمن أراد أن يتم ۱/ ۲۸۱/ لا تضار/ ۱/ ۲۸۱ (۲۳۶)/ ما لم تمسوهن ۱/ ۲۸۹/ على الموسع ۱/ ۲۹۰ (۲۳۷)/ فنصف ۱/ ۲۹۱/ و أن تعفوا/ ۱/ ۲۹۲/ و لا تنسوا/ ۱/ ۲۹۲ (۲۳۸)/ و الصلاة الوسطى ۱/ ۲۹۳ (۲۴۰)/ وصية/ ۱/ ۲۹۸ (۲۴۵)/ فيضاعفه ۱/ ۳۰۰ (۲۴۶)/ نقاتل ۱/ ۳۰۳/ عسيتم ۱/ ۳۰۳ (۲۴۹)/ بنهر/ ۱/ ۳۰۴/ يطعمه ۱/ ۳۰۴ (۲۵۱)/ دفع ۱/ ۳۰۵ (۲۵۴)/ لا بيع فيه و لا خلة و لا شفاعة/ ۱/ ۳۱۰ (۲۵۸)/ أنا أحيى ۱/ ۳۱۸/ فبهت ۱/ ۳۱۸ (۲۵۹)/ كم لبثت ۱/ ۳۲۰/ فانظر إلى طعامک و شرابک لم يتسنه ۱/ ۳۲۰/ ننشزها/ ۱/ ۳۲۱/ أعلم ۱/ ۳۲۱

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۱۶۱

(۲۶۵)/ بربوة/ ۱/ ۳۲۸/ أكلها/ ۱/ ۳۲۸/ تعملون ۱/ ۳۲۸ (۲۶۷)/ و لا تيمموا/ ۱/ ۳۳۱/ تغمضوا/ ۱/ ۳۳۲ (۲۶۸)/ الفقر/ ۱/ ۳۳۲ (۲۶۹)/ يؤت ۱/ ۳۳۲ (۲۷۱)/ فنعما/ ۱/ ۳۳۳/ يكفر/ ۱/ ۳۳۳ (۲۷۳)/ يحسبهم ۱/ ۳۳۶ (۲۷۵)/ لا يقومون إلا .../ ۱/ ۳۳۸ (۲۷۹)/ فأذنوا/ ۱/ ۳۴۱ (۲۸۰)/ ذو عسرة/ ۱/ ۳۴۲/ ميسرة/ ۱/ ۳۴۲ (۲۸۱)/ ترجعون ۱/ ۳۴۲ (۲۸۲)/ أن تضل ۱/ ۳۴۶/ فتذكر/ ۱/ ۳۴۶/ و لا يضار/ ۱/ ۳۴۷ (۲۸۳)/ كاتبا/ ۱/ ۳۴۸/ فرهان ۱/ ۳۴۸/ اؤتمن ۱/ ۳۴۸ (۲۸۴)/ يحاسبكم ۱/ ۳۵۱/ فيغفر ... و يعذب ۱/ ۳۵۱ (۲۸۵)/ و رسله ۱/ ۳۵۲/ لا نفرق ۱/ ۳۵۲

سورة آل عمران (۳)

(۱ - ۲)/ الم. اللّه ۱/ ۳۵۷ (۱۰)/ لن تغنى ۱/ ۳۶۸/ وقود/ ۱/ ۳۶۸ (۱۳)/ فئة/ ۱/ ۳۶۹/ رأى العين ۱/ ۳۶۹ (۱۴)/ زين ۱/ ۳۷۱ (۱۸)/ شهد اللّه ۱/ ۳۷۳/ أنه ۱/ ۳۷۳/ قائما بالقسط/ ۱/ ۳۷۴ (۱۹)/ إن الدين ۱/ ۳۷۴ (۳۱)/ فاتبعونى ۱/ ۳۸۲ (۳۶)/ وضعت ۱/ ۳۸۴ (۳۷)/ و كفلها/ ۱/ ۳۸۵/ زكريا/ ۱/ ۳۸۵ (۳۹)/ فنادته ۱/ ۳۸۶/ يبشرك ۱/ ۳۸۶ (۴۹)/ أنى ۱/ ۳۹۲/ كهيئة الطير/ ۱/ ۳۹۲ (۵۷)/ فيوفيهم ۱/ ۳۹۶ (۶۴)/ كلمة سواء بيننا/ ۱/ ۳۹۹ (۶۶)/ ها أنتم ۱/ ۴۰۰ (۷۳)/ أن يؤتى ۱/ ۴۰۳ (۷۵)/ تأمنه ۱/ ۴۰۴/ لا يؤده ۱/ ۴۰۵ (۷۸)/ يلوون ۱/ ۴۰۶ (۷۹)/ تعلمون ۱/ ۴۰۷ (۸۰)/ و لا يأمركم ۱/ ۴۰۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۶۲

(۸۱)/ لما آتيتكم ۱/ ۴۰۸ (۸۳)/ يبغون ۱/ ۴۰۹/ يرجعون ۱/ ۴۰۹ (۹۲)/ حتى تنفقوا مما تحبون ۱/ ۴۱۳ (۹۹)/ تصدون ۱/ ۴۲۰ (۱۰۴)/ و لتكن ۱/ ۴۲۳ (۱۲۰)/ لا يضركم ۱/ ۴۳۱ (۱۲۵)/ مسومين ۱/ ۴۳۳ (۱۳۳)/ سارعوا/ ۱/ ۴۳۶ (۱۴۰)/ قرح ۱/ ۴۴۰ (۱۴۲)/ و يعلم ۱/ ۴۴۱ (۱۴۳)/ من قبل أن تلقوه ۱/ ۴۴۱ (۱۴۶)/ كأين ۱/ ۴۴۲/ قاتل ۱/ ۴۴۳/ وهنوا/ ۱/ ۴۴۳ (۱۵۱)/ بل اللّه ۱/ ۴۴۵/ سنلقى ۱/ ۴۴۵/ الرعب ۱/ ۴۴۵ (۱۵۲)/ ليبتليكم ۱/ ۴۴۶ (۱۵۳)/ تصعدون ۱/ ۴۴۶/ تلوون ۱/ ۴۴۷ (۱۵۴)/ أمنة/ ۱/ ۴۴۸/ يغشى ۱/ ۴۴۸ (۱۵۷)/ يجمعون ۱/ ۴۵۰ (۱۶۴)/ من أنفسهم ۱/ ۴۵۲ (۱۷۰)/ فرحين ۱/ ۴۵۷ (۱۷۱)/ و أنّ اللّه ۱/ ۴۵۸ (۱۷۶)/ و لا يحزنك ۱/ ۲۴۶۱ (۱۷۸)/ و لا يحسبن ۱/ ۴۶۲ (۱۸۰)/ و لا يحسبن ۱/ ۴۶۳ (۱۸۱)/ سنكتب ۱/ ۴۶۵ (۱۸۵)/ ذائقة الموت ۱/ ۴۶۷ (۱۸۷)/ لتبيننه ۱/ ۴۶۸ (۱۸۸)/ لا تحسبن ۱/ ۴۶۸ (۱۹۵)/ أنى ۱/ ۴۷۳/ و قتلوا/ ۱/ ۴۷۳ (۱۹۸)/ لكن ۱/ ۴۷۵/ نزلا/ ۱/ ۴۷۵

سورة النساء (۴)

(۱)/ تساءلون ۱/ ۴۷۹/ و الأرحام ۱/ ۴۸۰ (۳)/ تقسطوا/ ۱/ ۴۸۲/ فانكحوا ما طاب ۱/ ۴۸۲ (۴)/ صدقاتهن ۱/ ۴۸۲ (۵)/ قياما/ ۱/ ۴۸۹ (۶)/ رشدا/ ۱/ ۴۹۰ (۱۰)/ و سيصلون ۱/ ۴۹۴ (۱۱)/ واحدة/ ۱/ ۴۹۷/ يوصى ۱/ ۴۹۸ (۱۲)/ وصية من اللّه ۱/ ۵۰۱ (۱۳)/ يدخله ۱/ ۵۰۱ (۱۶)/ و اللذان ۱/ ۵۰۴ (۱۹)/ مبينة/ ۱/ ۵۰۸ (۲۴)/ و أحل ۱/ ۵۱۷ (۲۵)/ محصنات ۱/ ۵۱۹/ فإذا أحصن ۱/ ۵۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۶۳

(۳۰)/ نصليه ۱/ ۵۲۷ (۳۱)/ مدخلا/ ۱/ ۵۲۸ (۳۳)/ و الذين عقدت ۱/ ۵۳۱ (۳۶)/ و الجار الجنب ۱/ ۵۳۶ (۴۰)/ حسنة/ ۱/ ۵۳۹/ يضاعفها/ ۱/ ۵۳۹ (۴۲)/ تسوى ۱/ ۵۳۹ (۴۳)/ لا مستم ۱/ ۵۴۲ (۵۶)/ نصليهم ۱/ ۵۵۴ (۶۶)/ قليل ۱/ ۵۶۰ (۷۲)/ ليبطئن ۱/ ۵۶۲ (۷۳)/ كأن لم تكن ۱/ ۵۶۲ (۸۴)/ لا تكلف ۱/ ۵۶۸ (۸۷)/ أصدق ۱/ ۵۷۰ (۸۸)/ أركسهم ۱/ ۵۷۱ (۹۲)/ إلا أن يصدقوا/ ۱/ ۵۷۵ (۹۴)/ فتبينوا/ ۱/ ۵۷۸/ مؤمنا/ ۱/ ۵۷۹ (۹۵)/ غير أولى الضرر/ ۱/ ۵۸۰ (۱۰۱)/ أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ۱/ ۵۸۶ (۱۰۴)/ تألمون ۱/ ۵۸۹ (۱۱۵)/ نوله ... نصله ۱/ ۵۹۴ (۱۱۷)/ إناثا/ ۱/ ۵۹۵ (۱۲۳)/ بأمانيكم ۱/ ۵۹۸/ و لا يجد/ ۱/ ۵۹۸ (۱۲۴)/

يدخلون ۱/ ۵۹۸ (۱۲۸)/ أن يصلحا/ ۱/ ۶۰۱ (۱۳۵)/ أولى بهما/ ۱/ ۲۶۰۴ (۱۳۶)/ نزل ۱/ ۶۰۵/ من قبل ۱/ ۶۰۷ (۱۴۲)/ كسالى ۱/ ۶۱۰ (۱۴۳)/ مذبذبين ۱/ ۶۱۰ (۱۴۸)/ إلا من ظلم ۱/ ۶۱۲ (۱۶۲)/ و المقيمين الصلاة/ ۱/ ۶۱۹ (۱۶۳)/ زبورا/ ۱/ ۶۲۰ (۱۶۴)/ و رسلا/ ۱/ ۶۲۰ (۱۶۴)/ و كلم اللّه ۱/ ۶۲۰

سورة المائدة (۵)

(۲)/ لا- يجر منّكم ۲/ ۹/ أن صدوكم ۲/ ۹ (۳)/ السبع ۲/ ۱۲/ النّصب ۲/ ۱۲ (۵)/ و المحصنات ۲/ ۱۹ (۶)/ و أرجلكم ۲/ ۲۲ (۱۳)/ قاسية/ ۲/ ۲۶ (۳۲)/ من أجل ذلك ۲/ ۳۹ (۴۱)/ لا يحزنك ۲/ ۴۷ (۴۵)/ و العين بالعين ۲/ ۵۴ (۴۷)/ و ليحكم ۲/ ۵۵ (۴۸)/ مهيمنا عليه ۲/ ۵۵ (۵۲)/ فترى ۲/ ۵۸ (۵۳)/ و يقول الذين آمنوا/ ۲/ ۵۸ (۵۴)/ من يرتد منكم ۲/ ۵۹ (۵۷)/ و الكفار/ ۲/ ۶۲ (۶۰)/ و عبد الطاغوت ۲/ ۶۳

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۶۴

(۶۷)/ رسالته ۲/ ۶۸ (۶۹)/ و الصابئون ۲/ ۷۲ (۷۱)/ ألّا تكون ۲/ ۷۲/ فعموا و صموا/ ۲/ ۷۳ (۸۹)/ عقدتم ۲/ ۸۱/ أو كسوتهم ۲/ ۸۲/ ثلاثة أيام ۲/ ۸۳ (۹۵)/ فجزاء مثل ۲/ ۸۹ (۹۶)/ و حرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما/ ۲/ ۹۰ (۱۰۵)/ لا يضركم ۲/ ۹۶ (۱۰۷)/ الأوليان ۲/ ۱۰۰ (۱۱۲)/ يستطيع ربك ۲/ ۱۰۵ (۱۱۹)/ هذا يوم ۲/ ۱۰۹

سورة الأنعام (۶)

(۱۴)/ و هو يطعم و لا يطعم ۲/ ۱۱۹ (۱۶)/ من يصرف عنه ۲/ ۱۱۹ (۱۹)/ و أوحى ۲/ ۱۲۰ (۲۲)/ نحشرهم ۲/ ۱۲۲ (۲۳)/ فتنتهم ۲/ ۱۲۳/ ربنا/ ۲/ ۱۲۳ (۲۷)/ نرد/ ۲/ ۱۲۴/ نكذب ۲/ ۱۲۴/ نكون ۲/ ۱۲۴ (۲۸)/ ردوا/ ۲/ ۱۲۴ (۳۲)/ للدار الآخرة/ ۲/ ۱۲۷ (۳۳)/ لا يكذبونك ۲/ ۱۲۷ (۳۸)/ و لا طائر/ ۲/ ۱۳۰ (۴۷)/ يهلك ۲/ ۱۳۴ (۵۴)/ أنه من عمل منكم سوءا بجهالة/ ۲/ ۱۳۷/ فأنه غفور رحيم ۲/ ۱۳۷ (۵۵)/ و لتستبين ۲/ ۱۳۷ (۵۶)/ ضللت ۲/ ۱۳۹ (۵۷)/ يقص الحق ۲/ ۱۴۰ (۵۹)/ مفاتح الغيب ۲/ ۱۴۰/ و لا رطب و لا يابس ۲/ ۱۴۰ (۶۲)/ الحق ۲/ ۱۴۲ (۶۳)/ خفية/ ۲/ ۱۴۳/ لئن أنجانا/ ۲/ ۱۴۳ (۶۴)/ ينجيكم ۲/ ۱۴۳ (۶۵)/ يلبسكم ۲/ ۱۴۴/ يذيق ۲/ ۱۴۴ (۶۶)/ و كذب به ۲/ ۱۴۵ (۷۱)/ استهوته الشياطين ۲/ ۱۴۸ (۷۳)/ فيكون ۲/ ۱۴۹/ ينفخ ۲/ ۱۴۹/ عالم ۲/ ۱۴۹ (۷۴)/ آزر/ ۲/ ۱۵۱ (۸۰)/ أتحاجونى ۲/ ۱۵۳ (۸۵)/ و إلياس ۲/ ۱۵۶ (۸۶)/ و اليسع ۲/ ۱۵۶ (۹۴)/ فرادى ۲/ ۱۶۰/ لقد تقطع بينكم ۲/ ۱۶۰ (۹۶)/ فالق الإصباح ۲/ ۱۶۳

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۱۶۵

/ و جعل الليل سكنا/ ۲/ ۱۶۳/ و الشمس و القمر حسبانا/ ۲/ ۱۶۳ (۹۸)/ فمستقر و مستودع ۲/ ۱۶۴ (۹۹)/ نخرج منه حبا/ ۲/ ۱۶۴/ و جنات ۲/ ۱۶۵/ ثمره ۲/ ۱۶۵/ و ينعه ۲/ ۱۶۵ (۱۰۰)/ شركاء الجن ۲/ ۱۶۸/ و خرقوا/ ۲/ ۱۶۸ (۱۰۵)/ درست ۲/ ۱۷۰ (۱۰۸)/ عدوا/ ۲/ ۱۷۲ (۱۰۹)/ أنها/ ۲/ ۱۷۳ (۱۱۱)/ قبلا/ ۲/ ۱۷۴ (۱۱۲)/ الإنس و الجن ۲/ ۱۷۴ (۱۱۵)/ كلمة/ ۲/ ۱۷۷ (۱۱۹)/ و قد فصل لكم ما حرم عليكم ۲/ ۱۷۸ (۱۲۲)/ أومن ۲/ ۱۸۱ (۱۲۵)/ ضيقا/ ۲/ ۱۸۲/ حرجا/ ۲/ ۱۸۲/ يصعد/ ۲/ ۱۸۳ (۱۳۶)/ بزعمهم ۲/ ۱۸۷ (۱۳۷)/ زين ۲/ ۱۸۸/ شركاؤهم ۲/ ۱۸۸ و ۱۸۹ (۱۳۸)/ حجر/ ۲/ ۱۹۰ (۱۳۹)/ خالصة/ ۲/ ۱۹۰/ يكن ۲/ ۱۹۰ (۱۴۳)/ الضأن ۲/ ۱۹۴/ اثنين ۲/ ۱۹۴/ المعز/ ۲/ ۱۹۴ (۱۵۳)/ و أن هذا صراطى ۲/ ۲۰۳ (۱۵۴)/ أحسن ۲/ ۲۰۴ (۲۵۸)/ يوم يأتى ۲/ ۲۰۶/ لا ينفع ۲/ ۲۰۶ (۱۵۹)/ إن الذين فرقوا دينهم ۲/ ۲۰۸ (۱۶۱)/ قيما/ ۲/ ۲۱۰ (۱۶۲)/ نسكى ۲/ ۲۱۰/ محياى ۲/ ۲۱۰

سورة الأعراف (۷)

سورة الأنفال (۸)

سورة براءة- التوبة (۹)

۴۵۱ (۱۰۰)/ و الأنصار/ ۲/ ۴۵۲/ الذين اتبعوهم ۲/ ۴۵۳/ تجرى تحتها الأنهار/ ۲/ ۴۵۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۶۸

(۱۰۶)/ مرجون ۲/ ۴۵۶ (۱۰۷)/ الذين اتخذوا/ ۲/ ۴۵۸ (۱۱۰)/ تقطع ۲/ ۴۶۰ (۱۱۱)/ فيقتلون و يقتلون ۲/ ۴۶۴ (۱۱۷)/ يزيغ ۲/ ۴۷۰ (۱۱۸)/ خلفوا/ ۲/ ۴۷۰ (۱۲۰)/ ظمأ/ ۲/ ۴۷۲ (۱۲۶)/ أو لا يرون ۲/ ۴۷۵ (۱۲۹)/ العظيم ۲/ ۴۷۶

سورة يونس (۱۰)

(۱)/ الر/ ۲/ ۴۷۹ (۲)/ لسحر/ ۲/ ۴۸۱ (۵)/ ضياء/ ۲/ ۴۸۳/ يفصل ۲/ ۴۸۴ (۱۰)/ أن الحمد/ ۲/ ۴۸۶ (۱۱)/ لقضى ۲/ ۴۸۷ (۱۸)/ أتنبئون ۲/ ۴۹۲ (۱۹)/ لقضى ۲/ ۴۹۲ (۲۱)/ تمكرون ۲/ ۴۹۴ (۲۲)/ يسيركم ۲/ ۴۹۴ (۲۳)/ متاع ۲/ ۴۹۵ (۲۴)/ و ازينت ۲/ ۴۹۷ (۲۷)/ قطعا/ ۲/ ۴۹۹ (۲۸)/ شركاؤكم ۲/ ۵۰۰ (۳۰)/ تبلو/ ۲/ ۵۰۰ (۳۳)/ كلمۀ/ ۲/ ۵۰۵ (۳۵)/ يهدى ۲/ ۵۰۵ (۴۴)/ و لكن الناس ۲/ ۵۱۰ (۵۳)/ أحق ۲/ ۵۱۴ (۵۸)/ فليفرحوا/ ۲/ ۵۱۶/ يجمعون ۲/ ۵۱۶ (۶۵)/ و لا يحزنك ۲/ ۵۲۲ (۷۱)/ و شركاءكم ۲/ ۵۲۵ (۷۲)/ أجرى ۲/ ۵۲۶ (۷۹)/ ساحر/ ۲/ ۵۲۹ (۸۸)/ ليضلوا/ ۲/ ۵۳۲ (۸۹)/ و لا تتبعان ۲/ ۵۳۳ (۹۰)/ و جاوزنا/ ۲/ ۵۳۳/ أنه ۲/ ۵۳۴ (۹۲)/ ننجيك ۲/ ۵۳۴/ لمن خلفك ۲/ ۵۳۵ (۱۰۰)/ و يجعل ۲/ ۵۳۹ (۱۰۳)/ و ننجى ۲/ ۵۴۱/ ننج ۲/ ۵۴۱

سورة هود (۱۱)

(۲۵)/ إنى ۲/ ۵۵۹ (۲۸)/ فعميت ۲/ ۵۶۰ (۳۵)/ إجرامى ۲/ ۵۶۳ (۴۰)/ من كل ۲/ ۵۶۵/ و أهلك ۲/ ۵۶۶ (۴۱)/ مجراها و مرساها/ ۲/ ۵۶۶ (۴۲)/ يا بنى ۲/ ۵۶۷/ اركب معنا/ ۲/ ۵۶۷ (۴۳)/ إلا من رحم ۲/ ۵۶۷ (۵۰)/ غيره ۲/ ۵۷۲ (۶۸)/ ألا بعدا لثمود/ ۲/ ۵۷۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۶۹

(۷۷)/ سىء/ ۲/ ۵۸۲ (۷۸)/ أطهر/ ۲/ ۵۸۳ (۸۷)/ أصلاتك ۲/ ۵۸۸/ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء/ ۲/ ۵۸۸ (۱۰۵)/ يوم يأت ۲/ ۵۹۴ (۱۰۸)/ سعدوا/ ۲/ ۵۹۶ (۱۱۱)/ و إن كلا- لما/ ۲/ ۵۹۹ (۱۱۳)/ و لا تركنوا/ ۲/ ۶۰۰ (۱۱۴)/ و زلفا/ ۲/ ۶۰۳ (۱۲۳)/ يرجع ۲/ ۶۰۶

سورة يوسف (۱۲)

(۴)/ يوسف ۳/ ۷/ يا أبت ۳/ ۷ (۷)/ آيات ۳/ ۹ (۱۰)/ غيابۀ الجب ۳/ ۱۰/ يلتقطه ۳/ ۱۰ (۱۱)/ لا تأمنا/ ۳/ ۱۲ (۱۲)/ يرتع و يلعب ۳/ ۱۲ (۱۳)/ الذئب ۳/ ۱۳ (۱۷)/ نستبق ۳/ ۱۳ (۱۸)/ فصبر جميل ۳/ ۱۴ (۱۹)/ يا بشرى ۳/ ۱۶ (۲۳)/ هيت لك ۳/ ۲۰ (۲۴)/ المخلصين ۳/ ۲۲ (۲۶)/ من قبل ۳/ ۲۳ (۲۷)/ من دبر/ ۳/ ۲۳ (۳۰)/ نسوۀ/ ۳/ ۲۵/ شغفها/ ۳/ ۲۵ (۳۱)/ متكأ/ ۳/ ۲۶/ حاش للّه ۳/ ۲۷/ ما هذا بشرا/ ۳/ ۲۸ (۳۲)/ و ليكونا/ ۳/ ۲۸ (۳۳)/ السجن ۳/ ۲۸ (۳۵)/ ليسجننه ۳/ ۳۱ (۴۵)/ و ادكر/ ۳/ ۳۷/ بعد أمۀ/ ۳/ ۳۸ (۴۷)/ دأبا/ ۳/ ۳۸ (۴۹)/ يعصرون ۳/ ۳۹ (۵۹)/ بجهازهم ۳/ ۴۴ (۶۲)/ لفتيانه ۳/ ۴۵ (۶۳)/ نكتل ۳/ ۴۶ (۶۴)/ حافظا/ ۳/ ۴۶ (۷۲)/ صواع ۳/ ۵۰ (۷۷)/ سرق ۳/ ۵۵ (۸۶)/ حزنى ۳/ ۵۹ (۹۰)/ قالوا أإنك ۳/ ۶۲/ إنه من يتق و يصبر/ ۳/ ۶۲ (۱۰۵)/ الأرض ۳/ ۷۰ (۱۰۹)/ تعقلون ۳/ ۷۲ (۱۱۰)/ كذبوا/ ۳/ ۷۲/ فنجى ۳/ ۷۳ (۱۱۱)/ تصديق ۳/ ۷۳

سورة الرعد (۱۳)

(٢)/ عمد/ ٣/ ٧٧ (۴)/ و جنات ٣/ ٧٨

فتح القدير، ج۶، ص: ١٧٠

/ و زرع و نخيل صنوان و غير صنوان ٣/ ٧٨/ يسقى ٣/ ٧٩/ و نفضل ٣/ ٧٩ (۶)/ المثلات ٣/ ٨١ (١٣)/ المحال ٣/ ٨٧ (١۶)/ أم هل تستوى الظلمات و النور/ ٣/ ٨٩ (١٧)/ يوقدون ٣/ ٩٠ (٢٩)/ و حسن مآب ٣/ ٩٨ (٣١)/ أفلم ييأس ٣/ ١٠٠ (٣٣)/ زين ٣/ ١٠٢ (٣٩)/ و يثبت ٣/ ١٠۵ (۴٢)/ الكفار/ ٣/ ١٠٨

سورة إبراهيم (١۴)

(٢)/ اللّه ٣/ ١١٢ (١٩)/ خلق السموات ٣/ ١٢٣ (٢٢)/ مصرخى ٣/ ١٢۵ (٣٠)/ ليضلوا/ ٣/ ١٣١ (٣۴)/ من كلّ ٣/ ١٣٢ (٣۵)/ و اجنبنى ٣/ ١٣۴ (۴١)/ و لوالدى ٣/ ١٣۶ (۴٢)/ يؤخرهم ٣/ ١٣٨ (۴۵)/ و تبين ٣/ ١٣٩ (۴۶)/ و إن كان مكرهم ٣/ ١۴٠/ لتزول ٣/ ١۴٠ (۴٧)/ مخلف وعده رسله ٣/ ١۴٢ (۵٠)/ قطران ٣/ ١۴٣ (۵٢)/ و لينذروا/ ٣/ ١۴٣

سورة الحجر (١۵)

(٢)/ ربما/ ٣/ ١۴۵ (١۵)/ سكرت ٣/ ١۴٨ (٢٢)/ الرياح ٣/ ١۵٢ (۴٠)/ المخلصين ٣/ ١۵٨ (۴۵)/ عيون ٣/ ١۶٠ (۴۶)/ ادخلوها/ ٣/ ١۶٠ (۵۴)/ أبشرتمونى ٣/ ١۶٢/ تبشرون ٣/ ١۶٢ (۵۵)/ القانطين ٣/ ١۶٢ (۵٩)/ لمنجوهم ٣/ ١۶٢ (۶٠)/ قدرنا/ ٣/ ١۶٣

سورة النحل (١۶)

(٢)/ ينزل ٣/ ١٧٧ (٨)/ و الخيل و البغال و الحمير/ ٣/ ١٧٩ (٩)/ و منها جائر/ ٣/ ١٨٠ (١١)/ ينبت ٣/ ١٨٢ (١٢)/ و الشمس و القمر و النجوم مسخرات ٣/ ١٨٣ (٢١)/ أيان ٣/ ١٨٧ (٢۶)/ السقف ٣/ ١٨٩ (٢٧)/ شركائى ٣/ ١٨٩/ تشاقونى ٣/ ١٨٩ (٢٨)/ تتوفاهم ٣/ ١٩٢

فتح القدير، ج۶، ص: ١٧١

(٣٣)/ تأتيهم ٣/ ١٩٣ (٣٧)/ لا يهدى ٣/ ١٩۴ (۴٣)/ نوحى ٣/ ١٩٧ (۴٨)/ أو لم يروا/ ٣/ ١٩٩/ يتفيأ/ ٣/ ١٩٩ (۵٩)/ أم يدسه ٣/ ٢٠۴ (۶٢)/ الكذب ٣/ ٢٠۵/ مفرطون ٣/ ٢٠۶ (۶۶)/ نسقيكم ٣/ ٢٠٨ (۶٨)/ النحل ٣/ ٢١٠/ يعرشون ٣/ ٢١٠ (٧١)/ يجحدون ٣/ ٢١٣ (٧٢)/ يؤمنون ٣/ ٢١۴ (٧٨)/ أمهاتكم ٣/ ٢١٩ (٧٩)/ ألم يروا/ ٣/ ٢١٩ (٨٠)/ ظعنكم ٣/ ٢٢٠ (٨١)/ يتم نعمته ٣/ ٢٢١/ تسلمون ٣/ ٢٢١ (١١٢)/ و الخوف ٣/ ٢٣٩ (١١۶)/ الكذب ٣/ ٢٣٩

سورة الإسراء (١٧)

(۴)/ فى الكتاب ٣/ ٢۴٩ (۵)/ فجاسوا/ ٣/ ٢۴٩ (٧)/ ليسوءوا/ ٣/ ٢۵٠ (٩)/ و يبشر/ ٣/ ٢۵١ (١٣)/ و نخرج ٣/ ٢۵۴ (١۶)/ أمرنا/ ٣/ ٢۵۵ (١٨)/ ما نشاء/ ٣/ ٢۵٨ (٢٣)/ يبلغن ٣/ ٢۶٠ (٢۴)/ الذل ٣/ ٢۶٠ (٣١)/ خطئا/ ٣/ ٢۶۵ (٣٣)/ فلا يسرف ٣/ ٢۶۶ (٣۵)/ بالقسطاس ٣/ ٢۶٩ (٣۶)/ تقف ٣/ ٢۶٩ (٣٧)/ مرحا/ ٣/ ٢٧١ (٣٨)/ سيئه ٣/ ٢٧١ (۴١)/ صرفنا/ ٣/ ٢٧٢/ ليذكروا/ ٣/ ٢٧٢ (۴۴)/ يسبح ٣/ ٢٧۴ (۵٧)/ يدعون ٣/ ٢٨٢ (۵٩)/ مبصرة/ ٣/ ٢٨٣ (۶٩)/ فيغرقكم ٣/ ٢٩٠ (٧١)/ ندعو/ ٣/ ٢٩٢ (٧٢)/ أعمى ٣/ ٢٩٣ (٧۶)/ لا- يلبثون ٣/ ٢٩۴ (٨٢)/ و ننزل ٣/ ٣٠٠ (٨٣)/ نأى ٣/ ٣٠١ (٩٢)/ أو تسقط/ ٣/ ٣٠۶/ كسفا/ ٣/ ٣٠۶ (٩٣)/ بيت من

زخرف ۳/ ۳۰۶ (۱۰۱)/ فاسأل ۳/ ۳۱۲ (۱۰۶)/ فرقناه ۳/ ۳۱۳/ مكث ۳/ ۳۱۳

سورة الكهف (۱۸)

(۲)/ لدنه ۳/ ۳۱۹/ يبشر/ ۳/ ۳۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۷۲

(۶)/ إن لم يؤمنوا/ ۳/ ۳۲۰ (۱۷)/ تزاور/ ۳/ ۳۲۵ (۱۹)/ بورقكم ۳/ ۳۲۷ (۲۵)/ ثلاثمئة سنين ۳/ ۳۳۰/ تسعا/ ۳/ ۳۳۱ (۲۶)/ و لا يشرك ۳/ ۳۳۱ (۲۸)/ بالغداة/ ۳/ ۳۳۳ (۳۴)/ ثمر/ ۳/ ۳۳۹ (۳۶)/ خيرا منها/ ۳/ ۳۳۹ (۳۸)/ لكن هو اللّه ربى ۳/ ۳۳۹ (۴۲)/ أحيط بثمره ۳/ ۳۴۰ (۴۴)/ هنالك الولاية للّه الحق ۳/ ۳۴۲/ عقبا/ ۳/ ۳۴۲ (۴۵)/ تذروه الرياح ۳/ ۳۴۳ (۴۷)/ نسير/ ۳/ ۳۴۵ (۵۱)/ ما أشهدتهم ۳/ ۳۴۷/ عضدا/ ۳/ ۳۴۷ (۵۲)/ يقول ۳/ ۳۴۷ (۵۵)/ قبلا/ ۳/ ۳۵۰ (۵۹)/ لمهلكهم ۳/ ۳۵۱ (۶۶)/ رشدا/ ۳/ ۳۵۴ (۷۱)/ لتغرق أهلها/ ۳/ ۳۵۷ (۷۴)/ زكية/ ۳/ ۳۵۷ (۷۶)/ تصاحبنى ۳/ ۳۵۸/ لدنى ۳/ ۳۵۸/ عذرا/ ۳/ ۳۵۸ (۷۷)/ لتخذت ۳/ ۳۵۸ (۷۹)/ لمساكين ۳/ ۳۵۹/ كل سفينة غصبا/ ۳/ ۳۵۹ (۸۱)/ يبدلهما/ ۳/ ۳۵۹/ رحما/ ۳/ ۳۶۰ (۸۵)/ فأتبع ۳/ ۳۶۴ (۸۶)/ حمئة/ ۳/ ۳۶۴ (۸۸)/ فله جزاء الحسنى ۳/ ۳۶۵ (۹۳)/ السدين ۳/ ۳۶۷/ يفقهون ۳/ ۳۶۸ (۹۴)/ يأجوج و مأجوج ۳/ ۳۶۸ (۹۵)/ ما مكنى ۳/ ۳۶۹ (۹۶)/ الصدفين ۳/ ۳۶۹ (۹۷)/ فما اسطاعوا/ ۳/ ۳۷۰ (۱۰۲)/ أفحسب ۳/ ۳۷۲ (۱۰۵)/ نقيم ۳/ ۳۷۳ (۱۰۹)/ مددا/ ۳/ ۳۷۵/ تنفد/ ۳/ ۳۷۵

سورة مريم (۱۹)

(۱)/ كهيعص ۳/ ۳۷۸ (۲)/ ذكر/ ۳/ ۳۷۹ (۴)/ وهن ۳/ ۳۷۹/ و اشتعل الرأس شيبا/ ۳/ ۳۷۹ (۵)/ خفت ۳/ ۳۸۰/ الموالى ۳/ ۳۸۰/ ورائى ۳/ ۳۸۰ (۶)/ يرثني و يرث ۳/ ۳۸۰ (۸)/ عتيا/ ۳/ ۳۸۱ (۱۹)/ لأهب ۳/ ۳۸۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۷۳

(۲۳)/ المخاض ۳/ ۳۸۸/ نسيا/ ۳/ ۳۸۸ (۲۴)/ من تحتها/ ۳/ ۳۸۸ (۲۵)/ تساقط/ ۳/ ۳۸۹ (۲۶)/ ترين ۳/ ۳۸۹/ صوما/ ۳/ ۳۸۹ (۳۲)/ وبرا/ ۳/ ۳۹۲ (۳۴)/ قول الحق ۳/ ۳۹۳ (۳۶)/ و إن اللّه ۳/ ۳۹۴ (۵۴)/ مخلصا/ ۳/ ۳۹۸ (۶۰)/ يدخلون ۳/ ۴۰۱ (۶۱)/ عدن ۳/ ۴۰۱ (۶۶)/ أئذا ما مت ۳/ ۴۰۴ (۶۷)/ أو لا يذكر/ ۳/ ۴۰۵ (۷۲)/ ننجى ۳/ ۴۰۷ (۷۳)/ مقاما/ ۳/ ۴۰۹ (۷۴)/ و رئيا/ ۳/ ۴۱۰ (۸۲)/ كلا/ ۳/ ۴۱۳ (۸۸)/ ولدا/ ۳/ ۴۱۴ (۸۹)/ إدا/ ۳/ ۴۱۵ (۹۰)/ يتفطرن ۳/ ۴۱۵ (۹۳)/ آتى ۳/ ۴۱۵ (۹۶)/ ودا/ ۳/ ۴۱۷

سورة طه (۲۰)

(۱)/ طه ۳/ ۴۱۹ (۴)/ تنزيلا/ ۳/ ۴۲۱ (۱۰)/ لأهله ۳/ ۴۲۲ (۱۲)/ إنى ۳/ ۴۲۳/ طوى ۳/ ۴۲۳ (۱۳)/ اخترتك ۳/ ۴۲۳ (۱۵)/ أخفيها/ ۳/ ۴۲۴ (۱۸)/ عصاى ۳/ ۴۲۷ (۳۰)/ أخى ۳/ ۴۲۹ (۳۱)/ اشدد/ ۳/ ۴۲۹ (۳۹)/ و لتصنع ۳/ ۴۳۱ (۴۰)/ تقر/ ۳/ ۴۳۱ (۴۲)/ لا تنيا/ ۳/ ۴۳۳ (۴۵)/ أن يفرط/ ۳/ ۴۳۴ (۵۰)/ خلقه ۳/ ۴۳۵ (۵۳)/ مهدا/ ۳/ ۴۳۶ (۵۸)/ لا نخلفه ۳/ ۴۳۸/ سوى ۳/ ۴۳۸ (۵۹)/ يوم الزينة/ ۳/ ۴۳۸/ و أن يحشر/ ۳/ ۴۳۹ (۶۱)/ فيسحتكم ۳/ ۴۴۰ (۶۳)/ إن هذان لساحران ۳/ ۴۴۰ (۶۴)/ ائتوا/ ۳/ ۴۴۲ (۶۶)/ يخيل ۳/ ۴۴۲ (۶۹)/ تلقف ۳/ ۴۴۳/ ساحر/ ۳/ ۴۴۳ (۷۱)/ آمنتم له قبل أن آذن لكم ۳/ ۴۴۴ (۷۷)/ لا تخاف ۳/ ۴۴۶ (۷۸)/ فأتبعهم ۳/ ۴۴۷ (۸۰)/ و واعدناكم ۳/ ۴۴۷/ الأيمن ۳/ ۴۴۷ (۸۱)/ فيحل ۳/ ۴۴۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۷۴

/ يحلل ۳/ ۴۴۸ (۸۴)/ على أثرى ۳/ ۴۴۸ (۸۷)/ بملكنا/ ۳/ ۴۴۹/ حملنا/ ۳/ ۴۴۹ (۸۹)/ يرجع ۳/ ۴۵۰ (۹۴)/ يابن أم ۳/ ۴۵۲ (۹۶)/ بما لم يبصروا/ ۳/ ۴۵۲/ فقبضت فبضة/ ۳/ ۴۵۲ (۹۷)/ لا مساس ۳/ ۴۵۳/ لن تخلفه ۳/ ۴۵۳/ ظلت ۳/ ۴۵۳/ لنحرقنه ۳/ ۴۵۳/ لننسفنه ۳/ ۴۵۴ (۹۸)/ وسع ۳/ ۴۵۴ (۱۰۲)/ ينفخ ۳/ ۴۵۵/ الصور/ ۳/ ۴۵۵/ و نحشر/ ۳/ ۴۵۵ (۱۱۴)/ يقضى ۳/ ۴۵۹ (۱۱۵)/ فنسى ۳/ ۴۵۹ (۱۱۹)/ و أنك ۳/ ۴۶۰ (۱۲۴)/ ضنكا/ ۳/ ۴۶۲ (۱۲۸)/ يهد/ ۳/ ۴۶۴ (۱۳۰)/ ترضى ۳/ ۴۶۵ (۱۳۳)/ أولم تأتهم ۳/ ۴۶۶ (۱۳۵)/ السوى ۳/ ۴۶۶

سورة الأنبياء (۲۱)

(۳)/ لاهية/ ۳/ ۴۶۹ (۴)/ قل ربى ۳/ ۴۷۰ (۷)/ نوحى ۳/ ۴۷۱ (۲۴)/ الحق ۳/ ۴۷۶ (۲۵)/ نوحى إليه ۳/ ۴۷۶ (۲۷)/ لا يسبقونه ۳/ ۴۷۸ (۳۴)/ مت ۳/ ۴۷۹ (۴۵)/ و لا يسمع ۳/ ۴۸۴/ ينذرون ۳/ ۴۸۴ (۴۷)/ مثقال ۳/ ۴۸۵/ أتينا/ ۳/ ۴۸۵ (۴۸)/ ضياء/ ۳/ ۴۸۵ (۵۸)/ جذاذا/ ۳/ ۴۸۸ (۶۳)/ فعله ۳/ ۴۸۹ (۶۵)/ نكسوا/ ۳/ ۴۸۹ (۸۱)/ الريح ۳/ ۴۹۵ (۸۷)/ نقدر/ ۳/ ۴۹۶ (۸۸)/ ننجى ۳/ ۴۹۷ (۹۰)/ يدعوننا/ ۳/ ۵۰۲/ رغبا و رهبا/ ۳/ ۵۰۲ (۹۲)/ أمتكم ۳/ ۵۰۲ (۹۴)/ فلا كفران لسعيه ۳/ ۵۰۳ (۹۵)/ و حرام ۳/ ۵۰۳ (۹۶)/ ينسلون ۳/ ۵۰۴ (۹۸)/ حصب ۳/ ۵۰۶ (۱۰۳)/ لا يحزنهم ۳/ ۵۰۷ (۱۰۴)/ نطوى ۳/ ۵۰۷/ السجل ۳/ ۵۰۷/ للكتب ۳/ ۵۰۷ (۱۰۶)/ عبادى ۳/ ۵۰۸ (۱۱۲)/ ربّ ۳/ ۵۰۹/ ما تصفون ۳/ ۵۱۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۷۵

سورة الحج (۲۲)

(۲)/ و ترى ۳/ ۵۱۴/ سكارى ۳/ ۵۱۴ (۵)/ البعث ۳/ ۵۱۵/ لنبين ... نقر ... نخرجكم ۳/ ۵۱۶/ ما نشاء/ ۳/ ۵۱۶/ يتوفى ۳/ ۵۱۶/ ربت ۳/ ۵۱۶ (۱۱)/ خسر/ ۳/ ۵۲۰ (۱۳)/ لمن ۳/ ۵۲۱ (۱۵)/ ثم ليقطع ۳/ ۵۲۲ (۱۹)/ هذان ۳/ ۵۲۵/ قطعت ۳/ ۵۲۵ (۲۳)/ يحلون ۳/ ۵۲۵/ و لؤلؤا/ ۳/ ۵۲۵ (۲۵)/ سواء/ ۳/ ۵۲۸ (۲۷)/ و أذن ۳/ ۵۳۰/ بالحج ۳/ ۵۳۰/ رجالا/ ۳/ ۵۳۰/ يأتين ۳/ ۵۳۰ (۳۱)/ فتخطفه ۳/ ۵۳۴ (۳۵)/ و المقيمى الصلاة/ ۳/ ۵۳۵ (۳۶)/ و البدن ۳/ ۵۳۷/ صواف ۳/ ۵۳۷/ و المعتر/ ۳/ ۵۳۸ (۳۸)/ يدافع ۳/ ۵۴۰ (۳۹)/ أذن ۳/ ۵۴۰ (۴۰)/ و لو لا دفع ۳/ ۵۴۰/ لهدمت ۳/ ۵۴۱ (۴۵)/ أهلكناها/ ۳/ ۵۴۲ (۴۷)/ تعدون ۳/ ۵۴۴ (۵۵)/ مرية/ ۳/ ۵۴۷ (۵۸)/ قتلوا/ ۳/ ۵۴۹ (۵۹)/ مدخلا/ ۳/ ۵۴۹ (۶۲)/ ما يدعون ۳/ ۵۵۰ (۶۵)/ و الفلك ۳/ ۵۵۱

سورة المؤمنون (۲۳)

(۱)/ أفلح ۳/ ۵۶۰ (۸)/ أماناتهم ۳/ ۵۶۱ (۹)/ صلواتهم ۳/ ۵۶۲ (۲۰)/ سيناء/ ۳/ ۵۶۶/ تنبت ۳/ ۵۶۷/ و صبغ ۳/ ۵۶۷ (۲۹)/ منزلا/ ۳/ ۵۷۰ (۴۴)/ تترى ۳/ ۵۷۳ (۵۶)/ نسارع ۳/ ۵۷۶ (۶۱)/ يسارعون ۳/ ۵۷۸ (۶۷)/ سامرا/ ۳/ ۵۸۰/ تهجرون ۳/ ۵۸۱ (۷۱)/ و من فيهن ۳/ ۵۸۳/ أتيناهم ۳/ ۵۸۳/ بذكرهم ۳/ ۵۸۳ (۷۲)/ فرجا/ ۳/ ۵۸۴ (۷۷)/ مبلسون ۳/ ۵۸۵ (۸۵)/ سيقولون للّه ۳/ ۵۸۶ (۹۲)/ عالم ۳/ ۵۸۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۷۶

(۱۰۱)/ الصور/ ۳/ ۵۹۰ (۱۰۶)/ شقوتنا/ ۳/ ۵۹۰ (۱۰۹)/ إنه كان فريق ۳/ ۵۹۱ (۱۱۰)/ سخريا/ ۳/ ۵۹۱ (۱۱۱)/ أنهم ۳/ ۵۹۱

(۱۱۴)/ قال ۳/ ۵۹۲ (۱۱۷)/ لا یفلح ۳/ ۵۹۲

سورة النور (۲۴)

(۱)/ سورة/ ۴/ ۵ (۲)/ الزانیة و الزانی ۴/ ۶/ رأفة/ ۴/ ۷ (۴)/ المحصنات ۴/ ۱۰/ بأربعة شهداء/ ۴/ ۱۰ (۶)/ أربع ۴/ ۱۲ (۷)/ و الخامسة/ ۴/ ۱۲ (۱۱)/ کبره ۴/ ۱۵ (۱۵)/ تلقونه ۴/ ۱۶ (۲۱)/ خطوات ۴/ ۱۷/ ما زکی ۴/ ۱۸ (۲۲)/ أن یؤتوا/ ۴/ ۲۰ (۲۴)/ تشهد/ ۴/ ۲۱ (۲۵)/ الحق ۴/ ۲۱ (۲۷)/ تستأنسوا/ ۴/ ۲۳ (۳۱)/ و لیضربن ۴/ ۲۷/ بخمرهن ۴/ ۲۸/ جیوبهن ۴/ ۲۸/ أو الطفل ۴/ ۲۹/ عورات ۴/ ۲۹ (۳۲)/ عبادکم ۴/ ۳۳ (۳۵)/ دری ۴/ ۳۹/ یوقد/ ۴/ ۳۹/ تمسسه ۴/ ۴۰ (۳۶)/ یسبح ۴/ ۴۱ (۳۹)/ بقیعة/ ۴/ ۴۶ (۴۳)/ یؤلف ۴/ ۴۸/ خلاله ۴/ ۴۹/ سنا برقه ۴/ ۵۰/ یذهب ۴/ ۵۰ (۵۱)/ قول ۴/ ۵۳ (۵۲)/ و یتقه ۴/ ۵۴ (۵۴)/ تولوا/ ۴/ ۵۵ (۵۵)/ استخلف ۴/ ۵۵/ و لیبدلنهم ۴/ ۵۶ (۵۷)/ لا تحسبن ۴/ ۵۶ (۵۸)/ الحلم ۴/ ۵۹/ ثلاث عورات ۴/ ۵۹/ طوافون ۴/ ۶۰ (۵۹)/ الحلم ۴/ ۶۱ (۶۰)/ أن یضعن ثیابهن ۴/ ۶۱/ و أن یستعففن ۴/ ۶۱ (۶۱)/ ملکتم ۴/ ۶۲/ مفاتحه ۴/ ۶۲ (۶۳)/ لواذا/ ۴/ ۶۸

سورة الفرقان (۲۵)

(۷)/ فیکون ۴/ ۷۴ (۸)/ یأکل ۴/ ۷۴

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۷۷

(۱۰)/ یجعل ۴/ ۷۴ (۱۷)/ یحشرهم ۴/ ۷۸/ فیقول ۴/ ۷۸ (۱۸)/ ینبغی ۴/ ۷۸/ نتخذ/ ۴/ ۷۸ (۱)/ کذبوکم ۴/ ۷۹/ بما تقولون ۴/ ۷۹/ تستطیعون ۴/ ۷۹/ نذقه ۴/ ۷۹ (۲۰)/ و یمشون ۴/ ۷۹ (۲۵)/ تشقق ۴/ ۸۳/ و نزل ۴/ ۸۳ (۲۸)/ یا ویلتا/ ۴/ ۸۴ (۳۲)/ لنثبت ۴/ ۸۵ (۴۰)/ السوء/ ۴/ ۸۹ (۴۸)/ بشرا/ ۴/ ۹۳ (۴۹)/ نسقیه مما/ ۴/ ۹۴ (۵۰)/ صرفناه ۴/ ۹۴/ لیذکروا/ ۴/ ۹۴ (۵۹)/ الرحمن ۴/ ۹۸ (۶۰)/ تأمرنا/ ۴/ ۹۸ (۶۱)/ سراجا/ ۴/ ۹۹/ و قمرا/ ۴/ ۹۹ (۶۲)/ یذکر/ ۴/ ۹۹ (۶۷)/ یقتروا/ ۴/ ۱۰۰/ قواما/ ۴/ ۱۰۱ (۶۸)/ یلق ۴/ ۱۰۲ (۶۹)/ یضاعف ۴/ ۱۰۲/ و یخلد/ ۴/ ۱۰۲ (۷۴)/ و ذریاتنا/ ۴/ ۱۰۴ (۷۵)/ و یلقون ۴/ ۱۰۵ (۷۷)/ فقد کذبتم ۴/ ۱۰۵/ لزاما/ ۴/ ۱۰۶

سورة الشعراء (۲۶)

(۱)/ طسم ۴/ ۱۰۸ (۳)/ باخع نفسک ۴/ ۱۰۹ (۱۱)/ ألا یتقون ۴/ ۱۱۱ (۱۳)/ یضیق ... ینطلق ۴/ ۱۱۱ (۱۹)/ فعلتک ۴/ ۱۱۲ (۵۶)/ حاذرون ۴/ ۱۱۷ (۶۰)/ فأتبعوهم ۴/ ۱۱۸ (۶۱)/ تراءی ۴/ ۱۱۸/ أدرکه ۴/ ۱۱۸ (۱۱۳)/ تشعرون ۴/ ۱۲۶ (۱۲۹)/ تخلدون ۴/ ۱۲۸ (۱۳۶)/ أوعظت ۴/ ۱۲۹ (۱۳۷)/ خلق ۴/ ۱۲۹ (۱۴۹)/ فارهین ۴/ ۱۳۰ (۱۷۶)/ الأیکة/ ۴/ ۱۳۲ (۱۸۲)/ بالقسطاس ۴/ ۱۳۳ (۱۹۳)/ نزل ۴/ ۱۳۵ (۱۹۷)/ یکن ۴/ ۱۳۶ (۱۹۸)/ الأعجمین ۴/ ۱۳۶ (۲۰۲)/ فیأتیهم ۴/ ۱۳۷ (۲۱۰)/ و ما تنزلت به الشیاطین ۴/ ۱۳۸

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۷۸

(۲۲۴)/ و الشعراء/ ۴/ ۱۴۰ (۲۲۷)/ أی منقلب ینقلبون ۴/ ۱۴۱

سورة النمل (۲۷)

(۱)/ و كتاب مبين ۴/ ۱۴۴ (۷)/ بشهاب قبس ۴/ ۱۴۶ (۸)/ بورك من فى النـار/ ۴/ ۱۴۶ (۱۳)/ مبصرة/ ۴/ ۱۴۸ (۱۸)/ نملة/ ۴/ ۱۵۱/ مساكنكم ۴/ ۱۵۱/ لا يحطمنكم ۴/ ۱۵۱ (۱۹)/ ضاحكا/ ۴/ ۱۵۱ (۲۰)/ ما لى ۴/ ۱۵۲ (۲۱)/ ليأتينى ۴/ ۱۵۳ (۲۲)/ سبأ/ ۴/ ۱۵۳ (۲۵)/ ألا يسـجدوا/ ۴/ ۱۵۴/ الخبء/ ۴/ ۱۵۵/ مـا تخفون و ما تعلنون ۴/ ۱۵۵ (۲۶)/ اللّه لاـ إله إلا هو رب ۴/ ۱۵۵ (۲۸)/ فألقه ۴/ ۱۵۷ (۳۰)/ إنه من سليمان و إنه بسم اللّه ۴/ ۱۵۸ (۳۶)/ فلما جاء سليمان ۴/ ۱۵۹/ أتمدونن ۴/ ۱۵۹ (۳۷)/ ارجع ۴/ ۱۵۹ (۳۹)/ عفريت ۴/ ۱۶۰ (۴۳)/ إنها/ ۴/ ۱۶۳ (۴۹)/ لنقولن ۴/ ۱۶۵/ مهلك ۴/ ۱۶۶ (۵۱)/ أنا/ ۴/ ۱۶۶ (۵۲)/ خاوية/ ۴/ ۱۶۶ (۵۶)/ جواب ۴/ ۱۶۷ (۵۹)/ يشركون ۴/ ۱۶۸ (۶۰)/ أمن ۴/ ۱۶۸/ أإله مع اللّه ۴/ ۱۶۸ (۶۲)/ تذكرون ۴/ ۱۶۹ (۶۶)/ بل ادارك ۴/ ۱۷۰ (۶۷)/ أئذا/ ۴/ ۱۷۲/ أئنا/ ۴/ ۱۷۲ (۷۲)/ ردف ۴/ ۱۷۳ (۷۸)/ بحكمه ۴/ ۱۷۳ (۸۰)/ لا تسمع ۴/ ۱۷۴ (۸۱)/ بهادى العمى ۴/ ۱۷۴ (۸۲)/ تكلمهم ۴/ ۱۷۵/ أن ۴/ ۱۷۵ (۸۷)/ أتوه ۴/ ۱۷۸/ داخرين ۴/ ۱۷۸ (۸۸)/ تحسبها/ ۴/ ۱۷۹ (۸۹)/ فزع يومئذ/ ۴/ ۱۷۹ (۹۱)/ الذى حرمها/ ۴/ ۱۷۹ (۹۲)/ و أن أتلو/ ۴/ ۱۸۰ (۹۳)/ تعملون ۴/ ۱۸۰

سورة القصص (۲۸)

(۶)/ و نمكن ۴/ ۱۸۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۷۹

/ و نرى ۴/ ۱۸۳ (۷)/ أن ۴/ ۱۸۴ (۸)/ حزنا/ ۴/ ۱۸۴ (۱۰)/ فارغا/ ۴/ ۱۸۵ (۱۱)/ فبصرت ۴/ ۱۸۶/ عـن جنب ۴/ ۱۸۶ (۱۵)/ فوكزه ۴/ ۱۸۸ (۱۷)/ فلن أكـون ظهيرا للمجرمين ۴/ ۱۹۰ (۲۳)/ يصدر/ ۴/ ۱۹۲/ الرعاء/ ۴/ ۱۹۲ (۲۸)/ أيما الأجلين قضيت ۴/ ۱۹۵/ عدوان ۴/ ۱۹۵ (۲۹)/ جذوة/ ۴/ ۱۹۶ (۳۰)/ البقعة/ ۴/ ۱۹۶/ إنى ۴/ ۱۹۶ (۳۲)/ الرهب ۴/ ۱۹۷/ فذانك برهانان ۴/ ۱۹۷ (۳۴)/ ردءا/ ۴/ ۱۹۹/ يصدقنى ۴/ ۱۹۹ (۳۵)/ عضدا/ ۴/ ۲۰۰ (۳۷)/ و قال موسى ۴/ ۲۰۰/ و من تكون ۴/ ۲۰۰ (۳۹)/ لا يرجعون ۴/ ۲۰۰ (۴۸)/ ساحران ۴/ ۲۰۵ (۵۱)/ وصلنا/ ۴/ ۲۰۵ (۵۷)/ نتخطف ۴/ ۲۰۶/ يجبى ۴/ ۲۰۷/ ثمرات ۴/ ۲۰۷ (۶۰)/ تعقلون ۴/ ۲۰۹ (۶۱)/ متاع ۴/ ۲۰۹ (۶۶)/ فعميت ۴/ ۲۱۰ (۶۹)/ تكن ۴/ ۲۱۱ (۷۶)/ لتنوء/ ۴/ ۲۱۵ (۸۲)/ لخسف بنا/ ۴/ ۲۱۷ (۸۷)/ و لا يصدنك ۴/ ۲۱۷

سورة العنكبوت (۲۹)

(۳)/ فليعلمن ۴/ ۲۲۲ (۸)/ حسنا/ ۴/ ۲۲۳ (۱۶)/ و إبراهيم ۴/ ۲۲۷ (۱۷)/ تخلقون ۴/ ۲۲۷/ إفكا/ ۴/ ۲۲۷ (۱۹)/ أولم يروا/ ۴/ ۲۲۸ (۲۰)/ النشأة/ ۴/ ۲۲۸ (۲۴)/ جـواب قومه ۴/ ۲۲۹ (۲۵)/ مـودة بينكم ۴/ ۲۲۹ (۲۹)/ أئنكم ۴/ ۲۳۲ (۳۲)/ لننجينه ۴/ ۲۳۳ (۳۳)/ منجوك ۴/ ۲۳۳ (۳۴)/ منزلون ۴/ ۲۳۳ (۴۲)/ يدعون ۴/ ۲۳۶ (۴۹)/ بـل هو آيات بينات ۴/ ۲۳۹ (۵۰)/ لو لاـ أنزل عليه آيات ۴/ ۲۴۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۰

(۵۵)/ و يقول ۴/ ۲۴۱ (۵۶)/ يا عبادى ۴/ ۲۴۳ (۶۶)/ و ليتمتعوا/ ۴/ ۲۴۴

سورة الروم (۳۰)

(۲)/ غلبـت الروم ۴/ ۲۴۶ (۳)/ من بعـد غلبهم ۴/ ۲۴۷/ سيغلبون ۴/ ۲۴۷ (۴)/ من قبل و من بعـد/ ۴/ ۲۴۷ (۱۰)/ عاقبة/ ۴/ ۲۴۸

(١١)/ ترجعون ۴/ ٢٥١ (١٢)/ يبلس ۴/ ٢٥١ (١٧)/ حين تمسون و حين تصبحون ۴/ ٢٥٢ (١٩)/ تخرجون ۴/ ٢٥٢ (٢٢)/ للعالمين ۴/ ٢٥٣ (٢٥)/ تخرجون ۴/ ٢٥۴ (٢٧)/ و هو أهون عليه ۴/ ٢٥٥ (٢٨)/ أنفسكم ۴/ ٢٥٧ (٣٢)/ فرقوا/ ۴/ ٢٥٩ (٣۴)/ فتمتعوا/ ۴/ ٢۶٠ (٣۶)/ يقنطون ۴/ ٢۶٠ (٣٩)/ آتيتم ۴/ ٢۶٢/ ليربو/ ۴/ ٢۶٢/ المضعفون ۴/ ٢۶٢ (۴۶)/ الرياح ۴/ ٢۶۴ (۴٨)/ الرياح ۴/ ٢۶٥/ خلاله ۴/ ٢۶۶ (٥٠)/ آثار/ ۴/ ٢۶۶/ يحيى ۴/ ٢۶۶ (٥۴)/ ضعف ۴/ ٢۶٧ (٥٧)/ لا ـ ينفع ۴/ ٢۶٧ (۶٠)/ و لا يستخفنك ۴/ ٢۶٨

سورة لقمان (٣١)

(٣)/ و رحمة/ ۴/ ٢۶٩ (۶)/ ليضل ۴/ ٢٧٠ (١٣)/ يا بنى ۴/ ٢٧٣ (١۴)/ و فصاله ۴/ ٢٧۴ (١۶)/ إن تك ۴/ ٢٧٥/ مثقال ۴/ ٢٧٥/ فتكن ۴/ ٢٧٥ (١٨)/ و لا تصعر/ ۴/ ٢٧٥ (٢٠)/ و أسبغ ۴/ ٢٧٧ (٢٢)/ يسلم ۴/ ٢٧٨ (٢٩)/ تعملون ۴/ ٢٨١ (٣١)/ بنعمة اللّه ۴/ ٢٨١ (٣٢)/ موج كالظلل ۴/ ٢٨١ (٣٣)/ الغرور/ ۴/ ٢٨٢ (٣۴)/ و ينزل الغيث ۴/ ٢٨٢/ بأى ۴/ ٢٨٢

سورة السجدة (٣٢)

(٥)/ يعرج ۴/ ٢٨٧ (٧)/ خلقه ۴/ ٢٨٨/ و بدأ/ ۴/ ٢٨٩ (١٠)/ ضللنا/ ۴/ ٢٨٩ (١٧)/ ما أخفى ۴/ ٢٩٣

فتح القدير، ج‌۶، ص: ١٨١

/ قرة/ ۴/ ٢٩٣ (١٩)/ جنات ۴/ ٢٩٣/ نزلا/ ۴/ ٢٩٣ (٢۴)/ أئمة/ ۴/ ٢٩۶/ لما/ ۴/ ٢٩٧ (٢۶)/ أو لم يهد/ ۴/ ٢٩٧

سورة الأحزاب (٣٣)

(٢)/ تعملون ۴/ ٣٠٠ (۴)/ اللائى ۴/ ٣٠٠/ تظاهرون ۴/ ٣٠٠ (١٠)/ الظنونا/ ۴/ ٣٠۶ (١١)/ زلزلوا/ ۴/ ٣٠۶ (١٣)/ عورة/ ۴/ ٣٠٧ (١۴)/ لأتوها/ ۴/ ٣٠٧ (١۶)/ لا تمتعون ۴/ ٣٠٨ (١٩)/ أشحة/ ۴/ ٣١١ (٢١)/ أسوة/ ۴/ ٣١١ (٢۶)/ تقتلون ۴/ ٣١۶/ تأسرون ۴/ ٣١۶ (٢٧)/ تطؤوها/ ۴/ ٣١۶ (٢٨)/ أمتعكن و أسرحكن ۴/ ٣١٧ (٣٠)/ يضاعف ۴/ ٣١٨/ مبينة/ ۴/ ٣١٨ (٣١)/ يقنت ۴/ ٣١٨/ نؤتها/ ۴/ ٣١٨ (٣٢)/ فيطمع ۴/ ٣١٩ (٣٣)/ و قرن ۴/ ٣٢٠ (٣۶)/ أن يكون ۴/ ٣٢۶/ الخيرة/ ۴/ ٣٢۶ (٣٧)/ زوجناكها/ ۴/ ٣٢٨ (۴٠)/ رسول ۴/ ٣٢٨ (۴٩)/ تعتدونها/ ۴/ ٣٣۴ (٥٠)/ و امرأة/ ۴/ ٣٣۶/ إن وهبت ۴/ ٣٣۶/ خالصة/ ۴/ ٣٣۶ (٥١)/ ترجى ۴/ ٣٣۶/ تقر/ ۴/ ٣٣٧/ كلهن ۴/ ٣٣٧ (٥٣)/ فيستحى ۴/ ٣۴٢ (٥۶)/ و ملائكته ۴/ ٣۴٥ (۶۶)/ تقلب ۴/ ٣٥١ (۶٧)/ سادتنا/ ۴/ ٣٥٢ (۶٨)/ كبيرا/ ۴/ ٣٥٢ (۶٩)/ و كان عند اللّه ۴/ ٣٥٣

سورة سبأ (٣۴)

(٢)/ ينزل ۴/ ٣٥٨ (٣)/ لتأتينكم ۴/ ٣٥٨/ عالم الغيب ۴/ ٣٥٨/ لا يعزب ۴/ ٣٥٨/ و لا أصغر .. و لا أكبر/ ۴/ ٣٥٨ (٥)/ معاجزين ۴/ ٣٥٩ (۶)/ الحق ۴/ ٣٥٩ (٩)/ إن نشأ/ ۴/ ٣۶٠

فتح القدير، ج‌۶، ص: ١٨٢

/ نخسف ۴/ ٣۶٠/ كسفا/ ۴/ ٣۶٠ (١٠)/ أوبى ۴/ ٣۶٢/ و الطير/ ۴/ ٣۶٢ (١٢)/ الريح ۴/ ٣۶٣ (١۴)/ الأرض ۴/ ٣۶۴/ منسأته ۴/ ٣۶۴/ تبينت ۴/ ٣۶٥ (١٥)/ لسبأ/ ۴/ ٣۶۶/ فى مساكنهم ۴/ ٣۶٧ (١۶)/ أكل ۴/ ٣۶٨/ خمط/ ۴/ ٣۶٨/ نجازى ۴/ ٣۶٨ (١٩)/ ربنا/

/۴ ۳۶۹/ باعد/ ۴/ ۳۶۹/ بين ۴/ ۳۷۰ (۲۰)/ صدق ۴/ ۳۷۰/ ظنه ۴/ ۳۷۰ (۲۳)/ أذن ۴/ ۳۷۲/ فزع ۴/ ۳۷۲ (۳۰)/ ميعاد يوم ۴/ ۳۷۶ (۳۳)/ مكر/ ۴/ ۳۷۷ (۳۷)/ جزاء الضعف ۴/ ۳۷۹/ فى الغرفات ۴/ ۳۷۹ (۴۸)/ علام ۴/ ۳۸۳ (۵۰)/ ضللت ۴/ ۳۸۴ (۵۲)/ التناوش /۴ ۳۸۵ (۵۳)/ و يقذفون ۴/ ۳۸۵

سورة فاطر (۳۵)

(۱)/ فاطر/ ۴/ ۳۸۷/ جاعل ۴/ ۳۸۷/ رسلا/ ۴/ ۳۸۷ (۳)/ غير/ ۴/ ۳۸۸ (۴)/ ترجع ۴/ ۳۸۸ (۵)/ الغرور/ ۴/ ۳۸۹ (۸)/ نفسك ۴/ ۳۸۹/ حسرات ۴/ ۳۸۹ (۹)/ الرياح ۴/ ۳۹۰ (۱۰)/ يصعد/ ۴/ ۳۹۱/ و الكلم الطيب ۴/ ۳۹۱ (۱۱)/ و لا ينقص ۴/ ۳۹۳/ عمره ۴/ ۳۹۳ (۱۲)/ سائغ ۴/ ۳۹۳/ ملح ۴/ ۳۹۳ (۱۸)/ و من تزكى فإنما يتزكى ۴/ ۳۹۶ (۲۲)/ بمسمع ۴/ ۳۹۷ (۲۷)/ جدد/ ۴/ ۳۹۹/ ألوانها/ ۴/ ۳۹۹ (۲۸)/ و الدواب ۴/ ۳۹۹/ اللّه ... العلماء/ ۴/ ۳۹۹ (۳۳)/ جنات ۴/ ۴۰۲/ يدخلونها/ ۴/ ۴۰۲/ يحلون ۴/ ۴۰۲/ لؤلؤا/ ۴/ ۴۰۲ (۳۴)/ الحزن ۴/ ۴۰۲ (۳۶)/ فيموتوا/ ۴/ ۴۰۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۳

/ نجزى ۴/ ۴۰۶ (۳۷)/ ما يتذكر/ ۴/ ۴۰۶ (۳۸)/ غيب السموات ۴/ ۴۰۷ (۴۰)/ بينة/ ۴/ ۴۰۷ (۴۳)/ و مكر السيىء/ ۴/ ۴۰۸

سورة يس (۳۶)

(۱)/ يس ۴/ ۴۱۲ (۵)/ تنزيل ۴/ ۴۱۳ (۸)/ أعناقهم ۴/ ۴۱۴ (۹)/ فأغشيناهم ۴/ ۴۱۵ (۱۲)/ و نكتب ۴/ ۴۱۶ (۱۴)/ فعززنا/ ۴/ ۴۱۸ (۱۹)/ طائركم ۴/ ۴۱۸/ أئن ذكرتم ۴/ ۴۱۸ (۲۳)/ إن يردنى ۴/ ۴۱۹ (۲۹)/ صيحة/ ۴/ ۴۲۱ (۳۰)/ يا حسرة/ ۴/ ۴۲۱ (۳۲)/ محضرون ۴/ ۴۲۲ (۳۳)/ الميتة/ ۴/ ۴۲۳ (۳۴)/ فجرنا/ ۴/ ۴۲۳ (۳۵)/ ثمره ۴/ ۴۲۳/ عملته ۴/ ۴۲۳ (۳۸)/ لمستقر/ ۴/ ۴۲۴ (۳۹)/ العرجون ۴/ ۴۲۴ (۴۹)/ يخصمون ۴/ ۴۲۸ (۵۲)/ يا ويلنا/ ۴/ ۴۲۹/ من بعثنا/ ۴/ ۴۲۹ (۵۵)/ شغل ۴/ ۴۳۱/ فاكهون ۴/ ۴۳۱ (۵۶)/ ظلال ۴/ ۴۳۲ (۵۷)/ ما يدعون ۴/ ۴۳۲ (۵۸)/ سلام ۴/ ۴۳۲ (۶۲)/ جبلا/ ۴/ ۴۳۳ (۶۷)/ مكانتهم ۴/ ۴۳۴/ مضيا/ ۴/ ۴۳۴ (۶۸)/ ننكسه ۴/ ۴۳۵ (۷۰)/ لينذر/ ۴/ ۴۳۶ (۷۲)/ ركوبهم ۴/ ۴۳۸ (۸۱)/ بقادر/ ۴/ ۴۴۱ (۸۳)/ ملكوت ۴/ ۴۴۱/ ترجعون ۴/ ۴۴۱

سورة الصافات (۳۷)

(۱)/ و الصافات ۴/ ۴۴۲ (۶)/ بزينة الكواكب ۴/ ۴۴۴ (۸)/ لا يسمعون ۴/ ۴۴۴ (۹)/ دحورا/ ۴/ ۴۴۴ (۱۰)/ خطف ۴/ ۴۴۵ (۱۱)/ أم من خلقنا/ ۴/ ۴۴۶ (۱۲)/ عجبت ۴/ ۴۴۶ (۴۰)/ المخلصين ۴/ ۴۵۰ (۴۲)/ مكرمون ۴/ ۴۵۰ (۴۴)/ سرر/ ۴/ ۴۵۱ (۴۷)/ ينزفون /۴ ۴۵۲ (۵۲)/ أئنك ۴/ ۴۵۷ (۵۳)/ أإذا/ ۴/ ۴۵۵/ أئنا/ ۴/ ۴۵۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۴

(۵۴)/ مطلعون ۴/ ۴۵۵ (۵۵)/ فاطلع ۴/ ۴۵۵ (۵۸)/ بميتين ۴/ ۴۵۶ (۶۷)/ لشوبا/ ۴/ ۴۵۷ (۶۸)/ مرجعهم ۴/ ۴۵۷ (۷۹)/ سلام ۴/ ۴۵۹ (۹۴)/ يزفون ۴/ ۴۶۱ (۱۰۲)/ ماذا ترى ۴/ ۴۶۴ (۱۰۳)/ أسلما/ ۴/ ۴۶۴ (۱۲۶)/ اللّه ربكم و رب ۴/ ۴۶۹ (۱۳۰)/ إل ياسين /۴ ۴۶۹ (۱۵۲)/ ولد اللّه ۴/ ۴۷۴ (۱۵۳)/ أصطفى ۴/ ۴۷۵ (۱۶۳)/ صال ۴/ ۴۷۶ (۱۷۷)/ نزل ۴/ ۴۷۷

سورة ص (۳۸)

(۱)/ ص ۴/ ۴۸۰ (۳)/ ولات ۴/ ۴۸۲ (۵)/ عجاب ۴/ ۴۸۳ (۱۴)/ عقاب ۴/ ۴۸۶ (۲۳)/ تسع و تسعون ۴/ ۴۸۹/ فتناه ۴/ ۴۸۹ (۲۹)/ مبارك ۴/ ۴۹۴/ ليدبروا/ ۴/ ۴۹۴ (۴۱)/ أنى ۴/ ۵۰۰/ بنصب ۴/ ۵۰۰ (۴۵)/ عبادنا/ ۴/ ۵۰۱/ الأيدى ۴/ ۵۰۱ (۵۳)/ ما توعدون ۴/ ۵۰۳ (۵۸)/ و آخر/ ۴/ ۵۰۶ (۶۳)/ سخريا/ ۴/ ۵۰۸ (۶۴)/ تخاصم ۴/ ۵۰۸ (۷۵)/ بيدى ۴/ ۵۱۱/ أستكبرت ۴/ ۵۱۱ (۸۴)/ فالحق و الحق ۴/ ۵۱۲

سورة الزمر (۳۹)

(۲)/ الدين ۴/ ۵۱۵ (۳)/ كفار/ ۴/ ۵۱۵ (۷)/ يرضه ۴/ ۵۱۸ (۸)/ ليضل ۴/ ۵۱۹ (۹)/ أمن ۴/ ۵۱۹ (۲۱)/ يجعله ۴/ ۵۲۶ (۲۲)/ من ذكر اللّه ۴/ ۵۲۶ (۲۳)/ مثانى ۴/ ۵۲۶/ من هاد/ ۴/ ۵۲۶ (۲۹)/ سلما/ ۴/ ۵۲۹ (۳۰)/ ميت ... ميتون ۴/ ۵۳۰ (۳۳)/ و الذى جاء بالصدق و صدق به ۴/ ۵۳۱ (۳۵)/ أسوأ/ ۴/ ۵۳۱ (۳۶)/ عباده ۴/ ۵۳۳ (۳۸)/ كاشفات ... ممسكات ۴/ ۵۳۳ (۴۲)/ قضى ۴/ ۵۳۴ (۵۳)/ يا عبادى ۴/ ۵۳۹/ لا تقنطوا/ ۴/ ۵۳۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۵

(۵۶)/ يا حسرتا/ ۴/ ۵۴۰ (۶۰)/ فكذبت ... و استكبرت ... و كنت ۴/ ۵۴۱ (۶۱)/ بمفازتهم ۴/ ۵۴۱ (۶۴)/ تأمرونى ۴/ ۵۴۴ (۶۷)/ قدروا/ ۴/ ۵۴۴/ قبضته ۴/ ۵۴۵/ مطويات ۴/ ۵۴۵ (۶۸)/ قيام ۴/ ۵۴۵ (۶۹)/ و أشرقت ۴/ ۵۴۶

سورة غافر (۴۰)

(۱)/ حم ۴/ ۵۵۱ (۴)/ فلا يغررك ۴/ ۵۵۲ (۶)/ كلمة/ ۴/ ۵۵۳ (۸)/ و ذرياتهم ۴/ ۵۵۳ (۱۳)/ و ينزل ۴/ ۵۵۵ (۱۵)/ لينذر/ ۴/ ۵۵۶ (۲۰)/ يدعون ۴/ ۵۵۸ (۲۱)/ أشد منهم ۴/ ۵۵۹ (۲۶)/ إنى أخاف ۴/ ۵۶۰/ أو أن يظهر/ ۴/ ۵۶۰ (۲۸)/ رجل ۴/ ۵۶۰ (۳۲)/ التناد/ ۴/ ۵۶۳ (۳۵)/ قلب ۴/ ۵۶۴ (۳۷)/ فأطلع ۴/ ۵۶۴/ و صد/ ۴/ ۵۶۴ (۳۸)/ الرشاد/ ۴/ ۵۶۵ (۴۰)/ يدخلون ۴/ ۵۶۵ (۴۶)/ أدخلوا/ ۴/ ۵۶۷ (۴۸)/ كل ۴/ ۵۶۷ (۵۲)/ لا ينفع ۴/ ۵۶۸ (۵۸)/ ما تتذكرون ۴/ ۵۷۰ (۶۰)/ سيدخلون ۴/ ۵۷۱ (۶۲)/ خالق ۴/ ۵۷۱ (۶۴)/ صوركم ۴/ ۵۷۲ (۶۷)/ شيوخا/ ۴/ ۵۷۴ (۷۱)/ يسحبون ۴/ ۵۷۴

سورة فصلت (۴۱)

(۳)/ فصلت ۴/ ۵۷۹ (۵)/ وقر/ ۴/ ۵۷۹ (۶)/ يوحى ۴/ ۵۸۰ (۹)/ أئنكم ۴/ ۵۸۱ (۱۰)/ سواء/ ۴/ ۵۸۱ (۱۱)/ ائتيا/ ۴/ ۵۸۲/ كرها/ ۴/ ۵۸۲ (۱۳)/ صاعقة/ ۴/ ۵۸۲ (۱۶)/ نحسات ۴/ ۵۸۵ (۱۷)/ ثمود/ ۴/ ۵۸۶ (۱۹)/ يحشر/ ۴/ ۵۸۶ (۲۴)/ يستعتبوا/ ۴/ ۵۸۸/ المعتبين ۴/ ۵۸۸ (۲۶)/ و الغوا/ ۴/ ۵۸۹ (۲۹)/ أرنا/ ۴/ ۵۹۰ (۴۴)/ أأعجمى ۴/ ۵۹۵/ عمى ۴/ ۵۹۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۶

سورة الشورى (۴۲)

(۳)/ يوحى ۴/ ۶۰۲ (۵)/ يتفطرن ۴/ ۶۰۲ (۷)/ فريق ۴/ ۶۰۳ (۱۱)/ فاطر/ ۴/ ۶۰۴ (۱۴)/ أورثوا/ ۴/ ۶۰۸ (۳۰)/ فبما كسبت ۴/ ۶۱۷ (۳۲)/ الجوار/ ۴/ ۶۱۷ (۳۳)/ الريح ۴/ ۶۱۸/ فيظللن ۴/ ۶۱۸ (۳۴)/ و يعف ۴/ ۶۱۸ (۳۵)/ و يعلم ۴/ ۶۱۸ (۳۷)/ كبائر/ ۴/ ۶۱۹ (۵۱)/ أو يرسل ۴/ ۶۲۴/ فيوحى ۴/ ۶۲۴ (۵۲)/ لتهدى ۴/ ۶۲۵

سورة الزخرف (۴۳)

(۵)/ مسرفين ۴/ ۶۲۷ (۱۰)/ مهدا/ ۴/ ۶۲۷ (۱۱)/ ميتا/ ۴/ ۶۲۸/ تخرجون ۴/ ۶۲۸ (۱۳)/ سبحان الذى سخر لنا هذا/ ۴/ ۶۲۸ (۱۸)/ ينشأ/ ۴/ ۶۲۹ (۱۹)/ عباد/ ۴/ ۶۳۰/ ستكتب شهادتهم ۴/ ۶۳۰ (۲۲)/ أمۀ/ ۴/ ۶۳۲ (۳۲)/ معيشتهم ۴/ ۶۳۴ (۳۳)/ سقفا/ ۴/ ۶۳۵ (۳۵)/ لما/ ۴/ ۶۳۵ (۳۶)/ و من يعش ۴/ ۶۳۷ (۵۳)/ أسورۀ/ ۴/ ۶۴۱ (۵۶)/ سلفا/ ۴/ ۶۴۱ (۵۷)/ يصدون ۴/ ۶۴۲ (۵۸)/ أآلهتنا/ ۴/ ۶۴۳/ جدلا/ ۴/ ۶۴۳ (۶۱)/ لعلم ۴/ ۶۴۳/ و اتبعون ۴/ ۶۴۳ (۶۳)/ و أطيعون ۴/ ۶۴۳ (۷۱)/ تشتهيه ۴/ ۶۴۵ (۷۶)/ الظالمين ۴/ ۶۴۷ (۷۷)/ يا مالك ۴/ ۶۴۷ (۸۱)/ ولد/ ۴/ ۶۴۸/ العابدين ۴/ ۶۴۸ (۸۳)/ يلاقوا/ ۴/ ۶۴۹ (۸۴)/ و هو الذى فى السماء إله و فى الأرض إله ۴/ ۶۴۹/ ترجعون ۴/ ۶۴۹ (۸۸)/ و قيله ۴/ ۶۵۰ (۸۹)/ يعلمون ۴/ ۶۵۰

سورة الدخان (۴۴)

(۴)/ يفرق ۴/ ۶۵۳ (۷)/ رب ۴/ ۶۵۴ (۸)/ ربكم و رب ۴/ ۶۵۴ (۱۶)/ نبطش ۴/ ۶۵۵ (۱۷)/ فتنا/ ۴/ ۶۵۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۷

(۱۸)/ إنى ۴/ ۶۵۷ (۲۲)/ أن ۴/ ۶۵۷ (۲۳)/ فأسر/ ۴/ ۶۵۷ (۲۴)/ إنهم ۴/ ۶۵۸ (۲۶)/ و مقام ۴/ ۶۵۸ (۲۷)/ فاكهين ۴/ ۶۵۸ (۳۱)/ من فرعون ۴/ ۶۵۹ (۳۸)/ و ما بينهما/ ۴/ ۶۶۱ (۴۵)/ يغلى ۴/ ۶۶۲ (۴۷)/ فاعتلوه ۴/ ۶۶۲ (۴۹)/ إنك ۴/ ۶۶۳ (۵۱)/ مقام ۴/ ۶۶۳ (۵۶)/ وقاهم ۴/ ۶۶۳

سورة الجاثية (۴۵)

(۳)/ لآيات ۵/ ۵ (۵)/ آيات ۵/ ۶ (۹)/ علم ۵/ ۶ (۱۱)/ أليم ۵/ ۷ (۲۱)/ سواء/ ۵/ ۱۰ (۲۳)/ غشاوۀ/ ۵/ ۱۱ (۲۵)/ حجتهم ۵/ ۱۱ (۲۸)/ كل أمۀ/ ۵/ ۱۳ (۳۵)/ لا يخرجون ۵/ ۱۴ (۳۶)/ رب ۵/ ۱۴

سورة الأحقاف (۴۶)

(۹)/ بدعا/ ۵/ ۱۸/ يوحى ۵/ ۱۹ (۱۲)/ و من ۵/ ۲۱/ لينذر/ ۵/ ۲۱ (۱۵)/ حسنا/ ۵/ ۲۱/ كرها/ ۵/ ۲۲/ و فصاله ۵/ ۲۲ (۱۶)/ نتقبل ۵/ ۲۳/ و نتجاوز/ ۵/ ۲۳ (۱۷)/ أف ۵/ ۲۵/ أتعداننى ۵/ ۲۵ (۱۹)/ ليوفيهم ۵/ ۲۶ (۲۵)/ تدمر/ ۵/ ۲۸/ لا- يرى ۵/ ۲۸ (۲۸)/ إفكهم ۵/ ۲۹ (۲۹)/ قضى ۵/ ۳۱ (۳۳)/ و لم يعى ۵/ ۳۲/ بقادر/ ۵/ ۳۲ (۳۵)/ بلاغ ۵/ ۳۳/ يهلك ۵/ ۳۳

سورة محمد (۴۷)

(۴)/ فشدوا/ ۵/ ۳۷/ فداء/ ۵/ ۳۷/ قتلوا/ ۵/ ۳۸ (۱۵)/ آسن ۵/ ۴۱/ لذۀ/ ۵/ ۴۱ (۲۰)/ فإذا أنزلت ۵/ ۴۵/ محكمۀ/ ۵/ ۴۵/ و ذكر/ ۵/ ۴۵ (۲۲)/ توليتم ۵/ ۴۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۸

و تقطعوا/ ۵/ ۴۶ (۲۴)/ أقفالها/ ۵/ ۴۶ (۲۵)/ و أملى ۵/ ۴۷ (۲۶)/ إسرارهم ۵/ ۴۷ (۲۷)/ توفتهم ۵/ ۴۷ (۳۱)/ و لنبلونكم ... نعلم ... نبلو/ ۵/ ۴۸ (۳۵)/ و تدعوا/ ۵/ ۵۰ (۳۷)/ و يخرج ۵/ ۵۰

سورة الفتح (۴۸)

(۶)/ السوء/ ۵/ ۵۴ (۹)/ لتؤمنوا/ ۵/ ۵۶ (۱۰)/ عليه ۵/ ۵۷ فسيؤتيه ۵/ ۵۷ (۱۱)/ ضرا/ ۵/ ۵۷ (۱۲)/ وزين ۵/ ۵۸ (۱۵)/ كلام اللّه ۵/ ۵۸ (۱۶)/ يسلمون ۵/ ۶۰ (۱۷)/ يدخله ۵/ ۶۰ (۲۵)/ و الهدى ۵/ ۶۳/ لو تزيلوا/ ۵/ ۶۴ (۲۹)/ أشداء/ ۵/ ۶۶/ رحماء/ ۵/ ۶۶/ شطأه ۵/ ۶۶/ سوقه ۵/ ۶۶

سورة الحجرات (۴۹)

(۱)/ لا تقدموا/ ۵/ ۶۹ (۴)/ الحجرات ۵/ ۷۰ (۶)/ فتبينوا/ ۵/ ۷۱ (۹)/ اقتتلوا/ ۵/ ۷۴ (۱۰)/ أخويكم ۵/ ۷۴ (۱۲)/ تجسسوا/ ۵/ ۷۶ (۱۳)/ لتعارفوا/ ۵/ ۷۹/ إن أكرمكم ۵/ ۷۹ (۱۴)/ لا يلتكم ۵/ ۸۰ (۱۷)/ أن هداكم ۵/ ۸۱ (۱۸)/ تعملون ۵/ ۸۱

سورة ق (۵۰)

(۱)/ ق ۵/ ۸۴ (۳)/ أئذا متنا/ ۵/ ۸۴ (۵)/ لما/ ۵/ ۸۵ (۱۱)/ ميتا/ ۵/ ۸۶ (۱۵)/ أفعيينا/ ۵/ ۸۷ (۲۲)/ كنت ۵/ ۹۰ (۳۰)/ نقول ۵/ ۹۲ (۳۲)/ توعدون ۵/ ۹۲ (۳۶)/ نقبوا/ ۵/ ۹۵ (۴۰)/ و أدبار/ ۵/ ۹۶ (۴۴)/ تشقق ۵/ ۹۶

سورة الذاريات (۵۱)

(۲)/ و قرا/ ۵/ ۹۸ (۷)/ الحبك ۵/ ۹۹ (۱۳)/ يوم ۵/ ۱۰۰ (۲۲)/ رزقكم ۵/ ۱۰۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۸۹

(۲۳)/ مثل ۵/ ۱۰۲ (۲۵)/ سلام ۵/ ۱۰۵ (۴۴)/ الصاعقة/ ۵/ ۱۰۸ (۴۶)/ و قوم ۵/ ۱۰۹ (۴۷)/ و السماء/ ۵/ ۱۰۹ (۴۸)/ و الأرض ۵/ ۱۰۹ (۵۶)/ و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون ۵/ ۱۱۰ (۵۸)/ الرزاق ۵/ ۱۱۱/ المتين ۵/ ۱۱۱

سورة الطور (۵۲)

(۳)/ رق ۵/ ۱۱۳ (۱۳)/ دعا/ ۵/ ۱۱۵ (۱۸)/ فاكهين ۵/ ۱۱۵ (۲۰)/ سرر/ ۵/ ۱۱۶/ بحور عين ۵/ ۱۱۶ (۲۱)/ و اتبعتهم ۵/ ۱۱۷ و ما ألتناهم ۵/ ۱۱۷ (۲۳)/ لا لغو فيها و لا تأثيم ۵/ ۱۱۸ (۲۸)/ إنه ۵/ ۱۱۹ (۳۰)/ نتربص ۵/ ۱۱۹ (۳۷)/ المصيطرون ۵/ ۱۲۲ (۴۴)/ كسفا/ ۵/ ۱۲۳ (۴۵)/ يلاقوا/ ۵/ ۱۲۳ (۴۹)/ إدبار/ ۵/ ۱۲۳

سورة النجم (۵۳)

(۱۱)/ ما كذب ۵/ ۱۲۸ (۱۲)/ أفتمارونه ۵/ ۱۲۸ (۱۵)/ جنة/ ۵/ ۱۲۹ (۱۹)/ اللات ۵/ ۱۲۹ (۲۰)/ مناة/ ۵/ ۱۳۰ (۲۲)/ ضيزى ۵/ ۱۳۱ (۲۳)/ يتبعون ۵/ ۱۳۲ (۲۸)/ و ما لهم به ۵/ ۱۳۴ (۳۱)/ ليجزى ۵/ ۱۳۵ (۳۲)/ كبائر/ ۵/ ۱۳۵ (۴۷)/ النشأة/ ۵/ ۱۴۰ (۵۰)/ عادا الأولى ۵/ ۱۴۱ (۵۵)/ تتمارى ۵/ ۱۴۱

سورة القمر (۵۴)

(۳)/ مستقر/ ۵/ ۱۴۶ (۴)/ مزدجر/ ۵/ ۱۴۶ (۵)/ حكمة بالغة/ ۵/ ۱۴۶ (۶)/ نكر/ ۵/ ۱۴۶ (۷)/ خشعا/ ۵/ ۱۴۷ (۱۰)/ أني ۵/ ۱۴۸

(١١)/ ففتحنا/ ۵/ ١۴٨ (١٢)/ فجرنا/ ۵/ ١۴٨ (١۴)/ كفر/ ۵/ ١۴٩ (١٩)/ فى يوم نحس ۵/ ١۵٠ (٢۴)/ أبشرا/ ۵/ ١۵١ (٢۵)/ أشر/ ۵/ ١۵٢ (٢۶)/ سيعلمون ۵/ ١۵٢

فتح القدير، ج‌۶، ص: ١٩٠

(٢٨)/ قسمة/ ۵/ ١۵٢ (٣١)/ المحتظر/ ۵/ ١۵٣ (۴۵)/ سيهزم ۵/ ١۵۵/ و يولون ۵/ ١۵۵ (۴٩)/ كل ۵/ ١۵۵ (۵۴)/ و نهر/ ۵/ ١۵۶ (۵۵)/ مقعد/ ۵/ ١۵۶

سورة الرحمن (۵۵)

(٧)/ و السماء/ ۵/ ١۵٩ (٩) تخسروا/ ۵/ ١۵٩ (١٢)/ و الحب ذو العصف و الريحان ۵/ ١۶٠ (٢٢)/ يخرج ۵/ ١۶١ (٢۴)/ الجوار/ ۵/ ١۶٢/ المنشآت ۵/ ١۶٢ (٢٧)/ ذو الجلال ۵/ ١۶٣ (٣١)/ سنفرغ ۵/ ١۶۴/ أيه ۵/ ١۶۴ (٣۵)/ يرسل ۵/ ١۶۵/ شواظ/ ۵/ ١۶۵/ نحاس ۵/ ١۶۵ (۵۴)/ فرش ۵/ ١۶٩/ جنى ۵/ ١۶٩ (۵۶)/ يطمثهن ۵/ ١٧٠ (٧٠)/ خيرات ۵/ ١٧١ (٧۶)/ متكئين ۵/ ١٧٢/ رفرف ۵/ ١٧٢/ خضر/ ۵/ ١٧٢ عبقرى ۵/ ١٧٢ (٧٨)/ ذى الجلال ۵/ ١٧٣

سورة الواقعة (۵۶)

(٣)/ خافضة رافعة/ ۵/ ١٧٧ (۶)/ منبثا/ ۵/ ١٧٧ (١٢)/ جنات ۵/ ١٧٩ (١۵)/ سرر/ ۵/ ١٧٩ (١٩)/ لا يصدعون ۵/ ١٨٠ (٢٢)/ و حور عين ۵/ ١٨٠ (٢۶)/ سلاما سلاما/ ۵/ ١٨١ (۵٢)/ شجر/ ۵/ ١٨۵ (۵۶)/ نزلهم ۵/ ١٨۶ (۵٨)/ تمنون ۵/ ١٨٨ (۶٢)/ النشأة/ ۵/ ١٨٩ (۶۵) فظلتم ۵/ ١٨٩/ تفكهون ۵/ ١٨٩ (۶۶)/ إنا/ ۵/ ١٨٩ (٧۵)/ بمواقع ۵/ ١٩٢ (٧٩)/ المطهرون ۵/ ١٩٣ (٨٢)/ رزقكم ۵/ ١٩۴ (٨٩)/ فروح ۵/ ١٩۴ (٩۴)/ و تصلية/ ۵/ ١٩۵

سورة الحديد (۵٧)

(۵)/ ترجع ۵/ ١٩٩ (١٠)/ و كلا/ ۵/ ٢٠٢ (١١)/ فيضاعفه ۵/ ٢٠٢

فتح القدير، ج‌۶، ص: ١٩١

(١٢)/ بأيمانهم ۵/ ٢٠۴ (١٣)/ انظرونا/ ۵/ ٢٠۴ (١۴)/ الغرور/ ۵/ ٢٠۵ (١۶)/ ألم يأن ۵/ ٢٠۶/ نزل ۵/ ٢٠٧/ يكونوا/ ۵/ ٢٠٧/ الأمد/ ۵/ ٢٠٧ (١٨)/ المصدقين ۵/ ٢٠٧/ المصدقات ۵/ ٢٠٧ (٢٠)/ و تفاخر/ ۵/ ٢٠٩/ مصفرا/ ۵/ ٢١٠ (٢٣)/ آتاكم ۵/ ٢١١ (٢۴)/ بالبخل ۵/ ٢١١/ الغنى ۵/ ٢١٢ (٢٧)/ و رهبانية/ ۵/ ٢١۴ (٢٩)/ لئلا يعلم ۵/ ٢١۵

سورة المجادلة (۵٨)

(٢)/ يظاهرون ۵/ ٢١٨/ أمهاتهم ۵/ ٢١٨ (٧)/ ما يكون ۵/ ٢٢٣/ و لا أكثر/ ۵/ ٢٢٣/ و يتناجون ۵/ ٢٢۴/ و معصية/ ۵/ ٢٢۴ (١١)/ تفسحوا/ ۵/ ٢٢۶ (١۶)/ أيمانهم ۵/ ٢٢٩ (٢٢)/ عشيرتهم ۵/ ٢٣١/ كتب ۵/ ٢٣١

سورة الحشر (۵٩)

(٢)/ يخربون ۵/ ٢٣٣ (۴)/ يشاق ۵/ ٢٣۴ (۵)/ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها/ ۵/ ٢٣۴ (٧)/ يكون ۵/ ٢٣۶/

دولةً/ ۵/ ۲۳۶ (۹)/ يوق ۵/ ۲۴۰/ شح ۵/ ۲۴۰ (۱۴)/ جدر/ ۵/ ۲۴۳ (۱۶)/ إنی بریء/ ۵/ ۲۴۴ (۱۷)/ عاقبتهما/ ۵/ ۲۴۴/ خالدین ۵/ ۲۴۴ (۲۳)/ القدوس ۵/ ۲۴۶ (۲۴)/ المصور/ ۵/ ۲۴۸

سورة الممتحنة (۶۰)

(۱)/ بما جاءکم ۵/ ۲۵۰ (۳)/ یفصل ۵/ ۲۵۱ (۴)/ أسوة/ ۵/ ۲۵۳/ برآء/ ۵/ ۲۵۳ (۱۰)/ تمسکوا/ ۵/ ۲۵۶

سورة الصف (۶۱)

(۴)/ یقاتلون ۵/ ۲۶۲ (۶)/ سحر/ ۵/ ۲۶۳ (۷)/ یدعی ۵/ ۲۶۳

فتح القدیر، ج۶، ص: ۱۹۲

(۸)/ متم نوره ۵/ ۲۶۳ (۱۰)/ تنجیکم ۵/ ۲۶۴ (۱۱)/ تؤمنون ۵/ ۲۶۵/ تجاهدون ۵/ ۲۶۵

سورة الجمعة (۶۲)

(۱)/ الملک القدوس العزیز الحکیم ۵/ ۲۶۷ (۶)/ فتمنوا/ ۵/ ۲۶۹ (۹)/ الجمعة/ ۵/ ۲۷۰

سورة المنافقون (۶۳)

(۲)/ أیمانهم ۵/ ۲۷۵ (۳)/ فطبع ۵/ ۲۷۵ (۴)/ خشب ۵/ ۲۷۵ (۵)/ لووا/ ۵/ ۲۷۶ (۶)/ أستغفرت ۵/ ۲۷۶ (۷)/ ینفضوا/ ۵/ ۲۷۷ (۱۰)/ فأصدق ۵/ ۲۷۸/ و أکن ۵/ ۲۷۸ (۱۱)/ تعملون ۵/ ۲۷۹

سورة التغابن (۶۴)

(۳)/ صورکم ۵/ ۲۸۱ (۹)/ یجمعکم ۵/ ۲۸۲/ یکفر/ ۵/ ۲۸۳/ یدخله ۵/ ۲۸۳ (۱۱)/ یهد/ ۵/ ۲۸۳

سورة الطلاق (۶۵)

(۳)/ بالغ أمره ۵/ ۲۸۹ (۱۱)/ مبینات ۵/ ۲۹۵/ یدخله ۵/ ۲۹۵ (۱۲)/ مثلهن ۵/ ۲۹۵/ یتنزل الأمر/ ۵/ ۲۹۶

سورة التحریم (۶۶)

(۳)/ عرّف ۵/ ۲۹۸ (۴)/ تظاهرا/ ۵/ ۲۹۹ (۸)/ نصوحا/ ۵/ ۳۰۳ (۱۲)/ و صدقت ۵/ ۳۰۵/ بکلمات ۵/ ۳۰۵

سورة الملک (۶۷)

(۳)/ تفاوت ۵/ ۳۰۹ (۴)/ ینقلب ۵/ ۳۰۹ (۶)/ عذاب ۵/ ۳۱۰ (۸)/ تمیز/ ۵/ ۳۱۰ (۱۱)/ فسحقا/ ۵/ ۳۱۱ (۱۶)/ أأمنتم ۵/ ۳۱۳ (۲۷)/ أمن ۵/ ۳۱۴/ سیئت ۵/ ۳۱۴/ تدعون ۵/ ۳۱۶ (۲۹)/ فستعلمون ۵/ ۳۱۶

سورة القلم (۶۸)

(۱)/ ن ۵/ ۳۱۸ (۶)/ بأيكم المفتون ۵/ ۳۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۹۳

(۱۴)/ أن كان ۵/ ۳۲۱ (۲۵)/ حرد/ ۵/ ۳۲۵ (۳۲)/ يبدلنا/ ۵/ ۳۲۶ (۳۸)/ إن ۵/ ۳۲۷ (۴۲)/ يكشف ۵/ ۳۲۸ (۴۹)/ تداركه ۵/ ۳۳۰ (۵۱)/ ليزلقونك ۵/ ۳۳۰

سورة الحاقة (۶۹)

(۹)/ قبله ۵/ ۳۳۵/ المؤتفكات ۵/ ۳۳۵ (۱۲)/ و تعيها/ ۵/ ۳۳۶ (۱۴)/ و حملت ۵/ ۳۳۶ (۱۹)/ اقرؤوا كتابيه ۵/ ۳۳۹ (۳۷)/ الخاطئون ۵/ ۳۴۱ (۴۴)/ تقول ۵/ ۳۴۲

سورة المعارج (۷۰)

(۱)/ سأل سائل ۵/ ۳۴۴ (۳)/ ذى المعارج ۵/ ۳۴۵ (۱۰)/ و لا- يسأل ۵/ ۳۴۶ (۱۱)/ يبصرونهم ۵/ ۳۴۷/ عذاب يومئذ/ ۵/ ۳۴۷ (۱۶)/ نزاعة/ ۵/ ۳۴۷ (۳۲)/ لأماناتهم ۵/ ۳۵۰ (۳۳)/ بشهاداتهم ۵/ ۳۵۰ (۳۸)/ أن يدخل ۵/ ۳۵۲ (۴۰)/ المشارق و المغارب ۵/ ۳۵۳ (۴۲)/ يلاقوا/ ۵/ ۳۵۳ (۴۳)/ يخرجون ۵/ ۳۵۳/ نصب ۵/ ۳۵۳

سورة نوح (۷۱)

(۱)/ أنذر/ ۵/ ۳۵۵ (۶)/ دعائى ۵/ ۳۵۶ (۷)/ إنى ۵/ ۳۵۷ (۲۱)/ و ولده ۵/ ۳۵۹ (۲۲)/ كبارا/ ۵/ ۳۶۰ (۲۳)/ ودا/ ۵/ ۳۶۰/ و لا يغوث و يعوق ۵/ ۳۶۰ (۲۵)/ خطيئاتهم ۵/ ۳۶۱/ أغرقوا/ ۵/ ۳۶۱ (۲۸)/ و لوالدى ۵/ ۳۶۱

سورة الجن (۷۲)

(۱)/ أوحى ۵/ ۳۶۳ (۳)/ و أنه تعالى ۵/ ۳۶۴/ جد ربنا/ ۵/ ۳۶۵ (۴)/ و أنه كان ۵/ ۳۶۴ (۶)/ و أنه كان ۵/ ۳۶۴ (۱۳)/ فلا يخاف ۵/ ۳۶۸/ بخسا/ ۵/ ۳۶۸ (۱۶)/ و ألو/ ۵/ ۳۶۹ (۱۷)/ يسلكه ۵/ ۳۷۰ (۱۹)/ لبدا/ ۵/ ۳۷۱ (۲۰)/ قل ۵/ ۳۷۱ (۲۵)/ ربى ۵/ ۳۷۲ (۲۶)/ عالم الغيب ۵/ ۳۷۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۹۴

(۲۸)/ ليعلم ۵/ ۳۷۵

سورة المزمل (۷۳)

(۱)/ المزمل ۵/ ۳۷۸ (۲)/ قم ۵/ ۳۷۸ (۶)/ وطأ/ ۵/ ۳۸۰ (۷)/ سبحا/ ۵/ ۳۸۰ (۹)/ رب ۵/ ۳۸۱/ المشرق و المغرب ۵/ ۳۸۱ (۱۴)/ ترجف ۵/ ۳۸۲ (۱۷)/ يوما/ ۵/ ۳۸۲ (۲۰)/ و نصفه و ثلثه ۵/ ۳۸۵/ خيرا/ ۵/ ۳۸۷/ و أعظم ۵/ ۳۸۷

سورة المدثر (۷۴)

(۱)/ المدثر/ ۵/ ۳۸۸ (۵)/ الرجز/ ۵/ ۳۸۹ (۶)/ لا تمنن ۵/ ۳۹۰/ تستكثر/ ۵/ ۳۹۰ (۲۹)/ لواحة/ ۵/ ۳۹۳ (۳۰)/ تسعة عشر/ ۵/

۳۹۴ (۳۳)/ و الليل إذا أدبر/ ۵/ ۳۹۷ (۳۵)/ لإحدى ۵/ ۳۹۷ (۳۶)/ نذيرا/ ۵/ ۳۹۸ (۵۰)/ مستنفرة/ ۵/ ۴۰۰ (۵۲)/ صحف ۵/ ۴۰۰/ منشرة/ ۵/ ۴۰۰ (۵۶)/ يذكرون ۵/ ۴۰۱

سورة القيامة (۷۵)

(۱)/ لا أقسم ۵/ ۴۰۳ (۴)/ بلى قادرين ۵/ ۴۰۳ (۷)/ برق ۵/ ۴۰۴ (۸)/ و خسف ۵/ ۴۰۵ (۹)/ و جمع الشمس و القمر/ ۵/ ۴۰۵ (۱۰)/ أين المفر/ ۵/ ۴۰۵ (۲۰)/ تحبون ۵/ ۴۰۷ (۲۱)/ تذرون ۵/ ۴۰۷ (۳۷)/ تمنى ۵/ ۴۱۲ (۴۰)/ بقادر/ ۵/ ۴۱۲/ يحيى ۵/ ۴۱۲

سورة الإنسان (۷۶)

(۳)/ إما/ ۵/ ۴۱۶ (۴)/ سلاسل ۵/ ۴۱۶ (۶)/ يشرب بها/ ۵/ ۴۱۸ (۱۴)/ دانية/ ۵/ ۴۲۲ (۱۵)/ قواريرا/ ۵/ ۴۲۲ (۱۶)/ قواريرا/ ۵/ ۴۲۲/ قدروها/ ۵/ ۴۲۲ (۲۱)/ عاليهم ۵/ ۴۲۴/ ثياب سندس ۵/ ۴۲۴/ خضر/ ۵/ ۴۲۴ (۳۱)/ و الظالمين ۵/ ۴۲۷

سورة المرسلات (۷۷)

(۱)/ عرفا/ ۵/ ۴۳۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۹۵

(۵)/ فالملقيات ۵/ ۴۳۰ (۶)/ عذرا أو نذرا/ ۵/ ۴۳۰ (۱۱)/ و إذا/ ۵/ ۴۳۱ (۱۷)/ نتبعهم ۵/ ۴۳۱ (۲۳)/ فقدرنا/ ۵/ ۴۳۲ (۲۹)/ انطلقوا/ ۵/ ۴۳۳ (۳۲)/ بشرر/ ۵/ ۴۳۴/ كالقصر/ ۵/ ۴۳۴ (۳۳)/ جمالات ۵/ ۴۳۴ (۳۵)/ يوم ۵/ ۴۳۴ (۳۶)/ و لا يؤذن ۵/ ۴۳۵ (۴۱)/ ظلال ۵/ ۴۳۵ (۵۰)/ يؤمنون ۵/ ۴۳۶

سورة النبأ (۷۸)

(۱)/ عم ۵/ ۴۳۷ (۴)/ سيعلمون ۵/ ۴۳۹ (۶)/ مهادا/ ۵/ ۴۳۹ (۱۹)/ و فتحت ۵/ ۴۴۱ (۲۳)/ لابثين ۵/ ۴۴۲ (۲۵)/ غساقا/ ۵/ ۴۴۲ (۲۷)/ حسابا/ ۵/ ۴۴۶ (۲۸)/ كذابا/ ۵/ ۴۴۳ (۲۹)/ و كل ۵/ ۴۴۳ (۳۷)/ رب ... الرحمن ۵/ ۴۴۶

سورة النازعات (۷۹)

(۱۰)/ الحافرة/ ۵/ ۴۵۲ (۱۱)/ نخرة/ ۵/ ۴۵۲ (۱۸)/ تزكى ۵/ ۴۵۴ (۳۰)/ و الأرض ۵/ ۴۵۸ (۳۲)/ و الجبال ۵/ ۴۵۸ (۳۶)/ لمن يرى ۵/ ۴۵۹ (۴۵)/ منذر/ ۵/ ۴۶۰

سورة عبس (۸۰)

(۲)/ أن جاءه الأعمى ۵/ ۴۶۳ (۴)/ فتنفعه ۵/ ۴۶۳ (۶)/ تصدى ۵/ ۴۶۳ (۲۲)/ أنشره ۵/ ۴۶۵ (۲۵)/ أنا/ ۵/ ۴۶۵ (۳۷)/ يغنيه ۵/ ۴۶۷

سورة التكوير (۸۱)

(۴)/ عطلت ۵/ ۴۷۰ (۵)/ حشرت ۵/ ۴۷۰ (۶)/ سجرت ۵/ ۴۷۰ (۸)/ الموءودة/ ۵/ ۴۷۱/ سئلت ۵/ ۴۷۱ (۹)/ قتلت ۵/ ۴۷۱ (۱۰)/ نشرت ۵/ ۴۷۱ (۱۲)/ سعرت ۵/ ۴۷۱ (۲۱)/ ثم ۵/ ۴۷۳ (۲۴)/ بضنين ۵/ ۴۷۴

سورة الانفطار (۸۲)

(۷)/ فعدلک ۵/ ۴۷۹ (۹)/ تکذبون ۵/ ۴۸۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۹۶

(۱۵)/ يصلونها/ ۵/ ۴۸۰ (۱۹)/ يوم ۵/ ۴۸۰

سورة المطففين (۸۳)

(۳)/ يخسرون ۵/ ۴۸۳ (۱۴)/ کلا/ ۵/ ۴۸۵ (۲۴)/ تعرف ۵/ ۴۸۸/ نضرة/ ۵/ ۴۸۸ (۲۶)/ ختامه ۵/ ۴۸۸ (۳۱)/ فکهين ۵/ ۴۸۹

سورة الانشقاق (۸۴)

(۱۲)/ و يصلى ۵/ ۴۹۳ (۱۹)/ لترکبن ۵/ ۴۹۵

سورة البروج (۸۵)

(۵)/ النار/ ۵/ ۵۰۰ (۸)/ نقموا/ ۵/ ۵۰۰ (۲۲)/ محفوظ/ ۵/ ۵۰۳

سورة الطارق (۸۶)

(۴)/ لما/ ۵/ ۵۰۸ (۷)/ يخرج ۵/ ۵۰۹

سورة الأعلى (۸۷)

(۱۶)/ بل تؤثرون ۵/ ۵۱۷ (۱۸)/ الصحف ۵/ ۵۱۷ (۱۹)/ صحف ۵/ ۵۱۷ إبراهيم ۵/ ۵۱۷

سورة الغاشية (۸۸)

(۳)/ عاملة ناصبة/ ۵/ ۵۲۱ (۴)/ تصلى ۵/ ۵۲۱ (۱۱)/ لا تسمع ۵/ ۵۲۲ (۱۷)/ خلقت ۵/ ۵۲۴ (۱۸)/ رفعت ۵/ ۵۲۴ (۱۹)/ نصبت ۵/ ۵۲۴ (۲۰)/ سطحت ۵/ ۵۲۴ (۲۲)/ بمصيطر/ ۵/ ۵۲۴ (۲۴)/ فيعذبه اللّه ۵/ ۵۲۴ (۲۵)/ إيابهم ۵/ ۵۲۴

سورة الفجر (۸۹)

(۲)/ و ليال عشر/ ۵/ ۵۲۶ (۳)/ و الوتر/ ۵/ ۵۲۷ (۴)/ يسر/ ۵/ ۵۲۷ (۶)/ بعاد/ ۵/ ۵۲۹ (۷)/ إرم ۵/ ۵۲۹ (۸)/ مثلها/ ۵/ ۵۳۰ (۹)/ و ثمود/ ۵/ ۵۳۰ (۱۶)/ فقدر/ ۵/ ۵۳۰/ ربى ۵/ ۵۳۴ (۱۸)/ تحضون ۵/ ۵۳۴ (۱۹)/ تأکلون ۵/ ۵۳۴ (۲۰)/ تحبون ۵/ ۵۳۴ (۲۹)/ عبادى ۵/ ۵۳۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۹۷

سورة البلد (۹۰)

(۶)/ لبدا/ ۵/ ۵۴۰ (۱۴)/ ذى مسغبة/ ۵/ ۵۴۲

سورة الشمس (۹۱)

(۱۱)/ بطغواها/ ۵/ ۵۴۷ (۱۴)/ فدموم ۵/ ۵۴۸ (۱۵)/ و لا يخاف ۵/ ۵۴۸

سورة الليل (۹۲)

(۳)/ و ما خلق الذكر و الأنثى ۵/ ۵۵۰ (۱۸)/ يتزكى ۵/ ۵۵۳ (۲۰)/ إلا ابتغاء/ ۵/ ۵۵۳ (۲۱)/ يرضى ۵/ ۵۵۳

سورة الضحى (۹۳)

(۳)/ ما ودعك ۵/ ۵۵۷ (۶)/ فآوى ۵/ ۵۵۸ (۸)/ عائلا/ ۵/ ۵۵۹ (۹)/ فلا تقهر/ ۵/ ۵۵۹

سورة الشرح (۹۴)

(۱)/ نشرح ۵/ ۵۶۲ (۵)/ فإن مع العسر يسرا/ ۵/ ۵۶۴ (۶)/ إن مع العسر يسرا/ ۵/ ۵۶۴ (۸)/ فارغب ۵/ ۵۶۵

سورة التين (۹۵)

(۲)/ سينين ۵/ ۵۶۷

سورة العلق (۹۶)

(۱)/ اقرأ/ ۵/ ۵۷۰ (۱۶)/ ناصية كاذبة خاطئة/ ۵/ ۵۷۳ (۱۸)/ سندع ۵/ ۵۷۳

سورة القدر (۹۷)

(۴)/ تنزل ۵/ ۵۷۶/ أمر/ ۵/ ۵۷۶ (۵)/ مطلع ۵/ ۵۷۶

سورة البينة (۹۸)

(۱)/ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين ۵/ ۵۷۹ (۲)/ رسول ۵/ ۵۷۹ (۵)/ مخلصين ۵/ ۵۸۰ (۶)/ البرية/ ۵/ ۵۸۱

سورة الزلزلة (۹۹)

(۱)/ زلزالها/ ۵/ ۵۸۴ (۶)/ ليروا/ ۵/ ۵۸۵ (۷)/ يره ۵/ ۵۸۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۱۹۸

(۸)/ يره ۵/ ۵۸۵

سورة العاديات (۱۰۰)

(۴)/ فأثرن ۵/ ۵۸۸ (۵)/ فوسطن ۵/ ۵۸۹ (۱۰)/ حصل ۵/ ۵۹۰ (۱۱)/ لخبير/ ۵/ ۵۹۰

سورة القارعة (۱۰۱)

(۲)/ ما القارعة/ ۵/ ۵۹۳

سورة التكاثر (۱۰۲)

(۶)/ لترون ۵/ ۵۹۷

سورة العصر (۱۰۳)

(۱)/ و العصر/ ۵/ ۶۰۱ (۲)/ خسر/ ۵/ ۶۰۱

سورة الهمزة (۱۰۴)

(۱)/ همزة لمزة/ ۵/ ۶۰۳ (۲)/ جمع ۵/ ۶۰۳/ و عدده ۵/ ۶۰۳ (۴)/ لينبذن ۵/ ۶۰۳ (۹)/ عمد/ ۵/ ۶۰۴

سورة قريش (۱۰۶)

(۱)/ لإيلاف ۵/ ۶۰۹

سورة الماعون (۱۰۷)

(۱)/ أرأيت ۵/ ۶۱۱ (۵)/ الذين هم عن صلاتهم ساهون ۵/ ۶۱۲

سورة الكوثر (۱۰۸)

(۱)/ أعطيناك ۵/ ۶۱۴

سورة الكافرون (۱۰۹)

(۶)/ ولى ۵/ ۶۲۱

سورة المسد (۱۱۱)

سورة الإخلاص (١١٢)

سورة الفلق (١١٣)

سورة الناس (١١۴)

فتح القدير، ج‌٦، ص: ١٩٩

(٥) فهرس المفردات اللغوية

اشارة

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٢٠١

سورة الفاتحة (١)

فتح القدير ج‌٦ ٢۴٨

سورة البقرة (٢)

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٢٠٢

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۰۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۰۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۰۵

(۲۱۸)/ يرجون ۱/ ۲۵۱ (۲۱۹)/ الخمر/ ۱/ ۲۵۲/ الميسر/ ۱/ ۲۵۲/ العفو/ ۱/ ۲۵۴ (۲۲۰)/ تخالطوهم ۱/ ۲۵۵/ لأعنتكم ۱/ ۲۵۵ (۲۲۲)/ المحيض ۱/ ۲۵۸/ أذى ۱/ ۲۵۹/ يطهرن ۱/ ۲۵۹ (۲۲۳)/ أنّى شئتم ۱/ ۲۶۰ (۲۲۴)/ عرضة/ ۱/ ۲۶۳ (۲۲۵)/ باللّغو/ ۱/ ۲۶۴ (۲۲۶)/ يؤلون ۱/ ۲۶۶/ تربّص ۱/ ۲۶۷/ فاءوا/ ۱/ ۲۶۷ (۲۲۷)/ عزموا/ ۱/ ۲۶۷ (۲۲۸)/ يتربّصن ۱/ ۲۶۹/ قروء/ ۱/ ۲۶۹- ۲۷۰ (۲۳۲)/ تعضلوهنّ ۱/ ۲۷۹ (۲۳۳)/ لا تضارّ/ ۱/ ۲۸۱/ فصالا/ ۱/ ۲۸۳ (۲۳۵)/ جناح ۱/ ۲۸۷/ أكننتم ۱/ ۲۸۷/ سرّا/ ۱/ ۲۸۷ (۲۳۶)/ الموسع ۱/ ۲۹۰/ قدره ۱/ ۲۹۰/ المقتر/ ۱/ ۲۹۰ (۲۳۸)/ حافظوا/ ۱/ ۲۹۳/ الوسطى ۱/ ۲۹۳/ قانتين ۱/ ۲۹۶ (۲۳۹)/ فرجالا/ ۱/ ۲۹۶ (۲۴۵)/ يقرض ۱/ ۳۰۰/ يقبض ۱/ ۳۰۰/ و يبسط/ ۱/ ۳۰۰ (۲۴۶)/ عسيتم ۱/ ۳۰۳ (۲۴۹)/ يطعمه ۱/ ۳۰۴ (۲۵۳)/ فضّلنا/ ۱/ ۳۰۸ (۲۵۴)/ خلّة/ ۱/ ۳۱۰ (۲۵۵)/ سنة/ ۱/ ۳۱۱/ كرسيّه ۱/ ۳۱۲/ يؤده ۱/ ۳۱۲/ العلىّ ۱/ ۳۱۲ (۲۵۶)/ الرّشد/ ۱/ ۳۱۶/ الغىّ ۱/ ۳۱۶ (۲۵۸)/ فبهت ۱/ ۳۱۸ (۲۵۹)/ خاوية/ ۱/ ۳۲۰/ عروشها/ ۱/ ۳۲۰/ ننشزها/ ۱/ ۳۲۱/ يتسنّه ۱/ ۳۲۱ (۲۶۰)/ ليطمئنّ ۱/ ۳۲۴/ فصرهنّ ۱/ ۳۲۴ (۲۶۱)/ حبّة/ ۱/ ۳۲۶ (۲۶۴)/ رئاء/ ۱/ ۳۲۷/ صفوان ۱/ ۳۲۷/ صلدا/ ۱/ ۳۲۷ (۲۶۵)/ جنّة/ ۱/ ۳۲۸/ بربوة/ ۱/ ۳۲۸/ وابل ۱/ ۳۲۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۰۶

/ طلّ ۱/ ۳۲۸ (۲۶۶)/ إعصار/ ۱/ ۳۳۰ (۲۶۷)/ تيمّموا/ ۱/ ۳۳۱/ تغمضوا/ ۱/ ۳۳۲ (۲۶۹)/ الحكمة/ ۱/ ۳۳۲ (۲۷۱)/ فنعمّا/ ۱/ ۳۳۳ (۲۷۵)/ الرّبا/ ۱/ ۳۳۸/ يتخبّطه ۱/ ۳۳۹ (۲۸۰)/ فنظرة/ ۱/ ۳۴۲ (۲۸۲)/ تداينتم ۱/ ۳۴۴/ سفيها/ ۱/ ۳۴۴/ تضلّ ۱/ ۳۴۶/ تسأموا/ ۱/ ۳۴۶/ أقسط/ ۱/ ۳۴۷/ فرهان ۱/ ۳۴۸ (۲۸۶)/ لا يكلّف ۱/ ۳۵۳/ إصرا/ ۱/ ۳۵۴

سورة آل عمران (۳)

(۳)/ بالحقّ ۱/ ۳۵۸ (۴)/ ذو انتقام ۱/ ۳۵۸ (۶)/ يصوّركم ۱/ ۳۵۹ (۷)/ محكمات ۱/ ۳۶۰/ متشابهات ۱/ ۳۶۰/ زيغ ۱/ ۳۶۱ (۱۱)/ كدأب ۱/ ۳۶۸ (۱۴)/ الشّهوات ۱/ ۳۷۱/ المسوّمة/ ۱/ ۳۷۱/ المآب ۱/ ۳۷۱ (۱۷)/ بالأسحار/ ۱/ ۳۷۲ (۱۹)/ شهد/ ۱/ ۳۷۳ (۲۰)/ حاجّوك ۱/ ۳۷۴ (۲۶)/ اللّهمّ ۱/ ۳۷۸/ و تعزّ/ ۱/ ۳۷۹ (۲۷)/ تولج ۱/ ۳۷۹ (۲۸)/ تقاة/ ۱/ ۳۸۰ (۳۰)/ أمدا/ ۱/ ۳۸۱ (۳۳)/ اصطفى ۱/ ۳۸۳ (۳۵)/ محرّرا/ ۱/ ۳۸۴ (۳۷)/ أنبتها/ ۱/ ۳۸۴/ و كفلها/ ۱/ ۳۸۵/ المحراب ۱/ ۳۸۵ (۳۸)/ هنالك ۱/ ۳۸۶ (۳۹)/ بكلمة من اللّه ۱/ ۳۸۷/ سيّدا/ ۱/ ۳۸۷/ حصورا/ ۱/ ۳۸۷ (۴۱)/ رمزا/ ۱/ ۳۸۸ (۴۴)/ أقلامهم ۱/ ۳۸۸ (۴۵)/ المسيح ۱/ ۳۹۱/ عيسى ۱/ ۳۹۱ (۴۹)/ الأكمه ۱/ ۳۹۲ (۵۲)/ أحسّ ۱/ ۳۹۴/ الحواريّون ۱/ ۳۹۵ (۵۴)/ و مكر اللّه ۱/ ۳۹۵ (۵۵)/ متوفّيك ۱/ ۳۹۵ (۶۱)/ تعالوا/ ۱/ ۳۹۸/ نبتهل ۱/ ۳۹۸ (۶۲)/ القصص ۱/ ۳۹۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۰۷

(۶۴)/ سواء/ ۱/ ۳۹۹ (۶۶)/ ها أنتم ۱/ ۴۰۰ (۶۸)/ أولى النّاس ۱/ ۴۰۱ (۷۲)/ وجه النّهار/ ۱/ ۴۰۲ (۷۸)/ يلوون ۱/ ۴۰۶/ ربّانيّين ۱/ ۴۰۷ (۸۱)/ إصرى ۱/ ۴۰۹ (۸۴)/ مسلمون ۱/ ۴۱۰ (۸۸)/ ينظرون ۱/ ۴۱۱ (۹۱)/ ملء/ ۱/ ۴۱۱ (۹۳)/ كلّ الطّعام ۱/ ۴۱۳ (۹۶)/ بكّة/ ۱/ ۴۱۵ (۹۹)/ تصدّون ۱/ ۴۲۰/ عوجا/ ۱/ ۴۲۰ (۱۰۱)/ يعتصم باللّه ۱/ ۴۲۰ (۱۰۳)/ بحبل اللّه ۱/ ۴۲۱ (۱۱۰)/ كنتم ۱/ ۴۲۵ (۱۱۲)/ و باءوا بغضب ۱/ ۴۲۶ (۱۱۴)/ و يسارعون ۱/ ۴۲۸ (۱۱۸)/ بطانة/ ۱/ ۴۳۰/ لا يألونكم ۱/ ۴۳۰/ خبالا/ ۱/ ۴۳۱/ ودّوا ما عنتّم ۱/ ۴۳۱ (۱۲۱)/ تبوّئ ۱/ ۴۳۲ (۱۲۵)/ مسوّمين ۱/ ۴۳۳ (۱۲۶)/ بشرى ۱/ ۴۳۳ (۱۲۷)/ طرفا/ ۱/ ۴۳۳ (۱۳۳)/ و سارعوا/ ۱/ ۴۳۶ (۱۳۴)/ و الكاظمين ۱/ ۴۳۷ (۱۳۵)/ و لم يصرّوا/ ۱/ ۴۳۷ (۱۳۷)/ سنن ۱/ ۴۳۹ (۱۴۰)/ قرح ۱/ ۴۴۰/ شهداء/ ۱/ ۴۴۰ (۱۴۱)/ و ليمحّص ۱/ ۴۴۱/ و يمحق ۱/ ۴۴۱ (۱۴۵)/ كتابا مؤجّلا/ ۱/ ۴۴۲ (۱۴۶)/ و كأيّن ۱/ ۴۴۲/ ربّيّون ۱/ ۴۴۳ (۱۵۱)/

الرّعب ۱/ ۴۴۵ (۱۵۲)/ تحسّونهم ۱/ ۴۴۶ (۱۵۳)/ تصعدون ۱/ ۴۴۶/ و لا- تلوون ۱/ ۴۴۷/ غمّا/ ۱/ ۴۴۷ (۱۵۴)/ أمنة/ ۱/ ۴۴۸/ أهمّتهم أنفسهم ۱/ ۴۴۸/ و ليبتلى ۱/ ۴۴۹ (۱۵۶)/ غزّى ۱/ ۴۵۰ (۱۵۹)/ فظّا/ ۱/ ۴۵۱/ غليظ القلب ۱/ ۴۵۱/ لا نفضّوا/ ۱/ ۴۵۱ (۱۶۱)/ أن يغلّ ۱/ ۴۵۲/ توفّى ۱/ ۴۵۲ (۱۶۲)/ باء/ ۱/ ۴۵۲ (۱۶۴)/ من أنفسهم ۱/ ۴۵۲ (۱۶۵)/ مصيبة/ ۱/ ۴۵۴ (۱۶۸)/ فادرءوا/ ۱/ ۴۵۵ (۱۷۱)/ بنعمة من اللّه ۱/ ۴۵۸/ و فضل ۱/ ۴۵۸

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۰۸

(۱۷۳)/ حسبنا/ ۱/ ۴۵۸ (۱۷۴)/ لم يمسسهم ۱/ ۴۵۸ (۱۷۹)/ حتّى يميز/ ۱/ ۴۶۳ (۱۸۵)/ ذائقة/ ۱/ ۴۶۷/ زحزح ۱/ ۴۶۷/ الغرور/ ۱/ ۴۶۷ (۱۸۶)/ لتبلونّ ۱/ ۴۶۸ (۱۸۷)/ فنبذوه ۱/ ۴۶۸ (۱۸۸)/ بمفازة/ ۱/ ۴۶۹ (۱۹۱)/ باطلا/ ۱/ ۴۷۱ (۱۹۲)/ أخزيته ۱/ ۴۷۱ (۱۹۵)/ فاستجاب ۱/ ۴۷۳ (۱۹۶)/ فلا يغرّنّك ۱/ ۴۷۴ (۲۰۰)/ اصبروا و صابروا/ ۱/ ۴۷۵/ و رابطوا/ ۱/ ۴۷۵

سورة النساء (۴)

(۱)/ تساءلون ۱/ ۴۷۹/ و الأرحام ۱/ ۴۸۰- ۴۸۱ (۲)/ اليتامى ۱/ ۴۸۱/ حوبا/ ۱/ ۴۸۲ (۳)/ تعولوا/ ۱/ ۴۸۴ (۴)/ نحلة/ ۱/ ۴۸۵/ هنيئا مريئا/ ۱/ ۴۸۵ (۵)/ قياما/ ۱/ ۴۸۹ (۶)/ آنستم ۱/ ۴۹۰/ إسرافا/ ۱/ ۴۹۱/ و بدارا/ ۱/ ۴۹۱/ حسيبا/ ۱/ ۴۹۱ (۱۰)/ و سيصلون ۱/ ۴۹۴/ سعيرا/ ۱/ ۴۹۴ (۱۲)/ كلالة/ ۱/ ۵۰۰/ غير مضارّ/ ۱/ ۵۰۱ (۱۵)/ اللّاتى ۱/ ۵۰۴/ الفاحشة/ ۱/ ۵۰۴ (۱۶)/ اللّذان ۱/ ۵۰۴ (۱۷)/ بجهالة/ ۱/ ۵۰۵ (۱۹)/ و لا تعضلوهنّ ۱/ ۵۰۷/ بفاحشة/ ۱/ ۵۰۷ (۲۱)/ أفضى ۱/ ۵۰۸ (۲۲)/ و مقتا/ ۱/ ۵۰۸ (۲۳)/ و ربائبكم ۱/ ۵۱۲/ و حلائل ۱/ ۵۱۳ (۲۴)/ و المحصنات ۱/ ۵۱۶/ غير مسافحين ۱/ ۵۱۷ (۲۵)/ طولا/ ۱/ ۵۱۸/ أخدان ۱/ ۵۱۹/ العنت ۱/ ۵۲۱ (۲۹)/ بالباطل ۱/ ۵۲۶/ عدوانا/ ۱/ ۵۲۷ (۳۱)/ مدخلا/ ۱/ ۵۲۸/ كريما/ ۱/ ۵۲۸ (۳۲)/ و لا تتمنّوا/ ۱/ ۵۳۰ (۳۴)/ قوّامون ۱/ ۵۳۱/ قانتات ۱/ ۵۳۱/ حافظات للغيب ۱/ ۵۳۱/ نشوزهنّ ۱/ ۵۳۲/ و اهجروهنّ ۱/ ۵۳۲

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۰۹

/ فى المضاجع ۱/ ۵۳۲ (۳۶)/ إحسانا/ ۱/ ۵۳۵/ الجنب ۱/ ۵۳۶/ و الصّاحب بالجنب ۱/ ۵۳۷ (۳۸)/ قرينا/ ۱/ ۵۳۸ (۴۰)/ مثقال ۱/ ۵۳۸/ ذرّة/ ۱/ ۵۳۸ (۴۳)/ لا تقربوا/ ۱/ ۵۴۰/ سكارى ۱/ ۵۴۰/ جنبا/ ۱/ ۵۴۱/ إلا عابرى سبيل ۱/ ۵۴۱- ۵۴۲/ الغائط/ ۱/ ۵۴۲/ لامستم النساء/ ۱/ ۵۴۲/ فتيمّموا/ ۱/ ۵۴۴/ صعيدا/ ۱/ ۵۴۴/ طيّبا/ ۱/ ۵۴۵ (۴۶)/ ليّا بألسنتهم ۱/ ۵۴۸ (۴۷)/ نطمس ۱/ ۵۴۹ (۴۹)/ فتيلا/ ۱/ ۵۵۱ (۵۱)/ بالجبت ۱/ ۵۵۱ (۵۳)/ نقيرا/ ۱/ ۵۵۲ (۵۵)/ صدّ عنه ۱/ ۵۵۲ (۵۶)/ نضجت ۱/ ۵۵۴ (۵۷)/ ظلّا ظليلا/ ۱/ ۵۵۵ (۵۹)/ تنازعتم ۱/ ۵۵۶/ تأويلا/ ۱/ ۵۵۶ (۶۳)/ قولا بليغا/ ۱/ ۵۵۸ (۶۵)/ شجر/ ۱/ ۵۵۸/ حرجا/ ۱/ ۵۵۸ (۷۱)/ حذركم ۱/ ۵۶۱/ فانفروا/ ۱/ ۵۶۱/ ثبات ۱/ ۵۶۱ (۷۲)/ ليبطّئنّ ۱/ ۵۶۱/ بروج ۱/ ۵۶۴ (۷۸)/ مشيّدة/ ۱/ ۵۶۴ (۸۱)/ برزوا/ ۱/ ۵۶۵/ بيّت ۱/ ۵۶۶ (۸۲)/ يتدبّرون ۱/ ۵۶۷/ اختلافا/ ۱/ ۵۶۷ (۸۴)/ حرّض ۱/ ۵۶۸/ تنكيلا/ ۱/ ۵۶۹ (۸۵)/ يشفع شفاعة/ ۱/ ۵۶۹/ مقيتا/ ۱/ ۵۶۹ (۸۶)/ حيّيتم بتحيّة/ ۱/ ۵۶۹/ حسيبا/ ۱/ ۵۷۰ (۸۸)/ أركسهم ۱/ ۵۷۱ (۹۰)/ يصلون ۱/ ۵۷۲/ حصرت ۱/ ۵۷۲ (۹۱)/ أركسوا/ ۱/ ۵۷۳/ ثقفتموهم ۱/ ۵۷۳/ سلطانا مبينا/ ۱/ ۵۷۳ (۹۲)/ ودية مسلّمة/ ۱/ ۵۷۵ (۹۳)/ متعمّدا/ ۱/ ۵۷۵/ ضربتم ۱/ ۵۷۸ (۹۴)/ فتبيّنوا/ ۱/ ۵۷۸/ السّلم ۱/ ۵۷۸/ عرض ۱/ ۵۷۹ (۹۸)/ حيلة/ ۱/ ۵۸۳

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۱۰

(۱۰۰)/ مراغما/ ۱/ ۵۸۳ (۱۰۱)/ يفتنكم ۱/ ۵۸۶ (۱۰۳)/ كتابا موقوتا/ ۱/ ۵۸۸ (۱۰۴)/ و لا- تهنوا/ ۱/ ۵۸۹ (۱۰۵)/ خصيما/ ۱/ ۵۹۰ (۱۰۷)/ يختانون ۱/ ۵۹۰ (۱۰۸)/ يستخفون ۱/ ۵۹۰ (۱۱۲)/ بهتانا/ ۱/ ۵۹۲- ۵۹۳ (۱۱۴)/ نجواهم ۱/ ۵۹۳ (۱۱۵)/ يشاقق ۱/ ۵۹۴ (۱۱۷)/ إناثا/ ۱/ ۵۹۵/ مريدا/ ۱/ ۵۹۵ (۱۱۹)/ فليبتّكنّ ۱/ ۵۹۶ (۱۲۰)/ غرورا/ ۱/ ۵۹۶ (۱۲۱)/ محيصا/ ۱/ ۵۹۷ (۱۲۲)/ قيلا/

١/ ٥٩٧ (١٢٥)/ خليلا/ ١/ ٥٩٨ (١٢٧)/ يفتيكم ١/ ٥٩٩ (١٢٨)/ نشوزا/ ١/ ٦٠١/ إعراضا/ ١/ ٦٠١ (١٣٥)/ قوّامين ١/ ٦٠٤/ شهداء للّه ١/ ٦٠٤/ تلووا/ ١/ ٦٠٤ (١٤١)/ يتربّصون ١/ ٦٠٨/ نستحوذ/ ١/ ٦٠٨ (١٤٢)/ يخادعون اللّه ١/ ٦١٠ (١٤٣)/ مذبذبين ١/ ٦١٠/ و من يضلل اللّه ١/ ٦١٠ (١٤٥)/ الدّرك ١/ ٦١١ (١٥٣)/ جهرة/ ١/ ٦١٤ (١٥٥)/ غلف ١/ ٦١٥ (١٦٢)/ الرّاسخون ١/ ٦١٨ (١٦٣)/ زبورا/ ١/ ٦٢٠ (١٧١)/ لا تغلوا/ ١/ ٦٢٢ (١٧٢)/ يستنكف ١/ ٦٢٥

سورة المائدة (٥)

(١)/ أوفوا/ ٢/ ٦/ العقود/ ٢/ ٦/ بهيمة الأنعام ٢/ ٦ (٢)/ آمّين ٢/ ٨/ و لا يجرمنّكم ٢/ ٨ (٣)/ و المنخنقة/ ٢/ ١١/ و الموقوذة/ ٢/ ١١/ السّبع ٢/ ١٢/ النّصب ٢/ ١٢/ الأزلام ٢/ ١٣/ مخمصة/ ٢/ ١٤/ متجانف ٢/ ١٤ (٤)/ الطّيّبات ٢/ ١٦/ مكلّبين ٢/ ١٦ (١٢)/ و عزّرتموهم ٢/ ٢٦/ قاسية/ ٢/ ٢٦ (١٣)/ خائنة/ ٢/ ٢٦ (١٩)/ فترة/ ٢/ ٣٠ (٢٢)/ جبّارين ٢/ ٣٢ (٢٥)/ فافرق ٢/ ٣٣ (٢٦)/ يتيهون ٢/ ٣٤

فتح القدير، ج‏٦، ص: ٢١١

(٢٩)/ تبوء/ ٢/ ٣٧ (٣١)/ يا ويلتى ٢/ ٣٧ (٣٣)/ خزى ٢/ ٤٣ (٣٥)/ الوسيلة/ ٢/ ٤٤ (٣٨)/ نكالا/ ٢/ ٤٦ (٤١)/ لا يحزنك ٢/ ٤٧/ يحرّفون الكلم ٢/ ٤٨ (٤٢)/ للسّحت ٢/ ٤٨ (٤٨)/ و مهيمنا/ ٢/ ٥٥/ شرعة/ ٢/ ٥٦/ و منهاجا/ ٢/ ٥٦ (٥٢)/ دائرة/ ٢/ ٥٨ (٥٤)/ أذلّة/ ٢/ ٥٩ (٥٩)/ تنقمون ٢/ ٦٢ (٦٠)/ مثوبة/ ٢/ ٦٣ (٦٤)/ مغلولة/ ٢/ ٦٦/ مبسوطتان ٢/ ٦٦ (٧٥)/ صدّيقة/ ٢/ ٧٤/ يؤفكون ٢/ ٧٤ (٨٢)/ قسّيسين ٢/ ٧٧/ و رهبانا/ ٢/ ٧٨ (٨٩)/ عقّدتم ٢/ ٨١/ فكفّارته ٢/ ٨٢/ كسوتهم ٢/ ٨٢/ تحرير رقبة/ ٢/ ٨٢ (٩٤)/ ليبلونّكم ٢/ ٨٨ (٩٥)/ متعمّدا/ ٢/ ٨٨/ وبال ٢/ ٨٩ (٩٦)/ و للسّيّارة/ ٢/ ٩٠ (٩٧)/ و القلائد/ ٢/ ٩٠ (١٠١)/ تبد لكم ٢/ ٩٢ (١٠٣)/ بحيرة/ ٢/ ٩٣/ سائبة/ ٢/ ٩٣- ٩٤/ وصيلة/ ٢/ ٩٤/ حام ٢/ ٩٤ (١٠٥)/ عليكم أنفسكم ٢/ ٩٦ (١٠٦)/ تحبسونهما/ ٢/ ٩٩ (١٠٧)/ عثر/ ٢/ ١٠٠ (١١٠)/ أيّدتك ٢/ ١٠٤ (١١٣)/ و تطمئنّ قلوبنا/ ٢/ ١٠٦ (١١٦)/ سبحانك ٢/ ١٠٨ (١١٧)/ شهيدا/ ٢/ ١٠٨/ توفّيتنى ٢/ ١٠٨

سورة الأنعام (٦)

(٢)/ تمترون ٢/ ١١٣ (٦)/ مكّنّاهم ٢/ ١١٥/ مدرارا/ ٢/ ١١٦ (٩)/ و للبسنا/ ٢/ ١١٦ (١٠)/ فحاق ٢/ ١٢٧ (١٢)/ ليجمعنّكم ٢/ ١١٨ (١٨)/ القاهر/ ٢/ ١٢٠ (٢١)/ افترى ٢/ ١٢١ (٢٤)/ ضلّ ٢/ ١٢٣ (٢٥)/ أكنّة/ ٢/ ١٢٣/ وقرا/ ٢/ ١٢٣/ أساطير الأوّلين ٢/ ١٢٣ (٢٦)/ و ينأون ٢/ ١٢٤

فتح القدير، ج‏٦، ص: ٢١٢

(٣١)/ السّاعة/ ٢/ ١٢٦/ بغتة/ ٢/ ١٢٦/ يا حسرتنا/ ٢/ ١٢٦/ فرّطنا/ ٢/ ١٢٦/ أوزارهم ٢/ ١٢٧ (٣٥)/ نفقا/ ٢/ ١٢٨/ سلّما/ ٢/ ١٢٨ (٣٨)/ دابّة/ ٢/ ١٣٠/ بجناحيه ٢/ ١٣٠/ أمم ٢/ ١٣٠/ ما فرّطنا/ ٢/ ١٣٠ (٤٠)/ أرأيتكم ٢/ ١٣٢/ بالبأساء/ ٢/ ١٣٢ (٤٣)/ و الضّرّاء/ ٢/ ١٣٢/ يتضرّعون ٢/ ١٣٢ (٤٤)/ بغتة/ ٢/ ١٣٣/ مبلسون ٢/ ١٣٣ (٤٥)/ دابر/ ٢/ ١٣٣ (٤٦)/ يصدفون ٢/ ١٣٤ (٥٢)/ يدعون ٢/ ١٣٦ (٥٣)/ فتنّا/ ٢/ ١٣٦/ منّ ٢/ ١٣٦ (٥٤)/ بجهالة/ ٢/ ١٣٧/ نفصّل ٢/ ١٣٧/ و لتستبين ٢/ ١٣٧ (٥٦)/ ضللت ٢/ ١٣٩ (٥٧)/ بيّنة/ ٢/ ١٣٩/ يقصّ ٢/ ١٤٠ (٥٩)/ مفاتح الغيب ٢/ ١٤٠ (٦٠)/ يتوفّاكم باللّيل ٢/ ١٤١/ جرحتم ٢/ ١٤٢ (٦١)/ لا يفرّطون ٢/ ١٤٢ (٦٢)/ مولاهم ٢/ ١٤٢ (٦٤)/ ظلمات البرّ و البحر/ ٢/ ١٤٣/ خفية/ ٢/ ١٤٣/ الكرب ٢/ ١٤٣ (٦٥)/ يلبسكم شيعا/ ٢/ ١٤٤ (٦٦)/

بوكيل ٢/ ١۴۵ (۶۷)/ لكل نبأ مستقرّ/ ٢/ ١۴۶ (۶۹)/ ذكرى ٢/ ١۴۷ (٧٠)/ ذر/ ٢/ ١۴۷/ تبسل ٢/ ١۴۷/ و إن تعدل ٢/ ١۴۷/ من حميم ٢/ ١۴٨ (٧١)/ استهوته ٢/ ١۴٨ (٧٣)/ الصّور/ ٢/ ١۴٩ (٧۴)/ آزر/ ٢/ ١۵١ (٧۵)/ ملكوت ٢/ ١۵٢ (٧۶)/ جنّ ٢/ ١۵٢/ أفل ٢/ ١۵٢ (٧٧)/ بازغا/ ٢/ ١۵٣ (٨٧)/ و اجتبيناهم ٢/ ١۵۶ (٩٠)/ اقتده ٢/ ١۵٧ (٩١)/ قدروا/ ٢/ ١۵٨ (٩٣)/ الهون ٢/ ١۶٠ (٩۴)/ فرادى ٢/ ١۶٠/ خوّلناكم ٢/ ١۶٠ (٩۵)/ فالق الحبّ ٢/ ١۶٢

فتح القدير، ج۶، ص: ٢١٣

(٩۶)/ سكنا/ ٢/ ١۶٣/ حسبانا/ ٢/ ١۶٣ (٩٨)/ فصّلنا/ ٢/ ١۶٣/ فمستقرّ/ ٢/ ١۶۴/ و مستودع ٢/ ١۶۴ (٩٩)/ خضرا/ ٢/ ١۶۴/ متراكبا/ ٢/ ١۶۴/ طلعها/ ٢/ ١۶۴/ قنوان ٢/ ١۶۴/ دانية/ ٢/ ١۶۴/ مشتبها/ ٢/ ١۶۵/ وينعه ٢/ ١۶۵ (١٠٠)/ و خرقوا/ ٢/ ١۶٨ (١٠٣)/ لا تدركه ٢/ ١۶٩/ الأبصار/ ٢/ ١۶٩/ اللّطيف ٢/ ١۶٩ (١٠۴)/ بصائر/ ٢/ ١٧٠ (١٠۵)/ درست ٢/ ١٧٠ (١١٠)/ نذرهم ٢/ ١٧۴ (١١١)/ قبلا/ ٢/ ١٧۴ (١١٢)/ غرورا/ ٢/ ١٧۴ (١١٣)/ تصغى ٢/ ١٧۵/ و ليقترفوا/ ٢/ ١٧۵ (١١۴)/ مفصّلا/ ٢/ ١٧۶ (١١۶)/ يخرصون ٢/ ١٧٧ (١١٩)/ فصّل ٢/ ١٧٨ (١٢٢)/ ميتا/ ٢/ ١٨١/ نورا/ ٢/ ١٨١ (١٢٣)/ أكابر/ ٢/ ١٨١ (١٢۴)/ صغار/ ٢/ ١٨١ (١٢۵)/ يشرح ٢/ ١٨٢/ ضيّقا/ ٢/ ١٨٢/ حرجا/ ٢/ ١٨٣/ يصّعّد/ ٢/ ١٨٣/ الرّجس ٢/ ١٨٣ (١٢٨)/ يا معشر/ ٢/ ١٨٣/ استمتع ٢/ ١٨٣/ مثواكم ٢/ ١٨۴ (١٣٢)/ بغافل ٢/ ١٨۶ (١٣۴)/ بمعجزين ٢/ ١٨٧ (١٣۵)/ مكانتكم ٢/ ١٨٧ (١٣۶)/ ذرأ/ ٢/ ١٨٧/ بزعمهم ٢/ ١٨٧ (١٣٨)/ حجر/ ٢/ ١٩٠ (١٣٩)/ خالصة/ ٢/ ١٩٠ (١۴١)/ أنشأ/ ٢/ ١٩١/ معروشات ٢/ ١٩١ (١۴٢)/ حمولة/ ٢/ ١٩٢/ و فرشا/ ٢/ ١٩٢ (١۴٣)/ أزواج ٢/ ١٩۴/ الضّأن ٢/ ١٩۴/ المعز/ ٢/ ١٩۴ (١۴۶)/ ظفر/ ٢/ ١٩٧/ الحوايا/ ٢/ ١٩٨ (١۴٨)/ تخرصون ٢/ ٢٠٠ (١۵٠)/ هلمّ ٢/ ٢٠٠ (١۵١)/ إملاق ٢/ ٢٠١ (١۵٢)/ أشدّه ٢/ ٢٠٢

فتح القدير، ج۶، ص: ٢١۴

/ وسعها/ ٢/ ٢٠٢ (١۵٣)/ فتفرّق ٢/ ٢٠٣ (١۵٧)/ صدف ٢/ ٢٠۵ (١۵٩)/ فرّقوا دينهم ٢/ ٢٠٨ (١۶١)/ قيما/ ٢/ ٢١٠ (١۶٢)/ و نسكى ٢/ ٢١٠ (١۶۴)/ و لا تزر وازرة/ ٢/ ٢١١ (١۶۵)/ خلائف ٢/ ٢١٢

سورة الأعراف (٧)

(٢)/ حرج ٢/ ٢١٣ (۴)/ بياتا/ ٢/ ٢١۴/ قائلون ٢/ ٢١۴ (۵)/ دعواهم ٢/ ٢١۵ (١٠)/ معايش ٢/ ٢١٧ (١٣)/ من الصّاغرين ٢/ ٢١٨ (١۴)/ أنظرنى ٢/ ٢١٩ (١۶)/ أغويتنى ٢/ ٢١٩ (١٨)/ مذءوما/ ٢/ ٢١٩/ مدحورا/ ٢/ ٢١٩ (٢٠)/ فوسوس ٢/ ٢٢١/ ورى ٢/ ٢٢٢/ سوآتهما/ ٢/ ٢٢٢ (٢١)/ و قاسمهما/ ٢/ ٢٢٢ (٢٢)/ فدلّاهما/ ٢/ ٢٢٢/ و طفقا/ ٢/ ٢٢٣/ يخصفان ٢/ ٢٢٣ (٢۶)/ و ريشا/ ٢/ ٢٢۴/ لباس التّقوى ٢/ ٢٢۴ (٢٧)/ قبيله ٢/ ٢٢۵ (٢٨)/ فاحشة/ ٢/ ٢٢۶ (٢٩)/ بالقسط/ ٢/ ٢٢۶ (٣٣)/ الإثم ٢/ ٢٢٩ (٣٨)/ ادّاركوا/ ٢/ ٢٣٢/ ضعفا/ ٢/ ٢٣٢ (۴٠)/ يلج ٢/ ٢٣۴/ الجمل ٢/ ٢٣۴/ فى سمّ ٢/ ٢٣۴ (۴١)/ مهاد/ ٢/ ٢٣۴/ غواش ٢/ ٢٣۴ (۴۶)/ حجاب ٢/ ٢٣۶ (۴۶)/ الأعراف ٢/ ٢٣۶/ بسيماهم ٢/ ٢٣٧ (۴٧)/ تلقاء/ ٢/ ٢٣٧ (۵٠)/ أفيضوا/ ٢/ ٢٣٩ (۵٣)/ ينظرون ٢/ ٢٣٩ (۵۴)/ استوى ٢/ ٢۴٠/ العرش ٢/ ٢۴١/ يغشى ٢/ ٢۴١/ حثيثا/ ٢/ ٢۴١/ تبارك ٢/ ٢۴١ (۵۵)/ تضرّعا/ ٢/ ٢۴٣/ و خفية/ ٢/ ٢۴٣ (۵۶)/ خوفا/ ٢/ ٢۴٣/ و طمعا/ ٢/ ٢۴٣ (۵٧)/ الرّياح ٢/ ٢۴۴/ بشرا/ ٢/ ٢۴۴/ أقلّت ٢/ ٢۴۴

فتح القدير، ج۶، ص: ٢١۵

(۵٨)/ نكدا/ ٢/ ٢۴۵ (۶٠)/ الملأ/ ٢/ ٢۴٧ (۶٢)/ و أنصح ٢/ ٢۴٧ (٧١)/ رجس ٢/ ٢۴٩ (٧۴)/ و لا تعثوا/ ٢/ ٢۵١ (٧٧)/ فعقروا النّاقة/ ٢/ ٢۵١/ و عتوا/ ٢/ ٢۵١ (٧٨)/ الرّجفة/ ٢/ ٢۵١ (٨٣)/ من الغابرين ٢/ ٢۵٣ (٨۵)/ و لا تبخسوا/ ٢/ ٢۵٣ (٨۶)/ و تصدّون ٢/ ٢۵۵ (٨٩)/ افتح ٢/ ٢۵٧ (٩٢)/ لم يغنوا/ ٢/ ٢۵٧ (٩٣)/ آسى ٢/ ٢۵٧ (٩۵)/ حتى عفوا/ ٢/ ٢۵٩ (٩٧)/ بياتا/ ٢/ ٢۵٩ (٩٨)/

ضحى ۲/ ۲۶۰ (۱۰۳)/ و ملائه ۲/ ۲۶۲ (۱۰۵)/ حقيق ۲/ ۲۶۳ (۱۱۱)/ أرجه ۲/ ۲۶۴ (۱۱۷)/ تلقف ۲/ ۲۶۵/ يأفكون ۲/ ۲۶۵ (۱۲۳)/ لمكر/ ۲/ ۲۶۷ (۱۲۶)/ تنقم ۲/ ۲۶۷/ أفرغ ۲/ ۲۶۷ (۱۲۷)/ قاهرون ۲/ ۲۶۸ (۱۳۰)/ بالسّنين ۲/ ۲۷۰ (۱۳۱)/ يطّيّروا/ ۲/ ۲۷۰ (۱۳۳)/ الطّوفان ۲/ ۲۷۱/ و القمّل ۲/ ۲۷۱/ مفصّلات ۲/ ۲۷۱ (۱۳۴)/ الرّجز/ ۲/ ۲۷۱ (۱۳۵)/ ينكثون ۲/ ۲۷۲ (۱۳۶)/ فی اليمّ ۲/ ۲۷۲ (۱۳۷)/ يستضعفون ۲/ ۲۷۳/ تمّت ۲/ ۲۷۴/ و دمّرنا/ ۲/ ۲۷۴/ يعرشون ۲/ ۲۷۴ (۱۳۸)/ و جاوزنا/ ۲/ ۲۷۴/ يعكفون ۲/ ۲۷۴ (۱۳۹)/ متبر/ ۲/ ۲۷۴ (۱۴۳)/ تجلّى ۲/ ۲۷۷/ دكّاء/ ۲/ ۲۷۷/ صعقا/ ۲/ ۲۷۷ (۱۴۵)/ فی الألواح ۲/ ۲۷۸ (۱۴۶)/ الرّشد/ ۲/ ۲۷۹ (۱۴۸)/ من حليّهم ۲/ ۲۸۲/ خوار/ ۲/ ۲۸۲ (۱۴۹)/ سقط فی أيديهم ۲/ ۲۸۲ (۱۵۰)/ أسفا/ ۲/ ۲۸۳/ أعجلتم ۲/ ۲۸۳/ فلا تشمت ۲/ ۲۸۳ (۱۵۲)/ نجزی المفترين ۲/ ۲۸۵ (۱۵۴)/ سكت ۲/ ۲۸۵ (۱۵۷)/ الأمّی ۲/ ۲۸۷/ إصرهم ۲/ ۲۸۸/ و عزّروه ۲/ ۲۸۸ (۱۶۰)/ قطّعناهم ۲/ ۲۹۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۱۶

/ أسباطا/ ۲/ ۲۹۱/ فانبجست ۲/ ۲۹۱/ و ظلّلنا/ ۲/ ۲۹۱ (۱۶۳)/ يعدون ۲/ ۲۹۲/ حيتانهم ۲/ ۲۹۲/ شرّعا/ ۲/ ۲۹۲ (۱۶۵)/ بئيس ۲/ ۲۹۳ (۱۶۶)/ عتوا/ ۲/ ۲۹۳ (۱۶۷)/ تأذّن ۲/ ۲۹۶ (۱۶۹)/ خلف ۲/ ۲۹۶ (۱۷۰)/ يمسّكون ۲/ ۲۹۷ (۱۷۱)/ نتقنا/ ۲/ ۲۹۸/ ظلّة/ ۲/ ۲۹۸ (۱۷۵)/ فانسلخ ۲/ ۳۰۲/ فأتبعه ۲/ ۳۰۲ (۱۷۶)/ أخلد/ ۲/ ۳۰۲/ يلهث ۲/ ۳۰۲ (۱۸۰)/ يلحدون ۲/ ۳۰۵ (۱۸۲)/ سنستدرجهم ۲/ ۳۰۸ (۱۸۳)/ كيدی ۲/ ۳۰۹/ متين ۲/ ۳۰۹ (۱۸۷)/ السّاعة/ ۲/ ۳۱۱/ مرساها/ ۲/ ۳۱۱/ لا يجلّيها/ ۲/ ۳۱۱/ حفیّ عنها/ ۲/ ۳۱۱ (۱۸۹)/ ليسكن إليها/ ۲/ ۳۱۲/ تغشّاها/ ۲/ ۳۱۲/ أثقلت ۲/ ۳۱۲/ فمرّت به ۲/ ۳۱۲ (۱۹۳)/ لا يتّبعوكم ۲/ ۳۱۶ (۱۹۵)/ يبطشون ۲/ ۳۱۶/ كيدونی ۲/ ۳۱۷/ فلا تنظرون ۲/ ۳۱۷ (۱۹۹)/ بالعرف ۲/ ۳۱۸ (۲۰۰)/ ينزغنّك نزغ ۲/ ۳۱۸ (۲۰۱)/ طائف ۲/ ۳۱۸ (۲۰۲)/ يقصرون ۲/ ۳۱۹ (۲۰۳)/ بصائر/ ۲/ ۳۱۹ (۲۰۵)/ و خيفة/ ۲/ ۳۱۹/ الآصال ۲/ ۳۲۰

سورة الأنفال (۸)

(۱)/ الأنفال ۲/ ۳۲۳ (۲)/ وجلت ۲/ ۳۲۶ (۷)/ الشّوكة/ ۲/ ۳۲۹/ دابر/ ۲/ ۳۲۹ (۹)/ تستغيثون ۲/ ۳۳۰ (۱۱)/ أمنة/ ۲/ ۳۳۲ (۱۲)/ بنان ۲/ ۳۳۳ (۱۳)/ شاقّوا/ ۲/ ۳۳۳ (۱۵)/ زحفا/ ۲/ ۳۳۵ (۱۶)/ متحرّفا/ ۲/ ۳۳۶ (۱۹)/ تستفتحوا/ ۲/ ۳۳۹ (۲۶)/ يتخطّفكم ۲/ ۳۴۴ (۲۹)/ فرقانا/ ۲/ ۳۴۵ (۳۰)/ ليثبتوك ۲/ ۳۴۶/ و يمكرون ۲/ ۳۴۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۱۷

(۳۵)/ مكاء/ ۲/ ۳۴۹/ و تصدية/ ۲/ ۳۴۹ (۳۷)/ فيركمه ۲/ ۳۵۰ (۴۲)/ العدوة/ ۲/ ۳۵۵/ الدّنيا/ ۲/ ۳۵۵/ القصوى ۲/ ۳۵۵ (۴۵)/ لقيتم فئة/ ۲/ ۳۵۹/ تذهب ريحكم ۲/ ۳۵۹ (۴۸)/ جار لكم ۲/ ۳۶۰/ نكص ۲/ ۳۶۰ (۵۱)/ و أدبارهم ۲/ ۳۶۲ (۵۲)/ كدأب ۲/ ۳۶۳ (۵۷)/ تثقفنّهم ۲/ ۳۶۴/ فشرّد/ ۲/ ۳۶۵ (۵۸)/ سواء/ ۲/ ۳۶۵ (۶۰)/ رباط الخيل ۲/ ۳۶۶ (۶۱)/ جنحوا/ ۲/ ۳۶۷ (۶۵)/ حرّض ۲/ ۳۷۰ (۶۷)/ أسرى ۲/ ۳۷۱/ يثخن ۲/ ۳۷۱

سورة التوبة (براءة) (۹)

(۱)/ براءة/ ۲/ ۳۷۹/ فسيحوا/ ۲/ ۳۸۰ (۳)/ و أذان ۲/ ۳۸۰ (۴)/ و لم يظاهروا/ ۲/ ۳۸۴ (۵)/ انسلخ ۲/ ۳۸۴/ و احصروهم ۲/ ۳۸۵/ مرصد/ ۲/ ۳۸۵ (۶)/ استجارك ۲/ ۳۸۵ (۸)/ لا يرقبوا/ ۲/ ۳۸۷/ إلّا/ ۲/ ۳۸۷ (۱۲)/ نكثوا/ ۲/ ۳۸۹ (۱۶)/ وليجة/ ۲/ ۳۹۰ (۲۴)/ و عشيرتكم ۲/ ۳۹۵/ كسادها/ ۲/ ۳۹۵ (۲۵)/ مواطن ۲/ ۳۹۶/ رحبت ۲/ ۳۹۷ (۲۸)/ نجس ۲/ ۳۹۸/ عيلة/ ۲/ ۳۹۹/ الجزية/ ۲/ ۴۰۰/

عن يد/ ۲/ ۴۰۰/ صاغرون ۲/ ۴۰۱ (۳۰)/ يضاهئون ۲/ ۴۰۳/ قـاتلهم اللّه ۲/ ۴۰۳ (۳۱)/ أحبارهم ۲/ ۴۰۳/ و رهبانهم ۲/ ۴۰۳/ سبحانه ۲/ ۴۰۴ (۳۴)/ يكنزون ۲/ ۴۰۶ (۳۶)/ كافّة/ ۲/ ۴۱۰ (۳۷)/ النّسىء/ ۲/ ۴۱۰/ يواطئوا/ ۲/ ۴۱۱ (۳۸)/ اثّاقلتم/ ۲/ ۴۱۲ (۴۰)/ سكينته ۲/ ۴۱۳ (۴۱)/ خفافا/ ۲/ ۴۱۴/ و ثقالا/ ۲/ ۴۱۴ (۴۲)/ عرضا/ ۲/ ۴۱۴/ الشّقّة/ ۲/ ۴۱۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۱۸

(۴۵)/ يتردّدون ۲/ ۴۱۷ (۴۶)/ انبعاثهم ۲/ ۴۱۸/ فثبّطهم ۲/ ۴۱۸ (۴۷)/ و لأوضعوا/ ۲/ ۴۱۸/ خلالكم ۲/ ۴۱۸ (۵۵)/ و تزهق ۲/ ۴۲۲ (۵۷)/ مغارات ۲/ ۴۲۲/ مدّخلا/ ۲/ ۴۲۲/ يجمحون ۲/ ۴۲۲ (۵۸)/ يلمزك ۲/ ۴۲۳ (۶۱)/ هو أذن ۲/ ۴۲۸ (۶۹)/ بخلاقهم ۲/ ۴۳۳/ و خضتم ۲/ ۴۳۳ (۷۹)/ يلمزون ۲/ ۴۳۹ (۸۱)/ المخلّفون ۲/ ۴۴۱/ بمقعدهم ۲/ ۴۱۱ (۸۳)/ مع الخالفين ۲/ ۴۴۲ (۸۶)/ أولوا الطّول ۲/ ۴۴۴ (۸۸)/ الخيرات ۲/ ۴۴۵ (۹۰)/ المعذّرون ۲/ ۴۴۵ (۹۱)/ نصحوا/ ۲/ ۴۴۶ (۹۷)/ الأعراب ۲/ ۴۵۰/ و أجدر/ ۲/ ۴۵۰ (۹۸)/ مغرما/ ۲/ ۴۵۱/ الدّوائر/ ۲/ ۴۵۱ (۹۹)/ قربات ۲/ ۴۵۱ (۱۰۱)/ مردوا/ ۲/ ۴۵۳ (۱۰۶)/ مرجون ۲/ ۴۵۵ (۱۰۷)/ ضرارا/ ۲/ ۴۵۸ (۱۰۸)/ أسّس ۲/ ۴۵۹ (۱۰۹)/ شفا/ ۲/ ۴۵۹/ فانهار/ ۲/ ۴۶۰/ جرف ۲/ ۴۶۰/ هار/ ۲/ ۴۶۰ (۱۱۰)/ ريبة/ ۲/ ۴۶۰ (۱۱۲)/ التّائبون ۲/ ۴۶۴/ السّائحون ۲/ ۴۶۵ (۱۱۴)/ لأوّاه ۲/ ۴۶۷ (۱۱۷)/ يزيغ ۲/ ۴۷۰ (۱۱۸)/ رحبت ۲/ ۴۷۰ (۱۲۰)/ موطئا/ ۲/ ۴۷۲ (۱۲۲)/ طائفة/ ۲/ ۴۷۴ (۱۲۵)/ رجسا/ ۲/ ۴۷۵ (۱۲۸)/ عنتّم ۲/ ۴۷۶

سورة يونس (۱۰)

(۲)/ قدم صدق ۲/ ۴۸۰ (۷)/ لا يرجون ۲/ ۴۸۵ (۱۱)/ يعمهون ۲/ ۴۸۷ (۱۶)/ أدراكم ۲/ ۴۹۰ (۲۲)/ و جرين ۲/ ۴۹۴ (۲۴)/ لم تغن ۲/ ۴۹۸ (۲۵)/ دار السّلام ۲/ ۴۹۸ (۲۶)/ الحسنى ۲/ ۴۹۸/ و لا يرهق ۲/ ۴۹۹/ قتر/ ۲/ ۴۹۹ (۲۸)/ فزيّلنا/ ۲/ ۵۰۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۱۹

(۳۳)/ فسقوا/ ۲/ ۵۰۵ (۵۰)/ بياتا/ ۲/ ۵۱۳ (۵۴)/ أسرّوا/ ۲/ ۵۱۴ (۶۱)/ شأن ۲/ ۵۱۸/ تفيضون ۲/ ۵۱۸/ يعزب ۲/ ۵۱۹ (۶۶)/ يخرصون ۲/ ۵۲۳ (۷۱)/ مقامى ۲/ ۵۲۵/ فأجمعوا/ ۲/ ۵۲۵/ غمّة/ ۲/ ۵۲۵/ اقضوا/ ۲/ ۵۲۶ (۷۸)/ لتلفتنا/ ۲/ ۵۲۸ (۸۷)/ تبوّءا/ ۲/ ۵۳۰ (۹۰)/ و جاوزنا/ ۲/ ۵۳۳ (۹۱)/ بغيا/ ۲/ ۵۳۳/ و عدوا/ ۲/ ۵۳۳ (۹۲)/ ببدنك ۲/ ۵۳۴ (۹۳)/ بوّأنا/ ۲/ ۵۳۷ (۱۰۱)/ و النّذر/ ۲/ ۵۴۱

سورة هود (۱۱)

(۱)/ أحكمت ۲/ ۵۴۵ (۳)/ يمتّعكم ۲/ ۵۴۶ (۵)/ يثنون ۲/ ۵۴۶/ يستغشون ۲/ ۵۴۷ (۶)/ مستقرّها/ ۲/ ۵۴۷/ و مستودعها/ ۲/ ۵۴۷ (۱۵)/ لا يبخسون ۲/ ۵۵۳ (۲۲)/ لا جرم ۲/ ۵۵۷ (۲۳)/ أخبتوا/ ۲/ ۵۵۸ (۲۸)/ أراذلنا/ ۲/ ۵۶۰/ فعمّيت ۲/ ۵۶۰ (۳۱)/ تزدرى ۲/ ۵۶۲ (۳۴)/ يغويكم ۲/ ۵۶۲ (۳۵)/ إجرامى ۲/ ۵۶۳ (۳۶)/ فلا تبتئس ۲/ ۵۶۴ (۴۰)/ و فـار التّنّور/ ۲/ ۵۶۵ (۴۲)/ معزل ۲/ ۵۶۷ (۴۳)/ يعصمنى ۲/ ۵۶۷ (۴۴)/ أقلعى ۲/ ۵۶۸/ غيض ۲/ ۵۶۸/ الجوديّ ۲/ ۵۶۸ (۵۲)/ مدرارا/ ۲/ ۵۷۳ (۵۹)/ جبّار/ ۲/ ۵۷۴/ عنيد/ ۲/ ۵۷۴ (۶۰)/ بعدا/ ۲/ ۵۷۴ (۶۱)/ استعمركم ۲/ ۵۷۶ (۶۳)/ تخسير/ ۲/ ۵۷۶ (۶۷)/ جاثمين ۲/ ۵۷۷ (۶۹)/ حنيذ/ ۲/ ۵۷۸ (۷۰)/ نكرهم ۲/ ۵۷۸ (۷۱)/ فضحكت ۲/ ۵۷۹ (۷۷)/ سىء بهم ۲/ ۵۸۲/ ذرعا/ ۲/ ۵۸۲/ عصيب ۲/ ۵۸۲ (۷۸)/ يهرعون ۲/ ۵۸۲/ فى ضيفى ۲/ ۵۸۳/ فأسر/ ۲/ ۵۸۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۲۰

/ سجّيل ۲/ ۵۸۵/ منضود/ ۲/ ۵۸۵ (۸۳)/ مسوّمة/ ۲/ ۵۸۵ (۸۸)/ أنيب ۲/ ۵۸۹ (۸۹)/ شقاقی ۲/ ۵۸۹ (۹۰)/ ودود/ ۲/ ۵۸۹ (۹۱)/ رهطك ۲/ ۵۹۰/ لرجمناك ۲/ ۵۹۰ (۹۲)/ ظهريّا/ ۲/ ۵۹۰ (۹۸)/ يقدم ۲/ ۵۹۳ (۹۹)/ الرّفد/ ۲/ ۵۹۳ (۱۰۱)/ تتبيب ۲/ ۵۹۴ (۱۰۶)/ زفير/ ۲/ ۵۹۴/ و شهيق ۲/ ۵۹۴ (۱۰۸)/ مجذوذ/ ۲/ ۵۹۶ (۱۱۲)/ و لا- تطغوا/ ۲/ ۶۰۰ (۱۱۳)/ تركنوا/ ۲/ ۶۰۰ (۱۱۴)/ زلفا/ ۲/ ۶۰۲ (۱۱۶)/ أترفوا/ ۲/ ۶۰۵

سورة يوسف (۱۲)

(۳)/ القصص ۳/ ۶ (۶)/ يجتبيك ۳/ ۷ (۸)/ عصبة/ ۳/ ۱۰ (۱۰)/ غيابت ۳/ ۱۰/ الجبّ ۳/ ۱۰/ السّيّارة/ ۳/ ۱۰ (۱۲)/ يرتع ۳/ ۱۲ (۱۴)/ عصبة/ ۳/ ۱۳ (۱۷)/ نستبق ۳/ ۱۳ (۱۸)/ سوّلت ۳/ ۱۴ (۱۹)/ فأدلی دلوه ۳/ ۱۶/ بضاعة/ ۳/ ۱۶ (۲۰)/ و شروه ۳/ ۱۶/ بخس ۳/ ۱۶/ من الزّاهدين ۳/ ۱۷ (۲۱)/ مثواه ۳/ ۱۷ (۲۲)/ أشدّه ۳/ ۱۸ (۲۳)/ و راودته ۳/ ۲۰ (۲۳)/ غلّقت ۳/ ۲۰/ هيت لك ۳/ ۲۰/ لا يفلح ۳/ ۲۱ (۲۴)/ همّت ۳/ ۲۱/ السّوء/ ۳/ ۲۲ (۲۵)/ استبقا/ ۳/ ۲۲/ قدّت ۳/ ۲۲/ ألفيا/ ۳/ ۲۲ (۲۹)/ من الخاطئين ۳/ ۲۳ (۳۰)/ شغفها/ ۳/ ۲۵ (۳۱)/ أعتدت ۳/ ۲۶/ متّكئا/ ۳/ ۲۶/ أكبرنه ۳/ ۲۶/ حاشا للّه ۳/ ۲۷ (۳۲)/ لمتّننی ۳/ ۲۸ (۳۳)/ أصب ۳/ ۲۹ (۳۵)/ بدا/ ۳/ ۳۰ (۴۲)/ بضع سنين ۳/ ۳۶ (۴۳)/ عجاف ۳/ ۳۷

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۲۱

/ تعبرون ۳/ ۳۷ (۴۴)/ أضغاث ۳/ ۳۷ (۴۵)/ و ادّكر/ ۳/ ۳۸/ بعد أمّة/ ۳/ ۳۸ (۴۷)/ دأبا/ ۳/ ۳۸ (۴۸)/ تحصنون ۳/ ۳۹ (۴۹)/ يعصرون ۳/ ۳۹ (۵۱)/ ما خطبكنّ ۳/ ۴۱/ حصحص ۳/ ۴۱ (۵۴)/ أستخلصه ۳/ ۴۲/ مكين ۳/ ۴۲ (۵۹)/ جهّزهم ۳/ ۴۴ (۶۰)/ تقربون ۳/ ۴۵ (۶۵)/ نمير/ ۳/ ۴۷ (۶۹)/ آوی ۳/ ۵۰/ تبتئس ۳/ ۵۰ (۷۰)/ أذّن مؤذّن ۳/ ۵۰/ العير/ ۳/ ۵۰ (۷۲)/ صواع ۳/ ۵۰/ زعيم ۳/ ۵۰ (۷۶)/ كدنا/ ۳/ ۵۱ (۸۰)/ خلصوا نجيّا/ ۳/ ۵۵/ فلن أبرح ۳/ ۵۵ (۸۴)/ يا أسفی ۳/ ۵۷/ كظيم ۳/ ۵۷ (۸۵)/ تفتؤا/ ۳/ ۵۸/ حرضا/ ۳/ ۵۸ (۸۶)/ بثّی ۳/ ۵۹ (۸۷)/ فتحسّسوا/ ۳/ ۵۹ (۸۸)/ مزجاة/ ۳/ ۶۰ (۹۱)/ آثرك ۳/ ۶۲ (۹۲)/ لا تثريب ۳/ ۶۳ (۹۴)/ فصلت ۳/ ۶۳/ تفنّدون ۳/ ۶۳ (۱۰۰)/ البدو/ ۳/ ۶۷/ نزغ ۳/ ۶۸ (۱۰۲)/ نوحيه ۳/ ۶۹ (۱۰۷)/ غاشية/ ۳/ ۷۱

سورة الرعد (۱۳)

(۲)/ عمد/ ۳/ ۷۷ (۳)/ مدّ الأرض ۳/ ۷۷/ رواسی ۳/ ۷۷ (۴)/ صنوان ۳/ ۷۹ (۵)/ الأغلال ۳/ ۸۱ (۶)/ المثلات ۳/ ۸۱ (۸)/ تغيض ۳/ ۸۲ (۱۰)/ مستخف باللّيل ۳/ ۸۳/ سارب ۳/ ۸۳ (۱۱)/ معقّبات ۳/ ۸۳ (۱۳)/ المحال ۳/ ۸۷ (۱۷)/ زبدا رابيا/ ۳/ ۹۰/ جفاء/ ۳/ ۹۰ (۲۲)/ عقبی ۳/ ۹۴ (۲۶)/ و يقدر/ ۳/ ۹۶/ متاع ۳/ ۹۷ (۲۹)/ طوبی ۳/ ۹۷ (۳۰)/ متاب ۳/ ۹۸

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۲۲

(۳۱)/ ييأس ۳/ ۱۰۰/ قارعة/ ۳/ ۱۰۱ (۴۱)/ لا معقّب ۳/ ۱۰۸

سورة إبراهيم (۱۴)

(۴)/ ليبيّن ۳/ ۱۱۲ (۵)/ بأيّام اللّه ۳/ ۱۱۳ (۶)/ يسومونكم ۳/ ۱۱۴ (۷)/ تأذّن ۳/ ۱۱۵ (۹)/ نبأ/ ۳/ ۱۱۵/ مريب ۳/ ۱۱۷ (۱۴)/ مقامی ۳/ ۱۱۹ (۱۵)/ جبّار/ ۳/ ۱۲۰/ عنيد/ ۳/ ۱۲۰ (۱۶)/ صديد/ ۳/ ۱۲۰ (۱۷)/ يتجرّعه ۳/ ۱۲۱/ يسيغه ۳/ ۱۲۱ (۱۸)/ كرماد/ ۳/ ۱۲۱/ اشتدّت ۳/ ۱۲۱/ عاصف ۳/ ۱۲۱ (۲۰)/ بعزيز/ ۳/ ۱۲۳ (۲۱)/ برزوا/ ۳/ ۱۲۳/ محيص ۳/ ۱۲۳ (۲۲)/ بمصرخكم ۳/ ۱۲۴

(۲۴)/ ثابت ۳/ ۱۲۷/ فرعها/ ۳/ ۱۲۷ (۲۶)/ اجتثّت ۳/ ۱۲۸/ قرار/ ۳/ ۱۲۸ (۲۷)/ يثبّت ۳/ ۱۲۸ (۲۸)/ أحلّوا/ ۳/ ۱۳۰/ دار البوار/ ۳/ ۱۳۰ (۳۱)/ خلال ۳/ ۱۳۱ (۳۴)/ لا تحصوها/ ۳/ ۱۳۲ (۳۵)/ و اجنبنى ۳/ ۱۳۴ (۳۷)/ أفئدة/ ۳/ ۱۳۵ (۴۲)/ تشخص ۳/ ۱۳۸ (۴۳)/ مهطعين ۳/ ۱۳۸/ مقنعى رؤوسهم ۳/ ۱۳۸/ لا يرتدّ/ ۳/ ۱۳۸/ طرفهم ۳/ ۱۳۸/ هواء/ ۳/ ۱۳۹ (۴۸)/ الواحد القهّار/ ۳/ ۱۴۲ (۴۹)/ مقرّنين ۳/ ۱۴۲/ الأصفاد/ ۳/ ۱۴۲ (۵۰)/ سرابيلهم ۳/ ۱۴۲/ قطران ۳/ ۱۴۲

سورة الحجر (۱۵)

(۱۰)/ شيع ۳/ ۱۴۷ (۱۲)/ نسلكه ۳/ ۱۴۸ (۱۳)/ خلت ۳/ ۱۴۸ (۱۵)/ سكّرت ۳/ ۱۴۸ (۱۶)/ بروجا/ ۳/ ۱۵۰ (۱۷)/ رجيم ۳/ ۱۵۱ (۱۸)/ فاتّبعه ۳/ ۱۵۱/ شهاب ۳/ ۱۵۱ (۱۹)/ مددناها/ ۳/ ۱۵۱/ موزون ۳/ ۱۵۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۲۳

(۲۰)/ معايش ۳/ ۱۵۲ (۲۲)/ لواقح ۳/ ۱۵۳ (۲۶)/ صلصال ۳/ ۱۵۵/ حمأ/ ۳/ ۱۵۶/ مسنون ۳/ ۱۵۶ (۲۷)/ السّموم ۳/ ۱۵۶ (۲۹)/ سوّيته ۳/ ۱۵۶/ نفخت ۳/ ۱۵۶/ روحى ۳/ ۱۵۷ (۳۴)/ رجيم ۳/ ۱۵۷ (۳۶)/ أنظرنى ۳/ ۱۵۸ (۳۹)/ أغويتنى ۳/ ۱۵۸ (۴۴)/ جزء مقسوم ۳/ ۱۵۹ (۴۷)/ غلّ ۳/ ۱۶۱ (۴۸)/ نصب ۳/ ۱۶۱ (۵۲)/ وجلون ۳/ ۱۶۱ (۵۷)/ خطبكم ۳/ ۱۶۲ (۶۰)/ لمن الغابرين ۳/ ۱۶۳ (۶۶)/ دابر/ ۳/ ۱۶۳ (۶۸)/ تفضحون ۳/ ۱۶۵ (۷۲)/ لعمرك ۳/ ۱۶۵/ سكرتهم ۳/ ۱۶۶ (۷۳)/ مشرقين ۳/ ۱۶۶ (۷۵)/ للمتوسّمين ۳/ ۱۶۶ (۷۹)/ لبإمام ۳/ ۱۶۸ (۸۵)/ فاصفح ۳/ ۱۶۹ (۸۷)/ المثانى ۳/ ۱۷۰ (۸۸)/ أزواجا/ ۳/ ۱۷۰/ و اخفض ۳/ ۱۷۱ (۹۰)/ على المقتسمين ۳/ ۱۷۲ (۹۱)/ عضين ۳/ ۱۷۲ (۹۴)/ فاصدع ۳/ ۱۷۲ (۹۹)/ اليقين ۳/ ۱۷۳

سورة النحل (۱۶)

(۴)/ خصيم ۳/ ۱۷۸ (۵)/ الأنعام ۳/ ۱۷۸/ دفء/ ۳/ ۱۷۸ (۶)/ جمال ۳/ ۱۷۸/ تريحون ۳/ ۱۷۸/ تسرحون ۳/ ۱۷۸ (۷)/ أثقالكم ۳/ ۱۷۸/ بشقّ الأنفس ۳/ ۱۷۹ (۹)/ قصد السّبيل ۳/ ۱۸۰ (۱۰)/ تسيمون ۳/ ۱۸۲ (۱۳)/ ذرأ/ ۳/ ۱۸۳ (۱۴)/ مواخر/ ۳/ ۱۸۴ (۱۵)/ رواسى ۳/ ۱۸۴/ تميد/ ۳/ ۱۸۴ (۲۵)/ أوزارهم ۳/ ۱۸۸ (۲۶)/ القواعد/ ۳/ ۱۸۹ (۲۷)/ الخزى ۳/ ۱۹۱ (۳۴)/ حاق ۳/ ۱۹۳ (۴۱)/ لنبوّئنّهم ۳/ ۱۹۶ (۴۵)/ أن يخسف ۳/ ۱۹۸ (۴۶)/ تقلّبهم ۳/ ۱۹۸ (۴۷)/ تخوّف ۳/ ۱۹۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۲۴

(۴۸)/ يتفيّؤا/ ۳/ ۱۹۹/ داخرون ۳/ ۱۹۹ (۵۲)/ واصبا/ ۳/ ۲۰۲ (۵۳)/ تجأرون ۳/ ۲۰۳ (۵۹)/ يتوارى ۳/ ۲۰۴/ هون ۳/ ۲۰۴/ يدسّه ۳/ ۲۰۴ (۶۲)/ مفرطون ۳/ ۲۰۵ (۶۶)/ نسقيكم ۳/ ۲۰۸/ فرث ۳/ ۲۰۹/ سائغا/ ۳/ ۲۰۹ (۶۷)/ سكرا/ ۳/ ۲۰۹ (۶۸)/ يعرشون ۳/ ۲۱۰ (۶۹)/ فاسلكى ۳/ ۲۱۱ (۷۰)/ أرذل العمر/ ۳/ ۲۱۲ (۷۲)/ حفدة/ ۳/ ۲۱۴ (۷۶)/ أبكم ۳/ ۲۱۷/ كلّ على مولاه ۳/ ۲۱۷ (۷۷)/ كلمح البصر/ ۳/ ۲۱۸ (۷۹)/ مسخّرات ۳/ ۲۱۹ (۸۰)/ ظعنكم ۳/ ۲۲۰/ أثاثا/ ۳/ ۲۲۱ (۸۱)/ أكنانا/ ۳/ ۲۲۱/ سرابيل ۳/ ۲۲۱ (۸۴)/ يستعتبون ۳/ ۲۲۳ (۹۰)/ البغى ۳/ ۲۲۵ (۹۱)/ توكيدها/ ۳/ ۲۲۷/ كفيلا/ ۳/ ۲۲۷ (۹۲)/ أنكاثا/ ۳/ ۲۲۸ (۹۴)/ دخلا/ ۳/ ۲۲۸ (۱۰۳)/ يلحدون ۳/ ۲۳۳/ أعجمىّ ۳/ ۲۳۳ (۱۱۲)/ رغدا/ ۳/ ۲۳۸/ فأذاقها/ ۳/ ۲۳۸ (۱۲۱)/ اجتباه ۳/ ۲۴۱ (۱۲۷)/ ضيق ۳/ ۲۴۳

سورة الإسراء (۱۷)

(۱)/ سبحان ۳/ ۲۴۵/ أسرى ۳/ ۲۴۵/ الأقصى ۳/ ۲۴۶ (۴)/ قضينا/ ۳/ ۲۴۹ (۵)/ فجاسوا/ ۳/ ۲۴۹ (۶)/ الكرّة/ ۳/ ۲۴۹/ نفيرا/ ۳/ ۲۵۰ (۷)/ ليسئوا/ ۳/ ۲۵۰/ و ليتبروا/ ۳/ ۲۵۰ (۸)/ حصيرا/ ۳/ ۲۵۱ (۱۱)/ عجولا/ ۳/ ۲۵۱ (۱۳)/ طائره ۳/ ۲۵۳ (۱۸)/ مذموما/ ۳/ ۲۵۸/ مدحورا/ ۳/ ۲۵۸ (۲۰)/ محظورا/ ۳/ ۲۵۸ (۲۳)/ أفّ ۳/ ۲۶۰/ و لا تنهرهما/ ۳/ ۲۶۰ (۲۵)/ للأوّابين ۳/ ۲۶۲ (۲۶)/ و لا تبذّر تبذيرا/ ۳/ ۲۶۳ (۲۸)/ ميسورا/ ۳/ ۲۶۳

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۲۵

(۲۹)/ محسورا/ ۳/ ۲۶۴ (۳۱)/ إملاق ۳/ ۲۶۴/ خطئا/ ۳/ ۲۶۵ (۳۵)/ القسطاس ۳/ ۲۶۹/ تأويلا/ ۳/ ۲۶۹ (۳۶)/ و لا تقف ۳/ ۲۶۹ (۳۷)/ مرحا/ ۳/ ۲۷۱/ تخرق ۳/ ۲۷۱ (۴۱)/ صرّفنا/ ۳/ ۲۷۲ (۴۵)/ حجابا/ ۳/ ۲۷۵ (۴۷)/ نجوى ۳/ ۲۷۵/ مسحورا/ ۳/ ۲۷۵ (۴۹)/ رفاتا/ ۳/ ۲۷۸ (۵۱)/ فسينغضون ۳/ ۲۷۹ (۵۳)/ ينزغ ۳/ ۲۸۰ (۵۸)/ مسطورا/ ۳/ ۲۸۲ (۵۹)/ مبصرة/ ۳/ ۲۸۳ (۶۲)/ لأحتنكنّ ۳/ ۲۸۶ (۶۳)/ موفورا/ ۳/ ۲۸۷ (۶۴)/ و استفزز/ ۳/ ۲۸۷/ و أجلب ۳/ ۲۸۷/ و رجلك ۳/ ۲۸۳ (۶۶)/ يزجى ۳/ ۲۸۹ (۶۸)/ يخسف ۳/ ۲۸۹/ حاصبا/ ۳/ ۲۸۹ (۶۹)/ قاصفا/ ۳/ ۲۹۰/ تبيعا/ ۳/ ۲۹۰ (۷۴)/ تركن ۳/ ۲۹۳ (۷۵)/ ضعف ۳/ ۲۹۴ (۷۶)/ خلافك ۳/ ۲۹۴ (۷۸)/ لدلوك الشّمس ۳/ ۲۹۷/ إلى غسق اللّيل ۳/ ۲۹۷ (۷۹)/ فتهجّد/ ۳/ ۲۹۸/ نافلة/ ۳/ ۲۹۸/ مقاما محمودا/ ۳/ ۲۹۹ (۸۰)/ سلطانا نصيرا/ ۳/ ۳۰۰ (۸۱)/ زهق ۳/ ۳۰۰ (۸۲)/ خسارا/ ۳/ ۳۰۱ (۸۳)/ نأى بجانبه ۳/ ۳۰۱/ يؤوسا/ ۳/ ۳۰۱ (۸۴)/ شاكلته ۳/ ۳۰۱ (۸۸)/ ظهيرا/ ۳/ ۳۰۵ (۹۰)/ ينبوعا/ ۳/ ۳۰۶ (۹۲)/ كسفا/ ۳/ ۳۰۶/ قبيلا/ ۳/ ۳۰۶ (۹۳)/ زخرف ۳/ ۳۰۶/ ترقى ۳/ ۳۰۶ (۹۵)/ مطمئنّين ۳/ ۳۰۹ (۹۷)/ خبت ۳/ ۳۱۰ (۱۰۰)/ قتورا/ ۳/ ۳۱۰ (۱۰۲)/ بصائر/ ۳/ ۳۱۲/ مثبورا/ ۳/ ۳۱۲ (۱۰۴)/ لفيفا/ ۳/ ۳۱۲ (۱۰۶)/ فرّقناه ۳/ ۳۱۳/ على مكث ۳/ ۳۱۳ (۱۰۷)/ يخرّون ۳/ ۳۱۳ (۱۱۰)/ تخافت ۳/ ۳۱۵

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۲۶

سورة الكهف (۱۸)

(۱)/ عوجا/ ۳/ ۳۱۹ (۶)/ باخع ۳/ ۳۲۰ (۸)/ صعيدا/ ۳/ ۳۲۱/ جرزا/ ۳/ ۳۲۱ (۹)/ الرّقيم ۳/ ۳۲۲ (۱۲)/ أحصى ۳/ ۳۲۳/ أمدا/ ۳/ ۳۲۳ (۱۴)/ شططا/ ۳/ ۳۲۴ (۱۶)/ اعتزلتموهم ۳/ ۳۲۴/ مِرْفَقاً/ ۳/ ۳۲۴ (۱۷)/ تزاور/ ۳/ ۳۲۵/ تقرضهم ۳/ ۳۲۶ (۱۸)/ رقود/ ۳/ ۳۲۶/ بالوصيد/ ۳/ ۳۲۶/ رعبا/ ۳/ ۳۲۶ (۱۹)/ بورقكم ۳/ ۳۲۷ (۲۲)/ رجما/ ۳/ ۳۲۹/ فلا تمار/ ۳/ ۳۲۹ (۲۷)/ ملتحدا/ ۳/ ۳۳۳ (۲۸)/ فرطا/ ۳/ ۳۳۴ (۲۹)/ سرادقها/ ۳/ ۳۳۴/ كالمهل ۳/ ۳۳۴/ مرتفقا/ ۳/ ۳۳۵ (۳۱)/ سندس ۳/ ۳۳۵/ و إستبرق ۳/ ۳۳۵/ الأرائك ۳/ ۳۳۵ (۳۲)/ و حففناهما/ ۳/ ۳۳۸ (۳۴)/ يحاوره ۳/ ۳۳۹ (۳۵)/ تبيد/ ۳/ ۳۳۹ (۴۰)/ حسبانا/ ۳/ ۳۴۰/ زلقا/ ۳/ ۳۴۱ (۴۱)/ غورا/ ۳/ ۳۴۱ (۴۲)/ خاوية/ ۳/ ۳۴۱ (۴۴)/ عقبا/ ۳/ ۳۴۲ (۴۵)/ هشيما/ ۳/ ۳۴۳/ تذروه ۳/ ۳۴۳ (۴۷)/ بارزة/ ۳/ ۳۴۵/ نغادر/ ۳/ ۳۴۵ (۵۰)/ ففسق ۳/ ۳۴۶ (۵۱)/ عضدا/ ۳/ ۳۴۷ (۵۲)/ موبقا/ ۳/ ۳۴۸ (۵۳)/ مواقعوها/ ۳/ ۳۴۸/ مصرفا/ ۳/ ۳۴۸ (۵۵)/ قبلا/ ۳/ ۳۵۰ (۵۶)/ ليدحضوا/ ۳/ ۳۵۰ (۵۷)/ أكنّة/ ۳/ ۳۵۰ (۵۸)/ موئلا/ ۳/ ۳۵۱ (۶۰)/ لا أبرح ۳/ ۳۵۲/ حقبا/ ۳/ ۳۵۲ (۶۱)/ مجمع بينهما/ ۳/ ۳۵۲/ سربا/ ۳/ ۳۵۳ (۶۲)/ نصبا/ ۳/ ۳۵۳ (۶۸)/ خبرا/ ۳/ ۳۵۴ (۷۱)/ إمرا/ ۳/ ۳۵۷ (۷۳)/ و لا ترهقنى ۳/ ۳۵۷ (۷۴)/ نكرا/ ۳/ ۳۵۷ (۷۷)/ ينقضّ ۳/ ۳۵۸

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۲۷

(۸۱)/ رحما/ ۳/ ۳۶۰ (۸۴)/ سببا/ ۳/ ۳۶۳ (۸۶)/ حمئة/ ۳/ ۳۶۳ (۸۷)/ نكرا/ ۳/ ۳۶۴ (۹۳)/ يفقهون ۳/ ۳۶۸ (۹۴)/ يأجوج و مأجوج ۳/ ۳۶۸/ خرجا/ ۳/ ۳۶۸ (۹۵)/ ردما/ ۳/ ۳۶۹ (۹۶)/ زبر/ ۳/ ۳۶۹/ بين الصّدفين ۳/ ۳۶۹/ قطرا/ ۳/ ۳۶۹ (۹۷)/ نقبا/ ۳/ ۳۷۰ (۹۸)/ دكّا/ ۳/ ۳۷۰ (۱۰۲)/ أفحسب ۳/ ۳۷۲ (۱۰۸)/ لا يبغون ۳/ ۳۷۳/ حولا/ ۳/ ۳۷۳ (۱۰۹)/ مدادا/ ۳/ ۳۷۵

سورة مريم (١٩)

(۴)/ وهن ٣/ ٣٧٩ (۵)/ عاقرا/ ٣/ ٣٨٠ (٨)/ عتيّا/ ٣/ ٣٨١ (١١)/ فأوحى ٣/ ٣٨٢ (١٣)/ و حنانا/ ٣/ ٣٨۴ (١۶)/ انتبذت ٣/ ٣٨۶/ شرقيّا/ ٣/ ٣٨۶ (٢٠)/ بغيّا/ ٣/ ٣٨٧ (٢٣)/ فأجاءها/ ٣/ ٣٨٨/ المخاض ٣/ ٣٨٨ (٢۵)/ و هزّى ٣/ ٣٨٨/ جنيّا/ ٣/ ٣٨٩ (٢٧)/ فريّا/ ٣/ ٣٩١/ مباركا/ ٣/ ٣٩٢ (٣٢)/ جبّارا/ ٣/ ٣٩٢/ شقيّا/ ٣/ ٣٩٢ (۴۶)/ مليّا/ ٣/ ٣٩٧ (۴٧)/ حفيّا/ ٣/ ٣٩٧ (۵٢)/ نجيّا/ ٣/ ٣٩٩ (۵٨)/ بكيّا/ ٣/ ۴٠٠ (۵٩)/ غيّا/ ٣/ ۴٠٠ (۶۵)/ سميّا/ ٣/ ۴٠۴ (۶٨)/ جثيّا/ ٣/ ۴٠۵ (٧٠)/ صليّا/ ٣/ ۴٠۶ (٧١)/ واردها/ ٣/ ۴٠۶ (٧٣)/ مقاما/ ٣/ ۴٠٩ (٧۴)/ أثاثا/ ٣/ ۴١٠/ و رئيا/ ٣/ ۴١٠ (٧۶)/ مردّا/ ٣/ ۴١١ (٨٣)/ تؤزّهم أزّا/ ٣/ ۴١٣ (٨۶)/ وردا/ ٣/ ۴١۴ (٨٩)/ إدّا/ ٣/ ۴١۵ (٩٠)/ هدّا/ ٣/ ۴١۵ (٩٧)/ لدّا/ ٣/ ۴١٧ (٩٨)/ ركزا/ ٣/ ۴١٧

سورة طه (٢٠)

(۶)/ الثّرى ٣/ ۴٢١ (١٠)/ آنست ٣/ ۴٢٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٢٨

/ بقبس ٣/ ۴٢٣ (١۵)/ أخفيها/ ٣/ ۴٢۴ (١٨)/ و أهشّ ٣/ ۴٢٧/ مآرب ٣/ ۴٢٧ (٢٢)/ إلى جناحك ٣/ ۴٢٨ (٢٨)/ يفقهوا/ ٣/ ۴٢٩ (٣١)/ أزرى ٣/ ۴٢٩ (۴٠)/ كى تقرّ/ ٣/ ۴٣١/ و فتنّاك فتونا/ ٣/ ۴٣٢/ على قدر/ ٣/ ۴٣٢ (۴١)/ و اصطنعتك ٣/ ۴٣٢ (۴٢)/ و لا تنيا/ ٣/ ۴٣٢ (۴۵)/ أن يفرط/ ٣/ ۴٣۴ (۵٠)/ خلقه ٣/ ۴٣۵ (۵٢)/ لا يضلّ ٣/ ۴٣۶ (۵٣)/ مهدا/ ٣/ ۴٣۶/ و سلك ٣/ ۴٣۶/ شتّى ٣/ ۴٣٧ (۵٨)/ سوى ٣/ ۴٣٨ (۶١)/ فيسحتكم ٣/ ۴۴٠ (۶٣)/ المثلى ٣/ ۴۴١ (۶۴)/ استعلى ٣/ ۴۴٢ (۶٧)/ فأوجس ٣/ ۴۴٣ (٧۴)/ مجرما/ ٣/ ۴۴۵ (٧٧)/ يبسا/ ٣/ ۴۴۶/ دركا/ ٣/ ۴۴۶ (٨۴)/ أثرى ٣/ ۴۴٨ (٨۶)/ أسفا/ ٣/ ۴۴٨ (٨٧)/ أوزارا/ ٣/ ۴۴٩ (٨٨)/ خوار/ ٣/ ۴۴٩ (٩۴)/ و لم ترقب ٣/ ۴۵٢ (٩۶)/ قبضة/ ٣/ ۴۵٢ (٩٧)/ لا مساس ٣/ ۴۵٢/ عاكفا/ ٣/ ۴۵٣/ نسفا/ ٣/ ۴۵۴ (١٠٢)/ زرقا/ ٣/ ۴۵۵ (١٠٣)/ يتخافتون ٣/ ۴۵۵ (١٠۴)/ أمثلهم ٣/ ۴۵۶ (١٠۶)/ صفصفا/ ٣/ ۴۵۶ (١٠٧)/ أمتا/ ٣/ ۴۵۶ (١٠٨)/ و خشعت ٣/ ۴۵۶/ همسا/ ٣/ ۴۵٧ (١١١)/ و عنت ٣/ ۴۵٧ (١١٢)/ هضما/ ٣/ ۴۵٧ (١١۵)/ عزما/ ٣/ ۴۶٠ (١٢١)/ فغوى ٣/ ۴۶٠ (١٢٢)/ اجتباه ٣/ ۴۶١ (١٢۴)/ ضنكا/ ٣/ ۴۶٢ (١٢٨)/ النّهى ٣/ ۴۶۴

سورة الأنبياء (٢١)

(٣)/ النّجوى ٣/ ۴۶٩ (۵)/ أضغاث ٣/ ۴٧٠ (١١)/ قصمنا/ ٣/ ۴٧٣ (١٢)/ يركضون ٣/ ۴٧٣ (١۵)/ خامدين ٣/ ۴٧٣/ لهوا/ ٣/ ۴٧٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٢٩

(١٨)/ فيدمغه ٣/ ۴٧۴ (١٩)/ يستحسرون ٣/ ۴٧۴ (٢١)/ ينشرون ٣/ ۴٧۵ (٣٠)/ رتقا/ ٣/ ۴٧٨/ ففتقناهما/ ٣/ ۴٧٨ (٣١)/ أن تميد/ ٣/ ۴٧٩ (٣۶)/ هزوا/ ٣/ ۴٨١ (٣٧)/ من عجل ٣/ ۴٨١ (۴٠)/ فتبهتهم ٣/ ۴٨٢ (۴٢)/ يكلؤكم ٣/ ۴٨٢ (۴٣)/ يصحبون ٣/ ۴٨٣ (۴۶)/ نفحة/ ٣/ ۴٨۴ (۵٢)/ عاكفون ٣/ ۴٨۶ (۵٧)/ لأكيدنّ ٣/ ۴٨٨ (۶۵)/ نكسوا/ ٣/ ۴٨٩ (٧٢)/ نافلة/ ٣/ ۴٩١ (٧۶)/ الكرب ٣/ ۴٩٢ (٧٨)/ نفشت ٣/ ۴٩٣ (٨٠)/ لبوس ٣/ ۴٩۴ (٨١)/ عاصفة/ ٣/ ۴٩۵ (٨٢)/ يغوصون ٣/ ۴٩۵ (٨٧)/ مغاضبا/ ٣/ ۴٩۶/ لن نقدر/ ٣/ ۴٩٧ (٩٠)/ رغبا و رهبا/ ٣/ ۵٠٢ (٩٣)/ تقطّعوا/ ٣/ ۵٠٣ (٩۴)/ لا كفران لسعيه ٣/ ۵٠٣ (٩۶)/ حدب ٣/ ۵٠۴/ ينسلون ٣/ ۵٠۴ (٩٨)/ حصب ٣/ ۵٠۶/ حسيسها/ ٣/ ۵٠۶/ السّجلّ ٣/ ۵٠٧

سورة الحج (٢٢)

(۱)/ زلزلة/ ۳/ ۵۱۴ (۲)/ تذهل ۳/ ۵۱۴ (۳)/ مريد/ ۳/ ۵۱۵ (۵)/ نطفة/ ۳/ ۵۱۵/ علقة/ ۳/ ۵۱۵/ مضغة/ ۳/ ۵۱۵/ أشدّكم ۳/ ۵۱۶/ اهتزّت ۳/ ۵۱۷/ و ربت ۳/ ۵۱۷/ بهيج ۳/ ۵۱۷ (۹)/ ثانى عطفه ۳/ ۵۱۹ (۱۱)/ حرف ۳/ ۵۲۰ (۱۳)/ العشير/ ۳/ ۵۲۱ (۲۱)/ مقامع ۳/ ۵۲۵ (۲۵)/ العاكف ۳/ ۵۲۸/ و الباد/ ۳/ ۵۲۸ (۲۶)/ بوّأنا/ ۳/ ۵۲۹ (۲۷)/ ضامر/ ۳/ ۵۳۰ (۲۸)/ البائس ۳/ ۵۳۱ (۲۹)/ تفثهم ۳/ ۵۳۱ (۳۰)/ الرّجس ۳/ ۵۳۴/ الأوثان ۳/ ۵۳۴/ الزّور/ ۳/ ۵۳۴ (۳۱)/ خرّ/ ۳/ ۵۳۴/ سحيق ۳/ ۵۳۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۰

(۳۴)/ منسكا/ ۳/ ۵۳۵/ المخبتين ۳/ ۵۳۵ (۳۶)/ البدن ۳/ ۵۳۷/ صوافّ ۳/ ۵۳۷/ وجبت ۳/ ۵۳۷ (۳۶)/ القانع ۳/ ۵۳۸/ و المعترّ/ ۳/ ۵۳۸ (۴۰)/ صوامع ۳/ ۵۴۱/ و بيع ۳/ ۵۴۱/ و صلوات ۳/ ۵۴۲ (۴۴)/ نكير/ ۳/ ۵۴۲ (۴۵)/ بئر معطّلة/ ۳/ ۵۴۳/ مشيد/ ۳/ ۵۴۳ (۵۲)/ تمنّى ۳/ ۵۴۶/ فينسخ ۳/ ۵۴۷ (۶۷)/ فلا ينازعنّك ۳/ ۵۵۳ (۷۲)/ يسطون ۳/ ۵۵۴ (۷۳)/ لا يستنقذوه ۳/ ۵۵۵ (۷۸)/ اجتباكم ۳/ ۵۵۶

سورة المؤمنون (۲۳)

(۲)/ خاشعون ۳/ ۵۶۰ (۷)/ العادون ۳/ ۵۶۱ (۱۲)/ سلالة/ ۳/ ۵۶۴ (۱۴)/ فتبارك اللّه ۳/ ۵۶۵/ أحسن الخالقين ۳/ ۵۶۵ (۲۰)/ طور/ ۳/ ۵۶۶ (۲۵)/ جنّة/ ۳/ ۵۶۹/ فتربّصوا/ ۳/ ۵۶۹ (۲۹)/ منزلا/ ۳/ ۵۷۰ (۴۱)/ الصّيحة/ ۳/ ۵۷۲/ غثاء/ ۳/ ۵۷۲ (۴۴)/ تترا/ ۳/ ۵۷۳ (۵۰)/ ربوة/ ۳/ ۵۷۵/ و معين ۳/ ۵۷۵ (۵۷)/ مشفقون ۳/ ۵۷۸ (۶۳)/ غمرة/ ۳/ ۵۷۹ (۶۶)/ تنكصون ۳/ ۵۸۰/ سامرا/ ۳/ ۵۸۰ (۷۲)/ خرجا/ ۳/ ۵۸۴ (۷۴)/ لناكبون ۳/ ۵۸۴ (۷۵)/ للجّوا/ ۳/ ۵۸۴/ يعمهون ۳/ ۵۸۴ (۷۹)/ ذرأكم ۳/ ۵۸۵ (۸۸)/ ملكوت ۳/ ۵۸۶ (۹۷)/ همزات ۳/ ۵۸۸ (۱۰۰)/ برزخ ۳/ ۵۹۰ (۱۰۱)/ الصّور/ ۳/ ۵۹۰ (۱۰۴)/ كالحون ۳/ ۵۹۰ (۱۰۸)/ اخسئوا/ ۳/ ۵۹۱ (۱۱۳)/ العادّين ۳/ ۵۹۱

سورة النور (۲۴)

(۱)/ سورة/ ۴/ ۵ (۲)/ فاجلدوا/ ۴/ ۶ (۴)/ المحصنات ۴/ ۹ (۱۱)/ بالإفك ۴/ ۱۴ (۱۴)/ أفضتم ۴/ ۱۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۱

(۱۹)/ تشيع ۴/ ۱۷ (۲۱)/ خطوات ۴/ ۱۷ (۲۲)/ و لا يأتل ۴/ ۱۹ (۲۷)/ حتى تستأنسوا/ ۴/ ۲۳ (۲۹)/ متاع ۴/ ۲۴ (۳۰)/ يغضّوا/ ۴/ ۲۶/ بخمرهنّ ۴/ ۲۸/ جيوبهنّ ۴/ ۲۸/ الإربة/ ۴/ ۲۹ (۳۲)/ الأيامى ۴/ ۳۲ (۳۳)/ البغاء/ ۴/ ۳۵ (۳۵)/ نور السّماوات ۴/ ۳۸/ كمشكاة/ ۴/ ۳۸/ تتقلّب ۴/ ۴۲ (۳۹)/ بقيعة/ ۴/ ۴۵ (۴۰)/ لجيّ ۴/ ۴۶ (۴۱)/ صافّات ۴/ ۴۷ (۴۳)/ يزجى ۴/ ۴۸/ ركاما/ ۴/ ۴۸/ الودق ۴/ ۴۸/ سنا برقه ۴/ ۴۸ (۴۹)/ مذعنين ۴/ ۵۲ (۶۱)/ أشتاتا/ ۴/ ۶۲ (۶۳)/ يتسلّلون ۴/ ۶۷/ لواذا/ ۴/ ۶۷

سورة الفرقان (۲۵)

(۱)/ تبارك ۴/ ۷۰/ الفرقان ۴/ ۷۱ (۳)/ نشورا/ ۴/ ۷۱ (۱۱)/ سعيرا/ ۴/ ۷۴ (۱۳)/ مقرّنين ۴/ ۷۵ (۱۴)/ ثبورا/ ۴/ ۷۵ (۱۸)/ بورا/ ۴/ ۷۹ (۲۲)/ حجرا محجورا/ ۴/ ۸۱ (۲۳)/ هباء منثورا/ ۴/ ۸۲ (۲۸)/ فلانا/ ۴/ ۸۴ (۲۹)/ خذولا/ ۴/ ۸۵ (۳۵)/ وزيرا/ ۴/ ۸۸ (۳۸)/ الرّسّ ۴/ ۸۹ (۴۲)/ ليضلّنا/ ۴/ ۹۰ (۴۸)/ طهورا/ ۴/ ۹۳ (۴۹)/ أناسيّ ۴/ ۹۴ (۵۴)/ مرج ۴/ ۹۵/ برزخا/ ۴/ ۹۵ (۵۵)/ ظهيرا/ ۴/ ۹۷ (۶۲)/ خلفة/ ۴/ ۹۹ (۶۳)/ هونا/ ۴/ ۹۹ (۶۴)/ يبيتون ۴/ ۱۰۰ (۶۵)/ غراما/ ۴/ ۱۰۰ (۶۷)/ و لم يقتروا/ ۴/ ۱۰۰/ قواما/ ۴/ ۱۰۱

(۶۸)/ أثاما/ ۴/ ۱۰۲ (۶۹)/ مهانا/ ۴/ ۱۰۳ (۷۲)/ الزّور/ ۴/ ۱۰۳ (۷۷)/ يعبأ/ ۴/ ۱۰۵/ لزاما/ ۴/ ۱۰۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۲

سورة الشعراء (۲۶)

(۳)/ باخع ۴/ ۱۰۹ (۱۹)/ فعلت فعلتك ۴/ ۱۱۲ (۲۲)/ عبّدت ۴/ ۱۱۲ (۳۲)/ ثعبان ۴/ ۱۱۴ (۳۶)/ أرجه ۴/ ۱۱۵ (۵۰)/ لا ضير/ ۴/ ۱۱۶ (۵۴)/ لشرذمة/ ۴/ ۱۱۷ (۵۶)/ حذرون ۴/ ۱۱۷ (۵۸)/ كنوز/ ۴/ ۱۱۷ (۶۰)/ مشرقين ۴/ ۱۱۸ (۶۳)/ فرق ۴/ ۱۱۹/ كالطّود/ ۴/ ۱۱۹ (۶۴)/ و أزلفنا/ ۴/ ۱۱۹ (۹۰)/ أزلفت ۴/ ۱۲۴ (۹۴)/ كبكبوا/ ۴/ ۱۲۴ (۱۱۱)/ الأرذلون ۴/ ۱۲۶ (۱۱۹)/ المشحون ۴/ ۱۲۷ (۱۲۸)/ ريع ۴/ ۱۲۷ (۱۲۹)/ مصانع ۴/ ۱۲۷ (۱۳۰)/ بطشتم ۴/ ۱۲۸ (۱۴۸)/ هضيم ۴/ ۱۲۹ (۱۴۹)/ فارهين ۴/ ۱۳۰ (۱۶۵)/ الذّكران ۴/ ۱۳۱ (۱۶۸)/ من القالين ۴/ ۱۳۲ (۱۷۱)/ فى الغابرين ۴/ ۱۳۲ (۱۷۶)/ الأيكة/ ۴/ ۱۳۲ (۱۸۳)/ و لا تبخسوا/ ۴/ ۱۳۳ (۱۸۷)/ كسفا/ ۴/ ۱۳۳ (۱۸۹)/ الظّلّة/ ۴/ ۱۳۳ (۱۹۶)/ زبر/ ۴/ ۱۳۶ (۲۱۲)/ لمعزولون ۴/ ۱۳۸ (۲۲۲)/ أفّاك ۴/ ۱۳۹ (۲۲۴)/ الغاوون ۴/ ۱۴۰ (۲۲۵)/ يهيمون ۴/ ۱۴۰

سورة النمل (۲۷)

(۴)/ يعمهون ۴/ ۱۴۵ (۷)/ تصطلون ۴/ ۱۴۶ (۱۰)/ جانّ ۴/ ۱۴۷ (۱۷)/ يوزعون ۴/ ۱۵۰ (۱۸)/ لا يحطمنّكم ۴/ ۱۵۱ (۲۰)/ تفقّد/ ۴/ ۱۵۲ (۲۲)/ مكث ۴/ ۱۵۳ (۲۵)/ الخبء/ ۴/ ۱۵۵ (۲۹)/ الملأ/ ۴/ ۱۵۸ (۳۷)/ صاغرون ۴/ ۱۶۰ (۳۹)/ عفريت ۴/ ۱۶۰ (۴۱)/ نكّروا/ ۴/ ۱۶۲ (۴۴)/ الصّرح ۴/ ۱۶۳/ ممرّد/ ۴/ ۱۶۳ (۴۷)/ اطّيّرنا/ ۴/ ۱۶۵ (۴۸)/ رهط/ ۴/ ۱۶۵ (۴۹)/ تقاسموا/ ۴/ ۱۶۵ (۶۰)/ بهجة/ ۴/ ۱۶۸ (۶۱)/ خلالها/ ۴/ ۱۶۹ (۶۶)/ ادّارك ۴/ ۱۷۰ (۷۰)/ ضيق ۴/ ۱۷۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۳

(۷۲)/ ردف ۴/ ۱۷۲ (۸۳)/ فوجا/ ۴/ ۱۷۷ (۸۷)/ ففزع ۴/ ۱۷۸/ داخرين ۴/ ۱۷۸ (۹۲)/ أن أتلو/ ۴/ ۱۸۰

سورة القصص (۲۸)

(۴)/ علا/ ۴/ ۱۸۳/ شيعا/ ۴/ ۱۸۳ (۸)/ فالتقطه ۴/ ۱۸۴/ و حزنا/ ۴/ ۱۸۴ (۱۰)/ لتبدى ۴/ ۱۸۶ (۱۵)/ فوكزه ۴/ ۱۸۸ (۱۸)/ يستصرخه ۴/ ۱۹۰ (۲۰)/ يأتمرون ۴/ ۱۹۱ (۲۳)/ تذودان ۴/ ۱۹۱ (۲۷)/ أن أشقّ ۴/ ۱۹۵ (۲۹)/ جذوة/ ۴/ ۱۹۶ (۳۲)/ جناحك ۴/ ۱۹۷ (۳۴)/ أفصح ۴/ ۱۹۹/ ردءا/ ۴/ ۱۹۹ (۳۸)/ صرحا/ ۴/ ۲۰۰ (۴۲)/ من المقبوحين ۴/ ۲۰۱ (۴۵)/ ثاويا/ ۴/ ۲۰۳ (۴۸)/ تظاهرا/ ۴/ ۲۰۴ (۵۱)/ وصّلنا/ ۴/ ۲۰۵ (۵۷)/ نتخطّف ۴/ ۲۰۶ (۵۸)/ بطرت ۴/ ۲۰۸ (۶۳)/ أغوينا/ ۴/ ۲۱۰ (۶۸)/ الخيرة/ ۴/ ۲۱۱ (۷۱)/ سرمدا/ ۴/ ۲۱۲ (۷۶)/ فبغى ۴/ ۲۱۴/ لتنوء/ ۴/ ۲۱۴/ بالعصبة/ ۴/ ۲۱۴ (۸۲)/ و يكأنّ ۴/ ۲۱۶

سورة العنكبوت (۲۹)

(۵)/ يرجو/ ۴/ ۲۲۲ (۱۴)/ الطّوفان ۴/ ۲۲۶ (۱۷)/ أوثانا/ ۴/ ۲۲۷ (۲۹)/ فى ناديكم ۴/ ۲۳۳ (۴۰)/ حاصبا/ ۴/ ۲۳۴ (۴۱)/ أوهن ۴/ ۲۳۵ (۵۸)/ لنبوّئنّهم ۴/ ۲۴۲ (۶۸)/ مثوى ۴/ ۲۴۵

سورة الروم (۳۰)

(١٠)/ السّوأى ۴/ ٢۴٨ (١٢)/ يبلس ۴/ ٢٥١ (١٥)/ روضة/ ۴/ ٢٥١/ يحبرون ۴/ ٢٥١ (١۶)/ محضرون ۴/ ٢٥٢ (٢۶)/ قانتون ۴/ ٢٥۴ (٣٠)/ فطرة/ ۴/ ٢٥٨ (٣١)/ منيبين ۴/ ٢٥٩ (٣۶)/ يقنطون ۴/ ٢۶٠ (٣٩)/ المضعفون ۴/ ٢۶٢ (۴٣)/ يصدّعون ۴/ ٢۶۴

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٣۴

(۴۴)/ يمهدون ۴/ ٢۶۴ (٥٧)/ يستعتبون ۴/ ٢۶٨

سورة لقمان (٣١)

(۶)/ لهو الحديث ۴/ ٢۶٩ (٧)/ وقرا/ ۴/ ٢٧٠ (١٠)/ عمد/ ۴/ ٢٧١ (١۴)/ وهنا/ ۴/ ٢٧۴/ فصاله ۴/ ٢٧۴ (١٧)/ عزم ۴/ ٢٧٥ (١٨)/ و لا تصعّر/ ۴/ ٢٧٥/ مختال ۴/ ٢٧٥ (٢٠)/ أسبغ ۴/ ٢٧٧ (٢٢)/ استمسك ۴/ ٢٧٨ (٣٢)/ مقتصد/ ۴/ ٢٨١/ ختّار/ ۴/ ٢٨٢

سورة السجدة (٣٢)

(٥)/ يعرج ۴/ ٢٨۶ (٧)/ أحسن ۴/ ٢٨٨ (١٠)/ ضللنا/ ۴/ ٢٨٩ (١٢)/ ناكسوا/ ۴/ ٢٩١ (١٥)/ خرّوا/ ۴/ ٢٩٢ (١٧)/ قرّة أعين ۴/ ٢٩٣ (٢٣)/ مرية/ ۴/ ٢٩۶ (٢٧)/ الجرز/ ۴/ ٢٩٧

سورة الأحزاب (٣٣)

(۴)/ تظاهرون ۴/ ٣٠٠ (١٠)/ الحناجر/ ۴/ ٣٠٥ (١١)/ زلزلوا/ ۴/ ٣٠۶ (١٣)/ عورة/ ۴/ ٣٠٧ (١٨)/ المعوّقين ۴/ ٣١٠ (١٩)/ سلقوكم ۴/ ٣١٠ (٢٠)/ بادون ۴/ ٣١١ (٢٣)/ نحبه ۴/ ٣١٢ (٢۶)/ ظاهروهم ۴/ ٣١٥/ صياصيهم ۴/ ٣١٥ (٣٣)/ و قرن ۴/ ٣١٧/ و لا تبرّجنّ ۴/ ٣٢٠ (٣٧)/ وطرا/ ۴/ ٣٢٧ (۴٩)/ تعتدّونها/ ۴/ ٣٣۴ (٥١)/ ترجى ۴/ ٣٣۶ (٥٣)/ إناه ۴/ ٣۴١ (٥٩)/ من جلابيبهنّ ۴/ ٣۴٩ (۶٠)/ المرجفون ۴/ ٣٥٠ (۶٢)/ تبديلا/ ۴/ ٣٥١ (٧٠)/ سديدا/ ۴/ ٣٥٣

سورة سبأ (٣۴)

(٢)/ يلج ۴/ ٣٥٨ (٣)/ لا يعزب ۴/ ٣٥٨ (٧)/ مزّقتم ۴/ ٣٥٩ (٩)/ كسفا/ ۴/ ٣۶٠ (١٠)/ أوّبى ۴/ ٣۶١

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٣٥

(١١)/ سابغات ۴/ ٣۶٢/ السّرد/ ۴/ ٣۶٢ (١٢)/ القطر/ ۴/ ٣۶٣ (١٣)/ محاريب ۴/ ٣۶٣/ جفان ۴/ ٣۶٣/ كالجواب ۴/ ٣۶٣ (١۴)/ منسأته ۴/ ٣۶۴ (١۶)/ العرم ۴/ ٣۶٨/ خمط/ ۴/ ٣۶٨/ أثل ۴/ ٣۶٨/ فزّع ۴/ ٣٧٢ (٣٣)/ مكر اللّيل ۴/ ٣٧٧ (٣٧)/ زلفى ۴/ ٣٧٩ (۴۶)/ جنّة/ ۴/ ٣٨٢ (٥٢)/ التّناوش ۴/ ٣٨٥

سورة فاطر (٣٥)

(١)/ فاطر/ ۴/ ٣٨٧ (١٠)/ يبور/ ۴/ ٣٩٢ (١٢)/ مواخر/ ۴/ ٣٩٣ (١٣)/ قطمير/ ۴/ ٣٩۴ (٢١)/ الحرور/ ۴/ ٣٩۶ (٢٧)/ جدد/ ۴/ ٣٩٨/ غرابيب ۴/ ٣٩٩ (٣۴)/ الحزن ۴/ ۴٠٢ (٣٥)/ لغوب ۴/ ۴٠٣ (٣٧)/ يصطرخون ۴/ ۴٠۶ (۴٣)/ و مكر السّيّء/ ۴/ ۴٠٨

سورة يس (٣۶)

(٧)/ حقّ ۴/ ۴۱۳ (٨)/ مقمحون ۴/ ۴۱۴ (۱۴)/ فعزّزنا/ ۴/ ۴۱۶ (۲۹)/ خامدون ۴/ ۴۲۱ (۳۹)/ كالعرجون ۴/ ۴۲۴ (۴۰)/ يسبحون ۴/ ۴۲۵ (۴۳)/ صريخ ۴/ ۴۲۷ (۴۹)/ يخصّمون ۴/ ۴۲۸ (۵۱)/ الصّور/ ۴/ ۴۲۹ (۵۲)/ بعثنا/ ۴/ ۴۲۹ (۵۹)/ امتازوا/ ۴/ ۴۳۲ (۶۲)/ جبلّا/ ۴/ ۴۳۳ (۶۶)/ لطمسنا/ ۴/ ۴۳۴ (۶۷)/ لمسخناهم ۴/ ۴۳۴ (۶۸)/ ننكّسه ۴/ ۴۳۵ (۷۲)/ ركوبهم ۴/ ۴۳۸ (۷۷)/ خصيم مبين ۴/ ۴۴۰ (۸۱)/ الخلّاق ۴/ ۴۴۱

سورة الصّافات (۳۷)

(۱)/ الصّافّات ۴/ ۴۴۲ (۲)/ الزّاجرات ۴/ ۴۴۳ (٧)/ مارد/ ۴/ ۴۴۴ (۹)/ دحورا/ ۴/ ۴۴۴/ واصب ۴/ ۴۴۵ (۱۰)/ ثاقب ۴/ ۴۴۵ (۱۱)/ لازب ۴/ ۴۴۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۶

(۱۴)/ يستسخرون ۴/ ۴۴۶ (۱۸)/ داخرون ۴/ ۴۴۷ (۴۶)/ لذّة/ ۴/ ۴۵۱ (۴۷)/ ينزفون ۴/ ۴۵۱ (۴۸)/ قاصرات ۴/ ۴۵۲ (۴۹)/ بيض مكنون ۴/ ۴۵۲ (۵۶)/ لتردين ۴/ ۴۵۵ (۶۲)/ نزلا/ ۴/ ۴۵۶ (۶۷)/ لشوبا/ ۴/ ۴۵۷ (۷۰)/ يهرعون ۴/ ۴۵۷ (۷۶)/ الكرب ۴/ ۴۵۹ (۸۳)/ شيعته ۴/ ۴۶۰ (۹۱)/ راغ ۴/ ۴۶۱ (۹۴)/ يزفّون ۴/ ۴۶۱ (۹۸)/ كيدا/ ۴/ ۴۶۲ (۱۰۳)/ تلّه ۴/ ۴۶۴ (۱۲۵)/ بعلا/ ۴/ ۴۶۹ (۱۴۰)/ أبق ۴/ ۴۷۱ (۱۴۱)/ ساهم ۴/ ۴۷۱/ من المدحضين ۴/ ۴۷۱ (۱۴۲)/ مليم ۴/ ۴۷۱ (۱۴۵)/ العراء/ ۴/ ۴۷۲/ الجنّة/ ۴/ ۴۷۶ (۱۵۸)/ نسبا/ ۴/ ۴۷۶

سورة ص (۳۸)

(۲)/ عزّة/ ۴/ ۴۸۱/ شقاق ۴/ ۴۸۱ (۳)/ مناص ۴/ ۴۸۲ (۵)/ عجاب ۴/ ۴۸۳ (۱۲)/ الأوتاد/ ۴/ ۴۸۵ (۱۵)/ فواق ۴/ ۴۸۶ (۱۶)/ قطّنا/ ۴/ ۴۸۷ (۱۹)/ أوّاب ۴/ ۴۸۷ (۲۱)/ الخصم ۴/ ۴۸۸ (۲۱)/ تسوّروا/ ۴/ ۴۸۸/ المحراب ۴/ ۴۸۸ (۲۲)/ و لا تشطط/ ۴/ ۴۸۹ (۲۳)/ نعجة/ ۴/ ۴۸۹ (۲۴)/ الخلطاء/ ۴/ ۴۸۹/ فتنّاه ۴/ ۴۸۹ (۲۵)/ زلفى ۴/ ۴۹۰ (۳۱)/ الصّافنات ۴/ ۴۹۴/ الجياد/ ۴/ ۴۹۵ (۳۲)/ توارت ۴/ ۴۹۷ (۳۳)/ مسحا/ ۴/ ۴۹۵ (۳۴)/ فتنّا/ ۴/ ۴۹۶/ أناب ۴/ ۴۹۷ (۳۶)/ رخاء/ ۴/ ۴۹۷/ أصاب ۴/ ۴۹۸ (۳۷)/ غوّاص ۴/ ۴۹۸ (۳۸)/ مقرّنين ۴/ ۴۹۸/ الأصفاد/ ۴/ ۴۹۸ (۴۱)/ بنصب ۴/ ۴۹۹ (۴۲)/ اركض ۴/ ۵۰۰ (۴۴)/ ضغثا/ ۴/ ۵۰۱/ تحنث ۴/ ۵۰۱ (۴۶)/ بخالصة/ ۴/ ۵۰۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۷

(۵۲)/ قاصرات ۴/ ۵۰۳/ أتراب ۴/ ۵۰۳ (۵۴)/ نفاد/ ۴/ ۵۰۳ (۵۷)/ غسّاق ۴/ ۵۰۶ (۵۹)/ مقتحم ۴/ ۵۰۶ (۷۲)/ سوّيته ۴/ ۵۱۰

سورة الزمر (۳۹)

(۵)/ يكوّر/ ۴/ ۵۱۶ (٨)/ خوّله ۴/ ۵۱۹ (۱۶)/ ظلل ۴/ ۵۲۳ (۱۷)/ الطّاغوت ۴/ ۵۲۳ (۲۱)/ يهيج ۴/ ۵۲۵/ حطاما/ ۴/ ۵۲۵ (۲۳)/ متشابها/ ۴/ ۵۲۶/ مثاني ۴/ ۵۲۶ (۲۸)/ عوج ۴/ ۵۲۹ (۲۹)/ متشاكسون ۴/ ۵۲۹/ سلما/ ۴/ ۵۲۹ (۳۲)/ مثوى ۴/ ۵۳۱ (۴۵)/ اشمأزّت ۴/ ۵۳۵ (۵۳)/ أسرفوا/ ۴/ ۵۳۸ (۵۶)/ في جنب ۴/ ۵۴۰ (۶۱)/ بمفازتهم ۴/ ۵۴۱ (۶۳)/ مقاليد/ ۴/ ۵۴۳ (۶۷)/ قبضته ۴/ ۵۴۴ (۶۸)/ صعق ۴/ ۵۴۵ (۶۹)/ أشرقت ۴/ ۵۴۵ (۷۱)/ زمرا/ ۴/ ۵۴۶ (۷۵)/ حافّين ۴/ ۵۴۹

سورة غافر (۴۰)

(۳)/ الطّول ۴/ ۵۵۱ (۵)/ ليدحضوا/ ۴/ ۵۵۲ (۱۳)/ ينيب ۴/ ۵۵۵ (۱۸)/ الآزفة/ ۴/ ۵۵۷ (۳۲)/ التّناد/ ۴/ ۵۶۳ (۳۷)/ تباب ۴/ ۵۶۵ (۴۵)/ حاق ۴/ ۵۶۷ (۵۱)/ الأشهاد/ ۴/ ۵۶۸ (۶۰)/ داخرين ۴/ ۵۷۱ (۷۲)/ يسجرون ۴/ ۵۷۴

سورة حم السجدة (۴۱)

(۵)/ أكنّة/ ۴/ ۵۷۹/ وقر/ ۴/ ۵۷۹ (۸)/ ممنون ۴/ ۵۸۰ (۱۰)/ رواسى ۴/ ۵۸۱ (۱۲)/ فقضاهنّ ۴/ ۵۸۲ (۱۶)/ صرصرا/ ۴/ ۵۸۵/ نحسات ۴/ ۵۸۵ (۲۵)/ قيّضنا/ ۴/ ۵۸۹/ قرناء/ ۴/ ۵۸۹ (۳۶)/ ينزغنّك ۴/ ۵۹۲ (۳۹)/ اهتزّت ۴/ ۵۹۴/ و ربت ۴/ ۵۹۴ (۴۷)/ أكمامها/ ۴/ ۵۹۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۸

(۴۸)/ محيص ۴/ ۵۹۸ (۵۰)/ نأى ۴/ ۵۹۹

سورة الشورى (۴۲)

(۱۱)/ يذرؤكم ۴/ ۶۰۵ (۱۳)/ يجتبى ۴/ ۶۰۷ (۱۶)/ داحضة/ ۴/ ۶۰۹ (۱۸)/ يمارون ۴/ ۶۰۹ (۳۲)/ كالأعلام ۴/ ۶۱۷ (۳۴)/ يوبقهنّ ۴/ ۶۱۸ (۳۸)/ شورى ۴/ ۶۱۹ (۵۰)/ عقيما/ ۴/ ۶۲۴

سورة الزخرف (۴۳)

(۵)/ أفنضرب ۴/ ۶۲۷/ صفحا/ ۴/ ۶۲۷ (۱۰)/ مهدا/ ۴/ ۶۲۷ (۱۳)/ مقرنين ۴/ ۶۲۸ (۱۵)/ جزءا/ ۴/ ۶۲۸ (۱۸)/ ينشّأ/ ۴/ ۶۲۹ (۲۰)/ يخرصون ۴/ ۶۳۰ (۲۳)/ أمّة/ ۴/ ۶۳۱ (۳۲)/ سخريّا/ ۴/ ۶۳۴ (۳۳)/ معارج ۴/ ۶۳۵/ يظهرون ۴/ ۶۳۵ (۳۶)/ و من يعش ۴/ ۶۳۶ (۵۰)/ ينكثون ۴/ ۶۴۰ (۵۶)/ سلفا/ ۴/ ۶۴۱ (۵۷)/ يصدّون ۴/ ۶۴۲ (۷۰)/ تحبرون ۴/ ۶۴۵ (۷۵)/ مبلسون ۴/ ۶۴۷ (۷۷)/ ماكثون ۴/ ۶۴۷ (۷۹)/ أبرموا/ ۴/ ۶۴۷/ يؤفكون ۴/ ۶۵۰

سورة الدخان (۴۴)

(۴)/ يفرق ۴/ ۶۵۳ (۱۶)/ نبطش ۴/ ۶۵۵ (۲۴)/ رهوا/ ۴/ ۶۵۸ (۲۷)/ فاكهين ۴/ ۶۵۸ (۳۳)/ بلاء/ ۴/ ۶۵۹ (۴۰)/ الفصل ۴/ ۶۶۱ (۴۴)/ الأثيم ۴/ ۶۶۲ (۴۷)/ فاعتلوه ۴/ ۶۶۲ (۵۴)/ بحور عين ۴/ ۶۶۳ (۵۹)/ فارتقب ۴/ ۶۶۴

سورة الجاثية (۴۵)

(۷)/ أفّاك ۵/ ۶ (۱۸)/ شريعة/ ۵/ ۹ (۲۰)/ بصائر/ ۵/ ۱۰ (۲۳)/ غشاوة/ ۵/ ۱۱ (۲۸)/ جاثية/ ۵/ ۱۳

سورة الأحقاف (۴۶)

(۴)/ أثارة/ ۵/ ۱۷ (۸)/ تفيضون ۵/ ۱۸ (۹)/ بدعا/ ۵/ ۱۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۳۹

(۱۵)/ كرها/ ۵/ ۲۲ (۲۱)/ الأحقاف ۵/ ۲۷ (۲۲)/ لتأفكنا/ ۵/ ۲۷ (۲۴)/ عارضا/ ۵/ ۲۸ (۳۳)/ يعى ۵/ ۳۲

سورة محمد (۴۷)

(۲)/ بالهم ۵/ ۳۶ (۴)/ أثخنتموهم ۵/ ۳۶ (۸)/ فتعسا/ ۵/ ۳۸ (۱۵)/ آسن ۵/ ۴۱ (۱۶)/ آنفا/ ۵/ ۴۲ (۲۰)/ أولى ۵/ ۴۵ (۲۹)/ أضغانهم ۵/ ۴۸ (۳۰)/ لحن ۵/ ۴۸ (۳۵)/ لن يتركم ۵/ ۵۰

سورة الفتح (۴۸)

(۹)/ تعزّروه ۵/ ۵۶ (۱۱)/ ضرّا/ ۵/ ۵۷ (۱۲)/ بورا/ ۵/ ۵۸ (۲۵)/ معكوفا/ ۵/ ۶۳/ أن تطؤهم ۵/ ۶۳/ تزيّلوا/ ۵/ ۶۴ (۲۹)/ شطأه ۵/ ۶۶/ آزره ۵/ ۶۶

سورة الحجرات (۴۹)

(۶)/ فتبيّنوا/ ۵/ ۷۱ (۷)/ لعنتّم ۵/ ۷۱ (۱۱)/ و لا تنابزوا/ ۵/ ۷۵ (۱۳)/ شعوبا/ ۵/ ۷۹ (۱۴)/ يلتكم ۵/ ۸۰

سورة ق (۵۰)

(۵)/ مريج ۵/ ۸۵ (۶)/ فروج ۵/ ۸۵ (۱۰)/ باسقات ۵/ ۸۶ (۱۵)/ أفعيينا/ ۵/ ۸۷ (۱۶)/ توسوس ۵/ ۸۸ (۱۹)/ تحيد/ ۵/ ۸۹ (۲۷)/ أزلفت ۵/ ۹۲ (۳۲)/ أوّاب ۵/ ۹۲ (۳۶)/ نقّبوا/ ۵/ ۹۴/ محيص ۵/ ۹۵ (۳۸)/ لغوب ۵/ ۹۵

سورة الذّاريات (۵۱)

(۱)/ الذّاريات ۵/ ۹۸ (۲)/ وقرا/ ۵/ ۹۸ (۷)/ الحبك ۵/ ۹۹ (۹)/ يؤفك ۵/ ۱۰۰ (۱۷)/ يهجعون ۵/ ۱۰۰ (۲۶)/ فراغ ۵/ ۱۰۵ (۲۹)/ صرّة/ ۵/ ۱۰۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۴۰

/ فصكّت ۵/ ۱۰۶ (۳۴)/ مسوّمة/ ۵/ ۱۰۶ (۳۹)/ فتولّى بركنه ۵/ ۱۰۸ (۴۸)/ الماهدون ۵/ ۱۰۹ (۵۹)/ ذنوبا/ ۵/ ۱۱۱

سورة الطور (۵۲)

(۲)/ مسطور/ ۵/ ۱۱۳ (۳)/ رقّ ۵/ ۱۱۳ (۶)/ المسجور/ ۵/ ۱۱۴ (۹)/ تمور/ ۵/ ۱۱۴ (۱۳)/ دعّا/ ۵/ ۱۱۵ (۲۱)/ ألتناهم ۵/ ۱۱۸ (۲۷)/ السّموم ۵/ ۱۱۹ (۳۷)/ المصيطرون ۵/ ۱۲۲ (۴۴)/ كسفا/ ۵/ ۱۲۲

سورة النجم (۵۳)

(۲)/ غوى ۵/ ۱۲۶ (۶)/ مرّة/ ۵/ ۱۲۷ (۹)/ قاب ۵/ ۱۲۷ (۱۴)/ سدرة/ ۵/ ۱۲۸ (۲۲)/ ضيزى ۵/ ۱۳۱ (۳۲)/ اللّمم ۵/ ۱۳۵ (۳۴)/ أكدى ۵/ ۱۳۷ (۴۶)/ تمنى ۵/ ۱۴۰ (۴۸)/ أقنى ۵/ ۱۴۰ (۵۳)/ المؤتفكة/ ۵/ ۱۴۱ (۵۷)/ أزفت ۵/ ۱۴۲ (۶۱)/ سامدون ۵/ ۱۴۲

سورة القمر (۵۴)

(۲)/ مستمر/ ۵/ ۱۴۵ (۴)/ مزدجر/ ۵/ ۱۴۶ (۸)/ مهطعين ۵/ ۱۴۷ (۱۱)/ منهمر/ ۵/ ۱۴۸ (۱۳)/ دسر/ ۵/ ۱۴۸ (۱۹)/ صرصرا/ ۵/

١٥٠ (٢٠)/ أعجاز/ ٥/ ١٥١/ منقعر/ ٥/ ١٥١ (٢٨)/ شرب ٥/ ١٥٢/ محتضر/ ٥/ ١٥٢ (٣١)/ المحتظر/ ٥/ ١٥٣ (٣٤)/ حاصبا/ ٥/ ١٥٣ (٣٧)/ راودوه ٥/ ١٥٣ (٥٣)/ مستطر/ ٥/ ١٥٦

سورة الرحمن (٥٥)

(١١)/ الأكمام ٥/ ١٥٩ (١٢)/ كالعصف ٥/ ١٦٠ (١٤)/ صلصال ٥/ ١٦١ (١٥)/ مارج ٥/ ١٦١ (٢٠)/ برزخ ٥/ ١٦١ (٢٤)/ الجوار/ ٥/ ١٦٢/ المنشآت ٥/ ١٦٢/ كالأعلام ٥/ ١٦٢

فتح القدير، ج٦، ص: ٢٤١

(٣٥)/ شواظ/ ٥/ ١٦٥ (٣٧)/ كالدّهان ٥/ ١٦٥ (٤٤)/ آن ٥/ ١٦٦ (٤٨)/ أفنان ٥/ ١٦٨ (٥٤)/ جنى ٥/ ١٦٩ (٥٦)/ لم يطمثهنّ ٥/ ١٧٠ (٦٤)/ مد هامّتان ٥/ ١٧١ (٦٦)/ نضّاختان ٥/ ١٧١ (٧٦)/ عبقريّ ٥/ ١٧٢

سورة الواقعة (٥٦)

(٥)/ بسّت ٥/ ١٧٧ (٩)/ المشأمة/ ٥/ ١٧٨ (١٣)/ ثلّة/ ٥/ ١٧٩ (١٧)/ مخلّدون ٥/ ١٧٩ (٢٨)/ مخضود/ ٥/ ١٨٣ (٢٩)/ منضود/ ٥/ ١٨٣ (٣١)/ مسكوب ٥/ ١٨٣ (٣٧)/ عربا/ ٥/ ١٨٤/ أترابا/ ٥/ ١٨٤ (٤٣)/ يحموم ٥/ ١٨٤ (٤٦)/ الحنث ٥/ ١٨٥ (٥٥)/ الهيم ٥/ ١٨٥ (٦٥)/ حطاما/ ٥/ ١٨٩/ تفكّهون ٥/ ١٨٩ (٦٦)/ لمغرمون ٥/ ١٨٩ (٦٩)/ المزن ٥/ ١٩٠ (٧٣)/ للمقوين ٥/ ١٩٠ (٧٨)/ مكنون ٥/ ١٩٢ (٨١)/ مدهنون ٥/ ١٩٣ (٨٩)/ فروح ٥/ ١٩٤

سورة الحديد (٥٧)

(١١)/ يقرض ٥/ ٢٠٢ (١٣)/ انظرونا/ ٥/ ٢٠٤ (١٦)/ ألم يأن ٥/ ٢٠٦ (٢٣)/ فخور/ ٥/ ٢١١

سورة المجادلة (٥٨)

(٣)/ يظاهرون ٥/ ٢١٨ (٥)/ يحادّون ٥/ ٢٢٢/ كبتوا/ ٥/ ٢٢٢ (٧)/ نجوى ٥/ ٢٢٣ (١١)/ تفسّحوا/ ٥/ ٢٢٥/ انشزوا/ ٥/ ٢٢٦ (١٩)/ استحوذ/ ٥/ ٢٣٠

سورة الحشر (٥٩)

(٢)/ الرّعب ٥/ ٢٣٢ (٥)/ لينة/ ٥/ ٢٣٤ (٦)/ أو جفتم ٥/ ٢٣٥ (٧)/ دولة/ ٥/ ٢٣٦ (٩)/ خصاصة/ ٥/ ٢٣٩/ يوق ٥/ ٢٤٠ (١٤)/ شتّى ٥/ ٢٤٣ (٢٣)/ القدّوس ٥/ ٢٤٦/ المهيمن ٥/ ٢٤٧

فتح القدير، ج٦، ص: ٢٤٢

سورة الممتحنة (٦٠)

(٣)/ يفصل ٥/ ٢٥١ (٤)/ إسوة/ ٥/ ٢٥٣ (١٠)/ بعصم ٥/ ٢٥٦

سورة الصّف (٦١)

(۳)/ مقتا/ ۵/ ۲۶۱ (۴)/ مرصوص ۵/ ۲۶۲

سورة الجمعة (۶۲)

(۲)/ فی الأمّيين ۵/ ۲۶۷ (۵)/ أسفارا/ ۵/ ۲۶۸ (۹)/ فاسعوا/ ۵/ ۲۷۰ (۱۱)/ انفضّوا/ ۵/ ۲۷۱

سورة المنافقون (۶۳)

(۱)/ نشهد/ ۵/ ۲۷۴ (۲)/ جنّة/ ۵/ ۲۷۵ (۷)/ ينفضّوا/ ۵/ ۲۷۷

سورة التغابن (۶۴)

(۵)/ وبال ۵/ ۲۸۱ (۹)/ التّغابن ۵/ ۲۸۳

سورة الطلاق (۶۵)

(۶)/ وجدكم ۵/ ۲۹۲/ تعاسرتم ۵/ ۲۹۳ (۸)/ عتت ۵/ ۲۹۴

سورة التحريم (۶۶)

(۲)/ تحلّة/ ۵/ ۲۹۸ (۴)/ صغت ۵/ ۲۹۸/ تظاهرا/ ۵/ ۲۹۷/ ظهير/ ۵/ ۲۹۹ (۵)/ سائحات ۵/ ۲۹۹ (۸)/ نصوحا/ ۵/ ۳۰۲

سورة الملك (۶۷)

(۱)/ تبارك ۵/ ۳۰۸ (۳)/ طباقا/ ۵/ ۳۰۹/ فطور/ ۵/ ۳۰۹ (۴)/ حسير/ ۵/ ۳۰۹ (۷)/ تفور/ ۵/ ۳۱۰ (۸)/ تميّز/ ۵/ ۳۱۰ (۱۵)/ ذلولا/ ۵/ ۳۱۲/ مناكبها/ ۵/ ۳۱۲ (۱۶)/ تمور/ ۵/ ۳۱۳ (۱۹)/ يقبضن ۵/ ۳۱۳ (۲۱)/ لجّوا/ ۵/ ۳۱۴/ عتوّ/ ۵/ ۳۱۴/ نفور/ ۵/ ۳۱۴ (۲۲)/ مكبّا/ ۵/ ۳۱۴ (۲۴)/ ذرأكم ۵/ ۳۱۵ (۳۰)/ غورا/ ۵/ ۳۱۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۴۳

سورة ن (۶۸)

(۱)/ يسطرون ۵/ ۳۱۹ (۹)/ تدهن ۵/ ۳۲۰ (۱۱)/ همّاز/ ۵/ ۳۲۰/ مشّاء بنميم ۵/ ۳۲۰ (۱۳)/ عتلّ ۵/ ۳۲۱/ زنيم ۵/ ۳۲۱ (۱۶)/ سنسمه ۵/ ۳۲۱/ الخرطوم ۵/ ۳۲۱ (۱۷)/ ليصرمنّها/ ۵/ ۳۲۳ (۲۰)/ كالصّريم ۵/ ۳۲۴ (۲۳)/ يتخافتون ۵/ ۳۲۴ (۲۵)/ حرد/ ۵/ ۳۲۴ (۴۳)/ تزهقهم ۵/ ۳۲۹ (۴۸)/ مكظوم ۵/ ۳۳۰ (۵۱)/ ليزلقونك ۵/ ۳۳۰

سورة الحاقّة (۶۹)

(۱)/ الحاقّة/ ۵/ ۳۳۳ (۴)/ القارعة/ ۵/ ۳۳۴ (۷)/ حسوما/ ۵/ ۳۳۴ (۱۰)/ رابية/ ۵/ ۳۳۶ (۱۴)/ فدكّتا/ ۵/ ۳۳۶ (۱۹)/ هاؤم ۵/ ۳۳۹ (۳۱)/ صلّوه ۵/ ۳۴۰ (۳۶)/ من غسلين ۵/ ۳۴۱ (۴۶)/ الوتين ۵/ ۳۴۲

سورة المعارج (۷۰)

(۳)/ المعارج ۵/ ۳۴۵ (۸)/ كالمهل ۵/ ۳۴۶ (۱۳)/ فصيلته ۵/ ۳۴۷ (۱۶)/ نزّاعة/ ۵/ ۳۴۷ (۱۸)/ فأوعى ۵/ ۳۴۸ (۱۹)/ هلوعا/ ۵/ ۳۴۹ (۲۰)/ جزوعا/ ۵/ ۳۵۰ (۳۶)/ مهطعين ۵/ ۳۵۱ (۳۷)/ عزين ۵/ ۳۵۱ (۴۳)/ نصب ۵/ ۳۵۳/ يوفضون ۵/ ۳۵۳ (۴۴)/ ترهقهم ۵/ ۳۵۴

سورة نوح (۷۱)

(۷)/ و استغشوا/ ۵/ ۳۵۶ (۱۱)/ مدرارا/ ۵/ ۳۵۷ (۱۳)/ وقارا/ ۵/ ۳۵۷ (۱۴)/ أطوارا/ ۵/ ۳۵۷ (۱۵)/ طباقا/ ۵/ ۳۵۷ (۲۰)/ فجاجا/ ۵/ ۳۵۸ (۲۲)/ كبّارا/ ۵/ ۳۵۹ (۲۳)/ لا تذرنّ ۵/ ۳۶۰ (۲۸)/ تبارا/ ۵/ ۳۶۰

سورة الجن (۷۲)

(۱)/ نفر/ ۵/ ۳۶۳ (۳)/ جدّ ربّنا/ ۵/ ۳۶۴ (۴)/ شططا/ ۵/ ۳۶۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۴۴

(۶)/ رهقا/ ۵/ ۳۶۶ (۱۱)/ قددا/ ۵/ ۳۶۷ (۱۶)/ غدقا/ ۵/ ۳۷۰ (۱۷)/ صعدا/ ۵/ ۳۷۰ (۱۹)/ لبدا/ ۵/ ۳۷۱ (۲۲)/ ملتحدا/ ۵/ ۳۷۱ (۲۵)/ أمدا/ ۵/ ۳۷۲ (۲۷)/ رصدا/ ۵/ ۳۷۵

سورة المزّمّل (۷۳)

(۱)/ المزّمّل ۵/ ۳۷۸ (۴)/ و رتّل ۵/ ۳۷۹ (۶)/ ناشئة/ ۵/ ۳۷۹/ وطئا/ ۵/ ۳۸۰ (۷)/ سبحا/ ۵/ ۳۸۰ (۸)/ تبتّل ۵/ ۳۸۱ (۱۲)/ أنكالا/ ۵/ ۳۸۱ (۱۳)/ غصّة/ ۵/ ۳۸۱ (۱۸)/ منفطر/ ۵/ ۳۸۳

سورة المدّثّر (۷۴)

(۱)/ المدّثّر/ ۵/ ۳۸۸ (۵)/ الرّجز/ ۵/ ۳۸۹ (۸)/ نقر في النّاقور/ ۵/ ۳۹۰ (۱۴)/ و مهّدت ۵/ ۳۹۱ (۱۶)/ عنيدا/ ۵/ ۳۹۱ (۲۲)/ بسر/ ۵/ ۳۹۲ (۲۴)/ يؤثر/ ۵/ ۳۹۳ (۲۹)/ لوّاحة/ ۵/ ۳۹۳ (۳۵)/ الكبر/ ۵/ ۳۹۷ (۳۸)/ رهينة/ ۵/ ۳۹۹ (۵۰)/ مستنفرة/ ۵/ ۴۰۰ (۵۱)/ قسورة/ ۵/ ۴۰۰

سورة القيامة (۷۵)

(۲)/ اللّوّامة/ ۵/ ۴۰۳ (۴)/ بنانه ۵/ ۴۰۴ (۷)/ برق ۵/ ۴۰۴ (۹)/ خسف القمر/ ۵/ ۴۰۵ (۱۱)/ لا وزر/ ۵/ ۴۰۵ (۱۵)/ معاذيره ۵/ ۴۰۶ (۲۲)/ ناضرة/ ۵/ ۴۰۷ (۲۴)/ باسرة/ ۵/ ۴۰۸ (۲۵)/ فاقرة/ ۵/ ۴۰۸ (۲۶)/ التّراقي ۵/ ۴۱۰ (۲۷)/ راق ۵/ ۴۱۰ (۳۶)/ سدى ۵/ ۴۱۱

سورة الإنسان (۷۶)

(۲)/ أمشاج ۵/ ۴۱۵ (۵)/ مزاجها/ ۵/ ۴۱۷ (۷)/ مستطيرا/ ۵/ ۴۱۵ (۱۰)/ قمطريرا/ ۵/ ۴۱۹ (۱۱)/ نضرة/ ۵/ ۴۲۰ (۱۳)/ زمهريرا/

/ ۵/ ۴۲۱ (۱۴)/ و ذلّلت ۵/ ۴۲۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۴۵

(۱۸)/ سلسبيلا/ ۵/ ۴۲۲ (۱۹)/ منثورا/ ۵/ ۴۲۳ (۲۸)/ أسرهم ۵/ ۴۲۷

سورة المرسلات (۷۷)

(۱)/ عرفا/ ۵/ ۴۲۹ (۲)/ عصفا/ ۵/ ۴۳۰ (۸)/ طمست ۵/ ۴۳۱ (۲۵)/ كفاتا/ ۵/ ۴۳۲ (۲۷)/ شامخات ۵/ ۴۳۲ (۳۲)/ القصر/ ۵/ ۴۳۴ (۳۳)/ جمالات ۵/ ۵۳۴

سورة عمّ (۷۸)

(۹)/ سباتا/ ۵/ ۴۳۹ (۱۴)/ المعصرات ۵/ ۴۴۰/ ثجّاجا/ ۵/ ۴۴۰ (۱۶)/ ألفافا/ ۵/ ۴۴۰ (۲۱)/ مرصادا/ ۵/ ۴۴۱ (۲۲)/ مآبا/ ۵/ ۴۴۲ (۲۳)/ أحقابا/ ۵/ ۴۴۲ (۳۱)/ مفازا/ ۵/ ۴۴۵ (۳۳)/ كواعب ۵/ ۴۴۵ (۳۴)/ دهاقا/ ۵/ ۴۴۵/ حسابا/ ۵/ ۴۴۵

سورة النّازعات (۷۹)

(۱)/ النّازعات ۵/ ۴۴۹ (۲)/ النّاشطات ۵/ ۴۴۹ (۶)/ الرّاجفة/ ۵/ ۴۵۱ (۸)/ واجفة/ ۵/ ۴۵۲ (۱۱)/ نخرة/ ۵/ ۴۵۲ (۱۰)/ الحافرة/ ۵/ ۴۵۲ (۱۴)/ بالسّاهرة/ ۵/ ۴۵۳ (۲۵)/ نكال ۵/ ۴۵۵ (۲۸)/ سمكها/ ۵/ ۴۵۷ (۲۹)/ أغطش ۵/ ۴۵۷ (۳۰)/ دحاها/ ۵/ ۴۵۸ (۳۴)/ الطّامّة/ ۵/ ۴۵۹

سورة عبس (۸۰)

(۱۰)/ تلهّى ۵/ ۴۶۳ (۱۵)/ سفرة/ ۵/ ۴۶۴ (۱۶)/ بررة/ ۵/ ۴۶۴ (۲۱)/ فأقبره ۵/ ۴۶۵ (۳۰)/ غلبا/ ۵/ ۴۶۶ (۳۳)/ الصّاخّة/ ۵/ ۴۶۶ (۴۱)/ قترة/ ۵/ ۴۶۷

سورة التكوير (۸۱)

(۱)/ كوّرت ۵/ ۴۶۹ (۲)/ انكدرت ۵/ ۴۶۹ (۵)/ الوحوش ۵/ ۴۷۰ (۶)/ سجّرت ۵/ ۴۷۰ (۸)/ الموءودة/ ۵/ ۴۷۱ (۱۵)/ بالخنّس ۵/ ۴۷۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۴۶

(۱۶)/ الكنّس ۵/ ۴۷۲ (۱۷)/ عسعس ۵/ ۴۷۲ (۲۴)/ بضنين ۵/ ۴۷۴

سورة الانفطار (۸۲)

(۱)/ انفطرت ۵/ ۴۷۸ (۲)/ انتثرت ۵/ ۴۷۸ (۴)/ بعثرت ۵/ ۴۷۸

سورة المطفّفين (۸۳)

(١)/ للمطفّفين ٥/ ٤٨٢ (٨)/ سجّين ٥/ ٤٨٤ (٢٥)/ رحيق ٥/ ٤٨٨

سورة الانشقاق (٨٤)

(٢)/ و حقّت ٥/ ٤٩٢ (۶)/ كادح ٥/ ٤٩٢ (١۴)/ يحور/ ٥/ ٤٩٣ (١٧)/ وسق ٥/ ۴٩۴ (٢٥)/ ممنون ٥/ ۴٩۶

سورة البروج (٨٥)

(۴)/ الأخدود/ ٥/ ٥٠٠ (١٥)/ ذو العرش ٥/ ٥٠٢

سورة الطارق (٨۶)

(١)/ الطّارق ٥/ ٥٠٧ (٣)/ الثّاقب ٥/ ٥٠٨ (۶)/ دافق ٥/ ٥٠٨ (٧)/ الصّلب ٥/ ٥٠٩/ التّرائب ٥/ ٥٠٩ (١٢)/ الصّدع ٥/ ٥١١ (١٧)/ رويدا/ ٥/ ٥١١

سورة الأعلى (٨٧)

(٥)/ غثاء/ ٥/ ٥١۴/ أحوى ٥/ ٥١۴ (١۴)/ تزكّى ٥/ ٥١۶

سورة الغاشية (٨٨)

(١)/ الغاشية/ ٥/ ٥٢٠ (٣)/ ناصية/ ٥/ ٥٢١ (٥)/ آنية/ ٥/ ٥٢١ (۶)/ ضريع ٥/ ٥٢١ (١٥)/ نمارق ٥/ ٥٢٣ (١۶)/ زرابيّ ٥/ ٥٢٣ (٢٥)/ إيابهم ٥/ ٥٢۴

سورة الفجر (٨٩)

(٥)/ حجر/ ٥/ ٥٢٨ (٧)/ العماد/ ٥/ ٥٢٩ (١٣)/ صبّ ٥/ ٥٣١/ سوط/ ٥/ ٥٣١ (١٩)/ لمّا/ ٥/ ٥٣٥
فتح القدير، ج۶، ص: ٢۴٧

سورة البلد (٩٠)

(۴)/ كبد/ ٥/ ٥٣٩ (۶)/ لبدا/ ٥/ ٥۴٠ (١١)/ اقتحم ٥/ ٥۴٠ (١۴)/ مسغبة/ ٥/ ٥۴١ (٢٠)/ مؤصدة/ ٥/ ٥۴٢

سورة الشمس (٩١)

(٣)/ جلّاها/ ٥/ ٥۴۶ (۶)/ طحاها/ ٥/ ٥۴۶ (١٠)/ دسّاها/ ٥/ ٥۴٧ (١٢)/ انبعث ٥/ ٥۴٨ (١۴)/ فدمدم ٥/ ٥۴٨

سورة الليل (٩٢)

(۴)/ سعيكم ٥/ ٥٥٠/ لشتّى ٥/ ٥٥١ (١١)/ تردّى ٥/ ٥٥١

سورة الضحى (٩٣)

(٢)/ سجى ٥/ ٥٥٧ (٣)/ ما ودّعك ٥/ ٥٥٧/ قلى ٥/ ٥٥٧ (١٠)/ فلا تنهر/ ٥/ ٥٥٩

سورة الشّرح (٩٤)

(١)/ نشرح ٥/ ٥٦٢ (٣)/ أنقض ٥/ ٥٦٣ (٧)/ فانصب ٥/ ٥٦٤

سورة التين (٩٥)

(٢)/ سينين ٥/ ٥٦٧ (٥)/ أسفل سافلين ٥/ ٥٦٧ (٦)/ غير ممنون ٥/ ٥٦٨

سورة العلق (٩٦)

(٨)/ الرّجعى ٥/ ٥٧٢ (١٥)/ لنسفعا/ ٥/ ٥٧٢ (١٧)/ فليدع ناديه ٥/ ٥٧٣ (١٨)/ الزّبانيّة/ ٥/ ٥٧٣

سورة القدر (٩٧)

(١)/ القدر/ ٥/ ٥٧٥ (٤)/ أمر/ ٥/ ٥٧٦

سورة البيّنة (٩٨)

(١)/ منفكّين ٥/ ٥٧٨ (٢)/ يتلو/ ٥/ ٥٧٩ (٥)/ القيّمة/ ٥/ ٥٨١

سورة الزلزلة (٩٩)

(١)/ زلزلت ٥/ ٥٨٣ (٦)/ يصدر/ ٥/ ٥٨٤/ أشتاتا/ ٥/ ٥٨٤
فتح القدير، ج٦، ص: ٢٤٨

سورة العاديات (١٠٠)

(١)/ العاديات ٥/ ٥٨٧/ ضبحا/ ٥/ ٥٨٧ (٢)/ فالموريات ٥/ ٥٨٨ (٤)/ فأثرن ٥/ ٥٨٨/ نقعا/ ٥/ ٥٨٩

سورة القارعة (١٠١)

(١)/ القارعة/ ٥/ ٥٩٣ (٤)/ الفراش ٥/ ٥٩٤/ المبثوث ٥/ ٥٩٤ (٥)/ العهن ٥/ ٥٩٤ (٩)/ هاوية/ ٥/ ٥٩٥

سورة التكاثر (١٠٢)

(١)/ ألهاكم ٥/ ٥٩٦/ التّكاثر/ ٥/ ٥٩٦

سورة العصر (۱۰۳)

(۱)/ العصر / ۵/ ۶۰۰ (۲)/ خسر / ۵/ ۶۰۰

سورة الهمزة (۱۰۴)

(۱)/ همزة/ ۵/ ۶۰۲/ لمزة/ ۵/ ۶۰۲ (۲)/ عدّده ۵/ ۶۰۳ (۴)/ الحطمة/ ۵/ ۶۰۳ (۸)/ مؤصدة/ ۵/ ۶۰۴

سورة الفيل (۱۰۵)

(۲)/ كيدهم ۵/ ۶۰۵ (۳)/ أبابيل ۵/ ۶۰۵ (۴)/ سجّيل ۵/ ۶۰۶ (۵)/ كعصف ۵/ ۶۰۶

سورة قريش (۱۰۶)

(۱)/ لإيلاف ۵/ ۶۰۹/ قريش ۵/ ۶۰۹

سورة الماعون (۱۰۷)

(۲)/ يدعّ ۵/ ۶۱۱ (۵)/ ساهون ۵/ ۶۱۲ (۷)/ الماعون ۵/ ۶۱۲

سورة الكوثر (۱۰۸)

(۱)/ الكوثر / ۵/ ۶۱۴ (۲)/ و انحر / ۵/ ۶۱۵ (۳)/ الأبتر / ۵/ ۶۱۵

سورة النصر (۱۱۰)

(۱)/ نصر اللّه ۵/ ۶۲۳ (۲)/ أفواجا/ ۵/ ۶۲۴

سورة المسد (۱۱۱)

(۱)/ تبّت ۵/ ۶۲۷ (۴)/ حمّالة/ ۵/ ۶۲۸/ الحطب ۵/ ۶۲۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۴۹

(۵)/ من مسد/ ۵/ ۶۲۸

سورة الإخلاص (۱۱۲)

(۱)/ أحد/ ۵/ ۶۳۳ (۲)/ الصّمد/ ۵/ ۶۳۳ (۴)/ كفوا/ ۵/ ۶۳۵

سورة الفلق (۱۱۳)

(۱)/ الفلق ۵/ ۶۳۸ (۳)/ غاسق ۵/ ۶۳۹ (۴)/ النّفّاثات ۵/ ۶۴۰/ العقد/ ۵/ ۶۴۰

سورة النّاس (۱۱۴)

(۴)/ الوسواس ۵/ ۶۴۲/ الخنّاس ۵/ ۶۴۲ (۶)/ الجنّة/ ۵/ ۶۴۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۵۱

(۶) فهرس الموضوعات العامة

اشارة

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۵۳

اللّه

اشارة

فتح القدير ج۶ ۲۹۹

۱- توحيده و تنزيهه.

۲- الأسماء الحسنى.

۳- صفاته.

۴- كمال اللّه.

۵- العدل الإلهى و الكرم الربانى.

۶- العزة.

۷- الشهادة.

۸- الشفاعة.

۹- الملك.

۱۰- رحمة اللّه.

۱۱- كلمات اللّه.

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۵۴

۱- توحيده و تنزيهه:

رأس خصال الدين التوحيد للّه و ترك الشرك به سبحانه ۳/ ۲۷۴ توحيده و دفع الشرك به ۵/ ۲۴۶- ۲۴۷ الحياء: محال على اللّه ۱/ ۶۷ لو كان مع اللّه آلهة لابتغت إلى اللّه القربة و الزلفى ۳/ ۲۷۵- ۲۷۶- ۲۷۷ يسبّحه من فى السماوات و الأرض ۳/ ۲۷۵- ۲۷۶- ۲۷۷ استحالة الشركاء للّه تعالى ۲/ ۵۲۳ لو كان فى السماوات و الأرض آلهة إلا اللّه لفسدتا ۲/ ۵۲۳ تنزهه سبحانه عن الولد، و استغناؤه عن الشريك ۲/ ۵۲۳ تنزهه عما لا يليق به ۵/ ۵۱۴- ۵۱۵ أول ما يجب بيانه و يحرم كتمانه ۱/ ۱۸۷ إن تعدد

الآلهـة يؤدى إلى الاختلاف ۳/ ۴۷۷ لاـ يسأل عمـا يفعل و الناس يسألون ۳/ ۴۷۷ من أدلته تعـالى خلق السـماوات و الأرض، و تعـاقب الليـل و النهار ۱/ ۱۸۸ - ۱۸۹ سـؤال كـل الخلق له ۵/ ۱۶۴ - ۱۶۷ كـل يـوم هو فى شـأن من المغفرة و الرحمـة، و تفريج الكرب ۵/ ۱۶۴- ۱۶۷ شرع لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم التوحيد و الإسلام ما وصّى به الرسل من قبل ۴/ ۶۰۷ ربط المشيئة باللّه وحده ۱/ ۶۲ الفطرة: معناها الخلقة و هى الاستقامة على التوحيد ۴/ ۲۵۸

۲- الأسماء الحسنى:

للّه الأسماء الحسنى ۳/ ۴۲۴ و ۵/ ۲۴۸ أسماء اللّه على الجملة ۲/ ۳۰۵- ۳۰۶- ۳۰۷- ۳۰۸ للّه أحسن الأسماء و أشرفها ۲/ ۳۰۵- ۳۰۶- ۳۰۷- ۳۰۸ الإلحـاد فى أسـمائه بـالتغيير أو الزيادة أو النقص ۲/ ۳۰۵- ۳۰۶- ۳۰۷- ۳۰۸ الأسـماء الحسنى ليست منحصرة بعدد ۲/ ۳۰۵- ۳۰۶- ۳۰۷- ۳۰۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۵۵

حسن الأسـماء كلها و استقلالها بنعوت الجلال و الإكرام ۵/ ۴۰۳ الغنى: إن اللّه غير محتاج إلى إيمان البشر و لا إلى عبادتهم ۴/ ۵۱۸ اللطيف: اللّه كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم ۴/ ۶۱۰ هو الأول قبل كل شىء و الآخر بعد كل شىء ۵/ ۱۹۹- ۲۰۰

۳- صفاته:

هو اللّه أحد ۵/ ۶۳۲- ۶۳۵ الصـمد: الذى يصمد إليه فى الحاجات ۵/ ۶۳۲- ۶۳۵ ليس له كفء، و نفى الولـد و الوالد ۵/ ۶۳۲- ۶۳۵ هو العالى الغالب على كل شـىء، و العالم بما بطن ۵/ ۱۹۹- ۲۰۰ هو ربّ الناس ۵/ ۶۴۱ مالك أمرهم و مصلح أحوالهم ۵/ ۶۴۱ العزيز: فلاـ نظير له فى قوته و قهره ۵/ ۲۴۷- ۲۴۹ الجبار- العظيم- المتكبر- الذى تكبر عن كل نقص ۵/ ۲۴۷- ۲۴۹ الخالق المنشـئ المخترع الموجد للصور، له الأسماء الحسنى ۵/ ۲۴۷- ۲۴۹ الغفور الودود ۵/ ۵۰۱- ۵۰۲- ۵۰۶ صاحب العرش المجيد ۵/ ۵۰۱- ۵۰۲- ۵۰۶ فعّال لما يريـد من الابتـداء و الإعادة ۵/ ۵۰۱- ۵۰۲- ۵۰۶ الخالق الذى أضـحك أهل الجنة، و أبكى أهل النار ۵/ ۱۴۰ خلق الزوجين من المنى الـذى يصب فى الرحم ۵/ ۱۴۰ قدرته سـبحانه على إنشاء الأرواح عند البعث ۵/ ۱۴۰ يغنى من يشـاء و يفقر من يشاء ۵/ ۱۴۰ هو رب الشعرى ۵/ ۱۴۱- ۱۴۲- ۱۴۳ أهلـك عـادا و ثمود و قوم نوح لكفرهم فما أبقى منهم أحدا ۵/ ۱۴۱- ۱۴۲- ۱۴۳ عالم الغيب و الشـهادة ۵/ ۲۴۶- ۲۴۷ هو الرحمن الرحيم- الطـاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص ۵/ ۲۴۶ - ۲۴۷ هو السـلام الـذى وهب الأـمن لعبـاده من عـذابه ۵/ ۲۴۶ - ۲۴۷ هـو الشـهيد عليهم ۵/ ۲۴۶ - ۲۴۷ هو الملـك- القدوس- العزيز- الحكيم ۵/ ۲۶۷ هو الأعلى و هو الذى خلق و هدى و أخرج المرعى ۵/ ۵۱۴- ۵۱۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۵۶

هو العلىّ- معنى العلو- إثبات الجهة للّه ۱/ ۳۱۲

۴- كمال اللّه:

علمه سبحانه بكل المخلوقات ۳/ ۱۵۲- ۱۵۴ اللّه تعالى صـيّر السماوات و الأرض منيرتين باستقامة أحوال أهلهما و كمال تدبيره لمن فيهما ۴/ ۳۸- ۳۹ بيان صفة نوره عز و جل ۴/ ۳۸- ۳۹

۵- العدل الإلهی و الکرم الربانی:

من عمل الحسنهٔ فله خیر منها ۴/ ۲۰۷ من عمل السیئهٔ فلا یجزی إلا مثلها ۴/ ۲۱۷ التفریق یوم القیامهٔ بین المسلمین و المجرمین ۵/ ۳۲۷- ۳۲۸ التعجب من حکم الکفار الأعوج و ادعاءاتهم الباطلهٔ و الظالمهٔ و المستندهٔ علی الجهل و الخداع ۵/ ۳۲۷- ۳۲۸ أضاءت الأرض و أنارت بعدل اللّه ۴/ ۵۴۵ التفریق بین المحسن و المسیء فی الثواب و العقاب ۵/ ۱۰ التسویهٔ بینهما ظلم، و التفریق عدل إلهی ۵/ ۱۰ الجزاء بالأعمال و الدرجات بها ۲/ ۱۸۶ لا تزر وازرهٔ وزر أخری ۲/ ۱۸۶

۶- العزهٔ:

العزهٔ للّه جمیعا ۲/ ۵۲۲ تطلب العزهٔ من عنده سبحانه ۴/ ۳۵۶

۷- الشهادهٔ:

شهادهٔ اللّه و ملائکته بالوحی و النبوهٔ لمحمد صلّی اللّه علیه و سلم ۱/ ۶۲۲

۸- الشفاعهٔ:

لا تنفع الشفاعهٔ فی حال من الأحوال إلا بإذنه ۴/ ۳۷۲ لا یملک أحد الشفاعهٔ إلا بإذنه و یقول حقا ۵/ ۴۴۰- ۴۴۶ لا یملکها أحد إلا إذا استعدّ لذلک، و أذن له الرحمن بها ۳/ ۴۱۶ لا تملکها الأصنام التی یعبدونها من دون اللّه ۴/ ۶۴۹

فتح القدیر، ج‌۶، ص: ۲۵۷

اتخاذ الکفار الأصنام شفعاء ۴/ ۵۳۵ الشفاعهٔ للّه وحده ۴/ ۵۳۵

۹- الملک:

للّه ملک السماوات و الأرض و من فیهن ۲/ ۵۲۲- ۵۲۳

۱۰- رحمهٔ اللّه:

عدم القنوط و الیأس ۴/ ۵۳۸- ۵۳۹ اللّه کثیر الرحمهٔ و المغفرهٔ ۴/ ۵۳۸- ۵۳۹ لا یغفر اللّه الشرک به، و یغفر ما دون ذلک ۴/ ۵۳۸- ۵۳۹

۱۱- کلمات اللّه:

لا تنفد کلمات اللّه أبدا ۳/ ۳۷۷

فتح القدیر، ج‌۶، ص: ۲۵۸

اشارة

١- الإيمان و دلائله.

٢- الدين و الإسلام.

٣- القدرة الإلهية و دلائلها.

۴- التقديس.

۵- الرؤية.

۶- القسم.

٧- القضاء و القدر.

٨- الكرسى.

٩- الإخلاص. ١٠- الإشراك.

١١- الأصنام.

١٢- الكبائر.

١٣- الهوى.

١۴- الهدى.

١۵- التقوى.

١۶- الغيب.

١٧- الاحتكام إلى اللّه.

١٨- الوعد و الوعيد.

فتح القدير، ج۶، ص: ٢۵٩

١- الإيمان:

الإيمان باللّه و المراد به ١/ ١١٠ تعريف الإيمان الشرعى ١/ ۴٢ الاستدلال على الإيمان بالنظر فيما فى السماوات و الأرض ۵/ ۵۴١- ۵۴٢ التهديد و الوعيد بما جرى للأمم السابقة من العذاب ۵/ ۵۴١- ۵۴٢ الإيمان و التقوى سبب نزول بركات السماء و خروج خيرات الأرض ٢/ ٢۶٠ لا ينفع بعد رؤية العذاب شىء. سنة العباد مضت فى عباد اللّه جميعا ۴/ ۵٧۶ دلائل الألوهية: اللّه فاطر السماوات و الأرض يرزق و لا يرزق فهو المعبود بحق ٢/ ١١٩

٢- الدين و الإسلام:

لا- إكراه فى الدين لأهل الكتاب، و إنما القتال للمشركين ١/ ٣١۵ الكافر ميت يحييه اللّه بالإسلام ٢/ ١٨١- ١٨٢ أمثلة ممن أحياهم اللّه بالإسلام و أماتهم بالكفر ٢/ ١٨٢ إكماله و إتمامه ٢/ ١٣- ١۴ رضا اللّه به دينا لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم ٢/

۳- القدرة الإلهية و دلائلها:

الدلائل السماوية و الدلائل الأرضية من الخلق و الإبداع ۳/ ۷۸- ۷۹- ۸۰ فى الأمور التى ترجى من بعض الوجوه و يخاف من بعضها كالبرق و السحاب و الرعد و الصاعقة ۳/ ۸۶- ۸۸ خلق الشمس و القمر و النجوم مسخرات ۲/ ۲۴۱ يغشى الليل النهار ۲/ ۲۴۱ قدرة اللّه تعالى على الإتيان بالماء العذب إن غار الماء و نضب ۵/ ۳۱۶- ۳۱۷ يوم القيامة يطوى اللّه السماء كطىّ السجل للكتب ۳/ ۵۰۹- ۵۱۰- ۵۱۳ كما بدأ أول خلق يعيده ۳/ ۵۰۹- ۵۱۰- ۵۱۳ فى فصل الأرض عن السماء ۳/ ۴۸۰- ۴۸۱- ۴۸۲ جعل اللّه من الماء كل شىء حىّ ۳/ ۴۸۰- ۴۸۱- ۴۸۲ فالق الإصباح ۲/ ۱۶۳- ۱۶۴ تسيير الفلك فى البحر ۳/ ۲۸۹

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۶۰

بديع السماوات و الأرض- خالق كل شىء ۲/ ۱۶۸- ۱۶۹ كمال القدرة فى جعل الليل للراحة و السّكن ۲/ ۱۶۳ جعل الشمس و القمر حسبانا (محل حساب) ۲/ ۱۶۳ إنشاء جنات معروشات و النخل و الزرع ۲/ ۱۹۱- ۱۹۲- ۱۹۳ خلق الأنعام حمولة و فرشا ۲/ ۱۹۱- ۱۹۲- ۱۹۳ كمال القدر فى خلق الحب و النخيل ۲/ ۱۶۴- ۱۶۵ خلق الناس من نفس واحدة ۲/ ۱۶۴ جعل بعض الأنفس مستقرا أو بعضها مستودعا ۲/ ۱۶۴ إنزال الماء من السماء و إنبات النبات الأخضر ۲/ ۱۶۴ قدرة اللّه فى خلق الحب المتراكب، و القنوان الدانية مشتبها و غير متشابه ۲/ ۱۶۷ خلق السماوات السبع ۳/ ۵۶۷- ۵۶۸- ۵۶۹ إنزال الماء من السماء و إسكانه الأرض، و هو قادر سبحانه على الذهاب به بالتبخر فى السماء أو الغور فى الأرض ۳/ ۵۶۷- ۵۶۸- ۵۶۹ إخراج الفواكه و الثمار ۳/ ۵۶۷- ۵۶۸- ۵۶۹ شجرة الزيتون ۳/ ۵۶۷- ۵۶۸- ۵۶۹ خلق الأنعام و لبنها، و الفلك و فائدتها ۳/ ۵۶۷- ۵۶۸- ۵۶۹ إنزال الماء من السماء فتخضر الأرض ۳/ ۵۵۲- ۵۵۳ تسخير ما فى الأرض ۳/ ۵۵۲- ۵۵۳ جريان الفلك فى البحر ۳/ ۵۵۲- ۵۵۳ إمساك السماء أن تقع على الأرض ۳/ ۵۵۲- ۵۵۳ الموت و الحياة ۳/ ۵۵۲- ۵۵۳ صنعة اللّه الباهرة فى خلق الإنسان و وفاته ۳/ ۲۱۴- ۲۱۵ من الناس من يرد إلى أرذل العمر (الخرف) ۳/ ۲۱۴- ۲۱۵ فى خلق الأنعام و اللبن الذى يتكون من بين فرث و دم ۳/ ۲۱۱ إنزال الماء من السماء للشرب و ليسلكه اللّه ينابيع و ينبت به الزروع و الأشجار ۳/ ۱۸۴- ۱۸۵- ۱۸۶ تسخير الليل و النهار و الشمس و القمر ۳/ ۱۸۴- ۱۸۵- ۱۸۶ تسخير البحر لأكل اللحم و استخراج اللؤلؤ و جريان السفن ۳/ ۱۸۴- ۱۸۵- ۱۸۶ خلق النحل، و كيف يصنع من الرحيق عسلا ۳/ ۲۱۰- ۲۱۱- ۲۱۲ خلق ثمرات النخيل و الأعناب، تتخذون منه خمرا محرما و طعاما حلالا ۳/ ۲۱۰- ۲۱۱- ۲۱۲

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۶۱

الليل و النهار آيتان ۳/ ۲۵۵ طمس نور الليل و جعل شمس النهار مضيئة ۳/ ۲۵۵ معرفة علم عدد السنين و الحساب ۳/ ۲۵۵ إنزال الماء من السماء و إدخاله فى الأرض و جعله عيونا جارية ۴/ ۵۲۵- ۵۲۶ يخرج بالماء زروعا مختلفة فى ألوانها ۴/ ۵۲۵- ۵۲۶ ثم يجف النبات و يصفر ثم يتفتت و يتكسّر ۴/ ۵۲۵- ۵۲۶ خلق السماوات و الأرض ۴/ ۵۱۶ يكوّر النهار على الليل ۴/ ۵۱۶ انتقاص الليل و النهار ۴/ ۵۱۶ تسخير الشمس و القمر كل يجرى فى فلكه لأجل محدد ۴/ ۵۱۶ خلق البشر من نفس واحدة هى نفس آدم و جعل منها زوجها ۴/ ۵۱۶- ۵۱۷ خلق من الأنعام ثمانية أزواج ۴/ ۵۱۶- ۵۱۷ تطور خلق الجنين فى الرحم ۴/ ۵۱۶- ۵۱۷ إحياء الأرض الميتة ۴/ ۴۲۳- ۴۲۴ إخراج الحب من الأرض ۴/ ۴۲۳- ۴۲۴ جعل اللّه فى الأرض بساتين من نخيل و أعناب ۴/ ۴۲۳- ۴۲۴ تفجير العيون فى الأرض ۴/ ۴۲۳- ۴۲۴ خلق الأزواج ۴/ ۴۲۳- ۴۲۴ الشمس تتحرك و تجرى لمستقر لها ۴/ ۴۲۳- ۴۲۴

القمر قدّره منازل حتى عاد كالعرجون القديم ۴/ ۴۲۳- ۴۲۴ دوران الشمس و القمر، و كل منهما فى فلك يسبحون ۴/ ۴۲۵- ۴۲۷ حملهم فى الفلك المملوء و إن يشأ اللّه يغرقهم ۴/ ۴۲۵- ۴۲۷ خلق الأنعام التى يملكونها، و سخرها اللّه لركوبهم و لأكلهم و لمنافعهم ۴/ ۴۳۹ جعل فى الأرض الجبال رواسى ۳/ ۴۸۰- ۴۸۱- ۴۸۲ جعل السماء سقفا محفوظا ۳/ ۴۸۰- ۴۸۱- ۴۸۲ خلق الليل و النهار و الشمس و القمر ۳/ ۴۸۰- ۴۸۱- ۴۸۲ إرسال الرياح لحمل السحاب و تلقيح الأشجار ۳/ ۱۵۲- ۱۵۴ إنزال المطر من السماء للسقيا و الرى ۳/ ۱۵۲- ۱۵۴ خلق اللّه لمنازل الشمس و القمر ۳/ ۱۵۱- ۱۵۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۶۲

حفظ اللّه السماء من كل شيطان رجيم ۳/ ۱۵۱- ۱۵۳ جعل الأرض ممتدة و جعل فيها جبالا راسية و أنبت فيها كل النباتات ۳/ ۱۵۱ - ۱۵۳ خلق الدواب كلها من ماء ۴/ ۵۰- ۵۱ تنوع المخلوقات فى المشى و الزحف و الطيران ۴/ ۵۰- ۵۱ كل من فى السماوات و الأرض يسبح للّه ۴/ ۴۸- ۴۹- ۵۰ الطيور صافّات أجنحتها بقدرة اللّه تسبح اللّه و تعبده ۴/ ۴۸- ۴۹- ۵۰ ملك اللّه لكل ما فى السماوات و الأرض ۴/ ۴۸- ۴۹- ۵۰ يسوق سبحانه السحب، ثم يؤلّف بينها و ينزل منها المطر و البرد ۴/ ۴۸- ۴۹- ۵۰ خلق السماوات و الأرض ۴/ ۱۷۸- ۱۷۹- ۱۸۰ خلق الإنسان من نطفة ۴/ ۱۷۸- ۱۷۹- ۱۸۰ خلق الأنعام ۴/ ۱۷۸- ۱۷۹- ۱۸۰ جعل اللّه الشمس ضياء و القمر نورا و قدّره منازل ۲/ ۴۸۴- ۴۸۵ منازل القمر و فائدتها فى معرفة عدد السنين و الحساب ۲/ ۴۸۴- ۴۸۵ اختلاف الليل و النهار و خلق السماوات و الأرض ۲/ ۴۸۴- ۴۸۵ إرسال الرياح بشرى بين يدى رحمته ۲/ ۲۴۴ سوق السحاب المحمل بالمطر إلى بلد ميت ۲/ ۲۴۴- ۲۴۵ سلب الحواس ۲/ ۱۳۴ الختم على القلوب ۲/ ۱۳۴ العذاب ۲/ ۱۳۴ فالق الحبّ و النوى ۲/ ۱۶۳- ۱۶۴ يخرج الحىّ من الميت و يخرج الميت من الحىّ ۲/ ۱۶۳- ۱۶۴ خلق البحرين العذب و المالح و ما فيهما من الحيوانات التى تؤكل و ما يستخرج منها من اللؤلؤ و السفن تشق طريقها فى كل منهما ابتغاء الرزق ۴/ ۳۹۳ إرسال الرياح فتحرك السحاب فيسوقه اللّه إلى بلد ميت فيحييها اللّه بالنبات بعد يبسها ۴/ ۳۹۵- ۳۹۶ إنزال المطر من السماء و إخراج ثمرات مختلفة فى أجناسها و أصنافها ۴/ ۳۹۹ خلقه للجبال و طرائقها الملونة، فيها خطوط بيضاء و حمراء و سوداء ۴/ ۳۹۹ اختلاف ألوان الناس كالثمرات و الجبال ۴/ ۳۹۹ بيان بديع صنعه فى إمساك السماوات و الأرض ۴/ ۴۰۷- ۴۰۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۶۳

عذابه يوم القيامة ۲/ ۱۱۹- ۱۲۰- ۱۲۱ النافع و الضار وحده ۲/ ۱۱۹- ۱۲۰- ۱۲۱ خلق السماوات بغير عمد ۴/ ۲۷۱ ألقى فى الأرض جبالا رواسى حتى لا تضطرب و لا تتحرك ۴/ ۲۷۱ بث فى الأرض من كل دابّة ۴/ ۲۷۱ أنزل من السماء ماء فأنبت اللّه من كل زوج جميل حسن ۴/ ۲۷۱ هذا كله خلق اللّه الواحد فماذا خلق الذين من دونه ۴/ ۲۷۱ إرسال الرياح فتحرك السحاب، و يجعله اللّه قطعا، و يخرج المطر من خلاله، و يصيب به من يشاء ۴/ ۲۶۶ آثار المطر فى الإنبات و الحياة ۴/ ۲۶۶ إحياء الموتى ۴/ ۲۶۶ إرسال الرياح تبشر بالمطر، و لتجرى الفلك فى البحر عند هبوبها، و لتطلبوا الرزق بالتجارة التى تحملها السفن ۴/ ۲۶۴- ۲۶۵ إعادة الخلق أهون عليه من بدايته و خلقه من العدم ۴/ ۲۵۵ النوم بالليل و ابتغاؤكم الرزق بالنهار ۴/ ۲۵۴- ۲۵۵ رؤية البرق خوفا من الصواعق و طمعا فى الغيث ۴/ ۲۵۴- ۲۵۵ إنزال المطر و إحياء الأرض الميتة ۴/ ۲۵۴- ۲۵۵ أن تقوم السماء و الأرض متماسكتين بأمره ۴/ ۲۵۴- ۲۵۵ دعوته لكم عند الحشر من القبور فتخرجون للحساب ۴/ ۲۵۴- ۲۵۵ يخلق اللّه الخلق أولا- ثم يعيدهم للحساب ۴/ ۲۵۱- ۲۵۲ يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحىّ ۴/ ۲۵۱- ۲۵۲ يحيى الأرض بالنبات بعد يبسها ۴/ ۲۵۱- ۲۵۲ خلق آدم من تراب ثم إذا أنتم بشر أطوار تتفرقون فى طلب رزقكم ۴/ ۲۵۲- ۲۵۳- ۲۵۴ خلق الأزواج و جعل المودة و الرحمة بينها ۴/ ۲۵۲- ۲۵۳- ۲۵۴ خلق السماوات و الأرض ۴/ ۲۵۲- ۲۵۳- ۲۵۴ اختلاف الألسنة (اللغات) و اختلاف الألوان ۴/ ۲۵۲- ۲۵۳- ۲۵۴ بسط الأرض للإنس و الجن ۵/ ۱۵۹- ۱۶۰ أنبت فيها الأشجار المثمرة و النخل ذا الليف و الطلح و

أنبت الحب ذا الورق و التبن و الريحان ۵/ ۱۵۹- ۱۶۰
فتح القدير، ج۶، ص: ۲۶۴
خلق السماوات و الأرض و ما فيها من فنون الآيات ۵/ ۵- ۶ أطوار خلق الإنسان ۵/ ۵- ۶ خلق ما ينشر من دابة ۵/ ۵- ۶ تعاقب الليل و النهار ۵/ ۵- ۶ إنزال المطر ۵/ ۵- ۶ تصريف الرياح ۵/ ۵- ۶ تسخير البحر لتجرى السفن فيه و لتطلبوا الرزق بالتجارة و الغوص ۵/ ۷ خلق السماوات و الأرض و ما بينهما بالحق و بأجل مقدر هو يوم القيامة ۵/ ۱۶ رفع السماء و إحكامها ۵/ ۸۵- ۸۶ تزيينها و ليس فيها تفاوت أو شقوق ۵/ ۸۵- ۸۶ بسط الأرض و إلقاء الرواسى و إنبات الزروع الحسنة و هى أزواج ۵/ ۸۵- ۸۶ إنزال المطر و إنبات الحبوب و النخيل و إحياء الأرض الميتة ۵/ ۸۵- ۸۶ خلق الإنسان و علم اللّه بما يختلج فى سره و قلبه ۵/ ۸۸- ۸۹ توكيل ملكين يكتبان و يحفظان عليه عمله ۵/ ۸۸- ۸۹ آيات اللّه ظاهرة فى خلق ما فى الأرض من جبال و أنهار و أشجار و بما فيها من آثار هلاك الأمم ۵/ ۱۰۱- ۱۰۲ فى النفس البشرية آيات تدل على قدرة اللّه تعالى ۵/ ۱۰۱- ۱۰۲ فى السماء سبب رزقكم ۵/ ۱۰۱- ۱۰۲ القسم على تحقق ما ذكر من أمر الأرزاق و الآيات ۵/ ۱۰۱- ۱۰۲ رب المشرقين و المغربين ۵/ ۱۶۱- ۱۶۲ إرساله سبحانه للبحرين عذب و مالح، لا يدخل أحدهما على الآخر، و يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان ۵/ ۱۶۱- ۱۶۲ للّه السفن المرفوعات فى البحر كالجبال ۵/ ۱۶۱- ۱۶۲ الشمس و القمر يجريان بحساب، و النجم و الشجر ينقادان للّه ۵/ ۱۵۸- ۱۵۹ رفعه سبحانه للسماء ۵/ ۱۵۸- ۱۵۹ خلق الكفار الذين يكذبون بالبعث و الخلق ۵/ ۱۸۸- ۱۸۹ تقدير و تصوير المنىّ الذى يقذف فى الأرحام ۵/ ۱۸۸- ۱۸۹ تقدير الموت على كل فرد و على كل حىّ ۵/ ۱۸۸- ۱۸۹ قدرته تعالى على أن يأتى بخلق غيركم ۵/ ۱۸۸- ۱۸۹
فتح القدير، ج۶، ص: ۲۶۵
قدرته تعالى على النشأة الأولى و الأخرى ۵/ ۱۸۸- ۱۸۹ ما يزرعه الناس و يبذرون حبه ينشئه اللّه و يجعله نبتا أخضر، و لو شاء لجعله محطما مكسرا ۵/ ۱۸۹- ۱۹۱ الماء و النار خلقهما اللّه بفضله و رحمته ۵/ ۱۸۹- ۱۹۱ له ملك السموات و الأرض ۵/ ۱۹۹ يحيى فى الدنيا، و يميت الأحياء ۵/ ۱۹۹ يدخل الليل فى النهار، و يدخل النهار فى الليل، فيطول أحدهما و يقصر الآخر ۵/ ۱۹۹ ما يدل على بديع صنعه من توحيده و قدرته على البعث ۵/ ۴۳۹- ۴۴۰ خلق الأرض و طاء و فراشا ممهدا، و الجبال كالأوتاد، لتسكن الأرض فلا تتحرك ۵/ ۴۳۹- ۴۴۰ خلق الأزواج الذكور و الإناث، و الليل للنوم و الراحة و النهار للسعى ۵/ ۴۳۹- ۴۴۰ خلق الشمس فيها نور و حر ۵/ ۴۳۹- ۴۴۰ إنزال المطر من السحب و إنبات الحب و البساتين الملتف بعضها على بعض ۵/ ۴۳۹- ۴۴۰ التفريق بين الأعمى و البصير ۵/ ۳۱۵ إنشاء البشر من العدم و خلق الحواس لهم ۵/ ۳۱۵ خلقهم فى الأرض و نشرهم ثم يجمعهم ليحاسبهم على عملهم ۵/ ۳۱۵ خلق الأرض سهلة مستقرة ۵/ ۳۱۳- ۳۱۴ قدرته على خسف الأرض أو إسقاط الحجارة كما وقع فى عذاب الأمم الكافرة ۵/ ۳۱۳- ۳۱۴ خلق الطير صافات لأجنحتها و قابضة لها ما يمسكهن إلا اللّه ۵/ ۳۱۳- ۳۱۴ إدرار الرزق من المطر ۵/ ۳۱۳- ۳۱۴ بليغ قدرته و تصرفه فى ملكه كيف يشاء ۵/ ۳۰۸- ۳۱۱ خلق الحياة و الموت ۵/ ۳۰۸- ۳۱۱ خلق سبع سماوات متطابقة و مستوية لا وجود لأى شقوق أو فروق مهما تكرر النطر و تفحص ۵/ ۳۰۸- ۳۱۱ تزيين السماء بالنجوم بشهبها و رجم الشياطين ۵/ ۳۰۸- ۳۱۱ خلق سبع سماوات و سبع أرضين ۵/ ۲۹۴- ۲۹۶ ما يدبر فيهن من عجيب تدبير اللّه تعالى ۵/ ۲۹۴- ۲۹۶ خلق السماء و رفعها كالبناء، و جعلها مستوية، و أظلم ليلها و أبرز نهارها بالشمس ۵/ ۴۵۸- ۴۶۰- ۴۶۱
فتح القدير، ج۶، ص: ۲۶۶
خلق الأرض و بسطها و فجر فيها ماءها، و أخرج نباتها منفعة لكم و لأنعامكم ۵/ ۴۵۸- ۴۶۰- ۴۶۱ خلق الإبل و رفع السماء ۵/ ۵۲۳- ۵۲۴ نصب الجبال و بسط الأرض ۵/ ۵۲۳- ۵۲۴ خلق اللّه البشر و انقسامهم إلى مؤمن و كافر ۵/ ۲۸۰- ۲۸۱ علم بأعمال

خلقه سرها و جهرها ۵/ ۲۸۰- ۲۸۱ خلقه للبشر فی أکمل صورة ۵/ ۲۸۰- ۲۸۱ خالق کل شیء ۴/ ۵۴۳ له مفاتیح السماوات و الأرض و الرزق و الرحمة ۴/ ۵۴۳ الکفرة لا یقدرون اللّه حق قدره حین یعبدون غیره ۴/ ۵۴۴ الأرض فی مقدوره و السماوات مطویات بیمینه یوم القیامة ۴/ ۵۴۴ اللّه خالق کل شیء ۵/ ۵۷۱- ۵۷۲ الأرض جعلها مستقرة، و السماء بناء محکم و سقف ثابت ۵/ ۵۷۱- ۵۷۲ خلق البشر فی أحسن صورة ۵/ ۵۷۱- ۵۷۲ رزقهم من الطیبات ۵/ ۵۷۱- ۵۷۲ خلق الإنسان الأول آدم من تراب و ذریته من نطفة، ثم من علقة ثم یولدون أطفالا، ثم لیبلغوا حالة اجتماع العقل و القوة، ثم شیوخا ثم یبلغون وقت الموت، و منهم من یموت قبل ذلک ۴/ ۵۷۳- ۵۷۴ طاعة السماء و الأرض للّه ۴/ ۵۸۲- ۵۸۳ إحکام السماوات سبعا ۴/ ۵۸۲- ۵۸۳ أوحی فی کل سماء أمرها و نظامها ۴/ ۵۸۲- ۵۸۳ خلق الأرض قبل أو بعد السماء ۴/ ۵۸۲- ۵۸۳ خلق الأرض فی یومین، و خلق فیها جبالا کالرواسی و بارک فی الأرض، و قدّر فیها أقواتها و أرزاق أهلها فی أربعة أیام ۴/ ۵۸۱- ۵۸۲ ثم عمد إلی خلق السماء بعد الأرض و هی دخان ۴/ ۵۸۱- ۵۸۲ تزیین السماء بکواکب مضیئة ۴/ ۵۸۳ خلق اللیل و النهار و الشمس و القمر ۴/ ۵۹۳- ۵۹۴ السجود للّه خالقها و مبدعها ۴/ ۵۹۳- ۵۹۴ الأرض الیابسة القاحلة تهتز و تنبت بعد نزول الماء علیها ۴/ ۵۹۳- ۵۹۴ دلائل قدرته فی الآفاق و فی أنفسهم ۵/ ۵۹۹

فتح القدیر، ج۶، ص: ۲۶۷

اختلاف اللیل و النهار و تفرّده فی جعل کل من اللیل و النهار غیر دائم و لا مستمر ۴/ ۲۱۳ خلق السماوات و الأرض و ما خلق فیهما و نشر من دابة تتحرک ۴/ ۶۱۶- ۶۱۷ الفلک الجاریة فی البحر کالجبال ۴/ ۶۱۶- ۶۱۷ تسکین الریح التی تجری بها السفن ۴/ ۶۱۶- ۶۱۷ له ملک السماوات و الأرض ۴/ ۶۲۳- ۶۲۴ یهب لمن یشاء إناثا و یهب لمن یشاء ذکورا ۴/ ۶۲۳- ۶۲۴ یجمع بین الذکور و الإناث أو یجعل من یشاء عقیما لا یولد له ۴/ ۶۲۳- ۶۲۴ جعل الأرض مهادا کالفراش و جعل فیها طرقا لیهتدی الناس فی أسفارهم ۴/ ۶۲۸ إنزال الماء من السماء و إحیاء الأرض بعد موتها ۴/ ۶۲۸ خلق الأزواج ۴/ ۶۲۸ خلق الفلک و الأنعام للرکوب ۴/ ۶۲۸ الإنبات فی الأرض من کل زوج ۴/ ۱۱۰ خلق من الماء بشرا و جعله نسبا و صهرا ۴/ ۹۵ جعل من الماء کل شیء حیّ ۴/ ۹۵ الظل و حرکته فی الطول و التقلص ۴/ ۹۲- ۹۳- ۹۵ الشمس هی الدلیل علیه ۴/ ۹۲- ۹۳- ۹۵ اللیل لباس و النوم سبات و راحة ۴/ ۹۲- ۹۳- ۹۵ النهار نشور ۴/ ۹۲- ۹۳- ۹۵ الریاح تبشر بالرحمة ۴/ ۹۲- ۹۳- ۹۵ خلط و أرسل البحرین حلوا و مالحا ۴/ ۹۲- ۹۳- ۹۵ جعل فی السماء نجوما و شمسا و قمرا منیرا ۴/ ۹۹ إدخال اللیل فی النهار و النهار فی اللیل ۴/ ۲۸۱ ذلّل الشمس و القمر کل یجری إلی أجل مقدر ۴/ ۲۸۱ السفن تجری فی البحر بلطف اللّه ۴/ ۲۸۱ اللجوء إلی اللّه فی الأمواج و العواصف ۴/ ۲۸۱ تدبیر السماوات و الأرض بأمره، ثم رجوع ذلک الأمر فی یوم مقداره ألف سنة من الدنیا ۴/ ۲۸۶- ۲۸۸ عالم الغیب و الشهادة ۴/ ۲۸۶- ۲۸۸

فتح القدیر، ج۶، ص: ۲۶۸

أعطی کل شیء خلقه الذی خصّه به ۴/ ۲۸۶- ۲۸۸ بدأ خلق آدم من طین ۴/ ۲۸۸ جعل ذریته من ماء ممتهن ۴/ ۲۸۸ سوّاه و نفخ فیه الروح و خلق له الحواس و العقل ۴/ ۲۸۸ سوق الماء إلی الأرض الیابسة فیخرج اللّه به زرعا یأکلون منه و تأکل أنعامهم ۴/ ۲۹۷ یکشف السوء ۴/ ۱۶۹- ۱۷۰ یهلک قرنا و ینشئ آخرین ۴/ ۱۶۹- ۱۷۰ یرشدکم فی ظلمات البر و البحر ۴/ ۱۶۹- ۱۷۰ یرسل الریاح مبشرة بالمطر ۴/ ۱۶۹- ۱۷۰ یبدأ الخلق ثم یعیده ۴/ ۱۶۹- ۱۷۰ یرزقکم من السماء و الأرض ۴/ ۱۶۹- ۱۷۰ یعلم الغیب ۴/ ۱۶۹- ۱۷۰ خلق السماوات و الأرض ۴/ ۱۶۸- ۱۶۹ إنزال المطر و إنبات الحدائق الجمیلة ۴/ ۱۶۸- ۱۶۹ جعل الأرض مستقرا و جعل فیها أنهارا و جبالا رواسی ۴/ ۱۶۸- ۱۶۹ إجابة دعوة المضطر ۴/ ۱۶۸- ۱۶۹ بدء الخلق أولا و إعادته ثانیة عند البعث ۴/ ۲۲۸

۴- التقديس:

معناه اللغوى ۱/ ۷۵- ۷۶ التسبيح: تسبيح الجمادات ۵/ ۱۹۸- ۱۹۹ تسبيح العقلاء و غيرهم مما فى السماوات و الأرض ۵/ ۱۹۸- ۱۹۹

۵- الرؤية:

رؤية اللّه فى الدنيا و الآخرة، طلبها اليهود و أنكرها المعتزلة ۱/ ۱۰۴ الكفار لا يرون اللّه يوم القيامة ۱/ ۱۰۴ لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار ۲/ ۱۶۹- ۳۷۷ المنفى الإدراك لا مجرد الرؤية ۲/ ۱۶۹- ۳۷۷ رؤية اللّه فى الدنيا جائزة ۲/ ۲۷۷ رؤية اللّه فى الدنيا لم تقع ۲/ ۲۷۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۶۹

رؤية اللّه فى الآخرة ثابتة ۲/ ۲۷۷

۶- القسم:

أقسم اللّه بالسماء ذات النجوم ۵/ ۴۹۸- ۴۹۹- ۵۰۳ أقسم بها و أنها ذات الخلق المستوى الحسن ۵/ ۹۹ أقسم اللّه سبحانه بالسماء و الطارق و هو النجم الثاقب ۵/ ۵۰۷- ۵۰۸- ۵۱۱ أقسم اللّه بالشمس و القمر و الليل و النهار و السماء و الأرض ۵/ ۵۴۹- ۵۵۳ للّه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ۵/ ۵۴۵- ۵۴۶- ۵۴۸ أقسم اللّه بالليل و النهار و الذكر و الأنثى جواب القسم عملكم المختلف، منه للجنّة و منه للنار ۵/ ۵۵۰ القلم: القسم به لما فيه من البيان ۵/ ۳۱۸- ۳۱۹- ۳۲۲ الريح: القسم بها و هى تذرى التراب و تحمل السحاب ۵/ ۹۸ أقسم اللّه سبحانه بمخلوقاته ۵/ ۵۲۶- ۵۲۸- ۵۳۰- ۵۳۱- ۵۳۲ أقسم بالفجر، و العشر من ذى الحجة، و الشفع، و الليل إذا يمضى أقسم اللّه بالعصر، و هو الدهر و ما فيه من العبر و جواب القسم أن الإنسان فى خسر ۵/ ۵۹۹- ۶۰۰ استثناء المؤمنين العاملين المتواصين بالحق و الصبر ۵/ ۵۹۹- ۶۰۰ أقسم اللّه بالتين و الزيتون و طور سينين (جبل الطور) و البلد الأمين مكة، و جواب القسم خلق الإنسان فى اعتدال و استواء ۵/ ۵۶۶- ۵۶۷ أقسم اللّه بالخيل و هى تسرع فى الغزو ۵/ ۵۸۶- ۵۸۸- ۵۸۹- ۵۹۱ تورى النار بسنابكها و تغير وقت الصباح، تظهر الغبار و تتوسط المكان ۵/ ۵۸۶- ۵۸۸- ۵۸۹- ۵۹۱ أقسم اللّه بالسفن و هى تجرى بسهولة و يسر ۵/ ۹۸

۷- القضاء و القدر:

علم اللّه بالمطيع و العاصى و محاسبتهما على أعمالهما ۳/ ۲۵۳- ۲۵۴ انقطاع حجة القدرية ۲/ ۲۰۶ كل شىء خلقه اللّه بقدر قدّره، و قضاء قضاه و أحكمه ۵/ ۱۵۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۷۰

۸- الكرسى:

هو العرش ۱/ ۳۱۲- ۳۱۳ نفاه المعتزلة ۱/ ۳۱۲- ۳۱۳ استواء الرحمن على العرش ۳/ ۴۲۴- معنى الاستواء على العرش- اختلاف

العلماء على أربعة عشر قولا- صفة العرش- قول مالك عن الاستواء ۴/ ۲۴۰- ۲۴۲

۹- الإخلاص:

إخلاص العبادة للّه، و الانقياد له وحده، يؤدى إلى الاعتصام بالعهد الأوثق و التعلّق به ۴/ ۲۷۸

۱۰- الإشراك:

إحباطه للعمل ۴/ ۵۴۴ النهى عنه ۵/ ۲۰۴- ۲۰۵ الرهبة للّه وحده، فهو الخالق المنعم، و إليه يجأر من أصابه ضرر ۵/ ۲۰۴- ۲۰۵ بعد كشف الضرر يعود الناس إلى الإشراك ۵/ ۲۰۴- ۲۰۵ أعظم أنواع الضلال ۱/ ۵۹۵ الإشراك ظلم عظيم ۴/ ۲۷۳ من أشرك انحطّ من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر، فهو كمن سقط من السماء، فتخطف الطير لحمه، أو تقذفه الريح فى مكان بعيد ۳/ ۵۳۴

۱۱- الأصنام:

اتخذها الكفار آلهة لتنصرهم ۴/ ۴۳۹ الآلهة لا تستطيع نصرهم، و هم جند الأصنام محضرون للعذاب ۴/ ۴۳۹ اللّه يعلم سرهم و جهرهم ۴/ ۴۳۹ عجزها عن إمساك الرحمة أو إرادة الضرر ۴/ ۵۳۳ عبدها المشركون لتقربهم من اللّه ۴/ ۵۱۵ لا يستحقون العبادة لأنهم لا يخلقون ۳/ ۱۸۸- ۱۸۹

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۲۷۱

أموات غير أحياء ۳/ ۱۸۸ – ۱۸۹ ما يشعرون متى يبعثون ۳/ ۱۸۸ – ۱۸۹ الأصنام و من يعبدونها حصب جهنم ۳/ ۱۸۷ – ۱۸۸ عجزهم عن الخلق و ليس لهم شركة مع اللّه ۵/ ۱۷ لا تسمع و لا تعقل و لا تجيب الدعاء ۵/ ۱۷ لا تقدر على شي‏ء ۴/ ۴۰۷

۱۲- الكبائر:

معناها ۱/ ۵۲۷- ۵۲۸- ۵۲۹ عددها ۱/ ۵۲۷- ۵۲۸- ۵۲۹ موضوع خروج أهل الكبائر من النار ۲/ ۵۹۸ رد المؤلف على صاحب الكشاف ۲/ ۵۹۸ الذين يجتنبون الكبائر من الذنوب لهم أجرهم عند ربهم ۴/ ۶۱۹ كل ذنب توعّد اللّه عليه بالنار فهو كبيرة و فاحشة ۵/ ۱۳۵- ۱۳۶- ۱۳۸ مغفرة اللّه للذنوب الصغيرة و هى اللمم ۵/ ۱۳۵- ۱۳۶- ۱۳۸

۱۳- الهوى:

التهديد من اتباع هوى أهل الكتاب و المبتدعين ۱/ ۱۷۹

۱۴- الهدى:

الهدى هديان: هدى دلالة و هدى توفيق و تأييد ۱/ ۳۹

١٥- التقوى:

سبب فى ثبات القلوب، و ثقوب البصائر، و مغفرة الذنوب ٢/ ٣٤٦

١٦- الغيب:

معنى الغيب ١/ ٤٠ لا- يعلم الغيب إلا اللّه ٢/ ١٤٠ عند اللّه مفاتح الغيب ٢/ ١٤٠ علم الساعة ٢/ ٢٨٢- ٢٨٣ نزول الغيث ٢/ ٢٨٢- ٢٨٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٧٢

ما فى الأرحام ٢/ ٢٨٢- ٢٨٣ ما تكسبه كل نفس ٢/ ٢٨٢- ٢٨٣ ما تدرى نفس بأى أرض تموت ٢/ ٢٨٢- ٢٨٣

١٧- الاحتكام إلى اللّه:

كل ما اختلف فيه العباد فمردّه إلى اللّه ۴/ ۶٠۵ و كل ما تنوزع فيه فمرده إلى اللّه و رسوله ۴/ ۶٠۵

١٨- الطاعة:

الأمر بطاعة اللّه و رسوله ۵/ ۵١ التولّى عن ذلك يؤدى إلى استبدال قوم بغيرهم ۵/ ۵١

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٧٣

العبادات

اشارة

١- العبادة.

٢- الطهارة.

٣- الوضوء.

۴- التيمم.

۵- الأذان.

۶- المساجد.

٧- الصلاة.

٨- الصّيام.

٩- الزكاة.

١٠- الحج و العمرة.

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٧۴

۱- العبادة:

الأمر بتوحيد اللّه و عبادته ۴/ ۵۷۱ الاستكبار عن عبادة اللّه مصيره دخول جهنم مع الذلة و الصغار ۴/ ۵۷۱ العبادة للّه وحده للّه الذى يتوفى الأنفس ۲/ ۵۴۲ أمر اللّه للمؤمنين بالسجود و العبادة للّه تعالى ۵/ ۱۴۲ ما خلق اللّه الإنس و الجن إلا لعبادته و هو الغنى عنهم و عن نفعهم ۵/ ۱۱۰- ۱۱۱

۲- الطهارة:

الحيض- معناه، هو أذى، و تحريم وطء الحائض ۱/ ۲۵۸- ۲۵۹- حكم وطء الحائض بعد طهرها (انقطاع الدم) و قبل الغسل ۱/ ۲۵۸- ۲۵۹ القرء- لفظ مشترك معناه الحيض و الطهر ۱/ ۲۶۹- ۲۷۰- العورة- الاختلاف فى حدها ۱/ ۲۷۱

۳- الوضوء:

الوضوء عند القيام إلى الصلاة ۲/ ۲۰- ۲۱ أركان الوضوء ۲/ ۲۱- ۲۲ نواقضه ۱/ ۵۴۲ معنى لا- مستم و هل ينقض الوضوء باللمس ۱/ ۵۴۳- ۵۴۷

۴- التيمم:

جوازه فى حالتى السفر و المرض ۱/ ۵۴۳- ۵۴۴ معنى التيمم اللغوى و الشرعى ۳/ ۵۴۴ معنى الصعيد و ما يجزئ بها التيمّم ۱/ ۵۴۵

۵- الأذان:

معنى النداء ۲/ ۶۲ وجوبه و ذكره فى القرآن ۲/ ۶۲

۶- المساجد:

الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة بلاغ لقوم عابدين ۳/ ۵۱۴ منع الكفار من دخول المساجد ۱/ ۱۵۳
فتح القدير، ج‏۶، ص: ۲۷۵
هى للصلاة و للذكر ۵/ ۳۷۰- ۳۷۱ النهى عن دعاء و عبادة أحد فيها كائنا من كان ۵/ ۳۷۰- ۳۷۱ بيوت أذن اللّه أن تبنى، و يذكر فيها اسم اللّه و تقام الصلاة ۴/ ۴۱- ۴۲ الحرم المكى جعله اللّه حرما آمنا ۴/ ۲۴۴ الحرم المكى لا يمنع من إقامة الحدود ۱/ ۴۱۷ المسجد الحرام جعله اللّه للناس جميعا يصلّون فيه و يطوفون، و لا فرق بين المقيمين و أهل البادية ۳/ ۵۳۰- ۵۳۱ من يرد فيه فعل معصية أو ظلم يذقه اللّه عذابا أليما ۳/ ۵۳۰- ۵۳۱ المسجد النبوى الذى أسس على التقوى من أول يوم، و مسجد قباء ۴/ ۴۵۹- ۴۶۳ المشركون لا يعمرون المساجد ۲/ ۳۹۲ إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه و اليوم الآخر ۲/ ۳۹۳- ۳۹۴ لا مقارنة بين إعمار المساجد و سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام ۲/ ۳۹۴

۷- الصلاة:

التضرع ۲/ ۱۳۲ سرعة الإجابة ۱/ ۲۱۳ الدعاء عبادة ۱/ ۲۱۳ فضل الدعاء و الحض عليه و آدابه ۱/ ۲۱۳ الأمر بالدعاء تضرعا و خفية ۲/ ۲۴۳- ۲۴۵ عدم الاعتداء فى الدعاء ۲/ ۲۴۳- ۲۴۵ الدعاء خوفا و طمعا ۲/ ۲۴۳- ۲۴۵ يأخذ اللّه المكذبين بالبأساء و الضراء حتى يتضرعوا و يتذللوا ۲/ ۲۵۹ السؤال بجلب النفع دفع للضرر ۴/ ۵۷۱- ۵۷۲ وعد اللّه بالإجابة للدعاء ۴/ ۵۷۱- ۵۷۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۷۸

من يدعو اللّه قسمان: قسم يطلب حظ الدنيا و لا يلتفت للآخرة، و قسم يطلب الأمرين معا ۱/ ۲۳۵ المراد بالحسنة فى الدنيا و الآخرة ۱/ ۲۳۵ الدعاء جهرا و خفية وقت الضيق و الشدة، حال التضرّع و الخوف، دون الجهر من القول، بالغدو و الآصال ۲/ ۳۲۰- ۳۲۱ الجمع فيه بين الخضوع و التذلل و إظهار الضعف و القصور ۳/ ۳۷۹ معنى آمين ۱/ ۳۱ معنى الصراط المستقيم ۱/ ۲۸ الصراط طريق دين الإسلام و الأمر باتباعه ۲/ ۲۰۳ الذّكر:

معناه و ضبطه ۱/ ۸۷ ذكر اللّه قياما و قعودا ۱/ ۴۷۰ الأمر بالاستكثار من الذكر، و التسبيح، و التحميد، و التهليل فى الصباح و المساء ۴/ ۳۳۰- ۳۳۲ فضائل الذكر ۴/ ۳۳۰- ۳۳۲ هو الكلم الطيب ۴/ ۳۹۱ إلى اللّه يصعد فيقبله، و يثيب عليه ۴/ ۳۹۱ ذكر اللّه سرّا و جهرا ۳/ ۴۲۴ من يعرض عن ذكر اللّه يقيض له اللّه شيطانا ملازما له و الكافر يتمنى يوم القيامة أن يكون بينه و بين قرينه بعد المشرق و المغرب ۴/ ۶۳۷ الباقيات الصالحات:

خير عند اللّه أجرا و مرجعا ۳/ ۴۱۳ أعمال الخير خير ثوابا و أفضل أملا ۳/ ۳۴۶ هى سبحان اللّه، و الحمد للّه، و لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر ۳/ ۳۴۶

۸- الصيام:

معنى رمضان، معناه اللغوى و الشرعى ۱/ ۲۰۷ صوم رمضان فرض بالإجماع ۱/ ۲۰۷ حكم صيام من شهد رمضان ۱/ ۲۱۰ الحض على التكبير فى آخر رمضان ۱/ ۲۱۱- ۲۱۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۷۹

حكم من يطيق الصوم مع المشقة، و مقدار الفدية ۱/ ۲۰۸- ۲۰۹ حكم صوم المريض و المسافر ۱/ ۲۰۷ السفر المبيح للإفطار ۱/ ۲۰۷ حكم الصيام مع الفدية و المرض و السفر ۱/ ۲۰۸ حلّ الجماع فى ليالى الصوم ۱/ ۲۱۴ قضاء الصيام، هل يجب التتابع به ۱/ ۲۰۷- ۲۰۸

۹- الزكاة:

معناها اللغوى و الشرعى ۱/ ۹۰ المستحقون للزكاة ۱/ ۱۹۹ كل مال أديت زكاته فليس بكنز، و معنى الكنز ۲/ ۴۰۶- ۴۰۸ ترك الإنفاق فى سبيل اللّه ۲/ ۴۰۶- ۴۰۸ أمر الرسول بأخذ الزكاة تطهيرا و تزكية لأموالهم و نفوسهم و الدعاء لهم ۲/ ۴۵۴- ۴۵۵ الزكاة يوم حصاد الزرع ۲/ ۱۹۲ الأصناف الثمانية المستحقون للزكاة ۲/ ۴۲۴- ۴۲۷ هل يجب استيفاء هذه الأصناف أم يجوز صرفها إلى البعض دون البعض؟ ۲/ ۴۲۴ ما آتيتم من مال الزكاة تريدون فيه وجه اللّه فاللّه يباركه و يزيده ۴/ ۲۶۲ الفرق بين الفقير و المسكين ۲/ ۴۲۴- ۴۲۵ صنف الغارمين ۲/ ۴۲۶ فى سبيل اللّه ۲/ ۴۲۵- ۴۲۶ العاملون عليها، كم يأخذون ۲/ ۴۲۵- ۴۲۶ المؤلفة قلوبهم، و فى الرقاب ۲/ ۴۲۵- ۴۲۶ الويل للذين لا يؤدون الزكاة و لا يقرون بوجوبها ۴/ ۵۸۰ و هم منكرون للآخرة جاحدون لها ۴/ ۵۸۰ الدعوة إلى الإنفاق فى الجهاد فى سبيل اللّه ۵/ ۵۱ النهى عن البخل ۵/ ۵۱ الإنفاق من الطيب فى الصدقة

المفروضـة و التطوع، و فضل الإخفاء فى صدقة التطوع ١/ ٣٣٣- ٣٣٥ الصدقة و الصلـة و البر على القريب المسكين و ابن السبيل ۴/ ٢۶١

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٨٠

١٠- الحج و العمرة:

معنى إتمامهما ١/ ٢٢۴- ٢٢٨ معناهما اللغوى و الشرعى ١/ ١٨۶ حكم السعى بين الصفا و المروة ١/ ١٨۶ وقت الحج ١/ ٢٣٠ الأشهر المعلومات، و وقت الإحرام بالحج ١/ ٢٣٠ معنى الاستطاعة ١/ ۴١٧ الاستطاعة: الزاد و الراحلة ١/ ۴١٨ الوعيد الشديد لمن ملك زادا و راحلة و لم يحج ١/ ۴١٨- ۴١٩ الترخيص لمن حج فى التجارة و نحوها ١/ ٢٣١ عرفات: معناها و حدودها ١/ ٢٣٢- ٢٣۴ المحرم للمرأة فى الحـج من الاسـتطاعة ١/ ۴١٩ الحجـاج يأتون مشاة على أرجلهم لأداء فريضـة الحـج و يأتون راكبين على الجمال الضوامر ٣/ ۵٣٢- ۵٣٣ ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم اللّه عند ذبح الهدايا و الأضاحى ٣/ ۵٣٢- ۵٣٣ صورة التمتع ١/ ٢٢۶ التمتع أفضل أنواع الحج ١/ ٢٢۶ تعظيم أعمال الحج خير عند اللّه فى الآخرة ٣/ ۵٣۶- ۵٣٧ تعظيم شعائر الحج و أعماله من تقوى القلوب ٣/ ۵٣۶- ۵٣٧ ذكر اللّه فى الحـج، الأيام المعلومات و المعدودات ٣/ ۵٣۶- ۵٣٧ المشعر الحرام- اسمه- حدوده- الدعاء عنده ١/ ٢٣٢ الحصر و الإحصار ١/ ٢٢۵ بلوغ الهدى محله، و الإحلال من الإحرام بالحلق، و حكم المريض و من به أذى من رأسه ١/ ٢٢۵ مقت تارك الحج و خذلانه ١/ ۴١۶ الأيام المعلومات ٣/ ۵٣٣ ذبـح الأضاحى و الهدايا، و إطعام البائس الفقير ٣/ ۵٣٣ الخروج من الإحرام بإزالة التفث ٣/ ۵٣٣ الطواف بالبيت طواف الإفاضة ٣/ ۵٣٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٨١

تحريم الصيد أثناء الإحرام ٢/ ٧ إباحة الصيد بعد الإحلال ٢/ ٨ الصفا و المروة من شعائر اللّه ١/ ١٨۵ المغفرة لأهل عرفة ١/ ٢٣۶ لا متعة لحاضـرى المسجد الحرام ١/ ٢٢٧ وجوب الهـدى و الصـيام على من لم يكن سـاكنـا فى الحرم ١/ ٢٢٧ فدية الأذى صوم عشـرة أيام و إطعام عشرة مساكين ١/ ٢٢۶ المقدار فى الفدية ١/ ٢٢۶ المكان فى الإطعام عنـد عدم الهدى ١/ ٢٢۶ الصيام ثلاثة أيام فى الحج و سبعة بعد الرجوع إلى الوطن ١/ ٢٢۶ معنى الرفث فيه و الفسوق ١/ ٢٣٠- ٢٣١

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٨٢

القرآن الكريم

اشارة

١- إنزاله و نزوله.

٢- إعجازه.

٣- القرآن هو الحق.

۴- الحروف و فواتح السور.

۵- المحكم و المتشابه.

۶- فضائل بعض سوره.

٧- مكانته و شرفه.

٨- هديه و نذره و بشائره. ٩- موقف المشركين منه و الرد عليهم.

١٠- الإنصات له.

١١- ذكرى و موعظة.

١٢- القسم به.

١٣- حجج القرآن.

١٤- القرآن و الجنّ.

١٥- تفسير الصحابة.

١٦- النسخ.

١٧- أمثال القرآن.

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٨٣

١- إنزال القرآن و نزوله:

أنزله اللّه للإنـذار و ذكرى للمؤمنين ٢/ ٢١٣- ٢١۴ أنزله اللّه نعمـة على رسوله، و ليس فيه أى خلـل فى اللفظ أو المعنى ٣/ ٣٢١ أنزله اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۴/ ٢٣٩- ٢۴١ من أهل الكتاب من أسلم فهو يؤمن بالقرآن ۴/ ٢٣٩- ٢۴١ أنزله اللّه بلغة محمد صلّى اللّه عليه و سلم عربيا لعلهم يعتبرون ۴/ ۶۶۴ أنزله اللّه مباركا ٣/ ۴۶٠ أنزله اللّه بلغة العرب ليفهموه ٣/ ۴۶١ و ۴/ ۵٧٩ أنزله اللّه مباركا مصـدّقا الذى بين يديه ٢/ ١۵٨- ١۶١ أنزله اللّه ذكرا و شرفا للعرب ۵/ ٢٩۴- ٢٩۵ أنزله اللّه و أنزل الكتب السّماوية كلها بالحق ۴/ ۶٠٩ أنزله اللّه مباركا و أمر باتباعه ٢/ ٢٠۵- ٢٠۶ أنزله اللّه مشتملا على أصول الشرائع و فروعها ٣/ ١٠۵ لو أنزله اللّه أعجميـا غير عربى لاـعترضوا، و قـالوا: لو لاـ بينت آياته بلغتنا، و أنكروا أن يكون القرآن أعجميا و الرسول عربى ۴/ ١٣۶ و ۴/ ۵٩۵ بالحق أنزله اللّه ٣/ ٣١۵- ٣١۶ أنزله اللّه منجما (مفرقا) ٣/ ٣١۵- ٣١۶ لو أنزله اللّه على رجل من الأعجمين الذين لا يتكلمون العربيـة لما آمنوا لعـدم فهمهم له ۴/ ١٣۶- ١٣٧ كتاب أنزله اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سـلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النّور ٣/ ١١١ إنزاله جملـة واحدة فى ليلة القدر ۵/ ۵٧۴- ۵٧۶ تفريقه فى الإـنزال على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۴٢۶ تنزيـل القرآن من اللّه العزيز الحكيم ۵/ ۵ تشبيه نزوله بنزول المطر ٣/ ٩٠ كان نزول القرآن فضلا كبيرا على رسول اللّه ٣/ ٣٠٧- ٣٠٨ تنزيـل كائن من اللّه أنزله اللّه بالحق لإثبات التوحيـد و النبوة و المعاد ۴/ ۵١۴ نزوله منجما ١/ ٢١٠ نزوله إلى السماء الدنيا فى رمضان ١/ ٢١٠ إلقاؤه على رسول اللّه، و أخذه من إله كثير العلم و الحكمة ۴/ ١۴۵

فتح القدير، ج۶، ص: ٢٨۴

٢- إعجاز القرآن:

عجز البشر لكون القرآن معجزا أو للصّرفة ١/ ۶٣ بلاغة افتتاح سورة المائدة ٢/ ۶ إعجازه فى عدم التناقض و التفاوت فى آياته و أحكامه ١/ ۵۶٧- ۵۶٨ الذين أوتوا العلم إذا سـمعوا القرآن خرّوا ساجدين ٣/ ٣١۵- ٣١۶ القرآن يزيـدهم خشوعا و بكاء و تأثرا بإعجازه ٣/ ٣١۵- ٣١۶ أميـة الرسول صـلّى اللّه عليه و سـلم دليل على أن القرآن من عند اللّه ۴/ ٢٣٩- ٢۴١ إعجازه فى الإخبار

عن انتصار الروم بعد هزيمتهم أمام الفرس ۴/ ۲۴۷- ۲۴۹

۳- القرآن هو الحق:

هو الحق المنزل من عند اللّه ۳/ ۷۶ تيسير القرآن للذكر لمن يتذكر و يعتبر ۵/ ۱۵۱- ۱۵۳- ۱۵۴ صرف فيه اللّه ضروب القول من الأمثال و غيرها ليتعظوا و يتدبروا ۳/ ۲۷۴ و ۴/ ۵۲۹ سيريهم اللّه دلائل صدقه فی الآفاق و فی أنفسهم حتى يظهر لهم الحق و الصدق ۴/ ۵۹۹ ضرب اللّه فيه الأمثال التی تدل على التوحيد ۴/ ۲۶۸ يسّرناه بلسانك يا محمد لتبشر به المؤمنين و تنذر قوما مخاصمين ۳/ ۴۱۹- ۴۲۰ سيعلمون أنه الحق عند النزع ۵/ ۴۳۷- ۴۳۹ تساؤلهم عنه و اختلافهم فيه فجعله بعضهم سحرا و بعضهم شعرا ۵/ ۴۳۷- ۴۳۹ الحجج البينات و البراهين الواضحة التی جاءت فی آيات القرآن ۱/ ۱۷۱ الأمر بتدبر القرآن و تفهم آياته و العمل بأحكامه ۵/ ۴۶ يأتی يوم القيامة فی صورة شاب شاحب ۲/ ۲۱۶ كرر اللّه فيه و ردّد من كل مثل ۳/ ۳۵۱

۴- الحروف و فواتح السور:

معنى الحروف التی فی أوائل السور ۱/ ۳۴- ۳۸ الحروف المقطعة ۲/ ۴۷۹- ۴۸۲ الحروف المقطعة لفظها و الوقوف على كل حرف منها ۴/ ۱۰۹ الحروف المقطعة معنى طه ۳/ ۴۲۲ الحروف المقطعة معنى (ن) فی مطلع السورة ۵/ ۳۱۸ الحروف المقطعة معناها ۳/ ۳۸۰- ۳۸۵

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۸۵

الحروف المقطعة معنى (ق) ۵/ ۸۳- ۸۷ فواتح السور ۳/ ۲۱۵ فواتح السور حم- فاتحة السورة، و هی المتشابه ۴/ ۵۵۱ التناسب بين الآيات ۱/ ۸۵- ۸۷ هل البسملة آية مستقلة؟ ۱/ ۲۰ معنى «السورة» لغة و اصطلاحا ۴/ ۵- ۶ إعراب «سورة» فی مطلع سورة النور ۴/ ۵- ۶

۵- المحكم و المتشابه:

معناه ۱/ ۳۶۰- ۳۶۱ الأولى فيهما ۱/ ۳۶۰- ۳۶۱ فوائد المتشابه ۱/ ۳۶۴ الراسخون يعلمونه ۱/ ۳۶۳ زيادة إيضاح ۱/ ۳۶۴ سبب اختلاف العلماء فيهما ۱/ ۳۶۴ أحكامه أجمعت عليها الشرائع فی كتب الأولين ۴/ ۱۳۵- ۱۳۶

۶- فضائل بعض سوره:

فضل سورة الصّافات ۴/ ۴۴۳ فضل سورة يس ۴/ ۴۱۲- ۴۱۳ فضل سورة الفلق و الاستعاذة برب الفلق ۵/ ۶۳۷- ۶۳۸- ۶۴۰ فضل آيات من سورة النساء ۱/ ۴۷۸ فضائل الآيتين (خواتيم سورة البقرة) ۱/ ۳۵۶ فضل آية الكرسی ۱/ ۳۱۴- ۳۱۵ فضل الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران ۱/ ۴۷۶- ۴۷۷ فضائل سورة الأنعام ۲/ ۱۱۱- ۱۱۲

۷- مكانته و شرفه:

جلاله و تعظيمه و تأثيره على القلوب و الأفئدة ۵/ ۲۴۶- ۲۴۸ حفظ اللّه له و جمعه و تفسيره ۵/ ۴۰۶- ۴۰۷- ۴۰۹ لا تعجل به يا

محمد قبل أن يفرغ منه جبريل ۳/ ۴۶۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۸۶

فيه شرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و لقومه ۳/ ۴۵۶ و ۳/ ۴۷۴ و ۴/ ۶۳۸ و ۵/ ۳۳۶ أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا القرآن ۴/ ۴۰۰- ۴۰۱ هو النور الذى أنزله اللّه ۵/ ۲۸۲ هو شفاء و رحمة ۳/ ۳۰۲- ۳۰۳ معنى الشفاء ۳/ ۳۰۲- ۳۰۳ كتاب آياته محكمة و مفصلة ۲/ ۵۴۵- ۵۴۸ و ۴/ ۵۷۹ هو بيّن ظاهر ۴/ ۱۰۹ متناه فى الشرف و البركة ۵/ ۵۰۲- ۵۰۳ مكتوب فى لوح محفوظ هو أمّ الكتاب ۵/ ۵۰۲- ۵۰۳

۸- هديه و نذره و بشائره:

آياته هدى و رحمة للمحسنين الذين يقيمون الصّلاة و يؤتون الزكاة، و يؤمنون بالآخرة و هم على هدى من ربهم و هم الفائزون ۴/ ۲۶۱ القرآن يهدى للطريقة الأقوم، و هو بشارة بالأجر ۳/ ۲۵۳- ۲۵۴ آياته هدى و بشرى و شفاء للمؤمنين ۴/ ۱۴۴ و ۵۹۵ هو الفرقان نزّله اللّه ليكون إنذارا للعالمين ۴/ ۷۱ أوحاه اللّه لإنذار أهل مكة و من حولها ۴/ ۶۰۳ أنزل اللّه القرآن بشيرا لأوليائه و نذيرا لأعدائه ۴/ ۵۷۹ أورث اللّه القرآن لمن اصطفى من عباده ۴/ ۴۰۰- ۴۰۱

۹- موقف المشركين و الرد عليهم:

الرد على المشركين أنه لم تتنزل به الشياطين و ما يستطيعون ۴/ ۱۳۸ الإنكار على الكفار أنهم لا يسجدون عند تلاوة القرآن ۵/ ۴۹۵ موقف المشركين و قولهم: أضغاث أحلام- مفترى- شعر ۳/ ۴۷۲ تعجبهم من القرآن و ضحكهم و عدم بكائهم ۵/ ۱۴۲ تنزيل الكتاب المتلو لا ريب فيه و لا شك ۴/ ۲۸۵ تكذيب اللّه للمشركين فى ادعائهم افتراء القرآن ۴/ ۲۸۵ بيان أن الإنزال تم بالحق للإنذار و التخويف ۴/ ۲۸۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۸۷

الكفار قالوا لبعضهم البعض: لا تسمعوا للقرآن و عارضوه بالكفر و الباطل من الكلام ۴/ ۵۸۹ الذين يكفرون به يجازيهم اللّه بكفرهم ۴/ ۵ الكفار فى آذانهم صمم عن سماعه و هو عليهم ذو عمى ۴/ ۵۹۵- ۵۹۶ المشركون يجحدون القرآن، و ينظرون إلى رسول اللّه باستخفاف، و يعلنون أن لو نزل القرآن على رجل عظيم من أهل مكة أو الطائف لأسلموا ۴/ ۶۳۴ قول الكفار باختلاق الرسول للقرآن، و تحديهم أن يأتوا بمثله ۵/ ۱۲۰ كفرهم به، و هو من عند اللّه، تكبرا ۵/ ۲۰- ۲۱ شهادة شاهد من بنى إسرائيل و إيمانه به ۵/ ۲۰- ۲۱ توافق القرآن مع التوراة فى أصول الشرائع ۵/ ۲۰- ۲۱ القرآن مصدّق لما تقدمه من الكتب ۵/ ۲۰- ۲۱ ذو لسان عربى ۵/ ۲۰- ۲۱ اتخاذ الكفار القرآن هزؤا و سخرية ۵/ ۱۴ التحدى للكفار أن يأتوا بسورة مثله ۲/ ۵۰۷ ما يجحد بآياته إلا الكفرة ۴/ ۲۳۹- ۲۴۱ المشركون جعلوا القرآن أجزاء متفرقة، بعضه شعر، و بعضه سحر ۳/ ۱۷۳ طلب الكفار المنكرون للمعاد من رسول اللّه أن يأتى بقرآن آخر، لأن القرآن توعّدهم بالعذاب، و عاب عبادتهم و أصنامهم ۲/ ۴۸۹- ۴۹۰ الرسول صلّى اللّه عليه و سلم لا يأتى بالقرآن من عند نفسه، و لا يملك تبديله ۲/ ۴۸۹- ۴۹۰ مجاهدة الكفار بزواجره و أوامره ۴/ ۹۴ قولهم عنه أساطير الأولين ۲/ ۳۴۷ و ۵/ ۴۸۵ هجرهم القرآن ۴/ ۸۵- ۸۶ اعتراض الكفار على نزوله منجما ۴/ ۸۵- ۸۶ الحكمة من نزوله مفرقا تثبيت فؤاد النبى ۴/ ۸۵- ۸۶ جعل اللّه بين قراءة الرسول صلّى اللّه عليه و سلم و بين المشركين حجابا مستورا ۳/ ۲۷۷- ۲۷۸ فى آذانهم وقر و إذا سمعوه هربوا و نفروا ۳/ ۲۷۷- ۲۷۸ الكفار قالوا عن القرآن بأنه كذب افتراه محمد

صلّى اللّه عليه و سلم ۴/ ۷۲- ۷۳ و قالوا إنه أساطير اكتتبها فهى تملى عليه ۴/ ۷۲- ۷۳ أعانه عليه آخرون كاليهود و غيرهم ۴/ ۷۲- ۷۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۸۸

إعراض الكفار عن تدبر آياته ۳/ ۵۸۴- ۵۸۵ القرآن هو الشرف و الفخر لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۳/ ۵۸۴- ۵۸۵ المشركون يكفرون بالقرآن ۳/ ۴۸۳ قول الوليد بن المغيرة عن القرآن أنه قول البشر و أنه سحر يؤثر، ينقله محمد صلّى اللّه عليه و سلم و يرويه عن غيره ۵/ ۳۹۲- ۳۹۳ يقصّ على بنى إسرائيل ما يختلفون فيه و يتفرقون بسببه ۴/ ۱۷۳

۱۰- الإنصات عند تلاوة القرآن:

أمر الرسول بتلاوة القرآن بتمهّل و تدبّر ۵/ ۳۷۹ القرآن وحى، و هو قول ثقيل بأوامره و نواهيه ۵/ ۳۷۹ المداومة على تلاوته ۴/ ۱۸۰ الأمر بالاستماع للقرآن و الإنصات لتنالهم الرحمة ۲/ ۳۱۹- ۳۲۰ قراءة القرآن تضرعا و خفية ۲/ ۳۱۹- ۳۲۰- ۳۲۱ قراءة الإمام فى الصلاة ۲/ ۳۱۹- ۳۲۰- ۳۲۱ سجود التلاوة ۲/ ۳۱۹- ۳۲۰- ۳۲۱ الأمر بالاستعاذة عند القراءة ۳/ ۲۳۳- ۲۳۴- ۲۳۵

۱۱- ذكرى و موعظة:

القرآن ذكرى و موعظة لمن كان قلبه حيا صحيحا ۴/ ۴۳۶ القرآن ذكر مبارك ۳/ ۴۸۷ تذكرة لأهل التقوى ۵/ ۳۴۲- ۳۴۳ حسرة و ندامة على الكافرين ۵/ ۳۴۲- ۳۴۳ هو حق اليقين، فلا ريب حوله و لا شك ۵/ ۳۴۲- ۳۴۳ قرآن الفجر تشهده الملائكة ۳/ ۳۰۰

۱۲- القسم به:

الإقسام به تنبيه على شرف قدره و اشتماله على الذكر ۴/ ۴۸۱ القسم به و وصفه بالمحكم الذى لا يتناقض ۴/ ۴۱۳ القسم بالقرآن، و أنه ذو مجد و شرف ۵/ ۸۳- ۸۴ القسم بالقرآن و أن اللّه جعله عربيا بلسانهم لكى يفهموه و هو فى اللوح المحفوظ رفيع القدر محكم النظم لا اختلاف فيه ۴/ ۶۲۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۸۹

القسم بمواقع النجوم، و هو قسم عظيم بأنه قرآن ۵/ ۱۹۲- ۱۹۳- ۵۹۶ هو كريم عظيم، فى كتاب مصون، لا يمسه إلا المطهرون ۵/ ۳۴۱- ۳۴۲ القسم بالمخلوقات و المرئيات كلها أن القرآن تلاوة رسول كريم، و يبلغه ملك أمين ۵/ ۳۴۱- ۳۴۲ القسم بالكواكب الخنس التى تختفى بالنهار، و الجوار الكنس التى تجرى مع الشمس ۵/ ۴۷۲- ۴۷۳- ۴۷۶ القسم بالليل إذا أقبل و أدبر و الصبح إذا أقبل إن القرآن لقول يتنزل به جبريل، و هو رسول كريم أمين و مطاع ۵/ ۴۷۲- ۴۷۳- ۴۷۶ القسم بالسماء ذات المطر و الأرض التى تتصدع بالنبات و الزرع أن القرآن قول فصل بين الحق و الباطل، و لم ينزل للّعب ۵/ ۵۱۰- ۵۱۱ القسم به أنزله اللّه فى ليلة القدر، و هى ليلة مباركة ۴/ ۶۵۲- ۶۵۳

۱۳- حجج القرآن:

آياته مشتملة على بيان الحق من الباطل ۴/ ۱۸۲ تفخيمه و كماله ۳/ ۱۴۵ تعظيم شأنه ۳/ ۱۰۰ فرض اللّه العمل بما يوجبه ۴/ ۲۱۷ التحدّى أن يأتوا بعشر سور مثله ۲/ ۵۵۲- ۵۵۳ نزل بلسان عربى مبين ۴/ ۱۳۵- ۱۳۶ شهد به بعض أهل الكتاب ۴/ ۱۳۵- ۱۳۶ هو موعظة للخلق أجمعين لمن شاء الاستقامة ۵/ ۴۷۴- ۴۷۵- ۴۷۶- ۴۷۷ ليس بشعر و لا كهانة ۵/ ۴۷۴- ۴۷۵- ۴۷۶- ۴۷۷

۱۴- القرآن و الجن:

استماع نفر من الجن إلى الرسول و هو يتلو القرآن ۵/ ۳۶۴ وصفهم للقرآن بأنه عجيب فى فصاحته و بلاغته ۵/ ۳۶۴ استماع الجن للقرآن و إيمانهم به ۵/ ۳۰- ۳۱ تصديقه لما تقدمه من الكتب، و نزوله بعد موسى ۵/ ۳۰- ۳۱

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۹۰

۱۵- تفسير الصحابة:

حكم تفسير الصحابى لآية من القرآن ۱/ ۳۸

۱۶- النسخ:

النسخ فى القرآن، و اعتراض الكفار عليه ۳/ ۲۳۳- ۲۳۵ نسخه للكتب السماوية و هو مهيمن عليها، و أمين ۲/ ۵۶- ۵۷

۱۷- أمثال القرآن:

حكم ضرب الأمثال فى القرآن ۱/ ۶۷ ضرب اللّه مثلا عبدا مملوكا و عبدا حرا و رجلا أبكم و الآخر ناطقا و يأمر بالعدل للإظهار و تباين الحال بين الخالق و ما جعلوه شريكا له من الأصنام ۳/ ۲۱۸- ۲۲۱ ضرب اللّه الأمثال ۵/ ۳۶ الآلهة المعبودة لا تسطيع أن تخلق ذبابة و لا تستطيع أن تدفع ذبابة عنها أو أن تسترد ما سلبتها الذبابة من شىء ۳/ ۵۵۷ بيان عجز الآلهة ۳/ ۵۵۸ اللّه يعلم كيف يضرب الأمثال أما الكفار فلا يعلمون ۳/ ۲۱۷- ۲۱۸ مثل من أشرك باللّه و عبد آلهة كثيرة ۴/ ۵۲۹- ۵۳۰ يضرب اللّه الأمثال تنبيها للناس، و لا يفهم الأمثال إلا الراسخون فى العلم ۴/ ۲۳۶

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۲۹۱

الأنبياء و الرسل

اشارة

۱- مكانة الرسل و الأنبياء، و موقف أقوامهم، و تأييد اللّه لهم.

۲- آدم عليه السلام.

۳- إدريس عليه السلام.

۴- نوح عليه السلام.

۵- هود علیه السلام.

۶- صالح علیه السلام.

۷- إبراهیم علیه السلام.

۸- لوط علیه السلام. ۹- یوسف علیه السلام.

۱۰- شعیب علیه السلام.

۱۱- أیوب علیه السلام.

۱۲- موسی علیه السلام.

۱۳- داود علیه السلام.

۱۴- سلیمان علیه السلام.

۱۵- إلیاس علیه السلام.

۱۶- یونس علیه السلام.

۱۷- زکریا علیه السلام و یحیی علیه السلام.

۱۸- عیسی علیه السلام.

فتح القدیر، ج۶، ص: ۲۹۲

۱- مکانهٔ الأنبیاء و الرسل، و موقف أقوامهم و تأیید اللّه لهم:

تفضیل بعضهم علی بعض ۳/ ۲۸۲ النهی عن التفصیل بینهم فی السّنّهٔ ۱/ ۳۰۸- ۳۰۹ اللّه فضّل بعض الأنبیاء ۱/ ۳۰۸ سبقت کلمهٔ اللّه أن الرسـل هم المنصورون ۴/ ۴۷۷ انتصارهم علی الکفار المعانـدین ۳/ ۱۱۹- ۱۲۰ ینصـرهم اللّه فی الـدنیا و یوم القیامهٔ ۴/ ۵۶۸ أرسـلهم اللّه بالمعجزات البینهٔ و الشرائع الظاهرهٔ ۵/ ۲۱۲- ۲۱۳ لا یخلف اللّه وعده لرسـله ۳/ ۱۴۱ نصره لهم یوم القیامهٔ ۳/ ۱۴۱ یرسل اللّه الرسل مبشـرین و منذرین ۳/ ۳۵۲ حوار الرسل مع الکفار ۳/ ۱۱۶- ۱۱۸ إرسال الرسل واحدا بعد واحد ۳/ ۵۷۵- ۵۷۶ کل الرسل کذّبهم قومهم ۳/ ۵۷۵- ۵۷۶ إهلاک اللّه للمکذبین المعاندین ۳/ ۵۷۵- ۵۷۶ استهزاء الکفار بهم و تکذیبهم فی کل الأزمنهٔ و الأمصار ۴/ ۴۲۲ استهزاء الأمم السابقهٔ بالرسل ۴/ ۶۲۷ أهلکهم اللّه، و کانوا أشد قوهٔ و بطشا ۴/ ۶۲۷ عدم إهلاک أهـل القری بظلمهم إلاـ بعـد إرسال الرسل ۲/ ۱۸۶ لاـ یهلـک اللّه أهـل القری الکـافرهٔ حتّی یبعث فی أکبرهـا رسولا ۴/ ۲۰۹ لا یهلک اللّه إلا القری الظالمهٔ المکذّبهٔ للرسل ۴/ ۲۰۹

۲- آدم علیه السلام:

معنی اسمه و اشتقاقه ۱/ ۷۶ خلقه ثم تصویره ۲/ ۲۱۷- ۲۱۸ أمر الملائکهٔ بالسجود له ۲/ ۲۱۷- ۲۱۸ خلقه اللّه من طین مخلوط بالرمل ۳/ ۱۵۵- ۱۵۶ أمر اللّه الملائکهٔ أن یسجدوا له بعد أن سوّاه و نفخ فیه من روحه ۳/ ۱۵۵- ۱۵۶

فتح القدیر، ج۶، ص: ۲۹۳

لما خلقه اللّه مسح ظهره فاستخرج منه ذریته و أخـذ علیهم العهـد و هم فی عالم الذر ۲/ ۲۹۹- ۳۰۱ سجود الملائکهٔ لآدم علیه السلام ۳/ ۲۸۸ أمره اللّه و عهـد إلیه فنسـی و لم یکن عنـده عزم و تصـمیم علی المخالفـهٔ ۳/ ۴۶۰- ۴۶۱ أمر اللّه الملائکـهٔ أن

يسجدوا له ففعلوا إلا إبليس استكبر و أبى ٣/ ٤٦٠- ٤٦١ أسكن اللّه آدم و زوجه حواء الجنة حيث لا جوع فيها و لا عطش ٣/ ٤٦١- ٤٦٣ الشيطان وسوس لهما و جعلهما يأكلان من شجرة الخلد فأهبطا من الجنة ٣/ ٤٦١- ٤٦٣ تاب اللّه عليه، و اجتباه نبيا، و هداه إلى الحق ٣/ ٤٦١- ٤٦٣ أمر اللّه الملائكة بالسجود له فسجدوا ٣/ ٣٤٧- ٣٤٨ إبليس أبى السجود و عصى، فلا يستحق هو و ذريته أن يكون وليا ٣/ ٣٤٧- ٣٤٨ خلق اللّه آدم من تراب، و نفخ فيه من روحه ٤/ ٥١٠- ٥١٢ أمر اللّه تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية ٤/ ٥١٠- ٥١٢ سجود الملائكة و استكبار إبليس ٤/ ٥١٠- ٥١٢ علوّ إبليس لأنه خلق من نار و آدم من طين ٤/ ٥١٠- ٥١٢ طرد إبليس من الجنة و إنظاره إلى يوم الحساب و الجزاء ٤/ ٥١٠- ٥١٢ أقسم الشيطان لآدم و حواء فدلّاهما بغرور ٢/ ٢٢٢ خلق اللّه آدم و حواء من نفس واحدة ٢/ ٣١٣- ٣١٥ جعل اللّه من آدم حواء ليسكن إليها ٢/ ٣١٣- ٣١٥ حمل حواء بالولد ٢/ ٣١٣- ٣١٥ دعاؤهما أن يكون ولدا صالحا ٢/ ٣١٣- ٣١٥ إغراء الشيطان لهما بالأكل من الشجرة ٢/ ٢٢٢- ٢٢٣ ظهور سوآتهما ٢/ ٢٢٢- ٢٢٤ طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ٢/ ٢٢٢- ٢٢٤ سكنى الجنة ٢/ ٢٢١ النهى عن القرب من الشجرة ٢/ ٢٢١ وسوسة الشيطان ٢/ ٢٢١ هبوط آدم من الجنة و دور إبليس فى ذلك و وسوسته ١/ ٨١ قصة ابنى آدم قابيل و هابيل ٢/ ٣٦- ٣٧

فتح القدير، ج ۶، ص: ۲۹۴

٣- إدريس عليه السلام:

إنه من المرسلين ٤/ ٤٦٩- ٤٧٠ دعوته قومه إلى تقوى اللّه و أن يتركوا عبادة بعل، و أن يعبدوا اللّه خالقهم ٤/ ٤٦٩- ٤٧٠ تكذيب قوم إدريس و عذاب اللّه لهم ٤/ ٤٦٩- ٤٧٠ إدريس عليه السلام هو أول من خط بالقلم، و نظر فى النجوم ٣/ ٤٠١- ٤٠٤ رفع اللّه مكانه إلى السماء الرابعة ٣/ ٤٠١- ٤٠٤

٤- نوح عليه السلام:

أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم ٢/ ٢٤٦- ٢٤٧ طلبه من قومه أن يعبدوا اللّه وحده و أنه لا إله غيره ٢/ ٢٤٦- ٢٤٧ نجاته و إغراق المكذبين ٢/ ٢٤٦- ٢٤٧ إخباره لقومه إن ثقل عليهم مقامه فإنه يتوكل على اللّه، و أن يدعوا شركاءهم، و أن يعلنوا حكمهم ٢/ ٥٢٤- ٥٢٦ لا يريد أجرا من قومه إن أعرضوا ٢/ ٥٢٦ أجره و ثوابه على اللّه ٢/ ٥٢٦ كذّبه قومه فأنجاه اللّه و أغرقهم ٢/ ٥٢٦ دعوته قومه إلى عبادة اللّه و تخويفهم من عذابه ٢/ ٥٥٩ رد قومه بأن أتباعه من الأراذل، و ليس لقومه و أتباعه من فضل ٢/ ٥٦١- ٥٦٤ نوح لا يكرههم على معرفة اللّه تعالى ٢/ ٥٦١- ٥٦٤ أجره على اللّه و ليس بطارد المؤمنين ٢/ ٥٦١- ٥٦٤ طلبهم العذاب ٢/ ٥٦١- ٥٦٤ الرد عليهم فى أن ما أوحى إليه ليس مفترى ٢/ ٥٦٣- ٥٦٤ تبرؤه من كذبهم و إجرامهم ٢/ ٥٦٣- ٥٦٤ أمر اللّه لنوح أن يصنع السفينة متلبسا بحفظ من اللّه و وحيه ٢/ ٥٦٤- ٥٦٥ نهيه عن التوسط للظالمين المغرقين ٢/ ٥٦٤- ٥٦٥ الكفار يسخرون من قومه ٢/ ٥٦٤- ٥٦٥ الرد عليهم بأنهم سيسخرون منهم عند غرقهم و هلاكهم ٢/ ٥٦٤- ٥٦٥ بدء الطوفان بفتح أبواب السماء و تفجير عيون الأرض ٢/ ٥٦٤- ٥٦٥ نوح يحمل فيها من كل زوجين اثنين و أهله ٢/ ٥٦٦- ٥٧٠

فتح القدير، ج ۶، ص: ۲۹۵

الركوب فى السفينة ٢/ ٥٦٦- ٥٧٠ جريانها فى موج كالجبال ٢/ ٥٦٦- ٥٧٠ نوح ينادى ابنه ٢/ ٥٦٦- ٥٧٠ غرق ابن نوح ٢/ ٥٦٦- ٥٧٠ انتهاء الطوفان و استقرار السفينة ٢/ ٥٦٦- ٥٧٠ نوح يطلب من اللّه نجاة ابنه؛ لأنه من أهله ٢/ ٥٧٠- ٥٧٢ نوح كان

عبدا شكورا ۳/ ۲۵۰ استجاب اللّه لنوح و نجّاه و أهله ۳/ ۴۹۴ نصره اللّه على قومه، و كان قومه قوم سوء فأغرقهم ۳/ ۴۹۴ دعوته قومه إلى عبادة اللّه الواحد ۳/ ۵۷۱- ۵۷۲ أشراف قومه يردّون عليه بأنه بشر، و لو أراد اللّه أن يرسل لأنزل ملائكة ۳/ ۵۷۱- ۵۷۲ اتهام قومه له بالجنون ۳/ ۵۷۱- ۵۷۲ قومه يطلبون الانتظار ۳/ ۵۷۱- ۵۷۲ أمر اللّه له أن يصنع الفلك ۳/ ۵۷۲ إذا فار التنور بالماء أن يدخل فيها من كل زوجين اثنين من أهله إلا من سبق عليه القول بإهلاكهم ۳/ ۵۷۲ إغراق الظالمين ۳/ ۵۷۲ أغرق اللّه قومه لما كذبوا، و جعلهم اللّه آية ۴/ ۸۸- ۸۹ نوح يدعو قومه، و يبين لهم أنه أمين فى تبليغ الرسالة، و لا يريد منهم أجرا ۴/ ۱۲۶- ۱۲۷ اعتراض قومه على إيمان الفقراء و الضعفاء من قومه، و يصفونهم بالأرذلين، و يطلبون منه طردهم ۴/ ۱۲۶ - ۱۲۷ نوح يرفض طردهم أو حسابهم ۴/ ۱۲۶ - ۱۲۷ غرق قومه، و نجاته مع المؤمنين فى السفينة بأمر اللّه ۴/ ۱۲۶- ۱۲۷ لبثه فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ۴/ ۲۲۶- ۲۲۷ أغرق اللّه قومه بالطوفان لظلمهم ۴/ ۲۲۶- ۲۲۷ أنجى اللّه نوحا و أصحاب السفينة ۴/ ۲۲۶- ۲۲۷ نداؤه اللّه لينصره، فأجابه سبحانه، و نجّاه و أهله من الغرق ۴/ ۴۵۹- ۴۶۰ جعل ذرية نوح هم الباقون لأنهم نجوا من الغرق ۴/ ۴۵۹- ۴۶۰ سلام اللّه عليه لإيمانه ۴/ ۴۵۹- ۴۶۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۹۶

أغرق اللّه جميع الكافرين ۴/ ۴۵۹- ۴۶۰ أهلك اللّه قوم نوح بفسقهم ۵/ ۱۰۹ تكذيب قومه و قولهم عنه مجنون، و زجرهم عن دعوة النبوة ۵/ ۱۴۷- ۱۵۰ دعاؤه اللّه أن ينصره ۵/ ۱۴۷- ۱۵۰ فتح أبواب السماء بماء منصب، و تفجير الأرض بالينابيع معجزة و نصرا ۵/ ۱۴۷ - ۱۵۰ حمل نوح و المؤمنين معه على السفينة ۵/ ۱۴۷- ۱۵۰ غرق الكافرين المعاندين ۵/ ۱۴۷- ۱۵۰ أرسل اللّه نوحا و إبراهيم، و جعل فى نسلهما النبوة و الكتاب ۵/ ۲۱۳ من ذريتهما من اهتدى، و كثير منهم خرج عن طاعة اللّه ۵/ ۲۱۳ ضرب اللّه مثلا للذين كفروا بزوجته التى خانته بالكفر، و جزاؤها دخول النار ۵/ ۳۰۱- ۳۰۵ نجاته مع المؤمنين فى السفينة؛ لتكون عبرة و عظة ۵/ ۳۳۶ إنذاره لقومه أن يعبدوا اللّه، و يتّقوه ۵/ ۳۵۵- ۳۵۹ دعوته لقومه ليلا و نهارا، سرا و جهرا ۵/ ۳۵۵- ۳۵۹ عناد قومه و استهزاؤهم و استكبارهم ۵/ ۳۵۵- ۳۵۹ تذكيرهم بقدرة اللّه و نعمه عليهم فى خلقهم و ما حولهم ۵/ ۳۵۵- ۳۵۹ استمرار قومه على معصيته، و مكروا، و اتبعوا كبراءهم، و أصروا على الكفر ۵/ ۳۵۹ - ۳۶۲ إغراقهم بالطوفان؛ بسبب خطاياهم و معاصيهم ۵/ ۳۵۹- ۳۶۲

۵- هود عليه السلام:

إرساله إلى عاد، و دعوتهم إلى عبادة اللّه الواحد ۲/ ۲۴۸- ۲۴۹- ۵۷۳- ۵۷۵ تذكيرهم بنعم اللّه عليهم، و منها قوة الأبدان ۲/ ۲۴۸- ۲۴۹ طلبهم العذاب ۲/ ۲۴۸- ۲۴۹ هود أخو عاد فى النسب لا فى الدين ۲/ ۲۴۸- ۲۴۹ لا يسألهم أجرا، إنما أجره على اللّه ۲/ ۵۷۳- ۵۷۵ قومه يصرّون على الشرك ۲/ ۵۷۳- ۵۷۵ قومه يتّهمونه بالجنون ۲/ ۵۷۳- ۵۷۵ هود عليه السلام يتبرأ منهم ۲/ ۵۷۳- ۵۷۵ هلاك عاد بالسموم ۲/ ۵۷۳- ۵۷۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۹۷

دعوته لقومه و إبلاغهم أنه أمين، و لا يريد أجرا ۴/ ۱۲۷ - ۱۲۸ استنكاره عليهم البناء فى الأماكن و الطرق المرتفعة و بناء الحصون ۴/ ۱۲۷- ۱۲۸ إن بطشوا و ظلموا فعلوا ذلك بقسوة و تجبر ۴/ ۱۲۷- ۱۲۸ ردّ قومه عليه أن وعظه لهم و عدمه سواء ۴/ ۱۲۹- ۱۳۰ أهلكهم اللّه بتكذيبهم و عنادهم بالريح ۴/ ۱۲۹- ۱۳۰ إنذاره لقومه عاد، و خوفه عليهم عذاب يوم القيامة ۵/ ۲۷- ۲۸ إصرارهم على عبادة آلهتهم و طلبهم العذاب ۵/ ۲۷- ۲۸ لما رأوا العذاب ظنوه سحاب مطر ۵/ ۲۷- ۲۸ أهلكهم اللّه بالريح

الناشئ عن سحاب أسود دمرتهم، و لم تترك إلا مساكنهم ۵/ ۲۷- ۲۸

۶- صالح عليه السلام:

إرساله إلى ثمود ۲/ ۲۵۰ دعوته إلى عبادة اللّه وحده ۲/ ۲۵۰ جاء بمعجزة الناقة ۲/ ۲۵۰ تهديدهم بالعذاب إن مسّوا الناقة بسوء ۲/ ۲۵۰ هم خلفاء من بعد عاد ۲/ ۲۵۰ قبيلة ثمود ينحتون من الجبال بيوتا و يتخذون من السهول قصورا ۲/ ۲۵۱- ۲۵۲ عقرهم للناقة ۲/ ۲۵۱- ۲۵۲ أهلكهم اللّه بالرجفة فأصبحوا ميتين ۲/ ۲۵۱- ۲۵۲ أرسله اللّه إلى ثمود ۲/ ۵۷۵- ۵۷۷ صالح يدعوهم إلى عبادة اللّه الواحد ۲/ ۵۷۵- ۵۷۷ قومه يسخرون منه و يصرّون على عبادة ما كان يعبد آباؤهم ۲/ ۵۷۵- ۵۷۷ عقروا الناقة فأخذتهم الصيحة بعد ثلاثة أيام ۲/ ۵۷۷ كذّبه أصحاب الحجر، و هم ثمود ۳/ ۱۶۸ إعراضهم عن آيات اللّه تعالى ۳/ ۱۶۸ كانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال ۳/ ۱۶۸ أهلكهم اللّه بالصيحة ۳/ ۱۶۸ صالح يدعوهم و يعلمهم أنه رسول أمين و لا يريد منهم أجرا ۴/ ۱۳۰- ۱۳۱ ثمود معروفة بتكذيب الرسل ۴/ ۱۳۰- ۱۳۱ اتهام قومه له بأنه مسحور و يطلبون منه معجزة ۴/ ۱۳۰- ۱۳۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۹۸

صالح يخبرهم عن الناقة، و يطلب منهم أن لا يمسوها بسوء؛ فعقروها؛ فأخذهم اللّه بالعذاب ۲/ ۵۷۷ و ۴/ ۱۳۰- ۱۳۱ آتى اللّه قوم صالح الناقة معجزة مبصرة ۲/ ۵۷۷ و ۴/ ۱۴۸ – ۱۴۹ جحدوا بها و اعتبروها سحرا ظلما و كبرا، فأهلكهم اللّه لفسادهم و عنادهم ۴/ ۱۴۸- ۱۴۹ أرسله اللّه إلى ثمود لعبادة اللّه، و كانت النتيجة انقسامهم فريقين ۴/ ۱۶۵- ۱۶۶ صالح يدعوهم إلى ترك التسرع فى اختيار السيئة، و يحثّهم على الاستغفار ۴/ ۱۶۵- ۱۶۶ قومه يعلمونه أنهم متشائمون منه و ممن معه ۴/ ۱۶۵- ۱۶۶ كان فى المدينة تسعة رجال من الأشراف عملهم الفساد، اجتمعوا، و حلفوا أن يقتلوا صالحا و أهله ۴/ ۱۶۵- ۱۶۶ دبّر اللّه هلاكهم و قومهم أجمعين، و نجّى اللّه صالحا و أهله ۴/ ۱۶۵- ۱۶۶

۷- إبراهيم عليه السلام:

قصة إبراهيم مع أبيه و قومه عبدة الأصنام و الكواكب ۲/ ۱۵۱ قصة إبراهيم فى رؤية الكواكب و القمر و الشمس ۲/ ۱۵۱- ۱۵۲ إبراهيم يقيم الحجة على قومه ۲/ ۱۵۲ تعليمه قومه أن كل حادث مخلوق و أن اللّه هو الخالق المستحق للعبادة وحده ۲/ ۱۵۳ تبرؤه من عبادة قومه للأوثان ۲/ ۱۵۳ و ۴/ ۲۶۰ و ۴/ ۶۳۳- ۶۳۴ اسم أبيه تارح، و فى القرآن آزر ۲/ ۱۵۳- ۱۵۴ وهبه اللّه الذرية المهدية جزاء له على الاحتجاج فى الدين ۲/ ۱۵۵ شرف الأبناء متصل بالآباء ۲/ ۱۵۶ زيارة الملائكة له ۲/ ۵۷۸- ۵۷۹ إكرامه لهم بعجل مشوى ۲/ ۵۷۸- ۵۷۹ إخباره بمهمتهم فى إهلاك قوم لوط ۲/ ۵۷۸- ۵۷۹ ضحك امرأته سارة، و بشارتها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب ۲/ ۵۷۹- ۵۸۱ جدال إبراهيم للملائكة فى قوم لوط ۲/ ۵۷۸- ۵۷۹ إبراهيم: معناه- إمامته- عهد اللّه إليه ۱/ ۱۶۰ مقامه و هو يبنى البيت ۱/ ۱۶۴ طلب إبراهيم من اللّه أن يريه كيف يحيى الموتى ۱/ ۳۲۴- ۳۲۵ قصة إبراهيم مع النّمروذ ۱/ ۳۱۸- ۳۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۲۹۹

لم يكن إبراهيم على دين اليهود و النصارى، و كيف أكذبهم اللّه ۱/ ۴۰۰- ۴۰۱ دعاء إبراهيم أن يجعل مكة بلدا آمنا ۳/ ۱۳۴- ۱۳۶ دعاء إبراهيم أن يبعده اللّه و بنيه عن عبادة الأصنام ۳/ ۱۳۴- ۱۳۶ دعاء إبراهيم أن يجعل قلوب الناس تهوى لمكة ۳/ ۱۳۴- ۱۳۶ إسكانه ذريته هاجر و إسماعيل فى مكة ۳/ ۱۳۴- ۱۳۶ حمده للّه لما وهب له إسماعيل و إسحاق ۳/ ۱۳۶ استغفاره لنفسه و

لوالديه ٣/ ١٣٦ أخبار ضيوفه الملائكة ٣/ ١٦١- ١٦٥ فزعه منهم عند ما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام ٣/ ١٦١- ١٦٥ تبشيرهم له بغلام عليم ٣/ ١٦١- ١٦٥ إعلامه بأنهم مرسلون لقوم لوط لإهلاكهم ٣/ ١٦١- ١٦٥ كان أمة معلّما للخير ٣/ ٢٤٣- ٢٤٤ كان شاكرا لنعم اللّه، موحّدا له سبحانه ٣/ ٢٤٣- ٢٤٤ اختاره اللّه، و هداه إلى الصراط المستقيم ٣/ ٢٤٣- ٢٤٤ كان صدّيقا نبيا ٣/ ٣٩٨- ٣٩٩ دعا أباه إلى عبادة اللّه الواحد، و ترك عبادة الشيطان ٣/ ٣٩٨- ٣٩٩ أبوه يغضب، و يقرر الهجران، و يعلن التهديد بالرجم ٣/ ٣٩٨- ٣٩٩ إبراهيم يعتزل عبادة القوم و آلهتهم، فيكرمه اللّه بإسحاق و يعقوب ٣/ ٣٩٨- ٣٩٩ انتقاله من تغيير المنكر باللسان إلى الفعل ٣/ ٤٩٠- ٤٩١ ذهابه إلى الأصنام و مخاطبته لها ٤/ ٢٦١- ٢٦٢ تكسير الأصنام، و ترك الصنم الكبير ٣/ ٤٩٠- ٤٩١ و ٤/ ٢٦١- ٢٦٢ تساؤلهم عمن فعل ذلك، و توجيه التهم و السؤال إلى إبراهيم ٣/ ٤٩٠- ٤٩١ آتاه اللّه الرشد ٣/ ٤٨٨ سأل أباه و قومه عن تماثيلهم التى يعبدونها من دون اللّه، و أخبرهم أنهم و آباءهم فى ضلال ٣/ ٤٨٨ نجّاه اللّه إلى الشام، و وهب له إسحاق و يعقوب، و جعلهم اللّه أئمة فى الهدى و الصلاح ٣/ ٤٩٣- ٤٩٤ إبراهيم يحاجج قومه ٣/ ٤٩٢- ٤٩٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٠٠

فتح القدير ج۶ ٣٤٩

إبراهيم يظهر لهم أنها أصنام عاجزة لا تستحق العبادة ٣/ ٤٩٢- ٤٩٣ قومه يحكمون عليه بالحرق، و يرمونه فى النار؛ فينجيه اللّه تعالى ٣/ ٤٩٢- ٤٩٣ بيّن اللّه له مكان البيت الحرام للعبادة مع التوحيد الخالص، و عدم الشرك ٣/ ٥٣١- ٥٣٢ أمره أن يطهر بيته من الكفر و الأوثان و الدماء؛ للطواف و الصلاة ٣/ ٥٣١- ٥٣٢ أمره اللّه أن يؤذن، و ينادى الناس إلى الحج ٣/ ٥٣١- ٥٣٢ أذانه بالناس، و إيصال صوته بقدرة اللّه تعالى إلى جميع بقاع الأرض ٣/ ٥٣٥ سؤاله لأبيه و قومه عما يعبدون ٤/ ١٢٠- ١٢١ جوابهم أنهم يعبدون باستمرار أصناما، آلهة ٤/ ١٢٠- ١٢١ سؤالهم إن كانت هذه الأصنام تنطق، أو تسمع، أو تضر، أو تنفع ٤/ ١٢٠- ١٢١ جوابهم أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها، فعبدوها تقليدا ٤/ ١٢٠- ١٢١ إعلان عداوته لكل ندّ و شريك للّه تعالى ٤/ ١٢٢- ١٢٣ إظهار أوصاف رب العالمين المستحق للعبادة، فهو الهادى و المحيى و المميت و الغافر و المطعم ٤/ ١٢٢- ١٢٣ أخطاؤه التى يطمع أن يغفرها اللّه له ٤/ ١٢٢- ١٢٣ دعوته لقومه أن يعبدوا اللّه، و أن يتركوا عبادة الأوثان التى لا تضر و لا تنفع و لا تملك رزقا ٤/ ٢٢٧ بيانه لهم أن الشكر للّه الرازق المنعم، و أن مهمته التبليغ و البيان، فكان جواب قومه أن تشاوروا فى قتله أو تحريقه، و اتفقوا على تحريقه، فنجّاه اللّه من النار ٤/ ٢٢٧- ٢٣٠ قومه تجمعهم المودة على عبادة الأوثان، و يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، و يلعن بعضهم بعضا، و مأواهم النار ٤/ ٢٢٩- ٢٣٠ آمن له لوط، و هو ابن أخيه ٤/ ٢٣٠- ٢٣١ هجرة إبراهيم إلى اللّه تعالى ٤/ ٢٣٠- ٢٣١ وهب اللّه له إسحاق و يعقوب ٤/ ٢٣٠- ٢٣١ آتاه اللّه أجره فى الدنيا و فى الآخرة ٤/ ٢٣٠- ٢٣١ لما شبّ إسماعيل قال له أبوه إبراهيم: إنى رأيت فى المنام أنى أذبحك ٤/ ٢٦٣- ٢٦٥ ذكر الخلاف فيمن هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق ٤/ ٢٦٣- ٢٦۴- ۴۶٧- ۴۶٨ فداه اللّه بذبح عظيم القدر بعد أن وافق أباه، و أضجعه أبوه للذبح ٤/ ٢٦٣- ٢٦٥

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٠١

سلام اللّه عليه إنه من عباد اللّه المحسنين المنقادين لأمر اللّه ٤/ ٢٦٣- ٢٦٥ هو من أهل دين نوح، و جاء ربه بقلب موحّد مخلص ٤/ ٢٦٠- ٢٦١ نظره فى النجوم ٤/ ٢٦٠- ٢٦١ قوله إنه سقيم ليتركوه ٤/ ٢٦٠- ٢٦١ بشّره اللّه بإسماعيل ٤/ ٢٦٠- ٢٦١ رجوع قومه إليه مسرعين ٤/ ٢٦١- ٢٦٢ إنكاره عليهم عبادة ما ينحتون ٤/ ٢٦١- ٢٦٢ أرادوا هلاكه و إحراقه فنجّاه اللّه ٤/ ٢٦١- ٢٦٢ بشارة اللّه له بإسحاق نبيّا من الصالحين، و باركهما اللّه بمرادفة النعم ٤/ ۴۶۶ من ذريتهما مؤمن و كافر ٤/ ۴۶۶ يعبد إبراهيم إلهه الواحد الذى خلقه و هداه، و هذه الوصية أبقاها فى عقبه و ذريته ٤/ ۶٣٣- ۶٣۴ إهلاك المكذّبين ٥/ ١٠٥- ١٠۶ ضيوف إبراهيم من الملائكة و كيف أكرمهم بالعجل السمين، و خوفه منهم و بشارتهم له بإسحاق ٥/ ١٠٥- ١٠۶ إقبال امرأته فى صيحة

و ضجة، أو فى جماعة، و ضربها على وجهها، و تعجبها من البشارة بحملها و هى عجوز ۵/ ۱۰۵- ۱۰۶ إخبار الملائكة لإبراهيم بمهمتهم فى إهلاك قوم لوط بالحجارة ۵/ ۱۰۶ الاقتداء به حين تبرأ من قومه الكفار ۵/ ۲۵۲- ۲۵۵ تبرؤ إبراهيم من أبيه و عودته عن الاستغفار له ۵/ ۲۵۲- ۲۵۵

۸- لوط عليه السلام:

هو ابن عم إبراهيم ۲/ ۵۷۷- ۵۸۳ أهلك اللّه قومه بالحجارة ۲/ ۵۷۷- ۵۸۳- ۵۸۵ مجىء الملائكة و كيف استاء من مجيئهم، و ضاق بهم صدرا ۲/ ۵۷۷- ۵۸۳ مجىء قومه يهرعون ۲/ ۵۷۷- ۵۸۳ لوط يدعو قومه للزواج من بناته، و عدم الاعتداء على ضيوفه ۲/ ۵۸۳- ۵۸۵ قومه يصرون على الفاحشة، و الاعتداء على الضيوف ۲/ ۵۸۳- ۵۸۵ الملائكة يطمئنون لوطا ۲/ ۵۸۳- ۵۸۵ نجاة لوط و أهله و هلاك قومه ۲/ ۵۸۳- ۵۸۵

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۰۲

زوجة لوط كانت مع الهالكين ۲/ ۵۸۳- ۵۸۵ أرسله اللّه إلى سدوم ۲/ ۲۵۳- ۲۵۴ إنكاره على قومه اللّواط ۲/ ۲۵۳- ۲۵۴ كان جواب قومه إخراجه مع أتباعه من القرية ۲/ ۲۵۳- ۲۵۴ نجّاه اللّه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين ۲/ ۲۵۳- ۲۵۴ أهلكهم اللّه بالحجارة أمطرت عليهم من السماء ۲/ ۲۵۳- ۲۵۴ وصول الملائكة إلى القرية ۳/ ۱۶۵- ۱۶۶ جاء أهل القرية و هم من سدوم مستبشرين بفعل الفاحشة مع الضيوف ۳/ ۱۶۵- ۱۶۶ لوط يطلب منهم ألّا يفضحوه عندهم ۳/ ۱۶۵- ۱۶۶ لوط يعرض بناته على قومه للزواج بهن ۳/ ۱۶۵- ۱۶۶ قومه يسخرون منه ۳/ ۱۶۵- ۱۶۶ الصيحة تأخذهم ۳/ ۱۶۵- ۱۶۶ آتاه اللّه حكما و علما ۳/ ۴۹۳- ۴۹۴ نجّاه اللّه من القرية التى كان يعمل أهلها الخبائث كاللواطة ۳/ ۴۹۳- ۴۹۴ أدخله اللّه فى رحمته ۳/ ۴۹۳- ۴۹۴ القرية التى أمطر اللّه عليها الحجارة ۳/ ۴۹۳- ۴۹۴ قوم لوط كذّبوا المرسلين ۴/ ۱۳۱- ۱۳۳ إنكار لوط عليهم إتيانهم الذكور ۴/ ۱۳۱- ۱۳۳ دعوتهم إلى التقوى ۴/ ۱۳۱- ۱۳۳ تهديدهم للوط بالإخراج من بلدهم إن لم ينته ۴/ ۱۳۱- ۱۳۳ إعلانه أنه لعملهم من المبغضين ۴/ ۱۳۱- ۱۳۳ دعاؤه أن ينجيه اللّه و أهله ۴/ ۱۳۱- ۱۳۳ أهلك اللّه قومه بالحجارة ۴/ ۱۳۱- ۱۳۳ إنكار لوط على قومه إتيان فاحشة اللّواط ۴/ ۱۶۷- ۱۶۸ جوابهم إخراجه مع أهله ۴/ ۱۶۷- ۱۶۸ زوجة لوط كانت من الهالكين الباقين فى العذاب ۴/ ۱۶۷- ۱۶۸ أمطر اللّه عليهم حجارة من السماء ۴/ ۱۶۷- ۱۶۸ إنكاره على قومه فاحشة اللّواط، و قطع الطريق، و اجتماعهم على فعل المنكر ۴/ ۲۳۲- ۲۳۳ كان جوابهم طلب العذاب، و التهديد بإخراج لوط من القرية و هى سدوم ۴/ ۲۳۲- ۲۳۳

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۰۳

لوط عليه السلام يطلب النصر من اللّه، فأنزل اللّه ملائكته بعذاب قومه و إهلاكهم ۴/ ۲۳۲- ۲۳۳ لما جاءت الملائكة لوطا خاف عليهم من قومه و عجز عن حمايتهم لأنه ظنهم بشرا ۴/ ۲۳۳- ۲۳۴ أعلموه أنهم رسل من عند اللّه لنجاته و أهله، و إهلاك قومه و زوجته ۴/ ۲۳۳- ۲۳۴ لوط من المرسلين، فنجّاه اللّه و أهله؛ إلا زوجته أهلكها اللّه ۴/ ۴۷۰ دمر اللّه قومه و منازلهم شاهدة لمن يعتبر ۴/ ۴۷۰ تكذيبهم و هلاكهم بالريح ترميهم بالحصباء ۵/ ۱۵۳- ۱۵۴ نجاة لوط و أهله فى وقت السّحر ۵/ ۱۵۳- ۱۵۴ مراودتهم لضيوفه من الملائكة ۵/ ۱۵۳- ۱۵۴ جاءهم العذاب صباحا ۵/ ۱۵۳- ۱۵۴ ضرب اللّه مثلا للذين كفروا بزوجته التى خانته بالكفر، و إخبار قومه بضيوفه ۵/ ۳۰۴- ۳۰۵ جزاؤها دخول النار ۵/ ۳۰۴- ۳۰۵

۹- يوسف عليه السلام:

يوسف يـذكر لأبيه يعقوب رؤياه ٣/ ٧ يعقوب ينهى يوسف عن ذكر رؤياه أمام إخوته فيحسدونه ٣/ ٧ إكرام اللّه ليوسف بالاصطفاء للنبوة، و تعليمه تأويل الأحاديث و يجمع له النبوة و الملك، و يتم نعمته على آل يعقوب ٣/ ٨- ٩ إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ٣/ ١١ إخوته يحسدونه على حبّ يعقوب له و لأخيه بنيامين أكثر منهم، و هم جماعة، فاقترحوا قتله، لكن أحدهم ينهى عن قتله، و يوصى بوضعه فى ظلام البئر ٣/ ٩- ١١ إخوته يطلبون من أبيهم أن يرسل معهم يوسف يرتع و يلعب ٣/ ١٢- ١٣ أبوه يخاف عليه أن يأكله الذئب ٣/ ١٢- ١٣ إخوته يضعونه فى غيابة البئر ٣/ ١٢- ١٣ إخوة يوسف يتظاهرون بالبكاء و الكذب على أبيهم بأن يوسف أكله الذئب ٣/ ١٣- ١٤- ١٥ جاءوا على قميصه بدم كذب ٣/ ١٣- ١٤- ١٥ العثور على يوسف فى البئر و بيعه فى مصر إلى العزيز ٣/ ١٥- ١٩

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٠۴

العزيز يوصى به امرأته أن تكرمه ٣/ ١٥- ١٩ امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه ٣/ ٢٠- ٢٢ يوسف يرى برهان ربه ٣/ ٢٣- ٢۴ براءة يوسف أمام العزيز و ظهور كيد امرأة العزيز ٣/ ٢٣- ٢۴ نساء من المدينة يتكلمن على امرأة العزيز فتدعوهن ليرين يوسف و يعذرنها فى مراودتها له ٣/ ٢۵- ٣٠ إدخاله السجن و دخل معه السجن فتيان ٣/ ٣٠- ٣١ يوسف يفسّر للفتيين رؤياهما ٣/ ٣٢- ٣۴ يعلن يوسف عليه السلام التوحيد و التبرؤ من الشرك ٣/ ٣۵- ٣۶ يوسف يفسر للملك رؤياه ٣/ ٣٧- ۴٠ يوسف يحصل على براءته و نزاهته أمام الملك ٣/ ۴٠- ۴۴ امرأة العزيز تعترف بأنها هى التى راودته ٣/ ۴٠- ۴۴ الملك يستخلصه لنفسه، و يجعله أمينا على خزائن مصر ٣/ ۴٠- ۴۴ مجىء إخوة يوسف إلى مصر من أرض كنعان ليمتاروا، لمّا أصابهم القحط ٣/ ۴۴- ۴٨ يطلب يوسف منهم أخاه بنيامين ٣/ ۴۴- ۴٨ يعقوب عليه السلام يوافق على إرساله معهم ٣/ ۴۴- ۴٨ يعقوب يوصى أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة ٣/ ۴٨- ۶١ يوسف يعرف أخاه، و يستبقيه عنده بعد أن وضع الصاع فى رحله ٣/ ۴٨- ۶١ يعقوب يتصبر على فقد بنيامين، و يتذكر يوسف ٣/ ۴٨- ۶١ إخوة يوسف يتعرفون عليه، و يعترفون بخطئهم ٣/ ۶١- ۶۶ يوسف يترك توبيخهم و تعييرهم، و يطلب منهم أن يذهبوا بقميصه، و أن يأتوا بأهلهم ٣/ ۶١- ۶۶ حضور أهل يوسف إلى مصر و دخولهم عليه ٣/ ۶٧- ۶٩ سجود إخوة يوسف له، و تحقق ليوسف ما رآه ٣/ ۶٧- ۶٩ يوسف عليه السلام يعدّد نعم اللّه عليه و على أهله و إخوته ٣/ ۶٧- ۶٩ قصة يوسف و قصص الأنبياء عبرة لأولى الألباب ٣/ ٧١- ٧۵

١٠- شعيب عليه السلام:

أرسله اللّه إلى مدين ٢/ ٢۵۵ أمره لهم بالوفاء بالكيل و الميزان و كانوا لا يوفونهما ٢/ ٢۵۵

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٠۵

دعوته لقومه لترك الإفساد فى الأرض ٢/ ٢۵۵ ترك القعود على طرق الناس يخوفونهم العذاب ٢/ ٢۵۵ النهى عن قطع الطريق ٢/ ٢۵۵ الصدّ عن سبيل اللّه ٢/ ٢۵۵ تذكيرهم بنعم اللّه و منها تكثيرهم ٢/ ٢۵۶ تهديدهم له و لمن آمن معه بالإخراج ٢/ ٢۵۶ إصراره و ثباته على الإيمان و توكله على اللّه ٢/ ٢۵۶ دعاء شعيب عليه السلام أن يفتح بينه و بين قومه ٢/ ٢۵٧- ٢۵٨ إصرار قومه على الكفر و استكبارهم ٢/ ٢۵٧- ٢۵٨ أخذتهم الرجفة فهلكوا ٢/ ٢۵٧- ٢۵٨ إرساله إلى مدين ٢/ ۵٨٧- ۵٨٨ قوله اعبدوا اللّه الواحد ٢/ ۵٨٧- ۵٨٨ نهيهم عن إنقاص المكيال و الميزان ٢/ ۵٨٧- ۵٨٨ خوفه عليهم العذاب ٢/ ۵٨٧- ۵٨٨ إقامة الحجة على قومه ٢/ ۵٨٩- ۵٩١ إنه يريد الإصلاح لهم و حفظهم من العذاب الذى حلّ بمن سبقهم ٢/ ۵٨٩- ۵٩١ قومه لا يفهمون كلامه و يهددونه بالرجم لولا عشيرته ٢/ ۵٨٩- ۵٩١ نجّاه اللّه و أهلك قومه بالصيحة فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم

جاثمين ۲/ ۵۹۱- ۵۹۲ كذب قوم شعيب و هم أصحاب الشجر الملتف المرسلين ۴/ ۱۳۲- ۱۳۴ دعاهم شعيب للتقوى و الوزن بالعدل و نهاهم عن الفساد ۴/ ۱۳۲- ۱۳۴ اتهامه بأنه مسحور و تحديه أن ينزل عليهم العذاب ۴/ ۱۳۲- ۱۳۴ أصروا على تكذيبه، فأخذهم عذاب يوم الظلة، و هو سحاب أمطر عليهم نارا ۴/ ۱۳۲- ۱۳۴ قومه أصحاب الأيكة، و هى الشجر الملتف، كانوا ظالمين ۳/ ۱۶۸ انتقام اللّه منهم ۳/ ۱۶۸ أرسله اللّه إلى مدين ۴/ ۲۳۳- ۲۳۴ دعا قومه إلى الإيمان باللّه و اليوم الآخر و ترك الفساد فى الأرض ۴/ ۲۳۳- ۲۳۴ أخذهم اللّه بالرجفة لظلمهم فأصبحوا فى بلدهم جاثمين على الرّكب ۴/ ۲۳۳- ۲۳۴

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۰۶

۱۱- أيوب عليه السلام:

سمع اللّه نداءه، فاستجاب له و كشف عنه ما به من ضر ۴/ ۴۹۷- ۴۹۸ أعطاه اللّه و أهله رحمة منه ۴/ ۴۹۷- ۴۹۸ نداؤه و دعاؤه للّه: أنه مسّه الشيطان بشر و ألم ۴/ ۴۹۷- ۴۹۸ أمره اللّه أن يحرك رجله و يدفعها فينبع الماء لاغتساله، و شربه، و برئه من مرضه ۴/ ۴۹۷- ۴۹۸ وهب اللّه أهله له، فجمعهم بعد تفرقهم، و زادهم ۴/ ۵۰۰- ۵۰۱ علمه اللّه أن يأخذ عثكالا من نخل، و أن يضرب به زوجته لئلا يحنث فى يمينه ۴/ ۵۰۰ وصف أيوب عليه السلام بالصبر و الرجوع إلى اللّه ۴/ ۵۰۱

۱۲- موسى عليه السلام:

إرساله إلى فرعون و أشراف قومه ۲/ ۲۶۲ خطاب موسى لفرعون باسمه و إعلامه أنه رسول رب العالمين ۲/ ۲۶۳ طلب موسى أن يرسل معه بنى إسرائيل ۲/ ۲۶۳ سؤال فرعون عن رب العالمين ۲/ ۲۶۳ طلب فرعون الآيات ۲/ ۲۶۳ ألقى موسى عصاه و أخرج يده من جيبه ۲/ ۲۶۳ قوم فرعون يستنكرون عليه أن يترك موسى و قومه ۲/ ۲۶۸ فرعون يهدّدهم أنه سيقتل أبناءهم و يستحيى نساءهم ۲/ ۲۶۸ موسى يطمئن قومه بأن الأرض للّه ۲/ ۲۶۸ فرعون يتهم موسى بأنه ساحر ۲/ ۲۶۴- ۲۶۶ قصة موسى مع السحرة ۲/ ۲۶۴- ۲۶۶ عصا موسى تلقف ما يأفكون ۲/ ۲۶۴- ۲۶۶ إيمان السحرة باللّه الواحد ۲/ ۲۶۴- ۲۶۶ قوم موسى يذكرون أنهم أوذوا من قبل بعثة موسى و من بعده ۲/ ۲۶۸- ۲۶۹ موسى يخبرهم و يطمئنهم أن اللّه ربما يهلك عدوهم، و يستخلفهم فى الأرض ۲/ ۲۶۸- ۲۶۹ فرعون يتّهم السحرة بالتآمر و المكر ۲/ ۲۶۷- ۲۶۹ تهديدهم بالقتل و الصّلب ۲/ ۲۶۷- ۲۶۹ السّحرة يعلنون الثبات على الإيمان و يقبلون على الشهادة بشجاعة ۲/ ۲۶۷- ۲۶۹

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۰۷

آتاه اللّه التوراة هدى طلبهم من موسى أن يرفع عنهم العذاب ليؤمنوا، و عند ما رفع اللّه عنهم العذاب نكثوا عهدهم ۲/ ۲۷۲ أغرقهم اللّه فى اليمّ ۲/ ۲۷۲ تطير قوم فرعون بموسى و من معه و الرد عليهم ۲/ ۲۷۱- ۲۷۳ إصرارهم على الكفر ۲/ ۲۷۱- ۲۷۳ أرسل اللّه عليهم الطوفان و القمل و الضفادع ۲/ ۲۷۱- ۲۷۳ وعد اللّه لقوم موسى أن يجعلهم أئمة وارثين ۲/ ۲۷۴ تدمير كل ما صنعه فرعون من عمارات و بناء، و تجاوزهم البحر ۲/ ۲۷۴ أتوا على قوم يعبدون أصناما فطلبوا أن يكون لهم مثلهم آلهة ۲/ ۲۷۵ موسى عليه السلام يبين لقومه هلاك عبدة الأصنام و هلاك آلهتهم ۲/ ۲۷۴- ۲۷۵ موسى عليه السلام يذكر قومه بإلههم الواحد الخالق ۲/ ۲۷۴- ۲۷۵ موسى عليه السلام يذكر قومه بنعم اللّه عليهم ۲/ ۲۷۴- ۲۷۵ تكريم اللّه لموسى و تشريفه بمناجاته ۲/ ۲۷۶ موسى يستخلف هارون فى قومه و يذهب لميقات ربّه ۲/ ۲۷۶ كلّمه اللّه ۲/ ۲۷۶- ۲۷۷ طلب أن يرى اللّه بعد أن سمع كلامه ۲/ ۲۷۶- ۲۷۷ كيف تجلّى اللّه للجبل فأصبح دكا ۲/ ۲۷۷ خرّ موسى صعقا، و لما أفاق تاب و أناب ۲/ ۲۷۷ ما كتب اللّه له و لقومه

فی الألواح ۲/ ۲۷۸ وصیته أن یأخذ بما فی الألواح بقوّة، و أن یأخذ قومه بها و یتبعون أحسنها ۲/ ۲۷۸ ألقی الألواح، و أخذ برأس أخیه هارون یجرّه ۲/ ۲۸۳ کان رد هارون أن القوم استضعفوه و کادوا یقتلونه، و طلبه ألّا یشمت به الأعداء ۲/ ۲۸۳ إلقاء موسی للألواح و تکسّر بعضها ۲/ ۲۸۴ اتّخذ الیهود فی غیبة موسی من حلیّهم عجلا جسدا، و عبدوه إلها، مع أنه لا یکلمهم، و لا یهدیهم سبیلا ۲/ ۲۸۲ رجوع موسی غضبان أسفا ۲/ ۲۸۲ غضب اللّه فی الدنیا و الآخرة علی الذین عبدوا العجل ۲/ ۲۸۵- ۲۸۶

فتح القدیر، ج‌۶، ص: ۳۰۸

لما سکن غضب موسی أخذ الألواح ۲/ ۲۸۵- ۲۸۶ اختیار موسی من قومه سبعین رجلا- لمیقات اللّه تعالی ۲/ ۲۸۶ أخذتهم الرجفة بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل ۲/ ۲۸۶ أمر اللّه بنی إسرائیل أن یدخلوا الباب سجدا، و أن یقولوا حطّة، فبدّل الذین ظلموا منهم قولا غیر الذی قیل لهم ۲/ ۲۹۲ سؤالهم عن القریة التی کانت حاضرة البحر ۲/ ۲۹۴ امتحان اللّه قوم موسی بالحیتان تأتیهم ظاهرة، و عصیانهم للّه و صیدهم یوم السبت ۲/ ۲۹۲- ۲۹۵ مسخهم اللّه قردة لأنهم نسوا ما ذکروا به ۲/ ۲۹۲- ۲۹۵ من قوم موسی جماعة یهدون بالحق، و به یعدلون ۲/ ۲۹۱- ۲۹۴ فرّقهم اللّه اثنی عشر سبطا ۲/ ۲۹۱- ۲۹۴ أوحی اللّه لموسی أن یستسقی لقومه ۲/ ۲۹۱ أمره اللّه أن یضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عینا، و ظلل اللّه علیهم الغمام و أنزل علیهم المنّ و السّلوی ۲/ ۲۹۱ یبعث اللّه من یسوم قومه سوء العذاب إلی یوم القیامة، و یبتلیهم اللّه بالخیر و الشر لعلهم یرجعون ۲/ ۲۹۶- ۲۹۸ خلف من بعد الذین فرّقهم اللّه قطعا خلف یقرءون التوراة و لا یعملون بها، و یعلّلون أنفسهم بالمغفرة ۲/ ۲۹۶- ۲۹۸ مما وقع لقوم موسی أنه سبحانه رفع فوقهم الجبل کأنه ظلة ۲/ ۲۹۸- ۲۹۹ بعث اللّه موسی و هارون إلی فرعون و قومه فاستکبروا، و کانوا مجرمین ۲/ ۵۲۷- ۵۳۰ قولهم عن معجزات موسی بأنها سحر ۲/ ۵۲۷- ۵۳۰ عدم قبولهم لدعوة موسی بأمرین: التمسک بالتقلید للآباء و الحرص علی الریاسة الدنیویة. ۲/ ۵۲۷- ۵۳۰ موسی یدعو علی فرعون و قومه أن یطمس اللّه علی أموالهم، و أن یشدد علی قلوبهم، و استجابة الدعوة من اللّه ۲/ ۵۲۷- ۵۳۰ جاوزوا البحر، و اتبعهم فرعون و جنوده، فغرق فرعون، و لم ینفعه إیمانه عند غرقه ۲/ ۵۳۳- ۵۳۵ نجّاه اللّه ببدنه لیکون عبرة ۲/ ۵۳۶ إرسال موسی إلی فرعون و قومه ۲/ ۵۹۲- ۵۹۳

فتح القدیر، ج‌۶، ص: ۳۰۹

اتبع القوم أمر فرعون، و ما أمره ذو رشد ۲/ ۵۹۲- ۵۹۳ إنه یقدم قومه إلی النار ۲/ ۵۹۲- ۵۹۳ أرسل اللّه موسی لیخرج قومه من الظلمات إلی النور، و لیذکرهم بأیام اللّه ۳/ ۱۱۳ تذکیر قومه بأن اللّه أنجاهم من قوم فرعون، و هم یسومونهم أشد العذاب ۳/ ۱۱۵- ۱۱۶ آتاه اللّه التوراة و جعلها هدی لبنی إسرائیل أن یوحدوا اللّه، و لا یتخذوا من دون اللّه کفیلا و لا شریکا ۳/ ۲۴۹ آتی اللّه موسی تسع آیات ۳/ ۳۱۳- ۳۱۴ النبی لا یلزم أن یکون عالما بجمیع القصص ۳/ ۳۵۴ هو موسی بن عمران ۳/ ۳۵۴ فتاه یوشع بن نون، و ملازمته له ۳/ ۳۵۴ قول موسی لفتاه: لا أزال أسیر حتی أصل إلی ملتقی البحرین ۳/ ۳۵۴ وصول موسی و فتاه إلی ملتقی البحرین ۳/ ۳۵۴- ۳۵۵ نسیان حوتهما، فانسرب فی البحر ۳/ ۳۵۴- ۳۵۵ موسی یطلب الغداء بعد سفر و تعب ۳/ ۳۵۴- ۳۵۵ الفتی یخبر موسی بقصة هرب الحوت فی البحر ۳/ ۳۵۴- ۳۵۵ رجوع موسی و فتاه إلی مکان فقد الحوت، و هناک وجد الخضر ۳/ ۳۵۶ لما ذا سمی الخضر؟ ۳/ ۳۵۶ آتی اللّه الخضر رحمة و علما ۳/ ۳۵۶ موسی یطلب بأدب أن یلازمه لیتعلم منه ۳/ ۳۵۶- ۳۵۷ الخضر یشترط علی موسی الصبر، و عدم السؤال عما یقع، و عدم الاعتراض حتی یخبره الخضر ۳/ ۳۵۶- ۳۵۷ رویت فی هذه القصة أحادیث کثیرة، أتمّها ما روی عن ابن عباس ۳/ ۳۵۶- ۳۵۷ الخضر یخرق السفینة، و موسی یعترض، ثم یعتذر ۳/ ۳۵۹- ۳۶۱ الخضر یقتل الغلام، و موسی یعترض، ثم یعتذر ۳/ ۳۵۹- ۳۶۱ الخضر یبنی الجدار فی قریة رفض أهلها إطعامهما ۳/ ۳۵۹- ۳۶۱ الخضر یعلن الفراق بعد اعتراض موسی ثلاث مرات ۳/ ۳۶۱- ۳۶۲ الخضر یخبر موسی عن سبب خرق السفینة، و قتل

الغلام، و بناء الجدار، و تأويل ما لم يستطع عليه صبرا ۳/ ۳۶۱- ۳۶۲ كان موسى عليه السلام رسولا نبيا، أرسله اللّه إلى عباده بشرائعه و أحكامه ۳/ ۴۰۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۱۰

ناداه اللّه من جانب الطور و قرّبه بالمناجاة و المنزلة ۳/ ۴۰۰ وهب اللّه موسى أخاه هارون نبيا و وزيرا ۳/ ۴۰۰ رؤيته للنار و طلبه من زوجه أن تنتظر لعله يأتى منها بشعلة أو يجد هاديا يهديه إلى الطريق ۳/ ۴۲۵ ناداه اللّه و أعلمه أنه بالوادى المقدس و أنه اختاره لرسالته ۳/ ۴۲۵- ۴۲۷ الرب يأمره بالصّلاة و يعلمه بخفاء الساعة، و أن علمها عند اللّه، و ينهاه أن يصرفه عنها من لا يصدق بها ۳/ ۴۲۵- ۴۲۷ سؤال موسى عما فى يده. موسى يبين منافع العصا، و أمر اللّه له أن يلقيها، فانقلبت بأمر اللّه حية تسعى ۳/ ۴۳۰ أمر اللّه موسى أن يأخذها، و أن يكون انقلاب يده بيضاء من غير مرض معجزة ثانية ۳/ ۴۳۰ موسى يطلب أن يشرح له صدره، و أن يجعل له وزيرا من أهله هارون أخاه يشدّ به أزره و يشاركه فى أموره ۳/ ۴۳۱- ۴۳۲ اللّه يؤتيه ما سأل و يذكره بقصة نجاته من الذبح ۳/ ۴۳۱- ۴۳۲ تعداد نعم اللّه على موسى:

إنقاذه من الذبح ألقى اللّه عليه محبته تربّى، و تغذّى إعادته إلى أمه لترضعه اختياره للوحى و الرسالة إرساله إلى فرعون الذى طغى نجّاه اللّه من الغم إقامته فى أهل مدين ۳/ ۴۳۳- ۴۳۵ موسى و هارون يظهران خوفهما من فرعون ۳/ ۴۳۶- ۴۳۸ اللّه تعالى ينهاهما عن الخوف لأنه معهما ينصرهما عليه ۳/ ۴۳۶- ۴۳۸ فرعون يسأل موسى عن ربه ۳/ ۴۳۶- ۴۳۸ موسى يذكر دلائل وجود اللّه و وحدانيته من خلال الخلق و الإبداع ۳/ ۴۳۶- ۴۳۸ فرعون يعتبر معجزات موسى سحرا، و أن باستطاعته أن يواجهه بسحر مثله ۳/ ۴۳۹- ۴۴۰ فرعون و موسى يتفقان على موعد للتّحدى و هو يوم الزينة ۳/ ۴۴۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۱۱

فرعون يجمع السّحرة، و يعلّمهم أن موسى و هارون ساحران يريدان أن يخرجوهم من مصر، و أن يقضوا على مذهبهم الأمثل ۳/ ۴۴۴- ۴۴۵ السحرة يأتون مجتمعين، و يلقون حبالهم و عصيهم، و العصا تبتلع كل ما ألقوه ۳/ ۴۴۴- ۴۴۵ السحرة يؤمنون باللّه، و فرعون يهدّدهم بالقتل و الصلب، فيصرون على موقفهم، و يكتب اللّه لهم الشهادة و الدرجات العالية فى الجنة ۳/ ۴۴۶- ۴۴۷ نجاة بنى إسرائيل بمعجزة انشقاق البحر و غرق فرعون و قومه ۳/ ۴۴۸- ۴۴۹ تعداد نعم اللّه على بنى إسرائيل بعد نجاتهم ۳/ ۴۴۸- ۴۴۹ موسى يذهب إلى لقاء ربّه فيضلّهم السّامرى ۳/ ۴۴۸- ۴۴۹ موسى عليه السلام يعود إلى قومه غضبان أسفا بعد أربعين يوما؛ لأنه وجدهم يعبدون العجل الذى صنعه السامرى ۳/ ۴۵۱- ۴۵۳ هارون ينهاهم و هم يعصونه، و موسى يعاتب هارون، و هارون يدافع عن نفسه بأنهم استضعفوه، و كادوا يقتلونه ۳/ ۴۵۴- ۴۵۵ السامرى يبيّن حقيقة صنع العجل، و كيف ضل و أضل بنى إسرائيل ۳/ ۴۵۴- ۴۵۵ موسى يدعو عليه أن يقول طول حياته: لا مساس ۳/ ۴۵۴- ۴۵۵ موسى يتوعّد السامرى بالآخرة حيث الحساب و الجزاء، و أمّا العجل فسوف يحرق و يذرى فى البحر ۳/ ۴۵۵- ۴۵۶ أرسل اللّه موسى و أخاه هارون بالمعجزات إلى فرعون و أشراف قومه، فاستكبروا، و كفروا بحجّة أنّهما بشران و قومهما (بنو إسرائيل) خاضعون و عابدون لفرعون و قومه ۳/ ۵۷۶- ۵۷۷ أغرقهم اللّه، و أهلكهم أجمعين ۳/ ۵۷۶- ۵۷۷ آتاه اللّه التوراة، و جعل معه أخاه هارون وزيرا ۴/ ۸۸ دمر اللّه فرعون و ملأه فأغرقهم جميعا ۴/ ۸۸ ناداه اللّه مكلفا له بالرسالة و التبليغ لفرعون و ملئه ۴/ ۱۱۰- ۱۱۲ موسى يظهر خوفه من تكذيبهم و ضيق صدره و عدم انطلاق لسانه ۴/ ۱۱۲ استجابة اللّه تعالى لموسى بإرسال هارون معه، و إعلامه أنه معهما يسمع و يرى ۴/ ۱۱۰- ۱۱۲ موسى و هارون يطلبان من فرعون أن يرسل معهما بنى إسرائيل، و يجيب فرعون بأنه هرب خوفا منهم و اختاره اللّه لرسالته ۴/ ۱۱۲- ۱۱۳ فرعون يذكر موسى أنه تربّى فى قصره و عاش سنين، ثم ذكره بقتل القبطى ۴/ ۱۱۲- ۱۱۳

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۱۲

فرعون يسأل عن رب العالمين، و يتهم موسى بالجنون ۴/ ۱۱۳- ۱۱۴ موسى يبين لفرعون و قومه شمول ربوبية اللّه تعالى لجميع الخلق و عموم الكون ۴/ ۱۱۳- ۱۱۴ فرعون يتهدّد و يتوعد إن اتخذ موسى إلها غيره ۴/ ۱۱۳- ۱۱۴ إظهار معجزة العصا و اليد ۴/ ۱۱۴- ۱۱۵ فرعون يجمع السحرة و يغريهم بالأجر الجزيل و المناصب و القرب منه إن انتصروا ۴/ ۱۱۴- ۱۱۵ العصا تبلع عصيّهم و حبالهم ۴/ ۱۱۴- ۱۱۵ السحرة يؤمنون باللّه، و يعرفون أن ما جاء به موسى معجزة و ليس سحرا ۴/ ۱۱۴- ۱۱۵ فرعون يتهدد السحرة بالقتل و الصلب ۴/ ۱۱۶ السحرة يصرون على إيمانهم و استشهادهم ۴/ ۱۱۶ فرعون يقلّل من إيمانهم بأنهم شرذمة قليلون ۴/ ۱۱۶ الوحى إلى أم موسى أن ترضعه، و ألهمها اللّه أن تقذف موسى فى النيل، و أن لا تخاف عليه الغرق، و أنه سيعود إليها لترضعه ۴/ ۱۱۳- ۱۱۴ التقطه قوم فرعون و هم لا يعلمون أنه عدو لهم و سبب لحزنهم فيما بعد ۴/ ۱۱۳- ۱۱۴ موسى يخرج بقومه ساريا فى الليل ۴/ ۱۱۸- ۱۲۰ فرعون يتبعهم مع الشروق ۴/ ۱۱۸- ۱۲۰ موسى يضرب بعصاه البحر فينشق بأمر اللّه ۴/ ۱۱۸- ۱۲۰ فرعون يتبعهم مع جيشه فيغرقه اللّه و ينجى موسى و قومه ۴/ ۱۱۸- ۱۲۰ طلبه من زوجه أن تنتظر بعد أن أبصر نارا ۴/ ۱۴۶- ۱۴۷ أراد إحضار شعلة من النار للدفء، و لما جاء النار ناداه اللّه عز و جل و كلمه ۴/ ۱۴۶- ۱۴۷ أعطاه اللّه معجزة العصا و اليد آيتين من تسع معجزات، و كلّفه بالرسالة إلى فرعون و قومه الخارجين عن طاعة اللّه ۴/ ۱۴۶- ۱۴۸ الوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من أخبار موسى و فرعون ۴/ ۱۸۳- ۱۸۴ علو فرعون و تكبره و جعله الناس فرقا و أصنافا فى خدمته ۴/ ۱۸۳- ۱۸۴ هو من المفسدين ۴/ ۱۸۳- ۱۸۴ إرادة اللّه بالتفضل على بنى إسرائيل بعد استضعافهم ۴/ ۱۸۳- ۱۸۴ إهلاك فرعون و هامان بعد التجبر و التسلط ۴/ ۱۸۳- ۱۸۴ امرأة فرعون تطلب الإبقاء على حياته و عدم قتله و كانت لا تلد فاستوهبته من فرعون ۴/ ۱۸۵- ۱۸۷

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۱۳

أصبح قلب أمه فارغا من كل شى‌ء إلا من ذكره حتى كادت أن تظهر أمره ۴/ ۱۸۵- ۱۸۷ أخته تتبعت أثره و عرضت عليهم إرضاعه فرده اللّه إلى أمه كى تسرّ و لا تحزن ۴/ ۱۸۵- ۱۸۷ عند بلوغه الحلم آتاه اللّه الفقه و الفهم ۴/ ۱۸۹- ۱۹۰ دخول موسى إلى المدينة و قتله للقبطى من غير عمد و لا قصد، و الرجل المؤمن يطلب من موسى أن يخرج من المدينة ۴/ ۱۸۹- ۱۹۰ موسى يخرج خائفا مترقبا لحوقهم، و اتجاهه إلى مدين ۴/ ۱۸۹- ۱۹۰ وروده ماء مدين و كيف سقى للمرأتين غنمهما ثم جلس فى الظل، و إحدى البنتين تدعوه و تطلب من أبيها أن يستأجره فهو قوى و أمين ۴/ ۱۹۱- ۱۹۶ قبوله بالزواج من إحدى البنتين مقابل رعيه للغنم ثمانى سنين و التخيير فى إتمامها عشرا ۴/ ۱۹۱- ۱۹۶ لما انتهى أجله فى رعى الغنم عشر سنوات سار بأهله إلى مصر، و أبصر من الجهة التى تلى جبل الطور نارا، و هناك كلمه اللّه و آتاه معجزة العصا و اليد، و كلّفه بالرسالة إلى فرعون و قومه ۴/ ۱۹۶- ۱۹۷ خوفه من قتلهم له بالقبطى الذى قتله ۴/ ۱۹۹- ۲۰۱ أخوه هارون أفصح منه لسانا ۴/ ۱۹۹- ۲۰۱ قوّاه اللّه بأخيه و جعل لهما سلطانا فلا يصل إليهما فرعون بأذى ۴/ ۱۹۹- ۲۰۱ قول فرعون و قومه عن معجزات موسى بأنها سحر ۴/ ۱۹۹- ۲۰۱ إصرار فرعون على ادعاء الألوهية ۴/ ۱۹۹- ۲۰۱ طلب فرعون من هامان أن يبنى له من الآجر المشوى قصرا عاليا ليصعد إلى إله موسى ۴/ ۱۹۸- ۱۹۹ استكبر فرعون و جنوده فأغرقهم اللّه و جعلهم رؤساء متبوعين إلى جهنم، و لهم فى الدنيا لعنة و فى الآخرة عذاب ۴/ ۲۰۰- ۲۰۱ فى جانب الجبل الغربى عهد اللّه إلى موسى بالرسالة، و بجانب جبل الطور ناداه اللّه و كلمه ۴/ ۲۰۲- ۲۰۴ كفر قومه و قولهم عن موسى و هارون ساحران تعاونا ۴/ ۲۰۴- ۲۰۵ كان قارون من قوم موسى فبغى و ظلم ۴/ ۲۱۴ أعطاه اللّه من الكنوز ما تعجز الجماعة عن حمل مفاتيح صناديقه المملوءة ذهبا ۴/ ۲۱۴ نصحه قومه أن لا يفرح بطرا و أشرا ۴/ ۲۱۵ ادعى أن هذا المال أوتيه على علم و دراية منه، و خرج يوما فى زينته، و تمنى

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۱۴

الذين يريدون الدنيا أن يكون لهم مثله، و قال العلماء المؤمنون: ثواب الآخرة خير و أبقى ۴/ ۲۱۶ خسف اللّه به و بداره و كنوزه الأرض ۴/ ۲۱۷- ۲۱۹ أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس و قد كشف عن أبصارهم مصير الظلمة و المتكبرين ۴/ ۲۱۷- ۲۱۹ آتى اللّه موسى التوراة، و جعله هدى لبنى إسرائيل ۴/ ۲۹۶ جعل اللّه من بنى إسرائيل قادة يدعون إلى الهداية ۴/ ۲۹۶ آذاه قومه، فبرأه اللّه من الذى قالوه ۴/ ۳۵۳ منّ اللّه على موسى و هارون، و نصرهما اللّه على فرعون و آتاهما اللّه التوراة ۴/ ۴۶۹ سلام اللّه عليهما فى عباد اللّه المؤمنين المحسنين ۴/ ۴۶۹ أرسله اللّه إلى فرعون و هامان و قارون بآيات تسع، و حجة ظاهرة و هى التوراة ۴/ ۵۶۰ قالوا عنه: ساحر كذاب، و قالوا بقتل أولاد المؤمنين الذكور ۴/ ۵۶۰ لجوء موسى إلى ربه مستعيذا من كل متكبر لا يؤمن باليوم الآخر ۴/ ۵۶۱- ۵۶۲ الرجل المؤمن الذى يخفى إيمانه يستغرب و يستهجن عزمهم على قتل موسى، و لا ذنب له إلا الإيمان باللّه ۴/ ۵۶۱- ۵۶۲ تذكيره لهم بالملك الذى يستحق الشكر، و تحذيرهم من انتقام اللّه ۴/ ۵۶۱- ۵۶۲ الرجل المؤمن يكرر تذكيرهم، و تحذيرهم من عذاب فى الدنيا كما أصاب الأمم قبلهم، و من عذاب الآخرة يوم ينادى بعضهم بعضا ۴/ ۵۶۴ تذكيرهم ببعثة يوسف ۴/ ۵۶۴ رجوع فرعون إلى تكبره و تجبره و طلبه من هامان أن يبنى له قصرا عاليا يرى منه إله موسى ۴/ ۵۶۴ الرجل المؤمن يدعوهم إلى الاقتداء به ليهديهم إلى الجنة، و بيان حال الدنيا و زوالها و الآخرة و خلودها، و أن الجزاء العادل: السيئة بمثلها و الحسنة تضاعف بلا حساب ۴/ ۵۶۵ الرجل المؤمن يبين الفرق بين دعوته لهم إلى الإيمان و دعوتهم له للكفر، و أن المصير إلى اللّه، و أن المسرفين هم أصحاب النار ۴/ ۵۶۶- ۵۶۷ تفويض أمره إلى اللّه و حفظه من مكرهم ۴/ ۵۶۷ أحاط بفرعون سوء العذاب فى الدنيا و عذاب القبر بعد الموت ۴/ ۵۶۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۱۵

يوم القيامة يدخل فرعون و قومه النار ۴/ ۵۶۷ آتى اللّه موسى التوراة فاختلف فيه ۴/ ۵۹۷ فرعون يقول لقومه أ لست خيرا من هذا الذى هو مهين، و لا يكاد يفصح الكلام ۴/ ۶۴۰- ۶۴۱ لما ذا لم يحلّ بأساور من ذهب أو جاء معه الملائكة؟ ۴/ ۶۴۰- ۶۴۱ فرعون استخف قومه و حملهم على الجهل و السفه فأطاعوه و كانوا خارجين عن طاعة اللّه فأغرقهم اللّه جميعا متتابعين ۴/ ۶۴۰- ۶۴۱ أرسله اللّه بالمعجزات التسع إلى فرعون و أشراف قومه ۴/ ۶۳۹- ۶۴۰ كان موقفهم من المعجزات الضحك و كل معجزة أكبر من أختها، فأخذهم اللّه بالعذاب و النقص فى الثمرات، و نادوه بالساحر و طلبوا كشف العذاب لعلهم يهتدون ۴/ ۶۳۹- ۶۴۰ لما كشف اللّه عنهم العذاب بدعاء موسى نكثوا عهدهم ۴/ ۶۳۹- ۶۴۰ فرعون ينادى قومه و يبين لهم ما هو فيه من الملك و التفرد فيه و جريان الأنهار من تحت قصره ۴/ ۶۳۹- ۶۴۰ أرسل اللّه موسى رسولا كريما على اللّه ۴/ ۶۵۸ أمانته على الرسالة و معه معجزات ظاهرة ۴/ ۶۵۸ لجوء موسى إلى اللّه من قوم فرعون المجرمين ۴/ ۶۵۸ أمره اللّه تعالى بأن يسرى ببنى إسرائيل ليلا؛ لأن فرعون و جنوده يتبعونه ۴/ ۶۵۸ أمره اللّه موسى أن يترك البحر منفرجا ساكنا بعد أن يضربه بعصاه ۴/ ۶۵۸- ۶۵۹ غرق فرعون و جنوده ۴/ ۶۵۸- ۶۵۹ أورث اللّه ما كان فيهم من نعم لبنى إسرائيل ۴/ ۶۵۸- ۶۵۹ ما بكت عليهم السماء و لا اكترث بهم، و ما أمهلهم اللّه ۴/ ۶۵۸- ۶۵۹ نجاة بنى إسرائيل من العذاب المهين ۴/ ۶۵۹ اختارهم اللّه عل علم و آتاهم المعجزات لاختبارهم و ابتلائهم ۴/ ۶۵۹ آتاه اللّه التوراة و الفهم و الفقه و النبوة ۵/ ۹ رزق اللّه بنى إسرائيل من الطيبات و فضلهم على عالمى زمانهم ۵/ ۹ آتاهم شرائع واضحات ۵/ ۹ ما وقع الاختلاف بينهم إلا بعد مجىء العلم، ظلما و عدوانا، و اللّه يحكم بينهم يوم القيامة ۵/ ۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۱۶

فى قصة موسى آية ۵/ ۱۰۸ إرساله إلى فرعون بحجة ظاهرة ۵/ ۱۰۸ إعراض فرعون، و اتهامه لموسى بالسحر و الجنون ۵/ ۱۰۸

إغراق فرعون و جنوده فى البحر ۵/ ۱۰۸ كفروا بالمعجزات كلها فأخذهم اللّه بالغرق أخذ عزيز مقتدر ۵/ ۱۰۸ أمره بالتوحيد و الجهاد و كيف حل العذاب بمن خالفه و آذاه ۵/ ۲۶۲ ضرب اللّه مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون، و دعاؤها و نجاتها و رفعتها فى الجنة ۵/ ۳۰۵- ۳۰۶ فرعون صاحب الجنود و الخيام ۵/ ۵۳۰- ۵۳۱ أهلكه اللّه بالعذاب غرقا بسبب طغيانه و إفساده ۵/ ۵۳۰- ۵۳۱ نداء اللّه له: و هو بالوادى المقدس تكليف موسى عليه السلام بالرسالة إلى فرعون لظلمه، و طغيانه، ليتطهر من آثامه، و ليرشده إلى عبادة ربه تكذيب فرعون و عصيانه بعد رؤية المعجزات نداؤه، و ادعاؤه: أنه رب أعلى فى قصة موسى و فرعون عبرة و عظة ۵/ ۴۵۴- ۴۵۶

۱۳- داود عليه السلام:

داود و سليمان يحمدان اللّه تعالى: لأنه فضّلهما على كثير من عباده المؤمنين ۴/ ۱۴۹- ۱۵۰ علّمهما اللّه منطق الطير ۴/ ۱۴۹- ۱۵۰ ورث سليمان داود ۴/ ۱۴۹- ۱۵۰ أعطاه اللّه كتابا مزبورا ۳/ ۲۸۲- ۲۸۳ فضّل اللّه داود بسبب إنابته ۴/ ۳۶۱ الجبال تسبّح معه، و الحديد ليّن فى يديه؛ ليعمل ما يشاء ۴/ ۳۶۱ يضع داود الدروع الكوامل المقدرة التى تجمع بين الخفة و الحصانة ۴/ ۳۶۱ أمر اللّه لآل داود بالشكر ۴/ ۳۶۱ تسلية رسول اللّه بقصة داود ذى القوة، و الرّجاع عن كل ما يكرهه اللّه إلى ما يحبه ۴/ ۴۸۷ ذلّل اللّه الجبال مع داود يقدسن و ينزهن اللّه عما لا يليق به فى الصباح و المساء ۴/ ۴۸۷ سخّر اللّه له الطير مجموعة تسبح اللّه معه ۴/ ۴۸۷ قوينا ملكه و ثبتناه ۴/ ۴۸۸- ۴۹۰

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۱۷

۱۴- سليمان عليه السلام:

سخّر اللّه له الريح الشديدة الهبوب تجرى بأمره ۳/ ۴۹۷ سخّر اللّه له الشياطين يغوصون فى البحار ۳/ ۴۹۷ علّمه اللّه منطق الطير ۴/ ۱۵۰- ۱۵۵ آتاه اللّه من كل شى‏ء تدعو الحاجة إليه ۴/ ۱۵۰- ۱۵۵ جمع له جنوده من الجن و الإنس و الطير ۴/ ۱۵۰- ۱۵۵ سماع سليمان عليه السلام للنملة و تبسمه و شكره للّه ۴/ ۱۵۰- ۱۵۵ آتاه اللّه الحكمة و الفصل فى القضاء، و قيل: الشهود و الأيمان ۴/ ۴۸۸- ۴۹۰ بعث اللّه إليه ملكين جبريل و ميكائيل لينبهه على التوبة و ذلك بصفة خصمين ۴/ ۴۸۸- ۴۹۰ استغفاره و رجوعه إلى اللّه ۴/ ۴۸۸- ۴۹۰ استخلافه فى الأرض ۴/ ۴۸۸- ۴۹۰ سخّر اللّه معه الجبال يسبحن و الطير ۳/ ۴۹۶- ۴۹۷ علّمه اللّه صنعة الدروع فألان له الحديد ۳/ ۴۹۶- ۴۹۷ حكمهما فى شأن الزرع حيث انتشرت فيه أغنام القوم ۳/ ۴۹۹- ۵۰۰ آتاهما اللّه حكما و علما ۳/ ۴۹۹- ۵۰۰ إرساله الهدهد بكتابه إلى بلقيس و قومها ۴/ ۱۵۷- ۱۵۹ بلقيس تستشير قومها حول كتاب سليمان ۴/ ۱۵۷- ۱۵۹ بلقيس ترسل هدية لسليمان ۴/ ۱۵۷- ۱۵۹ سليمان يردّ عليهم هديتهم و يعلمهم أن ما آتاه اللّه خير، و يهدّدهم بجيش كثيف ۴/ ۱۵۷- ۱۵۹ سليمان يطلب إحضار عرشها و يغيره لها ليمتحن ذكاءها و ليظهر لها قدرته ۴/ ۱۶۰- ۱۶۲ الذى عنده العلم هو الذى أحضر العرش فى لمح البصر ۴/ ۱۶۰- ۱۶۲ جوابها عند ما سئلت عن عرشها فيه ذكاء و حكمة و حسن تخلص ۴/ ۱۶۰- ۱۶۲ حضور بلقيس و دخولها قصر سليمان و كشفها عن ساقيها لدخول الصرح و هى تظنه ماء فقيل لها: إنه قصر من زجاج ۴/ ۱۶۳- ۱۶۴ إسلامها مع قومها ۴/ ۱۶۳- ۱۶۴ الرياح تسير بالغداة شهرا، و تسير بالعشى كذلك ۴/ ۳۶۳ ألان اللّه له النحاس ۴/ ۳۶۳ عمل الجن بين يديه و من يعدل عن الطاعة يذقه اللّه من عذاب جهنم ۴/ ۳۶۳

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۱۸

الجن يعملون لسليمان الأبنية الرفيعة و القدور الثابتة ۴/ ۳۶۳ حكم اللّه عليه بالموت ۴/ ۳۶۴- ۳۶۵ ما دل الجن على موته ۴/ ۳۶۴- ۳۶۵ الأرضة هى التى أكلت عصاه فسقط و عرفت الجن موته ۴/ ۳۶۴- ۳۶۵ مدحه اللّه بالعبودية و الرجوع إلى اللّه ۴/ ۴۹۴- ۴۹۵ عرض الصافنات الجياد عليه، و قوله: آثرت حب الخيل على ذكر ربى، و هى صلاة العصر حتى غابت الشمس ۴/ ۴۹۴- ۴۹۵ أمره بإعادتها ثم طفق يضرب سوقها و أعناقها لأنها شغلته عن الصلاة ۴/ ۴۹۴- ۴۹۵ ابتلاه اللّه و اختبره ۴/ ۴۹۶- ۴۹۸ إلقاء جسد على كرسيه و رجوعه إلى اللّه، و دعاؤه أن يهب اللّه له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ۴/ ۴۹۷ ذلّل اللّه له الريح تجرى بأمره ليّنة حيث أراد، و ذلّل له الشياطين منهم الغواص و منهم البناء ۴/ ۴۹۷- ۴۹۸

۱۵- إلياس عليه السلام:

كان من المرسلين ۴/ ۴۶۹

۱۶- يونس عليه السلام:

هو صاحب الحوت ۵/ ۳۳۰ نداؤه للّه و هو مملوء غيظا و كربا ۵/ ۳۳۰ تداركك نعمة اللّه له و نجاته من بطن الحوت و عصمته ۵/ ۳۳۰ يونس من المرسلين ۴/ ۴۷۲ هروبه إلى الفلك المملوء ۴/ ۴۷۲ كان من المغلوبين فى القرعة ۴/ ۴۷۲ ابتلعه الحوت و هو مستحق للوم ۴/ ۴۷۲ لولا تسبيحه لصار بطن الحوت قبرا له، و لكن اللّه طرحه من بطن الحوت ۴/ ۴۷۲ آمن قوم يونس فكشف اللّه عنهم العذاب و متعهم إلى وقت معلوم ۵/ ۵۳۸- ۵۴۰ أنبت شجرة اليقطين تظلّل عليه ۴/ ۲۷۲- ۴۷۳ أرسله اللّه إلى قومه و عددهم مائة ألف أو يزيدون ۴/ ۲۷۲- ۴۷۳ آمنوا فمتعهم اللّه فى الدنيا إلى انقضاء آجالهم ۴/ ۲۷۲- ۴۷۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۱۹

ذهب ذو النون مغضبا ۳/ ۴۹۹- ۵۰۳ ظن أن اللّه لن يضيق عليه فنادى فى الظلمات معلنا توبته و اعترافه بذنبه ۳/ ۴۹۹- ۵۰۳ استجابة اللّه له و نجاته من الغم ۳/ ۴۹۹- ۵۰۳

۱۷- زكريا و يحيى عليهما السلام:

بشارة اللّه لزكريا بغلام اسمه يحيى ۳/ ۳۸۴- ۳۸۵ زكريا يتعجب من هذا بسبب كبر سنه ۳/ ۳۸۴- ۳۸۵ إخباره بالمعجزة الإلهية و القدرة الربانية على الخلق ۳/ ۳۸۴- ۳۸۵ تحديد الآية التى يعرف بها تحقق المطلوب و هو أن لا يكلم الناس إلا بالإشارة ۳/ ۳۸۴- ۳۸۵ إجابة دعائه حين سأله الولد، و دعاؤه كان خفيا ليكون أبعد عن الرياء ۳/ ۳۸۱- ۳۸۲ ضعف عظمه، و اشتعل رأسه شيبا، و خوفه من الورثة، و امرأته عاقر ۳/ ۳۸۱- ۳۸۲ دعاؤه أن لا يتركه وحيدا لا ولد له، و استجاب اللّه له و وهبه يحيى، و أصلح له زوجه ۳/ ۵۰۳- ۵۰۴ أمر اللّه عز و جل يحيى أن يأخذ التوراة بعزيمة و اجتهاد، و آتاه اللّه الحكمة و الفهم و هو صغير و آتاه رحمة و طهارة و بركة، و كان يحيى بارا بوالديه، و لم يكن متكبرا و لا عاصيا ۳/ ۳۸۶- ۳۸۷

۱۸- المسيح عيسى عليه السلام:

قصة الحواريين، و إنزال المائدة ۲/ ۱۰۵- ۱۰۷ محاورة عيسى يوم القيامة لنفى ما أشرك به النصارى ۲/ ۱۰۹ قصة نذر امرأة

عمران مـا فى بطنها محررا ۱/ ۳۸۴ اسم المسـيح، ممّا ذا أخذ؟ ۱/ ۳۹۱ معجزات المسيح ۱/ ۳۹۲ رفعه إلى السماء ۱/ ۳۹۵- ۳۹۶ قصهٔ الاقتراع على كفالهٔ مريم ۱/ ۳۸۹- ۳۹۰ جعل اللّه عيسـى و أمه معجزهٔ، و آواهما اللّه إلى مكان مرتفع مستقر، و ماء معين ۳/ ۳۷۵ تشـبيه خلقـه من غير أب بـآدم ۱/ ۳۹۸ قـوم مريم يعـترضون عليهـا، و يتعجبون من فعلتهـا، و هى الطـاهرهٔ المصونـهٔ، أخت هارون، و من ذريهٔ صالحهٔ

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۲۰

تركت الدفاع لابنها عيسى يتكلم فى المهد بقدرهٔ اللّه، و يبين: أنه عبد اللّه، و أنّه نبىّ مبارك بار بأمه ۳/ ۳۹۳- ۳۹۴ جبريل يخبر مريم: أنه رسول من اللّه، ليهب لهـا غلاما طاهرا من العـذاب، و مريم تتعجب من هـذا، و هى الطاهرهٔ التى لم يمسـها رجل كانت ولادهٔ عيسى عليه السلام من غير أب معجزهٔ مريم تلد عيسى، و ينطقه اللّه ليدعو أمه إلى الصبر، و يدافع عنها أمام قومها ۳/ ۳۸۹- ۳۹۰ انفراد مريم و اعتزالها عن أهلها مكانا يقع فى جههٔ الشرق ۳/ ۳۸۹ هل هى نبيهٔ؟

اتخذت حجابا يسترها من الناس أرسل اللّه إليها جبريل فى صورهٔ رجل مريم تستعيذ منه ۳/ ۳۸۹ خلق اللّه عيسى من أم دون أب و هو كلمـهٔ الحق، و القول الحق الـذى فيه يختلفون و يكذبون إعلان المسـيح و إقراره: بأن اللّه ربه و رب الجميع ۳/ ۳۹۵- ۳۹۶ مريم عليها السـلام أحصـنت فرجها، فلم يمسها بشر نفخ جبريل فى جيبها من روح اللّه جعلها اللّه و ابنها آيهٔ ۳/ ۵۰۴- ۵۰۵ جعل اللّه عيسـى بن مريم آيهٔ للعالمين ۳/ ۵۰۴ جاء عيسـى قومه بالبينات الواضـحهٔ، و المعجزات الظاهرهٔ و جاءهم بالنبوهٔ و الإنجيل، و ليبين لهم مـا يختلفون فيه، و جاء ليحلّ لهم ما حرموه و ابتـدعوه كان جواب قومه الاختلاف، فويل للظالمين من عـذاب أليم يوم القيامهٔ ۴/ ۶۴۳- ۶۴۴ ضـرب اللّه بمريم المثـل للـذين آمنوا ۵/ ۳۰۵- ۳۰۶ مريم بنت عمران أحصـنت فرجهـا عن الفـواحش، و صـدقت بكلمـات ربهـا، و كـانت من المطيعين ۵/ ۳۰۵- ۳۰۶ أرسـل اللّه عيسـى عليه السـلام، و هـو من ذريـهٔ إبراهيم آتـاه اللّه الإنجيل، و جعل فى قلوب الحواريين رأفـهٔ، و رحمهٔ، و رهبانيهٔ مبتدعهٔ من عند أنفسـهم فما رعوها و لا صانوها و إنما خرجوا بها عن دين عيسى ۵/ ۲۱۳- ۲۱۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۲۱

جاء عيسـى قومه بالمعجزات و مصـدقا لما بين يـديه من التوراهٔ، فقالوا: هذا سـحر ظاهر ۵/ ۲۶۳ قال عيسـى من أنصارى إلى اللّه فيما يقرب إلى اللّه؟ ۵/ ۲۶۵- ۲۶۶ الحواريون هم أنصار اللّه، و خلّص أصحاب عيسى عليه السلام ۵/ ۲۶۵- ۲۶۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۲۲

الرسول صلّى اللّه عليه و سلم

اشارهٔ

۱- بشريهٔ الرسول.

۲- الرسول مبشر و منذر و شاهد و مبلغ.

۳- أمر اللّه جلّ جلاله لرسوله صلّى اللّه عليه و سلم.

۴- عموم رسالته و بعض واجباته.

۵- تأييد اللّه له و تسليته.

۶- واجب المسلمين نحوه.

۷- الرسول لا يطلب أجرا.

۸- أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم. ۹- موقف المشركين منه و الرد عليهم.

۱۰- الإسراء و المعراج.

۱۱- صفاته.

۱۲- نهى الرسول صلّى اللّه عليه و سلم.

۱۳- مكة المكرمة.

۱۴- أهل المدينة المنورة.

۱۵- الوحى.

۱۶- أهل البيت.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۲۳

۱- بشرية الرسول صلّى اللّه عليه و سلم:

هو بشر مثلكم ميزه اللّه بالوحى ۴/ ۵۸۰ حرصه على المؤمنين و رأفته بهم ۴/ ۴۷۶- ۴۷۷ الرسول بشر يوحى إليه أن اللّه واحد ۳/ ۳۷۷- ۳۷۸ ما أرسل اللّه قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلم إلا رجالا يأكلون و يمشون ۳/ ۴۷۳- ۴/ ۷۹ الرسل بشر يأكلون و يموتون ۳/ ۴۷۳ استحالة أن يكون الرسول ملكا ۱/ ۱۱۶- ۱۱۷

۲- الرسول مبشر و منذر و شاهد و مبلّغ:

أنزل اللّه عليه القرآن ليبين لهم ما اختلفوا فيه و هدى و رحمة للمؤمنين ۲/ ۲۱۰ نزول القرآن بما وقع لموسى عليه السلام أكبر برهان على صدق محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۴/ ۲۰۲- ۲۰۳ إنذار قومه و لم يأتهم من قبل من نذير ۴/ ۲۰۲- ۲۰۳ بدء الوحى و نزول قوله تعالى: يا أيها المدثر ۵/ ۳۸۸- ۳۸۹ أمره بالتبليغ و الإنذار مع التكبير للّه و التنزيه عن الشريك و تطهير ثيابه و حفظها من النجاسات و هجر الشرك و الأوثان التى توصل للرجز و العذاب ۵/ ۳۸۸- ۳۸۹ مهمته البلاغ المبين ۴/ ۵۵ إرساله للناس جميعا بالإنذار و الإبلاغ ۴/ ۳۷۵- ۳۷۶ هو منذر و هاد إلى الحق و الرشاد ۳/ ۸۲ أرسله اللّه شاهدا على أمته و نذيرا لأهل المعاصى ۵/ ۵۶- ۵۹ الإيمان باللّه و رسوله و التعظيم و التفخيم لرسوله ۵/ ۵۶- ۵۹ يأتى به اللّه شهيدا على الأمم و لهم ۳/ ۲۲۶ إرساله إلى أمته شاهدا يوم القيامة بأعماله ۵/ ۳۸۲ هو نذير و بشير يدعو إلى التوبة و الاستغفار و يحذر من العذاب ۲/ ۵۴۶ أرسله اللّه شاهدا على أمته و مبشرا برحمة اللّه و داعيا إلى التوحيد، و سراجا يستضاء به فى ظلمة الضلالة ۴/ ۳۳۱ هو مبلغ لما ينزله اللّه عليه من الوحى ۴/ ۴۹۰

۳- أمر اللّه جل جلاله للرسول صلّى اللّه عليه و سلم:

لا تك فى شك من شرك قومك و عبادتهم الأصنام كغيرهم من الكفرة، و اللّه

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۲۴

سيوفيهم نصيبهم من العذاب ۲/ ۵۹۹- ۶۰۰ أمره اللّه بالاستقامة ۲/ ۵۹۹- ۶۰۰ الصبر على ما يقوله الكفار، و نسخ ذلك فى آية

القتال ۴/ ۴۸۷ اصبر يا محمد على أذى المشركين و لا تحفل بإنكارهم البعث، و أفزع إلى ذكر اللّه و الصلاة لتنال عند اللّه ما ترضاه ۳/ ۴۶۶- ۴۶۸ لا تطل نظر عينيك إلى ما متعناهم فيه من زينة الحياة و أمر أهلك بالصلاة ۳/ ۴۶۶- ۴۶۸ دعوته إلى الصبر و الاستغفار و التسبيح فى الصباح و المساء، و الاستعاذة باللّه ۴/ ۵۷۰ أمره اللّه بالنّصب فى العبادة إذا فرغ من أعباء الدعوة و الجهاد ۵/ ۵۶۲- ۵۶۵ دعوته إلى الاستقامة على توحيد اللّه و استغفاره ۴/ ۵۸۰ أمره اللّه بأن يصدع بالتوحيد، و كفاه اللّه المستهزئين من أكابر الكفار بتدميرهم ۳/ ۱۷۴- ۱۷۵ أمر اللّه بالصبر و وعده بالانتقام من أعدائه المكذبين، فى الدنيا أو فى الآخرة ۴/ ۵۷۵ أمره بالتذكير، و أنه ليس عليه غير ذلك ۵/ ۵۲۴- ۵۲۵ أمره اللّه بالصبر لحكم اللّه و أن لا يكون كيونس عليه السلام فى الغضب ۵/ ۳۳۰ أمره اللّه بالصبر على كفر قومه و تكذيبهم بالبعث و استبعادهم، و إنكارهم ليوم القيامة و الحساب ۵/ ۳۴۶ أمر بالتبرؤ من عبادتهم و ما يعبدون ۵/ ۶۱۸- ۶۲۱ أمر اللّه له بالصبر و نهيه عن طاعة الكفار و الآثمين ۵/ ۴۲۶ أمره اللّه بالصلاة و التسبيح فى أوقات معلومة ۵/ ۴۲۶ أمره اللّه بالتوحيد و نهاه عن عبادة ما يدعوه المشركون من دون اللّه ۴/ ۵۷۳ أمره اللّه أن يسلم، و ينقاد للّه رب العالمين ۴/ ۵۷۳ أمره اللّه أن يعبد اللّه مخلصا و أن يكون أول المسلمين ۴/ ۵۲۱- ۵۲۲ إعلان خوفه من معصية اللّه إن أطاع المشركين و أجابهم إلى ما يدعون إليه ۴/ ۵۲۱- ۵۲۲ خطابه و نداؤه يا أيها المزمل و معنى التزمل ۵/ ۳۷۸- ۳۷۹- ۵/ ۳۹۴ أمره بصلاة قيام الليل و وقت القيام فى حقه ۵/ ۳۷۸- ۳۷۹- ۳۸۴- ۳۹۴ أمره بتلاوة القرآن بتدبير و على مهل ۵/ ۳۷۸- ۳۷۹ و ۳۸۴- ۳۹۴ أمره بالاستغفار له و للمؤمنين ۵/ ۴۳

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۲۵

أمره بالدعوة إلى التوحيد و الاستقامة و عدم التفرق فأمره بالعدل و ترك الحيف ۴/ ۶۰۸ أمره اللّه أن يأخذ العفو من أخلاق المشركين، و الإعراض عن الجاهلين، و الاستعاذة باللّه إذا أدرك شيئا من الوسوسة ۲/ ۳۱۸- ۳۲۰ أمره بالعبادة للّه وحده و هو رب مكة التى حرمها اللّه، و أن يكون من المسلمين، و أن يتلو القرآن ۴/ ۱۷۹- ۱۸۰ البيان للرسول أن ساعات الليل أثقل على المصلى، و أمره بدعاء اللّه بأسمائه الحسنى و الانقطاع للعبادة، و أمره بالصبر على ما يقوله الكفار من السب، و أمره بهجره الكافرين ۵/ ۳۸۰- ۳۸۴ أمره بالانتظار لما وعده اللّه من النصر ۴/ ۶۶۴ أمره اللّه أن يقول لأزواجه و بناته و نساء المؤمنين، أن يغطين وجوههن و رؤوسهن حتى لا يعرفن فيؤذين ۴/ ۳۴۹- ۳۵۰ أمره اللّه بالصبر و نهاه أن يستخفّه الذين لا يوقنون ۴/ ۲۶۸ أمره اللّه: أن دم على التقوى و ازدد منها ۴/ ۳۰۰ أمره اللّه بعدم إطاعة الكافرين و المنافقين ۴/ ۳۰۰ أمره اللّه باتباع الوحى فى كل أموره ۴/ ۳۰۰ أمره اللّه بالاعتماد على اللّه و تفويض الأمر له ۴/ ۳۰۰ أمره اللّه أن يدعو أمته إلى الإسلام بالحكمة و الموعظة و الحسنة ۳/ ۲۴۴ أمره اللّه بالصفح الجميل ۳/ ۱۷۰ أمره اللّه بجهاد الكفار و المنافقين و إقامة الحجة عليهم، و إقامة الحدود على المنافقين مع الشدة و الخشونة ۲/ ۴۳۶- ۴۳۷ أمره اللّه بأن يدعو الكفار أن ينتهوا عن عنادهم و ضلالهم، فيغفر اللّه لهم ما قد سلف، و أمره بقتالهم حتى لا تكون فتنة ۲/ ۳۵۲ أمره بأن يصبر نفسه مع المؤمنين الضعفاء، و أن لا يصرف نظره عنهم إلى الزعماء و الوجهاء من المشركين؛ طمعا فى إسلامهم ۳/ ۳۳۵- ۳۳۶ أمره بالصبر و التسبيح و التحميد للّه حين القيام فى الليل و آخره، و إعلامه أنه فى حفظ اللّه و عنايته ۵/ ۱۲۳- ۱۲۴

۴- عموم رسالته و بعض واجباته:

عموم رسالته للناس جميعا ۲/ ۲۹۰ أرسله اللّه إلى الناس كافة ۳/ ۱۱۳- ۱۱۴

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۲۶

أرسل اللّه محمدا إلى أمة العرب و هى أمية لا تحسن القراءة و الكتابة ۵/ ۲۶۷- ۲۶۸- ۲۶۹ محمد صلّى اللّه عليه و سلم من جنس العرب و من جملتهم ۵/ ۲۶۷- ۲۶۸- ۲۶۹ مهمته تلاوة القرآن و تطهيرهم من دنس الكفر ۵/ ۲۶۷- ۲۶۸- ۲۶۹ أخذ اللّه منه و من جميع الأنبياء العهد و الميثاق الشديد لتبليغ الرسالة و أداء الأمانة ۴/ ۳۰۴ جعله اللّه على منهاج واضح من أمر الدين ۵/ ۹ نهيه عن اتباع أهواء الجاهلين ۵/ ۹ أرسله اللّه ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ۵/ ۲۹۴- ۲۹۵ ما أرسل اللّه إلا رجالا قبل محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۳/ ۱۹۸- ۱۹۹ إنزال القرآن عليه ليبين للناس ما نزل إليهم ۳/ ۱۹۸- ۱۹۹ أوحى اللّه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله ۴/ ۶۰۲ ما أرسله اللّه إلا رحمة للعالمين ۳/ ۵۱۱- ۵۱۲ أوحى اللّه له أن يبلغ قومه وجوب التوحيد ۳/ ۵۱۱- ۵۱۲

۵- تأييد اللّه له و تسليته:

تسليته بما وقع للرسل قبله ۲/ ۱۳۲ تسليته بأن ما يقوله له الكفار قد قيل للرسل من قبله ۴/ ۵۹۵ تسليته ببيان شأن الأمم المتقدمة و اتهامهم لرسلهم بالسحر و الجنون ۵/ ۱۰۹ - ۱۱۱ تسليته الرسول و أمره بالصبر و التنزيه للّه بالتسبيح و التحميد فى أوقات مخصوصة ۵/ ۹۵- ۹۶ تسليته الرسول صلّى اللّه عليه و سلم عن تماديهم فى الكفر و التكذيب ۲/ ۵۵۱ تسليته عما وقع فى قريش من التكذيب و قد وقع فى سائر الأمم ۳/ ۲۰۹ تسليته بأن الشيطان يزين للكفار و المشركين أعمالهم ۳/ ۲۰۹ تسليته بالتوكل على اللّه و أنه على الحق الواضح و أنه لا يسمع الموتى و لا يهدى العمى ۴/ ۱۷۳- ۱۷۴ تسليته و إعلامه أن اللّه لا ينزل القرآن عليه ليتعب ۳/ ۴۲۳ تسليته أن القرآن نزل تذكرة لمن يخاف ۳/ ۴۲۳ إخباره بمكر الكفار به فى مكة ليثبتوه أو يخرجوه أو يقتلوه و أن تدبيرهم كان بمكر و خفية ۲/ ۳۴۶- ۳۴۸ شرح اللّه صدره صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۵۶۲- ۵۶۵
فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۲۷
حط عنه وزره الذى أثقل له ظهره ۵/ ۵۶۲- ۵۶۵ رفع ذكره فى الدنيا و الآخرة ۵/ ۵۶۲- ۵۶۵ أنزل اللّه سكينته و وقاره على رسوله و على المؤمنين، و لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحميّة ۵/ ۶۴- ۶۵ رؤيا النبى صلّى اللّه عليه و سلم بدخول مكة و معه المسلمين معتمرين و قد تحقق له ذلك ۵/ ۶۴- ۶۵ أرسله اللّه بالهدى و الإسلام تسليته و تعزيته عن تكذيب قومه له بأن الرسل جميعا كذّبوا، و أن اللّه أهلك المكذبين ۳/ ۵۴۴ قسم اللّه تعالى بمدة حياة محمد صلّى اللّه عليه و سلم تشريفا له ۳/ ۱۶۶ إتمام النعمة عليه بالمغفرة و الفتح و النصر ۵/ ۵۳- ۵۴ بشارته بالعودة إلى مكة ۴/ ۲۱۷ تسليته بأنه لا يسمع الصم و لا يهدى العمى و لا يهدى من كان فى الضلالة ظاهرا مبالغا ۴/ ۶۳۸ بيان طريقته التى يدعو بها إلى اللّه تعالى على بصيرة ۳/ ۶۹- ۷۱ أوحى اللّه له القرآن، و أيّده به، و ما كان قبله إلا أميا لا يقرأ و لا يكتب ۴/ ۶۲۴- ۶۲۵ هديه صلّى اللّه عليه و سلم بالنور و الوحى إلى صراط مستقيم ۴/ ۶۲۴- ۶۲۵ إعلامه أن لكل أمة شريعة خاصة، و عبادة محددة، و قرآنا منزلا ۳/ ۵۵۵- ۵۵۶ ليس لأى أمة أخرى أن تنازع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى شريعته و منسكه ۳/ ۵۵۵- ۵۵۶ تأييد اللّه لهم بالقوة و الإخلاص، و اصطفاؤهم من الأخيار ۴/ ۵۰۲

۶- واجب المسلمين نحوه:

أدب الاستئذان من رسول اللّه ۴/ ۶۷- ۶۸ أدب مخاطبته و دعوته ۴/ ۶۷- ۶۸ تحذير من يخالف أوامره ۴/ ۶۷- ۶۸ احترامه واجب و ذلك بترك رفع الصوت و الجهر له بالقول ۵/ ۷۰- ۷۲ المخلصون الأتقياء هم الذين يخفضون أصواتهم عنده ۵/ ۷۲-

٧٣ جفاء بنى تميم و نداؤهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من وراء الحجرات ۵/ ٧٢- ٧٣ تعليمهم أدب الانتظار و الخطاب مع رسول اللّه ۵/ ٧٢- ٧٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٢٨

٧- الرسول لا يطلب أجرا:

لا يطلب على رسالته أجرا و لا نفعا و إنما يطلب المودة فى القربى من قومه و عشيرته ۴/ ۶١٢ دعوته لقومه ليست مشوبة بأجر و لا أطماع ٣/ ۵٨۶ الرسول لا يطلب أجرا ۴/ ٣٨٣- ٣٨۴ لا يسأل على القرآن أجرا و لا على تبليغ الرسالة ۴/ ٩٧

٨- أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلم:

أنواع الأنكحة التى أحلها اللّه تعالى لرسوله صلّى اللّه عليه و سلم ۴/ ٣٣۵- ٣٣۶ الأزواج اللّاتى يؤتيهن مهورهن ۴/ ٣٣۵- ٣٣۶ ملك اليمين ۴/ ٣٣۵- ٣٣۶ ما أفاء اللّه على رسوله ۴/ ٣٣۵- ٣٣۶ امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها و هو خاص بالنبى صلّى اللّه عليه و سلم ۴/ ٣٣۵- ٣٣۶ فوض اللّه له أمر زوجاته يصنع ما يشاء من تقديم و تأخير ۴/ ٣٣٧- ٣٣٨ من يأت منهن بعمل ظاهر الفحش يضاعف لها العذاب و من تطع يأتها اللّه أجرها مرتين ۴/ ٣١٨- ٣١٩ تميزهن عن بقية النساء ٣/ ٣١٩ عدم إلانة القول عند مخاطبة الناس صونا لهن من ضعاف النفوس ۴/ ٣١٩ سؤالهن من وراء ستر ذلك أطهر من الريبة ۴/ ٣۴٣ تحريم الزواج بهن بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ۴/ ٣۴٣ لا- إثم عليهن فى ترك الاحتجاب من محارمهن ۴/ ٣۴٣ القرار فى بيوتهن ۴/ ٣٢٠ ترك التبرج ۴/ ٣٢٠ أمرهن بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و طاعة اللّه و رسوله ۴/ ٣٢٠ أراد اللّه مما أوصاكم به (أهل البيت) أن يطهركم و يذهب عنكم كل ذنب ۴/ ٣٢٠ و كل إثم تحريم أن يتزوج على نسائه مكافأة لهن، و قيل تحريم اليهوديات و النصرانيات ۴/ ٣٣٧- ٣٣٨ النهى عن أن يبدل إحدى زوجاته بغيرها بالطلاق أو التبادل ۴/ ٣٣٧- ٣٣٨ قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لزيد بن حارثة: اتق اللّه و أمسك عليك زوجك،

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٢٩

و كان الرسول صلّى اللّه عليه و سلم يخفى فى نفسه نكاحها إن طلقها ۴/ ٣٢٧- ٣٢٨ زواج الرسول بزينب بعد طلاقها لإلغاء عادة التبنى و إثبات عدم تحريم الزواج بزوجة المتبنى ۴/ ٣٢٧- ٣٢٨ تخييرهن بين الحياة الدنيا مع التسريح و الطلاق و بين اختيار اللّه و رسوله و الدار الآخرة مع الأجر العظيم للمحسنات منهن ۴/ ٣١٧- ٣١٨ أزواجه أمهات المؤمنين ۴/ ٣٠١ تحريم ما أحلّ اللّه له من قرب بعض زوجاته و حلفه على ذلك ۵/ ٢٩٧- ٢٩٨ و ٣٠٠- ٣٠١ أمره أن يكفر عن يمينه و يرجع عن حلفه ۵/ ٢٩٧- ٢٩٨ و ٣٠٠- ٣٠١ إسراره إلى بعض زوجاته حديثا فأخبرت به غيرها ۵/ ٢٩٧- ٢٩٨ و ٣٠٠- ٣٠١ تحذير زوجاته من التعاضد و التعاون فى الغيرة، و إفشاء سرّه ۵/ ٢٩٩ اللّه ينصره، و الملائكة تؤيّده عليهن ٢/ ٣٠١ تخويفهن من الطلاق، و أنّ اللّه يبدله أزواجا غيرهن، قائمات بفرائض الإسلام، و هن مطيعات ۵/ ٢٩٩- ٣٠٠

٩- موقف الكفار و المشركين و الرد عليهم:

عصمه اللّه من الركون إلى الكفار ٣/ ٢٩۶ توعد اللّه لرسوله لو قارب الركون إلى الكفار بالعذاب المضاعف ٣/ ٢٩۶ كبر عليه إعراض المشركين ٢/ ١٢٨ طلب الكفار من رسول اللّه آية ٢/ ١٧٣- ١٧۵ إن أخرجك الكفار من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا

قليلا، و هی سنة ربانية محققة ۳/ ۲۹۶ الكفار يطلبون المعجزات منه تعنتا مثل أن يخرج لهم من الأرض ينبوعا أو يكون له بستان من نخيل و أعناب و أنهار، أو يسقط السماء عليهم قطعا ۳/ ۳۰۸- ۳۰۹ طلب الكفار أن يكون الرسول ملكا، و الرد عليهم بأن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم ۳/ ۳۱۰- ۳۱۱ و ۴/ ۲۳۹- ۲۴۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۳۰

قارب كفار قريش أن يخدعوك يا محمد عن حكم القرآن لتتقوّل علينا غيره و لو فعلت لاتخذوك صديقا ۳/ ۲۹۶ المشركون يطلبون من الرسول حكما غير اللّه، و القرآن يرد عليهم بالرفض و الإنكار ۲/ ۱۷۶ قول المشركين عن رسول اللّه (درست) قرأت، فالقرآن بزعمهم مدارسة و إعانة من أهل الكتاب ۲/ ۱۷۰- ۱۷۲ أمره بقتال الكفار و المنافقين و التشديد عليهم فی الدنيا، و مصيرهم فی الآخرة إلى جهنم ۵/ ۳۰۴ شهادة المنافقين على صدقه و إيمانهم به و حلفهم على ذلك و كذبهم ۵/ ۲۷۵ شكواه من هجر أمته القرآن ۴/ ۸۵ جعل اللّه لكل نبی أعداء مجرمين ۴/ ۸۵ لو يطيعكم فی كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة لوقعتم فی العنت و الشدة ۵/ ۷۱ اتهام الرسول بالكذب و الجنون لأنه أخبرهم ببعثهم من قبورهم ۴/ ۳۵۹- ۳۶۰ الإعراض عمن يخوضون فی آيات اللّه بالتكذيب و عدم القعود معهم ۲/ ۱۴۶ تحية اليهود له بما لا- يحييه به اللّه فيقولون «السام عليك» ۵/ ۲۲۴ - ۲۲۵ تعجب الكفار من رسالته و هو بشر مثلهم ۵/ ۸۴ أمره اللّه أن يخوّف المشركين و يحذرهم بالقرآن ۳/ ۴۸۶ المستهزئون من المشركين يسخرون من الرسول صلّى اللّه عليه و سلم و كذلك الرسل جميعا استهزئ بهم، فأحاط بهم جزاء استهزائهم ۳/ ۴۸۳- ۴۸۴ قال المشركون عنه: شاعر ۳/ ۴۷۲ طلبوا منه آية كما أرسل المرسلون قبله ۳/ ۴۷۲ اتهام مشركی مكة له صلّى اللّه عليه و سلم بالجنون ۳/ ۱۴۷ طلبهم منه أن ينزل الملائكة ۳/ ۱۴۷ الرد عليهم بأن الملائكة لا تنزل إلا بالحق و العذاب ۳/ ۱۴۷ الهزء و السخرية منه ۴/ ۹۰- ۹۱ استغرابهم من صرفهم عن آلهتهم و إضلالهم عن عبادتها بزعمهم ۴/ ۹۰- ۹۱ أمره اللّه بعدم طاعة الكفار و جهادهم بالقرآن ۴/ ۹۴ أمره اللّه أن يعرض عن الكفار إلى مدة معلومة ۴/ ۴۷۷ نهيه عن الحزن و الضيق من إصرار الكفار و عنادهم ۴/ ۱۷۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۳۱

اعتراض الكفار على بشرية الرسول و أنه يأكل الطعام و يمشی فی الأسواق ۴/ ۷۳- ۷۴ طلبوا أن يكون معه ملك يعضده و يساعده، و أن يلقى إليه كنز، و أن يكون له بستان يأكل منه ۴/ ۷۳- ۷۴ الكفار يطلبون منه المعجزات، و أن يكون له بيت من ذهب، و أن يصعد فی السماء، و أن ينزل عليهم كتاب يقرءوه ۳/ ۳۰۷- ۳۰۸ الرسول يرد بأنه بشر رسول، و ادعاء الكفار أنه رجل مسحور ۳/ ۳۰۸ لم تأت شريعة من الشرائع بعبادة الأوثان ۴/ ۶۴۳- ۶۴۴ ضرب الكفار المثل لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم بعيسى بن مريم عليه السلام، و قالوا أ آلهتنا خير أم هو؟ ما أرادوا إلا الجدل و الرد عليهم بأنه عبد أكرمه اللّه بالرسالة و جعله اللّه معجزة لبنی إسرائيل ۴/ ۶۴۳- ۶۴۴ قول الكفار عنه صلّى اللّه عليه و سلم إنه ساحر ۲/ ۴۸۱ لا يتبع محمد أهواء الكفار، و لا يعبد ما يعبدون، و لا يملك العذاب الذی يستعجلون به سخرية ۲/ ۱۳۹- ۱۴۰ ما كان اللّه ليعذب الكافرين و هو بين أظهرهم ۲/ ۳۴۷ ما به من جنون إن هو إلا نذير مبين ۲/ ۳۰۹- ۳۱۰ قول المشركين عنه بأنه شاعر مجنون، و الرد عليهم بأنه جاء بالحق و صدّق المرسلين قبله ۴/ ۴۵۰ تعزيته عن تكذيب المشركين بأن الرسل قبله كذبوا من أقوامهم ۴/ ۳۸۸- ۳۹۰ نهيه عن الحزن و التحسر بسبب عناد قومه و صدهم ۴/ ۳۸۸- ۳۹۰ نهی اللّه له عن طاعة الكفار المكذبين، و نهيه عن المسامحة و المداراة لهم و الملاينة لكبرائهم مهما حلفوا ۵/ ۳۲۰- ۳۲۳ أمره بالتذكير و نفی الكهانة و الجنون عنه صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۱۱۹- ۱۲۱ قول الكفار عنه بأنه شاعر و هم ينتظرون هلاكه بصروف الدهر، و الأمر لرسول اللّه بالصبر و الانتظار حتى يتبينوا زيف دعواهم و أحلامهم ۵/ ۱۱۹- ۱۲۱ نفی الجنون عنه كما ادعى كفار مكة ۵/ ۴۷۴- ۴۷۷ نهيه عن سبّ المشركين حتى لا يسبّوا اللّه ۲/ ۱۷۱ إعراض

المشركين عن ذلك و قولهم سحر دائم شديد ۵/ ۱۴۵- ۱۴۹ محاولة الكفار أن يصرفوا رسول اللّه عما هو عليه من الدعوة إلى اللّه، و اتهامهم له بالجنون ۵/ ۳۳۰- ۳۳۶

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۳۲

المعرض و الكافر عن دعوته يتولى اللّه حسابه ۵/ ۵۲۴- ۵۲۵

۱۰- الإسراء و المعراج:

كانت معجزة الإسراء فتنة للناس ۳/ ۲۸۵- ۲۸۶ الإسراء برسول اللّه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه اللّه من العجائب الاختلاف حول الإسراء هل كان بروحه و جسده معا أم بروحه فقط؟

تاريخ الإسراء ۳/ ۲۴۷- ۲۴۸ و ۲۵۰ رؤية اللّه بقلبه ۵/ ۱۲۷- ۱۳۲ ما رآه الرسول صلّى اللّه عليه و سلم من خلق جبريل و هو على صورته الحقيقية ۵/ ۱۳۲- ۱۳۳ ما رآه من آيات ربه الكبرى ۵/ ۱۳۲- ۱۳۳ علّمه جبريل، و هو شديد القوة و السليم من الآفات ۵/ ۱۲۶- ۱۲۹ استواء جبريل و هو فى الأفق الأعلى ۵/ ۱۲۶- ۱۲۹ ما رآه رسول اللّه حق ۵/ ۱۲۶- ۱۲۹ رأى رسول اللّه جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى، و رأى آيات كبيرة فى إسرائه و معراجه، حتى أصبح ما بينه و بين محمد قدر قوسين أو أقل ۵/ ۱۲۶- ۱۲۹

۱۱- صفاته:

صدق الرسول و أمانته قبل البعثة تؤكّد أنه لا يغير أو يبدّل فيما ينزل عليه ۲/ ۴۹۰- ۴۹۱ لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرّا لا يعلم الغيب و إنما هو نذير و بشير ليس بملك و لا يملك خزائن الأرض و لا يعلم الغيب ۲/ ۱۳۵ النبى ليس بشاعر ۴/ ۴۳۵- ۴۳۷ لا يقرأ و لا يكتب ۲/ ۲۸۷ و ۴/ ۲۳۹- ۲۴۱

۱۲- نهى الرسول صلّى اللّه عليه و سلم:

نهيه عن الافتراء و الشك و نهى أمته أيضا ۲/ ۱۷۷ نهيه عن طاعة أكثر أهل الأرض من الكفار لأنهم ضالون مضلون ۲/ ۱۷۷ نهيه عن طرد المؤمنين الضعفاء ۲/ ۱۳۶- ۱۳۷- ۱۳۸ نهيه عن الصلاة فى مسجد الضّرار ۲/ ۴۵۹- ۴۶۱

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۳۳

إعراضه صلّى اللّه عليه و سلم عن عبد اللّه بن أم مكتوم و عبوسه فى وجهه، و اهتمامه بأشراف من قريش كانوا عنده، و عتابه الشديد على ذلك ۵/ ۴۶۲- ۴۶۸ نهيه أن يدعو مع اللّه إلها آخر، و هو المنزه عن ذلك تأكيدا على التوحيد ۴/ ۱۳۸- ۱۳۹ نهيه عن الصلاة على المنافق أو الدعاء له عند قبره ۲/ ۴۴۴ معاتبة اللّه لرسوله فى الصلاة على عبد اللّه بن أبى و الاستغفار له ۲/ ۴۴۴ نهيه عن الافتراء فيما أنزل اللّه عليه و هو تعريض بغيره صلّى اللّه عليه و سلم ۲/ ۵۳۸ نهاه اللّه أن يطمح ببصره إلى زخارف الدنيا ۳/ ۱۷۲ نهاه أن يحزن على الكفار بسبب عنادهم ۳/ ۱۷۲ نهيه عن الضيق و الحرج فى إبلاغ القرآن للناس ۲/ ۲۱۳- ۲۱۵ نهيه أن يمن على ربه بما يتحمله من أعباء النبوة، كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير ۵/ ۳۹۰

۱۳- مكة المكرمة:

أقسم اللّه بها و هى البلد الحرام ۵/ ۵۳۸- ۵۳۹ و ۵۴۲- ۵۴۳ حرمتها و إحلالها للرسول ساعة من الزمن ۵/ ۵۳۸- ۵۳۹ و ۵۴۲- ۵۴۳ تسميتها البلد الأمين لأنها حرم آمن ۵/ ۵۶۷ فتح مكة و انتصار الرسول صلّى اللّه عليه و سلم على قريش و كيف كان فتحها صلحا أو عنوة ۵/ ۶۲۲- ۶۲۵

۱۴- أهل المدينة المنورة:

من صفات أهل المدينة عدم التخلف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ۳/ ۴۷۲- ۴۷۳ من صفاتهم عدم الرغبة بأنفسهم عن نفسه ۳/ ۴۷۲- ۴۷۳ لا يضيع اللّه تعالى أجرهم ۳/ ۴۷۲- ۴۷۳

۱۵- الوحى:

الوحى و معناه اللغوى ۱/ ۶۲۰ أنواعه: الإلهام، أو الكلام من وراء حجاب، أو إرسال جبريل ۴/ ۶۲۴ الإلهام إلى النحل ۳/ ۲۱۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۳۴

۱۶- أهل البيت:

ذهب بعض الصحابة أن المراد بأهل البيت زوجاته عليه الصلاة و السلام و ذهب البعض إلى أن المراد بأهل البيت على، و فاطمة، و الحسن، و الحسين ۴/ ۳۲۱ توسطت طائفة ثالثة فقالت الآية شاملة لزوجات النبى، و على، و فاطمة، و الحسن، و الحسين ۳/ ۳۲۳- ۳۲۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۳۵

قصص القرآن

اشارة

۱- قصة عاد و ثمود.

۲- قصة ذى القرنين.

۳- قصة سبأ.

۴- قصة لقمان.

۵- قصة الرجل الذى انسلخ عن الآيات.

۶- قصة أصحاب القرية.

۷- قصة هاروت و ماروت.

۸- قصة أصحاب الجنة.

۹- قصة الرجل صاحب الجنتين.

۱۰- قصة أصحاب الكهف.

۱۱- قصهٔ البقرهٔ.

۱۲- قصهٔ أصحاب الفیل.

۱۳- قصهٔ أصحاب الأخدود.

۱۴- قصهٔ الذین خرجوا من دیارهم ألوف.

فتح القدیر، ج۶، ص: ۳۳۶

۱- قصهٔ عاد و ثمود:

عاد:

استکبارهم، و اعتدادهم بالقوهٔ، و کفرهم بآیات اللّه إرسال الریح الشدیدهٔ الصوت و الباردهٔ علیهم فی أیام مشؤومات أخزاهم اللّه بعذاب فی الدنیا و عذابهم فی الآخرهٔ أشد و أخزى ۴/ ۵۸۵- ۵۸۶ أهلکهم اللّه بریح لا خیر فیها و لا برکهٔ، و کل ما أتت علیه جعلته کالشیء الهالک البالی ۵/ ۱۰۸ تکذیبهم و کفرهم أرسل اللّه علیهم ریحا باردهٔ فی یوم مشؤوم تصرعهم و تقلعهم کأعجاز النخل التی لا رؤوس لها ۵/ ۱۵۰- ۱۵۱ عاد بن إرم قبیلهٔ ذات قوهٔ و شدهٔ لم یخلق مثلها فی الطول و الشدهٔ و القوهٔ أهلکها اللّه فجعلها رمیما بسبب طغیانها و إفسادها ۵/ ۵۲۹- ۵۳۱ هم قوم هود أهلکهم اللّه بالریح الباردهٔ العاتیهٔ، سلطها علیهم ثمانیهٔ أیام متتابعهٔ و سبع لیال حتى أهلکتهم، و قطعتهم، و صرعتهم ۵/ ۵۳۴- ۵۳۷ ثمود:

جعلهم اللّه خلفاء من بعد قوم نوح أرسل اللّه فیهم رسولا منهم أشراف ثمود کذبوا بالآخرهٔ و کذبوا رسولهم لأنه بشر مثلهم أخذتهم الصیحهٔ فأصبحوا کغثاء السیل ۵/ ۵۷۳- ۵۷۴ بین اللّه لهم سبیل النجاهٔ فاستحبوا الکفر على الإیمان أخذتهم صاعقهٔ العذاب و الهوان بأعمالهم نجى اللّه الذین آمنوا منهم ۴/ ۵۸۶ إمهالهم ثلاثهٔ أیام و إهلاکهم بالصاعقهٔ و هم ینظرون عجزهم عن القیام بعد أن صرعوا ۵/ ۱۰۹- ۱۱۰ تکذیبهم ۵/ ۱۵۱- ۱۵۴ کفرهم برسولهم لأنه بشر مثلهم ۵/ ۱۵۱- ۱۵۴ قولهم عنه: إنه کذاب مرح و الرد علیهم: بأنهم سیعلمون غدا من هو الکذاب ۵/ ۱۵۱- ۱۵۴

فتح القدیر، ج۶، ص: ۳۳۷

إرسال الناقهٔ فتنهٔ و امتحانا، و قسمهٔ الماء بینهم و بین الناقهٔ ۵/ ۱۵۱- ۱۵۴ عقروا الناقهٔ فحل بهم العذاب بالصیحهٔ، و بیان وقت نزول العذاب ۵/ ۱۵۱- ۱۵۴ هم قوم صالح قطعوا الصخر و بنوا البیوت المنحوتهٔ فیه أهلکهم اللّه بالعذاب بسبب طغیانهم و إفسادهم ۵/ ۵۳۰ و ۵۳۳ هم قوم صالح أهلکهم اللّه بالصیحهٔ ۵/ ۳۳۴ و ۳۳۷ تکذیبهم بالعذاب قیام أشقى ثمود بعقر الناقهٔ أهلکهم اللّه و أطبق علیهم العذاب ۵/ ۵۴۷- ۵۴۸

۲- قصهٔ ذی القرنین:

الاختلاف فیه من هو؟ ۳/ ۳۶۳ سبب تسمیته مهد اللّه له الأسباب حتى تمکن فی الأرض اتبع طریقا تؤدی به إلى مغرب الشمس ۳/ ۳۶۴ وصل مغرب الشمس وجدها تغرب فی عین کثیرهٔ الحمأهٔ (الطینهٔ السوداء) وجد عند مغرب الشمس قوما کفارا خیره اللّه بین قتلهم و دعوتهم إلى الحق ۳/ ۳۶۵- ۳۶۶ بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لا یسترهم منها شیء ۳/ ۳۶۷- ۳۶۸ بلغ بین الجبلین وجد بعدهما قوما لا یبینون لغیرهم کلاما قالوا له: إن یأجوج و مأجوج مفسدون فی الأرض عرضوا علیه مالا لیبنی لهم سدا یحجبهم عنهم ۳/ ۳۶۹- ۳۷۰ ذو القرنین یرفض الأجر على بناء السد، و یطلب معونتهم فی ذلک صهر الحدید بالنار و

استعماله فى البناء عجز يأجوج و مأجوج أن يعلوا السد. فى الآخرة بجعله اللّه مدكوكا لاصقا بالأرض ٣/ ٣٧١- ٣٧٣

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٣٨

خروج يأجوج و مأجوج يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض. و ينفخ فى الصور فيجمعهم اللّه للحساب ٣/ ٣٧٣- ٣٧۴

٣- قصة سبأ:

المراد بسبإ: القبيلة مساكنهم كثيرة و متعددة من قدرة اللّه أن جعل لهم جنتين عن يمين و شمال طلب منهم أن يأكلوا من رزق اللّه و أن يشكروا له ۴/ ٣۶٧ أعرضوا عن الشكر، و كفروا باللّه، و كذبوا أنبياءهم أرسل اللّه عليهم سيل العرم فهدم مساكنهم و دفنها ۴/ ٣۶٧ - ٣۶٨ بدلهم اللّه بجنتين لا- خير فيهما، ذواتى شجر لا- ثمر فيها، بل تحمل شوكا جزاؤهم كان جزاء الكفار المعاندين ۴/ ٣۶٨- ٣٧٠ جعل اللّه لهم قرى آمنة متقاربة فطلبوا أن يباعد أسفارهم ظلما و عدوانا ۴/ ٣٧٠ مزقهم اللّه و فرقهم صدق إبليس ظنه عليهم فأغواهم و أطاعوه إلا فريقا منهم ۴/ ٣٧٠- ٣٧١

۴- قصة لقمان:

من هو، عجمى أم عربى؟

آتاه اللّه الحكمة موعظة لقمان لابنه أن لا يشرك باللّه الوصية بالوالدين شكرا و إحسانا طلب منه الشكر للّه ۴/ ٢٧٣- ٢٧۴ علم اللّه الشامل لكل إساءة و إحسان النهى عن التكبر و الخيلاء القصد فى المشى و خفض الصوت ۴/ ٢٧۴- ٢٧۶

۵- الرجل الذى انسلخ من آيات اللّه:

آتاه اللّه الآيات فانسلخ منها لحقه الشيطان و صار قرينا له

فتح القدير، ج۶، ص: ٣٣٩

أصبح من الغاوين و أخلد إلى الأرض تشبيهه بالكلب فى لهاثه المستمر من هو الرجل الذى انسلخ؟ ٢/ ٣٠٢- ٣٠۴

۶- قصة أصحاب القرية:

ما أنزل اللّه على قوم الرجل المؤمن من جند و إنما أهلكهم بالصيحة فماتوا جميعا ۴/ ۴٢١ جاءها المرسلون و هم أصحاب عيسى ۴/ ۴١٨- ۴١٩ أرسل عيسى بأمر اللّه اثنين ثم قواهما بثالث ۴/ ۴١٨- ۴١٩ أصحاب القرية ردوا بأنهم بشر و أنهم تشاءموا منهم ۴/ ۴١٨- ۴١٩ تهديد الرسل بالرجم و العذاب الأليم ۴/ ۴١٨- ۴١٩ الرجل المؤمن جاء مسرعا ينصح باتباع الرسل و يبيّن فساد عبادة الأصنام، و صحة عبادة اللّه الخالق القادر الرجل المؤمن يعلن إيمانه فيكرمه اللّه بدخول الجنة ۴/ ۴١٩- ۴٢٠

٧- قصة هاروت و ماروت:

١/ ١۴۴

٨- قصة أصحاب الجنة:

هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين حلفهم على قطع الثمر و حرمان المساكين حقهم احتراق جنتهم بأمر اللّه فصارت كالليل المظلم عتابهم لبعضهم، و ندمهم، و عودتهم إلى اللّه بصدق و رغبة حالهم كحال الكفار و عذاب الآخرة أشد و أعظم ٥/ ٣٢٣- ٣٢٦

٩- قصة الرجل صاحب الجنتين:

جعل اللّه للكافر جنتين من كروم العنب و حولهما النخيل كل من البستانين نضج ثمره و فجر اللّه بينهما نهرا ٣/ ٣٤٠- ٣٤١ الكافر يفخر على المؤمن بكثرة ماله و عزة أتباعه دخوله البستان و اعتزازه به، و قوله: إنه لا يبيد، و إنه لا آخرة، و إن كان هناك آخرة فسيجد خيرا من بستانه و أفضل منه ٣/ ٣٤١- ٣٤٢ المؤمن ينكر عليه كفره باللّه الخالق و يرشده إلى ما يجب أن يقول، و يبين له

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٣٤٠

احتمال هلاك جنته فى طرفة عين بقدرة اللّه و ذهاب مائها ٣/ ٣٤٠- ٣٤٣ فناء بستان الكافر و هلاكه تقليب يديه ندامة و حسرة، لأنه لم يجد معينا و لا ناصرا ضربه اللّه مثلا لمن يتعزز بالدنيا و يستنكف عن مجالسة الفقراء ٣/ ٣٤٣- ٣٤٥

١٠- قصة أصحاب الكهف:

صاروا إلى الكهف و جعلوه مأواهم ٣/ ٣٢٦- ٣٢٧ دعاؤهم نومهم بقدرة اللّه سنين طويلة أيقظهم اللّه امتحانا للمؤمنين و الكافرين هم فتية مؤمنون باللّه الواحد ٣/ ٣٢٥- ٣٢٧ الشمس تميل عن كهفهم عند الشروق و الغروب و هم فى مكان متسع يحسبهم الناظر إليهم أيقاظا و هم نائمون يقلبهم اللّه يمنة و يسرة كلبهم باسط ذراعيه بفناء الباب الناظر إليهم يخاف و يمتلئ رعبا ٣/ ٣٢٨- ٣٢٩ بعثهم اللّه من نومهم ليتساءلوا بينهم كم لبثوا إرسالهم أحدهم إلى المدينة لإحضار الطعام أطلع اللّه الناس عليهم ليعلموا أن الساعة حق المؤمنون و الكفار تنازعوا أمرهم ثم غلب المؤمنون فبنوا عليهم مسجدا ٣/ ٣٢٩- ٣٣٢ الاختلاف فى عددهم النهى عن المراء فى ذلك و تفويض الأمر إلى علم اللّه لبثوا فى الكهف ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعا و اللّه أعلم بذلك ٣/ ٣٣١- ٣٣٢ و ٣٣٤

١١- قصة ذبح البقرة:

قصة ذبح البقرة ١/ ١١٤

١٢- قصة أصحاب الفيل:

مجيئهم لهدم الكعبة و إهلاكهم ٥/ ٦٠٤- ٦٠٥

فتح القدير، ج‌٦، ص: ٣٤١

١٣- قصة أصحاب الأخدود:

الدعاء عليهم بالقتل و اللعن عرضهم المؤمنين على النار المشتعلة فى الأخدود الملك و أعوانه حاضرون لم ينكروا على المؤمنين إلا إيمانهم باللّه الواحد ۵/ ۵۰۰- ۵۰۶

۱۴- قصة الذين خرجوا من ديارهم ألوف:

قصة الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف خوف الطاعون ۱/ ۲۹۹- ۳۰۰

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۴۲

الجهاد

اشارة

۱- فضل الجهاد.

۲- الأمر بالجهاد لمكانته.

۳- حكم القتال فى الأشهر الحرم و عند الحرم.

۴- جهاد الكفار.

۵- الإنفاق للجهاد.

۶- غزوة بدر.

۷- غزوة أحد.

۸- غزوة الأحزاب. ۹- صلح الحديبية.

۱۰- بيعة الرضوان.

۱۱- غزوة حنين.

۱۲- غزوة تبوك.

۱۳- الغنائم.

۱۴- السلم بعد القتال.

۱۵- الفى‌ء.

۱۶- الشهداء.

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۴۳

۱- فضل الجهاد و الحضّ عليه:

القتال فى سبيل اللّه صفوفا متراصة كالبناء ۵/ ۲۶۲ التحريض على الجهاد و القتال ۱/ ۳۰۲ الذين يجاهدون فى طلب مرضاة اللّه ۴/ ۲۴۵ نزول السورة التى أحكم اللّه فيها فرض الجهاد ۵/ ۴۵- ۴۶ موقف المنافقين من فرض الجهاد ۵/ ۴۵- ۴۶ فرض اللّه الجهاد و النفوس تكرهه لما فيه من المشقة و هو خير ۱/ ۲۴۸

۲- الأمر بالجهاد لمكانته:

الأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة ۲/ ۳۵۲ الأمر بإعداد القوة من الرمى و من رباط الخيل؛ لإرهاب الأعداء ۲/ ۳۶۶- ۳۶۸ الأمر للرسول صلّى اللّه عليه و سلم بتحريض المؤمنين على القتال ۲/ ۳۶۹- ۳۷۱ عشرون صابرون من المؤمنين يغلبون مائتين ۲/ ۳۶۹- ۳۷۱ الأمر بالنفير ۲/ ۴۱۴- ۴۱۵ معنى خفافا و ثقالا ۲/ ۴۱۴- ۴۱۵ الأمر بالجهاد فى سبيل اللّه بالمال و النفس ۲/ ۴۱۴- ۴۱۵ الأمر بالثبات مع ذكر اللّه، و عدم التنازع لأنه يؤدى إلى الفشل و الهزيمة ۲/ ۳۵۹- ۳۶۱ إباحة القتال لرد العدوان و الظلم ۳/ ۵۴۲- ۵۴۳ إن اللّه يدافع عن المظلومين و ينصرهم ۳/ ۵۴۲- ۵۴۳ لولا ما شرعه اللّه من قتال الأعداء لعلوا فى الأرض ۳/ ۵۴۲- ۵۴۳ مشروعية القتال للحفاظ على أماكن العبادة ۳/ ۵۴۲- ۵۴۳ الأمر للمؤمنين بالجهاد فى سبيل اللّه ۱/ ۵۶۱- ۵۶۲ النفير الجزئى و بقاء طائفة للعلم و التفقه فى الدين ۲/ ۴۷۳- ۴۷۴

۳- حكم القتال فى الأشهر الحرم و عند الحرم:

أسماء الأشهر الحرم سبب تسميتها بالحرم ۲/ ۴۰۹- ۴۱۱ تعيينها الامتناع عن قتال المشركين فيها ۲/ ۳۸۴- ۳۸۶ القتال فيها منسوخ أم محكم؟

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۴۴

عدد الشهور و أسماؤها و ترتيبها من اللّه تعالى ۲/ ۴۰۹- ۴۱۰ حكم القتال فى الأشهر الحرم ۱/ ۲۴۹- ۲۵۰- ۲۵۱ حكم القتال عند الحرم ۱/ ۲۲۰

۴- جهاد الكفار:

الأمر بقتالهم و المبالغة فى قتلهم و أسرهم ۲/ ۳۷- ۴۰ الترغيب فى قتال الكفار ۲/ ۴۱۲- ۴۱۳ الترهيب من ترك القتال و الوعيد و استبدال قوم آخرين ۲/ ۴۱۲- ۴۱۳ الأمر بقتال الكفار و استثناء من له عهد أو ميثاق ۱/ ۵۷۲ من جاهد الكفار و جاهد نفسه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه ۴/ ۲۲۳ من فضائل الجهاد: قتل الكفار و الاستشهاد و الاستبشار بالجنة ۲/ ۴۶۳- ۴۶۴ أولو الضرر هم أهل الأعذار ۱/ ۵۸۱- ۵۸۲

۵- الإنفاق للجهاد:

الحض على الإنفاق ۱/ ۳۰۰- ۳۰۲ الإنفاق فى سبيل اللّه و يكون واجبا أو مندوبا ۱/ ۳۱۰ نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف ۱/ ۳۲۶

۶- غزوة بدر:

إخراج اللّه لرسوله بالحق ۲/ ۳۲۸- ۳۲۹ بعض الصحابة كرهوا الخروج للحرب و رغبوا فى العير ۲/ ۳۲۹- ۳۳۰ تذكير المهاجرين بأنهم كانوا ضعافا فى مكة فأيدهم و نصرهم ببدر ۲/ ۳۴۴- ۳۴۵ يوم الفرقان ۲/ ۳۵۵- ۳۵۷ المشركون فى العدوة القصوى و أنتم فى العدوة الدنيا ۲/ ۳۵۵- ۳۵۷ العير (ركب أبى سفيان) أسفل منكم ۲/ ۳۵۵- ۳۵۷ أرى اللّه رسوله فى منامه أن المشركين قلّة

۲/ ۳۵۸- ۳۵۹ من نعم اللّه أنه قلل المشركين فى أعين المسلمين، و قلّل المسلمين فى أعين المشركين ۲/ ۳۵۸- ۳۵۹ قتلى الكفار يوم بدر ضربتهم الملائكة على وجوههم و أدبارهم ۲/ ۳۶۴ تمثل الشيطان للكفار يوم بدر و قوله لهم إنى مجير لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه و تبرأ، المنافقون يقولون عن المؤمنين غرهم دينهم ۲/ ۳۶۰- ۳۶۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۴۵

تحريم الفرار من الزحف ۲/ ۳۳۵- ۳۳۶ تهكم اللّه بالكفار بعد أن طلبوا أن ينصر اللّه إحدى الطائفتين ۲/ ۳۳۹- ۳۴۰ رمى الرسول صلّى اللّه عليه و سلم جيش الكفار بقبضة من حصباء ۲/ ۳۳۶- ۳۳۸ معنى و ما رميت إذ رميت ۲/ ۳۳۶- ۳۳۷ من نعم اللّه على أهل بدر غشيهم النعاس أمنة من اللّه، و أنزل اللّه عليهم المطر ليطهرهم و يثبت به الأقدام، و أمر اللّه الملائكة بتثبيتهم، و ألقى الرعب فى قلوب الكفار ۲/ ۳۳۲- ۳۳۴ عدد المشركين ألف ۲/ ۳۳۰- ۳۳۱ استغاثة المسلمين باللّه، و إمدادهم بالملائكة ۲/ ۳۳۰- ۳۳۱

۷- غزوة أحد:

خروج النبى صلّى اللّه عليه و سلم إلى أحد ۱/ ۴۳۲ سيماء الملائكة فى أحد ۱/ ۴۳۵ عقاب المسلمين لأخذهم الفداء يوم بدر ۱/ ۴۵۵- ۴۵۶ انخذال المنافقين و عودتهم ۱/ ۴۵۶ مصيبة المسلمين فى أحد ۱/ ۴۵۴- ۴۵۵ موقف المنافقين ۱/ ۴۵۴- ۴۵۵ إصابة رسول اللّه يوم أحد ۱/ ۴۴۱ إشاعة مقتله ۱/ ۴۴۱ كان يوم أحد بيوم بدر ۱/ ۴۴۴ الأيام دول ۱/ ۴۴۴ عزّاهم اللّه و سلّاهم ۱/ ۴۴۰ ترك الوهن و الحزن ۱/ ۴۴۰ شهداء أحد ۱/ ۴۴۰ رجوع عبد اللّه بن أبى بالمنافقين ۱/ ۴۳۳ ثبت اللّه قلوب المؤمنين ۱/ ۴۳۳

۸- غزوة الأحزاب:

مجىء جنود الأحزاب ۴/ ۳۰۴- ۳۰۵ إرسال الريح عليهم و إرسال الملائكة ۴/ ۳۰۴- ۳۰۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۴۶

مجيئهم من أعلى الوادى و من أسفله ۴/ ۳۰۴- ۳۰۵ زاغت أبصار بعض المسلمين و بلغت القلوب الحناجر من الخوف و ظنوا الظنون المختلفة من النصر و الهزيمة ۴/ ۳۰۴- ۳۰۵ اختبار المؤمنين بالخوف فاضطربوا ۴/ ۳۰۶ المنافقون أهل الشك و الريب قالوا: ما وعدنا اللّه و الرسول من النصر و الظفر إلا باطلا ۴/ ۳۰۶ طائفة من المنافقين دعت إلى ترك الإقامة فى المعسكر و الرجوع إلى البيوت ۴/ ۳۰۶ استئذان المنافقون لحماية بيوتهم ليس إلا فرارا ۴/ ۳۰۷- ۳۰۸ لو دخل عليهم من جميع الجهات ثم سئلوا الشرك و الكفر لأتوه مسرعين من غير تردد ۴/ ۳۰۷- ۳۰۸ نقضهم للعهد فى الثبات و عدم الفرار ۴/ ۳۰۷- ۳۰۸ الفرار لا يفيد، و لا عاصم من أمر اللّه ۴/ ۳۰۷- ۳۰۸ المؤمنون عند ما رأوا الأحزاب ازدادوا إيمانا و تصديقا بوعد اللّه و رسوله فى النصر ۴/ ۳۱۲- ۳۱۳ منهم من استشهد و منهم من ينتظر و ما بدلوا و ما غيروا ۴/ ۳۱۲- ۳۱۳ رد اللّه الكفار بغيظهم لم ينالوا من المسلمين شيئا ۴/ ۳۱۴ أرسل عليهم ريحا و كفى المؤمنين القتال ۴/ ۳۱۴ أنزل اللّه يهود بنى قريظة من حصونهم و ألقى فى قلوبهم الرعب و الخوف ۴/ ۳۱۵- ۳۱۶ أورث اللّه المسلمين ديار يهود بنى قريظة ۴/ ۳۱۵- ۳۱۶ تقتلون الرجال المقاتلين و تأسرون النساء و الذرية ۴/ ۳۱۵- ۳۱۶

۹- صلح الحديبية:

صلح الحديبية و الصلح قد يسمّى فتحا ۵/ ۵۳- ۵۵ نصر اللّه لرسوله و إنزال السكينة فى قلوب المؤمنين ۵/ ۵۳- ۵۵

۱۰- بيعة الرضوان:

سبب تسميتها ۵/ ۶۰- ۶۲ أنزل اللّه الطمأنينة فى قلوبهم و أثابهم فتح خيبر و مغانم كثيرة يأخذونها ۵/ ۶۰- ۶۲ انتصار المسلمين ۲/ ۳۹۷- ۳۹۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۴۷

۱۲- غزوة تبوك:

عتاب الرسول صلّى اللّه عليه و سلم على إذنه للقعود عن الجهاد ۲/ ۴۱۷- ۴۱۸ نهى المؤمنين عن الاستئذان فى القعود ۲/ ۴۱۷- ۴۱۸ تخلف المنافقين عن رسول اللّه بسبب بعد المسافة و كثرة العدو ۲/ ۴۱۴- ۴۱۵ الدعوة إلى النفير و الجهاد بالمال و النفس كان فى غزوة تبوك بسبب تثاقلهم ۲/ ۴۱۵- ۴۱۶ تثاقل المجاهدين، و الترغيب فى النفير خفافا و ثقالا ۲/ ۴۱۵- ۴۱۶ لو كان المنافقون صادقين فى الرغبة فى الجهاد لأعدوا له عدته ۲/ ۴۱۸- ۴۱۹ كره اللّه خروجهم فأقعدهم ۲/ ۴۱۸- ۴۱۹ تسلية الرسول و المؤمنين عن تخلف المنافقين ۲/ ۴۱۸- ۴۱۹ سعى المنافقين بالفتنة بين المؤمنين ۲/ ۴۱۹- ۴۲۰ تدبير الحيل للقعود، و سقوطهم فى الفتنة و هى التخلف عن الجهاد ۲/ ۴۱۹- ۴۲۰ المنافقون ينفقون أموالهم طوعا أو كرها و لا أجر لهم بسبب كفرهم ۲/ ۴۲۱- ۴۲۳ حلفهم الكاذب، و خبث ضمائرهم، و تربصهم بالمؤمنين ۲/ ۴۲۱- ۴۲۳ الرد عليهم: بأن ما يصيبهم إلا ما كتب اللّه لهم ۲/ ۴۲۱ المؤمنون يصيبهم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ۲/ ۴۲۱ اعتذار المنافقين بشدة الحر استهزاء و سخرية ۲/ ۴۴۲ فضح مواقف المنافقين ۲/ ۴۲۳ المعذرون هم الذين اعتذروا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن الخروج إلى تبوك بأعذار كاذبة ۲/ ۴۴۵- ۴۴۶ أصحاب الأعذار الذين لم يجد الرسول ما يحملهم عليه فخرجوا من عنده يبكون ۲/ ۴۴۷- ۴۴۸ ذكر أهل الأعذار الصحيحة، و هم الضعفاء و المرضى و الفقراء، و هى أعذار مسقطة للجهاد ۲/ ۴۴۶- ۴۴۷ توبة كعب بن مالك و المتخلفين معه هلال بن أمية و مرارة بن الربيع ۲/ ۴۷۰- ۴۷۱

۱۳- الغنائم:

حكم الغنيمة و كيف تقسم ۲/ ۳۵۳- ۳۵۴ معنى الأنفال ۲/ ۳۲۳- ۳۲۵ الأنفال ثابتة لرسول اللّه ۲/ ۳۲۳- ۳۲۵ و ۳۲۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۴۸

امض لأمرك فى الغنائم و نفّل من شئت ۲/ ۳۲۸ كيفية قسمة خمس الغنيمة ۲/ ۳۵۴- ۳۵۶- ۳۵۷ المؤمنون يطيعون اللّه و رسوله فى قسمة الغنائم ۲/ ۳۲۶

۱۴- السلم بعد القتال:

الجنوح للسلم و قبول الجزية إذا كان المسلمون فى عزة و قوة ۲/ ۳۶۸ من نعم اللّه على المسلمين التأليف بين قلوبهم و تثبيتهم حتى ينتصروا على أعدائهم ۲/ ۳۶۹ حكم الأسرى ۲/ ۳۷۱- ۳۷۳ المن و الفداء بعد الإثخان ۲/ ۳۷۲- ۳۷۴ الأمر للرسول أن يقول

للأسرى: إن يعلم اللّه فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا ۲/ ۳۷۵ المن أو الفداء للأسرى حتى تنتهى الحرب مع الكفار ۵/ ۳۷- ۴۰ الجزية مقدارها و قبول الجزية من أهل الكتاب ۲/ ۴۰۰- ۴۰۱

۱۵- الفىء:

المال الذى لم تركبوا لتحصيله خيلا و لا إبلا و لا لقيتم حربا و لا مشقة ۵/ ۲۳۵- ۲۳۸ تقسيم الفىء عند الشافعى ۵/ ۲۳۵- ۲۳۸

۱۶- الشهداء:

شهداء أحد ۱/ ۴۵۹ فضل الشهداء ۱/ ۴۵۷ و ۴۶۰ قتل الشهداء فى سبيل اللّه ۵/ ۳۸ الشهداء يهديهم اللّه إلى الرشد فى الدنيا و يعطيهم الثواب فى الآخرة و يدخلهم الجنة ۵/ ۳۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۴۹

الأحوال الشخصية

اشارة

۱- النكاح.

۲- الإنفاق.

۳- الرضاع.

۴- الطلاق.

۵- العدة. ۶- الظهار.

۷- الإيلاء.

۸- الوصية.

۹- الفرائض و الميراث.

۱۰- العضل.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۵۰

۱- النكاح:

فتح القدير ج۶ ۳۹۹

المعاشرة بالمعروف ۱/ ۱۰۹- ۵۱۰ تحريم ما زاد على الأربع ۱/ ۴۸۳ الصّداق واجب على الأزواج للنساء ۱/ ۴۸۵ ما فرض اللّه على المؤمنين فى حق أزواجهم من شرائط و حقوق ۴/ ۳۳۶ كله حق مفروض ۴/ ۶۳۶ حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول ۴/ ۳۳۳- ۳۳۴ ليس للرجل عليها من عدة ۴/ ۳۳۳- ۳۳۴ المتوفى عنها زوجها قبل الدخول تعتد أربعة أشهر و عشرا ۴/ ۳۳۳- ۳۳۴ معنى النشوز و الإعراض ۱/ ۶۰۱ نفى استطاعة العدل ۱/ ۶۰۱- ۶۰۲ ما يفعله الزوج عند خوف النشوز ۱/ ۵۳۲

۲- الإنفاق:

۳- الرضاع:

۴- الطلاق:

٥- العدة:

۶- الظهار:

٧- الإيلاء:

٨- الوصية:

٩- الفرائض و الميراث:

تعلم علم الفرائض ۵/ ۵۰۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۵۴

أولو الأرحام و القرابات بعضهم أولى ببعض فى الميراث ۴/ ۳۰۲ الكلالة و معناها ۱/ ۴۹۹- ۵۰۰ إرث الأبوين ۱/ ۴۹۸ الحكمة فى تقديم الوصية على الدّين فى الآية ۱/ ۴۹۸ المسألة الحمارية ۱/ ۵۰۱ النهى عن الإضرار فى الوصية و الدّين ۱/ ۵۰۱ الإضرار فى الوصية من الكبائر ۱/ ۵۰۲ النهى عن إرث النساء كرها كما تفعل الجاهلية ۱/ ۵۰۸ ميراث العصبة و ميراث الموالى ۱/ ۵۳۰- ۵۳۱ الحكمة من تفضيل الرجل على المرأة فى الميراث ۱/ ۵۳۰- ۵۳۱- ۵۳۲ إرث الإخوة لأم ۱/ ۵۰۰- ۵۰۱ الاستفتاء عن الكلالة ۱/ ۶۲۶ الفتوى عليها من اللّه ۱/ ۶۲۷ إرث الجد و الجدّة ۱/ ۴۹۸ أهمية علم الفرائض ۱/ ۴۹۶ إرث الأولاد ذكورا و إناثا ۱/ ۴۹۶- ۴۹۷ أحكام الميراث ۱/ ۴۹۳ إفراد النساء لإلغاء حكم الجاهلية فى حرمانهن ۱/ ۴۹۳ إرث الزوج و الزوجة ۱/ ۴۹۹ الرّضخ من التركة للقرابة ممن لا يرث ۱/ ۴۹۵

۱۰- العضل:

إبطال عضل المرأة عن الزواج ۱/ ۵۰۷ نفى الظلم عن النساء ۱/ ۵۰۹ تحريم العضل من الأزواج و الأولياء ۱/ ۲۷۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۵۵

العلم

اشارة

۱- علم اللّه و شموله.

۲- العلم القرآنى. ۳- قيمة العلم.

۴- العلم و العلماء.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۵۶

۱- علم اللّه و شموله:

أحاط علم اللّه بجميع المعلومات ۴/ ۶۰۰ علمه بالسر و الجهر ۵/ ۳۱۲ علمه الشامل بالإنسان الذى خلقه و صوره ۵/ ۳۱۲ علم وقت الساعة ۴/ ۵۹۷ علم ما تخرج أوعية النباتات من ثمار ۴/ ۵۹۷ ما تحمل من أنثى و لا تضع حملها إلا بعلم اللّه ۴/ ۵۹۷ شهادة اللّه على الإنسان بما يعمل و علمه الشامل بذلك ۲/ ۵۱۸- ۵۱۹ لا يغيب عن علم اللّه مثقال ذرة ۲/ ۵۱۸- ۵۱۹ علم اللّه بالسر و العلن و بما تخفيه الصدور ۲/ ۵۴۷ علم اللّه بما يكون من حمل و وضع، و ما يطول عمر أحد و لا ينقص إلا فى اللوح المحفوظ ۴/ ۳۹۲ علم اللّه تعالى فى خلق آدم ۱/ ۷۵ يعلم ما يدخل فى الأرض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء ۴/ ۳۵۸ علم اللّه بما فى البر و البحر ۲/ ۱۴۰- ۱۴۱ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ۲/ ۱۴۰- ۱۴۱ و لا تسقط حبة و لا رطب و لا يابس إلا بعلمه ۲/ ۱۴۰- ۱۴۱ مدى سعة علم اللّه و شموله بالنسبة لعلم البشر ۴/ ۲۷۹- ۲۸۰ لو كانت الأشجار كلها أقلاما لكلمات اللّه و البحار مدادا لنفدت كلها دون أن تنفد كلمات اللّه ۴/ ۲۷۹- ۲۸۰ علمه تعالى محيط بما فى السموات و الأرض لا يخفى عليه شىء ۵/

۲۲۳ يعلم ما يسر و يجهر به الناس قلوا أو كثروا ۵/ ۲۲۳ يعلم ما تحمل كل أنثى و ما تغيض الأرحام و ما تزداد ۳/ ۸۲- ۸۳ عالم الغيب و الشهادة ۳/ ۸۲- ۸۳ يعلم ما يسر الإنسان و ما يجهر به ۳/ ۸۲- ۸۳ يعلم من هو مستتر بالليل و ذاهب بالنهار ۳/ ۸۲- ۸۳ علم اللّه بمن حاد عن الحق، و أعرض عنه، و بمن اهتدى، فقبل الحق، و أقبل عليه، و عمل به ۵/ ۱۳۵ استئثار اللّه تعالى بعلم الغيب ۵/ ۳۷۲- ۳۷۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۵۷

أعلم اللّه رسوله من الغيب ما أوحى إليه به ۵/ ۳۷۶ يعلم ما تخفيه الصدور و يعلم ما فى السموات و الأرض ۴/ ۱۷۳ عالم الغيب و يعلم مضمرات الصدور ۴/ ۴۰۷

۲- العلم القرآنى:

تعليم أحكام القرآن ۱/ ۱۵ معرفة المكى و المدنى ۱/ ۱۵ فضل التفسير ۱/ ۱۶

۳- قيمة العلم:

تعليم الخط، و تعليم الإنسان ما لم يعلم ۵/ ۵۷۰- ۵۷۳ النهى عن اتباع ما لا تعلم ۳/ ۲۷۱- ۲۷۲ سؤال الإنسان عن سمعه و بصره و فؤاده ۳/ ۲۷۱- ۲۷۲ الباعث لمن علم أن يعمل ۱/ ۴۰۷ أعظم العمل بالعلم تعليمه ۱/ ۴۰۷

۴- العلم و العلماء:

العلماء يخشون اللّه ۴/ ۳۹۹- ۴۰۳ رفع مكانة العلماء فى الدنيا و الآخرة درجات عالية فى الكرامة فى الدنيا و الثواب فى الآخرة ۵/ ۲۲۶- ۲۲۸ العلماء الذين لا يعملون بعلمهم ۱/ ۹۲ يقول العلماء يوم القيامة: إنّ الخزى و السوء على الكافرين ۳/ ۱۹۲- ۱۹۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۵۸

الحدود

اشارة

۱- حدود اللّه.

۲- القتل العمد و شبه العمد.

۳- حد القتل الخطأ. ۴- حد الزنا.

۵- العفو.

۶- إقامة الحدود.

۷- القضاء و دوره فى إقامة الحدود.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۵۹

۱- حدود اللّه:

المحافظة على حدود اللّه و عدم تجاوزها بالتهاون و المخالفة ۵/ ۲۸۸ حدود اللّه و محارمه ۱/ ۲۱۵

۲- القتل العمد و شبه العمد:

حكم القتل عمدا ۱/ ۵۷۵ معنى العمد ۱/ ۵۷۵ القتل شبه العمد ثابت فى السنة ۱/ ۵۷۵- ۵۷۶ هل للقاتل العمد من توبة؟ ۳/ ۸۲- ۸۳ شروط توبة القاتل المتعمد ۳/ ۸۲- ۸۳ حكم من قتل كافرا بعد أن قال: لا إله إلا اللّه ۱/ ۵۷۹

۳- حدّ القتل الخطأ:

المؤمن لا يقتل مؤمنا إلا خطأ ۱/ ۵۷۴ القتل الخطأ هو عدم القصد ۱/ ۵۷۴ كفارة القتل الخطأ ۱/ ۵۷۴- ۵۷۸

۴- حد الزنا:

عقوبة الزنا ۱/ ۵۰۴ حكم الزوجة إذا زنت ۱/ ۵۰۷ إيذاء الزناة منسوخ بالجلد ۱/ ۵۰۶ جواز مخالعة الزوجة إذا لم تأت بفاحشة ۱/ ۵۰۸

۵- العفو:

الترغيب فى العفو ۲/ ۴۰ العفو عن الجانى، و طريقة أخذ الدية ۱/ ۲۰۲ العفو عن الدية أو بعضها ۱/ ۲۰۲ حكم قتل القاتل بعد أخذ الدية ۱/ ۲۰۲

۶- إقامة الحدود:

تهويل أمر القتل و تعظيم أمره فى النفوس ۲/ ۴۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۶۰

النفس بالنفس، و العين بالعين، و الجروح قصاص ۲/ ۵۳ المماثلة فى العقوبة ۳/ ۲۴۵- ۲۴۶ الصبر و ترك العقوبة خير ۳/ ۲۴۵- ۲۴۶ السّارق يأخذ المال خفية ۲/ ۴۶- ۴۷ قطع يد السارق من الرسغ ۲/ ۴۶- ۴۷ شروط إقامة حد السرقة ۲/ ۴۶- ۴۷ القطع لا يسقط بالتوبة ۲/ ۴۶- ۴۷ كيفية القصاص فى العين و الأنف و السن ۲/ ۵۴ كيفية القصاص فى الجروح ۲/ ۵۴ فى القصاص حياة لما فيه من الردع عن القتل ۱/ ۲۰۳ سفك الدماء فساد فى الأرض ۲/ ۳۹ حكم القتل عدوانا و ظلما ۲/ ۳۹ عقوبة المحاربين ۲/ ۴۲- ۴۳ من يستحق اسم المحاربة ۲/ ۴۱- ۴۲ حكم المحاربين من أهل الإسلام ۲/ ۴۰- ۴۱ معنى المحاربة و الفساد فى الأرض ۲/ ۴۰- ۴۱

۷- القضاء و دوره فى إقامة الحدود:

السلطان ولى من حارب ۲/ ۴۳ إذا رفعت الحدود إلى الحاكم وجبت و امتنع إسقاطها ۲/ ۴۷ الحر يقتل بالحر ۱/ ۲۰۲- ۲۰۳ العبد بالعبد، و حكم قتل المسلم بالكافر، و حكم قتل الذكر بالأنثى ۱/ ۲۰۲- ۲۰۳ كل حرمة يجرى فيها القصاص ۱/ ۲۲۱ أمور القصاص مقصورة على الحكام ۱/ ۲۲۱ تحكيم القضاة ۱/ ۵۵۸ شروط القاضى ۱/ ۵۵۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۶۱

المعاملات

اشارة

۱- العقود.

۲- البيع.

۳- القرض.

۴- الدّين.

۵- الرهن.

۶- الشهادة.

۷- اليتامى و اليتيم.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۶۲

۱- العقود:

معنى العقود ۲/ ۶ الوفاء بالعقود ۲/ ۶

۲- البيع:

اشتراط التراضى ۱/ ۵۲۶- ۵۲۷ العدل فى الكيل و الميزان ۲/ ۲۰۲

۳- القرض:

معناه اللغوى و الشرعى ۱/ ۳۰۰

۴- الدّين:

معناه ۱/ ۳۴۴ حكم الأمر بكتابته ۱/ ۳۴۴

۵- الرهن:

الرهن فى السفر ۱/ ۳۴۸ من شروطه الإيجاب و القبول و القبض ۱/ ۳۵۰

۶– الشهادة:

أداؤها بالقسط و لو على النفس و الأقربين ۱/ ۶۰۴ الوعيد لمن لم يأت بالشهادة كما يجب ۱/ ۶۰۴ إقامة الشهادة و أداؤها بالحق و الصدق و خالصة للّه ۵/ ۲۸۸– ۲۸۹ حكم الشهادة فى الدين و البيع واجبة و قيل مندوبة ۱/ ۳۴۵ الشهداء ممن ترضون المرأتان فى الشهادة برجل ۱/ ۳۴۶ لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل؛ إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن ۱/ ۳۴۶

۷– اليتامى و اليتم:

الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى ۱/ ۴۸۸– ۴۸۹ تحريم أكل أموال اليتامى ۱/ ۲۵۴– ۲۵۵ جواز مخالطة اليتامى ۱/ ۲۵۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۶۳

تحريم القرب من مالهم إلا بالتى هى أحسن ۲/ ۲۰۲ دفع أموالهم إذا بلغوا سن الرشد ۲/ ۲۰۲ حكم غلبة الظن فى التقصير فى العدل لليتيمة إن تزوجها ۱/ ۴۸۲ ما هو الأكل بالمعروف من مال اليتيم؟ ۱/ ۴۹۱ الأمر بالإشهاد عند تسليمهم أموالهم ۱/ ۴۹۲ القيام لهم بالقسط نكاح يتامى النساء ۱/ ۶۰۰ وعظ أوصياء اليتامى أن يفعلوا معهم كما يحبون أن يفعلوا بأولادهم ۱/ ۴۹۳ إعطاء اليتامى أموالهم النهى عن صنع الجاهلية فى أموال اليتامى ۱/ ۴۸۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۶۴

الحلال و الحرام من الأطعمة و الأيمان

اشارة

۱– الحلال و الحرام من الأطعمة.

۲– الصيد.

۳– الذبائح.

۴– المحرمات.

۵– الأنعام.

۶– الأيمان.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۶۵

۱– الحلال و الحرام من الأطعمة:

الحلال من المطاعم إجمالا و من الصيد و من طعام أهل الكتاب و من نسائهم ۲/ ۱۶ الذى يريد بأعماله و مكسبه ثواب الآخرة فإن اللّه يضاعف له ۴/ ۶۱۱ الذى يريد بأعماله و كسبه ثواب الدنيا و متاعها يؤتيه اللّه منها ما قسم له و ليس له نصيب من الآخرة ۴/ ۶۱۱ لا يستوى الخبيث و الطيب ۲/ ۹۲ الكفار يحللون و يحرمون بمجرد الهوى و التشهى، و اللّه لم يأذن لهم بذلك فاللّه هو

المحلل و هو المحرم ۲/ ۵۱۷- ۵۲۰ تحريم الفواحش و البغى بغير الحق ۲/ ۲۲۹ القول على اللّه من التحليل و التحريم ما لم ينزل به سلطانا ۲/ ۲۲۹ الأكل و الشرب من غير إسراف ۲/ ۲۲۸ النهى عن تحريم الطيبات، و النهى عن التبتل و لبس الصوف مع توفر القطن ۲/ ۸۰ حكم أكل الميتة ۱/ ۱۹۵

۲- الصيد:

تحريم صيد البر حالة الإحرام ۲/ ۹۰ صيد البحر و طعامه حلال لكل مسلم و للمحرمين بالحج و العمرة ۲/ ۸۹- ۹۰ كفارة الصائد عمدا أو خطأ أو ناسيا ۲/ ۹۱ الصيد بالكلاب المعلمة و الطيور ۲/ ۱۶- ۱۷ الابتداء بتحريم الصيد مع الإحرام و فى الحرم ۲/ ۸۸ كفّارة قتل الصيد ۲/ ۸۸- ۸۹ حلّ صيد البحر و ميتته ۱/ ۱۹۵

۳- الذبائح:

ترك التسمية نسيانا أو عمدا ۲/ ۱۷۹- ۱۸۰ الأكل ممّا ذكر اسم اللّه عليه ۲/ ۱۷۸ تفصيل المحرمات، و استثناء حالة الاضطرار ۲/ ۱۷۸ ضلال الكفار فى تحريم بعض الأنعام ۲/ ۱۷۸ الإنكار على المشركين فى الجاهلية تحريم بعضها و تحليل بعضها، و كل ما حرموه حلال ۲/ ۱۹۵- ۱۹۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۶۶

بيان تناقضهم فى التحريم و التحليل ۲/ ۱۹۵- ۱۹۶ تحريم ما لم يذكر اسم اللّه عليه ۲/ ۱۷۹ حكم ما أهلّ به لغير اللّه ۱/ ۱۹۶ المحرمات من الأنعام فى القرآن و السنة ۲/ ۱۹۶ إلغاء ما كان عليه أهل الجاهلية ۲/ ۱۹۶ تحريم بعض الأنعام، تحريم ظهورها، تحريم ما فى بطونها ۲/ ۱۹۰- ۱۹۱

۴- المحرمات:

حكم الاضطرار إلى أكل المحرمات ۱/ ۱۹۶- ۱۹۷ معنى الباغى و العادى ۱/ ۱۹۶- ۱۹۷ المحرمات فى كتاب اللّه من المطاعم ۲/ ۱۱- ۱۲- ۱۳ حكم المضطر ۲/ ۱۴ و ۳/ ۲۴۱- ۲۴۲ الميتة و الدم و لحم الخنزير ۳/ ۲۴۱- ۲۴۲ اللّه هو المحلل و المحرم ۳/ ۲۴۱- ۲۴۲ عدم قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ۲/ ۲۰۲ حرم اللّه الإشراك باللّه و قتل الأولاد و الزنا و القتل ۲/ ۲۰۱ تحريم لحم الخنزير و تحريم شحمه ۱/ ۱۹۶

۵- الأنعام:

الامتنان على العباد بخلق الأنعام ۲/ ۱۹۵- ۱۹۶ أحلّها اللّه، و حرم ما ذكر فى سورة المائدة ۳/ ۵۳۶ إذا سقطت الإبل بعد الذبح على جنوبها فكلوا منها و أطعموا السائل و الفقير و القانع الذى لا يسأل ۳/ ۵۳۷- ۵۳۹ سخرها اللّه لتشكروه، و ينال اللّه منها التقوى و الإخلاص ۳/ ۵۳۷- ۵۳۹ الإبل جعلها اللّه من مناسك الحج و جعل فيها منافع دنيوية و دينية ذكر اللّه عليها و هى للنحر لأنها تذبح قائمة معقولة قد صفت قوائمها ۳/ ۵۳۷- ۵۳۸ منافع الأنعام قبل النحر ۳/ ۵۳۷- ۵۳۸ نحرها عند البيت و ما يليق بالحرم ۳/ ۵۳۷- ۵۳۸ لكل أمة عبادة و طاعة فى ذبح القرابين، ليذكروا اللّه وحده و يجعلوا نسلها خالصا له ۳/ ۵۳۷- ۵۳۸

فتح القدير، ج‏6، ص: 367

6- الأيمان:

النهى عن نقض الأيمان 3/ 229- 232 تشبيه من ينقض أيمانه بالتى تنقض غزلها 3/ 229- 232 النهى عن اتخاذ الأيمان للمكر و الخديعة 3/ 229- 232 اليمين المنعقدة 2/ 82 اليمين الغموس 2/ 82 كفارة اليمين المنعقدة 2/ 82- 83- 84 النهى عن جعل الحلف سببا فى الامتناع عن فعل الخير 1/ 263 النهى عن كثرة الحلف 1/ 265 اليمين اللغو 1/ 264- 265 أيمان اللغو لا مؤاخذة عليها 2/ 81 الحلف برب الكعبة 1/ 61

فتح القدير، ج‏6، ص: 368

المؤمنون

اشارة

1- المؤمن.

2- المؤمنون.

3- الأبرار.

4- الرّبانيون.

5- المفلحون.

6- أولياء اللّه.

7- المتقون.

8- عباد الرحمن.

9- المسلمون. 10- الأمة.

11- الصفات العامة للمؤمنين:

آ- الاستقامة.

ب- الإسلام.

ج- العدل.

د- الطاعة.

ه- التوبة.

و- الشفاعة.

12- الهجرة و المهاجرون.

فتح القدير، ج‏6، ص: 369

1- المؤمن:

المؤمن عمله طيب، كالبلد الطيب، ثمرها طيب ۲/ ۲۴۵- ۲۴۶ المؤمن أفلح و تطهر و حافظ على الصلوات الخمس ۵/ ۵۱۶- ۵۱۸- ۵۱۹ المؤمن يصبر على الأذية فى اللّه ۴/ ۲۲۴ المؤمن يعطى كتابه بيمينه، و ينقلب إلى أهله و عشيرته مسرورا ۵/ ۴۹۳- ۴۹۶ المؤمن يعطى كتابه بيمينه، و يتفاخر بكتابه و بإيمانه و يقينه ۵/ ۳۳۹- ۳۴۰ نتيجة المؤمن الجنة و الحياة المرضية الخالدة ۵/ ۳۳۹- ۳۴۰

۲- المؤمنون:

اشارة

أمرهم بوقاية أنفسهم و أهليهم و أولادهم من النار ۵/ ۳۰۲- ۳۰۳ أمرهم بالتوبة النصوح التى لا عودة بعدها إلى الذنب ۵/ ۳۰۲- ۳۰۳ أمرهم بالطاعة للّه و رسوله و عدم التولى ۲/ ۳۴۰- ۳۴۱ أن لا يكونوا كالكفار الذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون ۲/ ۳۴۰- ۳۴۱ اتقوا الكفر و المعاصى ۴/ ۶۶۳- ۶۶۴ فى مقام أمين لا يخافون ۴/ ۶۶۳- ۶۶۴ فى جنات و عيون، يلبسون من حرير رقيق و غليظ ۴/ ۶۶۳- ۶۶۴ يتقابلون فيها، ينظر بعضهم إلى بعضهم ۴/ ۶۶۳- ۶۶۴ تزويجهم بالحور العين ۴/ ۶۶۳- ۶۶۴ أمرهم بالتجاوز عمن لا يرجون وقائع اللّه بأعدائه، أى: لا يخافونها ۵/ ۷- ۸ أمرهم بالتقوى و تجديد الإيمان باللّه و رسوله محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۲۱۴ يعطيهم بسبب إيمانهم نصيبين من رحمته و يجعل لهم نورا و مغفرة ۵/ ۲۱۴ أمرهم بالتقوى، و تنبيههم إلى قرب الساعة، حتى يقدموا لأنفسهم الأعمال الصالحة، و أن لا يتركوا أمر اللّه، و أن لا ينسوا أحكامه ۵/ ۲۴۴- ۲۴۵ نهيهم عن موالاة الكفار بأى وجه من الوجوه ۵/ ۲۵۰- ۲۵۱- ۲۵۲ كتابة حاطب بن أبى بلتعة للمشركين بخروج النبى صلّى اللّه عليه و سلم إلى مكة ۵/ ۲۵۰ - ۲۵۲ أمرهم بالصلاة، و الإنفاق سرا و علانية قبل يوم القيامة، حيث لا بيع و لا خلال ۳/ ۱۳۱ - ۱۳۲ أمرهم بالاستمرار على الإيمان و التوحيد، و الإنفاق من مال اللّه الذى جعلهم خلفاءه فيه، و لهم أجر كبير ۵/ ۲۰۰ - ۲۰۱ أمرهم بالاستجابة للّه و للرسول إذا دعاهم لما يحييهم ۲/ ۳۴۱- ۳۴۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۰

اتقاء الفتنة التى قد تصيب الصالح و الطالح ۲/ ۳۴۱- ۳۴۲ أمرهم بالجهاد و الصلاة و فعل الخيرات و التقوى ۳/ ۵۵۸ أمرهم بالتقوى و القول الحق الصادق فإن هم فعلوا أصلح اللّه لهم أعمالهم و غفر لهم ذنوبهم ۴/ ۳۵۳ عدم قطع أمر دون اللّه و رسوله و ترك التعجل به ۵/ ۶۹- ۷۲ عدم رفع الصوت عند رسول اللّه لأنه يدل على قلة الاحتشام و ترك الاحترام ۵/ ۶۹- ۷۲ تحذيرهم من فتنة الأزواج و الأولاد و الأموال ۵/ ۲۸۴- ۲۸۵ إرشادهم إلى العفو و الصلح ۵/ ۲۸۴- ۲۸۵ دعوتهم إلى السمع و الطاعة و الإنفاق فى سبيل اللّه ۵/ ۲۸۴- ۲۸۵ نهيهم عن الاستهزاء و السخرية و اللمز، و هو عيب بعضهم لبعض ۵/ ۷۵- ۷۶ و ۷۷- ۷۸ نهيهم عن أن يلقب بعضهم بعضا، لأن فى ذلك خروج عن طاعة اللّه و عن الإيمان ۵/ ۷۵- ۷۶ و ۷۷- ۷۸ النهى عن مجرد التهمة بالظن الآثم التى لا سبب لها ۵/ ۷۵- ۷۶ و ۷۷- ۷۸ نهى المؤمنين عن الانشغال بالأموال و الأولاد عن ذكر اللّه ۵/ ۲۷۸- ۲۷۹ ألم يحن لهم أن ترق قلوبهم و تخشع لذكر اللّه و ما نزل من القرآن ۵/ ۲۰۶- ۲۰۷ نهيهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود و النصارى، طال عليهم الأمد بينهم و بين أنبيائهم، فحرفوا، و بدلوا، فقست قلوبهم ۵/ ۲۰۶- ۲۰۷ إن اللّه يدافع عنهم و يدفع غوائل المشركين ۳/ ۵۴۲ زادتهم آيات القرآن إيمانا و هدى ۲/ ۴۷۵ المفلحون فائزون عند اللّه فى الدنيا و الآخرة، يخضعون لحكم اللّه بألسنتهم و أفعالهم ۴/ ۵۳- ۵۴ هم المفلحون الفائزون عند اللّه فى الدنيا و الآخرة ۴/ ۵۳- ۵۴

من صفاتهم:

١- الخوف و الخشیة من اللّه ٣/ ٥٨٠- ٥٨١ ٢- التصدیق بدلائل مخلوقات اللّه الکونیة ٣/ ٥٨٠- ٥٨١ ٣- ترک الشرک ٣/ ٥٨٠- ٥٨١ ۴- یعطوک و هم خائفون من عدم القبول ٣/ ٥٨٠- ٥٨١ و نتیجة لما سبق من الصفات فهم سابقون بالخیرات ٣/ ٥٨٠- ٥٨١ من صفات المؤمنین:

فتح القدیر، ج۶، ص: ٣٧١

الخوف من اللّه، و الفزع منه عند ذکره ٢/ ٣٢۶ التوکل علی اللّه ٢/ ٣٢۶ یقیمون الصلاة ٢/ ٣٢۶ إذا تلیت علیهم آیات اللّه زادتهم إیمانا ٢/ ٣٢۶ یخافون ربهم فی السر و الخلوة ٥/ ٣١٢ لهم مغفرة و أجر کبیر فی الجنة ٥/ ٣١٢ لا یتصفون بالهلع و الجزع ٥/ ٣٥٠- ٣٥٢ یحافظون علی الصلاة، و لا یصرفهم عنها صارف ٥/ ٣٥٠- ٣٥٢ یؤدون الزکاة، و یؤمنون بالیوم الآخر، و یخافون عذاب ربهم ٥/ ٣٥٠- ٣٥٢ لا- یزنون، و یؤدون الأمانات إلی أهلها، و لا یکتمون الشهادة، و هم فی الجنة مکرمون منعمون ٥/ ٣٥٠- ٣٥٢ المؤمنون هم الذین جمعوا بین الإیمان و العمل الصالح ٥/ ٥٠١ لهم جنات تجری من تحتها الأنهار، و هو الفوز العظیم ٥/ ٥٠١ الذین یؤذون المؤمنین و المؤمنات بغیر سبب یوجب الأذیة، فقد احتملوا بهتانا و إثما واضحا ۴/ ٣۴٨ التقوی مع الإیمان سبب فی ثبات القلوب، و ثقوب البصائر و حسن الهدایة ٢/ ٣۴۶ من أوصاف المؤمنین: التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون ٢/ ۴۶۴- ۴۶٥ من صفات المؤمنین: یقیمون الصلاة، و یؤتون الزکاة، و یصدقون بالآخرة ۴/ ١۴٥ حال الأتقیاء: فی جنات و نعیم، یتلذذون بفواکه الجنة الخالدة، و وقاهم اللّه من عذاب جهنم، متکئین علی سرر مصفوفة و متقابلة، یزوجهم اللّه بالحور العین ٥/ ١١٥- ١١۶ المؤمنون بعضهم أولیاء بعض، یأمرون بالمعروف و ینهون عن المنکر، و یقیمون الصلاة، و یؤدون الزکاة، و یطیعون اللّه و رسوله، و رحمة اللّه و جنته ثواب لهم ٢/ ۴٣۴- ۴٣٥ المؤمنون مفلحون فائزون، و ظافرون عند اللّه تعالی و صفاتهم:

الخشوع فی الصلاة، و إخراج الزکاة، و حفظ الفروج، و هم أمناء و أوفیاء، و یحافظون علی الصلاة ٣/ ٥۶٢- ٥۶٣ المؤمنون یرثون الفردوس ٣/ ٥۶٢- ٥۶٣

فتح القدیر، ج۶، ص: ٣٧٢

تجارة المؤمنین الرابحة هی: الإیمان باللّه و رسوله، و الجهاد فی سبیل اللّه بالمال و النفس ٥/ ٢۶۴- ٢۶۶ إن أدی المؤمنون التجارة الرابحة، غفر اللّه ذنوبهم، و نصرهم علی عدوهم فی الدنیا، و أدخلهم جنات النعیم فی الآخرة ٥/ ٢۶۴- ٢۶۶ أمر اللّه المؤمنین أن یکونوا أنصار اللّه، ینصرون دینه ٥/ ٢۶۴- ٢۶۶ المؤمنون یعادون من عادی اللّه و رسوله، و لو کانوا أقاربهم، و یحبون و یوالون المؤمنین، و لو کانوا أباعد ٥/ ٢٣٠- ٢٣١ المؤمنون الذی یعادون من عادی اللّه و یحبون المؤمنین کتب اللّه فی قلوبهم الإیمان، و أیدهم بنصره، و یدخلهم جناته، و هم حزب اللّه، و هم المفلحون ٥/ ٢٣٠- ٢٣١ یتمیز المؤمنون فی الآخرة عن المفسدین فی الأرض، کما یتمیز المتقون عن الفجار ۴/ ۴٩٣ المؤمنون هم خیر البریة، و دخولهم جنات خالدة ٥/ ٥٨٠ المؤمنون باللّه هم الصدیقون، و لهم الأجر و النور الموعودان لهم ٥/ ٢٠٨- ٢٠٩ المؤمنون هم الذین آمنوا باللّه و رسوله، و لم یشکوا فی إیمانهم، و الذین جاهدوا بأموالهم و أنفسهم فی طاعة اللّه، و لإعلاء کلمة اللّه. و أولئک هم الصادقون ٥/ ٨٠ المؤمنون هم الذین آمنوا و عملوا الصالحات ٣/ ٣٣۶ للمؤمنین جنات عدن ٣/ ٣٣۶ المؤمنون یحلّون فی الجنة بزینة الملوک، و یتنعمون علی الأسرة ٣/ ٣٣۶ المؤمنون هم الذین آمنوا و عملوا الصالحات، و یهدیهم ربهم، و تجری من تحتهم الأنهار، و دعاؤهم التسبیح، و تحیتهم السلام، و آخر دعائهم: الحمد للّه ٢/ ۴٨٥- ۴٨۶ تحیة المؤمنین یوم یلقون اللّه السلام ۴/ ٣٣١ مبایعة المؤمنات لرسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على أن: لا يسرقن، و لا يزنين، و لا يقتلن أولادهن، و لا يأتين ببهتان ... إلخ ۵/ ۲۵۷- ۲۵۸ أمر اللّه الرسول صلّى اللّه عليه و سلم بمبايعة النساء و الاستغفار لهنّ ۵/ ۲۵۷- ۲۵۸ المؤمنون فى الجنة يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ۴/ ۶۶۴ المؤمنون فى الجنة آمنون من الموت و الوصب ۴/ ۶۶۴ حفظ اللّه المؤمنين فى الآخرة من عذاب النار ۴/ ۶۶۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۳

ما يناله المؤمنون فى الجنة هو الفوز العظيم ۴/ ۶۶۴ المؤمنون يسعى الضياء بين أيديهم و بأيمانهم على الصراط ۵/ ۲۰۴- ۲۰۵ الملائكة تبشر المؤمنين بالجنات، و الخلود، و الفوز العظيم ۵/ ۲۰۴- ۲۰۵ المنافقون يطلبون من المؤمنين على الصراط الانتظار ليقتبسوا من نورهم، فيتهكم المؤمنون منهم، و يقولون لهم: ارجعوا إلى الموضع الذى أخذنا منه النور ۵/ ۲۰۴- ۲۰۵ التخاطب بين المنافقين- أهل النار، الذين فتنوا و ارتابوا- و المؤمنين أهل الجنة الذين صبروا ۵/ ۲۰۴- ۲۰۶ المؤمنون يدخلون الجنة، تجرى من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب، و لباسهم فيها حرير ۳/ ۵۲۷- ۵۲۸ المؤمنون فى الجنة يهدون إلى الطيب من القول ۳/ ۵۲۷- ۵۲۸ المؤمنون و المؤمنات يدخلهم اللّه جنات تجرى من تحتها الأنهار، و يكفر سيئاتهم فلا يعذبهم، و هذا فوز عظيم لهم ۵/ ۵۴ يتعاطى المؤمنون فى الجنة خمرا، شرابا، لا باطل فيها؛ و لا إثم كما هو فى خمر الدنيا، و يطوف عليهم بالخدمة غلمان كاللؤلؤ المستور بالصدف فى الحسن و البهاء ۵/ ۱۱۷- ۱۱۸ من أهل الجنة على الخصوص قوم آمنوا، و أكرمهم اللّه بإيمان أولادهم و أولاد أولادهم، ما نقصهم اللّه أعمالهم، يسأل بعضهم بعضا، يسرون بما حصل لهم من نعيم الجنة، يمدّهم اللّه و يزيدهم من فضله و مما تشتهيه أنفسهم من الفواكه و اللحوم و غيرها ۵/ ۱۱۷- ۱۱۹ المؤمنون هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و آمنوا بما نزله اللّه على محمد، و خصه به لشرفه و مكانته ۵/ ۳۶ مغفرة اللّه للمؤمنين و إصلاح شأنهم ۵/ ۳۶ المؤمنون الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم جنات النعيم ۴/ ۲۷۱ المؤمنون خالدون فى الجنة وعد اللّه حقا ۴/ ۲۷۱ المؤمنون العاملون و المهاجرون لهم فى الجنة غرف ينزلون فيها، تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها، و من صفاتهم الصبر و التوكل ۴/ ۲۴۲- ۲۴۳ من صفات المؤمنين الصبر و التوكل ۴/ ۲۴۲- ۲۴۳ ليس المؤمن كالفاسق عند اللّه ۴/ ۲۹۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۴

المؤمنون لهم جنات معدة لهم، يأوون إليها ۴/ ۲۹۳ للمؤمنين فى الجنة غرف و درجات كاملة فى بهجتها و رونقها ۴/ ۵۲۴ المؤمنون فى روضة الجنة يسرون ۴/ ۲۵۱ للمؤمنين ثمار جنة الفردوس نزلا معدا لهم، مبالغة فى إكرامهم، و خالدين فى الجنة لا يطلبون عنها تحولا ۳/ ۳۷۵ وعد اللّه المؤمنين بالاستخلاف إن جمعوا مع الإيمان العمل الصالح، كما وعدهم بتثبيت دينهم الذى ارتضاه لهم، و تبديل خوفهم أمنا ۴/ ۵۵- ۵۶ المؤمنون مبعدون عن النار، لا يسمعون حركتها، و لا حركة أهلها ۳/ ۵۰۸- ۵۰۹ المؤمنون فى الجنة يتمتعون بما اشتهت أنفسهم، خالدين ۳/ ۵۰۸- ۵۰۹ المؤمنون إذا وعظوا بآيات اللّه سقطوا على وجوههم ساجدين و نزهوا اللّه عما لا يليق بهم ۴/ ۲۹۲- ۲۹۳ المؤمنون ترتفع جنوبهم عن المضاجع للصلاة و الدعاء ۴/ ۲۹۲- ۲۹۳ المؤمنون ينفقون فى سبيل اللّه من أموالهم التى رزقهم اللّه ۴/ ۲۹۲- ۲۹۳ يساق المؤمنون إلى الجنة جماعات، و تفتح لهم أبوابها ۴/ ۵۴۸ خزنة الجنة يرحبون بالمؤمنين بالتحيات و السلام، و يعلمونهم بالخلود، فيحمد المؤمنون اللّه على ذلك ۴/ ۵۴۸ المؤمنون يحمدون اللّه على ما أعلمهم به خزنة الجنة من أنهم خالدون فيها ۴/ ۵۴۸ المؤمنون هم أصحاب الجنة، و هم فيها فى شغل متفكهون، متنعمون، معهم أزواجهم، على الأرائك متكئون، لهم فاكهة و كل ما يطلبون، تحيتهم من ربهم السلام، و حياتهم سلام و أمان ۴/ ۴۳۱- ۴۳۲ المؤمنون هم الذين صدقوا، و عملوا الصالحات، فلهم أجرهم عند ربهم، و هم الذين يفوضون إلى اللّه أمورهم، و يجتنبون كبائر الذنوب، و يتجاوزون عمن أغضبهم، و الذين استجابوا للّه فيما دعاهم إليه، و أقاموا الصلاة، و هم يتشاورون فيما بينهم، و يتصدقون ۴/ ۶۱۹- ۶۲۰ تقريع المؤمنين و توبيخهم على قولهم من الخير ما لا يفعلون، و

ذمهم على ذلك ۵/ ۲۶۱- ۲۶۲ وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة حسنة، و تنظر إلى ربها و خالقها ۵/ ۴۰۷- ۴۰۹ وجوه المؤمنين يوم القيامة ذات نعمة و بهجة، لأنها أعطيت من الأجر ما أرضاها- إنه الجنة و نعيمها- ۵/ ۵۲۲ المؤمنون الأتقياء فى جنات و عيون، لأنهم كانوا فى الدنيا محسنين، و قليلا من

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۵

الليل ما ينامون، و يستغفرون وقت السحر، و يجعلون على أنفسهم فى أموالهم حقا للسائل و المحروم ۵/ ۱۰۱- ۱۰۴ المؤمنون الأتقياء فى جنات و أنهار فى مجلس حق عند إله قادر مقتدر سبحانه و تعالى ۵/ ۱۵۶ المؤمنون أدخلوا جنات تجرى من تحتها الأنهار بإذن ربهم، تحيتهم فيها سلام ۳/ ۱۲۵- ۱۲۶ خص اللّه المؤمنين بالذكر لشرفهم ۵/ ۶۴۱ الذين آمنوا سيجعل اللّه لهم فى قلوب عباده حبا ۳/ ۴۱۹ المؤمنون يضحكون من الكفار يوم القيامة ۵/ ۴۸۹ منهم سابق بالخيرات (التقى) و منهم مقتصد (المؤمن) و منهم ظالم لنفسه ..

و هؤلاء يدخلون الجنة و يحلّون فيها. ۴/ ۴۰۰- ۴۰۱

۳- الأبرار:

الأبرار فى نعيم الجنة ۵/ ۴۸۰ كتابهم فى عليين، و هو كتاب مسطور و مختوم، يشهده الملائكة المقربون ۵/ ۴۸۸- ۴۸۹- ۴۹۰ هم فى نعيم و على السرر ينظرون و وجوههم تدل على أنهم من أهل النعمة ۵/ ۴۸۸- ۴۸۹- ۴۹۰ يشربون من خمر مختوم بالمسك ۵/ ۴۸۸- ۴۸۹- ۴۹۰ أهل الطاعة فى الجنة يشربون من كأس يخالطها الكافور و تختم بالمسك ۵/ ۴۱۸- ۴۱۹- ۴۲۱ هذا الشرب من عين يشرب بها عباد اللّه و يجرونها حيث شاؤوا ۵/ ۴۱۸- ۴۱۹- ۴۲۱ يوفون بالنذر و يخافون يوم القيامة ۵/ ۴۱۸- ۴۱۹- ۴۲۱ يطعمون الأيتام و المساكين و الأسرى لوجه اللّه ۵/ ۴۱۸- ۴۱۹- ۴۲۱ حفظ اللّه الأبرار من شر يوم القيامة و جزاهم دخول الجنة، و ألبسهم الحرير، يتكئون فى الجنة على السرر لا يرون حر الشمس و لا برد الزمهرير، ظلال الجنة قريبة منهم و ثمارها مذللة و مسخرة لمتناوليها، يدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب، يسقون كأسا من الخمر ممزوجا بالزنجبيل، يطوف عليهم ولدان لا يهرمون و لا يتغيرون ۴/ ۴۲۱- ۴۲۶ نعيم الأبرار فى الجنة لا يوصف، لباسهم فيها من سندس و إستبرق، و يحلون فيها أساور من فضة، و يشربون شرابا لا نجاسة فيها، كل هذا النعيم جزاء لأعمالهم فى الدنيا، و كان عملهم فى الدنيا مشكورا ۵/ ۴۲۴- ۴۲۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۶

۴- الربانيون:

الربانيون، معناها: النسبة إلى الرّبّ، و هم عالمون و متعلمون ۱/ ۴۰۷ الربانيون حلماء، حكماء، علماء ۱/ ۴۰۸

۵- المفلحون:

معنى الفلاح ۱/ ۴۴

۶- أولياء اللّه:

لا خوف عليهم و لا حزن، صفاتهم الإيمان و التقوى، لهم البشرى فى الدنيا و الآخرة ۲/ ۵۱۹- ۵۲۱ هم القوم الذين يحبهم اللّه و يحبونه ۲/ ۶۱

۷- المتقون:

يحشرهم اللّه يوم القيامة راكبين مكرمين ۳/ ۴۱۶ فى ظلال الجنان و عيونها، يأكلون و يشربون، و جزاؤهم العظيم جزاء المحسنين ۵/ ۴۳۵

۸- عباد الرحمن:

يمشون على الأرض بسكينة و وقار، و لا يجهلون و لا يسافهون أهل السفه، و يبيتون فى صلاة و عبادة، و يدعون أن يصرف اللّه عنهم عذاب جهنم، و يتوسطون فى الإنفاق بين الإسراف و التقتير ۴/ ۹۹- ۱۰۱ عباد الرحمن إذا ذكروا بالقرآن أكبوا على آياته سامعين مبصرين، و يدعون اللّه أن يهبهم أزواجا صالحين و ذرية صالحة تقر عيونهم، و جزاؤهم الجنة، يحيون فيها بعضهم بالسلام ۴/ ۱۰۴- ۱۰۵ عباد الرحمن لا يدعون مع اللّه أحدا، و لا يقتلون النفس التى حرم اللّه إلا بالحق، و لا يشهدون الزور، و إذا مرّوا باللغو أعرضوا عنه ۴/ ۱۰۲- ۱۰۳

۹- المسلمون:

نهيهم عن كثرة الأسئلة ۲/ ۹۲- ۹۳- ۹۵ النهى عن طرد المؤمنين ۲/ ۱۳۶

۱۰- الأمة:

الأمة المسلمة دينها دين إبراهيم عليه السلام، و إبراهيم سمى هذه الأمة،

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۷

و الرسول صلّى اللّه عليه و سلم يشهد عليها، و هى تشهد على باقى الأمم ۳/ ۵۵۸- ۵۵۹ لكل أمة أجل حيث يجازيهم بما يستحقون ۲/ ۵۱۱- ۵۱۲ الطير أمة، و الإنس أمة، و الجن أمة ۲/ ۱۳۰- ۱۳۱ لكل أمة أجل معلوم فى العذاب، و الموت، و القدر ۲/ ۲۳۱ صفات الأمة القائمة: يتلون آيات اللّه، و يؤمنون باللّه، و يأمرون بالمعروف، و ينهون عن المنكر ۱/ ۴۲۸- ۴۲۹ الأمة المسلمة خير أمة أخرجت للناس ۱/ ۴۲۷ الأمة القائمة هى المهتدية ۱/ ۴۳۰ الأمة الصالحة يهدون بالحق و به يعدلون ۲/ ۳۰۸ من حكمة اللّه أنه جعل بعض الأمم أكثر عددا و أوفر مالا ۳/ ۲۳۰- ۲۳۱ لو شاء اللّه لجعل الناس أمة واحدة متفقة على الحق ۲/ ۲۳۲ دخول أمم الكفار من الجن و الإنس فى النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها ۲/ ۲۳۲

۱۱- الصفات العامة للمؤمنين:

آ- الاستقامة:

المؤمنون الـذين اسـتقاموا على التوحيـد و العمل بأحكام الشـريعة لا خوف عليهم من أى مكروه و لا يحزنون من فوات محبوب، أولئـك أصـحاب الجنـة التى هى دار الخلود ۵/ ۲۱ الـذين اسـتقاموا بعـد التوحيـد تتنزل عليهم الملائكة من عند اللّه بالبشـرى و التثبيت و الإعانة فى الدنيا و الآخرة ۴/ ۵۹۰

ب- الإسلام:

المسـلمون و المسـلمات، و المؤمنـون و المؤمنـات، أعـدّ اللّه لهم أجرا عظيمـا على طـاعتهم من القنـوت، و الصـدق، و الصـبر، و الخشوع، و التصدق، و الصوم، و العفاف، و الذكر ۴/ ۳۲۵

ج- العدل:

الأمر بالعدل ۵/ ۳۵۴ اللّه يحب العادلين ۵/ ۳۵۴ الأمر بعـدم التجاوز فى الميزان، و ترك الظلم فيه ۵/ ۱۵۹ إقامة الوزن بالعدل و أن لا ينقص الميزان ۵/ ۱۵۹
فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۸

د- الطاعة:

طاعة رسول اللّه و تحكيمه ۱/ ۵۵۸- ۵۵۹ طاعة أولى الأمر ۱/ ۵۵۶ طاعة الأمراء فى المعروف ۱/ ۵۵۷

ه- التوبة:

هى مجرد عقد القلب، و لا يشترط إطلاع الناس ۱/ ۱۰۵- ۱۰۶ اللّه يقبلها من عباده و يعفو عن سيئات من تاب ۴/ ۶۱۳

و- الشفاعة:

شفاعة الناس لبعضهم البعض ۱/ ۵۶۹- ۵۷۰

۱۲- المهاجرون و المهاجرات:

المهاجرون:

عند الهجرة إلى المدينة أمر بالدعاء حين الخروج من مكة و الدخول إلى المدينة ۳/ ۳۰۱ الترغيب فى الهجرة ۱/ ۵۸۳ غفران اللّه

للمهاجرين الـذين عذّبهم الكفار ۳/ ۲۳۸- ۲۳۹ وجـوب الهجرة من أرض الشـرك ۱/ ۵۸۲- ۵۸۳ عتاب الملائكة للمستضـعفين بترك الهجرة ۱/ ۵۸۲- ۵۸۳ لا هجرة بعد الفتح ۱/ ۵۸۴ الذين هاجروا فى اللّه من بعد ظلمهم ليبوئنهم اللّه مباءة حسـنة فى الدنيا و الآخرة ۳/ ۱۹۷- ۱۹۸ اتصاف المهاجرين بالصبر و التوكل ۳/ ۱۹۷- ۱۹۸ المهاجرون و الأنصار بعضهم أولياء بعض فى النصرة و المعونة ۲/ ۳۷۵- ۳۷۷ المهـاجرون الـذين هـاجروا و قتلوا أو ماتوا حال الهجرة ليرزقنهم اللّه نعيم الجنـة، و هو المـدخل الـذى يرضونه ممّـا لا عين رأت، و لا أذن سـمعت، و لا خطر على قلب بشـر ۳/ ۵۵۱- ۵۵۲ المهاجرون و الأنصار السابقون منهم رضـى اللّـه عنهـم و رضـوا عنه ۲/ ۴۵۲- ۴۵۶ أخرجـوا مـن ديـارهم يطلبـون الرزق و نصـره اللّه و رسـوله، و هم الكـاملون فى الصـدق الراسخون فيه ۵/ ۲۳۹- ۲۴۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۷۹

المهاجرات:

الأـمر بامتحـانهن، و ذلـك بـأن يسـتحلفن بـاللّه ما خرجن إلا حبا للّه و رسوله عـدم إرجاعهن إلى الكفار إن ثبت إيمانهن حكم الزواج بهن و حكم مهورهن، و مهور المرتدات ۵/ ۲۵۶- ۲۶۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۸۰

الكفار و المشركون و المنافقون

اشارة

۱- الكفر.

۲- الكافر.

۳- الكفار.

۴- المشركون. ۵- المنافقون.

۶- الأعراب و موقفهم.

۷- الكفار المشركون.

۸- متفرقات.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۸۱

۱- الكفر:

الكفر باللّه: حكم المكره و قلبه مطمئن بالإيمان ۳/ ۲۳۷ عقوبة الكافر الذى اعتقد الكفر و طابت به نفسه ۳/ ۲۳۹ الكفر: معناه ۱/ ۴۶ الكفر ببعض الرسل كالكفر باللّه و بجميع الرسل ۱/ ۶۱۳ أسباب الكفر:

۱- عـدم تدبر القرآن ۲- إنكـار إرسال الرسل ۳- تجاهل القوم معرفتهم بأمانـة رسولهم ۴- قـولهم: إن الرسول مجنون ۳/ ۵۸۴-

۲- الكافر:

اشارة

يطلب الرجوع إلى الـدنيا لعله يعمـل صالحـا، الرب يرد عليه رادعا زاجرا بأنه لا رجعـة و من أمامهم و بين أيـديهم برزخ إلى يوم القيامة ۳/ ۵۸۸- ۵۹۲ عمله خبيث كالأرض السـبخة المالحـة التى لا تخرج منها البركة ۲/ ۲۴۶ يحشره اللّه يوم القيامة أعمى لأنه أعرض عن ذكر اللّه و نسـى آيـاته، فالجزاء من جنس العمل ۳/ ۴۶۴- ۴۶۵ لا ـ يحب اللّه كل خوان كفور ۳/ ۵۴۲ لا يرضى اللّه لعباده المؤمنين الكفر ۴/ ۵۱۸

من صفات الكافر:

يكـذّب بالـدين يـدفع اليتيم عن حقه لا يحض نفسه و لا غيره على إطعام المسـكين المحتاج ۵/ ۶۱۰ الكافر اتخـذ دينه ما يهواه، أضل عن الثواب، و طبع على قلبه و سـمعه، و جعل على بصـره غطاء، و لا هدايـة له بعـد إضـلال اللّه ۵/ ۱۰- ۱۱ تكذيب الكافر بالرسالة، و تركه للصلاة، ذهابه إلى أهله بتثاقل و تكبر، و وليه الويل و الهلاك ۵/ ۴۱۰- ۴۱۱ الكافر ينهى عن الصلاة، و تكذيبه و إعراضه، و إن أصر على كفره و لم ينزجر سيؤخذ بناصيته يوم القيامة و يجر إلى النار ۵/ ۵۷۱- ۵۷۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۸۲

خطاب الكافر و سؤاله عما غره و خـدعه عن ربه و خالقه الذى أوجده، و عدّله فى أحسن تقويم ۵/ ۴۷۹ غر الكافر جهله ۵/ ۴۸۱ تـذكير الكافر بشدة الحال عند نزول الموت، و إذا بلغت الروح التراقى فلا فائدة من راق يرقى، و اليقين عندئذ بالفراق و الموت، و تتابع الشدائد، و تأكد المصـير و المرجع إلى اللّه ۵/ ۴۱۰- ۴۱۱ يتمنى الكافر أن يفتـدى من عذاب يوم القيامة بأعز الناس عليه من أبنائه، و زوجه، و أخيه، و عشيرته، و الناس جميعا ۵/ ۳۴۶- ۳۴۷ يعطى الكافر كتابه بشماله، و يتمنى أن لا يأخذ كتابه، و أن يجهل حسابه، و أمر اللّه للملائكـة أن تقيده بسلسـلة عظيمة و أن يدخل إلى النار بسـبب كفره و سوء أفعاله ۵/ ۳۴۰- ۳۴۱ يعطى الكـافر كتابه وراء ظهره و يـدخل النار، و قـد كان فى الـدنيا مسـرورا و ظن أن لا رجوع و لا حساب ۵/ ۴۹۳- ۴۹۷ لعن الإنسان الكافر المفرط فى الكفر، و غفلته عن بدايـة خلقه و تكبره مع مهانـة منشـئه و مخرجه، متابعـة القـدرة الإلهية فى خلقه، و موته، و بعثه، و حسابه، و جزائه ۵/ ۴۶۴- ۴۶۵

۳- الكفار:

رؤساء الكفار:

يجـادلون و يخاصـمون فى اللّه بغير علم مع إنكار البعث و الساعـة و اتباع الشـيطان ۵/ ۵۱۷- ۵۱۸ البعض من الكفـار يجادل اللّه

بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير ۳/ ۵۱۷- ۵۱۸ صفهٔ رؤساء الكفار الكبر، و لهم من اللّه الخزى فى الدنيا و عذاب الحريق فى الآخرهٔ ۳/ ۵۱۷- ۵۱۸

كفار قريش:

إنذارهم؛ لأنهم قالوا: الملائكهٔ بنات اللّه من غير علم ۳/ ۳۲۲ بدلوا نعمهٔ اللّه كفرا، و أحلوا قومهم جهنم، و هى دار البوار، و جعلوا للّه أندادا ۳/ ۱۳۰- ۱۳۱ و ۱۳۳

كفار مكهٔ:

جعل اللّه لهم مكهٔ حرما آمنا و الناس يتخطفون من حولهم ۴/ ۲۴۵
فتح القدير، ج۶، ص: ۳۸۳
استحقاقهم العذاب بسبب صدهم عن المسجد الحرام ۲/ ۳۴۹ ما كانوا أولياء للكعبهٔ ۲/ ۳۵۰ صفهٔ صلاتهم عند الكعبهٔ التصفيق و الصفير مع العرى ۲/ ۳۵۱

الفجار (الكفار):

كتابهم فى سجين و هو كتاب مسطور و مختوم تكذيبهم بيوم الدين و ما يكذب به إلا كل فاجر جائر تكذيبهم بالقرآن بسبب ما غطى قلوبهم من المعاصى و الكفر حجبهم عن رؤيهٔ ربهم ۵/ ۴۸۴- ۴۸۶ نهايهٔ الفجار جهنم يلزمونها مقاسين لوهجها و حرها ۵/ ۴۸۰

الكفار المكذبون:

أمرهم تقريعا بالانطلاق إلى العذاب الذى كانوا يكذبون به ۵/ ۴۳۳- ۴۳۶ هم فى دخان جهنم، لا يظل من الحر و لا يغنى من اللهب، كل شرارهٔ منه كالقصر فى عظمها و هى تشبه الإبل الصفراء ۵/ ۴۳۳ - ۴۳۶ منعهم من الكلام و جمعهم مع جميع المكذبين، لا حيلهٔ لهم فى جهنم ۵/ ۴۳۵- ۴۳۶ الويل للمشركين المجرمين فى حياتهم الدنيا، لأنهم لا يصلون و لا يصدقون بالقرآن ۵/ ۴۳۵- ۴۳۶ ضلالهم و مكابرتهم فى طلب وقوع العذاب بهم إن كان الإسلام دين الحق ۲/ ۳۴۷ ينفقون أموالهم ثم تكون عليهم حسرهٔ ۲/ ۳۵۰ ضرب اللّه مثلا لعنادهم و كفرهم و مكرهم بركوبهم البحر، و تعرضهم للخطر، ثم اللجوء إلى اللّه، ثم الإعراض عنه بعد نجاتهم و نكوصهم إلى شركهم و إعراضهم، و تقرير اللّه: أن بغيهم على أنفسهم ۲/ ۴۹۴- ۴۹۶ صم عن سماع الحق و عمى عن رؤيته ۲/ ۵۰۹ خسران من كذب بلقاء اللّه ۲/ ۵۱۰ من قبائح الكفار النسىء، و الكبيسهٔ، و التلاعب فى التحليل و التحريم فى الأشهر الحرم، يحلونه عاما و يحرمونه عاما ۲/ ۴۰۹- ۴۱۲ هم شر الدواب بكفرهم ۲/ ۳۶۴ لا عهد لهم بل ديدنهم نقض العهود ۲/ ۳۶۵

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۸۴

الملائكة تضرب أدبارهم و وجوههم عند الموت أو يوم القيامة بما كسبت أيديهم ۲/ ۳۶۲- ۳۶۳ ظلموا أنفسهم بعبادة الأصنام و عدم التغيير ۲/ ۳۶۳ لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا ۲/ ۲۳۳ لا يدخلون الجنة أبدا ۲/ ۲۳۴ تعليق دخولهم الجنة بمستحيل (و هو دخول الجمل فى ثقب الإبرة) ۲/ ۲۳۴ و ۲۳۶ تهديدهم بنزول الملائكة بالعذاب بعد إقامة الحجة و إنزال القرآن ۲/ ۲۰۶- ۲۰۷ جاهلون فى إيثارهم آلهتهم على اللّه ۲/ ۱۸۷- ۱۸۸ جعلوا للّه من حرثهم و دوابهم نصيبا ۲/ ۱۸۹ احتجاجهم على شركهم أنه بمشيئة اللّه، و الرد عليهم: بأنهم لا علم لهم إلا مجرد الوهم و التخرص ۲/ ۱۹۹- ۲۰۰ استمتاعهم بالجن و استمتاع الجن بهم ۲/ ۱۸۳ وصف حالهم فى بعدهم عن الإسلام و ضيق صدورهم به ۲/ ۱۸۳ يريدون أن يكون منهم أنبياء و رسل ۲/ ۱۸۱ طلبهم أن يكون الرسول ملكا و الرد عليهم ۲/ ۱۱۶- ۱۱۸ حجة المشركين يوم القيامة ۲/ ۱۲۴ وقوفهم على النار ۲/ ۱۲۵ الوعيد على عدم الإيمان باليوم الآخر بالعذاب؛ من حقه أن يتأخر عن الدنيا ۲/ ۴۸۷ يتركهم اللّه يتحيرون فى تطاولهم و طغيانهم ۲/ ۴۸۹ لا يرجون لقاء اللّه و لا يؤمنون باليوم الآخر ۲/ ۴۸۵ رضوا بالحياة الدنيا و غفلوا عن آيات اللّه فمأواهم النار ۲/ ۴۸۶ تزيين الشيطان للكفار قتل أولادهم خوفا من العيلة ۱/ ۲۸۹ و ۲/ ۱۸۸- ۱۸۹ يجادلون بالباطل، و يتخذون آيات القرآن لعبا و باطلا ۳/ ۳۵۲ جعل اللّه على قلوبهم أغطية و على آذانهم صمما ۳/ ۳۵۳ تهديدهم بالخسف و العذاب و هم خائفون و من حيث لا يشعرون ۳/ ۲۰۰- ۲۰۱ حوارهم مع الرسل ۳/ ۱۱۶- ۱۱۷ حوارهم مع الرسل و تهديدهم لهم بالإخراج من أرضهم ۳/ ۱۱۹ لو فتح اللّه عليهم بابا من السماء يصعدون فيه لقالوا أبصارنا مغلقة بل نحن مسحورون ۳/ ۱۴۸- ۱۵۰

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۸۵

ما ينتظرهم من عذاب جهنم و ما فيها من الصديد ۳/ ۱۲۰- ۱۲۱ أعمالهم يوم القيامة كالرماد لا يقدرون عليها و لا يجدون لها أثرا ۳/ ۱۲۲ لا يؤذن لهم يوم القيامة فيعتذرون، و لا يسترضون ۳/ ۲۲۵ هم و آلهتهم حطب جهنم، و لهم فى النار زفير و لكنهم لا يسمعون بعضهم لشدة الهول ۳/ ۵۰۸ احتجاجهم بأنهم أفضل حالا فى الدنيا من المؤمنين، و بيان أن اللّه أهلك من كان أثرى منهم و أغنى ۳/ ۴۱۱- ۴۱۲ يصدون عن السبيل و يصدون الناس عن الحج إلى المسجد الحرام ۳/ ۵۳۰ يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا و هم عن أمور الآخرة غافلون ۴/ ۲۴۷ كفرهم بلقاء اللّه فى الآخرة ۴/ ۲۴۷ يطبع اللّه على قلوبهم لأنهم لا يعلمون ۴/ ۲۶۸ فزعهم عند نزول الموت، و يوم القيامة لا مهرب لهم، و يؤخذون من قبورهم، و عندها يؤمنون، و لا إيمان لهم، و لا يقبل منهم ۴/ ۳۸۴- ۳۸۵ كفرهم فى الدنيا و رجمهم بالغيب، و حال اللّه بينهم و بين ما يشتهون ۴/ ۳۸۵- ۳۸۶ سخريتهم من الآيات، و لا يتعظون بموعظة، و قولهم عن القرآن سحر ۴/ ۴۴۶ ينكرون البعث ۴/ ۴۴۶ استبعادهم البعث بعد أن يمزقوا و يصيروا ترابا ۴/ ۳۵۹ نفوا إتيان الساعة بوجه من الوجوه، و القسم بإتيانها و بعثهم من قبورهم ۴/ ۳۵۸ لعنهم اللّه فى الدنيا و أعد لهم فى الآخرة نارا سعيرا خالدين فيها، لا حافظ لهم و لا ناصر ينصرهم ۴/ ۳۵۱ تبرؤهم من أسيادهم و زعمائهم و قادتهم، و طلبهم أن يضاعف لهم العذاب ۴/ ۳۵۲ إذا تليت عليهم آيات القرآن قالوا عن النبى بأنه رجل يريد أن يبعدهم عن أسلافهم و أصنامهم ۴/ ۳۸۱ ادعاؤهم أنّ ما جاء به محمد سحر و كذب مختلق ۴/ ۳۸۱ أضمروا الندامة على كفرهم لما رأوا العذاب ۴/ ۳۷۷ جعل اللّه القيود فى أعناقهم ۴/ ۳۷۷ لا نصير لهم و لا مخرج من النار ۴/ ۴۰۷ لا يزيدهم كفرهم عند اللّه إلا غضبا و بغضا، و لا يزيدهم إلا خسارة و نقصا، و هلاكا ۴/ ۴۰۷

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۸۶

جزاؤهم نار جهنم لا يموتون فيها، و لا يخفف عنهم العذاب، و يبدل اللّه جلودهم كلما نضجت، و يصيحون و يستغيثون، و يطلبون الخروج من النار ۴/ ۴۰۶ يوم القيامة ينطق اللّه أعضاءهم لتشهد عليهم ۴/ ۴۳۴ منحهم اللّه الحواس فما أحسنوا رعايتها ۴/

۴۳۴ اعتزلوا اليوم أيها الكفار المجرمون عن الصالحين ۴/ ۴۳۳ التهكم منهم بمقاساة حر النار التى كانوا بها يكذبون ۴/ ۴۳۳ أمرهم اللّه أن لا يعبدوا الشيطان الذى أضل و أغوى خلقا كثيرا قبلهم فما أطاعوا ۴/ ۴۳۳ تأخذهم صيحة إسرافيل و هم يختصمون فى بيعهم و شرائهم، و لا يستطيعون أن يوصوا، و لا يستطيعون أن يرجعوا إلى الدنيا ۴/ ۴۲۸- ۴۲۹ اشمئزازهم من ذكر اللّه، و استبشارهم بذكر آلهتهم ۴/ ۵۳۶ الكفار فى عزة عن قبول الحق و تكبر و تجبر ۴/ ۴۸۲- ۴۸۳ الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل من قبل، و نداؤهم الذى لم يفدهم حين نزول العذاب ۴/ ۴۸۲- ۴۸۳ تعجب الكفار من مجىء الرسول منذرا و قالوا عن معجزاته: سحر و عنه:

ساحر يجعل الآلهة إلها واحدا ۴/ ۴۸۲- ۴۸۳ الأشراف منهم يطلبون الصبر و الثبات على عبادة الأصنام ۴/ ۴۸۳ يقولون: إن هذا شىء يريده محمد بآلهتنا، و هو اختلاق لم تسمع به من قبل ۴/ ۴۸۴ تعجبهم من تخصيص الرسول بالذكر ۴/ ۴۸۴ الرد عليهم ببيان عجزهم و هزيمتهم و هلاك المكذبين ۴/ ۴۸۵ أهلك اللّه جميع المكذبين بالرسل ۴/ ۴۸۶- ۴۸۷ ما ينتظر هؤلاء الكفار إلا النفخة الكائنة عند قيام الساعة و التى لا رجعة بعدها و لا مصرف عنها ۴/ ۴۸۶- ۴۸۷ استعجالهم بالعذاب فى الحياة الدنيا ۴/ ۴۸۶- ۴۸۷ جعل اللّه فى أعناقهم قيودا و أغلالا تمنعهم من الإيمان و الإنفاق فهم مقحمون ۴/ ۴۱۴ إنذار الكفار و عدمه سواء ۴/ ۴۱۵ خسران أنفسهم و أهليهم ۴/ ۲۲۳ لهم فى النار أطباق من فوقهم و من تحتهم ۴/ ۲۲۳ الكفار هم المجرمون، و فى عذاب جهنم خالدون، و لا يخفف عنهم العذاب،

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۸۷

و هم آيسون من النجاة ۴/ ۶۴۷ ما ظلمهم اللّه و لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ۴/ ۶۴۷ نداؤهم على مالك خازن النار و الرد عليهم بأنهم فى العذاب مقيمون ۴/ ۶۴۷ طلبوا إنزال الملائكة لإخبارهم بصدق محمد ۴/ ۸۱ استكبارهم و عتوهم ۴/ ۸۲ يوم القيامة يرون الملائكة، لا بشرى يومئذ لهم، و يقولون: حجرا محجورا ۴/ ۸۲ الوعيد للكفار: بأن أعمالهم سيجعلها اللّه هباء منثورا ۴/ ۸۲ يتبعون أهواءهم، و لا أحد أضل ممن يتبع هواه ۴/ ۲۰۵ إنكارهم البعث بعد أن يصيروا ترابا ۴/ ۱۷۲ أعلنوا أن هذا الوعيد تكرر لآبائهم و ما هو إلا أحاديث و أكاذيب ۴/ ۱۷۲ يلجئون إلى اللّه إذا خافوا الغرق و يعودون للكفر عند النجاة ۴/ ۲۴۴ اللّه يفصل يوم القيامة بين الكفار و المؤمنين ۴/ ۲۹۶ تذكيرهم بما أهلك اللّه من قبلهم من أهل القرون ۴/ ۴۹۷ وصف الكفار بالمجرمين ۴/ ۲۹۱ يطأطئون رؤوسهم حياء و ندما يوم القيامة ۴/ ۲۹۱ طلب الكفار أن يرجعوا إلى الدنيا بعد أن صدقوا و زالت شكوكهم ۴/ ۲۹۱ رد اللّه على الكفار: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم عذاب جهنم الخالد ۴/ ۲۹۲ إنكارهم بعثهم بعد موتهم و ضلالهم فى الأرض، و كفرهم بلقاء اللّه ۴/ ۲۸۹ بعثهم بعد موتهم و ضلالهم فى الأرض، و كفرهم بلقاء اللّه ۴/ ۲۸۹ نهيه صلّى اللّه عليه و سلم عن أن يحزن على الكفار ۴/ ۲۷۸ ينبؤهم اللّه بأعمالهم، و يمتعهم اللّه فى الدنيا قليلا ثم يلجئهم إلى عذاب ثقيل ۴/ ۲۷۹ التقريع لكفار مكة لاتخاذهم الملائكة بنات اللّه، و هم يكرهون البنات و يرغبون فى الذكور ۴/ ۴۷۴- ۴۷۵

الكفار:

يجادلون فى اللّه بغير علم يقلدون ما كان عليهم آباؤهم يستجيبون للشيطان مع أنه يدعوهم إلى عذاب جهنم ۴/ ۲۷۸ أعمالهم كالسراب الخداع لا يجدون منها شيئا، و لا تفيدهم شيئا، و هى تشبه الظلمات فى بحر عميق فوقه أمواج و سحب ۴/ ۴۶- ۴۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۸۸

لا يصدقون بالبعث ۴/ ۱۴۵ يزين اللّه لهم أعمالهم السيئة فيرونها حسنة فهم يترددون فيها لهم فى الآخرة سوء العذاب و هم

الأخسرون ۴/ ۱۴۵ استعجالهم بالعذاب ۴/ ۲۴۰ تنادی علیهم الملائکة فی النار: بغض اللّه إیاکم فی الدنیا أشدّ من بغضکم أنفسکم الیوم اعترافهم بإماتة اللّه لهم مرتین، و إحیائهم مرتین یتساءلون هل بالإمکان خروجهم من النار؟ ۴/ ۵۵۴- ۵۵۵ سوق الکفار إلی جهنم جماعات فتح أبواب النار للکفار لیدخلوها ۴/ ۵۴۶ یخاصم الکفار فی دفع آیات اللّه، و بالباطل لإزالة الحق، و هم أصحاب النار ۴/ ۵۵۲ الکفار هم الذین کذبوا بالقرآن، یدخلون إلی جهنم و الأغلال فی أعناقهم، و یسحبون فی الحمیم المتناهی فی الحر ۴/ ۵۵۲ تسأل الملائکة الکفار عن آلهتهم و أصنامهم التی عبدوها من دون اللّه ۴/ ۵۷۴ نهی بعض الکفار الناس عن سماع القرآن، و اللغو فیه ۴/ ۵۸۹ طلبهم أن یروا من أضلهم من الجن و الإنس ۴/ ۵۹۰ الکفار فی شک من البعث ۴/ ۶۰۰ لیس للکفار کتاب قبل القرآن یحتجون به و یتمسکون به إنهم مقلدون لآبائهم و أجدادهم فی عبادتهم للأصنام المترفون فی کل أمة یقتدون بالآباء، و یقلدون تقلیدا أعمی، و لو جاءهم الرسول بأهدی و أفضل ۴/ ۶۳۱ و ۶۳۲ یأس الکفار من رحمة اللّه، و لهم عذاب ألیم ۴/ ۲۲۹ الکفار المنکرون للبعث یقولون: أ نرد فی قبورنا أحیاء بعد أن صرنا عظاما نخرة بالیة؛ إنها إذا لخسارة فادحة، و رجعة خاسرة ۵/ ۴۵۲- ۴۵۳ أعد اللّه للکفار سلاسل و قیودا و أغلالا و نارا تتسعر ۵/ ۴۱۷ وجوه الکفار یوم القیامة کالحة متغیرة تنتظر الشر و الهلاک ۵/ ۴۰۸ کفرهم بالبعث، و تسمیتهم الملائکة بنات اللّه، و اتباعهم الظنّ ۵/ ۱۳۴- ۱۳۵ بیان عناد الکفار، و کشف باطلهم بأن اللّه هو الخالق لهم، و عجزهم عن خلق أنفسهم، أو خلق السموات و الأرض، أو امتلاک خزائن أرزاق العباد

فتح القدیر، ج‏۶، ص: ۳۸۹

و مفاتیح الرحمة و عجزهم عن معرفة علم الغیب. هم الممکور بهم المجزیون بکیدهم ۵/ ۱۲۱- ۱۲۲ عرض الکفار علی النار و توبیخهم لما أذهبوا من طیباتهم و استمتاعهم بها فی الحیاة الدنیا ۵/ ۲۱ یوم القیامة یجازیهم اللّه بالعذاب و الذل و الهوان ۵/ ۲۶ لهم من اللّه أشد العذاب ۵/ ۷ ضلال الکفار فی إنکار البعث و إنکار الحیاة بعد الموت ۵/ ۱۱- ۱۲ اعتقاد الکفار بأن مرور الأیام تهلکهم (الدهریون) و حججهم الواهیة فی إنکار الآخرة ۵/ ۱۱- ۱۲ إسراع الکفار فی الجلوس إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم و ترکهم العمل بما یأمرهم به ۵/ ۳۵۱ التهکم من طمعهم فی دخول الجنة و الرد علیهم فی تکبرهم و طغیانهم ۵/ ۳۵۲ رد اعتذار الکفار عند دخول النار لقطع أطماعهم و آمالهم فی النجاة ۵/ ۳۰۲ تکذیبهم بالجزاء و الإسلام ۵/ ۴۷۹ إعراضهم عن التذکرة و تشبیههم بالحمر النافرة الهاربة من الرماة ۵/ ۴۰۰- ۴۰۱ تمادیهم فی العناد و اللجاج و الغرور ۵/ ۳۱۴ افتراؤهم الکذب علی اللّه ۵/ ۲۶۳ لا- یهدیهم اللّه لظلمهم ۵/ ۲۶۳ أرادوا إبطال القرآن و تکذیبه، و اللّه مظهره، و معلی شأنه ۵/ ۲۶۴ لو تمیز الکفار عن المؤمنین فی مکة لعذبهم اللّه بالقتل ۵/ ۶۴ فی قلوبهم أنفة الجاهلیة من الإقرار برسالة محمد صلّی اللّه علیه و سلم ۵/ ۶۴ کفار مکة منعوا المسلمین عام الحدیبیة من الطواف، و کان الهدی محبوسا فمنعوه أن یبلغ محله ۵/ ۶۳ من صفات الکفار: عدم إکرام الیتیم، و عدم إطعام المسکین، و أکل مال الیتیم، و حب المال کثیرا ۵/ ۵۳۴- ۵۳۷ ضحکهم من المؤمنین و تعییرهم بالإسلام، و اتهامهم بالضلال ۵/ ۴۸۸- ۴۸۹ رجوعهم إلی أهلهم متلذذین بما هم فیه من سخریة، و ضحک المؤمنین منهم یوم القیامة ۵/ ۴۸۹ وقوع الجزاء بهم یوم القیامة و ضحک المؤمنین منهم یکذب الکفار بالقرآن و یجعلون هذا التکذیب شکر رزقهم ۵/ ۱۹۴- ۱۹۷

فتح القدیر، ج‏۶، ص: ۳۹۰

توعدهم بعد الموت بالعذاب و بیان عجزهم فی رد الروح إلی الحلقوم بعد خروجها منه ۵/ ۱۹۴- ۱۹۷ تکذیب الکفار و اتباع أهوائهم رغم ما جاءهم من الأخبار عن الأمم الماضیة ما فیه انتهاؤهم و ازدجارهم عن الشر ۵/ ۱۴۶ زعم الکفار أنهم لن یبعثوا، و التأکید علی بعثهم و حسابهم یوم القیامة ۵/ ۲۸۲ یحبون الدار الدنیا و یترکون یوما شدیدا عسیرا ۵/ ۴۲۷ اللّه خلق الکفار و

قوى خلقهم و لو شاء لأهلكهم ۵/ ۴۲۸ كفار قريش صدوا أنفسهم و غيرهم ۵/ ۳۵ أبطل اللّه أعمالهم و جعلها ضائعة ۵/ ۳۶ الكفار يعاندون اللّه و رسوله و يحادونه ۵/ ۲۲۲- ۲۲۳ أذلهم اللّه فى الدنيا و أخزاهم و لهم عذاب مهين فى الآخرة، و يبعثهم اللّه من قبورهم و ينبئهم بما عملوا، أحصاه اللّه لهم، و نسوه ۵/ ۲۲۲- ۲۲۳ الذين كفروا و كذبوا بآيات اللّه هم أصحاب النار ۵/ ۲۰۸ توعد اللّه الكفار المكذبين بالهلاك، و دفعهم إلى النار دفعا، و تبكيتهم لما قالوا فى الدنيا: إن ما جاء به محمد سحر ۵/ ۱۱۵ الانحطاط و العثار للكفار ۵/ ۳۹ أضل اللّه أعمالهم و أحبطها، لكراهيتهم ما أنزل اللّه على رسوله ۵/ ۳۹ تذكيرهم ليعتبروا بما وقع للأمم الكافرة ۵/ ۳۹ التبرؤ من عبادتهم و مما يعبدون ۵/ ۶۱۸- ۶۲۱ أمر الكفار بالإيمان و الإنفاق و تقريعهم على ترك ذلك ۵/ ۲۰۰- ۲۰۱ المبطلون من الكفار قديما و حاضرا ۳/ ۱۹۱- ۱۹۲ أرسل اللّه الرياح فأتت على بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم ۳/ ۱۹۱- ۱۹۲ هزيمة الكفار يوم بدر ۵/ ۱۵۵- ۱۵۶ إعراض الكفار عما خرفوا به فى القرآن، و ضلالهم فى عبادة ما لا يسمع و لا يعقل ۵/ ۱۶- ۱۸ شمول الكفار و المنافقين و أهل الكتاب و المطعمين من المشركين يوم بدر ۵/ ۴۹- ۵۰ الكفار صدوا أنفسهم و غيرهم عن الإسلام و عادوا الرسول بعد ما تبينوا صدقه، فلن يضروا اللّه شيئا و سيبطل أعمالهم ۵/ ۴۹- ۵۰ الكافرون اختصموا و كفروا، يقضى اللّه بهم إلى النار، و يقطع لهم ثيابا من

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۹۱

نار، و يصب من فوق رؤوسهم الزيت المغلى، و لهم مقامع من حديد يضربون بها ۵/ ۵۲۷- ۵۲۸

۴- المشركون:

الأمر بقتالهم إن نقضوا العهد ۲/ ۳۸۹ و ۳۹۱ لا أيمان لهم ۲/ ۳۹۰ عدم الركون إلى المشركين ۲/ ۶۰۳ هم نجس، منعهم من الاقتراب من المسجد الحرام ۲/ ۳۹۹- ۴۰۰ هل يمنع كل مشرك من دخول المساجد ۲/ ۳۹۹- ۴۰۰ كيف يكون لهم عهد؟ ۲/ ۳۸۷- ۳۸۸ الوفاء بعهد من عاهدتم عند المسجد الحرام (قريش) ما داموا مستقيمين على العهد ۲/ ۳۸۷- ۳۸۸ لو غلبوا لا يرقبون من مؤمن عهدا و لا ذمة ۲/ ۳۸۷- ۳۸۸ الوفاء بعهدهم بشرط أن لا ينقضوه و أن لا يظاهروا على المسلمين أحدا ۲/ ۳۸۴- ۳۸۵ ينقضى العهد بانتهاء الأشهر الحرم ۲/ ۳۸۶ التبرؤ من المشركين، و إمهالهم أربعة أشهر ۲/ ۳۷۹- ۳۸۰ انتهاء عهدهم، و قتالهم، و منعهم من الحج و الطواف بالبيت بعد تبليغهم مطلع سورة براءة ۲/ ۳۸۱ بيان ضلال المشركين فى عبادة الشركاء الذين لا يسمعون، و لا يتكلمون و لا أنفسهم ينصرون ۲/ ۳۱۶- ۳۱۷ احتجاج المشركين بالقدر سخرية ۳/ ۱۹۵ المشرك فى جهنم ملوم مدحور ۳/ ۲۷۴ أنكر المشركون النبوة طالبين من الرسول إنزال ملك عليهم ۳/ ۱۹۵- ۱۹۶ رد اللّه عليهم بالوعيد، و إنزال الملائكة بالعذاب ۳/ ۱۹۷ يقرنهم اللّه مع بعضهم و مع شياطينهم فى القيود ۳/ ۱۴۲ قمصانهم فى جهنم من قطران. و النار تغشى وجوههم ۳/ ۱۴۳ خزاعة و كنانة من العرب يقولون الملائكة بنات اللّه، و كراهيتهم البنات ۳/ ۲۰۶- ۲۰۸ و أد البنات ۳/ ۲۰۸ يتخلى الشركاء عن أتباعهم يوم القيامة، و يجعل اللّه بينهم حاجزا، و يرون النار، و لن يجدوا عنها مهربا ۳/ ۳۵۰- ۳۵۱

فتح القدير، ج‌۶، ص: ۳۹۲

توبيخ المشركين و تقريعهم على عبادة الأصنام كاللات و العزى و مناة ۵/ ۱۳۰- ۱۳۲ الاستهزاء من جعلهم الآلهة إناثا و بنات للّه مع حبهم للذكور ۵/ ۱۳۲ تكذيب الأمم قبلهم برسلهم ۵/ ۸۶ تخويف المشركين فى مكة مما اتفق للقرون الماضية ۵/ ۹۴ أقوالهم المتناقضة و المختلفة فى محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۹۹ المكذبون فيما ادعوه على محمد صلّى اللّه عليه و سلم من الكهانة و السحر ۵/ ۱۰۰ غفلتهم و جهلهم عن أمور الآخرة ۵/ ۱۰۰ يكذبون بيوم الدين و يتساءلون عنه مكذبين ۵/ ۱۰۰ عرضهم

على النار و تعذيبهم، و كانوا فى الدنيا كذبوا بها و استعجلوا العذاب ۵/ ۱۰۰ تخصيص بعضهم بالذم و تقريعه بجهله للغيب، و ما فى صحف موسى- التوراة- من العذاب و الانتقام منه و من عمله ۵/ ۱۳۶- ۱۳۷ ضرب اللّه لهم مثلا- هل لهم شركاء من ما ملكت أيمانهم فيما رزقهم اللّه؟

فكيف إذن يجعلون للّه شركاء و أندادا؟! ۴/ ۲۵۷- ۲۵۸ إنكارهم البعث و عدم اعترافهم إلا بالموتة الأولى و عدم الانتشار بعدها ۴/ ۶۶۰ إقرارهم بأن اللّه خالق للسموات و الأرض، و يعبدون غيره ۴/ ۶۲۷ ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بالبعث ۴/ ۶۲۲ يسأل المشركون عن إمكان الرجعة إلى الدنيا ۴/ ۶۲۲ يعرض المشركون على جهنم أذلاء ينظرون إليها من طرف ذليل ۴/ ۶۲۲ خسروا أنفسهم و أهلهم ۴/ ۶۲۲ هم فى عذاب دائم لا- ينقطع ۴/ ۶۲۲ تبكيتهم و توبيخهم: بأن اللّه ذلل لهم ما فى السموات و ما فى الأرض و أتم عليهم نعمه الظاهرة و الباطنة ۴/ ۲۷۷ اعترافهم بأن اللّه خالقهم و مع ذلك يصرفون عن عبادته ۴/ ۶۵۰ وصفهم: بأنهم جاهلون، و أنهم سوف يعلمون ۴/ ۶۵۱ قالوا إن ندخل فى دينك يا محمد يتخطفنا العرب من أرضنا، يرد اللّه على المشركين بأن اللّه مكن لهم حرما آمنا، تجبى إليه الأرزاق و الثمرات ۴/ ۲۰۶- ۲۰۷ يعذب اللّه فى الدنيا و الآخرة المشركين و المشركات ۵/ ۵۴ حكم و مصير أولاد المشركين يوم القيامة ۳/ ۲۵۸- ۲۵۹

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۹۳

۵- المنافقون:

يعيب المنافقون على رسول اللّه فى الصدقات، إن أعطوا رضوا و إن منعوا سخطوا ۲/ ۴۲۴- ۴۲۵ قال المنافقون بحقّ محمد صلّى اللّه عليه و سلم: هو أذن، فردّ اللّه عليهم: بأنه أذن خير، و توعد بالعذاب الأليم كلّ من يؤذى رسول اللّه، و بيّن لهم خطر معاداة اللّه و رسوله، و فضح أهواءهم و استهزاءهم ۲/ ۴۲۸- ۴۳۱ المنافقون بعضهم من بعض ذكورا و إناثا و من صفاتهم:

يحلفون كاذبين ينهون عن المعروف بخلاء أشحاء ۲/ ۴۳۲- ۴۳۳ مشابهة المنافقين لغيرهم من الكفار و المنافقين ۲/ ۴۳۴ المنافقون يظلمون أنفسهم، و عذابهم محقق ۲/ ۴۳۴ قولهم كلمة الكفر ۲/ ۴۳۶ همّ المنافقون بقتل الرسول و مبايعة عبد اللّه بن أبى بالملك ۲/ ۴۳۶ إن يتوبوا يك خيرا لهم و إن يعرضوا فلهم عذاب أليم فى الدنيا و الآخرة ۲/ ۴۳۷ نقضهم العهود فى الاستقامة و الصلاح و الإنفاق ۲/ ۴۳۸ أعقبهم اللّه نفاقا متمكنا فى قلوبهم بسبب إخلافهم مع اللّه، و اللّه يعلم سرهم و نجواهم ۲/ ۴۳۹ يعيب المنافقون على المسلمين تطوعهم بالصدقات، و يسخرون من المؤمنين و المصدقين، و سخرية اللّه منهم جزاء على عملهم ۲/ ۴۳۹- ۴۴۰ ليسوا أهلا للاستغفار، و استغفار الرسول لهم و عدمه سواء، و إن استغفر لهم سبعين مرة لن يغفر اللّه لهم، و السبب فى ذلك هو كفرهم باللّه و رسوله ۲/ ۴۴۱ فرح المشركين بالتخلف عن رسول اللّه و القعود عن الجهاد بالمال و النفس، و قالوا: لا تنفروا فى الحر، و الرد عليهم بأن نار جهنم أشد حرا ۲/ ۴۴۲- ۴۴۳ منع المتخلفين من الخروج إلى الجهاد بعد تخلفهم أول مرة عقوبة لهم ۲/ ۴۴۲ تخلف المنافقين عن الجهاد لا يضر ۲/ ۴۴۵ المنافقون خارج المدينة هم الأعراب، و هم أشد كفرا و نفاقا، يتربصون بالمسلمين الدوائر، و يعتبرون ما ينفقونه فى سبيل اللّه خسارة ۲/ ۴۵۷ من الأعراب منافقون، و من أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق و ثبتوا عليه ۲/ ۴۵۲- ۴۵۳

فتح القدير، ج‏۶، ص: ۳۹۴

اعتذارهم الباطل و كشف اللّه تعالى أخبارهم و سترهم ۲/ ۴۴۶ إنهم رجس، و أيمانهم كاذبة، و مأواهم جهنم ۲/ ۴۵۰ يقولون آمنا باللّه و بالرسول و أطعنا ثم يتولون و يعرضون ۴/ ۵۲ يعرضون عن حكم اللّه و رسوله إلا- إذا كان فى صالحهم ۴/ ۵۳ فى

قلوبهم مرض و هم ظالمون ۴/ ۵۳ المنافقون الذين اتخذوا مسجد الضرار، أرادوا الكفر، و التفريق بين المؤمنين، و الإضرار بالمؤمنين ۲/ ۴۵۸- ۴۵۹- ۴۶۱ الإعداد لحرب اللّه و رسوله ۲/ ۴۵۸- ۴۵۹ و ۴۶۱ آيات اللّه تزيد المنافقين كفرا و رجسا ۲/ ۴۷۵ موقفهم المتردد من الخروج إلى الجهاد ۴/ ۵۵ طاعتهم و لو أقسموا عليها معروفة بالتلون ۴/ ۵۵ المنافق إذا أوذى فى اللّه رجع عن الدين فكفر ۴/ ۲۲۴ اللّه قادر على تمييز نفاقهم بعلمه ۴/ ۲۲۴ و لا يأتون الحرب، و هم أشحة و بخلاء فى الخير، و إذا جاء الخوف تدور أعينهم جبنا و إذا ذهب الخوف أغلظوا للمسلمين القول ۴/ ۳۱۰- ۳۱۱ إرجاف المنافقين بذكر الأخبار الكاذبة لتوهين جانب المسلمين ۴/ ۳۵۰ تسليط الرسول عليهم إن أصروا على موقفهم، بقتلهم و أخذهم ۴/ ۳۵۱ سنة اللّه فى الأمم الماضية لعن المنافقين ۴/ ۳۵۱ استماعهم للرسول صلّى اللّه عليه و سلم و استهزاؤهم بما قاله بعد خروجهم ۵/ ۴۲ ختم اللّه على قلوبهم، فاتبعوا أهواءهم و رغباتهم ۵/ ۴۴ ارتدادهم إلى الكفر بعد الإيمان ۵/ ۴۷ طاعتهم للمشركين فى بعض أمورهم ۵/ ۴۷ يعذب اللّه المنافقين فى الدنيا و الآخرة ۵/ ۵۴ تولى المنافقين اليهود، و نصرهم، و هم ليسوا من المؤمنين و لا من اليهود ۵/ ۲۲۹- ۲۳۰ يحلفون على الكذب و جعلوا من إيمانهم بلسانهم وقاية و حماية لهم ۵/ ۲۲۹- ۲۳۰ يبعدون عن دين اللّه بسبب تثبيطهم، و أعد اللّه لهم العذاب المهين ۵/ ۲۳۰ لا تفيدهم أموالهم و لا أولادهم من اللّه شيئا ۵/ ۲۳۱ المنافقون هم أصحاب النار لا تفيدهم أيمانهم و لا كذبهم يوم القيامة، و هم حزب الشيطان ۵/ ۲۳۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۹۵

حلف المنافقون لإخوانهم من أهل الكتاب أنهم معهم و سيخرجون معهم فى حال طردهم من المدينة ۵/ ۲۴۲- ۲۴۳ كذبهم فى حلفهم و قعودهم عن نصرة أهل الكتاب، و يرهبون المؤمنين ۵/ ۲۴۵ حضور المنافقين مجلس رسول اللّه، و هم عبد اللّه بن أبى و أصحابه ۵/ ۲۷۴- ۲۷۵ حلفهم: أنّ محمدا رسول اللّه، و اللّه يشهد أنهم لا يعتقدون ذلك، و علمه تعالى ببواطنهم ۵/ ۲۷۴- ۲۷۵ صدوا بنفاقهم عن سبيل اللّه ۵/ ۲۷۵ ختم اللّه على قلوب المنافقين هيئاتهم و مناظرهم تدل على نضارة و رونق ظاهرى فصاحة أقوالهم كأنهم خشب مسندة فى عدم العلم و الفهم، و هم جبناء رعاديد إعراضهم و استكبارهم ۵/ ۲۷۵- ۲۷۸ المنافقون تتوفاهم الملائكة ضاربين وجوههم و أدبارهم، فيموتون على أشنع حال سيخرج اللّه يوم القيامة أضغان المنافقين و أحقادهم من صدورهم و يظهرها لو أراد اللّه لجعل للمنافقين علامة يعرفون بها، و تركهم يعرفون من فحوى كلامهم و مغزاه ۵/ ۴۷- ۴۸

۶- الأعراب و موقفهم:

الأعراب أشد كفرا و نفاقا، و يعتبرون ما أنفقوا خسارة، و يتربصون بالمسلمين الدوائر ۲/ ۴۵۰- ۴۵۲ منهم المؤمنون الذين ينفقون فى سبيل اللّه و يعتبرون ذلك قربات ۲/ ۴۵۱- ۴۵۲ الذين تخلفوا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حين خروجه إلى الحديبية، اعتذروا بمشاغل الأموال و الأهل ۵/ ۵۷- ۵۸ ظنهم أن العدو يستأصل المؤمنين فلا يرجع منهم أحد إلى أهله ۵/ ۵۷- ۵۸ المخلفون طلبوا أن يخرجوا إلى خيبر و نهى الرسول لهم بأمر اللّه من الخروج ۵/ ۵۷- ۵۸ بنو أسلم أظهروا الإسلام خوفا و ادعوا الإيمان، فأمر الرسول صلّى اللّه عليه و سلم بالرد عليهم و إفهامهم أن الإيمان تصديق و عمل ۵/ ۷۹- ۸۲ المخلفون سيدعون إلى قتال قوم أولى بأس و قوة، يقاتلونهم أو يسلمون، و جزاؤهم الغنيمة فى الدنيا و الجنة فى الآخرة إن أطاعوا ۵/ ۶۰- ۶۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۹۶

۷- الكفار المشركون:

يوقفهم اللّه يوم القيامة و يفرق بينهم و بين ما عبدوا فى الدنيا من شركاء، فيتبرأ الشركاء منهم و من عبادتهم، و يشهدون اللّه على ذلك ۲/ ۵۰۰ الحجج الدامغة لهم من أحوال الرزق، و الحواس، و الموت، و الحياة، و الابتداء، و الإعادة، و الإرشاد، و الهدى ۲/ ۵۰۴- ۵۰۷ يعبدون ما لا يضرهم و لا ينفعهم، و يقولون: هؤلاء الآلهة شفعاؤنا ۲/ ۴۹۲- ۴۹۳ من مخازيهم: أنهم طلبوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم آية (معجزة) و لم يعتبروا بما جاء به عنادا و مكرا ۲/ ۴۹۳ أمر اللّه رسوله أن يتوعدهم بانتظار قضاء اللّه فيهم ۲/ ۴۹۴ مكرهم بآيات اللّه بعد نزول رحمة اللّه عليهم ۲/ ۴۹۴ القرآن يرد عليهم على لسان رسوله صلّى اللّه عليه و سلم عند ما طلبوا تغيير القرآن و تبديله، و هذا افتراء على اللّه ۲/ ۴۹۱ الافتراء على اللّه ظلم لا مثيل له، و إجرام لا فلاح بعده ۲/ ۴۹۲ ثباتهم على الكفر، و عنادهم حتى تأتيهم البينة ۵/ ۵۷۷ استمرار الكفار المشركون على عبادة الأوثان بعد مجىء البينة، و دخولهم النار و خلودهم فيها بكفرهم، و هم شر الخلق ۵/ ۵۷۷- ۵۸۸

۸- متفرقات:

اشارة

حكم لعن كافر معيّن، جواز لعن الكفار و عدم جواز لعن العاصى ۱/ ۱۸۷ جواز الجهر بالسوء كمن ظلم ۱/ ۶۱۲ خداع المنافقين و تذبذبهم ۱/ ۶۱۱ مرض المنافقين فى فساد عقيدتهم و شكهم ۱/ ۴۹- ۵۰ سنة المنافقين ۱/ ۵۱ المعنى اللغوى للسفهاء ۱/ ۱۶۸ و ۱۷۴ مصير المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ۱/ ۶۱۱ بشارة المنافقين بالعذاب الأليم ۱/ ۶۰۶ نهى أهل البدع قد يزيدهم وقوعا فى الباطل ۲/ ۱۷۱- ۱۷۲ يسوق اللّه المجرمين إلى النار عطاشا ۳/ ۴۱۶

الشاک فى دينه:

يعبد اللّه على شك و قلق فى دينه، فإن أصابه خير اطمأن، و إن أصابه ابتلاء

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۹۷

ارتد و رجع إلى الكفر خاسرا الدنيا و الآخرة و يدعو من دون اللّه و يعبد مالا يضره و لا ينفعه ۳/ ۵۲۲- ۵۲۳ قتل الأولاد خشية الفاقة من عادة بعض المشركين العرب فى الجاهلية ۲/ ۲۰۳- ۲۰۴ كراهية المشركين للأنثى و كيف يسود وجه أحدهم عند ما يبشر بها ۴/ ۶۲۹ لا يجحد بآيات اللّه إلا كل غدار كفور ۴/ ۲۸۲ التحذير من مخالفة أحكام اللّه، و قد حاسب اللّه أهل كثير من القرى، و عذبهم بسبب عتوهم و عصيانهم ۵/ ۵۹۴

الإفک:

معناه الذين جاءوا به و اتهموا عائشة هو خير لما تضمنه من براءة عائشة لكل من شارك فيه نصيبه من الحد و الإثم الذى تولى كبره عبد اللّه بن أبى ۴/ ۱۴- ۱۵ الذين يحبون انتشار الفاحشة فى المجتمع الإسلامى لهم من اللّه عذاب أليم فى الدنيا و الآخرة موقف المؤمنين من الإفک خطورة الإفاضة فيه و القول باللسان من غير علم النصح بعدم العودة إلى مثل ذلک الذى يتهم

الآخرين بالفاحشة يطالب بأربعة شهود على ما يدّعى ۴/ ۱۷- ۱۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۹۸

يوم القيامة

اشارة

۱- الساعة.

۲- البعث.

۳- الحشر.

۴- يوم القيامة.

۵- الآخرة.

۶- اليوم الآخر.

۷- متفرقات.

فتح القدير، ج۶، ص: ۳۹۹

۱- الساعة:

اليهود- و قيل قريش- يسألون عن وقتها لا تأتى إلا غفلة علمها عند اللّه يسألون رسول اللّه كأنه مستقص و مستكثر للسؤال عنها ۲/ ۳۱۱- ۳۱۴ كـذّب بها الكفار، و أعـد اللّه لمن كذب بها جهنم تستعر، و لها تغيظ و زفير ۴/ ۷۵- ۷۶ السؤال عنها، و الإشارة إلى قربها ۳/ ۳۵۱ إنكار الكفار لوقوعها، و القسم بأنها آتية ۴/ ۳۵۸ تأتى بغتة فتحير الكفار و لا يستطيعون ردها ۳/ ۳۸۴ و ۵/ ۴۳ زلزلة الساعة شيء عظيم ۳/ ۵۱۶- ۵۱۷ يوم ترونها تنشغل كل مرضعة عن رضيعها و تضع كل ذات حمل حملها، و ترى الناس كأنهم سكارى ۳/ ۵۱۶- ۵۱۷ لا شك فى مجيء الساعـة ۴/ ۵۷۰ يوم تقوم الساعة يخسر المكذبون و الكافرون ۵/ ۱۲ لا شك فى وقوعها ۵/ ۱۴ قول الكفار: أي شـيء هى؟ كفرا و تكبرا و عنادا ۵/ ۱۴ جاءت و وقعت أماراتها و علاماتها، و منها: بعثة النبى صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۴۴ اقتراب الساعة ۵/ ۱۴۲ لا يقـدر على كشف وقت الساعة إلا اللّه ۵/ ۱۴۲ اقتراب الساعة بعد انشقاق القمر ۵/ ۱۴۴ و ۱۴۹ موعـد عذاب الكفار الأخروى و عذاب الساعة أعظم و أفظع ۵/ ۱۵۵ السؤال عن وقوعها و قيامها ۵/ ۴۵۹- ۴۶۱ لا يعلمها إلا اللّه ۵/ ۴۵۹- ۴۶۱ الرسول صلّى اللّه عليه و سلم ليس فى شـيء من علمهـا و ذكراهـا إنمـا مهمته إنـذار من يخشاها ۴/ ۶۴۹ و ۵/ ۴۵۹- ۴۶۱ بعـد وقوع الساعـة يرى الناس أنهم ما لبثوا فى الـدنيا إلا قليلا ۵/ ۴۵۹- ۴۶۱ لا أحد يسأل عن الساعـة إلا اللّه ۴/ ۵۹۷ الـذين يخاصـمون فيها مخاصـمة شك و ريبـة هم فى ضـلال كبير عن الحق ۴/ ۶۰۹ تأتى الساعـة بغتة و الناس لا يشعرون ۴/ ۶۴۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۰۰

۲- البعث:

فتح القدير ج۶ ۴۶۶

أصله: الإثارة ۱/ ۱۰۴ قدرة اللّه على البعث ۲/ ۱۱۳- ۱۱۴ تكذيب الكفار بالبعث لعدم تصورهم له بعد أن يصيروا ترابا ۳/ ۸۱ الرد على منكرى البعث بأن اللّه خلقهم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، و هو الذى يقر فى الأرحام ما يشاء، ثم الولادة و البلوغ و الحياة و الموت ۳/ ۵۱۷- ۵۱۸ إقامة الحجة على منكرى البعث بالأرض الهامدة التى تنبت الزرع بعد نزول المطر ۳/ ۵۱۹ إزالة الجبال من أماكنها، و تسييرها كالسحاب عند البعث ۳/ ۳۴۷

۳- يوم القيامة:

اشارة

تفتح السماء و تشققها بالغيوم و السحب ينزّل اللّه فيه الملائكة الملك يومئذ للّه ذلك يوم عسير على الكفار يعض الظالم على يديه ندما و حسرة ۴/ ۸۴- ۸۵ حين تقوم الساعة تنقطع حجة الكفار المجرمين ۴/ ۲۵۱- ۲۵۲ يتفرق المشركون عن آلهتهم فلا شافع لهم ۴/ ۲۵۱- ۲۵۲ الاستدلال على البعث بالشجر الأخضر يقدح منه النار ۴/ ۴۴۰- ۴۴۱ قدرة اللّه فى خلق السماوات و الأرض- و هما فى غاية العظم- قادرة على خلق الناس من جديد، و إنما شأنه أن يقول للشيء كن فيكون بيده سبحانه ملكوت كل شيء، و إليه يرجع الناس للحساب ۴/ ۴۴۰- ۴۴۱ يوم القيامة تسود وجوه الكفار المكذبين ۴/ ۵۴۱ استبعاد الكفار للرجعة بعد الموت ۵/ ۸۴- ۸۵ الرد عليهم بأن اللّه قادر على بعثهم و هو يعلم ما تنقص الأرض منهم و عنده كتاب حفيظ بأسمائهم ۵/ ۸۴- ۸۵ يوم القيامة يحشر المشركون و ما يعبدون من دونه ۴/ ۷۸ يدعو اللّه يوم القيامة كل أناس بإمامهم

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۰۱

كل من يعطى كتابه بيمينه يقرؤه و لا يظلم شيئا من كان فى الدنيا فاقد البصيرة فهو كذلك فى الآخرة ۳/ ۲۹۴- ۲۹۵ يعرض اللّه جهنم للكافرين حتى يشاهدوها بأبصارهم تهديدهم بما اتخذوا من عباد اللّه شركاء هم الأخسرون أعمالا فى الآخرة، بكفرهم و نفاقهم لا وزن لهم يوم القيامة و لا قيمة ۳/ ۳۷۳- ۳۷۴ اقتراب القيامة للحساب، و الناس فى غفلة. و قد كانوا يأتيهم القرآن، فيستمعون له و هم يلعبون، و قلوبهم لاهية ۳/ ۴۷۰- ۴۷۱ يقضى اللّه و يفصل بين المؤمنين، و اليهود، و الصابئين، و النصارى، و المجوس، و المشركين، فيدخل المؤمنين الجنة، و الكافرين، و أشباههم النار ۳/ ۵۲۵- ۵۲۶ تنقطع الأنساب يوم القيامة و لا يسأل بعضهم بعضا من ثقلت موزوناته و أعماله فهو الفائز من خفت موزوناته و أعماله فهو الخاسر ۳/ ۵۹۱- ۵۹۶ يوم القيامة كألف سنة مما يعد الناس فى الدنيا ۳/ ۵۴۷

فى يوم القيامة:

يحشر اللّه من كل أمة جماعة، و هو حشر العذاب بعد الحشر الكلى لجميع الناس ۴/ ۱۷۷- ۱۷۹ تقريرهم: أنهم كذبوا و ظلموا ۴/ ۱۷۷- ۱۷۹ ينفخ فى الصور فيخاف و يجيب و يسرع كل من فى السماوات و الأرض ۴/ ۱۷۷- ۱۷۹ الجبال تسير سيرا حثيثا كسير السحاب ۴/ ۱۷۷- ۱۷۹ يوم القيامة تفتت الجبال فتصبح كالغبار المتفرق ۴/ ۱۷۷- ۱۷۹ من جاء بالحسنة فله خير منها، و من جاء بالسيئة فكبّت وجوههم فى النار ۴/ ۱۷۷- ۱۷۹ يوم القيامة يصنف الناس أصنافا ثلاثة: أصحاب الميمنة (إلى الجنة)، أصحاب

المشأمة (إلى النـار) السابقون السابقون و هم المقربون (فى جنات النعيم) ۴/ ۱۷۷- ۱۷۹ فى يوم القيامة يتفرق الناس، أهل الجنة يصـيرون إلى الجنة و أهل النار يصيرون إلى النار ۴/ ۲۶۴ يوم القيامـة لا ينفع الذين ظلموا اعتذارهم و لا يدعون إلى إزالة عتبهم ۴/ ۲۶۷ يوم القيامة هو يوم الفتح ۴/ ۲۹۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۰۲

يوم القيامـة لاـ ينفع الكفـار إيمـانهم، و لا يمهلون ۴/ ۲۹۸ سؤال المشـركين عن قيـام الساعـة، و إخبـارهم أنه ميعاد مضـروب لا يتـأخرون عنه و لاـ يتقـدمون ۴/ ۳۷۶ دعـاء الكفـار بالويـل على أنفسـهم، لمـا عـاينوه هو يوم الفصـل (الحكم و القضاء) يحشـر الظالمون المشركون و أزواجهم ۴/ ۴۴۸ خروج الناس من قبورهم للحساب و بروزهم بلا ساتر الملك يومئذ للّه خالصا بلا منازع العدل الإلهى التام و نفى الظلم ۴/ ۵۵۶ جمع أعداء اللّه إلى النار، حيث يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا عند ما يصـلون إلى النـار تشـهد عليهم حواسـهم بما كانوا يعملون من معاصـى. عتابهم لجلودهم، ورد الجلود: بأن اللّه أنطقها ۴/ ۵۸۶- ۵۸۷ هو يوم الفصـل بين الحق و الباطـل و هو ميقـاتهم أجمعين يوم لاـ ينفع قريب قريبـا و لا يـدفع عنه شـيئا ۴/ ۶۶۱ فى يوم القيامـة كل أمة مجتمعـة متميزة عن غيرها، و تـدعى إلى كتابها المنزل عليها. هو يوم الجزاء حيث يقرأ الناس صـحف أعمالهم الناطقـة بالحق ۵/ ۱۲- ۱۳

من أحوال القيامة:

نـداء إسـرافيل (و هو الصـيحة) الخروج من القبور بعـد تشـقق القبور مسـرعين مجيبين المنادى ۵/ ۹۵- ۹۷ القسم بجبـل الطور و الكتاب المسـطور، و البيت المعمور، و السـماء، و البحر المسـجور: أن عذاب اللّه واقع لا محالة ۵/ ۱۱۴- ۱۱۵ تتحرك السماء، و تزول الجبال عن أماكنها، و تسـير عن مواضعها ۵/ ۱۱۶- ۱۱۷ الداعى يدعوهم يوم القيامة إلى أمر فظيع ۵/ ۱۴۶- ۱۴۷ خروجهم من القبور خاشـعين أذلاء مسرعين ۵/ ۱۴۶- ۱۴۷ اعتراف الكفار بأنه يوم عسير ۵/ ۱۴۶- ۱۴۷ علامات يوم القيامة ۲/ ۲۰۷- ۲۰۸ انشـقاق السـماء يوم القيامـة و نزول الملائكة لا يسأل الإنس و الجن عن ذنوبهم بل يعرفون بسـيماهم فيؤخذ بالنواصـى و الأقدام إلى النار ۵/ ۱۶۵- ۱۶۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۰۳

الواقعـة (القيامـة) كائنـة لا محالـة و هى (واقعـة) لقرب وقوعها لا يكون تكذيب عند وقوعها تخفض أقواما فى عذاب اللّه و ترفع أقواما فى طاعـة اللّه ۵/ ۱۷۶- ۱۷۷ يـوم القيامـة هو يوم التغـابن و يوم الجمع ۵/ ۲۸۲- ۲۸۳ تسـاؤل الكفار عن وقت يوم القيامة اسوداد وجوههم لمـا رأوه، و توبيخهم على إنكاره ۵/ ۳۱۵- ۳۱۶ انكشاف الساق و ظهور شدة الأمر سـجود الخلق كلهم و عدم اسـتطاعة الكفار و المنافقين ذلك و هم أذلاء صاغرون ۵/ ۳۲۸- ۳۳۱ من أسـماء يوم القيامة: الحاقة معنى الحاقة من أسماء يوم القيامة القارعة ۵/ ۳۳۳- ۳۳۴ وقوع يوم القيامة النفخة الأولى فى الصور دك الأرض و الجبال و انشقاق السماء نزول الملائكة، و حملـة العرش يومئذ ثمانية عرض البشـر للحساب ظاهرين بأعمالهم ۵/ ۳۳۶- ۳۳۸ السؤال عن العـذاب الواقع فى يوم القيامـة و لا يـدفع العـذاب الواقع فيه أحـد تعرج الملائكـة فيه إلى اللّه مقـداره خمسون ألف سـنة ۵/ ۳۴۴- ۳۴۵ يوم القيامـة تكون السـماء كالنحاس المـذاب، و الجبال كالصوف المصـبوغ، شـدة أهواله، و اهتمام كلّ إنسان بشأنه و لا يسأل أحد نصـرته ۵/ ۳۴۶- ۳۴۹ خروج النـاس يوم القيامـة من الأجـداث مسـرعين أبصار الكفار لا ترتفع، و تغشاهم ذلـة شديـدة ۵/ ۳۵۳- ۳۵۴ يوم القيامـة تهتز الأرض و الجبال و تصـبح رملا سائلا تشيـب رؤوس الأطفال من هوله و شدته و تنفطر السـماء و تتشقق من عظمته و شدة أهواله

۵/ ۳۸۲- ۳۸۳ النفـخ فی الصور یوم القیامهٔ و هو یوم هائل و عسـیر یلقی الناس فیه عاقبهٔ أمرهم ۵/ ۳۹۰- ۳۹۱ القسم بیوم القیامهٔ السؤال عن یوم القیامهٔ سؤال استبعاد

فتح القدیر، ج۶، ص: ۴۰۴

عند وقوع الموت بعد النفخهٔ الأولی و ذهب ضوء الشـمس و القمر یعلم الإنسان أن لا مفر من اللّه ۵/ ۴۰۲- ۴۰۵ یوم القیامهٔ تنظر وجوه المؤمنین إلی ربها الکفار محرومون من هذا النظر و وجوههم کالحهٔ متغیرهٔ ۵/ ۴۰۶- ۴۰۹ القسم بالریاح أو بالملائکهٔ علی وقوع یوم القیامـهٔ من علامـات یوم القیامـهٔ ذهـاب ضوء النجوم، و اقتلاـع الجبال، و جعل وقت للفصل و القضاء بین الرسل و بین أممهم ۵/ ۴۰۶- ۴۰۹ یوم الفصل، و الهلاک فیه للمکذبین ۵/ ۴۳۱- ۴۳۲ یوم القیامهٔ هو یوم الفصل، هو مجمع و میعاد الأولین و الآخرین النفخهٔ الأولی تسبق البعث، و إتیان الناس زمرا زمرا انفتاح السماء لنزول الملائکهٔ تفصیل أحکام یوم الفصل و نتائجه ۵/ ۴۳۹- ۴۴۴ یوم القیامهٔ هو الیوم الحق و العمل الخیر یقرب من اللّه و العمل الشـریر یبعد عنه العذاب فی الآخرهٔ قریب کل إنسان یشاهد ما قدّمه من خیر أو شر الکافر یتمنی أن یصبح ترابا لما یشاهده من العذاب ۵/ ۴۴۶- ۴۴۷ یتقدم یوم القیامهٔ و یسبقه نفخهٔ الصور الأولی و هی الراجفـهٔ، ثم نفخـهٔ الصور الثانیـهٔ و هی الرادفـهٔ القلوب خائفهٔ و جلهٔ، و الأبصار ذلیلهٔ خاضـعهٔ ۵/ ۴۵۱- ۴۵۲ تجیء قبل یوم القیامـهٔ مباشـرهٔ الداهیهٔ العظمی؛ التی تطم علی سائر الطامات، و هی النفخهٔ الثانیهٔ فی الصور ۵/ ۴۵۷- ۴۶۰ یتذکر الإنسـان مـا فیه ما عمل ۵/ ۴۵۷- ۴۶۰ إبراز جهنم للطغـاهٔ، و هی مـأواهم، و الجنـهٔ مـأوی من خـاف مقام ربه ۵/ ۴۵۷- ۴۶۰ یوم القیامهٔ ینسف اللّه الجبال حتی تصـبح أرضا مسـتویهٔ تخشع الأصوات للّه فلا تسـمع إلا صوتا خفیا الشـفاعهٔ لا تنفع یوم القیامهٔ إلا لمن أذن اللّه له بها ۳/ ۴۵۸- ۴۶۰ یسبق یوم القیامهٔ الصیحهٔ الشدیدهٔ التی تصم الآذان انشغال کلّ إنسان بنفسه و فراره من أهله و أقاربه وجوه المؤمنین مشرقهٔ مضیئهٔ و وجوه الکفار سوداء کالحهٔ ۵/ ۴۶۶- ۴۶۸

فتح القدیر، ج۶، ص: ۴۰۵

یوم القیامهٔ تجمع الشمس بعضها إلی بعض ثم تلف فیرمی بها تتهافت النجوم و تتناثر، و تقتلع الجبال، و النوق الحاملهٔ فی شهرها العاشـر ترکـت هملاـ من غیر راع ۵/ ۴۶۹- ۴۷۰ یوم القیامـهٔ تجمع الـدواب المتوحشـهٔ للقصاص سـجر البحار و تزویـج النفوس الصالحهٔ فی الجنهٔ سؤال الموءودهٔ عن الذنب الذی فعلته حتی قتلت دفنا بالتراب حیهٔ نشر الصحف یوم القیامهٔ و معرفهٔ کل إنسان مصـیره إلی الجنهٔ أو إلی النار ۵/ ۴۷۰- ۴۷۵ انشـقاق السـماء، و تساقط الکواکب، و تفجیر البحار، و إخراج القبور ما فی بطونها علم کل نفس بما قدمت و أخرت من عمل ۵/ ۴۷۸- ۴۸۱ انشقاق السماء طاعهٔ للّه و حق علیها أن تطیع تبسط الأرض کما یبسط الأدیم یوم القیامـهٔ و یخرج ما فیها من الأموات ۵/ ۴۹۱- ۴۹۲ القسم بیوم القیامهٔ و أنه موعود و الشاهد و المشـهود فیه ۵/ ۴۹۹ و ۵۰۳- ۵۰۴ من أسـماء یوم القیامهٔ الغاشیهٔ وجوه الکفار فیه ذلیلهٔ خاضعهٔ عاملهٔ عملا شاقا متعبا، تصلی نارا حامیهٔ، و تسقی من ماء متناه فی الحر، و طعامهم الشوک الـذی لا یسـمن و لا یفید من جوع ۵/ ۵۲۰- ۵۲۱ یوم القیامهٔ تدق الأرض و تکسـر یجیء أمر اللّه و قضاؤه نزول الملائکهٔ و حضورهم صفوفا الإتیان بجهنم، و تذکر الإنسان و اتعاظه و ندمه ۵/ ۵۳۵- ۵۴۰ یوم القیامهٔ هو یوم الجزاء و الحسـاب تفخیم شـأنه الأمر و الحکم فیه للّه و لا یملک شـیئا من الأمر غیره ۵/ ۴۸۰- ۴۸۱ قیام الناس جمیعا للحساب و الجزاء فی یوم القیامـهٔ ۵/ ۴۸۳- ۴۸۴ تحرّک الأـرض و اضـطرابها عنـد قیام الساعـهٔ و إخراجها ما فی جوفها من الأموات تعجب الإنسان مما جری لها اللّه تعالی أوحی لها خروج الناس متفرقین و انقسامهم حسب أعمالهم ۵/ ۵۸۲- ۵۸۵

فتح القدیر، ج۶، ص: ۴۰۶

نثر ما فی القبور یوم القیامـهٔ تمییز ما فی الصـدور من خیر و شـر ۵/ ۵۸۹- ۵۹۰ من أسـماء یوم القیامهٔ القارعهٔ یومها یکون الناس کالفراش المنتشر من ثقلت موازینه فمصیره إلی الجنهٔ من رجحت سیئاته و خفت حسناته فمصیره إلی النار ۵/ ۵۹۲- ۵۹۴

۴– الحشر:

يجمع اللّه جميع الناس فلا يترك منهم أحـدا يعرض الناس جميعا مصـفوفين حفاة، عراة، غرلا توضع الكتب فى أيـدى أصـحابها كـل كتـاب لا يترك صـغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها ۳/ ۳۴۸– ۳۴۹ يقع الإحياء و البعث من القبور بصـيحة واحـدة، و هى النفخة الثانيـة فى الصور النـاس بعـدها يخرجون إلى ظهر الأـرض ۵/ ۴۵۲– ۴۵۳ و ۴۵۶ التسـاؤل عن البعث و الاختلاـف فيه اختلاـف الكفار فى كيفية البعث سيعلم الكفار الحقيقة عند البعث ۵/ ۴۳۷– ۴۳۹ يكون الحشر بعد نفخة الصور الثانية يحشر اللّه المجرمين عميا و يسألون بعضهم بصوت منخفض كم لبثتم فى قبوركم؟

أفضلهم قولا يقول: ما لبثتم إلا يوما واحدا ۳/ ۴۵۷– ۴۵۸

۵– الآخرة:

من أراد بعمله الآخرة و سعى لها فهؤلاء نتيجتهم الفلاح و الجنة و القبول ۳/ ۲۶۰– ۲۶۲

۶– اليوم الآخر:

التخويـف للكفـار من اليوم الآـخر ۲/ ۱۳۵ مجىء النـاس فرادى يـوم القيامـة ۲/ ۱۶۱– ۱۶۲ الـوزن و المـوازين و وزن صـحائف الأعمال ۲/ ۲۱۷ الوزن الحق و العدل فيه– وزن الصحائف ۲/ ۲۱۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۰۷

الوزن و الميزان للصـحائف و الحسنات ۲/ ۲۲۰– ۲۲۱ إخراج الموتى من قبورهم أحيـاء كإخراج الثمرات من الأرض بعـد المطر ۲/ ۲۴۴– ۲۴۶ من عمل صالحا و هو يرجو ثواب اللّه يوم القيامـة فليكن موحـدا حتى يجد ثمرة ذلك ۳/ ۳۷۸– ۳۷۹ الدعوة إلى الخوف من اليوم الآخر حيث لا يغنى الوالـد عن ولـده و لا المولود عن والـده ۴/ ۲۸۲ النفخ فى الصور يسبق يوم الحساب و هو اليوم الموعود كل نفس تأتى للحساب معها سائق يسوقها و شاهـد يشـهد لها أو عليها أقوال السـلف فى الشاهـد و السائق كشـف الغطاء عن المشركين ليروا أعمالهم و صحفهم ۵/ ۹۰– ۹۱ فى اليوم الآخر الحساب و الثواب و العقاب كائن لا محالة ۵/ ۹۹

۷– متفرقات:

الموت: كل نفس من النفوس واجـدة مرارة الموت ۲/ ۲۴۲ نزول شـدته و غمرته خوف الإنسان و فراره منه ۵/ ۸۹– ۹۰ لا شماتة فيه، كل البشر كتب عليهم الموت، حتى الرسل ۳/ ۴۸۱ الأجل: معناه الموت و يوم القيامة ۲/ ۱۱۳ الأجل محدد، و العمر لا يطول و لا ينقص ۲/ ۲۳۲– ۲۳۳ القبر: سؤال الميت فى قبره يثبت اللّه الـذين آمنوا عند سؤالهم فى قبورهـم ۳/ ۱۳۰ ثبوت عذاب القبر– الحياة البرزخية ۱/ ۱۸۴– ۱۸۵ الدخان: من أشـراط الساعة شـموله و إحاطته بالناس، و دعاؤهم لكشفه، فهو عذاب أليم ۴/ ۴۵۴– ۴۵۶ الصور: النفـخ فيه النفخة الأولى و الثانية ۴/ ۵۴۵ نفخ إسـرافيل فيه النفخة الأولى النفخة الثانية التى تبعث الخلق من أجداثهم ۴/ ۴۲۸– ۴۲۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۰۸

الجنّة

اشارة

۱- صفاتها.

۲- مكانتها.

۳- موجوداتها.

۴- سكانها السابقون.

۵- سكانها الأتقياء. ۶- أصحاب الجنة.

۷- أصحاب اليمين.

۸- المخلصون.

۹- أهل الأعراف.

۱۰- الخائفون.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۰۹

۱- صفاتها:

ثمار الجنة و أنهارها ۱/ ۶۵- ۶۶ تقريبها يوم القيامة إلى المتقين ۵/ ۴۷۱ الجنة فى الآخرة هى أفضل و أدوم من الحياة الدنيا، و ثبوت هذا فى صحف إبراهيم و موسى ۵/ ۵۱۷- ۵۱۸ من تمام نعيمها حديث أهلها بعضهم مع بعض و سؤالهم عن أحوالهم اطلاع أهلها على أهل النار خلود أهل الجنة فى الجنة ۴/ ۴۵۴- ۴۵۵ الترغيب بها، و أنها دار السلام، و اللّه يدعو إليها يهدى اللّه إليها من يشاء فى الجنة للذين أحسنوا الحسنى و زيادة ۲/ ۴۹۸- ۴۹۹

۲- مكانتها:

الجنة عالية، و لا يسمع فيها كلام باطل ۵/ ۵۲۲- ۵۲۳ الجنة مرتفعة المكان. و ثمارها قريبة ۵/ ۳۳۹- ۳۴۰ وعد اللّه بالجنة عباده ممن تاب و آمن و عمل صالحا لا يظلمون فيها لا يسمعون فيها كلاما فارغا و إنما سلام بعضهم لبعض ۳/ ۴۰۳ خروج بعض العصاة من النار إلى الجنة، و الكفار لا يخرجون من النار ۲/ ۴۵- ۴۶ لا حزن فى الجنة مطلقا، و هى دار الإقامة الأبدية ۴/ ۴۰۲- ۴۰۳ عرض الجنة كعرض السماوات و الأرض و قد أعدّها اللّه و هيّأها للمؤمنين ۵/ ۲۱۰

۳- موجودات الجنة:

محاسن الجنة، و بيان ما فيها ۵/ ۴۱- ۴۲ فيها أنهار من ماء لم تتغير رائحته و لم يفسد ۵/ ۴۱- ۴۲ و أنهار الجنة من لبن لم يحمض، و أنهار من خمر لذيذ طيب، و أنهار من عسل ۵/ ۴۱- ۴۲ فيها عين جارية، و أكواب موضوعة بين أيدى أهلها، و وسائد مصفوف بعضها إلى بعض، و طنافس كثيرة ۵/ ۵۲۵ الإنسان الذى يخاف موقف ربه للحساب جنتان: جنة عدن، و جنة

النعيم ذواتا أغصان، فيهما عينان تجريان

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۰

و فيهما من كل فاكهة نوعان اتكاء أهلهما على فرش بطائنها الحرير ۵/ ۱۶۸- ۱۶۹ يطاف على أهلها بقصاع من ذهب و أكواب فيها ما تشتهيه الأنفس و تلتذ به الأعين عند رؤيته ۵/ ۱۶۸- ۱۶۹ الخلود فيها و الفاكهة الكثيرة ۴/ ۶۴۵- ۶۴۶ فى الجنات خيرات حسان كأنهن الياقوت و المرجان حور محبوسات فى الخيام- و الحوراء شديدة البياض و السواد فى العين فى آن واحد- لم يطأهن، و لم يغشهن الإنس و الجان متكئين على بسط خضراء و زرابى و طنافس موشاة من دون تينك الجنتين الموصوفتين سابقا جنتان أخريان فيهما فواكه متنوعة، و فيهما عينان تجريان خضراوتان تميلان إلى السواد من شدة الاخضرار فيهما عينان تفوران بالماء ۵/ ۱۷۰- ۱۷۵

۴- سكانها السابقون:

السابقون فى الإيمان و العمل جماعة من الأولين (من الأمم السابقة) و قليل من الآخرين (من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم) هم فى الجنة على سرر منسوجة و يطوف على خدمتهم غلمان لا يهرمون أبدا و يطوفون عليهم بأباريق و كأس من خمر جار لا يتفرقون عنها و لا يسكرون متكئين و متقابلين ۵/ ۱۷۰ - ۱۷۵ و لهم فيها فاكهة كثيرة و حور عين ۵/ ۱۷۹ - ۱۸۰ السابقون جزاؤهم الجنة بأعمالهم و كسبهم لا يسمعون فى الجنة لغوا، و لا يؤثم بعضهم بعضا، بل يقال: سلاما سلاما ۵/ ۱۸۰ - ۱۸۲ السابقون لهم الراحة فى الدنيا و الاستراحة من أحوالها بعد الموت ۵/ ۱۹۴- ۱۹۷

۵- سكانها الأتقياء:

الأتقياء لهم مع الذكر الجميل فى الدنيا حسن المرجع فى الآخرة ۴/ ۵۰۳ للأتقياء جنات خالدة، أبوابها مفتحة و فواكه كثيرة عندهم فى الجنة نساء متحدات فى السن لا تنظر إحداهن لغير زوجها ۴/ ۵۰۳ المتقون هم أهل الجنة

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۱

يدخلونها بسلام آمنين ينزع اللّه من صدورهم العداوة و الحقد ۳/ ۱۶۱ للمتقين الفوز و الظفر و جنات فيها بساتين و كروم أعناب و لهم فى الجنة نساء كواعب و كأس ممتلئة و متتابعة لا يسمعون فيها كلاما باطلا، و لا يكذب بعضهم بعضا الجنة جزاؤهم عطاء من اللّه ۵/ ۴۴۵- ۴۴۶ و ۴۴۸ تقريب الجنة للمتقين و تزيينها فى قلوبهم أعد اللّه الجنة لكل رجاع إلى اللّه بالتوبة الخلود فى الجنة و ما تشتهيه النفوس ۵/ ۹۲- ۹۴

۶- أصحاب الجنة:

خلودهم من نعم اللّه عليهم: نزع ما فى قلوبهم من الحقد، و عدم الحسد ورثوا الجنة بأعمالهم ۲/ ۲۳۴- ۲۳۵ ينادى أصحاب الجنة أصحاب النار، و يقرّعونهم ۲/ ۲۳۶ أهل الجنة هم أصحاب الميمنة كانوا فى الدنيا يتواصون بالصبر و الرحمة فيما بينهم ۵/ ۵۴۲ أصحاب الجنة لا يلحق وجوههم غبار و هم فيها خالدون ۲/ ۴۹۹ أصحابها خير منزلا و أفضل مقيلا (موضع القيلولة) ۲/ ۸۲- ۸۳ فى الجنة النساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لم يطأهن و لم يغشهن إنس و لا جان قبل أزواجهن فى الجنة يشبهن فى الصفاء الياقوت و المرجان جزاء من أحسن فى الدنيا الإحسان له فى الآخرة ۵/ ۱۶۹- ۱۷۰

۷- أصحاب اليمين:

أهـل الجنـۀ هم أهـل اليمين فى جنات و نعيم، و يتساءلون عن مصـير الكفار ۵/ ۳۹۹- ۴۰۱ أصـحاب اليمين لهم فى الجنۀ فرش مرفوع بعضها فوق بعض، و نساء أنشأهن اللّه خلقا جديدا آخر فجعلهن متحببات إلى أزواجهن و هن أزواج أمثال و أشكال

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۲

و هم جماعۀ من الأولين (الأمم السابقۀ) و جماعۀ من الآخرين (أمۀ محمد صلّى اللّه عليه و سلم) ۵/ ۱۸۳- ۱۸۴ تفخيم و تعظيم أصحاب اليمين. هم فى الجنۀ فى سدر لا شوك له و طلح متراكب، و ظلّ دائم باق، و ماء منصب يجرى دائما، و فاكهۀ كثيرۀ لا تنقطع فى وقت، و لا تمتنع على طالبها ۵/ ۱۸۳- ۱۸۴

۸- المخلصون:

المخلصون فى عبـادتهم و طاعتهم لهم الجنـۀ يكرمون فيها و يرزقون، و هم على الأسـرۀ متقابلين وجها لوجه، و يطاف عليهم فى الجنۀ بكأس من خمر الجنۀ لا تغتال عقولهم و لا يسكرون، و عندهم الحور العين ۴/ ۴۵۰- ۴۵۱

۹- أهل الأعراف:

حوار أهـل الأعراف مع أهل النار نـداؤهم لرجال يعرفونهم بسيماهم ۲/ ۲۳۷ يعرفون الناس بسـيماهم ۲/ ۲۳۸ الأعراف سور بين الجنـۀ و النار هو الشـىء المشـرف الأعراف جبال بين الجنۀ و النار من هم أهل الأعراف؟ ۲/ ۲۳۸- ۲۳۹ معنى الأعراف اختلاف العلمـاء فى أصـحاب الأعراف من هم ۲/ ۲۳۶- ۲۳۷ نـداؤهم لأصـحاب الجنۀ و طمعهم فى دخول الجنۀ صـرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار دعاؤهم أن لا يجعلهم اللّه مع القوم الظالمين ۲/ ۲۳۷

۱۰- الخائفون:

الجنۀ مأوى الخائفين لمقام ربهم يوم القيامۀ ۵/ ۴۵۹ لست ترى فى أصحاب اليمين إلا السلامۀ التى تحب ۵/ ۱۹۵- ۱۹۷ يمدّ اللّه المؤمنين فى الجنۀ، و يزيدهم من الفواكه و اللحم مما تشتهيه أنفسهم ۵/ ۱۱۷- ۱۱۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۳

يطوف على أهـل الجنـۀ غلمان كاللؤلؤ المسـتور بالصـدف فى الحسن و البهاء ۵/ ۱۱۷- ۱۱۸ يتعاطى المؤمنون فى الجنـۀ خمرا، شرابـا، لاـ باطل فيها، و لا إثم كما هو فى خمر الـدنيا ۵/ ۱۱۷- ۱۱۸ يضـرب حجاب بين الجنـۀ و النار، و له باب، باطنه من جهۀ الجنۀ، و فيه النعيم و الرحمۀ، و ظاهره من جهۀ النار، و فيه العذاب ۵/ ۲۰۴- ۲۰۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۴

النار

اشارۀ

۱- أسماء النار.

۲- التحذير منها.

۳- موجودات النار.

۴- أحوال أهل النار. ۵- العذاب.

۶- الفاسقون.

۷- الطّغاة المكذبون.

۸- أصحاب الشمال.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۵

۱- أسماء النار:

من أسمائها: الحطمة ۵/ ۶۰۲- ۶۰۳ من أسمائها: لظى ۵/ ۳۴۷- ۳۴۸ هى سقر لا- تبقى لهم لحما و لا تذر لهم عظما ۵/ ۳۹۳- ۳۹۴ ذات لهب ۵/ ۶۲۷

۲- التحذير منها:

هى مأوى الطغاة و المتجاوزين لحدود اللّه ۵/ ۴۵۹ هى حامية، و فيها عين متناهية فى الحر و طعام أهلها الشوك ۵/ ۵۲۱- ۵۲۲ النار مغيرة لأهلها و مسودة لوجوههم و أبدانهم ۵/ ۳۹۳- ۳۹۴ خزنة النار من الملائكة تسعة عشر ۵/ ۳۹۳- ۳۹۴ تبرى اللحم و الجلد عن العظم ۵/ ۳۴۷- ۳۴۸ تدعو و تهلك من أدبر عن الحق و جمع المال ۵/ ۳۴۷- ۳۴۸ النار موقدة بأمر اللّه و يخلص حرّها إلى القلوب ۵/ ۶۰۲- ۶۰۳ إطباقها و إغلاقها و أهلها موثقون فى عمد ممدودة ۵/ ۶۰۲- ۶۰۳ جهنم للكفار محبس و مرصاد، و مرجع يرجعون إليه ماكثين فيها ما دامت الأحقاب، و هى لا تنقطع لا يذوق أهل النار فيها إلا ماء حارا و صديدا جزاء لأعمالهم إذ كانوا لا- يؤمنون بالآخرة ۵/ ۴۴۲- ۴۴۴ رؤية النار فى الآخرة عيانا و مشاهدة ۵/ ۵۹۶- ۵۹۷ الخلود فيها، و معنى: ما دامت السماوات و الأرض ۲/ ۵۹۵- ۵۹۸ إيقادها لأعداء اللّه إيقادا شديدا ۵/ ۴۷۱ التحذير من النار لأنها تتوقد و تتوهج ۵/ ۵۵۲- ۵۵۴ لا- يدخل النار إلا- الشقى الذى كذب بالحق و أعرض عنه، و يجنبها الكامل فى التقوى ۵/ ۲۵۲- ۵۵۴ امتلاؤها و سعتها و استزادتها ۵/ ۹۲

۳- موجودات النار:

وقود النار الناس و الحجارة ۵/ ۳۰۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۶

على النار خزنة من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون ربهم، و يفعلون ما يؤمرون ۵/ ۳۰۲ طعام النار شر الطعام من ضريع شراب أهل النار من غسلين و هو صديد أهلها ۵/ ۳۴۱ فى جهنم النار تتوقد و فيها الأغلال: و الطعام الذى لا يسوغ فى الحلق، و العذاب ۵/ ۳۸۱- ۳۸۲ للنار سبعة أبواب، و لكل باب قدر معلوم من الناس يدخلون منه ۳/ ۱۵۹- ۱۶۰ فى النار شجرة الزقوم التى جعلها اللّه امتحانا للكافرين الذين كفروا بوجودها، تنبت فى قعر جهنم و ثمرها مثل رؤوس الشياطين يأكل أهل النار، من شجرة

الزقوم و يملؤون بطونهم ۴/ ۴۵۶- ۴۵۷ طعام الأثيم الكثير الإثم كالزيت المغلى يغلى كغلى الحميم ۴/ ۶۶۲ الشجرة الملعونة فى القرآن شجرة الزقوم ۳/ ۲۸۶ - ۲۸۸ الأثيم طعام من شجرة الزقوم ۴/ ۶۶۲- ۶۶۳ جره من حقّ عليه العذاب إلى وسط جهنم و صب الماء الشديد الحرارة فوق رأسه، و التهكم منه: بأنه فى جهنم عزيز و كريم ۴/ ۶۶۲- ۶۶۳

۴- أحوال أهل النار:

أهل النار فى العذاب الأليم الدائم، و يسقون الماء المغلى الذى يقطع أمعاءهم ۵/ ۴۲ الذين كسبوا السيئات يجازيهم اللّه بسيئاتهم، و يغشاهم هوان، و لا عاصم لهم، و وجوههم مظلمة، و خالدون فى النار ۲/ ۴۹۹ النار معدة للكفار ۵/ ۳۱۰- ۳۱۱ و إذا طرحوا فيها سمعوا لها أصواتا منكرة و هى تغلى ۵/ ۳۱۰- ۳۱۱ و تكاد تنقطع من تغيظها على الكفار ۵/ ۳۱۰- ۳۱۱ سؤال الخزنة لهم و اعترافهم بذنوبهم، فبعدا لهم ۵/ ۳۱۰ و ۳۱۱ أهل النار يتخاصمون و الضعفاء يتحاجّون مع الكبراء مخاطبتهم لخزنة جهنم ۵/ ۵۶۷- ۵۶۸ تخاصم أهل النار من أتباع و أسياد ۴/ ۵۰۸ يقال للكفار هذه جهنم، و قد أخذت الملائكة بنواصيهم و أقدامهم و يحترقون فى جهنم و يصب الماء الحار على وجوههم ۵/ ۱۶۶- ۱۶۷ أهل النار هم أصحاب الشمال و قد كفروا بآيات اللّه، عليهم نار مطبقة مغلقة ۵/ ۵۴۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۷

الكافرون فى سقر، و يعترفون بأعمالهم التى أدخلتهم النار و أهمها ترك الصلاة، و لا تنفعهم الشفاعة، و لا يخرجون من النار ۲/ ۳۹۹- ۴۰۱ ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة طالبين مواساتهم بالماء و الطعام ۲/ ۲۳۹ الجنة حرام على الكافرين ۲/ ۲۴۱

۵- العذاب:

قد يكون العذاب رجزا ينزل من السماء ۳/ ۲۳۳ لو يؤاخذ اللّه الناس بذنوبهم ما ترك على الأرض من كافر و من رحمة اللّه تأجيل العذاب ليوم القيامة ۳/ ۲۰۷- ۲۰۹ يأتى عذاب اللّه و الناس فى نومهم و غفلتهم، و استعجال الكفار للعذاب، و لهم عذاب الخلد بكفرهم و عنادهم ۲/ ۵۱۳- ۵۱۴ يعذب اللّه الظلمة و المستكبرين و هم: عاد، و ثمود، قارون، و فرعون، و هامان ۴/ ۲۳۴ أخذ اللّه الظالمين و المستكبرين و أهلكهم بالغرق، أو الصيحة، أو الخسف ۴/ ۲۳۴

۶- الفاسقون:

منزلهم النار كلما أرادوا الخروج أعيدوا فيها تقول خزنة جهنم للفاسقين- إغاظة لهم- ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ۴/ ۲۹۳- ۲۹۴ تأكيد تعذيبهم بمصائب الدنيا و بعذاب الآخرة انتقاما منهم ۴/ ۲۹۳- ۲۹۴

۷- الطغاة المكذبون:

لهم شر منقلب، و يدخلون جهنم، و يحترقون فيها و ما يذوقون فيها من ماء حار و قيح صديد، و لهم عذاب آخر أجناس و أنواع ۴/ ۵۰۵- ۵۰۶

۸- أصحاب الشمال:

هم المكـذبون بـالبعث الضالون عن الحق، و نزلهم فى الآخرة: الماء المغلى الحار، و تحريق فى جهنم ۵/ ۱۹۵- ۱۹۷ هم فى النار فى ريح حارة و ظل من دخان أسود حار، لا كغيره من الظلال، فهو لا بارد و لا كريم كانوا فى الدنيا منعمين و كان يصرون على الإثم العظيم

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۸

إنكارهم البعث هم و آباؤهم الأقدمون ۵/ ۱۸۴- ۱۸۷ الأولون و الآخرون من أصحاب الشمال مجموعون يوم القيامة للحساب ۵/ ۱۸۵ - ۱۸۷ الضـالون عن الحق، و المكـذبون للرسـل؛ الجميع يأكلون من شـجر الزقوم، و هو كريه الشـكل و الطعم، فيملئون منه البطون من شدة الجوع، ثم يشربون عليه كشرب الإبل العطاش التى لا ترتوى، هذا نزلهم يوم الجزاء ۵/ ۱۸۵- ۱۸۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۱۹

الملائكة

اشارة

۱- صفات الملائكة.

۲- أعمال الملائكة.

أ- حفظ أعمال الإنسان.

ب- حمل العرش.

ج- نسخ الكتب.

د- قسمة الأمور.

ه- نزع الأرواح.

۳- رؤساء الملائكة.

۴- خزنة جهنم.

۵- الملائكة فى اعتقاد الكفار.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۰

۱- صفات الملائكة:

معنى الملائكة لغة ۱/ ۷۴ هم جنود اللّه فى السماوات و الأرض ۵/ ۵۴ هى المرسلات، يعصفون بالرياح و ينشرونها نشرا، و يأتون بمـا يفرق بين الحق و الباطـل و الحلال و الحرام، و يلقون الوحى إلى الأنبياء للإعـذار و الإنـذار ۵/ ۴۲۹- ۴۳۳ هى الصافات، و الزاجرات، و التاليات ذكرا ۴/ ۴۴۳ تفضيل اللّه لهم على جميع الخلق ۲/ ۲۲۲ هم كرام و أتقياء و مطيعون لربهم ۵/ ۴۶۴

۲- أعمال الملائكة:

أ- حفظ عمل الإنسان:

الحفظة يكتبون أعمال الناس ۴/ ۶۴۸ الحفظة الذى يكتبون عمل بنى آدم ۵/ ۴۸۰ الحفظة يحفظون على الإنسان عمله ۵/ ۵۰۸

ب- حمل العرش:

يحيطون بالعرش و يحدقون به و هم يسبحون و يحمدون ۴/ ۵۴۹ حملة العرش و دعاؤهم للمؤمنين التائبين بالمغفرة و دخول الجنة و الوقاية من السيئات ۴/ ۵۵۳

ج- نسخ الكتب و تسبيح اللّه:

استنساخهم أعمال بنى آدم ۵/ ۱۵ نسخهم الكتب من اللوح المحفوظ ۵/ ۴۶۴ تسبيحهم بحمد ربهم و استغفارهم لمن فى الأرض ۴/ ۶۰۳

د- قسمة الأمور و إطاعة أمر اللّه:

من وظائف الملائكة: قسمة الأمور ۵/ ۹۸ هم عباد اللّه مكرمون، و لا يشفعون إلا لمن ارتضى ۳/ ۴۸۲ لا يتكبرون عن عبادة اللّه و لا يعيون و هم فى تسبيح دائم ۳/ ۴۷۷ يسبقون بالوحى إلى الأنبياء، و يدبرون ما أمروا بتدبيره ۵/ ۴۵۶

ه- نزع الأرواح:

الملائكة تنزع أرواح العباد
فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۱
تنشط النفوس و تخرجها من الأجساد تسبح فى الأبدان لإخراج الروح ۵/ ۴۵۰- ۴۵۶

۳- رؤساء الملائكة:

جبريل روح القدس ۱/ ۱۲۹- ۱۳۰ جبريل و ميكائيل منزلتهما و فضلهما ۱/ ۱۳۷ لا- يتنزلون و منهم جبريل إلا بأمر اللّه ۳/ ۴۰۶ اصطفاء الرسل من الملائكة كجبريل و إسرافيل ۳/ ۵۵۸ يقوم جبريل يوم القيامة و الملائكة صفوف و هم لا يتكلمون ۵/ ۴۴۶- ۴۴۸ ملك الموت و أعوانه و سؤال الكفار عن ضلالهم ۲/ ۲۳۱ يتوفى ملك الموت الناس بأمر اللّه، ثم إلى اللّه مرجعهم للحساب ۴/ ۲۸۹

۴- خزنة جهنم:

زبانية جهنم غلاظ شداد ۵/ ۵۷۲- ۵۷۳ خزنة جهنم من الملائكة و عدتهم تسعة عشر جعل اللّه عددهم اختبارا و ابتلاء، و يزداد

أهل الكتاب و المؤمنون إيمانا ۵/ ۳۹۶- ۳۹۷ استغراب الكفار و المنافقين لهذا العدد ۵/ ۳۹۸ خزنة جهنم تؤمر بجر الأثيم إلى وسط جهنم و يصبّ الماء الشديد الحرارة فوق رأسه، و قولهم له تهكما: أنت العزيز الكريم ۴/ ۶۶۲- ۶۶۳

۵- الملائكة فى اعتقاد الكفار:

الملائكة بنات اللّه، فرد اللّه عليهم بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول و لا يعصون أوامره ۳/ ۴۷۸ المشركون يسمون الملائكة بنات اللّه ۵/ ۱۳۴ توبيخ المشركين و تقريعهم على جعلهم الملائكة بنات اللّه ۴/ ۶۲۹- ۶۳۰ الملائكة عباد الرحمن ۴/ ۶۲۹- ۶۳۰ لو أراد اللّه لأهلك الكافرين و جعل مكانهم ملائكة فى الأرض ۴/ ۶۴۳
فتح القدير، ج‌۶، ص: ۴۲۲

الإنسان

اشارة

۱- خلق الإنسان.
۲- دعاء الإنسان.
۳- نعم اللّه على الإنسان، و موقفه من النّعم.
۴- تكريم اللّه للإنسان.
۵- دعوة الإنسان للتدبّر و التفكر.
۶- الإنسان البارّ.
۷- الإنسان العاق.
۸- الإنسان الكافر.
۹- النفس.
۱۰- الناس.
۱۱- الشعراء.
۱۲- الصحابة.
فتح القدير، ج‌۶، ص: ۴۲۳

۱- خلق الإنسان:

خلق اللّه الإنسان من طين، ثم جعله نطفة فى الرحم، و أحال النطفة إلى علقة، ثم خلق العلقة قطعة لحم غير مخلقة، ثم تصلبت بقدرة اللّه عظما، ثم كسا اللّه العظم لحما، و أنشأه إنسانا فيه الروح و الحواس، ثم الموت و البعث ۳/ ۵۶۶- ۵۶۹ خلق اللّه الإنسان من نطفة ضعيفة مهينة، فإذا هو خصيم شديد الخصومة، و ضرب الإنسان الكافر مثلا لاستبعاد البعث و إنكاره بالعظم البالى كيف يعود من جديد و قد صار ترابا؟! ۴/ ۴۳۹- ۴۴۰ خلق اللّه له فى أحد أطواره من علق خلق آدم من طين يابس

كالفخار ۵/ ۱۶۱- ۱۶۲ خلق اللّه الإنسان من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم ضعفا (أطوارا) ۴/ ۲۶۷ خلقه حريصا و جزعا ۵/ ۳۴۹- ۳۵۰ خلقه من بنى مدفوق مصبوب، و خروج المنى من صلب الرجل و من ترائب المرأة ۵/ ۵۰۸- ۵۱۱ خلقكم ابتداء من تراب، ثم من نطفة أخرجها من ظهر آدم، ثم جعلكم أزواجا ذكورا و إناثا ۴/ ۳۹۲ كان قطرة من منى تراق فى الرحم خلقه اللّه و سواه و نفخ فيه الروح و جعل منه ذكرا و أنثى الرب الخالق لهذا الإنسان قادر على إحياء الموتى للحساب و الجزاء ۵/ ۴۱۱- ۴۱۲ خلقه فى استواء و اعتدال، و رده بعد الهرم إلى أرذل العمر أو النار ۵/ ۵۶۷- ۵۶۸ الامتنان بخلقه و تعليمه البيان الذى يكون به التفاهم ۵/ ۱۵۸ القسم بالشفق و الليل إذا اجتمع و القمر إذا تكامل ليركبنّ الإنسان حالا بعد حال، نطفة، ثم علقة، ثم مضغة ۵/ ۴۹۵- ۴۹۷ بنيته و خلقته من العجلة ۳/ ۴۸۳ من الناس من يعمّر حتى يصل إلى أرذل العمر ۳/ ۵۱۷- ۵۱۸

۲- دعاء الإنسان:

لجوء الإنسان إلى اللّه بالدعاء إذا مسه الضر و إعراضه إذا انكشف عنه هذه الحال تشمل أهل الإيمان و أهل الكفر ۲/ ۴۸۷- ۴۹۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۴

لا يمل الإنسان من دعاء الخير و إن أصابه الشر فيؤوس قنوط الكافر لا يؤمن بالساعة إن أذاقه اللّه رحمة بعد شر نسبه إلى نفسه ۴/ ۵۹۸ دعاؤه فى حالة الضر و إعراضه فى حالة اليسر بسبب كفره ۳/ ۲۹۱ دعاؤه عند المصيبة و الضرر، و إذا أعطاه اللّه نعمة امتحانا له ادعاها لنفسه، و لعلمه، و لقوته. و قد قالها إبليس من قبل ۴/ ۵۳۷- ۵۳۸ يدعو ربه مستغيثا، راجعا إليه فى حالة الضرر و المرض، و ينسى ربه فى حالة الرخاء، و ربما جاوز ذلك إلى الشرك ۴/ ۵۱۹ بعده عن اللّه فى حالة النعمة و يأسه و قنوطه إذا مسه الشر كلّ إنسان يعمل على ما يشاكله أخلاقه ۳/ ۳۰۳ الإعراض عن النعمة، و اللجوء و الدعاء عند المصيبة ۴/ ۵۹۹

۳- نعم اللّه على الإنسان، و موقفه من النعم:

من نعم اللّه على الإنسان:

السكن فى البيوت فى المدن، فى الخيام و هى بيوت البادية أثاث البيوت ظلال الأشياء الأكنان فى الجبال الثياب ۳/ ۲۲۲- ۲۲۴

مراتب عمر الإنسان أربعة:

النشوء- الشباب- الكهولة- الشيخوخة فضل اللّه بعض الناس على بعض بالرزق جعل اللّه للناس من أنفسهم أزواجا، و جعل لهم بنين و حفدة ۳/ ۲۱۵- ۲۱۷ طغيان الإنسان إن رأى نفسه مستغنيا رجوعه إلى اللّه، و حسابه على طغيانه و استغنائه ۵/ ۵۷۱ جزعه إن أصابه شر، و منعه إن أصابه خير المصلون الموحدون لا يتصفون بالجزع و الهلع ۵/ ۳۴۹- ۳۵۰ قدره اللّه على بعثه و إعادته بعد موته ۵/ ۵۰۸- ۵۱۱ استثناء المؤمنين العاملين من الرد إلى جهنم ۵/ ۵۶۷- ۵۶۸ جوارحه تشهد عليه بما عمل ۵/ ۴۰۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۵

إذا أعطاه اللّه صحة و غنى فرح، و إن يصبه بلاء و شدة بما قدمت يداه من الذنوب فإنه كثير الكفر و الجحود ۴/ ۶۲۳ عدم مؤاخذته بجناية غيره، و اختصاص المهتدى بهدايته و الضالّ بضلاله ۳/ ۲۵۶ ليس للإنسان إلا أجر سعيه و جزاء عمله، و إن هذا العمل سيكشف له و يعرض عليه و يجزاه ۵/ ۱۳۷ - ۱۳۹ يبعث اللّه جميع أجزاء الإنسان و خص العظام لأنها قالب الخلق ۵/

۴۰۳- ۴۰۴ و قدرة اللّه على تسوية بنانه مع لطافتها و صغرها ۵/ ۴۰۳- ۴۰۴ يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيقدم الذنب و يؤخر التوبة ۵/ ۴۰۳- ۴۰۴ العذاب لا يكون إلا بعد الإعذار و إقامة الحجة بإرسال الرسل ۳/ ۲۵۶ الإنسان أكثر شيء جدالا و محاججة ۳/ ۳۵۱ كفر بعض الأفراد بالنعم، و شهوده على جحوده، و حبه الشديد للمال، و علم اللّه بأفعاله، و قدرته على حسابه ۵/ ۵۸۸- ۵۹۱

۴- ۵- كرّمه الخالق و دعاه للتفكر:

قد أتى على الإنسان وقت كان فيه جسدا ترابا لا يذكر خلقه اللّه من نطفة أخلاط و أراد ابتلاءه فمنحه السمع و البصر بين اللّه الطريق إلى السعادة و الشقاء ۵/ ۴۱۵- ۴۲۰ كل إنسان مرتهن بعمله ۵/ ۱۱۸ لن يترك الإنسان هملا بلا أمر و لا نهى و لا حساب و لا عقاب ۵/ ۴۱۱- ۴۱۲ كدحه مع الجهد و السعى الشاق إلى ربه بعمله ليلقى الجزاء العادل ۵/ ۴۹۳- ۴۹۶ تكريم الإنسان، و خلق اللّه له ما يحمله فى البر و البحر، و رزقه من الطيبات، و فضله على كثير ممن خلق ۳/ ۲۹۲- ۲۹۳ أمره بالنظر إلى طعامه، و شرابه، و شق الأرض، و الزرع، و الإنبات فيها من الزروع و الحدائق، ليهتدى إلى اللّه و يعبده وحده ۵/ ۴۶۵- ۴۶۶ و ۴۶۸ علمه الخط و ما لم يعلم ۵/ ۵۷۰

۶- الإنسان البار:

إذا بلغ استحكام قوته و عقله فى الأربعين من عمره ألهمه اللّه شكره و أن يعمل صالحا و أن يصلح ذريته. هذا الإنسان و من هو على شاكلته يتقبل اللّه أعمالهم و يدخلهم الجنة ۵/ ۲۲- ۲۳
فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۶

۷- الإنسان العاق لوالديه:

قوله لهما: أف تهكمه بهما: أنه يبعث بعد الموت استغاثتهما، و دعاؤهما له بالإيمان رده عليهما: بأن ما يقولانه أساطير و خرافات هذا و أمثاله وجب عليهم العذاب و الخسران ۵/ ۲۵

۸- الإنسان الكافر:

اختبار اللّه له عند ابتلائه بالإنعام يقول: ربى أكرمنى و عند ابتلائه بتضييق الرزق يقول: ربى أهاننى و هذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ۵/ ۵۳۳- ۵۳۴ خلقه اللّه فى مكابدة و مشقة ۵/ ۵۳۹- ۵۴۰ ظنه: أن لا يقدر عليه أحد، و أن اللّه لا يراه، فينفق المال فى غير طاعة اللّه خلق اللّه له الحواس، و اللسان، و الشفتين، و هداه طريق الخير و الشر ۵/ ۵۳۹- ۵۴۰ استحق دخول النار بعمله و اختياره، فلا أعتق، و لا أطعم اليتيم القريب، أو المسكين الفقير، و لا آمن ۵/ ۵۴۰- ۵۴۴ يأسه بعد انتزاع النعمة، و فرحه بالنعم و افتخاره ۲/ ۵۵۱ يوم القيامة لا قوة و لا ناصر له من اللّه ۵/ ۵۱۰- ۵۱۱

۹- النفس:

النفس اللّوامة، القسم بها ۵/ ۴۰۳ النفس المطمئنة المؤمنة أمرها بالرجوع إلى ربها راضية بالثواب مرضية فى جنته ۵/ ۵۳۶- ۵۳۷ كل نفس عليها حافظ من الملائكة ۵/ ۵۰۸ كل نفس مأخوذة بعملها، و مرتهنة به ۵/ ۳۹۹- ۴۰۱ خلق النفس، تعريفها حالها، و ما فيها من الحسن و القبح ۵/ ۵۴۷- ۵۴۹ فاز من طهر نفسه و خسر من أضلها و أغواها

۱۰- الناس:

كانوا أمة واحدة ثم اختلفوا

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۷

القضاء و الحكم بين الناس يوم القيامة بدأ الاختلاف حين قتل أحد ابنى آدم أخاه ۲/ ۴۹۲- ۴۹۳ إذا أذاقهم اللّه رحمة فرحوا بها و إذا أصابتهم شدة بكسبهم و عملهم إذا هم يقنطون ۴/ ۲۵۹- ۲۶۰ الفرح إنّما يكون بفضل اللّه الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ۴/ ۲۵۹- ۲۶۰

۱۱- الشعراء:

يتبعهم و يجاريهم الضالون عن الحق ۴/ ۱۴۰- ۱۴۳ و يخوضون فى كل فن من فنون الكذب، يقولون ما لا يفعلون، و يستثنى من هؤلاء الشعراء المؤمنون الذين ينتصرون ممن ظلمهم ۴/ ۱۴۰- ۱۴۳

۱۲- الصحابة:

هم مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم غلاظ على الكفار، رحماء بينهم، يطلبون ثواب اللّه، و تظهر علامتهم فى جباههم من السجود ۵/ ۶۶- ۶۸ يكونون فى الابتداء قلّة ثم يزدادون و يكثرون، اللّه كثرهم و قواهم ليكونوا غيظا للكافرين، وعدهم اللّه بالمغفرة و الأجر العظيم ۵/ ۶۶- ۶۸

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۸

الجن و إبليس و الشيطان

اشارة

۱- إيمان الجن.

۲- خلق الجن.

۳- تحدّى الجن.

۴- أصل إبليس.

۵- رفض إبليس السجود.

۶- إغواء بنى آدم.

۷- طلبه إمهاله ليوم القيامة.

۸- تعريف الشيطان.

۹- عمل الشيطان.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۲۹

۱- إيمان الجن:

حضور وفد من الجن إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و استماعهم القرآن، و إيمانهم، و إنذارهم لقومهم ۵/ ۳۰- ۳۴ استماع جماعة من الجن إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و إيمانهم و تبرؤهم من الشرك بعد سماعهم القرآن، و تسفيه أقوال عصاتهم و مشركيهم ۵/ ۳۶۱- ۳۶۸

۲- خلق الجن و أنواع الجن:

خلق جنس الجن من لهب خالص و صاف من نار ۵/ ۱۶۱- ۱۶۲ منهم المسلمون و منهم الظالمون الكافرون المسلمون قصدوا طريق الحق و الكفار أصبحوا لجهنم حطبا ۵/ ۳۶۹- ۳۷۱ ازدحامهم على الاستماع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۳۷۱ المطيع من الجن فى الجنة و العاصى فى النار ۲/ ۱۸۶

۳- تحدى الجن:

تحدى اللّه لهم أن يخرجوا من أقطار السموات و الأرض معنى هذا التحدى و هل هو فى الآخرة أم فى الدنيا الخروج من أقطار السموات و الأرض ببينة و علم العجز التام أمام عذاب اللّه بما يرسله من لهب و نحاس ۵/ ۱۶۵ استعاذة العرب بالجن فزادوهم سفها و طغيانا طلبهم خبر السماء فوجدوها قد ملئت بالملائكة لحراستها و منع استراق السمع حراسة السماء بعد بعثة محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۵/ ۳۶۶- ۵۶۸ جعل الكفار بين الجن و بين اللّه نسبا الجن يعلمون أن الكفار يحضرهم اللّه و يعذبهم ۴/ ۴۷۵

۴- أصل إبليس:

معنى إبليس و أصله ۱/ ۷۹ كان من الجن، و خرج عن طاعة ربه ۳/ ۳۴۹- ۳۵۰ إبليس أبو الجان خلقه اللّه من نار السموم ۵/ ۱۵۷

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۳۰

۵- رفض إبليس السجود و الرد عليه:

رفض إبليس السجود لآدم فأخرجه اللّه من الجنة و جعله من المبعدين، و أن عليه اللعنة إلى يوم الدين ۳/ ۱۵۸ رفض السجود لآدم لأنه خلق من طين توعده بالاستيلاء على ذرية آدم بالإغواء و الإضلال ۳/ ۲۸۷ امتناعه عن السجود لأنه أفضل من آدم فى رأيه ۲/ ۲۰۸ استكباره عن السجود لآدم علوه بحجة أنه مخلوق من نار طرده من الجنة و إنظاره إلى يوم الحساب إقسامه على إغواء بنى آدم التهديد من اللّه تعالى بملء جهنم به و بمن اتبعه من البشر ۴/ ۵۱۲- ۵۱۳

۶- إغواء بنی آدم:

طريقته فى إغواء بنى آدم ۲/ ۲۲۱

۷- طلب إبليس إمهاله:

طلبه الإمهال إلى يوم القيامة إغواؤه لبنى آدم و استثناء عباد اللّه المخلصين ۳/ ۱۵۸- ۱۵۹ إمهاله إلى يوم القيامة قسمه أن يغوى بنى آدم طريقة إغوائه للناس: يأتيهم من جميع الجهات ۲/ ۲۱۹ أمهله اللّه إلى يوم القيامة و جزاؤه مع أتباعه جهنم جزاء وافرا مشاركته لأتباعه فى أموالهم و أولادهم أما عباد اللّه المؤمنون فليس لإبليس عليهم من قوة و لا حجة ۳/ ۲۸۹- ۲۹۰

۸- طرد إبليس:

طرده من الجنة و جعله من الصاغرين ۲/ ۲۱۸ طرده مذموما مدحورا من الجنة أو السماء، و وعيده بالنار هو و من تبعه من الناس ۲/ ۲۱۹- ۲۲۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۳۱

۹- تعريف الشيطان:

هو الوسواس الخناس معنى الوسوسة و الخنس ۵/ ۶۴۱- ۶۴۳ وسوسة الشيطان ۲/ ۲۲۱ الشيطان هو الغرور و الخدّاع الذى يغر الخلق و يخدعهم عن ربهم ۴/ ۲۸۲

۱۰- عمل الشيطان:

خطوات الشيطان ۱/ ۱۹۴ سخريته ممن وعدهم و أخلفهم طلبه منهم أن يلوموا أنفسهم كفره بما أشركوه به فى الدنيا ۳/ ۱۲۴- ۱۲۵ تتنزل الشياطين على كل كذاب كثير الكذب يسترقون السمع و أكثرهم كاذبون ۴/ ۱۳۹ طلب الشيطان من الإنسان أن يكفر ثم تخليه عنه و تبرؤه منه ۵/ ۲۴۴ نهى المؤمنين أن يصدهم الشيطان عن اتباع محمد لأنه عدو ظاهر العداوة ۴/ ۶۴۴ هيأ اللّه للكفار قرناء من الشياطين يزينون لهم أمور الدنيا و شهواتها ۴/ ۵۸۹ الشيطان يفتن بنى آدم يراكم و قبيله من حيث لا- ترونهم رؤيته ممكنة أم لا؟ ۲/ ۲۲۵ حفظ اللّه السماء بالكواكب من استماع كل شيطان متمرد، و رمى الشياطين بالشهب فتدحرهم و لهم فى الآخرة عذاب دائم ۴/ ۴۴۴- ۴۴۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۳۲

أهل الكتاب

اشارة

۱- كفر أهل الكتاب.

۲- تعنّت و تكبر أهل الكتاب.

۳- كتم الحقيقة.

۴- عمل أهل الكتاب.

۵- تهديد اليهود و توعّدهم.

۶- تجبّر و تكبّر اليهود.

۷- موقف اليهود من الرسل و المسلمين.

۸- شدّة حقدهم.

۹- حبّهم للمال.

۱۰- توعّد الحق لهم.

۱۱- تعريف النصارى.

۱۲- كفر النصارى و ادعاؤهم.

۱- كفر أهل الكتاب و الرد عليهم:

كفرهم ادعاؤهم أنهم أبناء اللّه و أحباؤه ردّ اللّه عليهم بأنهم بشر مما خلق ۲/ ۲۹ إنذارهم لأنهم قالوا: اتخذوا اللّه ولدا، من غير علم أصلا ۳/ ۳۲۲ غلوهم فى عيسى الإفراط و التفريط ۱/ ۶۲۲- ۶۲۳ إصرارهم على الكفر حتى تأتيهم البينة استمرارهم على الكفر و تفرقهم بعد بعثة محمد صلّى اللّه عليه و سلم دخولهم النار و خلودهم فيها هم شر الخلق ۵/ ۵۷۷- ۵۸۱ قولهم: إن اللّه اتخذ ولدا و هو قول عظيم تكاد تتفطر السماء و تنشق الأرض و تنهدّ الجبال من هوله و جسامته ۳/ ۴۱۷- ۴۱۸

۲- تعنّت أهل الكتاب:

فرقوا الإيمان بين الرسل ۱/ ۶۱۴ ترك جدالهم إلا من أفرط منهم فى المجادلة و ظلم أن نقول لهم: آمنا بالقرآن و التوراة و الإنجيل، و إلهنا واحد و نحن له مسلمون ۴/ ۲۳۶- ۲۳۸ يعلمون أن القرآن منزل من عند اللّه بالحق ۲/ ۱۷۶- ۱۷۷

۳- كتمان أهل الكتاب للحقيقة:

لعنهم و غيرهم بسبب كتم الحق ۱/ ۱۸۷ عقوبة اليهود بالنار لأنهم كتموا ما أنزل اللّه ۱/ ۱۹۷ ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة و الإنجيل ۲/ ۲۷ بعض فضائحهم ۲/ ۷۳ لا يموت يهودى أو نصرانى إلا و قد آمن بالمسيح ۱/ ۶۱۶

۴- شناعة عملهم و قولهم:

بيان إفراط النصارى فى تأليه المسيح، و تفريط اليهود فى تكذيبه ۲/ ۱۰۳- ۱۰۴ يخاصمون فى دين اللّه بعد استجابة الناس له

حجتهم لا ثبات لها كالشىء الذى يزول ۴/ ۶۰۹ فرقوا دينهم و كانوا شيعا و أحزابا ۲/ ۲۰۸- ۳۰۹ و ۴/ ۲۵۹ تفرق أهل الكتاب ۴/ ۶۰۸ اليهود أول أمة نزل عليهم الوعيد فى قتل الأنفس ۲/ ۳۹

۵- تهديد اليهود و توعدهم:

تذكيرهم بنعم اللّه حيث جعل منهم أنبياء و ملوك أمرهم بدخول الأرض المقدسة ۲/ ۳۱- ۳۲ غضب اللّه عليهم ضرب الذلة عليهم ۱/ ۴۲۶ ما حرم اللّه عليهم من البقر و الغنم شحومها و الحوايا و ما اختلط بعظم عقوبة لهم على ظلمهم ۲/ ۱۹۷- ۱۹۹ لعنهم على ألسنة الأنبياء ۲/ ۷۵- ۷۶ تركهم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ۲/ ۷۵- ۷۶ موالاة الكفار ۲/ ۷۵- ۷۶ بسبب ظلمهم حرم اللّه عليهم الطيبات ۱/ ۶۱۸ تهديدهم بالعقوبة للمرة الثالثة إن عادوا إلى ما لا ينبغى ۲/ ۲۵۲- ۲۵۴ إنكارهم ما أنزل اللّه على الرسل من كتب ۲/ ۱۵۸- ۱۶۱

۶- تجبر و تكبر اليهود:

تحريفهم لتوراة ۱/ ۵۴۸ اللى بألسنتهم ۱/ ۵۵۰ قولهم على مريم بهتانا التبجّح بقتل المسيح، و هم إنما قتلوا شبهه ۱/ ۶۱۵- ۶۱۷ أميون لا يعلمون التوراة إلا أمانى كاذبة ۱/ ۱۲۲- ۱۲۳ اعتداؤهم فى السبت و انقسامهم فى ذلك، و تعنتهم و تكلفهم ۱/ ۱۱۳- ۱۱۴ عنادهم و تمنيهم الموت ۱/ ۱۳۴- ۱۳۵ عادتهم فى التعنّت و العجرفة ۱/ ۱۰۷ قلوبهم غلف و إيمانهم قليل عنادهم و عجرفتهم ۱/ ۱۳۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۳۵

۷- موقف اليهود من الرسل و من المسلمين و الرد عليهم:

تلبيسهم على المسلمين أمر دينهم، بالإيمان وجه النهار و الكفر آخره ۱/ ۴۰۳ أمر الرسول بقتلهم لغدرهم، و نقضهم العهد ۲/ ۳۶۵- ۳۶۷ النهى عن اتخاذهم بطانة ۱/ ۴۳۱ نفاقهم و حقدهم ۱/ ۴۳۲ تفضيلهم الكفار على المسلمين حسدا ۱/ ۵۵۲ قولهم: عزير ابن اللّه يشبهون قول الكفار ۲/ ۴۰۲- ۴۰۳ و ۴۰۵ لا يقاتلون المسلمين إلا فى قرى محصنة، أو من وراء جدر لجبنهم و حرصهم على الحياة ۵/ ۲۴۳ تظنهم جميعا، و قلوبهم متفرقة ۵/ ۲۴۴ كتمانهم شأن محمد خيانة فى الدين ۱/ ۴۰۳ استهزاؤهم من المسلمين فى صلاتهم ۲/ ۶۲ و ۶۴ بعضهم آمن بمحمد صلّى اللّه عليه و سلم كعبد اللّه بن سلام، و قد آمنوا بالقرآن، و من قبله كانوا منقادين للّه، فاللّه يعطيهم أجرهم مرتين بسبب صبرهم و دفعهم بالحسنة السيئة، و إنفاقهم أموالهم فى الطاعات، و إعراضهم عن اللغو فى الكلام ۴/ ۲۰۵- ۲۰۶ جنوح بنى قريظة للسلم ۲/ ۳۶۸- ۳۶۹

۸- شدة حقدهم:

تعدد مساوئ اليهود، و منها: شدة عداوتهم ۲/ ۷۷ قولهم: إنّ اللّه فقير و هم أغنياء ۱/ ۴۶۶ سؤالهم أن يروا اللّه جهرة ۱/ ۶۱۴ سمّاعون للكذب، و يحرفون الكلام ۲/ ۴۸ من تحريفهم ليّ ألسنتهم بالقرآن ۱/ ۴۰۷ تحريم كل ذى ظفر- ليس بمنفرج الأصابع مثل البعير و النعامة- عليهم ۲/ ۱۹۷- ۱۹۹ ضرب اللّه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلا بالحمار الذى لا يدرى ما يحمل

على ظهره ۵/ ۲۶۸- ۲۶۹ زعمهم الباطل بأنهم أبناء اللّه و أحباؤه، و بيان كذبهم، و كشف زيفهم، لأنهم يحبون الحياة و يكرهون الموت ۵/ ۲۷۰
فتح القدير، ج‏۶، ص: ۴۳۶

۹- حب اليهود للمال:

خيانتهم فى المال، و استباحتهم أموال العرب ۱/ ۴۰۴- ۴۰۶ بخلهم فى بيان الحق للناس، و بخلهم فى الإنفاق ۱/ ۴۶۴ بخلهم، و قولهم إن اللّه بخيل ۲/ ۶۶- ۶۷ ذم اللّه لهم على بخلهم و أمرهم الناس بالبخل ۱/ ۵۳۹ كل الطعام كان حلا لهم إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ۱/ ۴۱۳- ۴۱۷

۱۰- توعد الحق لهم:

أورثهم اللّه التوراة فيها هدى و ذكرى لأصحاب العقول ۴/ ۵۶۹ كيف ضرب اللّه عليهم المسكنة و الذل من واقعهم التاريخى ۱/ ۱۰۹ خزيهم و ذلهم و هوانهم ۱/ ۱۲۸ إجلاء بنى النضير عن المدينة بعد غدرهم خروجهم من الحصون و تخريبهم لبيوتهم كان آخر إجلاء لأهل الكتاب فى زمن عمر رضى اللّه عنه تركهم للطاعة و ميلهم للكفار و نقضهم للعهد أموالهم كانت فيئا ۵/ ۲۳۲- ۲۳۷ أسكن اللّه بنى إسرائيل مكانا محمودا و رزقهم من الطيبات لم يقع منهم الخلاف إلا بعد أن علموا أحكام التوراة اللّه يحكم بينهم يوم القيامة ۲/ ۵۳۷ الوصايا العشر التى فى التوراة ۲/ ۲۰۳ أمانيهم الكاذبة و إبطالها ۱/ ۵۹۸ قضاء اللّه فى اليهود أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين فى المرة الأولى بعث اللّه عليهم عبادا أولى بأس و فى المرة الثانية تسوء وجوههم و تظهر فيها الكآبة، و يسلط اللّه عليهم قوما يدخلون عليهم المسجد و يدمرون كل شى‏ء ۳/ ۲۵۱- ۲۵۴

۱۱- النصارى:

نصارى: معناه اللغوى و اشتقاقه ۱/ ۱۱۰- ۱۱۱ النصارى أقرب مودة للمؤمنين ۲/ ۷۷ و ۷۹ فيضان أعينهم من الدمع إذا سمعوا القرآن ۲/ ۷۸
فتح القدير، ج‏۶، ص: ۴۳۷

۱۲- كفر النصارى و ادعاؤهم:

كفرهم: بادعاء الألوهية لعيسى و ادعاء التثليث ۲/ ۷۳- ۷۴ المسيح عليه السلام لا يملك النفع و لا الضر لنفسه و لا لغيره ۲/ ۷۵ أمروا بترك الغلو ۲/ ۷۵ اتخذ النصارى أحبارهم، و رهبانهم، و المسيح بن مريم، أربابا من دون اللّه ۲/ ۴۰۳- ۴۰۶ قول النصارى: المسيح ابن اللّه ۲/ ۴۰۲- ۴۰۳ يشابهون قول الكفار ۲/ ۴۰۲- ۴۰۳ كثير من الأحبار و الرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل، و يصدون الناس عن الإسلام ۲/ ۴۰۴ اختلافهم فى أناجيلهم فى عيسى ۱/ ۶۲۳- ۶۲۴ حاصل ما فى الأناجيل من سيرة عيسى ۱/ ۶۲۴
فتح القدير، ج‏۶، ص: ۴۳۸

الأوامر و المستحبات

اشارة

١- صلة الرحم.

٢- الشكر للّه.

٣- الحمد.

٤- الإحسان.

٥- العمل الصالح.

٦- الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

٧- الصبر.

٨- الحق.

٩- التقوى.

١٠- الأمانة.

١١- العدل.

١٢- السلام. ١٣- العهد.

١٤- الصلح.

١٥- السلم.

١٦- الأدب.

١٧- الحياء.

١٨- الأخوة.

١٩- المساواة.

٢٠- الاستئذان.

٢١- غض البصر.

٢٢- الطاعة.

٢٣- التوبة.

٢٤- بر الوالدين.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۳۹

١- صلة الرحم:

۲- الشكر للّه:

من يشكر اللّه فإنما يشكر لنفسه لأن النفع يرجع إليه ۴/ ۲۷۳- ۲۷۴ الشكر للوالدين بعد شكر اللّه ۴/ ۲۷۳- ۲۷۴ معناه اللغوی ۱/ ۱۰۱ تأذّن اللّه تعالی: الزيادة لمن شكر و العذاب الشديد لمن كفر ۳/ ۱۱۵

۳- الحمد:

اختصاص جميع أفراد الحمد باللّه ۴/ ۳۵۷ له الحمد فی الدنيا و فی الآخرة ۴/ ۳۵۷

۴- الإحسان:

أمر اللّه به ۳/ ۲۲۶- ۲۲۷ معناه ۳/ ۲۲۶- ۲۲۷ الإحسان إلی الوالدين ۱/ ۵۳۵ الإحسان إلی اليتامی و الجيران ۱/ ۵۳۶

۵- العمل الصالح:

من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فالعقاب عليه لا علی غيره ۴/ ۵۹۷ ترغيب كل مؤمن فی كل عمل صالح و تعميم الوعد من اللّه بالأجر و الثواب و الحياة الطيبة ۳/ ۲۳۲- ۲۳۳ عمل كل طائفة من إساءة أو إحسان لعامله لا يتجاوزه ۵/ ۸ مجازاة كل بعمله يوم القيامة ۵/ ۸ الفرق بين محاسن الأعمال و مساوئها ۴/ ۵۹۱ دفع السيئة بأحسن ما يمكن من الحسنات ۴/ ۵۹۱
فتح القدير، ج۶، ص: ۴۴۰

۶- الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر:

وجوبه ۱/ ۴۲۳- ۴۲۵ معنی: عليكم أنفسكم ۲/ ۹۶- ۹۷ تحذير العلماء من تركه، و الاكتفاء بالكف عن المعاصی ۲/ ۶۴

۷- الصبر:

معناه اللغوی و شموله ۱/ ۹۲- ۹۳

۸- الحق:

يقذف اللّه بالحق و هو الوحی علی الباطل فيقضی عليه و يلغيه ۴/ ۳۸۳- ۳۸۴

۹- التقوی:

معنی التقوی، و من هم المتقون؟ ۱/ ۳۹- ۴۰ معناها ۱/ ۴۲۲ من يتق اللّه- بفعل أوامره و اجتناب نواهيه- ينصره و يرزقه ۵/ ۲۸۹- ۲۹۱

۱۰- الأمانة:

معناها ۴/ ۳۵۵- ۳۵۶ التزام الإنسان بها ليعذب اللّه العاصى و يثيب المطيع ۴/ ۳۵۵- ۳۵۶ الأمر بتأدية الأمانات إلى أصحابها ۱/ ۵۵۵

۱۱- العدل:

أمر اللّه به ۳/ ۲۲۶

۱۲- السلام:

من آداب الدخول إلى البيوت السلام على الأهل ۴/ ۶۳ وجوب ردّ التحيّة ۱/ ۵۶۹ حكم الابتداء بالسلام ۱/ ۵۷۰

۱۳- العهد:

الأمر بالوفاء به ۱/ ۵۷۰
فتح القدير، ج‏۶، ص: ۴۴۱

۱۴- الصلح:

على المسلمين إذا اقتتل فريقان منهم أن يسعوا بالصلح بينهم، و أن يدعوهم لحكم اللّه، فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى، كان على المسلمين قتالها حتى ترجع إلى أمر اللّه ۵/ ۷۴ و ۷۷ وجوب الصلح بين المؤمنين لأنهم إخوة فى الإيمان و الدين ۵/ ۷۴ و ۷۷

۱۵- السلم:

النهى عن الوهن، و البدء بدعوة الكفار إلى الصلح ۵/ ۵۰- ۵۱

۱۶- الأدب:

أمر اللّه بحسن الأدب فى المجلس، و منه التفسح، و النهوض ۵/ ۲۲۵- ۲۲۸

۱۷- الحياء:

محال على اللّه ۱/ ۶۷

۱۸- الأخوة:

المؤمنون إخوة فى أصل الإيمان ۵/ ۷۴- ۷۵ الإصلاح بين الأخوة واجب و يجلب الرحمة و المغفرة ۵/ ۷۴- ۷۵

۱۹- المساواة:

خلق اللّه البشر من آدم و حواء فهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد ۵/ ۷۹- ۸۱ خلقهم اللّه شعوبا و قبائل للتعاون لا للتفاخر ۵/ ۷۹- ۸۱ التفاضل بين الناس بالتقوى و العمل الصالح ۵/ ۷۹- ۸۱

۲۰- الاستئذان:

اشارة

استئذان الأطفال إذا بلغوا الحلم ۴/ ۶۰- ۶۱ استئذان الخدم و العبيد ثلاث مرات:
من قبل صلاة الفجر حين تضعون ثيابكم من الظهيرة من بعد صلاة العشاء ۴/ ۵۹- ۶۰ ليس على النساء المسنّات إثم أن يضعن ثيابهن الخارجية مع العفة و ترك الزينة ۴/ ۶۱ استئذان المؤمنين من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا كانوا معه
فتح القدير، ج‏۶، ص: ۴۴۲
الرسول صلّى اللّه عليه و سلم يأذن لمن يشاء ۴/ ۶۷- ۶۸

من آداب الاستئذان:

الاستئناس، و هو الاستئذان. السلام. الرجوع إن لم يجد أحدا، و إن قيل له: ارجع ۴/ ۲۳- ۲۴ لا إثم فى دخول بيوت غير مسكونة ۴/ ۲۳- ۲۴

۲۱- غضّ البصر:

الأمر بغضّ البصر للمؤمنين و المؤمنات عما يحرم ۴/ ۲۶- ۲۸ يعفى للناظر أول نظرة من غير قصد ۴/ ۲۶- ۲۸ الأمر بحفظ الفروج ۴/ ۲۶- ۲۸ عدم إبداء الزينة إلا على المحارم ۴/ ۲۶- ۲۸ الضرب بالخمر على الجيوب ۴/ ۲۶- ۲۸

۲۲- الطاعة:

الأمر بطاعة اللّه و رسوله ۵/ ۲۸۳ من يطع اللّه و رسوله طاعة صادقة لا ينقص من عمله شيئا ۵/ ۸۰

۲۳- التوبة:

معناها ۱/ ۸۲ توبة آدم ۱/ ۸۲ حكم توبة الزنديق ۲/ ۴۳۷ من يظلم نفسه ثم يستغفر اللّه ۱/ ۵۹۲ قبول التوبة من جميع الذنوب ۱/

۲۴- بر الوالدين:

الوصية بالإحسان بهما ۵/ ۲۲- ۲۴ حمل الأم و وضعها تأكيد لوجوب الإحسان إليها ۵/ ۲۲- ۲۴ الوصية بالإحسان إليهما ۴/ ۲۲۳ لا طاعة لهما فى الإشراك باللّه ۴/ ۲۲۳ الإحسان إليهما و الشكر إليهما و الطاعة لهما إلا فى الإشراك باللّه إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ۴/ ۲۷۴- ۲۷۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۴۳

الإحسان إليهما و بخاصة فى الكبر ۳/ ۲۶۱ النهى عن الإساءة إليهما بالكلام ۳/ ۲۶۲ كفالتهما و ضمّهما ۳/ ۲۶۳ الدعاء لهما بالرحمة و المغفرة ۳/ ۲۶۴

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۴۴

الزواجر و المنهيّات

اشارة

۱- الكبر.

۲- الكذب.

۳- شهادة الزور.

۴- الحسد.

۵- الظلم.

۶- المكر.

۷- القتل.

۸- الربا.

۹- التبذير.

۱۰- البخل.

۱۱- الشح.

۱۲- التكاثر.

۱۳- الكنز.

۱۴- الرشوة.

۱۵- القذف.

۱۶- الغيبة.

۱۷- الخمر.

۱۸- الميسر.

۱۹- الزنا. ۲۰- الرفث.

۲۱- قتل الأولاد.

۲۲- الفسق.

۲۳- الترف.

۲۴- الفاحشة.

۲۵- السحر.

۲۶- الفتنة.

۲۷- الخداع.

۲۸- الظن.

۲۹- الفساد.

۳۰- التجسّس.

۳۱- التعصّب.

۳۲- السوء.

۳۳- اللهو.

۳۴- التقليد.

۳۵- الحلف.

۳۶- النجوى.

۳۷- المداهنة.

۳۸- الاختلاف.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۴۵

۱- الكبر:

لا- يحب اللّه كل مختال متكبر فخور ۵/ ۲۱۱ جزاء المتكبرين عن الإيمان فى نار جهنم ۳/ ۱۹۳ النهى عن المرح و التكبر فى المشى، التهكم بالمتكبر بأنه لن يخرق الأرض و لن يبلغ الجبال طولا ۵/ ۲۷۳- ۲۷۵

۲- الكذب:

الكذب على البرىء بهتان عظيم و إثم كبير ۱/ ۵۹۲- ۵۹۳ الأفّاك كثير الكذب، إن علم شيئا من آيات اللّه اتخذها سخرية، يكذب بآيات اللّه استكبارا و كأنه لم يسمعها، بشارته بالعذاب المهين و الأليم يوم القيامة ۵/ ۶- ۷

۳- شهادة الزور:

النهى عنها ۳/ ۵۳۶ و تشمل الشرك و تحليل بعض الأنعام و تحريم بعضها ۳/ ۵۳۶

۴- الحسد:

الحسد الحرام ۱/ ۵۳۰ الغبطة ۱/ ۵۳۰ تمنى زوال النعمة عن الغير، و الاستعاذة منه و من النفاثات (الساحرات) ۵/ ۶۳۹- ۶۴۰

۵- الظلم:

اللّه لا يظلم و لا يعذب أحدا إلا بذنبه ۴/ ۵۹۷ أشد الظلم الكذب على اللّه بادعاء الشفعاء و الشركاء ۲/ ۵۵۶- ۵۵۷ الظالمون يستحقون اللعن ۲/ ۵۵۶- ۵۵۷ تحذير الظالم ۱/ ۶۱۲ التهديد الشديد للظلمة لمصيرهم و انقلابهم للحساب و الجزاء عند اللّه ۴/ ۱۴۰- ۱۴۱ اللّه تعالى ليس بغافل عن الظالمين و إنما يؤخر عذابهم ۳/ ۱۳۷- ۱۳۸ طلبهم أن يؤخر اللّه عذابهم، و بيان مكرهم و كيدهم ۳/ ۱۴۰- ۱۴۱ اللّه لا يحب الظالمين ۴/ ۶۲۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۴۶

العقوبة على الظلمة الذين يظلمون الناس بغير الحق، و لهم عذاب أليم فى الآخرة ۴/ ۶۲۰ الوعيد الشديد لكل ظالم بالعذاب ۴/ ۷۹ الظلمة يتولى بعضهم بعضا بكسبهم ۲/ ۱۸۵ الظالمون يتبعون أهواءهم ۴/ ۲۵۸ الظالمون فى ضلال ۴/ ۲۷۱ لا أحد أظلم ممن يعرض عن آيات اللّه ۴/ ۲۹۴ يعذب اللّه المترفين الظالمين بعملهم ۲/ ۶۰۵- ۶۰۷ اللّه لا يهلك القرى ظالما ۲/ ۶۰۵- ۶۰۷ للظالمين عند ربهم عذاب أليم ۴/ ۶۱۱ الظالمون مشفقون و خائفون مما عملوا و هو واقع بهم ۴/ ۶۱۱ أعد اللّه و هيأ للظالمين نارا أحاط بهم سورها و سياجها ۳/ ۳۳۶ يغيث اللّه الظالمين بالماء كالزيت المغلى فى جهنم ۳/ ۳۳۶ الشرك أعظم الظلم و أعد اللّه للظالمين العذاب ۵/ ۴۲۷- ۴۲۸ عدم الركون للظلمة و بخاصة الحكام الظلمة ۲/ ۶۰۱- ۶۰۳

۶- المكر:

مكر الكفار ۴/ ۴۰۸ لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء و مكر ۴/ ۴۰۸ لا يأمن مكر اللّه إلا القوم الخاسرون ۲/ ۲۶۰

۷- القتل:

النهى عن قتل النفس التى حرم اللّه قتلها إلا بالحق ۳/ ۲۶۸- ۲۶۹ نهى ولى المقتول عن مجاوزة الحد فى القصاص ۳/ ۲۶۸- ۲۶۹

۸- الربا:

أكل الربا و العمل به من الكبائر ۱/ ۳۴۱ تعظيم ذنب الربا ۱/ ۳۴۰ معناه اللغوى و الشرعى ۱/ ۳۳۸ ربا الجاهلية ۱/ ۳۳۹ عقوبة آكل الربا ۱/ ۳۳۹

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۴۷

من كان مقيما على الربا و لم ينزع منه استتيب فإن أصر ضربت عنقه ۳/ ۳۴۳ ما آتيتم من مال ليزيد و يزكو فى أموال الناس لا

يبارك اللّه فيه و لا يزكو ۴/ ۲۶۲ ربا الجاهلية أضعاف مضاعفة ۱/ ۴۳۷ كفر من استحل الربا ۱/ ۴۳۷ ربا ثقيف فى الجاهلية ۱/ ۴۳۸ معناه اللغوى و الشرعى ۱/ ۳۳۸ ربا الجاهلية ۱/ ۳۳۸ عقوبة آكل الربا ۱/ ۳۳۹

۹- التبذير:

النهى عنه تحريما و هو الإنفاق المذموم و الإنفاق الحرام ۳/ ۲۶۵ المبذرون إخوان الشياطين فى كفرهم بالنعمة ۳/ ۲۶۵

۱۰- البخل:

ذم البخل و أهله ۱/ ۵۳۸ اللّه غنى عن البخلاء ۵/ ۵۱۱ هم بخلاء فى أنفسهم و يأمرون غيرهم بالبخل ۵/ ۲۱۱

۱۱- الشح:

هو أشد من البخل ۵/ ۲۴۰ الفلاح مترتب على عدم شح النفس ۵/ ۲۴۰

۱۲- التكاثر:

بالأموال و الأولاد و التفاخر بكثرتها حتى أدرككم الموت ۵/ ۵۹۵- ۵۹۸ الزجر و الردع عن التكاثر ۵/ ۵۹۵- ۵۹۸

۱۳- الكنز:

عقوبة الكنز للمال فى جهنم ۲/ ۴۰۷- ۴۰۸ الجزاء من جنس العمل ۲/ ۴۰۷- ۴۰۸

۱۴- الرشوة:

الرشوة هى السحت ۲/ ۵۱- ۵۲
فتح القدير، ج۶، ص: ۴۴۸

۱۵- القذف:

حكم المحصنين من الرجال و المحصنات من النساء واحد فى حد القذف، و القاذف ملعون فى الدنيا و الآخرة و له حد القذف فى الدنيا، و عذاب جهنم فى الآخرة ۴/ ۲۶- ۲۷ تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم يوم القيامة ۴/ ۲۷ القذف للزوجة و اتهامها بالزنا حكم الملاعنة ۴/ ۱۳ الملاعنة بين الزوجين أن يشهد أربع شهادات إنه من الصادقين، و الخامسة أن عليه لعنة اللّه إن كان من الكاذبين ۴/ ۱۳ يدفع الحد عن المرأة أن شهدت أربع شهادات إنه كاذب، و الخامسة إن غضب اللّه عليها إن كان صادقا ۴/ ۱۳ من قذف زوجته و لم يأت بأربعة شهداء فحده ثمانون جلدة ۴/ ۱۰- ۱۲ كيف يتوب القاذف ۴/ ۱۲ لا تقبل شهادة القاذف إلا إذا تاب و أصلح ۴/ ۱۲

١٦- الغيبة:

تحريم الغيبة و هى ذكر الرجل بما يكرهه ٥/ ٧٦- ٧٨ تمثيل الغيبة بأكل الميتة ٥/ ٧٦- ٧٨ ذم الغيبة و النميمة و شمولهما للهمز و اللمز و الإفساد ٥/ ٣٢٠ الهلاك فى النار لكل همزة لمزة ٥/ ٦٠١- ٦٠٢ الهمزة الذى يغتاب الرجل فى وجهه ٥/ ٦٠١- ٦٠٢ اللمزة الذى يغتاب الرجل من خلفه ٥/ ٦٠١- ٦٠٢

١٧- الخمر:

سبب تحريمها ١/ ٥٤٥- ٥٤٦ و ٢/ ٨٦ النهى عن القرب من الصلاة فى حالة السكر ١/ ٥٤٠ معناها اللغوى ١/ ٢٥٢ إثمها و منافعها ١/ ٢٥٣- ٢٥٥ تأكيد تحريمها من وجوه ٢/ ٨٤ التدرج فى تحريمها ٢/ ٨٥- ٨٦ التشديد فى تحريمها ٢/ ٨٥

فتح القدير، ج‏٦، ص: ٤٤٩

انعقاد الإجماع ٢/ ٨٥ المفاسد الدنيوية ٢/ ٨٥ وقت التحريم ٢/ ٨٦ السكر ما يسكر من الخمر و يستخرج من النخيل و العنب ٣/ ٢١٢- ٢١٣

١٨- الميسر:

تأكيد تحريمها من وجوه ٤/ ٨٤ الميسر هو القمار ٢/ ٨٦ معناه اللغوى ١/ ٢٥٢ إثمه و منافعه ١/ ٢٥٣ سهام الميسر ١/ ٢٥٥- ٢٥٦ كيفية الميسر فى الجاهلية ١/ ٢٥٥- ٢٥٦ الميسر هو الشطرنج ٢/ ٨٧ الميسر هو النرد ٢/ ٨٧ الميسر هو كل ما ألهى عن ذكر اللّه فهو ميسر ٢/ ٨٧ الميسر هو النردشير ٢/ ٨٧

١٩- الزنا:

النهى عنه و وصفه بالقبح المجاوز للحد ٣/ ٢٦٧ حد الزانى غير المحصن ٤/ ٧ الحكمة من تقديم المرأة فى قوله تعالى الزانية و الزانى ٤/ ٧ حضور جماعة المسلمين إقامة الحد زيادة فى التنكيل ٤/ ٧ تشنيع الزنا و التشنيع على أهله و أنه حرام على المؤمنين ٤/ ٧ حكم تزوج الرجل بامرأة زنى هو بها ٤/ ٧- ٨ تحريم نكاح الزوانى ٤/ ٧- ٨

٢٠- الرفث:

معناه الجماع و قيل التكلم بالقبيح ١/ ٢١٤- ٢١٦

٢١- قتل الأولاد:

النهى عن قتل الأولاد خوف الفقر ٣/ ٢٦٥

فتح القدير، ج‏٦، ص: ٤٥٠

٢٢- الفسق:

معناه لغة و شرعا ۱/ ۶۸ هل الفاسق مؤمن أو كافر ۱/ ۶۸

۲۳- الترف:

نتيجة الترف الهلاك و الدمار ۳/ ۲۵۷- ۲۵۸ المترفون و الرؤساء أول المكذبين بالرسل ۴/ ۳۷۸- ۳۷۹ افتخارهم بكثرة الأموال و الأولاد ۴/ ۳۷۸- ۳۷۹ الأموال و الأولاد لا تقربهم من اللّه إذا لم يؤمنوا ۴/ ۳۷۹

۲۴- الفاحشة:

معناها اللغوى و الشرعى ۱/ ۱۹۳ تحريم الفواحش الظاهر و الباطن منها ۲/ ۲۲۹ طواف الكفار بالبيت عراة ۲/ ۲۲۷ اللّه لم يأمر بمعصية و لا رضيها ۲/ ۲۲۷ تعريف الفاحشة ۲/ ۲۲۶ تعم الفاحشة كل ما قبح من الذنوب، و النهى عن فعلها ۲/ ۲۲۶

۲۵- السحر:

معناه و حقيقته ۱/ ۱۳۹- ۱۴۰ تأثيره فى القلوب ۱/ ۱۴۱ لا يؤثر إلا فيما أذن اللّه بتأثيره فيه ۱/ ۱۴۱

۲۶- الفتنة:

الفتنة أشد من القتل ۱/ ۲۱۹- ۲۲۰ المؤمن قد يبتلى فى ماله و نفسه لتمييز الكاذب من الصادق ۴/ ۲۲۲

۲۷- الخداع:

مخادعة المنافقين للّه و خداعه لهم ۱/ ۴۸

۲۸- الظن:

النهى عنه لأنه اتهام من غير سبب ۵/ ۷۶
فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۱
بعض الظن إثم ۵/ ۷۶

۲۹- الفساد:

فساد المنافقين و آثاره ۱/ ۵۰- ۵۱ ظهوره فى البر و البحر بسبب أعمال بنى آدم ۴/ ۲۶۳ الفساد جزاء و عقاب لبعض أعمال الناس ۴/ ۲۶۳

۳۰- التجسس:

النهى عنه و هو البحث عن معايب الناس ۵/ ۷۶- ۷۸

۳۱- التعصب:

ما يصيب المتعصب من عمى و صمم عن رؤية الحق ۲/ ۲۷۷

۳۲- السوء:

معناه اللغوى ۱/ ۱۹۳

۳۳- اللهو:

لهو الحديث: الغناء بعض الناس يشترى هذا اللهو ليصرف غيره عن ذكر اللّه و يتخذ آيات اللّه سخرية، كأن فى أذنيه صمم عن سماع الحق و الخير، له عذاب أليم عند اللّه ۴/ ۲۷۰- ۲۷۲

۳۴- التقليد:

خطره على الأمة المسلمة ۲/ ۴۰۳- ۴۰۴ الدعوة إلى الأخذ بالكتاب و السنة ۲/ ۴۰۳- ۴۰۴ خطر التعصب المذهبى ۲/ ۴۰۳- ۴۰۴ التحذير من التقليد الأعمى للمذاهب و ترك اتباع الرسول ۲/ ۲۲۶ أخذ محض آراء الرجال و ترك كتاب اللّه و سنة رسوله مع العقل ۲/ ۲۲۶ الزجر عن التقليد فى المذاهب المخالفة للحق ۲/ ۲۲۶ ما يقع لأسراء التقليد ۱/ ۶۰۷ أئمة المذاهب برءاء من هذا التعصب ۱/ ۶۰۷ قبح التقليد ۱/ ۱۹۳- ۱۹۴ الزجر عن التقليد ۴/ ۳۵۲
فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۲

۳۵- الحلف:

ذم الإكثار من الحلف ۵/ ۳۲۰- ۳۲۳ النهى عن الحلف على ترك الإحسان إلى الأقارب المستحقين ۴/ ۲۶ الأمر بالعفو و الصلح و الإنفاق و التكفير عن اليمين؛ لأن اللّه يحب العفو و المغفرة ۲/ ۲۶

۳۶- النجوى:

معناها، و علم اللّه بها ۵/ ۲۲۳- ۲۲۵ نهى اليهود و المنافقين عن النجوى لأنها معصية ۵/ ۲۲۳- ۲۲۵ أمر المؤمنين بالتناجى بالخير و التقوى و الصلاح ۵/ ۲۲۳- ۲۲۵ النجوى بالإثم من الشيطان لا من غيره ۵/ ۲۲۳- ۲۲۵

۳۷- المداهنة:

دهان أهل البدع ۱/ ۱۵۸

۳۸- الاختلاف:

النهی عن الاختلاف فی الأصول ۱/ ۴۲۳ جوازه فی الفروع ۱/ ۴۲۳

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۳

الزهد و التوبة

اشارة

۱- الرزق.

۲- الطيبات.

۳- الدنيا و الآخرة.

۴- التوبة.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۴

۱- الرزق:

يوسعه اللّه و يبسطه لمن يشاء، و يضيقه على من يشاء ۴/ ۶۰۶ يرزق اللّه العباد كيف يشاء ۴/ ۶۱۱ يوسعه لمن يشاء و يقبضه عمن يشاء ۴/ ۵۳۸ معنى الرزق ۱/ ۴۲ لو وسع اللّه لعباده الرزق لبغوا فى الأرض، و لكنه ينزل الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته ۴/ ۶۱۳ اللّه يرزق كل دابة اللّه يوسع فى الرزق و يضيق حسب علمه و حكمته ۴/ ۲۴۳ قد يبسطه اللّه للكافر و يقتره على المؤمن ابتلاء ۳/ ۹۶- ۹۷

۲- الطيبات:

اللباس يستر العورات لباس التقوى خير ۲/ ۲۲۵ الزينة و الطيبات حلال من غير إسراف و لا مخيلة الطيبات للمؤمنين فى الدنيا و يشاركهم فيها الكفار الطيبات خالصة للمؤمنين يوم القيامة الأمر بالزينة عند الحضور إلى المساجد للصلاة و الطواف المال و البنون زينة الحياة الدنيا ۳/ ۳۴۵ أحل اللّه الزينة و جميع الطيبات من غير سرف و لا مخيلة ۲/ ۲۳۰ خلق اللّه من جنس الأنعام إناثا ۴/ ۶۰۴ الأنعام خلقها اللّه للركوب و منها للأكل الأنعام هى من آيات اللّه ۵/ ۵۷۶ الأنعام هى: الإبل، و البقر و الغنم و من منافعها: فيها دفء، و منها تأكلون، و زينة، و تحمل أثقالكم فى السفر، و تركبونها ۳/ ۱۷۹- ۱۸۱

۳- الدنيا و الآخرة:

الدنيا دار لهو و لعب، و الآخرة هى الدار الخالدة ۴/ ۲۴۴ بيان حقارة الدنيا، و أنها لعب، و لهو، و تفاخر، و تكاثر فى الأموال و الأولاد ۵/ ۲۱۰

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۵

تمثيل الدنيا بالزرع الأخضر الذى يجف و يصبح حطاما متكسرا ۵/ ۲۱۰ الحياة الدنيا متاع الغرور لمن لم يعمل للآخرة ۵/ ۲۱۰ إيثار الدنيا و تحصيل منافعها، و الاهتمام الزائد بها ۵/ ۵۱۷- ۵۱۸ ثبوت هذا فى صحف إبراهيم و موسى ۵/ ۵۱۷- ۵۱۸ النهى عن الاغترار بالدنيا ۴/ ۲۸۲ من كان يريد الحياة الدنيا العاجلة عجل اللّه فيها ما يشاء لمن يريد و عاقبته جهنم ۳/ ۲۵۹- ۲۶۰ و ۲۶۳ ضرب اللّه مثلا للحياة الدنيا الزائلة الفانية بالنبات الذى يتكسر و تذهب به الرياح بعد اخضراره و نضجه ۳/ ۳۴۵ بيان حال الدنيا، و سرعة انقضائها ۲/ ۴۹۷- ۵۰۱ تشبيه زوال الدنيا بما على الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقه و ذهاب بهجته ۲/ ۴۹۷- ۴۹۸ و ۵۰۱

۴- التوبة:

التوبة الصادقة النصوح ۵/ ۳۰۲- ۳۰۳ التوبة: هى مجرد عقد القلب، و لا يشترط اطّلاع الناس عليها ۱/ ۱۰۵- ۱۰۶ بابها مفتوح ۱/ ۵۷۶ واجبة على المؤمنين ۱/ ۵۰۵ هل التوبة واجبة على اللّه؟ ۱/ ۵۰۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۶

مفاهيم القرآن

اشارة

۱- الأرض.

۲- السكينة.

۳- السيئة.

۴- السّلوى.

۵- السّلم.

۶- الختم.

۷- الضعفاء.

۸- الحرج.

۹- الحديد.

۱۰- النّعم.

۱۱- الرياح.

۱۲- الهجرة.

۱۳- الهلال.

۱۴- الوزر.

۱۵- الولاية.

۱۶- يأجوج و مأجوج.

۱۷- الیسر و التیسیر.

۱۸- التراب.

۱۹- الأسماء.

۲۰- الطاعون.

۲۱- العرب.

۲۲- العمر.

۲۳- الوسیلة. ۲۴- الماعون.

۲۵- المجادلة.

۲۶- المصائب.

۲۷- المطر.

۲۸- المعاد.

۲۹- الموالاة.

۳۰- المن.

۳۱- النحل.

۳۲- الفرج.

۳۳- فرعون.

۳۴- الفیل.

۳۵- القانت.

۳۶- القرابة و القربی.

۳۷- قریش.

۳۸- الکعبة.

۳۹- الکلمة الطیبة.

۴۰- الکهانة و التنجیم.

۴۱- المباهلة.

۴۲- البحیرة.

۴۳- البدعة.

۴۴- الرأی.

۴۵- الرؤیا.

۴۶- الروح. ۴۷- الضعفاء و الکبراء.

۴۸- الطاعون.

۴۹- النعیم.

۵۰- الجماعة.

٥١- الدعوة إلى اللّه.

٥٢- الدابة.

٥٣- الشرع.

٥٤- الصابئون.

٥٥- الطمس.

٥٦- الطين.

٥٧- العالم.

٥٨- العسل.

٥٩- العصا.

٦٠- العقوبة.

٦١- العنكبوت.

٦٢- العين.

٦٣- الفاسق.

٦٤- الفترة.

٦٥- الفتنة.

٦٦- الردة.

٦٧- الخصاء.

٦٨- الأهواء.

٦٩- السمع. ٤ ٧٠- الحق. فتح القدير ج٦ ٤٦٦

٧١- التابوت.

٧٢- الأمة.

٧٣- الأسباط.

٧٤- الأموال.

٧٥- أهل البدع.

٧٦- الأنصار.

٧٧- الاعتبار.

٧٨- الأخذ بالظاهر.

٧٩- التبنى.

٨٠- آل فرعون.

٨١- أكاذيب القصاص ٨٢- إسرائيل.

٨٣- الأساطير.

٨٤- الآيات.

۸۵- الحياة و الموت.

۸۶- السماء.

۸۷- الوزن و الكيل.

۸۸- الولى.

۸۹- النجوم.

۹۰- الرياح.

۹۱- العهد.

۹۲- السائبة و الحام.

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۷

۱- الأرض:

خلقها متقدم على السماء و دخولها متأخر ۱/ ۷۲ بسطها كالفراش ۵/ ۱۰۹ خلق اللّه الأرض ضامة للأحياء على ظهرها، و للأموات فى باطنها جعل فيها جبالا طوالا و جعل فيها ماء عذبا ۵/ ۴۳۲

۲- السكينة:

معناها اللغوى ۱/ ۳۰۶ ما ورد عن بنى إسرائيل، ورد المؤلف عليهم ۱/ ۳۰۶- ۳۰۷

۳- السيئة:

العدل فى الانتصار هو الاقتصار على المساواة و جزاء السيئة بمثلها جائز ۴/ ۶۲۰

۴- السّلوى:

معناها و ما هو؟ ۱/ ۱۰۳- ۱۰۵

۵- السّلم:

و هو السلف المضمون إلى أجل مسمّى ۱/ ۳۴۹

۶- الختم:

كيفية الختم على القلوب و الآذان و الأبصار ۱/ ۴۷

۷- الضعفاء:

طلب الكفار طرد الضعفاء من المسلمين ٢/ ١٣٨

٨- الحرج:

ما جعل اللّه فى دين الإسلام من حرج و مشقة التكليف ضمن حدود الاستطاعة ٣/ ٥٥٨- ٥٥٩

٩- الحديد:

خلقه اللّه فيه قوة تتخذ منه آلات للحرب، و فيه منافع للناس ٥/ ٢١٣

١٠- النعم:

عاقبة كفران النّعم الجوع و الخوف
فتح القدير، ج‏٦، ص: ٤٥٨
عبادة اللّه تقتضى شكر نعمه ٣/ ٢٤٠- ٢٤١

١١- الرياح:

تصريفها حكم سبها الفرق بين الريح و الرياح ١/ ١٩٠

١٢- الهجرة:

الذين هاجروا فى اللّه من بعد ما ظلموا ٣/ ٢٠٢

١٣- الهلال:

معناه متى يطلق على القمر؟
الحكمة من زيادة الهلال و نقصانه ١/ ٢١٨

١٤- الوزر:

لا تحمل نفس إثم غيرها، بل كل نفس تحمل وزرها، و إن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى إلى حمل شىء من ذنوبها لا تحمل شيئا و لو كانت قريبة لها فى النسب ٤/ ٣٩٦

١٥- الولاية:

قطعها بين المؤمنين و الكافرين ٢/ ٣٩٥- ٣٩٦

۱۶- يأجوج و مأجوج:

فتح السد الذى عليهم خروجهم من كل أكمة و مرتفع ۳/ ۵۰۵- ۵۰۶

۱۷- اليسر و التيسير:

مقصد من مقاصد الرب فى جميع أمور الدين ۱/ ۲۱۰

۱۸- التراب:

تحريم أكله، و ينتفع به ۱/ ۷۲

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۵۹

۱۹- الأسماء:

معنى الأسماء التى علمها لآدم ۱/ ۷۷- ۷۸ الاسم غير المسمى ۱/ ۲۱

۲۰- الطاغوت:

الذين يجتنبون عبادته لهم الثواب الجزيل و هو الجنة ۴/ ۵۲۳ معناه: الشيطان و كل ما عبد من دون اللّه ۱/ ۳۱۶- ۳۱۷

۲۱- العرب:

كانوا يطوفون بالبيت عراة ۲/ ۲۲۵ لم يكن لهم كتب يدرسونها، و لم يرسل اللّه لهم قبل محمد من نذير ۴/ ۳۸۲

۲۲- العمر:

أسباب تطويل العمر و أسباب تقصيره ۳/ ۳۹۲- ۳۹۳ و ۳۹۵ من الناس من يطيل اللّه عمره و يغير خلقه و يجعله على عكس ما كان من القوة و الطراوة ۴/ ۴۳۵

۲۳- الوسيلة:

معناها: القربة، و درجة فى الجنة ۲/ ۴۵ الوسيلة إلى اللّه تكون بالعمل الصالح ۳/ ۲۸۴

۲۴- الماعون:

الهلاك لمن يمنع الماعون، و هو ما يتعاوره الناس بينهم ۵/ ۶۱۱- ۶۱۲ الهلاك لمانع الزكاة ۵/ ۶۱۱- ۶۱۲

۲۵– المجادلهٔ:

هی خولهٔ بنت ثعلبهٔ سمع اللّه جدالها لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فی زوجها الذی ظاهرها و هی تشتکی إلی اللّه ۵/ ۲۱۷– ۲۱۸

۲۶– المصائب:

هی الجوائح و الکوارث، و هی مکتوبهٔ فی اللوح المحفوظ ۵/ ۲۱۰– ۲۱۱
فتح القدیر، ج۶، ص: ۴۶۰
اختبار الناس بها بما آتاهم حتی لا یفرحوا و لا یحزنوا علی ما فاتهم ۵/ ۲۱۲ المصیبهٔ: الصبر و الاسترجاع عند المصیبهٔ ۱/ ۱۸۵

۲۷– المطر:

من أین ینزل المطر؟ ۱/ ۶۱

۲۸– المعاد:

شبههٔ الکفارهٔ جفاف العظام و تناثرها ۳/ ۲۸۰ الرد علیهم بأن اللّه قادر علی إعادتهم لأنه هو الفاطر المبدع ۳/ ۲۸۱

۲۹– الموالاهٔ:

ختم اللّه بها سورهٔ الأنفال لیعلم کل فریق ولیه المهاجرون و الأنصار أولیاء بعض و أولو الأرحام بعضهم أولی ببعض ۲/ ۳۷۵– ۳۷۷

۳۰– المنّ:

معناه، و ما هو؟ ۱/ ۱۰۳– ۱۰۵

۳۱– النحل:

إلهامها أن تصنع بیوتها فی الجبال و فی الشجر و العرائش، و أن تأکل من الثمرات لتصنع العسل ۳/ ۲۱۳– ۲۱۴

۳۲– الفرح:

بفضل و رحمهٔ من اللّه یکون الفرح لا بحطام الدنیا ۲/ ۵۱۶

۳۳– فرعون:

هو اسم، و هل له تفسير؟ ۱/ ۹۸

۳۴- الفيل:

أصحاب الفيل جاءوا لهدم الكعبة ۵/ ۶۰۴- ۶۰۶ تضليل مكرهم و إرسال الطيور عليهم ترميهم بحجارة من نار حتى أفنتهم و جعلتهم كورق الزرع المأكول ۵/ ۶۰۴- ۶۰۶

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۶۱

۳۵- القانت:

هو العابد الطائع الساجد القائم الذى يخاف اللّه و يرجوه ۴/ ۵۲۰

۳۶- القرابة:

الأمر بالإنفاق عليهم بما تبلغ إليه القدرة فى حالة الإعراض عنهم لفقد رزق فليلن القول و ليعتذر بالوعد الحسن ۳/ ۲۶۴- ۲۶۵

القربى: هم بنو هاشم و بنو المطلب ۲/ ۳۵۴

۳۷- قريش:

امتنان اللّه على قريش لخروجهم للتجارة صيفا و شتاء دون أن يغار عليهم أمرهم بعبادة رب الكعبة الذى أطعمهم و آمنهم ۵/ ۶۰۸- ۶۰۹

۳۸- الكعبة:

أول بيت وضع للناس للعبادة أول من بناها فضلها ۱/ ۴۱۵

۳۹- الكلمة:

الكلمة الطيبة و مثلها و الكلمة الخبيثة و مثلها ۳/ ۱۲۷- ۱۲۹

۴۰- الكهانة و التنجيم:

دفع أباطيل الكهان و المنجمين ۲/ ۱۴۰

۴۱- المباهلة:

هى الملاعنة ۱/ ۳۹۹- ۴۰۰

۵۱- الدعوة إلى اللّه:

الداعی إلى الحق الناهی عن الباطل إذا خشی ما هو أشد من انتهاك المحرمات فإنه لا تأثیر إلا بالسیف ۲/ ۱۷۱
فتح القدیر، ج‏۶، ص: ۴۶۳

۵۲- الدابة:

خروجها، و كلامها موضع خروجها ۴/ ۱۷۴- ۱۷۶

۵۳- الشرع:

شرع من قبلنا هل یلزمنا؟ ۲/ ۵۳

۵۴- الصابئون:

معناها اللغوی ۱/ ۱۱۲

۵۵- الطمس:

معنى طمس الأعین و الوجوه ۱/ ۵۴۹- ۵۵۰

۵۶- الطین:

تحریم أكله ۱/ ۷۲

۵۷- العالم:

معنى العالم ۱/ ۹۶- ۹۷

۵۸- العسل:

مختلف ألوانه ۳/ ۲۱۳- ۲۱۴ فیه شفاء للناس

۵۹- العصا:

فوائدها و منافعها ۳/ ۴۳۰- ۴۳۲

۶۰- العقوبة:

المماثلة فى رد العقوبة، و الاعتداء على الظالم ۳/ ۵۵۱

۶۱- العنكبوت:

تشبيه الذين اتخذوا أولياء من دون اللّه بالعنكبوت و بيته.

أضعف البيوت بيت العنكبوت ۴/ ۲۳۵

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۶۴

۶۲- العين:

إنكار المعتزلة لتأثير العين العين حق كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة ۳/ ۴۹

۶۳- الفاسق:

التثبت من خبره حتى لا يقع خطأ بسبب الجهل و عدم العلم ۵/ ۷۱- ۷۳

۶۴- الفترة:

معناها مدة انقطاع الرسل قبل بعثة محمد صلّى اللّه عليه و سلم ۲/ ۳۰- ۳۱

۶۵- الفتنة:

اتقاء الفتنة التى قد تصيب الصالح و الطالح ۲/ ۳۴۲ العذاب قد يصيب من لم يباشر أسبابه لأن لم يأمر بالمعروف و لم ينه عن المنكر ۲/ ۲۴۱

۶۶- الردة:

معناها حكمها إحباط العمل ۱/ ۲۵۰

۶۷- الخصاء:

الترخيص به فى البهائم ۱/ ۵۹۶ خصاء بنى آدم حرام ۱/ ۵۹۶

۶۸- الأهواء:

۶۹- السمع:

۷۰- الحق:

۷۱- التابوت:

۷۲- الأمة:

۷۳- الأسباط:

۷۴- الأموال:

۷۵- أهل البدع:

۷۶- الأنصار:

۷۷- الاعتبار:

السير فى الأرض للنظر و الاعتبار بعاقبة الأمم السابقة التى كفرت، و أخذهم اللّه بذنوبهم ۴/ ۵۵۹

۷۸- الميزان:

الأخذ بالظاهر و عدم التأويل فى الوزن و الميزان ۲/ ۲۱۶- ۲۱۷

۷۹- التبنى:

يجب نسب الموالى للآباء و دعاؤهم لآبائهم و إن لم نعلم آباءهم فإخواننا فى الدين ۴/ ۳۰۱

فتح القدير، ج۶، ص: ۴۶۶

۸۰- آل فرعون:

عذّبهم اللّه بذنوبهم و تكذيبهم بآيات اللّه أغرقهم فى الدنيا و لهم فى الآخرة عذاب النار ۲/ ۳۶۳

۸۱- أكاذيب القصاص:

تكذيب قصة عوج بن عنق و كل ما يشبهها و استبعادها من كتب التفسير ۲/ ۳۳

۸۲- إسرائيل:

معناه و ضبطه ۱/ ۸۷

۸۳- التهلكة:

معناها اقتحام الرجل فى الحرب ترك النفقة فى سبيل مخافة الفقر الإقامة فى الأموال و ترك الغزو ۱/ ۲۲۲- ۲۲۳

۸۳- الأساطير:

قول الكفار عن القرآن أساطير ۲/ ۱۲۳- ۱۲۵

۸۴- الآيات:

اشارة

يرسلها اللّه تخويفا للناس ۳/ ۲۸۵

۸۵– الحیاة و الموت:

کم مرة أحیا اللّه الناس، و کم مرة أماتهم؟ ۱/ ۷۰– ۷۱

۸۶– السماء:

إحکام رفعها بقوة ۵/ ۱۰۹ وصف السماوات و کیف بدأ خلقها ۱/ ۷۳– ۷۴

۸۷– الوزن و الکیل:

الوفاء بالوزن و الکیل لما فیه من الخیر و حسن العاقبة ۳/ ۲۷۱ الهلاک للمطففین فی الکیل و المیزان معنی المطففین
فتح القدیر، ج۶، ص: ۴۶۷
تهویل ما فعلوه و تجاهلهم سؤالهم یوم القیامة عما فعلوه ۵/ ۴۸۲– ۴۸۶

۸۸– الولی:

اتخاذ المنافقین و الیهود أولیاء ۲/ ۶۰– ۶۱ النهی عن اتخاذ الیهود و الأنصار أولیاء ۲/ ۵۷– ۵۸ المؤمنون ولیهم اللّه و رسوله و المؤمنون ۲/ ۵۹ الوعد لمن یتولی اللّه و رسوله و الذین آمنوا بالغلبة و النصر ۲/ ۶۰

۸۹– النجوم:

من فوائدها و منافعها الاهتداء بها فی اللیل و حفظا من کل شیطان مارد و رجوما للشیاطین ۲/ ۶۳۲ النهی عن النظر إلیها إذا کان لغیر الاهتداء و التفکیر و الاعتبار فوائدها مراعاتها المطلوبة النهی عن النظر إلیها ۲/ ۱۶۶

۹۰– الریاح:

إرسالها متتابعة، شدیدة الهبوب، و تنشر السحاب نشرا ۵/ ۴۲۹– ۴۳۰ و ۴۳۳

۹۱– العهد:

الوفاء بالعهد و السؤال عنه یوم القیامة ۳/ ۲۷۱

۹۲– السائبة و الحام:

معناها– حکم الجاهلیة فیها ۲/ ۹۳– ۹۴

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِكَمْ وَ أَنْفُسِكَمْ فى سَبيلِ اللّهِ ذلِكَمْ خَيْرٌ لَكَمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب٢٨، ج١/ ص٣٠٧).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابِذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ عليهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ١٣٤٠ الهجريّة الشمسيّة (=١٣٨٠ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطفِئ مِصباحُها، بل تتّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١٤٢٧ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع مِن خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثّقلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتجات العرضيّة، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد"/ ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائى"/بناية"القائميّة"

تاريخ التّأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١٤٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳
الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التِجاریّهٔ و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظهٔ هامّهٔ:

المیزانیّهٔ الحالیّهٔ لهذا المرکز، شَعبیّهٔ، تبرّعیّهٔ، غیر حکومیّهٔ، و غیر ربحیّهٔ، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنَّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّهٔ و العلمیّهٔ الحالیّهٔ و مشاریع التوسعهٔ الثّقافیّهٔ؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّهٔ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحهٔ بقیّهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التمکن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مركز
القائمية
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹